الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الرابع عشر

الاجزاء من ٢٥٧ الى ٢٧٣

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
257	سورة الانعام	الآية 151 الى الآية 154	2
258	=	الآية 155 الى الآية 159	364
259	=	الآية 160 الى الآية 165	1022
260	سورة الاعراف	فصول مهمة	1663
261	=	تابع معاني السورة	2025
262	=	فصل في الوقف والابتداء	2293
263	=	الآية 1 الى الآية 10	2986
264	=	الآية 11 الى الآية 12	3459
265	=	الآية 13 الى الآية 23	3789
266	=	الآية 24 الى الآية 26	4270
267	=	الآية 27 الى الآية 30	4476
268	=	الآية 31 الى الآية 36	4754
269	=	الآية 37 الى الآية 43	5173
270	=	الآية 44 الى الآية 53	5574
271	=	الآية 54	5959
272	=	الآية 55 الى الآية 56	6729
273	=	الآية 57 الى الآية 58	7044

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 151 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 154 ﴾ من نفس السورة

(4/257)

قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبطل دينهم كله أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك ، وبين فساده بالدلائل النيرة ، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق مما حرمه الملك الذي له الخلق والأمر ومن غيره ، فليس التحريم لأحد غيره فقال : ﴿ قل تعالوا ﴾ أي أقبلوا إليّ صاعدين من حضيض الجهل والتقليد وسوء المذهب إلى أوج العلم ومحاسن الأعمال ؛ قال صاحب الكشاف : هو من الخاص الذي صار عاماً ، يعني حتى صار يقوله الأسفل للأعلى ﴿ أتل ﴾ أي أقرأ ، من

التلاوة وهي اتباع بعض الحروف بعضاً .

ولما كان القصد عموم كل أحد بالتلاوة وإنما خص المخاطبين بالذكر لاعتقادهم خلاف ذلك ، وكان المحرم أهم ، قدمه فقال : ﴿ ما حرم ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بالتحليل والتحريم ﴿ عليكم ﴾ فسخطه منكم ، وما وصاكم به إقداماً وإحطاماً فرضيه لكم من قبيلي الأصول والفروع ؛ ثم فسر فعل التلاوة ناهياً عن الشرك ، وما بعده من مضمون الأمر إنما عدي عنها ، فقال : ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ الآيات مرتباً جملها أحسن ترتيب ، فبدأ بالتوحيد في صريح البراءة من الشرك إشارة إلى أن التخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل ، فإن التقية بالحمية قبل الدواء ، وقرن به البر لأنهما من باب شكر المنعم وتعظيماً لأمر العقوق ، ثم أولاه القتل الذي هو أكبر الكبائر بعد الشرك ، وبدأه بقتل الولد لأنه أفحشه وأفحش من مطلقه فعله خوف القلة ، فلما وصى بأول واجب للمنعم الأول الموجد من العدم ، أتبعه ما لأول منعم بعده بالتسبب في الوجود ، فقال ناهياً عن الإساءة في صورة الأمر بالإحسان على أوكد وجه لما للنفوس من التهاون في حقهما ، وكذا جميع المأمورات ساقها هذا السياق المفهم لأن أضدادها منهي عنها ليكون مأموراً بها منهياً عن أضدادها ، فيكون ذلك أوكد لها وأضخم : ﴿ وبالوالدين ﴾ أي افعلوا بهما ﴿ إحساناً ﴾ .

ولما أوصى بالسبب في الوجود ، نهى عن التسبب في الإعدام وبدأ بأشده فقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ ولما كان النهي عاماً ، وكان ربما وجب على الولد قتل ، خص لبيان الجهة

فقال : ﴿ من إملاق ﴾ أي من أجل فقر حاصل بكم ، ثم علل ذلك ، ولأجل أن الظاهر هو حصول الفقر قدم الآباء فقال : ﴿ نحن نرزقكم ﴾ بالخطاب ، أي أيها الفقراء ، ثم عطف عليه الأبناء فقال : ﴿ وإياهم ﴾ وظاهر قوله في الإسراء ﴿ خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] أن الآباء موسرون ولكنهم يخشون من إطعام الأبناء الفقر ، فبدأ بالأولاد فقال : " نحن نرزقهم " ثم عطف الآباء فقال " وإياكم " - نبه عليه أبو حيان .

(5/257)

ولما كان قتلهم أفحش الفواحش بعد الشرك ، أتبعه النهي عن مطلق الفواحش ، وهي ما غلظت قباحته ، وعظم أمرها بالنهي عن القربان فضلاً عن الغشيان فقال : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ ثم أبدل منها تأكيداً للتعميم قوله : ﴿ ما ظهر منها ﴾ أي الفواحش ﴿ وما بطن ﴾ ثم صرح منها بمطلق القتل تعظيماً له بالتخصيص بعد التعميم فقال : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله ﴾ أي الملك الأعلى عليكم قتلها ﴿ إلا بالحق ﴾ أي الكامل ، ولا يكون كاملاً إلا وهو كالشمس وضوحاً لا شبهة فيه ، فصار قتل الولد منهياً عنه ثلاث مرات ؛ ثم أكد المذكور بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم في هذه المذكورات .

ولما كانت هذه الأشياء شديدة على النفس ، ختمها بما لا يقوله إلا المحب الشفوق ليتقبلها

القلب فقال : ﴿ وصّاكم به ﴾ أمراً ونهياً ؛ ولما كانت هذه الأشياء لعظيم خطرها وجلالة وقعها في النفوس لا تحتاج إلى مزيد فكر قال : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من المشي على منهاج العقلاء ، فعلم من ذكر الوصية أن هذه المذكورات هي الموصى بها والمحرمات أضدادها ، فصار شأنها مؤكداً من وجهين : التصريح بالتوصية بها ، والنهي عن أضدادها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 740 . 742 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين فساد ما يقول الكفار أن الله حرم علينا كذا وكذا ، أردفه تعالى ببيان الأشياء التي حرمها عليهم ، وهي الأشياء المذكورة في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 189 ﴾

اللغَة : ﴿ أَتْلُ ﴾ أقرأ وأقص ﴿ إِمْلاَقٍ ﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد ، والأشدُّ جمعٌ لا واحد له ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿ السبل ﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿ شِيَعاً ﴾ فرقاً وأحزاباً جمع شيعة وهي الفرقة تتشيع وتتعصب لمذهبها ﴿ قِيَماً ﴾ مستقيماً لا عوج فيه ﴿ نُسُكِي ﴾ النُّسُك جمع نسيكة وهي الذبيحة وقال الزجاج : عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 428 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" : "تعال" من الخاص الذي صار عاماً ، وأصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه ، ثم كثر وعم ، وما في قوله : ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ منصوب ، وفي ناصبه وجهان : الأول : أنه منصوب بقوله : ﴿ اتل ﴾ والتقدير : أتل الذي حرمه عليكم ، والثاني : أنه منصوب بحرم ، والتقدير : أتل الأشياء التي حرم عليكم .

فإن قيل : قوله : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إحسانا ﴾ كالتفصيل لما أجمله في قوله : ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا باطل ، لأن ترك الشرك والإحسان بالوالدين واجب ، لا محرم .

والجواب من وجوه :

الأول : أن المراد من التحريم أن يجعل له حريماً معيناً ، وذلك بأن بينه بياناً مضبوطاً معيناً ، فقوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه : أتل عليكم ما بينه بياناً شافياً بحيث يجعل له حريماً معيناً ، وعلى هذا التقرير فالسؤال زائل ، والثاني : أن الكلام تم وانقطع عند قوله

﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ عَلَيْكُمْ أَن لا تُشْرِكُواْ ﴾ كما يقال : عليكم السلام ، أو أن الكلام تم وانقطع عند قوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ بمعنى لئلا تشركوا ، والتقدير : أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئاً .

الثالث : أن تكون "أن" في قوله : ﴿ أَن لا تُشْرِكُواْ ﴾ مفسرة بمعنى : أي ، وتقدير الآية : أتل ما حرم ربكم عليكم ، أي لا تشركوا ، أي ذلك التحريم هو قوله : ﴿ لا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ .

فإن قيل : فقوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَن لا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ فوجب أن يكون قوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ مفسراً لقوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ فيلزم أن يكون الإحسان بالوالدين حراماً ، وهو باطل .

قلنا : لما أوجب الإحسان إليهما ، فقد حرم الإساءة إليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 189 . 190 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى أوجب في هذه الآية أمور خمسة : أولها : قوله : ﴿ أَن لا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ .

واعلم أنه تعالى قد شرح فرق المشركين في هذه السورة على أحسن الوجوه ، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى ، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءالِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 74] .

والطائفة الثانية : من المشركين عبدة الكواكب ، وهم الذين حكى الله عنهم ، أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ [الأنعام : 76] .

والطائفة الثالثة : الذين حكى الله تعالى عنهم : ﴿ أَنَّهُمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [الأنعام : 100] وهم القائلون بيزدان وأهرمن .

والطائفة الرابعة : الذين جعلوا لله بنين وبنات ، وأقام الدلائل على فساد أقوال هؤلاء الطوائف والفرق ، فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف .

قال ههنا : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ .

النوع الثاني : من الأشياء التي أوجبها ههنا قوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وإنما ثنى بهذا التكليف ، لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ، ويتلوها نعمة الوالدين ، لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله سبحانه وفي الظاهر هو الأبوان ، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهي نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك في وقت الصغر .

النوع الثالث : قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أَولادكم مِّنْ إملاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فأوجب بعد رعاية حقوق الأبوين رعاية حقوق الأولاد وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أَولادكم مِّنْ إملاق ﴾ أي من خوف الفقر وقد صرح بذكر الخوف في قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق ﴾ [الإسراء : 31] والمراد منه النهي عن الوأد ، إذ كانوا يدفنون البنات أحياء ، بعضهم للغيرة ، وبعضهم خوف الفقر ، وهو السبب الغالب ، فبين تعالى فساد هذه العلة بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ، لأنه تعالى إذا كان متكفلاً برزق الوالد والولد ، فكما وجب على الوالدين تبقية النفس والاتكال في رزقها على الله ، فكذلك القول في حال الولد ، قال شمر : أملق ، لازم ومتعد .

يقال : أملق الرجل ، فهو مملق ، إذا افتقر ، فهذا لازم ، وأملق الدهر ما عنده ، إذا أفسده ، والإملاق الفساد .

والنوع الرابع : قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ قال ابن عباس : كانوا يكرهون الزنا علانية ، ويفعلون ذلك سراً ، فنهاهم الله عن الزنا علانية وسراً ، والأولى أن لا يخصص هذا النهي بنوع معين ، بل يجري على عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها

لأن اللفظ عام والمعنى الموجب لهذا النهي وهو كونه فاحشة عام أيضاً ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل ، وفي قوله : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ دقيقة ، وهي : أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته ، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس ، وذلك باطل ، لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر ، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً ، دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيماً لأمر الله تعالى وخوفاً من عذابه ورغبة في عبوديته .

(9/257)

والنوع الخامس : قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ .

واعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين : إحداهما : أن الإفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم ، كقوله : ﴿ وَمَلَائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] والثانية : أنه تعالى أراد أن يستثني منه ، ولا يتأتى هذا الاستثناء في جملة الفواحش .

إذا عرفت هدا فنقول : قوله : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي قتل النفس المحرمة قد يكون حقاً لجرم

يصدر منها .

والحديث أيضاً موافق له وهو قوله عليه السلام : " لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق " والقرآن دل على سبب رابع ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأرض فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ ﴾ [المائدة : 33] .

والحاصل : أن الأصل في قتل النفس هو الحرمة وحله لا يثبت إلا بدليل منفصل ثم إنه تعالى لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذي يقرب إلى القلب القبول ، فقال : ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ لما في هذه اللفظة من اللطف والرأفة ، وكل ذلك ليكون المكلف أقرب إلى القبول ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف ، ومنافعها في الدين والدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 190 . 191 ﴾

(10/257)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

يعني : قل لمالك بن عوف وأصحابه الذين يحرمون الأشياء على أنفسهم ، وقالوا ما قالوا أبيّن لكم ما حرم الله عليكم وما أمركم به ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ يقال : معناه أتل ما حرم ربكم عليكم ، فقد تمّ الكلام .

ثم قال : ﴿ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ يقول : نهاكم عن عقوق الوالدين ، وأمركم ببرهم ، ويقال : معناه حرم عليكم ألا تشركوا به شيئاً .

ويقال : معناه حرم عليكم الشرك .

﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ يعني : أمركم بالإحسان إلى الوالدين ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أولادكم مّنْ إملاق ﴾ يعني : من خشية الفقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ زنى السر والعلانية ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ يعني : إلا بالقصاص أو بالرجم أو بترك الإسلام ، فإنّ القتل بهذه الأشياء من الحقوق ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ يقول : أمركم به في القرآن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أمر الله بما حرمه في هذه الآيات .

وروي عن عبد الله بن قيس عن ابن عباس قال : هذه الآيات المحكمات : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى ثلاث آيات وقال الربيع بن خثيم لرجل : هل لك في صحيفة عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم قرأ هذه الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ويقال : هذه الآيات هن أم الكتاب ، وهن إمام في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ولا

يجوز أن يرد عليها النسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

(11/257)

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ أقرأ ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حقّاً يقينا كما أوحى إليّ ربّي وأمرني به لا ظنّاً ولا تكذيباً كما يزعمون ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ اختلفوا في محل أن فقال بعضهم : [محلّه] نصب ، ثمّ اختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه : حرّم أن تشركوا ولا صلة كقولهم : (ما منعك ألا تسجد) .

وقيل : إنّك ألاّ تشركوا ، وقيل : أوحى ألا تشركوا ، وقيل : [ما] بدل [من] ما حرّم ، وقيل : الكلام عند قوله ﴿ حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ثمّ قال : عليكم أن لا تشركوا على الكفر ، وقال بعضهم : موضع [من] معناه : وهو أن لا تشركوا جهراً بكفركم ، وأما بعده فيجوز أن يكون في محل النصب عطفاً على قوله أن لا تشركوا) وأن [. . . . .] لأنّه يجوز أن يكون جزم على الأقوى كقوله ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ عطف بالنهي على الخبر قال الشاعر :

حج وأوصي بسليمى إلا عبدا . . . أن لا ترى ولا تكلم أحداً

ولا يزال شرابها مبردا . . . ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ولاتئدوا بناتكم خشية العيش فإني أرزقكم وإياهم والإملاق الفقر ونفاد الزاد .

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ يعني علانية ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ يعني السرّ قال المفسّرون : كانوا في الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السرّ فحرّم الله تعالى الزنا في العلانيّة والسر وقال الضحاك : ما ظهر الخمر وما بطن ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله ﴾ [نهى وهي] نفس مؤمن أو معاهد ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ يعني بما أباح قبلها وهي الارتداد والقصاص والرجم .

(12/257)

وروى مطر الوراق عن نافع بن عمر عن عثمان رضي الله عنه أشرف على أصحابه وقال : علام يقتلونني فإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل دم أمرىء مُسلم إلاّ بإحدى ثلاث : رجل زنا بعد إحصانه فعليه الرجم ، أو قتل عامداً فعليه القود ، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل ، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ولا قتلت أحداً فاقيد نفسي ، ولا ارتدت منذ أسلمت ، إنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده

ورسوله " .

﴿ ذلكم ﴾ النبيّ الذي ذكرت ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يدعو الناس إليه ليتلو عليهم ما حرمه الله عليهم ، وما أحله لهم ليقلعوا عما كانت الجاهلية عليه من تحريم المباح وإباحة الحرام .

والتلاوة : هي القراءة ، والفرق بين التلاوة والمتلو ، والقراءة والمقروء أن التلاوة والقراءة للمرة الأولى ، والمتلو والمقروء للثانية وما بعدها ، ذكره علي بن عيسى ، والذي أراه من الفرق بينهما أن التلاوة والقراءة يتناول اللفظ ، والمتلو والمقروء يتناول الملفوظ .

ثم إن الله أخذ فيا حرم فقال : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : ألا تشركوا بعبادته عبادة غيره من شيطان أو وثن .

والثالث : أن يحمل الأمرين معاً .

ثم قال : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ تقديره : وأوصيكم بالوالدين إحساناً ، والإحسان تأدية حقوقهما ومجانبة عقوقهما والمحافظة على برهما .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وذلك أنهم كانوا في الجاهلية

يقتلون أولادهم خشية الإملاق .

وفي الإملاق قولان :

أحدهما : أنه الإفلاس ، ومنه الملق لأنه اجتهاد المفلس في التقريب إلى الغنى طمعاً في تأجيله .

(13/257)

والثاني : أن الإملاق ومعناهما قريب وإن كان بينهما فرق ، وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وابن جريج .

ثم ذكر فساد اعتقادهم في الإملاق بأن قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لأن رزق العباد كلهم ، من كفيل ومكفول ، على خالقهم .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وفيها أربعة تأويلات :

أحدها : أن ذلك عام في جميع الفواحش سرها وعلانيتها ، قاله قتادة .

والثاني : أنه خاص في الزنى ، ما ظهر منها : ذوات الحوانيت ، وما بطن : ذوات الاستسرار ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثالث : ما ظهر منها : نكاح المحرمات ، وما بطن : الزنى ، قاله مجاهد ، وابن جبير .

والرابع : أن ما ظهر منها : الخمر ، وما بطن منها : الزنى ، قاله الضحاك .

وقد ذكرنا فيه احتمال تأويل خامس : أن ما ظهر منها أفعال الجوارح ، وما بطن منها اعتقاد القلوب .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ والنفوس المحرمة : نفس مسلم ، أو معاهد ، والحق الذي تقتل به النفس ما بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ ، أَوْ زِنًى بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ

" . ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ يعني أن الله وصى عباده بذلك ، ووصية الله واجبة .

ثم قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تعقلون تحريم ذلك عليكم وتعلمونه .

والثاني : تعملون عمل من يعقل وهو ترك ما أوجب العقاب من هذه المحرمات . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوا جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر ، و﴿ تعالوا ﴾ معناه أقبلوا ، وأصله من العلو فكأن الدعاء لما كان أمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعو ، وتعالى هو مطاوع عالى ، إذ تفاعل هو مطاوع فاعل . و﴿ أتل ﴾ معناه اسردوا نص من التلاوة التي يصح هي اتباع بعض الحروف بعضا ، و﴿ ما ﴾ نصب بقوله ﴿ أتل ﴾ وهي بمعنى الذي ، وقال الزجّاج أن يكون قوله ﴿ أتل ﴾ معلقاً عن العمل و﴿ ما ﴾ نصب ب ﴿ حرم ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا قلق و﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن لا تشركوا ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع الابتداء التقدير ، الأمر أن أو ذلك أن ، ويصح أن تكون في موضع نصب على البدل من ﴿ ما ﴾ قال مكي وغيره .

(15/257)

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : والمعنى يبطله فتأمله ، ويصح أن يكون مفعولاً من أجله التقدير إرادة أن لا تشركوا به شيئاً ، إلا أن هذا التأويل يخرج أن لا تشركوا من المتلو

ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات ، و﴿ تشركوا ﴾ يصح أن يكون منصوباً ب ﴿ أن ﴾ ، ويتوجه أن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود ، و﴿ أن ﴾ قد توصل بما نصبته ، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأمر والنهي ، و﴿ شيئاً ﴾ عام يراد به كل معبود من دون الله ، و﴿ إحساناً ﴾ نصب على المصدر وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً والمحرمات تنفك من هذه المذكورات بالمعنى وهي الإشراك والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس وقال كعب الأحبار : هذه الآيات مفتتح التوراة ﴿ بسم الله الرحمن الرحمن قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى آخر الآية ، وقال ابن عباس هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملة ، وقد قيل إنها العشر الكلمات المنزلة على موسى ، وإن اعترض من قال إن ﴿ تشركوا ﴾ منصوب ب ﴿ أن ﴾ بعطف المجزومات عليه فلذلك موجود في كلام العرب ، وأنشد الطبري حجة لذلك : [الرجز] .

حج وأوصى بسليمى الأعْبُدا . . . أن لا ترى ولا تكلمْ أحدا

ولا يزلْ شرابُها مبرَّدا . . . وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ الآية نهي عن عادة العرب في وأد البنات ، والولد يعم الذكر والأنثى من البنين ، و" الإملاق " الفقر وعدم المال ، قاله ابن عباس وغيره ، يقال أملق الرجل إذا افتقر .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : ويشبه أن يكون معناه أملق أي لم يبق له إلا الملق كما قالوا أترب إذا لم يبق له إلا التراب وأرمل إذا لم يبق له إلا الرمل ، والملق الحجارة السود واحدته ملقة ، وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق ، ويقال أملق بمعنى أنفقه ، وذكر أن علياً قال لامرأة أملقي من مالك ما شئت وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق ، وحكى أيضاً النقاش عن مؤرج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لخم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي ، و" ظهر وبطن " حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء ، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات ، فقال السدي وابن عباس : ﴿ ما ظهر ﴾ هو زنا الحوانيت الشهير ، و﴿ ما بطن ﴾ هو متخذات الأخدان ، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرم الله الجميع ، وقال مجاهد ﴿ ما ظهر ﴾ هو نكاح حلائل الآباء ونحو ذلك ، و﴿ ما بطن ﴾ هو الزنا إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة ، بل هو دعوى مجردة ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا ﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة ، ومعنى الآية ﴿ إلا بالحق ﴾ الذي يوجب قتلها وقد بينته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنا بعد الإحصان والحرابة وما تشعب من هذه ، و﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات ، و" الوصية " الأمر المؤكد

المقرر ومنه قول الشاعر : [الطويل]

أجدَّكَ لم تسمعْ وَصَاةَ محمَّدٍ . . . نبيِّ الإلهِ حين أوصى وَأَشْهَدَا

وقوله ﴿ لعلكم ﴾ ترج بالإضافة إلينا أي من سمع هذه الوصية ترجى وقوع أثر العقل بعدها والميز بالمنافع والمضار في الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ "ما" : بمعنى : "الذي" ، وفي "لا" قولان .

(17/257)

أحدهما : أنها زائدة ، كقوله : ﴿ أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : 12] .

والثاني : أنها ليست زائدة ، وإنما هي نافية ؛ فعلى هذا القول ، في تقدير الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يكون قوله : ﴿ أن لا تشركوا ﴾ ، محمولا على المعنى ؛ فتقديره : أتل عليكم أن لا تشركوا ، أي : أتل تحريم الشرك .

والثاني : أن يكون المعنى : أوصيكم أن لا تشركوا ، لأن قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ [

الإسراء : 23] محمول على معنى : أوصيكم بالوالدين إحساناً ، ذكرهما الزجاج .

والثالث : أن الكلام تم عند قوله : ﴿ حرَّم ربكم ﴾ ثم في قوله ﴿ عليكم ﴾ قولان .

أحدهما : أنها إغراء كقوله : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ [المائدة : 105] فالتقدير : عليكم أن لا تشركوا ، ذكره ابن الانباري .

والثاني : أن يكون بمعنى : فُرض عليكم ، ووجب عليكم أن لا تشركوا .

وفي هذا الشرك قولان .

أحدهما : أنه ادعاء شريك مع الله عز وجل .

والثاني : أنه طاعة غيره في معصيته .

قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ يريد : دفن البنات أحياءً .

﴿ من إملاق ﴾ أي : من خوف فقر .

قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ فيه خمسة اقوال .

أحدها : أن الفواحش : الزنا ، وما ظهر منه : الإعلان به ، وما بطن : الاستسرار به ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثاني : أن ما ظهر : الخمر ، ونكاح المحرمات ، وما بطن : الزنا ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

والثالث : أن ما ظهر الخمر ، وما بطن : الزنا ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه عام في الفواحش ، وظاهرها : علانيتها ، وباطنها : سِرُّها ، قاله قتادة .

والخامس : أن ما ظهر : أفعال الجوارح ، وما بطن : اعتقاد القلوب ، ذكره الماوردي في تفسير هذا الموضع ، وفي تفسير قوله : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ [الإنعام : 120] والنفس التي حرَّم الله : نفس مسلم أو معاهد ، والمراد بالحق : إذن الشرع . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال القرطبى :

(18/257)

قوله عز وجل : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ أي تقدّموا واقرءوا حَقّاً يقيناً كما أوحى إليّ ربِّي ، لا ظنّاً ولا كذباً كما زعمتم .

ثم بيّن ذلك فقال : "أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً" يقال للرجل : تعالَ ، أي تقدّم ، وللمرأة تعالَيْ ، وللإثنين والاثنتين تعاليا ، ولجماعة الرجال تعالَوْا ، ولجماعة النساء تعالَيْن ؛ قال الله تعالى :

﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 28] .

وجعلوا التقدّم ضرباً من التعالي والارتفاع ؛ لأن المأمور بالتقدّم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له تعال ، أي ارفع شخصك بالقيام وتقدّم ؛ واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي ؛ قاله ابن الشَّجَرِيّ .

الثانية قوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ ﴾ الوجه في "ما" أن تكون خبرية في موضع نصب ب "أَتْلُ" والمعنى : تعالوا أتل الذي حرّم ربكم عليكم ؛ فإن علّقت "عليكم" ب "حرّم" فهو الوجه ؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين .

وإن علقته ب "أتل" فجيّد لأنه الأسبق ؛ وهو اختيار الكوفيين ؛ فالتقدير في هذا القول أتل عليكم الذي حرم ربكم .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ في موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل ، أي أتل عليكم ألا تشركوا ؛ أي أتل عليكم تحريم الإشراك ، ويحتمل أن يكون منصوباً بما في "عليكم" من الإغراء ، وتكون "عليكم" منقطعة مما قبلها ؛ أي عليكم ترك الإشراك ، وعليكم إحساناً بالوالدين ، وألاّ تقتلوا أولادكم وألا تَقْرَبوا الفواحش .

كما تقول : عليك شأنكَ ؛ أي الزم شأنك .

وكما قال : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة : 105] قال جميعَه ابن الشَّجَرِيّ .

وقال النحاس : يجوز أن تكون "أن" في موضع نصب بدلاً من "ما" ؛ أي أتل عليكم تحريم

الإشراك .

واختار الفرّاء أن تكون "لا" للنهي ؛ لأن بعده "ولا" .

(19/257)

الثالثة هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله .

وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم الله عليهم مما حلّ .

قال الله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : 187] .

وذكر ابن المبارك : أخبرنا عيسى بن عمر عن عمرو بن مُرة أنه حدّثهم قال : قال ربيع بن خَيْثم لجليس له : أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُفَكَّ خاتمها ؟ قال نعم .

قال فاقرأ ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات .

وقال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

وقال ابن عباس : هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة "آل عمران" أجمعت عليها شرائع الخلق ، ولم تنسخ قط في مِلّة .

وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ الإحسان إلى الوالدين برُّهما وحِفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرِّق عنهما وترك السّلطنة عليهما .

و"إحساناً" نصب على المصدر ، وناصبه فعل مضمر من لفظه ؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ الإملاق الفقر : أي لا تَئِدوا من الموءودة بناتِكم خشية العَيْلة ، فإني رازقكم وإيّاهم .

وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر ، كما هو ظاهر الآية .

أملق أي افتقر .

وأملقه أي أفقره ؛ فهو لازم ومتعد .

وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لَخْم .

وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق ؛ يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه .

وذُكر أن عليّاً رضي الله عنه قال لامرأته : أَمْلقي من مالك ما شئت .

ورجل مَلِق يُعطِي بلسانه ما ليس في قلبه .

فالمَلَق لفظ مشترك يأتي بيانه في موضعه .

السادسة وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَزْل ؛ لأن الوَأْد يرفع الموجود والنَّسْل ؛ والعزل منع أصل النسل فتشابها ؛ إلا أن قتل النفس أعظم وِزراً وأقبح فعلاً ؛ ولذلك قال بعض علمائنا ؛ إنه يفهم من " قوله عليه السلام في العزل : "ذلك الوأد الخفي" " الكراهة لا التحريم .

وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم .

وقال بإباحته أيضاً جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء ؛ لقوله عليه السلام : " لا عليكم ألاّ تفعلوا فإنما هو القَدَر " أي ليس عليكم جناح في ألاّ تفعلوا .

وقد فَهِم منه الحسن ومحمد بن المُثَنَّى النَّهْيَ والزّجْرَ عن العزل .

والتأويل الأوّل أوْلى ؛ لقوله عليه السلام : " وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء " قال مالك والشافعي : لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذنها .

وكأنهم رأُوا الإنزال من تمام لذتها ، ومن حقها في الولد ، ولم يروا ذلك في الموطوءة بملك اليمين ، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها ، إذ لا حق لها في شيء مما ذُكر .

السابعة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ نظيره ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثم وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام : 120] .

فقوله : "مَا ظَهَرَ" نهي عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي .

"وَمَا بَطَنَ" ما عقد عليه القلب من المخالفة .

وظَهر وبطَن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء .

و"ما ظهر" نصب على البدل من "الفواحش" .

"وما بطن" عطف عليه .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ الألف واللام في "النفس" لتعريف الجنس ؛ كقولهم : أهلك الناسَ حُبُّ الدرهم والدينار .

(21/257)

ومثله ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [المعارج : 19] ألا ترى قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ ؟ وكذلك قوله : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر : 21] لأنه قال : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ .

وهذه الآية نهيٌ عن قتل النفس المحرّمةِ ، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذي يوجب قتلها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمِرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن

قال لا إله إلا الله فقد عَصَمَ مالَه ونفْسَه إلا بحقّه وحسابُهم على الله " وهذا الحق أُمور :

منها منع الزكاة وترك الصلاة ؛ وقد قاتل الصدّيق مانِعي الزكاة .

وفي التنزيل ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : 5] وهذا بيّن .

وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يَحلّ دَمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة " وقال عليه السلام : " إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخِرَ منهما " أخرجه مسلم .

وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " وسيأتي بيان هذا في "الأعراف" .

وفي التنزيل : ﴿ إِنَّمَا جَزَآءُ الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَاداً أَن يقتلوا ﴾ [المائدة : 33] الآية .

وقال : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] الآية .

وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى في الأرض فساداً بانتهاب الأهل والمال والبَغي على السلطان والامتناع من حكمه يُقْتَلُ .

فهذا معنى قوله : "إِلاَّ بِالْحَقِّ" .

وقال عليه السلام : " المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملّتين " وروى أبو داود والنّسائي عن أبي بَكْرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قتل مُعاهداً في غير كُنهِهِ حَرّم الله عليه الجنة " وفي رواية أخرى لأبي داود قال : " من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً " في البخاري في هذا الحديث : " وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً " خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

التاسعة قوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى هذه المحرّمات .

والكاف والميم للخطاب ، ولاحظّ لهما من الإعراب .

﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ الوصيّة الأمر المؤكَّد المقدور .

والكاف والميم محله النصب ؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة .

وفي وَصّى ضمير فاعل يعود على الله .

وروى مطر الوَرّاق عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أشرف على أصحابه فقال : عَلاَم تقتلوني ! فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل دَمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمداً فعليه القود أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل " فوالله ما زنيتُ في جاهلية ولا إسلام ، ولا

قتلتُ أحداً فأقيد نفسي به ، ولا ارتددت منذ أسلمت ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ذلكم الذي ذكرت لكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(23/257)

وقال ابن جزى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم عليهم وذكر في هذه الآيات المحرمات التي أجمعت عليها جميع الشارئع ولم تنسخ قط في ملة ، وقال ابن عباس : هي الكلمات التي أنزل الله على موسى ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ قيل : أن هنا حرف عبارة وتفسير فلا موضع لها من الإعراب ، ولا ناهية جزمت الفعل ، وقيل : أن مصدرية في موضع رفع تقديره : الأمر ألا تشركوا ، فلا على هذا نافية ، وقيل : أن في موضع نصب بدلاً من قوله ما حرم ، ولا يصح ذلك إلا إن كانت لا زائدة وإن لم تكن زائدة فسد المعنى لأن الذي حرم على ذلك يكون ترك الإشراك ، والأحسن عندي أن تكون أن

مصدرية في موضع نصب على البدل ولا نافية ولا يلزم ما ذكر من فساد المعنى ، لأن قوله ما حرم ربكم معناه ما وصاكم به ربكم بدليل قوله في آخر الآية .

(24/257)

﴿ ذلكم وصاكم ﴾ به فضمن التحريم معنى الوصية ، والوصية في المعنى أعمّ من التحريم ، لأن الوصية تكون بتحريم وبتحليل ، وبوجوب وندب ، ولاينكر أن يريد بالتحريم ، لأن الوصية تكون بتحريم وبتحليل ، وبوجوب وندب ، ولا ينكر أن يريد بالتحريم الوصية لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص وتريد به العموم ، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص ، إذ تقرر هذا ، فتقدير الكلام : قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم ، ثم أبدل منه على وجه التفسير له والبيان ، فقال : أن لا تشركوا به شيئاً ، أي وصاكم ألا تشركوا به شيئاً ووصاكم بالإحسان بالوالدين ، ووصاكم أن لا تقتلوا أولادكم ، فجمعت الوصية ترك الإشارك وفعل الإحسان بالوالدين وما بعد ذلك ويؤيد هذا التأويل الذي تأولنا : أن الآيات اشتملت على أوامر : كالإحسان بالوالدين وقول العدل والوفاء في الوزن ، وعلى نواهي : كالإشارك وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، فلا بد أن يكون اللفظ المقدم في أولها لفظاً يجمع الأوامر والنواهي ، لأنها أجملت فيه ، ثم فسرت بعد ذلك ، ويصلح لذلك لفظ الوصية لأنه جامع للأمر

والنهي ، فلذلك جعلنا التحريم بمعنى الوصية ويدل على ذلك ذكر لفظ الوصية بعد ذلك ، وإن لم يتأول على ما ذكرناه : لزم في الآية إشكال ، وهو عطف الأوامر على النواهي ، وعطف النواهي على الأوامر ، فإن الأوامر طلب فعلها ، والنواهي طلب تركها ، وواو العطف تقتضي الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولا يصح ذلك إلا على الوجه الذي تأولناه من عموم الوصية للفعل والترك .

(25/257)

وتحتمل الآية عندي تأويلاً آخر ، وهو : أن يكون لفظ التحريم على ظاهره ، ويعم فعل المحرمات ، وترك الواجبات لأن ترك الواجبات حرام ﴿ وَلاَ تقتلوا أولادكم خَشْيَةَ إملاق ﴾ [الإسراء : 31] الإملاق الفاقة ، ومن هنا للتعليل تقديره : من أجل إملاق ، وإنما نهى عن قتل الأولاد لأجل الفاقة ، لأن العرب كانوا يفعلون ذلك ، فخرج مخرج الغالب فلا يفهم منه إباحة قتلهم بغير ذلك الوجه ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : 151] قيل ما ظهر : الزنا ، وما بطن : اتخاذ الأخدان والصحيح أن ذلك عموم في جميع الفواحش ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ [الإسراء : 33] فسره قول رسول الله صلى

الله عليه وسلم : لا يحل دم امرئ مسلم إلى بإحدى ثلاث : زنى بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 25.26 ﴾

(26/257)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾

لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا أن الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا : أي شيء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تعالوا تعال من الخاص الذي صار عاماً وأصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمَّ .

وقيل أصله أن تدعو الإنسان إلى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه إلى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر في الاستعمال ، والمعنى : تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعني أقرأ ما حرم ربكم عليكم يعني الذي حرم ربكم عليكم حقاً يقيناً لا شك فيه ولا ظناً ولا كذباً كما تزعمون أنتم بل هو وحي أوحاه الله إليّ ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ .

فإن قلت : ترك الإشراك واجب فما معنى قوله أن لا تشركوا به شيئاً لأنه كالتفصيل لما

أجمله فيقوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز .

قلت الجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا له .

الوجه الثاني : أن يكون محل النصب ، واختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة .

وقيل : إن حرف لا على أصلها ويكون المعنى : أتل عليكم تحريم الشرك أي لا تشركوا ويكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله وبالوالدين إحساناً محمول على : أوصيكم بالوالدين إحساناً .

(27/257)

الوجه الثالث : أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم ، ثم قال : عليكم أن لا تشركوا على الإغرار أو بمعنى فرض عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ومعنى هذا الإشراك الذي حرمه الله ونهى عنه هو أن يجعل الله شريكه من خلقه أو يطيع مخلوقاً في معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي : وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين إحساناً وإنما ثنى

بالوصية بالإحسان إلى الوالدين لأن اعظم النعم على الإنسان نعمة الله لأنه هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً ثم بعد نعمة الله الوالدين لأنهما السبب في وجود الإنسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال صغره ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ يعني من خوف الفقر ، والإملاق : الإقتار .

(28/257)

والمراد بالقتل ، وأد البنات وهن أحياء فكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ يعني لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم لأن الله تعالى إذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله عز وجل : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ يعني الزنا ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ يعني علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السر فحرم الله تعالى الزنا في السر والعلانية وقيل إن الأولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على

العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش ، وأيضاً فإن السبب إذا كان خاصاً لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفي قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمرها به أو نهى عنه ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً لأجل خوف الله وتعظيماً لأمره استوجب رضوان الله وثوابه ﴿ ولا تقتلوا النفس الي حرم الله إلا بالحق ﴾ حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق وقتها من جملة الفواحش المتقدم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيماً لأمر القتل وإنه من أعظم الفواحش والكبائر ، وقيل : إنما أفرده بالذكر لأنه تعالى أراد أن يستثني منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش إلا بالإفراد فلذلك فقال : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ﴾ وهي التي أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد إحصان وهو الذي يوجب الرجم .

(ق) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

---

(1) أخرجه البخاري في الديات ، باب قول الله تعالى : "أن النفس بالنفس . . " 12 /

201 ، ومسلم في القسامة ، باب بيان ما يباح به دم المسلم (1676) : 3 / 1302 ، والبغوى في شرح السنة : 10 / 147 .

(29/257)

وقال أبو حيان :

﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ﴾

لما ذكر تعالى ما حرّموه افتراء عليه ثم ذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان ، ذكر ما حرمه تعالى عليهم من أشياء نهاهم عنها وما أوجب عليهم من أشياء أمرهم بها وتقدم شرح ﴿ تعالوا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إلى كلمة ﴾ والخطاب في قل للرسول وفي تعالوا قيل للمشركين .

وقيل : لمن بحضرة الرسول من مؤمن وكتابي ومشرك وسياق الآيات يدل على أنه للمشركين ، وإن كان حكم غيرهم في ذلك حكمهم أمره تعالى أن يدعو جميع الخلق إلى سماع ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر ، و ﴿ أتل ﴾ أسرد وأقص من التلاوة وهي اتباع بعض الحروف بعضاً .

وقال كعب الأحبار : هذه الآيات مفتتح التوراة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل تعالوا أتل ما

حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ إلى آخر الآية .

وقال ابن عباس : هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران أجمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملة .

وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزلة على موسى عليه السلام و﴿ ما ﴾ بمعنى الذي وهي مفعولة بأتل أي اقرأ الذي حرمه ربكم عليك .

وقيل : مصدرية أي تحريم ربكم .

وقيل : استفهامية منصوبة بحرّم أي أي شيء حرم ربكم ، ويكون قد علق ﴿ أتل ﴾ وهذا ضعيف لأن ﴿ أتل ﴾ ليس من أفعال القلوب فلا تعلق و﴿ عليكم ﴾ متعلق بحرم لا بأتل فهو من أعمال الثاني .

(30/257)

وقال ابن الشجري : إن علقته بأتل فهو جيد لأنه أسبق وهو اختيار الكوفيين فالتقدير اتل عليكم الذي حرّم ربكم .

﴿ أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ الظاهر أن ﴿ أن ﴾ تفسيرية و﴿ لا ﴾ ناهية لأن ﴿ اتل ﴾ فعل بمعنى القول وما بعد ﴿ أن ﴾ جملة فاجتمع في أن شرطا

التفسيرية وهي أن يتقدمها معنى لقول وأن يكون بعدها جملة وذلك بخلاف أي فإنها حرف تفسير يكون قبلها مفرد وجملة يكون فيها معنى القول وغيرها ، وبعدها مفرد وجملة وجعلها تفسيرية هو اختيار الزمخشري فإن قلت : إذا جعلت أن مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما ﴿ حرم ربكم ﴾ وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرماً كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي فما يصنع بالأوامر ؟ قلت : لما وردت هذه الأوامر مع النواهي وتقدّمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن في الدخول تحت حكمه ، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها وهي الإشارة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله ؛ انتهى .

(31/257)

وكون هذه الأشياء اشتركت في الدخول تحت حكم التحريم وكون التحريم راجعاً إلى أضداد الأوامر بعيد جداً وألغاز في المعاني ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، وأما عطف هذه الأوامر فيحتمل وجهين : أحدهما : أنها معطوفة على المناهي قبلها فيلزم انسحاب التحريم عليها حيث كانت في حيز أن التفسيرية بل هي معطوفة على قوله : ﴿ تعالوا أتل ما حرم ﴾ أمرهم أولاً بأمر يترتب عليه ذكر مناه ثم أمرهم ثانياً بأوامر وهذا معنى واضح

، والثاني : أن تكون الأوامر معطوفة على المناهي وداخلة تحت أن التفسيرية ويصح ذلك على تقدير محذوف تكون أن مفسرة له وللمنطوق قبله الذي دل عليه حذفه والتقدير وما أمركم به فحذف وما أمركم به لدلالة ما حرّم عليه ، لأن معنى ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ ما نهاكم ربكم عنه فالمعنى ﴿ قل تعالوا أتل ﴾ ما نهاكم ربكم عنه ، وإذا كان التقدير هكذا صح أن تكون أن تفسيرية لفعل النهي الدال عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف ألا ترى أنه يجوز أن تقول : أمرتك أن لا تكرم جاهلاً وأكرم عالماً إذ يجوز عطف الأمر على النهي والنهي على الأمر كما قال امرؤ القيس :

يقولون لا تهلك أسًى وتجمل . . .

وهذا لا نعلم فيه خلافاً بخلاف الجمل المتباينة بالخبر والاستفهام والإنشاء فإن في جواز العطف فيها خلافاً وقد جوزوا في أن ﴿ أن ﴾ تكون مصدرية لا تفسيرية في موضع رفع وفي موضع نصب .

فأما الرفع فعلى إضمار مبتدأ دل عليه المعنى أو التقدير المتلو ﴿ أن لا تشركوا ﴾ .

وأما النصب فمن وجوه .

أحدها : أن يكون منصوباً بقوله : ﴿ عليكم ﴾ ويكون من باب الإغراء وتم الكلام عند قوله : ﴿ أتل ما حرم ربكم ﴾ أي التزموا انتفاء الإشراك وهذا بعيد لتفكيك الكلام عن ظاهره .

الثاني : أم يكون مفعولاً من أجله أي ﴿ أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ﴿ أن لا تشركوا ﴾ وهذا بعيد لأن ما جاء بعده أمر معطوف بالواو ومناه هي معطوفة بالواو فلا يناسب أن يكون تبييناً لما حرم ، أما الأوامر فمن حيث المعنى وأما المناهي فمن حيث العطف .

الثالث : أن يكون مفعولاً بفعل محذوف تقديره أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ محمول على أوصيكم ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وهذا بعيد لأن الإضمار على خلاف الأصل : وهذه الأوجه الثلاثة لا فيها باقية على أصل وضعها من النفي وهو مراد .

الرابع : أن يكون في موضع نصب على البدل من ﴿ ما حرم ﴾ أو من الضمير المحذوف من ﴿ ما حرم ﴾ إذ تقديره ما حرمه وهذان الوجهان لا فيهما زائدة كهي في قوله : ﴿ ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ﴾ وهذا ضعيف لانحصار عموم المحرم في الإشراك إذ ما بعده من الأمر ليس داخلاً من المحرم ولا بعد الأمر مما فيه لا يمكن ادّعاء زيادة لا فيه لظهور أن لا فيها للنهي .

وقال الزمخشري : فإن قلت هلا قلت هي التي تنصب الفعل وجعلت ﴿ أن لا تشركوا ﴾

بدلاً من ﴿ ما حرم ﴾ قلت : وجب أن يكون لا تشركوا ولا تقربوا ولا تقتلوا ولا تتبعوا السبل نواهي لانعطاف الأوامر عليها وهي قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ لأن التقدير وأحسنوا ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وأوفوا وإذا قلتم فاعدلوا وبعهد الله أوفوا ؛ انتهى .

ولا يتعين أن تكون جميع الأوامر معطوفة على جميع ما دخل عليه لا لأنا بينا جواز عطف ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ على ﴿ تعالوا ﴾ وما بعده معطوف عليه ، ولا يكون قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ معطوفاً على ﴿ أن ﴾ و ﴿ أن لا تشركوا ﴾ شامل لمن أشرك بالله الأصنام كقوم إبراهيم ومن أشرك بالله الجن ومن أشرك بنين وبنات .

وقال ابن الجوزي : قيل ادعاء شريك لله .

وقيل : طاعة غير الله في معصية الله وتقدم تفسير ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ في سورة البقرة .

(33/257)

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ ﴿ من ﴾ هنا سببية أي من فقر لقوله ﴿ خشية إملاق ﴾ وقتل الولد حرام إلا بحقه وإنما ذكر هذا السبب لأنه كان العلة في قتل الولد عندهم ، وبين تعالى أنه هو الرازق لهم ولأولادهم وإذا كان هو الرازق

فكما لا تقتل نفسك كذلك لا تقتل ولدك .

ولما أمر تعالى بالإحسان إلى الوالدين نهى عن الإساءة إلى الأولاد ونبه على أعظم الإساءة للأولاد هو إعدام حياتهم بالقتل خوف الفقر كما قال في الحديث وقد سئل عن أكبر الكبائر فذكر الشرك بالله وهو قوله : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " ثم قال : " وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " وقال : " وأن تزاني حليلة جارك " وجاء هذا الحديث منتزعاً من هذه الآية وجاء التركيب هنا ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وفي الإسراء ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فيمكن أن يكون ذلك من التفنن في الكلام ويمكن أن يقال في هذه الآية جاء ﴿ من إملاق ﴾ فظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقعه ، وخشيته وإن كان واجداً للمال فبدأ أولاً بقوله : ﴿ نحن نرزقكم ﴾ خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق ، ثم عطف عليهم الأولاد .

وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون وإن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه فبدىء فيه بقوله : ﴿ نحن نرزقهم ﴾ إخباراً بتكفله تعالى برزقهم فلستم أنتم رازقيهم وعطف عليهم الآباء وصارت الآيتان مفيدتان معنيين .

أحدهما : أن الآباء نُهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم .

والآخر : أنهم نُهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشية وحمل الآيتين على ما يفيد معنيين أولى من التأكيد .

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ المنقول فيما ﴿ ظهر وما بطن ﴾ كالمنقول في ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ وتقدّم فأغنى عن إعادته .

(34/257)

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ هذا مندرج تحت عموم الفواحش إذ الأجود أن لا يخص الفواحش بنوع مّا ، وإنما جرد منها قتل النفس تعظيماً لهذه الفاحشة واستهوالاً لوقوعها ولأنه لا يتأتى الاستثناء بقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ إلا من القتل لا من عموم الفواحش ، وقوله : ﴿ التي حرم الله ﴾ حوالة على سبق العهد في تحريمها فلذلك وصفت بالتي ، والنفس المحرمة هي المؤمنة والذمّية والمعاهدة و﴿ بالحق ﴾ بالسبب الموجب لقتلها كالرّدة والقصاص والزنا بعد الإحصان والمحاربة .

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ أشار إلى جميع ما تقدّم وفي لفظ ﴿ وصاكم ﴾ من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان ، ولما كان العقل مناط التكليف قال تعالى : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي فوائد هذا التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا والوصاة الأمر المؤكد المقرر .

وقال الأعشى :

أجدك لم تسمع وصاة محمد . . .

نبي الإله حين أوصى وأشهدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) ﴾

قال داود الأَوْدِي ، عن الشعبي ، عن علقمة ، عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(35/257)

وقال الحاكم في مستدركه : حدثنا بكر بن محمد الصيرفي بمرو ، حدثنا عبد الصمد بن الفضل ، حدثنا مالك بن إسماعيل النَّهدي ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن خليفة قال : سمعت ابن عباس يقول : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ، ثم

قرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ [أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا] ﴾ .

ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه (1) .

قلت : ورواه زُهَيْر وقيس بن الربيع كلاهما عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن قيس ، عن ابن عباس ، به . والله أعلم .

وروى الحاكم أيضاً في مستدركه من حديث يزيد بن هارون ، عن سفيان بن حسين ، عن الزهري ، عن أبي إدريس ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيكم يبايعني على ثلاث ؟" - ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ من الآيات - فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه" .

ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وإنما اتفقا على حديث الزهري ، عن أبي إدريس ، عن عبادة : "بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً" الحديث . وقد روى سفيان بن حُسَين كلا الحديثين ، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جمع بينهما ، والله أعلم (2) .

---

(1) المستدرك (317/2) .

(2) المستدرك (318/2) . أما الحديث الذي اتفق عليه الشيخان من حديث الزهري ، فرواه البخاري في صحيحه برقم (18) ومسلم في صحيحه برقم (1709) .

(36/257)

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد – لهؤلاء المشركين الذين [أشركوا وعبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ، ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أي : هلموا وأقبلوا : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصًا ، ولا ظنًا ، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده : ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق ، وتقديره : وأوصاكم ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ؛ ولهذا قال في آخر الآية : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وكما قال الشاعر :

حَجَّ وأوصَى بسُلَيمى الأَعْبُدَا . . . أَنْ لا تَرَى ولا تُكَلِّم أَحَدا . . .

ولا يَزَلْ شَرَابُها مُبَرَّدا .

وتقول العرب : أمرتك ألا تقوم .

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : "أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمتك ، دخل الجنة . قلت : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : وإن زنا وإن سرق . قلت : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : وإن زنا وإن سرق . قلت : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : وإن زنا وإن سرق ، وإن شرب الخمر" : وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه ، عليه السلام ، قال في الثالثة : "وإن رغم أنفُ أبي ذر" (1) فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : وإن رغم أنف أبي ذر .

---

(1) صحيح البخاري برقم (1237) وصحيح مسلم برقم (94) .

(37/257)

وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي ، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئا ، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عَنَان السماء ثم استغفرتني ، غفرت لك" (1) .

ولهذا شاهد في القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : 48 ، 116] .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود : "من مات لا يشرك بالله شيئًا ، دخل الجنة" (2)

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا .

وروى ابن مَرْدُوَيه من حديث عبادة وأبي الدرداء : "لا تشركوا بالله شيئًا ، وإن قُطِّعتم أو صُلِّبتم أو حُرِّقتم" (3) .

---

(1) رواه أحمد في مسنده (154/5) والترمذي في السنن برقم (2495) وابن ماجة في السنن برقم (4257) وقال الترمذي : "هذا حديث حسن" .

(2) صحيح مسلم برقم (92) .

(3) أما حديث أبي الدرداء ، فرواه الطبراني في المعجم الكبير كما في معجم الزوائد (216/4) من طريق شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء به .

قال الهيثمي : "فيه شهر بن حوشب وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات" . وأما حديث عبادة فهو الآتي .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عَوْف الحِمْصي ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد حدثني سيار بن عبد الرحمن ، عن يزيد بن قَوْذر ، عن سلمة بن شُرَيح ، عن عبادة بن

الصامت قال : أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع خصال : "ألا تشركوا بالله شيئًا ، وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم" (1) .

وقوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أي : أن تحسنوا إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : 23] .

وقرأ بعضهم : "ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا" .

والله تعالى كثيرًا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين ، كما قال : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : 14 ، 15] . فأمر بالإحسان إليهما ، وإن كانا مشركين بحسبهما ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية . [البقرة : 83] .

والآيات في هذا كثيرة . وفي الصحيحين عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : "الصلاة على وقتها" . قلت : ثم أيّ ؟ قال : "بر الوالدين" . قلت : ثم أيّ ؟ قال : "الجهاد في سبيل الله" . قال ابن مسعود : حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني (2) .

---

(1) ورواه الطبراني في المعجم الكبير كما في الزوائد (216/4) وقال الهيثمي : "فيه

سلمة بن شريح قال الذهبي : لا يعرف ، وبقية رجاله رجال الصحيح" .

(2) صحيح البخاري برقم (5970) وصحيح مسلم برقم (85) .

(39/257)

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه بسنده عن أبي الدرداء ، وعن عبادة بن الصامت ، كل منهما يقول : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم : "أطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا ، فافعل" (1) .

ولكن في إسناديهما ضعف ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد ، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خَشْيَة العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خيفةَ الافتقار ؛ ولهذا جاء في الصحيحين ، من حديث عبد الله ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : "أن تجعل لله ندّا وهو خلَقَكَ" . قلت : ثم أيّ ؟ قال : "أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك" . قلت : ثم أيّ ؟ قال : "أن تُزَاني حليلة جارك" . ثم تلا

رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا] ﴾ [الفرقان : 68] . (2)

---

(1) سبق تخريجهما من رواية الطبراني في المعجم الكبير .

(2) صحيح البخاري برقم (4477) وصحيح مسلم برقم (68) .

(40/257)

وقوله : ﴿ مِنْ إِمْلاقٍ ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسُّدّي : هو الفقر ، أي : ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، وقال في سورة "سبحان" : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء : 31] ، أي : خشية حصول فقر ، في الآجل ؛ ولهذا قال هناك : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أي : لا تخافوا من فقركم بسببهم ، فرزقهم على الله . وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا قال : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ؛ لأنه الأهم هاهنا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33] . وقد تقدم

تفسيرها في قوله : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام : 12] .

وفي الصحيحين ، عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أحد أغْيَر من الله ، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَنَ" (1) .

وقال عبد الملك بن عُمَيْر ، عن وَرّاد ، عن مولاه المغيرة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مُصْفَح . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتعجبون من غيرة سعد ! فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حَرّم الفواحش ما ظهر منها وما بَطَن" . أخرجاه (2) .

وقال كامل أبو العلاء ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، إنا . نغار . قال : "والله إني لأغار ، والله أغير مني ، ومن غيرته نهى عن الفواحش" (3) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (4634) وصحيح مسلم برقم (2760) .

(2) صحيح البخاري برقم (6846) وصحيح مسلم برقم (1499) .

(3) ورواه أحمد في مسنده (326/2) من طريق كامل به ، قال الهيثمي في المجمع (328/4) : "فيه كامل أبو العلاء ، وفيه كلام لا يضر وهو ثقة ، وبقية رجاله رجال الصحيح" .

رواه ابن مَرْدُوَيه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وهو على شرط الترمذي ، فقد روي بهذا السند : "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين" (1) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيدًا ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء في الصحيحين ، عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة" (2) .

---

(1) سنن الترمذي برقم (2331) وقال الترمذي : "هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة" .

(2) صحيح البخاري برقم (6878) وصحيح مسلم برقم (1676) .

وفي لفظ لمسلم والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم . . . " وذكره ، قال الأعمش : فحدثت به إبراهيم ، فحدثني عن الأسود ، عن عائشة [رضي الله عنها] ، بمثله (1) .

وروى أبو داود ، والنسائي ، عن عائشة ، رضي الله عنها ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال : زانٍ مُحْصَن يُرْجَم ، ورجل قتل رَجُلا مُتَعمِّدا فيقتل ، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله ، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض" . وهذا لفظ النسائي 2 .

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، أنه قال وهو محصور : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يَحِلُّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كَفَرَ بعد إسلامه ، أو زنا بعد إحصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس" . فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منه بعد إذ هداني الله ، ولا قتلت نفسا ، فبم تقتلونني . رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن (3) .

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهدَ – وهو المستأمن من أهل الحرب – كما رواه البخاري ، عن عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من قتل مُعاهِدًا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما" (4) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من قتل معاهَدًا له

ذِمَّة الله وذمَّة رسوله ، فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خَريفًا" .

رواه ابن ماجه ، والترمذي وقال : حسن صحيح (5) .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 359 . 363 ﴾

---

(1) صحيح مسلم برقم (1676) .

(2) سنن أبي داود برقم (4353) وسنن النسائي (101/7) .

(3) المسند (63/1) وسنن الترمذي برقم (2158) وسنن النسائي (92/7) وسنن ابن ماجة برقم (2533) .

(4) صحيح البخاري برقم (3166) .

(5) سنن ابن ماجة برقم (2687) وسنن الترمذي برقم (1403) .

(43/257)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ لما ظهر بُطلانُ ما ادعَوْا من أن إشراكَهم وإشراكَ آبائِهم وتحريمَ ما حرموه

بأمر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن إخراج شيءٍ يُتمسّك به في ذلك وإحضارِ شهداءَ يشهدون بما ادعَوْا في أمر التحريم بعد ما كُلِّفوه مرةً بعد أخرى عجزاً بيناً أُمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأن يبينَ لهم من المحرمات ما يقتضي الحالُ بيانَه على الأسلوب الحكيم إيذاناً بأن حقَّهم الاجتنابُ عن هذه المحرماتِ ، وأما الأطعمةُ المحرمةُ فقد بُينت بقوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ ﴾ الآية ، وتعالَ أمرٌ من التعالي والأصلُ فيه أن يقوله من مكان عالٍ لمن هو في أسفلَ منه ثم اتُّسع فيه بالتعميم ، كما أن الغنيمة في الأصل إصابةُ الغَنَم من العدو ثم استعملت في إصابة كلِّ ما يُصاب منهم اتساعاً ثم في الفوز بكل مطلبٍ من غير مشقة ﴿ اتل ﴾ جوابُ الأمر وقوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ منصوبٌ به على أن (ما) موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ ، أي اقرأْ الذي حرمه ربُّكم أي الآياتِ المشتمِلةَ عليه ، أو مصدريةٌ أي الآياتِ المشتملة على تحريمه أو بجرم على أنها استفهاميةٌ ، والجملةُ مفعولٌ لأتلُ لأن التلاوةَ من باب القول ، كأنه قيل : أقُلْ أيَّ شيءٍ حرم ربكم ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلقٌ بحرّم على كل حال ، وقيل : بأتلُ والأول أنسبُ بمقام الاعتناءِ بإيجاب الانتهاءِ عن المحرمات المذكورةِ وهو السرُّ في العرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم ، فإن تذكيرَ كونِه تعالى رباً لهم ومالكاً لأمرهم على الإطلاق من أقوى الدواعي إلى انتهائهم عما نهاهم عنه أشدَّ انتهاءٍ وأنْ في قوله تعالى : ﴿ أَن لا تُشْرِكُوا بِهِ ﴾ مفسرةٌ لفعل التلاوةِ المعلَّقِ بما حرم ، و(لا) ناهيةٌ كما ينبىء عنه عطفُ ما بعده من الأوامر والنواهي عليه ، وليس من ضرورة

كونِ المعطوفِ عليه تفسيراً لتلاوة المحرمات بحسب منطوقه كونُ المعطوفاتِ أيضاً كذلك حتى يمتنع

(44/257)

انتظامُ الأوامر في سلك العطفِ عليه بل يكفي في ذلك كونُها تفسيراً لها باعتبار لوازمِها التي هي النواهي المتعلقةُ بأضداد ما تعلقت هي به ، فإن الأمرَ بالشيء مستلزمٌ للنهي عن ضده بل هو عينُه عند البعض ، كأن الأوامرَ ذُكرت وقُصد لوازمُها ، فإن عطفَ الأوامرِ على النواهي الواقعةِ بعد أن المفسر لتلاوة المحرماتِ مع القطع بأن المأمورَ به لا يكون محرماً دليلٌ واضحٌ على أن التحريمَ راجعٌ إلى الأضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل : أتلُ ما حرم ربكم أن لا تشركوا ولا تُسيئوا إلى الوالدين خلا أنه قد أُخرج مُخرجَ الأمرِ بالإحسان إليهما بين النهيَين المكتنِفين له للمبالغة في إيجاب مراعاةِ حقوقِهما فإن مجرَّدَ تركِ الإساءةِ إليهما غيرُ كافٍ في قضاء حقوقِهما ، ولذلك عُقّب به النهيُ عن الإشراك الذي هو أعظمُ المحرماتِ وأكبرُ الكبائرِ ها هنا في سائر المواقعِ ، وقيل : (أن) ناصبةٌ ومحلُّها النصبُ بعليكم على أنه للإغراء ، وقيل : النصبُ على البدلية مما حرم وقيل : من عائدها المحذوفِ على أن لا زائدة ، وقيل : الجرُّ بتقدير اللام وقيل : الرفع بتقدير المتلوِّ أن لا تشركوا ، أو المحرَّمُ أن لا

تشركوا بزيادة لا وقيل : والذي عليه التعويلُ هو الأول لأمور من جملتها أن في إخراج المفسَّرِ على صورة النهي مبالغةً في بيان التحريمِ وقوله تعالى : ﴿ شَيْئاً ﴾ نُصب على المصدرية أو المفعولية أي لا تشركوا به شيئاً من الإشراك أو شيئاً من الأشياء ﴿ وبالوالدين ﴾ أي وأحسِنوا بهما ﴿ إحسانا ﴾ وقد رم تحقيقه ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ ﴾ تكليفٌ متعلق بحقوق الأولادِ عقّب به التكليفَ المتعلقَ بحقوق الوالدين أي لا تقتلوهم بالوأد ﴿ مّنْ إملاق ﴾ أي من أجل فقرٍ كما في قوله تعالى : ﴿ خَشْيَةَ إملاق ﴾ وقيل : هذا في الفقر الناجزِ وذا في المتوقَّع وقوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل النهي

(45/257)

وإبطالِ سببيةِ ما اتخذوه سبباً لمباشرة المنهيِّ عنه وضمانٌ منه تعالى لأرزاقهم أي نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تخافوا الفقرَ بناءً على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ الآية ، إلا أنه جيء هاهنا بصيغة الجمعِ قصداً إلى النهي عن أنواعها ولذلك أُبدل عنها قولُه تعالى : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي ما يُفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأبُ أراذِلهم وما يفعل سراً باتخاذ الأخدانِ كما هو عادةُ أشرافِهم . وتعليقُ النهي بقُربانها إما للمبالغة في الزجر

عنها لقوة الدواعي إليها وإما لأن قربانَها داعٍ إلى مباشرتها ، وتوسيطُ النهي عنها بين النهي عن قتل الأولادِ والنهي عن القتلِ مطلقاً كما وقع في سورة بني إسرائيلَ باعتبار أنها مع كونها في نفسها جنايةً عظيمةً في حكم قتلِ الأولادِ فإن أولادَ الزنا في حكم الأموات وقد قال صلى الله عليه وسلم في حق العزلِ : " إن ذاك وأدٌ خفيٌّ " ومن هاهنا تبين أن حملَ الفواحشِ على الكبائر مطلقاً وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فُسِّر به ظاهِرُ الإثمِ وباطنُه فيما سلف من قبيل الفصلِ بين الشجر ولِحائِه .

(46/257)

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ أي حرم قتلَها بأن عصمَها بالإسلام أو بالعهد فيخرُج منها الحربيُّ وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناءٌ مفرّغٌ من أعم الأحوالِ أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حالَ ملابستِكم بالحق الذي هو أمرُ الشرعِ بقتلها ، وذلك بالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، وقتلِ النفسِ المعصومةِ ، أو من أعمِّ الأسباب أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحقِّ وهو ما ذكر ، أو من أعمِّ المصادر أي لا تقتُلوها قتلاً ما إلا قتلاً كائناً بالحق وهو القتلُ بأحد الأمور المذكورة ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من

التكاليف الخمسةِ ، وما في ذلك من معنى البُعد للإيذان بعلوّ طبقاتِها بين التكاليف الشرعية ، وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ وصاكم بِهِ ﴾ أي أمركم به ربكم أمراً مؤكداً خبرُه ، والجملة استئنافٌ جيء به تجديداً للعهد وتأكيداً لإيجاب المحافظةِ على ما كُلِّفوه ولما كانت الأمورُ المنهيُّ عنها مما تقضي بديهةُ العقول بقُبحها فُصّلت الآيةُ الكريمة بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تستعملون عقولَكم التي تعقِل نفوسَكم وتحبِسُها عن مباشرة القبائحِ المذكورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(47/257)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم بعد ما ظهر بطلان ما ادعوا أن يبين لهم من المحرمات ما يقتضي الحال بيانه على الأسلوب الحكيم إيذاناً بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات ، وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت فيما تقدم ، و(تعال) أمر من التعالي والأصل فيه أن يقوله من هو في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم واستعمل استعمال المقيد في المطلق مجازاً ، ويحتمل هنا كما قيل أن يكون على الأصل تعريضاً لهم بأنهم في حضيض الجهل ولو سمعوا ما يقال لهم ترقوا إلى ذروة العلم وقنة العز .

وقوله سبحانه : ﴿ اتل ﴾ جواب الأمر أي أن تأتوني أتل ، و(ما) في قوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ إما موصولة والعائد محذوف أي أقرأ الذي حرمه ربكم أي الآيات المشتملة عليه أو مصدرية أي تحريمه ، والمراد الآية الدالة عليه ، وهي في الاحتمالين في موضع نصب على المفعولية لأتل ، وجوز أن تكون استفهامية فهي في موضع نصب على المفعولية لحرم ، والجملة مفعول ﴿ اتل ﴾ لأن التلاوة ومن باب القول فيصح أن تعمل في الجملة بناءً على المذهب الكوفي من أنه تحكي الجملة بكل ما تضمن معنى القول وغيرهم يقدر في ذلك قائلاً ونحوه .

والمعنى هنا على الاستفهام تعالوا أقل لكم وأبين جواب أي شيء حرم ربكم ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق على كل حال بحرم ، وجوز أن يتعلق بأتل ورجح الأول بأنه أنسب بمقام الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة ، وهو السر في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ، ولا يضر في ذلك كون المتلو محرماً على الكل كما لا يخفى .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ أي من الإشراك أو شيئاً من الأشياء فشيئاً يحتمل المصدرية والمفعولية ؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في إعراب (أن لا) .

وبدأ سبحانه بأمر الشرك لأنه أعظم المحرمات وأكبر الكبائر ﴿ وبالوالدين ﴾ أي أحسنوا بهما ﴿ إحسانا ﴾ كاملاً لا إساءة معه .

وعن ابن عباس يريد البر بهما مع اللطف ولين الجانب فلا يغلظ لهما في الجواب ولا يحد النظر إليهما ولا يرفع صوته عليهما بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي سيده تذللاً لهما ، وثنى الله تعالى بهذا التكليف لأن نعمة الوالدين أعظم النعم على العبد بعد نعمة الله تعالى لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله عز وجل والمؤثر في الظاهر هو الأبوان .

وعقب سبحانه التكليف المتعلق بالوالدين بالتكليف المتعلق بالأولاد لكمال المناسبة فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ بالوأد ﴿ خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] من أجل فقر أو من خشيته كما في قوله سبحانه : ﴿ خَشْيَةَ إملاق ﴾ وقيل : الخطاب في كل آية لصنف وليس خطاباً واحداً فالمخاطب بقوله سبحانه : ﴿ مِّنْ إملاق ﴾ من ابتلي بالفقر وبقوله تعالى : ﴿ خَشْيَةَ إملاق ﴾ من لا فقر له ولكن يخشى وقوعه في المستقبل ، ولهذا قدم رزقهم ههنا في قوله عز وجل ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية فقيل : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء : 31] وهو كلام حسن .

وأياً ما كان فجملة ﴿ نَحْنُ ﴾ الخ استئناف مسوق لتعليل النهي وإبطال سببية ما اتخذوه سبباً لمباشرة المنهي عنه وضمان منه تعالى لإرزاقهم أي نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تقدموا على ما نهيتم عنه لذلك .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الفواحش ﴾ أي الزنا ، والجمع إما للمبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر عنه

أو للقصد إلى النهي عن الأنواع ولذا أبدل منها قوله سبحانه : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي ما يفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأب أراذلهم وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم ، وروي ذلك عن ابن عباس والضحاك والسدي ، وقيل : المراد بها المعاصي كلها .

(49/257)

وفي المراد بما ظهر منها وما بطن على هذا أقوال تقدمت الإشارة إليها واختار ذلك الإمام وجماعة ، ورجح بعض المحققين الأول بأنه الأوفق بنظم المتعاطفات ، ووجه توسيط هذا النهي عن النهي بين قتل الأولاد والنهي عن القتل مطلقاً عليه باعتبار أن الفواحش بهذا المعنى مع كونها في نفسها جناية عظيمة في حكم قتل الأولاد فإن أولاد الزنا في حكم الأموات .

وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال في حق العزل : "ذاك وأد خفي" وعلى القول الآخر لا يظهر وجه توسيط هذا العام بين أفراده ويكون توسيطه بين النهيين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ، وتعليق النهي بقربانها إما للمبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ أي حرم قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فيخرج الحربي ويدخل الذمّي ، فما روي عن ابن جبير من كون المراد بالنفس المذكورة النفس المؤمنة ليس في محله ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها ، وذلك كما ورد في الخبر " بالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان وقتل النفس المعصومة " أو من أعم الأسباب أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما في الخبر أو من أعم المصادر أي لا تقتلوها قتلاً إلا قتلاً كائناً بالحق وهو القتل بأحد المذكورات .

﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من التكاليف الخمسة الجليلة الشأن من بين التكاليف الشرعية ﴿ وصاكم بِهِ ﴾ أي طلبه منكم طلباً مؤكداً .

والجملة الاسمية استئناف جيء به تجديداً للعهد وتأكيداً لإيجاب المحافظة على ما كلفوه .

وقال الإمام : "جيء بها لتقريب القبول إلى القلب لما فيها من اللطف والرحمة" ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المحرمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(50/257)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من إبطال تحريم ما ادّعوا تحريمه من لحوم الأنعام ، إلى دعوتهم لمعرفة المحرّمات ، التي علمُها حقّ وهو أحقّ بأنْ يعلموه ممّا اختلقوا من افترائهم وموّهوا بجدلهم .

والمناسبة لهذا الانتقال ظاهرة فالمقام مقامُ تعليم وإرشاد ، ولذلك ابتدىء بأمر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بفعل القول استرعاء للأسماع كما تقدّم آنفاً .

وعُقّب بفعل : ﴿ تعالوا ﴾ اهتماماً بالغرض المنتقل إليه بأنَّه أجدى عليهم من تلك السّفاسف التي اهتمّوا بها وهذا على أسلوب قوله تعالى : ﴿ ليس البِرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [البقرة : 177] الآيات .

وقوله : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كَمَنْ آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 19] الآية ، ليعلموا البون بين ما يَدعون إليه قومهم وبين ما يدعوهم إليه الإسلام ، من جلائل الأعمال ، فيعلموا أنَّهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم .

وافتتاحه بطلب الحضور دليل على أنّ الخطاب للمشركين الذين كانوا في إعراض .

وقد تلا عليهم أحكاماً قد كانوا جارين على خلافها ممّا أفسد حالهم في جاهليتهم ، وفي ذلك تسجيل عليهم بسوء أعمالهم ممّا يؤخذ من النّهي عنها والأمر بضدّها .

وقد انقسمت الأحكام التي تضمّنتها هذه الجمل المتعاطفة في الآيات الثّلاث المفتتحة بقوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل : أحكام بها إصلاح الحالة الاجتماعية العامّة بين النّاس وهو ما افتتح بقوله : ﴿ ألاَّ تشركوا به شيئاً ﴾ .

الثّاني : ما به حفظ نظام تعامل النّاس بعضِهم مع بعض وهو المفتتح بقوله : ﴿ ولا تَقْرَبوا مال اليتيم ﴾ [الأنعام : 152] .

(51/257)

الثّالث : أصل كلي جامع لجميع الهدى وهو اتّباع طريق الإسلام والتّحرّز من الخروج عنه إلى سبل الضّلال وهو المفتتح بقوله : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] .

وقد ذيّل كلّ قسم من هذه الأقسام بالوصاية به بقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ ثلاث مرّات .

و(تعالَ) فعل أمر ، أصله يُؤْمر به من يراد صعوده إلى مكان مرتفع فوق مكانه ، ولعلّ ذلك لأَنَّهم كانوا إذا نَادوا إلى أمر مهمّ ارتقَى المنادي على ربوة ليُسمَع صوته ، ثمّ شاع إطلاق (

تَعالَ) على طلب المجيء مجازاً بعلاقة الإطلاق فهو مجاز شائع صار حقيقة عرفية ، فأصله فعل أمر لا محالة من التعالي وهو تكلّف الاعتلاء ثمّ نقل إلى طلب الإقبال مطلقاً ، فقيل : هو اسم فعلِ أمر بمعنى (اقدَمْ) ، لأنَّهم وجدوه غير متصرّف في الكلام إذ لا يقال : تعاليتُ بمعنى (قَدِمت) ، ولا تعالَى إليّ فلان بمعنى جاء ، وأيّاً ما كان فقد لزمته علامات مناسبة لحال المخاطب به فيقال : تعالوا وتَعالَيْن .

وبذلك رجَّح جمهور النّحاة أنَّه فعل أمر وليس باسْمِ فِعل ، ولأنَّه لو كان اسم فعل لما لحقتْه العلامات ، ولكان مثل : هَلُمّ وهَيْهات .

و﴿ أتْلُ ﴾ جواب ﴿ تعالوا ﴾ ، والتّلاوة القراءة ، والسّردُ وحكاية اللّفظ ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ [البقرة : 102] .

و﴿ ألاَّ تشركوا ﴾ تفسير للتّلاوة لأنَّها في معنى القول .

وذُكرَت فيما حرّم الله عليهم أشياءُ ليست من قبيل اللّحوم إشارة إلى أنّ الاهتمام بالمحرّمات الفواحش أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة ، تعريضاً بصرف المشركين همّتهم إلى بيان الأطعمة وتضييعهم تزكية نفوسهم وكفّ المفاسد عن النّاس ، ونظيره قوله : ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده إلى قوله إنَّما حرم ربِّي الفواحش ما ظهر منها ﴾ [الأعراف : 32 ، 33] الآية .

وقد ذُكرت المحرّمات : بعضها بصيغة النّهي ، وبعضها بصيغة الأمر الصّريح أو المؤوّل ، لأنّ الأمر بالشّيء يقتضي النّهي عن ضدّه ، ونكتة الاختلاف في صيغة الطّلب لها ته المعدودات سنبيّنها .

و﴿ أنْ ﴾ تفسيرية لفعل : ﴿ أتل ﴾ لأنّ التّلاوة فيها معنى القول .

فجملة : ﴿ ألا تشركوا ﴾ في موقع عطف بيان .

والابتداء بالنّهي عن الإشراك لأنّ إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل ، والفلاح في الآجل .

وقوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ عطف على جملة : ﴿ ألاَّ تشركوا ﴾ .

و﴿ إحسانا ﴾ مصدر ناب مناب فعله ، أي وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، وهو أمر بالإحسان إليهما فيفيد النّهي عن ضدّه : وهو الإساءة إلى الوالدين ، وبذلك الاعتبار وقع هنا في عداد ما حَرّم الله لأنّ المحرّم هو الإساءة للوالدين .

وإنَّما عدل عن النّهي عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان اعتناء بالوالدين ، لأن الله أراد برهما ، والبرّ إحسان ، والأمرُ به يتضمّن النَّهي عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الخطاب ، وقد كان كثير من العرب في جاهليتهم أهل جلافة ، فكان الأولاد لا يوقّرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر .

فلذلك كثرت وصاية القرآن بالإحسان بالوالدين .

وقوله : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ جملة عطفت على الجملة قبلها أريد به النّهي عن الوأد ، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى في هذه السّورة (137) : ﴿ وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ و(مِنْ) تعليلية ، وأصلها الابتدائيّة فجعل المعلول كأَنَّه مبتدىء من علّته .

والإملاق : الفقر ، وكونه علّة لقتل الأولاد يقع على وجهين : أن يكون حاصلاً بالفعل ، وهو المراد هنا ، وهو الذي تقتضيه (من) التّعليلية ، وأن يكون متوقَّع الحصول كما قال تعالى ، في آية سورة الإسراء (31) : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ لأَنَّهم كانوا يئدون بناتهم إمّا للعجز عن القيام بهنّ وإمَّا لتوقّع ذلك .

(53/257)

قال إسحاق بن خلف ، وهو إسلامي قديم:

إذَا تذكرتُ بنتي حين تندبني . . .

فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم

أحاذر الفقر يوماً أن يُلِمّ بها . . .

فيُكشفَ السترُ عن لحم على وضم

وقد تقدّم عند قوله تعالى : وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ في هذه السورة (137) .

وجملة : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ معترضة ، مستأنفة ، علّة للنّهي عن قتلهم ، إبطالاً لمعذرتهم : لأنّ الفقر قد جعلوه عذراً لقتل الأولاد ، ومع كون الفقر لا يصلح أن يكون داعياً لقتل النّفس ، فقد بيّن الله أنَّه لمّا خَلق الأولاد فقد قدّر رزقهم ، فمن الحماقة أن يظنّ الأب أنّ عجزه عن رزقهم يخوّله قتلهم ، وكان الأجدر به أن يكتسِبَ لهم .

وعُدل عن طريق الغيبة الذي جرى عليه الكلام من قوله : ﴿ ما حرم ربكم ﴾ إلى طريق التكلّم بضمير : نرزقكم تذكيراً بالذي أمر بهذا القول كلّه ، حتى كأنّ الله أقحمَ كلامَه بنفسه في أثناء كلام رسوله الّذي أمره به ، فكلّم النّاس بنفسه ، وتأكيداً لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم

وذكَرَ الله رزقهم مع رزق آبائهم ، وقدم رزق الآباء للإشارة إلى أنَّه كما رزق الآباء ، فلم يموتوا جوعاً ، كذلك يرزق الأبناء ، على أن الفقر إنَّما اعترى الآباء فلِمَ يُقتل لأجله الأبناء .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي .

هنا لإفادة الاختصاص : أي نحن نرزقكم وإيَّاهم لا أنتم ترزقون أنفسكم ولا ترزقون أبناءكم .

وقد بيّنتُ آنفاً أنّ قبائل كثيرة كانت تئد البنات .

فلذلك حذروا في هذه الآية .

وجملة : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ عطف على ما قبله .

(54/257)

وهو نهي عن اقتراف الآثام ، وقد نهى عن القرب منها ، وهو أبلغ في التّحذير من النّهي عن ملابستها : لأنّ القرب من الشّيء مظنّة الوقوع فيه ، ولمّا لم يكن للإثم قرب وبعد كان القرب مراداً به الكناية عن ملابسة الإثم أقلّ ملابسة ، لأَنَّه من المتعارف أن يقال ذلك في الأمور المستقرة في الأمكنة إذا قيل لا تقرب منها فُهم النّهي عن القرب منها ليكون النّهي عن ملابستها بالأحرى ، فلمّا تعذّر المعنى المطابقي هنا تعيّنت إرادة المعنى الالتزامي بأبلغ وجه .

والفواحش : الآثام الكبيرة ، وهي المشتملة على مفاسد ، وتقدّم بيانها عند قوله تعالى : ﴿ إنَّما يأمركم بالسّوء والفحشاء ﴾ في سورة البقرة (169) .

وما ظهر منها ﴾ ما يظهرونه ولا يسْتَخْفُون به ، مثل الغضب والقذف .

﴿ وما بطن ﴾ ما يستخْفون به وأكثره الزّنا والسّرقة وكانا فاشيين في العرب .

ومن المفسّرين من فسّر الفواحش بالزّنا ، وجعل ما ظهر منها ما يفعله سفهاؤهم في الحوانيت وديار البغايا ، وبما بطَن اتَّخاذ الأخدان سِرّاً ، وروي هذا عن السُدّي .

وروي عن الضحّاك وابن عبّاس : كان أهل الجاهليّة يرون الزّنا سِراً حلالاً ، ويستقبحونه في العلانية ، فحرّم الله الزّنى في السرّ والعلانية .

وعندي أن صيغة الجمع في الفواحش ترجح التّفسير الأوّل كقوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ [النجم : 32] .

ولعلّ الذي حمل هؤلاء على تفسير الفواحش بالزّنى قوله في سورة الإسراء (32) في آيات عَدَّدت منهيات كثيرة تشابه آيات هذه السورة وهي قوله : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ وليس يلزم أن يكون المراد بالآيات المتماثلة واحداً .

وتقدّم القول في : ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ في هذه السّورة (120 .

(55/257)

(وأعقب ذلك بالنّهي عن قتل النّفس ، وهو من الفواحش على تفسيرها بالأعمّ ، تخصيصاً له بالذّكر : لأنَّه فساد عظيم ، ولأنّه كان متفشياً بين العرب .

والتّعريف في النّفس تعريف الجنس ، فيفيد الاستغراق .

ووصفت بالتي حَرّم الله ﴾ تأكيداً للتّحريم بأنّه تحريم قديم فإنّ الله حرّم قتل النّفس من عهد آدم ، وتعليق التّحريم بالنّفس : هو على وجه دلالة الاقتضاء ، أي حرّم الله قتلها على ما هو المعروف في تعليق التّحريم والتّحليل بأعيان الذّوات أنّه يراد تعليقه بالمعنى الذي تستعمل تلك الذّات فيه كقوله : ﴿ أحلّت لكم بهيمة الأنعام ﴾ [المائدة : 1] أي ، أكلها ، ويجوز أن يكون معنى : ﴿ حرم الله ﴾ جعلها الله حَرَماً أي شيئاً محترماً لا يعتدى عليه ، كقوله تعالى : ﴿ إنّما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذي حرمها ﴾ [النمل : 91] .

وفي الحديث : " وإنّي أحَرّم ما بين لابَتَيْها " .

وقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ استثناء مفرّغ من عموم أحوال ملابسة القتل ، أي لا تقتلوها في أيّة حالة أو بأي سبب تنتحلونه إلاّ بسبب الحقّ ، فالباء للملابسة أو السببيّة .

والحقّ ضدّ الباطل ، وهو الأمر الذي حَقّ ، أي ثبت أنّه غير باطل في حكم الشّريعة وعند أهل العقول السّليمة البريئة من هوى أو شهوة خاصّة ، فيكونُ الأمرَ الذي اتّفقت العقول على قبوله ، وهو ما اتّفقت عليه الشّرائع ، أو الذي اصطلح أهل نزعة خاصّة على أنّه يحقّ وقوعه وهو ما اصطلحت عليه شريعة خاصّة بأمّة أو زمن .

فالتّعريف في : ﴿ الحق ﴾ للجنس ، والمراد به ما يتحقّق فيه ماهية الحقّ المتقدّم شرحها ، وحيثما أطلق في الإسلام فالمراد به ماهيته في نظر الإسلام ، وقد فصّل الإسلام حقّ قتل النّفس بالقرآن والسنّة ، وهو قتل المحارب والقصاص ، وهذان بنصّ القرآن ، وقتل المرتدّ عن الإسلام بعد استتابَته ، وقتل الزّاني المحصن ، وقتل الممتنع من أداء الصّلاة بعد إنظاره حتّى يخرج وقتها ، وهذه الثّلاثة وردت بها أحاديث عن النّبيء صلى الله عليه وسلم ومنه القتل الناشىء عن إكراه ودفاعٍ مأذونٍ فيه شرعاً وذلك قتل من يُقتل من البغاة وهو بنصّ القرآن ، وقتل من يقتل من مانعي الزّكاة وهو بإجماع الصّحابة ، وأمّا الجهاد فغير داخل في قوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ ، ولكنّ قتل الأسير في الجهاد إذا كان لمصلحة كان حقّاً ، وقد فصلنا الكلام على نظير هذه الآية في سورة الإسراء .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ إلى مجموع ما ذكر ، ولذلك أفرد اسم الإشارة باعتبار المذكور ، ولو أتى بإشارة الجمع لكان ذلك فصيحاً ، ومنه : ﴿ كل أولئك كان عنه مسؤلاً ﴾ [الإسراء : 36] .

وتقدّم معنى الوصاية عند قوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا ﴾ [الأنعام : 144] آنفاً .

وقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ رجاء أن يعقلوا ، أي يصيروا ذوي عقول لأنّ ملابسة بعض

هذه المحرّمات ينبىء عن خساسة عقل ، بحيث ينزّل ملابسوها منزلة من لا يعقل ، فلذلك رُجي أن يعقلوا .

وقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ تذييل جعل نهاية للآية ، فأوماً إلى تنهية نوع من المحرّمات وهو المحرّمات الرّاجع تحريمها إلى إصلاح الحالة الاجتماعيّة للأمّة ، بإصلاح الاعتقاد ، وحفظ نظام العائلة والانكفاف عن المفاسد ، وحفظ النّوع بترك التّقاتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(57/257)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ من الأوثان : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ أي : وأحسنوا بالوالدين إحساناً . قال الحاكم : والإحسان ما يخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان 15] .

ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ، ذكر في المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده . بل هو عينه عند البعض . كأن

الأوامر ذكرت وقُصِدَ لوازمها ، ومن سر ذلك هنا -أعني وضع : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ موضع (النهي عن الإساءة إليهما) -المبالغة والدلالة عن أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف في قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرهما ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ﴾ أي : من أجل فقر ، ومن خشيته . والمراد بالقتل : وأد البنات وهن أحياء ، وكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لأن رزق العبيد على مولاهم : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ يعني : الزنى لقوله : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء 32] وإنما جيء بصيغة الجميع قصداً إلى النهي عن أنواعه أو مبالغة باعتبار تعدد من يصدر منه : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ يعني : علانيته وسره : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي : قتلها لأيمانها أو أمانها : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل ، يعني بالقَوَد والرجْم والارتداد : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ تلطفاً ورأفة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني : لتعقلوا عظمها عند الله تعالى فتكفوا عن مباشرتها .

(58/257)

قال المهايمي : فالشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد للفقر ، منشؤه الجهل بما في الشرك من استهانة المنعم بالإيجاد ، وبما في الإساءة إلى الأبوين من مقابلة الإحسان بالإساءة ، وقربان

الفواحش من متابعة الهوى ، والقتل من متابعة الغضب ؛ وكلها أضداد العقل .

تنبيه :

قال بعض (الزيدية) : قوله تعالى : ﴿ مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ خرج على العادة . وإلا فهو محرم ، خشي الفقر أم لا . وقد دلت على تحريم قتل الأولاد .

قال الحاكم : فيدخل في ذلك شرب الدواء لقتل الجنين . قال الإمام يحيى : إذا نفخ فيه الروح دون إفساد النطفة والعلقة والمضغة قبل أن ينفخ فيها الروح . وفي " الأحكام " يجب على من انقطع حيضها أن توقى من الأدوية ما يخاف على الجنين منها ، إذا كانت من ذوات البعول . وفي قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ تأكيد للزوم ما تقدم . انتهى .

لطيفة :

(59/257)

قال القاشاني : لما كان الكلام مع المشركين في تحريم الطيبات ، عدّد المحرمات ليستدل بها على المحللات . فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهي عن أجناس الرذائل . وابتدأ بالنهي عن رذيلة القوة النطقية التي هي أشرفها . فإن رذيلتها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل . بخلاف رذيلة أخويها من القوتين البهيمية السبعية . فقال : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ إذ

الشرك من خطئها في النظر ، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان . وعقبه بإحسان الوالدين . إذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة الله في الإيجاد والربوبية . لأنهما سببان قريبان في الوجود والتربية . وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتي إيجاده وربوبيته ولهذا قال : (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فعقوقهما يلي الشرك ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته . ثم بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر . فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق . وأن أرزاق العباد بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . والاحتجاب عن سر القدر ، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجال . فأولاها لا تقع إلا من خطئها في معرفة ذات الله تعالى . والثانية من خطئها في معرفة صفاته . والثالثة من معرفة أفعاله . فلا يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن نذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛ وهذه الحجب أُمُّ الرذائل وأساسها . ثم بيّن رذيلة القوة البهيمية لأن رذيلتها أظهر وأقدم فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ ، ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ ﴾ . الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 546. 548 ﴾

(60/257)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

ننظر في هذه الآية فلا نجد شيئًا من المحرمات من الأطعمة التي بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها محرمات التي إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التي هي مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآني هنا يأخذ لفظ " تعال " بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكأن الحق يقول : أقبل علي إقبال من يريد التعالي في تلقي الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلوا وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب في المشرع ألا يكون مساويا لمن شرع له ، وألا يكون منتفعا ببعض ما شرع ، وأن يكون مستوعبا فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الرأسمالي – مثلا – يشرع ليستفيد ، والماركسي يشرع ليستفيد . وكل واحد يشرع وفي نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفي ولا تغطي أمور الحياة ، فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر في قانونه فلم يجد شيئًا يغطي هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون اي أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط في المقنن ألا يكون مساويا للمقنن له ، وألا تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يستدرك عليه ، وألا يكون منتفعا بالتشريع ، ولا يوجد ذلك في بشر أبدا ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشري وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادي الله " تعالوا " فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيانكم التي تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى ان يشرع لكم . ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ [الأنعام : 151]

" أتل " من التلاوة وهي القراءة ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ اي ما جعله حراما . . أي يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغا بعد بلاغ . ﴿ ألا تشركوا به شيئا ﴾ [الأنعام : 151]

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوي يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأنت ساعة تأتي لتلقى أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ في التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئا . أي

أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحد الله ، فكل نهى عن شيء أمر بمقابله وكل أمر بشيء نهى عن مقابله .

وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيا ، وكل نهي يستلزم أمرا . فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهي . أو تكون " عليكم " منطقعة عما قبلها ، أي عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألا تقتلوا أولادكم ، وألا تقربوا الفواحش . . أي ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أي لا تعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله . ثم يقول سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . . ﴾ [الأنعام : 151]

(62/257)

أي استبقوا حياة أولادكم ، فإن أدرتها من قبيل النهي فقل هو نهي عن قتل الأولاد ، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقول : ﴿ من إملاق ﴾ أي من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، وما دام الإملاق موجودا فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتي بعده ؛ في أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتي زيادة وهم

الأولاد . ويقول سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . ﴾ [الأنعام : 151]

وهذا نهي عن القرب ، أي نهي عن الملابسات التي قد تؤدي إلى الفعل لا نهي عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة . . . ﴾ [الأعراف : 19]

لأن القرب قد يغري بالأكل ، وكذلك : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ أي لا تأتي إلى مقدمات الفواحش بأن تلقي نظرة أو تحدق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التي تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " .

ويمنعك الحق : ألا تقرب ، أي أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل " اجتنب " تماما ، وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان . . ﴾ [الحج : 30] ويقول : ﴿ . . . واجتنبوا قول الزور ﴾ [الحج : 30] وهنا يقول تعالى : ﴿

ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التي ترتكب الموبقات و﴿ وما بطن ﴾ هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

(63/257)

ويتابع سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . . ﴾ [الأنعام : 151]

وكلمة " النفس " يختلف الناس في معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح في ذاتها خيرة ، والمادة في ذاتها خيرة مسبحة عابدة .

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده . . . ﴾ [الإسراء : 44]

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذي يميت النفس ، أما الإنسان به في الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذي وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصا ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلا أو امرأة ، أو للردة ، فهذا قتل بحق ، لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدي عليه

. ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنسانا ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنه ينجو بنفسه ويسلم .

(64/257)

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيب ، والثيب الزاني يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص عى حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلي لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضي أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمي بالاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، وما دام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضا ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث في الأدلة فسيقتنع بأن له إلها حقا ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلي .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم

ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفي الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففي أي عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية . وفي الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضا هي : " أنت طالق " ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا في يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها : اسمعي ، إن لك أن تختاري الزوج الذي إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأن بكلمة منه تنتهي الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر في الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

(65/257)

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن في الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرصيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة " زوجتك نفسي أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج " . لكن في الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هو من غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ،

ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجا لك فلا يتم ذلك إلا أن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود أو تبقى مع من تزوجها . فاحتط جيدا للأمر الذي تدخل عليه ، وللتعاقد الذي التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن في تعاقد الزواج ، فما بالنا بالردة ؟ إننا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول في حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل وهكذا يصعب الإسلام الدخول إليه ، ويحمي الاختيار في الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ [الأنعام : 151]

و" الوصية " لا تكون إلا للأمور المهمة التي لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها في أمهات المسائل التي لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاما يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء في حجة الوداع وركز كل مبادئ الدين في قوله تعالى : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

و " وصاكم " غير شرع ؛ فشرع تأتي بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل في التشريع . والعقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك في كل منهي عنه ، أو في كل مأمور به في الآية فستجد التعقيل يعطيك التوازن في القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التي ذكرها في هذه الآية ب ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ . وهذه الأوامر متفق عليها في جميع الرسالات وفي جميع الأديان ، ويسمونها : " الوصايا العشر " .

والأشياء الخمسة التي أوصى بها سبحانه هي :

* ألا تشركوا به شيئًا .

* وبالوالدين إحسانا .

* ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .

* ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

* ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿ وصاكم به ﴾ ، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها في : التزام ما أمر الله به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ فكأن العقل لو خلي ليبحث هذه الأشياء بحثا

مستقلا عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

(67/257)

إذن ، كيف نعصم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض ؟ . لابد أن يكون الإله واحدا حتى لا يتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل في الإنسان هو الأب والأم . لذلك وصى بالأصل في ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبدا ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : ما ظهر منها وما بطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يهملون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال في الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوبا عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة . ثم يجيء الحق بعد ذلك في الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(68/257)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم " ، وفى سورة بنى إسرائيل [الإسراء] : "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم " ، ففى الأولى "من إملاق "و "نرزقكم " بتقديم ضمير المخاطبين فللسائل أن يسأل عن وجه هذا الاختلاف فى الآيتين مع اتحاد المقصد فيهما ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم أن المخاطبين بآية الأنعام إنما كان فعلهم ذلك من أجل الفقر الحاصل حال قتلهم فقيل من إملاق أى من أجل الاملاق الحاصل ثم قيل لهم "نحن نرزقكم وإياهم "فقد رزقه تعالى لهم لحصول فقرهم فى الحال ليكون أمنع لهم وكأن السياق يشعر بتشفيع الأولاد فى رفع فقر الآباء القاتلين فكأن قد قيل لهم : إنما ترزقزن بهم فلا تقتلوهم ، فتأكد تقديم كفار العرب وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلا فقيل "خشية إملاق " فجعلت الخشية هى العلية فى فعلهم ، فانتصبت على ذلك ، والمعلول الذى هو الإملاق لم يقع بعد وضمن تعالى لهم رزقهم ورزق أولادهم ودفع ذلك المتوقع ليرفع ذلك خشيتهم ، فلهذا قدم هنا ضمير الأولاد ثم عطف عليه ضمير

الآباء .

وكان الأهم هنا فقدم ، وجاء كل فى الموضعين على ما يجب ويناسب ، والله أعلم .

فائدة :

قوله تعالى : "ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون " ، تلوها : "ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون " وفى الثالثة تليها : "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف فى المعلل به فى هذه الآيات ؟

(69/257)

والجواب عن ذلك والله أعلم : أنه لما كانت الخلل الخمس فى الآية الأولى وهى : الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، خمستها مما يدرك العقل ابتداء قبحها ، ويستقل بدركها أعنى أن العقل يستوضح قبحها شرعا لبيان أمرها فى استقباح الشرع إياها ، وإلا فالعقل عندنا لا يحسن ولا يقبح .

فلما كانت على ما ذكرنا أتبعت بترجى التعقل لأن السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق الله تعالى ولذلك جاءت بأداة الترجى .

ولما كانت الخمس التالية لها وهى قوله : "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن " إلى

آخرها مما تؤثر فيه الشهوات والأهواء وذلك مما يعمى ويصم أتبع برجاء التذكر فقيل : "لعلكم تذكرون " ومن تذكر أبصر فعقل فامتنع ، قال تعالى : "إن الذين اتقوا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون " ، ولما كان مجموع هذه المرتكبات العشر مما اتفقت عليه الشرائع ولم ينسخ منها شئ وهى الحكمة التى من أخذ بها كان سالكا الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمت واتخذ أسنى وقاية من عذاب الله قال تعالى : "وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه " والأمر عام لكافة الخلق ثم قال سبحانه وتعالى : "ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " أتبعه بقوله : "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " وترتب حاصلا من مضمن الآيات الثلاث أنه من عقل وتذكر اتقى والمتقون هم المفلحون فسبحان من هذا كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 172.174 ﴾ . بتصرف يسير .

(70/257)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

هذه الآية تدل على أن هذا الذي يتلوه عليهم حرّمه ربهم عليهم فيوهم أنّ معنى قوله: ﴿ أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ أن الإحسان بالوالدين وعدم الشرك حرام والواقع خلاف ذلك كما هو ضروري وفي هذه الآية الكريمة كلام كثير للعلماء وبحوث ومناقشات كثيرة لا تتسع هذه العجالة لاستيعابها منها: أنها صلة كما يأتي، ومنها: أنها بمعنى أبينه لكم لئلا تشركوا ومن أطاع الشيطان مستحلا فهو مشرك بدليل قوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾، ومنها – أن الكلام تمّ عند قوله: ﴿ حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ وأنّ قوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُوا ﴾: اسم فعل يتعلق بما بعده على أنه معموله.

منها غير ذلك.

وأقرب تلك الوجوه عندنا هو ما دل عليه القرآن لأن خير ما يفسر به القرآن القرآن, وذلك هو أن قوله تعالى: ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ مضمن معنى ما وصاكم ربكم تركا وفعلا, وإنما قلنا إن القرآن دل على هذا لأن الله رفع هذا الإشكال وبين مراده بقوله: ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيكون المعنى: وصاكم ألا تشركوا ونظيره من كلام العرب قول الراجز:

حج وأوصى بسليمى إلا عبدا

أن لا ترى ولا تكلم أحدا

ومن أقرب الوجوه بعد هذا وجهان:

الأول: أن المعنى: يبينه لكم لئلا تشركوا .

الثاني: إن (أن) من قوله: ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا ﴾ مفسرة للتحريم والقدح فيه بأن قوله: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ معطوف عليه وعطفه عليه ينافي التفسير مدفوع بعدم تعيين العطف لاحتمال حذف حرف الجر فيكون المعنى: ولأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه كما ذهب إليه بعضهم ولكن القول الأول هو الصحيح إن شاء الله تعالى وعليه فلا إشكال في الآية أصلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 129 . 130 ﴾

(71/257)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قال الزَّمَخْشَرِي : " تعالى " من الخَاصِّ الذي صار عَامّاً ، وأصله أن يقوله من ان في مكانٍ عالٍ لِمَن هو أسْفل منه ، ثم كَثُر وَعمَّ .

قال القرطبي : " وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ أي : تقدَّمُوا واقْرَءُوا حقّاً يقيناً ، كما أوْحَى إليَّ رَبِّي ، لا ظنّاً ولا كَذِباً كما زعمتم ، ثم بيَّن بعد ذلك فقال : ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ ، يقال للرّجُل : تعالى : أي : تقدّم : ويقال للمرأة : تعالي ،

ويقال للاثْنَيْن والاثْنَيْن : تَعَالَيَا ، ولجماعة الرِّجَال : تعالَوْا ، ولجماعة النِّسَاء : تَعَالَيْن ؛ قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [الأحزاب : 28] .

وجعلوا التَّقَدُّم ضرباً من التَّعَالِي والارتفاع ؛ لأنَّ المأمُور بالتقدّم في أصل وضْعِ هذا الفِعْل ، كأنه كان قَاعِداً فقيل له تَعَالَ ، يا : رافع شخْصَك بالقِيَام وتقدم ؛ ثم اتَّسَعُوا فيه حتى جَعَلُوه للوَاقِفِ والمَاشي ؛ قال الشَّجَريّ .

قوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ في [" ما "] هذه ثلاثة أوجُه :

أظهرها : أنها مَوْصُولةٌ بمعنى " الَّذِي " والعَائِد مَحْذُوفٌ ، أي : الذي حَرَّمَه ، والموْصُول في محلِّ نصْبٍ مَفْعُولاً به .

الثاني : أن تكون مَصْدَرِيَّة ، أي : أتْل تَحْرِيم ربِّكُم ، ونفس التَّحْرِيم لا يُتْلَى ، وإنما هو مَصْدرٌ واقعٌ موقع المَفْعُول به ، أي : أتل مُحَرَّمَ ربِّكم الذي حرَّمه هو .

والثالث : أنها استِفْهَامِيَّة ، في محلِّ نَصْبٍ بـ " حَرَّم " بعدها ، وهي مُعَلقة لـ " أتْلُ والتَّقْدير : أتْل أيَّ شَيْءٍ حَرّم ربكم ، وهذا ضعيف ؛ لأنَّه لا تُعَلَّقُ إلاَّ أفْعَال القُلُوب وما حُمِل عليها .

و " عليكم " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مُتَعَلِّق بـ " حَرَّم " ؛ اختِيَار البَصْرِيِّين .

والثاني : أنه متعلِّق بـ " اتْلُ " ؛ وهو اختيار الكُوفيِّين ، يعني : أن المسألة من باب الإعْمَال ، وقد عَرَفْت ان اختيرا البَصْرِيِّين إعمال الثَّاني واختيار الكوفيين إعْمَال الأوَّل .

قوله : " ألاَّ تُشْرِكُوا " فيه أوجُه :

أحدهما : أنَّ " أنْ " تفسيرية ؛ لأنَّه تَقَدَّمَها مَا هُو بمعنى القَوْل لا حُرُوفه ، و " لا " هي نَاهِيَة ، و " تُشْرِكُوا " مجزوم بها ، وهذا وَجْهٌ ظاهرٌ ، وهو اختيار الفراء قال : " ويجُوز أن يكون مَجْزوماً بـ " لاَ " على النَّهْي ؛ كقولك : " أمَرْتُك ألا تذْهب إلى زَيْد " بالنَّصْب والجزم " .

ثم قال : والجَزْم في هذه الآية الكريمة أحبُّ إليَّ ؛ كقوله – تبارك وتعالى – ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ [الأعراف : 85] يعني : عَطْف هذه الجُمْلَة الأمْرِيَّة يُقَوِّي ما قَبَلَها نَهْي ؛ ليتناسَبَ طَرفاً الكلام .

وهو اخْتِيَار الزَّمَخْشَري أيضاً ؛ فإنه قال : " وأنْ في " ألاَّ تُشْرِكُوا " مفسِّرة ، " لا " للنَّهي " ثم قال بَعْد كلام : " فإن قُلْتَ : إذا جَعَلت " أن " مُفَسِّرة لفعل التِّلاوة ، وهو مُعَلَّق بما حَرَّم ربُّكم ، وجب أن يكُون ما بَعْدَه مَنْهِيَّا عنه محرّماً كُلُّهُ ؛ كالشرك وما بَعْدَه مما دَخَل عليه حَرْف النَّهْي [فما تصنع] بالأوَامِر ؟ " .

قال شهاب الدِّين : " لَمَّا وَرَدَت هذه الأوَامِر مع النَّواهي ، وتقدمَهُنَّ جميعاً فعل التَّحْرِيم ، واشتركْنَ في الدُّخُول تحت حُكْمه ، عُلِم أن التَّحْرِيم راجعٌ إلى أضْدَادِها ، وبه الإسَاءة إلى

الوَالدَيْن ، وبَخْسُ الكَيْل والمِيزَان ، وتَرْكُ العَدْل في القَوْل ، ونَكْثُ العَهْد " .

قال أبو حيَّان – رضي الله عنه – : " وكون هذه الأشْيَاء اشتركت في الدُّخُول تحت حكم التَّحْريم ، وكون التَّحْريم راجعاً إلى أضْدَاد الأوَامِر ؛ بعيدٌ جدّاً ، وإلغاز في التَّعَامِي ، ولا ضَرُورَة تدْعُو إلى ذلك " .

(73/257)

قال شهاب الدين : " ما اسَتْبْعَدَهُ ليس ببَعيد ، وأين الإلغَاء والتَّعَمّي من هذا الكلامِ حتى يَرْمِيه به " .

قال ابن الخَطِيب : فإن قيل : قوله : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَانا ﴾ كالتَّفْصِيلِ لما أجمله في قوله : – تبارك وتعالى – : " ما حَرَّمَ " وذلك بَاطِلٌ ؛ لأن تَرْكَ الشِّرْك والإحْسَان بالوالِدين واجبٌ لا مُحَرَّم .

والجوبا من وجوه :

الأول : أن المُرَاد من التَّحْريم أن يَجْعَل له حريماً معيناً ، وذلك بأن بَيّنَه بَيَاناً مَضْبُوطاً معيَّناً ؛ فقوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه : أتْلُ عليكم ما بَيَّنَه بياناً شَافِياً ؛ بحيث يجعل له حَرِيماً مضبوطاً مُعَيَّناً ، وعلى هذا التَّقدير السُّؤال زائِلٌ .

الثاني : أن الكلام تمَّ وانْقَطع عند قوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ثم ابتدأ فقالك " عليكم ألا تشركوا " .

فإن قيل : فقوله : " وبالوالدين إحسانا " معطوف على قوله ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [فوجب أن يكون قوله : " بالوالدين إحساناً " مفسّراً لقوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾] فلزم أن يكون الإحسان بالوَالدَيْن حراماً ؛ وهو باطل .

قلنا لما أوجب الإحْسَان إليهما ، فقدَّم تحريم الإسَاءة إليها ، والله – تعالى أعْلَم .

ثم قال أبو حيَّان : وأمَّا عطف هَذِهِ الأوامِرِ فيحتمل وجهين :

أحدهما : أنها مَعْطُوفة لا على المَنَاهِي قبلها ، فيلزم انْسِحَاب التّحْرِيم عليها ؛ حيث كانت في حيّز " أنْ " التَّفْسِيرِيَّة ، بل هي معطُوفةٌ على قوله : ﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أمرهم أوّلاً بأمر يترتَّبُ عليه ذِكْرُ مَناهٍ ، ثم أمَرَهُم ثانياً بأوَامِر ؛ وهذا مَعْنَى وَاضِح .

(74/257)

والثاني : أن تكون الأوَامِر معْطُوفة على المَنَاهِي ، وداخلة تحت " أنْ " التَّفْسِيرِيَّة ، ويصِحُّ ذلك على تَقْدير محْذُوفٍ ، تكون " أنْ " مُفسِرة له وللمَنْطُوق قبله الذي دَلَّ على حَذْفِه ، والتَّقْدير : وما أمَرَكُم به ، فحذف وما أمَرَكُم به لدِلالةِ ما حرَّم عليه ؛ لأن مَعْنَى ما حرَّم

ربكم : ما نَهَاكُم ربُّكم عنه ، فالمعنى : تعالَوْا أتْل ما نَهَاكُم ربُّكم عنه وما أمَرَكُم به ، وإذا كان التَّقْدير هكذا ، صح أن تكُون " أن " تَفْسيريَّة لِفعْل النَّهْي ، الدَّال عليه التَّحريم وفِعْل الأمْر المَحْذُوف ، ألا ترى أنَّه يَجُوز أن تَقُول : أمرتُكَ ألا تكْرِم جَاهِلاً وأكرم عَالِماً " إذ يجوز أن يُعْطَف الأمْرُ على النَّهي والنَّهي على الأمر ؛ كما قال : [الطويل]

2380 - . . . . .

يَقُولُونَ لا تَهلِكْ أسى وتَجَمَّل

وهذا لا نَعْلَم فيه خلافاً ، بخلاف الجمل المُتَبايِنَة بالخَبَر والاستِفْهَام والإنْشَاء ؛ فإن في دواز العَطْف فيها خِلافاً انتهى .

الثاني : أن تكون " أنْ " نَاصِبَة للفعْل بعدها ، وهي وما في حَيِّزِهَا في محلِّ نَصْبٍ بدلاً من " مَا حَرَّم " .

الثالث : أنها النَّاصِبة أيضاً ، وهي وما في حَيِّزها بدلٌ من العَائِد المحذُوف ، إذا التَّقْدير : ما حَرَّمه ، وهلي في المَعْنى كالذي قَبْلَه .

و " لا " على هذهين الوَجْهَيْن زائدة ؛ لئلا يَفْسُد المعنى كزِيَادَتِها شفي قوله - تعالى - : ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] و ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ [الحديد : 29] والتَّقْدير : حرّم ربُّكُم عليككم أن تُشْرِكوا .

قال أبو حيَّان : " وهذا ضَعِيف ؛ لانحصار عُمُوم المحرَّم في الإشْرَاك ؛ إذ ما بعده من الأمْر ليس دَاخِلاً في المُحَرَّم ، ولا ما بعدها الأمر مما فيه لا يمكن ادّعَا زِيَادة " لا " فيه ؛ لظهور أنَّ " لاَ " فيه للنهْي " ، ولما مكّي كونها بَدَلاً من " مَا حَرَّم " [لم يُنَبّه على زيادة " لاَ " ولا بُدَّ منه . وقد مَنَع الزَّمَخْشَرِيُّ أن يكُون بدلاً من " مَا حَرَّمَ "] فقال : " فإن قُلْتَ : هلا قُلْت : فهي الَّتِي تَنْصِب الفْعْل ، وجعلت " ألاَّ تُشْرِكُوا " بدلاً من " ما حَرَّمَ " .

قلت : وجب أن يكُون : ألاَّ تُشْرِكُوا ، ولا " تَقْرَبوا " و " لا تقْتُلوا " و " لا تَتّبِعُوا السُّبُلَ نواهي ؛ لانعطاف الأوَامِر الأوَامِر عليها ، وهي قوله – تعالى – ﴿ وبالوالدين إحْسَاناً ﴾ ؛ لأن التقْدير : وأحْسِنُوا بالوالدين إحْسَاناً ، وأوْفُوا وإذا قلتم فاعدلوا ، وبعهد الله أوفوا . فإن قُلْت : فما تَصْنَع بقوله : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] فيمن قَرَأَ بالفَتْح ؛ وإنما يستقيم عَطْفُه على " ألاَّ تُشْرِكُوا " إذا جعلْت " أنْ " هي النَّاصِبَة ، حتى يكون المَعْنَى : أتْل عَلَيْكُم نَفْي الإشْرَاكِ ، وأتل عَلَيْكم أنَّ هذا صِرَاطِي مستَقيا ؟ قلت : أجْعَل قوله : " وأنَّ هَذَا صِراطِي مُسْتَقيماً " علَّةً للاتِّبَاع بتقدير اللام ؛ كقوله ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ [الجن : 18] بمعنى : واتَّبْعُوا صراطِي ، لأنَّه مسْتَقِيمٌ ، أو : واتّبِعُوا صِرَاطي أنَّه مُسْتَقيم " .

واعترض عليه أبو حيَّان بعد السُّؤال الأوّل وجوابه ، وهو : " فإن قلت : " هلاَّ قُلْت هي النَّاصِبَة " إلى : و" وبِعَهْد الله أوْفُوا " فقال : لا يَتَعَيّنُ أن تكُون جمِيع الأوَامِر معطُوفَة على ما دخل عليه " لا " لأنَّا بيَّنَّا جواز عَطْفِ " وبالوَالِدَيْن إحْسانا " على " تَعَالَوْا " وما بَعْدَه معطوف عليه ، ولا يكون قوله " " وبالوَالِدَيْن إحْسَاناً ط معطوفاً على " ألا تُشْرِكُوا " .

الرابع : أن تكون " أنْ " النَّاصِبة وما في حَيّزها مَنْصُوبة على الإغْرَاء بأ " عَلَيْكُم " ، ويكون الكلامُ الأوّل قد تمَّ عند قوله : " ربُّكُم " ، ثم ابْتَدأ فقال : عَلَيْكُم ألاَّ تُشْرِكوا ، أي : ألزَمُوا نفي الإشْراك وعدمه ، وإكان ذَكَرَه جماعةٌ كما نقله ابن الأنْبَاريّ – ضَعِيفٌ ؛ لتفك التركيب عن ظَاهِرِه ؛ ولأنه يَتَبَادَر إلى الذّهْن .

الخامس : أنها وما فِي حيّزها نَصْب أو جرّ على حَذْف لام العِلَّة ، والتقدير : أتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم لئَلا تُشْرِكُوا ، و[هذا] مَنْقُول عن أبي إسْحَاق ، إلا أن بَعْضَهم استَبْعَدَه من حَيْث إن ما بَعْدَه أمرٌ مَعْطُوف بالواو ، ومناهٍ معطوفة بالواو أيضاً ، فلا يُنَاسِب أن يكون تبييناً لما حرَّم ، أمَّا الأمْر فمن حيثُ المعنى ، وأمّا المناهِي فمن حيثُ العَطْف .

السادس : أن يكون هِي وما بَعْدَها في محلِّ نصب بإضمار فِعْل ، تقديره : أُوصِيكم ألاَّ

تُشْرِكُواح لأن قوله ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ محمولٌ على أوصِيكُم بالوَالدَيْن إحْسَاناً ، وها مذهب أبي إسْحَاق ايضاً .

(77/257)

السابع : أن يكون " أنْ " وما في حيّزها في مَوْضع رَفْع على أنها خَبَر مُبْتَدأ مَحْذُوف ، أي : المُحَرَمُ ألاَّ تُشْرِكُوا ، أو المَتْلُوُّ ألا تشركوا ، إلا أن التَّقْدِير بنحو المَتْلُو أحْسَن ؛ لأنه لا يُحْوِج إلى زِيَادة " لا " ، والتقدير بالمحَرَّم ألاَّ تشركوا ، يُحْوِج إلى زِيَادتِها لئلا يَفْسُد المَعْنَى .

الثامن : أنها في مَحَلِّ رفْع أيضاً على الأبتِدَاء ، والخبر الجَارُّ قبله ، والتقدير : عليْكُم عَدَمُ الإشراكِ ، ويكون الوَقْفُ على قوله : " ربُّكم " كما تقدَّم في وجْه الإغْراءِ ، هذا مذهب لأبي بَكْر بن الأنْبَاري ؛ فإنه قال : " ويجُوز ان يكُون في مَوْضِع [رفع] بـ " على] كما تقول : " كُتِبَ عليكم الصيَام والحَجُّ " .

التاسع : أن يكون في مَوْضِع رفع بالفَاعِليَّة بالجَارِّ قبلها ، وهو ظَاهِر قول ابن الأنْبارِيِّ المتقدِّم ، والتقدير : استَقَرَّ عليكم عَدَم الإشْراك .

وقد تحصَّلت في محلِّ " ألاَّ تُشْرِكُوا " على ثلاثة أوْجُه : الرَّفْع ، والنَّصْب ، والجرّ : فالجَرُّ من وجْه واحدٍ ، وهو أن يكُون على حَذْفِ حَرْف الجرِّ على مَذْهِب الخَلِيل والكسَائيّ ،

والرفع من ثلاثة أوْجُه ، والنَّصْبُ من سِتَّة أوْجُه ، فمجموع عَشَرة أوْجُه تقدم تَحْرِيرُها .

و" شيئاً " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مَفْعُول به .

والثاني : أنه مصدر ، أي : إشْرَاكاً ، أي : شَيْئاً من الإشْرَاكِ .

وقوله : ﴿ وبالوالدين إحْسَاناً ﴾ تقدم تَحْرِيره في البقرة [الآية 83] .

قوله – تعالى – ﴿ وبالوالدين إحْسَاناً ﴾ الإحْسَانُ إلى الوالِدَيْن : بِرُّهُما وحِفْظُهما ، وإمْتِثَال أمرهما ، وإزالة الرِّقِّ عَنْهُما ، و" إحْسَانَا " نصْب على المصْدر ، وناصِبُه فعل مُضْمَر من لَفْظِه ، تقديره : وأحْسِنُوا بالوالدَيْن إحْسَاناً .

(78/257)

قوله : " مِنْ إمْلاقٍ " " مِنْ " سَبَبِيَّة متعلِّقة بالفِعْل المَنْهِيِّ عنه ، أي : " لا تَقْتُلُوا أوْلادَكُم لأجْل الإمْلاقِ " .

والإملاق : الفَقْر في قول ابن عبَّاس .

وقيل : الجوع بلغة " لخم " ، نقله مؤرج .

وقيل : الإسْرَاف ، أمْلق أي : أسْرف نَفَقَتَه ، قال محمد بن نعيم اليزيدي .

وقيل : الإنْفَاق ، أملق ماله أي : أنفقه ، قال المُنْذِر بن سَعِيد ، والإملاق : الإفْسَاد أيضاً ، قاله [شمر] قال : " وأمْلَقَ يكون قَاصِراً ومتعدّياً ، أملق الرَّجُل : إذا افْتَقَر هذها قَاصِرن وأمْلَق ما عِنْدَه الدَّهْر ، أي : أفْسَدَه " وأنشد النَّضْر بن شيمل على ذلك قَوْل أوْسِ بن حَجَر : [الطويل]

2381 - ولَمَّا رَأَيتُ العُدْمَ فَيَّدَ نَائِلِي . . .

وَأَمْلَقَ مَا عِنْدِي خُطُوبٌ تَنَبَّلُ

أي : تَذْهَب بالمَال ، " تَنَبَّلَتْ بما عِنْدي " : أي ذهبت به ، معنى الآية الكريمة : لا تَقْتُلوا أولادكم خَشْيَة العَيْلَة .

وفي هذه الآية الكريمة قال : طنحن نَرْزُقُكم وإيَّاهُم " فقدَّم المُخَاطبين ، وفي " الإسراء " : قدّم ضَمِير الأولاد عليهم : فقال : " نحن نَرْزُقُهُم وإيَّاكُم " فقيل : للتَّفَنُّنِ في البلاغة .

وأحسن منه أن يقال : الظَّاهِر من قوله : " مِنْ إمْلاقٍ " حصُول الإمْلاق للوَالِد لا توقُّعُه وخشْيَتُه ، فبُدِئ أوّلاً بالعَدَةِ برزق الآباء ؛ بشَارة لَهُم بزَوَال ما هُم فيه من الإمْلاق .

(79/257)

وأمّا في آية " سبحان " [الإسراء : 1] فظاهرها أنهم موسرون وإنما يخشون حُصُول الفَقْر ؛ ولذلك قال : خَشْيَةَ إمْلاق ، وإنما يُخْشَى الأمُور المُتَوَقَّعَة ، [فبدأ فيها بِضَمَان رزْقَهم ، فلا مَعْنَى لقتلكم إيَّاهم ، فهذه الآية تُفِيد النَّهْي] للآباء عن قَتْل الأولاد ، وإن كانوا مُتَلَبِّسِين بالفَقْر ، والأخْرَى عن قَتْلِهم وإن كانوا مُوْسِرِين ، ولكن يَخَافُون وُقُوع الفَقْر ، وإفادة معنى جَدِيدٍ أوْلى من ادّعاء كون الآيَتَيْنِ معنى واحدٍ للتَّأكِيد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس التي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحق ﴾ الآية .

فقوله : " إلاَّ بالحقّ " في محلِّ نَصْب على الحال من فاعل " تَقْتُلُوا " أي : لا تَقْتُلُوا إلاَّ مُتَلَبِّسِين بالحق ، ويَجُوز أن يكون وَصْفاً لمصدر مَحْذُوف ، أي : إلاَّ قَتْلاً متلَبساً بالحقّ ، وهو أن يكون القَتْل للقِصَاص ، أو للرِّدَّة أو للزنا بشرطة ، كما جاء مبنياً في السُّنَّة .

قال القرطبي : وتَارك الصَّلاة ، ومَانِع الزَّكَاة ، وقد قتل الصِّدّيق مانع الزَّكَاة ، وقال – تعالى – ﴿ فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : 5] .

قوله : " ولا تَقْتُلُوا " هذه شبيه بذكر الخاصّ بعد العامّ اعتناءً بشَأنِهِ ؛ لأن الفَواحِش يَنْدَرج فيها قَتْل النَّفْس ، فجرَّد منها هذا اسْتِفظَاعاً له وتَهْويلاً ؛ ولأنَّه قد استَثْنَى منه في قوله : " إلاَّ بالحقّ " ولو لم يَذْكر هذا الخَاصَّ ، لم يَصِحَّ الاستِثْنَاء من عُمُوم الفَواحش ، لو قيل في غَيْر

القُرآن العظيم : " لا تَقْرَبُوا الفواحش إلا بالحقّ " لم يكن شيئاً .

قوله : " ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ به " في الجُمْلَة الفِعْلِيَّة بعده .

والثاني : أنه في محلِّ نصب بفعل مُقدَّر من مَعْنَى الفِعْل المتأخر عنه ، وتكون المَسْألة من باب الاشْتِغَال ، والتقدير : ألزَمَكُم أو كَلَّفَكُم ذلك ، ويكون " وصَّاكُمْ بِهِ " مفسِّراً لهذا العَامِل المقدَّر ؛ كقوله – تعالى – : ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الإنسان : 31] ونَاسَب قوله هنا : " لَعَلَّكُم تَعْقِلُون " لأن العقل مَنَاط التَّكْليف والوَصيَّة بهذه الأشْيَاء المَذْكُورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 503. 511 ﴾ .

باختصار .

(80/257)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المال عديل الروح من حيث إنه لا قوام لها إلا به ، ابتدأ الآية التي تليها بالأموال ، ولما كان أعظمها خطراً وحرمة مال اليتيم لضعفه وقلة ناصره ، ابتدأ به فنهي عن قربه فضلاً عن أكله أو شربه فقال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ أي بنوع من أنواع القربان عمل فيه أو غيره ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ من الخصال من السعي في تنميته وتثميره وليستمر ذلك ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ وهو سن يبلغ به أوان حصول عقله عادة وعقل يظهر به رشده ؛ ثم ثنى بالمقادير على وجه يعم فقال : ﴿ وأوفوا ﴾ أي أتموا ﴿ الكيل والميزان ﴾ لأنهما الحكم في أموال الأيتام وغيرهم ؛ ولما كان الشيء ربما أطلق على ما قاربه نحو ﴿ قد قامت الصلاة ﴾ أي قرب قيامها ، وهذا وقت كذا – وإذا قرب جداً ، أزيل هذا الاحتمال بقوله : ﴿ بالقسط ﴾ أي إيفاء كائناً به من غير إفراط ولا تفريط .

(81/257)

ولما كانت المقادير لا تكاد تتساوى لا سيما الميزان فإنه أبعدها من ذلك ، وأقربها الذرع وهو داخل في الكيل ، فإنه يقال : كال الشيء بالشيء : قاسه ، أشار إلى أنه ليس على المكلف المبني أمره على العجز للضعف إلا الجهد فقال : ﴿ لا نكلف ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ نفساً إلا وسعها ﴾ وما وراء الوسع معفو عنه ؛ ثم ثلث بالعدل في القول لأنه

الحكم على الأموال وغيرها ، وقدم عليه الفعل لأنه دال عليه ، فصار الفعل موصى به مرتين فقال : ﴿ وإذا قلتم ﴾ أي في شهادة أو في حكم أو توفيق بين اثنين أو غير ذلك ﴿ فاعدلوا ﴾ أي توفيقاً بين القول والفعل .

ولما كانت النفوس مجبولة على الشفقة على القريب قال : ﴿ ولو كان ﴾ أي المقول في حقه له أو عليه بشهادة أو غيرها ﴿ ذا قربى ﴾ ولا تحابوه طمعاً في مناصرته أو خوفاً من مضارته ؛ ثم ختم بالعهد لجمعه الكل في القول والفعل فقال : ﴿ وبعهد الله ﴾ أي الملك الأعظم خاصة ﴿ أوفوا ﴾ وهذا يشمل كل ما على الإنسان وله ، فإن الله لم يهمل شيئاً بغير تقدم فيه ؛ ثم أكد تعظيم ذلك بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر المعتنى به ﴿ وصّاكم به ﴾ أي ربكم المحسن إليكم .

ولما كانت هذه الأفعال والأقوال شديداً على النفس العدلُ فيها لكونها شهوات ، تقدم بالترغيب فيها والترهيب منها بأن كل من يفعل شيئاً منها مع غيره يوشك أن يفعل معه مثله ، فلذلك حض على التذكر في الوصية بها ولأنها خفية تحتاج إلى مزيد تدبر فقال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي لتكونوا بحيث يحصل لكم التذكر – ولو على وجه خفي بما أشار إليه الإدغام – فيما جبلت عليه نفوسكم من محبة مثل ذلك لكم ، فتحكموا لغيركم بما تحكمون به لأنفسكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 742 . 743 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى خمسة أنواع من التكاليف ، وهي أمور ظاهرة جلية لا حاجة فيها إلى الفكر والاجتهاد ، ثم ذكر تعالى في هذه الآية أربعة أنواع من التكاليف ، وهي أمور خفية يحتاج المرء العاقل في معرفته بمقدارها إلى التفكر ، والتأمل والاجتهاد .

فالنوع الأولى : من التكاليف المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

واعلم أنه تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : 220] والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بأن يسعى في تنميته وتحصيل الربح به ورعاية وجوه الغبطة له ، ثم إن كان القيم فقيراً محتاجاً أخذ بالمعروف ، وإن كان غنياً فاحترز عنه كان أولى فقوله : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ معناه كمعنى قوله : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : 6] .

وأما قوله : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فالمعنى احفظوا ماله حتى يبلغ أشده ، فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله .

وأما معنى الأشد وتفسيره : قال الليث : الأشد مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة .

قال الفراء : الأشد .

وأحدها شد في القياس ، ولم أسمع لها بواحد .

وقال أبو الهيثم : واحدة الأشد شدة كما أن واحدة الأنعم نعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، والشديد الرجل القوي ، وفسروا بلوغ الأشد في هذه الآية بالاحتلام بشرط أن يؤنس منه الرشد ، وقد استقصينا في هذا الفصل في أول سورة النساء .

والنوع الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾

اعلم أن كل شيء بلغ تمام الكمال ، فقد وفى وتم .

يقال : درهم واف ، وكيل واف ، وأوفيته حقه ، ووفيته إذا أتممته ، وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئاً وقوله : ﴿ والميزان ﴾ أي الوزن بالميزان وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل لا بخس ولا نقصان .

(83/257)

فإن قيل : إيفاء الكيل والميزان ، هو عين القسط ، فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : أمر الله المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصاه ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة .

واعلم أنه لما كان يجوز أن يتوهم الإنسان أنه يجب على التحقيق وذلك صعب شديد في العدل أتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي الواجب في إيفاء الكيل والوزن هذا القدر الممكن في إيفاء الكيل والوزن .

أما التحقيق فغير واجب .

قال القاضي : إذا كان تعالى قد خفف على المكلف هذا التخفيف مع أن ما هو التضييق مقدور له ، فكيف يتوهم أنه تعالى يكلف الكافر الإيمان مع أنه لا قدرة له عليه ؟ بل قالوا : يخلق الكفر فيه ، ويريده منه ، ويحكم به عليه ، ويخلق فيه القدرة الموجبة لذلك الكفر ، والداعية الموجبة له ، ثم ينهاه عنه فهو تعالى لما لم يجوز ذلك القدر من التشديد والتضييق على العبد ، وهو إيفاء الكيل والوزن على سبيل التحقيق ، فكيف يجوز أن يضيف على العبد مثل هذا التضييق والتشديد ؟

واعلم أنا نعارض القاضي وشيوخه في هذا الموضع بمسألة العلم ومسألة الداعي ، وحينئذ ينقطع ولا يبقى لهذا الكلام رواء ولا رونق .

(84/257)

النوع الثالث : من التكاليف المذكورة في هذه الآية ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ واعلم أن هذا أيضاً من الأمور الخفية التي أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة ، والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط ، والأمر والنهي فقط ، قال القاضي وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول ، فيدخل فيه ما يقول المرء في الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة ، قريبة من الأفهام ، ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة في الإيذاء والإيحاش ، ونقصان عن القدر الواجب ، ويدخل فيه الحكايات التي يذكرها الرجل حتى لا يزيد فيها ولا ينقص عنها ، ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس ، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان ، ويدخل فيه حكم الحاكم بالقول ، ثم إنه تعالى بين أنه يجب أن يسوي فيه بين القريب والبعيد ، لأنه لما كان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد .

والنوع الرابع : من هذه التكاليف قوله تعالى : ﴿ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ﴾ وهذا من خفيات الأمور لأن الرجل قد يحلف مع نفسه ، فيكون ذلك الحلف خفياً ، ويكون بره وحنثه أيضاً خفياً ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام قال : ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

فإن قيل : فما السبب في أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 151] وخاتمة هذه الآية بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قلنا : لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جلية ، فوجب تعقلها وتفهمها وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة ، لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال ، فلهذا السبب قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتخفيف والباقون ﴿ تذكرن ﴾ بتشديد الذال في كل القرآن وهما بمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 192.193 ﴾

(85/257)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ يقول : لا تأكلوا مال اليتيم ولا تباشروه ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يعني : إلا بالقيام عليه لإصلاح ماله ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني : احفظوا ماله حتى يبلغ رشده .

قال مقاتل : يعني ثماني عشرة سنة .

وقال الكلبي : الأَشُدُّ ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة .

ويقال : حتى يبلغ مبلغ الرجل .

ويقال : بلوغ الأشد ما بين ثماني عشرة إلى أربعين سنة .

ثم قال : ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ يعني : أتموا الكيل والميزان عند البيع والشراء ﴿ بالقسط ﴾ يعني : بالعدل ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ يعني : إلا جهدها في العدل يعني : إذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن ، فلو وقعت فيه زيادة قليلة أو نقصان ، فإنه لا يؤاخذ به إذا اجتهد جهده ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ يعني : اصدقوا وقولوا الحق ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ يعني وإن كان الحق على ذي قرابة ، فقولوا الحق ، ولا تمنعوا الحق ﴿ وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ﴾ يقول : أتموا العهود التي بينكم وبين الله .

والعهد الذي بينكم وبين الناس .

﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ يقول : أمركم به في الكتاب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : تتعظون فتمتنعون عما حرم الله عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يعني بما فيه صلاحه وتثميره ، وقال مجاهد : هو التجارة فيه ، وقال الضحاك : أموال يبتغي له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئاً .

وقال ابن زيد : وأن يأكل بالمعروف إن افتقر ، وإن استغنى لم يأكل ، وقال الشعبي : مَنْ خالط مال اليتيم حتّى يفصل عليه فليخالطه ، ومَنْ خالطه ليأكل منه وليدعه حتّى يبلغ أشده .

وقال يحيى بن يعمر : بلوغ الحلم ، وقال الشعبي : الأشد الحلم حيث يكتب له الحسنات وعليه السيئات ، وقال أبو العاليّة : حتّى يعقل ويجتمع قوّته .

(86/257)

وقال الكلبي : الأشد ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة . وقال السدّي : هو ثلاثون سنة ثمّ جاء بعدها حتّى بلغوا النكاح.

والأشد جمع شدّ ، مثل قدّ وأقدّ ، وهو استحكام قوماً لفتى وشبابه وسنه ، ومنه شد النهار وهو ارتفاعه ، يقال : أتيته شدّ النهار ومد النهار وقال الفضل بن محمد في شد بيت عنترة :

[عهدي به] شدّ النهار كأنّما . . . خضب اللبان ورأسه بالعظلم

وقال آخر :

تطيف به شد النهار ضعينة . . . طويلة أنقاء اليدين سحوق

وليس بلوغ الأشد ممّا يدع قرب ماله بغير الأحسن وقد تمّ الكلام .

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [على الأبد] ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فادفعوا إليه ماله إن كان رشيداً ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ بالعدل ﴿ لاَ

نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي طاقتها في إيفاء الكيل والوزن ، وقال أهل المعاني : معناه : إلاّ يسعها ويحلّ لها ولا يخرج عليه ولا يضيق عنه وذلك أنّ لله تعالى من عباده أنّ كثيراً منهم ضيق نفسه عن أن يطيّب لغيره بما لا يجب عليها له فأمر المعطي بإيفاء الحق ربّه الذي هو له ويكلّفه الزيادة لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقّه ولم يكلفه الرضا بأقل منه لمّا فيه في النقصان عليه من ضيق نفسه ، فلم يكلّف نفساً منهما إلاّ ما لا حرج فيه ولا يضيق عليه .

قال ابن عباس : إنكم معشر الأعاجم فقد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ أي فاصدقوا في الحكم والشهادة ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ محذوف الاسم يعني ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قربة ﴿ وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يتّعظون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(87/257)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ إنما خص مال اليتيم

بالذكر وإن كان مال غيره في التحريم بمثابته ، لأن الطمع فيه لقلة مراعيه أقوى ، فكان بالذكر أولى .

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أربعة تأويلات :

أحدها : حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه ، قاله الكلبي .

والثاني : أن ذلك هو التجارة به ، قاله مجاهد .

والثالث : هو ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئاً ، قاله الضحاك .

والرابع : هو أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إن افتقر ، ويترك إن استغنى ، ولا يتعدى من الأكل إلى الباس ولا غيره ، قاله ابن زيد .

ويحتمل خامساً : أن التي هي أحسن : حفظ أصوله وتثمير فروعه .

ثم قال : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ والأشُد القوة والشباب .

وفي حدها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيئات ، قاله ربيعة ، وزيد بن أسلم ، ومالك .

والثاني : أن الأَشُد ثلاثون سنة ، قاله السدي .

والثالث : أن الأشد ثماني عشرة سنة ، ذكره علي بن عيسى وفيه وجوه أُخَر نذكرها من بعد .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ يعني بالعدل ، أمر في مال البائع من تأدية بمثل ما أُمِر به في مال اليتيم .

ثم قال : ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ يعني أنه لما كان العدل في الوزن والكيل مستحقاً ، وكان تحديد أقل القليل متعذراً ، كان ذلك عفواً ، لأنه لا يدخل في الوسع فلم يكلفه .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : إذا حكمتم فأنصفوا .

الثاني : إذا شهدتم فاصدقوا .

الثالث : إذا توسطتم فلا تميلوا .

ثم قال : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن عهد الله كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره .

الثاني : أنه الحلف بالله أن يلزم الوفاء به إلا في معصية .

(88/257)

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه راجع إلى الذين هادوا وما أوصاهم به في التوراة .

والثاني : أنه راجع إلى المسلمين وما وصاهم به في القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة ، ثم استثنى مايحسن وهو التثمير والسعي في نمائه ، قال مجاهد : ﴿ التي هي أحسن ﴾ التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به ، فالأحسن إذا ثمر مال يتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها من كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأن ينفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعته الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف ، قاله ابن زيد ، و" الأشد " جمع شد وجمع شدة ، وهو هنا الحزم والنظر في الأمور وحسن التصرف فيها .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وليس هذا بالأشد المقرون ببلوغ الأربعين ، بل هذا يكون مع صغر السن في ناس كثير وتلك الأشد هي التجارب والعقل المحنك ، ولكن قد خلطهما المفسرون ، وقال ربيعة والشعبي ومالك فيما روي عنه وأبو حنيفة ، " بلوغ الأشد " البلوغ مع أن لا يثبت سفه ، وقال السدي : " الأشد " ثلاثون سنة ، وقالت فرقة ثلاثة وثلاثون سنة ، وحكى الزجاج عن فرقة ثمانية عشر سنة ، وضعّفه ورجح البلوغ مع

الرشد وحكى النقاش أن " الأشد " هنا من خمسة عشر إلى ثلاثين ، والفقه ما رجح الزجّاج ، وهو قول مالك رحمه الله الرشد وزوال السفه مع البلوغ .

(89/257)

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا أصح الأقوال وأليقها بهذا الموضع ، وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان ﴾ الآية أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء ، " والقسط " بالعدل ، وقوله ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز لا أنه مطالب بغاية العدل في نفس الشيء المتصرف فيه ، قال الطبري : لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة ، وقوله ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك ، أي ولو كان ميل الحق على قراباتكم ، وقوله : ﴿ وبعهد الله ﴾ يحتمل أن يراد جميع ما عهده الله إلى عباده ، ويحتمل أن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إنسانين وأضاف ذلك العهد إلى الله من حيث قد أمر بحفظه والوفاء به ، وقوله ﴿ لعلكم ﴾ ترجٍّ بحسبنا وقرأ ابن كثر وأبو عمرو " تذّكّرون " بتشديد الذال والكاف جميعاً وكذلك " يذّكّرون " و " يذكّر الإنسان " وما جرى من ذلك مشدداً كله ، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر كل ذلك

بالتشديد إلا قوله ﴿ أو لا يذكر الإنسان ﴾ [مريم : 67] فإنهم خففوها ، وروى أبان وحفص عن عاصم " تذَكرون " خفيفة الذال في كل القرآن .

وقرأ حمزة والكسائي " تذكرون " بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاء ، وإذا كان بالياء قرأه بالتشديد ، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان ﴿ لمن أراد أن يذْكر ﴾ [الآية : 62] بسكون الذال وتخفيف الكاف ، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه ﴾ إنما خص مال اليتيم ، لأن الطمع فيه لقلّة مراعيه وضعف مالكه ، أقوى .

وفي قوله : ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنه أكل الوصي المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

(90/257)

والثاني : التجارة فيه ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي .

والثالث : أنه حفظه له إلى وقت تسليمه إليه ، قاله ابن السائب .

والرابع : أنه حفظه عليه ، وتثميره له ، قاله الزجاج .

قال : و"حتى" محمولة على المعنى ؛ فالمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشده ، فإذا بلغ أشده ، فادفعوه إليه .

فأما الأَشُدُّ : فهو استحكام قوة الشباب والسنِّ .

قال ابن قتيبة : ومعنى الآية : حتى يتناهى في النبات إلى حدِّ الرجال .

يقال : بلغ أشده .

إذا انتهى منتهاه قبل أن يأخذ في النقصان .

وقال أبو عبيدة : الأَشُدُّ : لا واحد له منه ؛ فإن أُكرهوا على ذلك ، قالوا : شَدَّ ، بمنزلة : ضَبَّ ؛ والجمع : أَضُبُّ .

قال ابن الأنباري : وقال جماعة من البصريين : واحد الأَشُدِّ شُدٌّ بضم الشين .

وقال بعض البصريين : واحد الأَشُدِّ : شِدَّةٌ ، كقولهم : نِعمة ، وأَنْعُم .

وقال بعض أهل اللغة : الأَشُدُّ : اسم لا واحد له .

وللمفسرين في الأَشُد ثمانية أقوال .

أحدها : أنه ثلاث وثلاثون سنة ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

والثاني : ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أربعون سنة ، روي عن عائشة عليها السلام .

والرابع : ثماني عشرة سنة ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والخامس : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

والسادس : أربع وثلاثون سنة ، قاله سفيان الثوري .

والسابع : ثلاثون سنة ، قاله السدي .

وقال : ثم جاء بعد هذه الآية : ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ [النساء : 6] فكأنه يشير إلى النسخ .

والثامن : بلوغ الحلم ، قاله زيد بن أسلم ، والشعبي ، ويحيى بن يعمر ، وربيعة ، ومالك بن أنس ، وهو الصحيح .

(91/257)

ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسروا هذه الآية بما ذُكر عنهم ، وإنما أظن أن الذين جمعوا التفاسير ، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ [يوسف : 22 والقصص : 14] إلى هذا المكان ، وذلك نهاية الأَشُدِّ ، وهذا ابتداء تمامه

؛ وليس هذا مثل ذاك .

قال ابن جرير : وفي الكلام محذوف ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حُذف ، لأن المعنى : حتى يبلغ أشده ؛ فإذا بلغ اشده ، فآنستم منه رشداً ، فادفعوا إليه ماله .

قال المصنف : إن أراد بما ظهر ما ظهر في هذه الآية ، فليس بصحيح ؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى ؛ وإنما أُطلق في هذه الآية ما قُيِّد في غيرها ، فحُمل المطلق على المقيد .

قوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ أي : أتموه ولا تنقصوا منه .

و ﴿ الميزان ﴾ أي : وَزْنَ الميزان .

والقسط : العدل .

﴿ لا نكلِّف نفساً إلا وسعها ﴾ أي : ما يسعها ، ولا تضيق عنه .

قال القاضي أبو يعلى : لما كان الكيل والوزن يتعذر فيهما التحديد بأقل القليل ، كُلِّفنا الاجتهاد في التحري ، دون تحقيق الكيل والوزن .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ أي : إذا تكلمتم أو شهدتم فقولوا الحق ، ولو كان المشهود له أو عليه ذا قرابة .

وعَهْد الله يشتمل على ما عهده إلى الخلق وأوصاهم به ، وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره .

﴿ ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون ﴾ أي: لتذَّكَّروه وتأخذوا به.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ تذّكّرون ﴾ [الأنعام: 153] و﴿ يذّكّرون ﴾ [الانعام: 126] و﴿ يذّكّر الإنسان ﴾ [مريم: 67] و﴿ أن يذّكّر ﴾ [الفرقان: 62] و﴿ ليذّكّروا ﴾ [الإسراء: 41] مشدّداً ذلك كلُّه.

وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم، وابن عامر كل ذلك بالتشديد إلا قوله: ﴿ أوَلا يذَّكَّر الإنسانُ ﴾ [مريم: 67] فانهم خففوه.

روى أبان، وحفص عن عاصم: "يذكرون" خفيفة الذال في جميع القرآن.

(92/257)

قرأ حمزة، والكسائي: "يذّكّرون" مشدداً إذا كان بالياء، ومخففاً إذا كان بالتاء. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه.

وهذا أحسن الأقوال في هذا؛ فإنه جامع.

قال مجاهد : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالتجارة فيه ، ولا تشتري منه ولا تستقرض .

الحادية عشرة قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني قوته ، وقد تكون في البدن وقد تكون في المعرفة بالتجربة ، ولا بُدّ من حصول الوجهين ، فإن الأشُدّ وقعت هنا مطلقة .

وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة "النساء" مقيدة ، فقال : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً ﴾ [النساء : 6] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح ، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد ؛ فلو مُكّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهواته وبَقَى صُعْلوكاً لا مال له .

وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال بفقيد الأب أوْلى .

وليس بلوغ الأشُد يبيح قُرْب ماله بغير الأحسن ؛ لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة .

وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله .

والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده .

وفي الكلام حذف ؛ فإذا بلغ أشدّه وأُونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله .

واختلف العلماء في أشُدّ اليتيم ؛ فقال ابن زيد : بلوغه وقال أهل المدينة .

بلوغه وإيناس رشده .

وعند أبي حنيفة : خمس وعشرون سنة .

(93/257)

قال ابن العربيّ : وعجباً من أبي حنيفة ، فإنه يرى أن المقدرات لا تثبت قياساً ولا نظراً وإنما تثبت نقلاً ، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة ، ولكنه سكن دار الضَّرْب فكثر عنده المُدَلَّسْ ، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدِّين .

وقد قيل : إن انتهاء الكهولة فيها مُجْتَمع الأشُدّ ؛ كما قال سُحيم بن وَثيل :

أخُو خمسين مُجْتَمِعٌ أشُدّي . . .

ونَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ

يروي "نجدني" بالدال والذال .

والأشُدّ واحد لا جمع له ؛ بمنزلة الآنُك وهو الرَّصاص .

وقد قيل : واحده شدّ ؛ كفَلْس وأفْلُس .

وأصله من شدّ النهار أي ارتفع ؛ يقال : أتيته شدّ النهار ومدَّ النهار .

وكان محمد بن محمد الضَّبيّ ينشدُ بيت عنترة :

عَهْدِي به شدّ النهار كأنما . . .

خُضِبَ اللبَّانُ ورأسُه بالعَظْلِمِ

وقال آخر :

تُطيف به شَدّ النهار ظَعينةٌ . . .

طويلة أُنقاء اليدَيْن سَحُوق

وكان سيبويه يقول : واحده شِدّة .

قال الجوهري : وهو حَسَن في المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الغلام شدّته .

ولكن لا تجمع فِعْلة على أفْعُل ، وأما أنْعُم فإنما هو جمع نُعْم ؛ من قولهم : يوم بُؤس ويوم نُعْم .

وأما قول من قال : واحده شَدّ ؛ مثل كُلْب وأكلب ، وشِدّ مثل ذئب وأذؤب فإنما هو قياس .

كما يقولون في واحد الأبابيل : إبَّوْل ، قياساً على عِجَّوْل ، وليس هو شيئاً سُمع من العرب .

قال أبو زيد : أصابتني شدى على فعلى ؛ أي شِدّة .

وأشد الرجل إذا كانت معه دابة شديدة .

الثانية عشرة قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء .

والقسط : العدل .

﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي طاقتها في ايفاء الكيل والوزن وهذا يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرّر .

(94/257)

وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكَيْلين ، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌ عنه .

وقيل : الكيل بمعنى المِكْيَال .

يقال : هذا كذا وكذا كَيلاً ؛ ولهذا عطف عليه بالميزان .

وقال بعض العلماء : لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسُه عن أن تَطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطي بإيفاء ربّ الحق حقّه الذي هو له ، ولم يكلفه الزيادة ؛ لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها .

وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منه ؛ لما في النقصان من ضيق نفسه .

وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغُلُول في قوم قطُّ إلا ألقى الله في قلوبهم الرّعب ، ولا فشا الزنى في قوم إلا كَثُر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المِكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حَكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم ، ولا

ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو .

وقال ابن عباس أيضاً : إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم الكيل والميزان .

الثالثة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ يتضمن الأحكام والشهادات .

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ أي ولو كان الحق على مثل قراباتكم ؛ كما تقدم في "النساء" .

﴿ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ﴾ عامّ في جميع ما عهده الله إلى عباده .

ويحتمل أن يراد به جميع ما انعقد بين إنسانين .

وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتّعظون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾

يعني ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له .

قال مجاهد : هو التجارة فيه وقال الضحاك : هو أن يسعى له فيه .

ولا يأخذ من ربحه شيئاً هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج فلو كان الوصي فقيراً فله أن يأكل بالمعروف ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ يعني احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله .

فأما الأشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشاب إلى حد الرجال .

قال الشعبي ومالك : لأشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات .

وقال أبو العالية : حتى يعقل وتجتمع قوته .

وقال الكلبي : الأشد هو ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وقيل إلى أربعين إلى ستين سنة وقال الضحاك : الأشد عشرون سنة ، وقال السدي : الأشد ثلاثون سنة وقال مجاهد : الأشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الأقوال التي نقلت عن المفسرين في هذه الآية إنما هي نهاية الأشد لا ابتداؤه .

والمراد بالأشد في هذه الآية .

هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ يعني بالعدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ يعني طاقتها وما يسعها في إيفاء الكيل والميزان وإتمامه .

لم يكلف المعطي أن يعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه ، بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ يعني في الحكم والشهادة ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ يعني المحكوم عليه وكذا المشهود عليه ، وقيل : إن الأمر بالعدل في القول هو أعم من الحكم والشهادة ، بل يدخل فيه كل قول حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الأمانة وغير ذلك من جميع الأقوال التي يعتمد فيها العدل والصدق ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ يعني ما عهد إلى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الإنسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به ﴿ ذلكم ﴾ يعني الذي ذكر فيه هذه الآية ﴿ وصاكم به ﴾ يعني بالعمل به ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ يعني لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمرتكم به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾

هذا نهي عن القرب الذي يعم جميع وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة .

﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن في حق اليتيم ولم يأت إلا بالتي هي حسنة ، بل جاء بأفعل التفضيل مراعاة لمال اليتيم وأنه لا يكفي فيه الحالة الحسنة بل

الخصلة الحسنى وأموال الناس ممنوع من قربانها ، ونص على ﴿ اليتيم ﴾ لأن الطمع فيه أكثر لضعفه وقلة مراعاته .

قال ابن عباس وابن زيد ﴿ التي هي أحسن ﴾ التجارة فمن كان من الناظرين له مال يعيش به فالأحسن إذ أثمر مال اليتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها ، ومن كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأن ينفق على نفسه أنفق من ربح نظره .

وقيل : الانتفاع بدوابه واستخدام جواريه لئلا يخرج الأولياء بالمخالطة ذكره المروزي .

وقيل لا يأكل منه إلا قرضاً وهذا بعيد وأي أحسنية في هذا .

(97/257)

﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ هذه غاية من حيث المعنى لا من حيث هذا التركيب اللفظي ، ومعناه احفظوا على اليتيم ماله إلى بلوغ أشده فادفعوه إليه .

وبلوغ الأشد هنا لليتيم هو بلوغ الحلم قاله الشعبي وزيد بن أسلم ويحيى بن يعمر وربيعة ومالك .

وحكى ابن عطية عن الشعبي وربيعة ومالك وأبي حنيفة إنه البلوغ مع أنه لا يثبت فسقه وقد نقل في تفسير الأشد أقوال لا يمكن أن تجيء هنا وكأنها نقلت في قوله ﴿ ولما يبلغ

أشده ﴾ فعن ابن عباس ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين وعنه ثلاث وثلاثون ، وعن ابن جبير ومقاتل ثماني عشرة وعن السدي ثلاثون وعن الثوري أربع وثلاثون ، وعن عكرمة خمس وعشرون وعن عائشة أربعون وعن أبي العالية عقله واجتماع قوته ، وعن بعضهم من خمسة عشر إلى ثلاثين وعن بعضهم ستون سنة ذكره البغوي .

وأشد جمع شدة أو شد أو جمع لا واحد له من لفظه أو مفرد لا جمع له أقوال خمسة ، اختار ابن الأنباري في آخرين الأخير وليس بمختار لفقدان أفعل في المفردات وضعاً وأشد مشتق من الشدة وهي القوة والجلادة .

وقيل : أصله الارتفاع من شد النهار إذا ارتفع .

قال عنترة :

عهدي به شد النهار كأنما . . .

خضب اللبان ورأسه بالعظلم

﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي بالعدل والتسوية .

وقيل : القسط هنا أدنى زيادة ليخرج بها عن العهدة بيقين لما روي " إذا وزنتم فأرجحوا " .

﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أي إلا ما يسعها ولا تعجز عنه ، ولما كانت مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان يجري فيها الحرج ذكر بلوغ الوسع وإن ما وراءه معفو

عنه ، فالواجب في إيفاء الكيل والميزان هو القدر الممكن وأما التحقيق فغير واجب قال معناه الطبري .

(98/257)

وقيل : المعنى لا نكلف ما فيه تلفه وإن جاز كقوله : ﴿ أن اقتلوا أنفسكم ﴾ فعلى هذا لا يكون راجعاً إلى إيفاء الكيل والميزان ، ولذلك قال ابن عطية : يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز لا أنه مطالب بغاية العدل في نفس الشيء المتصرف فيه .

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ أي ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة للقائل فلا ينبغي أن يزيد ولا ينقص ، ويدخل في ذي القربى نفس القائل ووالداه وأقربوه فهو ينظر إلى قوله : ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أو الوالدين والأقربين ، وعنى بالقول هنا ما لا يطلع عليه إلا بالقول من أمر وحكم وشهادة زجر ووساطة بين الناس وغير ذلك لكونها منوطة بالقول ، وتخصيصه بالحكم أو بالأمر أو بالشهادة أقوال لا دليل عليها على التخصيص .

﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ ويحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل أي بما عهدكم الله عليه أوفوا وأن يكون مضافاً إلى المفعول أي بما عهدتم الله عليه .

وقيل : يحتمل أن يراد به العهد بين الإنسانين وتكون إضافته إلى الله تعالى من حيث أمر بحفظه والوفاء به .

قال الماتريدي : أمره ونهيه في التحليل والتحريم .

وقال التبريزي بعهده يوم الميثاق .

وقال ابن الجوزي : يشمل ما عهده إلى الخلق وأوصاهم به وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره .

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ ولما كانت الخمسة المذكورة قبل هذا من الأمور الظاهرة الجلية وجب تعلقها وتفهمها فختمت بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ وهذه الأربعة خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

وقرأ حفص والأخوان ﴿ تذكرون ﴾ حيث وقع بتخفيف الذال حذفت التاء إذ أصله تتذكرون ، وفي المحذوف خلاف أهي تاء المضارعة أو تاء تفعل .

وقرأ باقي السبعة ﴿ تذكرون ﴾ بتشديده أدغم تاء تفعل في الذال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(99/257)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ توجيهُ النهي إلى قُربانه من المبالغة في النهي عن أكله ولإخراج القُربان النافعِ عن حكم النهي بطرق الاستثناءِ ، أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ إلا بالخَصلة التي هي أحسنُ ما يكون من الحِفظ والتثميرِ ونحو ذلك ، والخطابُ للأولياء والأوصياء لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فإنه غايةٌ لما يُفهم من الاستثناء لا للنهي كأنه قيل : احفظوه حتى يصيرَ بالغاً رشيداً فحينئذ سلّموه إليه كما في قوله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ ﴾ والأشُدُّ جمع شِدّة كنعمة وأنعم أو شَدّ ككلب وأكلُب أو شد كصر وآصر وقيل : هو مفرد كآنُك ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي بالعدل والتسوية ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ إلا ما يسعُها ولا يعسُر عليها ، وهو اعتراضٌ جيء به عَقيبَ الأمرِ بالأمر للإيذان بأن مراعاةَ العدلِ كما هو عسيرٌ كأنه قيل : عليكم بما في وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو نحوِهما ﴿ فاعدلوا ﴾ فيه ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المقولُ له أو عليه ﴿ ذَا قربى ﴾ أي ذا قرابةٍ منكم ولا تميلوا نحوهم أصلاً وقد مر تحقيق معنى لو في مثل هذا الموضعِ مراراً ﴿ وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ﴾ أي ما عَهد إليكم من الأمور المعدودةِ ، أو أيِّ عهدٍ كان فيدخُل فيه ما ذُكر دخولاً أولياً أو ما عاهدتم الله عليه من الإيمان والنذور ، وتقديمُه

للاعتناء بشأنه ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى ما فُصِّل من التكاليف ، ومعنى البُعد لما ذكر فيما قبل ﴿ وصاكم بِهِ ﴾ أمركم به أمراً مؤكداً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتذكرون ما في تضاعيفه وتعملون بمقتضاه ، وقرىء بتشديد الذالِ وهذه أحكامٌ عشَرةٌ لا تختلف باختلاف الأممِ والأعصارِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(100/257)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي بالفعلة التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره ، وقيل : المراد لا تقربوا ماله إلا وأنتم متصفون بالخصلة التي هي أحسن الخصال في مصلحته فمن لم يجد نفسه على أحسن الخصال ينبغي أن لا يقربه وفيه بعد ؛ والخطاب للأولياء والأوصياء لقوله تعالى : ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فإنه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي كأنه قيل : احفظوه حتى يبلغ فإذا بلغ فسلموه إليه كما في قوله سبحانه : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم بأموالهم ﴾ [النساء : 6] والأشد على ما قال الفراء جمع لا واحد له .

وقال بعض البصريين : هو مفرد كآنك ولم يأت في المفردات على هذا الوزن غيرهما .

وقيل : هو جمع شدة كنعمة وأنعم ، وقدر فيه زيادة الهاء لكثرة جمع فعل على أفعل كقدح وأقدح.

وقال ابن الأنباري : إنه جمع شد بضم الشين كود واود .

وقيل : جمع شد بفتحها .

وأياً ما كان فهو من الشدة أي القوة أو الارتفاع من شد النهار إذا ارتفع .

ومنه قول عنترة

: عهدي به شد النهار كأنما . . .

خضب البنان ورأسه بالعظلم

والمراد ببلوغ الأشد عند الشعبي وجماعة : بلوغ الحلم .

وقيل : أن يبلغ ثماني عشرة سنة ، وقال السدي : أن يبلغ ثلاثين إلا أن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغُواْ النّكَاحَ ﴾ [النساء : 6] وقيل : غير ذلك .

(101/257)

وقد تقدم الخلاف في زمن دفع مال اليتيم إليه وأشبعنا الكلام في تحقيق الحق في ذلك فتذكر .

﴿ وَأَوْفُوا ﴾ أي أتموا ﴿ الكيل ﴾ أي المكيل فهو مصدر بمعنى اسم المفعول ﴿ والميزان ﴾ كذلك كما قال أبو البقاء وجوز أن يكون هناك مضاف محذوف أي مكيل الكيل وموزون الميزان ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل وهو في موضع الحال من ضمير ﴿ أَوْفُواْ ﴾ أي مقسطين .

وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون حالاً من المفعول أي تاماً .

ولعل الإتيان بهذه الحال للتأكيد .

وفي "التفسير الكبير" "فإن قيل : إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط فما الفائدة من التكرير ؟ قلنا : أمر الله تعالى المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة" فتدبر .

﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها .

والجملة مستأنفة جيء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل للترخيص فيما خرج عن الطاقة لما أن في مراعاة ذلك كما هو حرجاً مع كثرة وقوعه فكأنه قيل : عليكم بما في وسعكم في هذا الأمر وما وراءه معفو عنكم .

وجوز أن يكون جيء بها لتهوين أمر ما تقدم من التكليفات ليقبلوا عليها كأنه قيل : جميع ما كلفناكم به ممكن غير شاق ونحن لا نكلف ما لا يطاق .

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو نحوهما ﴿ فاعدلوا ﴾ فيه وقولوا الحق ﴿

وَلَوْ كَانَ ﴾ المقول له أو عليه ﴿ ذَا قربى ﴾ أي صاحب قرابة منكم ﴿ وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أي عهد كان فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً أو ما عاهدتم الله تعالى عليه من أيمانكم ونذوركم .

والجار والمجرور متعلق بما بعده ، وتقديمه للاعتناء بشأنه ﴿ ذلكم ﴾ أي ما فصل من التكاليف الجليلة ﴿ وصاكم بِهِ ﴾ أمركم به أمرا مؤكدا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ما في تضاعيفه وتعملون بمقتضاه .

(102/257)

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بتخفيف الذال والباقون بالتشديد في كل القرآن وهما بمعنى واحد .

وختمت الآية الأولى بقوله سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 151] وهذه بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها .

وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه

ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان ؛ قاله القطب الرازي ، ثم قال فإن قلت إحسان الوالدين من قبيل الثاني أيضاً فكيف ذكر من الأول ؟ قلت : أعظم النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ويتلوها نعمة الوالدين لأنهما المؤثران في الظاهر ومنهما نعمة التربية والحفظ عن الهلاك في وقت الصغر فلما نهى عن الكفر بالله تعالى نهى بعده عن الكفران في نعمة الأبوين تنبيهاً على أن القوم لما لم يرتكبوا الكفران فبطريق الأولى أن لا يرتكبوا الكفر .

وقال الإمام : السبب في ختم كل آية بما ختمت "أن التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الأولى (أمور) ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية أمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال وهو التذكر" انتهى .

ويمكن أن يقال : إن أكثر التكليفات الأول أُدِّي بصيغة النهي وهو في معنى المنع والمرء حريص على ما منع فناسب أن يعلل الإيصاء بذلك بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس وهذا بخلاف التكليفات الأُخر فإن أكثرها قد أُدِّي بصيغة الأمر وليس المنع فيه ظاهراً كما في النهي فيكون تأكيد الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر إذا نسي فليتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال القاسمي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ أي : بوجه من الوجوه : ﴿ إِلَّا بِالَّتِي ﴾ أي : بالخصلة التي : ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يعني أنفع له . كتثميره أو حفظه أو أخذه قرضاً . لا بأكله ، وإنفاقه في مآربكم وإتلافه ، فإنه أفحش . وقد ذكرنا طرفاً فيما رخص فيه لوليّ اليتيم أو وصيه في قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : 6] وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ الآية ، و : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ﴾ [النساء 10] الآية ، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة 220] فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . قيل : إنما خص تعالى مال اليتيم بالذكر ، لكونه لا يدفع عن نفسه ولا عن ماله هو ولا غيره . فكانت الأطماع في ماله أشد . فعزم في النهي عنه لأنه حماه ومقدمته ، وأمر بتنميته ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي : قوته التي يقر بها على حفظه واستنمائه ، وهذا غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي ، كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً . فحينئذ سلموه إليه كما في قوله تعالى : ﴿

فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ . والأشد جمع (شدة) كنعمةً وأنعم ، أو شَدّ ككلب وأكلب ، أو شد كصِرّ وآصُر . وقيل هو مفرد كآنك : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل والتسوية في الأخذ والإعطاء . وقد توعد تعالى على تركه في قوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ

(104/257)

إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : 1 - 6] .

قال ابن كثير : وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال . روى الترمذي عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحاب الكيل والميزان : < إنكم وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم > . ثم ضعفه وصحح وقفة على ابن عباس .

وروى نحوه ابن مردويه مرفوعاً ، ولفظه : < إنكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين ، بهما هلكت القرون المتقدمة : بالمكيال والميزان > .

﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً ﴾ أي : عند الكيل والوزن : ﴿ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي : جهدها بالعدل .

وهذا الاعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل ، لبيان أن مراعاة الحدّ من القسط ، الذي لا

زيادة فيه ولا نقصان ، مما يجري فيه الحرج ، لصعوبة رعايته . فأمر ببلوغ الوسع ، وأن الذي ما وراءه معفوّ عنه . وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ : من أوفى على يده في الكيل والميزان ، والله أعلم بصحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ > .

قال ابن المسيّب : وذلك تأويل (وسعها) .

قال ابن كثير : هذا غريب .

وفي " العناية " : يحتمل رجوع قوله تعالى : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ إلى ما تقدم . أي : جميع ما كلفناكم ممكن ، ونحن لا نكلف ما لا يطاق . انتهى . والأول أولى .

(105/257)

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ أي : في حكومة أو شهادة ونحوهما : ﴿ فَاعْدِلُوا ﴾ أي : فيها أي : لا تقولوا الحق : ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي : المقول له أو عليه : ﴿ ذَا قُرْبَى ﴾ أي : ذا قرابة منكم . فلا تميلوا في القول له أو عليه ، إلى زيادة أو نقصان .

قال بعض الزيدية : معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ أي : اصدقوا في مقالتكم .

قال : وهذه اللفظة من الأمور العجيبة في عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمور كثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك ، وبين أنه يلزم العدل في القول ، ولو كان المقول له ذا قربى . كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء 135] .

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ أي : ما عهد إليكم من الأمور المعدودة ، أو أي : عهد كان . فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أوليّاً . أو ما عاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكر في هذه الآيات : ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ أي : أمركم بالعمل به في الكتاب : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون . وفي قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ تأكيد آخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 548.550 ﴾

(106/257)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

عطف جملة : ﴿ ولا تقربوا ﴾ على الجملة التي فسَّرت فعل : ﴿ أَتْلُ ﴾ [الأنعام :

151] عطف محرّمات ترجع إلى حفظ قواع التّعامل بين النّاس لإقامة قواعد الجامعة الإسلاميّة ومدنيتها وتحقيق ثقة النّاس بعضهم ببعض .

وابتدأها بحفظ حقّ الضّعيف الذي لا يستطيع الدّفع عن حقّه في ماله ، وهو اليتيم ، فقال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ والقِربان كناية عن ملابسة مال اليتيم .

والتّصرّف فيه كما تقدّم آنفاً في قوله : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ [الأنعام : 151] .

ولَمَّا اقتضى هذا تحريم التصرّف في مال اليتيم ، ولو بالخزن والحفظ ، وذلك يعرّض ماله للتّلف ، استُثني منه قوله : ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ أي إلاّ بالحالة التي هي أحسن ، فاسم الموصول صفة لموصوف محذوف يقدّر مناسباً للموصول الذي هو اسم للمؤنَّث ، فيقدر بالحالة أو الخَصلة .

والباء للملابسة ، أي إلاّ ملابسين للخصلة أو الحالة التي هي أحسن حالات القرب ، ولك أن تقدّره بالمرّة من : ﴿ تقربوا ﴾ أي إلاّ بالقَربة التي هي أحسن .

وقد التزم حذف الموصوف في مثل هذا التّركيب واعتباره مؤنَّثاً يجري مجرى المثل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ [المؤمنون : 96] أي بالخصلة الحسنة ادفَعْ السيّئة ، ومن هذا القبيل أنَّهم أتوا بالموصول مؤنَّثاً وصفاً لمحذوف ملتزم الحذف وحذفوا صلته أيضاً في قولهم في المثل : "بعد اللَّتَيَّا والتي" ، أي بعد الدّاهية الحقيرة والدّاهية الجليلة كما قال سُلْمِيّ بنُ ربيعةَ الضبِّي :

ولقد رأبْتُ ثَأى العشيرة بينَها

وكفيتُ جانبها اللَّتيَّا والتِي . . .

و﴿ أحسنُ ﴾ اسم تفضيل مسلوب المفاضلة ، أي الحسنة ، وهي النّافعة التي لا ضرّ فيها لليتيم ولا لِماله .

(107/257)

وإنَّما قال هنا : ﴿ ولا تقربوا ﴾ تحذيراً من أخذ ماله ولو بأقلّ أحوال الأخذ لأنَّه لا يدفع عن نفسه ، ولذلك لم يقل هنا : ﴿ ولا تأكلوا كما قال في سورة البقرة (188) : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ والأشُدّ : اسم يدلّ على قوّة الإنسان ، وهو مشتقّ من الشدّ وهو التوثّق ، والمراد به في هذه الآية ونظائرها ، ممّا الكلام فيه على اليتيم ، بلوغه القوّة التي يخرج بها من ضعف الصّبا ، وتلك هي البلوغ مع صحّة العقل ، لأنّ المقصود بلوغه أهليّة التصرّف في ماله .

وما منع الصّبي من التصرّف في المال إلاّ لضعف في عقله بخلاف المراد منه في أوصاف الرّجال فإنَّه يُعنى به بلوغ الرجل منتهى حدّ القوّة في الرّجال وهو الأربعون سنة إلى الخمسين قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ [الأحقاف : 15] وقال سُحيم

بن وَثيل :

أخُو خمسين مُجتمع أشُدّي

وَنَجّذني مداورة الشُّؤون . . .

والبلوغ : الوصول ، وهو هنا مجاز في التدرّج في أطوار القوّة المخرِجة من وهن الصّبا .

و﴿ حتى ﴾ غاية للمستثنى : وهو القربان بالتي هي أحسن ، أي التصرّف فيه إلى أن يبلغ صاحبه أشدّه أي فيسلم إليه ، كما قال تعالى في الآية الأخرى

﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : 6] الآية .

(108/257)

ووجه تخصيص حقّ اليتيم في ماله بالحفظ : أنّ ذلك الحقّ مظنّة الاعتداء عليه من الولي ، وهو مظنة انعدام المدافع عنه ، لأنَّه ما من ضعيف عندهم إلاّ وله من الأقارب والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجده ، فأمّا اليتيم فإنّ الاعتداء عليه إنَّما يكون من أقرب النّاس إليه ، وهو وليّه ، لأنَّه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلاّ أقرب النّاس إليه ، وكان الأولياء يتوسّعون في أموال أيتامهم ، ويعتدُون عليها ، ويضيعون الأيتام لكيلا ينشأوا نشأة يعرفون بها حقوقهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ [الضحى : 6] لأنّ اليتيم مظنّة

الإضاعة فلذلك لم يوص الله تعالى بمال غير اليتيم ، لأنّ صاحبه يدفع عن نفسه ، أو يستدفع بأوليائه ومنجديه .

﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ .

عطف الأمر بإيفاء الكيل والميزان ، وذلك في التّبايع ، فقد كانوا يبيعون التّمر والزّبيب كيلاً ، وكانوا يتوازنون الذّهب والفضّة ، فكانوا يُطَفّفون حرصاً على الرّبح ، فلذلك أمرهم بالوفاء .

وعدل عن أن يأتي فيه بالنّهي عن التّطفيف كما في قول شعيب : ﴿ ولا تَنقصوا المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] إشارة إلى أنَّهم مأمورون بالحدّ الذي يتحقّق فيه العدل وافياً ، وعدمُ النّقص يساوي الوفاء ، ولكن في اختيار الأمر بالإيفاء اهتماماً به لتكون النّفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التّنقيص ، وفيه تذكير لهم بالسّخاء الذي يتمادحُون به كأنَّه قيل لهم : أين سخاؤكم الذي تتنافسون فيه فهلا تظهرونه إذا كِلْتم أو وزنتم فتزيدوا على العدل بأن توفّروا للمُكتال كرماً بله أن تسرقوه حقّه .

وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها .

والباء في قوله : ﴿ بالقسط ﴾ للملابسة والقسط العدل ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ في سورة آل عمران (18) ، أي أوفوا متلبّسين بالعدل بأن لا تظلموا المكتال حقّه .

لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

ظاهر تعقيب جملة : ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ إلخ بجملة : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أَنَّها متعلّقة بالتي وليتها فتكون احتراساً ، أي لا نكلّفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبّة والذرّة ولكنّا نكلّفكم ما تظنّون أَنَّه عدل ووفاء .

والمقصود من هذا الاحتراسسِ أنّ لا يَترك النّاسُ التّعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة ، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة .

وقد عدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بُنِيَ عليه المقول ابتداء في قوله : ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ [الأنعام : 151] لما في هذا الاحتراس من الامتنان ، فتولّى الله خطاب النّاس فيه بطريق التكلّم مباشرة زيادة في المنّة ، وتصديقاً للمبلّغ ، فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان راجعة إلى حفظ مال المشتري في مظنّة الإضاعة ، لأنّ حالة الكيل والوزن حالة غفلة المشتري ، إذ البائع هو الذي بيده المكيال أو الميزان ، ولأنّ المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون قد يتحمّل التّطفيف ، فأوصِي البائع بإيفاء الكيل والميزان .

وهذا الأمر يدلّ بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال فيما هو أشدّ من التّطفيف ، فإنّ

التّطفيف إن هو إلاّ مخالسة قَدْر يسير من المبيع ، وهو الذي لا يظهر حين التّقدير فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أوْلى بالحفظ ، وتجنّب الاعتداء عليه .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ تذييلاً للجمل التي قبلها ، تسجيلاً عليهم بأنّ جميع ما دُعوا إليه هو في طاقتهم ومكنتهم .

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ في آخر سورة البقرة (286) .

وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ .

(110/257)

هذا جامعٌ كلّ المعاملات بين النّاس بواسطة الكلام وهي الشّهادة ، والقضاء ، والتّعديل ، والتّجريح ، والمشاورة ، والصّلح بين النّاس ، والأخبار المخبِرة عن صفات الأشياء في المعاملات : من صفات المبيعات ، والمؤاجرات ، والعيوب ؛ وفي الوعود ، والوصايا ، والأيمان ؛ وكذلك المدائح والشّتائم كالقذف ، فكلّ ذلك داخل فيما يصدر عن القول .

والعدل في ذلك أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق : بإبطالها ، أو إخفائها ، مثل كتمان عيوب المبيع ، وادّعاء العيوب في الأشياء السّليمة ، والكذب في الأثمان ، كأن

يقول التّاجر : أُعطيت في هذه السلعة كذا ، لثمن لمْ يُعْطَه ، أو أنّ هذه السّلعة قامتْ علي بكذا .

ومنه التزام الصّدق في التّعديل والتّجريح وإبداء النّصيحة في المشاورة ، وقول الحقّ في الصّلح .

وأمّا الشّهادة والقضاء فأمر العدل فيهما ظاهر ، وإذا وَعَد القائل لا يُخلِف ، وإذا أوْصَى لا يظلم أصحابَ حقوق الميراث ، ولا يحلف على الباطل ، وإذا مدحَ أحداً مدحه بما فيه ، وأمَّا الشّتم فالإمساك عنه واجب ولو كان حقّاً فذلك الإمساك هو العدل لأنّ الله أمر به .

وفي التّعليق بأداة الشّرط في قوله : ﴿ وإذا قلتم ﴾ إشارة إلى أنّ المرء في سعة من السكوت إن خشي قولَ العدل .

وأمَّا أن يقول الجور والظّلم والباطل فليس له سبيل إلى ذلك ، والكذب كلّه من القول بغير العدل ، على أنّ من السكوت ما هو واجب .

وفي "الموطأ" أنّ رجلاً خطب إلى رجل أختَه فذكر الأخُ أنَّها قد كانت أحدثَتْ فبلغ ذلك عُمر بن الخطّاب فضربه أو كاد يضربه ثمّ قال : "مَالَك ولِلْخَبَر" .

(111/257)

والواو في قوله : ﴿ ولو كان ﴾ واو الحال ، ولو وصلية تفيد المبالغة في الحال التي من شأنها أن يظُنّ السّامع عدمَ شمولِ الحكم إيّاها لاختصاصها من بين بقيّة الأحوال التي يشملها الحكم ، وقد تقدّم بيانها عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران (91) ، فإنّ حالة قرابة المقولِ لأجله القولُ قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل ، لنفع قريبه أو مصانعته ، فنبّهوا على وجوب التزام العدل في القول في تلك الحالة ، فالضّمير المستتر في (كان) كائد إلى شيء معلوم من الكلام : أي ولو كان الذي تعلّق به القول ذا قربى .

والقربى : القرابة ويُعلم أنَّه ذو قرابة من القائل ، أي إذا قلتم قولاً لأجله أو عليه فاعدلوا ولا تقولوا غير الحقّ ، لا لدفع ضرّه بأن تغمصوا الحقّ الذي عليه ، ولا لنفعه بأن تختلقوا له حقّاً على غيره أو تبرءوه ممّا صدر منه على غيره ، وقد قال الله تعالى في العدل في الشّهادة والقضاء : ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [النساء : 135] .

وقد جاء طلب الحقّ في القول بصيغة الأمر بالعدل ، دون النّهي عن الظلم أو الباطل : لأنَّه قيّده بأداة الشّرط المقتضي لصدور القول : فالقول إذا صدر لا يخلو عن أن يكون حقّاً أو باطلاً ، والأمر بأن يكون حقّاً أوفَى بمقصد الشّارع لوجهين : أحدهما : أنّ الله يحبّ إظهار الحقّ بالقول ، ففي الأمر بأن يكون عدلاً أمر بإظهاره ونهي عن السّكوت بدون موجب .

الثّاني : أنّ النّهي عن قول الباطل أو الزّور يصدق بالكلام الموجَّه الذي ظاهره ليس بحقّ ، وذلك مذموم إلاّ عند الخوف أو الملاينة ، أو فيما لا يرجع إلى إظهار حقّ ، وتلك هي المعاريض التي ورد فيها حديث : " إنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب " .

ختم هذه المتلوات بالأمر بإيفاء العهد بقوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ .

(112/257)

وعهد الله المأمور بالإيفاء به هو كلّ عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة ، إذ الإضافة هنا يصحّ أن تكون إضافة المصْدر إلى الفاعل ، أي ما عهد اللَّهُ به إليكم من الشّرائع ، ويصحّ أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله ، أي ما عاهدتم الله أن تفعلوه ، والتزمتموه وتقلّدتموه ، ويصحّ أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة ، أي العهد الذي أمر الله بحفظه ، وحذر من خترة ، وهو العهود التي تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد .

ولأجل مراعاة هذه المعاني النّاشئة عن صلاحيّة الإضافة لإفادتها عُدِل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل ، بأن يقال : وبما عاهدتم الله عليه ، أو نحن ذلك ما لا يحتمل إلاّ معنى واحداً .

وإذْ كان الخطاب بقوله : ﴿ تعالوا ﴾ [الأنعام : 151] للمشركين تعيّن أن يكون العهد شيئاً قد تقرّرت معرفته بينهم ، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاة والصّلح أو نحو ذلك فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه .

وأضيف إلى الله لأنَّهم كانوا يتحالفون عند التّعاقد ولذلك يسمّون العهد حِلْفاً ، قال الحارث بن حلِّزة :

واذْكروا حِلْف ذي المجاز وما

قُدم فيه العهودُ والكفلاء . . .

وقال عمرو بن كلثوم :

ونُوجد نحن أمنعَهم ذماراً

وأوفاهم إذا عقَدوا يميناً . . .

فالآية آمرة لهم بالوفاء ، وكان العرب يتمادحون به .

(113/257)

ومن العهود المقرّرة بينهم : حلف الفضول ، وحلف المطيَّبين ، وكلاهما كان في الجاهليّة على نفي الظّلم والجور عن القاطنين بمكّة ، وذلك تحقيق لعهد الله لإبراهيم عليه السّلام أن

يجعل مكّة بلداً آمناً ومن دخله كان آمناً ، وقد اعتدى المشركون على ضعفاء المؤمنين وظلموهم مثلِ عمار ، وبلال ، وعامر بن فهيرة ، ونحوهم ، فهو يقول لهم فيما يتلو عليهم أنّ خفر عهد الله بأمان مكّة ، وخفر عهودكم بذلك ، أولى بأن تحرّموه من مزاعمكم الكاذبة فيما حرّمتم وفصّلتم ، فهذا هو الوجه في تفسير قوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ .

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بأمر العهد وصرف ذهن السّامع عند ، ليتقرّر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء ، أي إن كنتم تَرَون الوفاء بالعهد مدحة فعهد الله أولى بالوفاء وأنتم قد اخترتموه ، فهذا كقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ ثمّ قال ﴿ وصَدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ [البقرة : 217]

﴿ ذلكم وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

تكرار لقوله المماثل له قبله ، وقد علمت أنّ هذا التّذييل ختم به صنف من أصناف الأحكام .

وجاء مع هذه الوصيّة بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ لأنّ هذه المطالب الأربعة عرف بين العرب أنَّها محامد ، فالأمر بها ، والتّحريض عليها تذكير بما عرفوه في شأنها ولكنّهم تناسوه بغلبة الهوى وغشاوة الشّرك على قلوبهم .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر ، وأبو جعفر ،

ويعقوبُ : تذّكرون بتشديد الذال لإدغام التّاء الثّانية في الذال بعد قلبها ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ، وخلَف بتخفيف الذال على حذف التّاء الثّانية تخفيفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(114/257)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا في الإنسان ، أما اليتيم في الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . . ﴾ [الأنعام : 152]

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك ألا تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ . لا ؛ لأنه اضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ أي بأن تثمر له ماله تثمرا يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال في موضع آخر : ﴿ وارزقوهم فيها . . . ﴾ [النساء : 5]

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءا حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أو ضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أي ارزقوهم رزقا ناشئا منها . فما لهم ظرفية للرزق ، ولا يتأتى هذا إلا بأن تنموها لليتيم ، ولا نحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب الكفاءات في إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفء في إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال – سبحانه – في ذلك : ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف . . . ﴾ [النساء : 6]

(115/257)

أي أن يهب الوصي تلك الرعاية الله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجرا ؛ يضمن أنه إن وجد في ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعا منه مدخرا أجره عند الله . والحق هو القائل : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾ [النساء : 9]

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره

؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالا صغارا ، ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرما ، ووجده آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم في رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أي يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيماني كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعا بقدر الله في خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولادا . والمثل واضح في سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرا على قرية :

﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها . . . ﴾ [الكهف : 77]

(116/257)

فلم طلبا نقودا ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاما لسد الجوع ، وهذه حاجة ملحة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك أنها قرية لئيمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد ردهم علية وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جدار ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ، وكأن الجدار له إدارة ، فأقام

الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذي تحته وهو ليتمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار لغلامين يتمين في المدينة . ﴿ فأراد ربك أن يبلغا آشدهما ويستخرجا كنزهما . . . ﴾ [الكهف : 82]

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقوتا ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحثيثة لكل ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ وكان أبوهما صالحا . . . ﴾ [الكهف : 82]

فكأن صلاح الأب هو الذي أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتي العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاما ، فلا يطعمونهما ، فيبني العبد الصالح الجدار الموقوت الذي يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا

بالتي هي أحسن . . ﴾ [الأنعام : 152]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه .

(117/257)

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه : ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ [النساء : 6]

وكلمة ﴿ فليأكل بالمعروف ﴾ أي لا يكنز ولا يدخر منه أبدا ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسي ما يستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضا لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق في أدائه البياني حيث يؤدي اللفظ ما يوحي بالمعاني الواسعة : ﴿ ولا تؤتوا السفهآء أموالكم ﴾ [النساء : 5]

وجعل الحق مال السفيه في مرتبة مال الولي ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها .

ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق : ﴿ فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : 6]

إنه أداء قرآني عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو في سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أمينا عليه أمانتك على مالك .

وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذي لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا " " وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل " .

(118/257)

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلا على أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة . ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ [الأنعام : 152]

لم يقل الله – سبحانه – بالتي هي حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعني أن اليتيم صارت له ذاتية

مستقلة ، وما المعيار في الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادرا على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج ، مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أي صارت البذرة التي فيها صالحة لأن نضعها في الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوي البذرة وتنضج .

و" الأشد " أي أن الإنسان يصير قادرا على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضا قادرا على حسن التصرف في المال وفي كل شيء . ويتابع سبحانه : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ [الأنعام : 152]

والكيل هي المعايير لما يكال حجما ، والموازين هي المعايير لما يقدر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضا التقديرات العادلة في القياس ، للأقمشة مثلا ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شيء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أي بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان كبير ؛ لأن فرق الميزان يكون حول الكيلو جرام ، فالأمر حينئذ يكون مقبولا . وحين نزن أشياء أثمن قليلا ، نأتي بالميزان الدقيق . فإن كان الشيء الموزون ذهبا نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن .

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها . وحين نزن المواد الكيماوية نأتي بميزان يعمل بالذرة .

إذن موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره ؛ لأن تحقيق العدالة في الميزان مسألة صعبة ، وكذلك الأمر في الكيل . فحين يكيل الإنسان كيلا يمسك إناء الكيلة ويهزه ؛ حتى يأتي الميكال دقيقا محررا ، وإن أراد أن يلغي ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع . وربنا يقول : ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين : 1-3] فحين يكتال يستوفى ويطفف أي يزيد ما سوف يأخذه شراء ، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمنا أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل . وأصل المبادلات غالبا بين طرفين ، وبعض المتنطعين يقول : كيف يقول الحق : ﴿ ويل للمطففين ﴾ والتطفيف في أي مسألة يكون بالزيادة ، لا بالنقص . ونقول : انتبه إلى أن المتحدث هو الله ، والتطفيف يزيد طرفا وينقص من طرف ، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء . فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفي لنفسه فهو مطفف .

ولذلك تأتي دقة الأداء القرآني من ربنا : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها . . ﴾ [الأنعام : 152]

(120/257)

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته في التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمرا يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل في الاستطاعة ؛ ففي ضبط المكيال والميزان قال : ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل في نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التي نعلمها إن كانت من الأشياء التي ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت في المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة او الناقصة التي لا تدخل في الاستطاعة ، ثم قال سبحانه : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى . . ﴾ [الأنعام : 152]

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، ينفعل للمطلوب فيها خبرا

أو إنشاء ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول ؟ أو العدل أيضا يكون في الفعل ؟ إن العدل قد يكون في خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل في قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى في أعمالك الخاصة الأخرى .

(121/257)

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شيء في نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قله بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يزهد في الحركة لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة

بقدر ما يعمل اتزنت كل الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذي يؤثر في العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقا بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت – والعياذ بالله – باطلا ، أن تسعد ذا قرباك ، وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضي أن تمنع عنه كل شيء محرم وتحمي عرضه ، وتحمي دينه قبل أن تحمي مصلحته في النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت في الواقع حكمت عليه لا له . ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ [الأنعام : 152]

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يعتبر عهدا داخلا في إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكما أو يبينه لمكلف إلا بعد أن يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا . . . ﴾ [المائدة : 1]

أي يا من آمنت بالعهد الأصيل في القيم وهو العقيدة ، وآمنت بي إلها : خذ التكليف مني ؛ لأنك قد دخلت معي في عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافرا به ، إنما يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن في كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذي أمرك ان تفعل كذا ، فعلة كل هي الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [الأنعام : 152]

و" ذلكم " إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ [الأنعام : 151]

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ [الأنعام : 152]

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم احكاما كثيرة جدا ، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع .

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات : " إنها محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار "

.

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودي الذي أسلم وهو كعب الأحبار : " والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هي جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرت ؛ خمسا منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعا قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هي الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنها قوله الحق : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(123/257)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ [152] قال : تكلم أهل الصدق على أربعة أوجه ، قوم تكلموا في الله وبالله ولله ومع الله ، وقوم تكلموا في أنفسهم لأنفسهم فسلموا من آفة الكلام وقوم تكلموا في الخلق ونسوا أنفسهم وابتدعوا وضلوا ، وبئس ما صنعوا إلى أنفسهم . فاتركوا الكلام للعلم ، ثم تكلموا على الضرورة تسلموا من آفات الكلام . يعني أن لا تتكلم

حتى تخاف من الإثم . ثم قال : من ظن [ظن السوء] حرم اليقين ، ومن تكلم بما لا يعنيه حرم الصدق ، ومن شغل جوارحه في غير الله حرم الورع ، فإذا حرم العبد هذه الثلاث هلك ، وهو مثبت في ديوان الأعداء . وقد حكي عن الربيع بن خيثم رحمه الله أنه قال : ما أنا عن نفسي براض فأتفرغ من ذم نفسي إلى ذم الناس ، خافوا الله في ذنوب العباد ، وتواثبوا في ذنوب أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 63 ﴾

(124/257)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) ﴾

أخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتماً فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى قوله ﴿ لعلهم يتقون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى ثلاث آيات ، ثم قال فمن وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر عن منذر الثوري قال : قال الربيع بن خيثم : أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد صلى الله عليه وسلم بخاتم ؟ قلت : نعم فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى آخر الآيات .

(125/257)

وأخرج ابن شيبة وابن الضريس وابن المنذر عن كعب قال : أول ما نزل من التوراة عشر آيات ، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى آخرها .

وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار قال : سمع كعب رجلاً يقرأ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ﴾ فقال كعب : والذي نفس كعب بيده أنها لأوّل آية في التوراة ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى آخر الآيات .

وأخرج ابن سعد عن مزاحم بن زفر قال : قال رجل للربيع بن خيثم : أوصني . قال : ائتني بصحيفة ، فكتب فيها ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ الآيات . قال إنما أتيتك لتوصيني ؟ ! قال : عليك بهولاء .

(126/257)

وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب قال " لما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وأبو بكر ، وكان أبو بكر رجلاً نسابة ، فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى ، فسلم عليهم وردوا

السلام ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق ، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً ، فالتفت إلى رسول الله صلى عليه وسلم فقال له : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واني رسول الله ، وإن تأووني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد . قال له : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ﴾ إلى قوله ﴿ تتقون ﴾ فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإِحسان ﴾ [النحل : 90] الآية . فقال له مفروق : دعوت والله يا قريشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ؟ وقال هانىء بن قبيصة : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ، ويعجبني ما تكلمت به ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم يعني أرض فارس

وأنهار كسرى ويفرشكم بناتهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿

(127/257)

إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب : 45] الآيه . ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضاً على يد أبي بكر " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ قال : من خشية الفاقة . قال : وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبا ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ قال : سرها وعلانيتها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ قال : خشية الفقر ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه في العلانية ، فحرَّم الله الزنا في السر والعلانية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ﴾ قال : العلانية ﴿ وما بطن ﴾ قال : السر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أرأيتم الزاني والسارق وشارب الخمر ما تقولون فيهم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هن فواحش وفيهن عقوبة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حازم الرهاوي أنه سمع مولاه يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

" مسئلة الناس من الفواحش " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن جابر قال : بلغني من الفواحش التي نهى الله عنها في كتابه تزويج الرجل المرأة ، فإذا نفضت له ولدها طلقها من غير ريبة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ﴾ قال : نكاح الأمهات والبنات ﴿ وما بطن ﴾ قال : الزنا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ﴾ قال : ظلم الناس ﴿ وما بطن ﴾ قال : الزنا والسرقة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ولا تقتلوا النفس ﴾ يعني نفس المؤمن التي حرم الله قتلها إلا بالحق .

وأخرج أحمد والنسائي وابن قانع والبغوي والطبراني وابن مردويه عن سلمة بن قيس الأشجعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع " ألا إنما هي أربع : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا ، فما أنا بأشح عليهن مني إذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية في قوله ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال طلب التجارة فيه والربح منه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال : يبتغي لليتيم في ماله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال : التي هي أحسن أن يأكل بالمعروف ، إن افتقر وإن واستغنى فلا يأكل . قال الله ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ [النساء : 6] فسئل عن الكسوة ؟ فقال : لم يذكر الله كسوة وإنما ذكر الأكل .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ قال : ليس له أن يلبس من ماله قلنسوه ولا عمامة ولكن يده مع يده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ قال : الأشد الحلم إذا كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن قيس في قوله ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ قال : خمس عشرة سنة .

وأخرج أبو الشيخ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن . أنه كان يقول في هذه الآية : الأشد الحلم لقوله ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ [النساء : 6] .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : الأشد : الحلم .

(129/257)

وأخرج ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ فقال : من أوفى على يديه في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ ، وذلك تأويل وسعها .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ يعني العدل ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ يعني إلا طاقتها .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ بالقسط ﴾ قال : بالعدل .

وأخرج الترمذي وضعفه وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا معشر التجار إنكم قد وليتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم : المكيال والميزان " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما نقص قوم المكيال والميزان إلا سلط الله عليهم الجوع " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ قال : قولوا الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ يعني ولو كان قرابتك فقل فيه الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(130/257)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

هذا استثناء مُفَرّغ أي : لا تَقْرَبُوه إلا بالخَصْلَة الحُسْنَى ، فيجُوز أن يَكُون حالاً ، وأن يَكُون

نَعْتَ مَصْدَر ، وأتى بصيغة التَّفْضِيل ؛ تنبيهاً على أنَّه يتحرَّى في ذلك ، ويَفْعَل الأحْسَن ولا يَكْتَفي بالحَسَن .

قوله : " حَتَّى يَبْلُغ " هذه غاية من حَيْث المَعْنَى ، فإن المَعْنى : احْفَظُوا ماله حتى يَبْلُغَ أشُدَّهُ ، [ولو جَعلْنَاه غاية للَّفْظِ ، كان التقدير : لا تَقْرَبُوه حتى يَبْلُغ] فاقربوه ، ولَيْس ذلك مُرَاداً .

قال القرطبي : " وليس بُلُوغ الأشُدّ مما يُبِيحُ به قُرْب ماله بغير الأحْسَن ؛ لأن الحُرْمَة في حقّ البَالِغ ثابِتَةٌ ، وخصَّ اليتيم بالذّكر ؛ أن خَصِيمَهُ الله – تعالى – والمعنى لا تَقْرَبُوا مال اليَتيم إلا بالَّتِي هي أحْسَن على الأبَدِ حَتّى يَبْلُغ أشُدَه ، وفي الكلام حَذْف تقديره : فإذا بَلَغَ أشُدَّه وأنِس منه الرُّشْد ، فادْفَعُوا إليه مَاله " .

والأشُدُّ : اختلف النَّحْوِيُّون فيه على خمسة أوجه :

فقال الفرَّاء : " هو جمع لا وَاحِد له ، والأشُدُّ واحدُها " شَدٌّ " في القياس ، ولم أسْمَع لها بِوَاحِدٍ " .

وقيل : هو مُفْرَدٌ لا جمع ، نقل ابن الأنْبَاري ذلك عن بعض أهْل اللَّغَة ، وأنه بِمَنْزلة " الآنُك "

ونقل أبو حيَّان عنه : أن هذا الوَجْه مُخْتَاره في آخرين ، ثم قال : " ولَيْ بمختارٍ ؛ لفقدان أفْعُل في المُفْرَدَات وضعاً " .

وقيل : هو جَمْع " شدَّة " و " فِعْلَة " يُجْمَع على أفْعُل " ؛ كنِعْمَة وأنْعُم ، قال أبو الهَيْثَم ، وقال : و " كأن الهَاءَ في الشِّدَة والنِّعْمَة لم تكن في الحَرْف ، إذا ان زَائِدَة ، وكان الأصل نِعْم وشِدّ

فَجُمِعَا على " أَفْعُل " ؛ كما قالوا : رِجْل وأَرْجُل ، وقِدْح وأَقْدُح ، وضِرْس وأَضْرُس " .

وقيل : هو جمع شُدّ [بضم الشّين نقله ابن الأَنْبَاري عن بعض البَصْرِيّين ؛ قال : كقولك : هو وُدٌّ ، وهم أُودٌّ] .

(131/257)

وقيل : هو جمع شَدّ بفتحها ، وهو مُحْتَمل .

والمراد هُنَا ببلوغ الأشد : بُلُوغ الحُلُم في قَوْل الأَكْثَرِ ؛ لأنه مَظِنّة ذلك .

وقيل : هو مَبْلَغ الرِّجَال من الحِيلة والمَعْرِفة .

وقيل : هو مَبْلَغ خمسة عشر إلى ثلاثين .

وقيل : أن ثلاثة وثلاثين .

وقيل : أَرْبَعِين .

وقيل : سِتّين ، وهذه لا تَلِيق بهذه الآيةِ ، إنما تليق بقوله – تعالى – : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : 15] وتقدم منه طرف في النساء .

والأَشُدُّ مشتق من الشِّدَّة ؛ وهي القُوَّة والجلادة ، وأنشد الفرّاء – رحمه الله تعالى – : [البسيط]

2382 - قَدْ سَادَ وهو فَتًى حَتَّى إذَا بَلَغَتْ . . .

أشُدُّهُ وعَلاَ فِي الأمْرِ واجْتَمَعَا

وقال الآخرُ في ذلك : [الكامل]

2383 - عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارُ كأَنَّمَا . . .

خُضِبَ البَنَانُ ورَأسُهُ بِالعظْلِمِ

قوله : " وأوفُوا الكَيْلَ والمِيزانَ " " الكيل والميزان " هما الآلة التي يُكال بها ويُوزَن ، وأصْل الكَيْل : المصْدَر ثم أطْلِق على الآلة ، و" الميزان " : مِفْعَال من الوزن لهذه الآلةِ ؛ كالمِصْبَاح والمقياس لِمَا يُسْتَصْبَحُ به ، وما يُقاسُ به ، وأصل ميزان : مِوْزان فَفُعِلَ به ما فُعِلَ بميقاتٍ ، وقد تقدم في البقرة .

و" بِالقِسْطِ " حال من فَاعِل " أوْفُوا " أي : أوْفُوهُمَا مقسطين ، أي : مُتَلَبِّسِين بالقِسْط ، ويجُوز أن يكون حالاً من المفعُول ، أي : أوْفُوا الكَيْل والميزان مُتَلَبِّسِين بالقِسْطِ ، أي : تَامِّين ، والقِسْط العدل .

(132/257)

وقال أبو البقاء : " والكَيْل هنا مَصْدر في مَعْنَى المَكِيل ، وكذلك الميزان ، ويجُوز أن يكون فيه حَذْفُ مُضَافٍ ، تقديره : مَكِيل الكَيْلِ ومَوْزُونُ المِيزانِ " ، ولا حاجة إلى ما ادّعَاء من وُقُوع المصدر موقع اسْمِ المفعُول ، ولا من تقدير المضاف ؛ لأن المعنى صحيح بدُونهما ، وأيضاً ف " ميزن " ليس مصدراً ، إلا أنه يُعَضّد قوله ما قاله الوَاحِديُّ ، فإن قال : " والميزن ، أي : وزن الميزان ؛ لأن المُرَاد إتْمَام الوَزْن ، لا إتمام الميزان ؛ كما أنَّه قال : " وأوْفوا الكَيْل " ولم يقل المِكْيَال ، فهو من باب حَذْف المُضَافِ " انتهى .

والظَّاهر عدم الاحْتِيَاج إلى ذلك ، وكأنَّه لم يَعْرِف أن الكَيْل يُطْلَق على نَفْس المِكْيَال ، حتى يقول : " ولم يقل المكيال " .

قوله : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسا ﴾ مُعْتَرض بين هذه الأوَامِر ، واعلم أنَّ كُلَّ شيء بلغ تمام الكمال فقد وفى وتَمَّم ، يقال : درْهَم وافٍ وكيل وافٍ ، وأوْفَيْتُه ، إذا أتممته ، وأوْفَى الكيل ، إذا أتَمَّهُ ولم يَنْقُص منه شَيْئاً ، وكذلك وَفَى المِيزَان .

وقوله : " بالقسط " أي : بالعَدْل لا بخْس ولا نُقْصَان فيه .

قوله : " وبِعَهْد اللَّهِ " يجُوز أن يكُون من باب إضافَةِ المصدر لفاعله ، أي : بما عَاهَدَهكم اللَّهُ عليه ، وأن يكُون [مُضافاً لمفعُوله ، أي : بما عاهدتم اللَّه عليه ؛ كقوله : ﴿ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 23] ﴿ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ﴾ [الفتح : 10] وأن تكون] الإضافة لمجرد البيان ، أُضِيفَ إلى اللَّه – تعالى – من حَيْثُ إنه الآمِر بحِفْظِهِ والمراد

به العَهْد الواقع بين الآيتَيْن .

فإن قيل : ما السَّبَبُ في أن خَتْمَ الآية الكريمة بقوله : " تَذَكَّرُون " وخاتمة الأولى " تَعْقِلُونَ " .

(133/257)

فالجواب لأن الأربعة قَبْلَها خَفِيَّة ، تحتاج إلى إعمال فِكْر ونظر ، حتى يقف مُتَعاطيها على العَدْل ، فناسبها التذكير ، وهذا بخلاف الخمسة الأشياء فإنها ظاهرة تعلقها وتَفْهَمُها ؛ فلذلك ختمتْ بالفعل .

" تَذَكَرُون " حيث وَقَع ، يقرؤه الأخوان وعَاصِم في رواية حَفْص بالتَّخْفِيف ، والباقون بالتَّشْدِيد ، والأصْل : " تَتَذَكَّرُون " فمن خَفَّف ، حذف إحْدى التَّاءَيْن ، وهل هِي تاءُ المُضراعة أو تاء التَّفْعُل ؟ خلاف مَشْهُور ، ومن ثقَّل ، أدْغَم التَّاء في الدَّال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 515.511 ﴾ . باختصار .

(134/257)

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر هذه الشرائع ، نبه على تعظيمها بالخصوص على وجه يعم جميع ما ذكر في السورة بل وفي غيرها ، فقال عاطفاً على ما تقديره – عطفاً على المنهيات وأضداد المأمورات على وجه يشمل سائر الشريعة – : ولا تزيغوا عن سبيلي : ﴿ وأن ﴾ أي ولأن – على قراءة الجماعة بالفتح ، أي اتبعوه لذلك ، وعلى قراءة ابن عامر ويعقوب بالكسر هو ابتداء ﴿ هذا ﴾ أي الذي شرعته لكم ﴿ صراطي ﴾ حال كونه ﴿ مستقيماً فاتبعوه ﴾ أي بغاية جهدكم لأنه الجامع للعباد على الحق الذي فيه كل خير .

ولما كان الأمر باتباعه متضمناً للنهي عن غيره ، صرح به تأكيداً لأمره فقال : ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ أي المنشعبة عن الأهوية المفرقة بين العباد ، ولذا قال مسبباً ﴿ فتفرق بكم ﴾ أي تلك السبل الباطلة ﴿ عن سبيله ﴾ ولما مدحه آمراً به ناهياً عن غيره مبيناً للعلة في ذلك ، أكد مدحه فقال : ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم من اتباعه ﴿ وصّاكم به ﴾ .

ولما كان قد حذر من الزلل عنه ، وكان من المعلوم أن من ضل عن الطريق الأقوم وقع في المهالك ، وكان كل من يتخيل أنه يقع في مهلك يخاف ، قال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي اتبعوه

واتركوا غيره ليكون حالكم حال من يرجى له أن يخاف من أن يزل فيضل فيهلك ، وهذا كما مدحه سبحانه سابقاً في قوله ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ [الأنعام : 126] ، ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ [الأنعام : 126] وفصل ما هنا من الأحكام في ثلاث آيات ، وختم كل آية لذلك بالوصية ليكون ذلك آكد في القول فيكون أدعى للقبول ، وختم كل واحدة منها بما ختم لأنه إذا كان العقل دعا إلى التذكير فحمل على التقوى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 743 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر ﴿ وَأَنَّ هذا ﴾ بفتح الألف وسكون النون وقرأ حمزة والكسائي ﴿ وَأَنْ ﴾ بكسر الألف وتشديد النون أما قراءة ابن عامر فأصلها ﴿ وإِنَّهُ هذا صراطي ﴾ والهاء ضمير الشأن والحديث وعلى هذا الشرط تخفف .

قال الأعشى :

في فتية كسيوف الهند قد علموا . . أن هالك كل من يحفى وينتعل

أي قد علموا أنه هالك ، وأما كسر ﴿ إن ﴾ فالتقدير ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ ﴾ [الأنعام : 151] وأتل ﴿ أَنَّ هَذَا صراطي ﴾ بمعنى أقول وقيل على الاستئناف .

وأما فتح أن فقال الفراء فتح ﴿ أن ﴾ من وقوع أتل عليها يعني وأتل عليكم ﴿ أَنَّ هَذَا

صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ قال : وإن شئت جعلتها خفضاً والتقدير ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ وبأن هذا صراطي .

قال أبو علي : من فتح ﴿ أن ﴾ فقياس قول سيبويه أنه حملها على قوله : ﴿ فاتبعوه ﴾ والتقدير لأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه كقوله : ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ [المؤمنون : 52] وقال سيبويه لأن هذه أمتكم ، وقال في قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ [الجن : 18] والمعنى ولأن المساجد لله .

فائدة :

(135/257)

القراء أجمعوا على سكون الياء من ﴿ صراطي ﴾ غير ابن عامر فإنه فتحها وقرأ ابن كثير وابن عامر ﴿ سراطي ﴾ بالسين وحمزة بين الصاد والزاي والباقون بالصاد صافية وكلها لغات قال صاحب "الكشاف" : قرأ الأعمش ﴿ وهذا صراطي ﴾ وفي مصحف عبد الله ﴿ وهذا صراط ربِّكُمْ ﴾ وفي مصحف أبي ﴿ وهذا صراط ربّكَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 3 ﴾ . بتصرف يسير .

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى لما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به أجمل في آخره إجمالاً يقتضي دخول ما تقدم فيه ، ودخول سائر الشريعة فيه فقال : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ فدخل فيه كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم ، فاتبعوا جملته وتفصيله ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خط خطاً ، ثم قال : " هذا سبيل الرشد ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ، ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ؟ " ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه ﴾ وعن ابن عباس هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار .

ثم قال : ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ أي بالكتاب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي والضلالات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 4 ﴾

(136/257)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾

قرأ حمزة والكسائي وإن هذا بكسر الألف على معنى الابتداء .

وقرأ الباقون بالنصب على معنى البناء .

وقرأ ابن عامر ﴿ وَأَنَّ هذا ﴾ بجزم النون .

لأن أن إذا خففت منعت عملها .

ومعنى الآية : إن هذا الإسلام ديني الذي ارتضيته طريقاً مستقيماً ﴿ فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ يعني : لا تتبعوا اليهودية والنصرانية .

ويقال : هذا صراطي مستقيماً .

يعني : طريق السنة والجماعة فاتبعوه ولا تتبعوا السبل يعني : الأهواء المختلفة .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي عليه السلام خطَّ بالأرض خطاً مستقيماً ، ثم خطّ بجنبيه خطوطاً ، ثم قال : هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل يعني : الطريق الذي بجنبي الخط ، يعني به : الأهواء المختلفة .

ثم قال : ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ يعني : فيضلكم عن دينه ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يعني يجتنبون الأهواء المختلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَأَنَّ هذا ﴾ يعني وصّاكم به في هاتين الآيتين ﴿ صِرَاطِي ﴾ طريقي وديني ﴿ مُسْتَقِيماً ﴾ مستوياً قويماً ﴿ فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ يعني الطرق المختلفة التي عداها مثل اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿ فَتَفَرَّقَ ﴾ فيمتدّ وتخالف [وتشتت] ﴿ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ عن طريقه ودين النبيّ الذي ارتضى وبها وصّى ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذكرت ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : القرآن .

والثاني : الشرع وسُمِّيَ ذلك صراطاً ، والصراط هو الطريق لأنه يؤدي إلى الجنة فصار طريقاً إليها .

﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ يعني في العمل به .

(137/257)

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما تقدم من الكتب المنزلة نسخها بالقرآن ، وهو محتمل .

والثاني : ما تقدم من الأديان المتقدمة نسخها بالإسلام وهو محتمل .

والثالث : البدع والشبهات .

﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ يعني عن طريق دينه .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن يكون سبيله نصرة دينه وجهاد أعدائه ، فنهى عن التفرق وأمر بالاجتماع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾

(138/257)

الإشارة هي إلى الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بجملته ، وقال الطبري : الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله ﴿ قل تعالوا أتل ﴾ [الأنعام : 151] قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو " وأنّ هذا " بفتح الهمزة وتشديد النون " صراطي " ساكن الياء وقرأ حمزة والكسائي " وإنّ " بكسر الألف وتشديد النون ، وقرأ عبد الله بن

أبي إسحاق وابن عامر من السبعة " وأنْ " بفتح الهمزة وسكون النون " صراطيَ " مفتوح الياء ، فأما من فتح الألف فالمعنى عنده كأنه قال ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، أي اتبعوه لكونه كذا وتكون الواو على هذا إنما عطفت جملة ، ويصح غير هذا أن يعطف على ﴿ أن لا تشركوا ﴾ وكأن المحرم من هذا اتباع السبيل والتنكيب عن الصراط الأقوم ، ومن قرأ بتخفيف النون عطف على قوله ﴿ أن لا تشركوا ﴾ ومذهب سيبويه أنها المخففة من الثقيلة ، وأن التقدير وأنه هذا صراطي ، ومن قرأ بكسر الألف وتشديد النون فكأنه استأنف الكلام وقطعه من الأول ، وفي مصحف ابن مسعود " وهذا صراطي " بحذف أن ، وقال ابن مسعود إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد عليه السلام وشرعه ونهايته الجنة ، وتتشعب منه طرق فمن سلك الجادة نجا ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار وقال أيضاً خط لنا الرسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطاً ، فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية .

(139/257)

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذه الآية تعلم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد وتقدم القول في ﴿ ذلك وصاكم ﴾ ، وفي قوله ﴿ لعلكم ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة لعلكم تعقلون ، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر ، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل ، وتلك درجة التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : و"أنّ" بفتح الألف مع تشديد النون .

قال الفراء : إن شئت جعلت "أن" مفتوحة بوقوع "أتل" عليها ، وإن شئت جعلتها خفضاً ، على معنى : ذلكم وصاكم به ، وبأن هذا صراطي مستقيماً .

وقرأ ابن عامر بفتح الألف أيضاً ، إلا أنه خفف النون ، فجعلها مخففة من الثقيلة ، وحكم إعرابها حكم تلك .

وقرأ حمزة ، والكسائي : بتشديد النون مع كسر الألف .

قال الفراء : وكسر الألف على الاستئناف .

وفي الصراط قولان .

أحدهما : أنه القرآن .

والثاني : الإسلام .

وقد بينا إعراب قوله : "مستقيماً" أيضاً .

فأما "السُّبُل" ، فقال ابن عباس : هي الضلالات .

وقال مجاهد : البدع والشبهات .

وقال مقاتل : أراد ما حرَّموا على أنفسهم من الأنعام والحرث .

﴿ فتفرَّقَ بكم عن سبيله ﴾ أي : فتضلِّكم عن دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه ﴾

هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم ؛ فإنه لما نهى وأمر حذّر هنا عن اتباع غير سبيله ، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف .

"وأنّ" في موضع نصب ، أي وأتل أن هذا صراطي ؛ عن الفراء والكسائيّ .

قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضاً ، أي وصّاكم به وبأن هذا صراطي .

وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطي ؛ كما قال : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ [الجن : 18] وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي "وإنّ هذا" بكسر الهمزة على الاستئناف ؛ أي الذي ذكر في هذه الآيات صراطي مستقيماً .

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب "وأنْ هذا" بالتخفيف .

والمخففة مثلُ المشدّدة ، إلا أن فيه ضمير القصة والشان ؛ أي وأنه هذا .

فهي في موضع رفع .

ويجوز النصب .

ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ؛ كما قال عز وجل : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير ﴾ [يوسف : 96] والصراط : الطريق الذي هو دين الإسلام .

﴿ مُسْتَقِيماً ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه .

فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايته الجنة .

وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار .

قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي تميل .

روى الدّارميّ أبو محمد في مسنده بإسناد صحيح : أخبرنا عفان حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال : " خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً ، ثم قال : "هذا سبيل الله" ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال "هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها" ثم قرأ هذه الآية " وأخرجه ابن ماجه في سننه عن جابر بن عبد الله قال : "كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فخطّ خطاً ، وخطّ خطّين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله ثم تلا هذه الآية ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ " وهذه السُّبُل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمُّق في الجدل والخوض في الكلام .

هذه كلّها عرضة للزلل ، ومظنة لسوء المعتقد ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهو الصحيح .

ذكر الطبري في كتاب آداب النفوس : حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصّنعاني قال حدّثنا

محمد بن ثَور عن مَعْمر عن أبان أن رجلاً قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تَرَكَنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفُه في الجنة ، وعن يمينه جَوَادّ وعن يساره جوادّ ، وثَمّ رجال يدعون من مَرَّ بهم فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ الآية .

وقال عبد الله بن مسعود : تعلموا العلم قبل أن يُقبض ، وقبضه أن يذهب أهله ، ألا وإياكم والتَّنَطُّعَ والتعمّق والبدع ، وعليكم بالعتيق .

أخرجه الدَّارِمي .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ قال : البدع .

(142/257)

قال ابن شهاب : وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ [الأنعام : 159] الآية .

فالهَرَبَ الهربَ ، والنَّجاةَ النجاة والتمسُّك بالطريق المستقيم والسنن القويم ، الذي سلكه السلف الصالح ، وفيه المتجر الرابح .

روى الأئمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا " وروى ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سَارِية قال : وَعَظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذَرَفت منها العيون ؛ وَوَجِلَت منها القلوب ؛ فقلنا : يا رسول الله ، إن هذه لموعظةُ مودّع ، فما تَعْهَد إلينا ؟ فقال : " قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات فإن كلّ بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبداً حبشيّاً فإنما المؤمن كالجَمَل الأَنِف حيثما قِيد انقاد " أخرجه الترمذي بمعناه وصححه وروى أبو داود قال حدثنا ابن كثير قال أخبرنا سفيان قال : كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر ؛ فكتب إليه : أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنّته ، وكُفُوا مؤونته ، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة ، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها ؛ فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها

من الخطأ والزلل ، والحمق والتعمق ؛ فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم ؛ فإنهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا ، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى ، وبفضل ما كانوا فيه أولى ، فإن كان الهدى ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه ، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلِهم ورَغِب بنفسه عنهم ؛ فإنهم هم السابقون ، قد تكلّموا فيه بما يكْفي ووصفوا ما يشفي ، فما دونهم من مقصر ، وما فوقهم من مجسر ، وقد قصر قوم دونهم فَجَفَوْا ، وطَمح عنهم أقوام فَغَلَوْا وإنهم مع ذلك لعلى هُدىً مستقيم .

وذكر الحديث .

(144/257)

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيُّ : عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة ، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في جميع أحواله ذَمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه .

قال سهل : إنما ظهرت البدعة على يدي أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم ؛ فظهرت أقاويلهم وفَشت في العامّة فَسمِعه من لم يكن يسمعه ، فلو تركوهم ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما في صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره ، وقال سهل : لا

يُحدث أحدكم بدعةً حتى يُحدث له إبليس عبادة فيتعبّد بها ثم يُحدث له بدعة ، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الْحَذْمة .

قال سهل : لا أعلم حديثاً جاء في المبتدعة أشدّ من هذا الحديث : " حجب الله الجنة عن صاحب البدعة " قال : فاليهوديّ والنّصرانيّ أرجى منهم .

قال سهل : من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان ، ولا يخُلَون بالنسوان ، ولا يخاصِمنّ أهل الأهواء .

وقال أيضاً : اتبعوا ولا تبتدعوا ، فقد كُفيتم .

وفي مسند الدّارِمي : أن أبا موسى الأشعري جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إني رأيت في المسجد آنفاً شيئاً أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا قال : فما هو ؟ قال : إن عشت فستراه ، قال : رأيتُ في المسجد قوماً حِلقاً حِلَقاً جلوساً ينتظرون الصلاة ؛ في كل حَلْقة رجل وفي أيديهم حَصىً فيقول لهم : كَبِّروا مائة ؛ فيكبرون مائة .

فيقول : هَلِّلُوا مائة ؛ فيهلّلون مائة .

ويقول : سبّحوا مائة ؛ فيسبحون مائة .

قال : فماذا قلتَ لهم ؟ قال : ما قلتُ لهم شيئاً ؛ انتظارَ رأيك وانتظار أمرك .

قال أفلا أمرتهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألا يضيع من حسناتهم .

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق ؛ فوقف عليهم فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، حَصىً نعدّ به التكبير والتهليل (والتسبيح) .

(145/257)

قال : فعُدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألاّ يضيع من حسناتكم شيء ، ويحكم يا أمة محمد ! ما أسرع هَلْكَتكم .

أو مُفْتَتِحِي باب ضلالة ! قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير .

فقال : وكم من مريد للخير لن يصيبه .

وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهل الأهواء والبدع ؛ فقال : عليك بدين الأَعْراب والغلام في الكُتَّاب ، واله عمّا سَوى ذلك .

وقال الأوزاعي : قال إبليس لأوليائه مِن أي شيء تأتون بني آدم ؟ فقالوا : من كل شيء .

قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا : هيهات ! ذلك شيء قُرِن بالتوحيد .

قال : لأبثن فيهم شيئاً لا يستغفرون الله منه .

قال : فَبثّ فيهم الأهواء .

وقال مجاهد : ولا أدري أيّ النعمتين عليّ أعظم أن هداني للإسلام ، أو عافاني من هذه

الأهواء .

وقال الشعبي : إنما سُمُّوا أصحاب الأهواء لأنهم يَهْوَوْن في النار .

كله عن الدارميّ .

وسئل سهل بن عبد الله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم فقال : لا ، ولا كرامة ! هم كفار ، كيف يؤمن من يقول : القرآن مخلوق ، ولا جنة مخلوقة ولا نار مخلوقة ، ولا لله صراط ولا شفاعة ، ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبي أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا عذاب القبر ولا منكر ولا نكير ، ولا رؤية لربنا في الآخرة ولا زيادة ، وأنّ علم الله مخلوق ، ولا يرون السلطان ولا جمعة ؛ ويكفرون من يؤمن بهذا .

وقال الفُضيل بن عِياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه .

وقد تقدّم هذا من كلامه وزيادة .

وقال سفيان الثّوْرِي : البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ؛ المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها .

وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنّة وينهى ! عن البدعة ، عبادةٌ .

وقال أبو العالية : عليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يفترقوا .

قال عاصم الأحْول : فحدّثت به الحسن فقال : قد نصحك والله وصدقك .

وقد مضى في "آل عمران" معنى قوله عليه السلام : " تفرّقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين فرقة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين " الحديث .

وقد قال بعض العلماء العارفين : هذه الفرقة التي زادت في فرق أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء ، ولم يكن ذلك قطُّ في الأمم السالفة .

وقد " روى رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يكون في أمتي قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى" .

قال فقلت : جُعلت فداك يا رسول اللها كيف ذاك ؟ قال : "يُقرُّون ببعض ويكفرون ببعض" .

قال قلت : جُعلت فداك يا رسول اللها وكيف يقولون ؟ قال : "يجعلون إبليس عدلاً لله في خلقه وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر من إبليس" .

قال : فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله ، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ؟ قال : "فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه

الأمة" " وذكر الحديث .

ومضى في "النساء" وهذه السورة النّهْيُ عن مجالسة أهل البدع والأهواء ، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ [الأنعام : 68] الآية .

ثم بين في سورة "النساء" وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب ﴾ الآية .

فألحق من جالسهم بهم .

وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات في مُجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا : يُنْهى عن مجالستهم ، فإن انتهى وإلا أُلحق بهم ، يعنون في الحكم .

(147/257)

وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مُجالِس شَرَبَة الخمر ، وتلا ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : 140] .

قيل له : فإنه يقول إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم .

قال يُنْهى عن مجالستهم ، فإن لم ينته أُلحِقْ بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾

يعني وأن هذا الذي وصيتكم به وأمرتكم به في هاتين الآيتين هو صراطي وديني الذي ارتضيته لعبادي مستقيماً يعني قويماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه ويعني فاعملوا به .

وقيل : إن الله تعالى لما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به مفصلاً أجمله في هذه الآية إجمالاً يقتضي دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضاً جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين الإسلام هو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين وأمرهم باتباع جملته وتفصيله ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ يعني الطرق المختلفة والأهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل : اليهود والنصرانية وسائر الملل والأديان المخالفة لدين الإسلام ﴿ فتفرق بكم عن سبيله ﴾ يعني فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده ، روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية ﴿ ذلكم

وصاكم به ﴾ يعني باتباع دينه وصراطه الذي لا اعوجاج فيه ﴿ لعلكم تتقون ﴾ يعني الطرق المختلفة والسبل المضلة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾

قرأ الأخوان ﴿ وإن هذا ﴾ بكسر الهمزة وتشديد النون على الاستئناف، ﴿ فاتبعوه ﴾ جملة معطوفة على الجملة المستأنفة.

(148/257)

وقرأ الباقون بفتحها وخفف ابن عامر النون وشدّدها الباقون.

وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق ﴿ وإن ﴾ كقراءة ابن عمر، فأما تخفيف النون فعلى أنه خذف اسم أن وهو ضمير الشأن وخرجت قراءة فتح الهمزة على وجوه: أحدها: أن يكون تعليلاً حذف منها اللام تقديره ولأن هذا ﴿ صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ كقوله: ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ وقد صرّح باللام في قوله ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم ﴾ ﴿ فليعبدوا ﴾ قال الفارسي: قياس قول سيبويه في فتح الهمزة أن تكون الفاء زائدة بمنزلتها في زيد فقام.

الوجه الثاني : أن تكون معطوفة على ﴿ أن لا تشركوا ﴾ أي أتل عليكم نفي الإشراك والتوحيد وأتل عليكم أن هذا صراطي وهذا على تقدير ﴿ أن ﴾ في ﴿ أن لا تشركوا ﴾ مصدرية قاله الحوفي هكذا قرروا هذا الوجه فجعلوه معطوفاً على البدل مما حرم وهو أن لا تشركوا .

وقال أبو البقاء : أنه معطوف على المبدل منه أي أتل الذي حرم وأتل أن هذا ﴿ صراطي مستقيماً ﴾ وهو تخريج سائغ في الكلام ، وعلى هذا فالصراط مضاف للمتكلم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وصراطه هو صراط الله .

الوجه الثالث : أن يكون في موضع جر عطفاً على الضمير في به قاله الفراء ، أي وصاكم به وبأن حذفت الباء لطول أن بالصلة .

قال الحوفي : وهي مرادة ولا يكون في هذا عطف مظهر على مضمر لإرادتها .

وقال أبو البقاء : هذا فاسد لوجهين .

أحدهما : عطف المظهر على المضمر من غير إعادة الجار والثاني أنه يصير المعنى وصاكم باستقامة الصراط .

وقرأ الأعمش : و﴿ هذا صراطي ﴾ وكذا في مصحف عبد الله ولما فصل في الآيتين قبل أجمل في هذه إجمالاً يدخل فيه جميع ما تقدم وجميع شريعته ، والإشارة بهذا إلى الإسلام أو

القرآن أو ما ورد في هذه السورة لأنها كلها في التوحيد وأدلة النبوّة وإثبات الدين وإلى هذه الآيات التي اعقبتها هذه الآية لأنها المحكمات التي لم تنسخ في ملة من الملل أقوال أربعة .

(149/257)

﴿ فاتبعوه ﴾ أمر باتباعه كله والمعنى : فاعملوا بمقتضاه من تحريم وتحليل وأمر ونهي وإباحة .

﴿ فلا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ قال ابن عباس : هي الضلالات ، قال مجاهد : البدع والأهواء والشبهات .

وقال مقاتل : ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرث .

وقيل : سبل الكفر كاليهودية والنصرانية والمجوسية وما يجري مجراهم في الكفر والشرك

وفي مسند الدارمي عن ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً ثم قال : " هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها "

ثم قرأ هذه الآية وعن جابر نحو منه في سنن ابن ماجة وانتصب فتفرق لأجل النهي جواباً له أي فتفرق فحذف التاء .

وقرىء ﴿ فتفرق ﴾ بتشديد التاء .

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ كرر التوصية على سبيل التوكيد ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر تعالى باتباعه ونهى عن بنيات الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاد النار ، إذ من اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية .

قال ابن عطية : ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبادة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر وركوب الجادة الكاملة تتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(150/257)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَنَّ هذا صراطي ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر في الآيتين من الأمر والنهي ، قاله مقاتل وقيل : إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها في إثبات التوحيدِ والنبوة وبيانِ الشريعة ، وقرىء صراطيَ بفتح الياء ، ومعنى إضافتِه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابُه إليه عليه

الصلاة والسلام من حيث السلوكُ لا من حيث الوضعُ كما في صراط الله ، والمرادُ بيانُ أن ما فُصِّل من الأوامر والنواهي غيرُ مختصةٍ بالمتلو عليهم بل متعلقةٌ به عليه الصلاة والسلام أيضاً وأنه صلى الله عليه وسلم مستمرٌّ على العمل بها ومراعاتِها وقوله تعالى : ﴿ مُّسْتَقِيماً ﴾ حالٌ مؤكدةٌ ، ومحل أن مع ما في حيزها الجرُّ بحذف لام العلة أي ولأن هذا صراطي أي مسلكي مستقيماً ﴿ فاتبعوه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ وتعليلُ إتباعِه بكونه صراطَه عليه الصلاة والسلام لا بكونه صراطَ الله تعالى مع أنه في نفسه كذلك من حيث سلوكُه صلى الله عليه وسلم فيه داعٍ للخلق إلى الاتّباع إذ بذلك يتضح عندهم كونُه صراطَ الله عز وجل ، وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرىء أنْ هذا مخففةً من أنّ ، على أن اسمَها الذي هو ضميرُ الشأنِ محذوفٌ وقرىء صراطي وقرىء هذا صراطي وقرىء وهذا صراطُ ربِّكم وهذا صراطُ ربِّك ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ الأديانَ المختلفةَ أو طرقَ البدع والضلالات ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ﴾ بحذف إحدى التاءين ، والباء للتعدية أي فتفرِّقَكم حسَبَ تفرُّقِها أيادِيَ سبا فهو كما ترى أبلغُ من تفرقكم كما قيل من أن ذهَبَ به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغُ من أذهبه ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي سبيل الله الذي لا عِوَجَ فيه ولا حرج ، وهو دين الإسلام الذي ذُكر بعضُ أحكامه وقيل : هو اتباعُ الوحي واقتفاءُ البرهان ، وفيه تنبيهٌ على أن صراطَه عليه الصلاة والسلام عينُ سبيل الله تعالى ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى ما مر من اتباع سبيلِه

تعالى وتركِ اتباعِ سائر السبل ﴿ وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ اتباعَ سبُلِ الكفر والضلالة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(151/257)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنَّ هذا صراطي ﴾ إشارة إلى شرعه عليه الصلاة والسلام على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ويلائمه النهي الآتي ، وعن مقاتل أنه إشارة إلى ما في الآيتين من الأمر والنهي ، وقيل : إلى ما ذكر في السورة فإن أكثرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ إن ﴾ بالكسر وابن عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف ، والباقون به مشددة .

وقرأ ابن عامر ﴿ صراطي ﴾ بفتح الياء ، وقرىء ﴿ وهذا صراطي ﴾ .

﴿ وهذا صراط ربِّكُمْ ﴾ .

﴿ وهذا صراط ربّكَ ﴾ وإضافة الصراط إلى الرب سبحانه من حيث الوضع وإليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك والدعوة أي هذا الصراط الذي أسلكه وأدعو إليه

﴿ مُّسْتَقِيماً ﴾ لا اعوجاج فيه ، ونصبه على الحال ﴿ فاتبعوه ﴾ أي اقتفوا أثره واعملوا به ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ أي الضلالات كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وفي رواية عنه أنها الأديان المختلفة كاليهودية والنصرانية ، وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهما عن مجاهد أنها البدع والشبهات ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ﴾ نصب في جواب النهي والأصل تتفرق فحذفت إحدى التاءين والباء للتعدية أي فتفرقكم حسب تفرقها أيادي سبأ فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي سبيل الله تعالى الذي لا اعوجاج فيه ولا حرج لما هو دين الإسلام ، وقيل : هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان ، وفيه تنبيه على أن صراطه عليه السلام عين سبيل الله تعالى ، وقد أخرج أحمد وجماعة عن ابن مسعود قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده ثم قال : " هذا سبيل الله تعالى مستقيماً " ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : " وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه " ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه ﴾ الخ ، وإنما أضيف إليه صلى الله عليه وسلم أولاً لأن ذلك أدعى للاتباع إذ به يتضح كونه صراط الله عز وجل .

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى اتباع السبيل وترك اتباع السبل ﴿ وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ عقاب الله تعالى بالمثابرة على فعل ما أمر به والاستمرار على الكف عما نهى عنه .

قال أبو حيان : "ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر سبحانه باتباعه ونهى عن (اتباع غيره من) الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار إذ من اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية .

وكرر سبحانه الوصية لمزيد التأكيد " ويا لها من وصية ما أعظم شأنها ، وأوضح برهانها .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر والبيهقي في "الشعب" وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد عليه الصلاة والسلام بخاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ إلى ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 151 153] وأخرج ابن حميد وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث " ثم تلاهن إلى آخرهن ثم قال : " فمن وفى بهن فأجره على الله تعالى ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله تعالى في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله تعالى إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه " .

وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي قال : سمع كعب رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ

تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ الخ فقال : والذي نفس كعب بيده إنها لأول آية في التوراة "بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم" إلى آخر الآيات ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب وهن محرمات على بني آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار .

هذا و(أن) في قوله سبحانه : (أن لا تشركوا) يحتمل أن تكون مفسرة وأن تكون مصدرية .

قال العلامة الثاني : وفي الاحتمالين إشكال فإنها إن جعلت مصدرية كانت بياناً للمحرم بدلاً من ما أو عائده المحذوف .

(153/257)

وظاهر أن المحرم هو الإشراك لا نفيه وأن الأوامر بعد معطوفة على (لا تشركوا) وفيه عطف الطلبي على الخبري وجعل الواجب المأمور به محرماً فاحتيج إلى تكلف كجعل (لا) مزيدة وعطف الأوامر على المحرمات باعتبار حرمة أضدادها وتضمين الخبر معنى الطلب ، وأما جعل (لا) ناهية واقعة موقع الصلة لأن المصدرية كما جوزه سيبويه إذ عمل الجازم في الفعل والناصب في (لا) معه فمما لا سبيل إليه هنا لأن زيادة لا الناهية مما لم يقل

به أحد ولم يرد في كلام ؛ وإن جعلت (أن) مفسرة و(لا) ناهية والنواهي بيان لتلاوة المحرمات توجه إشكالان ، أحدهما : عطف ﴿ إِنَّ هَذَا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ على (أن لا تشركوا) مع أنه لا معنى لعطفه على (أن) المفسرة مع الفعل .

وثانيهما : عطف الأوامر المذكورة فإنها لا تصلح بياناً لتلاوة المحرمات بل الواجبات ، واختار الزمخشري كونها مفسرة وعطف الأوامر لأنها معنى نواه ، ولا سبيل حينئذٍ لجعلها مصدرية موصولة بالنهي لما علمت .

وأجاب عن الإشكال الأول بأن قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي ﴾ ليس عطفاً على (أن لا تشركوا) بل هو تعليل للاتباع متعلق باتبعوه على حذف اللام ، وجاز عود ضمير (اتبعوه) إلى الصراط لتقدمه في اللفظ .

فإن قيل : فعلى هذا يكون (اتبعوه) عطفاً على (لا تشركوا) ويكون التقدير فاتبعوا صراطي لأنه مستقيم ، وفيه جمع بين حرفي عطف الواو والفاء وليس بمستقيم ، وإن جعلت الواو استئنافية اعتراضية قلنا : ورود الواو مع الفاء عند تقديم المعمول فصلاً بينهما شائع في الكلام مثل ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ [الجنّ : 18] فإن أبيت الجمع ألبتة ومنعت زيادة الفاء فاجعل المعمول متعلقاً بمحذوف والمذكور بالفاء عطفاً عليه مثل عظم فكبر وادعوا الله فلا تدعوا مع الله وآثروه فاتبعوه .

وعن الإشكال الثاني بأن عطف الأوامر على النواهي الواقعة بعد (أن) المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرماً دل على أن التحريم راجع إلى أضدادها بمعنى أن الأوامر كأنها ذكرت وقصد لوازمها التي هي النهي عن الأضداد حتى كأنه قيل : أتلو ما حرم أن لا تسيؤوا إلى الوالدين ولا تبخسوا الكيل والميزان ولا تتركوا العدل ولا تنكثوا العهد ، ومثل هذا وإن لم يجز بحسب الأصل لكن ربما يجوز بطريق العطف ، وأما جعل الوقف على قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ وانتصاب (أن لا تشركوا) بعليكم يعني ألزموا ترك فيأباه عطف الأوامر إلا أن تجعل (لا) ناهية و(أن) المصدرية موصولة بالأوامر والنواهي .

وقال أبو حيان : لا يتعين أن يكون جميع الأوامر معطوفة على جميع ما دخل عليه (لا) فإنه لا يصح عطف ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ على ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ [الأنعام : 151] ويكون ما بعده عطف عليه .

واعترض على القول "بأن التحريم راجع إلى أضداد الأوامر بأنه بعيد جداً وإلغاز في المعاني ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، ثم قال : وأما عطف هذه الأوامر فيحتمل وجهين ، أحدهما : أنها معطوفة (لا) على المناهي قبلها فيلزم انسحاب التحريم عليها حيث كانت في حيز (أن) التفسيرية بل هي معطوفة على قوله سبحانه : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ ﴾ [الأنعام : 151] أمرهم أولاً بأمر ترتب عليه ذكر مناه ، ثم أمرهم ثانياً بأوامر وهذا معنى واضح ، والثاني : أن تكون الأوامر معطوفة على المناهي داخلة تحت حكم (أن) التفسيرية ، ويصح ذلك على تقدير محذوف تكون (أن) مفسرة له وللمنطوق قبله الذي دل على حذفه ، والتقدير وما أمركم به فحذف وما أمركم به لدلالة ما حرم عليه لأن معنى ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ما نهاكم ربكم عنه ، فالمعنى قل تعالوا أتل ما نهاكم عنه ربكم (وما أمركم به) (1) ، وإذا كان التقدير هكذا صح أن تكون (أن) تفسيرية لفعل النهي الدال عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف ألا ترى أنه يجوز أن تقول : أمرتك أن لا تكرم جاهلاً وأكرم عالماً ، (و) يجوز عطف الأمر على النهي والنهي على الأمر لقول امرىء القيس

: لا تهلك أسى وتجمل . . .

ولا نعلم في هذا خلافاً بخلاف الجمل المتباينة بالخبر والاستفهام والإنشاء فإن في جواز العطف فيها خلافاً مشهوراً " اه .

وأنت تعلم أن العطف على ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ في غاية البعد ولا ينبغي الالتفات إليه ، وما ذكره

من الحذف وجعل التفسير للمحذوف والمنطوق لا يخلو عن حسن ، ونقل الطبرسي جواز كون (أن لا تشركوا) بتقدير اللام على معنى "أبين لكم الحرام لأن لا تشركوا لأنهم إذا حرموا ما أحل الله فقد جعلوا غير الله تعالى في القبول منه بمنزلة الله سبحانه وصاروا بذلك مشركين" ، ولا ينبغي تخريج كلام الله تعالى على مثل ذلك كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(156/257)

وقال القاسمي :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ﴾ يقرأ بفتح همزة (أن) والتشديد . ومحلها مع ما في حيزها بحذف لام العلة . أي : ولأن هذا الذي وصيتكم به . من الأمر والنهي طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي قويماً لا اعوجاج فيه ، فاعلموا به . وجوز أن يكون محلها مع ما في حيزها النصب على (ما حرم) أي : وأتلو عليكم أن هذا صراطي . وقُرئ بكسر الهمزة على الاستئناف ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ يعني الأديان المختلفة أو طرق البدع الضلالات : ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي : فتفرقكم عن صراطه المستقيم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطّاً ثم قال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ الآية . ورواه الحاكم وصححه .

لطائف :

قال الكيا الهراسي : في الآية دليل على منع النظر والرأي ، مع وجود النص .

قال ابن كثير : إنما وحد (سبيله) لأن الحق واحد ولهذا جمع (السبل) لتفرقها وتشعبها . كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة 257] .

(157/257)

قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات ، من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام . وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

قال قتادة : اعلموا أن السبيل سبيل واحد . جماعة الهدى ، ومصيره الجنة . وأن إبليس استبدع سبلاً متفرقة . جماعة الضلالة ، ومصرها إلى النار . وروى عليّ بن أبي طلحة

عن ابن عباس في هذه الآية وفي قوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل : ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي : اتباع الكفر والضلالة . وفيه تأكيد أيضاً . روى الترمذيّ وحسنه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ -إلى قوله- : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . وروى الحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات .

وروى الحاكم وصححه وابن أبي حاتم عن عُبَادَة بن الصامت قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : < أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات . ثم قال : ومن وفى بهن فأجره على الله . ومن انتقص منهن شيئاً ، فأدركه الله في الدنيا ، كانت عقوبته . ومن أخره إلى الآخرة . كان أمره إلى الله . إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه > .

لطيفة :

قال النسفيّ : ذكر أولاً (تَعْقِلُونَ) ثم (تَذَكَّرُونَ) ثم (تَتَّقُونَ) لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا ، أي : اتعظوا ، فاتقوا المحارم . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 552.550 ﴾

(159/257)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾

الواو عاطفة على جملة : ﴿ ألاَّ تشركوا به شيئاً ﴾ [الأنعام : 151] لتماثل المعطوفات في أغراض الخطاب وترتيبه ، وفي تخلّل التّذييلات التي عَقِبت تلك الأغراض بقوله : ﴿ لعلّكم تعقلون ﴾ [الأنعام : 151] ﴿ لعلّكم تذكّرون ﴾ [الأنعام : 152] ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ وهذا كلام جامع لاتباع ما يجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي في القرآن .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر : ﴿ أنّ ﴾ بفتح الهمزة وتشديد النّون .

وعن الفراء والكسائي أنَّه معطوف على : ﴿ ما حَرّم ربُّكم ﴾ [الأنعام : 151] ، فهو في موضع نصب بفعل : ﴿ أتْلُ ﴾ والتّقدير : وأتْلُ عليكم أنّ هذا صراطي مستقيماً .

وعن أبي عليّ الفارسي : أنّ قيَاس قول سيبويه أنْ تحمل (أنّ) ، أي تُعلَّق على قوله : ﴿ فاتبعوه ﴾ ، والتّقدير : ولأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ، على قياس قول سيبويه في قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ [قريش : 1] .

وقال في قوله تعالى : ﴿ وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [الجن : 18] المعنى : ولأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً أ هـ .

ف ﴿ أنّ ﴾ مدخولة للام التّعليل محذوفة على ما هو المعروف من حذفها مع (أنّ) و(أنْ) .

وتقدير النّظم : واتَّبعوا صراطي لأنَّه صراط مستقيم ، فوقع تحويل في النّظم بتقدير التّعليل على الفعل الذي حقّه أن يكون معطوفاً ، فصار التّعليل معطوفاً لتقديمه ليفيد تقديمه تفرّع المعلّل وتسبّبه ، فيكون التّعليل بمنزلة الشّرط بسبب هذا التّقديم ، كأنَّه قيل : لمّا كان هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ وإنّ ﴾ بكسر الهمزة وتشديد النّون فلا تحويل في نظم الكلام ، ويكون قوله : ﴿ فاتبعوه ﴾ تفريعاً على إثبات الخبر بأنّ صراطه مسقيم .

وقرأ ابن عامر ، ويعقوب : "وأنْ" بفتح الهمزة وسكون النّون على أنَّها مخفّفة من الثّقيلة واسمها ضمير شأن مُقدر والجملة بعده خبره ، والأحسن تخريجها بكون ﴿ أنْ ﴾ تفسيرية معطوفة على : ﴿ ألاَّ تشركوا ﴾ [الأنعام : 151] .

ووجه إعادة ﴿ أنْ ﴾ اختلاف أسلوب الكلام عمّا قبله .

والإشارة إلى الإسلام : أي وأنّ الإسلام صراطي ؛ فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين من أثر تكرّر نزول القرآن وسماع أقوال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، بحيث عرفه النّاس وتبيّنوه ، فنزلّ منزلة المشاهد ، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التّشريعات والمَواعظ التي تقدّمت في هذه السّورة ، لأنَّها صارت كالشّيء الحاضر المشاهد ، كقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [آل عمران : 44] .

والصّراط : الطّريق الجادة الواسعة ، وقد مَرّ في قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصّراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] والمراد الإسلام كما دلّ عليه قوله في آخر السّورة : ﴿ قل إنَّني هداني ربِّي إلى صراط مستقيم ديناً قيّماً ﴾ [الأنعام : 161] لأنّ المقصود منها تحصيل الصّلاح في الدّنيا والآخرة فشبّهت بالطّريق الموصل السّائر فيه إلى غرضه ومقصده .

ولمّا شبّه الإسلام بالصّراط وجعل كالشّيء المشاهد صار كالطّريق الواضحة البيّنة

فادّعي أنَّه مستقيم ، أي لا اعوجاج فيه لأنّ الطّريق المستقيم أيسر سلوكاً على السائر وأسرع وصولاً به .

(161/257)

والياء المضاف إليها (صراط) تعود على الله ، كما بيّنه قوله : ﴿ وإنَّك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله ﴾ [الشورى : 52 ، 53] على إحدى طريقتين في حكاية القول إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الآمر بالقول ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربِّي وربّكم ﴾ في سورة العقود (117) ، وقد عدل عن طريقة الغيبة ، التي جرى عليها الكلام من قوله : ﴿ ما حرم ربكم ﴾ [الأنعام : 151] لغرض الإيماء إلى عصمة هذا الصّراط من الزلل ، لأنّ كونه صراط الله يكفي في إفادة أنَّه موصل إلى النّجاح ، فلذلك صحّ تفريع الأمر باتِّباعه على مجرّد كونه صراط الله .

ويجوز عود الياء إلى النّبيء المأمور بالقول ، إلاّ أنّ هذا يستدعي بناء التّفريع بالأمر باتّباعه على ادّعاء أنَّه واضح الاستقامة ، وإلاّ فإنّ كونه طريق النّبيء لا يقتضي تسبّب الأمر باتَّباعه عنه بالنّسبة إلى المخاطبين المكذّبين .

وقوله : ﴿ مستقيماً ﴾ حال من اسم الإشارة ، وحسَّن وقوعه حالاً أنّ الإشارة بنيت

على ادّعاء أنَّه مشاهد ، فيقتضي أنَّه مستحضر في الذّهن بمجمل كلياته وما جرّبوه منه وعرفوه ، وأنّ ذلك يريهم أنَّه في حال الاستقامة كأنَّه أمر محسوس ، ولذلك كثر مجيء الحال من اسم الإشارة نحو : ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ [هود : 72] ولم يأتوا به خبراً .

(162/257)

والسُبُل : الطّرق ، ووقوعها هنا في مقابلة الصّراط المستقيم يدلّ على صفة محذوفة ، أي السّبل المتفرّقة غير المستقيمة ، وهي التي يسمّونها : بُنيات الطّريق ، وهي طرق تتشعّب من السبيل الجادّة ذاهبة ، يسلكها بعض المارّة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حَيّ ، ولا يستطيع السّيرَ فيها إلاّ مَن عَقَلها واعتادها ، فلذلك سبب عن النّهي قوله : ﴿ فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ، أي فإنَّها طرق متفرّقة فهي تجعل سالكها متفرّقاً عن السّبيل الجادّة ، وليس ذلك لأنّ السّبيل اسم للطّريق الضيقة غير الموصّلة ، فإنّ السّبيل يرادف الصّراط ألا ترى إلى قوله : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ [يوسف : 108] ، بل لأنّ المقابلة والإخبار عنها بالتَّفرق دلّ على أنّ المراد سبُل خاصّة موصوفة بغير الاستقامة .

والباء في قوله : ﴿ بكم ﴾ للمصاحبة : أي فتتفرّق السّبل مصاحبة لكم ، أي تتفرّقون مع تفرّقها ، وهذه المصاحبة المجازية تجعل الباء بمنزلة همزة التّعدية كما قاله النّحاة ، في نحو :

ذَهَبْتُ بزيد ، أنَّه بمعنى أذهبته ، فيكون المعنى فتُفَرّقَكُم عن سبيله ، أي لا تلاقون سبيلَه .

والضّمير المضاف إليه في : ﴿ سبيله ﴾ يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام ، فإذا كان ضمير المتكلّم في قوله : ﴿ صراطي ﴾ عائداً لله كان في ضمير ﴿ سبيله ﴾ التفاتاً عن سبيلي .

روى النّسائي في "سننه" ، وأحمد ، والدارمي في "مسنديهما" ، والحاكم في "المستدرك" ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطّاً ثمّ قال: " هذا سبيل الله ، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله (أي عن يمين الخطّ المخطوط أوّلاً وعن شماله) ثمّ قال : "هذه سُبُل على كلّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليها " ثمّ قرأ : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السّبل فتَفَرّق بكم عن سبيله ﴾ .

(163/257)

وروى أحمد ، وابن ماجة ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله قال : "كنّا عند النّبيء صلى الله عليه وسلم فخطّ خطّاً وخَطّ خطَّين عن يمينه وخَطّ خطيَّن عن يساره ثمّ وضع يده في الخطّ الأوْسط (أي الذي بين الخطوط الأخرى) فقال : هذه سبيل الله ، ثم تَلاَ هذه الآية : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله

ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وما وقع في الرّواية الأولى (وخَطّ خطوطاً) هو باعتبار مجموع ما على اليمين والشّمال " وهذا رسمه على سبيل التّقريب:

وقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ تذييل تكرير لِمثْليه السّابقين ، فالإشارة بـ ﴿ ذلكمْ ﴾ إلى الصّراط ، والوصاية به معناها الوصاية بما يحتوي عليه .

وجعل الرّجاء للتّقوى لأنّ هذه السّبيل تحتوي على ترك المحرّمات ، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصّالحات ، فإذا اتَّبعها السّالك فقد صار من المتّقين أي الذين اتَّصفوا بالتَّقوى بمعناها الشّرعي كقوله تعالى : ﴿ هدى للمتّقين ﴾ [البقرة : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(164/257)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ حُجَّتَهُ الْبَالِغَةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ، وَدَحَضَ شُبْهَتَهُمُ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا عَلَى شِرْكِهِمْ بِهِ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ لَهُمْ جَمِيعَ مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الطَّعَامِ - ثُمَّ بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أُصُولَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَجَامِعَهَا فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وَمَا يُقَابِلُهَا مِنْ أُصُولِ الْفَضَائِلِ وَالْبِرِّ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

(165/257)

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) أَيْ قُلْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - لِهَؤُلَاءِ الْمُتَّبِعِينَ لِلْخَرْصِ وَلِلتَّخْمِينِ فِي دِينِهِمْ ، وَلِلْهَوَى فِيمَا يُحَرِّمُونَ وَيُحَلِّلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِسَائِرِ النَّاسِ أَيْضًا بِمَا لَكَ مِنَ الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ : تَعَالَوْا إِلَيَّ وَأَقْبِلُوا عَلَيَّ أَتْلُ وَأَقْرَأْ لَكُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَحَقِّ الْيَقِينِ ، فَإِنَّ الرَّبَّ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي لَهُ حَقُّ التَّحْرِيمِ وَالتَّشْرِيعِ ، وَإِنَّمَا

أَنَا

مُبَلِّغٌ عَنْهُ بِإِذْنِهِ ، أَرْسَلَنِي لِذَلِكَ وَعَلَّمَنِي - عَلَى أُمِّيَّتِي - مَا لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ ، وَأَيَّدَنِي بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، وَقَدْ خَصَّ التَّحْرِيمَ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الْوَصَايَا الَّتِي بَيَّنَ بِهَا التِّلَاوَةَ أَعَمُّ لِمُنَاسَبَةِ مَا سَبَقَ مِنْ إِنْكَارِ أَنْ يُحَرِّمَ غَيْرُ اللهِ ; وَلِأَنَّ بَيَانَ أُصُولِ الْمُحَرَّمَاتِ كُلِّهَا يَسْتَلْزِمُ حِلَّ مَا عَدَاهَا لِأَنَّهُ الْأَصْلُ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِأُصُولِ الْوَاجِبَاتِ مِنْ هَذَا الْحَلَالِ الْعَامِّ . وَأَصْلُ (تَعَالَوْا) وَ (تَعَالَ) الْأَمْرُ مِمَّنْ كَانَ فِي مَكَانٍ عَالٍ لِمَنْ دُونَهُ بِأَنْ يَتَعَالَى وَيَصْعَدَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَوَسَّعُوا فِيهِ فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي الْأَمْرِ فِي الْإِقْبَالِ مُطْلَقًا .

(166/257)

وَاسْتِعْمَالُ الْمُقَيَّدِ فِي الْمُطْلَقِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ إِلَّا إِذَا كَثُرَ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى قَرِينَةٍ ، وَلَمْ يُنْظَرْ فِيهِ إِلَى عَلَاقَةٍ كَهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَلَا سِيَّمَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَلَهِيَ فِيهِ خِطَابٌ مِمَّنْ هُوَ فِي أَعْلَى مَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى لِمَنْ هُمْ فِي أَسْفَلِ دَرْكٍ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ ، عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ، وَمُتَّبِعِي الظُّنُونِ وَالْأَوْهَامِ ، وَلِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَا يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُمْ فِي الْجَهْلِ وَالْآثَامِ .

وَقَوْلُهُ : (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) شُرُوعٌ فِي بَيَانِ مَا حَرَّمَ الرَّبُّ وَمَا أَوْصَى بِهِ مِنَ الْبِرِّ ، وَقَدْ

أَوْرَدَ بَعْضَهُ بِصِيغَةِ النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ ، وَبَعْضَهُ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ بِضِدِّهِ حَسَبَ مَا تَقْضِيهِ الْبَلَاغَةُ كَمَا سَيَأْتِي ، وَ " أَنْ " تَفْسِيرِيَّةٌ ، وَنَدَعُ النُّحَاةَ فِي اضْطِرَابِهِمْ وَخِلَافِهِمْ فِي تَطْبِيقِ مَا فِي حَيِّزِهَا مِنَ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ عَلَى قَوَاعِدِهِمْ ، فَنَحْنُ لَا يَعْنِينَا إِلَّا فَهْمُ الْمَعَانِي مِنَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ ، وَمَا وَافَقَ الْقُرْآنَ مِنْ قَوَاعِدِهِمْ كَانَ صَحِيحًا مُطَّرِدًا ، وَمَا لَمْ يُوَافِقْهُ فَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ أَوْ غَيْرُ مُطَّرِدٍ ، وَسَنُرِيكَ فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ ، مَا يُغْنِيكَ عَنْ تَحْقِيقِ السَّعْدِ ، وَحَلِّ إِشْكَالَاتِ أَبِي حَيَّانَ .

(167/257)

بَدَأَ تَعَالَى هَذِهِ الْوَصَايَا بِأَكْبَرِ الْمُحَرَّمَاتِ وَأَفْظَعِهَا وَأَشَدِّهَا إِفْسَادًا لِلْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ وَهُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى ، سَوَاءٌ كَانَ بِاتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ لَهُ ، أَوِ الشُّفَعَاءِ الْمُؤَثِّرِينَ فِي إِرَادَتِهِ الْمُصَرِّفِينَ لَهَا فِي الْأَعْمَالِ ، وَمَا يُذَكِّرُ بِهِمْ مِنْ صُوَرٍ وَتَمَاثِيلَ وَأَصْنَامٍ أَوْ قُبُورٍ - أَوْ كَانَ بِاتِّخَاذِ الْأَرْبَابِ الَّذِينَ يُشَرِّعُونَ الْأَحْكَامَ ، وَيَتَحَكَّمُونَ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ - وَكَذَا مَنْ يُسْنَدُ إِلَيْهِمُ التَّصَرُّفُ الْخَفِيُّ فِيمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ - وَكُلُّ ذَلِكَ وَاضِحٌ مِنَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَتَفْسِيرِهَا . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : أَوَّلُ مَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ - أَوْ - أَوَّلُ مَا وَصَّاكُمْ بِهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَاحِقُ الْكَلَامِ ، هُوَ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا مِنَ

الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً فِي الْخَلْقِ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ ، أَوْ عَظِيمَةً فِي الْقَدْرِ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، فَإِنَّمَا عِظَمُ الْأَشْيَاءِ الْعَاقِلَةِ وَغَيْرِ الْعَاقِلَةِ بِنِسْبَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ كَوْنِهَا مِنْ خَلْقِ اللهِ وَمُسَخَّرَةً بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَعَنْ كَوْنِ الْعَاقِلِ مِنْهَا مِنْ عَبِيدِهِ (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (19 : 93) - أَوْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنَ الشِّرْكِ صَغِيرَهُ أَوْ كَبِيرَهُ - وَمُقَابِلُهُ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ بِمَا شَرَعَهُ لَكُمْ عَلَى لِسَانِ

(168/257)

رَسُولِهِ لَا بِأَهْوَائِكُمْ ، وَلَا بِأَهْوَاءِ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ أَمْثَالِكُمْ ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ ، وَهُوَ لَازِمٌ لِلنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُنَا ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ إِلَى الْمُشْرِكِينَ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أَيْ وَالثَّانِي مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ ، أَوْ مِمَّا وَصَّاكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ أَنْ

(169/257)

تُحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا تَامًّا كَامِلًا لَا تَدَّخِرُونَ فِيهِ وُسْعًا ، وَلَا تَأْلُونَ فِيهِ جَهْدًا ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ تَرْكَ الْإِسَاءَةِ وَإِنْ صَغُرَتْ ، فَكَيْفَ بِالْعُقُوقِ الْمُقَابِلِ لِغَايَةِ الْإِحْسَانِ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ كَبَائِرِ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْقِرَانُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ وَبَيْنَ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ . وَتَقَدَّمَ بَعْضُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ ، وَسَيَأْتِي أَوْسَعُ تَفْصِيلٍ فِيهِ فِي وَصَايَا سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (أَوْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الَّتِي بِمَعْنَى هَذِهِ الْوَصَايَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَفِيهِ النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ " أُفٍّ " لَهُمَا وَقَدِ اخْتِيرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا الْأَمْرُ بِالْوَاجِبِ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَى النَّهْيِ عَنْ مُقَابِلِهِ الْمُحَرَّمِ وَهُوَ الْإِسَاءَةُ مُطْلَقًا ، لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَقَعَ فَيَحْتَاجَ إِلَى التَّصْرِيحِ بِالنَّهْيِ عَنْهَا فِي مَقَامِ الْإِيجَازِ ؛ لِأَنَّهَا خِلَافُ مَا تَقْتَضِي الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ وَالْآدَابُ الْمَرْعِيَّةُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ . وَقَدْ سَبَقَ فِي تَفْسِيرِ مِثْلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الْإِحْسَانَ يَتَعَدَّى بِـ " الْبَاءِ " وَ " إِلَى " فَيُقَالُ : أَحْسِنْ بِهِ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ ، وَالْأُولَى أَبْلَغُ ، فَهُوَ بِالْوَالِدَيْنِ وَذِي الْقُرْبَى أَلْيَقُ ؛ لِأَنَّ مَنْ أَحْسَنْتَ بِهِ هُوَ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ بِرُّكَ وَحُسْنُ مُعَامَلَتِكَ ، وَيَلْتَصِقُ بِهِ مُبَاشَرَةً عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْكَ وَعَدَمِ انْفِصَالٍ عَنْكَ - وَأَمَّا مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ فَهُوَ الَّذِي تُسْدِي

إِلَيْهِ بِرَّكَ وَلَوْ عَلَى بُعْدٍ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ إِذْ هُوَ شَيْءٌ يُسَاقُ إِلَيْهِ سَوْقًا . وَلَمْ تَرِدْ هَذِهِ التَّعْدِيَةُ فِي التَّنْزِيلِ إِلَّا فِي تَعْبِيرَيْنِ فِي مَقَامَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَتِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ لِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ : (هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) (12 : 100) .

(وَالثَّانِي) التَّعْبِيرُ بِالْمَصْدَرِ الْمُفِيدِ لِلتَّأْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ فِي أَرْبَعِ سُوَرٍ : الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ وَقَدْ عَطَفَ فِيهِمَا ذُو الْقُرْبَى عَلَى الْوَالِدَيْنِ بِالتَّبَعِ – وَالْأَنْعَامِ وَالْإِسْرَاءِ . وَفِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) (46 : 15) كَمَا قَرَأَ الْكُوفِيُّونَ مِنَ السَّبْعَةِ وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ (حُسْنًا) كَآيَةِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي رُوِيَتْ كَلِمَةُ إِحْسَانًا فِيهَا مِنَ الشَّوَاذِّ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْبَاءَ فِيهِمَا مُتَعَلِّقَةٌ بِوَصَّيْنَا .

(171/257)

وَلَوْ لَمْ يَرِدْ فِي التَّنْزِيلِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وَلَوْ غَيْرَ مُكَرَّرٍ لَكَفَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ عِنَايَةِ الشَّرْعِ بِأَمْرِ الْوَالِدَيْنِ ، بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الصِّيغَةُ وَالتَّعْدِيَةُ ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَرَنَهُ بِعِبَادَتِهِ وَجَعَلَهُ ثَانِيَهَا فِي الْوَصَايَا ، وَأَكَّدَهُ بِمَا أَكَّدَهُ بِهِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، كَمَا قَرَنَ شُكْرَهُمَا بِشُكْرِهِ فِي وَصِيَّةِ سُورَةِ لُقْمَانَ فَقَالَ : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) (31 : 14)

وَوَرَدَ فِي مَعْنَى التَّنْزِيلِ عِدَّةُ أَحَادِيثَ نَكْتَفِي مِنْهَا بِحَدِيثِ

عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ

رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْعِلْمِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ :

"

(172/257)

الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا " وَفِي رِوَايَةٍ لِوَقْتِهَا . قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : " بِرُّ الْوَالِدَيْنِ : " قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ " الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ " فَقَدَّمَ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ عَلَى الْإِنْسَانِ . ذَلِكَ كُلُّهُ بِأَنَّ حَقَّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْوَلَدِ أَكْبَرُ مِنْ جَمِيعِ حُقُوقِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ ، وَعَاطِفَةَ الْبُنُوَّةِ وَنَعْرَتَهَا مِنْ أَقْوَى غَرَائِزِ الْفِطْرَةِ ، فَمَنْ قَصَّرَ فِي بِرِّ وَالِدَيْهِ وَالْإِحْسَانِ بِهِمَا كَانَ فَاسِدَ الْفِطْرَةِ مِضْيَاعًا لِلْحُقُوقِ كُلِّهَا فَلَا يُرْجَى مِنْهُ خَيْرٌ لِأَحَدٍ . وَقَدْ بَالَغَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي الْكَلَامِ عَلَى بِرِّ الْوَالِدَيْنِ حَتَّى جَعَلُوا مِنْ مُقْتَضَى الْوَصِيَّةِ بِهِمَا أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ مَعَهُمَا كَالْعَبْدِ الذَّلِيلِ مَعَ السَّيِّدِ الْقَاسِي الظَّالِمِ ، وَقَدْ أَطْمَعُوا بِذَلِكَ الْآبَاءَ الْجَاهِلِينَ الْمَرِيضِي الْأَخْلَاقِ حَتَّى جَرَّءُوا ذَا الدِّينِ مِنْهُمْ عَلَى أَشَدَّ مِمَّا يَتَجَرَّأُ عَلَيْهِ ضُعَفَاءُ الدِّينِ مِنَ الْقَسْوَةِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَإِهَانَتِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ ، وَهَذَا مَفْسَدَةٌ كَبِيرَةٌ لِتَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ فِي الصِّغَرِ ،

وَإِلْجَاءٌ لَهُمْ إِلَى الْعُقُوقِ فِي الْكِبَرِ ، وَإِلَى ظُلْمِ أَوْلَادِهِمْ كَمَا ظَلَمَهُمْ آبَاؤُهُمْ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُونَ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي ظُلْمِ الْوَالِدَيْنِ لِلْأَوْلَادِ وَتَحَكُّمِهِمَا فِي شُئُونِهِمْ وَلَا سِيَّمَا تَزْوِيجُهُمْ بِمَنْ يَكْرَهُونَ ، فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ (رَاجِعْ صَفْحَةَ 70 وَمَا بَعْدَهَا ج 5 ط

(173/257)

الْهَيْئَةِ) وَكَمْ أَفْسَدَتِ الْأُمَّهَاتُ بَنَاتِهِنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ . وَالصَّوَابُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْوَالِدَيْنِ تَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ عَلَى حُبِّهِمَا وَاحْتِرَامِهِمَا احْتِرَامَ الْمَحَبَّةِ وَالْكَرَامَةِ ، لَا احْتِرَامَ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ ، وَسَنُفَصِّلُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ إِنْ أَحْيَانَا اللهُ تَعَالَى وَوَفَّقَنَا .

(174/257)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) أَيْ وَالثَّالِثُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ – مِمَّا وَصَّاكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ – أَلَّا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمُ الصِّغَارَ مِنْ فَقْرٍ وَاقِعٍ بِكُمْ لِئَلَّا تَرَوْهُمْ جِيَاعًا فِي حُجُورِكُمْ ; فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، أَيْ وَيَرْزُقُهُمْ بِالتَّبَعِ لَكُمْ ، فَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ ،

وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (17 : 31) فَقَدَّمَ رِزْقَ الْأَوْلَادِ هُنَالِكَ عَلَى رِزْقِ الْوَالِدَيْنِ - عَكْسُ مَا هُنَا - لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْفَقْرِ الْمُتَوَقَّعِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي يَكُونُ الْأَوْلَادُ فِيهِ كِبَارًا كَاسِبِينَ . وَقَدْ يَصِيرُ الْوَالِدُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْكَسْبِ بِالْكِبَرِ . فَفَرَّقَ فِي تَعْلِيلِ النَّهْيِ فِي الْآيَتَيْنِ بَيْنَ الْفَقْرِ الْوَاقِعِ وَالْفَقْرِ الْمُتَوَقَّعِ ، فَقَدَّمَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ضَمَانَ الْكَاسِبِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ كَسْبَ الْعِبَادِ سَبَبًا لِلرِّزْقِ خِلَافًا لِمَنْ يُزَهِّدُونَهُمْ فِي الْعَمَلِ بِشِبْهِ كَفَالَتِهِ تَعَالَى لِرِزْقِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ النُّكْتَةَ مِنْ

بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ : (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ) (137) .

(175/257)

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أَيْ وَالرَّابِعُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ أَلَّا تَقْرَبُوا مَا عَظُمَ قُبْحُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْخِصَالِ كَالزِّنَا وَاللِّوَاطِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَنِكَاحِ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا سُمِّيَ فِي التَّنْزِيلِ فَاحِشَةً ، فَهُوَ مِمَّا ثَبَتَتْ شِدَّةُ قُبْحِهِ شَرْعًا

(176/257)

وَعَقْلًا ، وَلِذَلِكَ يَسْتَتِرُ بِفِعْلِ الْأَوَّلَيْنِ أَكْثَرُ الَّذِينَ يَقْتَرِفُونَهُمَا ، وَقَلَّمَا يُجَاهِرُ بِهِمَا إِلَّا الْمُسْتَوْلِغُ مِنَ الْفُسَّاقِ الَّذِي لَا يُبَالِي ذَمًّا وَلَا عَارًا إِذَا كَانَ مَعَ مِثْلِهِ ، وَهُوَ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمَا لَدَى خِيَارِ النَّاسِ وَفُضَلَائِهِمْ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَقْبِحُونَ الزِّنَا وَيَعُدُّونَهُ أَكْبَرَ الْعَارِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا وَقَعَ مِنَ الْحَرَائِرِ ، فَكَانَ وُقُوعُهُ مِنْهُنَّ نَادِرًا ، وَإِنَّمَا كَانَ يُجَاهِرُ بِهِ الْإِمَاءُ فِي حَوَانِيتَ وَمَوَاخِيرَ تَمْتَازُ بِأَعْلَامٍ حُمْرٍ فَيَخْتَلِفُ إِلَيْهَا أَرَاذِلُهُمْ ، وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَيَزْنُونَ سِرًّا مِمَّنْ يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَخْدَانِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ (مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ) (4 : 25) وَالْخِدْنُ الصَّدِيقُ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ، وَيُعَبِّرُونَ بِمِصْرَ عَنْ خِدْنِ الْفَاحِشَةِ بِالرَّفِيقَةِ وَالرَّفِيقِ ، وَعَنِ الْمُخَادَنَةِ بِالْمُرَافَقَةِ ، وَهُوَ عِنْدَ فُسَّاقِهِمْ فَاشٍ وَلَا سِيَّمَا الْأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ : كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَرَوْنَ بَأْسًا بِالزِّنَا فِي السِّرِّ وَيَسْتَقْبِحُونَهُ فِي الْعَلَانِيَةِ ، فَحَرَّمَ اللَّهُ الزِّنَا بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، أَيْ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، وَلَيْسَ هَذَا تَخْصِيصًا لِلْفَوَاحِشِ بِبَعْضِ أَفْرَادِهَا كَمَا ظَنَّ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ ، بَلْ مُرَادُهُ أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ بِعُمُومِهَا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ : وَلَا تَقْرَبُوا

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ (قَالَ) : الْعَلَانِيَةُ . وَمَا بَطَنَ . . قَالَ : السِّرُّ . وَعَنْهُ أَيْضًا : مَا ظَهَرَ مِنْهَا نِكَاحُ الْأُمَّهَاتِ وَالْبَنَاتِ ، وَمَا بَطَنَ الزِّنَا . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " أَرَأَيْتُمُ الزَّانِيَ وَالسَّارِقَ وَشَارِبَ الْخَمْرِ مَا تَقُولُونَ فِيهِمْ " ؟ - قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ " هُنَّ فَوَاحِشُ وَفِيهِنَّ عُقُوبَةٌ " وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ الرَّهَاوِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ مَوْلَاهُ يَقُولُ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الْفَوَاحِشِ " وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ يَحْيَى بْنِ جَابِرٍ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ مِنَ الْفَوَاحِشِ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا فِي كِتَابِهِ تَزْوِيجَ الرَّجُلِ الْمَرْأَةَ فَإِذَا نَفَضَتْ لَهُ وَلَدَهَا طَلَّقَهَا مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ . نَفَضَتْ لَهُ وَلَدَهَا : وَلَدَتْ لَهُ : وَأَخْرَجَ هُوَ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ عِكْرِمَةَ . مَا ظَهَرَ مِنْهَا ظُلْمُ النَّاسِ ، وَمَا بَطَنَ الزِّنَا وَالسَّرِقَةُ . أَيْ لِأَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَهَا فِي الْخَفَاءِ . ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ " فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ " فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُفَسِّرِي

السَّلَفِ فِي جُمْلَتِهِمْ يَحْمِلُونَ الْفَوَاحِشَ عَلَى عُمُومِهَا ، وَمَا ذَكَرُوهُ مِنْهَا أَمْثِلَةٌ لَا تَخْصِيصٌ .

(178/257)

وَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) (120) مِنَ الْوُجُوهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ يَأْتِي مِثْلُهُ هُنَا فَيُرَاجَعُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : (120) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَهَذَا الْجُزْءِ ، إِلَّا أَنَّ الْإِثْمَ

أَعَمُّ مِنَ الْفَاحِشَةِ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ ضَارٍّ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ فَحُشَ قُبْحُهُ أَمْ لَا ; وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سُورَةِ النَّجْمِ : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) (53 : 32) وَقَالَ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (7 : 33) قِيلَ : إِنَّهَا جَمَعَتْ أُصُولَ الْمُحَرَّمَاتِ الْكُلِّيَّةَ وَهِيَ عَلَى التَّرَقِّي فِي قُبْحِهَا كَمَا سَيَأْتِي

فِي تَفْسِيرِهَا ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا " لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا .

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) أَيْ وَالْخَامِسُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ أَلَّا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا بِالْإِسْلَامِ أَوْ عَقْدِ الذِّمَّةِ أَوِ الْعَهْدِ أَوِ الِاسْتِئْمَانِ ، فَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهَا كُلُّ أَحَدٍ إِلَّا الْحَرْبِيَّ .

(179/257)

وَيُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَى الثَّلَاثَةِ ، وَمِنْهُ مَا وَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْمُعَاهَدِ وَإِيذَائِهِ ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ

عَامًا " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللهِ فَلَا يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِينَ خَرِيفًا " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَقَوْلُهُ : (إلَّا بِالْحَقِّ) هُوَ مَا يُبِيحُ الْقَتْلَ شَرْعًا كَقَتْلِ الْقَاتِلِ عَمْدًا بِشَرْطِهِ .

(180/257)

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الْإِشَارَةُ إلَى الْوَصَايَا الْخَمْسِ الَّتِي تُلِيَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَاللَّامُ فِيهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُعْدِ مَدَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْوَصَايَا الْمُشَارُ إلَيْهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ وَالْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ - أَوْ بُعْدَهَا عَنْ مُتَنَاوَلِ أَوْضَاعِ الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَلَا سِيَّمَا مَعَ الْأُمِّيَّةِ . وَالْوَصِيَّةُ مَا يُعْهَدُ إلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ تَرْكِ شَرٍّ بِمَا يُرْجَى تَأْثِيرُهُ ، وَيُقَالُ : أَوْصَاهُ وَوَصَّاهُ . وَجَعَلَهَا الرَّاغِبُ عِبَارَةً عَمَّا يُطْلَبُ مِنْ عَمَلٍ مُقْتَرِنًا بِوَعْظٍ . وَأَصْلُ مَعْنَى " وَصَى " الثُّلَاثِيِّ " وَصَلَ " ، وَمُوَاصَاةُ الشَّيْءِ مُوَاصَلَتُهُ . وَهُوَ خَاصٌّ بِالنَّافِعِ كَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ . يُقَالُ : وَصَى النَّبْتُ اتَّصَلَ وَكَثُرَ ، وَأَرْضٌ وَاصِيَةُ النَّبَاتِ . وَقَالَ

ابْنُدُرَيْدٍ فِي وَصْفِ صَيِّبِ الْمَطَرِ .

جَوْنٌ أَعَارَتْهُ الْجَنُوبُ جَانِبًا . . . مِنْهَا وَوَاصَتْ صَوْبَهُ يَدُ الصَّبَا

(181/257)

أَيْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ إِعْدَادِكُمْ وَبَاعِثِ الرَّجَاءِ فِي أَنْفُسِكُمْ لِأَنْ تَعْقِلُوا مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالْمَنْفَعَةُ فِي تَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ وَفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ ; فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا تُدْرِكُهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْحُسْنِ الذَّاتِيِّ وَإِدْرَاكِ الْعُقُولِ لَهُ بِنَظَرِهَا ، وَإِذَا هِيَ عَقَلَتْ ذَلِكَ كَانَ عَاقِلًا لَهَا وَمَانِعًا مِنَ الْمُخَالَفَةِ . وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَتَحْرِيمِ السَّوَائِبِ وَغَيْرِهَا ، مِمَّا لَا تُعْقَلُ لَهُ فَائِدَةٌ ، وَلَا تَظْهَرُ لِلْأَنْظَارِ الصَّحِيحَةِ فِيهِ مُصْلِحَةٌ .

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) أَيْ وَالسَّادِسُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ فِيمَا حَرَّمَ وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمْ : أَلَّا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِذَا وُلِّيتُمْ أَمْرَهُ أَوْ تَعَامَلْتُمْ بِهِ وَلَوْ بِوَسَاطَةِ وَصِيِّهِ أَوْ وَلِيِّهِ ، إِلَّا بِالْفِعْلَةِ أَوِ الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مَا يُفْعَلُ بِمَالِهِ ، مِنْ حِفْظِهِ وَتَثْمِيرِهِ

(182/257)

وَتَنْمِيَتِهِ وَرُجْحَانِ مَصْلَحَتِهِ ، وَالْإِنْفَاقِ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ مَا يَصْلُحُ بِهِ مَعَاشُهُ وَمَعَادُهُ ، وَالنَّهْيُ عَنْ قُرْبِ الشَّيْءِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْهُ ; لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تُؤَدِّي إلَيْهِ وَتُوقِعُ فِيهِ ، وَعَنِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فِيهِ ، فَيَحْذَرُهَا التَّقِيُّ إذْ يَعُدُّهَا هَضْمًا لِحَقِّ الْيَتِيمِ ، وَيَقْتَحِمُهَا الطَّامِعُ إذْ يَرَاهَا بِالتَّأْوِيلِ مِمَّا يَحِلُّ لَهُ لِعَدَمِ ضَرَرِهَا بِالْيَتِيمِ ، أَوْ لِرُجْحَانِ نَفْعِهَا لَهُ عَلَى ضَرَرِهَا ، كَأَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا بِوَسِيلَةٍ لَهُ فِيهِ رِبْحٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فِي عَمَلٍ لَوْلَاهُ لَمْ يَرْبَحْ وَلَمْ يَخْسَرْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُفَصَّلَةِ فِي الْيَتَامَى مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ وَتَفْسِيرِ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) (2 : 220) مِنَ الْبَقَرَةِ مَا يُغْنِي عَنِ التَّطْوِيلِ هُنَا فِي تَحْرِيرِ مَسْأَلَةِ مَالِ الْيَتِيمِ وَمُخَالَطَتِهِ فِي الْمَعِيشَةِ وَالْمُعَامَلَةِ . (رَاجِعْ ص 271 وَمَا بَعْدَهَا ج 2 ط الْهَيْئَةِ)

(183/257)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) هُوَ غَايَةٌ لِلنَّهْيِ عَنْ هَذَا الْقُرْبِ لِمَالِهِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّرْهِيبِ عَنِ التَّعَامُلِ فِيهِ - أَوْ غَايَةٌ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ الِاسْتِثْنَاءُ ، وَهُوَ مَا يُقَابِلُ النَّهْيَ مِنْ إيجَابِ حِفْظِ مَالِهِ حَتَّى مِنْهُ هُوَ ; فَإِنَّ الْوَلِيَّ أَوِ الْوَصِيَّ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْمَحَ لِلْيَتِيمِ بِتَبْدِيدِ

شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ وَإِضَاعَتِهِ أَوِ الْإِسْرَافِ فِيهِ . وَبُلُوغُ الْأَشُدِّ عِبَارَةٌ عَنْ بُلُوغِهِ سِنَّ الرُّشْدِ وَالْقُوَّةِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ عَنْ كَوْنِهِ يَتِيمًا أَوْ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ، وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ اللُّغَةِ هَلْ هُوَ مُفْرَدٌ ، أَوْ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ ، أَوْ لَهُ وَاحِدٌ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَالْأَشُدُّ مَبْلَغُ الرَّجُلِ الْحِنْكَةَ وَالْمَعْرِفَةَ – وَهُوَ مُوَافِقٌ لِتَفْسِيرِنَا أَوْ حُجَّةٌ لَهُ ، وَنُقِلَ عَنِ ابْنِ سِيدَهْ : بَلَغَ الرَّجُلُ أَشُدَّهُ إِذَا اكْتَهَلَ ، وَنَقَلَ عَنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ أَقْوَالًا

(184/257)

فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ بَلَغَتْ ثُلُثَيْ وَرَقَةٍ مِنْهُ ، وَمُلَخَّصُ الْمَعْنَى أَنَّ لَهُ طَرَفَيْنِ أَدْنَاهُمَا الِاحْتِلَامُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ سِنِّ الْقُوَّةِ وَالرُّشْدِ ، وَنِهَايَتُهُ سِنُّ الْأَرْبَعِينَ وَهِيَ الْكُهُولَةُ إِذَا اجْتَمَعَتْ لِلْمَرْءِ حِنْكَتُهُ وَتَمَامُ عَقْلِهِ – قَالَ – فَبُلُوغُ الْأَشُدِّ مَحْصُورُ الْأَوَّلِ مَحْصُورُ النِّهَايَةِ غَيْرُ مَحْصُورٍ مَا بَيْنَ ذَلِكَ . وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَمَالِكٌ وَآخَرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ : يَعْنِي حَتَّى يَحْتَلِمَ ، وَالِاحْتِلَامُ يَكُونُ غَالِبًا بَيْنَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ وَالثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : وَقَالَ السُّدِّيُّ : الْأَشُدُّ سِنُّ الثَّلَاثِينَ ، وَقِيلَ : سِنُّ الْأَرْبَعِينَ ، وَقِيلَ : السِّتِّينَ . وَالْأَخِيرُ بَاطِلٌ ، وَمَا قَبْلَهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) (46 : 15) وَلَكِنْ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ هَذَا لَا يَظْهَرُ هُنَا .

وَأَقُولُ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالنَّهْيِ عَنْ قُرْبِ مَالِ الْيَتِيمِ النَّهْيُ عَنْ كُلِّ تَعَدٍّ عَلَيْهِ وَهَضْمٍ لَهُ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ، خِلَافًا لِمَنْ جَعَلَ الْخِطَابَ فِيهِ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ خَاصَّةً ، وَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ جَعْلُ (حَتَّى) غَايَةً لِلنَّهْيِ ، وَجَعْلُ " الْأَشُدِّ " بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ وَهُوَ سِنُّ الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ بِالتَّجَارِبِ ، وَالْحَدِيثُ الْعَهْدِ بِالِاحْتِلَامِ يَكُونُ ضَعِيفَ الرَّأْيِ قَلِيلَ التَّجَارِبِ فَيُخْدَعُ كَثِيرًا . وَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَأَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَفْكَارِ الْمَادِّيَّةِ

(185/257)

لَا يَحْتَرِمُونَ إِلَّا الْقُوَّةَ ، وَلَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ إِلَّا لِلْأَقْوِيَاءِ ، فَلِذَلِكَ بَالَغَ الشَّرْعُ فِي الْوَصِيَّةِ بِالضَّعِيفَيْنِ : الْمَرْأَةِ ، وَالْيَتِيمِ . وَإِنَّمَا كَانَتِ الْقُوَّةُ الَّتِي يَحْفَظُ بِهَا الْمَرْءُ مَالَهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ قُوَّةَ الْبَدَنِ مَعَ الرُّشْدِ الْعَقْلِيِّ ، وَهُوَ قَلَّمَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ الْبُلُوغِ ، وَأَمَّا هَذَا الزَّمَانُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ مَالِهِ فِيهِ ، إِلَّا مَنْ كَانَ رَشِيدًا فِي أَخْلَاقِهِ وَعَقْلِهِ وَتَجَارِبِهِ لِكَثْرَةِ الْغِشِّ وَالْحِيَلِ ، وَإِنَّ سَفَهَ الشُّبَّانِ الْوَارِثِينَ فِي مِصْرَ مَضْرِبُ الْمَثَلِ ، فَأَكْثَرُ الشُّبَّانِ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَغْنِيَاءِ مُسْرِفُونَ فِي الشَّهَوَاتِ ، فَمَتَى مَاتَ مَنْ يَرِثُونَهُ أَقْبَلَ عَلَى مُعَاشَرَتِهِمْ أَخْدَانُ الْفِسْقِ وَسَمَاسِرَتُهُ وَمَنْهُومُو الْقِمَارِ ، فَلَا يَتْرُكُونَهُمْ إِلَّا فُقَرَاءَ مَنْبُوذِينَ ، وَقَلَّمَا يَسْتَيْقِظُ أَحَدُهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِ إِلَّا مِنْ سِنِّ الْكُهُولَةِ الَّتِي يَكْمُلُ فِيهَا الْعَقْلُ وَتُعْرَفُ تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ الْكَثِيرَةُ وَيُهْتَمُّ فِيهَا

بِأَمْرِ النَّسْلِ ، وَقَدِ اشْتَرَطَ الشَّرْعُ لِإِيتَاءِ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ سِنَّ الْحُلُمِ وَالرُّشْدِ مَعًا ، وَظُهُورَ رُشْدِهِمْ فِي الْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ بِالِاخْتِبَارِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) إِلَى قَوْلِهِ : (فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) (4 : 6) وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ .

(186/257)

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) أَيْ وَالسَّابِعُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ أَنْ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ لِلنَّاسِ أَوِ اكْتَلْتُمْ عَلَيْهِمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَالْمِيزَانُ إِذَا وَزَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فِيمَا تَبْتَاعُونَ أَوْ لِغَيْرِكُمْ فِيمَا تَبِيعُونَ ، فَلْيَكُنْ كُلُّ ذَلِكَ وَافِيًا تَامًّا بِالْقِسْطِ أَيِ الْعَدْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُطَفِّفِينَ (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (83 : 2 ، 3) أَيْ يُنْقِصُونَ الْكَيْلَ وَالْوَزْنَ ، وَهُمُ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِالْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ بِاسْمِهِمْ . فَهَذَا هُوَ النَّهْيُ الْمُقَابِلُ لِلْأَمْرِ بِالْإِيفَاءِ وَهُوَ لَازِمٌ لَهُ ، فَالْجُمْلَةُ مُوجَزَةٌ ، فَكَلِمَةُ (بِالْقِسْطِ) هِيَ الَّتِي بَيَّنَتْ أَنَّ الْإِيفَاءَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فِي الْحَالَيْنِ ، أَيْ أَوْفُوا مُقْسِطِينَ أَوْ مُلَابِسِينَ لِلْقِسْطِ مُتَحَرِّينَ لَهُ ، وَهُوَ يَقْتَضِي طَرَفَيْنِ يُقْسَطُ بَيْنَهُمَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَرْضَى لِغَيْرِهِ مَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَأَيْنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَ الْقُرْآنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنْ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ ! لَا تَكَادُ

تَجِدُ فِي الْمِائَةِ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ بِلَادِنَا هَذِهِ بَائِعًا يُوفِي الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ لِمُبْتَاعٍ يُسَلِّمُ الْأَمْرَ لَهُ وَيَرْضَى بِذِمَّتِهِ .

(187/257)

(لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا) هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ حُكْمِ مَا يَعْرِضُ لِأَهْلِ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْقِسْطِ فِي الْإِيفَاءِ ; فَإِنَّ أَقَامَةَ الْقِسْطِ أَمْرٌ دَقِيقٌ جِدًّا ، لَا يَتَحَقَّقُ فِي كُلِّ مَكِيلٍ وَمَوْزُونٍ إلَّا إذَا كَانَ بِمَوَازِينَ كَمِيزَانِ الذَّهَبِ الَّذِي يَضْبِطُ الْوَزْنَ بِالْحَبَّةِ وَمَا دُونَهَا ، وَفِي الْتِزَامِ ذَلِكَ فِي بَيْعِ الْحُبُوبِ وَالْخُضَرِ وَالْفَاكِهَةِ حَرَجٌ عَظِيمٌ يَخْطُرُ فِي بَالِ الْوَرِعِ السَّؤَالُ عَنْ حُكْمِهِ ، فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا مَا يَسَعُهَا فِعْلُهُ بِأَنْ تَأْتِيَهُ بِغَيْرِ عُسْرٍ وَلَا حَرَجٍ ، فَهُوَ لَا يُكَلِّفُ مَنْ يَشْتَرِي أَوْ يَبِيعُ مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَنَحْوِهَا أَنْ يَزِنَهُ وَيَكِيلَهُ بِحَيْثُ لَا يَزِيدُ حَبَّةً وَلَا مِثْقَالًا ، بَلْ يُكَلِّفُهُ أَنْ يَضْبِطَ الْوَزْنَ وَالْكَيْلَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ بِحَسَبِ الْعُرْفِ ، بِحَيْثُ يَكُونُ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ لَمْ يَظْلِمْ بِزِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ يُعْتَدُّ بِهِ عُرْفًا . وَقَاعِدَةُ الْيُسْرِ

(188/257)

وَحُصْرِ التَّكْلِيفِ بِمَا فِي وُسْعِ الْمُكَلَّفِ وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ رَفْعِ الْحَرَجِ وَنَفْيِ الْعُسْرِ ، مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الشَّرْعِ الْمَبْنِيِّ عَلَى أَقْوَى أَسَاسٍ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، فَلَا يُسَاوِيهِ فِيهِ قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ الْخَلْقِ ، وَلَوْ عَمِلَ الْمُسْلِمُونَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ لَاسْتَقَامَتْ أُمُورُ مُعَامَلَتِهِمْ وَعَظُمَتِ الثِّقَةُ وَالْأَمَانَةُ بَيْنَهُمْ ، وَكَانُوا حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُطَفِّفِينَ وَالْمُفْسِدِينَ . وَمَا فَسَدَتْ أُمُورُهُمْ وَقَلَّتْ ثِقَتُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَحَلَّ مَحَلَّهَا ثِقَتُهُمْ بِالْأَجَانِبِ الطَّامِعِينَ فِيهِمْ إِلَّا بِتَرْكِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَأَمْثَالِهَا ، ثُمَّ تَجِدُ بَعْضَ الْمَارِقِينَ الْجَاهِلِينَ مِنْهُمْ يَهْذُونَ وَيَقُولُونَ : إِنَّ دِينَنَا هُوَ الَّذِي أَخَّرَنَا وَقَدَّمَ غَيْرَنَا ! ! . قَدْ قَصَّ التَّنْزِيلُ عَلَيْنَا فِيمَا قَصَّ مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ لِنَعْتَبِرَ وَنَتَّعِظَ بِهَا أَنَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بِمَا كَانَ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ، وَلَا سِيَّمَا التَّطْفِيفَ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، وَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ : " إِنَّكُمْ وُلِّيتُمْ أَمْرًا هَلَكَتْ فِيهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا بِسَنَدٍ فِيهِ رَاوٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ : إِنَّهُ رُوِيَ مَوْقُوفًا بِسَنَدٍ صَحِيحٍ وَرَوَى غَيْرُهُ مَا يُؤَيِّدُهُ .

(189/257)

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) أَيْ وَالثَّامِنُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ هُوَ أَنْ تَعْدِلُوا فِي الْقَوْلِ إِذَا قُلْتُمْ قَوْلًا فِي شَهَادَةٍ أَوْ حُكْمٍ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَ الْمَقُولُ فِي حَقِّهِ ذَلِكَ

الْقَوْلُ صَاحِبَ قَرَابَةٍ مِنْكُمْ ، فَالْعَدْلُ وَاجِبٌ فِي الْأَقْوَالِ كَمَا أَنَّهُ وَاجِبٌ فِي الْأَفْعَالِ كَالْوَزْنِ وَالْكَيْلِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَصْلُحُ بِهِ شُئُونُ النَّاسِ ، فَهُوَ رُكْنُ الْعُمْرَانِ وَأَسَاسُ الْمُلْكِ وَقُطْبُ رَحَى النِّظَامِ لِلْبَشَرِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَلَا يَجُوزُ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُحَابِيَ فِيهِ أَحَدًا لِقَرَابَتِهِ وَلَا لِغَيْرِ ذَلِكَ ، وَقَدْ فَصَّلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْأَمْرَ الْمُوجَزَ بِآيَتَيْنِ مَدَنِيَّتَيْنِ أُولَاهُمَا قَوْلُهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ) (4 : 135) إلَخْ . وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ) (5 : 8) إلَخْ . فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهُمَا فِي أَوَاخِرِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَمُنْتَصَفِ الْجُزْءِ السَّادِسِ (ص370 ج5 وَمَا بَعْدَهَا وَص226 ج6 وَمَا بَعْدَهَا ط الْهَيْئَةِ) .

(190/257)

(وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) أَيْ وَالتَّاسِعُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ أَنْ تُوفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ دُونَ مَا خَالَفَهُ ، وَهُوَ يَشْمَلُ مَا عَهِدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إلَى النَّاسِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَبِمَا آتَاهُمْ مِنَ الْعَقْلِ وَالْوُجْدَانِ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، وَمَا يُعَاهِدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَمَا يُعَاهِدُ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْحَقِّ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ . قَالَ تَعَالَى : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلَى آدَمَ) (20 : 115) وَقَالَ : (أَلَمْ أَعْهَدْ إلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) (36 : 60) وَقَالَ أَيْضًا وَهُوَ مِنَ الثَّانِي : (وَأَوْفُوا

بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) (16 : 91) وَقَالَ : (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) (2 : 100) وَقَالَ فِي صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ : (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) (2 : 177) فَكُلُّ مَا وَصَّى اللهُ بِهِ وَشَرَعَهُ

(191/257)

لِلنَّاسِ فَهُوَ مِنْ عَهْدِهِ إِلَيْهِمْ . وَمَنْ آمَنَ بِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ فَقَدْ عَاهَدَ اللهَ - بِالْإِيمَانِ بِهِ - أَنْ يَمْتَثِلَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ . وَمَا يَلْتَزِمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ عَمَلِ الْبِرِّ بِنَذْرٍ أَوْ يَمِينٍ فَهُوَ عَهْدٌ عَاهَدَ رَبَّهُ عَلَيْهِ . كَمَا قَالَ فِي بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ) (9 : 75 ، 76) إلَخْ . وَكَذَلِكَ مَنْ عَاهَدَ الْإِمَامَ وَبَايَعَهُ عَلَى الطَّاعَةِ فِي الْمَعْرُوفِ ، أَوْ عَاهَدَ غَيْرَهُ عَلَى الْقِيَامِ بِعَمَلٍ مَشْرُوعٍ ، وَالسُّلْطَانُ يُعَاهِدُ الدُّوَلَ - فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ إذَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً ، وَلَكِنْ لَا يُعَدُّ مِنْ عَهْدِ اللهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إلَّا إذَا عُقِدَ بِاسْمِهِ أَوْ بِالْحَلِفِ بِهِ ، وَكَذَا تَنْفِيذُ شَرْعِهِ .

وَمِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ هُنَا تَقْدِيمُ مَعْمُولِ الْفِعْلِ " أَوْفُوا " عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَدُلُّ

(192/257)

عَلَى الْحَصْرِ . وَلَمَّا لَمْ يَظْهَرِ الْحَصْرُ لِبَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ جَعَلُوا التَّقْدِيمَ لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ فِي كُلِّ مَا يُقَدَّمُ عَلَى غَيْرِهِ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَهَذَا عَجْزٌ مِنْهُمْ أَلْجَأَهُمْ إلَيْهِ تَفْسِيرُهُمْ لِلْعَهْدِ ، بِهَذِهِ الْوَصَايَا أَوْ بِكُلِّ مَا عَهِدَ اللَّهُ إلَى النَّاسِ ، عَلَى أَنْ تَدْخُلَ هَذِهِ الْوَصَايَا فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا . وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ ، وَالثَّانِي قَاصِرٌ . أَمَّا بُطْلَانُ الْأَوَّلِ ; فَلِأَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ مِنَ الْوَصَايَا الْمَقْصُودَةِ الْمَعْدُودَةِ وَلَهُ مَعْنًى خَاصٌّ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ عَيْنَ مَا قَبْلَهُ . وَأَمَّا قُصُورُ الثَّانِي ، فَظَاهِرٌ مِمَّا ذَكَرْنَا مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعَهْدِ بِالشَّوَاهِدِ مِنَ الْقُرْآنِ . فَالْعَهْدُ إذًا عَامٌّ لِكُلِّ مَا شَرَعَ اللَّهُ لِلنَّاسِ ، وَكُلِّ مَا الْتَزَمَهُ النَّاسُ مِمَّا يُرْضِيهِ وَيُوَافِقُ شَرْعَهُ ، وَيُقَابِلُهُ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ مِنْ عَهْدٍ كَنَذْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحَلِفِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَمُعَاهَدَةِ الْحَرْبِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَى مَا فِيهِ ضَرَرٌ لِلْأُمَّةِ وَهَضْمٌ لِمَصَالِحِهَا ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي . فَحَصَرَ اللَّهُ الْأَمْرَ بِالْوَفَاءِ فِي الْأَوَّلِ الَّذِي يُرْضِيهِ لِيُخْرِجَ مِنْهُ هَذَا الْأَخِيرَ الَّذِي يُسْخِطُهُ . وَنَكْتَفِي مِنَ السُّنَّةِ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو الْمَرْفُوعِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا - إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا

وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " .

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ (تَذْكُرُونَ) مُخَفَّفَةً مِنَ الذِّكْرِ ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّذْكِيرِ ، وَأَصْلُهُ تَتَذَكَّرُونَ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدًا كَمَا قِيلَ ؛ فَإِنَّ الصِّيَغَ مِنَ الْمَادَّةِ الْوَاحِدَةِ تُعْطِي مَعَانِيَ خَاصَّةً وَيُتَجَوَّزُ فِي بَعْضِهَا مَا لَا يَصِحُّ فِي بَعْضٍ ، فَالذِّكْرُ يُطْلَقُ فِي الْأَصْلِ عَلَى إِخْطَارِ مَعْنَى الشَّيْءِ أَوْ خُطُورِهِ فِي الذِّهْنِ وَيُسَمَّى ذِكْرَ الْقَلْبِ ، وَعَلَى النُّطْقِ بِاللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَيْهِ وَيُسَمَّى ذِكْرَ اللِّسَانِ ، وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازًا بِمَعْنَى الصِّيتِ وَالشَّرَفِ ، وَفُسِّرَ بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) (43 : 44) وَيُطْلَقُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَبِهِ يُسَمَّى الْقُرْآنُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ذِكْرًا ، وَمِنْهُ (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وَأَمَّا التَّذَكُّرُ فَمَعْنَاهُ تَكَلُّفُ ذِكْرِ الشَّيْءِ فِي الْقَلْبِ ، أَوِ التَّدَرُّجِ فِيهِ بِفِعْلِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الِاتِّعَاظِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) (40 : 13) وَقَوْلُهُ : (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) (87 : 10) وَالشَّوَاهِدُ عَلَيْهِ فِي الذِّكْرِ كَثِيرَةٌ ، وَمِثْلُهُ الِادِّكَارُ (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الذِّكْرِ ، وَالِافْتِعَالُ يَقْرُبُ مِنَ التَّفَعُّلِ . وَحِكْمَةُ الْقِرَاءَتَيْنِ إِفَادَةُ الْمَعَانِي الَّتِي تَدُلَّانِ عَلَيْهَا مِنْ بَابِ الْإِيجَازِ الْبَلِيغِ .

وَالْمَعْنَى : ذَلِكُمُ الْمَتْلُوُّ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي - الْبَعِيدَةِ مَدَى الْفَائِدَةِ وَمَسَافَةِ الْمَنْفَعَةِ لِمَنْ قَامَ بِهَا - وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ رَجَاءَ أَنْ تَذْكُرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ مَا فِيهَا مِنَ الصَّلَاحِ لَكُمْ ، فَيَحْمِلَكُمْ ذَلِكَ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا ، أَوْ رَجَاءَ أَنْ يُذَكِّرَهُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّوَاصِي الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (3 : 103) وَلِكُلٍّ مِنَ الذِّكْرِ النَّفْسِيِّ وَاللِّسَانِيِّ وَجْهٌ هُنَا ، وَلَا مَانِعَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيَّةِ وَابْنِ جَرِيرٍ الْمُخْتَارِ عِنْدَنَا - وَكَذَا الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ مَعَانِي التَّذَكُّرِ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ : وَصَّاكُمْ بِهِ رَجَاءَ أَنْ يَتَكَلَّفَ ذِكْرَ هَذِهِ الْوَصَايَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مَنْ كَانَ كَثِيرَ النِّسْيَانِ وَالْغَفْلَةِ أَوْ كَثِيرَ الشَّوَاغِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ - أَوْ رَجَاءَ أَنْ يَتَذَكَّرَهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مَنْ أَرَادَ الِانْتِفَاعَ بِهَا بِتِلَاوَةِ آيَاتِهَا فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَبِغَيْرِ ذَلِكَ - أَوْ رَجَاءَ أَنْ يَتَّعِظَ بِهَا مَنْ سَمِعَهَا وَقَرَأَهَا أَوْ ذَكَرَهَا أَوْ ذُكِّرَ بِهَا ، وَبَعْضُ هَذِهِ الْوُجُوهِ عَامٌّ يُطْلَبُ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَبَعْضُهَا خَاصٌّ .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) أَيْ وَالْعَاشِرُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ ، هُوَ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ وَالشَّرْعِ الْحَنِيفِيِّ الْعَذْبِ الْمَوْرِدِ السَّائِغِ الْمَشْرَبِ بِمَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى هَذِهِ الْوَصَايَا الَّتِي لَا يُكَابِرُ ذُو مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلٍ فِي حُسْنِهَا وَفَضْلِهَا - أَوْ - أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَدْعُوكُمْ بِهِ إِلَى مَا يُحْيِيكُمْ : هُوَ صِرَاطِي وَمِنْهَاجِي الَّذِي أَسْلُكُهُ إِلَى مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى وَنَيْلِ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - أُشِيرُ إِلَيْهِ مُسْتَقِيمًا ظَاهِرَ الِاسْتِقَامَةِ لَا يَضِلُّ سَالِكُهُ ، وَلَا يَهْتَدِي تَارِكُهُ فَاتَّبِعُوهُ وَحْدَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الْأُخْرَى الَّتِي تُخَالِفُهُ وَهِيَ كَثِيرَةٌ فَتَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، بِحَيْثُ يَذْهَبُ كُلٌّ مِنْكُمْ فِي سَبِيلِ ضَلَالَةٍ مِنْهَا يَنْتَهِي بِهَا إِلَى الْهَلَكَةِ ، إِذْ لَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَلَيْسَ أَمَامَ تَارِكِ النُّورِ إِلَّا الظُّلُمَاتُ . وَقَدْ أُضِيفَ الصِّرَاطُ بِهَذَا الْمَعْنَى إِلَى اللهِ تَعَالَى ، إِذْ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ . وَإِلَى الدُّعَاةِ إِلَيْهِ وَالسَّالِكِينَ لَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِضَافَتَهُ هُنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُخَاطِبُ لِلنَّاسِ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَفِعْلُهَا مُسْنَدٌ إِلَيْهِ تَعَالَى بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ .

وَقَدْ جُمِعَ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْأَمْرِ بِالْحَقِّ وَالنَّهْيِ عَنْ مُقَابِلِهِ وَهُوَ الْبَاطِلُ . قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي) بِكَسْرِ هَمْزَةِ " إِنَّ " وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا ، فَأَمَّا كَسْرُهَا فَعَلَى أَنَّ الْكَلَامَ مُسْتَأْنَفٌ فِي بَيَانِ وَصِيَّةٍ هِيَ أُمُّ الْوَصَايَا

الْجَامِعَةِ لِمَا قَبْلَهَا ، وَلِغَيْرِهَا - وَأَمَّا الْفَتْحُ فَعَلَى تَقْدِيرِ لَامِ التَّعْلِيلِ فَهُوَ يَقُولُ : وَلِأَجْلِ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا لَا عِوَجَ فِيهِ ، عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْثِرُونَ الِاسْتِقَامَةَ عَلَى الِاعْوِجَاجِ ، وَتُرَجِّحُونَ الْهُدَى عَلَى الضَّلَالِ .

(197/257)

أَخْرَجَ أَحْمَدُ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَالْبَزَّارُ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَالْحَاكِمُ وَأَكْثَرُ مُصَنِّفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : " هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا " ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِ ذَلِكَ الْخَطِّ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : " وَهَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ " ، ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ مَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ؟ قَالَ : تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَدْنَاهُ وَطَرَفُهُ الْجَنَّةُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ جَوَادُّ (بِالتَّشْدِيدِ جَمْعُ جَادَّةٍ

وَهِيَ الطَّرِيقُ) وَعَنْ يَسَارِهِ جَوَادٌ ، وَثَمَّ رِجَالٌ يَدْعُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ ، فَمَنْ أُخِذَ فِي تِلْكَ الْجَوَادِّ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَمَنْ أُخِذَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ انْتَهَى بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَرَوَى أَحْمَدُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَنْ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا

(198/257)

أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ لَهُ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ (أَيْ تَدْخُلُهُ) فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ " وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْوَاعِظَ هُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ النَّاسُ بِالْوُجْدَانِ وَالضَّمِيرِ . وَقَدْ أَفْرَدَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَهُوَ سَبِيلُ اللَّهِ ، وَجَمَعَ السُّبُلَ الْمُخَالِفَةَ لَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَالْبَاطِلَ مَا خَالَفَهُ وَهُوَ كَثِيرٌ فَيَشْمَلُ الْأَدْيَانَ الْبَاطِلَةَ مِنْ مُخْتَرَعَةٍ وَسَمَاوِيَّةٍ مُحَرَّفَةٍ وَمَنْسُوخَةٍ وَالْبِدَعَ وَالشُّبُهَاتِ ، وَبِهَا فَسَّرَهَا مُجَاهِدٌ هُنَا ، وَالْمَعَاصِيَ كَمَا فِي حَدِيثِ

النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَقَدْ نَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِي صِرَاطِ الْحَقِّ وَسَبِيلِهِ ، فَإِنَّ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ الْوَاحِدِ هُوَ جَعْلُهُ مَذَاهِبَ يَتَشَيَّعُ لِكُلٍّ مِنْهَا شِيعَةٌ وَحِزْبٌ يَنْصُرُونَهُ وَيَتَعَصَّبُونَ لَهُ ، وَيُخَطِّئُونَ مَا خَالَفَهُ ، وَيَرْمُونَ أَتْبَاعَهُ بِالْجَهْلِ وَالضَّلَالِ ، أَوِ الْكُفْرِ أَوِ الِابْتِدَاعِ ، وَذَلِكَ سَبَبٌ لِإِضَاعَةِ الدِّينِ بِتَرْكِ طَلَبِ الْحَقِّ الْمُنَزَّلِ فِيهِ ، لِأَنَّ كُلَّ

(199/257)

شِيعَةٍ فِيمَا يُؤَيِّدُ مَذْهَبَهَا وَيُظْهِرُهَا عَلَى مُخَالِفِيهَا ، لَا فِي الْحَقِّ لِذَاتِهِ ، وَالِاسْتِعَانَةُ عَلَى اسْتِبَانَتِهِ وَفَهْمِ نُصُوصِهِ بِبَحْثِ أَيِّ عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِغَيْرِ تَعَصُّبٍ وَلَا تَشَيُّعٍ ، وَالْحَقُّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَقْفًا مَحْبُوسًا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عَالِمٍ مُعَيَّنٍ وَعَلَى أَتْبَاعِهِ فَكُلُّ بَاحِثٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ . وَهَذَا أَمْرٌ قَطْعِيٌّ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَالْإِجْمَاعِ وَلَكِنَّ جَمِيعَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِلْمَذَاهِبِ الْمُلْتَزِمِينَ لَهَا مُخَالِفُونَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِصِرَاطِ اللهِ الَّذِي هُوَ الْحَقُّ الْوَاحِدُ ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِيهِمْ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ وَإِلَى مَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُمَا وَآثَرُوا عَلَيْهِمَا قَوْلَ أَيِّ مُؤَلَّفٍ لِكِتَابٍ مُنْتَمٍ إِلَى مَذَاهِبِهِمْ .

(200/257)

وَلَمَّا كَانَ اتِّبَاعُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَعَدَمُ التَّفَرُّقِ فِيهِ هُوَ الْحَقَّ الْمُوَحِّدَ لِأَهْلِ الْحَقِّ الْجَامِعَ لِكَلِمَتِهِمْ ، وَتَوْحِيدِهِمْ وَجَمْعُ كَلِمَتِهِمْ هُوَ الْحَافِظُ لِلْحَقِّ الْمُؤَيِّدُ لَهُ وَالْمُعِزُّ لِأَهْلِهِ - كَانَ التَّفَرُّقُ فِيهِ بِمَا ذُكِرَ سَبَبًا لِضَعْفِ الْمُتَفَرِّقِينَ وَذُلِّهِمْ وَضَيَاعِ حَقِّهِمْ . فَبِهَذَا التَّفَرُّقِ حَلَّ بِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مَا حَلَّ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالتَّقَاتُلِ وَالضَّعْفِ وَضَيَاعِ الْحَقِّ ، وَقَدِ اتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ سُنَنَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى حَلَّ بِهِمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ مَا يَتَأَلَّمُونَ مِنْهُ وَيَتَمَلْمَلُونَ وَلَمْ يَرْدَعْهُمْ عَنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَأَحَادِيثِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ قَبْلَهُمْ فَرْقٌ إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) حِفْظُ الْقُرْآنِ مِنْ أَدْنَى تَغْيِيرٍ وَأَقَلِّ تَحْرِيفٍ ، وَضَبْطُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ بِمَا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ نَظِيرٌ . (وَثَانِيهُمَا) وُجُودُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ فِي كُلِّ زَمَانٍ تَدْعُو إِلَى صِرَاطِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَتَتَّبِعُهُ بِالْعَمَلِ وَالْحُجَّةِ ، كَمَا بَشَّرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ قَلُّوا فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ ، وَكُلُّ صَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ فِي الْإِسْلَامِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ، فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُكَثِّرَهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ

(201/257)

وَيَجْعَلَنَا مِنْ أَئِمَّتِهِمْ فَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى . رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) وَقَوْلِهِ : (أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (42 : 3) وَنَحْوِ هَذَا فِي الْقُرْآنِ قَالَ : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ .

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا سَبْحٌ طَوِيلٌ فِي بَحْرِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يُرَاجَعُ فِي مَوَاضِعِهِ كَتَفْسِيرِ (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (3 : 103) وَمَا بَعْدَهَا فِي أَوَائِلِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَتَفْسِيرِ (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (4 : 59) وَتَفْسِيرِ (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) (4 : 165) وَتَفْسِيرِ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (5 : 3) وَتَفْسِيرِ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا) (6 : 65) وَفِيهِ بَحْثٌ مُسْتَفِيضٌ فِي عَذَابِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَدَاعِي الْأُمَمِ عَلَيْهَا وَضَعْفِهَا بِالتَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ مِنْ مَظَانِّهِ وَفَهَارِسِ أَجْزَاءِ التَّفْسِيرِ وَسَيُعَادُ الْبَحْثُ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (159) مِنْ بَعْدِ بِضْعِ آيَاتٍ .

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أَيْ ذَلِكُمُ الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ صِرَاطِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالنَّهْيِ عَنْ سَبِيلِ الضَّلَالَاتِ وَالْأَبَاطِيلِ الْمُعْوَجَّةِ ، وَهُوَ جَامِعُ الْوَصَايَا النَّافِعَةِ الْبَعِيدَةِ الْمَرْمَى ، الْمُوصِلُ إِلَى مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ مِنَ السَّعَادَةِ الْعُظْمَى ، وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهِ لِيُعِدَّكُمْ وَيُهَيِّئَكُمْ لِمَا يُرْجَى لِكُلِّ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنِ اتِّقَاءِ كُلِّ مَا يُشْقِيهِ وَيُرْدِيهِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ . قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَلَمَّا كَانَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْجَامِعَ لِلتَّكَالِيفِ ، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَنَهَى عَنِ اتِّبَاعِ غَيْرِهِ مِنَ الطُّرُقِ خَتَمَ ذَلِكَ بِالتَّقْوَى الَّتِي هِيَ اتِّقَاءُ النَّارِ ; إِذْ مَنِ اتَّبَعَ صِرَاطَهُ نَجَا النَّجَاةَ الْأَبَدِيَّةَ وَحَصَلَ عَلَى السَّعَادَةِ السَّرْمَدِيَّةِ .

وَأَقُولُ : إِنَّ كَلِمَةَ التَّقْوَى تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُتَّقَى مِنَ الضَّرَرِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ مَهْمَا يَكُنْ نَوْعُهُ وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي التَّنْزِيلِ فِي سِيَاقِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ عِبَادَاتٍ وَمُعَامَلَاتٍ ، وَآدَابٍ وَقِتَالٍ ، وَسُنَنِ اجْتِمَاعٍ ، وَطَعَامٍ وَشَرَابٍ ، وَعِشْرَةٍ وَزَوَاجٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَهِيَ تُفَسَّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ . وَهِيَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَنْوَاعِ لِأَنَّهَا جَاءَتْ فِي سِيَاقِ اتِّبَاعِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الشَّامِلِ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْهِدَايَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى مَوْضِعِ خَتْمِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ وَالتَّذَكُّرِ وَمَا قَبْلَهُمَا بِالْعَقْلِ . وَبَعْدَ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ كُلِّهَا رَاجَعْتُ مَا لَدَيَّ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ فَرَأَيْتُ السَّيِّدَ قَدْ أَتَى بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ غَيْرُهُ مِمَّا قَالَهُ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ فِي نُكَتِ هَذِهِ الْخَوَاتِيمِ لِلْآيَاتِ الثَّلَاثِ وَهَذَا نَصُّهُ :

وَخُتِمَتِ الْآيَةُ الْأُولَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وَهَذِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا مُسْتَمِرِّينَ عَلَى الشِّرْكِ وَقَتْلِ الْأَوْلَادِ وَقُرْبَانِ الزِّنَا وَقَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ (غَيْرَ) مُسْتَنْكِفِينَ وَلَا عَاقِلِينَ قُبْحَهَا ، فَنَهَاهُمْ سُبْحَانَهُ لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ قُبْحَهَا فَيَسْتَنْكِفُوا عَنْهَا وَيَتْرُكُوهَا ، وَأَمَّا حِفْظُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى عَلَيْهِمْ وَإِيفَادُ الْكَيْلِ وَالْعَدْلُ فِي الْقَوْلِ وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ فَكَانُوا يَفْعَلُونَهُ وَيَفْتَخِرُونَ بِالِاتِّصَافِ بِهِ ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ إِنْ عَرَضَ لَهُمْ نِسْيَانٌ ، قَالَهُ الْقُطْبُ الرَّازِيُّ ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ قُلْتَ : إِحْسَانُ الْوَالِدَيْنِ مِنْ قَبِيلِ الثَّانِي أَيْضًا ، فَكَيْفَ ذُكِرَ مِنَ الْأَوَّلِ ؟ قُلْتُ : أَعْظَمُ النِّعَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَتْلُوهُ الْوَالِدَيْنِ لِأَنَّهُمَا الْمُؤَثِّرَانِ فِي الظَّاهِرِ ، وَمِنْهُمَا نِعْمَةُ التَّرْبِيَةِ وَالْحِفْظِ عَنِ الْهَلَاكِ فِي وَقْتِ الصِّغَرِ ، فَلَمَّا نَهَى عَنِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى نَهَى بَعْدَهُ عَنِ الْكُفْرَانِ فِي نِعْمَةِ

الْأَبَوَيْنِ ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا لَمْ يَرْتَكِبُوا الْكُفْرَانَ فَبِطَرِيقِ الْأَوْلَى أَلَّا يَرْتَكِبُوا الْكُفْرَ .

وَقَالَ الْإِمَامُ (الرَّازِيُّ) : السَّبَبُ فِي خَتْمِ كُلِّ آيَةٍ بِمَا خُتِمَتْ أَنَّ التَّكَالِيفَ الْخَمْسَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ ، فَوَجَبَ تَعَقُّلُهَا وَتَفَهُّمُهَا . وَالتَّكَالِيفُ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أُمُورٌ خَفِيَّةٌ غَامِضَةٌ لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الِاجْتِهَادِ وَالْفِكْرِ الْكَثِيرِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى مَوْضِعِ الِاعْتِدَالِ وَهُوَ التَّذَكُّرُ . انْتَهَى .

(قَالَ الْآلُوسِيُّ) : وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ أَكْثَرَ التَّكْلِيفَاتِ الْأُوَلِ أُدِّيَ بِصِيغَةِ النَّهْيِ وَهُوَ فِي مَعْنَى الْمَنْعِ ، وَالْمَرْءُ حَرِيصٌ عَلَى مَا مُنِعَ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعَلَّلَ الْإِيصَاءُ بِذَلِكَ بِمَا فِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى مَعْنَى الْمَنْعِ وَالْحَبْسِ ، وَهَذَا بِخِلَافِ التَّكْلِيفَاتِ الْأُخَرِ ; فَإِنَّ أَكْثَرَهَا قَدْ أُدِّيَ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ وَلَيْسَ الْمَنْعُ فِيهِ ظَاهِرًا كَمَا فِي النَّهْيِ ، فَيَكُونُ تَأْكِيدَاتُ الطَّلَبِ وَالْمُبَالَغَةُ فِيهِ لِيَسْتَمِرَّ عَلَيْهِ وَيَتَذَكَّرَ إِذَا نَسِيَ فَلْيُتَدَبَّرْ اهـ .

(205/257)

وَإِنَّنَا نَخْتِمُ هَذِهِ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةَ الشَّأْنِ بِأَحَادِيثَ وَرَدَتْ فِيهَا نَقْلًا عَنِ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالطَّبَرَانِيُّ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ الَّذِي

عَلَيْهِ خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ؟ - ثُمَّ تَلَا (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ - ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ وَفَّى بِهِنَّ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ ، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَى الْآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، إِنْ شَاءَ آخَذَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ " وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَأَبُو عُبَيْدٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، عَنْ مُنْذِرٍ الثَّوْرِيِّ قَالَ : قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ : أَيَسُرُّكَ أَنْ تَلْقَى صَحِيفَةً مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَاتَمٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

(206/257)

رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

(207/257)

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ وَالْبَيْهَقِيُّ كِلَاهُمَا فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : لَمَّا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، خَرَجَ إِلَى مِنًى وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا نَسَّابَةً ، فَوَقَفَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ وَمَضَارِبِهِمْ بِمِنًى فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَرَدُّوا السَّلَامَ ، وَكَانَ فِي الْقَوْمِ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو وَهَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ ، وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ وَكَانَ أَقْرَبَ الْقَوْمِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ مَفْرُوقٌ ، وَكَانَ مَفْرُوقٌ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ بَيَانًا وَلِسَانًا ، فَالْتَفَتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : إِلَامَ تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ يُظِلُّهُ بِثَوْبِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ، وَأَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي وَتَمْنَعُونِي حَتَّى أُؤَدِّيَ حَقَّ اللهِ الَّذِي أَمَرَنِي بِهِ ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللهِ وَكَذَّبَتْ رَسُولَهُ ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، قَالَ لَهُ : وَإِلَامَ تَدْعُو أَيْضًا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟ فَتَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) إِلَى قَوْلِهِ : (تَتَّقُونَ) فَقَالَ لَهُ مَفْرُوقٌ : وَإِلَامَ تَدْعُو

أَيْضًا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟ فَوَاللهِ مَا هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ كَلَامِهِمْ لَعَرَفْنَاهُ . فَتَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) (16 : 90) الْآيَةَ . فَقَالَ لَهُ مَفْرُوقٌ : دَعَوْتَ وَاللهِ يَا قُرَشِيُّ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، وَلَقَدْ أَفِكَ قَوْمٌ كَذَّبُوكَ وَظَاهَرُوا عَلَيْكَ . وَقَالَ هَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ وَاسْتَحْسَنْتُ قَوْلَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ وَيُعْجِبُنِي مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَمْنَحَكُمُ اللهُ بِلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ - يَعْنِي أَرْضَ فَارِسٍ وَأَنْهَارَ كِسْرَى - وَيُفْرِشَكُمْ بَنَاتِهِمْ أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ ؟ فَقَالَ لَهُ النُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ : اللهُمَّ وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ فَتَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا

مُنِيرًا) (33 : 45 ، 46) الْآيَةَ . ثُمَّ نَهَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَابِضًا عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 161.176 ﴾

(209/257)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾

أي أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التي بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شيء قال تذييلا لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التي قال الحق فيها : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ [الأنعام : 151]

هذه الأشياء كانت موجودة في بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تعقلوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذي يبحث عن الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن " الأربع " الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففي التي كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء في الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من

باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : 153]

(210/257)

ونظرا لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابا وسلبا ، نهيا وأمرا ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو - كما يقال - " أدق من الشعرة ، وأحد من السيف " ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لو راح يمنة يهوي في النار ، ولو راح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقا واسعا ، بل - كما قلنا - " أدق من الشعرة وأحد من السيف " فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلا ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل - كما قلنا - يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأي انحراف قليل في نقطة البداية يؤدي إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقي فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير في الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل .

﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : 153]

" ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلي بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخط خطا . وقال : هذا سبيل الله

. ثم خط خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ، ثم قال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . . ﴾ . "

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

(211/257)

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه في دينه ، منسوبا إلى رسوله : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يغش نفسه ،

والذي يفعله ويمشي فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمرا وهو بنجوة وبعد عنه ، ولو غشكم جميعا لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذي يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد صلى الله عليه وسلم .

ونسب الفعل والحدث لله وحده ؛ ففي البداية قال : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما ﴾ ، ثم قال : " سبيله " فالصراط لم يعمله محمد لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعا ، ورسول الله هو الذي يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التي تأتي بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . . . ﴾ [البقرة : 113]

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شيء ، ولا هؤلاء على شيء : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم . . . ﴾ [البقرة : 113]

أي أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصارى على شيء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شيء ، وقال الذين لا يعلمون – وهم أهل مكة – مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شيء تتعصب له ، وترى أن الذي تقول له هو الحق ، والذي يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة ؟ ! إن آفة كل هذا تنشأ من شهوة

السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن يكون له مكانة ونفوذ وخلافة . وهذا يريد أن يتزعم فريقا ، وذاك يريد أن يتزعم فريقا ، ولو أنهم جمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء .

(212/257)

ونجده صلى الله عليه وسلم يقول : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " .

وفي رواية : "كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة"

والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفي رواية : " ما أنا عليه وأصحابي " .

ونلاحظ دقة هذا القول في عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لا تسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا في جلالها .

إذن الآفة تأتي خير ننظر حين إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأيا ، ويأتي الآخر فيرى فيه رأيا آخر ، لا لشيء إلا للاختلاف . ونقول لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم محكم ، وحكم تركه الله مناطا للاجتهاد فيه ، فالحكم الذي أراده الله محكما جاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذي يحبه الله من المكلفين تخفيفا عنهم على وجه من الوجوه يأتي بالنص فيه محتملا للاجتهاد ، ومجيء النص من

المشرع في حكم محتمل للاجتهاد ، هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراده حكما لا نختلف فيه لجاء به محكما .

والمثال المستمر ما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بني قريظة ، وهم من شايعوا مشركي مكة في الحرب . فقال صلى الله عليه وسلم : " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " . فذهب الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة ، وآذنت الشمس بالمغيب وهم في الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلي العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلين العصر إلا في بني قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقر هذا ، وأقر هذا ، لأن النص محتمل .

(213/257)

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفا له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلي العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلي إلا في بني قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رفع الأمر إلى المشرع الأعلم أقر هؤلاء

وأقر هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه وإن كان الله قد تركه موضعا للاجتهاد فيه فهو يأتي لنا بالنص غير المحكم . ومن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقي لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذي ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذي ذهب إليه مقابلي خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذي أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفي ولا تدرون بها ، الحمد لله أنكم لا تدرون بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(214/257)

فائدة

قال التسترى :

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ [153] قال : الطريق المستقيم هو الذي لا يكون لأصحاب الأهواء والبدع في الدين ، هم ليست لهم توبة ، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل ذنب توبة ، إلاَّ لأصحاب البدع والأهواء ، وإني منهم

بريء وهم مني براء ، وإن الله عزَّ وجلَّ حجز عنهم التوبة » ، أي ضيق عليهم التوبة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 64 ﴾

(215/257)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾

أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ قال : اعلموا انما السبيل سبيل واحد جماعة الهدى ومصيره الجنة ، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده ، ثم قال " هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿ وأن

هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ " .

وأخرج أحمد وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله قال "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطاً هكذا أمامه فقال : هذا سبيل الله ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال : هذا سبيل الشيطان . ثم وضع يده في الخط الأوسط وتلا ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . . . ﴾ الآية " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جبير وابن مردويه عن ابن مسعود "أن رجلاً سأله ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد صلى الله وعليه وسلم في أدناه وطرفه الجنة وعن يمينه جواد وعن شماله جواد ، وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولا تتبعوا السبيل ﴾ قال : الظلالات .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ قال : البدع والشبهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد الشوكاني في الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾

قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ أي تقدّموا .

قال ابن الشجري : إن المأمور بالتقدّم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً ، فقيل له تعال ، أي ارفع شخصك بالقيام وتقدّم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي .

وهكذا قال الزمخشري في الكشاف : إنه من الخاص الذي صار عاماً ، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم كثروا واتسع فيه حتى عمّ .

قوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ﴿ أتل ﴾ جواب الأمر ، و" ما " موصولة في محل نصب به

، أي أتل الذين حرّمه ربكم عليكم .

والمراد من تلاوة ما حرّم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه ، ويجوز أن تكون " ما " مصدرية ، أي أتل تحريم ربكم .

والمعنى : ما اشتمل على التحريم .

(217/257)

قيل ويجوز أن تكون ما استفهامية أي أتل أي شيء حرّم ربكم ، على جعل التلاوة بمعنى القول ، وهو ضعيف جداً ، و ﴿ عليكم ﴾ أن تعلق ب ﴿ أتل ﴾ ، فالمعنى : أتل عليكم الذي حرّم ربكم ، وإن تعلق ب ﴿ حرّم ﴾ ، فالمعنى أتل الذي حرّم ربكم عليكم ، وهذا أولى ، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقاً وقيل : إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها .

والمعنى عليكم أن لا تشركوا إلى آخره ، أي الزموا ذلك كقوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [المائدة : 105] وهو أضعف مما قبله ، وأن في ﴿ أَن لا تُشْرِكُواْ ﴾ مفسرة لفعل التلاوة ، وقال النحاس : يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من " ما " ، أي أتل عليكم تحريم الإشراك .

وقيل : يجوز أن يكون في محل رفع بتقدير مبتدأ ، أي المتلوّ أن لا تشركوا ، و﴿ شيئاً ﴾ مفعول أو مصدر أي لا تشركوا به شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من الإشراك .

قوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي أحسنوا بهما إحساناً ، والإحسان إليهما البرّ بهما ، وامتثال أمرهما ونهيهما .

وقد تقدّم الكلام على هذا .

قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أولادكم مّنْ إملاق ﴾ لما ذكر حق الوالدين على الأولاد ، ذكر حق الأولاد على الوالدين ، وهو أن لا يقتلوهم من أجل إملاق .

والإملاق الفقر ، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والإناث خشية الإملاق ، وتفعله بالإناث خاصة خشية العار ، وحكى النقاش عن مؤرّج أن الإملاق الجوع بلغة لخم ، وذكر منذر بن سعيد البلوطي : أن الإملاق الإنفاق .

يقال أملق ماله : بمعنى أنفقه .

والمعنى الأوّل هو الذي أطبق عليه أئمة اللغة ، وأئمة التفسير ها هنا .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الفواحش ﴾ أي المعاصي ، ومنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] وما في ﴿ مَا ظَهَرَ ﴾ بدل من الفواحش ، وكذا ما بطن .

والمراد ب ﴿ ما ظهر ﴾ : ما أعلن به منها ، و﴿ ما بطن ﴾ : ما أسرّ .

وقد تقدّم ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النفس ﴾ اللام في النفس للجنس ، و ﴿ التى حَرَّمَ الله ﴾ صفة للنفس ، أي لا تقتلوا شيئاً من الأنفس التي حرّمها الله ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي إلا بما يوجبه الحق ، والاستثناء مفرّغ ، أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق ، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، ومن الحق قتلها قصاصاً ، وقتلها بسبب زنا المحصن ، وقتلها بسبب الردّة ، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما تقدّم مما تلاه عليهم ، وهو مبتدأ ﴿ وَوَصَاكم بِهِ ﴾ خبره : أي أمركم به ، وأوجبه عليكم ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالخصلة ﴿ التى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ من غيرها ، وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته ، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله وقيل : المراد بالتي هي أحسن التجارة ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي إلى غاية هي أن يبلغ اليتيم أشدّه ، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أموالهم ﴾ [النساء : 6] .

واختلف أهل العلم في الأشد ، فقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده .

وقال أبو حنيفة : خمس وعشرون سنة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو البلوغ .

وقيل : إنه انتهاء الكهولة ، ومنه قول سحيم الرباحي :

أخو الخمسين مجتمع أشدي . . . ويحديني مداورة الشؤون

(219/257)

والأولى في تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد ، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكاً مسلك العقلاء ، لا مسلك أهل السفه والتبذير ، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النّكَاحَ فَإِنْ ءانَسْتُمْ مّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أموالهم ﴾ [النساء : 6] فجعل بلوغ النكاح ، وهو بلوغ سنّ التكليف مقيداً بإيناس الرشد ، ولعله قد سبق هنالك كلام في هذا ، والأشد واحد لا جمع له ، وقيل : واحده شدّ كفلس وأفلس ، وأصله من شدّ النهار ، أي ارتفع .

وقال سيبويه : واحده شدة .

قال الجوهري : وهو حسن في المعنى ، لأنه يقال بلغ الكلام شدته ، ولكن لا تجمع فعلة على أفعل .

قوله : ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي بالعدل في الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء ﴿ لاَ نُكَلّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي إلا طاقتها في كل تكليف من التكاليف ،

ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن ، فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ أي إذا قلتم بقول في خير أو شهادة ، أو جرح أو تعديل ، فاعدلوا فيه ، وتحرّوا الصواب ، ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ، ولا على عدو ، بل سوّوا بين الناس ، فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به ، والضمير في ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ راجع إلى ما يفيده ﴿ وإذا قلتم ﴾ فإنه لا بد للقول من مقول فيه ، أو مقول له ، أي ولو كان المقول فيه ، أو المقول له ﴿ ذَا قربى ﴾ أي صاحب قرابة لكم .

وقيل إن المعنى : ولو كان الحق على مثل قراباتكم والأوّل أولى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوالدين والأقربين ﴾ [النساء : 135] .

(220/257)

قوله : ﴿ وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ﴾ أي أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم ، ومن جملة ما عهده إليكم ، ما تلاه عليكم رسوله بأمره في هذا المقام ، ويجوز أن يراد به كل عهد ، ولو كان بين المخلوقين ، لأن الله سبحانه لما أمر بالوفاء به في كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوّغاً لإضافته إليه .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما تقدّم ذكره ﴿ وصاكم بِهِ ﴾ أمركم به أمراً مؤكداً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتتعظون بذلك .

قوله : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ أن في موضع نصب ، أي واتل أن هذا صراطي ، قاله الفراء والكسائي .

قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضاً ، أي وصاكم به ، وبأن هذا .

وقال الخليل وسيبويه : إن التقدير ولأن هذا صراطي مستقيماً ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ [الجن : 18] وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي " وَإِنَّ هذا " بكسر الهمزة على الاستئناف ، والتقدير : الذي ذكر في هذه الآيات صراطي .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، ويعقوب " وَإِن هذا صراطي " بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن .

وقرأ الأعمش " وهذا صراطي " وفي مصحف عبد الله بن مسعود " وهذا صراط ربُّكُمْ " وفي مصحف أبيّ " وهذا صراط ربّكَ " والصراط : الطريق ، وهو طريق الإسلام ، ونصب مستقيماً على الحال ، والمستقيم المستوي الذي لا اعوجاج فيه ، ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع سائر السبل ، أي الأديان المتباينة طرقها ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ﴾ أي تميل بكم ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي عن سبيل الله المستقيم الذي هو دين الإسلام .

قال ابن عطية : وهذه السبل تعمّ اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وسائر أهل الملل ، وأهل

البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

(221/257)

والإشارة ب ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما تقدّم وهو مبتدأ وخبره ﴿ وصاكم بِهِ ﴾ أي أكد عليكم الوصية به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ما نهاكم عنه .

وقد أخرج الترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ " ثم تلا : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ إلى ثلاث آيات ، ثم قال : " فمن وفَّى بهنّ فأجره على الله ومن انتقص منهنّ شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه "

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، عن كعب الأحبار قال : أوّل ما أنزل في التوراة عشر آيات ، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخرها .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار قال : سمع كعب رجلاً

يقرأ ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ فقال كعب : والذي نفس كعب بيده إنها لأول آية في التوراة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات انتهى .

قلت : هي الوصايا العشر التي في التوراة ، وأوّلها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك إله غيري .

ومنها : أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بنت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك ، فلعل مراد كعب الأحبار هذا ، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم .

(222/257)

وأهل الإنجيل في أوّل إنجيلهم ، وهي مكتوبة في لوحين ، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَولادكم مّنْ إملاق ﴾ قال : من خشية الفاقة ، قال : وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبي ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ قال : سرّها وعلانيتها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أولادكم مّنْ إملاق ﴾ قال : خشية الفقر ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السرّ ، ويستقبحونه في العلانية ، فحرّم الله الزنا في السر والعلانية .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ قال : اعلموا أن السبيل سبيل واحد ، جماعه الهدى ومصيره الجنة ، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة ، جماعه الضلالة ومصيرها النار .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبزار ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود ، قال : خط رسول الله خطاً بيده ثم قال : " هذا سبيل الله مستقيماً " ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط ، وعن شماله ، ثم قال : " وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه " ، ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وأخرج أحمد ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، من حديث جابر نحوه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود أن رجلاً سأله : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، في أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد ، وثم رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ قال : الضلالات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(224/257)

فصل

قال الفخر :

هذه الآية تدل على أن كل ما كان حقاً فهو واحد ، ولا يلزم منه أن يقال : إن كل ما كان واحداً فهو حق ، فإذا كان الحق واحداً كان كل ما سواه باطلاً ، وما سوى الحق أشياء كثيرة ، فيجب الحكم بأن كل كثير باطل ، ولكن لا يلزم أن يكون كل باطل كثيراً بعين ما قررناه في القضية الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 4 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وأنَّ هَذَا " قرأ الأخوان : بكَسْر " إنّ " على الاسْتِئْنَاف أو يكون " أتل " بمعنى : أقول إن هذا ، و" فاتبعوه " جملة معطوفة على الجُمْلَة قَبْلَها .

وهذه الجملة الاستِئْنَافيَّة تفيد التَّعْلِيل لقوله : " فاتَّبِعُوه " ، ولذلك اشْتَشْهَد بها الزَّمَخْشَري على ذلك كما تقدَّم ، فعلى هذا يَكُون الكلام في الفاء في " فاتَّبِعُوهُ " كالكلام فِيهَا في قِرَاءة غيرها ، وسيأتي .

وقرأ بان عامر : " وأنْ " بفتح الهمزة وتخفيف النون ، والباقون بالفتح أيضاً والتَّشْدِيد .

فأمَّا قرءاة الجماعة ففيها أربعة وُجُوه :

أحدها : وهو الظَّاهِر - : أنها في محلِّ نصب نسقاً على ما حرَّم ، أي : أتْل ما حرَّم ، وأتل أنْ هذا صِرَاطي مُسْتَقِيماً ، والمراد بالمُتَكَلِّم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه صِرَاطَه صِرَاط اللَّه - عز وجل - ، وهذا قول الفرَّاء - قال : " بفَتْح " أنْ " مع وُقُوع " أتْل " عليها ، يعني : أتْلُ عليْكم أنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً " .

والثاني : أنها مَنْصُوبة المحلِّ أيضاً نَسَقاً على " ألاَّ تُشْرِكُوا " إذا قُلْنَا بأنَّ " أنْ " المصدَّيَة " وأنَّها وما بعدها بدل من " ما حرَّم " قاله الحُوفِيُّ .

الثالث : أنها على إسْقَاطِ حَرْف لام العِلَّة ، أي : ولأن هذا صِرَاطي مستَقيماً فاتبعوه ؛

كقوله – تعالى – ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ [الجن : 18] .

قال أبو عَلِيّ : من فتح " أنَّ فَقِيَاس قول سيبويه – رحمه الله تعالى – أنه حملها على " فاتّبعُوه " والتقدير : ولأن صِرَاطي مُسْتَقِيماً فاتّبْعُوه ؛ كقوله : ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المؤمنون : 52] .

قال سيبويه : " ولأنَّ هَذِه أمَّتُكُم " وقال في قوله – تعالى – : و" أنَّ المساجِدَ لِلَّه " : ولأنَّ المَسَاجِد .

(225/257)

قال بعضهم : " وقد صرَّح بهذا اللام في نَظِيره هذا التَّركيب ؛ كقوله – تعالى : ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف فَلْيَعْبُدُواْ ﴾ [قريش : 1 – 3] والفاء على هذا كَهِي في قولك : زيداً فَاضرب ، وبزيد فَامْرُو ، وتقدم تَقْرِيره في البقرة .

قال الفَارسِي : قِيَاس قوله سيبويه في فتح الهَمْزَة أن تكُون الفَاء زَائدة كَهِي في " زَيْد فقَائم " .

قال شهاب الدِّين – رحمه الله تعالى – : " سيبويه لا يَجُوِّز زيادَتَها في مِثْل هذا الخَبَر ، وإنما أراد أبو عَلِيّ بنظيرها في مُجَرَّد الزِّيَادة وإن لم يَقُل به ، بل قال به غَيْره " .

والرابع : أنها في محلِّ جرّ نسقاً على الضَّمِير المَجْرُور في " بِهِ " أي : " ذلكم وصَّاكُم به " وبأنَّ

هذا هو قول الفراء أيضاً .

وردّه أبو البقاء بوجْهَيْن :

أحدهما : أنه يَصِير المَعْنى : وصّاكُم باسْتِقَامة من غَيْر إعادة الجارّ .

الثاني : أنه يَصِير المَعْنَى : وصّاكُم باسْتِقَامة الصّراط ، وهذا فاسد .

قال شهاب الدّين : والوجهان مردُودَان :

أما الأوّل : فليس هذا من باب العَطْف على المُضْمَر من غير إعضادة الجارّ ؛ لأن الجارَّ هُنَا في قوَة المَنْطوق به ، وإنما حُذِفَ ؛ لأنَّه يَطَّرِد حَذْفُه مع أنَّ وأنْ لطُولِهما بالصّلة ، ولذلك كان مَذْهِبُ الجمهور أنها في محلِّ جرّ بعد حذفه لأنَّه كالموجُود ، ويدل على ما قلته ، ما قال الحُوفِيّ ، قال : " حُذِفت البَاء لِطُول الصّلة وهي مُرَادة ، ولا يكن هذا عَطْفُ مُظْهَر على مُضمر لإرادتها " .

وأمّا الثاني : فالمعنى : صَحيح غير فَاسِد ؛ لأن مَعْنَى توصيتنا باسْتِقَامة [الصّراط ألاَّ نَتَعَاطى ما يُخْرِجُنا من الصَّراطِ فوصيتنا باسْتِقَامَتِه] مبالغة في اتّباعِه .

(226/257)

وأما قراءة ابن عامر فقالوا : " أنْ " فيها مُخَفَّفَة من الثَّقِيلَة ، واسمها ضمير الأمْر والشأن ، أي : " وأَنَّهُ " كقوله – تعالى – ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10] وقَوْل الأعْشى : البسيط]

2384 – فِي فِتْيَةٍ كسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِموا . . .

أنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ

وحينئذٍ ففيها الأرْبعة أوْجُه المتقدّمة المَذْكُورة في المشدَّدة .

وقرأ بان عامر وابن كثير : " سِرَاطِي " بالسِّين ، وحمزة : بين الصَّاد والزَّاي ، والباقون : بالصَّاد صافية ، وفي مُصْحَف عبد الله : " وهذا صِرَاطي " بدون " أنّ " ، و " هذا " صِرَاط ربّك " .

قوله : ﴿ فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ .

أي : الطُّرُق المختَلِفة التي عدا هذا الطَّريق ؛ مثل اليَهُودِيَّة ، والنصرانية ، وسائر الملل ، وقيل : الأهْوَاء والبدع .

﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي : فتقَعُوا في الضّلالاتِ .

روى أنب مَسْعُود – رضي الله عنهما – " عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أنه خَطَّ خَطاً عن يَمينه ، وخطَّ عن شَمَالِهِ خُطُوطاً ، ثم قال : هذا سبيل اللَّهِ ، وهذه سُبُلٌ ، على كُلِّ سبيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُوا إلَيْهَا ، ثم تى : " وأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقيماً فاتّبِعُوه " .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - هذه الآيَاتُ مُحْكَمَات ، لم يَنْسِخْهُنَّ شيء من جَمِيع الكُتُب ، من عَمِل بِهِنَّ ، دخل الجنَّة ، ومن تركَهُنَّ ، دخل النار .

قوله : " فتفرَّق " منصوب بإضمار " أنْ " بعد الفَاءِ في جواب النَّهْي ، والجُمْهُورُ على " فَتَفَرَّق " بتاء خَفِيفَة ، والبزّيُّ بتشْدِيدهَا فمن خفَّف ، حذف إحْدى التَّاءَيْن ، ومن شدَّد أدْغم ؛ وتقدم هذا في ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 80] .

(227/257)

و " بكم " : يجوز أن يكُون مَفْعُولاً به في المَعْنَى ، أي : فَيُفَرِّقُكُم ، ويجُوز أن تكون حالاً ، أي : وأنْتُم معها ؛ كقوله القَائِل في ذلك : [الوافر]

2385 - . . .

تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ والتَّرِيبَا

وختم هذه الآية بالتَّقْوى وهي اتِّقاء النَّارِ ، لمُنَاسَبَة الأمر باتِّباع الصِّراط ، فإن من اتبعه وَقَى نَفْسَه من النَّارِ .

" مستقيماً " نصْب على الحَالِ ، ومعناه : مُسْتَوِياً قَائِماً لا اعْوجَاج فيه ، وقد بَيَّنه على لسان نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ونشأت منه طُرُقٌ ، فمن سلك الجَادّة نجا ، ومن خرج إلى

تلك الطُّرُق أفضت به إلى النَّارِ قال – تعالى – : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي : تميل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 515.518 ﴾ .

باختصار .

(228/257)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾

وبعد موقف الإشهاد ورفض ما يقررونه من المحرمات ، يلقي إليهم بالمقررات الإلهية التي تتضمن ما حرمه الله حقاً . . وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التي

لها مقابل محرم . وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول . . وهو الشرك بالله . . لأن هذه هي القاعدة الأولى التي يجب أن تتقرر ، لتقوم عليها المحرمات والنواهي ، لمن استسلم لها وأسلم :

﴿ قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً . وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها - وإذا قلتم فاعدلوا - ولو كان ذا قربى - وبعهد الله أوفوا . . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . . ﴾ .

(229/257)

وننظر في هذه الوصايا - التي ترد في السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها - فإذا هي قوام هذا الدين كله . . إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل

والطهارة فيما يجري فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله . .

وننظر في ختام هذه الوصايا ، فإذا الله – سبحانه وتعالى – يقرر أن هذا صراطه المستقيم ؛ وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل . . الوحيد . .

إنه أمر هائل هذا الذي تتضمنه الآيات الثلاث . . أمر هائل يجيء في أعقاب قضية تبدو كأنها لمحة جانبية من الجاهلية ؛ ولكنها في الحقيقة هي قضية هذا الدين الأساسية ؛ بدلالة ربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية . .

﴿ قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ .

.

قل : تعالوا أقص عليكم ما حرمه عليكم ربكم – لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم – ! لقد حرمه عليكم ﴿ ربكم ﴾ الذي له وحده حق الربوبية – وهي القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية – وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه ، فالذي يحرم هو " الرب " والله هو وحده الذي يجب أن يكون ربا . .

﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ . .

القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة ؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض ، وتستمد منها الحقوق والواجبات . . القاعدة التي يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول في الأوامر والنواهي ؛ وقبل الدخول في التكاليف والفرائض ، وقبل الدخول في النظام والأوضاع ؛ وقبل الدخول في الشرائع والأحكام . . يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم ؛ لا يشركون معه أحداً في ألوهيته ، ولا يشركون معه أحداً في ربوبيته كذلك . يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار ؛ ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ؛ ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء . . إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة ، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد . .

إن الشرك – في كل صوره – هو المحرم الأول لانه يجر إلى كل محرم . وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كله له ؛ حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله ، ولا رب لهم إلا الله ، ولا حاكم لهم إلا الله ، ولا مشرع لهم إلا الله . كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله . .

وإن التوحيد – على إطلاقه – لهو القاعدة الأولى التي لا يغني غناءها شيء آخر ، من عبادة أو خلق أو عمل . . من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة :

﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ . .

وينبغي أن نلتفت إلى ما قبل هذه الوصايا ، لنعلم ماذا يراد بالشرك الذي ينهى عنه في مقدمة الوصايا – لقد كان السياق كله بصدد قضية معينة – قضية التشريع ومزاولة حق الحاكمية في إصداره – وقبل آية واحدة كان موقف الإشهاد الذي يحسن أن نعيد نصه :

(231/257)

﴿ قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ﴾ . . يجب أن نذكر هذه الآية ، وما قلناه عنها في الصفحات السابقة لندرك ماذا يعني السياق القرآني هنا بالشرك الذي ينهى عنه ابتداءً . . إنه الشرك في الاعتقاد ، كما أنه الشرك في الحاكمية . فالسياق حاضر ، والمناسبة فيه حاضرة . .

ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر ، لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية ، قد آتت ثمارها – مع الأسف – فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة ، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي ! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام ، يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية ؛ أو لاستنكار انحلال أخلاقي ؛ أو

لمخالفة من المخالفات القانونية .

ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية ، وموقعها من العقيدة الإسلامية ! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية ، ولا يستنكرون المنكر الأكبر ؛ وهو قيام الحياة في غير التوحيد ؛ أي على غير إفراد الله – سبحانه – بالحاكمية . .

إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئاً . في موضع من السياق القرآني يحدد المعنيّ بالشرك الذي تبدأ بالنهي عنه جميع الوصايا !

إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط ، وبالقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية . .

فلا تظل نهباً لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح مع الشهوات والنزوات . .

﴿ وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ . .

(232/257)

إنها رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة – تقوم بعد الرابطة في الله ووحدة الاتجاه – ولقد علم الله – سبحانه – أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء . فأوصى الأبناء بالآباء ، وأوصى

الآباء بالأبناء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة . وقال لهم : إنه هو الذي يكفل لهم الرزق ، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين في كبرتهما ؛ ولا تجاه الأولاد في ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعاً . .

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ . .

ولما وصاهم الله بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها – كما يقوم عليها المجتمع كله – وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها . . فهو نهي مرتبط تماماً بالوصية السابقة عليها . . وبالوصية الأولى التي تقوم عليها كافة الوصايا . إنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش : كل ما أفحش – أي تجاوز الحد – وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . ولا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص ﴿ الفواحش ﴾ هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات

والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن .

(233/257)

منها المستسر في الضمير ومنها البادي في الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف ! وكلها مما يحطم قوام الأسرة ، وينخر في جسم الجماعة ، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ، ويحقر من اهتماماتهم ، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد .

ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية ، كان التعبير : ﴿ ولا تقربوا ﴾ . . للنهي عن مجرد الاقتراب ، سداً للذرائع ، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة . . لذلك حرمت النظرة الثانية – بعد الأولى غير المتعمدة – ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة . ولذلك كان التبرج – حتى بالتعطر في الطريق – حراماً ، وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ، والإشارات المثيرة ، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة . . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا في المقاومة ! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . .

وكذلك نعلم ما الذي يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة ، من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام !

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ . .

(234/257)

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة : الشرك ، والزنا ، وقتل النفس . . ذلك أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة ! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ؛ والثانية جريمة قتل للجماعة ، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة . . إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة . والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة ، منتهية حتماً إلى الدمار . والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية . شواهد من التاريخ . ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد . والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات ، مجتمع مهدد بالدمار . . ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم في أقسى العقوبات ، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار .

ولقد سبق النهي عن قتل الأولاد من إملاق . فالآن ينهى عن قتل ﴿ النفس ﴾ عامة ، فيوحي بأن كل قتل فردي إنما يقع على جنس ﴿ النفس ﴾ في عمومه . تؤيد هذا الفهم آية : ﴿ . . . أنه من قتل نفساً ، بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها ، وعلى النفس البشرية في عمومها . وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء . وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإسلام وأمنها ، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمناً على حياته ، لا يُؤذى فيها إلا بالحق . والحق الذي تؤخذ به النفس بينه الله في شريعته ، ولم يتركه للتقدير والتأويل . ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة ، وأصبح لها من السلطان ما يكفل لها تنفيذ الشريعة !

وهذه اللفتة لها قيمتها في تعريفنا بطبيعة منهج هذا الدين في النشأة والحركة .

فحتى هذه القواعد الأساسية في حياة المجتمع ، لم يفصلها القرآن إلا في مناسبتها العملية .

(235/257)

وقبل أن يمضي السياق في بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذي يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه :

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآني في ربط كل أمر وكل نهي بالله . تقريرا لوحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس ، وربطاً للأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس !

كذلك تجيء في الإشارة إلى التعقل . فالعقل يقتضي أن تكون هذه السلطة وحدها هي التي تعبد الناس لشرعها . وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف في حياة الناس !

وهذا وذلك فوق ما في الطائفة الأولى من التجانس . وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس . فجعل هذه في آية ، وتلك في آية ، وبينهما هذا الإيقاع .

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ . .

واليتيم ضعيف في الجماعة ، بفقده الوالد الحامي والمربي ، ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة – على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي – وكان اليتيم ضائعاً في المجتمع العربي في الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة في القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشي بما كان فاشياً في ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه ؛ حتى انتدب الله يتيما كريماً فيه ؛ فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة . وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ .

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن لليتيم . فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده . أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمي ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً ؛ وسلمته حقه كاملا .

(236/257)

وهناك خلاف فقهي حول سن الرشد أو بلوغ الأشد . . عند عبد الرحمن بن زيد وعند مالك ، بلوغ الحلم ، وعند أبي حنيفة خمسة وعشرون عاما . وعند السدي ثلاثون ، وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معاً بدون تحديد .

﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها - ﴾ .

وهذه في المبادلات التجارية بين الناس في حدود طاقة التحري والإنصاف ، والسياق يربطها بالعقيدة ؛ لأن المعاملات في هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة . والذي يوصي بها ويأمر هو الله . ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية ، وتذكر في هذا المعرض الذي يبرز فيه شأن العقيدة ، وعلاقتها بكل جوانب الحياة . .

ولقد كانت الجاهليات – كما هي اليوم – تفصل بين العقيدة والعبادات ، وبين الشرائع والمعاملات .

. من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب : ﴿ قالوا : يا شعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء ، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة ، للدلالة على طبيعة هذا الدين ، وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة والمعاملة ، في أنها كلها من مقومات هذا الدين ، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل .

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ . .

(237/257)

وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري – وقد ربطه الله ابتداء – إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري . الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ؛ وفي قوة القرابة سند لضعفه ؛ وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده ! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف

موقف الشهادة لهم أو عليهم ، أو القضاء بينهم وبين الناس . . وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو – سبحانه – أقرب إلى المرء من حبل الوريد . .

لذلك يعقب على هذا الأمر – وعلى الوصايا التي قبله – مذكراً بعهد الله :

﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ . .

ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . . وقبل ذلك كله . . من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر ، المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها .

ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف :

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ . .

والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

. . . هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع . . . هذه هي صراط الله المستقيم . . صراطه الذي ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . .

وهكذا يختم القطاع الطويل من السورة الذي بدأ بقوله تعالى :

﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾

وانتهى هذه النهاية ، بهذا الإيقاع العريض العميق . .

وضم بين المطلع والختام قضية الحاكمية والتشريع ، كما تبدو في مسألة الزروع والأنعام ، والذبائح والنذور ، إلى كل القضايا العقيدية الأساسية ، ليدل على أنها من هذه القضايا . التي أفرد لها السياق القرآني كل هذه المساحة ؛ وربطها بكل محتويات السورة السابقة التي تتحدث عن العقيدة في محيطها الشامل ؛ وتتناول قضية الألوهية والعبودية ذلك التناول الفريد .

إنه صراط واحد – صراط الله – وسبيل واحدة تؤدي إلى الله . . أن يفرد الناس الله –

سبحانه – بالربوبية ، ويدينوا له وحده بالعبودية ؛ وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده ؛ وأن يدينوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية . .

هذا هو صراط الله ؛ وهذا هو سبيله . . وليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله .

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . .

فالتقوى هي مناط الاعتقاد والعمل . والتقوى هي التي تفيء بالقلوب إلى السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ ﴾

(239/257)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . الآية ﴾

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشِرْك فإنه رأس المحرمات ، والذي لا يقبل معه شيءٌ من الطاعات ، وينقسم ذلك إلى شِرك جَلِيٍّ وشِرْك خَفِيّ ؛ فالجَلِيُّ عبادةُ الأصنامِ ، والخفيُّ ملاحظةُ الأنامِ ، بعين استحقاق الإعظام .

والثاني من هذه الخصال ترك العقوق ، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق ، وإراقة دمائهم بغير استحقاق .

ثم ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا وما استتر ، ويدخل في ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النَّفس بغير الحق ، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .

ثم بذل الإنصاف في المعاملات والتوقي من جميع التبعات .

ثم الصدق في القول والعدل في الفعل .

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فَمَنْ قابل هذه الأوامر بجميل الاعتناق سعد في داريه وحظي بعظائم منزلته . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 511 ﴾

(240/257)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت هذه الآيات الثلاث وافية بالآيات العشر التي كتبها الله لموسى عليه السلام على لوحي الشهادة في أول ما أوحي إليه في طور سيناء المشار إليها بقوله ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ [الأنعام : 91] وبنى عليها التوراة وأمره أن يودعها في تابوت العهد لتكون شهادة عليهم وعلى أعقابهم كما هو مذكور في وسط السفر الثاني من التوراة وقد مضى بيانه في البقرة ويأتي في آخر هذه المقولة وزائدة عليها من الأحكام والمحاسن ما شاء الله ؛ حسن أن تذكر بعدها التوراة ، فقال مشيراً بأداة التراخي إلى كل من الترتيب والتعظيم : ﴿ ثم آتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي تقتضي تعظيم ما كان من عندنا ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي المشار إليه بقوله تعالى ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ [الأنعام : 91] – وهي – والله أعلم – معطوفة على قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ [الأنعام : 146] لأنه تعالى بعد أن أعطى موسى العشر الآيات واعده إلى الجبل مواعدة ثانية ، فشرع له بعض الأحكام وأمره بنصب قبة الزمان التي يوحي إليه فيها ويصلون إليها ، وببعض ما يتخذ من آلاتها كما مضى في البقرة ، ثم ذكر بعد ذلك بيسير تحريم الشحوم عليهم ، فقال في أوائل السفر الثالث وهو سفر الكهنة ، وفيه تلخيص أمر القرابين : ودعا الرب موسى وكلمه في قبة الأمد وقال له : كلم بني إسرائيل وقل

لهم : كل إنسان منكم إذا قرب للرب قرباناً من البهائم فلتكن قرابينكم من البقر ومن الغنم – إلى أن قال : ويقرب قرباناً للرب الحجاب المبسوط على الأحشاء وكل الثوب الذي على الأكشاح والكليتين والشحم الذي عليهما وعلى الجنب – إلى أن قال : وقال : الشحوم للرب عهد الأبد ، ولا تأكلوا دماً ولا شحماً ، ثم قال : وكلم الرب موسى وقال له : كلم بني إسرائيل وقل لهم : لا تأكلوا شحم البقر ولا شحم الغنم : الضأن والماعز جميعاً ، لأن كل من أكل شحم بهيمة ويقرب قرباناً للرب ، تهلك تلك النفس من

(241/257)

شعبها ، ولا تأكلوا دماً حيث ما سكنتم ، لا دم البهائم ولا دم الطير ، وأية نفس أكلت دماً تهلك تلك النفس من شعبها ، وقال في السفر الخامس : فأما الدم فلا تأكلوا ولكن ادفقوه على الأرض مثل الماء ، ثم قال بعده بقليل : وكلوا في قراكم من كل شهوات أنفسكم ، ولكن إياكم أن تأكلوا دماً ، لأن دم البهيمة هو في نفسها ، فلا تأكلوا النفس مع اللحم ليحسن إليكم وإلى أولادكم من بعدكم إذا عملتم الحسنة أمام الله ربكم ؛ رجع إلى السفر الثالث ثم قال : ودخل موسى وهارون إلى قبة الزمان وخرجا ودعوا الشعب ، فظهر مجد الرب أمام جميع الشعب ، ونزلت نار من قبل الرب فأحرقت الشحم والذبيحة الكاملة له على المذبح ،

وعاين ذلك جميع الشعب وحمدوا الله ، وخر الشعب كله على وجهه ؛ ثم ذكر عقب ذلك بيسير محرمات الحيوان ، وكذا ذكر في السفر الخامس وقد جمعت بينهما ومعظم السياق للخامس : قال : لا تأكلوا شيئاً نجساً ، هذا ! كلوا من جميع البهائم : الثور : والحمل والنعجة والمعز والأيل والظبي والجوذر والرخ والرئم والوعل والثيثل كل بهيمة ذات ظلف مقسوم ظلفها تجتر كلوها ، وحرموا من التي لا تجتر ، ومن التي لها ظلوف مقسومة ولا تجتر الجمل والأرنب والوبر التي تجتر وليس لها أظلاف مقسومة هي نجسة لكم ، وفي الثالث : وحرموا من البهائم التي ليست لها أظلاف التي تجتر : الجمل الذي يجتر وليس له أظلاف هو نجس محرم عليكم ، والأرنب الذي يجتر وليس له أظلاف منجس محرم عليكم ؛ رجع : والخنزير الذي له أظلاف ولا يجتر هو نجس ، لا تأكلوا من لحوم هذه ولا تقربوا إلى أجسادها ؛ وقال في الثالث : ولا تمسوا لحومها لأنها نجسة محرمة عليكم ؛ وقال في الخامس من ترجمة الاثنين والسبعين : وإياكم أن تأكلوا كل نجس ، ويكون الذي تأكلونه من الدواب العجل من البقر والخروف من الغنم والجدي من المعز أو الأيل والغزال والعين والوعل وعنز الجبل واليحمور وناقة القمر والزرافة ، وكل دابة مشقوقة

الظلف وهي تنبت أظافير في كل ظلفها واجتر من الدواب .

فإياه فكلوا ، والذي لا تأكلون منه من الذي يجتر ومن المشقوق الظلف الذي ينبت له أظافير الجمل والأرنب واليربوع ، فإن ذلك يجتر ولكنه غير مشقوق الظلف ، وهو لا يحل لكم ، والخنزير أيضاً فإن ظلفه مشقوق وينبت في ظلفه أظافير غير أنه لا يجتر ، وما لا يجتر فإنه لا يحل لكم فلا تأكلوا من لحومها ولا تقربوا أجسادها ؛ وقال في الثالث منها : وكلم الرب موسى وهارون وقال لهما : كلما بني إسرائيل وقولا لهما : إن الذي تأكلونه من المواشي من جميع الأنعام التي على الأرض كل بهيمة قد شق ظلفها وهي تخرج أظفاراً في كلا ظلفيها وتجتر ، فذلك الذي تأكلونه من الأنعام ، والذي لا يحل مما يجتر ولم يشق ظلفه الجمل الذي يجتر وظلفه غير مشقوق فإنه غير طاهر لكم ، واليربوع – وفي نسخة : السنجاب – الذي يجتر وظلفه غير مشقوق فإنه غير طاهر لكم لم يطهر لكم ، والأرنب الذي يجتر وظلفه غير مشقوق فإنه لا يطهر لكم والخنزير فإنه مشقوق الظلف ويخرج أظفاراً في ظلفه وهو لا يجتر فإنه لا يطهر لكم فلا تأكلوا من لحومها ولا تمسوا ما مات منها ، فإن ذلك لا يطهر لكم ؛ رجع إلى نسختي ، ثم ذكر في الطير ودواب البر قريباً مما في شرعنا إلى أن قال : ولا تأكلوا أشياء نجسة بل ادفعوها إلى السكان الذين في قراكم يأكلونها أو يبيعونها من الغرباء ، لأنك شعب طاهر لله ربك لا تطبخوا جدياً بلبن أمه ؛ وقال في ترجمة الاثنين والسبعين : ولا تطبخ الخروف بلبن أمه ؛ وقال في السفر الخامس : وكلوا من الطير ما كان زكياً وحرموا هذه التي

أصف لكم ، لا تأكلوا منها شيئاً : النسر والحداء – وذكر نحواً مما عندنا ، وقال في نسختي في الثالث : فمن مس شيئاً من هذه – أي المحرمات – يكون نجساً إلى المساء ، ومن حمل منها شيئاً فليغسل ثيابه ويكون نجساً إلى الليل – انتهى .

(243/257)

الظبي – بالمعجمة المشاركة – معروف ، والجوذر – بفتح الجيم والذال المعجمة والراء : البقرة الوحشية ، والرئم – بكسر المهملة : الظبي الخالص البياض ، والثيثل – بمثلثتين مفتوحتين بينهما ياء تحتانية ساكنة : بقر الوحش ، والأيل – بفتح الهمزة وكسر التحتانية المشددة ، الوعل – بفتح الواو وكسر المهملة – وهو تيس الجبل ، والحمل – بفتح المهملة : الرضيع من أولاد الضأن ، وقوله : لا تطبخوا جدياً بلبن أمه ، الظاهر أن معناه النهي عن أكله ما دام يرضع ، وما بعد الذي في الثالث هو معظم التوراة ، والذي في الخامس إنما هو إعادة لما في الثالث ، فإن الخامس تلخيص لجميع ما تقدمه من القصص والأحكام مع زيادات ، فصدق أن إيتاء الكتاب أتى معظمه بعد تحريم ما حرم عليهم ، ويجوز – وهو أحسن – أن يكون معطوفاً على محذوف تقديره : ذلكم وصاكم به كما وصى بني إسرائيل في الفصل الذي نسبته من التوراة كنسبة أم القرآن من القرآن ، وذلك هي العشر الآيات التي

هي أول ما كتبه الله لموسى عليه السلام ، وهي أول التوراة في الحقيقة لأنها أول الأحكام ، وما قبلها فهو قصص وحاصل هذه العشر آيات : الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر من العبودية والرق ، لا يكونن لك إله غيري ، لا تقسم باسمي كذباً ، احفظ يوم السبت ، أكرم والديك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تمدن عينيك إلى ما في أيدي الناس ، فالمعنى : ذلك وصيناكم به كما وصينا بني إسرائيل به في العشر الآيات وبعض ما آتينا موسى من التوراة ، ويجوز أن يكون التقدير : لكون هذه الآيات محكمة في كل الشرائع لم تنسخ في أمة من الأمم ولا تنسخ ، وصاكم به يا بني آدم في الزمن الأقدم ، ولم يزدد الأمر بها في التوصية إلا شدة ﴿ ثم آتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي جميعه وهي فيه ، حال كونه ﴿ تماماً ﴾ لم ينقص عما يصلحهم شيئاً ﴿ على ﴾ الوجه ﴿ الذي أحسن ﴾ أي أتى بالإحسان فأثبت الحسن وجمعه بما بيّن من

(244/257)

الشرع وبما حمى طوائف أهل الأرض به من الإهلاك بعامه ، فإنه نقل أن الله تعالى لم يهلك قوماً هلاكاً عاماً بعد إنزال التوراة ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ من جملة ذلك الفصل المحتوي على الكلمات الحاوية لكل شيء يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا ، كما أن القرآن تفصيل

لكل شيء من الجوامع السبع التي حوتها أم القرآن الحاوية لمصالح الدارين ، وفي هذين الاحتمالين المقتضيين لكون " ثم " على حقيقتها من الترتيب والمهلة علم من أعلام النبوة ، وهو الاطلاع على أن العشر الآيات وتحريم ما حرم عليهم بالبغي في أوائل ما أوحي إلى موسى عليه السلام بعد إغراق فبعون وأن معظم التوراة أنزل بعد ذلك ، وهذا لا يعرفه إلا أحبارهم ﴿ وهدى ﴾ أي بياناً ﴿ ورحمة ﴾ أي إكراماً لمن يقبله ويعمل به ﴿ لعلهم ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ بلقاء ربهم ﴾ أي الذي أخرجهم من مصر من العبودية والرق بقوته العظيمة وكلماته التامة ﴿ يؤمنون ﴾ أي ليكون حالهم بعد إنزال الكتاب – لما يرون من حسن شرائعه وفخامة كلامه وجلالة أمره – حال من يرجى أن يجدد الإيمان في كل وقت بلقاء ربه لقدرته على البعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأنبياء لأنه لا تستقل به العقول ، وإنما يثبت بالسمع مع تجويز العقل له ، فيعلموا أنه لا يشبهه شيء كما أن كلامه لا يشبهه كلام فلا يبغوا باتخاذ عجل غاية أمره خوار لا يفهم ومجمجة لا تفيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 744. 747 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا ﴾ فيه وجوه :

الأول : التقدير : ثم إني أخبركم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الأحكام ، إن آتينا موسى الكتاب ، فذكرت كلمة "ثم" لتأخير الخبر عن الخبر ، لا لتأخير الواقعة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ ﴾ [الأعراف : 11]

والثاني : أن التكاليف التسعة المذكورة في الآية المتقدمة التكليف لا يجوز اختلافها بحسب اختلاف الشرائع بل هي أحكام واجبة الثبوت من أول زمان التكليف إلى قيام القيامة .

وأما الشرائع التي كانت التوبة مختصة بها ، فهي إنما حدثت بعد تلك التكاليف التسعة ، فتقدير الآية أنه تعالى لما ذكرها قال : ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً ، ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب .

الثالث : أن فيه حذفاً تقديره : ثم قل يا محمد إنا آتينا موسى ، فتقديره : اتل ما أوحى إليك ، ثم اتل عليهم خبر ما آتينا موسى .

أما قوله : ﴿ تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ ففيه وجوه : الأول : معناه تماماً للكرامة والنعمة على الذي أحسن .

أي على كل من كان محسناً صالحاً ، ويدل عليه قراءة عبد الله ﴿ عَلَى الذين أَحْسَنُواْ ﴾ والثاني : المراد تماماً للنعمة والكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة بالتبليغ ، وفي كل ما أمر به والثالث : تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع ، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته ، أي زيادة على علمه على وجه التتميم ، وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ أي على الذي هو أحسن بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ ﴿ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾ [البقرة : 26] بالرفع وتقدير الآية : على الذي هو أحسن ديناً وأرضاه ، أو يقال المراد : آتينا موسى الكتاب تماماً ، أي تاماً كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب ، أي على الوجه الذي هو أحسن وهو معنى قول الكلبي : أتم له الكتاب على أحسنه ، ثم بين تعالى ما في التوراة من النعم في الدين وهو تفصيل كل شيء ، والمراد به ما يختص بالدين فدخل في ذلك بيان نبوة رسولنا صلى الله عليه وسلم دينه ، وشرعه ، وسائر الأدلة والأحكام إلا ما نسخ منها ولذلك قال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ والهدى معروف وهو الدلالة ، والرحمة هي النعمة ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لكي يؤمنوا بلقاء ربهم ، والمراد به لقاء ما وعدهم الله به من ثواب وعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 4.5 ﴾

(247/257)

وقال السمرقندى :

﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾

يعني : التوراة ، ويقال : الألواح التي كتبت عليها حين انطلق إلى الجبل .

ويقال : معناه ثم أتل عليكم كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ .

ويقال : ثم بمعنى الواو يعني وآتينا موسى الكتاب ﴿ تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ قال القتبي : أي تماماً على المحسنين .

كما يقول ثلث مالي لمن غزا أي للغزاة .

والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون .

وعلى بمعنى اللام كما نقول في الكلام أتم الله عليه النعمة بمعنى : أتم له .

قال : ومعنى الآية والله أعلم وآتينا موسى الكتاب تماماً على أحسن من العلم والحكمة ، أي مع ما كان له من العلم ، وكتب المتقدمين أعطيناه زيادة على ذلك .

ويكون الذي بمعنى : ما .

قال : ومعنى آخر آتينا موسى الكتاب تتميماً منا للمحسنين يعني : الأنبياء والمؤمنين .

﴿ وَتَفْصِيلاً ﴾ منا ﴿ لّكُلّ شَىْء ﴾ يعني : بياناً لكل شيء .

قال : ويجوز معنى آخر وآتينا موسى الكتاب إتماماً منا للإحسان على من أحسن ، تفصيلاً لكل شيء يعني ، بياناً لكل شيء ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ يعني

: ونعمة ورحمة من العذاب ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لكي يصدقوا بالبعث .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ يعني ثمّ قل يا محمد لهم آتينا موسى الكتاب ، لأنّ موسى أوتي الكتاب قبل محمد عليهما الصلاة والسلام .

وقيل : ثمّ بمعنى الواو لأنّهما حرفا عطف قال الشاعر :

قل لمن ساد ثمّ ساد أبوه . . . ثمّ قد ساد قبل ذلك جدّه

﴿ تَمَاماً ﴾ نصب على القطع ، وقيل : على التفسير ﴿ عَلَى الذي أَحْسَنَ ﴾ قال بعضهم : معناه تماماً على المحسنين . ويكون (الذي) بمعنى (من) وتقديره على الذين أحسنوا ، لفظه واحد ومعناه جمع كما تقول : أُوصي بمالي للذي غزا وحجَّ يريد الغازين والحاجين .

وقال الشاعر :

شبّوا عليَّ المجد وشابوا واكتهل . . . يريد : واكتهلوا .

يدلّ عليه قراءة عبد الله بن مسعود (على الذين أحسنوا) .

وقال أبو عبيد : معناه على كل مَنْ أحسن ، ومعنى هذا القول أتممنا [طلب] موسى بهذا الكتاب ، على المحسنين يعني أظهرنا فضله عليهم ، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون .

وقيل : معناه : ثمّ آتينا موسى الكتاب متماً للمحسنين يعني تتميماً منّا للأنبياء والمؤمنين الكتب ﴿ عَلَى ﴾ بمعنى (اللام) كما تقول أتم الله عليه فأتم له . قال الشاعر :

رعته أشهراً وخلا عليها . . . فطار التي فيها واستعاراً

أراد : وخلا لها .

وقيل : (الذي) بمعنى (ما) ، يعني آتينا موسى الكتاب تماماً على ما أحسن موسى من العلم والحكمة أي زيادة على ذلك .

وقال عبد الله بن بريدة : معناه تماماً مِنّي على مَنّي وإحساني إلى موسى ، وقال ابن زيد : معناه تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه وأياديه عندهم ، وقال الحسن : فمنهم المحسن ومنهم المسيء فنزل الكتاب تماماً على المحسنين ، وقرأ يحيى بن يعمر : على الذي أحسن ، بالرفع أي على ﴿ الذي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً ﴾ بياناً ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه من شرائع الدين ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾

وفي قوله : ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ خمسة أقاويل :

أحدها : تماماً على إحسان موسى بطاعته ، قاله الربيع ، والفراء .

والثاني : تماماً على المحسنين ، قاله مجاهد ، وكان ابن مسعود . يقرأ : ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ .

والثالث : تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه ، قاله ابن زيد .

والرابع : تماماً لكرامته في الجنة على إحسانه في الدنيا ، قاله الحسن وقتادة .

(249/257)

والخامس : تماماً لنعمة الله على إبراهيم لأنه من ولده ، قاله ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ ثم ﴾ في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد صلى الله عليه وسلم كأنه قال ثم مما قضيناه أنا آتينا موسى الكتاب ، ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام

متقدم بالزمان على محمد صلى الله عليه وسلم وتلاوته ما حرم الله ، و﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، و﴿ تماماً ﴾ نصب على المصدر ، وقوله ﴿ على الذي أحسن ﴾ مختلف في معناه

(250/257)

فقالت فرقة ﴿ الذي ﴾ بمعنى الذين ، و﴿ أحسن ﴾ فعل ماض صلة " الذين " ، وكأن الكلام وآتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أهل ملته وإتماماً للنعمة عندهم ، هذا تأويل مجاهد ، وفي مصحف عبد الله " تماماً على الذين أحسنوا " ، فهذا يؤيد ذلك التأويل ، وقالت فرقة ﴿ الذي ﴾ غير موصولة ، والمعنى تماماً على ما أحسن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأمور نبوته ، يريد موسى عليه السلام ، هذا تأويل الربيع وقتادة ، وقالت فرقة : المعنى ﴿ تماماً ﴾ أي تفضلاً وإكمالاً على الذي أحسن الله فيه إلى عباده من النبوءات والنعم وغير ذلك ، وف ﴿ الذي ﴾ أيضاً في هذا التأويل غير موصولة ، وهذا تأويل ابن زيد وقرأ يحيى بن يعمر وابن إسحاق " تماماً على الذي أحسنُ " بضم النون ، فجعلها صفة تفضيل ورفعها على خبر ابتداء مضمر تقديره " على الذي هو أحسن " وضعف أبو الفتح هذه القراءة لقبح حذف المبتدأ العائد ، وقال بعض نحويي الكوفة يصح

أن يكون ﴿ أحسن ﴾ صفة ل ﴿ الذي ﴾ من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الألف واللام كما تقول العرب مررت بالذي خير منك ولا يجوز فالذي عالم ، وخطأ الزجاج هذا القول الكوفي ، و ﴿ تفصيلاً ﴾ يريد بياناً وتقسيماً و ﴿ لعلهم ﴾ ترج بالإضافة إلى البشر ، و ﴿ بلقاء ربهم ﴾ أي بالبعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم ، إذ لا تلزمه العقول بذواتها وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾

(251/257)

قال الزجاج : "ثم" ها هنا : للعطف على معنى التلاوة ، فالمعنى : أتل ما حرم ربكم ، ثم اتل عليكم ما آتاه الله موسى .

وقال ابن الأنباري : الذي بعد "ثم" مقدَّم على الذي قبلها في النية ؛ والتقدير : ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ في قوله "تماماً" قولان .

أحدهما : أنها كلمة متصلة بما بعدها ، تقول : أعطيتك كذا تماماً على كذا ، وتماما لكذا ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : أن قوله "تماماً" : كلمة قائمة بنفسها غير متصلة بما بعدها ، والتقدير : آتينا موسى الكتاب تماماً ، أي : في دفعة واحدة لم نفرِّق إنزاله كما فُرِّق إنزال القرآن ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وفي المشار إليه بقوله ﴿ أحسن ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه ، قاله ابن زيد .

والثاني : تماما على إحسان الله تعالى إلى موسى ، وعلى هذين القولين ، يكون ﴿ الذي ﴾ بمعنى "ما" .

والقول الثاني : أنه إبراهيم الخليل عليه السلام ، فالمعنى : تماماً للنعمة على إبراهيم الذي أحسن في طاعة الله ، وكانت نُبُوَّة موسى نعمة على إبراهيم ، لأنه من ولده ذكره الماوردي .

والقول الثالث : أنه كل محسن من الانبياء ، وغيرهم .

وقال مجاهد : تماماً على المحسنين ، أي : تماماً لكل محسن .

وعلى هذا القول ، يكون "الذي" بمعنى "مَن" و"على" بمعنى لام الجر ؛ ومن هذا قول العرب

: أتم عليه ، وأتم له ، قال الراعي :

رعته أشهرا وخلا عليها . . .

أي : لها .

قال ابن قتيبة : ومثل هذا أن تقول : أوصي بمالي للذي غزا وحج ؛ تريد : للغازين والحاجّين .

والقول الرابع : أنه موسى ، ثم في معنى ﴿ أحسن ﴾ قولان .

أحدهما : أَحْسَنَ في الدنيا بطاعة الله عز وجل .

قال الحسن ، وقتادة : تماما لكرامته في الجنة إلى إحسانه في الدنيا .

(252/257)

وقال الربيع : هو إحسان موسى بطاعته .

وقال ابن جرير : تماماً لنعمنا عنده على إحسانه في قيامه بأمرنا ونهينا .

والثاني : أحْسَنَ من العلم وكُتُبَ اللهِ القديمةِ ؛ وكأنه زيد على ما أحسنه من التوراة ؛

ويكون "التمام" بمعنى الزيادة ، ذكره ابن الانباري .

فعلى هذين القولين يكون "الذي" بمعنى : "ما" .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو رزين ، والحسن ، وابن يعمر : "على الذي أحسنُ" ، بالرفع .

قال الزجاج : معناه على الذي هو أحسن الأشياء .

وقرأ عبد الله بن عمرو ، وأبو المتوكل ، وأبو العالية : "على الذي أُحْسِنَ" برفع الهمزة وكسر السين وفتح النون ؛ وهي تحتمل الإحسان ، وتحتمل العلم .

قوله تعالى : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ أي : تبياناً لكل شيء من أمر شريعتهم مما يحتاجون إلى علمه ، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾

مفعولان .

﴿ تَمَاماً ﴾ مفعول من أجله أو مصدر .

﴿ عَلَى الذي أَحْسَنَ ﴾ قرىء بالنصب والرفع .

فمن رفع وهي قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق فعلى تقدير : تماماً على الذي هو أحسنُ .

قال المهدوِيّ : وفيه بعدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذي .

وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع "ما أنا بالذي قائل لك شيئاً" .

ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل في الصّلة ؛ هذا قول البصريين .

وأجاز الكسائي والفرّاء أن يكون اسماً نعتاً للذي .

وأجازا "مررت بالذي أخيك" ينعتان الذي بالمعرفة وما قاربها .

قال النحاس : وهذا محال عند البصريين ؛ لأنه نعت للاسم قبل أنْ يتمّ ، والمعنى عندهم : على المحسن .

قال مجاهد : تماماً على المحسن المؤمن .

وقال الحسن في معنى قوله : "تَمَاماً على الَّذِي أَحْسَنَ" .

كان فيهم محسن وغير محسن ؛ فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين .

والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ : "تماماً على الذين أحسنوا" .

(253/257)

وقيل : المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما كان علمه الله قبل نزول التوراة عليه .

قال محمد ابن يزيد : فالمعنى "تماماً على الذي أحسن" أي تماماً على الذي أحسنه الله عز

وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيرها .

وقال عبد الله بن زيد ، : معناه على إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام من الرسالة وغيرها .

وقال الربيع بن أنس : تماماً على إحسان موسى من طاعته الله عز وجل ؛ وقاله الفراء .

ثم قيل : "ثُمّ" يدلّ على أن الثاني بعد الأوّل ، وقصة موسى صلى الله عليه وسلم وإتيانه الكتاب قبل هذا ؛ فقيل : "ثم" بمعنى الواو ؛ أي وآتينا موسى الكتاب ، لأنهما حرفا عطف .

وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : المعنى قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ، ثم أتل ما آتينا موسى تماماً .

﴿ وَتَفْصِيلاً ﴾ عطف عليه .

وكذا ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾

يعني التوراة .

فإن قلت إتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك ؟

قلت دخلت ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول والمعنى ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وهو كذا وكذا إلى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب وقيل إن المحرمات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا اتلُ ما حرم ربكم عليكم ﴾ محرمات على جميع الأمم وجميع الشرائع فتقدير الكلام : ذلك وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعني بعد إيجاب هذه المحرمات وقيل معناه ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ثم قال بعد ذلك يا محمد إنا آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها .

(254/257)

وقوله تعالى : ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماماً على المحسنين من قومه فيكون الذي بمعنى أي تماماً على من أحسن من قومه لأنه كان منهم محسن ومسيء وعلى قراءة ابن مسعود تماماً على الذين أحسنوا ، وقيل : معناه تماماً على كل من أحسن أي أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الأنبياء والمؤمنون أي أتممنا فضله عليهم بالكتاب ، وقيل : الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ

الرسالة وأداء الأمر .

وقيل الإحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماماً مني على إحساني إلى موسى ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ يعني : وفيه بيان لكل شيء يحتاج إليه من شرائع الدين وأحكامه ﴿ وهدى ﴾ يعني : وفيه هدى من الضلالة ﴿ ورحمة ﴾ يعني : إنزاله عليهم رحمة مني عليهم ﴿ لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ قل ابن عباس : لكي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾

﴿ ثم ﴾ تقتضي المهلة في الزمان هذا أصل وضعها ثم تأتي للمهلة في الإخبار .

فقال الزجاج : هو معطوف على أتل تقديره أتل ما حرم ثم أتل ﴿ آتينا ﴾ .

وقيل : معطوف على ﴿ قل ﴾ على إضمار قل أي ثم قال ﴿ آتينا ﴾ .

وقيل : التقدير ثم إني أخبركم إنا آتينا .

وقال الحوفي : رتبت ثم التلاوة أي تلونا عليكم قصة محمد ثم نتلو عليكم قصة موسى .

وقال ابن عطية : مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد صلى الله عليه وسلم كأنه قال :

ثم مما وصينا ﴿ إنا آتينا موسى الكتاب ﴾ ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام متقدم بالزمان على محمد صلى الله عليه وسلم .

(255/257)

وقال ابن القشيري : في الكلام محذوف تقديره ثم كنا قد ﴿ آتينا موسى الكتاب ﴾ قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الزمخشري عطف على ﴿ وصاكم به ﴾ (فإن قلت) : كيف صح عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل ؟ (قلت) : هذه التوصية قديمة لم تزل تواصاها كل أمة على لسان نبيها كما قال ابن عباس : محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب فكأنه قيل : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ يا بني آدم قديماً وحديثاً ثم أعظم من ذلك ﴿ إنا آتينا موسى الكتاب ﴾ وأنزلنا هذا الكتاب المبارك ؟ وقيل : هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ انتهى .

وهذه الأقوال كلها متكلفة والذي ينبغي أن يذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهلة ، وقد ذهب إلى ذلك بعض النحاة و ﴿ الكتاب ﴾ هنا التوراة بلا خلاف وانتصب تماماً على المفعول له أو على المصدر أتممناه تماماً مصدر على حذف الزوائد أو

على الحال إما من الفاعل والمفعول وكل قد قيل .

وقيل : معنى ﴿ تماماً ﴾ أي دفعة واحدة لم نفرق إنزاله كما فرقنا إنزال القرآن قاله أبو سليمان الدمشقي .

و ﴿ الذي أحسن ﴾ جنس أي على من كان محسناً من أهل ملته قاله مجاهد أي إتماماً للنعمة عندهم .

وقيل : المراد بالذي أحسن مخصوص .

فقال الماوردي : إبراهيم كانت نبوة موسى نعمة على إبراهيم لأنه من ولده والإحسان للأبناء إحسان للآباء .

وقيل : موسى عليه السلام تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به ، والذي في هذه التأويلات واقعة على من يعقل .

وقال ابن الأنباري : ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ موسى من العلم وكتب الله القديمة ونحو منه قول ابن قتيبة ، قال : معنى الآية ﴿ تماماً ﴾ على ما كان أحسن من العلم والحكمة من العلم والحكمة من قولهم : فلان يحسن كذا أي يعلمه .

(256/257)

وقال الزمخشري في هذا التأويل : ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ موسى من العلم والشرائع من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي زيادة على علمه على وجه التتميم ؛ انتهى .

وقال ابن عطية : على ما أحسن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأمور نبوته يريد موسى عليه السلام هذا تأويل الربيع وقتادة ؛ انتهى .

والذي في هذا التأويل واقعة على غير العاقل .

وقيل : الذي مصدرية وهو قول كوفي وفي ﴿ أحسن ﴾ ضمير موسى أي تماماً على إحسان موسى بطاعتنا وقيامه بأمرنا ونهينا ، ويكون في على إشعار بالعلية كما تقول : أحسنت إليك على إحسانك إليّ .

وقيل : الضمير في ﴿ أحسن ﴾ يعود على الله تعالى وهذا قول ابن زيد ، ومتعلق الإحسان إلى أنبيائه أو إلى موسى قولان : وأحسن ما في هذه الأقوال كلها فعل .

وقال بعض نحاة الكوفة : يصح أن يكون ﴿ أحسن ﴾ اسماً وهو أفعل التفضيل وهو مجرور صفة للذي وإن كان نكرة من حيث قارب المعرفة إذ لا يدخله أل كما تقول العرب : مررت بالذي خير منك ، ولا يجوز مررت بالذي عالم ؛ انتهى .

وهذا سائغ على مذهب الكوفيين في الكلام وهو خطأ عند البصريين .

وقرأ يحيى بن معمر ابن أبي إسحاق ﴿ أحسن ﴾ برفع النون وخرج على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو أحسن و ﴿ أحسن ﴾ خبر صلة كقراءة من قرأ ﴿ مثلاً مّا بعوضة ﴾

أي تماماً على الذي هو أحسن دين وأرضاه أو تامّاً كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب ، أي على الوجه والطريق الذي هو أحسن ما تكون عليه الكتب ، أي على الوجه والطريق الذي هو أحسن وهو معنى قول الكلبي : أتم له الكتاب على أحسنه .

وقال التبريزي : ﴿ الذي ﴾ هنا بمعنى الجمع وأحسن صلة فعل ماض حذف منه الضمير وهو الواو فبقي أحسن أي على الذين أحسنوا ، وحذف هذا الضمير والاجتزاء بالضمة تفعله العرب .

قال الشاعر :

فلو أن الأطباء كان حولي . . .

وقال آخر :

إذا شاؤوا أضروا من أرادوا . . .

ولا يألوهم أحد ضرارا

وقال آخر :

شبوا على المجد شابوا واكتهل . . .

يريد واكتهلوا فحذف الواو ثم حذف الضمير للوقف ؛ انتهى .

وهذا خصه أصحابنا بالضرورة فلا يحمل كتاب الله عليه ﴿ وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ أي لعلهم بالبعث يؤمنون ، فالإيمان به هو نهاية التصديق إذ لا يجب بالعقل لكنه يجوز في العقل وأوجبه السمع وانتصاب ﴿ تفصيلاً ﴾ وما بعده كانتصاب ﴿ تماماً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) ﴾

قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ تقديره : ثم قل - يا محمد - مخبرًا عنا بأنا آتينا موسى الكتاب ، بدلالة قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

قلت : وفي هذا نظر ، وثُم هاهنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب هاهنا ، كما قال الشاعر :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُم سَادَ أبوهُ . . . ثُمّ قد سَادَ قَبْلَ ذَلكَ جَده

(258/257)

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها ، فقال : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف : 12] ، وقوله [في] أول هذه السورة : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الآية : 91] ، وبعدها ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ الآية [الأنعام : 92] ، وقال تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ [القصص : 48] ، وقال تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ [وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ] ﴾ [الأحقاف : 30] .

وقوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلا ﴾ أي : آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملا جامعا لجميع ما يحتاج إليه في شريعته ، كما قال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية [الأعراف : 145] .

وقوله : ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ أي : جزاء على إحسانه في العمل ، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا ، كقوله : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : 60] ، وكقوله ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] ﴾ [البقرة : 124] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ يقول : أحسن فيما أعطاه الله .

وقال قتادة : من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة .

واختار ابن جرير أن تقديره الكلام : ﴿ [ثُمَّ] آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا ﴾ على إحسانه . فكأنه جعل "الذي" مصدرية ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة : 69] أي : كخوضهم وقال ابن رَوَاحة :

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ . . . في المرسلين ونصرًا كالذي نُصِرُوا

وقال آخرون : الذي ها هنا بمعنى "الذين" .

قال ابن جرير : وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود : أنه كان يقرؤها : "تماما على الذين أحسنوا" .

وقال ابن أبي نَجِيح ، عن مجاهد : ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ قال : على المؤمنين والمحسنين ، وكذا قال أبو عبيدة . قال البغوي : والمحسنون : الأنبياء والمؤمنون ، يعني : أظهرنا فضله عليهم .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ [الأعراف : 144] ، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والخليل ، عليهما السلام لأدلة أخر .

(260/257)

قال ابن جرير : وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يَعْمَر أنه كان يقرؤها . ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ رفعا ، بتأويل : "على الذي هو أحسن" ، ثم قال : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها ، وإن كان لها في العربية وجه صحيح .

وقيل : معناه : تمامًا على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه ، حكاه ابن جرير ، والبَغوي .

ولا منافاة بينه وبين القول الأول ، وبه جمع ابن جرير كما بيناه ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فيه مَدْحٌ لكتابه الذي أنزله الله عليه ،

﴿ لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 368. 369 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى تقريراً للوصية وتحقيقاً لها وتمهيداً لما يعقُبه من ذكر القرآنِ المجيد كما ينبىء عنه تغييرُ الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوفٌ على مقدر يقتضيه المقامُ ويستدعيه النظامُ كأنه قيل بعد قوله تعالى : ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ بطريق الاستئنافِ تصديقاً له وتقريراً لمضمونه : فعلنا ذلك ثم آتينا الخ ، كما أن قوله تعالى : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ معطوف على ما يدل عليه معنى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ الخ ، كأنه قيل : يغفُلون عن الهداية ونطبع الخ ، وأما عطفُه على ذلكم وصاكم به ونظمُه معه في سلك الكلامِ الملقّن كما أجمع عليه الجمهورُ فمما لا يليق بجزالة النظمِ الكريم فتدبر .

(261/257)

وثم للتراخي في الإخبار كما في قولك : بلغني ما صنعتَ اليوم ثم ما صنعتَ أمسِ أعجبُ ، أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل : ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعظمُ من ذلك أنا آتينا موسى التوراةَ فإن إيتاءَها مشتملةً على الوصية المذكورةِ وغيرِها أعظمُ من التوصية بها

فقط ﴿ تَمَامًا ﴾ للكرامة والنعمة أي إتماماً لهما على أنه مصدرٌ من أتمّ بحذف الزوائد ﴿ عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ أي على مَنْ أحسن القيامَ به كائناً مَنْ كان ، ويؤيده أنه قرىء على الذين أحسنوا وتماماً على المحسنين أو على الذي أحسن تبليغَه وهو موسى عليه السلام أو تماماً على ما أحسنه موسى عليه السلام أي أجاده من العلم والشرائعِ أي زيادةً على علمه على وجه التتميم ، وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أي على الذي هو أحسنُ دينٍ وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماماً أي تاماً كاملاً على أحسنَ ما يكون عليه الكتُب ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يُحتاج إليه في الدين وهو عطفٌ على تماماً ونصبُهما إما على العلية أو على المصدرية كما أشير إليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ وضميرُ ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لبني إسرائيلَ المدلولِ عليهم بذكر موسى وإيتاءِ الكتاب والباء في قوله تعالى : ﴿ بِلِقَاء رَبِّهِمْ ﴾ متعلقةٌ بقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قدمت عليه محافظةً على الفواصل قال ابن عباس رضي الله عنهما : كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا بالثواب والعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(262/257)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾

كلام مسوق من جهته تعالى تقريراً للوصية وتحقيقاً لها وتمهيداً لما تعقبه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله سبحانه : ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ [الأنعام : 152] بطريق الاستئناف تصديقاً له وتقريراً لمضمونه فعلنا ذلك ﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا ﴾ الخ .

وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام قدس سره ، وقيل : عطف على ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ .

وعن الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة كأنه قيل : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم اتل عليهم ما آتاه الله تعالى موسى عليه السلام ، وقيل : عطف على ﴿ قُلْ ﴾ [الأنعام : 151] وفيه حذف أي قل تعالوا ثم قل آتينا موسى الكتاب .

وعن أبي مسلم واستحسنه المغربي أنه متصل بقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام : 84] وذلك أنه سبحانه عد نعمته عليه بما جعل في ذريته من الأنبياء عليهم السلام ثم عطف عليه بذكر ما أنعم عليه بما آتى موسى عليه السلام من الكتاب والنبوة وهو أيضاً من ذريته ، والكل كما ترى وإن اختلف مراتبه في الوهن .

وثم كما قال الفراء للترتيب الإخباري كما في نحو بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت (اليوم

) أعجب .

وتعقبه ابن عصفور بأنه ليس بشيء لأن ثم تقتضي تأخر الثاني عن الأول بمهلة ولا مهلة في الإخبارين فلا بد من الرجوع إلى أنها انسلخ عنها معنى الترتيب أو أنه ترتيب رتبي كما يشير إليه قوله : أعجب في المثال وهو هنا ظاهر لأن إيتاء التوراة المشتملة على الأحكام والمنافع الجمة أعظم من هذه الوصية المشهورة على الألسنة ، وبعضهم وجه الترتيب الإخباري المستدعي لتأخر الثاني عن الأول بأن الألفاظ المنقضية تنزل منزلة البعيد .

وقيل : إنه باعتبار توسط جملة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 153] بين المتعاطفين .

وقال بعضهم : إن ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا بمعنى الواو ، وقد جاء ذلك كثيراً في الكتاب .

(263/257)

﴿ تَمَامًا ﴾ للكرامة والنعمة وهو في موقع المفعول له ، وجاز حذف اللام لكونه في معنى إتماماً ، وجوز أبو البقاء أن يكون مصدراً لقوله : ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ من معناه لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً فهو كنباتاً في قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] وأن يكون حالاً من الكتاب أي تاماً ﴿ عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ أي (على) من أحسن القيام به كائناً من كان فالذي للجنس .

ويؤيده قراءة عبد الله ﴿ عَلَى الذين أَحْسَنُواْ ﴾ وقراءة الحسن ﴿ عَلَى المحسنين ﴾ .

وعن الفراء أن الذي هنا مثلها في قوله

: إن الذي حانت بفلج دماؤهم . . .

هم القوم كل القوم يا أم خالد

وكلام مجاهد محتمل للوجهين أو على الذي أحسن تبليغه وهو موسى عليه السلام أو تماماً على ما أحسنه موسى عليه السلام أي أجاده من العلم والشرائع أي زيادة على عمله على وجه التتميم ، وعن ابن زيد أن المراد تماماً على إحسان الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، وظاهره أن ﴿ الذى ﴾ موصول حرفي ، وقد قيل به في قوله تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ ﴾ [التوبة : 69] وضمير ﴿ أَحْسَنُ ﴾ حينئذٍ لله تعالى ، ومثله في ذلك ما نقل عن الجبائي من أن المراد على الذي أحسن الله تعالى به على موسى عليه السلام من النبوة وغيرها ، وكلاهما خلاف الظاهر .

وعن أبي مسلم أن المراد بالموصول إبراهيم عليه السلام ، وهو مبني على ما زعمه من اتصال الآية بقصة إبراهيم عليه السلام .

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ أَحْسَنُ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف و ﴿ الذى ﴾ وصف للدين أو للوجه يكون عليه الكتب أي تماماً على الدين الذي هو أحسن دين

وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تاماً كاملاً على الوجه الذي هو أحسن ما يكون عليه الكتب ، والأحسنية بالنسبة إلى غير دين الإسلام وغير ما عليه القرآن .

(264/257)

﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي بياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ، ولا دلالة فيه على أنه لا اجتهاد في شريعة موسى عليه السلام خلافاً لمن زعم ذلك ، فقد ورد مثله في صفة القرآن كقوله تعالى في سورة يوسف (111) عليه السلام : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ولو صح ما ذكر لم يكن في شريعتنا اجتهاد أيضاً ﴿ وهدى ﴾ أي دلالة إلى الحق ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالمكلفين .

والكلام في هذه المعطوفات كالكلام في المعطوف عليه من احتمال العلية والمصدرية والحالية ، والظاهر اشتمال الكتاب على التفصيل حسبما أخبر الله تعالى إلى أن حرفه أهله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لما ألقى موسى عليه السلام الألواح بقي الهدى والرحمة وذهب التفصيل .

﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى عليه السلام وإيتاء الكتاب ، ولا

يجوز عود الضمير على ﴿ الذى ﴾ بناء على الجنسية أو على ما قال الفراء لأنه لا يناسب قوله سبحانه : ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ بل كان المناسب حينئذٍ أن يقال : لعلهم يرحمون مثلاً ، والجار والمجرور متعلق بما بعده قدم لرعاية الفواصل ، والمراد من اللقاء قيل الجزاء ، وقيل : الرجوع إلى ملك الرب سبحانه وسلطانه يوم لا يملك أحد سواه شيئاً . وعن ابن عباس المعنى كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(265/257)

وقال القاسمى :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا ﴾ أي : أعطينا : ﴿ مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة : ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله إما ضمير (الَّذي) أي : تماماً للكرامة والنعمة على الذي أحسن . أي : على من كان محسناً صالحاً . يريد جنس المحسنين . وتدل عليه القراءة عبد الله (عَلَى الذين أحسنوا) وإما ضمير موسى عليه السلام ومفعوله محذوف . أي : تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به . أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع . من (أحسن الشيء

) إذا أجاد معرفته ، أي : زيادة على علمه على وجه التتميم وعلى الأول فـ (تماماً) في موقع المفعول له . وجاز حذف اللام لكونه في معنى (إتماماً) أو مصدر لقوله (ءَاتَيْنَا) من معناه . لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً . فـ (تمام) بمعنى (إتمام) كنبات في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ . أو (أصله إيتاء تمام) . وعلى الوجه الثاني هو حال من الكتاب . وقرأ يحيى بن يعمر (عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ) بالرفع أي : على الذي هو أحسن ، أو على الوجه الذي هو أحسن ما يكون عليه الكتب . فـ (تماماً) حال من الكتاب بمعنى (تاماً) أي : حال كون الكتاب تامّاً كائناً على أحسن ما يكون . قال ابن جرير : هذه قراءة لا استجير القراءة بها . وان كان في العربية له وجه صحيح ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين : ﴿ وَهُدىً ﴾ لهم إلى ربهم في سلوك سبيله : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عليهم بإفاضة الفوائد : ﴿ لَعَلَّهُم ﴾ أي : أهل الكتاب : ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون بلقائه للجزاء .

لطيفة

قال السيوطي في " الإكليل " : استدل بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا ﴾ مَن قال إن : ﴿ ثُمَّ ﴾ لا تفيد الترتيب . انتهى

قال ابن كثير : ﴿ ثُمَّ ﴾ ههنا لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب كما قال الشاعر :

~قل لمن سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهْ

وقال أبو السعود : و : ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي في الأخبار كما في قولك : بلغني ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجبُ . أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل : ذلك وصاكم به قديماً وحديثاً . ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة . فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها ، أعظم من التوصية بها فقط . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 552.553 ﴾

(267/257)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمّ ﴾ هنا عاطفة على جملة : ﴿ قل تعالوا ﴾ [الأنعام : 151] فليست عاطفة للمفردات ، فلا يُتوهَّم أنَّها لتراخي الزّمان ، بل تنسلخ عنه حين تعطف الجمل فتدل على التّراخي في الرّتبة ، وهو مهلة مجازيّة ، وتلك دلالة (ثُم) إذا عطفت الجُمَل .

وقد استصعب على بعض المفسّرين مسلك (ثُمّ) في هذه الآية لأنّ إتيان موسى عليه

السّلام الكتاب ليس برتبة أهمّ من رتبة تلاوة ما حرّمه الله من المحرّمات وما فرضه من اتّباع صراط الإسلام.

وتعدّدت آراء المفسّرين في محمل (ثُمّ) هنا إلى آراء: للفراء، والزجاج، والزّمخشري، وأبي مسلم، وغيرهم، كلّ يروم التخلّص من هذا المضيق.

والوجه عندي: أنّ (ثُمّ) ما فارقت المعروف من إفادة التّراخي الرّتبي، وأنّ تراخي رتبة إيتاء موسى عليه السّلام الكتاب عن تلاوة ما حَرّم الله في القرآن، وما أمر به من ملازمة صراط الإسلام، إنَّما يظهر بعد النَّظر إلى المقصود من نظم الكلام، فإنّ المقصود من ذكر إيتاء موسى عليه السّلام الكتاب ليس لذاته بل هو التّمهيد لقوله: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ [الأنعام: 92] ليرتّب عليه قوله: ﴿ أن تقولوا إنَّما أُنْزِل الكتابُ على طائفتين من قبلنا ﴾ إلى قوله: ﴿ وهدى ورحمة ﴾ [الأنعام: 156، 157]، فمعنى الكلام: وفوْق ذلك فهذا كتاب أنزلناه مبارك جمع فيه ما أوتيه موسى عليه السّلام (وهو أعظم ما أوتيه الأنبياء من قبله) وما في القرآن: الذي هو مصدّق لما بين يديه ومهيمن عليه؛ إن اتَّبعتموه واتَّقيتم رَحمناكم ولا معذرة لكم أن تقولوا لو أنزل لنا كتاب لكنّا أفضل اهتداءً من أهل الكتابين، فهذا غرض أهمّ جمعاً لاتّباع جميع ما اشتمل عليه القرآن، وأدْخل في إقناع المخاطبين بمزية أخذهم بهذا الكتاب.

ومناسبة هذا الانتقال: ما ذكر من صراط الله الذي هو الإسلام، فإنّ المشركين لمّا كذّبوا

دعوة الإسلام ذكَّرهم الله بأنَّه آتى موسى عليه السّلام الكتاب كما اشتهر بينهم حسبما بيّناه عند قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ (91) الآية ، في هذه السّورة ، لينتقل إلى ذكر القرآن والتّحريض على اتّباعه فيكون التّذكير بكتاب موسى عليه السّلام تمهيداً لذلك الغرض .

(268/257)

والكتاب ﴾ هو المعهود ، أي التّوراة ، و﴿ تماما ﴾ حال من الكتاب ، والتّمام الكمال ، أي كان ذلك الكتاب كمالاً لما في بني إسرائيل من الصّلاح الذي هو بقيّة ممّا تلقّوه عن أسلافهم : من صلاح إبراهيم ، وما كان عليه إسحاق ويعقوبُ والأسباط عليهم السّلام ، فكانت التّوراة مكمّلة لصلاحهم ، ومزيلة لما اعتراهم من الفساد ، وأنّ إزالة الفساد تكملة للصّلاح .

ووصف التّوراة بالتّمام مبالغة في معنى المُتِمّ .

والموصول في قوله : ﴿ على الذي أحسن ﴾ مراد به الجنس ، فلذلك استوى مفرده وجمعه .

والمراد به هنا الفريق المحسن ، أي تماماً لإحسان المحسنين من بني إسرائيل ، فالفعل منزّل منزلة اللاّزم ، أي الذي اتَّصف بالإحسان .

والتّفصيل : التّبيين ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ﴾ في هذه السّورة (55) .

وكلّ شيء ﴾ مراد به أعظم الأشياء ، أي المهمّات المحتاج إلى بيان أحكامها في أحوال الدّين .

فتكون (كلّ) مستعملة في معنى الكثرة كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ في سورة البقرة (145) .

أو في معنى العظيم من الأشياء كأنَّه جمع الأشياء كلّها .

أو يراد بالشّيء : الشّيء المهمّ ، فيكون من حذف الصّفة ، كقوله : ﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 79] ، أي كلّ سفينة صالحة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : 38] .

(269/257)

وقوله : ﴿ لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ رجاء أن تؤمنوا بلقاء ربّهم ، والضّمير عائد إلى معلوم من المقام وهم بنو إسرائيل ، إذ قد علم من إيتاء موسى عليه السّلام الكتاب أنّ المنتفعين به هم قومه بنو إسرائيل ، ومعنى ذلك : لعلّهم إن تحَرّوا في أعمالهم ، على ما يناسب الإيمانَ بلقاء ربّهم ، فإنّ بني إسرائيل كانوا مؤمنين بلقاء الله من قبل نزول التّوراة ، ولكنّهم طرأ عليهم من أزمنة طويلة : من أطوار مجاورة القبط ، وما لحقهم من المذلّة والتغرّب والخصاصة والاستعباد ، ما رفع منهم العلم ، وأذْوَى الأخلاق الفاضلة ، فنسوا مراقبة الله تعالى ، وأفسدوا ، حتّى كان حالهم كحال من لا يؤمن بأَنّه يلقى الله ، فأراد الله إصلاحهم ببعثة موسى عليه السّلام ، ليرجعوا إلى ما كان عليه سلفهم الصّالح من مراقبة الله تعالى وخشية لقائه ، والرّغبة في أن يلقوه وهو راض عنهم .

وهذا تعريض بأهل مكة ومن إليهم من العرب ، فكذلك كان سلفهم على هدى وصلاح ، فدخل فيهم من أضلّهم ولقَّنهم الشّرك وإنكارَ البعث ، فأرسل الله إليهم محمّدا صلى الله عليه وسلم ليردّهم إلى الهدى ويؤمنوا بلقاء ربّهم .

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بأمر البعث والجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(270/257)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

ونحن إذا سمعنا بكلمة " ثم " نعلم انها من حروف العطف ، وحروف العطف كثيرة ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتي قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوارة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبارة هنا ب " ثم " ؟ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجيء قوله الحق : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت " ثم " لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن " ثم " قد تأتي لترتيب أخبار . فقد يأتي من يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدي الحق الواجب عليك له ؛ كحق القرابة مثلا ، فتقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جده كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وتترقى ، ولذلك قال الشاعر العربي :

إن من ساد ثم ساد أبوه . . . ثم قد ساد قبل ذلك جده

فالسيادة جاءت أولا للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للابن . و" ثم " في هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخباري أي يكون وقوع المعطوف بها بعد

المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقي في الإخبار بالأحداث .

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . ﴾ [الأعراف : 11]

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية . فسبحانه في هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالنا ، إنه – سبحانه – خلقنا بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

(271/257)

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه : لقد اعتنيت بك في التعليم العالي ، ثم لا تنس أني قد اعتنيت بك في التعليم العالي ، ثم لا تنس أنني قد اعتنيت بك في التعليم الثانوي ، ثم لا تنسى أنني قد اعتنيت بك في التعليم الإعدادية ؛ ثم لا تنسى أنني قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك التعليم الابتدائي . وأنت بذلك ترتقي إخباريا لا أحداثيا . فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل . ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب . . . ﴾ [الأنعام : 154]

طبعا مادام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوارة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ؛ فإنه ينصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما في الكتب ، والمهيمن على كل ما في الكتب . أما لو قيل مثلا : أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوارة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل . ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقآء ربهم يؤمنون ﴾ [الأنعام : 154]

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي . . . ﴾ [المائدة : 3]

و" أكملت " فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدراك . ولماذا جاء بالتمام على الذي أحسن في أمر موسى عليه السلام ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للجاج والجدل معه صلى الله عليه وسلم هم اليهود .

وأنتم تعلمون أنهم صوروا في مصر هنا فيلما سينمائيا اسمه " الوصايا العشر " عن قصة سيدنا موسى عليه السلام . والوصايا العشر هي التي أقر "كعب الأحبار " أنها موجودة في التوراة وجاءت في الآيات السابقة التي تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتي هنا ذكر موسى عليه السلام .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما في التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا . أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم في التوراة أن هناك رسولا قادما ، ولابد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجيه فلابد من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . والسابقون لكم أحسنوا في زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلابد أن تعلنوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتم لهم الحسن : ﴿ وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقآء ربهم يؤمنون ﴾ .

﴿ وتفصيلا لكل شيء ﴾ أي أنه مناسب لزمنه ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول : أنا فصلت له ملابسه ، أي فصلت له الملابس التي تناسبه . وحين يكبر لن تظل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتديها . ﴿ وتفصيلا لكل شيء ﴾ أي القيم التي تناسب الوقت الذي يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد في القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل ؟ .

نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمنه ، وآيات القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة .

(273/257)

والآفة – دائما – في القائمين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لذي جاه وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لمثل هذا الرجل : أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدة ظاهرة ، إننا نجد القوالب البدنية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التساوي بين الناس كلها ، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر . وليس لكل منهم صدق خاص ، وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية العقدية وكذلك بالقضية الحكيمة الجاهزة . المناسبة لكل بشر ، وليست هناك آية على مقاس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع ﴿ وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة . . . ﴾ [الأنعام : 154] .

والهدى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء في أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التي يجب أن تسود . والآفة أن الأب يعلم

ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولا جديدا ، وهديا جديدا ليذكرنا . ﴿ . . . لعلهم بلقآء ربهم يؤمنون ﴾ [الأنعام : 154]

إن كل آفة تنبع من العزوف عن تشريعات الله ، وهم ينسون أن يضعوا في أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح في أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هي التي تجعل الإنسان يقبل على الوسائل . والشاعر يقول :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي . . . ومن أين والغايات هي بعد المذاهب

(274/257)

ونقول لهذا الشاعر : قولك : ألا من يريني غايتي قبل مذهبي كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين والغايات بعد المذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هي التي تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولا ، بعد ذلك جعل لهذا السبيل . وقد شرع الله لكل شيء ما تقضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لا استدراك عليه لأن فيه تفصيلا لكل شيء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(275/257)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ قال : على المؤمنين المحسنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر وفي قوله ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ قال : تماماً لما قد كان من إحسانه إليه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ قال : تماماً لنعمه عليهم وإحسانه إليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ قال : من أحسن في الدنيا تمَّم الله ذلك له في الآخرة . وفي لفظ : تمت له كرامة الله يوم القيامة . وفي قوله ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ أي تبياناً لكل شيء ، وفيه حلاله وحرامه .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن هرون قال : قراءة الحسن " تماما على المحسنين " .

وأخرج ابن الأنباري عن هرون قال : في قراءة عبد الله " تماماً على الذين أحسنوا " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ تفصيلاً لكل شيء ﴾ قال : ما أمروا به وما نهوا عنه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لما ألقى موسى الألواح ففي الهدى والرحمة وذهب التفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(276/257)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا ﴾

أصل " ثُمَّ " : المُهلة في الزمان ، وقد تأتي للمُهْلة في الإخبار .

وقال الزَّجَّاج : وهو مَعْطُوف على " أَتْلُ " تقديره : أَتْلُ ما حرَّم ثم أَتْلُ ما آتَيْنَا .

وقيل : هو مَعْطُوف على " قَلْ " أي : على إضْمَار قل ، أي : ثم قل : آتينا .

وقيل : تقديره : ثم أخْبِرُكم آتَيْنا .

وقال الزمخشري : عطف على وصَّاكُم به " قال : " فإن قلت : كيف صَحَّح عطفه عليه بـ

" ثم " ، والإِيتَاء قبل التَّوْصِيَة به بَدّهْر طَويل ؟

قال شهاب الدين : هذه التَّوصية قديمة لم يَزلْ تتواصها كل أمَّةٍ على لسان نبيّها ، فكأنه قيل : ذلك وَصّاكُم به يا بَنِي آدَمَ قَديماً وحَديثاً ، ثم أعْظَم من ذَلك أنَّا آتَيْنَا موسى الكِتَاب .

وقيل : هو مَعْطُوف على ما تقدَّم قبل شَطْر السورة من قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ [الأنعام : 84] .

وقال ابن عطية – رحمه الله تعالى – : " مهلتها في تَرْتَيب القَوْلِ الذي أمر به محمَّد صلى الله عليه وسلم كأنَّه قال : ثم مِمَّاه وصّيْنَاه أنا أتَيْنَا مُوسى الكتاب ، ويدعو إلى ذلك أن موسى – عليه السلام – مُتقدّم بالزمان على محمَّد – عليه الصلاة والسلام – " .

وقال أبو حيَّان : " والذي ينبغي أن يُسْتَعْمَل للعَطْفِ كالواو من غير اعتِبَار مُهْلَةٍ ، وبذلك قال [بَعْض] النَّحْوِيّين " .

قال شهاب الدّين : وهذه استراحة ، وأيضاً لا يلزم من انتفاء المهلة الترتيب فكان ينبغي أن يقول من غير اعتبار ترتيب ولا مهلة على أن الفرض في هذه الآية عدم الترتيب في الزمان .

قوله : " تَمَاماً " يجوز فيه خَمْسَة أوْجُه :

أحدهما : أنَّه مفعول من أجْلِهِ ، أي : لأجْل تمامِ نعْمَتِنَا .

الثاني : أنَّه حالٌ من الكِتَاب ، أي : حَال كَوْنه تَمَاماً .

الثالث : أنَّه نَصْب على المصدرِ ؛ لأنَّه بمعنى : آتيناهُ تمامٍ ، لا نقصان .

الرابع : أنه حالٌ من الفاعل ، أي : مُتمّين .

الخامس : أنَّه مصدرٌ مَنْصُوب بِفِعْل مُقَدَّر من لفظه ، ويكون مصدراً على حَذْف الزَّوائد ، والتقدير : أَتَمْنَاهُ إتْمَاماً ، و" على الذي " مُتعلّق بـ " تماماً " أو بمحذُوف على أنَّه صِفَة ، هذا إذا لم يُجْعَلْ مصدراً مؤكَّداً ، فإن جُعِلَ ، تعيّن جعلُه صِفَة .

و" أحسن " فيه وجهان :

(277/257)

أظهرهما : أنه فِعْلٌ ماض واقعٌ صلةً للموصول ، وفاعله مُضْمَرٌ يعود على مُوسى – عليه الصلاة والسلام – أي : تماماً على الذي أحْسَن ؛ فيكون الذي عبارةٌ عن مُوسَى .

وقال أبو عبيدة : على كُلِّ من أحْسَن ، أي : أتممنا فَضِيلَة مُوسَى – عليه الصلاة والسلام – بالكتاب على المُحْسِنين من قومه ، أي : على من أحْسَن من قومه ، وكان فيهم مُحْسنٌ ومُسِيءٌ ، وتدُلُّ عليه قِرَاءة ابن مَسْعُود : وعلى الذي أحْسَن .

وقيل : كُلُّ من أحسن ، أي : الذي أحْسَنَهُ موسى من العِلْم ، والحِكْمَة ، والإحْسَان في الطاعة والعِبَادة ، وتَبْلِيغ الرِّسَالة .

وقيل : " الذي " عِبَارةٌ عمّا عَمِلَهُ مُوسى – عليه الصلاة والسلام – وأتقنه ، أي : تماماً

على الذي أحْسَنَهُ موسى – عليه الصلاة والسلام – .

والثاني : أنَّ " أحَسْن " اسمٌ على وَزْن أفْعَل ، كـ " افْضَل " و " أكْرَم " ، واستَغْنَى بِوَصْف الموصُول عن صِلَتِهِ ، وذلك أنَّ المَوْصُول متى وُصِف بِمَعْرِفَة ، نحو : " مَرَتُ بالذي أخيك " ، أو بِمَا يُقارب المَعْرِفَة ، نحو : " مَررْت بالذي خَيْر مِنْكَ ، وبالذي أحْسَن منك " ، جاز ذلك ، واستغنى به عن صِلته ، وهو مَذْهَبُ الفرَّاء ، وأنشد قوله : [الزجر]

2386 – حتَّى إذَا كَانَا هُمَا اللَّذِين . . .

مِثْلَ الجَدِيلَيْن المُحَمْلَجَيْنِ

بنصب " مِثْلَ " على أنه صِفَةٌ لـ " اللَّذِيْن " المنصُوب على خَبَر كان ، ويجُوز أن تكون " الَّذي " مصدريَّة ، و " أحْسَنَ " فعل ماضٍ صِلَتُها والتقدير : تماماً على إحْسَانِه ، أي : إحْسان الله – تعالى – إليه ، وإحْسَان مُوسَى إليهم ، وهُو رأي يُونُس والفراء ؛ كقوله : [البسيط]

2387 – فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ . . .

تَثْبِيتَ عِيسى ونَصْراص كالَّذِي نُصِرُوا

وقد تقدَّم : تَحْقِيقُ هذا .

(278/257)

وفتح نُون " أحْسَنَ " قراءة بالعامَّة وقرأ يَحْيَى بن يَعْمُر ، وبان أبِي إسْحَاق برفعها ، وفيها وجهان :

أظهرهما : أنَّهُ خبر مُبْتَدأ مَحْذُوف ، أي : على الذي هو أحْسَن ، فحذف العَائِد ، وإن لم تَطُل الصِّلَةُ ، فهي شَاذَّةٌ من جِهَة ذلك ، وقد تقدَّم بدلائله عِنْد قوله : ﴿ مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : 26] ، فيمن رفع " بَعُوضَةٌ " .

الثاني : أن يكُون " الَّذِي " واقِعاً موقع الذين ، وأصلُ " أحْسن " : أحْسَنُوا بواو الضَّمير ، حُذِفَت الواوُ اجتِزَاءً بحركة ما قبلها ، قاله التبريزيُّ ؛ وأنشد في ذلك فقال : [الوافر]

2388 - فلَوْ أنَّ الأطِبَّاء كَانُ حَوْلِي . . .

وكان مَعَ الأطِبَّاءِ الأسَاة

قال الآخرُ في ذلك هذا البيت : [الوافر]

2389 - إذا مَا شَاءُ ضَرُّوا مَن أرَادُوا . . .

ولا يَأْلُوهُمُ أحَدٌ ضِرَارا

وقول الآخر في ذلك : [الزجر]

2390 - شَبُّوا على المَجْدِ وَشَابُوا واكْتَهَلُ . . .

يريد اكْتَهَلُوا ، فحذف الواو ، وسكن الحَرْف قبلها ، وقد تقدَّم أبْيَاتٌ أخر كَهَذِهِ في غُضُون ها الكتاب ، ولكن جَمَاهير النُّحَاة تَخُصُّ هذا بِضَرُورَة الشِّعر .

وقوله : " وتَفْصيلاً " وما عُطِفَ عليه ؛ مَنْصُوب على ما ذُكِرَ في " تَمَاماً "

[والمعنى : بياناً لكلِّ شيءٍ يحتاجُ إليه من شرائع الدِّين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 519.521 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) ﴾

يهوِّن عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأنَّ الذين كانوا قبلنا كانوا في الضعف والعجز مثلها ، ثم صَبَرُوا فظَفَروا ، وأَخْلَصُوا فخَلُصُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 511 ﴾

(279/257)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/258)

الجزء الثامن والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 155 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 159 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/258)

قوله تعالى ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما بين أن إنزال الكتب رحمة منه لأن غايتها الدلالة على منزلها فتمتثل أوامره وتتقى مناهيه وزواجره ، بين أنه لم يخص تلك الأمم بذلك ، بل أنزل على هذه الأمة كتاباً ولم يرض لها كونه مثل تلك الكتب ، بل جعله أعظمها بركة وأبينها دلالة ، فقال : ﴿ وهذا ﴾ أي القرآن ﴿ كتاب ﴾ أي عظيم ﴿ أنزلناه ﴾ أي بعظمتنا إليكم بلسانكم حجة عليكم ﴿ مبارك ﴾ أي ثابت كل ما فيه من وعد ووعيد وخير وغيره ثباتاً لا تمكن إزالته مع اليمن والخير .

ولما كان هذا معناه : وكان داعياً إليه محبباً فيه ، سبب عنه قوله : ﴿ فاتبعوه ﴾ أي ليكون جميع أموركم ثابتة ميمونة ، ولما أمر باتباعه وكان الإنسان ربما تبعه في الظاهر ، أمر بإيقاع التقوى المصححة للباطن إيقاعاً عاماً ، ولذلك حذف الضمير فقال : ﴿ واتقوا ﴾ أي ومع ذلك فأوقعوا التقوى ، وهي إيجاد الوقاية من كل محذور ، فإن الخطر الشديد والسلامة على غير القياس ، فلا تزايلوا الخوف من منزله بجهدكم ، فإن ذلك أجدر أن يحملكم على تمام الاتباع وإخلاصه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى له الإكرام

بالعطايا الجسام ، والآيتان ناظرتان إلى قوله تعالى ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ - إلى قوله - : ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [الأنعام : 92] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 747 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ وهذا كتاب ﴾ لا شك أن المراد هو القرآن وفائدة وصفه بأنه مبارك أنه ثابت لا يتطرق إليه النسخ كما في الكتابين ، أو المراد أنه كثير الخير والنفع .

ثم قال : ﴿ فاتبعوه ﴾ والمراد ظاهر .

ثم قال : ﴿ واتقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي لكي ترحموا .

وفيه ثلاثة أقوال : قيل اتقوا مخالفته على رجاء الرحمة ، وقيل : اتقوا لترحموا ، أي ليكون الغرض بالتقوى رحمة الله ، وقيل : اتقوا لترحموا جزاء على التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 5 ﴾

(5/258)

وقال السمرقندى :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ ﴾

يعني : القرآن فيه بركة لمن آمن به ، وفيه مغفرة للذنوب .

﴿ فاتبعوه ﴾ يعني : اقتدوا به .

ويقال : اعملوا بما فيه من الأمر والنهي .

﴿ واتقوا ﴾ يعني : واجتنبوا ولا تتخذوا إماماً غير القرآن ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يعني : لكي تُرْحَموا ولا تُعَذَّبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وهذا ﴾ إشارة إلى القرآن ، و ﴿ مبارك ﴾ وصف بما فيه من التوسعات وإزالة أحكام الجاهلية وتحريماتها وجمع كلمة العرب وصلة أيدي متبعيه وفتح الله على المؤمنين به ومعناه منمي خيره مكثر ، و" البركة " الزيادة والنمو ، و ﴿ فاتبعوه ﴾ دعاء إلى الدين ، ﴿ واتقوا ﴾ الأظهر فيه أنه أمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء بقرينة قوله ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ ﴾ يعني : القرآن ﴿ فاتبعوه واتقوا ﴾ أن تخالفوه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ قال الزجاج : لتكونوا راجين للرحمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾

(6/258)

هذا إشارة إلى القرآن و﴿ أنزلناه ﴾ و﴿ مبارك ﴾ صفتان لكتاب أو خبران عن هذا على مذهب من يجيز تعداد الأخبار ، وإن لم يكن في معنى خبر واحد وكان الوصف بالإنزال آكد من الوصف بالبركة فقدم لأن الكلام مع من ينكر رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينكر إنزال الكتب الإلهية وكونه مباركاً عليهم هو وصف حاصل لهم منه متراخ عن الإنزال فلذلك تأخر الوصف بالبركة ، وتقدم الوصف بالإنزال وكان الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة أولى من الوصف بالاسم لما يدل الإسناد إلى الله تعالى من التعظيم والتشريف ، وليس ذلك في الاسم لو كان التركيب منزل أو منزل منا وبركة القرآن بما يترتب عليه من النفع والنماء بجمع كلمة العرب به والمواعظ والحكم والإعلام بأخبار الأمم السالفة والأجور التالية والشفاء من الأدواء .

والشفاعة لقارئه وعده من أهل الله وكونه مع المكرمين من الملائكة وغير ذلك من البركات

التي لا تحصى ، ثم أمر الله تعالى باتباعه وهو العمل بما فيه والانتهاء إلى ما تضمنه والرجوع إليه عند المشكلات ، والظاهر في قوله : ﴿ واتقوا ﴾ أنه أمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء .

وقيل : ﴿ واتقوا ﴾ مخالفته لرجاء الله الرحمة وقال التبريزي اتقوا غيره فانه منسوخ وقال التبريزي في الكلام اشارة وهو وصف الله التوراة بالتمام والتمام يؤذن بالانصرام .

قال الشاعر :

إذا تم أمر بدا نقصه . . .

توقع زوالاً إذا قيل تم

فنسخها الله بالقرآن ودينها بالإسلام ووصف القرآن بأنه مبارك في مواضع كثيرة ، والمبارك هو الثابت الدائم في ازدياد وذلك مشعر ببقائه ودوامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(7/258)

وقال أبو السعود :

﴿ وهذا ﴾ أي الذي تُليت عليكم أوامرُه ونواهيه أي القرآن ﴿ كِتَابٌ ﴾ عظيمُ الشأنِ

لا يقادَر قدْرُه وقوله تعالى : ﴿ أنزلناه مُبَارَكٌ ﴾ أي كثيرُ المنافع ديناً ودنيا ، صفتان لكتابٌ ، وتقديمُ وصفِ الإنزال مع كونه غيرَ صريحٍ لأن الكلام مع منكريه ، أو خبران آخران لاسم الإشارة أي أنزلناه مشتملاً على فنون الفوائدِ الدينية والدنيوية التي فُصِّلت عليكم طائفةٌ منها ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاتبعوه ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن عِظَمَ شأنِ الكتابِ في نفسه وكونَه منزلاً من جنابه عز وجل مستتبعاً للمنافع الدينية والدنيوية موجبٌ لاتباعه أيَّ إيجاب ﴿ واتقوا ﴾ مخالفتَه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بواسطة اتباعِه والعمل بموجبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(8/258)

وقال الآلوسى :

﴿ وهذا ﴾ الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه أي القرآن ﴿ كِتَابٌ ﴾ عظيم الشأن لا يقادر قدره ﴿ أنزلناه ﴾ بواسطة الروح الأمين مشتملاً على فوائد الفنون الدينية والدنيوية التي فصلت عليكم طائفة منها ، والجملة صفة ﴿ كِتَابٌ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ أي كثير الخير ديناً ودنيا صفة أخرى ، وإنما قدمت الأولى عليها مع أنها غير صريحة لأن الكلام مع منكري الإنزال ، وجوز أن يكون هذا وما قبله خبرين عن اسم الإشارة أيضاً

؛ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاتبعوه ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن عظم شأن الكتاب في نفسه وصفته موجب لاتباعه أي فاعملوا بما فيه أو امتثلوا أوامره ﴿ واتقوا ﴾ مخالفته أو نواهيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي لترحموا جزاء ذلك ، وقيل : المراد اتقوا على رجاء الرحمة أو اتقوا ليكون الغرض بالتقوى رحمة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ وهذا كتاب أنزلته مبارك ﴾ عطف على جملة : ﴿ ثمّ آتينا موسى الكتاب ﴾ [الأنعام : 154] .

والمعنى : آتينا موسى الكتاب وأنزلنا هذا الكتاب كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ [الأنعام : 154] الخ . . .

وافتتاح الجملة باسم الإشارة ، وبناءُ الفعل عليه ، وجعل الكتاب الذي حقّه أن يكون مفعولَ : ﴿ أنزلناه ﴾ مبتدأ ، كلّ ذلك للاهتمام بالكتاب والتّنويه به ، وقد تقدّم نظيره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ﴾ في هذه السّورة (92) .

وتفريع الأمر باتباعه على كونه منزلاً من الله ، وكونه مباركاً ، ظاهر : لأنّ ما كان كذلك لا يتردّدُ أحد في اتّباعه .

والاتِّباع أطلق على العمل بما فيه على سبيل المجاز .

وقد مضى الكلام فيه عند قوله تعالى : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ [الأنعام : 50] ، وقوله : ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ في هذه السّورة (106) .

والخطاب في قوله : فاتبعوه ﴾ للمشركين ، بقرينة قوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ .

وجملة : ﴿ أنزلناه ﴾ في محلّ الصّفة ل ﴿ كتاب ﴾ ، و(مبارك) صفة ثانية ، وهما المقصد من الإخبار ، لأنّ كونه كتاباً لا مِرْيَة فيه ، وإنَّما امْتروا في كونه منزّلاً من عند الله ، وفي كونه مباركاً .

وحسن عطف : ﴿ مبارك ﴾ على : ﴿ أنزلناه ﴾ لأنّ اسم المفعول لاشتقاقه هو في قوّة الفعل .

ومعنى : ﴿ اتَّقُوا ﴾ كونوا متَّصفين بالتَّقوى وهي الأخذ بدين الحقّ والعملُ به .

وفي قوله : ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وعد على اتّباعه وتعريض بالوعيد بعذاب الدّنيا والآخرة إن لم يتَّبعوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (155) ﴾

﴿ وهذا ﴾ إشارة وعادة ما تأتي وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم الإشارة متقدم أو حاضرة يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه . وكلمة ﴿ كتاب ﴾ تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يكتب ويسجل ؛ لأن الإنسان لا يسجل ولا يكتب إلا الشيء النافع ، إنما اللغو لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه "كتاب" ، ومرة قال فيه : "قرآن" فهو "قرآن" يتلى من الصدور ، و"كتاب" يحفظ في السطور . ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه اتوا بالمسطور ليطابقوه على ما في الصدور . ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك . . . ﴾ [الأنعام : 155]

و"أنزلناه" أي أمرنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من "البركة : أي أنه يعطي من الخير والثمرة فوق ما يظن فيه ، وقد تقول : فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربي أولاده جيدا ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هي البركة . كأن الراتب لا يؤدي هذه المسئوليات أبدا . وكلمة "البركة" تدل على أن يد الله ممدودة في الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائما إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو

رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتي لك بمائتي جنيه ، ورزق السلب يسلب عنك مصارف لا تعرف قدرها . فنجد من يبلغ مرتبه ألفا من الجنيهات ، لكن بعض والده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ما فوقها .

(11/258)

إذن فحين يسلب الحق المصارف وإنفاق المال في المعصية أو المرض فهذه هي بركة الرزق ، ونجد الرجل الذي يأتي ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويخلع الله على المال القليل صفة القبول ، ونجد آخر يأتي ماله حرام فيخلع الله على ماله صفة الغضب فينفقه في المصائب والبلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه .

وأنت حين تقارن القرآن بالتوراة في الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لا تنتهي ؛ فكل يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديدا . وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة ، وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولا . والمهم أن القرآن قد

جاء على ميعاد مع طموح البشريات ، وحضارتها وارتقاءاتها في العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائما ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أمي ، وفي أمة أمية ، ولذلك حكمة بالغة لأن معنى " أمي " أي أنه لم يأخذ علما من البشر ، بل هو كما والدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمية فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . ونزل القرآن في أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت في هذ الأمة المتبدية المتنقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية ففي ذلك الدليل على أن الكتاب الذي يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقيل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التي كانت تحكم بها الفرس أو الروم .

(12/258)

وما دام الكتاب له هذه الأوصاف التي تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير ، لذلك يأتي الأمر من الله : ﴿ فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ [الأنعام : 155]

وساعة تأتي ب " لعل " فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلانا يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومن يفعل العمل المرجو إنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدري أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : " لعلي أفعل لك كذا " ، وهنا تكون أنت الراجي والمرجو في آن واحد ، ولكنك أيضا ابن للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تتيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ . يأتي الحق هنا بالتمييز للأمة التي أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(13/258)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ قال : هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﴿ فاتبعوه واتقوا ﴾ يقول : فاتبعوا ما أحل فيه واتقوا ما حرم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن الضريس ومحمد بن نصر والطبراني عن ابن مسعود قال : إن هذا القرآن شافع مشفع وما حل مصدق من جعله أماماً قاده إلى الجنة ، ومن جعل خلفه ساقه إلى النار .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن أبيه عن جده " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً فيؤتى الرجل قد حمله فخالف أمره ، فيقف له خصماً فيقول : يا رب حملته إياي فبئس حاملي تعدى حدودي ، وضيع فرائضي ، وركب معصيتي ، وترك طاعتي ، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال : فشأنك ، فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار ، ويؤتى بالرجل الصالح قد كان حمله وحفظ أمره ، فيتمثل له خصماً دونه فيقول : يا رب حملته إياي فحفظ حدودي ، وعمل بفرائضي ، واجتنب معصيتي ، واتبع طاعتي ، فما يزال يقذف له بالحجج حتى يقال له : شأنك به ، فيأخذ بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الاستبرق ، ويعقد عليه تاج الملك ، ويسقيه كأس الخمر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن أبي موسى الأشعري قال : إن هذا القرآن كائن لكم ذكراً وكائن عليكم وزراً فتعلموه واتبعوه ، فإنكم أن تتعبوا القرآن يورد بكم رياض الجنة ، وان يتبعكم القرآن يزج في أقفائكم حتى يوردكم إلى النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(14/258)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ الآية .

يجُوز أن يكون "كِتَابٌ" و" أنزلْنَاه " و" مُبَارَكٌ " إخْبَاراً عن اسم الإشارة ، عند مَنْ يُجيزَ تعدُّدَ الخَبَرَ مُطْلَقاً ، أو بالتَّأويل عند مَنْ لَمْ يجوّزْ ذلك ، ويجُوز أن يكُوزن " أنزلْنَاهُ " ، و" مُبَارَكٌ " : وصْفَيْن لـ "كِتَابٌ" عند من يُجيزَ تَقْدِيم الوَصْفِ غير الصّريح على الوَصْفِ الصَّرِيح ، وقد تقدم تَحْقِيقُ ذلك في السُّورة قَبْلَها ، في قوله – سبحانه – : ﴿ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] .

قال أبو البقاء : " ولو كان قُرِئ : " مُبَاركاً " بالنَّصْب على الحالِ ، لجَاز " ولا حَاجَة إلى مِثْلِ

هذا ، وقُدِّم الوَصْفُ بالإنْزَال ؛ لأن الكلام مع مُنْكِري أنَّ اللَّهِ يُنَزِّل على البَشَر كِتَاباً ، ويُرْسِلَ رَسُولاً ، وأما وَصْف البَرَكَة ؛ فهو أمْرٌ مُتَرَاخٍ عَنْهم ، وجيء بصِفَة الإنْزَال بجُمْلَة فِعْلِيَّة أسند الفعل فيها إلى ضَمير المُعَظِّم نفسه مُبَالغة في ذلك ، بخلافِ ما لو جيءَ بها اسْماً مُفْرداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 522 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) ﴾

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب ، وإذا بَقِيَ العبدُ عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب ، ومن لم يجدْ في قراءة القرآن كمالَ العيشِ والإنس فَلأنَّه يقرأ ترسماً لا تحققاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 512 ﴾

(15/258)

قوله تعالى ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

ثم بين المراد من إنزاله وهو إقامة الحجة البالغة فقال : ﴿ أن ﴾ أي لأن لا ﴿ تقولوا ﴾ أو كراهة أن تقولوا أيتها الأمة الأمية ﴿ إنما أنزل الكتاب ﴾ أي الرباني المشهور ﴿ على طائفتين ﴾ وقرب الزمن وبعّضه بإدخال الجار فقال : ﴿ من قبلنا ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ وإن ﴾ أي وأنا - أو وأن الشأن - ﴿ كنا عن دراستهم ﴾ أي قراءتهم لكتابهم قراءة مرددة .

ولما كانت هي المخففة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية فقال : ﴿ لغافلين ﴾ أي لا نعرف حقيقتها ولا ثبتت عندنا حقيتها ولا هي بلساننا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 747.748 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب على طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ فيه وجوه :

الوجه الأول : قال الكسائي والفراء ، والتقدير : أنزلناه لئلا تقولوا ، ثم حذف الجار وحرف النفي ، كقوله : ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] وقوله : ﴿ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] أي لئلا .

والوجه الثاني : وهو قول البصريين معناه : أنزلناه كراهة أن تقولوا ولا يجيزون إضمار "لا"

فإنه لا يجوز أن يقال : جئت أن أكرمك بمعنى : أن لا أكرمك ، وقد ذكرنا تحقيق هذه المسألة في آخر سورة النساء .

والوجه الثالث : قال الفراء : يجوز أن يكون "أن" متعلقة باتقوا ، والتأويل : واتقوا أن تقولوا إنما أنزل الكتاب .

البحث الثاني : قوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ خطاب لأهل مكة ، والمعنى : كراهة أن يقول أهل مكة أنزل الكتاب ، وهو التوراة والإنجيل على طائفتين من قبلنا ، وهم اليهود والنصارى ، وإن كنا "إن" هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والأصل وأنه كنا عن دراستهم لغافلين ، والمراد بهذه الآيات إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد كي لا يقولوا يوم القيامة إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا وكنا غافلين عما فيهما ، فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لغافلين ﴾ أي لا نعلم ما هي ، لأن كتابهم ما كان بلغتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 5. 6 ﴾

(16/258)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب على طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾

يعني : أنزلنا هذا القرآن لكي لا تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا يعني : اليهود والنصارى .

ويقال : أن تقولوا يعني لكراهة أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وذلك أن كفار مكة قالوا : قاتل الله اليهود كيف كذبوا أنبياءهم ، والله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم .

فأنزل الله القرآن حجة عليهم .

ثم قال ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لغافلين ﴾ يعني : عن قراءتهم الكتاب لغافلين عما فيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ أَن تقولوا ﴾ يعني [لئلاّ] تقولوا كقوله ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] وقوله : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل أَن تَقُولُواْ ﴾ [المائدة : 19] يعني أي لا تقولوا يعني لئلاّ تقولوا .

وقيل : معناه أنزلناه كراهة أن يقول ، وقال الكسائي : معناه : اتقوا أن تقولوا : يا أهل مكّة ، وقرأ ابن محيصن والأعمش كلاهما والقراءة بالياء بقوله تعالى فقد جاءكم ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ

الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ وقد كنّا ﴿ عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ قرأتهم ﴿ لَغَافِلِينَ ﴾ لا نعلم ما هي وإنَّما قال : دراستهم ، ولم يقل : دراستهما ، لأن كل طائفة جماعة ، كقوله تعالى ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ [الحج : 19] ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(17/258)

و ﴿ أن ﴾ من قوله ﴿ أن تقولوا ﴾ في موضع نصب ، والعامل فيه ﴿ أنزلناه ﴾ والتقدير وهذا كتاب أنزلناه كراهية أن ، وهذا أصح الأقوال وأضبطها للمعنى المقصود ، وقيل العامل في ﴿ أن ﴾ قوله ﴿ واتقوا ﴾ فكأنه قال واتقوا أن تقولوا ، وهذا تأويل يتخرج على معنى واتقوا أن تقولوا كذا ، لأنه لا حجة لكم فيه ، ويكن يعرض فيه قلق لقوله أثناء ذلك ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وفي التأويل الأول يتسق نظم الآية ، و" الطائفتان " اليهود والنصارى بإجماع من المتأولين والدراسة القراءة والتعلم بها ، و ﴿ إن ﴾ في قوله ﴿ وإن كنا ﴾ مخففة من الثقيلة ، واللام في قوله ﴿ لغافلين ﴾ لام توكيد ، هذا مذهب البصريين

وحكى سيبويه عن بعض العرب أنهم يخففونها ويبقونها على عملها ، ومنه قراءة بعض أهل المدينة ﴿ وإن كلاً ﴾ وأما المشهور فإنها إذا خففت ترجع حرف ابتداء لا تعمل ، وأما على مذهب الكوفيين ف ﴿ إن ﴾ في هذه الآية بمعنى ما النافية ، واللام بمعنى إلا ، فكأنه قال وما كنا عن دراستهم إلا غافلين .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب ، فكأنه قال : وهذا القرآن يا معشر العرب أنزل حجة عليكم لئلا تقولوا إنما أنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا ، ونحن لم نعرف ذلك ، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا ﴾

سبب نزولها : أن كفار مكة قالوا : قاتل الله اليهود والنصارى ، كيف كذَّبوا أنبيائهم ؛ فوالله لو جاءنا نذير وكتاب ، لكنَّا أهدى منهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قال الفراء : "أن" في موضع نصب في مكانين .

أحدهما : أنزلناه لئلا تقولوا .

والآخر : من قوله : واتقوا أن تقولوا وذكر الزجاج عن البصريين أن معناه : أنزلناه كراهة أن تقولوا ؛ ولا يجيزون إضمار "لا" .

فأما الخطاب بهذه الآية ، فهو لأهل مكة ؛ والمراد : إثبات الحجة عليهم بانزال القرآن كي لا يقولوا يوم القيامة : إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى ، وكنا غافلين عما فيهما .

و"دراستهم" : قراءتهم الكتب .

قال الكسائي : ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ لا نعلم ما هي ، لأن كتبهم لم تكن بلُغَتِنَا ، فأنزل الله كتاباً بلغتهم لتنقطع حجتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أن تقولوا ﴾ يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعني أنزلنا إليكم الكتاب كراهية أن تقولوا ﴿ إنما أنزل الكتاب ﴾ وقيل : يجوز أن تكون أن متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لأهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا إنما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لأن المراد به التوراة والإنجيل ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ وإن كنا ﴾ أي : وقد كنا وقيل وإنه كنا ﴿ عن دراستهم ﴾ يعني قراءتهم ﴿ لغافلين ﴾ يعني : لا علم لنا بما فيها لأنها ليست بلغتنا .

والمراد بهذه الآية إثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بإنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم والمعنى : وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيهما فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾

﴿ أن تقولوا ﴾ مفعول من أجله فقدره الكوفيون لئلا تقولوا ولأجل أن لا تقولوا وقدره البصريون كراهة ﴿ أن تقولوا ﴾ والعامل في كلا المذهبين ﴿ أنزلناه ﴾ محذوفة يدل عليها قوله قبل ﴿ أنزلناه ﴾ ، ولا يجوز أن يكون العامل ﴿ أنزلناه ﴾ هذه الملفوظة بها للفاصل بينهما وهو ﴿ مبارك ﴾ الذي هو وصف لكتاب أو خبر عن هذا فهو أجنبي من العامل والمعمول .

(19/258)

وظاهر كلام ابن عطية أن العامل فيه ﴿ أنزلناه ﴾ الملفوظ بها .

وقيل : ﴿ أن تقولوا ﴾ مفعول والعامل فيه ﴿ واتقوا ﴾ أي ﴿ واتقوا أن تقولوا ﴾ لأنه لا

حجة لكم فيه والكتاب هنا جنس والطائفتان هما أهل التوراة والإنجيل اليهود والنصارى بلا خلاف ، والخطاب متوجه إلى كفار قريش بإثبات الحجة عليهم بإنزال هذا الكتاب لئلا يحتجوا هم وكفار العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب فكأنه قيل : وهذا القرآن يا معشر العرب أنزل حجة عليكم لئلا تقولوا : إنما أنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا ونحن لم نعرف ذلك فهذا كتاب بلسانكم مع رجل منكم .

وقرأ ابن محيصن : أن يقولوا بياء الغيبة ويعني كفار قريش .

وقال الماتريدي : المعنى إنما ظهر نزول الكتاب عند الخلق على طائفتين من قبلنا ولم يكونوا وقت نزل التوراة والإنجيل يهوداً ولا نصارى ، وإنما حدث لهما هذان الاسمان لما حدث منهما و ﴿ دراستهم ﴾ قراءتهم ودرسهم والمعنى عن مثل ﴿ دراستهم ﴾ وأعاد الضمير جمعاً لأن كل طائفة منهم جمع كما أعاده في قوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ وإن هنا هي المخففة من الثقيلة .

وقال الكوفيون : إن نافية واللام بمعنى إلا والتقدير وما كنا عن دراستهم إلا غافلين .

وقال قطرب : في مثل هذا التركيب إن بمعنى قد واللام زائدة وليس هذا الخلاف مقصوراً عل ما في هذه الآية ، بل هو جار في شخصيات هذا التركيب وتقريره في علم النحو .

وقال الزمخشري : ﴿ وإن كنا ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والأصل ﴿ وإن كنا عن دراستهم ﴾ غافلين على أن الهاء ضمير ؛ انتهى .

وما ذهب إليه من أن أصله ﴿ وإن كنا ﴾ والهاء ضمير الشأن يلزم منه أن إن المخففة من الثقيلة عاملة في مضمر محذوف حالة التخفيف كما قال النحويون في أن المخففة من الثقيلة والذي نص عليه أن إن المخففة من الثقيلة إذا لزمت اللام في أحد الجزأين بعدها أو في أحد معمولي الفعل الناسخ الذي يليها ، إنها مهملة لا تعمل في ظاهر ولا مضمر لا مثبت ولا محذوف فهذا الذي ذهب إليه مخالف للنصوص وليست إذا وليها الناسخ داخلة في الأصل على ضمير شأن البتة .

و﴿ عن دراستهم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لغافلين ﴾ وهذا يدل على بطلان مذهب الكوفيين في دعواهم أن اللام بمعنى إلا ولا يجوز أن يعمل ما بعد إلا فيما قبلها ، وكذلك اللام التي بمعناها ولهم أن يجعلوا عنها متعلقاً بمحذوف ويدل أيضاً على أن اللام لام ابتداء لزمت للفرق ، فجاز أن يتقدم معمولها عليها لما وقعت في غير ما هو لها أصل كما جاز ذلك في أن زيداً طعامك لآكل حيث وقعت في غير ما هو لها أصل ولم يجز ذلك فيها إذا وقعت فيما هو لها أصل وهو دخولها على المبتدأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ علةٌ لأنزلناه المدلولِ عليه بالمذكور لا لنفسه ، للزوم الفصلِ حينئذ بين العامل والمعمولِ بأجنبيّ هو مباركٌ وصفاً كان أو خبراً أي أنزلناه كذلك كراهةَ أن تقولوا يوم القيامة لو لم تُنْزِله ﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب ﴾ الناطقُ بتلك الأحكام العامة لكل الأمم ﴿ على طَائِفَتَيْنِ ﴾ كائنتين ﴿ مِن قَبْلِنَا ﴾ وهما اليهودُ والنصارى ، وتخصيصُ الإنزال بكتابيهما لأنهما الذي اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماويةِ بالاشتمال على الأحكام لا سيما الأحكامِ المذكورة ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ إنْ هي المخففةُ من إنَّ واللام فارقةٌ بينها وبين النافية وضميرُ الشأن محذوفٌ ومرادُهم بذلك دفعُ ما يَرِد عليهم من أن نزولَه عليهما لا ينافي عمومَ أحكامِه فلمَ لمْ تعملوا بأحكامه العامة ؟ أي وإنه كنا ﴿ عَن دِرَاسَتِهِمْ لغافلين ﴾ لا ندري ما في كتابهم إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقّى منه تلك الأحكامَ العامة ونحافظَ عليها وإن لم يكن منزلاً علينا ، وبهذا تبيّن أن معذرتَهم هذه مع أنهم غيرُ مأمورين بما في الكتابين لاشتمالهما على الأحكام المذكورةِ المتناولةِ لكافة الأممِ كما أن قطعَ تلك المعذرةِ بإنزال القرآنِ لاشتماله أيضاً عليها لا على سائر الشرائعِ والأحكام فقط . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ علة لمقدر دل عليه ﴿ أنزلناه ﴾ [الأنعام : 155] المذكور وهو العامل فيه لا المذكور خلافاً للكسائي لئلا يلزم الفصل بين العامل ومعموله بأجنبي وهو بتقدير لا عند الكوفيين أي لأن لا تقولوا وعلى حذف المضاف عند البصريين أي كراهة أن تقولوا .

وقيل : يحتمل أن يكون مفعول ﴿ اتقوا ﴾ [الأنعام : 155] وعليه الفراء ، وأن تجعل اللام المقدرة للعاقبة أي ترتب على إنزالنا أحد القولين ترتب الغاية على الفعل فيكون توبيخاً لهم على بعدهم عن السعادة ، والمتبادر ما ذكر أولاً أي أن تقولوا يوم القيامة لو لم ننزله .

﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب ﴾ الناطق بالأحكام القاطع للحجة ﴿ على طَائِفَتَيْنِ ﴾ جماعتين كائنتين ﴿ مِن قَبْلِنَا ﴾ وهما كما قال ابن عباس وغيره اليهود والنصارى ، وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام .

﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ إن هي المخففة من إن واللام الآتية فارقة بينها وبين النافية وهي مهملة لما حققه النحاة من أن أن المخففة إذا لزمت اللام في أحد جزأيها ووليها الناسخ فهي مهملة لا

تعمل في ظاهر ولا مضمر ، لا ثابت ولا محذوف أي وإنه كنا .

﴿ عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ أي قراءتهم ﴿ لغافلين ﴾ غير ملتفتين لا ندري ما هي لأنها ليست بلغتنا فلم يمكنا أن نتلقى منها في ما فيه نجاتنا ولعلهم عنوا بذلك التوحيد ، وقيل : تلك الأحكام المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ [الأنعام : 151] الخ لأنها عامة لجميع بني آدم لا تختلف في عصر من الأعصار .

وعلى هذا حمل الآية شيخ الإسلام ثم قال : "وبهذا تبين أن معذرتهم هذه مع أنهم غير مأمورين بما في الكتابين لاشتمالهما على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتماله أيضاً عليها لا على سائر الشرائع والأحكام فقط .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ أن تقولوا ﴾ في موضع التّعليل لفعل ﴿ أنزلناه ﴾ على تقدير لام التّعليل محذوفة على ما هو معروف من حذفها مع (أنْ) .

والتّقدير : لأن تقولوا ، أي لقولكم ذلك في المستقبل ، أي لملاحظة قولكم وتَوقُّع وقوعه ، فالقول باعث على إنزال الكتاب .

(23/258)

والمقام يدلّ على أنّ هذا القول كانَ باعثاً على إنزال هذا الكتاب ، والعلّة الباعثة على شيء لا يلزم أن تكون علّة غائية ، فهذا المعنى في اللاّم عكس معنى لام العاقبة ، ويؤول المعنى إلى أنّ إنزال الكتاب فيه حِكَم منها حكمة قطع معذرتهم بأنَّهم لم ينزّل إليهم كتاب ، أو كراهية أن يقولوا ذلك ، أو لتجنّب أن يقولوه ، وذلك بمعونة المقام إيثاراً للإيجاز فلذلك يقدّر مضافٌ مثل : كراهيةَ أو تجنّبَ .

وعلى هذا التّقدير جرى نحاة البصرة .

وذهب نحاة الكوفة إلى أنَّه على تقدير (لاَ) النّافية ، فالتّقدير عندهم : أنْ لا تقولوا ، والمآل واحد ونظائر هذا في القرآن كثيرة كقوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : 176] وقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾ [الزمر : 55 ، 56] وقوله : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ [النحل : 15] أي لتجنّب مَيْدها بكم ، وقول عمرو بن كلثوم:

فَعَجَّلْنَا القِرَى أنْ تَشْتُمُونَا . . .

وهذا القول يجُوز أن يكون قد صدر عنهم من قبلُ ، فقد جاء في آية سورة القصص (48) : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ ويجُوز أن يكون

متوقّعاً ثمّ قالوه من بعد ، وأيّاً مَا كان فإنَّه متوقّع أن يكرّروه ويعيدوه قولاً موافقاً للحال في نفس الأمر ، فكان متوقّعاً صدوره عند ما يتوجّه الملام عليهم في انحطاطهم عن مجاوريهم من اليهودِ والنّصارى من حيث استكمال الفضائل وحسن السّير وكمال التدّين ، وعند سؤالهم في الآخرة عن اتّباع ضلالهم ، وعند ما يشاهدون ما يناله أهل الملل الصّالحة من النّعيم ورفع الدّرجات في ثواب الله فيتطلّعون إلى حظّ من ذلك ويتعلّلون بأنَّهم حرموا الإرشاد في الدّنيا .

(24/258)

وقد كان اليهود والنّصارى في بلاد العرب على حالة أكمل من أحوال أهل الجاهليّة ، ألا ترى إلى قول النّابغة يمدح آل النّعمان بن الحارث ، وكانوا نصارى:

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإله ودينُهم . . .

قَويمٌ فما يَرْجُون غيرَ العواقب

ولا يَحْسِبُون الخَيْر لا شرّ بعده . . .

ولا يحسبون الشرّ ضَرْبَةَ لازب

والطائفة : الجماعة من النّاس الكثيرة ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فلتقم طائفة منهم

معك ﴾ في سورة النّساء (102) ، والمراد بالطّائفتين هنا اليهود والنّصارى .

والكتاب مراد به الجنس المنحصر في التّوراة والإنجيل والزّبور .

ومعنى إنزال الكتاب عليهم أنَّهم خوطبوا بالكتب السّماوية التي أنزلت على أنبيائهم فلم يكن العرب مخاطبين بما أنزل على غيرهم ، فهذا تعلّل أول منهم ، وثمة اعتلال آخر عن الزّهادة في التخلّق بالفضائل والأعمال الصالحة : وهو قولهم : وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ ، أي وأنَّا كنّا غافلين عن اتباع رشدهم لأنّا لم نتعلم ، فالدّراسة مراد بها التعليم .

والدّراسة : القراءة بمعاودة للحفظ أو للتّأمّل ، فليس سرد الكتاب بدراسة .

وقد تقدّم قوله تعالى : ﴿ وليقولوا درست ﴾ في هذه السّورة (105) ، وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ من سورة آل عمران (79) .

والغفلة : السّهو الحاصل من عدم التفطّن ، أي لم نهتمّ بما احتوت عليه كتبهم فنقتدي بهديها ، فكان مجيء القرآن منبّها لهم للهدي الكامل ومغنِياً عن دراسة كتبهم .

وقوله : أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ تدرّج في الاعتلال جاء على ما تكنّه نفوس العرب من شفوفهم بأنفسهم على بقيّة الأمم ، وتطلّعهم إلى معالي الأمور ، وإدلالهم بفطنتهم وفصاحة ألسنتهم وحِدّة أذهانهم وسرعة تلقّيهم ، وهم أخلقاء بذلك كلّه .

وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم ، وإيقاظ لأفهامهم أن يغتبطوا بالقرآن ،

ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشّرف بين الأمم ، كقوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ [الأنبياء : 10] .

وقد كان الذين اتَّبعوا القرآن أهدى من اليهود والنّصارى ببون بعيد الدّرجات . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(25/258)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (156) ﴾

فالكتاب يصفي العقائد السابقة التي نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذرا وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذي أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعا لاعتذارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(26/258)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أن تَقُولُوا " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مَفْعُول من أجله .

قول أبو حيَّان : " والعَامِلُ فيه " أَنْزَلْنَاهُ " مقدّراً ، مَدْلُولاً عليه بنَفْس " أَنْزَلْنَاهُ " المَلْفُوظِ به ، تقديرُه : أَنْزَلْنَاه أن تقولوا " .

قال : " ولا جائز أن يعمل فيه " أَنْزَلْنَاهُ " الملفوظ به ؛ لئلا يلزم الفصل بين العَامِل ومَعْمُولِه بأجْنَبِيّ ، وذلك أنَّ مُبارك " : إمَّا صِفَةٌ ، وإما خبرٌ ، وهو أجنبيٌّ بكل من التقديرين " وهذا الذي منَعَه هو ظَاهِرُ قول الكسائِي ، والفرَّاء .

والثاني : أنَّها مَفْعُول به ، والعامل فيه : " واتَّقُوا " أي : واتَّقُوا قولكم كَيْتَ وكَيْتَ ، وقوله : " لَعَلَّكم تُرْحَمُون " معترضٌ جار مُجْرى التَّعْلِيل ، وعلى كَوْنه مَفْعُولاً من أجْلِه ، يكون تقديره عند البصريّين على حَذْفِ مُضَافٍ ، تقديرُه : كراهة أن تَقُولُوا ، وعند الكوفيّين يكون تقديره : " ألاَّ يَقُولُوا " .

قال الكسائيُّ : والفرَّاء : والتقدير : أنزَلْنَاهُ لئلا تَقُولُوا ، ثم حذف الجارّ ، وحَرْف النَّهْي ، كقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [النساء : 176] وكقوله : ﴿

رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] أي : ألاَّ تَمِيد بِكُم ، وهذا مُطَّرِد عنْدَهُم في هذا النَّحْو ، وقد تقدَّم ذلك مراراً .

(27/258)

وقرا الجمهور : " تَقُولُوا " بتاء الخطاب ، وقرأ ابن مُحَيْصِن : "يَقُولوا " : بياء الغَيْبَة ، ومعنى الآية الكريمة ، كراهة أن يقول أهْلُ مكَّة : أنزل الكتاب ، وهو التَّوْراة ، والإنْجيل على طَائِفَتَيْن من قَبْلِنَا ، وهُمْ اليَهُود والنَّصَارى .

قوله : " وَإِنْ كُنَّا " [" إنْ "] مُخَفَّفَة من الثَّقِيلة عند البَصْرِيِّين ، وهي هُنَا مُهْمَلة ؛ ولذلك وَلِيتها الجُمْلة الفِعْلِيَّة ، وقد تقدَّم تحقيق ذلك ، وأنَّ الكوفيِّين يَجْعَلُونها بمعنى : " ما " النَّافية ، واللام بمعنى : " إلاَّ " ، والتقدير : ما كُنَّا عن دِرَاسَتِهم إلاَّ غافِلِين .

وقال الزَّجَّاج بِمِثْل ذلك ، فَنَحا نحو الكوفيِّين .

وقال قُطْرُب : " إنْ " بمعنى " قَدْ " واللاَّم زائدة .

وقال الزَّمَخْشَري بعد أن قرَّر مذهب البصريين كما قدَّمنا : " والأصْل : إنه كُنَّا عن عِبَادَتِهم " فقدّر لها اسْماً مَحْذُوفاً ، هو ضمير الشَّأن ، كما يُقَدِّر النَّحْوِيُّون ذلك في " أنْ " بالفَتْح إذا خُفِّفَت ، وهذا مخالفٌ لِنُصُوصِهم ، وذلك أنَّهم نَصُّوا على أنَّ : " إنْ " بالكَسْر

إذا خُفِّفَت ، ولِيَتْهَا الجُمْلَةُ الفعليةُ النَّاسِخة ، فلا عَمَل لها ، لا في ظاهرٍ ولا مُضْمرٍ .

و" عَنْ دِرَاسَتِهِم " متعلّق بخبر "كُنَّا " وهو : " غافلين " وفيه دلالة على بُطلان مذهب الكوفيين في زعمهم أن اللام بمعنى : " إلاَّ " ولا يَجُوز أن يَعْمَل ما بعد " إلاَّ " فيما قَبْلَها ؛ فكذلك ما هو بِمَعْنَاها .

(28/258)

قال أبو حيَّان : " ولَهُم أن يَجْعَلُوا " عَنْها " متعلّقاً بمحذوف " وتقدَّم أيضاً خلاف أبي عليّ ، في أنَّ هذه اللاَّم لَيْسَت لام الابتِدَاء ، بل لامٌ أخْرَى ، ويدلُّ أيضاً على أن اللاَّم لام ابتداء لَزِمتِ للفَرْق ، فجَاز أن يتقدَّم مَعْمُولُها عليها ، لمّا وقعت في غَيْر ما هُو لَهَا أصل ، كما جاز ذلك في : " إنَّ زيداً طعامك لآكِلٌ " حَيْث وقعت فيغير ما هُوَ لَهَا [أصلٌ] ولمْ يَجُزْ ذلك فيهَا إذا وقعت فيما هُوَ لَهَا أصْلٌ ، وهو دُخُولها على المُبْتَدأ .

وقال أبو البقاءِ واللاَّم في " لغَافِلِين " عِوض أو فَارِقَة بَيْن " إنْ " و " ما " .

قال شهاب الدين : قوله : " عِوَض " عبارة غَرِيبَةٌ ، وأكثر ما يُقَال : إنها عِوَضٌ عن التَّشْديد الَّذِي ذَهَبَ من " إنْ " ولَيْس بِشَيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 524.522 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ أو تقولوا ﴾ أي أيها العرب : لم نكن عن دراستهم غافلين بل كنا عالمين بها ، ولكنه لا يجب اتباع الكتاب إلا على المكتوب إليه فلم نتبعه ، و ﴿ لو أنا ﴾ أهلنا لما أهلوا له حتى ﴿ أنزل علينا الكتاب ﴾ أي جنسه أو الكتاب الذي أنزل إليهم من عند ربنا ﴿ لكنا أهدى منهم ﴾ أي لما لنا من الاستعداد بوفور العقل وحدة الأذهان واستقامة الأفكار واعتدال الأمزجة والإذعان للحق ، ولذلك سبب عن هاتين العلتين قوله : ﴿ فقد جاءكم ﴾ وذكر الفعل مدحاً لهذا القرآن وتفضيلاً وتشريفاً له على كل ما تقدمه وتنبيهاً على أن بيان هذه السورة في النهاية لأنها سورة أصول الدين ﴿ بينة ﴾ أي حجة ظاهرة بلسانكم ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم على لسان رجل منكم تعرفون أنه أولاكم بذلك

﴿ وهدى ﴾ أي بيان لمن تدبره عظيم ﴿ ورحمة ﴾ أي إكرام لمن قبله ، فكذبتم بها .

ولما قامت عليهم الحجة ، حسن وقوع تحذير التقرير بقوله : ﴿ فمن ﴾ أي فتسبب عن تكذيبكم أنه يقال بياناً لأنكم أظلم الناس : من ﴿ أظلم ممن كذب ﴾ أي أوقع التكذيب ﴿ بآيات الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه فلا أعظم من آياته ، لأن الأثر على قدر المؤثر ﴿ وصدف ﴾ أي أعرض إعراضاً صار به كأنه في صفد أي سد عن سهولة الانقياد للدليل ﴿ عنها ﴾ بعد ما عرف صحتها .

ولما كان الجواب قطعاً : لا أحد أظلم منه ، فكان الحال مقتضياً لتوقع ما يجازى به ، قال : ﴿ سنجزي ﴾ أي بوعد صادق لا خلف فيه ، وأظهر ما أصله الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ الذين يصدفون ﴾ أي يجددون الإعراض ولا يتوبون ﴿ عن آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿ سوء العذاب ﴾ أي الذي يسوء نفسه ﴿ بما كانوا يصدفون ﴾ أي بسبب إعراضهم الذي كان عادة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 748 ﴾

فصل

قال الفخر :

ومعنى أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، مفسر للأول في أن معناه لئلا يقولوا ويحتجوا بذلك ، ثم بين تعالى قطع احتجاجهم بهذا ، وقال : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وهو القرآن وما جاء به الرسول ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

فإن قيل : البينة والهدى واحد ، فما الفائدة في التكرير ؟

قلنا : القرآن بينة فيما يعلم سمعاً وهو هدى فيما يعلم سمعاً وعقلاً ، فلما اختلفت الفائدة صح هذا العطف ، وقد بينا أن معنى ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي أنه نعمة في الدين .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ والمراد تعظيم كفر من كذب بآيات الله ، وصدف عنها ، أي منع عنها ، لأن الأول ضلال ، والثاني منع عن الحق وإضلال .

ثم قال تعالى : ﴿ سَنَجْزِى الذين يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتنا سُوء العذاب ﴾ وهو كقوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ [النحل : 88] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 6 ﴾

(31/258)

وقال السمرقندى :

﴿ أَوْ تَقُولُواْ ﴾ يعني : لكي لا تقولوا ﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ يعني : أصوب ديناً منهم ﴿ فَقَدْ جَاءكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : حجة من ربكم وهو محمد عليه السلام والقرآن .

وإنما قال : ﴿ جَاءكُمْ ﴾ ولم يقل : جاءتكم لأنه انصرف إلى المعنى يعني : البيان ، ولأن الفعل مقدم .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ بمعنى : هدى من الضلالة ورحمة من العذاب .

ويقال : قد جاءكم ما فيه من البيان وقطع الشبهات عنكم .

ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآيات الله ﴾ يعني : لا أحد أظلم وأشد في كفره ممن كذب بآيات الله تعالى ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ يعني : أعرض عن الإيمان بها .

﴿ سَنَجْزِى الذين يَصْدِفُونَ ﴾ يعني : يعرضون ﴿ عَنْ آيَاتنا سُوء العذاب بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي : شدة العذاب بما كانوا يعرضون عن الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ أو تقولوا ﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى ، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب لما انزلت على غيرهم وأنهم

غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من الناس كلهم ، فقيل لهم : قد جائكم بيان من الله وهدى ورحمة ، ولما تقرر أن البينة قد جاءت والحجة قد قامت حسن بعد ذلك أن يقع التقرير بقوله ﴿ فمن أظلم ممن كذب ﴾ بهذه الآيات البينات ، ﴿ وصدف ﴾ معناه حاد وراغ وأعرض ، وقرأ يحيى بن وثاب وابن أبي عبلة "كذَب" بتخفيف الذال ، والجمهور "كذّب" بتشديد الذال ، و ﴿ سنجزي الذين ﴾ وعيد ، وقرأت فرقة "يصدِفون" بكسر الدال وقرأت فرقة "يصدُفون" بضم الدال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

(32/258)

قوله تعالى : ﴿ لكنَّا أهدى منهم ﴾ قال الزجاج : إنما كانوا يقولون هذا ، لأنهم مُدِلُّون بالأذهان والأفهام ، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم ، وهم أُمِّيُّون لا يكتبون .

﴿ فقد جاءكم بينة ﴾ أي : ما فيه البيان وقطع الشبهات .

قال ابن عباس : ﴿ فقد جاءكم بينة ﴾ أي : حجة ، وهو النبي ، والقرآن ، والهدى ، والبيان ، والرحمة ، والنعمة .

﴿ فمن أظلم ﴾ أي : أكفر .

﴿ ممن كذب بآيات الله ﴾ يعني : محمداً والقرآن .

﴿ وصدف عنها ﴾ أعرض فلم يؤمن بها .

وسوء العذاب : قبيحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ وذلك أن جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزله على اليهود والنصارى لكنّا خيراً منهم وأهدى وإنما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فطنهم وذهنهم قال الله عز وجل : ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم ﴾ وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم ﴿ فمن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم أو أكفر ﴿ ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ يعني وأعرض عنها ﴿ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ﴾ يعني أسوأ العذاب وأشده ﴿ بما كانوا يصدفون ﴾ أي ذلك العذاب جزاؤهم بسبب إعراضهم وتكذيبهم بآيات الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ انتقال من الأخبار لحصر إنزال الكتاب على غيرهم وأنه لم ينزل عليهم إلى الأخبار بحكم على تقدير والكتاب يجوز أن يراد

به الكتاب السابق ذكره ، ويجوز أن يراد الكتاب الذي تمنوا أن ينزل عليهم ومعنى ﴿ أهدى منهم ﴾ أرشد وأسرع اهتداء لكونه نزل علينا بلساننا فنحن نتفهمه ونتدبره وندرك ما تضمنه من غير إكداد فكر ولا تعلم لسان بخلاف الكتاب الذي أنزل على الطائفتين ، فإنه بغير لساننا فنحن لا نعرفه ولا نغفل عن دراسته أو ﴿ أهدى منهم ﴾ لكون اليهود والنصارى قد افترقت فرقاً متباينة فلا نعرف الحق من الباطل .

(33/258)

﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾

هذا قطع لاعتذارهم بانحصار إنزال الكتاب على الطائفتين وبكونهم لم ينزل عليهم كتاب ، ولو نزل لكانوا أهدى من الطائفتين .

والظاهر أن البينة هي القرآن وهو الحجة الواضحة الدالة النيرة حيث نزل عليهم بلسانهم وألزم العالم أحكامه وشريعته وإن الهدى والنور من صفات القرآن .

وقيل : البينة الرسول قاله ابن عباس ﴿ بينة من ربكم ﴾ أي حجة وهو النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن .

وقيل : آيات الله التي أظهرها في كتابه وعلى لسان رسوله .

وقيل : دين الله والهدى والنور على هذه الأقوال من صفات ما فسرت البينة به والفاء في قوله : ﴿ فقد جاءكم ﴾ على ما قدره الزمخشري وغيره جواب شرط محذوف .

قال الزمخشري : والمعنى إن صدقتم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم ﴾ فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف ؛ انتهى .

وقدره غيره إن كنتم كما تزعمون إذا نزل عليكم كتاب تكونون أهدى من اليهود والنصارى ، ﴿ فقد جاءكم ﴾ وأطبق المفسرون على أن الغرض بهذه الجملة إقامة الحجة على مشركي العرب وقطع احتجاجهم .

﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ أي بعد مجيء البينة والهدى والنور لا يكون أحد أشد ظلماً من المكذب بالأمر الواضح النير الذي لا شبهة فيه والمعرض عنه بعد ما لاحت له صحته وصدقه وعرفه أو تمكن من معرفته ، وتأخر الإعراض لأنه ناشىء عن التكذيب والإعراض عن الشيء هو بعد رؤيته وظهوره .

وقيل : قبل الفاء شرط محذوف تقديره فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم وآيات الله يحتمل أن يراد بها القرآن والرسول والأولى أن يحمل على العموم ، ﴿ وصدف ﴾ لازم بمعنى أعرض وقد شرحناه على هذا المعنى ومتعدّ أي صدف عنها غيره بمعنى صده وفيه مبالغة في الذمّ حيث ﴿ كذب بآيات الله ﴾ وجعل غيره يعرض عنها ويكذب بها .

وقرأ ابن وثاب وابن أبي عبلة ﴿ ممن كذب ﴾ بتخفيف الذال .

﴿ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ علق الجزاء على الصدوف لأنه هو ناشىء عن التكذيب ، و﴿ سوء العذاب ﴾ شديده كقوله ؛ ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ وقرأت فرقة ﴿ يصدفون ﴾ بضم الدال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَوْ تَقُولُواْ ﴾ عطفٌ على تقولوا وقرىء كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب ﴿ فاتبعوه واتقوا ﴾ ﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب ﴾ كما أنزل عليهم ﴿ لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ إلى الحق الذي هو المقصِدُ الأقصى أو إلى ما في تضاعيفه من جلائل الأحكام والشرائع ودقائِقِها لِحِدّة أذهانِنا وثَقابةِ أفهامنا ولذلك تلقّفنا من فنون العلم كالقصص والأخبار والخُطب والأشعار ونحوِ ذلك طرفاً صالحاً ونحن أمّيون ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءكُمُ ﴾ متعلقٌ بمحذوف ينبىء عنه الفاءُ الفصيحةُ إما معللٌ به أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ ، وإما شرطٌ له أي إن صدقتم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزولِ الكتابِ عليكم فقد حصل ما فرضتم وجاءكم ﴿ بَيّنَةً ﴾

أي حجةٌ واضحة لا يُكتَنهُ كنهها وقوله تعالى : ﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفةٌ لبينة أي بينةٌ كائنةٌ منه تعالى وأياً ما كان ففيه دَلالةٌ على فضلها الإضافي كما أن في تنوينها التفخيميّ دلالةٌ على فضلها الذاتي وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ تأكيدٍ لإيجاب الاتباع ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ عطفٌ على بينةٌ وتنوينُهما أيضاً تفخيميٌّ عبّر عن القرآن بالبينة إيذاناً بكمال تمكنِهم من دراسته ، ثم بالهدى والرحمة تنبيهاً على أنه مشتملٌ على ما اشتمل عليه التوراةُ من هداية الناس ورحمتِهم بل هو عينُ الهداية والرحمة .

(35/258)

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن مجيءَ القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجبٌ لغاية أظلمية مَنْ يكذّبه ، أي وإذا كان الأمرُ كذلك فمن أظلم ﴿ مِمَّن كَذَّبَ بآيات الله ﴾ وُضع الموصولُ موضعَ ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصاً على اتصافهم بما في حيز الصلةِ وإشعاراً بعلة الحُكم وإسقاطاً لهم عن رتبة الخطابِ ، وعبّر عما جاءهم بآيات الله تهويلاً للأمر وتنبيهاً على أن تكذيبَ أيِ آيةٍ كانت من آيات الله تعالى كافٍ في الأظلمية فما ظنُّك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل ، والمعنى إنكارُ أن يكون

أحدٌ أظلمَ ممن فعل ذلك أو مساوياً له وإن لم يكن سبكُ التركيب متعرضاً لإنكار المساواةِ ونفيها ، فإذا قيل : مَنْ أكرمُ من فلان أو لا أفضلُ منه فالمرادُ به حتماً بحكم العرف الفاشي والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ، وقد مر مراراً ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي صرفَ الناس عنها فجمعَ بين الضلال والإضلالِ ﴿ سَنَجْزِى الذين يَصْدِفُونَ ﴾ الناسَ ﴿ عَنْ آياتنا ﴾ وعيدٌ لهم ببيان جزاء إضلالِهم بحيث يُفهم منه جزاءُ ضلالهم أيضاً ، ووضعُ الموصول المُضمر لتحقيق مناطِ الجزاء ﴿ سُوء العذاب ﴾ أي العذابَ السيءَ الشديدَ النكاية ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي بسبب ما كانوا يفعلون من الصَّدْف والصرْف على التجدد والاستمرارِ ، وهذا تصريحٌ بما أَشعرَ به إجراءُ الحُكم على الموصول من عِلّية ما في حيز الصلة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(36/258)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوْ تَقُولُواْ ﴾ عطف على ﴿ تَقُولُواْ ﴾ [الأنعام : 156] .

وقرىء كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب ﴿ فاتبعوه واتقوا ﴾ [الأنعام : 155]

ويكون الخطاب الآتي بعد التفاتاً أيضاً ولا يخفى موقعه .

قال القطب : إنه تعالى خاطبهم أولاً بما خاطبهم ثم لما وصل إلى حكاية أقوالهم الرديئة أعرض عنهم وجرى على الغيبة كأنهم غائبون ثم لما أراد سبحانه توبيخهم بعد خاطبهم فهو التفات في غاية الحسن .

﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب ﴾ كما أنزل عليهم ﴿ لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ أي الحق الذي هو المقصد الأقصى أو إلى ما فيه من الأحكام والشرائع لأنا أجود أذهاناً وأثقب فهماً ﴿ فَقَدْ جَاءكُمُ ﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة إما معلل به أو شرط له أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ ، أو إن صدقتم فيما (كنتم) تعدون من أنفسكم على تقدير نزول الكتاب عليكم فقد حصل ما فرضتم وجاءكم ﴿ بَيّنَةً ﴾ حجة جليلة الشأن واضحة تعرفونها لظهورها وكونها بلسانكم كائنة ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة ﴿ بَيّنَةً ﴾ ويصح تعلقه بجاءكم .

وأياً ما كان ففيه دلالة على فضلها الإضافي مع الإشارة إلى شرفها الذاتي ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ما لا يخفى من مزيد التأكيد لإيجاب الاتباع .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ عطف على ﴿ بَيّنَةً ﴾ وتنوينهما كتنوينهما للتفخيم ، والمراد بجميع ذلك القرآن ، وعبر عنه بالبينة أولاً إذاناً بكمال تمكنهم من دراسته وبالهدى والرحمة ثانياً تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو

عين الهداية والرحمة .

وفي "التفسير الكبير" "فإن قيل البينة والهدى واحد فما الفائدة في التكرير ؟ قلنا : القرآن بينة فيما يعلم سمعاً وهو هدى فيما يعلم سمعاً وعقلاً فلما اختلفت الفائدة صح هذا العطف" ولا يخفى ما فيه .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن مجيء القرآن الموصوف بما تقدم موجب لغاية أظلمية من يكذبه ، والمراد من الموصول أولئك المخاطبون ، ووضع موضع ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصاً على اتصافهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم وإسقاطاً لهم عن رتبة الخطاب ، وعبر عما جاءهم بآيات الله تعالى تهويلاً للأمر .

(37/258)

وقرىء ﴿ كَذَّبَ ﴾ بالتخفيف ، والجار الأول : متعلق بما عنده ، والثاني : يحتمل ذلك وهو الظاهر .

ويحتمل أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً ، والمعنى كذب ومعه آيات الله تعالى ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي أعرض غير مفكر فيها كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أو

صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال ، والفعل على الأول : لازم وعلى الثاني : متعد وهو الأكثر استعمالاً .

﴿ سَنَجْزِى الذين يَصْدِفُونَ عَنْ ءاياتنا ﴾ وعيد لهم ببيان جزاء (إعراضهم أو صدهم) بحيث يفهم منه جزاء (تكذيبهم) ، ووضع الموصول موضع الضمير لتحقيق مناط الجزاء ﴿ سُوء العذاب ﴾ أي العذاب السيء الشديد (النكاية) (1) ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي بسبب ما كانوا يفعلون الصدف (والصرف) (1) على التجدد والاستمرار ، وهذا تصريح بما أشعر به إجراء الحكم على الموصول من علية ما في حيز الصلة له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

ولقد تهيّأ المقام بعد هذا التّنبيه العجيب لفاء الفصيحة في قوله : ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم ﴾ وتقديرها : فإذا كنتم تَقولون ذلك ويهجس في نفوسكم فقد جاءكم بيانٌ من رِبّكم يعني القرآن ، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب .

والبيّنة ما به البيان وظهور الحقّ .

فالقرآن بيّنة على أنَّه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب ، وهو هدي بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير ، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها ، فهي مقيمة لصلاح الأمّة مع التّيسير .

وهذا من أعجب التّشريع وهو أدلّ على أنَّه من أمر العليم بكلّ شيء .

وتفرّع عن هذا الإعذار لهم الإخبار عنهم بأنَّهم لا أظلم منهم ، لأنَّهم كذّبوا وأعرضوا .

فالفاء في قوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ للتّفريع .

والاستفهامُ إنكاري ، أي لا أحد أظلم من الذين كذّبوا بآيات الله .

(38/258)

و (مَن) في ﴿ ممن كذب بآيات الله ﴾ موصولة وما صدقُها المخاطبون من قوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين ﴾ .

والظّلم هنا يشمل ظلم نفوسهم ، إذ زجُّوا بها إلى العذاب في الآخرة وخسران الدّنيا ، وظلمَ الرّسول صلى الله عليه وسلم إذ كذّبوه ، وما هو بأهل التّكذيب ، وظلم الله إذ كذّبوا بآياته وأنكروا نعمته ، وظلموا النّاس بصدّهم عن الإسلام بالقول والفعل .

وقد جيء باسم الموصول لتدلّ الصّلة على تعليل الحكم ووجه بناء الخبر ، لأنّ من ثبَت له مضمون تلك الصّلة كان حقيقا بأنَّه لا أظلم منه .

ومعنى ﴿ صَدَفَ ﴾ أعرض هُو ، ويطلق بمعنى صَرف غيره كما في "القاموس" .

وأصله التّعدية إلى مفعول بنفسه وإلى الثّاني بـ ﴿ عن ﴾ يقال : صدفتُ فلاناً عن كذا ،

كما يقال : صرفتُه ، وقد شاع تنزيله منزلة اللاّزم حتّى غلب عدمُ ظهور المفعول به ، يقال : صدَف عن كذا بمعنى أعرض وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرّف الآيات ثمّ هم يصدفون ﴾ في هذه السّورة (46) ، وقدّره في الكشاف ﴾ هنا متعدّياً لأنَّه أنسب بكونهم أظلم النّاس تكثيراً في وجوه اعتدائهم ، ولم أر ذلكِ لغيره نظراً لقوله تعالى : ﴿ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ﴾ إذ يناسبه معنى المتعدّي لأنّ الجزاء على أعراضهم وعلى صدّهم النّاس عن الآيات ، فإنّ تكذيبهم بالآيات يتضمّن إعْراضهم عنها فناسب أن يكون صَدْفهم هو صرفَهم النّاس .

و﴿ سوء العذاب ﴾ من إضافة الصّفة إلى الموصوف ، وسوءه أشدّه وأقواه ، وقد بيّن ذلك قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ [النحل : 88] .

فقوله : ﴿ عذاباً فوق العذاب ﴾ هو مضاعفة العذاب ، أي شدّته .

ويحتمل أنَّه أريد به عذاب الدّنيا بالقتل والذلّ ، وعذاب الآخرة ، وإنَّما كان ذلك جزاءهم لأنَّهم لم يكذِّبوا تكذيباً عن دعوة مجرّدة ، بل كذّبوا بعد أن جاءتهم الآيات البيّنات .

و(ما) مَصدريّة : أي بصدفهم وإعراضهم عن الآيات إعراضاً مستمراً لم يدعوا راغبه ف ﴿ كان ﴾ هنا مفيدة للاستمرار مثل : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 96] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من اليهود والنصارى ، وفي هذا القول ما يعني أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها . . . ﴾ [الأنعام : 157]

و " صدف " من الأفعال التي تستعمل متعدية وتستعمل لازمة ، ومعنى " لازمة " أنها تكتفي بالفاعل ولا تتطلب مفعولا ، فمثلا إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلانا قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئا آخر . لكنك إن قيل لك : ضرب زيد ، فلا بد أنك تنتظر من محدثك أن يبين لك من الذي ضرب ، أي أنك جئت بفعل يطلب شيئا بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل " متعد " أي يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و " صدف " فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون " صدف " بمعنى انصرف

وأعرض فكانت لازمة أي ضل في ذاته ، والأمر الثاني : أن تكون صدف متعدية فهي تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أي يضل غيره ، ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولا ثم عليه وزر من أضل ثانيا ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذي يصلح للاثنتين " صدف عنها " أي انصرف ، ضلالا لنفسه ، وصدف غيره أي جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه : ﴿ . . . سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سواء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ [الأنعام : 157]

(40/258)

فكأن المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا في ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقرأوا الوجود الذي يعايشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوما على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ، ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع في الوجود ، ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن

يصدفون ؟ . وماذا ينتظرون من الكون ؟ . أرأوا خلودا في الكون لموجود معهم ؟ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/258)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ قال : اليهود والنصارى خاف أن تقوله قريش .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ قال : هم اليهود والنصارى ﴿ وإن كنا عن دراستهم ﴾ قال : تلاوتهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل

علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ قال : هذا قول كفار العرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فقد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ يقول : قد جاءتكم بينة لسان عربي مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وصدف عنها ﴾ قال : أعرض عنها .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك في قوله ﴿ يصدفون ﴾ قال : يعرضون . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(42/258)

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157) ﴾

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التي وصى الله عباده بها ، وقد استشكل العطف بِثُمَّ مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه .

وهو ما تقدم من قوله : ﴿ ذلكم وصاكم بِهِ ﴾ فقيل : إن ثم ها هنا بمعنى الواو وقيل : تقدير الكلام ، ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل المعنى : قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ، ثم أتل إيتاء موسى الكتاب وقيل : إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبيّ يوصي بها أمته وقيل : إن ثم للتراخي في الإخبار كما تقول : بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب .

قوله : ﴿ تَمَامًا ﴾ مفعول لأجله أو مصدر ، و ﴿ عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ قرىء بالرفع ، وهي قراءة يحيى بن يعمر ، وابن أبي إسحاق ، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ ، أي على الذي هو أحسن ، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً .

وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين ، وأجاز الفراء والكسائي أن يكون اسماً نعتاً للذي ، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتمّ ، والمعنى عندهم تماماً على من أحسن قبوله والقيام به كائناً من كان ، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ : ﴿ تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَوا ﴾ وقال الحسن : كان فيهم محسن وغير محسن ، فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين .

وقيل المعنى : أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه .

وقيل المعنى : تماماً على الذي أحسن به الله عزّ وجلّ إلى موسى من الرسالة وغيرها .

وقيل : تماماً على إحسان موسى بطاعة الله عزّ وجلّ قاله الفراء .

قوله : ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ معطوف على تماماً ، أي ولأجل تفصيل كل شيء ، وكذا ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ معطوفتان ، عليه أي وللهدى والرحمة ، والضمير في لعلهم راجع إلى بني إسرائيل ، المدلول عليه بذكر موسى ، والباء في ﴿ بِلِقَاءِ ﴾ متعلقة ب ﴿ يؤمنون ﴾ .

قوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ ﴾ الإشارة إلى القرآن ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب ، وأنزلناه صفة لكتاب ، ومبارك صفة أخرى له ، وتقديم صفة الإنزال لكون الإنكار

متعلقاً بها ، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية ﴿ فاتبعوه ﴾ فإنه لما كان من عند الله ، وكان مشتملاً على البركة ، كان اتباعه متحتماً عليكم ﴿ واتقوا ﴾ مخالفته ، والتكذيب بما فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿ تُرْحَمُونَ ﴾ برحمة الله سبحانه ، و" أن " في ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ في موضع نصب .

قال الكوفيون : لئلا تقولوا .

وقال البصريون : كراهة أن تقولوا .

(44/258)

وقال الفراء والكسائي : المعنى فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل ﴿ على طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ وهم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ أي عن تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿ لغافلين ﴾ أي لا ندري ما فيها ، ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم ، والغفلة عن معناهما .

قوله : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب ﴾ معطوف على ﴿ تَقُولُواْ ﴾ أي أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿ لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ إلى الحق

الذي طلبه الله ، فإن هذه المقالة والمعذرة منهم مندفعة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، وإنزال القرآن عليه ، ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ جَاءكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي كتاب أنزله الله على نبيكم ، وهو منكم يا معشر العرب ، فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة ، فقد أسفر الصبح لذي عينين ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ معطوف على ﴿ بَيِّنَةٌ ﴾ أي جاءكم البينة الواضحة ، والهدى الذي يهتدي به كل من له رغبة في الاهتداء ، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله ، والصدوف عنها ، أي الانصراف عنها .

(45/258)

وصرف من أراد الإقبال إليها ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ الله ﴾ التي هي رحمة وهدى للناس ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ فضلّ بانصرافه عنها ، وأضلّ بصرف غيره عن الإقبال إليها ﴿ سَنَجْزِى الذين يَصْدِفُونَ عَنْ آياتنا سُوء العذاب ﴾ أي العذاب السيء بسبب ﴿ مَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ وقيل معنى صدف : أعرض ، ويصدفون يعرضون ، وهو مقارب لمعنى الصرف ، وقد تقدّم تحقيق معنى هذا اللفظ ، والاستفهام في ﴿ فمن أظلم ﴾ للإنكار ، أي إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، مع ما يفيده ذلك من

التبكيت لهم .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ قال : على المؤمنين المحسنين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي صخر ﴿ تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ قال : تماماً لما كان قد أحسن الله .

وأخرج أيضاً عن ابن زيد قال : تماماً لنعمته عليهم وإحسانه إليهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وهذا كتاب ﴾ قال : هو القرآن الذي أنزل الله على محمد ﴿ فاتبعوه واتقوا ﴾ يقول : فاتبعوا ما أحلّ الله فيه ، واتقوا ما حرّم .

وأخرج هؤلاء عن مجاهد في قوله : ﴿ على طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال : اليهود والنصارى ، خاف أن تقوله قريش .

وأخرج ابن المنذر ، وابن حاتم ، عن ابن عباس ، قال : هم اليهود والنصارى ، ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ قال : تلاوتهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ قال : هذا قول كفار العرب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي ، في قوله : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يقول : قد جاءتكم بينة لسان عربي مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين .

(46/258)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ صَدَفَ عَنْهَا ﴾ قال : أعرض عنها .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ قال : يعرضون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(47/258)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : فَقَدْ جَاءَكُم " : جواب شَرْط مقدّر فقدَّرَه الزَّمَخْشَرِيُّ : إن صَدَقْتُم فيما كُنْتُم تَعْدُّون من أنْفُسِكم ، فَقَدْ جَاءَكم ، قال : " وهو من أحْسن الحُذُوف " وقدّرَه غَيْره : إن

كُنْتُم كما تَزْعُمون : إنَّكم إذا أنزل عَلَيْكُم كِتَابٌ ، تكونون أهْدَى من اليَهُود والنَّصَارى ، فقدْ جَاءَكُم ، ولمْ يُؤنَّث الفِعْل ؛ لأن التَّأنيث مجازيٌّ ، وللفَصْل بالمَفْعُول ، و" مِنْ ربّكم " يجوز أن تيعلَّق بـ " جَاءَكُم " وأن يتعلَّق بمَحْذُوف على أنَّه صِفَةٌ لـ بَيِّنَة " .

وقوله : " هُدة ورَحْمَة " محذُوفٌ بعدهما : مِن ربّكُم .

قوله : فَمَنْ أظْلَمُ " الظَّاهِر أنَّها جُمْلَة مُسْتَقِلة .

وقال بعضهم ، هي جواب شَرْط مُقَدَّر ، تقديرُه : فإن كَذَّبْتُم ، فلا أحَد أظْلَم مِنْكُم .

والجُمْهُور على كَذَّب " مُشَدّداً ، وبآيات الله متعلّق به ، وقرأ يحيى بن وثاب ، وابن أبي عَبْلَة : " كَذَبَ " بالتخفيف ، و" بآيات اللَّه " : يجوز أن يكُون مَفْعُولاً وأن يكون حالاً ، أي : كذَّ ومعهُ آيات اللَّه ، و" صدف " مَفْعُوله مَحْذُوف ، أي : " وصدف عنها غيره " وقد تقدَّم تَفْسير ذلك [الأنعام : 157] والمُراج : تَعْظِيم كُفْر من كذّب بآيَاتِ الله " وصدَف عَنْها " أي مَنَع ؛ لأنَّ الأوَّل ضلال ، والثاني مَنْع عن الحقّ وإضْلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 524.525 ﴾

(48/258)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى صدف وصدق)

الصَّدَف كجَبَل ، والصُّدُف كعنق ، و(الصَّدْف كثَغْر) ، والصَّدُف كعَضُد : منقطَع الجبل .

وقرىء بالجمِيع .

صَدَف عنه يَصْدِف : أَعرض .

وصَدَف فلانًا صَدْفًا : صَرَفَهُ وأَماله .

وكذا أَصدفه .

وصدفَ فلان صَدْفًا وصُدوفًا : انصرف .

والصَّدُوف : المرأَة الَّتى تعرِض وجهها عليك ، ثمّ تصدِف .

والصَّديق والكذب أَصلها فى القول ، ماضيًا كان أَو مستقبلاً ، وعدًا كان أَو غيره .

ولا يكونان بالقصد الأَوّلِ إلاَّ [فى القول ، ولا يكونان فى القول إلا] فى الخبر دون غيره من أَنواع الكلام .

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ .

وقد يكونان بالعَرَض فى غيره من أَنواع الكلام كالاستفهام ، والأَمر ، والدّعاءِ ، وذلك نحو

قول القائل : أَزَيْدٌ فى الدّار ؛ فإِن فى ضمنه إِخبارًا بكونه جاهلاً بحال زيد ، وكذا إِذا قال : واسِنى ، فى ضمنه أَنَّه محتاج إِلى المواساة .

وإِذا قال : لا تؤذنى ، ففى ضمنه أَنَّه يؤذيه .

والصّدق : مطابقة القول الضَّميرَ والمُخْبَرَ عنه معًا .

ومتى انخَرم شرط من ذلك لا يكون صدقًا [تامًّا] ، بل إِمّا أَلاَّ يوصف بالصّدق ، وإِمّا أَن يوصف تارة بالصّدق وتارة بالكذب ، على نظرين مختلفين ؛ كقول الكافر من غير اعتقاد : محمّد رسول الله ، فإِن هذا يصحّ أَنْ يقال : صدقٌ لكون المخبَرِ عنه كذلك ، ويصح أَن يقال : كذبٌ لمخالفة قوله ضميرَه .

وبالوجه الثانى إِكذاب الله تعالى المنافقين حيث قالوا : إِنَّك لرسول الله فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

والصِّدِّيق : الرّجل الكثير الصّدق .

وقيل : الصِّدِّيق : مَن لم يصدر منه الكذب أَصلاً .

وقيل : مَن لا يتأَتَّى منه الكذب لتعوّده الصّدق .

وقيل : مَنْ صَدَق بقوله واعتقاده ، وحَقَّق صدقه ، قال تعالى فى حقّ إِبراهيم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ ، وقال : ﴿ فَأُوْلَائِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ ، فالصّدّيقون : قومٌ دون الأَنبياءِ فى الفضيلة ، ولكن درجتهم ثانى درجة النبيّين .

وفى جملة ، منزلة الصّدق من أَعظم منازل القوم ، الذى نشأَ منه جميع منازل السّالِكين .

وهو الطريق الأَقوم الَّذى من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقَطِعين الهالكين .

وبه تميّز أَهل النفاق من أَهل الإِيمان ، وسكانُ الجنان من أَهل النيران .

وهو سيف الله فى أَرضه الذى ما وضع على شىء إِلاَّ قطعه ، ولا واجه باطلاً إِلاَّ أَزاله وصرعه .

فهو رُوح الأَعمال ، ومحلّ الأَحوال ، والحامل على اقتحام الأَهوال ، والباب الذى دخل منه الواصلون إِلى حضرة ذى الجلال .

وقد أَمر الله سبحانه أَهل الإِيمان أَن يكونوا مع الصّادقين ، وخصّص المنعَم عليهم بالنّبيّين والصّدّيقين والشهداء والصّالحين ، فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَائِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ ، فهم أَهل الرّفيق الأَعلى ، / ﴿ وَحَسُنَ أُولَائِكَ

رَفِيقاً ﴾ ، ولا يزال الله يَمدّهم بنعمهِ وأَلطافه ، ويزيد إِحساناً منه وتوفيقاً ، ولهم مزيّة المعِيّة مع الله ، فإِن الله تعالى مع الصّادقين .

(50/258)

ولهم منزلة القرب منه ؛ إِذ درجتهم منه ثانى درجة النبيّين ، وأَثنى عليهم بأَحسن أَعمالهم : من الإِيمان ، والإِسلام ، والصّدقة ، والصّبر ، [و] بأَنّهم أَهل الصّدق فقال : ﴿ وَلَاكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ إِلى قوله : ﴿ أُولَائِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، وهذا صريح فى أَنَّ الصّدق بالأَعمال الظاهرة و الباطنة ، وأَنَّ الصّدق هو مَقام الإِسلام والإِيمان .

وقسّم سبحانه النّاس إِلى صادق ومنافق ، فقال : ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

والإِيمان أَساسه الصّدق ، والنفاق أَساسه الكذب ، فلا يجتمع كذب وإِيمان إِلاَّ واحَدهما يحارب الآخر .

وأَخبر سبحانه أَنَّه فى القيامة لا ينفع العبدَ وينجيه من عذابه إِلاَّ صدقُه ، فقال تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذلك الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فالذِى جاءَ بالصّدق هو من شأْنه الصّدق فى قوله ، وعمله ، وحاله .

فالصّدق فى الأَقوال : استواءُ اللسان على الأَقوال ؛ كاستواءِ السُّنبلة على ساقها .

والصّدقُ فى الأَعمال : استواء الأَفعال على الأَمر والمتابعة ؛ كستواءِ الرّأْس على الجَسَد .

(51/258)

والصّدق فى الأَحوال : استواءُ أَعمال القلب والجوارح على الإِخلاص ، واستفراغ الوُسْع ، وبذل الطاقة ؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءُوا بالصّدق .

وبحسب كمال هذه الأُمور فيه ، وقيامِها به تكون صِدّيقيّته ، ولذلك كان لأَبى بكر الصّدّيق ذروة الصّدّيقيّة ، حتى سُمّى الصّدّيق على الإِطلاق .

والصّدّيق أَبلغ من الصَّدُوق ، والصَّدُوق أَبلغ من الصَّادق ، فأَعلى مراتب الصدق مرتبة الصدّيقيّة ، وهى كمال الانقياد للرّسول ، مع كمال الإِخلاص للمرسِل .

وقد أَمَر سبحانه رسوله أَن يسأَله أَن يجعل مُدْخله ومُخرجه على الصّدق ، فقال : ﴿ وَقُل

رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ .

وأَخبر عن خليله إبراهيم عليه السّلام أَنَّه سأَله أَن يجعل له لسان صِدق فى الآخِرين .

وبشَّر عباده أَنَّ لهم قَدَم صِدق ، ومقعد صدق ؛ فقال : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ .

فهذه خمسة أَشياء : مدخل الصّدق ، ومخرج الصدق ، ولسان الصدق ، ومقعد الصّدق ، وقَدَم الصّدق .

وحقيقة الصّدق فى هذا الأَشياءِ هو الحقّ الثَّابت المتَّصل بالله ، الموصِّل إِلى الله ، وهو ما كان به وله من الأَعمال والأَقوال .

وجزاءُ ذلك فى الدّنيا والآخرة .

فمُدخَل الصّدق ومُخرَج الصّدق أَن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا لله تعالى ومرضاتِه .

متَّصلا بالظَّفر ببغيته ، وحصول المطلوب ، ضِدّ مُخرَج الكذب ومُدخله الَّذى لا غاية له يوصّل إِليها ، ولا له ساقٌ ثابتة يقوم عليها ؛ كمُخرَج أَعدائه يوم بدر .

ومُخرج الصّدق كمخرجه هو وأَصحابه فى ذلك الغَزْو .

وكذلك مدخله المدينة كان مدخل صدق بالله والله وابتغاءَ مرضاة الله ، فاتَّصل به التَّأْييدُ ، والظفر ، والنَّصر .

وإدراك ما طلبه فى الدّنيا والآخرة ؛ بخلاف مدخل الكذب الذى رام أَعداؤه أَن يدخلوا به المدينة يوم الأَحزاب ؛ فإِنَّه لم يكن بالله ولا لله بل محادّة لله وسوله ، فلم يتَّصل به إلاَّ الخِذلانُ والبوار ، وكذلك مدخل مَنْ دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حِصن بنى قُرَيظة ؛ فإِنَّه لمّا كان مدخل كذب أَصابهم منه ما أصابهم .

وكلّ مدخل ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن على الله ، فهو مدخل صدق ومخرج صدق ، ولذلك فُسّر مدخل الصّدق ومخرجه بخروجه من مَكة ، ودخوله المدينة .

ولا ريب أَنَّ هذا على سبيل التَّمثيل ؛ فإِنَّ هذا المدخل والمخرج من أَجلّ مداخله ومخارجه صلَّى الله عليه وسلَّم ، وإِلاَّ فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق ومخارج صدق .

إذ هى بالله ، ولله ، وبأَمره ، ولابتغاءِ مرضاته .

وما خرج أَحد من بيته أَو دخل سُوقًا أَو مَدْخلا آخر إلاَّ بصدق أَو كذِب .

فمدخل كلّ أَحد ومخرجه لا يَعْدُو الصّدق والكذب والله المستعان .

وأَمّا لسان الصّدق فهو الثناءُ الحسن من سائر الأُمم بالصّدق ليس بِالكذب ؛ كما قال عن

أَنبياء : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ ، والمراد باللسان ههنا الثناءُ الحسن ، فلمّا كان باللسان وهو محلّه عبّر عنه به ؛ فإنَّ اللسان يراد به ثلاثة معان : هذا ، واللغة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، ﴿ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ﴾ ، ويراد به الجارحة نفسها كقوله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ .

وأَمَّا قدم الصّدق ففُسِّر بالجنة ، وفسّر بمحمد صلّى الله عليه وسلّم ، وفُسّر بالأَعمال الصّالحة .

(53/258)

وحقيقة القدم : ما قدّموه ، ويقدَمون عليه يوم القيامة ، وهم قدّموا الأَعمال والإِيمان بمحمّد صلَّى الله عليه وسلم ، ويقدَمون على الجنة ؛ ومَن فسّر بالأَعمال وبالنبيّ صلَّى الله عليه وسلم فلأَنَّهم قدّموها ، وقدّموا الإِيمان به بين أَيديهم .

وأَمّا مقعد صدق فهو الجنَّة عند ربّهم تبارك وتعالى .

ووصْف ذلك كلّه بالصّدق مستلزم ثبوتَه واستقراره ، وأَنَّه حقّ ، ودوامَه ونفعه وكمال عائدته ؛ فإِنَّه متَّصل بالحقّ سبحانه ، كان به وله .

فهو صدقٌ غير كذب ، وحَقّ غير باطل ، ودائم غير زائل ، ونافع غير ضارّ ، ما للباطل

ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل .

ومن علامات الصّدق طُمأْنينة القلب إليه ، ومن علامات الكذب حصول الرِّيبة ؛ كما فى الترمذىّ مرفوعًا : "الصّدق طمأْنينة ، والكذب ريبة" ، وفى الصّحيحين : "إنَّ الصّدق يَهدى إلى البرّ ، وإنَّ البرّ يهدى إلى الجنَّة ، وإنَّ الرّجل لَيَصْدُقُ حتى يُكتب عند الله صِدّيقًا ، وإنَّ الرّجل لَيَكْذبُ حتى يكتب عند الله كَذَّابًا" ،

فجعل الصّدق مفتاح الصّدّيقيّة ومبدأَها ، وهى غايته ، فلا يَنال درجتَها كاذبٌ البتَّة ، لا فى قوله ، ولا فى عمله ، ولا فى حاله .

ولا سيّما كاذبٍ على الله فى أَسمائه وصفاته ، بنفى ما أَثبته لنفسه ، أَو بإِثبات ما نفاه عن نفسه ، فليس فى هؤلاءِ صِدّيق أَبدًا .

وكذلك الكذب عليه فى دينه ، وشَرْعه بتحليل ما حرّمه ، وتحريم ما أَحلَّه ، وإِسقاط ما أَوجبه ، وإِيجاب ما أَسقطه ، وكراهة ما أَحبّه ، واستحباب ما لم يحبّه ، كلّ ذلك مُنافٍ للصّدّيقيّة .

وكذلك الكذب معه فى الأَعمال بالتَّحلِّى بحِلْية الصّادقين المخلِصين ، الزاهدين المتوكّلين وليس منهم .

وكانت الصّدّيقيّة كمال الإِخلاص ، والانقياد والمتابعة فى كلّ الأُمور ؛ حتى إِنّ صِدْق المتبايِعَيْن يُحلّ البركة فى بيعهما ، وكذبهما يَمْحَى بركة بيعهما ؛ كما فى الصّحيحين : "قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : البيّعان بالخيار مالم يتفرّقا ، فإِنْ صَدَقَا وبَيّنا بُورِكَ لهما بيعهما ، وإِن كَذَبا وكتما مُحِقَت بركة بيعهما" .

وقد تَنوَّعَتْ كلمات السّادة فى حقيقة الصّدق .

فقال عبدالواحد ابن زيد رحمه الله : الصّدق الوفاءُ لله بالعمل .

وقيل : موافقة السرّ النطقَ .

وقيل : استواءُ السرّ والعلانية ، يعنى أَنَّ الكاذب علانيته خير من سريرته ؛ كالمنافق الذى ظاهره خير من باطنه .

وقيل : الصّدق : القول بالحقّ فى مَوَاطن الهَلَكة .

وقيل : كلمة الحقّ عند من يخافه ويرجوه .

وقال الجُنَيد : الصادق يتقلّب فى اليوم أَربعين مرّة .

المرائى يثبت على حالة واحدة أَربعين سنة .

وذلك لأَنَّ العارضات والواردات التى ترِد على الصّادق لا ترد على الكذَّاب المرائى ، بل فارغ منهما لا يُعارضه الشَّيطان كما يعارض الصّادق ، وهذه الواردات توجب تقلّب قلبِ

الصّادق بحسب اختلافها وتنوّعها ، فلا تراه إلاَّ هاربًا مِن مكانٍ إلى مكان ، ومن عملٍ إلى عمل ، ومن حالٍ إلى حال ؛ لأنَّه يخاف فى كلّ ما يطمئنّ إليه أَن يقطعه عن مطلوبه .

وقال بعضهم : لم يشمّ روائح الصّدق مَنْ داهن نفسه أَو غيره .

وقال بعضهم : الصّادق : الَّذى يتهيّأُ له أَن يموت ولا يستحى مِن سِرّه لو كُشف .

قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وقال إبراهيم الخوّاص : الصّادق لا يُرَى إلاَّ فى فَرض يؤدّيه ، أو فضل يعمل فيه .

وقال الجنيد مرّة : حقيقة الصّدق أَن تَصدُق فى مواطن لا ينجيك [منها] إلا الكذب .

وفى أَثَرٍ إلهىّ : مَن صَدَقنى فى سريرته صدَقته فى علانيته عند خَلْقى .

وقال سهل : أَوّل خيانة الصّديقين حديثهم مع أَنفسهم .

(55/258)

وقال يوسف بن أَسباط : لأَنْ أَبيتَ ليلة أُعامل الله بالصّدق أَحَبّ إلىّ من أَن أُحارب بسيفى فى سبيل الله .

وقال الحارث المحاسبىّ : الصّادق : هو الذى لا يبالى لو خرج كلّ قَدْر له فى قلوب الخَلْق من أَجل صلاح قلبه ، ولا يحبّ اطّلاع النّاس على مثاقيل الذَّر من حُسن عمله ، ولا يكره أَن

يطَّلع النَّاس على السَيىء من عمله ، فإِن كراهته له دليل على أَنه يحبّ الزيادة عندهم ، وليس هذا من علامات الصّدّيقين .

هذا إِذا لم يكن له مراد سوى عمارة حاله عندهم ، وسكناه فى قلوبهم تعظيمًا له .

وأَمّا لو كان مراده بذلك تنفيذاً لأَمر الله ، ونشرًا لدينه ، ودعوة إِلى الله ، فهذا الصادق حقًّا ، والله يعلم سرائر القلوب ومقاصدها .

وقال بضعهم : مَن لم يؤدّ الفَرْض الدائم لا يقبل منه الفرض المؤقت .

قيل : وما الفرض الدّائم ؟ قال : الصّدق .

وقيل : مَن يطلب الله بالصْدق أَعطاه مِرآة يبصر فيها الحقّ والباطل .

وقيل : عليك بالصّدق حيث تخاف أَنَّه يضرّك ، ودع الكذب حيث تراه أَنَّه ينفعك ؛ فإِنَّه يضرّك .

وقال الشيخ عبد الله الأَنصارى : الصّدق اسم لحقيقة الشىء ، حُصُولاً ووجودًا .

والصّدق : هو حصول الشىء وتمامه ، وكمال قوّته واجتماع أَجزائه كما يقال : عزيمة صادقة إِذا كانت قوّية تامّة ، وكذلك محبّة صادقة ، وإِرادة صادقة .

وكذلك حلاوة صادقة إِذا كانت قوّية تامة ثابتة الحقيقة ، لم ينقص منها شىء .

ومن هذا أَيضا صِدْق الخبر ؛ لأَنَّه وجود المخبَرِ [به] بتمام حقيقته فى ذهن السّامع .

وهو على ثلاث درجات :

الأُولى : صِدْق القَصد ، وبه يصحّ الدّخول فى هذا الشأْن ، ويُتلافَى كلّ تفريط ويُتدارك كلّ فائت ، ويعمر كلّ خراب .

وعلامة هذا الصادق أَلاَّ يحتمل داعيةً يَدعو إِلى نقض عهد ، ولا يصبر على صحبة ضِدّ ، ولا يقعد عن الجدّ بحال .

(56/258)

والدّرجة الثَّانية : أَلاَّ يتمنىَّ الحياة إِلاَّ للحقّ ، ولا يشهد من نفسه إِلاَّ أَثر النقصان ، ولا يلتفت إِلى ترفيهِ الرُّخَص ، أَى لا يحب أَن يعيش إِلاَّ فى طلب رضا محبوبه ، ويقوم بعبوديّته ، ويستكثر من الأَسباب الَّتى تقرّبه منه ، ولا يلتفت إِلى الرفاهية التى فى الرُّخَص ، بل يأْخذ بها اتّباعًا وموافقةً ، وشهودًا لنعمة الله على عبده ، وتعبّدًا باسمه : اللطيف المحسن الرّفيق ، وأَنَّه رفيق يحبّ الرّفق .

الدّرجة الثالثة : الصّدق فى معرفة الصّدق .

يعنى أَنَّ الصّدق المحقّق إِنما يحصل لمن صَدَقَ فى معرفة الصدق ، أَى لا يحصل حال للصّادق إِلاَّ بعد معرفة الصّدق ، ولا يستقيم الصّدق فى علم أَهل الخصوص إِلاَّ على حرفٍ واحد ، وهو أَن يتَّفق رضا الحقّ بعمل العبد وحاله ووقته ، وإِيقانه وقصده .

وذلك أَنَّ العبد إذا صَدَقَ اللهَ رضى اللهُ بفعله [و] بعمله ، وحاله ويقينه وقصده ، لا أَن رضا الله نفس الصّدق ، وإنما يعلم الصّدق بموافقة رضاه سبحانه .

ولكن من أَين يَعلم العبد رضاه ؟ ! فمن ههنا كان الصّادق مضطرًّا أَشدّ ضرورة إلى متابعة الأَمر والتسليم للرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم فى ظاهره وباطنه ، و التَّعبُّد به فى كلّ حركة وسكون ، مع إخلاص القصد لله ؛ فإنَّ الله سبحانه لا يُرضيه من عبده إلاَّ ذلك .

وقوله : ﴿ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ ، أَى يسأَل مَن صدّق بلسانه عن صِدق فعله .

وقوله : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ أَى حَقَّقُوا العهد بما أَظهروه من أَفعالهم .

والصّداقة : صِدق الاعتقاد فى المودّة ، وذلك مختصّ بالإنسان .

وقوله : ﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

والصّدَقة : ما يُخرجه الإنسان من ماله على وجه القُرْبة ؛ كالزّكاة لكن الصّدقة فى العرف تقال للمتطوّع به ، والزكاة للواجب .

وقيل : سمّى الواجب صدقة إذا تحرّى صاحبُه الصّدق فى فعله ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ .

يقال : صدّق وتصدّق .

ويقال لِما تجافى عنه الإنسان من حقه : تصدُّق ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ / أى مَن تجافى عنه .

وقوله : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

أَجرى ما يُسامَح به المعسِر مُجرى الصّدقة ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ ، فسمّى إعفاءَه صَدَقَة .

وقوله : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ من الصّدق أَو من الصّدقة .

وصَدَاق المرأَة وصِدَاقها – بالكسر – وصَدُقتها – بضم الدّال – : ما تعطَى من مهرها .

وقد أَصدقتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 396. 408 ﴾

(58/258)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

أزاح كلَّ عِلَة ، وأبدى كل وصلة ، فلم يُبْقِ لك تعللا ، ولا في آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ ؟

عقوبةُ كلِّ جُرْمٍ مؤجلة ، وعقوبة التكذيب معجلة ، وهي ما يوجب بقاءهم في أَسْرِ الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 512 ﴾

(59/258)

قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان أسوأ السوء حقوق العذاب ، وكان حقوقه بعدم قبول التوبة ، فسره بقوله مهوناً له ومسهلاً بتجريد الفعل : ﴿ هل ينظرون ﴾ أي ما ينتظرون هؤلاء المكذبون أدنى انتظار وأقربه وأيسره ﴿ إلا أن تأتيهم ﴾ أي حال تكذيبهم ﴿ الملائكة ﴾ أي بالأمر الفيصل من عذابهم كما هي عادتها في إتيانها المكذبين ﴿ أو يأتي ربك ﴾ أي ظهور أمر المحسن إليك أتم ظهور بجميع الآيات التي تحملها العقول وذلك يوم الجزاء ﴿ أو يأتي ﴾ وأبهم تهويلاً للأمر وتعظيماً فقال : ﴿ بعض آيات ربك ﴾ أي أشراط الساعة التي يكون فيها ظهوره التام وإحسانه إليك الأعظم مثل دابة الأرض التي تميز الكافر من المؤمن وطلوع الشمس من مغربها المؤذن بإغلاق باب التوبة ؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " ، ثم قرأ الآية .

ولما كان إتيان الملائكة - أي كلهم أمراً لا يحتمل العقول وصف عظمته ، ولا بشرى للمجرمين عند رؤيته ، فإنه لو وقع على صورتهم لتقطعت أوصالهم ولم يحتمله قواهم فقضي الأمر ثم لا ينظرون ، وأما تجلي الرب سبحانه وعز اسمه وجلت عظمته .

فالأمر أعظم من مقالة قائل . . .

إن رقق البلغاء أو إن فخموا

(60/258)

ترك ما يترتب عليه وقال : ﴿ يوم يأتي ﴾ أي يكشف ويظهر ﴿ بعض آيات ربك ﴾ أي المحسن إليك بالإتيان بذلك تصديقاً لك وترويعاً وتدميراً لمخالفيك ﴿ لا ينفع نفساً ﴾ أي كافرة ﴿ إيمانها ﴾ أي إذ ذاك ، ولا نفساً مؤمنة كسبها الخير إذ ذاك في إيمانها المتقدم على تلك الآية بالتوبة فما وراءها ، ولذلك بينه وبقوله واصفاً نفساً : ﴿ لم تكن ﴾ أي الكافرة ﴿ آمنت ﴾ ويسر الأمر ببعض زمان القبل ، ولم يكلف باستغراقه بالإيمان فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل مجيء الآية في زمن متصل بمجيئها .

ولما ذكر الكافرة ، أتبعها المؤمنة فقال عاطفاً على " آمنت " : ﴿ أو ﴾ لم تكن المؤمنة العاصية ﴿ كسبت ﴾ أي من قبل ﴿ في إيمانها ﴾ أي السابق على مجيء الآية

﴿ خيراً ﴾ أي توبة ، وبعبارة أخرى : نفساً كافرة إيمانها المجدد بعد مجيء الآية ، وهو معنى ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ أو نفساً مؤمنة كسبها الخير بعد مجيء الآية ما لم تكن كسبت في إيمانها السابق على الآية خيراً ، والحاصل أنه لا يقبل عند ذلك إيمان كافر ولا توبة فاسق – كما قاله البغوي – لأن المقصود من التصديق والتوبة الإيمان بالغيب وقد فات بالآية الملجئة ، فيكون فاعل الفعل المقدر في "كسبت" محذوفاً ، والتقدير : لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبل ، أو لم تكن كسبت في إيمانها خيراً إيمانها وكسبها ، فالإيمان راجع إلى من لم يؤمن ، والكسب راجع إلى من لم يكسب ، وهو ظاهر ، والتهديد بعدم نفع الإيمان عند مجيء الآية أعظم دليل على ما ذكرته من التقدير ، والآية من الاحتباك : ذكر إيمانها أولاً دليل على حذف كسبها من الجملة الثانية ، وذكر جملتي آمنت وكسبت ثانياً دال على حذف كافرة ومؤمنة أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 749 . 750 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ يَأْتِيهُمُ ﴾ بالياء وفي النحل مثله ، والباقون ﴿ تَأْتِيهِمُ ﴾ بالتاء .

(61/258)

واعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر ، وإزاحة للعلة ، وبين أنهم لا يؤمنون ألبتة وشرح أحوالاً توجب اليأس عن دخولهم في الإيمان فقال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكة ﴾ ونظير هذه الآية قوله في سورة البقرة : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ [البقرة : 210] ومعنى ينظرون ينتظرون وهل استفهام معناه النفي ، وتقدير الآية : أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءهم أحد هذه الأمور الثلاثة ، وهي مجيء الملائكة ، أو مجيء الرب ، أو مجيء الآيات القاهرة من الرب .

فإن قيل : قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ هل يدل على جواز المجيء والغيبة على الله .

قلنا : الجواب عنه من وجوه : الأول : أن هذا حكاية عنهم ، وهم كانوا كفاراً ، واعتقاد الكافر ليس بحجة ، والثاني : أن هذا مجاز .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللهُ بنيانهم ﴾ [النحل : 26] وقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ الله ﴾ [الأحزاب : 57] والثالث : قيام الدلائل القاطعة على أن المجيء والغيبة على الله تعالى محال ، وأقربها قول الخليل صوات الله عليه في الرد على عبدة الكواكب ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ [الأنعام : 76] .

فإن قيل : قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ لا يمكن حمله على إثبات أثر من آثار قدرته ، لأن على هذا التقدير : يصير هذا عين قوله : ﴿ أو يأتي ربك ﴾ فوجب حمله على أن المراد منه إتيان الرب .

قلنا : الجواب المعتمد أن هذا حكاية مذهب الكفار ، فلا يكون حجة ، وقيل : يأتي ربك بالعذاب ، أو يأتي بعض آيات ربك وهو المعجزات القاهرة .

(62/258)

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءايات رَبّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ وأجمعوا على أن المراد بهذه الآيات علامات القيامة ، عن البراء بن عازب قال : كنا نتذاكر أمر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما تتذاكرون ؟ قلنا : نتذاكر الساعة قال : " إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، ودابة الأرض ، وخسفاً بالمشرق ، وخسفاً بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من عدن " وقوله : ﴿ لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ صفة لقوله : ﴿ نَفْساً ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِى إيمانها خَيْرًا ﴾ صفة ثانية معطوفة على الصفة الأولى ، والمعنى : أن أشراط الساعة إذا ظهرت ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان نفساً ما آمنت قبل ذلك ، وما كسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلِ انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ وعيد وتهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 6.7 ﴾

(63/258)

وقال السمرقندى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ معناه ، أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا فماذا ينتظرون ؟ فهل ينتظرون ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ يعني : يأتي أمر ربك بما وعد لهم كقوله : ﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لأَوَّلِ الحشر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله فأتاهم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الابصار ﴾ [الحشر :] ويقال : أن تأتي عقوبة ربك وعذابه .

وقد ذكر المضاف إليه ويراد به المضاف .

كقوله تعالى : ﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لصادقون ﴾ [يوسف : 82] يعني : أهل القرية .

وكقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واسمعوا

قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمانكم إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 93] يعني: حب العجل.

كذلك ها هنا يأتي أمر ربك يعني: عقوبة ربك وعذاب ربك.

ويقال: هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ ﴾ يعني: طلوع الشمس من مغربها ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءايات رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ حين طلعت الشمس من مغربها ﴿ لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ يعني: أن الكافر إذا آمن في ذلك الوقت لا يقبل إيمانه، لأنها قد ارتفعت المحنة حين عاينوها.

وإنما الإيمان بالغيب.

(64/258)

ثم قال: ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمانها خَيْرًا ﴾ يعني: المسلم الذي يعمل في إيمانه خيراً كأن لم يقبل عمله قبل ذلك، فإنه لا يقبل منه بعد ذلك.

ومن كان قبل من قبل ذلك فإنه يقبل منه بعد ذلك أيضاً أو كانت النفس مؤمنة ولم تكن كسبت خيراً قبل ذلك الوقت لا ينفعها الخير بعد.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد بإسناده عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال

المرادي قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر إذ جاء أعرابي فسأله عن أشياء حتى ذكر التوبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لِلتَّوْبَةِ بَابٌ فِي المَغْرِبِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَاماً أَوْ أَرْبَعِينَ عَاماً فلا يَزَالُ حَتَّى يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ "

قال الفقيه : حدثنا الخليل بن أحمد قال : حدثنا السراج .

قال : حدثنا زياد بن أيوب عن يزيد بن هارون عن سفيان بن الحسين عن الحكم عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار وعليه بردعة أو قطيفة فنظر إلى الشمس حين غابت فقال : " يا أَبَا ذَرَ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَغِيبُ هذه "

؟ قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَمِئَةٍ فَتَنْطَلِقُ حَتَّى تَخُرَّ لِرَبِّها سَاجِدَةً تَحْتَ العَرْشِ ، فإِذَا دَنَا خُرُوجُهَا أُذِنَ لَهَا فَخَرَجَتْ .

فَإِنْ أَرَادَ الله أَنْ يُطْلِعَهَا مِنْ مَغْرِبِهَا حَبَسَهَا .

فَتَقُولُ : يا رَبِّ إِنَّ مَسِيرِي بَعِيدٌ .

فَيَقُولُ الله تعالى اطْلَعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءايات رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ " وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال : لا يقبل الله من

كافر عملاً ولا توبة إذا أسلم حين يراها إلا من كان صغيراً يومئذ .

فإنّه لو أسلم بعد ذلك قُبِلَ ذلك منه ، ومتى كان مؤمناً مذنباً فتاب من الذنب قبلت منه .

(65/258)

وروي عن عمران بن حصين أنه قال : إنما لم يقبل وقت الطلوع حتى تكون صيحة فيهلك كثير من الناس .

فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم يقبل منه ومن تاب بعد ذلك قبلت منه .

ثم قال : ﴿ قُلِ انتظروا إِنَّا ﴾ يعني : انتظروا العذاب فإنا منتظرون بكم حتى ننظر أينا أسعد حالاً .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الملائكة ﴾ بالياء بلفظ التذكير ، والباقون ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ ﴾ بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ وينتظرون ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ بلا كيف لفصل القضاء من خلقه في موقف القيامة ، وقال الضحاك : يأتي أمره

وقضاؤه ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾ وقرأ ابن عمر وابن الزبير : يوم تأتي بعض آيات ربّك بالتاء ، قال المبرّد : على التأنيث على المجاورة لا على الأصل ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه .

قال جرير :

لمّا أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

فأتت فعل السور ، وهو مذكّر لاتصاله بمؤنّث .

روى عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتّى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعين وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ﴿ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ " الآية .

(66/258)

وروى مقاتل بن حيّان عن عكرمة عن ابن عباس : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع إلى مغربها أو من مطلعها [فكسى] ضوؤها ، وإن كان القمر منوّر على مقادير ساعات الليل والنهار ثمّ ينطلق بها ما بين السماء السابعة

العليا وبين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة فتنحدر [جبال] المشرق من سماء إلى سماء ، فإذا ما وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الصبح ويضيء النهار فلا يظل الشمس والقمر ، كذلك حتّى يأتي الوقت الذي وقت الله التوبة لعباد وتكثر المعاصي في الأرض ، ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد ، فإذا فعلوا ذلك حبست الشمس مقدار ليلة تحت العرش كلما سجدت وأستأذنت من أن تطلع لم يجيء لها جواب حتّى يراقبها القمر [فيجيء معها] ويستأذن من أن تطلع فلا يجاب لهما بجواب حتّى تحبسا مقدار ثلاث ليالي للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليالي إلاّ المتهجّدون في الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة في كل بلدة من بلاد المسلمين في هوان من الناس وذلّة من أنفسهم ، فينام أحدهم تلك الليلة قدر ما كان ينام قبلها من الليالي ، ثمّ يقوم ويتوضّأ ويدخل مصلاّه فيصلّي ورده ، فلا يصبح نحو ما كان يصبح كلّ ليلة فينكر ذلك فيخرج فينظر إلى السماء فإذا هو بالليل فكأنه والنجوم قد استدارت مع السماء فصارت إلى أماكنها من أول الليل ، فينكر ذلك ويظن فيها الظنون فيقول : قد خففت قراءتي وقصرت صلواتي أم قمت قبل حيني .

(67/258)

قال : ثمّ يقوم فيعود إلى مصلاّه فيصلّي نحو صلاته الليلة الثانية ثمّ ينظر فلا يرى الصبح فيخرج أيضاً فإذا بالليل مكانه فيزيده ذلك إنكاراً ويخالطه الخوف ويظن في ذلك الظنون من السوء ، ثمّ يقول فلعلّي قصّرت صلواتي ثمّ خفّفت قراءتي [أم قمت] في أوّل الليل ثمّ يعود وهو وجل مشتت خائف لما توقّع من هول تلك الليلة فيقوم فيصلّي أيضاً مثل [ورده] كلّ ليلة قبل ذلك ، ثمّ ينظر فلا يرى الصبح فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فإذا بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت في أماكنها عند أوّل الليل فيشفقه عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيستحييه الخفّة ويستخفّه الندامة ، ثمّ ينادي بعضهم بعضاً وهم كانوا قبل ذلك يتعارفون ويتواصلون فيجتمع المتهجدون من كل بلدة في تلك الليلة في مسجد من مساجدهم ويجأرون إلى الله تعالى بالبكاء ويصلّوا بقيّة تلك الليلة .

(68/258)

فإذا ما تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله إليهما جبرائيل فيقول : إنّ الرب تبارك وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه وإنّه لا ضوء لكما عندنا ولا نور فيبكيان عند ذلك وَجَلا من الله عزّ وجلّ وخوف يوم القيامة بكاءً يسمعه أهل سبع سماوات ومن دونها وأهل سرادقات العرش وحملته ومن فوقهما ، فيبكون جميعاً لبكائهما من خوف الموت

والقيامة ، فيرجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما فبينما المتهجّدون يبكون ويتضرّعون إلى الله عزّ وجلّ ، والغافلون في غفلاتهم إذ نادى مناد : ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من المغرب فينظر الناس فإذا هم بهما أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما في كسوفهما قبل ذلك . فذلك قوله ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] وقوله ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين يُنازع كلّ واحد منهما صاحبه اشتياقاً ، ويتصايح أهل الدنيا وتدخل الأُمّهات على أولادها والأحبّة عن غمرات قلوبها ، فتشتغل كلُّ نفس بما أَلّمها ، فأمّا الصالحون والأبرار فإنّه ينفعهم بكاؤهم يومئذ فيكتب لهم ذلك عبادة ، وأمّا الفاسقون والفُجّار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب ذلك حسرة عليهم فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرّت السماء وهي منصفها جاءهما جبرائيل (عليه السلام) فأخذ بقرونهما فردّهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة " .

فقال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله وما باب التوبة ؟

(69/258)

فقال صلى الله عليه وسلم : " يا عمر خلق الله تعالى باباً للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكلّلان بالدرّ والجوهر ما بين المصراع إلى المصراع الآخر أربعون سنة للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحاً منذ خلق الله آدم إلى ذلك اليوم إلاّ ولجت تلك التوبة في ذلك الباب . لم يرفع إلى الله تعالى " .

فقال له معاذ بن جبل : بأبي أنت وأُمي يا رسول الله وما التوبة النصوح ؟

قال : " أن يندم المذنب على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله عزّ وجلّ ثمّ لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

قال : فيغربهما جبريل في ذلك الباب ثمّ يرد المصراعين ثمّ يلتئم ما بينهما فيصير كأنّه لم يكن بينهما صدع قط ، فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل من العبد بعد ذلك توبة ولم ينفعه حسنة يعملها في الإسلام ، إلاّ مَنْ كان قبل ذلك مُحسناً فإنّه يجري عليه ما كان يجري عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ .

فقال أُبي بن كعب : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر يومئذ بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا . فقال : " يا أُبي إنّ الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك الضوء والنور ، ثمّ يطلعان على الناس ويغربان ، كما كانا قبل ذلك يطلعان ويغربان ، فإنّ الناس رأوا ما

رأوا في فظاعة تلك الآية يلحون على الدنيا حتّى يجروا فيها الأنهار ويغرسوا فيها الأشجار ويبنوا البنيان . وأمّا الدنيا فلو نتج لرجل مُهْراً لم يركبه حتّى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن يُنفخ في الصور " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ ﴾

(70/258)

فيه وجهان :

أحدهما : هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة رسلاً ، يعني الكفار الذين يتوقفون عن الإيمان مع ظهور الدلائل .

والثاني : هي ينظرون يعني في حُجَج الله ودلائله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ، قاله جويبر .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أمر ربك بالعذاب ، قاله الحسن .

والثاني : قضاء ربك في القيامة ، قاله مجاهد .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه طلوع الشمس من مغربها ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، قال ابن مسعود : مع القمر في وقت واحد وقرأ : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة : 9] .

والثاني : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، قاله أبو هريرة .

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ . . . ﴾ في أول آيات الساعة وآخرها قولان :

أحدهما : أن أولها الدجال ، ثم الدخان ، ثم يأجوج ومأجوج ، ثم الدابة ، ثم طلوع الشمس من مغربها ، ﴿ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ هذا قول معاذ بن جبل .

والثاني : أن أولها خروج الدجال ، ثم خروج يأجوج ومأجوج ، ثم طلوع الشمس من مغربها ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مَن قَبْلُ ﴾ ثم خروج الدابة ، وهذا قول حذيفة بن اليمان ورواه مرفوعاً .

ثم اختلفوا في ألا ينفعها إيمانها بظهور أول الآيات أو بظهور آخرها على قولين :

أحدهما : إذا خرج أول الآيات ، طرحت الأقلام ، وجلست الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال .

والقول الثاني : أن ذلك يكون بخروج آخر الآيات ليكون لنا فيها أثر في الإنذار .

ثم قال : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ أما إيمانها قبل هذه الآيات فمُعْتَدٌّ به ، وأما

بعدها فإن لم تكسب فيه خيراً لم يُعْتَدّ به ، وإن كسبت فيه خيراً ففي الاعتداد به قولان :

أحدهما : يُعْتَدُّ به ، وهو ظاهر الآية أن يكون قبل الآيات أو بعده .

(71/258)

والثاني : لا يُعْتَدُّ به ، ويكون معناه : لم تكن آمنت من قبل وكسب في إيمانها خيراً ، وهذا قول السدي .

وفي الخير الذي تكسبه وجهان :

أحدهما : تأدية الفروض على أكمل أحوالها .

والثاني : التطوع بالنوافل بعد الفروض .

روى مجاهد عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مِن قِبَلِ المَغْرِبِ ، فَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ إلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ : مِنْ إبْلِيس رَأْسِ الكُفْرِ ، وَمِنْ قَابِيل قَاتِلِ هَابِيل ، وَمَنْ قَتَلَ نَبِيًّا لاَ تَوْبَةَ لَهُ ، فَإِذَا طَلَعَت الشَّمْسُ مِن ذَلِكَ البَابِ كَالعَكَرِ الأَسْوَدِ لاَ نُورَ لَهَا حَتَّى تَتَوَسَّطَ السَّمَاءَ ثُمَّ تَرْجِعُ فَيُغْلَقُ البَابُ وَتُرَدُّ التَّوبَةُ فَلاَ يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لَمْ تَكُن ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إيمَانِهَا خَيراً ، ثُمَّ تَرْجِعُ إلَى مَشَارِقِهَا ، فَتَطْلُعُ بَعْدَ ذَلِكَ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ إلاَّ أَنَّهَا سُنُونَ تَمُرُّ مَرّاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ

﴿

وقال ابن عطية :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾

(72/258)

الضمير في ﴿ ينظرون ﴾ هو للطائفة التي قيل لها قبل فقد جاءكم بينة من ربكم وهم العادلون بربهم من العرب الذين أمضت أكثر آيات السورة في جدالهم ، و ﴿ ينظرون ﴾ معناه ينتظرون ، و ﴿ الملائكة ﴾ هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح ، قاله مجاهد وقتادة وابن جريج . ويحتمل أن يريد الملائكة الذين يتصرفون في قيام الساعة ، وقرأ حمزة والكسائي " إلا أن يأتيهم " بالياء ، وقرأ الباقون " تأتيهم " بالتاء من فوق ، وقوله ﴿ أو يأتي ربك ﴾ قال الطبري : لموقف الحساب يوم القيامة ، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين ، ويحكي الزجاج أن المراد بقوله ﴿ أو يأتي ربك ﴾ أي العذاب الذي يسلطه الله في الدنيا على من يشاء من عباده كالصيحات والرجفات والخسف ونحوه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الكلام على كل تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره أمر

ربك أو بطش ربك أو حساب ربك وإلا فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالى ، ألا ترى أن الله تعالى يقول ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ [الحشر : 2] فهذا إتيان قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف ، وقوله : ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشراط الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً يريد بذلك الإبهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله ، لكن لما قال بعد ذلك ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ وبينت الآثار الصحاح في البخاري ومسلم أن الآية التي معها هذا الشرط هي طلوع الشمس من المغرب ، قوى أن الإشارة بقوله : ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ إنما هي إلى طلوع الشمس من مغربها ، وقال بهذا التأويل مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم ، ويقوي أيضاً أن تكون الإشارة إلى غرغرة الإنسان عند الموت أو ما يكون في مثابتها لمن لم يغرغر .

(73/258)

ففي الحديث " أن توبة العبد تقبل ما لم يغرغر " ، وهذا إجماع لأن من غرغر وعاين فهو في عداد الموتى ، وكون المرء في هذه الحالة من آيات الله تعالى ، وهذا على من يرى الملائكة المتصرفين في قيام الساعة .

قال القاضي أبو محمد : فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوال لا يخلون منها كأنه قال : هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب ، والأخذات المعهودة لله عز وجل ، أو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة .

قال القاضي أبو محمد : ويصح أن يريد بقوله : ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ جميع ما يقطع بوقوعه من أشراط الساعة ثم خصص بعد ذلك بقوله : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ الآية التي ترفع التوبة معها ، وقد بينت الأحاديث أنها طلوع الشمس من مغربها ، وقرأ زهير الفرقبي " يومُ يأتي " بالرفع وهو على الابتداء والخبر في الجملة التي هي " لا ينفع " إلى آخر الآية ، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام وقرأ ابن سيرين وعبد الله بن عمرو وأبو العالية " لا تنفع " بتاء ، وأنث الإيمان بما أضيف إلى مؤنث .

أو لما نزل منزلة التوبة ، وقال جمهور أهل التأويل كما تقدم الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها ، هي طلوع الشمس عن المغرب .

وروي عن ابن مسعود أنها إحدى ثلاث ، إما طلوع الشمس من مغربها ، وإما خروج الدابة ، وإما خروج يأجوج ومأجوج .

قال أبو محمد : وهذا فيه نظر لأن الأحاديث ترده وتخصص الشمس .

وروي في هذا الحديث أن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش وتستأذن فيؤذن لها في طلوع المشرق ، وحتى إذا أراد الله عز وجل سد باب التوبة أمرها بالطلوع من مغربها ، قال ابن مسعود وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فتطلع هي والقمر كالبعيرين القرينين ، ويقوي النظر أيضاً أن الغرغرة هي الآية التي ترفع معها التوبة ، وقوله ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ يريد جميع أعمال البر فرضها ونفلها ، وهذا الفصل هو للعصاة المؤمنين كما قوله ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ هو للكفار ، والآية المشار إليها تقطع توبة الصنفين ، وقرأ أبو هريرة " أو كسبت في إيمانها صالحاً " وقوله تعالى : ﴿ قل انتظروا ﴾ الآية تتضمن الوعيد أي فسترون من يحق كلامه ويتضح ما أخبر به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون ﴾ أي : ينتظرون ﴿ إلا أن تأتيَهم الملائكة ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "تأتيهم" بالتاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "يأتيهم" بالياء .

وهذا الإتيان لقبض أرواحهم .

وقال مقاتل : المراد بالملائكة : ملك الموت وحده .

قوله تعالى : ﴿ أو يأتيَ ربُّكَ ﴾ قال الحسن : أو يأتي أمْرُ ربك .

وقال الزجاج : أو يأتيَ إهلاكه وانتقامه إمّا بعذاب عاجل أو بالقيامة .

قوله تعالى : ﴿ أو يأتيَ بعض آيات ربك ﴾ وروى عبد الوارث إلا القزاز : بتسكين ياء ﴿ أو يأتي ﴾ ، وفتحها الباقون .

وفي هذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أنه طلوع الشمس من مغربها ، رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه قال ابن مسعود .

وفي رواية زرارة بن أوفى عنه ، وعبد الله ابن عمرو ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

(75/258)

وقد روى البخاري ، ومسلم ، في "الصحيحين" من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس ، آمن مَن عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " وروى عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، طُبع على كل قلب بما

فيه ، [و] كفي الناس العمل " .

والثاني : أنه طلوع الشمس والقمر من مغربهما ، رواه مسروق عن ابن مسعود .

والثالث : أنه إحدى الآيات الثلاث : طلوع الشمس من مغربها ، والدابة ، وفتح يأجوج ومأجوج ، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود .

والرابع : أنه طلوع الشمس من مغربها ، والدجَّال ، ودابة الأرض ، قاله أبو هريرة .

والأول أصح .

والمراد بالخير هاهنا : العمل الصالح ؛ وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ ، لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان .

وقال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبِل منه ، كما يقبل منه قبل الآية .

وقيل : إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها ، أن الملحدة والمنجمين ، زعموا أن ذلك لا يكون ، فيريهم الله قدرته ، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق ، ولتحقق عجز نمرود حين قال له إبراهيم : ﴿ فأت بها من المغرب فبهت ﴾ [البقرة : 258] .

فصل

وفي قوله : ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ قولان .

أحدهما : أن المراد به : التهديد ، فهو محكم .

والثاني : أنه أمر بالكف عن القتال ، فهو منسوخ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا ، فماذا ينتظرون .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكة ﴾ أي عند الموت لقبض أرواحهم .

(76/258)

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : أَمْرُ رَبّك فيهم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المضاف إليه والمراد به المضاف ؛ كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] يعني أهل القرية .

وقوله : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل ﴾ [البقرة : 93] أي حُبّ العجل .

كذلك هنا : يأتي أمر ربك ، أي عقوبة ربّك وعذاب ربّك .

ويُقال : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلاَّ الله .

وقد تقدّم القول في مثله في "البقرة" وغيرها .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ قيل : هو طلوع الشمس من مغربها ، بيّن بهذا أنهم يُمْهَلون في الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال .

وقيل : إتيانُ الله تعالى مجيئُه لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] .

وليس مجيئه تعالى حركة ولا انتقالا ولا زوالا ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً .

والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : يجيء وينزل ويأتي .

ولا يُكَيِّفون ؛ لأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجْنَ لا ينفع نفساً أيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في أيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدّجالُ ودابّةُ الأرض " وعن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغْلَق حتى تطلع الشمس من نحوه " أخرجه الدّارَقُطْنِيّ والدارميّ والتّرمذيّ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقال سفيان : قِبل الشام ، خلقه الله يوم خلق السموات والأرض .

"مفتوحاً" يعني للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه .

قال : حديث حسن صحيح .

قلت : وكذّب بهذا كله الخوارجُ والمعتزلة كما تقدم .

(77/258)

وروى ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب فقال : أيها الناس ، إن الرَّجْم حق فلا تُخْدَعُنّ عنه ، وإن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رَجم ، وأن أبا بكر قد رَجَم ، وأنّا قد رجمنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأُمة يكذّبون بالرَّجْم ، ويكذّبون بالدّجال ، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها ، ويكّذبون بعذاب القبر ، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا .

ذكره أبو عمر .

وذكر الثعلبيّ في حديث فيه طول عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه : أن الشمس تُحبس عن الناس حين تكثر المعاصي في الأرض ، ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ، ويفشو المنكر فلا يُنْهى عنه مقدار ليلة تحت العرش ، كلما سجدتْ واستأذنت ربها تعالى من أين تطلع لم يجيء لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ، ويستأذن من أين يطلع فلا يُجاء إليهما جواب حتى يُحبسا مقدارَ ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ؛ فلا

يعرف طول تلك الليلة إلاَّ المتهجدون في الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة في كل بلدة من بلاد المسلمين .

فإذا تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريل عليه السَّلام فيقول : "إن الربّ سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه ، وأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور" فيطلعان من مغاربهما أسودين ، لا ضوء للشمس ولا نور للقمر ، مثلهما في كسوفهما قبل ذلك "

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] وقوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] فيرتفعان كذلك مثل البعيرين المقرونين ؛ فإذا ما بلغ الشمس والقمر سُرَّةَ السماء وهي منصفها جاءهما جبريل عليه السَّلام فأخذ بقرونهما وردّهما إلى المغرب ، فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يردّ المصراعين ، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صَدْع .

(78/258)

فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبْدٍ بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها ؛ إلاَّ من كان قبل ذلك محسناً فإنه يجري عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ .

ثم إن الشمس والقمر يُكسيان بعد ذلك الضوء والنور ، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك يطلعان ويغربان .

قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُرُ كلّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم ، وبطلانها من أبدانهم ؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته ، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت .

قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر " أي تبلغ روحه رأس حلقه ، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار ؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله .

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش ؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه صلى الله عليه وسلم وبوعده قد صار ضرورة .

فإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ، ولا يتحدّثوا عنه

إلاَّ قليلاً ، فيصير الخبر عنه خاصّاً وينقطع التواتر عنه ؛ فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قُبل منه . والله أعلم .

(79/258)

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال : حفِظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أَنْسَه بعدُ ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها وخروجُ الدابة على الناس ضُحًى وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً " وفيه " عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غرفة ونحن أسفلَ منه ، فاطلع إلينا فقال : "ما تذكرون" ؟ قلنا : الساعة .

قال : "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات .

خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ في جزيرة العرب والدّخَان والدّجّال ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوج وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عَدَنٍ تُرَحّل الناس" " قال شعبة : وحدّثني عبد العزيز بن رُفَيع عن أبي الطّفيل عن أبي سَرِيحَة مثلَ ذلك ، لا يذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال أحدهما في العاشرة : ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم .

وقال الآخر : وريحٌ تُلْقِي الناسَ في البحر .

قلت : وهذا حديث متقن في ترتيب العلامات .

وقد وقع بعضها وهي الخسوفات على ما ذكر أبو الفرج الجَوْزِي من وقوعها بعراق العجم والمغرب ، وهلك بسببها خلق كثير ؛ ذكره في كتاب فهوم الآثار وغيره .

ويأتي ذكر الدابة في "النمل" .

ويأجوج ومأجوج في "الكهف" .

ويُقال : إن الآيات تتتابع كالنّظْم في الخيط عاماً فعاماً .

وقيل : إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السَّلام قال لنمروذ : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ ﴾ [البقرة : 258] وأن المُلْحدة والمُنَجّمة عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون : هو غير كائن ؛ فَيُطْلِعها الله تعالى يوماً من المغرب لِيُرِيَ المنكرين قدرته أن الشمس في مُلْكه ، إن شاء أطلعها من المشرق وإن شاء أطلعها من المغرب .

(80/258)

وعلى هذا يحتمل أن يكون ردّ التوبة والإيمانِ على من آمن وتاب من المنكرين لذلك المكذبين لخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بطلوعها ، فأما المصدّقِون لذلك فإنه تُقبل توبتهم وينفعهم إيمانهم قبل ذلك .

ورُوي عن عبد الله بن عباس أنه قال : لا يقبل من كافر عملٌ ولا توبةٌ إذا أسلم حين يراها ، إلاَّ من كان صغيراً يومئذ ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبل ذلك منه .

ومن كان مؤمناً مذنباً فتاب من الذنب قُبل منه .

ورُوي عن عِمران بن حُصين أنه قال : إنما لم تقبل توبته وقت طلوع الشمس حين تكون صيحةٌ فيهلك فيها كثير من الناس ؛ فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم تقبل توبته ، ومن تاب بعد ذلك قبلت توبته ؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره .

وقال عبد الله بن عمر : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتى يَغْرِسوا النخل .

والله بغيبه أعلم .

وقرأ ابن عمر وابن الزبير "يوم تأتي" بالتاء ؛ مثل "تلتقطه بعض السَيَّارة" .

وذهبت بعض أصابعه .

وقال جرير :

لمّا أتى خبرُ الزّبير تواضَعتْ . . .

سُورُ المدينة والجبالُ الخُشّعُ

قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل .

وقرأ ابن سِيرين "لا تنفع" بالتاء .

قال أبو حاتم : يذكرون أن هذا غلط من ابن سِيرين .

قال النحاس : في هذا شيء دقيق من النحو ذكره سيبويه ، وذلك أن الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فأنّث الإيمان إذ هو من النفس وبها ؛ وأنشد سيبويه :

مَشَيْنَ كما اهتزت رماحٌ تَسفّهتْ . . .

أعالِيهَا مَرُّ الرياح النّواسمِ

قال المَهْدَوِيّ : وكثيراً ما يؤنّثون فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنّث ، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به ؛ وعليه قول ذِي الرمّة :

مشين . . .

البيت . . .

فأنث المَرّ لإضافته إلى الرياح وهي مؤنثة ، إذ كان المَرّ من الرياح .

(81/258)

قال النحاس : وفيه قول آخر وهو أن يؤنّث الإيمان لأنه مصدر كما يذكّر المصدر المؤنث ؛

مثل : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة : 275] وكما قال :

فقد عذرتنا في صحابته العذر . . .

ففي أحد الأقوال أنّث العذر لأنه بمعنى المعذرة .

﴿ قُلِ انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ بكم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون ﴾

يعني : هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام معناه النفي وتقديره الآية أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاث فإذا جاءتهم إحداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ يعني : لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب ﴿ أو يأتي ربك ﴾ يعني : للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيمة وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ بما فيه كفاية وإن المجيء والذهاب على الله لمحال فيجب إمرارها بلا تكييف ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ قال جمهور المفسرين : هو طلوع الشمس من مغربها ، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض " أخرجه مسلم .

(82/258)

عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " أو يأتي بعض آيات ربك " قال : " طلوع الشمس من مغربها " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه " عن صفوان بن عسال المراد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(83/258)

(ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها " وفي رواية " فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " (م) عن حذيفة بن أسد الغفاري قال اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قلنا الساعة فقال " إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر : الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم " (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " بادروا بالأعمال قبل ست : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة " (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً " وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال : " تصبحون والشمس والقمر من ها هنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين " زاد في رواية عنه " فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " وبسنده عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

يوماً " أتدرون أين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئتِ فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيئاً حتى

(84/258)

تنتهي فتخر ساجدة في مسقترها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من مغربها " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتدرون أي يوم ذلك أقالوا : الله ورسوله أعلم .

قال ذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "

وبسنده عن أبي ذر قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم حمار " فنظر إلى الشمس حين غربت فقال " إنها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فإذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يا رب إن مسيري بعيد فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل "

وروي بسنده عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العشيات فقال لهم " عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم بعذاب لإنكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب فإذا فعلت حبست التوبة وطوي إلى العمل " فقال الناس : هل لذلك من آية يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فإذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل "

قال ابن عباس : لا ينفع مشركاً إيمانه عند الآيات وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيراً قبل ذلك .

وقال ابن الجوزي قيل إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن الملحدة المنجمين زعموا أن ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاثة : الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها .

يروى عن ابن مسعود أنه قال : التوبة معروضة على ابن آدم إن قبلها ما لم تخرج إحدى ثلاث : الدابة وطلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج .

ويروى عن عائشة قالت : إذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال .

ويروى عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض الآيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ورواه مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدخال ودابة الأرض " وأصح الأقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ يعني لا ينفع من كان مشركاً إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ يعني أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيراً من عمل صالح وتصديق .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل ظهور هذه الآية خيراً من عمل صالح وتصديق .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبِل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا فإنها لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة وقوله ﴿ قل انتظروا ﴾ يعني ما وعدتم به من مجيء الآية ففيه وعيد وتهديد ﴿ إنا منتظرون ﴾ يعني ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا .

(86/258)

قال بعض المفسرين : وهذا إنما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبداً .

وقيل إن قوله ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الأول تكون الآية محكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ الضمير في ﴿ ينظرون ﴾ عائد على الذين قيل لهم ﴿ فقد جاءكم بينة ﴾ وهم العادلون بربهم من العرب الذين مضى أكثر السورة في جدالهم أي ما ينتظرون ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ إلى قبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقت لا تنفع فيه توبتهم وهو قول مجاهد وقتادة وابن جريج .

وقيل : ﴿ أن تأتيهم الملائكة ﴾ الذين ينصرفون يوم القيامة يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين .

وقيل : ذلك إشارة إلى قولهم : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أي رسلاً من الله إليهم كما تمنوا ، أو يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره قاله ابن عباس .

وقال مجاهد ﴿ أو يأتي ربك ﴾ بعلمه وقدرته بلا أين ولا كيف لفصل القضاء بين خلقه في الموقف يوم القيامة .

وقال الزجاج : أو يأتي إهلاك ربك إياهم .

قال ابن عطية : وعلى كل تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره أمر ربك وبطش وحساب ربك ، وإلا فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالى ألا ترى أن الله تعالى يقول : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ فهذا إتيان قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف .

وقال الزمخشري : ﴿ أو يأتي ﴾ كل آيات ربك بدليل قوله : ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك

﴿ يريد آيات القيامة والهلاك الكلي و﴿ بعض آيات ربك ﴾ أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغيرها ؛ انتهى .

(87/258)

وقال ابن مسعود وابن عمر ومجاهد وقتادة والسدي : إنه طلوع الشمس من مغربها ورواه أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي الصحيحين عنه عليه السلام " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " وقال ابن مسعود فيما روى عنه مسروق : طلوع الشمس والقمر من مغربهما .

وقيل : إحدى الآيات الثلاث طلوع الشمس من مغربها والدابة وفتح يأجوج ومأجوج رواه القاسم عن ابن مسعود .

وقال أبو هريرة : طلوعها والدجال والدابة وفتح يأجوج ومأجوج .

وقيل : العشر الآيات التي في حديث البراء طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، ونزول عيسى وفتح يأجوج ومأجوج ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر .

والظاهر أنهم توعدوا بالشيء العظيم من أشراط الساعة ليذهب الفكر في ذلك كل مذهب لكن أتى بعد ذلك الإخبار عنه عن هذا البعض بعدم قبول التوبة فيه إذا أتى ، وتصريح الرسول بأن طلوع الشمس من مغربها وقت لا تنفع فيه التوبة فيظهر أنه هذا البعض ويحتمل أن يكون هذا البعض غرغرة الإنسان عند الموت فإنها تكون في وقت لا تنفع فيه التوبة .

قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ وفي الحديث " أن توبة العبد تقبل ما لم يغرغر " ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ غير قوله : ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ فيكون هذا عبارة عن ما يقطع بوقوعه من أشراط الساعة ويكون قوله ﴿ ويوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ فيه وصف محذوف يدل عليه المعنى تقديره ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ التي يرتفع معها التوبة .

وثبت بالحديث الصحيح أن طلوع الشمس من مغربها وقت لا تقبل فيه التوبة ويدل على التغاير إعادة آيات ربك إذ لو كانت هذه تلك لكان التركيب يوم يأتي بعضها أي بعض آيات ربك .

(88/258)

﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ منطوق الآية أنه إذا أتى هذا البعض ﴿ لا ينفع نفساً ﴾ كافرة إيمانها الذي أوقعته إذ ذاك و ﴿ لا ينفع نفساً ﴾ سبق إيمانها وما كسبت فيه خيراً فعلق نفي الإيمان بأحد وصفين : إمّا نفي سبق الإيمان فقط وإمّا سبقه مع نفي كسب الخير ، ومفهومه أنه ينفع الإيمان السابق وحده أو السابق ومعه الخير ومفهوم الصفة قوي فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة من أن الإيمان لا يشترط في صحته العمل .

وقال الزمخشري : ﴿ آمنت من قبل ﴾ صفة لقوله : ﴿ نفساً ﴾ وقوله : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ عطف على ﴿ آمنت ﴾ والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات أو مقدمة إيمانها غير كاسبة خيراً في إيمانها ، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان وبين النفس التي آمنت في وقتها ولم تكسب خيراً ليعلم أن قوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى حتى يفوز صاحبها ويسعد وإلا فالشقاوة والهلال ؛ انتهى .

وهو جار على مذهبه الاعتزالي .

وقرأ الأخوان : إلا أن يأتيهم بالياء .

وقرأ ابن عمرو وابن سيرين وأبو العالية يوم تأتي بعض بالتاء مثل تلتقطه بعض السيارة وابن سيرين لا تنفع نفساً .

قال أبو حاتم : ذكروا أنها غلط منه .

وقال النحاس : في هذا شيء دقيق ذكره سيبويه وذلك إن الإيمان والنفس كل منهما مشتمل على الآخر فأنث الإيمان إذ هو منن النفس وبها وأنشد سيبويه رحمه الله :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت . . .

أعاليها مرّ الرياح النواسم

انتهى .

وقال الزمخشري : وقرأ ابن سيرين لا تنفع بالتاء لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه لقوله : ذهبت بعض أصابعه ؛ انتهى .

(89/258)

وهو غلط لأن الإيمان ليس بعضاً للنفس ويحتمل أن يكون أنث على معنى الإيمان وهو المعرفة أو العقيدة ، فكان مثل جاءته كتابي فاحتقرها على معنى الصحيفة ونصب يوم تأتي بقوله : ﴿ لا ينفع ﴾ وفيه دليل على تقدّم معمول الفعل المنفي بلا على لا خلافاً لمن

منع .

وقرأ زهي القروي ﴿ يوم يأتي ﴾ بالرفع والخبر ﴿ لا ينفع ﴾ والعائد محذوف أي لا ينفع فيه وإن لم يكن صفة وجاز الفصل بالفاعل بين الموصوف وصفته لأنه ليس بأجنبي إذ قد اشترك الموصوف الذي هو المفعول والفاعل في العامل ، فعلى هذا يجوز ضرب هنداً غلامها التميمية ومن جعل الجملة حالاً أبعد ومن جعلها مستأنفة فهو أبعد .

﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ أي انتظروا ما تنتظرون ﴿ إنا منتظرون ﴾ ما يحل بكم وهو أمر تهديد ووعيد من قال : إنه أمر بالكف عن القتال فهو منسوخ عنده بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(90/258)

وقال ابن كثير :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) ﴾

يقول تعالى متوعدًا للكافرين به ، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته ، والصادين عن سبيله :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وذلك كائن يوم القيامة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ] ﴾ الآية ، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية :

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عمارة ، حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا أبو هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مَغْرِبها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها . فذلك حين ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾

حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها" ثم قرأ هذه الآية .

هكذا روي هذا الحديث من هذين الوجهين (1) ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم إلا الترمذي ، من طرق ، عن عمارة بن القَعْقَاع بن شُبْرُمَة ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة ، به (2) .

وأما الطريق الثاني : فرواه عن إسحاق ، غير منسوب ، فقيل : هو ابن منصور الكوسج ، وقيل : إسحاق بن نصر (3) والله أعلم .

---

(1) صحيح البخاري برقم (4635) ، (4636) .

(2) صحيح مسلم برقم (157) وسنن أبي داود برقم (4312) والنسائي في السنن الكبرى برقم (11177) وسنن ابن ماجة برقم (4068) .

(3) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (297/8) : "جزم خلف بأنه ابن نصر ، وأبو مسعود بأنه ابن منصور ، وقول خلف أقوى" .

(91/258)

وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع النيسابوري ، كلاهما عن عبد الرزاق ، به (1) .

وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة ، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء ابن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، به (2) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا ابن فضيل ، عن أبيه ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث إذا خرجن ﴿ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض" .

---

(1) صحيح مسلم برقم (157) .

(2) صحيح مسلم برقم (157) .

(92/258)

ورواه أحمد ، عن وَكِيع ، عن فُضَيْل بن غَزْوان ، عن أبي حازم سلمان ، عن أبي هريرة به ، وعنده : "والدخان" .

ورواه مسلم ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب ، عن وكيع (1) .

ورواه هو أيضا والترمذي ، من غير وجه ، عن فضيل بن غزوان ، به (2) .

ورواه إسحاق بن عبد الله الفَرَوي ، عن مالك ، عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة . ولكن لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه ، لضعف الفَرْوي ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا شعيب بن الليث ، عن أبيه ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمن الناس كلهم ، وذلك حين ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ الآية .

ورواه ابن لهيعة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، به . ورواه وكيع ، عن فضيل بن غزوان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، به .

أخرج هذه الطرق كلَّها الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن يحيى ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن أيوب ، عن ابن سِيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، قُبِل منه" .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (3) .

حديث آخر عن أبي ذر الغفاري : في الصحيحين وغيرهما ، من طرق ، عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَدْري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟" . قلت : لا أدري ، قال : "إنها تنتهي دون العرش ، ثم تخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين : ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ (4) .

حديث آخر عن حُذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري ، رضي الله عنه :

قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبي الطُّفَيْل ، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ، ونحن

تتذاكر الساعة ، فقال : "لا تقوم الساعة

---

(1) تفسير الطبري (265/12) والمسند (445/2) وصحيح مسلم برقم (158) .

(2) صحيح مسلم برقم (158) وسنن الترمذي برقم (3072) .

(3) تفسير الطبري (256/12) ورواه أحمد في مسنده (275/2) من طريق عبد الرزاق به .

(4) صحيح البخاري برقم (4803) وصحيح مسلم برقم (159) .

(93/258)

حتى تَرَوْا عشر آيات : طُلوع الشمس من مَغْرِبها ، والدُّخَان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خُسوف : خَسْف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قَعْر عَدَن تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا" .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة (1) من حديث فرات القَزَّاز ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، عن حذيفة بن أسيد ، به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

حديث آخر عن حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنه :

قال الثوري ، عن منصور ، عن رِبْعي ، عن حذيفة قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تطول تلك الليلة حتى تكون قَدْر ليلتين ، فبينما الذين كانوا يصلون فيها ، يعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لا تسري ، قد قامت مكانها ، ثم يرقدون ، ثم يقومون فيصلون ، ثم يرقدون ، ثم يقومون فيطل عليهم جنوبهم ، حتى يتطاول عليهم الليل ، فيفزع الناس ولا يصبحون ، فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ، ولا ينفعهم إيمانهم" .

رواه ابن مَرْدُوَيه ، وليس في الكتب الستة من هذا الوجه (2) والله أعلم .

حديث آخر عن أبي سعيد الخدري – واسمه : سعد بن مالك بن سنان – رضي الله عنه وأرضاه :

قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا ابن أبي ليلى ، عن عطية العَوْفي ، عن أبي سعيد الخُدْري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ قال : "طلوع الشمس من مغربها" .

---

(1) المسند (7/4) وصحيح مسلم برقم (2901) وسنن أبي داود برقم (4311) وسنن الترمذي برقم (2183) وسنن ابن ماجة برقم (4041) .

(2) ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة (31/1) قال ابن مردويه : "حدثنا محمد بن علي بن سهل ، حدثنا محمد بن يوسف الرازي ، حدثنا إدريس بن علي الرازي ، حدثنا يحيى بن الضريس ، عن سفيان الثوري فذكره" .

(94/258)

ورواه الترمذي ، عن سفيان بن وكيع ، عن أبيه ، به . وقال : غريب ، ورواه بعضهم ولم يرفعه (1) .

وفي حديث طالوت بن عباد ، عن فَضَال بن جبير ، عن أبي أمامة صُدَيّ بن عَجْلان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أوّلَ الآيات طلوعُ الشمس من مغربها" (2) .

وفي حديث عاصم بن أبي النَّجُود ، عن زِرّ بن حُبَيْش ، عن صفوان بن عَسَّال قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله فتح بابًا قبل المغرب عرضه سبعون عامًا للتوبة" ، قال : "لا يغلق

---

(1) المسند (31/3) وسنن الترمذي برقم (3071) وقد رواه ابن أبي شيبة في المصنف (179/15) من طريق وكيع ، عن ابن أبي ليلى به موقوفا .

(2) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط كما في مجمع الزوائد (9/8) وقال الهيثمي : "فيه فضال بن جبير وهو ضعيف ، وقد أنكر هذا الحديث" .

(95/258)

حتى تطلع الشمس منه" . رواه الترمذي وصححه النسائي ، وابن ماجه في حديث طويل (1) .

حديث آخر عن عبد الله بن أبي أوفى :

قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا ضرار بن صُرَد ، حدثنا ابن فضيل ، عن سليمان بن زَيد ، عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون ، يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ، ثم ينام ، ثم يقوم فيقرأ حزبه ، ثم ينام . فبينما هم كذلك إذ صاح الناس بعضهم في بعض فقالوا : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها ، فضج الناس ضجة واحدة ، حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها" . قال : "حينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها" .

هذا حديث غريب من هذا الوجه (2) وليس هو في شيء من الكتب الستة .

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو

---

(1) سنن الترمذي برقم (3536) وسنن النسائي (83/1) وسنن ابن ماجه برقم (4070) .

(2) ورواه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (392/3) .

(96/258)

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أبو حيان ، عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير قال : جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه يقول - وهو يحدث في الآيات - : إن أولها خروج الدجال . قال : فانصرف النفر إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات ، فقال لم يقل مَرْوان شيئًا قد حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل ذلك حديثا لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحىً ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها" . ثم قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب - : وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت

العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع ، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل : أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع ، فلم يرد عليها شيء ، ثم تستأذنُ في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، ثم تستأذن فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق ، قالت : ربي ، ما أبعد المشرق . من لي بالناس . حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع ، فيقال لها : من مكانك فاطلعي . فطلعت على الناس من مغربها" ، ثم تلا عبد الله هذه الآية : ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ [أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا] ﴾ الآية .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، وأبو داود وابن ماجه ، في سننيهما ، من حديث أبي حيان التيمي -

(97/258)

واسمه يحيى بن سعيد بن حيان - عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير ، به (1) .

حديث آخر عنه :

قال الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حبان الرَّقِّي ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم

- بن زبريق الحمصي - حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ابن لهيعة ، عن حيي بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجدًا ينادي ويجهر : إلهي ، مُرْني أن أسجد لمن شئت" . قال : "فيجتمع إليه زبانيته فيقولون : يا سيدهم ، ما هذا التضرع ؟ فيقول : إنما سألت ربي أن يُنْظِر إلى الوقت المعلوم ، وهذا الوقت المعلوم" . قال "ثم تخرج دابة الأرض من صَدْع في الصفا" . قال : "فأول خطوة تضعها بأنطاكيا ، فتأتي إبليس فَتَخْطمه . .

هذا حديث غريب جدًا وسنده ضعيف (2) ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك ، فأما رفعه فمنكر ، والله أعلم .

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنهم أجمعين :

قال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيح بن عبيد يرده إلى مالك بن يُخَامر ، عن ابن السعدي ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل" . فقال معاوية ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الهجرة خصلتان : إحداهما تهجر السيئات ، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع

ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل" . هذا الحديث حسن الإسناد (3) ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، والله أعلم .

حديث آخر عن ابن مسعود ، رضي الله عنه :

---

(1) صحيح مسلم برقم (2941) وسنن أبي داود برقم (4310) وسنن ابن ماجة برقم (4069) .

(2) المعجم الكبير للطبراني برقم (111) "القسم المفقود" وقال الهيثمي في المجمع (8/8) : "فيه إسحاق بن إبراهيم بن زبريق وهو ضعيف" .

(3) المسند (192/1) وقال الهيثمي في المجمع (251/5) : "ورجال أحمد ثقات" .

(98/258)

قال عوف الأعرابي ، عن محمد بن سيرين ، حدثني أبو عبيدة ، عن ابن مسعود ؛ أنه كان يقول : ما ذكر من الآيات فقد مضى غير أربع : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، وخروج يأجوج ومأجوج .

قال : وكان يقول : الآية التي تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا] ﴾ الآية كلها ، يعني طلوع

(99/258)

الشمس من مغربها .

حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما :

رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس ، عن أبيه ، عن وَهْب ابن مُنَبِّه ، عن ابن عباس [رضي الله عنه] مرفوعا - فذكر حديثًا طويلا غريبًا منكرًا رفعه ، وفيه : "أن الشمس والقمر يطلعان يومئذ مقرونين وإذا نَصَفا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كانا عليه" . وهو حديث غريب جدًا بل منكر ، بل موضوع ، [والله أعلم] إن ادعى أنه مرفوع ، فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه - وهو الأشبه - فغير مدفوع والله أعلم .

وقال سفيان ، عن منصور ، عن عامر ، عن عائشة [رضي الله عنها] قالت : إذا خرج أول الآيات ، طُرحت الأقلام ، وحبست الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال .

رواه ابن جرير .

فقوله [عَزَّ وجل] ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمنا قبل ذلك ، فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلِّطًا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة ، وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ أي : ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك .

وقوله : ﴿ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب وقت القيامة ، وظهور أشراطها كما قال : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ [محمد : 18] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا [سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ] ﴾ [غافر : 84 ، 85] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 371.376 ﴾

(100/258)

وقال أبو السعود :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنه لا يتأتى منهم الإيمانُ بإنزال ما ذكر من البينات والهدى وأنهم لا يرعوون عن التمادي في المكابرة واقتراحِ ما ينافي الحكمةَ التشريعية من الآيات المُلجئة وأن الإيمانَ عند إتيانها مما لا فائدةَ له أصلاً مبالغةً في التبليغ والإنذار وإزاحةِ العلل والأعذار ، أي ما ينتظرون ﴿ إِلا أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكة أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ حسبما اقترحوا بقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ وبقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ وبقولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ ونحو ذلك أو إلا أن تأتيهم ملائكةُ العذاب أو يأتيَ أمرُ ربك بالعذاب ، والانتظارُ محمولٌ على التمثيل كما سيجيء وقرىء يأتيَهم بالياء لأن تأنيثَ الملائكة غيرُ حقيقي .

(101/258)

﴿ أو يأتي بعضُ آيات ربّكَ ﴾ أي غيرُ ما ذكر كما اقترحوا بقولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ ونحوِ ذلك من عظائمِ الآياتِ التي علّقوا بها إيمانَهم ، والتعبيرُ عنها بالبعض للتهويل والتفخيم ، كما أن إضافةَ الآياتِ في الموضعين إلى اسم الربِّ المنبىء

عن المالكية الكليةِ لذلك . وإضافتَه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف ، وقيل : المرادُ بالملائكة ملائكةُ الموت وبإتيانه سبحانه وتعالى إتيانُ كل آياتِه بمعنى آياتِ القيامةِ والهلاكُ الكليُّ بقرينة ما بعده من إتيان بعضِ آياتِه تعالى على أن المرادَ به أشراطُ الساعةِ التي هي (الدخانُ ودابةُ الأرضِ وخسفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسفٌ بجزيرة العرب والدجالُ وطلوعُ الشمس من مغربها ويأجوجُ ومأجوجُ ونزولُ عيسى عليه السلام ونارٌ تخرج من عَدَنَ) كما نطق به الحديثُ الشريفُ المشهورُ وحيث لم يكن إتيانُ هذه الأمورِ مما ينتظرونه كإتيان ما اقترحوه من الآيات فإن تعليقَ إيمانِهم بإتيانها انتظارٌ منهم له ظاهراً ، حُمل الانتظارُ على التمثيل المبني على تشبيه حالِهم في الإصرار على الكفر والتمادي في العناد إلى أن تأتيَهم تلك الأمورُ الهائلةُ التي لا بد لهم من الإيمان عند مشاهدتِها ألبتةَ بحال المنتظرين لها . وأنت خبيرٌ بأن النظمَ الكريمَ بسباقه المُنبئِ عن تماديهم في تكذيب آياتِ الله تعالى وعدمِ الاعتدادِ بها وسياقِه الناطقِ بعدم نفع الإيمانِ عند إتيان ما ينتظرونه يستدعي أن يُحملَ ذلك على أمور هائلةٍ مخصوصةٍ بهم إما بأن تكونَ عبارةً عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبةٍ على جناياتهم كإتيان ملائكةِ العذاب وإتيانِ أمرِه تعالى بالعذاب وهو الأنسبُ لما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ قُلِ انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

وإما حملُه على ما ذُكر من إتيان ملائكةِ الموتِ وإتيانِ كل آياتِ القيامةِ وظهورِ أشراطِ الساعة مع شمول إتيانِها لكل برّ وفاجر ، واشتمالِ غائلتِها على كل مؤمن وكافرٍ فمما لا يساعده المقامُ على أن بعضَ أشراطِ الساعةِ ليس مما ينسدّ به بابُ الإيمان والطاعة ، نعم يجوزُ حملُ بعضِ الآياتِ في قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءايات رَبِّكَ ﴾ على ما يعم مقترحاتِهم وغيرَها من الدواعي العظامِ السالبةِ للاختيار الذي عليه يدور فلكُ التكليفِ فإنه بمنزلة الكبرى من الشكل الأولِ فيتم التقريبُ عند وقوعِها بدخول ما ينتظرونه في ذلك دخولاً أولياً ، ويوم منصوب بقوله تعالى : ﴿ لاَّ ينفَعُ ﴾ فإن امتناعَ عملِ ما بعد (لا) فيما قبلها عند وقوعِها جوابَ القسم ، وقرىء يومُ بالرفع على الابتداء والخبرُ هو الجملةُ والعائدُ محذوفٌ أي لا تنفع فيه ﴿ نَفْساً ﴾ من النفوس ﴿ إِيمَانُهَا ﴾ حينئذ لانكشاف الحالِ وكون الأمرِ عياناً ، ومدارُ قبولِ الإيمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ وقرىء لا تنفع بالتاء الفوقانية لاكتساب الإيمانِ من ملابسة المضاف إليه تأنيثاً وقوله تعالى : ﴿ لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ إتيانِ بعضِ الآياتِ ، صفةٌ لنفساً فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوفِ ولا ضيرَ فيه لأنه غيرُ أجنبيَ منه لاشتراكهما في العامل .

﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمانها خَيْرًا ﴾ عطفٌ على آمنت بإيراد الترديدِ على النفي المفيدِ لكفاية أحد النفيين في عدم النفعِ ، والمعنى أنه لا ينفع الإيمانُ حينئذ نفساً لم يقدّم إيمانَها أو قدّمتْه ولم تكسِبْ فيه خيراً ، ومن ضرورته اشتراطُ النفعِ بتحقق الأمرين ، أي الإيمانِ المقدَّمِ والخيرِ المكسوب فيه معاً ، بمعنى أن النافعَ هو تحققُهما والإيمانُ المؤخرُ لغوٌ وتحصيلٌ للحاصل لا أنه هو النافعُ وتحققُهما شرطٌ في نفعه كما لو كان المقدَّمُ غيرَ المؤخرِ بالذات ، فإن قولَك : لا ينفع الصومُ والصدقةُ مَنْ لم يؤمِنْ قبلَهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعِهما بعد الإيمان وقد استدل به أهلُ الاعتزالِ على عدم اعتبار الإيمانِ المجردِ عن الأعمال وليس بناهض ضرورةَ صحةِ حملِه على نفي الترديدِ المستلزِمِ لعمومه المفيدِ بمنطوقه لاشتراط عدمِ النفع بعدم الأمرين معاً وبمفهومه لاشتراط النفعِ بتحقق أحدِهما بطريق منعِ الخلوّ دون الانفصالِ الحقيقي ، فالمعنى أنه لا ينفع الإيمانُ حينئذ نفساً لم يصدُرْ عنها من قبلُ أحدُ الأمرين ، أما الإيمانُ المجردُ أو الخيرُ المكسوبُ فيه فيتحقق النفعُ بأيهما كان حسبما تنطِقُ به النصوصُ الكريمةُ من الآيات والأحاديث وما قيل من أن عدمَ الإيمانِ السابقِ مستلزِمٌ لعدم كسب الخيرِ فيه بالضرورة فيكون ذكرُه تكراراً بلا فائدة على أن الموجبَ للخلود في النار

هو العدمُ الأولُ من غير أن يكون للثاني دخلٌ ما في ذلك قطعاً فيكون ذكرُه بصدد بيانِ ما يوجب الخلودَ لغواً من الكلام لغو من الكلام مبني على توهم أن المقصودَ بوصف النفسِ بالعدمين المذكورين مجردُ بيانِ إيجابِهما للخلود فيها وعدمِ نفعِ الإيمان الحادثِ في إنجائها عنه وليس كذلك ، وإلا لكفى في البيان أن يقال : لا ينفعُ نفساً إيمانُها الحادثُ ، بل المقصِدُ الأصليُّ من وصفها بذينك العدمين في أثناء بيانِ عدم نفعِ الإيمان الحادثِ تحقيقُ أن

(104/258)

موجبَ النفع إحدى مَلَكتيهما ، أعني الإيمانَ السابقَ والخيرَ المكسوبَ فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب في تحصيلهما في ضمن التحذيرِ من تركهما ، ولا سبيلَ إلى أن يقال كما أن عدمَ الأولِ مستقلٌّ في إيجاب الخلودِ في النار فليغلو ذكرُ عدمِ الثاني ، كذلك وجوده مستقل في إيجاب الخلاصِ عنها فيكون ذكرُ الثاني لغواً لما أنه قياسٌ مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمرٌ لا يُتصوَّر فيه تعددُ العللِ ، وأما الخلاصُ عنها مع دخولِ الجنةِ فله مراتبُ بعضُها مترتبٌ على نفس الإيمان وبعضُها على فروعه المتفاوتةِ كماً وكيفاً ، وإنما لم يُقتصر على بيان ما يوجب أصلَ النفعِ وهو المقابلُ لما لا يوجبه أصلاً أعني الإيمانَ الحادثَ ، بل قرَنَ به ما يوجب النفعَ الزائدَ أيضاً إرشاداً إلى تحرّي الأعلى وتنبيهاً على كفاية الأدنى وإقناطاً للكفرة عما

علّقوا به أطماعَهم الفارغةَ من أعمال البرّ التي عمِلوها في الكفر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفك العُناةِ وإغاثةِ الملهوفين وقرى الأضيافِ وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغوٌ بحتٌ لابتنائه على غير أساسٍ حسبما نطق به قولُه تعالى :

(105/258)

﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح ﴾ الآية ، ونحوُ ذلك من النصوص الكريمة ، وأن الإيمانَ الحادثَ كما لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام أعمالِهم السابقةِ واللاحقة ، ولك أن تقول : المقصودُ بوصف النفسِ بما ذُكر من العدمين التعريضُ بحال الكفرة في تمردهم وتفريطِهم في كل واحد من الأمرين الواجبين عليهم وإن كان وجوبُ أحدِهما منوطاً بالآخر كما في قوله عز وجل : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ ﴾ تسجيلاً بكمال طغيانِهم وإيذاناً بتضاعف عقابِهم لما تقرر من أن الكفارَ مخاطَبون بفروع الشرائعِ في حق المؤاخذة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ إذا تحققت هذا وقفتَ على أن الآيةَ الكريمة أحقُّ بأن تكون حجةً على المعتزلة من أن تكون حجةً لهم هذا وقد قيل : إنها من باب اللف التقديريِّ ، أي لا ينفع نفساً إيمانُها ولا كسبُها في الإيمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه ، وليس بواضح فإن مبنى اللفِّ التقديريِّ أن

يكون المقدرُ من متمّمات الكلامِ ومقتَضَيات المقام قد ترك ذكرَه تعويلاً على دِلالة الملفوظِ عليه واقتضائِه إياه كما مر في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً ﴾ فإنه قد طُوي في المفصل ذكرُ حشرِ المؤمنين ثقةً بإنباء التفصيل عنه أعني قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية ، ولا ريب في أن ما قُدّر هاهنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمانها خَيْرًا ﴾ ولا هو من مقتضيات المقامِ لأنه ليس مما وُعِدوه وعلّقوه بإتيان ما ذكر من الآيات كالإيمان حتى يرِدَ عليهم ببيان عدمِ نفعِه إذ ذاك ، على أن ذلك مشعرٌ بأن لهم بعد ما أصابهم من الدواهي ما أصابهم بقاءً على السلامة وزماناً يتأتى منهم الكسبُ والعملُ فيه ، وفيه من الإخلال بمقام تهويلِ الخطبِ وتفظيعِ الحال ما لا يخفي .

(106/258)

وقد أُجيب عن الاستدلال بوجوه أُخَرَ قصارى أمرِها إسقاطُ الآية الكريمةِ عن رتبة المعارضةِ للنصوص القطعيةِ المتونِ القويةِ الدلالةِ على ما ذُكر من كفاية الإيمان المجردِ عن العمل في الإنجاء من العذاب الخالدِ ولو بعد اللتيا والتي لما تقرر من أن الظنيَّ بمعزل من معارضة القطعي .

﴿ قُلْ ﴾ لهم بعد بيانِ حقيقةِ الحالِ على وجه التهديد ﴿ انتظروا ﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحدِ الأمورِ الثلاثةِ لترَوا أيَّ شيء تنتظرون ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ لذلك لنشاهدَ ما يحِلُّ بكم من سوء العاقبة ، وفيه تأييدٌ لكون المرادِ بما ينتظرونه إتيانَ ملائكةِ العذابِ أو إتيانَ أمرِه تعالى بالعذاب كما أشير إليه ، وعِدةٌ ضمنيةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم لما يَحيق بالكفرة من العقاب ، ولعل ذلك هو الذي شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(107/258)

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ استئناف مسوق لبيان أنه لا يتأتى منهم الإيمان بإنزال ما ذكر من البينات والهدى والإيذان بأن من الآيات ما لا فائدة للإيمان عنده مبالغة في التبليغ والإنذار وإزاحة العلل والأعذار ، و﴿ هَلْ ﴾ للاستفهام الإنكاري ، وأنكر الرضي مجيئها لذلك وقال : إنها للتقرير في الإثبات ، والجمهور على الأول ، والضمير لكفار أهل مكة .

وزعم الجبائي أنه للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم أي ما ينتظرون .

﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوْيَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ يوم القيامة في ظلل من الغمام حسبما أخبر وبالمعنى الذي أراد .

وإلى هذا التفسير ذهب ابن مسعود وقتادة ومقاتل ، وقيل : إتيان الملائكة لإنزال العذاب والخسف بهم .

وعن الحسن إتيان الرب على معنى إتيان أمره بالعذاب .

وعن ابن عباس المراد يأتي أمر ربك فيهم بالقتل ، وقيل : المراد يأتي كل آياته يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله سبحانه : ﴿ أَوْيَأْتِىَ بَعْضُ ءايات رَبّكَ ﴾ وأنت تعلم أن المشهور من مذهب السلف عدم تأويل مثل ذلك بتقدير مضاف ونحوه بل تفويض المراد منه إلى اللطيف الخبير مع الجزم بعدم إرادة الظاهر .

ومنهم من يبقيه على الظاهر إلا أنه يدعي أن الإتيان الذي ينسب إليه تعالى ليس الإتيان الذي يتصف به الحادث ، وحاصل ذلك أنه يقول بالظواهر وينفي اللوازم ويدعي أنها لوازم في الشاهد ، وأين التراب من رب الأرباب .

وجوز بعض المحققين حمل الكلام على الظاهر المتعارف عند الناس ، والمقصود منه حكاية مذهب الكفار واعتقادهم ، وعلى ذلك اعتمد الإمام وهو بعيد أو باطل .

والمراد بالآيات عند بعض أشراط الساعة ، وهي على ما يستفاد من الأخبار كثيرة ، وصح من طرق حذيفة بن أسيد قال : " أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من

علية ونحن نتذاكر فقال : ما تذاكرون ؟ قلنا : نتذاكر الساعة قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان والدجال وعيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب .

وخسف بجزيرة العرب .

وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن أو اليمن تطرد الناس إلى المحشر تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم إذا قالوا " وبعضها على ما قيل : الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها وهو المراد بالبعض أيضاً في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءايات رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ وروى مسلم وأحمد والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة مرفوعاً ما هو صريح في ذلك .

واستشكل ذلك بأن خروج عيسى عليه السلام بعد الدجال عليهم اللعنة وهو عليه السلام يدعو الناس إلا الإيمان ويقبله منهم وفي زمنه خير كثير دنيوي وأخروي ، وأجيب عنه بما لا يخلو عن نظر .

(108/258)

والحق أن المراد بهذا البعض الذي لا ينفع الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها .

فقد روى الشيخان "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس ءامنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ثم قرأ الآية" بل قد روي هذا التعيين عنه صلى الله عليه وسلم في غير ما خبر صحيح ، وإلى ذلك ذهب جلة المفسرين .

وما يروى من الأخبار التي ظاهرها المنافاة لذلك غير مناف له عند التحقيق كما لايخفى على المتأمل ، وسبب عدم نفع الإيمان عند ذلك أنه إذا شوهد تغير العالم العلوي يحصل العلم الضروري ويرتفع الإيمان بالغيب وهو المكلف به فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند الغرغرة ، ومقتضى الأخبار في هذا المطلب أنه لا يقبل الإيمان بعد ذلك أبداً لكن الظاهر على ما في "الزواجر" قبول ما وقع بعد ذلك من غير تقصير كمن جن وأفاق بعد أو أسلم بتبعية أبويه .

وعن البلقيني أنه إذا تراخى الحال بعد طلوع الشمس من المغرب وطال العهد حتى نسي قبل الإيمان لزوال الآية الملجئة وله وجه وجيه .

وقول العراقي : إن الظاهر أنه لا يطول العهد حتى ينسى غير متجه لما رواه القرطبي في "تذكرته" عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ونقله الحافظ ابن حجر في "شرح البخاري" أن الناس يبقون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة ، والكلام في كيفية طلوعها من المغرب مفصل في كتب الحديث ، وفي "سوق العروس"

لابن الجوزي أن الشمس تطلع من مغربها ثلاثة أيام بلياليها ثم يقال لها : ارجعي من مطلعك ، والمشهور أنها تطلع يوماً واحداً من المغرب فتسير إلى خط نصف النهار ثم ترجع إلى المغرب وتطلع بعد ذلك من المشرق كعاتها قبل .

وخبر عبد الله بن أبي أوفى صريح في ذلك والكل أمر ممكن والله سبحانه على كل شيء قدير .

(109/258)

وروى البخاري في "تاريخه" وأبو الشيخ وابن عساكر في كيفية ذلك عن كعب رضي الله تعالى عنه أنه قال : إذا أراد الله تعالى أن يطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها .

وأهل الهيئة ومن وافقهم يزعمون أن طلوع الشمس من المغرب محال ويقولون : إن الشمس وغيرها من الفلكيات بسيطة لا تختلف مقتضياتها جهة وحركة وغير ذلك ولا يتطرق إليها تغيير عما هي عليه ، وقد بنوا ذلك على مثل شفا جرف هار .

وقال الكرماني : إنه على تقدير تسليم قواعدهم لا امتناع ذلك أيضاً لقولهم بجواز انطباق منطقة فلك البروج المسمى بفلك الثوابت على المعدل وهي منطقة الفلك الأعظم المسمى

بفلك الأطلس بحيث يصير المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً انتهى .

وفيه نظر يعلم بعد بيان كيفية الانطباق وما يتبعه ويلزم منه على ما في كتب محققيهم فأقول :

قال في "التذكرة وشرحها" للسيد السند : الميل الكلي وهو غاية التباعد بين منطقتي المعدل وفلك البروج الموجود بالأرصاد القديمة والحديثة ليس شيئاً واحداً بل كان ما وجده القدماء أكثر مما وجده المحدثون ، وقد يظن أن ما وجده من هو أحدث زماناً كان أقل مما وجده من هو أقدم زماناً مع أن أكثر ما وجدوه لم يبلغ أربعة وعشرين جزءاً وأقله لم ينقص عن ثلاثة وعشرين جزءاً ونصف جزء .

(110/258)

ثم الظاهر أن هذا الاختلاف إنما هو بسبب اختلال الآلات في استدارتها أو قسمتها أو نصبها في حقيقة نصف النهار لا بسبب تحرك إحدى المنطقتين إلى الأخرى وإلا لوجب أن يكون الاختلاف على نظام واحد ولم يوجد كذلك كما بين في محله لكنه يجوز أن يكون أصل الاختلاف بسبب التحرك وعدم الانتظام بسبب الاختلال ولما امتنع أن يكون هذا التقارب بحركة المعدل نحو منطقة البروج إذ يلزم منه أن تختلف عروض البلدان عما هي عليه وأن يكون خط الاستواء في كل زمان مكاناً آخر ذهب بعضهم إلى أن منطقة البروج تتحرك في

العرض فتقرب من معدل النهار فإن كان هذا حقاً يجب أن يثبت فلكاً آخر يحرك فلك البروج هذه الحركة ثم إن المنطقة إن تحركت في العرض أمكن أن تتم الدورة وأمكن أن لا تتمها بل تتحرك إلى غاية ما ثم تعود وتلك الغاية يمكن أن تكون بعد انطباقها على منطقة المعدل مرتين أو حال انطباقها الثاني أو فيما بين الانطباقين وذلك إما بعد قطع نصف دورتها أو حال قطع النصف أو قبله ، وإن لم تصل إلى ما بين الانطباقين فإما أن تعود حال انطباقها الأول أو قبل ذلك ثمانية احتمالات عقلية لا مزيد عليها ، وعلى التقديرات الخمس الأول : يتبادل نصفا سطح فلك البروج الشمالي والجنوبي فيصير نصف سطح فلك البروج الذي هو شمالي عن المعدل جنوبياً عنه وبالعكس مع ما يتبع النصفين من الأحكام فتثبت أحكام النصف الشمالي للنصف الجنوبي بعد صيرورته شمالياً وأحكام الجنوبي للشمالي بعد صيرورته جنوبياً وفي الثلاثة الأولى منها ينطبق كل واحد من نصفي منطقة البروج على كل واحد من نصفي منطقة المعدل ، وعلى التقديرات الباقية بعد الخمسة الأولى لا يتبادل غير البعض من السطح المذكور ، وعلى التقديرات السبعة الأولى ينطبق النصف من منطقة فلك البروج على النصف المجاور له من منطقة المعدل وعند كل انطباق يتساوى الليل والنهار في جميع البقاع لأن مدار الشمس هو المعدل المنصف بالآفاق القاطعة له وتبطل

فصول السنة لأن بعد الشمس عن سمت الرأس يكون شيئاً واحداً هو مقدار عرض البلد ويستمر الحال على هذا إلى أن تفترق المنطقتان بمقدار يحس به ولا يكون ذلك إلا في مدة طويلة ، وعلى التقدير الثاني : لا يكون شيء من الانطباق وتساوي الملوين وبطلان الفصول إلا أن الارتفاعات ومقادير الأيام والليالي لأجزاء بعينها من فلك البروج تزيد وتنقص في بقعة بعينها انتهى ملخصاً .

ولا يخفى أنه من لوازم ما ذكروه من التبادل الناشيء عن الانطباق مرتين انطباق قطب البروج الجنوبي على قطب العالم الشمالي وعكسه وصيرورة بروج الخريف بروج الربيع وعكسه وبروج الصيف بروج الشتاء وعكسه وانعكاس توالي البروج إلى خلافه فيطلع الحوت ثم الدلو ثم الجدي وهكذا إلى الحمل وتوافق حركة ما حركته من المغرب إلى المشرق لحركة الفلك الأعظم إلى غير ذلك ، وليس صيرورة المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً من لوازم الانطباق المذكور بل لا يتصور أصلاً ، نعم لو كان المدعي انطباق منطقة المعدل على منطقة فلك البروج بحيث تكون الحركة للمعدل نحو المنطقة لتصور ما ذكر لكنه ممتنع على ما صرح به السيد السند فيما مر وقد فرض عدم الامتناع فتدبر

(112/258)

والانتظار في الآية محمول على التمثيل المبني على تشبيه حال هؤلاء الكفار في الإصرار على الكفر والتمادي على العناد إلى أن تأتيهم تلك الأمور الهائلة التي لا بد لهم من الإيمان عند مشاهدتها ألبتة بحال المنتظرين لها وهذا هو الذي يقتضيه التفسير المأثور ولا ينبغي العدول عن ذلك التفسير بعد أن صحت نسبة بعضه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والبعض الآخر إلى أصحابه رضي الله تعالى عنهم وليس في النظم الكريم ما يأباه ولا أن المقام إنما يساعد على ما سواه ، وقيل : المراد بإتيان الملائكة وإتيان الرب سبحانه ما اقترحوه بقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] وبقولهم ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسرار : 92] وبإتيان بعض الآيات غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسرار : 92] ونحو ذلك من عظائم الآيات التي علقوا بها إيمانهم .

وجوز حمل بعض الآيات في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءايات رَبّكَ ﴾ على ما يعم مقترحاتهم وغيرهما من الدواهي العظام السالبة للاختيار الذي يدور عليه فلك التكليف وهو كلام في نفسه ليس بالدون ولكن إذا صح الحديث فهو مذهبي ، والتعبير بالبعض للتهويل والتفخيم كما أن إضافة الآيات إلى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك ، وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف .

وتنكير ﴿ نَفْساً ﴾ للتعميم .

وجملة ﴿ لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ ﴾ في موضع النصب صفة لنفساً فصل بينهما بالفاعل لاشتمالها على ضمير الموصوف ولا ضير فيه لأنه غير أجنبي منه لاشتراكهما في العامل .

وجوز كونها استئنافية و ﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب بلا ينفع .

وامتناع عمل ما بعد لا فيما قبلها إنما هو عند وقوعها جواب القسم .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يَأْتِيهِمُ ﴾ بالياء لأن تأنيث الملائكة غير حقيقي .

(113/258)

وقرىء ﴿ يَوْمٍ ﴾ بالرفع على الابتداء .

والخبر هو الجملة والعائد محذوف أي لا ينفع فيه .

وقرأ أبو العالية وابن سيرين ﴿ لاَّ تَنفَعُ ﴾ بالتاء الفوقانية .

وخرجها ابن جني على أنها من باب قطعت بعض أصابعه فالمضاف فيه قد اكتسب التأنيث من المضاف إليه كونه شبيهاً بما يستغني عنه ، وقال أبو حيان : "إن التأنيث لتأويل الإيمان بالعقيدة والمعرفة مثل جاءته كتابي فاحتقرها على معنى الصحيفة .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ عطف على ﴿ ءامَنَتُ ﴾ والكلام

محمول على نفي الترديد المستلزم للعموم المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الأمرين معاً الإيمان المقدم والخير المكسوب فيه وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقق أحدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقي .

والمعنى أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً لم يصدر عنها من قبل أما الإيمان المجرد أو الخير المكسوب فيه فيتحقق الخير بأيهما كان حسبما تنطق به النصوص الكريمة من الآيات والأحاديث الصحيحة .

والمعتزلة يقولون : إن الترديد بين النفيين ، والمراد نفي العموم لا عموم النفي .

والمعنى أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها أو مقدمة إيمانها غير كاسبة فيه خيراً .

وهذا صريح فيما ذهبوا إليه من أن الإيمان المجرد عن العمل لا يعتبر ولا ينفع صاحبه .

ولم يحملوا ذلك على عموم النفي كما قرروه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] لأن ذلك حيث لم تقم قرينة حالية أو مقالية على خلافه وهنا قد قامت قرينة على خلافه فإنه لو اعتبر عموم النفي لغى ذكر اشتراط عدم النفع بالخلو عن كسب الخير في الإيمان ضرورة أنه إذا انتفى الإيمان قبل ذلك اليوم انتفى كسب الخير فيه قطعاً على أن الموجب للخلود في النار هو عدم الإيمان من غير أن يكون لعدم كسب الخير دخل ما في ذلك أصلاً فيكون ذكره بصدد بيان ما يوجب الخلو لغلواً من الكلام أيضاً .

وأجاب شيخ الإسلام عن ذلك بأنه "مبني على توهم أن المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان إيجابهما للخلود فيها وعدم نفع الإيمان الحادث في إنجائها عنه وليس كذلك وإلا لكفى في البيان أن يقال : لا ينفع نفساً إيمانها الحادث بل المقصود الأصلي من وصفها بذينك العدمين في أثناء (بيان) عدم نفع الإيمان الحادث تحقيق أن موجب النفع إحدى ملكيتهما أعني الإيمان السابق والخير المكسوب فيه لما ذكر من الطريقة والترغيب في تحصيلهما في ضمن التحذير من تركهما ؛ ولا سبيل إلى أن يقال : كما أن عدم الأول مستقل في إيجاب الخلود في النار فيلغو ذكر عدم الثاني كذلك وجود مستقل في إيجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثاني لغواً لما أنه قياس مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمر لا يتصور فيه تعدد العلل .

وأما الخلاص منها مع دخول الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الإيمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كماً وكيفاً .

ولم يقتصر على إتيان ما يوجب أصل النفع وهو الإيمان السابق مع أنه المقابل بما لا يوجبه أصلاً وهو الإيمان الحادث بل قرن به ما يوجب النفع الزائد أيضاً إرشاداً إلى تحري الأعلى

وتنبيهاً على كفاية الأدنى وإقناطاً للكفرة عما علقوا به أطماعهم الفارغة من أعمال البر التي عملوها في الكفر مما هو من باب المكارم وأن الإيمان الحادث كما لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة .

(115/258)

ثم قال : ولك أن تقول : المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة في تمردهم وتفريطهم في كل واحد من الأمرين الواجبين عليهم وإن كان وجوب أحدهما منوطاً بالآخر كما في قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ [القيامة : 31 ، 32] تسجيلاً عليهم بكمال طغيانهم وإيذاناً بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بالفروع (1) في حق المؤاخذة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ [فصّلت : 6 ، 7] انتهى .

(116/258)

وقيل في دفع اللغوية غير ذلك ، وأجاب بعضهم عن متمسك المعتزلة بأن الآية مشتملة على ما سمي في علم البلاغة باللف التقديري كأنه قيل : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها في إيمانها خيراً لم تكن آمنت من قبل أو لم تكن كسبت خيراً فاقتصر للعلم به وفيه خفاء لا يخفى ، ومثله ما تفطن له بعض المحققين وإن تم الكلام به من غير لف ولا اعتبار اقتصار وهو أن معنى الآية أنه لا ينفع الإيمان باعتبار ذاته إذا لم يحصل قبل ولا باعتبار العمل إذا لم يعمل قبل ، ونفع الإيمان باعتبار العمل أن يصير سبباً لقبول العمل فإن العبارة لا تحتمله ولا يفهم منها من غير اعتبار تقدير في نظم الكلام ، وقال مولانا ابن الكمال : إن المراد بالإيمان في الآية المعرفة كما يرشد إليه قراءة (لا تنفع) بالتاء وبكسب الخير الإذعان ؛ ونحن معاشر أهل السنة والجماعة نقول بما هو موجب النص من أن الإيمان النافع مجموع الأمرين ولا حجة فيه للمخالف لأن مبناها حمل الايمان على المعنى الإصطلاحي المخترع بعد نزول القرآن وتخصيص الخير بما يكون بالجوارح وكل منهما خلاف الأصل والظاهر ، ولو سلم فنقول : الإيمان النافع لا بد فيه من أمرين الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان وقد عبر عن الأول بقوله سبحانه : ﴿ ءامَنتُ ﴾ وعن الثاني بقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ ﴾ فالكسب يكون بالآلات البدنية ومنها اللسان فمنطوق الآية على مذهبنا انتهى .

(117/258)

ولا يخفى عليك أن الألفاظ المستعملة في كلام الشارع حقائق شرعية يتبادر منها ما علم بلا قرية ، والإيمان وإن صح أنه لم ينقل عن معناه اللغوي الذي هو تصديق القلب مطلقاً وإن استعمل في التصديق الخاص إلا أن المتبادر منه هذا التصديق وحينئذ فكلام هذا العلامة لا يخلو عن نظر ، وأجاب القاضي البيضاوي بيض الله تعالى غرة أحواله بأن لمن اعتبر الإيمان المجرد عن العمل وقال بأنه ينفع صاحبه حيث يخلصه عن الخلود في النار تخصيص هذا الحكم بذلك أي أن هذا الحكم أعني عدم نفع الإيمان المجرد صاحبه مخصوص بذلك اليوم بمعنى أنه لا ينفعه فيه ولا يلزم منه أنه لا ينفعه في الآخرة في شيء من الأوقات ، وليس المراد أن المحكوم عليه بعدم النفع هو ما حدث في ذلك اليوم من الإيمان والعمل ، ولا يلزم من عدم نفع ما حدث فيه عدم نفع الإيمان السابق عليه وإن كان مجرداً عن العمل كما قيل لأن هذا ليس من تخصيص الحكم في شيء بل هو تخصيص للمحكوم عليه قد يرجع حاصله إلى اشتمال الآية على اللف التقديري كما أشرنا إليه .

ويرد عليه أنه يلزم منه تخصيص الحكم بعدم نفع الإيمان الحادث في ذلك اليوم به أيضاً ولا قائل به إذ هو لا ينفع صاحبه في شيء من الأوقات بالإتفاق .

(118/258)

ويمكن دفعه بأن التخصيص في حكم عدم النفع إنما يلاحظ بالنظر إلى الإيمان المجرد وباعتباره فقط على أن يكون معنى الآية يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع الإيمان الغير السابق إليه صاحبه فيه ولا الإيمان الغير المكتسب فيه الخير وإن نفع هو بالآخرة إلا أن في هذا تخصيصاً في الحكم والمحكوم به فتأمل ، وبأن له أيضاً صرف قوله سبحانه : ﴿ كَسَبَتْ ﴾ عن أن يكون معطوفاً على ﴿ ءامَنتُ ﴾ إلى عطفه إلى ﴿ لَمْ تَكُنْ ﴾ لكن بعد جعل أو بمعنى الواو وحمل الإيمان في ﴿ لاَيَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ على الإيمان الحادث في ذلك اليوم وإذا لم ينفع ذلك مع كسب الخير فيه يفهم منه عدم نفعه بدونه بالطريق الأولى ، وأنت تعلم أن مثل هذا الاحتمال يضر بالاستدلال ونحن بصدد الطعن باستدلالهم فلا يضرنا أن فيه نوع بعد ، ومن عجيب ما وقفت عليه لبعض فضلاء الروم في الجواب أن (أو) بمعنى إلا وبعدها مضارع مقدر مثلها في قول الحريري في "المقامة التاسعة" : فوالله ما تمضمضت مقلتي بنومها ولا تمخضت ليلتي عن يومها أو ألفيت أبا زيد السروجي والأصل أو يكون كسبت أي إلا أن يكون ، والمراد من هذا الاستثناء المبالغة في نفي النفي بتعليقه بالمحال كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُم مِّنَ النساء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] و ﴿ أَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 32] في رأي .

وقول الشاعر

: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

(119/258)

وحاصل المعنى فيما نحن فيه إذا جاء ذلك إليهم لا ينفع الإيمان نفساً لم تكن آمنت من قبل ذلك اليوم إلا أن تكون تلك النفس التي لم تكن آمنت من قبل كسبت في الإيمان خيراً قبل ذلك اليوم وكسب الخير في الإيمان قبل ذلك اليوم للنفس التي لم تكن آمنت قبل ممتنع فالنفع المطلوب أولى بأن يكون ممتنعاً ، وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخر ، وحاصل جميع ذلك أن الآية لما فيها من الاحتمالات لا تكون معارضة للنصوص القطعية المتون القوية التي لا يشوبها مثل ذلك الصادحة بكفاية الإيمان المجرد عن العمل في الإنجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتي ، وبعد ذلك كله يرد على المعتزلة أن الخير نكرة في سياق النفي فيعم ويلزم أن يكون نفع الإيمان بمجرد الخير ولو واحداً وليس ذلك مذهبهم فإن جميع الأعمال الصالحة داخلة في الخير عندهم .

﴿ قُلْ ﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿ انتظروا ﴾ ما تنتظرونه من

إتيان أحد هذه الأمور ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ لذلك وحينئذ نفوز وتهلكون ، قيل : في هذا تأييد لكون المراد بما ينتظرونه إتيان ملائكة العذاب أو إتيان أمره تعالى به وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم بما يحيق بالكفرة من العقاب ، ولعل ذلك هو الذي شاهدوه يوم بدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(120/258)

وقال القاسمى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يعني قد أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما كانوا يعتقدون من الضلالة . فما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدّهم عن آيات الله ؟ .

قال البيضاوي : يعني أهل مكة . وهم ما كانوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر ، شبهوا بالمنتظرين ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ يعني للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة .

قال ابن كثير : وذلك كائن يوم القيامة . وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة 210] بما فيه

كفاية .

ومذهب السلف : إمرار ذلك بلا كيفٍ ، كما مرّ مراراً .

(121/258)

قيل : ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ ﴾ أي : ملائكة الموت لقبض أرواحهم : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من ذلك . كما روى البخاريّ في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن من عليها . فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل . ورواه مسلم أيضاً ، ولمسلم والترمذيّ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض > ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ صفة (نفساً) : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ عطف على (ءَامَنَتْ) والمعنى أن بعض أشراط الساعة إذا جاء ، وهي آية ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل

ظهور الآيات . أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً لفسقها . فتوبتها حينئذ لا تجدي .

قال الطبري : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع ، إيمانٌ بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع ، عملٌ صالح بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ ، حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر 85] . وكما ثبت في الحديث الصحيح : < إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر > . انتهى .

(122/258)

وبالجملة : فالمعنى أنه لا ينفع من كان مشركاً إيمانُه . ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . وذلك لذهاب زمن التكليف .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات ، وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية ، كما قبل منه قبل ذلك . فأما من آمن من شركٍ أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية ، فلا يقبل منه . لأنه حالة اضطرار . كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا . فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك ، لمعاينتهم الأهوال والشدائد ، التي

تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه . فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله ، فهو بخير عظيم . وإن لم يكن مصلحاً ، فأحدث توبة حينئذ ، لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث . وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ أي : لا يقبل منها كسب عمل صالح ، إذا لم يكن عاملاً به قبل . انتهى .

والأحاديث المشار إليها ، منها ما رواه (مسلم) عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . > وروى الترمذيّ وصححه عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < بابٌ من قِبَل المغرب مسيره عرضه – أو قال يسير الراكب في عرضه – أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض . مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه > . ولأبي داود والنسائي من حديث معاوية رفعه : < لا تزال تقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها > .

(123/258)

قال ابن حجر : سنده جيد . وأخرجه أحمد والدارمي وعبد بن حميد من حديثه أيضاً بلفظ : لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وروى اللإمام أحمد عن ابن السعديّ ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < لا تنقطع الهجرة ما دام العدوّ يقاتل > . فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عَمْرو بن العاص : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : < إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع ما تُقُبِّلَتِ التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه ، وكُفِيَ الناسُ العملَ > .

قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة

.

وها هُنا مسائل :

الأولى : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها . كما في حديث الصحيحين السابق . ولا يقال يخالف ذلك حديث مسلم : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها . . الحديث . وفي ثبوت ذلك بخروج الدجال نظراً . لأن نزول عيسى صلى الله عليه وسلم بعده . وفي زمنه خير كثير دنيويّ وأخرويّ . فالإيمان مقبول وقتئذ . لأنا نقول : لا منافاة . وذلك لأن (البعض) في الآية ، إن كان عدة آيات ، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول ، وإن كان إحدى آيات ، فهو محمول على المعيّن في

الحديث ، لأنه أعظمها . كذا في " العناية " .

قال ابن عطية : إذا أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتخصيصِ مانع القبول بالطلوع ، في الحديث الصحيح ، لم يجز العدول عنه ، وتعيّن أنه معنى الآية . انتهى .

(124/258)

وقال القاضي عياض : المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك . بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التي هو عليها . والحكمة في ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلويّ . فإذا شوهد ذلك حصل الإيمان الضروري بالمعاينة . وارتفع الإيمان بالغيب . فهو كالإيمان عند الغرغرة وهو لا ينفع . فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله . الثانية : قال السيوطي في " الإكليل " : استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان لا ينفع مع عدم كسب الخير فيه . وهو مردود . ففي الكلام تقدير . والمعنى : لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبلُ ، إيمانُهَا حينئذ ، ولا ينفع نفساً لم تكسب خيراً قبلُ ، توبتُها حينئذ .

وقال الشهاب السمين : قد أجاب الناس بأن المعنى في الآية إنه إذا أتى بعض الآيات لا ينفع نفساً كافرة ، إيمانُها الذي أوقعته إذ ذاك . ولا ينفع نفساً سبق إيمانها ولم تكسب فيه خيراً . فقد علق نفي الإيمان بأحد وصفين : إما نفي سبق الإيمان فقط ، وإما سبقه مع نفي

كسب الخير . ومفهوم الصفة قويّ فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة . ويكون فيه قلب دليل المعتزلة ، دليلاً عليهم .

وأجاب ابن المنير في " الانتصاف " فقال : هذا الكلام من البلاغة يلقب (اللف) وأصله : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة قبلُ ، إيمانُها بعدُ . ولا نفساً لم تكسسب خيراً قبلُ ، ما تكتسبه من الخير بعدُ ، فَلَفَّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً إيجازاً . وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق . فلا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود . فهي بالرد على المعتزلة أولى من أن تدل لهم .

وقال ابن الحاجب في " أماليه " : الإيمان قبل مجيء الآية نافع لو لم يكن عمل صالح غير ، ومعنى الآية : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح ، لم يكن الإيمان قبل الآية ، أو لم يكن العمل مع الإيمان قبلها . فاختصر للعلم .

(125/258)

ونقل الطيبيّ كلام الأئمة في ذلك . ثم قال : المعتد ما قال ابن المنير وابن الحاجب . وبسطه : أن الله تعالى ، لما خاطب المعاندين بقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾

[الأنعام 155] الآية ، علل الإنزال بقوله : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ ﴾ [الأنعام 156] الخ ، إزالة للعذر وإلزاماً للحجة . وعقبه بقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ ﴾ الخ ، تبكيتاً لهم وتقريراً لما سبق ممن طلب الاتباع . ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ ﴾ الآية . أي : أنه أنزل هذا الكتاب المنير كاشفاً لكل ريب وهادياً إلى الطريق المستقيم ورحمة من الله للخلق ، ليجعلوه زاداً لمعادهم فيما يقدمونه من الإيمان والعمل الصالح . فجعلوا شكر النعمة أن كذبوا بها ومنعوا من الانتفاع بها . ثم قال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ الآية . أي : ما ينتظر هؤلاء المكذبين إلا أن يأتيهم عذاب الدنيا بنزول الملائكة بالعقاب الذي يستأصل شأفتهم . كما جرى لمن مضى من الأمم قبلهم . أو يأتيهم عذاب الآخرة بوجود بعض قوارعها ، فحينئذ تفوت تلك الفرصة السابقة فلا ينفعهم شيء مما كان ينفعهم من قبل ، من الإيمان ، وكذا العمل الصالح مع الإيمان ، فكأنه قيل : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح في إيمانها حينئذ ، إذ لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً من قبل . ففي الآية لف . لكن حذفت إحدى القرينتين بإعانة النشر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾ [النساء 172] .

قال : فهذا الذي عناه ابن المنير بقوله : إن هذا الكلام في البلاغة يقال له (اللف) والمعنى يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة من قبل ذلك ، إيمانها من بعد ذلك ، ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة ، لكن لم تعمل في إيمانها عملاً صالحاً قبل ذلك ، ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك . قال : وبهذا التقرير يظهر مذهب أهل السنة . فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير ، أي : لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة ، وإن كان ما سبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه في الجملة .

ثم قال الطيبي : وقد ظفرتُ ، بفضل الله بعد هذا التقرير ، على آية أخرى تشبه هذه الآية وتناسب هذا التقرير معنىً ولفظاً ، من غير إفراط ولا تفريط . وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الأعراف : 52 – 53] .

فإنه يظهر منه أن الإيمان المجرد قبل كشف قوارع الساعة نافع . وأن الإيمان المقارن بالعمل الصالح أنفع . وأما بعد حصولها أنفع . وأما بعد حصولها فلا ينفع شيء أصلاً . والله أعلم . انتهى ملخصاً .

الثالثة : قال في " الوجيز " في قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ أي : لفصل القضاء بين خلقه . وإتيانه نؤمن به ولا نعرف كيفه . انتهى .

(127/258)

وفي حواشي " جامع البيان " : كيف لا يؤمن بإتيانه ومجيئه تعالى يوم القيامة ، وقد جاء في القرآن في عدة مواضع : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة 210] ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [النحل 33] . وأي أمر أصرح منه في القرآن ؟ .

وروي الطبري في " تفسيره " عن ابن عباس مرفوعاً : إن في الغمام طاقات يأتي الله فيها ، محفوفاً . وذلك قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الإمام وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [البقرة : 210] .

قال عِكْرِمَة : والملائكة حوله ، فهذا من صفات الله تعالى . يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت وإن لم نعرف كيفيتها . وعدم علمنا بكيفيتها ، بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته . فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه . وهذا هو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ انتَظِرُواْ ﴾ أي : قل لهؤلاء الكافرين ، بعد بيان حقيقة الحال على وجه التحديد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أي : شيء تنتظرون .

﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي : لذلك ، لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 555 . 561 ﴾

(128/258)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾

استئناف بياني نشأ في قوله : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله ﴾ [الأنعام : 157] الآية ، وهو يحتمل الوعيد ويحتمل التهكّم ، كما سيأتي .

فإن كان هذا وعيداً وتهديداً فهو ناشىء عن جملة : ﴿ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا ﴾ [الأنعام : 157] لإثارته سؤال سائل يقول : متى يكون جزاؤهم ، وإن كان تهكّما بهم على صدفهم عن الآيات التي جاءتهم ، وتطلّعهم إلى آيات أعظم منها في اعتقادهم ، فهو ناشىء عن جملة : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ [

الأنعام : 157] لأنَّه يثير سؤال سائل يقول : ماذا كانوا يترقَّبون من الآيات فوق الآيات التي جاءتهم .

و﴿ هل ﴾ للاستفهام الإنكاري ، وهي ترد له كما ترد له الهمزة على التّحقيق ، ولذلك جاء بعده الاستثناء .

و﴿ ينظرون ﴾ مضارع نَظَر بمعنى انتظر ، وهو مشترك مع نظر بمعنى رأى في الماضي والمضارع والمصدر ، ويخالفه في التّعدية ، ففِعل نَظَر العين متعدّ بإلى ، وفعل الانتظار متعدّ بنفسه ، ويخالفه أيضاً في أنّ له اسم مصدر وهو النظِرة بكسر الظاء ولا يقال ذلك في النّظر بالعين .

والضّمير عائد للّذين يصدفون عن الآيات .

(129/258)

ثمّ إنْ كان الانتظار واقعاً منهم على أنَّه انتظار آيات ، كما يقترحون ، فمعنى الحصر : أنَّهم ما ينتظرون بعد الآيات التي جاءتهم ولم يقتنعوا بها إلاّ الآيات التي اقترحوها وسألوها وشرطوا أن لا يؤمنوا حتّى يُجاءوا بها ، وهي ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ إلى قوله ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ﴾ [الإسراء :

92 90] وقوله ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] فهم ينتظرون بعض ذلك بجِدّ من عامتّهم ، فالانتظار حقيقة ، وبسخرية من قادتهم ومضلّليهم ، فالانتظار مجاز بالصّورة ، لأنَّهم أظهروا أنفسهم في مظهر المنتظرين ، كقوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا ﴾ [التوبة : 64] الآية .

والمراد ببعض آيات ربّك : ما يشمل ما حكي عنهم بقوله : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى قوله حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 90 93] .

وفي قوله : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ إلى قوله ﴿ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الأنعام : 8 10] فالكلام تهكّم بهم وبعقائدهم .

وإن كان الانتظار غير واقع بجدّ ولا بسخرية فمعناه أنَّهم ما يترقَّبون شيئاً من الآيات يأتيهم أعظم ممَّا أتاهم ، فلا انتظار لهم ، ولكنّهم صمّموا على الكفر واستبطنوا العناد ، فإن فرض لهم انتظار فإنَّما هو انتظار ما سيَحل بهم من عذاب الآخرة أو عذاب الدّنيا أو ما هو برزخ بينهما ، فيكون الاستثناء تأكيداً للشّيء بما يشبه ضدّه .

والمراد : أنَّهم لا ينتظرون شيئاً ولكن سيجيئهم ما لا ينتظرونه ، وهو إتيان الملائكة ، إلى آخره ، فالكلام وعيد وتهديد .

والقصر على الاحتمالين إضافي ، أي بالنّسبة لما ينتظر من الآيات ، والاستفهام الخبري مستعمل في التهكّم بهم على الاحتمالين ، لأنَّهم لا ينتظرون آية ، فإنَّهم جازمون بتكذيب الرّسول صلى الله عليه وسلم ولكنّهم يسألون الآيات إفحاماً في ظنّهم .

ولا ينتظرون حساباً لأنَّهم مكذّبون بالبعث والحشر .

والإتيان بالنّسبة إلى الملائكة حقيقة ، والمراد بهم : ملائكة العذاب ، مثل الّذين نزلوا يوم بدر ﴿ إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان ﴾ [الأنفال : 12] .

وأمّا المسند إلى الرّب فهو مجاز ، والمراد به : إتيان عذابه العظيم ، فهو لعظم هوله جعل إتيانه مسنداً إلى الآمر به أمراً جازماً ليعرف مقدار عظمته ، بحسب عظيم قدرة فاعله وآمره ، فالإسناد مجازي من باب : بنى الأمير المدينة ، وهذا مجاز وارد مثله في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ [الحشر : 2] وقوله : ﴿ ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ﴾ [النور : 39] .

ويجوز أن يكون المراد بقوله : ﴿ أو يأتي ربك ﴾ إتيان أمره بحساب النّاس يوم القيامة ، كقوله : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفاً ﴾ [الفجر : 22] ، أي لا ينتظرون إلاّ عذاب

الدّنيا أو عذاب الآخرة .

وعلى الاحتمالات كلّها يجوز أن يكون وقوع ذلك يوم القيامة ، ويجوز أن يكون في الدّنيا .

(131/258)

وجملة : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً تذكيراً لهم بأنّ الانتظار والتريّث عن الإيمان وخِيمُ العاقبة ، لأنَّه مهدّد بما يمنع من التّدارك عند النّدامة ، فإمَّا أن يعقبه الموت والحساب ، وإمّا أن يعقبه مجيء آية من آيات الله ، وهي آية عذاب خارق للعادة يختصّ بهم فيعلموا أنَّه عقوبة على تكذيبهم وصَدْفهم ، وحين ينزّل ذلك العذاب لا تبقى فسحة لتدارك ما فات لأنّ الله إذا أنزل عذابه على المكذّبين لم ينفع عنده توبة ، كما قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : 98] وقال تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾ [الحجر : 8] وقال ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ [الأنعام : 8] .

ومن جملة آيات الله الآيات التي جعلها الله عامّة للنّاس ، وهي أشراط السّاعة : والتي منها طلوع الشّمس من مغربها حين تُؤذن بانقراض نظام العالم الدنيوي .

روى البخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون وذلك حينَ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " ثمّ قرأ هذه الآية .

والنّفع المنفي هو النّفع في الآخرة ، بالنّجاة من العذاب ، لأنّ نفع الدّنيا بكشف العذاب عند مجيء الآيات لا ينفع النّفوس المؤمنة ولا الكافرة ، لقوله تعالى:

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : 25] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثمّ يحشرون على نياتهم " .

والمراد بالنّفس : كلّ نفس ، لوقوعه في سياق النّفي .

(132/258)

وجملة : ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ صفة ﴿ نفساً ﴾ ، وهي صفة مخصّصة لعموم : ﴿ نفساً ﴾ ، أي : النّفس التي لم تكن آمنت من قبل إتيان بعض الآيات لا ينفعها إيمانها إذا آمنت عند نزول العذاب ، فعلم منه أنّ النّفس التي كانت آمنت من قبل نزول العذاب ينفعها إيمانها في الآخرة .

وتقديم المفعول في قوله : ﴿ نفساً إيمانها ﴾ ليتمّ الإيجاز في عود الضّمير .

وقوله : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ عطف على ﴿ آمنت ﴾ ، أي أو لم تكن كسبت في إيمانها خيراً .

و ﴿ في ﴾ للظرفيّة ، وإنَّما يصلح للظرفية مدّة الإيمان ، لا الإيمان ، أي أو كسبت في مدّة إيمانها خيراً .

والخير هو الأعمال الصّالحة والطّاعات .

و ﴿ أو ﴾ للتّقسيم في صفات النّفس فيستلزم تقسيم النّفوس التي خصّصتها الصّفتان إلى قسمين : نفوس كافرة لم تكن آمنت من قبل ، فلا ينفعها إيمانها يوم يأتي بعض آيات الله ، ونفوس آمنت ولم تكسب خيراً في مدّة إيمانها ، فهي نفوس مؤمنة ، فلا ينفعها ما تكسبه من خير يوم يأتي بعض آيات ربّك .

وهذا القسم الثّاني ذو مراتب متفاوتة ، لأنّ التّقصير في اكتساب الخير متفاوت ، فمنه إضاعة لأعمال الخير كلّها ، ومنه إضاعة لبعضها ، ومنه تفريط في الإكثار منها .

وظاهر الآية يقتضي أن المراد نفوس لم تكسب في إيمانها شيئاً من الخير أي اقتصرت على الإيمان وفرّطت في جميع أعمال الخير .

وقد علم من التّقسيم أنّ هذه النّفوس لا ينفعها اكتساب الخير من بعد مجيء الآيات ، ولا ما يقوم مقام اكتساب الخير عند الله ، وهو ما منّ به على هذه الأمّة من غفران السيّئات عند

التّوبة ، فالعزم على الخير هو التّوبة ، أي العزم على اكتساب الخير ، فوقع في الكلام إيجازُ حذف اعتمَاداً على القرينة الواضحة .

(133/258)

والتّقدير : لا ينفع نفساً غيرَ مؤمنة إيمانُها أو نفساً لم تكن كسبت خيراً في إيمانها من قبل كسبها ، يعني أو ما يقوم مقام كسب الخير ، مثل التّوبة فإنَّها بعض اكتساب الخير ، وليس المراد أنّه لا ينفع نفساً مؤمنة إيمانُها إذا لم تكن قد كسبت خيراً بحيث يضيع الإيمان إذا لم يقع اكتساب الخير ، لأنَّه لو أريد ذلك لما كانت فائدة للتّقسيم ، ولكفى أن يقال لا ينفع نفساً إيمانها لم تكسب خيراً ، ولأنّ الأدلّة القطعية ناهضة على أن الإيمان الواقع قبل مجيء الآيات لا يُدْحَض إذا فرّط صاحبه في شيء من الأعمال الصّالحة ، ولأنَّه لو كان كذلك وسلَّمناه لما اقتضى أكثر من أنّ الّذي لم يفعل شيئاً من الخير عدا أنَّه آمن لا ينفعه إيمانه ، وذلك إيجاد قسم لم يقل به أحد من علماء الإسلام .

وبذلك تعلم أنّ الآية لا تنهض حجّة للمعتزلة ولا الخوارج الذين أوجبوا خلود مرتكب الكبيرة غير التّائب في النّار ، والتّسويةَ بينه وبين الكافر ، وإن كان ظاهرُها قبل التأمّل يوهم أنَّها حجّة لهم ، ولأنّه لو كان الأمر كما قالوا لصار الدّخول في الإيمان مع ارتكاب كبيرة

واحدة عبثاً لا يرضاه عاقل لنفسه ، لأنّه يدخل في كلفةِ كثيرٍ من الأعمال بدون جدوى عليه منها ، ولكان أهون الأحوال على مرتكب الكبيرة أن يخلع ربقة الإيمان إلى أن يتوب من الأمرين جميعاً .

وسخافة هذا اللازم لأصحاب هذا المذهب سخافة لا يرضاها من له نظر ثاقب .

6 والاشتغال بتبيين ما يستفاد من نظم الآية من ضبط الحدّ الذي ينتهي عنده الانتفاع بتحصيل الإيمان وتحصيل أعمال الخير ، أجدى من الخوض في لوازم معانيها من اعتبار الأعمال جُزْءاً من الإيمان ، لا سيّما مع ما في أصل المعنى من الاحتمال المسقط للاستدلال .

فصفة : ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ تحذير للمشركين من التريُّث عن الإيمان خشية أن يبغتهم يومُ ظهور الآيات ، وهم المقصود من السّياق .

(134/258)

وصفة ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ إدماج في أثناء المقصود لتحذير المؤمنين من الإعراض عن الأعمال الصّالحة .

ثمّ إنّ أقوال المفسرين السّالفين ، في تصوير هذين القسمين ، تفرّقت تفرّقاً يؤذن باستصعاب

استخلاص مقصود الآية من ألفاظها ، فلم تقارب الإفصاح بعبارة بيّنة ، ويجمع ذلك ثلاثة أقوال:

الأوّل : عن السدّي ، والضحاك : أنّ معنى ﴿ كسبت في إيمانها خيراً ﴾ : كسبت في تصديقها ، أي معه أو في مدّته ، عملاً صالحاً ، قَالا : وهؤلاء أهلُ القبلة ، فإن كانت مُصدّقة ولم تعمل قبل ذلك ، أي إتيان بعض آيات الله ، فعمِلت بعد أن رأت الآية لم يُقبل منها ، وإن عملتْ قبل الآية خيراً ثمّ عملت بعد الآية خيراً قُبل منها .

الثّاني : أنّ لفظ القرآن جرى على طريقة التّغليب ، لأنّ الأكثر ممّن ينتفع بإيمانه ساعتئذ هو من كسب في إيمانه خيراً .

الثّالث : أنّ الكلام إبهام في أحد الأمرين ، فالمعنى : لا ينفع يومئذ إيمان من لم يكن آمن قبل ذلك اليوم أو ضمّ إلى إيمانه فعل الخير ، أي لا ينفع إيمان من يؤمن من الكفار ولا طاعة من يطيع من المؤمنين .

وأمّا من آمن قبل فإنَّه ينفعه إيمانه ، وكذلك من أطاع قبلُ نفعته طاعته .

وقد كان قوله : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ بعد قوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ ، مقتصراً على ما يأتي من آيات الله في اليوم المؤجّل له ، إعراضاً عن التعرّض لما يكون يوم تأتي الملائكة أو يأتي ربّك ، لأنّ إتيان الملائكة ، والمعطوف عليه غير محتمَل الوقوع وإنَّما جرى ذكره إبطالاً لقولهم : ﴿ أو تأتي

باللَّه والملائكة قَبيلاً ﴾ [الإسراء : 92] ونحوه من تهكّماتهم ، وإنَّما الذي يكون ممّا انتظروه هو أن يأتي بعض آيات الله ، فهو محلّ الموعظة والتّحذير ، وآيات القرآن في هذا كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ [غافر : 85] .

(135/258)

وآياتُ اللَّه منها ما يختصّ بالمشركين وهو ما هدّدهم الله به من نزول العذاب بهم في الدّنيا ، كما نزل بالأمم من قبلهم ، ومنها آيات عامّة للنّاس أجمعين ، وهو ما يُعرف بأشراط السّاعة ، أي الأشراط الكبرى .

وقد جاء تفسير هذه الآية في السنّة بطلوع الشّمس من مغربها .

ففي "الصّحيحين" وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها فإذا رآها النّاس آمَن مَنْ عليها فذلك حينَ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " .

ثمّ قرأ هذه الآية ، أي قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ إلى قوله ﴿ خيراً ﴾ .

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من تاب

قبل طلوع الشّمس من مغربها تاب الله عليه " .

وفي "جامع التّرمذي" ، عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بابٌ مِن قِبل المغرب مفتوح مسيرة عَرضه أربعين سنة (كذا) مفتوح للتَّوبة لا يُغلق حتّى تطلُع الشّمس من مغربها " قال التّرمذي : حديث صحيح .

واعلم أنّ هذه الآية لا تعارض آية سورة النّساء (18) : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ لأنّ محمل تلك الآية على تعيين وقت فوات التّوبة بالنّسبة للأحوال الخاصّة بآحاد النّاس ، وذلك ما فُسّر في حديث ابن عمر : أنّ رسول الله قال : إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ رواه التّرمذي ، وابن ماجه ، وأحمد .

(ومعنى يغرغر أن تبلغ روحه أي أنفاسه رأْس حلقه) .

ومحمل الآية التي نتكلّم فيها تعيين وقت فوات التّوبة بالنّسبة إلى النّاس كافة ، وهي حالة يأس النّاس كلّهم من البقاء .

(136/258)

وجاء الاستئناف بقوله : قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ أمراً للرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يهدّدهم ويتوعّدهم على الانتظار ، إن كان واقعاً منهم ، أو على التريُّثِ والتّأخّر عن الدّخول في الإسلام الذي هو شبيه بالإنتظار إن كان الانتظار إدّعائياً ، بأن يأمرهم بالدّوام على حالهم التي عبّر عنها بالانتظار أمْرَ تهديد ، ويخبرهم بأنّ المسلمين ينتظرون نصر الله ونزول العقاب بأعدائهم ، أي : دوموا على انتظاركم فنحن منتظرون .

وفي مفهوم الصّفتين دلالة على أنّ النّفس التي آمنت قبل مجيء الحساب ، وكسبت في إيمانها خيراً ، ينفعها إيمانها وعملها .

فاشتملت الآية بمنطوقها ومفهومها على وعيد ووعد مُجملين تبيّنهما دلائل الكتاب والسنّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(137/258)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التي تقبض الروح ؟ والملائكة تأتي هنا مجملة . وفي آيات أخرى يقول : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي

أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السلم . . . ﴾ [النحل : 28]

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهي المسألة .

ويتابع سبحانه : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : 158]

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الأتيان منا ، والأتيان منا يقتضي انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلح مع الله ونقول : أفسرت كل مجيء على ضوء المجيء بالنسبة لك ؟ بالله قل لي : ما رأيك في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ . . . ﴾ [ق : 19]

(138/258)

كيف جاءت سكرة الموت وهي المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجيء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجيء الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شيء بالنسبة لله بما يليق بذات الله في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شيء منسوباً لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجيء يختلف

بأقدار الجائين ، فمجيء الطفل غير مجيء الشاب ، غير مجيء الرجل العجوز ، غير مجيء الفارس ، فما بالنا بمجيء الله سبحانه ؟ ! ! إياك – إذن – أن تفهم المجيء على ضوء مجيء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شيء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، ولذلك قل : له سمْع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . وإياكم أن تسمعوا مناقشة في قوله : ﴿ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ .

و﴿ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ ، هي العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : "بَادِرُوا بالأعمال سِتًّا : طلوعَ الشمس من مغربها ، والدُّخَان ، ودابَّةَ الأرض ، والدَّجَّالَ ، وخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ وأَمْرَ العامّة" .

و" خُوَيْصَةُ أحدكم " تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التي تخص الإنسان ، وصغّرت لاستصغارها في جنب سائر العظائم من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هي ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و" أمر العامّة " : أي القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التي تعمي وتصم ، أو الأمر الذي يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام : 158]

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبي ؛ فكل أمر مشهدي مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : انا أؤمن بأني أقرأ الآن في كتاب خواطر الشيخ الشعراوي حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وأنت لا تقول : أنا أؤمن بأن النور يضيء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدي ، وليس أمراً غيبيًّا . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبي ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا ننتقل من الإيمان بالأمر الغيبي إلى الإيمان بالأمر الحسي ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مَالَك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذي لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التي قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدي الساعة أو قبل مجيء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبي ، وظهور الآيات هو أمر مشهدي فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ

بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ [الأنعام: 158]

أي أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات، وألا يكون المانع له من العمل القصور، كأن يكون الإنسان – والعياذ بالله – مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجيء العلامة، أو لم يَبْلُغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان.

(140/258)

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث في التاريخ السابق، فهو القائل: ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس: 90]

وماذا كان رد الله عليه؟ لقد قال سبحانه: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ . . . ﴾ [يونس: 91]

إذن: إذا بلغت الروح الحلقوم، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك الإيمان.

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿ . . . انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: 158]

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون الفلاح. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ قال : عند الموت ﴿ أو يأتي ربك ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ قال : بالموت ﴿ أو يأتي ربك ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ أو يأتي ربك ﴾ قال : يوم القيامة في ظلل من الغمام .

أخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ يوم يأتي بعض

آيات ربك ﴾ قال " طلوع الشمس من مغربها " " .

وأخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ قال " طلوع الشمس من مغربها " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ قال : طلوع الشمس من مغربها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبراني عن ابن مسعود في قوله ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ قال : طلوع الشمس من مغربها .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني عن ابن مسعود ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ قال : طلوع الشمس والقمر من مغربهما مقترنين كالبعيرين القرنيين ، ثم قرأ ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ قال : طلوع الشمس من مغربها .

(142/258)

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ثم قرأ الآية " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ثلاث إذا خرجت لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله صلى عليه وسلم " أن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها ، ثم قال عبد الله وكان قرأ الكتب : وأظن أولهما خروجاً الشمس من مغربها ، وذلك أنها كلما خرجت أتت تحت العرش ، فسجدت وأستأذنت في الرجوع فيأذن لها في الرجوع ، حتى إذا بدا لله أن تطلع عن مغربها فعلت كما كانت تفعل ، أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلم يرد عليها شيء ، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، وعرفت أنه إن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت : رب ما أبعد المشرق من لي بالناس ؟ حتى إذا

صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع فيقال لها : من مكانك فاطلعي .

فطلعت على الناس من مغربها ، ثم تلا عبد الله هذه الآية ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ .

(143/258)

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال : تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين ، فبينما الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا والنجوم لا ترى قد قامت مقامها ، ثم يرقدون ثم يقومون فيعملون ثم يرقدون ، ثم يقومون فيطل عليهم جنوبهم حتى يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ولا يصبحون ، فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذا هي طلعت من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم "

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : "كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وعليه بردعة وقطيفة وذاك عند غروب الشمس فقال : يا أبا ذر أتدري أين تغيب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . . . ! قال : فإنها تغرب في عين حمئة تنطلق

حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش ، فإذا حان خروجها أذن لها فتخرج فتطلع ، فإذا أراد أن يطلعها من حيث تغرب حبسها فتقول : يا رب ان سيري بعيد ؟ فيقول لها : اطلعي من حيث غربت . فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " .

(144/258)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ فهو آية لا ينفع مشركاً إيمانه عند الآيات ، وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيراً قبل ذلك قال ابن عباس : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العيشات فقال لهم " يا عباد الله توبوا إلى الله بقراب ، فإنكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب ، فإذا فعلت ذلك حبست التوبة ، وطوى العمل ، وختم الإيمان . فقال الناس : هل لذلك من آية يا رسول الله ؟ فقال : آية تلكم الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال ، فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ، ثم يقضون صلاتهم والليل كأنه لم ينقض ، فيضطجعون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه ، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم ، فإذا أصبحوا فطال عليهم طلوع الشمس ، فبينما هم ينتظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب ، فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن

آمنت من قبل ذلك " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك . . . ﴾ الآية . قال ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول " بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وخويصة أحدكم وأمر العامة . القيامة ، ذكر لنا أن قائلاً قال : يا نبي الله ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ قال : تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين . فيقوم المتهجدون لحينهم الذي كانوا يصلون فيه ، فيصلون حتى يقضوا صلاتهم والنجوم مكانها لا تسري ، ثم يأتون فرشهم فيرقدون حتى تكل جنوبهم ، ثم يقومون فيصلون حتى يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ، ثم يصبحون ولا يصبحون إلا عصراً عصراً ، فبينما هم ينتظرونها من مشرقها إذ فجئتهم من مغربها " .

(145/258)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ قال : لا ينفعها الإيمان إن آمنت ولا تزداد في عمل ان لم تكن عملته .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ يقول : كسبت في تصديقها عملاً صالحاً ، هؤلاء أهل القبلة وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك

خيراً فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها ، وإن عملت قبل الآية خيراً ثم عملت بعد الآية خيراً قبل منها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ يعني المسلم الذي لم يعمل في إيمانه خيراً ، وكان قبل الآية مقيماً على الكبائر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما الآيات خرزات منظومات في سلك ، انقطع السلك فتبع بعضها بعضاً " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الإِمارات خرزات منظومات بسلك ، فإذا انقطع السلك نبع بعضه " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الآيات خرز منظومات في سلك يقطع السلك فيتبع بعضها بعضاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال : لو أن رجلاً ارتبط فرساً في سبيل الله ، فانتحبت مهراً منذ أول الآيات ما ركب المهر حتى يرى آخرها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال : إذا رأيتم أول الآيات تتابعت .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي هريرة قال : الآيات كلها في ثمانية

أشهر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية قال : الآيات كلها ستة أشهر .

(146/258)

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال : أن الشمس إذا غربت سلمت وسجدت وأستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوماً غربت فسلمت وسجدت واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : يا رب إن المشرق بعيد وإني ان لا يؤذن لي لا أبلغ ؟ قال : فتحبس ما شاء الله ، ثم يقال لها . اطلعي من حيث غربت فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل الآية .

وأخرج البيهقي في البعث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : الآية التي لا ينفع نفساً إيمانها إذا طلعت الشمس من مغربها .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليأتين على الناس ليلة بقدر ثلاث ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك يعرفها المصلون يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ثم ينام ، ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام ، ثم يقوم فبينما هم كذلك ماج الناس بعضهم في بعض فقالوا : ما هذا ؟ ! فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم

بالشمس قد طلعت من مغربها ، فضج الناس ضجة واحدة حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت طلعت من مطلعها ، وحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها " .

وأخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي وابن مردويه عن صفوان بن عسال عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله جعل بالمغرب باباً عرضه سبعون عاماً ، مفتوحاً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من مغربها قبله ، فذلك قوله ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ ولفظ ابن ماجة : فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا " .

(147/258)

وأخرج الطبراني عن صفوان بن عسال قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانشأ يحدثنا أن للتوبة باباً عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك .

. . ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه " .

وأخرج عبد بن حميد والطبراني عن ابن مسعود قال : التوبة معروضة على ابن آدم ما لم يخرج إحدى ثلاث : ما لم تطلع الشمس من مغربها ، أو تخرج الدابة ، أو يخرج يأجوج ومأجوج . وقال : مهما يأتِ عليكم عام فالآخر شر .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها " .

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإِيمان وابن مردويه من طريق مالك بن يخامر السكسكي عن عبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو بن العاص " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع الهجرة ما تقبل التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مضت الآيات غير أربعة : الدجال ، والدابة ، ويأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، والآية

التي يختم الله بها الأعمال . طلوع الشمس من مغربها ، ثم قرأ ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك . . . ﴾ الآية قال : فهي طلوع الشمس من مغربها .

(148/258)

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هذه الأمة قردة وخنازير ، وتطوى الدواوين ، وتجف الأقلام ، لا يزاد في حسنه ولا ينقص من سيئه ، ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عائشة قالت : إذا خرج أول الآيات طرحت الأقلام ، وطويت الصحف ، وحبست الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة ، قال قتادة : خويصة أحدكم : الموت . وأمر العامة : الساعة " .

وأخرج ابن ماجة عن أنس عن رسول الله صلى عليه وسلم قال

" بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامه " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " العظام سبع ، مضت واحدة وهي الطوفان وبقيت فيكم ست : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، والصور " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى يلتقي الشيخان الكبيران فيقول أحدهما لصاحبه : متى ولدت ؟ فيقول : زمن طلعت الشمس من مغربها " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : كنا نحدّث أن الآيات يتابعن تتابع النظام في الخيط عاماً فعاماً .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو قال : الآيات خرزات منظومات في سلك ، انقطع السلك فتبع بعضهن بعضاً .

وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الآيات بعد المائتين " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال : أن الناس بعد الآية يصلون ويصومون ويحجون ، فيتقبل الله ممن كان يتقبل منه قبل الآية ، ومن لم يتقبل منه قبل الآية لم يتقبل منه بعد الآية .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال : يبيت الناس يسرون إلى جمع ، وتبيت دابة الأرض تسري إليهم ، فيصبحون وقد جعلتهم بين رأسها وذنبها ، فما من مؤمن الا تمسحه ، ولا منافق ولا كافر الا تخطمه ، وان التوبة لمفتوحة ، ثم يخرج الدخان فيأخذ المؤمن منه كهيئة الزكمة ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالشيء الخفيف ، وان التوبة لمفتوحة ، ثم تطلع الشمس من مغربها .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في البعث عن حذيفة بن أسيد قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من علية ونحن نتذاكر فقال " ماذا تذكرون ؟ قلنا : نتذاكر الساعة . قال فإنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، والدجال ، وعيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف

بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن أو اليمن تطرد الناس إلى المحشر ، تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم إذا قالوا " .

(150/258)

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال : إن يأجوج ومأجوج ما يموت الرجل منهم حتى يولد له من صلبه ألف فصاعداً ، وان من ورائهم ثلاث أمم ما يعلم عدتهم إلا الله تعالى : منسك ، وتأويل ، وتاريس ، وان الشمس إذا طلعت كل يوم أبصرها الخلق كلهم ، فإذا غربت خرت ساجدة فتسلم وتستأذن فلا يؤذن لها ، ثم تستأذن فلا يؤذن لها ، ثم الثالثة فلا يؤذن لها فتقول : يا رب إن عبادك ينظروني والمدى بعيد ؟ فلا يؤذن لها حتى إذا كان قدر ليلتين أو ثلاث قيل لها : اطلعي من حيث غربت فتطلع فيراها أهل الأرض كلهم ، وهي فيما بلغنا أول الآيات ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ فيذهب الناس فيتصدقون بالذهب الأحمر فلا يؤخذ منهم ، ويقال : لو كان بالأمس .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي عن عبد الله بن مسعود أنه قال ذات يوم لجلسائه : أرأيتم قول الله عز وجل ﴿ تغرب في عين حمئة ﴾ [الكهف : 86] ماذا يعني بها ؟ قالوا : الله أعلم ! قال : فإنها إذا غربت سجدت له وسبحته وعظمته وكانت تحت العرش ،

فإذا حضر طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته واستأذنته فيؤذن لها ، فإذا كان اليوم الذي تحبس فيه سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم استأذنته فيقال لها : أثبتي . فإذا حضر طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم استأذنته فيقال لها : أثبتي . فتحبس مقدار ليلتين قال : ويفزع إليها المتهجدون ، وينادي الرجل جاره يا فلان ما شأننا الليلة ، لقد نمت حتى شبعت ، وصليت حتى أعيت ؟ ! ثم يقال لها : إطلعي من حيث غربت . فذاك ﴿ يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . . . ﴾ الآية .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن ابن عباس قال : خطبنا عمر فقال : أيها الناس سيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم ، ويكذبون بالدجال ، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها ، ويكذبون بعذاب القبر ، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا .

(151/258)

وأخرج البخاري في تاريخه وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن كعب قال : إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب ، فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها .

وأخرج ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " خلق الله

عند المشرق حجاباً من الظلمة على البحر السابع على مقدار ليالي الدنيا كلها ، فإذا كان غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة قد وكل بالليل ، فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب ، فلا يزال يرسل تلك الظلمة من خلال أصابعه قليلاً قليلاً وهو يراعي الشفق ، فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة كلها ، ثم ينشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وأكناف السماء ، فيجاوزان ما شاء الله أن يجاوزا في الهواء ، فيشق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس لله حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل ، فإذا بلغ المغرب انفجر الصبح من المشرق ضم جناحيه وضم الظلمة بعضها إلى بعض بكفيه ، حتى يقبض عليها بكف واحدة مثل قبضته حين تناولها من الحجاب بالمشرق ، ثم يضعها عن المغرب على البحر السابع فمن هناك تكون ظلمة الليل ، فإذا حوّل ذلك الحجاب من المشرق إلى المغرب نفخ في الصور ، فضوء النهار من قبل الشمس وظلمة الليل من قبل ذلك الحجاب .

(152/258)

فلا تزال الشمس تجري من مطلعها إلى مغربها حتى يأتي الوقت الذي جعله الله لتوبة عباده ، فتستأذن الشمس من أين تطلع ويستأذن القمر من أين يطلع فلا يؤذن لهما ، فيحسبان

مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف مقدار حبسهما إلا قليل من الناس وهم بقية أهل الأرض وحملة القرآن ، يقرأ كل رجل منهم ورده في تلك الليلة ، حتى إذا فرغ منه نظر فإذا ليلته على حالها ، فيعود فيقرأ ورده فإذا فرغ منه نظر فإذا الليلة على حالها ، فيعود فيقرأ ورده فإذا فرغ منه نظر فإذا الليلة على حالها ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا حملة القرآن ، فينادي بعضهم بعضاً ، فيجتمعون في مساجدهم بالتضرع والبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ومقدار تلك الليلة مقدار ثلاث ليال ، ثم يرسل الله جبريل عليه السلام إلى الشمس والقمر ، فيقول : إن الرب عزل وجل أمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منها فإنه لا ضوء لكما ولا نور . فتبكي الشمس والقمر من خوف يوم القيامة وخوف الموت ، فترجع الشمس والقمر فتطلعان من مغربهما .

فبينما الناس كذلك يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل والغافلون في غفلاتهم إذ نادى مناد : ألا أن باب التوبة قد أغلق والشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما ، فينظر الناس فإذا بهما أسودان كالعكمين لا ضوء لهما ولا نور ، فذلك قوله ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] فيرتفعان مثل البعيرين المقرونين المعقودين ، ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقاً ، ويتصايح أهل الدنيا ، وتذهل الأمهات ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فأما الصالحون والأبرار فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم عبادة ، وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب عليهم حسرة ، فإذا بلغت الشمس والقمر سرة السماء

وهو منصفها جاءهما جبريل عليه السلام فأخذ بقرونهما فردهما إلى المغرب ، فلا يغربهما في مغاربهما ولكن يغربهما في باب التوبة .

(153/258)

فقال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وما باب التوبة ؟ فقال : يا عمر خلق الله باباً للتوبة خلف المغرب وهو من أبواب الجنة ، له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والياقوت والجوهر ، ما بين المصراع إلى المصراع مسيرة أربعين عاماً للراكب المسرع ، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربها ، ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحاً من لدن آدم إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب ثم ترفع إلى الله ، فقال معاذ بن جبل : يا رسول الله وما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيهرب إلى الله منه ، ثم لا يعود إليه حتى يعود اللبن في الضرع . قال : فيغربهما جبريل في ذلك الباب ثم يرد المصراعين ، فيلتئم ما بينهما ويصيران كأنهما لم يكن فيهما صدع قط ولا خلل ، فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك إلا ما كان قبل ذلك ، فإنه يجري لهم وعليهم بعد ذلك ما كان يجري لهم قبل ذلك ، فذلك قوله تعالى ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ .

فقال أبي بن كعب : يا رسول الله فداك أبي وأمي فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك ، وكيف بالناس والدنيا . . . ؟ ! قال : يا أبي إن الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك ضوء النور ، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس فإنهم حين رأوا ما رأوا من تلك الآية وعظمها ، يلحون على الدنيا فيعمرونها ويجرون فيها الأنهار ، ويغرسون فيها الأشجار ، ويبنون فيها البنيان ، فاما الدنيا فإنه لو نتج مهراً لم يركب حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى يوم ينفخ في الصور " .

(154/258)

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن والحاكم في المستدرك وضعفه عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " بين أذني الدجال أربعون ذراعاً ، وخطوة حمارة مسيرة ثلاثة أيام ، يخوض البحر كما يخوض أحدكم الساقية ، ويقول : أنا رب العالمين ، وهذه الشمس تجري باذني أتريدون أن أحبسها ؟ فتحبس الشمس حتى يجعل اليوم كالشهر والجمعة ، ويقول : أتريدون أن أسيرها ؟ فيقولون : نعم . فيجعل اليوم كالساعة ، وتأتيه المرأة فتقول : يا رب أحي لي أخي وابني وزوجي ، حتى انها تعانق شيطاناً وبيوتهم مملوءة

شياطين ، ويأتيه الأعرابي فيقول : يا رب أحي لنا ابلنا وغنمنا ، فيعطيهم شياطين أمثال ابلهم وغنمهم سواء بالسن والسمة ، فيقولون : لو لم يكن هذا ربنا لم يحي لنا موتانا ؟ ! ومعه جبل من فرق وعراق اللحم حار لا يبرد ، ونهر حار ، وجبل من جنان وخضرة ، وجبل من نار ودخان يقول : هذه جنتي ، وهذه ناري ، وهذا طعامي ، وهذا شرابي . واليسع عليه السلام معه ينذر الناس يقول : هذا المسيح الكذاب فاحذروه لعنه الله .

ويعطيه الله من السرعة والخفة ما لا يلحقه الدجال ، فإذا قال : أنا رب العالمين . قال له الناس : كذبت ، ويقول ، اليسع : صدق الناس . فيمر بمكة فإذا هو بخلق عظيم فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا ميكائيل بعثني الله لأمنعه من حرمه ، ويمر بالمدينة فإذا هو بخلق عظيم ، فيقول من أنت ؟ فيقول : أنا جبريل بعثني الله لأمنعه من حرم رسوله .

(155/258)

فيمر الدجال بمكة فإذا رأى ميكائيل ولى هارباً ويصيح ، فيخرج إليه من مكة منافقوها ومن المدينة كذلك ، ويأتي النذير إلى الذين فتحوا القسطنطينية ، ومن تألف من المسلمين ببيت المقدس قال : فيتناول الدجال ذلك الرجل فيقول : هذا الذي يزعم أني لا أقدر عليه فاقتلوه ، فَيُنْشَرَ ثم يقول : أنا أحييه قم ولا يأذن الله لنفس غيرها فيقول : أليس قد أمتُّك ثم

أَحْيَيْتُك ؟ فيقول : الآن ازددت فيك يقيناً ، بشرني رسول الله صلى الله عليه وسلم انك تقتلني ثم أحيا باذن الله ، فيوضع على جلده صفائح من نحاس فلا يحيك فيه سلاحهم ، فيقول اطرحوه في ناري ، فيحوّل الله ذلك الجبل على النذير جناناً ، فيشك الناس فيه ويبادر إلى بيت المقدس ، فإذا صعد على عقبة أفيق وقع ظله على المسلمين فيوترون قسيهم لقتاله ، فاقواهم من برك أو جلس من الجوع والضعف ويسمعون النداء : جاءكم الغوث . فيقولون : هذا صوت رجل شبعان .

وتشرق الأرض بنور ربها ، وينزل عيسى ابن مريم ويقول : يا معشر المسلمين احمدوا ربكم وسبحوه ، فيفعلون ويريدون الفرار ، فيضيق الله عليهم الأرض فإذا أتوا باب لد في نصف ساعة فيوافقون عيسى ، فإذا نظر إلى عيسى يقول : أقم الصلاة . فيقول الدجال : يا نبي الله قد أقيمت الصلاة . . . ؟ ! فيقول : يا عدو الله زعمت انك رب العالمين فلمن تصلي ؟ فيضربه بمقرعة فيقتله ، فلا يبقى أحد من أنصاره خلف شيء إلا نادى : يا مؤمن هذا دجّال فاقتله ، فيمتعوا أربعين سنة لا يموت أحد ولا يمرض أحد ، ويقول الرجل لغنمه ولدوابه : اذهبوا فارعوا وتمر الماشية بين الزرعين لا تأكل منه سنبلة ، والحيات والعقارب لا تؤذي أحداً ، والسبع على أبواب الدور لا يؤذي أحداً ويأخذ الرجل المدَّ من القمح فيبدره بلا حرث فيجيء منه سبعمائة مد .

فيمكثون في ذلك حتى يكسر سد يأجوج ومأجوج ، فيموجون ويفسدون ويستغيث الناس فلا يستجاب لهم ، وأهل طور سينا هم الذين فتح الله عليهم فيدعون ، فيبعث الله دابة من الأرض ذات قوائم ، فتدخل في آذانهم فيصبحون موتى أجمعين ، وتنتن الأرض منهم فيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم ، فيستغيثون بالله ، فيبعث الله ريحاً يمانية غبراء ، فيصير على الناس غماً ودخاناً وتقع عليهم الزكمة ، ويكشف ما بهم بعد ثلاث وقد قذف جميعهم في البحر ، ولا يلبثون إلا قليلاً حتى تطلع الشمس من مغربها ، وجفت الأقلام وطويت الصحف ، ولا يقبل من أحد توبة ، ويخر إبليس ساجداً ينادي : إلهي مرني أن أسجد لمن شئت ، وتجتمع إليه الشياطين فتقول يا سيدنا إلى من تفزع ؟ فيقول : إنما سألت ربي أن ينظرني إلى يوم البعث وقد طلعت الشمس من مغربها وهذا الوقت المعلوم .

وتصير الشياطين ظاهرة في الأرض حتى يقول الرجل : هذا قريني الذي يغويني فالحمد لله الذي أخزاه ، ولا يزال أبليس ساجداً باكياً حتى تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد ويتمتع المؤمنون بعد ذلك أربعين سنة لا يتمنون شيئاً إلا أعطوه حتى تتم أربعون سنة بعد الدابة ، ثم يعود فيهم الموت ويسرع فلا يبقى مؤمن ، ويبقى الكفار يتهارجون في الطرق كالبهائم حتى ينكح الرجل أمه في وسط الطريق يقوم واحد عنها وينزل واحد ، وأفضلهم يقول : لو تنحيتم

عن الطريق كان أحسن ، فيكون على مثل ذلك حتى لا يولد أحد من نكاح ، ثم يعقم الله النساء ثلاثين سنة ، ويكونون كلهم أولاد زنا شرار الناس عليهم تقوم الساعة " .

(157/258)

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً ينادي ويجهر : إلهي مرني أسجد لمن شئت ؟ فتجتمع إليه زبانيته فيقولون : يا سيدهم ما هذا التضرع ؟ ! فيقول : إنما سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم وهذا الوقت المعلوم . قال : وتخرج دابة الأرض من صدع في الصفا ، فأول خطوة تضعها بانطاكية ، فتأتي إبليس فتخطمه " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : إذا طلعت الشمس من مغربها ذهب الرجل إلى المال كنزه ، فيستخرجه فيحمله على ظهره فيقول : من له في هذه ؟ فيقال له :

أفلا جئت به بالأمس ؟ فلا يقبل منه ، فيجيء إلى المكان الذي احتفره فيضرب به الأرض ويقول : ليتني لم أرك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جندب بن عبد الله البجلي قال : استأذنت على حذيفة ثلاث مرات فلم يأذن لي فرجعت ، فإذا رسوله قد لحقني فقال : ما ردك ؟ قلت ظننت أنك نائم . قال : ما كنت لأنام حتى أنظر من أين تطلع الشمس ؟ قال ابن عون : فحدثت به محمداً فقال : قد فعله غير واحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي أسامة قال : إن صبح يوم القيامة يطول تلك الليلة كطول ثلاث ليال ، فيقوم الذين يخشون ربهم فيصلون ، حتى إذا فرغوا من صلاتهم أصبحوا ينظرون إلى الشمس من مطلعها ، فإذا هي قد طلعت من مغربها . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(158/258)

فائدة

قال فى الميزان :

وفي الآية من بديع النظم ولطيف السياق أنه كرر فيها (لفظ ربك) ثلاث مرات وليس إلا

لتأييد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه خصمه وهم المشركون حيث كانوا يفتخرون بأربابهم ويباهون بأوثانهم ليعتز بربه ويثبت به قلبه ويربط جأشه في دعوته إن نجحت وإلا فبالقضاء الفصل الذى يقضى به ربه بينه وبين خصمه ثم أكد ذلك وزاد في طمانه نفسه بقوله في ختام الآية (قل انتظروا إنا منتظرون) أي فانتظر أنت ما هم منتظرون ، وأخبرهم إنك في انتظاره ، ومرهم أن ينتظروه فهو الفصل وليس بالهزل .

ومن هنا يظهر أن الآية تتضمن تهديدا جديا لا تخويفا صوريا وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم في دفع قول القائل : إن الاستفهام في الآية للتهكم فقال : إن هذه الآيات الثلاث هي ما ينتظرونه كغيرهم في نفس الأمر فلا يصح أن يراد بهذا البعض شئ مما اقترحوه لأن إيتاء الآيات المقترحة على الرسل يقتضى في سنة الله هلاك الأمة بعذاب الاستئصال إذا لم تؤمن به ، والله لا يهلك أمة نبى الرحمة .

انتهى .

وفيه : أن دلالة الآيات القرآنية على أن هذه الأمة سيشملهم القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل مما لا سترة عليها كقوله : (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل – إلى أن قال – ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) إلى آخر الآية (يونس : 47 – 53) .

(159/258)

وقد استدل بالآية على أن الإيمان لا أثر له إذا لم يقترن بالعمل وهو حق في الجملة لا مطلقا فإن الآية في مقام بيان أن من كان في وسعه أن يؤمن بالله فلم يؤمن أو في وسعه أن يؤمن ويعمل صالحا فآمن ولم يعمل صالحا حتى لحقه البأس الإلهى الشديد الذى يضطره إلى ذلك فإنه لا ينتفع بإيمانه ، وإما من آمن طوعا فأدركه الموت ولم يمهله الأجل حتى يعمل صالحا ويكسب في إيمانه خيرا فإن الآية غير متعرضة لبيان حاله بل الآية لا تخلو عن إشعار أو دلالة على أن النافع إنما هو الإيمان إذا كان عن طوع ولم يحط به الخطيئة ولم تفسده السيئة .

وفي قوله : (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت) الفصل بين الموصوف والوصف بفاعل الفعل وهو إيمانها وكأنه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل وفاعله ، واجتماع (في إيمانها) وإيمانها) في اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 388 . 389 ﴾

(160/258)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

و" هل استفهام ، معناه : النَّفْي ، ومعنى " ينظرون " : ينتظرون ، والتقدير : أنَّهم لا يُؤمِنُون بِكَ ، إلاَّ إذا جَاءَهُم أحَدُ هذه الأُمور الثلاثة .

قوله : " أو يَأتِي ربُّكَ " : تقدَّم أنه حَذْفِ مُضَاف .

وقرا الأخوان : " إلا أن يأتِيهُم الملائِكَةُ " بياء منقُوطة من تحت ؛ لأن التأنيث مَجَازِيٌّ ، وهو نظير : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة ﴾ [آل عمران : 39] .

وقرأ أبو العالية ، وابن سيرين : " يَوْم تَأتِي بَعْضُ " بالتأنيث ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَلْتَقِطْهُ ﴾ [يوسف : 10] .

قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّك ﴾ .

الجمهور على نصب " يَوْمَ " ، وناصِبهُ [ما] بَعْد " لاَ " ، وهذا على أحَدٍ الأقوال الثلاثة في " لاَ " وهي أنَّها يتقدَّم مَعْمُول ما بَعْدَها عَلَيْها مُطْلَقاً ، ولا يتقدَّم مُطْلَقاً ، ويُفَصَّل في الثالث : بَيْن أن يَكُون جوابَ قَسم ، فَيَمْتَنِع ؛ أوْ لاَ ، فيجوز .

وقرأ زُهَيْر الفَرْقَبِيُّ : " يومُ " بالرَّفع ، وهو مُبْتَدأ ، وخَبَرُه الجُمْلَة بعده ، والعَائِد مِنْها إليه مَحْذُوف ، أي : لا تَنْفَع فيه .

وقرأ الجُمْهُور " يَنْفَعُ " بالياء من تحت ، وقرأ ابنُ سيرين : " تَنْفَع " بالتَّاء من فوق .

قال أبو حاتم : " ذَكَرُوا أَنَّه غَلَط " .

قال شهاب الدِّين : لأنَّ الفِعْل مسندٌ لِمُذَكَّر ، وجوابُه : أنَّه لما اكْتَسَب بالإضافَة التَّأنيث ، أجْرِي عليه حُكْمُه ؛ كقوله : [الطويل]

2391 - وتَشْرَقُ بالقَوْلِ الَّذِي قَد أذَعْتَهُ . . .

كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وقد تقدَّم تَحْقِيق هذا أوَّل السُّورة ؛ وأنْشَد سيبويه : [الطويل]

2392 - مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحُ تَسَفَّهَتْ . . .

أعَالِيَهَا مضرُّ الرِّيَاحِ النَّواسِم

وقيل : لأن الإيمان بِمَعْنى : العَقِيدة ؛ فهو كقولهم : " أَتَتْهُ كِتَابي فاحْتَقَرَهَا " أي : صَحِيفَتِي ، ورِسَالَتِي .

قال النَّحَّاس : " في هذا شَيْء دَقِيقٌ ذكره سيبويه : وذلك أن الإيمان ، والنَّفْس كلٌّ مُشْتَمِلٌ على الآخَر ، فأَنَّث الإيمان ، إذ هو من النَّفْسِ وبها " وأنشد سيبويه : [الطويل]

2393 - مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ . . . . . .

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : " في هذه القراءة ، يكُون الإيمان مُضَافاً إلى ضَمِير المُؤَنَّثِ الذي هو بَعْضُه ؛ كقوله : ذَهَبَتْ بَعْضُ أصابعِهِ " .

قال أبو حيَّان : " وهو غَلَطٌ ؛ لأن الإيمان لَيْس بَعْضاً من النَّفْس " .

قال شهاب الدّين : وقد تقدّم آنفاً ما يَشْهَد لصحَّةِ هذه العِبَارة من كلام النَّحَّاس ، في قوله عن سيبويه : " وذلك أن الإيمان والنَّفْس كُلٌّ مِنْهُما مُشْتَمِلٌ على الآخَر ، فأَنَّث الإيمان ، إذْ هُو من النَّفْس وبها " فلا فَرْق بين هَاتِيْن العِبَارَتَيْن ، أيْ : لا فَرْق بين أنْ يقول : هو منها وبها ، أو هو بعْضُها ، والمُرَاد في العِبَارتَيْن : المَجَاز .

قوله : ﴿ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ .

في هذه الجملة ثلاثة أوجه :

أحدها : أنَّها في محلِّ نَصْب ؛ [لأنها] نَعْتٌ لـ نَفْساً " ، وفصل بالفَاعل ، وهُوَ " إيمانُها " بين الصِّفَة ومَوْصُوفها ، لأنَّه لَيْس بأجْنَبِيّ ، إذ قد اشْتَرك الموصُوف الَّذِي هو المفعُول والفاعل في العامل ، فعلى هذا يَجُوز : " ضَرَبَ هِنْداً غلامُهَا القُرشِيَّة " ، وقوله " أوْ كَسَبَتَ " عَطْف على " لَمْ تَكُن آمَنَتْ " .

وفي هذه الآية بُحُوثُ حَسَنَةٌ تتعلَّق بِعِلْم العربيَّة وعليْها تُبْنَى مَسَائل من " أصُول الدِّين " ، وذلك أنَّ المُعْتَزِليَّ يقول : " مُجَرَّد الإيمان الصَّحيح لا يَكْفِي ، بل لا بُد من انْضِمَام عمل يَقْتَرِن به ويُصَدِّقه " ، واستدلَّ بظاهِرِ هذه الآية ، وذلك كما قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " لَمْ تَكُون آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ " صفة لقوله " نَفْساً " وقوله : " أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً " عُطِفَت على " آمَنَتْ " والمعنى : أنَّ أشْرَاط السَّاعَةِ إذا جاءت وهي آيات مُلْجِئَةٌ مُضْطَرَّةٌ ، ذهب أوَانُ التَّكلِيف عِنْدَها ؛ فلم يَنْفَعُ الإيمان حينئذٍ نَفْساً غيرَ مُقدِّمةٍ إيمانها قبل ظُهُور الآياتِ ، أو مُقَدِّمَة إيمانها غير كَاسِبَةٍ خيراً في إيمانها ؛ فلم يُفَرِّق كما ترى بين النَّفْس الكَافِرَة إذا آمنت إذا آمنت في غَيْر وقت الإيمان ، وبَيْنَ النَّفْس التي آمَنَت في وقتِهِ ولم تكْسِبْ خيراً ، ليعلم أن قوله : ﴿ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [البقرة : 25] جمع بين قَرِينَتَيْن ، لا ينبغي أن تَنْفَكَّ إحداهما عن الأخْرَى حتى يَفُوزَ صَاحِبُها ويَسْعَد ، وإلاَّ فالشقوة والهلاك .

وقد أجاب بَعْضُ النَّاس هذا الظَّاهر : بأن المَعْنَى بالآية الكريمة : أنَّه إذا أتَى بَعْض الأيات ، لا يَنْفَعُ نَفْساً كَافِرة إيمانُها الَّذِي أوْقَعَتْه إذ ذَلِك ، ولا يَنْفَع نَفْساً سبق إيمانها وما كَسَبَت فيه خَيْراً ، فق علَّق نصفَي نَفْع الإيمان بأحَدِ وَصْفَيْن : إمَّا نَفْيَ سَبْق الإيمان فقط ، وإمَّا سَبْقُه مع نَفْي كَسْب الخَيْر ، ومَفْهُومُه : أنَّه يَنْفَع الإيمان السَّابق وَحْدَه أو السَّابِق ومعهُ الخَيْر ، ومَفْهُوم الصِفَة قَوِيٌّ .

فَيُسْتدل بالآيةِ لِمَذْهَب أهْل السُّنَّة ، فقد قلبوا دَلِيلَهُم دليلاً عَلَيْهم .

وقد أجاب القَاضِي نَاصِر الدّين بن المُنِير عن قول الزَّمخشري – رحمه الله – فقال " قال أحْمَد : هو يَرْوم الاسْتِدلال على أنَّ الكافر والعَاصي في الخُلُود سواءٌ ، حيث سَوَّى في الآية بَيْنَهُما ؛ في عدم الانْتِفَاع بما يَسْتَدْرِكَانِه بعد ظُهُور الآيات ولا يتم ذلك ، فإنَّ هذا الكلام في البلاغة يُلَقَّبُ بـ " اللَّفّ " وأصلهُ : يَوْم يَأتِي بَعْض آيات ربّك لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لم تكن مُؤمِنَة قبل إيمانِها بَعْدُ ، لا نَفْساً لَمْ تَكْسِب خَيْراً قبل ما تَكْسِبُه من الخَيْر بَعْدُ ، فَلَفَّ الكلامين ؛ فجعلُهُمَا كلاماً واحداً إيجازاً وبلاغة ، ويَظْهَرُ بذلك أنَّها لا تُخَالِفُ مذْهَب الحقّ فلا يَنْفَعُ بَعْد ظُهُور الآياتِ اكتِسَاب الخَيْر ، وإن نَفَع فيما ، المُتقدّم من الخُلُود ، فهي بالرّد على مَذْهبه أوْلى من أنْ تدل له " .

الثاني : أن هذه الجُمْلَة في مَحَلِّ نَصب على الحالِ من الضَّمير المَجْرُور ، قاله أبو البقاء ، يعني : من " هَا " في إيمانِها .

الثالث : أن تكُون مُسْتَأنَفة .

وبهذا بَدَأ أبو البقاء ، وثنَّى بالحال ، وجعل الوَصْف ضَعِيفاً ؛ كأنه استَشْعَر ما ذَكَرَهُ الزَّمَخْشري ، ففرَّ من جَعْلِها نَعْتاً ، وأبو حيَّان جعل الحال بَعِيداً ، والاسِتئْنَاف أبْد منه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 525.530 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) ﴾

أخبر أنه بعدما (أزاح) لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم ، واغتروا بطول السلامة لهم ، ثم بيَّن أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُكْماً فلا معارِضَ لتقديره ، ولا مُناقِضَ لتدبيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 513 ﴾

(164/258)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نهى عن اتباع السبل لأنها سبب التفرق عن الحق ، وكان قد كرر في هذه السورة نصب الحجج وإنارة الأدلة وإزاحة الشكوك ومحو آثار الشبه ، وأشرفت السورة على الانقضاء . وكان من المعلوم قطعاً أن الحق – من حيث هو حق – شديد التأثير في إزهاق الباطل فكيف إذا كان كلام الملك الذي لا يخالف أمره ولا يخرج عن إرادته ؛ اشتد استشراف النبي صلى الله عليه وسلم إلى رؤية ذلك الأثر مع ما عنده من الحرص على إسلام قومه لما طبعه الله عليه من الشفقة على جميع الخلق عموماً وعليهم خصوصاً ، وإنما يكون

(165/258)

ذلك الأثر بإيجاد هدايتهم ومحو غوايتهم ، فلما ختم سبحانه بهذين التهديدين العظيمين الدالين على غشاوتهم ، فإنه صلى الله عليه وسلم مما كان رجاه من هدايتهم أمر كأنه كان قد حصل ، وذلك مورث للشفوق من الأسف على ما لا يدري قدره ولا يوصف خبره ، فثبته سبحانه وسلاه بقوله : ﴿ إن الذين فرقوا ﴾ أي بعد إبلاغك إياهم ﴿ دينهم ﴾ أي بتكذيبهم ببعض آيات الله وصدوفهم عنها وإيمانهم ببعضها ففارقوه ، لأن الكفر بعضه كفر بكله ، وأضيف الدين إليهم لشدة رغبتهم فيه ومقاتلتهم عليه ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ كل فرقة تشايع وتشيع إمامها كالعرب الذين تحزبوا أحزاباً بالاستكثار من الأصنام ، فكان في كل

قطر لهم معبود أو اثنان فأكثر ، وكأهل الكتاب الذين ابتدعوا في دينهم بدعاً أوصلتهم إلى تكفير بعضهم بعضاً وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، وكالمجوس الذين مزقوا دينهم باعتقاد أن الإله اثنان : النور والظلمة ، وعبدوا الأصنام والنجوم وجعلوا لكل نجم صنماً يتوسل به في زعمهم إليه ﴿ لست منهم ﴾ أي من حسابهم ولا من عقابهم ولا من خلق الهداية في قلوبهم ﴿ في شيء ﴾ وفي هذا غاية الحث على الاجتماع ونهاية التوعد على الافتراق .

(166/258)

ولما خفف عنه صلى الله عليه وسلم بتبرئته منهم ، أسند إلى نفسه المقدس ما يحق له في إحاطة علمه وقدرته ، فقال جواباً لمن يقول : فإلى من يكون أمرهم ؟ : ﴿ إنما أمرهم ﴾ أي في ذلك كله وفي كل ما يتعلق بهم مما لا يحصره حد ولا يحصيه عد ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه غيره ، فمن شاء هداه ومن شاء أعماه ، ومن شاء أهلكه ومن شاء أبقاه لأن له كمال العظمة .

ولما كان الحشر متراخياً عن ذلك كله في الرتبة وفي الزمان ، لا تبلغ كنه عظمته العقول ، نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخي والتنبيه بقوله : ﴿ ثم ﴾ بعد استيفاء ما ضرب لهم من

الآجال ﴿ ينبئهم ﴾ أي تنبئة عظيمة جليلة مستقصاة بعد أن يحشرهم إليه داخرين ﴿ بما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يفعلون ﴾ أي من تلك الأشياء القبيحة التي كان لهم إليها أتم داعية غير متوقفين في إصدارها على علم مع ادعاء التدين بها ، والآية – مع ما تقدم من مقتضياتها – تعليل لقوله ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام : 153] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 750 . 751 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ فارقوا ﴾ بالألف والباقون ﴿ فَرَّقُواْ ﴾ ومعنى القراءتين عند التحقيق واحد لأن الذي فرق دينه بمعنى أنه أقر ببعض وأنكر بعضاً ، فقد فارقه في الحقيقة ، وفي الآية أقوال :

القول الأول : المراد سائر الملل .

قال ابن عباس : يريد المشركين بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله ، وبعضهم يعبدون الأصنام ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهذا معنى فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، أي فرقاً وأحزاباً في الضلالة .

وقال مجاهد وقتادة : هم اليهود والنصارى ، وذلك لأن النصارى تفرقوا فرقاً ، وكفر بعضهم بعضاً ، وكذلك اليهود ، وهم أهل كتاب واحد ، واليهود تكفر النصارى .

والقول الثاني : أن المراد من الآية أخذوا ببعض وتركوا بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 85] وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [النساء : 150] .

والقول الثالث : قال مجاهد : إن الذين فرقوا دينهم من هذه الأمة ، هم أهل البدع والشبهات واعلم أن المراد من الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة ، وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع وقوله : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ فيه قولان : الأول : أنت منهم بريء وهم منك برآء وتأويله : إنك بعيد عن أقوالهم ومذاهبهم ، والعقاب اللازم على تلك الأباطيل مقصور عليهم ولا يتعداهم .

والثاني : لست من قتالهم في شيء .

قال السدي : يقولون لم يؤمر بقتالهم ، فلما أمر بقتالهم نسخ ، وهذا بعيد ، لأن المعنى لست من قتالهم في هذا الوقت في شيء ، فورد الأمر بالقتال في وقت آخر لا يوجب النسخ .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى الله ﴾ أي فيما يتصل بالإمهال والإنظار ، والاستئصال

والإهلاك ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ والمراد الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 7.8 ﴾

(168/258)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾

قرأ حمزة والكسائي فارقوا دينهم بالألف يعني : تركوا دينهم الإسلام ودخلوا في اليهودية والنصرانية .

وقرأ الباقون ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ يعني : آمنوا ببعض الرسل ولم يؤمنوا ببعض ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ يعني : صاروا فرقاً مختلفة .

وروي عن أسباط عن السدي أنه قال : هؤلاء اليهود والنصارى تركوا دينهم وصاروا فرقاً ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ أي : لم تؤمر بقتالهم ثم نسخ وأمر بقتالهم في سورة براءة .

وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ إِنَّهُمْ الخَوَارِجُ " وفي هذه الآية حثّ للمؤمنين على أن كلمة المؤمنين ينبغي أن تكون واحدة ، وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع ما استطاعوا .

ثم قال : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ يقول : إنما عليك الرسالة وليس عليك القتال .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ﴾ يعني : الحكم إلى الله ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي في الدنيا ويقال ليس بيدك توبتهم ولا عذابهم إنما أمرهم إلى الله تعالى ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾

فيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم اليهود خاصة ، قاله مجاهد .

والثاني : اليهود والنصارى ، قاله قتادة .

والثالث : أنهم جميع المشركين ، قاله الحسن .

والرابع : أهل الضلالة من هذه الأمة ، قاله أبو هريرة .

وفي تفريقهم الذي فرقوه قولان :

أحدهما : أنه الدين الذي أمر الله به ، فرقوه لاختلافهم فيه باتباع الشبهات .

والثاني : أنه الكفر الذي كانوا يعتقدونه ديناً لهم .

ومعنى قوله : ﴿ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ يعني فرقاً .

ويحتمل وجهاً آخر : أن يكون الشيع المتفقين على مشايعة بعضهم لبعض ، وهو الأشبه ، لأنهم يتمالأون على أمر واحد مع اختلافهم في غيره .

وفي أصله وجهان :

أحدهما : أصله الظهور ، من قولهم شاع الخبر إذا ظهر .

والثاني : أصله الاتباع ، من قولهم شايعه على الأمر إذا اتبعه ، قاله الزجاج .

ثم قال تعالى : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لست من قتالهم في شيء ، ثم نسخها بسورة التوبة ، قاله الكلبي .

والثاني : لست من مخالطتهم في شيء ، نَهْيٌ لنبيه صلى الله عليه وسلم عن مقاربتهم ، وأمر له بمباعدتهم ، قاله قتادة ، كما قال النابغة :

إذا حاولت في أسد فجوراً . . . فإني لست منك ولست مني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾

قال ابن عباس والصحاب وقتادة : المراد اليهود والنصارى أي فرقوا دين إبراهيم الحنيفية ، وأضيف الذين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه ، إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد ، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه ووصفهم " بالشيع " إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات ، ففي الآية حض لأمة محمد على الائتلاف وقلة الاختلاف ، وقال أبو الأحوص وأم سملة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : الآية في أهل البدع والأهواء والفتن ومن جرى مجراهم من أمة محمد ، أي فرقوا دين الإسلام ، وقرأ علي بن أبي طالب وحمزة والكسائي " فارقوا " ومعناه تركوا ، ثم بيّن قوله ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أنهم فرقوه أيضاً ، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة على مقصد ما يتشايعون عليه ، وقوله ﴿ لست منهم في شيء ﴾ أي لا تشفع لهم ولا لهم بك تعلق ، وهذا على الإطلاق في الكفار وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع ، لأنهم لهم حظ من تفريق الدين ، وقوله ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ إلى آخر الآية وعيد محض ، والقرينة المتقدمة تقتضي أن أمرهم إلى الله فيه وعيد ، كما أن القرينة في قوله ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ [البقرة : 275] تعطي أن في ذلك الأمر رجاء كأنه قال وأمره في إقبال وإلى خير ، وقرأ النخعي والأعمش وأبو صالح " فرَقوا " بتخفيف الراء وقال السدي هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كلام غير متقن فإن الآية خبر لا يدخله نسخ ولكنها تضمنت بالمعنى أمراً بموادعة فيشبه أن يقال إن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي تقرر في آيات أخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين فرّقوا دينهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "فرّقوا" مشددة .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "فارقوا" بألف .

وكذلك قرؤوا في [الروم : 32] فمن قرأ "فرّقوا" أراد : آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

(171/258)

ومن قرأ : "فارقوا" أراد : باينوا .

وفي المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة ، قاله أبو هريرة .

والثاني : أنهم اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي .

والثالث : اليهود ، قاله مجاهد .

والرابع : جميع المشركين ، قاله الحسن .

فعلى هذا القول ، دينهم : الكفر الذي يعتقدونه ديناً ، وعلى ما قبله ، دينهم : الذي أمرهم الله به .

والشِّيَع : الفرق والأحزاب .

قال الزجاج : ومعنى "شيّعتُ" في اللغة : اتبعت .

والعرب تقول : شاعكم السلام ، وأشاعكم ، أي : تبعكم .

قال الشاعر :

ألا يا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ . . .

بَرُوْدِ الظِّلِّ شَاعَكُم السَّلَامُ

وتقول : أتيتك غداً ، أو شِيَعة ، أي : أو اليوم الذي يتبعه .

فمعنى الشيعة : الذين يتبع بعضهم بعضاً ، وليس كلهم متفقين .

وفي قوله تعالى : ﴿ لست منهم في شيء ﴾ قولان .

أحدهما : لست من قتالهم في شيء ، ثم نسخ بآية السيف ، وهذا مذهب السدي .

والثاني : لست منهم ، أي : أنت بريء منهم ، وهم منك بُرَءاء ، إنما أمرهم إلى الله في جزائهم ، فتكون الآية محكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾

قرأه حمزة والكِسائي فارقوا بالألف ، وهي قراءة عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ؛ من المفارقة والفراق .

على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه .

وكان عليّ يقول : واللَّهِ ما فرّقوه ولكن فارقوه .

وقرأ الباقون بالتشديد ؛ إلاَّ النَّخَعِيّ فإنه قرأ "فَرَقوا" مُخَفَّفاً ؛ أي آمنوا ببعض وكفروا ببعض .

والمراد اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسُّدّي والضّحاك .

وقد وصفُوا بالتفرق ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4] .

وقال : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ ﴾ [النساء : 150] .

(172/258)

وقيل : عنى المشركين ، عبد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة .

وقيل : الآية عامّة في جميع الكفار .

وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر الله عزّ وجل به فقد فرّق دينه .

وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأُمة .

وروى بَقِيّة بن الوليد حدّثنا شعبة بن الحجاج حدّثنا مُجالد عن الشَّعْبِيّ عن شُرِيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : " إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعاً إنما هم أصحابُ البِدَع وأصحابُ الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأُمة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا بريء منهم وهم منا برآء " وروى ليث بن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ "إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ" .

ومعنى ﴿ شِيَعاً ﴾ فِرقاً وأحزاباً .

وكل قوم أمْرُهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شِيع .

﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فأوجب براءته منهم ؛ وهو كقوله عليه السَّلام : " مَن غَشّنا فليس منا " أي نحن برآء منه .

وقال الشاعر :

إذا حاولتَ في أَسَد فُجوراً . . .

فإني لستُ منك ولستَ مِنّي

أي أنا أبرأ منك .

وموضع "فِي شَيْءٍ" نصب على الحال من المضمر الذي في الخبر ؛ قاله أبو عليّ .

وقال الفراء : هو على حذف مضاف ، المعنى لست من عقابهم في شيء ، وإنما عليك الإنذار .

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ﴾ تعزية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

(173/258)

قوله عز وجل : ﴿ إن الذين فرقوا ﴾ وقرئ فارقوا ﴿ دينهم وكانوا شيعاً ﴾ عين أحزاباً متفرقة في الصلاة ومعنى فرقوا دينهم أنهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السهلة أدياناً مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة ، ومن قرأ فارقوا دينهم قال : معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء .

وقيل : إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأمر

ببعض وأنكر بعضاً فارق دينه في الحقيقة ثم اختلفوا في المعنى بهذه الآية ، فقال الحسن : هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا إنهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم .

وقال مجاهد : هم اليهود .

وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك : هم اليهود والنصارى لأنهم فرقوا فكانوا فرقاً مختلفة .

وقال أبو هريرة في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مراوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة " أسنده الطبري ، فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة .

(174/258)

وروي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة " ذكره البغوي بغير

سند عن العرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودّعٍ فما تعهد إلينا ؟ فقال : " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليك عبد حبشي فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ؛ تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " أخرجه أبو داود والترمذي عن معاوية قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة " وهي الجماعة " زاد في رواية " وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله " أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي " أخرجه الترمذي .

قال الخطابي في هذا الحديث دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ

جعلهم من أمته .

وقوله تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلم بصاحبه ، التجاري تفاعل من الجري وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيهاً بجري الفرس والكلب .

(175/258)

قال ابن مسعود " إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها " ورواه جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ لست منهم في شيء ﴾ يعني : في قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول إن المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار ، ومن قال : المراد من الآية أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة قال : معناه لست منهم في شيء أي أنت منهم برئ وهم منك برآء .

تقول العرب إن فعلت كذا فلست منك ولست مني أي كل واحد منا برئ من صاحبه ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ يعني في الجزاء والمكافأة ﴿ ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ يعني إذا وردوا القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾

لما ذكر تعالى أن صراطه مستقيم ونهى عن اتباع السبل وذكر موسى عليه السلام وما أنزل عليه وذكر القرآن وأمر باتباعه وذكر ما ينتظر الكفار مما هو كائن بهم ، انتقل إلى ذكر من اتبع السبل فتفرّقت به عن سبيل الله لينبه المؤمنين على الائتلاف على الدين القويم ، ولئلا يختلفوا كما اختلف من قبلهم من الأمم بعد أن كانوا متفقين على الشرائع التي بعث أنبياؤهم بها والذين فرّقوا دينهم الحرورية أو أهل الضلالة من هذه الأمّة أو أصحاب البدع أو الأهواء منهم ، وهو قول الأحوص وأمّ سلمة أو اليهود أو هم والنصارى وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة ، أي فرّقوا قوادين إبراهيم الحنيف أو هم مشركو العرب أو الكفار وأهل البدع أقوال ستة .

وافتراق النصارى إلى ملكية ويعقوبية ونسطورية وتشعبوا إلى اثنين وسبعين فرقة وافتراق اليهود إلى موسوية وهارونية وداودية وسامرية وتشعبوا إلى اثنين وسبعين فرقة ، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا من كان على ما عليه الرسول وأصحابه .

(176/258)

وقيل : معنى ﴿ فرقوا دينهم ﴾ آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وأضاف الدين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد فهو دين جميع الناس بهذا الوجه .

وقرأ عليّ والأخوان فارقوا هنا وفي الروم بألف ومعناها قريب من قراءة باقي السبعة بالتشديد تقول ضاعف وضعف .

وقيل : تركوه وباينوه ، ومن فرق دينه فآمن ببعض وكفر ببعض فقد فارق دينه المطلوب منه .

وقرأ ابراهيم والأعمش وأبو صالح ﴿ فرقوا ﴾ بتخفيف الراء ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي أحزاباً كل منهم تابع لشخص لا يتعداه ﴿ لست منهم في شيء ﴾ أي لست من تفريق دينهم أو من عقابهم أو من قتالهم ، أو هو إخبار عن المباينة التامّة والمباعدة كقول النابغة :

إذا حاولت في أسد فجوراً . . .

فإني لست منك ولست مني

احتمالات أربعة .

وقال ابن عطية : أي لا تشفع لهم ولا لهم بك تعلق وهذا على الإطلاق في الكفار وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع إذ لهم حظ من تفريق الدين ، ولما نفى كونه منهم في شيء حصر مرجع أمرهم من هلاك أو واستقامة إليه تعالى وأخبر أنه مجازيهم بأفعالهم وذلك وعيد شديد لهم .

وقال السدّي : هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال .

قال ابن عطية : وهذا كلام غير متقن فإن الآية خبر لا يدخله نسخ ولكنها تضمنت بالمعنى أمراً بموادعة فيشبه أن يقال : إن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي قد تقرر في آيات أخر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(177/258)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾

استئنافٌ لبيان أحوالِ أهلِ الكتابين إثرَ بيانِ حالِ المشركين أي بدّدوه وبعّضوه فتمسك بكل بعضٍ منه فِرقةٌ منهم ، وقرىء فارقوا أي باينوا ، فإن تركَ بعضِه وإن كان بأخذ بعضٍ آخرَ منه تركٌ للكل ومفارقةٌ له ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ أي فِرقاً تشيّع كلُّ فِرقةٍ إماماً لها قال عليه الصلاة والسلام : " افترقت اليهودُ والنصارى على إحدى وسبعين فرقةً كلهم في الهاوية إلا واحدة " واستثناء الواحدة من فِرَق كلَ من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخِ وأما بعده فالكلُّ في الهاوية وإن اختلفت أسبابُ دخولِهم فمعنى قوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ لست من البحث عن تفرقهم والتعرّضِ لمن

يناصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة ، وقيل : من قتالهم في شيء سوى تبليغِ الرسالةِ وإظهارِ شعائرِ الدين الحقّ الذي أُمرت بالدعوة إليه فيكون منسوخاً بآية السيف ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ﴾ تعليلٌ للنفي المذكورِ أي هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم في الدنيا التي شاء ويأمر بقتالهم إذا أراد وقيل : المفرقون أهل البدع والأهواء الزائغة من هذه الأمة ويرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم في شيء حينئذ أنت بريء منهم ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل المذكور ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أي يظهر لهم على رؤوس الأشهاد ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا يفعلونه في الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(178/258)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾

استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين إثر بيان حال المشركين بناء على ما روي عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت في اليهود والنصارى أي بددوا دينهم وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وحمزة والكسائي ﴿ فارقوا ﴾ بالألف أي باينوا فإن ترك بعضه وإن كان بأخذ بعض آخر منه ترك للكل أو مفارقة له ﴿ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ أي فرقاً تشيع كل فرقة إماماً وتتبعه أو تقويه وتظهر أمره .

أخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان وصححه الحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة واقترفت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة " واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ وأما بعده فالكل في الهاوية وإن اختلفت أسباب دخولهم .

ومن غريب ما وقع أن بعض متعصبي الشيعة الإمامية من أهل زماننا واسمه حمد روى بدل "إلا واحدة" في هذا الخبر إلا فرقة وقال : إن فيه إشارة إلى نجاة الشيعة فإن عدد لفظ فرقة بالجمل وعدد لفظ شيعة سواء فكأنه قال عليه الصلاة والسلام : إلا شيعة ، والمشهور بهذا العنوان هم الشيعة الإمامية فقلت له بعد عدة تزييفات لكلامه : يلزم هذا النوع من

الإشارة أن تكون كلباً لأن عدد كلب وعدد حمد سواء فألقم الكلب حجراً .

﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ أي من السؤال عنهم والبحث عن تفرقهم أو من عقابهم أو أنت برىء منهم ، وقيل : يحتمل أن يكون هذا وعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالعصمة عنهم أي لست منهم في شيء من الضرر ، وعن السدي أنه نهى عن التعرض لقتالهم ثم نسخ بما في سورة براءة ، و ﴿ مِنْهُمْ ﴾ في موضع الحال لأنه صفة نكرة قدمت عليها .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى الله ﴾ تعليل للنفي المذكور أي هو يتولى وحده أمر أولاهم وءاخرتهم ويدبره حسبما تقتضيه الحكمة ، وقيل : المفرقون أهل البدع من هذه الأمة ، فقد أخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في "الألقاب" وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ ﴾ الخ " هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة " .

وأخرج الترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وأبو نعيم في "الملية" والبيهقي في "الشعب" .

وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله تعالى عنها : " يا عائش ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليس لهم توبة يا

عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء فإنهم ليس لهم توبة وأنا منهم بريء وهم مني برآء " فيكون الكلام استئنافاً لبيان حال المبتدعين إثر بيان حال المشركين إشارة إلى أنهم ليسوا منهم ببعيد ، ولعل جملة ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ ﴾ الخ على هذا ليست للتعليل وإنما هي للوعيد على ما فعلوا أي أن رجوعهم إليه سبحانه .

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يوم القيامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا على الاستمرار بالعقاب عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(179/258)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾

استئناف جاء عقب الوعيد كالنّتيجة والفذلكة ، لأنّ الله لما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ [الأنعام : 158] أعقب ذلك بأنّ الفريقين متباينان مُتجافيان في مدّة الانتظار .

وجيء بالموصوليّة لتعريف المسند إليه لإفادة تحقّق معنى الصّلة فيهم ، لأنَّها تناسب التّنفير من الاتّصال بهم ، لأنّ شأن الدّين أن يكون عقيدة واحدة وأعمالاً واحدة ، والتّفرّق في

أصوله ينافي وحدته ، ولذلك لم يزل علماء الإسلام يبْذلون وسعهم لاستنباط مراد الله من الأمّة ، ويعلمون أنّ الحقّ واحدٌ وأنّ الله كلّف العلماء بإصابته وجعل للمصيب أجرين ولمن أخطأه مع استفراغ الوسع أجراً واحداً ، وذلك أجر على بذل الوسع في طلبه فإنّ بذل الوسع في ذلك يوشك أن يُبلِّغ المقصود .

فالمراد بـ ﴿ الذين فرّقوا دينهم ﴾ قال ابن عبّاس : هم المشركون ، لأَنَّهم لم يَتّفقوا على صورة واحدة في الدين ، فقد عبدت القبائل أصناماً مختلفة ، وكان بعض العرب يعبدون الملائكة ، وبعضهم يعبد الشّمس ، وبعضهم يعبد القمر ، وكانوا يجعلون لكلّ صنم عبادة تخالف عبادة غيره .

ويجوز أن يراد : أَنَّهم كانوا على الحنيفيّة ، وهي دين التّوحيد لجميعهم ، ففرّقوا وجعلوا آلهة عباداتها مختلفة الصّور .

وأمّا كونهم كانوا شيعاً فلأنّ كلّ قبيلة كانت تنتصر لصنمها ، وتزعم أنّه ينصرهم على عُبَّاد غيره كما قال ضِرار بن الخطّاب الفهري :

وفَرّت ثقيفٌ إلى لاتها

بمنقلَب الخائب الخاسر . . .

ومعنى : ﴿ لست منهم في شيء ﴾ أنّك لا صلة بينك وبينهم .

فحرف (مِن) اتّصالية .

وأصلها (من) الابتدائيّة .

(180/258)

و ﴿ شيء ﴾ اسم جنس بمعنى موجود فنفيه يفيد نفي جميع ما يوجد من الاتّصال ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ في سورة آل عمران (28) ، وقوله : ﴿ لستم على شيء ﴾ في سورة المائدة (68) .

ولمّا دلّت على التبرّي منهم وعدم مخالطتهم ، كان الكلام مثار سؤال سائل يقول : أعلى الرّسول أن يتولّى جَزاءهم على سُوء عملهم ، فلذلك جاء الاستئناف بقوله : إنما أمرهم إلى الله ﴾ فهو استئناف بياني ، وصيغة القصر لقلب اعتقاد السائل المتردّد ، أي إنَّما أمرهم إلى الله لا إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم ولا إلى غيره ، وهذا إنذار شديد ، والمراد بأمرهم : عملهم الذي استحقوا به الجزاء والعقوبة .

و(إلى) مستعمل في الانتهاء المجازي : شبّه أمرهم بالضالّة التي تركها النّاس فسارت حتّى انتهت إلى مراحها ، فإنّ الخلق كلّهم عبيد الله وإليه يرجعون ، والله يمهلهم ثمّ يأخذهم بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين حين يأذن لرسوله صلى الله عليه وسلم بقتالهم كما قال

تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربَّنا اكشف عنا العذاب إنَّا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنون إنَّا كاشفوا العذاب قليلاً إنّكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾

[الدخان : 10 ، 16] .

والبطشة الكبرى هي بطشة يوم بدر .

وقوله : ﴿ ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ (ثمّ) فيه للتّرتيب الرُّتبي مع إفادة المهلة ، أي يبقى أمرهم إلى الله مدّة .

(181/258)

وذلك هو الإمهال والإملاء لهم ، ثمّ يعاقبهم ، فأطلق الإنباء على العقاب ، لأنَّه إن كان العقاب عقاب الآخرة فهو يتقدّمه الحساب ، وفيه إنباء الجاني بجنايته وبأنَّه مأخوذ بها ، فإطلاق الإنباء عليه حقيقة مراد معها لازمه على وجه الكناية ، وإن كان العقاب عقاب الدّنيا فإطلاق الإنباء عليه مجاز ، لأنّه إذا نزل بهم العذاب بعد الوعيد عَلموا أنَّه العقاب الموعود به ، فكَانَ حصول ذلك العلم لهم عند وقوعه شَبيهاً بحصول العلم الحاصل عن

الإخبار فأطلق عليه الإنباء ، فيكون قوله : ﴿ ينبئهم ﴾ بمعنى يعاقبهم بما كانوا يفعلون .

ووصف المشركين بأنَّهم فَرّقوا دينهم وكانوا شيعاً : يؤذن بأنَّه وصف شنيع ، إذ ما وصفهم الله به إلاّ في سياق الذم ، فيؤذن ذلك بأنّ الله يحذّر المسلمين من أن يكونوا في دينهم كما كان المشركون في دينهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك إلى قوله أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : 13] .

وتفريق دين الإسلام هو تفريق أصوله بعد اجتماعها ، كما فعل بعض العرب من منعهم الزّكاة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر رضي الله عنه : لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة .

وأمّا تفريق الآراء في التّعليلات والتَّبيينات فلا بأس به ، وهو من النّظر في الدّين : مثل الاختلاف في أدلّة الصّفات ، وفي تحقيق معانيها ، مع الاتّفاق على إثباتها .

وكذلك تفريق الفُروع : كتفريق فروع الفقه بالخلاف بين الفقهاء ، مع الإتّفاق على صفة العمل وعلى ما به صحة الأعمال وفسادها .

كالاختلاف في حقيقة الفرض والواجب .

(182/258)

والحاصل أنّ كلّ تفريق لا يُكفِّر به بعض الفرق بعضاً ، ولا يفضي إلى تقاتل وفتن ، فهو تفريق نظر واستدلال وتطلّب للحقّ بقدر الطّاقة وكلّ تفريق يفضي بأصحابه إلى تكفير بعضهم بعضاً ، ومقاتلة بعضهم بعضاً في أمر الدّين ، فهو ممّا حذّر الله منه ، وأمّا ما كان بين المسلمين نزاعاً على المُلك والدّنيا فليس تفريقاً في الدّين ، ولكنّه من الأحوال التي لا تسلم منها الجماعات .

وقرأه الجمهور : ﴿ فرّقوا ﴾ بتشديد الراء وقرأه حمزة ، والكسائي : ﴿ فَارَقوا ﴾ بألف بعد الفاء أي تركوا دينهم ، أي تركوا ما كان ديناً لهم ، أي لجميع العرب ، وهو الحنيفية فنبذوها وجعلوها عدّة نحل .

ومآل القراءتين واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(183/258)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ

الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

(184/258)

كَانَتِ الْوَصَايَا الْعَشْرُ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ الْأَدَبِيَّةِ عَلَى حَقِّيَّةِ دِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَوُجُوبِ اتِّبَاعِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، قَفَّى بِهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى أُصُولِ هَذَا الدِّينِ ، وَدَحْضِ شُبُهَاتِ الْمُعَانِدِينَ وَالْمُمْتَرِينَ ، وَلَمَّا كَمُلَتْ بِذَلِكَ حُجَجُ السُّورَةِ وَبَيِّنَاتُهَا حَسُنَ أَنْ يُنَبَّهَ هُنَا عَلَى مَكَانَةِ الْقُرْآنِ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْهِدَايَةِ وَوُجُوبِ اتِّبَاعِهِ ، وَإِعْذَارِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا يَعْمَلُونَ بِهِ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ضَلَالِهِمْ بِالْجَهْلِ وَعَدَمِ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِذَا هُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ . وَقَدِ افْتُتِحَ هَذَا التَّنْبِيهُ وَالتَّذْكِيرُ وَالْإِعْذَارُ بِذِكْرِ مَا يُشْبِهُ الْقُرْآنَ فِي شَرْعِهِ وَمِنْهَاجِهِ مِمَّا اشْتُهِرَ عِنْدَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَهُوَ كِتَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ

بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) سَبَقَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا الْجَمْعُ بَيْنَ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ لِلتَّذْكِيرِ بِالتَّشَابُهِ بَيْنَهُمَا ; لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَعْلَمُونَ

(185/258)

أَنَّ الْيَهُودَ الْمُجَاوِرِينَ لَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ اسْمُهُ التَّوْرَاةُ ، وَلَهُمْ رَسُولٌ اسْمُهُ مُوسَى ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ عِلْمٍ وَشَرِيعَةٍ ، وَكَانَ بَعْضُ عُقَلَائِهِمْ يَتَمَنَّى لَوْ يُؤْتَى الْعَرَبُ مِثْلَمَا أُوتِيَ الْيَهُودُ وَيَقُولُونَ : إنَّهُ لَوْ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِثْلُ كِتَابِهِمْ لَكَانُوا أَهْدَى مِنْهُمْ وَأَعْظَمَ انْتِفَاعًا ; لِمَا يَعْتَقِدُونَ مِنِ امْتِيَازِهِمْ عَلَيْهِمْ بِالذَّكَاءِ وَالْعَقْلِ وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ .

(186/258)

وَلَكِنِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي بَدْءِ هَذِهِ الْآيَةِ بِـ (ثُمَّ) الَّتِي تَدُلُّ عَلَى تَأَخُّرِ مَا عُطِفَ بِهَا عَمَّا عُطِفَ عَلَيْهِ . فَذَهَبَ ابْنُ جَرِيرٍ إلَى أَنَّ عَطْفَ عَلَى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) بِحَذْفِ (قُلْ) وَالتَّقْدِيرُ : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ النَّاسِ : تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ وَوَصَّاكُمْ بِهِ وَهُوَ كَذَا وَكَذَا – ثُمَّ قُلْ لَهُمْ وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّنَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ إلَخْ . وَذَهَبَ

الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى أَنَّهُ عُطِفَ عَلَى (وَصَّاكُمْ) بِطَرِيقِ الِالْتِفَاتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْوَصَايَا قَدِيمَةٌ وَصَّى اللَّهُ بِهَا جَمِيعَ الْأُمَمِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهَا . وَالتَّقْدِيرُ : (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) وَهُوَ أَبْعَدُ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَيُمْكِنُ إِيضَاحُهُ بِأَنَّ مُوسَى أُعْطِيَ الْكِتَابَ - بَعْدَ الْوَصَايَا الْعَشْرِ الَّتِي بِمَعْنَى هَذِهِ الْوَصَايَا - فِيهِ تَفْصِيلُ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الشَّرْعِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ التَّفْصِيلِيَّةَ تَجِيءُ بَعْدَ هَذِهِ الْوَصَايَا فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ - وَحَكَى الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَأْيَ الْإِمَامِ ابْنِ جَرِيرٍ وَتَعَقَّبَهُ بِأَنَّ فِيهِ نَظَرًا ، وَقَالَ : إِنَّ (ثُمَّ) هَاهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبَرِ بَعْدَ الْخَبَرِ لَا لِلتَّرْتِيبِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ . . . ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

(187/258)

وَهَاهُنَا لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) عَطْفٌ بِمَدْحِ التَّوْرَاةِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْكِتَابَيْنِ

كَقَوْلِهِ : (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا) (46 : 12) وَقَوْلِهِ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ : (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ) (91) وَبَعْدَهَا (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) الْآيَةَ . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ . وَقَدْ أَوْرَدَ

شَوَاهِدَ أُخْرَى مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذِهِ الْمُقَارَنَةِ .

فَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْعَطْفِ وَكَوْنِهِ بِـ (ثُمَّ) لَخَصَّنَاهُ بِأَقْرَبِ تَصْوِيرٍ ، وَقَدْ نَقَلَ الْمُفَسِّرُونَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ هَؤُلَاءِ أَقْوَالَهُمْ بِتَصَرُّفٍ ، جَعَلَهَا فِي غَايَةِ التَّكَلُّفِ ، كَمَا نَقَلَ ابْنُ كَثِيرٍ قَوْلَ ابْنِ جَرِيرٍ بِإِيجَازٍ مُخِلٍّ لَا يَتَبَيَّنُ بِهِ مُرَادُهُ ، وَقَالَ : إِنَّ فِيهِ نَظَرًا .

(188/258)

وَلَمْ يُبَيِّنْ وَجْهَهُ ، وَإِنَّمَا رَجَّحَ أَنَّ (ثُمَّ) لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ ، أَيْ لَا لِعَطْفِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْإِنْشَاءِ كَمَا جَعَلَهَا ابْنُ جَرِيرٍ . وَفِيهِ أَنَّ عَطْفَ الْخَبَرِ بِثُمَّ يُرَاعَى فِيهِ التَّرْتِيبُ كَمَا يُرَاعَى فِي عَطْفِ الْإِنْشَاءِ وَعَطْفِ الْمُفْرَدِ ، وَلَكِنَّ التَّرْتِيبَ قَدْ يَكُونُ بِحَسَبِ الزَّمَانِ ، وَقَدْ يَكُونُ بِحَسَبِ الذِّكْرِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى آخَرَ كَمَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) (39 : 6) وَالْبَيْتُ الَّذِي ذَكَرَهُ فِيهِ تَرْتِيبٌ لِتَسَلْسُلِ السِّيَادَةِ فِي بَيْتِ الْمَمْدُوحِ بِطَرِيقِ التَّرَقِّي بِكَوْنِهَا كَانَتْ قَبْلَهُ فِي الْأَبِ ثُمَّ قَبْلَهُ فِي الْجَدِّ .

وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّ جُمْلَةَ (آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) فِعْلِيَّةٌ ، وَجُمْلَةَ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا) فِيهَا قِرَاءَتَانِ ، فَهِيَ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ عَلَى إِحْدَاهُمَا وَهِيَ قِرَاءَةُ مَنْ كَسَرَ هَمْزَةَ " إِنَّ " ، وَإِنْشَائِيَّةٌ عَلَى الْأُخْرَى وَهِيَ قِرَاءَةُ مَنْ فَتَحَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، فَكَيْفَ جَعَلَ ابْنُ كَثِيرٍ عَطْفَ

الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ عَلَيْهَا هُوَ الصَّوَابَ الَّذِي لَا مَجَالَ لِلنَّظَرِ فِي صِحَّتِهِ وَفَصَاحَتِهِ اللَّائِقَةِ بِالتَّنْزِيلِ وَجَزَمَ بِأَنَّ عَطْفَ الْجُمْلَةِ الْإِنْشَائِيَّةِ عَلَى مِثْلِهَا فِيهِ نَظَرٌ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْبَيَانِ وَالتَّأْوِيلِ ؟

وَالْإِنْصَافُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قَوْلِ ابْنِ جَرِيرٍ وَقْفَةٌ لِصَاحِبِ الذَّوْقِ السَّلِيمِ إِلَّا تَقْدِيرُ كَلِمَةِ (قُلْ) وَلَكِنَّ قَرِينَتَهُ ظَاهِرَةٌ . وَأَنَّ أَحْسَنَ مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ هُوَ

(189/258)

التَّذْكِيرُ بِمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْقِرَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْرَاةِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّشَابُهِ فِي كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا شَرِيعَةً كَامِلَةً ، وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ لَيْسَا كَذَلِكَ ، بَلْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِ عِظَاتٌ وَأَمْثَالٌ ، وَأَكْثَرُ الثَّانِي ثَنَاءٌ وَمُنَاجَاةٌ .

وَمِنَ التَّشَابُهِ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ أَنَّ هَذِهِ الْوَصَايَا التِّسْعَ أَوِ الْعَشْرَ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ وَنَظِيرِهَا فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، كَانَتْ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ قَبْلَ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ فِي السُّورَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ الْوَصَايَا الْعَشْرَ الْمَشْهُورَةَ كَانَتْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ قَبْلَ تَفْصِيلِ سَائِرِ الْأَحْكَامِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَوَصَايَا الْقُرْآنِ أَجْمَعُ لِلْمَعَانِي ، فَهِيَ تَبْلُغُ الْعَشَرَاتِ إِذَا فُصِّلَتْ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّ وَصَايَا سُورَةِ الْأَنْعَامِ هَنَا عَيْنُ وَصَايَا التَّوْرَاةِ . وَالصَّوَابُ مَا قُلْنَاهُ آنِفًا وَنَحْنُ نَذْكُرُ نَصَّ

وَصَايَا التَّوْرَاةِ مِنَ الْفَصْلِ الْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ لِيُعْرَفَ بِهِ صِحَّةُ قَوْلِنَا وَغِشُّ كَعْبٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَهُوَ :

(190/258)

" أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ (1) لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي (2) لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ ، وَلَا مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتُ ، وَلَا مَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ ، لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهٌ غَيُّورٌ أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الْآبَاءِ

فِي الْأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ ، وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ (3) لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلًا ، لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يُبَرِّئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا (4) اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ ، سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ ، لَا تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ ، لِأَنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا ، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ ؛ لِذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ (5) أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ (6) لَا تَقْتُلْ (7) لَا تَزْنِ

(8) لَا تَسْرِقْ (9) لَا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ (10) لَا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ لَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ وَلَا عَبْدَهُ وَلَا أَمَتَهُ وَلَا ثَوْرَهُ وَلَا حِمَارَهُ وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ" .

(191/258)

وَلَمَّا كَانَ جُلُّ هَذِهِ الْوَصَايَا وَتِلْكَ هِيَ أُصُولَ دِينِ اللهِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ ، حَكَمْنَا بِأَنَّ كَلَامَ الْكَشَّافِ فِي تَقْدِيرِهِ الْعَطْفُ وَجِيهٌ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى ، وَإِنْ كَانَ النَّاظِرُ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ وَحْدَهُ يُعِدُّهُ تَكَلُّفًا . وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّورَى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) (42 : 13) وَلَيْسَ الدِّينُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى مُوصِيًا بِهِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ وَغَيْرَهُمْ إِلَّا التَّوْحِيدَ وَأُصُولَ الْفَضَائِلِ وَالنَّهْيَ عَنْ كَبَائِرِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ الْمَذْكُورَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي نَفْسِ الْآيَةِ : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) كَمَا قَالَ فِي آخِرِ وَصَايَا الْأَنْعَامِ : (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) فَبِهَذَا التَّشَابُهِ يَقْوَى كَوْنُ الْخِطَابِ بِالْوَصِيَّةِ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ خَاتَمُ الرُّسُلِ ، وَكَوْنُ الْمُرَادِ بِهَا مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي آيَةِ الشُّورَى .

(192/258)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) مَعْنَاهُ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا لِلنِّعْمَةِ وَالْكَرَامَةِ عَلَى مَنْ أَحْسَنَ فِي اتِّبَاعِهِ وَاهْتَدَى بِهِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (5 : 3) وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا لِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَقَوْلِهِ :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) (7 : 145) جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ أَوْ تَمَامًا عَلَى إِحْسَانِهِ – التَّقْدِيرُ الْأَوَّلُ لِابْنِ كَثِيرٍ ، وَجَعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) (2 : 124) وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) (32 : 24) وَالثَّانِي عَزَاهُ إِلَى ابْنِ جَرِيرٍ عَلَى جَعْلِ (الَّذِي) مَصْدَرِيَّةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) (9 : 69) أَيْ كَخَوْضِهِمْ ، وَقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ فِي مَدْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حُسْنٍ . . . فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

وَمَا قَدَّرْنَاهُ أَوَّلًا أَبْعَدُ عَنِ التَّكَلُّفِ .

(193/258)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ) عَامٌّ فِي بَابِهِ ، أَيْ مُفَصِّلًا لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ كَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَالْعُقُوبَاتِ وَالْحَرْبِ (وَهُدًى وَرَحْمَةً) أَيْ عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ الْهِدَايَةِ وَسَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ لِمَنِ اهْتَدَى بِهِ (لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) أَيْ آتَاهُ الْكِتَابَ جَامِعًا لِمَا ذَكَرَ لِيَعِدَ بِهِ قَوْمَهُ ، وَيَجْعَلَهُمْ مَحَلَّ الرَّجَاءِ لِلْإِيمَانِ بِلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى فِي دَارِ كَرَامَتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ بِوَحْيِهِ .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) أَيْ وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يُتْلَى عَلَيْكُمْ كِتَابٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ فَتَنْكِيرُهُ لِلتَّعْظِيمِ – أَنْزَلْنَاهُ كَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مُوسَى ، جَامِعًا لِكُلِّ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ النَّامِيَةِ الزَّائِدَةِ عَلَى مَا فِي كِتَابِ مُوسَى ، فَالْمُبَارَكُ مِنَ الْبَرَكَةِ ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ وَالنَّمَاءُ فِي الْخَيْرِ ، قِيلَ : إِنَّهَا مِنْ بَرَكَةِ الْمَاءِ ، وَقِيلَ : مِنْ بَرْكِ الْبَعِيرِ وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ مَزَايَا الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ (فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أَيْ فَاتَّبِعُوا مَا هَدَاكُمْ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ وَحَذَّرَكُمْ إِيَّاهُ لِتَكُونَ رَحْمَتُهُ تَعَالَى مَرْجُوَّةً لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْكِتَابَ هُدًى وَرَحْمَةٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِيمَا يَلِي تَعْلِيلًا لِإِنْزَالِهِ .

(194/258)

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا التَّعْلِيلِ الَّذِي مَعْنَاهُ قَطْعُ طَرِيقِ التَّعَلُّلِ وَالِاعْتِذَارِ وَالْمَعْنَى - عَلَى الْخِلَافِ فِي تَقْدِيرِ مُتَعَلِّقِ "أَنْ" - أَنْزَلْنَاهُ لِئَلَّا تَقُولُوا ، أَوْ كَرَاهَةَ أَنْ تَقُولُوا أَوْ مَنْعًا لَكُمْ مِنْ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ مُعْتَذِرِينَ عَنْ شِرْكِكُمْ وَإِجْرَامِكُمْ : إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ الْهَادِي إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَطَرِيقِ طَاعَتِهِ وَتَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ مِنْ دَنَسِ الشِّرْكِ وَالرَّذَائِلِ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وَإِنَّ حَقِيقَةَ حَالِنَا وَشَأْنِنَا أَنَّا كُنَّا غَافِلِينَ عَنْ دِرَاسَتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ لِجَهْلِنَا بِلُغَاتِهِمْ وَغَلَبَةِ الْأُمِّيَّةِ عَلَيْنَا - وَالْحَصْرُ إِنَّمَا يَصِحُّ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِمْ بِحَسَبِ عِلْمِهِمْ بِحَالِ الطَّائِفَتَيْنِ لِمُجَاوَرَتِهِمْ لَهُمْ - (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ) لِأَنَّنَا أَذْكَى أَفْئِدَةً وَأَعْلَى هِمَّةً وَأَمْضَى عَزِيمَةً ،

وَقَدْ قَالُوا هَذَا فِي الدُّنْيَا كَمَا حَكَاهُ تَعَالَى

(195/258)

عَنْهُمْ فِي آخِرِ سُورَةِ فَاطِرٍ بِقَوْلِهِ : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) (35 : 42 ، 43) إلَخْ . وَهَذَا التَّأْكِيدُ بِالْقَسَمِ

مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ أَكْمَلُ الْبَشَرِ فِطْرَةً وَأَعْلَاهُمُ اسْتِعْدَادًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ ، وَكَانَ اعْتِقَادًا رَاسِخًا فِي عُقُولِهِمْ مُتَمَكِّنًا مِنْ وُجْدَانِهِمْ ، وَمِنْ أَدِلَّتِهِ مَا رَوَاهُ التَّارِيخُ لَنَا مِنَ الْمُفَاخَرَاتِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ ، وَإِذَا كَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ كُلُّهَا تَعْتَقِدُ أَنَّ شَعْبَهُمْ أَزْكَى مِنْ جَمِيعِ الْأَعَاجِمِ فِطْرَةً ، وَأَذْكَى أَفْئِدَةً وَأَعَزُّ أَنْفُسًا وَأَكْمَلُ عُقُولًا وَأَفْهَامًا وَأَفْصَحُ أَلْسِنَةً وَأَبْلَغُ بَيَانًا ، فَمَا الْقَوْلُ بِقُرَيْشٍ الَّتِي دَانَتْ لَهَا الْعَرَبُ وَاعْتَرَفَتْ بِفَضْلِهَا عَلَى غَيْرِهَا مِنْهُمْ ؟ وَلَكِنَّ جُمْهُورَ سَادَةِ قُرَيْشٍ وَكُبَرَاءَهَا قَدِ اسْتَكْبَرُوا بِذَلِكَ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ، حَتَّى كَذَّبُوا بِأَعْظَمِ مَا فُضِّلَ – وَاللهِ – بِهِ جِيلُهُمْ وَقَوْمُهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْأَجْيَالِ وَالْأَقْوَامِ بِالْحَقِّ – وَهُوَ الْقُرْآنُ – وَصَدُّوا عَنْهُ وَصَدَفُوا عَنْ آيَاتِهِ ، فَكَانَ إِقْسَامُهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ صَدَقَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِالْكِتَابِ فَسَادُوا بِهِ جَمِيعَ

(196/258)

الْأُمَمِ ، وَكَانُوا أَئِمَّةً لَهَا فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ بِهِ مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَسَمُ صَادِرًا عَنْ عَقِيدَةٍ رَاسِخَةٍ ، فَلَا جُرْمَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْتِهِمُ النَّذِيرُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُنِيرِ لَاعْتَذَرُوا فِي الْآخِرَةِ بِهَذَا الْعُذْرِ ، عَلَى أَنَّ الْمُعَانِدِينَ مِنْهُمْ ظَلُّوا يُطَالِبُونَ النَّذِيرَ الَّذِي

جَاءَهُمْ بِهِ بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَهُوَ - أَيِ الْكِتَابُ - أَقْوَى مِنْهَا دَلَالَةً عَلَى النُّبُوَّةِ لِأَنَّ دَلَالَتَهُ عِلْمِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ ، وَدَلَالَاتِهَا وَضْعِيَّةٌ أَوْ عَادِيَّةٌ عَلَى أَنَّهَا تَشْبِيهٌ بِالسِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ وَسَائِرِ الْغَرَائِبِ الصِّنَاعِيَّةِ ، وَقَدْ وَضَّحْنَا الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْعَامِ) وَاعْتُبِرَ هُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ طه : (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) (20 : 133 ، 134) . (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) هَذَا هُوَ الْجَوَابُ الْقَاطِعُ لِكُلِّ تَعِلَّةٍ وَعُذْرٍ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ بَيِّنَةٌ عَظِيمَةٌ كَامِلَةٌ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَتَنْكِيرُ الْبَيِّنَةِ وَمَا بَعْدَهَا لِلتَّعْظِيمِ ، إِذِ الْبَيِّنَةُ مَا تَبَيَّنَ بِهِ الْحَقُّ ، وَهُوَ مُبَيِّنٌ لِلْحَقِّ مِنَ الْعَقَائِدِ بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ ، وَفِي

(197/258)

الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ وَأُصُولِ الشَّرِيعَةِ وَأُمَّهَاتِ الْأَحْكَامِ بِمَا تَصْلُحُ بِهِ أُمُورُ الْبَشَرِ وَشُئُونُ الِاجْتِمَاعِ ، وَهُدًى كَامِلٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وَتَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، فَإِنَّهُ يَجْذِبُهُ بِبَيَانِهِ وَبَلَاغَتِهِ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي قَرَّرَهُ ، وَإِلَى عَمَلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ الَّذِي بَيْنَ فَوَائِدِهِ وَمَنَافِعِهِ ، وَرَحْمَةٌ عَامَّةٌ لِلْبَشَرِ الَّذِينَ تَنْتَشِرُ فِيهِمْ هِدَايَتُهُ ، وَتَنْفُذُ فِيهِمْ شَرِيعَتُهُ ، حَتَّى الْخَاضِعِينَ

لِأَحْكَامِهَا مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ آمِنِينَ فِي ظِلِّهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ . أَحْرَارًا فِي عَقَائِدِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ ، مُسَاوِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهَا فِي حُقُوقِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ . عَائِشِينَ فِي وَسَطٍ خَالٍ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي تُفْسِدُ الْأَخْلَاقَ وَتُوَلِّدُ الْأَمْرَاضَ . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِهِ فَهُوَ رَحْمَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا ، هَكَذَا كَانَ وَهَكَذَا يَكُونُ . وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَالْمُؤْمِنُونَ قَلِيلُونَ مُضْطَهَدُونَ ، وَالْجَمَاهِيرُ مُكَذِّبُونَ ، وَالرُّؤَسَاءُ يَصُدُّونَ عَنِ الْكِتَابِ وَيَصْدِفُونَ .

(198/258)

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) الِاسْتِفْهَامُ هُنَا إِنْكَارِيٌّ ، أَيْ وَإِذَا كَانَتْ آيَاتُ اللهِ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْبَيِّنَةِ الْكَامِلَةِ وَالْهِدَايَةِ الشَّامِلَةِ وَالرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، فَلَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَكْتَفِ بِصُدُوفِهِ عَنْهَا وَحِرْمَانِ نَفْسِهِ مِنْهَا ، بَلْ صَدَفَ النَّاسَ ، أَيْ صَرَفَهُمْ وَرَدَّهُمْ أَيْضًا ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ كُبَرَاءُ مُجْرِمِي قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ فِي أَثْنَاءِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ : كَانُوا يَصْدِفُونَ الْعَرَبَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا مِنْهُ الْقُرْآنَ ، فَيَنْجَذِبُوا إِلَى الْإِيمَانِ ، كَمَا قَالَ : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (26) وَتَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ

. فَصَدَفَ بِمَعْنَى صَدَّ ، وَاسْتُعْمِلَ مِثْلُهُ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، وَفِي مَعْنَاهُمَا الصَّرْفُ وَالصَّدْعُ ، وَلَا مَانِعَ عِنْدِي مِنِ اسْتِعْمَالِ صَدَفَ هُنَا لَازِمًا مُتَعَدِّيًا كَمَا كَانَتْ حَالُ أُولَئِكَ الْكُبَرَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ وَسَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِمْ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَمَنْعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، وَهَذَا أَقْرَبُ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مَعَانِيهِ إذَا كَانَتِ الْعِبَارَةُ تَحْتَمِلُ ذَلِكَ - إنْ لَمْ يُعَدَّ مِنْهُ ، وَمِنِ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ بِهَذَا

(199/258)

الشَّرْطِ - وَقَدْ قَالَ بِهِمَا ابْنُ جَرِيرٍ وَالْأُصُولِيُّونَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ . عَلَى أَنَّ بَيْنَ اللَّازِمِ وَالْمُتَعَدِّي تَلَازُمًا فِي هَذَا الْمَقَامِ فَإِنَّ الصَّادَّ لِغَيْرِهِ عَنْ شَيْءٍ يَكْرَهُهُ وَيُعَادِي الدَّاعِيَ إلَيْهِ وَالْقَائِمَ بِهِ وَيَكُونُ هُوَ أَشَدَّ صُدُودًا وَإِعْرَاضًا عَنْهُ . وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنِ الشَّيْءِ وَيَصُدُّ عَنْهُ غَيْرَهُ مَنْ يُحِبُّهُ وَيَأْخُذُ بِهِ إذَا كَانَ مُرَائِيًا أَوْ خَادِعًا لِمَنْ يَنْهَاهُ وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ ، كَالْوُعَّاظِ الْمُرَائِينَ ، وَالتُّجَّارِ

(200/258)

الْغَاشِّينَ . وَمِنَ الصَّدِّ اللَّازِمِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النِّسَاءِ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) (4 : 61) وَمِنَ الْمُتَعَدِّي قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ مُحَمَّدٍ أَوِ الْقِتَالِ : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) (47 : 1) . (سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) أَيْ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ النَّاسَ وَيَرُدُّونَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا وَالِاهْتِدَاءِ بِهَا سُوءَ الْعَذَابِ ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَجْرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّدْفِ عَنْهَا وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارَ مَنْ صَدَفُوهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَبَبِ الْهِدَايَةِ ، وَقَدْ وَضَعَ الْمَوْصُولَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ فَقَالَ : (سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ) وَلَمْ يَقُلْ : سَنَجْزِيهِمْ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الصَّدْفِ الَّذِي هُوَ قَطْعُ طَرِيقِ الْحَقِّ عَلَى الْمُسْتَعِدِّينَ لِاتِّبَاعِهِ ، لِأَنَّهُمْ بِهَذَا كَانُوا أَظْلَمَ النَّاسِ كَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، لَا عَلَى مُجَرَّدِ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ . وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِالتَّصْرِيحِ بِالسَّبَبِ وَلَمْ يَكْتَفِ بِدَلَالَةِ صِلَةِ الْمَوْصُولِ عَلَيْهِ – فَهُوَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) (16 : 88) أَيْ زِدْنَاهُمْ

عَذَابًا سَيِّئًا شَدِيدًا بِصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَوْقَ الْعَذَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِسَبَبِ إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِهَذَا الصَّدِّ عَنِ الْحَقِّ . وَقَالَ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (16 : 89) فَهَاتَانِ الْآيَتَانِ مِنْ سُورَةِ النَّحْلِ بِمَعْنَى آيَةِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي السِّيَاقِ الْأَخِيرِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ أُصُولَ الدِّينِ فِي الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ ، فِي إِثْرِ تَفْصِيلِ السُّورَةِ لِجَمِيعِ أُصُولِ الْعَقَائِدِ ، وَقَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِالْإِعْذَارِ إِلَى كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَنْ يَتْبَعُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، الَّذِينَ كَانُوا يُقْسِمُونَ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ

(202/258)

لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّذِيرُ اسْتَكْبَرُوا وَزَادُوا نُفُورًا عَنِ الْإِيمَانِ ، وَقَرَنَ هَذَا الْإِعْذَارَ بِالْإِنْذَارِ الشَّدِيدِ

وَالْوَعِيدِ بِسُوءِ الْعَذَابِ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي هَذِهِ أَيْضًا ، فَإِنَّهُ حَصَرَ فِيهَا مَا أَمَامَهُمْ وَأَمَامَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ بِمَا يُعَرِّفُهُمْ بِحَقِيقَةِ مَا يَنْتَظِرُونَ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَا يَتَمَنَّوْنَ مِنْ مَوْتِ الرَّسُولِ ، وَانْطِفَاءِ نُورِ الْإِسْلَامِ بِمَوْتِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فَقَالَ : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) أَيْ إِنَّهُمْ لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَحَدَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ أَمَامَهُمْ غَايَةٌ يَنْتَهُونَ إِلَيْهَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَوْ بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ فِي الْخَلْقِ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ – وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (يَأْتِيَهُمُ) – الْمَلَائِكَةُ ، أَيْ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ فُرَادَى ، أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ لِاسْتِئْصَالِهِمْ (وَهَذَا الْأَخِيرُ خَاصٌّ بِالْأُمَمِ الَّتِي يُعَانِدُ الرُّسُلَ سَوَادُهَا الْأَعْظَمُ بَعْدَ أَنْ يَأْتُوهَا بِالْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ) أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ

(203/258)

أَيُّهَا الرَّسُولُ ، قِيلَ : إِنَّ إِتْيَانَ الرَّبِّ تَعَالَى عِبَارَةٌ عَنْ إِتْيَانِ مَا وَعَدَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّصْرِ ، وَأَوْعَدَ بِهِ أَعْدَاءَهُ مِنْ عَذَابِهِ إِيَّاهُمْ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ فِي الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ : (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) (59 : 2) الْآيَةَ ، وَقِيلَ : إِتْيَانُ أَمْرِهِ بِالْعَذَابِ أَوِ الْجَزَاءِ مُطْلَقًا ، فَهَاهُنَا مُقَدَّرٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ الَّتِي تُشَابِهُ هَذِهِ السُّورَةَ فِي أَكْثَرِ مَسَائِلِهَا : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (16 : 33) وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ إِتْيَانُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ بِغَيْرِ كَيْفٍ وَلَا شَبَهٍ وَلَا نَظِيرٍ ، وَتَعَرُّفُهُ إِلَى عِبَادِهِ وَمَعْرِفَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ إِيَّاهُ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) قَالَ : عِنْدَ الْمَوْتِ ، (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) قَالَ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَنْ قَتَادَةَ مِثْلُهُ ، وَعَنْ مُقَاتِلٍ فِي قَوْلِهِ : (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) قَالَ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ .

(204/258)

وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الْوَجْهَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) (2 : 210) وَنَقَلْنَا فِيهِ عَنِ الْأُسْتَاذِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلًا نَفِيسًا فَلْيُرَاجَعْ فِي ص207 - 213 ج2 ط . الْهَيْئَةِ . وَلَكِنْ يُضَعِّفُ هَذَا الْوَجْهَ هُنَا ذِكْرُهُ ثَانِيًا ، وَلَوْ كَانَ هُوَ الْمُرَادَ لَجُعِلَ الْأَخِيرَ لِأَنَّهُ آخِرُ مَا يُنْتَظَرُ ، أَوِ الْأَوَّلَ لِعَظَمِ شَأْنِهِ .

(205/258)

وَجَوَّزَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِانْتِظَارُ بِحَسَبِ مَا فِي أَذْهَانِهِمْ لَا بِحَسَبِ الْوَاقِعِ ، فَإِنَّهُمُ اقْتَرَحُوا إِنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ وَرُؤْيَةَ رَبِّهِمْ . وَعَلَى هَذَا يَكُونُ إِتْيَانُ بَعْضِ آيَاتِ الرَّبِّ مَا اقْتَرَحُوهُ غَيْرَ هَذَيْنِ كَنُزُولِ كِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ يَقْرَءُونَهُ وَكَتَفْجِيرِ يَنْبُوعٍ مِنَ الْأَرْضِ بِمَكَّةَ ، وَيَكُونُ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّهَكُّمِ لِأَنَّ اقْتِرَاحَهُمْ كَانَ لِلتَّعْجِيزِ . وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي جَرَيْنَا عَلَيْهِ تَبَعًا لِلْجُمْهُورِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ هِيَ مَا يَنْتَظِرُونَهُ كَغَيْرِهِمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِهَذَا الْبَعْضِ شَيْءٌ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ ، لِأَنَّ إِيتَاءَ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ عَلَى الرُّسُلِ يَقْتَضِي فِي سُنَّةِ اللَّهِ هَلَاكَ الْأُمَّةِ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ إِذَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) (40 : 85) وَاللَّهُ لَا يُهْلِكُ أُمَّةَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، بَلْ يُصَدِّقُ هَذَا بِكُلِّ آيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ، أَوْ بِمَا يَحْصُلُ لِرَائِيهَا الْيَأْسُ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوِ الْإِيمَانِ الْقَهْرِيِّ الَّذِي لَا كَسْبَ لَهُ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ ; وَلِذَلِكَ قَالَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ الْبَعْضِ بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ :

(206/258)

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أَيْ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ الْمُوجِبَةِ لِلْإِيمَانِ الِاضْطِرَارِيِّ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ

مِنْ قَبْلِ إِتْيَانِهَا إِيمَانُهَا بَعْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَا نَفْسًا لَمْ تَكُنْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا وَعَمَلًا صَالِحًا مَا عَسَاهَا تَكْسِبُ مِنْ خَيْرٍ فِيهِ لِبُطْلَانِ التَّكْلِيفِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَإِنَّهُ - أَيِ التَّكْلِيفُ - مَبْنِيٌّ عَلَى مَا وَهَبَ اللهُ الْمُكَلَّفَ مِنَ الْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ ، بِالتَّمَكُّنِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَإِنَّمَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا التَّكْلِيفِ . وَالْبَعْضُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْأَفْرَادُ عِنْدَ الْغَرْغَرَةِ قُبَيْلَ خُرُوجِ الرُّوحِ وَهِيَ الْقِيَامَةُ الصُّغْرَى ، وَلَا تَرَاهَا الْأُمَمُ كُلُّهَا إِلَّا قُبَيْلَ قِيَامِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى ، فَإِنَّ لَهَا آيَاتٍ كَآيَاتِ الْمَوْتِ بَعْضُهَا ظَنِّيٌّ وَبَعْضُهَا قَطْعِيٌّ ، يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حُصُولُ الْإِيمَانِ الْقَهْرِيِّ وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْإِيجَازِ الْبَلِيغِ مَا تَرَى ، فَإِنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ كَلِمَةِ (نَفْسًا) الدَّالَّةِ عَلَى الشُّمُولِ لِكَوْنِهَا نَكِرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، وَبَيْنَ صِفَتِهَا هِيَ جُمْلَةُ (لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ) إِلَخْ بِالْفَاعِلِ وَهُوَ (إِيمَانُهَا) وَعَطْفَ جُمْلَةِ (أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) عَلَيْهَا قَدْ أَغْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِمَا بَسَطْنَا بِهِ الْمَعْنَى آنِفًا .

(207/258)

وَقَدْ رُوِيَ فِي أَحَادِيثَ مِنْهَا الصَّحِيحُ السَّنَدِ وَالضَّعِيفُ الَّذِي لَا يُحْتَجُّ بِهِ وَحْدَهُ ، بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي أُبْهِمَتْ وَأُضِيفَتْ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى لِتَعْظِيمِ شَأْنِهَا وَتَهْوِيلِهِ ، هِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ

مَغْرِبِهَا قُبَيْلَ تِلْكَ الْقَارِعَةِ الصَّاخَّةِ الَّتِي تَرُجُّ الْأَرْضَ رَجًّا ، وَتَبُسُّ الْجِبَالَ بَسًّا . فَتَكُونُ هَبَاءً مُنْبَثًّا ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ، وَبَطَلَ هَذَا النِّظَامُ الشَّمْسِيُّ وَقَدْ كَانَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا بَعِيدًا عَنِ الْمَأْلُوفِ الْمَعْقُولِ ، وَلَا سِيَّمَا مَعْقُولُ مَنْ كَانُوا يَقُولُونَ بِمَا تَقُولُ فَلَاسِفَةُ الْيُونَانِ فِي الْأَفْلَاكِ وَالْعُقُولِ ، وَأَمَّا عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَى عُقُولِهِمْ أَنْ تَتَصَوَّرَ حَادِثًا تَتَحَوَّلُ فِيهِ حَرَكَةُ الْأَرْضِ الْيَوْمِيَّةُ فَيَكُونُ الشَّرْقُ غَرْبًا وَالْغَرْبُ شَرْقًا ، وَلَا نَدْرِي أَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ تَغْيِيرًا آخَرَ فِي النِّظَامِ الشَّمْسِيِّ أَمْ لَا ؟ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْمَأْثُورِ مَا يُؤَيِّدُ هَذَا التَّوْجِيهَ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ ، وَأَبُو الشَّيْخِ فِي الْعَظَمَةِ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ كَعْبٍ قَالَ : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا أَدَارَهَا بِالْقُطْبِ (أَيِ الْمِحْوَرِ) فَجَعَلَ مَشْرِقَهَا مَغْرِبَهَا وَمَغْرِبَهَا مَشْرِقَهَا . اهـ . وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْعِلْمِ الْمَعْقُولِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ كَعْبٍ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(208/258)

وَأَقْوَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الرِّقَاقِ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ

الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) اهـ . وَمِثْلُهُ فِي التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ مِنْ صَحِيحِهِ وَأَوْرَدَهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ مُطَوَّلًا فِيهِ ذِكْرُ آيَاتٍ أُخْرَى لِقِيَامِ السَّاعَةِ . وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا أَحْمَدُ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ وَغَيْرُهُمْ . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا رَفَعَهُ " ثَلَاثٌ إذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ . طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ " وَهُوَ مُشْكَلٌ مُخَالِفٌ لِلْأَحَادِيثِ الْأُخْرَى الْوَارِدَةِ فِي نُزُولِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَإِيمَانِ النَّاسِ بِهِ ، وَالْمُشْكَلَاتُ فِي الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَثِيرَةٌ ، أَهَمُّ أَسْبَابِهَا فِيمَا صَحَّتْ أَسَانِيدُهُ وَاضْطَرَبَتِ الْمُتُونُ وَتَعَارَضَتْ أَوْ

(209/258)

أُشْكِلَتْ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَى ، أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ رُوِيَتْ بِالْمَعْنَى وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ الرُّوَاةِ يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا لِأَنَّهَا فِي أُمُورٍ غَيْبِيَّةٍ ، فَاخْتَلَفَ التَّعْبِيرُ بِاخْتِلَافِ الْأَفْهَامِ ، عَلَى أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْآيَاتِ . وَمِمَّا اسْتَشْكَلُوهُ أَنَّ عِلَّةَ عَدَمِ قَبُولِ الْإِيمَانِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لَا تَنْطَبِقُ إلَّا عَلَى مَنْ رَآهَا أَوْ رُوِيَتْ لَهُ بِالتَّوَاتُرِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

يُكْسَيَانِ النُّورَ بَعْدَ كُسُوفٍ وَظُلْمَةٍ وَيَعُودَانِ إِلَى الطُّلُوعِ مِنَ الْمَشْرِقِ . وَقَدْ رَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا "يَبْقَى النَّاسُ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ" وَلَكِنَّ رَفْعَهُ

لَا يَصِحُّ وَيُعَارِضُهُ مِنْ حَدِيثِهِ مَا رَوَاهُ مَرْفُوعًا "الْآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ إِذَا انْقَطَعَ السِّلْكُ تَبِعَ بَعْضُهَا بَعْضًا" قَالَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ وَهُوَ الْمُعْتَمَدُ . وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ حَدِيثًا ذَكَرَ فِيهِ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَالَ : "فَمِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ" .

(210/258)

هَذَا وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يُصَرِّحْ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بِالسَّمَاعِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ رَوَى بَعْضَهَا عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَأَمْثَالِهِ فَتَكُونَ مُرْسَلَةً .

وَلَكِنَّ مَجْمُوعَ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ تُثْبِتُ هَذِهِ الْآيَةَ بِالْجُمْلَةِ فَنَنْظِمُهَا فِي سِلْكِ الْمُتَشَابِهَاتِ ، وَيُحْمَلُ التَّعَارُضُ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ وَمَا فِي بَعْضِهَا مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَدِلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ عَلَى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ ، كَالرِّوَايَةِ عَنْ مِثْلِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ مِنْ رُوَاةِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلِلْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَأَمْثَالِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ جِدَالٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، يَسْتَدِلُّ الْمُعْتَزِلَةُ بِهَا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُ بِدُونِ عَمَلِ الْخَيْرِ ، وَيَمْنَعُ ذَلِكَ الْآخَرُونَ ، وَلَا مَجَالَ فِي الْآيَةِ لِلْجَدَلِ عِنْدَ مُسْتَقَلِّي الْفِكْرِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْقُرْآنَ فَوْقَ الْمَذَاهِبِ ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا لَا يَعْدُو مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَهُوَ أَنَّ مُشَاهَدَةَ بَعْضِ آيَاتِ الرَّبِّ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ كَمُشَاهَدَةِ الْآخِرَةِ قُبَيْلَ خُرُوجِ الرُّوحِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَفْرَادِ مِنْهُمْ : لَا يَنْفَعُ الْكَافِرَ حِينَئِذٍ الرُّجُوعُ عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَنْفَعُ الْعَاصِيَ التَّوْبَةُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الطَّاعَةِ .

وَالتَّحْقِيقُ فِي مَسْأَلَةِ اشْتِرَاطِ الْعَمَلِ بِالشَّرْعِ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ ، أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ – وَهُوَ إِيمَانُ الْإِذْعَانِ وَالْقَبُولِ – يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ بِمَا جَاءَ بِهِ فِي الْجُمْلَةِ دُونَ التَّفْصِيلِ الشُّمُولِيِّ ، فَيَجُوزُ عَقْلًا أَنْ يَتْرُكَ الْمُؤْمِنُ بَعْضَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ يَرْتَكِبَ بَعْضَ الْمُحَرَّمَاتِ لِأَسْبَابٍ تَعْرِضُ لَهُ وَلَكِنَّهُ يُؤَاخِذُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ وَيَتُوبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) (4 : 17) وَكَمَا قَالَ : (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (3 : 135) وَقَدْ يُؤْمِنُ وَيَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْعَمَلِ ، وَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ عَاقِلٌ يَخْتَلِفُ فِي نَجَاةِ مِثْلِ هَذَا بِمُجَرَّدِ الْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ لَا

(212/258)

يَجُوزُ عَقْلًا وَلَا شَرْعًا أَلَّا يُبَالِيَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الذَّعَنِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، بِحَيْثُ يَتْرُكُ الْفَرَائِضَ وَيَرْتَكِبُ الْكَبَائِرَ بِغَيْرِ جَهَالَةٍ عَارِضَةٍ ، بِلَا خَوْفٍ وَلَا حَيَاءٍ مِنَ اللهِ وَلَا اهْتِمَامٍ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَيُصِرُّ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ يَعْلَمُ حُكْمَ اللهِ فِيهِ . وَلَيْسَ لِاسْتِحْلَالِ مَا ذُكِرَ مَعْنًى غَيْرُ هَذَا ، وَالْمُسْتَحِلُّ لِمِثْلِ هَذَا كَافِرٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالْمُعْتَزِلَةِ .

قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(213/258)

أَيِ انْتَظِرُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ الْمُعَانِدُونَ مَا تَتَوَقَّعُونَ إِتْيَانَهُ وَوُقُوعَهُ بِنَا وَاكْتِفَاءَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ بِهِ ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ وَعْدَ رَبِّنَا لَنَا وَوَعِيدَهُ لَكُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (10 : 102) أَوِ انْتَظِرُوا مَا لَيْسَ أَمَامَكُمْ سَوَاءٌ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَجْهَلُونَهُ وَلَا تُفَكِّرُونَ فِيهِ وَهُوَ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِنَّا مُنْتَظِرُوهَا عَلَى عِلْمٍ وَإِيمَانٍ – وَهِيَ مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ لِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْأَفْرَادِ ، أَوْ

إِتْيَانُ الرَّبِّ تَعَالَى - أَيْ أَمْرُهُ - بِمَا وَعَدَنَا مِنَ النَّصْرِ ، وَأَوْعَدَكُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْخُسْرِ ، أَوْ إِتْيَانُهُ تَعَالَى لِحِسَابِ الْخَلْقِ ، أَوْ إِتْيَانُ بَعْضِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى تَصْدِيقِ رَسُولِهِ قُبَيْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ . . . وَهَذَا الْأَمْرُ يَتَضَمَّنُ التَّهْدِيدَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) (11 : 121 ، 122)

وَالْآيَةُ الْمُفَسَّرَةُ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ) (32 : 29 ، 30) .

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(214/258)

قَدْ كَانَتْ خَاتِمَةُ مَا وَصَّى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ رُسُلِهِ آنِفًا الْأَمْرَ بِاتِّبَاعِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالنَّهْيَ عَنِ اتِّبَاعِ غَيْرِهِ مِنَ السُّبُلِ . وَقَدْ ذَكَرَ بَعْدَ تِلْكَ الْوَصَايَا شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ الْمُشَابِهَةَ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ وَوَصَايَاهُ ، بِمَا عُلِمَ بِهِ أَنَّ هَذِهِ أَكْمَلُ ، لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَكْمُلُ بِخَوَاتِيمِهَا . وَقَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِالْمُقَارَنَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْعَرَبِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْقُرْآنِ ، مُذَكِّرًا إِيَّاهُمْ بِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ أَقْوَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ اسْتِعْدَادًا لِلْهِدَايَةِ ، مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَسَى

أَنْ يَثُوبَ الْمُسْتَعِدُّونَ لِلْإِيمَانِ إِلَى رَشَادِهِمْ ، وَيُفَكِّرَ الْمُعَانِدُونَ فِي عَاقِبَةِ عِنَادِهِمْ ، وَتَلَا ذَلِكَ تَذْكِيرُهُ لَهُمْ وَلِسَائِرِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ بِمَا يُنْتَظَرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لِكُلٍّ مِنَ الْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ ، وَلَمَّا تَمَّتْ بِذَلِكَ الْحُجَّةُ ، وَوَضَحَتِ الْمَحَجَّةُ ، ذَكَّرَ - تَعَالَى جَدُّهُ وَجَلَّ ثَنَاؤُهُ - هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَا هِيَ عُرْضَةٌ لَهُ بِحَسَبِ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ مِنْ إِضَاعَةِ الدِّينِ بَعْدَ الِاهْتِدَاءِ بِهِ ، بِمِثْلِ مَا أَضَاعَهُ بِهِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَهُوَ الِاخْتِلَافُ وَالتَّفَرُّقُ فِيهِ بِالْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ وَالْبِدَعِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ أَحْزَابًا وَشِيَعًا ، تَتَعَصَّبُ كُلٌّ مِنْهَا لِمَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ أَوْ إِمَامٍ فَيَضِيعُ الْعِلْمُ وَتَنْفَصِمُ عُرْوَةُ الْوَحْدَةِ

(215/258)

لِلْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ بَعْدَ أُخُوَّةِ الْإِيمَانِ فَتُصْبِحُ أُمَمًا مُتَعَادِيَةً لَيْسَ لَهَا مَرْجِعٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ يَجْمَعُ كَلِمَتَهَا فَيَحِلُّ بِهَا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الَّتِي تَفَرَّقَتْ قَبْلَهَا ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) قَرَأَ الْجُمْهُورُ (فَرَّقُوا دِينَهُمْ) مِنَ التَّفْرِيقِ وَهُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ وَجَعْلُهُ فِرَقًا وَأَبْعَاضًا . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (فَارَقُوا) مِنَ الْمُفَارَقَةِ لِلشَّيْءِ وَهُوَ تَرْكُهُ وَالِانْفِصَالُ مِنْهُ ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ رُوِيَتْ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَهِيَ تُفِيدُ أَنَّ تَفْرِيقَ الدِّينِ قَدْ يَسْتَلْزِمُ مُفَارَقَتَهُ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا يَتَجَزَّأُ . فَمِنَ التَّفْرِيقِ

الْإِيمَانُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ دُونَ بَعْضٍ وَلَوْ بِالتَّأْوِيلِ وَتَرْكِ الْعَمَلِ ، وَالْكُفْرُ بِالْبَعْضِ كَالْكُفْرِ بِالْجَمِيعِ مُفَارَقَةً لِلدِّينِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) (2 : 85) الْآيَةَ وَمِثْلُهُ الْإِيمَانُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دُونَ بَعْضٍ . عَلَى أَنَّ الْمُفَارَقَةَ قَدْ تَكُونُ لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي تُقِيمُ الدِّينَ لَا أَصْلِ الدِّينِ بِجُحُودِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ أَوْ تَأْوِيلِ هِدَايَتِهِ . وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ . ذَهَبَ بَعْضُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ إِلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ إِذْ فَرَّقُوا دِينَ إِبْرَاهِيمَ

(216/258)

وَمُوسَى وَعِيسَى فَجَعَلُوهُ أَدْيَانًا مُخْتَلِفَةً ، وَكُلٌّ مِنْهَا مَذَاهِبُ لَهَا شِيَعٌ مُخْتَلِفَةٌ يَتَعَادُونَ وَيَتَقَاتَلُونَ فِيهِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي مَزَّقَتْ وَحْدَةَ الْإِسْلَامِ بِمَا اسْتَحْدَثَتْ مِنَ النِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ ، وَالصَّوَابُ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ أَقَامَ حُجَجَ الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَأَبْطَلَ شُبَهَاتِ الشِّرْكِ ذَكَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَشَرْعَهُمْ . وَأَمَرَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِالْوَحْدَةِ وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ كَمَا تَفَرَّقَ مَنْ قَبْلَهُمْ وَقَدْ فَصَّلَ هَذَا بِقَوْلِهِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالِاعْتِصَامِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (3 : 105) ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ رَسُولَهُ بَرِيءٌ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كَمَا فَعَلَ

أَهْلُ الْكِتَابِ ، فَهُوَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ، فَمَنِ اتَّبَعَ سُنَّتَهُمْ فِي هَذَا التَّفْرِيقِ أَحَقُّ بِبَرَاءَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالتَّحْذِيرِ .

(217/258)

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : اخْتَلَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ) الْآيَةَ .

وَأَخْرَجَ أَكْثَرُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا

(218/258)

دِينَهُمْ) الْآيَةَ . قَالَ هُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ . بَلْ أَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَالطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ "

وَأَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ وَغَيْرُهُمْ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَائِشَةَ : " يَا عَائِشَةُ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا هُمْ أَصْحَابُ الْبِدَعِ وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَأَصْحَابُ الضَّلَالَةِ

مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَيْسَتْ لَهُمْ تَوْبَةٌ . يَا عَائِشَةُ إِنَّ لِكُلِّ صَاحِبِ ذَنْبٍ تَوْبَةً إِلَّا أَصْحَابَ الْبِدَعِ وَأَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ لَيْسَتْ لَهُمْ تَوْبَةٌ . أَنَا مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنِّي بُرَآءُ " وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ إِذَا عَرَفُوا بِدْعَتَهُمْ وَظَهَرَ لَهُمْ خَطَؤُهُمْ فَرَجَعُوا وَتَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَا يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَتُوبُونَ لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُصِيبُونَ . اهـ . مُلَخَّصًا مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ – وَثَمَّ آثَارٌ رُوِيَتْ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ بِأَنَّهُمُ الْحَرُورِيَّةُ أَوِ الْخَوَارِجُ مُطْلَقًا ، وَمُرَادُ قَائِلِيهَا أَنَّهُمْ مِنْهُمْ لَا أَنَّ الْآيَةَ فِيهِمْ وَحْدَهُمْ . وَجَاءَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْآيَةِ مِنْ كِتَابِ الِاعْتِصَامِ لِلْإِمَامِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ الشَّاطِبِيِّ مَا نَصُّهُ :

(219/258)

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : هَذِهِ الْآيَةُ تَعُمُّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ وَالشُّذُوذِ فِي الْفُرُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ التَّعَمُّقِ فِي الْجِدَالِ وَالْخَوْضِ فِي الْكَلَامِ ، هَذِهِ كُلُّهَا عُرْضَةٌ لِلزَّلَلِ وَمَظِنَّةٌ لِسُوءِ الْمُعْتَقَدِ ، (قَالَ الشَّاطِبِيُّ) يُرِيدُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ التَّعَمُّقِ فِي الْفُرُوعِ مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي فَصْلِ ذَمِّ الرَّأْيِ مِنْ كِتَابِ الْعِلْمِ لَهُ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ بِحَوْلِ اللَّهِ . وَحَكَى ابْنُ بَطَّالٍ فِي شَرْحِ

(220/258)

الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ : لَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ بِمَكَّةَ فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ . قَالَ : أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : مِنْ أَيِّ الْأَصْنَافِ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : مِمَّنْ لَا يَسُبُّ السَّلَفَ وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ ، وَلَا يُكَفِّرُ أَحَدًا بِذَنْبٍ . فَقَالَ عَطَاءٌ : عَرَفْتَ فَالْزَمْ . وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَوْمًا يَخْطُبُنَا فَقَطَعُوا عَلَيْهِ كَلَامَهُ فَتَرَامَوْا بِالْبَطْحَاءِ ، حَتَّى جُعِلْتُ مَا أُبْصِرُ أَدِيمَ السَّمَاءِ . قَالَ : وَسَمِعْنَا صَوْتًا مِنْ إِحْدَى حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ : هَذَا صَوْتُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ : أَلَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ قَدْ بَرِئَ مِمَّنْ فَرَّقَ دِينَهُ وَاحْتَزَبَ ، وَتَلَتْ : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) قَالَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ : أَحْسَبُهُ يَعْنِي بِقَوْلِهِ " أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ " أُمَّ سَلَمَةَ وَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ وَقَدْ كَانَتْ عَائِشَةُ فِي ذَاكَ الْوَقْتِ حَاجَّةً . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ هُمُ الْخَوَارِجُ .

(221/258)

قَالَ الْقَاضِي : ظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنِ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ بِدْعَةً مِنَ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا ابْتَدَعُوا تَجَادَلُوا وَتُخَاصَمُوا وَتَفَرَّقُوا وَكَانُوا شِيَعًا اهـ .

مَا أَوْرَدَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي ذَمِّ الْبِدَعِ بِالْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي (ج1) وَأَعَادَ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ فِي بَحْثِ تَفَرُّقِ الْأُمَّةِ مِنَ الْبَابِ السَّادِسِ (ج3) فَقَالَ : إِنَّ لَفْظَ الدِّينِ فِيهَا يَشْمَلُ الْعَقَائِدَ وَغَيْرَهَا .

(222/258)

وَأَقُولُ : إِنَّ مَا نَقَلَهُ عَنِ الْقَاضِي مِنْ عُمُومِ الْآيَةِ صَحِيحٌ وَهِيَ أَعَمُّ مِمَّا قَالَ ، فَمَجْمُوعُ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ الْوَارِدَةِ فِي تَفْسِيرِهَا تَدُلُّ عَلَى شُمُولِهَا لِلتَّفَرُّقِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَحُكُومَتِهِ وَتَوَلِّي أَهْلِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَعَصَبِيَّةُ الْمَذَاهِبِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْفِقْهِيَّةِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي ذَلِكَ ، كَعَصَبِيَّةِ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ ، وَالْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ الْعَرَبِيِّ وَالتُّرْكِيِّ وَالْفَارِسِيِّ وَالْهِنْدِيِّ وَالْمَلَاوِيِّ إِلَخْ بِحَيْثُ يُعَادِي الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الثَّوْرَةِ عَلَى عُثْمَانَ – وَقَدْ خَرَّجَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ مَقْتَلِهِ – كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : رَأَيْتُ يَوْمَ قَتْلِ عُثْمَانَ ذِرَاعَ امْرَأَةٍ مِنْ أَزْوَاجِ

رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُخْرِجَتْ مِنْ بَيْنِ الْحَائِطِ وَالسِّتْرِ وَهِيَ تُنَادِي : أَلَا إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ بَرِيئَانِ مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ فَكَانُوا شِيَعًا . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الرِّوَايَةَ وَاحِدَةٌ .

(223/258)

هَذَا وَإِنَّ قِرَاءَةَ (فَرَّقُوا) وَحْدَهَا لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ تَفَرُّقٍ فِي الدِّينِ مُفَارَقَةٌ لَهُ وَرِدَّةٌ عَنْهُ كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قِرَاءَةُ (فَارَقُوا) ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ بَيْنَ التَّفْرِيقِ وَالْمُفَارَقَةِ عُمُومًا وَخُصُوصًا مِنْ وَجْهٍ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ الرُّومِ : (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (30 : 31 ، 32) وَفِيهَا الْقِرَاءَتَانِ أَيْضًا وَقَدْ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ) بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

(224/258)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُرَادُ بِجَعْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيئًا مِنْهُمْ تَحْذِيرُ أُمَّتِهِ مِنْ مِثْلِ فِعْلِهِمْ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ

مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ بِالْأَوْلَى لَا كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُ الْجَاهِلِينَ الْمُضِلِّينَ مِنْ أَنَّ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ وَأَفْعَالِهِمْ خَاصٌّ بِهِمْ فَإِذَا تَلَبَّسَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ لَا يَكُونُ حُكْمُهُمْ فِيهِ كَحُكْمِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، كَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَبَاحَ لِلْمُسْلِمِينَ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ وَالنِّفَاقَ وَالْبِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ ، وَضَمِنَ لَهُمْ جَنَّتَهُ وَرِضْوَانَهُ بِمُجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ،

أَوْ إِلَى مَذْهَبِ زَيْدٍ أَوْ عَمْرٍو مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ ، وَهَذَا هَدْمٌ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَةِ الْمُهْتَدِينَ بِهِمَا مِنْ خَيْرِ الْقُرُونِ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى عَاقِبَةَ هَؤُلَاءِ الْمُفَرِّقِينَ لِدِينِهِمْ بِقَوْلِهِ :

(225/258)

(إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) أَيْ إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى وَحْدَهُ أَمْرَ جَزَائِهِمْ عَلَى مُفَارَقَةِ دِينِهِمْ وَالتَّفْرِيقِ لَهُ فِي الدُّنْيَا بِمَا مَضَتْ بِهِ سُنَّتُهُ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ مِنْ ضَعْفِ الْمُتَفَرِّقِينَ ، وَفَشَلِ الْمُتَنَازِعِينَ ، وَتَسَلُّطِ الْأَقْوِيَاءِ عَلَيْهِمْ وَلُبْسِهِمْ شِيَعًا يُذِيقُ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، بِمَا تُثِيرُهُ عَدَاوَةُ التَّفَرُّقِ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّقَاتُلِ وَالْحُرُوبِ ، كَمَا بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ

الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا) (2 : 253) إِلَخْ وَقَوْلِهِ : (فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (5 : 14) وَقَوْلِهِ : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) (6 : 65) إِلَخْ وَبَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَبْعَثُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ عِنْدَ الْحِسَابِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ بِتَفْرِيقِ الدِّينِ ، أَوْ مُفَارَقَتِهِ اتِّبَاعًا لِلْأَهْوَاءِ وَمَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ فِي النَّارِ

.

تَطْبِيقٌ أَوْ طِبَاقٌ فِي أَسْبَابِ افْتِرَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا آلَ إِلَيْهِ . لِافْتِرَاقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي دِينِهَا وَمَا تَبِعَهُ مِنْ ضَعْفِهَا فِي دُنْيَاهَا أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ كُلِّيَّةٍ :

(1) السِّيَاسَةُ وَالتَّنَازُعُ عَلَى الْمُلْكِ .

(226/258)

---

(2) عَصَبِيَّةُ الْجِنْسِ وَالنَّسَبِ .

(3) عَصَبِيَّةُ الْمَذَاهِبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ .

(4) الْقَوْلُ فِي دِينِ اللَّهِ بِالرَّأْيِ .

وَهُنَاكَ سَبَبٌ خَامِسٌ قَدْ دَخَلَ فِي كُلٍّ مِنْهَا ، وَهُوَ دَسَائِسُ أَعْدَاءِ هَذَا الدِّينِ وَكَيْدُهُمْ لَهُ

.

فَالْقَوْلُ فِي الدِّينِ بِالرَّأْيِ أَصْلٌ لِمَا ذُكِرَ قَبْلَهُ وَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَقِفُ عِنْدَهُ ، وَآرَاءُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَشُئُونِ الْمَعِيشَةِ وَأَحْوَالِ الِاجْتِمَاعِ . وَالدِّينُ فِي عَقَائِدِهِ وَعِبَادَاتِهِ وَفَضَائِلِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَضْعٌ إِلَهِيٌّ مُوحًى مِنَ اللهِ تَعَالَى . وَمِنْ فَوَائِدِهِ الْمَدَنِيَّةِ جَمْعُ قُلُوبِ الْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ بِأَقْوَى الرَّوَابِطِ وَأَوْثَقِ الْعُرَى الثَّابِتَةِ . وَالرَّأْيُ يُفَرِّقُهَا ; إِذْ قَلَّمَا يَتَّفِقُ شَخْصَانِ مُسْتَقِلَّانِ فِيهِ ، فَأَنَّى تَتَّفِقُ الْأُلُوفُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ؟ وَاجْتِمَاعُ الْكَثِيرِينَ بِالتَّقْلِيدِ يَسْتَلْزِمُ تَفَرُّقًا شَرًّا مِنَ التَّفَرُّقِ فِي الرَّأْيِ عَنْ دَلِيلٍ ; لِأَنَّهُ تَفَرُّقُ جَهْلٍ لَا مَطْمَعَ فِي تَلَافِي ضَرَرِهِ إِلَّا بِزَوَالِهِ .

(227/258)

تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ فِي تَفَرُّقِ الْمَذَاهِبِ وَخَصُّوهُ بِالتَّفَرُّقِ فِي الْأُصُولِ دُونَ الْفُرُوعِ ، وَعَلَّلُوهُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا دُونَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْفُرُوعِ ، وَفِيهِ نَظَرٌ . وَالتَّحْقِيقُ الْعُمُومُ كَمَا تَقَدَّمَ ; فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنَّهُمْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ، وَأَنَّهُمْ تَعَادَوْا فِي الدِّينِ تَعَادِيًا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِهِ وَضَعْفِ أَهْلِهِ وَقُوَّةِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانَ ضَرَرُهُمْ دُونَ ضَرَرِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْأُصُولِ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ مُتَعَصِّبِيهِمْ

أَدْخَلُوا خِلَافَ الْأُصُولِ فِي الْفُرُوعِ فَجَعَلَ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ التَّزَوُّجَ بِالشَّافِعِيَّةِ مَحَلَّ نَظَرٍ ; لِأَنَّهَا تَشُكُّ فِي إِيمَانِهَا . وَعَلَّلَ الْقَوْلَ بِالْجَوَازِ بِقِيَاسِهَا عَلَى الذِّمِّيَّةِ ، وَمُرَادُهُمْ بِشَكِّ الشَّافِعِيَّةِ أَوْ جَمِيعِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَأَهْلِ الْأَثَرِ فِي إِيمَانِهِمْ ; قَوْلُهُمُ اتِّبَاعًا لِلسَّلَفِ : أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! وَلَوْ سَلَكَ الْخَلَفُ فِي الدِّينِ مَسْلَكَ السَّلَفِ بِاتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى فَهْمِهِمَا بِكُلِّ عَالِمٍ ثِقَةٍ مِنْ غَيْرِ تَعَصُّبٍ لِعَالِمٍ مُعَيَّنٍ ، لَمَا وَقَعُوا فِي هَذَا الْخِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْجَهْلِ بِهِمَا وَهَجْرِهِمَا ، وَمَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْقَضَائِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ يُزِيلُهُ حُكْمُ الْحَاكِمِ فَلَا يُوجِبُ تَفَرُّقًا .

(228/258)

وَقَدْ بَدَأَ أَصْحَابُ كُتُبِ الْمَقَالَاتِ الْكَلَامِيَّةِ بِحَثِّ التَّفَرُّقِ وَالشِّيَعِ بِالْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ فِي ذَلِكَ وَهُوَ " افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً " هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَرَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بِلَفْظِ : أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ فِينَا فَقَالَ : " إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ

، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ " وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ " وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ لِصَاحِبِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ بِصَاحِبِهِ) لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ " أَيِ الْكَلَبُ وَهُوَ بِالتَّحْرِيكِ الدَّاءُ الَّذِي يَعْرِضُ لِلْكِلَابِ وَلِمَنْ عَضَّهُ الْمُصَابُ بِهِ مِنْهَا . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ

(229/258)

عَمْرٍو وَأَوَّلُهُ " لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي كَمَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ . . وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً " قَالُوا : مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي " وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ وَمِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ

(230/258)

بْنِ مَالِكٍ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ ، وَعَبَّرَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا عَنِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ بِالْجَمَاعَةِ وَرَوَاهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ بِلَفْظِ " تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَعْظَمُهَا فِتْنَةً قَوْمٌ يَقِيسُونَ الدِّينَ بِرَأْيِهِمْ يُحَرِّمُونَ بِهِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ " وَقَفَّى عَلَيْهِ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ بِمَا رُوِيَ مِنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ كَالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَالْعَبَادِلَةِ وَغَيْرِهِمْ فِي ذَمِّ الرَّأْيِ ، وَقَدْ حَقَّقْنَا مَسْأَلَةَ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ فِي تَفْسِيرِ النَّهْيِ عَنِ السُّؤَالِ مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَقَدْ جَعَلَ الشَّاطِبِيُّ الْوَجْهَ الْخَامِسَ مِمَّا وَرَدَ فِي النَّقْلِ مِنْ ذَمِّ الْبِدَعِ مَا جَاءَ فِي ذَمِّ الرَّأْيِ غَيْرِ الْمُسْتَنِدِ إلَى كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ; إذِ الْبِدَعُ كُلُّهَا كَذَلِكَ . كَمَا وَعَدَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا وَنَقَلْنَاهُ عَنْهُ آنِفًا ، فَذَكَرَ حَدِيثَ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ وَعِدَّةَ آثَارٍ بِمَعْنَاهُ وَرَجَّحَ شُمُولَ ذَلِكَ لِمَا كَانَ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ جَمِيعًا كَمَا نَقَلَهُ عَنِ الْقَاضِي إسْمَاعِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَنَقَلَ بَعْضَ مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ مِنْ آثَارِ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ إلَّا إنْحَاءَ أَهْلِ الْحَدِيثِ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَمِنْ أَحْسَنِ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْإِمَامِ مَالِكٍ : قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ تَمَّ هَذَا الْأَمْرُ وَاسْتُكْمِلَ ،

(231/258)

فَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَّبِعَ آثَارَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَتَّبِعَ الرَّأْيَ ; فَإِنَّهُ مَتَى اتُّبِعَ الرَّأْيُ جَاءَ رَجُلٌ آخَرُ أَقْوَى فِي الرَّأْيِ مِنْكَ فَاتَّبَعْتَهُ ، فَأَنْتَ كُلَّمَا جَاءَكَ رَجُلٌ غَلَبَكَ اتَّبَعْتَهُ ، أَرَى هَذَا لَا يَتِمُّ اهـ . وَإِنَّمَا يَعْنِي بِهَذَا الرَّأْيَ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ دُونَ الدُّنْيَا وَمَصَالِحِهَا الْمَدَنِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْقَضَاءِ ; فَإِنَّ مِنْ أُصُولِ مَذْهَبِهِ مُرَاعَاةَ الْمَصَالِحِ فِي هَذَا كَمَا بَيَّنَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي هَذَا الْكِتَابِ (الِاعْتِصَامِ) أَحْسَنَ بَيَانٍ .

وَقَدْ قَالَ هَاهُنَا : إِنَّ الْآثَارَ الْمُتَقَدِّمَةَ لَيْسَتْ عِنْدَ مَالِكٍ مَخْصُوصَةً بِالرَّأْيِ فِي الِاعْتِقَادِ .

(أَقُولُ) : وَهَذَا مَذْهَبُنَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِرَارًا ، وَقَدْ حَقَّقَ الشَّاطِبِيُّ فِي الْبَابِ التَّاسِعِ مِنَ الِاعْتِصَامِ (ج3) أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ لَا يَدْخُلُونَ تَحْتَ آيَةِ (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) (11 : 118 ، 119) وَالْمَسَائِلُ الِاجْتِهَادِيَّةُ هِيَ الَّتِي لَا نَصَّ فِيهَا وَلَا إِجْمَاعَ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ يَتَعَصَّبُونَ لَهُمْ فَيَكُونُونَ شِيَعًا وَأَحْزَابًا يَتَفَرَّقُونَ وَيَتَعَادَوْنَ فِي ذَلِكَ فَهُمْ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ ،

وَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ كَعُذْرِ الْمُجْتَهِدِينَ الَّذِينَ قَالُوا وَعَمِلُوا بِمَا ظَهَرَ

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ وَلَمْ يَكُونُوا يُجِيزُونَ لِأَحَدٍ أَنْ يُقَلِّدَهُمْ فِي اجْتِهَادِهِمْ إلَّا إذَا ظَهَرَ لَهُ صِحَّةُ دَلِيلِهِمْ فَصَارَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنَ الْحُكْمِ . فَهَلْ يُجِيزُونَ لِشِيعَةٍ أَوْ حِزْبٍ أَنْ يَتَعَصَّبَ وَيُعَادِيَ وَيُخَاصِمَ وَيُفَرِّقَ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ انْتِصَارًا لِظُنُونِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَرْجِعُونَ عَنْهَا إذَا ظَهَرَ لَهُمْ خَطَؤُهُمْ فِيهَا ؟ !.

(233/258)

وَقَدْ أَوْرَدَ الشَّاطِبِيُّ فِي الْبَابِ التَّاسِعِ حَدِيثَ افْتِرَاقِ الْأُمَّةِ الْمُتَقَدِّمَ مِنْ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِمَا ، وَزَادَ رِوَايَةً رَآهَا فِي جَامِعِ ابْنِ وَهْبٍ جَعَلَ فِيهَا الْفِرَقَ 82 - إذَا لَمْ يَكُنِ النَّقْلُ غَلَطًا مِنَ النُّسَّاخِ - وَقَالَ : كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً . فَسَأَلُوهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهَا فَقَالَ : " الْجَمَاعَةُ " . ثُمَّ تَكَلَّمَ عَنْ حَقِيقَةِ الِافْتِرَاقِ وَأَسْبَابِهِ وَاسْتِشْكَالِ كُفْرِ هَذِهِ الْفِرَقِ مَا عَدَا وَاحِدَةً مِنْهَا . قَالَ أَهْلُ السُّنَّةِ لَا يُكَفِّرُونَ كُلَّ مُبْتَدِعٍ بَلْ يَقُولُونَ بِإِيمَانِ أَكْثَرِ الطَّوَائِفِ الَّتِي فَسَّرُوا بِهَا الْفِرَقَ ، وَذَكَرَ لِلْعُلَمَاءِ أَقْوَالًا فِي الْحَدِيثِ وَمَا يُؤَيِّدُهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَلَا سِيَّمَا آيَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَآيَةِ : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا) (153) الَّتِي قَبْلَهَا ، ثُمَّ رَجَّحَ مَا كُنَّا نَرَاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَهُوَ أَنَّ الْحُكْمَ بِكَوْنِ هَذِهِ الْفِرَقِ فِي النَّارِ مَا عَدَا الْجَمَاعَةَ الْمُلْتَزِمَةَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ لَا يَقْتَضِي أَنَّهَا كُلَّهَا خَالِدَةٌ خُلُودَ الْكُفَّارِ بَلْ هِيَ مُطْلَقَةٌ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا مَنْ يُعَذَّبُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعَمَلِ لِأَنَّهُ كَفَرَ بِبِدْعَتِهِ ، وَمِنْهَا مَنْ يُعَذَّبُ عَلَى الْبِدْعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ فَقَطْ ، وَلَا يَخْلُدُ فِي الْعَذَابِ خُلُودَ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ أَوِ الْجَاحِدِينَ لِبَعْضِ مَا عُلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ثُمَّ عَقَدَ فِي

(234/258)

هَذَا الْبَابِ مَسَائِلَ فِي أَبْحَاثٍ مُهِمَّةٍ كَبَحْثِ عَدِّ هَذِهِ الْفِرَقِ مِنَ الْأُمَّةِ وَعَدَمِهِ ، وَمَا قِيلَ فِي عَدَدِهَا وَتَعْيِينِهَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْسُنُ بِطَالِبِ التَّحْقِيقِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ الِاطِّلَاعُ عَلَيْهِ

.

وَقَدْ تَعَرَّضَ لِهَذِهِ الْمَبَاحِثِ وَالْمُشْكِلَاتِ فِي الْحَدِيثِ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ مُحَمَّد عَبْده فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى شَرْحِ الْجَلَالِ الدَّوَانِيِّ (مُحَمَّدِ بْنِ أَسْعَدَ الصِّدِّيقِيِّ) لِلْعَقَائِدِ الْعَضُدِيَّةِ ، وَعَدَّ مَا أَطَالَ بِهِ إِيجَازًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَتَّسِعُ لَهُ الْمَقَامُ . قَالَ فِي أَوَّلِهِ :

لَا بُدَّ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِكَلَامٍ مُوجَزٍ فَاسْمَعْ وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ قَدْ أَفَادَنَا أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْأُمَّةِ فِرَقٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، وَأَنَّ النَّاجِيَةَ مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ ، وَقَدْ بَيَّنَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهَا الَّتِي عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ . وَكَوْنُ الْأُمَّةِ قَدْ حَصَلَ فِيهَا افْتِرَاقٌ عَلَى فِرَقٍ

شَتَّى تَبْلُغُ الْعَدَدَ الْمَذْكُورَ أَوْ لَا تَبْلُغُهُ ثَابِتٌ قَدْ وَقَعَ لَا مَحَالَةَ وَكَوْنُ النَّاجِي مِنْهُمْ وَاحِدَةً أَيْضًا حَقٌّ لَا كَلَامَ فِيهِ فَإِنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، هُوَ مَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ ، فَإِنَّ مَا خَالَفَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ فَهُوَ رَدٌّ ، وَأَمَّا تَعْيِينُ أَيِّ

(235/258)

فِرْقَةٍ هِيَ النَّاجِيَةَ أَيِ الَّتِي تَكُونُ عَلَى مَا (كَانَ) النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ فَلَمْ يَتَعَيَّنْ لِي إلَى الْآنِ ، فَإِنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مِمَّنْ يُذْعِنُ لِنَبِيِّنَا بِالرِّسَالَةِ تَجْعَلُ نَفْسَهَا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى إنَّ مِيرْبَاقِرَ الدَّامَادْ بَرْهَنَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْفِرَقِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ هِيَ فِرَقُ الشِّيعَةِ وَأَنَّ النَّاجِيَةَ مِنْهُمْ فِرْقَةُ الْإِمَامِيَّةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ فَجَعَلَهُمْ مِنْ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ فَكُلٌّ يَدَّعِي هَذَا الْأَمْرَ وَيُقِيمُ عَلَى ذَلِكَ أَدِلَّةً :

ثُمَّ ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ أَمْثِلَةً مِمَّا يَقُولُهُ فَلَاسِفَةُ الْمُسْلِمِينَ وَصُوفِيَّتُهُمْ وَأَشْهَرُ فِرَقِهِمْ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ غَيْرَهُمْ وَمَا اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْهَا أَحَادِيثُ مَوْضُوعَةٌ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِجَهْلِ أَكْثَرِهِمْ بِالْمَنْقُولِ . وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَى النَّظَرِيَّاتِ وَالْآرَاءِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْمَعْقُولَ . ثُمَّ قَالَ :

" فَكُلٌّ يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّهُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الْوَاقِفَةُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ مَتَى رَأَتْ مِنَ النُّصُوصِ مَا يُخَالِفُ مَا اعْتَقَدَتْ أَخَذَتْ فِي تَأْوِيلِهِ

(236/258)

وَإِرْجَاعِهِ إِلَى بَقِيَّةِ النُّصُوصِ الَّتِي تَشْهَدُ لَهَا ، فَكُلٌّ بَرْهَنَ عَلَى أَنَّهُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْحَدِيثِ وَكُلٌّ مُطْمَئِنٌّ بِمَا لَدَيْهِ وَيُنَادِي نِدَاءَ الْمُحَقِّقِ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ . وَالْوُقُوفُ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ . فَإِنَّ لِلنَّاظِرِ أَنْ يَقُولَ : يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الْوَاقِفَةُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ قَدْ جَاءَتْ وَانْقَرَضَتْ ، وَأَنَّ الْبَاقِيَ الْآنَ مِنْ غَيْرِ النَّاجِيَةِ ، أَوْ أَنَّ الْفِرَقَ الْمُرَادَةَ لِصَاحِبِ الشَّرِيعَةِ لَمْ تَبْلُغِ الْآنَ الْعَدَدَ . أَوْ أَنَّ النَّاجِيَةَ إِلَى الْآنَ مَا وُجِدَتْ وَسَتُوجَدُ . أَوْ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْفِرَقِ نَاجِيَةٌ حَيْثُ إِنَّ الْكُلَّ مُطَابِقٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْأُصُولِ الْمَعْلُومَةِ لَنَا عَنْهُمْ كَالْأُلُوهِيَّةِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ ، وَمَا وَقَعَ فِيهِ الْخِلَافُ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ عَنْهُمْ عِلْمَ الْيَقِينِ وَإِلَّا لَمَا وَقَعَ فِيهِ اخْتِلَافٌ . وَأَنَّ بَقِيَّةَ الْفِرَقِ سَتُوجَدُ مِنْ بَعْدُ أَوْ وُجِدَ مِنْهَا بَعْضٌ لَمْ يُعْلَمْ أَوْ عُلِمَ كَمَنْ يَدَّعِي أُلُوهِيَّةَ عَلِيٍّ كَفِرْقَةِ النُّصَيْرِيَّةِ . وَمُوجَبُ هَذَا التَّرَدُّدِ أَنَّهُ مَا مِنْ فِرْقَةٍ إِلَّا وَيَجِدُهَا النَّاظِرُ فِيهَا مُعَضَّدَةً

بِكِتَابٍ وَسُنَّةٍ وَإِجْمَاعٍ وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ وَالنُّصُوصُ فِيهَا مُتَعَارِضَةٌ مِنَ الْأَطْرَافِ . وَمِمَّا يَسُرُّنِي مَا جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ الْهَالِكَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ .

(237/258)

وَنَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنَ الْأُسْتَاذِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ تَأْلِيفِهِ لِهَذِهِ الْحَاشِيَةِ أَيَّامَ اشْتِغَالِهِ بِعِلْمِ الْكَلَامِ فِي الْأَزْهَرِ مُمْتَازًا بِاسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ وَعَدَمِ التَّقْلِيدِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ التَّعَصُّبِ ، مَعَ الْحِرْصِ عَلَى جَمْعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَنْقُصُهُ سَعَةُ الِاطِّلَاعِ عَلَى كُتُبِ الْحَدِيثِ وَإِذًا لَجَزَمَ بِأَنَّ الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ هُمْ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعُلَمَاءُ الْأَثَرِ ، الْمُهْتَدُونَ بِهَدْيِ السَّلَفِ ، وَأَنَّهُمْ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخَرِينَ وَلَا تَزَالُ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ظَاهِرَةً عَلَى الْحَقِّ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ . وَأَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا أَتْبَاعَ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ . سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ ضَرَّ وَمَنْ نَفَعَ وَلَا مِنَ الْمُقَلِّدِينَ فِي الْفُرُوعِ أَيْضًا ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ كَلَامَ اللهِ وَكَلَامَ رَسُولِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا يُؤَوِّلُونَ شَيْئًا مِنْهُمَا لِيُوَافِقَ مَذْهَبًا مِنَ الْمَذَاهِبِ أَوْ يُؤَيِّدَ عَالِمًا مِنَ الْعُلَمَاءِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى تِلْكَ الْمَذَاهِبِ قَدْ وَصَلَ بِاجْتِهَادِهِ إِلَى الْحَقِّ فَصَارَ مِنْهُمْ وَإِذًا لَمَا

سَرَّهُ حَدِيثُ أَنَّ الْهَالِكَ مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ لِأَنَّهُ لَا تَصِحُّ لَهُ رِوَايَةٌ . وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَوَغَّلَ فِي مَذَاهِبِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ جَمِيعًا فَهَدَاهُ اللَّهُ بِإِخْلَاصِهِ إِلَى

(238/258)

مَذْهَبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مُجْمَلًا ثُمَّ مُفَصَّلًا . وَالرُّجُوعُ عَمَّا خَالَفَهُ مِنَ الْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ تَدْرِيجًا . وَإِنَّنَا نَرَاهُ هُنَا قَدْ أَوْرَدَ عَلَى تَحْقِيقِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ إِشْكَالَاتٍ . (خَامِسُهَا) إِجْمَاعُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ عَلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ ، وَكَوْنِهِ يَقْتَضِي بُطْلَانَ الِاعْتِمَادِ عَلَى تِلْكَ الْقَضَايَا النَّظَرِيَّةِ الَّتِي تَوَاضَعَ عَلَيْهَا أَئِمَّةُ كُلِّ طَائِفَةٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا هِيَ الْحَقُّ الْوَاقِعُ ، وَعَدَّ هَذَا تَعَصُّبًا مِنْ أَتْبَاعِ كُلِّ رَئِيسٍ وَأَخْذًا بِأَسْبَابِ الْعَنَتِ . ثُمَّ قَالَ مَا نَصُّهُ :

(239/258)

" الْحَقُّ الَّذِي يُرْشِدُ إِلَيْهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاظِرُ الْمُتَدَيِّنُ إِلَى إِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ عَلَى إِثْبَاتِ صَانِعٍ وَاجِبِ الْوُجُودِ ، ثُمَّ مِنْهُ إِلَى إِثْبَاتِ النُّبُوَّاتِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ كُلَّ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّسْلِيمِ بِدُونِ فَحْصٍ فِيمَا تَكِنُّهُ الْأَلْفَاظُ إِلَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ

بِالْأَعْمَالِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ طَرِيقَ التَّحْقِيقِ فِي تَأْسِيسِ جَمِيعِ عَقَائِدِهِ بِالْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ ، كَانَ مَا أَدَّتْ إِلَيْهِ مَا كَانَ ، لَكِنْ بِغَايَةِ التَّحَرِّي وَالِاجْتِهَادِ ، ثُمَّ إِذَا فَاءَ مِنْ فِكْرِهِ إِلَى مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ فَوَجَدَهُ يُظَاهِرُهُ مُلَائِمًا لِمَا حَقَّقَهُ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِلَّا فَلْيَطْرُقْ عَنِ التَّأْوِيلِ وَيَقُولُ : (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (3 : 7) فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مُرَادَ اللهِ وَنَبِيِّهِ إِلَّا اللهُ وَنَبِيُّهُ ، فَعَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ يَكُونُ نَسْجُهُ فَيَبُوءُ مِنَ اللهِ بِرِضْوَانٍ حَيْثُ أَسَّسَ عَقَائِدَهُ عَلَى السَّدِيدِ مِنَ الْبَرَاهِينِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْأَخْبَارَ الْإِلَهِيَّةَ بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ وَتَنَاوَلَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وَإِنْ أَرَادَ التَّأْوِيلَ لِغَرَضٍ كَدَفْعِ مُعَانِدٍ ، أَوْ إِقْنَاعِ جَاحِدٍ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ إِذَا سَلِمَ بُرْهَانُهُ مِنَ التَّقْلِيدِ وَالتَّشْوِيشِ وَهَذَا هُوَ دَأْبُ مَشَايِخِنَا كَالشَّيْخِ الْأَشْعَرِيِّ وَالشَّيْخِ أَبِي مَنْصُورٍ وَمَنْ مَاثَلَهُمْ ، لَا يَأْخُذُونَ قَوْلًا حَتَّى يُسَدِّدُوهُ بِبَرَاهِينِهِمُ الْقَوِيَّةِ عَلَى حَسَبِ طَاقَتِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ مَا يُعْنَى بِاسْمِ

(240/258)

السُّنِّيِّ

وَالصُّوفِيِّ وَالْحَكِيمِ ، وَكُلُّ مُتَحَزِّبٍ مُجَادِلٍ فَإِنَّمَا يَبْغِي الْعَنَتَ وَتَشْتِيتَ الْكَلِمَةِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَكُلُّ مُقَصِّرٍ فَعَلَيْهِ الْعَارُ وَالشَّنَارُ ، فَاسْلُكْ سَبِيلَ السَّلَفِ ، وَاحْذَرْ فَقَدْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ

خَلْفٌ ، وَلَا بُدَّ فِي كَمَالِ النَّجَاةِ وَنَيْلِ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ مِنْ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ التَّخَلِّي عَنِ الرَّذَائِلِ ، وَالتَّحَلِّي بِالْأَخْلَاقِ الْكَامِلَةِ ، وَالْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ تَكْمِيلُ قُوَّةِ النَّظَرِ وَارْتِكَابُ طَرِيقِ الْعَدْلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ إِذْ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْهِمَّةِ وَالسَّدَادِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الِاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ ، وَنُورِ الْبَصِيرَةِ فِيمَا يَأْخُذُ وَيُعْطِي ، فَهُوَ فِي النَّارِ أَوْ يَطْهُرُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَهُوَ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجِنَانِ ، وَسَالِكُ هَذَا الطَّرِيقِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ سُلُوكُهُ مِنْ قِبَلِ الِالْتِفَاتِ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ أُولِي الْفَضْلِ مِنَ الرَّاشِدِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، فَذَلِكَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيُّ وَالْمُؤْمِنُ الْمُتَوَسِّطُ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ سَلَكَ

(241/258)

بِنَفْسِهِ مَدَارِجَ الْأَنْوَارِ وَوَقَفَ عَلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ دَقَائِقِ الْأَسْرَارِ حَتَّى جَلَسَ فِي حَيَاتِهِ هَذِهِ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ، فَهُوَ الصُّوفِيُّ وَهُوَ صَاحِبُ الْمَقْصِدِ الْأَسْنَى وَالْمَطْلُوبِ الْأَعْلَى ، وَفِي هَذَا مَرَاتِبُ لَا تُحْصَى وَمَرَاقٍ لَا تُسْتَقْصَى ، وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ يَشْمَلُهَا اسْمُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ . فَمَنْ تَحَقَّقَ بِهَذَا النُّورِ فَلَهُ النَّجَاةُ وَالْحُبُورُ كَانَ مَنْ كَانَ ، فَإِنَّ

هَذَا هُوَ الْمُتَحَقِّقُ فِيهِ مَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ وَلْنُمْسِكِ الْقَلَمَ حَيْثُ إِنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الْإِيجَازُ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ، فَاسْلُكْ بِنَفْسِكَ طَرِيقَ السَّدَادِ وَانْظُرْ فِيمَا يَكُونُ لَكَ بِعَيْنِ الرَّشَادِ " اهـ .

بَدْءُ تَفَرُّقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ :

(242/258)

كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَكَانَ أَوَّلُ خِلَافٍ نَجَمَ بَيْنَهُمُ الْخِلَافَ عَلَى الْإِمَارَةِ ، فَقَالَ بَعْضُ زُعَمَاءِ الْأَنْصَارِ لِلْمُهَاجِرِينَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ وَكَانَ بَعْضُ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَخَافَ عُمَرُ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ بُعْدِ الرَّأْيِ وَالْحَزْمِ أَنْ يَحْدُثَ صَدْعٌ فِي بِنْيَةِ الْأُمَّةِ قَبْلَ دَفْنِ رَسُولِهَا ، فَبَادَرَ إِلَى مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُنْكِرُ مَكَانَتَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَبَقًا وَعِلْمًا وَفَهْمًا وَنَصْرًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، فَتَبِعَهُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَتَلَا ذَلِكَ عَلِيٌّ وَمَنْ كَانَ تَأَخَّرَ فَتَمَّ الْإِجْمَاعُ ، وَإِنَّمَا بَايَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَنْ عَلَى رَأْيِهِمْ مَنْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَوْلَى مِنْهُ بِالْأَمْرِ لِأَجْلِ جَمْعِ الْكَلِمَةِ وَالْخَوْفِ مِنَ التَّفَرُّقِ الَّذِي بَرِئَ اللهُ وَرَسُولُهُ

مِنْ أَهْلِهِ ، فَإِنَّ الاجْتِمَاعَ وَالاتِّفَاقَ هُوَ سِيَاجُ الدِّينِ وَحِفَاظُهُ ، فَيُرَجَّحُ عَلَى كُلِّ مَا عَارَضَهُ مِنَ الْمَصَالِحِ ، وَكَذَلِكَ بَايَعُوا عُمَرَ وَعُثْمَانَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَذَلِكَ تَنَازَلَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمُعَاوِيَةَ عَنِ الْخِلَافَةِ لِتَرْجِيحِ هَذِهِ الْمَصْلَحَةِ عَلَى غَيْرِهَا .

(243/258)

وَأَمَّا مُقَاوَمَةُ بَعْضِ أَئِمَّةِ الْعِتْرَةِ وَغَيْرِهِمْ لِلْأُمَوِيِّينَ فَلِظُلْمِهِمْ وَجَعْلِهِمُ الْخِلَافَةَ مَغْنَمًا لَهُمْ وَإِرْثًا فِيهِمْ ، وَمَغْرَمًا وَعَذَابًا عَلَى مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، فَهَدَمُوا بِذَلِكَ قَاعِدَةَ الْقُرْآنِ فِي الشُّورَى وَجَعَلُوا إِمَامَةَ الدِّينِ وَخِلَافَةَ النُّبُوَّةِ مُلْكًا عَضُوضًا - كَمَا أَنْبَأَتْ أَحَادِيثُ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ الْإِمَامُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ إِذْ سُئِلَ عَنْ سَبَبِ مُوَالَاتِهِ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّ جَدَّهُ الْأَعْلَى عَلِيًّا الْمُرْتَضَى أَوْلَى مِنْهُمَا بِالْخِلَافَةِ وَخُرُوجِهِ عَلَى هِشَامٍ الْأُمَوِيِّ ; إِذْ قَالَ لِسَائِلِهِ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَلَّاهُمَا جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ لِأَجْلِ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ ، فَأَقَامَا الْحَقَّ

(244/258)

وَالْعَدْلَ فَتَوَلَّاهُمَا جَدُّهُ الْأَعْلَى لِأَنَّهُمَا قَامَا بِمَا كَانَ هُوَ يَقُومُ بِهِ وَكَانَ هُوَ قَاضِيهُمَا وَمُسْتَشَارُهُمَا – فَهُوَ (أَيْ زَيْدٌ) يَتَوَلَّاهُمَا كَمَا تَوَلَّاهُمَا جَدُّهُ وَهِشَامٌ لَيْسَ كَذَلِكَ . فَالْإِمَامُ زَيْدٌ وَأَتْبَاعُهُ مِنَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ يُلَقَّبُونَ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالْفِدَائِيِّينَ الَّذِينَ يُقَاوِمُونَ الظُّلْمَ بِالثَّوْرَاتِ عَلَى الْجَائِرِينَ الظَّالِمِينَ ، إِلَى أَنْ يَثُلُّوا عُرُوشَهُمْ . وَيُرِيحُوا الْأُمَمَ مِنْ جَوْرِهِمْ ، وَجُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ يَرْجِعُونَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى قَاعِدَةِ تَعَارُضِ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَجَلْبِ الْمَصَالِحِ ، وَقَاعِدَةِ ارْتِكَابِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ فِي مُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ وَأَهْلِهِ لِئَلَّا يُفْضِيَ إِلَى فِتْنَةِ التَّفَرُّقِ وَالشِّقَاقِ وَلَكِنَّهُمْ أَيَّدُوا الظَّالِمِينَ وَأَطَاعُوهُمْ بِشُبْهَةِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ حَتَّى ضَاعَ الْإِسْلَامُ وَشَرْعُهُ وَتَضَعْضَعَ كُلُّ مُلْكٍ لِأَهْلِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَكِّمُوا تَحْكِيمَهَا وَتَطْبِيقَهَا .

(245/258)

وَقَدْ رَفَضَ غُلَاةُ الشِّيعَةِ الْإِمَامَ زَيْدًا إِذْ أَبَى قَبُولَ مَا اشْتَرَطُوهُ عَلَيْهِ لِاتِّبَاعِهِ ، وَهُوَ الْبَرَاءَةُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الرَّافِضَةَ ، وَلِمَاذَا اشْتَرَطُوا الْبَرَاءَةَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ دُونَ عُثْمَانَ بَلْ دُونَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ ؟ ! إِنَّ أَكْثَرَ الشِّيعَةِ الصَّادِقِينَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ هَذَا وَلَوْ فَكَّرُوا فِيهِ لَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا بِمَعْرِفَتِهِ كَيْفَ جَرَفَهُمْ تَيَّارُ دَسَائِسِ الْمَجُوسِ أَصْحَابِ الْجَمْعِيَّاتِ السِّرِّيَّةِ الْعَامِلَةِ لِلِانْتِقَامِ لِلْمَجُوسِيَّةِ مِنَ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَطْفَأَ

نَارَهَا وَثَلَّ عَرْشَ مُلْكِهَا عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، اللَّذَيْنِ كَانَا يُفَضِّلَانِ آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى آلِهِمَا ، فَتِلْكَ الْجَمْعِيَّاتُ الْمَجُوسِيَّةُ بَثَّتْ دَسَائِسَهَا فِي الشِّيعَةِ لِأَجْلِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِزَالَةِ ذَلِكَ الِاتِّحَادِ الَّذِي بُنِيَ عَلَى أَسَاسِهِ مَجْدُ الْإِسْلَامِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

(246/258)

لَمْ تُوجَدْ فِي الدُّنْيَا جَمْعِيَّاتٌ أَدَقُّ نِظَامًا وَأَنْفَذُ سِهَامًا مِنْ جَمْعِيَّاتِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ وَمَجُوسُ فَارِسَ لِإِفْسَادِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَإِزَالَةِ مُلْكِ دُعَاتِهِ الْعَرَبِ فَقَدْ رَاجَتْ دَسَائِسُهَا فِي شِيعَةِ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ رَاجَ بَعْضُهَا فِي سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ أَقْوَى فِي نَفْسِهِ فَبَيْنَمَا كَانَتْ تِلْكَ الدَّسَائِسُ تَعْمَلُ عَمَلَهَا فِي الْحِجَازِ وَالْمَغْرِبِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ كَانَ الْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ فِي أُمَّةِ الْفُرْسِ النَّبِيلَةِ ، وَكُتُبُ السُّنَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ تُدَوَّنُ فِي مُدُنِهَا بِأَقْلَامِ أَبْنَاءِ فَارِسَ وَمَنِ اسْتَوْطَنَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَتُنْشَرُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا تُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ الْقَوِيمَ وَلُغَتَهُ ، وَقَدْ صَارَ لِأُولَئِكَ الْبَاطِنِيَّةِ دَوْلَةٌ عَرَبِيَّةٌ فِي

مِصْرَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَوْلَةٌ فِي بِلَادِ الْفُرْسِ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ دَوْلَتُهُمْ فِي مِصْرَ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَا أَنْ تُعِيدَ

(247/258)

الْمَجُوسِيَّةَ وَتَجْعَلَ لَهَا مُلْكًا ؛ لِأَنَّهَا لَمَّا كَانَ لَهَا ظَاهِرٌ هُوَ الْإِسْلَامُ عَلَى مَذْهَبِ الشِّيعَةِ الَّذِي كَانَ مَذْهَبًا سِيَاسِيًّا فَصَارَ مَذْهَبًا دِينِيًّا ، وَلَهَا بَاطِنٌ سِرِّيٌّ لَا يَعْرِفُهُ إلَّا رُؤَسَاءُ الدُّعَاةِ - وَلَمَّا كَانَ الْمُنْتَحِلُونَ لَهَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ جَاهِلِينَ بِأَصْلِهَا وَبِمَا وُضِعَتْ لَهُ - غَلَبَتِ الصِّبْغَةُ الدِّينِيَّةُ فِيهَا عَلَى الصِّبْغَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَكَانَ عَاقِبَةُ دَعْوَتِهَا أَنْ مَرَقَ بَعْضُ الشِّيعَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ ، وَاتَّخَذُوا التَّعَالِيمَ الْبَاطِنِيَّةَ دِينًا يَدِينُونَ بِهِ فَيَقُولُونَ بِأُلُوهِيَّةِ بَعْضِ آلِ الْبَيْتِ وَيَعْبُدُونَهُمْ بِضُرُوبٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ ، وَيَتَأَوَّلُونَ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَأَوُّلًا يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى تِلْكَ التَّعَالِيمِ ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ أَنَّ الْغَرَضَ الْأَوَّلَ مِنَ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ بَعْضِ آلِ الْبَيْتِ ثُمَّ الْقَوْلِ بِأُلُوهِيَّةِ بَعْضِهِمْ هُوَ إبْطَالُ دِينِ جَدِّهِمْ وَإِزَالَةُ مُلْكِهِ مِنْ آلِهِ وَسَائِرِ قَوْمِهِ . وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ الْبَاطِنِيَّةَ تَجَدَّدَ لَهَا دِينٌ جَدِيدٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلِ بِأُلُوهِيَّةِ رَجُلٍ مِنْ غَيْرِ آلِ الْبَيْتِ وَهُوَ الْبَهَاءُ الْإِيرَانِيُّ وَالِدُ " عَبَّاس عَبْد الْبَهَاءِ " - وَبَقِيَ سَائِرُ الشِّيعَةِ مُسْلِمِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِأَنَّ مُحَمَّدًا

خَاتَمُ رُسُلِ اللهِ ، وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ وَيَحُجُّونَ الْبَيْتَ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَزَالُ يَغْلُو فِي آلِ الْبَيْتِ غُلُوًّا يَخْتَلِفُ حُكْمُ الشَّرْعِ فِيهِ ،

(248/258)

وَيَطْعَنُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَجُمْهُورِ الصَّحَابَةِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَنْتَصِرُ بِذَلِكَ لِآلِ الْبَيْتِ ، غَافِلًا عَنْ كَوْنِ أَئِمَّةِ آلِ الْبَيْتِ عَلِيٍّ وَأَوْلَادِهِ كَانُوا أَوْلِيَاءَ وَأَنْصَارًا لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَا كَانَ تَقِيَّةً مِنْهُمْ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ فَلِمَاذَا لَا يَكُفُّونَ هُمْ عَنِ الشِّقَاقِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِالطَّعْنِ فِيهِمَا لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ ؟ .

أَضْعَفُوا الْإِسْلَامَ بِهَذَا التَّفَرُّقِ الَّذِي نَهَى عَنْهُ الْقُرْآنُ ، وَجَعَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيئًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَكُلُّ شِيعَةٍ وَفِرْقَةٍ تَظُنُّ أَنَّهَا بِهَذَا التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ تَنْصُرُ الْإِسْلَامَ وَتُؤَيِّدُهُ ، فَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ ضَعُفَ مُلْكُهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَكَادَتِ الْإِفْرِنْجُ تَسْتَعْبِدُ الدُّوَلَ وَالْإِمَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ كُلَّهَا ، وَمِنْهَا مَا يُعَدُّ سُنِّيًّا وَمَا يُسَمَّى شِيعِيًّا إِمَامِيًّا وَمَا يُدْعَى شِيعِيًّا زَيْدِيًّا ، وَنَحْمَدُ اللهَ أَنْ عَرَفَ جُمْهُورُهُمْ بِهَذَا الْخَطَرِ حَقِّيَّةَ مَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا ، وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ التَّفَرُّقَ كَانَ مِنْ فَسَادِ السِّيَاسَةِ ، وَسَتَجْمَعُهُمُ السِّيَاسَةُ كَمَا فَرَّقَتْهُمُ السِّيَاسَةُ ،

إلَّا مَن ارْتَدُّوا بِالْعَصَبِيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ .

ضَعْفُ الْمَذَاهِبِ وَالدِّينِ وَدَسَائِسُ الْأَجَانِبِ فِي الْمُسْلِمِينَ :

(249/258)

ضَعُفَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَصَبِيَّةُ الْمَذَاهِبِ نَفْسُهَا وَلَا سِيَّمَا فِي الْفُرُوعِ ، مِنْ حَيْثُ إنَّهَا لَمْ تَعُدْ مِنْ وَسَائِلِ سَعَةِ الرِّزْقِ وَلَا عَرْضِ الْجَاهِ بِالْمَنَاصِبِ وَالْجُلُوسِ عَلَى مِنَصَّاتِ الْحُكْمِ - وَإِنَّمَا كَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ لِذَلِكَ - وَيَضْعُفُ الدِّينُ نَفْسُهُ فَإِنَّ الْجَهْلَ بِحَقِيقَتِهِ صَارَ عَامًّا ، وَصِنْفُ الْعُلَمَاءِ أَعْمَاهُمُ

(250/258)

التَّقْلِيدُ عَنِ النَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَالسَّيْرِ بِالْقَضَاءِ وَالْإِدَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ عَلَى مَا تَجَدَّدَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحِ ، وَمَا اسْتُهْدِفَتْ لَهُ مِنَ الْغَوَائِلِ وَالْمَفَاسِدِ ، حَتَّى اقْتَنَعَ حُكَّامُهَا الْجَاهِلُونَ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ بِأَنَّ شَرِيعَتَهَا لَمْ تَعُدْ كَافِيَةً لِلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ ، فَصَارُوا يُقَلِّدُونَ الْإِفْرِنْجَ فِيمَا اشْتَرَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقَوَانِينِ الَّتِي يَرَوْنَهَا مُوَافِقَةً لِعَادَاتِهِمْ وَآدَابِهِمْ

وَعَقَائِدِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُوَافِقَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَعْقِلُوا مَا فِي هَذَا التَّقْلِيدِ مِنَ الْمَفَاسِدِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُضْعِفَةِ لِلْأُمَّةِ فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا ، بَلْ حَسِبُوا بِجَهْلِهِمْ وَبِإِغْوَاءِ الطَّامِعِينَ فِيهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ بِهَذَا يَتَّفِصُّونَ مِنْ عِقَالِ الشَّرْعِ وَسَيْطَرَةِ رِجَالِهِ الْجَامِدِينَ ، فَيَكُونُ أَمْرُ حُكُومَتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا كَمَا يَشَاءُونَ ، وَيَكُونُونَ كَالدُّوَلِ الْأُورُوبِّيَّةِ فِي عِزَّتِهَا وَثَرْوَتِهَا ، فَكَانَتْ عَاقِبَةُ هَذَا الْإِغْوَاءِ أَنْ سَلَبَهُمْ أُولَئِكَ الْمُغْوُونَ مُلْكَهُمْ وَجَعَلُوهُمْ أَسْلِحَةً وَآلَاتٍ بِأَيْدِيهِمْ ، يُذِلُّونَ بِهِمْ أُمَمَهُمْ وَشُعُوبَهُمْ ، وَيَضْرِبُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَقْضُوا عَلَى اسْتِقْلَالِ مَمْلَكَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ إِلَّا بِمُسَاعَدَةِ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِهَا . أَوْ مِنَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِهَا ، وِفَاقًا لِمَا وَعَدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(251/258)

كَمَا فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَكُتُبِ السُّنَنِ " وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ (سُلْطَتَهُمْ وَمُلْكَهُمْ) وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا " وَمَنِ اطَّلَعَ عَلَى تَارِيخِ

اسْتِعْمَارِ الْأَجَانِبِ لِلْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هَذِهِ الْأَيَّامِ يَرَى مِصْدَاقَ هَذَا فِي غَرْبِ تِلْكَ الْبِلَادِ وَشَرْقِهَا .

(252/258)

وَقَدِ اجْتَهَدَ أُولَئِكَ الطَّامِعُونَ الْمُغْوُونَ بِإِفْسَادِ أَفْكَارِ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَقُلُوبِهَا ، كَمَا اجْتَهَدُوا فِي دَسِّ الدَّسَائِسِ لِإِفْسَادِ سَلَاطِينِهَا وَأُمَرَائِهَا ، لِئَلَّا تَرْجِعَ إِلَى هِدَايَةِ الْقُرْآنِ فَتَجْتَمِعَ كَلِمَتُهَا وَتَصْلُحَ حُكُومَتُهَا ، فَتَكُونَ أُمَمًا عَزِيزَةً يَتَعَذَّرُ اسْتِعْبَادُهَا . فَبَثُّوا فِيهَا دُعَاةَ الدِّينِ لِتَشْكِيكِهَا فِي الْقُرْآنِ وَالنُّبُوَّةِ وَاسْتِمَالَتِهَا إِلَى دِينِهِمُ الَّذِي قَلَّ مَنْ بَقِيَ لَهُ ثِقَةٌ بِهِ مِنْ سَاسَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشَكِّكُهَا فِي أَصْلِ الدِّينِ ، أَيْ وُجُودِ الْإِلَهِ وَبَعْثَةِ الرُّسُلِ . كَمَا بَثُّوا فِيهَا دُعَاةَ السِّيَاسَةِ يُرَغِّبُونَهَا فِي قَطْعِ الرَّابِطَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَاسْتِبْدَالِ الرَّابِطَةِ الْجِنْسِيَّةِ أَوِ الْوَطَنِيَّةِ بِهَا . فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ وُقُوعَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ التُّرْكِ وَالْفُرْسِ ، ثُمَّ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ الْأَلْبَانِ وَالْعَرَبِ . بَلْ صَارَ أَهْلُ الْجِنْسِ الْوَاحِدِ الَّذِي تَضُمُّهُ رَابِطَةُ الدِّينِ وَرَابِطَةُ اللُّغَةِ وَرَابِطَةُ الْعَادَاتِ وَغَيْرُهَا يَتَعَادَى بِاسْمِ الْوَطَنِيَّةِ ، فَيَعُدُّ الْمِصْرِيُّ

أَخَاهُ السُّورِيَّ وَالْحِجَازِيَّ دَخِيلًا فِي بِلَادِهِ .

فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّفَرُّقِ إذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّفْرِيقِ لِلدِّينِ فِي إحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ فِي الْآيَةِ ، فَهُوَ مِنَ الْمُفَارَقَةِ لَهُ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ شَرُّ الْأَمْرَيْنِ ، فَإِنَّهُ تَرْكٌ لِهِدَايَتِهِ فِي وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَأُخُوَّةِ الدِّينِ وَإِقَامَةِ الشَّرِيعَةِ وَحِفْظِهَا . غَيَّرَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ بِفَسَادِ أُمَرَائِهِمْ وَزُعَمَائِهِمْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ فَغَيَّرَ اللَّهُ مَا بِهِمْ وَسَلَبَهُمْ عِزَّهُمْ وَسُلْطَانَهُمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمْ بِذَلِكَ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بَعْدَ أَنْ

أَنْذَرَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ فَكَانُوا مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا : (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (18 : 104)

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي كِتَابِهِ سُنَنَهُ فِي الْأُمَمِ – وَمِنْهَا هَلَاكُ الْمُتَفَرِّقَةِ – وَأَنَّهَا لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وَلَكِنَّهُمْ هَجَرُوا الْكِتَابَ حَتَّى إنَّ رِجَالَ الدِّينِ مِنْهُمْ تَرَكُوا إرْشَادَ الْحُكَّامِ وَالْأُمَّةِ بِهِ ، بَلِ اسْتَغْنَوْا عَنْ هِدَايَتِهِ بِتَقْلِيدِ شُيُوخِهِمْ . وَأَيَّدُوا الْحُكَّامَ وَأَقَرُّوهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ لِأَجْلِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ فَضَلَاتِ الرِّزْقِ وَمَظَاهِرِ الْجَاهِ .

الْإِصْلَاحُ وَالدَّعْوَةُ إلَى الْوَحْدَةِ :

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَحْرِمِ الْأُمَّةَ مِنْ نَذِيرٍ يُجَدِّدُ هِدَايَةَ الرُّسُلِ ، فَقَدْ بَعَثَ عَلَى رَأْسِ هَذَا الْقَرْنِ الْهِجْرِيِّ حَكِيمًا مِنْ سُلَالَةِ الْعِتْرَةِ النَّبَوِيَّةِ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْوَحْدَةِ وَالرُّجُوعِ عَمَّا ابْتُلِيَتْ بِهِ مِنَ التَّفْرِقَةِ . وَشَدَّ أَزْرَهُ فِي ذَلِكَ مُرِيدٌ لَهُ تَخَرَّجَ بِهِ فَكَانَ أَفْصَحَ لِسَانًا وَأَوْضَحَ بَيَانًا . وَقَدِ اسْتَفَادَتِ الْأُمَّةُ مِنْ إِصْلَاحِ هَذَيْنِ الْحَكِيمَيْنِ وَمَنْ جَرَى عَلَى أَثَرِهِمَا مَا بَعَثَ فِيهَا الِاسْتِعْدَادَ لِلْوَحْدَةِ وَالدَّعَايَةِ لِجَمْعِ الْكَلِمَةِ ، وَلَكِنَّ الْأُمَمَ لَا تَتَرَبَّى بِالْإِرْشَادِ إِلَّا إِذَا أَعَدَّتِ الْأَنْفُسَ لَهُ الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ . وَلَا سِيَّمَا أَنْفُسِ أَهْلِ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ الْمَغْرُورِينَ بِمَا بَقِيَ لَهُمْ مِنْ حُثَالَةِ الْمُلْكِ وَبَقَايَا مَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ الْبَاطِلَةِ ، وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ أَكْثَرَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَتْ مَغْرُورَةً بِالدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ مُتَّكِلَةً عَلَيْهَا لِأَنَّهَا أَقْوَى دُوَلِهِمْ ، وَهُمْ غَافِلُونَ كَشَعْبِهَا عَمَّا عَرَاهَا مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُعَادُونَ مَنْ يَقُولُ : إِنَّا نَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحٍ ، وَكَانَ السَّيِّدُ الْأَفْغَانِيُّ – وَهُوَ الْمُوقِظُ الْأَوَّلُ – يَقُولُ : إِنَّ انْكِسَارَ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي الْحُرُوبِ الرُّوسِيَّةِ الْأَخِيرَةِ فِي عَهْدِهِ هُوَ الَّذِي أَعَدَّ الْمُسْلِمِينَ لِإِدْرَاكِ الْخَطَرِ الَّذِي يَحِيقُ بِهِمْ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ . وَقَالَ بَعْضُ أَذْكِيَاءِ رِجَالِهَا : إِنَّ انْتِصَارَ السُّلْطَانِ عَبْدِ

الْحَمِيدِ عَلَى الدَّوْلَةِ أَخَّرَ مَا نَرْجُو مِنَ الْإِصْلَاحِ سِنِينَ كَثِيرَةً . وَنَقُولُ : إِنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنْهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ لَهَا وَمِنْ غَيْرِهِمْ قَدْ ظَلُّوا سَادِرِينَ فِي غُرُورِهِمْ جَامِحِينَ فِي غَيِّهِمْ . إِلَى أَنِ انْكَسَرَتْ هَذَا

الِانْكِسَارَ الْفَظِيعَ فِي هَذَا الْعَصْرِ . وَاحْتَلَّ الْأَجَانِبُ الْمُنْتَصِرُونَ عَلَيْهَا عَاصِمَتَهَا الَّتِي كَانَتْ أَعْظَمَ مَظَاهِرِ غُرُورِهَا (حَتَّى كُنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّهَا أَكْبَرُ عَقَبَاتِ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِهَا وَاقْتَرَحْنَا عَلَيْهَا مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً اسْتِبْدَالَ عَاصِمَةٍ آسْيَوِيَّةٍ بِهَا) وَصَرَّحُوا بِأَنَّهُمْ قَضَوْا عَلَيْهَا الْقَضَاءَ الْأَخِيرَ الْمُبْرَمَ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ . وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ أَمْضَى مَنْ أَنَابَتْ عَنْهَا فِي مُؤْتَمَرِ الصُّلْحِ تِلْكَ الْمُعَاهَدَاتِ النَّاطِقَةَ بِانْتِزَاعِ جَمِيعِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَعْضِ الْبِلَادِ الَّتِي سَمَّوْهَا أَرْمَنِيَّةً وَيُونَانِيَّةً مِنْ سَلْطَنَتِهَا ، وَجَعْلِ بَقِيَّةِ بِلَادِهَا وَهِيَ الْوِلَايَاتُ التُّرْكِيَّةُ مَعَ الْعَاصِمَةِ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الدُّوَلِ الْقَاهِرَةِ فِي مَالِيَّتِهَا وَإِدَارَتِهَا .

آيَاتُ اللهِ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالرَّجَاءُ بَعْدَ الْيَأْسِ :

(256/258)

لَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا مُتَّكَأٌ وَلَا مَلْجَأٌ يَأْوِي إِلَيْهِ الْغُرُورُ ، وَلَا مَنْفَذٌ يَتَسَرَّبُ مِنْهُ الْأَمَلُ ، عَلَى مَا هُوَ الْمَأْلُوفُ وَالْمَعْهُودُ فِي عُرْفِ الدُّوَلِ . هُنَالِكَ يَئِسَ الضُّعَفَاءُ ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلْأَعْدَاءِ . وَلَكِنَّ

اللهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُرِيَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضَ آيَاتِ عِنَايَتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كُفْرِ الْيَائِسِينَ مِنْ رُوحِهِ وَضَلَالِ الْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ . فَأُلْهِمَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْعَزَائِمِ مِنْ قُوَّادِ الدَّوْلَةِ فِي الْأَنَاضُولِ أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْحَيَاةَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْتَقِرَ الْمَوْتَ . وَأَنَّ كُلَّ مِيتَةٍ يَمُوتُهَا الْإِنْسَانُ ، فَهِيَ أَشْرَفُ مِنَ الِاسْتِحْذَاءِ ، وَالْمَهَانَةِ بِالِاسْتِسْلَامِ لِلْأَعْدَاءِ . وَأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ يَنْصُرُ الْفِئَةَ الْقَلِيلَةَ الْمُعْتَصِمَةَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ، عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ الْمُعْتَدِيَةِ بِالْبَاطِلِ وَالْبَغْيِ ، فَأَلَّفُوا جَمْعِيَّةً وَطَنِيَّةً وَضَعُوا لَهَا مِيثَاقًا تَوَاثَقُوا عَلَى أَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِهِ إِلَى أَنْ يُطَهِّرُوا جَمِيعَ الْبِلَادِ التُّرْكِيَّةِ مِنَ الِاحْتِلَالِ الْأَجْنَبِيِّ فَتَكُونَ مُسْتَقِلَّةً خَالِصَةً لِأَهْلِهَا . وَقَدْ كَانَتْ جُيُوشُ الِاحْتِلَالِ فِي بِلَادِهِمْ مُؤَلَّفَةً مِنَ الْإِنْكِلِيزِ وَالْفَرَنْسِيسِ وَالطَّلْيَانِ وَالْيُونَانِ ، فَأَقْدَمُوا عَلَى مُقَاوَمَةِ هَذِهِ الدُّوَلِ الظَّافِرَةِ بِفِئَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ جُنْدِ الْأَنَاضُولِ وَحْدَهُ قَدْ أَنْهَكَتْهُ الْحَرْبُ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً مُتَوَالِيَةً ، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِلِّي تُرْكِيَا عَلَى رَأْيِهِمْ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِالْآسِتَانَةِ الَّتِي نُزِعَ

(257/258)

سِلَاحُهَا وَاحْتَلَّتْهَا هَذِهِ الدُّوَلُ بَرًّا وَبَحْرًا . وَقَدْ كَانَ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ عَلَى الْيَائِسِينَ أَنْ كَانَ الْفَلْجُ وَالظَّفَرُ لِهَذِهِ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ مِنْ بَقَايَا الْجَيْشِ الْعُثْمَانِيِّ الْكَبِيرِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، الَّذِي فَشَلَ مَعَ أَعْظَمِ جَيْشٍ وُجِدَ عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَسِلَاحًا

وَنِظَامًا وَهُوَ فِي أَوْجِ انْتِصَارِهِ - أَعْنِي الْجَيْشَ الْأَلْمَانِيَّ - .

ذَلِكَ بِأَنَّ الْجَيْشَ الْعُثْمَانِيَّ الْكَبِيرَ كَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَهُ غُلَاةُ الْعَصَبِيَّةِ الطُّورَانِيَّةِ مِنَ الِاتِّحَادِيِّينَ الْمَغْرُورِينَ بِمَا لُقِّنُوا مِنْ دَسَائِسِ السِّيَاسَةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ ، وَخِدَاعِ الْمَاسُونِيَّةِ ، وَالْجَاهِلِينَ بِقُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَعِزَّتِهِ ، وَحَقِيقَتِهِ . فَبَثُّوا دَعْوَةَ الْكُفْرِ وَأَبَاحُوا كَبَائِرَ الْفِسْقِ . وَفَرَّقُوا الْكَلِمَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ . وَفَتَكُوا بِالْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ جَنَّدُوا مِنْهَا زُهَاءَ خَمْسِمِائَةِ أَلْفِ جُنْدٍ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِهِمْ . فَقَتَلُوا وَصَلَبُوا شَبَابَهَا وَكُهُولَهَا النَّابِغِينَ . وَنَفَوُا الْوِلْدَانَ وَالنِّسَاءَ وَالشُّيُوخَ الْعَاجِزِينَ . فَمَهَّدُوا السَّبِيلَ لِثَوْرَةِ الْحِجَازِ . وَخَسِرُوا مَا لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ الْقُصْوَى إِلَى الِاتِّحَادِ ، فَأَنَّى يَنْتَصِرُونَ أَوْ يَنْتَصِرُ بِهِمْ مَنْ يُحَالِفُونَ ؟ .

(258/258)

وَأَمَّا جَيْشُ الْأَنَاضُولِ الَّذِي أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى قِلَّتِهِ ، فَإِنَّهُ يُدَافِعُ عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ ، وَقَدْ أَحْسَنَ زَعِيمُهُ الْأَكْبَرُ (مُصْطَفَى كَمَال بَاشَا) أَنَّهُ لَمْ يَسْمَحْ لِأَحَدٍ مِنْ زُعَمَاءِ أُولَئِكَ الْغُلَاةِ بِدُخُولِ الْأَنَاضُولِ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ لِئَلَّا يُفْسِدُوا عَلَى الْبِلَادِ أَمْرَهَا ، عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا خَطَأَهُمْ وَضَلَالَهُمْ مِنَ الْوُجْهَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَعَرَفُوا قِيمَةَ الرَّابِطَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

فَطَفِقُوا يَسْعَوْنَ إِلَى جَمْعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالتَّأْلِيفِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبُلْشِفِيِّينَ الرُّوسِيِّينَ ، لِلِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ عَلَى

(259/258)

مُقَاوَمَةِ الْمُسْتَعْمِرِينَ ، وَجَعْلِ شُعُوبِ الشَّرْقِ وَلَا سِيَّمَا الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْهَا حُرَّةً مُسْتَقِلَّةً ، وَقَدْ قَوِيَتْ آمَالُ هَذِهِ الشُّعُوبِ فِي الِاسْتِقْلَالِ ، وَطَفِقُوا يَعْقِدُونَ الْمُعَاهَدَاتِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حُكُومَةِ مُصْطَفَى كَمَالٍ ، وَلَمْ يَشِذَّ عَنْ هَذِهِ الْوَحْدَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، غَيْرُ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَ أَوْلَاهَا بِطَلَبِ الْوَحْدَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى جَمْعِ الْكَلِمَةِ ، وَلَكِنْ خَدَعَهُ زُعَمَاؤُهُ . وَأَضَلَّهُ سَادَتُهُ وَكُبَرَاؤُهُ . عَلَى تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمْ فِي هَذَا الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ . وَشَرُّهُمْ مَنْ غَشَّ قَوْمَهُ وَصَرَفَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ مَعْنَى الِاسْتِقْلَالِ . بِتَسْمِيَةِ الْأَشْيَاءِ بِأَسْمَاءِ الْأَضْدَادِ . كَإِطْلَاقِ اسْمِ الْمُسَاعَدَةِ وَالِانْتِدَابِ عَلَى الِاسْتِعْمَارِ الْمُرَادِفِ لِلِاسْتِعْبَادِ . وَزَعْمِ أَنَّ السُّلْطَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ ضَرُبَةُ لَازِبٍ ، وَأَنَّ مُنَاصَبَتَهَا ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ ، وَوَلَاءَهَا هُوَ الْوَاجِبُ وَسَيَعْلَمُ الْمَفْتُونُونَ بِغِشِّهِمْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَقْوَمُ قِيلًا ، وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَصِيرًا ، وَيَقُولُونَ : (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) (33 : 67 ، 68) .

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ عَلَى الْيَائِسِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ أَنَّهُ تَعَالَى جَدَّهُ أَلْقَى الْفَشَلَ السِّيَاسِيَّ بَيْنَ الدُّوَلِ الْمُحْتَلَّةِ لِبِلَادِ الْأَنَاضُولِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَالرُّومِلِّي فَسَالَمَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا الطَّلْيَانُ ، ثُمَّ صَالَحَ الْكَمَالِيِّيْنِ فِيهَا الْفِرِنْسِيسُ ، وَخَذَلَ اللهُ تَعَالَى الْيُونَانَ الْمُجَاهِرَةَ بِالْعَدَاوَةِ وَالْمُنْفَرِدَةَ بِالْحَرْبِ ، اعْتِمَادًا عَلَى مُسَاعَدَةِ الدَّوْلَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَتَحَوَّلْ عَنْ سِيَاسَتِهَا الْقَدِيمَةِ فِي ضَرْبِ الْأُمَمِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَخُلِقَ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَشَاكِلِ السِّيَاسِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا تَشْتَهِي مِنَ الْإِجْهَازِ عَلَى سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ ، وَالْجَرْيِ عَلَى قَاعِدَةِ مَا أَخَذَ الصَّلِيبُ مِنَ الْهِلَالِ لَا يَعُودُ إِلَى الْهِلَالِ حَتَّى عَجَزَتْ – عَلَى دَهَائِهَا وَحَزْمِهَا وَعُلُوِّ نُفُوذِهَا السِّيَاسِيِّ وَالْمَالِيِّ وَالْحَرْبِيِّ فِي أُورُبَّةَ كُلِّهَا – عَنْ حَلِّ أَيَّةِ مُشْكِلَةٍ مِنْهَا :

وَلَوْ كَانَ رُمْحًا وَاحِدًا لَاتَّقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُ رُمْحٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

فَأَرَتْنَا قُدْرَةُ اللهِ تَعَالَى فِيهَا مُنْتَهَى الْعَجْزِ عَنْ بُلُوغِ مُنْتَهَى الْقُدْرَةِ وَالْأَيْدِ ، فَقَدْ ثَارَتْ عَلَيْهَا أَرْلَنْدَةُ وَمِصْرُ وَفِلَسْطِينُ وَالْعِرَاقُ وَالْهِنْدُ ثَوْرَاتٍ مُخْتَلِفَةَ الْمَظَاهِرِ مُتَّفِقَةَ الْمَقَاصِدِ ، وَرُبَّمَا كَانَ أَضْعَفُهَا فِي الظَّاهِرِ أَقْوَاهَا فِي الْبَاطِنِ كَثَوْرَةِ الْهِنْدِ السَّلْبِيَّةِ بِالْمُقَاطَعَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ ، فَقَدْ دَعَا الزَّعِيمُ الْهِنْدِيُّ الْأَكْبَرُ (غَانْدِهِي) قَوْمَهُ إِلَى عِقَابِ حُكُومَتِهِمُ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الْمُسْتَعْمِرَةِ عَلَى اسْتِبْدَادِهَا بِأُمُورِهِمْ وَعَدَمِ مُبَالَاتِهَا بِوُجْدَانِهِمْ وَشُعُورِهِمْ بِمُقَاطَعَةِ تِجَارَتِهَا وَتَرْكِ لُبْسِ مَنْسُوجَاتِهَا ، فَرَدَّدَ صَدَى دَعْوَتِهِ جَمِيعُ الزُّعَمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْهِنْدُوسِ عَلَى سَوَاءٍ ، وَطَفِقُوا يَحْرِقُونَ مَا عَلَى أَبْدَانِهِمْ مِنْ هَذَا اللِّبَاسِ بَعْدَ نَزْعِهِ فِي الْمَحَافِلِ الْعَامَّةِ وَلَا سِيَّمَا عَقِبَ الْخُطَبِ الَّتِي تُلْقَى فِيهَا ،

وَلَوْ حَذَا الْمِصْرِيُّونَ حَذْوَهُمْ بِتَرْكِ شِرَاءِ الْجَدِيدِ وَلَوْ مَعَ اسْتِبْقَاءِ التَّلِيدِ لَكَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ وَسِيلَةٍ إِلَى نَيْلِ الِاسْتِقْلَالِ وَالْحُرِّيَّةِ مِنْ خُطَبِ الزَّعِيمِ سَعْدٍ بَاشَا الْبَلِيغَةِ وَمُفَاوَضَاتِ الْوَزِيرِ عَدْلِي بَاشَا الرَّسْمِيَّةِ .

(262/258)

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَحُجَجِهِ أَيْضًا أَنْ سَخَّرَ الدَّوْلَةَ الرُّوسِيَّةَ الْجَدِيدَةَ لِمُظَاهَرَةِ التُّرْكِ وَشَدِّ أَزْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ عَلَى عَهْدِ الْقَيَاصِرَةِ هِيَ الْخَطَرَ الْأَكْبَرَ عَلَى السَّلْطَنَةِ

الْعُثْمَانِيَّةِ بِظُهُورِهَا عَلَيْهَا فِي عِدَّةِ حُرُوبٍ ، بَلِ انْبَرَتْ حُكُومَةُ (السُّوفْيَاتِ) الرُّوسِيَّةُ الْجَدِيدَةُ لِبَثِّ الدَّعْوَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ وَسَائِرِ شُعُوبِ الشَّرْقِ الْمُسْتَعْبَدَةِ لِلْأَجَانِبِ بِأَنْ يَهُبُّوا لِطَلَبِ الْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الثَّوْرَةِ فِي الْهِنْدِ – وَجَعَلَ الْإِمَارَةَ الْأَفْغَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ مَقْهُورَةً مَحْصُورَةً بَيْنَ الْبِرِيطَانِيِّينَ فِي الْهِنْدِ وَبَيْنَ الرُّوسِ دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً ذَاتَ سُفَرَاءَ لَدَى الدُّوَلِ الْأُورُبِّيَّةِ وَغَيْرِهَا – وَنَجَّى الدَّوْلَةَ الْإِيرَانِيَّةَ مِنْ شَرِّ تِلْكَ الْمُعَاهَدَةِ الَّتِي عَقَدَتْهَا مَعَ

(263/258)

انْكِلْتِرَةَ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ فَكَانَتْ قَاضِيَةً عَلَى اسْتِقْلَالِهَا بِسُوءِ اخْتِيَارِ مَرْضَى الْقُلُوبِ مِنْ رِجَالِهَا . بَلْ فَعَلَتْ دَوْلَةُ السُّوفْيَاتِ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا ، عَقَدَتْ مُعَاهَدَاتٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الثَّلَاثِ : التُّرْكِ ، وَالْفُرْسِ ، وَالْأَفْغَانِ . اعْتَرَفَتْ فِيهَا بِاسْتِقْلَالِ كُلٍّ مِنْهُنَّ ، وَأَرْجَعَتْ إِلَيْهِنَّ مَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْقَيَاصِرَةِ قَبْلَهَا قَدْ سَلَبَتْهُنَّ ، وَأَسْقَطَتْ لِلْمَدِينَاتِ مِنْهُنَّ لِلرُّوسِيَّةِ مَا كَانَ لَهَا مِنَ الدَّيْنِ عَلَيْهِنَّ ، وَسَمَحَتْ لِلدَّوْلَةِ الْإِيرَانِيَّةِ بِمَا لَهَا فِي بِلَادِهَا مِنْ سِكَكِ الْحَدِيدِ ؛ فَلِذَا كَانَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ مَعَ الشُّعُوبِ الشَّرْقِيَّةِ كُلِّهَا رَاضِيًا عَنْ حُكُومَةِ الرُّوسِ الْجَدِيدَةِ شَاكِرًا لَهَا مُثْنِيًا عَلَيْهَا ، لَا يُثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ مَا أَصَابَ الْبِلَادَ الرُّوسِيَّةَ نَفْسَهَا

مِنَ الْمَصَائِبِ بِتَنْفِيذِ نَظَرِيَّاتِ الِاشْتِرَاكِيَّةِ الشُّيُوعِيَّةِ فِيهَا ، وَلَا مَا بَثَّتْهُ الدَّوْلَةُ الْبِرِيطَانِيَّةُ فِي الْعَالَمِ مِنْ ذَمِّ هَذِهِ الْحُكُومَةِ وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهَا وَالتَّنْفِيرِ عَنْهَا ، بَلْ كَانَ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ الزِّيَادَةِ فِي الْعَطْفِ عَلَيْهَا وَالشُّكْرِ لَهَا وَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَبْعَدَ الشُّعُوبِ عَنِ الْبَلْشَفِيَّةِ وَمَذَاهِبِهَا .

(264/258)

فَإِذَا ثَبَتَتْ هَذِهِ الشُّعُوبُ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِآيَاتِ رَبِّهَا ، وَمُرَاعَاةِ سُنَنِهِ فِي التَّعَاوُنِ الْمُمْكِنِ عَلَى دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهَا وَطَلَبِ الْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ الْمُطْلَقِ لِكُلٍّ مِنْهَا ، عَلَى أَنْ تَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ مُتَحَالِفَةً مُتَكَافِلَةً فِي سِيَاسَتِهَا ، فَهِيَ بَالِغَةٌ بِتَوْفِيقِ اللهِ مُنْتَهَى مَا تُؤَمِّلُ وَتَرْجُو ، وَإِنَّمَا الْخِزْيُ وَالسُّوءُ عَلَى الْمُغْتَرِّينَ بِإِغْوَاءِ عَدُوِّ اللهِ الْيَائِسِينَ مِنْ رَوْحِ اللهِ الْمُعْرِضِينَ عَنْ آيَاتِ اللهِ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) (18 : 57) .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 176 . 204 ﴾

(265/258)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾

هذه الآية تشرح الآية التي سبقت خواطرنا عنها ، وهي قوله الحق : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 153]

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهي في الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أي خلاف ، بل الخلاف يكون في المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، ومالم يرد فيه أفعل ولا تفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون في الدين إنما يناقضون منهج السماء الذي جاء ليجمع الناس على شيء واحد ؛ لتتساند حركات الحياة في الناس ولا تتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاضد .

والشيع هم الجماعة التي تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالا .

وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن

تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شرا . ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام : 159]

(266/258)

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد . ﴿ . . . إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : 159]

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء آجلهم إلى يوم القيامة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(267/258)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بحث بعنوان :

كلنا في خدمة النبيّ صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه للشيخ / محمود غريب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

وسلام على النبيّ المصطفى

أما بعد

الفئات الثلاثة الناجية

قبل أن أتحدث عن الفئات الناجية هناك حديث

للنبيّ صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه

وترضاه آمين

يكثر سؤال الشباب عنه في كل بلد أزورها أو

يوجهه الشباب لكل ضيف من الدعاة

إنه حديث

تنقسم أمتي ثلاثة وسبعين قسما

رواه أبو داود ولم يروه البخاري ومسلم

وأول الحديث

تنقسم اليهود سبعين قسما

وتنقسم النصارى اثنين وسبعين قسما

وتنقسم أمتي إلى ثلاثة وسبعين قسما

كلها في النار إلا واحدة

فكل جماعة تربي أتباعها على أنها

هي الطائفة الناجية وغيرها في النار

وأحب أن اسأل الشباب

لو قلت لهم أن

الطالب الأول أخطا سبعين خطأ

والثاني أخطأ اثنين وسبعين خطا

والثالث اخطأ ثلاثة وسبعين خطأ

فأي الثلاثة أسوأ ؟

لا شك أن الأكثر فرقة هو الأبعد عن الصراط

من اجل هذا لا بد أن نعرف من هي

الأمّة التي تفترق ثلاثا وسبعين فرقة

قبل أن ننشغل بالبحث عن الفرقة الوحيدة الناجية

هل

هي

أمّة الإجابة أم أمّة التبليغ ؟ ؟

كلمة أمّة

– محّمد –

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلم كما تحبه

وترضاه آمين

تستعمل ويراد بها الذين

امنوا

بالله تعالى ورسوله

والكتاب الذي انزل على رسوله

والكتب التي أنزلت من قبل

فورثت هذه الأمّة هدي الجميع

وهذه الآمّة

توحدت في الأرض يوم وحّدت ربها في السّماء

وقد حفظها الله تعالى من الاختلاف الذي ابتليت

به الأمم السّابقة

فالأمم السّابقة اختلفوا إيمانا وكفرا

قال تعالى

(268/258)

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

البقرة 253

هذه

امّة محمّد

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلم كما تحبه

وترضاه آمين

التي استجابت

والخلافات فيها لا تخرج من الدين

ولا توصل للنار

أمّا أمّة التبليغ

فحجمها حجم كل البشر

الذين أرسل الله إليهم محّمدا ، ومحّمد قد بعثه الله

لكل العالمين

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلم كما تحبه

وترضاه آمين

هي امّة محّمد أيضا

لان الله اوجب علينا أن نبلغ دعوته

ولكنهم رفضوا دعوته

واختلفوا ثلاثا وسبعين فرقة

والمراد من العدد الكثرة والمبالغة

وليس العدد الحسابي

وهذا موجود في اللغة والقرآن

وقد سميت هذه الأمّة بمجتمع الآيات

أعني

يهودية – نصرانية – شيوعية – وجودية –

بهائية

قاديانية –

ألف

– آية –

تختلف فيما بينها وتتفق على عدائها للإسلام

وبهذا نفهم أن امّة الإجابة

ناجية

وأمّة الإجابة الناجية

ثلاث طوائف حددهم القرآن

الطائفة الأولى

المهاجرون

جاء هذا في سورة الحشر

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً

وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

الحشر 8

وختم الآية الكريمة القرآن بقوله

أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

الطائفة الثانية

إنهم الأنصار

قال تعالى

(269/258)

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

الحشر 9

وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى

فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

الطائفة الثالثة

قال تعالى

﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

الحشر 10

طوائف

ثلاثة ناجية

ثمّ جاء في الآية التي بعدها

الحديث عن النفاق

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

الحشر 11

وآخر آية الحشر

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

فالذي ليس

مهاجرا

ولا أنصاري

فليكن محبا لهم

وليحذر من النفاق

والترتيب نفسه جاء في

سورة التوبة

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

التوبة 100

الى هنا ينتهي كلام القرآن الكريم عن

الطوائف الثلاث

في السورتين

ومجموع آيات القرآن

يكمل بعضها بعضا ويفسره

وفي سورة الأنفال

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

الأنفال 74

اثبت القرآن أن هؤلاء الطوائف الثلاثة

هم المؤمنون حقا

فماذا بعد الآيات الكريمات ؟ ؟

في سورة الحشر

بعد أن تكلم عن

المهاجرين

والأنصار

والذين اتبعوهم بإحسان

اتبع الحديث عن المنافقين

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

الحشر 11

والترتيب نفسه للآيات في سورة التوبة

فبعد أن تحدث القرآن عن السّابقين الأولين من

المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان

وعن قوله تعالى رضي الله عنهم وتكلم عن

رضاهم عنه

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

آية التوبة 100

تكلم عن المنافقين

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

التوبة 101

فسفينة النجاة في القرآن قاصرة على

الطوائف الثلاثة

وبعدهم يأتي الحديث عن النفاق

المهاجرون

قال عنهم

أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

الأنصار

فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ

شهد القرآن بتبعيتهم للناجين

(271/258)

ومن أحب قوما حشر معهم

والآية في سورة الأنفال

74 أخبرت أنهم هم المؤمنون حقا

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

هذا في الآخرة

وهذا وعد من الله تعالى

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

التوبة 111

ثمّ يتحدث القرآن عن الفئة الثالثة

في السورة نفسها فيقول

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

الانفال 75

فالناجون ثلاثة

لا أعرف في سفينة القرآن مكانا لغيرهم

فكن معهم

فمن أحب قوما حشر معهم

فمع أيّ

جماعة من الثلاث كنت فأنت ناج

القرآن يشهد لهم

هل الذين شهد القرآن لهم في حياتهم

كأبي بكر

رضي الله تعالى عنه

الذي سمّاه القرآن – ألو الفضل –

في سورة النور بإجماع المفسرين

لان الآية نزلت في مقام الحديث

عن براءة أم المؤمنين السّيدة عائشة

رضي الله تعالى عنها وأرضاها

هل بعد شهادة القرآن شهادة ؟ ؟

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

النور 22

(272/258)

- (ولا يأتل) يحلف (أولوا الفضل) أصحاب الغنى (منكم والسعة أن) لا (يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) نزلت في أبي بكر حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالته مسكين مهاجر بدري لما خاض في الإفك بعد أن كان ينفق عليه وناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الإفك (وليعفوا وليصفحوا) عنهم في ذلك (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) للمؤمنين قال أبو بكر بلى أنا احب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح ما كان ينفقه عليه

هل قال القرآن هذا

وهو يعلم على أي شيء سيموت أبو بكر

أم أن خاتمته غابت عن الله تعالى ؟ ؟

حاش لله تعالى

المهم أن نسأل هؤلاء :-

هل يؤمنون بأن

هذا القرآن منزّل من عند الله تعالى ؟ ؟

وعمر

رضي الله تعالى عنه

الذي كان القرآن ينزل مؤيدا رأيه

حتى لو خالف رأي النبيّ

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه آمين

الذي يمتلئ رحمة ويقدمها على كل حال آخر

فهو الرحمة المهداة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

الأنبياء

107

أن الأمور الكبيرة تحتاج مع الرحمة

إلى حكمة عمر

وكم يفرح الأستاذ بنبوغ تلميذه ! !

فعمر امتداد للنبيّ وعمر آمن

بالنبيّ محّمد

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه آمين

بينما آمن أبو بكر بمحّمد النبيّ

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه آمين

كما قال عبقري عصره

الأستاذ عباس محمود العقاد

والفارق بين المنهجين كبير

محّمد النبيّ أو النبيّ محّمد

رأي عمر في صلاة النبيّ على رأس المنافقين

كان عمر يطلب من النبيّ أن لا يصلي عليه

(رأس المنافقين)

والنبيّ يقول إن الله تعالى خيرني ولم ينهني

حتى نزل القرآن بالنهي الصّريح

موافقا رأي عمر

ورأي عمر في أسرى بدر معروف

هل يريدون أن نربي أبنائنا

على كره هؤلاء العظماء ؟

فماذا بقي لأبنائنا من قدوة ؟ ؟

إن صحفيا في بلد عربي يطلب من المثقفين

أن يحاكموا أبو بكر لأنه حارب

المرتدين عن الإسلام

وهم في رأيه أحرار الفكر

وهذا الصحفي لماذا لم يكن من أحرار الفكر ؟ ؟

هل يخاف من أبي بكر جديد ؟

أقول له اطمئن

لحساب من كان يعمل هؤلاء الخلفاء الأربعة ؟ ؟

إن أحد الذين باعوا أنفسهم في سوق الرقيق

سمعته على الانترنيت

يقول

هل الجنة – زريبة –

حتى يدخلها هؤلاء العشرة الذين بشرهم النبيّ

بالجنة ؟ ؟

أقول له اطمئن

سيدخل الجنة من يؤمن بأن الدولارات تبيح

المحذورات ! !

ومن مات من أجل الدولارات مات شهيدا ! !

اسأل الله تعالى أن يعيدك لدينك وعقلك ومن هم

على شاكلتك

وأن يعالج الفقر النفسي الذي جعلهم يدافعون في

قضية خاسرة وعندهم – أكل الخبز فنون –

والذين اشتروه يعلمون أنه كاذب ولسانه لمن يدفع أكثر

والمسألة عندهم دنيا فقط

إن مدح القرآن لصحابة النبيّ

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه آمين

وثيقة وقّع عليها

ربّ العالمين سبحانه

فهل كان يعلم ما سيموتون عليه أم لا ؟ ؟ ؟ ؟

إن الله تعالى فرق في القرآن بين المشركين

الذين سيمتد عمرهم حتى يدخلوا في الإسلام

وبين الذين سيموتون على الكفر

خالد بن الوليد

هو سبب هزيمة المسلمين في معركة أحد

ومع ذلك لم ينزل فيه وعيد

بينما نزل وعيد شديد في أبيه الوليد بسبب كلمة

قالها في القرآن

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾

المدثر 11 - 26

النتيجة العادلة

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ

وأبو سفيان

حارب الإسلام واحدا وعشرين عاما

حاربه محليا وعشائريا ودوليا

ومع ذلك لم ينزل فيه وعيد بالنار

بينما نزل في أخته وزوجها

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ .
وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

المسد 1 – 5

فمن يمكنه أن يرد شهادة الله تعالى

لأصحاب النبيّ

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً .
مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ
فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ
فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

الفتح 28 – 29

هو الذي أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم ، بالبيان الواضح ودين الإسلام ؛ ليُعْليه

على الملل كلها , وحسبك –أيها الرسول– بالله شاهدًا على أنه ناصرك ومظهر دينك على

كل دين .

محمد رسول الله, والذين معه على دينه أشداء على الكفار, رحماء فيما بينهم, تراهم ركعًا سُجَّدًا لله في صلاتهم, يرجون ربهم أن يتفضل عليهم, فيدخلهم الجنة, ويرضى عنهم, علامة طاعتهم لله ظاهرة في وجههم من أثر السجود والعبادة, هذه صفتهم في التوراة . وصفتهم في الإنجيل كصفة زرع أخرج ساقه وفرعه, ثم تكاثرت فروعه بعد ذلك, وشدت الزرع, فقوي واستوى قائمًا على سيقانه جميلا منظره, يعجب الزُّرَّاع ؛ ليَغِيظ بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وجمال منظرهم الكفار . وفي

هذا دليل

(275/258)

على كفر من أبغض الصحابة

- رضي الله عنهم-

لأن من غاظه الله بالصحابة, فقد وُجد في حقه موجِب ذاك, وهو الكفر . وعد الله الذين آمنوا منهم بالله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به, واجتنبوا ما نهاهم عنه, مغفرة لذنوبهم, وثوابًا جزيلا لا ينقطع, وهو الجنة . (ووعد الله حق مصدَّق لا يُخْلَف, وكل من اقتفى أثر

الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم في استحقاق المغفرة والأجر العظيم, ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة, رضي الله عنهم وأرضاهم) .

التفسير الميسر

وفي السورة نفسها

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾

الفتح 18

لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك

-أيها النبيّ-

تحت الشجرة

(وهذه هي بيعة الرضوان في "الحديبية")

فعلم الله ما في قلوب هؤلاء المؤمنين

من الإيمان والصدق والوفاء

فأنزل الله الطمأنينة عليهم وثبّت قلوبهم, وعوّضهم عمّا فاتهم بصلح "الحديبية" فتحًا قريبًا, وهو فتح "خيبر",

هل هناك قوة

في الأرض

يمكنها أن تلغي هذا

الرضوان ؟ ؟

إن سببها

أنه قد أشيع أنّ عثمان قد قتلته قريش

فالسّماء والأرض أعطت البيعة على القتال

والسّماء أهدتهم الرضوان ! !

أخي القاريء الكريم

لا تجعل من نفسك قاضيا في هذه القضية

واتركهم جميعا لله تعالى

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

الزمر 36

انّ النبيّ

صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه آمين

قال :-

يأتي يوم القيامة على القاضي العادل يتمنى لو لم

يحكم بين أثنين في تمرة

القاضي عادل والتركة تمرة ! !

فكيف أحكم بين

خير أمّة أخرجت للناس ؟ ؟

للأستاذ الشيخ محمود غريب

بيسير من التصرف

مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية

(276/258)

- سلطنة عمان -

فائدة

ذكر أبو حامد الغزالي في كتابه " التفرقة بين الإيمان والزندقة " أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " ستفترق أمتي نيفا وسبعين فرقة ، كلهم في الجنة إلا الزنادقة ، وهي فرقة " . هذا لفظ الحديث في بعض الروايات . قال : وظاهر الحديث يدل على أنه أراد الزنادقة من أمته ، إذ قال : ستفترق أمتي ، ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته ، والذين ينكرون

أصل المعاد والصانع ، فليسوا معترفين بنبوته ، إذ يزعمون أن الموت عدم محض ، وأن العالم لم يزل كذلك موجودا بنفسه من غير صانع ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وينسبون الأنبياء إلى التلبيس ، فلا يمكن نسبتهم إلى الأمة . انتهى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الإسكندرية : أما هذا الحديث فلا أصل له ، بل هو موضوع كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، ولم يروه أحد من أهل الحديث المعروفين بهذا اللفظ ، بل الحديث الذي في كتب السنن والمسانيد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – من وجوه أنه قال : " ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة في الجنة ، وثنتان وسبعون في النار " . وروي عنه أنه قال : " هي الجماعة " . وفي حديث آخر : " هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي " . وضعفه ابن حزم ، لكن رواه الحاكم في صحيحه ، وقد رواه أبو داود والترمذي ، وغيرهم قال : وأيضا لفظ الزندقة لا يوجد في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – كما لا يوجد في القرآن ، وأما الزنديق الذي تكلم الفقهاء في توبته قبولا وردا ، فالمراد به عندهم المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر . انتهى . ا هـ ﴿ بحث بعنوان :

كلنا في خدمة النبيّ صلّ يارب عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه للشيخ / محمود غريب ﴾

(277/258)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم فتفرقوا ، فلما بعث محمد أنزل عليه ﴿ إن الذين فرقوا دينهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ قال : اليهود والنصارى ، تركوا الإِسلام والدين الذين أمروا به ، وكانوا ﴿ شيعاً ﴾ فرقاً . أحزاباً : مختلفة ﴿ لست منهم في شيء ﴾ نزلت بمكة ، ثم نسخها ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ [النساء : 40] الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وكانوا شيعاً قال : مللاً شتى .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة في قوله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم . . . ﴾ الآية . قال هم في هذه الأمة .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ قال : هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ قال : هم الحرورية .

وأخرج ابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبي غالب " أنه سئل عن هذه الآية ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ فقال : حدثني أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم الخوارج " .

(278/258)

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه وأبو نصر السجزي في الابانة والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : يا عائشة ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب

الأهواء ليس لهم توبة ، أنا منهم بريء وهم مني براء " .

وأخرج عبد بن حميد وعن ابن مسعود . أنه كان يقرأ ﴿ إن الذين فرقوا ﴾ بغير ألف .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأها ﴿ إن الذين فارقوا دينهم ﴾ بالألف .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ فارقوا دينهم ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ قال : هم اليهود والنصارى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ قال : تركوا دينهم ، وهم اليهود والنصارى ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ قال : فرقاً ﴿ لست منهم في شيء ﴾ قال : لم تؤمر بقتالهم ، ثم نسخت فأمر بقتالهم في سورة براءة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي الأحوص في قوله ﴿ لست منهم في شيء ﴾ قال : برىء منهم نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مرة الطيب قال : ليس أمري أن لا يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ .

(279/258)

وأخرج ابن منيع في مسنده وأبو الشيخ عن أم سلمة قالت : ليتقين امرؤ أن لا يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ، ثم قرأت هذه الآية ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : رأيت يوم قتل عثمان ذراع أمراة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قد أخرجت من بين الحائط والستر ، وهي تنادي : ألا إن الله ورسوله بريئان من الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أفلح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال " أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث : ضلالة الأهواء ، واتباع الشهوات في البطن والفرج ، والعجب " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(280/258)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾

قرأ الأخوان : " فَارَقُوا " من المُفَارَقة .

قال القرطبي – رحمه الله عليه – : " وهي قِرَاءة عليِّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – من المُفَارقة والفِرَاق ، على مَعْنَى : أَنَّهُم تركوا دينَهُم وخَرَجُوا عنه ، وكان عَلِيٌّ – كرم الله وجهه – يقول : والله ما فَرَّقُوه ، ولكن فَارَقُوه " .

وقال شهاب الدِّين : فيها وجهان :

أحدهما : أن " فَاعَل " بمعنى : فعَّل ، نحو ضاعَفْتُ الحساب ، وضعَّفته .

وقيل : هي من المُفَارَقَة ، وهي التَّرْك ، والتَّخْلِية ، ومن فرَّق دينَهُ ؛ فآمن بِبَعْض وكفر ببعض ، فقد فَارَقَ الدِّين القيم .

وقرأ الباقون : " فرَّقوا " بالتَّشْديد ، وقرأ الأعمش ، وأبو صالح ، وإبراهيم ، : " فرَقُوا " مخفف الراء .

قال أبو البقاء : " وهو بمعنى المُشَدَّد ، ويجُوز أن يكُون بمعنى : فَصَلُوه عن الدِّين الحقِّط وقد تقدَّم معنى الشِّيع ، أي : صَارُوا فِرقاً مختلفة .

قوله : " لست منهم في شيء " .

" لَسْت " : في محلِّ رفع خبراً لـ " إنّ " ، و " مِنْهُم " : هو خبر " لَيْسَ " إذا بِه تتم الفَائِدة ؛ كقوله النابغة : [الوافر]

2394 - إذا حَاوَلْتَ فِي أسَدٍ فُجُورا . . .

فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ ولَسْتَ مِنِّي

ونظيرُه [في الإثْبَات] : " ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم : 36] .

وعلى هذا ، فيكُون " فِي شَيْءٍ " متعلّقاً بالاسْتِقْرَار الذي تعلَّق به مِنْهُم ، أي : ليست مُسْتَقِرّاً منهم في شيء ، أي مِنْ تَفْرِيقهم .

[ويجُوز أن يَكُون " فِي شيءٍ " : الخبر ، " ومِنْهُم " : حال مُقدّمة عليه ، وذلك على حَذْفِ مُضافٍ ، أي : لَسْت في شيءٍ كَائِن من تَفْرِيقهم] ، فلمَّا قُدِّمت الصِّفَة نصبت حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 530 . 531 ﴾

(282/258)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) ﴾

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم ، فكانوا مجتمعين جهراً بجهر ؛ متفرقين – في التحقيق – سِرّاً بسِرّ .

قوله : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ . لا يجمعك وإياهم ، يعني شِقُّكَ شقُّ الحقائق ، وشِقُّهم شِقُّ الباطل ، ولا اجتماع للضدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 513 ﴾

(283/258)

" فصل جامع ونفيس فى فِرَقِ الأمة وأدلة كل فرقة "

للإمام / أبى الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام الأستاذ الأجل العالم العامل الفاضل الكامل السالك الناسك المحقق المجتهد بدر الملة والدين حجة الإسلام والمسلمين وارث الأنبياء والمرسلين إمام الأئمة قدوة الأمة ناصر السنة قامع البدعة معين الشريعة سيد المفسرين ملك المحدثين عمان المعاني نعمان الثاني أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي متع الله المسلمين بطول بقائه

الحمد لله الذي جعلني ممن عنده علم الكتاب ولم يجعلني من أهل الزيغ والارتياب والصلاة على محمد الشفيع يوم الحساب وعلى جميع الآل والأصحاب أرباب الألباب وأهل الكتيبة والكتاب والمحراب والحراب وبعد فان الله عز وجل أنزل الكتاب الكريم والقرآن العظيم تذكرة وهدى للمؤمنين وتبصرة وبشرى للمحسنين وأمرنا بالتفكر في آياته والتدبر فى كلماته فقال أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وقال أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها وقال أفلم يدبروا القول وقال كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب وفي الحديث إذا التبست

عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وشاهد مصدق فمن جعله امامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو اوضح دليل إلى خير سبيل من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل فغصت في لجه وتدبرت في حججه عملا بالكتاب والسنة وطمعا في الثواب والجنة

وليس كل قانص وغايص . . . يظفر باللأي وباللآلي

ولكن تأخذ الآذان منه . . . على قدر القرائح والفهوم

(284/258)

فاستخرجت منه حجج كل طائفة على اختلاف نحلهم وآرائهم وافتراق مللهم واهوائهم وأصلهم ثمان فرق الجبرية وفي مقابلتها القدرية والمرجئة وفي مقابلتها الوعيدية والصفاتية وفي مقابلتها الجهمية والشيعة وفي مقابلتها الخوارج ومن هذه الفرق الثمان تشعبت الفرق الثلاث والسبعون وما من فرقة إلا ولها حجة من الكتاب وما من طائفة الا وفيها علماء نحارير فضلاء لهم في عقائدهم مصنفات وفي قواعدهم مؤلفات وكل منهم يؤول دليل صاحبه على حسب عقيدته ووفق مذهبه وما منهم من احد الا ويعتقد انه هو المحق السعيد وان مخالفه لفي ضلال بعيد كل حزب بما لديهم فرحون وليس قصدنا بيان معقولات المتكلمين من المتأخرين والمتقدمين ولكن القصد أن نذكر في هذا الكتاب جميع حجج القرآن بطريق الاستيعاب ثم نذكر حجج الحديث لكل قوم من القديم والحديث لكيلا يعجل طاعن بطعنه في فرقه ولا يغلو قادح بقدحه في طائفة ويعلم أن هذه الأدلة ما تعارضت إلا ليقضي الله أمرا كان مفعولا من افتراق هذه الأمة على الثلاث والسبعين

تصديقا لقول رسول الله

ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة الحديث وقوله تعالى وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين فذكرت الحجج قاطبة ولم أفتح أقفالها ولم أسم إغفالها على مذهب أصحاب الظواهر وفيما ذكرنا مقنع وفي مجال المعقولات متسع فأما من قال بان كلام ابي علي وأبي هاشم حجة وكلام الله ورسوله ليس بحجة فما اجهله من جاسر وأجرأه من خاسر اتخذ الاسلام وراءه ظهريا وكاد يكون زنديقا دهريا جعل الدين دبر أذنه وافتات على الشرع بغير اذنه أعاذنا الله من الافتراق عن سواء السبيل واختراق مرامي القرآن بلا دليل ورتبت الكتاب على ثلاثين بابا

الباب الأول في حجج أهل التوحيد على وحدانية الله من القرآن المجيد

الباب الثاني في حجج الجبرية وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في الارادة والمشيئة

الفصل الثاني في تفسير تلك الآيات

الفصل الثالث في نفي الهداية

(285/258)

الفصل الرابع في اثبات الضلالة

الفصل الخامس في تقليب القلوب

الفصل السادس في الإغواء والاغراء

الفصل السابع في الكتابة

الفصل الثامن في تفسير تلك الآيات

الفصل التاسع في الأذن

الفصل العاشر في الخلق

الفصل الحادي عشر في القدر

الفصل الثاني عشر في تفسير تلك الآيات

الفصل الثالث عشر في ان الكل من الله وليس إلى المخلوق شيء

الفصل الرابع عشر في تفسير تلك الآيات

الفصل الخامس عشر في الأحاديث التي وردت في هذا المعنى

الباب الثالث في حجج القدرية وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في الارادة

الفصل الثاني في المشيئة

الفصل الثالث في نفي الهداية والضلالة

الفصل الرابع في ان الكفر والمعاصي بإزلال الشيطان

الفصل الخامس في إضافة الظلم إليهم ونفيه عن الله تعالى

الفصل السادس في إضافة الفعل إلى الكفار

الفصل السابع في إضافة الفعل إلى نفس العبد

الفصل الثامن في تأثير فعل العبد

الفصل التاسع في حجج القدرية أيضا

الفصل العاشر في الأحاديث التي وردت في هذا المعنى

الباب الرابع في حجج المرجئة وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في ان مرتكب الكبائر مؤمن مسلم

الفصل الثاني في ان مرتكب الكبيرة يستحق المغفرة

الفصل الثالث في ان مرتكب الكبيرة يستحق الرحمة

الفصل الرابع في ان مرتكب الكبيرة يستحق الجنة

الفصل الخامس في ان مرتكب الكبيرة داخل في دعاء الملائكة والأنبياء

الفصل السادس في ان مرتكب الكبيرة لا يستحق الوعيد وأن المستحق له هو الكافر

الفصل السابع في ان مرتكب الكبيرة يستحق الوعد

الفصل الثامن في أن مرتكب الكبيرة ليس للشيطان عليه سلطان

الفصل التاسع في الرجاء وحجة من قال ان الله لا ينزع الايمان من المؤمن

الفصل العاشر في الأحاديث التي وردت في هذا الباب

الباب الخامس في حجج الوعيدية وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن

الفصل الثاني في ان مرتكب الكبيرة يستحق الوعيد

(286/258)

الفصل الثالث في ان مرتكب الكبيرة يستحق النار والعذاب

الفصل الرابع في ان مرتكب الكبيرة يستحق الوعيد على التأبيد

الفصل الخامس في الأحاديث التي وردت في هذا الباب

الباب السادس في حجج الصفاتية وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج المثبتين للجهة

الفصل الثاني في ذكر الوجه

الفصل الثالث في ذكر العين

الفصل الرابع في ذكر اليد

الفصل الخامس في سائر الصفات

الفصل السادس في الأحاديث الواردة في هذا الباب

الباب السابع في حجج الجهمية وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في حجج القائلين بنفي الجهة المعينة

الفصل الثاني في حجج القائلين بالقرب الذاتي

الفصل الثالث في حجج القائلين بانه مع كل أحد ذاتا

الفصل الرابع في حجج القائلين بانه تعالى في كل مكان

الباب الثامن في حجج الشيعة وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين بأن اجماع الصحابة ليس بحجة

الفصل الثاني في حجج القائلين بإمامة علي بن أبي طالب

الفصل الثالث في حجج القائلين منهم ببطلان خلافة أبي بكر وصاحبيه

الباب التاسع في حجج القائلين بالاجماع وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في بيان ان الاجماع حجة

الفصل الثاني في حجج القائلين بفضل الصحابة رضوان الله عليهم

الفصل الثالث في حجج القائلين بصحة خلافة الثلاثة

الفصل الرابع في الأحاديث الواردة في هذا الباب

الباب العاشر في حجج الخوارج وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين منهم ببطلان تحكيم الحكم

الفصل الثاني في حجج القائلين منهم بعدم وجوب الامامة

الفصل الثالث في حجج القائلين منهم بجواز الخروج على الامام

الفصل الرابع في حجج القائلين منهم بجواز الظلم على الأنبياء عليهم السلام

الفصل الخامس في حجج القائلين منهم بجواز الكفر على الانبياء عليهم السلام

الفصل السادس في حجج القائلين بجواز المعاصي على الانبياء عليهم السلام

الفصل السابع في حجج من يجوز سبيل الشيطان على الانبياء

(287/258)

الفصل الثامن في حجج القائلين بجواز الخوف من غير الله على الأنبياء

الفصل التاسع في حجج القائلين بجواز القتل على الانبياء

الفصل العاشر في حجج القائلين انه يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم

الباب الحادي عشر في حجج القائلين بان القرآن كلام الله غير مخلوق

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين بان كلام الله تعالى حرف وصوت

الفصل الثاني في حجج القائلين بأن المسموع عين كلام الله لا العبارة عن الكلام

الفصل الثالث في حجج القائلين بقدم القرآن

الباب الثاني عشر في حجج القائلين بخلق القرآن وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في الخلق

الفصل الثاني في الجعل

الفصل الثالث في الحدوث

الفصل الرابع أيضا في ذلك المعنى

الباب الثالث عشر في حجج القائلين برؤية الله تعالى في الجنة جوازا ووقوعا وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في اللقاء

الفصل الثاني في النظر والرؤية

الباب الرابع عشر في حجج القائلين بنفي الرؤية

الباب الخامس عشر في حجج القائلين بأن الإيمان قول وعمل وعقد بالقلب

الباب السادس عشر في حجج القائلين بأن الايمان قول بلا عمل ولا نية

الباب السابع عشر في حجج القائلين بان الايمان هو التصديق

الباب الثامن عشر في حجج القائلين بان الايمان والاسلام واحد

الباب التاسع عشر في حجج القائلين بان الايمان والاسلام متغايران

الباب العشرون في حجج القائلين بان الايمان يزيد وينقص

الباب الحادي والعشرون في حجج القائلين بان الرضا بالكفر لا يكون كفرا

الباب الثاني والعشرون في حجج القائلين بان الجنة جزاء الاعمال

الباب الثالث والعشرون في حجج القائلين بان الجنة للمؤمنين فضلا وعطاء

الباب الرابع والعشرون في حجج القائلين بجواز تكليف ما لا يطاق

الباب الخامس والعشرون في حجج القائلين بان تكليف ما لا يطاق غير جائز

الباب السادس والعشرون في حجج المسلمين في البعث والنشور

(288/258)

الباب السابع والعشرون في حجج القائلين بكون الجنة والنار مخلوقتين اليوم

فصل في حجة من قال بفناء الجنة والنار

فصل في حجة من قال بالخلود

فصل في من قال ان المؤبد يكون موقتا

فصل في حجة من قال بنفي الشفاعة وحجة من قال بالشفاعة

الباب الثامن والعشرون في حجج القائلين بفناء العالم

فصل في حجج القائلين بعذاب القبر

فصل في من قال بنفي عذاب القبر ومن قال الانبياء لا يدخلون النار وحجة من قال يدخلون

الباب التاسع والعشرون في مسائل شتى وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين بعذاب القبر ومن قال بنفي العذاب

الفصل الثاني في حجة من قال المعارف سمعية وحجة من قال عقلية

الفصل الثالث في حجة من قال المقتول ميت بأجله ومن قال مقطوع عليه أجله وفي حجة من قال الجدل مكروه ومن قال بجوازه وحجة من قال باعتبار النسب ومن لم يعتبره

الفصل الرابع في حجة من قال ان آباء الانبياء مؤمنون

الفصل الخامس في حجة من قال الملائكة خير من بني آدم وحجة من قال الأنبياء أفضل من الملائكة

الفصل السادس في حجة من قال الاسم والمسمى واحد وحجة من قال الاسم والمسمى متغايران

الفصل السابع حجة من قال المعدوم شيء وحجة من قال المعدوم ليس بشيء

الفصل الثامن في حجة من قال التوسع في الكلام جائز

الفصل التاسع في حجة من قال لعل من الله واجب وحجة من قال ليس بواجب وحجة من قال اثبات الثابت ليس بمحال

الفصل العاشر في حجة من قال المطلق لا ينصرف إلى الكامل وحجة من قال المطلق لا يحمل على المقيد وحجة من قال لا يجوز الاجماع على خلاف الكتاب والسنة وحجة من قال السحر خيال وحجة من قال ذات الله تعالى غير معلوم

حجة من قال بجواز الاستكثار بغير الله عز وجل

حجة من قال محمد أفضل الأنبياء

حجة من قال لا تفاضل بينهم

حجة من قال يتفاضل بينهم

حجة من قال الاجتهاد والقياس حق

حجة من قال بأن الاجتهاد باطل

حجة من قال المظالم ترتفع بالتوبة

(289/258)

حجة من قال هذه القردة والخنازير من نسل اولئك الممسوخين

حجة من قال الواو ليست للترتيب

الباب الثلاثون في حجج القائلين بفضل الغنى على الفقر وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في ان الله تعالى سمى المال فضل الله

الفصل الثاني في ان الله تعالى سمى المال خيرا

الفصل الثالث في ان الله تعالى سمى المال حسنة

الفصل الرابع في ان الله تعالى سمى المال رحمة

الفصل الخامس في ان الله تعالى أمر بحفظ المال ونهى عن اتلافه

الفصل السادس في ان الله تعالى جعل المال جزاء الأعمال

الفصل السابع في ان الصحابة كانوا يحبون المال وان الله تعالى من على نبيه بالمال

الفصل الثامن في الأحاديث الواردة في هذا الباب

الفصل التاسع في حجج القائلين بفضل الفقر على الغنى

الفصل العاشر في الأحاديث الواردة في هذا الباب الباب الأول

في حجج أهل التوحيد على وحدانية الله عز وجل من القرآن المجيد وذلك في ثلاثة مواضع

في سورة الانبياء لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون وفي

سورة قد أفلح ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا

بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون وفي سورة بني إسرائيل قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

يقول ان الملوك إذا تزاحموا في الملك تخاصموا يقصد كل واحد منهم صاحبه الذي ينازعه فيمانعه ويدافعه فلو كان مع الله آلهة بزعمكم لقصدوه قبيلا قبيلا ولطلبوا إلى ذي العرش سبيلا تعالى الله عن ذلك عظيما

جليلا وعلى هذا معنى الآيتين الاخريين الباب الثاني

في حجج الجبرية وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في الارادة والمشيئة

وهما واحد وهي صفة قديمة تقتضي تخصيص الحوادث بوجه دون وجه ووقت دون وقت

(290/258)

اما الارادة ففي خمسة عشر موضعا في آل عمران يريد الله ان لا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم وفي بني إسرائيل وإذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وفي المائدة ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم وفي الانعام فمن يرد

الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون وفي التوبة فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وفيها ولا تعجبك اموالهم واولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وفي يونس وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم وفي هود ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون وفي الرعد وإذا اراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وفي الاحزاب قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا وفي البقرة ولكن الله يفعل ما يريد وفي الفتح قل

فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا

(291/258)

واما المشيئة ففي ستة وعشرين موضعا في البقرة ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم وفيها ولو شاء الله ما اقتتلوا وفي المائدة ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم وفي الانعام ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين وفيها ولو شاء الله

ما اشركوا ولو شاء الله ما فعلوه وفي النحل ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء وفي حمعسق ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته وفي يونس ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس ان تؤمن الا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون وفي هود ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وفي الرعد أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى اناس جميعا وفي النحل وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين وفي السجدة ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وفي الشعراء ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين وفي حمعسق فإن يشأ الله يختم على قلبك وفي الحديد لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وفي المدثر وما يذكرون الا ان يشاء الله وفي هل اتى على الانسان وما تشاؤن الا ان يشاء الله ان الله كان عليما حكيما وفي

(292/258)

إذا الشمس كورت وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين وفي الاعراف وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا وفي الانعام ولا اخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربي شيئًا وفيها ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون وفيها وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون وفيها قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين وفي الاعراف قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله وفي يونس قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله وفيها قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون

الفصل الثاني في تفسير هذه الآيات وما أشكل فيها من الكلمات

قوله يريد الله ان لا يجعل لهم حظا في الاخرة أي نصيبا في ثواب الآخرة فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر

قوله وإذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس أي علما وإرادة فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وإرادته وهو مانعك منهم وحافظك فلا تهبهم في تبليغ الرسالة ولا تخفهم في اقامة الدلالة

وقوله ومن يرد الله فتنته أي كفره وضلالته كقوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة أي كفر فلن

تملك له من الله شيئا فلا تقدر على نفعه وصرف الكفر ودفعه قوله فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام أي يوسع قلبه وينوره ليقبل الاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا قرىء بتخفيف الياء

وتشديد هاؤهما بمعنى واحد يعنى يجعل قلبه ضيقا حتى لا يدخله الايمان كانما يصعد قرىء يصعد ويصاعد

ويصعد يعني يشق عليه الايمان ويمتنع ويضيق عنه قلبه ويصعب عليه الايمان كما يصعب صعود السماء على الانسان كذلك يجعل الله الرجس أي العذاب وقيل أي الشيطان وقيل يسلط الشيطان على أهل الطغيان

(293/258)

وقوله فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا تقديره فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة وقيل ليعذبهم في الدنيا باخذ الزكاة والصدقة والمؤنة والنفقة وكثرة المصائب والتعب والنوائب وتزهق أنفسهم تخرج أرواحهم على الكفر والنفاق والشقاق قوله وان يمسسك الله بضر أي يصبك الله ببلاء وشدة فلا كاشف له فلا دافع له الا هو وان يردك بخير برخاء ونعمة فلا

راد لفضله فلا مانع لرزقه يصيب به بكل واحد من الخير والشر والنفع والضر من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم قوله ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة على ملة واحدة وهي ملة الاسلام ولكن ليبلوكم ليختبركم وهو اعلم فيما آتاكم من الكتب ويبين لكم من الملل ليظهر المطيع من العاصي والقريب من القاضي فاستبقوا الخيرات فبادروا إلى الطاعات وسارعوا إلى الأعمال الصالحات

قوله ولا يزالون مختلفين على أديان شتى الا من رحم ربك فهداهم ولذلك خلقهم وللاختلاف خلقهم وقيل للرحمة خلقهم وقيل لهما

قوله أفلم ييأس الذين آمنوا أي أفلم يعلم الخ ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا

قوله وعلى الله قصد السبيل يعني عليه بيان طريق الحق ومنها جائر ومن السبيل جائر عن الاستقامة ولو شاء لهداكم أجمعين وقوله لئلا يعلم أهل الكتاب أن

لايقدرون على شيء من فضل الله تقديره ان الحال والشان أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله قوله ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة فرأوهم عيانا وكلمهم الموتى فشهدوا لك بالنبوة وحشرنا عليهم كل شيء قبلا أي معاينة وقبلا أي ضمناء وكفلاء فوجا فوجا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله قوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا أي أعداء شياطين الانس والجن والشيطان العاتي المتمرد من كل شيء يوحي بعضهم إلى بعض أي يلقي زخرف القول

غرورا وهو القول المموه بالباطل ولو شاء ربك ما فعلوه

الفصل الثالث نفي الله الهداية في عشرين موضعا

(294/258)

منها في ثلاثة مواضع الله لا يهدي القوم الكافرين وفي سبعة مواضع الله لا يهدي القوم الظالمين وفي ثلاثة مواضع الله لا يهدي القوم الفاسقين والباقي في عبارات مختلفة في البقرة والله لا يهدي القوم الكافرين وفي التوبة زين لهم سوء اعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين وفي النحل وان الله لا يهدي القوم الكافرين وفي الانعام ان الله لا يهدي القوم الظالمين وفي التوبة والله لا يهدي القوم الظالمين وفيها والله لا يهدي القوم الظالمين وفي آل عمران والله لا يهدي القوم الظالمين وفي القصص ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين وفي الصف والله لا يهدي القوم الظالمين وفي الجمعة والله لا يهدي القوم الظالمين وفي التوبة والله لا يهدي القوم الفاسقين وفيها والله لا يهدي القوم الفاسقين وفي المنافقين ان الله لا يهدي القوم الفاسقين وفي آل عمران كيف يهدي الله قوما

كفروا بعد ايمانهم وفي النساء لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا وفي النحل ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين وفيها الذين لا يؤمنون بآيات الله

لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم وفي الزمر ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار وفي الاعراف وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وفي ابراهيم قالوا لو هدانا الله لهديناكم

الفصل الرابع في اثبات الضلالة

(295/258)

أثبت الله الاضلال في اثنين وثلاثين موضعا في البقرة يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وفيها وما يضل به الا الفاسقين وفي النساء تريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا وفيها ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا وفي الانعام من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم وفيها ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا وفي الاعراف فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وفيها ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وفيها ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون وفيها ومن يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون وفي الرعد قل ان الله يضل من يشاء ويهدي إليه من اناب وفيها ومن يضلل الله فما له من هاد وفي ابراهيم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم وفيها ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء وفي النحل فمنهم من

هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة وفيها أن الله لا يهدي من يضل وفيها ولكن يضل من يشاء وفي بني إسرائيل

(296/258)

من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه وفي الكهف من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وفي الروم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين وفي الملائكة أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وفي التوبة وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وفي الزمر ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد وفيها يخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهدي الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام وفي حم المؤمن ومن يضلل الله فما له من هاد وفيها كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب وفيها كذلك يضل الله الكافرين وفي حمعسق ومن يضلل الله فما له من ولي ومن بعده ومن يضلل الله فما له من سبيل وفي الجاثية أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون وفي المدثر كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء

الفصل الخامس في تقلب القلوب

وذلك في ستة وثلاثين موضعا في البقرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم وفي آل عمران ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وفي المائدة وجعلنا قلوبهم قاسية وفي النساء وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وفي الانعام ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وفيها قل أرأيتم أن

(297/258)

أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به وفيها ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون وفي الاعراف ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون وفيها كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وفي التوبة وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وفيها وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون وفي آل عمران ليجعل ذلك حسرة في قلوبهم وفيها سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب وفي الانفال سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب وفي يونس واشدد على قلوبهم وفي الاحزاب وقذف في قلوبهم الرعب وفي محمد أم على قلوب أقفالها وفي الحديد وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة

ورحمة وفي الحشر ولا تجعل في قلوبنا غلا وفي يونس فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك يطبع الله على قلوب المعتدين وفي النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وفي بني اسرائيل وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه الآية وفي الكهف ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا وفي الانفال يحول بين المرء وقلبه وفي التوبة صرف الله قلوبهم وفي الانعام ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون وفي الكهف إنا جعلنا على قلوبهم أكنه ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا وفي الحجر كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وفي الصف فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وفي الشعراء كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به يعني ندخل الكفر في قلوبهم وفي الروم كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون وفي حمم المؤمن كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وفي حمعسق فان يشا الله

يختم على قلبك وفي الجاثية وختم على سمعه وقلبه وفي سورة محمد أولئك الذين طبع الله على قلوبهم فالطبع هو الختم

الفصل السادس في الاغواء والاغراء

(298/258)

وذلك في عشرة مواضع في المائدة فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وفيها وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وفي الانعام وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن وفيها وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وفيها وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وفي الاعراف قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم وفي هود إن كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون وفي الحجر قال رب بما اغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم اجمعين وفي الفرقان وجعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وفي حم السجدة وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم

الفصل السابع في الكتابة

وذلك في خمسة عشر موضعا في الانعام ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وفي الاعراف اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب وفي الأنفال لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وفي يونس وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين وفي هود ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين وفي الرعد لكل اجل كتاب

وفي التوبة قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولينا وفي الحجر وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وفي بني اسرائيل كان ذلك في الكتاب مسطورا وفي النمل وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين وفي الفرقان كان ذلك في الكتاب مسطورا وفي سبأ لا

يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين وفي يس وكل شيء احصيناه في امام مبين وفي اقتربت الساعة وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر وفي الحديد ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها

الفصل الثامن في تفسير هذه الآيات

(299/258)

قوله ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين قيل لا ماء ولا بر وقيل لسان المؤمن رطب بذكر الله ولسان الكافر يابس لا يتحرك بالذكر وفي الحديث ما من زرع على الارض ولا ثمار على الاشجار الا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان وذلك قوله وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وقوله أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب أي حظهم مما كتب لهم في اللوح المحفوظ أي ما سبق لهم من السعادة والشقاوة وما كتب عليهم من الخير والشر قوله لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم قال ابن عباس كانت الغنائم قبل النبي حراما على الانبياء والامم وكان قد كتب في اللوح المحفوظ أنها حلال لمحمد وامته فلما كان يوم بدر أخذوها

أنزل الله عز وجل لولا كتاب من الله

سبق لمسكم لنالكم وأصابكم فيما اخذتم من الغنيمة والفداء عذاب عظيم قوله وما يعزب عن ربك قريء يعزب ويعزب أي لا يغيب ولا يبعد من مثقال ذرة أي مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك قرىء برفع الرائين وكسرهما اي لا مثقال أصغر ولا اكبر الا في اللوح المحفوظ قوله ويعلم مستقرها حيث يأوي إليه ومستودعها حيث يموت في كتاب مبين ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل ان خلقها الله قوله لكل اجل كتاب يعني لكل أمر قضاه الله كتاب قد كتبه فهو عنده قوله وكل شيء أحصيناه أي علمناه وعددناه وبيناه في امام مبين وهو اللوح المحفوظ قوله وكل شيء فعلوه من خير أو شر في الزبر في اللوح المحفوظ وكل صغير وكبير منهم ومن أعمالهم مستطر مكتوب وقوله ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب يعني اللوح المحفوظ من قبل ان نبرأها من قبل ان نخلق السموات والارض والانفس وقيل من قبل ان نخلق المصيبة

الفصل التاسع في الاذن

(300/258)

وذلك في خمسة مواضع في البقرة وما هم بضارين به من احد الا باذن الله وفي آل عمران وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وفي يونس وما كان لنفس ان تؤمن الا بإذن الله وفي المجادلة إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن الله وفي التغابن ما أصاب من مصيبة الا بإذن الله

الفصل العاشر في الخلق

وذلك في عشرة موضع في الانعام وخلق كل شيء وهو بكل شيء

عليم وفي الاعراف ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس وفي الرعد قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار وفي الفرقان وخلق كل شيء فقدره تقديرا وفي لقمان هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وفي الملائكة هل من خالق غير الله وفي الصافات والله خلقكم وما تعملون وفي الزمر الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل وفي حم المؤمن ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو وفي الملك انه عليم بذات الصدور الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

الفصل الحادي عشر في القدر

وذلك في سبعة مواضع في الرعد وكل شيء عنده بمقدار وفي الحجر الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين وفي الاحزاب وكان أمر الله قدرا مقدورا وفي اقتربت الساعة أنا كل شيء خلقناه بقدر وفي الطلاق قد جعل الله لكل شيء قدرا وفي الفرقان وخلق كل شيء فقدره

تقديرا

الفصل الثاني عشر في تفسير هذه الآيات

قوله وكل شيء عنده بمقدار أي بحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه المقدار والمقدار مفعال من القدر قوله الا امرأته يعنى سوى امرأة لوط قدرنا قضينا انها لمن الغابرين الباقين في العذاب قرىء قدرنا بالتخفيف والتشديد وقوله وكان أمر الله قدرا مقدورا يعني ماضيا كائنا وقوله انا كل شيء خلقناه بقدر عن ابن عباس قال خلق الله الخلق كلهم بقدر وخلق لهم الخير والشر فخير الخير السعادة وشر الشر

الشقاوة وقوله قد جعل الله لكل شيء قدرا أي حدا واجلا ينتهي إليه لا يتقدمه ولا يتاخر عنه

(301/258)

الفصل الثالث عشر في ان الكل من الله وليس إلى المخلوق شيء

وذلك في اربعين آية في آل عمران ليس لك من الامر شيء وفيها يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم وفيها ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم

فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون وفيها وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن انفسكم الموت ان كنتم صادقين وفيها يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وفيها انما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين وفي النساء قل كلا من عند الله وفيها والله أركسهم بما كسبوا وفي الاعراف سأصرف عن آياتنا الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وفي الانفال فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وفي البقرة ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم وفي ابراهيم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم وفي التوبة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين وفي يونس كذلك حقت

(302/258)

كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون وفي بني اسرائيل قل كل يعمل على شاكلته وفي يونس ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وفيها وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا

يؤمنون وفي هود وأهلك الا من سبق عليه القول وفي قد أفلح لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون وفيها قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ظالين وفي مريم ألم تر انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا وفي النور ومن يجعل الله له نورا فماله من نور وفي القصص وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار وفي الاحزاب قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو اراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا وفي الملائكة ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم وفي يس وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون وفي الصافات فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم وفي بني اسرائيل وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه أي عمله وما قدر عليه من الخير والشر يلزمه ولا يفارقه وفي الزخرف أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين وفي سورة محمد أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم وفي النجم وانه هو أضحك وأبكى وفي الاعراف قال لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله وفي الممتحنة وما املك لكم من الله من شيء وفي الجن قل إني لا املك لكم ضرا ولا رشدا وفي النمل ان الذين لا يؤمنون بالآخرة

زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون وفي الانعام كذلك زينا لكل امة عملهم وفي الشمس وضحاها

فألهمها فجورها وتقواها وفي الليل واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى

فذلك كله مائتا آية من حجة الجبرية

الفصل الرابع عشر في تفسير هذه الآيات

(303/258)

قوله يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا يعني المنافقين وقالوا لاخوانهم في النفاق إذا ضربوا في الارض سافروا وماتوا أو كانوا غزا غزاة فقتلوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة حزنا ذلك يعني قولهم وظنهم في قلوبهم ثم ان الله تعالى اخبر ان الموت والحياة إلى الله عز وجل لا يتقدمان لسفر ولا يتاخران لحضر والله يحيي ويميت وقوله وما أصابكم يا معشر المؤمنين يوم التقى الجمعان بأحد من القتل والجراح فباذن الله أي بقضائه وقدره وعلمه وليعلم المؤمنين أي ليميز وليرى وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم وهم عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا عن احد

قوله ألذين قالوا لاخوانهم في النسب لا في الدين وهم شهداء احد وقعدوا يعني قعد هؤلاء

القائلون عن الجهاد لو أطاعونا وانصرفوا عن محمد ما قتلوا قل فادرأوا فادفعوا عن انفسكم الموت ان كنتم صادقين ان الحذر يغني عن القدر

عن ابن عباس في قوله يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يعني التكذيب بالقدر وذلك انهم تكلموا في القدر فقال الله تعالى قل ان الامر كله لله يعني القدر خيره وشره من الله وهو قولهم لو كان لنا من الامر

شيء ما قتلنا ههنا قال المنافقون لو كان لنا من عقول ما خرجنا مع محمد إلى القتال فقال الله قل لهم لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب قضى عليهم القتل إلى مضاجعهم مصارعهم وليبتلي الله ليختبر الله ما في صدوركم وليمحص ويظهر ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور قوله ولا تحسبن الذين كفروا يعني فلا تحسبن يا محمد الذين كفروا ولا يحسبن الذين كفروا ان ما نملي لهم ونؤخرهم في اجلهم خير لانفسهم ثم ابتدأ فقال انما نملي لهم نمهلهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين قوله والله أركسهم أي اهلكهم ونكسهم وردهم إلى كفرهم وضلالهم باعمالهم

(304/258)

نزل في المنافقين قوله سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض يعني أصرفهم ان يتفكروا في خلق السموات والارض وامنع قلوبهم من التفكر في امري قوله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه أي يحول بين الكافر وقلبه ان يؤمن وبين المؤمن وقلبه ان يكفر وقوله صرف الله قلوبهم يعني عن الايمان بالقرآن بأنهم قوم لا يفقهون وقوله كذلك حقت كلمة ربك أي علمه السابق في خلقه أنهم لا يؤمنون قوله قل كل يعمل على شاكلته أي على خليقته وطريقته التي جبل عليها قوله وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون في علم الله قوله واهلك الا من سبق عليه القول يعني احمل يانوح في السفينة اهلك الا من سبق فيهم قول الله وعلمه انهم لا يؤمنون وهم امراتك وابنك ومن آمن يعني احمل من آمن بك قوله ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون يعني اعمال خبيثة لا يرضاها الله من المعاصي دون ذلك يعني دون اعمال المؤمنين لا بد لهم ان يعملوها فيدخلوا بها النار

لما سبق لهم من الشقاوة قوله ربنا غلبت علينا شقوتنا وقرىء شقاوتنا أي غلب علينا الشقاوة التى كتبت علينا قوله ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا يعني تزعجهم ازعاجا وتغريهم اغراء قوله وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فأعميناهم فهم لا يبصرون قوله فانكم وما تعبدون يعني الاصنام ما أنتم عليه أي مع ذلك أو على الله بفاتنين بمضلين الا من هو صال الجحيم أي الا من هو في علم الله وارادته أنه سيدخل النار

وقوله فألهمها فجورها وتقواها يعني جعل في النفس الفجور والتقوى بخذلانه اياها للفجور وتوفيقه اياها للتقوى وقوله وأما من بخل بالنفقة في الخير واستغنى عن ربه ولم يرغب في ثوابه وكذب بالحسنى بالخلف وقيل بالجنة وقيل بلا اله الا الله فسنيسره في الدنيا للعسرى اي للخلة العسرى أي العمل بما لا يرضى الله حتى يستوجب به النار وكأنه قال نخذله ونؤديه إلى الامر العسير وهو العذاب وقيل العسرى اسم جهنم

الفصل الخامس عشر في الأحاديث التي وردت في هذا المعنى

عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله كتب الله تعالى مقادير الخلائق كلها قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة حديث صحيح وعن ابي هريرة قال قال رسول الله احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم انت أبونا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التورية بيده تلومني على أمر قدره علي قبل ان يخلقني باربعين سنة فحج آدم موسى حديث متفق على صحته عن انس عن

النبي قال وكل الله بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله ان يقضي خلقها قال يارب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب

كذلك في بطن امه هذا حديث متفق على صحته وقال عليه أفضل الصلوات واكمل التحيات كل شيء بقدر حتى العجز والكيس وقال المقدور كائن الباب الثالث في حجج القدرية

وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في القدر

(306/258)

وذلك في ثلاثة عشر موضعا في البقرة يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وفي آل عمران وما الله يريد ظلما للعالمين وفي حم المؤمن وما الله يريد ظلما للعباد وفي النساء يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا وفيها ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا وفي المائدة ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون وفي الانفال تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم

الفصل الثاني في المشيئة

وذلك في عشرة مواضع في الانعام سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من

قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون وفي النحل وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين وفي يس وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه ان انتم الا في ضلال مبين وفي الزخرف وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وفي المزمل فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وفي المدثر لمن شاء منكم ان يتقدم أو يتأخر وفي الانسان فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وفي الاعمي فمن شاء ذكره في صحف مكرمة وفي الكهف فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

الفصل الثالث في نفي الهداية والضلالة

(307/258)

وذلك في ثلاثين موضعا في النساء ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا وفيها ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وفيها ولأضلنهم وفي

المائدة قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل وفي الانعام وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله وفيها فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم وفي الاعراف قالت أخراهم لأوليهم ربنا هؤلاء أضلونا وفي التوبة وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم وفي يونس ومن ضل فإنما يضل عليها وفي ابراهيم رب انهن أضللن كثيرا من الناس وفي النحل ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم

(308/258)

وفي بني إسرائيل من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وفي طه وأضل فرعون قومه وما هدى وفيها وأضلهم السامري وفي الفرقان ويوم نحشرهم إلى قوله أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل وفي الحج كتب عليه انه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير وفيها ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد وفي الفرقان يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا وفي الشعراء وما أضلنا الا المجرمون وفي لقمان ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم وفي الاحزاب وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا

السبيلا وفي يس ألم أعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون وفي ص ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وفي الزمر وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله وفي حم السجدة أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس وفي نوح ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا وفيها انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وفي حم السجدة واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وفي الانسان إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا وفي حم عسق وانك لتهدي إلى صراط مستقيم

الفصل الرابع في ان الكفر والمعاصي بازلال الشيطان واضلاله واغوائه وكيده وصده

(309/258)

وذلك في ثلاثة وعشرين موضعا في البقرة فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وفي آل عمران انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا وفي النساء ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا وفيها ولأضلنهم وفي الانعام زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وفي يوسف من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي وفي يس ولقد أضل منكم جبلا كثيرا وفي النحل فزين لهم الشيطان أعمالهم وفي بني اسرائيل لأحتنكن ذريته الا قليلا وفي طه فوسوس إليه

الشيطان وفي الكهف وما انسانيه الا الشيطان ان أذكره وفي الانفال واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وفي الحجر لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين وفي ص فبعزتك لأغوينهم اجمعين وفي الاعراف فوسوس لهما الشيطان وفي بني اسرائيل ان الشيطان ينزغ بينهم وفي الفرقان وكان الشيطان للإنسان خذولا وفي النمل وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وفي القصص قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين وفي العنكبوت وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وفي سورة محمد ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم وفي المجادلة استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وفي الحج ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه إلى عذاب السعير

الفصل الخامس في إضافة الظلم إليهم ونفيه عن الله عز وجل

(310/258)

وذلك في عشرة مواضع في التوبة فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وفي يونس ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون وفي هود وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وفي النحل وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون وفيها وما ظلمناهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون وفي العنكبوت وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وفي آل عمران وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون وفي النور بل اولئك هم الظالمون وفي الروم وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وفي الزخرف وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين

الفصل السادس في إضافة الفعل إلى الكفار

وذلك في خمسة عشر موضعا في آل عمران يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن وفيها يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وفيها يا أيها الذين امنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين وفي الأنعام وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم وفي ابراهيم وأحلوا قومهم دار البوار وفي الكهف فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا وفي قد أفلح فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكري وفي القصص وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون وفيها قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا هم كما غوينا وفي الصافات فأغويناكم انا كنا غاوين وفي الزخرف وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون وفي الحشر ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم وفي الصف فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم وفي الأنفال ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا

وهم معرضون وفي الكهف وما كنت متخذ المضلين عضدا

الفصل السابع في إضافة الفعل إلى نفس العبد

(311/258)

وذلك في عشرين موضعا في البقرة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وفيها ثم توفى كل نفس ما كسبت وفي خمسة مواضع بما كانوا يكسبون وفي الانعام ولا تكسب كل نفس الا عليها وفي آل عمران أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شيء قدير وفي النساء ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وفي الأنفال ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد وفي آل عمران ذلك بما قدمت أيديكم وفي الحج ذلك بما قدمت يداك وفي الأنفال ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وفي الرعد ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وفي يوسف قال بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل وفي الروم ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس وفي حمعسق ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وفي ابراهيم ولوموا انفسكم وفي التحريم يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا

الفصل الثامن في تأثير فعل العبد

وذلك في ثمانية مواضع في النساء يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وفي آل عمران اني اخلق لكم من الطين وفي المائدة واذ تخلق من الطين وفي قد أفلح فتبارك الله احسن الخالقين وفي سورة محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم وفي العنكبوت والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وفيها وتخلقون إفكا وفي الشعراء إن هذا الا خلق الأولين

الفصل التاسع في حجج القدرية ايضا

(312/258)

وذلك في سبعة مواضع في الرعد يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وفي بني اسرائيل كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها وفي الروم فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون وفي السجدة الذي احسن كل شيء خلقه وفي الملائكة وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله يسير وفي الزمر ولا يرضى لعباده الكفر وفي الذاريات وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

فذلك عشرون ومائة آية من حجج القدرية

الفصل العاشر في الأحاديث التي وردت في هذا المعنى

عن أبي هريرة قال قال رسول الله كل مولود يولد على فطرة الاسلام فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها جدعاء حتى تكونوا انتم تجدعونها قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله اعلم بما كانوا عاملين هذا حديث متفق على صحته وقال رسول الله يقول الله عز وجل اني خلقت عبادي جميعا حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وفي حديث ابي هريرة ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وانا اكره مساءته حديث صحيح وقال عليه الصلاة والسلام صلة الرحم تزيد في العمر وقال لا يرد القضاء الا الدعاء وقال عليه الصلاة والسلام الصدقة ترد البلاء الباب الرابع في حجج المرجئة

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في ان مرتكب الكبائر مؤمن مسلم

وذلك في ستة مواضع في البقرة يا أيها الذين آمنوا كتب

(313/258)

عليكم القصاص في القتلي الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة سمى القاتل مؤمنا وجعله اخا لولي المقتول في الدين وفي التحريم يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا وفي النور توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون والامر بالتوبة متناول لاصحاب الكبائر وفي الاحزاب ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وفي الحجرات وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما وقال إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم

الفصل الثاني في ان مرتكب الكبيرة يستحق المغفرة

وذلك في ستة مواضع في النساء ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء في موضعين وفيها ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما وفي الرعد وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفي الحجر نبىء عبادي اني انا الغفور الرحيم وفي الزمر قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم

الفصل الثالث في ان مرتكب الكبيرة يستحق الرحمة

وذلك في عشرة مواضع في الانعام كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة وفيها كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوأ بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم وفيها وربك الغني ذو الرحمة وفي الكهف وربك الغفور ذو

الرحمة وفي الأنعام فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة وفي النحل وهدى ورحمة لقوم يؤمنون وفي الأنبياء وما أرسلناك الا رحمة للعالمين وفي الحجر ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفي الزمر لا تقنطوا من رحمة الله وفي بني اسرائيل ويرجون رحمته وفيها الا رحمة من ربك

الفصل الرابع في ان مرتكب الكبيرة يستحق الجنة

(314/258)

وذلك في أربعة مواضع في التوبة وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار وفي الملائكة ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها وفي الفتح ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وفي الحديد وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا

الفصل الخامس في ان مرتكب الكبيرة داخل في دعاء الملائكة والأنبياء

وذلك في خمسة مواضع في حم المؤمن الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا وفي حمعسق والملائكة يسبحون بحمد ربهم

ويستغفرون لمن في الأرض الا ان الله هو الغفور الرحيم وفي سورة إبراهيم عليه السلام

إخبارا عنه ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وفي سورة نوح إخبارا عنه رب

اغفر لي ولوالدي ولمن دخل

بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات وفي محمد واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات

الفصل السادس في ان مرتكب الكبيرة لا يستحق الوعيد وأن المستحق له هو الكافر

(315/258)

وذلك في خمس عشرة آية في النساء ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله

شاكرا عليما وفي آل عمران واتقوا النار التى اعدت للكافرين وفي البقرة فاتقوا النار التي

وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين وفي التوبة وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا

صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم وفي النحل قال الذين أوتوا

العلم ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين وفي النساء ان الله لا يظلم مثقال ذرة الآية وفي طه

أنا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى وفي الفرقان وكان يوما على الكافرين

عسيرا وفي حم المؤمن وان المسرفين هم أصحاب النار يعني الكافرين هم لا غيرهم وفي

الحج النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير وفي المدثر يومئذ يوم عسير على الكافرين

غير يسير وفي الزخرف يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين وفي الاحقاف فهل يهلك الا القوم الفاسقون وفي الملك كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم ياتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم الا في ضلال كبير وفي الليل فأنذرتكم نارا تلظى لا يصليها الا الأشقى

الذي كذب وتولى

وفي النساء ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلا كريما أي الكفر تفسير لقوله تعالى كبائر ما تنهون عنه

الفصل السابع في ان مرتكب الكبيرة يستحق الوعد

(316/258)

وذلك في خمس عشرة آية في النساء يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد ان يتوب عليكم وفيها يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا وفي الانعام الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أي بشرك وفي النساء الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما وفي يونس ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين

وفيها وبشر الذين آمنوا ان لهم الآية وفي البقرة وبشر المؤمنين وفي إبراهيم يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة ويضل الله الضالمين وفي الفرقان فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وفي النحل وهدى وبشرى للمسلمين وفي النمل وبشرى للمؤمنين وفي الاحزاب وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا وفيها وكان بالمؤمنين رحيما وفي الحديد يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم

الفصل الثامن في ان مرتكب الكبيرة ليس للشيطان عليه سلطان

وذلك في ثلاثة مواضع في الحجر إن عبادي ليس لك عليهم

سلطان الا من اتبعك من الغاوين وفي النحل انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون وفي بني اسرائيل إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفي بربك وكيلا

الفصل التاسع في الرجاء وحجة من قال ان الله لا ينزع الايمان من المؤمن

أما الرجاء ففي بني إسرائيل وما نرسل بالآيات الا تخويفا وفي الزمر ذلك يخوف الله به عباده

(317/258)

أما حجة من قال ان الله لا ينزع الايمان من المؤمن ففي التوبة وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وفي ابراهيم يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وفي البقرة وما كان الله ليضيع ايمانكم وفي آل عمران وان الله لا يضيع اجر المؤمنين وفيها اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى وفي هود واصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين وفي يوسف إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين

الفصل العاشر في الأحاديث التي وردت في هذا الباب

عن معاذ بن جبل قال كنت رديف رسول الله فقال هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله قال قلت الله ورسوله أعلم قال فان حق الناس على الله أن لا يعذبهم قال قلت يا رسول الله ألا أبشر الناس قال دعهم يعملون هذا حديث متفق على صحته عن انس ان النبي ومعاذ رديفه على الرحل قال معاذ بن جبل قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا قال ما من احد يشهد ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله صدقا من قلبه الا حرمه الله على النار قال يا رسول الله أفلا اخبر به الناس فيستبشروا قال إذا يتكلوا فأخبر بها عند موته تأثما هذا حديث متفق على صحته وعن جابر قال أتى النبي رجل فقال يا رسول الله ما الموجبتان قال من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار هذا حديث متفق على صحته

وعن أبي ذر قال قال رسول الله ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق على رغم أنف أبي ذر هذا حديث متفق على صحته

وقال عليه الصلاة والسلام تدخلون الجنة اجمعون اكتعون الا من أبى قيل ومن الذي أبى قال الذي لا يقول لا اله الا الله وفي رواية الا من شرد على الله تعالى الباب الخامس في حجج الوعيدية

(318/258)

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن

وذلك في اثنى عشر موضعا في البقرة انما نحن فتنة فلا تكفر وفي المائدة ومن يتولهم منكم فانه منهم وفي النساء فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم إذا مثلهم وفي المائدة ولو كانوا

يؤمنون بالله والنبي وما انزل إليه ما اتخذوهم أولياء وفي الأعراف فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وفي يوسف إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون وفي الحجر قال ومن يقنط

من رحمة ربه الا الضالون وفي النحل إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون وفي الاحزاب ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا وفي آل عمران ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين قيل أي من لم يحج وفي حم المؤمن ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا وفي الممتحنة تسرون إليهم بالمودة وانا أعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل

الفصل الثاني في ان مرتكب الكبيرة يستحق الوعيد

وذلك في عشرين آية في الطور كل امرىء بما كسب رهين وفي المدثر كل نفس بما كسبت رهينة وفي النساء من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا وفي البقرة ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق وفي آل عمران ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة وفي محمد وتقطعوا أرحامكم اولئك الذين لعنهم الله وفي الحج ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم وفي الرعد الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به الآية وفي البقرة ثم توفي كل نفس ما كسبت وفي آل عمران مثله وفيها ووفيت كل نفس ما كسبت وفي النحل وتوفى كل نفس ما عملت وفي الكهف ووجدوا ما عملوا حاضرا وفي ابراهيم ليجزي

الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب وفي حم المؤمن أليوم تجزى كل نفس بما كسبت وفيها من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها وفي الجاثية ولتجزى كل نفس بما كسبت وفيها اليوم تجزون ما كنتم تعملون وفي طه لتجزى كل نفس بما تسعى وفي الحجرات لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون وفي الزلزلة ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

الفصل الثالث في ان مرتكب الكبيرة يستحق النار والعذاب

وذلك في عشر آيات في النساء يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا وفيها ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا وفي آل عمران ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وفي الانفال يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير وفي التوبة والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم الآية وفي هود

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وفي النور ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم وفي مريم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وفي النحل ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها الآية وفي آل عمران ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وفي البقرة يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله

الفصل الرابع في ان مرتكب الكبيرة يستحق الوعيد على سبيل التأبيد

وذلك في خمس آيات في البقرة بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون وفي النساء ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين وفيها ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما وفي الجن ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها

الفصل الخامس في الأحاديث الواردة في هذا الباب

عن أبي هريرة ان رسول الله قال لا يزني الزاني وهو حين يزني مؤمن ولا يسرق السارق وهو حين يسرق

مؤمن ولا يشرب الخمر وهو حين يشربها مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع المؤمنون اليها فيها أبصارهم وهو حين ينتهبها مؤمن هذا حديث متفق على صحته وقال عليه الصلاة والسلام المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمن جائره بوائقه وقال عليه الصلاة والسلام سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر صحيحان وسئل عليه السلام أيكذب المؤمن قال لا وقال عليه السلام من ترك صلاة متعمدا فقد كفر وقال عليه الصلاة والسلام بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة حديث متفق على صحته الباب السادس في حجج الصفاتية

وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في حجج المثبتين للجهة

(321/258)

وهي على خمسة ألفاظ العرش والسماء وفوق وعند وإلى

أما الاستواء على العرش ففي سبعة مواضع في الاعراف إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش وفي أول يونس ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وفي اول الرعد الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وفي اول طه الرحمن على العرش استوى وفي اول السجدة الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش وفي أول الحديد هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وفي اول الفرقان الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن قال مقاتل والكلبي أي استقر

واما ذكر العرش ففي القرآن في احد وعشرين موضعا سبعة ما ذكرنا والباقي في التوبة عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وفي هود وكان عرشه على الماء وفي وقد أفلح قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم وفيها لا اله الا هو رب العرش الكريم وفي النمل الله لا اله الا هو رب العرش العظيم وفي بني إسرائيل إذا لابتغوا الي ذي العرش سبيلا وفي الأنبياء فسبحان الله رب العرش عما يصفون وفي الزمر وترى الملائكة حافين من حول العرش وفي حم المؤمن الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم وفيها رفيع الدرجات ذو العرش وفي الزخرف سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون وفي الحاقة

ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وفي البروج ذو العرش المجيد فعال لما يريد وفي التكوير ذي قوة عند ذي العرش مكين

(322/258)

واما السماء ففي خمسة مواضع في النمل قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله ولو لم يكن هو في السماء لما صح الاستثناء ولو كان الاستثناء منقطعا لكان نصبا وفي السجدة يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه وفي المؤمن وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب اسباب السموات فأطلع إلى اله موسى وانى لاظنه كاذبا ولو قالها من نفسه لا من موسى لنفى إلها آخر كما قال ما علمت لكم من اله غيري وفي الملك أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض وفيها أم أمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا

وأما فوق ففي خمسة مواضع في الأنعام وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير وفي النحل يخافون ربهم من فوقهم وفي الفتح يد الله فوق أيديهم وفي حمعسق تكاد السموات يتفطرن من فوقهن من عظمة الله فوقهن

وأما عند ففي عشرة مواضع في الأعراف ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته

ويسبحونه وله يسجدون وفي الحج وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وفي الأنبياء لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين أي لو أردنا ان نتخذ زوجة لجعلناها عندنا لا عندكم وفيها وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون وفي حم السجدة فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون وفي الزخرف وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وفي اقتربت الساعة ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر وفي ق وعندنا كتاب حفيظ وفي التحريم رب ابن لي عندك بيتا في الجنة وفي ن ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم

(323/258)

واما إلى ففي عشرة مواضع في آل عمران إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك الي وفي النساء وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وفي القصص وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي اطلع إلى إله موسى واني لأظنه من الكاذبين وفي السجدة ثم يعرج إليه في يوم كان

مقداره الف سنة مما تعدون

وفي الملائكة إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وفي المعارج ليس له دافع من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه وفي النجم ان إلى ربك المنتهى وفي النازعات إلى ربك منتهاها وفي الغاشية ان الينا ايابهم وفي المؤمن فالينا ترجعون وقصة المعراج من أقوى احتجاج ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو ادنى فذلك كله ثمانية وثلاثون دليلا على ثبوت المكان والجهة

الفصل الثاني في الوجه

وذلك في عشر آيات في القصص كل شيء هالك الا وجهه وفي الروم ذلك خير للذين يريدون وجه الله وفيها وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله وفي الرحمن ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام وفي البقرة فأينما تولوا فثم وجه الله وفي الانعام يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وفي الكهف يريدون وجهه وفي سورة الرعد والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وفي الانسان إنما نطعمكم لوجه الله وفي الليل وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى

الفصل الثالث في العين

وذلك في خمس آيات في هود واصنع الفلك بأعيننا ووحينا وفي قد أفلح فأوحينا إليه ان اصنع الفلك بأعيننا ووحينا وفي طه وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني وفي الطور

واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وفي اقتربت الساعة تجري بأعيننا

الفصل الرابع في اليد

(324/258)

وذلك في عشر آيات بلفظ الوحدان في أربعة مواضع والتثنية في موضعين والجمع في موضعين واليمين في موضعين ففي المائدة بل يداه مبسوطتان وفي ص يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي وفي الاعراف ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم اعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها عيرهم بعدم هذه الصفات وفي يس أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاما وفي الزمر والسموات مطويات بيمينه وفي الحاقة ولو تقول علينا بعض الأقاويل لاخذنا منه باليمين وفي الفتح يد الله فوق أيديهم وفي الحديد وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وفي الملك تبارك الذي بيده الملك وفي آل عمران بيدك الخير انك على كل شيء قدير

الفصل الخامس في سائر الصفات

في المائدة تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك وفي طه واصطنعتك لنفسي وفي البقرة هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وفي الأنعام هل ينظرون الا ان تأتيهم

الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك وفي الفجر وجاء ربك والملك صفا صفا وفي الزمر وأشرقت الأرض بنور ربها وفي النور الله نور السموات والارض

الفصل السادس في الأحاديث الواردة في هذا الباب

روى جبير بن مطعم قال جاء اعرابي إلى رسول الله فقال يا رسول الله نهكت الانفس وجاعت العيال وهلكت الأموال استسق لنا ربك فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله فقال النبي سبحان الله سبحان الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه فقال ويحك أتدري ما الله ان شأنه أعظم من ذلك انه لا يستشفع به على احد أنه لفوق سماواته على عرشه وانه عليه هكذا وانه ليئط به أطيط الرحل بالراكب أخرجه أبو داود عن عبد الأعلى وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ألا تأتمنوني فأنا امين من في السماء يأتيني خبر من في السماء صباح مساء هذا حديث متفق على صحته

(325/258)

عن معاوية بن الحكم الشكمي قال لطمت جارية لي فأخبرت رسول الله قلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال بلى ائتني بها قال فجئت بها رسول الله قال أين الله قالت في السماء قال فمن أنا قالت انت رسول الله قال انها مؤمنة فاعتقها حديث صحيح

وعن عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله الراحمون يرحمهم الرحمن إرحم من في الأرض يرحمك من في السماء الباب السابع في حجج الجهمية

وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في حجج النافين للجهة المعينة

في الانعام وهو الله في السموات وفي الارض وفي الزخرف

وهو الذي في السماء اله وفي الارض إله وهو الحكيم العليم وفي البقرة أينما تولوا فثم وجه الله

الفصل الثاني في حجج القائلين بالقرب الذاتي

في البقرة وإذا سالك عبادي عني فاني قريب وفي هود ان ربي قريب مجيب وفي مريم وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا وفي ق ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وفي الواقعة ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون

الفصل الثالث في حجج القائلين بأنه مع كل احد ذاتا

في البقرة واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين وفي آل عمران والله مع الصابرين وفي النحل ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفي التوبة لا تحزن ان الله معنا وفي طه قال لا تخافا انني معكما وفي الشعراء فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون وفيها كلا ان معي ربي سيهديني وفي الانفال وان الله مع المؤمنين وفي النساء ولا يستخفون من الله وهو معهم وفي سورة محمد والله معكم ولن يتركم اعمالكم وفي الحديد وهو معكم أينما كنتم وفي المجادلة ما يكون من نجوى

ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم أينما كانوا

الفصل الرابع في حجج القائلين بأنه تعالى في مكان

(326/258)

في الرعد أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وفي النور حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده وفي القصص فلما اتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى

اني انا الله رب العالمين

وفي الفجر إن ربك لبالمرصاد وفي النحل فأتى الله بنيانهم من القواعد وفي الحشر فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وفي العنكبوت وقال اني مهاجر إلى ربي انه هو العزيز الحكيم وفي الصافات وقال اني ذاهب إلى ربي سيهدين

الفصل الخامس في الأحاديث الواردة في هذا الباب

روي ان النبي سمع أقواما يرفعون أصواتهم بالدعاء فقال اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا بعيدا ولا غائبا وإنما تدعون سميعا قريبا مجيبا

وعن انس قال قال رسول الله المرء إذا قام يصلي فان ربه بينه وبين قبلته فليبزق عن يساره

صحيح

عن ابي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله يقول الله عز وجل انا عند ظن عبدي بي

وانا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير

منه وان تقرب الي شبرا تقربت إليه ذراعا وان تقرب الي ذراعا تقربت إليه باعا ومن اتاني

يمشي اتيته هرولة هذا حديث متفق على صحته الباب الثامن في حجج الشيعة

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين منهم بأن اجماع الصحابة ليس بحجة

في الأعراف قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن

والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا

تعلمون وفي القصص وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما

يشركون وفي الاحزاب وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم

الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا وفي المائدة اليوم أكملت لكم

دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا

الفصل الثاني في حجج القائلين بإمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

في المائدة إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلت في علي حيث تصدق بخاتمه في الركوع وفي المائدة يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته نزلت في غدير خم وفي النور وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وفي الانفال واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله وفي الاحزاب مثله

الباب التاسع في حجج القائلين بان الاجماع حجة

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول بيان أن الاجماع حجة

في آل عمران كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وفي النساء ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا في البقرة وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا

الفصل الثاني في حجج القائلين بفضل الصحابة

في الانفال يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وفيها هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وفي التوبة الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم أعظم

درجة عند الله واولئك هم الفائزون وفي الأنفال والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا وأولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم وفي التوبة لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم وفيها والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله

(328/258)

عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم وفي الاحزاب من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وفي الفتح لقد رضي الله عنها المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا وفيها محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود إلى آخر السورة وفي الحشر للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون وفي آخر المجادلة أولئك كتب في

قلوبهم الإيمان الآية وفي الحشر والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وفي التحريم يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير وفي الاعراف فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون

الفصل الثالث في حجج القائلين بصحة خلافة الثلاثة

في الفتح قال للمخلفين من الاعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما قالوا هم بنو حنيفة وأصحاب مسيلمة الكذاب من أهل اليمامة وكان أبو بكر هو الآمر بقتالهم وقد وعد الله على طاعته الثواب واوعد على معصيته العقاب

الفصل الرابع في الأحاديث الواردة في هذا الباب

عن العرباض بن سارية ان النبي قال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ حديث صحيح وعن ابن مسعود ان رسول الله قال اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر

وقال عليه السلام أئتوني بدواة وقرطاس اكتب لابي بكر كتابا لا يختلف فيه اثنان ثم قال أبي الله والمؤمنون الا أبا بكر

وقال عليه السلام الفرقة الناجية ما انا عليه وأصحابي الباب العاشر في حجج الخوارج وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين منهم ببطلان تحكيم الحكم

في المائدة ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون وفيها ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هو الظالمون وفيها ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون

الفصل الثاني في حجج القائلين منهم بعدم وجوب الامامة

في حمعسق والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم

مدحهم بأنهم يقطعون الامور بالمشورة لا بالامام

الفصل الثالث في حجج القائلين منهم بجواز الخروج على الامام

روى ثوبان عن النبي أنه قال استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فان لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراهم

الفصل الرابع في حجج القائلين منهم بجواز الكفر على الأنبياء

وذلك في خمسة عشر موضعا في يونس فإن كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك وفي حمعسق وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان وفي الضحى ووجدك ضالا فهدى وفي يوسف اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون وفي ابراهيم وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا وفي الاعراف قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا وفي الأنعام فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي

فلما راى الشمس بازغة قال هذا ربي

(330/258)

وفي الاعراف هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون في آدم

وحواء وفي البقرة إذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين وفي الشعراء وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين وفي البقرة أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها الآية وفي الشعراء قال فعلتها إذا وانا من الضالين وفي يوسف حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا وفي الانبياء وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات الآية

الفصل الخامس في حجج القائلين بجواز الظلم على الأنبياء

وذلك في سبعة مواضع في البقرة وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين وفي الاعراف يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين وفيها قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وفي الاحزاب إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا وفي النمل اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وفي القصص قال رب أني ظلمت نفسي فاغفر لي

وفي سورة الأنبياء اخبارا عن يونس فنادى في الظلمات ان لا إله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين

الفصل السادس في حجج القائلين بجواز المعاصي على الأنبياء

وذلك في ثمانين موضعا في التوبة عفا الله عنك لم أذنت لهم وفيها لقد تاب الله على النبي والمهاجرين وفي القتال واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفي الم نشرح ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك وفي الأنفال ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم وفي التحريم يا أيها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضات ازواجك وفي الاحزاب وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه وفي الاعمى عبس وتولى ان جاءه الاعمى وفي طه وعصى آدم ربه فغوى وفيها فنسي ولم نجد له عزما أي ترك الامر ولم نجد له رأيا صائبا وفي الأنبياء أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا وفي الصافات فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم وفي يوسف فأكله الذئب وفيها وشروه بثمن بخس دراهم وفيها هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون وفيها تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين وفيها استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين وفي الشعراء والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين وفي البقرة وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم وفي سورة يوسف ولقد همت به وهم

بها لولا ان رآى برهان ربه

وفيها وما أبرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي وفيها جعل السقاية في رحل أخيه وفي القصص فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان وفي الاعراف وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه وفي ص وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وفيها إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب وفيها ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم اناب

الفصل السابع في حجج من يجوز سبيل الشيطان على الأنبياء

(332/258)

وذلك في عشرة مواضع في يوسف فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين وفيها من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي وفي الكهف إخبارا عن يوشع وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره وفي الحج وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا إذا تمنى القى الشيطان في أمنيته وفي القصص اخبارا عن موسى قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين وفي الانعام وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن وفي ص واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب وفي البقرة فأزلهما الشيطان

عنها فأخرجهما مما كانا فيه وفي الاعراف فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وفيها فدلاهما بغرور وفي طه فوسوس إليه الشيطان

الفصل الثامن في حجج القائلين بجواز الخوف من غير الله على الأنبياء

وذلك في عشرة مواضع في يوسف اني ليحزنني ان تذهبوا

به واخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون وفي طه فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك انت الاعلى وفي القصص فأصبح في المدينة خائفا يترقب وفي الشعراء فخرج منها خائفا يترقب وفيها ففررت منكم لما خفتكم وفيها قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين وفي الحجر إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون وفي هود فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وفي ص إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف وفي الاحزاب وتخشى الناس والله احق ان تخشاه

الفصل التاسع في حجج القائلين بجواز القتل على الأنبياء

(333/258)

وذلك في عشرة مواضع في البقرة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق وفيها قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين وفي آل عمران وكأين من نبي قاتل معه

ربيون كثير وفيها وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم وفي البقرة أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وفي آل عمران ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق وفيها سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق وفيها قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين وفي النساء فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وفي المائدة كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون

الفصل العاشر في حجج القائلين بانه يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم

وذلك في خمسة أشياء العمى وذلك في ثلاثة مواضع في يوسف قوله وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم وفيها ألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وفيها فلما جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ومن ذلك البكاء والحزن أربعين سنة لغير الله ومن ذلك طلب الملك والولاية في ص قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك انت الوهاب وفي يوسف قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم

ومن ذلك الاستعانة بغير الله في القصص فأرسله معي ردا يصدقني وفي الصف من انصاري إلى الله وفي يوسف اذكرني عند ربك ومن ذلك مدح النفس في يوسف اني حفيظ عليم وفيها ألا ترون اني اوف الكيل وأنا خير المنزلين ومن ذلك الحذر من العين في يوسف يا بني لا

تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة الباب الحادي عشر في حجج القائلين بان

القرآن كلام الله غير مخلوق

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج من قال بان كلام الله عز وجل صوت وحرف

وذلك في عشرة آيات في الاعراف وناداهما ربهما ألم انهكما عن

تلكما الشجرة

(334/258)

وفي مريم وناديناه من جانب الطور الأيمن وفي النمل فلما جاءها نودي ان بورك من في النار

ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى أني انا الله العزيز الحكيم وفي القصص فلما

اتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى اني انا الله

رب العالمين وفي طه فلما أتاها نودي ان يا موسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد

المقدس طوى وفي الشعراء وإذ نادى ربك موسى ان أئت القوم الظالمين وفي القصص وما

كنت بجانب الطور إذ ناديناه وفي النازعات هل اتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد

المقدس طوى والنداء في اللغة ليس الا الصوت وفي سبأ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا

قال ربكم وفي يس سلام قولا من رب رحيم

الفصل الثاني في حجج القائلين بان المسموع عين كلام الله تعالى لا العبارة عن الكلام

وذلك في أربع آيات في البقرة وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون وفي التوبة وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مامنه وفي البقرة تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله وفي النساء وكلم الله موسى تكليما

الفصل الثالث في حجج القائلين بقدم القرآن

(335/258)

وذلك في اثني عشر موضعا في الاعراف الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وفي النحل إنما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون وفي يس انما أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون وفي هود ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب وفي طه ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وفي حم السجدة ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفي شك منه مريب وفي حمعسق ولولا كلمة سبقت من ربك إلى اجل مسمى لقضي بينهم وفي الصفات ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وفي هود وأهلك الا من سبق

عليه القول وفي أفلح المؤمنون واهلك الا من سبق عليه القول وفي الكهف قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي الباب الثاني عشر في حجج القائلين بخلق القرآن

وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في الخلق

وذلك في خمسة مواضع في الانعام وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم وفي الرعد قل الله خالق كل شيء وفي الفرقان وخلق كل شيء فقدره تقديرا وفي الزمر الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل وفي حم المؤمن ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو

الفصل الثاني في الجعل

وذلك في موضعين في حم السجدة ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته وفي الزخرف إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

الفصل الثالث في الحدوث

وذلك في خمسة مواضع في الكهف فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا وفي الزمر الله نزل احسن الحديث وفي الطلاق لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا وفي الأنبياء ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون وفي الشعراء ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين وفي هود كتاب احكمت آياته ثم فصلت

من لدن حكيم خبير وما صادفه فعل بعد فعل يكون محدثا

الفصل الرابع

حجة من قال بان القرآن ليس بكلام الله عز وجل

(336/258)

في الحاقة أنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر وفي التكوير انه لقول رسول كريم ذي قوة

الباب الثالث عشر

في حجج القائلين برؤية الله في الجنة جوازا ووقوعا وهو مشتمل على فصول

الفصل الأول في اللقاء

وذلك في عشرين موضعا في البقرة الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم إليه راجعون وفيها واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وفي الأحزاب تحيتهم يوم يلقونه سلام وفي الأنعام قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وفيها وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وفي يونس ان الذين لا يرجون لقائنا ورضوا بالحياة الدنيا وفيها فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون وفيها قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا وفي الفرقان وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة وفي الكهف فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا وفي

العنكبوت من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وفي يونس قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين وفي الرعد يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وفي الكهف أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم وفي العنكبوت والذين كفروا بآيات الله ولقائه وفي الانشقاق إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه وفي السجدة فلا تكن في مرية من لقائه وفي الروم وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون وفي السجدة بل هم بلقاء ربهم كافرون وفي حم السجدة الا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شيء محيط

الفصل الثاني في النظر والرؤية وحجج القائلين بجوازه ووقوعه

وذلك في أربع آيات في الاعراف ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني الآية

(337/258)

قالوا سؤاله عليه السلام دليل الجواز وفي يونس للذين احسنوا الحسنى وزيادة قالوا الزيادة النظر إلى وجه الله وفي القيامة وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة وفي المطففين كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لما كان الكفار محجوبين عن رؤية الله تعالى دل على ان المؤمنين غير محجوبين الباب الرابع عشر في حجج القائلين بنفي الرؤية

وذلك في خمس آيات في البقرة وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذ تكم الصاعقة وانتم تنظرون وفي النساء فقد سالوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم وفي الأنعام لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير وفي الاعراف قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني إلى قوله تبت اليك وانا اول المؤمنين وفي الفرقان وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا الباب الخامس عشر في حجج القائلين بأن الايمان قول وعمل وعقد

وذلك في خمس وسبعين آية في الانفال إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم

(338/258)

يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم وفي البقرة أم حسبتم ان تدخلوا الجنة الآية وفي آل عمران أم حسبتم ان تدخلوا الجنة الآية وفي التوبة أم حسبتم ان تتركوا الآية وفي العنكبوت آلم أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون وفي الحجرات إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون وفي الطور الذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء وفي الانعام لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا سوى بين الكافر وغير العامل وقد شرط العمل مع الايمان في ثمانية وستين موضعا من ذلك اثنا عشر آمن وعمل صالحا وستة ويؤمن ويعمل صالحا وخمسون آمنوا وعملوا الصالحات الباب السادس عشر في حجج القائلين بأن الايمان قول بلا عمل ولا نية

وذلك في خمس آيات في النساء ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا وفي المائدة فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار وفيها وإذا سمعوا ما انزل إلى الرسول الآية وفي التوبة لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم سمى قول المنافق ايمانا وفي حم السجدة ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا الآية وفي الاحقاف ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

الباب السابع عشر في حجج القائلين بان الايمان هو التصديق بالقلب

(339/258)

وذلك في خمس آيات في يوسف وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين أي بمصدق لنا وفي الحجرات ولما يدخل الايمان في قلوبكم وفيها ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وفي المجادلة أولئك كتب في قلوبهم الايمان وقوله إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون نفي الايمان مع وجود القول الباب الثامن عشر في حجج القائلين بأن الايمان والاسلام واحد

وذلك في ثلاث آيات في يونس يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين وفي الحجرات يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان ان كنتم صادقين وفي الذاريات فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين الباب التاسع عشر في حجج القائلين بأن الإيمان والإسلام متغايران

وذلك في ثلاث آيات في سورة الزخرف الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين وفي الاحزاب ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات قالوا العصف دليل التغابر وفي الحجرات قالت الأعراب

آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم الباب العشرون في حجج القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص

وذلك في سبع آيات في الانفال وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون وفي التوبة وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم

ايمانا وهم يستبشرون وفي الاحزاب وما زادهم الا إيمانا وتسليما وفي الفتح ليزدادوا ايمانا مع إيمانهم وفي المدثر ويزداد الذين آمنوا ايمانا وفي آل عمران الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل الباب الحادي والعشرون في حجج من قال الرضا بالكفر لا يكون كفرا

(340/258)

وذلك في ثلاث آيات في المائدة أني أريد ان تبوء باثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وفي يونس ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا وفي نوح ولا تزد الظالمين الا ضلالا الباب الثاني والعشرون في حجج من قال بأن الجنة جزاء الأعمال

وذلك في عشرين آية في الاعراف ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون وفي النحل سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وفي الزخرف وتلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون وفي الطور كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون وفي المرسلات كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون وفي الحاقة كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الايام الخالية

وفي النمل هل تجزون الا ما كنتم تعملون وفي يس ولا تجزون الا ما كنتم تعملون وفي سبأ هل يجزون الا ما كانوا يعملون وفي السجدة نزلا بما كانوا يعملون وفي الاحقاف اولئك أصحاب

الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون وفي الواقعة وحور عين كامثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون وفي الصافات لمثل هذا فليعمل العاملون وفي الرحمن هل جزاء الاحسان الا الاحسان وفي طه وذلك جزاء من تزكى وفي الفرقان أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا وفي الزمر لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين وفي النجم ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى وفي الإنسان إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا الباب الثالث والعشرون في حجج من قال الجنة فضل وعطاء

(341/258)

وذلك في ست آيات في الدخان لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم وفي الحديد وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وفي الملائكة ألذي أحلنا دار المقامة من فضله وفي الصافات ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين وفي حمعسق لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير وفي النساء فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين إلى قوله ذلك الفضل من الله

فصل في حجة من قال هي فضل وجزاء

في الروم ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله وفي النبأ جزاء من ربك عطاء حسابا وفي النور ليجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله الباب الرابع والعشرون في حجج القائلين بجواز تكليف ما لا يطاق

وذلك في سبع آيات في البقرة ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ولو كان محالا لما جاز الدعاء به وفي النساء ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل وكانوا مأمورين بالعدل وفي هود ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وكانوا مامورين بالسمع وفي بني اسرائيل فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وكانوا مامورين بالايمان وفي الكهف وكانوا لا يستطيعون سمعا وفي هود ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وفي الفرقان فضلوا فلا يستطيعون سبيلا الباب الخامس والعشرون في حجج القائلين بان تكليف مالا يطاق غير جائز

وذلك في ست آيات في البقرة لا تكلف نفس الا وسعها وفيها لا يكلف الله نفسا الا وسعها وفي الاعراف والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون وفي قد أفلح ولا نكلف نفسا الا وسعها وفي الأنعام لا نكلف نفسا الا وسعها

وفي الطلاق لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها الباب السادس والعشرون في حجج المسلمين بالبعث والنشور

(342/258)

وذلك في عشر آيات في الأعراف فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون وفي الحج يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور وفي الروم ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وفيها فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير وفي الملائكة والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور وفي حم السجدة ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي

احياها لمحيى الموتى انه على كل شيء قدير وفي الزخرف والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون وفي الاحقاف أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير وفي ق واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج

الباب السابع والعشرون في حجج القائلين بكون الجنة والنار مخلوقتين اليوم

(343/258)

في البقرة فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين وفي الكهف إنا اعتدنا للظالمين نارا وفي آل عمران واتقوا النار التي اعدت للكافرين وفي الاحزاب ان الله لعن الكافرين واعد لهم سعيرا وفي البقرة وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وفي طه ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحي وفي يس قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين وفي الذاريات وفي السماء رزقكم وما توعدون وفي آل عمران وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين وفي الحديد وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله وفي النجم عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله إذا دخل رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار

هذا حديث متفق على صحته

فصل في حجج القائلين بفناء الجنة والنار بأهليهما

في الأنعام قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم وفي القصص كل شيء هالك الا وجهه وفي الرحمن كل من عليها فان وفي هود فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ وفي النبأ لابثين فيها احقابا

وأما حجة من قال بالخلود

ففي القرآن زهاء ثلاثين موضعا خالدين فيها أبدا

حجة من قال إن المؤبد قد يكون مؤقتا

في الممتحنة وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده

فصل في حجة من قال بنفي الشفاعة

في البقرة من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة وفيها واتقوا يوما إلى قوله ولا تقبل منها شفاعة وفيها ولا تنفعها شفاعة

حجة من قال بالشفاعة في الأنبياء ولا يشفعون الا لمن ارتضى وفي المدثر فما تنفعهم شفاعة الشافعين وفي البقرة من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه وفي يونس ما من شفيع الا من بعد إذنه وفي طه يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن وفي الزخرف ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وفي سبأ ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له

حجة من قال بأن الله عز وجل لم يكن عالما بالأشياء قبل كونها

في الانفال الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا وفي طه لعله يتذكر أو يخشى وفي سورة محمد حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم وفي الاعراف لننظر كيف تعملون

وفي آل عمران وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء وفيها أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين وفيها فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وفي البقرة وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول وفي المائدة ليعلم الله من يخافه بالغيب الباب الثامن والعشرون في حجج القائلين بفناء العالم

في الحديد هو الاول والآخر وفي الروم وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده وفي الأنبياء يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا اول خلق نعيده والابتداء كان عن عدم فكذا الاعادة وفي القصص كل شيء هالك الا وجهه

وحجة من قال الأنبياء يدخلون النار في مريم وان منكم الا واردها حجة من قال لا يدخلونها في الأنبياء اولئك عنها مبعدون الباب التاسع والعشرون في مسائل شتى

وهو مشتمل على فصول

الفصل الاول في حجج القائلين بعذاب القبر

(345/258)

في حم المؤمن النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب وفيها ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل وفي السجدة ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر وفي نوح مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا وفي الأنعام ولو ترى إذ الظالمون الآية وفي

التوبة سنعذبهم مرتين وفي طه فإن له معيشة ضنكا

وفي الحديث الصحيح أعوذ بك من عذاب القبر

حجة من قال بنفي العذاب

في طه يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشرا وفي الاحقاف كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة

الفصل الثاني في حجج من قال المعارف سمعية

في بني إسرائيل وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه دليل على ان أهل الفطرة لا يدخلون النار وفي سبأ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير

واما حجة من قال المعارف عقلية وسمعية قوله تبارك وتعالى في سورة الملك وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير

الفصل الثالث في حجج من قال المقتول ميت باجله

في الحجر ما تسبق من أمة أجلها وما يستاخرون وفي قد أفلح ما تسبق من امة أجلها وما يستأخرون

واما حجة من قال بانه مقطوع عليه اجله في سورة نوح ويؤخركم إلى اجل مسمى وفي سورة ابراهيم مثله وفي الملائكة وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب

حجة من قال الجدل مكروه في سورة الزخرف ما ضربوه لك الا جدلا وفي سورة البقرة ولا فسوق ولا جدال وفي الأنعام ليجادلوكم

حجة من قال بجوازه في النحل وجادلهم بالتي هي أحسن وفي هود قالوا يا نوح قد جادلتنا

فاكثرت جدالنا وفيها وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط

حجة من قال باعتبار النسب في الكهف وكان أبوهما صالحا حجة من لم يعتبره في الحجرات

إن اكرمكم عند الله اتقاكم

الفصل الرابع في حجة من قال بان آباء الأنبياء مؤمنون

في الشعراء يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين وفي إبراهيم وجنبني وبني ان نعبد الأصنام

(346/258)

خص منه ابو جهل وأبو لهب وامثالهما

حجة من قال بكفرهم في الأنعام وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر الآية وفي مريم إذ قال لأبيه يا أبت

لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر

الفصل الخامس في حجة من قال الملائكة خير من بني آدم

في النساء لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون قيل فيه لن يترفع

عيسى عليه السلام عن العبودية ولا من هو اعلى منه قدرا وفي يوسف ما هذا بشرا ان

هذا الا ملك كريم وفي الأنبياء ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون

يسبحون الليل والنهار لا يفترون وفي النحل يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وفي

الأنبياء لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وفي التحريم لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وفي الأنبياء وهم من خشيته مشفقون وفي البقرة والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وفي النجم علمه شديد القوى أي جبريل والمعلم خير من المعلم وفي التكوير مكين مطاع ومطاع

الملائكة خير من مطيعهم وفي آل عمران شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم وفي الاحزاب ان الله وملائكته يصلون على النبي وفي الحج ألله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وفي الأنعام ولا اعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك وفي الأعراف ألا ان تكونا ملكين اما حجة من قال الأنبياء أفضل من الملائكة فهي

في بني اسرائيل ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر إلى قوله وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا قيل فيه على جميع من خلقنا وفي البقرة وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وفي الاعراف ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وفي بني إسرائيل وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وفي الكهف وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم وفي طه وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم والمسجود له خير من الساجد وفي آل عمران ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين

الفصل السادس

في حجة من قال الاسم والمسمى واحد في الاعراف ألذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وفيها أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم وفي يوسف ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم وفي النجم ان هي الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم

واما حجة من قال الاسم غير المسمى في الاعراف ولله الأسماء الحسنى وفي طه له الاسماء الحسنى وفي بني اسرائيل أياما تدعو فله الأسماء الحسنى

الفصل السابع

حجة من قال المعدوم شيء

في الكهف ولا تقولن لشيء اني فاعل وفي النحل إنما قولنا لشيء إذا أردناه الآية وفي يس إنما أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون وفي الحج ان زلزلة الساعة شيء عظيم

حجة من قال المعدوم ليس بشيء

في مريم وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا وفيها اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا وفي هل اتى لم يكن شيئا مذكورا

حجة من قال المعدوم الذي يستحيل وجوده معلوم

في الانعام ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه

حجة من قال ليس بمعلوم

في يونس قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض وهو الإله الثاني

حجة من قال السعيد لا يصير شقيا ولا الشقي سعيدا والاعتبار للعاقبة في البقرة ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم

حجة من قال السعيد يصير شقيا

في المائدة ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله

الفصل الثامن

حجة من قال التوسع في الكلام جائز ولا يكون كذبا

في المائدة قل يا أهل الكتاب لستم على شيء وفي آل عمران لا يتخذ المؤمنون الكافرين إلى قوله فليس من الله في شيء وفي النساء أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا وفي بني اسرائيل قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وفي المجادلة يحسبون انهم على شيء وفي النحل ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وفي الحج فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور

(348/258)

الفصل التاسع

في حجة من قال لعل من الله واجب في الاحزاب وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا وفي النور وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون

حجة من قال لعل من الله ليس بواجب

في طه فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وفي الكهف فلعلك باخع نفسك على آثارهم وفي هود لعلك تارك بعض ما يوحى اليك

حجة من قال إثبات الثابت ليس بمحال

في الانفال ليحق الحق ويبطل الباطل

حجة من قال المطلق لا ينصرف إلى الكامل

في النساء وله اخ أو اخت فلكل واحد منهما السدس

حجة من قال المطلق لا يحمل على المقيد في البقرة وحرم الربا ولا يحمل على قوله لا تاكلوا الربا أضعافا مضاعفة

حجة من قال القرآن كله محكم في هود كتاب احكمت آياته

حجة من قال كله متشابه في الزمر نزل أحسن الحديث كتابا متشابها

حجة من قال بعضه محكم وبعضه متشابه

في آل عمران منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات

الفصل العاشر

في حجة من قال لا يجوز الاجماع على خلاف الكتاب والسنة في الاحزاب وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم وفي الحجرات يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله

حجة من قال السحر خيال

في طه يخيل إليه من سحرهم انها تسعى

حجة من قال كلمات الله عز وجل تنقضي

في الأنعام وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا

وحجة من قال بأنها لا تنقضي

في لقمان ولو ان ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله وفي الكهف قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي الآية

حجة من قال ذات الله عز وجل غير معلوم

في سورة طه ولا يحيطون به علما وفي الحج ما قدروا الله حق قدره وفي الأنعام وما قدروا الله حق قدره وفي الزمر مثله

حجة من قال يجوز الاستكثار بغير الله

في الانفال يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وفيها هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وفي التحريم وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين وفي المائدة وتعاونوا على البر والتقوى وفي الصف كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله وفي يوسف اذكرني عند ربك وفي القصص فأرسله معي رداً وفي الكهف فأعينوني بقوة

حجة من قال محمد أفضل الأنبياء

في الاحزاب وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح

حجة من قال ابراهيم أفضل

في النحل ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا

حجة من قال لا يتفاضل بين الأنبياء

في البقرة لا نفرق بين احد من رسله

حجةمن يتفاضل بينهم

في البقرة تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض

حجة من قال الاجتهاد والقياس حق

في الكهف قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم وفي الأنعام ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين الآية وفي النساء لعلمه الذين يستنبطونه منهم وفي الحشر فاعتبروا يا اولي الأبصار

حجة من قال ان الاجتهاد باطل

في يونس ان الظن لا يغني من الحق شيئا وفي النجم وان الظن لا يغني من الحق شيئا وفي النساء وان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول وفي حمعسق وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله

حجة من قال الخطايا ترتفع بالتوبة

في البروج ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم وفي المائدة والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء إلى قوله فمن تاب من بعد ظلمة وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم

حجة من قال هذه القردة والخنازير من نسل اولئك الممسوخين

في المائدة من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير

ذكره بالألف واللام ولو كانوا غيرهم لقال وجعل قردة وخنازير

حجة من قال الواو ليس للترتيب في النساء وعيسى وأيوب

فصل في حجة النصارى

في البقرة ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى الآية وفي آل عمران وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا وفي النساء انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وفي المائدة ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية وفيها ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى الآية وفيها ان تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم

فصل في حجة اليهود

في المائدة انا انزلنا التوراة فيها هدى إلى قوله فأولئك هم الكافرون وحجتهم في الحج أيضا ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات وفي المائدة لولا ينهاهم الربانيون

أعني علماء اليهود والنصارى

وحجة النصارى أيضا في الحديد وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية الباب الثلاثون

في حجج القائلين بفضل الغنى على الفقر وهو مشتمل على عشرة فصول

الفصل الاول في ان الله عز وجل سمى المال فضل الله تعالى

(351/258)

وذلك في خمسة وعشرين موضعا في البقرة ألشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم وفي آل عمران ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم وفي النساء ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وفيها أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وفي آل عمران فانقلبوا بنعمة من الله وفضل وفي النساء وسلوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما وفي التوبة ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون وفيها قالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله وفيها وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله وفيها وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله وفي النور ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وفيها وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله وفيها ليجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله وفي البقرة ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم وفي بني اسرائيل يزجى لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله

وفي النحل وهو الذي سخر البحر

لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وفي الملائكة وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وفي القصص ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وفي الروم ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وفيها ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله وفي الجاثية الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وفي المزمل وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وفي الحشر يبتغون فضلا من الله ورضوانا وفي الجمعة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله

الفصل الثاني في ان الله عز وجل سمى المال خيرا

(352/258)

وذلك في واحد وعشرين موضعا في البقرة وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وفيها وما تنفقوا من خير فان الله به عليم وفيها قل ما انفقتم من خير فللوالدين والأقربين وفيها وما تنفقوا من خير يوف اليكم

وفيها وما تقدموا لأنفسكم من خير وفي يونس ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير

وفيها وان يردك بخير فلا راد لفضله وفي الاحزاب لم ينالوا خيرا وفي ق مناع للخير معتد

مريب وفي الأنعام وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير وفي البقرة كتب عليكم إذا

حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية وفي الاعراف ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت

من الخير وفي هود اني أراكم بخير وفي الحج فإن أصابه خير اطمأن به

وفي النور فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وفي ص إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي وفي

القصص فقال رب اني لما انزلت الي من خير فقير وفي التغابن وأنفقوا خيرا لأنفسكم وفي ن

مناع للخير معتد أثيم وفي المعارج إذا مسه الخير منوعا وفي العاديات وانه لحب الخير لشديد

الفصل الثالث في ان الله عز وجل سمى المال حسنة

وذلك في اثني عشر موضعا في البقرة ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وفي آل

عمران ان تمسسكم حسنة تسؤهم وفي النساء وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله

وفيها ما أصابك من حسنة فمن الله وفي الاعراف ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى

عفوا وفيها فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وفيها واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفيها

وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون

وفي التوبة ان تصبك حسنة تسؤهم وفي الرعد ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وفي النمل

قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة وفي الزمر للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة

وفي موضعين سمى المال رزقا حسنا احدهما في هود ورزقني منه رزقا حسنا والثاني في النحل ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون

(353/258)

الفصل الرابع في ان الله عز وجل سمى المال رحمة

وذلك في اثني عشر موضعا في بني اسرائيل قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الانفاق وفيها واما تعرضن

عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها

وفي يوسف نصيب برحمتنا من نشاء وفي الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته وفيها

ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وفي هود ولئن أذقنا الانسان منا رحمة وفي يونس وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم وفي الروم وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وفيها

ثم إذا أذاقهم منه رحمة وفي حم السجدة ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته وفي حمعسق وإذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها

الفصل الخامس في ان الله تعالى أمر بحفظ المال ونهى عن اتلافه

وذلك في عشرة مواضع في البقرة يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى اجل مسمى فاكتبوه الآية وفيها ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو يعني ما فضل عن الحاجة وسهل اعطائه وفي بني اسرائيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا وفيها ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا وفي الفرقان والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وفي النساء ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما وفي البقرة ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام الآية وفي النساء يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم وفي القصص وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وفي الكهف فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة استصحبوها مع التوكل واليقين

الفصل السادس في ان الله عز وجل جعل المال جزاء الأعمال

(354/258)

وذلك في ستة مواضع في النحل من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وفي المائدة ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما انزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وفي الأعراف ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

والارض وفي هود وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى وفي نوح فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا وفي الجن وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه

الفصل السابع

في ان الصحابة كانوا يحبون المال وان الله عز وجل من على نبيه بالغنى والمال وذلك في خمسة مواضع

في آل عمران منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة وفي الانفال ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم وفيها وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم وفي النساء في أسامة ابن زيد ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة وفي الضحى ووجدك عائلا فأغنى أي وجدك فقيرا فأغناك بمال خديجة

الفصل الثامن في الأحاديث الواردة في هذا الباب

عن سعد بن مالك أن رسول الله قال : إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس

وكان عليه السلام يقول اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة وأعوذ بك من أن أظلم أو

اظلم

عن عبد الله بن مسعود أن النبي كان يقول اللهم اني أسألك الهدى والتقوى والعفة والغنى

حديث صحيح

وفي الحديث الصحيح كان عليه السلام يتعوذ من الجوع ويتعوذ من الدين

وقال عليه السلام اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله عز وجل

وقال عليه السلام لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق

ورجل آتاه الله قرآنا فهو يقرؤه بالليل والنهار

(355/258)

وقال عليه الصلاة والسلام نعما بالمال الصالح للرجل الصالح

الفصل التاسع

في حجج القائلين بفضل الفقر على الغنى في الزمر ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله وفيها ثم إذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن اكثرهم لا يعلمون وفي التغابن انما اموالكم واولادكم فتنة وفي الأنعام فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء وفي الزخرف ولولا ان يكون

الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر

بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون

وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين وفي حمعسق ولو بسط

الله الرزق لعباده لبغوا في الارض وفي الأنفال واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة وفي سورة

اقرأ كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وفي حم السجدة واذا انعمنا على الانسان

أعرض ونأى بجانبه وفي الليل وما يغني عنه ماله إذا تردى وفي الهمزة جمع مالا وعدده

يحسب ان ماله اخلده كلا وفي الانعام وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها وفي آل عمران

زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الآية

الفصل العاشر في الأحاديث الواردة في هذا الباب

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ان أكثر ما اخاف عليكم ما يخرج الله لكم من

بركات الارض قيل ما بركات الارض قال زهرة الدنيا

وقال عليه السلام والله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم ان تبسط عليكم

الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم

وقال عليه السلام تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس واذا شيك فلا

انتعش

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله لو كانت الدنيا تزن عند الله مقدار جناح بعوضة ما

سقى الكافر منها قطرة ماء حديث صحيح

وقال عليه الصلاة والسلام الدنيا ملعونة

ملعون ما فيها الا ذكر الله أو معلم أو متعلم

(356/258)

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس

حديث صحيح

قال الشيخ الامام الأستاذ الأجل العالم العامل الفاضل الكامل السالك الناسك المحقق المحق الناصح المشفق الحسيب النسيب حجة الله على خلقه سر الله في أرضه امام الأئمة قدوة الأمة ناصر السنة قامع البدعة معين الشريعة بدر الملة والدين حجة الإسلام والمسلمين وارث الأنبياء والمرسلين ابو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي متع الله الاسلام والمسلمين بعلومه آمين

هذا آخر ما اوردنا من حجج القرآن لجميع أهل الملل والاديان وهي بمجموعها حجة على أصحاب الظواهر الذين يأبون التاويل وينسبون مخالفيهم إلى التعطيل وحجة أيضا على المتعصبين الذين يقابلون مخالفيهم بالتكفير والتضليل والتخطئة والتجهيل

وحجة ايضا على من ينكر النظر في كتب الأصول أو يقول فيها بالمنقول دون المعقول وحجة أيضا على من يكفر أهل القبلة أو يعير طائفة بالقلة أو يخرجهم ببدعة عن الملة وحجة ايضا على من يجزم على مجتهد واحد بالاصابة أو يعجل في تضليل فرقة وعصابة وحجة ايضا على العلماء القاصرين في العربية الغالين في الجدل والعصبية

وحجة لي ايضا عند الله يوم القيامة ويوم الملامة والندامة حيث أمعنت النظر في هذا الباب واستنبطت جملة من مسائل الاصوليين من الكتاب مؤيدا لها بالاخبار ومقدرا بكشف المعاني والأسرار وجعلتها مشفوهة الموارد لعامة المنتابين من الصادر والوارد أرجو بذلك الفوز من العذاب الأليم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين الطيبين المنتخبين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجج القرآن / للإمام أبى الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي صـ 3.95 ﴾

(357/258)

كلام نفيس فى أسباب الاختلاف

للبطليوسي

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما عونك اللهم قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي رحمه الله

الحمد لله مسبغ النعم ومسوغ القسم والمنفرد بالقدم وبارئ النسم وموجدنا بعد العدم وباعث العظام الهامدة والرمم والمخالف بين الهيئات والشيم حكمة تاهت في فهمها عقول ذوي الحكم خلق الأجسام من أضداد متنافرة ابتدعها بقدرته وألف نقائضها بحكمته حتى أبرزها للعيان متغايرة الصور والألوان متقنة الأشكال مخترعة على غير مثال وخالف بين الآراء والاعتقادات كما خالف بين الصور والهيئات وأخبرنا بما في ذلك من واضح فقال تعالى ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين

وقال جل جلاله ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم

وبين لنا أنه قدير على غير ما أجرى العادة به فقال ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين

ونبهنا ألطف تنبيه على ما في هذا الخلاف الموجود في البشر المركوز في الفطر من الحكمة البالغة وأنه جعله احدى الدلائل على صحة البعث الذي أنكره من ألحد في أسمائه وكفر بسوابغ نعمائه فقال وقوله الحق ووعده الصدق وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من

يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين

وهذه الآية أحد ما تضمنه القرآن العزيز من الأدلة البرهانية على صحة البعث ووجه البرهان المنفك من هذه الأية التي لا يقدرها حق قدرها إلا العالمون ولا ينتبه لغامض سرها الا المستبصرون أن اختلاف الناس في الحق لا يوجب احتلاف الحق في نفسه وانما تختلف الطرق الموصلة اليه والقياسات المركبة عليه والحق في نفسه واحد

(358/258)

فلما ثبت أن ههنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لا سبيل لنا في حياتنا هذه الى الوقوف عليها وقوفا يوجب لنا الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف إذ كان الاختلاف مركوزا في فطرنا مطبوعا في خلقنا وكان لا يمكن ارتقاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة ونقلنا الى جبلة غير هذه الجبلة صح ضرورة أن لنا خياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد وتزول من صدورنا الضغائن الكامنة والأحقاد وهذه هي الحال التي وعدنا الله تعالى بالمصير اليها فقال تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين

ولا بد من كون ذلك باضطرار إذ كان وجود الاختلاف يقتضي وجود الائتلاف لأنه ضرب

ونوع من المضاف

وكان لا بد من حقيقة وان لم نقل ذلك صرنا الى مذهب السوفسطائية في نفي الحقائق فقد صار الخلاف الموجود في العالم كما ترى أوضح الدلائل على كون البعث الذي ينكره المنكرون وينازع فيه الملحدون الكافرون

فسبحان من أودع كتابه العزيز تصريحا وتلويحا كل لطيفة لمن قدره حق قدره ووفق لفهم غوامض سره

وصلى الله على من هدانا به من الضلالة وعلمنا بعد الجهالة واياه يسأل أن يوفقنا لاقتفاء آثاره حتى يحلنا دار المقامة في جواره

واني لما رأيت الناس قد أفرطوا في التأليف وأملوا الناظرين بأنواع التصنيف في أشياء معروفة وأساليب مألوفة يغني بعضها

عن بعض صرفت خاطري الى وضع كتاب في أسباب الخلاف الواقع بين الأمة قليل النظير نافع للجمهور عجيب المنزع غريب المقطع يشبه المخترع وان كان غير مخترع ينتمي الى الدين بأدنى نسب ويتعلق من اللسان العربي بأقوى سبب ويخبر من تأمل غرضه ومقصده بأن الطريقة الفقهية مفتقرة الى علم الأدب مؤسسة على أصول كلام العرب وأن مثلها ومثله قول أبي الأسود الدؤلي . . .

فالا يكنها أو تكنه فانه . . .

أخوها غذته أمه بلبانها . . .

(359/258)

وليس غرضي من كتابي هذا أن أتكلم في الأسباب التي أوجبت الخلاف الأعظم بين من سلف وخلف من الأمم وإنما غرضي أن أذكر الأسباب التي أوجبت الخلاف بين أهل ملتنا الحنيفية التي جعلنا الله تعالى من أهلها وهدانا إلى واضح سبلها حتى صار من فقهائهم المالكي والشافعي والحنفي والأوزاعي ومن ذوي مقالاتهم

الجبري والقدري والمشبه والجهمي ومن شيعهم

الزيدي والرافضي والسبئي والغرابي والمخمس والمحمدي وغير هؤلاء من الفرق الثلاث والسبعين التي نص عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا غرضي أيضا أن أحصر أصناف المذاهب والآراء وأناقض ذوي البدع المضللة والأهواء لأن هذا الفن من العلم قد سبق إليه ونبه في مواضع كثيرة عليه وإنما غرضي أن أنبه على المواضع التي منها نشأ الخلاف بين العلماء حتى تباينوا في المذاهب والآراء وأنا أسترشد الله تعالى الى سبيل الحق وأستهديه وأسأله العون على ما أحاوله وأنويه

وأرغب اليه أن يعصمني من الزلل فيما أقوله وأحكيه وإنه ولي الطول ومسديه لا رب سواه

ولا معبود حاشاه

ذكر الأسباب الموجبة للخلاف كم هي

أقول وبالله أعتصم واليه أفوض في جميع أمري وأسلم ان الخلاف عرض لأهل ملتنا من ثمانية

أوجه كل ضرب من الخلاف متولد منها متفرع عنها

الأول منها اشتراك الألفاظ والمعاني

والثاني الحقيقة والمجاز

والثالث الإفراد والتركيب

والرابع الخصوص والعموم

والخامس الرواية والنقل

والسادس الاجتهاد فيما لا نص فيه

والسابع الناسخ والمنسوخ

والثامن الإباحة والتوسع

ونحن نذكر من كل نوع من هذه الأنواع أمثلة تنبه قارئ كتابنا هذا على بقيتها إذ كان

استيفاء جميع ذلك من المتعذر على من حاوله وبالله التوفيق لا رب غيره

الباب الأول

في الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها للتأويلات الكثيرة

هذا الباب ينقسم ثلاثة أقسام

أحدها اشتراك في موضوع اللفظة المفردة

والثاني اشتراك في أحوالها التي تعرض لها من إعراب وغيره

(360/258)

والثالث اشتراك يوجبه تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض

فأما الاشتراك العارض في موضوع اللفظة المفردة فنوعان

اشتراك يجمع معاني مختلفة متضادة واشتراك يجمع معاني مختلفة غير متضادة

فالأول كالقرء ذهب الحجازيون من الفقهاء الى أنه الطهر وذهب العراقيون الى أنه الحيض

ولكل واحد من القولين 3ب شاهد من الحديث ومن اللغة

أما حجة الحجازيين من الحديث فما روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أنهم قالوا الأقراء الأطهار

وأما حجتهم من اللغة فقول الأعشى . . .

وفي كل عام انت جاشم غزوة . . .

تشد لأقصاها عزيم عزائكا . . .

مورثة مالا وفي الحي رفعة . . .

لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأما حجة العراقيين من الحديث فقول النبي صلى الله عليه وسلم للمستحاضة اقعدي عن الصلاة أيام أقرائك

وأما حجتهم من اللغة فقول الراجز . . .

يا رب ذي ضغن علي فارض . . .

له قروء كقرء الحائض . . .

وقد حكى يعقوب بن السكيت وغيره من اللغويين أن العرب تقول

أقرأت المرأة إذا طهرت وأقرأت إذا حاضت وذلك أن القرء في كلام العرب معناه الوقت

فلذلك صلح للطهر والحيض معا

ويدل على ذلك قول الشاعر . . .

شنئت العقر عقر بني شليل . . .

إذا هبت لقارئها الرياح . . .

وقد احتج بعض الحجازيين لقولهم بقوله تبارك وتعالى ثلاثة قروء فأثبت الهاء في ثلاثة فدل ذلك على أنه أراد الأطهار ولو أراد الحيض لقال ثلاث قروء لأن الحيض مؤنثة

وهذا لا حجة فيه عند أهل النظر وانما الحجة ما قدمناه وانما لم تكن فيه حجة لأنه لا ينكر أن يكون القرء لفظا مذكرا يعنى به المؤنث ويكون تذكير ثلاثة حملا على اللفظ دون المعنى كما تقول العرب جاءني ثلاثة أشخص وهم يعنون نساء

والعرب تحمل الكلام تارة على اللفظ وتارة على المعنى ألا ترى الى قراءة القراء بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت بكسر الكاف والتاء وفتحهما

ووقوع الأسماء على المسميات في كلام العرب ينقسم أربعة أقسام

(361/258)

أحدها أن يكون المسمى مذكرا واسمه مذكر كرجل يسمى بزيد أو عمرو

والآخر أن يكون المسمى مؤنثا وأسمه مؤنث كإمرأه تسمى فاطمة

والثالث أن يكون المسمى مؤنثا واسمه مذكر كإمرأة تسمى جعفر وزيد قال الشاعر . . .

يا جعفر يا جعفر يا جعفر . . .

إن أك دحداحا فأنت أقصر . . .

أو أك ذا شيب فأنت أكبر . . .

غرك سربال عليك أحمر . . .

ومقنع من الحرير أصفر وتحت ذاك سؤاة لو تذكر . . .

والرابع أن يكون المسمى مذكرا واسمه مؤنث كرجل يسمى طلحة وحمزة

وهذا لا يخص الأسماء الأعلام دون الأجناس والأنواع

وهكذا مذهب العرب في الصفة والموصوف فربما كان الموصوف مطابقا لصفته في التذكير

والتأنيث كقولهم هذا رجل قائم وهذه امرأة قائمة

وربما كان مخالفا لصفته في التذكير والتأنيث كقولهم رجل ربعة وعلامة ونسابة

وفي المؤنث امرأة حاسر وعاشق

قال ذو الرمة . . .

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت . . .

لعينيه مي حاسرا كاد يبرق . . .

فقد تبين أنه لا حجة في دخول الهاء في ثلاثة

ومن الألفاظ المشتركة الواقعة على الشيء وضده قوله تعالى فأصبحت كالصريم

قال بعض المفسرين معناه كأنها ر المضيء بيضاء لا شيء فيها

وقال آخرون كالليل المظلم سوداء لا شيء فيها

وكلا القولين موجود في اللغة أما من قال كالنهار المضيء فحجته قول زهير

بكرت عليه غدوة فرأيته . . .

قعودا لديه بالصريم عواذله . . .

يعني الصباح

وأما من قال كالليل فحجته قول الراجز

تهوي هوي أنجم الصريم

وقال آخر . . .

كأنا والرحال على صوار . . .

برمل خزاق أسلمه الصريم . . .

وقال بعضهم معناه انحسر عنه الرمل وقال قوم معناه خرج من الليل وانجلى عنه كما قال

النابغة . . .

حتى غدا في بياض الصبح منصلتا . . .

يقرو الأماعز من لبنان والأكما

وانما سمي كل واحد منهما صريما لأنه ينصرم إذا وافى الآخر

(362/258)

والمعنى أيضا يشهد لكل واحد من القولين لأن العرب تقول لك بياض الأرض وسوادها يعنون بالبياض ما لا عمارة فيه وبالسواد ما فيه العمارة فهذا ما يحتج به لمن ذهب الى معنى البياض

ومن ذهب الى معنى السواد فانما أراد أنها احترقت بريح صر أو نار كقوله تعالى فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت

ومن هذا النوع قول أبي بكر رضي الله عنه طوبى لمن مات في النأنأة فانه يحتمل أن يريد أول الاسلام عند قوة البصائر قبل وقوع الخلاف ويحتمل أنه يريد به آخر الإسلام إذا ضعفت البصائر وكثرت البدع والخلاف

ويدل على صحة المعنيين جميعا قوله صلى الله عليه وسلم ان الأسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء

والنأنأة عند العرب الضعف لا يخص الصغر دون الكبر

قال امرؤ القيس في ذلك . . .

لعمرك ما سعد بخلة آثم . . .

ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر . . .

وتأوله أبو عبيد على أنه أراد به أول الأسلام وليس في لفظ الحديث ما يقتضي ذلك على أن بعض الرواة قد روى في النأنأة الأولى فإن كان هذا محفوظا فالقول ما قال أبو عبيد

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم قصوا الشوارب وأعفوا اللحى

قال قوم معناه وفروا وكثروا وقال آخرون قصروا وانقصوا وكلا القولين له شاهد من اللغة

أما من ذهب الى التكثير فحجته قوله تعالى حتى عفوا وقول جرير . . .

ولكنا نعض السيف منها . . .

بأسوق عافيات اللحم كوم . . .

طزك . . .

وأما من ذهب الى الحذف والتقصير فحجته قول زهير . . .

تحمل أهلها منها فبانوا . . .

على آثار من ذهب العفاء . . .

فهذه جملة من اللفظ المشترك الواقع على معان مختلفة متضادة

(363/258)

وأما اللفظ المشترك الواقع على معان مختلفة غير متضادة فنحو قوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا الى آخر الآية ذهب قوم الى أن أو ههنا للتخيير كالتي من قولك جالس زيدا أو عمراً فقالوا السلطان مخير في هذه

العقوبات يفعل بقاطع السبيل أيها شاء وهو قول الحسن البصري وعطاء وبه قال مالك رحمه الله

وذهب آخرون الى أن أو ههنا للتفصيل والتبعيض فمن حارب وقتل وأخذ المال صلب ومن قتل ولم يأخذ المال قتل ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف وهو قول أبي مجلز وحجاج بن أرطاة عن ابن عباس وبه قال الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى واحتجوا بحديث رواه عثمان وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث زنا بعد احصان

او كفر بعد ايمان أو قتل نفس بغير حق

واحتجوا من اللغة بأن العرب تستعمل أو للافراد والتفصيل فيقولون اجتمع القوم فقالوا حاربوا أو صالحوا أي قال بعضهم كذا وقال بعضهم كذا ومنه قوله تعالى وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا 5أ وليس بين الفرق فرقة تخير بين اليهودية والنصرانية وانما المعنى أن بعضهم وهم اليهود قالوا كونوا هودا وبعضهم وهم النصارى قالوا كونوا نصارى فهذا تفصيل لا شك فيه

والعرب تلف الكلامين المختلفين وترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد الى كل مخبر عنه ما يليق به

قال الله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله

ونحوه قول امرئ القيس . . .

كأن قلوب الطير ويا بسا . . .

لدى وكرها العناب والحشف البالي . . .

ولو جاء هذا الكلام مفصلا لقال كأن قلوب الطير رطبا العناب ويا بسا الحشف البالي

وكذلك الآية لو جاءت مفصلة لقال جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله

واختلفوا في النفي من الأرض ما هو فقال الحجازيون ينفى من موضع الى موضع وقال

العراقيون يسجن ويحبس

(364/258)

والعرب تستعمل النفي بمعنى السجن

قال بعض المسجونين . . .

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها . . .

فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا . . .

. . .

إذا جاءنا السجان يوما لحاجة . . .

عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا . . .

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا قاله لنسائه

فحسبنه من الطول الذي هو ضد القصر فظنت عائشة أنها المرادة فلما ماتت زينب قبلها

علمن حينئذ أنه انما

أراد الطول الذي هو الفضل والكرم وكانت زينب أكثرهن صدقة والعرب تقول فلان أطول

يدا من فلان إذا كان أكرم منه وأكثر بذلا

قال الشاعر . . .

ولم يك أكثر الفتيان مالا . . .

ولكن كان أطولهم ذراعا . . .

ويروى أرحبهم

ومن هذا النوع قوله تعالى من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل قال قوم معناه من سبب ذلك

كما يقال فعلت ذلك من أجلك

وقال قوم معناه من جناية ذلك وجريرته ويقال أجل عليهم شرا يأجله أجلا إذا جناه

واحتجوا بقول خوات بن جبير الأنصاري . . .

وأهل خباء صلاح ذات بينهم . . .

قد احتربوا في عاجل أنا آجله . . .

وهذا النوع كثير جدا

وأما الاشتراك العارض من قبل اختلاف أحوال الكلمة 5ب دون موضوع لفظها فمثل قوله تعالى ولا يضار كاتب

ولا شهيد قال قوم مضارة الكاتب أن يكتب ما لم يمل عليه ومضارة الشهيد أن يشهد بخلاف الشهادة وقال آخرون مضارتهما أن يمنعا من أشغالهما ويكلفا الكتابة والشهادة في وقت يشق ذلك فيه عليهما

وانما أوجب هذا الخلاف أن قوله ولا يضار يحتمل أن يكون تقديره ولا يضارر بفتح الراء فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشهيد مفعولا بهما لم يسم فاعلهما وهكذا كان يقرأ ابن مسعود بإظهار التضعيف وفتح الراء

ويحتمل أن يكون تعديره ولا يضارر بكسر الراء فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشهيد فاعلين وهكذا كان يقرأ ابن عمر باظهار التضعيف وكسر الراء

ومثل هذا قوله تعالى لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده

(365/258)

وأما الاشتراك العارض من قبل تركيب الكلام وبناء بعض الألفاظ على بعض فإن منه ما يدل على معان مختلفة متضادة ومنه ما يدل على معان مختلفة غير متضادة

فمن النوع الأول قوله تعالى وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن قال قوم معناه وترغبون في نكاحهن لمالهن وقال آخرون إنما أراد وترغبون عن نكاحهن لدمامتهن وقلة مالهن

وإنما أوجب هذا الاختلاف أن العرب تقول رغبت عن الشيء إذا زهدت فيه ورغبت في الشيء إذا حرصت عليه فلما ركب الكلام تركيبا سقط منه حرف الجر احتمل التأويلين المتضادين فصار كقول القائل . . .

ويرغب ان يبني المعالي خالد . . .

ويرغب أن يرضى صنيق الالأئم . . .

فهذا البيت يحتمل أن يكون مدحا وأن يكون ذما فإن جعلت الرغبة الأولى مقدرة ب في والثانية مقدرة ب عن كان مدحا وان جعلت الرغبة الأولى مقدرة بعن والثانية مقدرة بفي كان ذما

ومن هذا النوع قول علي رضي الله عنه أيها الناس تزعمون أني قتلت عثمان ألا وان الله قتله وأنا معه أراد علي رضي الله عنه أن الله قتله وسيقتلني معه فعطف أنا على الهاء من قتله وجعل الهاء في معه عائدة على عثمان رضي الله عنه

وتأولته الخوارج على أنه عطف أنا على الضمير الفاعل في قتله أو على موضع المنصوت بإن كما تقول 6أ ان زيدا قائم

وعمرو فترفع عمرا عطفا على موضع زيد وما عمل فيه وجعلوا الضمير في قوله معه عائدا على الله تعالى فأوجبوا عليه من هذا اللفظ أنه شارك في قتل عثمان رضي الله عنه ولذلك قال كعب بن جعيل . . .

إذا سيل عنه حدا شبهة . . .

وعمى الجواب على السائلينا . . .

. . .

فليس براض ولا ساخط . . .

ولا في النهاة ولا الآمرينا . . .

. . .

ولا هو ساه ولا سره . . .

ولا بد من بعض ذا أن يكونا . . .

وانما قال هذا لأن عليا رضي الله عنه كان يقول إذا ذكر له قتل عثمان رضي الله عنه والله ما أمرت ولا نهيت ولا رضيت ولا سخطت ولا ساءني ولا سرني

(366/258)

ونظير هذا الضمير في احتماله التأويلين معا قول خالد بن عبد الله القسري على المنبر ان أمير المؤمنين كتب الي أن ألعن عليا

فالعنوه لعنه الله فأوهم أن الضمير راجع الى علي رضي الله عنه وانما هو عائد على الآمر له بلعنته ولذلك أنكر على خالد ما جاء به من اللفظ المشترك فكان بعد ذلك يصرح بلعنه بألفاظ لا اشتراك فيها

وهذا النوع من الضمائر كثير في الكلام فمنه قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه يجوز أن يكون الضمير الفاعل الذي في يرفعه عائدا على العمل فيكون معناه أن الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح لأنه لا يصح عمل الا مع ايمان ويجوز أن يكون الضمير الفاعل عائدا على العمل والضمير المفعول عائدا على الكلم فيكون معناه أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب

وكلاهما صحيح لأن الإيمان قول وعقد وعمل لا يصح بعضها الا ببعض ولو جعلت في هذه الآية اسم الفاعل مكان الفعل لاختلف اللفظان لأن اسم الفاعل يستتر فيه ضمير ما هو له ويظهر ضمير ما ليس له فكان يلزم إذا جعلت الرفع للعمل قلت والعمل الصالح رافقه هو فيستتر الضمير الفاعل ولا يظهر كما تقول هند زيد ضاربته هي إذا

جعلت الضرب لهند لأنه جرى خبرا على غير من هو له فاذا جعلت الضرب لزيد قلت

هند زيد ضاربها ولم يحتج الى اظهار الضمير لجريانه خبرا على من هو له

6 – ب ومن هذا النوع من الضمائر قول زهير . . .

نظرت اليه نظرة فرأيته . . .

على كل حال مرة هو حامله . . .

يجوز أن يكون الحامل هو الغلام والمحمول هو الفرس ويجوز أن يكون الأمر بعكس ذلك

ومن هذا النوع من الضمائر قوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق آدم على صورته

ذهب قوم الى أن الهاء عائدة على الله تعالى وذهب قوم الى ان الهاء عائدة على آدم

وسنتكلم على هذا الجواب في موضعه ان شاء الله تعالى

ومن الضمائر المشتركة قول حسان بن ثابت . . .

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم . . .

وفينا نبي عنده الوحي واضعه . . .

(367/258)

ذهب سيبويه الى أن الهاء من واضعه ترجع على الوحي وذهب غيره الى أنها راجعة الى

النبي صلى الله عليه وسلم وكلا القولين صحيح المعنى فيكون معنى وضع النبي صلى الله

عليه وسلم للوحي على قول سيبويه أنه وضعه للناس بأمر الله تعالى فسن السنن وفرض الفروض ورتب الأشياء مراتبها

ويكون معناه على قول غيره أن الوحي يضع عنده ما تصنعون أي يبين له ما ترومونه وتدبرونه ويظهر له ما تخفونه من مكركم وكيدكم وتزيفونه فتقدير الكلام على هذا وفينا نبي الوحي واضع ما صنعتم عنده وهذا القول عندي أظهر من قول سيبويه

ويجوز أن يكون من الوضع الذي هو الاسقاط والاطراح فيكون معناه أن الوحي يسقط الذي تصنعونه ويبطله

ومن هذا النوع المشترك التركيب قول الله تعالى حرمت عليكم أمهاتكم فإن هذه الآية في بعضها خلاف وفي بعضها وفاق فمن قوله حرمت عليكم أمهاتكم الى قوله وأخواتكم من الرضاعة تحريم مبهم متفق عليه وقوله تعالى وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن تحريم غير مبهم

ووقع قوله تعالى وامهات نسائكم متوسطا بين التحريمين فجعل قوم أمهات النساء من التحريم المبهم وجعله آخرون من التحريم غير المبهم وقالوا إذا تزوج المرأة ولم يدخل بها لم تحرم عليه أمها

وانما أوجب هذا الخلاف أنه تبارك وتعالى أعاد في هذه الآية ذكر النساء مرتين ثم قال على اثر ذلك اللاتي دخلتم بهن فمن جعل أمهات النساء من التحريم المبهم ذهب الى أن اللاتي

صفة للنساء المتصلات بالربائب خاصة دون النساء المتصلات بالأمهات ومن جعلهن من التحريم غير المبهم ذهب الى 7أ أن اللاتي دخلتم بهن صفة للنساء المذكورات في الموضعين معا فصار خلاف الفقهاء في هذه الآية مبنيا على خلاف النحويين في جمع الصفة وتفريق الموصوف وذلك أن هذا الباب منه ما قد أجمع النحويون على جوازه ومنه ما قد أجمعوا على منعه ومنه ما اختلفوا فيه

(368/258)

فالذي اتفقوا على جوازه أن يتفق الموصوفان في الأعراب والعامل معا كقولك مررت بزيد وأخيك العاقلين

والذي اتفقوا على منعه أن يختلف الأعرابان والعاملان معا كقولك مررت بزيد وهذا أبوك لا يجيزون أن يقال العاقلان ولا العاقلين على الصفة لكن على القطع والنصب باضمار أعني أو الرفع بإضمار مبتدأ كأنه قال هما العاقلان

والذي اختلفوا في جوازه أن يتفق الأعرابان ويختلف العاملان كقولك مررت بغلام زيد ونزلت على عمرو العاقلين فقوم يجيزون أن يجعلوا العاقلين صفة لزيد وعمرو وقوم يمنعون من ذلك

ومذهب من منع من ذلك أقيس لأن زيدا انجر بإضافة الغلام اليه وعمرو انجر ب على فإذا جعلت العاقلين صفة لهما أعملت عاملين مختلفين في اسم واحد وذلك لا يجوز وهو جائز على

قياس قول أبي الحسن الأخفش لأن العامل في الموصوف لا يعمل عنده في الصفة وانما تنخفض الصفة عنده أو ترتفع للاتباع

فلما كانت النساء الأول من قوله وأمهات نسائكم العامل فيهن الإضافة والنساء الأخر العامل فيهن من اختلف العاملان فيه فوجب ألا يكون اللاتي دخلتم بهن صفة لهما معا على ما قلناه ولكن من أجازه من الفقهاء يمكنه أن يحتج بشيئين

أحدهما أن يكون على مذهب من أجاز ذلك من النحويين

والآخر أن قوله تعالى اللاتي اسم مبني لا يظهر فيه اعراب فيمكن أن يكون منصوبا بإضمار أعني أو مرفوعا بإضمار مبتدأ ولو ظهر الاعراب فيه أيضا لم يمتنع من أن يحمل على الإضمار لا على الصفة فيكون كنحو ما أنشده سيبويه من قول الشاعر

أمن عمل الجراف أمس وظلمه . . .

وعدوانه أعتبتمونا براسم . . .

. . .

أميري عداء ان حبسنا عليهما . . .

بهائم مال أوديا بالبهائم . . .

7ب – ألا ترى الى قوله أميري عداء لا يجوز أن يكون بدلا من الجراف وراسم لاختلاف العاملين ولكنه على اضمار أعني ونحوه

وكذلك قول الراجز . . .

ان بها أكتل أو رزاما . . .

خويربين ينقفان الهاما . . .

(369/258)

ف خويربين لا يجوز أن يكون مردودا على أكتل ورزام لأنه انما أوجب أحدهما لدخول أو التي للشك بينهما ألا ترى أنه لا يجوز رأيت زيدا أو عمرا منطلقين

فهذا ونحوه من التركيب المشترك الذي يحتمل المعنى وضده ونظيره من الشقر قوله . . .

قبيلة لا يغدرون بذمة . . .

ولا يظلمون الناس حبة خردل . . .

ألا تراه قد أخرج هذا الكلام مخرج الهجو ولولا أن في غير هذا البيت دليلا على ذلك لكان من الثناء والمدح

وكذلك قول الآخر . . .

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة . . .

ومن اساءة أهل السوء احسانا

وأما التركيب الدال على معان مختلفة غير متضادة فكقوله تعالى وما قتلوه يقينا فإن قوما يرون الضمير من قتلوه عائدا على المسيح صلى الله عليه وسلم وقوما يرونه عائدا الى العلم المذكور في قوله ما لهم به من علم الا اتباع الظن فيجعلونه من قول العرب قتلت الشيء علما ومن هذا النوع قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون فإن الناس اختلفوا في هذا التشبيه من أين وقع فذهب قوم الى أن التشبيه انما وقع في عدد الأيام واحتجوا بحديث رووه أن النصارى كان فرض عليهم في الإنجيل صوم ثلاثين يوما كالتي فرضت علينا وأن ملوكهم زادوا فيها تطوعا حتى صيروها خمسين وذهب قوم آخرون الى أن التشبيه انما وقع في الفرض لا في عدد الأيام وهذا هو القول الصحيح وان كان

القولان جائزين في كلام العرب ألا ترى أنك إذا قلت أعطيت زيدا كما أعطيت عمرا احتمل أن تريد تساوي العطيتين واحتمل أن تريد تساوي الإعطاءين وان كنت أعطيت أحدهما خلاف ما أعطيت الآخر

وهذا يكثر ان تتبعناه وقد أوردنا منه جملة تنبه على الغرض الذي قصدناه 8أ وبالله

التوفيق

الباب الثاني

في الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز

@ 70 @

(370/258)

قد ذهب قوم الى ابطال المجاز وذهب آخرون الى اثباته وانما كلامنا فيه على مذهب من أثبته لأنه الصحيح الذي لا يجوز غيره لقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه وقوله تعالى بلسان عربي مبين

ولا وجه لإطالة القول في الرد على من أنكره لأنا لم نقصد ذلك في كتابنا هذا ولا مناقضة أحد من أهل المقالات وانما قصدنا الكلام في أصول الخلاف فأقول والله الموفق

ان المجاز ثلاثة أنواع

نوع يعرض في موضوع اللفظة المفردة ونوع يعرض في أحوالها المختلفة عليها من اعراب وغيره ونوع يعرض في التركيب وبناء بعض الألفاظ على بتعض

فمثال النوع الأول الميزان فإنه قد يكون المقدار الذي قد تعارفه الناس في معاملاتهم ويكون

العدل تقول العرب وازنت بين الشيئين إذا عادلت بينهما ورجل وازن إذا كانت له حصافة ومعرفة

قال كثير . . .

رأتني بأشلاء اللجام وعلها . . .

من القوم أبزى بادن متباطن . . .

. . .

فإن أك معروق العظام فإنني . . .

إذا ما وزنت القوم بالقوم وازن . . .

ويقال للعروض ميزان الشعر وللنحو ميزان الكلام

ويروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عرض عليه عود غناء وقيل له ما هذا فقال هذا هو الميزان الرومي أراد أنه ميزان الغناء

وقال بعض الشعراء يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله . . .

قد غيب الدافنون اللحد إذ دفنوا . . .

بدير سمعان قسطاس الموازين . . .

فشبه عمر رحمه الله لعدله بالميزان

ومن ذلك السلسلة فإن العرب تستعملها حقيقة وتستعملها مجازا على ثلاثة أوجه

الأول أن تريد بها الإجبار على الأمر والاكراه عليه فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم

عجبت لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل

الثاني أن يريدوا بهذا المنع من الشي والكف عنه كقول أبي خراش

فليس كعهد الدار يا أم مالك . . .

ولكن أحاطت بالرعاب السلاسل . . .

يريد بالسلاسل حدود الإسلام وموانعه التي كفت الأيدي الغاشمة عن غشمها ومنعت من سفك الدماء الا بحقها 8ب

(371/258)

ومن هذا قوله تعالى انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون

والثالث أن يريدوا بها ما تتابع بعضه في اثر بعض واتصل كقولهم تسلسل الحديث وتسلسل الماء ويقال ماء سلسل وسلاسل وسلسال

قال أوس بن حجر . . .

وأشبرنيه الهالكي كأنه . . .

غدير جرت في متنه الريح سلسل . . .

وقالوا سلاسل البرق وسلاسل الرمل

قال ذو الرمة . . .

لأدمانة من وحش بين سويقة . . .

وبين الجبال العفر ذات السلاسل . . .

ومن هذا النوع قولهم فلان على الجبل وفلان على الدابة أي فوق كل واحد منهما فهذا حقيقة

ثم يقولون علاه دين وفلان أمير على البصرة يريد بذلك القهر والغلبة وكذلك قولهم فلان في الدار وفي البيت ثم يقولون أنا في حاجتك وانما يريدون أن قد شغلتني فلم تدع في فضلا لغيرها فشبهوا ذلك بالمكان الذي يحيط بالمتمكن من جهاته الست فلا يدع منها فضلا لغيره

وهذا كثير جدا في اللغة يكثر ان تتبعناه ومنه قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد ذهب قوم الى أن البنيان ههنا

حقيقة وأنه أراد الصرح الذي بناه هامان لفرعون وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب

وذهب آخرون الى أنه كلام خرج مخرج التمثيل والتشبيه ومعناه أن ما بنوه من مكرهم وراموا اثباته وبأصيله أبطله الله تعالى وصرفه عليهم فكانوا بمنزلة من بنى بنيانا يتحصن به

من المهالك فسقط عليه فقتله وشبهوه بقوله تعالى ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله

والقولان جميعا جائزان على مذاهب العرب ألا تراهم يقولون بنى فلان شرفا وبنى مجدا

وليس هناك بنيان في الحقيقة

قال عبدة بن الطبيب . . .

فما كان قيس هلكه هلك واحد . . .

ولكنه بنيان قوم تهدما . . .

ويشبه هذا المعنى الذي ذهبوا اليه قول ابن أحمر . . .

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . .

بريا ومن جال الطوي رماني . . .

(372/258)

ويروى ومن جول الطوي رماني والجال والجول ناحية البئر من أسفلها 9أ الى أعلاها يقول رماني بأمر رجع عليه مكروهه فكأنه رماني من قعر البئر فرجعت رميته عليه فأهلكته هكذا رواه قوم وفسروه والمعروف ومن أجل الطوي وانما كان يخاصمه في بئر يدعيها كل واحد منهما فقال رماني بأمر أنا ووالدي

بريئان منه من أجل ما بيني وبينه من الخصام في الطوي وعلى هذا يدل الشعر لأن قبله . . .

فلما رأى سفيان أن قد عزلته . . .

عن الماء مرمى الحائم الوحداني . . .

ومن هذا النوع قوله عز وجل وان كان مكرهم لتزول منه الجبال

قوم يرون أن الجبال ههنا حقيقة وأنه أراد بذلك ما كان من صعود نمرود بن كنعان في التابوت نحو السماء فلما كر منحدرا نحو الأرض ظنته الجبال أمرا من عند الله فكادت تزول من مواضعها

وقوم آخرون يقولون الجبال ههنا تمثيل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم أي انهم مكروا به ليزيلوا الغز الذي رسخ رسوخ الجبال التي لا يستطاع على ازالتها من مواضعها

والعرب تشبه الشيء الثابت بالجبل الشامخ والصخرة الراسية ألا ترى الى قول زهير الى باذخ يعلو على من يطاوله

وقال السموءل بن عادياء . . .

لنا جبل يحتله من نجيره . . .

منيع يرد الطرف وهو كليل . . .

. . .

رسا أصله تحت الثرى وسما به . . .

الى النجم فرع لا ينال طويل . . .

وقال الأعشى . . .

كناطح صخرة يوما ليفلقها . . .

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل . . .

فهذا كلام العرب

ومن هذا الباب قوله تعالى يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ومعلوم أن الله تعالى لم ينزل من السماء ملابس تلبس وانما تأويله والله أعلم أنه أنزل المطر فنبت عنه النبات ثم رعته البهائم فصار صوفا وشعرا ووبرا على أبدانها ونبت عنه القطن والكتان فاتخذت من ذلك أصناف الملابس فسمى المطر لباسا إذ كان سببا لذلك على مذهب العرب في تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب وهذا يسمية أصحاب المعاني التدريج

(373/258)

ونحوه قولهم للمطر سماء لأنه ينزل من السماء وللنبت ندى لأنه عن الندى يكون وللشحم ندى لأنه عن النبت يكون

قال ابن أحمر 9ب . . .

كثور العداب الفرد يضربه الندى . . .

تعلى الندى في متنه وتحدرا

فالندى الأول المطر والندى الثاني الشحم

وقال معاوية بن مالك معود الحكماء . . .

إذا سقط السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وان كانوا غضابا . . .

ونحوه قول الراجز . . .

الحمد لله العزيز المنان . . .

صار الثريد في رؤوس العيدان . . .

يريد السنبل

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا ثلث الليل الأخير فيقول هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له هل من تائب فأتوب عليه

جعلته المجسمة نزولا على الحقيقة تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا

وقد أجمع العارفون بالله عز وجل على أنه لا ينتقل لأن الانتقال من صفات المحدثات

ولهذا الحديث تأويلان صحيحان لا يقتضنان شيئا من التشبيه

أحدهما أشار اليه مالك رحمه الله وقد سئل عن هذا الحديث فقال ينزل أمره كل سحر

فأما هو عز وجل فإنه دائم لا يزول ولا ينتقل سبحانه لا اله الا هو وسئل عنه الأوزاعي فقال

يفعل الله ما يشاء وهذا تلويح يحتاج الى تصريح وخفي اشارة يحتاج الى تبيين عبارة

وحقيقة الذي ذهبا اليه رحمهما الله أن العرب تنسب الفعل الى من أمر به كما بنسبه الى من

فعله وباشره بنفسه فيقولون كتب الأمير

لفلان كتابا وقطع الأمير يد اللص وضرب السلطان فلانا ولم يباشر شيئا من ذلك بنفسه انما

أمر بذلك ولأجل هذا احتيج الى التأكيد الموضوع في الكلام فقيل جاء زيد نفسه ورأيت

زيدا نفسه

فمعناه على هذا أن الله تعالى يأمر ملكا بالنزول الى السماء الدنيا فينادي بأمره

(374/258)

وقد تقول العرب جاء فلان إذا جاء كتابه أو وصيته ويقولون للرجل أنت ضربت زيدا وهو

لم يضربه إذا كان قد رضي بذلك وشايع عليه قال الله تعالى فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان

كنتم مؤمنين المخاطبون بها لم يقتلوا نبيا ولكنهم لما رضوا بذلك وتولوا قتلة الأنبياء

وشايعوهم على فعلهم نسب الفعل اليهم وان كانوا لم يباشروه وعلى هذا يتأول قوله تعالى

فأتى الله بنيانهم من القواعد

فهذا تأويل كما تراه صحيح جار على فصيح كلام العرب في محاوراتها والمتعارف من

أساليبها ومخاطباتها وهو شرح 10 أما أراده مالك والأوزاعي رحمهما الله ومما يقوي هذا

التأويل ويشهد

بصحته أن بعض أهل الحديث رواه ينزل بضم الياء وهذا واضح

والتأويل الثاني أن العرب تستعمل النزول على وجهين أحدهما حقيقة والآخر مجاز

واستعارة

فأما الحقيقة فانحدار الشيء من علو الى سفل كقوله تعالى وينزل من السماء من جبال فيها

من برد

وكقول امرئ القيس . . .

هو المنزل الألاف من جو ناعط . . .

بني أسد حزنا من الأرض اوعرا . . .

وأما الاستعارة والمجاز فعلى أربعة أوجه

أحدها الإقبال على الشيء بعد الأعراض عنه والمقاربة بعد المباعدة يقال نزل البائع في

سلعته إذا قارب المشتري فيها بعد

مباعدته وأمكنه منها بعد منعه ويقال نزل فلان عن أهله أي تركها وأقبل على غيرها ومنه قول الشاعر . . .

أنزلني الدهر على حكمه . . .

من شاهق عال الى خفض . . .

أي جعلني أقارب من كنت أباعده وأقبل على من كنت أعرض عنه

فيكون معنى الحديث على هذا أن العبد في هذا الوقت أقرب الى رحمة الله منه في غيره من الأوقاب وأن البارئ سبحانه وتعالى يقبل على عباده بالتحنن والتعطف في هذا الوقت لما يلقيه في قلوبهم من التنبيه والتذكير الباعثين لهم على الطاعة والجد في العمل فهذا تأويل أيضا ممكن صحيح

فأما الأقسام الباقية من معنى النزول فلا مدخل لها في هذا الحديث وانما نذكرها لتوفية معنى النزول ولأنها مما يحتاج اليه في غير هذا الحديث

(375/258)

فمنها ما يراد به ترتيب الأشياء ووضعها مواضعها اللائقة بها كقوله

تعالى ونزلناه تنزيلا أي رتبناه مراتبه ووضعناه مواضعه ومن ذلك قولهم نزل فلان عند منزلة

حسنة أو منزلة قبيحة ومنه قول الشاعر . . .

أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس . . .

ومنها ما يراد به الأعلام والقول كقوله تعالى ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله أي أقول مثل ما قال الله وأعلم بمثل ما أعلم

ومن هذا انزال الوحي انما معناه أن جبريل صلى الله عليه وسلم تلقاه عن الله سبحانه وتعالى وأداه الى محمد صلى الله عليه وسلم وهو راجع الى معنى الإقبال الذي قدمناه

ومنها ما يراد به الإنحطاط من المرتبة والذلة كقولهم نزلت منرلة فلان عند الملك أي انحطت ويجوز أن يكون قوله أنزلني الدهر على حكمه من 10ب هذا المعنى

وقد تستعمل العرب النزول في النماء والزيادة وهو ضد ما ذكرناه قبل هذا فيقولون طعام له نزل أي بركة ونماء وأرض نزلة إذا كانت كثيرة الكلأ وتركت القوم على نزلاتهم إذا كانوا نفي خصب وحسن حال

وقد يستعملونه أيضا على معنى آخر يقولون نزل القوم إذا أتوا منى ويقال لمنى المنازل قال الشاعر . . .

أنازلة يا أسم أم غير نازلة . . .

أبيني لنا يا أسم ما أنت فاعله . . .

فجميع مواضع هذه الكلمة سبعة فهذه وجوه النزول في كلام العرب

ومما غلطت فيه المجسمة أيضا قوله تعالى الله نور السموات

والأرض فتوهموا أن ربهم نور تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا وانما المعنى الله هادي

أهل السموات والأرض والعرب تسمي كل ما جلى الشبهات وأزال الالتباس وأوضح الحق

نورا قال الله تعالى وأنزلنا اليكم نورا مبينا يعني القرآن وعلى هذا المعنى سمى نبيه صلى الله

عليه وسلم سراجا منيرا

وقال العباس بن عبد المطلب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم . . .

وأنت لما ظهرت أشرقت الأر . . .

ض وضاءت بنورك الأفق . . .

وعلى هذا مجرى كلام العرب

قال امرؤ القيس بن حجر الكندي . . .

أقر حشا امرئ القيس بن حجر . . .

(376/258)

بنو تيم مصابيح الظلام . . .

وقال النابغة الذبياني . . .

لا يبعد الله جيرانا تركتهم . . .

مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم . . .

وقال آخر . . .

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم . . .

مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقال النبي صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم

ولو منحت المجسمة طرفا من التوفيق وتأملت الآية بعين التحقيق لوجدت فيها ما يبطل دعواهم دون تكلف تأويل ومن غير طلب دليل لأنه قال تعالى في عقب الآية ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم فأخبرنا أن ما ذكره في الآية العزيزة من النور والمشكاة والمصباح والزجاجة والزيتونة والشجرة أمثال مضروبة عقلها عن الله تعالى من وفق لفهمها وكشفت له الحجب عن مكنون سرها وعلمها كما قال تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

فإن قلت كيف وقع هذا التمثيل وما المراد به

فالجواب أنه شبه صدر المؤمن بالمشكاة وقلبه بالزجاجة ونور الهدى الذي يضعه في قلبه بالمصباح وشبه مادة الهدى المنبعثة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم التي تزيد في بصائر المؤمنين وتحفظ نور الإيمان عليهم وتمنعه من أن يغلب عليه الشك فيطمسه بمادة

الزيت التي تمد

المصباح لئلا يطفأ نوره وشبه النبي صلى الله عليه وسلم بالزيتونة إذ كان الهدى انما ينبعث من قبله كانبعاث الزيت من الزيتونة وجعل الزيتونة لا شرقية ولا غربية لأن ظهوره ومبعثه صلى الله عليه وسلم انما كان بمكة ومكة متوسطة بين المشرق والمغرب

فهذا كلام كما ترى قد خرج على أحسن مخارج الكلام وتشبيه جاء على أبدع وجوه التشبيه فهذا ونحوه من الحقيقة والمجاز العارضين في موضوع الكلمة

واما الحقيقة والمجاز العارضان فيها من قبل أحوالها فانهما كثيران أيضا ككثرة النوع الأول فمن ذلك قولهم مات زيد فيرفعونه كما يرفعون قولهم أمات الله زيدا وأحدهما حقيقة والآخر مجاز ومنه قوله تعالى فاذا عزم الأمر والأمر لا يعزم انما يعزم عليه

(377/258)

قال النابغة وان الدين قد عزما

وتقول أعطي ثوب زيدا وانما الوجه أعطي زيد ثوبا لأن زيدا هو والآخذ للثوب والمتناول له وولد له ستون عاما والمعنى ولد له الأولاد في ستين عاما ونحوه قوله عز وجل بل مكر الليل والنهار وانما المراد بل مكرهم في الليل والنهار وأنشد سيبويه . . .

أما النهار ففي قيد وسلسلة . . .

والليل في بطن منحوت من الساج . . .

وتقول العرب نهارك صائم وليلك قائم وقال آخر . . .

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى . . .

ونمت وما ليل المطي بنائم

وقال حميد بن ثور الهلالي . . .

ومطوية الأقراب أما نهارها . . .

فسبت وأما ليلها فذميل . . .

وأما المجاز والحقيقة العارضان من طريق التركيب وبناء بعض الألفاظ على بعض فنحو الأمر يرد بصيغة الخبر والخبر يرد بصيغة الأمر والإيجاب يرد بصيغة النفي والنفي يرد بصيغة الإيجاب والواجب يرد بصيغة الممكن والممتنع والممكن والممتنع يردان بصيغة الواجب والمدح يرد بصورة الذم 11ب والذم يرد بصورة المدح والتقليل يرد بصورة التكثير والتكثير يرد بصورة التقليل ونحو ذلك من أساليب الكلام التي لا يقف عليها الا من تحقق بعلم من اللسان

وكل نوع من هذه يقصد به غرض من أغراض البيان ونحن نذكر من كل نوع من هذه الأنواع أمثلة تشهد بصحة ما قلناه ليحتذى فيما لم نذكره على ما ذكرناه ان شاء الله تعالى

أما الأمر الوارد بصيغة الخبر فكقولهم حسبك درهم فإن صيغة الكلام كصيغة قولك أخوك منطلق وأبوك زيد ومعناه معنى الأمر لأن تقديره ليكفك درهم أو اكتف بدرهم

قال امرؤ القيس . . .

وحسبك من غنى شبع وري . . .

ومن هذا قولهم في الدعاء غفر الله لزيد ورحمك الله وسلام عليك ومنه قوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين وانما المعنى لترضع الوالدات أولادهن لأنه لم يخبرنا وانما أمرنا

واما الخبر الوارد بصيغة الأمر فكقولهم في التعجب أحسن

(378/258)

بزيد فإن صيغته صيغة قولك أحسن الى زيد وأحدهما خبر والآخر أمر لأن معنى أحسن بزيد ما أحسن زيدا فانما أنت مخبر لا آمر ومكان الباء وما عملت فيه رفع ومكان الى وما عملت فيه نصب ومنه قوله تعالى أسمع بهم وأبصر أي ما أسمعهم وأبصرهم

وأما ت الإيجاب الوارد بصيغة النفي فكقولهم ما زال زيد عالما فإن صيغته صيغة قولك ما كان زيد عالما والأول ايجاب والثاني يفي فإذا أدخلت على هذه الجملة الا التي للإيجاب

فقلت ما زال زيد الا عالما صارت صيغته صيغة الموجب ومعناه معنى المنفي

والعلة في ذلك أن قولك زال زيد عالما لو كان مما يستعمل لكان معناه النفي لأن معناه زال عن العلم وانتفى منه فإذا أدخلت عليه ما النافية رجع ايجابا لأن النفي الثاني يبطل النفي الأول فإذا أدخلت الا بطل النفي الثاني الذي أوجبته ما وعاد النفي الأول الى حاله فصار قولك ما زال زيد الا عالما بمنزلة قولك زال زيد عالما

فمن النحويين من يرى أن قولك ما زال زيد الا عالما انما امتنع من الجواز لأن دخول ما في صدر المسألة يوجب له العلم ودخول

الا في آخرها ينفي عنه العلم فتصير مثبتا نافيا للخبر في حال واحدة

ومنهم من يقول انما استحال لأن دخول الا عليه يبطل ما لأنها مناقضة لها فكأنك قلت

12 أ زال زيد عالما وهذا غير جائز لأن العرب لم تستعمل زال الداخلة على الأبتداء والخبر الا مع ما

ومنهم من يقول انما استحال لأن قولك ما زال زيد عالما كلام موجب وان كان بصورة المنفي فلما كان كذلك لم يجز دخول الا عليه لأن الا انما وضعت لتوجب ما كان منفيا قبل دخولها فإذا كان الكلام موجبا بنفسه استغني عنها ومن طريف هذا النوع قول الفرزدق . . .

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم . . .

ولم تكثر القتلى إذا هي سلت . . .

قال أصحاب المعاني معناه لم يشيموا سيوفهم الا وقد كثرت القتلى بها حين سلت فمعناه كما ترى ايجاب وصيغته وظاهره نفي وانما وجب هذا لأن قوله ولم تكثر القتلى ليس بجملة منقطعة من الجملة التي

قبلها معطوفة عليها على حد عطف الجمل على الجمل وانما هي في موضع نصب على الحال من السيوف وتقدير الكلام لم يشيموا سيوفهم غير كثيرة القتلى بها حين سلت فصار بمنزلة قولك لم يجئ زيد ولم يركب فرسه إذا جعلت قولك ولم يركب فرسه في موضع الحال من زيد تقديره لم يجئ زيد غير راكب فرسه فمحصول معناه أنه جاء راكبا فرسه فظاهره نفي ومعناه ايجاب

وقد يجوز في المسألة أنه لم يجئ ولم يركب فتنفي الفعلين معا وتجعلهما جملتين ليست احداهما متعلقة بالأخرى الا على جهة العطف فقط

وأما النفي الوارد بصورة الايجاب فنحو قولهم لو جاءني زيد لأكرمته فصورته صورة كلام موجب لأنه ليس فيه أداة من أدوات النفي وهو منفي في المعنى لأنه لم يقع المجيء ولا الإكرام فإذا دخل عليه حروف النفي فقيل لو لم يشتمني زيد لم أضربه صارت صورته صورة المنفي

ومعناه معنى الموجب ومن أجل هذا قال النحويون في قول امرئ القيس

فلو ان ما أسعى لأدنى معيشة . . .

كفاني ولم أطلب قليل من المال . . .

ان نصب القليل هنا محال لأنه لو نصبه لأوجب أنه قد طلب قليلا من المال وهذا خلاف ما أراده الشاعر ألا تراه يقول بعد هذا . . .

ولكنما أسعى لمجد موثل . . .

وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي . . .

فأخبر ببعد همته وعلوها وأنه انما يطلب الملك والرياسة ألا ترى النحويين قد جعلوا قوله ولم أطلب قليلا بالنصب ايجابا وظاهره نفي وانما عرض هذا من قبل دخول 12ب لو في أول البيت وقد أعلمتك أن ايجابها نفي ونفيها ايجاب

ومن هذا قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا

(380/258)

وأما ورود الواجب بصورة الممكن فكقوله تعالى فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده

وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وهذا واجب ثابت وصورته صورة الممكن

المشكوك فيه والعرب تفعل هذا تحريرا للمعاني واحتياطا عليها ومنه قول الشاعر . . .

لعلي ان مالت بي الريح ميلة . . .

على ابن أبي زبان أن يتندما . . .

فأخرج كلامه مخرج الممكن وانما يريد أنه يتندم لا محالة

وأما ورود الممتنع بصورة الممكن فكقول امرئ القيس . . .

وبدلت قرحا داميا بعد صحة . . .

لعل منايانا تحولن أبؤسا . . .

وتحول المنايا أبؤسا من الممتنع الذي لا يمكن وقد جعله كما ترى في

صورة الممكن على العلم منه أنه ليس كذلك تعللا بذلك واستراحة مما كان فيه من عظيم

البلاء

ونحوه قول كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه . . .

وداع دعا يا من يجيب الى الندى . . .

فلم يستجبه عند ذاك مجيب . . .

. . .

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت دعوة . . .

لعل أبا المغوار منك قريب . . .

. . .

يجيبك كما قد كان يفعل انه . . .

نجيب لأبواب العلاء طلوب . . .

وقال النابغة يرثي النعمان . . .

فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت . . .

فما في حياة بعد موتك طائل

ومن هذا الباب قول الرجل المحرق لبنيه إذا أنا مت فأحرقوني ثم أذروا رمادي في اليم فلعلي أضل الله فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا شديدا ألا ترى أنه أخرج ما قد تحقق انه لا يكون مخرج ما يرجى أن يكون تعللا بذلك واستراحة اليه كما فعل امرؤ القيس حين اشتد به البلاء في قوله لعل منايانا تحولن أبؤسا وهو لا يشك في أن هذا الذي رجاه ممتنع ومن أبين ما في ذلك قول الآخر . . .

أخادع نفسي بالأماني تعللا . . .

على العلم مني أنها ليس تنفع . . .

واما قوله فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا شديدا فمعناه فوالله لئن ضيق 13أ الله

علي طرق الخلاص ليعذبني وليس يشك في قدرة الله تعالى ولو شك في قدرة الله لكان كافرا وانما هو

(381/258)

كقوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه وقوله ومن قدر عليه رزقه أي ضيق ويجوز أن يكون من القدر الذي هو القضاء فيكون معناه فوالله لئن قدر الله علي العذاب ليعذبني فحذف المفعول اختصارا كما قال النابغة الجعدي . . .

حتى لحقنا بهم تعدي فوارسنا . . .

كأننا رعن قف يرفع الآلا . . .

أراد تعدي فوارسنا الخيل وقد يجوز أن يكون قوله فوالله لئن قدر الله علي من القدرة على الشيء فإن قيل كيف يصح هذا ودخول الشرط عليه قد جعله من حيز الممكن الذي يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون وهذه خاصة الشرط ألا ترى أنك إذا قلت ان جاءني زيد أكرمته فممكن أن يقع ذلك وممكن ألا يقع وهذا شك محض في قدرة الله تعالى فالجواب أن العرب قد تستعمل ان التي للشرط بمعنى إذا كما تستعمل إذا بمعنى ان واذا تقع على الشيء الذي لا يشك في كونه كقولك إذا كان الليل فأتني وكون الليل لا بد منه وكقوله تعالى

إذا السماء انفطرت فمعناه على هذا فوالله إذا قدر الله علي ليعذبني عذابا شديدا

وانما جاز وقوع ان التي للشرط موقع إذا الزمانية لأن كل واحد منهما يحتاج الى جواب

والشيئان إذا تضارعا جاز أن يقع كل واحد منهما موقع صاحبه فمما وقعت فيه ان موقع

إذا قوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وقول النبي عليه السلام حين وقف

على القبور انا ان شاء الله بكم لاحقون يريد إذا شاء الله ومنه قول الشاعر . . .

فالا يكن جسمي طويلا فإنني . . .

له بالفعال الصالحات وصول

معناه فاذا لم يكن جسمي طويلا فإنني أطوله بالأفعال الحسان

ولا يصح الشرط ههنا لأن قصر جسمه شيء قد كان وقع والشرط ههنا محال

ومثله قول الآخر . . .

فإن أك قد فارقت نجدا وأهله . . .

فما عهد نجد عندنا بذميم . . .

وأما وقوع إذا بمعنى ان فكقول أوس بن حجر . . .

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا . . .

أصبت حليما أو أصابك جاهل . . .

والإعراض عن الخنا ممكن أن يكون وممكن ألا يكون فليس هذا من مواضع إذا وانما هو

13ب من مواضع ان

(382/258)

وأما ورود المدح في صورة الذم فكقولهم أخزاه الله ما أشعره ولعنه الله ما أفصحه وقول

كعب بن سعد الغنوي

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا . . .

وماذا يرد الليل حين يؤوب . . .

وذكر ابن جني أن أعرابيا رأى ثوبا فقال ما له محقه الله قال فقلت له لم يقول هذا فقال انا إذا

استحسنا شيئًا دعونا عليه وأصل هذا أنهم يكرهون أن يمدحوا الشيء فيصيبوه بالعين

فيعدلون عن مدحه الى ذمه

وأما ورود الذم في صورة المدح فكقوله تعالى انك لأنت الحليم الرشيد وقول الشاعر . . .

وقلت لسيدنا يا حليم . . .

انك لم تأس أسوا رفيقا . . .

وأما التقليل الوارد بصورة التكثير فنحو قولك كم بطل قتل زيد وكم ضيف نزل عليه وأنت

تريد أنه لم يقتل قط بطلا ولا قرى ضيفا قط ولكنك بقصد الإستهزاء به كما تقول للبخيل يا كريم وللأحمق يا عاقل

وأما التكثير الوارد بصورة التقليل فنحو قولك رب ثوب حسن

قد لبست ورب رجل عالم قد لقيت فتقلل ما لبست من الثياب ومن لقيت من العلماء تواضعا ليكون أجل لك في النفوس لأن الرجل إذا حقر نفسه تواضعا ثم اختبر فوجد أعظم مما وصف به نفسه عظم في النفوس واذا تعاظم وأنزل نفسه فوق منزلتها ثم اختبر فوجد أقل مما قال استخف به وهان على من كان يعظمه وقد يستعمل تقليل الشيء وهو كثير في الحقيقة لضروب من الأغراض والمقاصد كالرجل يهدد صاحبه فيقول لا تعادني فربما ندمت وهذا مكان ينبغي أن تكثر فيه الندامة وليس بموضع تقليل وانما تأويله أن الندامة على هذا لو كانت قليلة لوجب أن يتجنب ما يؤدي اليها فكيف وهي كثيرة فصار فيه من معنى المبالغة ما ليس في التكثير لو وقع ههنا

ومن هذا قوله تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين

وانما تأتي رب بمعنى التكثير في مواضع الافتخار والوجه في ذلك أن المفتخر يريد أن الامر الذي يقل وجوده من غيره يكثر وجوده منه فيستعير لفظ التقليل في موضع لفظ التكثير اشارة الى هذا المعنى وليكون أبلغ في الافتخار

وقد توهم قوم أن رب للتكثير حين خفي عليهم ما ذكرناه 14أ من تداخل المعاني وهذه غفلة شديدة لأنا نجد المدح يخرج مخرج الذم والذم يخرج مخرج المدح ولا يخرجهما ذلك عن موضوعهما الذي وضعا عليه في أصل وضعهما كما أن الاسم العلم الذي وضع في أصل وضعه للخصوص قد يعرض له العموم والنكرة التي وضعت في أصل وضعها للعموم قد يعرض له الخصوص ولا يبطل ذلك وضعهما الذي وضعا عليه اولا وانما ذلك لكثرة المعاني وتداخلها واختلاف الأغراض وتباينها فمتى وجدت شيئا قد خالف أصله فإنما ذلك لسبب وغرض فيجت لك أن تبحث عليه ولا تتسرع الى بعض الأصول دون تثبت وتأمل فمن مشكل هذا الباب قول أبي كبير الهذلي . . .

أزهير ان يشب القذال فإنني . . .

رب هيضل مرس لففت بهيضل . . .

زهير ههنا ترخيم زهيرة وهي ابنته فلذلك فتح الراء ورب ههنا مخففة من رب

وقول أبي عطاء السندي . . .

فإن تمس مهجور الفناء فربما . . .

أقام به بعد الوفود وفود . . .

والمراد بهذين البيتين التكثير ولكن خرجا مخرج التقليل ليكون أمدح والمعنى أن هذا لو كان

قليلا لكان فيه فخر لصاحبه فما ظنك به وهو كثير ويحتمل قول أبي عطاء السندي أن يكون أراد تقليل مدة حياة المرثي التي كثرت فيها عليه الوفود فعلى نحو هذه التأويلات فتأول ما ورد مخالفا للأصول

وملاك هذا الباب معرفة الحقيقة والمجاز وهو باب يدق على من لم يتمهر في هذه الصناعة فلذلك ينكر كثيرا مما هو صحيح ولله در أبي الطيب المتنبي حيث يقول . . .

وكم من عائب قولا صحيحا . . .

وآفته من الفهم السقيم . . .

ولكن تأخذ الآذان منه . . .

على قدر القرائح والعلوم . . .

ومن طريف المجاز العارض من طريق التركيب ايقاعهم أدوات المعاني على السبب ومرادهم المسبب تارة وتارة يوقعونها على المسبب ومرادهم

(384/258)

السبب وانما يفعلون هذا لتعلق أحدهما بالآخر فمثال الأول قوله تعالى فلا تموتن الا وأنتم مسلمون فأوقع النهي على الموت في اللفظ والموت ليس بفعل لهم فيصح نهيهم عنه وانما

نهاهم عن مفارقة الإسلام فمعناه لا تفارقوا الإسلام حتى تموتوا عليه فأوقع النهي على الموت لأنه السبب الذي من أجل توقعه وخوفه يلزم الإنسان أن يستعد 14ب لوروده ويتأهب له بصالح عمله والثاني مثل قوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين وليس المراد اثبات شفاعة غير نافعة لإنه لا شفاعة هناك في الحقيقة بدليل قوله تعالى فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فأوقع النفي على المنفعة التي هي المسبب ومراده تعالى الشفاعة التي هي السبب فكأنه قال فما تكون شفاعة فتكون منفعة ونحوه قولك ما نفعني كلام زيد فهذا كلام يحتمل معنيين

أحدهما أن تريد اثبات الكلام ونفي المنفعة وحدها

والثاني أن تريد نفيهما معا أي لم يكن منه كلام فتكون منفعة ومن هذا الباب قول امرئ القيس

على لاحب لا يهتدى بمناره . . .

ولم يرد اثبات المنار ونفي الهداية به ولو كان ثم منار لكانت ثم هداية وانما المعنى ليس به منار فتكون هداية

ومن هذا قول العرب لا أرينك ههنا أي لا تكونن ههنا فإني أراك فالمراد بالنهي الكون لا الرؤية

ونحوه قوله النابغة . . .

لا أعرفن ربربا حورا مدامعها . . .

كأن أبكارها نعاج دوار . . .

فعلى هذا مخرج هذا الباب والله أعلم

الباب الثالث

في الخلاف العارض من جهة الافراد والتركيب

(385/258)

هذا باب طريف جدا وقد تولدت منه بين الناس أنواع كثيرة من الخلاف وهو باب يحتاج الى تأمل شديد وحذق بوجوه القياس ومعرفة تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد فلم تحوجك الى غيرها كقوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم ويا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن كل واحدة من هذه الآيات قائمة بنفسها مستوفية الغرض المراد منها من التعبد وكذلك الأحاديث الواردة كقوله عليه الصلاة والسلام الزعيم غارم والبينة على المدعي واليمين على المدعى عليه وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد وورد تمام الغرض في آية أخرى وكذلك الحديث كقوله تعالى من كان

يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب 15أ فظاهر هذه الآية أن من أراد حرث الدنيا أوتي منها ونحن نشاهد كثيرا من الناس يحرصون على الدنيا ولا يؤتون منها شيئا

فهو كلام محتاج الى بيان وايضاح ثم قال في آية أخرى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد فإذا أضيفت هذه الآية الى الآية الأولى بان مراد الله تعالى وارتفع الإشكال وكذلك قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ونحن نرى الداعي يدعو فلا يستجاب له ثم قال في آية أخرى بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء فدل اشتراط المشيئة في هذه الآية الثانية على أنه مراد في الآية الأولى وربما وردت الأية مجملة ثم يفسرها الحديث كالآيات الواردة مجملة في الصلاة والزكاة والصيام والحج ثم شرحت السنة والآثار جميع

(386/258)

ذلك كقوله تعالى واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ثم قال صلى الله عليه وسلم خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام

والثيب بالثيب جلد مئة والرجم ولأجل هذا صار الفقيه مضطرا في استعمال القياس الى الجمع بين الآيات المفترقة والأحاديث المتغايرة وبناء بعضها على بعض

ووجه الخلاف العارض من هذا الموضع أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية وبمفرد الحديث وبنى آخر قياسه على جهة التركيب الذي ذكرنا بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين أو بمجموع آيات أو بمجموع أحاديث فيفضي بهما الحال الى الاختلاف فيما ينتحلانه وربما أفضت بهما الأمر الى اختلاف العقائد فقط وربما أفضى بهما الى الاختلاف في الأسباب فقط كاختلافهم في سبب تحريم الخمر فإن قوما يستدلون على وجوب تحريمها بمجرد قوله تعالى وما آتاكم

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقوم يستدلون على وجوب تحريمها بمجرد قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون الى قوله فهل أنتم منتهون وقوم يرون ذلك بطريق التركيب وبناء الألفاظ

15ب بعضها على بعض وذلك أنه لما قال تبارك وتعالى يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ثم قال في آية أخرى قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم تركب من نجموع الآيتين قياس أنتج تحريم الخمر وهو أن يقال كل إثم حرام والخمر إثم فالخمر إذن حرام والإثم من أسماء الخمر وأنشد اللغويون . . .

شربت الإثم حتى زال عقلي . . .

كذاك الإثم يذهب بالعقول

(387/258)

ومثل هذا قوله تعالى فيما حكاه عن قوم لوط أتأتون الفاحشه ما سبقكم بها من أحد من العالمين ثم قال في هذه الآية التي ذكرناها قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن فتركب من مجموع الآيتين قياس وهو كل فاحشة حرام وفعل قوم لوط فاحشة ففعل قوم لوط إذا حرام فعلى مثل هذا أنتجت النتائج وركبت القياسات

ووقع بين أصحاب القياس الخلاف بحسب تقدم القياس أو بحسب تأخره

وخالفهم قوم آخرون لم يروا القياس ورأوا الأخذ بظاهر الألفاظ فنشأ من ذلك نوع آخر من الخلاف

ومما اختلفت فيه أقوال الفقهاء لأخذ كل واحد منهم بحديث مفرد اتصل به ولم يتصل به سواه ما روي عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال قدمت مكة فألفيت فيها أبا حنيفة فقلت له ما تقول في رجل باع بيعا وشرط شرطا فقال البيع باطل والشرط باطل فأتيت ابن أبي ليلى فسألته عن ذلك فقال البيع جائز والشرط باطل فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك

فقال البيع جائز والشرط جائز فقلت في نفسي يا سبحان الله ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة فعدت الى أبي حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه فقال ما أدري ما قالا لك حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط فالبيع باطل والشرط باطل فعدت الى ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحباه فقال ما أدري ما قالا لك حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشتري بريرة فأعتقها البيع جائز والشرط باطل قال فعدت الى ابن شبرمة فأخبرته بما قال 16أ صاحباه فقال ما أدري ما قالا لك حدثني مسعر بن كدام عن محارب بن دثار عن جابر قال بعت النبي صلى الله عليه وسلم بعيرا وشرط لي حملانه الى المدينة البيع جائز والشرط جائز

(388/258)

وقد ترد الآية والحديث بلفظ مشترك يحتمل تأويلات كثيرة ثم ترد آية اخرى أو حديث آخر بتخصيص ذلك اللفظ المشترك وقصره على بعض تلك المعاني دون بعض كقوله عز من قائل ووجدك ضالا فهدى فإن لفظة الضلال لما كانت مشتركة تقع على معان كثيرة توهم قوم ممن لم يكن له فهم صحيح بالقرآن ولا معرفة ثاقبة باللسان أنه أراد الضلال الذي هو ضد الهدى

فزعموا أنه كان على مذهب قوله أربعين سنة وهذا خطأ فاحش نعوذ بالله من اعتقاده فيمن طهره الله تعالى لنبوته وارتضاه لرسالته ولو لم يكن في القرآن العزيز ما يرد قولهم لكان فيما ورد من الأخبار المتواترة ما يرد عليهم ذلك لأنه قد روي أنهم كانوا يسمونه في الجاهلية الأمين وكانوا يرتضونه حكما لهم وعليهم وكانت عندهم أخبار كثيرة يروونها وانذارات من أهل الكتاب والكهان بأنه يكون نبيا ولولا أن كتابنا هذا ليس موضوعا لها لاقتصصناها فيكف والقرآن العزيز قد كفانا هذا كله بقوله عز وجل في سورة يوسف عليه السلام نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين فهذا نص جلي في شرح ما وقع في تلك الآية من الإبهام وبين أيضا أنه تعالى انما أراد الضلال الذي هو الغفلة كما قال في موضع آخر لا يضل ربي ولا ينسى أي لا يغفل وقال تعالى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى أي تغفل وتنسى وقالت الصوفية معناه ووجدك محبا في الهدى فهداك فتأولوا الضلال هنا بمعنى المحبة وهذا قول حسن جدا وله شاهد من القرآن واللغة

أما شاهده من القرآن فقوله تعالى فيما حكاه من قول اخوة يوسف لأبيهم تالله انك لفي ضلالك القديم انما أرادوا بالضلال هنا افراط محبته في يوسف عليه السلام وعلى جميعهم وأما شاهده من اللغة فانه جائز في مذاهب العرب أن تسمى المحبة ضلالا لأن افراط المحبة

يشغل المحب عن كل غرض ويحمله على النسيان والإغفال لكل واجب مفترض ولذلك قيل الهوى يعمي ويصم فسميت

(389/258)

المحبة ضلالا إذ كانت 16ب سبب الضلال على مذاهبهم في تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب

ومن هذا الباب قوله سبحانه وتعالى في سورة نوح عليه السلام أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى والأجل قد علمنا أنه لا تأخير فيه وقد بين ذلك بقوله في عقب الآية ان أجل الله إذا جاء لا يؤخر وقال في موضع آخر فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فوجب أن ينظر في معنى هذا التأخير ما هو ثم وجدنا هذه الآية المبهمة المجملة قد شرحتها آية واضحة مفصلة كفتنا التأويل ولم تحوجنا الى طلب الدليل وهي قوله تعالى في أول سورة هود عليه السلام وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى فدلت هذه الآية على أنه انما أراد بتأخير الأجل التمتيع الحسن لأن التمتيع الحسن يجتمع فيه الغنى والسلامة

من الآفات والعز والذكر الحسن والعرب تسمي هذه الأشياء كلها زيادة في العمر وتسمي

أضدادها وخلافها نقصانا من العمر وقد جاء في بعض الحديث أن موسى عليه السلام شكا الى الله تعالى بعدو له فأوحى الله تعالى اليه أني سأميته فلما كان بعد زمن رآه فقيرا ينسج الحصير فقال يا رب ألم تعدني أن تميته فقال أو ليس قد أفقرته

وقد تعين علينا في هذا الموضع أن نذكر على كم معنى يتصرف الحياة والموت في اللسان العربي ليتبين ما ذكرناه بشواهده حتى لا يبقى فيه لطاعن مطعن بحول الله تعالى

(390/258)

اعلم أن الحياة والموت لفظتان مشتركتان مستعملتان في اللغة العربية على ثلاثة عشر وجها أحدها الوجود والعدم والثاني مقارنة النفس الحيوانية الأجسام ومفارقتها اياها والثالث العز والذل والرابع الغنى والفقر والخامس الهدى والضلال والسادس الجهل والعلم والسابع الحركة والسكون والثامن الخصب والجدب والتاسع اليقظة والنوم والعاشر اشتعال النار وخمودها والحادي عشر المحبة والبغضاء والثاني عشر الرطوبة اليبس والثالث عشر الرجاء والخوف 17أ ونحن نورد على كل وجه من هذه الوجوه أمثلة تشهد بصحة ما قلناه ان شاء الله تعالى

أما الحياة والموت المراد بهما مقارنة النفوس للأجسام ومفارقتها اياها فشهرتهما تغني عن

ايراد مثال لهما

أما الوجود والعدم فكقولهم للشمس ما دامت موجودة حية فاذا عدمت سموها ميتة قال

ذو الرمة . . .

فلما رأين الليل والشمس حية . . .

حياة الذي يقضي حشاشة نازع . . .

شبه الشمس عند غروبها بالحي الذي يجود بنفسه عند الموت وهو من التشبيه البديع

وقال آخر . . .

إذا شئت أداني صروم مشيع . . .

معي وعقام تتقي الفحل مقلت . . .

. . .

يطوف بها من جانبيها ويتقي . . .

بها الشمس حي في الأكارع ميت . . .

يريد ظلها في نصف النهار أراد أنه موجود في الأكارع معدوم من سائر الجسم

وأما العز والذل والغنى والفقر فنحو ما قدمناه من حديث

موسى عليه السلام ونحو ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله من سره

النسأ في الأجل والسعة في الرزق فليصل رحمه ومنه قول الشاعر . . .

ليس من مات فاستراح بميت . . .

انما الميت ميت الأحياء . . .

. . .

انما الميت من يعيش كئيبا . . .

كاسفا باله قليل الرجاء . . .

وقال آخر . . .

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم . . .

بأفعالنا ان الثناء هو الخلد . . .

وقال آخر . . .

وكان أبو عمرو معارا حياته . . .

بعمرو فلما مات مات أبو عمرو . . .

يقول كان ابنه عمرو يحيي ذكره فكأنه حي فلما مات انقطع ذكره فكأنه انما مات حينئذ

(391/258)

وأما ما يراد به الهدى والضلال والعلم والجهل فكقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم وقوله عز وجل أو من كان ميتا فأحييناه المعنى أو من كان صالا فهديناه وجاهلا فعلمناه

وتقول العرب للذكي النبيه حي وللبليد الغبي ميت

وقال لقمان لابنه يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلب الميت بالكلمة من الحكمة يسمعها كما يحيي الأرض بالمطر

واما 17ب الحياة والموت المراد بهما الحركة والسكون فنحو قول الراجز . . .

قد كنت أرجو أن تموت الريح . . .

فأرقد اليوم وأستريح . . .

فجعل هبوب كالريح حياة وسكونها موتا

وقال المجنون . . .

يموت الهوى مني إذا لقيتها . . .

ويحيا إذا فارقتها فيعود . . .

وقال آخر . . .

ومجلودة بالسوط فيه حياتها . . .

فإن زال عنها الجلد بالسوط ماتت . . .

يعني الدوامة

وأما ما يراد به الخصب والجدب فإن العرب تقول أتيت الأرض فأحييتها إذا وجدتها مخصبة ويقال أرض حية أي بالهاء وأرض ميت أي بغير هاء قال الله تعالى وأحيينا به بلدة ميتا وقال الراجز . . .

أقبل سيل جاء من أمر الله . . .

يحرد الحية المغله . . .

قال بعض أصحاب المعاني أراد بالحية الأرض المخصبة والمغلة ذات الغلة ويشهد لهذا التأويل رواية من روى الجنة بالجيم والنون وقال آخرون انما أراد الحية نفسها والمغلة ذات الغل والحقد

وشبه تلوي السيل وانعطافه في جريه بتلوي الحية وانعطافها إذا مشت وهذا نحو قول ابن الرومي . . .

بين حفافي جدول مسحور . . .

كالسيف أو كالحية المذعور . . .

الحفافان الناحيتان

وأما اليقظة والنوم فكقول الله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فسمي النوم وفاة وسأل رجل ابن سيرين عن رجل غاب عن مجلسه فقال له أما علمت أنه

توفي البارحة فلما رأى جزع السائل قرأ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها

وقال الشاعر . . .

نموت ونحيا كل يوم وليلة . . .

ولا بد نوما أن نموت ولا نحيا

(392/258)

وأما اشتعال النار وخمودها فمشهور متعارف أيضا

فمنه قول ذي الرمة . . .

فقلت له ارفعها اليك وأحيها . . .

بروحك واقتته لها قيتة قدرا . . .

يصف نارا اقتدحها

وقال آخر في مثله . . .

وزهراء ان كفنتها فهو عيشها . . .

وان لم أكفنها فموت معجل . . .

يعني بالزهراء الشررة الساقطة من الزند عند الاقتداح يقول ان بادرت اليها تعند سقولها من

الزند فلففتها في خرقة حييت وان تركتها ماتت وطفئت

وأما الحياة والموت المستعملان بمعنى المحبة والبغضاء فكقول الشاعر 18أ . . .

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة . . .

وفي العتاب حياة بين أقوام

أي إذا تعاتبوا حييت المودة بينهم واذا تركوا العتاب ماتت المودة

أي ذهبت وانقطعت وصاروا الى البغضاء والتهاجر

وأما الرطوبة واليبس فكنحو ما ذهب اليه السدي في قوله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي قال معناه يخرج السنبلة الخضراء من الحبة اليابسة ويخرج الحبة اليابسة من السنبلة الخضراء وهذا راجع الى معنى الخصب والجدب من بعض وجوهه

وكقول ابن ميادة . . .

سحائب لا من صيف ذي صواعق . . .

ولا مخرفات ماؤهن حميم . . .

. . .

إذا ما هبطن الأرض قد مات عودها . . .

بكين بها حتى يعيش هشيم . . .

وأمات الرجاء والخوف فلا أذكر عليهما شاهدا غير قول أبي الطيب

تركتني اليوم في خجلة . . .

أموت مرارا وأحيا مرارا . . .

فهذه الحياة والموت في كلام العرب قد استوفينا أقسامها لما جرى من ذكر الآية المتقدمة

ثم نرجع الى ما كنا فيه فنقول ان من طريف هذا الباب أنه قد تتولد منه مقالتان متضادتان

كلاهما غلط وخطأ ويكون الصواب والحق في مقالة ثالثة متوسطة بينهما ترتفع عن حد

التقصير وتنحط عن حد الغلو والإقراط

(393/258)

واذا تأملت المقالات التي شجرت بين أهل ملتنا في الاعتقادات رأيت أكثرها على هذا

الصفة وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله دين الله بين الغالي

والمقصر فهذا تصريح منه بهذا الذي ذكرنا وتحذير منه وقال أيضا خير الأمور أوساطها

وقال رجل

للحسن البصري رحمه الله علمني دينا وسوطا لا ساقطا سقوطا ولا ذاهبا فروطا فقال

أحسنت خير الأمور أوساطها

وهذا نوع يطول فيه الكلام ان ذهبنا الى تتبعه ولكنا نذكر منه شيئا يستدل به على غيره

فمن ذلك أن قوما لما خطر ببالهم أمر القدر والقضاء وأحبوا الوقوف على حقيقة ما ينبغي أن يعتقد من ذلك تأملوا القرآن العزيز والحديث المأثور فوجدوا فيهما أشياء ظاهرها الإجبار 18ب والإكراه كقوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين وقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وقوله بل طبع الله عليها بكفرهم في آيات كثيرة غير هذه ووجدوا في الحديث المأثور أيضا نحو ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم السعيد من سعد في بكن أمه والشقي من شقي في بطن أمه

فبنوا من هذا النوع من الآيات والأحاديث مقالة أصلوها على أن العبد مجبر ليس له شيء من الاستطاعة وصرحوا بأن من اعتقد غير هذا فقد كفر

وخطر ببال آخرين مثل ذلك ورأوا مذهب هؤلاء فلم يرتضوه معتقدا لأنفسهم فتصفحوا القرآن والحديث فوجدوا فيهما آيات أخر وأحاديث ظاهرها يوهم أن العبد مستطيع مفوض اليه أمره يفعل ما يشاء كقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر وقوله وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقوله انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا وقوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وقوله يقول الله تعالى

خلقت عبادي حنفاء كلهم فأجالتهم الشياطين عن دينهم فبنوا من هذا النوع من الآيات والأحاديث مقالة ثانية مناقضة للمقالة الأولى أصلوها على أن العبد مخير مفوض اليه أمره يفعل ما يشاء ويستطيع على ما لا يريد ربه تعالى الله عما يقوله الجاهلون علوا كبيرا

ثم عمدت كل فرقة من هاتين الفرقتين الى ما خالف مذهبها من الآيات والأحاديث فطلبت له التأويل البعيد وردوا ما أمكنهم رده من الأحاديث المناقضة لمذهبهم وان كان صحيحا كمن يروم ستر ضوء النهار ويؤسس بنيانه على شفا جرف هار

ولما تأملت طائفة ثالثة مقالتي الفريقين معا لم يرتضوا بواحدة منهما معتقدا لأنفسهم ورأوا أنهما جميعا خطأ لأن المقالة الأولى تجوير للباري تعالى وإبطال للتكليف والتكليف والمقالة الثانية تجهيل للباري تعالى بأمر خلقو وتعجيز له عن تمام مشيئته فيهم وكلا الصفتين 19 ألا يليق بمن قد وصف نفسه بأنه أحكم الحاكمين وأقدر القادرين ووصف نفسه جل جلاله بقوله وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين

(395/258)

ورأوا أن الأخذ بالآيات والأحاديث ليس بأولى من الأخذ بالأيات والأحاديث الأخر وأن الحق انما هو في واسطة تنتظم الطرفين وتسلم من شياعة المذهبين واعتبروا القرآن والحديث ببصائر أصح من بصائر الفريقين فوجدوا آيات وأحاديث تجمع شتيت المقالتين وتخبر بغلط الفريقين كقوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وقوله في سورة يوسف عليه السلام ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله وما تشاؤون الا أن يشاء الله فأثبت للعبد مشيئة لا تتم له الا بمشيئة ربه عز وجل ووجدوا الأمة مجمعة على قولهم لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وفي هذا اثبات حول وقوة للعبد لا يتمان الا بمعونة الله سبحانه اياه ووجدوا الأمة مجمعة على الرغبة الى الله في العصمة والاستعاذة به من الخذلان بقولهم اللهم لا تكلنا الى أنفسنا فنعجز ولا الى الناس فنضيع

ورأوا الله تعالى قد أثبت لنفسه في محكم وحيه علم غيب وعلم شهادة

(396/258)

بقوله عالم الغيب والشهادة فعلمه الغيب علمه الأشياء قبل كونها وعلمه الشهادة علمه بالأشياء وقت كونها واعتبروا أحوال الانسان التي وقع فيها التكليف وأحواله التي لم يقع فيها تكليف فوجدوا الله تعالى لم يأمره بألا يسمع ولا يبصر ولا يأكل ولا يشرب على

الاطلاق انما أمره بأن يستعمل الآلة التي يسمع بها ويبصر بها ويأكل ويشرب في بعض الأشياء ولا يستعملها في بعض فوجب أن يكون بين الأمرين فرق ولا فرق ههنا الا أنه مكن من أحد الأمرين وجعلت له استطاعة علية ولم يمكن من ألآخر وكذلك رأوا حركة يد المفلوج تخالف حركة يد الصحيح فثبت أن بينهما فرقا ولا فرق الا وجود الاستطاعة في احداها دون الأخرى ووجدوا مع هذا أحاديث تؤيد بطلان قول الفريقين معا وتدل على أن الحق متوسط بين غلو أحد الفريقين وتقصير الآخر كنحو ما نروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن رجلا قال له هل العباد مجبرون فقال الله أعدل من أن يجبر عبده 19ب على معصيته ثم يعذبه عليها فقال له السائل فهل أمرهم مفوض اليهم فقال الله أعز من أن يجوز في ملكه ما لا يريد فقال له السائل فكيف ذلك إذا قال أمر بين الأمرين لا جبر ولا تفويض وكنحو ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما انصرف من صفين قام اليه شيخ فقال يا أمير المؤمنين أرأيت مسيرنا الى صفين أبقضاء وقدر فقال علي رضي الله عنه والله ما علونا جبلا ولا هبطنا واديا ولا خطونا خطوة الا بقضاء وقدر فقال الشيخ فعند الله أحتسب عنائي اذن ما لي من أجر فقال له علي رحمه الله مه يا شيخ فإن هذا قول أولياء الشيطان وخصماء الرحمن قدرية هذه الأمة ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا لم يعص مغلوبا ولم يطع مكرها فضحك الشيخ ونهض مسرورا ثم قال . . .

أنت الامام الذي نرجو بطاعته . . .

يوم القيامة من ذي العرش رضوانا . . .

. . .

أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا . . .

جزاك ربك عنا فيه احسانا . . .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه نحو مقالة جعفر

(397/258)

فلما وجدوا جميع هذا الذي ذكرناه جمعوا الآيات والأحاديث وبنوا بعضها على بعض فأنتج لهم من مجموعها مقالة ثالثة سليمة من شناعة المقالتين منتظمة لكل واحد من الطرفين ارتفعت عن تقصير الجبرية وانحطت عن غلو القدرية فوافقت قوله صلى الله عليه وسلم دين الله بين الغالي والمقصر بنوا تفريعها على أصل وجملة الغرض منه أن لله تعالى علم غيب سبق بكل ما هو كائن قبل كونه ثم خلق الإنسان فجعل له عقلا يرشده واستطاعة يصح بها تكليفه ثم طوى علمه السابق عن خلقه وأمرهم ونهاهم وأوجب عليهم الحجة من جهة الأمر والنهي الواقعين عليهم لا من جهة علمه السابق فيهم فهم يتصرفون بين مطيع وعاص وكلهم لا يعدو علم الله السابق فيه

فمن علم الله تعالى منه أنه يختار الطاعة فلا يجوز أن يختار المعصية ومن علم أنه يختار المعصية فلا يجوز أن يختار الطاعة ولو جاز ذلك لم يكن علم الله تعالى موصوفا بالكمال ولكان كعلم المخلوق الذي يمكن أن يقع الأمر كما علم ويمكن أن يقع بخلاف ما علم وليس في علم الله الأمور قبل وقوعها اجبار على ما توهمه 20أ المجبرون ولا تتم لأحد استطاعة على ما يهم به من الأمور الا بأن يعينه الله تعالى عليه أو يكله الى حوله ويسلمه اليه فإن عصمه الله مما يهم به من المعصية كان فضلا وان وكله الى نفسه كان عدلا

فاذا اعتبرت حال العبد من جهة الأضافة الى علم الله السابق فيه الذي لا يعدوه وجد في صورة المجبر واذا اعتبرت حاله من جهة الاضافة الى الاستطاعة المخلوقة له والأمر والنهي الواقعين عليه وجد في صورة المفوض اليه

وليس هناك اجبار مطلق ولا تفويض مطلق انما هو أمر بين أمرين يدق عن أفكار المعتبرين ويحير أذهان المتأملين

وهذا هو معنى ما أشار اليه حذاق أهل السنة رحمهم الله بقولهم ان العبد لا مطلق ولا موثق

فما ورد من الآيات والأحاديث التي ظاهرها الاجبار فهو مصروف الى أحد ثلاثة أشياء

اما الى العلم السابق الذي لا مخرج للعبد منه ولا يمكنه أن يتخير غيره

واما الى فعل فعله الله تعالى به على جهة العقاب كقوله بل طبع الله عليها بكفرهم واما الى الإخبار عن قدرته تعالى على ما يشاء كقوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى

وما ورد من الآيات والأحاديث ظاهره التفويض فهو مصروف الى الأمر والنهي الواقعين عليه وانما غلطت القدرية في هذا لأنهم لا يثبتون لله تعالى علما سابقا بالأمور قبل وقوعها وعلم الله عندهم محدث تعالى الله عما يقوله الجاهلون علوا كبيرا فاعتبروا حال العبد من جهة الأمر والنهي والإستطاعة المركبة فيه لا من جهة العلم السابق

وغلطت الجبرية لأنهم اعتبروا حال العبد من جهة علم الله السابق فيه لا من جهة الأمر والنهي الواقعين عليه وظنوا أن علم الله تعالى بجميع ما يفعله العبد قبل فعله اياه اجبار منه له على الفعل وكلا القولين غلط لأنهم أخذوا بالطرف الواحد وتركوا الطرف الآخر فكان المذهب أحسن المذاهب لمن آثر الخلاص والسلامة

ورأى المشيخة وجلة العلماء الوقف عن الكلام في ذلك والخوض فيه لقوله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر القضاء فأمسكوا ولم يكن نهيه صلى الله عليه وسلم ونهي العلماء عن الكلام في ذلك من أجل أن هذا أمر لا تمكن معرفة الحقيقة منه وانما كان من أجل دقته وخفائه وأنه أمر الخطأ فيه أكثر من الاصابة فأنت ترى القدرية والجبرية الى يومنا هذا

يختصمون فيه وناقض بعضهم بعضا ولا يصلون منه الى شفاء نفس وكل فرقة من الفريقين يفضي مذهبها الى شناعة إذا ألزمتها فرت عنها

وكلا الطائفتين قد أخطأت في التأويل وضلت عن نهج السبيل ووصفت الله تعالى بصفات لا تليق به عند ذوي العقول

(399/258)

وهذه أعزك الله جملة قليلة تفصيلها كثير وهو باب ضيق المجال جدا والخائض فيه تسبق اليه الظنة بغير ما يقتقده فلذلك نتحامى الكلام فيه بأكثر مما نبهنا عليه مع أنا لم نضع كتابنا هذا للخوض في المقالات انما وضعناه 20ب لنبين المواضع التي نشأ منها الخلاف

لكنا نقول ينبغي لمن طلب هذا الشأن ولم يقنعه ما رآه العلماء

وأمروا به من ترك الخوض فيه أن يراعي أصلين فإن صحا له من معتقده فليعلم أنه قد أصاب فص الحق وان أخطأهما أو واحدا منهما فليعلم أنه قد غلط فليراجع النظر

أحدهما أنه لا فاعل على الحقيقة الا الله تعالى وان كل فاعل غيره انما يفعل بمعونة من عنده ومادة يمده بها من فيضه وحوله ولو وكله الى نفسه لما كان له فعل البتة

والثاني أن أفعال الباري عز وجل كلها حكمة محضة لا عبث فيها وعدل محض لا جور فيه

وحسن محض لا قبح فيه وخير محض لا شر فيه وأن هذه الأشياء انما تعرض في أفعالنا اما لوقوع الأمر والنهي علينا واما لما ركز في خلقتنا من القوة العقلية التي ترينا بعض الأشياء حسنا وبعضها قبيحا وكلا الصفتين لا يوصف بهما الباري سبحانه وتعالى لأنه لا آمر فوقه ولا ناهي وهو خالق العقل وموجده

وجملة ذلك أنه لا يشبه شيئا من المخلوقات في جهة من الجهات فكل قول أداك الى تشبيهه بخلقه في ذات أو فعل فارفضه رفض النواة وانبذه نبذ القذاة واعلم أن الحق في غيره فابحث عليه حتى تظفر به وان لم يتفق لك فهم الغرض منه والمراد فاشدد يدك بعروة هذا الإعتقاد ولا تتهم بارئك في حكمته ولا تنازعه في قدرته واعلم بأنه غني عنك وأنت مفتقر اليه ووارد بما تزودت من عملك عليه تبارك المنفرد بأقضيته وأحكامه الذي لا ينازع في نقضه وابرامه ولا يمتري العاقلون في عدله ولا ييأس المذنبون من عفوه وفضله لا رب سواه ولا معبود حاشاه

الباب الرابع

في الخلاف العارض من جهة العموم والخصوص

هذا الباب نوعان

أحدهما يعرض في موضوع اللفظة المفردة

والثاني يعرض في التركيب

فأما الذي يعرض في موضوع اللفظة المفردة فنحو الإنسان فإنه يستعمل عموما وخصوصا أما العموم فكقوله تعالى يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم 21أ وقوله ان الإنسان لفي خسر ويدل على أنه لفظ عام لا يخص واحدا دون آخر قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فاستثنى منه ولا يستثنى الا من جملة ونحو هذا قول العرب أهلك الناس الدينار والدرهم وقولهم الملك أفضل من الإنسان والانسان متعبد دون سائر الحيوان

والخصوص نحو قولهم جاءني الانسان الذي تعلم ولقيت الرجل الذي كلمك وقوله شربت الماء وأكلت الخبز ولم يشرب جميع

الماء ولا أكل جميع الخبز وهذا كثير مشهور تغني شهرته عن الإكثار منه

وقد يأتي من هذا الباب في القرآن العظيم والحديث أشياء يتفق الجميع على عمومها أو على خصوصها وأشياء يقع فيها الخلاف

فمن العموم الذي لم يختلف فيه قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم ويا أيها الناس ان وعد الله حق وقول النبي صلى الله عليه وسلم الزعيم عارم والبينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ونحو ذلك كثير

ومن الخصوص الذي لم يختلف فيه قوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم وهذا القول لم يقله جميع الناس وانما قاله رجل واحد وهو نعيم بن مسعود ولا جمع لهم جميع الناس وانما جمع لهم جزء منهم

ومما وقع فيه الخلاف فاحتاج الى فضل نظر قوله تعالى ان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله

قال قوم ان هذه الآية نزلت عموما ثم خصصت بقوله صلى الله عليه وسلم صفح لأمتي عما حدثت به نفوسها ما لم تكلم به أو تعمل وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت هي خصوص في الكافر يحاسبه الله بما أسر وأعلن والقول الأول أصح وأوضح لقوله تعالى باثر ذلك فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولا خلاف في أن الكافر معذب غير مغفور له فدل على أن الخطاب وقع عموما لا خصوصا ثم خصص بما ذكرناه

(401/258)

ومن ذلك قوله تعالى كل له قانتون قال قوم هذا خصوص في أهل الطاعة واحتجوا بأن كلا وان كانت في غالب امرها للعموم فإنها قد تأتي للخصوص كقوله تعالى اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء 21ب وقوله ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ثم

قال فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم وقال آخرون هي عموم واختلف القائلون بالعموم فقال قوم أراد أنهم مطيعون له يوم القيامة وهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال آخرون مطيعون في الدنيا واختلف القائلون بالطاعة في الدنيا فقال بعضهم طاعة الكافر سجود ظله لله عز وجل واحتجوا بقوله تعالى ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال وقال آخرون معناه أن كل ما خلق الله تعالى ففيه أثر الصنعة قائم وميسم العبودية شاهد أن له خالقا حكيما لأن أصل القنوت في اللغة القيام ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل أي الصلاة أفضل فقال طول القنوت فالخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم قائمون بالعبودية اما اقرارا بألسنتهم واما بأثر الصنعة البينة فيهم

ومن هذا الباب قوله تعالى لا اكراه في الدين قال قوم هذا خصوص في أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية وهو قول الشعبي

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يراه أيضا خصوصا وفسره فقال معناه أن المرأة من الأنصار كانت لا يعيش لها ولد فتنذر على نفسها لئن عاش لتهودنه فلما أجلي بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار فقالت الأنصار يا رسول الله أبناؤنا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قوم هي عموم ثم نسخت بقوله عز وجل جاهد الكفار والمنافقين

ومن هذا الباب قوله تعالى علم الإنسان ما لم يعلم

فذهب قوم الى أنه خصوص واختلفوا في حقيقة ذلك فقال بعضهم أراد آدم عليه السلام

واحتجوا بقوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها

وقال بعضهم أراد محمدا صلى الله عليه وسلم واحتجوا بقوله تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم

(402/258)

وقال آخرون هي عموم في جميع الناس وهذا هو الصحيح وما تقدم لا يقوم عليه دليل

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء

قال قوم هذا خصوص في جهجاه الغفاري ورد على النبي صلى الله عليه وسلم يريد الاسلام

فحلبت له سبع شياه فشرب لبنها ثم أسلم فحلبت له شاة واحدة فكفته فذكر ذلك للنبي

صلى الله عليه وسلم فقال هذه المقالة

فقال 22أ قوم أنه عموم في كل كافر واختلفوا في حقيقة معناه

فقال قوم معناه أن المؤمن يسمي الله تعالى على طعامه فتكون فيه البركة والكافر بخلاف

ذلك

وقال آخرون انما ضرب هذا مثلا للزهادة في الدنيا والحرص عليها فجعل المؤمن لقناعته

باليسير من الدنيا كالآكل في معى واحد والكافر لشدة رغبته في الدنيا كالآكل في سبعة

أمعاء

وهذا القول أصح الأقوال ويشهد لصحته ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض فقال له رجل يا رسول الله هل يأتي الخير بالشر فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه يوحى اليه ثم مسح العرق عن جبينه وقال أين السائل فقال ها أنا ذا يا رسول الله فقال ان الخير لا يأتي الا بالخير ثلاثا ولكن هذا المال خضرة حلوة وان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم الا آكلة الخضر تأكل حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فبالت وثلطت ثم عادت فأكلت ان هذا المال خضرة حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ومن أخذه بغير حقه ووضعه في غير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع

ونحو من هذا أيضا قول أبي ذر رحمه الله تخضمون وتقضم والموعد الله

والخضم الأكل بالفم كله فضربه مثلا للرغبة في الدنيا والقضم الأكل بأطراف الأسنان فضربه مثلا للقناعة ونيل البلغة من العيش

وقيل الخضم أكل الرطب والقضم أكل اليابس وهو نحو المعنى الأول

(403/258)

وقد يأتي من هذا الباب ما موضوعه في اللغة على العموم ثم تخصصه الشريعة كالمتعة فإنها عند العرب اسم لكل شيء استمتع به لا يخص به شيء دون آخر ثم نقلت عن ذلك واستعملت في الشريعة على ضربين

أحدهما في المتعة التي كانت مباحة في أول الأسلام ثم نهي عنها ونسخت بالنكاح والولي والثاني ما تمتع به المرأة من مهرها كقوله تعالى ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ولأجل هذا الذي ذكرناه وقع الخلاف في قوله تعالى فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة

فكان ابن عباس يذهب بمعناه الى المتعة الأولى وذهب جماعة الفقهاء الى أن المتعة الأولى منسوخة وأن هذه الآية كالتي من البقرة وأن معنى قوله 22ب فآتوهن أجورهن انما أراد المهر

والدليل على صحة قول الجماعة قوله فانكحوهن بإذن أهلهن فهذا المهر بإجماع

الباب الخامس

في الخلاف العارض من جهة الرواية

هذا الباب لا تتم الفائدة التي قصدناها منه الا بمعرفة العلل التي تعرض للحديث فتحيل معناه فربما أوهمت فيه معارضة بعضه لبعض وربما ولدت فيه اشكالا يحوج العلماء الى طلب التأويل البعيد

ونحن نذكر العلل كم هي ونذكر من كل نوع منها مثالا أو أمثلة يستدل بها على غيرها ان شان الله تعالى

اعلم أن الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم تعرض له ثماني علل

أولاها فساد الإسناد

والثانية من جهة نقل الحديث على معناه دون لفظة

والثالثة من جهة الجهل بالإعراب

والرابعة من جهة التصحيف

والخامسة من جهة اسقاط شيء من الحديث لا يتم المعنى الا به

والسادسة أن ينقل المحدث الحديث ويغفل نقل السبب الموجب له أو بساط الأمر الذي جر ذكره

والسابعة أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه

والثامنة نقل الحديث من الصحف دون لقاء الشيوخ

(404/258)

العلة الأولى وهي فساد الاسناد وهذه العلة أشهر العلل عند الناس حتى ان كثيرا منهم يتوهم أنه إذا صح الإسناد صح الحديث وليس كذلك فانه قد يتفق أن يكون رواة الحديث مشهورين بالعدالة معروفين بصحة الدين والأمانة غير مطعون عليهم ولا مستراب بنقلهم وتعرض مع ذلك لأحاديثهم أعراض على وجوه شتى من غير قصد منهم الى ذلك على ما تراه في بقية هذا الباب ان شاء الله سبحانه وتعالى

والإسناد يعرض له الفساد من أوجه

منها الإرسال وعدم الإتصال

ومنها أن يكون بعض رواته صاحب بدعة أو متهما بكذب وقلة ثقة أو مشهورا ببله وغفلة أو يكون متعصبا لبعض الصحابة منحرفا عن بعضهم فإن من كان مشهورا بالتعصب ثم روى حديثا في تفضيل من يتعصب له ولم يرد من غير طريقه لزم أن يستراب به وذلك أن افراط عصبية الانسان لمن يتعصب له وشدة محبته 23أ يحمله على افتعال الحديث وان لم يفتعله بدله وغير بعض حروفه كنحو ما

فعلت الشيعة فإنهم رووا أحاديث كثيرة في تفضيل على رضي الله عنه ووجوب الخلافة له ينكرها أهل السنة مثل روايتهم أن نجما سقط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انظروا ففي منزل من وقع فهو الخليفة بعدي فنظروا فإذا هو قد سقط في دار علي فأكثر الناس في ذلك الكلام فأنزل الله تعالى والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى

فهذا حديث لا يشك ذو لب في أنه مصنوع مركب على الآية

وكالذي فعلت المعتزلة فانهم تجاوزوا تغيير الحديث الى أن راموا تغيير القرآن فلم يصح لهم ذلك في القرآن لإجماع الأمة عليه وصح في كثير من الحديث فغيروا في المصحف مواضع كثيرة كقراءتهم من شر ما

خلق بالتنوين وقراءتهم قال عذابي أصيب به من أساء بسين غير معجمة وفتح الهمزة وقالوا في قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ان معناه دفعنا وأنشدوا قول المثقب

تقول إذا ذرأت لها وضيني . . .

أهذا دينه أبدا وديني . . .

(405/258)

وليس كما زعموا انما يقال في الدفع درأت بدال غير معجمة وكذلك روي بيت المثقب بدال غير معجمة وانما ذرأنا بالذال معجمة بمعنى خلقنا

وقد روي عن بعضهم أنه قرأ ولقد درأنا بالدال غير معجمة

ومما يبعث على الإسترابة بنقل الناقل أن يعلم منه حرص على الدنيا وتهافت على الإتصال

بالملوك ونيل المكانة والحظوة عندهم عندهم فإن من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والإفتعال للحديث والكذب حرصا على مكسب يحصل عليه ألا ترى الى قول القائل . . .

ولست وان قربت يوما ببائع . . .

خلاقي ولا ديني ابتغاء التحبب . . .

. . .

ويعتده قوم كثير تجارة . . .

ويمنعني من ذال ديني ومنصبي . . .

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو هذا الذي ذكرناه بقوله ان الأحاديث ستكثر بعدي كما كثرت عن الأنبياء قبلي فما جاءكم عني

فأعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فهو عني قلته أو لم لم أقله 23ب

وقد روي أن قوما من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوأ الإسلام قد ظهر وعم ودوخ وأذل جميع الامم ورأوا أنه لا سبيل الى مناصبته رجعوا الى الحيلة والمكيدة فأظهروا الإسلام عن غير رغبة فيه وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف فلما حمد الناس طريقتهم ولدوا الأحاديث والمقالات وفرقوا الناس فرقا وأكثر ذلك في الشيعة كما يحكى عن عبد الله بن سبأ اليهودي أنه أسلم واتصل بعلي رضي الله عنه وصار من شيعته فلما أخبر بقتله وموته

قال كذبتم والله لو جئتموني بدماغه مصرورا في سبعين صرة ما صدقت بموته ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا نجد ذلك في كتاب الله فصارت مقالة يعرف أهلها بالسبئية وانه قال ان عليا هو الإله وأنه يحيي الموتى وأنه غاب ولم يمت

(406/258)

وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتشدد في الحديث ويتوعد عليه والزمان زمان والصحابة متوافرون والبدع لم تظهر والناس في القرن الذي اثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ظنك بالحال في الأزمنه التي ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كثرت البدع وقلت الأمانة

وللبخاري رحمه الله في هذا الباب غناء مشكور وسعي مبرور وكذلك لمسلم وابن معين فإنهم انتقدوا الحديث وحرروه ونبهوا على ضعفاء المحدثين والمتهمين بالكذب حتى ضج من ذلك من كان في عصرهم وكان ذلك أحد الأسباب التي أوغرت صدور الفقهاء على البخاري فلم يزالوا يرصدون له المكاره حتى أمكنتهم فيه فرصة بكلمة قالها فكفروه بها وامتحنوه وطردوه من موضع الى موضع وحتى حمل

بعض الناس قلقه من ذلك على أن قال . . .

ولابن معين في الرجال مقالة . . .

سيسأل عنها والمليك شهيد . . .

. . .

فإن يك حقا قوله فهو غيبة . . .

وان يك زورا فالعقاب شديد . . .

وما أخلق قائل هذا الشعر بأن يكون دفع مغرما وأسر حسوا في ارتغاء لأن ابن معين فيما فعل أجدر بأن يكون مأجورا من أن يكون موزورا وألا يكون في ذلك 24أ ملوما بل مشكورا

العلة الثانية وهي نقل الحديث على المعنى دون لفظ الحديث بعينه وهذا الباب يعظم الغلط فيه جدا وقد نشأت منه بين الناس شغوب شنيعة وذاك أن أكثر المحدثين لا يراعون ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم التي نطق بها وانما ينقلون الى من بعدهم معنى ما أراده بألفاظ أخر ولذلك تجد الحديث الواحد في المعنى الواحد يرد بألفاظ شتى ولغات مختلفة يزيد بعض الفاظها على بعض وينقص بعضها عن بعض على أن اختلاف ألفاظ الحديث قد يعرض من أجل تكرير النبي صلى الله عليه وسلم في مجالس عدة مختلفة وما كان من الحديث بهذه الصفة فليس كلامنا فيه وانما كلامنا في اختلاف الألفاظ التي تعرض من أجل نقل الحديث على المعنى

ووجه الغلط الواقع من هذه الجهة أن الناس يتفاضلون في قرائحهم وأفهامهم كما يتفاضلون في صورهم وألوانهم وغير ذلك من أمورهم وأحوالهم فربما اتفق أن يسمع الراوي الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم أو من غيره فيتصور معناه في نفسه على غير الجهة التي أرادها فإذا عبر عن ذلك المعنى الذي تصور في نفسه على غير الجهة التي أرادها فاذا عبر عن ذلك المعنى الذي تصور في نفسه بألفاظ أخر كان قد حدث بخلاف ما سمع عن غير قصد منه الى ذلك وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين وثلاثة وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التي تقع على الشيء وضده كقوله صلى الله عليه وسلم قصوا الشوارب وأعفوا اللحا فقوله أعفوا يحتمل أن يريد وفروا وكثروا ويحتمل أن يريد به قللوا وخففوا فلا يفهم مراده من ذلك الا بدليل من لفظ آخر والمعنيان جميعا موجودان في كلام العرب يقال عفا وبر الناقة إذا كثر وكذلك عفا لحمها قال الله

عز وجل حتى عفوا أي كثروا قال جرير . . .

ولكنا نعض السيف منها . . .

بأسؤق عافيات اللحم كوم . . .

ويقال عفا المنزل إذا درس قال زهير . . .

عفا من آل فاطمة الجواء . . .

فيمن فالقوادم فالحساء . . .

ففي مثل هذا يجوز أن يذهب النبي صلى الله عليه وسلم الى المعنى الواحد 24ب

ويذهب الراوي عنه الى المعنى الآخر فإذا أدى معنى ما سمع دون لفظه بعينه كان قد روى

عنه ضد ما أراده غير عامد

ولو أدى لفظه بعينه لأوشك أن يفهم منه الآخر ما لم يفهم الأول

وقد علم صلى الله عليه وسلم أن هذا سيعرض بعده فقال محذرا من ذلك نضر

الله امرءا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من مبلغ

ومن نحو هذا ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أن رجلا جاءه فقال أيجوز اتيان المرأة في

دبرها فقال نعم فلما أدبر الرجل قال ردوه علي فلما رجع قال في أي الخرطتين أردت اما من

دبرها في قبلها فنعم وأما من دبرها في دبرها فلا

(408/258)

وقد غلط قوم في حديث عائشة رضي الله عنها في هذا المعنى إذا حاضت المرأة حرم الجحران فتوهموا أن هذا الكلام ينفك منه جواز الإتيان في الدبر وهذا غلط شديد ممن تأوله

وقد رواه بعضهم الجحران بضم النون وزعم أن الجحران الفرج ذكر ذلك ابن قتيبة

والرواية الأولى هي المشهورة وليس في الحديث شيء مما توهموه وانما كان يلزم ما قالوه لو كانت الطهارة من المحيض شرطا في جواز اتيان المرأة في جحريها معا فكان يلزم عند ذلك أن يكون ارتفاع الطهارة

سببا لتحريمهما معا كما كان شرطا في تحليلهما معا فإذا لم يجدوا سبيلا الى تصحيح هذه الدعوى لم يلزم ما قالوه

وانما المعنى في قول عائشة رضي الله عنها أن فرج المرأة يخالف دبرها في اباحة أحدهما وتحريم الآخر والإباحة التي خالفت بينهما معلقة بشرط الطهارة من الحيض فإذا ارتفع شرط الطهارة ارتفعت الإباحة التي كانت معلقة به فاستويا معا في التحريم لارتفاع السبب الذي فرق بينهما وهذا كقول قائل لو قالحرم الشرابان يريد الخمر والنبيذ أي استويا في التحريم لأن النبيذ إذا أسكر النبيذ انما خالف الخمر بشرط عدم الإسكار فلما ذهب السبب والشرط الذي فرق بينهما تساويا معا في التحريم فكما أن هذا القول لا يلزم منه اباحة الخمر قبل وجود الإسكار في النبيذ فكذلك قول عائشة رضي الله تعالى عنها لا يلزم

منه اباحة نكاح الدبر قبل وجود الحيض في الفرج

ونظير هذا أيضا 25أ أن رجلا لو كان معه ثوبان أحدهما فيه نجاسة تحرم عليه الصلاة به والآخر طاهر يجوز له الصلاة به ثم أصابت الثاني نجاسة فقال له قائل قد حرمت الصلاة عليك بالثوبين انما أراد أن الثوب الثاني قد صار مثل الأول في التحريم لعدم الشرط المفرق بينهما

وقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ما ينحو نحو هذا وان لم يكن مثله

(409/258)

من جميع الوجوه وذلك ما روي عنه من قوله عليه السلام من سره أن يذهب كثير من وحر صدره فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يريد بشهر الصبر شهر رمضان وليس المراد أن شهر الصبر مباح الأكل فيه لمن لم يسره ذهاب وحر صدره وانما معناه فليضف الى شهر الصبر الواجب صومه على كل حال ثلاثة أيام يصومها من كل شهر

ومن طريف الغلط الواقع في اشتراك الألفاظ ما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم وهب لعلي رضي الله عنه عمامة تسمى السحاب فاجتاز علي رحمه الله متعمما بها فقال النبي عليه السلام لمن كان معه أما رأيتم عليا في السحاب أو نحو هذا من اللفظ فسمعه

بعض المتشيعين لعلي رضي الله عنه فظن أنه يريد السحاب المعروف فكان ذلك سببا لاعتقاد الشيعة أن عليا في السحاب ولذلك قال اسحاق بن سويد الفقيه

برئت من الخوارج لست منهم . . .

من الغزال منهم وابن باب . . .

. . .

ومن قوم إذا ذكروا عليا . . .

يردون السلام على السحاب . . .

. . .

ولكني أحب بكل قلبي . . .

وأعلم أن ذال من الصواب . . .

. . .

رسول الله والصديق حبا . . .

به أرجو غدا حسن الثواب . . .

وقد جعل بعض العلماء من هذا الباب الحديث المروي في خلق آدم على صورة الرحمن قالوا وانما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الله آدم على صورته والهاء راجعة الى آدم فتوهم بعض السامعين أنها عائدة على الله سبحانه وتعالى فنقله على المعنى دون اللفظ

وهذا الذي قالوه لا يلزم وسنتكلم على هذا الحديث إذا انتهينا الى موضعه من هذا الباب ان شاء الله تعالى

فهذه أمثلة من هذا النوع تنبه على بقيته ان شاء الله تعالى

العلة الثالثة وهي الجهل بالإعراب ومعاني كلام العرب 25ب ومجازاتها وذلك أن كثيرا من رواة الحديث قوم جهال بلسان العرب لا يفرقون بين

المرفوع والمنصوب والمخفوض ولعمري لو أن العرب وضعت لكل معنى لفظا يؤدي عنه لا يلتبس بغيره لكان لهم عذر من ترك تعلم الإعراب ولم يكن لهم حاجة اليه في معرفة الخطأ من الصواب

(410/258)

ولكن العرب قد تفرق بين المعنيين المتضادين بالحركات فقط واللفظ واحد ألا ترى أن الفاعل والمفعول ليس بينهما أكثر من الرفع والنصب فربما حدث المحدث بالحديث فرفع لفظة منه ينوي بها أنها فاعلة ونصب أخرى ينوي بها أنها مفعولة فنقل عنه السامع ذلك الحديث فرفع ما نصب ونصب ما رفع جهلا منه بما بين الأمرين فانعكس المعنى الى ضد ما أراده المحدث الأول

ألا ترى أن قوله صلى الله عليه وسلم لا يقتل قرشي صبرا بعد اليوم إذا جزمت اللام من يقتل كان له معنى واذا رفعت كان له معنى آخر

ولو أن قارئا قرأ هو الأول والآخر ففتح الخاء لكان قد كفر وأشرك بالله واذا كسر الخاء آمن ووحد فليس بين الإيمان والكفر غير حركة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أصلح من لسانه وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن

واللحن اللغة قال الشاعر . . .

وما هاج هذا الشوق الا حمامة . . .

تبكت على خضراء سمر قيودها . . .

. . .

صدوح الضحى معروفة اللحن لم تزل . . .

تقود الهوى من مسعد ويقودها . . .

وكذلك قوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور ليس بين الإيمان والكفر فيه غير فتح الواو وكسرها وكذلك قوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين

ولو أن رجلين تقدما الى حكم يدعي أحدهما على صاحبه بثوب فقرره الحكم على ذلك فإنه ان قال ما أخذت له ثوب فرفع أقر

بالثوب على نفسه ولزمه احضار ثوب وان قال ما أخذت له ثوبا فنصب لم يقر بشيء ولزمته اليمين ان لم تعم عليه به بينة

وكذلك لو قال رجل لامرأته أنت طالق ان دخلت الدار فانه ان فتح الهمزة طلقت عليه في ذلك الوقت 26أ دون تأخير وان كسر الهمزة لم تطلق عليه في ذلك الوقت وانما تطلق عليه فيما يستقبل ان كان منها دخول في الدار

ويروى أن الكسائي رحمه الله كتب اليه ما تقول في رجل قال . . .

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمن . . .

وان تخرقي يا هند فالخرق أشأم . . .

. . .

فأنت طلاق والطلاق عزيمة . . .

(411/258)

ثلاث ومن يخرق أعق وأظلم . . .

فقال الكسائي رحمه الله إن كان رفع العزيمة ونصب الثلاث فهي ثلاث تطليقات وان كان نصب العزيمة ورفع الثلاث فهي واحدة يريد أنه إذا رفع العزيمة ونصب الثلاث صار التقدير

فأنت طالق ثلاثا والطلاق عزيمة على التقديم والتأخير واذا نصب العزيمة ورفع الثلاث لم ينو ثلاث التقديم وصار التقدير فأنت طلاق وتم الكلام ثم قال والطلاق في حال عزيمة المطلق عليه ثلاث فلم يكن في هذا الكلام ما يدل على أن هذا المطلق عزم على الثلاث فيقضى عليه بواحدة

وقد يمكن أيضا أن يرفع الثلاث والعزيمة معا فيكون التقدير فأنت طالق ثلاث والطلاق عزيمة فيلزم من ذلك ثلاث تطليقات والله أعلم

العلة الرابعة

وهي التصحيف وهذا أيضا باب عظيم الفساد في الحديث جدا وذلك أن كثيرا من المحدثين لا يضبطون الحروف ولكنهم يرسلونها ارسالا غير مقيدة ولا مثقفة اتكالا على الحفظ فاذا غفل المحدث عما كتب مدة من زمانه ثم احتاج الى قراءة ما كتب أو قرأه غيره فربما رفع المنصوب ونصب المرفوع كما قلنا فانقلبت المعاني الى أضدادها

وربما تصحف له الحرف بحرف آخر لعدم الضبط فيه فانعكس المعنى الى نقيض المراد به وذلك أن هذا الخط العربي شديد الاشتباه وربما لم يكن بين المعنيين المتضادين غير الحركة أو النقطة كقولهم مكرم بكسر الراء إذا كان فاعلا ومكرم بفتح الراء إذا كان مفعولا ورجل أفرع بالفاء إذا كان تام الشعر واقرع القاف لا شقر في رأسه وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرع

وقد جاءت من هذا الباب أشياء كثيرة طريفة عن المحدثين نحو ما يروى عن يزيد بن 26ب

هارون أنه روى كنا جلوسا حول بشر بن معاوية وانما هو حول سرير معاوية

وكما روى عبد الرزاق يقاتلون خور كرمان وانما هو خوز الزاي معجمة

وكما صحف شعبة التلب العنبري فرواه بثاء مثلثة مكسورة

(412/258)

ولام ساكنة وانما هو التلب بالتاء معجمة باثنتين وكسر التاء واللام وتشديد الباء على وزن

طمر ويدل عليه قول الشاعر . . .

ان التلب له عرس يمانية . . .

كأن فسوتها في البيت اعصار . . .

وروى بعضهم دخلت الجنة فرأيت فيها حبائل اللؤلؤ ولا وجه للحبائل ههنا لأن الحبائل عند

العرب الشباك التي يصاد بها الوحوش واحدتها حبالة ومن كلام العرب خش ذؤالة بالحبالة

وانما هو جنابذ اللؤلؤ والجنابذ جمع جنبذة وهي القبة

وهذا النوع كثير جدا وقد وضع فيه الدارقطني رحمه الله كتابا مشهورا سماه تصحيف

الحفاظ

ومن ظريف ما وقع منه في كتاب مسلم ومسنده الصحيح نحن يوم القيامة على كذا انظر وهذا شيء لا يتحصل له معنى وهكذا نجده في أكثر النسخ وانما هو نحن يوم القيامة على كوم والكوم جمع كومة وهو المكان المشرف فصحفه بعض النقلة فكتب نحن يوم القيامة على كذا فقرأ من قرأ فلم يفهم ما هو فكتب في طرة الكتاب انظر يأمر من قرأ الكتاب بالنظر فيه وينبهه علنه فوجده ثالث فظنه أنه من الكتاب فألحقه بمتنه

العلة الخامسة

وهي اسقاط شيء من الحديث لا يتم المعنى الا به وهذا النوع أيضا قد وردت منه أشياء كثيرة في الحديث كنحو ما رواه قوم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن ليلة الجن فقال ما شهدها منا أحد وروي عنه من طريق آخر أنه رأى قوما من الزط فقال هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن فهذا الحديث يدل على أنه شهدها والاول يدل على أنه لم يشهدها فالحديثان كما ترى متعارضان وانما أوجب التعارض بينهما أن الذي روى الحديث الأول أسقط منه كلمة رواها غيره وانما الحديث ما شهدها منا أحد غيري

(413/258)

العلة السادسة وهي أن ينقل المحدث الحديث ويغفل عن نقل 27أ السبب الموجبى له فيعرض من ذلك اشكال في الحديث أو معارضة لحديث آخر كنحو ما رواه قوم من أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالعرنيين الذين ارتدوا عن الإسلام وأغاروا على لقاح النبي فامر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل عيونهم وتركوا بالحرة يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا

وقد وردت عنه الروايات من طرق شتى أنه نهى عن المثلة وانما عرض هذا التعارض من أجل أن الذي روى الحديث الأول أغفل نقل سببه الذي أوجبه ورواه غيره فقال انما فعل بهم ذلك لأنهم مثلوا براعيه فجزاهم بمثل فعلهم ومن الفقهاء من يرى أن هذا كان في أول الإسلام قبل أن تنزل الحدود ثم نسخ

وقد ذهب بعض العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته الى أنه مما أغفل الناقل ذكر السبب الذي قاله من أجله

ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يلطم وجه عبده وهو يقول قبح الله وجهك ووجه من أشبهك فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا ضرب احدكم عبده فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته

قالوا فاهاء انما تعود على العبد فلما روى الراوي الحديث وأغفل رواية السبب اوهم ظاهره أنها تعود على الله سبحانه وتعالى تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

وهذا الذي قالوه ورووه غير معترض على رواية غيرهم من وجهين

أحدهما أنه قد جاء في حديث آخر خلق آدم على صورة الرحمن وجاء في حديث آخر رأيت ربي في أحسن صورة وهذا لا يسوغ معه شيء من الذي قالوه

والثاني أن الحديث له تأويل صحيح بخلاف ما ظنوه وقد تكلم فيه ابن قتيبة فلم يأت فيه بمقنع بل جاء بما لو سكت عنه لكان أجدى بما عليه

(414/258)

وقد تكلم فيه ابن فورك فأحسن كل الإحسان ونحن نذكر ما قال بأوجز ما يمكن ونزيد ما يتمم ذلك بحول الله تعالى فنقول ان الضمير في قوله على صورته يجوز أن يكون عائدا على آدم ويجوز أن يكون عائدا على الله تعالى فإذا كان عائدا على آدم فالغرض من الحديث الرد على الدهرية واليهود والقدرية وهذا من جوامع كلمه التي أوتيها صلى الله عليه وسلم

فوجه الرد على الدهرية من وجهين

أحدهما ان الدهرية قالت ان العالم لا أول له وأنه لا يجوز أن يتكون حيوان الا من حيوان آخر قبله فأعلمنا 27ب صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورته التي شوهد عليها ابتداء من غير أن يتكون في رحم كما يتكون الجنين علقة ثم مضغة حتى يتم خلقه

والثاني أن الدهرية تزعم أن للطبيعة والنفس الكلية فعلا في المحدثات المتكونة غير فعل الله

تعالى عن قولهم فأعلمنا أيضا أن الله تعالى خلقه على هيئته التي عليها وانفرد بذلك دون مشاركة من طبيعة ولا نفس

ووجه الرد منه على اليهود لعنهم الله أن اليهود يزعمون أن آدم في الدنيا كان على خلاف صورته في الجنة وأن الله تعالى لما أهبطه من جنته نقص قامته وغير خلقته فأعلمنا بكذبهم فيما يزعمون وأعلمنا أنه خلقه في أول أمره على صورته التي كان عليها عند هبوطه

ووجه الرد منه على القدرية أن القدرية زعمت أن افعال البشر مخلوقة لهم لا لله تعالى عن قولهم وهو نحو ما ذهبت اليه الدهرية من أن للنفس والطبيعة أفعالا غير فعل الله تعالى فأفادنا أيضا بطلان

قولهم وأعلمنا أن الله تعالى خلقه وخلق جميع أفعاله فهذا ما في الهاء من القول إذا كانت عائدة على آدم صلى الله عليه وسلم

(415/258)

واذا كانت عائدة على الله تعالى كانت اضافة صورة آدم اليه على وجه التشريف والتنويه والتخصيص لا على معنى آخر مما يسبق الى الوهم من معاني الإضافة فيكون كقولهم في الكعبة انها بيت الله وقد علمنا أن البيوت كلها لله عز وجل وكقوله وعباد الرحمن الذين

يمشون على الأرض هونا وقد علمنا أن جميع البشر من مؤمن وكافر عباده وانما خصصه بالإضافة الى الله تعالى دون غيره لأن الله تعالى شرفه بما لم يشرف به غيره وذلك أنه عز وجل شرف الحيوان على الجماد وشرف الإنسان على جميع الحيوان وشرف الإنبياء عليهم السلام على جميع نوع الإنسان وشرف آدم على جميع بنيه بأن خلقه دفعة من غير ذكر ولا أنثى ودون أن ينتقل من النطفة الى العلقة ومن العلقة الى المضغة وسائر أحوال الإنسان التي يتصرف فيها الى حين كماله ونسب خلقه الى نفسه دون سائر البشر فقال لما خلقت بيدي ونفخت فيه

من روحي وأسجد له ملائكته ولم يأمرهم بالسجود لغيره فنبهنا عليه السلام بإضافة صورته الى الله تعالى على هذه المنزلة التي تفرد بها دون غيره ويدل على صحة هذا التأونل قوله ونفخت فيه من روحي وقوله ولا أعلم ما في نفسك 28أ وقوله لما خلقت بيدي فكما لا تدل اضافة هذا الأشياء اليه على أن له نفسا وروحا ويدين فكذلك اضافة الصورة اليه لا تدل على أن له صورة وقد يجوز في اضافة الصورة الى الله تعالى وجه فيه غموض ودقة وذلك أن العرب تستعمل الصورة على وجهين

أحدهما الصورة التي هي شكل مخطط محدود بالجهات الست كقولك صورة زيد وصورة عمرو

والثاني يريدون به صفة الشيء الذي لا شكل له يحس ولا تخطيط ولا جهات محدوده

كقولك ما صورة أمرك وكيف كانت صورة قصتك يريدون بذلك الصفة فقد يجوز أن يكون معنى خلق آدم على صورته أي على صفته فيكون مصروفا الى المعنى الثاني الذي لا تحديد فيه

(416/258)

فإن قلت ما معنى هذه الصفة وكيف تلخيص القول فيها فالجواب أن معنى ذلك أن الله تعالى جعله خليفة في أرضه وجعل له عقلا يعلم به ويفكر ويسوس ويدبر ويأمر وينهي وسلط على جميع ما في البر والبحر وسخر له ما في السموات والأرض

وقد قال في نحو هذا بعض المحدثين يمدح بعض خلفاء بني أمية . . .

أمره من أمر من ملكه . . .

فاذا ما شاء عافى وابتلى . . .

فيكون معنى قولنا في أدم صلى الله عليه وسلم أنه خلق على صورة الله تعالى كمعنى قولنا فيه انه خليفة الله تعالى وهذه التأويلات كلها لا تقتضي تشبيها ولا تحديدا

فإن قلت كيف تصنع بالحديث المروي عنه صلى الله عليه وسلم رأيت ربي في أحسن صورة وهذا لا يمكنك فيه شيء من التأويل المتقدم ولا يصح لك حمله عليه فالجواب أن

هذا الحديث ورد بلفظ مشترك يحتمل معنيين

أحدهما أن يكون قوله في أحسن صورة راجعا الى الرائي لا الى المرئي فيكون معناه رأيت ربي وأنا في أحسن صورة

والثاني أن يكون قوله في أحسن صورة راجعا الى المرئي

وهو الله تعالى فيكون معناه رأيت ربي على احسن صفة فتكون الصورة بمعنى الصفة التي لا توجب تحديدا كما ذكرنا وهذا في العربية كقولك رأيت زيدا وأنا في الدار فيجوز أن يكون قولك في الدار لك 28ب كأنك قلت رأيت زيدا وأنا في الدار ويجوز أن يكون المعنى رأيب زيدا وهو في الدار وعلى هذا تقول رأيت زيدا قاعدا مائما ولقيت زيدا راكبين قال الشاعر . . .

فإذا لقيتك خاليين لتعلمن . . .

أيي وأيك فارس الاحزاب . . .

فإذا كان التقدير رأيت ربي وأنا في أحسن صورة كان معناه أن الله تعالى حسن صورته ونقله الى هيئة يمكنه معها رؤيته إذ كان البشر لا تمكنهم رؤية الله تعالى على الصورة التي هم عليها حتى ينقلوا الى صورة أخرى غير خورهم ألا تري أن المؤمنين يرون الله تعالى على الصورة التي هم عليها في الأخرة ولا يرونه في الدنيا لأن الله

تعالى ينقلهم عن صفاتهم الى صفاتهم الى صفات أخرى أعلى وأشرف فعجل الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة قبل يوم القيامة خصوصا دون البشر حتى رأه وشاهده والله يؤتي فضله من يشاء ويختص بكرامته من يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

وذا كان ذلك راجعا الى الله تعالى كان معناه أنه راى ربه على أحسن ما عوده من انعامه واحسانه واكرامه وامتنانه كما تقول للرجل كيف كانت صورة أمرك عند لقاء الملك فيقول خير صورة أعطاني وأنعم علي وأدناني من محل كرامته وأحسن الي

فهذان تأويلان صحيحان خارجان على أساليب كلام العرب دون تكلف ولا خروج من مستعمل الى تعسف

وقد جاء في بعض الحديث انها كانت رؤية في المنام فإذا كان الأمر كذلك كان التأويل واضحا لأنه لا ينكر رؤية الله تعالى في المنام

ورواه بعضهم رأيت ربي بكسر الباء وقالوا هو غلام كان لعثمان رآه في النوم ورواه آخرون رأيت رئيي والرئي ما يتراءى

للإنسان من ملك أو شيطان أرده بذلك أنه رأى جبريل عليهما السلام وبالله التوفيق لا رب غيره

العلة السابعة

وهي أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه كنحو ما روي من أن عائشة رضي الله عنها أخبرت أن أبا هريرة حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يكن الشؤم ففي ثلاث الدار والمرأة والفرس وهذا حديث معارض لقوله 29أ صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول وقد رويت عنه في أحاديث كثيرة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التطير فغضبت عائشة رضي الله عنها وقالت والله ما قال هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قط وانما قال كان أهل الجاهلية يقولون ان يكن الشؤم ففي ثلاث الدار والمرأة والفرس فدخل أبو هريرة فسمع آخر الحديث

(418/258)

ولم يسمع أوله وهذا غير منكر أن يعرض لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر في مجالسه الأخبار حكاية ويتكلم بما لا يريد به نهيا ولا أمرا ولا أن يجعله أصلا في دينه وشيئا يستن به وذلك معلوم من فعله ومشهور من قوله

العلة الثامنة

وهي نقل الحديث من الصحف دون لقاء الشيوخ والسماع من الأئمة وهذا باب أيضا

عظيم البلية والضرر في الدين فإن كثيرا من الناس يتسامحون فيه جدا وأكثرهم انما يعول على اجازة الشيخ له دون لقائه والضبط عليه ثم يأخذ بعد ذلك علمه من الصحف المسودة والكتب التي لا يعلم صحيحها من سقيمها وربما كانت مخالفة لرواية شيخه فيصحف الحروف ويبدل الألفاظ وينسب جميع ذلك الى شيخه ظالما له وقد صار علم أكثر الناس في زمننا هذا على هذه الصفة ليس بأيديهم من العلم الا أسماء الكتب وإنما ذكرت لك هذه العلل العارضة للحديث لأنها أصول لنقاد الحديث المهتبلين بمعرفة صحيحه من سقيمه فإذا ورد عليهم حديث بشع المسموع أو مخالف للمشهور نظروا أولا في سنده فإن وجدوا في نقلته

ورواته رجلا متهما ببعض تلك الوجوه التي ذكرتها لك استرابوا به ولم يجعلوه أصلا يعول عليه وان وجدوا رجاله الناقلين له ثقات مشهورين بالعدالة معروفين بالفقه والأمانة رجعوا الى التأويل والنظر فإن وجدوا له تأويلا يحمل عليه قبلوه ولم ينكروه وان لم يجدوا له تأويلا الا على استكراه شديد نسبوه الى غلط وقع فيه من بعض تلك الوجوه المتقدمة الذكر فهذه جملة القول في هذا الباب وبالله التوفيق والله أعلم

الباب السادس

في الخلاف العارض من قبل الاجتهاد والقياس

29 – ب هذا النوع انما يكون فيما يعدم فيه وجود نص من قرآن أو حديث فيفرغ الفقيه

عند ذلك الى استعمال القياس والنظر كما قال الشاعر . . .

إذا أعي الفقيه وجود نص . . .

تعلق لا محالة بالقياس . . .

والخلاف العارض من هذا الباب نوعان

أحدهما الخلاف الواقع بين المنكرين للاجتهاد والقياس والمثبتين له

(419/258)

والنوع الثاني خلاف يعرض بين أصحاب القياس في قياسهم كاختلاف المالكيين

والشافعيين والحنفيين فتعرض من ذلك أنواع من الخلاف عظيمة وهذا الباب أشهر من أن

نطيل

الباب السابع

في الخلاف العارض من قبل النسخ

الخلاف العارض من هذا النوع يتنوع أولا نوعين

أحدهما خلاف عارض بين من أنكر النسخ وبين من أثبته واثباته هو الصحيح وجميع أهل

السنه مثبتون له وانما خالف في ذلك من لا يلتفت الى خلافه لأنه بمنزلة دفع الضرورات

وانكار العيان

والنوع الثاني خلاف عارض بين القائلين بالنسخ وهذا النوع الثاني ينقسم ثلاثة أقسام

أحدهما اختلافهم في الأخبار هل يجوز أن فيها النسخ كما يجوز بالأمر والنهي أم لا

والثاني اختلافهم هل يجوز أن تنسخ السنة القرآن أم لا

والثالث اختلافهم في أشياء من القرآن والحديث فذهب بعضهم الى أنها نسخت وبعضهم الى أنها لم تنسخ

الباب الثامن

في الخلاف العارض من قبل الإباحة

هذا النوع من الخلاف يعرض من قبل أشياء وسع الله تعالى فيها على عباده وأباحها لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كاختلاف الناس في الأذان والتكبير على الجنائز وتكبير التشريق ووجوه القراءات السبع ونحو ذلك

فهذه أسباب الخلاف الواقع بين الأمة قد نبهت عليها وأرشدت قارئي كتابي هذا اليها وهذا الكتاب وان كان صغير الجرم يسير الحجم فإن فيه تنبيها على أشياء جليلة يحسن مسمعها ويحلو من نفس الذكي موقعها وأنا أستغفر الله من زلل ان كان عرض وأسأله عونا على ما به تعبد وفرض

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم أفضل التسليم كمل بحمد الله وحسن عونه . انتهى

انتهى ا هـ ﴿ الإنصاف / للبطليوسي صـ 25. 199 ﴾

(420/258)

وقال العلامة ولي الله الدهلوي فى كتابه

الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف

الحمد لله الذي بعث سيدنا محمدا صلوات الله عليه إلى الناس ليكون هاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ثم ألهم الصحابة والتابعين والفقهاء المجتهدين أن يحفظوا سير نبيهم طبقة بعد طبقة إلى أن تؤذن الدنيا بانقضاء ليتم النعم وكان على ما يشاء قديرا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي لا نبي بعده صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين

أما بعد فيقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ولي الله بن عبد الرحيم أتم الله تعالى عليهما نعمه في الأولى والأخرى إن الله تعالى ألقى في قلبي وقتا من الأوقات ميزانا أعرف به سبب كل اختلاف وقع في الملة المحمدية على صاحبها الصلوات والتسليمات وأعرف به ما هو الحق

عند الله وعند رسوله ومكنني من أن أبين ذلك بيانا لا يبقى معه شبهة ولا إشكال

ثم سئلت عن سبب اختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام الفقهية خاصة فانتدبت لبيان بعض ما فتح علي به ساعتئذ بقدر ما يسعه الوقت ويحيط به السائل فجاءت رسالة مفيدة في بابها وسميتها الانصاف في بيان أسباب الاختلاف

وحسبي الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ﷺ باب أسباب اختلاف الصحابة والتابعين في الفروع ﷺ

إعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدونا ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل بحث هؤلاء الفقهاء حيث يبينون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب كل شيء ممتازا عن الآخر بدليله ويفرضون الصور من صنائعهم ويتكلمون على تلك الصور المفروضة ويحدون ما يقبل الحد ويحصرون ما يقبل الحصر إلى غير ذلك

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتوضأ فيرى أصحابه وضوءه

(421/258)

فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن وذلك أدب وكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل وهذا كان غالب حاله صلى الله عليه وسلم ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن منهن ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ قال ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم

قال ابن عمر رضي الله عنه لا تسأل عما لم يكن فاني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن

قال القاسم

إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقرون

عن أشياء ما كنا ننقر عنها وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي ولو علمناها ما حل لنا أن نكتمها

وعن عمرو بن إسحاق قال لمن أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ممن سبقني منهم فما رأيت قوما أيسر سيرة ولا أقل تشديدا منهم

وعن عبادة بن نسي الكندي سئل عن امرأة ماتت مع قوم ليس لها ولي فقال أدركت أقواما ما كانوا يشددون تشديدكم ولا يسألون مسائلكم أخرج هذه الآثار الدارمي

وكان صلى الله عليه وسلم يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم وترفع إليه القضايا فيقضي فيها ويرى الناس يفعلون معروفا فيمدحه أو منكرا فينكر عليه وما كل ما أفتى به مستفتيا عنه أو قضى به في قضية أو أنكره على فاعله كان في الاجتماعات

ولذلك كان الشيخان أبو بكر وعمر إذا لم يكن لهما علم في المسألة يسألان الناس عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو بكر رضي الله عنه ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها شيئا يعني الجدة وسأل الناس فلما صلى الظهر

(422/258)

قال أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجدة شيئا فقال المغيرة بن شعبة أنا قال ماذا قال أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم سدسا قال أيعلم ذلك أحد غيرك فقال محمد بن مسلمة صدق فأعطاها أبو بكر السدس

وقصة سؤال عمر الناس في الغرة ثم رجوعه إلى خبر المغيرة وسؤاله إياهم في الوباء ثم رجوعه إلى خبر عبد

الرحمن بن عوف وكذا رجوعه في قصة المجوس إلى خبره وسرور عبد الله بن مسعود بخبر معقل بن يسار

لما وافق رأيه وقصة رجوع أبي موسى عن باب عمر وسؤاله عن الحديث وشهادة أبي سعيد له وأمثال ذلك كثيرة معلومة مروية في الصحيحين والسنن

وبالجملة فهذه كانت عادته الكريمة صلى الله عليه وسلم فرأى كل صحابي ما يسره الله له من عباداته وفتاواه وأقضيته فحفظها وعقلها وعرف لكل شيء وجها من قبل حفوف القرائن به فحمل بعضها على الإباحة وبعضها على الاستحباب وبعضها على النسخ لأمارات وقرائن كانت كافية عنده ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والثلج من غير التفات إلى طرق الاستدلال كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم وتثلج صدورهم بالتصريح والتلويح والإيماء من حيث لا يشعرون

فانقضى عصره الكريم وهم على ذلك ثم إنهم تفرقوا في البلاد وصار كل واحد مقتدى ناحية من النواحي فكثرت الوقائع ودارت المسائل فاستفتوا فيها فأجاب كل واحد حسب ما حفظه أو استنبطه وإن لم يجد فيما حفظه

أو استنبطه ما يصلح للجواب اجتهد برأيه وعرف العلة التي أدار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها الحكم في منصوصاته فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألو جهدا في موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم على ضروب

1 منها أن صحابيا سمع حكما في قضية أو فتوى ولم يسمعه الآخر فاجتهد برأيه في ذلك وهذا على وجوه

(423/258)

أحدها أن يقع اجتهاده موافق الحديث مثاله ما رواه النسائي وغيره أن ابن مسعود رضي الله عنه سئل عن امرأة مات عنها زوجها ولم يفرض لها فقال لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي في ذلك فاختلفوا عليه شهرا وألحوا فاجتهد برأيه وقضى بأن لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقال معقل بن يسار فشهد بأنه صلى الله عليه وسلم قضى بمثل ذلك في امرأة منهم ففرح بذلك ابن مسعود فرحة لم يفرح مثلها قط بعد الإسلام

وثانيها أن يقع بينهما المناظرة ويظهر الحديث بالوجه الذي يقع به غالب الظن فيرجع عن اجتهاده إلى المسموع

مثاله ما رواه الأئمة من أن أبا هريرة رضي الله عنه كان

من مذهبه أنه من أصبح جنبا فلا صوم له حتى أخبرته بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف مذهبه فرجع

وثالثها أن يبلغه الحديث ولكن لا على الوجه الذي يقع به غالب الظن فلم يترك اجتهاده بل طعن في الحديث

مثاله ما رواه أصحاب الأصول من أن فاطمة بنت قيس شهدت عند عمر بن الخطاب بأنها كانت مطلقة الثلاث فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى فرد عمر شهادتها وقال لا نترك كتاب الله بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت لها النفقة والسكنى

وقالت عائشة رضي الله عنها يا فاطمة ألا تتقي الله يعني في قولها لا سكنى ولا نفقة

ومثال آخر روى الشيخان أنه كان من مذهب عمر ابن الخطاب أن التيمم لا يجزىء الجنب الذي لا يجد الماء فروى عنده عمار أنه كان معه في سفر فأصابته جنابة ولم يجد ماء فتمعك في التراب فذكر ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إنما كان يكفيك أن تفعل هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بهما وجهه ويديه فلم يقبل عمر ولم ينهض عنده حجة تقاوم ما رآه فيه حتى استفاض الحديث في الطبقة الثانية من طرق كثيرة واضمحل

وهم القادح فأخذوا به

ورابعها أن لا يصل إليه الحديث أصلا

(424/258)

مثاله ما أخرج مسلم أن ابن عمر كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن

فسمعت عائشة رضي الله عنها بذلك فقالت يا عجبا لابن عمر هذا يأمر النساء أن

ينقضن رؤوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن

لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وما أزيد على أن

افرغ على رأسي ثلاث افراغات

مثال آخر ما ذكره الزهري من أن هندا لم تبلغها رخصة

رسول الله صلى الله عليه وسلم في المستحاضة فكانت تبكي لأنها كانت لا تصلي

2 ومن تلك الضروب ان يروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل فعلا فحمله بعضهم

على القربة وبعضهم على الإباحة

مثاله ما رواه أصحاب الأصول في قصة التحصيب أي النزول بالأبطح عند النفر من

عرفات نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم به فذهب أبو هريرة وابن عمر إلى أنه على

وجه القربة فجعلوه من سنن الحج وذهبت عائشة رضي الله عنها وابن عباس إلى أنه كان على وجه الاتفاق وليس من السنن

ومثال آخر ذهب الجمهور إلى أن الرمل في الطواف سنة وذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى أنه إنما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق لعارض عرض وهو قول المشركين

حطمتهم حمى يثرب وليس بسنة

3 ومنها اختلاف الوهم

مثاله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حج فرآه الناس فذهب بعضهم إلى أنه كان متمتعا وبعضهم إلى أنه كان قارنا وبعضهم إلى أنه كان مفردا

مثال آخر أخرج أبو داود عن سعيد بن جبير أنه قال قلت لعبد الله بن عباس يا أبا العباس عجبت لاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في إهلال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أوجب فقال إني لأعلم الناس بذلك إنها إنما كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة واحدة فمن هناك اختلفوا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجا فلما صلى في مسجده بذي الحليفة ركعتين أوجب في مجلسه وأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه فسمع ذلك منه أقوام فحفظوه عنه

ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه أقوام وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالا فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل فقالوا إنما أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استقلت به ناقته

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما علا على شرف البيداء أهل وأدرك ذلك منه أقوام فقالوا إنما أهل حين علا على شرف البيداء وأيم الله لقد أوجب في مصلاة وأهل حين استقلت به ناقته وأهل حين علا على شرف البيداء

4 ومنها اختلاف السهو والنسيان

مثاله ما روي أن ابن عمر كان يقول اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرة في رجب فسمعت بذلك عائشة فقضت عليه بالسهو

5 ومنها اختلاف الضبط

مثاله ما روى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فقضت عائشة عليه بأنه وهم بأخذ الحديث على هذا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية يبكي عليها أهلها فقال إنهم يبكون عليها وإنها تعذب في قبرها فظن أن العذاب معلول للبكاء وظن الحكم عاما على كل ميت

ومنها اختلافهم في علة الحكم

مثاله القيام للجنازة فقال قائل لتعظيم الملائكة فيعم

المؤمن والكافر وقال قائل لهول الموت فيعمهما وقال قائل مر على رسول الله صلى الله عليه

وسلم بجنازة يهودي فقام لها كراهة أن تعلو فوق رأسه فيخص الكافر

7 ومنها اختلافهم في الجمع بين المختلفين

مثاله رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتعة عام خيبر ثم نهى عنها ثم رخص

فيها عام أوطاس ثم نهى عنها فقال ابن عباس كانت الرخصة للضرورة والنهي لانقضاء

الضرورة والحكم باق على ذلك وقال الجمهور كانت الرخصة اباحة والنهي نسخا لها

(426/258)

مثال آخر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استقبال القبلة في الاستنجاء فذهب

قوم إلى عموم هذا الحكم وكونه غير منسوخ ورآه جابر يبول قبل أن يتوفى بعام مستقبل القبلة

فذهب إلى أنه نسخ للنهي المتقدم ورآه ابن عمر قضى حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام

فرد به قولهم وجمع قوم بين الروايتين فذهب الشعبي وغيره إلى أن النهي مختص بالصحراء

فاذا كان في المراحيض فلا بأس بالاستقبال والاستدبار وذهب قوم إلى أن القول عام محكم

والفعل يحتمل كونه خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا ينتهض ناسخا ولا مخصصا

وبالجملة فاختلفت مذاهب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهم التابعون كل واحد ما تيسر له فحفظ ما سمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب الصحابة وعقلها وجمع

المختلف على ما تيسر له ورجح بعض الأقوال على بعض واضمحل في نظرهم بعض الأقوال وان كان مأثورا عن كبار الصحابة كالمذهب المأثور عن عمر وابن مسعود في تيمم الجنب اضمحل عندهم لما استفاض من الأحاديث عن عمار وعمران بن حصين وغيرهما فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله وانتصب في كل بلد إمام مثل

سعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله بن عمر في المدينة وبعدهما الزهري والقاضي يحيى بن سعيد وربيعة بن عبد الرحمن فيها

وعطاء بن أبي رباح بمكة

وإبراهيم النخعي والشعبي بالكوفة

والحسن البصري بالبصرة

وطاوس بن كيسان باليمن

ومكحول بالشام

فأظمأ الله أكبادا إلى علومهم فرغبوا فيها وأخذوا عنهم الحديث وفتاوى الصحابة

وأقاويلهم ومذاهب هؤلاء العلماء وتحقيقاتهم من عند أنفسهم واستفتى منهم المستفتون

ودارت المسائل بينهم ورفعت إليهم الأقضية

وكان سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وأمثالهما جمعوا

أبواب الفقه أجمعها وكان لهم في كل باب أصول تلقوها من السلف

(427/258)

وكان سعيد وأصحابه يذهبون إلى أن أهل الحرمين أثبت الناس في الفقه وأصل مذهبهم

فتاوى عمر وعثمان وقضاياهما وفتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وقضايا

قضاة المدينة فجمعوا من ذلك ما يسره الله لهم ثم نظروا فيها نظر اعتبار وتفتيش فما كان

منها مجمعا عليه بين علماء المدينة فانهم يأخذون عليه بنواجذهم وما كان فيه اختلاف

عندهم فانهم يأخذون بأقواها وأرجحها إما لكثرة من ذهب إليه منهم أو لموافقته لقياس

قوي أو تخريج صريح من الكتاب والسنة أو نحو ذلك وإذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب

المسألة خرجوا من كلامهم وتتبعوا الإيماء والاقتضاء فحصل لهم مسائل كثيرة في كل باب

باب وكان إبراهيم وأصحابه يرون أن عبد الله بن مسعود وأصحابه أثبت الناس في الفقه

كما قال علقمة لمسروق هل أحد منهم أثبت من عبد الله وقول أبي حنيفة رضي الله 2

عنه للأوزاعي إبراهيم أفقه من سالم ولولا فضل الصحبة لقلت إن علقمة أفقه من عبد الله بن عمر وعبد الله هو عبد الله وأصل مذهبه فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا على رضي الله عنه وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة فجمع من ذلك ما يسره الله ثم صنع في آثارهم كما صنع أهل المدينة في آثار أهل المدينة وخرج كما خرجوا فتلخص له مسائل الفقه في كل باب باب

وكان سعيد بن المسيب لسان فقهاء المدينة وكان أحفظهم لقضايا عمر ولحديث أبي هريرة وإبراهيم لسان فقهاء الكوفة فإذا تكلما بشيء ولم ينسباه إلى أحد فانه في الأكثر منسوب إلى أحد من السلف صريحا أو إيماء ونحو ذلك فاجتمع عليهما فقهاء بلدهما وأخذوا عنهما وعقلوه وخرجوا عليه والله أعلم

ﭫ باب أسباب اختلاف مذاهب الفقهاء ﭬ

(428/258)

إعلم أن الله تعالى أنشأ بعد عصر التابعين نشئا من حملة العلم إنجازا لما وعده صلى الله عليه وسلم حيث قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فأخذوا عمن اجتمعوا معه

منهم صفة الوضوء والغسل والصلاة والحج والنكاح والبيوع وسائر ما يكثر وقوعه ورووا حديث النبي صلى الله عليه وسلم وسمعوا قضايا قضاة البلدان وفتاوى مفتيها وسألوا عن المسائل واجتهدوا في ذلك كله ثم صاروا كبراء قوم ووسد اليهم الأمر فنسجوا على منوال شيوخهم ولم يألوا في تتبع الإيماءات والاقتضاءات فقضوا وأفتوا ورووا وعلموا

وكان صنيع العلماء في هذه الطبقة متشابها وحاصل صنيعهم

أن يتمسك بالمسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرسل جميعا ويستدل بأقوال الصحابة والتابعين علما منهم أنها إما أحاديث منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اختصروها فجعلوها موقوفة كما قال إبراهيم وقد روى حديث نهى رسول الله عن المحاقلة والمزابنة فقيل له أما تحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا غير هذا قال بلى ولكن أقول قال عبد الله قال علقمة أحب إلي

وكما قال الشعبي وقد سئل عن حديث وقيل إنه يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال لا على من دون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلينا فان كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبي صلى الله عليه وسلم أو يكون استنباطا منهم من النصوص أو اجتهادا منهم بآرائهم وهم أحسن صنيعا في كل ذلك ممن يجيء بعدهم وأكثر إصابة وأقدم زمانا وأوعى علما فتعين العمل بها

إلا إذا اختلفوا وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف قولهم مخالفة ظاهرة

وأنه إذا اختلفت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة رجعوا إلى أقوال الصحابة فان قالوا بنسخ بعضها أو بصرفه عن ظاهره أو لم يصرحوا بذلك ولكن اتفقوا على تركه وعدم القول بموجبه فإنه كإبداء علة فيه أو الحكم بنسخه أو تأويله اتبعوهم في كل ذلك وهو قول مالك في حديث ولوغ الكلب جاء هذا الحديث ولكن لا أدري ما حقيقته حكاه ابن الحاجب في مختصر الأصول يعني لم أر الفقهاء يعملون به

وإنه إذا اختلفت مذاهب الصحابة والتابعين في مسألة فالمختار عند كل عالم مذهب أهل بلده وشيوخه لأنه أعرف بصحيح أقاويلهم من السقيم وأوعى للأصول المناسبة لها وقلبه أميل إلى فضلهم وتبحرهم فمذهب عمر وعثمان وعائشة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وأصحابهم مثل سعيد بن المسيب فانه كان أحفظهم لقضايا عمر وحديث أبي هريرة ومثل عروة وسالم وعكرمة وعطاء

ابن يسار وقاسم وعبيد الله بن عبد الله والزهري ويحيى بن سعيد وزيد بن أسلم وربيعة وأمثالهم أحق بالأخذ من غيره عند أهل المدينة لما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل المدينة ولأنها مأوى الفقهاء ومجمع العلماء في كل عصر ولذلك ترى مالكا يلازم

محجتهم وقد اشتهر عن مالك أنه متمسك بإجماع أهل المدينة وعقد البخاري بابا في الأخذ بما اتفق عليه الحرمان

ومذهب عبد الله بن مسعود وأصحابه وقضايا علي وشريح والشعبي وفتاوى إبراهيم أحق بالأخذ عند أهل الكوفة من غيره وهو قول علقمة حين مال مسروق إلى قول زيد بن ثابت في التشريك قال هل أحد منهم أثبت من عبد الله فقال لا ولكن رأيت زيد بن ثابت وأهل المدينة يشركون

فان اتفق أهل البلد على شيء أخذوا عليه بالنواجذ وهو الذي يقول في مثله مالك السنة التي لا اختلاف فيها عندنا كذا وكذا وإن اختلفوا أخذوا بأقواها وأرجحها إما لكثرة القائلين به أو لموافقته لقياس قوي أو تخريج من الكتاب والسنة وهو الذي يقول في مثله مالك هذا أحسن ما سمعت

(430/258)

فاذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من

كلامهم وتتبعوا الايماء والاقضاء

وألهموا في هذه الطبقة التدوين فدون مالك ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب بالمدينة

وابن جريج وابن عيينة بمكة والثوري بالكوفة والربيع بن صبيح بالبصرة وكلهم مشوا على هذا النهج الذي ذكرته

ولما حج المنصور قال لمالك قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثم أبعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ودانوا به من اختلاف الناس فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم

وتحكى نسبة هذه القصة إلى هارون الرشيد وأنه شاور مالكا في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقال لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل سنة مضت قال وفقك الله يا أبا عبد الله حكاه السيوطي رحمه الله تعالى

وكان مالك رضي الله عنه أثبتهم في حديث المدنيين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوثقهم إسنادا وأعلمهم بقضايا عمر وأقاويل عبد الله بن عمر وعائشة وأصحابهم من الفقهاء السبعة وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى فلما وسد إليه الأمر

حدث وأفتى وأفاد وأجاد وعليه انطبق قول النبي صلى الله عليه وسلم يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة على ما قاله ابن عيينة

وعبد الرزاق وناهيك بهما فجمع أصحابه رواياته ومختاراته ولخصوها وحرروها وشرحوها وخرجوا عليها وتكلموا في أصولها ودلائلها وتفرقوا إلى المغرب ونواحي الأرض فنفع الله بهم كثيرا من خلقه وإن شئت أن تعرف حقيقة ما قلناه من أصل مذهبه فانظر في كتاب الموطأ تجده كما ذكرنا

(431/258)

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ألزمهم بمذهب إبراهيم وأقرانه لا يجاوزه إلا ما شاء الله وكان عظيم الشأن في التخريج على مذهبه دقيق النظر في وجوه التخريجات مقبلا على الفروع أتم اقبال وان شئت أن تعلم حقيقة ما قلناه فلخص أقوال ابراهيم من كتاب الآثار لمحمد رحمه الله وجامع عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ثم قايسه بمذهبه تجده لا يفارق تلك المحجة إلا في مواضع يسيرة وهو في تلك اليسيرة أيضا لا يخرج عما ذهب إليه فقهاء الكوفة

وكان أشهر أصحابه ذكرا أبو يوسف تولى قضاء القضاة أيام هارون الرشيد فكان سببا لظهور مذهبه والقضاء به في أقطار العراق وخراسان وما وراء النهر وكان أحسنهم تصنيفا وألزمهم درسا محمد بن الحسن فكان من خبره أنه تفقه على أبي حنيفة وأبي

يوسف ثم خرج إلى المدينة فقرأ

الموطأ على مالك ثم رجع إلى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة فان وافق منها وإلا فان رأى طائفة من الصحابة والتابعين ذاهبين إلى مذهب أصحابه فكذلك وإن وجد قياسا ضعيفا أو تخريجا لينا يخالفه حديث صحيح مما عمل به الفقهاء أو يخالفه عمل أكثر العلماء تركه إلى مذهب من مذاهب السلف مما يراه أرجح ما هناك وهما أي أبو يوسف ومحمد لا يزالان على محجة ابراهيم ما أمكن لهما كما كان أبو حنيفة رحمه الله يفعل ذلك وإنما كان اختلافهم في أحد شيئين

إما أن يكون لشيخهما تخريج على مذهب إبراهيم يزاحمانه فيه أو يكون هناك لابراهيم ونظرائه أقوال مختلفة يخالفان شيخهما في ترجيح بعضهما على بعض فصنف محمد رحمه الله وجمع رأي هؤلاء الثلاثة ونفع كثيرا من الناس فتوجه أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه إلى تلك التصانيف تلخيصا وتقريبا أو شرحا أو تخريجا أو تأسيسا أو استدلالا ثم تفرقوا إلى خراسان وما وراء النهر فسمي ذلك مذهب أبي حنيفة

(432/258)

وإنما عد مذهب أبي حنيفة مع مذهب أبي يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى واحدا مع أنهما مجتهدان مطلقان مخالفتهما غير قليلة في الأصول والفروع لتوافقهم في هذا الأصل ولتدوين مذاهبهم جميعا في المبسوط والجامع الكبير

ونشأ الشافعي رضي الله عنه في أوائل ظهور المذهبين وترتيب أصولهما وفروعهما فنظر في صنيع الأوائل فوجد فيه أمورا كبحت عنانه عن الجريان في طريقهم وقد ذكرها في أوائل كتابه الأم

1 منها أنه وجدهم يأخذون بالمرسل والمنقطع فيدخل فيهما الخلل فانه إذا جمع طرق الحديث يظهر أنه كم من مرسل لا أصل له وكم من مرسل يخالف مسندا فقرر ألا يأخذ بالمرسل إلا عند وجود شروط وهي مذكورة في كتب الأصول

2 ومنها أنه لم تكن قواعد الجمع بين المختلفات مضبوطة عندهم فكان يتطرق بذلك خلل في مجتهداتهم فوضع لها أصولا ودونها في كتاب وهذا أول تدوين كان في أصول الفقه مثاله ما بلغنا أنه دخل على محمد بن الحسن وهو يطعن على أهل المدينة في قضائهم بالشاهد الواحد مع اليمين ويقول هذا زيادة على كتاب الله فقال الشافعي أثبت عندك أنه لا

تجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد

قال نعم قال فلم قلت إن الوصية للوارث لا تجوز لقوله صلى الله عليه وسلم ألا لا وصية

لوارث

وقد قال الله تعالى ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ الآية وأورد عليه أشياء

من هذا القبيل فانقطع كلام محمد بن الحسن

3 ومنها أن بعض الأحاديث الصحيحة لم تبلغ علماء التابعين ممن وسد إليهم الفتوى

فاجتهدوا بآرائهم أو اتبعوا العموميات أو اقتدوا بمن مضى من الصحابة فأفتوا حسب ذلك

ثم ظهرت بعد ذلك في الطبقة الثالثة فلم يعملوا بها ظنا منهم أنها تخالف عمل أهل مدينتهم

وسنتهم التي لا اختلاف لهم فيها وذلك قادح في الحديث أو علة مسقطة له

أو لم تظهر في الثالثة وإنما ظهرت بعد ذلك عندما أمعن أهل الحديث في جمع طرق الحديث

ورحلوا إلى أقطار الأرض وبحثوا عن حملة العلم

(433/258)

فكثير من الأحاديث لا يرويه من الصحابة إلا رجل أو

رجلان ولا يرويه عنه أو عنهما إلا رجل أو رجلان وهلم جرا فخفي على أهل الفقه وظهر

في عصر الحفاظ الجامعين لطرق الحديث

وكثير من الأحاديث رواه أهل البصرة مثلا وسائر الأقطار في غفلة عنه فبين الشافعي رحمه

الله تعالى أن العلماء من الصحابة والتابعين لم يزل شأنهم أنهم يطلبون الحديث في المسألة فاذا لم يجدوا تمسكوا بنوع آخر من الاستدلال ثم إذا ظهر عليهم الحديث بعد رجعوا عن اجتهادهم إلى الحديث فاذا كان الأمر على ذلك لا يكون عدم تمسكهم 2 بالحديث قدحا فيه اللهم إلا إذا بينوا العلة القادحة

مثاله حديث القلتين فانه حديث صحيح روي بطرق كثيرة معظمها ترجع إلى نسخة الوليد أو أبي الوليد بن كثير عن محمد بن جعفر بن الزبير أو محمد بن عباد بن جعفر عن عبيد الله بن عبد الله وكلاهما عن ابن عمر ثم تشعبت الطرق بعد ذلك

وهذان وإن كانا من الثقات لكنهما ليسا ممن وسد إليهم الفتوى وعول الناس عليهم فلم يظهر الحديث في عصر

سعيد بن المسيب ولا في عصر الزهري ولم يمش عليه المالكية ولا الحنفية فلم يعملوا به وعمل به الشافعي

وحديث خيار المجلس فانه حديث صحيح روي بطرق كثيرة وعمل به ابن عمر وأبو هريرة من الصحابة

ولم يظهر على الفقهاء السبعة ومعاصريهم فلم يكونوا يقولون به فرأى مالك وأبو حنيفة أن هذه علة قادحة في الحديث وعمل به الشافعي

4 ومنها أن أقوال الصحابة جمعت في عصر الشافعي فتكثرت واختلفت وتشعبت ورأى

كثيرا منها يخالف الحديث الصحيح حيث لم يبلغهم ورأى السلف لم يزالوا يرجعون في مثل ذلك إلى الحديث فترك التمسك بأقوالهم ما لم يتفقوا وقال هم رجال ونحن رجال

5 ومنها أنه رأى قوما من الفقهاء يخلطون الرأي الذي لم يسوغه الشرع بالقياس الذي أثبته فلا يميزون واحدا منهما من الآخر ويسمونه تارة بالاستحسان وأعني بالرأي

(434/258)

أن ينصب مظنة حرج أو مصلحة علة لحكم وإنما القياس أن تخرج العلة من الحكم المنصوص ويدار عليها الحكم فأبطل هذا النوع أتم إبطال وقال من استحسن فإنه أراد أن يكون شارعا حكاه ابن الحاجب في مختصر الأصول

مثاله رشد اليتيم أمر خفي فأقاموا مظنة الرشد وهو بلوغ خمس وعشرين سنة مقامة وقالوا إذا بلغ اليتيم هذا العمر سلم إليه ماله قالوا هذا استحسان والقياس ألا يسلم إليه وبالجملة فلما رأى الشافعي في صنيع الأوائل مثل هذه الأمور أخذ الفقه من الرأس فأسس الأصول وفرع الفروع وصنف الكتب فأجاد وأفاد واجتمع عليها الفقهاء وتصرفوا اختصارا وشرحا واستدلالا وتخريجا ثم تفرقوا في البلدان فكان هذا مذهب الشافعي رحمه الله تعالى

ﮊ باب أسباب الاختلاف بين أهل الحديث وأصحاب الرأي ﮋ

إعلم أنه كان من العلماء في عصر سعيد بن المسيب وإبراهيم والزهري وفي عصر مالك وسفيان وبعد ذلك قوم يكرهون الخوض بالرأي ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون منها بدا وكان أكبر همهم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عبد الله بن مسعود عن شيء فقال إني لأكره أن أحل لك شيئا حرمه الله عليك أو أحرم ما أحله الله لك وقال معاذ بن جبل يا أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله فانه لا ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد وروي نحو ذلك عن عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود في كراهة التكلم فيما لم ينزل وقال ابن عمر لجابر بن زيد

(435/258)

إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية فانك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت وقال أبو النضر لما قدم أبو سلمة البصرة أتيته أنا والحسن فقال للحسن أنت الحسن ما كان أحد بالبصرة أحب إلي لقاء منك وذلك أنه بلغني أنك تفتي برأيك فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب منزل وقال ابن المنكدر إن العالم يدخل فيما بين الله وبين عباده فليطلب لنفسه المخرج وسئل الشعبي كيف

كنتم تصنعون إذا سئلتم قال على الخبير وقعت كان إذا سئل الرجل قال لصاحبه أفتهم فلا يزال حتى يرجع إلى الأول وقال الشعبي ما حدثوك هؤلاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ به وما قالوه برأيهم فألقه في الحش أخرج هذه الآثار عن آخرها الدارمي فوقع شيوع تدوين الحديث والأثر في بلدان الإسلام وكتابة الصحف والنسخ حتى قل من يكون من أهل الرواية إلا كان له تدوين أو صحيفة أو نسخة من حاجتهم بموقع عظيم فطاف من أدرك من عظمائهم ذلك الزمان بلاد الحجاز والشام والعراق ومصر واليمن وخراسان وجمعوا الكتب وتتبعوا النسخ وأمعنوا في التفحص عن غريب

(436/258)

الحديث ونوادر الأثر فاجتمع باهتمام أولئك من الحديث والآثار ما لم يجتمع لأحد قبلهم وتيسر لهم ما لم يتيسر لأحد قبلهم وخلص إليهم من طرق الأحاديث شيء كثير حتى كان لكثير من الأحاديث عندهم مائة طريق فما فوقها فكشف بعض الطرق ما استتر في بعضها الآخر وعرفوا محل كل حديث من الغرابة والاستفاضة وأمكن لهم النظر في المتابعات والشواهد وظهر عليهم أحاديث صحيحة كثيرة لم تظهر على أهل الفتوى من قبل قال الشافعي رحمه الله تعالى لأحمد أنتم أعلم بالأخبار الصحيحة منا فاذا كان خبر صحيح

فأعلموني حتى أذهب إليه كوفيا كان أو بصريا أو شاميا حكاه ابن الهمام وذلك لأنه كم من حديث صحيح لا يرويه إلا أهل بلد خاصة كأفراد الشاميين والعراقيين أو أهل بيت خاصة كنسخة بريد عن أبي بردة عن أبي موسى ونسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أو كان الصحابي مقلا خاملا لم يحمل عنه إلا شرذمة قليلون فمثل هذه الأحاديث يغفل عنها عامة أهل الفتوى واجتمعت عندهم آثار فقهاء كل بلد من الصحابة والتابعين وكان الرجل فيما قبلهم لا يتمكن إلا من جمع حديث بلده وأصحابه وكان من قبلهم يعتمدون في معرفة أسماء الرجال ومراتب عدالتهم على ما يخلص إليهم من مشاهدة الحال وتتبع القرائن وأمعن هذه الطبقة في هذا الفن وجعلوه شيئًا مستقلا بالتدوين والبحث وناظروا في الحكم بالصحة وغيرها

(437/258)

فانكشف عليهم بهذا التدوين والمناظرة ما كان خفيا من حال الاتصال والانقطاع وكان سفيان ووكيع وأمثالهما يجتهدون غاية الاجتهاد فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل إلا من دون الألف حديث كما ذكره أبو داود السجستاني في رسالته إلى أهل مكة وكان أهل هذه الطبقة يروون أربعين ألف حديث فما يقرب منها بل صح عن البخاري أنه

اختصر صحيحه من ستمائة ألف حديث وعن أبي داود أنه اختصر سننه من خمسمائة ألف حديث وجعل أحمد مسنده ميزانا يعرف به حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فما وجد فيه ولو بطريق واحد من طرقه فله أصل وإلا فلا أصل له وكان رؤوس هؤلاء عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وأبو بكر بن أبي شيبة ومسدد وهناد وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه والفضل بن دكين وعلي بن المديني وأقرانهم وهذه الطبقة هي الطراز الأول من طبقات المحدثين فرجع المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ومعرفة مراتب الأحاديث إلى الفقه فلم يكن عندهم من الرأي أن يجمع على تقليد رجل ممن مضى مع ما يرون من الأحاديث والآثار المناقضة في كل مذهب من تلك المذاهب فأخذوا يتتبعون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها في نفوسهم وأنا أبينها لك

(438/258)

في كلمات يسيرة كان عندهم إنه إذا وجد في المسألة قرآن ناطق فلا يجوز التحول منه إلى غيره وإذا كان القرآن محتملا لوجوه فالسنة قاضية عليه فاذا لم يجدوا في كتاب الله أخذوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان مستفيضا دائرا بين الفقهاء أو يكون

مختصا بأهل بلد أو أهل بيت أو بطريق خاصة وسواء عمل به الصحابة والفقهاء أو لم يعملوا به ومتى كان في المسألة حديث فلا يتبع فيها خلافه أثرا من الآثار ولا اجتهاد أحد من المجتهدين وإذا أفرغوا جهدهم في تتبع الأحاديث ولم يجدوا في المسألة حديثا أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتابعين ولا يتقيدون بقوم دون قوم ولا بلد دون بلد كما كان يفعل من قبلهم فان اتفق جمهور الخلفاء والفقهاء على شيء فهو المتبع وإن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم علما أو أورعهم ورعا أو أكثرهم ضبطا أو ما اشتهر عنهم فان وجدوا شيئا يستوي فيه قولان فهي مسألة ذات قولين فان عجزوا عن ذلك تأملوا في عمومات الكتاب والسنة وإيماآتهما واقتضاآتهما وحملوا نظير المسألة عليها في الجواب إذ كانتا متقاربتين بادي الرأي لا يعتمدون في ذلك على قواعد من الأصول ولكن على ما يخلص إلى الفهم ويثلج به الصدر كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة ولا حالهم ولكن اليقين الذي يعقبه في قلوب الناس كما نبهنا على ذلك في بيان حال الصحابة وكانت هذه الأصول مستخرجة من صنيع الأوائل وتصريحاتهم وعن ميمون بن

(439/258)

مهران قال كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر سنة قضى بها فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء فربما اجتمع إليه النفر كلهم بذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا علم نبينا فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فاذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به

وعن شريح أن عمر بن الخطاب كتب إليه إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال فان جاءك ما ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيرا لك

وعن عبد الله بن مسعود قال أتى علينا زمان لسنا نقضي

ولسنا هنالك وإن الله قد قدر من الأمر أن قد بلغنا ما ترون فمن عرض له قضاء بعد اليوم فليقض فيه بما في كتاب الله عز وجل فان جاءه ما ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن جاءه ما ليس في كتاب الله ولم يقض به رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقض فيه بما قضى به الصالحون ولا يقل إني أخاف وإني أرى فان الحرام بين والحلال بين وبين ذلك أمور مشتبهة فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك وكان ابن عباس إذا سئل عن الأمر فإن كان في القرآن أخبر به وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر به فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر وإن لم يكن قال فيه برأيه

وعن ابن عباس أما تخافون أن تعذبوا أو يخسف بكم أن تقولوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فلان

وعن قتادة قال حدث ابن سيرين رجلا بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل قال فلان كذا وكذا فقال ابن سيرين أحدثك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتقول قال فلان كذا وكذا

وعن الأوزاعي قال كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأي لأحد في كتاب الله وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رأي لأحد في سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن الأعمش قال كان إبراهيم يقول يقوم عن

يساره فحدثته عن سميع الزيات عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامه عن يمينه فأخذ به

وعن الشعبي جاءه رجل يسأله عن شيء فقال كان ابن مسعود يقول فيه كذا وكذا قال أخبرني أنت برأيك فقال ألا تعجبون من هذا أخبرته عن ابن مسعود ويسألني عن رأيي وديني عندي أثر من ذلك والله لأن أتغنى بأغنية أحب إلي من أن أخبرك برأيي أخرج هذه الآثار كلها الدارمي

(441/258)

وأخرج الترمذي عن أبي السائب قال كنا عند وكيع فقال لرجل ممن ينظر في الرأي أشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول أبو حنيفة هو مثلة قال الرجل فإنه قد روي عن إبراهيم النخعي أنه قال الإشعار مثلة قال رأيت وكيعا غضب غضبا شديدا وقال أقول لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول قال إبراهيم ما أحقك بأن تحبس ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا

وعن عبد الله بن عباس وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا

يقولون ما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالجملة فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد فلم تكن

مسأله من المسائل التي تكلم فيها من قبلهم والتي وقعت في زمانهم إلا وجدوا فيها حديثا مرفوعا متصلا أو مرسلا أو موقوفا صحيحا أو حسنا أو صالحا للاعتبار أو وجدوا أثرا من آثار الشيخين أو سائر الخلفاء وقضاة الأمصار وفقهاء البلدان أو استنباطا من عموم أو إيماء أو اقتضاء فيسر الله لهم العمل بالسنة على هذا الوجه وكان أعظمهم شأنا وأوسعهم رواية وأعرفهم للحديث مرتبة وأعمقهم فقها أحمد بن حنبل ثم إسحق بن راهويه وكان ترتيب الفقه على هذا الوجه يتوقف على جمع شيء كثير من الأحاديث والآثار حتى سئل أحمد يكفي الرجل مائة ألف حديث حتى يفتي قال لا حتى قيل خمسمائة ألف حديث قال أرجو كذا في غاية المنتهى ومراده الإفتاء على هذا الأصل

ثم أنشأ الله تعالى قرنا آخر فرأوا أصحابهم قد كفوهم مؤونة جمع الأحاديث وتمهيد الفقه على أصلهم فتفرغوا لفنون أخرى كتمييز الحديث الصحيح المجمع عليه من كبراء أهل الحديث كيزيد بن هارون ويحيى بن سعيد القطان وأحمد وإسحق وأضرابهم وكجمع أحاديث الفقه التي بنى عليها فقهاء الأمصار وعلماء البلدان مذاهبهم وكالحكم على كل حديث بما يستحقه وكالشاذة والفاذة من الأحاديث التي لم يرووها أو طرقها التي لم يخرج من

جهتها الأوائل مما فيه اتصال أو علو سند أو رواية فقيه عن فقيه أو حافظ عن حافظ أو نحو ذلك من المطالب العلمية وهؤلاء هم البخاري ومسلم وأبو داود وعبد بن حميد والدارمي وابن ماجه وأبو يعلى والترمذي والنسائي والدارقطني والحاكم والبيهقي والخطيب والديلمي وابن عبد البر وأمثالهم

وكان أوسعهم علما عندي وأنفعهم تصنيفا وأشهرهم ذكرا رجال أربعة متقاربون في العصر أولهم أبو عبد الله البخاري وكان غرضه تجريد الأحاديث الصحاح المستفيضة المتصلة من غيرها واستنباط الفقه والسيرة والتفسير منها فصنف جامعه الصحيح ووفى بما شرط وبلغنا أن رجلا من الصالحين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول مالك اشتغلت بفقه محمد بن إدريس وتركت كتابي قال يا رسول الله وما كتابك قال صحيح البخاري ولعمري إنه نال من الشهرة والقبول درجة لا يرام فوقها

وثانيهم مسلم النيسابوري توخى تجريد الصحاح المجمع عليها بين المحدثين المتصلة المرفوعة مما يستنبط منه السنة وأراد تقريبها إلى الأذهان وتسهيل الاستنباط منها فرتب ترتيبا جيدا وجمع طرق كل حديث في موضع واحد ليتضح اختلاف المتون وتشعب الأسانيد أصرح ما يكون وجمع بين المختلفات فلم يدع لمن له معرفة بلسان

العرب عذرا في الإعراض عن السنة إلى غيرها

وثالثهم أبو داود السجستاني وكان همه جمع الأحاديث التي استدل بها الفقهاء ودارت فيهم وبنى عليها الأحكام علماء الأمصار فصنف سننه وجمع فيها الصحيح والحسن واللين والصالح للعمل قال أبو داود وما ذكرت في كتابي حديثا أجمع الناس على تركه وما كان منها ضعيفا أصرح بضعفه وما كان فيه علة بينتها بوجه يعرفه الخائض في هذا الشأن وترجم على كل حديث بما قد استنبط منه عالم وذهب إليه ذاهب ولذلك صرح الغزالي وغيره بأن كتابه كاف للمجتهد

(443/258)

ورابعهم أبو عيسى الترمذي وكأنه استحسن طريقة للشيخين حيث بينا وما أبهما وطريقة أبي داود حيث جمع كل ما ذهب إليه ذاهب فجمع كلتا الطريقتين وزاد عليهما بيان مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار فجمع كتابا جامعا واختصر طرق الحديث اختصارا لطيفا فذكر واحد وأوما إلى ما عداه وبين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر وبين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة من أمره فيعرف ما يصلح للاعتبار مما دونه وذكر أنه مستفيض أو غريب وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الأمصار وسمى من يحتاج إلى التسمية وكنى من يحتاج إلى التكنية فلم يدع خفاء لمن

هو من رجال العلم ولذلك يقال إنه كاف للمجتهد مغن للمقلد

وكان بإزاء هؤلاء في عصر مالك وسفيان وبعدهم قوم لا يكرهون المسائل ولا يهابون الفتيا ويقولون على الفقه بناء الدين فلا بد من إشاعته ويهابون رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والرفع إليه حتى قال الشعبي على من دون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلينا فإن كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبي صلى الله عليه وسلم وقال إبراهيم أقول قال عبد الله وقال علقمة أحب إلي وكان ابن مسعود إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تربد وجهه وقال هكذا أو نحوه

وقال عمر حين بعث رهطا من الأمصار إلى الكوفة إنكم تأتون الكوفة فتأتون قوما لهم أزيز بالقرآن فيأتونكم فيقولون قدم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قدم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال ابن عون كان الشعبي إذا جاءه شيء أتقى وكان إبراهيم يقول ويقول أخرج هذه الآثار الدارمي

فوقع تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من وجه آخر وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على استنباط الفقه على الأصول التي اختارها أهل الحديث ولم تنشرح صدورهم للنظر في أقوال علماء

البلدان وجمعها والبحث عنها واتهموا أنفسهم في ذلك وكانوا اعتقدوا في أئمتهم أنهم في الدرجة العليا من التحقيق وكانت قلوبهم أميل شيء إلى أصحابهم كما قال علقمة هل أحد منهم أثبت من عبد الله وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إبراهيم أفقه من سالم ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفقه من ابن عمر

وكان عندهم من الفطانة والحدس وسرعة انتقال الذهب من شيء إلى شيء ما يقدرون به على تخريج جواب المسائل على أقوال أصحابهم وكل ميسر لما خلق له و ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾

فمهدوا الفقه على قاعدة التخريج وذلك أن يحفظ كل أحد كتاب من هو لسان أصحابه وأعرفهم بأقوال القوم وأصحهم نظرا في الترجيح فيتأمل في كل مسألة وجه الحكم فكلما سئل عن شيء أو احتاج إلى شيء رأى أي نظر في فيما يحفظه من تصريحات أصحابه فان وجد الجواب فبها وإلا نظر إلى عموم كلامهم فأجراه على هذه الصورة أو إلى إشارة ضمنية لكلام فاستنبط منها

وربما كان لبعض الكلام إيماء أو اقتضاء يفهم المقصود

وربما كان للمسألة المصرح بها نظير يحمل عليها وربما نظروا في علة الحكم المصرح به بالتخريج أو بالسبر والحذف فأداروا حكمه على غير المصرح به وربما كان له كلامان لو اجتمعا على هيئة القياس الاقتراني أو الشرطي أنتجا جواب المسألة

وربما كان في كلامهم ما هو معلوم بالمثال والقسمة غير معلوم بالحد الجامع المانع فيرجعون إلى أهل اللسان

ويتكلفون تحصيل ذاتياته وترتيب حد جامع مانع له وضبط مبهمه وتمييز مشكله وربما كان كلامهم محتملا لوجهين فينظرون في ترجيح أحد المحتملين

وربما يكون تقريب الدلائل للمسائل خفيا فيبينون ذلك وربما استدل بعض المخرجين من فعل أئمتهم وسكوتهم ونحو ذلك

(445/258)

فهذا هو التخريج ويقال له القول المخرج لفلان كذا ويقال على مذهب فلان أو على أصل فلان أو على قول فلان جواب المسألة كذا وكذا ويقال لهؤلاء المجتهدون في المذهب وعنى

هذا الاجتهاد على هذا الأصل من قال من حفظ المبسوط كان مجتهدا أي وإن لم يكن له علم بالرواية أصلا ولا بحديث واحد فوقع التخريج في كل مذهب وكثر فأي مذهب كان أصحابه مشهورين وسد إليهم القضاء والإفتاء واشتهرت تصانيفهم في الناس ودرسوا درسا ظاهرا انتشر في أقطار الأرض ولم يزل ينتشر كل حين وأي مذهب كان أصحابه خاملين ولم يولوا القضاء والإفتاء ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين

واعلم أن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل في الدين ولم يزل المحققون

من العلماء في كل عصر يأخذون بهما فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذلك ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذاك فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرة كما يفعله عامة الفريقين وإنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر وذلك قول الحسن البصري سنتكم والله الذي لا إله إلا هو بينهما بين الغالي والجافي فمن كان من أهل الحديث ينبغي أن يعرض ما اختاره وذهب إليه على رأي المجتهدين من التابعين ومن بعدهم ومن كان من أهل التخريج ينبغي له أن يحصل من السنن ما يحترز به من مخالفة التصريح الصحيح ومن القول برأيه فيما فيه حديث أو أثر بقدر الطاقة

ولا ينبغي لمحدث أن يتعمق في القواعد التي أحكمها أصحابه وليست مما نص عليه الشارع فيرد به حديثا أو قياسا صحيحا كرد ما فيه أدنى شائبة الارسال والانقطاع كما فعله ابن

حزم في حديث تحريم المعازف لشائبة الانقطاع في رواية البخاري على أنه في نفسه متصل صحيح فإن مثله إنما يصار إليه عند التعارض

وكقولهم فلان أحفظ لحديث فلان من غيره فيرجحون حديثه على حديث غيره لذلك وإن كان في الآخر ألف وجه من الرجحان

(446/258)

وكان اهتمام جمهور الرواة عند الرواية بالمعنى برؤوس المعاني دون الاعتبارات التي يعرفها المتعمقون من أهل العربية فاستدلالهم بنحو الفاء والواو وتقديم كلمة وتأخيرها ونحو ذلك من التعمق وكثيرا ما يعبر الراوي الآخر عن تلك القصة فيأتي مكان ذلك الحرف بحرف آخر والحق أن كل ما يأتي به الراوي فظاهره أنه كلام النبي صلى الله عليه وسلم فإن ظهر حديث آخر أو دليل آخر وجب المصير إليه

ولا ينبغي لمخرج أن يخرج قولا لا يفيده نفس كلام أصحابه ولا يفهمه من أهل العرف والعلماء باللغة ويكون بناء على تخريج مناط أو حمل نظير المسألة عليها مما يختلف فيه أهل الوجوه وتتعارض الآراء ولو أن أصحابه سئلوا عن تلك المسألة ربما لم يحملوا النظير على النظير لمانع وربما ذكروا علة غير ما خرجه هو وإنما جاز التخريج لأنه في الحقيقة من تقليد

المجتهد ولا يتم إلا فيما يفهم من كلامه

ولا ينبغي أن يرد حديثا أو أثرا تطابق عليه كلام القوم لقاعدة استخرجها هو أو أصحابه كرد حديث المصراه وكإسقاط سهم ذوي القربى فان رعاية الحديث أوجب من رعاية تلك القاعدة المخرجة وإلى هذا المعنى أشار الشافعي حيث قال مهما قلت من قول أو أصلت من أصل فبلغكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت فالقول ما قاله صلى الله عليه وسلم

ومن شواهد ما نحن فيه ما صدر به الامام أبو سليمان الخطابي كتابه معالم السنن حيث قال رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين وانقسموا إلى فرقتين أصحاب حديث وأثر وأهل فقه ونظر وكل واحدة منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب

(447/258)

ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين والتقارب في المنزلتين وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم إلى صاحبه إخوانا متهاجرين وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين

فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الحديث والأثر فان الأكثرين إنما وكدهم الروايات وجمع الطرق وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون المتون ولا يتفهمون المعاني ولا يستنبطون سرها ولا يستخرجون ركازها وفقهها وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن

ولا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون وبسوء القول فيهم آثمون

وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر فان أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه ولا يعرفون جيده من رديئه ولا يعبؤون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها ووافق آراءهم التي يعتقدونها وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم في قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع إذا كان ذلك قد اشتهر عندهم وتعاورته الألسن فيما بينهم من غير ثبت فيه أو يقين علم به فكان ذلك صلة من الرأي وغبنا فيه

وهؤلاء وفقنا الله وإياهم لو حكي لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاد من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة واستبرؤا له العهدة

فنجد أصحاب مالك لا يعتمدون من مذهبه إلا ما كان من رواية ابن القاسم وأشهب وضربائهما من تلاد أصحابه فاذا جاءت رواية عبد الله بن عبد الحكم وأضرابه لم تكن عندهم طائلا

وترى أصحاب أبي حنيفة رحمه الله تعالى لا يقبلون

من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن والعلية من أصحابه والأجلة من تلامذته فان جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذويه رواية قول بخلافه لم يقبلوه ولم يعتمدوه

(448/258)

وكذلك تجد أصحاب الشافعي إنما يعولون في مذهبه على رواية المزني والربيع بن سليمان المرادي فاذا جاءت رواية حرملة والجيزي وأمثالهما لم يلتفتوا إليها ولم يعتدوا بها في أقاويله وعلى هذا عادة كل فرقة من العلماء في أحكام مذاهب أئمتهم وأساتذتهم

فإذا كان هذا دأبهم وكانوا لا يقنعون في أمر هذه الفروع ورواياتها عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة والثبت فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا في الأمر الأهم والخطب الأعظم وأن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة الواجب حكمه اللازمة طاعته الذي يجب علينا التسليم لحكمه والانقياد لأمره من حيث لا نجد في أنفسنا حرجا مما قضاه ولا في

صدورنا غلا من شيء أبرمه وأمضاه

أرأيتم إذا كان الرجل يتساهل في أمر نفسه ويسامح غرماءه في حقه فيأخذ منهم الزيف ويغضي لهم عن العيب هل يجوز له أن يفعل ذلك في حق غيره إذا كان نائبا عنه كولي الضعيف ووصي اليتيم ووكيل الغائب وهل يكون ذلك منه إذا فعله إلا خيانة للعهد وإخفارا للذمة فهذا هو ذاك إما عيان حس وإما عيان مثل

ولكن أقواما عساهم استوعروا طريق الحق واستطالوا المدة في درك الخط وأحبوا عجالة النيل فاختصروا طريق العلم واقتصروا على نتف وحروف منتزعة من معاني أصول الفقه سموها عللا وجعلوها شعارا لأنفسهم في الترسم برسم العلم واتخذوها جنة عند لقاء خصومهم ونصبوها دريئة للخوض والجدال يتناظرون بها ويتلاطمون عليها وعند التصادر عنها قد حكم للغالب بالحذق والتبريز فهو الفقيه المذكور في عصره والرئيس المعظم في بلده ومصره

(449/258)

هذا وقد دس لهم الشيطان حيلة لطيفة وبلغ منهم مكيدة بليغة فقال لهم هذا الذي في أيديكم علم قصير وبضاعة مزجاة لا تفي بمبلغ الحاجة والكفاية فاستعينوا عليه بالكلام

وصلوه بمقطعات منه واستظهروا بأصول المتكلمين يتسع لكم مذهب الخوض ومجال النظر فصدق عليهم إبليس ظنه وأطاعه كثير منهم واتبعوه إلا فريقا من المؤمنين فيا للرجال والعقول أين يذهب وأنى يخدعهم الشيطان عن حظهم وموضع رشدهم والله المستعان انتهى كلام الخطابي

ﻫ باب حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبيان سبب الاختلاف بين الأوائل والأواخر في الانتساب إلى مذهب من المذاهب وعدمه وبيان سبب الاختلاف بين العلماء في كونهم من أهل الاجتهاد المطلق أو أهل الاجتهاد في المذهب والفرق بين هاتين المنزلتين ﻫ

إعلم أن الناس كانوا في المائة الأولى والثانية غير مجمعين على التقليد لمذهب واحد بعينه قال أبو طالب المكي في قوت القلوب إن الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له في كل شيء والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديما على ذلك في القرنين الأول والثاني انتهى

أقول وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المئة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص

على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التتبع بل كان الناس على درجتين العلماء والعامة وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الإجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع وكانوا

يتعلمون صفة الوضوء والغسل وأحكام الصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو علماء بلدانهم فيمشون على ذلك وإذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أي مفت وجدوا من غير تعيين مذهب قال ابن الهمام في آخر التحرير كانوا يستفتون مرة واحدا ومرة غيره غير ملتزمين مفتيا واحدا انتهى

وأما الخاصة العلماء

فكانوا على مرتبتين

(450/258)

---

1 منهم من أمعن في تتبع الكتاب والسنة والآثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة أن يتصف بفتيا في الناس يجيبهم في الوقائع غالبا بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه ويخص باسم المجتهد وهذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد في جمع الروايات فانه ورد كثير من الأحكام في الأحاديث وكثير منها في آثار الصحابة والتابعين وتبع التابعين مع مالا ينفك عنه العاقل العارف باللغة من معرفة مواقع الكلام وصاحب العلم بالآثار من معرفة طرق الجمع بين المختلفات وترتيب الدلائل ونحو ذلك كحال القدوتين أحمد بن محمد بن حنبل

وإسحق بن راهويه

وتارة بإحكام طرق التخريج وضبط الأصول المروية في كل باب باب عن مشايخ الفقه من الضوابط والقواعد مع جملة صالحة من السنن والآثار كحال الإمامين القدوتين أبي يوسف ومحمد بن الحسن

2 ومنهم من حصل له من معرفة القرآن والسنن ما يتمكن به من معرفة رؤوس الفقه وأمهات مسائله بأدلتها التفصيلية وحصل له غالب الرأي ببعض المسائل الأخرى من أدلتها وتوقف في بعضها واحتاج في ذلك إلى مشاورة العلماء لأنه لم تتكامل له الأدوات كما تتكامل للمجتهد المطلق فهو مجتهد في البعض غير مجتهد في البعض وقد تواتر عن الصحابة والتابعين أنهم كانوا إذا بلغهم الحديث يعملون به من غير أن يلاحظوا شرطا

وبعد المئتين ظهر فيهم التمذهب للمجتهدين بأعيانهم وقل من كان لا يعتمد على مذهب مجتهد بعينه وكان هذا هو الواجب في ذلك الزمان وسبب ذلك أن المشتغل بالفقه لا يخلو من حالتين

إحداهما أن يكون أكبر همه معرفة المسائل التي قد أجاب فيها المجتهدون من قبل من أدلتها التفصيلية ونقدها وتنقيح أخذها وترجيح بعضها على بعض وهذا أمر جليل لا يتم له إلا بإمام يتأسى به قد كفي معرفة فرش المسائل

وإيراد الدلائل في كل باب باب فيستعين به في ذلك ثم يستقل بالنقد والترجيح ولولا هذا الإمام صعب عليه ولا معنى لارتكاب أمر صعب مع إمكان الأمر اسهل

(451/258)

ولابد لهذا المقتدي أن يستحسن شيئا مما سبق إليه إمامه ويستدرك عليه شيئا فان كان استدراكه أقل من موافقته عد من أصحاب الوجوه في المذهب وإن كان أكثر لم يعد تفرده وجها في المذهب وكان مع ذلك منتسبا إلى صاحب المذهب في الجملة ممتازا عمن يتأسى بإمام آخر في كثير من أصول مذهبه وفروعه

ويوجد لمثل هذا بعض مجتهدات لم يسبق بالجواب فيها إذ الوقائع متتالية والباب مفتوح فيأخذها من الكتاب والسنة وآثار السلف من غير اعتماد على إمامه ولكنها قليلة بالنسبة إلى ما سبق بالجواب فيه وهذا هو المجتهد المطلق المنتسب

وثانيهما أن يكون أكبر همه معرفة المسائل التي يستفتيه فيها المستفتون مما لم يتكلم فيه المتقدمون وحاجته إلى إمام يأتسي به في الأصول الممهدة في كل باب أشد من حاجة الأول لأن مسائل الفقه متعانقة متشابكة فروعها تتعلق بأمهاتها فلو ابتدأ هذا بنقد مذاهبهم وتنقيح أقوالهم لكان ملتزما لما لا يطيقه ولا يتفرغ منه طول عمره فلا سبيل له إلى باب إلا أن

يجمل النظر فيما سبق فيه

ويتفرغ للتفاريع وقد يوجد لمثل هذا استدراكات على إمامه بالكتاب والسنة وآثار السلف والقياس لكنها قليلة بالنسبة إلى موافقتها وهذا هو المجتهد في المذهب

(452/258)

وأما الحالة الثالثة وهي أن يستفرغ جهده أولا في معرفة أولية ما سبق إليه ثم يستفرغ جهده ثانيا في التفريع على ما اختاره واستحسنه فهي حالة بعيدة غير واقعة لبعد العهد عن زمان الوحي واحتياج كل عالم في كثير مما لا بد له في علمه إلى ما مضى من روايات الأحاديث على تشعب متونها وطرقها ومعرفة مراتب الرجال ومراتب صحة الحديث وضعفه وجمع ما اختلف من الأحاديث والآثار والتنبه لما يأخذ الفقيه منها ومن معرفة غريب اللغة وأصول الفقه ومن رواية المسائل التي سبق التكلم فيها من المتقدمين مع كثرتها جدا وتباينها واختلافها ومن توجيه أفكاره في تمييز تلك الروايات وعرضها على الأدلة فاذا أنفذ عمره في ذلك كيف يوفي حق التفاريع بعد ذلك والنفس الإنسانية وإن كانت زكية لها حد معلوم تعجز عما وراءه وإنما كان هذا ميسر للطراز الأول من المجتهدين حين كان العهد قريبا والعلوم غير متشعبة على أنه لم يتيسر ذلك أيضا إلا لنفوس قليلة وهم مع ذلك كانوا مقيدين

بمشايخهم معتمدين عليهم ولكن لكثرة تصرفاتهم في العلم صاروا مستقلين

وبالجملة فالتمذهب للمجتهدين سر ألهمه الله تعالى العلماء وتبعهم عليه من حيث يشعرون أو لا يشعرون

(453/258)

ومن شواهد ما ذكرناه كلام الفقيه ابن زياد الشافعي اليمني في فتاواه حيث سئل عن مسألتين أجاب فيهما البلقيني بخلاف مذهب الشافعي فقال في الجواب إنك لا تعرف توجيه كلام البلقيني ما لم تعرف درجته في العلم فانه إمام مجتهد مطلق منتسب غير مستقل من أهل التخريج والترجيح وأعني بالمنتسب من له اختيار وترجيح يخالف الراجح في مذهب الإمام الذي ينتسب إليه وهذا حال كثير من جهابذة أكابر أصحاب الشافعي من المتقدمين والمتأخرين وسيأتي ذكرهم وترتيب درجاتهم وممن نظم البلقيني في سلك المجتهدين المطلقين المنتسبين تلميذه الولي أبو زرعة فقال قلت مرة لشيخنا الإمام البلقيني ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل إليه وكيف يقلد قال ولم أذكره هو أي شيخه البلقيني استحياء منه لما أردت أن أرتب على ذلك فسكت فقلت فما عندي أن الامتناع

من ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة وأن من خرج عن ذلك واجتهد لم ينله شيء من ذلك وحرم ولاية القضاء وامتنع الناس من استفتائه ونسب إليه البدعة فتبسم ووافقني على ذلك انتهى قلت أما أنا فلا أعتقد

(454/258)

أن المانع لهم من الاجتهاد ما أشار إليه حاشا منصبهم العلي على ذلك وأن يتركوا الاجتهاد مع قدرتهم عليه لغرض القضاء أو الأسباب هذا ما لا يجوز لأحد أن يعتقده فيهم وقد تقدم أن الراجح عند الجمهور وجوب الاجتهاد في مثل ذلك كيف ساغ للولي نسبتهم إلى ذلك ونسبة البلقيني إلى موافقته على ذلك وقد قال الجلال السيوطي في شرح التنبيه في باب الطلاق ما لفظه وما وقع للأئمة من الاختلاف من تغير الاجتهاد فيصححون في كل موضع ما أدى إليه اجتهادهم في ذلك الوقت وقد كان المصنف يعني صاحب التنبيه من الاجتهاد بالمحل الذي لا ينكر وصرح غير واحد من الأئمة بأنه وابن الصباغ وإمام الحرمين والغزالي بلغوا رتبة الاجتهاد المطلق وما وقع في فتاوى ابن الصلاح من أنهم بلغوا رتبة الاجتهاد في المذهب دون المطلق فمراده أنهم كانت لهم درجة الاجتهاد المنتسب دون المستقل وأن المطلق كما قرره هو في كتابه آداب الفتيا والنووي في شرح المهذب نوعان مستقل وقد فقد

من رأس الأربعمائة فلم يمكن وجوده ومنتسب وهو باق إلى أن تأتي أشراط الساعة الكبرى ولا يجوز انقطاعه شرعا لأنه فرض كفاية ومتى قصر أهل عصر حتى تركوه أثموا كلهم وعصوا بأسرهم كما صرح به الأصحاب منهم الماوردي والروياني في البحر والبغوي في التهذيب وغيرهم ولا ينادى هذا الفرض بالاجتهاد المقيد كما صرح به ابن اصلاح والنووي في

(455/258)

شرح المهذب والمسألة مبسوطة في كتابنا المسمى بالرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ولا يخرج هولاء عن الاجتهاد المطلق المنتسب من كونه شافعية كما صرح به النووي وابن الصلاح في الطبقات وتبعه ابن السبكي ولهذا صنفوا في المذهب كتبا وأفتوا وتداولوا وولوا وظائف الشافعية كما ولي المصنف وابن الصباغ تدريس النظامية ببغداد وولي إمام الحرمين والغزالي تدريس النظامية بنيسابور وولي ابن عبد السلام الجابية والظاهرية بالقاهرة وولي ابن دقيق العيد الصلاحية المجاورة لمشهد إمامنا الشافعي رضي الله عنه والفاضلية والكاملية وغير ذلك

أما من بلغ رتبة الاجتهاد المستقل فانه يخرج بذلك عن كونه شافعيا ولا تنقل أقواله في كتب

المذهب ولا أعلم أحدا بلغ هذه الربتة من الأصحاب إلا أبا جعفر بن جرير الطبري فانه كان شافعيا ثم استقل بمذهب ولهذا قال الرافعي وغيره ولا يعد تفرده وجها في المذهب انتهى وهي عندي أحسن مما سلك الولي أبو زرعة رضي الله عنه إلا أن كلامه يقتضي أن ابن جرير لا يعد شافعيا وهو

مردود فقد قال الرافعي في أول كتاب الزكاة من الشرح تفرد ابن جرير لا يعد وجها في مذهبنا وان كان معدودا في طبقات أصحاب الشافعي قال النووي في التهذيب ذكره أبو عاصم العبادي في الفقهاء الشافعية فقال هو من أفراد علمائنا وأخذ فقه الشافعي على الربيع المرادي والحسن الزعفراني انتهى ومعنى انتسابه إلى الشافعي أنه جرى على طريقته في الاجتهاد واستقراء الأدلة وترتيب بعضها على بعض ووافق اجتهاده وإذا خالف أحيانا لم يبال بالمخالفة ولم يخرج عن طريقه إلا في مسائل وذلك لا يقدح في دخوله في مذهب الشافعي

(456/258)

ومن هذا القبيل محمد بن إسماعيل البخاري فانه معدود في طبقات الشافعية وممن ذكره في طبقات الشافعية الشيخ تاج الدين السبكي وقال إنه تفقه بالحميدي والحميدي تفقه

بالشافعي واستدل شيخنا العلامة على ادخال البخاري في الشافعية بذكره في طبقاتهم وكلام النووي الذي ذكرناه شاهد له وذكر الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته ما لفظه كل تخريج أطلقه المخرج إطلاقا فظهر أن ذلك المخرج إن كان ممن يغلب عليه المذهب والتقليد كالشيخ أبي حامد والقفال عد من المذهب وان كان ممن يكثر خروجه كالمحمدين الأربعة يعني محمد بن جرير ومحمد بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن المنذر فلا يعد أما المزني وبعده ابن شريح فبين الدرجتين لم يخرجوا خروج المحمدين

ولم يتقيدوا بقيد العراقيين والخراسانيين انتهى

وممن ذكره السبكي في طبقاته الشيخ أبا الحسن الأشعري إمام أهل السنة والجماعة وقال إنه معدود من الشافعية فانه تفقه بالشيخ أبي إسحق المروزي انتهى قول ابن زياد

ومن شواهد ما ذكره أيضا ما في كتاب الأنوار حيث قال والمنتسبون إلى مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد أصناف

أحدها العوام وتقليدهم للشافعي متفرع على تقليد المنتسب

الثاني البالغون إلى رتبة الاجتهاد والمجتهد لا يقلد مجتهدا وإنما ينسبون إليه لجريهم على طريقه في الاجتهاد واستعمال الأدلة وترتيب بعضها على بعض

الثالث المتوسطون وهم الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد لكنهم وقفوا على أصول الإمام وحكوا من قياس ما لم يجدوه منصوصا على ما نص عليه وهؤلاء مقلدون له وكذا من

يأخذه بقولهم من العوام والمشهور أنهم لا يقلدون في أنفسهم لأنهم مقلدون انتهى كلام الأنوار

فان قلت كيف يكون شيء واحد غير واجب في زمان واجبا في زمان آخر مع أن الشرع واحد فليس قولك لم يكن الاقتداء

بالمجتهد المستقل واجبا ثم صار واجبا إلا قولا متناقضا متنافيا

(457/258)

قلت الواجب الأصل هو أن يكون في الأمة من يعرف الأحكام الفرعية من أدلتها التفصيلية أجمع على ذلك أهل الحق ومقدمة الواجب واجبة فإذا كان للواجب طرق متعددة وجب تحصيل طريق من تلك الطرق من غير تعيين وإذا تعين له طريق واحد وجب ذلك الطريق بخصوصه كما إذا كان الرجل في مخمصة شديدة يخاف منها الهلاك وكان لدفع مخمصته طرق من شراء الطعام والتقاط الفواكه من الصحراء واصطياد ما يتقوت به وجب تحصيل شيء من هذه الطرق لا على التعين فاذا وقع في مكان ليس هناك صيد ولا فواكه وجب عليه بذل المال في شراء الطعام وكذلك كان للسلف طرق في تحصيل هذا الواجب وكان الواجب تحصيل طريق من تلك الطرق لا على التعين ثم انسدت تلك الطرق إلا طريقا واحدا فوجب ذلك الطريق بخصوصه وكان السلف لا يكتبون الحديث ثم صار يومنا هذا

كتابة الحديث واجبة لأن رواية الحديث لا سبيل لها اليوم إلا بمعرفة هذه الكتب

وكان السلف لا يشتغلون بالنحو واللغة وكان لسانهم عربيا لا يحتاجون إلى هذه الفنون ثم

صار يومنا هذا معرفة اللغة العربية واجبة لبعد العهد عن العرب الأول وشواهد

ما نحن فيه كثيرة جدا وعلى هذا ينبغي أن القياس وجوب التقليد لإمام بعينه فانه قد يكون

واجبا وقد لا يكون واجبا فاذا كان إنسان جاهل في بلاد الهند أو في بلاد ما وراء النهر

وليس هناك عالم شافعي ولا مالكي ولا حنبلي ولا كتاب من كتب هذه المذاهب وجب

عليه أن يقلد لمذهب أبي حنيفة ويحرم عليه أن يخرج من مذهبه لأنه حينئذ يخلع ربقة

الشريعة ويبقى سدى مهملا بخلاف ما إذا كان في الحرمين فانه متيسر له هناك معرفة جميع

المذاهب ولا يكفيه أن يأخذ بالظن من غير ثقة ولا أن يأخذ من ألسنة العوام ولا أن يأخذ

من كتاب غير مشهور كما ذكر كل ذلك في النهر الفائق شرح كنز الدقائق

(458/258)

واعلم أن المجتهد المطلق من جمع خمسة من العلوم قال النووي في المنهاج وشرط القاضي

مسلم مكلف حر عدل سميع بصير ناطق كاف مجتهد وهو أن يعرف من القرآن والسنه ما

يتعلق بالأحكام وخاصه وعامه ومجمله ومبينه وناسخه ومنسوخه ومتواتر السنة وغيره

والمتصل والمرسل وحال الرواة قوة وضعفا ولسان العرب لغة ونحوا وأقوال العلماء من الصحابة فمن

بعدهم اجتماعا واختلافا والقياس بأنواعه

ثم اعلم أن هذا المجتهد قد يكون مستقلا وقد يكون منتسبا إلى المستقل والمستقل من امتاز عن سائر المجتهدين بثلاث خصال كما ترى ذلك في الشافعي ظاهرا

أحدها أن يتصرف في الأصول والقواعد التي يستنبط منها الفقه كما ذكر ذلك في أوائل الأم حيث عد صنيع الأوائل في استنباطهم واستدرك عليهم وكما أخبرنا شيخنا أبو طاهر محمد بن إبراهيم المدني عن مشايخه المكيين الشيخ حسن بن علي العجمي والشيخ أحمد النخلي عن الشيخ محمد بن العلاء الباهلي عن إبراهيم بن إبراهيم اللقاني وعبد الرؤوف الطبلاوي عن الجلال أبي فضل السيوطي عن أبي الفضل المرجاني إجازة عن أبي الفرج الغزي عن يونس بن إبراهيم الدبوسي عن أبي الحسن بن البقر عن الفضل بن سهل الإسفرائيني عن الحافظ الحجة أبي بكر أحمد بن علي الخطيب أخبرنا أبو نعيم الحافظ حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان حدثنا عبد الله بن محمد بن يعقوب حدثنا أبو حاتم يعني الرازي حدثني يونس بن عبد الأعلى قال قال محمد بن إدريس الشافعي الأصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما وإذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الإسناد منه فهو سنة والاجماع أكبر من الخبر المفرد والحديث

على ظاهره وإذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره أولاها به وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسنادا أولاها وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب ولا يقاس أصل على أصل ولا يقال للأصل لم وكيف وإنما يقال للفرع لم فاذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة انتهى

وثانيها أن يجمع الأحاديث والآثار فيحصل أحكامها وينبه لأخذ الفقه منها ويجمع مختلفها ويرجح بعضها على بعض ويعين بعض محتملها وذلك قريب من ثلثي علم الشافعي فيما نرى والله أعلم

وثالثها أن يفرع التفاريع التي ترد عليه مما لم يسبق بالجواب فيه من القرون المشهود لها بالخير وبالجملة فيكون كثير التصرفات في هذه الخصال فائقا على أقرانه سابقا في حلبة رهانه مبرزا في ميدانه

وخصلة رابعة نتلوها وهي أن ينزل له القبول من السماء فأقبل إلى علمه جماعات من العلماء من المفسرين والمحدثين والأصوليين وحفاظ كتب الفقه ويمضي على ذلك القبول والإقبال قرون متطاولة حتى يدخل ذلك في صميم القلوب والمجتهد المطلق المنتسب هو

المقتدي المسلم في الخصلة الأولى الجاري في مجراه في الخصلة الثانية

والمجتهد في المذهب هو الذي مسلم منه الأولى والثانية

وجرى مجراه في التفريع على منهاج تفاريعه

(460/258)

ولنضرب لذلك مثلا فنقول كل من تطيب في هذه الأزمنة المتأخرة إما أن يكون يقتدي بأطباء اليونان أو بأطباء الهند فهو بمنزلة المجتهد المستقل ثم إن كان هذا المتطبب قد عرف خواص الأدوية وأنواع الأمراض وكيفية ترتيب الأشربة والمعاجين بعقله بأن تنبه لذلك من تنبيههم حتى صار على يقين من أمره من غير تقليد واقتدر على أن يفعل كما فعلوا فيعرف خواص العقاقير التي لم يسبق بالتكلم فيها وبيان أسباب الأمراض وعلاماتها ومعالجاتها مما لم يرصده السابقون وزاحم الأوائل في بعض ما تكلم قل في ذلك منه أو كثر فهو بمنزلة المجتهد المطلق المنتسب وان سلم ذلك منهم من غير يقين كامل وكان أكثرهم توليدا للأشربة والمعاجين من تلك القواعد الممهدة كأكثر متطببي هذه الأزمنة المتأخرة فهو بمنزلة المجتهد في المذهب

وكذلك كل من نظم الشعر في هذه الأزمنة أما أن يقتدي في ذلك بأشعار العرب ويختار

أوزانهم وقوافيهم وأساليب قصائدهم أو بأشعار العجم فهو بمنزلة المجتهد المستقل ثم إن كان هذا الشاعر مخترعا لأنواع من الغزل والتشبيب والمدح والهجو والوعظ وأتى بالعجب العجاب في الاستعارات والبديع ونحوها مما لم يسبق إلى مثله بل تنبه لذلك من بعض صنائعهم فأخذ النظير وقايس الشيء بالشيء واقتدر على أن

يخترع بحرا لم يتكلم فيه من قبله وأسلوبا جديدا كنظم المثنوي والرباعي ورعاية الرديف أعني كلمة تامة يعيدها في كل بيت بعد القافية يفعل كل ذلك في الشعر العربي فهو بمنزلة المجتهد المطلق وإن لم يكن مخترعا وإنما يتبع طرقهم فقط فهو بمنزلة المجتهد في المذهب وهكذا الحال في علم التفسير والتصوف وغيرهما من العلوم

فان قلت ما السبب في أن الأوائل لم يتكلموا في أصول الفقه كثير كلام فلما نشأ الشافعي تكلم فيها كلاما شافيا وأفاد وأجاد

(461/258)

قلت سببه أن الأوائل كان يجتمع عند كل واحد منهم أحاديث بلده وآثاره ولا يجتمع أحاديث البلاد فاذا تعارضت عليه الأدلة في أحاديث بلده حكم في ذلك التعارض بنوع من الفراسة بحسب ما تيسر له

ثم اجتمع في عصر الشافعي أحاديث البلاد جميعها فوقع التعارض في أحاديث البلاد ومختارات فقهائها مرتين مرة فيما بين أحاديث بلد وأحاديث بلد آخر ومرة في أحايث بلد واحد فيما بينها وانقصر كل رجل بشيخه فيما رأى من الفراسة فاتسع الخرق وكثر الشغب وهجم على الناس من

كل جانب من الاختلافات ما لم يكن بحساب فبقوا متحيرين مدهوشين لا يستطيعون سبيلا حتى جاءهم تأييد من ربهم فألهم الشافعي قواعد جمع هذه المختلفات وفتح لمن بعده بابا وأي باب وانقرض المجتهد المطلق المنتسب في مذهب الإمام أبي حنيفة بعد المائة الثالثة وذلك لأنه لا يكون إلا محدثا جهبذا واشتغالهم بعلم الحديث قليل قديما وحديثا وإنما كان فيه المجتهدون في المذهب وهذا الاجتهاد أراد من قال أدنى الشروط للمجتهد حفظ المبسوط

وقل المجتهد المنتسب في مذهب مالك وكل من كان منهم بهذه المنزلة فانه لا يعد تفرده وجها في المذهب كأبي عمر المعروف بابن عبد البر والقاضي أبي بكر بن العربي

وأما مذهب أحمد فكان قليلا قديما وحديثا وكان فيه المجتهدون طبقة بعد طبقة إلى أن انقرض في المائة التاسعة واضمحل المذهب في أكثر البلاد اللهم إلا ناس قليلون بمصر وبغداد ومنزلة مذهب أحمد من مذهب الشافعي منزلة مذهب أبي يوسف ومحمد من مذهب أبي حنيفة إلا أن مذهبه لم يجمع في التدوين مع مذهب الشافعي كما دون مذهبهما مع

مذهب أبي حنيفة فلذلك لم يعدا مذهبا واحدا فيما ترى والله أعلم

وليس تدوينه مع مذهبه تميزا على من تلقاهما على وجههما

(462/258)

وأما مذهب الشافعي فأكثر المذاهب مجتهدا مطلقا ومجتهدا في المذهب وأكثر المذاهب أصوليا ومتكلما وأوفرها مفسرا للقرآن وشارحا للحديث وأشدها إسنادا ورواية وأقواها ضبطا لنصوص الإمام وأشدها تميزا بين أقوال الإمام ووجوه الأصحاب وأكثرها اعتناء بترجيح بعض الأقوال والوجوه على بعض

وكل ذلك لا يخفى على من مارس المذاهب واشتغل بها وكان أوائل أصحابه مجتهدين بالاجتهاد المطلق ليس فيهم من يقلده في جميع مجتهداته حتى نشأ ابن سريج فأسس قواعد التقليد والتخريج ثم جاء أصحابه يمشون في سبيله وينسجون على منواله ولذلك يعد من المجددين على رأس المائتين والله أعلم

ولا يخفى عليه أيضا أن مادة مذهب الشافعي من الأحاديث والآثار مدونة مشهورة مخدومة ولم يتفق مثل ذلك في مذهب غيره فمن مادة مذهبه كتاب الموطأ وهو وان كان متقدما على الشافعي فان الشافعي بنى عليه مذهبه وصحيح

البخاري وصحيح مسلم وكتب أبي داود والترمذي وابن ماجه والدارمي ثم مسند الشافعي وسنن النسائي وسنن الدارقطني وسنن البيهقي وشرح السنة للبغوي

أما البخاري فانه وان كان منتسبا إلى الشافعي موافقا له في كثير من الفقه فقد خالفه أيضا في كثير ولذلك لايعد ما تفرد به من مذهب الشافعي

وأما أبو داود والترمذي فهما مجتهدان منتسبان إلى أحمد وإسحاق وكذلك ابن ماجة والدرامي فيما نرى والله أعلم

وأما مسلم والعباس الأصم جامع مسند الشافعي والذين ذكرناهم بعده فهم متفردون لمذهب الشافعي يناضلون دونه

وإذا أحطت بما ذكرناه اتضح عندك أن من حاد مذهب الشافعي يكون محروما عن مذهب الاجتهاد المطلق وإن علم الحديث وقد أبى أن يناصح من يتطفل على الشافعي وأصحابه رضي الله عنهم % وكن طفيليهم على أدب % فلا أرى شافعا سوى الأدب %

& باب حكاية ما حدث في الناس بعد المائة الرابعة & ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يمينا وشمالا وحدث فيهم أمور منها

(463/258)

1 الجدل والخلاف في علم الفقه وتفصيله على ما ذكره الغزالي أنه لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين المهديين أفضت الخلافة إلى قوم تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوي والأحكام فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم وقد كان بقي من العلماء من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صف الدين فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم فأشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه

فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله

وقد كان من قبلهم قد صنف ناس في علم الكلام وأكثروا القال والقيل والإيراد والجواب وتمهيد طرق الجدل فوقع ذلك منهم بموقع من قبل أن كان من الصدور والملوك من مالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله فترك الناس الكلام وفنون العلم وأقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله على الخصوص وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذاهب وتمهيد أصول الفتاوي وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن ولسنا ندري ما الذي قدر الله تعالى أي أزلا فيما بعدها من الأعصار انتهى

حاصله

واعلم أني وجدت أكثرهم يزعمون أن بناء الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله على هذه الأصول المذكورة في كتاب البزدوي ونحوه وإنما الحق أن أكثرهما أصول مخرجة على قولهم

وعندي أن المسألة القائلة بأن الخاص مبين ولا يلحقه

(464/258)

البيان وأن الزيادة نسخ وأن العام قطعي كالخاص وأن لا ترجيح بكثرة الرواة وأنه لا يجب العلم بحديث غير الفقيه إذا انسد به باب الرأي وأن لا عبرة بمفهوم الشرط والوصف أصلا وأن موجب الأمر هو الوجوب البتة وأمثال ذلك أصول مخرجة على كلام الأئمة وأنه لا تصح بها رواية عن أبي حنيفة وصاحبيه وأنه ليست المحافظة عليها والتكلف في جواب ما يرد عليها من صنائع المتقدمين في استنباطهم كما يفعله البزدوي وغيره أحق من المحافظة على خلافها والجواب عما يرد عليه

مثاله أنهم أصلوا أن الخاص مبين فلا يلحقه البيان وخرجوه من صنيع الأوائل في قوله تعالى واسجدوا واركعوا وقوله صلى الله عليه وسلم لا تجزيء صلاة الرجل حتى يقيم ظهره في

الركوع والسجود حيث لم يقولوا بفرضية الاطمئنان ولم يجعلوا الحديث بيانا للآية فورد عليهم صنيعهم

في قوله تعالى ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ ومسحه صلى الله عليه وسلم على ناصيته حيث جعلوه بيانا

وقوله تعالى ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا ﴾

وقوله جل شأنه ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا ﴾

الآية وقوله تعالى ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾

وما لحقه من البيان بعد ذلك

فتكلفوا للجواب كما هو مذكور في كتبهم

وأنهم أصلوا أن العام قطعي كالخاص وخرجوه من صنيع الأوائل

في قوله تعالى ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب حيث لم يجعلوه مخصصا

وفي قوله صلى الله عليه وسلم فيما سقت العيون العشر الحديث وقوله صلى الله عليه وسلم ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة حيث لم يخصوه به ونحو ذلك من المواد

ثم ورد عليهم قوله تعالى ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾ وإنما هو الشاة فما فوقه ببيان النبي صلى الله عليه وسلم فتكلفوا في الجواب

وكذلك أصلوا أن لا عبرة بمفهوم الشرط والوصف

وخرجوه من صنيعهم في قوله تعالى ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا ﴾ الآية

(465/258)

ثم ورد عليهم كثير من صنائعهم كقوله صلى الله عليه وسلم في الإبل السائمة زكاة فتكلفوا في الجواب وأصلوا أنه لا يجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسد به باب الرأي وخرجوه من صنيعهم في ترك حديث المصراة

ثم ورد عليهم حديث القهقهة وحديث عدم فساد الصوم بالأكل ناسيا فتكلفوا في الجواب وأمثال ما ذكرنا كثير لا يخفى على المتتبع ومن لم يتتبع لا تكفيه الإطالة فضلا عن الإشارة ويكفيك دليلا على هذا قول المحققين في مسألة لا يجب العمل بحديث من اشتهر بالضبط والعدالة دون الفقه اذا انسد باب الرأي كحديث المصراة إن هذا مذهب عيسى بن أبان واختاره كثير من المتأخرين وذهب الكرخي وتبعه كثير من العلماء إلى عدم اشتراط فقه الراوي لتقدم الخبر على القياس وقالوا لم ينقل هذا القول عن أصحابنا بل المنقول عنهم أن خبر الواحد مقدم على القياس ألا ترى أنهم عملوا بخبر أبي هريرة في الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا وإن كان مخالفا للقياس حتى قال

أبو حنيفة رحمه الله لولا الرواية لقلت بالقياس ويرشدك أيضا اختلافهم في كثير من التخريجات أخذا من صنعائهم ورد بعضهم على بعض

ووجدت بعضهم يزعم أن جميع ما يوجد في هذه الشروح الطويلة وكتب الفتاوى الضخمة هو قول أبي حنيفة وصاحبيه ولا يفرق بين القول المخرج وبين ما هو قول في الحقيقة ولا يحصل معنى قولهم على تخريج الكرخي كذا وعلى تخريج الطحاوي كذا ولا يميز بين قولهم قال أبو حنيفة كذا وبين قولهم جواب المسألة على قول أبي حنيفة وعلى أصل أبي حنيفة كذا ولا يصغي إلى ما قاله المحققون من الحنفيين كابن الهمام وابن النجيم في مسألة العشر في العشر ومسألة اشتراط البعد من الماء ميلا في التيمم وأمثالهما إن ذلك من تخريجات الأصحاب وليس مذهبا في الحقيقة

(466/258)

ووجدت بعضهم يزعم أن بناء المذهب على هذه المحاورات الجدلية المبسوطة في مبسوط السرخسي والهداية والتبيين ونحو ذلك ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك فيهم المعتزلة وليس عليه بناء مذهبهم ثم استطاب ذلك المتأخرون توسعا وتشحيذا لأذهان الطالبين أو لغير ذلك والله أعلم وهذه الشبهات والشكوك ينحل كثير منها بما مهدناه في هذا الكتاب

ووجدت بعضهم يزعم أن هناك فرقتين لا ثالث لهما الظاهرية وأهل الرأي وأن كل من قاس واستنبط فهو من أهل الرأي كلا بل ليس المراد بالرأي نفس الفهم والعقل فان ذلك لا ينفك من أحد من العلماء ولا الرأي الذي يعتمد على سنة أصلا فإنه لا ينتحله مسلم البتة ولا القدرة على الاستنباط والقياس فان أحمد وإسحق بل الشافعي أيضا ليسوا من أهل الرأي بالاتفاق وهم يستنبطون ويقيسون بل المراد من أهل الرأي قوم توجهوا بعد المسائل المجمع عليها بين المسلمين أو بين جمهورهم إلى التخريج على أصل رجل من المتقدمين وكان أكثر أمرهم حمل النظير على النظير والرد إلى أصل من الأصول دون تتبع الأحاديث والآثار والظاهري من لا يقول بالقياس ولا بآثار الصحابة كداود وابن حزم وبينهما المحققون من أهل السنة كأحمد وإسحق

2 ومنها أنهم اطمأنوا بالتقليد ودب التقليد في صدورهم دبيب النمل وهم لا يشعرون وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم فانهم لما وقعت فيهم المزاحمة في الفتوى كان كل من أفتى بشيء نوقض في فتواه ورد عليه فلم ينقطع الكلام إلا بالمصير إلى تصريح رجل من المتقدمين في المسألة

وأيضا جور القضاة فان القضاة لما جار أكثرهم ولم يكونوا أمناء لم يقبل منهم إلا ما لا يريب

العامة فيه ويكون شيئا قد قيل من قبل

وأيضا جهل رؤوس الناس واستفتاء الناس من لا علم له بالحديث ولا بطريق التخريج كما ترى ذلك ظاهرا في أكثر المتأخرين وقد نبه عنه ابن الهمام وغيره وفي ذلك الوقت يسمى غير المجتهد فقيها

وفي ذلك الوقت ثبتوا على التعصب

(467/258)

والحق أن أكثر صور الخلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق وتكبيرات العيدين ونكاح المحرم وتشهد ابن عباس وابن مسعود والاخفاء بالبسملة وبآمين الاشفاع والايتار في الاقامة ونحو ذلك انما هو في ترجيح أحد القولين

3 ومنها أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن

فمنهم من زعم أنه يؤسس علم أسماء الرجال ومعرفة مراتب الجرح والتعديل ثم خرج من ذلك إلى التاريخ قديمه وحديثه

ومنهم من تفحص عن نوادر الأخبار وغرائبها وإن دخلت في حد الموضوع

ومنهم من أكثر القيل والقال في أصول الفقه واستنبط كل لأصحابه قواعد جدلية وأورد فاستقصى وأجاب فتقصى وعرف وقسم فحرر وطول الكلام تارة وتارة أخرى اختصر

ومنهم من ذهب إلى هذا بفرض الصور المستبعدة التي من حقها أن لا يتعرض لها عاقل وبسحب العمومات والإيماءات من كلام المخرجين فمن دونهم مما لا يرضى استماعه عالم ولا جاهل

وفتنة هذا الجدال والخلاف والتعمق قريبة من الفتنة الأولى حين تشاجروا في الملك وانتصر كل رجل لصاحبه فكما أعقبت تلك ملكا عضوضا ووقائع صماء عمياء فكذلك أعقبت هذه جهلا واختلاطا وشكوكا ووهما ما لها من أرجاء فنشأت بعدهم قرون على التقليد الصرف لا يميزون الحق من الباطل ولا الجدل من الاستنباط فالفقيه يومئذ هو الثرثار المتشدق الذي حفظ أقوال الفقهاء قويها وضعيفها من غير تمييز وسردها بشقشقة شدقيه والمحدث من عد الأحاديث صحيحها وسقيمها وهذها بقوة لحييه ولا أقول ذلك كليا مطردا فان لله طائفة من عباده لا يضرهم من خذلهم وهم حجة الله في أرضه وان قلوا

ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليدا وأشد انتزاعا للأمانة من صدور الرجال حتى اطمأنوا بترك الخوض في أمر الدين وبأن يقولوا ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا

على آثارهم مقتدون ﴾ وإلى الله المشتكى وهو المستعان وبه الثقة وعليه التكلان

التقليد في المذاهب الأربعة

(468/258)

مما يناسب هذا المقام التنبيه على مسائل ضلت في بواديها الأفهام وزلت الأقدام وطغت الأقلام منها

1 أن هذه المذاهب الأربعة المدونة قد اجتمعت الأمة أو من يعتد به منها على جواز تقليدها إلى يومنا هذا وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى لا سيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم وأشربت النفوس الهوى وأعجب كل ذي رأي برأيه فما ذهب اليه ابن حزم حيث قال التقليد حرام ولا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا برهان لقوله تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ وقال مادحا من لم يقلد ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ وقال الله تعالى ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فلم يبح الله تعالى الرد عند التنازع الى

أحد دون القرآن والسنة وحرم بذلك الرد عند التنازع الى قول قائل لأنه غير القرآن والسنة وقد صح إجماع الصحابة كلهم أولهم عن آخرهم واجماع التابعين أولهم عن آخرهم وإجماع تابعي التابعين إلى آخرهم على الامتناع والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم أو ممن قبلهم فيأخذه كله

فليعلم من أخذ جميع أقوال أبي حنيفة أو جميع أقوال مالك أو جميع أقوال الشافعي أو جميع أقوال أحمد رضي الله عنهم ولم يترك قول من اتبع منهم أو من غيرهم إلى قول غيره ولم يعتمد على ما جاء في القرآن والسنة غير صارف ذلك الى قول انسان بعينه أنه قد خالف إجماع الأمة كلها من أولها إلى آخرها بيقين لا إشكال فيه ولا يجد لنفسه سلفا ولا إنسانا في جميع الأعصار المحمودة الثلاثة فقد اتبع غير سبيل المؤمنين

فنعوذ بالله من هذه المنزلة وأيضا فان هؤلاء الفقهاء كلهم قد نهوا عن تقليد غيرهم وقد خالفهم من قلدهم

(469/258)

وأيضا فما الذي جعل رجلا من هؤلاء أو من غيرهم أولى أن يقلد من عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب أو ابن مسعود أو ابن عمر أو ابن عباس أو عائشة أم المؤمنين رضي الله

تعالى عنهم فلو ساغ التقليد لكان كل واحد من هؤلاء أحق بأن يتبع من غيره انتهى

إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد ولو في مسألة واحدة وفيمن ظهر عليه ظهورا بينا أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكذا ونهى عن كذا وأنه ليس بمنسوخ إما بأن يتتبع الأحاديث وأقوال المخالف والموافق في المسألة فلا يجد له نسخا أو بأن يرى جمعا غفيرا من المتبحرين في العلم يذهبون إليه ويرى المخالف له لا يحتج الا بقياس أو استنباط أو نحو ذلك فحينئذ لا سبب لمخالفة حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلا نفاق خفي أو حمق جلي وهذا الذي أشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث قال ومن العجب العجاب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه بل يتخيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده وقال لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير

تقليد لمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين الى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فان أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال كأنه نبي أرسل وهذا نأي عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب

وقال الامام أبو شامة ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على مذهب امام ويعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة المحكمة وذلك سهل عليه اذا كان اتقن العلوم

المتقدمة وليجتنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة فانها مضيعة للزمان ولصفوه مكدرا فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره

(470/258)

قال صاحبه المزني في أول مختصره اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله لأقربه على من أراد مع إعلامي نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه أي مع إعلامي من أراد علم الشافعي نهي الشافعي عن تقليده وتقليد غيره

وفيمن يكون عاميا ويقلد رجلا من الفقهاء بعينه يرى أن يمتنع من مثله الخطأ وأن ما قاله هو الصواب البتة وأضمر في قلبه ألا يترك تقليده وان ظهر الدليل على

خلافه وذلك ما رواه الترمذي عن عدي بن حاتم أنه قال سمعته يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ قال انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا أحلوا شيئا استحلوه واذا حرموا عليهم شيئا حرموه

وفيمن لا يجوز أن يستفتي الحنفي مثلا فقيها شافعيا وبالعكس ولا يجوز أن يقتدي الحنفي بامام شافعي مثلا فان هذا قد خالف إجماع القرون الأولى وناقض الصحابة والتابعين وليس محله فيمن لا يدين الا بقول النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعتقد حلالا الا ما أحله الله

ورسوله ولا حراما الا ما حرمه الله ورسوله

لكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ولا بطريق الاستنباط من كلامه اتبع عالما راشدا على أنه مصيب فيما يقول ويفتي ظاهرا متبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار فهذا كيف ينكره أحد مع أن الاستفتاء

والافتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم

(471/258)

ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائما أو أن يستفتي هذا حينا وذلك حينا بعد أن يكون مجمعا على ما ذكرناه كيف لا ولم نؤمن بفقيه أيا كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم فان اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطا عنهما بنحو من الاستنباط أو عرف بالقرائن أن الحكم في صورة ما منوط بعلة كذا واطمأن قلبه بتلك المعرفة فقاس غير المنصوص على المنصوص فكأنه يقول ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا والمقيس مندرج في هذا العموم فهذا أيضا معزي إلى

النبي صلى الله عليه وسلم ولكن في طريقه ظنون ولولا ذلك ما قلد مؤمن بمجتهد فان بلغنا حديث من رسول الله المعصوم صلى الله عليه وسلم الذي فرض علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين فمن أظلم منا وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين

2 ومنها أن تتبع الكتاب والآثار لمعرفة الأحكام الشرعية على مراتب أعلاها أن يحصل له من معرفة الأحكام

بالفعل أو بالقوة القريبة من الفعل ما يتمكن به من جواب المستفتين في الوقائع غالبا بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه وتخص باسم الاجتهاد

وهذا الاستعداد يحصل

تارة بالإمعان في جمع الروايات وتتبع الشاذة والفاذة منها كما أشار إليه أحمد بن حنبل مع ما لا ينفك منه العاقل العارف باللغة من معرفة مواقع الكلام وصاحب العلم بآثار السلف من طريق الجمع بين المختلفات وترتيب الاستدلالات ونحو ذلك

وتارة بإحكام طرق التخريج على مذهب شيخ من مشايخ الفقه مع معرفة جملة صالحة من السنن والآثار بحيث يعلم أن قوله لا يخالف الإجماع وهذه طريقة أصحاب التخريج

وأوسطها من كلتا الطريقتين أن يحصل له من معرفة القرآن والسنن ما يتمكن به من عرفة رؤوس مسائل الفقه المجمع عليها بأدلتها التفصيلية ويحصل له غاية العلم ببعض المسائل الاجتهادية من أدلتها وترجيح بعض الأقوال على بعض ونقد التخريجات ومعرفة الجيد من الزيف وان لم يتكامل له الأدوات كما يتكامل للمجتهد المطلق فيجوز لمثله أن يلفق من المذهبين اذا عرف دليلهما وعلم أن قوله مما لا ينفذ فيه اجتهاد المجتهد ولا يقبل فيه قضاء القاضي ولا يجري فيه

فتوى المفتين أن يترك بعض التخريجات التي سبق الناس اليها اذا عرف عدم صحتها ولهذا لم يزل العلماء ممن لا يدعي الاجتهاد المطلق يصنفون ويرتبون ويخرجون ويرجحون وإذا كان الاجتهاد يتجزأ عند الجمهور والتخريج يتجزأ وإنما المقصود تحصيل الظن وعليه مدار التكليف فما الذي يستبعد من ذلك

وأما دون ذلك من الناس فمذهبه فيما يرد عليه كثيرا ما أخذه عن أصحابه وآبائه وأهل بلده من المذاهب المتبعة وفي الوقائع النادرة فتاوى مفتية وفي القضايا ما يحكم القاضي وعلى هذا وجدنا محققي العلماء من كل مذهب قديما وحديثا وهو الذي وصى به أئمة المذاهب أصحابهم وفي اليواقيت والجواهر أنه روى عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي وكان رضي الله عنه اذا أفتى يقول هذا

رأى النعمان بن ثابت يعني نفسه وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب وكان الامام مالك رضي الله عنه يقول ما من أحد الا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروى الحاكم والبيهقي عن الشافعي رضي الله عنه أنه كان يقول اذا صح الحديث فهو مذهبي وفي رواية اذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي

(473/258)

الحائط وقال يوما للمزني يا أبا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول وانظر في ذلك لنفسك فانه دين وكان رضي الله عنه يقول لا حجة في قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كثروا ولا في قياس ولا في شيء وما ثم الا طاعة الله ورسوله بالتسليم

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول ليس لأحد مع الله ورسوله كلام وقال أيضا لرجل لا تقلدني ولا تقلدن مالكا ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة لا ينبغي لأحد أن يفتي الا أن يعرف أقاويل العلماء في الفتاوى الشرعية ويعرف مذهبهم فان سئل عن مسألة يعلم أن العلماء الذين يتخذ مذهبهم قد اتفقوا عليها فلا بأس بأن يقول هذا جائز وهذا لا يجوز ويكون قوله على سبيل الحكاية وان

كانت مسألة قد اختلفوا فيها فلا بأس بأن يقول هذا جائز في قول فلان وفي قول فلان لا يجوز وليس له أن يختار فيجيب بقول بعضهم ما لم يعرف حجته

وعن أبي يوسف وزفر وغيرهما رحمهم الله أنهم قالوا لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا

قيل لعصام بن يوسف رحمه الله إنك تكثر الخلاف لأبي حنيفة رحمه الله قال لأن أبا حنيفة رحمه الله أوتي من الفهم لما لم نؤت فأدرك بفهمه ما لم ندرك ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم نفهم

عن محمد بن الحسن أنه سئل متى يحل للرجل أن يفتي قال إن كان من أهل الاجتهاد فلا يسعه قيل كيف يكون من أهل الاجتهاد قال أن يعرف وجوه المسائل ويناظر أقرانه اذا خالفوه قيل أدنى الشروط للاجتهاد حفظ المبسوط

(474/258)

وفي البحر الرائق عن أبي الليث قال سئل أبو نصر عن مسألة وردت عليه ما تقول رحمك الله وقعت عنك كتب أربعة كتاب ابراهيم بن رستم وأدب القاضي عن الخصاف وكتاب المجرد وكتاب النوادر من جهة هشام هل يجوز لنا أن نفتي منها أو لا وهل هذه الكتب

محمودة عندك فقال ما صح عن أصحابنا فذلك علم محبوب مرغوب فيه مرضي به وأما الفتيا فاني لا أرى لأحد أن يفتي بشيء لا يفهمه ولا يحمل أثقال الناس فإن كانت مسائل قد اشتهرت وظهرت وانجلت عن أصحابنا رجوت أن يسع لي الاعتماد عليها

وفيه أيضا لو احتجم أو اغتاب فظن أنه يفطره ثم أكل إن لم يستفت فقيها ولا بلغه الخبر فعليه الكفارة لأنه مجرد جهل وانه ليس بعذر في دار الاسلام وإن استفتى فقيها فأفتاه لا كفارة عليه لأن العامي يجب عليه تقليد العالم اذا كان يعتمد على فتواه فكان معذورا فيما صنع وان كان المفتي مخطئا فيما أفتى وان لم يستفت ولكن بلغه الخبر وهو قوله

صلى الله عليه وسلم افطر الحاجم والمحجوم وقوله عليه الصلاة والسلام الغيبة تفطر الصائم ولم يعرف النسخ ولا تأويله لا كفارة عليه عندهما لأن ظاهر الحديث واجب العمل به خلافا لأبي يوسف لأنه ليس للعامي العمل بالحديث لعدم علمه بالناسخ والمنسوخ

ولو لمس امرأة أو قبلها بشهوة أو اكتحل بشهوة فظن أن ذلك يفطر فأفطر فعليه الكفارة الا اذا استفتى فقيها فأفتاه بالفطر أو بلغه خبر فيه ولو نوى الصوم قبل الزوال ثم أفطر لم تلزمه الكفارة عند أبي حنيفة رضي الله عنه خلافا لهما كذا في المحيط وقد علم من هذا أن مذهب العامي فتوى مفتية

وفيه أيضا في باب قضاء الفوائت إن كان عاميا ليس له مذهب معين فمذهبه فتوى مفتية كما صرحوا به فان أفتاه حنفي أعاد العصر والمغرب وان أفتاه شافعي فلا يعيدهما ولا

عبرة برأيه وان لم يستفت أحدا أو صادف الصحة على مذهب مجتهد أجزأه ولا إعادة عليه

(475/258)

قال ابن الصلاح من وجد من الشافعية حديثا يخالف مذهبه نظر إن كملت له آلة الاجتهاد مطلقا أو في ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل وإن لم يكمل

وشق مخالفة الحديث بعد أن يبحث فلم يجد للمخالفة جوابا شافيا عنه فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير الشافعي ويكون هذا عذرا له في ترك مذهب إمامه ههنا وحسنه النووي وقرره

3 ومنها أن أكثر صور الخلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق وتكبيرات العيدين ونكاح المحرم وتشهد ابن عباس وابن مسعود والإخفاء بالبسملة وبآمين والاشفاع والايثار في الإقامة ونحو ذلك انما هو في ترجيح أحد القولين

وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية وانما كان خلافهم في أولى الأمرين ونظيره اختلاف القراء في وجوه القراءات وقد عللوا كثيرا من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون

وأنهم جميعا على الهدى ولذلك لم يزل العلماء يجوزون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ويسلمون قضاء القضاة ويعملون في بعض الأحيان بخلاف مذهبهم ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلا وهم يصححون القول ويبينون الخلاف يقول أحدهم هذا أحوط وهذا هو المختار وهذا أحب إلي ويقول ما بلغنا الا ذلك وهذا كثير في المبسوط وآثار محمد رحمه الله وكلام الشافعي رحمه الله

ثم خلف من بعدهم خلف اختصروا كلام القوم فتأولوا

الخلاف وثبتوا على مختار أئمتهم والذي يروى عن السلف من تأكيد الأخذ بمذهب أصحابهم وألا يخرج عنها بحال فان ذلك إما لأمر جبلي فان كل إنسان يحب ما هو مختار أصحابه وقومه حتى في الزي والمطاعم أو لصولة ناشئة من ملاحظة الدليل أو لنحو ذلك من الأسباب فظنه البعض تعصبا دينيا حاشاهم من ذلك

(476/258)

وقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسملة ومنهم من لا يقرؤها ومنهم من يجهر بها ومنهم من لا يجهر بها وكان منهم من يقنت في الفجر ومنهم من لا يقنت في الفجر ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ومنهم من

يتوضأ من مس الذكر ومس النساء بشهوة ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ومنهم من يتوضأ مما مسته النار ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الابل ومنهم من لا يتوضأ من ذلك

مع هذا فكان فعضهم يصلي خلف بعض مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم وان كانوا لا يقرؤون البسملة لا سرا ولا جهرا وصلى الرشيد إماما وقد احتجم فصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد وكان أفتاه الامام مالك بأنه لا وضوء عليه

وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف

والحجامة فقيل له فان كان الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه فقال كيف لا أصلي خلف الامام مالك وسعيد بن المسيب

وروي أن أبا يوسف ومحمد كانا يكبران في العيدين تكبير ابن عباس لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جده

وصلى الشافعي رحمه الله الصبح قريبا من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله فلم يقنت تأدبا معه

وقال أيضا ربما انحدرنا الى مذهب أهل العراق

وقال مالك رحمه الله للمنصور وهارون الرشيد ما ذكرنا عنه سابقا

وفي البزازية عن الامام الثاني وهو أبو يوسف رحمه الله أنه صلى يوم الجمعة مغتسلا من

الحمام وصلى بالناس وتفرقوا ثم أخبر بوجود فأرة ميتة في بئر الحمام فقال إذا تأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا انتهى

وسئل الامام الخجندي رحمه الله عن رجل شافعي المذهب ترك صلاة سنة أو سنتين ثم انتقل الى مذهب أبي حنيفة رحمه الله كيف يجب عليه القضاء أيقضيها على مذهب الشافعي أو على مذهب أبي حنيفة فقال على أي المذهبين قضى بعد أن يعتقد جوازها جاز

(477/258)

وفي جامع الفتاوى أنه إن قال حنفي إن تزوجت فلانة فهي طالق ثلاثا ثم استفتى شافعيا فأجاب إنها لا تطلق ويمينه باطل فلا بأس باقتدائه بالشافعي في هذه المسألة لأن كثيرا من الصحابة في جانبه

قال محمد رحمه الله في أماليه لو أن فقيها قال لامرأته أنت طالق البتة وهو ممن يراها ثلاثا ثم قضى عليه قاض بأنها رجعية وسعه المقام معها وكذا كل فصل مما يختلف فيه الفقهاء من تحريم أو تحليل أو إعتاق أو أخذ مال أو غيره ينبغي للفقيه المقضي عليه الأخذ بقضاء القاضي ويدع رأيه ويلزم نفسه ما ألزم القاضي ويأخذ ما أعطاه

قال محمد رحمه الله وكذلك رجل لا علم له ابتلى ببلية فسأل عنها الفقهاء فأفتوه فيها بحلال أو بحرام وقضى عليه قاضي المسلمين بخلاف ذلك وهي مما يختلف فيه الفقهاء فينبغي له أن يأخذ بقضاء القاضي ويدع ما أفتاه الفقهاء انتهى

وقد أطنبنا الكلام في هذا المقام غاية الأطناب والله وحده أعلم بالصواب .

وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون . انتهى انتهى ا هـ ﴿ الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف / لولى الله الدهلوى صـ 13 . 111 ﴾

(478/258)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/259)

الجزء التاسع والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 160 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 165 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/259)

قوله تعالى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر أن أمرهم ليس إلا إليه ، كان كأنه قيل : فماذا يفعل بهم حينئذ ؟ فأجيب بقوله : ﴿ من جاء ﴾ أي منهم أو من غيرهم ﴿ بالحسنة ﴾ أي الكاملة بكونها على أساس الإيمان ﴿ فله ﴾ من الحسنات ﴿ عشر أمثالها ﴾ كرماً وإحساناً وجوداً وامتناناً ، يجازيه بذلك في الدنيا أو في الآخرة ، وهذا المحقق لكل أحد ويزداد البعض وضوحاً بحسب النيات ، وذكر العشر ، لأنه بمعنى الحسنة ، وهو مضاف إلى ضميرها .

ولما تضمن قوله ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ [الأنعام : 153] مع تعقيبه بقوله ﴿ لا نكلف نفساً إلاّ وسعها ﴾ [الأنعام : 152] الإشارة إلى أن المساواة في الجزاء مما ينقطع دونه أعناق الخلق ، أخبر أن ذلك عليه هين لأن عمله شامل وقدرته كاملة بقوله : ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ أي أيّ شيء كان من هذا الجنس ﴿ فلا يجزى ﴾ أي في الدارين ﴿ إلا مثلها ﴾ إذا جوزي ، ويعفو عن كثير .

ولما كانت المماثلة لا يلزم كونها من كل وجه وإن كانت ظاهرة في ذلك لا سيما في هذه العبارة ، صرح بما هو ظاهره لأنه أطيب للنفس وأسكن للروع فقال : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي بكونها مثلها في الوحدة وإن كانت أكبر أو من جنس أشد من جنسها ونحو ذلك ، بل المماثلة موجودة في الكم والكيف ، فلا ينقص أحد في ثواب ولا يزاد في عقاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 751 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم : الحسنة قول لا إله إلا الله ، والسيئة هي الشرك ، وهذا بعيد بل يجب أن يكون محمولاً على العموم إما تمسكاً باللفظ وإما لأجل أنه حكم مرتب على صف مناسب له فيقتضي كون الحكم معللاً بذلك الوصف فوجب أن يعم لعموم العلة .

المسألة الثانية :

قال الواحدي رحمه الله : حذفت الهاء من عشر والأمثال جمع مثل ، والمثل مذكر لأنه أريد عشر حسنات أمثالها ، ثم حذفت الحسنات وأقيمت الأمثال التي هي صفتها مقامها وحذف الموصوف كثير في الكلام ، ويقوي هذا قراءة من قرأ عشر أمثالها بالرفع والتنوين .

(5/259)

المسألة الثالثة :

مذهبنا أن الثواب تفضل من الله تعالى في الحقيقة ، وعلى هذا التقدير فلا إشكال في الآية ،

أما المعتزلة فهم فرقوا بين الثواب والتفضل بأن الثواب هو المنفعة المستحقة والتفضل هو المنفعة التي لا تكون مستحقة ثم إنهم على تفريع مذاهبهم اختلفوا .

فقال بعضهم : هذه العشرة تفضل والثواب غيرها وهو قول الجبائي قال : لأنه لو كان الواحد ثواباً وكانت التسعة تفضلاً لزم أن يكون الثواب دون التفضل ، وذلك لا يجوز ، لأنه لو جاز أن يكون التفضل مساوياً للثواب في الكثرة والشرف ، لم يبق في التكليف فائدة أصلاً فيصير عبثاً وقبيحاً ، ولما بطل ذلك علمنا أن الثواب يجب أن يكون أعظم في القدر وفي التعظيم من التفضل .

وقال آخرون : لا يبعد أن يكون الواحد من هذه التسعة ثواباً ، وتكون التسعة الباقية تفضلاً ، إلا أن ذلك الواحد يكون أوفر وأعظم وأعلى شأناً من التسعة الباقية .

المسألة الرابعة :

قال بعضهم : التقدير بالعشرة ليس المراد منه التحديد ، بل أراد الإضعاف مطلقاً ، كقول القائل لئن أسديت إلي معروفاً لأكافئنك بعشر أمثاله ، وفي الوعيد يقال : لئن كلمتني واحدة لأكلمنك عشراً ، ولا يريد التحديد فكذا ههنا .

والدليل على أنه لا يمكن حمله على التحديد قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنفِقُونَ أموالهم فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ والله يضاعف لمن يشاء ﴾

[البقرة: 261].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أي الأجزاء يساويها ويوازيها.

(6/259)

روى أبو ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى قال الحسنة عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو عفو فالويل لمن غلب آحاده أعشاره" وقال صلى الله عليه وسلم: "يقول الله إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وإن لم يعملها فإن عملها فعشر أمثالها وإن هم بسيئة فلا تكتبوها وإن عملها فسيئة واحدة" وقوله: ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب طاعتهم، ولا يزاد على عقاب سيئاتهم في الآية سؤالان:

السؤال الأول: كفر ساعة كيف يوجب عقاب الأبد على نهاية التغليظ.

جوابه: أنه كان الكافر على عزم أنه لو عاش أبداً لبقي على ذلك الاعتقاد أبداً، فلما كان ذلك العزم مؤبداً عوقب بعقاب الأبد خلاف المسلم المذنب، فإنه يكون على عزم الإقلاع عن ذلك الذنب، فلا جرم كانت عقوبته منقطعة.

السؤال الثاني: إعتاق الرقبة الواحدة تارة جعل بدلاً عن صيام ستين يوماً، وهو في كفارة الظهار، وتارة جعل بدلاً عن صيام أيام قلائل، وذلك يدل على أن المساواة غير معتبرة.

جوابه : إن المساواة إنما تحصل بوضع الشرع وحكمه .

السؤال الثالث : إذا أحدث في رأس إنسان موضحتين : وجب فيه إرشان ، فإن رفع الحاجز بينهما صار الواجب أرش موضحة واحدة ، فههنا ازدادت الجناية وقل العقاب ، فالمساواة غير معتبرة .

وجوابه : إن ذلك من تعبدات الشرع وتحكماته .

السؤال الرابع : إنه يجب في مقابلة تفويت أكثر كل واحد من الأعضاء دية كاملة ، ثم إذا قتله وفوت كل الأعضاء ، وجبت دية واحدة ، وذلك يمتنع القول من رعاية المماثلة .

جوابه : أنه من باب تحكمات الشريعة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 8.9 ﴾

(7/259)

وقال السمرقندى :

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

يعني : من جاء بالإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب .

﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ يعني : بالشرك ﴿ فَلاَيجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ وهو الخلود في النار ، لأن الشرك أعظم الذنوب والنار أعظم العقوبة .

فذلك قوله : ﴿ جَزَآءً وفاقا ﴾ [النبإ : 26] يعني : جزاءً وافق العمل .

ويقرأ فله عشر بالتنوين أمثالُها بضم اللام فتكون الأمثال صفة للعشر ، وهي قراءة شاذة قرأها الحسن البصري ويعقوب الحضرمي والقراءة المعروفة عشر أمثالها على معنى الإضافة ، وتكلموا في المثل .

قال بعضهم إذا عمل عملاً يعطى في الآخرة ثواب عشرة .

ويقال : وإنه يكتب للواحدة عشرة .

وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ صَاحِبَ اليَمِينِ أَمِيرٌ عَلَى صَاحِبِ الشِّمَالِ .

وَإِذا عَمِلَ العَبْدُ حَسَنَةً كُتِبَ لَهُ عَشَرَةَ أَمْثَالِهَا .

وإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً فَأَرَادَ صَاحِبُ الشِّمَالِ أَنْ يَكْتُبَهَا قَالَ لَهُ صَاحِبُ اليَمِينِ : أَمْسِكْهَا فَيُمْسِكُ سِتَّ سَاعَاتٍ أَوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ .

فإِنِ اسْتَغْفَرَ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ " ويقال : إن الله تعالى قد وعدّ للواحدة عشراً فهو أعرف بكيفيته .

فإن قيل : ذكر هاهنا للواحدة عشر وذكر في آية أُخرى سبعمائة وفي آية أُخرى أضعافاً

مضاعفة ، قيل له : قد تكلم أهل العلم في ذلك .

قال بعضهم : يكون للعوام عشرة والخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى .

وقال بعضهم : العشرة اشترط لسائر الحسنات ، والسبعمائة للتفقه في سبيل الله فالخاص والعام فيه سواء .

(8/259)

وقد جاء في الأثر ما يؤكد القولين فقد روى عطية عن ابن عمر قال : نزلت هذه الآية في الأعراب ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ قال رجل ما للمهاجرين يا أَبا عبد الرحمن ؟ قال : هو أفضل من ذلك ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يضاعفها وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء : 40] وإذا قال الله لشيء عظيماً فهو عظيم .

وروى همام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا يُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها إلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ .

وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُها يُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِها حَتَّى يَلْقَى الله بلا ذَنْبٍ "

وروى ابن فاتك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأَعْمَالُ سِتَّةٌ فَمُوجِبَتَانِ ، وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ ، وَحَسَنَةٌ بِحَسَنَةٍ ، وَحَسَنَةٌ بِعَشْرٍ ، وَحَسَنَةٌ بِسَبْعِمائَةٍ .

فَأَمَّا المُوجِبَتَانِ فَمَنْ مَات وَلَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةِ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ دَخَلَ النَّارَ .

وَأَمَّا مِثْلٌ بِمِثْلٍ فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةٍ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا .

وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ حَتَّى تَشْتَهِيَ بِهَا نَفْسُهُ وَيَعْلَمَهَا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ كُتِبَ لَهُ حَسَنَة .

وَأَمَّا حَسَنَةٌ بِعَشْرٍ فَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها .

وَأَمَّا حَسَنَةٌ بِسَبْعِمائَةٍ فَالنَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ " ثم قال : " ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ " يعني : لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ولا يزادون على سيئاتهم شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ في الحسنة والسيئة هنا قولان :

(9/259)

أحدهما : أن الحسنة الإيمان ، والسيئة الكفر ، قاله أبو صالح .

والثاني : أنه على العموم في الحسنات والسيئات أن جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها

تفضلاً ، وجعل جزاء السيئة مثلها عدلاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَبْعَدَ اللَّهُ مَنْ غَلَبَتْ وَاحِدَتُهُ عَشْراً

" . ثم في ذلك قولان :

أحدهما : أنه عام في جميع الناس .

والثاني : أنه خاص في الأعراب إذا جاء أحدهم بحسنة فله عشر أمثالها ، فأما غيرهم من المهاجرين فلمن جاء منهم بحسنة سبعمائة ، قاله ابن عمر ، وأبو سعيد الخدري .

فأما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلأن الله فرض عُشْر أموالهم ، وكانوا يصومون في كل شهر ثلاثة أيام وهي البيض منه ، فكان آخر العُشْر من المال آخر جميع المال ، وآخر الثلاثة الأيام آخر جميع الشهر .

وأما مضاعفة ذلك بسبعمائة ضعف فلقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : 261] ، فضاعف الله الحسنة بسبعمائة ضعف ، وكان الحسن البصري يقرأ : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالُهَا ﴾ بالتنوين ، وَوَجْهُهُ في العربية صحيح .

(10/259)

وحكى ابن بحر في الآية تأويلاً يخرج عن عموم الظاهر ، وهو أن الحسنة اسم عام يطلق على كل نوع من الإيمان وينطلق على عمومه ، فإن انطلقت الحسنة على نوع واحد منه ، فليس له عليها من الثواب إلا مثل واحد ، وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين ، كان الثواب عليها مثلين كقوله : ﴿ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ [الحديد : 28] ، والكفل : النصيب كالمثل ، فجعل لمن اتقى وآمن بالرسول نصيبين ، نصيباً لتقوى الله ، ونصيباً لإيمانه برسوله ، فدل على أن الحسنة التي جعلت لها عشر أمثالها هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذي جمع الله في صفته عشرة أنواع بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الاحزاب : 35] ، فكانت هذه الأنواع العشرة التي ثوابها عشرة أمثالها ، فيكون لكل نوع منها مثل ، وهذا تأويل فاسد ، لخروجه عن عموم الظاهر ، لما لا يحتمله تخصيص العموم ، لأن ما جمع عشرة أنواع فهو عشر حسنات ، فليس يجزي عن حسنة إلا مثلها ، وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها .

وذكر بعض المفسرين تأويلاً ثالثاً : أن له عشر أمثالها في النعيم والزيادة لا في عظيم المنزلة ، لأن منزلة التعظيم لا تنال إلا بالطاعة ، وهذه مضاعفة تفضيل كما قال : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : 30] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ الآية .

قال أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر : هذه الآية نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر . وكان المهاجرون قد ضوعف لهم الحسنة سبعمائة .

(11/259)

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل يحتاج إلى سند يقطع العذر ، وقالت فرقة : هذه الآية لجميع الأمة ، أي إن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا المضمون قد يزيد ما يشاء ، وقد يزيد أيضاً على بعض الأعمال كنفقة الجهاد ، وقال ابن مسعود ومجاهد والقاسم بن أبي بزة وغيرهم : " الحسنة " لا إله إلا الله " والسيئة " الكفر .

قال القاضي أبو محمد : وهذه هي الغاية من الطرفين ، وقالت فرقة : ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات ، وهذا هو الظاهر . وأنث لفظ " العشر " لأن الأمثال ها هنا بالمعنى حسنات ، ويحتمل أن الأمثال أنث لما أضيفت إلى مؤنث ، وهو الضمير كما قال الشاعر : [الطويل]

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ . . . أعالِيهَا مَرّ الرياح النواسم

فأنث وقرأ الحسن وسعيد بن جبير وعيسى بن عمر والأعمش ويعقوب " فله عشرٌ " بالتنوين " أمثالُها " بالرفع .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأعمال ست موجبة وموجبة ومضعفة ومضعفة ومثل ومثل ، فلا إله إلا الله توجب الجنة . والشرك يوجب النار ، ونفقة الجهاد تضعف سبعمائة ضعف ، والنفقة على الأهل حسنتها بعشرة ، والسيئة جزاؤها مثلها ، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة مثلها " ، وقوله تعالى : ﴿ لا يظلمون ﴾ أي لا يوضع في جزائهم شيء في غير موضعه ، وتقدير الآية من جاء بالحسنة فله ثواب عشر أمثالها ، والمماثلة بين الحسنة والثواب مترتبة إذا تدبرت ، وقال الطبري قوله ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ الآية ، يريد من الذين فرقوا دينهم أي من جاء مؤمناً فله الجنة .

قال القاضي أبو محمد : والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم أليق باللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾

قرأ يعقوب ، والقزاز عن عبد الوارث : "عَشْرٌ" بالتنوين ، "أمثالُها" بالرفع .

قال ابن عباس : يريد من عَمِلَها ، كتبت له عشر حسنات ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا ﴾ جزاء ﴿ مثلها ﴾ وفي الحسنة والسيئة ها هنا قولان .

أحدهما : أن الحسنة قول لا إله إلا الله .

والسيئة : الشرك ، قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، والنخعي .

والثاني : أنه عام في كل حسنة وسيئة .

روى مسلم في "صحيحه" من حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أَزِيدُ ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أَغْفِر " فإن قيل : إذا كانت الحسنة كلمة التوحيد ، فأي مثل لها حتى يجعل جزاءُ قائلها عشر أمثالها ؟ فالجواب : أن جزاء الحسنة معلوم القدر عند الله ، فهو يجازي فاعلها بعشر أمثاله ، وكذلك السيئة .

وقد أشرنا إلى هذا في (المائدة) عند قوله : ﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ [المائدة : 32] فإن قيل : المثل مذكَّر ، فلم قال : ﴿ عشر أمثالها ﴾ والهاء إنما تسقط في عدد المؤنث ؟ فالجواب : أن الأمثال خلقت حسنات مؤنثة ، وتلخيص المعني : فله عشر حسنات أمثالها ، فسقطت الهاء من عشر ، لأنها عدد مؤنَّث ، كما تسقط عند قولك : عشر نعال ، وعشر جباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة ﴾

ابتداء ، وهو شرط ، والجواب ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ أي فله عشر حسنات أمثالها ؛

فحذفت الحسنات وأُقيمت الأمثال التي هي صفتها مقامها ؛ جمع مِثْل .

وحكى سيبويه : عندي عشرة نسّابات ، أي عندي عشرة رجال نسّابات .

وقال أبو عليّ : حَسُن التأنيث في "عَشْرُ أَمْثَالِهَا" لما كان الأمثال مضافاً إلى مؤنّث ،

والإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه في المعنى يحسن فيه ذلك ؛ نحو "تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ" .

وذهبت بعض أصابعه .

وقرأ الحسن وسعيد بن جُبير والأعمش "فله عَشْرٌ أمثالها" .

والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ، أي له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له .

(13/259)

ويجوز أن يكون له مثل ، ويضاعف المِثل فيصير عشرة .

والحسنة هنا : الإيمان .

أي من جاء بشهادة أن لا إله إلاَّ الله فله بكل عملٍ عمِله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من

الثواب .

﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾ يعني الشرك ﴿ فَلاَيجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ وهو الخلود في النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ : 26] يعني جزاء وافق العمل .

وأما الحسنة فبخلاف ذلك ؛ لنص الله تعالى على ذلك .

وفي الخبر : " الحسنة بعشر أمثالها وأَزِيد والسيئة واحدة وأغفر فالويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه " وروى الأعمش عن أبي صالح قال : الحسنة لا إله إلاَّ الله والسيئة الشرك .

﴿ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقص ثواب أعمالهم .

وقد مضى في "البقرة" بيان هذه الآية .

وأنها مخالفة للإنفاق في سبيل الله ؛ ولهذا قال بعض العلماء : العشر لسائر الحسنات ؛ والسبعمائة للنفقة في سبيل الله ، والخاص والعام فيه سواء .

وقال بعضهم : يكون للعوامّ عشرة وللخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى ؛ وهذا يحتاج إلى توقيف .

والأوّل أصح ؛ لحديث خُريم بن فاتك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " وأما حسنة بعشر فمن عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة في سبيل الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ يعني مثلها في مقابلتها واختلفوا في هذه الحسنة والسيئة على قولين .

أحدهما : أن الحسنة قول لا إله لا الله والسيئة هي الشرك بالله ، وأورد على هذا القول : إن كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها وأجيب عنه بأن جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهل يجازى على قدر إيمان المؤمن بما يشاء من الجزاء وإنما قال عشر أمثالها للترغيب في الإيمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها .

(14/259)

والقول الثاني : إن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة ، وهذا أولى .

لأن حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم : التقدير بالعشرة ليس التحديد لأن الله يضاعف لمن يشاء في حسناته إلى سبعمائة ويعطي من يشاء بغير حساب وإعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يعني لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصي (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى " (م) عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد من جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة " (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " يقول الله تبارك وتعالى وإذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن ترك من أجلي فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة " لفظ البخاري وفي لفظ مسلم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " قال الله تبارك وتعالى إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها "

(15/259)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي " زاد الترمذي : من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾

روى الخدري وابن عمر أنها نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة ضوعفت لهم الحسنة بعشر وضوعف للمهاجرين تسعمائة ذكره ابن عطية .

وقال : يحتاج إلى إسناد يقطع العذر ؛ انتهى .

ولما ذكر أنه ينبئهم بفعلهم ذكر كيفية المجازاة ولما كان قوله : ﴿ إن الذين فرقوا ﴾ مشعراً بقسيمة ممن ثبت على دينه قسم المجازين إلى جاء بحسنة وجاء بسيئة ، وفسرت الحسنة بالإيمان وعشر أمثالها تضعيف أجوره أي ثواب عشر أمثالها في الجنة ، وفسرت السيئة بالكفر ومثلها النار وهذا مروي عن الخدري وابن عمر .

وقال ابن مسعود ومجاهد والقسم بن أبيّ بزة وغيرهم : الحسنة هنا لا إله إلا الله والسيئة الكفر ، والظاهر أن العدد مراد .

وقال الماتريدي : ليس على التحديد حتى لا يزاد عليه ولا ينقص منه بل على التعظيم لذلك إذ هذا العدد له خطر عند الناس أو على التمثيل كقوله : ﴿ كعرض السماء والأرض ﴾ وقال : ﴿ من جاء ﴾ ولم يقل من عمل ليعلم أن النظر إلى ما ختم به وقبض عليه دون ما وجد منه من العمل فكأنه قال : من ختم له بالحسنة وكذلك السيئة ؛ انتهى .

وأنث عشراً وإن كان مضافاً إلى جمع مفرد مثل وهو مذكر رعياً للموصوف المحذوف ، إذ مفرده مؤنث والتقدير فله عشر حسنات أمثالها ونظيره في التذكير مررت بثلاثة نسابات راعى الموصوف المحذوف أي بثلاثة رجال نسابات .

وقيل : أنث عشراً وإن كان مضافاً إلى ما مفرده مذكر لإضافة أمثال إلى مؤنث وهو ضمير الحسنة كقوله : ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ قاله أبو عليّ وغيره .

(16/259)

وقيل : الحسنة والسيئة عامان وهو الظاهر وليسا مخصوصين بالكفر والإيمان ويكون ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ مخصوصاً بمن أراد الله تعالى وقضى بمجازاته عليها ، ولم يقض أن يغفر له وكونه له عشر أمثالها لا يدل على أنه يزاد إن كان مفهوم العدد قوياً في الدلالة إذ تكون العشر هي الجزاء على الحسنة وما زاد فهو فضل من الله كما قال والله يضاعف لمن يشاء .

وقرأ الحسن وابن جبير وعيسى بن عمر والأعمش ويعقوب والقزاز عن عبد الوارث عشر بالتنوين أمثالها بالرفع على الصفة لعشر ولا يلزم من المثلية أن يكون في النوع بل يكتفي أن يكون في قدر مشترك ، إذ النعيم السرمدي والعذاب المؤبد ليسا مشتركين في نوع ما كان مثلاً لهما لكن النعيم مشترك مع الحسنة في كونهما حسنتين والعذاب مشترك مع السيئة في كونهما يسوءان ، وظاهر من جاء العموم .

وقيل : يختص بالأعراب الذين أسلموا كما ذكر في سبب النزول .

وقيل : بمن آمن من الذين فرقوا دينهم .

وقيل : بهذه الأمة وهي أدنى المضاعفة .

وقيل : العشر على بعض الأعمال والسبعون على بعضها ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد في عقابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(17/259)

وقال الآلوسى :

﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾

استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر

أضدادهم أي من جاء من المؤمنين بالخصلة الواحدة من خصال الطاعة أي خصلة كانت ، وقيل : التوحيد ونسب إلى الحسن وليس بالحسن ﴿ فَلَهُ عَشْرُ ﴾ حسنات ﴿ أمثالها ﴾ فضلاً من الله تعالى .

وقرأ يعقوب ﴿ عَشَرَ ﴾ بالتنوين ﴿ أمثالها ﴾ بالرفع على الوصف ، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف ، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب ، ولذلك قيل : المراد بالعشر الكثرة لا الحصر في العدد الخاص .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة وأبو الشيخ عن ابن عباس وعبد بن حميد وغيره عن ابن عمر أن الآية نزلت في الأعراب خاصة ، وأما المهاجرون فالحسنة مضاعفة لهم بسبعمائة ضعف ، والظاهر العموم .

وتجريد ﴿ عَشَرَ ﴾ من التاء لكون المعدود مؤنثاً كما أشرنا إليه لكنه حذف وأقيمت صفته مقامه ، وقيل : إنه المذكور إلا أنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه .

﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ كائناً من كان من العالمين ﴿ فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ، وإيجاب كفر ساعة عقاب الأبد لأن الكافر على عزم أنه لو عاش أبداً لبقي على ذلك الاعتقاد أبداً ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب .

فإن ذلك منه تعالى لا يعد ظلماً إذ له سبحانه أن يعذب المطيع ويثيب العاصي ، وقيل : المعنى لا ينقصون في الحسنات من عشر أمثالها وفي السيئة من مثلها في مقام الجزاء .

ومن المعتزلة من استدل بهذه الآية على إثبات الحسن والقبح العقليين ، واختلف في تقريره فقيل : إنهم لما رأوا أن أحد أدلة الأشاعرة على النفي أن العبد غير مستبد في إيجاد فعله كما بين في محله فلا يحكم العقل بالاستقلال على ترتب الثواب والعقاب عليه قالوا : إن قوله سبحانه : ﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾ الخ صريح في أن العبد مستبد مختار في فعله الحسن والقبيح ، وإذا ثبت ذلك يثبت الحسن والقبح العقليان .

(18/259)

وأجيب عنه بأن الآية لا تدل على استبداد العبد ، غاية ما فيها أنها تدل على المباشرة وهم لا ينكرونها ، وقيل : إن الآية دلت على أن لله تعالى فعلاً حسناً ولو كان حسن الأفعال لكونها مأمورة أو مأذوناً فيها لما كان فعل الله تعالى حسناً إذ هو غير مأمور ولا مأذون ، وأيضاً لو توقف معرفة الحسن والقبح على ورود الشرع لما كانت أفعاله تعالى حسنة قبل الورود وهو خروج عن الدين .

وأجيب أما عن الأول : فبأنا لا ندعي أنه لا حسن إلا ما أمر به أو أذن في فعله حتى يقال : يلزم أن تكون أفعال الله تعالى غير حسنة إذ يستحيل أن يكون مأموراً بها أو مأذوناً فيها بل ما أمر الشارع بفعله أو أذن فيه فهو حسن ولا ينعكس كنفسه بل قد يكون الفعل حسناً

باعتبار موافقة الغرض أو باعتبار أنه مأمور بالثناء على فاعله ، وبهذا الاعتبار كان فعل الله تعالى حسناً سواء وافق الغرض أو خالف ، وأما عن الثاني : فبأن الحسن والقبح وإن فسرا بورود الشرع بالمنع والإطلاق لكن لا نسلم أنه لا حسن ولا قبح إلا بالشرع حتى يلزمنا ذلك بل الحسن والقبح أعم مما ذكر كما عرف في موضعه ، ولا يلزم من تحقق معنى الحسن والقبح بغير ورود الشرع بالمنع والإطلاق أن يكون داتياً للأفعال ، ولا يخفى على المطلع أن قولهم : لو كان حسن الأفعال الخ وقولهم : لو توقف معرفة الحسن والقبح الخ شبهتان مستقلتان من شبه عشر إلزامية ذكرها الآمدي في "إبكار الأفكار" وأن كلاً من التقريرين السابقين لا يخلو بعد عن نظر فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(19/259)

وقال القاسمى :

﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ ﴾ أي : جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ يعني : عشر حسنات أمثالها في الحسن .

قال المهايمي : كمن أهدى إلى سلطان عنقود يعطيه بما يليق بسلطنته ، لا قيمة العنقود . انتهى . والعشر أقل ما وعد من الأضعاف . وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة وبغير

حساب . ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص : ﴿ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أي : بالأعمال السيئة : ﴿ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ في القبح .

قال المهايمي : فمن كفر خلد في النار ، فإنه ليس أقبح من كفره . كمن أساء إلى سلطان يقصد قتله . ومن فعل معصية عذب بقدرها كمن أساء إلى آحاد الرعية . انتهى .

﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي : بنقص الثواب وزيادة العقاب .

لطيفة :

(20/259)

قال القاشاني في قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ : هذا أقل درجات الثواب . وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب والسيئة بظهور النفس . فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب الذي يتلوا مقام النفس في الارتقاء ، تلو مرتبة العشرات للآحاد في الأعداد . وأما في السيئة فلأنه لا مقام أدون من مقام النفس . فينحط إليه بالضرورة . فيرى جزاءه في مقام النفس بالمثل . ومن هذا يعلم أن الثواب من باب الفضل . فإنه يزيد به صاحبه ويتنورّ استعداده ويزداد قبوله لفيض الحق . فيتقوى على أضعاف ما فعل ويكتسب به أجوراً متضاعفة إلى غير نهاية ، بازدياد القبول على فعل كل حسنة وزيادة القدرة

والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض إلى ما لا يعلمه إلا الله . كما قال بعد ذكر أضعافها إلى سبعمائة : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة 261] ، وأن العقاب من باب العدل إذ العدل يقتضي المساواة . ومن فعل بالنفس ، إذا لم يعف عنه ، يجازي بالنفس سواء . انتهى .

تنبيه :

(21/259)

وردت أحاديث كثيرة في معنى الآية . فروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فيما يروي عن ربه تعالى : < إن ربكم تبارك وتعالى رحيم . من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ولا يهلك على الله إلا هالك > . ورواه البخاريّ ومسلم والنسائيّ . وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ أو أزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر . ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ,من تقرب مني ذراعاً

تقربت منه باعاً . ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة > . وروى الشيخان عن أبي هريرة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < يقول الله تعالى : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة > لفظ البخاري . وروى الطبراني عن أبي مالك الأشعريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام . وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ > . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله > . ورواه النسائي والترمذيّ وزاد : فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه : ﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، اليوم بعشرة أيام . وبقيت

أخبار أخرى . وفيما ذكر كفاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 562. 564 ﴾

(22/259)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) ﴾

من عادة القرآن أنَّه إذا أنذر أعقب الإنذار ببشارة لمن لا يحقّ عليه ذلك الإنذار ، وإذا بَشَّر أعقب البشارة بنذارة لمن يتَّصف بضدّ ما بشر عليه ، وقد جرى على ذلك ههنا : فإنَّه لمّا أنذر المؤمنين وحذرهم من التريُّثِ في اكتساب الخير ، قبل أن يأتي بعض آياتِ الله القاهرة ، بقوله : ﴿ لاَ يَنْفَع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام : 158] فحَدّ لَهم بذلك حدّاً هو من مظهر عدله ، أعقب ذلك ببشرى من مظاهر فضله وعَدله .

وهي الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها والجزاء على السيّئة بمثلها ، فقوله : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ إلى آخره استئناف ابتدائي جرى على عرف القرآن في الانتقال بين الأغراض . فالكلام تذييل جامع لأحوال الفريقين اللذين اقتضاهما قوله : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام : 158] .

وهذا بيان لبعض الإجمال الذي في قوله : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ الآية ، كما تقدّم آنفاً .

و﴿ جاء بالحسنة ﴾ معناه عمل الحسنة : شبه عمله الحسنة بحال المكتسب ، إذ يخرج

يطلب رزقاً من وجوهه أو احتطاب أو صيد فيجيء أهله بشيء .

وهذا كما استعير له اسم التِّجارة في قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ [البقرة : 16] .

فالباء للمصاحبة ، والكلام تمثيل ، ويجوز حمل المجيء على حقيقته ، أي مجيء إلى الحساب على أن يكون المراد بالحسنة أن يجيء بكتابتها في صحيفة أعماله .

(23/259)

وأمْثال الحسنة ثواب أمثالها ، فالكلام على حذف مضاف بقرينة قوله : ﴿ فلا يجزي إلا مثلها ﴾ ، أو معناه تحسب له عشرُ حسنات مثل التي جاء بها كما في الحديث : "كتبها الله عنده عشر حسنات " ويعرف من ذلك أنّ الثّواب على نحو ذلك الحساب كما دلّ عليه قوله : ﴿ فلا يجزي إلا مثلها ﴾ .

والأمثال : جمع مِثْل وهو المماثل المساوي ، وجيء له باسم عدد المؤنّث وهو عشر اعتباراً بأنّ الأمثال صفة لموصوف محذوف دلّ عليه الحسنة أي فله عشر حسنات أمثالها ،

فروعي في اسم العدد معنى مميّزه دون لفظه وهو أمثال .

والجزاء على الحسنة بعشرة أضعاف فضلٌ من الله ، وهو جزاء غالب الحسنات ، وقد

زاد الله في بعض الحسنات أن ضاعفها سبعمائة ضِعْف كما في قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ [البقرة : 261] فذلك خاصّ بالإنفاق في الجهاد .

وفي الحديث : " من هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة " .

وقرأ الجمهور : ﴿ عَشرُ أمثالِها ﴾ بإضافة ﴿ عشر ﴾ إلى ﴿ أمثالها ﴾ .

وهو من إضافة الصّفة إلى الموصوف ، وقرأه يعقوب بتنوين ﴿ عشر ﴾ ورفع ﴿ أمثالها ﴾ ، على أنّه صفة ل ﴿ عشر ﴾ ، أي فله عشر حسنات مماثلة للحسنة التي جاء بها .

ومماثلة الجزاء للحسنة موكول إلى علم الله تعالى وفضله .

وإنَّما قال في جانب السيّئة فلا يُجزى إلاّ مثلها بصيغة الحصر لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النّفي ، اهتماماً به ، لإظهار العدل الإلهي ، فالحصر حقيقي ، وليس في الحصر الحقيقي ردّ اعتقاد بل هو إخبار عمّا في نفس الأمر ، ولذلك كان يساويه أن يقال : ومن جاء بالسيّئة فيُجزى مثلها ، لولا الاهتمام بجانب نفي الزّيادة على المماثلة .

(24/259)

ونظيره قول النّبيء صلى الله عليه وسلم حين سألَتْه هند بنت عتبة فقالت : إنّ أبا سفيان رجل مِسّيك فهل عليّ حرج أن أُطعم من الذي له عيالَنا ، فقال لها : " لا إلاّ بالمعروف " ولم يقل لها : أطعميهم بالمعروف .

وقد جاء على هذا المعنى قول النّبيء صلى الله عليه وسلم ومن همّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيّئة واحدة" ؛ فأكَّدها بواحدة تحقيقاً لعدم الزّيادة في جزاء السيّئة .

ولذلك أعقبه بقوله : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ والضّمير يعود إلى ﴿ من جاء بالسيّئة ﴾ ، إظهار للعدل ، فلذلك سجل الله عليهم بأنّ هذا لا ظلم فيه ليُنصِفوا من أنفسهم .

وأمّا عدّ عود الضّميرين إلى الفريقين فلا يناسب فريق أصحاب الحسنات ، لأنَّه لا يحسن أن يقال للذي أُكرم وأفيض عليه الخير إنَّه غير مظلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(25/259)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

هناك " حسن " ، و" حسنة " ولا تقل : إن حسنة هي مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التأنيث ، ولكن اسمها " تاء المبالغة " تأتي على اللفظ الذي للذكر ، مثلما تقول : " فلان علاّمة " ، " فلان راوية للشعر " وفلان نسَّابة . هذه هي تاء المبالغة .

والحسنة هي الخير الذي يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ .

ف " أمثالها " جمع " مثل " ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً نأتي له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء لأن أصل الأعداد مبني على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبنيٌّ على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : " ثلاثة رجال " . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : " ثلاثة نسوة " ، والحق هنا يقول : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، و" مثل " – كما قلنا – مذكر . والحق لم يجعل الأصل في العطاء هو " المثل " ، بل جعل الأصل هو الحسنة : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا . . . ﴾ [الأنعام : 160]

وهذا هو مطلق الرحمة والفضل ، ولذلك ورد الحديث القدسي .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال – فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى – " إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة او يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك " .

ونعرف أن الحق يجزي الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص في نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، وينتفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : 11]

ويقول أيضاً : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ . . . ﴾ [البقرة : 245]

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطي الحسنة هي التي يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد .

والحق سبحانه وتعالى يعطي مثلاً لذلك في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ . . . ﴾ [البقرة : 261] وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فماذا يعطي خالق الأرض ؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 261]

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ . . . وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 160]

مادام لا يجزي إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(27/259)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : " لما نزلت ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر

أمثالها ﴾ قال رجل من المسلمين : يا رسول الله لا إله إلا الله حسنة ؟ قال " نعم ، أفضل الحسنات " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة أراه رفعه ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : نزلت هذه الآية ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وهم يصومون ثلاثة أيام من الشهر ويؤدون عشر أموالهم ، ثم نزلت الفرائض بعد ذلك صوم رمضان والزكاة .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن حبان عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال " أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أقول : والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت . فقلت له : قد قلته يا رسول الله . قال : فإنك لا تستطيع ذلك ، صم وافطر ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك كصيام الدهر " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صام ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام

الدهر ، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ اليوم بعشرة أيام " .

(28/259)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه " عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله علمني عملاً يقربني من الجنة ويباعدني من النار قال : إذا عملت سيئة فاعمل حسنة ، فإنها عشر أمثالها . قلت : يا رسول الله لا إله إلا الله من الحسنات ؟ قال : هي أحسن الحسنات " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه قال : ما تقولون من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها لمن هي ؟ قلنا للمسلمين . قال : لا والله ما هي إلا للأعراب خاصة ، فاما المهاجرون فسبعمائة .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ قال : إنما هي للأعراب ، ومضعفة للمهاجرين بسبعمائة ضعف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال : نزلت هذه الآية في الاعراب ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ والاضعاف

للمهاجرين . وفي لفظ : فقال رجل : يا أبا عبد الرحمن ما للمهاجرين ؟ قال : ما هو أفضل من ذلك

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويُؤْتِ من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : 41] وإذا قال الله لشيء عظيم فهو عظيم .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من اغتسل يوم الجمعة ، واستاك ، ومس من طيب إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتي المسجد ولم يتخط رقاب الناس ، ثم رجع ما شاء الله أن يركع ، ثم أنصت إذا الإِمام فلم يتكلم حتى يفرغ من صلاته ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة التي قبلها ، وكان أبو هريرة يقول : ثلاثة أيام زيادة ، إن الله جعل الحسنة بعشر أمثالها " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ومن جاء بالحسنة . . . ﴾ الآية . قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول " إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت له سيئة " .

(29/259)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاب كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله إلا هالك " .

وأخرج أحمد ومسلم وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو اغفر ، ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

وأخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى وقوله الحق : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، وإذا عملها فاكتبوها بعشر أمثالها ، وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، فإن تركها فاكتبوها له حسنة ، ثم قرأ ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ " .

وأخرج أبو يعلى عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب

عليه شيء ، فإن عملها كتبت عليه سيئة " .

وأخرج الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله تعالى قال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " .

(30/259)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يحضر الجمعة ثلاثة نفر : رجل حضرها يلغو فهو حظه منها ، ورجل حضرها يدعو فإن شاء الله أعطاه وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بانصات وسكوت ، ولم يتخُط رقبة مسلم ، ولم يؤذ أحداً ، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله يقول ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان يجده ، ثم أتى المسجد فلم يؤذ أحداً ، ولم يتخط أحداً ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الثانية وزيادة ثلاثة أيام ، لأن الله تعالى يقول " الحسنة بعشر أمثالها " " .

وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن أبي العاصي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الحسنة بعشر أمثالها " " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال " أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيام الدهر ثلاثة أيام من كل شهر ، فإن الحسنه بعشر أمثالها " .

وأخرج ابن مردويه عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر كله ، يوم بعشرة أيام ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وأخرجه الخطيب عن علي موقوفاً " .

وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله جعل حسنة ابن آدم عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم ، والصوم لي وأنا أجزي به " .

(31/259)

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن حبان عن ابن عمرو " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خصلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ، يسبح الله دبر كل صلاة عشراً ، ويحمد عشراً ، ويكبر عشراً ، فذلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمسمائة في الميزان ، ويكبر أربعاً وثلاثين إذا

أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين ، فذلك مائة باللسان وألف في الميزان ، وأيّكم يعمل في اليوم ألفين وخمسمائة سيئة ؟ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عبيدة بن الجراح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من عاد مريضاً ، أو أماط أذى عن طريق ، فحسنة بعشر أمثالها " .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : تعلموا القرآن واتلوه فإنكم تؤجرون به بكل حرف منه عشر حسنات ، أما أني لا أقول آلم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة ، ذلك بأن الله عز وجل يقول ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن خريم بن فاتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " الناس أربعة والأعمال ستة . فموجبتان ، ومثل بمثل ، وعشرة أضعاف ، وسبعمائة ضعف ، فمن مات كافراً وجبت له النار ، ومن مات مؤمناً وجبت له الجنة ، والعبد يعمل بالسيئة فلا يجزى إلا بمثلها ، والعبد يهم بالحسنة فيكتب له حسنة ، والعبد يعمل بالحسنة فتكتب له عشراً ، والعبد ينفق النفقة في سبيل الله فيضاعف له سبعمائة ضعف ، والناس أربعة : فموسع عليه في الدنيا وموسع عليه في الآخرة ، وموسع عليه في الدنيا ومقتر عليه في الآخرة ، ومقتر عليه في الدنيا وموسع عليه في الآخرة ، ومقتر عليه في الدنيا والآخرة " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل حسنة يعملها العبد المسلم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف " .

(32/259)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له بعشر أمثالها إلى سبعمائة وسبع أمثالها " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله ليعطي بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة ، ثم قرأ ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ " .

وأخرج أبو داود الطيالسي وابن حبان والبيهقي في الشعب عن أبي عثمان قال : كنا مع أبي هريرة في سفر ، فحضر الطعام فبعثنا إلى أبي هريرة ، فجاء الرسول فذكر أنه صائم ، فوضع الطعام ليؤكل ، فجاء أبو هريرة فجعل يأكل ، فنظروا إلى الرجل الذي أرسلوه فقال : ما تنظرون إلي ، قد والله أخبرني أنه صائم ؟ ! قال : صدق ثم قال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " صوم شهر الصبر ، وثلاثة أيام من الشهر صوم الدهر ، فانا

صائم في تضعيف الله ومفطر في تخفيفه ، ولفظ ابن حبان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الشهر وقد صمت ثلاثة أيام من كل شهر كله وإني الشهر كله صائم ، ووجدت تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والبيهقي في الشعب عن الأزرق بن قيس عن رجل من بني تميم قال : كنا على باب معاوية ومعنا أبو ذر فذكر أنا صائم ، فلما دخلنا ووضعت الموائد جهل أبو ذر يأكل ، فنظرت إليه فقال : ما لك ؟ ! قلت : ألم تخبر أنك صائم ؟ قال : بلى أقرأت القرآن ؟ قلت : نعم .

قال : لعلك قرأت المفرد منه ولم تقرأ المضعف ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر حسنة " قال : صوم الدهر يذهب مغلة الصدر . قلت : وما مغلة الصدر ؟ قال : رجز الشيطان .

(33/259)

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن أبي أيوب الأنصاري " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فذاك صيام الدهر " .

وأخرج أحمد والبيهقي عن جابر بن عبد الله " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من صام رمضان وستة أيام من شوال فكأنما صام السنة كلها " .

وأخرج البزار والبيهقي عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صيام شهر بعشرة أشهر ، وستة أيام بعده بشهرين ، فلذلك تمام السنة ، يعني رمضان وستة أيام بعده " .

وأخرج ابن ماجة عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صام ستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ " .

(34/259)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أولى خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة " أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليضعفن أحدكم ، ثم

ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها يُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته ، ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحمد لله أحمده وأستعينه نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإِسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس أنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله تعالى وذكره ، ولا تقسوا عنه قلوبكم فإنه من كل يختار الله ويصطفي فقد سماه خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوا الله حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(35/259)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

إنما ذكّر العدد والمَعْدُود مذكَّر ، لأوجه :

منها : أن الإضافة لها تَأْثِير كما تقدَّم غيْر مرَّة ؛ فأكسب المُذَكَّر من المؤَنَّث التَّأنيث ، فأعْطِي حُكْم المؤَنَّث من سُقُوط التَّاء من عَدَدِه ، ولذلك يُؤَنَّث فعله حالة إضافته لِمُؤَنَّثٍ نحو : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ [يوسف : 10] .

وقوله : [الطويل]

2395 - . . .

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنْ الدَّمِ

وقوله : [الطويل]

2396 - . . . .

تَسَفَّهَتْ أعَالِيهَا مَرُّ الرِّيبعِ النَّواسِمِ

إلى غير ذلك مما تقدَّم تَحْقِيقه .

ومنها : أنَّ المذكر عِبَارة عن مُؤَنَّثٍ ، فرُوعِي المُرَاد دُونَ اللَّفْظ ، وعليه قوله : [الطويل]

2397 - وإنّ كِلاَباً هذه عَشْرُ أبْطُنٍ . . .

وأنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قِبَائِلِهَا العَشْرِ

لمْ يُلْحِق التَّاء في عدد أبطن ، وهي مُذَكَّرة ؛ لأنَّها عِبَارة عن مُؤنَّث ، وهي القبائل ، فكأنَّه قيل : وإن كِلاَباً هذه عَشْر قَبَائِل ؛ ومثله قول عُمَر بن أبي ربيعة : [الطويل]

2398 - وكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أتَّقِي . . .

ثلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَانِ ومُعْصِرُ

لم تَلْحَق التاءُ في عدد " شخوص " وهي مُذَكَّرة ؛ لمَّا كانت عِبَارة عن النِّسْوة ، وهذا أحْسَن ممَّا قَبْلَه ؛ للتَّصْرِيح بالمُؤنَثِ في قوله : "كاعبانِ " و" مُعْصِرُ " ، وهذا كما أنَّه إذا أُرِيد بلَفْظٍ مؤنَّثٍ معنَى مُذَكَّر ؛ فإنَّهم يَنْظُرُون إلى المُراد دُونه اللَّفْظ ، فَيُلْحِقُون التَّاء في عددِ المُؤنَّث ، ومنه قوله الشاعر : [الوافر]

2399 - ثَلاَثَةُ أنْفُسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ . . .

لَقَدْ جَارَ الزَّمَانُ على عِيَالِي

فألْحَق التَّاء في عدد " انْفُس " وهي مُؤنَّثة ؛ لأنَّها يراد بها ذُكُور ، ومثله : ﴿ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً ﴾ [الأعراف : 160] في أحد الوَجْهَين ، وسيأتي إن شاء الله في موضعه .

ومنها : أَنَّه راعى الموصُوف المَحْذُوف ، والتقدير : فله عَشْر حسنات أَمْثَالها ، ثم حذف الموصُوف : وأَقَامَ صِفَتَهُ مُقامه تاركاً العدد على حاله ، ومثله : " مَرَرْت بِثَلاثة نَسَّاباتٍ " أُلْحِقَت التَّاء في عدد المؤنَّث مُرَاعاة للموصوف المَحْذُوف ، إذ الأَصْل : بثلاثة رجالٍ نسَّاباتٍ ، ويؤيِّد هذا : قراءة يَعْقُوب ، والحسن ، وسعيد بن جُبَيْر ، والأَعْمش ، وعيسى بن عُمَر : " عَشْرٌ " بالتَّنوين " أمثَالُها " بالرَّفْع صفة لـ " عَشْر " أي : فله عشر حسنتٍ أَمْثَالِ تِلْك الحسنة ، وهذه القراءة سَالِمَةٌ من تلك التَّآويل المَذْكُورة في القِرَاءة المَشْهُورة .

وقال أبو عليَّ : اجْتَمَع هاهُنَا أَمْرَان ، كلٌّ مِنْها يُوجِب التَّأنيث ، فلما اجْتَمَعا ، قوي التَّأنيث :

أحدهما : أن الأَمْثَال في المعنى : " حَسَنات " فجاز التأنيث كقوله : [الطويل]

2400 - . . .

ثلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَانِ ومُعْصِرُ

أرد بالشُّخُوص : النِّسَاء .

والآخر : أنَّ المُضاف إلى المؤنَّثِ قد يُؤنَّث وإن كان مُذَكَّراً ؛ كقوله من قال : " قَطَعْت بَعْضَ أصابِعه " ، ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ [يوسف : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 531 . 533 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ .

هذه الحسنات للظاهر : وأمَّا حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة .

ويقال الحسنة من فضله تعالى تَصْدُر ، وبلطفه تحصل ، فهو يُجْرِي ، ثم يَقْبَلُ ويثني ، ثم يجازي ويُعطي .

ويقال إحسانه – الذي هو التوفيق – يوجِبُ إحسانك الذي هو الوفاق ، وإحسانه – الذي هو خَلق الطاعة – يوجِبُ لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة ؛ فالعناءُ منك فِعْلُه والجزاءُ لكَ فَضْلُه .

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَة الخدمة ، وإحسان القلوب حفظ الحرمة ، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة .

(37/259)

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه في السرائر فالذي منك مجاهدتُك ، والذي إليك مشاهدتك .

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا ، وإحسان المريدين رفض الهوى ، وإحسان العارفين قطع المنى ، وإحسان الموحدين التخلِّي عن الدنيا والعقبى ، والاكتفاء بوجود المولى .

ويقال إحسان المبتدئين الصدق في الطلب ، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب ، فشرطُ الطلبِ ألا يبقى ميسورٌ إلاَّ بَذلْتَه ، وشرط الأدب ألا تسمو لك هِمَّةٌ إلى شيءٍ إلا قطعته وتركته .

ويقال للزهاد والعبَّاد ، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاءٌ محصور معدود ولأهل المواحيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ .

يعني (يُكالُ) عليه بالكيل الذي يكيل ، ويُوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 513.514 ﴾

(38/259)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمن ما مضى تصحيح التوحيد بالأدلة القاطعة وتحقيق أمر القضاء والقدرة وإبطال جميع أديان الضلال ووصفها بتفرق أهلها الدال على بطلانها واعوجاجها ، وختم بهذا التحذير الذي لا شيء أقوم منه ولا أعدل ، أمره صلى الله عليه وسلم بالإعلان بأمره وأن يصف دينه الذي شرعه له وهداه إليه بما فيه من المحاسن تحبيباً فيه وحثاً عليه ولأن ذلك من نتيجة هذه السورة فقال : ﴿ قل ﴾ وأكد بالإتيان بالنونين فقال : ﴿ إنني هداني ﴾ أي بياناً وتوفيقاً ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ بكل خير لا سيما هذا الذي أوحاه إليّ وأنزله عليّ ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أي طريق واسع بين ، ثم مدحه بقوله : ﴿ ديناً قيماً ﴾ أي بالغ الاعتدال والاستقامة ثابتها ، هذا على قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة ، وهو في قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الياء الخفيفة مصدر بمعنى القيام وصف به للمبالغة ، وزاده مدحاً بقوله مذكراً لهم - لتقليدهم الآباء - بأنه دين أبيهم الأعظم : ﴿ ملة إبراهيم ﴾ والملة ما أظهره نور العقل من الهدى في ظُلَم ما التزمه الناس من عوائد أمر الدنيا - أفاده الحرالي .

(39/259)

ولذلك قال : ﴿ حنيفاً ﴾ أي ليناً هيناً سهلاً قابلاً للاستقامة لكونه ميالاً مع الدليل غير جاف ولا كز واقف مع التقليد عمى عن نور الدليل - كما تقدم ذلك في البقرة ، وهو معنى قوله : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ كان من المشركين ﴾ أي الجامدين مع أوهامهم في ادعاء شريك لله مع رؤيتهم له في كونه لا يضر ولا ينفع ولا يصلح لشركة آدمي فضلاً عن غيره بوجه ، لا ينقادون لدليل ولا يصغون إلى قيل ، فكان هذا مدحاً لهذا الدين الذي هدى إليه صلى الله عليه وسلم وبياناً لأنه الذي اختاره سبحانه لخليله إبراهيم عليه السلام رجوعاً إلى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ [الأنعام : 74] الذي بنيت السورة في الحقيقة عليه ، وألقيت أزمة أطرافها إليه ، وترغيباً في هذا الدين لأن جميع المخالفين يتشبثون بأذيال إبراهيم عليه السلام : العرب وأهل الكتابين بنسبة الأبوة ، والمجوس بنسبة البلد والأخوة ، وأشار بذلك إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم فهم ما حاج به أبوه إبراهيم عليه السلام قومه وقبله ، فلم ينسب كغيره إلى جمود ولا عناد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 752 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما علم رسوله أنواع دلائل التوحيد ، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد وبالغ في تقرير إثبات التوحيد ، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد ، وبالغ في تقرير إثبات التوحيد والنافين للقضاء والقدر ، ورد على أهل الجاهلية في أباطيلهم ، أمره أن يختم الكلام بقوله : ﴿ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وذلك يدل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله وانتصب ديناً لوجهين : أحدهما : على البدل من محل صراط لأن معناه هداني ربي صراطاً مستقيماً كما قال : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح : 2] والثاني : أن يكون التقدير الزموا ديناً ، وقوله : فيما قال صاحب "الكشاف" القيم فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم ، وقرأ أهل الكوفة قيماً مكسورة القاف خفيفة الياء قال الزجاج : هو مصدر بمعنى القيام كالصغر والكبر والحول والشبع ، والتأويل ديناً ذا قيم ووصف الدين بهذا الوصف على سبيل المبالغة ، وقوله : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ فقوله : ﴿ مِلَّةَ ﴾ بدل من قوله : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ و ﴿ حنيفاً ﴾ منصوب على الحال من إبراهيم ، والمعنى هداني ربي وعرفني ملة إبراهيم حال كونها موصوفة بالحنيفية ، ثم قال في صفة إبراهيم : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ والمقصود منه الرد على المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 10 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى ﴾

وذلك أن أهل مكة قالوا له : من أين لك هذه الفضيلة وأنت بشر مثلنا ؟ فإن فعلت لطلب المال فاترك هذا القول حتى نعطيك من المال ما شئت .

فنزلت ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى ﴾ ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني : وفقني الله وهداني إلى دين الإسلام وهو دين لا عوج فيه ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ بنصب القاف وكسر الياء مشدودة .

وقرأ الباقون ﴿ قِيَماً ﴾ بكسر القاف ونصب الياء على معنى المصدر .

ومن قرأ بالنصب على معنى النعت ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ يعني : ديناً عدلاً مستقيماً ﴿ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ يعني : مستقيماً مخلصاً ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ على دينهم ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى ﴾ وأصل النسك ما يتقرب به يعني : قل إن صلاتي المفروضة وقرباني وديني ﴿ وَمَحْيَاىَ ﴾ في الدنيا ﴿ وَمَمَاتِى ﴾ بعد الحياة .

ويقال : ﴿ وَنُسُكِى ﴾ يعني : أضحيتي وحجتي ﴿ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ ﴾ في الكتاب ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾ من أهل مكة.

ويقال: أول المسلمين يوم الميثاق.

ويقال: ﴿ صَلاَتِى ﴾ يعني: صلاة العيد ونسكي يعني: الأضحية.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة رضي الله عنه: "قُومِي إلى أُضْحِيَتِكِ وَاذْبَحِي وَقُولِي: إنَّ صَلاَتِي وَنُسْكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ" ويقال: إن أول المخلصين بالثبات على الإسلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾

(42/259)

هذا أمر من الله عز وجل نبيه عليه السلام بالإعلان بشريعته والانتباه من سواها من أضاليلهم، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحسن والفضل والاستقامة، و ﴿ هداني ﴾ معناه أرشدني بخلق الهدى في قلبي. والرب المالك، ولفظه مصدر من قولك ربه يربه، وإنما هو مثل عدل ورضى في أنه مصدر وصف به. وأصله ذو الرب ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فقيل الرب. و"الصراط" الطريق و ﴿ ديناً ﴾ منصوب ب ﴿

هداني ﴾ المقدر الذي يدل عليه ﴿ هداني ﴾ الأول ، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أن يحتاج إلى إضمار إلى . إذ هدى يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني وبحرف الجر ، فهو فعل متردد وقيل نصب ﴿ ديناً ﴾ فعل مضمر تقديره عرفني ديناً . وقيل تقديره فاتبعوا ديناً فالزموا ديناً ، وقيل نصب على البدل من ﴿ صراط ﴾ على الموضع ، أن تقديره هداني ربي صراطاً مستقيماً ، و﴿ قيماً ﴾ نعت للدين ، ومعناه مستقيماً معتدلاً . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " قَيِّماً " بفتح القاف وكسر الياء وشدها . وأصله قيوم عللت كتعليل سيد وميت ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " قِيَماً " بكسر القاف وفتح الياء على وزن فعل ، وكأن الأصل أن يجيء فيه قوماً كعوض وحول إلا أنه شذ كشذوذ قولهم جياد في جمع جواد وثيرة في جمع ثور ، و﴿ ملة ﴾ بدل من الدين ، والملة الشريعة و﴿ حنيفاً ﴾ نصب على الحال من ﴿ إبراهيم ﴾ ، والحنف في كلام العرب الميل فقد يكون الميل إلى فساد كحنف الرجل .

وكقوله ﴿ فمن خاف من موص حنفاً ﴾ [البقرة : 182] على قراءة من قرأ بالحاء غير المنقوطة ونحو ذلك . وقد يكون الحنف إلى الصلاح كقوله عليه السلام : " الحنيفية السمحة " و" الدين الحنيف " ونحوه ، وقال ابن قتيبة : الحنف الاستقامة وإنما سمي الأحنف في الرجل على جهة التفاؤل له . ﴿ وما كان من المشركين ﴾ نفي للنقيصة عنه صلى الله

عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

(43/259)

قوله تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾

قال الزجاج : أي دلَّني على الدين الذي هو دين الحق .

ثم فسَّر ذلك بقوله : ﴿ ديناً قيماً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "قَيِّماً" مفتوحة القاف ، مشددة الياء .

والقيم : المستقيم .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "قِيَماً" بكسر القاف ، وتخفيف الياء .

قال الزجاج : وهو مصدر ، كالصِّغَر والكِبَر .

وقال مكي : من خففه بناه على "فِعَل" وكان أصله أن يأتي بالواو ، فيقول : "قِوَماً" كما قالوا : عِوَض ، وحِوَل ، ولكنه شذ عن القياس .

قال الزجاج : ونصب قوله : ﴿ ديناً قيماً ﴾ محمول على المعنى ، لأنه لما قال : "هداني" دل على عرّفني ديناً ؛ ويجوز أن يكون على البدل من قوله : ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾

فالمعنى : هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً .

و"حنيفاً" منصوب على الحال من إبراهيم ، والمعنى : هداني ملّة إبراهيم في حال حنيفيَّته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

لما بيّن تعالى أن الكفار تفرّقوا بيّن أن الله هداه إلى الدِّين المستقيم وهو دين إبراهيم ﴿ دِيناً ﴾ نصب على الحال ؛ عن قُطْرُب .

وقيل : نصب ب ﴿ هَدَانِى ﴾ عن الأخفش .

قال غيره : انتصب حملاً على المعنى ؛ لأن معنى هداني عرّفني ديناً .

ويجوز أن يكون بدلاً من الصراط ، أي هداني صراطاً مستقيماً ديناً .

وقيل : منصوب بإضمار فعل ؛ فكأنه قال : اتبعوا ديناً ، واعرفوا ديناً .

﴿ قِيَماً ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء ، مصدر كالشبع فوصف به .

والباقون بفتح القاف وكسر الياء وشدّها ، وهما لغتان .

وأصل الياء والواو "قيوِم" ثم أدغمت الواو في الياء كميت .

ومعناه ديناً مستقيماً لا عِوج فيه ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بدل ﴿ حَنِيفاً ﴾ قال الزجاج: هو حال من إبراهيم.

(44/259)

وقال عليّ بن سليمان: هو نصب بإضمار أعني. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله عز وجل: ﴿ قل ﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿ إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾ يعني: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ﴿ ديناً قيماً ﴾ يعني هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً، وقيل: يحتمل أن يكون محمولاً على المعنى تقديره: وعرفني ديناً قيماً يعني ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، وقيل: قيماً ثابتاً مقوماً لأمور معاشي ومعادي، وقيل: هو من قام وهو أبلغ من القائم ﴿ ملة إبراهيم ﴾ والمِلة بالكسر الدين والشريعة.

يعني هداني وعرفني دين إبراهيم وشريعته ﴿ حنيفاً ﴾ الأصل في الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة إلى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن أو حج حنيفاً تنبيهاً على أنه دين

إبراهيم عليه السلام ﴿ وما كان من المشركين ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام وفيه رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الأصنام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾

أمره تعالى بالإعلان بالشريعة ونبذ ما سواها ووصفها بأنها طريق مستقيم لا عوج فيها وهو إشارة إلى قوله: ﴿ وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ ولما تقدم ذكر الفرق أمره أن يخبر أنه ليس من تلك الفرق بل هو على الصراط المستقيم وأسند الهداية إلى ربه ليدل على اختصاصه بعبادته إياه كأنه قيل: هداني معبودي لا معبودكم من الأصنام ومعنى ﴿ هداني ﴾ خلق فيّ الهداية.

وقال بعض المعتزلة: دلني.

قال الماتريدي: وهذا باطل إذ لا فائدة في تخصيصه لأن الناس كلهم كذلك.

﴿ ديناً قيماً ﴾ بالحق والبرهان.

(45/259)

﴿ ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ أذكرهم أن هذا الدين الذي هو عليه هو ملة إبراهيم وهو النبيّ الذي يعظمه أهل الشرائع والديانات وتزعم كفار قريش أنهم على دينه ، فرد تعالى عليهم بقوله : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ وانتصب ﴿ ديناً ﴾ على إضمار عرفني لدلالة هداني عليه أو بإضمار هداني أو بإضمار اتبعوا وألزموا ، أو على أنه مصدر لهداني على المعنى كأنه قال : اهتداء أو على البدل من إلى صراط على الموضع لأنه يقال : هديت القوم الطريق .

قال الله تعالى : ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ وقرأ الكوفيون وابن عامر قيماً وتقدم توجيهه في أوائل سورة النساء .

وقرأ باقي السبعة قيماً كسيد وملة بدل من قوله : ﴿ ديناً ﴾ و ﴿ حنيفاً ﴾ تقدم إعرابه في قوله : ﴿ بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ في سورة البقرة .

وقال ابن عطية : و ﴿ حنيفاً ﴾ نصب على الحال من إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(46/259)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى ﴾

أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يبين ما هو عليه من الدين الحق الذي يدعي المفرقون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية ، وتصدير الجملة بحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونها ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لما مر غير مرة أي قل يا محمد لهؤلاء المفرقين أو للناس كافة : أرشدني ربي بالوحي وبما نصب في الآفاق والأنفس من الآيات ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ دِينًا ﴾ بدل من محل ﴿ إلى ﴾ إذ المعنى فهداني صراطاً نظير قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 2] أو مفعول فعل مضمر دل عليه المذكور أي هداني أو أعطاني أو عرفني ديناً ، وجوز أن يكون مفعولاً ثانياً للمذكور .

وقوله سبحانه : ﴿ قَيِّماً ﴾ مصدر كالصغر والكبر نعت به مبالغة .

وجوز أن يكون التقدير ذا قيم ، والقياس قوماً كعِوَض وحِوَل ، فأُعِلَّ تبعاً لإعلال فعله أعني قام كالقيام .

وقرأ كثير ﴿ قَيِّماً ﴾ وهو فيعل من قام أيضاً كسيد من ساد وهو على ما قيل أبلغ من المستقيم باعتبار الهيئة والمستقيم أبلغ منه باعتبار مجموع المادة والهيئة ، وقيل : أبلغية المستقيم لأن السين للطلب فتفيد طلب القيام واقتضاءه ، ولا فرق بين القيم والمستقيم في

أصل المعنى عند الكثير ، وفسروا القيم بالثابت المقوم لأمر المعاش والمعاد ، وجعلوا المستقيم من استقام الأمر بمعنى ثبت وإلا لا يتأتى ما ذكر ، وقيل : المستقيم مقابل المعوج والقيم الثابت الذي لا ينسخ .

﴿ مِلَّةِ إبراهيم ﴾ نصب بتقدير أعني أو عطف بيان لديناً بناء على جواز تخالف البيان والمبين تعريفاً وتنكيراً ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة أو مخلصاً لله تعالى في العبادة وهو حال من إبراهيم ، وقد أطبقوا على جواز مجيء الحال من المضاف إليه إذا كان المضاف جزءاً منه أو بمنزلة الجزء حيث يصح قيامه مقامه .

والعامل في هذه الحال هو العامل في المضاف .

وقيل : معنى الإضافة لما فيه من معنى الفعل المشعر به حرف الجر ، وقد تقوى هذا المعنى هنا بما بين المتضايفين من الجزئية أو شبهها .

وجوز أن يكون مفعولاً لفعل مقدر أي أعني حنيفاً .

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ اعتراض مقرر لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما عليه المبطلون ، وقيل : عطف على ما تقدم .

وفيه رد على الذين يدعون أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام من أهل مكة القائلين : الملائكة بنات الله واليهود القائلين : عزيز ابن الله والنصارى القائلين : عيسى ابن الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين ، وما تخلّلها ، إلى فذلكة ما أُمر به الرّسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشّأن ، غَلقاً لباب المجادلة مع المعرضين ، وإعلاناً بأنّه قد تقلّد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلّدوه وأنّه ثابت على ما جاءهم به ، وأنّ إعراضهم لا يزلزله عن الحقّ .

وفيه إيذان بانتهاء السّورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه ، ثمّ أخذ يبين ما رَضِيه لِنفسه وما قَرّ عليه قَراره ، علم السّامع أنّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجّة ، ولذلك غيّر الأسلوب .

فأمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه ، وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويهاً بالمقول .

وقوله : ﴿ إنني هداني ربي ﴾ متصل بقوله : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾

[الأنعام : 153] الذي بيّنه بقوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ [الأنعام : 92] فزاده بياناً بقوله هذا : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾ ، ليبيّن أنّ هذا الدّين إنَّما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم بهدي من الله ، وأنَّه جعله ديناً قيّماً على قواعد ملّة إبراهيم عليه السّلام ، إلاّ أنَّه زائد عليه بما تضمّنه من نعمة الله عليه إذ هداه إلى ذلك الصّراط الذي هو سبيل النّجاة .

وافتُتح الخبر بحرف التّأكيد لأنّ الخطاب للمشركين المكذّبين .

وتعريف المسند إليه بالإضافة للاعتزاز بمربوبية الرّسول صلى الله عليه وسلم للَّه تعالى ، وتعريضاً بالمشركين الذين أضلّهم أربابهم ، ولو وحّدوا الربّ الحقيق بالعبادة لهداهم .

وقوله : ﴿ هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾ تمثيليّة : شبّهت هيئة الإرشاد إلى الحقّ المبلّغ إلى النّجاة بهيئة من يدلّ السّائر على الطّريق المبلّغة للمقصود .

(48/259)

والمناسبة بين الهداية وبين الصّراط تامّة ، لأنّ حقيقة الهداية التّعريف بالطّريق ، يقال : هو هاد خِرّيت ، وحقيقة الصّراط الطّريق الواسعة .

وقد صحّ أن تستعار الهداية للإرشاد والتّعليم ، والصّراطُ للدين القويم ، فكان تشبيهاً

مركّباً قابلاً للتفكيك وهو أكمل أحوال التّمثيليّة .

ووُصف الصّراط بالمستقيم ، أي الذي لا خطأ فيه ولا فساد ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] ، والمقصود إتمام هيئة التّشبيه بأنّه دين لا يتطرّق متّبعه شكّ في نفعه كما لا يتردّد سالك الطّريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحيَّر في أمره .

وفي قوله : ﴿ ديناً ﴾ تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبّه ، وانتصب على الحال من : ﴿ صراط ﴾ لأنّه نكرة موصوفة .

والدّين تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إن الدِّين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] وهو السّيرة التي يتّبعها النّاس .

والقَيِّم بفتح القاف وتشديد الياء كما قرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب : وصف مبالغة قائم بمعنى معتدل غير معوج ، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز ، لأنّ المرء إذا قام اعتدلت قامته ، فيلزم الاعتدال القيام .

والأحسن أن نجعل القيم للمبالغة في القيام بالأمر ، وهو مرادف القيّوم ، فيستعار القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوّم عليه ، فالإسلام قيّم بالأمّة وحاجتها ، يقال : فلان قيّم على كذا ، بمعنى مدبّر له ومصلح ، ومنه وصف الله تعالى بالقيُّوم ، وهذا

أحسن لأنّ فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءاً من التّمثيليّة ، فلا تكون إعادة لبعض التّشبيه .

(49/259)

وقرأ عاصم ، وحمزة ، وابن عامر ، والكسائي ، وخلف : ﴿ قيماً ﴾ بكسر القاف وفتح الياء مخفّفة وهو من صيغ مصادر قام ، فهو وصف للدّين بمصدر القيام المقصودِ به كفاية المصلحة للمبالغة ، وهذه زنة قليلة في المصادر ، وقَلْبُ واوه ياء بعد الكسرة على غير الغالب : لأنّ الغالب فيه تصحيح لامِه لأنَّها مفتوحة ، فسواء في خفّتِها وقوعها على الواو أو على الياء ، مثل عِوَض وحِوَل ، وهذا كشذوذ جياد جمع جواد ، وانتصب ﴿ قيماً ﴾ على الوصف ل ﴿ دينا ﴾ .

وقوله : ﴿ ملة إبراهيم ﴾ حال من : ﴿ ديناً ﴾ أو من : ﴿ صراط مستقيم ﴾ أو عطفُ بيان على ﴿ ديناً ﴾ .

والملّة ، الدّين : فهي مرادفة الدين ، فالتَّعبير بها هنا للتَّفنّن ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ [البقرة : 132] .

و ﴿ ملّة ﴾ فِعْلة بمعنى المفعول ، أي المملول ، من أمللت الكتاب إذا لقَّنت الكاتب ما

يَكتب ، وكان حقّها أن لا تقترن بهاء التّأنيث لأنّ زنة (فِعْل) بمعنى المفعول تلزم التّذكير ، كالذّبح ، إلاّ أنَّهم قرنوها بهاء التّأنيث لما صيّروها اسماً للدّين ، ولذلك قال الرّاغب : الملّة كالدّين ، ثمّ قال : "والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملّة لا تضاف إلاّ إلى النّبيء الذي تسند إليه نحو ملّة إبراهيم ، ملّة آبائي ، ولا توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد الأمّة ، ولا تستعمل إلاّ في جملة الشّريعة دون آحادها لا يقال الصّلاة ملّة الله" أي ويقال : الصّلاةُ دين الله ذلك أنَّه يراعى في لفظ الملّة أنَّها مملول من الله فهي تضاف للّذي أُمِلَّت عليه .

ومعنى كون الإسلام ملّةَ إبراهيم : أنَّه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي : التّوحيد ، ومسايرة الفطرة ، والشّكر ، والسّماحة ، وإعلان الحقّ ، وقد بيَّنتُ ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ في سورة آل عمران (67) .

(50/259)

والحنيف : المُجانب للباطل ، فهو بمعنى المهتدي ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قل بل مِلَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ في سورة البقرة (135) .

وهو منصوب على الحال .

وجملة : وما كان من المشركين ﴾ عطف على الحال من ﴿ إبراهيم ﴾ عليه السّلام المضاف إليه ، لأنّ المضاف هنا كالجزاء من المضاف إليه ، وقد تقدّم في آية سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(51/259)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) ﴾

و" ديناً قيماً " أي تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و" قيماً " مأخوذة من " القيمة " أو من " القيام " على الأمر ، وقام على الأمر أي باشره مباشرة من يصلحه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ .

وفي كل أمر مهم له خطره ومنزلته يأتي لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذي يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه . فقالت اليهود : إبراهيم كان يهوديًّا ، وقالت النصارى

: إن إبراهيم كان نصرانيًّا ، وربنا يقول لهم ولنا : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً . . . ﴾ [آل عمران : 67]

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففي بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجاربهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح .

يقول الحق : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 37]

فسيدنا إبراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذي عمل لهم مهابة جعلت تجاربهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق : ﴿ دِينًا قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 161]

(52/259)

المقصود هو الدين الذي تعيشون في كنف خيرات آثاره ، و" الحنف " هو اعوجاج في القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم

الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(53/259)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ ديناً قيماً ﴾ بكسر القاف ونصب الياء مخففة .

وأخرج أحمد وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن ابزى عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال " أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، وإذا أمسى قال ذلك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(54/259)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " دِيناً " : نَصْبُه من أوْجُه :

أحدها : من نصب على الحال ، قال قُطْرُب وقيل : إنَّه مصدر على المَعْنَى ، أي : هَدَانِي هدايةَ دينٍ قيِّم ، أو على إضْمَار : " عَرَّفَنِي ديناً " أو الْزَمُوا دِيناً .

وقال أبُوا لبقاء – رحمه الله عليه – : إنه مفعُول ثانٍ لـ " هَدَاني " وهو غَلَطٌ ؛ لأنَّ المَفْعُول الثَّاني هُنَا هو المَجْرُور بـ " إلى " فاكتُفِي بِهِ .

وقال مكِّي – رحمه الله تعالى عليه – : " إنَّهُ منصُوبٌ على البدل من محلِّ إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ " .

وقيل : بـ " هَدَانِي " مقدّرة لدلالة " هَدَانِي " الأوَّل عليها وهو كالذي قَبْلَه في المعنى .

قوله : " قِيماً " قرأ الكُوفيُّون ، وابن عامِر : بكسر القافِ وفتح الياء خفيفة ، والباقون بفَتْحِها ، وكَسْر اليَاء مشدَّدة ، ومعناه : القَوِيم المُسْتَقِيم ، وتقدَّم تَوْجِيه إحْدى القراءتَيْن في النِّسَاءِ والمَائِدة .

قال الزَّمَخْشَري – رحمه الله عليه – : القيم : " فَيْعِل " من " قام " كسيِّد من سَادَ ، وهو أبْلغُ من القَائِم .

وأمَّا قِرَاءة أهْلِ الكُوفَة فقال الزَّجَّاج – رحمه الله عليه – : هو مَصدر بمعنى : القيَام ، كالصِّغَر والكِبر والجُوع والشبع ، والتَّويل : ديناً ذا قَيم ، ووصف الدِّين بهذا المَصْدر مُبالغة .

قوله تعالى : " مِلَّة " بدلاً من " ديناً " أو مَنْصُوبٌ بإضْمار أعني ، و" حنيفاً " قد ذكر في البقرة والنساء .

(55/259)

والمعنى : هداني وعرَّفَني ملَّة إبراهيم حال كَوْنها موصُوفة بالحنيفيَّة ، ثم وصف إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – بقوله : " وما كان من المُشْركين " والمقْصُود منه : الردُّ على المُشْرِكين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 535.536 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) ﴾

أرشده إلى الطريق الصحيح . ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى سواه .

ومَنْ وَجَدَ سبيلاً إلى مخلوق عرج في أوطان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية ، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميلاً أو قدَّم عليهم تعويلاً ، فقد استشعر تسويلاً ، وجُرِّعَ تضليلاً .

و" الصراط المستقيم " ألاَّ ترى من دونه مثبتاً لذرةٍ ولا سنة .

و" الدين القيم " ما لا تمثيلَ فيه ولا تعطيل ، ولا نفي للفَرْقِ الذي يشير إلى العبودية ، ولا رد للجمع الذي هو شهود الربوبية . (1)

والحنيف المائل إلى الحق ، الزائغ عن الباطل ، الحائل عن ضد الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 515.514 ﴾

---

(1) من اقوال القشيري التي توضح مقصوده هنا : ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحق – سبحانه – أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ، ومن أشهده الحق – سبحانه – ما يوليه من أفعال نفسه – سبحانه – فهو عبد يشاهد الجمع فإثبات الخلق من باب التفرقة ، واثبات الحق من نعت الجمع ، ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له (الرسالة ص 38) .

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأن سائلاً قال : وما هذه الملة التي تكرر مدحها والدعاء إليها ؟ أجاب بقوله ليتأسى به أهل الإيمان ، فليلتزموا جميع ما يدعو إليه على وجه الإخلاص : ﴿ قل إن صلاتي ﴾ أي التي هي لباب الدين وصفاوته ﴿ ونسكي ﴾ أي جميع عبادتي من الذبائح وغيرها ﴿ ومحياي ﴾ أي حياتي وكل ما تجمعه من زمان ومكان وفعل ﴿ ومماتي لله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا يخرج شيء عن أمره ؛ ولما علم بالاسم الأعظم أنه يستحق ذلك لذاته ، أعلم أنه يستحقه من كل أحد لإحسانه إليه وإنعامه عليه فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ الموجد والمدبر والموعي لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 752 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى كما عرفه الدين المستقيم عرفه كيف يقوم به ويؤديه فقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ يدل على أنه يؤديه مع الأخلاص وأكده بقوله : ﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ وهذا يدل على أنه لا يكفي في العبادات أن يؤتى بها كيف كانت بل يجب أن يؤتى بها مع تمام الإخلاص وهذا من أقوى الدلائل على أن شرط صحة الصلاة أن يؤتى بها مقرونة بالأخلاص .

أما قوله : ﴿ وَنُسُكِي ﴾ فقيل المراد بالنسك الذبيحة بعينها ، يقول : من فعل كذا فعليه نسك أي دم يهريقه ، وجمع بين الصلاة والذبح ، كما في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ [الكوثر : 2] وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال : النسك سبائك الفضة ، كل سبيكة منها نسيكة ، وقيل : للمتعبد ناسك ، لأنه خلص نفسه من دنس الآثام ، وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث ، وعلى هذا التأويل ، فالنسك كل ما تقربت به إلى الله تعالى إلا أن الغالب عليه في العرف الذبح وقوله : ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ أي حياتي وموتي لله .

واعلم أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ فأثبت كون الكل لله ، والمحيا والممات ليسا لله بمعنى أنه يؤتى بهما لطاعة الله تعالى ، فإن ذلك محال ، بل معنى كونهما لله أنهما حاصلان بخلق الله تعالى ، فكذلك أن يكون كون الصلاة والنسك لله مفسراً بكونهما واقعين بخلق الله ، وذلك من أدل الدلائل على أن طاعات العبد مخلوقة لله تعالى .

وقرأ نافع ﴿ محياي ﴾ ساكنة الياء ونصبها في مماتي ، وإسكان الياء في محياي شاذ غير مستعمل ، لأن فيه جمعاً بين ساكنين لا يلتقيان على هذا الحد في نثر ولا نظم ، ومنهم من قال : إنه لغة لبعضهم ، وحاصل الكلام ، أنه تعالى أمر رسوله أن يبين أن صلاته وسائر عباداته وحياته ومماته كلها واقعة بخلق الله تعالى ، وتقديره وقضاءه وحكمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 10 . 11 ﴾

(57/259)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر للناس حال عبادته ومن له الأمر في حياته ومماته .

فقال ﴿ إِنَّ صَلاَتِي ﴾ وهي الصلاة المشروعة ذات الركوع والسجود المشتملة على التذلل والخضوع لله تعالى دون غيره من وثن أو بشر .

ثم قال : ﴿ وَنُسُكِي ﴾ وفيه هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الذبيحة في الحج والعمرة ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد وقتادة والسدي

والضحاك .

والثاني : معناه ديني ، قاله الحسن .

والثالث : معناه عبادتي ، قاله الزجاج ، من قولهم فلان ناسك أي عابد ، والفرق بين الدين والعبادة : أن الدين اعتقاد ، والعبادة عمل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن حياته ومماته بيد الله تعالى لا يملك غيره له حياة ولا موتاً ، فلذلك كان له مصلياً وناسكاً .

والثاني : أن حياته لله في اختصاصها بطاعته ، ومماته له في رجوعه إلى مجازاته .

ووجدت فيها وجهاً ثالثاً : أن عملي في حياتي ووصيتي عند مماتي لله .

ثم قال : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ صفة الله تعالى أنه مالك العالم دون غيره ، فلذلك كان أحق بالطاعة والتعبد من غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ قل إن صلاتي ﴾ الآية .

أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها وتصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل وإرادة وجهه طلب رضاه ، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل ، ويحتمل أن يريد بهذه المقالة أن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عز وجل يصرفه في جميع ذلك كيف شاء وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم ، ويكون قوله ﴿ بذلك أمرت ﴾ على هذا التأويل راجعاً إلى قوله ﴿ لا شريك له ﴾ فقط أو راجعاً إلى القول الأول وعلى التأويل الأول يرجع على جميع ما ذكر من صلاة وغيرها ، أي أمرت بأن أقصد وجه الله عز وجل في ذلك وأن التزم العمل ، وقرأ جمهور الناس " ونسُكي " بضم السين ، وقرأ أبو حيوة والحسن بإسكان السين ، وقالت فرقة " النسك " في هذه الآية الذبائح .

قال القاضي أبو محمد : ويحسن تخصيص الذبيحة بالذكر في هذه الآية أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة ، وقالت فرقة : " النسك " في هذه الآية جميع أعمال الطاعات من قولك نسك فلان فهو ناسك إذا تعبد ، وقرأ السبعة سوى نافع و" محيايَ ومماتي " بفتح الياء من " محياي " وسكونها من "مماتي " وقرأ نافع وحده و" محياي " بسكون الياء من " محياي " ، قال أبو علي الفارسي وهي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين ، وشاذة في الاستعمال ووجهها أنه قد سمع من العرب التقت حلقتا البطان ولفلان

ثلثا المال ، وروى أبو خليد عن نافع و" محياي " بكسر الياء ، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والجحدري و" محيي " ، وهذه لغة هذيل ومنه قول أبي ذؤيب :

سبقوا هويَّ وأعنقوا لهواهم . . . فتصرعوا ولكل جنب مصرع

وقرأ عيسى بن عمر " صلاتيَ ونسكيَ ومحيايَ ومماتيَ " بفتح الياء فيهن وروي ذلك عن عاصم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ﴾

(59/259)

يريد : الصلاة المشروعة .

والنسك : جمع نسيكة .

وفي النسك ها هنا أربعة أقوال .

أحدها : أنها الذبائح ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن قتيبة .

والثاني : الدين ، قاله الحسن .

والثالث : العبادة .

قال الزجاج : النسك : كلُّ ما تُقُرِّب به إلى الله عز وجل ، إلا أن الغالب عليه أمر الذبح .

والرابع : أنه الدين ، والحج ، والذبائح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ الجمهور على تحريك ياء "محياي" وتسكين ياء "مماتي"

وقرأ نافع : بتسكين ياء "محياي" ونصب ياء "مماتي" ، ثم للمفسرين في معناه قولان .

أحدهما : أن معناه : لا يملك حياتي ومماتي إلا الله .

والثاني : حياتي لله في طاعته ، ومماتي لله في رجوعي إلى جزائه ، ومقصود الآية : أنه

أخبرهم : أن أفعالي وأحوالي لله وحده ، لا لغيره كما تشركون أنتم به . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي ﴾

قد تقدّم اشتقاق لفظ الصَّلاة .

وقيل : المراد بها هنا صلاة الليل .

وقيل : صلاة العِيد .

والنّسك جمع نسِيكة ، وهي الذّبيحة ، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير

وغيرهم .

والمعنى : ذَبْحِي في الحج والعمرة .

وقال الحسن : نسكي دِيني .

وقال الزجاج : عبادتي ؛ ومنه الناسك الذي يتقرّب إلى الله بالعبادة .

وقال قوم : النسك في هذه الآية جميع أعمال البر والطاعات ؛ من قولك نسك فلان فهو ناسك ، إذا تعبّد .

﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ أي ما أعمله في حياتي ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ أي ما أوصي به بعد وفاتي .

﴿ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي أفرده بالتقرُّب بها إليه .

وقيل : "وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ" أي حياتي وموتي له .

وقرأ الحسن : "نُسْكِي" بإسكان السين .

وأهل المدينة "ومحياي" بسكون الياء في الإدراج .

والعامة بفتحها ؛ لأنه يجتمع ساكنان .

(60/259)

قال النحاس : لم يُجِزه أحد من النحويين إلاَّ يونس ، وإنما أجازه لأن قبله ألفاً ، والألف المدّة التي فيها تقوم مقام الحركة .

وأجاز يونس اضربان زيداً ، وإنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين وليس في الثاني

إدغام ، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة وأراد أن يَسْلَم من اللحن وقف على "محياي" فيكون غير لاحِنٍ عند جميع النحويين .

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى ابن عمر وعاصم الجَحْدرِيّ "وَمَحْيِيّ" بتشديد الياء الثانية من غير ألف ، وهي لغة عُلْيَا مُضَر يقولون : قَفَيّ وَعَصَيّ .

وأنشد أهل اللغة :

سَبَقوا هَوِيّ وأعْنَقُوا لهواهم . . .

وقد تقدّم .

فائدة :

قال الكيا الطبريّ : قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى قوله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ استدل به الشافعيّ على افتتاح الصَّلاة بهذا الذكر ؛ فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزله في كتابه ، ثم ذكر حديث عليّ رضي الله عنه : " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصَّلاة قال : "وَجّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطَر السموات والأرض حَنِيفاً وما أنا من المشركين .

إنّ صلاتي ونُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي للَّهِ ربِّ العالمين إلى قوله وأنا من المسلمين" " .

قلت : روى مسلم في صحيحه عن عليّ بن أبي طالب " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه كان إذا قام إلى الصَّلاة قال : "وجهت وجهِي للذي فطر السموات والأرض حنِيفاً

وما أنا من المشركين .

إن صلاتِي ونُسُكِي ومحياي ومماتِي للَّهِ ربِّ العالمِين لا شريك له وبِذلِك أُمِرت وأنا أوّل المسلِمِين .

(61/259)

اللَّهُمَّ أنت المِلك لا إله إلاَّ أنت ، أنت ربّي وأنا عبدُك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذّنوب إلاَّ أنت واهدني لأحسنِ الأخلاق لا يَهْدِي لأحسنها إلاَّ أنت واصرف عنّي سيئَها لا يصرف عني سيئها إلاَّ أنت لبَّيك وسَعْدَيْكَ والخيرُ كلُّه في يديك والشر ليس إليك .

تباركت وتعاليت .

أستغفرك وأتوب إليك" " الحديث .

وأخرجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال في آخره : بَلَغَنَا عن النَّضْر بن شُميل وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " والشر ليس إليك " الشر ليس مما يُتقرّب به إليك .

قال مالك : ليس التوجيه في الصَّلاة بواجب على الناس ، والواجب عليهم التكبير ثم

القراءة .

قال ابن القاسم : لم ير مالك هذا الذي يقوله الناس قبل القراءة : سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك .

وفي مختصر ما ليس في المختصر : أن مالكاً كان يقوله في خاصة نفسه ؛ لصحة الحديث به ، وكان لا يراه للناس مخافة أن يعتقدوا وجوبه .

قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : وكنت أصلي وراء شيخِنا أبي بكر الدّينورِيّ الفقيه في زمان الصّبا ، فرآني مرّة أفعل هذا فقال : يا بنيّ ، إن الفقهاء قد اختلفوا في وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ، ولم يختلفوا أن الافتتاح سُنّة ، فاشتغل بالواجب ودَعِ السّنّن .

والحجة لمالكٍ قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابيّ الذي علّمه الصَّلاة : " إذا قمت إلى الصلاة فكَبِّر ثم اقرأ " ولم يقل له سبح كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل وجهت وجهي ، كما يقول الشافعيّ .

وقال لأبيّ : "كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة" ؟ قال : قلت الله أكبر ، الحمد لله ربّ العالمين .

فلم يذكر تَوْجِيهاً ولا تسبيحاً .

فإن قيل : فإن علياً قد أخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقوله .

قلنا : يحتمل أن يكون قاله قبل التكبير ثم كَبّر ، وذلك حَسَن عندنا .

فإن قيل : فقد روى النَّسائيّ والدَّارَقُطْنِي " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم يقول : "إن صلاتي ونُسُكي" " الحديث قلنا : هذا نحمله على النافلة في صلاة الليل ؛ كما جاء في كتاب النَّسائيّ عن أبي سعيد قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا افتتح الصلاة بالليل قال : "سبحانك اللَّهُمّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك" " أو في النافلة مطلقاً ؛ فإن النافلة أخفّ من الفرض ؛ لأنه يجوز أن يُصلّيها قائماً وقاعداً وراكباً ، وإلى القبلة وغيرها في السفر ، فأمْرُها أيسر .

وقد روى النَّسائيّ عن محمد بن مَسْلَمة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلّي تطوُّعاً قال : "الله أكبر وجَّهتُ وجْهِيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

إن صلاتي ونُسُكي ومَحْياي ومماتي لله رب العالمين .

لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين .

اللّهُمّ أنت المِلك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك" " ثم يقرأ .

وهذا نصٌّ في التطوع لا في الواجب .

وإن صح أن ذلك كان في الفريضة بعد التكبير ، فيحمل على الجواز والاستحباب ، وأما المسنون فالقراءة بعد التكبير ، والله بحقائق الأمور عليم .

ثم إذا قاله فلا يقل : " وأنا أوّل المسلمين " إذ ليس أحدهم بأوّلهم إلا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : أو ليس إبراهيم والنبيّون قبله ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : الأوّل : أنه أوّل الخلق أجمع معنًى ؛ كما في حديث أبي هريرة من قوله عليه السلام : " نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة " وفي حديث حُذيفة : " نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة المَقْضِيّ لهم قبل الخلائق " الثاني : أنه أوّلهم لكونه مقدّماً في الخلق عليهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] .

(63/259)

قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كنت أوّلَ الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث " فلذلك وقع ذكره هنا مقدّماً قبل نوح وغيره .

الثالث : أوّل المسلمين من أهل مِلّته ؛ قاله ابن العربيّ ، وهو قول قتادة وغيره .

وقد اختلفت الروايات في "أوّل" ففي بعضها ثبوتُها وفي بعضها لا ، على ما ذكرنا .

" وروى عِمران بن حُصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فاطمة قومي فاشهدي أُضْحِيَتك فإنه يغفر لك في أوّل قَطْرة من دمها كلَّ ذنب عملتيه ثم قولي : "إن

صلاتي ونُسُكي ومَحْيَاي ومماتي لله رب العالمين .

لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين" .

قال عمران : يا رسول الله ، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامّةً ؟ قال : "بل للمسلمين عامّة" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الخازن :

﴿ قل إن صلاتي ﴾ أي : قل يا محمد إن صلاتي ﴿ ونسكي ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والسدي : أراد بالنسك في هذا الموضع الذبيحة في الحج والعمرة ، وقيل : النسك العبادة والناسك العابد .

وقيل : المناسك أعمال الحج .

وقيل : النسك كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة .

ونقل الواحدي عن أبي الأعرابي قال : النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث .

(64/259)

وفي قوله إن صلاتي ونسكي دليل على أن جميع العبادات يؤديها العبد على الإخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لا شريك له وفيه دليل على أن جميع العبادات لا تؤدى إلا على وجه التمام والكمال لأن ما كان لله لا ينبغي أن يكون إلا كاملاً تاماً مع إخلاص العبادة له فما بهذه الصفة من العبادات كان مقبولاً ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ أي حياتي وموتي بخلق الله وقضائه وقدره أي هو يحييني ويميتني وقيل معناه إن محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله ، وقيل : معناه إن طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله وحاصل هذا الكلام له أن الله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين أن صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وهو المراد بقوله ﴿ لله رب العالمين لا شريك له ﴾ يعني في العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾

الظاهر أن الصلاة هي التي فرضت عليه .

وقيل : صلاة الليل .

وقيل : صلاة العيد لمناسبة النسك .

وقيل : الدعاء والتذلل والنسك يطلق على الصلاة أيضاً وعلى العبادة وعلى الذبيحة ،

وأما في الآية فقال ابن عباس وابن جبير ومجاهد وابن قتيبة : هي الذبائح التي تذبح لله وجمع بينهما كما قال : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ ويؤيد ذلك أنها نازلة قد تقدّم ذكرها ، والجدال فيها في السورة .

وقال الحسن : الدين والمذهب .

وقيل : العبادة الخالصة ومعنى ﴿ ومحياي ومماتي لله ﴾ أنه لا يملكهما إلى الله أو حياتي لطاعته ومماتي رجوعي إلى جزائه أو ما آتيه في حياتي من العمل الصالح وما أموت عليه من الإيمان لله ثلاثة أقوال .

وقال أبو عبد الله الرازي : معنى كونهما لله لخلق الله وهذا يدل على أن طاعة العبد مخلوقة لله انتهى .

(65/259)

وقال ابن عطية : أمره تعالى أن يعلن أن مقصده في صلاته وطاعاته من ذبيحة وغيرها وتصرفه مدّة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل وإرادة وجهه وطلبه رضاه ، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلزموا في جميع أعمالهم قصد وجهه عز وجل وله تصرفه في جميع ذلك

كيف شاء .

وقرأ الحسن وأبو حيوة ﴿ ونسكي ﴾ بإسكان السين وما روي عن نافع من سكون ياء المتكلم في ﴿ محياي ﴾ هو جمع بين ساكنين أجرى الوصل فيه مجرى الوقف والأحسن في العربية الفتح .

قال أبو علي : هي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين وشاذة في الاستعمال ووجهها أنه قد سمع من العرب التقت حلقتا البطان ولفلان بيتا المال ، وروى أبو خالد عن نافع ﴿ ومحياي ﴾ بكسر الياء .

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والجحدري ومحيي على لغة هذيل كقول أبي ذؤيب .

سبقوا هويّ .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ﴾ بفتح الياء وروي ذلك عن عاصم من سكون ياء المتكلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(66/259)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى ﴾

أي جنسها لتشمل المفروضة وغيرها .

وأعيد الأمر لمزيد الاعتناء ، وقيل : لأن المأمور به متعلق بفروع الشرائع وما سبق بأصولها ﴿ وَنُسُكِى ﴾ أي عبادتي كلها كما قال الزجاج والجبائي ، وهو من عطف العام على الخاص .

وعن سعيد بن جبير ومجاهد والسدي أن المراد به الذبيحة للحج والعمرة .

وعن قتادة الأضحية ، وجمع بينه وبين الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحر ﴾ [الكوثر : 2] على المشهور .

وقيل : المراد به الحج أي إن صلاتي وحجي ﴿ وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ﴾ أي ما يقارن حياتي وموتي من الإيمان والعمل الصالح .

وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمحيا والممات ظاهرهما والأول هو المناسب لقوله تعالى : ﴿ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ إذا المراد به الخلوص بحسب الظاهر ، وقيل : المراد به نظراً لهذا الاحتمال أن ذلك له تعالى ملكاً وقدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(67/259)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) ﴾

استئناف أيضاً ، يتنزّل منزلة التّفريع عن الأوّل ، إلاّ أنّه استؤنف للإشارة إلى أنّه غرض مستقلّ مُهِمّ في ذاته ، وإن كان متفرّعاً عن غيره ، وحاصل ما تضمّنه هو الإخلاص لله في العبادة ، وهو متفرّع عن التّوحيد ، ولذلك قيل : الرياءُ الشّرك الأصغر .

عُلّم الرّسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله عقب ما عُلّمه بما ذكر قبله لأنّ المذكور هنا يتضمّن معنى الشّكر لله على نعمة الهداية إلى الصّراط المستقيم ، فإنّه هداه ثمّ ألهمه الشّكر على الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته لله تعالى .

وأعيد الأمر بالقول لما علمتَ آنفاً .

وافتتحت جملة المقول بحرف التّوكيد للاهتمام بالخبر ولتحقيقه ، أو لأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كان يُرائي بصلاته ، فقد قال بعض المشركين لمَّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي عند الكعبة : " ألاَ تنظرون إلى هذا المُرائي أيّكم يقوم إلى جَزور بني فلان فيعمِد إلى فَرثها وسلاها فإذا سجد وضعه بين كتفيه " .

فتكون (إنّ) على هذا لردّ الشكّ .

واللاّم في ﴿ لله ﴾ يجوز أن تكون للملك ، أي هي بتيسير الله فيكون بياناً لقوله : ﴿ إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾ [الأنعام : 161] .

ويجوز أن تكون اللام للتعليل أي لأجل الله .

وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام .

ولذلك أردف بجملة ﴿ لا شريك له ﴾ .

والنّسك حقيقته العبادة ومنه يسمى العابد الناسك .

(68/259)

والمحْيَا والممات يستعملان مصدرين ميميين ، ويستعملان اسمي زمان ، من حيي ومات ، والمعنيَان محتمَلان فإذا كان المراد من المحيا والممات المعنى المصدري كان المعنى على حذف مضاف تقديره : أعمال المحيَا وأعمال الممات ، أي الأعمال التي من شأنها أن يتلبّس بها المرء مع حياته ، ومع وقت مماته .

وإذا كان المراد منهما المعنى الزمني كان المعنى ما يعتريه في الحياة وبعد الممات .

ثمّ إنّ أعمال الحياة كثيرة وفيرة ، وأمّا الأعمال عند الموت فهي ما كان عليه في مدّة الحياة وثباتُه عليه ، لأنّ حالة الموت أو مدّته هي الحالة أو المدّة التي تنقلب فيها أحوال الجسم إلى صفة تؤذن بقرب انتهاء مدّة الحياة وتلك حالة الاحتضار ، وتلك الحالة قد تؤثّر انقلاباً في الفكر أو استعجالاً بما لم يكن يستعجل به الحي ، فربّما صدرت عن صاحبها أعمال لم يكن

يصدرها في مدّة الصحّة ، اتّقاءً أو حياءً أو جلباً لنفع ، فيرى أنَّه قد يئس ممّا كان يُراعيه ، فيفعل ما لم يكن يفعل ، وأيضاً لتلك الحالة شؤون خاصّة تقع عندها في العادة مثل الوصيّة ، وهذه كلّها من أحوال آخر الحياة ، ولكنّها تضاف إلى الموت لوقوعها بقربه ، وبهذا يكون ذكر الممات مقصوداً منه استيعاب جميع مدّة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت .

(69/259)

ويجوز أن يكون المراد من الممات ما يحصل للرسول عليه الصّلاة والسّلام بعد وفاته من توجهاته الرّوحيّة نحو أمّته بالدّعاء لهم والتّسليم على من سلّم عليه منهم والظّهور لخاصّة أمّته في المنام فإنّ للرّسول بعد مماته أحكام الحياة الرّوحيّة الكاملة كما ورد في الحديث : " إذا سلّم عليّ أحد من أمّتي ردّ الله عليّ روحِي فرددتُ عليه السّلام " وكذلك أعماله في الحشر من الشّفاعة العامّة والسّجود لله في عرصات القيامة فتلك أعمال خاصة به صلى الله عليه وسلم وهي كلّها لله تعالى لأنَّها لنفع عبيده أو لنفع أتباع دينه الذي ارتضاه لهم ، فيكون قوله : ﴿ ومماتي ﴾ هنا ناظراً إلى قوله في الحديث : " حياتي خير لكم ومماتي خير لكم " .

ويجوز أن يكون معنى مماته لله الشهادة في سبيل الله فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم

سمّته اليهودية بخيبر في لحم شاة أطعموه إياه حصل بعض منه في إمعائه .

ففي الحديث " ما زالت أكلة خيبر تعتادني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبْهَري " .

وبقوله : ﴿ ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ تحقّق معنى الإسلام الذي أصله الإلقاء بالنّفس إلى المُسْلَم له ، وهو المعنى الذي اقتضاه قوله : ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ كما تقدّم في سورة آل عمران (20) ، وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام في قوله : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ كما في سورة البقرة (131) .

وقوله : رب العالمين ﴾ صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره ، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد ، كما أشار إليه قوله في أوّل السورة (1) : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(70/259)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) ﴾

و" صلاتي " مقصود بها العبادة والركن الثاني في الإِسلام الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهي الركن الذي لا يسقط أبداً ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – كما قلنا سابقاً – يكفي أن تقولها مرة في العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكي لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع الحج ، وتبقى الصلاة التي لا تسقط أبداً عن العبد . وهي – كما نعلم – قد أخذت من التكليف حظها من الركينة .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحي إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، وتلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : ﴿ إِنَّ صَلاَتِي ﴾ ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتي اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإِنسان إذا كان راقداً في مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يخطر أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق ﴿ وَنُسُكِي ﴾ . و" النسك " يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ . . . ﴾ [الحج : 67]

" النسك " إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة في الحج ، مثل نسك الطواف ونسك السعي ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمي ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة " النسيكة " وهي السبيكة من الفضة التي تصهر صهراً يُخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية في النقاء . فسميت

العبادة نسكاً لهذا ، أي يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التي تخالطها : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ .

(71/259)

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإِنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل في قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أي منهما في قانون الاختيار ؛ إنهما في يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلي إلا لأنك آمنت بالآمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذي أنزله الله إذن إن أردت نسبة كل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختياري ؟ ؛ لأنه إن كان في ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذي وضع المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتي لله ونسكي لله ، أي أن تخلص فيها ، ولا تشرك فيها ، ولا تصلي مرائياً ، ولا تصنع نسكاً مرائياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك : " الحاج فلان " أبداً ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من

القدرة على الجزاء ما يجازيك الله به ؛ إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة في الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذي يعطيك الأجر . ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 162]

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة في غير ما يرضي الله .

فينبغي أن يكون حياتك لله لا لشهوتك ، ومماتك لله لا لورثتك ، وتذكر جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك : ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(72/259)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن أبا موسى قال : وددت أن كل مسلم يقرأ هذه الآية مع ما يقرأ من كتاب الله ﴿ قل إن صلاتي ونسكي . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ قل إن صلاتي ﴾ قال : صلاتي المفروضة ﴿

ونسكي ﴾ قال : يعني الحج .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ قال : ذبيحتي .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ قال : حجي ومذبحي .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ونسكي ﴾ قال : ذبيحتي في الحج والعمرة .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ونسكي ﴾ قال ضحيتي . وفي قوله ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال : من هذه الأمة .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك فإنه يغفر لك بأول قطرة من دمها كل ذنب عملته ، وقولي : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . : يا رسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّه ﴾ .

قرأ نافع : " ومَحْيايْ " بسكون ياء المُتكلّم ، وفيها الجَّمع بين سَاكِنَيْن .

قال الفارسي : كقوله : " التَقَتْ حَلْقَتَا البطَانِ " و" لِفُلانٍ ثُلُثَا المَالِ " بثبوت الألفين .

وقد طَعَن بَعْضُ النَّاس على هذه القراءة بما ذَكَرْت من الجَمْع بَيْ السَّاكِنين ، وتعجَّبت من كَوْن هذا القَارئ يُحرك ياء " مُمَاتِيَ " ويُسَكِّن ياء " مَحْيَايْ " وقد نقل بَعضُهُم عن نافع الرُّجوع عن ذلك .

قال أبو شامة - رحمه الله عليه - : " فَيَنْبَغِي ألاَّ يَحِلَّ نَقْلُ تسْكِين ياء " مَحْيَايَ " عنه " .

وقرأ نافع في رواية : " مَحْيَاي " بكسر الياءِ ، وهي تشبه قراءة حَمْزَة في ﴿ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] ، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - .

وقرا ابنُ أبي إسحاق ، وعيس الجَحْدَرِيُّ : " ومَحْيَيَّ " بإبْدال " الألف " " ياء " ، وإدغَامِها في ياء المُتَكلّم ، وهي لُغة هُذَيْل ، أنشد عليها قول أبي ذُؤيْب : [الكامل]

2401 - سَبَقُوا هَوَيَّ وأعْنَاقُوا لِهَوَاهُمُ . . .

فَتُخُرِّمُوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 536 .

﴿ 537

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ﴾

مَنْ كوشِفَ بحقائق التوحيد شَهِدَ أن القائم عليه والمجري عليه والممسك له والمُنَقَّل إياه من وصفٍ إلى وصف ، و(. . .) عليه فنون الحدثان – واحدٌ لا يشاركه قسيم ، وماجِدٌ لا يضارعه نديم .

ويقال مَنْ عَلِمَ أنه بالله علم أنه لله ، فإذا علم لله لم يَبقَ فيه نصيب لغير الله ؛ فهو مستسلمٌ لحكم الله ، لا مُعْتَرِضٌ على تقدير الله ، ولا معارِضٌ لاختيار الله ، ولا مُعْرِضٌ عن اعتناق أمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 515 ﴾

(74/259)

قوله تعالى ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أعلم أنه يستحقه لذاته ووصفه ، أعلم أنه يستحقه وحده فقال : ﴿ لا شريك له ﴾ أي ليكون لشريكه على زعمكم شيء من العبادة لما كان له شيء من الربوبية ، فأبان بهذا أن وجهه صلى الله عليه وسلم ووجه من تبعه واحد لا افتراق فيه ، وهو قصد الله وحده على سبيل الإخلاص كما أنه يوحد بالإحياء والإماتة فينبغي أن يوحد بالعبادة .

ولما دل على ذلك ببرهان العقل ، أتبعه بجازم النقل فقال عاطفاً على ما تقديره : إلى ذلك أرشدني دليل العقل : ﴿ وبذلك ﴾ أي الأمر العالي من توجيه أموري إليه على وجه الإخلاص .

ولما كان له سبحانه في كل شيء آية تدل على أنه واحد ، فكان كل شيء آمراً بالتوحيد بلسان حاله أو ناطق قاله ، بني للمفعول قوله : ﴿ أمرت ﴾ أي يعني أن هذا الدين لو لم يرد به أمر كان ينبغي للعاقل أن يدين به ولا يعدل عنه لشدة ظهوره وانتشار نوره بما قام عليه من الدلائل ودرج على اتباعه من الأفاضل والأماثل ، فكيف إذا برزت به الأوامر الإلهية ودعت إليه الدواعي الربانية ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ أي المنقادين لما يدعو إليه داعي الله في هذا الدين ، لا اختيار لي أصلاً ، بل أنا مسلوب الاختيار فيه منقاد أتم انقياد ، وهذه الأولية على سبيل الإطلاق في الزمان والرتبة بالنسبة إلى أمته صلى الله عليه وسلم وفي الرتبة بالنسبة إلى من تقدمه من الأنبياء وغيرهم ، وهذا أيضاً من باب الإحسان في الدعاء

بالتقدم إلى ما يدعو إليه وأن يحب للمدعو ما يحب لنفسه ليكون أنفى للتهمة وأدل على النصيحة فيكون أدعى للقبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 753 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم نص على أنه لا شريك له في الخلق ، والتقدير : ثم يقول وبذلك أمرت أي وبهذا التوحيد أمرت .

ثم يقول : ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾ أي المستسلمين لقضاء الله وقدره ، ومعلوم أنه ليس أولاً لكل مسلم ، فيجب أن يكون المراد كونه أولاً لمسلمي زمانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 11 ﴾

(75/259)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا شريك له في ملك العالمين .

والثاني : لا شريك له في العبادة .

﴿ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ يعني ما قدم ذكره .

﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعني من هذه الأمة حثّاً على اتباعه والمسارعة بالإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ أي من هذه الأمة ، وقال النقاش من أهل مكة .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى واحد بل الأول أعم وأحسن وقرأت فرقة " وأنا " بإشباع الألف وجمهور القراء على القراءة " وأنا " دون إشباع ، وهذا كله في الوصل .

قال القاضي أبو محمد : وترك الإشباع أحسن لأنها ألف وقف فإذا اتصل الكلام استغنى عنها لا سيما إذا وليتها همزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال قتادة : يعني من هذه الأمة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾

الظاهر نفي كل شريك فهو عام في كل شريك فتخصيص ذلك بما قيل من أنه لا شريك له في العالم أو لا شريك له فيما أتقرب به من العبادة أو لا شريك له في الخلق والتدبير أو لا شريك

فيما شاء من أفعاله الأولى بها أن تكون على جهة التمثيل لا على التخصيص حقيقة ، والإشارة بذلك إلى ما بعد الأمرين ﴿ قل إنني هداني ربي ﴾ ﴿ قل إن صلاتي ﴾ وما بعدها أو إلى قوله : ﴿ لا شريك له ﴾ فقط أقوال ثلاثة أظهرها الأول ، والألف واللام في المسلمين للعهد ويعني به هذه الأمة لأن إسلام كل نبي سابق على إسلام أمته لأنهم منه يأخذون شريعته قاله قتادة .

وقيل : من العرب .

وقيل : من أهل مكة .

وقال الكلبي : أولهم في هذا الزمان .

وقيل : أولهم في المزية والرتبة والتقدّم يوم القيامة .

وقيل : مذ كنت نبياً كنت مسلماً كنت نبياً وآدم بين الماء والطين .

(76/259)

وقال أبو عبد الله الرازي : معناه من المسلمين لقضاء الله وقدره إذ من المعلوم أنه ليس أولاً لكل مسلم ؛ انتهى .

وفيه إلغاء لفظ أول ولا تلغى الأسماء والأحسن من هذه الأقوال القول الأول . انتهى انتهى .

اهـ ﴿البحر المحيط جـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ أي في عبادتي أو فيها وفي الإحياء والإماتة .

وقرأ نافع "محياي" بإسكان إجراء للوصل مجرى الوقف ، وفي رواية أنه كسر الياء ، وعلى الرواية الأولى إنما جاز التقاء الساكنين لنية الوقف وفيه يجوز ذلك فطعن بعضهم في ذلك بأن فيه الجمع بين الساكنين وهو لا يجوز ليس في محله ، وقد روى هذه القراءة عن نافع جماعة ، وما قيل : إنه رجع عنها وإنه لا يحل لأحد نقلها عنه ليس بشيء ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ وبذلك ﴾ أي القول أو الإخلاص ﴿ أُمِرْتُ ﴾ لا بشيء غيره ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾ أي المنقادين إلى امتثال ما أمر الله تعالى به ، وقيل : المستسلمين لقضاء الله تعالى وقدره ، والمراد مسلمي أمته كما قيل ، وهذا شأن كل نبي بالنسبة إلى أمته ، وقيل : هذا إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : " أول ما خلق الله تعالى نوري " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى جـ 8 صـ ﴾

(77/259)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ لا شريك له ﴾ حال من اسم الجلالة مصرّحة بما أفاده جمع التّوكيد مع لام الملك من إفادة القصر .

والمقصود من الصّفة والحال الردّ على المشركين بأَنَّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم ، وبأَنَّهم أشركوا معه غيره في الإلهيّة .

وقَرأ نافع : ﴿ ومحياي ﴾ بسكون الياء الثّانية إجراء للوصل مُجرى الوقف وهو نادر في النّثر ، والرّواية عن نافع أثبتته في هذه الآية ، ومعلوم أنّ الندرة لا تُناكد الفصاحة ولا يريبك ما ذكره ابن عطيّة عن أبي عليّ الفارسي : "أَنَّها شاذّة عن القياس لأَنَّها جمعت بين ساكنين لأنّ سكون الألف قبل حرف ساكن ليس ممّا يثقل في النّطق نحو عصاي ، ورؤياي ، ووجه إجراء الوصل مجرى الوقف هنا إرادة التّخفيف لأنّ توالي يائين مفتوحتين فيه ثقل ، والألف النّاشئة عن الفتحة الأولى لا تعدّ حاجزاً فعدل عن فتح الياء الثّانية إلى إسكانها" .

وقرأه البقيّة بفتح الياء وروي ذلك عن وَرش ، وقال بعض أهل القراءة أنّ نافعاً رجع عن الإسكان إلى الفتح .

وجملة : ﴿ وبذلك أمرت ﴾ عطف على جملة ﴿ إن صلاتي ﴾ إلخ .

فهذا ممّا أمر بأن يقوله ، وحرف العطف ليس من المقول .

والإشارة في قوله : ﴿ وبذلك ﴾ إلى المذكور من قوله : ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ إلخ ،

أي أنّ ذلك كان لله بهدي من الله وأمرٍ منه ، فرجع إلى قوله : ﴿ إنَّني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾ [الأنعام : 161] يعني أنَّه كما هداه أمره بما هو شكر على تلك الهداية ، وإنَّما أعيد هنا لأنَّه لما أضاف الصّلاة وما عطف عليها لنفسه وجعلها لله تعالى أعقبها بأنّه هَدْي من الله تعالى ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ [الزمر : 11 ، 12] .

وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بالمشار إليه .

(78/259)

وقوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ مثل قوله : ﴿ وبذلك أمرت ﴾ خبر مستعمل في معناه الكنائي ، وهو لازم معناه ، يعني قبول الإسلام والثّبات عليه والاغتباط به ، لأنّ من أحبّ شيئاً أسرع إليه فجاءه أوّل النّاس ، وهذا بمنزلة فعل السبق إذ يطلق في كلامهم على التمكّن والترجّح ، كما قال النّابغة :

سَبَقْتَ الرّجالَ الباهشين إلى العلا

كسَبْق الجواد اصطادَ قبل الطوارد . . .

لا يريد أنّه كان في المعالي أقدم من غيره لأنّ في أهل المعالي من هو أكبر منه سِنّاً ، ومن نال

العلا قبل أن يولد الممدوح ، ولكنّه أراد أنّه تمكّن من نوال العلا وأصبح الحائز له والثّابت عليه .

وفي الحديث : " نحن الآخِرون السّابقون يوم القيامة " .

وهذا المعنى تأييس للمشركين من الطّمع في التّنازل لهم في دينهم ولو أقَلّ تنازلٍ .

ومن استعمال (أوّل) في مثل هذا قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ كما تقدّم في سورة البقرة (41) .

وليس المراد معناه الصّريحَ لقلّة جدوى الخبر بذلك ، لأنّ كلّ داعٍ إلى شيء فهو أوّل أصحابه لا محالة ، فماذا يفيد ذلك الأعداء والأتباعَ ، فإن أريد بالمسلمين الذين اتَّبعوا حقيقة الإسلام بمعنى إسلام الوجه إلى الله تعالى لم يستقم ، لأنّ إبراهيم عليه السّلام كان مسلماً وكان بنوه مسلمين ، كما حكى الله عنهم إذ قال إبراهيم عليه السّلام : ﴿ فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : 132] وكذلك أبناء يعقوب كانوا مسلمين إذ قالوا : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : 136] .

وقرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف "أنَا" إذا وقعت بعدها همزة ويجري مدّها على قاعدة المدّ ، وحذفَها الباقون قبل الهمزة ، واتَّفق الجميع على حذفها قبل غير الهمزة تخفيفاً جرى عليه العرب في الفصيح من كلامهم نحو : "أنا يُوسف" واختلفوا فيه قبل الهمزة نحو أنا أفعل ،

وأحسب أنّ الأفصح إثباتها مع الهمز للتّمكّن من المدّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(79/259)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

هَذِهِ الْآيَةُ اسْتِئْنَافُ الْجَزَاءِ الْعَامِّ فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْحَسَنَاتِ وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ، وَعَلَى السَّيِّئَاتِ وَهِيَ الْكُفْرُ وَالْأَعْمَالُ الْفَاسِدَةُ . جَاءَتْ فِي خَاتِمَةِ السُّورَةِ الَّتِي بَيَّنَتْ قَوَاعِدَ الْعَقَائِدِ وَأُصُولَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَتْ عَلَيْهَا الْبَرَاهِينَ ، وَفَنَّدَتْ مَا يُورِدُهُ الْكُفَّارُ عَلَيْهَا مِنَ الشُّبُهَاتِ ، كَمَا بَيَّنَتْ بِالْبَرَاهِينِ فَسَادَ مَا يُقَابِلُهَا مِنْ قَوَاعِدِ الشِّرْكِ وَأُصُولِ الْكُفْرِ وَأَبْطَلَتْ شُبُهَاتِ أَهْلِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَتْ فِي الْوَصَايَا الْعَشْرِ أُصُولَ الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْإِسْلَامُ ، وَمَا يُقَابِلُهَا مِنْ أُصُولِ الرَّذَائِلِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي

يَنْهَى عَنْهَا ، فَنَاسَبَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يُبَيِّنَ الْجَزَاءَ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا فِي الْآخِرَةِ ، بَعْدَ الْإِشَارَةِ

إِلَى فَوَائِدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِمَا ذُيِّلَتْ بِهِ آيَاتُ الْوَصَايَا . وَمَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الْجَزَاءِ فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ غَيْرُ مُغْنٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَامًّا كَعُمُومِهَا ، وَلَا مُبَيِّنًا لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ كَبَيَانِهَا .

(80/259)

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَلَبِّسًا بِالصِّفَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي يَطْبَعُهَا فِي نَفْسِهِ طَابِعُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . فَلَهُ عِنْدَهُ مِنَ الْجَزَاءِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ أَمْثَالُهَا مِنَ الْعَطَايَا ، فَإِذَا كَانَ تَأْثِيرُ الْحَسَنَةِ فِي نَفْسِهِ أَنْ تَكُونَ حَالَةً حَسَنَةً بِقَدْرٍ مُعَيَّنٍ بِحَسَبِ سُنَنِهِ تَعَالَى فِي تَرْتِيبِ الْجَزَاءِ عَلَى آثَارِ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ فِي تَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ ، فَهُوَ يُعْطِيهِ ذَلِكَ مُضَاعَفًا عَشَرَةَ أَضْعَافٍ تَغْلِيبًا لِجَانِبِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ عَلَى جَانِبِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ رَحْمَةً مِنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِعَبِيدِهِ الْمُكَلَّفِينَ . (وَقَدْ قَرَأَ يَعْقُوبُ " عَشْرٌ " بِالتَّنْوِينِ وَ " أَمْثَالُهَا " بِالرَّفْعِ عَلَى الْوَصْفِ) وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْعَشْرَ لَا تَدْخُلُ فِيمَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْمُضَاعَفَةِ لِمَنْ يَشَاءُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ ، فَقَدْ وَعَدَ بِالْمُضَاعَفَةِ عَلَيْهَا بِإِطْلَاقٍ فِي قَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ التَّغَابُنِ (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) (64 : 17) وَبِالْمُضَاعَفَةِ الْمَوْصُوفَةِ بِالْكَثْرَةِ فِي قَوْلِهِ

مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) (2 : 245) الْآيَةَ . ثُمَّ بِالْمُضَاعَفَةِ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ فِي قَوْلِهِ مِنْهَا أَيْضًا : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

(81/259)

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (2 : 261) قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ بِالْمُضَاعَفَةِ لِمَنْ يَشَاءُ هَذِهِ الْمُضَاعَفَةُ نَفْسَهَا . وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهَا أَوْ مَا يَزِيدُ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ أَيْضًا : إنَّ الْمُضَاعَفَةَ كُلَّهَا خَاصَّةٌ بِالْإِنْفَاقِ . وَالْأَرْجَحُ أَنَّ الْمُضَاعَفَةَ عَامَّةٌ وَأَنَّ الْجُمْلَةَ عَلَى إطْلَاقِهَا فَتَتَنَاوَلُ مَا زَادَ عَلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَمَا نَقَصَ عَنْهُ ، وَهِيَ تُشِيرُ إلَى تَفَاوُتِ الْمُنْفِقِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ كَالْإِخْلَاصِ فِي النِّيَّةِ ، وَالِاحْتِسَابِ وَالْأَرْيَحِيَّةِ وَفِيمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الْعَمَلِ كَالْإِخْفَاءِ سِتْرًا عَلَى الْمُعْطِي وَتَبَاعُدًا مِنَ الشُّهْرَةِ ، وَالْإِبْدَاءِ لِأَجْلِ حُسْنِ الْقُدْوَةِ ، وَتَحَرِّي الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ ، وَفِي الْأَحْوَالِ الْمَالِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ كَالْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ ، وَفِيمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ كَالرِّيَاءِ وَحُبِّ الشُّهْرَةِ الْبَاطِلَةِ وَالْمَنِّ وَالْأَذَى ، فَالْعِشْرَةُ مَبْذُولَةٌ

لِكُلِّ مَنْ أَتَى بِالْحَسَنَةِ ، وَالْمُضَاعَفَةُ فَوْقَهَا تَخْتَلِفُ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُحْسِنِينَ ، فَقَدْ بَذَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ مَا يَمْلِكُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَبَذَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِصْفَ مَا يَمْلِكُ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا وَزَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ النِّسْبَةَ بَيْنَهُمَا كَالنِّسْبَةِ بَيْنَ عَطَائِهِمَا . وَالدِّرْهَمُ مِنَ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ أَعْظَمُ مِنْ دِينَارِ الْغَنِيِّ ذِي الْمَالِ الْكَثِيرِ ، وَمَنْ يَبْذُلُ الدِّرْهَمَ مُتَعَلِّقَةً بِهِ نَفْسُهُ حَزِينَةً عَلَى فَقْدِهِ لَيْسَ كَمَنْ يَبْذُلُهُ طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ مَسْرُورَةً بِالتَّوْفِيقِ لِإِيثَارِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ بِهِ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) (57 : 10) وَتَفْصِيلُ التَّفَاوُتِ فِيمَا ذَكَرْنَا يَطُولُ ، وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ مَا يُرْشِدُ إِلَى غَيْرِهِ لِمَنْ تَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ ذِكْرَ الْعَشَرَةِ أَمْثَالٍ يُرَادُ بِهِ الْكَثْرَةُ لَا التَّحْدِيدُ لِيَتَّفِقَ مَعَ الْمُضَاعَفَةِ الْمُعَيَّنَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ مَا يُؤَيِّدُ مَا اخْتَرْنَاهُ وَسَنَذْكُرُ بَعْضَهَا .

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا) أَيْ وَمَنْ جَاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالصِّفَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي يَطْبَعُهَا فِي نَفْسِهِ الْكُفْرُ وَارْتِكَابُ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، فَلَا يُجْزَى إِلَّا عُقُوبَةَ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا . بِحَسَبِ سُنَنِهِ تَعَالَى فِي تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي تَدْسِيَةِ النَّفْسِ وَإِفْسَادِهَا وَتَقْدِيرِهِ الْجَزَاءَ عَلَيْهَا بِالْعَدْلِ ، وَإِنَّمَا قُلْنَا : الصِّفَةُ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ وَلَمْ نَقُلِ الْفِعْلَةُ ، لِأَنَّ الْأَفْعَالَ أَعْرَاضٌ تَزُولُ وَتَبْقَى آثَارُهَا فِي النَّفْسِ ، فَالْجَزَاءُ عَلَيْهَا يَكُونُ بِحَسَبِ تَأْثِيرِهَا فِي النَّفْسِ ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ وَصْفًا لَهَا لَا يُفَارِقُهَا بِالْمَوْتِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) (139) فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهُ السَّابِقُ فِي هَذَا الْجُزْءِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ فِي أَهْلِ السَّيِّئَاتِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُحْتَاجُ إِلَى نَفْيِ وُقُوعِ الظُّلْمِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ مِنْهُمْ ، مَعَ مَا وَرَدَ مِنَ الشِّدَّةِ فِي وَصْفِ عَذَابِهِمْ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُهُمْ بِالْجَزَاءِ فَإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ عَقْلًا وَنَقْلًا ، وَالْآيَاتُ فِيهِ كَثِيرَةٌ ، وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ : "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ

بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا " إِلَخْ . وَالَّذِي صَرَّحُوا بِهِ أَنَّهَا فِي الْفَرِيقَيْنِ ، فَإِنَّ مَعْنَى الظُّلْمِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ النَّقْصُ مِنَ الشَّيْءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) (18 : 33) ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهِ فَأُطْلِقَ عَلَى كُلِّ تَعَدٍّ وَإِيذَاءٍ بِغَيْرِ حَقٍّ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ لَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَا ذُكِرَ ، وَلَا مِنْ غَيْرِهِ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا كَسْبَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُمَكِّنُهُ مِنَ الظُّلْمِ كَمَا يَفْعَلُ الْأَقْوِيَاءُ الْأَشْرَارُ فِي الدُّنْيَا بِالضُّعَفَاءِ . وَفِي جَوَازِ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِالظُّلْمِ وَعَدَمِهِ جِدَالٌ بَيْنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ، يَتَأَوَّلُ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآيَاتِ لِتَصْحِيحِ مَذْهَبِهِ فِيهِ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ الْحَقِّ فِيهِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَيُرَاجَعُ فِيهِ وَفِي مَعْنَى مُضَاعَفَةِ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (4 : 40) فَإِنَّهُ يُجَلِّي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا يُعْلَمُ مِنْهُ مَا فِي خِلَافِ الْأَشْعَرِيَّةِ مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ مِنَ الضَّعْفِ فِي مَسْأَلَةِ جَوَازِ الظُّلْمِ عَلَى الْبَارِي تَعَالَى عَقْلًا وَاسْتِحَالَتِهِ بِحَيْثُ لَا يُقَالُ إِنَّ الْبَارِيَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ .

(85/259)

رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ – ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ ، وَقَالُوا : إِنَّ مَعْنَى كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِذَلِكَ .

وَأَخَذُوا هَذَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْبُخَارِيِّ مَرْفُوعًا قَالَ : " يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَلَيْهِ بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ " وَهَذَا يُفَسِّرُ كِتَابَةَ تَرْكِ عَمَلِ السَّيِّئَةِ حَسَنَةً بِأَنَّ الْكِتَابَةَ لَيْسَتْ لِأَمْرٍ سَلْبِيٍّ مَحْضٍ بَلْ لِعَمَلٍ نَفْسِيٍّ ، وَهُوَ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ بِكَفِّهَا عَنْ عَمَلِ السَّيِّئَةِ مِنْ أَجْلِ ابْتِغَاءِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَاتِّقَاءِ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ . وَرَوَى أَحْمَدُ

(86/259)

، وَالْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ حِبَّانَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي أَقُولُ : وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ - فَقُلْتُ : قَدْ قُلْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : " فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؛ صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَنَمْ وَقُمْ ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ " وَرَوَى مُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " مَنْ صَامَ رَمَضَانَ

ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ " هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ رَمَضَانَ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ وَالسِّتَّةَ أَيَّامٍ بِسِتِّينَ يَوْمًا .

(87/259)

وَمِنَ الْمَبَاحِثِ الْكَلَامِيَّةِ فِي الْآيَةِ قَوْلُ الْأَشْعَرِيَّةِ : إنَّ الثَّوَابَ كُلَّهُ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَقَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ : إنَّ الثَّوَابَ هُوَ الْمَنْفَعَةُ الْمُسْتَحَقَّةُ عَلَى الْعَمَلِ وَالتَّفَضُّلُ الْمَنْفَعَةُ غَيْرُ الْمُسْتَحَقَّةِ ، وَإِنَّ الثَّوَابَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ التَّفَضُّلِ فِي الْكَثْرَةِ وَالشَّرَفِ ، إذْ لَوْ جَازَ الْعَكْسُ أَوِ الْمُسَاوَاةُ لَمْ يَبْقَ فِي التَّكْلِيفِ فَائِدَةٌ فَيَكُونُ عَبَثًا وَقَبِيحًا ، مِنْ ثَمَّ قَالَ الْجُبَّائِيُّ وَغَيْرُهُ : يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْعَشَرَةُ الْأَمْثَالِ فِي جَزَاءِ الْحَسَنَةِ تَفَضُّلًا

وَالثَّوَابُ غَيْرُهَا وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا . وَقَالَ آخَرُونَ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْعَشْرَةِ هُوَ الثَّوَابَ وَالتِّسْعَةُ تَفَضُّلًا بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ الْوَاحِدُ أَعْظَمَ وَأَعْلَى شَأْنًا مِنَ التِّسْعَةِ . وَنَقُولُ : إنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ كُلَّهَا ضَعِيفَةٌ وَلَا فَائِدَةَ فِيهَا ، وَإِذَا كَانَ التَّفَضُّلُ مَا زَادَ وَفَضَلَ عَلَى أَصْلِ الثَّوَابِ الْمُسْتَحَقِّ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ فَأَيُّ مَانِعٍ أَنْ يَزِيدَ الْفَرْعُ عَلَى الْأَصْلِ وَهُوَ تَابِعٌ لَهُ وَمُتَوَقِّفٌ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ الثَّوَابُ حِينَئِذٍ عَبَثًا عَلَى تَقْدِيرِ التَّسْلِيمِ لَوْ كَانَ التَّفَضُّلُ يَحْصُلُ بِدُونِهِ فَيُسْتَغْنَى بِهِ عَنْهُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ .

(88/259)

وَقَدْ أَوْرَدَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ إشْكَالَاتٍ شَرْعِيَّةً وَأَجَابَ عَنْهَا أَجْوِبَةً ضَعِيفَةً قَالَ : (الْأَوَّلُ) كُفْرُ سَاعَةٍ كَيْفَ يُوجِبُ عِقَابَ الْأَبَدِ عَلَى نِهَايَةِ التَّغْلِيظِ . (جَوَابُهُ) أَنَّهُ كَانَ الْكَافِرُ عَلَى عَزْمٍ أَنَّهُ لَوْ عَاشَ أَبَدًا لَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ الِاعْتِقَادِ أَبَدًا ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْعَزْمُ مُؤَبَّدًا عُوقِبَ عِقَابَ الْأَبَدِ ، خِلَافَ الْمُسْلِمِ الْمُذْنِبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَى عَزْمِ الْإِقْلَاعِ عَنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ فَلَا جَرَمَ كَانَتْ عُقُوبَتُهُ مُنْقَطِعَةً . انْتَهَى بِنَصِّهِ .

وَنَقُولُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ : (أَوَّلًا) إنَّنَا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ يَعْزِمُ أَوْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ الْعَزْمُ الْمَذْكُورُ وَلَا سِيَّمَا مَنْ عَرَضَتْ لَهُ عَقِيدَةٌ أَوْ فَعْلَةٌ مِمَّا عَدُّوهُ كُفْرًا سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ وَمَاتَ عَلَيْهَا ،

وَالْكُفْرُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ لَا يَنْحَصِرُ فِي جُحُودِ الْعِنَادِ وَرُبَّمَا كَانَ أَكْثَرُ الْكُفَّارِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ نَاجُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى . (ثَانِيًا) أَنَّ كَوْنَ الْعِقَابِ الْأَبَدِيِّ عَلَى الْعَزْمِ الْمَذْكُورِ يَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ ، وَالْعَقْلُ لَا يُوجِبُهُ بَلْ لَا يُوجِبُ عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ حُكْمًا مَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ ، وَهَذَا الْإِشْكَالُ لَا يَرِدُ عَلَى مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ هُنَا تَبَعًا لِمَا وَضَّحْنَاهُ مِرَارًا مِنْ كَوْنِ الْجَزَاءِ عَلَى قَدْرِ تَأْثِيرِ الِاعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ فِي النَّفْسِ . (ثَالِثُهَا) قَدْ تَنَصَّلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ بِمِثْلِ مَا نَقَلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ

(89/259)

(خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (128) وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا نَفْيُ كَوْنِ الْعَذَابِ أَبَدِيًّا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، وَثَانِيهُمَا تَفْوِيضُ الْأَمْرِ فِيهِ إِلَى حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ .

ثُمَّ قَالَ : (الثَّانِي) إِعْتَاقُ الرَّقَبَةِ الْوَاحِدَةِ ، تَارَةً جُعِلَ بَدَلًا عَنْ صِيَامِ سِتِّينَ يَوْمًا وَهُوَ فِي كَفَّارَةِ الظِّهَارِ ، وَتَارَةً جُعِلَ بَدَلًا عَنْ صِيَامِ أَيَّامٍ قَلَائِلَ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسَاوَاةَ غَيْرُ مُعْتَبَرَةٍ .

(جَوَابُهُ) أَنَّ الْمُسَاوَاةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِوَضْعِ الشَّرْعِ وَحُكْمِهِ اهـ .

وَنَقُولُ : إِنَّ جَعْلَ الشَّرْعِ الْعِتْقَ كَفَّارَةً لِذُنُوبٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِنَّمَا لِعِنَايَتِهِ بِتَحْرِيرِ الرَّقِيقِ ، وَهُوَ لَا يُنَافِي

كَوْنَ كُلِّ ذَنْبٍ مِنْهَا لَهُ جَزَاءٌ فِي الْآخِرَةِ بِقَدْرِهِ ، يُشِيرُ إلَيْهِ تَفَاوُتُ الْكَفَّارَةِ بِالصِّيَامِ .

ثُمَّ قَالَ : (الثَّالِثُ) إذَا أَحْدَثَ فِي رَأْسِ إنْسَانٍ مُوضِحَتَيْنِ وَجَبَ فِيهِ أَرْشَانِ فَإِنْ رُفِعَ الْحَاجِزُ بَيْنَهُمَا صَارَ الْوَاجِبُ أَرْشَ مُوضِحَةٍ وَاحِدَةٍ فَهَا هُنَا ازْدَادَتِ الْجِنَايَةُ وَقَلَّ الْعِقَابُ فَالْمُسَاوَاةُ غَيْرُ مُعْتَبَرَةٍ . (وَجَوَابُهُ) أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعَبُّدَاتِ الشَّرْعِ وَتَحَكُّمَاتِهِ اهـ .

(90/259)

وَنَقُولُ : إنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْقِصَاصِ فِي شَجَّةِ الرَّأْسِ الْمُوضِحَةِ (وَهِيَ مَا كَشَفَ الْعَظْمَ) وَالْمُوضِحَتَيْنِ لَيْسَ مِمَّا وَرَدَ فِيهِ نَصُّ الشَّرْعِ بِكِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَتَعَبَّدْنَا بِهِ تَعَبُّدًا ، وَإِنَّمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : أَرْشُ الْمُوضِحَةِ خَمْسٌ مِنَ الْإِبِلِ ، فَإِذَا شَجَّ رَجُلٌ رَجُلًا مُوضِحَتَيْنِ ثُمَّ أَزَالَ هُوَ أَوْ غَيْرُهُ الْحَاجِزَ بَيْنَهُمَا فَصَارَ كَالْمُوضِحَةِ الْوَاحِدَةِ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْحُكْمَ يَتَبَدَّلُ فَيَصِيرُ الْوَاجِبُ أَرْشَ مُوضِحَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا قَالَ ، وَإِنْ قَالَهُ مَعَهُ مِائَةُ فَقِيهٍ مِثْلُهُ .

ثُمَّ قَالَ : (الرَّابِعُ) إنَّهُ يَجِبُ فِي مُقَابَلَةِ تَفْوِيتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَعْضَاءِ دِيَةٌ كَامِلَةٌ ثُمَّ إذَا قَتَلَهُ وَفَوَّتَ كُلَّ الْأَعْضَاءِ وَجَبَتْ دِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَذَلِكَ يَمْنَعُ الْقَوْلَ مِنْ رِعَايَةِ الْمُمَاثَلَةِ (وَجَوَابُهُ) أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعَبُّدَاتِ الشَّرْعِ وَتَحَكُّمَاتِهِ اهـ .

(91/259)

وَنَقُولُ فِيهِ : إِنَّهُ هُوَ وَمَا قَبْلَهُ لَيْسَ مِنْ تَعَبُّدَاتِ الشَّرْعِ وَتَحَكُّمَاتِهِ كَمَا زَعَمَ بَادِيَ الرَّأْيِ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ ; وَذَلِكَ أَنَّ الْقَتْلَ يُوجِبُ الْقِصَاصَ لَا الدِّيَةَ إِذَا كَانَ عَنْ تَعَمُّدٍ ، إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ وَلِيُّ الدَّمِ وَيَرْضَى بِالدِّيَةِ . وَفَسَادُ قَتْلِ الْخَطَأِ الْمُوجِبِ لِلدِّيَةِ دُونَ فَسَادِ قَطْعِ الْيَدِ أَوِ الرِّجْلِ أَوْ قَلْعِ الْعَيْنِ تَعَمُّدًا ; عَلَى أَنَّ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مِعْيَارًا لِعُقُوبَاتِ الْآخِرَةِ فَإِنَّهَا يُرَاعَى فِيهَا مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ مَا لَا مَحَلَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، كَقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ بِشَرْطِهِ يُرَاعَى فِيهِ رَدْعُ الْمُجْرِمِينَ وَتَخْوِيفُهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي يُزِيلُ أَمْنَ النَّاسِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَيَسْلُبُ رَاحَتَهُمْ وَيُكَلِّفُهُمْ بَذْلَ مَالٍ كَثِيرٍ وَعَنَاءٍ عَظِيمٍ فِي حِفْظِ أَمْوَالِهِمْ - وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَسْتَوِي سَارِقُ الدِّينَارِ أَوْ رُبْعِ الدِّينَارِ وَسَارِقُ الْأُلُوفِ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالْجَوَاهِرِ ، وَحَسْبُنَا هَذَا التَّنْبِيهُ هُنَا .

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)

(92/259)

قَدْ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الْجَامِعَةِ فَكَانَتْ خَيْرَ الْخَوَاتِيمِ فِي بَرَاعَةِ الْمَقْطَعِ . ذَلِكَ بِأَنَّنَا بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ مِنْ تَفْسِيرِهَا أَنَّهَا أَجْمَعُ السُّورِ لِأُصُولِ الدِّينِ

وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهَا وَدَفْعِ الشُّبَهِ عَنْهَا ، وَلِإِبْطَالِ عَقَائِدِ الشِّرْكِ وَتَقَالِيدِهِ وَخُرَافَاتِ أَهْلِهِ .

وَهَذِهِ الْخَاتِمَةُ مُنَاسِبَةٌ لِجُمْلَةِ السُّورَةِ فِي أُسْلُوبِهَا وَمَعَانِيهَا ; ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ مِمَّا امْتَازَتْ بِهِ السُّورَةُ كَثْرَةُ بَدْءِ الْآيَاتِ فِيهَا بِخِطَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَلِمَةِ (قُلْ) لِأَنَّهَا لِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، كَمَا كَثُرَ فِيهَا حِكَايَةُ أَقْوَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ مَبْدُوءَةً بِكَلِمَةِ (وَقَالُوا) مَعَ التَّعْقِيبِ عَلَيْهَا بِكَشْفِ الشُّبْهَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ - تَرَى بَعْدَ هَذَا وَذَاكَ فِي آخِرِ الْعُشْرِ الْأَوَّلِ وَأَوَّلِ الْعُشْرِ الثَّانِي مِنْهَا - فَجَاءَتْ هَذِهِ الْخَاتِمَةُ بِالْأَمْرِ الْأَخِيرِ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمُ الْقَوْلَ الْجَامِعَ لِجُمْلَةِ مَا قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنَّ مَا فُصِّلَ فِي السُّورَةِ هُوَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ ، وَدِينُهُ الْقَيِّمُ الَّذِي هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، دُونَ مَا يَدَّعِيهِ الْعَرَبُ الْمُشْرِكُونَ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ الْمُحَرِّفُونَ ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهِ وَهُوَ مُعْتَصِمٌ بِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَتَسْلِيمًا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ ، فَهُوَ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخْلَصُ الْمُوَحِّدِينَ ، وَأَخْشَعُ الْعَابِدِينَ ، بِمَا

(93/259)

جَاءَ بِهِ مِنْ تَجْدِيدِ الدِّينِ وَإِكْمَالِهِ بَعْدَ

تَحْرِيفِهِ وَانْحِرَافِ جَمِيعِ الْأُمَمِ عَنْ صِرَاطِهِ ، وَأَنَّ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ الَّذِي يُخَالِفُنَا فِيهِ

الْمُشْرِكُونَ مَبْنِيٌّ

عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي هُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (12 : 106) وَأَنَّ الْجَزَاءَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى الْأَعْمَالِ مَبْنِيٌّ عَلَى عَدَمِ انْتِفَاعِ أَحَدٍ أَوْ مُؤَاخَذَتِهِ بِعَمَلِ غَيْرِهِ . وَأَنَّ الْمَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَأَنَّ لَهُ تَعَالَى سُنَنًا فِي اسْتِخْلَافِ الْأُمَمِ وَاخْتِبَارِهِمْ بِالنِّعَمِ وَالنِّقَمِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى عِقَابَ الْمُسِيئِينَ وَالرَّحْمَةَ لِلْمُحْسِنِينَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَهْدِمُ أَسَاسَ الشِّرْكِ الَّذِي هُوَ الِاتِّكَالُ عَلَى الْوُسَطَاءِ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ فِي غُفْرَانِ ذُنُوبِهِمْ وَقَضَاءِ حَاجَتِهِمْ .

(94/259)

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْخَاتِمُ لِلنَّبِيِّينَ لِقَوْمِكَ وَسَائِرِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ وَهُمْ جَمِيعُ الْبَشَرِ : إِنَّنِي أَرْشَدَنِي رَبِّي وَأَوْصَلَنِي بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيَّ بِفَضْلِهِ وَاخْتِصَاصِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَكَذَا غَيْرُهَا إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَصِلُ سَالِكُهُ إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ – الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ – مِنْ غَيْرِ عَائِقٍ وَتَأْخِيرٍ ; لِأَنَّهُ لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا اشْتِبَاهَ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (48 : 2) وَهُوَ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى طَلَبِهِ مِنْهُ تَعَالَى فِي مُنَاجَاتِكُمْ إِيَّاهُ : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (1 : 6) (دِينًا قِيَمًا) أَيْ إِنَّ هَذَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الدِّينُ الَّذِي يَصْلُحُ وَيَقُومُ بِهِ أَمْرُ النَّاسِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ : فَقَوْلُهُ : (دِينًا) بَدَلٌ مِنْ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِاعْتِبَارِ الْمَحَلِّ وَ (قِيَمًا) صِفَةٌ لَهُ . قَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْيَاءِ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ نُعِتَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ وَكَانَ قِيَاسُهُ " قِوَمًا " كَعِوَضٍ وَلَكِنَّهُ أُعِلَّ تَبَعًا لِفِعْلِهِ " قَامَ " كَالْقِيَامِ وَأَصْلُهُ الْقِوَامُ . وَتَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ تَفْسِيرِ النِّسَاءِ وَأَوَاخِرِ الْمَائِدَةِ أَنَّهُ مَا يَقُومُ وَيَثْبُتُ بِهِ الشَّيْءُ . وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ بِوَزْنِ (سَيِّدٍ) وَقَدْ قَالُوا : إِنَّهُ أَبْلَغُ مِنَ الْمُسْتَقِيمِ بِزِنَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، وَهَذَا أَبْلَغُ بِصِيغَتِهِ وَكَثْرَةِ مَادَّتِهِ وَقِيلَ بِمَا فِي الصِّيغَةِ مِنْ

(95/259)

مَعْنَى الطَّلَبِ ، فَكَانَ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ قَيِّمًا ، أَوْ يَجْعَلُ ذَلِكَ سَهْلًا . وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ) (5 : 97) مَا يُفِيدُ الْقَارِئَ تَفْصِيلًا فِيمَا فَسَّرْنَا بِهِ الدِّينَ الْقَيِّمَ (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) أَيْ أَعْنِي - أَوِ الْزَمُوا - مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَالَ كَوْنِهِ حَنِيفًا ، أَيْ مَائِلًا عَنْ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْبَاطِلِ وَالْعِوَجِ وَالضَّلَالِ مُسْتَقِيمًا عَلَيْهِ ، (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فَإِنَّ الْحَنِيفِيَّةَ تُنَافِي الشِّرْكَ ، فَفِيهِ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ وُصِفَ إِبْرَاهِيمُ بِالْحَنِيفِ فِي

سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 135) وَسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

(3 : 67 و95) وَسُورَةِ النَّحْلِ (16 : 120 و123) وَسُورَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 79)

وَهَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَفِي كُلِّ آيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَصْفٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَجَاءَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (4 : 125) وَلَكِنْ قِيلَ : إِنَّ حَنِيفًا هُنَا حَالٌ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَقِيلَ : مِنْ إِبْرَاهِيمَ .

(96/259)

هَذَا الدِّينُ دِينُ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي الْعِبَادَةِ ، هُوَ الدِّينُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ وَقَرَّرَهُ فِي جَمِيعِ كُتُبِهِ ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَلَى آلِهِ هُوَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَى الِاعْتِرَافِ بِفَضْلِهِ وَصِحَّةِ دِينِهِ وَحُسْنِ هَدْيِهِ الْعَرَبُ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَكُلٌّ يَدَّعِي الِاهْتِدَاءَ بِهُدَاهُ ، وَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ وَافَقَهَا مِنَ الْعَرَبِ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الْحُنَفَاءَ ، مُدَّعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ; وَلِذَلِكَ وُصِلَ وَصْفُهُ بِالْحَنِيفِ بِنَفْيِ الشِّرْكِ عَنْهُ ، وَكَذَا فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِادِّعَاءِ اتِّبَاعِهِ وَاتِّبَاعِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَذَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْبِدَعِ

الشِّرْكِيَّةِ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ يَسْرِي إِلَى أَكْثَرِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ شِرْكٌ وَكُفْرٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الِاحْتِرَاسَ فِي تَفْسِيرِ (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (3 : 67)

(97/259)

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي إِرْشَادِ هَذِهِ الْأُمَّةِ : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) (22 : 30 ، 31) وَمِثْلُهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ يُونُسَ : (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (10 : 105) وَفِي سُورَةِ الرُّومِ : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (30 : 30 - 32) فَهَذَا بِمَعْنَى مَا نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهِ فِي جُمْلَتِهِ وَسِيَاقِهِ كَمَا نَبَّهْنَا إِلَيْهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ وَمَا هُوَ بِبَعِيدٍ .

وَأَمَّا أَمْرُهُ تَعَالَى لِخَاتَمِ رُسُلِهِ بِالْإِخْبَارِ بِأَنَّ مَا هَدَاهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْقَيِّمِ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ فَهُوَ بِمَعْنَى أَمْرِهِ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ حَيْثُ قَالَ : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ

حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

(98/259)

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (16 : 120 - 123) فَحِكْمَةُ كُلٍّ مِنَ الْإِخْبَارِ وَالْأَمْرِ اسْتِمَالَةُ الْعَرَبِ ثُمَّ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، بِبَيَانِ أَنَّ أَسَاسَهُ وَقَوَاعِدَ عَقَائِدِهِ وَدَعَائِمَ فَضَائِلِهِ هِيَ مَا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ الْمُتَّفَقُ عَلَى هُدَاهُ وَجَلَالَتِهِ ، وَكَذَا سَائِرُ رُسُلِ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ الْأَحْكَامُ الْعَمَلِيَّةُ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (5 : 48) وَقَدْ ذَكَرْنَا الْآيَةَ

(99/259)

بِطُولِهَا لِمُنَاسِبَةِ آخِرِهَا لِخَاتِمَةِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ السُّورِ الطُّوَالِ وَالْمَائِدَةُ آخَرُ مَا نَزَلَ مِنْهَا . وَإِذْ عَلِمْنَا حِكْمَةَ الْإِخْبَارِ وَالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَا مَجَالَ بَعْدُ لِتَوَهُّمِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَفْضَلُ ، وَلَا أَنَّ مِلَّتَهُ أَكْمَلُ ، إِذْ لَيْسَ هَذَا بِمُنَافٍ وَلَا بِمُعَارِضٍ لِنَصِّ آيَةِ إِكْمَالِ الدِّينِ ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ .

(100/259)

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) هَذَا بَيَانٌ إِجْمَالِيٌّ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ بِالْعَمَلِ ، بَعْدَ بَيَانِ أَصْلِ التَّوْحِيدِ الْمُجَرَّدِ بِالْإِيمَانِ ، وَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ جِنْسُهَا الشَّامِلُ لِلْمَفْرُوضِ وَالْمُسْتَحَبِّ ، وَالنُّسُكُ فِي الْأَصْلِ الْعِبَادَةُ أَوْ غَايَتُهَا وَالنَّاسِكُ الْعَابِدُ ، وَيَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فِي عِبَادَةِ الْحَجِّ وَعِبَادَةِ الذَّبَائِحِ وَالْقَرَابِينِ فِيهِ أَوْ مُطْلَقًا . وَفُسِّرَ بِالْوَجْهَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حِكَايَةِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) (2 : 128) وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) (2 : 200) فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ عِبَادَاتُ الْحَجِّ كُلُّهَا ، كَمَا أَنَّهُ لَا خِلَافَ فِي

تَخْصِيصِ النُّسُكِ بِبَعْضِ الذَّبَائِحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) (2 : 196) فَالنُّسُكُ فِي هَذِهِ الْفِدْيَةِ ذَبْحُ شَاةٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) (22 : 34) قَدْ عَيَّنَ التَّعْلِيلَ وَالسِّيَاقَ كَوْنَ الْمُرَادِ بِالنُّسُكِ هُوَ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ ، أَوِ اسْمُ الْمَكَانِ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ الْقَرَابِينُ أَوَتُنْحَرُ تَقَرُّبًا إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَبَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ آيَاتٌ أُخْرَى فِي ذَلِكَ خَاصَّةً . وَأَمَّا قَوْلُهُ بَعْدَ آيَاتٍ أُخْرَى مِنْهَا : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا

(101/259)

يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إلَى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ) (22 : 67) فَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَعَمُّ

مَا وَرَدَ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَنَّهُ بِمَعْنَى الدِّينِ أَوِ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ مَا قَدَّمَهُ بَعْضُهُمْ ، وَلَكِنْ رُوِيَ تَفْسِيرُهُ فِي الْمَأْثُورِ بِالذَّبْحِ وَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالْعِيدِ . وَحَقَّقَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَرَدَّدُ إلَيْهِ النَّاسُ لِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وَمِنْ هُنَا أُطْلِقَ عَلَى مَشَاعِرِ الْحَجِّ وَمَعَاهِدِهِ وَعَلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي كَانُوا يَذْبَحُونَ فِيهَا لِلْأَصْنَامِ كَالنُّصُبِ .

وَأَمَّا الْمَأْثُورُ فِي تَفْسِيرِ : (نُسُكِي) هُنَا فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : ذَبِيحَتِي ، وَعَنْ قَتَادَةَ :

حَجَّتِي وَمَذْبَحِي . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : ضَحِيَّتِي ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ذَبِيحَتِي فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ . وَعَنْ مُقَاتِلٍ : يَعْنِي الْحَجَّ . وَلَا يُنَافِي تَنَافِي تَفْسِيرِهِ بِالذَّبِيحَةِ الدِّينِيَّةِ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَتْ فِدْيَةً أَوْ أُضْحِيَّةً فِي الْحَجِّ أَوْ غَيْرِهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ التَّضْحِيَةِ : " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي – إِلَى قَوْلِهِ – أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ " الْحَدِيثُ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَمِثْلُهُ حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عِنْدَ الْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(102/259)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ : " يَا فَاطِمَةُ قُومِي فَاشْهَدِي أُضْحِيَّتَكِ فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَكِ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا كُلُّ ذَنْبٍ عَمِلْتِهِ وَقُولِي : (إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ خَاصَّةً فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنْتُمْ أَمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ؟ قَالَ : " بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً " .

(103/259)

وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ لِلنُّسُكِ يَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَذَبْحِ النُّسُكِ كَالْأَمْرِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) (108 : 2) وَإِذَا فُسِّرَ النُّسُكُ بِالْعِبَادَةِ مُطْلَقًا يَكُونُ عَطْفُهُ عَلَى الصَّلَاةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ لِأَنَّهَا مِنْهُ ، وَإِلَّا كَانَ سَبَبُ الِاقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ أَوِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْعِبَادَةِ هُوَ كَوْنَهَا أَعْظَمَ مَظَاهِرِ الْعِبَادَةِ الَّتِي فَشَا فِيهَا الشِّرْكُ ، فَأَمَّا الصَّلَاةُ فَرُوحُهَا الدُّعَاءُ وَالتَّعْظِيمُ ، وَتَوَجُّهُ الْقَلْبِ إِلَى الْمَعْبُودِ ، وَالْخَوْفُ مِنْهُ وَالرَّجَاءُ فِيهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ الشِّرْكُ مِمَّنْ يُغَالُونَ فِي تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ ، وَمَا يُذَكِّرُ بِهِمْ كَقُبُورِهِمْ أَوْ صُوَرِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ ، وَأَمَّا الْحَجُّ وَالذَّبَائِحُ فَالشِّرْكُ فِيهِمَا أَظْهَرُ ، وَقَلَّمَا يَقَعُ الشِّرْكُ فِي الصِّيَامِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ خَفِيٌّ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ النَّصَارَى ابْتَدَعُوا صِيَامًا أَضَافُوهُ إِلَى بَعْضِ مُقَدَّسِيهِمْ كَصَوْمِ السَّيِّدَةِ ، وَلَا أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اتَّبَعَهُمْ فِيهِ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا صِدْقَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْوَارِدِ فِي اتِّبَاعِهِمْ سُنَنَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ فَإِنَّهُ فِي الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ .

(104/259)

وَقَدْ كَانَتِ الذَّبَائِحُ عِنْدَ الْوَثَنِيِّينَ مِنَ الْعِبَادَاتِ يُقَرِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ وَيُهِلُّونَ بِهَا لَهُمْ ، ثُمَّ سَرَى ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَخَرَجُوا بِقَرَابِينِهِمْ عَمَّا شُرِعَتْ لَهُمْ مِنْ كَفَّارَةٍ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ وَحْدَهُ ، فَصَارُوا يُهِلُّونَ بِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَيُنْذِرُونَهَا لِأُولَئِكَ الْقِدِّيسِينَ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِبَادَةِ الشِّرْكِ ، فَمَنْ فَعَلَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَهُ حُكْمُ مَنْ فَعَلَهَا مِنْ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي تَفْسِيرِ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ " الْآيَةِ : 145 " وَسُورَتَيِ الْبَقَرَةِ " الْآيَةِ : 173 " وَالْمَائِدَةِ " الْآيَةِ : 3 " . وَمَا تَأْوِيلُ بَعْضِ الْمُعَمَّمِينَ لَهُمْ إِلَّا كَتَأْوِيلِ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الرُّهْبَانِ وَالْقِسِّيسِينَ .

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

(105/259)

وَالْعِبَادَاتُ إِنَّمَا تَمْتَازُ عَلَى الْعَادَاتِ بِالتَّوَجُّهِ فِيهَا إِلَى الْمَعْبُودِ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ وَطَلَبًا لِمَثُوبَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ ، وَكُلُّ مَنْ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْمُصَلِّي أَوِ الذَّابِحُ بِذَلِكَ وَيَقْصِدُ بِهِ تَعْظِيمَهُ فَهُوَ مَعْبُودٌ لَهُ ، سَوَاءٌ عَبَّرَ فَاعِلُهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَمْ لَا ، فَالْعِبَادَةُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ رَبِّ الْعِبَادِ وَخَالِقِهِمْ ، فَإِنْ تَوَجَّهَ أَحَدٌ إِلَيْهِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُكَرَّمِينَ أَوْ غَيْرِهِمْ مِمَّا

يُسْتَعْظَمُ خَلْقُهُ كَانَ مُشْرِكًا ، وَاللهُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ .
إِنَّ كَوْنَ الصَّلَاةِ وَالنُّسُكِ لَا يَكُونَانِ فِي الدِّينِ الْحَقِّ إِلَّا خَالِصَيْنِ لِلَّهِ وَحْدَهُ أَمْرٌ ظَاهِرٌ يُعَدُّ

(106/259)

مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدِّينِ . وَأَمَّا الْمَحْيَا وَالْمَمَاتُ فَهُمَا مَصْدَرَانِ مِيمِيَّانِ بِمَعْنَى الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَزَعَمَ الرَّازِيُّ أَنَّ مَعْنَى كَوْنِهِمَا مَعَ الصَّلَاةِ وَالنُّسُكِ لِلَّهِ أَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لِذَلِكَ ، وَأَنَّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى قَوْلِ أَصْحَابِهِ الْأَشْعَرِيَّةِ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ فِيهَا تَأْثِيرٌ . وَهَذَا مِنْ أَغْرَبِ مَا انْفَرَدَ بِهِ مِنَ السُّخْفِ بِعَصَبِيَّةِ الْمَذْهَبِ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْ مُنَافَاةِ قَوْلِهِ : (وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) لَهُ ، وَعَنْ كَوْنِهِ لَيْسَ مِمَّا يَخْتَلِفُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ وَالْمُشْرِكُ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادَ فِي بَيَانِ تَقْرِيرِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ . وَالْمُتَبَادِرُ أَنَّ مَعْنَى كَوْنِ حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْتِهِ – وَكَذَا مَنْ تَأَسَّى بِهِ – لِلَّهِ وَحْدَهُ هُوَ أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ وَجْهَهُ وَحَصَرَ نِيَّتَهُ وَعَزْمَهُ فِي حَبْسِ حَيَاتِهِ لِطَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ تَعَالَى ، وَبَذْلِهَا فِي سَبِيلِهِ لِيَمُوتَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا يَعِيشُ عَلَيْهِ . وَفِي الْكَشَّافِ أَنَّ مَعْنَاهُ وَمَا آتِيهِ فِي حَيَاتِي وَمَا أَمُوتُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كُلُّهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . زَادَ الْبَيْضَاوِيُّ : أَوْ طَاعَاتِ الْحَيَاةِ وَالْخَيْرَاتِ

الْمُضَافَةِ إِلَى الْمَمَاتِ كَالْوَصِيَّةِ وَالتَّدْبِيرِ أَوِ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ أَنْفُسِهِمَا اهـ . وَيُزَادُ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تُضَافُ إِلَى الْمَوْتِ كُلُّ مَا يَبْتَدِئُ ثَوَابُهُ

(107/259)

بِهِ كَالصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ الْمُعَلَّقَةِ عَلَى الْمَوْتِ وَمَا يَسْتَمِرُّ بَعْدَهُ - وَإِنْ وُجِدَ قَبْلَهُ - كَالصَّدَقَاتِ الْجَارِيَةِ الْمُبْتَدَأَةِ فِي عَهْدِ الْحَيَاةِ ، وَالتَّصَانِيفِ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ . وَبِهَذَا تَكُونُ الْآيَةُ جَامِعَةً لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي هِيَ غَرَضُ الْمُؤْمِنِ الْمُوَحِّدِ مِنْ حَيَاتِهِ وَذَخِيرَتُهُ لِمَمَاتِهِ ، يَجْعَلُهَا خَالِصَةً لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ " اللَّهُ " وَ " رَبُّ الْعَالَمِينَ " لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ يُطْلِقُونَهُمَا عَلَى مَعْبُودَاتِهِمْ وَلَا مَعْبُودَاتِ غَيْرِهِمُ الْمُتَّخَذَةِ الَّتِي أَشْرَكُوهَا مَعَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ، وَقَدْ قَرَأَ نَافِعٌ (مَحْيَايْ) بِإِسْكَانِ الْيَاءِ إِجْرَاءً لِلْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ ، وَهُوَ مِمَّا كَانَ يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ وَلَا يَزَالُ جَارِيًا عَلَى أَلْسِنَةِ الْعِرَاقِيِّينَ حَتَّى فِي الشِّعْرِ .

(108/259)

فَتَذَكَّرْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنَّ الَّذِي يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ لِلَّهِ وَمَمَاتُهُ لِلَّهِ ، يَتَحَرَّى الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ وَيَطْلُبُ الْكَمَالَ فِي ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، لِيَكُونَ قُدْوَةً فِي الْحَقِّ وَالْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَهْلًا لِرِضْوَانِ رَبِّهِ الْأَكْبَرِ فِي الْآخِرَةِ . ثُمَّ يَتَحَرَّى أَنْ يَمُوتَ مِيتَةً مُرْضِيَّةً لِلَّهِ تَعَالَى ، فَلَا يَحْرِصُ عَلَى الْحَيَاةِ لِذَاتِهَا ، وَلَا يَخَافُ الْمَوْتَ فَيَمْنَعُهُ الْخَوْفُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ وَإِقَامَةِ مِيزَانِ الْعَدْلِ ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْجَوْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . فَهَذَا مُقْتَضَى الدِّينِ يَقُومُ بِهِ مَنْ يَأْخُذُهُ بِقُوَّةٍ ، وَلَا يُفَكِّرُ فِيهِ مَنْ يَكْتَفُونَ بِجَعْلِهِ مِنْ قَبِيلِ الرَّوَابِطِ الْجِنْسِيَّةِ ، وَالتَّقَالِيدِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَأَيْنَ أَهْلُ الْمَدَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ إِذَا أَقَامُوهُ كَمَا أَمَرَ اللهُ ؟ أُولَئِكَ الْمَادِّيُّونَ الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ إِلَّا التَّمَتُّعُ بِالشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَالتَّعَدِّيَاتُ الْوَحْشِيَّةُ . يَعْدُو الْأَقْوِيَاءُ مِنْهُمْ عَلَى الضُّعَفَاءِ لِاسْتِعْبَادِهِمْ ، وَتَسْخِيرِهِمْ لِشَهَوَاتِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ . وَلَكِنَّ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الدِّينِ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ

(109/259)

قَدْ تَرَكُوا هِدَايَتَهُ ، وَفُتِنُوا بِزِينَةِ أَهْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ وَقُوَّتِهِمْ . وَلَمْ يُجَارُوهُمْ فِي فُنُونِهِمْ وَصِنَاعَاتِهِمْ ، فَخَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، وَلَوِ اعْتَصَمُوا بِحَبْلِهِ

الْمَتِينِ ، وَعَادُوا إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ لَنَالُوا سِيَادَةَ الدُّنْيَا وَسَعَادَةَ الْآخِرَةِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ الزَّمَانُ قَدْ أَيْقَظَهُمْ مِنْ رُقَادِهِمْ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى السَّيْرِ عَلَى سُنَنِ أَجْدَادِهِمْ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ .

(لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) أَيْ لَا شَرِيكَ لَهُ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ فَيَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِكَةٌ مَا فِي عِبَادَتِهِ ، بِأَنْ يُتَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَعَهُ لِأَجْلِ التَّأْثِيرِ فِي إِرَادَتِهِ ، أَوْ تُذْبَحَ لَهُ النَّسَائِكُ لِأَجْلِ شَفَاعَتِهِ عِنْدَهُ (مَنْ ذَا

(110/259)

الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) وَبِذَلِكَ التَّجْرِيدِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ الْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ ، أَمَرَنِي رَبِّي ، وَلَا يُعْبَدُ الرَّبُّ إِلَّا بِمَا أَمَرَ ، دُونَ أَهْوَاءِ الْأَنْفُسِ وَنَظَرِيَّاتِ الْعُقُولِ وَتَقَالِيدِ الْبَشَرِ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ، أَيْ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي عُلُوِّ الدَّرَجَةِ وَالرُّتْبَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِي الزَّمَنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ – وَبَيَانُ هَذَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلُ الْمُذْعِنِينَ لِأَمْرِ رَبِّهِ وَنَهْيِهِ ، بِحَسَبِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى الَّتِي فَضَّلَهُ بِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ رُسُلِهِ ، كَمَا أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَقَّنَهُ رَبُّهُ الْإِسْلَامَ ، فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّامِلَةِ دَعْوَتُهَا لِجَمِيعِ الْأَنَامِ ،

وَالْمَوْصُوفَةِ بَعْدَ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ بِأَنَّهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ يَسْتَلْزِمُ عُمُومُ بَعْثَتِهِ وَخَيْرِيَّةُ أُمَّتِهِ أَوَّلِيَّتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَوَّلِيَّتُهُ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى الرُّسُلِ الَّذِينَ بُعِثُوا قَبْلَهُ أَيْضًا ، فَيَكُونُ أَوَّلًا فِي كُلٍّ مِنْ مَزَايَاهُ الْخَاصَّةِ وَرِسَالَتِهِ الْعَامَّةِ الْمُتَعَدِّيَةِ . وَهَذَا التَّفْسِيرُ لِلْأَوَّلِ مِمَّا فَتَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ الْآنَ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 205.216 ﴾

(111/259)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً في العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياء ، ومناسكه ظاهرية رياء ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له . ﴿ . . . وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾ [الأنعام : 163]

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته صلى الله عليه وسلم ، والأوامر التي صدرت عن الرب هي لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ،

وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لا أدعيه لنفسي بل هو عطاء من ربكم وربي الذي أمر . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمر أمته أبلغنا : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128]

وفي كل شيء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمّتي أمتي أمتي أمتي ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله على محبوبية أمته فقال له : " إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤوك "

.

والحديث بتمامه كالآتي :

" عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي . . . ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ .

(112/259)

فرفع يديه وقال : " اللهم أمتي أمتي " وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسلْه ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو اعلم ، فقال عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سَنُرضيك في أمتك ولا نسوؤك " .

ونزل قوله الحق : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5]

روي عن علي رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : " إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار " .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾

وحين يقول صلى الله عليه وسلم : وأنا أول المسلمين في أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين في أمته ، لكن هناك أناس يقولون : لنأخذ العبارة هكذا ، ونقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلى في أنه أخذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد علية لأحد . فإن أول المسلمين في أمته ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً خذها للمكانة . وأضرب هذا المثل : هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلا سنة كذا وعشرين ، لكل سنة لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على 100% هذا العام فنقول عنة : إنة الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وأنا أول المسلمين " ، وفى سورة الأعراف : "وأنا أول المؤمنين " ، يسأل عن الفرق ؟

والجواب والله أعلم : أن هذه الآية لما تقدمها قوله تعالى : "قل إننى هدانى ربى إلى صراطى مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا " وقد قال فى سورة آل عمران : "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين " وفى وصيته عليه السام لبنيه : "يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " وبهذا أوصى يعقوب عليه السلام قال تعالى : "وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . . . " الآية ، وهى جواب بنى يعقوب حين قال لهم : "ما تعبدون من بعدى " فأجابوا بقولهم "نعبد إلهك "الى قوله "إلها واحدا ونحن له مسلمون " وقال سبحانه لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين : "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " وقال تعالى : "قل – أى يا محمد – إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا " إلى قوله : "وأنا أول المسلمين " ،

فإنما قال عليه السلام وعمل واقتدى ظاهرا وباطنا بما أمر به وما درج عليه هؤلاء الصفوة المذكورون ومن سلك مسلكهم وعبارة الإسلام تعم الاستسلام بالظاهر والباطن ، والإيمان الذى هو التصديق داخل تحت ذلك وفى جملة ما يطلق عليه اسم الإسلام فقد تحصلت عبارته عليه السلام منبئة عن الكمال فى مسمى الإيمان والإسلام على الحال التى درج عليها المصطفون الأخيار وحالهم فى ذلك لا يدركها غيرهم من حيث الكمال التام صلى الله عليهم أجمعين ولا قطعنا عن التمسك بهديهم .

فقد وضح بما ورد فى هذه الآية الجليلة أنه لا يناسب هنا غير هذا الوارد والله أعلم .

(114/259)

وأما آية الأعراف وقوله فيها : "وأنا أول المؤمنين " فالقائل ذلك موسى عليه السلام حين سأل الرؤية وظن أنها جائزة فى الدنيا فلم يسأل عليه السلام محالا وإنما سأل جائزا ممكنا وحاشاه عليه السلام من أن يسأل محالا ويجهل من ربه مثل هذا لولا الجواز ، فلما استعجل وطلب ذلك فى الدنيا قال له ربه تعالى : "لن ترانى " فى الدنيا وأمره أن ينظر إلى الجبل ، وأراه تلك الآية العظمى وصار الجبل دكا وخر موسى صعقا لعظبم ذلك المطلع فلما أفاق قال "سبحانك تين إليك " ولم يرد عليه السلام تبت من معصية ولا جهل بربه أن يجوز عليه

ما لا يجوز فأقدار الأنبياء عليهم السلام فوق ذلك ، وهو أعلم الخلق بما يجوز عليه تعالى وما يستحيل ثم قال : "وأنا أول المؤمنين " أى أول المصدقين بأنك لا ترى فى الدنيا وليس موضع التعبير بأن يقول : "وأنا أول المسلمين " لأن ذلك الوصف حاصل له عليه السلام على الصفة الحاصلة اللمصطفين ممن تقدم وإنما أراد ما يعبر عن مجرد التصديق بهذا الذى غاب عند جواز تعجيله مع علمه بجوازه على الجملة فقد وضح ورود كل من العبارتين بالإسلام والإيمان على ما يجب ولا يناسب العكس بوجه والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 174.175 ﴾

(115/259)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما حاجوه في الشرك في هذه السورة غير مرة كما حاج إبراهيم عليه السلام قومه ، وكان آخر ذلك أن دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى تلاوة ما أنزل عليه سبحانه في تحريم الشرك

وشرح دينه القيم ، ثم كرر هنا ذمهم بالتفرق الدال على الضلال ولا بد ، ومدح دين الرسل الذي تقدم أنهم لم يختلفوا فيه أصلاً ، وأيأس الكفار من موافقته صلى الله عليه وسلم لهم نوعاً من الموافقة وميله معهم شيئاً من الميل ، أمره سبحانه – بعد أن ثبت بأول السورة وأثنائها وآخرها أنه لا رب غيره – بالإنكار على من يريد منه ميلاً إلى غير من تفرد بمحياه ومماته ، فكان له التفرد بما بينهما وما بعد ذلك من غير شبهة ، والتوبيخ الشديد فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذي يطمعون أن تطرد أصحابك من أجلهم ﴿ أغير الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ أبغي ﴾ أي أطلب وأريد بالإشراك فإن الغنى المطلق لا يقبل ممن أشرك به شيئاً ﴿ رباً ﴾ أي منعماً يتولى مصالحي كما بغيتم أنتم ، فهو تعريض بهم وتنبيه لهم ، والإسناد إليه صلى الله عليه وسلم – والمراد جميع الخلق – من باب الإنصاف في المناظرة للاستعطاف ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه كما ثبت بالقواطع وركز في العقول الثوابت وطبع في أنوار الأفكار اللوامع ﴿ رب كل شيء ﴾ أي موجده ومربيه ، أفينبغي لأحد أن يدين لغير سيده وذلك الغير مربوب مثله لسيده ، هذا ما لا يرضاه عاقل لنفسه .

(116/259)

ولما أنكر على من يجنح إلى غيره مع عموم بره وخيره ، أتبعه الترويع من قويم عدله في عظيم ضره فقال : ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنه لا ﴿ تكسب كل نفس ﴾ أي ذنباً وإن قل مع التصميم والعزم القوي الذي هو بحيث يصدقه العمل – كما مضى في آية البقرة ﴿ إلا عليها ﴾ أي لا يمكن أن يكون باطلاً لا عليها ولا على غيرها ، وإذا كان عليها لا يمكن أن يحاسب به سبحانه سواها لأنه عدل حكيم فكيف أدعو غيره دعاء جلياً أو خفياً وذلك أعظم الذنوب ! وللتنفير من الشرك الخفي بالرياء وكل معصية وإن صغرت ، جرد الفعل عن الافتعال لئلا يتوهم أنه لا يكون عليها إلا ما بالغت فيه ، والسياق هنا واضح في أن الكسب مقيد بالذنب فإنه في دعاء غير الله وآية البقرة للإيماء إلى الذنب الذي لا يقع إلا بشهوة شديدة من النفس له لطبعها على النقائص ، فهي لا تنافي هذه لأن ما كسبته من الذنوب قد علم من ثَمَّ أنه اكتساب ، وأحسن من هذا أن يقال : ولما كان المعنى أني إن بغيت رباً غيره وكلني إلى ما توليته ، وأنا إنسان والإنسان مطبوع على النقائص فهلكت ، عبر عنه بقوله مجرداً للفعل لقصد العموم : ﴿ ولا تكسب كل نفس ﴾ بما هي نفس ناظرة في نفاستها معرضة عن ربها موكولة إلى حولها وقوتها ﴿ إلا عليها ﴾ ولا يحمل عنها غيرها شيئاً من وزرها ؛ ولما كان ربما حمل أحد عن غيره شيئاً من أثقاله مساعدة له ، نفى ذلك بقوله : ﴿ ولا تزر وازرة ﴾ أي تحمل حاملة ولو كانت والداً أو ولداً ﴿ وزر ﴾ أي إثم ﴿ أخرى ﴾ ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ [فاطر :

18] فإذا كان الأمر كذلك فلا يجعل بعاقل أن يعرض نفسه بحمل شيء من غضب هذا الملك الذي لا شريك له وإليه المرجع وإن طال المدى .

(117/259)

ولما عم في الكسب وحمل الوزر لئلا يقول متعنت أن خص هذا لك لا لنا ، عم في المرجع أيضاً لمثل ذلك ، فقال مهدداً لهم بعد كمال الإيضاح عاطفاً على ما أرشد إليه الإنكار من النفي في نحو أن يقال : إني لا أفعل شيئاً من ذلك ، لا أبغي رباً غير ربي أصلاً ، وأما أنتم فافعلوا ما أنتم فاعلون فإن ربكم عالم به : ﴿ ثم ﴾ أي بعد طول الإمهال لكم لطفاً منه بكم ﴿ إلى ربكم ﴾ أي الذي أحسن إليكم بكل نعمة ، لا إلى غيره ﴿ مرجعكم ﴾ أي بالحشر وإن عمرتم كثيراً أو بقيتم طويلاً ﴿ فينبئكم ﴾ أي يخبركم إخباراً جليلاً عظيماً مستوفى . ولما كان قد تقدم أنهم فرقوا دينهم ، قال : ﴿ بما كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ، ولذلك قدم الجار ليفيد الاهتمام به لقوة داعيتهم إليه من غير إكراه ولا ذهول ولا نسيان فقال : ﴿ فيه تختلفون ﴾ أي مع رسول وغيره ، ويدينكم على جميع ذلك بما تستحقونه ، وحالكم جدير بأن يعظم عقابكم لأنكم كفرتم نعمته ؛ قال أبو حيان : حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه

ونحن نتكفل لك بكل ما تحتاج إليه في دنياك وآخرتك ، فنزلت هذه الآية – انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 753 . 755 ﴾

فصل

قال الفخر :

(118/259)

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد المحض ، وهو أن يقول : ﴿ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى ﴾ إلى قوله : ﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ أمره بأن يذكر ما يجري مجرى الدليل على صحة هذا التوحيد ، وتقريره من وجهين : الأول : أن أصناف المشركين أربعة ، لأن عبدة الأصنام أشركوا بالله ، وعبدة الكواكب أشركوا بالله والقائلون : بيزدان ، وأهرمن وهم الذين قال الله في حقهم : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [الأنعام : 100] أشركوا بالله والقائلون : بأن المسيح ابن الله والملائكة بناته ، أشركوا أيضاً بالله ، فهؤلاء هم فرق المشركين ، وكلهم معترفون أن الله خالق الكل ، وذلك لأن عبدة الأصنام معترفون بأن الله سبحانه هو الخالق للسموات والأرض ، ولكل ما في العالم من الموجودات ، وهو الخالق للأصنام والأوثان بأسرها .

وأما عبدة الكواكب فهم معترفون بأن الله خالقها وموجدها .

وأما القائلون بيزدان ، وهرمن فهم أيضاً معترفون بأن الشيطان محدث ، وأن محدثه هو الله سبحانه .

وأما القائلون بالمسيح والملائكة فهم معترفون بأن الله خالق الكل ، فثبت بما ذكرنا أن طوائف المشركين أطبقوا واتفقوا على أن الله خالق هؤلاء الشركاء .

إذا عرفت هذا فالله سبحانه قال له يا محمد : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ مع أن هؤلاء الذين اتخذوا رباً غير الله تعالى أقروا بأن الله خالق تلك الأشياء ، وهل يدخل في العقل جعل المربوب شريكاً للرب وجعل العبد شريكاً للمولى ، وجعل المخلوق شريكاً للخالق ؟ ولما كان الأمر كذلك ، ثبت بهذا الدليل أن اتخاذ رب غير الله تعالى قول فاسد ، ودين باطل .

الوجه الثاني : في تقرير هذا الكلام أن الموجود ، إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته وثبت أن الواجب لذاته واحد ، فثبت أن ما سواه ممكن لذاته ، وثبت أن الممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، وإذا كان الأمر كذلك كان تعالى رباً لكل شيء .

(119/259)

وإذا ثبت هذا فنقول : صريح العقل يشهد بأنه لا يجوز جعل المربوب شريكاً للرب وجعل المخلوق شريكاً للخالق فهذا هو المراد من قوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ثم إنه تعالى لما بين بهذا الدليل القاهر القاطع هذا التوحيد بين أنه لا يرجع إليه من كفرهم وشركهم ذم ولا عقاب ، فقال : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ ومعناه أن إثم الجاني عليه ، لا على غيره ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، ثم بين تعالى أن رجوع هؤلاء المشركين إلى موضع لا حاكم فيه ولا آمر إلا الله تعالى ، فهو قوله : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 11.12 ﴾

(120/259)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾

يعني : يقول أعبد وأطلب رباً غيره ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من خلقه في السموات والأرض ، لأنهم كانوا يقولون له : نحن كفلاء لك بما يصيبك ومن تابعك .

فنزلت ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ يعني : إلا لها أو عليها إن كان خيراً فلها وإن

كان شراً فعليها ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ يعني : لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ أي مصيركم في الآخرة ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين ، ويبيّن لكم الحق من الباطل بالمعاينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

وسبب [نزول] ذلك أن كفار قريش دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملة آبائه في عبادة اللات والعزى ، وقالوا : يا محمد إن كان وزراً فهو علينا دونك ، فنزلت هذه الآية عليه .

﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾ يعني إلا عليها عقاب معصيتها ولها ثواب طاعتها .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي لا يتحمل أحد ذنب غيره فيأثم به ويعاقب عليه ، ولا يحمل ذنبه غيره ، فيبرأ منه ويسلم من عقابه .

وفي أصل الوزر وجهان :

أحدهما : أصله الثقل ، من قوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح : 2-3] ومنه سمي وزير الملك لتحمله القل عنه .

والثاني : أن أصله الملجأ من قوله : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة : 11] ومنه سُمِّي وزير

المَلِكِ لأنه يلجأ إليه في الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(121/259)

حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك ، فنزلت هذه الآية ، وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ ، و ﴿ أبغي ﴾ معناه أطلب ، فكأنه قال : أفيحسن عندكم أن أطلب إلهاً غير الله الذي هو رب كل شيء ؟ وما ذكرتم من كفالتكم لا يتم لأن الأمر ليس كما تظنونه ، وإنما كسب كل نفس من الشر والإثم عليها وحدها ﴿ ولا تزر ﴾ أي لا تحمل وازرة أي حامله حمل أخرى وثقلها ، والوزر أصله الثقل ، ثم استعمل في الإثم لأنه ينقض الظهر تجوزاً واستعارة ، يقال منه : وزر الرجل يزر فهو وازر ووزر يوزر فهو موزور ، وقوله ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ تهديد ووعيد ﴿ فينبئكم ﴾ أي فيعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع لحق ، وقوله ﴿ بما كنتم فيه تختلفون ﴾ يريد على ما حكى بعض المتأولين من أمري في قول بعضكم هو ساحر

وبعضكم هو شاعر . وبعضكم افتراه ، وبعضكم اكتتبه ونحو هذا .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل يحسن في هذا الموضع وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع الاختلافات من الأديان والملل والمذاهب وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أبغي رباً ﴾

سبب نزولها : أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع عن هذا الأمر ، ونحن لك الكُفلاء بما أصابك من تبعة ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكسبُ كل نفس إلا عليها ﴾ أي : لا يُؤْخذُ سواها بعملها .

وقيل : المعنى : إلا عليها عقاب معصيتها ، ولها ثواب طاعتها .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أُخرى ﴾ قال الزجاج : لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى .

والمعنى : لا يؤخذ أحد بذنب غيره .

(122/259)

قال أبو سليمان : ولما ادَّعت كل فرقة من اليهود والنصارى والمشركين أنهم أولى بالله من غيرهم ، عرفهم أنه الحاكم بينهم بقوله : ﴿ فيُنبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ ونظيره : ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ [الحج : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مالكه .

روي أن الكفار قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفّل لك بكلِ تباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك ؛ فنزلت الآية .

وهي استفهام يقتضي التقرير والتوبيخ .

و"غير" نصب ب"أَبْغِي" و"رَبًّا" تمييز .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾ أي لا ينفعني في ابتغاء ربٍّ غير الله كونكم على ذلك ؛ إذْ لا تكسب كل نفسٍ إلا عليها ؛ أي لا يؤخذ بما أتت من المعصية ، وركبت من الخطيئة سواها .

الثانية : وقد استدلّ بعض العلماء من المخالفين بهذه الآية على أن بيع الفُضُوليّ لا يصح ، وهو قول الشافعيّ .

وقال علماؤنا : المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ على ما يأتي .

وبيع الفُضُولِيّ عندنا موقوف على إجازة المالك ، فإن أجازه جاز .

هذا عُرْوة البارِقيّ قد باع للنبيّ صلى الله عليه وسلم واشترى وتصرّف بغير أمره ، فأجازه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وبه قال أبو حنيفة .

(123/259)

وروى البُخارِيّ والدّارَقُطْنِيّ " عن عُروة بن أبي الجَعْد قال : عرض للنبيّ صلى الله عليه وسلم جَلَب فأعطاني ديناراً وقال : "أيْ عُرْوة ايت الجَلَب فاشتر لنا شاة بهذا الدينار" فأتيتُ الجَلَب فساومْتُ فاشتريت شاتين بدينار ، فجئت أسوقهما أو قال أقودهما فلقيني رجل في الطريق فساومني فبعته إحدى الشاتين بدينار ، وجئت بالشاة الأخرى وبدينار ، فقلت : يا رسول الله ، هذه الشاة وهذا دينارکم .

قال : "كيف صنعت" ؟ فحدّثته الحديث .

قال : "اللَّهُمّ بارك له في صفقة يمينه" .

قال : فلقد رأيتُني أقف في كُناسة الكوفة فأربح أربعين ألفاً قبل أن أصِل إلى أهلي " لفظ

الدَّارَقُطْنِيّ .

قال أبو عمر : وهو حديث جيّد ، وفيه صحة ثبوت النبيّ صلى الله عليه وسلم للشاتين ، ولولا ذلك ما أخذ منه الدينار ولا أمضى له البيع .

وفيه دليل على جواز الوكالة ، ولا خلاف فيها بين العلماء .

فإذا قال الموكل لوكيله : اشتر كذا ؛ فاشترى زيادةً على ما وُكّل به فهل يلزم ذلك الأمر أم لا ؟ .

كرجل قال لرجل : اشتر بهذا الدّرهِم رِطل لحم ، صفته كذا ؛ فاشترى له أربعة أرطال من تلك الصفة بذلك الدرهم .

فالذي عليه مالك وأصحابه أن الجميع يلزمه إذا وافق الصفة ومن جنسها ؛ لأنه مُحْسِن .

وهو قول أبي يوسف ومحمد بن الحسن .

وقال أبو حنيفة : الزيادة للمشتري .

وهذا الحديث حُجّة عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ أي لا تحمل حاملةٌ ثِقْل أخرى ، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، بل كل نفس مأخوذة بِجُرْمها ومعاقبة بإثمها .

وأصل الوِزْر الثِّقْل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الإسراء : 2] .

وهو هنا الذنب ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام :

31].

وقد تقدّم.

قال الأخفش: يقال وَزِر يَوْزَر، ووَزَر يَزِر، ووُزِر يُوزَر وَزَراً.

ويجوز إِزْراً، كما يقال: إِسادة.

(124/259)

والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم؛ ذكره ابن عباس.

وقيل: إنها نزلت رَدّاً على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبابنه وبجَرِيرة حَلِيفه.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية في الآخرة، وكذلك التي قبلها؛ فأما التي في الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجُرْم بعض، لا سِيَّمَا إذا لم يَنْه الطائعون العاصين، كما تقدّم في حديث أبي بكر في قوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: 105].

وقال تعالى: ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: 25].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11].

وقالت زينب بنت جَحْش : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كَثُرَ الخَبَث " قال العلماء : معناه أولاد الزنى .

والخَبَث (بفتح الباء) اسم للزنى .

فأوجب الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ على العاقلة حتى لا يُطَلّ دَمُ الْحُرّ المسلم تعظيماً للدّماء .

وأجمع أهل العلم على ذلك من غير خلاف بينهم في ذلك ؛ فدلّ على ما قلناه .

وقد يحتمل أن يكون هذا في الدنيا ، في ألاّ يؤاخذ زيد بفعل عمرو ، وأن كل مباشر لجريمة فعليه مَغَبَّتُها .

وروى أبو داود " عن أبي رِمْثة قال : انطلقت مع أبي نحو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم إن النبيّ قال لأبي : "ابنك هذا" ؟ قال : إيْ وَرَبِّ الكعبة .

قال : "حقا" .

قال : أَشْهدُ به .

قال : فتبسّم النبيّ صلى الله عليه وسلم ضاحكاً من ثبت شَبَهِي في أبِي ، ومن حَلِف أبي عليّ .

ثم قال : "أمَا إنه لا يَجْنِي عليك ولا تَجْنِي عليه" " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ .

ولا يُعارض ما قلناه أوّلاً بقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] ؛ فإن هذا مبيَّن في الآية الأخرى قوله : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] .

فمن كان إماماً في الضلالة ودَعَا إليها واتبع عليها فإنه يحمل وزْر من أضلّه من غير أن ينقص من وزر المُضَل شيء ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قل أغير الله أبغي رباً ﴾

أي : قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله أطلب سيداً أو إلهاً ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ يعني وهو سيد كل شيء ومالكه لا يشاركه فيه أحد وذلك أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع إلى ديننا .

قال ابن عباس : كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل رداً عليه ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ يعني أن إثم الجاني عليه لا على غيره

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ يعني لا تؤاخَذ نفس آثمة بإثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ يعني في الدنيا من الأديان والملل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربّ كل شيء ﴾

حكى النقاش أنه روي أنّ الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفّل لك بكل ما تريد في دنياك وآخرتك فنزلت هذه الآية والهمزة للاستفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ وهو رد عليهم إذ دعوه إلى آلهتهم والمعنى أنه كيف يجتمع لي دعوة غير الله رباً وغيره مربوب له .

﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ أي ولا تكسب كل نفس شيئاً يكون عاقبته على أحد إلا عليها .

(126/259)

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تذنب نفس مذنبة ذنب نفس أخرى والمعنى لا تؤاخذ بغير وزرها فهو تأكيد للجملة قبله وهو جواب لقولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم .

﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي مرجعكم إليه يوم القيامة والتنبئة عبارة عن الجزاء والذي اختلفوا فيه هو من الأديان والمذاهب يجازيكم بما ترتب عليها من الثواب والعقاب وسياق هذه الجمل سياق الخبر والمعنى على الوعيد والتهديد ، وقيل : بما كنتم فيه تختلفون في أمري من قول بعضكم هو شاعر ساحر وقول بعضكم افتراه وبعضكم اكتتبه ونحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(127/259)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾

إنكار لبغية غيره تعالى رباً لا لبغية الرب ولهذا قدم المفعول ، وليس التقديم للاختصاص إذ المقصود أغير الله أطلب رباً وأجعله شريكاً له ، وعلى تقدير الاختصاص لا يكون إشراكاً للغير بل توحيد ، وقال بعض المحققين : لا يبعد أن يقال التقديم للاختصاص .

وذكر في رد دعوته إلى الغير رد الاختصاص تنبيهاً على أن إشراك الغير بغية غير الله تعالى إذ لا بغية له سبحانه إلا بتوحيده عز وجل ، وما في النظم الكريم أبلغ من أغير الله أعبد ونحوه كما لا يخفى ﴿ وَهُوَ ﴾ سبحانه ﴿ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ جملة حالية مؤكدة للإنكار أي والحال أن كل ما سواه مربوب (له مثلي) فكيف يتصور أن يكون شريكاً له (في المعبودية) .

﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾ يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين : "اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم" فرد عليهم بما ذكر أي أن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولة عليها لا على غيرها حتى يصح قولكم ، وعلى هذا يكون قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أي نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخرى ﴾ تأكيداً لما قبله ، وقيل : إن قولهم ذلك يحتمل معنيين .

الأول : اتبعوا سبيلنا وليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم .

والثاني : اتبعوا لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ ﴾ الخ رد له بالمعنى الأول ؛ وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَزِرُ ﴾ الخ رد له بالمعنى الثاني ، وقيل : إن جواب قولهم هو الثاني ، وأن الأول من جملة الجواب عن دعواهم إلى عبادة آلهتهم يعني لو أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه لم أكن معذوراً بأنكم سبقتموني إليه وقد فعلته متابعة لكم ومطاوعة فلا يفيدني ذلك شيئاً ولا ينجيني من الله تعالى لأن كسب كل أحد وعمله عائد عليه ، ورجحه بعضهم على الأول بأن التأسيس

خير من التأكيد ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكل لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد أي إلى مالك (أموركم و) رجوعكم يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ببيان الرشد من الغي وتمييز الحي من اللي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(128/259)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ فأشركه في عبادته ، وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم ، وفي إيثار نفي البغية والطلب ، على نفي العبادة ، أبلغيّة لا تخفى : ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له . أي : وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية ، فلا أكون عبداً لعبده .

قال ابن كثير : أي : فلا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه . لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل . كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً . كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [

هود 123] ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك 29] . وقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل : 9] وأشباه ذلك من الآيات .

﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

قال ابن كثير : إخبار عن الواقع يوم القيامة من جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى .

(129/259)

وقال أبو السعود : كانوا يقولون للمسلمين : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم ، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا – فهذا رد له بالمعنى الأول . أي : لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها . ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ، حتى يتأتى ما ذكرتم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ رد له بالمعنى الثاني . أي : لا تحمل يومئذ نفس حاملة ، حمل نفس أخرى ، حتى يصح قولكم .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : هذه الآية أصل في أنه لا يؤاخذ أحد بفعل أحد ، وقد ردت عائشة به على من قال : إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه . أخرجه البخاري ، وأخرج ابن أبي حاتم عنها ؛ أنها سئلت عن ولد الزنى ؟ فقال ليس عليه من خطيئة أبويه شيء . وتلت هذه الآية .

قال : الكيا الهراسيّ : ويحتج بقوله : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ في عدم نفوذ تصرف زيد على عَمْرو إلاَّ ما قام عليه الدليل . قال ابن الفرس : واحتج به من أنكر ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام .

(130/259)

وقال بعض الزيدية : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ يعني في أمر الآخرة . فيبطل قول إن أطفال المشركين يعذبون بكفر آبائهم . ويلزم أن لا يعذب الميت ببكاء أهله عليه . حيث لا سبب له . وأما في أمر الدنيا ، فقد خص هذا بحديث العاقلة ، وكذلك أسر أولاد الكفار ونحو ذلك . انتهى . : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ أي : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يتميز الحق من الباطل .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : 25 - 26] [في المطبوع : سبأ : 32] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 566 . 568 ﴾

(131/259)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

استئناف ثالث ، مفتتح بالأمر بالقول ، يتنزّل منزلة النّتيجة لما قبله ، لأنّه لمّا عُلم أنّ الله هداه إلى صراط مستقيم ، وأنقذه من الشّرك ، وأمره بأن يمحّض عبادته وطاعته لربّه تعالى ، شكراً على الهداية ، أتبع ذلك بأن يُنكر أنْ يَعْبُد غير الله تعالى لأنّ واهب النّعم هو مستحقّ الشّكر ، والعبادةُ جماع مراتب الشّكر ، وفي هذا رجوع إلى بيان ضلالهم إذ عَبدوا غيره وإعادة الأمر بالقول تقدّم بيان وجهه .

والاستفهام إنكار عليهم لأنّهم يرغبون أن يعترف بربوبية أصنامهم ، وقد حاولوا منه ذلك غير مرّة سواء كانوا حاولوا ذلك منه بقرب نزول هذه الآية أم لم يحاولوه ، فهم دائمون على

الرّغبة في موافقتهم على دينهم ، حكى ابن عطيّة عن النقّاش أنّ الكفّار قالوا للنّبي صلى الله عليه وسلم " ارجعْ إلى ديننا واعْبُدْ آلهتنا ونحن نتكفّل لك بكلّ تباعة تتوقَّعها في دنياك وآخرتك " وأنّ هذه الآية نزلت في ذلك .

وقدّم المفعول على فعله لأنَّه المقصود من الاستفهام الإنكاري ، لأنّ محلّ الإنكار هو أن يكون غير الله يُبتغى له ربّاً ، ولأنّ ذلك هو المقصود من الجواب إذا صحّ أنّ المشركين دعوا النّبي صلى الله عليه وسلم لعبادة آلهتهم فيكون تقديمه على الفعل للاهتمام لموجِب أو لموجِبَيْن ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا ﴾ في هذه السّورة (14) .

(132/259)

وجملة : ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ في موضع الحال ، وهو حال معلّل للإنكار ، أي أنّ الله خالق كلّ شيء وذلك باعترافهم ، لأنَّهم لا يدّعون أنّ الأصنام خالقة لشيء ، كما قال تعالى : ﴿ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ [الحج : 73] فلمّا كان الله خالق كلّ شيء وربَّه فلا حقّ لغيره في أن يعبده الخلائق ، وعبادة غيره ظلم عظيم ، وكفر بنعمة الربوبيّة ، وبقطع النَّظر عن كون الخلق نعمة ، لأنّ الخلق إيجاد والوجود أفضل من العدم ، فإنّ مجرد الخلق موجب للعبادة لأجل العبوديّة .

وإنَّما قيل : ﴿ وهو رب كل شسء ﴾ ، ولم يقل : وهو ربّي ، لإثبات أنّه ربّه بطريق الاستدلال لكونه إثباتَ حكم عام يشمل المقصودَ الخاصّ ، ولإفادة أنّ أربابهم غير حقيقة بالربوبيّة لأنَّها مربوبة أيضاً لله تعالى .

وقوله : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ من القول بالمأمور به ، مفيد متاركةً للمشركين ومَقتاً لهم بأنّ عنادهم لا يَضرّه ، فإنّ ما اقترفوه من الشّرك لا يناله منه شيء فإنَّما كسب كلّ نفس عليها ، وهم من جملة الأنفس فكسبهم عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم .

فالتّعميم في الحكم الواقع في قوله : ﴿ كل شيء ﴾ فائدته مثل فائدة التّعميم الواقع في قوله : ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ .

ودلّت كلمة (على) على أنّ مفعول الكسب المحذوف تقديره : شرّاً ، أو إثماً ، أو نحو ذلك ، لأنّ شأن المخاطبين هو اكتساب الشرّ والإثم كقوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ [الأنعام : 52] ولك أن تجعل في الكلام احتباكاً تقديره : ولا تكسب كلّ نفس إلاّ لها ولا تكتسب إلا عليها فحذف من الأول لدلالة الثّاني وبالعكس إذا جربت على أن (كسب) يغلب في تحصيل الخير ، وأنّ (اكتسب) يغلب في تحصيل الشرّ ، سواء اجتمع الفعلان أم لم يجتمعا .

ولا أحسب بين الفعلين فرقا ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة : 286] .

والمعنى : أنّ ما يكتسبه المرء أو يكسبه لا يتعدى منه شيء إلى غيره .

وقوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ تكملة لمعنى قوله : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ فكما أنّ ما تكسبه نفس لا يتعدّى منه شيء إلى غيرها ، كذلك لا تحمل نفس عن نفس شيئاً ، والمعنى : ولا أحمل أوزاركم .

فقوله : ﴿ وازرة ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره : نفس ، دلّ عليه قوله : ﴿ ولا تكسب كل مفس إلا عليها ﴾ ، أي لا تحمل نفس حاملة حِمْل أخرى .

والوزر : الحِمل ، وهو ما يحمله المرء على ظهره ، قال تعالى : ﴿ ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ [طه : 87] ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ [الأنعام : 31] .

وأمّا تسمية الإثم وزراً فلأنّه يتخيّل ثقيلاً على نفس المؤمن .

فمعنى ﴿ لا تزر وازرة ﴾ لا تحمل حاملة ، أي لا تحمل نفس حين تحمل حمل أي نفس أخرى غيرها ، فالمعنى لا تغني نفس عن نفس شيئاً تحمله عنها ، أي كلّ نفس تزر وزر نفسها ، فيفيد أنّ وزر كلّ أحد عليه وأنّه لا يحمل غيرُه عنه شيئاً من وزره الذي وزَره وأنّه

لا تَبعة على أحد من وزر غيره من قريب أو صديق ، فلا تغني نفس عن نفس شيئاً ، ولا تُتَّبع نفس بإثم غيرها ، فهي إن حَمَلت لا تحمل حِمل غيرها .

وهذا إتمام لمعنى المتاركة .

﴿ ثمّ ﴾ للتّرتيب الرّتبي .

وهذا الكلام يحتمل أن يكون من جملة القول المأمور به فيكون تعقيباً للمتاركة بما فيه تهديدهم ووعيدهم ، فكان موقع ﴿ ثمّ ﴾ لأنّ هذا الخبر أهمّ .

فالخطاب في قوله : ﴿ إلى ربكم مرجعكم ﴾ خطاب للمشركين وكذلك الضّميران في قوله : ﴿ بما كنتم فيه تختلفون ﴾ والمعنى : بما كنتم فيه تختلفون مع المسلمين ، لأنّ الاختلاف واقع بينهم وبين المسلمين ، وليس بين المشركين في أنفسهم اختلاف .

فأدمج الوعيد بالوعيد .

وقد جعلوا هذه الجملة مع التي قبلها آية واحدة في المصاحف .

(134/259)

ويحتمل أن يكون المقول قد انتهى عند قوله : ﴿ وزر أخرى ﴾ فيكون قوله : ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ استئناف كلام من الله تعالى خطاباً للنّبيء صلى الله عليه وسلم

وللمعاندين له .

و(ثُمّ) صالحة للاستئناف لأنّ الإستئناف ملائم للتّرتيب الرّتبي ، والكلام وعيد ووعد أيضاً .

ولا ينافي ذلك أن تكون مع التي قبلها آية واحدة .

والتّنبئة : الإخبار ، والمراد بها إظهار آثار الإيمان والكفر واضحة يوم الحساب ، فيعلموا أَنَّهم كانوا ضالّين ، فشبّه ذلك العلم بأنّ الله أخبرهم بذلك يومئذ وإلاّ فإنّ الله نبأهم بما اختلفوا فيه من زمَن الحياة الدّنيا ، أو المراد ينبّئكم مباشرة بدون واسطة الرّسل إنباء لا يستطيع الكافر أن يقول : هذا كذب على الله ، كما ورد في حديث الحَشر : " فيُسمعهم الدّاعي ليس بينهم وبين الله حِجاب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(135/259)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

معنى الرب هو الذي تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شيء في الوجود مربوب لله ، فكيف أخذ شيئًا من الأشياء التي هو ربها ليكون شريكا له ؟ ! ! إن ذلك لا يصح أبدآ . ﴿ قُلْ

أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً . . . ﴾

وهذا إنكار يأتي في صورة استفهام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل منا : أعرض هذا على ذهنك عرضاً غير متحيّز ، وأنا سأئتمنك على الجواب . ولا تقال ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أي عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقني في أنه لا ينبغي أن يتخذ غير الله ربًّا .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا . . . ﴾ [الأنعام : 164]

و" أبغى " أي أطلب ، و" تكسب " مأخوذة من مادة "كسب " و" اكتسب " ، و"كسب " دائماً تأتي في الخير – كما علمنا من قبل – ، و" اكتسب " تأتي في الشر . لكنْ هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلفهم شيئاً ، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً .

ومن الحمق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ؛ لأنك حين تنظر إلى التسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيداً لك بل عليك . ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى . . . ﴾ [الأنعام : 164]

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شيء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ ككلمة " وزير " ، والحق هو القائل : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه : 29-31]

كأن موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال لله : أعطني أخي يساعدني في هذه المشقة .

(136/259)

والحق هو القائل : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: 1-3]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في أول استقباله للوحي قد عانى من وقع هذه العملية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضي التقاءات مَلَكية ببشرية ، ولابد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذي كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : زملوني زملوني ودثروني ، وإن كان قاعداً وركبته على ركبة أحد بجانبه فيشعر جاره بالثقل ، وإن كان على دابة تئط وتئن تعباً ، لأن التقاء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين : إما أن يتحول الوحي وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تتناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقاؤه بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحي عرف حلاوة استقباله نسي المتاعب ، ولذلك

عندما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحي من قبل ذلك يتعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى في نفسه حلاوة ما أوحي به إليه ، وتهدأ نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحي ، فإذا ما استقبل الوحي بشوق فلن يتذكر المتاعب . ﴿ . . . وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام : 164]

إذن مادة الوزر هي الثقل بمشقة ، أي لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفنا من قبل الفارق بين من ضل في ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا لينبئنا بما كنا فيه نختلف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(137/259)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ قال : لا يؤخذ أحد بذنب غيره .

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس على ولد الزنا من وزر أبويه شيء ، لا تزر وازرة وزر أخرى " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مليكة قال : توفيت أم عمرو بنت أبان بن عثمان فحضرت الجنازة ، فسمع ابن عمر بكاء فقال : ألا تنهي هؤلاء عن البكاء ، فإن رسول الله صلى عليه وسلم قال " إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه " فأتيت عائشة فذكرت ذلك لها ، فقالت : والله إنك لتخبرني عن غير كاذب ولأمتهم ولكن السمع يخطىء ، وفي القرآن ما يكفيكم ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن عروة قال : سئلت عائشة عن ولد الزنا فقالت : ليس عليه من خطيئة أبويه شيء ، وقرأت ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : ولد الزنا خير الثلاثة ، إنما هذا شيء قاله كعب هو شر الثلاثة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ قال : لا يحمل الله

على عبد ذنب غيره ، ولا يؤاخذه إلا بعمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ

﴾

(138/259)

فائدة

قال فى روح البيان :

وفي الآية أمور :

الأول : إن غاية المبتغى ونهاية المرام هو الله الملك العلام ، فمن وجده فقد وجد الكل ومن فقده فقد فقد الكل ، والعاقل العاشق لا يطلب غير الله ؛ لأنه الحبيب والمحب لا يتسلى بغير المحبوب .

والثاني : إن كل ما تكسب النفس من خير أو شر فهو عليها ، أما الشر فهي مأخوذة به ، وأما الخير فمطلوب منها صحة القصد ، والخلو من الرياء والعجب والافتخار به .

والنفس أمارة بالسوء فلا تكسب إلا سواء والسوء عليها لا لها ، وهذا دأب النفس ما وكلت إلى نفسها إلا أن رحمها ربها كما قال : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (يوسف : 53) ولهذا كان من دعائه عليه السلام : "رب لا تكلني إلى نفسي

طرفة عين ولا أقلّ من ذلك" وهي أي : النفس مأمورة بالسير إلى الله بقدم العبودية والأعمال الصالحة .

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفضل : العجب ممن يقطع الأودية والمفاوز والقفار ليصل إلى بيته وحرمه ؛ لأن فيه آثار أنبيائه كيف لا يقطع بالله نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه فإن فيه آثار مولاه .

والثالث : إن كل نفس مؤاخذ بذنبه لا بذنب غيره .

فإن قلت قوله عليه السلام : "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض ، أو شيء فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" .

يدل على خلاف ذلك وكيف يجوز في حكم الله وعدله أن يضع سيئات من اكتسبها على من لم يكتسبها ، وتؤخذ حسنات من عملها فتعطى من لم يعملها ؟ .

فالجواب على ما قال الإمام القرطبي في "تذكرته" : إن هذا لمصلحة وحكمة لا نطلع عليها والله تعالى لم يبن أمور الدين على عقول العباد ولو كان كل ما لا تدركه العقول مردوداً لكان أكثر الشرائع مستحيلاً على موضوع عقول العباد انتهى .

(139/259)

يقول الفقير : إن الذنب ذنبان ذنب لازم وذنب متعد ، فالذنب اللازم : كشرب الخمر مثلاً يؤخذ به صاحبه دون غيره فهذا الذنب له جهة واحدة فقط ، والذنب المتعدي : كقتل النفس مثلاً فهذا وإن كان يؤخذ به صاحبه أيضاً ، لكن له جهتان : جهة التجاوز عن حد الشرع ، وجهة وقوع الجناية على العبد : فحمل سيئاته وطرح حسناته عليه حمل سيئات نفسه في الحقيقة وما طرح حسنات غيره في نفس الأمر ولا ظلمة أصلاً ، فالآية والحديث متحدان في المآل والله أعلم بحقيقة الحال .

والرابع : كما أن الاختلاف واقع بين أهل الكفر والإيمان ، كذلك بين أهل الإخلاص والرياء والشرع ، وإن كان محكماً يميز بين المحقق والمبطل إلا أن انكشاف حقيقة الحال وظهور باطن الأقوال والأفعال إنما يكون يوم تبلى السرائر وتبدى الضمائر .

وفي الحديث : "يخرج في آخر الزمان أقوام يجتلبون الدنيا بالدين" يعني : يأخذونها ويلبسون لباس جلود الضأن من اللين "ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب فيقول الله تعالى أبي تقترفون أم عليّ تجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران" فعلى المؤمن أن يصحح الظاهر والباطن ويرفع الاختلاف فإن الحق واحد فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وأما اختلاف الأئمة فرحمة لعامة الناس وليس ذلك من قبيل الاختلاف بحسب المراء

والجدال بل بحسب اختلاف الأشخاص والأحوال فالحق أحق أن يتبع عصمنا الله وإياكم من الاختلاف المفسد للدين والجدل المزيل لأصل اليقين وجعلنا من أهل التوفيق للصواب إنه الكريم المفيض الوهاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 167 . 169 ﴾

(140/259)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الرب)

وهو اسم الله تعالى .

وقد يخفَّف .

والاسم الرِّبَابَة ، والرُّبُوبيَّة، وعِلْم رُبُوبيٌّ : نسبة إلى الرّبِّ تعالى على غير قياس .

ولا ورَبِيك لا أَفعل ، أَى ولا وربك ، أَبدل الباءَ ياءً للتّضعيف .

ورَبِّ كلِّ شىءٍ : مالكه ومستحقُّه وصاحبه ، والجمع : أَرباب ورُبُوب .

والرَّبَانِىُّ : المتأَلِّه العارف بالله عزَّ وجلَّ ، والحَبْر ، منسوب إلى الرَّبَّان ، وفَعْلان يُبنى من فَعِل كثيرًا كعطشان وسكران ، ومِن فَعَل قليلا كنعْسان ، أَو منسوب إلى الربِّ تعالى فهو كقولهم

: إلَهيّ ، ونونُه كنونِ لحْيانيٍّ ، أَو هو لفظة سريانيّة .

وأَصل الرّبِّ ، التَّربية : وهي إنشاءُ شيءٍ حالا فحالاً إلى حدِّ التمام ، يقول : ربَّه وربّاه وربّبه ، فالربُّ مصدر مستعار للفاعل .

ولا يقال الربّ مطلقاً إلا للهِ تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات ، قال تعالى : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً ﴾ أَي آلهة ، وتزعمون أنها الباري تعالى مسبِّب الأَسباب والمتولِّي لمصالح العباد .

وبالإضافة يقال لله تعالى ولغيره : نحو ربّ العالمين ، وربِّ الدَّار .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ قيل : إنه عنى به الله تعالى ، وقيل : عنى به المَلِك الذي ربّاه ، والأَول أَليق بقوله .

ويجمع على أَرباب ، وكان من حقه ألاَّ يُجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلاَّ الله تعالى ، لكن أُتي بلفظ الجمع في قوله : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ﴾ على حسب اعتقادتهم ، لا على ما عليه ذاتُ الشيءِ في نفسه .

والرَّباب سُمِّي بذلك لأَنَّه يَرُبُّ النبات .

وبهذا النظر سُمّي المطر دَرّاً .

ورُبَّ لاستقلال الشيءِ ، ولاستكثاره ، ضدّ .

قال تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

(141/259)

وفيها لغات : رُبَّ / ورَبَّ ورُبَّت ورَبَّت – ويخفّف الكلّ – ورُبُ ورُبْ كمُذْ ، ورُبَّمَا ، ورَبَّمَا ، ورُبَّتما ، ويخفّف الكلُّ .

وهي حرف خافض لا تقع إلاَّ على نكرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوي التمييز حـ 3 صـ 29.30 ﴾

(142/259)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) ﴾

كيف أوثِر عليه بَدَلاً وإني لا أجد عن حكمه حِوَلا ، وكيف أقول بغيرٍ أو ضدٍ أو شريك ؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود ؟ وإنْ لاحظتُ يمنةً ما شاهدتُ إلا مُلْكَه ، وإنْ طالعتُ يَسْرةً ما عاينْتُ إلا مُلكَه ! بل إني إنْ نظرتُ يمنةً شهدت يُمْنَه ، وإنْ نظرتُ يَسْرةً وجدتُ نحوي يُسْرَه ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 516 ﴾

(143/259)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم أنه المحسن إلى كل شيء بالربوبية ، وختم بالتهديد بالحشر ، أتبعه التذكير بتخصيصهم بالإحسان ، فقال عاطفاً على ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ مستعطفاً لهم إليه بالتذكير بنعمته : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي جعلكم ﴾ أي أيها الإنس ﴿ خلائف الأرض ﴾ أي تفعلون فيها فعل الخليفة متمكنين من كل ما تريدونه ، ويجوز أن يراد بذلك العرب ، ويكون ظاهر الكلام أن المراد بالأرض ما هم فيه من جزيرة العرب ، وباطنه

البشارة بإعلاء دينهم الإسلام على الدين كله وغلبتهم على أكثر أهل الأرض في هذه الأزمان وعلى جميع أهل الأرض في آخر الزمان ﴿ ورفع بعضكم ﴾ في مراقي العقل والعلم والدين المال والجاه والقوة الحسية والمعنوية ﴿ فوق بعض درجات ﴾ أي مع كونكم من نفس واحدة ، وربما كان الوضيع أعقل من الرفيع ولم ينفعه عقله فيدل ذلك دلالة واضحة على أن ذلك كله إنما هو فعل الواحد القهار ، لا بعجز ولا جهل ولا بخل ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ ليبلوكم ﴾ أي يفعل معكم فعل المختبر ليقيم الحجة عليكم وهو أعلم بكم منكم ﴿ في ما آتاكم ﴾ فينظر هل يرحم الجليل الحقير ويرضى الفقير بعطائه اليسير ، ويشكر القوي ويصبر الضعيف ! .

ولما ذكر علو بعضهم على بعض ، وكان من طبع الآدمي التجبر ، أتبعه التهديد للظالم والاستعطاف للتائب بما يشير – بما له سبحانه من علو الشأن وعظيم القدرة – إلى ضعف العالي منهم وعجزه عن عقاب السافل بمن يحول بينه وبينه من شفيع وناصر وبما يحتاج إليه من تمهيد الأسباب ، محذراً من البغي والعصيان فقال موجهاً الخطاب إلى أكمل الخلق تطييباً لقلبه إعلاماً بأنه رباه سبحانه أجمل تربية وأدبه أحسن تأديب : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ سريع الحساب ﴾ أي لمن يريد عقابه ممن يكفر نعمته لكونه لا حائل بينه وبين من يريد عقابه ولا يحتاج إلى استحضار آلات العقاب ، بل كل ما يريد حاضر لديه

عتيد ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] ، وفي ذلك تهديد شديد لمن لا يتعظ .

(144/259)

ولما هدد وخوف ، رجّى من أراد التوبة واستعطف فقال : ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ معلماً بأنه – على تمام قدرته عليهم وانهماكهم فيما يوجب الإهلاك – بليغ المغفرة لهم عظيم الرحمة ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ [النحل : 61] ، حثاً على عفو الرفيع من الوضيع ، وتأكيده الثاني دون الأول ناظر إلى قوله ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام : 12] ، " إن رحمتي سبقت غضبي " لأنه في سياق التأديب لهذه الأمة والتذكير بالإنعام عليهم بالاستخلاف ، وسيأتي في الأعراف بتأكيد الاثنين لأنه في حكاية ما وقع لبني إسرائيل من إسراعهم في الكفر ومبادرتهم إليه واستحقاقهم على ذلك العقوبة ، وجاء ذلك على طريق الاستئناف على تقدير أن قائلاً قال : حينئذ يسرع العالي إلى عقوبة السافل ! فأجيب بأن الله فوق الكل وهو أسرع عقوبة ، فهو قادر على أن يسلط الوضيع أو أحقر منه على الرفيع فيهلكه ؛ ثم رغب بعد هذا الترهيب في العفو بأنه على غناه عن الكل أسبل ذيل غفرانه ورحمته بإمهاله العصاة وقبوله اليسير من الطاعات بأنه خلق السماوات

والأرض وجعل الظلمات والنور منافع لهم ثم هم به يعدلون ! ولولا غفرانه ورحمته لأسرع عقابه لمن عدل به غيره فأسقط عليهم السماوات وخسف بهم الأرضين التي أنعم عليهم بالخلافة فيها وأذهب عنهم النور وأدام الظلام ، فقد ختم السورة بما به ابتدأها ، فإن قوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ هو المراد بقوله : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ [الأنعام : 2] وقوله : ﴿ أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ﴾ [الأنعام : 164] هو معنى قوله : ﴿ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] ، - والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 755.756 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في قوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خلائف الأرض ﴾

(145/259)

وجوهاً : أحدها : جعلهم خلائف الأرض لأن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ، فخلفت أمته سائر الأمم .

وثانيها : جعلهم يخلف بعضهم بعضاً .

وثالثها : أنهم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها .

ثم قال : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ في الشرف والعقل ، والمال ، والجاه ، والرزق ، وإظهار هذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل ، فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات ، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان وهو المراد من قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا أتاكم ﴾ وقد ذكرنا أن حقيقة الابتلاء والامتحان على الله محال ، إلا أن المراد هو التكليف وهو عمل لو صدر من الواحد منا لكان ذلك شبيهاً بالابتلاء والامتحان ، فسمى لهذا الاسم لأجل هذه المشابهة ، ثم إن هذا المكلف إما أن يكون مقصراً فيما كلف به ، وإما أن يكون موفراً فيه ، فإن كان الأول كان نصيبه من التخويف والترهيب ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب ﴾ ووصف العقاب بالسرعة ، لأن ما هو آت قريب ، وإن كان الثاني ، وهو أن يكون موفراً في تلك الطاعات كان نصيبه من التشريف والترغيب هو قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنوب ويستر العيوب في الدنيا بستر فضله وكرمه ورحمته ، وفي الآخرة بأن يفيض عليه أنواع نعمه ، وهذا الكلام بلغ في شرح الأعذار والإنذار والترغيب والترهيب إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه ، وهذا آخر الكلام في تفسير سورة الأنعام ، والحمد لله الملك العلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 12 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف الأرض ﴾

يعني : سكان الأرض من بعد إهلاك الأمم الخالية ، لأن النبي عليه السلام خاتم النبيين ، وأمته قد خلفوا جميع الأمم .

ويقال : خلائف يعني : يخلف بعضكم بعضاً ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ أي فضل بعضكم على بعض في المال والرزق ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءاتاكم ﴾ يعني : ليبتلي الموسر بالغِنَى ويطلب منه الشكر ، ويبتلي المُعْسِر بالفاقة ويطلب منه الصبر .

ويقال : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ يعني : بعضكم ببعض كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الاسواق وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان : 20] .

ثم خوّفه فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب ﴾ كأنه جاء لأن ما هو آتٍ فهو قريب ، كما قال : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ واحدة كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ [القمر : 50] ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني : لمن أطاعه في فاقة أو غِنى .

ويقال : ﴿ سَرِيعُ العقاب ﴾ لمن لم يشكر نعمته وكان مصراً على ذلك .

﴿ وإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن رجع وتاب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بعد التوبة .

ويقال : ﴿ سَرِيعُ العقاب ﴾ لمن لم يحفظ نفسه فيما أعطاه من فضل الله وترك حق الله في ذلك ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ ﴾ لمن تاب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بعد التوبة .

قال الفقيه قال : حدثنا أبو الحسن بن حمدان بإسناده عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُنْزِلَتْ عَلَيَّ سُورَةُ الأَنْعَامِ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ " قال .

(147/259)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَنْعَامِ صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ أُولَئِكَ السَّبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ بِعَدَدِ كُلِّ آيَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ يَوْماً وَلَيْلَةً " (1) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ الأَرْضِ ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه جعلهم خلفاً من الجان سكاناً للأرض ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أهل كل عصر يخلف أهل العصر الذي قبله ، كلما مضى أهل عصر خلفه أهل

عصر بعده على انتظام ، حتى تقوم الساعة على العصر الأخير فلا يخلق عصر ، فصارت هذه الأمة خلفاً للأمم الماضية .

والثالث : جعل بعضهم خليفة لبعض ليتآلفوا بالتعاون .

والرابع : لأنهم آخر الأمم وكانوا خلفاً لمن تقدمهم ، قال الشماخ :

تصيبكم وتخطئني المنايا . . . وأخلق في ربوع عن ربوع

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ يعني ما خالف بينهم في الغنى بالمال وشرف الآباء وقوة الأجسام ، وهذا ، وإن ابتدأه تفضلاً من غير جزاء ولا استحقاق ، لحكمة منه تضمنت ترغيباً في الأعلى وترهيباً من الأدنى ، لتدم له الرغبة والرهبة .

وقد نبه على ذلك بقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءَاتَاكُمْ ﴾ يعني من الغنى والقوة وفيه وجهان :

أحدهما : ليختبركم بالاعتراف .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ فإن قيل : فكيف جعله سريعاً وهو في الآخرة ؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن كل آت قريب ، كقوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : 77] .

والثاني : إن ربك سريع العقاب في الدنيا لمن استحق منه تعجيل العقاب فيها .

والثالث : أنه إذا شاء عاقب ، فصار عقابه سريعاً لأنه يقترن بمشيئته ، وهذ قول ابن بحر .

(1) قال الزيلعى : رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث أبي عصمَة عَن يزِيد الْعمي عَن أبي نَضرة عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أنزلت عَلَّي سُورَة الْأَنْعَام . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَفِي مُعْجم الطَّبَرَانِيّ الصَّغِير بعضه قَالَ الطَّبَرَانِيّ ثَنَا إِبْرَاهِيم بن نائلة ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَمْرو البَجلِيّ ثَنَا يُوسُف بن عَطِيَّة الصفار ثَنَا عبد الله بن عون عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نزلت عَلَّي سُورَة الْأَنْعَام جملَة وَاحِدَة يشيعها سَبْعُونَ أَلف ملك لَهُم زجل بالتسبيح والتحميد انْتَهَى

وَعَن الطَّبَرَانِيّ أَيْضا رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسَنَدِهِ وَمَتنه وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه حَدِيث الْكتاب بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان وَمتْن الْمُصَنّف سَوَاء

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عبد الله بن عَوْف وَقَالَ غَرِيب من حَدِيث ابْن عون وَلم نَكْتُبهُ إِلَّا من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن يُوسُف انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب .

(148/259)

﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ جمعاً منه بين ما يقتضي الرهبة من سرعة العقاب وبين ما يقتضي الرغبة من الغفران والرحمة ، لأن الجمع بين الرغبة والرهبة أبلغ في الانقياد إلى الطاعة والإقلاع عن المعصية ، والله عز وجل أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

و ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة أي يخلف بعضكم بعضاً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يتصور في جميع الأمم وسائر أصناف الناس ، لأن من أتى خليفة لمن مضى ولكنه يحسن في أمة محمد عليه السلام أن يسمى أهلها بجملتهم خلائف للأمم ، وليس لهم من يخلفهم إذ هم آخر الأمم وعليهم قيام الساعة .

وروى الحسن بن أبي الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله " ، ويروى أنتم آخرها وأكرمها على الله : وقوله ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ لفظ عام في المال والقوة والجاه وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك ، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء ، ولما أخبر عز وجل بهذا ففسح للناس ميدان العمل وحضهم على الاستباق إلى الخير توعّد ووعد تخويفاً منه وترجية ، فقال ﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ وسرعة عقابه إما بأخذاته في الدنيا ، وإما بعقاب الآخرة ، وحسن أن يوصف عقاب الآخرة ب ﴿ سريع ﴾ لما كان متحققاً

مضمون الإتيان والوقوع ، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ ترجية لمن أذنب وأراد التوبة ، وهذا في كتاب الله كثير اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله تعالى بعباده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾

قال أبو عبيدة : الخلائف : جمع خليفة .

قال الشماخ :

تُصيْبُهُمُ وتُخْطِئُني المَنايا . . .

وأخْلُفُ في رُبُوعٍ عَنْ رُبوع

وللمفسرين فيمن خلفوه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم خلفوا الجن الذين كانوا سكان الأرض ، قاله ابن عباس .

(149/259)

والثاني : أن بعضهم يخلف بعضاً ؛ قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن أمة محمد خلفت سائر الأمم ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي : في الرزق ، والعلم ، والشرف ، والقوة ، وغير ذلك ﴿ ليبلُوَكم ﴾ أي : ليختبركم ، فيظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه سماه سريعاً ، لأنه آتٍ ، وكل آتٍ قريبٌ .

والثاني : أنه إذا شاء العقوبة أسرع عقابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض ﴾ "خلائف" جمع خليفة ، ككرائم جمع كريمة .

وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة .

أي جعلكم خَلَفاً للأمم الماضية والقرون السالفة .

قال الشمّاخ :

تصيبُهُم وتخطِئني المنايا . . .

وأخلُف في رُبوع عن رُبوعِ

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الخلق والرزق والقوّة والبَسْطة والفضل والعلم .

﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ نصب بإسقاط الخافض ، أي إلى درجات .

﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ نصب بلام كَيْ .

والابتلاء الاختبار ؛ أي ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب .

ولم يزل بعلمه غنِيًّا ؛ فابتلى الموسِر بالغنى وطلب منه الشكر ، وابتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر .

ويقال : "ليبلوكم" أي بعضكم ببعض .

كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان : 20] على ما يأتي بيانه .

ثم خوّفهم فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب ﴾ لمن عصاه .

﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن أطاعه .

وقال : "سَرِيعُ الْعِقَابِ" مع وصفه سبحانه بالإمهال ، ومع أنّ عقاب النار في الآخرة ؛ لأن كل آت قريب ؛ فهو سريع على هذا .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلَّا كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : 77] .

وقال : ﴿ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6 و7] .

(150/259)

ويكون أيضاً سريع العقاب لمن استحقه في دار الدنيا ؛ فيكون تحذيراً لمُواقِع الخطيئة على هذه الجهة .

والله أعلم .

تمت سورة الأنعام بحمد الله تعالى وصلواته على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾

يعني : والله الذي جعلكم يا أمة محمد خلائف في الأرض فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وهو آخرهم وأمته آخر الآمم ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ يعني أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغني والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوي والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفاته النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان وهو قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم في ما آتاكم ﴾ يعني يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده .

والمعنى : يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب ، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به وإما أن يكون موفياً ما أمره به فإن كان مقصراً كان نصيبه التخويف والترغيب وهو قوله تعالى : ﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ يعني لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت فهو قريب إن كان العبد موفياً حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم وهو قوله تعالى : ﴿ وإنه لغفور ﴾ يعني لذنوب أوليائه وأهل طاعته ﴿ رحيم ﴾ يعني بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ .

أذكرهم تعالى بنعمته عليهم إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم المبعث وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فأمّته خلفت سائر الأمم ولا يجيء بعدها أمّة تخلفها إذ عليهم تقوم

الساعة ، وقال الحسن : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال " توفون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله " ، وروى " أنتم آخرها وأكرمها على الله " ورفع الدّرجات هو بالشرف في المراتب الدنيوية والعلم وسعة الرزق وليبلوكم متعلق بقوله ورفع فيما آتاكم من ذلك جاهاً ومالاً وعلماً وكيف تكونون في ذلك ، وقيل : الخطاب لبني آدم خلفوا في الأرض عن الجن أو عن الملائكة ، وقيل : يخلف بعضهم بعضاً ، وقيل : خلفاء الأرض تملكونها وتتصرفون فيها .

(152/259)

﴿ إنّ ربّك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ لما كان الابتلاء يظهر به المسيء والمحسن والطائع والعاصي ذكر هذين الوصفين وختم بهما ولما كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد بدأ بقوله سريع العقاب يعني لمن كفر ما أعطاه الله تعالى وسرعة عقابه إن كان في الدّنيا فالسّرعة ظاهرة ، وإن كان في الآخرة فوصف بالسّرعة لتحققه إذ كل ما هو آت آت ولما كانت جهة الرحمة أرجى أكد ذلك بدخول اللام في الخبر ويكون الوصفين بنيا بناءً مبالغة ولم يأتِ في جهة العقاب بوصفه بذلك فلم يأتِ إنّ ربك معاقب وسريع العقاب من باب الصفة المشبهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف الأرض ﴾

أي يخلف بعضكم بعضاً كلما مضى قرن جاء قرن حتى تقوم الساعة ولا يكون ذلك إلا من عالم مدبر ، وإلى هذا ذهب الحسن ، أو جعلكم خلفاء الله تعالى في أرضه تتصرفون فيها كما قيل والخطاب عليهما عام ، وقيل : الخطاب لهذه الأمة ، وروي ذلك عن السدي أي جعلكم خلفاء الأمم السالفة ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الفضل والغنى كما روي عن مقاتل ﴿ درجات ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءاتاكم ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون مما يرضيه وما لا يرضيه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع إضافة اسم الرب إليه عليه الصلاة والسلام لإبراز مزيد اللطف به صلى الله عليه وسلم ﴿ سَرِيعُ العقاب ﴾ أي عقابه سبحانه الأخروي سريع الإتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه لأن كل آت قريب أو سريع التمام عند إرادته لتعاليه سبحانه عن استعمال المبادىء والآلات .

وجوز أن يراد بالعقاب عقاب الدنيا كالذي يعقب التقصير من البعد عن الفطرة وقساوة

القلب وغشاوة الأبصار وصم الأسماع ونحو ذلك ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن راعى حقوق ما آتاه الله تعالى كما ينبغي .

وفي جعل خبر هذه الجملة هذين الوصفين الواردين على بناء المبالغة مع التأكيد باللام مع جعل خبر الأولى صفة جارية على غير من هي له ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء كما يشير إليه قوله سبحانه في الحديث القدسي " سبقت رحمتي غضبي " مبالغ في ذلك فاعل للعقوبة بالعرض وبعد صدور ذنب من العبد يستحق به ذلك ، وما ألطف افتتاح هذه السورة بالحمد وختمها بالمغفرة والرحمة نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما إنه ولي الأنعام وله الحمد في كل ابتداء وختام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(154/259)

وقال القاسمى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ جمع خليفة . أي : يخلف بعضكم بعضاً فيها ، فتعمرونها خلفاً بعد سلف ، للتصرف بوجوه مختلفة : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي : فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر

والأشكال والألوان ، وله الحكمة في ذلك . كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف 32] ، وقوله سبحانه : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 21] ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أي : ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ، أي : امتحنكم ، ليختبر الغنيّ في غناه ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وفي صحيح مسلم ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فغن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء . أفاده ابن كثير .

ثم رهب تعالى من معصيته ورغّب في طاعته بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ أي : لمن عصاه وخالف رسله : ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لمن والاه واتبع رسله .

لطائف :

الأولى : قال السيوطيّ في " الإكليل " . استدل بقوله تعالى : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ مَنْ أجاز أن يقال للإمام : خليفة الله . انتهى .

أي : بناء على وجهٍ في الآية . وهو أن المعنى : جعلكم خلائف الله في الأرض تتصرفون فيها . ذكره المفسرون . وآثرتُ ، قبلُ ، غير هذا الوجه لأنه أدق وأظهر ، والله أعلم .

الثانية : قال القاضي : وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه ، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المبالغة واللام المؤكدة – تنبيهاً على أنه سبحانه وتعالى غفور بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها . انتهى .

الثالثة : قال ابن كثير : إن الحق تعالى ، كثيراً ما يقرن في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : 6] ، وقوله : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : 49 – 50] . إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب .

فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها . وتارة بهما . لينجع في كلّ بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، إنه قريب مجيب .

قد تم بحمده تعالى الكلام على " محاسن تأويل " سورة الأنعام . وذلك ضحوة الأربعاء في 28 ربيع الأول . في شباك السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية عام 1321 . وكان تخلّل مدة شهر ونصف ، وقفت عن كتابة شيء من هذه السورة فيها ، وذلك من آخر البحث في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ الآية ، لعارض رحلتي إلى بيت المقدس في 28 محرم من العام المذكور . وبعد العود إلى الوطن في 8 ربيع الأول بدأت من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ الآية . في 20 ربيع الأول ، وتمت السورة في التاريخ المتقدم ، وَالْحَمدُ للهِ الَّذي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ . بقلم جامعه جمال الدين القاسميّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 568. 570 ﴾

(157/259)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾

يَظهر أنّ هذا دليل على إمكان البعث ، وعلى وقوعه ، لأنّ الذي جعل بعض الأجيال

خلائف لما سبَقَها ، فعمَروا الأرض جيلاً بعد جيل ، لا يُعجزه أن يحشرها جميعاً بعد انقضاء عالم حياتها الأولى .

ثمّ إنّ الذي دبَّر ذلك وأتقنه لا يليق به أن لا يقيم بينهم ميزان الجزاء على ما صنعوا في الحياة الأولى لئلا يذهب المعتدون والظّالمون فائزين بما جنوا ، وإذا كان يقيم ميزان الجزاء على الظّالمين فكيف يترك إثابة المحسنين ، وقد أشار إلى الشقّ الأول قوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ ، وأشار إلى الشقّ الثّاني قوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلونكم في ما آتاكم ﴾ .

ولذلك أعقبه بتذييله : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

فالخطابُ موجَّه إلى المشركين الذين أُمِر الرّسولُ عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم : ﴿ أغير الله أبغي رباً ﴾ [الأنعام : 164] ؛ وذلك يذكّر بأنَّهم سيصيرون إلى ما صار إليه أولئك .

فموقع هذه عقب قوله : ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ [الأنعام : 164] تذكير بالنّعمة ، بعد الإنذار بسلبها ، وتحريض على تدارك ما فات ، وهو يفتح أعينهم للنّظر في عواقب الأمم وانقراضها وبقائها .

ويجوز أن يكون الخطاب للرّسول عليه الصّلاة والسّلام والأمّة الإسلاميّة ، وتكون الإضافة على معنى اللام ، أي جعلكم خلائف الأمم التي ملكتْ الأرض فأنتم خلائفُ للأرض ،

فتكون بشارة للأمّة بأنَّها آخر الأمم المجعولة من الله لتعمير الأرض .

والمراد : الأمم ذوات الشّرائع الإلهيّة وأياً ما كان فهو تذكير بعظيم صنع الله ومنّته لاستدعاء الشّكر والتّحذير من الكفر .

(158/259)

والخلائف : جمع خليفة ، والخليفة : اسم لما يُخلف به شيء ، أي يجعل خلفاً عنه ، أي عوضَه ، يقال : خليفة وخِلْفة ، فهو فَعيل بمعنى مفعول ، وظهرت فيه التّاء لأنَّهم لما صيّروه اسماً قطعوه عن موصوفه .

وإضافته إلى الأرض على معنى (في) على لوجه الأوّل ، وهو كون الخَطاب للمشركين ، أي خلائف فيها ، أي خلف بكم أمماً مضت قبلكم كما قال تعالى حكاية عن الرّسل في مخاطبة أقوامهم : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : 69] ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ [الأعراف : 74] ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : 129] .

والإضافة على معنى اللام على الوجه الثّاني وهو كون الخطاب للمسلمين .

وفي هذا أيضاً تذكير بنعمة تتضمّن عبرة وموعظة : وذلك أنَّه لمّا جعلهم خلائف غيرهم

فقد أنشأهم وأوجدهم على حين أعدم غيرهم ، فهذه نعمة ، لأنَّه لو قدّر بقاء الأمم التي قبلها لما وُجد هؤلاء .

وعطْف قوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ يجري على الاحتمالين في المخاطب بقوله : ﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ فهو أيضاً عبرة وعِظة ، لعدم الاغترار بالقوّة والرّفعة ، ولجعل ذلك وسيلة لشكر تلك النّعمة والسّعي في زيادة الفضل لمن قصّر عنها والرّفق بالضّعيف وإنصاف المظلوم .

ولذلك عقّبه بقوله : ﴿ ليبلونكم ما آتاكم ﴾ أي ليَخْبُركم فيما أنعم به عليكم من درجات النّعم حتّى يظهر للنّاس كيف يضع أهل النّعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها وهي المعبّر عنها بالدّرجات .

والدّرجات مستعارة لتفاوت النّعم .

وهي استعارة مبنيّة على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه .

والإيتاء مستعار لتكوين الرّفعة في أربابها تشبيهاً للتكوين بإعطاء المعطي شيئاً لغيره .

والبلْو : الاختبار ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ﴾ [البقرة : 155] .

والمراد به ظهور موازين العقول في الانتفاع والنّفع بمواهب الله فيها وما يسرّه لها من الملائمات والمساعدات ، فالله يعلم مراتب النّاس ، ولكن سمّى ذلك بَلْوى لأَنَّها لا تظهر للعيان إلاّ بعد العمل ، أي ليعلمه الله علم الواقعات بعد أن كان يعلمه علم المقدرات ، فهذا موقع لام التّعليل ، وقريب منه قول إياس بن قبيصَة الطائي :

وأقبلتُ والخطيّ يخطر بيننا

لأعلم مَنْ جَبانها مِن شُجاعها . . .

وجملة : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ تذييل للكلام وإيذان بأنّ المقصود منه العمل والامتثال فلذلك جمع هنا بين صفة ﴿ سريع العقاب ﴾ وصفة ﴿ لغفور ﴾ ليناسب جميع ما حوته هذه السّورة .

واستعيرت السّرعة لعدم التردّد ولتمام المقدرة على العقاب ، لأنّ شأن المتردّد أو العاجز أن يتريّث وأن يخشى غائلة المعاقَب ، فالمراد سريع العقاب في يوم العقاب ، وليس المراد سريعه من الآن حتّى يؤوّل بمعنى : كلّ آت قريب ، إذ لا موقع له هنا .

ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف (سريع العقاب) على موكِّد واحد ، وتعزيز وصف (الغفور الرحيم) بمؤكدات ثلاثة وهي إنّ ، ولام الابتداء ، والتّوكيد اللّفظي ؛ لأنّ (الرّحيم) يؤكِّد معنى (الغفور) : ليُطمِئن أهل العمل الصّالح إلى مغفرة الله ورحمته ،

وليَسْتَدعي أهلَ الإعراض والصدوف ، إلى الإقلاع عمّا هم فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(160/259)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ

(161/259)

وَلَمَّا بَيَّنَ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ ، انْتَقَلَ إِلَى بُرْهَانِهِ الْأَعْلَى وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِمَا أَمَرَهُ بِهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ ، وَالْمَعْنَى : أَغَيْرَ اللهِ خَالِقِ الْخَلْقِ ، وَسَيِّدِهِمْ وَمُرَبِّيهِمْ بِالْحَقِّ ، أَطْلُبُ رَبًّا آخَرَ أُشْرِكُهُ فِي عِبَادَتِي لَهُ بِدُعَائِهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ ، أَوْ ذَبْحِ النِّسَائِكِ أَوْ نَذْرِهَا لَهُ ، لِيَنْفَعَنِي أَوْ يَمْنَعَ الضُّرَّ عَنِّي ، أَوْ لِيُقَرِّبَنِي إِلَيْهِ زُلْفَى وَيَشْفَعَ لِي عِنْدَهُ كَمَا تَفْعَلُونَ بِآلِهَتِكُمْ ! وَالْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا عُبِدَ وَمِمَّا لَمْ يُعْبَدْ ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ وَخَوَاصَّ الْبَشَرِ كَالْمَسِيحِ وَالشَّمْسِ

وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ الْمُذَكَّرَةِ بِبَعْضِ الصَّالِحِينَ وَصَانِعِيهَا (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (37 : 96) ، فَإِذَا كَانَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقَ الْمُقَدِّرَ ، وَهُوَ السَّيِّدَ الْمَالِكَ الْمُدَبِّرَ ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ، وَفَضَّلَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ ، فَكَيْفَ أُسَفِّهُ نَفْسِي وَأَكْفُرُ رَبِّي بِجَعْلِ الْمَخْلُوقِ الْمَرْبُوبِ مِثْلِي رَبًّا لِي ؟ ! وَقَدْ سَبَقَ تَقْرِيرُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِرَارًا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهُ أَنَّ جَمِيعَ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ مَعْبُودَاتِهِمْ

(162/259)

مَخْلُوقَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ . إلَّا أَنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ بِخَلْقِ نَاسُوتِ الْمَسِيحِ دُونَ هُوتِهِ إذِ اللَّاهُوتُ عِنْدَهُمْ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْحُلُولِ فِي الْأَجْسَادِ ، وَالتَّحَوُّلِ فِي صُوَرِ الْعِبَادِ .

(وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ قَبْلَهَا ، لِأَنَّهَا مُعَلِّلَةٌ لِلْإِنْكَارِ وَمُقَرِّرَةٌ لِلتَّوْحِيدِ

(163/259)

مِثْلُهَا ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ مِنْ أُصُولِ دِينِ اللهِ تَعَالَى الَّذِي بَعَثَ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ : (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (53 : 36 – 39) وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الْإِصْلَاحِ لِلْبَشَرِ فِي أَفْرَادِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ ، لِأَنَّهَا هَادِمَةٌ لِأَسَاسِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَهَادِيَةٌ لِلْبَشَرِ إِلَى مَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ سَعَادَتُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ (وَهُوَ عَمَلُهُمْ) وَقَدْ بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ أَسَاسَ الْوَثَنِيَّةِ طَلَبُ رَفْعِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ بِقُوَّةٍ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ ، هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ وَسَاطَةِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ – الْمُمْتَازَةِ بِبَعْضِ الْخَوَاصِّ وَالْمَزَايَا – بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ لِيُعْطِيَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ ذَلِكَ بِدُونِ كَسْبٍ وَلَا سَعْيٍ إِلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَرَتْ بِهَا سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، وَلِيَحْمِلُوا عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ حَتَّى لَا يُعَاقِبَهُمْ تَعَالَى بِهَا ، أَوْ يَحْمِلُوا الْبَارِيَ تَعَالَى عَلَى رَفْعِهَا عَنْهُمْ وَتَرْكِ عِقَابِهِمْ عَلَيْهَا ، وَعَلَى إِعْطَائِهِمْ نَعِيمَ الْآخِرَةِ وَإِنْقَاذِهِمْ مِنْ عَذَابِهَا ، أَيْ عَلَى إِبْطَالِ سُنَّتِهِ وَتَبْدِيلِهَا فِي أَمْثَالِهِمْ ، أَوْ تَحْوِيلِهَا عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَإِنْ قَالَ فِي كِتَابِهِ : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا) (35 : 43) .

(164/259)

فَمَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ : وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ عَامِلَةٍ مُكَلَّفَةٍ إِثْمًا إِلَّا كَانَ عَلَيْهَا جَزَاؤُهُ دُونَ غَيْرِهَا ، وَلَا تَحْمِلُ نَفْسٌ فَوْقَ حِمْلِهَا حِمْلَ نَفْسٍ أُخْرَى ، بَلْ كُلُّ نَفْسٍ إِنَّمَا تَحْمِلُ وِزْرَهَا وَحْدَهَا (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (2 : 286) دُونَ مَا كَسَبَ أَوِ اكْتَسَبَ غَيْرُهَا .

وَالْوِزْرُ فِي اللُّغَةِ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ ، وَوَزَرَهُ يَزِرُهُ – حَمَلَهُ يَحْمِلُهُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَتَيْنِ بِحَاصِلِ الْمَعْنَى : لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ غَيْرِهِ ، فَالدِّينُ قَدْ عَلَّمَنَا أَنْ نَجْرِيَ عَلَى مَا أَوْدَعَتْهُ الْفِطْرَةُ مِنْ أَنَّ سَعَادَةَ النَّاسِ وَشَقَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْمَالِهِمْ ، وَأَنَّ عَمَلَ كُلِّ نَفْسٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا التَّأْثِيرَ الْحَسَنَ الَّذِي يُزَكِّيهَا إِنْ كَانَ صَالِحًا ، أَوِ التَّأْثِيرَ السَّيِّئَ الَّذِي يُدَسِّيهَا وَيُفْسِدُهَا إِنْ كَانَ فَاسِدًا ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا التَّأْثِيرِ فَلَا يَنْتَفِعُ أَحَدٌ وَلَا يَتَضَرَّرُ بِعَمَلِ غَيْرِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَمَلُ غَيْرِهِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ قُدْوَةً صَالِحَةً فِي عَمَلٍ أَوْ مُعَلِّمًا لَهُ ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِعَمَلِ مَنْ أَرْشَدَهُمْ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ زِيَادَةً عَلَى انْتِفَاعِهِ بِأَصْلِ ذَلِكَ الْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ ، وَمَنْ كَانَ قُدْوَةً سَيِّئَةً فِي عَمَلٍ أَوْ دَالًّا عَلَيْهِ وَمُغْرِيًا بِهِ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ إِثْمِ مَنْ أَفْسَدَهُمْ كَذَلِكَ ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَا وَذَاكَ يُعَدُّ مِنْ عَمَلِ الْهَادِينَ وَالْمُضِلِّينَ ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا بِقَوْلِهِ : " مَنْ

سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي

الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ

عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ

حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْبَجَلِيِّ وَالتِّرْمِذِيُّ بِلَفْظِ " مَنْ سَنَّ سُنَّةَ خَيْرٍ . . . وَمَنْ سَنَّ

سُنَّةَ شَرٍّ . . . " وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي

الْمُضِلِّينَ مِنَ النَّاسِ : (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ

عِلْمٍ) (16 : 25) وَقَوْلِهِ فِيهِمْ : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) (29 : 13) .

(166/259)

وَلَكِنْ أُشْكِلَ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ " إنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ " رَوَاهُ

الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ وَهَذَا لَفْظُ

الْبُخَارِيِّ فِي أَحَدِ طُرُقِهِ وَلَيْسَ فِي سَائِرِهَا ، ذِكْرُ " بِبَعْضِ " وَالْمُرَادُ مِنَ النِّيَاحَةِ كَمَا صُرِّحَ

بِهِ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ، وَوَرَدَ التَّصْرِيحُ بِعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِالْبُكَاءِ الْمُجَرَّدِ ، وَقَدْ

أَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ إنَّمَا يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ إذَا أَوْصَى أَهْلَهُ بِهِ وَكَانَ مِمَّنْ يَرْضَى بِهِ ، وَيُحْتَمَلُ

أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِتَعْذِيبِ الْمَيِّتِ بِنُوَاحِ الْحَيِّ عَلَيْهِ أَنْ يَشْعُرَ بِبُكَائِهِ فَيُؤْلِمَهُ ذَلِكَ ، لَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَذِّبُهُ بِهِ وَيُؤَاخِذُهُ عَلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(167/259)

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ : تُوُفِّيَتْ أُمُّ عَمْرِو بِنْتِ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ فَحَضَرَتُ الْجِنَازَةَ فَسَمِعَ ابْنُ عُمَرَ بُكَاءً فَقَالَ : أَلَا تَنْهَى هَؤُلَاءِ عَنِ الْبُكَاءِ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ عَلَيْهِ " فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَذَكَرْتُ لَهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتُخْبِرُنِي عَنْ غَيْرِ كَاذِبٍ وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَكِنَّ السَّمْعَ يُخْطِئُ ، وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكُمْ (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) اهـ . وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَرُدُّ كُلَّ مَا يُرْوَى لَهَا مُخَالِفًا لِلْقُرْآنِ وَتَحْمِلُ رِوَايَةَ الصَّادِقِ عَلَى خَطَأِ السَّمْعِ أَوْ سُوءِ الْفَهْمِ – وَلَكِنَّ الْعُلَمَاءَ قَصَّرُوا فِي إِعْلَالِ الْأَحَادِيثِ بِمِثْلِ هَذَا مَعَ أَنَّ مُخَالَفَةَ الرِّوَايَةِ الْآحَادِيَّةِ لِلْقَطْعِيِّ كَالْقُرْآنِ مِنْ عَلَامَةِ وَضْعِ الْحَدِيثِ عِنْدَهُمْ .

(168/259)

وَمِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ الْمَرْءُ مِنْ عَمَلِ غَيْرِهِ مِنْ حَيْثُ يُعَدُّ مِنْ قَبِيلِ عَمَلِهِ لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبًا لَهُ : دُعَاءُ أَوْلَادِهِ لَهُ ، أَوْ حَجُّهُمْ وَتَصَدُّقُهُمْ عَنْهُ ، وَقَضَاؤُهُمْ لِصَوْمِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي حَدِيثِ " إذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَقَدْ أَلْحَقَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ . وَمَنْ قَالَ بِانْتِفَاعِ الْمَيِّتِ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَامِلُ وَلَدَهُ فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَلَا الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ . أَمَّا الْحَدِيثُ فَقَدْ صَحَّ فِيهِ الْإِذْنُ

بِالصَّدَقَةِ عَنِ الْوَالِدَيْنِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَالسُّنَنِ ، وَبِالصِّيَامِ وَالْحَجِّ الْمُنْذَرَيْنِ مِنْهُمَا أَوِ الْمَفْرُوضَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، وَفِيهِمَا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ فَلْيَصُمْ عَنْهُ وَلِيُّهُ ، وَقَدْ شَبَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(169/259)

وَسُلَّمَ الصِّيَامَ وَالْحَجَّ الْوَاجِبَيْنِ بِقَضَاءِ دَيْنِ الْعِبَادَةِ عَنْهُمَا ، وَأَنَّ دَيْنَ اللهِ أَحَقُّ بِأَنْ يُقْضَى .

وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي السَّائِلِ ، فَقِيلَ : رَجُلٌ . وَقِيلَ : امْرَأَةٌ مِنْ جُهَيْنَةَ هُوَ الصَّحِيحُ . وَفِي الْمَسْئُولِ عَنْهُ ، فَقِيلَ : أَبٌ . وَقِيلَ : أُخْتٌ . وَقِيلَ : أُمٌّ وَهُوَ الصَّحِيحُ ، وَفِي الْمَسْئُولِ فِيهِ هَلْ هُوَ الصِّيَامُ أَوِ الْحَجُّ ، وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَهُمَا لِجَوَازِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ رِوَايَةٌ لِمُسْلِمٍ ، وَذَكَرَ الرَّاوِي وَهُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِكُلٍّ مِنْهُمَا فِي وَقْتٍ لِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ لِذَلِكَ ; وَلِهَذَا الْخِلَافِ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إنَّ الْحَدِيثَ مُضْطَرِبٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ ، وَلَكِنَّ حَدِيثَ عَائِشَةَ لَا اضْطِرَابَ فِيهِ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْوَلِيِّ فِيهِ ، فَقِيلَ : كُلُّ قَرِيبٍ . وَقِيلَ الْوَارِثُ . وَقِيلَ : الْعَصَبَةُ . وَالرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ أَنَّهُ الْوَلَدُ لِيَنْطَبِقَ عَلَى الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْأُخْرَى . وَمِنْ أُصُولِهِمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةَ لَا تَصِحُّ النِّيَابَةُ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ وَلَا بَعْدَ الْمَمَاتِ .

(170/259)

وَمَذْهَبُ أَشْهَرِ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ أَنَّهُ لَا يُصَامُ عَنِ الْمَيِّتِ مُطْلَقًا وَمِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَالْإِمَامُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وَالْهَادَوِيَّةُ وَالْقَاسِمُ بْنُ الْعِتْرَةِ . وَحَصَرَ أَحْمَدُ وَآخَرُونَ الْجَوَازَ بِالنَّذْرِ عَمَلًا بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَيَلْزَمُهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ يَصُومُ عَنِ الْمَيِّتِ وَلَدَهُ لِأَنَّ الرِّوَايَةَ وَرَدَتْ بِذَلِكَ

، وَمَا رُوِيَ فِي بَعْضِ طُرُقِهَا مِنْ ذِكْرِ الْأُخْتِ غَلَطٌ ظَاهِرٌ لِمُخَالَفَتِهِ لِلطَّرِيقِ الصَّحِيحِ وَلِلْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَوْقُوفُ أَوْ فَتْوَاهُ الَّتِي رَوَاهَا النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ " لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ وَلَا يَصُمْ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ " وَمِثْلُهُ عَنْ عَائِشَةَ ، وَقَدْ جَعَلَ الْحَنَفِيَّةُ فَتْوَى ابْنِ عَبَّاسٍ مَانِعَةً مِنَ الْعَمَلِ بِحَدِيثِهِ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ الْعَالِمَ الصَّحَابِيَّ لَا يُخَالِفُ رِوَايَتَهُ إلَّا إذَا كَانَ لَدَيْهِ مَا يَمْنَعُ الْعَمَلَ بِهَا كَكَوْنِهَا مَنْسُوخَةً ، وَمَذْهَبُ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ وَالْحَدِيثِ أَنَّ الْحُجَّةَ بِرِوَايَةِ الصَّحَابِيِّ لَا بِرَأْيِهِ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَتْرُكُ الْعَمَلَ بِالرِّوَايَةِ سَهْوًا أَوْ نِسْيَانًا أَوْ تَأَوُّلًا عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنْ تَرْكِهِ عَمْدًا . وَعِنْدَنَا أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ قَوْلَيِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَرِوَايَتِهِمَا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمَا أَوْ فَتْوَاهُمَا بِأَلَّا يُصَلِّي وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ هُوَ أَصْلُ الشَّرِيعَةِ الْعَامُّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ ، إلَّا مَا اسْتُثْنِيَ بِالنَّصِّ مِنْ صِيَامِ الْوَلَدِ أَوْ حَجِّهِ أَوْ

(171/259)

صَدَقَتِهِ عَنْ وَالِدَيْهِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا كَانَ ذَلِكَ حَقًّا ثَابِتًا بِأَصْلِ الشَّرْعِ ، أَوْ بِنَذْرٍ ، أَوْ إرَادَةِ وَصِيَّةٍ كَمَا كَانَتِ الْحَالُ فِي وَقَائِعِ فَتْوَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُولَئِكَ الْأَوْلَادِ . فَلَا مَحَلَّ إذًا لِتَخْرِيجِ

الْحَنَفِيَّةِ وَلَا الْجُمْهُورِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَكِتَابُ اللهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ .

وَأَمَّا قِيَاسُ عَمَلِ غَيْرِ الْوَلَدِ عَلَى عَمَلِهِ فَبَاطِلٌ ، لِمُخَالَفَتِهِ لِلنَّصِّ الْقَطْعِيِّ عَلَى كَوْنِهِ قِيَاسًا مَعَ الْفَارِقِ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا مَنْ عَوَّدُونَا اسْتِدْرَاكَ مِثْلِهِ عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ ، كَشَيْخَيِ الْإِسْلَامِ وَالشَّوْكَانِيِّ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ الْمُسْتَقِلِّينَ .

فَعُلِمَ مِمَّا شَرَحْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ وَإِهْدَاءِ ثَوَابِهَا

(172/259)

إِلَى الْأَمْوَاتِ وَاسْتِئْجَارِ الْقُرَّاءِ وَحَبْسِ الْأَوْقَاتِ عَلَى ذَلِكَ بِدَعٌ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ ، وَمِثْلُهَا مَا يُسَمُّونَهُ إِسْقَاطَ الصَّلَاةِ ، وَلَوْ كَانَ لَهَا أَصْلٌ فِي الدِّينِ لَمَا جَهِلَهَا السَّلَفُ ، وَلَوْ عَلِمُوهَا لَمَا أَهْمَلُوا الْعَمَلَ بِهَا ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ مَا لَا شَكَّ فِي جَوَازِهِ ، وَوُقُوعُهُ فِي كُلِّ زَمَنٍ مِنْ فَتْحِ اللهِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ بِمَا لَمْ يُؤْثَرْ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِكَمِ الدِّينِ وَأَسْرَارِهِ وَالْفَهْمِ فِي كِتَابِهِ – كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ الْمُرْتَضَى كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : إِلَّا أَنْ يُؤْتِيَ اللهُ عَبْدَهُ فَهْمًا فِي الْقُرْآنِ – بَلْ هُوَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي يَهْتَمُّ النَّاسُ بِأَمْرِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَلَوْ فَعَلَهَا الصَّحَابَةُ لَتَوَفَّرَتِ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهَا بِالتَّوَاتُرِ أَوِ الِاسْتِفَاضَةِ .

(173/259)

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) أَيْ ثُمَّ إِنَّ رُجُوعَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى رَبِّكُمْ وَحْدَهُ ، دُونَ غَيْرِهِ مِمَّا عَبَدْتُمْ مِنْ دُونِهِ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَكُمْ إِلَيْهِ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ أَدْيَانِكُمْ ، إِذْ كَانَ بَعْضُكُمْ يَعْبُدُهُ وَحْدَهُ ، وَبَعْضُكُمْ قَدِ اتَّخَذَ لَهُ أَنْدَادًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَيَتَوَلَّى هُوَ جَزَاءَكُمْ عَلَيْهِ وَحْدَهُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ الْقَدِيمَتَيْنِ ، وَيَضِلُّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ فِي سِيَاقِ اخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ وَذَكَرْنَا نَصَّهُ آنِفًا – وَفِي آلِ عِمْرَانَ فِي قِصَّةِ عِيسَى : (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (3 : 55) وَمِثْلُهُ فِي الْبَقَرَةِ بَعْدَ ذِكْرِ طَعْنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ : (2 : 113) وَلَهُ نَظَائِرُ بَعْضُهَا فِي الْإِنْبَاءِ بِالِاخْتِلَافِ أَوِ الْحُكْمِ فِيهِ ، وَبَعْضُهَا فِي الْإِنْبَاءِ بِالْعَمَلِ ، وَمِنْهُ مَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (آيَةُ 22 و108) وَكُلُّهُ إِنْذَارٌ بِالْجَزَاءِ وَبَيَانٌ أَنَّهُ بِيَدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ .

(174/259)

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

هَذِهِ الْآيَةُ مُبَيِّنَةٌ لِبَعْضِ أَحْوَالِ الْبَشَرِ الَّتِي نُعَبِّرُ عَنْهَا فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالسُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَقَدْ عُطِفَتْ عَلَى مَا قَبْلَهَا لِأَنَّهَا فِي سِيَاقِ تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَإِبْطَالِ خُرَافَاتِ الشِّرْكِ عَلَى مَا سَنُبَيِّنُهُ . وَالْخَلَائِفُ جَمْعُ خَلِيفَةٍ وَهُوَ مَنْ يَخْلُفُ أَحَدًا كَانَ قَبْلَهُ فِي مَكَانٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مُلْكٍ – وَفِي الْخِطَابِ وَجْهَانِ :

(أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ لِلْبَشَرِ جُمْلَةً ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُمْ خُلَفَاءَهُ فِي الْأَرْضِ بِالتَّبَعِ لِأَبِيهِمْ آدَمَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، أَوْ جَعَلَ سُنَنَهُ فِيهِمْ أَنْ تَذْهَبَ أُمَّةٌ وَتَخْلُفَهَا أُخْرَى .

(ثَانِيهُمَا) أَنَّ الْخِطَابَ لِلْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَأَنَّهُ جَعَلَهُمْ خُلَفَاءَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْمُلْكِ وَاسْتِعْمَارِ الْأَرْضِ وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ إِهْلَاكِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ : (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (10 : 14) وَفِي مَعْنَاهَا آيَاتٌ أُخْرَى ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ) (24 : 55) وَهَذَا اسْتِخْلَافٌ خَاصٌّ وَذَلِكَ عَامٌّ .

(175/259)

وَالْمَعْنَى : أَنَّ رَبَّكُمُ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ أُمَمٍ

(176/259)

سَبَقَتْ وَلَكُمْ فِي سِيرَتِهَا عِبَرٌ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ ، وَالْعَقْلِ وَالْجَهْلِ ، وَالْعِزِّ وَالذُّلِّ ، لِيَخْتَبِرَكُمْ فِيمَا أَعْطَاكُمْ ، أَيْ يُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبِرِ لَكُمْ فِي ذَلِكَ فَيَبْنِي الْجَزَاءَ عَلَى الْعَمَلِ ، بِمَعْنَى أَنَّ سُنَنَهُ تَعَالَى فِي تَفَاوُتِ النَّاسِ فِيمَا ذَكَرْنَا مِنَ الصِّفَاتِ الْوَهْبِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْكَسْبِيَّةِ ، هِيَ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا اسْتِعْدَادُ كُلٍّ مِنْهُمْ وَدَرَجَةُ وُقُوفِهِ فِي تَصَرُّفِهِ فِي النِّعَمِ وَالنِّقَمِ عِنْدَ وَصَايَا الدِّينِ وَحُدُودِ الشَّرْعِ وَوِجْدَانِ الِاطْمِئْنَانِ فِي الْقَلْبِ ، وَالْحُقُوقُ وَالْوَاجِبَاتُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي تِلْكَ الدَّرَجَاتِ ، وَسَعَادَةُ النَّاسِ أَفْرَادًا وَأُسَرًا وَأُمَمًا ، وَشَقَاوَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَابِعَةٌ لِأَعْمَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ فِي مَوَاهِبِهِمْ وَمَزَايَاهُمْ وَمَا يَبْتَلِيهِمْ بِهِ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ وَالنِّقَمِ ، وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَطْلُبُهُ النَّاسُ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنِعَمِهَا أَوْ رَفْعِ نِقَمِهَا ، أَوْ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِهَا إِلَّا وَهُوَ مَنُوطٌ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي ابْتَلَاهُمْ بِهَا بِحَسَبِ مَا قَرَّرَهُ شَرْعُهُ الْمَبْنِيُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ الْمُجَرَّدِ ، وَمَضَتْ بِهِ سُنَنُهُ فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، فَبِقَدْرِ عِلْمِهِمْ بِالشَّرْعِ وَسُنَنِ الْكَوْنِ وَالِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ .

(177/259)

فَهَذِهِ الْهِدَايَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ مُقَرِّرَةٌ لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَهَادِمَةٌ لِقَوَاعِدِ الشِّرْكِ الَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ اتِّكَالِ النَّاسِ وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَى مَا اتَّخَذُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ مِنَ الْوُسَطَاءِ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَيْهِ وَيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِيمَا يَطْلُبُونَ مِنْ نَفْعٍ وَدَفْعِ ضَرٍّ كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ ; وَلِهَذَا تَرَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُونَ أَوْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَشْقَى النَّاسِ وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ نَيْلِ مَآرِبِهِمْ ، وَتَرَى خُصُومَهُمْ دَائِمًا ظَافِرِينَ

(178/259)

بِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا شَرًّا مِنْهُمْ فِيمَا عَدَا هَذَا النَّوْعَ مِنَ الشِّرْكِ ، فَرُبَّمَا تَرَى قَوْمًا يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ ، يَعْتَمِدُونَ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِمْ مِنْ شِفَاءِ مَرَضٍ وَسَعَةِ رِزْقٍ وَنَصْرٍ عَلَى عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، عَلَى التَّوَسُّلِ بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَذَبْحِ النُّذُورِ لَهُمْ وَدُعَائِهِمْ وَالطَّوَافِ بِقُبُورِهِمْ وَالتَّمَسُّحِ بِهَا ، وَتَجِدُ آخَرِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِثْلُ اعْتِقَادِهِمْ وَعَمَلِهِمْ هَذَا وَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُمْ صِحَّةً ، وَأَوْسَعُ رِزْقًا وَأَعَزُّ مُلْكًا ، وَإِذَا قَاتَلُوهُمْ يَنْتَصِرُونَ عَلَيْهِمْ

وَيَسُودُونَهُمْ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ سُنَنَ اللهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَأَنَّ الرَّغَائِبَ إِنَّمَا تُنَالُ بِالْأَعْمَالِ مَعَ مُرَاعَاةِ تِلْكَ السُّنَنِ ، سَوَاءٌ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى رَبَّ الْخَلْقِ هُوَ الْخَالِقُ وَالْوَاضِعُ لِنِظَامِ خَلْقِهِ بِتِلْكَ السُّنَنِ ، وَأَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِسُنَنِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِهِ أَمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ .

(179/259)

وَلَوِ اسْتَوَى شَعْبَانِ مِنَ النَّاسِ فِي الْجَرْيِ عَلَى هَذِهِ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَالْعِزِّ وَالذُّلِّ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا مُؤْمِنًا بِاللهِ مُسْتَمْسِكًا بِوَصَايَاهُ وَهِدَايَةِ دِينِهِ ، وَالْآخَرُ كَافِرًا بِهِ غَيْرُ مُهْتَدٍ بِوَصَايَاهُ ، فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُهْتَدِيَ يَكُونُ أَعَزَّ وَأَسْعَدَ فِي دُنْيَاهُ مِنَ الْآخَرِ ، كَمَا أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ هُوَ النَّاجِيَ مِنَ الْعَذَابِ ، الْفَائِزَ

(180/259)

بالثَّوَابِ ، وَمَنْ جَهِلَ مِصْدَاقَ ذَلِكَ فِي تَوَارِيخِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ لِعَدَمِ ضَبْطِهَا ، فَأَمَامَهُ تَارِيخُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاضِحٌ جَلِيٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَجْهَلُونَ تَارِيخَهُمْ كَمَا يَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ دِينِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَمَائِمِ الدِّينِيَّةِ مِنْهُمْ يَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ الَّذِي بَيَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ بِالْإِجْمَالِ بَعْدَ شَرْحِ السُّورَةِ لَهُ بِالتَّفْصِيلِ ، وَرُبَّمَا يُعَدُّ بَعْضُهُمُ الدَّاعِي إِلَيْهِ كَافِرًا أَوْ مُبْتَدِعًا ، وَيَعْتَمِدُونَ فِي هَذَا عَلَى قُوَّةِ أَنْصَارِهِمْ مِنَ الْعَوَامِّ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ . وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ ، وَعَنْ كَوْنِهِمْ صَارُوا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَحُجَّةً عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَعْدَاؤُهُ يَحْتَجُّونَ بِجَهْلِهِمْ وَسُوءِ حَالِهِمْ عَلَى فَسَادِ دِينِهِمُ الْمُسَمَّى – وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ – الْإِسْلَامَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ بَلْ ضِدَّهُ ، وَأَوْلِيَاؤُهُ الْجَاهِلُونَ يَتَسَلَّوْنَ مِنْهُ فُرَادَى وَثُبَاتٍ – كَالتَّلَامِيذِ – بِمَا يَظْهَرُ لِلَّذِينَ يَقْتَبِسُونَ عُلُومَ سُنَنِ الْكَائِنَاتِ وَعِلْمَ الِاجْتِمَاعِ مِنْ مُخَالَفَتِهِ لَهَا ، وَإِنَّمَا الْمُخَالِفُ لَهَا بِدَعُهُمْ وَتَقَالِيدُهُمُ الْخُرَافِيَّةُ . وَأَمَّا دِينُ اللهِ فِي كِتَابِهِ الْقُرْآنِ فَهُوَ الْمُرْشِدُ الْأَعْظَمُ لَهَا وَلَوْ فَهِمُوهُ وَعَمِلُوا بِهِ لَكَانُوا أَسْبَقَ إِلَيْهَا .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَهْلَ مَرَاكِشَ : أَنْشَأْنَا مُنْذُ أُنْشِئَتْ الْمَنَارَ نُذَكِّرُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ

وَسُنَنِهِ وَأَنْذَرْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ وَالزَّوَالِ بِفَقْدِ الِاسْتِقْلَالِ إِذَا لَمْ يُوَجِّهُوا كُلَّ هِمَّتِهِمْ إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ حَالَةُ الْعَصْرِ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ الْعَسْكَرِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَأَرْشَدْنَاهُمْ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ بِالدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فَكَانَ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَ حُلُولِ النَّوَائِبِ بِهِمْ وَتَعْدِي الْأَجَانِبِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ قَبْرِ (مَوْلَايَ إِدْرِيسَ) فِي فَاسَ رَاجِينَ أَنْ يَكْشِفَ بِاسْتِنْجَادِهِمْ إِيَّاهُ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ أَنْذَرْنَاهُمْ بَطْشَةَ اللهِ بِتَرْكِ هَدْيِ كِتَابِهِ وَتَنَكُّبِ سُنَنِهِ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَاتَّكَلُوا عَلَى مَيِّتٍ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ وَلَا لِنَفْسِهِ شَيْئًا مِنْ نَفْعٍ وَلَا ضَرَرٍ ، وَكَمْ سَبَقَ هَذِهِ الْعِبْرَةَ مِنْ عِبَرٍ (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) .

(182/259)

نَزَلَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ نَاطِقَةٌ بِأَنَّ نِعَمَ اللهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ مِمَّا يَفْتِنُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ – أَيْ يُرَبِّيهِمْ وَيَخْتَبِرُهُمْ – لِيُظْهِرَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ فِي الدَّارَيْنِ . قَالَ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (7 : 168) وَقَالَ فِي خِطَابِ كُلِّ الْبَشَرِ : (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (21 : 35) وَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (11 : 7 ، 67 : 2) وَقَالَ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ

أَحْسَنُ عَمَلًا) (18 : 7) وَقَالَ فِي ابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ : (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) (25 : 20) وَقَالَ فِي خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (3 : 186)

(183/259)

وَقَالَ : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (2 : 155) وَقَالَ : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (47 : 31) وَقَالَ : (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (29 : 1 – 3)

وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ : (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (27 : 40) وَثَمَّ آيَاتٌ أُخْرَى .

أَرْشَدَنَا اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالِهَا إِلَى طَرِيقِ الِاسْتِفَادَةِ مِنْ سُنَنِهِ فِي جَعْلِنَا خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، وَرَفْعِ بَعْضِنَا دَرَجَاتٍ عَلَى بَعْضٍ ، بِأَنْ

نَصْبِرَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَنَشْكُرَ فِي السَّرَّاءِ ، وَالشُّكْرُ عِبَارَةٌ عَنْ صَرْفِ النِّعَمِ فِيمَا وُهِبَتْ لِأَجْلِهِ ، وَهُوَ مَا يُرْضِي الْمُنْعِمَ تَعَالَى وَتَظْهَرُ بِهِ حِكْمَتُهُ ، وَتَعُمُّ رَحْمَتُهُ ، كَإِنْفَاقِ فَضْلِ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ ، وَإِعْدَادِ الْقُوَّةِ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ لِتَأْيِيدِ الْحَقِّ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ . وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ بَدَنِيَّةٍ أَوْ عَقْلِيَّةٍ أَوْ عِلْمِيَّةٍ أَوْ مَالِيَّةٍ أَوْ حِكْمِيَّةٍ شُكْرٌ خَاصٌّ ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الِاسْتِفَادَةِ مِنَ النِّعَمِ وَالنِّقَمِ فَإِنَّهُ يُسِيءُ التَّصَرُّفَ فِي الْحَالَتَيْنِ فَيَظْلِمُ نَفْسَهُ وَيَظْلِمُ النَّاسَ ، وَأَنَّ الْعَقْلَ الصَّحِيحَ وَالْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ مِمَّا يَهْدِي إِلَى الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ ، وَلَكِنْ لَا تَكْمُلُ الْهِدَايَةُ إِلَّا بِتَعْلِيمِ الْوَحْيِ ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ شُرِعَ لِمُسَاعَدَةِ الْعَقْلِ عَلَى حِفْظِ مَوَاهِبِ اللهِ تَعَالَى فِي الْفِطْرَةِ وَمَنْعِ الْهَوَى مِنْ إِفْسَادِهَا ، وَصَدِّهَا عَنِ الْوُصُولِ إِلَى كَمَالِهَا ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ دِينَ الْفِطْرَةِ ، فَالْمُسْلِمُونَ أَجْدَرُ النَّاسِ بِالصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ عَوْنٌ عَلَى الْجِهَادِ وَالْجِلَادِ ، وَمَنْجَاةٌ مِنْ جَمِيعِ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ ، وَأَحَقُّهُمْ بِالشُّكْرِ ، وَالشُّكْرُ سَبَبٌ لِلْمَزِيدِ مِنَ النِّعَمِ ، فَلَوْ كَانُوا مُهْتَدِينَ بِهِ كَمَا يَجِبُ لَكَانُوا أَعْظَمَ النَّاسِ مُلْكًا وَأَعْدَلَهُمْ حُكْمًا . وَأَوْسَعَهُمْ عِلْمًا ، وَأَشَدَّهُمْ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَهُمْ ثَرْوَةً ، وَكَذَلِكَ كَانَ بِهِ سَلَفُهُمْ . وَقَدْ أَخْبَرَهُمُ اللهُ

بِأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنَّ التَّقْلِيدَ أَضَلَّهُمْ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ ، وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمَيِّتِينَ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سُنَنِ اللهِ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ : (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (20 : 123 ، 124) (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) (72 : 16 ، 17) وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ، وَنَعِيمُهَا أَدْوَمُ وَأَعْلَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حَالِ مَنْ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ حُظُوظَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا ، وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَيَسْعَى لَهَا سَعْيَهَا : (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (17 : 21) وَإِنَّمَا جَعَلَ الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، لِئَلَّا تَعْظُمَ الْفِتْنَةُ بِجَعْلِ نَعِيمِهَا كُلِّهِ أَوْ مُعْظَمِهِ لِلْكُفَّارِ وَحْدَهُمْ فَيَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِضَعْفِهِمْ كُفَّارًا ، قَالَ تَعَالَى : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ

بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

إِلَى قَوْلِهِ : (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) (43 : 32 - 35) .

(إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) أَيْ إِنَّهُ تَعَالَى سَرِيعُ الْعِقَابِ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ أَوْ بِنِعَمِهِ وَخَالَفَ شَرْعَهُ وَتَنَكَّبَ سُنَنَهُ ، وَسُرْعَةُ الْعِقَابِ تَصْدُقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْعِقَابَ الْعَامَّ عِبَارَةٌ عَمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ مِنْ سُوءِ التَّأْثِيرِ ، وَهُوَ فِي الدُّنْيَا مَا حُرِّمَتْ لِأَجْلِهِ مِنَ الضَّرَرِ فِي النَّفْسِ أَوِ الْعَقْلِ أَوِ الْعِرْضِ أَوِ الْمَالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشُّؤُونِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ مَا حُرِّمَتْ إِلَّا لِضَرَرِهَا ، وَهُوَ وَاقِعٌ مُطَّرِدٌ فِي الدُّنْيَا فِي ذُنُوبِ الْأُمَمِ وَأَكْثَرِيٌّ فِي ذُنُوبِ الْأَفْرَادِ ، وَلَكِنَّهُ يَطَّرِدُ فِي الْآخِرَةِ بِتَدْنِيسِهَا النَّفْسَ وَتَدْسِيَتِهَا كَمَا وَضَّحْنَاهُ مِرَارًا ، وَقَدْ يَسْتَبْطِئُ النَّاسُ الْعِقَابَ قَبْلَ وُقُوعِهِ ; لِأَنَّ مَا فِي الْغَيْبِ مَجْهُولٌ لَدَيْهِمْ فَيَسْتَبْعِدُونَهُ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَعْلُومٌ مَشْهُودٌ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا) (70 : 6 ، 7) .

وَإِنَّهُ تَعَالَى عَلَى سُرْعَةِ عِقَابِهِ وَشِدَّةِ عَذَابِهِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ غَفُورٌ لِلتَّوَّابِينَ الْأَوَّابِينَ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُحْسِنِينَ ، بَلْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ جَزَاءَ الْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا وَقَدْ يُضَاعِفُهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَجَزَاءَ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً مِثْلَهَا وَقَدْ يَغْفِرُهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (42 : 30) وَقَدْ أَكَّدَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ هُنَا بِمَا لَمْ يُؤَكِّدْ بِهِ الْعِقَابَ وَهُوَ اللَّامُ فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا وَيُكَفِّرَ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا . وَيَتَغَمَّدَنَا بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ ، وَيَجْعَلَ لَنَا نَصِيبًا عَظِيمًا مِنْ رَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ ، وَيَكُونَ مِنْهُ تَوْفِيقُنَا لِإِتْمَامِ تَفْسِيرِ كِتَابِهِ عَلَى مَا يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ هِدَايَةِ الْأُمَّةِ ، وَكَشْفِ الْغُمَّةِ ، فَنَكُونَ هَادِينَ مَهْدِيِّينَ ، وَقَدْ تَمَّ تَفْسِيرُ رُبْعِهِ بِفَضْلِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

اسْتِدْرَاكٌ عَلَى تَفْسِيرِ (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(188/259)

اعْلَمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ الْحَرِيصُ عَلَى دِينِهِ أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ إِنَّمَا سُمُّوا بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لِأَنَّهُمْ سَارُوا فِي الِاهْتِدَاءِ بِالْإِسْلَامِ عَلَى السُّنَّةِ ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيَانِ الْقُرْآنِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (16 : 44) وَتَلَقَّاهَا عَنْهُ بِالْعَمَلِ جَمَاعَةُ الصَّحَابَةِ ، وَقَدْ أَصَابَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَصْرِهِ حُجِّيَّةَ الْإِجْمَاعِ الدِّينِيِّ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَمَا رُوِيَ مِنَ الْآثَارِ فِي شُذُوذِ أَفْرَادٍ عَمَّا ثَبَتَ عَمَلُ الْجُمْهُورِ بِهِ فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ ، فَعَمَلُ الْجُمْهُورِ هُوَ السُّنَّةُ وَهُمُ الْجَمَاعَةُ . وَالْأَقْوَالُ وَحْدَهَا لَا يَتَبَيَّنُ بِهَا الْمُرَادُ بَيَانًا قَطْعِيًّا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ كَالْأَفْعَالِ وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ الْمُرْتَضِي كَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى

(189/259)

وَجْهَهُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا عِنْدَمَا أَرْسَلَهُ لِمُحَاجَّةِ الْخَوَارِجِ : احْمِلْهُمْ عَلَى السُّنَّةِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ ذُو وُجُوهٍ . فَمُرَادٌ بِالسُّنَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَاهَا الْمُوَافِقِ لِلُّغَةِ لَا الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ لِلْمُحَدِّثِينَ وَسَائِرِ عُلَمَاءِ الشَّرْعِ الَّذِي يَشْمَلُ الْأَخْبَارَ الْقَوْلِيَّةَ وَغَيْرَهَا ; فَإِنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ ذَاتُ وُجُوهٍ أَيْضًا ، وَرُبَّمَا كَانَتْ وُجُوهُهَا الَّتِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَكْثَرَ مِنْ وُجُوهِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهَا دُونَهُ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ ; وَلِذَلِكَ أَوْجَزَ الْقُرْآنُ فِي بَيَانِ أَحْكَامِ الدِّينِ الْعَمَلِيَّةِ وَوَكَّلَ بَيَانَهَا لِعَمَلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَحَالَ فِي بَيَانِهَا عَلَى الْعَمَلِ فَقَالَ : " صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي " .

أَقُولُ هَذَا تَمْهِيدًا لِتَذْكِيرِكَ بِعَدَمِ الِاغْتِرَارِ بِمَا لَعَلَّكَ اطَّلَعْتَ أَوْ تَطَّلِعُ عَلَيْهِ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي حَمَلَ عَلَيْهَا بَعْضُ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُصَنِّفِينَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ : (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (53 : 38 ، 39) فَحَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ تَارَةً بِالتَّأْوِيلَاتِ السَّخِيفَةِ . وَتَارَةً بِدَعْوَى النَّسْخِ الْبَاطِلَةِ ، وَتَارَةً بِدَعْوَى أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى لَا مِنْ شَرْعِنَا ، وَتَارَةً بِتَخْصِيصِهِمَا بِالْكُفَّارِ دُونَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ غَفَلَ هَؤُلَاءِ عَنْ كَوْنِ مَضْمُونِ الْآيَتَيْنِ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَأُصُولِ الْإِسْلَامِ الثَّابِتَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ، وَمُؤَيَّدًا بِآيَاتٍ كَثِيرَةٍ بِلَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا كَآيَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي نَكْتُبُ هَذَا تَتِمَّةً لِتَفْسِيرِهَا ، وَآيَةِ سُورَةِ فَاطِرٍ : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (35 : 18) وَالْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُعَلِّقَةِ لِلْفَلَاحِ وَالْخُسْرِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِالْأَعْمَالِ ، وَالْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّ النَّاسَ لَا يُجْزَوْنَ إِلَّا بِأَعْمَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ هَكَذَا بِصِيغَتَيِ الْحَصْرِ الَّذِي تُعَدُّ دَلَالَتُهُ أَقْوَى الدَّلَالَاتِ فِي بَيَانِ الْمُرَادِ ;

وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنِ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ أَرْكَانِ الدِّينِ كُلِّهَا . وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي الْجَزَاءِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَهِيَ مُقَرِّرَةٌ لِلتَّوْحِيدِ أَيْضًا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا مُفَصَّلًا وَأَشَرْنَا فِيهِ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ الْآيَاتِ .

أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَسَبَبُ غَفْلَتِهِمْ وَتَأْوِيلِهِمْ أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ تَصْحِيحَ كُلِّ مَا فَشَا مِنَ الْبِدَعِ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ وَالْمَنْسُوبِينَ إِلَى مَذَاهِبِهِمْ وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الدَّلِيلِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ ضَلَالَةَ التَّأْوِيلِ . وَأَمَّا أَهْلُ النَّظَرِ فِي أَدِلَّةِ الْمَذَاهِبِ مِنْهُمْ فَلَا هَمَّ لَهُمْ مِنَ النَّظَرِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا أَخْذُ مَا يَرَوْنَهُ مُؤَيِّدًا لِمَذَاهِبِهِمْ وَتَرْكُ مَا سِوَاهُ بِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ ، أَوْ دَعْوَى النَّسْخِ أَوِ احْتِمَالِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدُونَ الْعُمْيَانُ هُمُ الَّذِينَ جَوَّزُوا وَحْدَهُمْ لِلنَّاسِ إِهْدَاءَ عِبَادَاتِهِمْ لِلْمَوْتَى

وَلَكِنْ تَابَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَثَرِ وَالنَّظَرِ ; إذْ ظَنُّوا أَنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي أَشَرْنَا إلَيْهَا فِي الدُّعَاءِ لِلْمَوْتَى وَالْإِذْنِ لِلْأَوْلَادِ بِأَنْ يَقْضُوا مَا عَلَى وَالِدَيْهِمْ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ - تَدُلُّ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَوْتَى بِعِبَادَاتِ الْأَحْيَاءِ مُطْلَقًا ، غَافِلِينَ عَنْ حَصْرِ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ فِي الْأَوْلَادِ الَّذِينَ خَصَّ الشَّارِعُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِذَلِكَ فِي الْوَقَائِعِ الَّتِي سُئِلَ عَنْهَا . وَحَدِيثُ " صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ " يَتَعَيَّنُ أَنْ يُرَادَ بِالْوَلِيِّ مِنْهُ الْوَلَدُ لِيُوَافِقَهَا مَعَ سَائِرِ الْآيَاتِ ; إذْ لَا يُمْكِنُ تَأْوِيلُهَا كُلِّهَا وَهِيَ مِنَ الْأُصُولِ الصَّرِيحَةِ الْقَطْعِيَّةِ لِأَجْلِ حَمْلِهِ عَلَى عُمُومِ الْأَوْلِيَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ الرَّاوِيَةَ لَهُ كَانَتْ تُصَرِّحُ بِعَدَمِ جَوَازِ صِيَامِ أَحَدٍ عَنْ أَحَدٍ عَمَلًا بِالنُّصُوصِ الْعَامَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ قَالَ الطَّحَاوِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَثَرِ : إنَّهُ مَنْسُوخٌ . وَمَا قُلْنَاهُ أَوْلَى لِجَمْعِهِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ وَمُوَافَقَتِهِ لِلْآيَاتِ وَلِعَمَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِي هُوَ حُجَّةُ مَالِكٍ . وَهُوَ هُنَا مُؤَيِّدٌ لِعَمَلِ الصَّحَابَةِ عُمُومًا وَخُصُوصًا لَا حُجَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ . وَقَدْ سَقَطَ بِهَذَا الْجَمْعِ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِطْلَاقِ الْجَوَازِ مِنَ الْأَقْوَالِ .

(193/259)

وَأَمَّا الدُّعَاءُ لِأَمْوَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَلِأَحْيَائِهِمْ فَهُوَ عِبَادَةٌ لَا يَنْتَقِلُ ثَوَابُهَا مِنَ الدَّاعِي إلَى الْمَدْعُوِّ لَهُ وَلَمْ يُرْوَ فِي إهْدَاءِ ثَوَابِ الدُّعَاءِ شَيْءٌ بَلْ ثَوَابُهُ لِلدَّاعِي وَحْدَهُ سَوَاءٌ اسْتَجَابَهُ اللَّهُ أَمْ لَا ،

وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ الْمَدْعُوُّ لَهُ بِالِاسْتِجَابَةِ ، وَاسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِمَا يَنْقُضُ قَوَاعِدَ الشَّرْعِ ، وَلَا بِمَا يُبْطِلُ سُنَنَ اللهِ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ فَنُفَوِّضُ الْأَمْرَ فِي صِفَتِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَنَكْتَفِي مِنَ الْعِلْمِ بِفَائِدَةِ الدُّعَاءِ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ عِبَادَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَحَابِّ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكَافُلِهِمْ وَاهْتِمَامِهِمْ بِأَمْرِ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَا عَدَا الدُّعَاءَ مِنَ الْعِبَادَاتِ فَإِنَّمَا وَرَدَ الْإِذْنُ فِيهِ لِلْأَوْلَادِ ، وَوَلَدُ الْمَرْءِ مِنْ عَمَلِهِ فَانْتِفَاعُهُ بِعَمَلِهِ يَدْخُلُ فِي الْقَاعِدَةِ لَا أَنَّهُ يُعَارِضُهَا . وَلَوْ كَانَ الْإِذْنُ عَامًّا لَكَثُرَ عَمَلُ الصَّحَابَةِ بِهِ ، وَرُوِيَ مُسْتَفِيضًا أَوْ مُتَوَاتِرًا عَنْهُمْ لِتَوَافُرِ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ ; فَإِنَّ مِنْ دَأْبِ الْبَشَرِ وَطِبَاعِهِمُ

الرَّاسِخَةِ الِاهْتِمَامَ بِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ مَوْتَاهُمْ . وَقَدْ نَقَلَ الرُّوَاةُ مِنَ التَّابِعِينَ كُلَّ مَا رَأَوْهُ وَعَلِمُوا بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .

(194/259)

كَتَبْتُ هَذَا لِأَنِّي بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَطَبْعِهِ رَاجَعْتُ مَا كَتَبَهُ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي كِتَابِ الرُّوحِ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ أَطْنَبَ فِيهَا وَأَطَالَ كَعَادَتِهِ بِمَا لَمْ يُطِلْ بِهِ غَيْرُهُ وَلَا قَارَبَ ، وَأَوْرَدَ كُلَّ مَا قِيلَ وَمَا تَصَوَّرَ أَنْ يُقَالَ فِي إِثْبَاتِ وُصُولِ ثَوَابِ أَعْمَالِ

الْأَحْيَاءِ إِلَى الْأَمْوَاتِ مُطْلَقًا ، وَنَفْيِهِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا بِمَا تَسَبَّبَ إِلَيْهِ الْمَيِّتُ فِي حَيَاتِهِ أَوْ بِالْعِبَادَاتِ الَّتِي تَدْخُلُهَا النِّيَابَةُ كَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ دُونَ غَيْرِهَا كَالتِّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ وَكَذَا مَا وَقَعَ فِيهِ الْخِلَافُ مِنْ فُرُوعِ الْمَسْأَلَةِ - وَذَكَرَ حُجَجَ كُلِّ فَرِيقٍ وَرَدَّ الْمُخَالِفِينَ عَلَيْهَا ، وَأَكْثَرُهَا نَظَرِيَّاتٌ بَاطِلَةٌ وَلَكِنَّهُ عَلَى سَعَةِ اطِّلَاعِهِ وَدِقَّةِ فَهْمِهِ قَدْ غَفَلَ عَنْ كَوْنِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَعَلَهَا

(195/259)

حُجَّةَ الْمُثْبِتِينَ الْوَحِيدَةَ عَلَى انْتِفَاعِ أَمْوَاتِ الْمُسْلِمِينَ بِأَيِّ عَمَلٍ يُهْدَى إِلَيْهِمْ ثَوَابُهُ مِنْ عَمَلِ أَحْيَائِهِمْ قَدْ وَرَدَتْ فِي أَعْمَالٍ خَاصَّةٍ وَرُخِّصَ لِلْأَوْلَادِ وَحْدَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِهَا عَنْ وَالِدَيْهِمْ وَهُوَ لَمْ يَنْسَ مِنْ حُجَجِ الْمَانِعِينَ لِوُصُولِ ثَوَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَنَحْوِهَا عَدَمَ نَقْلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنِ السَّلَفِ وَلَكِنَّهُ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ أَنْصَارِ أَتْبَاعِ السَّلَفِ قَدْ أَجَابَ عَنْ هَذِهِ الْحُجَّةِ بِجَوَابٍ ضَعِيفٍ جِدًّا فَقَالَ : " فَإِنْ قِيلَ فَهَذَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي السَّلَفِ لَا يُمْكِنُ نَقْلُهُ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَعَ شِدَّةِ حِرْصِهِمْ عَلَى الْخَيْرِ ، وَلَا أَرْشَدَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ . فَلَوْ كَانَ ثَوَابُ الْقِرَاءَةِ يَصِلُ لَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ وَلَكَانُوا يَفْعَلُونَهُ " .

" فَالْجَوَابُ أَنَّ مُورِدَ هَذَا السُّؤَالِ إِنْ كَانَ مُعْتَرِفًا بِوُصُولِ ثَوَابِ الْحَجِّ وَالصِّيَامِ وَالدُّعَاءِ

وَالِاسْتِغْفَارِ ، قِيلَ لَهُ : مَا هَذِهِ الْخَاصِّيَّةُ الَّتِي مَنَعَتْ وُصُولَ ثَوَابِ الْقُرْآنِ وَاقْتَضَتْ وُصُولَ ثَوَابِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ؟ وَهَلْ هَذَا إلَّا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ ؟ وَإِنْ لَمْ يَعْتَرِفْ بِوُصُولِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ إلَى الْمَيِّتِ فَهُوَ مَحْجُوجٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَقَوَاعِدِ الشَّرْعِ " .

(196/259)

" وَأَمَّا السَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ لَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ فِي السَّلَفِ ، فَهُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَوْقَافٌ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ وَيُهْدِي إلَى الْمَوْتَى ، وَلَا كَانُوا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ ، وَلَا كَانُوا يَقْصِدُونَ الْقَبْرَ لِلْقِرَاءَةِ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ الْيَوْمَ ، وَلَا كَانَ أَحَدُهُمْ يُشْهِدُ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ النَّاسِ عَلَى أَنَّ ثَوَابَ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ لِفُلَانٍ الْمَيِّتِ وَلَا ثَوَابَ

هَذِهِ الصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ ، ثُمَّ يُقَالُ لِهَذَا الْقَائِلِ : لَوْ كُلِّفْتَ أَنْ تَنْقُلَ عَنْ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ثَوَابَ هَذَا الصَّوْمِ لِفُلَانٍ – لَعَجَزْتَ فَإِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى كِتْمَانِ أَعْمَالِ الْبِرِّ ، فَلَمْ يَكُونُوا لِيُشْهِدُوا عَلَى اللَّهِ بِإِيصَالِ ثَوَابِهَا إلَى أَمْوَاتِهِمْ " .

(197/259)

" فَإِنْ قِيلَ : فَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الصَّوْمِ وَالصَّدَقَةِ دُونَ الْقِرَاءَةِ قِيلَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَبْتَدِئْهُمْ بِذَلِكَ بَلْ خَرَجَ ذَلِكَ مِنْهُ مَخْرَجَ الْجَوَابِ لَهُمْ ، فَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الْحَجِّ عَنْ مَيِّتِهِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الصَّدَقَةِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الصِّيَامِ الَّذِي هُوَ مُجَرَّدُ نِيَّةٍ وَإِمْسَاكٍ وَبَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ ؟ وَالْقَائِلُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ السَّلَفِ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ قَائِلٌ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ; فَإِنَّ هَذِهِ شَهَادَةٌ عَلَى نَفْيِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ ، فَمَا يُدْرِيهِ أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَلَا يُشْهِدُونَ مَنْ حَضَرَهُمْ عَلَيْهِ ؟ بَلْ يَكْفِي اطِّلَاعُ عَلَّامِ الْغُيُوبِ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ لَا سِيَّمَا وَالتَّلَفُّظُ بِنِيَّةِ الْإِهْدَاءِ لَا يُشْتَرَطُ كَمَا تَقَدَّمَ " .

" وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الثَّوَابَ مِلْكٌ لِلْعَامِلِ ، فَإِذَا تَبَرَّعَ بِهِ وَأَهْدَاهُ إِلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَوْصَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، فَمَا الَّذِي خَصَّ مِنْ هَذَا ثَوَابَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَحَجَرَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَى أَخِيهِ ؟ وَهَذَا عَمَلُ النَّاسِ حَتَّى الْمُنْكِرِينَ فِي سَائِرِ الْأَعْصَارِ وَالْأَمْصَارِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ " اهـ .

(198/259)

أَقُولُ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ وَالْهِدَايَةُ : عَفَا اللهُ عَنْ شَيْخِنَا وَأُسْتَاذِنَا الْمُحَقِّقِ ، فَلَوْلَا الْغَفْلَةُ عَنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ الْوَاضِحَةِ لَمَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأَغْلَاطِ الَّتِي نَرُدُّهَا عَلَيْهِ بِبَعْضِ مَا كَانَ يَرُدُّهَا هُوَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَغْفَلُ وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ .

أَمَّا قَوْلُهُ لِمُورِدِ السُّؤَالِ إِذَا كَانَ مُعْتَرِفًا بِوُصُولِ ثَوَابِ الْحَجِّ وَالصِّيَامِ : مَا هَذِهِ الْخَاصِّيَّةُ الَّتِي مَنَعَتْ وُصُولَ ثَوَابِ الْقُرْآنِ إِلَخْ فَنُجِيبُ عَنْهُ عَلَى طَرِيقَتِنَا بِأَنَّ الْمَانِعَ لِذَلِكَ نُصُوصُ الْقُرْآنِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي أَنَّ عَمَلَ كُلِّ عَامِلٍ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَالسَّائِلُ إِنَّمَا يَعْتَرِفُ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ قَضَاءِ صِيَامٍ وَحَجٍّ ثَبَتَا عَلَى أَحَدِ وَالِدَيْهِ ، وَكَذَا عَنِ الصَّدَقَةِ وَلَا سِيَّمَا عَمَّنْ لَمْ يُوصِ بِهَا مِنَ الْوَالِدَيْنِ هَلْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَنْ وَالِدَيْهِمْ ؟ فَأَذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يَقْضُوا دَيْنَ اللهِ عَنْهُمْ كَمَا يَقْضُونَ دُيُونَ النَّاسِ ، وَأَنْ يَتَصَدَّقُوا عَنْهُمْ – فَهَذِهِ حُقُوقٌ ثَبَتَتْ عَلَى الْوَالِدَيْنِ ، أَوْ صَدَقَةٌ كَانَ الْمُتَوَقَّعُ مِنْ أَحَدِهِمُ الْوَصِيَّةَ بِهَا فَقَامَ مَقَامَهُمْ أَوْلَادُهُمْ فِيهَا أَوْ تَبَرَّعُوا عَنْهُمْ ، فَهِيَ لَيْسَتْ كَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي لَيْسَتْ مَفْرُوضَةً عَلَى الْأَعْيَانِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ

(199/259)

كَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ ، وَلَا مِنَ الْأَعْيَانِ الْمَمْلُوكَةِ كَالْمَالِ الَّذِي كَانَ مِلْكَ الْمَيِّتِ وَانْتَقَلَ إِلَى وَلَدِهِ ، أَوْ مِنْ كَسْبِ الْوَلَدِ الَّذِي عُدَّ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ كَسْبِ الْوَالِدِ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا ، وَقَدْ

أَلْحَقَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي قَوْلِهِ : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) (52 : 21) وَبِهَذَا كَانَتْ غَيْرَ مُعَارِضَةٍ لِتِلْكَ الْآيَاتِ ، وَلَوْ عَارَضَتْهَا لَكَانَتْ هِيَ الْمَرْجُوحَةَ السَّاقِطَةَ بِهَا ، فَبَطَلَ قَوْلُهُ : وَهَلْ هَذَا إلَّا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ - إذِ الْعَمَلُ مُخْتَلِفٌ وَالْعَامِلُ الْمَأْذُونُ لَهُ بِهِ خُصُوصِيَّةٌ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ فَلَا تَمَاثُلَ .

(200/259)

وَأَمَّا تَعْلِيلُهُ عَدَمَ نَقْلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ عَنِ السَّلَفِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ وَأَيَّدَهُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُمُونَ أَعْمَالَ الْبِرِّ - فَجَوَابُهُ أَنَّهُ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ الْمَشْرُوعَةِ إلَّا وَقَدْ نُقِلَ عَنْهُمْ فِيهِ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ ، حَتَّى الصَّدَقَاتِ الَّتِي صَرَّحَ الْقُرْآنُ بِتَفْضِيلِ إخْفَائِهَا عَلَى الْإِبْدَاءِ تَكْرِيمًا لِلْفُقَرَاءِ وَسَتْرًا عَلَيْهِمْ ، وَلِمَا قَدْ يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى وَالرِّيَاءِ الْمُبْطِلَةِ لَهَا . وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ لِلْمَوْتَى لَيْسَتْ كَذَلِكَ حَتَّى إنَّ الْمُرَاءَاةَ بِهَا مِمَّا لَا يَكَادُ يَقَعُ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَقْرَأُ لِغَيْرِهِ لَا يُعَدُّ مِنَ الْعِبَادِ الْمُمْتَازِينَ عَلَى غَيْرِهِمْ فَيَكْتُمُهُ خَوْفَ الرِّيَاءِ . ثُمَّ أَيْنَ الَّذِينَ نَصَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْإِرْشَادِ وَالْقُدْوَةِ وَالدَّعْوَةِ إلَى الْخَيْرِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، لِمَ لَمْ يُؤْثَرْ عَنْهُمْ قَوْلٌ وَلَا فِعْلٌ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْبِرِّ الَّذِي عَمَّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ بَعْدَ خَيْرِ الْعُصُورِ لَوْ كَانَ مَشْرُوعًا ؟ فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إنَّهُمْ كَانُوا يَتْرُكُونَ الْأَمْرَ بِالْبِرِّ كَمَا قِيلَ جَدَلًا إنَّهُمْ أَخْفَوْا هَذَا النَّوْعَ مِنْهُ وَحْدَهُ ؟ كَلَّا ، إنَّهُمْ

كَانُوا هُدَاةً بِأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَتَأْثِيرُ الْأَعْمَالِ فِي الْهِدَايَةِ أَقْوَى .

وَأَمَّا تَعْلِيلُهُ تَخْصِيصَ الْإِذْنِ فِي الْأَحَادِيثِ بِالصَّوْمِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ دُونَ الْقِرَاءَةِ بِقَوْلِهِ

(201/259)

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَبْتَدِئْهُمْ بِذَلِكَ ، بَلْ خَرَجَ مَخْرَجَ الْجَوَابِ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الصَّوْمِ وَالْقِرَاءَةِ – فَجَوَابُهُ : أَنَّ عَدَمَ ابْتِدَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ عَلَى إِطْلَاقِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِينِهِ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُبَيِّنًا لِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كَمَا أُمِرَ بِهِ وَهَذَا مُحَالٌ . وَسُؤَالُ أُولَئِكَ الْأَفْرَادِ إِيَّاهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنْ نُصُوصِ الدِّينِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى شَرْعِيَّتِهِ فَلِذَلِكَ اسْتَفْتَوْهُ فِيهِ ، وَلَمْ يَسْتَفْتُوهُ فِي الْعَمَلِ عَلَى غَيْرِ الْوَالِدَيْنِ لِنَصِّ الْقُرْآنِ فِي مَنْعِهِ .

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الصِّيَامِ وَوُصُولِ ثَوَابِ الذِّكْرِ ، فَقَدْ بَيَّنَّا آنِفًا أَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَى وُصُولِ ثَوَابِ الصِّيَامِ مُطْلَقًا مِنْ كُلِّ مَنْ يَصُومُ عَنْ مَيِّتٍ حَتَّى يُقَاسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، لِأَنَّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّيَامِ خَاصٌّ بِالْقَضَاءِ مِنَ الْوَلَدِ نِيَابَةً عَنِ الْوَالِدِ ،

وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ عَمِلَهُ لِنَفْسِهِ وَأَهْدَى ثَوَابَهُ لِغَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، عَلَى أَنَّ هَذَا مِمَّا وَرَدَ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ فَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ .

(202/259)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ الْقَائِلَ بِأَنَّ أَحَدًا مِنَ السَّلَفِ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ قَائِلٌ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ إِلَخْ . فَجَوَابُهُ : أَنَّ الَّذِي يُثْبِتُ مَا ذَكَرَ لِلسَّلَفِ أَجْدَرُ بِقَوْلِ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، وَنَاهِيكَ بِهِ إِذَا كَانَ مُعْتَرِفًا بِأَنَّهُ لَمْ يَنْقُلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَالنَّفْيُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَحَسْبُ النَّافِي نَفْيُهُ لِلنَّقْلِ عَنْهُمْ فِي أَمْرٍ تَدُلُّ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ عَلَى عَدَمِ شَرْعِيَّتِهِ ، وَيَدُلُّ الْعَقْلُ وَمَا عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَشْرُوعًا لَتَوَاتَرَ عَنْهُمْ أَوِ اسْتَفَاضَ .

(203/259)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الثَّوَابَ مِلْكٌ لِلْعَامِلِ إِلَخْ . فَلَمْ نَكُنْ نَنْتَظِرُهُ مِنْ أُسْتَاذِنَا وَمُرْشِدِنَا إِلَى اتِّبَاعِ النَّقْلِ فِي أُمُورِ الدِّينِ دُونَ النَّظَرِيَّاتِ وَالْآرَاءِ ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ النَّظَرِيَّةَ غَيْرُ مُسَلَّمَةٍ ; فَإِنَّ الثَّوَابَ أَمْرٌ مَجْهُولٌ بِيَدِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ كَأُمُورِ الْآخِرَةِ كُلِّهَا ، فَإِنَّهَا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا مَجَالَ لِلْعَقْلِ فِيهَا . وَمَا وَعَدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ بِشُرُوطِهَا لَا يَعْرِفُونَ كُنْهَهُ وَلَا مُسْتَحِقَّهُ عَلَى سَبِيلِ

الْقَطْعِ ; وَلِذَلِكَ أُمِرُوا بِأَنْ يَكُونُوا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَلَا يُوجَدُ فِي الْآيَاتِ وَلَا الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَامِلَ يَمْلِكُ ثَوَابَ عَمَلِهِ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَمَا يَمْلِكُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ أَوِ الْقَمْحَ وَالتَّمْرَ فَيَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِالْهِبَةِ وَالْبَيْعِ ، بَلْ ذَلِكَ جَزَاءٌ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى أَعَدَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِحَسَبِ تَأْثِيرِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ فِي إِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ لَهُ بِتَزْكِيَتِهَا وَجَعْلِهَا أَهْلًا لِجِوَارِهِ وَرِضْوَانِهِ كَمَا قَالَ : (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) (20 : 75 ، 76) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) (87 : 14) إِلَخْ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) (91 : 9) (خُذْ مِنْ

(204/259)

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (9 : 103) وَقَالَ : (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) (6 : 139)

فَذَكَرَ الْوَصْفَ عَلَى إِطْلَاقِهِ وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ، وَذَكَرَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى الصِّفَاتِ الْعَامَّةَ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ جَمِيعِ الْأَعْمَالِ ، وَهِيَ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ وَالصِّدْقُ وَمِنْهَا مَا ذُكِرَ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ الصَّرِيحَةُ الْمَعْنَى الْمَعْقُولَةُ الْحِكْمَةِ وَسَائِرُ آيَاتِ الْجَزَاءِ وَالْآيَاتُ النَّافِيَةُ

لِلْعَدْلِ وَالْفِدَاءِ ، وَالْآيَاتُ النَّافِيَةُ لِمِلْكِ نَفْسٍ لِنَفْسٍ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي الْآخِرَةِ ، تُؤَيِّدُ كُلُّهَا آيَةَ الْأَنْعَامِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا وَآيَاتِ النَّجْمِ وَغَيْرِهَا ، وَتُبْطِلُ دَعْوَى مِلْكِ الْإِنْسَانِ لِثَوَابِ عِبَادَاتِهِ وَتَصَرُّفِهِ بِهَا ، وَلَوْ كَانَ الثَّوَابُ كَالْمَالِ يُوهَبُ لَكَانَ يُبَاعُ وَيُشْتَرَى ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ يَبِيعُونَ ثَوَابَ كَثِيرٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِلْأَغْنِيَاءِ ، وَحَاشَ لِلَّهِ وَلِحِكْمَةِ دِينِهِ مِنْ ذَلِكَ . وَعَمَلُ الْخَلَفِ وَحْدَهُ فِي أَمْرٍ تَعَبُّدِيٍّ كَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ، عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُجْمِعُوا عَلَيْهِ .

(205/259)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ انْتِفَاعَ الْمَيِّتِ بِعَمَلِ أَوْلَادِهِ يُنَافِي الْقَاعِدَةَ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِي الْجَزَاءِ أَيْضًا ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُزَكِّ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَمَا تَطْبَعُهُ فِي النَّفْسِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ لَا يُزَكِّيهَا عَمَلُ أَوْلَادِهِ مِنْ بَعْدِهِ – قُلْنَا : نَعَمْ إِنَّ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ ، وَلَكِنَّ مَنْ بِيَدِهِ أَمْرُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ اسْتَثْنَى مِنْ عُمُومِ هَذَا الْأَصْلِ ، لَا بَلْ أُلْحِقُ بِهِ شَيْئًا يَنْقُضُهُ وَلَا يَذْهَبُ بِحِكْمَتِهِ ، وَهُوَ انْتِفَاعُ بَعْضِ الْوَالِدَيْنِ الْمُؤْمِنَيْنِ بِبَعْضِ عَمَلِ أَوْلَادِهِمْ ، أَوْ جَعْلُهُ مِنْهُ بِالتَّبَعِ وَالسَّبَبِيَّةِ ، كَمَا أَدْخَلَ فِي عُمُومِهِ انْتِفَاعَ مَنْ سَنَّ سُنَّةَ خَيْرٍ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ بِعَمَلِ مَنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ وَعَمِلَ بِعِلْمِهِ أَوِ اقْتَدَى بِعَمَلِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ ثَوَابِ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ شَيْءٌ

كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ . وَرَوَى أَصْحَابُ السُّنَنِ وَغَيْرُهُمْ بِأَسَانِيدَ يُحْتَجُّ بِهَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " أَطْيَبُ مَا يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ " ، وَفِي رِوَايَةٍ " وَلَدُ الرَّجُلِ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِهِ فَكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ " وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ وَالِدَهُ يَحْتَاجُ إلَى مَالِهِ : أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ " رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

(206/259)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : إنَّ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ لَيْسَ أَعْيَانًا مَمْلُوكَةً لِلْعَامِلِ يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ ، بَلْ هُوَ جَزَاءٌ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ نَوْعَانِ (أَحَدُهُمَا) مَا يَكُونُ مُرَتَّبًا عَلَى تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ مُبَاشَرَةً وَهُوَ مَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا . (وَثَانِيهُمَا) مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَعَدَّى فِيهَا نَفْعُ الْعَامِلِ إلَى غَيْرِهِ ، كَالسُّنَّةِ الْحَسَنَةِ وَالصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ وَالْعِلْمِ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ الَّذِي يَدْعُو لَهُ ، أَوْ يَقْضِي دَيْنَ اللَّهِ أَوِ النَّاسِ أَوْ يَتَصَدَّقُ عَنْهُ ، وَتَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي ذَلِكَ . وَهَذِهِ تَكُونُ بِقَدْرِ انْتِفَاعِ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ لَا بِحَسَبِ تَأْثِيرِ الْعَامِلِ فِي السَّبَبِيَّةِ لَهَا عِنْدَ مُبَاشَرَتِهِ لِلسَّبَبِ ، كَتَأْلِيفِ الْكِتَابِ وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ . وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُضَاعَفَةُ اللَّهِ لِمَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ .

خِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ :

الْخِلَافُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ مَشْهُورٌ . وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي أَوَّلِ الْمَسْأَلَةِ الـ16 وَهِيَ : هَلْ تَنْتَفِعُ أَرْوَاحُ الْمَوْتَى بِشَيْءٍ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ أَمْ لَا ؟ وَذَكَرَ فِي الْجَوَابِ أَنَّهَا تَنْتَفِعُ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ فِي أَمْرَيْنِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِمَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، أَحَدُهُمَا : مَا تَسَبَّبَ إلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ ، وَالثَّانِي : دُعَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَهُ وَاسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ . (قَالَ)

(207/259)

وَالصَّدَقَةُ وَالْحَجُّ عَلَى نِزَاعٍ : مَا الَّذِي يَصِلُ مِنْ ثَوَابِهِ ! هَلْ هُوَ ثَوَابُ الْإِنْفَاقِ أَمْ ثَوَابُ الْعَمَلِ ؟ فَعِنْدَ الْجُمْهُورِ : يَصِلُ ثَوَابُ الْعَمَلِ نَفْسِهِ ، وَعِنْدَ بَعْضِ الْحَنَفِيَّةِ : إنَّمَا يَصِلُ ثَوَابُ الْإِنْفَاقِ . ثُمَّ ذَكَرَ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ الْبَدَنِيَّةِ كَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ ، وَزَعَمَ أَنَّ مَذْهَبَ أَحْمَدَ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ وُصُولُهَا ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى مَذْهَبِ أَحْمَدَ بِأَنَّهُ قِيلَ لَهُ : الرَّجُلُ يَعْمَلُ الشَّيْءَ مِنَ الْخَيْرِ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَيَجْعَلُ نِصْفَهُ لِأَبِيهِ أَوْ لِأُمِّهِ . قَالَ : أَرْجُو . وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَجْزِمْ بِالْجَوَابِ ، وَأَنَّ مَوْضُوعَ السُّؤَالِ انْتِفَاعُ الْوَالِدَيْنِ بِعَمَلِ الْوَلَدِ خَاصَّةً ، وَلَيْسَ فِي رَجَائِهِ خُرُوجٌ عَنِ النَّصِّ إلَّا فِي مَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ – ثُمَّ قَالَ : وَالْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَصِلُ . وَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِلُ إلَى الْمَيِّتِ شَيْءٌ ، لَا دُعَاءٌ وَلَا غَيْرُهُ ؟ .

(أَقُولُ) : رَاجَعْتُ بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ كِتَابَ الْفُرُوعِ مِنْ كُتُبِ الْحَنَابِلَةِ فَرَأَيْتُ فِيهِ خِلَافًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ عُلَمَاءِ الْحَنَابِلَةِ وَغَيْرِهِمْ ، أَحْسَنُهُ وَأَوْلَاهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ قَوْلُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ فِي بَحْثِ إهْدَاءِ الثَّوَابِ . وَقَدْ ذَكَرَ قَبْلَهُ كَلَامًا فِي عَدَمِ جَوَازِ الْإِيثَارِ بِالْفَضَائِلِ وَالدِّينِ لِلْوَالِدَيْنِ ، وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ بِجَوَازِ بَعْضِهِ فِي حَالِ الْحَيَاةِ كَتَقْدِيمِ وَالِدِهِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ – وَكَلَامًا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِيثَارِ بِمَا أَحْرَزَهُ وَمَا لَمْ يُحْرِزْهُ ، ثُمَّ قَالَ : " وَقَالَ شَيْخُنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ السَّلَفِ إهْدَاءُ ذَلِكَ إلَى مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ ، بَلْ كَانُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فَلَا يَنْبَغِي الْخُرُوجُ عَنْهُمْ ; وَلِهَذَا لَمْ يَرَهُ شَيْخُنَا كَمَنْ لَهُ أَجْرُ الْعَالِمِ كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ بِخِلَافِ الْوَالِدِ لِأَنَّ لَهُ أَجْرًا لَا كَأَجْرِ الْوَلَدِ ; لِأَنَّ الْعَامِلَ يُثَابُ عَلَى إهْدَائِهِ فَيَكُونُ لَهُ مِثْلُهُ أَيْضًا ، فَإِنْ جَازَ إهْدَاؤُهُ فَهَلُمَّ جَرًّا ، وَيَتَسَلْسَلُ ثَوَابُ الْعَامِلِ الْوَاحِدِ ، وَإِنْ لَمْ يَجْزِمْ فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَلٍ ، وَإِنْ قِيلَ يَحْصُلُ ثَوَابُهُ مَرَّتَيْنِ لِلْمَهْدِيِّ إلَيْهِ وَلَا يَبْقَى لِلْعَامِلِ ثَوَابٌ فَلَمْ يُشَرِّعِ اللَّهُ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْفَعَ غَيْرَهُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا مَنْفَعَةَ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ فَيَتَضَرَّرَ (كَذَا) وَلَا يَلْزَمُ دُعَاؤُهُ لَهُ وَنَحْوُهُ ; لِأَنَّهُ مُكَافَأَةٌ لَهُ كَمُكَافَأَتِهِ لِغَيْرِهِ ، يَنْتَفِعُ بِهِ

الْمَدْعُوُّ لَهُ وَلِلْعَامِلِ أَجْرُ الْمُكَافَأَةِ وَلِلْمَدْعُوِّ لَهُ مِثْلُهُ فَلَمْ يَتَضَرَّرْ وَلَمْ يَتَسَلْسَلْ وَلَا يَقْصِدُ أَجْرَهُ إلَّا مِنَ اللَّهِ " اهـ .

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ أَقْدَمَ مَنْ بَلَغَهُ أَنَّهُ أَهْدَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيُّ بْنُ الْمُوَفَّقِ أَحَدُ الشُّيُوخِ الْمَشْهُورِينَ مِنْ طَبَقَةِ أَحْمَدَ وَشُيُوخِ الْجُنَيْدِ ، ثُمَّ نَقَلَ صَاحِبُ الْفُرُوعِ عَنْ تَارِيخِ الْحَاكِمِ

مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ السَّرَّاجِ النَّيْسَابُورِيِّ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الصَّحَابِيَّ إذَا انْفَرَدَ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ لَا يُعَدُّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَوْلَهُ أَوْ عَمَلَهُ حُجَّةً أَوْ يَتَّخِذُهُ قُدْوَةً فِيهِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ بَعْدَ تَابِعِ التَّابِعِينَ - فَكَيْفَ إذَا كَانَ ذَلِكَ مُخَالِفًا لِلنُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ فِي الْكِتَابِ السُّنَّةِ .

(210/259)

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَابِدِينَ مُحَرِّرُ مَذَاهِبِ الْحَنَفِيَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي أَوَاخِرِ تَنْقِيحِ الْفَتَاوَى الْحَامِدِيَّةِ ، فَذَكَرَ إجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى نَفْعِ الدُّعَاءِ وَخِلَافَهُمْ فِي وُصُولِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَاخْتِيَارَ الْوُصُولِ وَالِاسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ بِحَدِيثِ " إذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ " إلَخْ . وَهُوَ لَا

يَدُلُّ عَلَيْهِ بِإِطْلَاقٍ بَلْ عَلَى عَدَمِهِ كَمَا عَلِمْتَ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْحَافِظَ ابْنَ حَجَرٍ سُئِلَ عَمَّنْ قَرَأَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ وَقَالَ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ثَوَابَ مَا قَرَأْتُهُ أَوْ مِثْلَ ثَوَابِ مَا قَرَأْتُهُ زِيَادَةً فِي شَرَفِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمَا مَعْنَى الزِّيَادَةِ مَعَ كَمَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ : هَذَا مُخْتَرَعٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْقُرَّاءِ لَا أَعْرِفُ لَهُمْ سَلَفًا وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِمُحَالٍ كَمَا تَخَيَّلَهُ السَّائِلُ ، فَقَدْ ذُكِرَ فِي رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ : اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا إلخ . فَلَعَلَّ الْمُخْتَرِعَ الْمَذْكُورَ قَاسَهُ عَلَى ذَلِكَ وَكَأَنَّهُ لَحَظَ أَنَّ مَعْنَى طَلَبِ الزِّيَادَةِ أَنْ تُتَقَبَّلَ قِرَاءَتُهُ فَيُثِيبُهُ عَلَيْهَا وَإِذَا أُثِيبَ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى فِعْلِ طَاعَةٍ مِنَ الطَّاعَاتِ كَانَ لِلَّذِي عَلَّمَهُ نَظِيرُ أَجْرِهِ وَلِلْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الشَّارِعُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعُ ذَلِكَ ، فَهَذَا مَعْنَى الزِّيَادَةِ فِي شَرَفِهِ وَإِنْ كَانَ شَرَفُهُ مُسْتَقِرًّا حَاصِلًا اهـ .

(211/259)

وَنَقُولُ : حَسْبُنَا مِنَ الْحَافِظِ – أَثَابَهُ اللَّهُ – أَنَّ هَذَا مُخْتَرَعٌ مِنْ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَمْ يَرِدْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، فَهُوَ إِمَامُ النَّقْلِ وَحَافِظُ السُّنَّةِ بِلَا نِزَاعٍ ، وَأَمَّا قِيَاسُ هَذَا الدُّعَاءِ عَلَى الدُّعَاءِ بِزِيَادَةِ شَرَفِ الْبَيْتِ فَهُوَ قِيَاسٌ فِي أَمْرٍ تَعَبُّدِيٍّ لَا مَحَلَّ لَهُ ، وَقَدْ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ مَعْنَى زِيَادَةِ شَرَفِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ بِكَثْرَةِ مَنْ يَحُجُّهُ وَيَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ ، وَزِيَادَةُ

ثَوَابِ الْمُعَلِّمِ الْمُرْشِدِ بِعَمَلِ مَنْ أَخَذَ بِعِلْمِهِ وَهَدْيِهِ لَا يُسَمَّى شَرَفًا فِي اللُّغَةِ إلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ بِصَدَدِهِ .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَابِدِينَ : وَقَدْ أَجَازَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالسُّبْكِيِّ وَالْبَارِزِيِّ وَبَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْحَنَابِلَةِ كَابْنِ عَقِيلٍ تَبَعًا لِعَلِيِّ بْنِ الْمُوَفَّقِ وَكَانَ فِي طَبَقَةِ الْجُنَيْدِ وَلِأَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ السَّرَّاجِ النَّيْسَابُورِيِّ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ إهْدَاءُ ثَوَابِ الْقُرْآنِ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي هُوَ تَحْصِيلُ الْحَاصِلِ ، وَالْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ مِنَ الْمُجِيزِينَ ، وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : لَا يُسْتَحَبُّ بَلْ هُوَ بِدْعَةٌ ، وَقَالَ ابْنُ قَاضِي شُهْبَةَ : يُمْنَعُ ، وَابْنُ الْعَطَّارِ : يَنْبَغِي أَنْ يُمْنَعَ ، وَقَالَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ : لَا يُرْوَى عَنِ السَّلَفِ وَنَحْنُ

(212/259)

بِهِمْ نَقْتَدِي . ثُمَّ قَالَ بِجَوَازِهِ بَلْ بِاسْتِحْبَابِهِ قِيَاسًا عَلَى مَا كَانَ يُهْدَى إلَيْهِ فِي حَالِ حَيَاتِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَمَّا طَلَبَ الدُّعَاءَ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَثَّ الْأُمَّةَ عَلَى الدُّعَاءِ لَهُ بِالْوَسِيلَةِ عِنْدَ الْأَذَانِ ، ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدِ اتَّبَعْتَ ، وَإِنْ فَعَلْتَ فَقَدْ قِيلَ بِهِ اهـ .

كَلَامُ ابْنِ الْجَزَرِيِّ . وَقَالَ الْكَمَالُ بْنُ حَمْزَةَ الْحُسَيْنِيُّ : الْأَحْوَطُ التَّرْكُ . مِنْ كَنْزِ الرَّاغِبِينَ لِلْبُرْهَانِ التَّاجِيِّ مُلَخَّصًا ، فَهَذَا مُلَخَّصُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَابِدِينَ ، وَحَيَّا اللَّهُ مُرَجِّحِي اتِّبَاعِ

السَّلَفِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ ، وَلَيْسَ هُوَ الْأَحْوَطَ فَقَطْ بَلِ الْمُتَعَيَّنُ الَّذِي يَرُدُّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ وَيَضْرِبُ بِأَقْيِسَةِ الْمُخَالِفِينَ عُرْضَ الْحَائِطِ ، لَا لِمُخَالَفَتِهَا هَدْيَ سَلَفِ الْأُمَّةِ فَقَطْ ، بَلْ لِظُهُورِ بُطْلَانِهَا وَمُصَادَمَتِهَا لِلنُّصُوصِ أَيْضًا فَإِنَّ قِيَاسَ إِهْدَاءِ الْعِبَادَاتِ أَوْ ثَوَابِهَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى إِهْدَاءِ مَتَاعِ الدُّنْيَا قِيَاسٌ مَعَ الْفَارِقِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالْعَادَةِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَكَيْفَ وَهُوَ مُصَادِمٌ لِلنَّصِّ ، وَحَسْبُنَا اتِّبَاعُ السَّلَفِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ : فَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ . . . وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفَ

(213/259)

ثُمَّ أَقُولُ : وَقَدِ اضْطَرَبَ كَلَامُ الشَّوْكَانِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ فِقْهِ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى أَحَادِيثِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوَاضِعَ فَاغْتَرَّ بِالْإِطْلَاقِ ، وَلَكِنَّهُ اهْتَدَى إِلَى الصَّوَابِ فِيمَا كَتَبَهُ عَلَى أَحَادِيثِ الْمُنْتَقَى فِي بَابِ مَا يُهْدَى مِنَ الْقُرَبِ إِلَى الْمَوْتَى ، وَكُلُّهَا وَارِدَةٌ فِي تَصَدُّقِ الْأَوْلَادِ عَنِ الْوَالِدَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصِّيَامِ وَالْحَجِّ قَالَ :

" وَأَحَادِيثُ الْبَابِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ مِنَ الْوَلَدِ تَلْحَقُ الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا بِدُونِ وَصِيَّةٍ مِنْهُمَا وَيَصِلُ إِلَيْهِمَا ثَوَابُهَا فَيُخَصَّصُ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ عُمُومَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (53 : 39) وَلَكِنْ لَيْسَ فِي أَحَادِيثِ الْبَابِ إِلَّا لُحُوقُ الصَّدَقَةِ مِنَ الْوَلَدِ ،

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ وَلَدَ الْإِنْسَانِ مِنْ سَعْيِهِ فَلَا حَاجَةَ إلَى التَّخْصِيصِ ، وَأَمَّا مِنْ غَيْرِ الْوَلَدِ فَالظَّاهِرُ الْعُمُومَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ أَنَّهُ لَا يَصِلُ ثَوَابُهُ إلَى الْمَيِّتِ ، فَيُوقَفُ عَلَيْهَا حَتَّى يَأْتِيَ دَلِيلٌ يَقْتَضِي تَخْصِيصَهَا " ثُمَّ ذَكَرَ خِلَافَ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ .

هَذَا وَإِنَّا نَخْتِمُ هَذَا الْبَحْثَ بِأَحَادِيثَ اغْتَرَّ بِهَا بَعْضُ الْقَائِلِينَ بِانْتِفَاعِ الْمَوْتَى بِكُلِّ مَا يُعْمَلُ لِأَجْلِهِمْ أَوْ يُهْدَى إلَيْهِمْ مِنْ ثَوَابِ غَيْرِهِمْ .

(214/259)

---

(1) حَدِيثُ وَضْعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَرِيدَتَيْنِ عَلَى الْقَبْرَيْنِ اللَّذَيْنِ أُوحِيَ إلَيْهِ أَنَّ أَصْحَابَهُمَا يُعَذَّبَانِ . قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ يُسْتَأْنَسُ بِهِ لِانْتِفَاعِ الْمَوْتَى بِعَمَلِ الْأَحْيَاءِ ، وَلَمْ يَقُلْ : إنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، وَنَحْنُ نَقُولُ : إنَّهُ لَا يَقُومُ دَلِيلًا وَلَا اسْتِئْنَاسًا فَإِنَّهُ وَاقِعَةُ حَالٍ فِي أَمْرٍ غَيْبِيٍّ غَيْرِ مَعْقُولِ الْمَعْنَى ، وَالظَّاهِرُ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(2) حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَهْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ . قَالَ " مَنْ شُبْرُمَةُ ؟ " قَالَ : أَخٌ لِي أَوْ قَرِيبٌ لِي ، قَالَ " حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ ؟ " قَالَ : لَا . قَالَ " حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ " قَالَ الْحَافِظُ فِي بُلُوغِ الْمَرَامِ : صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالرَّاجِحُ عِنْدَ أَحْمَدَ وَقْفُهُ . وَفِي عَوْنِ

الْمَعْبُودِ : رَجَّحَ الطَّحَاوِيُّ وَقْفَهُ وَقَالَ أَحْمَدُ رَفْعُهُ خَطَأٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : لَا يَثْبُتُ رَفْعُهُ . وَأَقُولُ :

(215/259)

إِنَّ فِي سَنَدِهِ قَتَادَةَ عَنْ عَزْرَةَ وَلَمْ يُنْسَبْ عَزْرَةُ إِلَى وَالِدٍ وَلَا بَلَدٍ ، وَقَدْ قَالَ النَّسَائِيُّ : إِنَّ عَزْرَةَ الَّذِي رَوَى عَنْهُ قَتَادَةُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ . فَتَرَجَّحَ بِهَذَا أَنَّهُ عَزْرَةُ بْنُ تَمِيمٍ ، لِأَنَّ قَتَادَةَ قَدِ انْفَرَدَ بِالرِّوَايَةِ عَنْهُ كَمَا قَالَ الْخَطِيبُ ، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي التَّهْذِيبِ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ فِي تَرْجَمَةِ عَزْرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ طَرِيقِ عَبْدَةَ بْنِ سُلَيْمَانَ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ ، عَنْ قَتَادَةَ ، عَنْ عَزْرَةَ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قِصَّةِ شُبْرُمَةَ فَوَقَعَ عِنْدَهُمَا عَزْرَةُ غَيْرُ مَنْسُوبٍ ، وَجَزَمَ الْبَيْهَقِيُّ بِأَنَّهُ عَزْرَةُ بْنُ يَحْيَى ، وَنُقِلَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ النَّيْسَابُورِيِّ أَنَّهُ قَالَ : رَوَى قَتَادَةُ أَيْضًا عَنْ عَزْرَةَ بْنِ ثَابِتٍ وَعَنْ عَزْرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَنْ هَذَا – فَقَتَادَةُ قَدْ رَوَى عَنْ ثَلَاثَةٍ كُلٌّ مِنْهُمْ اسْمُهُ عَزْرَةُ ، فَقَوْلُ النَّسَائِيِّ فِي التَّمْيِيزِ " عَزْرَةُ الَّذِي رَوَى عَنْهُ قَتَادَةُ لَيْسَ بِذَلِكَ الْقَوِيِّ " لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي عَزْرَةَ بْنِ تَمِيمٍ كَمَا سَاقَهُ فِيهِ الْمُؤَلِّفُ فَلْيُتَفَطَّنْ لِذَلِكَ . (قُلْتُ) وَعَزْرَةُ بْنُ يَحْيَى لَمْ أَرَ لَهُ ذِكْرًا فِي تَارِيخِ الْبُخَارِيِّ اهـ .

وَنَقُولُ : قَدْ تَفَطَّنَّا لِمَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فَوَجَدْنَا لِجَرْحِ النَّسَائِيِّ لَهُ مَخْرَجًا ، وَهُوَ أَنَّ كُلًّا مِنْ عَزْرَةَ بْنِ ثَابِتٍ وَعَزْرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ وُثِّقَا . وَالنَّسَائِيُّ مِمَّنْ وَثَّقُوا الْأَوَّلَ . فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْمَجْرُوحُ غَيْرَهُمَا ، فَهُوَ إمَّا ابْنُ تَمِيمٍ وَإِمَّا ابْنُ يَحْيَى الْمَجْهُولُ – فَكَيْفَ نَأْخُذُ بِحَدِيثٍ مَوْقُوفٍ انْفَرَدَ بِهِ مِثْلُ هَذَيْنِ الرَّاوِيَيْنِ فِي مَسْأَلَةٍ مُخَالِفَةٍ لِنُصُوصِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ .

(3) حَدِيثُ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ " اقْرَءُوا " يس " عَلَى مَوْتَاكُمْ " قَالَ فِي الْمُنْتَقَى : رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَأَحْمَدُ وَلَفْظُهُ " يس قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ إلَّا غُفِرَ لَهُ وَاقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ " قَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي شَرْحِهِ لَهُ : الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَصَحَّحَهُ وَأَعَلَّهُ ابْنُ الْقَطَّانِ بِالِاضْطِرَابِ وَبِالْوَقْفِ وَبِجَهَالَةِ حَالِ أَبِي عُثْمَانَ وَأَبِيهِ فِي السَّنَدِ ، وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ مَجْهُولُ الْمَتْنِ وَلَا يَصِحُّ فِي الْبَابِ حَدِيثٌ اهـ .

أَقُولُ : إِنَّ اللَّفْظَ الْأَوَّلَ لِلْحَدِيثِ لِأَبِي دَاوُدَ وَالْأَخِيرَ لِأَحْمَدَ فِيمَا يَظْهَرُ فَإِنَّ لَفْظَ ابْنِ مَاجَهْ " اقْرَءُوهَا عِنْدَ مَوْتَاكُمْ "يَعْنِي " يس " ، وَالنَّسَائِيُّ لَمْ يُخْرِجْهُ فِي سُنَنِهِ بَلْ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَابْنُ حِبَّانَ يَتَسَاهَلُ فِي التَّصْحِيحِ فَيُتَثَبَّتُ فِي تَصْحِيحِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوجَدْ نَصٌّ لِلنُّقَّادِ فِي مُعَارَضَتِهِ فِيهِ فَكَيْفَ إِذَا صَرَّحَ جَهَابِذَةُ النُّقَّادِ بِمُعَارَضَتِهِ وَالْجَرْحُ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّعْدِيلِ ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ الَّذِي صَرَّحُوا بِعَدَمِ صِحَّتِهِ مُخَالِفًا لِلْآيَاتِ الصَّرِيحَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ؟ وَلَكِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا قَوْلَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِجَوَازِ الْعَمَلِ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَشْمَلُهَا النُّصُوصُ الْعَامَّةُ وَبَيْنَ مَا تَدُلُّ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِهِ ، بَلْ عَلَى حَظْرِهِ وَكَوْنِهِ بِدْعَةً مُخَالِفَةً لِأُصُولِ الشَّرِيعَةِ ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ قِرَاءَةَ سُورَةِ يس عَلَى الْقُبُورِ قَدْ عَمَّ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ وَصَارَ كَالسُّنَنِ الصَّحِيحَةِ الْمُتَّبَعَةِ لِمَا لِلْأَنْفُسِ مِنَ الْهَوَى فِي ذَلِكَ .

(218/259)

ثُمَّ إِنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ عَلَى عَدَمِ صِحَّتِهِ مَتْنًا وَسَنَدًا : الْقِرَاءَةُ عِنْدَ الْمَيِّتِ ، أَيِ الَّذِي حَضَرَهُ الْمَوْتُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ رُوَاةُ الْحَدِيثِ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ ، وَصَرَّحُوا بِأَنَّ حِكْمَتَهُ سَمَاعُ مَا فِي السُّورَةِ مِنْ ذِكْرِ الْبَعْثِ وَلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى لِيَكُونَ آخِرَ مَا تَشْتَغِلُ بِهِ نَفْسُ الْمَيِّتِ . وَقَدْ

أَوْرَدَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي (بَابِ الْقِرَاءَةِ عِنْدَ الْمَيِّتِ) وَابْنُ مَاجَهْ فِي (بَابِ مَا جَاءَ فِيمَا يُقَالُ عِنْدَ الْمَرِيضِ إِذَا احْتَضَرَ) وَقَالَ صَاحِبُ عَوْنِ الْمَعْبُودِ شَرْحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عِنْدَ عِبَارَةِ " عَلَى مَوْتَاكُمْ " أَيِ الَّذِينَ حَضَرَهُمُ الْمَوْتُ ، وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي قِرَاءَتِهَا أَنْ يَسْتَأْنِسَ الْمُحْتَضِرُ بِمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ . قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ : الْأَمْرُ بِقِرَاءَةِ يس عَلَى مَنْ شَارَفَ الْمَوْتَ مَعَ وُرُودِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس " إِيذَانٌ بِأَنَّ اللِّسَانَ حِينَئِذٍ ضَعِيفُ الْقُوَّةِ وَسَاقِطُ الْمِنَّةِ لَكِنَّ الْقَلْبَ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ بِكُلِّيَّتِهِ فَيَقْرَأُ عَلَيْهِ مَا يُزَادُ بِهِ قُوَّةُ قَلْبِهِ وَيَشْتَدُّ تَصْدِيقُهُ بِالْأُصُولِ . فَهُوَ إِذًا عَمَلُهُ وَمَهَمُّهُ ، قَالَهُ الْقَارِئُ اهـ .

(219/259)

وَأَقُولُ : إِنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَوَائِلِ كِتَابِ الرُّوحِ وَحَقَّقَ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالَهُ عُلَمَاءُ الْمَنْقُولِ وَعُلَمَاءُ الْمَعْقُولِ بِمَا أَرْبَى بِهِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ . قَالَ نَفَعَنَا اللهُ بِعُلُومِهِ " وَفِي النَّسَائِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " اقْرَءُوا يس عِنْدَ مَوْتَاكُمْ " وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ قِرَاءَتُهَا عَلَى الْمُحْتَضِرِ عِنْدَ مَوْتِهِ مِثْلَ قَوْلِهِ " لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ " وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْقِرَاءَةُ عِنْدَ الْقَبْرِ .

وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِوُجُوهٍ : (أَحَدُهَا) أَنَّهُ نَظِيرُ قَوْلِهِ " لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " . (الثَّانِي) انْتِفَاعُ الْمُحْتَضِرِ بِهَذِهِ السُّورَةِ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ وَالْبُشْرَى بِالْجَنَّةِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَغِبْطَةِ مَنْ مَاتَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) (36 : 26 ، 27) فَيَسْتَبْشِرُ الرُّوحُ بِذَلِكَ فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ فَيُحِبُّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ قَلْبُ الْقُرْآنِ ، وَلَهَا خَاصِّيَّةٌ عَجِيبَةٌ فِي قِرَاءَتِهَا عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ شَيْخِنَا أَبِي الْوَقْتِ عَبْدِ الْأَوَّلِ وَهُوَ فِي السِّيَاقِ ، وَكَانَ آخِرُ عَهْدِنَا بِهِ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَضَحِكَ وَقَالَ : (يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) وَقَضَى .

(220/259)

(الثَّالِثُ) أَنَّ هَذَا عَمَلُ النَّاسِ وَعَادَتُهُمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، يَقْرَءُونَ " يس " عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ .

(الرَّابِعُ) أَنَّ الصَّحَابَةَ لَوْ فَهِمُوا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " اقْرَءُوا يس عِنْدَ مَوْتَاكُمْ " قِرَاءَتَهَا عِنْدَ الْقَبْرِ لَمَا أَخَلُّوا بِهِ وَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا مُعْتَادًا مَشْهُورًا بَيْنَهُمْ .

(الْخَامِسُ) أَنَّ انْتِفَاعَهُ بِاسْتِمَاعِهَا وَحُضُورِ قَلْبِهِ وَذِهْنِهِ عِنْدَ قِرَاءَتِهَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا

هُوَ الْمَقْصُودُ ، وَأَمَّا قِرَاءَتُهَا عِنْدَ قَبْرِهِ فَإِنَّهُ لَا يُثَابُ عَلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّ الثَّوَابَ إِمَّا بِالْقِرَاءَةِ أَوْ بِالِاسْتِمَاعِ وَهُوَ عَمَلٌ ، وَقَدِ انْقَطَعَ مِنَ الْمَيِّتِ اهـ .

(221/259)

أَقُولُ : هَذَا التَّحْقِيقُ كَافٍ فِي بَابِهِ وَلَا يُنَافِيهِ مَا ذَكَرَهُ قَبْلَهُ فِي قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتِهَا عِنْدَ رَأْسِ الْمَيِّتِ عِنْدَ دَفْنِهِ – وَهُوَ أَثَرٌ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَوْصَى بِهِ – فَإِنَّهُ فِي مَعْنَى تَلْقِينِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَهُوَ صَحِيحٌ ، وَالتَّلْقِينُ بَعْدَ الدَّفْنِ وَالْحَدِيثُ فِيهِ ضَعِيفٌ ، وَإِلَّا فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَقَدِ انْفَرَدَ بِرِوَايَتِهِ مُبَشِّرٌ الْحَلَبِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْعَلَاءِ اللَّجْلَاجِ وَلَمْ يَرْوِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَحَدٌ غَيْرُ مُبَشِّرٍ هَذَا ، وَغَايَةُ مَا قَالُوا فِيهِ إِنَّهُ مَقْبُولٌ ، وَلَيْسَ لَهُ فِي دَوَاوِينِ السُّنَّةِ غَيْرُ حَدِيثٍ وَاحِدٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ . وَالصَّوَابُ أَنَّهُ لَا يَنْقُضُ قَوْلَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ الْقِرَاءَةَ عِنْدَ الْقَبْرِ بِدْعَةٌ ، وَإِنَّمَا يُخَصِّصُ عُمُومَهُ بِوُرُودِ الْقِرَاءَةِ عَنْ بَعْضِهِمْ عِنْدَ دَفْنِ الْمَيِّتِ فَقَطْ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الشُّذُوذِ .

وَمِمَّا ذَكَرْنَاهُ يُعْلَمُ سَبَبُ اخْتِلَافِ الْحَنَابِلَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، قَالَ ابْنُ مُفْلِحٍ فِي كِتَابِ الْفُرُوعِ : (فَصْلٌ) لَا تُكْرَهُ الْقِرَاءَةُ عَلَى الْقَبْرِ وَفِي الْمَقْبَرَةِ نَصَّ عَلَيْهِ ، اخْتَارَهُ أَبُو بَكْرٍ وَالْقَاضِي

وَجَمَاعَةٌ وَهُوَ الْمَذْهَبُ (خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ) وَعَلَيْهِ الْعَمَلُ عِنْدَ مَشَايِخِ الْحَنَفِيَّةِ ، فَقِيلَ : تُبَاحُ . وَقِيلَ : تُسْتَحَبُّ ، قَالَ ابْنُ تَمِيمٍ . نُصَّ عَلَيْهِ كَالسَّلَامِ

(222/259)

وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَعَنْهُ لَا يُكْرَهُ وَقْتَ دَفْنِهِ ، وَعَنْهُ يُكْرَهُ اخْتَارَهُ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْوَرَّاقُ وَأَبُو حَفْصٍ (وِفَاقًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ) قَالَ شَيْخُنَا : نَقَلَهَا جَمَاعَةٌ وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعَلَيْهَا قُدَمَاءُ أَصْحَابِهِ (أَيْ أَصْحَابُ أَحْمَدَ) . . . قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ : أَبُو حَفْصٍ يُغَلِّبُ الْحَظْرَ (أَيْ كَوْنُهَا حَرَامًا) ثُمَّ هَاهُنَا ذَكَرَ وَصِيَّةَ ابْنِ عُمَرَ بِقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتِهَا عَلَى رَأْسِهِ عِنْدَ دَفْنِهِ ، الَّتِي هِيَ سَبَبُ رُجُوعِ أَحْمَدَ عَنْ حَظْرِ الْقِرَاءَةِ مُطْلَقًا ، وَالْخِلَافُ فِي نَذْرِ الْقِرَاءَةِ بِنَاءً عَلَى هَذَا الْخِلَافِ . وَقَوْلُ الْمَرُّوذِيِّ بِنَاءً عَلَى الْحَظْرِ فِيمَنْ نَذَرَ أَنْ يَقْرَأَ عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِ : يُكَفِّرُ عَنْ يَمِينِهِ وَلَا يَقْرَأُ – ثُمَّ قَالَ : وَعَنْهُ (أَيِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ) بِدْعَةٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِعْلِ أَصْحَابِهِ فَعُلِمَ أَنَّهُ مُحْدَثٌ ، وَسَأَلَهُ عَبْدُ اللهِ (أَيِ ابْنُهُ) يَحْمِلُ مُصْحَفًا إلَى الْمَقْبَرَةِ فَيَقْرَأُ فِيهِ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : بِدْعَةٌ ، قَالَ شَيْخُنَا : وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ أَنَّ الْقِرَاءَةَ عِنْدَ الْقَبْرِ أَفْضَلُ وَلَا رُخِّصَ فِي اتِّخَاذِهِ عِيدًا كَاعْتِيَادِ الْقِرَاءَةِ عِنْدَهُ فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ أَوِ الذِّكْرِ أَوِ الصِّيَامِ ، قَالَ : وَاتِّخَاذُ الْمَصَاحِفِ عِنْدَهَا وَلَوْ لِلْقِرَاءَةِ

فِيهَا بِدعَةٌ ، وَلَوْ نَفَعَ الْمَيّتَ لَفَعَلَهُ السَّلَفُ " اهـ . وَلِهَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ نُصُوصٌ فِي بُطْلَانِ الْوَقْتِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ

(223/259)

عِنْدَ الْقُبُورِ كَبُطْلَانِهِ عَلَى مَا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ مِنْ تَشْيِيدِهَا وَالْبِنَاءِ وَإِيقَادِ السُّرُجِ عَلَيْهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْبِدَعِ الَّتِي صَارَتْ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ فِي عِدَادِ السُّنَنِ ، بَلْ يَهْتَمُّونَ لَهُمَا مَا لَا يَهْتَمُّونَ لِلْفَرَائِضِ لِلْأَهْوَاءِ الْمَوْرُوثَةِ فِي ذَلِكَ . وَإِذْ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ حَدِيثَ قِرَاءَةِ سُورَةِ " يس " عَلَى الْمَوْتَى غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ أُرِيدَ

بِهِ مَنْ حَضَرَهُمُ الْمَوْتُ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ قَطُّ كَمَا قَالَ الْمُحَقِّقُ الدَّارَقُطْنِيُّ ، فَاعْلَمْ أَنَّ مَا اشْتُهِرَ وَعَمَّ الْبَدْوَ وَالْحَضَرَ مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ لِلْمَوْتَى لَمْ يَرِدْ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ وَلَا ضَعِيفٌ ، فَهُوَ مِنَ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ النُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ وَلَكِنَّهُ صَارَ بِسُكُوتِ اللَّابِسِينَ لِبَاسَ الْعُلَمَاءِ وَبِإِقْرَارِهِمْ لَهُ ثُمَّ بِمُجَارَاةِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِ مِنْ قَبِيلِ السُّنَنِ الْمُؤَكَّدَةِ أَوِ الْفَرَائِضِ الْمُحَتَّمَةِ .

(224/259)

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مِنَ الْأُمُورِ التَّعَبُّدِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ فِيهَا الْوُقُوفُ عِنْدَ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَمَلِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْمُقَرَّرَةَ فِي نُصُوصِ الْقُرْآنِ الصَّرِيحَةِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ النَّاسَ لَا يُجْزَوْنَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِأَعْمَالِهِمْ (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا) (82 : 19) (وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) (31 : 33) وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَّغَ أَقْرَبَ أَهْلِ عَشِيرَتِهِ إِلَيْهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَنْ " اعْمَلُوا لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا " فَقَالَ ذَلِكَ لِعَمِّهِ وَعَمَّتِهِ وَلِابْنَتِهِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ . وَأَنَّ مَدَارَ النَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَالثَّوَابُ مَا يَثُوبُ وَيَرْجِعُ إِلَى الْعَامِلِ مِنْ تَأْثِيرِ عَمَلِهِ فِي نَفْسِهِ - إِلَخْ مَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ وَالْأَحَادِيثِ فِيهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَقَوَاعِدِ الْعَقَائِدِ فَلَا يَدْخُلُهَا النَّسْخُ .

(225/259)

وَوَرَدَ مَعَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ لِأَحْيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْوَاتِهِمْ فِي صَلَاةِ الْجِنَازَةِ وَفِي غَيْرِهَا فَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ ثَوَابُهَا لِفَاعِلِهَا سَوَاءٌ اسْتُجِيبَ أَمْ لَا ، وَيَسْتَحِيلُ شَرْعًا وَعَقْلًا اسْتِجَابَةُ كُلِّ

دُعَاءٍ لِتَنَاقُضِ الْأَدْعِيَةِ وَلِاقْتِضَاءِ الِاسْتِجَابَةِ أَلَّا يُعَاقَبَ فَاسِقٌ وَلَا مُجْرِمٌ إلَّا إذَا اتَّفَقَ وُجُودُ أَحَدٍ لَا يَدْعُو لَهُ أَحَدٌ بِرَحْمَةٍ وَلَا مَغْفِرَةٍ فِي صَلَاةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَلِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَعْطِيلِ كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ أَوْ عَدَمِ صِدْقِهَا .

وَوَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ جَوَازُ صَدَقَةِ الْأَوْلَادِ عَنِ الْوَالِدَيْنِ وَدُعَائِهِمْ لَهُمَا وَقَضَاءِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِمَا مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَتَهُ مَعَ النُّصُوصِ فِيهِ ، وَالظَّاهِرُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْوَالِدَيْنِ يَنْتَفِعَانِ بِبَعْضِ عَمَلِ أَوْلَادِهِمَا لِأَنَّ الشَّارِعَ أَلْحَقَهُمْ بِهِمَا فَيَسْقُطُ عَنْهُمَا مَا يَنُوبُونَ عَنْهُمَا فِيهِ مِنْ أَدَاءِ دَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى كَدُيُونِ النَّاسِ ، وَيَنَالُهُمَا مِنْ دُعَائِهِمْ لَهُمَا خَيْرٌ ، لَيْسَ هُوَ ثَوَابَ الدُّعَاءِ نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ مَدَارُ الْجَزَاءِ وَالنَّجَاةِ عَلَى عَمَلِ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ لَا عَلَى عَمَلِ أَوْلَادِهِ جَمْعًا بَيْنَ النُّصُوصِ .

(226/259)

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَ الْهُدَى ، وَيَتَّقِيَ جَعْلَ الدِّينِ تَابِعًا لِلْهَوَى ، فَلْيَقِفْ عِنْدَ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَيَتَّبِعْ فِيهَا سِيرَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَيَعْرِضْ عَنْ أَقْيِسَةِ بَعْضِ الْخَلَفِ الْمُرَوِّجَةِ لِلْبِدَعِ . وَإِذَا زَيَّنَ لَكَ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ يُمْكِنُكَ أَنْ تَكُونَ أَهْدَى وَأَكْمَلَ عَمَلًا بِالدِّينِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، فَحَاسِبْ نَفْسَكَ عَلَى الْفَرَائِضِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا وَالصَّحِيحَةِ الَّتِي يَضْعُفُ الْخِلَافُ فِيهَا ،

وَانْظُرْ أَيْنَ مَكَانُكَ مِنْهَا ، فَإِنْ رَأَيْتَ وَلَوْ بِعَيْنِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ أَنَّكَ بَلَغْتَ مُدَّ أَحَدِهِمْ أَوْ نَصِيفَهُ مِنَ الْكَمَالِ فِيهَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تُعْذَرُ فِي الزِّيَادَةِ عَلَيْهَا ، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لَا يَدَّعِي ذَلِكَ إِلَّا جَهُولٌ مَفْتُونٌ ، أَوْ مَنْ بِهِ مَسٌّ مِنَ الْجُنُونِ ، وَإِنَّ أَكْثَرَ الْمُتَعَبِّدِينَ بِالْبِدَعِ ، مُقَصِّرُونَ فِي أَدَاءِ الْفَرَائِضِ أَوْ فِي الْمُوَاظَبَةِ عَلَى السُّنَنِ ، وَمِنْهُمُ الْمُصِرُّونَ عَلَى الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، كَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مَا الْتَزَمُوا فِي الْمَقَابِرِ مِنَ الْعَادَاتِ ، كَاتِّخَاذِهَا أَعْيَادًا تُشَدُّ إِلَيْهَا الرِّحَالُ ، وَيَجْتَمِعُ لَدَيْهَا النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ وَالْأَطْفَالُ ، وَلَا سِيَّمَا فِي لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ وَأَوَّلِ جُمْعَةٍ مِنْ رَجَبٍ ، وَتُذْبَحُ عِنْدَهَا الذَّبَائِحُ ، وَتُطْبَخُ أَنْوَاعُ الْمَآكِلِ ، فَيَأْكُلُونَ ثُمَّ يَشْرَبُونَ ، وَيَبُولُونَ وَيَغُوطُونَ ، وَيَلْغُونَ وَيَصْخَبُونَ وَيَقْرَأُ لَهُمُ الْقُرْآنَ ، مَنْ يَسْتَأْجِرُونَ

(227/259)

لِذَلِكَ مِنَ الْعُمْيَانِ ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ، وَإِذَا كَانَ مَا يَأْتُونَ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ هُنَالِكَ مِنَ الْبِدَعِ الْمُنْكَرَةِ ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُبَاحَاتِ يُعَدُّ هُنَالِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَكْرُوهَةِ أَوِ الْمُحَرَّمَةِ ، فَمَا الْقَوْلُ فِي سَائِرِ أَفْعَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ؟ .

وَلَوْ لَمْ يَرِدْ فِي حَظْرِ هَذِهِ الِاجْتِمَاعَاتِ فِي الْمَقَابِرِ إِلَّا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي السُّنَنِ الثَّلَاثَةِ مَرْفُوعًا بِسَنَدٍ صَحِيحٍ (لَعَنَ اللهُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ) لَكَفَى

وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ قَدْ صَارَ مِنْ قَبِيلِ شَعَائِرِ الدِّينِ ، وَآيَاتِ الْيَقِينِ تُوقَفُ لَهَا الْأَوْقَافُ الَّتِي يُسَجِّلُهَا وَيَحْكُمُ بِصِحَّتِهَا قُضَاةُ الشَّرْعِ الْجَاهِلُونَ ، وَيَأْكُلُ مِنْهَا أَدْعِيَاءُ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ ، وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ يَتْرُكُونَ بَعْضَ السُّنَنِ أَحْيَانًا حَتَّى لَا يَظُنَّ الْعَوَامُّ أَنَّهَا مَفْرُوضَةٌ بِالْتِزَامِهَا تَأَسِّيًا بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَرْكِ الْمُوَاظَبَةِ عَلَى بَعْضِ الْفَضَائِلِ خَشْيَةَ أَنْ تَصِيرَ مِنَ الْفَرَائِضِ ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ قَصَّرُوا فِي الْفَرَائِضِ ، وَتَرَكُوا السُّنَنَ وَالشَّعَائِرَ ، وَوَاظَبُوا عَلَى هَذِهِ الْبِدَعِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَتْرُكُونَ لِأَجْلِهَا الْأَعْيَادَ وَالْجُمَعَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

خُلَاصَةُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ

(228/259)

لَوْ سُمِّيَتْ سُوَرُ الْقُرْآنِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى جُلِّ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كُلُّ سُورَةٍ أَوْ عَلَى أَهَمِّهِ لَسُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةَ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ سُورَةَ التَّوْحِيدِ ، عَلَى مَا جَرَى عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنْ عِلْمِ الْعَقَائِدِ بِالتَّوْحِيدِ لِأَنَّهُ أَسَاسُهَا وَأَعْظَمُ أَرْكَانِهَا ، فَهِيَ مُفَصِّلَةٌ لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ مَعَ دَلَائِلِهَا ، وَمَا تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ ، وَلِرَدِّ شُبُهَاتِ الْكُفَّارِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ هَدْمِ هَيَاكِلِ الشِّرْكِ وَتَقْوِيضِ أَرْكَانِهِ ، وَلِإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ

وَالْوَحْيِ وَتَفْنِيدِ شُبُهَاتِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِلْزَامِهِمُ الْحُجَّةَ بِآيَةِ اللهِ الْكُبْرَى وَهِيَ الْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ مِنْ عَقْلِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ ، وَمُبَيِّنَةٍ لِوَظَائِفِ الرَّسُولِ وَدَعْوَتِهِ وَهَدْيِهِ

فِي النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَلِلْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَلِأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَلِأُصُولِ الدِّينِ وَوَصَايَاهُ الْجَامِعَةِ فِي الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ – وَلَيْسَ فِيهَا عَلَى طُولِهَا قِصَّةٌ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ الْمُفَصَّلَةِ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ الطَّوِيلَةِ كَالْأَعْرَافِ مِنَ الطُّولِ ، وَيُونُسَ وَهُودٍ مِنَ الْمِئِينَ ، وَالطَّوَاسِينَ مِنَ الْمَثَانِي ، بَلْ جَمِيعُ آيَاتِهَا فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَالْجَزَاءِ وَأُصُولِ الْبِرِّ وَأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ

(229/259)

وَالْكَافِرِينَ ، وَآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُحَاجَّةُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي التَّوْحِيدِ ، وَمَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ ، وَذُكِرَ فِيهَا مُوسَى وَالتَّوْرَاةُ لِلشَّبَهِ بَيْنَ رِسَالَتِهِ وَكِتَابِهِ وَبَيْنَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَكِتَابِهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا شَرَحْنَاهُ فِي مَحَلِّهِ ، وَمِنْهُ وَصَايَا الْقُرْآنِ الْعَشْرُ وَوَصَايَا التَّوْرَاةِ الْعَشْرُ ، وَذُكِرَ فِيهَا أَيْضًا مَا كَانَ مِنْ حَالِ الرُّسُلِ عَامَّةً مَعَ أَقْوَامِهِمُ الْمُشْرِكِينَ لِأَجْلِ الْعِبْرَةِ

وَتَسْلِيَةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَإِنَّنَا بَعْدَ هَذَا الْإِجْمَالِ نُذَكِّرُ الْقُرَّاءَ بِبَعْضِ الْأُصُولِ الَّتِي يَغْفَلُ الْكَثِيرُونَ عَنْ جُمْلَتِهَا وَفَوَائِدِ الْجَمْعِ بَيْنَهَا .

أَسَالِيبُ الْقُرْآنِ فِي الْعَقَائِدِ الْإِلَهِيَّةِ :

(230/259)

أَمَّا مَسَائِلُ الْعَقَائِدِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ فَقَدْ فُصِّلَتْ أَبْلَغَ تَفْصِيلٍ بِأَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْعَالِيَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْإِقْنَاعِ وَالتَّأْثِيرِ ، كَبَيَانِ صِفَاتِ اللهِ فِي سِيَاقِ بَيَانِ أَفْعَالِهِ وَسُنَنِهِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ ، وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ . وَآيَاتِهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، وَطَبَائِعِ الِاجْتِمَاعِ وَمَلَكَاتِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَأْثِيرِ الْعَقَائِدِ فِي الْأَعْمَالِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا فِي الدَّارَيْنِ مِنَ الْجَزَاءِ ، وَنَاهِيكَ بِإِيرَادِ الْحَقِيقَةِ بِأُسْلُوبِ الْمُنَاظَرَةِ وَالْجِدَالِ ، أَوْ وُرُودِهَا جَوَابًا بَعْدَ سُؤَالٍ ، أَوْ تَجَلِّيهَا فِي وُرُودِ الْوَقَائِعِ وَضُرُوبِ الْأَمْثَالِ ، وَهَذَا الْأُسْلُوبُ أَعْلَى الْأَسَالِيبِ وَأَكْمَلُهَا جَمْعًا بَيْنَ إِقْنَاعِ الْعُقُولِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْقُلُوبِ ، فَيَقْتَرِنُ الْيَقِينُ فِي الْإِيمَانِ ، بِحُبِّ التَّعْظِيمِ وَخُشُوعِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ . وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَذْكُرُ شُبَهَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ ، فَيَكُونُ مَثَلُهَا فِيهِ كَقِطْعَةٍ مِنَ الطِّينِ الْآسِنِ تُلْقَى فِي غَدِيرٍ صَافٍ . يَتَدَفَّقُ مِنْ صَخْرٍ . عَلَى حَصْبَاءَ كَالدُّرِّ . لَا تَلْبَثُ أَنْ تَتَضَاءَلَ وَتَخْفَى . وَلَا تُكَدِّرَ لَهُ صَفْوًا . حَتَّى إِنَّهُ لَيُسْتَغْنَى ، بِمُجَرَّدِ بَيَانِهَا ، عَنْ وَصْفِ قُبْحِهَا وَالْحُجَّةِ

عَلَى بُطْلَانِهَا ، فَكَيْفَ وَهِيَ تُقْرَنُ غَالِبًا بِالْوَصْفِ الْكَاشِفِ لِمَا غَشِيَهَا مِنَ التَّلْبِيسِ . أَوْ يُقَفَّى عَلَيْهَا بِالْبُرْهَانِ الدَّامِغِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَبَاطِيلِ . وَلَا تَغْفَلُ عَنْ أُسْلُوبِ إِحَالَةِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى مَا أُودِعَ فِي غَرَائِزِهِمْ وَفِطَرِهِمْ .

(231/259)

وَتَذْكِيرِهِمْ بِمُعَارَضَتِهِ لِمَا أَلِفُوا مِنْ تَقَالِيدِهِمْ وَفَسَادِ نَظَرِهِمْ . وَلَا عَنْ أُسْلُوبِ إِنْذَارِ سُوءِ الْمَغَبَّةِ فِي الْعَاجِلَةِ . وَسُوءِ الْعَاقِبَةِ وَالْمَصِيرِ فِي الْآخِرَةِ .

أَضَلَّتِ الْفَلْسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ عُلَمَاءَ الْكَلَامِ عَنْ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الْعُلْيَا فَلَمْ يَهْتَدُوا بِهَا وَلَا اقْتَدَوْا بِشَيْءٍ مِنْهَا ، بَلْ طَفِقُوا يُلَقِّنُونَ النَّشْءَ الْإِسْلَامِيَّ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى مَسْرُودَةً سَرْدًا مَعْدُودَةً عَدًّا .

مُعَرَّفَةً بِحُدُودٍ نَاقِصَةٍ ، أَوْ رُسُومٍ دَارِسَةٍ مَقْرُونَةٍ بِأَدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ وَتَشْكِيكَاتٍ جَدَلِيَّةٍ . لَا تُثْمِرُ إِيمَانَ الْإِذْعَانِ ، وَلَا خَشْيَةَ الدَّيَّانِ ، وَلَا حُبَّ الرَّحْمَنِ ، بَلْ تُثِيرُ رَوَاكِدَ الشُّبُهَاتِ . وَتَتَعَارَضُ فِي إِثْبَاتِهَا دَلَائِلُ النَّظَرِيَّاتِ .

تَأَمَّلْ كَيْفَ بُدِئَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِحَمْدِ اللهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . ثُمَّ التَّذْكِيرِ بِخَلْقِ النَّاسِ وَقَضَاءِ الْآجَالِ ، وَكَيْفَ عُطِفَ عَلَى الْأَوَّلِ ذِكْرُ شِرْكِ

الْكَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ بِجَعْلِ بَعْضِ خَلْقِهِ عَدْلًا لَهُ . مَعَ أَنَّ الْبَدَاهَةَ قَاضِيَةٌ بِأَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ . وَعُطِفَ عَلَى الثَّانِي التَّنْبِيهُ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمَانِعُ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ . تَذْكِيرًا لِلْمُسْتَعِدِّ لِلْفَهْمِ بِالْمَانِعِ لِيُجْتَنَبَ ، وَالْمُقْتَضِي لِيُتَّبَعَ ، وَإِيذَانًا لِلْعَاقِلِ بِأَنَّ عَقَائِدَ الْإِسْلَامِ مُؤَيَّدَةٌ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ .

(232/259)

وَلَمَّا كَانَ التَّوْحِيدُ الَّذِي هُوَ لُبَابُ الدِّينِ وَرُوحُهُ نَوْعَيْنِ – تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ – بَيَّنَ كُلًّا مِنْهُمَا بِالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ ، وَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ قَلِيلًا فِي النَّاسِ وَالشِّرْكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ دُونَ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ الْكَثِيرَ الْفَاشِيَ ، وَعَلَيْهِ سَوَادُ جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ الْأَعْظَمِ ، بُنِيَ الْقَوْلُ بِبُطْلَانِ هَذَا عَلَى بُطْلَانِ ذَاكَ ، كَمَا بُنِيَتْ حُجَجُ إِثْبَاتِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْمُعْتَرِفِ بِهِ مِنْ إِثْبَاتِ الْآخَرِ ، رَاجِعْ فِي فِهْرَسَيِ الْجُزْءَيْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ مِنَ التَّفْسِيرِ بَحْثَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ وَالشَّفَاعَةِ وَالرَّبِّ وَالْإِلَهِ وَالْجَزَاءِ ، وَفِي آخِرِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ بَحْثَ نَجَاةِ النَّاسِ وَسَعَادَتِهِمْ أَوْ شَقَاوَتِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ .

وَأَنْتَقِلُ بِكَ مِنْ هَذَا التَّذْكِيرِ إِلَى قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِمَا وَسَلَّمَ مَعَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي إِنْكَارِهِ عَلَيْهِمُ اتِّخَاذَ الْأَصْنَامِ آلِهَةً أَيْ مَعْبُودِينَ . وَاتِّخَاذَ الْكَوَاكِبِ أَرْبَابًا أَيْ

مُدَبِّرِينَ لِأُمُورِ الْعَالَمِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا خَالِقِينَ ، وَهُوَ بَحْثٌ جَاءَ بِأُسْلُوبِ الْمُنَاظَرَةِ فِي قِصَّةٍ وَاقِعَةٍ تَعَدَّدَتْ فِيهَا الْحُجَجُ عَلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ مَعًا ، فَكَانَ أَجْدَرَ بِأَنْ يُوعَى فَيُحْفَظَ ، وَيُعْقَلَ فَيُقْبَلَ . وَقَدْ أَسْهَبْنَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمَعْرُوفِينَ فَاسْتَغْرَقَ خَمْسِينَ صَفْحَةً أَوْ أَكْثَرَ ص435 - 486 ج7 ط الْهَيْئَةِ .

(233/259)

وَمِنْ أَبْلَغِ مَا فِي السُّورَةِ مِنْ تَقْرِيرِ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَسُوءِ حَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي ضَلَالِهِمْ عَنْهَا وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ آيَاتِهَا بِأُسْلُوبِ التَّمْثِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ) (39) فَارْجِعْ إِلَى تَفْسِيرِهَا (فِي ص336 - 339 مِنْ ج7 تَفْسِيرٌ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ) (71) إِلَخْ . فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا (ص 435 - 442 ط الْهَيْئَةِ مِنْهُ أَيْضًا) .

وَلَا حَاجَةَ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى شَوَاهِدِ بَيَانِ التَّوْحِيدِ مِنْ طَرِيقِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ لِكَثْرَتِهَا مَعَ ظُهُورِهَا لِكُلِّ قَارِئٍ بِصِيغَتِهَا .

(234/259)

وَلَعَلَّ أَرَقَّ أَسَالِيبِ الْإِقْنَاعِ ، وَأَبْلَغَ وَسَائِلِ الْإِذْعَانِ بِأُصُولِ الْإِيمَانِ ، إِحَالَةُ الْمُخَاطَبِينَ إِلَى غَرَائِزِهِمْ وَفِطَرِهِمْ ، وَتَذْكِيرُهُمْ بِتَأْثِيرِ التَّرْبِيَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَمَنَاشِئِ عُرُوضِ الشُّبُهَاتِ لِأَذْهَانِهِمْ ، وَإِلْزَامُهُمُ الْحُجَّةَ بِمُحَاسَبَةِ عُقُولِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى تَعَارُضِ الْأَفْكَارِ وَتَنَاقُضِ الْأَقْوَالِ ، بِسَبَبِ اخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ ، وَمُخَالَفَةِ التَّقَالِيدِ وَالْمُسَلَّمَاتِ ، لِلْغَرَائِزِ وَالْمَلَكَاتِ . وَيَتْلُو هَذَا الْأُسْلُوبَ إِحَالَتُهُمْ عَلَى مِثَالِ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ بِالنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْمُعَاصِرِينَ ، وَالِاعْتِبَارِ بِسِيَرِ الْغَابِرِينَ . فَآيَاتُهُ تَعَالَى فِي الْأَنْفُسِ أَقْوَى مِنْ آيَاتِهِ فِي غَيْرِهَا (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (51 : 20 ، 21) . تَأَمَّلْ وَصْفَ الْمُعَانِدِينَ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ التَّاسِعَةِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ جَمِيعِ الْآيَاتِ الَّتِي تَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ لِمَّا جَاءَهُمْ ، وَالْحَزْمِ بِأَنَّهُمْ يُكَابِرُونَ الْحِسَّ وَيَشْتَبِهُونَ فِي اللَّمْسِ وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْ مُحِيطِ اللَّبْسِ ، وَقَابَلَهُ بِقَوْلِهِ : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا) (109) إِلَى قَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (111) ثُمَّ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِقَطْعِ إِنْزَالِ الْكِتَابِ لِاعْتِذَارِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

عَنْ شِرْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ بِأَنَّ الْكِتَابَ إِنَّمَا أُنْزِلَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا غَافِلِينَ عَنْ دِرَاسَتِهِ ، جَاهِلِينَ لِهِدَايَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَوْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ لَكَانُوا أَهْدَى مِنْهُمْ لِذَكَاءِ عُقُولِهِمْ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِمْ - فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ 154 - 157 .

ثُمَّ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي أُولَئِكَ الْمُعْرِضِينَ بَعْدَ تَسْلِيَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جُحُودِهِمْ (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ) (35) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (39) تَرَ كَيْفَ سَجَّلَ عَلَيْهِمُ الْجَهْلَ وَالْحِرْمَانَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَشَبَّهَهُمْ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ ، ثُمَّ تَأَمَّلْ كَيْفَ الْتَفَتَ عَنْ خِطَابِ الرَّسُولِ إِلَى خِطَابِهِمْ ، سَائِلًا إِيَّاهُمْ أَنْ يُرَاجِعُوا عُقُولَهُمْ وَضَمَائِرَهُمْ وَيُخْبِرُوا كَيْفَ حَالُهَا إِذَا أَتَاهَا عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْهَا السَّاعَةُ ؟ أَغَيْرَ اللهِ يَدْعُونَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ ثُمَّ أَجَابَ عَنْهُمْ بِمَا يَعْلَمُونَهُ حَقَّ الْعِلْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَنَّهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الشِّدَّةِ الْقُصْوَى يَدْعُونَ اللهَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ لَا يَخْطُرُ فِي بَالِهِمْ سِوَاهُ ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الْوُجْدَانِيُّ الَّذِي فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ النَّاسَ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْهُ الْوَسَاوِسُ الْوَهْمِيَّةُ ، وَالتَّقَالِيدُ الْمَوْرُوثَةُ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي ص 317 - 345 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) .

وَلَا تَغْفَلْ عِنْدَ مُرَاجَعَةِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ عَمَّا يُمَازِجُهَا أَوْ يُقَارِنُهَا مِنَ الْآيَاتِ فِي الْأُسْلُوبِ الْآخَرِ الْمُنَاسِبِ لَهُ ، وَهُوَ التَّذْكِيرُ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَقِيَامِ حُجَجِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ . فَإِنَّمَا غَرَضُنَا هَذَا التَّنْبِيهُ وَالتَّذْكِيرُ ، وَإِذَا أَحْيَانَا اللهُ تَعَالَى وَوَفَّقَنَا لِإِنْجَازِ مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ وَضْعِ كِتَابٍ فِي فِقْهِ الْقُرْآنِ وَهِدَايَتِهِ مُرَتَّبٍ عَلَى أَبْوَابِ الْعَقَائِدِ وَالْآدَابِ

وَالْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ فَهُنَاكَ نَسْتَوْفِي بَيَانَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ فِي إِثْبَاتِ الْعَقَائِدِ بِالشَّوَاهِدِ مِنَ الْقُرْآنِ كُلِّهِ .

وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ شَيْءٍ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى أُسْلُوبِ إِنْذَارِ الْعَاقِبَةِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهَا جَلِيَّةٌ وَاضِحَةُ الْأَسَالِيبِ فِي عَقِيدَةِ الْوَحْيِ وَالرُّسُلِ .

الْأَسَالِيبُ فِي عَقِيدَةِ الْوَحْيِ وَالرُّسُلِ

(237/259)

وَأَمَّا مَسَائِلُ الرُّكْنِ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الِاعْتِقَادِ وَهُوَ الْوَحْيُ وَالرُّسُلُ ، فَنَسْتَغْنِي عَنِ التَّذْكِيرِ بِأَسَالِيبِ الْإِثْبَاتِ وَطُرُقِ الْإِقْنَاعِ فِيهِ بِمَا ذَكَرْنَا فِي عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَآيَاتِهِ وَصِفَاتِ اللهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ بُطْلَانِ الشِّرْكِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْكُفَّارِ أَجْمَعِينَ . عَلَى أَنَّ بَعْضَ

مَا ذَكَرْنَا فِيهِ وَمَا لَمْ يُذْكَرْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى مُكَابَرَةِ الْمُعَانِدِينَ لِلْآيَاتِ وَالْحُجَجِ ، تَشْتَرِكُ فِيهِ حُجَجُ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ مَعَ حُجَجِ التَّوْحِيدِ وَسَنُشِيرُ إِلَى بَعْضِهِ هُنَا . وَإِنَّمَا الْمُهِمُّ تَذْكِيرُ الْقَارِئِ ابْتِغَاءَ الِاهْتِدَاءِ فِي نَفْسِهِ وَالْهِدَايَةِ لِغَيْرِهِ بِالْآيَاتِ الَّتِي تُعَرِّفُهُ مَوْضُوعَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَصِفَاتِ الرُّسُلِ وَوَظَائِفَهُمْ ، وَمَا أُيِّدُوا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ لِإِثْبَاتِ دَعْوَتِهِمْ ، وَشُبُهَاتِ الْكُفَّارِ عَلَى ذَلِكَ وَبَيَانَ بُطْلَانِهَا .

(238/259)

قَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ أَنَّ أَكْثَرَ الْبَشَرِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ لِلْعَالَمِ خَالِقًا مُقَدِّرًا وَرَبًّا مُدَبِّرًا ، وَأَنَّ هَذَا الرَّبَّ الْخَالِقَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَيُشْكَرَ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ كُفْرَ أَكْثَرِ الْكُفَّارِ إِنَّمَا هُوَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ مَعَهُ ، وَلَوْ بِقَصْدِ التَّوَسُّلِ لِلتَّقْرِيبِ إِلَيْهِ وَالشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ . وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ يَكْفُرُونَ بِالرُّسُلِ سَوَاءٌ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِوُجُودِ اللهِ وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ ، أَمْ لَا وَهُمُ الْأَقَلُّونَ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ اسْتِبْعَادُ وُقُوعِ الْوَحْيِ وَشُبُهَاتٌ أُخْرَى عَلَيْهِ ، وَقَدْ بَيَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مَعْنَى الرِّسَالَةِ وَمَوْضُوعَ الْوَحْيِ وَالدَّلِيلَ عَلَيْهِ وَوَظَائِفَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَكَشَفَتْ مَا أَوْرَدُوا مِنَ الشُّبُهَاتِ عَلَى ذَلِكَ . فَنَحْنُ نُلَخِّصُ أَوَّلًا

مَا جَاءَ فِي مَعْنَى الرِّسَالَةِ وَمَوْضُوعِهَا وَوَظَائِفِ الرُّسُلِ ، ثُمَّ نُقَفِّي عَلَيْهِ بِمَا وَرَدَ فِيمَا أَثْبَتَهَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَدَفْعِ الشُّبُهَاتِ عَنْهَا فَنَقُولُ :

مَوْضُوعُ الرِّسَالَةِ وَوَظَائِفِ الرَّسُولِ

(239/259)

إِنَّ الرَّسُولَ بَشَرٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا غَيْرَ مُكْتَسَبٍ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ بِهِ إِلَى مَا تَتَزَكَّى بِهِ أَنْفُسُهُمْ ، وَتَتَهَذَّبُ بِهِ أَخْلَاقُهُمْ ، وَتَصْلُحُ بِهِ أَحْوَالُهُمُ الشَّخْصِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ . بِحَيْثُ يَكُونُ الْوَازِعُ لَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ الْيَقِينِيُّ وَالتَّسْلِيمُ الْإِذْعَانِيُّ بِالتَّعْلِيمِ وَالْهُدَى الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ لَا الْقَهْرُ وَالسَّيْطَرَةُ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُونَ سُعَدَاءَ فِي الدُّنْيَا بِقَدْرِ مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّعَادَةِ وَيَحْيَوْنَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ الْعُلْيَا فِي الْآخِرَةِ .

وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَا أَرْسَلَ بِهِ خَاتَمَ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ الْحَقُّ ، وَبِأَنَّهُ بَصَائِرُ

(240/259)

لِلنَّاسِ ، وَبِأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ ، وَبِأَنَّهُ صِدْقٌ وَعَدْلٌ ، وَبِأَنَّهُ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَدِينٌ قَيِّمٌ .

وَأَثْبَتَ أَنَّ الرَّسُولَ نَفْسَهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِيهِ ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ لَهُ وَالْمُهْتَدِينَ بِهِ . قَالَ تَعَالَى : (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) (5) وَقَالَ : (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ) (66) وَقَالَ : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) (114) وَقَالَ : (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) (57) وَالْحَقُّ هُوَ الْأَمْرُ الثَّابِتُ الْمُتَحَقِّقُ بِنَفْسِهِ فَلَا يُمْكِنُ نَقْضُهُ وَلَا إِبْطَالُهُ – فَبِهَذَا الْوَصْفِ يُنَبِّهُ الْعُقَلَاءَ إِلَى أَنْ يَبْحَثُوا عَنْ حَقِّيَّتِهِ بِفِكْرٍ مُسْتَقِلٍّ وَبِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ لِيَصِلُوا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى مَعْرِفَةِ أَنَّهُ الْحَقُّ . وَهِيَ غَايَةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا الْبَاحِثُ الْمُنْصِفُ الْبَرِيءُ مِنَ الْأَهْوَاءِ فِي نَظَرِهِ ، وَمِنْ قُيُودِ التَّقْلِيدِ فِي طَلَبِهِ لِلْحَقِّ . كَمَا قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ فُصِّلَتْ (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (41 : 53) كَذَلِكَ كَانَ وَهَكَذَا يَكُونُ .

(241/259)

وَقَالَ : (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) (104) وَالْبَصَائِرُ جَمْعُ بَصِيرَةٍ وَهِيَ الْإِدْرَاكُ الْعَقْلِيُّ كَالْبَصَرِ فِي إِدْرَاكِ الْحِسِّ فَتُطْلَقُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ الْيَقِينِيَّةِ ، وَعَلَى الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ . وَفِي مَعْنَاهُ وَصْفُ الْوَحْيِ

مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِقَوْلِهِ : (هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (7 : 203) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ : (45 : 20) وَأَمَرَ رَسُولَهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ يُوسُفَ بِأَنْ يَقُولَ : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (12 : 108) وَيُؤَيِّدُ هَذَا كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ

مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَى الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ وَمُخَاطَبَةِ الْعَقْلِ . وَكَانَ أَصْحَابُ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ وَالْأَدْيَانِ الْمُبْتَدَعَةِ قَدْ بَعُدُوا عَنِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَاعْتَمَدُوا فِي الدَّعْوَةِ وَتَلْقِينِ الدِّينِ عَلَى التَّسْلِيمِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى .

(242/259)

وَوَصَفَ الْقُرْآنَ فِي آيَةِ 155 بِأَنَّهُ مُبَارَكٌ ، أَيْ جَامِعٌ لِأَسْبَابِ الْهِدَايَةِ الدَّائِمَةِ النَّامِيَةِ ، ثُمَّ قَالَ فِي آيَةِ 157 : (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) وَقَالَ : (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا) (161) وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ أَقْرَبُ الطُّرُقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى السَّعَادَةِ الَّتِي شُرِعَ لَهَا الدِّينُ مِنْ غَيْرِ عَائِقٍ وَلَا تَأْخِيرٍ ، وَالْقَيِّمُ مَا يَقُومُ وَيَثْبُتُ بِهِ الْأَمْرُ الْمَطْلُوبُ حَتَّى لَا يَفُوتَ صَاحِبَهُ . وَقَالَ : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) (195) أَيْ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ . فَهَذِهِ أُمَّهَاتُ الْآيَاتِ فِي بَيَانِ صِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ

الرَّسُولُ ، وَأَنَّهُ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ لِتَكْمِيلِ أَنْفُسِهِمْ وَتَزْكِيَتِهَا بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الدَّعْوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّنْبِيهِ وَعَطْفِ النَّظَرِ إِلَى الشَّيْءِ الْبَدِيعِ الصُّنْعِ الْبَالِغِ مُنْتَهَى الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ الَّذِي يُدْرِكُ جَمَالَهُ وَكَمَالَهُ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَيْهِ . لَعَمْرِي إِنَّ مَنْ كَانَ صَحِيحَ الْعَقْلِ مُسْتَقِلَّ الْفِكْرِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ يُثْبِتُ بِهِ كَوْنَ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ حَقًّا وَصِدْقًا وَعَدْلًا وَصِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَقَدْ أَثْبَتَتِ الْوَقَائِعُ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَةِ لِإِدْرَاكِ حَقِّيَّةِ مَوْضُوعِهَا وَخَيْرِيَّتِهِ كَانُوا

(243/259)

أَكْمَلَ النَّاسِ عَقْلًا وَنَظَرًا وَفَهْمًا وَفَضْلًا كَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . عَلَى أَنَّهُ أَرْشَدَ إِلَى الِاعْتِمَادِ فِيهِ عَلَى الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ ، وَمَتَى ثَبَتَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ حَقِّيَّةُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَحُسْنُهُ وَنَفْعُهُ فَمِنَ الْحَمَاقَةِ أَنْ يُتْرَكَ الِاهْتِدَاءُ بِهِ لِأَجْلِ مُشَارَكَتِهِ لَنَا فِي الْبَشَرِيَّةِ ، أَوِ اسْتِبْعَادِ مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخُصُوصِيَّةِ .

الرَّسُولُ وَوَظَائِفُهُ

أُمِرَ الرَّسُولُ أَنْ يُخَاطِبَ النَّاسَ بِقَوْلِهِ : (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) (57) وَالْبَيِّنَةُ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْعِلْمُ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مُبَيِّنًا لَهُ بِهِ الْحَقَّ مُؤَيَّدًا بِالدَّلَائِلِ وَالْحُجَجِ

الْعِلْمِيَّةِ وَالْفِطْرِيَّةِ . وَهَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : (أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (12 : 108) فَلَيْسَ فِي دِينِهِ تَحَكُّمٌ وَلَا إِكْرَاهٌ ; إِذْ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ : (لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) (66) أَيْ لَيْسَ أَمْرُ هِدَايَتِكُمْ وَالتَّصَرُّفِ فِي شُئُونِكُمْ مَوْكُولًا إِلَيَّ مِنَ اللهِ بِحَيْثُ أَكُونُ مُسَيْطِرًا عَلَيْكُمْ وَمُلْزِمًا إِيَّاكُمْ كَشَأْنِ الْوَكِيلِ عَلَى أَعْمَالِ النَّاسِ . وَبَيَّنَ فِي الْآيَاتِ 104 - 107 أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(244/259)

بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ، فَمَنْ أَبْصَرَ بِهِ الْحَقَّ وَاتَّبَعَهُ فَلِنَفْسِهِ أَبْصَرَ فَهُوَ الَّذِي سَيَسْعَدُ بِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا الْوِزْرُ إِذْ هُوَ الَّذِي يَشْقَى بِهِ ، ثُمَّ قَالَ : (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) أَيْ بِمُوَكَّلٍ بِإِحْصَائِهَا وَحِفْظِهَا لِأَجْلِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى جَدُّهُ بِأَنَّ هَذَا مِنْ تَصْرِيفِهِ الْآيَاتِ وَتَنْوِيعِهِ الدَّلَائِلَ وَتَبْيِينِهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . ثُمَّ أَمَرَهُ بِاتِّبَاعِ مَا يُوحَى إِلَيْهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ - إِلَى أَنْ قَالَ : (وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ فِي ص 547 - 552 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) .

وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالُهَا تَفْصِيلٌ لِلْآيَةِ الَّتِي حُصِرَتْ فِيهَا وَظِيفَةُ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ فِي التَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ الْمُنْقَسِمِ إِلَى التَّبْشِيرِ وَالْإِنْذَارِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ

وَمُنْذِرِينَ) (48) وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي الْحَصْرِ بِصِيغَةِ الْإِثْبَاتِ بَعْدَ النَّفْيِ ، الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ فِيمَا يُخَاطَبُ بِهِ الْجَاهِلُ أَوْ خَالِي الذِّهْنِ ، لِأَنَّهَا مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْهَادِمَةِ لِعَقَائِدِ الْكُفَّارِ فِي الرُّسُلِ وَخَوَاصِّ أَتْبَاعِهِمُ الَّتِي مِنْهَا أَنَّهُمْ وُكَلَاءُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ بِيَدِهِمُ الْهُدَى وَالْحِرْمَانُ مِنْهُ وَالْإِسْعَادُ وَالْإِشْقَاءُ وَالرَّحْمَةُ وَالْغُفْرَانُ وَالْعِقَابُ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَوَرَدَتْ آيَاتٌ أُخْرَى مِثْلُهَا فِي عِدَّةِ سُوَرٍ مِنْهَا مَا هُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الرُّسُلِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِخَاتَمِهِمْ ، وَوَرَدَتْ آيَاتٌ أُخْرَى فِي مَعْنَاهَا ذُكِرَ الْحَصْرُ فِيهَا بِصِيغَةِ " إِنَّمَا " وَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ الْأُولَى كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا ، وَهِيَ الصِّيغَةُ الَّتِي يُخَاطَبُ بِهَا مَنْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِالشَّيْءِ لِنُكْتَةٍ مِنَ النُّكَتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ) (145) الْآيَةَ .

وَكَمَا غَلَا الضَّالُّونَ فِي الرُّسُلِ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ بِجَعْلِهِمْ وُكَلَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْهِدَايَةِ وَالْجَزَاءِ كَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِقَابِ ، غَلَوْا فِيهِمْ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ وَأَنَّهُمْ

يَتَصَرَّفُونَ فِي أُمُورِ الْأَرْضِ ، فَيُوَسِّعُونَ عَلَى النَّاسِ الرِّزْقَ ، وَيَقْضُونَ الْحَاجَاتِ بِقُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ إِلَهِيَّةٍ فِيهِمْ مُخَالِفَةٍ لِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي النَّاسِ ، أَوْ بِحَمْلِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ لَوْلَا هُمْ لَمْ يَفْعَلْهُ ، وَأَنَّهُمْ فِي تَفَوُّقِهِمْ فِي ذَلِكَ وَأَمْثَالِهِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ كَالْمَلَائِكَةِ أَوْ أَعْظَمَ تَأْثِيرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ رُسُلِهِ فَسَادَ هَذَا الْغُلُوِّ وَبُطْلَانَ هَذِهِ الْعَقَائِدِ ، وَصَرَّحَ بِأَنَّ الرُّسُلَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ فِي سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، إِلَّا أَنَّهُ مَيَّزَهُمْ بِالْوَحْيِ وَعَصَمَهُمْ مِنَ الْخَطَأِ فِي تَبْلِيغِ مَا أَمَرَهُمْ بِتَبْلِيغِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَمِمَّا يَحُولُ دُونَ التَّأَسِّي بِهِمْ ، وَحَسْبُكَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي إِثْرِ قَوْلِهِ : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) (48) : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) (50) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا (ف ص352 - 360 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ) فَقَدْ بَيَّنَّا فِيهِ بُطْلَانَ مَا سَرَى إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْوَثَنِيَّةِ وَالْكُتُبِ الْمُحَرَّفَةِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي خَزَائِنِ مُلْكِ اللهِ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالضُّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَإِلْحَاقِهِمْ إِيَّاهُمْ

بِالْمَلَائِكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، حَتَّى صَارُوا يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا لَا يُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ عَيْنُ الْعِبَادَةِ الَّتِي يُسَمَّى الَّذِينَ تُوَجَّهُ إِلَيْهِمْ آلِهَةً .

شُبُهَاتُ الْكُفَّارِ عَلَى الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

(248/259)

هَذَا الْغُلُوُّ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ يُقَابِلُهُ غُلُوٌّ آخَرِينَ مِنْهُمْ فِي إِنْكَارِ رِسَالَتِهِمْ وَاخْتِصَاصِ اللهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ بِوَحْيِهِ إِلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ الْغُلَاةُ أَفْرَطُوا فِي تَصْوِيرِ خُصُوصِيَّتِهِمْ ، وَزَادُوا فِيهَا بِأَوْهَامِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ فَرَّطُوا فِيهَا ، فَلَمْ يَرَوْا لَهُمْ مَزِيَّةً يَمْتَازُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِهَا ، أُولَئِكَ زَادُوا فِي بَيَانِ " حَقِيقَتِهِمْ فَضْلًا فَصَلَهُمْ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَهَؤُلَاءِ جَعَلُوا بَشَرِيَّتَهُمْ مَانِعَةً مِنِ امْتِيَازِهِمْ عَلَى سَائِرِ أَفْرَادِ النَّاسِ ، إِذْ رَأَوْهُمْ بَشَرًا وَظَنُّوا أَنَّ الْوَحْيَ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا فَيَجْعَلُهُمْ كَالْمَلَائِكَةِ كَمَا يَزْعُمُ الْغُلَاةُ – قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) (91) أَيْ إِنَّهُمْ مَا عَرَفُوا اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ بِإِنْكَارِهِمْ قُدْرَتَهُ عَلَى إِنْزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ عَلَى قُلُوبِ بَعْضِ الْبَشَرِ ، لِاقْتِضَاءِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يَكُونُوا مُعَلِّمِينَ لِسَائِرِ الْبَشَرِ مَا فِيهِ هِدَايَتُهُمْ ، كَمَا

أَنَّ الْغُلَاةَ فِيهِمْ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ زَعَمُوا أَنَّهُ جَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ ، وَالتَّصَرُّفِ فِي مُلْكِهِ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ .

(249/259)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَقِيقَةَ الْوَحْيِ وَوَجْهَ حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَيْهِ ، وَاقْتِضَاءَ حِكْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ بِهِ فَرَاجِعْهُ فِي (ص 509 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ) وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةُ كَوْنِهِمْ بَشَرًا قَدْ ذُكِرَتْ فِي سُوَرٍ كَثِيرَةٍ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى رِسَالَةِ الرُّسُلِ كَالْأَعْرَافِ وَإِبْرَاهِيمَ وَالنَّحْلِ وَالْكَهْفِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَيس وَالتَّغَابُنِ ، وَذُكِرَتْ فِي بَعْضِ السُّوَرِ بِلَفْظِ رَجُلٍ بَدَلَ بَشَرٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ يُونُسَ : (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) (10 : 1 ، 2) إِلَخْ . وَهَذَا فِي نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِثْلُهُ عَنْ أَوَّلِ مَنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ . قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ

الْأَعْرَافِ حِكَايَةً لِخِطَابِهِ إِيَّاهُمْ : (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) (7 : 63) وَيَلِيهِ حِكَايَةُ مِثْلِ ذَلِكَ عَنْ هُودٍ مَعَ قَوْمِهِ (آيَةُ 67) .

(250/259)

وَلَمَّا اسْتَبْعَدَ هَؤُلَاءِ الْوَحْيَ لِرَجُلٍ مِنَ الْبَشَرِ كَمَا حَكَاهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) (23 : 33 ، 34) زَعَمُوا أَنَّ الرَّسُولَ مِنَ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا أَوْ أَنْ يُؤَيَّدَ بِمَلَكٍ يَكُونُ مَعَهُ كَمَا حَكَاهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا) (25 : 7) وَقَدْ رُدَّتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ فِي الْآيَتَيْنِ الثَّامِنَةِ وَالتَّاسِعَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ بِبَيَانِ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ ، وَبِبَيَانِ عَدَمِ اسْتِعْدَادِ جُمْهُورِ الْبَشَرِ لِرُؤْيَتِهِمْ وَالتَّلَقِّي عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا يُعِدُّ اللَّهُ بَعْضَ الْأَفْرَادِ مِنْ كَمَلَتِهِمْ لِذَلِكَ ، فَلَا مَنْدُوحَةَ إِذَا أُنْزِلَ الْمَلَكُ عَنْ جَعْلِهِ رَجُلًا ، أَيْ مُتَمَثِّلًا فِي صُورَةِ رَجُلٍ ، وَحِينَئِذٍ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَتَبْقَى شُبْهَتُهُمْ فِي مَوْضِعِهَا .

(251/259)

هَذِهِ الشُّبْهَةُ عَلَى الرِّسَالَةِ وَهِيَ كَوْنُ الرَّسُولِ بَشَرًا مِثْلَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ لَمْ تُدَعَّمْ بِحُجَّةٍ وَلَمْ تُؤَيَّدْ بِبُرْهَانٍ ، بَلْ هِيَ بَاطِلَةٌ بِالْبَدَاهَةِ لِأَنَّهَا تَقْيِيدٌ لِمَشِيئَةِ الْمُرْسِلِ وَقُدْرَتِهِ وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) وَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ الْمُشْتَبِهُونَ مُؤْمِنِينَ بِقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَمَشِيئَتِهِ

الْعَامَّةِ . بَلْ كَوْنُ الرَّسُولِ إلَى الْبَشَرِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ يَفْهَمُونَ أَقْوَالَهُ وَيَتَأَسَّوْنَ بِأَفْعَالِهِ هُوَ الْمَعْقُولُ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْفِطْرَةُ وَطَبِيعَةُ الِاجْتِمَاعِ ، وَلَكِنَّ الْأَوْهَامَ الْجَهْلِيَّةَ تَقْلِبُ الْحَقَائِقَ وَتَعْكِسُ الْقَضَايَا حَتَّى إنَّ بَعْضَ الْقَرَوِيِّينَ فِي زَمَانِنَا جَاءَ إحْدَى الْمُدُنِ مَرَّةً فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ لِلِاحْتِفَالِ بِوَالٍ جَدِيدٍ جَاءَ مِنْ دَارِ السَّلْطَنَةِ ، فَرَغِبَ أَنْ يَرَى بِعَيْنَيْهِ الْوَالِيَ الَّذِي أَرْسَلَهُ السُّلْطَانُ إلَيْهِمْ ، فَلَمَّا مَرَّ أَمَامَهُ وَقِيلَ لَهُ هَذَا هُوَ اسْتَغْرَبَ أَنْ يَكُونَ إنْسَانًا ، وَقَالَ كَلِمَةً صَارَتْ مَثَلًا وَهِيَ : حَسِبْنَا الْوَالِيَ وَالِيًا فَإِذَا هُوَ إنْسَانٌ أَوْ رَجُلٌ مِثْلُنَا .

(252/259)

وَأَخْبَرَنِي مَحْمُودٌ بَاشَا الدَّامَادُ أَنَّ بَعْضَ فَلَّاحِي الْأَنَاضُولِ يَتَخَيَّلُونَ أَنَّ خَلْقَ السُّلْطَانِ مُخَالِفٌ لِخَلْقِ سَائِرِ النَّاسِ وَأَنَّ لِحْيَتَهُ خَضْرَاءُ اللَّوْنِ ، وَلِهَذَا الضَّعْفِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبَشَرِ يَلْبَسُ بَعْضُ رِجَالِ الْأَدْيَانِ أَزْيَاءً خَاصَّةً مُؤَثِّرَةً ، وَيُوَفِّرُونَ شُعُورَهُمْ لِأَجْلِ اسْتِجْلَابِ الْمَهَابَةِ – فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (6 : 9) كَاشِفٌ لِهَذِهِ الْغُمَّةِ مِنَ الْوَهْمِ ، وَهَادٍ إلَى مَا يُوَافِقُ سُنَنَ الْفِطْرَةِ مِنَ الْعِلْمِ ، وَقَاطِعٌ عَلَى الدَّجَّالِينَ طَرِيقَ الْجِبْتِ وَالْخُرَافَاتِ

الَّتِي يَخْدَعُونَ بِهَا أُولِي الْأَوْهَامِ

وَالْخَيَالَاتِ ، فَيُوهِمُونَهُمْ أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ وَالْقِدِّيسِينَ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْبَشَرِ ، وَيَقْدِرُونَ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى كَالْوُزَرَاءِ وَرُؤَسَاءِ الْحُجَّابِ وَالْأَعْوَانِ عِنْدَ الْمُلُوكِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، يُقَرِّبُونَ مِنْهُ وَيُبْعِدُونَ عَنْهُ مَنْ شَاءُوا وَيَحْمِلُونَهُ عَلَى الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالضُّرِّ وَالنَّفْعِ كَمَا يَشَاءُونَ .

(253/259)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَبْطَلَ هَذِهِ الشُّبْهَةَ فِي الْآيَاتِ 7 و8 و9 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَرَدَّهَا أَكْمَلَ رَدٍّ ، فَرَاجِعْ تَفْصِيلَ الْقَوْلِ فِي تَفْسِيرِهِنَّ (ص 258 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ) ثُمَّ بَيَّنَ فِي الْآيَةِ (111) أَنَّهُ لَوْ نَزَّلَ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَآتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ مُقَابِلًا لَهُمْ ، أَوْ حَشَرَهُ وَجَمَعَهُ لَهُمْ قَبِيلًا بَعْدَ قَبِيلٍ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ؛ لِأَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ لَا مُرِيدُو حَقٍّ وَطُلَّابُ دَلِيلٍ يَعْرِفُونَهُ بِهِ . فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهَا فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ .

(254/259)

تَعْجِيزُهُمُ الرَّسُولَ بِطَلَبِ الْآيَاتِ كَانَ الْجَاهِلُونَ الْمُعَانِدُونَ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْآيَاتِ عَلَى رِسَالَتِهِ ، وَكَانَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى يَحْتَجُّ وَيَسْتَدِلُّ عَلَيْهَا بِشَهَادَةِ اللهِ لَهُ وَهِيَ أَنْوَاعٌ ، وَبِالْقُرْآنِ الْجَامِعِ لِأَقْوَى طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَالْعَقْلِيَّةِ عَلَى كَوْنِهِ آيَةً فِي نَفْسِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، وَآيَةً بِاعْتِبَارِ كَوْنِ مَنْ أُنْزِلَ عَلَى قَلْبِهِ وَظَهَرَ عَلَى لِسَانِهِ كَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا مَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا . وَقَدْ بَيَّنَّا وُجُوهَ دَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ 19 فِي ص282 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ . وَالْآيَةِ 25 ص 289 ج 7 ط . الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ . وَالْآيَةِ 37 ص 323 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ ، وَفِيهِ بَيَانُ كَوْنِ الْقُرْآنِ أَدَلَّ عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْآيَةِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي أُوتِيهَا مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – عَلَى رِسَالَتِهِمْ ، وَالْآيَةِ 50 (ص 351 – 356 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ . وَكَذَا الْآيَةِ 5 مِنَ السُّورَةِ ص 252 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ) .

(255/259)

نَعَمْ إِنَّ آيَةَ الْقُرْآنِ أَقْوَى الْحُجَجِ وَأَظْهَرُ الدَّلَالَاتِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ وَمُرْشِدَةٌ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْآيَاتِ عَلَى صِدْقِهِ لَمْ يَكُونُوا يَنْظُرُونَ فِي الْآيَاتِ وَلَا يَحْفِلُونَ بِأَمْرِ الِاسْتِدْلَالِ ، بَلْ كَانُوا يُعْرِضُونَ عَنْ كُلِّ آيَةٍ لِأَنَّهُمْ فَرِيقَانِ : فَرِيقُ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُبَرَاءِ الَّذِينَ شَغَلَهُمُ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ لِلرَّسُولِ وَالْعَدَاوَةُ لَهُ عَنِ النَّظَرِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ هُدًى وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِ مِنْ دَلِيلٍ ، وَفَرِيقُ الْمُقَلِّدِينَ الَّذِينَ أَلْفَوْا مَا وَرِثُوا عَنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ فَأَعْرَضُوا عَنْ كُلِّ مَا يُخَالِفُهُ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مُزَيِّفًا لَهُ وَمُضَلِّلًا لِأَهْلِهِ ; وَلِهَذَا قَالَ

تَعَالَى بَعْدَ افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بِحَمْدِهِ وَوَصْفِهِ بِمَا يُثْبِتُ

اسْتِحْقَاقَهُ لِلْحَمْدِ ، وَمُقَارَنَةِ ذَلِكَ بِمَا اتَّخَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُ مِنْ نِدٍّ وَعِدْلٍ : (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) (4) وَأَنَّى يَفْقَهُ الشَّيْءَ مَنْ يُعْرِضُ عَنْهُ وَلَا يَنْظُرُ فِيهِ ؟ .

(256/259)

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْزَنُ لِإِعْرَاضِهِمْ وَيَوَدُّ لَوْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ تَعَالَى آيَةً مِمَّا اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ كَإِنْزَالِ الْمَلَكِ أَوْ إِنْزَالِ كِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ - أَوِ الْآيَاتِ

الْأَرْضِيَّةِ كَتَفْجِيرِ يَنْبُوعٍ فِي مَكَّةَ أَوْ إِعْطَائِهِ جَنَّةً فِيهَا يُفَجِّرُ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، فَهَوَّنَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ذَلِكَ وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ طِبَاعِ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ وَعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ لِلْإِيمَانِ ، وَكَوْنِهِمْ يُكَذِّبُونَ بِكُلِّ آيَةٍ يُؤْتَوْنَهَا كَمَا كَذَّبَ أَمْثَالُهُمُ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ ، وَبَيَّنَ لَهُ سُنَّتَهُ فِي عَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ بَعْدَ إِيتَائِهِمُ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةَ بِالِاسْتِئْصَالِ ، وَفِي خِذْلَانِهِمْ وَنَصْرِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا صَبَرُوا عَلَى أَقْوَامِهِمْ وَيَتَحَمَّلَ مِثْلَ مَا تَحَمَّلُوا مِنْ أَذَاهُمْ . وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ الْآيَاتِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى لَا عِنْدَهُ . رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ 7 - 9 ص 258 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرُ لح و25 و26 (ص 289 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ مِنْهُ لح و23 - 37 فِي ص 309 - 320 مِنْهُ) وَآيَةِ 50 (ص 351 مِنْهُ) و57 و58 (فِي ص 377 مِنْهُ) و65 - 67 (ص 408 - 419 مِنْهُ و109 و110 ص 553) إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّابِعِ ط الْهَيْئَةِ و111 فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ و124 - 126 (ص32 وَمَا بَعْدَهَا مِنْهُ) .

طَعْنُهُمْ فِي الْقُرْآنِ

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَمَا فِي الْآيَةِ 25 (ص289 ج7 ط الْهَيْئَةِ) وَقَوْلُهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " دَرَسْتَ " كَمَا فِي الْآيَةِ 105 (ص 548 مِنْهُ) فَهُوَ مِمَّا قَالَهُ بَعْضُهُمْ فِي قَصَصِ الْقُرْآنِ تَعْلِيلًا لِأَنْفُسِهِمْ بِمَا أَمْلَاهُ الْخَاطِرُ ، وَتَبَادَرَ إلَى فِكْرِ الْمُكَابِرِ ، لَا عَنْ مَعْرِفَةٍ وَاطِّلَاعٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ – فَمَثَلُهُمْ فِيهِ كَمَثَلِ مَنْ يَسْتَكْبِرُ مِنْ أَهْلِ الْبِدَايَةِ مِنْ كَاتِبٍ أَوْ شَاعِرٍ مَا يَكْتُبُ أَوْ يَنْظِمُ فَيَنْسِبُهُ إلَى أَحَدِ الْمَشْهُورِينَ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا كَانَ لِذَلِكَ الْكَاتِبِ أَوِ الشَّاعِرِ صِلَةٌ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ . كَمَا كَانَ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ هُوَ الَّذِي يُحَرِّرُ الْمَنَارَ كُلَّهُ أَوِ التَّفْسِيرَ وَالْفَتَاوَى وَالْمَقَالَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةَ مِنْهُ . وَلَمْ يَجِدِ الْجَاحِدُونَ شُبْهَةً عَلَى كَوْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمَ شَيْئًا مِنْ أَحَدٍ وَقَدْ عَاشَ طُولَ عُمُرِهِ مَعَهُمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ وَلَا عِنْدَهُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ أَخْبَارَ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، وَقَدِ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى أَلْجَأَتِ الْمُكَابَرَةُ بَعْضَهُمْ إلَى عَزْوِ هَذَا التَّعْلِيمِ إلَى قَيْنٍ (حَدَّادٍ) رُومِيٍّ جَاءَ مَكَّةَ يَشْتَغِلُ فِيهَا بِصُنْعِ السُّيُوفِ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقِفُ عَلَيْهِ لِيُشَاهِدَ صِنَاعَتَهُ . وَقَدْ رَدَّ اللهُ تَعَالَى شُبْهَتَهُمْ هَذِهِ بِقَوْلِهِ :

(258/259)

(لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (16 : 103) فَإِنَّ ذَلِكَ الرُّومِيَّ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ وَهَذَا الْقُرْآنُ قَدْ بَلَغَ بِبَيَانِهِ فِيهَا حَدَّ الْإِعْجَازِ . وَتَتِمَّةُ الْقَوْلِ فِي هَذَا تَرَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ افْتَتَحْنَا بِهِمَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ .

(259/259)

فَعُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الرُّسُلَ رِجَالٌ مِنَ الْبَشَرِ فِي جَمِيعِ الشُّئُونِ الْبَشَرِيَّةِ الْفِطْرِيَّةِ لَيْسُوا أَرْبَابًا وَلَا شُرَكَاءَ لِرَبِّ الْعِبَادِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ . وَلَا فِي تَصَرُّفِهِ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الْخَلْقِ . فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا إِيمَانًا وَلَا رَشَدًا ، بَلْ هُمْ عَبِيدٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ كَسَائِرِ عِبَادِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَكْرَمَهُمْ بِسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ وَاخْتَصَّهُمْ بِعِلْمٍ أَوْحَاهُ إِلَيْهِمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوهُ لِأَقْوَامِهِمْ لِيَهْتَدِيَ بِهِ الْمُسْتَعِدُّ مِنْهُمْ لِلْهِدَايَةِ ، وَتَحِقَّ الْكَلِمَةُ عَلَى الْجَاحِدِينَ وَالْمُعَانِدِينَ : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (8 : 42) . وَقَدْ بَيَّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ مَا يُؤَيِّدُهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ وَلَا مِنْ مَقْدُورِهِمْ لِأَنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى فِي قُدْرَتِهِمْ كَسُنَّتِهِ فِي سَائِرِ الْبَشَرِ ، كَمَا أَنَّ سُنَّتَهُ فِي عِلْمِهِمْ كَذَلِكَ . فَلَا الْوَحْيُ الَّذِي اخْتَصَّهُمْ بِهِ مِنْ كَسْبِهِمْ وَاسْتِنْتَاجِ عُقُولِهِمْ ، وَلَا الْآيَاتُ الْمُثْبِتَةُ لَهُ مِنْ عَمَلِهِمْ . تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى لِخَاتَمِ الرُّسُلِ : (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ

فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (35) وَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي (ص 318 ج 7 ط الْهَيْئَةِ تَفْسِيرٌ) .

(260/259)

وَتَأَمَّلْ أَمْرَهُ إِيَّاهُ بِأَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا عِلْمُ الْغَيْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مَلَكًا ، وَحَصَرَ خُصُوصِيَّتَهُ بِاتِّبَاعِ وَحْيِ رَبِّهِ فِي الْآيَةِ (50) الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا ، وَأَمْرَهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا بِالْإِنْذَارِ ، ثُمَّ تَدَبَّرْ بَعْدَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مَا نَهَاهُ عَنْهُ وَمَا أَمَرَهُ فِي شَأْنِ مُعَامَلَةِ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَاتِ (51 - 55) وَقَارِنْ فِيهَا بَيْنَ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ 35 : (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) وَقَوْلِهِ فِي آيَةِ 52 : (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) تَعْلَمِ الْفَرْقَ بَيْنَ مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ وَمَقَامِ عُبُودِيَّةِ النُّبُوَّةِ ، وَيُقَابِلُ هَذَا النَّهْيَ عَنْ طَرْدِ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِجَابَةً لِاقْتِرَاحِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مُعَامَلَةِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) (70) إِلَخْ . وَسَيَأْتِي شَيْءٌ مِنْ بَيَانِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ عِنْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَا فِي السُّورَةِ مِنْ بَيَانِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي الْخَلْقِ .

الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ

(261/259)

ذُكِرَتْ آيَاتُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ تَارَةً خَبَرًا مُجَرَّدًا مُؤَكَّدًا كَقَوْلِهِ : (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) (129 وَقَوْلِهِ : (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) (134) أَوْ غَيْرَ مُؤَكَّدٍ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنِ التَّوْكِيدِ فِي السِّيَاقِ كَقَوْلِهِ : (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) (36) وَكَفَى بِالِاسْتِنَادِ إِلَى الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ اسْتِغْنَاءً عَنِ التَّوْكِيدِ . كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ : (ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ) (164) . وَالْأُسْلُوبُ الْغَالِبُ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ إِيرَادُهَا فِي سِيَاقِ ذِكْرِ الْجَزَاءِ

(262/259)

عَلَى الْأَعْمَالِ وَالْبِشَارَةِ وَالْإِنْذَارِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَأَبْلَغُ الْآيَاتِ فِيهِ التَّذْكِيرُ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَقَوْلِهِ : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) (22) إِلَى آخِرِ آيَةِ (24) وَقَوْلِهِ : (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) (27) إِلَى آخِرِ آيَةِ (32) وَقَدْ جَاءَ هَذَا بَعْدَ حِكَايَةِ إِنْكَارِ الْبَعْثِ عَنْهُمْ وَحَصْرِهِمُ الْحَيَاةَ فِي الدُّنْيَا ، فَبَيَّنَ لَهُمْ سُوءَ مَصِيرِهِمْ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي يُنْكِرُونَهَا لِعَدَمِ

الِاسْتِعْدَادِ لَهَا بِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَخَتَمَ السِّيَاقَ بِحَصْرِ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْأَطْفَالِ وَتَفْضِيلِ الْآخِرَةِ عَلَيْهَا . وَيُنَاسِبُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) (70) الْآيَةَ . وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ ، وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا جَاءَ فِي أُسْلُوبِ حَشْرِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَبَيَانِ مَا يَقُولُهُ يَوْمَئِذٍ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي الْآخَرِ ، وَسُؤَالِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَنْ مَجِيءِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ يَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِ رَبِّهِمْ وَيُنْذِرُونَهُمْ لِقَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَشَهَادَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ - (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ) (128 - 130) وَقَدْ جَمَعَ فِي الْآيَاتِ (133 - 135) بَيْنَ الْوَعِيدِ بِسُوءِ عَاقِبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا .

(263/259)

إِذَا اسْتَقْصَى الْقَارِئُ آيَاتِ الْبَعْثِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ يَرَاهَا تُخْبِرُ بِشَيْءٍ ثَابِتٍ مُقَرَّرٍ ، هُوَ لِصِدْقِ الْمُخْبِرِ بِهِ كَأَنَّهُ مُسَلَّمٌ ؛ لِإِنْذَارِ مَا يَقَعُ فِي يَوْمِهِ مِنَ الْعَذَابِ لِلْمُجْرِمِينَ عَسَى أَنْ يُتَّقَى ، وَالْبِشَارَةِ بِمَا أُعِدَّ فِيهِ لِلْمُتَّقِينَ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّعِيمِ عَسَى أَنْ يُسْعَى لَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى . وَيَظُنُّ الَّذِينَ اعْتَادُوا تَلَقِّيَ الْعَقَائِدِ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِيَّاتِ الْجَدَلِيَّةِ ، أَنَّ هَذِهِ دَعَاوَى غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ . وَإِنَّمَا هِيَ أَسَالِيبُ خَطَابِيَّةٌ . وَالصَّوَابُ أَنَّهَا أَخْبَارٌ أَخْبَرَ بِهَا مَنْ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْكُفَّارِ فِي صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ ، وَقَدْ قَامَ الْبُرْهَانُ عَلَى رِسَالَتِهِ . وَلَمْ يَأْتِ مُنْكِرُوهَا بِدَلِيلٍ عَلَى إِنْكَارِهَا وَلَا شُبْهَةٍ . فَيُحْتَاجَ إِلَى إِبْطَالِهَا بِالْحُجَّةِ . وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبُ الْإِنْكَارِ اسْتِغْرَابَ مَا لَمْ يُعْرَفْ وَلَمْ

(264/259)

يُؤْلَفْ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَهَذَا جَهْلٌ وَغَفْلَةٌ مِنْ قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي بَدَأَ هَذَا الْخَلْقَ ، وَبِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلِهَذَا اكْتَفَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِجَعْلِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي ثُبُوتِهَا كَالْقَضَايَا الْمُسَلَّمَةِ مَعَ التَّذْكِيرِ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ بِمَشِيئَةِ اللهِ النَّافِذَةِ وَقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ ، وَحِكْمَتِهِ فِي التَّكْلِيفِ وَالْجَزَاءِ وَكَوْنِهِ رَحْمَةً مِنْهُ تَعَالَى وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ كَالْآيَاتِ الثَّلَاثِ 133 - 135 ، وَلَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الصِّفَاتِ هُنَا بِأُسْلُوبِ الِاسْتِدْلَالِ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْكِ عَنِ الْمُنْكِرِينَ شَيْئًا مِنَ الِاحْتِجَاجِ ، وَمَا ثَمَّ احْتِجَاجٌ ، وَلَا مَا حَكَاهُ عَنْهُمْ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِغْرَابِ ، فَكَانَ الْغَرَضُ مِنْ سَرْدِ الْآيَاتِ بِالْأَسَالِيبِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا التَّأْثِيرَ فِي النَّفْسِ ، فَإِنَّ مِنْ غَرَائِزِ الْبَشَرِ وَمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ أَنْ تَتَأَثَّرَ أَنْفُسُهُمْ وَعُقُولُهُمْ بِمَا يَتَكَرَّرُ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ مِنْ كَلَامِ الصَّادِقِينَ الْمُوقِنِينَ ، وَلَا

سِيَّمَا إِذَا كَانُوا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ ، وَقَدْ كَانَ فِيمَا نَزَلَ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ حِكَايَةُ تَعَجُّبِهِمْ مِنْ خَبَرِ الْبَعْثِ وَتَفْنِيدُ ذَلِكَ بِأُسْلُوبِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ . وَدَحْضِ

(265/259)

الشُّبْهَةِ . وَمِنْهَا سُورَةُ (يس) وَقَدْ تَكَرَّرَ فِيهَا ذِكْرُ الْحَشْرِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَخُتِمَتْ بِأُسْلُوبِ الْمُنَاظَرَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لِلرَّازِيِّ . وَذُكِرَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي فَوَاتِحِ السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا (الصَّافَّاتِ) وَفِي فَاتِحَةِ سُورَةِ (ق) وَمِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي أَثْنَائِهَا : (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) (50 : 15) وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مَا يَنْبَغِي بَيَانُهُ ، وَذَكَرْنَا فِيهِ بَعْضَ مَا وَرَدَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى . فَلِلْقَارِئِ أَنْ يُرَاجِعَ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ .

(266/259)

عَالَمُ الْغَيْبِ عَقِيدَةُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ مِنْ أَمْرِ الْغَيْبِ ، وَمِنْهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تُؤْمِنُ كَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ بِالْمَلَائِكَةِ وَقَدْ

عَبَدُوهُمْ ، وَبِوُجُودِ الْجِنِّ وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ لَهُمْ أَحْيَانًا بِصُوَرِ الْغِيلَانِ وَأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ وَعَزْفَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ يُلْقُونَ الشِّعْرَ فِي هَوَاجِسِ الشُّعَرَاءِ . وَيَسْتَغْنِي الْقَارِئُ عَنْ ذِكْرِ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ بِمُرَاجَعَةِ كَلِمَاتِ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْغِيلَانِ وَالرُّوحِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي فِهْرِسِ هَذَا الْجُزْءِ وَمَا قَبْلَهُ وَكَذَا غَيْرُهُمَا مِنْ أَجْزَاءِ التَّفْسِيرِ وَبِمُرَاجَعَةِ مَا كَتَبْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ اسْمِ اللهِ اللَّطِيفِ ، وَمِنْهَا تَعْلَمُ أَنَّ الْعُلُومَ الْكَوْنِيَّةَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَعُدْ يُسْتَغْرَبُ مَعَهَا شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَلَا سِيَّمَا عِلْمُ الْكِيمْيَاءِ وَعِلْمُ الْكَهْرُبَاءِ لَكِنْ مِنْ عَجَائِبِ تَفَاوُتِ أَفْهَامِ الْبَشَرِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ الْكَثِيرُونَ يُنْكِرُونَ مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَأْلَفُوا ، وَلَا يَرَوْنَ الْمَعْرُوفَ مِنْهَا إِلَّا مَا عَرَفُوا ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ فِيهِ أَوْ فِي مِثْلِهِ إِنَّهُ قَدِ اكْتَشَفَهُ " الْهِرُّ " فُلَانٌ وَ " الْمِسْتَرُ " عِلَّانٌ مَثَلًا قَبِلُوهُ مُذْعِنِينَ . وَقَالُوا إِنَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، وَهَذَا شَرُّ التَّقْلِيدِ .

(267/259)

الْأُصُولُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ فِي السُّورَةِ مِنْ دِينِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ

أَجْمَعُ مَا وَرَدَ فِي السُّورَةِ مِنَ الْأُصُولِ الْكُلِّيَّةِ الْجَامِعَةِ لِلْعَقَائِدِ وَالْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ وَالنَّهْيِ عَنِ الرَّذَائِلِ الْوَصَايَا الْعَشْرُ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ 159 - 153 وَتَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي تَفْسِيرِهَا

وَالْأَمْرُ بِتَرْكِ ظَاهِرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنِهِ فِي الْآيَةِ 120 وَهَاؤُمُ انْظُرُوا أَهَمَّ الْأُصُولِ وَالْقَوَاعِدِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي الْآيَاتِ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا .

(الْأَصْلُ الْأَوَّلُ) أَنَّ دِينَ اللهِ تَوْحِيدٌ وَاتِّفَاقٌ ، فَتَفْرِيقُهُ بِالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ ، وَجَعْلِ أَهْلِهِ شِيَعًا مُتَعَادِيَةً ، مُفَارِقَةٌ لَهُ ، وَالْخُرُوجُ عَنْ هَدْيِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، يُوجِبُ بَرَاءَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَاعِلِي ذَلِكَ – رَاجِعْ تَفْسِيرَ (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (159) وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ قَاعِدَةُ سِيَاسَةِ الدِّينِ وَحَيَاةِ أَهْلِهِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالتَّشْدِيدُ فِيهِ يُضَاهِي التَّشْدِيدَ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ الْقَاعِدَةُ الِاعْتِقَادِيَّةُ .

(268/259)

(الْأَصْلُ الثَّانِي) أَنَّ سَعَادَةَ النَّاسِ وَشَقَاوَتَهُمْ مَنُوطَتَانِ بِأَعْمَالِهِمُ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ ، وَأَنَّ جَزَاءَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ يَكُونُ بِحَسْبِ تَأْثِيرِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُسْتَفَادُ مِنْ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بِالنَّصِّ أَوِ الْفَحْوَى . وَمِنْ أَصْرَحِ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) (139) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُ وَاسْتَعِنْ عَلَى مُرَاجَعَةِ سَائِرِ الْآيَاتِ بِالْأَرْقَامِ الَّتِي بِجَانِبِ كَلِمَةِ " الْجَزَاءِ " مِنْ فِهْرِسِ الْجُزْأَيْنِ 7 و8 وَمِنْ أَهَمِّهَا مَا فِي ص 272 ج 7 ط الْهَيْئَةِ

وَتَفْسِيرُ (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) (164) فِي أَوَاخِرِ السُّورَةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

(الْأَصْلُ الثَّالِثُ) الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا وَعَلَى الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَعَظُمَتْ نَعْمَاؤُهُ . وَيَا خَسَارَةَ مَنْ غَلَبَتْ سَيِّئَاتُهُ حَسَنَاتِهِ الْمُضَاعَفَةَ . أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (رَاجِعِ الْآيَةَ 160) .

(تَنْبِيهٌ) مَسْأَلَةُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ بِجَعْلِ الْحَسَنَاتِ مُضَاعَفَةً دُونَ السَّيِّئَاتِ

(269/259)

الَّتِي جَزَاؤُهَا بِمِثْلِهَا إِنْ لَمْ يَنَلْ صَاحِبَهَا شَيْءٌ مِنْ عَفْوِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ ، وَمَسْأَلَةُ سَعَةِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَسَبْقِهَا لِلْغَضَبِ - كُلُّ ذَلِكَ قَدْ عُدَّ مُشْكِلًا مَعَ تَفْسِيرِ الْجُمْهُورِ لِخُلُودِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ خُلُودًا لَا نِهَايَةَ لَهُ . وَقَدْ بَسَطْنَا مَا وَقَعَ مِنَ الْخِلَافِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (128) فَرَاجِعْ (فِي ص 58 وَمَا بَعْدَهَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ) وَفِيهِ كَلَامٌ نَفِيسٌ فِي رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ .

(الْأَصْلُ الرَّابِعُ) جَزَاءُ سَيِّئَاتِ كُلٍّ عَلَيْهِ وَحْدَهُ وَحَسَنَاتُهُ لَهُ وَحْدَهُ فَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ غَيْرِهِ وَلَا يَنْجُو بِحَسَنَاتِ غَيْرِهِ (رَاجِعِ الْآيَةَ 164 وَتَفْسِيرَ هَذَا الْأَصْلِ فِيهَا وَالِاسْتِدْرَاكَ عَلَيْهِ

وَيَأْتِي بَعْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ رَقَمْ 165) .

(الْأَصْلُ الْخَامِسُ) الْجَزَاءُ يَكُونُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ جَمِيعًا ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ تَعَالَى بِتَرْكِ ظَاهِرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنِهِ . بَلِ الْمُرَادُ مِنَ الْعَمَلِ الظَّاهِرِ إِصْلَاحُ الْبَاطِنِ .

(270/259)

(الْأَصْلُ السَّادِسُ) النَّاسُ عَامِلُونَ بِالْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَلَكِنَّهُمْ خَاضِعُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ لِلسُّنَنِ وَالْأَقْدَارِ ، فَلَا إِجْبَارَ وَلَا اضْطِرَارَ . وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ عَمَلِهِمْ بِاخْتِيَارِهِمْ وَبَيْنَ مَشِيئَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ ، وَلَا يُعَدُّونَ بِهِ مُشَارِكِينَ لَهُ تَعَالَى فِي إِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، فَإِنَّ صِفَاتِهِ تَعَالَى ذَاتِيَّةٌ وَاجِبَةُ الْوُجُودِ كَامِلَةٌ ، وَإِرَادَةُ الْعِبَادِ وَقُدْرَتُهُمْ مِنْ عَطَاءِ اللهِ ، وَخَلْقُهُ حَسَبُ مَشِيئَتِهِ ، فَهُوَ الَّذِي شَاءَ أَنْ يَخْلُقَ نَوْعًا مِنَ الْخَلْقِ وَيَجْعَلَهُ ذَا قُدْرَةٍ مَحْدُودَةٍ وَمَشِيئَةٍ تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا أَعْمَالُهُ الِاخْتِيَارِيَّةُ . وَمَعْنَى خَلْقِهِ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ بِقَدَرِهِ وَتَقْدِيرِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ أَنَّهُ خَلَقَهَا بِنِظَامٍ جَعَلَ فِيهَا الْمُسَبِّبَاتِ عَلَى قَدْرِ الْأَسْبَابِ عَنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ ، وَلَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا جُزَافًا وَلَا أُنُفًا كَمَا يَزْعُمُ مُنْكِرُو الْقَدَرِ . وَالْأُنُفُ – بِضَمَّتَيْنِ – الْأَمْرُ الَّذِي يَكُونُ بَادِئَ الرَّأْيِ عَنْ غَيْرِ تَقْدِيرٍ وَلَا نِظَامٍ يَجْرِي عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ فِي الْقَدَرِ شَيْءٌ مِنْ مَعْنَى الْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ عَلَى الْعَمَلِ أَلْبَتَّةَ . رَاجِعْ فِي فِهْرِسَيِ الْجُزْأَيْنِ

(271/259)

و8 وَكَذَا غَيْرُهُمَا كَلِمَاتٌ : مَشِيئَةٌ ، وَالْجَبْرُ وَالْقَدَرُ ، وَسُنَّةُ اللهِ أَوْ سُنَنُ اللهِ تَعَالَى فِي الْكَائِنَاتِ مِثَالُ ذَلِكَ ص 252 و336 و414 و557 مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ ط الْهَيْئَةِ وص3 و8 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَفْسِيرُ (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ) الْآيَةَ 125 ص 36 مِنْهُ وَآيَةِ (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) (129) مِنْهُ وَتَفْسِيرُ 148 و149 (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ .

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى وَقَدَرُهُ فِي فَقْدِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْإِيمَانِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ بِمَشِيئَةِ الْإِضْلَالِ وَبِالْأَكِنَّةِ وَالْخَتْمِ وَالرَّيْنِ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَيُوصَفُ

(272/259)

أَصْحَابُهُ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ الْعُمْيِ - لَيْسَ مَعْنَى هَذِهِ السُّنَّةِ أَنَّ اللهَ بِقُدْرَتِهِ طَبَعَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْكُفْرِ ابْتِدَاءً وَخَلْقًا أَنُفًا ، حَتَّى صَارَ تَكْلِيفُهُمُ الْإِيمَانَ عَبَثًا ، وَمِنْ تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ . بَلْ هِيَ دَاخِلَةٌ فِي نِظَامِ الْمِقْدَارِ ، وَارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ ، إِذْ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَأْثِيرِ أَعْمَالِ

الْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ وَتَأْثِيرِ التَّرْبِيَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ أَيْضًا ، فَهِيَ إِذَا أَثَّرَ كَسْبُهُ كَمَا يُعْلَمُ مِنَ الشَّوَاهِدِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا ، وَكَثِيرًا مَا نُذَكِّرُ بِهِ فِي التَّفْسِيرِ لِإِيضَاحِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ الَّتِي ضَلَّ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالصُّوفِيَّةِ فَأَوْقَعُوا النَّاسَ فِي الْحَيْرَةِ ، بَلْ أَفْسَدُوا أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي كَسْبِهَا وَمُلْكِهَا وَأَخْلَاقِهَا - رَاجِعْ تَفْسِيرَ آيَةِ 7 - 9 ص 258 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ وَآيَةِ 20 ص 286 وَآيَةِ 25 ص 289 و35 ص 318 و46 ص 349 كُلُّهَا مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَتَفْسِيرَ 110 - 112 مِنْ آخِرِ السَّابِعِ ط الْهَيْئَةِ وَأَوَّلِ الثَّامِنِ و122 و123 ص 25 و124 - 126 ص 32 و144 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

(273/259)

وَكَذَلِكَ سُنَنُ اللهِ فِي افْتِتَانِ بَعْضِ النَّاسِ - وَكَذَا الْجِنُّ - بِبَعْضٍ فِي الْآيَةِ 53 (ص 370) وَفِي لُبْسِهِمْ شِيَعًا وَإِذَاقَةِ بَعْضِهِمْ بَأْسَ بَعْضٍ فِي الْآيَةِ 65 ص 408 وَتَوْلِيَةِ بَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا فِي الْآيَةِ 129 وَفِي تَزَيُّنِ أَعْمَالِهِمْ لَهُمْ فِي الْآيَةِ 108 (ص 553 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) وَآيَةِ 122 (ص25) وَآيَةِ 137 وَفِي مَكْرِ أَكَابِرِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْمَدَائِنِ فِي الْآيَةِ 123 (ص 28 مِنْهُ) كُلُّ هَذِهِ السُّنَنِ الْعَامَّةِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ فِي مَعْنَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي الْأَصْلِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا عَلَّمَهَا اللهُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ لِيَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِ الْبَشَرِ ، وَتَأْثِيرُ دَعْوَةِ

الْإِسْلَامِ فِي الْمُسْتَعِدِّينَ دُونَ غَيْرِهِمْ ، حَتَّى لَا يَحْزَنُوا وَلَا يَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ ، وَلَا شَيْءَ مِنْهَا يَقْتَضِي سَلْبَ الِاخْتِيَارِ ، وَلَا وُقُوعَهَا بِالْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ .

(الْأَصْلُ السَّابِعُ) مَا وَرَدَ مِنْ بَيَانِ السُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَمَوْتِهَا ، وَسَعَادَتِهَا وَشَقَاوَتِهَا ، وَإِهْلَاكِهَا بِمُعَانَدَةِ الرُّسُلِ وَبِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَتَرْبِيَتِهَا بِالشَّدَائِدِ وَكَذَا بِالنِّعَمِ وَالنِّقَمِ (رَاجِعْ ص 255 وَص 279 وَمَا بَعْدَهَا و307 و345 و414 مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ ط الْهَيْئَةِ) . وَمَا يَجِيءُ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ بِهَذَا الصَّدَدِ .

(الْأَصْلُ الثَّامِنُ) أَنَّ مَسَائِلَ عَقَائِدِ الدِّينِ عِلْمٌ صَحِيحٌ يُشْتَرَطُ فِيهِ الْيَقِينُ ، وَمَنْ ثَمَّ كَانَ

(274/259)

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ، وَأُيِّدَ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَحْثِ الْعَقَائِدِ الْإِلَهِيَّةِ وَبَحْثِ الرِّسَالَةِ .

وَالْيَقِينُ جَزْمٌ تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفْسُ لَا يُزَلْزِلُهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ .

(275/259)

(الْأَصْلُ التَّاسِعُ) التَّقْلِيدُ فِي الدِّينِ بَاطِلٌ ، لِأَنَّهُ يُنَافِي أَصْلَ الْعِلْمِ الْيَقِينِ . فَإِنَّ الْمُقَلِّدَ فِي الدِّينِ هُوَ مَنْ يَعْتَمِدُ فِي دِينِهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ وَقَوْمِهِ أَوْ مُعَلِّمِهِ وَلَيْسَ عَلَى عِلْمٍ وَلَا بَصِيرَةٍ فِيهِ ، فَهُوَ لَا يَدْخُلُ فِي أَتْبَاعِ الرَّسُولِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (12 – 108) فَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ مِنْ كَوْنِ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا مُؤَيَّدًا بِالْحُجَّةِ وَبَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَهُوَ مُبْطِلٌ لِلتَّقْلِيدِ ، وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ النَّعْيِ عَلَى الْكُفَّارِ وَعَيْبِهِمْ بِالْجَهْلِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ ، وَوَصْفِهِمْ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ الْعُمْيِ ، وَبِكَوْنِهِمْ لَا يَعْقِلُونَ – فَهُوَ مُبْطِلٌ لِلتَّقْلِيدِ . وَكُلُّ مَا فِيهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِمْ بِالدَّلِيلِ عَلَى مَا يَدْعُونَ وَبِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ فَكَذَلِكَ . وَقَدْ نَبَّهْنَا فِي تَفْسِيرِ بَعْضِ آيَاتِ السُّورَةِ الْوَارِدَةِ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ إِلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ آيَةِ 144 : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وَالْعِبْرَةُ فِيهِ أَنَّهُ جَاءَ فِي خَاتِمَةِ تَقْرِيعِهِمْ عَلَى مَا حَرَّمُوا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ تَقْلِيدًا لِآبَائِهِمْ ، فَبِذَلِكَ كَانَتْ كُلُّ تِلْكَ الْآيَاتِ هَادِمَةً لِلتَّقْلِيدِ ، وَيُؤَيِّدُهَا آيَةُ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ بَعْدَهَا . وَقَدْ نَقَلْنَا فِي تَفْسِيرِهَا كَلَامًا حَسَنًا فِي

جَهْلِ الْمُقَلِّدِينَ وَإِيثَارِهِمْ كَلَامَ شُيُوخِهِمْ عَلَى كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ نَقَلَهُ الرَّازِيُّ عَنْ شَيْخِهِ الَّذِي وَصَفَهُ بِخَاتِمَةِ الْمُحَقِّقِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ ، وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ خُسْرَانِ النَّفْسِ فِي ص274 ج 7 ط الْهَيْئَةِ .

(الْأَصْلُ الْعَاشِرُ) أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ التَّعَبُّدِيَّانِ وَسَائِرَ شَرَائِعِ الْعِبَادَةِ وَشَعَائِرِهَا مِنْ حَقِّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، فَمَنْ وَضَعَ لَهُمْ حُكْمًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَنِدْ إِلَى شَرْعِ اللهِ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَى رَسُولِهِ فَقَدِ افْتَرَى عَلَى اللهِ وَجَعَلَ نَفْسَهُ شَرِيكًا لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأَضَلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ ، وَمَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ ، وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ 136 - 140 .

(الْأَصْلُ الْحَادِي عَشَرَ) أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى النَّاسِ طَعَامًا يَطْعَمُونَهُ إِلَّا الْأَرْبَعَةَ الَّتِي ذُكِرَتْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ فِي الْآيَةِ (145) وَهِيَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ الْمَسْفُوحُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَرَاجِعْ تَحَقُّقَ الْحَقِّ فِي تَفْسِيرِهَا .

(الْأَصْلُ الثَّانِي عَشَرَ) أَنَّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تُبَاحُ لِلْمُضْطَرِّ إِلَيْهَا بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ بَاغِيًا أَيْ مُرِيدًا لَهَا ، وَلَا عَادِيًا أَيْ مُتَجَاوِزًا حَدَّ الضَّرُورَةِ إِلَى التَّمَتُّعِ بِهَا . وَإِذَا كَانَ

الِاضْطِرَارُ عِلَّةَ هَذِهِ الْإِبَاحَةِ بِشَرْطِهَا فَمِثْلُ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي يَضْطَرُّ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ لِحِفْظِ حَيَاتِهِ ، كَالِاضْطِرَارِ إِلَى الْخَمْرِ أَحْيَانًا كَمَا صَرَّحُوا بِهِ ، وَلَيْسَ مِنْهُ الزِّنَا لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ أَحَدٌ لِحِفْظِ حَيَاتِهِ .

(278/259)

(الْأَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ) السِّيَاحَةُ وَالسَّيْرُ فِي الْأَرْضِ . فَاتَنَا أَنْ نَذْكُرَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) 11 أَنَّهُ يَدُلُّ بِعُمُومِهِ عَلَى وُجُوبِ السِّيَاحَةِ وَإِنْ جَعَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَالْبَيْضَاوِيُّ الْأَمْرَ فِيهِ لِلْإِبَاحَةِ . وَإِنَّمَا يَجِبُ بِالْقَصْدِ الْمَنْصُوصِ فِي الْآيَاتِ كَمَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي الْأَصْلِ التَّالِي لِهَذَا . نَعَمْ إِنَّ الْخِطَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ ، وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ الدَّلَالَةُ عَلَى مِصْدَاقِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا النَّاطِقَةِ بِمَا حَلَّ مِنْ عِقَابِ اللهِ بِالسَّاخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ دُونَ السَّبَبِ الْخَاصِّ لِنُزُولِهِ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ . وَقَدْ تَكَرَّرَ الْأَمْرُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ . فَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي خِطَابِ الْمُشْرِكِينَ كَآيَةِ الْأَنْعَامِ وَمِثْلُهَا فِي النَّحْلِ وَالنَّمْلِ وَالْعَنْكَبُوتِ وَيُوسُفَ وَفَاطِرٍ وَغَافِرٍ . وَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ كَآيَةِ آلِ عِمْرَانَ (3 : 137) وَمِثْلُهَا آيَةُ سُورَةِ الرُّومِ (30 : 42) وَمِنْهُ مَا يَحْتَمِلُ الْعُمُومَ وَالْإِطْلَاقَ وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ وَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي الْقُرْآنِ بِالسَّائِحِينَ وَالسَّائِحَاتِ فِي سُورَتَيِ التَّوْبَةِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَإِنْ فَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ فِيهِمَا بِالصِّيَامِ وَهُوَ تَأْوِيلٌ بَعِيدٌ ، وَكَذَا تَخْصِيصُ سَهْمٍ مِنْ مَالِ الزَّكَاةِ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وَهُمُ الرُّحَّالُونَ الَّذِينَ يَنْقَطِعُونَ بِالْأَسْفَارِ عَنْ أَوْطَانِهِمْ

(279/259)

وَمَعَاهِدِ كَسْبِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّ السَّبِيلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ أَبُوهُ وَأُمُّهُ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُفَارِقُهُ ، وَانْظُرْ أَحْكَامَ السَّفَرِ وَفَوَائِدَهُ فِي الْأَصْلِ التَّالِي .

(الْأَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ) النَّظَرُ فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَعَوَاقِبِ الْأَقْوَامِ الَّتِي كَذَّبَتِ الرُّسُلَ فِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ فِي أَرْضِهَا وَرُؤْيَةِ آثَارِهَا وَسَمَاعِ أَخْبَارِهَا كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي اسْتَدْلَلْنَا بِهَا آنِفًا عَلَى الْأَصْلِ السَّابِقِ وَهِيَ (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (11) . وَهَذَا النَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي وُجُوبِهِ شَرْعًا ، وَكَوْنِهِ مَطْلُوبًا لِذَاتِهِ وَمَقْصُودًا مِنَ السِّيَاحَةِ وَالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي السَّفَرِ نَفْسِهِ إذَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ ذَلِكَ ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلَى إبَاحَتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَبَعْضُهُمْ إلَى وُجُوبِهِ .

وَالْحَقُّ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَيَّنَ لِلسَّفَرِ فَوَائِدَ أُخْرَى عَلَّلَ بِهَا الْأَمْرَ بِهِ وَالْحَثَّ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ الْإِبَاحَةُ ، وَقَدْ يَكُونُ وَاجِبًا إذَا كَانَ لِأَمْرٍ وَاجِبٍ كَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ الشَّرْعِيِّ وَالنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ

الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ هَذَا الْأَصْلِ مِنْ أُصُولِ فَوَائِدِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ – وَقَدْ يَكُونُ مَنْدُوبًا إذَا كَانَ لِطَلَبِ التَّوَسُّعِ فِي الْعُلُومِ ، وَأَمَّا الْعِلْمُ

(280/259)

الَّذِي هُوَ فَرْضُ عَيْنٍ فَالسَّفَرُ لِطَلَبِهِ إذَا تَعَذَّرَ تَحْصِيلُهُ بِدُونِهِ يَكُونُ فَرْضَ عَيْنٍ . وَالسَّفَرُ لِطَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ وَمِنْهُ الْفُنُونُ وَالصِّنَاعَاتُ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا حِفْظُ الْبِلَادِ وَشُئُونُ الْمَعَاشِ وَالصِّحَّةِ . . . تَأْثَمُ الْأُمَّةُ كُلُّهَا إذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ مَنْ تَحْصُلُ بِهِمْ كِفَايَةُ الْأُمَّةِ وَالْبِلَادِ . وَقَدْ يَكُونُ مُحَرَّمًا أَوْ مَكْرُوهًا إذَا قُصِدَ بِهِ عَمَلٌ مُحَرَّمٌ أَوْ مَكْرُوهٌ ، كَالَّذِينَ يُسَافِرُونَ إلَى أُورُبَّةَ لِأَجْلِ الْفِسْقِ .

وَأَجْمَعُ الْآيَاتِ لِتَكْمِيلِ النَّفْسِ بِالسَّفَرِ مِنْ طَرِيقِ الدِّرَايَةِ الْمُسْتَفَادَةِ بِالنَّظَرِ وَالِاكْتِشَافِ وَالِاعْتِبَارِ ، وَطَرِيقِ الرِّوَايَةِ وَالتَّلَقِّي عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ وَالِاخْتِبَارِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (22 : 46) .

(281/259)

وَقَدْ نَبَّهَتْ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أَعْظَمِ أُصُولِ الْعِلْمِ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ السِّيَاحَةِ وَاخْتِبَارِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ فِي شُئُونِ الْبَشَرِ الْعَامَّةِ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِعِلْمِ الِاجْتِمَاعِ وَهِيَ : (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا) (3 : 137) الْآيَةَ . وَنَبَّهَتْ آيَةُ الْعَنْكَبُوتِ إِلَى أَصْلٍ آخَرَ وَهُوَ الْبَحْثُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِبَدْءِ الْخَلْقِ مِنَ الْآثَارِ ؛ لِيَكُونَ مِنْ فَوَائِدِهِ قِيَاسُ النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ عَلَى النَّشْأَةِ الْأُولَى وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) (29 : 20) الْآيَةَ . وَنَبَّهَتِ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ آيَتَيْ سُورَةِ الرُّومِ إِلَى النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَآثَارِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ وَمَوَارِدِ الثَّرْوَةِ الزِّرَاعِيَّةِ وَسَائِرِ شُئُونِ الْعُمْرَانِ ، وَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ وَأَسْبَابُهُ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْقُوَّةَ وَالثَّرْوَةَ لَا تَحُولُ دُونَ هَلَاكِ الْأُمَّةِ إِذَا اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ بِالظُّلْمِ وَكُفْرِ النِّعْمَةِ وَهِيَ (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) (30 : 9) إِلَخْ . وَفِي مَعْنَاهَا آيَةُ فَاطِرٍ (35 : 44) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِمَسْأَلَةِ الْقُوَّةِ ، وَلَكِنَّهَا جَاءَتْ بَعْدَ بَيَانِ سُنَّةِ اللهِ فِي الْأَوَّلِينَ ، وَأَنَّ سُنَنَ اللهِ لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ ، فَهِيَ تُرْشِدُ بِمَوْقِعِهَا إِلَى

الْبَحْثِ عَنْ تِلْكَ السُّنَنِ . وَفِي مَعْنَاهَا آيَتَا سُورَةِ غَافِرٍ (40 : 21 و82) فَهُمَا تُرْشِدَانِ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِقُوَّةِ الْأُمَمِ وَآثَارِهَا فِي الْأَرْضِ ، فَتُزِيدُ عَلَى مَا قَبْلَهَا الْإِرْشَادَ إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنْ صِنَاعَاتِ الْأَوَّلِينَ وَطُرُقِ كَسْبِهِمْ ، وَالِاعْتِبَارِ بِكَوْنِهَا لَمْ تَكُنْ وَاقِيَةً لَهُمْ مَعَ قُوَّتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْأُمَّهَاتِ مِنْ أُصُولِ عُلُومِ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِطْرَادِ اخْتِصَارًا ، وَهُوَ كَافٍ لِتَذْكِيرِ مُسْلِمِي هَذَا الْعَصْرِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَرْشَدَ الْبَشَرَ إِلَى جَمِيعِ وَسَائِلِ سَعَادَةِ الْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ فِي أَمْرَيِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ .

(الْأَصْلُ الْخَامِسَ عَشَرَ) جَعَلَ اللهُ الظُّلْمَ سَبَبًا لِهَلَاكِ الْأُمَمِ وَإِبَادَةِ الْأَقْوَامِ فَقَالَ : (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) (45) وَقَالَ : (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) (47) وَقَالَ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (82) وَقَالَ : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (135) وَالظُّلْمُ أَنْوَاعٌ قَدْ بُيِّنَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَعْضُهَا ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ الظُّلْمُ الْعَامُّ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الشَّاهِدِ الْأَخِيرِ فِي الْآيَةِ 135) .

(الْأَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ) التَّرْغِيبُ فِي عُلُومِ الْكَائِنَاتِ وَالْإِرْشَادُ إِلَى الْبَحْثِ فِيهَا لِمَعْرِفَةِ

سُنَنِ اللهِ وَحِكَمِهِ ، وَآيَاتِهِ الْكَثِيرَةِ فِيهَا الدَّالَّةِ عَلَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَلِأَجْلِ الِاسْتِفَادَةِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ الَّتِي تَرْتَقِي بِهَا الْأُمَّةُ فِي مَعَاشِهَا وَسِيَادَتِهَا ، وَتَشْكُرُ فَضْلَ اللهِ عَلَيْهَا ، وَقَدْ جَعَلْنَا هَذَا النَّوْعَ مِنْ هِدَايَةِ السُّورَةِ أَصْلًا وَاحِدًا وَهُوَ أُصُولٌ تَتَعَلَّقُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهَا ، وَإِنَّمَا غَرَضُنَا بِذِكْرِ هَذِهِ الْأُصُولِ التَّذْكِيرُ وَالْإِشَارَةُ ، وَيُمْكِنُ لِلْقَارِئِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ إِرْشَادَ الْقُرْآنِ إِلَى جَمِيعِ الْعُلُومِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ – مِنْ جَسَدِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ – وَالْفَلَكِيَّةِ وَالْجَوِّيَّةِ وَالْحِسَابِيَّةِ .

وَلَوْ لَمْ يَرِدْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِلَّا الْآيَاتُ الْخَمْسُ الْمُتَّصِلَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) (95) إِلَى قَوْلِهِ : (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (99) لَكَفَى ، فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي (ص524 – 537 ج7 ط الْهَيْئَةِ) وَفِي مَعْنَاهَا فِي النَّبَاتِ (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ 141) الْآيَاتِ . وَمِثْلُهَا فِي الْحَيَوَانِ خَاصَّةً آيَةُ 38 الَّتِي تُذْكَرُ فِي الْأَصْلِ الَّذِي بَعْدَ هَذَا .

(الْأَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ) الْعِنَايَةُ بِحِفْظِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَالرِّفْقُ بِمَا سَخَّرَهُ اللَّهُ مِنْهَا لِلْإِنْسَانِ ، وَبِغَيْرِهِ . يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) (38) فَقَدِ اسْتَنْبَطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا حَظْرَ قَتْلِ الْكِلَابِ فَقَالَ : " لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا " الْحَدِيثَ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

وَقَدِ اسْتَدَلَّتْ إِحْدَى الصَّحَابِيَّاتِ بِالْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ الرِّفْقِ بِالْحَيَوَانِ وَتَحْرِيمِ تَعْذِيبِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَذَكَرْنَا فِي الْمَعْنَى بَعْضَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ ، وَهُنَالِكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى أَبْلَغُ مِنْهَا مَعْرُوفَةٌ فِي مَحَلِّهَا وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ (ص 326 - 336 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْأَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ) إِثْبَاتُ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَيْسَتْ إِلَّا لَعِبًا وَلَهْوًا ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ بِاتِّقَائِهِ مِنَ الشِّرْكِ وَكُفْرِ النِّعَمِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ . وَالْآيَةُ 32 نَصٌّ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِهَا مَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا فَرَاجِعْهُ فِي (ص 303 - 309 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) .

(285/259)

وَالْمُرَادُ مِنْ بَيَانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ تَحْذِيرُ الْعَاقِلِ مِنْ جَعْلِ التَّمَتُّعِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا كُلَّ هَمِّهِ مِنْ حَيَاتِهِ أَوْ أَكْبَرَ هَمِّهِ فِيهَا ، وَإِنْ وَقَفَ فِي ذَلِكَ عِنْدَ حَدِّ الْمُبَاحِ مِنَ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، وَلَمْ يُضَيِّعْ مَا لِلَّهِ وَمَا لِعِبَادِهِ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ ، عَلَى أَنَّ هَذَا لَا يَكَادُ يَتَّفِقُ لِمَنْ كَانَ ذَلِكَ أَكْبَرَ هَمِّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَأَجَلَهُ قَصِيرٌ ، وَهُوَ مَشُوبٌ بِالْمُنَغِّصَاتِ ، وَعُرْضَةٌ لِلْآفَاتِ ، وَالَّذِي لَا هَمَّ لَهُ فَوْقَهُ يُسْرِفُ فِيهِ فَيَظْلِمُ نَفْسَهُ وَيَظْلِمُ غَيْرَهُ ، وَإِنَّنَا نَرَى أَهْلَ الْحَضَارَةِ الْمَادِّيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ وَصَلُوا إِلَى دَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَلَمْ تَكُنْ بِصَارِفَةٍ لَهُمْ عَنْ

افْتِرَاسِ أَقْوِيَائِهِمْ لِضُعَفَائِهِمْ ، فَضْلًا عَنِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ هُمْ دُونَهُمْ فِي حَضَارَتِهِمْ أَوْ مِنْ غَيْرِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ ، وَقَدِ انْتَهَوْا فِي الْخُبْثِ وَالشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْفَتْكِ إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَعْرِفْهَا تَارِيخُ الْبَشَرِ فِي أَشَدِّ الْمُتَوَحِّشِينَ جَهْلًا .

(286/259)

(الْأَصْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ) أَنَّ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ الْمُحَتَّمَةِ أَنْ يَتَحَامَى الْمُسْلِمُونَ سَبَّ مَا يَعْبُدُهُ الْمُشْرِكُونَ حَجَرًا كَانَ أَوْ شَجَرًا أَوْ حَيَوَانًا أَوْ إِنْسَانًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُفْضِي إِلَى مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، وَهُوَ أَنْ يَسُبَّ أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِهِ ، وَيُثِيرُ الْعَدَاوَةَ

وَيُورِثُ الْأَحْقَادَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَيُكَثِّفُ الْحِجَابَ الَّذِي يَحْجُبُهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ عَلَى قُبْحِ السَّبِّ فِي نَفْسِهِ ، وَكَوْنِهِ غَيْرَ لَائِقٍ بِالْمُسْلِمِ وَلَا مِنْ شَأْنِهِ ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ " الْمُسْلِمُ لَيْسَ بِسَبَّابٍ وَلَا لَعَّانٍ " وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْأَدَبِ الْعَالِي وَمَا يَهْدِي إلَيْهِ مِنَ الْآدَابِ الْأُخْرَى فِي الْمُعَامَلَاتِ الْعَامَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (108) الْآيَةَ - فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي (ص 553 - 558 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَفِيهِ بَحْثُ عَصَبِيَّةِ الْمَذَاهِبِ وَالْأَدْيَانِ ، وَمَا تُفْضِي إلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالطُّغْيَانِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ .

(الْأَصْلُ الْعِشْرُونَ) ابْتِلَاءُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، أَيْ جَعْلِ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ

(287/259)

الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَاوُتِ فِي الصِّفَاتِ وَالْمَزَايَا الْوَهْبِيَّةِ وَالْكَسْبِيَّةِ مِمَّا يُخْتَبَرُ بِهِ اسْتِعْدَادُ الْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ فِي التَّنَافُسِ وَالْمُسَابَقَةِ إلَى مَا يُفَضَّلُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَمِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ طُرُقَ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ؛ وَلِذَلِكَ يَنْتَهِي الِاخْتِبَارُ تَارَةً بِارْتِقَاءِ كُلٍّ مِنَ الْمُتَنَافِسِينَ فِي الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ النَّافِعَةِ . وَتَارَةً يَنْتَهِي بِالرَّزَايَا وَالنَّكَالِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ، وَتَارَةً يَنْتَهِي بِارْتِفَاعِ فَرِيقٍ إلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، وَهَوِيِّ الْآخَرِ إلَى أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ .

وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ الْمُهْتَدِينَ بِهَذَا الْإِرْشَادِ الْإِلَهِيِّ فِي مُنَافَسَتِهِمْ لِغَيْرِهِمْ وَمُنَافَسَةِ غَيْرِهِمْ لَهُمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ 165) فَعَسَى أَنْ يَتُوبُوا وَيَتُوبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، وَيَعُودَ بِرَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ عَلَيْهِمْ ، فَيَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْأَرْزَاءِ ، وَيُعِيدَ إِلَيْهِمْ مَا سَلَبَهُمْ مِنَ الْآلَاءِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(288/259)

(الْأَصْلُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ) التَّوْبَةُ الصَّحِيحَةُ مَعَ مَا يَلْزَمُهَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ تُوجِبُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ وَرَحْمَةَ الرَّبِّ الْغَفُورِ ، بِإِيجَابِهِ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ، بِسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ وَوَعْدِهِ فِي كِتَابِهِ ، لَا بِتَأْثِيرِ مُؤَثِّرٍ وَلَا إِيجَابِ مُوجِبٍ وَلَا مُحَابَاةِ شَافِعٍ ، وَالْآيَةُ 54 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ نَصٌّ فِي هَذَا الْإِيجَابِ الشَّرْعِيِّ إِذْ قَالَ : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وَأَمَّا إِيجَابُهَا بِمُقْتَضَى سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَنَّ مَبْدَأَ التَّوْبَةِ شُعُورٌ بِالْأَلَمِ وَالِامْتِعَاضُ مِنَ الذَّنْبِ ، وَالْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ وَالْخَوْفُ مِنْ سُخْطِهِ وَعِقَابِهِ عَلَيْهِ ، وَلَوْمِ النَّفْسِ الَّذِي يُسَمِّيهِ بَعْضُهُمْ تَوْبِيخَ

الضَّمِيرِ ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ بِسُنَّةِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ تَرْكَهُ وَالْإِتْيَانَ بِعَمَلٍ يُضَادُّهُ وَيَذْهَبُ بِأَثَرِهِ مِنَ النَّفْسِ وَقَدْ عَرَّفَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى التَّوْبَةَ : بِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ وَحَالٍ وَعَمَلٍ ، فَالْعِلْمُ بِقُبْحِ الْمَعْصِيَةِ وَكَوْنِهَا سَبَبًا لِسُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ يُوجِبُ الْحَالَ وَهُوَ أَلَمُ النَّفْسِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا . وَهَذَا الْحَالُ يُوجِبُ الْعَمَلَ الشَّامِلَ لِتَرْكِ الذَّنْبِ وَتَكْفِيرِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَا سِيَّمَا إذَا كَانَ مُضَادًّا لَهُ . وَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ (ص 375 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ) ثُمَّ تَفْسِيرُ الْآيَاتِ الَّتِي يَحِيلُ عَلَيْهَا فِي تَفْصِيلِ الْمَسْأَلَةِ .

(289/259)

وَقَدْ أَخَّرْنَا هَذَا الْأَصْلَ لِتَذْكِيرِ الْأَفْرَادِ وَالْأَقْوَامِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي

جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْكِتَابَ إمَامَهَا ، بِمَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنَ التَّوْبَةِ عَنْ مُخَالَفَةِ مَا هَدَاهَا إلَيْهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ الْقَوِيمِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَتَنْكِبُ مَا أَرْشَدَهَا إلَيْهِ مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ .

(290/259)

هَذَا مَا تَيَسَّرَ التَّذْكِيرُ بِهِ مِنْ أُصُولِ عُلُومِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِقَدْرِ مَا تَذَكَّرْنَاهُ وَقْتَ كِتَابَتِهِ . وَالْفِكْرُ فِي بِلْبَالٍ وَالْقَلْبُ فِي آلَامٍ ، وَالزَّمَنُ غَيْرُ مُسَاعِدٍ عَلَى مُحَاوَلَةِ الِاسْتِقْصَاءِ عَلَى أَنَّ الْإِحَاطَةَ بِعُلُومِ الْقُرْآنِ لَيْسَتْ فِي اسْتِطَاعَةِ إِنْسَانٍ ، فَهِيَ تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَيَهَبُ اللَّهُ مِنْهَا الْأَوَاخِرَ مَا لَمْ يَهَبِ الْأَوَائِلَ ، وَيَمْنَحُ بَعْضَ الضُّعَفَاءِ مَا لَا يَمْنَحُ الْأَقْوِيَاءَ . وَقَدْ أَدْمَجْنَا فِي هَذِهِ الْأُصُولِ وَفِي الْكَلَامِ عَلَى أَرْكَانِ الْعَقَائِدِ الثَّلَاثَةِ قَبْلَهَا أُصُولًا كَثِيرَةً لَوْ بُسِطَتْ لَطَالَ الْكَلَامُ كَأَنْوَاعِ شَهَادَةِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِصِدْقِهِ . وَمُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا فِي الْآيَتَيْنِ 114 ، 115 ، وَأَعْدَاءُ الرُّسُلِ وَتَغْرِيرُهُمْ وَالِانْخِدَاعُ بِهَا فِي الْآيَتَيْنِ قَبْلَهُمَا وَهُنَّ فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَلْمَمْنَا بِبَعْضِهِ وَبِهَذَا نَخْتِمُ تَفْسِيرَ هَذِهِ السُّورَةِ . وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُلْهِمَنَا الصَّوَابَ . وَيَجْعَلَنَا مِمَّنْ تَابَ وَأَنَابَ ، وَيُوَفِّقَنَا لِإِتْمَامِ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ وَيُؤْتِيَنَا فِيهِ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ آمِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 259.216 ﴾

(291/259)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

وهناك قول كريم في آية أخرى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض . . . ﴾ [فاطر : 39]

وهنا يقول الحق : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ ﴾ .

ومعنى " خليفة " أي الذي يخلف غيره ؛ فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً . وخلفه الزمان أن يأتي عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخلفة المكان أي أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتي آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده في شبابه قويًّا ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتي واحد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان في الأرض ؛ لأن كل شيء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه ؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبةً منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار – على سبيل المثال – تنفعل لك ، وإذا حرثت في الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوي ، وإذا أكلت تشبع . من أين أخذت كل ذلك ؟ .

(292/259)

إنك قد أخذته من أن الحق الذي سخّر لك ما في الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات ؛ لكي يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أي إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأي جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور مشاعاً عالمياً ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لا يختلف فيهما الإنجليزي عن الفرنسي ، عن العربي ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيوعية أو ضحكة رأسمالية ؟ . طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [النجم : 43]

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود في الناس كلها ، فأنت تتكلم وتعمل على الصورة والكيفية التي تريدها ، لكنك ساعة تضحك فهو سبحانه الذي يضحك . وأنت حين تود مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكتك صناعية .

والحق يوضح لك : إن زمام كوني في يدي ، أجعل القوم مختارين في أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم في أشياء ؛ فأنا الذي أضحك وأبكي . ولا يوجد بكاء إنجليزي أو بكاء فرنساوي أو بكاء ألماني ، وكل البشر شركاء في مثل هذه الأمور . ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض . . . ﴾ [الأنعام : 165]

إن إرادتك على أبعاضك ، وعلى جوارحك- أيها الإنسان- موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ : إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتنفعل .

فيصاب هذا الإنسان بالشلل .

ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك .

(293/259)

أنتم- إذن- خلائف الأرض ؛ تنفعل لكم الأشياء بقدر ما أراد الله أن تنفعل لكم ، فإذا سلب انفعلها عنكم فلكي يثبت أنكم لم تسخروها بقدراتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

كأن من الخلافة أننا لا نكون متماثلين متطابقين ، بل أراد سبحانه أن نكون متكاملين في المواهب ، وفي الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب ، لفسدت الحياة ، فلابد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا قضاة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا مهندسين أو فلاحين . إذن فلابد من أن

تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ [الأنعام : 165]

أي أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟

ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلابد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطراراً ، وهذه هي هندسة المكون الأعلى سبحانه التي تتجلى في أنك وضعت خريطة لمن دخلوا معك في مرحلة التعليم الابتدائي . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية . إنك تجدهم أقل ، ومن درس في المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالي أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل .

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة في الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم في التعليم العالي ، فلن نجد لتلك المهام أحداً . لذلك جعل الله التكاتف في الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والحظوا جيداً : أن الإنسان إذا عضّه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أي عمل ، وإن رضي بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقد على سواه فسيتقن هذا العمل ، وسيتفوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام علي : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح في الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاضلين متفاوتين ، فرفع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع عليه فيما لا يجيد ، حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدي له العمل الذي لا يجيده وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل . ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ .

. . ﴾ [الأنعام : 165]

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من الواهب . ليعلم علم الإلزام للعبد ؛ فسبحانه يعلم أزلاً كل ما يصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدي العمل ليكون ملتزماً بم فعل . وتكون حجة على العبد . وحينما يقول الحق : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخباراً له . ﴿ . . . لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : 165]

وسبحانه " سريع العقاب " ، وإياك أن تستبطئ الآخرة ، فالثواب والعقاب سيأتي بعد أن ننتهي ونموت . وليس الموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأي عمل آخر . إذن فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطئون الآخرة . لذلك يقول أحد العارفين :

اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

(295/259)

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها في المخلوق هبة من الله له ، فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لا تعرف ما هي العضلات التي تحركها لتقف ، ولكنك بمجرد إرادتك ان تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وما دمنا خلائف فلابد أن نتكامل ولا نتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص من الآخر ، وفي الأخر موهبة تنقص في غيره ، ليضطر كل مخلوق في الأرض أن يتعاون مع آخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطي هو ثمرة مواهبه . ولا يريد الحق منا أن نعطي ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة . فأنت تحتاج إلى موهبة من لا موهبة لك فيه

، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك .

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا في ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكني لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها ، ولكن كلْ مفضل في شيء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلا عليه في شيء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعا .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب في البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ في موهبة ما تفوقاً ، وفي الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفي موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها في جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوي الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب . . . ﴾ [الأنعام : 165]

(296/259)

إذن فكل واحد منا يقدر أن يقول : أنا مرفوع ، ولكن عليه ألاّ يغتر ؛ لأنه مرفوع عليه أيضاً .

والتوازن يأتي من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك في درجة ، ولا مذلة بانخفاضك في درجة ؛ لأن هذا مراد الله وذلك مراد له – سبحانه – والذي يحترم قدر الله في توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً .

ولكن أينجح الناس جميعاً في هذا ؟ . لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ في الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه في أمور كثيرة . خذ الموهبة التي أعطاها الله لك ، والموهبة التي أعطاها لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، فالذي ينجح في هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فيتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذي لا يحترم قدر الله في خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح فله غفران ورحمة ، ومن لا ينجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابي بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه . ﴿ . . . إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الانعام : 165]

وبذلك ختمت سورة الأنعام ، التي استهلها الله بقوله سبحانه : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ .

وختمها بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فالحمد لله في الأولى .

والحمد لله في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(297/259)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [165] قال : يعني عقوبة القلب وهو الستر والحجاب ، حتى يميل إلى من سواه ، وما من عبد يطلع الله على قلبه فيرى في قلبه غيره إلاَّ سلط عليه عدوه ، وإنه لغفور لمن تاب منه . قال : ولا يقال لشيء من المضار عقوبة ، فإنها طهارة وكفّارة ، إلاَّ قسوة القلب فإنها عقوبة ، وعقوبات العلانية العذاب ، وعقوبات القلب درجات ، فالقلب للنفس فيه حظ ومراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 64 ﴾

(298/259)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ قال : أهلك القرون واستخلفنا فيها من بعدهم ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ قال : في الرزق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ قال : يستخلف في الأرض قوماً بعد قوم وقوماً بعد قوم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ يعني في الفضل والغنى ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ يقول ليبتليكم فيما أعطاكم ، ليبلوا الغني والفقير ، والشريف والوضيع ، والحر والعبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(299/259)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وهو الذى جعلكم خلائف الأرض " وفى سورة فاطر : "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض " بإضافة لفظ خلائف فى الأولى ولم يضف فى الثانية بل جئ بحرف الوعاء فيسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب عنه والله أعلم : أنه لما تقدم قبل آية الأعراف قوله سبحانه لنبيه عليه السلام "قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم " واستمر الخطاب له معرفا عن حاله وواضح طريقه إلى قوله : "قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ " ، فعم ما سواه سبحانه بالدخول تحت ملكه وقهره ، فناسب هذا ما ذكر من إنعامه على عباده بجعلهم خلائف الأرض ، ولو كان بحرف الوعاء لم يكن ليفهم التوسعة فى الاستيلاء والإطلاق إلا بضميم يحرز ذلك أن قوله فى الأرض إنما يفهم أنه موضع استخلافهم وهل كلها أو بعضها ذلك محتمل ، أما بغير حرف الوعاء فأظهر فى التعميم وإن كان لم يكن نصا إلا أنه أظهر من المتقيد بحرف الوعاء فناسب الإطلاق الإطلاق .

وأما قوله فى سورة الملائكة[فاطر] : "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض " فقد تقدم قبله : "والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها " إلى قوله : "أولم نعمركم . . . . " الآية ثم أعقب قوله "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض

" بقوله "فمن كفر فعليه كفره . . . " الآيات ، فلما اكتنف الآية ما ذكرته مما هو نقيض الوارد فى آية الأنعام ناسب ذلك التقييد بحرف الوعاء إذ لا يلائم البسط القبض فجاء كل على ما يجب ولا يناسب العكس والله سبحانه أعلم بما أراد .

قوله تعالى : "إن ربك سريع الحقاب وإنه لغفور رحيم " ، وفى الأعراف : "إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم " للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الأعراف بزيادة اللام المؤكدة فى الخبر وسقوطها من آية الأنعام ؟

(300/259)

والجواب والله أعلم أن آية الأنعام لما تقدمها قوله تعالى : "قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم " ثم استمر ما بعد على خطابه صلى الله عليه وسلم لما منحه الله تعالى إلى قوله : "وهو الذى جعلكم خلائف الأرض . . . " الآية ، فهذا له صلى الله عليه وسلم ولأمته فجاء الخبر من قوله : "إن ربك سريع العقاب " بغير لام التأكيد مناسبا للحال إذ هؤلاء المذكورون ليسوا بجملتهم ممن استحق عقابا ، ومن عوقب من أهل القبلة فعقابه منقطع بفضل الله فلا حامل على التأكيد لأن ذكر العقاب هنا تخويف يحمل المؤمن على استحباب الرغب والرهب وما ينبغى للمؤمن أن يكون عليه .

وأما آية الأعراف فقد ورد قبلها قوله تعالى : "وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب " وقد تقدم ذكر المقصودين بهذا الوعيد وذكر مرتكباتهم السيئات فتخلصت الآية للمستحقين العقاب بمجترحاتهم المفصحة بكفرهم فناسب تأكيد الخبر المنبئ بعقابهم وسوء مآلهم وجاء كل على كما يجب ويناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 175.176 ﴾ . بتصرف يسير .

(301/259)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) ﴾

صير التوبة إليكم ، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم ، فأنتم المقصودون اليوم دون من هو سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافاً ، وخلقكم أخْيافاً فمنْ مُسَخَّرٍ له ، مُرَفَّهٍ ، مُرَوَّحٍ ، يتعب لأَجْله كثيرٌ . ومن مُعَنَّيّ ، وذي مشقةٍ أُدِير عليه رأسهُ . وجاء البلاءُ ليختبركم فيما آتاكم ،

ويمتحنكم فيما أعطاكم . إنَّ حسابه لكم لاحِقٌ ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 516 ﴾

(302/259)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

«تعالى» من الخاص الذي صار عاما . وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ . وما حَرَّمَ منصوب بفعل التلاوة ، أى أتل الذي حرمه ربكم .

أو يحرم بمعنى : أقل أىّ شيء حرّم ربكم ، لأن التلاوة من القول ، و«أن» في أَلَّا تُشْرِكُوا مفسرة

(303/259)

و«لا» للنهى . فإن قلت : هلا قلت هي التي تنصب الفعل ، وجعلت أن لا تشركوا بدلا من ما حَرَّمَ ؟

قلت : وجب أن يكون أَلَّا تُشْرِكُوا ولا تَقْرَبُوا ولا تَقْتُلُوا ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ نواهى لانعطاف الأوامر عليها ، وهي قوله وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً لأن التقدير : وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، وَأَوْفُوا

، وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا

.

فإن قلت : فما تصنع بقوله وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ فيمن قرأ بالفتح ، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل ، حتى يكون المعنى : أتل عليكم نفى الإشراك والتوحيد ، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيما ؟ قلت : أجعل قوله وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً علة للاتباع بتقدير اللام ، كقوله تعالى وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً بمعنى : ولأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه . والدليل عليه القراءة بالكسر ، كأنه قيل : واتبعوا صراطي لأنه مستقيم ، أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم . فإن قلت : إذا جعلت أَنَّ مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم ، وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرما كله ، كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهى ، فما

تصنع بالأوامر ؟ قلت : لما وردت هذه الأوامر مع النواهي ، وتقدمهنّ جميعاً فعل التحريم ، واشتركن في الدخول تحت حكمه ، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها ، وهي الإساءة إلى الوالدين ، وبخس الكيل والميزان . وترك العدل في القول ، ونكث عهد اللّه مِنْ إِمْلاقٍ من أجل فقر ومن خشيته ، كقوله تعالى خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ مثل قوله ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ . إِلَّا بِالْحَقِّ كالقصاص ، والقتل على الردّة ، والرجم .

[سورة الأنعام (6) : آية 152]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم ، وهي حفظه وتثميره والمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشدّه فادفعوه إليه بِالْقِسْطِ

بالسوية والعدل ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

إلا ما يسعها ولا تعجز عنه . وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك ، لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج ، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفوّ عنه وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى

ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القاتل ، فما ينبغي أن يزيد في القول أو ينقص ، كقوله وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

(304/259)

[سورة الأنعام (6) : آية 153]

وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

وقرئ : وأن هذا صراطي مستقيما ، بتخفيف «أن» وأصله : وأنه هذا صراطي ، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث . وقرأ الأعمش : وهذا صراطي . وفي مصحف عبد اللّه : وهذا صراط ربكم . وفي مصحف أبيّ : وهذا صراط ربك وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الطرق المختلفة في الدين ، من اليهودية والنصرانية ، والمجوسية ، وسائر البدع والضلالات فَتَفَرَّقَ بِكُمْ فتفرقكم أيادى سبا عَنْ سَبِيلِهِ عن صراط اللّه المستقيم وهو دين الإسلام . وقرئ : فتفرق بإدغام التاء . وروى أبو وائل عن ابن مسعود عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه خط خطا ثم قال : هذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا ثم قال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»

،

ثم تلا هذه الآية وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب . وقيل : إنهنّ أمّ الكتاب ، ومن عمل بهنّ دخل الجنة ، ومن تركهنّ دخل النار ، وعن كعب الأحبار : والذي نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شيء في التوراة . فإن قلت : علام عطف قوله ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ قلت : على وَصَّاكُمْ بِهِ . فإن قلت : كيف صح عطفه عليه بثم - والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل - ؟ قلت : هذه التوصية قديمة ، لم تزل توصاها كل أمّة على لسان نبيهم ، كما قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب ، فكأنه قيل : ذلكم وصاكم به يا بنى آدم قديماً وحديثاً .

[سورة الأنعام (6) : آية 154]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154)

ثُمَّ أعظم من ذلك أنّا آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وأنزلنا هذا الكتاب المبارك . وقيل : هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله تعالى وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ . تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ تماماً للكرامة والنعمة ، على الذي أحسن ، على من كان محسنا صالحاً ، يريد جنس المحسنين . وتدل عليه قراءة عبد اللّه : على الذين أحسنوا : أو أراد

به موسى عليه السلام ، أى تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع ، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته ، أى

---

(1) . أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى من طريق عاصم وغيره عن أبى وائل .

(305/259)

زيادة على علمه على وجه التتميم . وقرأ يحيى بن يعمر : على الذي أحسن ، بالرفع ، أى على الذي هو أحسن ، بحذف المبتدإ كقراءة من قرأ مَثَلًا ما بَعُوضَةً بالرفع أى على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه . أو آتينا موسى الكتاب تماما ، أى تامّاً كاملا على أحسن ما تكون عليه الكتب ، أى على الوجه والطريق الذي هو أحسن وهو معنى قول الكلبي : أتمَّ له الكتاب على أحسنه

[سورة الأنعام (6) : الآيات 155 إلى 157]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا

الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157)

أَنْ تَقُولُوا كراهة أن تقولوا عَلى طائِفَتَيْنِ يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل وَإِنْ كُنَّا هي إن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنه كنا عن دراستهم غافلين، على أن الهاء ضمير الشأن عَنْ دِراسَتِهِمْ عن قراءتهم، أى لم نعرف مثل دراستهم لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ لحدّة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها، على أنا أمّيون. وقرئ: أن يقولوا: أو يقولوا، بالياء فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ تبكيت لهم، وهو على قراءة من قرأ يقولوا على لفظ الغيبة أحسن، لما فيه من الالتفات. والمعنى: إن صدّقتكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم، فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ بعد ما عرف صحتها وصدقها، أو تمكن من معرفة ذلك وَصَدَفَ عَنْها الناس فضلّ وأضلّ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ كقوله الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ.

[سورة الأنعام (6): آية 158]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ

رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)

(306/259)

الْمَلائِكَةُ ملائكة الموت ، أو العذاب أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أو يأتى كل آيات ربك .

بدليل قوله أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يريد آيات القيامة والهلاك الكلى ، وبعض الآيات .

أشراط الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها ، وغير ذلك . وعن البراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «ما تتذاكرون ؟ فقلنا : نتذاكر الساعة قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، ودابة الأرض ، وخسفاً بالمغرب ، وخسفا بالمشرق ، وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال ، وطُلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، وناراً تخرج من عدن «1»» لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ صفة لقوله نفساً . وقوله أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً عطف على آمنت . والمعنى أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرّة ، ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات ، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً ، فلم يفرّق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت

«2» في غير وقت الإيمان ، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً ، ليعلم أنَّ قوله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جمع بين قرينتين ، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، حتى يفوز صاحبهما ويسعد ، وإلا فالشقوة والهلاك قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ وعيد .

وقرئ : أن يأتيهم الملائكة ، بالياء والتاء .

وقرأ ابن سيرين : لا تنفع ، بالتاء ، لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك : ذهبت بعض أصابعه .

[سورة الأنعام (6) : آية 159]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (159)

فَرَّقُوا دِينَهُمْ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى . وفي الحديث : «افترقت اليهود

---

(1) . لم أجده لكن في مسلم عن حذيفة نحوه .

(2) . قال محمود : «فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت . . . الخ» قال أحمد رحمه الله ، هو يروم الاستدلال على صحة عقيدته في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود بهذه الآية ، إذ سوى بينهما في عدم الانتفاع بما يستدركانه بعد ظهور الآيات ، ولا يتم له ذلك ، فان هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف .

وأصل الكلام . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد ، ولا

نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد ، إلا أنه لف الكلامين فجعلهما كلاما واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً :

أراد أن يثبت أن ذلك هو الأصل ، فهو غير مخالف لقواعد السنة ، فانا نقول : لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير وإن نفع الايمان المتقدم في السلامة من الخلود ، فهذا بأن يدل على رد الاعتزال ، أجدر من أن يدل له .

والله الموفق .

(307/259)

على إحدى وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية ، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة . وتفترق أمّتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة «1»» وقيل : فرّقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقرئ : فارقوا دينهم ، أى تركوه وكانُوا شِيَعاً فرقاً كل فرقة تشيع إماماً لها لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أى من السؤال عنهم وعن تفرقهم . وقيل من عقابهم . وقيل : هي منسوخة بآية السيف .

[سورة الأنعام (6) : آية 160]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ

(160)

عَشْرُ أَمْثالِها على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف ، تقديره عشر حسنات أمثالها ، وقرئ : عشر أمثالها ، برفعهما جميعاً على الوصف . وهذا أقل ما وعد من الإضعاف . وقد وعد بالواحد سبعمائة ، ووعد ثواباً بغير حساب . ومضاعفة الحسنات فضل ، ومكافأة السيئات عدل وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 161]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161)

دِيناً نصب على البدل من محل إِلى صِراطٍ لأنّ معناه : هداني صراطاً ، بدليل قوله وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً والقيم : فيعل ، من قام ، كسيد من ساد ، وهو أبلغ من القائم .

---

(1) . أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من رواية محمد بن عمرو عن أبى هريرة ، دون «كلها» إلى آخر ما في المواضع ، لكن عند أبى داود في الأخيرة «ثنتان وسبعون في النار . وواحدة في الجنة» وللترمذي «كلهم في النار ، إلا ملة واحدة . وهي الناجية ، وافترقت النصارى ثنتين وسبعين فرقة . كلها في الهاوية إلا واحدة . قالوا : من هي يا رسول اللّه ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى ، وأخرجه ابن حبان والحاكم . ورواه الطبراني من حديث عوف بن مالك كذلك ، إلا أنه قال «فرقة في الجنة وثنتان وسبعون في النار . قيل : من هي ؟

قال : الجماعة» ومن حديث أبي أمامة في الأوسط ، بلفظ «كلها في النار إلا السواد الأعظم» ولأبي نعيم وابن مردويه من حديث زيد بن أسلم عن أنس نحوه . والبزار والبيهقي في المدخل من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص نحوه . وأخرجه أسلم بن سهل الواسطي في تاريخه من حديث جابر مثله . وبين أن السائل عن ذلك عمر بن الخطاب ، وفي إسناده واو لم يسم ، وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص عند ابن أبي شيبة ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وعن معاوية أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وإسناده حسن ، واتفقت هذه الطرق على العدد المذكور أولا : وخالفهم كثير بن عبد اللّه بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جده لجعله قوم موسى سبعين فرقة وقوم عيسى إحدى وسبعين وهذه الأمة اثنين وسبعين .

وغير في كل منها كلها فقال «إلا واحدة» وقال في الأخيرة «الإسلام وجماعة» أخرجه الطبراني والحاكم .

(308/259)

وقرئ : قيما . والقيم : مصدر بمعنى القيام وصف به . ومِلَّةَ إِبْراهِيمَ عطف بيان . وحَنِيفاً حال من إبراهيم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 162 إلى 163]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وعبادتي وتقرّبى كله. وقيل: وذبحى. وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ وقيل: صلاتي وحجى من مناسك الحج وَمَحْيايَ وَمَماتِي وما آتيه في حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ خالصة لوجهه وَبِذلِكَ من الإخلاص أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ لأن إسلام كل نبىّ متقدّم لإسلام أمّته.

[سورة الأنعام (6) : آية 164]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أى منكر أن أبغى ربا غيره وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ، وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها جواب عن قولهم اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ.

[سورة الأنعام (6) : آية 165]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ لأن محمداً صلى اللّه عليه وسلم خاتم النبيين فحلفت أمّته سائر الأمم. أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً. أو هم خلفاء اللّه في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ في الشرف والرزق لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحرّ بالعبد، والغنى بالفقير إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ لمن كفر نعمته وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة، لأن ما هو آت قريب.

(309/259)

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى اللّه عليه وسلم واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوما وليلة «1». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 78. 85﴾

---

(1). سبقت طرقه في سورة آل عمران. وله طريق أخرى أخرجها الثعلبي من حديث

أبى بن كعب بتمامه .

وفيه أبو عصمة . وهو متهم بالكذب . وأوله عند الطبراني في الصغير في ترجمة إبراهيم بن نائلة من حديث ابن عمر إلى قوله «و التحميد» وفيه يوسف بن عطية ، وهو ضعيف ، وأخرجه عنه ابن مردويه في تفسيره وأبو نعيم في الحلية .

(310/259)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) ﴾

التفسير : لما بين فساد ما يقوله الكفار في باب التحليل والتحريم أتبعه الشافي في الباب فقال

: ﴿ قل تعالوا ﴾ وهو من الخاص الذي صار عاماً لأن أصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه .

(311/259)

و " ما " في قوله : ﴿ ما حرم ﴾ إما منصوب بفعل التلاوة أي أتل الذي حرمه ربكم فالعائد محذوف . وقوله : ﴿ عليكم ﴾ يكون متعلقاً ب ﴿ أتل ﴾ أو ب ﴿ حرم ﴾ وإما منصوب ب ﴿ حرم ﴾ على أن " ما " استفهامية فلا راجع . والمعنى أقل أي شيء حرم لأن التلاوة نوع من القول وتقديم المفعول للتخصيص . فإن قيل : قوله ﴿ أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ كالتفصيل لما أجمله في قوله : ﴿ ما حرم ﴾ فيلزم أن يكون ترك الشرك والإحسان إلى الوالدين محرماً . فالجواب أن المراد من التحريم البيان المضبوط ، أو الكلام تم عند قوله : ﴿ ما حرم ربكم ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ عليكم أن لا تشركوا ﴾ أو " أن " مفسرة أي ذلك التحريم هو قوله : ﴿ لا تشركوا ﴾ وهذا في النواهي واضح ، وأما الأوامر فيعلم بالقرينة أن التحريم راجع إلى أضدادها وهي الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله . ولا يجوز أن يجعل " أن " ناصبة السورة أحسن بيان ، وذلك أن منهم من يجعل الأصنام شركاء لله تعالى فأشار إليهم

بقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ [الأنعام : 74] ومنهم عبدة الكواكب الذين أبطل قولهم بقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] ومنهم القائلون بيزدان واهرمن ومنهم الذين يقولون الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله وزيف معتقدهم بقوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ [الأنعام : 100] ثم عمم النهي بقوله : ﴿ لا تشكروا به شيئاً ﴾ ثم حث على إحسان الوالدين وكفى به خصلة شريفة أن جعله تالياً لتوحيده . ثم أوجب رعاية حقوق الأولاد بعد رعاية حقوق الوالدين . ومعنى ﴿ من إملاق ﴾ أي من خوف الفقر كما صرح بذلك في الآية الأخرى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] كانوا يدفنون البنات أحياء بعضهم للغيرة وبعضهم لخوف الإملاق وهو السبب الغالب فلذلك أزيل الوهم بقوله : ﴿ نحن

(312/259)

نرزقكم وإياهم ﴾ فكما يجب على الوالد الاتكال في رزق نفسه على الله فكذا القول في حال الولد ، قال شمر : أملق لازم ومعتد . أملق الرجل افتقر ، وأملق الدهر ما عنده إذا أفسده . وإنما قال ههنا : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وقال في سبحانه بالعكس لأن

التقدير في الآية من إملاق بكم نحن نرزقكم وإياهم ، وهناك زيدت الخشية التي تتعلق بالمستقبل فالتقدير خشية إملاق يقع بهم نحن نرزقهم وإياكم ، ثم نهى عن قربان الفواحش كلها . ومعنى ما ظهر منها وما بطن كما مر في قوله : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ [الأنعام : 120] وفيه أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دل على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله تعالى وامتثال أمره ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس .

(313/259)

ثم أفرز من جملة الفواحش قتل النفس المحرمة تنبيهاً على فظاعتها ولما نيط بها من الاستثناء وهو قوله ﴿ إلا بالحق ﴾ وذلك أن قتل النفس المحرمة قد يكون حقاً لجرم صدر عنها كما جاء في الحديث " لا يحل دم امرىءٍ مسلم إلا لإحدى ثلاث كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق " وينخرط في سلكه جزاء قاطع الطريق . والحاصل أن الأصل في قتل النفس هو الحرمة وحله لا يثبت إلا لأمر منفصل . ثم لما بيّن النواهي الخمسة أتبعه الكلام الذي يقرب إلى القلوب القبول فقال : ﴿ ذلكم وصاكم ﴾ لما في لفظ التوصية من الرأفة والاستعطاف . ومعنى ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف

ومنافعها في الدين والدنيا . ثم ذكر أربعة أنواع أخر من التكاليف وذلك قوله : ﴿ ولا تقربوا مال اليتم إلا بالتي ﴾ أي بالخصلة أو الطريقة التي ﴿ هي أحسن ﴾ وهي السعي في تثميره وإنمائه ورعاية وجوه الغبطة لأجله كما مر في أول سورة النساء ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ أي احفظوا ماله إلى هذه الغاية أي أوان الاحتلام ولكن بشرط أن يؤنس منه الرشد . قال الفراء : واحد الأشد شدته في القياس ولم يسمع . وقال أبو الهيثم : الواحد شدّة كأنعم في نعمة ، والشدّة القوّة ومنه قولهم : " بلغ الغلام شدّته " وقيل : إنه واحد جاء على بناء الجمع كآنك ولا نظير لهما ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ بالعدل والسوية . وإيفاء الكيل إتمامه خلاف البخس . وقوله : ﴿ والميزان ﴾ أي الوزن بالميزان . فإن قيل : إيفاء الكيل والوزن هو عين القسط فما فائدة التكرار ؟ قلنا : أمر الله المعطى بإيفاء إيتاء ذي الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة . ثم قال : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ ليعلم أن الواجب هو القدر الممكن من العدالة والسوية لا التحقيق المؤدي إلى الحرج والعسر . فزعمت المعتزلة ههنا أن هذا القدر من التضييق حيث لم يجوزه الله تعالى فكيف يكلف الكافر الإيمان مع أنه لا قدرة له

(314/259)

عليه أو يخلق القدرة الموجبة للكفر والداعية المقتضية له ثم ينهاه عنه وعورض بالعلم والداعي كما تقدّم مراراً ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ﴾ المقول له أو عليه ﴿ ذا قربى ﴾ حمله المفسرون على أداء الشهادة وعلى الأمر والنهي والأولى أن يحمل على الأقوال كلها ويدخل فيه قول الرجل في الدعاء إلى الدين . وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل مخلصاً عن الحشو ومبرأ عن النقص ومجرداً عن العصبية والجدال على مقتضى الهوى والتشهي ، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكذا الحكاية الرواية والرسالة . وحكم الحاكم بحيث يتسوي فيه بين القريب والبعيد ولا ينظر إلا إلى رضا الله ، وختم الأوامر بقوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ كما قال :

(315/259)

﴿ أوفوا بالعقود ﴾ [المائدة : 1] ويندرج في هذه الخاتمة بالحقيقة جميع الأنواع المذكورة ﴿ وإن هذا صراطي ﴾ من قرأ بالفتح والتخفيف فبإعماله في ضمير الشأن والتقدير : تعالوا أتل ما حرم وأتل أنه هذا صراطي ، وكذا فيمن قرأ بالتشديد وبالفتح إلا أن ضمير الشأن لا يقدر . وإن شئت جعلتها خفضاً متعلقاً بما قبله أي ذلكم وصاكم به وبأن هذا ، أو بما بعده والتقدير وبأن هذا صراطي مستقيماً ﴿ فاتبعوه ﴾ ومن كسر فلأن التلاوة في

معنى القول أو على الاستئناف والمعنى اتبعوا صراطي أنه مستقيم ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿ فتفرق بكم ﴾ الباء للتعدية أي فيفرقكم ذلك الأتباع ﴿ عن سبيله ﴾ المستقيم وهو دين الإسلام . وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله أنه خط خطاً ثم قال : هذا سبيل الرشد . ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا هذه الآية . فهذه الآية بالحقيقة إجمال لما في الآيتين المتقدمتين ولهذا ختمها بالتقوى التي هي ملاك العمل وخير الزاد وختم الأولى بقوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ لأنها أمور ظاهرة جلية يكفي في تعقلها أدنى مسكة وعقل ، وختم الثانية بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ لأن المذكور فيها أمور خفية تحتاج إلى التدبر والتذكر حتى يقف فيها على موضع الاعتدال . أو نقل : الأمور الخمسة المذكورة في الآية الأولى كلها عظام جسام وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا فختم الآية بما في الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان ، وأما المذكورة في الثانية فأشياء يقبح تعاطيها وارتكابها وكانت الوصية بها تجري مجرى الزجر والوعظ فختمها بقوله : ﴿ تذكرون ﴾ أي تتعظون بمواعظ الله تعالى .

(316/259)

قوله : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ معطوف على ﴿ وصاكم ﴾ فسئل كيف صح عطفه عليه بثم والإيتاء قبل الوصية بدهر طويل ؟ وأجيب بأن التكاليف التسعة المذكورة تكاليف لا تختلف بحسب اختلاف الشرائع كما روي عن ابن عباس أن هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وقيل : إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار ، وعن كعب الأحبار : والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة . وأما الشرائع التي كانت التوراة مختصة بها فهي إنما حدثت بعد تلك التكاليف التسعة فكأنه قيل : ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً ، ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب وأنزلنا هذا الكتاب المبارك . وقيل : إن في الآية حذفاً تقديره : ثم قل يا محمد صلى الله عليه وآله إنا آتينا . والمعنى اتل ما أوحي إليك ثم اتل عيلهم خبر ما آتينا موسى . وقيل : هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله :

(317/259)

﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ [الأنعام : 84] وقوله : ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ مفعول له أي لتتم نعمتنا على الذي أحسن أي على من كان محسناً صالحاً ، أو المراد

إتمام للنعمة والكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وكل ما أمر به ، أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي زيادة على علمه . وقرىء ﴿ أحسن ﴾ بالرفع أي على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ فيدخل في ذلك بيان نبوة رسولنا صلى الله عليه وآله وصحة دينه وشرعه ﴿ وهدى ﴾ دلالة ﴿ ورحمة ﴾ لكي يؤمنوا بلقاء ما وعدهم ربهم به من ثواب وعقاب ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ لا شك أنه القرآن ﴿ مبارك ﴾ كثير الخير والنفع أو ثابت لا يتطرق إليه النسخ كما في الكتابين ﴿ فاتبعوه واتقوا ﴾ لكي ترحموا لأن الغرض من التقوى رحمة الله تعالى ، أو اتقوا لترحموا جزاء على التقوى ، أو اتقوا مخالفته على رجاء الرحمة . قال الفراء قوله : ﴿ أن تقولوا ﴾ مفعول ﴿ واتقوا ﴾ وقال الكسائي : التقدير : إنا أنزلناه لئلا تقولوا . وقال البصريون : إنا أنزلناه كراهة أن تقولوا والخطاب لأهل مكة ﴿ إنما أنزل الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وإن كنا ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام في ﴿ لغافلين ﴾ هي الفارقة بينها وبين النافية والأصل وإنه كنا ومعنى الدراسة القراءة . وإنما قالوا : ﴿ لكنا أهدى منهم ﴾ لحدة أذهانهم وكثرة حفظهم لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأمثالها مع كونهم أميين قطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم . ثم قال : ﴿ فقد جاءكم ﴾ أي إن صدقتم أن عدم إنزال الكتاب يصلح للعذر وأنه لو أنزل عليكم الكتاب لكنتم أهدى منهم فقد جاءكم

﴿ بينة من ربكم ﴾ فيما يعلم سمعاً ﴿ وهدى ﴾ فيما يعلم سمعاً وعقلاً ﴿ ورحمة ﴾ من الله في إصلاح المعاش والمعاد ﴿ فمن أظلم ﴾ بعد هذه المعجزات والبينات ﴿ ممن كذب بآيات الله

(318/259)

وصدف عنها ﴾ أي منع غيره منها لأن الأول ضلال والثاني إضلال ، ثم ختم الآية بأشد الوعيد وأبلغ التهديد ثم ذكر أنهم بعد نصب الأدلة وإزاحة العذر لا يؤمنون ألبتة ، وشرح أحوالاً توجب المبادرة إلى الإيمان والتوبة فقال : ﴿ هل ينظرون ﴾ أي ينتظرون ومعنى الاستفهام النفي وتقدير الآية أنهم لا يؤمنون بك إلا عند مجيء أحد هذه الأمور : مجيء الملائكة ، أو مجيء الرب ويعني به عذابه وبأسه كما سلف في البقرة ، أو مجيء المعجزات القاهرة . قال في الكشاف : الملائكة ملائكة الموت أو ملائكة العذاب ومجيء الرب مجيء كل آية ، ثم قال : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ وأجمعوا على أن المراد بهذه الآية علامات القيامة . عن البراء بن عازب قال : كنا نتذاكر أمر الساعة إذا أشرف النبي صلى الله عليه وآله فقال : " أتتذاكرون الساعة ؟ إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ودابة

الأرض وخسفاً بالمشرق وخسفاً بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى وناراً تخرج من عدن "

(319/259)

والمراد أنه إذا بدت أشراط الساعة ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، ولا نفساً ما كسبت في إيمانها خيراً . ثم أوعدهم بقوله ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله : ﴿ إن الذين فارقوا دينهم ﴾ أو فرقوا ومعنى القراءتين في الحقيقة واحد لأن الذي فرق دينه بمعنى أنه أقر ببعض وكفر ببعض فقد فارقه أي تركه . قال ابن عباس : يريد أن المشركين بعضهم يعبدون الملائكة ويقولون إنهم بنات الله ، وبعضهم يعبدون الأصنام ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله فصاروا شيعاً أي فرقاً وإخواناً في الضلالة . والشيعة كل فرقة تشيع إماماً لها . وقال مجاهد وقتادة : هم اليهود والنصارى تفرقوا فرقاً وكفر بعضهم بعضاً وأخذوا بعضاً وتركوا بعضاً كقوله : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ [البقرة : 85] وعن مجاهد أيضاً أنهم من هذه الأمة وهم أهل البدع والشبهات وفي الحديث " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة – كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية – وافترقت النصارى

على اثنتين وسبعين فرقة - كلها في الهاوية إلا واحدة . وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين كلها في الهاوية إلا واحدة " ﴿ لست منهم في شيء ﴾ أي إنك بعيد من أقوالهم ومذاهبهم والعقاب اللازم على تلك الأباطيل مقصور عليهم لا يتعداهم إليك . وقال السدي : معناه لم تؤمر بقتالهم فلما أمر بقتالهم نسخ . ويحتمل أن يقال : إن النهي عن القتال في وقت لا ينافي الأمر في وقت آخر فلا نسخ ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ بالاستئصال والإهلاك ﴿ ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ وفيه من الوعيد ما فيه . وفي الآية حث على أن كلمة المسلمين يجب أن تكون واحدة ليستأهلوا الثواب الجزيل كما قال : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ هي لا إله إلا الله والسيئة الشرك . والأولى حملها على العموم ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ أقام صفة الجنس المميز مقام الموصوف تقديره : عشر حسنات أمثالها كقراءة من قرأ

(320/259)

﴿ عشر أمثالها ﴾ بالرفع والتنوين ، قيل : هذا أقل الموعود وقد وعد سبعمائة وبغير حساب . وقيل : ليس المراد التحديد بل أراد الأضعاف مطلقاً كقول القائل : لئن أسديت إليّ معروفاً لأكافئنك بعشرة أمثاله . وفي الوعيد لئن كلمتني واحدة لأكلمنك عشراً . روى أبو ذر أن النبي صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى : " الحسنة عشر أو أزيد والسيئة

واحدة أو أغفر فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره " وقال صلى الله عليه وآله يقول الله تعالى : " إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وإن لم يعملها فإن عملها فعشر أمثالها وإن هم بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فسيئة "

(321/259)

﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا ينقص من ثواب طاعاتهم ولا يزاد على عقاب سيآتهم .

أسؤلة : ما الحكمة في الأضعاف ؟ جوابه كان للأمم أعمار طويلة وطاعات كثيرة فوضع الله لهذه الأمة ليلة القدر خيراً من ألف شهر وأضعاف الأعمال ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ [البقرة : 261] ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : 10] وأيضاً لو أن الخصماء يتعلقون بهم يوم القيامة فيذهبون بأعمالهم إلى أن تبقى الأضعاف فيقول الله أضعافهم ليست من فعلهم هي من رحمتي فلا أقتص منهم أبداً . آخر : كيف يوجب الكفر عقاب الأبد ؟ جوابه أن الكافر كان على عزم الكفر لو عاش أبداً فاستحق العقاب الأبدي بناء على ذلك الاعتقاد بخلاف المسلم المذنب فإنه يكون على عزم الإقلاع فلا جرم تكون عقوبته منقطعة ، وأيضاً الذي جهله الكافر وهو ذات القديم سبحانه وصفاته شيء لا

نهاية له فيكون جهله لا يتناهى فكذا عقابه . آخر : إعتاق الرقبة الواحدة تارة جعل بدلاً عن صيام ستين يوماً وهو في كفارة الظهار وتارة بدلاً عن صيام أيام قلائل . آخر : أحدث في رأس إنسان موضحتين فوجب أرشان فإن عاد ورفع الحاجز بينهما صار الواجب أرش موضحة واحدة فههنا ازدادت الجناية وقل العقاب . آخر : قد يجتمع بسبب أطراف تبان ولطائف تزال ديات متعددة إذا حصل الاندمال ، وقد ترتقي إلى نيف وعشرين . الأذنان أو إبطال حسهما ، العينان أو البصر ، الأجفان ، المارن ، الشفتان ، اللسان أو النطق ، الأسنان ، اللحيان ، اليدان ، الذكر والأنثيان ، الحلمتان ، الشفران ، الإليتان ، الرجلان ، العقل ، السمع ، الشم ، الصوت ، الذوق ، الإمناء أو الإحبال ، إبطال لذة الجماع ، إبطال لذة الطعام ، الإفضاء ، البطش ، المشي . وقد تضاف إليها موجبات الجوائف والمواضح وسائر الشجات . فإن عاد الجاني قبل الاندمال وحز الرقبة أوقده بنصفين لم يجب إلاّ دية النفس ، وكل ذلك يدل

(322/259)

على أن رعاية المماثلة غير معتبرة في الشرع . والجواب عن الأسئلة الثلاثة أن هذه الأمور من تعبدات الشرع المطهر وتحكماته فلا سبيل بعقولنا إليها . ويمكن أن يجاب عن الثالث بأن

بدل الأطراف لما لم يستقر بالاندمال دخل في دية النفس لعسر ضبط ذلك والجزاء الحقيقي موكول إلى يوم الجزاء والله أعلم . قال أهل السنة : كل الثواب تفضل من الله تعالى فلا إشكال . وقالت المعتزلة : إن بين الثواب والتفضل فرقاً لأن الثواب هو المنفعة المتسحقة والتفضل هو المنفعة التي لا تكون مستحقة . ثم اختلفوا فقال الجبائي : العشرة تفضل والثواب غيرها إذ لو كان الواحد ثواباً والتسعة تفضلاً لزم أن يكون الثواب دون التفضل فلا يكون للتكليف فائدة . وقال آخرون : لا يبعد أن يكون الواحد ثواباً إلا أنه يكون أعلى شأناً من التسعة الباقية . ثم لما علم رسوله صلى الله عليه وآله أنواع الدلائل والرد على أصناف المشركين وبالغ في تقرير إثبات القضاء والقدر وردّ على أهل الجاهلية أباطيلهم أمره بأن يقول : ﴿ إنني هداني ربي ﴾ ليعلم أن الهداية لا تحصل إلا بالله عز وجل .

﴿ وقيماً ﴾ " فيعل " من قام كسيد من ساد . ومن قرأ ﴿ قيماً ﴾ فعلى أنه مصدر بمعنى القيام كالصغر والكبر وصف به للمبالغة و ﴿ ملة إبراهيم ﴾ عطف بيان و ﴿ حنيفاً ﴾ حال من إبراهيم أو من الملة ، والمعنى هداني وعرفني ملة إبراهيم حال كونه أو كونها موصوفاً بالحنيفية . ثم قال في صفة إبراهيم : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ رداً على من زعم عليه شيئاً من ذلك .

(323/259)

ثم كما عرفه الدين القويم والطريق المستقيم علمه كيف يصنع به ويؤديه فقال : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ﴾ أي عبادتي وتقربي إليه كما روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال : النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة . وقيل : للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث . وقيل : المراد بالنسك ههنا الذبائح جمع بين الصلاة والذبح كما في قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ [الكوثر : 2] وقيل : صلاتي وحجي أخذاً من مناسك الحج . ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ أي حياتي وموتي مصدران ميميان . وقال في الكشاف : المراد وما آتيه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والعمل الصالح . وفيه أنه لا يكفي في العبادات أن يؤتى بها كيف كانت بل لا بد أن يكون جيمع حركات المرء وسكناته لله رب العالمين ﴿ وبذلك ﴾ من الإخلاص ﴿ أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته . وقال في التفسير الكبير : إنه تعالى أمر رسوله أن يبين أن صلاته وسائر عباداته وحياته ومماته كلها واقعة بخلق الله تعالى وتقديره وقضائه ، وحكمه وذلك أن المحيا والممات بخلق الله فكذا الصلاة والنسك وبذلك من التوحيد أمرت ، ثم لما أمر نبيه بالتوحيد المحض أمره أن يذكر ما يجري مجرى الدليل عليه فقال : ﴿ قل أغير الله أبغي رباً ﴾ وتقريره أن طوائف المشركين من عبدة الأصنام والكواكب ومن اليهود والنصارى والثنوية كلهم معترفون بأن الله تعالى خالق الكل فكأنه

سبحانه قال : قل يا محمد منكراً أغير الله أطلب رباً مع أن هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة مقرون بأنه خالق تلك الأشياء ولا يدخل في العقل جعل المربوب والعبد شريكاً للرب والمولى . وبوجه آخر الموجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، وقد ثبت أن الواجب لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته فهو إذن رب كل شيء ، وصريح العقل شاهد بأن المربوب لا يكون شريكاً للرب فلا يختص إذن بالربوبية

(324/259)

غيره . ثم لما بين الدليل القاطع على التوحيد ذكر أنه لا يرجع إليه من كفرهم وشركهم ذم ولا عقاب فقال ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ ومعناه أن إثم الجاني عليه لا على غيره ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم نفس أخرى وهذا كالرد لقولهم :

(325/259)

﴿ اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ [العنكبوت : 12] ثم بين أن رجوع هؤلاء المشركين إلى موضع لا حاكم هناك إلا الله تعالى فقال : ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ ثم ختم السورة ببيان حال المبدإ والوسط والمعاد على سبيل الإجمال فقال ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ قيل : الخطاب لبني آدم لأنه جعلهم بحيث يخلف بعضهم بعضاً . وقيل : لأمة محمد صلى الله عليه وآله لأنه خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الأمم ، وقيل : لخواص الأمة الذين هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها بالحق كقوله : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس ﴾ [ص : 26] ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ في الشرف والعقل والجاه والمال والرزق لا للعجز والبخل ولم لأجل شبه الابتلاء والامتحان ، ولظهور الموفر من المقصر وتميز المطيع من العاصي حسب ما تقتضيه الحكمة والعدالة والتدبير والتقدير . ثم وصف نفسه بالقدرة الكاملة على إيصال العقاب وإيفاء الثواب فقال ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ فأدخل اللام في قرينة الترغيب وأسقطها عن قرينة الترهيب ترجيحاً لجانب الرحمة والغفران فإن اللطف والرحمة تفيض عنه بالذات والقهر والتعذيب يصدر عنه بالعرض لأن ذلك من ضروريات الملك ولهذا قال " سبقت رحمتي غضبي " وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت قريب . وإنما لم يسقط اللام عن قرينة العقاب في سورة الأعراف في قصة أصحاب السبت لأن ذلك قد ورد عقيب ذكر المسخ

فناسب التأكيد باللام ، وإنما أخر قرينة الرحمة في الموضعين ليقع ختم الكلام على المغفرة والرحمة فيكون أدل على كمال رأفته ووفور إحسانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 185.195 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) ﴾

(326/259)

إلى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) ﴾

لم ينقطع تدفق السياق في الموضوع الأساسي الذي يعالجه شطر السورة الأخيرة – وهو موضوع الحاكمية والتشريع وعلاقتهما بالدين والعقيدة – وهذا الشوط الجديد هو امتداد في العرض ، وامتداد في الحشد ، لتقرير هذه الحقيقة .

وهو يتحدث عن المبادئ الأساسية في العقيدة – بصدد التشريع والحاكمية – كما كان الشطر الأول من السورة يتحدث عن هذه المبادئ في صدد قضية الدين والعقيدة . ذلك ليقرر أن قضية التشريع والحاكمية هي كذلك قضية الدين والعقيدة . وعلى ذات المستوى الذي يعرض به المنهج القرآني هذه الحقيقة . ومما يلاحظ أن السياق يستخدم في شطر السورة الثاني ذات المؤثرات والموحيات والمشاهد والتعبيرات التي حشدها في الشطر الأول منها :

* يتحدث عن الكتب والرسل والوحي والآيات التي يطلبونها .

* ويتحدث عن الدمار والهلاك الذي يعقب وقوع الآيات والتكذيب بها .

* ويتحدث عن الآخرة وقواعد الدينونة والجزاء فيها .

* ويتحدث عن المفاصلة بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقومه الذين يعدلون بربهم ويتخذون من دونه أربابا يشرعون لهم ، ويوجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى إعلان حقيقة دينه جلية واضحة حاسمة .

* ويتحدث عن الربوبية الواحدة للعالمين جميعاً ، والتي لا يجوز أن يتخذ المؤمن من دونها ربوبية أخرى .

* ويتحدث عن ملكية رب العالمين لكل شيء ، وتصريفها لكل شيء ، وعن استخلاف الله للناس كيف شاء ، وقدرته على الذهاب بمن يشاء منهم عندما يشاء .

وهذه هي ذاتها القضايا والحقائق ، والمؤثرات والموحيات التي حشدها في أول السورة عند عرض حقيقة العقيدة في محيطها الشامل . محيط الألوهية والعبودية وما بينهما من علائق . . ولا ريب أن لهذا دلالته التي لا تخفى على من يتعامل مع القرآن الكريم ومع المنهج القرآني .

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى . . وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وشرائعهم . وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام ، وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شيء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن ، وتفصيلاً لكل شيء ، وهدى ورحمة ، لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ .

ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها . رجاء أن ينال الناس – حين

يتبعونها – رحمة الله في الدنيا والآخرة : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ . .

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب ، كي لا يقولوا : إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم ، فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم :

﴿ أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا .

وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . . فقد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ . .

(328/259)

لقد انقطعت الحجة بنزول هذا الكتاب ؛ ولكنهم ما يزالون يشركون بالله ؛ ويشرعون من عند أنفسهم ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذي يفترونه . وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه . ولو جاءتهم الآيات التي يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي

ربك أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيرا . قل : انتظروا إنا منتظرون ﴾ .

وعند هذا الحد يفصل الله – سبحانه – بين نبيه – صلى الله عليه وسلم – وسائر الملل المتفرقة التي لا تقوم على توحيد الله عقيدة وشريعة . ويقرر أن أمرهم إليه – سبحانه وتعالى – وأنه هو محاسبهم ومجازيهم وفق عدله ورحمته : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ .

(329/259)

وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا القطاع – وهو الإيقاع الأخير في السورة – في تسبيحة ندية رخية ، حازمة كذلك حاسمة ، تلخص أعمق أعماق الحقائق العقيدية في هذا الدين : التوحيد المطلق ، والعبودية الخالصة ، وجدية الآخرة ، وفردية التبعة والابتلاء في دار الدنيا . وسلطان الله المتمثل في ربوبيته لكل شي ؛ وفي استخلافه للعباد في ملكه كيف شاء بلا شريك ولا معقب . . كما ترسم تلك التسبيحة المديدة صورة باهرة لحقيقة الألوهية ، وهي تتجلى في أخلص قلب ، وأصفى قلب ، وأطهر قلب . . قلب رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - . . وذلك في مستوى من التجلي لا يصوره إلا التعبير القرآني ذاته : ﴿ قل : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم ﴾ . .

ونكتفي هنا بهذا القدر من الحديث المجمل ، لنأخذ في مواجهة النصوص بالتفصيل :

﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ، وتفصيلاً لكل شيء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ . .

هذا الكلام معطوف بثم على ما قبله . . وتأويله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا . . ﴾ ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً ﴾ معطوفة على جملة : ألا تشركوا . . ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب . . ﴾ معطوف عليهما كذلك باعتباره من القول الذي دعاهم ليقوله لهم - صلى الله عليه وسلم - فالسياق مطرد كما أسلفنا .

وقوله ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ . . تأويله - كما اختار ابن جرير - : " ثم آتينا موسى التوراة تماما لنعمنا عنده ، وأيادينا قبله ، تتم به كرامتنا عليه ، على إحسانه وطاعته ربه ، وقيامه بما كلفه من شرائع دينه . وتبيينا لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم " . .

وقوله : وتفصيلا لكل شيء . كما قال قتادة : فيه حلاله وحرامه .

وهدى ورحمة لعل قومه يهتدون ويؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه . .

. . هذا الغرض الذي من أجله آتينا موسى الكتاب ، جاء من أجله كتابكم ، لعلكم تنالون به الهدى والرحمة :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ . .

وإنه لكتاب مبارك حقاً - كما فسرنا ذلك من قبل عند ورود هذا النص في السورة أول مرة : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [الآية : 92] . .

وكان ذكر هذا الكتاب هناك بمناسبة الحديث عن العقيدة في مجالها الشامل ؛ وهو هنا يذكر بمناسبة الحديث عن الشريعة بنص مقارب ! ويؤمرون باتباعه ؛ وتناط رحمتهم من الله بهذا الاتباع . والكلام هنا بجملته في معرض الشريعة ، بعد ما تناولته أوائل السورة في

معرض العقيدة .

وقد بطلت حجتكم ، وسقطت معذرتكم ، بتنزيل هذا الكتاب المبارك إليكم ، تفصيلاً لكل شيء . بحيث لا تحتاجون إلى مرجع آخر وراءه ؛ وبحيث لا يبقى جانب من جوانب الحياة لم يتناوله فتحتاجون أن تشرعوا له من عند أنفسكم :

﴿ أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ . .

(331/259)

لقد شاء الله سبحانه أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم . . حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمداً خاتم النبيين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين .

والله – سبحانه – يقطع الحجة على العرب أن يقولوا : إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما . ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام . ولو

جاء إلينا كتاب بلغتنا ، يخاطبنا وينذرنا لكنا أهدى من أهل الكتاب . . فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم – وإن كان رسولاً للناس أجمعين – وجاءهم بكتاب هو بينة في ذاته على صدقه . وهو يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما هم فيه من ضلالة ، ورحمة لهم في الدنيا والآخرة . .

فإذا كان ذلك كذلك ، فمن أشد ظلماً ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهي تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟ من أشد ظلماً لنفسه وللناس بصده لنفسه وللناس عن هذا الخير العظيم ، وبإفساده في الأرض بتصورات الجاهلية وتشريعاتها . . إن الذين يعرضون عن هذا الحق في طبعهم آفة تميلهم عنه ؛ كالآفة التي تكون في خف البعير فتجعله يصدف – أي يميل – بجسمه ولا يستقيم ! إنهم ﴿ يصدفون ﴾ عن الحق والاستقامة ، كما يصدف البعير المريض عن الاعتدال والاستقامة ! وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم :

﴿ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ . .

(332/259)

إن التعبير القرآني يستخدم مثل هذا اللفظ ، المنقول في اللغة من حالة حسية إلى حالة معنوية ليستصحب في الحس أصل المعنى . . فيستخدم هنا لفظ " يصدف " وقد عرفنا أنه من صدف البعير إذا مال بخفه ولم يعتدل لمرض فيه ! كذلك يستخدم لفظ " يصعر خده " وهو مأخوذ من داء الصَّعَر الذي يصيب الإبل – كما يصيب الناس – فتعرض صفحة خدها ، اضطراراً ، ولا تملك أن تحرك عنقها بيسر ، ومثله استخدام لفظ ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ من حبطت الناقة إذا رعت نباتا مسموماً فانتفخ بطنها ثم ماتت ! ومثلها كثير . .

ويمضي في هذا التهديد خطوة أخرى ، للرد على ما كانوا يطلبونه من الآيات والخوارق حتى يصدقوا بهذا الكتاب . . وقد مضى مثل ذلك التهديد في أوائل السورة عند ما كانت المناسبة هناك مناسبة التكذيب بحقيقة الاعتقاد . وهو يتكرر هنا ، والمناسبة الحاضرة هي مناسبة الإعراض عن الاتباع والتقيد بشريعة الله : فقد جاء في أول السورة : ﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظرون ﴾ وجاء هنا في آخرها :

﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : قل : انتظروا إنا منتظرون ﴾ . .

إنه التهديد الواضح الحاسم . فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون .

. والله سبحانه يقول لهم : إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضي عليهم بعده . . وإنه يوم تأتي بعض آيات الله تكون الخاتمة التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . . لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحاً في إيمانها . فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته في ميزان الإسلام .

(333/259)

ولقد ورد في روايات متعددة أن المقصود بقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ هو أشراط الساعة وعلاماتها ، التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . وعدوا من ذلك أشراطاً بعينها . . ولكن تأويل الآية على وفق السنة الجارية في هذه الحياة الأولى . فقد سبق مثله في أول السورة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ والملاحظ أن السياق يكرر وهو بصدد الكلام عن الشريعة والحاكمية ، ما جاء مثله من قبل وهو بصدد الكلام عن الإيمان والعقيدة ، وأن هذا ملحوظ ومقصود ، لتقرير حقيقة بعينها . فأولى أن نحمل هذا الذي في آخر السورة على ما جاء من مثله في

أولها من تقرير سنة الله الجارية . وهو كاف في التأويل ، بدون الالتجاء إلى الإحالة على ذلك الغيب المجهول . .

بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة في الأرض – بما فيها ملة المشركين العرب – :

﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ . .

إنه مفرق الطريق بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل . .

سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعاً وفرقاً وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلاً ومعسكرات ودولاً . أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة إلى يوم الدين .

(334/259)

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس من هؤلاء كلهم في شيء . . إن دينه هو الإسلام وشريعته هي التي في كتاب الله ؛ ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ؛ ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات . . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام . . إسلامي . . وشيء آخر . . ! ! ! إن الإسلام إسلام فحسب . والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب . والنظام الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الإسلامي إسلامي فحسب . . ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس في شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان !

إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى .

وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمية فيه لله وحده – وبالتعبير الآخر : ليست الألوهية والربوبية فيه لله وحده – إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى . . قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهات أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما في الإسلام !

إن الدين عند الله الإسلام . . ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام .

وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع . . ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج الله منهجاً ، وغير شريعة الله شرعا . .

الأمر هكذا جملة . وللنظرة الأولى . بدون دخول في التفصيلات !

وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعاً ، وبرئ منهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بحكم من الله تعالى . . أمرهم بعد ذلك إلى الله ؛ وهو محاسبهم على ما كانوا يفعلون :

﴿ إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ . .

(335/259)

وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده . فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن – فليس مع الكفر من حسنة ! – فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ؛ لا يظلم ربك أحدا ولا يبخسه حقه :

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها . وهم لا يظلمون ﴾ . .

وفي ختام السورة – وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية – تجيء التسبيحة الندية الرخية ، في إيقاع حبيب إلى النفس قريب ؛ وفي تقرير كذلك حاسم فاصل . .

ويتكرر الإيقاع الموحي في كل آية : " قل " . . " قل " . . " قل " . . ويلمس في كل آية أعماق القلب البشري لمسات دقيقة عميقة في مكان التوحيد . . توحيد الصراط والملة . توحيد المتجه والحركة . توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة . . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسننه ومقوماته .

﴿ قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم ﴾ . .

هذا التعقيب كله ، الذي يؤلف مع مطلع السورة لحناً رائعاً باهراً متناسقاً ، هو تعقيب ينتهي به الحديث عن قضية الذبائح والنذور والثمار ، وما تزعمه الجاهلية بشأنها من شرائع ، تزعم أنها من شرع الله افتراء على الله .

. فأية دلالة يعطيها هذا التعقيب ؟ إنها دلالة لا تحتاج بعد ما سبق من البيان إلى مزيد . .

﴿ قل : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . .

إنه الإعلان الذي يوحي بالشكر ، ويشي بالثقة ، ويفيض باليقين . . اليقين في بناء العبادة اللفظي ودلالتها المعنوية ، والثقة بالصلة الهادية . . صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية . . والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذي لا التواء فيه ولا عوج : ﴿ ديناً قيماً ﴾ . . وهو دين الله القديم منذ إبراهيم . أبي هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب : ﴿ ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ﴾ .

﴿ قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . .

إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة . وبالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه .

إنها تسبيحة " التوحيد " المطلق ، والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده . لله ﴿ رب العالمين ﴾ . . القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين . . في " إسلام " كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع . . ﴿ وبذلك أمرت ﴾ . . فسمعت وأطعت : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ .

﴿ قل : أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ؟ ﴾ . .

كلمة تتقصى السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن ؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن في السر والعلانية . . ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن في هذا الكون الهائل ؛ وتعبدها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة .

ثم تعجب في استنكار :

﴿ أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ﴾ ؟

أغير الله أبغي ربا يحكمني ويصرف أمري ويهيمن عليَّ ويقومني ويوجهني ؟ وأنا مأخوذ بنيتي وعملي ، محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟

(337/259)

أغير الله أبغي ربا . وهذا الكون كله في قبضته ؛ وأنا وأنتم في ربوبيته ؟

أغير الله أبغي ربا وكل فرد مجزي بذنبه لا يحمله عنه غيره ؟ ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؟ ﴾ . .

أغير الله أبغي ربا وإليه مرجعكم جميعاً فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ؟

أغير الله أبغي ربا ، وهو الذي استخلف الناس في الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في العقل والجسم والرزق ؛ ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ؟

أغير الله أبغي ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟

أغير الله أبغي ربا ، فأجعل شرعه شرعاً ، وأمره أمراً ، وحكمه حكماً . وهذه الدلائل والموحيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟ ؟ ؟

إنها تسبيحة التوحيد الرخية الندية ؛ يتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع .

مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هي في قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآني الفريد . .

إنه الإيقاع الأخير في السياق الذي استهدف قضية الحاكمية والشريعة ؛ يجيء متناسقاً مع الإيقاعات الأولى في السورة ، تلك التي استهدفت قضية العقيدة والإيمان ؛ من ذلك قوله تعالى : ﴿ قل : أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ﴾ وغيرها في السورة كثير . .

ولا نحتاج أن نكرر ما قلناه مراراً من دلالة هذه المثاني التي تردد في المطالع والختام. فهي صور متنوعة للحقيقة الواحدة.. الحقيقة التي تبدو مرة في صورة عقيدة في الضمير. وتبدو مرة في صورة منهج للحياة.. وكلتا الصورتين تعنيان حقيقة واحدة في مفهوم هذا الدين..

(338/259)

ولكننا نتلفت الآن – وقد انتهى سياق السورة – على المدى المتطاول، والمساحة الشاسعة، والأغوار البعيدة.. تلك التي تتراءى فيها أبعاد السورة – ما سبق منها في الجزء السابع وما نواجهه منها في هذا الجزء – فإذا هو شيء هائل هائل.. وننظر إلى حجم السورة، فإذا هي كذا صفحة، وكذا آية، وكذا عبارة.. ولو كان هذا في كلام البشر ما اتسعت هذه الرقعة لعشر معشار هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والمؤثرات والموحيات؛ في مثل هذه المساحة المحدودة!.. وذلك فضلاً على المستوى المعجز الذي تبلغه هذه الحقائق بذاتها، والذي يبلغه التعبير عنها كذلك..

ألا إنها رحلة شاسعة الآماد، عميقة الأغوار، هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع السورة.. رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة.. رحلة تكفي وحدها لتحصيل "مقومات

التصور الإسلامي " !

حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها . .

وحقيقة الكون والحياة وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون ، ومن قدر مجهول ، ومن مشيئة تمحو وتثبت ، وتنشئ وتعدم ، وتحيي وتميت ، وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء .

وحقيقة النفس الإنسانية ، بأغوارها وأعماقها ، ودروبها ومنحنياتها ، وظاهرها وخافيها ، وأهوائها وشهواتها ، وهداها وضلالها ، وما يوسوس لها من شياطين الإنس والجن . . وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال . .

ومشاهد قيامة ، ومواقف حشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار .

ولقطات من تاريخ الإنسان في الأرض ؛ ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

وحشود وحشود من هذه المجالي التي لا نملك تلخيصها في هذه العجالة . والتي لا تعبر عنها إلا السورة نفسها ، في سياقها الفريد ، وفي أدائها العجيب .

إنه الكتاب " المبارك " . . وهذه – بلا شك – واحدة من بركاته الكثيرة . . والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ من إملاق ﴾ فيه ترك التوكل على الله وعدم الثقة بالله ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ أوفوا بكيل العمر وميزان الشرع حقوق الربوبية واستوفوا بكيل الاجتهاد وميزان الاقتصاد حظوظ العبودية من الألوهية . ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ بأن لا تعبدوا ولا تحبوا ولا تروا إلا إياه ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً ﴾ إشارة إلى أن الصراط المستقيم الحقيقي إلى الله تعالى هو صراط محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ أي على من أحسن من أمتك إسلامه . وفيه أن الكتب المنزلة كلها وشرائع الأنبياء كانت تتمة للدين الحنيفي الذي هو الإسلام ، ولهذا أمر بأن يقتدى بالأنبياء ليجمع بين هداه وهداهم . ويحتمل أن يراد بالذي أحسن النبي صلى الله عليه وآله والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ﴿ أنزلناه مبارك ﴾ وبركته أنه أنزل على قلبه فكان خلقه القرآن ﴿ فقد جاءكم بينة ﴾ ما يبين لكم طريق السير إلى الله ومهدي ما يهديكم إلى الله أتم وأكمل مما جاء في الكتابين

﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام : 59] ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ عياناً وتسوقيهم إلى الله قهراً والجاء ﴿ أو يأتي ربك ﴾ إليهم إذ لم يأتوا إليه في متابعتك ﴿ قل انتظروا ﴾ للمستحيلات ﴿ إنا منتظرون ﴾ للميعاد في المعاد ﴿ إن الذين فارقوا ﴾ الدين الحقيقي الذي فيه كمالية الإنسان ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ فرقاً مختلفة من المبتدعة والزنادقة والمتزيدة رياء وسمعة وعلماء السوء وملحدة المتفلسفة ﴿ لست منهم في شيء ﴾ لأنك على الحق وهم على الباطل وبينهما تضاد إنما أمرهم إلى الله في بدء الخلقة وقسم الاستعداد كما شاء ﴿ ثم ينبئهم ﴾ يوم الجزاء بما يستحقه كل منهم ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ قبل ذلك حتى يقدر على الإتيان بتلك الحسنة وهي حسنة الإيجاد من العدم ، وحسنة الاستعداد حيث خلقه في أحسن تقويم ، وحسنة التربية وحسنة الرزق وحسنة بعثة الرسل وحسنة إنزال الكتب ، وحسنة تبيين الحسنات من السيئات ، وحسنة التوفيق للحسنة وحسنة الإخلاص في الإحسان ، وحسنة قبول الحسنات ﴿ ومن جاء بالسيئة لا يجزى إلا مثلها ﴾ لأن السيئة بذر يزرع في أرض النفس والنفس خبيثة لأنها أمارة بالسوء ، والحسنة بذر يزرع في أرض القلب والقلب طيب ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ [الأعراف : 58] والتحقيق أنه كما للأعداد ثلاث مراتب الآحاد والعشرات والمئات وبعد ذلك تكون الألوف إلى حيث لا يتناهى ، فكذلك للإنسان أربع مراتب : النفس والقلب والروح

والسر . فالعمل الواحد في مرتبة النفس أي إذا صدر عنها يكون واحداً ، وفي مرتبة القلب يكون بعشر أمثالها ، وفي مرتبة الروح يكون بمائة ، وفي مرتبة السر يكون بألف إلى أضعاف كثيرة بقدر صفاء السر وخلوص النية إلى ما لا يتناهى ، وهذا سر ما جاء في القرآن والحديث من تفاوت جزاء الحسنات والله تعالى أعلم ورسوله . ﴿ قل إنني هداني ربي ﴾ من أسفل سافلين القالب بجذبه

(341/259)

العناية الأزلية ﴿ ونسكي ﴾ أي سيري على منهاج " الصلاة معراج المؤمن " ﴿ ومحياي ﴾ أي حياة قلبي وروحي ﴿ ومماتي ﴾ أي موت نفسي لطلب ﴿ رب العالمين ﴾ والوصول إليه ﴿ وأنا أول ﴾ المستسلمين عند الإيجاد لأمر " كن " كما قال : " أول ما خلق الله نوري " . ﴿ قل أغير الله ﴾ كيف أطلب غير الله وهو حبيبي والمحب لا يطلب إلا الحبيب وإذا هو رب كل شيء فيكون ما له لي ، وإن طلبت غيره دونه يكون ذلك الغير علي لا لي كما قال ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ لأن النفس أمارة بالسوء والسوء عليها لا لها ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فإن كان القلب سليماً من كدورات صفات النفس باقياً على ما جبل عليه من حب الله تعالى وطلبه لا يؤاخذ بمعاملة النفس ولا يتألم

بعذابها وإنما تكون النفس فقط مأخوذة بوزرها معاقبة بما هي أهله ، وإن كان القلب منقلب الحال وأزاغه الله تعالى بإصبع القهر إلى محاذاة النفس فتصدأ مرآة القلب بصفات النفس وأخلاقها فيتبع النفس وهواها فيزول عنه الصفاء والطهارة والسلامة والذكر والفكر والتوحيد والإيمان والتوكل والصدق والإخلاص ورعاية وظائف العبودية فيكون مأخوذاً بوزره لا بوزر غيره ﴿ وهو الذي جعل ﴾ كل واحد من بني آدم وقته خليفة ربه في الأرض .

وسر الخلافة أن صوره على صفات نفسه حياً قيوماً سميعاً بصيراً عالماً قادراً مريداً متكلماً ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ في استعداد الخلافة ﴿ ليبلوكم ﴾ ليظهر من المتخلق بأخلاقه منكم القائم به وبأوامره في العباد والبلاد ، ومن الذي رجع القهقرى إلى صفات البهائم وأبطل الاستعداد للخلافة بالختم والطبع والحبس في سجين الطبيعة ﴿ لغفور رحيم ﴾ لمن وفقه لمرضاته ورفع درجاته الله حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 195 . 196 ﴾

وقال الآلوسى :

(342/259)

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ بالله تعالى وأثبتوا وجوداً غير وجوده ﴿ لَوْ شَاء الله ﴾ تعالى ﴿ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ به سبحانه شيئاً ﴿ وَلاَ ﴾ أشرك ﴿ ءابَاؤُنَا ﴾ من قبلنا ﴿ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ قالوا ذلك تكذيباً للرسل عليهم السلام ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وقالوا مثل قولهم ﴿ حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ الذي حل بهم لتكذيبهم وهو الحجاب ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ بالبيان ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ [الأنعام : 148] لأنكم محجوبون في مقام النفس ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ أي إن كان الأمر كما قلتم فليس لكم حجة بل لله تعالى الحجة عليكم لأنه تعالى لا يشاء إلا ما يعلمه في الأزل ولا يعلم الشيء إلا على ما هو عليه في نفسه فلو لم تكونوا في أنفسكم مشركين سيئي الاستعداد لما شاء الله تعالى ذلك منكم ﴿ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : 149] لكنه لم يشأ إذ ليس في استعدادكم الأزلي ذلك .

(343/259)

وتحتمل الآية وجوهاً أخر لعلها غير خفية ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ فإن إثبات موجود غير الله تعالى ظلم عظيم ﴿ وبالوالدين ﴾ أي الروح والقلب أحسنوا ﴿ إحسانا ﴾ برعاية حقوقهما ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ ﴾ أي تهلكوا ﴿ أولادكم

﴿ قواكم باستعمالها في غير ما هي له ﴿ مِّنْ إملاق ﴾ أي من أجل فقركم من الفيض الأقدس ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ بأن نفيض عليكم وعليهم ما تتغذون به من المعارف بمقدار إذا توجهتم إلينا ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش ﴾ الأعمال الشنيعة ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ كأفعال الجوارح ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ كأفعال القلب ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ تعالى قتلها ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ [الأنعام : 151] أي إلا بسببه بأن تريدوا توجهها إليه أو إلا قتلاً متلبساً به ، وهو قتلها إذا مالت إلى السوي ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ أي ما أعد ليتيم القلب المنقطع عن علائق الدنيا والآخرة من المعارف التي هي وراء طور العقل ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وهي التصديق بذلك إجمالاً وعدم إنكاره ﴿ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فيقوى على قبول أنواع التجليات ، وحينئذٍ يصح لكم أن تقربوا ما أعد الله تعالى له من هاتيك المعارف لقوة قلوبكم وتقدس أرواحكم .

(344/259)

ومن الناس من جعل اليتيم إشارة إلى حضرة الرسالة عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى ﴿ وَأَوْفُوا الكيل ﴾ أي كيل الشرع بمراعاة الحقوق الظاهرة ﴿ والميزان ﴾ أي ميزان الحقيقة بمراعاة الحقوق الباطنة ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ أي لا

تقولوا إلا الحق ﴿ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ﴾ [الأنعام : 152] وهو التوحيد ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ غير مائل إلى اليمين والشمال ﴿ فاتبعوه ﴾ لتصلوا إلى الله تعالى ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ التي وصفها أهل الاحتجاب ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 153] فتضلوا ولا تصلوا إليه سبحانه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لتوفي أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ بالتجلي الصوري يوم القيامة كما صح في ذلك الحديث ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ ﴾ وهو الكشف عن ساق ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءايات رَبّكَ ﴾ وهو الكشف المذكور ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ [الأنعام : 158] حينئذٍ لانقطاع التكليف .

﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ أي جعلوا دينهم أهواء متفرقة كالذين غلبت عليهم صفات النفس ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ فرقاً مختلفة بحسب غلبة تلك الأهواء ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْء ﴾ إذ هم أهل التفرقة والاحتجاب بالكثرة فلا تجتمع هممهم ولا تتحد مقاصدهم ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى الله ﴾ في جزاء تفرقهم ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ عند ظهور هيئات أهوائهم المختلفة المتفرقة

(345/259)

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام؛ 159) من السيئات واتباع الهوى ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] وذلك لأن السيئة من مقام النفس وهي مرتبة الآحاد والحسنة أول مقاماتها مقام القلب وهي مرتبة العشرات وأقل مراتبها عشرة ، وقد يضاعف الحسنة بأكثر من ذلك إذا كانت من مقام الروح أو مقام السر وهذا هو السر في تفاوت جزاء الحسنات التي تشير إليه النصوص ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو طريق التوحيد الذاتي ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ثابتاً لا تنسخه الملل والنحل ﴿ مِلَّةِ إبراهيم ﴾ التي أعرض بها عن السوي ﴿ حَنِيفاً ﴾ [الأنعام : 161] مائلاً عن كل دين فيه شرك ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى ﴾ حضوري وشهودي بالروح ﴿ وَنُسُكِى ﴾ تقربي بالقلب ﴿ وَمَحْيَاىَ ﴾ بالحق ﴿ وَمَمَاتِى ﴾ بالنفس ﴿ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 162] لا نصيب لأحد مني في ذلك ﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ في شيء أصلاً إذ لا وجود سواه ﴿ وبذلك ﴾ الإخلاص وعدم رؤية الغير ﴿ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾ [الأنعام : 163] المنقادين للفناء فيه سبحانه .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِى رَبّا ﴾ فأطلب مستحيلاً ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي وما سواه باعتبار تفاصيل صفاته سبحانه مربوب ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾ إذ كسب النفس شرك في أفعاله تعالى وكل من أشرك فوباله عليه .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام : 164] لعدم تجاوز الملائكة إلى غير صاحبها ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف الأرض ﴾ بأن جعلكم له مظهر أسمائه ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ في تلك المظهرية لأنها حسب الاستعداد وهو متفاوت ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءاتاكم ﴾ ويظهر علمه بمن يقوم برعاية ما آتاه وبمن لا يقوم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب ﴾ لمن لم يراع ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : 165] لمن يراعي ذلك ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لمراضيه ويجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(347/259)

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾

السُّبل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة .

2 - ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً ﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول .

3 - ﴿ وَبِعَهْدِ اللهِ ﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم .

4 - ﴿ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿ عَنْهَا ﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم .

5 - ﴿ قُلِ انتظروا ﴾ الأمر للتهديد والوعيد .

6 - ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا . . . ﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللَّف وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً قبل إيمانُها بعدُ ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبلُ ما تكسبه من الخير بعد ، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً ، أفاده صاحب الانتصاف .

7- ﴿ ظَهَرَ ﴾ و ﴿ بَطَنَ ﴾ طباق وبين ﴿ الحسنة ﴾ و ﴿ السيئة ﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية .

8 - ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ قال الشريف الرضي : ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 432.433 ﴾

(348/259)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الأنعام (6) : آية 111]

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (لو) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير مبني في محلّ نصب اسم أن (نزلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل (إلى) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (نزلنا) ، (الملائكة) مفعول به منصوب . . .

والمصدر المؤول (أننا نزلنا . . . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت .

(الواو) عاطفة (كلم) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به

(الموتى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة (الواو) عاطفة (حشرنا) مثل نزلنا

(عليهم) مثل إليهم متعلق بـ (حشرنا) (كل) مفعول به منصوب (شيء) مضاف إليه مجرور

(قبلا) حال منصوبة من مفعول حشرنا (ما) نافية (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضم :

والواو ضمير اسم كان (اللام) لام الجحود أو الإنكار (يؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد اللام . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (أن يؤمنوا) في محلّ جر باللام متعلق بمحذوف خبر كانوا أي : ما كانوا أهلا للإيمان .

(إلا) أداة استثناء (أن) حرف مصدري ونصب (يشاء) مضارع منصوب (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع والمصدر المؤول (أن يشاء الله) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع " 1 " .

(الواو) عاطفة (لكن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – للاستدراك (أكثر) اسم لكن منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (يجهلون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو ضمير متصل مبني في محلّ رفع فاعل .

جملة " (ثبت) نزول الملائكة . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " نزلنا . . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة " كلمهم الموتى " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " حشرنا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

---

(1) أو هو من الاستثناء المتصل أي : ما كانوا ليؤمنوا في كل حال إلا حال مشيئة الله .

وجملة " ما كانوا . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " يؤمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " يشاء الله " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة " لكن أكثرهم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " يجهلون " في محلّ رفع خبر لكن .

الصرف :

(قبلا) ، جمع قبيل بمعنى كفيل كرغيف ورغف ، أو بمعنى جماعة ، والأول صفة مشتقة ، والثاني اسم جمع وزنه فعيل والجمع فعل بضمتين . . . وثمة رأي أنه ضد دبر أي مواجهة ومعاينة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 112 إلى 113]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (كذلك) اسم إشارة مبني في محلّ جر بالكاف " 1 " متعلق بمحذوف

مفعول مطلق مؤكد لما بعده . . . و(الكاف) حرف خطاب و(اللام) للبعد (جعلنا) فعل ماض مبني على السكون وفاعله (لكل) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من (عدوا) – نعت تقدم على المنعوت –

---

(1) يجوز أن تكون الكاف اسما بمعنى مثل ، مفعول مطلق نائب عن المصدر في محلّ نصب . [. . . . .]

(350/259)

(نبي) مضاف إليه مجرور (عدوا) مفعول به ثان عامله جعل منصوب (شياطين) مفعول به أول منصوب " 1 " ، (الإنس) مضاف إليه مجرور (الجن) معطوف على الإنس بالواو مجرور (يوحي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء (بعض) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (إلى بعض) جار ومجرور متعلق بـ (يوحي) ، (زخرف) مفعول به منصوب (القول) مضاف إليه مجرور (غرورا) مفعول لأجله منصوب " 2 " ، (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (رب) فاعل مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (فعلوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (والهاء) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ذر) فعل أمر ، والفاعل

ضمير مستتر تقديره أنت و(هم) ضمير مفعول به (الواو) واو المعية – أو عاطفة – (ما) اسم موصول " 3 " مبني في محلّ نصب مفعول معه " 4 " ، (يفترون) مضارع مرفوع والواو فاعل .

جملة " جعلنا . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يوحي بعضهم . . . . " في محلّ نصب حال من شياطين " 5 " .

وجملة " شاء ربك " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من (عدوا) على أنه المفعول الأول ، ويصبح الجار والمجرور (لكل) المفعول الثاني .

(2) أو مصدر في موضع الحال .

(3) أو نكرة موصوفة والعائد محذوف والجملة بعده نعت . . . أو حرف مصدري .

(4) أو معطوف بالواو على الضمير المنصوب في ذرهم .

(5) أو في محلّ نصب نعت لـ (عدوا) ، ويجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها .

وجملة " ما فعلوه " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " ذرهم . . . . " جواب شرط مقدر أي : إن صدر الإيحاء من بعضهم فذرهم .

وجملة " يفترون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (تصغي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب الفتحة المقدرة (إلى) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (تصغي) ، (أفئدة) فاعل مرفوع (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه (لا) نافية (يؤمنون) مثل يفترون (بالآخرة) جار ومجرور متعلق بـ (يؤمنون) .

والمصدر المؤول (أن تصغي . . . .) في محلّ جر باللام متعلق بفعل يوحي لأنه معطوف على (غرورا) بالمعنى فكلاهما مفعول لأجله العامل فيه يوحي " 1 " ، (الواو) عاطفة (اللام) مثل الأول (يرضوا) مضارع منصوب بأن مضمرة وعلامة النصب حذف النون . . .

والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤول (أن يرضوه) في محلّ جر باللام متعلق بـ (يوحي) بسبب العطف .

(الواو) عاطفة (ليقترفوا) مثل ليرضوا إعرابا وتعليقا (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (مقترفون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

---

(1) نصب (غرورا) لأنه مصدر اتفق مع الفعل في الفاعل . . . أما الإصغاء فلا يتفق مع الإيحاء بالفاعل لأن الموحي هو بعضهم والمصغي هو الأفئدة لذلك جر بحرف الجر اللام .

(352/259)

وجملة " تصغي . . . أفئدة " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " لا يؤمنون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يرضوه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " يقترفوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " هم مقترفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف أي : هم مقترفوه .

الصرف :

(زخرف) : اسم بمعنى أباطيل القول وزنه فعلل بضم الفاء واللام بينهما عين ساكنة .

(تصغي) ، الألف منقلبة عن الواو لأن المضارع يأتي أيضا يصغو ، فلما جاءت الواو متحركة بعد فتح قلبت ألفا في المجرد والمزيد أي : صغا وأصغى .

(يرضوه) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت الألف التي هي لام الفعل لمجيئها ساكنة قبل واو الجماعة الساكنة ، وزنه يفعوه .

(مقترفون) ، جمع مقترف ، اسم فاعل من اقترف الخماسي ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين .

الفوائد

1 - لام التعليل التي وردت في ثلاثة مواضع من الآية المذكورة هي في الأصل من اللامات الجارة عملا فهي يؤول ما بعدها بمصدر مجرور باللام وهي من

جهة المعنى تفيد إلى جانب التعليل الصيرورة والعاقبة كما ذهب إليه الزمخشري وهو رأي مقبول .

[سورة الأنعام (6) : آية 114]

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الفاء) عاطفة (غير 9 مفعول به مقدم منصوب " 1 " ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أبتغي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (حكما) تمييز منصوب " 2 " ، (الواو) حالية (هو) ضمير منفصل مبتدأ (الذي) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر (أنزل) فعل ماض ، والفاعل هو (إلى) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أنزل) ، (الكتاب) مفعول

به منصوب (مفصلا) حال منصوبة من الكتاب (الواو) استئنافية (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (آتينا) فعل ماض مبني على السكون . . . ونا فاعل و(هم) ضمير مفعول به (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (يعلمون) مضارع مرفوع . . .

والواو فاعل (أن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم أن (منزل) خبر مرفوع (من رب) جار ومجرور متعلق

---

(1) يجوز أن يكون حالا من (حكما) إذا أعرب هذا الأخير مفعولا به – نعت تقدم على المنعوت . . .

(2) أو حال من غير إذا أعربت هذه مفعولا به .

(353/259)

ب (منزل) ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (بالحق) جار ومجرور حال من الضمير في منزل أو من رب .

والمصدر المؤول (أنّه منزل) في محلّ نصب سد مسد مفعولي يعلمون .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (لا) ناهية جازمة (تكوننّ) مضارع ناقص مبني على الفتح في محلّ جزم و(النون) للتوكيد ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الممترين) جار

ومجرور متعلق بمحذوف خبر تكوننّ " 1 " .

جملة " أبتغي . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقدرة هي مقول القول لقول محذوف أي قل لهم : أأميل إلى زخارف الشياطين فأبتغي حكما .

وجملة " هو الذي . . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " الذين آتيناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آتيناهم الكتاب . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة " لا تكونن من الممترين " جواب شرط مقدر أي إن كان أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله فلا تكونن . . .

---

(1) يمكن تأويل النهي في حق الرسول عليه السّلام أن الخطاب له والمقصود غيره .

(354/259)

الصرف :

(مفصّلا) ، اسم مفعول من الرباعي فصّل ، وزنه مفعّل بضم الميم وفتح العين المشددة .

(منزل) بالتشديد – وبالتخفيف – اسم مفعول من الرباعي نزل – أو أنزل – ، وزنه مفعّل بضم الميم وفتح العين المشددة – أو غير المشددة .

[سورة الأنعام (6) : آية 115]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (تمت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث (كلمة) فاعل مرفوع (رب) مضاف إليه مجرور و(الكاف) ضمير مضاف إليه (صدقا) مصدر في موضع الحال منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة (عدلا) معطوف على (صدقا) منصوب (لا) نافية للجنس (مبدّل) اسم لا مبني على الفتح في محلّ نصب (لكلمات) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (السميع) خبر مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع .

جملة " تمت كلمة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا مبدل لكلماته " لا محلّ لها استئنافية " 2 " .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا لأجله . . . وقد أعربه العكبري تمييزا وتبعه في ذلك السيوطي .

(2) وعلى ملاحظة أن الرابط هو كلمات فهي في محلّ نصب حال من فاعل تمت .

وجملة " هو السميع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا مبدل لكلماته .

البلاغة

- المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ " والمراد بالكلمة الكلام وأريد به القرآن ، وإطلاقها عليه إما من باب المجاز المرسل أو الاستعارة وعلاقتها تأبى أن تطلق الكلمة على الجملة غير المفيدة ، لكن لم يوجد في كلامهم ذلك الإطلاق ، واختير هذا التعبير هذا التعبير لما فيه من اللّطافة التي لا تخفى على من دقق النظر

[سورة الأنعام (6) : الآيات 116 إلى 117]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تطع) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أكثر) مفعول به منصوب (من) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه (في الأرض) جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول (يضلّوا) مضارع

مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (عن سبيل) جار ومجرور متعلق بـ (يضلّوك) ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إن) نافية (يتّبعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (إلا) أداة حصر (الظن) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (إن) نافية (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (إلا) مثل الأولى (يخرصون) مثل يتبعون .

جملة " تطع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تمت في الآية السابقة .

وجملة " يضلّوك . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " يتبعون . . . " لا محلّ لها استئنافية " 1 " .

وجملة " إن هم إلّا يخرصون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتبعون . . . .

وجملة " يخرصون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (ربّ) اسم إن منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (هو) ضمير فصل " 2 " لا عمل له يفيد التوكيد (أعلم) خبر إن مرفوع (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب على نزع الخافض أي هو أعلم بمن يضل " 3 " ، (يضل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (عن سبيل) جار ومجرور متعلق بـ (يضل) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (أعلم) خبر المبتدأ مرفوع (بالمهتدين) جار ومجرور متعلق بأعلم ، وعلامة الجر الياء .

وجملة " إن ربك . . . أعلم " لا محلّ لها معطوفة استئنافيّة .

وجملة " يضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من فاعل يضلوك .

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (أعلم) ، وجملة هو أعلم خبر إن .

(3) يجوز أن تكون (من) موصولة أو موصوفة في محلّ نصب بفعل محذوف دل عليه الاسم أعلم . . . وقد تكون استفهامية في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة يضل ، والجملة الاستفهامية معلق عنها الفعل المقدر . [. . . . .]

(356/259)

وجملة " هو أعلم . . . " في محلّ رفع معطوفة على خبر إن لفظا أو جملة .

الصرف :

(تطع) ، فيه إعلال لمناسبة الجزم حيث التقى ساكنان هما عين الفعل ولامه ، فحذفت عين الفعل ، وزنه تفل بكسر الفاء .

(الظن) ، مصدر سماعي لفعل ظن يظن باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

1 - "إن" النافية: تنفي الماضي مثل "ان جاء الا أنتم" وتنفي الحال نحو "إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" . وتدخل على الفعل وعلى الاسم. وقد ورد المثالان في الآية المذكورة فتأمل.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 118 إلى 119]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

الإعراب:

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كلوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (من) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (كلوا) " 1 " ، (ذكر) فعل ماض مبني للمجهول (اسم) نائب فاعل مرفوع (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على)

---

(1) يجوز أن يكون نكرة موصوفة في محلّ جر.

حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (ذكر) (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . و(تم) ضمير اسم كان (بآيات) جار ومجرور متعلق بمؤمنين و(الهاء) مضاف إليه (مؤمنين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : "كلوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي : إن كنتم أيها المسلمون محقين في الإيمان فكلوا . . .

وجملة " ذكر اسم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " .

وجملة "كنتم مؤمنين " لا محلّ لها تفسير للشرط المقدر المتقدم ، وجواب الشرط الثاني محذوف دل عليه جواب الشرط الأول .

(الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر ما (أن) حرف مصدري (لا) نافية (تأكلوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (ألا تأكلوا) في محلّ جر بحرف جر محذوف متعلق بمحذوف حال أي : ما لكم في عدم أكلكم .

(مما ذكر . . . عليه) مثل الأولى (الواو) حالية (قد) حرف تحقيق (فصّل) فعل ماض ، والفاعل هو (لكم) مثل الأول متعلق بـ (فصل) ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب

مفعول به (حرم عليكم) مثل فصّل لكم (إلا) حرف للاستثناء المتصل أو المنقطع (ما) مثل المتقدم منصوب على الاستثناء (اضطررتم) فعل ماض مبني للمجهول . . . و(تم) ضمير نائب

---

(1) أو في حل جر نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة .

(358/259)

فاعل (إلى) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (اضطررتم) ، (الواو) استئنافية (إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (كثيرا) اسم إنّ منصوب (اللام) للتوكيد (يضلون) مضارع مرفوع . . .

والواو فاعل (بأهواء) جار ومجرور متعلق بـ (يضلون) والباء سببية و(هم) ضمير مضاف إليه (بغير) جار ومجرور متعلق بحال من فاعل يضلّون ، أي متلبسين بغير علم (علم) مضاف إليه مجرور (إن ربك . . . بالمعتدين) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .

وجملة " ما لكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط المقدرة .

وجملة " تأكلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " ذكر اسم الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " فصّل لكم . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة " حرّم عليكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " اضطررتم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة " إن كثيرا ليضلون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يضلون . . " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " إن ربك هو أعلم " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

1 - " ما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا " " ما " اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ :

وللاستفهام حرفان وهما الهمزة وهل ، وتسعة أسماء وهي " ما ومن وأي وكم وكيف

---

(1) في الآية (117) من هذه السورة .

وأين وأنى ومتى وأيان " .

وتنقسم أدوات الاستفهام جميعها من جهة التصور والتصديق إلى ثلاثة أقسام :

1 - " هل " للتصديق فقط .

2 - "الهمزة" مشتركة بين التصور أو التصديق .

3 - بقية أسماء الاستفهام لطلب التصور دون التصديق ، وعليك بكتب البلاغة لاستيفاء هذا البحث .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 120 إلى 121]

وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ذروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (ظاهر) مفعول به منصوب (الإثم) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (باطن) معطوف على ظاهر منصوب و(الهاء) مضاف إليه (إن) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب اسم إن (يكسبون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (الإثم) مفعول به منصوب (السين) حرف استقبال (يجزون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (يجزون) " 1 " ، (كانوا) فعل ماض

---

(1) (ما) قد يكون حرفا مصدريا ، والمصدر المؤول في محلّ جر ، وقد يكون نكرة .

ناقص مبني على الضم . . . والواو اسم كان (يقترفون) مثل يكسبون .

جملة " ذروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إن الذين . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " يكسبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " سيجزون . . . " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " كانوا يقترفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يقترفون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تأكلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (مما لم يذكر اسم الله عليه) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) استئنافية (إن) مثل الأول و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (اللام) للتوكيد (فسق) خبر مرفوع (الواو) استئنافية (إن) مثل الأول (الشياطين) اسم إن منصوب (اللام) مثل الأول (يوحون) مثل يكسبون (إلى أولياء) جار ومجرور متعلق بـ (يوحون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (اللام) لام التعليل (يجادلوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون

. . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤول (أن يجادلوا) في محلّ جر باللام متعلق بـ (يوحون) .

موصوفة ، والجملة بعده في محلّ جر نعت ، والعائد – في حالتي الموصول والموصوف – محذوف أي : بما كانوا يقترفونه .

(1) في الآية (118) من هذه السورة .

(361/259)

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم " 1 " (أطعتم) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . (وتم) ضمير فاعل و(الواو) زائدة إشباع حركة الميم و(هم) ضمير مفعول به (إنّكم لمشركون) مثل إنه لفسق ، وعلامة رفع الخبر الواو .

وجملة " لا تأكلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذروا .

وجملة " يذكر اسم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " إنه لفسق " لا محلّ لها استئنافية " 2 " .

وجملة " إن الشياطين . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يوحون " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " يجادلوكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " إن أطعتموهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن الشياطين . . .

وجملة " إنكم لمشركون " لا محلّ لها جواب قسم مقدر . . . وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم .

الصرف :

(ظاهر) ، اسم فاعل من ظهر الثلاثي ، وزنه فاعل .

(باطن) ، اسم فاعل من بطن الثلاثي ، وزنه فاعل .

(يوحون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يوحيون

---

(1) حذفت اللام الموطئة للقسم تخفيفا ، وقد جاء الجواب مقترنا باللام في قوله : (إنكم لمشركون) .

(2) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال . . . كما يجوز أن تكون معطوفة على الجملة الإنشائية قبلها على رأي سيبويه .

بضم اليائين ، استثقلت الضمة على الياء الثانية فسكنت ، ونقلت الحركة إلى الحاء – إعلال بالتسكين – ثم حذفت الياء لمجيئها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح (يوحون) ، وزنه يفعون .

الفوائد

1 – هذه الآية هي موضع خلاف لا ينتهي بين الفقهاء من جهة حكم التحليل والتحريم .

وبين النحاة حول هذه الواو والتي بسببها نشب الخلاف بين الفقهاء .

وحصيلة هذا الخلاف ما يلي :

أ – الشعبي وابن سيرين ومالك يرون التحريم سواء ترك التسمية عمدا أو سهوا .

ب – الثوري وأبو حنيفة فرقوا بين الحالتين : فقالوا إن ترك التسمية عامدا حرمت وإن تركها ناسيا حلّت .

ج – الشافعي وأحمد بن حنبل قالا تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا .

وتعليل ذلك لديهما أن الواو ليست عاطفة وإنما هي حالية ، فيحرم الأكل في حاله كونه فسقا فقط فتخيّر عصمك اللّه من الزلل .

وإن كنت من هواة التحقيق فارجع إلى كتب الفقه ففيها ما تطمح إلى تحقيقه .

[سورة الأنعام (6) : آية 122]

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ

بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (122)

الإعراب :

(363/259)

(الهمزة) للاستفهام (الواو) استئنافية " 1 " (من) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو ، وهو العائد (ميتا) خبر كان منصوب (الفاء) عاطفة (أحييناه) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (جعلنا) مثل أحييناه (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف مفعول ثان (نورا) مفعول أول منصوب (يمشي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على من (به) مثل له متعلق بفعل يمشي (في الناس) جار ومجرور متعلق بحال من فاعل يمشي (الكاف) حرف جر وتشبيه (من) اسم موصول في محلّ جر متعلق بخبر المبتدأ من (مثل) مبتدأ مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (في الظلمات) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر (ليس) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على من (الباء) حرف جر زائد (خارج) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس (من)

حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بخارج (الكاف) مثل الأول " 2 " (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بمفعول مطلق محذوف أي تزيينا كذلك التزيين للمؤمنين . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (زين) فعل ماض مبني للمجهول (للكافرين) جار ومجرور متعلق بـ (زين) ، (ما) اسم

---

(1) جرى المعربون على أن (الواو) عاطفة تعطف الجملة بعدها على جملة استئنافية محذوفة قبلها يقتضيها السياق .

(2) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر أي زين للكافرين عملهم تزيينا مثل ذلك التزيين .

(364/259)

موصول مبني في محلّ رفع نائب فاعل " 1 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – والواو اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " من كان ميتا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " كان ميتا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " أحييناه " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " يمشي . . . " في محلّ نصب نعت لـ نورا) .

وجملة " مثله في الظلمات " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة " ليس بخارج . . . . " في محلّ نصب حال من الموصول (من) " 2 " .

وجملة " زيّن . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " كانوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يعملون " في محلّ نصب خبر كان .

الصرف :

(ميتا) ، اسم لمن فقد الحياة ، وزنه فعل بفتح فسكون . . . وقد يكون صفة مشتقة .

البلاغة

1 - التشبيه التمثيلي : في الآية الكريمة ، حيث مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين الحق والمبطل والمهتدي

---

(1) أو هو حرف مصدري ، والمصدر المؤول في محلّ رفع نائب فاعل .

(2) أو استئناف بياني .

والضال ، بمن كان ميتا فأحياه وجعل له نورا يمشي به في الناس مستغيثا به فيميز بعضهم من بعض .

ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص .

الفوائد

1 - " أَوَمَنْ " في هذه الكلمة مركبة من ثلاثة من أقسام الكلام همزة الاستفهام وواو العطف والاسم الموصول ، وهو من صور البلاغة والتعابير المبدعة في القرآن الكريم ، وما أكثرها : أليس وهو كلام الله المعجز والمبدع ؟ ! 2 - أسلوب التمثيل وما يتضمنه من حركة وتشخيص هو من خصائص القرآن الكريم الذي حوى التصوير الفني في أبدع صوره وأوسع أبعاده لما فيه من قوة التأثير وسهولة التعبير .

[سورة الأنعام (6) : آية 123]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (123)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (كذلك) مثل السابق " 1 " وعامله جعلنا (جعلنا) مثل أحيينا " 2 " ، (في كل) جار ومجرور متعلق بـ (جعلنا) " 3 " ، (قرية) مضاف إليه مجرور (أكابر) مفعول به

أول منصوب (مجرمي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء ، وحذفت النون للإضافة و(ها) ضمير

(1 ، 2) في الآية السابقة (122) .

(3) والمفعول الثاني مقدر تقديره ماكرين دل عليه (ليمكروا) ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور في محلّ المفعول الثاني ، ويعرب (مجرميها) حينئذ بدلا من أكابر منصوب وعلامة النصب الياء . [. . . . .]

(366/259)

مضاف إليه (اللام) لام العاقبة – أو للتعليل – (يمكروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . . . والواو فاعل (في) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يمكروا) .

والمصدر المؤول (أن يمكروا) في محلّ جر باللام متعلق بـ (جعلنا) .

(الواو) استئنافية (ما) نافية (يمكرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (إلا) أداة حصر (بأنفس) جار ومجرور متعلق بـ (يمكرون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) حالية (ما

يشعرون) مثل ما يمكرون.

جملة "جعلنا . . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّن . . . في السابقة.

وجملة "يمكروا . . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر.

وجملة "ما يمكرون . . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة "ما يشعرون "في محلّ نصب حال من فاعل يمكرون.

الفوائد

1 - هذه الآية تصور حال من المفسدين في كل مكان وكل زمان، وليت الذين يفسدون في الأرض يدركون فحوى قوله تعالى "وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" ولو كشف الغطاء عن أبصار الناس وبصائرهم لرأى من يجرم حيال الناس إنما اجرامه يعود عليه قبل الناس ولكن أنى للناس أن يبصروا وما تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

(367/259)

[سورة الأنعام (6) : آية 124]

وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلق بالجواب قالوا (جاءت) فعل ماض ، و(التاء) للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (آية) فاعل مرفوع (قالوا) فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل (لن) حرف نفي ونصب (نؤمن) مضارع منصوب والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (حتى) حرف غاية وجر (نؤتى) مضارع مبني للمجهول منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (مثل) مفعول به منصوب (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه (أوتي) فعل ماض مبني للمجهول (رسل) نائب فاعل مرفوع (الله) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤول (أن نؤتى) في محلّ جر بـ (حتى) متعلق بـ (نؤمن) .

(الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أعلم) خبر مرفوع (حيث) ظرف مبني على الضم في محلّ نصب متعلق بفعل محذوف دلّ عليه أعلم الاسم " 1 " ، (يجعل) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (رسالة) مفعول به

---

(1) هذا الظرف عند بعضهم هو مفعول به عامله الفعل المقدر لأن الله تعالى لا يكون في مكان أعلم منه في مكان آخر . . . وقال أبو حيان : الظاهر إقرار (حيث) على الظرفية

المجازية وتضمين أعلم معنى ما يتعدى إلى الظرف ، والتقدير : الله أنفذ علما حيث يجعل . . . أي هو نافذ العلم في هذا الموضع . . . وقال السفاقسي : الظاهر أنه باق على معناه من الظرفيّة .

(368/259)

منصوب ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (السين) حرف استقبال (يصيب) مثل يجعل وفاعله (صغار) ، (الذين) موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (أجرموا) مثل قالوا . . . (عند) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (يصيب) " 1 " ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (عذاب) معطوف على صغار مرفوع (شديد) نعت مرفوع (الباء) حرف جر (ما) حرف مصدري " 2 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضم . . . والواو اسم كان (يمكرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (ما كانوا . . .) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (يصيب) .

جملة " جاءتهم آية " في محلّ جر بإضافة (إذا) إليها .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لن نؤمن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نؤتى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " أوتي " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " الله أعلم . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يجعل . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " سيصيب . . . صغار " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو متعلق بصغار لكونه مصدرا ، ويجوز أن يتعلق بنعت لصغار .

(2) أو اسم موصول ، أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف أي يمكرون به .

(369/259)

وجملة " أجرموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " كانوا يمكرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " يمكرون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(صغار) ، مصدر سماعي لفعل صغر يصغر باب فرح وزنه فعال بفتح الفاء ، وثمة مصادر أخرى هي صغر بكسر الصاد وفتح الغين وصغر بضم فسكون وصغر بفتحتين .

[سورة الأنعام (6) : آية 125]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125)

الإعراب :

(الفاء) استئنافية (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (يرد) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين ، والفاعل لفظ الجلالة (الله) مرفوع (أن) حرف مصدري ونصب (يهدي) مضارع منصوب وعلامة النصب الفتحة و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

والمصدر المؤول (أن يهديه) في محلّ نصب مفعول به .

(يشرح) مضارع مجزوم جواب الشرط ، والفاعل هو (صدر) مفعول به منصوب و(الهاء) مضاف إليه (للإسلام) جار ومجرور متعلق بـ (يشرح) . (الواو) عاطفة (من يرد أن يضله . . . صدره) مثل من يرد أن يهديه . . . (ضيقا) مفعول به ثان لفعل جعل (حرجا) نعت ل (ضيقا) " 1 " منصوب (كأنما) كافة ومكفوفة (يصّعد) مضارع مرفوع والفاعل هو (في السماء) جار ومجرور متعلق بـ (يصعد) ، (كذلك) مر إعرابه " 2 " ، ((يجعل) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الرجس) مفعول به منصوب (على) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (يجعل) بتضمينه معنى يلقي " 3 " ، (لا) نافية

(يؤمنون) مثل يمكرون " 4 " .

جملة " من يرد الله . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يهديه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " يشرح " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " من يرد . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " يرد الله (المكررة) " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 5 " .

وجملة " يضله " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة " يجعل . . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " يصعد . . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (ضيّقا) أو (حرجا) " 6 " .

---

(1) أو هو مفعول ثالث ، لأن (جعل) من النواسخ ، ولما صح تعدد الخبر صح تعدد المفاعيل مهما بلغت لأنها لشيء واحد ، ولا يلزم أن يكون الفعل متعديا لاثنين أو ثلاثة .

(2) في الآية (122) من هذه السورة .

(3) ويجوز أن يتعلق بمحذوف مفعول به ثان أي مستعليا أو مستقرا .

(4) في الآية السابقة (124) .

(5) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(6) يجوز أن تكون استئنافية فلا محلّ لها .

وجملة "يجعل (الثانية) "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "لا يؤمنون "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الصرف :

(ضيّقا) ، صفة مشتقة مشبهة باسم الفاعل ، على وزن فيعل من ضاق يضيق أدغمت فيه ياء فيعل مع عينه .

(يصّعد) فيه إبدال التاء صادا وإدغامها مع الصاد ، وأصله يتصعد .

البلاغة

1 - التشبيه التمثيلي : في قوله تعالى "كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ " شبهه للمبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يكاد يقدر عليه فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة . وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 126 إلى 127]

وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ها) حرف للتنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (صراط) خبر مرفوع (رب) مضاف إليه مجرور و(الكاف) ضمير مضاف إليه (مستقيما) حال مؤكدة منصوبة العامل فيها اسم الإشارة" 1 " . (قد) حرف تحقيق (فصّلنا) ، فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب

---

(1) في اسم الإشارة أثر من الفعل لأنه بمعنى أشير .

(371/259)

الكسرة (لقوم) جار ومجرور متعلق بـ (فصلنا) ، (يذكّرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " هذا صراط . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " فصّلنا . . . . " لا محلّ لها استئنافية " 1 " .

وجملة " يذكّرون " في محلّ جر نعت لقوم .

(اللام) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بخبر مقدم (دار) مبتدأ مؤخر مرفوع (السلام) مضاف إليه مجرور (عند) ظرف مكان منصوب متعلق بحال من دار السلام ،

والعامل فيها معنى الاستقرار " 2 " ، (ربّهم) مثل ربّك (الواو) حالية (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (ولي) خبر مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الباء) حرف جر للسببية أو الملابسة (ما) حرف مصدري " 3 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبني على الضم . . . والواو ضمير في محلّ رفع اسم كان (يعملون) مثل يذكرون .

والمصدر المؤول (ما كانوا يعملون) في محلّ جر بالباء متعلق بولي .

وجملة " لهم دار السلام " في محلّ نصب حال من فاعل يذكرون " 4 " .

وجملة " هو وليهم " في محلّ نصب حال من فاعل يذكرون " 5 " .

وجملة " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الصراط إذا أستعير للقرآن ، والرابط في الجملة مقدر .

(2) أو متعلق بالسلام لأنه مصدر .

(3) أو اسم موصول في محلّ جر ، والعائد محذوف أي يعملونه .

(4 ، 5) يجوز أن تكون مستأنفة فلا محلّ لها . [. . . . .]

الصرف :

(يذّكرون) ، فيه إبدال التاء ذالا وإدغامها مع الذال ، وأصله يتذكرون .

الفوائد

1 - كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ يرى علماء العصر الحديث أنه كلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض كلما خفّ الضغط الجوي وخفّ بالتالي نسبة الأكسجين التي يحتاج إليها الأحياء أثناء عملية التنفس ، ونتيجة ذلك يشعر المرء بضيق في صدره وحرج خلال استنشاقه للهواء قد يؤدي به ذلك إلى الإغماء فالاختناق .

ويرى بعض المفسرين أن ذلك يتفق مع قوله تعالى : "كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ " والله أعلم بما أودع كلماته من دقيق الأفكار ولطيف المعاني .

[سورة الأنعام (6) : آية 128]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بفعل محذوف تقديره يقول (يحشر) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي الله (جميعا) حال منصوبة من

ضمير النصب في (يحشرهم) ، (يا) أداة نداء (معشر) منادى مضاف منصوب (الجن) مضاف إليه مجرور (قد) حرف تحقيق (استكثرتم) فعل ماض مبني على السكون . . . (وتم) ضمير فاعل (من الإنس) جار ومجرور على حذف

مضاف أي من إغواء الإنس متعلق بـ (استكثرتم) (الواو) عاطفة (قال) فعل ماض (أولياء) فاعل مرفوع و(هم) مضاف إليه (من الإنس) مثل الأول متعلق بحال من أولياء (رب) منادى مضاف محذوف منه أداة النداء منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (استمتع) مثل الأول (بعض) فاعل مرفوع و(نا) مضاف إليه (ببعض) جار ومجرور متعلق بـ (استمتع) ، (الواو) عاطفة (بلغنا) مثل استكثرتم (أجل) مفعول به منصوب و(نا) مضاف إليه (الذي) موصول مبني في محلّ نصب نعت لـ (أجلنا) ، (أجّلت) مثل استكثرتم (اللام) حرف جر و(نا) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أجلت) " 1 " ، (قال) مثل الأول والفاعل هو أي الله ، (النار) مبتدأ مرفوع (مثوى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف و(كم) ضمير متصل مضاف إليه (خالدين) حال منصوبة من الضمير المجرور في مثواكم " 2 " ، (في) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بخالدين (إلا) حرف للاستثناء (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب على الاستثناء المتصل أي إلا زمنا يرده الله مستثنى من الزمن الدائم الخالد " 3 " ، (إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (ربّ) اسم إن منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (حكيم) خبر إن مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع .

جملة " يحشرهم . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

(1) أو بمحذوف حال من الضمير المفعول في (أجّلت) أي : أجّلته مسخّرا لنا .

(2) هذا إذا كان مثوى مصدرا ميميا أي : النار ذات ثوائكم . . . يجوز أن يكون العامل فعلا مقدرا بكون مثوى اسم مكان .

(3) يجوز حمل (ما) معنى (من) أي : إلا من يشاء الله عدم خلوده .

(373/259)

وجملة النداء وجوابه في محلّ نصب مقول القول للقول المقدر يقول .

وجملة " قد استكثرتم . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " قال أولياؤهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة المستأنفة المقدرة .

وجملة " النداء ربنا " في محلّ نصب مقول القول الثاني .

(374/259)

وجملة " استمتع بعضنا . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " بلغنا . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استمتع بعضنا .

وجملة " أجّلت لنا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " قال . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " النار مثواكم " في محلّ نصب مقول القول الثالث .

وجملة " شاء الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " إن ربك حكيم . . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو للاستئناف فقط – .

الصرف :

(معشر) ، اسم جمع بمعنى الجماعة ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين . . . ويجمع على معاشر .

البلاغة

1 – الاستثناء المذهل : في قوله تعالى " خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ " فقد ذكر الزمخشري في كتابه الكشاف : إلا ما شاء الله ، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، فقد روي أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى

الجحيم . أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه

أن ينفس خناقه . أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد ، فيكون قوله : إلا إذا شئت ، من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع .

[سورة الأنعام (6) : آية 129]

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (129)

الإعراب :

(375/259)

(الواو) استئنافية (الكاف) حرف جر وتشبيه " 1 " (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف مفعول مطلق عامله الفعل الذي يليه " 2 " ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نولي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بعض) مفعول به منصوب (الظالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء (بعضا) مفعول به ثان منصوب " 3 " ، (بما كانوا يكسبون) مثل بما كانوا يعملون " 4 " في مفرداتها وفي المصدر المؤول .

جملة " نولّي . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي أو الاسمي (ما) .

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر . . . أو في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر كذلك أو مثل ذلك . . . .

(2) أو متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ مقدر أي : الأمر كذلك .

(3) أو منصوب على نزع الخافض أي نولي بعض الظالمين على بعض أي نسلطهم على بعض .

(4) في الآية (127) من هذه السورة .

(376/259)

وجملة "يكسبون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 130 إلى 133]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)

الإعراب :

(يا معشر الجن) مرّ إعرابها " 1 " ، (الواو) عاطفة (الإنس) معطوف على الجن مجرور مثله ، (الهمزة) للاستفهام التوبيخي (لم) حرف نفي وقلب وجزم (يأت) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلة و(كم) ضمير مفعول به (رسل) فاعل مرفوع (من) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بنعت لرسل (يقصون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (عليكم) مثل منكم متعلق بـ (يقصون) ، (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ينذرون) مثل يقصّون و(كم) مفعول به أول (لقاء) مفعول به ثان منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور و(كم) مضاف إليه (ها)

---

(1) في الآية (128) من هذه السورة .

حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر عطف بيان أو بدل من يوم (قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (شهدنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) فاعل (على أنفس) جار ومجرور متعلق بـ (شهدنا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو)

استئنافية (غرّت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (الحياة) فاعل مرفوع (الدنيا) نعت للحياة مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (الواو) عاطفة (شهدوا) مثل قالوا (على أنفسهم) مثل على أنفسنا متعلق بـ (شهدوا) (أن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أن (كانوا) فعل ناقص – ناسخ – واسمه (كافرين) خبر منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة النداء " يا معشر " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يأتكم رسل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " يقصون . . . . " في محلّ رفع نعت لرسل " 1 " .

وجملة " ينذرونكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يقصون " 2 " .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " شهدنا على أنفسنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " غرّتهم الحياة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " شهدوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة غرتهم الحياة .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من رسل لأنه وصف .

(2) أو في محلّ نصب معطوفة .

وجملة "كانوا . . . . " في محلّ رفع خبر أن .

والمصدر المؤول (أنهم كانوا كافرين) في محلّ جر بحرف جر محذوف هو الباء ، متعلق بـ (شهدوا) .

(131) (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف أي أنه (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يكن) مضارع ناقص – ناسخ – مجزوم (ربّ) اسم يكن مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (مهلك) خبر منصوب (القرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدرة (بظلم) جار ومجرور متعلق بحال من الضمير في مهلك أي متلبسا بظلم .

والمصدر المؤول (أنه لم يكن ربك مهلك . . .) في محلّ جر بلام محذوفة أي لأنه لم يكن . . . . والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك .

(الواو) حالية (أهل) مبتدأ مرفوع و(ها) ضمير مضاف إليه (غافلون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة " ذلك أن لم يكن . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " لم يكن ربّك مهلك . . . . " في محلّ رفع خبر أن المخففة .

وجملة " أهلها غافلون " في محلّ نصب حال .

(132) (الواو) عاطفة (لكلّ) جار ومجرور متعلق بخبر مقدم (درجات) مبتدأ مؤخر مرفوع (من) حرف جر (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (عملوا)

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جر متعلق بنعت لدرجات ، والعائد محذوف .

فعل ماض وفاعله .

والمصدر المؤول (ما عملوا) في محلّ جر بـ (من) متعلق بمحذوف نعت لدرجات .

(الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (رب) اسم ما مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الباء) حرف جر زائد (غافل) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (عن) حرف جر (ما) مثل الأول (يعملون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (ما يعملون) في محلّ جر بـ (عن) متعلق بغافل .

وجملة " لكل درجات . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة غرتهم الحياة .

وجملة " عملوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) الأول .

وجملة " ما ربك بغافل . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لكل درجات .

وجملة " يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) الثاني " 1 " .

(133) (الواو) حرف عطف (رب) مبتدأ مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الغني) نعت مرفوع " 2 " ، (ذو) نعت ثان مرفوع وعلامة الرفع الواو (الرحمة) مضاف إليه مجرور (إن) حرف شرط جازم (يشأ) مضارع مجزوم فعل الشرط والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (يذهب) مضارع

---

(1) أو صلة الموصول الاسمي ، والعائد محذوف أي : يعملونه .

(2) يجوز أن يكون (الغني) خبرا أول و(ذو الرحمة) خبرا ثانيا .

(380/259)

مجزوم جواب الشرط و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (يستخلف) مثل يذهب معطوف عليه والفاعل هو (من بعد) جار ومجرور متعلق بـ (يستخلف) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (يشاء) مضارع مرفوع ، والفاعل هو .

والمصدر المؤول (ما أنشأكم) في محلّ جر بالكاف حرف الجر " 2 " متعلق بمحذوف مفعول مطلق أي : يستخلف من بعدكم ما يشاء إنشاء كإنشائكم من ذرية قوم آخرين . . .

و(أنشأكم) فعل ومفعول به والفاعل هو .

(من ذرية) جار ومجرور متعلق بـ (أنشأكم) ، (قوم) مضاف إليه مجرور (آخرين) نعت لقوم مجرور وعلامة الجر الياء .

وجملة " ربّك الغني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لكل درجات .

وجملة " إن يشأ يذهبكم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ربك) " 3 " .

وجملة " يذهبكم . . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة " يستخلف . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة " يشاء . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

---

(1) استعمال (ما) هنا على سبيل التغليب ، أو هو مستعار لما يعقل عوض من (من) .

[. . . . .]

(2) أو هو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر .

(3) أو استئناف بياني ، جاء جوابا عن سؤال مقدر . . .

الصرف :

(لقاء) ، مصدر سماعي لفعل لقي الثلاثي ، ومصدر سماعي لفعل لاقى الرباعي ، وزنه فعال بكسر الفاء ، وفيه إبدال حرف العلة المتطرفة همزة بعد الألف الساكنة أصله لقاي .

(مهلك) ، اسم فاعل من أهلك الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر اللام .

البلاغة

- إيثار " ما " على " من " : في قوله تعالى " ما يَشاءُ " لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 134]

إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134)

الإعراب :

(إن) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - (ما) اسم موصول في محلّ نصب اسم إن ، والعائد محذوف (توعدون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (آت) خبر إنّ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء المحذوفة (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع اسم ما

(الباء) حرف جر زائد (معجزين) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما ، وعلامة الجر الياء .

جملة " إن ما توعدون لآت " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " ما أنتم بمعجزين " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(382/259)

الصرف :

(آت) ، اسم فاعل من أتى الثلاثي ، وزنه فاع لأن فيه إعلالا بالحذف ، حذفت الياء لمناسبة التنوين .

(بمعجزين) ، جمع معجز ، اسم فاعل من أعجز الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين .

الفوائد

1 - هذه المؤكدات المتتابعة لها غرض واحد ولكنه عند الله عظيم إنها تؤكد وقوع يوم القيامة وأن اللّه لا يعجزه بعث الناس بعد موتهم وتوقيفهم للحساب حيث يجزون بالخير خيرا وبالشر شرا وليس ذلك على الله بعزيز .

فانظر إلى " إنّ " المؤكدة ، ثم هذه اللام المؤكدة والتي زحلقتها إن من أول المبتدأ إلى أول الخبر ثم طريقة النفي بـ " ما " ثم يعقبها الباء وهو حرف جر زائد وزيادته في مجال الإعراب وليس في مجال توكيده وتقريره للمعنى المطلوب .

2 – التنوين هو نون ساكنة تلحق آخر الاسم لفظا وتهمل خطا . وأنواعه المشهورة أربعة هي :

أ – تنوين التمكين ، وهو ما يلحق الأسماء المعربة للدلالة على تمكنها من الاسمية .

ب – تنوين التنكير هو الذي يلحق بعض الأسماء المبنية مثل مررت بسيبويه لا مثيل له .

ج – تنوين المقابلة ويلحق جمع المؤنث السالم وهو في مقابلة النون في جمع المذكر السالم .

د – تنوين العوض : وقد يكون عوضا عن كلمة أو عن جملة أو عوضا عن حرف .

فالعوض عن الجملة هو ما يلحق كلمة " إن " وثمة أنواع أخرى من التنوين غير المشهور سنأتي على ذكرها في مواطن أخرى تقتضي التفصيل إن شاء الله .

[سورة الأنعام (6) : آية 135]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (يا) حرف نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف و(الياء) المحذوفة ضمير مضاف إليه (اعملوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (على مكانة) جار ومجرور متعلق بـ (اعملوا) على حذف مضاف أي تثبيت مكانتكم أو تقوية مكانتكم ، و(كم) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (عامل) خبر مرفوع (الفاء) تعليلية (سوف) حرف استقبال (تعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (تكون) مضارع ناقص – ناسخ – مرفوع (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم (عاقبة) اسم تكون مرفوع (الدار) مضاف إليه مجرور (إنّه) مثل إنّي " 2 " (لا) نافية (يفلح) مضارع مرفوع (الظالمون) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء " يا قوم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز أن يكون (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة (تكون له عاقبة الدار)

، أي : سوف تعلمون أينا تكون له . . . . والجملة الاسمية من تكون . . . . إما سادّة مسد مفعولي تعلمون إذا كان قلبيا أو مسد المفعول الواحد إذا كان بمعنى العرفان .

(2) والهاء هو ضمير الشأن .

(384/259)

وجملة " اعملوا . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " إني عامل . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " سوف تعلمون " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " تكون له عاقبة . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " إنه لا يفلح . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا يفلح الظالمون " في محلّ رفع خبر إن .

الصرف :

(مكانة) ، مؤنث مكان ، اسم مكان من فعل كان ، فالميم على هذا زائدة ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين لأن عين الفعل في المضارع مضمومة . . . وقيل : الميم أصلية في مكانة من فعل مكن فهو مصدر بمعنى التمكن فوزنه فعالة .

[سورة الأنعام (6) : آية 136]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (136)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (جعلوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (لله) جار ومجرور متعلق بـ (جعلوا) المتعدي لواحد أو متعلق بمفعول ثان إن كان متعديا لاثنين (من) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف حال من (نصيبا) " 1 " ، (ذرأ) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (من الحرث)

---

(1) أو متعلق بفعل جعلوا .

جار ومجرور متعلق بـ (ذرأ) " 1 " ، (الواو) عاطفة (الأنعام) معطوف على الحرث مجرور (نصيبا) مفعول به عامله جعلوا ، منصوب (الفاء) عاطفة (قالوا) مثل جعلوا (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (لله) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر

(بزعم) جار ومجرور متعلق بـ (قالوا) بتضمينه معنى فعل يتعدى بالباء أي تصرفوا بزعمهم " 2 " ، (الواو) عاطفة (هذا لشركائنا) مثل هذا لله ، و(نا) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ما) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – في محلّ جزم فعل الشرط واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى (ما) ، (لشركاء) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (يصل) مضارع مرفوع والفاعل هو يعود إلى (ما) ، (إلى الله) جار ومجرور متعلق بـ (يصل) ، (الواو) عاطفة (ما كان للّه) مثل ما كان لشركائهم (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (يصل إلى شركائهم) مثل يصل إلى الله . . . و(هم) مضاف إليه (ساء) فعل ماض لإنشاء الذم (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل ، والعائد محذوف (يحكمون) مضارع مرفوع والواو فاعل . . .

والمخصوص بالذم محذوف أي : ساء ما يحكمون حكمهم هذا .

جملة " جعلوا . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " ذرأ . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أو بمحذوف حال من العائد المحذوف أو من (ما) .

(2) أو قالوا ذلك بزعم لا بيقين . . . ويجوز أن يكون التعليق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلوا .

وجملة " هذا لله . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هذا لشركائنا " في محلّ نصب معطوفة على جملة هذا لله .

وجملة " ما كان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا . . .

وجملة " كان لشركائهم " في محلّ رفع خبر (ما) " 1 " .

وجملة " لا يصل . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي : فهو لا يصل " 2 " . . . والجملة الاسمية في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " ما كان . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان (الأولى) .

وجملة " كان لله " في محلّ رفع خبر (ما) " 3 " .

وجملة " هو يصل " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " يصل . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة " ساء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يحكمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(زعم) ، مصدر زعم يزعم باب نصر وزنه فعل بفتح

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) يجوز أن يكون (ما) موصولا مبتدأ خبره جملة (لا يصل) . . . على زيادة الفاء لمشابهة ما للشرط .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(387/259)

فسكون ، وهي لغة الحجاز ، أما لغة بني أسد ففي ضم الفاء ، ومنهم من يزعم أن الضم هو اسم والفتح هو مصدر .

الفوائد

1 – ترد " ما " بعد نعم وبئس وساء على ثلاثة أقسام :

الأول : أن تكون مفردة أي غير متبوعة بشيء .

الثاني : أن تكون متبوعة بمفرد .

الثالث : أن تكون متبوعة بجملة .

فالأول نحو : أنزلته منزلا نعمّا وفيها قولان :

1 – أنها معرفة وهي اسم موصول " فاعل " .

2 – نكرة تامة والمخصوص محذوف " نعم المنزل " .

الثاني : نحو : نعمّا هي ، وبئسما التزويج بلا مهر ، وفيها ثلاثة أقوال :

1 – معرفة تامة فاعل . 2 – نكرة تامة . 3 – مركبة مع الفعل قبلها تركيبا يماثل تركيب " ذا مع حبّ " فلا موضع لها من الإعراب وما بعدها فاعل .

الثالثة : المتلوّة بجملة فعلية نحو " نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، وبِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ " وفيها أقوال : أهمها أربعة :

1 – أنها نكرة في محلّ تمييز منصوب .

2 – أنها في موضع رفع فاعل .

(388/259)

---

3 – أنها هي المخصوص بالمدح أو الذم .

4 – أنها كافة .

[سورة الأنعام (6) : آية 137]

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (137)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (كذلك) مرّ إعرابه " 1 " ، (زين) فعل ماض (لكثير) جار ومجرور متعلق بـ (زيّن) ، (من المشركين) جار ومجرور نعت لكثير (قتل) مفعول به مقدم منصوب عامله زين (أولاد) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير مضاف إليه (شركاء) فاعل مرفوع و(هم) مثل الأول " 2 " ، (اللام) للتعليل (يردّوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (أن يردوا) في محلّ جر باللام متعلق بـ (زين) .

(الواو) عاطفة (ليلبسوا) مثل ليردوا مفردات ومصدرا مؤولا ومتعلق بما تعلق به الأول (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يلبسوا) ، (دين) مفعول به منصوب و(هم) مضاف إليه . (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ما) حرف نفي (فعلوا) فعل ماض مبني على الضم . . .

والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (فذرهم وما يفترون) مر إعرابها " 3 " مفردات وجملا .

جملة " زين . . . . شركاؤهم " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (129) من هذه السورة .

(2) في هذه الآية قراءة ثانية صحيحة متواترة هي قراءة ابن عامر ببناء (زيّن) للمفعول و(قتل) مرفوع نائب الفاعل و(أولاد) منصوب مفعول به للمصدر قتل و(شركائهم) مضاف إليه من إضافة المصدر إلى الفاعل مع الفصل بين المضاف والمضاف إليه مما يأباه النحاة ، ولكن القراءة هذه أولى من آي النجاة .

(3) في الآية (112) من هذه السورة .

(389/259)

وجملة " يردوهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " يلبسوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر الثاني .

وجملة " لو شاء الله " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " ما فعلوه " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الفوائد

في هذه الآية قراءات كثيرة ترتب عليها خلاف كبير بين أئمة النحو والإعراب اشترك فيه ثلة

من كبار المحققين منهم الزمخشري وأبو حيان ، والفارسي وابن جني وابو عمرو بن العلاء .

ودارت المعركة حول الفصل بين المضاف ومضاف إليه . إذ يعتبرهما بعض النحاة كالجزء الواحد لا يمكن فصله إلى أجزاء . ولكننا نجد ذلك فيما قاله المتنبي في مدح أبي القاسم طاهر بن الحسين .

حملت إليه من لساني حديقة سقاها الحجا سقي الرياض السحائب

فقد فصل بين " سقي والسحائب " بكلمة الرياض فكان ذلك حجة على من يمنع الفصل .

فتدبّر . مع الأخذ بعين الاعتبار بأن قول المتنبي ليس بحجة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 138 إلى 139]

وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . . . والواو فاعل (ها) حرف للتنبيه (ذه) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (أنعام) خبر مرفوع (حرث) معطوف على أنعام بالواو مرفوع (حجر) نعت لحرث مرفوع ، (لا) نافية (يطعم) مضارع مرفوع و(ها) ضمير مفعول به (إلا) أداة حصر (من) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (نشاء) مضارع مرفوع . . . والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بزعم) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل في الفعل قالوا أي متلبسين بزعمهم و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنعام) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي " 1 " (حرّمت) فعل ماض مبني للمجهول . . . و(التاء) للتأنيث (ظهور) نائب الفاعل مرفوع و(ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنعام) مثل الأخير (لا) نافية (يذكرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (اسم) مفعول به منصوب (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يذكرون) ، (افتراء) مفعول لأجله " 2 " منصوب عامله فعل القول (عليه) مثل عليها متعلق بافتراء (السين) حرف استقبال (يجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء و(هم) ضمير مفعول به ،

---

(1) أو هذه أنعام. [. . . . .]

(2) أو مصدر في موضع الحال ، أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه نوع الفعل أي قول الافتراء .

والفاعل هو ، (الباء) حرف جر للسببية (ما) حرف مصدري (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضم . . . والواو ضمير اسم كان (يفترون) مثل يذكرون .

والمصدر المؤول (ما كانوا يفترون) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (سيجزيهم) .

جملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " هذه أنعام . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " لا يطعمها " في محلّ رفع نعت لأنعام وللاسم المعطوف .

وجملة " نشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " (هي) أنعام " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " حرّمت ظهورها " في محلّ رفع نعت لأنعام الثاني .

وجملة " (هي) أنعام (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " لا يذكرون . . . " في محلّ رفع نعت لأنعام الثالث " 1 " .

وجملة " سيجزيهم . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " كانوا يفترون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

---

(1) هذه الجملة هي نعت لأنعام ولكنها ليست محكية في كلامهم بل هي مسوقة من جهته تعالى تعيينا للموصوف وتمييزا له عن غيره . . . ولذا فهي من نوع الاستئناف البياني جواب لسؤال مقدر عن هذه الأنعام الثالثة . . . هذا ويجوز أن تكون جملة (أنعام لا يذكرون اسم الله عليها) استئنافية من توجيه الله تعالى لا من أقوالهم .

(392/259)

وجملة " يفترون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(139) (الواو) عاطفة (قالوا) مثل الأول (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (في بطون) جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة ما (ها) للتنبيه (ذه) اسم إشارة مضاف إليه (الأنعام) بدل من ذه أو عطف بيان مجرور (خالصة) خبر المبتدأ ما (لذكور) جار ومجرور متعلق بخالصة و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (محرم) معطوف على خالصة مرفوع (على أزواج) جار ومجرور متعلق بمحرم و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يكن) مضارع ناقص – ناسخ – مجزوم فعل الشرط ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على (ما) باعتبار لفظه ، ميتة) خبر يكون منصوب (الفاء) رابطة

لجواب الشرط و(هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (شركاء) وهو خبر مرفوع (سيجزيهم) مثل الأول (وصف) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي جزاء وصفهم و(هم) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (حكيم) خبر إن مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع.

(393/259)

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا الأولى.

وجملة " ما في بطون . . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة " إن يكن ميتة " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة " هم فيه شركاء " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة " سيجزيهم وصفهم " لا محلّ لها استئناف بياني.

وجملة " إنّه حكيم . . . . " لا محلّ لها تعليلية.

الصرف:

(حجر) ، صفة مشتقة بمعنى محجورة ، وزنه فعل بكسر فسكون.

(افتراء) مصدر قياسي لفعل افترى الخماسي ، وزنه افتعال . . . وفي الاسم إبدال الياء همزة لمجيئها متطرفة بعد ألف ساكنة .

(وصف) ، مصدر سماعي لفعل وصف يصف باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

1 - دار السلام : تعبير عن الجنة ، وقد ورد في القرآن الكريم أسماء متعددة لمسمى واحد وهو الجنة من هذه الأسماء على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، الجنة ، وجنة الخلد ، ودار السلام ، وجنات عدن ، وجنة النعيم ، إلى آخر ما هنالك من الأسماء وهذا التنويع في التسمية تنويها بعظمتها وحسنها وبالغ السعادة فيها .

2 - هذا الحوار الجاري بين المولى عزّ وجلّ ومن أشرك من عباده له أبعاد كثيرة وأغراض متعددة في القرآن .

[سورة الأنعام (6) : آية 140]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (140)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (خسر) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (قتلوا)

فعل ماض مبني على الضم . . .

والواو فاعل (أولاد) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (سفها)

(394/259)

مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (بغير) جار ومجرور في محلّ نصب حال مؤكدة لمضمون السفه (علم) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (حرموا) مثل قتلوا (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (رزق) مثل خسر و(هم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (افتراء على الله) مرّ إعراب نظيرها " 2 " ، (قد) مثل الأول (ضلّوا) مثل قتلوا (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (كانوا) مرّ إعرابه " 3 " ، (مهتدين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " قد خسر الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قتلوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " حرّموا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " رزقهم الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف تقديره به .

وجملة " قد ضلوا " لا محلّ لها استئناف مؤكد .

وجملة " ما كانوا مهتدين " لا محلّ لها معطوفة على جملة قد ضلّوا " 4 " .

الصرف :

(سفها) ، مصدر سماعي لفعل سفه يسفه باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين .

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب .

(2 ، 3) في الآية (138) من هذه السورة .

(4) أو في محلّ نصب حال مؤكدة لمضمون الجملة السابقة .

(395/259)

البلاغة

1 - الإظهار في مقام الإضمار : في قوله تعالى " افْتِراءً عَلَى اللَّهِ " فإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 141]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (هو) ضمير منفصل مبتدأ (الذي) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر (أنشأ) فعل ماض والفاعل هو (جنات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (معروشات) نعت منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (غير) معطوف على معروشات منصوب (معروشات) مضاف إليه مجرور (النخل ، الزرع ، الزيتون ، الرمان) أسماء معطوفة على جنات بحروف العطف منصوبة (مختلفا) حال منصوبة من النخل والزرع (أكل) فاعل اسم الفاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (متشابها) حال منصوبة من الزيتون والرّمان (الواو) عاطفة (غير) معطوف على متشابها منصوب (متشابه) مضاف إليه مجرور (كلوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (من ثمر) جار ومجرور متعلق بـ (كلوا) ، و(الهاء) مضاف إليه (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلق بمضمون الجواب (أثمر) فعل ماض ، والفاعل هو يعود على الثمر (الواو) عاطفة (آتوا)

مثل كلوا (حقّ) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (آتوا) ، (حصاد) مضاف إليه مجرور و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تسرفوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (لا) حرف نفي (يحبّ)

مضارع مرفوع والفاعل هو (المسرفين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أنشأ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " كلوا . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني أو تعليلية .

وجملة " أثمر " في محلّ جر مضاف إليه . . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إذا أثمر فكلوا من ثمره .

وجملة " آتوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

وجملة " لا تسرفوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

وجملة " إنه لا يحب . " لا محلّ لها تعليلية .

(396/259)

وجملة " لا يحب المسرفين " في محلّ رفع خبر إن .

الصرف :

(معروشات) ، جمع معروشة مؤنث معروش ، اسم مفعول من عرش الثلاثي ، وزنه مفعول .

(مختلفا) ، اسم فاعل من اختلف الخماسي ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين .

(حصاد) ، مصدر سماعي لفعل حصد يحصد باب نصر وباب

ضرب ، وزنه فعال بفتح الفاء . . . وقد يؤتي بكسرها ، وثمة مصدر آخر هو حصد وزنه

فعل بفتح فسكون .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 142 إلى 144]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (من الأنعام) جار ومجرور متعلق بفعل محذوف تقديره أنشأ " 1 " ،

(حمولة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (فرشا) معطوف على حمولة منصوب (كلوا مما)

مثل كلوا من ثمره " 2 " ، وما موصول (رزق) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (الله) لفظ

الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تتبعوا) مثل

(1) يجوز أن يتعلق بالفعل المذكور في الآية السابقة (أنشأ) ، حينئذ لا يوجد جملة جديدة .

(2) في الآية السابقة (141) .

(397/259)

تسرفوا " 1 " ، (خطوات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الشيطان) مضاف إليه مجرور (إنه) مر إعرابها " 2 " (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (عدوّ) وهو خبر إن مرفوع (مبين) نعت لعدو مرفوع .

جملة " (أنشأ) من الأنعام حمولة " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنشأ في الآية السابقة .

وجملة "كلوا . . . " لا محلّ لها استئنافية مسببة عن الكلام السابق .

وجملة " رزقكم الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لا تتبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

وجملة " إنه . . . . عدوّ " لا محلّ لها تعليلية .

(143) (ثمانية) بدل من حمولة . . . . منصوب مثله (أزواج) مضاف إليه مجرور (من الضأن) جار ومجرور متعلق بالفعل المقدر أنشأ – أو أنزل – " 3 " ، (اثنين) بدل من (فرشا) " 4 " ، منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بالمثنى (الواو) عاطفة (من المعز

اثنين) مثل من الضأن اثنين (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الذكرين) مفعول به مقدم منصوب وعلامة النصب الياء (حرم) فعل ماض ، والفاعل هو (أم) حرف عطف (الأنثيين) معطوف على الذكرين منصوب مثله

(1 ، 2) في الآية السابقة (141) .

(3) أو هو بدل من الأنعام بإعادة الجار . . . أو هو حال من اثنين – نعت تقدم على المنعوت – عامله أنشأ .

(4) أجاز الزمخشري والعكبري أن يكون بدلا من (ثمانية أزواج) على الرغم من كون الأخير بدلا وهو الظاهر . . .

(398/259)

و كذلك علامة النصب (أم) مثل الأول (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب معطوف على الأنثيين (اشتملت) فعل ماض ، و(التاء) للتأنيث (على) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (اشتملت) ، (أرحام) فاعل مرفوع (الأنثيين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء (نبّئوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (بعلم) جار ومجرور متعلق بـ (نبئوني) (إن) حرف شرط جازم (كنتم)

فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون " 1 " ، و(تم) ضمير اسم كان (صادقين) خبر منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " حرّم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اشتملت . . . . أرحام " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " نبئوني . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فنبئوني بعلم .

(144) (الواو) عاطفة (من الإبل اثنين . . . أرحام الأنثيين) انظر إعراب نظيرها : من الضأن اثنين . . . أعلاه (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (كنتم) مثل الأول (شهداء) خبر كنتم منصوب وامتنع من التنوين لإلحاقه بالمنتهي بألف التأنيث الممدودة على وزن فعلاء (إذ) ظرف للزمن الماضي مبني في محلّ نصب متعلق بشهداء (وصّى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف و(كم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل

---

(1) في محلّ جزم فعل الشرط .

مرفوع (الباء) حرف جر (ها) للتنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بـ (وصّاكم) ، (الفاء) استئنافية (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جر (من) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بأظلم (افترى) مثل وصّى والفاعل هو العائد (على اللّه) جار ومجرور متعلق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 1 " ، (اللام) للتعليل (يضلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الناس) مفعول به منصوب (بغير) جار ومجرور في محلّ نصب حال عامله يضلّ " 2 " أي يضلهم جاهلا (علم) مضاف إليه مجرور (إنّ الله لا يهدي القوم) مثل إنه لا يحب المسرفين " 3 " ، (الظالمين) نعت للقوم منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " حرّم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اشتملت . . . أرحام " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " كنتم شهداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " وصاكم الله . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " من أظلم . . . . " لا محلّ لها استئنافية " 4 " .

وجملة " افترى . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه مرادفه أي افترى افتراء .

(2) أو عامله افترى .

(3) في الآية (141) من هذه السورة . [. . . . .]

(4) يجوز أن تكون جواب شرط مقدر مرتبطة مع ما قبلها برابط السببية ، أي إن كنتم تتكلمون على الله غير الحق فما أشد ظلمكم .

(400/259)

وجملة " يضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " إن الله لا يهدي . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر إن .

والمصدر المؤول (أن يضل . . .) في محلّ جر بلام التعليل متعلق بـ (افترى) .

الصرف :

(حمولة) ، اسم جمع لكل ما يحمل من الدواب ، ولا سيما الكبار منها ، وزنه فعولة بفتح الفاء .

(فرشا) ، وهو اسم جمع لصغار الدواب . . . قال أبو زيد : يحتمل أن يكون تسمية

بالمصدر لأنه في الأصل مصدر ، وهو مشترك بين معان كثيرة ، وقيل سمي الدواب الصغار فرشا لأنه يتخذ من صوفها ووبرها وشعرها ما يفرش وهو موضع الفائدة .

(الضأن) ، قيل جمع ضائن للذكر وضائنة للمؤنث ، وقيل هو اسم جمع ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(المعز) ، ما قيل في الضأن يقال في المعز وزنه فعل بفتح فسكون . . . .

وفي المصباح المعز اسم جنس لا واحد له من لفظه وهي ذات الشعر من الغنم ، الواحدة شاة وهي مؤنثة وتفتح العين وتسكن ، وجمع الساكن أمعز ومعيز مثل عبد وأعبد وعبيد ، والمعزى ألفها للإلحاق لا للتأنيث ، ولهذا تنوّن النكرة وتصغّر على معيز . . . وفيه أيضا العنز الأنثى من المعز إذا أتى عليها حول .

(الإبل) ، اسم جمع لا مفرد له من لفظه ، وزنه فعل بكسرتين جمعه آبال .

البلاغة

1 – المبالغة : في قوله تعالى " قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ " فالكلام إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئًا من هذه الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 145]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ

لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

الإعراب :

(401/259)

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (لا) حرف نفي (أجد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (في) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ(أجد) ، (أوحي) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى) حرف جر و(الياء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ(أوحي) ، (محرّما) مفعول به عامله أجد منصوب ، وهو صفة لموصوف محذوف أي : شيئا محرّما (على طاعم) جار ومجرور متعلق بـ(محرّما) ، (يطعم) مضارع مرفوع و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (إلا) أداة استثناء (أن) حرف مصدري ونصب (يكون) مضارع ناقص – ناسخ – منصوب ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي المحرّم (ميتة) خبر منصوب .

والمصدر المؤول (أن يكون) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع

أو المتصل على خلاف في ذلك " 1 " .

(أو) حرف عطف (دما) معطوف على ميتة منصوب " 2 " (مسفوحا) نعت لـ (دما) منصوب (أو) مثل الأول ، (لحم) معطوف على ميتة منصوب (خنزير) مضاف إليه مجرور (الفاء) تعليلية (إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (رجس) خبر مرفوع (أو) مثل الأول (فسقا) معطوف على ميتة منصوب (أهلّ) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (لغير) جار ومجرور متعلق بـ (أهلّ) ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أهلّ) . (الفاء) استئنافية (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (اضطر) مثل أهل في محلّ جزم فعل الشرط (غير) حال من نائب الفاعل منصوبة (باغ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الياء المحذوفة لأنه اسم منقوص (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (عاد) معطوف على باغ ويعرب مثله (الفاء) تعليلية (إن ربك غفور) مثل إنه رجس (رحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا أجد . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أوحي إليّ . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يطعمه " في محلّ جر نعت لطاعم .

وجملة " يكون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من (محرّما) في محلّ نصب .

(2) أو على المصدر المؤول المنصوب على الاستثناء ، وكذلك بقية الأسماء المعطوفة .

(402/259)

وجملة " إنه رجس . . . . " لا محلّ لها معترضة للتعليل .

وجملة " أهلّ . . . " في محلّ نصب نعت لـ (فسقا) .

وجملة " من اضطرّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " اضطر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " إن ربك غفور " لا محلّ لها تعليلية . . . وجواب الشرط محذوف تقديره فلا مؤاخذة عليه .

الصرف :

(أجد) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت فاء الفعل لأنه معتلّ مثال مضارع مكسور العين ، أصله أوجد . . . وزنه أعل .

(طاعم) ، اسم فاعل من طعم يطعم الثلاثي ، وزنه فاعل .

(مسفوحا) ، اسم مفعول من سفح الثلاثي على وزن مفعول .

الفوائد

1 - الأطعمة المحرمة في الإسلام كما في هذه الآية أربعة : الميتة ، والدم المسفوح المهرق ، ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير اللّه .

وأما اليهود فقد حرمت عليهم أشياء أخرى بسبب بغيهم وخروجهم عما أمروا به ، ومن شاء التفضيل فعليه بالرجوع إلى مصادر الفقه والتشريع .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 146 إلى 147]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(403/259)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (على) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ

(حرمنا) ، (هادوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . . والواو فاعل (حرّمنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل (كلّ) مفعول به منصوب (ذي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء (ظفر) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (من البقر) جارّ ومجرور متعلق بـ (حرّمنا) الآتي (الواو) عاطفة (الغنم) معطوف على البقر مجرور (حرّمنا) مثل الأول (عليهم) حرف جرّ وضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حرّمنا) الثاني (شحوم) مفعول به منصوب و(هما) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (إلّا) حرف استثناء (ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء (حملت) فعل ماض . . . . و(التاء) للتأنيث (ظهور) فاعل مرفوع و(هما) مثل الأول (أو) حرف عطف (الحوايا) معطوف على ظهورهما " 2 " مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف " 3 " ، (أو) حرف عطف (ما اختلط) مثل ما حملت ومعطوف عليه والفاعل هو العائد (بعظم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اختلط) ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 4 " ، والإشارة إلى التحريم ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب .

(2) ما حملت الظهور وما حملت الحوايا وما اختلط بعظم لم يحرم .

(3) يجوز عطف (الحوايا) على ما ، فهو في محلّ نصب ، أو على الشحوم فتكون محرّمة أيضا .

(4) أو في محلّ نصب مفعول به مقدّم عامله جزيناهم . . . أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك .

(404/259)

(جزينا) مثل حرّمنا و(هم) ضمير مفعول به (يبغي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جزينا) والباء للسببية ، و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافية (إن) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إن (اللام) المزحلقة للتوكيد (صادقون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " هادوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " حرّمنا (الأولى) : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " حرّمنا (الثانية) " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " حملت ظهورهما " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول وجملة " اختلط . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " ذلك جزيناهم " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " جزيناهم . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلك) ، والرابط محذوف تقديره به "

. " 1

وجملة " إنّا لصادقون " : لا محلّ لها استئنافيّة .

(147) (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم فعل الشرط . . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (ربّ) مبتدأ مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (رحمة) مضاف إليه مجرور (واسعة) نعت لرحمة مجرور ، (الواو) عاطفة (لا) حرف نفي (يردّ) مضارع مبني للمجهول مرفوع (بأس) نائب الفاعل مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (عن القوم) جارّ

---

(1) إذا كان الإشارة مفعولا للفعل كانت الجملة الفعلية استئنافيّة .

(405/259)

و مجرور متعلّق بـ (يردّ) ، (المجرمين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة "كذّبوك" : لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف المتقدّم " 1 " .

وجملة " قل . . . . " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " ربكم ذو رحمة . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " لا يردّ بأسه . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

الصرف :

(ظفر) ، اسم جامد وزنه فعل بضمّتين ، وفيه لغات أخرى هي ظفر بضمّ فسكون ، وظفر بكسرتين ، وظفر بكسر فسكون ، وأظفور بضمّ الهمزة . وجمع الثلاثي أظفار ، وجمع أظفور أظافير وأظافر .

(الغنم) اسم جنس واحدته شاة ، وهو على لفظ المصدر من فعل غنم باب فرح وزنه فعل بفتحتين .

(شحوم) ، جمع شحم ، اسم جامد للدهن ، وزنه فعل بفتح فسكون ، والقطعة منه شحمة .

(الحوايا) ، جمع حاوياء أو حاوية ، ويجوز أيضا حويّة كهديّة ، فإن كان المفرد حاويا أو حاوية فوزن الحوايا فواعل ، والأصل : حواوي كصواري ، قلبت الواو الثانية همزة مفتوحة حواءي ، فتحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا حواءى ، ثمّ قلبت الهمزة ياء لوقوعها بين ألفين فقيل حوايا .

---

(1) قل لا أجد ، في الآية (145) من هذه السورة ، وحينئذ يكون ما بينهما اعتراض .

(2) أو لا محلّ لها استئنافية إن خرج الكلام عن حيّز قول الرسول (ص) .

وإن كان المفرد حويّة فوزن الحوايا فعائل كطرائق ، والأصل حوائي ، قلبت الهمزة ياء مكسورة ثمّ فتحت تلك الياء ، ثمّ قلبت الياء الثانية التي هي لام الكلمة ألفا فصار حوايا .

(عظم) اسم للعضو المعروف ، جامد وزنه فعل بفتح فسكون واحدته عظمة زنة فعلة بفتح فسكون .

الفوائد

1 - قوله تعالى " ذِلِكَ جَزَيْناهُمْ " في إعراب ذلك أقوال : قيل : مبتدأ أي ذلك التحريم جزيناهم به ، وقيل : منتصب على المصدر إذ من كلام العرب ما يماثله كقولهم : ظننت ذلك أي ذلك الظن ، وقيل : خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك .

وكل وجه من هذه الوجوه له معارضون فتخيّر ، فإن الإعراب يعود إلى ذوق المعرب وتقديره شريطة أن لا يتعارض مع المقصود من الكلام .

أقول والراجح عندي الرأي الأول وتقديره : ذلك التحريم جزيناهم به ، على حذف الجار والمجرور ، فهو مفهوم من سياق الكلام .

[سورة الأنعام (6) : آية 148]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)

الإعراب :

(السين) حرف استقبال (يقول) مضارع مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (أشركوا) فعل ماض مبنيّ على

الضمّ . . . والواو فاعل (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ما) حرف نفي (أشركنا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (آباء) معطوف على الضمير الفاعل نا و(نا) ضمير مضاف إليه " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا حرّمنا) مثل ما أشركنا (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (الكاف) حرف جرّ " 2 " ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله الفعل بعده أي : كذّب الذين من قبلهم تكذيبا كذلك التكذيب الذي فعله هؤلاء . . . واللام للبعد والكاف للخطاب (كذّب) مثل شاء (الذين) مثل الأول (من) حرف جرّ (قبل) اسم مجرور بحرف الجرّ متعلّق بمحذوف الصلّة ، و(هم) ضمير مضاف إليه (حتّى) حرف غاية وجرّ (ذاقوا) مثل أشركوا (بأس) مفعول به منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن ذاقوا) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (كذّب) .

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (هل) حرف استفهام للإنكار (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (علم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الفاء) فاء السببيّة (تخرجوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء وعلامة النصب حذف النون . . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تخرجوه) .

---

(1) قيل قد أغنت (لا) عن وجود الضمير المنفصل قبل العطف كما هي القاعدة .

(2) أو اسم بمعنى مثل ، وهو في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته .

(407/259)

والمصدر المؤوّل (أن تخرجوه) في محلّ رفع معطوف على المصدر الوارد في الكلام المتقدّم أي : هل عندكم من علم فإخراجه لنا . . .

(إن) حرف نفي (تتبعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (إلّا) حرف للحصر (الظنّ) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (إن) مثل الأول (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) مثل الأول (تخرصون) مثل تتّبعون .

جملة " سيقول الذين . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أشركوا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " لو شاء اللّه " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ما أشركنا " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لا حرّمنا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أشركنا .

وجملة "كذّب الذين . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة – أو اعتراضية – وجملة " ذاقوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " هل عندكم من علم " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " تخرجون . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة " إن تتبعون . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إن أنتم إلّا تخرصون " : لا محلّ لها معطوفة على جملة تتّبعون .

وجملة " تخرصون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(ذاقوا) : فيه إعلال بالقلب أصله ذوقوا ، تحركت الواو بعد فتح قلبت ألفا وزنه فعلوا .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى " قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا " .

ومعنى فتخرجوه لنا فتظهروه لنا ، فعبّر بالإخراج ، لأنه سبب في إظهاره وإقامة الدليل عليه . فعلاقته السببية .

الفوائد

(408/259)

---

1 - قوله تعالى : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . . . إلخ الآية .

هذه الآية إرهاص لتلك النزعات التي ظهرت فيما بعد بين الفرق الفلسفية في الإسلام . من جبرية وقدرية ومرجئة ومعتزلة إلى غير ذلك من المنازع التي قد يتعارض بعضها مع العقيدة الإسلامية السمحة البعيدة عن التناقض والتعقيد .

[سورة الأنعام (6) : آية 149]

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (الحجّة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (البالغة) نعت للحجّة مرفوع (الفاء) عاطفة (لو

شاء) مرّ إعرابها " 1 " ، (اللام) واقعة في جواب لو (هدى) فعل ماض مبنيّ على

---

(1) في الآية السابقة. [. . . . .]

(409/259)

الفتح المقدّر على الألف و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو

(أجمعين) توكيد للضمير المخاطب في (هداكم) ، منصوب وعلامة النصب الياء " 1 " .

جملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " للّه الحجّة . . . " : في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن لم تكن لكم حجّة فلله

الحجّة . . . . وجملة الشرط مع جوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " لو شاء . . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة الشرط مقول القول .

وجملة " هداكم . . . " : لا محلّ لها جواب الشرط لو .

الصرف :

(البالغة) ، مؤنّث البالغ ، اسم فاعل من الثلاثيّ بلغ ، وزنه فاعلة .

الفوائد

1 - يؤكّد بكلمة أجمعين وجمعاء وأجمع وجمع إما مفردة أو بعد لفظ كلّ ولا تثنى هذه

الألفاظ للاستغناء بلفظتي كلا وكلتا عن تثنيتها .

يقول ابن مالك : في هذا الصدد :

وبعد كلّ أكّدوا بأجمعا جمعاء أجمعين ثم جمعا

ودون كل قد يجيء أجمع جمعا أجمعون ثم جمع

---

(1) يجوز التوكيد بـ (أجمعين) من غير أن يتقدّم لفظ كلّكم كما ينصّ في بابه .

(410/259)

[سورة الأنعام (6) : آية 150]

قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

الإعراب :

(قل) مثل المتقدّم " 1 " ، (هلمّ) اسم فعل أمر بمعنى أحضروا ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنتم (شهداء) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لشهداء (يشهدون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (حرّم) فعل ماض ، والفاعل

هو (ها) حرف للتنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه حرّم . . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (يشهدون) .

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (شهدوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم فعل الشرط . . . والواو فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) جازمة ناهية (تشهد) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تشهد) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا تتّبع) مثل لا تشهد (أهواء) مفعول به منصوب (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (كذّبوا) مثل شهدوا ولا محلّ له (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (الذين) موصول معطوف على الأول في محلّ جرّ (لا) حرف نفي (يؤمنون) مثل يشهدون (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) ، (الواو) عاطفة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ

---

(1) في الآية السابقة .

(411/259)

(بربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعدلون) ، و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (يعدلون) مثل يشهدون .

جملة " قل . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " سلّم شهداءكم " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " يشهدون " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " حرّم هذا " : في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة " إن شهدوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة " لا تشهد . . . " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " لا تتّبع " : في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة "كذّبوا . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة " لا يؤمنون . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة " هم . . . يعدلون " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة لا يؤمنون .

وجملة " يعدلون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(هلمّ) ، اسم فعل أمر ، هو بصيغة واحدة على لغة الحجازيين ، أمّا على لغة تميم فتلحقه الضمائر هلما ، وهلموا ، وهلمّي . . . والميم مفتوحة على اللغتين في إسناد الاسم لضمير الواحد المذكّر (هلمّ) .

البلاغة

1 – وضع المظهر موضع المضمر : في قوله تعالى " وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا " للدلالة على أن من كذب بآيات الله تعالى وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير وأن من اتبع الحجة لا يكون إلا مصدقا بها .

2 – قوله تعالى " فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ " أي فلا تصدقهم فإنه كذب بحت ، وبين لهم فساده لأن تسليمه منهم موافقة لهم في الشهادة الباطلة والسكوت قد يشعر بالرضى ، وإرادة هذا المعنى من " لا تشهد " إما على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل من ذكر اللازم وإرادة الملزوم لأن الشهادة من لوازم التسليم .

الفوائد

(412/259)

---

2 – هلمّ تكون لازمة ومتعدية ، وهي من أسماء الأفعال . وفي استعمالها رأيان : الأول ، وهو الأرجح : أنها لا تصرف ويستوي فيها الواحد والاثنان والجمع والتذكير والتأنيث . والثاني : أنها تصرّف فتكون فعلا وتلحقها الضمائر فيقال هلما وهلموا وهلمي وهلممن . . . إلخ وقد تلحقها نون التوكيد الثقيلة فيقال :

هلمّن يا رجل وهلمّن يا امرأة . . . إلخ .

[سورة الأنعام (6) : آية 151]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

الإعراب :

(قل) تقدّم إعرابه " 1 " ، (تعالوا) فعل أمر جامد مبنيّ على ما يلفظ به آخره ، والواو ضمير في محلّ رفع فاعل (أتل) مضارع مجزوم جواب الطلب وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (حرّم) فعل ماض (ربّ) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حرّم) " 2 " .

(أن) حرف تفسير " 3 " ، (لا) ناهية جازمة (تشركوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تشركوا) ، (شيئا) مفعول به منصوب " 4 " ، (الواو) عاطفة (بالوالدين) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره

---

(1) في الآية (149) من هذه السورة .

(2) أو بفعل أتل .

---

(3) تقدّمه لفظ بمعنى القول وهو أتل . . . والأوامر التالية معطوفة على المناهي وداخلة تحت (أن) التفسيريّة على تقدير محذوف أي : ما حرّم عليكم وما أمركم به فصرّح بما حرّم وحذف ما أمر ، والمعنى : ما نهاكم عنه وما أمركم به . . . والأمر متعلّق بالإحسان إلى الوالدين ، وإيفاء الكيل والميزان والقول بالعدل . . . إلخ .

هذا ويجوز أن يكون (أن) حرفا مصدريّا ناصبا يؤوّل مع ما بعده بمصدر ، فيكون (لا) معه حرفا زائدا والمصدر المؤوّل في محلّ نصب بدل من العائد المحذوف أي : أتل ما حرّمه ربّكم عليكم إشراككم به شيئا ، أو هو بدل من (ما) . . . ويجوز أن يكون في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : المحرّم إشراككم .

وقد تكون (لا) نافية ، فالمصدر المؤوّل في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف والتقدير : أوصيكم عدم إشراككم ، أو هو مبتدأ خبره متقدّم عليه وهو (عليكم) ، والوقف حينئذ على ربّكم أي : عليكم عدم الإشراك .

(4) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر . . . أي شيئا من الإشراك .

أوصيكم " 1 " ، (إحسانا) مفعول به للفعل المقدّر منصوب " 2 " ، (الواو) عاطفة (لا تقتلوا) مثل لا تشركوا (أولاد) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (من إملاق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقتلوا) و(من) سببيّة (نحن) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (نرزق) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الواو) عاطفة (إيّاهم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب معطوفة على الضمير المتّصل في (نرزقكم) ، (الواو) عاطفة (لا تقربوا الفواحش) مثل لا تقتلوا أولادكم (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب بدل من الفواحش بدل اشتمال (ظهر) فعل ماض والفاعل هو (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من ضمير الفاعل (الواو) عاطفة (ما بطن) مثل ما ظهر ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (ولا تقتلوا النفس) مثل لا تقتلوا أولادكم (التي) موصول في محلّ نصب نعت للنفس (حرّم) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إلّا) أداة حصر (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الفاعل في (تقتلوا) أي : لا تقتلوها إلّا متلبسين بالحقّ " 3 " ، (ذلكم) إشارة في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة الى

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بالمصدر (إحسانا) . . . والباء ترادف (إلى) في هذا الفعل . . .

أو هو على حذف مضاف أي : إحسانا بير الوالدين . . . ويجوز أن يكون المقدّر هو العامل في المصدر أي أحسنوا بالوالدين . وانظر مزيدا من الشرح والتفصيل الآية (83) من سورة البقرة .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف ناب مناب الفعل في الأمر كأنه قال وأحسنوا بالوالدين . . . أو هو مؤكّد للفعل . . . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله لفعل محذوف أي : وصينا كم بالوالدين إحسانا منّا أي لأجل إحساننا وقد جاء الفعل مصرّحا به في قوله تعالى : " و وصينا الإنسان بوالديه حسنا . . . " .

(3) يجوز أن يكون الجارّ والمجرور متعلّقا بمحذوف نعت لمفعول مطلق مقدر أي : إلّا قتلا متلبسا بالحق .

(415/259)

المذكور من الأمور الخمسة . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (وصّى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (به) مثل الأول متعلّق بـ (وصّاكم) ، (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي – ناسخ – و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تعقلون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " قل . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " تعالوا . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أتل . . . " : جواب شرط مقدر أي : إن تأتوا أتل .

وجملة " حرّم ربّكم . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لا تشركوا . . . " : لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة " (أوصيكم) بالوالدين " : لا محلّ لها معطوفة على التفسيرية " 1 " .

وجملة " لا تقتلوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة " 2 " .

وجملة " نحن نرزقكم " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " نرزقكم . . . " : في محلّ رفع خبر نحن .

وجملة " لا تقربوا . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

وجملة " ظهر . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة " بطن . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " لا تقتلوا (الثانية) " : لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

وجملة " حرّم اللّه " : لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة " ذلكم وصّاكم : لا محلّ لها اعتراضية .

(1 ، 2) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة أتل أي : إن تأتوا أتل . . . وأوصيكم ولا تقتلوا .

وجملة " وصّاكم به " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلكم) .

وجملة " لعلّكم تعقلون " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " تعقلون " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(أتل) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله أتلو ، وزنه أفع بضمّ العين .

(إملاق) ، مصدر قياسي لفعل أملق الرباعيّ ، وزنه إفعال بكسر الهمزة .

البلاغة

1 – فن التوهيم : في قوله تعالى " أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً " وهو أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها ، وهو يريد غير ذلك . فإن ظاهر الكلام في الآية الكريمة يدل على تحريم نفي الشرك ، وملزومه تحليل الشرك ، وهذا محال ، وخلاف المعنى المراد ، والتأويل الذي يحل الإشكال هو أن الوصايا المذكورة في سياق الآية ما حرّم عليهم وما هم مأمورون به ، فإن الشرك بالله ، وقتل النفس المحرمة ، وأكل مال اليتيم ، مما حرّم ظاهرا وباطنا ، ووفاء الكيل والميزان بالقسط والعدل في القول ، فضلا عن الفعل والوفاء

بالعهد واتباع الصراط المستقيم من الأفعال المأمور بها أمر وجوب ، ولو جاء الكلام بغير " لا " لانبتر واختل وفسد معناه ، فإنه يصير المعنى حرّم عليكم الشرك ، والإحسان للوالدين ، وهذا ضد المعنى المراد .

ولهذا جاءت الزيادة التي أوهم ظاهرها فساد المعنى ليلجأ إلى التأويل الذي يصح به عطف بقية الوصايا على ما تقدم .

1 – فن التغاير : في قوله تعالى " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ " وحدّه تغاير المذهبين إما في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئا أو يذمه ، أو يذم ما مدحه غيره ، وبالعكس ، ويفضل شيئا على شيء ، ثم يعود فيجعل

المفضول فاضلا . ومن التغاير تغاير المعنى لمغايرة اللفظ ، وهذا الذي نحن بصدده في هذه الآية الكريمة ، والكلام في الآية غير قوله في هذا المعنى في بني إسرائيل : " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ " فالخطاب في كل آية لصنف وليس خطابا واحدا فالمخاطب بقوله سبحانه " مِنْ إِمْلَاقٍ " من ابتلي بالفقر وبقوله تعالى : " خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ " من لا فقر له ولكن يخشى وقوعه في المستقبل ، ولهذا قدم رزقهم ها هنا في قوله عز وجل " نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ " .

الفوائد

1 – هذه الآية مسوقة لبيان المحرمات من الأفعال كما أن الآية السابقة بيّنت المحرمات من الأطعمة فقد تضمنت هذه الآية تحريم الشرك بالله ، والإساءة إلى الوالدين ، وقتل الأولاد بسبب الفقر ، وتعاطي الفواحش الظاهرة والخفية ، ثم قتل النفس بدون سبب يبيح القتل وكل ذلك مفصل وموضح في كتب الفقه والتفسير . .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 152 إلى 153]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لا تقربوا مال) مثل لا تشركوا . . .

شيئا " 1 " ، (اليتيم) مضاف إليه مجرور (إلّا) حرف للحصر (الباء) حرف جرّ (التي) اسم موصول مبنيّ في محل جرّ متعلّق بـ (تقربوا) " 2 " ، (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محل رفع مبتدأ (أحسن) خبر مرفوع (حتّى) حرف غاية وجرّ (يبلغ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اليتيم (أشدّ) مفعول به منصوب

و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يبلغ . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (تقربوا) .

(الواو) عاطفة (أوفوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (الكيل) مفعول به منصوب (والميزان) معطوف على الكيل بالواو منصوب مثله (بالقسط) جارّ ومجرور في محلّ نصب حال أي مقسطين " 3 " ، (لا) حرف نفي (نكلّف) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (نفسا) مفعول به منصوب (إلّا) مثل السابق (وسع) مفعول به ثان منصوب و(ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب لأن فيه معنى الشرط (قلتم) فعل ماض . . وفاعله (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اعدلوا) مثل أوفوا (الواو) حالية (لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي المقول فيه أو له ، (ذا) خبر كان منصوب وعلامة النصب الألف (قربى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ

---

(1) في الآية السابقة (151) .

(2) الموصول حلّ محلّ الموصوف أي بالخصلة التي هي أحسن .

(3) أو متعلق بمحذوف حال من المفعول أي : أوفوا الكيل وافيا بالقسط .

الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (بعهد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوفوا) الآتي (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أوفوا) مثل الأول (ذلكم وصاكم . . . تذكّرون) مثل نظيرها " 1 " .

جملة " لا تقربوا مال . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة " يبلغ . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " أوفوا . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة النهي التفسيريّة " 2 " .

وجملة " لا نكلّف . . . " : لا محلّ لها اعتراضية .

وجملة " قلتم . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " اعدلوا " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم . . . والشرط وفعله وجوابه لا محلّ له معطوف على الجملة التفسيريّة " 3 " .

وجملة " كان ذا قربى . . . " : في محلّ نصب حال من المقول له المحذوف أي قلتم لأحد . . . وجواب لو محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم .

وجملة " أوفوا (الثانية) " : لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقربوا مال . . .

وجملة " ذلكم وصّاكم . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

(1 ، 2 ، 3) في الآية السابقة (151) . [. . . . .]

(419/259)

وجملة " وصّاكم به " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلكم) .

وجملة " لعلّكم تذكّرون " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " تذكّرون " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

(153) (الواو) عاطفة (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (ها) حرف للتنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب اسم أنّ (صراط) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (مستقيما) حال مؤكّدة منصوبة من صراطي والعامل فيها الإشارة .

والمصدر المؤوّل (أنّ هذا صراطي) في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أتلو أي : وأتلو عليكم استقامة صراطي " 1 " .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 2 " ، (اتّبعوا) مثل أوفوا و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لا تتّبعوا السبل) مثل لا تشركوا . . .

شيئا " 3 " ، (الفاء) فاء السببيّة (تفرّق) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء وقد

حذفت من الفعل إحدى التاءين ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تفرّق) ، (عن سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفرّق) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

---

(1) الجملة المقدّرة يمكن حملها على الاستئناف ، أو هي معطوفة على جملة أتل المتقدّمة في الآية (151) ، كما يجوز عطف المصدر المؤوّل على (ما حرّم) في الآية المذكورة . . . ويجوز جرّ المصدر المؤوّل بلام محذوفة متعلّقة بفعل اتّبعوه أي : اتّبعوا صراطي لاستقامته .

(2) يجوز ان تكون عاطفة لربط المسبّب بالسبب فتعطف الإنشاء على الخبر .

(3) الآية السابقة (151) .

(420/259)

و المصدر المؤوّل (أن تفرّق) معطوف على مصدر متصيّد من الكلام السابق أي لا يكن منكم اتّباع للسبل فتفرّق فيها . . .

(ذلكم وصّاكم . . . تتّقون) مثل نظيرها المتقدّمة " 1 " .

جملة : " اتّبعوه . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وضح لكم سبيلي فاتّبعوه .

وجملة " لا تتّبعوا السبل " : معطوفة على جملة اتّبعوه .

وجملة " تفرّق بكم . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " ذلكم وصّاكم به . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " وصّاكم به " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلكم) .

وجملة " لعلّكم تتّقون " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " تتّقون " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(أشدّه) ، اسم بمعنى الإدراك أو البلوغ . وزنه أفعل زنة أسهم بفتح الهمزة وضمّ العين ، وهو جمع لا واحد له أو واحد جاء على بناء الجمع .

(الكيل) ، اسم جامد للآلة التي يكال بها ، وأصل الكيل مصدر ثمّ أطلق على الآلة وزنه فعل بفتح الفاء وسكون العين .

(الميزان) ، اسم آلة ، وأصله مصدر ثمّ نقل إلى اسم الآلة ، وزنه مفعال بكسر الميم ، وفيه إعلال بالقلب أصله موزان ، جاءت الواو ساكنة بعد كسر قلبت ياء .

---

(1) في الآية (151) من هذه السورة .

(تذكّرون) ، بتخفيف الذال وتشديدها . . . أمّا التخفيف ففيه حذف إحدى التاءين ، وأمّا التشديد ففيه قلب التاء الثانية ذالا وإدغامها مع الذال التي هي فاء الكلمة .

[سورة الأنعام (6) : آية 154]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154)

الإعراب :

(ثمّ) حرف جيء به للاستئناف " 1 " ، (آتينا) فعل ماض وفاعله (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (تماما) مفعول لأجله منصوب " 2 " ، (على) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تماما) ، (أحسن) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (تفصيلا) معطوف على (تماما) منصوب (لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفصيلا) ، (شيء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة في الموضعين (هدى ، رحمة) اسمان معطوفان على (تماما) منصوبان مثله ، وعلامة النصب على الأول الفتحة المقدّرة (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل

---

(1) في تخريج العلماء للعطف باستعمال (ثمّ) أقوال كثيرة ، فمنهم من قال إنّها لترتيب

الأخبار لأن إيتاء موسى كان قبل نزول القرآن . . . وبعضهم جعلها لعطف ما بعدها على أتل ، والتقدير : تعالوا أتل ما حرّم ثمّ أتل ما آتينا . . . وقيل هو عطف على وصّاكم به على تقدير أنّ التوصية قديمها تتناقلها كلّ أمّة على لسان نبيها . . . إلخ ولكنّ الاستئناف بـ (ثمّ) غير ممتنع والشواهد على ذلك موجودة في القرآن الكريم كقوله تعالى : " أ ولم يروا كيف يبدأ الخلق ثمّ يعيده " (العنكبوت – 19) .

(2) أو مصدر في موضع الحال امّا من الكتاب أي تاما أو من ضمير الفاعل أي متممين . ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر لأنه نوعه أي آتيناه إيتاء تمام لا نقصان ، أو لأنه اسم المصدر على تقدير آتيناه أي أتممناه تماما .

(422/259)

للترجّي – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (بلقاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) ، (ربّ) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " آتينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أحسن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " لعلّهم . . . يؤمنون " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " يؤمنون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(تماما) ، مصدر سماعي لفعل تم يتم باب ضرب ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وقد يأتي بكسرها وضمها وثمة مصادر أخرى للفعل هي (تمّا) بفتح التاء وكسرها وضمها ، و(تمامة) بفتح التاء وكسرها .

(تفصيلا) ، مصدر قياسي لفعل فصّل الرباعي ، وزنه تفعيل .

(لقاء) ، مصدر سماعي لفعل لقي يلقى باب فرح وزنه فعال بكسر الفاء ، وثمة مصادر أخرى لهذا الفعل هي : لقاءة بكسر اللام وفتحها ، ولقاية بكسر اللام ، ولقيان بضم اللام وكسرها ، ولقيانة بكسر اللام ، ولقيا بضم اللام وكسرها وتشديد الياء مع كسر القاف في كليهما ، ولقية بفتح اللام وضمها ، ولقى بضم اللام .

ولقاء أيضا هو مصدر سماعي لفعل لاقى الرباعي ، أما المصدر القياسي فهو ملاقاة .

وفي المصدر إبدال الياء همزة لمجيئها متطرفة بعد ألف ساكنة ، وأصله لقاي . (انظر الآية 130 من هذه السورة) .

الفوائد

1 – ثمة خلاف حول العطف بـ " ثم " نذكر منه رأي الزمخشري فهو الأوجه يقول : إن قلت

علام عطف قوله : ثم آتينا موسى الكتاب ؟ قلت " على وصاكم به " فإن قلت كيف صح عطفه عليه بـ " ثم " والإيتاء قبل التوجيه بزمن طويل ، قلت هذه التوصية قديمة ولم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم قديما وحديثا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 155 إلى 157]

(423/259)

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ها) حرف للتنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (كتاب) خبر مرفوع (أنزلنا) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (مبارك) نعت لكتاب " 1 " مرفوع (الفاء) رابطة لجواب مقدّر " 2 " (اتبعوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . .

والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (اتقوا) مثل اتبعوا (لعلكم) مرّ إعرابه " 3 " ، (ترحمون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو ضمير

---

(1) يجوز أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ (هذا) .

(2) أو عاطفة لربط المسبب بالسبب .

(3) في الآية السابقة (154) .

(424/259)

في محلّ رفع نائب الفاعل .

جملة " هذا كتاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أنزلناه . . . " في محلّ رفع نعت لكتاب " 1 " .

وجملة : " اتّبعوه " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا أردتم الاستفادة من الكتاب والتبرك به فاتبعوه .

وجملة " اتقوا " معطوفة على جملة اتبعوا .

وجملة " لعلكم ترحمون " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " ترحمون " في محلّ رفع خبر لعل .

(156) (أن) حرف مصدري ونصب (تقولوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . . والواو ضمير متصل صلة الموصول في محلّ رفع فاعل .

والمصدر المؤول (أن تقولوا) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف ، عامله فعل مقدر دل عليه فعل أنزلنا في الآية السابقة أي :

أنزلناه خشية قولكم " 2 " .

(إنّما) كافة ومكفوفة (أنزل) فعل ماض مبني للمجهول (الكتاب) نائب الفاعل مرفوع (على طائفتين) جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) وعلامة الجر الياء فهو مثنى (من قبلنا) جار ومجرور ومضاف إليه ، والجار متعلق بـ (أنزل) " 3 " (الواو) عاطفة (إن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير محذوف تقديره (إننا) ، (كنا) فعل ماض ناقص - ناسخ - (ونا) ضمير اسم كان في محلّ رفع (عن دراسة) جار ومجرور متعلق بغافلين و(هم) ضمير مضاف إليه (اللام) هي الفارقة التي تميز إن المخففة عن النافية (غافلين)

(1) يجوز أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ (هذا) .

(2) يجوز أن يكون مفعولا به لفعل (اتقوا) المتقدم في الآية السابقة ، وحينئذ تكون جملة : لعلكم ترحمون اعتراضية جرت مجرى التعليل .

(3) أو متعلق بنعت لطائفتين .

خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " أنزلناه . . . أن تقولوا " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمضمون ما سبق .

وجملة " تقولوا " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " أنزل الكتاب " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إن كنّا . . . لغافلين " : في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة "كنّا . . . لغافلين " : في محلّ رفع خبر إن المخفّفة .

(157) (أو) حرف عطف (تقولوا) مضارع منصوب معطوف على الأول ويعرب مثله (لو) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (ونا) ضمير اسم أن في محلّ نصب (أنزل . . . الكتاب) مثل الأولى و(على) حرف جر (نا) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أنزل) ، (اللام) واقعة في جواب لو (كنا أهدى) مثل كنا غافلين ، وعلامة النصب في أهدى الفتحة المقدّرة على الألف (من) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أهدى) .

والمصدر المؤول (أنا أنزل . . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت . . . أي لو ثبت إنزال الكتاب علينا لكنّا أهدى منهم . . .

(الفاء) تعليلية " 1 " ، (قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (بينة) فاعل مرفوع (من ربّ) جار ومجرور متعلق بـ (جاء) " 2 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة في الموضعين (هدى ، رحمة) اسمان معطوفان على بينة مرفوعان علامة رفع الأول

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدر .

(2) أو متعلق بمحذوف نعت لبينة . [. . . . .]

(427/259)

الضمة المقدرة (الفاء) استئنافية (من أظلم . . . . بآيات الله) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة (صدف) فعل ماض ، والفاعل هو (عن) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ

جر متعلق بـ (صدف) ، (السين) حرف استقبال (نجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (يصدفون) مضارع مرفوع والواو فاعل (عن آيات) جار ومجرور متعلق بـ (يصدفون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الباء) للجر (ما) مصدرية (كانوا) ناقص واسمه ، (يصدفون) كالأول .

وجملة " تقولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

وجملة " (ثبت) . . . المقدرة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أنزل علينا . . . " في محلّ رفع خبر أن .

وجملة " كنا أهدى " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " قد جاءكم بينة " لا محلّ لها تعليلية لمحذوف أي : لا تعتذروا فقد جاءكم " 2 " .

وجملة " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " كذّب بآيات الله " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) في الآية (144) من هذه السورة .

(2) أو هي في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي إن صدقتم فيما زعمتم من كونكم أهدى من الطائفتين فقد جاءكم بيّنة .

وجملة " صدف عنها " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " سنجزي . . . " لا محلّ لها استئنافية تعليلية .

وجملة " يصدفون (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " يصدفون (الثانية) " في محلّ نصب خبر كانوا .

والمصدر المؤول (ما كانوا يصدفون) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (سنجزي) .

الصرف :

(دراسة) ، مصدر سماعي لفعل درس يدرس باب نصر وزنه فعالة بكسر الفاء ، وثمة مصدر آخر للفعل هو درس وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 – وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى " مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ " حيث وضع الموصول موضع الضمير (هم) بطريق الالتفات تنصيصا على اتصافهم بما في حيز الصلة وإشعارا بعلة الحكم وإسقاطا لهم عن رتبة الخطاب .

[سورة الأنعام (6) : آية 158]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام في معنى النفي (ينظرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (إلا) حرف للحصر (أن) حرف مصدري ونصب (تأتي) مضارع منصوب و(هم) ضمير مفعول به (الملائكة) فاعل مرفوع .

والمصدر المؤول (أن تأتيهم الملائكة) في محلّ نصب مفعول به عامله ينظرون أي ينظرون مجيء الملائكة .

(429/259)

(أو) حرف عطف (يأتي) مثل تأتي ومعطوف عليه (ربّ) فاعل مرفوع على حذف مضاف أي أمر ربك وعذابه و(الكاف) ضمير مضاف إليه (أو يأتي . . . آيات ربك) مثل الأولى (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (لا ينفع) ، (يأتي بعض آيات ربك) مثل الأولى

(لا) حرف نفي (ينفع) مضارع مرفوع (نفسا) مفعول به مقدم منصوب (إيمان) فاعل مؤخر مرفوع و(ها) ضمير مضاف إليه (لم) حرف نفي وقلب وجزم (تكن) مضارع مجزوم ناقص – ناسخ – ، واسمه ضمير مستتر تقديره هي أي النفس (آمنت) ماض . . . و(التاء) للتأنيث ، والفاعل هي (من) حرف جر (قبل) اسم مبني على الضم في محلّ جر متعلق بـ (آمنت) ، (أو) حرف عطف (كسبت) مثل آمنت (في إيمان) جار ومجرور متعلق بـ (كسبت) ، و(ها) ضمير مضاف إليه (خيرا) مفعول به منصوب (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (انتظروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إن (منتظرون) خبر إن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " ينظرون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " تأتيهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " يأتي ربك " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأتيهم .

وجملة " يأتي بعض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يأتي ربك .

وجملة " يأتي بعض (الثانية) " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " لا ينفع نفسا ايمانها " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لم تكن آمنت . . . " في محلّ نصب حال من الهاء في إيمانها " 1 " .

وجملة "آمنت . . . " في محلّ نصب خبر تكن .

وجملة "كسبت . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنت .

وجملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " انتظروا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إنا منتظرون " لا محلّ لها تعليلية .

الصرف :

(منتظرون) ، جمع منتظر وهو اسم فاعل من الخماسي انتظر ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين .

البلاغة

- الكلام في هذه الآية الكريمة اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب نعتا لـ (نفسا) على الرغم من فصل الصفة عن الموصوف بالفاعل وهو ليس بأجنبي لاشتراك الموصوف والفاعل في العمل . . . ويجوز أن تكون استئنافية فلا محلّ لها .

و أصل الكلام . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد ، ولا نفسا لم تكسب في إيمانها خيرا قبل ما تكسبه من الخير بعد ، إلا أنه لف الكلامين فجعلهما كلاما واحدا بلاغة واختصارا وإعجازا .

[سورة الأنعام (6) : آية 159]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (159)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب اسم إن (فرّقوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (دين) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضم . . . والواو ضمير متصل في محلّ رفع اسم كان (شيعا) خبر كان منصوب (لست) فعل ماض ناقص جامد . . . والتاء اسم ليس (من) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بخبر ليس (في شيء) جار ومجرور متعلق بالخبر المحذوف " 1 " ، (إنما) كافة ومكفوفة لا عمل لها (أمر) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (إلى الله) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (ثم) حرف عطف (ينبئ) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول " 2 "

مبني في محلّ جر متعلق بـ (ينبّئهم) ، (كانوا) مثل الأول

---

(1) يجوز أن يكون هو الخبر و(منهم) متعلق بمحذوف حال من شيء – نعت تقدم على المنعوت .

(2) أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف لهما تقديره يفعلونه . . . والجملة بعده نعت في محلّ جر .

(431/259)

(يفعلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة " إن الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " فرقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " كانوا شيعا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " لست منهم . . . " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " إنما أمرهم إلى الله " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " ينبّئهم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " كانوا يفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يفعلون " في محلّ نصب خبر (كانوا) .

[سورة الأنعام (6) : آية 160]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (160)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (جاء) فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بالحسنة) جار ومجرور متعلق بـ (جاء) " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم (عشر) مبتدأ مؤخر مرفوع " 2 " ، (أمثال) مضاف إليه مجرور و(ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (من جاء بالسيئة) مثل نظيرتها المتقدمة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (يجزى) مضارع مبني

---

(1) أو متعلق بمحذوف حال من فاعل جاء أي : جاء متلبسا بالحسنة .

(2) ذكر لفظ (عشر) وكان حقه أن يؤنث لأن تمييزه روعي فيه معناه وهو الحسنات .

للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على (من) ، (إلا) حرف للحصر (مثل) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي يجزى مثل جزائها و(ها) ضمير مضاف إليه . (الواو) استئنافية (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (يظلمون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل .

جملة " من جاء . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " جاء بالحسنة " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " له عشر أمثالها " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " من جاء (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " جاء بالسيئة " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة " لا يجزى . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . . والجملة الاسمية في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 3 " .

وجملة " هم لا يظلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(يجزى) فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول ، أصله يجزي – بالياء في آخره –

جاءت الياء متحركة بعد فتح قلبت ألفا .

(1 ، 2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) جاء الفعل المضارع في جواب الشرط مرفوعا ومقترنا بالفاء ، فالجملة على رأي الجمهور خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

(433/259)

الفوائد

1 - تذكير العدد وتأنيثه :

القاعدة : من ثلاثة إلى عشرة تخالف المعدود فتؤنث مع المذكر وتذكر مع المؤنث وقد وردت " عشر " في هذه الآية على خلاف القاعدة فذكرت مع المذكر .

" عَشْرُ أَمْثالِها " . وتخريج ذلك بأن الإضافة لها تأثير في ذلك والتقدير هنا " عشر حسنات " والحسنة مؤنثة أو أن اللفظ المذكر في حقيقته مؤنث فالمثل هو الحسنة أو أنه اقترن باللفظ ما يشعر بمعنى التأنيث كقول عمر بن أبي ربيعة :

فكان مجنيّ دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فالشخوص وإن كان لفظها مذكرا فهي كناية عن ثلاث نسوة ولسنا بحاجة لاستعراض

بحث العدد كاملا.

[سورة الأنعام (6) : آية 161]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (هدى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (إلى صراط) جار ومجرور متعلق بـ (هداني) " 1 "، (مستقيم) نعت لصراط مجرور (دينا) مفعول به لفعل محذوف تقديره عرّفني " 2 "، (قيما) نعت

---

(1) الفعل (هدى) متعد إلى المفعول الثاني بوساطة حرف الجر إلى: " و هداه إلى صراط مستقيم: النحل " 121 " أو مباشرة: " اهدنا الصراط المستقيم " الفاتحة.

(2) يجوز أن يكون بدلا من محلّ صراط لأنه المفعول الثاني لفعل هدى.

ل (دينا) منصوب (ملّة) بدل من (دينا) منصوب (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الفتحة (حنيفا) حال منصوبة من إبراهيم " 1 " ، (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من المشركين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان ، وعلامة الجر الياء .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إنني هداني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هداني ربّي " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " ما كان من المشركين " في محلّ نصب معطوفة على لفظ الحال (حنيفا) " 2 " .

الصرف :

(قيما) ، صفة مشتقة وزنها فعل بكسر الفاء وفتح العين مخففة من تشديد (قيم) بفتح القاف وكسر الياء المشددة ، وفي اللفظ قيم إعلال بالقلب ، أصله قيوم - بسكون الياء وتحريك الواو اجتمعت الواو والياء والأولى هي الياء ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت الياء ان معا ، ثم خفف اللفظ إلى قيم بكسر الفاء وفتح الياء .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 162 إلى 163]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ

أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)

---

(1) صح كونه حالا من إبراهيم لأن المضاف جزء من المضاف إليه .

(2) يجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها .

(435/259)

الإعراب :

(قل إن) مثل الأولى " 1 " ، (صلاة) اسم إن منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (نسكي ، محياي ، مماتي) أسماء مضافة معطوفة على صلاتي منصوبة مثله ، و(الياء) فيها مضاف إليه (لله) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ (رب) بدل من لفظ الجلالة مجرور أو نعت له (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إن صلاتي . . . . لله " في محلّ نصب مقول القول .

(163) (لا) نافية للجنس (شريك) اسم لا مبني على الفتح في محلّ نصب (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلّق بخبر لا (الواو) استئنافية (الباء) حرف جر (ذا)

اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بـ (أمرت) ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب

(أمرت) فعل ماض مبني للمجهول . . . و(التاء) ضمير نائب الفاعل (الواو) عاطفة (أنا)

ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (أول) خبر مرفوع (المسلمين) مضاف إليه مجرور

وعلامة الجر الياء .

وجملة " لا شريك له " في محلّ نصب حال مؤكدة ، أكدت معنى قوله رب العالمين " 2 " .

وجملة " أمرت " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أنا أول المسلمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمرت .

---

(1) في الآية السابقة (161) . [. . . . .]

(2) أو استئنافية فلا محلّ لها .

(436/259)

الصرف :

(محياي) ، مصدر ميمي من فعل حيي الثلاثي ، وزنه مفعل بفتح العين لأنه معتل لفيف

مقرون ، وفيه إعلال بالقلب ، قلبت الياء – لام الكلمة – ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ،

وقد يدل على اسم المكان أو الزمان .

(مماتي) ، مصدر ميمي من فعل مات الثلاثي ، وزنه مفعل بفتح العين لأنه معتل أجوف .

وفيه إعلال بالقلب ، أصله مموت ، نقلت حركة الواو إلى الميم – إعلال بالتسكين – فلما تحرك ما قبل الواو المتحركة في الأصل قلبت ألفا .

الفوائد

1 – من هذه الآية

استقى الشافعي عن الرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ دعاء الاستفتاح في الصلاة وفحواه : " وجهت وجهي للذي فطر السماوات الأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " .

2 (لا) النافية للجنس هي التي تدلّ على معنى نفي جميع أفراد الجنس . مثل : لا رجل في الدّار . والمعنى أنه ليس فيها أحد من الرّجال . تعمل عمل إنّ فتنصب المبتدأ وترفع الخبر مثل : لا أحد أغير من اللّه . ولا بد أن يكون اسمها وخبرها نكرتين . فإن كان اسمها مفردا يبنى على الفتح ، مثل : لا كسول ممدوح . وإن كان مضافا أو شبيها بالمضاف كان معربا منصوبا مثل : لا رجل سوء عندنا . لا قبيحا خلقه حاضر .

[سورة الأنعام (6) : آية 164]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

الإعراب :

(قل) فعل أمر والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (غير) مفعول به مقدم " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أبغي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ربّا) تمييز منصوب " 2 " ، (الواو) حالية (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (ربّ) خبر مرفوع (كل) مضاف إليه مجرور (شيء) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافية " 3 " ، (لا) حرف نفي (تكسب) مضارع مرفوع (كل) فاعل مرفوع (نفس) مضاف إليه مجرور (إلا) حرف للحصر (على) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف حال من المفعول المحذوف أي : لا تكسب كل نفس ذنبا إلا مردودا عليها بالمضمرة والعقاب . . . أو مكتوبا عليها (الواو) عاطفة (لا تزر وازرة) مثل لا تكسب كل نفس (وزر) مفعول به منصوب (أخرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف وهو على حذف موصوف أي وزر نفس أخرى (ثم) حرف عطف (إلى رب) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و(كم) ضمير

مضاف إليه (مرجع) مبتدأ مؤخر مرفوع و(كم) مثل السابق

---

(1) أو حال من (ربّا) – نعت تقدم على المنعوت – إذا أعرب (ربّا) مفعولا به .

(2) أو حال منصوبة بتأويل مشتق أي معبودا .

(3) أو عاطفة .

(438/259)

(الفاء) عاطفة (ينبّئ) مثل تكسب ، والفاعل هو و(كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (ينبّئكم) (كنتم) فعل ماض ناقص ناسخ . . . (وتم) اسم كان (في) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (تختلفون) وهو مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أبغي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هو رب . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة " لا تكسب كل . . . " لا محلّ لها استئنافية " 1 " .

وجملة " لا تزر وازرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تكسب .

وجملة " إلى ربكم مرجعكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تزر .

وجملة " ينبّئكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة إلى ربكم مرجعكم .

وجملة " كنتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " تختلفون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(وازرة) ، مؤنث وازر ، اسم فاعل من وزر الثلاثي وزنه فاعلة .

---

(1) أو في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول إذا كانت الجملة من كلام الرسول عليه السّلام .

[سورة الأنعام (6) : آية 165]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (هو) مثل السابق " 1 " ، (الذي) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر

(جعل) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (خلائف) مفعول به ثان منصوب (الأرض) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (رفع) مثل جعل (بعض) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (فوق) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (رفع) ، (بعض) مضاف إليه مجرور (درجات) بدل من الظرف فوق منصوب وعلامة النصب الكسرة " 2 " (اللام) للتعليل (يبلو) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي الله .

والمصدر المؤول (أن يبلوكم) في محلّ جر باللام متعلق بـ (رفع) .

(في) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (يبلوكم) والعائد محذوف (آتى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي الله (إن) حرف

---

(1) في الآية السابقة (164) .

(2) يجوز أن يكون حالا أي ذوي درجات . . . أو هو مصدر في موضع الحال . . . أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في المعنى فالدرجة بمعنى الرفعة – بفتح الراء – أي رفع بعضكم رفعات أي درجات . . . وانظر مزيدا من التوجيهات في الآية (253) من سورة البقرة أول الجزء الثالث . . . وانظر كذلك الآية (83) من هذه السورة .

مشبه بالفعل – ناسخ – (رب) اسم إن منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (سريع) خبر إن مرفوع (العقاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (إن) مثل الأول و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (غفور) خبر إن مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة "هو الذي . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة "جعلكم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة "رفع . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة "يبلوكم "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر.

وجملة "آتاكم "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة "إن ربك سريع "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة "إنه لغفور . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة إن ربك سريع.

الصرف:

(خلائف)، جمع خليفة، وفي المصباح: الخليفة أصله خليف بغير هاء لأنه بمعنى الفاعل

دخلته الهاء للمبالغة كعلامة ونسّابة ، ويكون وصفا للرجل بخاصة ، ويقال خليفة آخر بالتذكير ، ومنهم من يقول خليفة أخرى ، ويجمع باعتبار أصله على خلفاء ، وباعتبار اللفظ على خلائف .

البلاغة

1 - الكناية : في قوله تعالى " وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ " عن الفضل والغنى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 8 صـ 253. 353 ﴾

(441/259)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة الأنعام (6) : آية 111]

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

اللغة :

(قُبُلًا) بضمتين جمع قبيل ، ونظيره : رغيف ورغف ، وقضيب وقضب ، أو جمع قبيل ، بمعنى كفيل .

الاعراب :

(وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى) الواو استئنافية ، ولو شرطية ، وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف ، أي : يثبت .

وجملة نزلنا إليهم الملائكة خبر أن ، وكلّمهم عطف على نزلنا ، وذلك ما اقترحوه عند ما قالوا : لولا أنزل علينا الملائكة والموتى فاعل (وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا) الواو عاطفة أيضا ، وحشرنا فعل

وفاعل ، معطوف على نزلنا ، أي : كما قالوا أيضا . وعليهم جار ومجرور متعلقان بحشرنا ، وكل شيء مفعول به ، وقبلا حال ، أي :

فوجا فوجا ، أو كفلاء ، كما تقدم في باب اللغة (ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وما نافية ، واللام لام الجحود ، ويؤمنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد لام الجحود ، ويؤمنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد لام الجحود ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف هو الخبر ، أي :

ما كانوا أهلا للإيمان ، وإلا أداة استثناء من أعم الأحوال ، فهو استثناء متصل ، والمعنى : ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة اللّه ، فأن وما بعدها مصدر في موضع نصب على الحال ، أو استثناء من أعم الأزمنة ، فالمصدر في موضع نصب على الظرفية الزمانية ، إلا في زمان مشيئة اللّه ، أو استثناء من علة عامة ، أي :

ما كانوا ليؤمنوا لشيء من الأشياء إلا لمشيئة اللّه الإيمان ، فهو مفعول لأجله ، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعا ، وتكون أن ومدخولها في تأويل مبتدأ محذوف الخبر ، أي : لكن مشيئة اللّه تحصل ، وحجة القائلين بذلك أن مشيئة اللّه ليست من جنس إرادتهم (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) الواو حالية أو استئنافية ، ولكن واسمها ، وجملة يجهلون خبرها .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 112 إلى 113]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

الاعراب :

)

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) كلام مستأنف مسوق لتسلية النبي صلى اللّه عليه وسلم عمّا شاهده من عداء قريش له ، وما يبيتونه من مؤامرات . والكاف في محل نصب على أنها مع مدخولها نعت لمصدر محذوف مؤكد لما بعده ، وجعلنا فعل وفاعل وهو يتعدى لمفعولين ، ولكل نبي جار ومجرور في موضع نصب على الحال لأنه كان في الأصل صفة ل " عدوا " ، وعدوا مفعول جعلنا الثاني ، وشياطين الإنس والجن مفعول جعلنا الأول (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة لبيان حال العدو ، وسمي وحيا لأنه إنما يكون خفية بينهم ، وجعل تمويههم زخرفا من القول لتزيينهم إياه ، ويجوز أن تكون حالا منه ، ويوحي فعل مضارع ، وبعضهم فاعل ، وإلى بعض جار ومجرور متعلقان بيوحي ، وزخرف القول مفعول به ، وغرورا مفعول لأجله ، أي : ليغرّوهم ، أو مصدر في موضع نصب على الحال ، أي غارّين ، أو على المفعولية المطلقة ، لأن معنى يوحي بعضهم إلى بعض : يغرونهم بذلك غرورا (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ) الواو استئنافية ، ولو شرطية ، وشاء ربك فعل وفاعل وهو شرط لو ، ومفعوله محذوف ، وقد تقدم بحثه ، وجملة ما فعلوه لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، والفاء هي الفصيحة ، وذرهم فعل أمر وفاعل مستتر ، والهاء مفعول به ، والواو عاطفة ، وما اسم موصول معطوف على الهاء في

فذرهم ، أي : اتركهم واترك الذي يفترونه ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، وما مفعول معه ، ويجوز أن تكون ما مصدرية ، أي :

(444/259)

اتركهم واترك افتراءهم . وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال (وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) الواو عاطفة ، واللام للتعليل ، وتصغى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور عطف على " غرورا " ، وإنما لم ينصب على أنه مفعول لأجله لاختلاف الفاعل ، ففاعل تصغى المغرور وفاعل الأول الفارّون ، ولأنه ليس صريح المصدرية ، ففات شرطان من شروط نصب المفعول لأجله ، ومعنى تصغى : تميل ، وإليه جار ومجرور متعلقان بتصغى ، وأفئدة فاعل تصغى ، والذين مضاف إليه ، وجملة لا يؤمنون صلة الموصول ، وبالآخرة جار ومجرور متعلقان بيؤمنون (وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ) عطف على " غرورا " أيضا ، أي : فاللام للتعليل ، وهي مكسورة ، و" أن " مقدرة بعدها جوازا في الأفعال الثلاثة ، وترتيبها حسن للغاية وفي منتهى الفصاحة ، لأنه يكون أولا الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الاقتراف ، فكل واحد مسبّب عما قبله ، وجنح الزمخشري إلى تسمية هذه اللامات بلام الصيرورة أو العاقبة ، وليس ببعيد .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 114 إلى 115]

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

اللغة :

(حَكَماً) : حاكما لا يحكم إلا بالعدل ، وهو أبلغ من حاكم ، لأن الحكم لا يحكم إلا بالعدل ، والحاكم قد يشطّ ويجور ، أو لأن الحكم تكرر منه ، بخلاف الحاكم فإنه يصدق بمرّة واحدة ، وقد رمق أبو الطيب المتنبي سماء هذه الكلمة بقوله :

(445/259)

يا أعدل الناس إلّا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

الاعراب :

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً) الجملة عطف على مقدّر يقتضيه سياق الكلام ، أي قل لهم : أأميل إلى زخارف الدنيا فأبتغي حكما ؟ والهمزة للاستفهام الإنكاري ، فهي مقول قول محذوف ، وجملة القول مستأنفة ، وغير اللّه مفعول به مقدم لأبتغي ، وحكما حال أو تمييز ،

ويجوز أن يكون " حكما " هو المفعول به ، و" غير " حال من " حكما " لأنه في الأصل وصف له (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا) الواو للحال ، والجملة حال مؤكدة للإنكار ، وهو مبتدأ ، والذي خبر ، وجملة أنزل صلة لا محل لها ، وإليكم جار ومجرور متعلقان بأنزل ، والكتاب مفعول به ، ومفصلا حال من الكتاب

(446/259)

)

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة من اللّه تعالى لتقرير كون الكتاب حقيقة منزلة من عنده تعالى ، والذين اسم موصول مبتدأ ، وجملة آتيناهم صلة الموصول ، والكتاب مفعول به ثان ، وجملة يعلمون خبر اسم الموصول ، وأنّ واسمها وخبرها ، وقد سدت مسد مفعولي يعلمون ، ومن ربك جار ومجرور متعلقان بمنزل ، بالحق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المرفوع في " منزل " والذي هو نائب فاعل ، والفاء في " فلا " الفصيحة ، أي : إذا علمت هذا وتأكدت منه فلا تكونن ، ولا ناهية ، وتكونن فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية ، واسمها ضمير

مستتر تقديره أنت ، ومن الممترين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، والخطاب ، وإن كان في ظاهر الكلام موجها إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، إلا أنه موجّه في الواقع إلى أمته (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في بيان كمال الكتاب ، وكلمة ربك فاعل تمت ، وصدقا وعدلا حال ، وأعربهما أبو البقاء والطبريّ تمييزا ، وتبعهما الجلال ، وردّ ابن عطية هذا القول ، وقال : " وهو غير صواب " . ولعل مراده أن كلمات اللّه من شأنها الصدق والعدل ، والتمييز إنما يفسر ما انبهم ، وليس في ذلك إبهام . وأعربهما الكواشي حالا من " ربك " أو على المفعولية من أجله ، وإذا أعربناهما حالين فلا بد من تأويلهما بمعنى المشتق ، أي صادقا وعادلا ، واقتصر الزمخشري على الحالية .

قلت : ولا أرى بعيدا أن ينصبا على نزع الخافض ، أي بالصدق والعدل ، تفادا للتأويل ، أو على أنهما نعتان لمصدر محذوف ، أي :

(447/259)

تمام صدق وعدل (لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الجملة حالية من فاعل تمت ، أو مستأنفة ، ولا نافية للجنس ، ومبدل اسمها المبني على الفتح ، ولكلماته جار ومجرور

متعلقان بمحذوف خبر "لا" .

وهو السميع العليم الواو استئنافية ، وهو مبتدأ ، والسميع خبر أول ، والعليم خبر ثان .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 116 إلى 117]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)

اللغة :

(يَخْرُصُونَ) : يكذبون ، من الخرص : وهو الحزر والتخمين .

وسمي الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكواذب ، وقد خرص يخرص وبابه نصر ، واخترص القول وتخرّصه : افتعله .

الاعراب :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الواو عاطفة . وإن شرطية ، وتطع فعل الشرط ، وأكثر مفعول به ، ومن اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول ، ويضلوك جواب الشرط مجزوم ، والواو

فاعل ، والكاف مفعول به ، وعن سبيل اللّه جار ومجرور متعلقان بيضلوك (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) الجملة مستأنفة لا محل لها وإن نافية ، ويتّبعون فعل مضارع مرفوع ، والواو فاعله ، وإلا أداة حصر ، والظن مفعول به والواو حرف عطف ، وإن نافية ، وهم مبتدأ وإلا أداة حصر ، وجملة يخرصون خبرهم (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) الجملة مستأنفة لتقرير مضمون الجملة الشرطية . وإن واسمها ، وهو مبتدأ وأعلم خبر ، والجملة خبر " إن " ، أو " هو " ضمير فصل ، وأعلم خبر " إن " ، ومن اسم موصول منصوب بفعل مقدر لا بنفس أعلم ، لأن اسم التفضيل لا ينصب الظاهر في مثل هذه الصورة وسيأتي مزيد من بحث هذا الإعراب في باب الفوائد ، والتقدير : يعلم من يضل ، وجملة يضل صلة الموصول ، وعن سبيله جار ومجرور متعلقان بيضل ، وهو مبتدأ ، وأعلم خبر وبالمهتدين جار ومجرور متعلقان بأعلم .

الفوائد :

شغلت هذه الآية المعربين والمفسرين ، وسنلخص لك ما قيل في هذا الصدد . فقد قال بعضهم : إن " أعلم " في الموضعين بمعنى يعلم قال حاتم الطائي :

فحالفت طيء من دوننا حلفا واللّه أعلم ما كنا لهم خولا

وقيل : إن اسم التفضيل على بابه ، والنصب بفعل مقدر ، كما اخترنا في باب الإعراب ، وقيل : إنها منصوبة باسم التفضيل على مذهب الكوفيين . ويشكل على ذلك أن الإضافة

تقتضي أن اللّه بعض الضالين ، تعالى عن ذلك ، وقيل : في محل نصب بنزع الخافض ، أي : بمن يضل ،

وقيل في محل جر بإضافة اسم التفضيل إليها ، وقيل : " من " في موضع رفع ، وهي استفهامية في محل رفع مبتدأ ، والخبر جملة يضل : والجملة في موضع نصب أو معلقة عن العمل ب " أعلم " ، أي : أعلم أي الناس يضل : كقوله تعالى : " لنعلم أي الحزبين " ؟ فتدبّر ، واللّه يعصمك .

(449/259)

[سورة الأنعام (6) : الآيات 118 إلى 119]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

الإعراب :

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) الفاء هي الفصيحة ، لأنها أفصحت عن شرط مقدر ، والتقدير : إذا كنتم متحققين بالإيمان فكلوا . وهذا الأمر مرتب على

النهي عن اتباع المضلّين الذين يحرّمون الحلال ويحللون الحرام . ومما جار ومجرور متعلقان بكلوا ، وجملة ذكر اسم اللّه عليه صلة الموصول ، واسم اللّه نائب فاعل ذكر ، وعليه جار ومجرور متعلقان بذكر ، وإن شرطية ، وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط ، والتاء اسمها ، ومؤمنين خبرها ، وبآياته جار ومجرور متعلقان بمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : فكلوا (وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ)

(450/259)

كلام مستأنف مسوق للتأكيد على إباحة ما ذبح على اسم اللّه . وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر " ما " ، وأن لا تأكلوا مصدر مؤوّل منصوب بنزع الخافض ، أي : في أن لا تأكلوا ، ولما حذف حرف الجر كان في موضع نصب ، والجار والمجرور متعلقان بما تعلق به " لكم " الواقع خبر ل " ما " الاستفهامية ، ومما جار ومجرور متعلقان بتأكلوا ، وجملة ذكر اسم اللّه عليه صلة الموصول (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) الواو حالية ، وقد حرف تحقيق ، وفصل فعل ماض وفاعل مستتر ، ولكم جار ومجرور متعلقان بفصّل ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة حرم عليكم لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وإلا أداة استثناء ، وما اسم موصول

في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، وجملة اضطررتم إليه صلة الموصول ، ولك أن تجعله استثناء من ضمير " حرّم " ، وما مصدرية في معنى المدة ، أي الأشياء التي حرّمت عليكم إلا اضطرارا إليها ، كما فصله في آية حرمت عليكم الميتة ، فيكون الاستثناء متصلا ، ولعل هذا أولى ، لأن الاستثناء من الجنس ، وجملة اضطررتم لا محل لها على كل حال ، وإليه جار ومجرور متعلقان باضطررتم المبني للمجهول ، والتاء نائب فاعل ، والجملة كلها نصب على الحال (وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الواو عاطفة أو حالية ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وجملة يضلون خبر إن ، وبأهوائهم جار ومجرور متعلقان بيضلون ، وبغير علم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : متلبسين بالجهل .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) الجملة تعليلية لا محل لها ، وإن واسمها ، وهو مبتدأ ، أو ضمير فصل وأعلم خبر هو ، أو خبر إن ، وبالمعتدين جار ومجرور متعلقان بأعلم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 120 إلى 121]

(451/259)

وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ

وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

الإعراب :

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) الواو عاطفة على ما تقدم ، وذروا فعل أمر ، والواو فاعل ، وظاهر الإثم مفعول به ، وباطنه عطف على ظاهر (إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) الجملة تعليلية لا محل لها ، وإن واسمها ، وجملة يكسبون صلة الموصول ، والإثم مفعول به ، وجملة سيجزون خبر إن ، وبما جار ومجرور متعلقان بيجزون ، وجملة كانوا صلة الموصول ، والواو اسم كان ، وجملة يقترفون خبرها ، والعائد محذوف ، أي : يقترفونه (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتأكلوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، ومما جار ومجرور متعلقان بتأكلوا ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويذكر فعل مضارع مجزوم بلم ، واسم اللّه نائب فاعل يذكر ، وعليه جار ومجرور متعلقان بيذكر ، وإنه الواو حالية ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وفسق خبر إن ، والضمير في " إنه " يعود إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهي ،

(452/259)

أي : الأكل ، أو من " ما " ، أي : من متروك التسمية . وسيأتي مزيد من القول في هذه المسألة (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ) الواو عاطفة على " وإنه لفسق " ، أو استئنافية ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وجملة يوحون خبر " إن " ، وإلى أوليائهم جار ومجرور متعلقان بيوحون ، واللام للتعليل ، ويجادلوكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان ب " يوحون " أيضا (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) الواو عاطفة ، وإن شرطية ، وأطعتموهم فعل وفاعل ومفعول به ، في محل جزم فعل الشرط ، والتاء فاعل ، والواو لإشباع الضمة ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، ومشركون خبرها ، ولم يقترن جواب الشرط بالفاء لأمرين :

أولهما أن لام التوطئة للقسم مقدرة قبل إن الشرطية ، لذلك أجيب القسم المقدر بقوله : " إنكم لمشركون " ، وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسدّه ، وقال أبو البقاء : حذف الفاء من جواب الشرط ، وهو حسن ، إذا كان الشرط بلفظ الماضي ، وسيأتي مزيد بحث بهذا الصدد في باب الفوائد .

الفوائد :

1 – شغلت الواو في قوله تعالى : " وانه لفسق " المفسرين والمعربين والفقهاء بما لا يتسع صدر هذا الكتاب له ، وقد اخترنا ما رأيناه أدنى إلى الفهم ، ونرى من المفيد أن نلمح إلى خلافهم إلماحا سريعا ، وعلى من يريد الاستيعاب أن يرجع إلى المطوّلات .

عبارة السمين :

قال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : " قوله : وإنه لفسق – هذه الجملة فيها أوجه :

1 – انها مستأنفة : قالوا لا يجوز أن تكون نسقا على ما قبلها ، لأن الأولى طلبية ، وهذه خبرية ، وتسمى هذه الواو واو الاستئناف .

2 – أنها منسوقة على ما قبلها ، ولا يبالي تنجا لفهمها ، وهو مذهب سيبويه .

3 – أنها حالية : لا تأكلوه والحال أنه فسق " .

(453/259)

وعلى أساس هذه الأوجه اختلف الفقهاء في جواز أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه :

1 – فذهب قوم إلى تحريمها سواء أتركها عمدا أو نسيانا ، وهو قول ابن سيرين والشعبي ومالك بن أنس ، ونقل عن عطاء أنه قال :

كل ما لم يذكر اسم اللّه عليه من طعام أو شراب فهو حرام ، واحتجوا عليه بظاهر هذه الآية .

2 – وقال الثوري وأبو حنيفة : إن ترك التسمية عامدا لا تحل ، وإن تركها ناسيا حلّت .

3 – وقال الشافعي : تحل الذبيحة سواء أترك التسمية عامدا أو ناسيا . ونقله ابن الجوزيّ

عن أحمد بن حنبل .

ما نقله الرازي عن الشافعي :

وذكر الرازي في كتابه : مناقب الشافعي : أن مجلسا ضمه وجماعة من الحنفية ، وأنهم زعموا أن قول الشافعي بحل أكل متروك التسمية مردود بقوله تعالى : " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه وإنه لفسق " ، فقال : فقلت لهم : لا دليل فيها ، بل هي حجة للشافعي ، وذلك لأن الواو ليست للعطف ، لتخالف الجملتين الاسمية والفعلية ، ولا للاستئناف ، لأن أصل الواو أن تربط ما بعدها بما قبلها ، فبقي أن تكون للحال ، فتكون جملة الحال مقيدة للنهي ، والمعنى : لا تأكلوا منه في حالة كونه فسقا ، ومفهومه جواز الأكل إذا لم يكن فسقا .

ما يقوله الزمخشري :

وقال الزمخشري في كشّافه : " فإن قلت : قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه بنسيان أو عمد قلت : قد تأوّله هؤلاء بالميتة ، وبما ذكر غير اسم اللّه عليه ، كقوله :

" أو فسقا أهل لغير اللّه به " . وواضح أن الزمخشري حنفي ، فهو ينتصر لمذهبه . ويطول بنا القول إن رحنا نورد حجج الفريقين ، مما لا يندرج في نطاق كتابنا ، وحسبنا ما تقدم .

2- كل جواب يمتنع جعله شرطا فإن الفاء تجب فيه ، لأن معناها التعقيب بلا فصل ، كما أن الجزاء يتعقب فعل الشرط كذلك ، وذلك في المواضع الآتية :

1- الجملة الاسمية نحو قوله تعالى : " وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير " .

2- الجملة الطلبية ، نحو قوله تعالى : " إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني " .

3- الجملة التي فعلها ماض ، لفظا ومعنى ، وحينئذ يجب أن يكون مقترنا ب " قد " ظاهرة ، نحو قوله تعالى : " إن يسرق فقد سرق " ، أو مقدّرة ، نحو قوله تعالى : " إن كان قميصه قد من قبل فصدقت " أي : فقد صدقت .

4- الجملة التي فعلها جامد ، نحو قوله تعالى : " إن ترني أنا أقلّ منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنّتك " .

5- الجملة التي فعلها مقترن ب " قد " ، نحو قوله تعالى :

" إن يسرق فقد سرق " .

6- الجملة التي فعلها مقترن بما النافية ، نحو قوله تعالى :

" فإن توليتم فما سألتكم من أجر " .

7- الجملة التي فعلها مقترن ب " لن " ، نحو قوله تعالى :

" وما يفعلوا من خير فلن يكفروه " .

8- الجملة التي فعلها مقترن بالسين ، نحو قوله تعالى : " ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا " .

9- الجملة التي فعلها مقترن بسوف ، نحو قوله تعالى : " وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم اللّه من فضله " .

10- الجملة التي فعلها مصدر ب " ربّ " ، نحو : " إن تجيء فربما أجيء " .

11- الجملة التي فعلها مصدر بكأنما ، نحو قوله تعالى :

" أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا " .

12- الجملة التي فعلها مصدّر بأداة شرط ، نحو قوله تعالى :

" وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية " .

وقد تحذف الفاء في الندرة كقوله صلى اللّه عليه وسلم لأبي ابن كعب لما سأله عن اللقطة :

" فإن جاء بها صاحبها وإلا استمتع بها " .

أو في الضرورة كقول حسان بن ثابت :

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها والشرّ بالشرّ عند اللّه مثلان

أراد فاللّه يشكرها .

هذا وقد تخلف فاء الجزاء إذا الفجائية إن كانت الأداة " إن " ، نحو قوله تعالى : " وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " .

[سورة الأنعام (6) : آية 122]

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (122)

الاعراب :

(أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) كلام مستأنف مسوق للتمثيل لحال الكافر والمؤمن . والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والواو عاطفة على جملة منتزعة من قوله : " وإن أطعتموهم " والتقدير : أأنتم مثلهم ، لتستوي الجملتان في الاسمية .

(456/259)

من اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، وجملة كان صلة الموصول ، وميتا خبر كان ، فأحييناه الفاء عاطفة ، وأحييناه فعل وفاعل ومفعول به ، وجعلنا عطف على قوله فأحييناه ، وله جار ومجرور في موضع نصب مفعول جعلنا الأول ، ونورا مفعول به ثان ، أو تكون " جعلنا "

بمعنى : خلقنا ، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال ، لأنه كان في الأصل صفة له ، نورا مفعول به إذا كانت جعلنا بمعنى خلقنا ومفعول ثان إذا كانت على حالها وجملة يمشي في محل نصب صفة ل " نورا " ، وبه جار ومجرور متعلقان بيمشي ، وفي الناس جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : كائنا بينهم (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها) كمن الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر " من " ، ومثله مبتدأ ، وفي الظلمات جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، والجملة الاسمية صلة الموصول ، وجملة ليس بخارج منها نصب على الحال ، وليس فعل ماض ناقص ، واسمها مستتر ، والباء حرف جر زائد ، وخارج مجرور بالباء لفظا منصوب على أنه خبر ليس محلا ، ومنها جار ومجرور متعلقان بخارج (كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) كذلك جار ومجرور في محل نصب نعت لمصدر محذوف ، وقد تقدمت نظائره كثيرا . وزين بالبناء للمجهول ، وللكافرين جار ومجرور متعلقان بزين ، وما اسم موصول نائب فاعل ، وجملة كانوا صلة الموصول ، وجملة يعملون خبر كانوا .

البلاغة :

(457/259)

في الآية التشبيه التمثيلي ، وقد سبقت الاشارة إليه كثيرا . وإن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدّد ، وهذا مثل ضربه اللّه تعالى لحال المؤمن والكافر ، فبّين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فأحياه وأعطاه نورا يهتدي به في مصالحه ، وإن الكافر بمنزلة من هو في الظلمات منغمس فيها ، ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للتمثيل ، ولم تتصادف هذه الأشياء المتباينة على حكم المشبه ، إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين ، ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية بل بما تعلق به الرّوّية . ونحن نعتقد أن ما ورد في القرآن من أمثال هو عام بحق كل إنسان في مختلف ظروفه وأحواله ، وهو الصحيح الذي يتناسب مع مدلول الهداية التي جاء بها القرآن ، ولكن المفسرين ، رحمهم اللّه ، يتوسعون ، فيجعلون لكل آية مناسبة تتعلق بها ، وليس ثمة مانع من ذلك ما دامت أحوال الناس متناسبة متشابهة في مختلف ظروف الزمان والمكان . وقد ذكر غير واحد منهم أن في الآية رجلين معنيين ، الأول هو حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والثاني هو أبو جهل بن هشام . ويوردون قصة طريقة لا بأس بإيرادها ، وخلاصتها أن أبا جهل رمى النبي صلى اللّه عليه وسلم بفرث ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل – وكان حمزة قد رجع من صيد ، وبيده قوس ، وحمزة لم يؤمن بعد – فأقبل حمزة غضبان حتّى علا أبا جهل ، وجعل يضربه بالقوس ، وجعل أبو جهل يتضرّع إلى حمزة ويقول : يا أبا يعلى ! أما ترى ما جاء به ؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا ! فقال حمزة : ومن أسفه منكم عقولا ؟ تعبدون

الحجارة من دون اللّه ! أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمدا رسول اللّه . فأسلم حمزة يومئذ .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 123 إلى 124]

(458/259)

وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (123) وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (124)

اللغة :

(صَغارٌ) الصغار : بفتح الصاد الذل والهوان . يقال فيه صغر ككرم صغرا بكسر الصاد وفتح الغين ، وصغرا بضمّ الصاد وسكون الغين ، وصغار بفتح الصاد والغين ، وصغارة وصغرانا بضم الصاد وسكون الغين . وأما صغر بفتح الصاد وكسر الغين ، وصغر بضم الغين أيضا : فهو ضد كبر وعظم .

الاعراب :

(وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِميها) كلام مستأنف للشروع في تقسيم الناس إلى أقوياء وضعفاء ، وخص الأكابر بالإجرام لأنهم أقدر على بثّ الإجرام والفساد . وقيل عاطفة على ما قبلها .

وليس ثمة مانع . وكذلك نعت لمصدر محذوف ، وقد تقدم . وجعلنا

(459/259)

فعل وفاعل ، وفي كل قرية مفعول جعلنا الثاني ، وأكابر مفعول جعلنا الأول ، ومجرميها مضاف لأكابر (لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ) اللام للتعليل ، وقيل للعاقبة أو الصيرورة ، وكلاهما صحيح ، والجار والمجرور متعلقان بجعلنا ، والواو للحال ، وما نافية ، ويمكرون فعل مضارع ، والجملة نصب على الحال من فاعل يمكروا ، وإلا أداة حصر ، وبأنفسهم جار ومجرور متعلقان بيمكرون ، والواو حالية ، وما نافية ، وجملة ما يشعرون في محل نصب من ضمير يمكرون (وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) الواو عاطفة نسقا على ما تقدم ، وإذا ظرف مستقبل متعلق بقالوا ، وجملة جاءتهم في محل جر بالإضافة ، وآية فاعل ، وجملة قالوا لا محلّ لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال ، ونؤمن فعل مضارع منصوب

بلن ، والجملة في محلّ نصب مقول القول ، وحتى حرف غاية وجر ، ونؤتى فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، ونائب الفاعل مستتر ، ومثل مفعول به ثان ، وما اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وجملة أوتي لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ورسل اللّه نائب فاعل (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) اللّه مبتدأ ، وأعلم خبره ، وحيث :

اختلفت آراء المعربين فيها فقال قوم : إنها ليست ظرفا ، لأنه تعالى أن يكون في مكان أعلم منه في مكان آخر ، ولأن علمه لا يختلف باختلاف الأمكنة ، وإنما هو مفعول به لفعل دل عليه " أعلم " ، أي : يعلم الموضع الصالح لوضع رسالته ، وهؤلاء ليسوا أهلا لوضعها فيهم . وقال أبو حيّان في البحر : " الظاهر إقرارها على الظرفية المجازية ، وتضمين " أعلم " معنى ما يتعدّى إلى الظرف ، فيكون التقدير :

اللّه أنفذ علما حيث يجعل ، أي هو نافذ العلم في هذا الموضع الذي

(460/259)

يجعل فيه رسالته " . وقال السفاقسي : " الظاهر أنه باق على معناه من الظرفية ، والإشكال إنما يرد من حيث مفهوم الظرف ، وكم من موضع ترك فيه المفهوم لقيام الدليل عليه ، لا سيما وقد قام في هذا الموضع " . وجملة يجعل رسالته في محل جر بالإضافة ،

ورسالته مفعول به (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ) الجملة مستأنفة ، مسوقة لبيان ما يصل بهم يوم القيامة . والسين حرف استقبال ، ويصيب فعل مضارع مرفوع ، والذين اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة أجرموا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وصغار فاعل ، وعند اللّه ظرف متعلق بيصيب أو صفة لصغار ، أي : ثابت عند اللّه ، وعذاب شديد معطوفة على صغار ، والباء حرف جر للسببية ، وما مصدرية ، أو موصولة ، بمعنى الذي ، وجملة كانوا لا محل لها من الإعراب على كل حال ، وجملة يمكرون في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 125 إلى 126]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126)

الإعراب :

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ) الفاء استئنافية ،

و من اسم شرط جازم مبتدأ ، ويرد فعل الشرط ، واللّه فاعله ، وأن يهديه مصدر مؤول منصوب لأنه مفعول به ، أي : هداية ، ويشرح جواب الشرط ، وصدره مفعول به ، وللاسلام جار ومجرور متعلقان بيشرح وفعل الشرط وجوابه خبر " من " . (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ) الواو عاطفة ، ومن اسم شرط جازم معطوفة على " من " الأولى ، وأن يضلّه مصدر مؤول مفعول يرد ، ويرد فعل الشرط ، ويجعل جواب الشرط مجزوم ، وصدره مفعول به ، وضيقا مفعول به ثان ، وحرجا نعت ل " ضيقا " ، وجملة كأنما التشبيهية في محل نصب على الحال من صدره ، أو من الضمير المستكن في " ضيقا " ، وهي كافة ومكفوفة ، ويصعّد فعل مضارع ، وفي السماء جار ومجرور متعلقان بيصّعد (كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) الجملة مستأنفة ، وكذلك الجار والمجرور نعت لمصدر محذوف ، ويجعل فعل مضارع ، واللّه فاعل ، والرجس مفعول به ، وعلى الذين في موضع المفعول الثاني ، وجملة لا يؤمنون صلة الموصول (وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن ما يسير عليه محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وهو الإسلام .

وهذا مبتدأ ، وصراط ربك خبر ، ومستقيما حال مؤكد للجملة ، والعامل فيه اسم الإشارة ، باعتبار ما فيه من معنى الفعل ، فإنه في معنى أشير (قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) الجملة مستأنفة ، وقد حرف تحقيق ، وفصلنا الآيات فعل وفاعل ومفعول به ،

ولقوم جار ومجرور متعلقان بفصّلنا ، وجملة يذكرون صفة لقوم .

البلاغة :

في قوله : "كأنما يصّعد في السماء " تشبيه تمثيلي منتزع من

متعدد ، أي : إن حال من جعل صدره ضيقا حرجا كحال من يكلف الصعود إلى

السماء . وقد مرت له نظائر .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 127 إلى 128]

(462/259)

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)

الإعراب :

(لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) جملة مستأنفة لا محل لها ، كأنها جاءت جوابا عن سؤال سائل عما أعده اللّه لهم ، فقيل له ذلك . ويحتمل أن تكون نصبا

على الحال من فاعل يذكرون . ولهم جار ومجرور متعلّقان بمحذوف خبر مقدّم ، ودار السلام مبتدأ مؤخّر ، وعند ربهم ظرف متعلق بمحذوف حال من " دار السلام " والعامل فيها معنى الاستقرار المستكن في " لهم " ، والواو حالية ، وهو مبتدأ ، ووليهم خبر ، والباء جارّة سببية ، وما اسم موصول أو مصدرية ، وجملة كانوا لا محلّ لها على كل حال ، وجملة يعملون في محل نصب خبر كانوا (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

(463/259)

الواو استئنافية ، ويوم ظرف منصوب بفعل محذوف ، أي : واذكر يوم نحشرهم ، وجملة نحشرهم- بالنون والياء ، فهما قراءتان- في محل جر بالإضافة بعد الظرف ، وجميعا حال ، وقال أبو حيان : " أعرب بعضهم " يوم " مفعولا باذكر محذوفا ، والأولى أن يكون الظرف معمولا لفعل القول المحكيّ به النداء ، أي : ويوم نحشرهم نقول : يا معشر الجن ، وهو أولى مما أجاز بعضهم من نصبه باذكر مفعولا به لخروجه عن الظرفية " ويا معشر الجن منادى مضاف ، مقول قول محذوف ، أي : ونقول لهم : يا معشر الجن ، وقد حرف تحقيق ، واستكثرتم فعل وفاعل ، ومن الإنس جار ومجرور متعلقان باستكثرتم (وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ

الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ) الواو عاطفة ، وقال أولياؤهم فعل وفاعل ومن الإنس جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وربنا منادى مضاف ، حذف منه حرف النداء ، واستمتع بعضنا فعل وفاعل ، وببعض جار ومجرور متعلقان باستمتع ، والجملة في محل نصب القول . (وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا) الواو حرف عطف ، وبلغنا فعل وفاعل ، وأجلنا مفعول ، والذي اسم موصول في محل نصب صفة ل " أجلنا " ، وجملة أجلت لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ولنا جار ومجرور متعلقان بأجلت (قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ) الجملة مستأنفة مسوقة لرد الله تعالى عليهم . وقال فعل ماض ، وفاعله يعود على الله ، والنار مبتدأ ، ومثواكم خبر ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول ، وخالدين حال من الكاف في " مثواكم " ، وفيها جار ومجرور متعلقان بخالدين ، وإلا ماشاء الله : إلا أداة استثناء ، وما اسم موصول أو مصدرية في محل نصب على الاستثناء من الجنس باعتبار الزمان أو المكان أو العذاب لدلالة خالدين عليهم ، أي : خالدين في كل زمان

(464/259)

من الأزمن زمن مشيئة اللّه ، أو خالدين في مكان وعذاب مخصوصين إلا أن يشاء اللّه نقلهم إلى غيرهما . وسيأتي مزيد من البحث عن هذا الاستثناء المذهل في باب البلاغة (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) إن واسمها ، وحكيم خبرها الأول ، وعليم خبرها الثاني ، والجملة لا محل لها لأنها بمثابة التعليل .

البلاغة :

تحدثنا في باب الإعراب عن الاستثناء المذهل حسب ما يرشد إليه سياق الكلام والنصوص النحوية ، ولكن رائد البلاغة المثلى لا يقتنع بمثل هذه السهولة ، ومن أجل ذلك عني العلماء البلاغيون بهذه الآية وبأختها من سورة هود ، كما سيأتي ، وكثرت الخلافات والمناقشات حولها ، وسنجتزئ بأهمّ ما توصلنا إليه .

رأي الزمخشري :

1 – وللزمخشري رأي طريف بعيد عن التأويلات المتعسفة ، وأدنى إلى الدقة قال : " أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفّس عن خناقه :

أهلكني اللّه إن نفست عليك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد ، فيكون قوله :

إلا إذا شئت ، من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد ، لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه

أطماع" . وهذا الذي ذكره الزمخشري أولى من الروايات والتأويلات المتعسفة ، مثل قولهم : " فقد روي أنهم يدخلون

واديا فيه من الزمهرير ما يميّز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم "

.

رأي الزّجّاج :

(465/259)

و قد عثرنا على رأي طريف للزجاج ، ينقع الغليل . ولكنه مبتسر يحتاج إلى الإبانة والكشف ، فقد قال الزجاج : " والمراد والله أعلم إلا ما شاء من زيادة العذاب " . بيد أنه – أي : الزجاج – لم يبيّن وجه استقامة الاستثناء ، والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه في الحكم ، والظاهر أن العذاب على درجات متباينة ، ومراتب متفاوتة ، ومقادير غير متناسبة ، وكأن المراد أنهم مخلدون في حبس العذاب ، إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتربو على النهاية ، حتى تكاد لبلوغها أقصى الغايات تعدّ خارجة عن العذاب ، وكأنها ليست منه ، ولا داخلة في حيّزه . والمعروف عن العرب في سنن كلامهم أنهم يعبرون عن الشيء إذا بلغ الغاية بالضّدّ ، فكأنّ هؤلاء المعذبين وقد طمّ عليهم البلاء ،

وبلغوا من الشدة غايتها ، ومن اللأواء نهايتها ، وقد وصلوا إلى المدى الذي يكاد يخرجه من العذاب المطلق ، فساغت معاملته في التعبير بمعاملة المغاير ، وهذه وثبة من الزجاج ، لا نتبين فحواها إلا بهذا البسط الذي يحتاج فهمه إلى رهافة ذوق ، وشفوف طبع ، والله الموفّق .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 129 إلى 130]

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (129) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)

اللغة :

(نُوَلِّي) من الولاية ، أي : الإمارة . يقال : ولّى فلانا الأمر تولية : جعله واليا عليه ، وأصله من " ولي " بتخفيف اللام وكسرها ، يلي ولاية بكسر الواو ، وولاية بفتحها : الشيء ، وعليه : قام به وملك أمره ، وولي البلد : تسلّط عليه .

الاعراب :

)

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ) الواو استئنافية ، وكذلك نعت لمصدر محذوف كما تقدم في نظائره ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف ، أي :

الأمر مثل تولية بعض الظالمين ، وإليه جنح الزّجّاج . ونولي فعل مضارع ، وبعض الظالمين مفعوله الأول ، وبعضا مفعوله الثاني ، أو منصوب بنزع الخافض ، أي : على بعض ، والجار والمجرور متعلقان بنولي ، وبما الباء حرف جر ، وما اسم موصول في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بنولّي ، وكان واسمها ، وجملة يكسبون خبرها ، وجملة كانوا صلة الموصول ا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

يا حرف نداء ، ومعشر الجن منادى مضاف ، وجملة

النداء مقول قول محذوف ، أي : يقال لهم ، وجملة القول المحذوف استئناف مسوق لحكاية حال توبيخهم ، والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويأتكم فعل مضارع مجزوم بلم ، والكاف مفعول به ، ورسل فاعل مؤخر ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة قُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا)

جملة يقصون صفة ثانية لرسل ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بيقصون ، أو بمحذوف حال ، لتخصص النكرة بالوصف . وآياتي مفعول به ، والواو حرف عطف ، وجملة

ينذرونكم عطف على يقصون ، والواو فاعل والكاف مفعول به ، ولقاء مفعول به ثان ، أو منصوب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بينذرونكم ، ويومكم مضاف إليه ، وهذا صفة ليومكم ، أو بدل منه الُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا)

الجملة مستأنفة مسوقة لتكون جوابا عن سؤال كأنه قيل لهم : فماذا قالوا بعد التوبيخ ؟

(467/259)

و جملة شهدنا على أنفسنا في محل نصب مقول قولهم ، وعلى أنفسنا جار ومجرور متعلقان بشهدنا ، أي : اعترفنا وأقررنا غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ)

الواو اعتراضية ، وجملة غرتهم الحياة الدنيا معترضة لبيان مدى تماديهم في الغرور ، وكرر شهادتهم على أنفسهم لأنه في الأولى حكى قولهم وكيف يقولون ويعترفون ، وفي الثانية أراد مجرّد ذمهم وتسفيه آرائهم ، ووصمهم بقلة النظر ، وأن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض ، أي : بأنهم كانوا كافرين ، وجملة كانوا خبر أن ، وكافرين خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 131 إلى 134]

ذِلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا

وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134)

الاعراب :

(ذِلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ) الجملة مستأنفة بمثابة التعليل ، واسم الاشارة مبتدأ ، خبره ما بعده أي :

(468/259)

ذلك ثابت ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : الأمر ذلك ، والاشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم . وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، هي مع مدخولها في محل نصب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف ومتعلقان بمحذوف بدل من ذلك ان كانت خبرا لمبتدأ محذوف ، ولم حرف نفي ، ويكن فعل مضارع مجزوم بلم ، وجملة " لم يكن " خبر " أن " وربك اسم يكن ، ومهلك القرى خبرها ، وبظلم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ذلك ، أي ملتبسا بظلم ، أو من فاعل مهلك ، وكلاهما بمعنى واحد ، أو من القرى ، أي ملتبسة بذنوبها . وأهلها الواو حالية ، وأهلها مبتدأ ،

وغافلون خبر ، والجملة في موضع نصب على الحال (وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان حال المؤمنين والكفار . ولكل جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه ، أي : ولكل فريق ، وسيأتي في باب الفوائد بحث هام عن التنوين وأقسامه . ودرجات

(469/259)

مبتدأ مؤخّر ، وما : من حرف جر ، وما مصدرية أو موصولة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لدرجات ، وجملة عملوا لا محل لها على كل حال ، وما ربك الواو استئنافية أو حالية ، وما نافية حجازية تعمل عمل ليس ، وربك اسمها ، والباء حرف جر زائد ، وغافل مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر " ما " ، وعما جار ومجرور متعلقان بغافل ، وجملة يعملون صلة " ما " الموصولية (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) كلام مستأنف ، وربك مبتدأ ، والغني خبر أول ، وذو الرحمة خبر ثان (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ) الجملة الشرطية خبر ثالث ، ويجوز أن نعرب " الغني " و" ذو الرحمة " صفتين ل " ربك " ، وتكون الجملة الشرطية خبرا ل " ربك " ، وإن شرطية . ويشأ فعل الشرط مجزوم ، ويذهبكم جواب الشرط ، ويستخلف الواو حرف عطف ، ويستخلف

فعل مضارع معطوف على يذهبكم . ومن بعدكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة يشاء صلة الموصول لا محل لها (كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) كما الجار والمجرور نعت لمصدر محذوف ، وقد تقدمت نظائره ، وأنشأكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، ومن ذرية جار ومجرور متعلقان بأنشأكم ، وقوم مضاف إليه . وآخرين نعت لقوم (إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) كلام مستأنف مسوق لتأكيد ما تقدم . وإن واسمها ، وجملة توعدون صلة الموصول ، وهو بالبناء للمجهول ، والعائد محذوف ، أي : به من الساعة والعذاب ، واللام المزحلقة ، وآت خبر إن ، وما الواو عاطفة ، وما نافية حجازية ، وأنتم اسمها ، والباء حرف جر زائد ، ومعجزين مجرور لفظا منصوب محلا خبرها .

الفوائد :

التنوين : هو نون ساكنة تلحق الآخر لفظا لا خطّا لغير توكيد ، وأنواعه المشهورة أربعة وهي :

1- تنوين التمكين :

و هو اللاحق للأسماء المعربة ، وفائدته الدلالة على تمكن الاسم في الاسمية ، نحو : جاء زيد ، ورأيت زيدا ، ومررت بزيد .

2- تنوين التنكير :

وهو اللاحق لبعض الأسماء المبنية للفرق بين ما هو معرفة منها وما هو نكرة ، وذلك قياسي في باب العلم المختوم بويه ، نحو : مررت بسيبويه وسيبويه آخر ، وسماعي في باب أسماء الأفعال إذا نكرت ، نحو إيه بكسر الهمزة وكسر الهاء بلا تنوين ، وكقول حافظ ابراهيم في رثاء سعد زغلول :

إيه يا ليل هل شهدت المصابا كيف ينصبّ في النفوس انصبابا

فإذا أردت الاستزادة من حديث ما نوّنته فقلت : إيه .

3- تنوين المقابلة :

وهو اللاحق لجمع المؤنث السالم ، نحو : رأيت مؤمنات . وسمّي كذلك لأنه في مقابلة النون من جمع المذكر السالم .

4- تنوين العوض :

وهو ما يأتي به إما عوضا عن كلمة هي مضاف إليه في كل وبعض ، نحو الآية المتقدمة " ولكلّ " أي : لكل فريق ، وإما عوضا عن حرف يقضي القياس بحذفه ، وهو اللاحق للاسم المنقوص غير المنصرف ، نحو : جوار وغواش . وإما عوضا عن جملة ، وهو اللاحق

لفظة " إذ " عند وقوعها مضافا إليه ، نحو : وأنتم حينئذ تنظرون ، فالتنوين عوض عن جملة ، أي حين إذ بلغت الروح الحلقوم .

وهذه الأقسام الأربعة هي الأصل في التنوين ، وزاد جماعة – منهم ابن هشام في مغني اللبيب ، وابن الخباز في شرح الجزولية – على هذه الأنواع الأربعة :

1 – تنوين التّرنّم :

وهو اللاحق للقوافي المطلقة ، أي : التي آخرها حرف مد ، وهي الألف والواو والياء المولّدات من إشباع الحركة ، وتسمى أحرف الإطلاق ، كقول جرير :

أقلّي اللوم عاذل والعتابن وقولي إن أصبت لقد أصابن

فلحق التنوين العروض والقافية ، وهما : العتابن وأصابن ، والأصل العتابا وأصابا ، فجيء بالتنوين بدلا من الألف ، والأول اسم ، والثاني فعل . وقد يدخل الحرف أيضا كقول النّابغة الذّبيانيّ :

(471/259)

أزف التّرحّل غير أنّ ركابنا لمّا تزل برحالنا وكأن قد

والأصل : قدي ، فجيء بالتنوين بدلا من الياء .

2- التنوين الغالي :

وهو اللّاحق للقوافي المقيّدة ، أي : التي يكون حرف رويّها ساكنا ليس حرف مدّ ، زيادة على الوزن ، ومن أجل هذا سمّي غاليا ، اي : لتجاوزه حدّ الوزن ، كقول رؤبة الرّجّاز :

وقاتم الأعماق خاوي المخترقن مشتبه الأعلام لمّاع الخفقن

3- تنوين الضرورة :

وهو اللاحق لما لا ينصرف كقول امرئ القيس :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت : لك الويلات إنّك مرجلي

وللمنادى المضموم كقول الأحوص :

سلام اللّه يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

4- التنوين الشاذّ :

كقول بعضهم حكاه أبو زيد : هؤلاء قومك .

5- تنوين الحكاية :

مثل أن تسمي رجلا بعاقلة ، فإنك تحكي اللفظ المسموع ، فقد نحصّل تسعة أنواع . وجعل ابن الخباز كلا من تنوين المنادى المضموم

وتنوين الممنوع من الصرف قسما برأسه ، فتحصّل لديه عشرة أنواع أوردناها لمجرد الاطلاع والطرافة ، وإلا فبعضها غير سائغ ، ولا يقبله الذوق ، وذلك مدرك بالبداهة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 135 إلى 136]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (136)

اللغة :

(مَكانَتِكُمْ) : اختلف في ميم " مكان " و " مكانة " ، فقيل :

هي أصلية ، وهما من مكن يمكن . وقيل : هي زائدة ، وهما من الكون ، فالمعنى على القول الأول : على ممكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، فالمكانة مصدر . وعلى الثاني : اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها .

(ذَرَأَ) : خلق ، وذرأ اللّه الخلق وذرأنا الأرض وذروناها ، أي :

بذرناها . وقد علته ذرأة ، وهي : بياض الشيب أول ما يبدو في الفودين منه ، ورجل أذرأ ، وامرأة ذرآء ، قال :

فمرّ ولمّا تسخن الشمس غدوة بذرآء تدري كيف تمشي المنائح

أي : منحت كثيرا فاعتادت ذلك ، فهي تسامح بالمشي لا تأبى .

(الزعم) بفتح الزاي وضمها ، وفي المصباح : زعم زعما من باب قتل ، وفي الزعم ثلاث لغات : فتح الزاي لأهل الحجاز ، وضمها لبني أسد ، وكسرها لبعض قيس . ويطلق الزعم بمعنى القول ، ومنه :

زعمت الحنفية ، وزعم سيبويه ، أي : قال ، وعليه قوله تعالى : " أو تسقط السماء كما زعمت " أي : قلت . ويطلق على الظنّ ، يقال : في زعمي كذا . وعلى الاعتقاد ، ومنه قوله تعالى : " زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا " . قال الأزهري : وأكثر ما يكون الزعم فيما يشكّ فيه ، ولا يتحقق . وقال بعضهم : هو كناية عن الكذب ، وقال في أساس البلاغة : " وزعموا مطيّة الكذب ، وفي قوله مزاعم : إذا لم يوثق به ، وأفعل ذلك ولا زعماتك " وهذا القول : ولا زعماتك ، أي : ولا أتوهم زعماتك . قال ذو الرمة :

لقد خطّ رومي ولا زعماته لعتبة خطّا لم تطبّق مفاصله

روميّ : عريف كان بالبادية ، قضى عليه لعتبة بن طرثوث ، رجل كان يخاصمه في بئر ، وكتب له سجلا .

الاعراب :

(قُلْ : يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنّي عامِلٌ) كلام مستأنف مسوق للوعيد والتهديد

والمبالغة في الزجر عما هم عليه . ويا حرف نداء ، وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ، وقد تقدّم بحثه .

(473/259)

و اعملوا فعل أمر ، والمقصود منه التهديد والزجر ، وعلى مكانتكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وإن واسمها ، وعامل خبرها ، والجملة بمثابة التعليل للأمر (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) الفاء للتعليل ، والجملة تعليلية لا محل لها ، وإنما أتت لتأكيد مضمون الجملة وفحواها ، ومن اسم موصول في محل نصب مفعول به لتعلمون التي هي بمعنى العرفان ، فهي تتعدى لواحد ، وجملة تكون لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ويجوز أن تكون " من " استفهامية في محل رفع مبتدأ ، وخبرها جملة تكون ، والجملة في محل نصب مفعول تعلمون ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكون المقدم ، وعاقبة الدار اسمها المؤخر ، وإن واسمها ، وجملة لا يفلح الظالمون خبرها ، والجملة تعليلية أيضا ، وكأنها في جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : وما عاقبتهم ؟ (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً) كلام مستأنف مسوق لبيان نوع أو نمط من أحكامهم الفاسدة ، وجعل هنا بمعنى : صير ، فهي تنصب مفعولين ، ولله جار ومجرور متعلقان

بمحذوف هو المفعول به الثاني ، والمفعول الأول نصيبا ، ومما جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، لأنه كان صفة ل " نصيبا " ، وتقدمت عليه ، وجملة ذرأ لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ومن الحرث جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أيضا من " نصيبا " ، والأنعام عطف على الحرث (فَقَالُوا : هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا) الفاء حرف عطف ، وقالوا عطف على جعلوا ، واسم الإشارة مبتدأ ، واللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول ، وبزعمهم جار ومجرور متعلقان بما تعلق به الاستقرار من قوله " للّه " ، وهذا لشركائنا مبتدأ وخبر ، والجملة معطوفة على : هذا للّه (فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ) الفاء

(474/259)

تفريعية ، والجملة لا محل لها لأنها بمثابة الاستئنافية ، وما اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، وجملة كان صلة لا محل لها ، وكان فعل ماض ناقص ، واسمها مستتر ، ولشركائهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط ، ولا نافية ، وجملة لا يصل إلى اللّه في محل رفع خبر " ما " (وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ) الواو عاطفة ، وما كان للّه تقدم إعرابها ، والفاء رابطة ، وهو مبتدأ ، وجملة يصل إلى شركائهم

خبره (ساءَ ما يَحْكُمُونَ) الجملة مستأنفة ، وساء فعل ماض جامد من أفعال الذم ، وما اسم موصول فاعل ، وقيل : ما نكرة تامة بمعنى شيء منصوبة على التمييز ، والتقدير : ساء حكما حكمهم ، وسيأتي تفصيل ذلك في باب الفوائد .

الفوائد :

اختلف النحاة في كلمة " ما " بعد أفعال المدح والذم : نعم وبئس وساء ، فقال ابن مالك في الخلاصة :

و" ما "مميّز ، وقيل : فاعل في نحو : نعم ما يقول الفاضل

وتفصيل ذلك أن يقال : إنّ " ما " هذه على ثلاثة أقسام :

1- مفردة : أي غير متلوّة بشيء .

2- متلوّة بمفرد .

3- متلوّة بجملة فعلية .

فالأولى : نحو : دققته دقّا نعمّا ، وفيها قولان :

آ- معرفة : فهي اسم موصول فاعل .

ب- نكرة تامة : وعليها فالمخصوص محذوف أي : نعم الدقّ .

والثانية نحو : فنعمّا هي وبئسما تزويج بلا مهر ، وفيها ثلاثة أقوال :

معرفة تامة فاعل ، ونكرة تامة ، ومركبة مع الفعل قبلها تركيب " ذا " مع " حبّ " ، فلا

موضع لها ، وما بعدها فاعل .

والثالثة المتلوّة بجملة فعلية ، نحو : " نعمّا يعظكم به " ، و" بئسما اشتروا به أنفسهم " ،

وفيها أقوال ، أهمها أربعة :

آ- أنها نكرة في موضع نصب على التمييز .

ب- أنها في موضع رفع على الفاعلية .

ج- أنها هي المخصوص .

د- أنها كافّة .

(475/259)

فأما القائلون بأنها في موضع نصب على التمييز فاختلفوا فيها على ثلاثة أقوال :

آ- أنها نكرة موصوفة بالفعل بعدها ، والمخصوص محذوف .

ب- أنها نكرة موصوفة والفعل بعدها صفة لمخصوص محذوف .

ج- أنها تمييز ، والمخصوص " ما " أخرى موصولة محذوفة ، والفعل صلة ل " ما " الموصولة المحذوفة ، وهذا ما نختاره للسهولة في الإعراب .

وأما القائلون بأنها في موضع رفع على الفاعلية فاختلفوا فيها على خمسة أقوال :

آ- أنها اسم معرفة تام ، أي : غير مفتقر إلى صلة ، والفعل بعدها صفة لمحذوف .

ب- أنها موصولة ، والفعل صلتها ، والمخصوص محذوف .

ج- أنها موصولة ، والفعل صلتها ، مكتف بها وبصلتها عن المحذوف .

د- أنها مصدرية سادة بصلتها - لاشتمالها على المسند والمسند إليه- مسد الفاعل والاسم المخصوص جميعا .

ه- أنها نكرة موصوفة ، والمخصوص محذوف .

وأما القائلون بأنها هي المخصوص فقالوا : إنها موصولة ، والفاعل مستتر ، و" ما " أخرى محذوفة هي التمييز وأما القائلون بأنها كافّة كفّت " نعم " عن العمل كما كفت : قلّ وطال وكثر وشدّ عنه ، فصارت تدخل على الجملة الفعلية .

تطبيق الخلاف على الآية :

فإذا أردنا تطبيق ما أجملناه على " ساء ما يحكمون " فإن جعلنا " ما " تمييزا فهي نكرة موصوفة ، أي : ساء شيئا يحكمونه ، وإن جعلناها فاعلا فهي معرفة ناقصة ، أي ساء الذي يحكمونه ، وعليهما فالمخصوص بالذم محذوف دائما . أطلنا في هذا النقل لأن النحاة اضطرب كلامهم فيه اضطرابا شديدا .

[سورة الأنعام (6) : آية 137]

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ

شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (137)

الإعراب :

)

(476/259)

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان التأثر بأقوال دعاة السوء المرجفين بالأكاذيب . وكذلك جار ومجرور في محل نصب نعت لمصدر محذوف كنظائره ، ولكثير جار ومجرور متعلقان ب " زيّن " ، ومن المشركين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لكثير ، وقتل مفعول به مقدم ، وأولادهم مضاف إليه ، وشركاؤهم فاعل زين المؤخر (لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ) اللام للتعليل ، ويردوهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان بزيّن ، وليلبسوا عطف على ليردوهم ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بيلبسوا ، ودينهم مفعول به ، فعلل التزيين بشيئين : بالإرداء ، أي : بالإهلاك ، وبإدخال الشبهة عليهم في دينهم . والجملة مستأنفة على الأصح ، أي : وهكذا زين .

(وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ) الواو استئنافية ، ولو شرطية ، وشاء اللّه فعل

وفاعل والمفعول به محذوف ، أي : عدم فعلهم ، وما نافية ، وفعلوه فعل وفاعل ومفعول به ، والضمير المرفوع يعود على "كثير" ، والضمير المنصوب يعود على القتل ، لأنه هو المسوق للحديث عنه ، فذرهم الفاء الفصيحة ، وذرهم فعل أمر وفاعل مستتر

ومفعول به ، والواو حرف عطف أو للمعية ، وما اسم موصول أو مصدرية ، أي : ذرهم والذي يفترونه من الكذب ، أو ذرهم وافتراءهم .

الفوائد :

في هذه الآية قراءات كثيرة لا يتسع لها صدر هذا الكتاب ، وقد درجنا على عدم الإشارة إلى قراءة ما إلا إذا كانت تنطوي على بحث هام ، فاكتفينا في باب الإعراب بقراءة العامة وقرأ ابن عامر وهو من السبعة :

"

(477/259)

وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم " برفع " قتل " على النيابة عن الفاعل بزين المبني للمجهول ، ونصب " أولادهم " وجر " شركائهم " . ف " قتل " على قراءة ابن عامر مصدر مضاف وشركائهم مضافة إلى " قتل " من إضافة المصدر إلى فاعله

، وأولادهم مفعوله ، وفصل به بين المضاف والمضاف إليه ، وحسن ذلك ثلاثة أمور :

1- كون الفاصل فضلة ، فإن ذلك مسوغ لعدم الاعتداد به .

2- كونه غير أجنبي لتعلّقه بالمضاف .

3- كونه مقدر التأخير من أجل أن المضاف إليه مقدر التقديم بمقتضى الفاعلية المعنوية .

وبذلك يتبين مدى تهافت الزمخشري في قوله :

ما قاله الزمخشري :

" وأما قراءة ابن عامر " قتل أولادهم شركائهم " برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء ، على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل

بينهما بغير الظرف ، فشيء لو كان في مكان الضرورات- وهو الشعر- لكان سمجا مردودا ، فكيف به في الكلام المنثور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسب لفظه وجزالته " ؟ .

الفصل بين المتضايفين :

هذا وقد زعم كثير من النحويين أنه لا يفصل بين المتضايفين إلا في الشعر خاصة ، لأن المضاف منزل من المضاف إليه منزلة جزئه ، لأنه واقع موقع تنوينه ، فكما لا يفصل بين أجزاء الاسم لا يفصل بينه وبين ما نزّل منزلة الجزء منه ، وهذا قول البصريين . وعند الكوفيين أن مسائل الفصل سبع ، منها ثلاث جائزة في السعة ، أي : النثر ، وهي :

1- أن يكون المضاف مصدرا والمضاف إليه فاعله ، والفاصل إما مفعوله كقراءة ابن عامر الآنفة الذكر ، وقول الشاعر :

عتوا إذ أجبناهم إلى السلم رأفة فسقناهم سوق البغاث الأجادل

فسوق مصدر مضاف ، والأجادل مضاف إليه ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، والبغاث مفعوله ، وفصل به بين المضاف والمضاف إليه ، والأصل : سوق الأجادل البغاث . وإما ظرفه كقول بعضهم :

"

(478/259)

ترك يوما نفسك وهواها موبق لها " ، فترك مصدر مضاف ، ونفسك مضاف إليه ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، ومفعوله محذوف ، ويوما ظرف للمصدر ، بمعنى أنه متعلق به ، وفصل به بين المضاف والمضاف إليه .

2- أن يكون المضاف وصفا والمضاف إليه مفعوله الأول ، والفاصل مفعوله الثاني ، كقراءة بعضهم : " فلا تحسبنّ اللّه مخلف وعده رسله " بنصب وعده وجر رسله ، فمخلف اسم فاعل وهو متعد لاثنين ، وهو مضاف ، ورسله مضاف إليه ، من إضافة

الوصف إلى مفعوله الأول ، ووعده مفعوله الثاني ، وفصل به بين المضاف والمضاف إليه .

3- أن يكون الفاصل قسما كقولهم : " هذا غلام واللّه زيد " ، بجر زيد بإضافة الغلام إليه وفصل بينهما بالقسم .

والمسائل الأربع الباقية من السبع تختص بالشعر وهي :

1- الفصل بالأجنبي كقول جرير :

تسقي امتياحا ندى المسواك ريقتها كما تضمّن ماء المزنة الرّصف

فتسقي مضارع سقى متعد لاثنين ، وفاعله ضمير يرجع إلى المحبوبة في البيت قبله ، وندى مفعوله الأول وهو مضاف ، وريقتها مضاف إليه والمسواك مفعوله الثاني ، فصل به بين المضاف والمضاف إليه ، أي : تسقي ندى ريقتها المسواك ، والمسواك أجنبي من " ندى " لأنه ليس معمولا له وإن كان عاملهما واحدا .

2- الفصل بفاعل المضاف كقوله :

ما إن وجدنا للهوى من طبّ ولا عدمنا قهر وجد صبّ

فأضاف " قهر " إلى مفعوله وهو " صب " ، وفصل بينهما بفاعل المصدر وهو " وجد " .

3- الفصل بنعت المضاف ، بنعت المضاف ، كقول معاوية بن أبي سفيان ، لما اتفق ثلاثة من الخوارج على أن يقتل كل واحد منهم واحدا من علي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ، فقتل علي ، وسلم عمرو ومعاوية :

نجوت وقد بل المرادي سيفه من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

ففصل بين المتضايفين ، وهما : أبي وطالب ، بنعت المضاف وهو :

(479/259)

شيخ الأباطح ، أي : من ابن أبي طالب شيخ الأباطح . والمرادي بفتح الميم نسبة إلى مراد ، بطن من مذحج ، وهو عبد الرحمن بن ملجم ، بضم الميم وفتح الجيم ، على صيغة اسم المفعول .

4- الفصل بالنداء كقوله :

كأن برذون أبا عصام زيد حمار دقّ باللجام

فأضاف برذون إلى زيد ، وفصل بينهما بالمنادى الساقط حرفه ، وحمار خبر كأن ، والأصل كأن برذون زيد حمار يا أبا عصام . والى هذا كله أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله :

فصل مضاف شبه فعل ما نصب مفعولا أو ظرفا أجز ولم يعب

فصل يمين واضطرارا وجدا بأجنبي أو بنعت أو ندا

بين أبي حيّان والزمخشري :

هذا وقد رد أبو حيان على الزمخشري ، وأغلظ في الردّ ، قال

بعد أن أورد كلام الزمخشري الذي أوردناه في مستهل هذا البحث :

" وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيّرتهم هذه الأمة لنقل كتاب اللّه شرقا وغربا "

.

بين أبي حيان والفارسي :

ومضى أبو حيان يرد على أبي علي الفارسي قال : " ولا التفات أيضا لقول أبي علي الفارسي : هذا قبيح قليل في الاستعمال ، ولو عدل عنها – يعني ابن عامر – كان أولى ، لأنهم لم يجيزوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظرف ، وإنما أجازوه في الشعر " .

لمحة عن عقبة بن عامر :

أما عقبة فهو الصحابي الجليل والقائد الأمير الذي اشترك في فتح مصر ، ثم حكمها نيابة وأصالة . وهو رجل مستنير ذكي يتمتع بمزايا فكرية واضحة ، وقد كلفه النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يقضي بين خصمين اختصما إليه ، وكان شاعرا قارئا كاتبا .

أبو الطيّب المتنبي فصل بين المتضايفين :

هذا وقد استعمل أبو الطيب المتنبي الفصل بين المتضايفين ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، فقال من قصيدة يمدح بها أبا القاسم طاهر بن الحسين :

(480/259)

حملت إليه من لساني حديقة سقاها الحجا سقي الرياض السحائب

فقد فصل بالمفعول . ومعنى البيت أنه جعل القصيدة حديقة لما فيها من المعاني كما يكون في الروضة من الزهر والنبات ، وجعل العقل ساقيا لها ، لأن المعاني التي فيها إنما تحسّن بالعقل ، فجعل العقل ساقيها كما تسقي الرياض السحاب ، وهو جمع سحابة .

كلمة ابن جنّي :

وقال أبو الفتح ابن جني : " إذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال العربي وما جاء به ، فإن كان فصيحا وكان ما أورده يقبله القياس ، فالأولى أن يحسن به الظنّ ، لأنه يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها " .

كلمة أبي عمرو بن العلاء :

وقال أبو عمرو بن العلاء : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير " .

رواية عن عمر بن الخطاب :

وروى ابن سيرين عن عمر بن الخطاب أنه حفظ أقل ذلك ، وذهب عنهم كثيره . يعني الشعر ، في حكاية فيها طول .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 138 إلى 139]

وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139)

اللغة :

)

(481/259)

حِجْرٌ) : فعل بكسر الفاء ، بمعنى مفعول ، كالذبح والطحن ، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث ، والواحد ، والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات ، ولذلك وقع صفة لأنعام وحرث ، ومعناه الحجر ، أي : المنع . كانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم

لآلتهم قالوا : لا يطعمها إلا من نشاء ، فجعلوا نصيب الآلهة أقساما ثلاثة : الأول ما ذكره بقوله : حجر ، أي : ممنوعة محرّمة . والثاني ما ذكره بقوله : " وأنعام حرمت ظهورها " . والثالث قوله : " لا يذكرون اسم اللّه عليها " فجعلوها أجناسا بهواهم ، ونسبوا ذلك التجنيس إلى اللّه .

(خالِصَةٌ) التاء في خالصة للمبالغة ، مثلها في راوية وعلامة ونسّابة والخاصة والعامة ، أو تكون مصدر على وزن فاعلة ، كالعافية والعاقبة .

الاعراب :

(وَقالُوا : هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لحكاية نوع آخر من أنواع كفرهم . وهذه اسم اشارة في محل رفع مبتدأ ، وأنعام خبر ، والجملة الاسمية مقول القول ، وحرث عطف على أنعام ، وحجر وصف لهما ، أي : محجورة ممنوعة محرّمة ، وجملة لا يطعمها صفة ثانية لأنعام ، ويطعمها فعل مضارع ومفعول به ، وإلا أداة حصر ، ومن اسم موصول في محل رفع فاعل يطعمها ، وجملة نشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وبزعمهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل قالوا ، أي :

قالوا ذلك ملتبسين بزعمهم الباطل (وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها) الواو عاطفة ، وأنعام خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هذه والجملة معطوفة على قوله : " هذه أنعام " ، أي قالوا مشيرين إلى

طائفة أخرى من أنعامهم ، ويريدون بها البحائر والسوائب والحوامي . وقد تقدمت في المائدة .

(482/259)

وجملة حرمت ظهورها صفة ، أي : لا تركب ، وظهورها نائب فاعل حرمت (وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ) الواو حرف عطف ، وأنعام خبر لمبتدأ محذوف أيضا ، والجملة عطف على ما تقدم ، فالمقولات ثلاث ، وجملة لا يذكرون صفة لأنعام ، واسم اللّه مفعول به ، وعليها جار ومجرور متعلقان بيذكرون ، وافتراء يجوز فيه أن يكون مفعولا لأجله ، أي : فعلوا ذلك كله لأجل الافتراء ، ويجوز أن يكون حالا ، أي : مفترين ، ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا ، لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء ، فهو نظير قولك : رجع القهقرى ، وقعد القرفصاء . وعليه جار ومجرور متعلقان بافتراء ، أو بمحذوف صفة له (سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير جزائهم ،

(483/259)

وبما جار ومجرور متعلقان بيجزيهم ، ويجوز في " ما " أن تكون مصدرية أو موصولة ، والباء للسببية ، أي : بسبب افترائهم أو بسبب الذي كانوا يفترونه على اللّه (وَقالُوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا) كلام مستأنف مسوق للشروع في قول آخر من مفترياتهم وأباطيلهم ، فقد كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور ، ولا تأكل منه الإناث ، وما ولد منها ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . وما اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، وفي بطون جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول ، وهذه اسم إشارة في محل جر بالإضافة ، والأنعام بدل من اسم الإشارة ، وخالصة خبر عن " ما " ولذكورنا جار ومجرور متعلقان بخالصة ، ومحرم عطف على خالصة ، وعلى أزواجنا جار ومجرور متعلقان بمحرّم (وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ) الواو حرف عطف ، وإن شرطية ، ويكن فعل الشرط ، واسم يكن مستتر تقديره : وإن يكن ما في بطونها ، وميتة خبر ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، وهم ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ ، وشركاء خبر ، وفيه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، لأنه كان في الأصل صفة لشركاء ، ولك أن تعلقه بشركاء (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) كلام مستأنف بمثابة التعليل ، مسوق لبيان تلاعبهم بأحكام التحريم والتحليل بما تقتضيه حكمته ، ويتطلبه علمه . والسين حرف استقبال ، ويجزيهم فعل مضارع مرفوع ، والفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى ، والهاء مفعول به أول ، ووصفهم مفعول به ثان ليجزيهم ، وجملة إنه

حكيم عليم تعليلية لا محل لها ، ولا بد من تقدير مضاف ، والتقدير : سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على اللّه في التحليل والتحريم .

(484/259)

[سورة الأنعام (6) : آية 140]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (140)

الإعراب :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ) كلام مستأنف مسوق لبيان نمط آخر من جهالاتهم ، فقد كان بعض العرب من ربيعة ومضر يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر . وقد حرف تحقيق ، وخسر الذين فعل وفاعل ، وجملة قتلوا أولادهم لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وسفها مفعول لأجله ، أي لخفة عقولهم وجهلهم ، وبغير علم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل قتلوا ، أي : جاهلين أن اللّه هو الرازق لهم ولأولادهم (وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ) الواو عاطفة ، وحرموا فعل وفاعل ، وما اسم موصول مفعول به ، وجملة رزقهم اللّه صلة ، وافتراء مفعول لأجله أو حال ، وعلى اللّه جار

ومجرور متعلقان بافتراء (قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ) الجملة تأكيد لقوله : " قد خسر الذين " ، والواو حرف عطف ، وما نافية ، وكانوا مهتدين : كان واسمها وخبرها .

[سورة الأنعام (6) : آية 141]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)

اللغة :

(مَعْرُوشاتٍ) : عرش يعرش ويعرش من بابي تعب ونصر بنى بناء من خشب . وعرش البيت : بناه . وعرش العرش عمله . والعرش سرير الملك ، وركن الشيء .

وأصل العرش في اللغة : شيء مسقّف يجعل عليه الكرم ، وجمعه عروش . واستوى على عرشه إذا ملك . وثلّ عرشه :

إذا هلك . قال زهير :

تداركتما عبسا وقد ثلّ عرشها وذبيان إذ زلّت بأقدامها النّعل

والعروش : البيوت ، قال القطامي :

وما لمثابات العروش بقيّة إذا استلّ من تحت العروش الدّعائم

ومكتنسات في العرائش : أي الهوادج . واختلفوا في معناها فقال ابن عباس : "

المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر ، مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك ، وغير

معروشات : ما قام على ساق .

كالنخل والزرع وسائر الشجر " ، وقال الضحاك : "كلاهما في الكرم خاصة ، لأن منه ما

يعرش ومنه مالا يعرش ، بل يبقى على وجه الأرض منبسطا " . وقال في الكشاف : "

معروشات : مسموكات . وغير

معروشات ، متروكات على وجه الأرض لم تعرش . وقيل : المعروشات ما في الأرياف

والعمران مما غرسه الناس واهتموا به ، فعرّشوه .

وغير معروشات مما أنبته اللّه وحشيا في البراري والجبال ، فهو غير معروش " .

الاعراب :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ) الواو استئنافية ، وهو مبتدأ ،

والذي خبره ، وجملة أنشأ لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وجنات مفعول به ، ومعروشات

صفة ، وغير معروشات عطف على معروشات (وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ) والنخل والزرع :

(486/259)

عطف على جنات ، ومختلفا حال مقدرة ، لأن النخل والزرع وقت خروجه لا أكل منه حتى يكون مختلفا أو متفقا ، وأكله فاعل " مختلفا " لأنه اسم فاعل (وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ) عطف على ما سبقه أيضا ، وخصّ هذه الأجناس لما فيها من الفضيلة على سائر ما ينبت في الجنات ، ومتشابها حال ، وغير متشابه عطف عليه (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان إباحته . وكلوا فعل أمر والواو فاعل ، ومن ثمره جار ومجرور متعلقان بكلوا ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وآتوا فعل أمر معطوف على كلوا ، وحقه مفعول به ، ويوم ظرف زمان متعلق بآتوا ، وحصاده مضاف إليه ، والمراد بالحق هنا الزكاة ، ولا يشكل كون السورة مكية ، والزكاة فرضت بالمدينة ، لأن هذه الآية مدنية ، والمراد به أيضا ما كان يتصدق به على المساكين وقت الحصاد ، وكان ذلك معروفا (وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ،

وتسرفوا فعل مضارع مجزوم بلا ، أي : لا تجاوزوا الحدّ ، قال الزّجاج : وعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ، ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف . وإن واسمها ، وجملة لا يحب المسرفين خبرها ، وجملة إن وما في حيزها تعليل لما تقدم .

(487/259)

[سورة الأنعام (6) : الآيات 142 إلى 144]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

اللغة :

(حَمُولَةً) الحمولة بفتح الحاء : ما أطاق الحمل عليه من الإبل .

(488/259)

(فَرْشاً) والفرش : صغارها . هذا هو المشهور في اللغة ، قال في الأساس : « ومرت الحمولة : وهي الإبل التي يحمل عليها ، « ومن الأنعام حمولة وفرشا » ، وقال عنترة :

ما راعني إلّا حمولة أهلها وسط الديار تسفّ حبّ الخمخم

قال شارحه الزوزني : « الحمولة : الإبل التي تطيق أن يحمل عليها » . وقيل : « الحمولة : كبار النعم ، أعني الإبل والبقر والغنم ، والفرش صغارها » . وقال الزّجّاج : « أجمع أهل اللغة على أن الفرش صغار الإبل » . وقال أبو زيد : « يحتمل أن يكون تسميته بالمصدر ، لأن الفرش في الأصل مصدر ، والفرش لفظ مشترك بين معان كثيرة ، منها : متاع البيت ، والفضاء الواسع ، واتساع خفّ البعير قليلا ، والأرض الملساء ، ونبات يلتصق بالأرض » . وقيل : الحمولة : كل ما حمل عليه من إبل وبقر وبغل وحمار . والفرش : ما اتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش » . وقال الزمخشري : « أي وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفرش للذبح ، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش . وقيل : الحمولة التي تصلح للحمل ، والفرش الصغار ، كالفصلان والعجاجيل والغنم ، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها ، مثل : الفرش المفروش عليها » .

(الضَّأْنِ) : قيل : هو جمع ضائن للذكر وضائنة للمؤنث ، وقيل :

اسم جمع ، وكذا يقال في المعز ، سواء سكّنت عينه أو فتحت . وفي القاموس : أضئن

ضأنك : اعزلها من المعز . والضأن اسم جنس بخلاف الماعز من الغنم ، والضائن : ذو الصوف ، خلاف الماعز من الغنم ،

(489/259)

وجمعه ضأن وضأن وضئين وضئين . وفي الأساس : ماله الضّأن والمعز والضّئين والمعز ، وعنده ضائنة من الغنم ولحم وجلد ضائن وماعز ، وأضأن فلان وأمعز كثر ضأنه ومعزه ، وتقول العرب : اضأن ضأنك وامعز معزك أي : اعزلها » .

(الْمَعْزِ) في المصباح : المعز اسم جنس لا واحد له من لفظه ، وهي ذوات الشعر من الغنم ، الواحدة : شاة ، وهي مؤنثة ، وتفتح العين وتسكن ، وجمع الساكن أمعز ومعيز مثل : عبد : أعبد وعبيد ، والمعزى ألفها للإلحاق لا للتأنيث ، ولهذا ينوّن في النكرة ، ويصغر على معيز ، ولو كانت الألف للتأنيث لم تحذف . والذكر ماعز ، والأنثى ماعزة .

الإعراب :

(وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً) الواو حرف عطف ، ومن الأنعام جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، لأنه كان في الأصل صفة ل « حمولة وفرشا » ، وتقدم عليهما ، وحمولة عطف على جنات ، أي :

وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا (كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما جمجموا به واضطربت به أقوالهم ، وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكورة الأنعام تارة ، وإناثها تارة ، فأنكر عليهم ذلك . وكلوا فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعل ، ومما جار ومجرور متعلقان بكلوا ، وجملة رزقكم اللّه لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ولا ناهية ، وتتبعوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، وخطوات الشيطان مفعول به ، والجملة معطوفة على جملة كلوا ، وإن واسمها ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وعدو خبر إن ، ومبين صفة ، والجملة

(490/259)

تعليلية لا محل لها (ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) ثمانية أزواج بدل من حمولة وفرشا ، وقيل : هو منصوب بكلوا مما رزقكم اللّه ، أو ب " أنشأ " مقدرة ، وإلى هذا ذهب الكسائي .

والزوج : ما معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل ، والمراد أربعة ذكور من كل من الإبل والبقر والغنم ، وأربع إناث كذلك ، ومن الضأن جار ومجرور متعلقان بفعل أنشأ مقدرا ، واثنين بدل من ثمانية أزواج ، وقد عطف على بقية الثمانية (قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ

الْأُنْثَيَيْنِ) قل فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، والجملة معترضة لا محل لها ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والذكرين مفعول به مقدم لحرّم ، وأم حرف عطف ، والأنثيين عطف على الذكرين ، والجملة في محل نصب مقول القول (أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ) أم الثانية عاطفة ، عطفت " ما " الموصولية بعدها على الأنثيين ، فهي في محل نصب ، فلما التقت ميم ساكنة مع ما بعدها وجب الإدغام ، وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب الفوائد (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الجملة معترضة أيضا مسوقة لتعجيزهم ، وقد وقعت هاتان الجملتان الاعتراضيتان بين المعدودات للتأكيد على بطلان أقوالهم ، ونبئوني فعل أمر وفاعل ومفعول به ، وبعلم جار ومجرور متعلقان بنبئوني ، وإن شرطية ، وكان واسمها ، وهي فعل الشرط ، وصادقين خبرها ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ) تقدم إعراب نظيرها تماما (أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا) أم منقطعة وهي تقدر ببل والهمزة والتقدير : بل أكنتم شهداء ، وإذ ظرف متعلق بشهداء وجملة وصاكم الله في محل جر بالإضافة وبهذا متعلقان بوصاكم (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الفاء هي الفصيحة ، أي :

إذا عرفتم هذا ورسخ في عقولكم ، ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، وأظلم خبر ، والجملة لا محل لها ، والاستفهام معناه النفي ، أي : لا أحد أظلم ، وممن جار ومجرور متعلقان بأظلم ، وجملة افترى لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بافترى ، وكذبا مفعول به أو مفعول مطلق ، وقد تقدم إعراب نظيره . واللام للتعليل ، ويضل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والناس مفعول به ، ولام التعليل ومدخولها متعلقان بافترى ، وبغير علم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل افترى ، أي : افترى عليه تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) إن واسمها ، وجملة لا يهدي خبرها ، والقوم مفعول به والظالمين نعت للقوم ، والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها من الإعراب .

الفوائد :

الإدغام : هو إدخال حرف في حرف آخر من جنسه ، بحيث يصيران حرفا وأحدا مشددا ، وله ثلاث أحوال :

1- وجوب الإدغام :

وذلك إذا كانا متجانسين في كلمة واحدة ، وأما قول الشاعر :

الحمد للّه العليّ الأجلل الواسع الفضل الوهوب المجزل

فمن الضرورات الشعرية . ويجب إدغام المثلين المتجاورين أولهما إذا كانا في كلمتين ، كما كانا في كلمة واحدة ، مثل : سكتّ وسكّنا وعنّي وعليّ ، واكتب بالقلم ، واستغفر ربك ، وكالآية التي نحن

بصددها " أمّا اشتملت عليه " . وشذت ألفاظ لا يقاس عليها ، مثل :

ألل السّقاء والأسنان إذا تغيرت رائحتها وفسدت ، ودبب الإنسان إذا نبت الشعر في جبينه ، وضببت الأرض إذا كثر ضبابها ، وقطط الشعر إذا كان قصيرا جعدا ، ويقال قطّ بالإدغام ، ولححت العين إذا ألصقت أجفانها بالرّمص ، والخخت إذا كثر دمعها وغلظت أجفانها .

2- جواز الإدغام وتركه :

ويكون في أربعة مواضع :

(492/259)

آ- أن يكون الحرف الأول من المثلين متحركا والثاني ساكنا بسكون عارض للجزم ، أو للبناء في الأمر المفرد ، فتقول : لم يمدّ ومدّ بالإدغام ، ولم يمدد وامدد ، والفكّ أجود ، وبه نطق القرآن ، قال تعالى : " يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار " . وقال :

" واشدد على قلوبهم " . وتكون حركة ثاني المثلين المدغمين في المضارع المجزوم والأمر اللذين لم يتصل بهما شيء تابعة لحركة فائه ، وهذا هو الأكثر ، ونرى أن يحرك بالفتح للتخفيف .

ب- أن يكون عين الكلمة ولامها ياءين ، لازما تحريك ثانيهما ، مثل : عيي وحيي . فتقول : عيّ وحيّ ، فإن كانت حركة الثانية عارضة للإعراب مثل : لن يحيي ، امتنع إدغامه .

ج- أن يكون في أول الفعل الماضي تاءان مثل : تتابع وتتبّع ، فيجوز الإدغام مع زيادة همزة وصل في أوله ، دفعا للابتداء بالساكن ،

مثل : اتّابع واتّبع ، فإن كان مضارعا لم يجز الإدغام ، بل يجوز تخفيفه ، بحذف إحدى التاءين فتقول في : تتلظّى : تلظّى ، وفي تتجلّى : تجلّى ، قال تعالى : " تنزّل الملائكة والرّوح " وقال :

" نارا تلظّى " وقال أبو تمّام يصف الربيع :

أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تنوّر

د- أن يتجاوز مثلان متحركان في كلمتين ، مثل : جعل لي ، وكتب بالقلم ، فيجوز الإدغام بإسكان المثل الأول ، فتقل : جعل لي وكتب بالقلم ، غير أن الإدغام يجوز هنا لفظا لا خطّا .

3- امتناع الإدغام :

وذلك في سبعة مواضع :

آ- أن يتصدر المثلان كددن ، أي : لعب .

ب- أن يكونا في اسم على وزن فعل (بضم ففتح) كدرر ، أو فعل (بضمتين) كسرر ، أو فعل (بكسر ففتح) كلمم ، أو فعل (بفتحتين) كطلل .

ج- أن يكون المثلان في وزن مزيد فيه للإلحاق كجلبب وهيلل .

د- أن يتصل بأول المثلين مدغم فيه ، كهلّل . وذلك لأن الإدغام الثاني بمثابة تكرّر الإدغام ، وهو ممنوع .

(493/259)

ه- أن يكون المثلان على وزن (افْعَلْ) في التعجب ، نحو :

أحبب بالعلم .

و- أن يعرض سكون أحد المثلين لاتصاله بضمير رفع متحرك كمددت .

ز- أن يكون مما شذت العرب في فكه اختيارا ، وهي ألفاظ محفوظة تقدم ذكرها في مستهل البحث .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 145 إلى 146]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (146)

اللغة :

(مَسْفُوحاً) : السفح : الصبّ ، وسفح يأتي لازما ومتعديا ، يقال : سفح فلان دمعه ودمه أي : أهرقه ، إلا أن الفرق بينهما وقع

باختلاف المصدر ، ففي المتعدي يقال : سفحا ، وفي اللازم يقال : سفوحا ، وفي هذه الآية وقع متعديا لأن اسم المفعول لا يبنى إلا من متعد ، ومن اللازم ما أنشده أبو عبيدة لكثيّر عزة :

أقول ودمعي واكف عند رسمها عليك سلام اللّه والدمع يسفح

ومن المجاز في هذه المادة : وبينهم سفاح : أي قتال أو معاقرة ، لأنهم يتسافحون الدماء ، وسافحها مسافحة زاناها ، لأن كلّا منهما يسفح ماءه ويضيعه . ومن أقوالهم : " في النكاح غنية عن السفاح " .

وقد مر ذكر هذه المادة وخصائص اجتماع السين والفاء فاء وعينا للكلمة .

(الْحَوايا) : الأمعاء والمصارين .

الاعراب :

)

(494/259)

قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما حرمه اللّه تعالى عليهم ، وجملة لا أجد مقول القول ، وفيما جار ومجرور متعلقان بأجد ، وجملة أوحي إليّ لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وإليّ جار ومجرور في موضع رفع على أنه نائب فاعل أوحي ، ومحرما مفعول به لأجد ، أي : شيئا محرما ، وعلى (إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ) الاستثناء متصل ، طاعم جار ومجرور متعلقان بمحرّم ، وجملة يطعمه صفة لطاعم لأنه استثناء من الجنس ، وموضعه نصب ، ويجوز أن يكون استثناء

منقطعا ، لأنه كون وما قبله عين ، وموضعه نصب أيضا ، وميتة خبر يكون . واسمها مستتر يعود على قوله : " محرما " وجملة الاستثناء نصب على الحال ، ودما منسوق على ميتة ، ومسفوحا صفة ، أي :

سائلا كالدم في العروق لا كالكبد والطحال ، وأو لحم خنزير معطوف عطف نسق أيضا (فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) الفاء للتعليل ، وإن واسمها ، ورجس خبرها ، وأو حرف عطف ، وفسقا معطوف عطف نسق على لحم خنزير ، وجملة أهل صفة ، وأهل فعل ماض ، ولغير اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وبه جار ومجرور متعلقان بأهل ، وجملة " فإنه رجس " تعليلية لا محل لها (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الفاء استئنافية ، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، واضطر فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط ، والجواب محذوف ، أي : فلا مؤاخذة عليه . ومعنى اضطر أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء مما ذكر ، وغير باغ حال ، أي : غير ظالم . ولا عاد عطف على باغ ، أي غير معتد . وقد سبق تحقيق كلام مماثل له في سورة البقرة . والفاء تعليلية وإن واسمها ، وغفور خبر أول ، ورحيم خبر ثان ، وجملة فعل الشرط وجوابه خبر " من " (وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) كلام مستأنف مسوق لبيان سبب تحريم كل ذي ظفر على اليهود لظلمهم ، وقد تقدم تحقيق ذلك في سورة البقرة ، وليشمل كل ذي ظفر ، وهو النعامة والبعير ونحو ذلك من الدواب ، وكل ما لم يكن

مشقوق الأصابع من البهائم والطير ، مثل البعير والنعامة والأوز والبط . وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بحرمنا ، وهادوا فعل وفاعل ، وحرمنا فعل وفاعل أيضا ، وكل مفعول به ، وذي مضاف إليه ، وظفر مجرور بإضافة " ذي " إليه (وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما) الواو عاطفة ، ومن البقر

(496/259)

جار ومجرور متعلقان بحرمنا والغنم عطف على البقر ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بحرمنا ، وشحومهما مفعول به ، والمعنى أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه ، وكل شيء منه ، وترك البقر والغنم على التحليل ، ولم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة ، وهي الثروب ، أي : الشحوم الرقيقة التي تغشى الكرش والأمعاء وشحم الكلى . جمع كلية أو كلوة ، بضم الكاف فيهما . (إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) إلا أداة استثناء ، وما اسم موصول في محل نصب على الاستثناء المتصل من الشحوم ، وجملة الاستثناء حالية ، وجملة حملت لا محل لها لأنها صلة ، وأو حرف عطف والحوايا عطف على ظهورهما ، أو ما اختلط بعظم أو حرف عطف ، وما اسم موصول معطوف على ظهورهما ، واختلط فعل ماض وفاعله هو ، وبعظم جار ومجرور متعلقان باختلط (ذلِكَ

جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ) الجملة لا محل لها لأنها مفسرة لبيان علة التحريم ، وذلك اسم الاشارة مبتدأ ، وجملة جزيناهم خبر ، وببغيهم جار ومجرور متعلقان بجزيناهم ، ولا بد من تقدير ضمير ، أي : جزيناهم به ، بسبب بغيهم . وسيأتي مزيد من إعراب هذا التعبير . والواو استئنافية أو حالية ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وصادقون خبر إن .

الفوائد :

قال أبو البقاء : " ذلك في موضع نصب بجزيناهم ، وقيل : مبتدأ ، والتقدير جزينا هموه ، وقيل : هو خبر لمحذوف ، أي الأمر ذلك " ويلاحظ أن أبا البقاء لم يبّين على أي شيء انتصب ؟ هل على المصدر أو على المفعول به ؟ وقال الزمخشري : " ذلك الجزاء جزيناهم ، وهو

(497/259)

تحريم الطيبات " : وظاهره أنه منتصب انتصاب المصدر . وقال أبو حيّان : " وزعم ابن مالك أن اسم الاشارة لا ينتصب مشارا به إلى المصدر إلا وأتبع بالمصدر ، فتقول : قمت هذا القيام ، وقعدت ذلك القعود . ولا يجوز قمت هذا ، ولا قعد ذلك " فعلى هذا لا يصح انتصاب " ذلك " على أنه إشارة إلى المصدر . قلت : وذهب سيبويه والجمهور إلى أن ذلك

لا يشترط، ومن كلام العرب: " ظننت ذلك"، يشيرون به إلى الظنّ.

[سورة الأنعام (6): الآيات 147 إلى 148]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)

الإعراب:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ) الفاء استئنافية، وإن شرطية، وكذبوك فعل وفاعل ومفعول به، وهو في محل جزم فعل الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، وقل فعل أمر، وربكم مبتدأ

(498/259)

مرفوع، وذو رحمة خبر، وواسعة صفة لرحمة، والجملة في محل نصب مقول القول، وجملة القول وما في حيزه في محل جزم جواب الشرط (وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) الواو عاطفة، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية داخلة في حيز القول، ويرد فعل مضارع مبني

للمجهول ، وبأسه نائب فاعل ، وعن القوم جار ومجرور متعلقان بيرد ، والمجرمين نعت للقوم ، (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا) الجملة مستأنفة مسوقة للإخبار بما يصدر عنهم من قول . والسين حرف استقبال ، ويقول فعل مضارع ، والذين فاعل ، وجملة أشركوا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وجملة لو شاء اللّه في محل نصب مقول القول ، ولو شرطية ، وشاء اللّه فعل وفاعل ، ومفعول المشيئة محذوف ، أي : لو شاء عدم إشراكنا ، وقد تقدمت له نظائر . ولا آباؤنا عطف على الضمير في أشركنا ، وجاز العطف لوجود " لا " (وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ) عطف على ما أشركنا ، ومن زائدة في المفعول به (كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الكاف نعت لمصدر محذوف ، وقد تقدم ، أي : كذب الذين من قبلهم تكذيبا مثل ذلك التكذيب (حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا) حتى حرف غاية وجر ، أي : استمروا على التكذيب حتى ذاقوا ، وبأسنا مفعول به ، وهل حرف استفهام ، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ، ومن زائدة في المبتدأ المؤخر ، والجملة مقول القول . والفاء فاء السببية ، وتخرجوه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، والواو فاعل ، والهاء مفعول به ، ولنا جار ومجرور متعلقان بتخرجوه (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) الجملة استئنافية ، وإن نافية ، وتتبعون فعل مضارع مرفوع ، والواو فاعل ، وإلا أداة حصر ،

و الظن مفعول به ، وإن الواو عاطفة ، وإن نافية ، وأنتم مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وجملة تخرصون خبر أنتم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 149 إلى 150]

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

الإعراب :

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ) جملة القول مستأنفة ، والفاء هي الفصيحة ، لأنها أفصحت عن شرط مقدر ، أي قل : فإن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البالغة ، وللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والحجة مبتدأ مؤخر ، والبالغة صفة ، أي : التي بلغت غاية النهاية والوضوح ، وقطعت كل عذر للمحجوج والجملة مقول القول (فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ) الفاء عاطفة ، ولو شرطية ، وشاء فعل وفاعل مستتر ، والمفعول به محذوف ، أي : هدايتكم ، واللام واقعة في جواب لو ، وهداكم فعل وفاعل مستتر ، ومفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وأجمعين تأكيد للضمير ، وسيأتي حكم التأكيد بأجمع في باب الفوائد (قُلْ : هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا)

الجملة مستأنفة ، وقل فعل أمر ، وهلم اسم فعل أمر ، وسيأتي بحث عنها في باب الفوائد ، وشهداءكم مفعول به ، فان اسم الفعل يعمل عمل مسماه من تعد ولزوم ، والذين صفة ، وجملة يشهدون صلة ، وأن اللّه أن واسمها في محل نصب بنزع الخافض ، وجملة حرم هذا خبر أن (فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) الفاء عاطفة ، وإن شرطية ، وشهدوا فعل ماض ، والواو فاعل ، وهو في محل جزم فعل الشرط ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، ولا ناهية ، وتشهد فعل مضارع مجزوم بلا ، والجملة في محل جزم جواب الشرط ، ومعهم ظرف مكان متعلق بتشهد (وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتتبع فعل مضارع مجزوم بلا ، وأهواء مفعول به ، والذين اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا والجملة صلة (وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) الواو عاطفة ، والذين عطف على اسم الموصول المتقدم ، والغرض تعداد صفاتهم القبيحة . والمعنى : ولا تتّبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات اللّه وبين الكفر بالآخرة والإشراك به .

وجملة لا يؤمنون صلة الموصول ، وبالآخرة جار ومجرور متعلقان بيؤمنون ، والواو حرف

عطف ، وهم مبتدأ ، وجملة يعدلون خبره ، وبربهم جار ومجرور متعلقان بيعدلون .

البلاغة :

في إطلاق اسم الشهادة على التسليم لهم وموافقتهم وتصديقهم في الشهادة الباطلة ، استعارة تصريحية تبعية ويصح أن يكون مجازا مرسلا من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم ، لأن الشهادة من لوازم التسليم .

الفوائد :

(501/259)

إذا أريد تقوية التوكيد يؤتى بكلمة " أجمع " بعد كلمة " كله " ، وبعد كلمة " كلها " بكلمة " جمعاء " ، وبعد كلمة " كلهم " بكلمة " أجمعين " ، وبعد كلمة " كلهنّ " بكلمة " جمع " ، تقول : جاء الصفّ كله أجمع ، وجاءت القبيلة كلها جمعاء ، وقال تعالى : " فسجد الملائكة كلهم أجمعون " ، وجاءت النساء كلهن جمع . وقد يؤكّد بأجمع وجمعاء وأجمعين وجمع وإن لم يتقدمهن لفظ " كلّ " ، ومنه قوله تعالى : " لأغوينهم أجمعين " .

هذا ، ولا يجوز تثنية أجمع وجمعاء ، استغناء عن ذلك بلفظي :

كلا وكلتا . قال ابن مالك في ألفيته مجملا قاعدة أجمع :

وبعد كل أكدوا بأجمعا جمعاء أجمعين ثم جمعا

ودون كل قد يجيء أجمع جمعاء أجمعون ثم جمع

هلمّ : كلمة بمعنى الدعاء إلى الشيء ، فتكون لازمة وقد تستعمل متعدية ، نحو : هلم شهداءكم ، أي : أحضروهم ، وهي من أسماء الأفعال ، يستوي فيها الواحد والجمع ، والتذكير والتأنيث ، ويصرفونها بأن يجعلوها فعلا ويلحقوها الضمائر ، فيقولون في المثنى : هلما ، وفي المؤنث : هلمي ، وفي الجمع للذكور : هلموا ، وللنساء : هلممن والأول أفصح . وقد توصل باللام ، فيقال : هلمّ لك ، كقولهم : هيت لك . وقد تلحقها نون التوكيد الثقيلة ، فيقال : هلمّنّ يا رجل ، وهلمنّ يا امرأة ، وهلمّانّ يا رجلان ، ويا امرأتان ، وهلمّنّ يا رجال ، وهلمنانّ يا نسوة .

[سورة الأنعام (6) : آية 151]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

اللغة :

)

تعال) من الخاصّ الذي صار عاما ، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم كثر واتسع حتى عم . وهو فعل أمر مفتوح الآخر دائما ، ومن ثم لحنوا أبا فراس الحمداني بقوله :

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

الاعراب :

(قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) كلام مستأنف مسوق لأمره صلى اللّه عليه وسلم بأن يتلو عليهم ما حرم ربهم عليهم حقيقة لا ظنا ، ويقينا لا حدسا . وجملة تعالوا في محل نصب مقول القول ، وهو فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعل ، وأتل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وابن هشام يؤثر أن يقال : إنه جواب الشرط مقدّر ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة

حرم عليكم لا محلّ لها لأنها صلة الموصول ، والعائد محذوف ، أي :

الذي حرّمه . ويجوز أن تكون " ما " مصدرية ، أي : اتل تحريم ربكم . والتحريم لا يتلى ، ولكنه مصدر واقع موقع المفعول به .

وربكم فاعل حرم ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بحرم أو بأتل ، على أن المسألة من باب التنازع (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) في "أن" أوجه عديدة ، والمختار منها وجهان : أولهما أنها مفسرة ، لأنه تقدمها ما هو معنى القول دون حروفه ، ولا ناهية ، وتشركوا فعل مضارع مجزوم بها ، والجملة لا محل لها لأنها مفسّرة . والوجه الثاني أنها مصدرية ، وهي وما في حيزها بدل من "ما حرم" ، وبه جار ومجرور متعلقان بتشركوا ، وشيئا مفعول به أو بمعنى المصدر ، فهي مفعول مطلق . وقد تقدمت الإشارة إلى مثيله . وبالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل المصدر المحذوف ، أي أحسنوا بالوالدين ، وإحسانا مفعول مطلق للفعل المحذوف ، وسيأتي بحث هام لابن هشام في إعراب هذه الآية في باب الفوائد (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا ، وأولادكم مفعول به ، ومن إملاق جار ومجرور متعلقان بتقتلوا ، أي : لأجل الإملاق ، فمن سببية ، ولم ينصب المفعول لأجله لاختلال شرطه ، لأن الإملاق مصدر غير قلبي ، وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة . ونحن مبتدأ وجملة نرزقكم خبر ، وجملة نحن نرزقكم مستأنفة لتعليل النهي قبله ، وإياهم عطف على الضمير في نرزقكم ، وقدم المخاطبين على ضمير الأولاد بعكس آية الإسراء لسرّ بلاغي ، سيأتي في باب البلاغة (وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ) الواو حرف عطف ، ولا ناهية

، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، والفواحش مفعول به ، وما اسم موصول في محل

(504/259)

نصب بدل من الفواحش ، وهو بدل اشتمال ، وجملة ظهر لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ومنها جار ومجرور متعلقان بظهر ، وما بطن عطف على ما ظهر (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) عطف على ما تقدم ، داخل في حيزه ، لاستيفاء المحرمات ، وهي عشرة أشياء .

ولا ناهية ، وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والنفس مفعول به ، والتي اسم موصول في محل نصب صفة ، وجملة حرم اللّه لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وإلا أداة حصر ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي : لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق ، فالباء للملابسة ، وهي ومجرورها متعلقان بمحذوف حال من الواو في " تقتلوا " ويجوز أن يكون الاستثناء المفرّغ من الفعل نفسه ، فيكون الجار والمجرور مفعولا مطلقا ، أي : إلا القتل الملتبس بالحق : كالقود وحدّ الرّدّة ورجم المحصن (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) اسم الاشارة مبتدأ ، والجملة مستأنفة مسوقة للاشارة إلى ما تقدم ، وجملة وصاكم خبر ذلكم ،

وبه جار ومجرور متعلقان بوصاكم ، ولعلكم تعقلون لعل واسمها وخبرها ، وجملة الرجاء حالية ، أي : لعلكم تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم ، وتحبسها عن اجتراح هذه المنهيّات .

البلاغة :

اشتملت هذه الآية على أفانين عجيبة من البلاغة ، تستلزم التطويل ، ولكنه التطويل غير المملول ، فحديث الجمال يطول ، وكلما طال ازداد حسنا ، كالجمال نفسه كلما أمعنت النظر فيه ازدادت معالم حسنه :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

1- التوهيم :

فالفن الأول في هذه الآية هو فن التوهيم وقد سبقت الاشارة إليه في سورة " آل عمران " ، ونجدد العهد به هنا فنقول : هو أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها ، وهو يريد غير ذلك ، وذلك في قوله : " أن لا تشركوا به شيئا " .

(505/259)

فإن ظاهر الكلام يدل على تحريم نفي الشرك ، وملزومه تحليل الشرك ، وهذا محال ، وخلاف المعنى المراد ، والتأويل الذي يحلّ الإشكال هو أن في الوصايا المذكورة في سياق الآية وما بعدها ما حرّم عليهم وما هم مأمورون به فإن الشرك باللّه ، وقتل النفس المحرمة ، وأكل مال اليتيم ، مما حرّم ظاهرا وباطنا ، ووفاء الكيل والميزان بالقسط والعدل في القول ، فضلا عن الفعل والوفاء بالعهد واتباع الصراط المستقيم من الأفعال المأمور بها أمر وجوب ، ولو جاء الكلام بغير " لا " لانبتر واختل وفسد معناه ، فإنه يصير المعنى حرّم عليكم الشرك ، والإحسان للوالدين ، وهذا ضد المعنى المراد . ولهذا جاءت الزيادة التي أوهم ظاهرها فساد المعنى ليلجأ إلى التأويل الذي يصح به عطف بقية الوصايا على ما تقدم .

2- التّغاير :

والفنّ الثاني فيها هو التغاير ، وذلك في قوله : " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق " . وحدّه تغاير المذهبين ، إما في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئا أو يذمه ، أو يذم ما مدحه غيره ، وبالعكس ، ويفضل شيئا على شيء ، ثم يعود فيجعل المفضول فاضلا . ومن التغاير

تغاير المعنى لمغايرة اللفظ ، مثل قوله : " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم " فإن ذلك غير قوله في هذا المعنى عينه في بني إسرائيل : " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم " فقدّم في آية " الأنعام " للفقراء بدليل قوله تعالى : " من إملاق " ، فاقتضت البلاغة تقديم وعدهم – أعني الآباء المملقين – بما يغنيهم من الرزق ، واقتضت البلاغة تكميل المعنى بعدة الأبناء بعد عدة الآباء ليكمل سكون الأنفس . وفي بني إسرائيل الخطاب للأغنياء ، بدليل قوله تعالى : " خشية إملاق " ، فإنه لا يخشى الفقر إلا الغني ، أما الفقير ففقره حاصل . فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق ليشير هذا التقديم إلى أنه سبحانه هو الذي يرزق الأبناء ليزول ما توهم الأغنياء من أنهم بإنفاقهم على الأبناء يصيرون إلى الفقر بعد الغنى ، ثم كمل هذا الطمأنينة بعدتهم بالرزق بعد عدة أبنائهم .

فسبحان قائل هذا الكلام !

التّغاير في الشّعر العربيّ :

هذا وقد افتنّ الشعراء في هذا المعنى وتلاعبوا به وسلكوا به كل واد ، وسنورد لك فيما يلي طائفة مختارة مما تمّ به التغاير ، ومدح الشعراء ما هو مشتهر بالذّم ، وذمّوا ما من حقه المدح . وأول من أشار إلى ذلك عنترة بن شداد الشاعر العبسي والفارس المشهور عند ما اشتهى تقبيل السيوف لأنها التمعت كبارق ثغر من يهواها ، فقال بيتيه المشهورين :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّي وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

وما أجمل قول أبي فراس الحمدانيّ وقد سلك مسلكا آخر فقال :

مسيء محسن طورا وطورا فما أدري عدّوي أم حبيبي

يقلّب مقلة ويدير طرفا به عرف البريء من المريب

وبعض الظالمين وإن تناهى شهيّ الظلم مغتفر الذنوب

وولع البحتريّ بهذا الفن فقال :

عيّرتني بالشيب من بدآته في عذاري بالهجر والاجتناب

(507/259)

لا تريه عارا فما هو بالشيب ولكنه جلاء الشباب

وبياض البازيّ أصدق حسنا إن تأمّلت من سواد الغراب

وقال في المعنى نفسه وأجاد :

عذلتنا في عشقها أمّ عمرو هل سمعتم بالعاذل المعشوق ؟

ورأت لمّة ألمّ بها الشّيب فريعت من ظلمة في شروق

ولعمري لولا الأقاحي لأبصرت أنيق الرياض غير أنيق

ومزاج الصهباء بالماء أولى بصبوح مستحسن وغبوق

وسواد العيون لو لم يكمّل ببياض ما كان بالموموق

أيّ ليل يبهى بغير نجوم ؟ وسماء تندى بغير بروق ؟

ووصف البحتري يوم الفراق بالقصر وقد أجمع الناس على طوله حيث قال :

ولقد تأمّلت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل

قصرت مسافته على متزوّر منه لدهر هن صبابة وغليل

أما ابن الرومي فقد سما على المتقدمين والمتأخرين في ذمّ ما تواضع الناس على مدحه ،

فقال يهجو البدر :

لو أراد الأديب أن يهجو البدر رماه بالخطة الشنعاء

قال : يا بدر أنت تغدر بالساري وتغري بزائر الحسناء

يعتريك المحاق في كل شهر فترى كالقلامة الحجناء

نمش في بياض وجهك يحكي كلفا فوق وجنة برصاء

لا لأجل المديح بل خيفة الهجر أخذنا جوائز الخلفاء وقال الشريف الرضي يهجو الشمس :

في خلقة الشمس وأخلاقها شتى عيوب ستة تذكر

رمداء عمشاء إذا أصبحت عمياء عند الليل لا تبصر

ويغتدي البدر لها كاسفا وجرمه من جرمها أصغر

حرورها في القيظ لا يتّقى ودفؤها في القر مستحقر

وخلقها خلق الملول الذي ينكث للعهد ولا يبصر

ليست بحسناء وما حسن من يحسر منه الطرف إذ ينظر

ولو أردنا الاستفاضة لملأنا الكتاب كله من هذا الشعر المستطاب الفريد ، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالجيد .

3- المجاز المرسل :

(508/259)

في قوله تعالى : " من إملاق " فهو جار مجرى الكناية ، لأنه إذا خرج ماله من يده ركبه الفقر فاستعمل لفظ السبب في موضع المسبب ، قال في أساس البلاغة : " ومن المجاز أملق الدهر ماله : أذهبه وأخرجه من يده ، وأملق الرجل : أنفق ماله حتى افتقر ، ورجل مملق . وقال أعرابي : قاتل اللّه النساء كيف يمتلقن العلل لكأنها تخرج من تحت أقدامهن ، أي : يستخرجنها " .

الفوائد :

لابن هشام كلام مطوّل في هذه الآية قال : " وقوله تعالى :

" قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا " فقيل :

إن لا نافية ، وقيل : ناهية ، وقيل : زائدة ، والجميع محتمل . وحاصل القول في الآية أن " ما " خبرية بمعنى الذي ، منصوبة ب " أتل " وحرم ربكم : صلة ، وعليكم متعلقة بحرم . هذا هو الظاهر . وأجاز الزجاج كون " ما " استفهامية منصوبة بحرم ، والجملة محكية ب " أتل " لأنه بمعنى أقول ، ويجوز أن يعلق " عليكم " ب " أتل " ، ومن رجح إعمال أول المتنازعين - وهم الكوفيون - رجحه على تعلقه بحرّم . وفي أن وما بعدها أوجه : أن يكونا في موضع نصب بدلا من " ما " ، وذلك على أنهما موصولة لا استفهامية ، إذ لم يقترن البدل بهمزة الاستفهام . الثاني أن يكونا في موضع رفع خبر

ل " هو " محذوفا ، أجازهما بعض المعربين . وعليهما ف " لا " زائدة ، قال ابن الشجري : والصواب أنها نافية على الأول ، وزائدة على الثاني .

(509/259)

و الثالث أن يكون الأصل : بيّن لكم ذلك لئلا تشركوا ، وذلك لأنهم إذا حرم عليهم رؤساؤهم ما أحله اللّه سبحانه تعالى فأطاعوهم أشركوا ، لأنهم جعلوا غير اللّه بمنزلته .

والرابع أن الأصل : أوصيكم بأن لا تشركوا ، بدليل أن وبالوالدين إحسانا ، معناه

وأوصيكم بالوالدين ، وإن في آخر الآية " ذلكم وصّاكم به " ، وعلى هذين الوجهين فحذفت الجملة وحرف الجر . والخامس أن التقدير : " أتل عليكم أن لا تشركوا " ، مدلولا عليه بما تقدم . وأجاز هذه الأوجه الثلاثة الزجاج . والسادس أن الكلام تم عند " حرم ربكم " ثم ابتدئ " عليكم أن لا تشركوا وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا وأن لا تقتلوا ولا تقربوا " ، فعليكم على هذا اسم فعل بمعنى الزموا ، و" أن " في الأوجه الستة مصدرية ، و" لا " في الأوجه الأربعة الأخيرة نافية . والسابع أنّ " أن " مفسرة بمعنى أي ، ولا ناهية ، والفعل مجزوم لا منصوب ، وكأنه قيل : أقول لكم لا تشركوا به شيئا وأحسنوا بالوالدين إحسانا . وهذان الوجهان أجازهما ابن الشجري " . وقال ابن هشام في موضع آخر من المغني :

" وأما قول بعضهم في : " قل تعالوا أتل ما حرم عليكم ربكم أن لا تشركوا به شيئا " إن الوقف قبل " عليكم " ، وإن " عليكم " إغراء ، فحسن ، ويتخلص من إشكال ظاهر في الآية محوج للتأويل " .

وإنما أطلنا في الاقتباس لأن الآية كثر فيها الخوض ، فتدبر والله يعصمك .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 152 إلى 153]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

اللغة :

(الأشد) : يقال : بلغ فلان أشدّه : أي قوّته ، بمعنى الإدراك والبلوغ. وهو ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين من العمر ، وهو جمع لا واحد له . أو واحد جاء على بناء الجمع ، هذا ما يتلخص من القاموس .

وقال غيره : " والأشدّ قيل : هو اسم مفرد لفظا ومعنى . وقيل : هو اسم جمع . وعلى هذا فمفرده : شدّة ، كنعمة ، أو شدّ ككلب ، أو شدّ كضر ، أقوال ثلاثة في مفرده " ويمكن أن يقال فيه : هو استحكام قوة الشباب والسنّ حتى يتناهى في الشباب إلى حد الرجال .

(الْكَيْلَ)

هي الآلة التي يكال فيها ، وأصله مصدر أطلق على الآلة .

(الْمِيزانَ)

في الأصل : مفعال ، من الوزن ، وقد تقدم إعلاله في :

ميقات ، بالبقرة ، من الوزن ، فأصله مصدر نقل إلى الآلة . ومثله المصباح والمقياس ، لما يستصبح به ويقاس .

الاعراب :

(وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)

(511/259)

الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، ومال اليتيم مفعوله ، وإلا أداة حصر ، وبالتي اسم الموصول نعت لمصدر محذوف ، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا . أي : إلا بالخصلة التي هي أحسن . وهي مبتدأ ، وأحسن خبره ، والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وأتى بصيغة اسم التفضيل تنبيها على أن يتحرى في ذلك غاية التحرّي ويفعل الأحسن . وحتى حرف غاية وجر ، ويبلغ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا ، وأشده مفعول به (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ)

الجملة معطوفة وأوفوا الكيل فعل وفاعل ومفعول به والميزان مفعول به معطوف على الكيل ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل أوفوا ، أي : مقسطين عادلين ، ويجوز

أن يكون حالا من المفعول به ، أي : تامّين (لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها)

الجملة معترضة بين المتعاطفين لا محل لها ، للتنبيه على أن أمر الكيل والميزان ومراعاة العدل فيهما يتطلب دقة ومغالبة للهوى . ولا نافية ، ونكلف فعل مضارع مرفوع ، ونفسا مفعول به ، وإلا أداة حصر ، ووسعها مفعول به ثان ، كأنه قيل : اعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم

(وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)

الواو عاطفة ، وإذا شرطية ظرفية ، وجملة قلتم في محل جر بالإضافة ، والفاء رابطة ، واعدلوا فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو حالية ، ولو شرطية غير جازمة ، وكان فعل ماض ناقص ، واسمها ضمير مستتر ، وذا قربى خبرها ، وبعهد اللّه جار ومجرور متعلقان بأوفوا ، وأوفوا فعل أمر

مبني على حذف النون (ذِلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(512/259)

تقدم إعراب نظيرها (وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ) عطف على ما تقدم ، وأن واسمها ، وصراطي خبرها ، ومستقيما حال مؤكدة من صراطي ، والعامل فيها معنى الإشارة ، والفاء الفصيحة ، واتبعوه فعل أمر وفاعل ومفعوله ، والجملة لا محل لها ، والمعنى

إذا أردتم الفوز والنجاة من مهاوي البدع ومساقط الضلالات . واتبعوه فعل أمر وفاعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها (وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتتبعوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، والسبل مفعول به ، فتفرّق الفاء السببية ، وتفرق أصله تتفرق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء في جواب النهي ، وبكم جار ومجرور متعلقان بتفرق ، وعن سبيله جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : متنائية عن سبيله . (ذِلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) تقدم إعرابها .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 154 إلى 157]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157)

اللّغة :

)

دِراسَتِهِمْ) : مصدر درس العلم ، من باب قتل ، ودرسا أيضا ، وهذا المعنى هو المراد هنا . ولهذه المادة معان عجيبة ، يقال : درس الحنطة دراسا : داسها . ودرس الناقة راضها وأذلها . ورجل مدرّس ودرس الكتاب للحفظ كرّر قراءته ، درسا ودراسة . ودرس المرأة نكحها . ودرست المرأة حاضت . ودرس الثوب : أخلق ، فهو درس ودريس . وبسط دريسا أي : ثوبا وبساطا خلقا . وقتل رجل في مجلس النعمان بن المنذر رجلا فأمر بقتله ، فقال الرجل : أيقتل الملك جاره ؟ ويضيع ذماره ؟ قال : نعم إذا قتل جليسه ، وخضب دريسه .

أي : بساطه . وطريق مدروس : كثر مشي الناس فيه حتى ذلّلوه .

وربع دارس ومدروس . فأنت ترى أنها تشير إلى معنى الرياضة والتذليل والتعبيد بجميع معانيها ، وهذا من الدقة بمكان .

(صَدَفَ) : أعرض ، ويستعمل لازما في الأكثر ، وقد استعمل هنا لازما . وفي القاموس : صدف عنه : أعرض ، وبابه ضرب أو جلس ، وصدف فلانا : صرفه كأصدفه ، ومن هنا يتبين الخطأ في استعمال صدفة بمعنى المصادفة .

الاعراب :

)

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ) الأصل في ثم أن تكون للترتيب مع المهلة والتراخي في الزمان ، ومن ثم توقف المفسرون والنحاة في حقيقة العطف بها هنا ، ولم أجد فيما قالوه مقنعا ، وسأنقل ما قالوه أولا ثم أشير إلى ما هو أولى بالأرجحية . فقال بعضهم : إن " ثمّ " تأتي للترتيب في الإخبار ، كأن هذا القائل أراد تفادي سبق موسى عليه السلام في الزمان . وزعم الأخفش : أن " ثم " قد تتخلف عن التراخي ، بدليل قولك : أعجبني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب . لأن " ثم " في ذلك لترتيب الإخبار ولا تراخي بين الإخبارين . وجعل ابن مالك من ذلك قوله تعالى : " ثم آتينا موسى الكتاب " وقال في المغني : " والظاهر أن " ثمّ " واقعة موقع الفاء " وقد نصّ النحاة على أن " ثم " توضع موضع الفاء كقول أبي دواد جارية بن الحجاج :

كهزّ الرّدينيّ تحت العجاج جرى في الأنابيب ثم اضطرب

وقال الزّجّاج : هو معطوف على " أتل " ، تقديره . أتل ما حرّم ثم أتل ما آتينا .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : علام عطف قوله : " ثم آتينا موسى الكتاب " ؟ قلت : على " وصّاكم به " . فإن قلت : كيف صحّ عطفه عليه ب " ثم " والإيتاء قبل التوصية

بزمن طويل ؟ قلت : هذه التوصية قديمة ، ولم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم ، فكأنه قيل :

ذلكم وصّيناكم به يا بني آدم قديما وحديثا ، ثم أعظم من ذلك أنّا آتينا موسى الكتاب . ولعل هذا أقرب ما يقال فيه . وآتينا موسى الكتاب فعل وفاعل ومفعولاه ، وتماما مفعول لأجله ، أي : لأجل تمام النعمة والكرامة ، ويجوز أن يكون مصدرا نصب على المفعولية المطلقة ، لأنه بمعنى آتيناه إيتاء تمام لا نقصان ، أو مصدرا نصب على الحالية من فاعل آتينا ، أي : متممين ، أو من الكتاب ، أي : حال كونه ماما .

(515/259)

وعلى الذي جار ومجرور متعلقان ب " تماما " ، أي : على من أحسن القيام به ، وجملة أحسن صلة لا محل لها ، وتفصيلا عطف على " تماما " ، ولكل شيء جار ومجرور متعلقان ب " تفصيلا " (وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) هدى ورحمة معطوفان على تماما وتفصيلا ، ولعل واسمها ، وجملة الرجاء حالية ، وبلقاء ربهم جار ومجرور متعلقان بيؤمنون ، وجملة يؤمنون خبر لعل (وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعظيم شأن القرآن ، وهذا مبتدأ ،

وكتاب خبره ، وجملة أنزلناه صفة أولى ، ومبارك صفة ثانية ، فاتبعوه الفاء الفصيحة ، أي : إذا أردتم أن تنتفعوا ببركته ، فهي لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، واتبعوه فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، واتقوا عطف على فاتبعوه ، وجملة الرجاء حالية (أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا) أن وما في حيزها في تأويل مصدر مفعول لأجله ، على حذف مضاف ، أي : كراهية أن تقولوا ، وإنما كافة ومكفوفة ، وأنزل فعل ماض مبني للمجهول ، والكتاب نائب فاعل ، وعلى طائفتين جار ومجرور متعلقان بأنزل ، والمراد بهما اليهود والنصارى ، والجملة في محل نصب مقول القول ، ومن قبلنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لطائفتين (وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ) الواو حالية ، وإن مخففة من الثقيلة ، وهي مهملة ، وقد تقدم بحثها ، وكان واسمها ، وعن يحة ، لأنها جواب محذوف معلل به ، أي : لا تعتذروا فقد فاتتكم أسباب العذر .

(516/259)

فقد جاءكم : قد حرف تحقيق ، وجاءكم فعل ومفعول به مقدم وبينة فاعل ، ويجوز أن يكون المحذوف شرطا ، أي : إذا صدقتم فيما تمنون به أنفسكم من وعود مزيفة وأحلام طائشة ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبينة أو بجاءكم ، وهدى

ورحمة معطوفان على بينة ، وكلا الوجهين جميل سائغ (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها) الفاء عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن نزول القرآن- مشتملا على جميع عوامل الهدى والرحمة- يقتضي أن يكون من يكذب به ويشيح بوجهه عنه أظلم الناس . ومن استفهامية متضمنة معنى النفي ، أي : لا أحد ، وهي في محل رفع مبتدأ ، وأظلم خبر ، وممن جار ومجرور متعلقان بأظلم ، وجملة كذب صلة الموصول ، وبآيات اللّه جار ومجرور متعلقان بكذّب ، وصدف عنها عطف على كذب (سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الجزاء المترتب على هذا الموقف المتعنت ، ونجزي فعل مضارع ، وفاعله مستتر ، والذين مفعوله ، وجملة يصدفون صلة الموصول ، وسوء العذاب منصوب على أنه مفعول به ثان لنجزي ، أو منصوب بنزع الخافض ، وإضافة السوء إلى العذاب من إضافة الصفة

للموصوف ، أي : العذاب السيّء (بِما كانُوا يَصْدِفُونَ) الباء حرف جر ، وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بنجزي ، وكان واسمها ، وجملة يصدفون خبرها ، أي : بسبب صدوفهم وإعراضهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 158]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا

مُنْتَظِرُونَ (158)

الإعراب :

(517/259)

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ) الجملة مستأنفة مسوقة لاستبعاد تأتّي الإيمان منهم ، وهل حرف استفهام متضمن معنى النفي ، لأنهم كانوا بمثابة المنتظرين لذلك ، وينظرون فعل مضارع مرفوع ، والواو فاعل ، وإلا أداة حصر ، وأن تأتيهم الملائكة مصدر مؤول مستثنى مفرّغ ، فهو في محل نصب مفعول به ، وأو حرف عطف ، ويأتي ربك عطف على تأتيهم الملائكة ، وأو يأتي بعض آيات ربك عطف أيضا ، والمعنى أنهم ينتظرون أن يأتي كل آيات ربك أو بعضها لتنبئهم بالساعة (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً)

الظرف متعلق بقوله لا ينفع ، وجملة يأتي بعض آيات ربك في محل جر بالإضافة ، ولا نافية ، وينفع نفسا إيمانها فعل ومفعول به وفاعل ، وجملة لم تكن آمنت صفة ل " نفسا " ، وجاز الفصل بين الموصوف وصفته لأن الفاعل ليس بأجنبي ، والجملة يجوز أن تكون مستأنفة أو حالية ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وجملة آمنت خبر تكن ، وأو

حرف عطف ، وكسبت عطف على آمنت ، وخيرا مفعول به (قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

الجملة مستأنفة ، مسوقة لتهديدهم .

وجملة انتظروا في محل نصب مقول القول ، والأمر هنا للوعيد ، وحذف المفعول به المنتظر لزيادة التخويف والترويع ، كأن أكبر من أن يدخل في حدود الحدس والتخمين ، والنفس أرهب من المجهول . وإنا منتظرون إن واسمها وخبرها ، والجملة مستأنفة أيضا ، مسوقة لمقابلة ، انتظارهم بمثله .

البلاغة :

(518/259)

في الآية لفّ ، وقد تقدم الحديث عن اللف والنشر . وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا لم تكن مؤمنة من قبل إيمانها بعد ولا نفسا لم تكسب في إيمانها خيرا قبل ما تكسبه من الخير بعد . إلا أنه لف الكلامين فجعلها كلاما واحدا إيثارا للبلاغة والإعجاز ، ولم يعقب عليه بالنشر لأن المآل واحد ، وهو معروف لكليهما .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 159 إلى 161]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما

كانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (160) قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161)

الإعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) كلام مستأنف مسوق للحث على الوحدة التي أمر اللّه بها ، والنهي عن التفرقة .

(519/259)

وإن واسمها ، وجملة فرقوا صلة الموصول ، ودينهم مفعول به ، وجملة وكانوا عطف على جملة الصلة ، وشيعا خبر كانوا ، وجملة لست خبر إن ، وليس واسمها ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لتمام الفائدة به ، وفي شيء جار ومجرور متعلقان بالاستقرار الذي تعلق به منهم ، أي : لست مستقرا منهم في شيء ، ويجوز أن يكون في شيء هو الخبر ومنهم حال مقدمة عليه (إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ) كلام مستأنف مسوق للدلالة على أن مردّ الأمور إلى اللّه تعالى . وإنما كافة ومكفوفة ، وأمرهم مبتدأ ، والى اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، وثم حرف عطف ، وينبئهم فعل

مضارع ، والهاء مفعوله ، وبما الجار والمجرور في موضع نصب على أنه المفعول الثاني ، وجملة كانوا صلة " ما " ، وجملة يفعلون خبر كانوا (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها)

كلام مستأنف مسوق لبيان أجر العاملين ، والتقيد بالعشرة لأنه أقل مراتب التضعيف ، وإلا فالجزاء لا يحصى .

(520/259)

و من اسم شرط جازم مبتدأ ، وجاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، وبالحسنة جار ومجرور متعلقان بجاء ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وعشر مبتدأ مؤخر ، وأمثالها مضاف إليه . ويلاحظ أن " عشر " لم تراع فيها القاعدة وهي معاكسة المعدود إذا أفردت ، وسنتكلم عن ذلك في باب الفوائد (وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها) عطف على ما تقدم ، وإلا أداة حصر ، ومثلها مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض (وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) الواو حرف عطف ، وهم مبتدأ ، ولا نافية ، ويظلمون فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، والجملة خبر " هم " (قُلْ : إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الجملة مستأنفة لتكرير ما يجب فعله وقوله . وإن واسمها

، وجملة هداني خبرها ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول ، وإلى صراط جار ومجرور متعلقان بهداني على أنه مفعول به ثان (دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) دينا نصب على البدل من محل " إلى صراط " ، لأن معناه : هداني صراطا ، وهدى كما قلنا سابقا يتعدى تارة ب " إلى " كما هنا وتارة بنفسه كما في قوله . " ويهديكم صراطا مستقيما " ويجوز أن يكون نصبا على المصدرية ، أي : هداني هداية دين قيم . ولا أدري كيف ساغ أبو البقاء أن يعرب " دينا " مفعولا ثانيا ، مع أن المفعول الثاني هو " إلى صراط " ، وقيما صفة ، أي : مستقيما . وملة إبراهيم بدل من دينا ، وحنيفا حال من إبراهيم ، وما الواو عاطفة ، وما نافية ، وكان واسمها المستتر ، ومن المشركين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، والجملة معطوفة على الحال ، فهي حال بعد حال .

الفوائد :

تذكير العدد وتأنيثه :

إنما ذكّر العدد والمعدود مذكّر لأوجه :

1- إن الإضافة لها تأثير كما تقدم ، فاكتسب المذكر من المؤنث التأنيث ، فأعطي حكم المؤنث في سقوط التاء من عدده ، ولذلك يؤنث فعله في حال إضافته ، نحو : " يلتقطه بعض السيارة " وقال قيس :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

2- إن هذا المذكر عبارة عن مؤنث ، فروعي المراد منه دون اللفظ ، فالمعتبر في التذكير والتأنيث حال الموصوف المنوي لا حالها ، والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ، ثم حذف الموصوف ، وأقيمت صفته مقامه ، وترك العدد على حاله .

3- انه اقترن باللفظ ما يعضد المعنى المراد وهو التأنيث ، وعلى هذا يحمل قول عمر بن أبي ربيعة :

فكان مجني دون من كنت أتّقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

وكان القياس فيه : ثلاثة شخوص ، ولكنه كنّى بالشخوص عن النساء . والذي سهل ذلك قوله : كاعبان ومعصر ، أي : هن كاعبان ومعصر .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 162 إلى 165]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ (164) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

اللغة :

(النسك) : بتثليث النون وسكون السين ، وبضم النون والسين ، ومثله النّسوك والنّسكة والمنسكة : التزهّد والتّعبّد والتقشف . والناسك : العابد المتزهّد ، ويجمع على نسّاك ، قال أبو العلاء :

(522/259)

صم ثمّ صلّ وطف بمكّة زائرا سبعين لا سبعا فلست بناسك

جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعه لم يلف بالمتماسك

(خَلائِفَ الْأَرْضِ) الإضافة على معنى " في " والخلائف جمع خليفة ، كصحيفة وصحائف ، فهو من باب قوله :

والمدّ زيد ثالثا في الواحد همزا يرى في مثل كالقلائد

وقد تقدم ذكر الخليفة في البقرة .

الاعراب :

(قُلْ : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) استئناف مسوق لتأكيد القيام بالشرائع الأصولية والفرعية . وجملة إن وما بعدها في محل نصب مقول القول ، وان واسمها ، ونسكي ومحياي ومماتي معطوفة ، وسيأتي حكم المنادى المضاف إلى ياء المتكلم في باب الفوائد ، ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، ورب صفة ، والعالمين مضاف إليه لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، وقد تقدم في الفاتحة (لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) لا النافية للجنس ، وشريك اسمها ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، والجملة حالية من رب العالمين أو صفة له ، والواو حرف عطف ، وبذلك جار ومجرور متعلقان بأمرت ، وأنا الواو عاطفة أيضا ، وأنا مبتدأ ،

(523/259)

و أول المسلمين خبره (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا) الجملة مستأنفة مسوقة لتكون بدا على دعوة هؤلاء الكفار عند ما قالوا له : ارجع إلى ديننا وعبادة آلهتنا . والهمزة للاستفهام المتضمن معنى النفي ، أي : لا أطلب ربا غيره ، وغير الله مفعول به مقدم ، وربا تمييز ، ويجوز إعرابه حالا (وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) الواو للحال ، وهو مبتدأ ، ورب كل شيء خبره ، والجملة نصب على الحال (وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها) الواو عاطفة ، ولا نافية ، وتكسب كل

نفس فعل وفاعل ومضاف إليه ، وإلا أداة حصر ، وعليها جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : إلا حالة كون ذنبها مستعليا عليها بما يضرها ولا ينفعها (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) الواو عاطفة أيضا ، ولا نافية أيضا ، وتزر وازرة فعل مضارع وفاعل ، وزر مفعول به ، وأخرى مضاف إليه (ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) ثم حرف عطف ، وإلى ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومرجعكم مبتدأ مؤخر ، والفاء حرف عطف ، وينبئكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ، والباء حرف جر للسببية ، وما اسم موصول في محل جر بالباء ، والجار والمجرور في موضع المفعول الثاني ، وجملة كنتم صلة الموصول ، وكان واسمها ، وفيه جار ومجرور متعلقان بتختلفون ، وجملة تختلفون خبر كنتم (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ) الواو عاطفة ، وهو مبتدأ ، والذي خبره ، وجملة جعلكم صلة ، وخلائف الأرض مفعول به ثان لجعلكم (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ) الواو عاطفة ، ورفع فعل ماض ، وبعضكم مفعول به ، وفوق بعض ظرف مكان متعلق برفع ، ودرجات ظرف ، وقد تقدم إعرابها والقول فيها (لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) اللام للتعليل ، ويبلوكم فعل مضارع

(524/259)

منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان برفع ،

وفيما جار ومجرور متعلقان بيبلوكم ، وجملة آتاكم لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وإن

واسمها ، وسريع العقاب خبرها ، والجملة مستأنفة للتعليل ، وإنه لغفور رحيم عطف على

ما تقدم ، وقد تقدم إعراب ذلك كثيرا .

البلاغة :

الكناية في قوله : " ورفع بعضكم فوق بعض درجات " عن الشرف والفضل ، وهذا

التفاوت ليس ناشئا عن عجز عن المساواة بينهم ولكن للابتلاء والامتحان .

الفوائد :

المضاف إلى ياء المتكلم :

يجب كسر آخر المضاف إلى ياء المتكلم لمناسبة الياء ويجوز فتح الياء وإسكانها ،

ويستثنى من ذلك المقصور والمنقوص والمثنى وجمع المذكر السالم ، فهذه الأربعة آخرها

واجب السكون والياء معها واجبة الفتح ، قال في الخلاصة :

آخر ما يضاف للياء اكسر إذا لم يك معتلا كرام وقذى

أو يك كابنين وزيدين ففي جميعها اليا بعد فتحها احتذي

وندر إسكانها بعد الألف .

حملة على أبي العلاء المعري :

وقد قرأ نافع : محياي ومماتي ، في الوصل بسكون ياء " محياي "كما ندر كسرها بعد الألف ، وقد قرأ الأعمش والحسن البصري : " هي عصاي " بكسر الياء ، على أصل التقاء الساكنين ، والكسر مطرد في لغة بني يربوع في الياء المضاف إليها جمع المذكر السالم ، وعليه قراءة حمزة والأعمش : " وما أنتم بمصرخيّ " بكسر الياء ، وبذلك سقط ما قاله المعري في رسالته : " أجمع أصحاب العربية على كراهة قراءة حمزة " . وقد رد عليه ابن هشام فقال : " والمعري له قصد في الطعن على الإسلام ، ولعل الذين كسروا لغتهم على إسكان ياء الإضافة فالتقى معهم ساكنان " . وقال المرادي في شرح التسهيل : " إن المعري لم ينفرد بما قاله في رسالته ، فما قاله ابن هشام تحامل عليه وإن كان قد رمي بالإلحاد " .

بين أبي العلاء والنحاة :

(525/259)

ونرى من المفيد أن نعرض لهذه الخصومة التي اشتجرت بين أبي العلاء والنحاة ، فأبو العلاء كان نحويا ولكنه لم يرد أن يكون نحويا . وكان إماما من أئمة النحو ، ولكن أسلوب النحو لم يرضه ، فنقدهم نقدا مرا ، وتهكم بإمامهم سيبويه ، وتعرّض له بالنقد والتخطئة في مواضع من رسائله ، مما لا يتسع له المجال في كتابنا ، فاكتفينا بالإشارة . وسيأتي في هذا الكتاب

المزيد من هذه الخصومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 3 صـ 200 .

292 ﴾

(526/259)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/260)

(سورة الأعراف)

(4/260)

الجزء الستون بعد المائتين

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأعراف)

(5/260)

فصل

قال القرطبى :

سورة الأعراف هي مكية ، إلا ثمان آيات ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾

[الأعراف : 163] إلى قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ [الأعراف : 171] . وروى النسائي عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف ، فرّقها في ركعتين . صححه أبو محمد عبد الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

سورة الأعراف

نزلت بمكة روى ذلك عن ابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة وروى عن ابن عباس أيضاً أنها مكية إلا خمس آيات أولها واسألهم عن القرية التي كانت وبه قال قتادة وقال مقاتل ثمان آيات في سورة الأعراف مدنية أولها واسألهم عن القرية إلى قوله وإذ أخذ ربك من بني آدم وهي مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشرة ألف حرف عشرة أحرف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال السيوطى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة سورة الأعراف أخرج ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : سورة الأعراف نزلت بمكة

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزل بمكة الأعراف

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : آية من الأعراف مدنية وهي واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إلى آخر الآية وسائرها مكية

وأخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بطولي الطولين (المص)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أبي أيوب وزيد بن ثابت " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعا "

وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب فقرأها في ركعتين " انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(6/260)

وقال الآلوسى :

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أخرج أبو الشيخ وابن حبان عن قتادة قال : هي مكية إلا آية وأسألهم عن القرية وقال غيره

: إن هذه إلا وإذ أخذ ربك مدني : وأخرج غير واحد عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية ولم يستثنيا شيئا وهي مائتان وخمس آيات في البصري والشامي وست في المدني والكوفي فالمص وبدأكم تعودون كوفي ومخلصين له الدين بصري وشامي وضعفا في النار والحسنى على بني إسرائيل مدني وكلها محكم وقيل : إلا موضعين الأول وأملي لهم فانه نسخ بآية السيف والثاني خذ العفو فانه نسخ بها أيضا عند ابن زيد وادعى أيضا أن وأعرض عن الجاهلين كذلك وفيما ذكر نظر وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الأعراف

مقصودها إنذار من أعراض عما إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد والاجتماع على الخير والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام ، وتحذيره بقوارع الدرارين ، وهذا أحسن مما كان ظهر لي وذكرته عند (والوزن يومئذ الحق) وأدل ما فيها على هذا المقصد أمر الأعراف فإن اعتقاده يتضمن الإشراف على الجنة والنار والوقوف على حقيقة ما فيها وما أعد لأهلها الداعي إلى امتثال كل خير واجتناب كل شر والاتعاظ بكل مرقق) بسم الله (المتردي برداء الكبر وإزار العظمة والجلال) الرحمن (الذي من رحمته

انتقامه من أهل الكفر والضلال) الرحيم (الهادي لأهل الاصطفاء إلى لزوم طريق الوفاء) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 3 ﴾

(7/260)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . المص)

هذه السّورة نزلت بمكة إجماعاً .

وعدد آياتها مائتان وستُّ آيات فى عدّ قرّاءِ كوفة والحجاز ، وخمس فى عدّ الشّام والبصرة .

وكلماتها ثلاثة آلاف وخمس وعشرون كلمة .

وحروفها أَربعة عشر أَلفا وثلاثمائة وعشرة أَحرف .

والآيات المختَلف فيها خمس : المص ﴿ بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ على بنى إِسراءِيل .

مجموع فواصل آياته (م ن د ل) على الدّال منها آية واحدة : ألمص ، وعلى اللَّام واحدة :

آخرها إِسرائيل .

ولهذه السّورة ثلاثة أَسماء : سورة الأَعراف ، لاشتمالها على ذكر الأَعراف فى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ ﴾ وهى سُور بين الجنّة والنَّار .

الثَّانى سورة الميقات ؛ لاشتمالها على ذكر ميقات موسى فى قوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ .

الثالث سورة الميثاق ؛ لاشتمالها على حديث الميثاق فى قوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى ﴾ وأشهرها الأَعراف .

(8/260)

مقصود السّورة على سبيل الإِجمال : تسليةُ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فى تكذيب الكفَّار إِيَّاه (و) ذكر وزن الأَعمال يوم القيامة ، وذكر خَلْق آدم ، وإِباءُ إِبليس من السّجدة لآدم ، ووسوسته لهما لأَكل الشّجرة ، وتحذير بنى آدمَ من قبول وسوسته ، والأَمر باتّخاذِ الزِّينة ، وستر العورة فى وقت الصّلاة ، والرّد على المكذِّبين ، وتحريم الفواحش ظاهراً وباطناً ، وبيان مَذلَّة الكُفَّار فى النَّار ، ومناظرة بعضهم بعضاً ، ويأسهم من دخول الجنَّة ، وذكر المنادِى بين الجنَّة والنَّار ، ونداء أَصحاب الأَعراف لِكلا الفريقين وتمنّيهم الرّجوع إِلى

الدّنيا ، وحُجّة التوحيد ، والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته ، وقصة نوح والطُّوفان ، وذكر هود وهلاك عاد ، وحديث صالح وقهر ثمود ، وخبر لوط وقومه ، وخبر شُعَيْب وأَهل مَدْيَن ، وتخويف الآمنين من مكر الله ، وتفصيل أَحوال موسى (وفرعون والسّحرة ، واستغاثة بنى إِسرائيل ، وذكر الآيات المفصَّلات ، وحديث خلافة هارون ، وميقات موسى) ، وقصّة عِجْل السّامِرىّ فى غَيْبَةِ موسى و(رجوع موسى) إِلى قومه ، ومخاطبته لأَخيه هارون ، وذكر النبى الأُمِّىّ العربىّ صلى الله عليه وسلم ، والإِشارة إِلى ذكر الأَسباط ، وقصّة أَصحاب السّبْت ، وأَهْل أَيْلة ، وذم علماءِ أَهل الكتاب ، وحديث الميثاق ومعاهدة الله تعالى الذَّرية وطرد بَلْعام بسبب ميله إِلى الدنيا ، [و] نصيب جهنَّم من الجنِّ والإِنس ، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة ، وإِخفاء علمه على العالمين ، وحديث صحبة آدم وحواء فى أَوّل الحال ، وذمّ الأَصنام وعُبّادها وأَمر الرّسول بمكارم الأَخلاق ، وأَمر الخلائق بالإِنصات والاستماع لقراءَة القرآن ، وخُطْبة الخطباءِ يوم الجمعة ، والإِخبار عن خضوع الملائكة فى الملكوت ، وانقيادهم بحضرة الجلال فى قوله : ﴿يُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 203. 205﴾

(9/260)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الأعراف

144 - مسألة :

ما سبب اختلاف الألفاظ وزيادة المعاني ونقصها في بعض

قصص آدم دون بعض ، وكذلك في غير ذلك من القصص

كقصة موسى مع فرعون ، ونوح وهود وصالح مع قومهم

وشبه ذلك ؟ .

جوابه :

أما اختلاف الألفاظ فلأن المقصود المعاني لأن الألفاظ الدالة

عليها

أولا : لم تكن باللسان العربي ، بل بألسنة المتخاطبين حالة وقوع ذلك المعنى ، فلما أديت تلك المعاني إلى هذه الأمة أديت بألفاظ عربية تدل على معانيها مع اختلاف الألفاظ واتحاد المعنى ، فلا فرق بين " أبى " أن يكون مع الساجدين وبين " لم يكن مع الساجدين " في دلالتها على معنى واحد وهو عدم السجود .

وكذلك لا فرق في المعنى بين "مالك لا تسجد " و" وما منعك أن تسجد " لأن اللام صلة

زائدة .

وأما زيادة المعاني ونقصها في بعض دون بعض فلأن المعاني

الواقعة في القصص فرقت في إيرادها ، فيذكر بعضها في مكان وبعض آخر في مكان آخر ،

ولذلك عدة فوائد ذكرتها في كتاب المقتص في تكرار القصص

145 – مسألة :

قوله تعالى : (أَنْظِرْنِي) .

وفى الحجر ، : (فَأَنْظِرْنِي) بالفاء ؟ .

جوابه :

أن آية الأعراف استئناف سؤال غير مسبب عما قبله ، فلا

. وجه للفاء وكذلك : (إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

خبر مستأنف غير مسبب عما قبله ، تقديره : إن أخرتني فأنظرني .

ولما جاء بفاء السببية هنا ، ناسب : (فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

بالفاء .

146 – مسألة :

قوله تعالى : (اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا) قدم اللهو على اللعب وفى العنكبوت وبقية المواضع

قدم اللعب على اللهو ؟ .

جوابه :

والله أعلم : أن اللهو عن الشر تركه وإهماله والإعراض عنه ونسيانه .

واللعب : معروف ، وهو فعل مقصود لفاعله .

فلما جاء في الأعراف بعد قوله : (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) وهو ذم لهم بالإعراض عن اتباع الحق وإهماله ، ولذلك قال

(10/260)

بعده : (كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَ) .

وكذلك آية العنكبوت ، جاءت بعد قوله : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) الآيتين دل بهما على إعراضهم

عن الحق واتباعه مع علمهم به . وأما في المواضع الأخر ، فجاء في سياق ذم الدنيا والاشتغال عن الله تعالى بلعبها ولهوها وزينتها .

147 - مسألة :

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا) بلفظ المستقبل ، وكذلك في الروم .

وفى الفرقان وفي فاطر : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ) بلفظ الماضي ؟ .

جوابه :

لما تقدم : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) ناسب ، ((وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ) ، وأيضا تقدم قوله : (ادْعُوا رَبَّكُمْ) فناسب

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ) لأن الدعاء إنما يكون لما يأتي ،

وكذلك في الروم ، لما تقدم قوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ) ناسب بعده : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ) .

أما الفرقان : فلما تقدم ذلك أفعال ماضية وهو قوله تعالى :

(مَدَّ الظِّلَّ) و (جعله) (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ) (جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ) (وَجَعَلَ النَّهَارَ) ناسب ذلك :

(((وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ) .

وأما آية فاطر : فإنه تقدم قوله تعالى : (اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) وهو المطر ، وإنما يذكر بشكر النعم الماضية على زمن الشكر ، فناسب (أَرْسَلَ) ماضيا .

148 – مسألة :

قوله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا) بغير واو .

وفى هود : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا) ؟ .

جوابه :

أن هنا لم يتقدمه دعوى نبوة ورد قوم مدعى ذلك عليه ، فهو كلام مبتدأ . وفى هود

والمؤمنين : تقدم ما يشعر بذلك

وهو قوله تعالى : (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى) الآية ،

فحسن العطف عليه بالواو ، وتسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم -

(11/260)

وتخويفا لقومه بقوله تعالى : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ) ، (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) الآيات .

وأما المؤمنين : فلتقدم ذكر نعمه على المكلفين بحملهم على

الفلك الذي كان سببا لوجودهم ونسلهم ، فعطفت عليه بالواو

وبقوله : (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) فلأنه تقدم

قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) فناسب

العطف عليه بقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا) الآية .

149 - مسألة :

قوله تعالى : (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ) في نوح ، وقال

بعده في قصة هود : (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) ؟ .

جوابه :

أن نوحا لم يؤمن أحد من أشراف قومه ، وهود آمن بعض

أشراف قومه ، فلذلك قال : (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)

150 – مسألة :

قوله تعالى : (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ) .

وقال في قصة هود : (وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68)) ؟ .

جوابه :

أن "الضلال" فعل يتحدد بترك الصواب إلى ضده ويمكن

تركه في الحال ، فقابله بفعل يناسبه في المعنى فقال : (وَأَنْصَحُ) .

"والسفاهة" صفة لازمة لصاحبها فقابلها بصفة في المعنى

فقال : ((وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ) .

151 – مسألة :

قوله تعالى : (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ) فأفرد

وفى هود : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ) . فجمع ؟ .

جوابه :

أن المراد بالرجفة الزلزلة العظيمة ، فصح الإفراد لأن المراد

بدارهم : بلدهم المزلزل ، والمراد بالصيحة : صيحة من السماء ،

والمراد بديارهم : منازلهم

152 - مسألة :

قوله تعالى في قصة نوح وشعيب : (أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي) .

وقال في هود وصالح : (رِسَالَةَ رَبِّي) فأفرد ؟ .

جوابه :

أن قصة نوح وشعيب تضمنتا أنواعا من التبليغات ، وإن لم

يذكر هنا مع طول مدة نوح فجمع لذلك .

(12/260)

وقصة هود وصالح ليس كذلك فأفرد .

153 - مسألة :

قوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام : (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) وقال في الشعراء : (عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) ؟ .

جوابه :

قيل : أصحاب الأيكة غير مدين ، فلا يرد السؤال .

وقيل : هما واحد ، فجوابه أن الصيحة لما أصابتهم خرجوا

من ديارهم هاربين إلى الصحراء فأحرق جلودهم الحر فجاءت الظلة فهربوا إليها ، فصيح

فماتوا في ظلالهم .

154 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ) وفى العنكبوت : (إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ) و " إلا " للحصر فكيف الجمع بينهما ؟ .

جوابه :

لعل ذلك في مجالس ، ففي مجلس اختصر بذكر إتيان الفاحشة وإظهارها ، فناسب ذكر " إخراجه " كيلا يعيب عليهم ذلك .

وفى مجلس عدد ذنوبهم فناسب مطالبتهم " بإتيان العذاب " عليها ، فحصر الجواب في كل مجلس بما ذكر فيه وناسبه .

أو أن الجوابين من طائفتين ، فلم تجيبا إلا بما ذكر عنهما .

155 - مسألة :

قوله تعالى في قصة مدين : (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ)

وفي هود : (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ) .

جوابه :

قيل : إن ابتداء عذابهم كان زلزلة عظيمة ثم صيحة عظيمة قطعت أكبادهم فماتوا جميعا .

وقيل : لأن الزلزلة العظيمة لا تخلو عن صيحة .

156 - مسألة :

قوله تعالى : ، (فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105)) وفى طه : (فَأَرْسِلْ مَعَنَا) ؟ ،

جوابه :

أن المرسل هنا : موسى عليه السلام فقط ، فقال : (معى)

وفى طه : موسى وهارون عليهما السلام فقال : (معنا) .

157 - مسألة :

قوله تعالى : (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) وفى الشعراء : (مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ) .

جوابه :

أن آية الأعراف من كلام الملأ ، وآية الشعراء من كلام

فرعون . ولما كان هو أشدهم في رد أمر موسى صرح بأنه

"سحر" ، ويؤيده : (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ) قاصدا بذلك كله تنفير الناس عن متابعة موسى

عليه السلام .

158 - مسألة :

قوله تعالى : (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ) ؟ .

وفى الشعراء : (آمَنْتُمْ لَهُ)

جوابه :

أن الضمبير في (به) يرجع إلى رب العالمين أو إلى

موسى وفى (له) يجوز رجوعه إلى موسى ، أو إلى ما جاء

به من الآيات ، أي : لأجل ما جاء به من ذلك .

159 - مسألة :

قوله تعالى : (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) الآيات . تقدم في البقرة .

160 - بمسألة :

(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ) . تقدم في الأنعام

161 - مسألة :

قوله تعالى : (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101)) .

وفى يونس : (بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)) ؟ .

جوابه :

أما آية يونس عليه السلام فلتقدم قوله في قصة نوح عليه السلام : (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) ، فعدى : (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) بما عداه أولا .

ولم يتقدم في الأعراف " (التكذيب " متعديا بالباء ، كقوله تعالى : (وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ) فناسب كل موضع ما قبله .

وأما قوله : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ) ، وفى يونس (نَطْبَعُ) ، فلتناسب كل آية ما تقدمها ،

فالأعراف : تقدمها إظهار بعد إضمار في قوله : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا) ثم قال : (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ) فناسب ذلك : (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا) ، (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ) .

وأيضا : لما أكد أول الآية بالقسم ناسب ذلك تعظيم الطبع

بنسبته إلى اسم الله تعالى ، وناسب التصريح بوصفهم بالكفر

الذي معناه أقبح وأشد من معنى الاعتداء ، فناسب كل آية

ماختمت به .

162 - مسألة :

قوله تعالى : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ) .

وفى يونس : (نَطْبَعُ) بالنون .

جوابه :

أنه تقدم هنا : (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ) الآية ، فناسب التصريح

بقوله : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ) وفى يونس تقدم : " فنجينا " ،

ثم " بعثنا " و " جعلناهم " فناسب (نَطْبَعُ) بالنون .

163 - مسألة :

قوله تعالى : (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109)

وفى الشعراء : (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34)) . فظاهر آية الأعراف أن

الملأ قالوا ذلك ، وظاهر آية الشعراء أن

قائله فرعون .

جوابه :

أن كلا منهما قاله ، لكن لما تقدم في الشعراء ابتداء مخاطبة

فرعون لموسى بقوله : (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا)

الآيات ، ناسب ذلك حكاية قول فرعون للملأ ، لأنه المتكلم

بذلك أولا تنفيرا لقومه عن متابعته كما تقدم قبل هذا ، ولم

يأتى في الأعراف مثل ذلك فحكى قولهم له .

164 – مسألة :

قوله تعالى في الأعوام : (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111)) .

وفى الشعراء : (وابعث) .

كلاهما معلوم المراد ، فما فائدة اختلاف اللفظين ؟ وكذلك قوله تعالى هنا : (بِكُلِّ سَاحِرٍ)

وفى الشعراء (بِكُلِّ سَحَّارٍ) ؟ .

جوابه :

مع التفنن في الكلام ، أن (أَرْسِلْ) أكثر تفخيما من (ابعث) وأعلى رتبة لإشعاره بالفوقية .

ففي الأعراف حكى قول الملأ لفرعون ، فناسب خطابهم له بما هو أعظم رتبة ، تفخيما

له .

وفى الشعراء : صدر الكلام بأنه هو . القائل لهم ، فناسب تنازله

معهم ومشاورته لهم ، وقولهم (ابعث) .

وأما قوله تعالى هنا : (بِكُلِّ سَاحِرٍ) وفى الشعراء (بِكُلِّ سَحَّارٍ) فلتقدم قولهم : (بسحره)

فناسب صيغة المبالغة

ب (سَحَّارٍ)

165 - مسألة :

قولهم هنا ، وفى الشعراء : (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ

(122))

(15/260)

وفى طه : (آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) ؟ .

جوابه :

لما تقدم في الأعراف : (إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104))

وفى الشعراء : (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ناسب ذلك

(آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) . ثم خصصوا .

المراد بأنه رب موسى وهارون : الذي جاء برسالته لا غير .

وفى طه : لمراعاة رؤوس الآن اكتفى برب هارون وموسى ،

فلم يحتج إلى إعادة " رب " ثانياً .

166 – مسألة :

– قوله تعالى : (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) .

وفى الشعراء : (لَا ضَيْرَ) الآية بزيادة (لَا ضَيْرَ) .

جوابه :

لما كان الوعيد في الشعراء أشد ناسب مقابلتهم له بعدم التأثر به فى مقابلة ما يرجونه عند الله تعالى .

167 – مسألة :

جوابه :

قوله تعالى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) . وفى يونس : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) قدم النفع هنا ، وأخره في يونس ؟ .

أن آية الأعراف تقدمها ذكر الساعة ، فناسب في حقه تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة ، وأخر الضر الذي هو عقابها . وآية يونس تقدمها ذكر استعجال الكفار العذاب في قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) الآية ، فناسب تقديم الضر على النفع ، ولذلك قال تعالى بعده : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا) ، وكذلك كلما قدم فيه النفع والضر فلتقدم ما يناسب ذلك التقديم أو تأخيره وذلك ظاهر لمن ينظر فيه .

168 - مسألة :

قوله تعالى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) . وفى حم السجدة : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) ، بلام التعريف .

جوابه :

أن آية الأعراف نزلت أولا ، وآية السجدة نزلت ثانيا ، فحسن التعريف أي : هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الذي تقدم ذكره أولا عند نزوغ الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 189.173﴾

(16/260)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ هنا ، وفى ص ﴿ يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ وفى الحِجْر ﴿ قَالَ يا إِبْلِيسُ مَالَكَ ﴾ بزيادة ﴿ يا إِبْلِيسُ ﴾ فى السورتين ؛ لأَن خطابه قَرُب من ذكره فى هذه السّورة وهو قوله : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ فحسن حذف النّداءَ والمنادى ، ولم يقرب فى ص قربَه منه فى هذه السّورة ؛ لأَن فى ص ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بزيادة ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾ فزاد حرف النّداءِ والمنادى ، فقال : ﴿ يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ وكذلك فى الحِجْر فإنَّ فيها ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ بزيادة ﴿ أَبَى ﴾ فزاد حرف النّداء والمنادى فقال ﴿ يا إِبْلِيسُ مَالَكَ ﴾ .

قوله : ﴿ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ وفى ص ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ وفى الحِجْر ﴿ أَلاَّ تَكُونَ ﴾ فزاد فى هذه السّورة (لا) .

وللمفسّرين فى (لا) أَقوال : قال بعضهم : (لا) صِلَة كما فى قوله : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ .

وقال بعضهم : الممنوع من الشىء مضطّر إلى خلاف ما مُنِع منه .

وقال بعشهم :

معناه : مَنْ قال لك : لا تسجدْ .

وقد ذكر فى مطوّلات مبسوطة .

والذى يليق بهذا الموضع ذكرُ السبب الذى خَصَّ هذه السّورة بزيادة (لا) دون السّورتين .

قال تاج القرّاء : لمّا حُذِف منها (يا إبليس) واقتُصر على الخطاب جُمع بين لفظ المنع ولفظ (لا) زيادةً فى النفى ، وإعلاماً أَنَّ المخاطب به إبليس ؛ خلافاً للسّورتين ؛ فإنه صرّح فيهما باسمه .

وإن شئت قلت : جمع فى هذه السّورة بين ما فى ص والحِجْر ، فقال : ما منعك أَن تسجد ، مالك أَلاَّ تسجد ، وحذف (مالك) لدلالة (الحال ودلالة) السّورتين عليه ، فبقى : ما

منعك أَلاَّ تسجد .

وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ، وفى ص مثله .

(17/260)

وقال فى الحجر : ﴿ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ فجاءَ على لفظ آخر ، لأَنَّ السّؤال فى الأَعراف وص : ما منعك ، فلمّا اتّفق السّؤال اتَّفق الجواب ، وهو قوله : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ، ولمّا زاد فى الحجر لفظ الكون فى السّؤال وهو قوله ﴿ مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ زاد فى الجواب أَيضاً لفظ الكون فقال : ﴿ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ .

قوله : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وفى الحجر وفى ص ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ لأَنه سبحانه لمّا اقتصر فى السّؤال على الخطاب دون صريح الاسم فى هذه السّورة ، اقتصر فى الجواب أَيضاً على الخطاب ، دون ذكر المنادى .

وأَمَّا زيادة الفاء فى السّورتين دون هذه السّورة فلأَنَّ داعية الفاء ما تضمّنه النّداء من أَدْعو أَو أنادى ؛ نحو قوله : ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ أَى أَدعوك ، وكذلك داعية الواو فى قوله :

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا ﴾ فحذف المنادَى ، فلمّا حذفه انحذفت الفاء .

قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ هنا ، وفى السّورتين (فإنّك) ؛ لأَنَّ الجواب يبنى على السّؤال ، ولمّا خلا السّؤال فى هذه السّورة عن الفاءِ خلا الجواب عنه ، ولمّا ثبت الفاءُ فى السّؤال فى السّورتين ثبتت فى الجواب ، والجواب فى السّور الثلاث إجابة ، وليس باستجابة .

(18/260)

قوله : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ فى هذه السّورة وفى ص ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ ، وفى الحِجْر : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة موافق لما قبله فى الاقتصار على الخطاب دون النداءِ ، وما فى الحِجْر موافق لما قبله من مطابقة النّداءَ ، وزاد فى هذه السّورة الفاءَ التى هى للعطف ليكون الثانى مربوطاً بالأَوّل ، ولم يدخل فى الحجر ، فاكتفى بمطابقة النداءِ (لامتناع النداءِ) منه ؛ لأَنَّه ليس بالذى يستدعيه النداءُ ؛ فإن ذلك يقع مع السّؤال والطلب ، وهذا قسم عند أَكثرهم بدليل ما فى ص ، وخبرٌ عند بعضهم .

والَّذى فى ص على قياس ما فى الأَعراف دون الحِجْر ؛ لأَنَّ موافقتهما أَكثر على ما سبق ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ وهو قسم عند الجميع ، ومعنى ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ يئول إلى معنى ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ والله أَعلم .

وهذا الفصل فى هذه السّورة برهان لامع .

وسأَل الخطيبُ نفسَه عن هذه المسائل ، فأَجاب عنها ، وقال : إنَّ اقتصاص ما مضى إذا لم يُقصد به أَداءُ الأَلفاظ بعينها ، كان اتّفاقها واختلافها سواءً إذا أَدّى المعنى المقصود ، وهذا جواب حسن إن رضِيت به كُفِيت مُؤَنة السّهر إلى السّحر .

قوله : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ لس فى القرآن غيره ؛ لأَنَّه سبحانه لمّا بالغ فى الحكاية عنه بقوله : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ الآية بالغ فى ذمّه فقال : اخرج منها مذءُوماً مدحوراً ، والذَّأْم أَشدّ الذم .

قوله : (فكلا) سبق فى البقرة .

قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ بالفاءِ [حيث] وقع إلاَّ فى يونس ، فإِنَّه جملة عُطفت على جملة بينهما اتِّصال وتعقيب ، وكان الموضع لائقا بالفاءِ ، وما فى يونس يأتى فى موضعه .

(19/260)

قوله : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ ما فى هذه السّور جاءَ على القياس ، وتقديره : وهم كافرون بالآخرة ، فقدّم (بالآخرة) تصحيحاً لفواصل الآية ، وفى هود لمّا تقدّم ﴿ هؤلاء

الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ثمّ قال : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ولم يقل (عليهم) والقياس ذلك التبس أَنَّهم هم أَم غيرهم ، فكرّر وقال : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ليعلم أَنَّهم هم المذكورون لا غيرهم ، وليس (هم) هنا للتَّأْكيد كما زعم بعضهم ؛ لأَنَّ ذلك يزاد مع الأَلف واللاَّم ، ملفوظاً أَومقدّراً .

قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ هنا ، وفى الرّوم بلفظ المستقبل وفى الفرقان وفاطر بلفظ الماضى ، لأَنَّ ما قبلها فى هذه السّورة ذِكر الخوف والطَّمع ، وهو قوله : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وهما يكونان فى المستقبل لا غير ، فكان (يرسل) بلفظ المستقبل أَشبه بما قبله ، وفى الرّوم قبله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ فجاءَ بلفظ المستقبل ليوافق ما قبله .

وأَمَّا فى الفرقان فإِنَّ قبله ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ الآية (وبعد الآية) (وهو الَّذى جعل لكم [ومرج وخلق] وكان الماضى أَليق به .

وفى فاطر مبنىّ على أَوّل السّورة ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً ﴾ وهما بمعنى الماضى ، فبنى على ذلك (أَرسل) بلفظ الماضى ؛ ليكون الكلّ على مقتضَى اللَّفظ الَّذى خصّ به .

قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ هنا بغير واو ، وفى هود والمؤمنين (ولقد) بالواو ؛ لأَنَّه لم يتقدّم فى هذه السّورة ذكرُ رسول فيكونَ هذا عطفاً عليه ، بل هو استئناف كلام .

وفى هود تقدّم ذكرُ الرُّسُل مرّات ، وفى المؤمنين تقدّم ذكر نوح ضِمناً ؛ لقوله ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ ﴾ ؛ لأَنَّه أَوّل مَن صَنعَ الفلك ، فعطف فى السّورتين بالواو .

قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ ﴾ بالفاءِ هنا ، وكذا فى المؤمنين فى قصّة نوح ، وفى هود فى قصّة نوح ، ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ بغير فاء ، وفى هذه السّورة فى قصّة عاد بغير فاء ؛ لأَنَّ إِصبات الفاءِ هو الأَصل ، وتقديره أَرسلنا نوحاً فجاءَ فقال ، فكان فى هذه السّورة والمؤمنين على ما يوجبه اللَّفظ .

وأَمَّا فى هود فالتقدير : فقال إِنى فأَضمر ذلك قال ، فأَضمر معه الفاءَ .

وهذا كما قلنا فى قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴾ أَى فقال لهم : أَكفرتم ، فأَضمر القول والفاءَ معا , وأَمّا فى قصّة عاد فالتقدير : وأَرسلنا إِلى عاد أَخاهم هوداً فقال ، فأَضمر أَرسلنا ، وأَضمر الفاءَ ؛ لأَنَّ الفاء لفظ (أَرسلنا) .

قوله : ﴿ قَالَ الْمَلأُ ﴾ بغير واو فى قصّة نوح وهود فى هذه السّورة ، وفى هود والمؤمنين (فقال) بالفاء ، لأَن ما فى هذه السورة فى القصّتين لا يليق بالجواب وهو قولهم لنوح ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ظَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وقولهم لهود ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

بخلاف السّورتين ، فإنَّهم أَجابوا فيهما بما زعموا أَنَّه جواب .

قوله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ فى قصّة نوح وقال فى قِصّة هود ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِيْنٌ ﴾ لأَنَّ ما فى هذه الآية ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بلفظ المستقبل ، فعطف عليه ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ كما فى الآية الأُخرى ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فعطف الماضى (على الماضى) ، فكن فى قصّة هود قابل باسم الفاعل قولهم له ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِين ﴾ ليقابَل الاسم بالاسم .

(21/260)

قوله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ فى قصّة نوح وهود بلفظ المستقبل وفى قصّة صالح وشعيب ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ بلفظ الماضى ، لأَنَّ [ما] فى قصّة نوح وهود وقع فى ابتداءِ الرّسالة ، و[ما] فى قصّة صالح وشُعَيب وقع فى آخر الرّسالة ، ودُنوّ العذاب .

قوله : ﴿ رِسَالاَتُ رَبِّي ﴾ فى القِصَصِ

إلاَّ فى قصّة صالح ؛ فإنَّ فيها (رسالة) على الواحدة لأَنَّه سبحانه حَكَى عنهم بعد الإيمان بالله والتقوى أَشياءَ أُمِروا بها إلاَّ فى قصّة صالح ؛ فإنَّ فيها ذكر الناقة فقط ، فصار كأَنَّه رسالة واحدة .

وقوله : ﴿ برِسَالاَتِي وبِكَلاَمِي ﴾ مختلف فيهما .

قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ ﴾ وفى يونس ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ لأَنَّ أَنجينا ونجّينا للتَّعدّى ، لكنَّ التشديد يدلّ على الكثرة والمبالغة ، وكان فى يونس ﴿ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ ولفظ (من) يقع على أَكثر ممّا يقع عليه (الَّذين) لأَنَّ (مَن) يصلح للواحد والاثنين ، والجماعة ، والمذكر ، والمؤَنَّث ، بخلاف الذين فإِنَّه لجمع المذكر فحسب ، وكان التَّشديد مع (مَن) أَليق .

قوله : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وفى هود ، ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لأَنَّ فى هذه السّورة بالغ فى الوعظ ، فبالغ فى الوعيد ، فقال : ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وفى هود لمّا اتَّصل بقوله ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ وصفه بالقرب فقال : ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ وزاد فى الشعراءِ ذكر اليوم لأَنَّ قبله : ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ والتقدير : لها شرب يوم معلوم ، فختم الآية بذكر اليوم ، فقال : عذاب يوم عظيم .

(22/260)

قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ على الواحدة وقال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ حيث ذكرَ الرّجفة وَهى الزلزلة وَحّد الدّار ، وحيث ذكر الصّيحة جَمَعَ ؛ لأَنَّ الصّيحة كانت من السّماءِ ، فبلوغها أَكثر وأَبلغ من الزلزلة ، فاتَّصل كلٌّ واحد بما هو لائق به .

قوله : ﴿ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ وفى غيره ﴿ أَنْزَلَ ﴾ لأَنَّ أَفعل كما ذكرنا آنفاً للتعدّى ، وفَعَّل للتعدّى والتَّكثير ، فذكر فى الموضع الأَوّل بلفظ المبالغة ؛ ليجرى مجرى ذكر الجملة والتفصيل ، أَو ذكر الجنس والنّوع ، فيكون الأَوّل كالجنس ، وما سواه كالنّوع .

قوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾ فى هذه السّورة ، وفى غيرها ﴿ مِنَ الْجِبَالِ ﴾ لأَنَّ [ما] فى هذه السّورة تقدّمه ﴿ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ فاكتفى بذلك .

قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وفى غيرها ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لأَنَّ ما فى هذه وافق ما بعده وهو قوله ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ بالاستفهام ، وهو استفهام تقريعٍ وتوبيخ وإشنكار ، وقال بعده : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾ فزاد مع الاستفهام (إِنَّ) لأَن التقريع والتَّوبيخ والإِنكار فى الثانى أَكثر .

ومثله فى النّمل : ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ وبعده أَئنكم وخالف فى العنكبوت فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

الْفَاحِشَةَ ﴾ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ فجع بين أَئِنَّ وأَئِن وذلك لموافقة آخِر القصّة ، فإِنَّ فى الآخر ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ و ﴿ إِنَّا مُنْزِلُوْنَ ﴾ فتأَمّل فيه ؛ فإِنَّه صعب المستخرج.

(23/260)

قوله : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ هنا بلفظ الاسم ، وفى النَّمل ﴿ قَوْمٌ تَجْهَلُوْنَ ﴾ بلفظ الفعل .

أَو لأَنَّ كلّ إِسراف جهل وكلَّ جهل إِسراف ، ثمّ ختم الآية بلفظ الاسم ؛ موافقة لرءُوس الآيات المتقدّمة ، وكلها أَسماءُ : للعالمين ، الناصحين ، جاثمين ، كافرون ، مؤْمنون ، مفسدون .

وفى النَّمل وافق ما قبلها من الآيات ، وكلها أَفعال : تبصرون ، يتَّقون ، يعملون .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ بالواو فى هذه السّورة .

وفى سائر السّور (فما) بالفاءِ ؛ لأَنَّ ما قبله اسم ، والفاء للتعقيب ، والتعقيب يكون مع الأَفعال .

فقال فى النَّمل ﴿ تَجْهَلُوْنَ فَمَا كَانَ ﴾ وكذلك فى العنكبوت ﴿ وَتَأْتُوْنَ فِي نَادِيْكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ ﴾ وفى هذه السّورة ﴿ مُسْرِفُوْنَ وَمَا كَانَ ﴾ .

قوله : ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ فى هذه السّورة وفى النَّمل ﴿ أَخْرِجُواْ آلَ لُوطٍ ﴾ ما فى هذه السّورة كناية فسّرها ما فى السورة الَّتى بعدها ، وهى النَّمل ويقال : نزلت النَّمل أَوّلاً ، فصرّح فى الأُولى ، وكنَّى فى الثانية .

قوله : ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (ههنا ، وفى النمل : ﴿ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أَى كانت فى علم الله من الغابرين) .

قوله : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِنْ قَبْلُ ﴾ هنا وفى يونس ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ ﴾ لأَنَّ أَوّل القصّة هنا ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ ﴾ وفى الآية ﴿ وَلَاكِن كَذَّبُواْ ﴾ وليس بعدها الباء ، فختَم القصّة بمثل ما بدأَ به ، فقال : كذَّبوا من قبل .

وكذلك فى يونس وافق ما قبله وهو ﴿ كَذَّبُوهُ ﴾ ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ ثمّ ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ فختَم بمثل ذلك ، فقال : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ ﴾ .

وذهب بعض أَهل العلم إلى أَنَّ ما فى حقِّ العقلاءِ من التكذيب فبغير الباء ؛ نحو قوله : كذَّبوا رسلى ، وكذَّبوه ، وغيره ؛ وما فى حقِّ غيرهم بالباءِ ؛ نحو كذَّبوا بآياتنا وغيرها .

(24/260)

وعند المحقّقين تقديره : فكذّبوا رسلنا بردّ آياتنا ، حيث وقع .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ ، وفى يونس ﴿ نَطْبَعُ ﴾ بالنون ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة قد تقدّم ذكر الله سبحانه بالتَّصريح ، والكناية ، فجمع بينهما فقال : ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِم ﴾ بالنّون ، وختم الآية بالتَّصريح فقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ وأَمّا فى يونس فمبنىّ على ما قبله : من قوله : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ بلفظ الجمع ، فختم بمثله ،

فقال : ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

قوله : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ ﴾ ؛ لأَنَّ التقدير فى هذه الآية : قال الملأُ من قوم فرعون وفرعونُ بعضُهم لبعض ، فحذف (فرعون) لاشتمال الملأ من قوم فرعون على اسمه ؛ كما قال : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَى آل فرعون وفرعون ، فحذف (فرعون) ، لأَنَّ آل فرعون اشتمل على اسمه . فالقائل هو فرعون نفسه بدليل الجواب ، وهو (أَرْجِه) بلفظ التوحيد ، والملأ هم المقول لهم ؛ إذ ليس فى الآية مخاطبون بقوله : ﴿ يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ غيرهم .

فتأَمّل فيه فإِنَّه برهان للقرآن شاف .

قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ لأَنَّ الآية (الأُولى فى هذه السورة بنيت على الاقتصار [وليس] كذلك الآية)

الثانية ، ولأَن لفظ السّاحر يدل على السّحر .

قوله : ﴿ وَأَرْسِلْ ﴾ ، وفى الشعراءِ : ﴿ وَابْعَثْ ﴾ لأَنَّ الإِرسال يفيد معنى البعث ، ويتضمّن نوعاً من العُلُوّ ؛ لأَنه يكون من فوق ؛ فخُصّت هذه السّورة به ، لمّا التبس ؛ ليعلم أَنَّ المخاطَب به فرعون دون غيره .

(25/260)

قوله : ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيْمٍ ﴾ وفى الشُّعراءِ بكلِّ ﴿ سَحَّارٍ ﴾ لأَنَّه راعى ما قبله فى هذه السّورة وهو قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ وراعى فى الشُّعراءِ الإِمامَ فإِنَّ فيه (بكلِّ سَحّار بالأَلف) وقرئَ فى هذه السّورة ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ أَيضاً طلبا للمبالغة وموافقةً لما فى الشعراءِ .

قوله : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ ﴾ لأَنَّ القياس فى هذه السّورة وجاءَ السّحرة فرعون وقالوا ، أَو فقالوا ، لا بدّ من ذلك ؛ لكن أَضمر فيه (فلمّا) فحسُن حذف الواو .

وخصّ هذه السّورة بإِضمار (فلمّا) لأَنَّ ما فى هذه السّورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق .

وأَمَّا تقديم فرعون وتأْخيره فى الشعراءِ لأَنَّ التَّقدير فيهما : فلمّا جاءَ السّحرة فرعون قالوا لفرعون ، فأَظهر الأَول فى هذه السّورة لأَنَّها الأُلى ، فأَظهر الثَّانى فى الشّعراءِ ؛ لأَنَّها الثانية .

قوله : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وفى الشُّعراءِ ﴿ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ﴾ (إِذاً) فى هذه السّورةِ مضمرة مقدّرة ؛ لأَنَ (إِذاً) جزاء ، ومعناه : إِن غَلبتم قرَبتكم ، ورفعتُ منزلتكم .

وخصّ هذه السّورة بالإِضمار اختصاراً .

قوله : ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ وفى طه ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَّكُوْنَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ راعى فى السّورتين أَواخر الآى .

(26/260)

ومثله ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾ سَاجِدِينْ فى السّورتين ، وفى طه ﴿ سُجَّدًا ﴾ وفى (السْورتين) أَيضاً ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وليس فى طه ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وفى السّورتين ﴿ رَبِّ مُوْسَى وَهَارُوْنَ ﴾ وفى طه ﴿ رَبِّ هَارُوْنَ وَمُوْسَى ﴾ (وفى هذه السورة : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ ﴾ [وفى الشعراءِ : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ لَأُقَطِّعَنَّ ﴾] وفى طه ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ ﴾ وفى السّورتين [﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وفى طه] :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ .

وهذا كلّه لمراعاة فواصل الآى ؛ لأنّها مرعيّة يبتنى عليها مسائل كثيرة .

قوله : ﴿ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ (وفى السّورتين : آمنتم) له) لأَنَّ هنا يعود إلى ربّ العالمين وهو المؤْمن (به) سبحانه وفى السورتين يعود إلى موسى ؛ لقوله ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيْرُكُمْ ﴾ وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد .

قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ (وفى السورتين : قال آمنتم ، لأَن هذه السورة مقدّمة على السَورتين فصرّح فى الأُولى ، وكَنَى فى الأخريَيْن ، وهو القياس : وقال الإمام : لأَنَّ [ما] هنا بَعُد عن ذكر فرعون فصرّح وقرُب فى السّورتين ذكرُه فكَنَى .

قوله : ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ وفى السّورتين ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ ؛ لأَنَّ (ثمّ) يدلُّ على أَنَّ الصَّلْب يقع بعد التقطيع ، وإذا دَلَّ فى الأُولى عُلِمَ فى غيرها ، ولأَنَّ الواو يصلح لما يصلح له (ثمّ) .

قوله : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ ﴾ بزيادة ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ لأَنَّ هذه السّورة اختُصِرَتْ فيها القِصَّة ، وأَشبعت فى الشعراءِ ، وذكر فيها أَوّل أَحوال موسى مع فرعون ، إلى آخرها ، فبدأَ بقوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ وخَتَمَ بقوله ثمّ ﴿ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ فلهذا وقع زوائد لم تقع فى الأَعراف وطه ، فتأَمّل تعرف إعجاز التنزيل .

قوله ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ ﴾ بغير واو على البدل .

وقد سبق .

قوله : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ هنا وفى يونس : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ لأَنَّ أَكثر ما جاءَ فى القرآن من لفظ الضرّ والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضرّ ؛ لأَنَّ العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أَوّلاً ، ثمَّ طمعاً فى ثوابه ثانياً .

يقوّيه قوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ ، وحيث تقدم النفع تقدّم لسابقة لفظ تضمّن نفعاً .

وذلك فى ثمانية مواضع : ثلاثة منها بلفظ الاسم ، وهى ههنا والرّعد وسبأ .

وخمسة بلفظ الفعل وهى فى الأَنعام ﴿ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ وفى آخر يونس ﴿ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ وفى الأَنبياءِ ﴿ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ وفى الفرقان ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أَمّا فى هذه السورة فقد تقدّمه ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ ﴾

فقدّم الهداية على الضَّلالة .

وبعد ذلك ﴿ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ فقدّم الخير على السّوءِ ،

فكذلك قدّم النَّفع على الضرّ وفى الرّعد ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فقدّم الطَّوع وفى سبأ

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فقدّم البسط .

وفى يونس قدّم الضّرّ على الأَصلِ ولموافقته ما قبلها ﴿ لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ ﴾ وفيها

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ ﴾ فتكرّر فى الآية ثلاث مرّات .

وكذلك ما جاءَ بلفظ الفعل فلسابقة معنى يتضمّن فعلاً .

(28/260)

أَمّا سورة الأَنعام ففيها ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيْعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ ، ثمّ وصلها بقوله : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ وفى يونس تقدّمه قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثمّ قال : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ وفى الأَنبياءِ تقدّمه قول الكفار لإبراهيم فى المجادلة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ وفى الفرقان تقدّمه قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ وعدَّ

نِعَمًا جَمّة فى الآيات ثمّ قال : ﴿ وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ ﴾ تأَمّل ؛ فإِنه برهان ساطع للقرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 205. 221 ﴾

(29/260)

وقال العلامة الكرمانى رحمه الله :

سورة الأعراف

119 - قوله قال ما منعك 12 في هذه السورة وفي ص قال يا إبليس ما منعك 75 وفي الحجر قال يا إبليس مالك 32 بزيادة يا إبليس في السورتين لأن خطابه قرب من ذكره في هذه السورة وهو قوله إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك فحسن حذف حرف النداء والمنادى ولم يقرب في ص قربه منه في هذه السورة لأن في ص إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين 74 بزيادة استكبر فزاد حرف النداء والمنادى فقال يا إبليس وكذلك في الحجر فإن فيها إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين

31 - بزيادة أبى فزاد حرف النداء والمنادى فقال يا إبليس مالك

120 - قوله ألا تسجد 12 وفي ص أن تسجد 75 وفي الحجر مالك ألا تكون 32 فزاد في هذه السورة لا وللمفسرين في لا أقوال قال بعضهم لا صلة كما في قوله لئلا يعلم وقال

بعضهم الممنوع من الشيء مضطر إلى ما منع وقال بعضهم معناه ما الذي جعلك في منعة من عذابي وقال بعضهم معناه من قال لك ألا تسجد وقد ذكرت ذلك وأخبرت بالصواب في كتابي لباب التفسير والذي يليق بهذا الكتاب أن نذكر ما السبب الذي خص هذه السورة بزيادة لا دون السورتين

قلت لما حذف منها يا إبليس واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا زيادة في النفي وإعلاما أن المخاطب به إبليس خلافا للسورتين فإنه صرح فيهما باسمه

وإن شئت قلت جمع في هذه السورة بين ما في ص وما في الحجر فقال ما منعك أن تسجد مالك ألا تسجد فحذف أن تسجد وحذف مالك لدلالة الحال ودلالة السورتين عليه فبقي ما منعك أن لا تسجد وهذه لطيفة فاحفظها

121 – قوله أنظرني إلى يوم يبعثون وفي الحجر وص رب فأنظرني لأنه سبحانه لما اقتصر في السؤال على

الخطاب دون صريح الاسم في هذه السورة اقتصر في الجواب أيضا على الخطاب دون ذكر المنادى وأما زيادة الفاء في السورتين دون هذه السورة فلأن داعية الفاء ما تضمنه النداء من أدعو أو أنادى نحو ربنا فاغفر لنا أي أدعوك وكذلك داعية الواو في قوله ربنا وآتنا فحذف المنادى في هذه السورة فلما حذفه انحذفت الفاء

122 – قوله إنك من المنظرين 15 في هذه السورة وفي السورتين قال فإنك لأن الجواب

يبنى على السؤال ولما خلا في هذه السورة عن الفاء خلا الجواب عنه ولما ثبتت الفاء في السؤال في السورتين ثبتت في الجواب والجواب في السور الثلاث إجابة وليس باستجابة

(30/260)

---

123 - قوله فيما أغويتني 16 في هذه السورة وفي ص فبعزتك لأغوينهم 82 وفي الحجر رب بما أغويتني 39 لأن ما في هذه السورة موافق لما قبله في الاقتصار على الخطاب دون النداء وما في الحجر موافق لما قبله في مطابقة النداء وزاد في هذه السورة الفاء التي هي للعطف ليكون الثاني مربوطا بالأول ولم تدخل في الحجر فاكتفى بمطابقة النداء لامتناع النداء منه لأنه ليس بالذي يستدعيه النداء فإن ذلك يقع مع السؤال والطلب وهذا قسم عند أكثرهم بدليل ما في ص وخبر عند بعضهم والذي في ص على قياس ما في الأعراف دون الحجر لأن موافقتهما أكثر على ما سبق فقال

فبعزتك والله أعلم

وهذا الفصل في هذه السورة برهان لامع وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسائل فأجاب عنها وقال إن اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها كان اختلافها واتفاقها سواء إذا أدى المعنى المقصود وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤنة

السهر إلى السحر

124 - قوله قال اخرج منها مذءوما مدحورا 28 ليس في القرآن غيره لأنه سبحانه لما بالغ في الحكاية عنه بقوله لأقعدن لهم 16 الآية بالغ في ذمه فقال اخرج منها مذءوما مدحورا والذأم أشد الذم

125 - قوله فكلا 19 سبق في البقرة

126 - قوله ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم 24 بالفاء حيث وقع إلا في يونس فإنه هنا جملة عطفت على جملة بينهما اتصال وتعقب فكان الموضع موضع الفاء وما في يونس يأتي في موضعه

127 - قوله وهم بالآخرة كافرون 45 ما في هذه السورة جاء على القياس وتقديره وهم كافرون بالآخرة فقدم بالآخرة تصحيحا

لفواصل الآي وفي هود لما تقدم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم 18 ثم قال ألا لعنة الله على الظالمين 18 ولم يقل عليهم والقياس ذلك ولو قال لالتبس أنهم هم أم غيرهم فكرر وقال وهو بالآخرة هم كافرون 19 ليعلم أنهم هم المذكورون لا غيرهم وليس هم ههنا للتوكيد كما زعم بعضهم لأن ذلك يزاد مع الألف واللام ملفوظا أو مقدرا

128 – قوله وهو الذي يرسل الرياح 57 في هذه السورة وفي الروم بلفظ المستقبل وفي الفرقان وفاطر بلفظ الماضي لأن ما قبلها في هذه السورة ذكر الخوف والطمع وهو قوله وادعوه خوفا وطمعا 56 وهما يكونان في المستقبل لا غير فكان يرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله وفي الروم قبله ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقهم من رحمته ولتجري الفلك بأمره 46 فجاء بلفظ المستقبل لفقا لما قبله

وأما في الفرقان فإن قبله كيف مد الظل 45 الآية وبعد الآية وهو الذي جعل لكم 47 ومرج 53 وخلق 54 فكان الماضي أليق به

وفي فاطر مبني على أول السورة الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة وهما بمعنى الماضي لا غير فبنى على ذلك فقال أرسل بلفظ الماضي ليكون الكل على مقتضى اللفظ الذي خص به

129 – قوله لقد أرسلنا نوحا 59 في هذه السورة بغير واو وفي هود 25 والمؤمنين 23 ولقد بالواو لأنه لم يتقدم في هذه السورة ذكر رسول فيكون هذا عطفا عليه بل هو استئناف كلام وفي هود تقدم ذكر الرسول مرات وفي المؤمنين تقدم ذكر نوح ضمنا في قوله وعلى الفلك 12 لأنه أول من صنع الفلك فعطف في السورتين بالواو

130 – قوله أرسلنا نوحا إلى قومه فقال 59 بالفاء في هذه السورة وكذلك في المؤمنين في

قصة نوح فقال 23 وفي هود في قصة نوح إنى لكم 25 بغير قال وفي هذه السورة في قصة عاد بغير فاء لأن إثبات الفاء هو الأصل وتقديره أرسلنا نوحا فجاء فقال فكان في هذه السورة والمؤمنين على ما يوجبه اللفظ

وأما في هود فالتقدير فقال إني فأضمر قال وأضمر معه الفاء وهذا كما قلنا في قوله تعالى وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم 3 106 أي فيقال لهم أكفرتم فأضمر الفاء والقول معا وأما قصة عاد فالتقدير وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا فقال فأضمر أرسلنا وأضمر الفاء لأن داعي الفاء أرسلنا

(32/260)

---

131 - قوله قال الملأ 66 بغير فاء في قصة نوح وهود في هذه السورة وفي سورة هود والمؤمنين فقال بالفاء لأن ما في هذه السورة في السورتين لا يليق بالجواب وهو قولهم لنوح إنا لنراك في ضلال مبين 60 وقولهم لهود إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين 7 66 بخلاف السورتين فإنهم أجابوا فيهما بما زعموا أنه جواب

132 - قوله أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم 62 في قصة نوح وقال في قصة هود وأنا لكم ناصح أمين 68 لأن ما في هذه الآية أبلغكم بلفظ المستقبل فعطف عليه أنصح لكم كما

في الآية الأخرى لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم 7 79 فعطف الماضي لكن في قصة هود قابل باسم الفاعل على قولهم له وإنا لنظنك من الكاذبين 66 ليقابل الاسم بالاسم

133 - قوله أبلغكم 62 في قصة نوح وهود بلفظ المستقبل وفي قصة صالح وشعيب أبلغتكم 79 93 بلفظ الماضي لأن في قصة نوح وهود وقع في ابتداء الرسالة وفي قصة صالح وشعيب وقع في آخر الرسالة ودنو العذاب ألا تسمع قوله فتولى عنهم في القصتين

134 - قوله رسالات ربي في جميع القصص إلا في قصة صالح فإن فيها رسالة 79 على الواحدة لأنه سبحانه حكى عنهم بعد الإيمان بالله والتقوى أشياء أمروا قومهم بها إلا في قصة صالح فإن فيها ذكر الناقة فصار كأنها رسالة واحدة وقوله برسالاتي وبكلامي 7 144 مختلف فيها

135 - قوله فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا 64 وفي يونس فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك 73 لأن أنجينا ونجينا للتعدي لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة فكان في يونس ومن معه ولفظ من يقع على كثرة مما يقع عليه الذين لأن من يصلح للواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث بخلاف الذين فإنه لجمع المذكر فحسب فكان التشديد مع من أليق

136 – قوله في هذه السورة ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم 73 وفي هود ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب 64 وفي الشعراء ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم 156 لأنه في هذه السورة بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال عذاب أليم وفي هود لما اتصل بقوله تمتعوا في داركم ثلاثة أيام 65 وصفه بالقرب فقال عذاب قريب وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم 155 فالتقدير لها شرب يوم معلوم فختم الآية بذكر اليوم فقال عذاب يوم عظيم

137 – قوله فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين 78 على الوحدة وقال وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين 11 94 حيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة وحد الدار وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فاتصل كل واحد بما هو لائق به

138 – قوله ما نزل الله بها من سلطان 71 في هذه السورة نزل وفي غيرها أنزل 12 40 لأن أفعل كما ذكرت آنفا للتعدي وفعل للتعدي والتكثير فذكر في الموضع الأول بلفظ المبالغة ليجري مجري ذكر الجملة والتفصيل وذكر الجنس والنوع فيكون الأول كالجنس وما سواه كالنوع

139 – قوله وتنحتون الجبال بيوتا 74 في هذه السورة وفي غيرها من الجبال لأن في هذه

السورة تقدمه من سهولها قصورا 74 فاكتفى بذلك

140 - قوله وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين 84 في هذه السورة وفي غيرها فساء مطر المنذرين 27 58 لأن في هذه السورة وافق ما بعده وهو قوله فانظر كيف كان عاقبة المفسدين 86

141 - قوله ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة 80 بالاستفهام وهو استفهام تقريع وتوبيخ وإنكار وقال بعده إنكم لتأتون الرجال 81 فزاد مع الاستفهام إن لأن التقريع والتوبيخ والإنكار في الثاني أكثر ومثله في النمل أتأتون 54 وبعده أئنكم لتأتون الرجال

(34/260)

---

29 - فجمع بين إن وأئن وذلك لموافقة آخر القصة فإن في الآخر إنا منجوك 33 إنا منزلون 34 فتأمل فيه فإنه صعب المستخرج

142 - قوله بل أنتم قوم مسرفون 81 في هذه السورة بلفظ الاسم وفي النمل قوم تجهلون 55 بلفظ الفعل لأن كل إسراف جهل وكل جهل إسراف ثم ختم الآية بلفظ الاسم موافقة لرءوس الآيات التي تقدمت وكلها أسماء العالمين 80 الناصحين 79 جاثمين 78 المرسلين 77 كافرون 76 مؤمنون 75 مفسدين 74 وفي النمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها

أفعال يبصرون يتقون تعلمون

143 – قوله وما كان جواب قومه 82 بالواو في هذه السورة وفي غيرها فما بالفاء لأن ما قبله اسم والفاء للتعقيب والتعقيب يكون مع الأفعال فقال في النمل تجهلون فما كان 55 56 وكذلك في العنكبوت في هذه القصة وتأتون في ناديكم المنكر فما كان 29 وفي هذه السورة مسرفون وما كان 81 82

وفي هذه السورة أخرجوهم 82 وفي النمل أخرجوا آل لوط 56 لأن ما في هذه السورة كناية فسرها في السورة التي بعدها وفي النمل قال الخطيب سورة النمل نزلت قبل هذه السورة فصرح في الأولى وكنى في الثانية

144 – قوله كانت من الغابرين 83 في هذه السورة وفي النمل قدرناها من الغابرين 57 أي كانت في علم الله من الغابرين فقدرناها من الغابرين وعلى وزن قول الخطيب قدرناها من الغابرين فصارت من الغابرين وكان بمعنى صار وقد فسر كان من الجن 18 50 بالوجهين

145 – قوله بما كذبوا من قبل 101 في هذه السورة وفي يونس بما كذبوا به 74 لأن أول القصة في هذه السورة ولو أن أهل القرى آمنوا 96 وفي الآية ولكن كذبوا فأخذناهم 96 وليس بعدها الباء فختم القصة بمثل ما بدأ به وكذلك في يونس وافق ما قبله فكذبوه فنجيناه 73 كذبوا بآياتنا 73 فختم بمثل ذلك فقال بما كذبوا به 74

وذهب بعض أهل العلم إلى أن ما في حق العقلاء من التكذيب فبغير الباء نحو قوله كذبوا رسلي وكذبوه وغيره وما في حق غيرهم

(35/260)

ب باء نحو كذبوا بآياتنا وغيرها وعند المحققين تقديره فكذبوا رسلنا برد آياتنا حيث وقع 146 – قوله كذلك يطبع الله 101 ههنا وفي يونس نطبع 74 بالنون لأن في هذه السورة قدم ذكر الله سبحانه بالصريح والكناية فجمع بينهما فقال ونطبع على قلوبهم 100 بالنون وختم الآية بالصريح فقال كذلك يطبع الله وأما في يونس فمبني على ما قبله من قوله فنجيناه 73 وجعلناهم 73 ثم بعثنا 74 بلفظ الجمع فختم بمثله فقال كذلك نطبع على قلوب المعتدين 74

147 – قوله قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم 109 وفي الشعراء قال للملأ حوله 25 لأن التقدير في هذه الآية قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعض لبعض فحذف فرعون لاشتمال الملأ من آل فرعون على اسمه كما قال وأغرقنا آل فرعون 8 54 أي آل فرعون وفرعون فحذف فرعون لأن آل فرعون اشتمل على اسمه فالقائل هو فرعون وحده بدليل الجواب وهو قالوا أرجه وأخاه 111 بلفظ التوحيد والملأ هم المقول لهم إذ ليس في

الآية مخاطبون بقوله يخرجكم من أرضكم 6 110 غيرهم فتأمل فيه فإنه برهان للقرآن شاف

148 - قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون 110 وفي الشعراء من أرضكم بسحره 35 لأن الآية الأولى في هذه السورة بنيت على الاقتصار وكذلك الآية الثانية ولأن لفظ الساحر يدل على السحر

149 - قوله وأرسل 111 وفي الشعراء وابعث 36 لأن الإرسال يفيد معنى البعث ويتضمن نوعا من العلو لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التبس ليعلم أن المخاطب به فرعون دون غيره

150 - قوله بكل ساحر عليم 112 وفي الشعراء بكل سحار 37 لأنه راعى ما قبله في هذه السورة وهو قوله إن هذا لساحر عليم 109 وراعى في الشعراء الإمام فإنه فيه بكل سحار بالألف وقرئ في هذه السورة سحار أيضا طلبا للمبالغة وموافقة لما في الشعراء

---

151 - قوله وجاء السحرة فرعون قالوا 113 وفي الشعراء فلما جاء السحرة قالوا لفرعون 6 41 لأن القياس في هذه السورة فلما جاء السحرة فرعون قالوا أو فقالوا لا بد

من ذلك لكن أضمر فيه فلما فحسن حذف الفاء وخص هذه السورة بإضمار فلما لأن ما في هذه السورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق وأما تقديم فرعون وتأخيره في الشعراء فلأن التقدير فيهما فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون فأظهر الأول في هذه السورة لأنها الأولى وأضمر الثاني في الشعراء لأنها الثانية

152 – قوله قال نعم وإنكم لمن المقربين 114 وفي الشعراء إذا لمن المقربين 43 لأن إذا في هذه السورة مضمرة مقدرة لأن إذا جزاء ومعناه إن غلبتم قربتكم ورفعت منزلتكم وخص هذه السورة بالإضمار اختصارا

153 – قوله إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين 115 وفي طه إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى 65 راعى في السورتين أو أخر

الآي ومثله فألقى السحرة ساجدين في السورتين وفي طه سجدا 70 وفي السورتين أيضا آمنا برب العالمين وليس في طه رب العالمين وفي السورتين رب موسى وهارون وفي هذه فسوف تعلمون لأقطعن 123 124 وفي الشعراء فلسوف تعلمون لأقطعن 49 وفي طه فلأقطعن 71 وفي السورتين لأصلبنكم أجمعين وفي طه ولأصلبنكم في جذوع النخل 17 وهذا كله مراعاة لفواصل الآي لأنها مرعية تنبنى عليها مسائل كثيرة

154 – قوله في هذه السورة آمنتم به 123 وفي السورتين آمنتم له لأن الضمير هنا يعود إلى رب العالمين وهو المؤمن به سبحانه وفي

السورتين يعود إلى موسى وهو المؤمن له لقوله إنه لكبيركم وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد

155 - قوله قال فرعون 123 وفي السورتين قال آمنتم لأن هذه السورة متعقبة على السورتين فصرح في الأولى وكنى في الأخريين وهو القياس قال الخطيب لأن في هذه السورة بعد عن ذكر فرعون بآيات فصرح وقرب في السورتين من ذكره فكنى

(37/260)

---

156 - قوله ثم لأصلبنكم 124 وفي السورتين ولأصلبنكم لأن ثم تدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع وإذا دل في الأولى علم في غيرها ولأن موضع الواو تصلح له ثم

157 - قوله إنا إلى ربنا منقلبون 125 وفي الشعراء لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون 50 بزيادة لا ضير 6 لأن هذه السورة اختصرت فيها هذه القصة وأشبعت في الشعراء وذكر فيها أول أحوال موسى مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله ألم نربك فينا وليدا 18 وختم بقوله ثم أغرقنا الآخرين 66 فلهذا وقع فيها زوائد لم تقع في الأعراف وطه فتأمل وتدبر تعرف إعجاز القرآن

158 - قوله 6 يسومونكم سوء العذاب يقتلون 141 بغير واو على البدل وقد سبق

159 - قوله من يهدي الله فهو المهتدي 178 بإثبات الياء على

الأصل وفي غيرها بغير ياء على التخفيف

160 - قوله قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله 187 في هذه السورة وفي يونس قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله 49 لأن أكثر ما جاء في القرآن من لفظي الضر والنفع معا جاء بتقديم لفظ الضر على النفع لأن العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أولا ثم طمعا في ثوابه ثانيا يقويه قوله يدعون ربهم خوفا وطمعا 32 16 وحيث تقدم النفع على الضر تقدم لسابقة لفظ تضمن نفعا وذلك في ثمانية مواضع ثلاثة منها بلفظ الاسم وهي ههنا والرعد وسبأ وخمسة بلفظ الفعل وهي في الأنعام ينفعنا ولا يضرنا 71 وآخر في يونس ما لا ينفعك ولا يضرك 106 وفي الأنبياء ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم 66 والفرقان ما لا ينفعهم ولا يضرهم 55 وفي الشعراء ينفعونكم أو يضرون 6 73

أما في هذه السورة فقد تقدمه من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل 178 فقدم الهداية على الضلالة وبعد ذلك لاستكثرت من الخير وما مسني السوء 188 فقدم الخير على السوء فلذلك قدم النفع على الضر

وفي الرعد طوعا وكرها 15 فقدم الطوع وفي سبأ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر 36 فقدم البسط

وفي يونس قدم الضر على الأصل ولموافقة ما قبلها ما لا يضرهم ولا ينفعهم 18 وفيها وإذا مس الإنسان الضر 12 فيكون في الآية ثلاث مرات وكذلك ما جاء بلفظ الفعل فلسابقة معنى يتضمن فعلا

أما سورة الأنعام ففيها ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها 70 ثم وصلها بقوله قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا 71 وفي يونس تقدمه قوله ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين 103 ثم قال ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك 106 وفي الأنبياء تقدم قول الكفار لإبراهيم في المجادلة لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم 65 66 وفي الفرقان تقدمه قوله ألم تر إلى ربك كيف مد الظل 45 وعد نعما جمة في الآيات ثم قال يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم 55 فتأمل فإنه برهان القرآن

161 - قوله وخيفة 20 ذكرت في المتشابه وليست منه لأنها من الخوف وخفية من قوله تعالى تدعونه تضرعا وخفية من خفي الشيء إذا استتر. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 77. 93﴾

فصل

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الأعراف

هى سورة مدنية إلا ثمانى آيات من الآية رقم 163 إلى الآية 170 ، وسنتكلم فيها فى موضعها – إن شاء الله تعالى – وعدد آيات هذه السورة الكريمة ست ومائتان .

وقد ابتدأ الله تعالى هذه السورة بالحروف (المص) ، وقد تكلمنا فى هذه الحروف فى فواتح سور القرآن ، وذكرنا أنها من المتشابه الذى اختص علم الله تعالى ، وذكرنا حكمة ذكرها ، وعند الله غيب أمرها .

ابتدئت السورة بذكر القرآن ، والأمر باتباعه ، ثم أشارت إلى أن يوم القيامة يجىء بغتة ، فالقرى يجيئها أمر الله بغتة وهم نائمون ، وعندئذ يحس الظالمون بظلمهم إذ ذهب طغيانهم ، ويبين الله – تعالى – أن اليوم يوم سؤالهم عما ظلموا ، وتوزن أعمالهم بخيرها وشرها ، والوزن يومئذ الحق ، وقد ذكر سبحانه أن السبب فى طغيانهم أنه مكن لهم فى الأرض ، وتمكن الشيطان منهم .

ويذكر سبحانه كيف يتمكن الشيطان ، وساق – سبحانه وتعالى – قصة الخلق الأول ، ليبين لهم عداوة إبليس وكيف أغوى آدم على مخالفة ربه ، هو وزوجه حواء ، وقاسمهما

إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور ، وقد ذكر سبحانه عاقبة ذلك التدلى .

صرح بعد ذلك القصص الحكيم بالنهى عن الخضوع للشيطان إبليس ومن

معه ، فقال : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما

ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا

يؤمنون) .

وبين – سبحانه – أنه كما دلى الشيطان آدم وزوجه بغرور حتى تسبب فى نزع لباسهم

كذلك يغرى قريشا فيجعلهم يطوفون عراة ، وإن ذلك هو عين الفساد ، وأمر الله تعالى أن

يأخذوا زينتهم ويلبسوا عند كل مسجد (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا

واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

ويبين – سبحانه وتعالى – ما أحله الله من طيبات وما أراد الشيطان أن يحرمه عليهم ء

(40/260)

ويبين – سبحانه وتعالى – أن مقاومة الشيطان إنما هى باتباع الهدى الذى

يجىء على ألسنة الأنبياء (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى

وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وبين – سبحانه وتعالى – أن الشيطان يغرى أتباعه بمعاندة هؤلاء الرسل كما أغرى كبيرهم آدم وحواء بمخالفة أمر الله تعالى .

ثم يذكر – سبحانه وتعالى – مآل الطاغين على الرسل بإغواء الشيطان يوم القيامة وكيف يتطارحون الضلال بين الغاوين ومن أغووهم من شياطين الجن والإنس (. . . حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (39) .

وبين – سبحانه وتعالى – جزاء الذين استكبروا عن الحق بإهواء الشيطان ، وفى مقابلهم جزاء الذين آمنوا وأطاعوا الله ، ولم يغوهم الشيطان ، وأن لهم الجنة ، (. . . وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) .

وكان بين أصحاب الجنة أصحاب الأعراف ، وقد نادوا الظالمين الذين يعرفونهم (وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ

جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) .

بين الله تعالى من بعد ذلك أدت الذين عصوا واستكبروا قد جاءهم القرآن الكريم يهديهم ، ويدعوهم إلى الحق ، (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) .

ولكنهم كفروا به ، وطغوا ، وطلبوا معرفة مآله ، فبين – سبحانه – أنهم يعرفون مآل ما اشتمل عليه بقول الذين نسوه من قبل (. . . قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (53) .

بعد هذا البيان الحكيم فى هذه السورة الكريمة وجه الله تعالى العقول إلى آياته فى الكون ، فقال : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) .

وينهى رب الكون عن الفساد فى الأرض ، ويبين آياته – سبحانه – فى إرسال الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنه – سبحانه – يرسل سحابا ثقالا ، إلى الأرض الميتة ليحييها .

(42/260)

ويقص بعد ذلك قصص أنبيائه ، ليسرى على محمد (صلى الله عليه وسلم) بقصصهم ، وليسوق العبر والمثلات للمشركين ليعتبروا ويستبصروا ، فيذكر خبر نوح مع قومه ، ويرمونه بالضلالة ، كما رمى المشركون محمدا بها ، ويعجبون من أن الله أرسل رسولا ، كما تعجبت قريش من رسالته (صلى الله عليه وسلم) ، ويذكرهم بأن الله تعالى سينجى محمدا من شرهم كما نجى نوحا ، (. . . فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ (64) .

ويذكر من بعد نوح فى هذه السورة الكريمة خبر هود مع قومه عاد ، وكيف رموه بالسفاهة كما رمت قريش محمدا (صلى الله عليه وسلم) ، وقد كان فيهم الصادق الأمين ، وكيف كان ينصح لهم ، ويذكرهم بما آتاهم الله – تعالى – من نعمة ، وقد عجبوا أن جاءهم رسول منهم ، كما عجبت قريش (قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ

وَغَضَبٌ) ، وقال لهم هود : (. . . أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (71) .

(43/260)

وذكر – سبحانه وتعالى – من بعد قصة هود قصة صالح مع قومه ثمود ، إذ دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، وأتى لهم بمعجزة حسية هى الناقة ، وقد ذكرهم بما نزل بعاد من قبلهم ، وذكرهم بنعمة الله تعالى : (وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)) ولكنهم كفروا وعقروا الناقة ، فأنزل الله تعالى عذابه الدنيوى ، وتولى عنهم هود وقد أبلغهم رسالة ربه .

ومن بعده بعث الله لوطا إلى قومه ، وذكر الله تعالى شذوذهم وأهلكهم الله تعالى :

(وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين .

وأرسل إلى مدين أخاهم شعيبا ، وقص الله – تعالى – فى السورة قصصه مع قومه إذ دعاهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وألا يفسدوا ولا يعتدوا ولا يصدوا عن سبيل الله ، وقد آمنت طائفة ، وطائفة منهم وهم الذين استكبروا ، وحاولوا إخراج شعيب قائلين :

(. . . لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا . . . ، ولكن الله نجاه منهم ، وقال لن نعود فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها .

وقال الذين كفروا للذين آمنوا (. . . لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون

وقد أخذتهم بسبب عصيانهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . . ، فتولى عنهم شعيب وقال لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين .

وقد بين – سبحانه وتعالى – فى هذه السورة الكريمة سنته مع الذين يرسل إليهم النبيين أن يختبرهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم يختبرهم من بعد ذلك بالحسنة لعلهم يدركون ، (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء . . . فإذا كفروا ، ولم تردعهم الضراء ، ولم يشكروا السراء ، أخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون .

(44/260)

ولقد ذكر – سبحانه وتعالى – أن أهل القرى ، لو أنهم آمنوا لأتتهم النعم من حيث لا يشعرون ، (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (96) .

ولقد ذكر سبحانه فى هذه السورة المحكمة غفلة أهل القرى أى المدن العظيمة عن أن يأتيهم عذاب الله تعالى فى آياته سبحانه وتعالى ، وأن الذين يرثون أرضها لا يهتدون ، ولا يعتبرون بما كان منهم ، (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) .

ذكر بعد هذه العبرة التى بينها – سبحانه وتعالى – فى سنته فى الهداية ، وعقاب من لا يهتدون قصة موسى وفرعون ، ومعجزة موسى ، بل معجزاته مع فرعون ، طاغية الوجود الإنسانى فى مصر ، بل لا يزال مثلا يضرب لكل طاغية فى الأرض .

تقدم موسى إلى فرعون يدعوه إلى الله تعالى ، وتقدم بعصاه فحرض فرعون قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره .

جاءوا بكل ساحر عليم ، وتقدم موسى بعصاه ، قاهر موسى للسحرة (. . . أَلْقُوْا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) . فأمر الله تعالى موسى أن يلقى بعصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فخر السحرة ساجدين ، لأنهم علموا أن ما جاء به موسى ليس سحرا .

عاقبهم فرعون وقال : لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)

وقد أخذت شيعة فرعون ترد على موسى كالشأن فى كل طاغية لا يطغى إلا بشيعة تحسن له الشر ، وتفتح له الخير ، قالوا لفرعون : (. . . أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) .

ولكن بنى إسرائيل يتململون بموسى ، ويقولون : (. . . أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ . . . . أخذ الله تعالى آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ، فإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، وأرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات .

وإذا اشتد الأمر بهم (. . . قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ، فاغرقهم الله تعالى ، وجاوز الله ببنى إسرائيل البحر وأورثهم ملكا بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض .

ولكن بنى إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر عادت إليهم وثنية الفراعنة (. . . قَالُوا يَا مُوسَى

اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) ،

وذكرهم الله الذى نجاهم من فرعون وملئه الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب (. . . وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

واعد الله تعالى موسى أربعين ليلة (. . . وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) .

(46/260)

ذهب موسى لميقات ربه (. . . وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ، قبل الله توبة موسى وبين له اصطفاءه له (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء . . . من أحكام شريعته عليه السلام ، ويقول الله عن هذه الألواح : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) . . . ، وقد بين – سبحانه وتعالى جزاءهم فى الآخرة .

وفى غيبة موسى الأربعين ليلة (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له

خوار . . . ، . . وزين لهم الشيطان عبادة العجل التى تقبلها المصريون فى نفوسهم .

وإن الناس يضلون فإذا رأوا داعية الهداية ذهب عنهم ضلالهم فلما رأوا موسى سقط فى أيديهم (. . . وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، وقال : بئسما خلفتمونى من بعدى ، وأخذ يعتب على أخيه هارون (. . . وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي . . . ،

أحس موسى بأنه تجاوز فى غضبه فاتجه إلى ربه ضارعا (. . . رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وذكر الله ما سينال الذين اتخذوا العجل ولم يتوبوا ، وقال سينالهم غضب من ربهم وذلة .

وبعد أن ذهبت ضجة العجل وسكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفيها

(47/260)

هدى ورحمة – واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات الله ، فلما أخذتهم الرجفة (. . . قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء . . . .

اتجه موسى وقومه ضارعين إلى الله تعالى ، وقالوا : (. . . إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) .

وذكر منهم ممن تتسع له رحمته : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) .

ويأمر الله – تعالى – فى هذه السورة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن ذكر البشارة به

بأن يقول : إنه رسول الله تعالى إلى الناس جميعا ويدعوهم إلى اتباعه .

وتعود الآيات إلى قوم موسى – عليه السلام – فيذكر أن (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) ويذكر أنه – سبحانه وتعالى – قطعهم فى الأرض (. . . اثنتي عشرة أسباطا أمما . . . ، ثم يذكر – سبحانه وتعالى – آياته منهم ونعمه عليهم ، من ضرب الحجر بعصا (. . . فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم . . . ، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى ، وأنه ظلل عليهم الغمام وأنهم لم يشكروا النعمة ، بل كفروا بها .

ويذكر حالهم يوم السبت إذ حرم عليهم الصيد فيه (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ . . . .

ولقد يئس بعض المهتدين منهم من هداية إخوانهم فقالوا : (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) ، ولقد بين الله تعالى حال الذين نسوا ما ذكروا به ، وأنه أنجى الذين ينهون عن السوء ، وأصاب الذين ظلموا بعذاب بما كانوا يفسقون ، ولقد ذكر الله حال بنى إسرائيل من بعد موسى ، فقد بعث عليهم من يسومهم سوء العذاب ، وقطعه فى الأرض أمما ، وورث من بعدهم خلف يأخذون أدنى ما فى الكتاب وإن ياتهم عرض يأخذوه ، ويقولون سيغفر لنا .

وإن بنى إسرائيل قد مردوا على العصيان وقد أخذ الله – تعالى – الميثاق ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم وأخذ عليهم الميثادتى ، وهم تحت تأثير تلك الآية القاطعة ، وقال خذوا ما أتيناكم بقوة ، ولكنهم نقضوه ولم ينفذوه . ولقد بين الله سبحانه أنه أخذ

(. . . مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى . . .) ، ودل ذلك على أن التوحيد دين الفطرة وبين سبحانه أن هذه الآية الفطرية التى

أودعها الاخلاف والذرية من ينسلخ منها يتبعه الشيطان ويغويه وتكون كل أعماله فى دائرة الشر ، (. . . كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . . . وأسوأ الأمثال مثل الذين كذبوا بآيات الله (. . . وأنفسهم كانوا يظلمون .

(49/260)

وإن من يهديه الله فهو المهتدى ، ولقد خلق الله لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، وهؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك هم الغافلون .

وأخذ – سبحانه وتعالى – فى هذه السورة الكريمة يذكر الذين اهتدوا فى مقابل الذين كفروا وظلموا ، وقال فى الذين كفروا : (. . . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين) .

ووجه الله تعالى أنظار الناس إلى ملكوت السموات والأرض ، وبين أنه

(من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون .

وذكر الله تعالى الساعة وأنه وحده هو الذى يعلمها (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (187) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)) .

بعد ذلك بين الله – سبحانه وتعالى – خلق الإنسان وزوجه ليسكن إليها ، وصور سبحانه ضلال الإنسان بمن تحمل امرأته (حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وبين – سبحانه وتعالى – ضلال من يشركون وذكر انهم يدعون فى عبادتهم

(50/260)

أوثانا لا تضر ولا تنفع سواء أكانوا أحجارا أم غيرها وقال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ

(197) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ (198) .

ولقد دعا الله – تعالى – نبيه إلى ما يتجلى به فى الدعوة فقال : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ (202) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) .

(51/260)

ولقد أوصى الله المؤمنين من ضمن وصيته لنبيه (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206) .

هذه إشارة موجزة إلى بيان ما اشتملت سورة الاعراف إجمالا ، ثم نقدمها

بين يدى ذكر معانيها ، ولنبدأ من بعد ذكر ما يسعه إدراكنا من معانيها والله الهادى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2771.2781 ﴾

(52/260)

فصل

قال ابن عاشور :

سورة الأعراف

هذا هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة ، من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

أخرج النسائي ، من حديث أبي مليكة ، عن عروة بن زيد ابن ثابت : أنه قال لمروان به الحكم : ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فيها بأطول الطوليين .

قال مروان قلت : يا أبا عبد الله ما أطول الطوليين ، قال : الأعراف .

وكذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في المغرب بطولا الطوليين .

والمراد بالطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام

، باعتبار عدد الآيات .

ويفسر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرقها في ركعتين .

ووجه تسميتها أنها ذكر في لفظ الأعراف بقوله تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ [الأعراف : 46] الآية .

ولم يذكر في غيرها من سور القرآن ، ولأنها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة ، ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ ، ولكنه ذكر بلفظ " سور " في قوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ في سورة الحديد [13] .

وربما تدعى بأسماء الحروف المقطعة التي في أولها وهي : " ألف_لام_ميم_صاد " أخرج النسائي من حديث أبي الأسود ، عن عروة ، عن زيد بن ثابت : أنه قال لمروان : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بأطول الطوليين : " ألف ، لام ، ميم ، صاد "

.

وهو يجيء على القول بأن الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور هي أسماء للسور الواقعة فيها ، وهو ضعيف ، فلا يكون " ألمص " اسما للسورة ، وإطلاقه عليها إنما هو على تقدير التعريف بالإضافة إلى السورة ذات ألمص ، وكذلك سماها الشيخ ابن أبي زيد في الرسالة في باب سجود القرآن ولم يعدوا هذه السورة في السور ذات في الأسماء المتعددة .

وأما ما في حديث زيد من أنها طولا الطوليين فعلى إرادة الوصف دون التلقيب .

وذكر فيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز أن هذه السورة تسمى سورة الميقات لاشتمالها على ذكر ميقات موسى في قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف : 143] .

وأنها تسمى سورة الميثاق لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ 1 [الأعراف : 172] .

وهي مكية بلا خلاف .

(53/260)

ثم قيل جميعها مكي ، وهو ظاهر رواية مجاهد وعطاء الخراساني عن ابن عباس ، وكذلك نقل عن ابن الزبير ، وقيل نزل بعضها في المدينة ، قال قتادة آية : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ [الأعراف : 163] نزلت بالمدينة ، وقال مقاتل من قوله : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : 172] نزلت بالمدينة ، فإذا صح هذا احتمل أن تكون السورة بمكة ثم ألحق بها الآيتان المذكورتان ، واحتمل أنها نزلت بمكة وأكمل منها بقيتها تانك الآيتان .

ولم أقف على ما يضبط به تاريخ نزولا ، وعن جابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة صلى الله

عليه وسلم قبل سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ [الجن : 1] ، وظاهر حديث ابن عباس في صحيح البخاري أن سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ أنزلت في أول الإسلام حين ظهور دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك في أيام الحج ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوجه بأصحابه إلى سوق عكاظ ، فلعل ذلك في السنة الثانية من البعثة ، ولا أحسب أن سورة الأعراف قد نزلت في تلك المدة لأن السور الطوال يظهر أنها لم تنزل في أول البعثة .

ولم أقف على هاتين التسميتين في كلام غيره .

وهي من السبع الطوال التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، وبراءة وقد المدني منها وهي سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ؛ ثم ذكر المكي وهو : الأنعام ، والأعراف على ترتيب المصحف العثماني اعتبارا بأن سورة الأنعام أنزلت بمكة بعد سورة الأعراف فهي أقرب إلى المدني من السور الطوال .

(54/260)

وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد عن ابن عباس ، نزلت بعد سورة صلى الله عليه وسلم وقبل سورة الجن ، كما تقدم ، قالوا جعلها ابن

مسعود في مصحفه عقب سورة البقرة وجعل بعد ها سورة النساء, ثم آل عمران ، ووقع في مصحف أبي بعد آل عمران الأنعام ثم الأعراف .

وسورة النساء هي التي تلي سورة البقرة في الطول وسورة الأعراف تلي سورة النساء في الطول .

وعد آي سورة الأعراف مائتان وست آيات في عد أهل المدينة والكوفة ، ومائتان وخمس في عد أهل الشام والبصرة ، قال في الإتقان قيل مائتان وسبع .

أغراضها

افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه وكان افتتاحها كلاما جامعا وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها شأن سور القرآن .

وتدور مقاصد هذه السورة على محور مقاصد ؛ منها :

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله .

وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة .

ووصف ما حل بالمشركين والذين كذبوا الرسل : من سوء العذاب في الدنيا ، وما سيحل بهم في الآخرة .

تذكير الناس بنعمة خلق الأرض ، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض ، وبنعمة الله

على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله .

وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان .

وتحذير الناس من التلبس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إياهم حرمان أنفسهم الطيبات ،

ومن الوقوع فيما يزج بهم في العذاب في الآخرة .

ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين .

والتذكير بالبعث وتقريب دليله .

والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان .

والتذكير ببديع ما أوجده الله صلاحها وإحيائها .

والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإصلاح .

(55/260)

وأفاض في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين ، ومما لاقوه من عنادهم وأذاهم ، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله الناس قبل أن ينزل بهم العذاب ، وإعذارا لهم ان يقلعوا عن كفرهم وعنادهم ، فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال .

وأطال القول في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام .

وتخلل قصته بشارة الله ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أمته وفضل دينه .

ثم تخلص إلى موعظة المشركين كيف بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك ، وضرب لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى .

ووصف حال أهل الضلالة ووصف تكذيبهم بما جاء به الرسول ووصف آلهتهم بما ينافي الإلهية وأن لله الصفات الحسنى صفات الكمال .

ثم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمسلمين بسعة الصدر والمداومة على الدعوة وحذرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته .

انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير جـ 8 صـ 5 . 8﴾

(56/260)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الأعراف

(المص)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

التعريف بسورة الأعراف هذه سورة مكية – كسورة الأنعام – موضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي . . العقيدة . . ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان في معالجة هذا الموضوع الواحد , وهذه القضية الكبيرة !

إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة , وذات ملامح متميزة , وذات منهج خاص , وذات أسلوب معين , وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد , وهذه القضية الكبيرة .

إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية , ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة , وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع , وتحقيق هذه الغاية .

إن الشأن في سور القرآن – من هذه الوجهة – كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة . . كلهم إنسان , وكلهم له خصائص الإنسانية , وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني . . ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع . نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح , وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة !

هكذا عدت أتصور سور القرآن . وهكذا عدت أحسها , وهكذا عدت أتعامل معها . بعد طول الصحبة , وطول الألفة , وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته , وملامحه وسماته !

وأنا أجد في سور القرآن – تبعا لهذا – وفرة بسبب تنوع النماذج , وأنسا بسبب التعامل الشخصي الوثيق ; ومتاعا بسبب اختلاف الملامح والطباع , والاتجاهات والمطالع !

إنها أصدقاء . . كلها صديق . . وكلها أليف . . وكلها حبيب . . وكلها ممتع . . وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة , وألواناً من المتاع جديدة , وألواناً من الإيقاعات , وألواناً من المؤثرات , تجهل لها مذاقاً خاصاً , وجواً متفرداً .

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة . . رحلة في عوالم ومشاهد , ورؤى وحقائق , وتقريرات وموحيات , وغوص في أعماق النفوس , واستجلاء لمشاهد الوجود . . ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة ومع كل سورة .

(57/260)

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة . وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة . . ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ; وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ; وتواجه الجاهلية العربية في حينها – وكل جاهلية أخرى كذلك – مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق ; وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة التي تحدثنا عنها إجمالاً وتفصيلاً ونحن نقدم السورة ونستعرضها – في الجزء السابع

وفي هذا الجزء أيضاً – ووقفنا أمامها ما شاء الله أن نقف . . بينما سورة الأنعام تتخذ هذا المنهج , وتسلك ذلك الطريق . . نجد سورة الأعراف – وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك – تأخذ طريقاً آخر , وتعرض موضوعها في مجال آخر . . إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري . . في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى , وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها . . وفي هذا المدى المتطاول تعرض "موكب الإيمان" من لدن آدم – عليه السلام – إلى محمد – (صلى الله عليه وسلم) – تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ . يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل , وقبيلاً بعد قبيل . . ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة . .

إنها رحلة طويلة طويلة . . ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة , وتقف منها عند معظم المعالم البارزة , في الطريق المرسوم . ملامحه واضحة , ومعالمه قائمة , ومبدؤه معلوم , ونهايته مرسومة . . والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة . ثم تقطعه راجعة . . إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى . .

لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء , ممثلة في شخصين اثنين . . آدم وزوجه . . أبوي البشر . . وانطلق معهما الشيطان . مأذونا من الله في غوايتهما وغواية ذراريهما ومأخوذاً عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك . ومبتلي كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ; ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة ; وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ , أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله , ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم !

(59/260)

انطلقت البشرية من هناك . . من عند ربها سبحانه . . انطلقت إلى الأرض . تعمل وتسعى , وتكد وتشقى , وتصلح وتفسد , وتعمر وتخرب , وتتنافس وتتقاتل , وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد . . ثم ها هي ذي تؤوب ! ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال . . ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة . . من ورد وشوك . ومن غال ورخيص , ومن ثمين وزهيد , ومن خير وشر ,

ومن حسنات وسيئات . ها هي ذي تعود في أصيل اليوم . . فقد انطلقت في مطلعه ! .

. وها نحن أولاء نلمحها من خلال السياق في السورة موقورة الظهور بالأحمال – أيا كانت هذه الأحمال – ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها . تظلع في الطريق , وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير . حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان , ووقف يرتقب في خشية ووجل . . إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً . . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! وكل فرد على حدة يلاقي حسابه , ويلقى جزاءه . . ويظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية , فوجاً فوجاً . إلى جنة أو إلى نار . حتى تغلق الأبواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين . فقد كانوا هنالك في هذه الأرض مغتربين: (كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة , إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله , ويحسبون أنهم مهتدون) . .

(60/260)

وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل . معارك الهدى والضلال . معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين , مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين . ويعرض الصراع المتكرر ; والمصائر المتشابهة . وتتجلي صحائف الإيمان في إشراقها

ووضاءتها ; وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها . وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين . حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير . . وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة . فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة ! كلمة تعقيب . للإنذار والتذكير . . ثم يمضي .

إنها قصة البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً . تتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية , ونتائج هذه الحركة في مداها المتطاول . . حتى تنتهي إلى غايتها الأخيرة في نقطة المنطلق الأولى . . وهي وجهة أخرى في عرض موضوع العقيدة غير وجهة سورة الأنعام – وإن تلاقت السورتان أحيانا في عرض مشاهد المكذبين وعرض مشاهد القيامة ومشاهد الوجود – وهو مجال آخر للعرض غير مجال الأنعام , واضح التميز , مختلف الحدود . ذلك إلى طبيعة التعبير في السورتين . فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها في عرض الموضوع . وبينما يمضي السياق في الأنعام في موجات متدافعة ; وبينما تبلغ المشاهد دائما درجة اللألاء والتوهج والالتماع , وتبلغ الإيقاعات درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع . . إذا السياق في الأعراف يمضي هادئ الخطو , سهل الإيقاع , تقريري الأسلوب . وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد , خطوة خطوة , ومرحلة مرحلة , حتى تؤوب ! وقد يشتد الإيقاع أحياناً في مواقف التعقيب ; ولكنه سرعان ما يعود إلى الخطو الوئيد الرتيب !

. . وهما – بعد – سورتان مكيتان من القرآن . . ! ! !

ولعله يحسن هنا أن نستعرض منهج السورة في معالجة موضوع العقيدة في صورة حركة لهذه العقيدة في تيار التاريخ البشري . .

(61/260)

إن السورة لا تعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشري , ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة . . مجرد عرض في أسلوب قصصي . . إنما هي تعرضها في صورة معركة مع الجاهلية . . ومن ثم فإنها تعرضها في مشاهد ومواقف ; وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن ; فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة ; ويخاطبهم بما فيها من عبر ; مذكرا ومنذرا ; ويخوض معهم معركة حقيقية حية . . ومن ثم تجيء التعقيبات في السياق عقب كل مرحلة أساسية ; موجهة لأولئك الأحياء الذين كان القرآن يخوض معهم المعركة ; وموجهة كذلك إلى أمثالهم ممن يتخذون موقفهم على مدار التاريخ .

إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا . . إنه يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي . إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد , ولا

يقص قصصه لمجرد المتاع الفني !

ويركز السياق على التذكير والإنذار في وقفاته للتعقيب . كما يركز على نقطة الانطلاق , وعلى نقطة المآب . وبينهما يمر بقصص قوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح , وقوم لوط , وقوم شعيب . ثم يركز تركيزاً شديداً على قصة قوم موسى .

وفي هذه التقدمة للسورة لا نملك إلا أن نعرض نماذج مجملة لمواضع التركيز في السورة:

تبدأ السورة على هذا النحو:

آلمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به , وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون . .

(62/260)

فهي منذ اللحظة الأولى خطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن . . وكل ما يجيء في السورة بعد ذلك من قصص , ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة , وعودتها من الرحلة المرسومة , وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة . . إنما هو خطاب غير مباشر , – وأحيانا مباشر – للنبي (صلى الله عليه وسلم) وقومه للإنذار والتذكير , كما يشير هذا المطلع القصير .

وقول الله – سبحانه – لرسوله (صلى الله عليه وسلم) :

(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) . .

يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذي يعيش في جاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ; ويعلم أنه إنما يستهدف أمراً هائلاً ثقيلاً , دونه صعاب جسام . . يستهدف إنشاء عقيدة وتصور , وقيم وموازين , وأوضاع وأحوال مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن في دنيا الناس . ويجد من رواسب الجاهلية في النفوس , ومن تصورات الجاهلية في العقول , ومن قيم الجاهلية في الحياة , ومن ضغوطها في الأوضاع والأعصاب , ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التي يحملها , غريبة على البيئة , ثقيلة على النفوس ; مستنكرة في القلوب . . كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس في جاهليتهم من التصورات والأفكار , والقيم والموازين , والشرائع والقوانين , والعادات والتقاليد , والأوضاع والارتباطات . . ومن ثم يجد في صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل , الحرج الذي يدعو الله – سبحانه – نبيه (صلى الله عليه وسلم) ألا يكون في صدره من هذا الكتاب شيء منه ; وأن يمضي به ينذر ويذكر ; ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار , ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء . .

ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم , فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم , ويذكرهم بمصائر المكذبين , ويعرض عليهم مصارع الغابرين . . جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق:

وكم من قرية أهلكناها , فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا :إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق , فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون . .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة . . تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض . . وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض . وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ; ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها ;والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته:

(ولقد مكناكم في الأرض , وجعلنا لكم فيها معايش . قليلا ما تشكرون) . .

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى , وتصوير نقطة الانطلاق التي بدأت منها

البشرية رحلتها المرسومة . والسياق يركز في هذه السورة على هذه النقطة ; ويعرض قصة النشأة , ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير , المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية , ومؤثرات عميقة:

(64/260)

ولقد خلقناكم ثم صورناكم , ثم قلنا للملائكة:اسجدوا لآدم , فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال:ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ? قال:أنا خير منه , خلقتني من نار وخلقته من طين . قال:فاهبط منها , فما يكون لك أن تتكبر فيها , فاخرج إنك من الصاغرين . قال:أنظرني إلى يوم يبعثون . قال:إنك من المنظرين . قال:فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم , ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال:اخرج منها مذؤوماً مدحوراً , لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة , فكلا من حيث شئتما , ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما , وقال:ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما :إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور , فلما ذاقا

الشجرة بدت لهما سوآتهما , وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة , وناداهما ربهما :ألم أنهكما عن تلكما الشجرة , وأقل لكما :إن الشيطان لكما عدو مبين ? قالا :ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال:اهبطوا بعضكم لبعض عدو ; ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال:فيها تحيون , وفيها تموتون , ومنها تخرجون .

.

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها , ومصائر المرتحلين جميعا . . وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة , بين هذا العدو الجاهر بالعداوة , وبني آدم جميعا . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة , ومنافذ الشيطان إليه منها .

(65/260)

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل , بالإنذار والتحذير . . تحذير بني آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد . . وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجها لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر . وفي ظل النتيجة التي انتهى إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه السياق بالخطاب إلى بني آدم , يذكرهم وينذرهم , ويحذرهم مصيراً

كهذا المصير:

يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً , ولباس التقوى ذلك خير , ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة , ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما , إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم , إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . .

(يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . .

ولا بد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور , والخصف من ورق الجنة ; ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به , وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم . .

لا بد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك . حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا , ويحرمون أنواعاً من الثياب , وأنواعا من الطعام في فترة الحج . ويزعمون أن هذا من شرع الله , وأن الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم . . ومن ثم يجيء في استعراض قصة البشرية , وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه

الحالة الواقعية في الجاهلية . . وفي كل جاهلية في الحقيقة . . أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى ؟

(66/260)

وهذا يدلنا على سمة من سمات المنهج القرآني جديرة بالتأمل . . إنه حتى القصص في القرآن لا يسرد إلا لمواجهة حالة واقعة بالفعل . ولأنه يواجه – في كل مرة – حالة معينة , فإن الحقيقة التي تذكر منه والحلقة التي تعرض في موضع من المواضع , تعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوها . .

وهذا بالإضافة إلى ما قلناه عن المنهج القرآني في التعريف بسورة الأنعام – في الجزء السابع – يكون قاعدة هامة . . هي أن المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة . . إنه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام – ولا حتى القصص – إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها . .

والآن – وقبل أن تنطلق القافلة في طريقها , وقبل أن يواجهها الرسل بالهدى , وقبل أن يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأولى . . الآن يبادر بتصوير مشهد النهاية , نهاية المرحلة الكبرى , وذلك على طريقة القرآن

الغالبة في عرض الرحلة بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء , كأنما هي رحلة متصلة ممدودة .

وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة , وأكثرها تفصيلاً , وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع . . وموقعه في السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء إبليس له ولزوجه ; وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ; وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته . . موقعه كذلك يجعله مصداقاً لما ينبىء به أولئك الرسل . فإذا الذين أطاعوا الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة , وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ; وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الله قد ردوا إلى الجنة , ونودوا : (أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) . . فعاد المغتربون إلى دار النعيم ! ! !

والمشهد طويل لا نملك إثباته هنا في هذا التعريف المجمل وسنواجهه فيما بعد بالتفصيل .

والسياق يتخذ من هذا المشهد مناسبة للتعقيب بالإنذار والتذكير , وتحذير الذين يواجهون القرآن بالتكذيب , ويطلبون الخوارق لتصديقه , من سوء المصير:

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم , هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ? يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق . فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا , أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ? قد خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون) . .

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد , من المنشأ إلى المعاد , يقف السياق ليعقب عليها , مقرراً "حقيقة الألوهية" و"حقيقة الربوبية" في مشاهد كونية ; تشهد بهذه الحقيقة ; على طريقة القرآن في جعل هذا الكون كله مجالاً تتجلى فيه هذه الحقيقة بآثارها المبدعة , العميقة الإيحاء للقلب البشري حين يستقبلها بالحسا المفتوح والبصيرة المستنيرة . وهدف هذه الرحلة الأساسي في مشاهد الكون وأسراره هو تجلية الحقيقة الاعتقادية الأساسية: وهي أن هذا الكون بجملته يدين بالعبودية لله وحده , فالله هو ربه وحاكمه . فأولى بالإنسان أن لا يكون نشازاً في لحن الوجود المؤمن ; وألا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذي له الخلق والأمر . . وهو رب العالمين . .

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً , والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر , تبارك الله رب العالمين . ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها , وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين . وهو

الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته , حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت , فأنزلنا به الماء ; فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه , والذي خبث لا يخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون .

(68/260)

والآن تمضي الرحلة , وتجري القصة , ويبرز الموكب الإيماني الجليل , يهتف بالبشرية الضالة , يذكرها وينذرها , ويحذرها سوء المصير . والبشرية الضالة تلوي وتعاند , وتواجه الدعوة الخيرة بالعناد والتمرد ; ثم بالطغيان والبطش . . ويتولى الله سبحانه المعركة بعد أن يؤدي الرسل واجبهم من التذكير والإنذار , فيقابلوا من قومهم بالتكذيب والإعراض , ثم بالبطش والإيذاء . وبعد أن يفاصلوا قومهم على العقيدة , ويختاروا الله وحده ويدعوا له الأمر كله .

ويعرض السياق قصة نوح , وقصة هود , وقصة صالح وقصة لوط , وقصة شعيب . . مع أقوامهم , وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . ويجادلهم قومهم في إفراد الله سبحانه بالألوهية , ويستنكرون أن تكون لله

وحده الربوبية . كما يجادلونهم في إرسال الله بشراً من الناس بالرسالة ! ويجادل بعضهم في أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا , ويتحكم في التعاملات المالية والتجارية ! – وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة في هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون , ويسمون هذا الجدل الجاهلي القديم تحرراً "وتقدمية" ! – ويعرض السياق مصارع المكذبين في نهاية كل قصة .

ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله في السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . ويتقدم لهم بالحقيقة التي استحفظه عليها ربه تقدم الناصح المخلص , المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التي تتربص بهم وهم عنها غافلون . ولكنهم لا يقدرون نصح رسولهم لهم ; ولا يتدبرون عاقبة أمرهم , ولا يستشعرون عمق الإخلاص الذي يحمله قلب الرسول , وعمق التجرد من كل مصلحة , وعمق الإحساس بضخامة التبعة . .

ويكفي أن نثبت هنا ما ورد عن قصة نوح – أول القصص – وما ورد عن قصة شعيب , آخر هذه الجملة من القصص , التي يقف السياق بعدها للتعقيب:

لقد أرسلنا نوحا إلى قومه , فقال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال:يا قوم ليس بي ضلالة , ولكني رسول من رب العالمين . أبلّغكم رسالات ربي , وأنصح لكم , وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم , ولتتقوا , ولعلكم ترحمون ? فكذبوه , فأنجيناه والذين معه في الفلك , وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا , إنهم كانوا قوما عمين) . . .

وإلى مدين أخاهم شعيبا قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم , فأوفوا الكيل والميزان , ولا تبخسوا الناس أشياءهم , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به , وتبغونها عوجا , واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم , وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا , وهو خير الحاكمين , قال الملأ الذين استكبروا من قومه:لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . قال:أو لو كنا كارهين ? قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها , وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شيء علماً – على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه:لئن اتبعتم

شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة , فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي , ونصحت لكم , فكيف آسى على قوم كافرين ? . .

(70/260)

ويمثل هذان النموذجان بقية القصص بينهما . سواء في تصوير حقيقة العقيدة الواحدة التي أرسل الله بها رسله جميعاً لأبناء آدم – كل في قومه – أو في تلقي الملأ المستكبرين والأتباع المستضعفين لهذه الحقيقة . أو في وضوح هذه العقيدة وحسمها في نفوس الرسل وأتباعهم . أو في روح النصح والرغبة في هداية قومهم . . ثم في مفاصلتهم لأقوامهم عندما يتبين لهم عنادهم وإصرارهم الأخير ثم في إدارة الله – سبحانه للمعركة , وأخذ المكذبين بعد مفاصلة رسلهم لهم , والانتهاء من إنذارهم وتذكيرهم . وعتو المكذبين وإصرارهم على ما هم فيه .

وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب . يبين فيها سنة الله في تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون . إذ يأخذهم أولا بالضراء والبأساء , لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب . فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء – وهو أشد فتنة من

البأس – حتى تلتبس عليهم سنة الله , ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون ! . .

وبعد بيان هذه السنة يهز قلوبهم بالخطر الذي يتهددهم في غفلاتهم . فمن يدريهم أن قدر الله يتربص بهم , ليجري فيهم سنته تلك ? أفلا تهديهم مصارع الغابرين , وهم في ديارهم يسكنون ?

(71/260)

وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرّعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا , وقالوا :قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض , ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ? أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ? أفأمنوا مكر الله ? فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم , ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . . تلك القرى نقص عليك من أنبائها , ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات , فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل , كذلك

يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد , وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين . .

بعد ذلك يعرض السياق قصة موسى مع فرعون وملئه , ومع قومه بني إسرائيل: وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية ; وتعرض منها حلقات شتى ; ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب ; كما يقف في نهايتها لتعقيب طويل حتى نهاية السورة .

ولقد وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - قبل ذلك - حسب ترتيب النزول - في سور: المزمل , والفجر , وق , والقمر . . وكلها إشارات قصيرة . وهذه أول سورة بعد تلك السور تجيء فيها هذه الحلقات الطويلة , في هذه المساحة العريضة . .

وقد شملت حلقة مواجهة فرعون بحقيقة العقيدة . وحلقة التحدي والسحرة - وهما كثيرتا الورود في السور الأخرى - وحلقة أخذ آل فرعون بالسنين والآفات وإرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم - التي لم تفصل إلا في هذه السورة - وحلقة إغراق فرعون والملأ من قومه . . ثم استمر السياق مع بني إسرائيل . وطلبهم من موسى أن يجعل

لهم إلهاً – صنما – كالقوم الذين مروا عليهم بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم للبحر !

وحلقة ميقاته مع ربه وطلبه رؤيته ودك الجبل وصعقه وتنزيل الألواح عليه . وحلقة اتخاذ قومه للعجل في غيبته . وحلقة الميقات الثاني مع السبعين من قوم موسى وأخذ الصاعقة لهم حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . وحلقة عصيانهم في دخول القرية وفي صيد السمك يوم السبت ! وحلقة نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة . . وكلها معروضة بتفصيل واسع, مما جعل القصة تستغرق حزباً كاملاً من السورة .

وفي موقف من مواقف القصة يُدخل السياق الرسالة النبوية الأخيرة ويصف طبيعتها وحقيقتها . وذلك عندما دعا موسى – عليه السلام – ربه في شأن من صعقوا من قومه ; واستنزل رحمته – سبحانه – على هذا النحو الذي يتداخل فيه القصص لتأدية غرض المعركة التي يخوضها القرآن فعلاً:

(73/260)

(واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا , فلما أخذتهم الرجفة , قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي , أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ? إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء , أنت ولينا , فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه

الدنيا حسنة وفي الآخرة , إنا هدنا إليك . قال:عذابي أصيب به من أشاء , ورحمتي وسعت كل شيء , فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة . والذين هم بآياتنا يؤمنون:الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل , يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث , ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه , ونصروه , واتبعوا النور الذي أنزل معه , أولئك هم المفلحون) .

وفي ظل هذا النبأ الصادق من الله , والوعد السابق برسالة النبي الأمي , يأمر الله النبي أن يعلن طبيعة رسالته , وحقيقة دعوته , وحقيقة ربه الذي أرسله , والأصل الاعتقادي الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من قبله:

(قل:يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت , فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون) . .

ثم تواصل القصة سيرها بعد هذه الوقفة , إلى موقف العهد ونتق الجبل وأخذ الميثاق . وفي ظل مشهد الميثاق والعهد على بني إسرائيل يذكر العهد المأخوذ على فطرة البشر أجمعين:

(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ?

قالوا: بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم, أفتهلكنا بما فعل المبطلون ?) . .

(74/260)

ويمضي السياق بعد ذلك في تعقيبات منوعة, يعرض في أحدها بعد مشهد العهد الفطري مباشرة, مشهد الذي آتاه الله آياته ثم انسلخ منها - كبني إسرائيل وككل من يؤتيه الله آياته ثم ينسلخ منها ! - وهو مشهد يذكرنا بصوره وحركته وإيقاعه والتعقيب عليه بمشاهد سورة الأنعام وجوها كذلك:

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها, فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها, ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه, فمثله كمثل الكلب: إن تحمل عليه يلهث, أو تتركه يلهث ! ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ; فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدي, ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس, لهم قلوب لا يفقهون بها, ولهم أعين لا يبصرون بها, ولهم آذان لا يسمعون بها, أولئك كالأنعام بل هم أضل, أولئك هم الغافلون . .

ثم يمضي السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثاً مباشراً . ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس الله وأخذه ; ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا في شأن الرسول ورسالته . . .

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها , وذروا الذين يلحدون في أسمائه , سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم , إن كيدي متين . أو لم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة , إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض , وما خلق الله من شيء , وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ? فبأي حديث بعده يؤمنون ? من يضلل الله فلا هادي له , ويذرهم في طغيانهم يعمهون . .

ثم يأمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها . وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التي يخوفهم بها !

(75/260)

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ? ! قل: إنما علمها عند ربي , لا يجليها لوقتها إلا هو , ثقلت في السماوات والأرض , لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل: إنما

علمها عند الله , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً - إلا ما شاء الله - ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) . .

ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس - التي أخذ الله عليها العهد الذي أسلفنا - عن التوحيد الذي أقرت به فطرتها ; ويستنكر تصورات الشرك ومعبوداته ; ويوجه رسوله (صلى الله عليه وسلم) في نهاية هذه الفقرة إلى تحديهم وتحدي آلهتهم العاجزة:

(قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا , وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . .

ومن هنا إلى ختام السورة يتجه السياق إلى خطاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما كان افتتاحها خطاباً له - كيف يعامل الناس ? كيف يمضي بهذه الدعوة ? كيف يستعين على متاعب الطريق ? كيف يكظم غضبه وهو يعاني من نفوس الناس وكيدهم ? كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن ? كيف يذكر ربه ويبقى موصولا به ? كما يذكره من عنده في الملأ الأعلى - سبحانه -:

خذ العفو , وأمر بالعرف , وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله , إنه سميع عليم ; إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا :لولا اجتبيتها ! قل :إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي . هذا بصائر من ربكم , وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته , ويسبحونه , وله يسجدون . .

ولعل هذا التلخيص , وهذه المقتطفات الكثيرة من السورة , أن تصور ملامحها الخاصة ; وتميزها عن أختها سورة الأنعام في هذه الملامح . وفي منهج العرض . مع معالجة موضوع واحد . . موضوع العقيدة . .

وقد أرجأنا كل تفسير للنصوص , وكل تفصيل للموضوع الذي تحمله , إلى المواجهة التفصيلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1243 . 1253 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الأعراف

مكية وآياتها ست ومائتان

بين يدي السورة

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية ، تقرير (أصول الدعوة) الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة . - ، فعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم " معجزة محمد " الخالدة ، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن ، على الإنسانية جمعاء ، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ، ليفوزوا بسعادة الدارين .

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد ، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ، ممثلا في أب البشر آدم عليه السلام ، الذي أمر الله الملائكة بالسجود له ، ثم حذرت من كيد (الشيطان) ذلك العدو المتربص ، الذي قعد على طريق الناس ، ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم .

* وقد ذكر تعالى قصة (آدم) مع إبليس وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، كنموذج للصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته ، ولهذا

وجه الله إلى أبناء آدم – بعد أن بين لهم عداوة إبليس لأبيهم – أربعة نداءات متتالية ، بوصف البنوة لآدم [يا بني آدم] وهو نداء خاص بهذه السورة ، يحذرهم بها من عدوهم ، الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن ، حين وسوس لأبيهم آدم ، حتى أوقعه في الزلة والمخالفة لأمر الله [يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما . .] . ، كما تعرضت السورة الكريمة لمشهد من المشاهد الواقعة يوم القيامة ، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة : فرقة المؤمنين (أصحاب الجنة) وفرقة الكافرين (أصحاب النار) وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وهي الفرقة التي سميت ب (أصحاب الأعراف) وسميت باسمها السورة (سورة الأعراف) مشهد سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء ، على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل ، تبين ما يكون فيه من شماتة أهل الحق (أصحاب الجنة) بالمبطلين (أصحاب النار) ، وينطلق صوت علوي يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ، ووقف عليه رجال يعرفون كلا بسيماهم ، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها ، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها .

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب (نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى " وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء " نوح " عليه السلام ، وما لاقاه من قومه من جحود وعناد ، وتكذيب وإعراض ، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون

الطاغية ، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ، ثم من أمن ورخاء ، وكيف لما بدلوا نعمة الله ، وخالفوا أمره ، عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير .

(78/260)

---

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء ، وصورتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال ان يتصوره ، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال [ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث] وتلك لعمر الحق اقبح صورة مزرية ، لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني ، وكان العلم خزيا ووبالا عليه ، لأنه لم ينتفع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة ، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصورهم ، ويعلم متقلبهم ومثواهم ، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البدء

والختام .

التسمية :

سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم (الأعراف) فيها ، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما ، روى ابن جرير عن حذيفة انه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار ، فوقفوا هنالك على السور ، حتى يقضي الله فيهم بحكمه العادل . التفسيرسورة الأعراف

قال الله تعالى : [المص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه . . إلى . . ويحسبون أنهم مهتدون] من آية (1) إلى نهاية آية (30) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 435 ﴾

(79/260)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الأعراف

(المص) هذه حروف تكتب بصورة كلمة من ذوات الأربعة الأحرف ، لكنا نقرؤها بأسماء هذه الأحرف فنقول : ألف . لام . ميم . صاد .

وحكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء الحروف التي ليس لها معنى مفهوم غير مسماها الذي تدل عليه – تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء فكأنه أداة استفتاح بمنزلة ألا وها التنبيه .

وبالاستقراء نرى أن السور التي بدئت بها وبذكر الكتاب ، هى التي نزلت بمكة لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحى ، وما نزل منها بالمدينة كالزهراوين البقرة وآل عمران ، فالدعوة فيه موجهة إلى أهل الكتاب ، وهكذا الحال فى السور : مريم والعنكبوت والروم وص ون ، فإن ما فيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة فى الدين بإيذاء الضعفاء لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة ، والإنباء بقصص فارس والروم ونصر اللّه للمؤمنين على المشركين ، وكان هذا من أظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم .

ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور ، والأسماء المرتجلة لا تعلّل ، كما يرى آخرون أن الحكمة فى ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من هذه الأحرف المفردة التي يتألف منها الكلام العربي ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، ليؤديهم النظر إلى أنه ليس من كلام البشر ، بل من كلام خالق القوى والقدر والحرج :

الضيق من عاقبة المخالفة ، والذكرى : التذكر النافع والموعظة المؤثرة ، وولاية اللّه لعباده :

تولى أمورهم فبما لا يصل إليه كسبهم من هدايتهم ونصرهم على أعدائهم ، وشرعه لهم عبادته وبيان الحرام والحلال ، و(ما) فى قوله قليلا ما – حرف يؤكد معنى القلة ، وتذكرون : أصله تتذكرون حذفت منه إحدى التاءين

(80/260)

(كَمْ) اسم يفيد التكثير ، والقرية : تطلق على الموضع الذي يجتمع فيه الناس وعلى الناس معا ، وتطلق على كل منهما كما جاء فى قوله : " وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ " أي أهل القرية ، والقرية هنا تصلح لأن يراد بها القوم أنفسهم ، وأن يراد بها المكان لأنه يهلك كما يهلك أهله ، والبيات : الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرّة ، والبأس : العذاب والقائلون : هم الذين ينامون استراحة وسط النهار أي حين القائلة يقال : قال يقيل قيلا وقيلولة ، والدعوى : ما يدعيه الإنسان ، وتطلق على القول أيضا .

مكناكم فى الأرض ، أي جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوءونها وتتمكنون من الإقامة فيها ، والمعايش واحدها معيشة : وهى ما تكون به العيشة والحياة الجسمانية الحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرها ، وهى ضربان :

(1) ما يحصل بخلق اللّه ابتداء كالثمار وغيرها .

(2) ما يحدث بالاكتساب .

وكلاهما إنما يحصل بفضل اللّه وإقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاما من اللّه ، وذلك مما يوجب طاعته .

الخلق : التقدير ، يقال خلق الخياط الثوب : أي قدّره قبل قطعه ، وخلق اللّه الخلق : أوجدهم على تقدير أوجبته الحكمة ، والهبوط : الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه أو من منزلة إلى ما دونها ، فهو إما حسى وإما معنوى ، والتكبر : جعل الإنسان نفسه أكبر مما هى عليه ، والصغار : الذلة والهوان ، وأنظره : أخره ، والإغواء : الإيقاع فى الغواية : وهى ضد الرشاد ، وذأم الشيء : عابه ، ودحر الجند العدو ، طرده وأبعده .

(81/260)

أصل الوسوسة : الصوت الخفي المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلي وسوسة ، ووسوسة الشيطان للبشر : ما يجدونه فى أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزّين لهم ما يضرهم فى أبدانهم أو أرواحهم ، وروى الشيء : غطّى وستر ، والسوءة : ما يسوء الإنسان أن يراه غيره من أمر شائن وعمل قبيح ؟ وإذا أضيفت إلى الإنسان أريد بها عورته الفاحشة ، لأنه

يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطري . من الخالدين : أي الذين لا يموتون أبدا ، وقاسمهما : أي أقسم وحلف لهما ، ودلّى الشيء تدلية : أرسله إلى أسفل رويدا رويدا ، والغرور : الخداع بالباطل ، طفقا : أي أخذا وشرعا ، يخصفان :

أي يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قولهم : خصف الإسكافي النعل : إذا وضع عليها مثلها .

الريش : لباس الحاجة والزينة ، ولباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواش والمغافر وغيرها مما يتّقى به فى الحرب ، والفتنة : الابتلاء والاختبار ، من قولهم : فتن الصائغ الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزّيف من النّضار ، والقبيل : الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

الفاحشة : الفعلة المتناهية فى القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراة كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون : لا نطوف بيت ربنا فى ثياب عصيناه بها ، والقسط : الاعتدال فى جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط ، وإقامة الشيء : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط ، والوجه : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما فى قوله " فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما فى قوله : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً "

الفواحش : واحدها فاحشة ، وهى الخصلة التي يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ، ويطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهي فى القبح . والإثم لغة : القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصي كبائرها كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة ، والبغي : تجاوز الحد : وقد قالوا بغى الجرح :

إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى : " فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ " .

المراد بالآيات هنا : الآيات الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة على وجود اللّه ووحدانيته ، والأدلة على النبوة والبعث يوم القيامة ، والجمل : هو البعير البازل أي الذي طلع نابه ، وسمّ الخياط : ثقب الإبرة ، وأصل الإجرام : قطع الثمرة من الشجرة ، ثم استعمل فى كل إفساد كإفساد الفطرة بالكفر وما يترتب على ذلك من الخرافات والمعاصي ، والمهاد : الفراش ، والغواشي : واحدها غاشية ، وهى ما يغشى الشيء أي يغطّيه ويستره كاللحاف ونحوه .

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان حال السعة والسهولة ، لا حال الضيق والشدة ، والنزع : قلع

الشيء من مكانه ، والغل : الحقد من عداوة أو حسد ، أورثتموها ، أي صارت إليكم بلا منازع كما يصير الميراث إلى أهله .

(83/260)

الوعد خاص بما كان فى الخير ، أو يشمل الخير والشر وهو الصحيح ، والوعيد خاص بالشر أو السوء ، فتسمية ما كان لأهل النار وعدا إما من قبيل التهكم أو للمشاكلة ، والتأذين : رفع الصوت بالإعلام بالشيء ، واللعنة : الطرد والإبعاد مع الخزي والإهانة ، وصدّ عن الشيء : أعرض عنه ، وعوجا : أي ذات عوج أي غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد ، والعوج (بفتح العين) مختص بالمرئيات (وبكسر العين) مختص بما ليس بمرئىّ كالرأى والقول ، والحجاب هو السور الذي بين الجنة والنار كما قال فى سورة الحديد : " فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ " والأعراف واحدها عرف (بزنة قفل) وهو أعلى الشيء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك والفرس والسحاب ، والسيما والسيمياء : العلامة ، وصرفت أي حوّلت . والتلقاء : جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة ، يقال فلان تلقاء فلان إذا كان حذاءه . الكتاب هو القرآن الكريم ، والتفصيل جعل المسائل المراد بيانها مفصولا بعضها من بعض

بما يزيل اشتباهها وينظرون أي ينتظرون ، وتأويله أي عاقبته ، والحق هو الأمر الثابت ، والخسران : الغبن ، وضل عنهم ، أي غاب عنهم .

(84/260)

الرب : هو السيد والمالك والمدبر والمربى ، والإله : هو المعبود الذي يدعى لكشف الضر أو جلب النفع ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه ، واللّه : اسم الخالق الخلق أجمعين ، ولا يثبت الموحّدون ربا سواه ، وأكثر المشركين يقولون إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة ، وكان مشركوا العرب لا يثبتون ربا سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ، والسموات والأرض : يراد بهما العالم العلوي والعالم السفلى ، واليوم : الزمن الذي يمتاز عن غيره بما يحدث فيه كامتياز اليوم المعروف بما يحده من النور والظلام ، وامتياز أيام العرب بما كان يقع فيها من الحرب والخصام ، وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض وهى التي مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة ، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يعدّ خلقها بأيام منها ، ولأن اللّه تعالى يقول " وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ " ويقول فى وصف يوم القيامة " فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " والعرش لغة : كل شىء له سقف ، ويطلق على هودج للمرأة يشبه عريش الكرم ، وعلى

سرير الملك وكرسيه فى مجلس الحكم والتدبير ، والاستواء لغة : استقامة الشيء واعتداله ، واستوى الملك على عرشه أي ملك ، وثلّ عرشه أي هلك ، وغشّى الشيء الشيء : ستره وغطاه ، وأغشاه إياه : جعله يغشاه أي يغطّيه ويستره ، ومنه إغشاء الليل النهار ، وحثيثا أي مسرعا ، من قولهم فرس حثيث السير أي سريعه ، بأمره أي بتدبيره وتصرفه . مسخرات أي مذلّلات خاضعات لتصرفه ، منقادات لمشيئته والخلق : التقدير والمراد هنا الإيجاد بقدر تبارك اللّه : تعاظمت بركاته والبركة : الخير الكثير الثابت .

(85/260)

التضرع : التذلل ، وهو إظهار ذل النفس من قولهم ضرع فلان لفلان وتضرّع له : إذا أظهر الذل فى معرض السؤال ، والخفية : ضد العلانية من أخفيت الشيء أي سترته ، والاعتداء : تجاوز الحدود ، ومحبة اللّه للعمل : ثوابه عليه ، ومحبته للعامل : رضاه عنه .

الريح : الهواء المتحرك ، والرياح عند العرب أربع بحسب مهابّها من الجهات الأربع : الشّمال والجنوب ، وسميا كذلك باسم الجهة التي يهبان منها . والصّبا أو القبول وهى الشرقية وقد ينسبونها إلى نجد كما ينسبون الجنوب إلى اليمن والشمال إلى الشام .

والدّبور ، وهى الغربية . والريح التي تنحرف عن الجهات الأصلية فتكون بين اثنتين منها يسمى النّكباء .

قال الراغب : كل موضع ذكر اللّه فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة ،

وفى الخبر " إنه صلى اللّه عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه حين هبوب الرياح ويقول : اللهم اجعلها لنا رياحا ولا تجعلها ريحا ، اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك " .

وبشرا : مخفف بشرا واحدها بشير : كغدر جمع غدير ، والرحمة هنا المطر ، وأقلّت : رفعت قال فى المصباح : كل شىء حملته فقد أقللته ، والسحاب : الغيم واحده سحابة ، والثقال منه : المشبعة ببخار الماء ، وسقناه : سيرناه ، والبلد والبلدة : الموضع من الأرض عامرا كان أو خلاء ، وبلد ميت : أرض لا نبات فيها ولا مرعى ، والثمرات واحدها ثمرة ، والثمرة واحدة الثمر : وهو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أولا ، فيقال ثمر الأراك وثمر النخل والعنب ، والنكد كل شىء خرج إلى طالبه بتعسر يقال رجل نكد (بفتح الكاف وكسرها) وناقة نكداء : خفيفة الدر صعبة الحلب ، والتصريف : تبديل الشيء من حال إلى حال ، ومنه تصريف الرياح .

اليوم هنا : يوم القيامة ، والملأ : أشراف القوم لأنهم يملئون العيون بهجة ورواء بتأنقهم فى زيّهم وتجميل منظرهم ، والنصح : الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية

من شوائب المكر ، والذكر : الموعظة ، وعلى رجل أي على لسانه ، منكم أي من جنسكم ، والفلك : السفينة ، وعمين واحدهم عم : وهو ذو العمى ، أو هو خاص بعمى القلب والبصيرة ، والأعمى أعمى البصر كما قال زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

الأخ هنا : الأخ فى النسب ، وتقول العرب فى أخوة الجنس يا أخا العرب ، والسفاهة : خفة العقل ، والآلاء واحدها ألى : وهى النعمة ، والرجس : العذاب ، والغضب : الانتقام ، والمجادلة : المماراة والمخاصمة ، والسلطان : الحجة والدليل ، والدابر : الآخر ، ويراد به الاستئصال أي أهلكناهم جميعا .

ثمود : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح وأخوّة صالح لهم :

أخوة فى النسب كأخوة هود لقومه ، والبينة : المعجزة الظاهرة الدلالة ، واذكروا أي تذكروا ، وبوأكم فى الأرض أي أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ، والأرض : أرض الحجر بين الحجاز والشام ، والنحت : نحر الشيء الصّلب ، والعيث والعثى : الفساد ، استكبروا :

عتوا وتكبروا ، وعقروا الناقة : نحروها ، وأصل العقر الجرح ، وعقر الإبل :

قطع قوائمها ، وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ، وعتوا :

(87/260)

تمردوا مستكبرين ، التمرد ، والامتناع إما عن عجز وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا : إذا أسنّ وكبر ، وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين ، ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود ، الرجفة : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه ورجفت الأرض :

زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف ، ودار الرجل :

ما يسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا لا حراك بهم ، قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل

لوط : هو لوط بن حاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، ولد فى (أور الكدانيين) فى الطرف الشرقي من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة قورا ، وهناك كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرقى الأردن لجودة مراعيها ، وكان فى

ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط فى إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبائث ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك يقال بخسه حقه أي نقصه ، والإفساد : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق والآداب : بارتكاب الإثم والفواحش ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة المزكّية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران المحسّنة لأحوال المعيشة ، والصراط : الطريق ، وتوعدون : تخوّفون الناس . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعيبا كذاب ، فلا يفتّننكم عن دينكم ، فكثّركم أي بما بارك فى نسلكم .

(88/260)

الرجف : الحركة والاضطراب ، والمراد بها الزلزلة ، ومنه : "يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ" وغنى بالمكان يغنى : كرضى يرضى ، إذا نزل به وأقام فيه ، والأسى : شدة الحزن .

القرية : المدنية الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها (العاصمة) والبأساء : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر ، والضراء : ما يضر الإنسان فى بدنه أو نفسه أو معيشته ، والأخذ بها : جعلها عقابا لهم ، والتضرع : إظهار الضراعة أي الضعف والخضوع ، وعفوا : كثروا ونموا ، من قولك : عفا النبات والشعر إذا كثر ، وبغتة : فجأة .

بركات السماء : تشمل معارف الوحى العقلية ونفحات الإلهام الربانية ، والمطر ونحوه مما يوجب الخصب والخير فى الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوهما ، والبأس : العذاب وبياتا : أي وقت بيات وهو الليل ، والضحى : انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، ويلعبون : أي يلهون من فرط غفلتهم ، المكر : التدبير الخفي الذي يفضى بالممكور به إلى ما لا يحتسب ، وهداه السبيل وهداه إليه وهداه له : أي دلّه عليه وبيّنه له .

العهد : الوصية . والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها ، وأخرى يراد بها ما يوصى به ، ويقال عهدت إليه بكذا أي وصيته بفعله أو حفظه ، وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة ، وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشىء أو تلزم بشىء ، والميثاق : هو العهد الموثّق بضرب من ضروب التوكيد .

وقال الراغب : عهد اللّه تارة يكون بما ركزه فى عقولنا ، وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وألسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها ا ه .

والفسوق : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصي ، ووجدنا الأولى بمعنى : ألفينا . والثانية بمعنى : علمنا .

(89/260)

موسى : هو موسى بن عمران (بكسر العين) وأهل الكتاب يقولون : (عمرام) بفتح أوله ، وإنما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية (مو) والشجر : (سى) وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته فى تابوت : (صندوق) وأقفلته إقفالا محكما وألقته فى (نهر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه ، إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم .

وفرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم وكسرى لملوك الفرس .

والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح وكان يلقب بسليل الإله . (رع) أي الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية الآية الكريمة : " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً " .

والملأ أشراف القوم ، وظلموا بها : جحدوا بها وكفروا ، وحقيق : أي جدير وخليق به ، يقولون أنت حقيق بكذا كما يقول : أنت جدير به وخليق به ، والنزع : إخراج الشيء من

مكانه ، وتأمرون : أي تشيرون فى أمره ، يقولون : مرنى بكذا على معنى : أشر علىّ وأدل برأيك ، وأرجئ : أي أرجئ أمره وأخره ولا تفصل فيه بادى الرأى ، وفى المدائن أي مدائن ملكت ، وحاشرين أي جامعين سائقين السحرة منها ، وعليم : أي بفنون السحر ، ماهر فيها

لقف الشيء وتلقفه : تناوله بحذق وسرعة ، والمأفوك : المصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، ومن ثم يقال للرياح التي عدلت عن مهابها مؤتفكة كما قال :

(90/260)

" وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ " وقال : " قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ " أي يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق فى المقال إلى الكذب ، وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح ، فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون ، وانقلبوا عادوا ، وصاغرين أي أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ، وألقى السحرة ساجدين : أي خرّوا سجدا لأن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود

المكر : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة ، وهو نوعان : محمود ويراد به الخير .

ومذموم يقصد به الشر ، وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل

اليسرى والعكس بالعكس ، والصلب الشد على خشبة ونحوها ، وشاع فى تعليق الشخص بنحو حبل فى عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم – ونقمت الشيء : إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى " وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ " – " وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ " وأفرغ علينا : أي أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب .

(91/260)

كثر استعمال الأخذ فى العذاب كقوله " وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " وآل فرعون : قومه وخاصته وأعوانه فى أمور الدولة ، وهم الملأ من قومه ولا يستعمل هذا اللفظ إلا فيمن يختص بالإنسان بقرابة قريبة كما قال عز اسمه " وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ " أو بموالاة ومتابعة فى الرأى كما قال " أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ " والسنون ، واحدها سنة : وهى بمعنى الحول ولكن أكثر ما تستعمل فى الحول الذي فيه الجدب كما هنا بدليل نقص الثمرات ، والمراد بالحسنة هنا : الخصب والرخاء ، وبالسيئة : ما يسوءهم من جدب وجائحة أو مصيبة فى الأبدان والأرزاق ، ويطيروا يتشاءموا ، وسر إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير

فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت بها ورجت الخير والبركة ، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر ، ويسمى الطائر الأول السانح ، والثاني البارح ، وسموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا .

الطوفان لغة : ما طاف بالشيء وغشيه ، وغلب فى طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض ، والقمل (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وقيل هو صغار الجراد ، وقال الراغب : هو صغار الذباب ، والدم : هو الرعاف وقيل هو دم كان يحدث فى مياه المصريين .

الرجز : العذاب الذي يضطرب له الناس فى شئونهم ومعايشهم ، وذلك شامل لكل نقمة وجائحة أنزلها اللّه على قوم فرعون كالخمس التي ذكرت قبل ، والعهد :

النبوة والرسالة ، والنكث لغة : نقض ما غزل أو ما فتل من الحبال ثم استعمل فى الحنث فى العهود والمواثيق ، واليمّ : البحر فى اللغة المصرية الموافقة للغة العربية فى كثير من مفرداتها مما يدل على أن أصل الأمتين واحد .

(92/260)

مشارق الأرض ومغاربها : يراد بها جميع نواحيها والمراد بها أرض الشام ، وتمام الشيء : وصوله إلى آخر حده ، وكلمة اللّه : هى وعده لبنى إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم فى الأرض : " عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ " والتدمير : إدخال الهلاك على السالم ، والخراب على العامر ، والعرش : رفع لنبانى والسقائف للنبات والشجر المتسلّق كعرائش العنب : ومنه عرش الملك .

جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه : عدّاه وانتقل عنه ، والعكوف على الشيء : الإقبال عليه وملازمته تعظيما له ، والأصنام واحدها صنم : وهو ما يصنع من الخشب والحجر أو المعدن مثالا لشىء حقيقى أو خيالى ليعظّم تعظيم العبادة وقد اتخذ بعض العرب فى الجاهلية أصناما من عجوة التمر فعبدوها ثم جاعوا فأكلوها ، والتمثال لا بد أن يكون مثالا لشىء حقيقى ، وقد يكون للعبادة فيسمى صنما ، وقد يكون للزينة الذي يكون على جدران بعض القصور أو أبوابها أو فى حدائقها ، وقد يكون للتعظيم غير الديني كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار العلماء والقواد للتذكير بتاريخهم وأعمالهم للاقتداء بهم .

والتعظيم الديني يكون الغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب باعتقاد أن له سلطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به فى الأمور التي لا تنال بالأسباب العامة ، وكل ذلك عبادة له وللّه بالاشتراك ، وهذا مظهر من مظاهر الشرك

الجلى التي تعتبر كفرا مهما اختلفت تسميتها ، والتبار والتّبر :

الهلاك ، والتتبير : الإهلاك والتدمير ، فيقال تبّره : أهلكه ودمره ، وباطل : أي هلك وزائل

لا بقاء له ، وبغى الشيء وابتغاه : طلبه .

(93/260)

الميقات : الوقت الذي يقرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج ، اخلفني : أي كن خليفتى

، وجلا الشيء والأمر وانجلى وتجلى وجلّاه فتجلى : إذا انكشف ووضح بعد خفاء فى

نفسه أو على مجتليه وطالبه ، والدكّ : الدق ، والخرّ والخرور : السقوط من علو ،

والانكباب على الأرض كما قال "يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً " وصعقا أي صاعقا صائحا

مغشيا عليه ، وأفاق : أي رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان . والاصطفاء :

اختيار صفوة الشيء أي خالصه الذي لا شائبة فيه ، بقوة أي بجد وعزيمة وحزم .

التكبر : التكثر من الكبر ، وهو غمط الحق بعدم الخضوع له ، ويصحبه احتقار الناس ،

فصاحبه يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق أو يساوى نفسه بشخص ، والرشد والرشد

والرشاد كالسقم والسقم والسّقام : الصلاح والاستقامة ، وضده الغىّ والفساد ، والآيات

الأولى : هى البينات والدلائل ، والثانية هى الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية

وتزكية النفوس .

الحليّ (بالضم والتشديد) واحدها حلى (بالفتح والتخفيف) . والعجل : ولد البقرة من العراب أو الجواميس كالحوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس ، والجسد : الجثة وبدن الإنسان والشيء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ، والخوار : صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل ، وسقط فى يده وأسقط فى يده (بضم أولهما على البناء للمفعول) أي ندم ، ويقولون فلان مسقوط فى يده وساقط فى يده أي نادم . قال فى العباب وتاج العروس :

هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب ، وذكرت اليد لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فيها بعضّها أو الضرب بها على أختها كما قال سبحانه فى النادم " فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها " ولأن اليد هى الجارحة العظمى وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى " ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ " .

(94/260)

الأسف : الحزن والغضب ، ويقال أسف من باب تعب حزن وتلهف ، وأسف كغضب وزنا ومعنى ، ويعدّى بالهمزة فيقال : آسفته ، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب " وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ " وبمعنى الغضب قوله :

" فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ " وعجله : سبقه ، وأعجله : استعجله ، وألقى : طرح ، والشماتة : الفرح بالمصيبة .

الغضب هنا : هو ما أمروا به من قتل أنفسهم ، والذلة : هى ما يشعرون به من هوانهم على الناس واحتقارهم لهم ، وقيل هى الذلة التي عرتهم عند تحريق إلاههم ونسفه فى اليم نسفا مع عدم قدرتهم على دفع ذلك عنه .

السكوت فى اللغة : ترك الكلام ، نسب إلى الغضب على تصويره بصورة شخص ذى قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع ، قال فى الكشاف : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ا ه . وفى نسختها أي ما نسخ وكتب منها فهى من النسخ كالخطبة من الخطاب ، وهدى : بيان للحق ، ورحمة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح ، والرهبة : أشد الخوف .

يقال اختاره من الرجال وانتقاه : اصطفاه من بينهم ، والرجفة : الصاعقة ، والفتنة :

الاختبار والامتحان مطلقا أو بالأمور الشاقة ، والولي . المتولى أمور غيره القائم عليها ، والحسنة فى الدنيا : هى العافية وبسطة الرزق وعز الاستقلال والملك ، وفى الآخرة دخول الجنة ونيل الرضوان ، وهاد يهود وتهود : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد وقوم هود ، والنبي من النبأ : وهو الخبر المهم العظيم الشأن وفى لسان الشرع من أوحى اللّه إليه وأنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم به يعلم علما ضروريا أنه من اللّه عز وجل ، والرسول : نبى أمره اللّه بتبليغ شرع ودعوة دين وبإقامته والعمل به ولا يشترط أن يكون كتابا يقرأ وينشر ولا شرعا جديدا يعمل به ويحكم بين الناس ، بل قد يكون تابعا لشرع غيره كله كالرسل من بنى إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملا وحكما ، والأمى : الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم ، وأهل الكتاب يلقبون العرب بالأميين كما حكى اللّه عنهم : " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ " والمعروف :

ما تعرف العقول السليمة حسنه لموافقته للفطرة والمصلحة بحيث لا تستطيع أن ترده أو تعترض عليه إذا ورد به الشرع ، والمنكر : ما تنكره القلوب وتأباه على الوجه المذكور ، والطيب : ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، والخبيث من الأطعمة ما تمجّه الطباع السليمة كالميتة والدم المسفوح ، أو تصد عنه العقول الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذي تتولد من أكله الدودة الوحيدة ، أو لضرره فى الدين كالذى يذبح للتقرب به إلى غير اللّه على سبيل العبادة ، والخبيث من الأموال :

ما يؤخذ بغير حق : كالرياء والرشوة والغلو والسرقة والغصب ونحو ذلك ، والإصر : الثقل الذي يأصر صاحبه : أي يحبسه من الحركة لثقله ، والأغلال : واحدها غل (بالضم) وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ويقال لها جامعة أيضا ، والتعزير : الإعانة والنصرة حتى لا يقوى عليه عدو

(96/260)

قطعناهم أي صيرناهم قطعا وفرقا كل فرقة منها سبط ، والسبط : ولد الولد مطلقا ، وقد يخص بولد البنت ، وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أي ما عدا لاوى وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما إفرايم ومنسى ، إذ سلائل لاوى نيطت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا ، والأمة : الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، والاستسقاء : طلب الماء للسقيا ، والانبجاس والانفجار واحد ، يقال : بجسه فانبجس وبجّسه فتبجس كما يقال فجره : أي شقه فانفجر ، وقال الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شىء واسع ، والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق ، والمنّ مادة بيضاء تنزل من السماء كالطلّ حلوة الطعم شبيهة بالعسل وإذا جفّت

كانت كالصمغ .

والسلوى : طير يشبه السّمانى (السمان) لكنه أكبر منه .

القرية : هى أيلة ، وقيل مدين ، وقيل ، طبريّة والعرب تسمى المدينة قرية ، حاضرة البحر : أي قريبة منه على شاطئه ، ويعدون فى السبت : أي يتجاوزون حكم اللّه بالصيد المحرّم عليهم فيه ، وحيتانهم : سمكهم ، ويوم سبتهم : أي تعظيمهم للسبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظّمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ، وشرّعا : واحدها شارع كركّع وراكع : أي ظاهرة على وجه الماء ، ونبلوهم : نختبرهم ، وأمة منهم : أي جماعة منهم ، والمعذرة : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب ، فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى اللّه تعالى ، ونسوا ما ذكروا به : أي تركوه

ترك الناسي وأعرضوا عنه إعراضا تاما ، والسوء . العمل الذي تسوء عاقبته ، والبئيس : الشديد من البأس وهو الشدة ، أو من البؤس وهو المكروه أو الفقر ، والعتو : الإباء والعصيان ، وخاسئين : أي أذلاء صاغرين .

(97/260)

قال سيبويه : أذّن : أعلم ، وأذّن : نادى وصاح للإعلام ومنه " فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ " ومثله تأذن ، ليبعثن : أي ليسلّطن ، ويسومهم : يذيقهم ويوليهم ، وقطعناهم : فرقناهم أمما : أي جماعات ، دون ذلك : أي منحطون عنهم ، وبلوناهم : امتحناهم ، والحسنات النعم ، والسيئات : النقم ، والخلف : (بسكون اللام) يستعمل فى الأشرار (وبالتحريك) فى الأخيار ، والكتاب : التوراة ، والعرض (بالتحريك) متاع الدنيا وحطامها ، والأدنى : أي الشيء الأدنى والمراد به الدنيا ، ودرسوا ما فيه : أي قرءوه فهم ذاكرون له ، ويمسكون : أي يتمسكون به ويعملون ، ونتقنا الجبل : أي رفعناه كما روى عن ابن عباس ، أو زلزلناه وهو مرفوع ، يقال نتق السقاء : إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبد ، أو اقتلعناه كما هو رأى كثير من العلماء ، والظلة : كل ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلل وظلال .

الظهور : واحدها ظهر ، وهو ما فيه العمود الفقرى لهيكل الإنسان الذي هو قوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد ، والذرية : سلالة الإنسان من الذكور والإناث ، والشهادة تارة قولية كما قال : الُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا "

الآية ، وتارة تكون حالية كما قال : " ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ " أي حالهم شاهدة عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك .

التلاوة : القراءة ، والنبأ : الخبر الذي له شأن ، وانسلاخه منها : كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره ، ويقال لكل من فارق شيئا بحيث لا تحدّثه نفسه بالرجوع إليه : انسلخ منه ، وأتبعه : أدركه ولحقه ، قال الجوهري يقال أتبعت القوم إذا سبقوك فلحقتهم ، ومن الغاوين : أي الراسخين فى الغواية بعد أن كان مهتديا ، أخلد إلى الأرض . أي ركن إلى الدنيا ومال إليها واللهث (بالفتح) واللهاث (بالضم) التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش وللكلب فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وتحمل عليه . أي تشدّ عليه وتطرده ، وساء الشيء : يسوء فهو سيء إذا قبح ، وساءه يسوءه مساءة ، والمثل : الصفة

الذرء : لغة الخلق ، يقال ذرأ اللّه الخلق أي أوجد أشخاصهم ، والخلق : التقدير أي إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لا جزافا ، والجن : الأحياء العاقلة المكلفة الخفيّة غير المدركة بالحواس ، والقلب يطلق أحيانا على المضغة الصنوبريّة الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان – وأحيانا على العقل والوجدان الروحي الذي يسمونه أحيانا (بالضمير) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى لما يلائم

أو يؤلم وهو كثير بهذا المعنى فى الكتاب الكريم : " سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ –

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ - أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " .

(99/260)

وسر استعمال القلب فى هذا المعنى ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز أو حين السرور والابتهاج ، والفقه : العلم بالشيء والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم غائب ، وقد استعمله القرآن فى مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق فى العلم ليترتب عليه أثره وهو الانتفاع به ، ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنهه المراد مما نفى فقهه عنهم فقاتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس . الأسماء : واحدها اسم ، وهو اللفظ الدالّ على الذات أو عليها مع صفة من صفاتها ، والجنسي : مؤنث الأحسن ، فادعوه بها . أي سمّوه ونادوه بها للثناء عليه أو للسؤال وطلب الحاجات ، وذروا : اتركوا ، والإلحاد : الميل عن الوسط حسا أو معنى ، والأول هو الأصل فيه ، ومنه لحد القبر : وهو ما يحفر فى جانب القبر مائلا عن وسطه وألحد السهم الهدف : أي مال فى أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ومن الثاني ألحد فلان : مال عن الحق ، سيجزون أي سيلقون جزاء عملهم .

الاستدراج : إما مأخوذ من درج الكتاب والثوب وأدرجه : إذا طواه ، وإما : من الدرجة وهى المرقاة ، فعلى الأول سنستدرجهم : أي سنطويهم طىّ الكتاب ونغفل أمرهم كما قال : " وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا " وعلى الثاني سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئا فشيئا كالمراقى والمنازل فى ارتقائها ونزولها ، والإملاء : الإمداد فى الزمن والإمهال والتأخير من الملوة والملاوة ، وهى الطائفة الطويلة من الزمن ، والملوان : الليل والنهار والكيد كالمكر : هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة : ككيد يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، والمتين : القوى الشديد ، والجنة (بالكسر) نوع من الجنون . والإنذار : التعليم والإرشاد المقترن بالتخويف من مخالفته ، والملكوت : الملك العظيم ، وملكوت السموات والأرض : مجموع العالم ، والحديث : كلام اللّه وهو القرآن ، والطغيان تجاوز الحد فى الباطل والشر من الكفر والفجور والظلم : والعمه . التردد فى الحيرة .

الساعة لغة : جزء قليل غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين : جزء من أربع وعشرين

جزءا متساوية يضبط بآلة تسمى (الساعة) وقد كان ذلك معروفا عند العرب

فقد جاء فى الحديث " يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة "

(101/260)

وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر وبمعنى الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل فى الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمانية ، وبأل بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب العالم وموت أهل الأرض جميعا ، وجاء المعنيان فى قوله تعالى : " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ . ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ " والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون فيه الحساب والجزاء والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ، فالساعة مبدأ ، والقيامة غاية ، وأيان : بمعنى متى ، فهى للسؤال عن الزمان ، ومرساها : أي إرساؤها وحصولها واستقرارها ، ويقال رسا الشيء يرسو : إذا ثبت وأرساه غيره ، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التي تلقى فى البحر فتمنعها من الجريان كما قال تعالى : " بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها " وجلّى فلان الأمر تجلية : أظهره أتم الإظهار ، ولوقتها : أي فى وقتها كما يقال كتبت هذا لغرة رمضان : أي فى غرته ، وبغتة فجأة من غير توقع ولا انتظار ، وحفىّ من قولهم : أحفى

فى السؤال ألحف ، وهو حفّى عن الأمر : بليغ فى السؤال عنه واستحفيته عن كذا :

استخبرته على وجه المبالغة ، وتحفى بك فلان : إذا تلطف بك وبالغ فى إكرامك .

الغيب قسمان : حقيقى لا يعلمه إلا اللّه تعالى ، وإضافى يعلمه بعض الخلق دون بعض ،

والخير : ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية ، كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون

عنه مما يسوءهم ويضرهم ، والإنذار : تبليغ مقترن بتخويف من العقاب على الكفر

والمعاصي ، والتبشير . تبليغ مقترن بترغيب فى الثواب مع الإيمان والطاعة .

من نفس واحدة : أي من جنس واحد ، ليسكن إليها : أي ليأنس بها ويطمئن إليها ،

وتغشاها : أتاها كغشيها ويراد بالتغشى أداء وظيفة الزوجية ، ومقتضى الفطرة

(102/260)

وآداب الدين أن يكون ذلك فى السر ، حملت : أي علقت منه ، والحمل (بِالْفَتْحِ) ما كان فى

بطن أو على شجرة (وبالكسر) ما كان على ظهر ونحوه ، فمرت به :

أي استمرت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق ، واستمرت فى أعمالها وقضاء

حاجتها من غير مشقة ولا استثقال ، وأثقلت : أي حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ،

صالحا . أي نسلا سليما من فساد الخلقة كنقص بعض الأعضاء ، فتعالى اللّه :

أي ارتفع مجده وتعالى جده وتنزه عن شرك هؤلاء الجهلاء .

النزغ كالنخس والنغز والوكز : إصابة الجسد برأس محدّد كالإبرة والمهماز والرمح ، والمراد به هنا نزغ الشيطان بإثارته داعية الشر والفساد فى النفس بغضب أو شهوة بحيث تلجئ صاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع ، والاستعاذة بالله : الالتجاء إليه ، ليقيك من شر هذا النزغ ، والطوف والطواف بالشيء : الاستدارة به أو حوله ، وطيف الخيال : ما يرى فى النوم من مثال الشخص ، والمس : يراد به هنا ما ينال الإنسان من شر وأذى ، فقد ذكر فى التنزيل مس الضر والضراء والبأساء والسوء والعذاب . والمد والإمداد : الزيادة فى الشيء من جنسه ، واستعمل فى القرآن فى الخلق والتكوين كقوله : " وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ " وقوله : " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ " وفى مدّ الناس فيما يذم ويضر كقوله : " قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا " والإقصار : التقصير ، ويقال أقصر عن الأمر : تركه وكف عنه وهو قادر عليه .

(103/260)

الاستماع : أخص من السمع ، لأنه إنما يكون بقصد ونية أو توجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه ، أما السمع : فيحصل ولو بغير قصد ، والإنصات : السكوت للاستماع حتى لا

يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ ، والتضرع : إظهار الضراعة ، وهى الذلة والضعف والخضوع ، والخيفة : حالة الخوف والخشية ، ودون الجهر : أي ذكرا دون الجهر برفع الصوت وفوق التخافت والسر : بأن يذكر ذكرا وسطا ، والغدو : جمع غدوة ، وهى ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والآصال : جمع أصيل ، وهو العشى من وقت العصر إلى غروب الشمس ، ويسبحونه : ينزهونه عما لا يليق به ويسجدون أي يصلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 8 صـ 97 : حـ 9 صـ 154 ﴾ . باختصار .

(104/260)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة الأعراف

مكية وآياتها 206 آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف وهي مكية

1 - قوله جل وعز المص (آية 1) قال أبو جعفر قد بينا معنى فواتح السور في أول سورة البقرة فمن قال معنى آلم أنا الله أعلم قال معنى المص أنا الله أفصل وهذا قول ابن عباس

وسعيد بن جبير 2 – وقوله جل وعز كتاب أنزل إليك المعنى هذا كتاب أنزل إليك 3 – ثم قال جل وعز فلا يكن في صدرك حرج منه قال مجاهد وقتادة الحرج الشك

والمعنى على هذا القول فلا تشكوا فيه لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته والحرج في اللغة الضيق فيجوز أن يكون سمي ضيق لأن الشاك لا يعرف حقيقة الشئ فصدره يضيق به ويجوز أن يكون المعنى فلا يكن في صدرك ضيق من أن

تبلغه لأنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إني أخاف أن يثلغوا رأسي وفي الكلام تقديم وتأخير المعنى كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه 4 – وقوله عز وجل اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم (آية 3) قيل هو القرآن والسنة لقوله جل وعز وما آتاكم

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا 5 – ثم قال جل وعز ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون (آية 3) أي لا تتخذوا من عدل عن دين الحق وليا وكل من رضي مذهبا فأهل ذلك المذهب أولياؤه وروي عن مالك بن دينار رحمه الله أنه قرأ ولا تبتغوا من دونه أولياء أي لا تطلبوا 6 – وقوله جل وعز وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بيا تا أو هم قائلون (آية 4) المعنى فجاءهم العذاب على غفلة بالليل وهم نائمون أو نصف النهار وهم قائلون ومعنى أو ههنا التصرف مرة كذا ومرة كذا وهي بمنزلة أو التي تكون للإباحة في الأمر

7 – وقوله جل وعز فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا

(آية 5) الدعوى ههنا بمنزلة الدعاء والدعوى تكون بمنزلة الإدعاء وتكون بمنزلة الدعاء وأجاز النحويون اللهم أشركنا في صالح دعوى من دعاك والمعنى إنهم لم يحصلوا عند الهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين 8 - وقوله جل وعز فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين (آية 6) وهذا سؤال توبيخ وتقرير فأما قوله تعالى فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان فمعناه أنه لا يسأل سؤال استعلام والله أعلم

9 - وقوله جل وعز والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (آية 8) قال عبيد بن عمير يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة قال عمرو بن دينار إن الميزان له كفتان 10 - وقوله جل وعز ولقد مكناكم في الأرض (آية 10) أي ملكناكم وجعلنا لكم فيها معايش أي ما تعيشون به ويجوز أن يكون المعنى ما تتوصلون به إلى المعيشة

11 - وقوله جل وعز ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (آية 11) في هذه الآية أقوال قال الأخفش وهو أحد قول قطرب ثم ههنا بمعنى الواو وهذا القول خطأ على مذهب أهل النظر من النحويين ولا يجوز أن تكون ثم بمعنى الواو لاختلاف

معنييهما وقيل ثم للإخبار وقيل ولقد خلقناكم يعني في ظهر آدم صلى الله عليه وسلم ثم صورناكم أي في الأرحام هذا صحيح عن ابن عباس ولقد خلقناكم يعني ابن آدم وقد علم جل وعز أنه يخلق ذريته فهو بمنزلة ما خلق

وقال مجاهد رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح معنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم في ظهر آدم قال أبو جعفر وهذا أحسن الأقوال يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق ثم كان السجود لآدم بعد ويقوي هذا وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم والحديث أنه أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق قال الزجاج المعنى خلقنا آدم من تراب ثم صورناه قال

ويدل عليه خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فالتقدير خلقنا أصلكم

(106/260)

وقيل المعنى خلقناكم نطفا ثم صورناكم 12 - ثم قال جل وعز فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (آية 11) قيل استثنى إبليس من الملائكة وليس منهم لأنه أمر بالسجود معهم قال جل وعز ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك وقيل إنه كان منهم قال أبو جعفر وقد استقصينا هذا في سورة البقرة 13 - وقوله جل وعز قال ما منعك ألا تسجد إذا أمرتك

(آية 12) هذا سؤال توبيخ وتقرير لأنه قد علم جل وعز ذلك ولا زائدة للتوكيد كما قال

* فما ألوم البيض أن لا تسخرا لما رأينا الشمط القفندرا فجاء بجواب لغير ما سئل عنه

فقال أنا خير منه ولم يقل منعني كذا وإنما هو جواب من قيل له أيكما خير ولكنه محمول على

المعنى كأنه قال منعني فضلي عليه 14 - وقوله جل وعز قال أنظرني إلى يوم يبعثون (آية

14)

أي أخرني فلم يجب إلى هذا بعينه فأجيب إلى النظرة إلى يوم الوقت المعلوم 15 - وقوله

جل وعز قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (آية 16)

قيل معناه فبما أضللتني وقيل معناه خيبتن وقيل أي فبما دعوتني إلى شئ ضللت من أجله

والله أعلم بالمراد قال مجاهد معنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم لأقعدن لهم على الحق

والصراط في اللغة الطريق والمعنى على صراطك ثم حذف على فتعدى الفعل 16 -

وقوله عز وجل ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم (آية 17)

روى سفيان عن منصور عن الحكم بن عتيبة قال

من بين أيديهم من دنياهم ومن خلفهم من آخرتهم وعن أيمانهم يعني حسناتهم وعن شمائلهم

يعني سيئاتهم وهذا قول حسن وشرطه أن معنى ولآتينهم من بين أيديهم من دنياهم حتى

يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم

السالفة ومن خلفهم من آخرتهم حتى يكذبوا بها وعن أيمانهم من حسناتهم وأمور دينهم ويدل على هذا قوله تعالى إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين وعن شمائلهم يعني سيئاتهم أي يتبعون الشهوات لأنه يزينها لهم وقيل ثم لآتينهم من بين أيديهم من آخرتهم روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم أما قوله تعالى من بين أيديهم فيقول أشككهم في

آخرتهم ومن خلفهم أرغبهم في دنياهم وعن أيمانهم أشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي ولا تجد أكثرهم شاكرين يقول موحدين وبهذا الإسناد من بين أيديهم يعني من الدنيا ومن خلفهم من الآخرة وعن أيمانهم قبل حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم قال أبو جعفر وذلك القول لا يمتنع لأن الآخرة لم تأت بعد فهي بين أيدينا وهي تكون بعد موتنا فمن هذه الجهة يقال هي خلفنا وقيل معنى ومن خلفهم يخوفهم على تركاتهم ومن يخلفون بعدهم

وقيل معنى وعن أيمانهم وعن شمائلهم من كل جهة يعملون منها ويكون تمثيلا لأن أكثر التصرف باليدين قال الله عز وجل ذلك بما قدمت يداك وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من الحسنات ومن خلفهم وعن شمائلهم من السيئات 17 - وقوله جل وعز قال اخرج منها مذءوما مدحورا (آية 18) يقال ذأمته وذمته وذممته بمعنى واحد وقرأ

الأعمش منوما والمعنى واحد إلا أنه خفف الهمزة وقال مجاهد المذؤم ثنا المنفي والمعنيان متقاربان والمدحور المطرود المبعد يقال اللهم ادحر عنا الشيطان

18 - وقوله جل وعز ولا تقربا هذه الشجرة (آية 19) روي عن ابن عباس أنها السنبلة

19 - وقوله جل وعز ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما (آية 20) أي ليظهر لهما ما ستر عنهما من فروجهما ومن هذا تواريت من فلان وقرأ الضحاك ويحيى بن أبي كثير ما أوري عنهما

(108/260)

---

20 - وقوله جل وعز إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (آية 20) وأكثر الناس على فتح اللام وقال من احتج بكسر اللام قوله جل وعز وملك لا يبلى يدل على القراءة ملكين لأن ملكا من ملك وأنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال لم يكن قبل آدم صلى الله عليه وسلم ملك فيصيرا ملكين 21 - ثم قال جل وعز وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (آية 21) أقسم لهما مثل طارقت النعل وقيل حلفا أن لا يقبلا منه إلا أن يحلف فحلف لهما 22 - وقوله جل وعز فدلاهما بغرور (آية 22) المعنى فدلاهما في المعصية 23 - ثم قال جل وعز فلما ذاقا الشجرة (آية 22) وهذا يدل على أنهما لم يمعنا

في الأكل

24 - وقوله جل وعز وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (آية 22) أي أخذ يلزقان ومنه خصفت النعل أي رقعتها قال ابن عباس وهو ورق التين أخذاه فجعلاه على سوأتهما والفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس أن إبليس أقام على الذنب وتاب آدم ورجع قال الله جل وعز قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين 25 - وقوله جل وعز يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوأتكم (آية 26) قال مجاهد كان قوم من العرب يطوفون بالبيت عراة فأنزل الله عز وجل (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوأتكم وريشا

قال مجاهد الريش المال وقال الكسائي الريش اللباس وقال أبو عبيدة الريش والرياش ما ظهر من اللباس والشارة والريش عند أكثر أهل اللغة ما ستر من لباس أو معيشة وأنشد سيبوية فريشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لماما وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة وهبت له دابة بريشها أي بكسوتها وما عليها من اللباس قال الفراء يكون الرياش جمعا للريش وبمعناه أيضا مثل

(109/260)

لبس ولباس 26 – ثم قال جل وعز ولباس التقوى ذلك خير (آية 26) أي لباس التقوى خير من الثياب لأن الفاجر وإن لبس الثياب فهو دنس وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهيني قال لباس التقوى الحياء وقرأ الأعمش ولباس التقوى خير ولم يقرأ ذلك 27 – وقوله جل وعز إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم (آية 27) قبيله جنوده قال مجاهد يعني الجن والشياطين

28 – وقوله جل وعز وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا (آية 28) قال مجاهد كانت النساء تطوف بالبيت عراة عليهن الرهاط وقال الرهاط جمع رهط خرقة من صوف أو سيور كذا قال الفراء فهذه الفاحشة الذي قالوا وجدنا عليها آباءنا وقال غيره كان الرجال يطوفون نهارا عراة والنساء بالليل ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها

29 – وقوله جل وعز قل أمر ربي بالقسط (آية 29) أي بالعدل وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد

قال مجاهد أي استقبلوا القبلة أينما كنتم ولو كنتم في كنيسة وقال غيره معناه إذا أدركتكم الصلاة في مسجد فصلوا ولا يقل أحدكم لا أصلي إلا في مسجدي 30 – ثم قال جل وعز كما بدأكم تعودون (آية 29) قال مجاهد من بدئ سعيدا عاد سعيدا ومن بدئ شقيا عاد شقيا وقال محمد بن كعب يختم للمرء بما بدئ به ألا ترى أن السحرة كانوا كفارا ثم ختم لهم بالسعادة وأن إبليس كان مع الملائكة مؤمنا ثم عاد إلى ما بدئ به 31 – وقوله جل وعز يا

بني آدم خذوا زينتكم عن كل مسجد (آية 31)

قال عطاء وطاووس والضحاك يعني اللباس لأن قوما من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة وهو مذهب مجاهد وروى شعبة عن سلمة بن كهيل قال سمعت مسلم البطين يحدث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فنزلت خذوا زينتكم عند كل

(110/260)

مسجد قال الزهري كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس قريشا وأحلافها فقال الله جل وعز خذوا زينتكم عند كل مسجد 32 - ثم قال جل وعز موبخا لهم قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق (آية 32) هو عام

وقيل أي من حرم لبس الثياب في الطواف ومن حرم ما حرموا من البحيرة وغيرها قال الفراء إن قبائل من العرب كانوا لا يأكلون اللحم أيام حجهم ويطوفون عراة فأنزل الله جل وعز هذا 33 - ثم قال جل وعز قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة (آية 32) قال الضحاك يشترك فيها المسلمون والمشركون في الدنيا وتخلص للمسلمين يوم القيامة وقيل في الحياة الدنيا في الصلة أي آمنوا في ذا الوقت خالصة من الغم والتنغيص 34 - وقوله جل

وعز قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن (آية 33) روى روح بن عبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال ما ظهر منها نكاح الأمهات في الجاهلية وما بطن الزنا وقال قتادة سرها وعلانيتها 35 - ثم قال جل وعز والإثم (آية 33) وقال في موضع آخر يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير فدل بهاتين الآيتين على أن الخمر والميسر حرام 36 - وقوله جل وعز ولكل أمة أجل (آية 34) أي وقت مؤقت

فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة المعنى لا يستأخرون ساعة ولا أقل من ساعة إلا أن الساعة خصت بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات 37 - وقوله عز وجل فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته (آية 37) المعنى أي ظلم أشنع من الافتراء على الله والتكذيب بآياته 38 - ثم قال جل وعز أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب (آية 37) روى جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال ما قدر لهم من خير وشر وروى شريك عن سالم عن سعيد بن جبير أولئك ينالهم

نصيبهم من الكتاب قال من الشقوة والسعادة وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال ما وعدوا فيه من خير وشر ومعنى هذا القول أنهم ينالهم نصيبهم من العذاب على قدر

كفرهم نحو قوله إن الله لا يغفر أن يشرك به وإن المنافقين في الدرك الأسفل من النار وقال جل وعز يسلكه عذابا صعدا وكذلك قال الضحاك معناه ينالهم نصيبهم من العذاب 39 – ثم قال جل وعز حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم (آية 37) قيل أعوان ملك الموت لما جاء وهم أقروا أنهم كانوا كافرين وقيل ملائكة العذاب ومعنى يتوفونهم على هذا يتوفونهم عذابا كما تقول قتلته بالعذاب

ويجوز أن يكون من استيفاء العدد 40 – وقوله جل وعز قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم (آية 38) قيل معنى في معنى مع وهذا لا يمتنع لأن قولك

زيد في القوم معناه مع القوم وتجوز أن تكون في على بابها وقال الأصمعي في قول امرئ القيس وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال معنى في معنى مع 41 – وقوله جل وعز حتى إذا اداركوا فيها (آية 38)

أي تتابعوا واجتعوا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا المعنى قالت أخراهم يا ربنا هؤلاء أضلون به لأولاهم أي يعني أولاهم 42 – وقوله جل وعز قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (آية 38) يجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب ويجوز أن يكون المعنى لا تعلمون أيها المخاطبون ومن قرأ ولكن لا يعلمون فمعناه

عنده ولكن لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر 43 - وقوله جل وعز وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل (آية 39) قال مجاهد أي من تخفيف العذاب

(112/260)

وقال السدي قد ضللتم كما ضللنا 44 - وقوله جل وعز لا تفتح لهم أبواب السماء (آية 40) قيل يعني ابواب الجنة لأن الجنة في السماء وأحسن ما قيل في هذا ما رواه سفيان عن منصور عن مجاهد قال لا تفتح أبواب السماء لكلامهم ولا لعملهم ويدل على صحة هذا القول قوله جل وعز إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وفي هذا حديث مسند رواه المنهال عن زاذان عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم إن العبد الكافر أو المنافق إذا خرجت نفسه أخذتها الملائكة حتى تنتهي إلى سماء الدنيا يفوح منها كأنتن ريح جيفة كانت على وجه الأرض فيستفتح له فلا يفتح ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتح لهم أبواب السماء فيقول الله اجعلوا كتابه في سجين

وأعيدوه إلى الأرض فتطرح طرحا ثم قرأ عليه السلام ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء 45 - ثم قال جل وعز ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط (آية 40) والمعنى لا يدخلون الجنة ألبتة والعرب تستعمل أمثال هذا كثيرا وسئل عبد الله بن مسعود

عن الجمل فقال هو زوج الناقة كأنه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعا

ويروى عن ابن عباس أنه قرأ حتى يلج الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقال هو القلس من حبال السفن

وقال أحمد بن يحيى هي الحبال المجموعة جمع جملة وروى عن سعيد بن جبير أنه قرا حتى يلج الجمل بضم الجيم وتخفيف الميم قيل هو القلس أيضا والسم والسم ثقب الإبرة وقرا ابن سيرين بضم السين والخياط والمخيط الإبرة ونظيره قناع ومقنع 46 - ثم قال جل وعز وكذلك نجزي المجرمين (آية 40) يعني الكافرين لأنه قد تقدم ذكرهم 47 - ثم قال جل وعز لهم من جهنم مهاد (آية 41) أي فراش ومن فوقهم غواش أي غاشية فوق غاشية من العذاب

(113/260)

وكذلك نجزي الظالمين قيل يعني الكفار والله أعلم 48 - وقوله جل وعز ونزعنا ما في صدورهم من غل (آية 43) الغل في اللغة الحقد المعنى إن بعضهم لا يحقد على بعض بما كان بينه وبينه في الدنيا ويجوز أن يكون المعنى أنه لا يحسد بعضهم على علو المرتبة ويدل على أن القول هو الأول أنه روي عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه أنه قال أرجو

أن ألون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم ونزعنا ما في صدورهم من غل

49 – وقوله جل وعز وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا (آية 43) أي لما صيرنا إلى هذا

50 – وقوله جل وعز ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون (آية 43)

ويجوز أن يكون المعنى بأنه تلكم الجنة ويجوز أن تكون أن مفسرة للنداء والبصريون

يعتبرونها بأي والكوفيون يعتبرونها بالقول والمعنى واحد كأنه ونودوا قيل لهم تلكم الجنة أي

هذه تلكم الجنة التي وعدتموها هذا في الدنيا ويجوز ان يكون لما راوها قيل لهم قبل أن

يدخلوها تلكم الجنة والقول في معنى أن قد وجدنا وأن لعنة الله على الظالمين على ما قلنا

في أن تلكم الجنة 51 – وقوله جل وعز يعرفون كلا بسيماهم (آية 46) قال قتادة يعرف

أهل الجنة ببياض وجوههم وأهل النار

بسواد وجوههم

52 – ثم قال جل وعز لم يدخلوها وهم يطعمون (آية 46) قال أكثر أهل التفسير يعني

أصحاب الأعراف 53 – وقوله جل وعز ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم

بسيماهم (آية 48) قال حذيفة أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فهم

بين الجنة والنار ثم إن الله اطلع عليهم فرحمهم فقالوا ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم

تحزنون وروى عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس أنه قال الأعراف الشئ المشرف وروى

مجاهد عن ابن عباس أنه قال الأعراف سور له عرف كعرف الديك

والأعراف في اللغة المكان المشرف جمع عرف وقال أبو مجلز هم من الملائكة قال والذين صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار أهل الجنة حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أحمد بن عبد الجبار الصوفي قال حدثنا داود الضبي قال حدثنا مسلم بن خالد قال عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في أصحاب الأعراف قال هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم على سور بين الجنة والنار وهم على طمع في دخول الجنة وهم داخلون وقيل إن أصحاب الأعراف ملائكة بين الجنة والنار

قال أبو جعفر والقول الأول أشهر وأعرف

قال ابن عباس فقال جل وعز لهم (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون قال عبد الله بن الحارث وهم يدعون مساكين أهل الجنة 54 - وقوله جل وعز فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا (آية) قال مجاهد أي نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا والمعنى فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون أي بجحودهم لآياتنا 54 - وقوله جل وعز هل ينظرون إلا تأويله (آية 53) قال مجاهد أي جزاءه

وقال قتادة أي عاقبتة وهذا قول حسن ومعناه ما وعدوا فيه أنه كائن 55 - ثم قال جل وعز يوم يأتي تأويله (آية 53) يعني يوم القيامة يقول الذين نسوه من قبل قال مجاهد أي أعرضوا عنه 56 - وقوله جل وعز إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار (آية 54)

المعنى يغشي الليل النهار ويغشي النهار الليل ثم حذف لعلم السامع أي يدخل هذا في هذا وهذا في هذا 57 - وقوله جل وعز ألا له الخلق والأمر (آية 54) ففرق بين الشئ المخلوق وين والأمر وهو كلامه فدل على

(115/260)

أن كلامه غير مخلوق وهو قوله كن وقيل هو مثل قوله جل ثناؤه فيهما فاكهة ونخل ورمان وقيل المعنى وتصرف الأمر ثم حذف 58 - وقوله جل وعز ادعوا ربكم تضرعا (آية 55) أي مستكينين متعبدين وخفية أي وأخفوا العبادة لأن الدعاء عبادة 59 - ثم قال تعالى إنه لا يحب المعتدين (آية 55) قال قتادة فدل هذا على أن من الدعاء ما فيه اعتداء أي فلا تعتدوا في الدعاء

60 - وقوله جل وعز وادعوه خوفا وطمعا (آية 56) والمعنى خوفا منه ورجاء لما عنده

61 - وقوله تعالى وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته (آية 57) نشر جمع نشور يقال ريح نشور إذا أتت من ههنا

وههنا وقيل نشر مصدر ومن قرأ نشرا بضم النون وإسكان الشين فإلى هذا المعنى يذهب عند البصريين وأما الفراء فزعم أنها لغة بمعنى النشر كما يقال خسف وخسف ومن قرا نشرا فإنه يذهب إلى أن المعنى تنشر نشرا ومن قرا بشرا فهو جمع بشير عنده مخففة وقد تكون جمع بشرة وقد يكون مصدرا مثل العمر وتقرا بشرا وبشرا

مصدر بشره يبشره بمعنى بشره ومعنى بين يدي رحمته بين يدي المطر الذي هو من رحمته تعالى 62 - ثم قال جل وعز حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء (آية 57) حتى إذا أقلت سحابا ثقالا أي حتى إذا حملت الريح سحابا ثقالا بالماء سقناه يعني السحاب لبلد ميت فأنزلنا به الماء يجوز ان يكون المعنى فأنزلنا بالبلد الماء ويجوز أن يكون المعنى فأنزلنا بالسحاب الماء فأخرجنا به من كل الثمرات أي بالماء ويجوز أن يكون المعنى بالبلد بالبلد 63 - وقوله تعالى كذلك نخرج الموتى (آية 57)

قال مجاهد يبعث الله مطرا فيمطر فينبت الناس كما ينبت الزرع

64 – ثم قال جل وعز لعلكم تذكرون (آية 57) أي لتكونوا على رجاء من الاتعاظ بما تذكرون وتخبرون به 65 – وقوله جل وعز والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا (آية 58) النكد في اللغة النزر القليل وهذا تمثيل قال مجاهد يعني إن في بني آدم الطيب والخبيث 66 – وقوله جل وعز قال الملأ (آية 60) الرؤساء والأشراف أي المليئون ثم بما يفوض إليهم

67 – وقوله جل وعز إنهم كانوا قوما عمين (آية 64) قال قتادة أي عن الحق 68 – وقوله جل وعز قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة (آية 66) السفاهة رقة الحلم والطيش يقال ثوب سفيه إذا كان خفيفا 69 – ثم قال جل وعز جوابا لهم قال يا قوم ليس بي سفاهة (آية 67) وهذا أدب في الاحتمال 70 – وقوله جل وعز وإلى ثمود أخاهم صالحا (آية 73) قيل إنما قال جل وعز أخاهم لأنه بشرا مثلهم من

بنى آدم يفهمون عنه فهو أوكد عليهم في الحجة

وقيل إنما قال (أخاهم) لأنه من عشيرتهم 71 – وقوله جل وعز قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية) (آية 73) يروى انها خرجت من صخرة صماء 72 – وقوله جل وعز وبوأكم في الأرض (آية 74) أي أنزلكم وقال الشاعر وبوئت في صميم معشرها فنم في قومها مبوؤها وقيل إنما كانوا ينحتون من الجبال بيوتا لطول أعمارهم لأن السقف والحيطان كانت تنهدم قبل فناء أعمارهم

73 - ثم قال جل وعز فاذكروا آلاء الله (آية 74) قال قتادة الآلاء النعم وحكى أبو عبيدة واحدها ألى وإلى وزاد غيره إلي 74 - وقوله جل وعز وعتوا عن أمر ربهم) (آية 77) أي تجاوزا في الكفر 75 - وقوله جل وعز فأخذتهم الرجفة (آية 78) الرجفة في اللغة الزلزلة الشديدة 76 - ثم قال تعالى فأصبحوا في دارهم جاثمين (آية 78)

أي ساقطين على ركبهم ووجوهم وأصل الجثوم للأرانب رسول وما أشبهها والموضع مجثم قال الشاعر

(117/260)

---

* بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم وروى معمر عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله انه قال لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سالها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم الصيحة فأهمد الله من تحت السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه 77 - وقوله جل وعز ولوطا إذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (آية 80) دل بهذا على انه لم يتقدمهم أحد في اللواط ومعنى إنهم

أناس يتطهرون أي يتطهرون عن الفاحشة 78 - وقوله جل وعز فانجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين (آية 83) قال قتادة الباقين والغابر عند أهل اللغة من الأضداد يقال لما بقي غابر ولما ذهب وغاب غابر

وقد قيل في الآية إن معناها من الغابرين عن النجاة قيل من الباقين مع قوم لوط في الموضع الذي عذبوا فيه وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمرين أي أنها قد هرمت وقال حذيفه رفع جبريل صلى الله عليه وسلم مدينتهم ثم قلبها فسمعت

امرأته الوجبة فالتفتت فأهلكت معهم والأكثر في اللغة أن يكون الغابر الباقي قال الراجز فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر أي وما بقي 79 - وقوله جل وعز ولا تبخسوا الناس أشياءهم (آية 85) البخس النقصان 80 - ثم قال تعالى ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها (آية 85) أي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل وإرسال الرسل 81 - وقوله جل وعز ولا تقعدوا بكل صراط توعدون (آية 86)

قال قتادة أي توعدون من أتى شعيبا وغشية وأراد الإسلام بالأذى ويقال وعدته خيرا أو شرا فإذا قلت وعدته لم يكن إلا

للخير وإذا قلت أوعدته لم يكن إلا للشر 82 – ثم قال جل وعز وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجا (آية 86) قال قتادة أي وتبغون السبيل عوجا عن الحق والسبيل الطريق والمذهب 83 – ثم قال جل وعز واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم (آية 86) يجوز أن يكونوا قليلي العدد 2 ويجوز أن يكونوا فقراء فكثرهم بالغنى 3 ويجوز أن يكونوا غير ذوي مقدرة

والله أعلم بما أراد إلا أنه ذكرهم نعمة من نعم الله جل وعز كما قال تعالى فاذكروا آلاء الله 84 – وقوله جل وعز قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا (آية 88) يقال كيف قالوا هذا لشعيب صلى الله عليه وسلم وهو نبي فعلى هذا جوابان أحدهما أن يكون معنى لتعودن لتصيرن كما تقول عاد علي من فلان مكروه والجواب الاخر أنهم لما خلطوا معه من آمن منهم جاز أن يقولوا أو لتعودن في ملتنا يعنون من آمن قال أولو كنا كارهين أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين وقوله وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا على التسليم لله كما قال تعالى وما توفيقي إلا بالله والدليل على هذا أن بعده وسع ربنا كل شئ علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق قال قتادة إي اقض بيننا وبين قومنا بالحق وروى إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله تعالى افتح بيني وبينهم فتحا قال معناه النصر 85 – وقوله جل وعز كأن لم يغنوا فيها (آية 92) قال قتادة أي كأن لم يعيشوا ولم يتنعموا قال الأصمعي يقال

غنينا بمكان كذا أي أقمنا فيه والمنازل يقال لها المغاني

ومعنى فكيف آسى فكيف أحزن والأسى اشد الحزن 86 - وقوله جل وعز وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء (آية 94) قال مرة عن ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وقيل البأساء المصائب في المال يقال بئس الرجل يبأس بأسا وبأساء لم إذا افتقر والضراء ما لحق من الأمراض والمصائب في البدن

(119/260)

لعلهم يضرعون أي يخضعون ويستكينون 87 - وقوله تعالى ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة (آية 95) قال مجاهد السيئة الشر والحسنة الرخاء والولد 88 - ثم قال جل وعز حتى عفوا (آية 95) قال مجاهد أي كثرت أموالهم وأولادهم

وذلك معروف في اللغة ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أعفوا اللحى أي كثروها 89 - ثم خبر جل وعز عنهم أنهم لم يعتبروا بما أصابهم وقالوا إن العادة في الزمان الخير والشر فقال تعالى وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة (آية 95) أي فجأة 90 - وقوله جل وعز ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا (آية 96) يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها من قريت الماء إذا جمعته والبركات التي تأتي من السماء المطر

والتي تأتي من الأرض النبات

91 - وقوله جل وعز أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون (آية 97) أي أفأمن من كذب محمدا صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم باسنا بياتا

أي ليلا 92 - وقوله جل وعز أو أمن ابن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون (آية 98) ومعنى وهم يلعبون أي وهم فيما لا يجدي عليهم يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه لاعب 93 - ثم قال جل وعز أفأمنوا مكر الله (آية 99) أي عذابه إذا وقع بهم ولم يعلموا أنه واقع بهم 94 - وقوله جل وعز أولم يهد للذين يرثون الأرض (آية 100) قال مجاهد أي أو لم يبين ومعنى يهد بالياء يتضح ويبين

95 - وقوله جل وعز فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل (آية 101) قال مجاهد هذا مثل قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقال غيره هذا مخصوص به أقوام بأعيانهم خبر الله جل وعلا أنهم لا يؤمنون وأما قول من قال معنى فما كانوا ليؤمنوا ليحكم لهم بالإيمان فلا يصح في اللغة ويدل على بطلانه أن بعده كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين فدل بهذا على أنه قد طبع على قلوبهم هذا قول أبي إسحاق جزاء بما عملوا 96 - وقوله جل وعز وما وجدنا لأكثرهم من عهد (آية 102)

من زائدة وهي تدل على معنى الجنس ولولا من

لجاز أن يتوهم أنه واحد في المعنى قال أبو عبيدة المعنى وما وجدنا لأكثرهم حفظا ولا وفاء

97 – وقوله جل وعز فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (آية 103) اصل

الظلم وضع الشئ في غير موضعه فلما كفروا بها جعلوا موضع ما يجب من الإيمان الكفر

فقيل ظلموا بها بمعنى كفروا بها 98 – وقوله جل وعز حقيق على أن لا أقول على الله إلا

الحق (آية 105) قال أبو عبيدة أي حريص قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله وهي قراءة

عبد الله حقيق أن لا أقول وهذا يدل على التخفيف لأن حروف الجر

تحذف مع أن وقال الكسائي هي في قراءة عبد الله حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق قال

الفراء معنى على أن لا وبأن لا واحد كما يقال جاء فلان على حال حسنة وبحال حسنة

ومن قرأ حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق فإن

معناه عنده واجب علي 99 – وقوله جل وعز فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (آية

107) الثعبان الحية الذكر ومعنى ونزع يده أظهرها قال مجاهد أخرجها من جيبه بيضاء

من غير برص ويروى أن موسى صلى الله عليه وسلم كان آدم اللون فلما أخرج يده بيضاء

كان ذلك آية

100 – وقوله جل وعز قال الملأ من قوم فرعون (آية 109) الملأ عند أكثر أهل اللغة

الأشراف وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قال يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى وقال بعض أهل اللغة الملأ الرهط والنفر الرجال الذين لا نساء معهم 101 - وقوله جل وعز قالوا أرجئه وأخاه (آية 111) قال قتادة أي احبسه والمعروف عند أهل اللغة أن يقال ارجأت الأمر إذا أخرته

ومن قرأ أرجه وأخاه ففي قراءته قولان أصحهما أنها لغة وإن كانت ليست مشهورة والقول الآخر حكي عن أبي العباس قال هو من رجا يرجو أي اتركه يرجو

(121/260)

---

102 - وقوله جل وعز واسترهبوهم (آية 116) أي استدعوا منهم الرهبة 103 - وقوله جل وعز فإذا هي تلقف ما يأفكون (آية 117) ومعنى تلقف تلتهم قال أبو حاتم وبلغني في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد وقال خارجة قرأ الحسن تلقم بفتح القاف قال مجاهد معنى ما يأفكون ما يكذبون أي به وكذبهم أنهم يجعلون الحبال حيات ويجوز أن يكون فماذا تأمرون جوابا من فرعون للملأ حين قالوا إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من ارضكم فقال فرعون فماذا تأمرون ويجوز ان يكون الملأ قالوا هذا لفرعون ومن يخصه قال مجاهد معنى فوقع الحق فظهر ومعنى أفرغ علينا صبرا أنزل علينا صبرا يشملنا 104

- وقوله جل وعز وذرك وآلهتك (آية 127) وقرأ ابن عباس إلاهتك وقال معناه وعبادتك

لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد وقال من احتج لهذه القراءة الدليل على أنه كان يعبد ولا يعبد أنه قال ما علمت لكم من إله غيري

ومن قرأ وآلهتك فإنه يذهب إلى جهتين إحداهما أنه يعني بالآلهة ههنا من كان يطيعه فرعون كما قيل في قول الله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله أنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم فصار تمثيلا والجهة الأخرى أن سليمان التيمي قال بلغني أن فرعون كان يعبد البقر قال التيمي فقلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئا فقال نعم إن كان ليعبد شيئا قد جعله الله في عنقه

وقال إسماعيل قول فرعون أنا ربكم الأعلى يدل على أنهم كانوا يعبدون شيئا غيره وقد يكون معنى وآلهتك أنها آلهة يأمرهم بعبادتها 105 - وقوله جل وعز قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا (آية 129) قال مجاهد أي من قبل أن ترسل إلينا وقال غيره الأذى الذي لحقهم من قبل أن يرسل إليهم قتل أبنائهم والأذى الذي لحقهم بعد أن فرعون قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم 106 - وقوله جل وعز ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين (آية 130) قال مجاهد أي بالجوائح

وهذا معروف في اللغة أن يقال أصابتهم سنة أي جدب

وتقديره سنة جدب ثم حذف 107 - ثم قال جل وعز ونقص من الثمرات (آية 130) قال مجاهد أي دون ذلك 108 - ثم قال جل وعز لعلهم يذكرون (آية 130) أي يعتبرون بما أصابهم 109 - ثم قال جل وعز فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه (آية 131) قال مجاهد الحسنة ههنا العافية والرخاء لنا هذه أي بحق أصابتنا وقال غير مجاهد أي كذا العادة أن يصيبنا الخير

110 - ثم قال جل وعز وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه (آية 131) قال مجاهد السيئة ههنا البلاء ومعنى يطيروا يتشاءموا 111 - ثم قال جل وعز ألا إنما طائرهم عند الله (آية 131) قال مجاهد ألا إنما طائرهم عند الله أي إنما الشؤم فيما يلحقهم يوم القيامة مما وعدوا به من الشر 112 - ثم قال جل وعز ولكن أكثرهم لا يعلمون (آية 131) أي هم غافلون عن هذا 113 - وقوله جل وعز فأرسلنا عليهم الطوفان (آية 133)

قال عطاء الطوفان الموت وقال مجاهد هو الموت على كل حال وقال قتادة سال عليهم الماء حتى قاموا قياما فسألوا موسى أن يدعو الله أن يكشفه ففعل وقال الضحاك جاءهم من

المطر شيئ كثير فسألوا موسى أن يدعو الله أن يكشفه عنهم ويرسلوا معه بني إسرائيل فدعا الله فكشفه عنهم وأمرعت البلاد وأخصبت فعادوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فصب الله على زرعهم الجراد فأكله فسألوا موسى فدعا الله فكشف ذلك عنهم ثم عادوا قال أبو جعفر الطوفان في اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل أي ما يطيف بهم فيهلكهم قال مجاهد أرسل الله عليهم الجراد فأكل مساومير له

(123/260)

أرتجتهم ذلك وثيابهم وأرسل عليهم القمل وهو الدبى فكان يدخل في ثيابهم وفرشهم وقال عكرمة القمل الجنادب بنات الجراد وقال حبيب بن أبي ثابت القمل الجعلان والقمل عند أهل اللغة ضرب من القردان قال أبو الحسن الأعرابي العدوي القمل دواب صغار من جنس القردان إلا أنها أصغر منه واحدتها قملة وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير لأنه يجوز ان تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم وهي كلها تجتمع في أنها تؤذيهم

قال مجاهد كانوا يجدون الدم في ثيابهم وشرابهم وطعامهم

ومعنى آيات مفصلات بعضها منفصل عن بعض بين كل واحدة منهم مدة يروى أنه بين الآية والآية ثمانية أيام 114 - وقوله جل وعز ولما وقع عليهم الرجز (آية 134) وقرأ سعيد بن

جبير ومجاهد الرجز قال مجاهد وهو العذاب قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك

قال أبو عبيدة بما أوصاك وأعلمك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني

إسرائيل يروى أنهم كدوهم محمد في العمل

قال مجاهد إلى أجل هم بالغوه إلى عدة مسماة من أيامهم فأغرقناهم في اليم وهو البحر

115 - وقوله جل وعز وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها

التي باركنا فيها (آية 137) القوم ههنا بنو إسرائيل وكان فيهم داود وسليمان عليهما

السلام قال قتادة التي بورك فيها الشام

وقيل مصر 116 - ثم قال عز وجل وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا

(آية 137) قيل يعني بالكلمة عسى ربكم أن يهلك عدوكم

(124/260)

ويستخلفكم في الأرض قال مجاهد في قوله جل وعز وما كانوا يعرشون (آية 137) قال

يبنون البيوت والمساكن ومعنى يعكفون يواظبون ويلازمون إلى ومنه قيل اعتكف فلان

ومعنى متبر مهلك ومدمر ويقال تبرت الشئ إذا كسرته واسم ما انكسر منه التبر 117 -

وقوله جل وعز قال أغير الله أبغيكم إلها (آية 140) معنى أبغي أطلب ومعنى يسومونكم

يولونكم 118 - وقوله جل وعز وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم (آية 141) يجوز أن يكون المعنى وفي إنجائه بني إسرائيل نعمة ويجوز أن يكون المعنى في سومكم كان بني إسرائيل سوء العذاب بلية عظيمة

119 - وقوله جل وعز وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر (آية 142) قال مجاهد الثلاثون ذو القعدة والعشر عشر من ذي

الحجة والفائدة في قوله فتم ميقات ربه اربعين ليلة أنه قد دل على أن العشر ليال وأنها ليست بساعات وقيل هو توكيد وقيل هو بمنزلة فذلك أي فليس بعدها شئ يذكر 120 - وقوله جل وعز ولما جاء موسى لميقاتنا (آية 143) أي للميقات الذي وقتناه له وكلمة ربه أي خصه بذلك

121 - وقوله جل وعز فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (آية 143) قال قتادة دك بعضه بعضا وقال عكرمة إنما هو جعله دكاء من الدكاوات والتقدير على هذه القراءة جعله أرضا دكاء وهي الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا قال عكرمة لما نظر الله جل وعز إلى الجبل صار صحراء ترابا 122 - ثم قال جل وعز وخر موسى صعقا (آية 143) قيل ميتا وقال سعيد بن عروبة عن قتادة مغشيا عليه فلما افاق قال سبحانك إني تبت إليك قال مجاهد أي تبت من أن أسألك الرؤيا وأنا أول المؤمنين أي أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات

لأن سؤاله كان في الدنيا قال قتادة لما أخذ الألواح فراى فيها وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتقريظهم أبو فقال يا رب اجعلهم أمتي فقال تلك أمة أحمد فقال فاجعلني منهم قال إنك لن تدركهم وقال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فرضي موسى صلى الله عليه وسلم 123 - وقوله جل وعز وكتبنا له في الألواح من كل شئ (آية 145) قال سفيان أي من الحلال والحرام 124 - ثم قال تعالى موعظة وتفصيلا لكل شئ (آية 145) قال سعيد بن جبير أي تفصيلا لما أمروا به ونهوا عنه 125 - ثم قال جل وعز فخذها بقوة (آية 145)

أي بقوة في دينك وحجتك وقيل بجد وعزم 126 - ثم قال جل وعز وأمر قومك يأخذوا بأحسنها (آية 145) وكلها حسنة فقيل المعنى أنهم أمروا أن يأخذزا أو بما هو أحسن مما هو مطلق لهم وإن لن آتانا جعيعاء) مطلقين نحو قوله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل فهذا مباح والعفو أحسن وقيل بأحسنها بالأحسن منها

وقيل أمروا بشئ وخبروا بما لهم فيه ونهوا عن شئ وخبروا بما عليهم فيه فقيل لهم خذوا بأحسنها وقيل بالناسخ 127 - ثم قال تعالى سأريكم دار الفاسقين (آية 145) قال

الحسن يعني جهنم

وقال مجاهد يعني مصيرهم في الآخرة وقرأ قسامة بن زهير سأورثكم دار الفاسقين 128 - وقوله جل وعز سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق (آية 146) قال سفيان بن عيينة أي أمنعهم من كتابي قال أبو إسحاق المعنى سأجعل جزاءهم على كفرهم الإضلال عن هداية آياتي

وقل سأصرفهم عن نفعها وقيل عن عزها ومعنى يتكبرون يحقرون الناس ويرون أن لهم فضلا عليهم ويتكبرون عن الإيمان واتباع النبي صلى الله عليه وسلم 129 - وقوله جل وعز وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا (آية 146) ويقرأ سبيل الرشد وقرأ عبد الرحمن المقرئ سبيل الرشاد

قال أبو عمرو بن العلاء الرشد الصلاح والرشد

(126/260)

في الدين قال غيره الغي الضلال 130 - وقوله جل وعز ذلك بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (آية 146) ويجوز أن يكونوا في تركهم الإيمان وتدبر الحق بمنزلة الغافلين ويجوز أن يكون غافلين عما يجازون به كما يقال ما أغفل فلانا عما يراد به 131 - وقوله جل

وعز واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار (آية 148) أي من بعد ما جاء للميقات من حليهم يقال لما حسن من الذهب والفضة حلي والجمع حلي وحلي عجلا جسدا أي عجلا

جثة أي لا يعقل ولا يميز وقيل لم يكن له رأس إنما كان جسدا فقط له خوار أي صوت قال مجاهد جمع الحلي فأخذ قبضة من أثر فرس جبريل صلى الله عليه وسلم فرماها عليه

132 - وقوله جل وعز ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد

ضلوا (آية 149) يقال للنادم المتحير سقط في يديه وأسقط ويقرأ ولما سقط في أيديهم أي ولما سقط الندم

في ايديهم 133 - وقوله جل وعز ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا (آية 150) الأسف الشديد الغضب المغيظ ويكون الحزين ومعنى أعجلتم أمر ربكم اسبقتم عبد ولم تنتظروا أمره ونهيه 134 - ثم قال جل وعز وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه (آية 150) قال مجاهد كانت من زمردة خضراء قال مجاهد في قوله ولا تجعلني مع القوم الظالمين يعني الذين عبدوا العجل 135 - وقوله جل وعز قال رب اغفر لي ولأخي (آية 151) أي اغفر الغضب الذي القيت من أجله الألواح واغفر لأخي ما كان من مساهلته عليه في بني إسرائيل إذ كان ذلك من خشية غضب موسى حين قال إني خشيت ان تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي وقيل إنما استغفر لذنوب كانت قبل هذا الوقت لأن

غضبه ايضا كان لله جل وعز وهارون عليه السلام إنما أخر بني إسرائيل لئلا يتفرقوا ويتحاربوا أبي وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لم يبق من الألواح إلا سدسها

(127/260)

---

136 - وقوله جل وعز إن الذين آتذوا (العجل سينالهم غضب من ربهم (آية 152)

المعنى إن الذين اتخذوا العجل إلها حذف لعلم السامع وقيل معنى وذلة في الحياة الدنيا إنها الجزية وقيل هو ما أمروا به من أن يقتل بعضهم بعضا وما راوه من ضلالهم قال الله جل وعز ورأوا أنهم قد ضلوا قال أبو جعفر وهذا القول أصح من الأول لأن الجزية لم تؤخذ منهم وإنما أخذت من ذريتهم

137 - وقوله جل وعز ولما سكت عن موسى الغضب (آية 154) معناه سكن قال أبو إسحاق يقال سكت يسكت سكتا إذا سكن وسكت يسكت سكوتا وسكتا إذا قطع الكلام ومعنى وفي نسختها وفيما نسخ منها أي فيها هدى ورحمة

قال ابن كيسان وفي نسختها فيه قولان أحدهما أنها جددت له في لوحين وقيل فيما انتسخ منها وكانت قد تكسرت فذهب أكثرها وانتسخ ما قدر عليه منها وفي تلك النسخة هدى أي بيان ورحمة أي ما يدل على ما يوجب الرحمة ولهذا قال هدى ورحمة للذين هم لربهم

يرهبون

يجوز أن يكون معنى اللام معنى من أجل كما تقول أنا أكرم فلانا لك ويجوز أن يكون المعنى رهبتهم لربهم 138 - وقوله جل وعز واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا (آية 155) أي ممن لم يعبدوا العجل والمعنى من قومه 139 - ثم قال جل وعز فلما أخذتهم الرجفة (آية 155) قال مجاهد أميتوا ثم أحيوا والرجفة في اللغة الزلزلة الشديدة ويروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا قال ابن عباس إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا من عبد العجل ولم يرضوا عبادته قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أي أمتهم كما قال تعالى إن أمرؤ هلك

(128/260)

قال ابن كيسان أي لو شئت أهلكتهم من قبل لأنهم أذنبوا بأنهم لم ينهوا من عبد العجل وإياي بذنبي حين قتلت القبطي فقد رحمتنا ولم تهلكنا بذنوبنا نحن أفتهلكنا بذنوب السفهاء الذين عبدوا العجل وأنت متفضل علينا بالعفو قبل هذا قال أبو جعفر حقيقة المعنى لست تهلكنا وألف الاستفهام تدل على هذا المعنى في كثير من المواضع كما تقول ما أنا أفعل مثل هذا أي لست أفعله

إن هي إلا فتنتك تضل بها أي بالفتنة من تشاء أن تبتليه ما فتجعله عاصيا 140 – وقوله عز وجل واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك (آية 156) قال مجاهد وأبو العالية وقتادة في قوله تعالى إنا هدنا إليك قالوا تبنا 141 – ثم قال جل وعز قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيئ (آية 156) قال الحسن وقتادة وسعت البر والفاجر في الدنيا وهي للتقي خاصة يوم القيامة 142 – وقوله جل وعز فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة (آية 156) روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن

جبير عن ابن عباس قال كتبها الله جل وعز لهذه الأمة 143 – وقوله جل وعز الذين يتبعون الرسول النبي الأمي (آية 157) الأمي الذي لا يكتب وقيل نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أم القرى وهي مكة الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فكان هذا من براهينه صلى الله عليه وسلم لأنه خبرهم بما في كتابهم فيجوز أن يكون يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر بما هو مكتوب عندهم ويجوز أن يكون مستأنفا ويحل لهم الطيبات يجوز أن يكون الحلال ويجوز أن يكون ما حرم عليهم من الطعام

ويحرم عليهم الخبائث العرب تقول لكل حرام خبيث ويضع عنهم إصرهم قال سعيد بن جبير الإصر شدة العبادة وروي عن مجاهد فيه قولان روى عنه ابن أبي نجيح أنه قال كانوا قد شدد عليهم فس أشياء فمن أسلم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم خفف عنه

وروى موسى بن قيس عنه أنه قال هي عهود كانت عليهم والقولان متقاربان أي ما يثقل عليهم

(129/260)

وكذلك الأغلال التي كانت عليهم إنما هو تمثيل أي أشياء قد كلفوعا لا وضمنوها أن فهي بمنزلة الأغلال ويروى أن أحدهم كان إذا أصاب جلده بول وجب عليه أن يقطعه وإذا قتل رجل رجلا لم يكن بد من قتله ولا تؤخذ منه دية 144 - ثم قال جل وعز فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه (آية 157) وقيل معنى وعزروه وعظموه وقيل ومنعوا منه أعداء والمعاني متقاربة واتبعوا النور الذي أنزل معه بمنزلة النور في البيان ثم قال فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته (آية 158) قال مجاهد معنى يؤمن بالله وكلمته يؤمن بالله

وبعيسى وقال غيره الكلمة والكلام ههنا على واحد 145 - وقوله جل وعز وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما (آية 160)

الأسباط الفرق والواحد سبط والأسباط في ولد إسحاق صلى الله عليه وسلم بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل صلى الله عليه وسلم والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر

تعلفه الإبل ومعنى فانبجست فانفجرت 146 - وقوله جل وعز واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر (آية 163) أمره أن يسألهم سؤال توبيخ ليقررهم بما يعرفونه من عصيان آبائهم ويخبرهم بما لا يعرف إلا من كتاب أو وحي حدثنا أبو جعفر قال نا محمد بن إدريس قال نا

يونس قال أخبرنا ابن وهب وكذا أخبرني حيوة عن عقيل عن ابن شهاب قال القرية التي كانت حاضرة البحر طبرية والقرية التي قال فيها واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إنطاكية وعن ابن عباس التي كانت حاضرة البحر أيلة ومعنى يعدون يعتدون ويجاوزون الحق والشرع الظاهرة وقرأ الحسن يسبتون أي يدخلون في السبت مثل أهللنا ومن فتح الباء قال معناه يعظمون السبت كما كانوا يعظمونه هذا قول الكلبي وأبي عبيدة

قال مجاهد كانت الحيتان تأتيهم يوم السبت من غير أن

يطلبوها ابتلاء من الله جل وعز لهم أي اختبارا 147 - وقوله جل وعز وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا (آية 164) معنى أو ها هنا لأحد الأمرين أي قد ظهر منهم ما سيلحقهم من أجله أحد هذين قالوا معذرة إلى ربكم أي

موعظتنا معذرة أي إنما يجب علينا أن نأمرهم بالمعروف ولعلهم يرجعون بموعظتنا فلما نسوا ما ذكروا به أي تركوا أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس قال ابن عباس ما أدري ما فعل بالفرقة التي لم تأمر ولم تنه

وقال غيره نجيت لأنها لم تشارك كالذين عصوا قال مجاهد بئيس أليم شديد وهذا معروف في اللغة يقال بؤس فهو يبأس إذا اشتد ومن قرأ بيس ففيه قولان قال الكسائي الأصل فيه بئس خففت الهمزة فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكسر أوله كما يقال رغيف وشهيد وقيل أراد بئس على فعل فكسر أوله وخففت الهمزة وحذفت الكسرة كما يقال رحم ورحم قال أبو إسحاق بئيس أي شديد وقد بئس إذا افتقر وبؤس إذا اشتد

قال علي بن سليمان بيس ردئ وليس بجار على

الفعل أنما هو كما يقال ناقة نضو والعرب تقول جاء ببنات بيس أي ببنات شيئ ردئ قال أبو جعفر وفيه قراءات سوى هاتين سنذكرها في الإعراب إن شاء الله 148 وقوله جل وعز وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب (آية 167) قال أهل التفسير معناه أعلم ربك وهذا قول حسن لأنه يقال تعلم بمعنى أعلم وأنشد أبو إسحاق لزهير في مثل هذا فقلت تعلم إن للصيد غرة فإن لا تضيعها فإنك قاتله وروي عن ابن عباس أنه قال في قوله جل وعز ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب قال يعني أخذ الجزية فإن قيل فهم قد مسخوا فكيف تؤخذ منهم الجزية فالجواب إنها تؤخذ من أبنائهم

وقد مسخوا ولحق أولادهم الذل فهم أذل قوم وهم اليهود حدثنا أبو جعفر قال نا أحمد بن محمد بن سلامة قال نا عيسى بن إسحاق الأنصاري قال نا يحيى بن عبد الحميد

(131/260)

الحماني عن يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد ابن جبير في قول الله تعالى وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة قال العرب من يسومهم سوء العذاب قال الخراج وقيل عليهم على اليهود بين أنه كان أخبر بذلك 149 - ثم قال جل وعز وقطعناهم في الأرض أمما (آية 168)

أي فرقناهم فرقا 150 - وقوله جل وعز وبلوناهم بالحسنات والسيئات (آية 168) أي واختبرناهم بالشدة والرخاء والخصب والجدب 151 - وقوله جل وعز فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الله (آية 169) قال مجاهد يعني النصارى وقال غيره يعني أبنائهم قال أبو جعفر وهذا أولى القولين والله أعلم لأنه يقال لولد الرجل خلفه يقال للواحد وللاثنين والجمع والمؤنث على لفظ واحد والجمع خلوف

وقيل إنما يستعمل للردئ من الأبناء فأما الخلف بتحريك اللام فهو البدل من الشئ من ولد أو غيره

152 - ثم قال جل وعز يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا (آية 169) قال ابن عباس رحمه الله يستقبلون الدنيا فيأكلونها ويتأولون كتاب الله هذا معنى قوله تعالى وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه قال مجاهد يأخذون في يومهم ما كان من حلال أو حرام وإن وجدوا ذلك لغد أخذوه وقال غيره يأخذون الرشى في الحكم ويقولون سيغفر لنا وهم لا يتوبون ودل على انهم لا يتوبون قوله تعالى وإن يأتهم عرض مثله يأخذو والعرض في اللغة متاع الدنيا أجمع والعرض بتسكين الراء ما كان من المال سوى الدنانير والدراهم وما كان من الدنانير والدراهم قيل له نقد وغيره ومعنى ودرسوا ما فيه أي قد قرأوه وهم قريبو عهد بقراءته 153 - ثم قال تعالى والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين (آية 170) معنى يمسكون بالكتاب يتبعون ما فيه ويحكمون به إنا لا نضيع أجر المحسنين أي من أصلح منهم وآمن ولم يعاند

154 - وقوله جل وعز وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة (آية 171)

(132/260)

يقال نتقت الشئ أنتقه قال نتقا ونتوقا عن إذا زعزعته ورميت به أو قطعته منه امرأة ناتق أي كثيرة الولد كأنها ترمي بالأولاد ويقال نتقت السقاء إذا نفضته لتخرج ما فيه من الزبد

قال قتادة رفع الجبل على رؤوسهم وقال لهم موسى صلى الله عليه وسلم إن قبلتم ما في الكتاب وإلا سقط عليكم ومعنى بقوة بجد 155 - وقوله جل وعز وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم (آية 172) أحسن ما قيل في هذا ما تواترت به الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله جل وعز مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق فكأن يفهمهم ما أراد جل وعز كما قال تعالى قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم

وفي الحديث كل مولود يولد على الفطرة أي على ابتداء أمره حين أخذ عليهم العهد حدثنا أبو جعفر قال نا عبد الله بن إبراهيم المقرئ البغدادي بالرملة قال نا عباس الدوري قال نا عبد الله بن موسى قال نا

أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن أبي بن كعب في هذه الآية وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم إلى قوله المبطلون قال جمعهم فجعلهم أزواجا ثم صورهم ثم استنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا إنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك قال فارسل إليكم رسلي وأنزل عليكم كتبي فلا تكذبوا رسلي وصدقوا وعيدي وإني سأنتقم ممن اشرك بي ولم يؤمن بي فأخذ عهدهم وميثاقهم وذكر الحديث

قال أبو جعفر ونذكر حديث عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في معنى هذه الاية في الإعراب وغيره إن شاء الله 156 - ثم قال جل وعز قالوا بلى (آية 172) وهذا التمام على قراءة من قرأ أن تقولوا بالتاء قال أبو حاتم وهي مذهبنا لقوله ألست بربكم يخاطبهم فقال على المخاطبة أن تقولوا أي لأن لا تقولوا وقرأ بن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما أن يقولوا بالياء والمعنى على هذه القراءة وأشهدهم على أنفسهم كراهة أن يقولوا 157 - وقوله جل وعز واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها (آية 175)

وروى شعبة عن منصور عن أبي الضحى عن

مسروق عن عبد الله قال هو بلعام وروى ابن أبي جريج عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس قال هو بلعام بن باعر من بني إسرائيل قال سعيد بن جبير كان معه اسم الله الأعظم فسألوه أن يدعوا الله على موسى عليه السلام واصحابه فقال أخروني وكان لا يدعو على أحد حتى يرى ذلك في نومه فبات فنهي في نومه فعادوا إليه وكان موسى صلى الله عليه وسلم قد جاءهم في ثمانين ألفا خلف الفرات فلما سألوه أن يدعو عليه بعد ما نهي قال لهم أخرجوا إلى أصحابه النساء ليفتتنوا فتنتصروا عليهم فانسلخ مما كان فيه وكان قد أمر في نومه أن يدعو له قال عبد الله بن عمرو بن العاص رحمهما الله هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت

وقال عكرمة هو من كان من اليهود والنصارى لم يصح إسلامه يذهب إلى أنهم منافقوا أهل الكتاب وقال ابن عباس في قوله تعالى فانسلخ منها هو ما نزع منه من العلم 158 - ثم قال جل وعز فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (آية 175) يقال اتبعه إذا أدركه وتبعه إذا سار في أثره هذا الجيد

وقيل هما لغتان 159 - وقوله جل وعز ولو شئنا لرفعناه بها (آية 176)

(134/260)

قال مجاهد أي لرفعناه عنه ومعناه لعصمناه من مما فعل 160 - ثم قال جل وعز ولكنه أخلد إلى الأرض (آية 176) قال مجاهد أي سكن والتقدير إلى نعيم الأرض ولذاتها 161 - وقوله جل وعز فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث (آية 176) قال مجاهد أي إن تحمل عليه بدابتك أو رجلك يلهث أو تتركه يلهث وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه وقال غير مجاهد هذا شر تمثيل في أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بكلب لاهث أبدا حمل عليه أو لم يحمل عليه هو لا يملك ترك اللهثان

162 - وقوله جل وعز ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس (آية 179) أي خلقنا

لجهنم كثيرا من الجن والإنس يقال ذرا الله خلقه يذرؤهم ذرءا أي خلقهم وقوله تعالى أولئك كالنعام وصفهم بأنهم بمنزلة من لا يعقل 163 - ثم قال جل وعز بل هم أضل (آية 179) لأن الأنعام إذا أبصرت مضارها اجتنبتها أو أكثرها ولا تكفر معاندة 164 - وقوله جل وعز ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها (آية 180) روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة

وقال بعض أهل اللغة يجب على هذا أن لا يدعى الله عز وجل إلا بما وصف به نفسه فيقال يا جواد في ولا يقال يا سخي 165 - وقوله جل وعز وذروا الذين يلحدون في أسمائه (آية 180) قال ابن جريج اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله قال أبو جعفر والإلحاد في اللغة الجور والميل ومنه بن لحد القبر لأنه ليس في الوسط إنما هو مائل في ناحيته قال أبو جعفر وفرق الكسائي بين ألحد ولحد فقال ألحد عدل عن القصد ولحد ركن إلى الشئ

وعلى هذا قرأ في النحل يلحدون بفتح الياء بمعنى الركون 166 - وقوله جل وعز والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا

يعلمون (آية 182) يقال استدرج فلان فلانا إذا اتى بأمر يريد ليلقيه في هلكة ولا يكون الاستدراج إلا حالا بعد حال ومنه فلان يدرج فلانا ومنه أدرجت الثوب 167 – وقوله جل وعز وأملي لهم إن كيدي متين (آية 183) ومعنى أملي أؤخر والملاوة القطعة من الدهر ويقال بالضم والكسر ومنه تمل حبيبك والمتين الشديد

168 – وقوله جل وعز أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض (آية 185) قال سفيان يعني خلق السموات والأرض 169 – وقوله جل وعز يسألونك عن الساعة أيان مرساها (آية 187) قال قتادة أي متى قيامها وقال غيره يقال رسى الشئ يرسو رسوا إذا ثبت وأرسيته هذه أثبته 170 – ثم قال جل وعز قل إنما علمها عند ربي (آية 187) أي لا يعلم متى قيامها غلا الله 171 – ثم قال جل وعز لا يجليها لوقتها إلا هو (آية 187) يقال جلى لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه

172 – ثم قال جل وعز ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة (آية 187) أي خفي علمها وإذا خفي الشئ ثقل وقيل أي ثقلت المسالة عنها أي عظمت 173 – ثم قال جل وعز لا تأتيكم إلا بغتة (آية 187) أي فجأة 174 – وقوله جل وعز يسألونك كأنك خفي عنها (آية 187) قال قتادة قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم نحن أقرباؤك فأسر إلينا متى الساعة فانزل الله جل وعز يسألونك كأنك حفي عنها أي حفي بهم والمعنى على هذا التقديم والتأخير أي يسألونك عنها

كأنك حفي لهم أي فرح لسؤالهم وهو معنى قول سعيد بن جبير أبي يسالونك كأنك حفي لهم 175 - وقوله جل وعز ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير (آية 188) روي عن ابن عباس أنه قال لو أني أعلم سنة القحط والجدب لهيأت لها ما يكفيني وقيل لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العبادة فيكون الخير ها هاهنا هن العبادة

(136/260)

وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسال عما في قلوب الناس وما يسرونه فقال لو كنت أعلم الغيب أي ما يسرونه وما يقع بكم حتى تحذروا مكروهه لكان أحرى أن تجيبوني إلى ما أدعوكم

لاستكثرت من الخير أي من إجابتكم إلى ما أدعوكم وما مسني السوء منكم بتكذيب أو عداوة إذ كنت عندكم كذلك ودل على هذا الجواب إن أنا إلا نذير أي لست أعلم من الغيب إلا ما علمني الله وقيل ولو كنت أعلم الغيب أي كتب الله وقال الحسن لاستكثرت من الخير من الوحي 176 - وقوله جل وعز هو الذي خلقكم من نفس واحدة (آية 189) يعني آدم صلى الله عليه وسلم وجعل منها زوجها يعني حواء فلما تغشاها كناية عن الجماع حملت حملا خفيفا فمرت به قال الحسن أي فاستمرت به والمعنى أنها مرت به

وجاءت لم يثقلها

وقرأ ابن يعمر فمرت به خفيف أي شكت في الحمل روي عن ابن عباس رحمه الله

فاستمرت به قال أبو حاتم أي استمر بها الحمل فقلب الكلام كما

يقال أدخلت الخف في رجلي فلما أثقلت أي استبان حملها دعوا الله ربهما لئن آتينا صالحا

قال الحسن أي غلاما وقال أبو البختري خافا ان يكون بهيمة 177 - ثم قال جل وعز فلما

آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما (آية 190)

روى خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال أتاهما إبليس فقال أنا

أخرجتكما من الجنة فإن أطعتماني وإلا جعلت له قرنين فشق بطنك أو أخرجته ميتا

فقضي أن يخرج ميتا ثم حملت حملا آخر فقال لهما مثل ذلك فقضي أن يخرج ميتا ثم حملت

حملا آخر فقال لهما مثل ذلك فقالت له حواء فيم تريد ان أطيعك قال سميه عبد الحارث

فسمته فقال الله جل وعز جعلا له شركاء فيما آتاهما قال غيره يعني في التسمية خاصة

وكان اسم إبليس الحارث

178 - ثم قال تعالى فتعالى اله عما يشركون (آية 190) أي عما يشرك الكفار ويدل

على هذا أيشركون ما لا يخلق شيئا يعني الأصنام وروي عن عكرمة أنه قال لم يخص بهذا

آدم وحواء

وحدهما والتقدير على هذا الجنس كله أي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل منها أي من جنسها زوجها فلما تغشاها على الجنس كله وكذا دعوا يراد به الجنسان الكافران ثم حمل فتعالى الله عما يشركون على معنى الجميع فهذا أولى والله أعلم من أن ينسب إلى الأنبياء عليهم السلام مثل هذا

وقال بعض أهل النظر يراد به غير آدم وحواء وإنما ذكرا لأنهما أصل الناس 179 - وقوله جل وعز إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم (آية 194) أي الله جل وعز يهلكهم كما يهلككم وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم وإن ها هنا بمعنى ما والمعنى ما الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم أي هم الأصنام والقراءة الأولى أكثر وأعرف والسواد عليها 180 - وقوله جل وعز إن وليي الله الذي نزل الكتاب (آية 196) قال الأخفش وقرئ إن ولي الله الذي نزل الكتاب يعني جبريل صلى الله عليه وسلم

قال أبو جعفر هي قراءة عاصم الجحدري والقراءة

الأولى أولى لقوله تعالى وهو يتولى الصالحين 181 - وقوله جل وعز وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون (آية 198) يعني الأصنام قال الكسائي يقال داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت قريبة منها 182 - وقوله جل وعز خذ

العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (آية 199) قال عطاء العفو الفضل

قال أبو جعفر وكذلك هو في اللغة ما كان فضلا ولم يكن بتكلف حدثنا أبو جعفر قال نا أحمد بن عبد الجبار الصوفي قال أنبأنا داود الضبي قال نا مسلم بن خالد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد في قوله جل وعز خذ العفو قال خذ من أخلاقهم وأعمالهم في غير تجسس قال الضحاك والسدي هذا قبل أن تفرض الصدقة وقد نسخته الزكاة وقال وهب بن كيسان سمعت ابن الزبير رحمه الله يقول خذ العفو والله ما أمر أن يؤخذ إلا من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم 183 - ثم قال جل وعز وأمر بالعرف (آية 199)

(138/260)

والعرف المعروف 184 - وقوله جل وعز وإما ينزغنك من الشيطان نزغ (آية 200) النزغ أدنى حركة 185 - وقوله جل وعز إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا (آية 201) قال مجاهد الطيف سنة الغضب قال الكسائي الطيف اللمم والطائف كل ما طاف حول الإنسان وقال أبو عمرو الطيف الوسوسة وحقيقته في اللغة من طاف يطيف إذا تخيل في القلب أو رؤي في النوم وهو طائف وطيف بمعناه

186 - وقوله جل وعز وإخوانهم يمدونهم في الغي (آية 202) أي يزيدونهم 187 -

وقوله جل وعز وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها (آية 203) قال قتادة أي جئت بها من عند نفسك وكذلك هو في اللغة يقال اجتبيت الشئ وارتجلته واخترعته واختلقته إذا جئت به من عند نفسك

188 - وقوله جل وعز ودون الجهر من القول بالغدو والآصال (آية 205) الآصال العشايا الواحد أصل وواحد أصل أصيل

189 - وقوله جل وعز وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا (آية 204) هذا عام يراد به الخاص وقال إبراهيم النخعي وابن شهاب والحسن هذا في الصلاة وقال عطاء هذا في الصلاة والخطبة قال أبو جعفر القول الأولى أول لأن الخطبة يجب السكوت فيها إذا قرئ القرآن وإذا لم يقرأ والدليل على صحة ما رواه إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة قال كانوا يتكلمون في الصلاة فأنزل الله جل وعز وإذا قرئ القرآن إلى آخرها قال أبو جعفر ولم يختلف في معنى قوله تعالى واذكر ربك في نفسك أنه في الدعاء وقال بعضهم في قوله جل وعز فاستمعوا له وأنصتوا كان هذا لرسول الله خاصة ليعيه عنه صلى الله عليه وسلم أصحابه .

(تمت سورة الأعراف) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 3 صـ 5 .

133 ﴾

وقال الفراء :

ومن سورة الأعراف

قلت : «1» أرأيت ما يأتى بعد حروف الهجاء مرفوعا مثل قوله : المص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومثل قوله : الم «2» تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، وقوله : الر «3» كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ وأشباه ذلك بم رفعت الكتاب فى هؤلاء الأحرف ؟

قلت : رفعته بحروف الهجاء التي قبله كأنك قلت : الألف واللام والميم والصاد من حروف المقطّع كتاب أنزل إليك مجموعا . فإن قلت : كأنك قد جعلت الألف واللام والميم والصاد يؤدّين عن جميع حروف المعجم ، وهو ثلاثة أحرف أو أربعة ؟ قلت : نعم ، كما أنك تقول : ا ب ت ث ثمانية وعشرون حرفا ، فتكتفى بأربعة أحرف من ثمانية وعشرين . فإن قلت : إن ألف ب ت ث قد صارت كالاسم لحروف الهجاء كما تقول : قرأت الحمد ، فصارت اسما لفاتحة الكتاب . قلت : إن الذي تقول ليقع فى الوهم ، ولكنك قد تقول : ابني فى ا ب ت ث ، ولو قلت فى حاط لجاز ولعلمت بأنه يريد : ابني فى الحروف المقطّعة .

فلما اكتفى بغير أوّلها علمنا أن أوّلها ليس لها باسم وإن كان أوّلها آثر فى الذكر من سائرها . فإن قلت : فكيف جاءت حروف (المص) (وكهيعص) مختلفة ثم أنزلا «4» منزل با تا ثا وهنّ متواليات ؟ قلت : إذا ذكرن متواليات دللن على أب ت ث

(1) كذا فى ش ، ج. يريد أن سائلا معينا وجه إليه هذا السؤال. وقد يكون الأصل: «فإن قلت» كما هو الشائع فى مثل هذا.

(2) أوّل سورة السجدة.

(3) أوّل سورة هود.

(4) أي مجموعنا (المص) و(كهيعص). والأنسب بالسياق: «أنزلن».

(140/260)

بعينها مقطّعة، وإذا لم يأتين متواليات دللن على الكلام المتصل لا على المقطّع.

أنشدنى الحارثىّ:

تعلمت باجاد وآل مزامر وسوّدت أثوابى ولست بكاتب «1»

وأنشدنى بعض بنى أسد:

لمّا رأيت أمرها فى حطّى وفنكت فى كذب ولط «2»

أخذت منها بقرون شمط ولم يزل ضربى لها ومعطى

حتى على الرأس دم يغطى فاكتفى بحطى من أبى جاد، ولو قال قائل: الصبى فى هوّز أو كلمن، لكفى ذلك من أبى جاد.

وقد قال الكسائيّ : رفعت كِتابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ وأشباهه من المرفوع بعد الهجاء بإضمار (هذا) أو (ذلك) وهو وجه . وكأنه إذا أضمر (هذا) أو (ذلك) أضمر لحروف الهجاء ما يرفعها قبلها لأنها لا تكون إلا ولها موضع .

قال : أفرأيت ما جاء منها ليس بعده «3» ما يرافعه مثل قوله : حم . عسق ، ويس ، وق ، وص ، مما يقلّ أو يكثر ، ما موضعه إذ لم يكن بعده مرافع ؟ قلت :

---

(1) مرامر هو ابن مرة أو ابن مروة . وهو من أهل الأنبار ، من أوّل من كتب بالعربية . ويريد بآله حروف الهجاء لأنه اشتهر بتعليمها ، أو لأنه سمى أولاده الثمانية بأسماء جملها ، فسمى أحدهم أبجد وهكذا الباقي . وانظر اللسان فى مرر . [. . . . .]

(2) كأنه يتحدّث عن امرأة لا يرضى خلقها ، حاول إصلاحها فلم تنقد له ولم تتقدّم ، كأنها تستمر فى أوّل وسائل تعلمها ، كالصبى لا يعدو فى تعلمه حروف الهجاء . وفنكت فى الكذب : لجت فيه وتمادت .

واللط : ستر الخبر وكتمه . والمعط : الشدّ والجذب . والقرون الشمط : يريد خصل شعر رأسها المختلط فيه السواد والبياض ، يريد أنها جاوزت عهد الشباب . وقوله : على الرأس ، فعلى جارة . ويصح أن يقرأ : علا الرأس ، فيكون (علا) فعلا و(الرأس) مفعول .

(3) فى ش ، ج : «قبله» . وظاهر أنه سهو من الناسخ .

قبله ضمير «1» يرفعه ، بمنزلة قول اللّه تبارك وتعالى : بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ «2» المعنى واللّه أعلم : هذه براءة من اللّه . وكذلك سُورَةٌ أَنْزَلْناها «3» وكذلك كل حرف مرفوع مع القول ما ترى معه ما يرفعه فقبله اسم مضمر يرفعه مثل قوله : وَلا تَقُولُوا «4» ثَلاثَةٌ انْتَهُوا المعنى واللّه أعلم : لا تقولوا هم ثلاثة ، يعنى الآلهة ، وكذلك قوله :

سَيَقُولُونَ «5» ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ المعنى واللّه أعلم : سيقولون هم ثلاثة .

وقد قيل فى (كهيعص) : إنه مفسّر لأسماء اللّه . فقيل : الكاف من كريم ، والهاء من هاد ، والعين والياء من عليم ، والصاد من صدوق . فإن يك كذلك (فالذكر) مرفوع بضمير لا ب (كهيعص) . وقد قيل فى (طه) إنه : يا رجل ، فإن يك كذلك فليس يحتاج إلى مرافع لأن المنادى يرفع بالنداء وكذلك (يس) جاء فيها يا إنسان ، وبعضهم : يا رجل ، والتفسير فيها كالتفسير فى طه .

وقوله : فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ (2) يقول : لا يضيق صدرك بالقرآن بأن يكذبوك ، وكما قال اللّه تبارك وتعالى :

فَلَعَلَّكَ «6» باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا . وقد قيل : فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ

: شك .

لِتُنْذِرَ بِهِ مؤخر ، ومعناه : المص كتاب أنزل إليك لتنذر به فلا يكن فى صدرك حرج منه . وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ فى موضع نصب ورفع . إن شئت رفعتها على الردّ على الكتاب كأنك قلت : كتاب حقّ وذكرى للمؤمنين والنصب يراد به : لتنذر وتذكّر به المؤمنين .

---

(1) يريد مبتدأ محذوفا .

(2) آية 1 سورة التوبة .

(3) آية 1 سورة النور .

(4) آية 171 سورة النساء .

(3) آية 11 سورة النساء .

(4) أول سورة التحريم .

(5) آية 2 سورة التحريم .

(6) أي وقعت مكانها . ولو كان «خالفتها» كان المعنى أظهر . [. . . . .]

﴿ اتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ اتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ . . . ﴾

وإنما خاطب النبىّ صلى الله عليه وسلم وحده لأن ما أنذر به فقد أنذرت به أمته ؛ كما قال: ﴿ يأيها النبىّ إذا طلقتم النِساء ﴾ فخاطبه ، ثم جعل الفعل للجميع ، وأنت قد تقول للرجل: ويحك أما تتقون الله ، تذهب إليه وإلى أهل بيته أو عشيرته . وقد يكون قوله: (اتبِعوا) محكيا من قوله (لتنذر به) لأن الإنذار قول ، فكأنه قيل له: لتقول لهم اتبعوا ؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يوصِيكم الله فِى أولادِكم للذكرِ مِثل حظِّ الأنثيينِ ﴾ لأن الوصية قول .

ومثله: ﴿ يا أيها النبِىُّ لم تحرِّم ما أحلَّ الله لك ﴾ . ثم قال: ﴿ قد فرض الله لكم ﴾ فجمع .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا . . . ﴾

يقال: إنما أتاها البأس من قَبْل الإهلاك ، فكيف تقدم الهلاك ؟ قلت: لأن الهلاك والبأس يقعان معا ؛ كما تقول: أعطيتنى فأحسنت ، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله: إنما وقعا معا ، فاستجيز ذلك . وإن شئت كان المعنى: وكم من قرية أهلكناها فكان مجىء البأس قبل الإهلاك ، فأضمرت كان . وإنما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى ، ولا يكون

فى الشروط التى خَلَفَتْها بمقدّم معروف أن يقدم المؤخر أو يؤخر المقدم ؛ مثل قولك: ضربته فبكى ، وأعطيته

(143/260)

فاستغنى ، إلا أن تدع الحروف فى مواضعها . وقوله : (أهلكناها فجاءها) قد يكونان خبرا بالواو : أهلكناها وجاءها البأس بياتا .

وقوله : أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4) ردّ الفعل إلى أهل القرية وقد قال فى أولها (أهلكناها) ولم يقل : أهلكناهم فجاءهم ، ولو قيل ، كان صوابا . ولم يقل : قائلة ، ولو قيل لكان صوابا .

وقوله : أَوْ هُمْ قائِلُونَ واو «1» مضمرة . المعنى أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو وهم قائلون ، فاستثقلوا نسقا على نسق ، ولو قيل لكان جائزا كما تقول فى الكلام : أتيتنى واليا ، أو وأنا معزول ، وإن قلت : أو أنا معزول ، فأنت مضمو للواو .

وقوله : فَما كانَ دَعْواهُمْ (5) الدعوى فى موضع نصب لكان . ومرفوع كان قوله : إِلَّا أَنْ قالُوا فأن فى موضع رفع . وهو الوجه فى أكثر القرآن : أن تكون أن إذا كان معها فعل ، أن تجعل مرفوعة والفعل منصوبا مثل قوله : فَكانَ «2» عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ وما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا «3» أَنْ قالُوا . ولو جعلت الدعوى مرفوعة (وأن) فى موضع نصب كان

صوابا كما قال اللّه تبارك وتعالى : لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا «4» وهى فى إحدى «5» القراءتين : ليس البر بأن تولوا .

---

(1) يريد : فيه واو . . . أو هنا واو .

(2) آية 17 سورة الحشر .

(3) آية 25 سورة الجاثية .

(4) آية 77 سورة البقرة .

(5) نسبها فى البحر 2/ 2 إلى مصحف أبى وابن مسعود .

وقوله : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ (8) وإن «1» شئت رفعت الوزن بالحقّ ، وهو وجه الكلام . وإن شئت رفعت الوزن بيومئذ ، كأنك قلت : الوزن فى يوم القيامة حقّا ، فتنصب الحقّ وإن كانت فيه ألف ولام كما قال : فَالْحَقُّ «2» وَالْحَقَّ أَقُولُ الأولى منصوبة «3» بغير «4» أقول .

والثانية بأقول .

وقوله : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ ولم يقل (فذلك) فيوحّد لتوحيد من ، ولو وحّد لكان

صوابا . و(من) تذهب بها إلى الواحد وإلى الجمع .

وهو كثير .

وقوله : وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ (10) لا تهمز لأنها - يعنى الواحدة - مفعلة ، الياء من الفعل ، فلذلك لم تهمز ، إنما يهمز من هذا ما كانت الياء فيه زائدة مثل مدينة ومدائن ، وقبيلة وقبائل لما كانت الياء لا يعرف لها أصل ثم قارفتها «5» ألف مجهولة أيضا همزت ، ومثل معايش من الواو مما لا يهمز لو جمعت ، معونة قلت : (معاون) أو منارة قلت مناور . وذلك أن الواو ترجع إلى أصلها لسكون الألف قبلها . وربما همزت العرب هذا وشبهه ، يتوهمون أنها فعيلة لشبهها بوزنها فى اللفظ وعدّة الحروف

---

(1) ثبتت الواو فى ش ، ج . والأولى حذفها .

(2) آية 84 سورة ص .

(3) أي فى غير قراءة عاصم وحمزة وخلف . أما هؤلاء فقراءتهم بالرفع .

(4) أي على أنه توكيد للجملة ، كما تقول أنت أخى حقا . ويقول أبو حيان فى رده فى البحر 7/ 411 : «وهذا المصدر الجائى توكيدا لمضمون الجملة لا يجوز تقديمه عند جمهور النحاة . وذلك مخصوص بالجملة التي جزءاها معرفتان جامدتان جمودا محضا» .

(5) فى ش ، ط : «فارقتها» وقد رأينا أنه مصحف عما أثبتنا . والقراف المخالطة .

كما جمعوا مسيل الماء أمسلة ، شبّه بفعيل وهو مفعل . وقد همزت العرب المصائب وواحدتها مصيبة شبهت بفعيلة لكثرتها فى الكلام .

وقوله : قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ (12) المعنى - والله أعلم - ما منعك أن تسجد . و(أن) فى هذا الموضع تصحبها لا ، وتكون (لا) صلة . كذلك تفعل بما كان فى أوّله جحد .

و«1» ربما أعادوا على خبره جحدا للاستيثاق من الجحد والتوكيد له كما قالوا :

ما إن رأينا مثلهن لمعشر سود الرءوس فوالج وفيول «2»

و(ما) جحد و(إن) جحد فجمعتا للتوكيد . ومثله : وَما «3» يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ . ومثله : وَحَرامٌ «4» عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ . ومثله : لِئَلَّا «5» يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ إلا أن معنى الجحد الساقط فى لئلا من أوّلها لا من آخرها المعنى : ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون . وقوله : ما مَنَعَكَ (ما) فى موضع رفع . ولو وضع لمثلها من الكلام جواب مصحح كان رفعا ، وقلت :

منعنى منك أنك بخيل . وهو مما ذكر جوابه على غير بناء أوله ، فقال : (أنا خير منه) ولم يقل : منعنى من السجود أنى خير منه كما تقول فى الكلام : كيف بتّ البارحة ؟ فيقول : صالح

، فيرفع أو تقول : أنا بخير ، فتستدلّ به على معنى الجواب ، ولو صحح الجواب لقال صالحا ، أي بتّ صالحا .

---

(1) الأظهر فى المعنى حذف الواو .

(2) الفوالج جمع الفالج بكسر اللام ، وهو البعير ذو السنامين ، والفيول جمع الفيل للحيوان المعروف .

(3) آية 109 سورة الأنعام .

(4) آية 95 سورة الأنبياء . [. . . . .]

(5) آية 29 سورة الحديد .

وقوله : لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ (16) المعنى - والله أعلم - : لأقعدن لهم على طريقهم أو فى طريقهم . وإلقاء الصفة «1» من هذا جائز كما قال : قعدت لك وجه الطريق ، وعلى وجه الطريق لأن الطريق صفة فى المعنى ، فاحتمل ما يحتمله اليوم والليلة والعام إذا قيل : آتيك غدا أو آتيك فى غد .

وقوله : يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً (26) «ورياشا» «2» .

فإن شئت جعلت رياش جميعا واحده الريش ، وإن شئت جعلت الرياش مصدرا فى معنى الريش كما يقال لبس ولباس قال الشاعر «3» :

فلما كشفن اللّبس عنه مسحنه بأطراف طفل زان غيلا موشما

وقوله : وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى و«لباس «4» التقوى» يرفع بقوله : ولباس التقوى خير ، ويجعل (ذلك) من نعته . وهى فى قراءة أبىّ وعبد اللّه جميعا : ولباس التقوى خير . وفى قراءتنا (ذلك خير) فنصب اللباس أحب إلىّ لأنه تابع الريش «5» ، (ذلك خير) فرفع خير بذلك .

---

(1) يريد بها الكوفيون الظرف .

(2) هذه القراءة نسبها أبو عبيد إلى الحسن . وفى القرطبي نسبتها إلى عاصم من رواية المفضل الضبي وإلى أبى عمرو من رواية الحسين الجعفي .

(3) هو حميد بن ثور الهلالي . والبيت من ميمبته الطويلة . وهو يصف فرسا خدمته جوارى الحي .

فقوله : كشفن أي الجواري . وقوله : عنه أي عن الفرس . ولبسه : ما عليه من الجل والسرج . وقوله بأطراف طفل أي بأطراف بنان ناعم . وقوله : غيلا يريد ساعدا أو معصما ممتلئا ، موشما أي مزينا بالوشم ، يريد بنان الجواري .

(4) أي بالنصب. وهو قراءة نافع وابن عامر والكسائي. والضم قراءة الباقين.

(5) كذا فى ش. وفى ج: «الرياش».

(147/260)

وقوله: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) يقول: بدأكم فى الخلق شقيا وسعيدا، فكذلك تعودون على الشقاء والسعادة:

وقوله: فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ (30) ونصب الفريق بتعودون، وهى فى قراءة أبىّ: تعودون فريقين فريقا هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة. ولو كانا رفعا كان صوابا كما قال تبارك وتعالى:

كان «1» لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل اللّه وأخرى كافرة و «فئة» «2» ومثله: وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ «3». وقد يكون الفريق منصوبا بوقوع «هدى» عليه ويكون الثاني منصوبا بما «4» وقع على عائد ذكره من الفعل كقوله: يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً «5».

وقوله: وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ (29) يقول: إذا أدركتك الصلاة وأنت عند مسجد فصلّ فيه، ولا تقولن: آتى مسجد قومى. فإن كان فى غير وقت الصلاة صليت

حيث شئت .

وقوله : قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ (32)

---

(1) آية 13 سورة آل عمران .

(2) يريد رفع فئة فى الآية ونصبها . ويجوز فى الآية أيضا خفض فئة بدلا من «فئتين» .

وانظر ص 192 من هذا الجزء .

(3) آية 7 سورة الشورى .

(4) يريد النصب على الاشتغال . والعامل هنا يقدر فى معنى المذكور أي أضل .

(5) آية 31 سورة الإنسان .

نصبت خالصة على القطع «1» وجعلت الخبر فى اللام التي فى الذين ، والخالصة ليست بقطع من اللام «2» ، ولكنها قطع من لام أخرى مضمرة . والمعنى - والله أعلم - : قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا يقول : مشتركة ، وهى لهم فى الآخرة خالصة .

ولو رفعتها كان صوابا ، تردّها «3» على موضع الصفة التي رفعت لأن تلك فى موضع رفع .

ومثله فى الكلام قوله : إنا بخير كثير «4» صيدنا . ومثله قول اللّه عز وجل : إِنَّ «5» الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . . المعنى : خلق هلوعا ، ثم فسر حال الهلوع بلا نصب لأنه نصب فى أوّل الكلام . ولو رفع لجاز إلا أن رفعه على الاستئناف لأنه ليس معه صفة ترفعه . وإنما نزلت هذه الآية أن قبائل من العرب فى الجاهلية كانوا لا يأكلون أيام حجهم إلا القوت ، ولا يأكلون اللحم والدسم ، فكانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال نهارا والنساء ليلا ، وكانت المرأة تلبس شيئا شبيها بالحوف «6» ليواريها بعض المواراة ولذلك قالت العامرية :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

قال المسلمون : يا رسول اللّه ، نحن أحق بالاجتهاد لربنا ، فأرادوا أن يفعلوا كفعل أهل الجاهلية ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ يعنى اللباس . وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا حتى يبلغ بكم ذلكم تحريم ما أحللت لكم ، والإسراف ها هنا الغلوّ فى الدين .

---

(1) أي على الحال .

(2) يريد أنها ليست حالا من الجار والمجرور فى «للذين آمنوا فى الحياة الدنيا» بل يقدر جار ومجرور آخر هو خبر بعد خبر أي لهم خالصة يوم القيامة ، إذ كان هذا حكما لهم فى حال غير الحال الأولى .

(3) يريد أن تكون خبرا ثانيا . [. . . . .]

(4) كذا فى ش . وفى ج : «وكثير» . وعلى النسخة الأخيرة يحتمل أن يكون شطر رجز .

(5) آيات 19 ، 20 ، 21 سورة المعارج.

(6) هو جلد يشقق كهيئة الإزار يلبسه الصبيان والحائض .

(149/260)

وقوله : قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ (33) (والإثم) ما دون الحدّ (والبغي) الاستطالة على الناس .

وقوله : أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ (37) يقال : ينالهم ما قضى اللّه عليهم فى الكتاب من سواد الوجوه وزرقة الأعين .

وهوقوله : وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ «1» ويقال هو ما ينالهم فى الدنيا من العذاب دون عذاب الآخرة ، فيكون من قوله :

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ «2» مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ .

وقوله : كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها (38) يقول : التي سبقتها ، وهى أختها فى دينها لا

فى النسب . وما كان من قوله :

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً «3» فليس بأخيهم فى دينهم ولكنه منهم .

وقوله : لا تُفَتَّحُ لَهُمْ (40) ولا يفتّح وتفتّح . وإنما يجوز التذكير والتأنيث فى الجمع لأنه يقع عليه التأنيث فيجوز فيه الوجهان كما قال : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ «4» و«يشهد» فمن ذكّر قال : واحد الألسنة ذكر فأبنى على الواحد إذ كان الفعل يتوحد إذا تقدّم الأسماء المجموعة ، كما تقول ذهب القوم .

---

(1) آية 60 سورة الزمر .

(2) آية 21 سورة السجدة .

(3) آية 85 سورة الأعراف .

(4) آية 24 سورة النور . وقد قرأ بالياء حمزة والكسائي وخلف ، وقرأ الباقون بالتاء .

وربما آثرت القراء أحد الوجهين ، أو يأتى ذلك فى الكتاب بوجه فيرى من لا يعلم أنه لا يجوز غيره وهو جائز . ومما آثروا من التأنيث قوله : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ «1» فآثروا التأنيث . ومما آثروا فيه التذكير قوله : لَنْ «2» يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها والذي أتى فى

الكتاب بأحد الوجهين قوله : فُتِحَتْ «3» أَبْوابُها ولو أتى بالتذكير كان صوابا .

ومعنى قوله : لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ : لا تصعد أعمالهم . ويقال :

إن أعمال الفجار لا تصعد ولكنها مكتوبة فى صخرة تحت الأرض ، وهى التي قال اللّه تبارك وتعالى : كَلَّا «4» إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ .

وقوله : حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ الجمل هو زوج الناقة . وقد ذكر عن ابن عباس الجمّل يعنى الحبال «5» المجموعة . ويقال الخياط والمخيط ويراد الإبرة . وفى قراءة عبد اللّه (المخيط) ومثله يأتى على هذين المثالين يقال : إزار ومئزر ، ولحاف وملحف ، وقناع ومقنع ، وقرام «6» ومقرم .

وقوله : وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ (48) وذلك أنهم على سور بين الجنة والنار يقال له الأعراف ، يرون أهل الجنة فيعرفونهم ببياض وجوههم ، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم ، فذلك قوله :

---

(1) آية 106 سورة آل عمران . يريد أن القراء اختاروا التأنيث مع احتمال الرسم للتذكير ، كما أنهم فى الآيات التالية فى الحج آثروا التذكير مع احتمال الرسم للتأنيث . ولا يخفى أن القراءة مرجعها إلى التلقي .

(2) آية 37 سورة الحج .

(3) آية 71 سورة الزمر .

(4) آية 7 سورة المطففين.

(5) فى القرطبي: «وهو حبل السفينة الذي يقال له الفلس. وهو حبال مجموعة».

(6) هو ثوب من صوف ملوّن يتخذ سترا.

(151/260)

يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ. وأصحاب الأعراف أقوام اعتدلت حسناتهم وسيئاتهم فقصّرت بهم الحسنات عن الجنّة، ولم تبلغ بهم سيئاتهم النار، كانوا موقوفين ثم أدخلهم اللّه الجنة بفضل رحمته.

وقوله: وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً (52) تنصب الهدى والرحمة على القطع من الهاء فى فصّلناه. وقد تنصبهما على الفعل «1». ولو خفضته على الإتباع للكتاب كان صوابا كما قال اللّه تبارك وتعالى:

وَهذا «2» كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فجعله رفعا بإتباعه للكتاب.

وقوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ (53) الهاء فى تأويله للكتاب. يريد عاقبته وما وعد اللّه فيه.

وقوله: فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ ليس بمعطوف على (فيشفعوا)، إنما المعنى -

واللّه أعلم - : أو هل نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل .

ولو نصبت (نردّ) على أن تجعل (أو) بمنزلة حتّى ، كأنه قال : فيشفعوا لنا أبدا حتى نرد فنعمل «3» ، ولا نعلم قارئا «4» قرأ به .

وقوله : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

(56) ذكرت قريبا لأنه ليس بقرابة فى النسب . قال : ورأيت العرب تؤنث القريبة فى النسب لا يختلفون فيها ، فإذا قالوا : دارك منّا قريب ، أو فلانة منك قريب

---

(1) كأنه يريد نصبه على أنه مفعول مطلق . أي هدينا به هدى ورحمنا به رحمة .

[.....]

(2) آية 92 سورة الأنعام .

(3) جواب لو محذوف ، أي لجاز .

(4) قرأ به ابن أبى إسحق ، كما فى مختصر البديع 44 .

فى القرب والبعد ذكّروا وأنّثوا . وذلك أن القريب فى المعنى وإن كان مرفوعا فكأنه فى تأويل : هى من مكان قريب . فجعل القريب خلفا من المكان كما قال اللّه تبارك وتعالى :

وَما «1» هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ وقال : وَما «2» يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ولو أنّث ذلك فبنى على بعدت منك فهى بعيدة وقربت فهى قريبة كان صوابا حسنا . وقال عروة «3» :

عشيّة لا عفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيد

ومن قال بالرفع وذكّر لم يجمع قريبا [ولم] «4» يثنّه . ومن قال : إنّ عفراء منك قريبة أو بعيدة ثنّى وجمع .

وقوله : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ نشرا (57) والنشر من الرياح : الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب . فقرأ بذلك أصحاب عبد اللّه . وقرأ غيرهم (بُشْراً) حدّثنا محمد قال حدّثنا الفرّاء قال حدثنى قيس بن الربيع الأسدىّ عن أبى إسحاق «5» الهمداني عن أبى «6» عبد الرحمن السلمىّ عن علىّ أنه قرأ (بشرا) يريد بشيرة ، و(بشرا) كقول اللّه تبارك وتعالى : (يُرْسِلَ الرِّياحَ «7» مُبَشِّراتٍ) .

---

(1) آية 73 سورة هود .

(2) آية 63 سورة الأحزاب .

(3) هو عروة بن حزام العذرى . والبيت ورد فى اللآلى 401 مع بيت آخر هكذا :

عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب

وإنى لتغشانى لذكراك فترة لها بين جلدى والعظام دبيب

ويرى أن ما أورده المؤلف رواية فى البيت غير ما ورد فى اللآلى. وفى الأغانى (الساسى) 20/ 156 ستة أبيات على روى الباء يترجح أن تكون من قصيدة بيت الشاهد على ما روى فى اللآلى.

(4) سقط ما بين القوسين فى ش، ج. والسياق يقتضيه.

(5) هو عمرو بن عبد اللّه السبيعىّ أحد أعلام التابعين، توفى سنة 127

(6) هو عبد اللّه بن حبيب المقري الكوفىّ، من ثقات التابعين، مات سنة 85.

(7) آية 46 سورة الروم.

(153/260)

وقوله: فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى جواب «1» لأنزلنا فأخرجنا به. يقال: إن الناس يموتون وجميع الخلق فى النفخة الأولى. وبينها وبين الآخرة أربعون سنة. ويبعث اللّه المطر فيمطر أربعين يوما كمنىّ الرجال، فينبتون فى قبورهم كما ينبتون فى بطون أمّهاتهم. فذلك قوله:

كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى كما أخرجنا الثمار من الأرض الميتة.

وقوله: وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً (58) قراءة «2» العامة وقرأ بعض «3» أهل

المدينة : نكدا يريد : لا يخرج إلا فى نكد .

والنكد والنكد مثل الدنف والدنف . قال : وما أبعد أن يكون فيها نكد ، ولم أسمعها ، ولكنى سمعت حذر وحذر وأشر وأشر وعجل وعجل .

وقوله : ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ (59) تجعل «4» (غير) نعتا للإله . وقد يرفع : يجعل تابعا للتاويل فى إله ألا ترى أن الإله لو نزعت منه (من) كان رفعا . وقد قرى بالوجهين جميعا . وبعض بنى أسد وقضاعة إذا كانت (غير) فى معنى (إلا) نصبوها ، تمّ الكلام قبلها أو لم يتم . فيقولون : ما جاءنى غيرك ، وما أتانى أحد غيرك . قال :

وأنشدنى المفضّل :

---

(1) يريد قوله تعالى : كذلك نخرج الموتى ، جعله جوابا لإنزال الماء فى الأرض المجدبة وترتب النبات وحياة الأرض عليه . كأنه يقول : إن كان من أمرنا أن ننزل الماء فنحيى به الأرض الجدبة فكذلك أمرنا أن نخرج الموتى ونحييهم إذ الأمران متساويان .

(2) يريد : بكسر الكاف .

(3) هو أبو جعفر .

(4) هذا على كسر «غير» وهى قراءة الكسائي وأبى جعفر . [. . . . .]

لم يمنع الشرب منها غير ان هتفت حمامة من سحوق ذات أوقال «1»

فهذا نصب وله الفعل والكلام ناقص. وقال الآخر:

لا عيب فيها غير شهلة عينها كذاك عتاق الطير شهلا عيونها «2»

فهذا نصب والكلام تامّ قبله.

وقوله: أَوَعَجِبْتُمْ (63) هذه واو نسق أدخلت عليه ألف الاستفهام كما تدخلها على الفاء، فتقول:

أفعجبتم، وليست بأو، ولو أريد بها أو لسكّنت الواو.

وقوله: أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ يقال فى التفسير: مع رجل.

وهو فى الكلام كقولك: جاءنا الخير على وجهك، وهدينا الخير على لسانك، ومع وجهك، يجوزان جميعا.

وقوله: قالَ الْمَلَأُ (66) هم الرجال لا يكون فيهم امرأة. وكذلك القوم، والنفر والرّهط.

وقوله: وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً (65) وقوله: وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً (73) منصوب بضمير أرسلنا. ولو رفع إذ فقد الفعل كان صوابا كما قال: فَبَشَّرْناها «3» بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ وقال أيضا: فَأَخْرَجْنا «4» بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها

(1) هو من قصيدة لأبى قيس بن الأسلت الأنصاري . وهو فى وصف ناقته . وسحوق يريد شجرة سحوقا أي طويلة . وأوقال جمع وقل وهو المقل أي الدوم إذا يبس . يريد أن الناقة كانت تشرب فلما سمعت صوت حمامة نفرت وكفت عن الشرب . يريد أنها يخامرها فزع من حدّة نفسها . وذلك محمود فيها .

وقوله : من سحوق ، كذا فى ش ، ج ، يريد أن سماعها الحمامة من قبل الشجرة وجهتها .

والمعروف : فى غصون .

(2) الشهلة فى العين أن يشوب سوادها زرقة . وقوله : شهلا فى اللسان (شهل) : «شهل» .

(3) آية 71 سورة هود وقد قرأ «يعقوب» بالنصب وحفص وابن عامر وحمزة ، وقرأ الباقون بالرفع

(4) آية 27 سورة فاطر .

ثم قال : وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ فالوجه هاهنا الرفع لأن الجبال لا تتبع النبات ولا الثمار . ولو نصبتها على إضمار : جعلنا لكم (من الجبال جددا بيضا) كما قال اللّه تبارك وتعالى :

خَتَمَ «1» اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ أضمر لها جعل إذا نصبت كما قال : وَخَتَمَ «2» عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً والرفع فى غشاوة الوجه . وقوله : وَمِنَ «3» النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ ولم يقل : ألوانهم ، ولا ألوانها . وذلك لمكان (من) والعرب تضمر من فتكتفى بمن من من ، فيقولون : منا من يقول ذلك ومنا لا يقوله . ولو جمع على التأويل كان صوابا مثل قول ذى الرمّة :

فظلّوا ومنهم دمعه سابق له وآخر يثنى دمعة العين بالمهل «4»

وقوله : وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا .

وقوله : وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (68) يقول : قد كنت فيكم أمينا قبل أن أبعث . ويقال : أمين على الرسالة .

وقوله : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (78) والرجفة هى الزلزلة . والصاعقة هى النار . يقال : أحرقتهم .

وقوله : فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ يقول : رمادا جاثما .

---

(1) آية 7 سورة البقرة .

(2) آية 23 سورة الجاثية .

(3) آية 28 سورة فاطر .

(4) المهل : التؤدة والسكينة . وفى الديوان 485 : «بالهمل» . وكأنها الصحيحة لقوله

بعد :

وهل هملان العين راجع ما مضى من الوجد أو مدنيك يا ميّ من أهلى

(156/260)

وقوله : فَتَوَلَّى عَنْهُمْ (79) يقال : إنه لم يعذب أمّة ونبيّها فيها حتى يخرج عنها .

وقوله : أَخْرِجُوهُمْ (82) يعنى لوطا أخرجوه وابنتيه .

وقوله : إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ يقولون : يرغبون عن أعمال قوم لوط ويتنزهون عنها .

وقوله : وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها (85) وإصلاحها بعثة النبىّ صلى اللّه عليه وسلم يأمر بالحلال وينهى عن الحرام .

فذلك صلاحها . وفسادها العمل - قبل أن يبعث النبىّ - بالمعاصي «1» .

وقول شعيب : قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ لم يكن له آية إلا النبوّة . وكان لثمود الناقة ، ولعيسى إحياء الموتى وشبهه .

وقوله : وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ (86) كانوا يقعدون لمن آمن بالنبيّ على طرقهم يتوعّدونهم بالقتل . وهو الإيعاد والوعيد . إذا كان مبهما فهو بألف ، فإذا أوقعته فقلت : وعدتك خيرا أو شرا كان بغير ألف كما قال تبارك وتعالى : النَّارُ «2» وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ

كَفَرُوا .

وقوله : رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا (89) يريد : اقض بيننا ، وأهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتّاح.

---

(1) وهذا متعلق بقوله : «العمل» كما لا يخفى .

(2) آية 72 سورة الحج .

وقوله : أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ (100) ثم قال : وَنَطْبَعُ ولم يقل : وطبعنا ، ونطبع منقطعة عن جواب لو يدلّك على ذلك قوله : فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ألا ترى أنه لا يجوز فى الكلام : لو سألتنى لأعطيتك فأنت غنىّ ، حتى تقول : لو سألتنى لأعطيتك فاستغنيت . ولو استقام المعنى فى قوله : فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ أن يتصل بما قبله جاز أن تردّ يفعل على فعل فى جواب لو كما قال اللّه عز وجل : وَلَوْ «1» يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ فنذر مردودة على (لقضى) وفيها النون .

وسهّل ذلك أنّ العرب لا تقول : وذرت ، ولا ودعت ، إنما يقال بالياء والألف والنون والتاء ، فأوثرت على فعلت إذا جازت قال اللّه تبارك وتعالى : تَبارَكَ «2» الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ

خَيْراً مِنْ ذِلكَ ثم قال : وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً فإذا أتاك جواب لو آثرت فيه (فعل «3» على يفعل) وإن قلته ينفعل جاز ، وعطف فعل على يفعل ويفعل على فعل جائز ، لأن التأويل كتأويل الجزاء .

وقوله : حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ (105) ويقرأ «4» : حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ . وفى قراءة عبد اللّه : حقيق بأن لا أقول على اللّه فهذه حجة من «5» قرأ (على) ولم يضف . والعرب تجعل الباء فى موضع على رميت على القوس ، وبالقوس ، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة .

---

(1) آية 11 سورة يونس .

(2) آية 10 سورة الفرقان .

(3) سقط ما بين القوسين فى ج ، وثبت فى ش .

(4) وهى قراءة نافع . [. . . . .]

(5) وهم أصحاب القراءة الأولى . وقوله : «ولم يضف» أي لم يجرّ بها ياء المتكلم كما فى قراءة نافع . وحروف الجر تسمى حروف الإضافة .

وقوله : فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ (107) هو الذكر وهو أعظم الحيّات .

وقوله : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110) فقوله : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ من «1» الملأ فَما ذا تَأْمُرُونَ من كلام فرعون . جاز ذلك على كلامهم إياه ، كأنه لم يحك وهو حكاية . فلو صرّحت بالحكاية لقلت : يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فقال : فماذا تأمرون . ويحتمل القياس أن تقول على هذا المذهب : قلت لجاريتك قومى فإنى قائمة (تريد «2» : فقالت :

إنى قائمة) وقلّما أتى مثله فى شعر أو غيره ، قال عنترة :

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لقيتهما دمى «3»

فهذا شبيه بذلك لأنه حكاية وقد صار كالمتصل على غير حكاية ألا ترى أنه أراد : الناذرين إذا لقينا عنترة لنقتلنّه «4» ، فقال : إذا لقيتهما ، فأخبر عن نفسه ، وإنما ذكراه غائبا . ومعنى لقيتهما : لقيانى .

---

(1) أي صادر منهم إذ كان من كلامهم .

(2) ثبت ما بين القوسين فى ش ، وسقط فى ج .

(3) البيت من معلقته . وكان قتل ضمضما المري أبا الحصين وهرم ، فكانا ينالانه بالسب ، ويتوعدانه بالقتل . وقبل البيت :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم

وبعده : إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

(4) فى ش ، ج : «لقتلته» . وهو محرف عما أثبتنا .

(159/260)

وقوله : أَرْجِهْ وَأَخاهُ (111) جاء التفسير : احبسهما عندك ولا تقتلهما ، والإرجاء تأخير الأمر . وقد جزم الهاء حمزة والأعمش «1» . وهى لغة للعرب : يقفون على الهاء المكنى عنها فى الوصل إذا تحرك ما قبلها أنشدنى بعضهم :

أنحى علّى الدهر رجلا ويدا يقسم لا يصلح إلا أفسدا

فيصلح اليوم ويفسده غدا

وكذلك بهاء التأنيث فيقولون : هذه طلحه قد أقبلت ، جزم أنشدنى بعضهم :

لما رأى أن لا دعه ولا شبع مال إلى أرطاة حقف فاضطجع «2»

وانشدنى القنانىّ :

لست إذا لزعبله إن لم أغيّر بكلتي إن لم أساو بالطول «3» بكلتي : طريقتى . كأنه «4» قال : إن لم أغيّر بكلتي حتى أساوى . فهذه لامرأة : امرأة طولى و[نساء «5»] طول .

---

(1) وهى أيضا قراءة حفص .

(2) هذا من رجز . وقبله :

يا رب أبّاز من العفر صدع تقبض الذئب إليه فاجتمع

يصف ظبيا أراده الذئب أن يفترسه فنجا منه . والأباز من وصف الظبى وهو الوثاب فعّال من أبز أي وثب . والعفر من الظباء ما يعلو بياضه حمرة . والصدع من الحيوان : الشاب القوىّ . وتقبض : جمع قوائمه ليثب على الظبى . والأرطاة شجرة يدبغ بقرظها . والحقف : المعوج من الرمل .

(3) زعبلة : اسم أبيها . وقد فسر البكلة بالطريقة . ويقول ابن برى - كما فى اللسان : بكل - :

«هذا البيت من مسدس الرجز جاء على التمام» .

(4) الأولى : «كأنها» ، لجان الشعر لامرأة ، كما يذكر .

(5) زيادة يقتضيها السياق .

(160/260)

وقوله : إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) أدخل (أن) فى (إما) لأنها فى موضع أمر بالاختيار . فهى فى موضع نصب فى قول القائل : اختر ذا أو ذا ألا ترى أن الأمر

بالاختيار قد صلح فى موضع إمّا .

فإن قلت : إن (أو) فى المعنى بمنزلة (إمّا وإمّا) فهل يجوز أن يقول يا زيد أن تقوم أو تقعد ؟

قلت : لا يجوز ذلك لأن أول الاسمين فى (أو) يكون خبرا يجوز السكوت عليه ، ثم تستدرك الشكّ فى الاسم الآخر ، فتمضى الكلام على الخبر ألا ترى أنك تقبول : قام أخوك ، وتسكت ، وإن بدا لك قلت : أو أبوك ، فأدخلت الشكّ ، والاسم الأول مكتف يصلح السكوت عليه . وليس يجوز أن تقول : ضربت إمّا عبد اللّه وتسكت . فلمّا آذنت (إمّا) بالتخيير من أول الكلام أحدثت لها أن .

ولو وقعت إمّا وإمّا مع فعلين قد وصلا باسم معرفة أو نكرة ولم يصلح الأمر بالتمييز فى موقع إمّا لم يحدث فيها أن كقول اللّه تبارك وتعالى : وَآخَرُونَ «1» مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ألا ترى أن الأمر لا يصلح ها هنا ، فلذلك لم يكن فيه أن . ولو جعلت (أن) فى مذهب (كى) وصيّرتها صلة ل (مرجون) يريد أرجئوا أن يعذبوا أو يتاب عليهم ، صلح ذلك فى كل فعل تامّ ، ولا يصلح فى كان وأخواتها ولا فى ظننت وأخواتها . من ذلك أن تقول آتيك إما أن تعطى وإما أن تمنع .

وخطأ أن تقول : أظنك إما أن تعطى وإما أن تمنع ، ولا أصبحت إما أن تعطى وإما أن تمنع . ولا تدخلنّ «2» (أو) على (إما) ولا (إما) على (أو) . وربما فعلت العرب ذلك لتآخيهما فى المعنى على التوهّم فيقولون : عبد اللّه إما جالس أو ناهض ،

(1) آية 106 سورة التوبة.

(2) يريد: لا تجعل أحد الحرفين فى الموضع الذي يصلح له الآخر.

(161/260)

ويقولون: عبد اللّه يقوم وإما يقعد. وفى قراءة أبىّ: وإنا «1» وإيّاكم لإمّا على هدى أو فى ضلال فوضع أو فى موضع إما. وقال الشاعر:

فقلت لهن امشين إمّا نلاقه كما قال أو نشف النفوس فنعذرا «2»

وقال آخر «3»:

فكيف بنفس كلما قلت أشرفت على البرء من دهماء هيض اندمالها

تهاض بدار قد تقادم عهدها وإمّا بأموات ألمّ خيالها

فوضع (وإمّا) فى موضع (أو). وهو على التوهم إذا طالت الكلمة بعض الطول أو فرقت بينهما بشىء هنالك يجوز التوهم كما تقول: أنت ضارب زيد ظالما وأخاه حين فرقت بينهما ب (ظالم) جاز نصب الأخ وما قبله مخفوض. ومثله يا ذَا «4» الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً وكذلك قوله إِمَّا «5» أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى.

وقوله: تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) وتَلْقَفُ «6». يقال لقفت»

الشيء فأنا ألقفه لقفا ، يجعلون مصدره لقفانا . وهى فى التفسير : تبتلع .

---

(1) آية 24 سورة سبأ . وفى قراءتنا : «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين» .

(2) «نلاقه» مجزوم فى جواب الأمر ، وكذا المعطوف عليه «نشف» . وترى فى البيت أن :

«أو» خلفت «إما» . [. . . . .]

(3) هو الفرزدق . والشعر مطلع قصيدة طويلة يمدح فيها سليمان بن عبد الملك ويهجو الحجاج . وقوله :

من دهماء أي من حب هذه المرأة . ويقال : هاض العظم : كسره بعد الجبر .

(4) آية 86 سورة الكهف .

(5) آية 65 سورة طه .

(6) والأولى - أي سكون اللام وتخفيف القاف - قراءة حفص عن عاصم . والثانية قراءة الباقين .

(7) كذا فى ج . وفى ش «تلقفت» .

وقوله : فَوَقَعَ الْحَقُّ (118) معناه : أن السحرة قالوا : لو كان ما صنع موسى سحرا لعادت حبالنا وعصيّنا إلى حالها الأولى ، ولكنها فقدت . فذلك قوله (فوقع الحق) : فتبين الحق من السحر .

وقوله : آمَنْتُمْ بِهِ (123) يقول : صدّقتموه . ومن قال : آمنتم له يقول : جعلتم له الذي أراد .

وقوله : ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ (124) مشدّدة ، و(لأصلبنّكم) بالتخفيف قرأها بعض «1» أهل مكة . وهو مثل قولك :

قتلت القوم وقتّلتهم إذا فشا القتل جاز التشديد .

وقوله : وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (127) لك فى (ويذرك) النصب على الصرف لأنها فى قراءة أبىّ (أ تذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض وقد تركوك أن يعبدوك) فهذا معنى الصرف . والرفع لمن أتبع آخر الكلام أوّله كما قال اللّه عز وجل مَنْ «2» ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ بالرفع «3» . وقرأ ابن عباس (وإلاهتك) وفسّرها : ويذرك وعبادتك وقال : كان فرعون يعبد ولا يعبد .

وقوله : أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا (129) قال : فأمّا الأذى الأوّل فقتله الأبناء واستحياؤه النساء . ثم لمّا قالوا له :

أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض قال : أعيد على أبنائهم القتل وأستحيى النساء

كما كان فعل . وهو أذى بعد مجيء موسى .

---

(1) هو ابن محيصن .

(2) آية 245 سورة البقرة .

(3) هو قراءة غير ابن عامر وعاصم ويعقوب . أما هؤلاء فقراءتهم النصب .

(163/260)

وقوله : وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ (130) أخذهم بالسنين : القحط والجدوبة عاما بعد عام .

وقوله : فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ (131) والحسنة ها هنا الخفض «1» .

وقوله : لَنا هذِهِ يقولون : نستحقّها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يعنى الجدوبة يَطَّيَّرُوا يتشاءموا بِمُوسى كما تشاءمت اليهود بالنبيّ صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة ، فقالوا : غلت أسعارنا وقلّت أمطارنا مذ أتانا .

وقوله : فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ (133) أرسل اللّه عليهم السماء سبتا «2» فلم تقلع ليلا ونهارا ، فضاقت بهم الأرض من تهدّم بيوتهم وشغلهم عن ضياعهم ، فسألوه أن يرفع عنهم ، فرفع فلم يتوبوا ، فأرسل اللّه عليهم (الجراد) فأكل ما أنبتت «3» الأرض فى تلك السنة .

وذاك أنهم رأوا من غبّ ذلك المطر خصبا لم يروا مثله قطّ ، فقالوا : إنما كان هذا رحمة لنا ولم يكن عذابا . وضاقوا بالجراد فكان قدر ذراع فى الأرض ، فسألوه أن يكشف عنهم ويؤمنوا ، فكشف «4» اللّه عنهم وبقي لهم ما يأكلون ، فطغوا به وقالوا (لن نؤمن لك) فأرسل اللّه عليهم (القمل) وهو الدّبى «5» الذي لا أجنحة له ، فأكل كلّ ما كان أبقى الجراد ، فلم يؤمنوا فأرسل اللّه (الضفادع) فكان أحدهم يصبح وهو على فراشه متراكب ، فضاقوا بذلك ، فلمّا كشف عنهم لم يؤمنوا ، فأرسل اللّه عليهم

---

(1) كذا فى ش ، وفى ج : «الخصب» . ومعناهما واحد .

(2) أي أسبوعا من السبت إلى السبت .

(3) كذا فى ج . وفى ش : «أنبت» .

(4) كذا فى ش . وفى ج : «فكشفه» .

(5) الدبى : الجراد قبل أن يطير ، واحدة دباة .

(الدم) فتحوّلت عيونهم وأنهارهم دما حتى موّتت الأبكار ، فضاقوا بذلك وسألوه أن يكشفه عنهم فيؤمنوا ، فلم يفعلوا ، وكان العذاب يمكث عليهم سبتا ، وبين العذاب إلى

العذاب شهر ، فذلك قوله آياتٍ مُفَصَّلاتٍ ثم وعد اللّه موسى أن يغرق فرعون ، فسار موسى من مصر ليلا . وبلغ ذلك فرعون فأتبعه - يقال فى ألف ألف ومائة ألف سوى كتيبته التي هو فيها ، ومجنّبتيه «1» - فأدركهم هو وأصحابه مع طلوع الشمس . فضرب موسى البحر بعصاه فانفرج له فيه اثنا عشر طريقا . فلمّا خرجوا تبعه فرعون وأصحابه فى طريقه ، فلما كان أوّلهم يهمّ بالخروج وآخرهم فى البحر أطبقه اللّه تبارك وتعالى عليهم فغرّقهم . ثم سأل موسى أصحابه أن يخرج فرعون ليعاينوه ، فأخرج هو وأصحابه ، فأخذوا من الأمتعة والسلاح ما اتخذوا به العجل .

وقوله : عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ (148) كان جسدا مجوّفا . وجاء فى التفسير أنه خار مرة واحدة .

وقوله : وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ (149) من الندامة . ويقال : أسقط لغة . و(سقط فى أيديهم) أكثر وأجود . قالوا لئن لم ترحمنا ربّنا نصب «2» بالدعاء (لئن لم ترحمنا ربنا) ويقرأ (لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا) والنصب أحبّ إلىّ لأنها فى مصحف عبد اللّه (قالوا ربّنا لئن لم ترحمنا) .

وقوله : أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (150) تقول : عجلت الشيء : سبقته ، وأعجلته استحثثته «3» .

---

(1) تثنية مجنبة . وهى فرقة من الجيش ، تكون فى إحدى جانبيه ، وللجيش مجنبتان :

اليمنى واليسرى. [. . . . .]

(2) وهى قراءة حمزة والكسائىّ وخلف.

(3) فى ش، ج: «استحيته» وهو مصحف عما أثبتنا.

(165/260)

وقوله: وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ذكر أنهما كانا لوحين. وجاز أن يقال الألواح للاثنين كما قال فَإِنْ «1» كانَ لَهُ إِخْوَةٌ وهما أخوان وكما قال إِنْ تَتُوبا «2» إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وهما قلبان. وقوله تبارك وتعالى: قالَ ابْنَ أُمَّ يقرأ (ابن أمّ، وأمّ) بالنصب والخفض «3»، وذلك أنه كثر فى الكلام فحذفت العرب منه الياء. ولا يكادون يحذفون الياء إلا من الاسم المنادى يضيفه المنادى إلى نفسه، إلّا قولهم: يا ابن عمّ ويا ابن أمّ. وذلك أنه يكثر استعمالهما فى كلامهم. فإذا جاء ما لا يستعمل أثبتوا الياء فقالوا: يا ابن أبى، ويا ابن أخى، ويا ابن خالتى، فأثبتوا الياء. ولذلك قالوا: يا ابن أمّ، ويا ابن عمّ فنصبوا كما تنصب المفرد فى بعض الحالات، فيقال: حسرتا، ويا ويلتا، فكأنهم قالوا: يا أمّاه، ويا عمّاه. ولم يقولوا ذلك فى أخ، ولو قيل كان صوابا. وكان هارون أخاه لأبيه وأمّه. وإنما قال له (يا ابن أم) ليستعطفه عليه.

وقوله : فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ من أشمت ، حدّثنا محمد قال حدّثنا الفراء قال حدّثنا سفيان بن عيينة عن رجل - أظنه الأعرج «4» - عن مجاهد أنه قرأ (فلا تشمت بي) ولم يسمعها من العرب ، فقال الكسائىّ : ما أدرى لعلهم أرادوا (فلا تشمت بي الأعداء) فإن تكن صحيحة فلها نظائر ، العرب تقول فرغت : وفرغت . فمن قال فرغت قال : أنا أفرغ ، ومن قال فرغت قال أنا أفرغ ، وركنت وركنت وشملهم شر ، وشملهم ، فى كثير من الكلام . و(الأعداء) رفع لأن الفعل لهم ، لمن قال : تشمت أو تشمت .

---

(1) آية 11 سورة النساء .

(2) آية 4 سورة التحريم .

(3) الخفض أي كسر الميم قراءة ابن عامر وأبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائىّ وخلف . والنصب قراءة الباقين .

(4) هو حميد بن قيس المكىّ القارئ توفى سنة 130 ه .

(166/260)

وقوله : وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا (155) وجاء التفسير : اختار منهم سبعين رجلا . وإنما استجيز وقوع الفعل عليهم إذ طرحت (من) لأنه مأخوذ من قولك : هؤلاء

خير القوم ، وخير من القوم . فلما جازت الإضافة مكان (من) ولم يتغير المعنى استجازوا أن يقولوا : اخترتكم رجلا ، واخترت منكم رجلا .

وقد قال الشاعر «1» :

فقلت له اخترها قلوصا سمينة ونابا علينا مثل نابك فى الحيا

فقام إليها حبتر بسلاحه فللّه عينا حبتر أيما فتى

وقال الراجز «2» :

تحت الذي اختار له اللّه الشجر

وقوله : أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا وذلك أن اللّه تبارك وتعالى أرسل على الذين معه – وهم سبعون – الرجفة ، فاحترقوا ، فظنّ موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وإنما أهلكوا بمسألتهم موسى (أرنا اللّه جهرة) .

---

(1) هو الراعي النميرىّ . والشعر من قصيدة له يصف فيها أنه نزل به قوم ليلا فى سنة مجدبة وكانت إبله بعيدة عنه ، فنحر ناقة من رواحلهم ، وجاءت إبله فى الغدوة فأعطى رب الناقة ناقة مثلها ، وزاده أخرى . والبيت الثاني فى الشعر قبل الأوّل إذ يذكر فيه أن حبترا نحر ناقة الضيف بعد أن أومأ إليه الراعي بذلك سرا لئلا يشعر صاحبها به . فأما البيت الأوّل فهو فى وصف ما حدث حين جاءت إبله فى صبح تلك الليلة . والقلوص : الفتية من الإبل . والناب : المسنة ، والحيا : الشحم والسمن . وحبرّ ابن أخيه أو غلامه .

وقوله : «ونابا» فى الحماسة وغيرها : «وناب» .

(2) هو العجاج . والرجز من أرجوزته الطويلة فى مدح عمر بن عبيد اللّه بن معمر .

(167/260)

وقوله (ثم اتخذوا «1» العجل) ليس بمردود على قوله (فأخذتهم الصاعقة) ثم اتخذوا هذا مردود على فعلهم الأوّل . وفيه وجه آخر : أن تجعل (ثم) خبرا مستأنفا . وقد تستأنف العرب بثم والفعل الذي بعدها قد مضى قبل الفعل الأوّل من ذلك أن تقول للرجل : قد أعطيتك ألفا ثم أعطيتك قبل ذلك مالا فتكون (ثم) عطفا على خبر المخبر كأنه قال : أخبرك أنى زرتك اليوم ، ثم أخبرك أنى زرتك أمس .

وأمّا قول اللّه عزّ وجلّ خَلَقَكُمْ «2» مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها فإن فيه هذا الوجه لئلا يقول القائل : كيف قال : خلقكم ثم جعل منها زوجها والزوج مخلوق «3» قبل الولد ؟ فهذا الوجه المفسّر يدخل فيه هذا المعنى . وإن شئت جعلت (ثم) مردودة على الواحدة أراد – واللّه أعلم – خلقكم من نفس وحدها ثم جعل منها زوجها ، فيكون (ثم) بعد خلقه آدم وحده . فهذا ما فى ثم . وخلقة ثمّ أن يكون آخر . وكذلك الفاء . فأمّا الواو فإنك إن شئت جعلت الآخر هو الأوّل والأوّل الآخر . فإذا قلت : زرت عبد اللّه وزيدا ،

فأيّهما شئت كان هو المبتدأ بالزيادة ، وإذا قلت : زرت عبد اللّه ثم زيدا ، أو زرت عبد اللّه فزيدا كان الأوّل قبل الآخر ، إلا أن تريد بالآخر أن يكون مردودا على خبر المخبر فتجعله أوّلا .

---

(1) يريد قوله تعالى فى الآية 153 من سورة النساء : (يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) فإن ظاهر الآية أن اتخاذ العجل بعد أن أخذتهم الصاعقة لسؤال الرؤية ، والواقع أن اتخاذ العجل سابق على هذا . فعنى المؤلف بتأويل الظاهر .

(2) آية 6 سورة الزمر .

(3) الأولى : مخلوقة فإن المراد بالزوج حوّاء .

(168/260)

وقوله : وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ (160) فقال : اثنتي عشرة والسبط ذكر لأن بعده «1» أمم ، فذهب التأنيث إلى الأمم .

ولو كان (اثنى عشر) لتذكير السبط كان جائزا .

وقوله : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا (137) فتنصب مشارق ومغارب تريد : فى مشارق الأرض وفى مغاربها ، وتوقع «2» (وأورشا) على قوله الَّتِي بارَكْنا «3» فِيها . ولو جعلت (وأورثنا) واقعة على المشارق والمغارب لأنهم قد أورثوها وتجعل (التي) من نعت المشارق والمغارب فيكون نصبا «4» ، وإن شئت جعلت (التي) نعتا للأرض فيكون خفضا .

وقوله : وَما ظَلَمُونا يقول : وما نقصونا شيئا بما فعلوا ، ولكن نقصوا أنفسهم .

والعرب تقول : ظلمت سقاءك إذا سقيته «5» قبل أن يمخض ويخرج زبده . ويقال ظلم الوادي إذا بلغ الماء منه موضعا لم يكن ناله فيما خلا أنشدنى بعضهم :

يكاد يطلع ظلما ثم يمنعه عن الشواهق فالوادى به شرق «6»

ويقال : إنه لأظلم من حيّة لأنها تأتى الجحر ولم تحفره فتسكنه . ويقولون :

ما ظلمك أن تفعل ، يريدون : ما منعك أن تفعل ، والأرض المظلومة : التي لم ينلها

---

(1) كذا فى الأصول ا ش ، ج . والأعرب : «أمما» .

(2) كذا فى ا . وفى ش ، ج : «ترفع» وهو تصحيف .

(3) أي الأرض التي باركنا فيها . [. . . . .]

(4) جواب لو محذوف ، أي لجاز .

(5) أي سقيت ما فيه من اللبن ضيفا ونحوه .

(6) فى اللسان أن هذا فى وصف سيل . فقوله : يكاد يطلع أي السيل ، أي يكاد السيل يبلغ الشواهق أي الجبال المرتفعة ، ولكن الوادي يمنعه عنها فهو شرق بهذا السيل أي ضيق به كمن يغص بالماء .

(169/260)

المطر ، وقال أبو الجراح : ما ظلمك أن تفيء ، لرجل شكا كثرة الأكل . ويقال «1» صعق الرجل وصعق إذا أخذته الصاعقة ، وسعد وسعد ورهصت الدابة ورهصت «2» .

وقوله : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ (163)

والعرب تقول : يسبتون ويسبتون وسبت وأسبت . ومعنى اسبتوا : دخلوا فى السبت ، ومعنى يسبتون : يفعلون سبتهم . ومثله فى الكلام : قد أجمعنا ، أي مرّت بنا جمعة ، وجمّعنا : شهدنا الجمعة . قال وقال لى بعض العرب : أترانا «3» أشهرنا مذ لم نلتق ؟ أراد : مرّ بنا شهر .

وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ منصوب بقوله : لا تَأْتِيهِمْ .

وقوله : قالُوا مَعْذِرَةً (164) إعذارا فعلنا ذلك . وأكثر كلام العرب أن ينصبوا المعذرة . وقد آثرت القراء رفعها . ونصبها جائز «4» . فمن رفع قال : هى معذرة كما قال : إِلَّا

ساعَةً «5» مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ.

وقوله: مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ (167): الجزية إلى يوم القيامة.

---

(1) كأن هذا أملاء على قوله تعالى فى الآية 143 من هذه السورة: «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا»، فأخر فى الكتابة إلى هذا الموضع. وكثيرا ما يحدث مثل هذا فى الكتاب، فيذكر الشيء فى غير موضعه.

(2) الرهص أن يصيب الحجر حافرا أو منسما فيذوى باطنه.

(3) ثبت فى ش، ج. وسقط فى ا.

(4) بل قرأ به حفص عن عاصم وزيد بن على وعيسى بن عمر وطلحة بن مصرف.

(5) آية 35 سورة الأحقاف.

وقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ (169) وخَلْفٌ»

أَضاعُوا الصَّلاةَ أي قرن، بجزم اللام. والخلف: ما استخلفته، تقول: أعطاك اللّه خلفا مما ذهب لك، وأنت خلف سوء، سمعته من العرب.

وقوله: وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ (170) ويقرأ يُمَسِّكُونَ «2» بِالْكِتابِ ومعناه:

يأخذون بما فيه .

وقوله : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ (171) رفع الجبل على عسكرهم فرسخا فى فرسخ . نَتَقْنَا : رفعنا . ويقال : امرأة منتاق إذا كانت كثيرة الولد .

وقوله : وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ (176) : ركن إليها وسكن . ولغة يقال : خلد إلى الأرض بغير ألف ، وهى قليلة .

ويقال للرجل إذا بقي سواد رأسه ولحيته : إنه مخلد ، وإذا لم تسقط أسنانه قيل : إنه لمخلد .

وقوله : أَيَّانَ مُرْساها (187) المرسى فى موضع رفع .

ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثقل على أهل الأرض والسماء أن يعلموه «3» .

وقوله : كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

كأنك حفىّ عنها مقدّم ومؤخر ومعناه يسألونك عنها كأنك حفىّ بها . ويقال فى التفسير كأنك حفىّ أي كأنك عالم بها .

---

(1) آية 59 سورة مريم .

(2) وهى قراءة أبى بكر عن عاصم .

(3) كذا فى الأصول . والأولى : «يعلموها» .

وقوله : وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ (188) يقول : لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من السنة المخصبة ، ولعرفت الغلاء فاستعددت له فى الرخص .

هذا قول محمد صلى اللّه عليه وسلم .

وقوله : حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً (189) الماء خفيف على المرأة إذا حملت .

فَمَرَّتْ بِهِ فاستمرّت به : قامت به وقعدت .

فَلَمَّا أَثْقَلَتْ : دنت ولادتها ، أتاها إبليس فقال : ماذا فى بطنك ؟ فقالت : لا أدرى . قال : فلعله بهيمة ، فما تصنعين لى إن دعوت اللّه لك حتى يجعله إنسانا ؟ قالت : قل ، قال : تسمّينه باسمي . قالت : وما اسمك ؟ قال : الحرث .

فسمّته عبد الحارث ، ولم تعرفه أنه إبليس .

وقوله : جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ (190) إذ قالت : عبد الحارث ، ولا ينبغى أن يكون عبدا إلا للّه . ويقرأ «1» :

«شركا» .

وقوله : أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً (191) أراد الألهة ب (ما) ، ولم يقل : من ، ثم جعل

فعلهم كفعل الرجال.

وقال: وَهُمْ يُخْلَقُونَ ولا يملكون.

وقوله: وَلا يَسْتَطِيعُونَ (192) فجعل الفعل للرجال.

---

(1) وهى قراءة نافع وأبى جعفر وأبى بكر عن عاصم.

وقوله: وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى (193) يقول: إن يدع المشركون الآلهة إلى الهدى لا يتبعوهم.

وقوله: سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ ولم يقل: أم صمتّم.

وعلى هذا أكثر كلام العرب: أن يقولوا: سواء علىّ أقمت أم قعدت. ويجوز:

سواء علىّ أقمت أم أنت قاعد قال الشاعر:

سواء إذا ما أصلح اللّه أمرهم علينا أدثر ما لهم أم أصارم «1»

وأنشدنى الكسائي:

سواء عليك النفر أم بتّ ليلة بأهل القباب من نمير بن عامر «2»

وأنشده بعضهم (أو أنت بائت) وجاز فيها (أو) لقوله: النفر لأنك تقول: سواء عليك الخير

والشر ، ويجوز مكان الواو (أو) لأن المعنى جزاء كما تقول : اضربه قام أو قعد . ف (أو) تذهب إلى معنى العموم كذهاب الواو .

وقوله : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ (198) يريد الآلهة : أنها صور لا تبصر . ولم يقل : وتراها لأن لها أجساما وعيونا .

والعرب تقول للرجل القريب من الشيء : هو ينظر ، وهو لا يراه ، والمنازل تتناظر إذا كان بعضها بحذاء بعض .

---

(1) الدثر : المال الكثير . وأصارم جمع أصرام ، وأصله أصاريم فحذفت الياء لضرورة الشعر .

والأصرام واحده الصرم . والصرم كالصرمة الفريق القليل العدد . يريد القطعة من الإبل القليلة .

(2) (النفر) يريد النفر من منى . ويوم النفر هو اليوم الثاني من أيام التشريق ، وهو النفر الأوّل .

والنفر الآخر في اليوم الثالث . [. . . . .]

وقوله : إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ (201) وقرأ إبراهيم النخعي «1» (طيف) وهو اللمم والذنب فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ أي منتهون إذا أبصروا .

وقوله : وَإِخْوانُهُمْ (202) إخوان المشركين يَمُدُّونَهُمْ فى الغىّ ، فلا يتذكّرون ولا ينتهون . فذلك قوله : ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ يعنى المشركين وشياطينهم . والعرب تقول : قد قصر عن الشيء وأقصر عنه . فلو قرئت (يقصرون «2») لكان صوابا .

وقوله : وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها (203) يقول : هلا افتعلتها . وهو من «3» كلام العرب جائز أن يقال : اختار الشيء ، وهذا اختياره .

وقوله : وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا (204) قال : كان الناس يتكلمون فى الصلاة المكتوبة ، فيأتى الرجل القوم فيقول :

كم صليتم ؟ فيقول : كذا وكذا . فنهوا عن ذلك ، فحرم الكلام فى الصلاة لما أنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 1 صـ 368.402 ﴾

---

(1) وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو والكسائي ويعقوب .

(2) وهى قراءة عيسى بن عمر كما فى القرطبي .

(3) يريد أن الاجتباء فى الأصل الاختيار ، وأريد به هنا الاختلاق والافتعال . وأراد أن يذكر أن هذا معروف فى كلام العرب أن يقال : اختار فلان الشيء إذا اختلقه واستحدثه . ومن هذا يعرف أن هنا سقطا فى الكلام من النساخ . والأصل : «جائز أن

يقال : اختار الشيء وهذا اختياره : إذا اختلقه» كما يؤخذ من الطبري . وفيه :

«وحكى عن الفرّاء أنه كان يقول : اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته : إذا افتعلته من قبل نفسك» .

(174/260)

وقال الأخفش :

سورة (الأعراف)

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[قال] ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ على الابتداء .

وقال ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ على النهي كما قال ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي: "الحَرَجُ فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ" ، و"عينَاكَ فَلا تَعْدُوا عَنْهُم" .

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وقال ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ يقول [لَنَسْأَلَنَّ] القوم الذين بُعِثَ إِلَيْهِم وأُنذروا .

﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ ﴾ أدخل النون واللام لأن قوله ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ ﴾ ﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ على القسم.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(175/260)

وقال ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ فالياء غير مهموزة وقد همز بعض القراء وهو رديء لأنها ليست بزائدة. [115] وإنّما يُهْمز ما كان على مثال "مَفاعِل" اذا جاءت الياء زائدة في الواحد والألف والواو التي تكون الهمزة مكانها نحو "مَدائِن" لأنها "فَعايِل". ومن جعل "المدائِن" من "دان" "يَدِين" لم يهمز لأن الياء حينئذ من الأصل. وأما "قَطائِع" و"رسائِل" و"عَجائِز" و"كبائر" فان هذا كله مهموز لأن واو "عَجُوز" زائدة، الا ترى انك تقول: "عجزَ" والف "رسالة" زائدة [اذ] تقول "أَرسلت" فتذهب الألف منها. وتقول في "كبيرة" "كبرت" فتذهب الياء منها. وأما "مصايِب" فكان أصلها "مصاوب" لأن الياء اذا كانت اصلها الواو فجاءت في موضع لا بد من ان تحرك [فيه] قلبت الواو في ذلك الموضع اذا كان الأصل من الواو فلما قلبت صارت كأنها قد أفسدت حتى صارت كأنها الياء الزائدة فلذلك همزت ولم يكن القياس ان تهمز. وناس من العرب يقولون "المصاوب" وهي قياس.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

وقال ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ لأنَّ "ثُمَّ" في معنى الواو ويجوز ان يكون معناه ﴿ لآدَمَ ﴾ كما تقول للقوم: "قَدْ ضَرَبْنَاكُم" وانما ضربت سيدهم.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

وقال ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ومعناه: ما منعك أَنْ تسجد، و﴿ لا ﴾ ها هنا زائدة.

وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الرابع بعد المئتين]:

أَبى جُودُهُ "لا" البُخْلَ واستعجلتْ بِهِ * "نَعَمْ" مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الجوعِ قاتلَه

(176/260)

[115 ب] وفسرته العرب: أَبى * جودُه البخلَ "وجعلوا ﴿ لا ﴾ زائدة حشوا ها هنا وصلوا بها الكلام. وزعم يونس ان أَبا عمرو كان يجرّ "البخل" ولا يجعل "لا" مضافة اليه أراد: أبى جوده ﴿ لا ﴾ التي هي للبخل لأن ﴿ لا ﴾ قد تكون للجود والبخل. لأنه لو قال له: "إِمْنَعْ الحقَّ" او "لا تُعْطِ المساكينَ" فقال "لا" كان هذا جودا منه.

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

وقال ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: على صراطك. وكما تقول: "تَوَجَّهَ مَكَّةَ" أي: إلى مكة. وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الخامس بعد المئتين]:

كَأَنِّي إِذْ أَسْعَى لأَظْفَرَ طائراً * مع النَّجْم في جَوّ السَّماءِ يَصُوبُ

يريد: لأَظْفَرَ بطائرٍ. فالقى الباء ومثله ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ يريد: عن امر ربكم.

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وقال ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ لأنه من "الذأم" تقول: "ذَأَمْتُه" فـ"هُوَ مَذْؤُومٌ" والوجه الآخر من "الذمّ": "ذَمَمْتُه" فـ"هو مَذْمُومٌ" تقول: "ذَأَمْتُهُ" و"ذَمَمْتُه" و"ذِمْتُه" كله في معنى واحد ومصدر: "ذِمْتُهُ" "الذَّيْم".

وقال ﴿ وَلَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ فاللام الأولى للابتداء والثانية للقسم.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَاذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

(177/260)

وقال ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ والمعنى: فوسوس إليهما الشيطان. ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل، ومنهم من تقول: "غَرِضْتُ" في معنى: اشتقت اليه.

وتفسيرها [116]: غَرِضْتُ مِنْ هؤلاءِ إِلَيْهِ.

وقال ﴿ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ يقول: ﴿ ما نَهاكُما إلاّ ﴾ كَراهَة ﴿ أَن تَكُونَا ﴾ كما تقول: "إِيَاكَ أَنْ تَفْعَلَ" أي: كَراهَةَ أَنْ تَفْعَلَ.

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

وقال ﴿ وَطَفِقَا ﴾ وقال بعضُهم ﴿ وَطَفَقَا ﴾ فمن قال: "طَفَقَ" قال: "يَطْفِقُ" ومن قال "طَفِقَ" قال "يَطْفَقُ".

وقال ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ جعلها من "يَخْتَصِفانِ" فادغم التاء في الصاد فسكنت وبقيت الخاء ساكنة فحركت الخاء بالكسر لاجتماع السكانين. ومنهم من يفتح الخاء ويحول عليها حركة التاء وهو كقوله ﴿ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي ﴾ وقال بعضهم ﴿ يَهِدِّي الا ان يُهْدَى ﴾.

﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فكأنه على القسم والله أعلم كأنه قال: "وَاللهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا".

﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلك خَيْرٌ ذلك مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلك خَيْرٌ ﴾ فرفع قوله ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ على الابتداء وجعل خبره في قوله ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ وقد نصب بعضهم ﴿ وَلِبَاسَ التَّقْوَى ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ وَرِيشاً ﴾ وبها نقرأ وكلٌّ حَسَنٌ ومعناه واحد .

﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

وقال ﴿ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ ﴾ فذكّر الفعل لما فصل كما قال ﴿ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ .

﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وقال ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى [116 ب] وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ كان كأنّه قال فأطيعوهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

وقال ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ من "وَلَجَ" "يَلِجُ" "وُلُوجاً" .

﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

(179/260)

وقال ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ فانما انكسر قوله (غَواشٍ) لأن هذه الشين في موضع عين "فواعِل" فهي مكسورة . وأما موضع اللام منه فالياء ، والياء والواو اذا كانت بعد كسرة وهما في موضع تحرك برفع أو جرّ صارتا ياء ساكنة في الرفع وانجرّ ونصبا في النصب . فلما صارتا ياء ساكنة وأدخلت عليها التنوين وهوساكن ذهبت الياء لاجتماع الساكنين .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

وقال ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وهو ما يكون في الصدور ، وأما الذي يُغَلُّ به الموثق فهو "الغُلُّ" .

وقال ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَاذَا ﴾ كما قال ﴿ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ وتقول العرب: "هوَ لا يَهتَدِي لهذا" أي: لا يعرفه . وتقول: "هَدَيْتُ العروسَ إلى بَعْلِها" . وتقول أيضاً: أَهْدَيْتُها إلَيْه" و"هُدِيَتْ لَهُ" وتقول: "أَهْدَيْتُ لَهُ هَدِيَّةً" . وبنو تميم يقولون "هَدَيْت العروسَ إلى زَوْجِها" جعلوه في معنى "دَلَلْتُها" وقيس تقول: "أَهْدَيْتُها" جعلوها بمنزلة الهدية .

(180/260)

وقال ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴾ و ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وقال في موضع آخر ﴿ أَنِ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾ و ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾ فهذه "أَنّ" الثقيلة خُفِّفَتْ وأُضْمِرَ فيها [و] ولا يستقيم أن تجعلها الخفيفة [117] لأن بعدها اسما . والخفيفة لا يليها الأسماء . وقال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد السادس بعد المئتين]:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا * أَنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفى وَيَنْتَعِل

وقال الشاعر: [من الوافر وهو الشاهد السابع بعد المئتين]:

أُكاشِرُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلانا * عَلَى ما سَاءَ صاحِبَهُ حَرِيصُ

فمعناه: أنهُ كِلانا . وتكون ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا ﴾ في معنى: "أي" .

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وقوله ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ ﴾ تكون "أيْ أَفِيضوا" وتكون على "أنْ" التي تعمل في الأفعال لأنك تقول: "غَاظَني أَنْ قامَ" و"غَاظَنِي أَنْ ذَهَب" فتقع على الأفعال وان كانت لا تعمل فيها وفي كتاب الله ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ ﴾ معناها : أي امْشُوا .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وقال ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فنصب ما بعد الفاء لأنه جواب استفهام .

(181/260)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ

تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقال ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ عطف على قوله ﴿ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وخلق ﴿ الشَمْسَ والقَمَرَ ﴾ .

﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

وقال ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فذكّر ﴿ قَرِيب ﴾ وهي صفة "الرحمة" وذلك كقول العرب "رِيحٌ خَرِيقٌ" و"مِلْحَفَةٌ جَدِيدٌ" و"شاةٌ سَدِيسٌ" . وان شئت قلت: تفسير "الرحمة" ها هنا: المطر، ونحوه. فلذلك ذكر. كما قال ﴿ وَإِن كَانَ [117 ب] طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ ﴾ فذكر لأنه أراد "الناس" . وان شئت جعلته كبعض ما يذكرون من المؤنث كقول الشاعر: [من المتقارب وهو الشاهد الحادي والثلاثون]:

[فَلا مِزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها] * وَلا أَرْضُ * أَبْقَلَ إِبْقَالَها

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ لأنّها جماعة "النَشُور" وتقول: "رِيحٌ نَشُور" و"رياحٌ نُشُر" . وقال بعضهم "نَشْرا" من "نَشَرها" "نَشْراً" .

وقال في أول هذه السورة ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [2] ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ [2] ﴿فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [2] هكذا تأويلها على التقديم والتأخير. وفي كتاب الله مثل ذلك كثير قال ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ والمعنى - والله أعلم - ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وفي كتاب الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ والمعنى - والله أعلم - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وفي "حم المؤمن" ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ والمعنى - والله أعلم - ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ﴾. وقال بعضهم ﴿فَرِحُوا بِما﴾ هو ﴿عِنْدَهُم مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: كان عندهم العلم وهو جهل ومثل هذا [118] في كلام العرب وفي الشعر كثير في التقديم والتأخير. يكتب الرجل: "أَمَّا بَعْدُ حَفِظَكَ اللهُ وَعافاكَ فإِنّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ" فقوله "فَإِنّي" محمول على "أَمَّا بَعْدُ" [و] انما هو "أَمَّا بَعْدُ فإِنّي" وبينهما كما ترى كلام. قال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الثامن بعد المئتين]:

خَيْرٌ مِنَ القَوْمِ العُصاةِ أَمِيرَهُم * يا قومُ فاستَحْيُوا النِساءُ الجُلَّسُ

والمعنى: خيرٌ مِنَ القَوْمِ العصاةِ أميرَهُم النِّساءُ الجُلَّسُ يا قومُ فاسْتَحْيُوا . قال الآخر: [من البسيط وهو الشاهد التاسع بعد المئتين]:

(183/260)

الشَّمْسُ طالِعَةٌ لَيْسَتْ بكاسِفَةٍ * تَبْكِي عليكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والقَمَرا

ومعناه: الشمسُ طالعةٌ لَمْ تكسِفْ نُجُومَ الليلِ والقمرَا لِحُزْنِها على "عُمَر" . وذلك أن الشمس كلما طلعت كسفت القمر والنجوم فلم تترك* لها ضوءا .

ومن معاني القرآن قول الله عزّ وجل ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ فليس المعنى: إنْكِحوا ما قَدْ سَلَف . وهذا لا يجوز في الكلام والمعنى – والله أعلم – "لا تَنْكِحُوا ما نكحَ آباؤُكُم من النساء فإنَّكُمْ تُعَذَّبُون بهِ إلاّ ما قد سلف فقد وضعه الله عنكم" وكذلك قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ ثم قال ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ والمعنى – والله أعلم – أَنَّكُمْ تؤخذون بذلك إلاّ ما قد سلف فقد وضعه الله عنكم .

[118 ب] وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ ﴾ ثم قال ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ فـ"الكاف" تزاد في الكلام . والمعنى: أَلَم تَرَ إِلَى الذي حاجَّ ابراهيمَ في رِبِّهِ أَوْ الذي

مَرَّ على قَرْيَةٍ. ومثلها في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ والمعنى: ليس مثله شيء. لأَنه ليس لله مثل. وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد العاشر بعد المئتين]:

* فَصُيِّرُوا مثل كَعَصْفٍ مَأْكُول *

والمعنى: صُيِّرُوا مثل عَصْفٍ، والكاف زائدة. وقال الآخر: [الرجز وهو الشاهد الحادي عشر بعد المئتين]:

* وَصَالِباتٍ كَكَمَا يُؤَثْفِين *

احدى الكافين زائدة.

(184/260)

وقوله: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ يعني غيرها في النضج، لأَنَّ الله عز وجل يجددها فيكون أشد للعذاب عليهم. وهي تلك الجلود بعينها التي عصت الله تعالى ولكن أذهب عنها النضج، كما يقول الرجل للرجل: "أنتَ اليومَ غيرُكَ أمْسِ" وهو ذلك بعينه الا انه نقص منه شيء أو زاد فيه. وفي كتاب الله عز وجل ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيسأل السائل فيقول كيف كانوا كاذبين ولم يعودوا بعد. [و] انما يكونون كاذبين إذا عادوا. وقد قلتم إنه لا يقال له كافر قبل ان يكفر اذا علم أنه كافر. وهذا يجوز أن يكون

[119] أَنَّهُم الكاذبون بعد اليوم كما يقول الرجل: "أَنَا قائِمٌ" وهو قاعد يريد "إِني سأَقوم" أو يقول ﴿ إِنَّهم لَكَاذِبُونَ ﴾ يعني ما وافوا به القيامة من كذبهم وكفرهم لأن الذين دخلوا النار كانوا كاذبين كافرين.

وقوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ [22] إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يقول "تنظر في رزقها وما يأتيها من الله" كما يقول الرجل: "ما أَنْظُرُ إِلاّ إِلَيك" ولو كان نظر البصر كما يقول بعض الناس كان في الآية التي بعدها بيان ذلك. الا ترى انه قال ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ [24] تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِها فَاقِرَةٌ ﴾ ولم يقل: "وُوُجُوهٌ لا تَنْظُر ولا تَرى" وقوله ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ يدلّ "الظن" ها هنا على ان النظر ثم الثقة بالله وحسن اليقين ولا يدل على ما قالوا. وكيف يكون ذلك والله يقول ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ يعني ما تشاؤون من الخير شيئاً إِلاّ أَنْ يشاءَ اللهُ أَنْ تَشاؤوه.

(185/260)

وقوله ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ حمل على المعنى وذلك انه لا يراها وذلك انك اذا قلت: "كادَ يفعل إنما. تعني قارب الفعل ولم يفعل فإذا قلت "لم يكد يفعل" كان المعنى أنه لم يقارب الفعل ولم يفعل على صحة الكلام [119 ب] وهكذا معنى هذه الآية. إِلاّ أَنَّ اللُّغَةَ

قد أَجازَتْ: "لَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ" في معنى: فعل بعد شدة، وليس هذا صحة الكلام [لـ] انه اذا قال: "كاد يفعل" فانما يعني: قارب الفعل. واذا قال: "لم يكد يفعل" يقول: "لم يقارب الفعل" إلا أَنّ اللغة جاءت على ما فسرت لك وليس هو على صحة الكلمة.

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وقال ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ كأنه قال: "صنعوا كذا وكذا وعجبوا" فقال "صنعتم كذا وكذا أَوَعَجِبْتُمْ" فهذه واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾

وقال ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [73] فكل هذا – والله أعلم – نصبه على الكلام الأول على قوله ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [59] وكذلك ﴿ لُوطاً ﴾ [80]، وقال بعضهم: "واذْكُرْ لُوطاً". وانما يجيء هذا النصب على هذين الوجهين، او يجيء على ان يكون الفعل قد عمل فيما قبله وقد سقط بعده فعل على شيء من سببه فيضمر له فعلا. فانما يكون على احد هذه الثلاثة وهو في القرآن كثير.

وقال ﴿ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ وقال ﴿ خُلَفَآءَ ﴾ [69] وكل جائز وهو جماعة "الخليفة".

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاَءَ اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

وقال ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ أي: انْبِساطاً . وهو في موضع آخر ﴿ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ وهو [120] مثل الأول .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَاذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقال ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ ﴾ جزم اذا جعلتَهُ جوابا ورفع اذا أردت "فَذَرُوها آكِلَةً" وقال ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ وقال ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ ﴾ و ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ فصار جواباً في اللفظ وليس كذلك في المعنى .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(187/260)

ثم قال ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ تقول: "هُمْ فِي البَصْرَةِ" و"بِالبَصْرَةِ" و"قَعَدْتُ لَهُ فِي الطَّرِيقِ" و"بِالطَّرِيقِ".

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾

وقال ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ وهي من "غَنِيتَ" "تَغْنَى" "غِنَى".

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

وقال ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ فهذه الواو للعطف دخلت عليها الف الاستفهام.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾

وقال ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ يقول: "أَوَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُم" وقال بعهضم ﴿ نَهْدِ ﴾ بالنون أي: أولم نُبَيِّنْ لهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا

كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾

وقال ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ﴾ صيّر "مِنْ" زائدة واراد "قصَصْنا" كما تقول "هل لكَ في ذا" وتحذف "حاجة" .

وقال ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ فقوله ﴿ بما كذبو ﴾ و الله أعلم يقول: "بِتَكْذِيبِهِم" جعل – و الله أعلم – ﴿ مَا كَذَّبُوا ﴾ اسما للفعل والمعنى: "لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا بالتكذيب" أي لا نسميهم بالايمان [120 ب] بالتكذيب .

(188/260)

﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

وقال ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ وقال بعضهم ﴿ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ ﴾ والأُولى أحسنهما عندنا ، أراد: واجبٌ علي أَنْ لا أقول . والأخرى: أَنَا حقيقٌ عَلَي أَنْ لا أقول على الله . ويريد : بأَنْ لا أقولَ على الله . كما قال: ﴿ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ في معنى "على كُلِّ صِراطٍ تُوعِدُون" .

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴾

وقال ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ وقال ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ لأنه من "أَرْجَأْتُ" وقد قرئت ﴿ أَرْجِهِ وَأَخاه ﴾ خفيفة بغير همزة وبها نقرأ و ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ ﴾ وهي لغة تقول: "أَرْجَيْتُ" وبعض العرب تقول: "أَخْطَيْتُ" و "تَوَضَّيْتُ" لا يهمزون.

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ وقال بعضهم ﴿ وَمَا تَنْقَمُ مِنّا ﴾ وهما لغتان "نَقَمَ" "يَنْقِمُ" و "نَقِمَ" "يَنْقَمُ" وبها نقرأ. أي بالأولى.

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ ﴾ لأن ﴿ مَهْما ﴾ من حروف المجازاة وجوابها ﴿ فَمَا نَحْنُ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾

وقال ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ فواحدتها في القياس "الطُوفانَة". قال الشاعر: [من الرمل وهو الشاهد الثاني عشر بعد المئتين]:

* غَيْرَ الجِدَّةِ مِنْ آياتِها خُرُقُ الرِّيحِ وطُوفانُ المَطَر *

[121] وهي من "طافَ" "يَطُوفُ".

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ و"يَعْرُشونَ" لغتان وكذلك ﴿ نَبْطِشُ ﴾ و"نَبْطُشُ" و"يَحْشُرُ" و﴿ يحشِرُ ﴾ ، و﴿ يعكُفُ ﴾ و﴿ يعكِفُ ﴾ ، و﴿ ينفُرُ ﴾ و﴿ ينفِرُ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ لأَنَّهُ حين قال ﴿ جَعَلَه ﴾ كان كأنه قال "دَكَّهُ" ويقال ﴿ دَكّاء ﴾ واذا أراد ذا فـ[قد] أُجْرِيَ مُجْرَى ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ لأنه يقال: "نَاقَةٌ دَكّاءُ" اذا ذهب سنامها .

وقال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ يقول "تَجَلّى أَمْرُهُ" نحو ما يقول الناس: "بَرَزَ فُلانٌ لفُلانٍ" وإنَّما برز جُنْدُه .

وأَمَّا قوله ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فانما اراد علما لا يدرك مثله إلاّ في الآخرة فأَعْلَمَ اللهُ

موسى ان ذلك لا يكون في الدنيا . وقرأها بعضهم ﴿ دَكّاء ﴾ جعله "فَعْلاء" وهذا لا يشبه أن يكون . وهو في كلام العرب: "ناقَةٌ دَكّاءُ" أي: ليس لها سنام . والجبل مذكر الا أن يكون "جَعَلَهُ مِثْلَ دَكّاءَ" وحذف "مِثْل" .

(190/260)

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾

وقال ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ وقال بعضهم ﴿ حِلِيِّهِم ﴾ و ﴿ حَلْيِهِم ﴾ ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ وقال بعضهم ﴿ جُؤَارٌ ﴾ وكلٌّ من لغات العرب .

وأمّا قوله ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ بضم الحاء فانه "فُعول" وهي جماعة "الحَلْيِ" ومن قال ﴿ حِلِيِّهِم ﴾ في اللغة الأخرى [ف] لمكان الياء كما قالوا: "قِسِيّ" و "عِصِيّ" .

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ وقال بعضهم ﴿ سَقَطَ ﴾ وكل جائز والعرب تقول: "سُقِطَ في يديه" و ﴿ أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِم ﴾ .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَآءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

وقال ﴿ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ ﴾ . وذلك – والله أعلم – أنه جعله اسما واحدا مثل قولهم "ابْنَ عَمِّ أَقْبِلْ" وهذا لا يقاس عليه [121 ب] . وقال بعضهم ﴿ يا ابنَ أُمي لا تَأْخُذ ﴾ وهو القياس ولكن الكتاب ليست فيه ياء فلذلك كره هذا . وقال الشاعر: [من الخفيف وهو الشاهد الثالث عشر بعد المئتين]:

يَا ابْنَ أُمِّي وَلَوْ شَهِدْتُكَ إِذْ تَدْ * عُو تَمِيماً وَأَنْتَ غَيْرَ مُجَابِ

(191/260)

وقال بعضهم ﴿ يا ابْنَ أُمِّ ﴾ ، فجعله على لغة الذين يقولون هذا غلام قد جاء "أو جعله اسما واحدا آخره مكسور" مثل "خازِباز" .

وقال ﴿ وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي ﴾ فثبتت فيه نونان واحدة للفعل والأخرى للاسم المضمر وانما ثبتت في الفعل لأنه رفع ، ورفع الفعل اذا كان للجميع والاثنين بثبات النون الا ان نون الجميع مفتوحة ونون الاثنين مكسورة وقد قال ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ وقد يجوز في هذا الادغام

والاخفاء .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ وقال بعضهم ﴿ سَكَنَ ﴾ إلاّ أنّها ليست على الكتاب فتقرأ ﴿ سَكَتَ ﴾ وكلٌّ من كلام العرب .

وقال ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ كما قال ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أوصل الفعل باللام . وقال بعضهم ﴿ مِنْ أَجْلِ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ أَيْ: اخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ ، فَلَمَا نزع "مِنْ" عمل الفعل . وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الرابع عشر]:

مِنا الذي اخْتِيرَ الرجال سَماحَةً * وَجُوداً إِذا هَبَّ الرِّياحُ الزَعازِعُ

وقال آخر: [من البسيط وهو الشاهد الخامس عشر]:

[122] أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ * فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذا مالٍ وَذا نَشَبِ

وقال النابغة: [من الكامل وهو الشاهد السادس عشر]:

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ وَالسفاهَةُ كاسْمِها * يُهْدِي إِلَيَّ أَوَابِدَ الأَشْعار

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَاذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي: وسعت كل من يدخل فيها لا تعجز عن من دخل فيها ، أو يكون يعني الرحمة التي قسمها بين الخلائق يعطف بها بضعهم على بعض حتى عطف البهيمة على ولدها .

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

وقال ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً ﴾ أراد اثنتي عشرة فرقة ثم أخبر أن الفرق أسباط ولم يجعل العدد على الأسباط.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ

وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقال ﴿ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَالِكَ ﴾ لا نعلم أحدا يقرؤها إلاّ نصبا .

(193/260)

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾

وقال ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ اذا قلت "خَلَفُ سَوءٍ" و"خَلَفُ صِدْقٍ" فهما سواء . و"الخَلْفُ" انما يريد به الذي بعد ما مضى خَلَفاً كانَ منْهُ أَوْ لَمْ يكن خَلَفاً إنّما يكون يعني به القرن الذي يكون بعد القرن و"الخَلَفُ" الذي هو بدل مما كان قبله قد قام مقامه واغنى غناه . تقول: "أَصَبْتُ مِنْكَ خَلَفا" .

وقال ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى ﴾ فأضاف "العَرَضَ" إلى "هذا" وفسر "هذا" بـ"الأَدْنى" وكل شيء فهو عَرْضٌ سوى الدراهم والدنانير فانها عَيْنٌ . وما كان غير ذلك فهو عَرْضٌ واما "العَرَضُ" فهو كل شيء عَرَض لك تقول: "قد عرض له بعدي عَرُضٌ" أي: "أصابَتْهُ بِلِيَّةٌ وشَرّ" وتقول: [122 ب] "هذا عُرْضَةٌ للشَرِّ" و"عُرْضَةٌ للخَيْر" كلُّ هذا

تقوله العرب . وقال ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللَّهَ عُرْضَةً لأَيمَانِكُمْ ﴾ وتقول: "أَعْرَضَ لكَ الخيرُ"

و"عَرَضَ لكَ الخَيْرُ" وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد السابع عشر بعد المئتين]:

أَعْرِفَنَّكَ مُعْرِضاً لِرِماحِنَا * في جُفِّ تَغْلِبَ واردَ الأَمْرارِ

و"العارِضُ" من السحاب: ما استقبلك وهو قول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً ﴾

وأما "الحَبِيُّ": فما كان من كل ناحية وتقول: "خُذُوهْ من عُرْضِ الناس" أي: مما وَلِيَكَ منهم ،

وكذلك "اضرب به عُرْضَ الحائط" أي: ما وَلِيَكَ منه وأما "العَرْضُ" و"الطول" فانه ساكن .

وأما قوله [من الطويل وهو الشاهد الثامن عشر بعد المئتين]:

(194/260)

[لَهُنَّ عَلَيْهِمْ عادَةٌ قَدْ عَرَفْنَها] * إذا عَرَضُوا الخَطِّيَّ فَوْقَ الكَوَاثِب

وأعرضوا فهذا لأن*: عَرَضَ عَرْضاً . و: "عَرَضْتُ عَلَيْهِ المَنْزِلَ عَرْضاً" و"عَرَضَ لِي أَمْرٌ

عَرْضاً" هذا مصدره . و"العَرَضُ من الخَيْرِ والشَرِّ": ما أصبت عَرَضاً من الدنيا فانتفعت

به تعني به الخير . و"عَرَضَ لك عَرَضُ سَوْءٍ" .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ ولكنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ ولا نعلم أحدا يقول ﴿ خَلَدَ ﴾ . وقوله ﴿ أَخْلَدَ ﴾ أي: لَجَأَ إِلَيْها .

﴿ سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾

وقال ﴿ سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ ﴾ فجعل "القومُ" هم "المَثَل" في اللفظ وأراد: مثلُ القومِ، فحذف كما قال "وَاسْأَلِ القَرْيَةَ" .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَائِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَائِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ تقول: "ذَرَأَ" "يَذْرَأُ" "ذَرْءاً" .

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(195/260)

وقال ﴿ وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ ﴾ وقال بَعْضُهُم ﴿ يُلْحَدُونَ ﴾ جعله من "لَحَدَ" [123] "يَلْحَدُ" وهي لغة . وقال في موضع آخر ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ ﴾

و﴿يَلْحَدُون﴾ وهما لغتان و﴿يُلحدُونَ﴾ أكثر وبها نقرأ ويقوّيها ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

وقال ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ لأَنّ "الحَمْلَ" ما كان في الجَوْفِ و"الحِمْل" ما كان على الظهر . وقال ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ واما قوله ﴿أَثْقَلَتْ﴾ فيقول: "صارت ذاتَ ثِقَلٍ" كما تقول "أَتْمَرْنا" أيْ: "صِرْنا ذَوِي تَمْرٍ" و"أَلْبَنَّا" [أي: صرنا ذوي لبن] و"أَعْشَبَتِ الأَرْضُ" و"أَكْمَأَتْ" وقرأ بعضهم ﴿فَلَمّا أُثْقِلَتْ﴾ .

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وقال ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ وقال بعضهم ﴿شِرْكاً﴾ لأَنَّ "الشِرْكَ" انما هو: "الشِرْكَةُ" وكان ينبغي في قول من قال هذا ان يقول "فَجَعلا لغيرِه شِرْكاً فيما آتاهما" .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

وقال ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ و﴿الطَيْفُ﴾ أَكْثَرُ في كلام العرب وقال الشاعر: [من المتقارب وهو الشاهد التاسع عشر بعد المئتين]:

أَلا يَا لَقَوْمٍ لِطَيْفِ الخَيالِ * أَرَقَّ مِنْ نازِحٍ ذِي دَلالِ

ونقرؤها ﴿ طائِف ﴾ لأَنَّ عامة القراء عليها .

(196/260)

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾

وقال ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ وتفسيرها "بالغَدَواتِ" كما تقول: "آتيك طلوعَ الشَمْسِ" أي: في [123 ب] وقتِ طلوعِ الشمس كما قال ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ وهو مثل "آتيكَ في الصَّباحِ وبِالمَساءِ" وأما ﴿ الآصال ﴾ فواحدها: "أَصيلٌ" مثل: "الأَشْرار" واحدها: "الشَرِير" و"الأَيمانُ" واحدتها: "اليَمِينُ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 1 صـ 319.344 ﴾

(197/260)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الأعراف

مكية كلها

2 - فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ أي شك . وأصل الحرج :

الضيق ، والشاك في الأمر يضيق صدرا ، لأنه لا يعلم حقيقته . فسمي الشك حرجا .

4 - فَجاءَها بَأْسُنا يعني العذاب . بَياتاً ليلا . أَوْ هُمْ قائِلُونَ من القائلة نصف النهار .

5 - فَما كانَ دَعْواهُمْ أي قولهم وتداعيهم .

9 - بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ أي يجحدون . والظلم يتصرف على وجوه قد ذكرناها في «المشكل» .

12 - ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ أي أن تسجد . و«لا» زائدة للعلة التي ذكرناها في «المشكل» .

16 - لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ أي دينك . يقول : لأصدّنهم عنه .

17 - ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ مفسر في كتاب «المشكل» .

18 - مَذْؤُماً : مذموما بأبلغ الذم .

مَدْحُوراً أي مقصيا مبعدا . يقال : اللهم ادحر عني الشيطان .

20 - لِيُبْدِيَ لَهُما أي ليظهر . ما وُورِيَ عَنْهُما أي ستر .

والتّوارى والمواراة منه .

22 - وَطَفِقا أي جعلا وأقبلا . يقال : طفقت أفعل كذا .

يَخْصِفانِ أي يصلان الورق بعضه ببعض ، ويلصقان بعضه على بعض . ومنه يقال :

خصفت نعلي : إذا طبّقت عليها رقعة .

26 - (و الرّيش) و(الرّياش) : ما ظهر من اللباس . وريش الطائر :

ما ستره اللّه به «1» .

وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ أي خير من الثياب ، لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فإنه بادي

العورة . و«ذلك» زائدة قال الشاعر في مثل هذا المعنى :

إنّي كأنّي أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

وقيل في التفسير : إن لباس التقوى : الحياء .

27 - إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ أصحابه : وجنده .

29 - وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ يقول : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد

من المساجد ، فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم :

لا أصلي حتى آتي مسجدي .

31 - وقوله : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة بالنهار ، والنساء منهم بالليل إلّا الحمس

---

(1) قال ابن عباس : الرياش المال .

- وهم قريش ومن دان بدينهم - ولا يأكلون من الطعام إلّا اليسير إعظاما لحجّهم . فأنزل اللّه هذه الآية .

33 - ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً : أي حجّة .

37 - أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ أي حظهم مما كتب عليهم من العقوبة .

38 - ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أي ادخلوا مع أمم .

حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها تداركوا . أدغمت التاء في الدال . وأدخلت الألف ليسلم السكون لما بعدها . يريد : تتابعوا فيها واجتمعوا .

40 - لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ [أي ليس لهم عمل صالح تفتح لهم به أبواب السماء] ويقال : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا .

حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ أي يدخل البعير . فِي سَمِّ الْخِياطِ أي في ثقب الإبرة . وهذا كما يقال : لا يكون ذاك حتى يشيب الغراب . وحتى يبيضّ القار .

41 - لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ أي فراش وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ أي ما يغشاهم من النار .

43 - (الغلّ) ، الحسد والعداوة .

44 - فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أي نادى مناد بينهم : أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

46 - و(الأعراف) سور بين الجنة والنار ، سمي بذلك لارتفاعه ، وكل مرتفع عند العرب : أعراف . قال الشاعر :

كلّ كنار لحمه نياف كالعلم الموفي على الأعراف

و(السّيماء) : العلامة .

(200/260)

---

51 - فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ أي نتركهم .

53 - هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ أي هل ينتظرون إلّا عاقبته . يريد ما وعدهم اللّه من أنه كائن يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ فِي القيامة يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ أي تركوه وأعرضوا عنه .

5 - وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً أي خوفا منه ورجاء لما عنده .

57 - بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ كأنه تبشر . ورحمته هاهنا :

المطر ، سماه رحمة : لأنه كان برحمته .

ومن قرأها نشرا بين يدي رحمته أراد جمع نشور ، ونشر الشيء ما تفرق منه . يقال : اللهم

اضمم إليّ نشرى . أي ما تفرق من أمري .

حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحابًا أي حملت . ومنه يقال : ما أستقل به .

58 - لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا أي إلّا قليلا . يقال : عطاء منكود :

منزور .

63 - أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ أي على لسان رجل منكم .

66 - إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ أي في جهل .

69 - آلاءَ اللَّهِ : نعمة . واحدها ألى . ومثله في التقدير غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ : أي وقته . وجمعه

: آناء .

74 - وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أي أنزلكم .

78 - جاثِمِينَ الأصل في الجثوم للطير والأرنب وما يجثم .

والجثوم البروك على الركب .

83 - الْغابِرِينَ : الباقين . يقال : من مضى ومن غبر أي ومن بقي .

89 – رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا أي احكم بيننا . ويقال للحاكم : الفتاح .

92 – كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أي لم يقيموا فيها . يقال : غنينا بمكان كذا : أقمنا . ويقال للمنازل : مغان . واحدها مغنى .

95 – حَتَّى عَفَوْا أي كثروا . ومنه الحديث «أن رسول اللّه أمر أن تحفى الشّوارب وتعفى اللحى» أي توفّر .

111 – (أرجه) أي أخره . وقد تهمز . يقال : أرجأت الشيء وأرجيته ومنه قوله تعالى : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ [سورة الأحزاب آية : 51] يقرأ بهمز وغير همز . ومنه سمت المرجئة «1» .

113 – إِنَّ لَنا لَأَجْراً أي جزاء من فرعون .

116 – وَاسْتَرْهَبُوهُمْ : أرهبوهم .

117 – تَلْقَفُ : تلتهم وتلقم .

126 – أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أي صبّه علينا .

127 – الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أشرافهم ووجوههم . وكذلك الملأ من قومه [في كل موضع] .

130 – أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ بالجدب . يقال : أصابت الناس سنة : أي جدب .

131 - فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ يعني الخصب . قالُوا لَنا هذِهِ أي هذا ما كنا نعرفه وما جرينا على اعتياده .

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أي قحط يَطَّيَّرُوا بِمُوسى قالوا : هذا بشؤمه .

---

(1) قال ابن الأثير : هم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان المعصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة ، سموا مرجئة لإعتقادهم أن اللّه أرجأ تعذيبهم على المعاصي أي أخره عنهم .

(202/260)

أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لا عند موسى .

132 - فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ السيل العظيم . وقيل : الموت الكثير الذريع ، وطوفان الليل : شدة سواده . وقال الراجز :

وعمّ طوفان الظلام الأثأبا 133 - آياتٍ مُفَصَّلاتٍ بين الآية والآية فصل ومدّة .

134 - والرِّجْزُ : العذاب .

136 - و(اليم) : البحر .

137 - وَما كانُوا يَعْرِشُونَ أي : يبنون ، والعروش : البيوت والعروش : السقوف .

138 - يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ أي يقيمون عليها معظّمين . كما يقيم العاكفون في المساجد .

139 - مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ أي مهلك . والتّبار : الهلاك .

141 - وَفِي ذِلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ أي في إنجائه إياكم نعمة من اللّه عظيمة .

143 - تَجَلَّى رَبُّهُ أي ظهر . أو ظهر من أمره ما شاء . ومنه يقال : جلوت العروس : إذا أبرزتها . ومنه يقال : جلوت المرآة والسيف :

إذا أبرزته من الصدأ والطبع ، وكشفت عنه .

جَعَلَهُ دَكًّا أي ألصقه بالأرض . يقال : ناقة دكّاء : إذا لم يكن لها سنام . كأنّ سنامها دكّ - أي ألصق - ويقال : إنّ دككت ، ودققت فأبدلت القاف فيه كافا . لتقارب المخرجين .

143 - وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً أي مغشيا عليه .

149 - وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ أي ندموا . يقال : سقط

في يد فلان : إذا ندم .

150 - أَسِفاً شديد الغضب . يقال : آسفني فأسفت . أي :

أغضبني فغضبت . ومنه قوله : فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ [سورة الزخرف آية : 55] .

154 - وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أي سكن .

وَفِي نُسْخَتِها أي فيما نسخ منها .

155 - وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ أي اختار من قومه . فحذف «من» والعرب تقول :

اخترتك القوم . أي اخترتك من القوم .

156 - إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أي تبنا إليك . ومنه : وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا [سورة المائدة آية : 41]

كأنهم رجعوا عن شيء إلى شيء .

157 - الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ أي يجدون اسمه مكتوبا ، أو ذكره .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ فكل خبيث عند العرب فهو محرّم .

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ أي الثّقل الذي كان بنو إسرائيل ألزموه .

وكذلك الْأَغْلالَ هي الفرائض المانعة لهم من أشياء رخّص فيها لأمة محمد صلّى اللّه عليه وعلى آله .

عَزَّرُوهُ : عظّموه .

(الأسباط) : القبائل . واحدها سبط .

160 - فَانْبَجَسَتْ أي انفجرت . يقال : انبجس الماء ، كما يقال : تفجر .

163 - إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ أي يتعدّون الحق . يقال : عدوت على فلان ، إذا ظلمته .

شُرَّعاً أي شوارع في الماء . وهو جمع شارع .

165 – بِعَذابٍ بَئِيسٍ أي شديد .

167 – وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ أي أعلم . وهو من آذنتك بالأمر .

مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ أي يأخذهم بذلك ويوليهم إيّاه . يقال :

سمت فلانا كذا . وسوء العذاب : الجزية التي ألزموها إلى يوم القيامة والذلة ، والمسكنة .

168 – وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أي فرقناهم .

وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ أي اختبرناهم بالخير والشر ، والخصب والجدب .

169 – فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ والخلف : الرّديء من الناس ومن الكلام ، يقال : هذا خلف من القول .

171 – وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ أي زعزعناه . ويقال : نتقت السّقاء : إذا نفضته لتقتلع الزبدة منه . وكان نتق الجبل أنّه قطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظل عليهم . وقال لهم موسى : أما أن تقبلوا التوراة إما أن يسقط عليكم .

175 – فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ أي أدركه . يقال : أتبعت القوم : إذا لحقتهم ، وتبعتهم : سرت في

إثرهم.

176 - أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أي ركن إلى الدنيا وسكن. إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ تطرده يَلْهَثْ وهذا مفسر في كتاب «المشكل».

179 - وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ أي خلقنا لجهنم. ومنه ذرّية الرجل: إنما هي الخلق. ولكن همزها يتركه أكثر العرب.

180 - وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها أي الرحمن والرحيم

(205/260)

والعزيز. وأشباه ذلك.

وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ أي يجورون عن الحق ويعدلون.

فيقولون: اللات والعزى مناة، وأشباه ذلك. ومنه قيل: لحد القبر. لأنه في جانب.

183 - وَأُمْلِي لَهُمْ أي أؤخرهم. إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أي شديد.

184 - ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ أي جنون.

187 - أَيَّانَ مُرْساها أي متى ثبوتها. يقال: رسا في الأرض: إذا ثبت، ورسا في الماء: إذا رسب. ومنه قيل للجبال: رواس.

لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ أي لا يظهرها . يقال : جلّى لي الخبر : أي كشفه وأوضحه .

ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي خفي علمها على أهل السموات والأرض وإذا خفي الشيء ثقل .

حَفِيٌّ عَنْها أي معنيّ بطلب علمها . ومنه يقال : تحفّى فلان بالقوم .

189 - فَمَرَّتْ بِهِ أي استمرت بالحمل .

لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً ولدا سويا بشرا ، ولم [تجعله بهيمة] مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

199 - خُذِ الْعَفْوَ أي الميسور من الناس وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ [أي بالمعروف] .

200 - وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ أي يستخفنك . ويقال : نزغ بيننا : إذا أفسد .

202 - يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ أي يطيلون لهم فيه .

(206/260)

وَإِخْوانُهُمْ : شياطينهم . يقال : لكل كافر شيطان يغويه .

203 - وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا : لَوْلا اجْتَبَيْتَها أي هلا اخترت لنا آية من عندك . قال اللّه : قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي .

205 - وَالْآصالِ آخر النهار . وهي العشي أيضا .

206 - إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يعني الملائكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 152.143 ﴾

(207/260)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الأعراف

للتسمية بالحروف المعجمة معان وهي : أنها فاتحة لما هو منها ، وأنها فاصلة بينها وبين ما قبلها ، وأن التأليف الذي بعدها معجز وهو كتأليفها «1» .

وموضع المص رفع بالابتداء ، وخبره كِتابٌ «2» ، وعلى قول ابن عباس «3» : «أنا اللّه أعلم وأفصل» لا موضع له ، لأنه في موضع جملة «4» .

2 فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ

: نهي عن التعرض للحرج ، وفيه من البلاغة أن الحرج لو كان مما ينهى لنهينا عنك ، فانته أنت عنه بترك التعرض له «5» و «الفاء» للعطف ، أي : هذا كتاب أنزلناه إليك فلا يكون بعد إنزاله

---

(1) ينظر البرهان للزركشي : (1/ 167 - 170) ، والإتقان : (3/ 25 - 30) .

(2) هذا قول الفراء في معاني القرآن : 1/ 368 ، وانظر مشكل إعراب القرآن : 1/ 281 ، وتفسير القرطبي : 7/ 160 ، والبحر المحيط : 4/ 267 ، والدر المصون : 5/ 241 .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : 12/ 293 ، وابن أبي حاتم في تفسيره : 1/ 2 (سورة الأعراف) ، والنحاس في معاني القرآن : 1/ 73 بلفظ : «أنا اللّه أفصل» .

(4) اختار الزجاج هذا القول في معاني القرآن : (2/ 313 ، 314) ، فقال : وهذه الحروف . . .

في موضع جمل ، والجملة إذا كانت ابتداء وخبرا فقط لا موضع لها . فإذا كان معنى كهيعص معنى الكاف كاف ، ومعنى الهاء هاد ، ومعنى الياء والعين من عليم ، ومعنى الصاد من صدوق وكان معنى الم أنا أعلم ، فإنما موضع كموضع الشيء الذي هو تأويل لها . ولا موضع في الإعراب لقولك : أنا اللّه أعلم ، ولا لقولك : هو هاد ، وهو كاف ، وإنما يرتفع بعض هذا ببعض ، والجملة لا موضع لها» .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 14/ 16 .

(5) البحر المحيط : 4/ 266 ، والدر المصون : 5/ 242 .

حرج في صدرك .

ويكون فيه أيضا معنى «إذا» أي : إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك بل لتنذر على انشراح الصدر .

والحرج : الضيق «1» ، وقيل : الشك ، بلغة قريش «2» .

وَذِكْرى في موضع نصب على أُنْزِلَ أي : أنزل إنذارا وذكرى «3» . وعلى تقدير : وهو ذكرى رفع «4» . وعلى تقدير : لأن تنذر وذكرى جرّ «5» .

4 وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ : «كم» في الخبر للتكثير «6» ، وفي الاستفهام لا يجب

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 210 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 165 ، وتفسير الطبري : 12/ 295 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 315 ، والمفردات للراغب : 112 ، ورجح الطبري هذا القول .

(2) لغات القبائل الواردة في القرآن لأبي عبيد : 98 .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (12/ 295 ، 296) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 165 وقال : «وأصل الحرج : الضيق ، والشاك

في الأمر يضيق صدرا لأنه لا يعلم حقيقته ، فسمى الشّك حرجا » .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 266 : «و فسّر «الحرج» هنا بالشّك ، وهو تفسير قلق ، وسمّي الشك حرجا لأنّ الشّاك ضيّق الصدر كما أن المتيقن منشرح الصدر ، وإن صح هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه الخطاب إليه لفظا وهو لأمته معنى ، أي : فلا يشكّوا أنّه من عند اللّه» .

(3) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 315 وقال : «أي ولتذكر به ذكري ، لأن في الإنذار معنى التذكير» .

(4) أي أنها خبر لمبتدأ محذوف .

ينظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 316 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 114 ، والكشاف :

2/ 66 ، والبحر المحيط : 4/ 267 .

(5) قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 316 : «فأما الجر فعلى معنى لتنذر ، لأن معنى «لتنذر» :

لأن تنذره فهو في موضع جر ، المعنى للإنذار والذكرى» .

وانظر البحر المحيط : 4/ 267 ، والدر المصون : 5/ 244 . [. . . . .]

(6) قال الطبري في تفسيره : 12/ 299 : «و قيل : وكَمْ لأن المراد بالكلام ما وصفت

من - الخبر عن كثرة ما قد أصاب الأمم السالفة من المثلات ، بتكذيبهم رسله وخلافهم عليه .

وكذلك تفعل العرب إذا أرادوا الخبر عن كثرة العدد . . . » .

(209/260)

ذلك لأن الاستفهام موكول إلى الجواب .

أَهْلَكْناها : حكمنا لها بالهلاك ، أو وجدناها تهلك .

بَياتاً : ليلا «1» ، أَوْ هُمْ قائِلُونَ نصف النهار «2» ، وأصله الراحة . أقلته البيع : أرحته منه ، وقال تعالى «3» : وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ، والجنة لا نوم فيها «4» .

5 دَعْواهُمْ : دعاؤهم «5» . حكى سيبويه «6» : اللهم أدخلنا في دعوى المسلمين .

8 فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ : هو ميزان واحد ، ولكن الجمع على تعدد أجزاء الميزان ، أو بعدد الأعمال الموزونة ، ونحوه ثوب أخلاق ، وحبل أحذاق . وقال مجاهد «7» : الوزن في الآخرة العدل .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 210 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 165 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 317 .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 165 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 9 .

(3) سورة الفرقان : آية : 24 .

(4) قال الأزهري في تهذيب اللّغة : 9/ 306 : «و القيلولة عند العرب والمقيل : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم ، والدليل على ذلك أن الجنة لا نوم فيها .

وانظر المفردات للراغب : 416 ، واللسان : (11/ 577 ، 578) (قيل) .

(5) قال الطبري في تفسيره : 12/ 303 : «و عنى بقوله جل ثناؤه : دَعْواهُمْ في هذا الموضع دعاءهم» .

ول «الدعوى» في كلام العرب وجهان : أحدهما : الدعاء ، والآخر : الادعاء للحق .

ومن «الدعوى» التي معناها الدعاء ، قول اللّه تبارك وتعالى : فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ .

ينظر هذا المعنى أيضا في معاني القرآن للزجاج : 2/ 318 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 10 ، وزاد المسير : 3/ 168 .

(6) الكتاب : 4/ 40 بلفظ : «اللهم أشركنا في دعوى المسلمين» .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 318 ، والدر المصون : 5/ 254 .

(7) أخرجه الطبري في تفسيره : 12/ 310 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 10 عن مجاهد . -

- وأورده الفخر الرازي في تفسيره : 14/ 28 ، والقرطبي في تفسيره : 7/ 165 وزاد نسبته إلى الضحاك .

(210/260)

[33/أ] 11 وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ : يعني آدم «1» ، أو خلقناكم/ في أصلاب آبائكم «2» .

ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ : في الأرحام ، ثم أخبرناكم أنا قلنا للملائكة .

12 ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ : ما حملك على أن لا تسجد «3» جاء على المعنى .

13 قالَ فَاهْبِطْ مِنْها : قيل له على لسان بعض الملائكة ، أو رأى معجزة دلّته عليه «4» .

15 إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ : إجابة دعاء الكافر ، قيل : لا يجوز ، لأنه كرامة ، فهو بيان ما سبق به التقدير لا الإجابة «5» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 320 عن مجاهد ، ورجحه الطبري .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 319 عن عكرمة ، والأعمش .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 11 عن عكرمة .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 172 وقال : «رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة» .

(3) ذكر الفخر الرازي هذا القول في تفسيره : (14/ 34 ، 35) ورجحه ، لأن كلمة «لا» ها هنا مفيدة وليست لغوا .

وقيل : إن «لا» في الآية زائدة مؤكدة .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 5/ 441 : «وجملة هذا الغرض أن يقدر في الكلام فعل يحسن حمل النفي عليه ، كأنه قال : ما أحوجك ، أو حملك ، أو اضطرك . . . » .

(4) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 12 .

(5) تفسير الماوردي : 2/ 13 .

وقال الطبري في تفسيره : 12/ 331 : «فإن قال قائل : فإن اللّه قد قال له إذ سأله الإنظار إلى يوم يبعثون : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ في هذا الموضع فقد أجابه إلى ما سأل ؟ قيل له : ليس الأمر كذلك ، وإنما كان مجيبا له إلى ما سأل لو كان قال له : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إلى الوقت الذي سألت ، أو : إلى يوم البعث ، أو : إلى يوم يبعثون» ، أو ما أشبه ذلك ، مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظرة . وأما قوله : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، فلا دليل فيه – لولا الآية الأخرى التي قد بيّن فيها مدة إنظاره إياه إليها ، وذلك قوله : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [سورة الحجر : 37 ، 38 ، سورة ص : 80 ، 81] كم المدة التي أنظره إليها ، لأنه إذا أنظره يوما واحدا أو أقل منه أو أكثر ، فقد دخل في عداد المنظرين ، وتمّ فيه

وعد اللّه الصادق ، ولكنه قد بيّن قدر مدة ذلك بالذي ذكرناه ، فعلم بذلك الوقت الذي أنظر إليه» .

(211/260)

وقيل : يجوز على وجه الاستصلاح والتفضل العام في الدّنيا .

16 فَبِما أَغْوَيْتَنِي : على القسم «1» ، أو على الجزاء أي : لإغوائك .

وفسّر الإغواء بالإضلال «2» ، وبالتخييب «3» ، وبالتعذيب «4» ، وبالحكم بالغي ، وبالإهلاك «5» ، غوي الفصيل : أشفى «6» .

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ : أي : على صراطك «7» ، ضرب الظهر ،

---

(1) قال الطبري في تفسيره : 12/ 333 : «وكان بعضهم يتأول ذلك أنه بمعنى القسم ، كأن معناه عنده : فبإغوائك إياي ، لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، كما يقال : باللّه لأفعلن كذا» .

وانظر هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 13 ، وتفسير البغوي : 2/ 151 ، وزاد المسير :

3/ 176 ، والدر المصون : 5/ 264 . [. . . . .]

(2) أخرج الطبريّ هذا القول في تفسيره : (12/ 332 ، 333) عن ابن عباس ، وابن زيد .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 175 عن ابن عباس والجمهور .

(3) ذكره النحاس في معاني القرآن : 3/ 16 ، وإعراب القرآن : 2/ 117 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 13 ، والبغوي في تفسيره : 2/ 151 ، والرازي في تفسيره : 14/ 40 .

(4) نقله الماروديّ في تفسيره : (2/ 13 ، 14) عن الحسن ، وقال : «معناه عذبتني كقوله تعالى :

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا أي : عذابا» .

(5) تفسير الطبري : 12/ 333 ، وتفسير الماوردي : 2/ 14 ، وزاد المسير : 3/ 175 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 40 .

(6) في تفسير الماوردي : 2/ 14 : «يقال : غوى الفصيل إذا أشفى على الهلاك بفقد اللبن» .

وانظر تفسير الطبري : 12/ 333 .

(7) ذكره الفراء في معاني القرآن : 1/ 375 ، ونقله الطبري في تفسيره : (12/ 336 ، 337) عن بعض نحويي البصرة وقال : «كما يقال : توجه مكة ، أي إلى مكة» .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 324 : «و لا اختلاف بين النحويين في أن «على» محذوفة ، ومن ذلك قولك : ضرب زيد الظهر والبطن» .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للنحاس : 3/ 16 ، وإعراب القرآن له أيضا : 2/ 117 .

(212/260)

أي : عليه ، أو هو نصب على الظرف «1» لأن الطريق مبهم غير مختص .

17 ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أضلنّهم من جميع جهاتهم ، ولم يقل : «من فوقهم» ، لأن رحمة اللّه تنزل منه «2» .

و«خلف» و«قدّام» أدخل فيها «من» لأن منها طلب النهاية .

مَذْؤُماً مَدْحُوراً : الذّام فوق الذم «3» ، والدّحر : الطرد على هوان «4» .

لَمَنْ تَبِعَكَ : لام الابتداء دخلت موطئة للام القسم في لَأَمْلَأَنَّ «5» .

---

(1) تفسير الطبري : 12/ 337 ، وقال السمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 267 : «و التقدير لأقعدن لهم في صراطك ، وهذا أيضا ضعيف لأن صِراطَكَ ظرف مكان مختص ، والظرف المكاني المختص لا يصل إليه الفعل بنفسه بل ب «في» ، تقول : صليت في

المسجد ونمت في السوق ، ولا تقول صليت المسجد ، إلا فيما استثنى في كتب النحو ، وإن ورد غير ذلك كان شاذا كقولهم : رجع أدراجه ، و«ذهبت» مع الشام خاصة أو ضرورة . . . » ا ه .

وأورد السمين الحلبي شواهد شعرية للدلالة على هذه الضرورة .

(2) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : 348 ، وتفسير الطبري : (12/ 341 ، 342) .

(3) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 211 : «وهي من : ذأمت الرجل ، وهي أشد مبالغة من ذممت ومن ذمت الرجل تذيم ، وقالوا في المثل : لا تعدم الحسناء ذاما ، أي : ذما ، وهي لغات» .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 166 ، وتفسير الطبري : 12/ 342 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 324 ، والمفردات للراغب : 180 .

(4) تفسير الطبري : 12/ 343 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 19 ، والمفردات للراغب : 165 ، والدر المصون : 5/ 272 .

(5) هذا قول الزجاج في معاني القرآن : 2/ 325 ، ونقله النحاس في إعراب القرآن : 2/ 117 عن الزجاج ، ثم قال : «وقال غيره : لَمَنْ تَبِعَكَ هي لام التوكيد ل «أملأن» لام القسم ، الدليل على هذا أنه يجوز في غير القرآن حذف اللام الأولى ولا يجوز حذف الثانية ،

وفي الكلام معنى الشرط والمجازاة ، أي : من تبعك عذّبته ، ولو قلت : من تبعك أعذبه لم يجز ، إلا أن تريد لأعذبه» .

وانظر التبيان للعكبري : 1/ 559 ، وتفسير القرطبي : 7/ 176 ، والدر المصون : 5/ 273 .

(213/260)

---

21 وَقاسَمَهُما : أقسم لهما «1» ، مفاعلة بمعنى الفعل «2» ، والقسم تأكيد الخبر بها سبيله أن يعظّم ، أي : حق الخبر كحق المحلوف به .

22 فَدَلَّاهُما : حطّهما عن درجتهما «3» ، أو جرّأهما على الأكل ، وأصله : دللهما «4» من «الدّلّ» و«الدّالة» ، أي : الجرأة «5» .

وَطَفِقا : جعلا «6» ، يَخْصِفانِ : يرقعان الورق بعضها على بعض من «خصف النّعال» .

26 وَلِباسُ التَّقْوى : العمل الذي يقي العقاب «7» . وقيل «8» : هو لبسة

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 212 ، وتفسير الطبري : 12/ 349 ، ومعاني القرآن للزجاج :

2/ 327 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 21 .

قال الماوردي في تفسيره : 2/ 17 : «أي حلف لهما على صدقه في خبره ونصحه في مشورته ، فقبلا قوله وتصورا صدقه لأنهما لم يعلما أن أحدا يجترئ على الحلف بالله كاذبا» .

(2) قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 5/ 459 : «وهي مفاعلة ، إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقسم وتقريره ، وإن كان بادئ الرأي يعطي أنها من واحد . . .» .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 279 : «والمقاسمة مفاعلة تقتضي المشاركة في الفعل فتقسم لصاحبك ويقسم لك ، تقول : قاسمت فلانا : حالفته ، وتقاسما : تحالفا ، وأما هنا فمعنى وَقَاسَمَهُما أقسم لهما ، لأن اليمين لم يشاركاه فيها» .

وانظر تفسير القرطبي : 7/ 179 ، والدر المصون : 5/ 279 .

(3) قال الماوردي في تفسيره : 2/ 18 : «معناه : فحطهما بغرور من منزلة الطاعة إلى حال المعصية» . [. . . . .]

(4) تفسير القرطبي : 7/ 180 ، وقال السمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 282 : «فاستثقل توالي ثلاثة أمثال فأبدل الثالث حرف لين ، كقولهم : تظنيت في تظننت وقصّيت أظفاري في قصصت . . .» .

(5) اللسان : (11/ 247 ، 248) (دلل) .

(6) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 166 ، وتفسير الطبري : 12/ 352 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ . 327

(7) وهو أولى الأقوال عند الطبري بالصواب .

ينظر تفسيره : (12/ 366 - 369) .

(8) ذكره النحاس في إعراب القرآن : 2/ 120 ، والبغوي في تفسيره : 2/ 155 ، والقرطبي في - - تفسيره : 7/ 185 ، ورده قائلا : «من قال إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى . . . » .

(214/260)

المتواضع المتقشّف من الصوف وخشن الثياب ، ورفعه «1» على الابتداء ، وذِلكَ خَيْرٌ خبره ، أو «الخير» خبر وذِلكَ فصل لا موضع له «2» ، والنّصب «3» على العطف على «ريشا» .

والريش : ما يستر الرجل في جسده ومعيشته «4» . وقال الفراء «5» :

«الرّيش ، والرياش» واحد . ويجوز «الرياش» جمع «ريش» ك «شعب» و «شعاب»

«6» ويجوز مصدرا كقولك : لبس ولباس .

[33/ب] وفي حديث علي رضي اللّه عنه : أنه اشترى/ ثوبا بثلاثة دراهم ، وقال : «الحمد للّه الذي هذا من رياشه» «7» .

وفي الحديث «8» : «النّاس كسهام الجعبة ، منها القائم

---

(1) أي : رفع وِلَباسُ وهي قراءة عاصم ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وحمزة .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 280 ، والتبصرة لمكي : 202 .

(2) معاني القرآن للزجاج : 2/ 328 ، والكشف لمكي : 1/ 461 .

(3) على قراءة نافع ، وابن عامر ، والكسائي .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 280 ، والكشف لمكي (1/ 460 ، 461) .

(4) قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 328 : «والريش : اللباس ، العرب تقول : أعطيته بريشته ، أي بكسوته ، والريش : كل ما ستر الرجل في جسمه ومعيشته ، يقال : تريش فلان أي صار له ما يعيش به» .

وقال النحاس في معاني القرآن : 3/ 23 : «والريش عند أكثر أهل اللغة : ما ستر من لباس أو معيشة» .

وانظر زاد المسير : 3/ 182 ، وتفسير القرطبي : 7/ 184 .

(5) معاني القرآن : 1/ 375 ، ولفظه : «فإن شئت جعلت «رياش جميعا واحده

«الريش» وإن شئت جعلت «الرياش» مصدرا في معنى «الريش» كما يقال: لبس ولباس».

(6) الكشاف: 2/ 74، وتفسير الفخر الرازي: 14/ 55، والبحر المحيط: 4/ 282.

(7) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث: 1/ 426، وابن الأثير في النهاية: 2/ 288.

(8) أخرجه الخطّابي في غريب الحديث: 2/ 86 عن جرير بن عبد اللّه عن عمر رضي اللّه عنه موقوفا. وفيه: «أن جريرا قدم على عمر رضي اللّه عنه فسأله عن سعد بن أبي وقاص فأثنى - عليه خيرا قال: فأخبرني عن الناس. قال: هم كسهام الجعبة، منها القائم الرائش، ومنها العصل الطائش، وابن أبي وقاص يغمز عصلها، ويقيم ميلها، واللّه أعلم بالسرائر»، وفي سند الخطابي مجهول.

(215/260)

الرائش «1»، ومنها العصل الطائش» رشت السّهم فهو مريش. وفي المثل»: لا أقذّ ولا مريش.

27 لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ وهي دعاؤه إلى الخطيئة بوجه خفي كما تشتهيه النفس.

إِنَّهُ يَرَاكُمْ : أبصار الجن أحدّ لأنهم يرون الدقيق والكثيف «3» .

29 وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أدركتم صلاته ، ولا تؤخروها لمسجدكم «4» .

قيل «5» : هو أمر بالتوجه إلى الجماعة . وقيل «6» : توجهوا

---

(1) قال الخطابي في شرح غريب هذا الحديث : «القائم الرائش ، هو المستقيم ذو الريش . يقال : رشت السهم أريشه ، وسهم مريش ، وارتاش الرجل وترّيش إذا حسنت حاله فصار كالسّهم المريش ، والعصل من السهام : المعوج . والعصل : الالتواء . ومنه قيل للأمعاء الأعصال ، والطائش : الزالّ عن الهدف والذاهب عنه . والمعنى أن الناس من بين مستقيم له ، ومعوج مستعص عليه ، وهو على ذلك يثقفهم ويقيم أودهم» .

وانظر غريب الحديث لابن الجوزي : 1/ 427 ، والنهاية : 2/ 289 . [. . . . .]

(2) جمهرة الأمثال للعسكري : 1/ 381 .

واللسان : 3/ 503 (قذذ) وفيه : «القذّة : ريش السهم ، وقذذت السهم أقذه قذا وأقذذته :

جعلت عليه القذذ . . . والأقذ أيضا : الذي لا ريش عليه . وما له أقذّ ولا مريش ، أي : ما له شيء . وعن اللحياني : ما له مال ولا قوم» .

(3) تفسير الفخر الرازي : 14/ 57 .

(4) ذكر الفراء هذا القول في معاني القرآن : 1/ 376 ، وابن قتيبة في تفسير غريب

القرآن :

167 ، والزجاج في معاني القرآن : 2/ 330 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 23 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 185 عن ابن عباس ، والضحاك ، وقال : «واختاره ابن قتيبة» .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 23 وقال : «معناه اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة فهذا أمر بالجماعة لها ندبا عند الأكثرين وحتما عند الأقلين» .

وأورد ابن الجوزي هذا القول في زاد المسير : 3/ 185 وعزاه إلى الماوردي .

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : 12/ 381 عن الربيع بن أنس ، ورجحه .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 22 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 185 عن الربيع أيضا .

(216/260)

بالإخلاص للّه .

كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ : كما خلقكم ولم تكونوا شيئا كذلك نعيدكم أحياء «1» أو كما بدأكم فمنكم شقيّ وسعيد كذلك تبعثون «2» ، أو كما بدأكم من التراب تعودون إليه «3»

كقوله «4» : مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ .

30 وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ : نصبه ليقابل فَرِيقاً هَدى ، وتقديره : وفريقا أضل «5» .

32 خالِصَةً نصب على الحال والعامل اللام ، أي : هي ثابتة للذين آمنوا في الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة «6» ، والحال يقتضي المصاحبة لكونها لهم يوم القيامة مصاحب لكونها لهم في الدنيا ، إذ هما داران لا واسطة بينهما . ورفع خالصة «7» خبر بعد خبر ، كقولك : زيد عاقل لبيب «8» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 385 عن الحسن ، وقتادة ، ومجاهد .

(2) ذكر الفراء هذا القول في معاني القرآن : 1/ 376 .

وأخرج - نحوه - الطبري في تفسيره : (12/ 382 - 384) عن ابن عباس ، وجابر ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والسدي ، ومحمد بن كعب .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : (3/ 185 ، 186) وقال : «روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والقرطبي ، والسدي ، ومقاتل ، والفراء» .

(3) ذكره البغوي في تفسيره : 2/ 156 عن قتادة ، وأبو حيان في البحر المحيط : 4/ 288 عن الحسن .

(4) سورة طه : آية : 55 .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 376 .

قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 213 : «نصبهما جميعا على إعمال الفعل فيهما ، أي : هدى فريقا ، ثم أشرك الآخر في نصب الأول وإن لم يدخل في معناه ، والعرب تدخل الآخر المشرك بنصب ما قبله على الجوار وإن لم يكن في معناه . . . » .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 2/ 122 ، وتفسير الطبري : 12/ 401 ، ومعاني القرآن للزجاج :

2/ 333 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 133 ، والدر المصون : 5/ 299 .

(6) ينظر معاني القرآن للفراء : 1/ 377 ، وتفسير الطبري : 12/ 401 ، ومعاني القرآن للزجاج :

2/ 333 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 123 ، والكشف لمكي : 1/ 461 .

(7) وهي قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد : 280 ، والتبصرة لمكي : 202 .

(8) عن معاني القرآن للزجاج : 2/ 333 وقال أيضا : «والمعنى قل هي ثابتة للذين آمنوا في - - الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» .

وانظر الكشف لمكي : 1/ 461 ، والبحر المحيط : 4/ 291 ، والدر المصون : 5/ 302 .

38

ادَّارَكُوا : تداركوا «1» ، أي : تلاحقوا بعضهم ببعض .

40 لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ : لأرواحهم «2» ، أو لدعائهم «3» ، أو لأعمالهم «4» ، أو لدخول الجنّة «5» لأن الجنّة في السّماء .

---

(1) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 167 : «أدغمت التاء في الدال ، وأدخلت الألف ليسلم السكون لما بعدها ، يريد : تتابعوا فيها واجتمعوا» .

وانظر تفسير الطبري : 12/ 416 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 336 ، وزاد المسير : 3/ 195 . [. . . . .]

(2) اختاره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 167 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (12/ 421 ، 422) عن ابن عباس والسدي ، ورجح الطبري هذا القول فقال : «و إنما اخترنا في تأويل ذلك ما اخترنا من القول ، لعموم خبر اللّه جل ثناؤه أن أبواب السماء لا تفتح لهم . ولم يخصص الخبر بأنه يفتح لهم في شيء ، فذلك على ما عمّه خبر اللّه تعالى ذكره بأنها لا تفتح لهم في شيء مع تأييد الخبر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما قلنا في

ذلك» . . .

وأخرج عن البراء بن عازب رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء ، قال : «فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا :

«ما هذا الروح الخبيث» ؟ فيقولون : فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ ا ه .

وأخرج الإمام أحمد نحو هذا الأثر في مسنده : (4/ 287 ، 288) ، وابن ماجة في سننه :

(2/ 1423 ، 1424) ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه .

وانظر المستدرك للحاكم : (1/ 37 – 40) ، كتاب الإيمان ، باب «مجيء ملك الموت عند قبض الروح . . .» .

والدر المنثور : 3/ . 452

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 27 عن الحسن .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 2/ 27 عن مجاهد ، وإبراهيم النخعي ، وذكره ابن

الجوزي في زاد المسير : 3/ 196 وقال : «رواه العوفي عن ابن عباس» .

(5) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 337 عن بعضهم - ولم يسمّهم - ونص القول : «لا تفتح لهم أبواب السماء ، أي أبواب الجنة ، لأن الجنة في السماء ، والدليل على ذلك قوله :

- وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

وذكر هذا القول أيضا النحاس في معاني القرآن : 3/ 34 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 27 وقال : «و هذا قول بعض المتأخرين» وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 197 إلى الزجاج.

(218/260)

سَمِّ الْخِياطِ : ثقب الإبرة «1» .

42 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها : لا نُكَلِّفُ اعتراض لا موضع له ، والخبر الجملة في أُولئِكَ «2» ، ويجوز رفعا ، وخبرها على حذف العائد ، أي : لا منهم ولا من غيرهم «3» .

43 أُورِثْتُمُوها : أعطيتموها بأعمالكم «4» .

45 يَبْغُونَها عِوَجاً : مفعول به ، أي : يبغون لها العوج ، أو مصدر ، أي : يطلبونها طلب العوج كقولك : رجع القهقرى .

46 وَعَلَى الْأَعْرافِ : سور بين الجنة والنار لارتفاعها «5» .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 1/ 379 .

قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 214 : «أي في ثقب الإبرة ، وكل ثقب من عين أو أنف أو أذن أو غير ذلك فهو سم والجميع سموم» .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 168 ، وتفسير الطبري : 12/ 427 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 338 .

(2) التبيان للعكبري : 1/ 568 ، وتفسير القرطبي : 7/ 207 .

قال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 298 : «وخبر الَّذِينَ الجملة من لا نُكَلِّفُ نَفْساً منهم . أو الجملة من أُولئِكَ وما بعده ، وتكون جملة لا نُكَلِّفُ اعتراضا بين المبتدأ والخبر ، وفائدته أنه لما ذكر قوله : وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ نبه على أن ذلك العمل وسعهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم محالها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة» .

وقال السمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 323 .

(3) التبيان للعكبري : 1/ 568 ، والدر المصون : 5/ 323 .

(4) قال القرطبي في تفسيره : 7/ 208 : «أي ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة اللّه وفضله . كما قال : ذِلكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وقال : فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ . . . » .

(5) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 215 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 168 . -

- وأخرجه الطبري في تفسيره : (12/ 449 - 452) عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي .

وانظر هذا القول في المحرر الوجيز : 5/ 512 ، وزاد المسير : 3/ 204 .

(219/260)

رِجالٌ قيل «1» : هم العلماء الأتقياء . وقيل «2» : ملائكة يرون في صورة/ الرجال ، وقيل «3» : قوم جعلوا على تعريف أهل الجنة وأهل النار . [34/أ] وقيل «4» : قوم توازنت حسناتهم سيئاتهم ، وقفهم اللّه بالأعراف لم

---

(1) أخرج نحوه الطبري في تفسيره : 12/ 458 عن مجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 29 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 205 عن الحسن

ومجاهد .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : (12/ 459 ، 460) عن أبي مجلز .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 29 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 5/ 514 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 206 ، والقرطبي في تفسيره : 7/ 212 عن أبي مجلز أيضا .

قال ابن الجوزي : «واعترض عليه ، فقيل : إنهم رجال ، فكيف تقول ملائكة ؟ .

فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث» .

وقال الطبري رحمه اللّه : «والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال اللّه جل ثناؤه فيهم : هم رجال يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم ، ولا خبر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يصح سنده ، ولا أنه متفق على تأويلها ولا إجماع من الأمة على أنهم ملائكة . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان ذلك لا يدرك قياسا ، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب أن «الرجال» اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق غيرهم ، كان بيّنا أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة قول لا معنى له ، وأن الصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره» .

(3) ذكره نحوه الزجاج في معاني القرآن : 2/ 343 فقال : «ويجوز أن يكون – واللّه أعلم – على الأعراف ، على معرفة أهل الجنة وأهل النار هؤلاء الرجال» .

وانظر هذا القول في تفسير الفخر الرازي : 14/ 92 .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : (12/ 452 - 457) عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وحذيفة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والشعبي .

وأخرج الحاكم في المستدرك : 2/ 320 ، كتاب التفسير ، عن حذيفة : «إنهم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة . . .» . وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي» . -

ومما يشهد لهذا القول ما أورده ابن عطية في المحرر الوجيز : 5/ 515 حيث قال : «وقع في مسند خيثمة بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة . ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار . قيل : يا رسول اللّه ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون» .

(220/260)

يدخلوا الجنة ولا النار ، وهم يطمعون ويخافون . وعلى الأقاويل الأول يكون طمع يقين «1» ، وحسن ذلك لعظم شأن المتوقع .

بِسِيماهُمْ بعلامتهم في نضرة الوجوه أو غبرتها ، وهي «فعلى» من سام إبله : أرسلها في المرعى معلمة ، أو من وسمت ، نقلت الواو إلى موضع العين فيكون «عفلى» «2» .

51 الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً : [اتخذوا أمر دينهم] كأمر دنياهم ، والدنيا لهو وباطل ، أو معناه : جعلوا عادتهم اللهو «3» .

فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ : نتركهم من رحمتنا «4» ، أو نعاملهم معاملة المنسيين في النار لا يخرجون منها .

53 هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ : ينتظرون ما يؤول إليه أمرهم من البعث والحساب .

فَيَشْفَعُوا لَنا : نصب على جواب التمني

---

(1) قال السمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 330 : «و الطمع هنا يحتمل أن يكون على بابه ، وأن يكون بمعنى اليقين ، قالوا : لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام : «و الذي أطمع أن يغفر» . [. . . . .]

(2) ينظر تفسير الطبري : 12/ 464 .

(3) تفسير الفخر الرازي : 14/ 99 .

(4) أخرج الطبري في تفسيره : 12/ 476 عن ابن عباس قال : «نتركهم من الرحمة ، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا» . وانظر هذا المعنى في معاني القرآن للزجاج : 2/ 341 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 99 ، وتفسير القرطبي : 7/ 216 .

بالفاء «1» ، أَوْ نُرَدُّ : رفع بالعطف على تقدير : هل يشفع لنا شافع أو نرد «2» .

54 ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ : بين أنه مستو ، أي : مستول عليه .

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ : يلبسه «3» .

55 إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ : الصائحين في الدعاء «4» .

56 إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ : على المعنى ، أي : إنعامه وثوابه «5» ، أو تقديره : مكان رحمة اللّه أو زمانها «6» .

---

(1) إعراب القرآن للنحاس : 2/ 130 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 1/ 293 ، وتفسير القرطبي : 7/ 218 ، والدر المصون : 5/ 337 .

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 2/ 342 .

وانظر تفسير الطبري : 12/ 482 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 130 ، وتفسير القرطبي :

7/ 218 .

(3) قال الطبري في تفسيره : 12/ 483 : «يورد الليل على النهار فيلبسه إياه ، حتى

يذهب نضرته ونوره» .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 342 : «والمعنى أن الليل يأتي على النهار فيغطيه ، ولم يقل يغشى النهار الليل ، لأن في الكلام دليلا عليه ، وقد جاء في موضع آخر : يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ويُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ .

(4) تفسير الطبري : (12/ 486 ، 487) ، وتفسير القرطبي : 7/ 226 .

(5) ذكر الطبري هذا المعنى في تفسيره : (12/ 487 ، 488) .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 344 : «إنما قيل : قَرِيبٌ لأن الرحمة والغفران في معنى واحد ، كذلك كل تأنيث غير حقيقي» .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 2/ 131 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 1/ 294 ، وتفسير الماوردي : 2/ 34 ، والدر المصون : 5/ 344 .

(6) أي على الظرفية ، وهو قول الفراء في معاني القرآن : (1/ 380 ، 381) ، وأبي عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 216 .

وانظر هذا القول عنهما في مشكل إعراب القرآن : 1/ 294 ، وتفسير الماوردي : 2/ 34 ، والبحر المحيط : 4/ 131 ، والدر المصون : (5/ 345 ، 346) .

وخطّأ الزجاج هذا القول في معاني القرآن : 2/ 345 بقوله : «وهذا غلط ، لأن كل ما قرب بين مكان أو نسب فهو جار على ما يصيبه من التأنيث والتذكير» .

57 يرسل الرّيح نشرا «1» جمع «نشور» «2» ك «رسول» و«رسل» لأنّها تنشر السّحاب، والتثقيل حجازية والتخفيف لتميم «3»، أو هو بالتخفيف مصدر كالكره، والضعف. ومن قرأ بفتح النون «4» فعلى المصدر والحال «5»، أي: ذوات نشر أو ناشرات، كقوله «6»: يَأْتِينَكَ سَعْياً.

أَقَلَّتْ سَحاباً: الإقلال حمل الشيء بأسره «7»، كأنه يقلّ في قوة الحامل.

لِبَلَدٍ مَيِّتٍ موته تعفّى مزارعه، ودروس مشاربه «8».

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ: أي: قدّام المطر، كما يقدم الشّيء بين يدي الإنسان «9».

فَأَخْرَجْنا بِهِ بالماء أو بالبلد «10».

---

(1) نشرا: بضم النون والشين قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن كثير.

السبعة لابن مجاهد: 283، والتبصرة لمكي: 203.

(2) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 169، وقال: «ونشر الشيء ما تفرق منه يقال اللّهم اضمم إلى نشري، أي ما تفرق من أمري».

وانظر تفسير الطبري: 12/ 491، ومعاني القرآن للزجاج: 2/ 345، والكشف

لمكي :

1/ 465 ، والبحر المحيط : 4/ 316 ، والدر المصون : 5/ 347 .

(3) ينظر الكتاب لسيبويه : 4/ 113 ، واللسان : 5/ 207 (نشر) .

(4) وهي قراءة حمزة والكسائي كما في السبعة لابن مجاهد : 283 ، والتبصرة لمكي : 203 .

(5) البحر المحيط : 4/ 316 ، وقال السمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 348 : «و وجهها أنها مصدر واقع موقع الحال بمعنى ناشرة ، أو منشورة ، أو ذات نشر . . .» .

[. . . . .]

(6) سورة البقرة : آية : 260 .

(7) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 169 ، وتفسير الطبري : 12/ 492 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 345 ، والمفردات للراغب : 410 .

(8) تفسير الطبري : 12/ 492 .

(9) قال الطبري في تفسيره : 12/ 492 : «و العرب كذلك تقول لكل شيء حدث قدام شيء وأمامه : جاء بين يديه ، لأن ذلك من كلامهم جرى في أخبارهم عن بني آدم ، وكثر استعماله فيهم ، حتى قالوا ذلك في غير ابن آدم وما لا بد له» .

(10) قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 345 : «جائز أن يكون : فأنزلنا بالسحاب

الماء فأخرجنا - به من كل الثمرات. الأحسن - والله أعلم - . فأخرجنا بالماء من كل الثمرات، وجائز أن يكون: فأخرجنا بالبلد من كل الثمرات، لأن البلد ليس يخصّ به هاهنا بلد سوى سائر البلدان».

وانظر زاد المسير: 3/ 219، وتفسير القرطبي: 7/ 230.

(223/260)

---

59 ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ رفع غَيْرُهُ على الصفة بموضع إِلهٍ أي:

ما إله غيره لكم. ويجوز على البدل من إِلهٍ واعتبار حذف المبدل كأنه:

ما غيره لكم. أو هو اسم «ما» أخر، أي: ما غيره لكم إله «1». وجرّه «2» على الصفة للإله «3»، واسم «ما» في قوله: ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ في الجملة من الصفة/ والموصوف، وخبره في لَكُمْ أي: ما من إله غير اللّه [34/ ب] لكم.

60، 65 إِنَّا لَنَراكَ: يجوز بمعنى العلم «4»، وبرؤية العين، وللرأي الذي هو غالب الظن «5».

72 وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ استأصلناهم عن آخرهم «6».

والدابر: الكائن خلف الشيء، وضده: القائد، وفي حديث عمر «7»:

«كنت أرجو أن يعيش رسول اللّه حتى يدبرنا» أي يخلفنا «8».

---

(1) راجع ما سبق في مشكل إعراب القرآن: (1/ 295، 296)، والتبيان للعكبري: 1/ 577، وتفسير القرطبي: 7/ 233، والبحر المحيط: 4/ 320، والدر المصون: 5/ 354.

(2) أي جر «غير»، وهي قراءة الكسائي كما في السبعة لابن مجاهد: 284، والتبصرة لمكي:
203.

(3) معاني القرآن للفراء: 1/ 382، ومعاني القرآن للزجاج: 2/ 348، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 134، والبحر المحيط: 4/ 320.

(4) قال الراغب في المفردات: 209: «ورأى إذا عدّي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم».

(5) المفردات للراغب: 209، وتفسير القرطبي: 7/ 236، والدر المصون: 5/ 355.

(6) تفسير الطبري: 12/ 524، وتفسير الفخر الرازي: 14/ 167.

(7) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: 8/ 126، كتاب الأحكام، باب «الاستخلاف».

(8) قال الخطابي في كتابه غريب الحديث : 2/ 63 : «قوله : يدبرنا معناه : يخلفنا بعد موتنا ويبقى خلافنا» .

(224/260)

---

73 وَإِلى ثَمُودَ يصرف «ثمود» على اسم الحي ، ولا يصرف على القبيلة «1» ، والأولى ترك صرفه في الجر لأنه أخف .

82 وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ : الوجه نصب جَوابَ لأن الاسم بعد «إلا» وقع موقع الإيجاب لأن ما قبلها كان نفيا «2» .

86 وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ : «قعد» يتعاقب عليه حروف الإضافة ، قعد به ، وفيه ، وعليه ، لانتظامه معنى الإلصاق ، والاستعلاء ، والحلول «3» .

88 أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا : على التغليب أن متّبعيه قد كانوا فيها «4» ، أو

---

(1) تفسير الطبري : 12/ 525 .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 348 : «و ثمود في كتاب اللّه مصروف وغير مصروف .

فأما المصروف فقوله : أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ [هود : 68] الثاني غير

مصروف ، فالذي صرفه جعله اسما للحي ، فيكون مذكرا سمي به مذكر ، ومن لم يصرفه جعله اسما للقبيلة» .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 2/ 136 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 168 ، وتفسير القرطبي : 7/ 238 ، والدر المصون : 5/ 361 . [. . . . .]

(2) ينظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 352 ، والدر المصون : 5/ 373 .

(3) معاني القرآن للأخفش : 1/ 527 .

وقال الطبري في تفسيره : 12/ 558 : «ولو قيل في غير القرآن : «لا تقعدوا في كل صراط» ، كان جائزا فصيحا في الكلام ، وإنما جاز ذلك لأن الطريق ليس بالمكان المعلوم ، فجاز ذلك كما جاز أن يقال : «قعد له بمكان كذا ، وعلى مكان كذا ، وفي مكان كذا» .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : (2/ 138 ، 139) ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 182 ، والدر المصون : 5/ 376 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 39 فقال : «فإن قيل : فالعود إلى الشيء الرجوع إليه بعد الخروج منه فهل كان شعيب على ملة قومه من الكفر حتى يقول : إنا عدنا في ملتكم ؟

ففي الجواب عنه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن هذه حكاية عمن اتبع شعيبا من قومه الذين كانوا قبل اتباعه على ملة الكفر .

والثاني : أنه قال ذلك على التوهم أنه لو كان عليها لم يعد عليها .

والثالث : أنه يطلق ذكر العود على المبتدئ بالفعل وإن لم يسبق منه فعل مثله من قولهم : قد عاد على فلان مكروه وإن لم يسبقه بمثله . . . » .

وانظر زاد المسير : 3/ 230 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 184 ، والبحر المحيط : 4/ 342 .

(225/260)

على التوهم أنه كان فيها .

89 إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ : ما يجوز التعبد به مما في ملتهم « 1 » .

92 لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا : لم يقيموا إقامة مستغن بها عن غيرها « 2 » .

94 لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ : بمعنى اللام « 3 » . أو عاملناهم معاملة الشّاك مظاهرة في الحجة .

95 عَفَوْا : كثروا « 4 » ، وأصله الترك ، أي : تركوا حتى كثروا .

97 أَفَأَمِنَ : إنما يدخل ألف الاستفهام على فاء العطف مع منافاة العطف الاستئناف لأن التنافي في المفرد ، إذ الثاني إذا عمل فيه الأول كان من الكلام الأول ، والاستئناف يخرجه عن أن يكون منه ، ويصح ذلك في عطف جملة على جملة لأنه على الاستئناف جملة بعد جملة « 5 » .

101 فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ : أي : عتوهم في الكفر يمنعهم عنه .

103 فَظَلَمُوا بِها : ظلموا أنفسهم بها ، أو جعلوا بدل الإيمان الكفر بها

---

(1) ينظر هذا القول في إعراب القرآن للنحاس : 2/ 139 ، وتفسير الماوردي : 2/ 39 ، والمحرر الوجيز : 6/ 5 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 186 .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 170 ، وتفسير الطبري : 12/ 569 .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 358 : «أي : كأن لم ينزلوا فيها . قال الأصمعي : المغاني : المنازل التي نزلوا بها ، يقال غنينا بمكان كذا وكذا ، أي نزلنا به ، ويكون كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا كأن لم ينزلوا كأن لم يعيشوا فيها مستغنين» .

وانظر معاني القرآن للنحاس : 3/ 55 ، وتفسير القرطبي : 7/ 252 ، والبحر المحيط : 4/ 346 .

(3) أي : ليتضرعوا ويتذللوا .

ينظر الكشاف : 2/ 97 .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 222 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 170 ، وتفسير الطبري : 12/ 573 .

(5) البحر المحيط : (4/ 348 ، 349) ، والدر المصون : 5/ 390 .

لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه «1» .

فَإِذا هِيَ «2» : «إذا» هذه للمفاجأة «3» وليست التي للجر ، وهي من ظروف المكان بمنزلة «ثمّ» و «هناك» .

111 أَرْجِهْ : أخّره «4» ، أو احبسه «5» .

---

(1) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 223 ، وتفسير الطبري : 13/ 12 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 362 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 198 .

(2) من قوله تعالى : فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ [الأعراف : 107] ، أو من قوله تعالى : وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ [الأعراف : 108] .

(3) وهو قول المبرد في المقتضب : (3/ 178 ، 274) .

وذكره النحاس في إعراب القرآن : 2/ 142 ، ومكي في مشكل إعراب القرآن : 1/ 297 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 6/ 27 ، والسّمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 406 عن المبرد أيضا .

ورجحه أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 357 فقال : «و الصحيح الذي عليه شيوخنا

أنها ظرف مكان كما قاله المبرد ، وهو المنسوب إلى سيبويه . . . » .

وقال السمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 406 : «المشهور عند الناس قول المبرد وهو مذهب سيبويه ، وأما كونها زمانا فهو مذهب الرياشي ، وعزي لسيبويه أيضا . . . » .

(4) معاني القرآن للفراء : 1/ 388 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 225 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 170 .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 13/ 22 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 44 عن ابن عباس ، والحسن .

ونقله البغوي في تفسيره : 2/ 186 عن عطاء .

قال النحاس في معاني القرآن : 3/ 62 : «و المعروف عند أهل اللغة ، أن يقال : أرجأت الأمر إذا أخرته» .

(5) ذكره الفراء في معاني القرآن : 1/ 388 . وأخرجه الطبري في تفسيره : 13/ 22 عن قتادة .

وعزاه الماوردي في تفسيره : 2/ 44 ، والفخر الرازي في تفسيره : 14/ 207 إلى قتادة والكلبي .

قال الفخر الرازي : «قال المحققون : هذا القول ضعيف لوجهين :

الأول : أن الإرجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس .

والثاني : أن فرعون ما كان قادرا على حبس موسى بعد ما شاهد حال العصا» .

(227/260)

---

116 وَاسْتَرْهَبُوهُمْ : استدعوا رهبتهم «1» .

122 رَبِّ مُوسى وَهارُونَ جاز نبيان في وقت واحد ، ولا يجوز إمامان لأن الإمام لما كان يقام بالاجتهاد كان إقامة/ الواحد أبعد من اختلاف [35/أ] الكلمة وأقرب إلى الألفة .

124 مِنْ خِلافٍ : كل واحد منهما من شق «2» .

130 بالسِّنِينَ : بالجدب «3» .

131 يَطَّيَّرُوا بمُوسى : يتشاءموا .

طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ : الطائر اسم للجمع غير مكسر «4» ، أي : ما يجري به الطير من السعادة والشقاوة والنفع والضر .

132 مَهْما تَأْتِنا : أي شيء ، وهو «مه» بمعنى كف ، دخلت على «ما» بمعنى الشرط «5» .

---

(1) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 2/ 366 .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 240 ، والفخر الرازي في تفسيره : 14/ 212 عن الزجاج. [. . . . .]

(2) قال الطبري رحمه اللّه في تفسيره : 13/ 34 : «يقول تعالى ذكره ، مخبرا عن قيل فرعون للسحرة إذ آمنوا باللّه وصدقوا رسوله موسى : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى ، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى ، فيخالف بين العضوين في القطع ، فمخالفته في ذلك بينهما هو القطع من خلاف» .

(3) معاني القرآن للفراء : 1/ 392 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 225 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 171 ، وتفسير الطبري : 13/ 45 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 368 ، والمفردات للراغب : 245 .

(4) نقل المؤلف – رحمه اللّه – هذا القول في وضح البرهان : 1/ 364 عن سيبويه . وقال :

«فيكون المعنى على الجمع ما يجري به الطير ، وهي جمع أيضا من السعادة والشقاوة ، والنفع والضر ، والجدب والخصب . فكلها من عند اللّه لا صنع فيه لخلق ولا عمل لطير» . وانظر تفسير الطبري : 13/ 48 ، وتفسير الماوردي : 2/ 49 ، وتفسير القرطبي : 7/ 265 .

(5) عن معاني القرآن للزجاج: 2/ 369 ولفظ الزجاج: «جائز أن تكون «مه» بمعنى الكف، كما تقول: مه، أي: اكفف، وتكون «ما» الثانية للشرط والجزاء، كأنهم قالوا - والله أعلم:

«اكفف ما تأتينا به من آية».

ينظر هذا القول أيضا في إعراب القرآن للنحاس: 2/ 146، ومشكل إعراب القرآن لمكي:

1/ 299، والتبيان للعكبري: 1/ 590، والدر المصون: 5/ 431.

(228/260)

---

139 مُتَبَّرٌ: مهلك، من التبار «1».

143 تَجَلَّى رَبُّهُ: ظهر وبان بأمره «2» الذي أحدثه في الجبل.

دَكًّا: مدكوكا، كقوله «3»: خَلْقُ اللَّهِ أي: مخلوقه.

أو ذا دك. أو دكّه دكا مصدر على غير لفظ الفعل «4»، كقوله «5»:

تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً ومعناه: جعل أحجارها ترابا وسوّاه على وجه الأرض.

ناقة دكّاء: لا سنام بها «6»، وقريء بها «7»، أي: جعل الجبل أرضا دكاء مثل هذه

الناقة.

صَعِقاً: مغشيا عليه.

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ: إنه لا يراك أحد في الدنيا «8» وسؤاله الرؤية في

---

(1) تفسير الطبري: 13/ 83، ومعاني القرآن للزجاج: 2/ 371، والمفردات للراغب: 72، وتفسير القرطبي: 7/ 273، واللسان: 4/ 88 (تبر).

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 172، وتفسير الماوردي: 2/ 54.

قال أبو حيان في البحر المحيط: 4/ 384: «والظاهر نسبة التجلي إليه تعالى على ما يليق به...».

(3) سورة لقمان: آية: 11.

(4) ينظر معاني القرآن للأخفش: 2/ 531، ومعاني القرآن للزجاج: 2/ 373، وتفسير الفخر الرازي: 14/ 244، والبحر المحيط: 4/ 384، والدر المصون: 5/ 405.

(5) سورة الأنعام: آية: 63.

(6) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: 1/ 228: «ويقال: ناقة دكّاء أي ذاهبة السّنام مستو ظهرها أملس، وكذلك أرض دكّاء».

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 172، وتفسير الطبري: 13/ 101، وتفسير

القرطبي : 7/ 279 .

(7) بالمد وفتح الهمزة بغير تنوين . وهي قراءة حمزة والكسائي .

السبعة لابن مجاهد : 293 ، والتبصرة لمكي : 207 .

(8) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 374 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 55 عن ابن - عباس ، والحسن .

وانظر تفسير البغوي : 2/ 198 ، وزاد المسير : 3/ 258 .

(229/260)

الدنيا على وجه استخراج الجواب لقول قومه : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .

148 لَهُ خُوارٌ : قيل «1» : إن الروح لم يدخلها ، وإنما جعل له خروق يدخلها الريح فيسمع كالخوار «2» ، وإن صار ذا روح يشبه المعجزة لإجراء اللّه العادة أن القبضة من أثر الملك إذا ألقيت على أية صورة حييت .

149 سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ : يقال للعاجز النادم سقط ، وأسقط في يده فهو مسقوط . ويقرأ «سقط» «3» ، ومعناه أيضا الندم .

150 أَسِفاً : حزينا «4» . وقيل «5» : شديد الغضب .

---

(1) قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 377 : «والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز ، إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط» .

ونقل ابن الجوزي في زاد المسير : (3/ 261 ، 262) عن ابن الأنباري قال : «ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه ، وأن شخصه شخص مثال وصورة ، غير منضم إليهما روح ولا نفس» .

(2) الخوار صوت البقر .

مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 228 ، والمفردات للراغب : 160 ، وزاد المسير : 3/ 262 ، واللسان : 4/ 261 (خور) . [. . . . .]

(3) بفتح السين والقاف مبنيا للفاعل ، وتنسب هذه القراءة إلى ابن السميفع ، وأبي عمران الجوني .

ينظر الكشاف : 2/ 118 ، وزاد المسير : 3/ 263 ، والبحر المحيط : 4/ 394 .

وفي توجيه هذه القراءة قال النحاس في معاني القرآن : 3/ 81 : «أي : ولما سقط الندم في أيديهم» .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 13/ 121 عن ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

وانظر تفسير الماوردي : 2/ 57 ، وتفسير البغوي : 2/ 201 .

(5) أخرجه الطبري في تفسره : (13/ 120 ، 121) عن أبي الدرداء . وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 173 وقال : «يقال : أسفني فأسفت ، أي : أغضبني فغضبت» .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 2/ 378 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 82 .

(230/260)

قالَ ابْنَ أُمَّ : بالفتح «1» على جعل الاسمين اسما واحدا «2» ، كقوله : جئته صباح مساء . وبالكسر «3» على حذف ياء الإضافة «4» .

154 وَلَمَّا سَكَتَ : أولى من «سكن» لتضمنه مع سكون الغضب سكوته عن أخيه ، ومن كلام العرب : جرى الوادي ثلاثا ثم سكت ، أي : انقطع «5» .

وسكون غضبه لأنهم تابوا «6» .

لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ : اللام بمعنى التعدية لأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل فكان كما لم يتعد «7» ، أو في معنى من أجله «8» .

---

(1) وهي قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وعاصم في رواية حفص .

السبعة لابن مجاهد : 295 ، والتبصرة لمكي : 207 .

(2) معاني القرآن للفراء : 1/ 393 ، وتفسير الطبري : 13/ 128 .

قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 378 : «فمن قال «ابن أمّ» بالفتح فإنه إنما فتحوا في «ابن أمّ» و«ابن عم» لكثرة استعمالهم هذا الاسم ، وأن النداء كلام محتمل للحذف فجعلوا «ابن» و«أمّ» شيئًا واحدا نحو خمسة عشر» .

وانظر الكشف لمكي : 1/ 478 ، وتفسير القرطبي : 7/ 290 ، والبحر المحيط : 4/ 396 .

(3) وهي قراءة ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية شعبة .

السبعة لابن مجاهد : 295 ، والتبصرة لمكي : 207 .

(4) قال مكي في الكشف : 1/ 479 : «وحجة من كسر أنه لما يدخل الكلام تغيير ، قبل حذف الياء ، استخف حذف الياء ، لدلالة الكسرة عليها ، ولكثرة الاستعمال ، فهو نداء مضاف بمنزلة قولك : يا غلام غلام . . . » .

وانظر توجيه هذه القراءة أيضا في تفسير القرطبي : 7/ 290 ، والبحر المحيط : 4/ 396 ، والدر المصون : 5/ 467 .

(5) في تفسير القرطبي : 7/ 293 : «أي أمسك عن الجري» .

وانظر البحر المحيط : 4/ 398 ، والدر المصون : (5/ 471 ، 472) .

(6) قال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 398 : «سكوت غضبه كان - والله أعلم - بسبب اعتذار أخيه وكونه لم يقصر في نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل . . .» .

(7) قال الزمخشري في الكشاف : 2/ 121 : «دخلت اللام لتقدم المفعول لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفا ، ونحوه لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ ، وتقول : لك ضربت» .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 15/ 17 ، وتفسير القرطبي : 7/ 293 ، والدر المصون : 5/ 472 .

(8) أي من أجل ربهم يرهبون . -

ينظر معاني القرآن للأخفش : 2/ 535 ، وتفسير الطبري : 13/ 139 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 154 ، والتبيان للعكبري : 1/ 596 ، والبحر المحيط : 4/ 398 .

(231/260)

---

157 وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ : ويقطع عنهم إصرهم ، وَالْأَغْلالَ المواثيق الغلاظ التي هي كالأغلال «1» .

158 إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً : جَمِيعاً حال من الكاف والميم في إِلَيْكُمْ ، والعامل

معنى الفعل في رَسُولُ «2» .

160 اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً/ بدل «3» ، ولو كان تمييزا لكان «سبطا» [35/ب]

كقوله : اثني عشر رجلا «4» ، أو هو صفة موصوف محذوف كأنه : اثنتي عشرة فرقة أسباطا ، ولذلك أنّثت .

163 شُرَّعاً : ظاهرة على الماء «5» ، ومنه الطريق الشارع «6» .

يَسْبِتُونَ : يدعون السّمك في السّبت ، ويَسْبِتُونَ «7» : يقيمون السبت .

---

(1) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 173 : «هي الفرائض المانعة لهم من أشياء رخّص فيها لأمة محمد صلى اللّه عليه وعلى آله» .

(2) الكشاف : 2/ 123 ، والبحر المحيط : 4/ 405 .

(3) يريد أن أَسْباطاً بدل من اثْنَتَيْ عَشْرَةَ .

ينظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 383 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 1/ 303 ، وتفسير الفخر الرازي : 15/ 36 . [. . . . .]

(4) في نسخة «ك» : كقولك : اثنا عشر فرقة أسباطا ، وفي وضح البرهان : 1/ 367 : «كما يقال : عشر رجلا» .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 13/ 183 ، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وانظر معاني القرآن للزجاج: 2/ 384، وتفسير الماوردي: 2/ 65، وتفسير البغوي: 2/ 208، وزاد المسير: 3/ 277، وتفسير القرطبي: 7/ 305.

(6) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 174، وتفسير الطبري: 13/ 183، وتفسير الفخر الرازي:

15/ 40.

(7) بضم الياء وكسر الباء، وتنسب هذه القراءة إلى الحسن كما في إتحاف فضلاء البشر:

2/ 66، والبحر المحيط: 4/ 411.

قال أبو حيان: «من أسبت: إذا دخل في السبت».

(232/260)

---

164 قالُوا مَعْذِرَةً: موعظتنا معذرة «1»، فحذف المبتدأ، أو: معذرة إلى اللّه نريدها، فحذف الخبر.

ومن نصبه «2» فعلى المصدر، أي: نعتذر معذرة «3».

165 بِعَذابٍ بَئِيسٍ: من بئس باسة إذا شجع وصار مقدامة، أي: عذاب مقدم عليهم

غير متأخر عنهم.

ومن قرأ بيس «4» - فعلى الوصف مثل «نقض» «5» - و«نضو» أو

---

(1) بالرفع وعلى هذه القراءة القراء السبعة إلا عاصما في رواية حفص كما في السبعة لابن مجاهد: 296، والتبصرة لمكي: 208.

واختار سيبويه في الكتاب: 1/ 220 لأنهم: «لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارا مستأنفا من أمر ليموا عليه، ولكنه قيل لهم: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً؟ قالوا: موعظتنا معذرة إلى ربكم.

ولو قال رجل لرجل: معذرة إلى اللّه وإليك من كذا وكذا، يريد اعتذارا، لنصب».

قال النحاس في إعراب القرآن: 2/ 158 بعد أن ذكر قول سيبويه: «وهذا من دقائق سيبويه رحمه اللّه ولطائفة التي لا يلحق فيها».

(2) هو عاصم في رواية حفص.

(3) معاني القرآن للزجاج: 2/ 386، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 158، والكشف لمكي:

1/ 481، والتبيان للعكبري: 1/ 600، والدر المصون: 5/ 495.

(4) قرأ نافع، وأبو جعفر بكسر الباء وياء ساكنة، وقرأ ابن عامر بهمزة ساكنة بئس.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 296، والتبصرة لمكي: 208، والنشر: 3/ 82.

ذكر السمين الحلبي في توجيه القراءتين أربعة أوجه:

»

أحدها : أن هذا في الأصل فعل ماض سمّي به فأعرب كقوله عليه السلام : «أنهاكم عن قيل وقال» بالإعراب والحكاية ، وكذا قولهم : «مذ شبّ إلى دبّ» و«مذ شبّ إلى دبّ» فلما نقل إلى الاسمية صار وصفا . ك «نضو» و«نقض» والثاني : أنه وصف وضع على فعل ك «حلف» .

والثالث : أن أصله «بيئس» كالقراءة المشهورة ، فخفف الهمزة ، فالتقت ياءان ثم كسر الباء اتباعا ك «رغيف» و«شهيد» ، فاستثقل توالي ياءين بعد كسرة ، فحذفت الياء المكسورة فصار اللفظ «بئس» ، وهو تخريج الكسائي .

الرابع : أن أصله «بئس» بزنة «كتف» ثم أتبعت الباء للهمزة في الكسر ، ثم سكنت الهمزة ثم أبدلت ياء . وأما قراءة ابن عامر فتحتمل أن تكون فعلا منقولا ، وأن تكون وصفا كحلف» ا ه .

(5) النّقض والنقضة : هما الجمل والناقة اللذان قد هزلتهما وأدبرتهما . . . والنّقض – بالكسر البعير الذي أنضاه السفر ، وكذلك النضو .

ينظر اللسان : 7/ 243 ، تاج العروس : 19/ 89 (نقض) .

كان بئيسا» فخففت الهمزة، ونقلت حركة العين إلى الفاء كما قيل: كبد وكبد «1».

167 تَأَذَّنَ رَبُّكَ: تألّى «2» وأقسم قسما سمعته الآذان.

وقيل «3»: أمر. أو أعلم، من «آذن» «4».

لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ: يعني العرب تأخذهم بالجزية والذلة «5».

168 وَقَطَّعْناهُمْ: شتتنا شملهم.

169 يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى: يرتشون على الحكم «6».

وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ: أي: لا يكفيهم شيء ولا يشبعهم مال.

أو يأخذون من الخصم الآخر كما من الأول «7».

---

(1) الكشاف: 2/ 127، والبحر المحيط: 4/ 413، والدر المصون: 5/ 496.

(2) بمعنى حلف وأقسم، وهو قول الزجاج في معاني القرآن: 2/ 387، وذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 66، وابن الجوزي في زاد المسير: 3/ 279 عن الزجاج أيضا.

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 13/ 204 عن مجاهد.

ونقله البغوي في تفسيره: 2/ 209 عن مجاهد أيضا.

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 174 ، وتفسير الطبري : 13/ 204 ، وذكره النحاس في معاني القرآن : 3/ 96 ، وقال : «وهذا قول حسن ، لأنه يقال : تعلم بمعنى أعلم» .

وانظر تفسير الماوردي : 2/ 66 ، وتفسير البغوي : 2/ 209 ، وزاد المسير : 3/ 279 .

(5) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 66 .

وأخرج - نحوه - الطبري في تفسيره : (13/ 205 - 207) عن ابن عباس ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والسدي . [. . . . .]

(6) عن معاني القرآن للزجاج : 2/ 388 .

وانظر تفسير الطبري : 13/ 211 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 99 ، وتفسير الماوردي :

2/ 67 ، والمحرر الوجيز : 6/ 128 .

(7) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 13/ 214 عن ابن زيد .

ونقله القرطبي في تفسيره : 7/ 312 عن ابن زيد أيضا .

وَدَرَسُوا ما فِيهِ : تركوه حتى صار دارسا ، أو تلوه ودرسوه ثم خالفوه مع تلاوته «1» .

171 نَتَقْنَا الْجَبَلَ : قلعناه ورفعناه من أصله «2» ، وسببه أنهم أبو قبول فرائض التوراة «3» .

وَظَنُّوا : قوي في نفوسهم وقوعه إن لم يقبلوا «4» .

172 وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ : قال ابن عباس «5» : أخرج اللّه من ظهر آدم ذريته ، وأراه إياهم كهيئة الذر ، وأعطاهم من العقل ، وقال : هؤلاء

---

(1) نص هذا الكلام في تفسير الماوردي : 2/ 67 دون عزو .

وانظر تفسير القرطبي : 7/ 312 .

(2) معاني القرآن للفراء : 1/ 399 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 232 ، وتفسير الطبري :

13/ 217 ، والمفردات للراغب : 482 ، وزاد المسير : 3/ 283 .

(3) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 174 : «وكان نتق الجبل أنه قطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظل عليهم ، وقال لهم موسى : إما أن تقبلوا التوراة وإما أن يسقط عليكم» .

ونقل الماوردي في تفسيره : 2/ 68 عن مجاهد قال : «وسبب رفع الجبل عليهم أنهم أبوا أن يقبلوا فرائض التوراة لما فيها من المشقة ، فوعظهم موسى فلم يقبلوا ، فرفع الجبل فوقهم ، وقيل لهم : إن أخذتموه بجد واجتهاد وإلا ألقى عليكم» .

قال الماوردي : «واختلف في سبب رفع الجبل عليهم هل كان انتقاما منهم أو إنعاما عليهم ؟ على قولين :

أحدهما : أنه كان انتقاما بالخوف الذي دخل عليهم .

والثاني : كان إنعاما لإقلاعهم به عن المعصية» .

(4) تفسير الماوردي : 2/ 68 .

(5) روي نحوه موقوفا على ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما ، وروي مرفوعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقد أخرجه مرفوعا الإمام أحمد في مسنده : 4/ 151 ، حديث رقم (2455) .

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه اللّه : «إسناده صحيح» .

وأخرجه مرفوعا أيضا الطبري في تفسيره : 13/ 222 ، والحاكم في المستدرك : 1/ 27 ، كتاب الإيمان ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وذكره الهيثمي - مرفوعا - في مجمع الزوائد : (7/ 28) ، كتاب التفسير ، باب «سورة الأعراف» ، وقال : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» .

(235/260)

ولدك آخذ عليهم الميثاق أن يعبدوني .

وإنما أنسانا اللّه ذلك ليصح الاختبار ولا نكون مضطرين ، وفائدته علم آدم وما يحصل له من السرور بكثرة ذريته .

وقيل «1» : إنهم بنو آدم الموجودون على الدهر ، فإن اللّه أشهدهم على أنفسهم بما أبدع فيها من دلائل التوحيد حتى صاروا/ بمنزلة من قيل لهم : [36/أ] ألست بربكم ؟ قالوا : بلى على وجه الدلالة والاعتبار .

175 آتَيْناهُ آياتِنا : أمية ابن [أبي] «2» الصلت . وقيل «3» : بلعم بن

---

(1) تفسير ابن كثير : 3/ 506 .

(2) ما بين المعقوفين عن نسخة «ك» و«ج» ، وعن هامش الأصل الذي أشار ناسخه إلى وروده في نسخة أخرى .

وأمية بن أبي شاعر جاهلي ، أدرك الإسلام لكنه لم يسلم ، توفي في السنة الخامسة للهجرة .

أخباره في : طبقات فحول الشعراء : (1/ 262 - 267) ، والشعر والشعراء : (1/ 459 - 462) ، والمعارف لابن قتيبة : 60 .

وقد روي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال في قوله تعالى : آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها أنه أمية بن أبي الصّلت .

أخرج ذلك عبد الرزاق في تفسيره : 193 ، والنسائي في التفسير : 1/ 508 حديث رقم (212) ، والطبري في تفسيره : (13/ 255 - 257) ، وابن أبي حاتم في تفسيره : 675 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 3/ 609 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والطبراني - كلهم - عن عبد اللّه بن عمرو .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 3/ 508 : «وقد روي من غير وجه عنه ، وهو صحيح إليه ، وكأنه إنما أراد أن أميّة بن أبي الصّلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه . . .» .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : (13/ 253 - 255) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة .

وينظر تاريخه : (1/ 437 - 439) ، والتعريف والإعلام للسهيلي : 61 .

وأخرج الطبري في تفسيره : 13/ 273 ، وابن أبي حاتم في تفسيره : 679 (سورة

الأعراف) ، عن قتادة قال : «هذا مثل ضربه اللّه لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه . . .» .

وقال الطبري – رحمه اللّه – بعد أن ذكر الأقوال في اسم هذا الرجل : «و الصواب من القول – في ذلك أن يقال : إن اللّه تعالى ذكره أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتلو على قومه خبر رجل كان أتاه حججه وأدلته ، وهي الآيات وجائز أن يكون الذي كان اللّه آتاه ذلك بلعم ، وجائز أن يكون أمية . . .» .

انظر تفسيره : (13/ 259 ، 260) .

(236/260)

باعوراء «1» كان عنده اسم اللّه الأعظم فدعا به على موسى .

فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ : أتبعته : لحقته ، وتبعته : سرت خلفه «2» ، أي : لحقه الشّيطان فأغواه»

.

176 أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ سكن إليها ورضى بما عليها ، وأصله اللزوم على الدوام ، والمخلّد من لا يكاد يشيب أو يتغير .

أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ : كل شيء [يلهث] «4» فإنما يلهث من تعب أو عطش ، والكلب يلهث في كل حال ، فالكافر يتبع هواه أبدا «5» .

---

(1) كذا ورد في رواية الطبري عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وذكره السهيلي في التعريف والإعلام : 61 ، والكرماني في غرائب التفسير : 1/ 427 .

وقيل : هو بلعم بن أبر ، وقيل : بلعم بن باعر ، وقيل : هو من بني إسرائيل ، وقيل : من الكنعانيين ، وقيل : من العمالقة .

ينظر الاختلاف في اسمه ونسبه في المحبّر لابن حبيب : 389 ، وتاريخ الطبري : 1/ 437 ، ومروج الذهب للمسعودي : 1/ 52 .

وفي التعريف والإعلام للسهيلي : «وأصله من بني إسرائيل ولكنه كان مع الجبارين وكان قد أوتي الاسم الأعظم ، فسألوه أن يدعو على موسى وجيشه فأبى ، فأرى في المنام ألّا يفعل فلم يزالوا به حتى فتنوه ، فقلب لسانه فأراد أن يدعو على موسى فدعا على قومه ، وخلع الإيمان من قلبه ونسي الاسم الأعظم . . .» .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 174 ، وتفسير الماوردي : 2/ 71 ، وزاد المسير : 3/ 289 .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 71 .

وقال الطبري في تفسيره : 13/ 261 : «وقوله : فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ يقول فصيّره لنفسه

تابعا ينتهي إلى أمره في معصية اللّه ، ويخالف أمر ربه في معصية الشيطان وطاعة الرحمن» .

(4) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» . [. . . . .]

(5) تفسير الطبري : 13/ 273 ، وزاد المسير : 3/ 290 .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 391 : «ضرب اللّه عز وجل بالتارك لآياته والعادل عنها أخس مثل في أخسّ أحواله ، فقال عز وجل : فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إذا كان الكلب - لهثان ، وذلك أن الكلب إذا كان يلهث فهو لا يقدر لنفسه على ضرّ ولا نفع ، لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال حملت عليه أو تركته ، فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثا . ثم قال : ذِلكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وقال : ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ . . . المعنى : ساء مثلا مثل القوم» .

(237/260)

---

179 ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ : لما كان عاقبتهم جهنم كأنه خلقهم لها «1» .

بَلْ هُمْ أَضَلُّ : لأنها «2» لا تدع ما فيه صلاحها حتى النملة والنحلة ، وهم كفروا مع وضوح الدلائل «3» .

180 يُلْحِدُونَ : لحد وألحد : مال عن الحق «4» .

وقال الفراء «5» : اللّحد : الميل ، والإلحاد بمعنى الإعراض . وإلحادهم في أسماء اللّه قولهم : اللات من اللّه ، والعزى من العزيز «6» .

181 وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ : عن النبي عليه السلام : أنها هذه الأمة «7» .

---

(1) وتسمى اللام في قوله تعالى : لِجَهَنَّمَ لام العاقبة .

(2) الضمير عائد إلى «الأنعام» .

(3) ينظر تفسير الطبري : 13/ 281 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 392 ، وتفسير البغوي :

2/ 217 ، وتفسير القرطبي : (7/ 324 ، 325) .

(4) تفسير الطبري : 13/ 283 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 108 ، والمفردات للراغب :

448 ، وتفسير القرطبي : 7/ 328 ، والدر المصون : 5/ 522 .

قال الطبري - رحمه اللّه - : «وأصل «الإلحاد» في كلام العرب العدول عن القصد ، والجور عنه ، والإعراض . ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم . . . وقد ذكر عن الكسائي أنه كان يفرق بين «الإلحاد» و«اللحد» ، فيقول في الإلحاد إنه العدول عن القصد ،

وفي اللحد إنه الركون إلى الشيء . . . » .

(5) لم أقف على قوله في معاني القرآن له .

(6) ينظر تفسير الطبري : 13/ 282 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 108 ، وتفسير الماوردي :

2/ 72 ، والدر المصون : 5/ 523 .

(7) أخرج الطبري في تفسيره : 13/ 286 ، عن ابن جريج قال : «ذكر لنا أن نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال :

هذه أمتي ! قال : بالحق يأخذون ويعطون ويقضون» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 3/ 617 وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وأبي الشيخ عن ابن جريج .

وأخرج الطبري في تفسيره : 13/ 386 عن قتادة قال : «بلغنا أن نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقول إذا قرأها : «هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها : وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» .

وأورد السيوطي هذا الأثر في الدر المنثور : 3/ 617 وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة .

وفيه دلالة على حجة الإجماع «1» .

182 سَنَسْتَدْرِجُهُمْ : نهلكهم ، من درج : هلك «2» ، أو من الدّرجة «3» ، أي : نتدرج بهم على مدارج النعم إلى الهلاك .

مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ : بوقت الهلاك لأن صحة التكليف في إخفائه .

183 وَأُمْلِي لَهُمْ : انظرهم ، والملاوة : الدهر «4» .

187 أَيَّانَ مُرْساها : متى مثبتها «5» .

لا يُجَلِّيها : لا يظهرها .

يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها : أي : يسئلونك عنها كأنك حفيّ بها «6» ، فأخر «عن» وحذف الجار والمجرور للدلالة عليها ، فإنه إذا كان حفيا بها

---

(1) ينظر تفسير الفخر الرازي : 15/ 77 .

(2) زاد المسير : 3/ 295 ، وتفسير الفخر الرازي : 15/ 77 ، والبحر المحيط : 4/ 430 .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 73 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 295 .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 234 ، وقال الطبري في تفسيره : 13/ 287 : «و

أصل الإملاء من قولهم : مضى عليه مليّ ، وملاوة وملاة ، وملاة - بالكسر والضم والفتح - من الدهر ، وهي الحين ، ومنه قيل : انتظرتك مليا » .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 175 .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 393 : «و معنى مُرْساها مثبتها ، يقال رسا الشيء يرسو إذا ثبت فهو راس ، وكذلك «جبال راسيات» أي ثابتات . وأرسيته : إذا أثبته» .

(6) هذا قول الفراء في معاني القرآن : 1/ 399 ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 299 إلى ابن الأنباري ، وذكره الفخر الرازي في تفسيره : 15/ 86 . [. . . . .]

(239/260)

سئل عنها كما أنه إذا سئل عنها فليس ذلك إلا لحفاوته بها .

188 لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ : أعددت في الرخص للغلاء ، وما مسني الفقر .

وقيل «1» : لاستكثرت من العمل الصالح ، وما أقول هذا عن آفة ، وما مسني جنون .

189 هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ : من آدم ، وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها : من كل نفس زوجها على طريق الجنس ليميل إليها ويألفها . / . [36/ ب] فَلَمَّا تَغَشَّاها : أصابها «2» ، حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً أي :

المنى «3» .

فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً : ولدا سويا صالح البنية «4» .

ومن قال : إن المراد آدم وحواء «5» كان معنى جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : 13/ 302 عن ابن جريج ، ومجاهد ، وابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 74 عن الحسن ، وابن جريج .

(2) تفسير الطبري : 13/ 304 .

قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 395 : «كناية عن الجماع أحسن كناية» .

وينظر معاني القرآن للنحاس : 3/ 113 ، وتفسير البغوي : 2/ 220 ، وزاد المسير : 3/ 301 .

(3) ينظر تفسير الطبري : 13/ 304 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 395 .

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 176 ، وتفسير الطبري : 13/ 306 .

ونقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 75 عن الحسن ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 301 عن الحسن وقتادة .

(5) في قوله تعالى : فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ واستدل قائلو هذا القول بالحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 5/ 11 عن سمرة بن جندب عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لما حملت حواء طاف بها

إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسموه عبد الحارث فعاش . وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» .

- وأخرج الترمذي نحوه في سننه : 5/ 267 ، كتاب التفسير ، باب «ومن سورة الأعراف» وقال : «هذا حديث حسن غريب» .

والطبري في تفسيره : 13/ 309 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 545 ، كتاب التاريخ ، ذكر آدم عليه السلام .

وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي .

وفي إسناد هذا الحديث عمر بن إبراهيم .

قال الترمذي : «لا نعرفه مرفوعا إلّا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة . ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . عمر بن إبراهيم شيخ بصري» .

وأورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث في تفسيره : 3/ 529 ، وقال : هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : «أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر ، عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا ، فاللّه أعلم .

الثاني : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، ليس مرفوعا .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه» .

وذكر ابن العربي في أحكام القرآن : (2/ 819 ، 820) الحديث الذي أخرجه الترمذي ثم قال : «و ذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره . وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات ، ولا يعوّل عليها من له قلب ، فإن آدم وحواء وإن كان غرهما باللّه الغرور – فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وما كان بعد ذلك ليقبلا له نصحا ولا يسمعا منه قولا» .

أما التأويل المقبول لهذه فكما ورد في تحفة الأحوذي : (8/ 465) عن الحسن رحمه اللّه قال : عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم .

فتفسير الآية محمول على جنس الإنسان ، ولم يشرك آدم ولا حواء وآدم معصوم لأنه نبي .

قال القفال : المراد جنس الذرية الذين ينسبون الأولاد إلى الكواكب وإلى الأصنام ، وقد ذكر آدم وحواء توطئة لما بعدهما من شرك بعض الناس وهم أولادهما .

(240/260)

الولدين لأنها كانت تلد توأما «1» .

194 إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ : الدعاء الأول : تسميتهم الأصنام آلهة ، والدعاء الثاني : في طلب النفع والضر من

---

(1) زاد المسير : (3/ 303 ، 304) .

[جهتهم] «1» وسماها عبادا لأنها مخلوقة مذللة «2» .

200 وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ : يزعجنك «3» ، مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ : وسوسة .

201 طائِفٌ : خاطر «4» ، أو لمم كالطيف الذي يلم في النوم «5» ، و«طيف» «6» لغة في «طائف» ، مثل «ضيف» و«ضائف» ، و«درهم زيف» و«زائف» .

والشيطان لا يقدر أن يفعل في القلب خاطرا وإنما يوجد فيه إيهام «7» ما دعا إليه .

203 لَوْلا اجْتَبَيْتَها : هلّا تقبّلتها من ربك «8» ، أو هلّا اقتضبتها «9» من عند نفسك .

---

(1) في الأصل : «جهنم» ، والمثبت في النص من «ك» ، و«ج» .

(2) تفسير القرطبي : 7/ 342 .

(3) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 77 .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : 15/ 102 : «وقيل : النزغ : الإزعاج ، وأكثر ما يكون عند الغضب ، وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر» .

(4) تفسير الفخر الرازي : 15/ 104 .

ونقل السّمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 547 عن أبي علي الفارسي قال : «الطيف كالخطرة ، والطائف كالخاطر» .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 402 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 236 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 120 ، وتفسير القرطبي : 7/ 350 عن النحاس .

(6) وهي أيضا قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، والكسائي كما في السّبعة لابن مجاهد : 301 ، والتبصرة لمكي : 209 .

وانظر الكشف لمكي : 1/ 487 ، والبحر المحيط : 4/ 449 ، والدر المصون : 5/ 546 .

(7) في «ك» و«ج» : «إفهام» .

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 13/ 342 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 78 عن ابن عباس أيضا . [. . . . .]

(9) أخرج الطبري في تفسيره : 13/ 341 عن مجاهد قوله : - «وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها» - قالوا : «لولا اقتضبتها ! قالوا : تخرجها من نفسك» .

وفي اللسان : 1/ 680 (قضب) : «واقتضاب الكلام : ارتجاله ، يقال : هذا شعر مقتضب ، وكتاب مقتضب . واقتضبت الحديث والشعر : تكلمت به من غير تهيئة أو إعداد له» .

(242/260)

اجتبيته ، واختلقته ، وارتجلته ، واقتضبته ، واخترعته بمعنى «1» .

204 وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا : عن عمر «2» أنه أتاه البشير بفتح «تستر» «3» . وهو يقرأ البقرة - فقال : يا أمير المؤمنين أبشر أبشر - يردد عليه وهو لا يلتفت إليه حتى فرغ ، ثم أقبل عليه بالدّرة «4» ضربا ويقول : كأنك لم تعلم ما قال اللّه في الإنصات عند قراءة القرآن .

206 إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ : أي : الملائكة «5» ، فهم رسل اللّه إلى الإنس ، أو هم في المكان المشرّف الذي ينزل الأمر «6» منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 1 صـ 319. 354 ﴾

(1) قال الطبري في تفسيره : 13/ 343 : «وحكي عن الفراء أنه كان يقول :

«اجتبيت الكلام واختلفته ، وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك» .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 397 ، والمفردات للراغب : 87 ، وتفسير القرطبي :

7/ 353 ، والبحر المحيط : 4/ 451 .

(2) لم أقف على هذا الخبر فيما تيسر لي من المصادر .

(3) تستر : بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى ، مدينة بعربستان تقع على بعد ستين

ميلا شمال الأهواز .

ينظر معجم ما استعجم : 1/ 312 ، ومعجم البلدان : 2/ 29 ، وبلدان الخلافة

الشرقية :

269 .

(4) الدّرة : بالكسر السّوط يضرب به .

قال الأزهري في تهذيب اللغة : 14/ 62 : «والدّرة : درة السلطان التي يضرب بها» .

وينظر اللسان : 4/ 282 ، وتاج العروس : 11/ 281 (درر) .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 176 ، وتفسير الطبري : 13/ 357 ، ومعاني

القرآن للزجاج : 2/ 398 ، وتفسير البغوي : 2/ 227 ، وزاد المسير : 3/ 314 .

وحكى القرطبي في تفسيره : 7/ 356 الإجماع على هذا القول .

(6) ينظر تفسير القرطبي : 7/ 356 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/261)

الجزء الحادى والستون بعد المائتين

تابع معانى السورة الكريمة

(4/261)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الأعراف

عدد 39 - 7

نزلت بمكة بعد ص ، عدا الآيات من 162 إلى 170 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي مائتان وست آيات ، وثلاث آلاف وخمس وعشرون كلمة ، واربعة عشر الفا وعشرة أحرف ، يوجد في القرآن ثلاث عشرة سورة مبدوءة بالحروف المهملة ، هذه والبقرة وآل عمران ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة . أما ما بدأ بالحروف المعجمة فقد ذكرنا في سورة نون أنها هي وق ، وقد اختلفوا في معانيها

على أقوال كثيرة ولا يعلمها على الحقيقة إلا اللّه لأنها من المتشابه الذي لم يطلع على المراد منه أحد إذ استأثر به نفسه وهي من أسرار القرآن التي يجب الإيمان بها على ظاهرها ويوكل علم ما فيها إلى منزلها .

قال علي كرم اللّه وجهه لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، ومن معجزات القرآن أنها جمعت في آية واحدة من آل عمران في ج 3 عدد 154 وهي (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً) إلخ وإن عشر سور أخرى من هذا القبيل مريم والطور والخواتيم ، قال أبو بكر : في كل كتاب سر ،

وسر اللّه في القرآن أوائل السور ، ولا يقال كيف يخاطب اللّه بما لا يفهم إذ له أن يكلفهم بما لا يعقل جزما كرمي الحجارة في الحج وعدد ركعات الصلاة وغيرها ، لأن الحكمة المرادة منها لا تعرف يقينا ، أما قولهم هي مواقع الشيطان الذي كلم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام فيها يوم أراد ذبحه فهو أمر ظاهري ليس الا ، وهذا من كمال الانقياد لقدرته وقدمنا بعض ما فيها أوائل سورتي ق ون المارتين وفي المقدمة في بحث الفرق بين الوحي الإلهام ، وسنلمع في كل منها ما نقف عليه من معانيها في محله كما فعلنا في سورة ص المارة .

(5/261)

واعلم أن جميع ما جاء من حروف الهجاء في أوائل السور أحد عشر حرفا مهملا وهي : ا ل م ص ط س ح ر ك ه ع وثلاثة معجمة وهي : الياء والقاف والنون ، وهي هنا اسم للسورة وفواتح أسماء اللّه الحسنى أنا اللّه المعبود الصبور المصور اللطيف المجيد الذي يفصل بين الخلق ويعلم ما هم عليه وما هم صائرون إليه وسر من أسراره الدائرة بينه وبين حبيبه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "المص 1" قال أهل المعرفة ما من سورة ابتدئت بالم إلا وتشتمل على ثلاثة أمور : 1 – الخلق وكيفيته وهو البداية ، 2 – والمعاد وما فيه وهو النهاية ، 3 – والوسط وما يتعلق به وهو المعاش وفيه اشارة إلى مخارج الحروف الثلاثة ، الحلق واللسان والشفتين ، وزيد في هذه السورة حرف الصاد إعلاما بما فيها من قصص الأنبياء وغيرهم هذا "كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ" يا سيد الرسل "فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ" ضيق وضجر "مِنْهُ" بسبب إبلاغه وتأدية ما أرسلت به منه إلى قومك ولا تنقبض من شكهم فيه وبإنزاله عليك وتكذيبهم لك وجحدهم نبوتك "لِتُنْذِرَ" متعلق بأنزل "به" أي الكتاب قومك وغيرهم من أهل الأرض "وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ 2" به المصدقين بك وبربك ، وإنذار للمكذبين المنكرين فقل يا أيها الناس "اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ" في هذا الكتاب الذي أتلوه عليكم "وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ" كرؤوس الكفرة والشياطين الذين يدعونكم إلى الشرك باللّه ويريدونكم على عبادة الأوثان والأهواء الفاسدة المبتدعة "قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ 3" بعظة اللّه

(6/261)

و رسوله وكتابه ، وما هنا لتأكيد القلة ، أي أن اتعاظكم به قليل جدا ولهذا لم تنتفعوا به ، ثم حذرهم من عدم التذكر ومن الإصرار على الشرك وإنكار التوحيد بقوله عز قوله "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها" لعدم اتعاظها "فَجاءَها بَأْسُنا" عذابنا الذي لا يرد بحكمنا الذي لا يعقب قبل أن يصبحوا بدلالة قوله "بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ 4" ضحوة النهار لأنه أيضا وقت غفلة لا يتوقع فيه شيء بخلاف الصباح ، فإن الغارات تقع فيه غالبا ، وقد أهلك اللّه قوم لوط سحرا وقال :

(7/261)

(فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ) الآية 177 من الصافات في ج 2 ، وأهلك قوم شعيب ضحى ، ونزول العذاب وقت الغفلة أشد وقعا في النفس من غيره وأفظع هولا ، وفي هذه الآية تخويف لقريش وتنبية بعدم اغترارهم بما هم فيه من الحذر ، لأن اللّه إذا أراد إنزال عذابه بهم أنزله عليهم دفعة واحدة حال غفلتهم ، كما فعل بغيرهم وهؤلاء المعذبون حينما يقع بهم

العذاب "فَما كانَ دَعْواهُمْ" احتجاجهم وتضرعهم ودعاؤهم "إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا" واتصل بهم عذابنا "إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ 5" أنفسنا لعدم امتثالنا أمر رسلنا ، وإصرارنا على مخالفتهم ، وانكبابنا على الشرك ، وبعد اعتراف هؤلاء باستحقاقهم العذاب "فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ" يوم القيامة بالموقف العظيم على ملأ الأشهاد وليبينوا ما أجابوا به رسلنا حين دعوهم للإيمان بنا وحدنا "وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ 6" أيضا في ذلك المشهد هل بلغوا رسالتنا كما أمرناهم أم لا ، وهذا السؤال من اللّه عز وجل بمثابة الجواب للقائلين (ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ) الآية 18 من المائدة في ج 3 وفي معناها كثير في القرآن ، مع أن اللّه تعالى لم يترك أمة بلا رسول ، راجع الآية 24 من فاطر الآتية ، وهو أعلم بما يقولون لأجل الاستشهاد على إنكارهم وتوبيخهم وتقريعهم على رءوس الأشهاد ، قال تعالى "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ" ما وقع منهم كله "بِعِلْمٍ" ويقين ليتحققوا أنا كنا حاضرين عملهم "وَما كُنَّا غائِبِينَ 7" عنهم حينما بلغهم الرسل أو أمرنا راجع تفسير الآية 30 من آل عمران في ج 3 ، وفائدة هذا القصص إخزاء المنكرين عند ما يظهر كذبهم بالموقف بشهادة رسلهم عليهم ، لا لأجل الاستثبات

من إيقاع أفعالهم لأن اللّه عالم بها قبل وقوعها منهم وعالم بما في الكون كليّه وجزئيه وعلمه تعالى بظاهر الأمور كعلمه ببواطنها ، راجع الآية 3 من سورة سبأ في ج 2 ، قال تعالى "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ" يوم السؤال هو "الْحَقُّ" العدل الكائن لا محالة .

مطلب وزن الأحمال وحادث البطاقة :

واختلف في وصف الميزان وكيفية الوزن ، والإيمان بهما على ظاهرهما واجب ، وأصح ما قيل فيهما أن الميزان له لسان وكفتان عظيم الحجم ، والوزن هو صحائف الأعمال ، بدليل ما رواه عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال :

ان اللّه عز وجل سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول له أتنكر شيئا من هذا ؟

أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول لا يا رب ، فيقول ألك عذر ؟ فيقول لا يا رب ، فيقول تبارك وتعالى : بل إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج اللّه له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا رسول اللّه ، فيقول احضر وزنك ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال له انه لا ظلم عليك اليوم ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسمه شيء .

أخرجه الترمذي واحمد بن حنبل .

إن هذا يثبت ما قلناه في الميزان والحكمة من إظهار العدل للناس وتعريفهم ما لهم وعليهم ، وعلامة السعادة والشقاوة ، وبيان أنّ اللّه لا يظلم عباده ، وانه امتحنهم بالإيمان في الدنيا وأقام عليهم الحجة في العقبى وليتيقنوا استحقاقهم العذاب وان اللّه لم يحف عليهم راجع الآية 26 من ص المارة ، قال تعالى "فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ" بحسناته وطاشت سيئاته "فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ 8" الفائزون بثواب اللّه الناجحون في ذلك اليوم "وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ" بسيئاته وطاشت حسناته "فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" فيه وعوقبوا بحرمانهم من ثواب اللّه وكرامته "بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ 9" أنفسهم في الدنيا بجحدهم آياتنا وتكذيبهم رسلنا ،

قال تعالى "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ" أيها الناس "فِي الْأَرْضِ" وأقدرناكم على التصرف فيها وملكناكم إياها "وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ" من كل ما تحتاجون في حياتكم من مشرب ومطعم وملبس ومسكن وغيره ، ومع هذا أراكم "قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ 10" صنيعي فيكم وانعامي عليكم حق شكره ، وذلك أن الآية تفيد أنهم يشكرون نوعا أي قليلا جدا بالنسبة لعظم أفضال اللّه عليهم وان حق الشكر تصور النعمة دائما وإظهارها والثناء على المنعم ، وضده الكفر وهو نسيان النعم وكتمها وكان غاية شكرهم ذكرهم النعمة عند حضورها فقط وهذا لا يخلو منه إنسان

"وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ" أيها الناس من نطفة وخلقنا أباكم من تراب "ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ" في الأرحام على صورة أبيكم الذي صورناه على الأرض "ثُمَّ" أعلمناكم على لسان رسولنا بأنا "قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ" عند تمام خلقه "اسْجُدُوا لِآدَمَ" "هذا الذي خلقته بيدي" "فَسَجَدُوا" له كلهم إذعانا لأمرنا "إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ 11" له استكبارا عليه وأنفة منه ومخالفة لنا "قَالَ" تعالى يا إبليس "مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ" مع الملائكة ومن قال لك لا تسجد ! ولا هنا ليست بزائدة لعدم جواز وجود زائد في القرآن ولا يقال إنها لا معنى لها لأن كل حرف في كتاب اللّه له معنى وهنا جيء بها للتأكيد أي أي شيء منعك أن تسجد ، يؤيد هذا الآية في سورة ص ، وهي ما منعك أن تسجد بدون لا ، وقد سبق أن ذكرنا ما يتعلق بمثلها أول سورة القيمة وسورة البلد المارتين فراجعهما وسنأتي على تفنيد الاستناد إلى الآيات المحتج بها على قولهم بأن لا فيها زائدة عند تفسيرها بحالها إن شاء اللّه "إِذْ أَمَرْتُكَ" بالسجود الأمر هنا للوجوب والسؤال للتوبيخ ولإظهار عناده وكفره وافتخاره بأصله وبيان حسده لآدم وتحقير أصله المبين بقوله "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ 12" حجة قاصرة تقدم تفنيدها في الآية 76 من ص المارة إذ من المعلوم ان جوهر الطين الرزانة

والهناءة والصبر والحلم والحياء والتثبت والمودة ، وهذا ما دعا آدم وذريته إلى التوبة والندم والاستغفار ، وجوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب والعجلة .

مطلب مقاييس إبليس :

(11/261)

وهذا ما حمل إبليس على العناد والاستكبار والافتخار ، والطين عدة المسالك ومظنة الأمانة والإنماء ، والنار عدة المهالك وخطة الخيانة والإفناء ، والطين يطفىء النار ويتلفها وهي تصلحه وتقويه ، فقد غفل اللعين عن هذه الفضائل وزل بفاسد المقاييس فأخطأ وهو أول من قاس فأخطأ ، قال ابن سيرين ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس ، على ان الأفضلية ليست بفضيلة الأصول والجوهر بل لمن يجعله اللّه فضلا ، لأن المؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي ، وان آدم اختصه اللّه فجعله صفيه وخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه اسماء الأشياء كلها وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية ،

والاستثناء في هذه الآية منقطع لأن إبليس ليس من جنس الملائكة وانما استثناه منهم لأمره بالسجود معهم ولما لم يسجد أخبر اللّه عنه انه لم يكن من الساجدين لا انه من الملائكة وقد ثبت انه من الجان .

قال تعالى : (كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) الآية 50 من الكهف في ج 2 وانه خلق من النار والملائكة من النور .

قال تعالى "فَاهْبِطْ" أيها اللعين المتخلف عن أمرنا "مِنْها" أي الجنة "فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها" وتتجبر لأنها لم تخلق للمتكبرين ولا ينبغي أن يسكنها متجبر "فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ 13" الأذلاء المهانين المحقّرين لعدم امتثالك أمري .

وان التعظيم في الأصل للّه لا لآدم .

قال ظافر الاسكندري :

أنت المراد بنظم كل قصيدة بنيت على الأفهام في تبجيله

كسجود أملاك السماء لآدم وسجودهم للّه في تأويله

(12/261)

فأخرج وطرد حالا ولما علم أن سقط في يده "قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 14 قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ 15" تقدم تفسيرها في الآية 74 فما بعدها من سورة ص المارة والذي جرأ الملعون على هذا السؤال علمه بحلم ذي الجلال وانما أجاب جل جلاله سؤاله بالامهال ليعلم خلقه برّه وإحسانه إلى من يسيء إليه فكيف اذن عطفه ولطفه بالمؤمنين المحسنين ، ولما لم

يرق له هذا الإمهال للسبب المتقدم هناك أيضا

"قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ 16" أي لأعترضن لهم على طريق الإسلام القويم كما يعترض قطاع الطريق وكما يكمن العدوّ لعدوه وأردنّهم عن طاعتك وأزيننّ لهم عصيانك "ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ" فأوقع الشك في قلوبهم بأمر الآخرة "وَمِنْ خَلْفِهِمْ" فأرغبنّهم في الدنيا وإنما كانت خلفهم لأنهم تاركوها لا محالة وبما أنهم قادمون للآخرة حتما فتكون بين أيديهم أي أمامهم "وَعَنْ أَيْمانِهِمْ" أشبه عليهم أمر دينهم لإبطال حسناتهم التي يكتبها ملك اليمين "وَعَنْ شَمائِلِهِمْ" أشهى لهم المعاصي لتزداد خطاياهم التي يدونها عليهم ملك الشمال ، ذكر الخبيث الجهات الأربع لتأكيد إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم من كل الجهات والوجوه الممكنة ، ومن تتمة كلام هذا الغضيب ما حكاه اللّه عنه "وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ 17" قال هذا القول على سبيل الظن ولكنه أصاب ، قال تعالى : (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) الآية 20 من سبأ في ج 2 فلا حول ولا قوة إلا باللّه .

مطلب مناظرة إبليس وقول سيف الدولة :

أخرج النسائي عن سيرة ابن ابي الفاكهة قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول :

إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، قعد له في طريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك ؟ فعصاه وأسلم ، وقعد له بطريق الهجرة فقال :

تهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول (أي محجر عليه) فعصاه وهاجر ، وقعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد .

قال : فمن فعل ذلك كان حقا على اللّه أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان عليه أن يدخله الجنة ، أو وقصته (رفسته) دابته كان حقا على اللّه أن يدخله الجنة .

قال شقيق البلخي ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع ، أما من بين يدي فيقول لا تخف فإن اللّه غفور رحيم ، فأقرأ قوله تعالى : (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى) الآية 18 من سورة طه الآتية ، وأما من خلفي فيخوفني وقوع أولادي في الفقر فأقرأ : (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) الآية 6 من هود في ج 2 وأما من قبل يميني فيأتيني من الثناء فأقرأ : (وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى) الآية 132 من طه الآتية ، وأما من قبل الشمال فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ) الآية 54 من سبأ في ج 2 .

وذكر الشهرستاني عن شارح الأناجيل الأربعة مناظرة إبليس والملائكة وهي مذكورة في

التوراة أيضا (قال للملائكة إني أسلّم أن لي إلها خالقا وموجدا لي وللخلق أجمع ، ولكن 1 - ما الحكمة في الخلق لا سيما وقد كان عالما أن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا النار .

2 - ما الفائدة في التكليف مع أنه لا نفع له به ولا ضرر وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف .

3 - هب أنه كلّفني بمعرفته وطاعته فلما ذا كلّفني بالسجود لآدم مع علمه أني أمتنع .

4 - لما عصيته فلم لعنني وأوجب عقابي مع عدم الفائدة له ولغيره ولي فيه الضرر العظيم .

5 - إنه لما فعل ذلك لم سلطني ومكنني من إغواء الخلق .

(14/261)

---

6 - لما استمهلته لم أمهلني ويعلم أن العالم إذا كان خاليا من الشر فهو أحسن ؟

قال شارح الأناجيل فأوحى اللّه من سرادق عظمته وكبريائه يا إبليس أنت ما عرفتني ولو عرفتني لعلمت أن لا اعتراض عليّ في شيء ، فإني أنا اللّه لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل .

هذا ، وان هذه الشبهات ليصعب على القائلين بالحسن والقبيح العقليين الجواب عنها .

قال الإمام : لو اجتمع الأولون والآخرون وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصا ، ولهذا تجد أكثر أهل الزيف يسألون أسئلة من هذا القبيل اقتداء

بسيدهم إبليس ، ولو عرفوا أنه تعالى علاه لا يسأل لما سألوا .

ويحكى أن سيف الدولة قال لجماعته علمت بيتا ما أحسب أن أحدا يعمل له ثانيا ، فقال أبو فراس ما هو ؟ قال :

لك جسمي تعلّه فدمي لم تطلّه

فابتدره أبو فراس قائلا :

أنا إن كنت مالكا فلي الأمر كله

رحم اللّه الاثنين .

وعليه فمن عرف أن الأمر كله للّه وعرف أن اللّه لا يسأل عما يفعل ولا يرد ما حكم عرف أن الخير برضاه والشر بقضاه واعتقد هو أن ما وقع مراد اللّه .

(15/261)

واعلم أن قصة إبليس المذكورة بوضوح آخر سورة ص المارة كررت في القرآن كثيرا وذلك لأن اعجاز القرآن بالتحدي والبلاغة ، فتجيء مرة موجزة وأخرى مطنبة وكل منها يؤدي المعنى المطلوب منها والغرض المقصود في الفصاحة ليعلم أن القرآن ليس كلام البشر وأنه خارج عن قدرتهم الإتيان بمثله ، لأن الألفاظ لا يقدر أن يستعملها أحد مختصرة ومطنبة مع

المحافظة على بلاغتها وأدائها تمام الغرض المقصود إلا الذي خلقها وأن حضرة الرسول كان يضيق صدره من جفاء قومه المرة بعد المرة فيكرر اللّه تعالى عليه ما لاقى الرسل إخوانه من أقوامهم وما لاقاه آدم من إبليس ليخفف عنه بعض ما به ، وان المسلمين أيضا كان يحصل لهم الأذى من الكفرة ، فينزل اللّه تعالى ما لاقى إخوانهم أنصار الأنبياء السابقين ، فيهون عليهم بعض ما هم فيه ، ولأن القصة الواحدة تشتمل على أمور كثيرة فقد كر تارة ويقصد بها بعض الأمور قصدا ، وبعضها تبعا وتعكس مرة أخرى ، فتكرر عند كل مناسبة وكل منها تفي بالمقصود الموجزة والمطنبة .

وهذا من الإعجاز الذي يكل عنه طوق البشر وقد بينا في سورة الكافرين المارة ما يتعلق بهذا فراجعه وله صلة في كل قصة تكرر في السورة الآتية .

(16/261)

ونذكر أيضا ما يلائم المقام من الأحاديث والحكايات كما هنا "قالَ" تعالى علمه لإبليس "اخْرُجْ مِنْها" لأنك لم تقدرها حق قدرها ، ولم تقدر الإله العظيم الذي أسكنك فيها لأنك خلقت مذموما "مَذْؤُماً" الذأم أشد العيب وأقبحه وهذه الكلمة لم تكرر في القرآن "مَدْحُوراً" مطرودا مبعدا من رحمة اللّه ثم أقسم جل قسمه فقال : وعزتي وجلالي "لَمَنْ

تَبِعَكَ مِنْهُمْ" أي من ذرية آدم وجواب القسم "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ" أنت وذريتك ومن تبعكم من بني آدم ، وفي هذه الآية تغليب ضمير المخاطب على الغائب "أَجْمَعِينَ 18" تأكيد لضمير منكم ثم التفت جل شأنه فقال : "وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ" واتخذها مسكنا ومثوى لكما .

والفعل على إضمار قلنا وجئ بضمير أنت لصحة العطف إذ لا يجوز العطف على المستتر "فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا" مما فيها .

جاء هنا فعل كلا مقرونا بالفاء لإفادتها الجمع على سبيل التعقيب .

ولم يأت بالواو لإفادتها مطلق الجمع ، والمفهوم في الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ، ولا منافات بين النوع والجنس المفهوم من الواو ، فذكر في هذه السورة النوع وسيذكر في البقرة في ج 3 في الآية 35 الجنس تأمل "وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ" ولا تدنوا منها أي لا تأكلوا .

(17/261)

فقد نهاهما عن جنس الشجرة ، ولم يعينها لهما ، فليس لنا أن نعينها ، إذ لا طائل تحتها ، لأن القصد امتثال الأمر بكف المأمور عما نهي عنه ، لذلك حصل الاختلاف في نوعها ، فمن قائل أنها الحنطة ، ومن قائل أنها التين أو التفاح ، والله أعلم بمراده فيها "فَتَكُونَا" إذا

أكلتما منها "مِنَ الظَّالِمِينَ 19" أنفسهم وتكونا قد فعلتما فعلا مخالفا لأمري مما هو خلاف الأولى والأفضل ولا شك أن هذا كان قبل النبوة وسيأتي أيضا ج هذه القضية في الآية 115 من طه الآتية "فَوَسْوَسَ لَهُمَا" له ولزوجته حواء "الشَّيْطانُ" بحديث مكرر مهموس ومطلي مزخرف ألقاه في قلبهما بقوة من اللّه تعالى يقذفها في قلب الموسوس له مثل الهواجس والخواطر التي تفضي إلى ما يقضي عنه في بني آدم ، يؤيد هذا ما جاء في قوله صلّى اللّه عليه وسلم (إن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم) وهو محمول عن مزيد سلطانه عليهم وانقيادهم له ، وهذا أحسن ما قيل في معنى إيصال الوسوسة من إبليس لآدم ، مع إنه هبط إلى الأرض وآدم في الجنة ، وما قيل إنه دخل جوف الجنة فأدخلته وقال لهما ما قال مما ذكره القصاص والأخباريون ، فلا قيمة له .

كما أن ما قيل إنه قام على بابها فكلمهما أو تمثل لهما بصورة دابة أو أرسل أتباعه إليهما وأتاهما بصورة طاووس من الجنة فكلمها أقاويل مجردة عن الدليل ، وكذلك ما قيل إنه منع من دخول الجنة على جهة التقريب والتكريم لا على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وزوجته لا عبرة به أيضا وإنما تحرش بهما "لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما" ليكشف ما غطى وستر "مِنْ سَوْآتِهِما" سمي الفرج سوأة لاستياء الإنسان بظهوره .

مطلب الحكم الشرعي في كشف العورة وزلة آدم :

الحكم الشرعي في كشف العورة حرام وهي جميع بدن الحرة عدا وجهها وكفيها وباطن قدميها ، ومن الرجل والأمة ، ما فوق الركبة وتحت السرة والظهر والبطن من الأمة وبدوّها من كل يبطل الصلاة ، هذا ، وانهما لم يصغيا اولا لوسوسته إلا أنه لما حلف لهما أن هذه الشجرة ليست التي نهيتما عنها "وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ" من الملائكة المقربين خاليين من كل عناء "أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ 20" الذين لا يموتون ، أي أن علة النهي وسببه عدم جعلكما من الملائكة وعدم خلودكما في الجنة لأن في الأكل طلب الخلد قال في سورة طه (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) الآية 112 الآتية ، فلهذا ولعلم آدم أن للملائكة منزلة عظمى عند اللّه وقربا من عرشه وأن الخلد مما يطمع به أيضا فقد حمله الطمع الذي هو من طبيعة البشر على الاستشراف بذلك محبة للعيش مع الملائكة وطول العمر بالتخليد في الجنة

"وَقَاسَمَهُمَا" حلف لهما فوق ذلك قائلا :

"إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ 21" فيما ذكرته لكما ، وأكد حلفه بأن واللام التأكيدتين ووقع القسم منه على صيغة المفاعلة ، لأن إبليس يحلف وآدام وحواء يصدقان فصار كأنه قسم من اثنين فصدقاه لظنهما أن أحدا لا يحلف باللّه كاذبا .

قال قتادة حلف لهما حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن باللّه .

ونقل بعض العلماء عن ابن عمر : من خادعنا باللّه خدعنا له .

وقد استزلهما بذلك كله فمالا إلى قوله "فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ" على الشجرة المنهي عنها – من الدلالة أو من دلى الدلو في البئر – اي حطهما عن درجة الطاعة وازلهما إلى درك المعصية ، وقيل من الدالة وعليه قوله :

أظن الحلم دل علي قومي وقد يستجهل الرجل الحليم

(19/261)

أي ما زال يدلي إليهما بالنصح المزعوم بما تقدم وبقوله أنا اعلم منكما لأنكما حديثا عهد بالحياة وأنا ممن جرب الأمور وغاص عواقبها ولم يزل حتى استمالهما بما زخرفه لهما من القول مظهرا النصح لهما ومبطنا الغش ، وهذا هو معنى الغرور ، فضلات (22) عن أنه وثق أقاويله كلها بالأيمان وهو أول من حلف باللّه كاذبا لعنه اللّه ، فانصاعا اليه وأكلا من الشجرة .

(20/261)

قال تعالى "فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ" أخذا منها يسيرا لمعرفة طعمها "بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما" حالا فتهافت لباسهما القدسي عنهما فأبصر كل منهما عورة صاحبه وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا من بعض ما قال قتادة كان لباسهما من جنس الأظفار شبه اللؤلؤ بياضا وعلى غاية من اللطف واللين والنضارة ، فتقلص عنهما حتى بقي عند الأظفار تذكيرا للنعمة وتجديدا للندم "وَطَفِقا يَخْصِفانِ" يرقعان ويخيطان "عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ" من ورق تينها ومرزها وكرمها وما شاكل ذلك من كبار الورق فيلزقان الواحدة جنب الأخرى ليسترا عورتهما فيه ، وفي هذا دليل على قبح كشف العورة في ذلك اليوم "وَناداهُما رَبُّهُما" وبين ما هية هذا النداء بقوله "أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ" وأحذركما من قربها لئلا يصيبكما ما أصابكما من هتك ستركما والسّبب لإخراجكما من الجنة دار الراحة وأنزلكما إلى الأرض دار الشقاء والعناء "وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ 21" ظاهر العداوة ، لأنه لم يسجد لأحدكما حسدا ، وهذا عتاب من اللّه جل جلاله لآدم وزوجته ولم يتشرف بالنبوة بعد ، ولو كان لما رغب بمقام الملائكة لأن مقام النبوة أشرف ، فما قيل إنه كان نبيا مردود بما سيأتي الآية 31 من سورة البقرة في ج 3 ، إذ قال بعد الأكل (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ) إلخ وقوله جل قوله في طه الآتية بعد الأكل أيضا والتصريح له بالعصيان (ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى) الآية 122 كما تراه في تفسيرهما ، فلما رأيا ما حلّ بهما من ذوقهما الشجرة وعتاب ربهما لهما "قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا" بمخالفة أمرك وقد

غرّنا الملعون فأوقعنا بما نحن فيه "وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ 23" رضاك مع خسراننا الجنة الهالكين بمخالفتك .

(21/261)

وهذه الكلمات هي التي تلقاها من ربه المشار إليها في الآية من البقرة أعلاه على ما قاله ابن عباس .

وقال ابن مسعود إنها (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ، لا إله إلا أنت ، ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) .

والأول أولى لتكرارها فيما قصه القرآن وعدم ذكر ما قاله ابن مسعود .

وفي هذه الآية استدل من يقول بجواز صدور الذّنب من الأنبياء وليس بشيء لأن هذه الحادثة وقعت قبل النبوة كما تقدم وعليه جل المفسرين ، ولا يوجد دليل يثبت وقوعها بعد النبوة ، كيف وقد قال تعالى (ثُمَّ اجْتَباهُ) في الآية المذكورة آنفا من سورة طه أي اصطفاه نبيا بعد ما وقع منه ذلك ، وفي الآية دليل على أن صغار الذنوب تحتاج إلى طلب المغفرة أو عمل ما يكفرها ، خلافا للمعتزلة القائلين بأنها مغفورة عفوا .

قال قتادة : قال آدم يا رب ، أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك ؟ قال إذن أدخلك الجنة ،

وأما إبليس فسأل الإنظار بما يدل على أن امتناعه من السجود كان تجبرا ، فأعطى اللّه كلا ما سأل .

هذا ، ولم يعتذر آدم بإغواء إبليس له ، لأنه أقدم على تناول الشجرة مختارا وفيه إيذان بإبطال مذهب الجبرية ، تأمل ترشد وراجع الآية 22 من سورة إبراهيم في ج 2 ، "قالَ اهْبِطُوا" خطابا لآدم وحواء وإبليس ، وكرر له الأمر لعنه اللّه إشارة إلى عدم انفكاكه عنهما وملازمته لهما في الدنيا أما ما قاله الطبري والسدي من أن الخطاب لهم وللحية فلم أر ما يؤيده وقد سبق تضعيف القول بأن الحية أدخلت إبليس الجنة حتى تمكن من إغواء آدم وزوجته ، ولم يسبق في القرآن ذكر للحية .

(22/261)

وقيل إن الخطاب لآدم وحواء فقط لأن إبليس أهبط إلى الأرض قبلهما ، ومن شمل إبليس في هذا الخطاب قال إنه أهبط أولا من الجنة إلى السماء وفي هذا الأمر من السماء إلى الأرض معهما وهو وجيه ، ومن لم يشمله قال بأن الجمع هو ما فوق الواحد ، وعليه قاعدة المنطقيين استدلالا بقوله تعالى : (فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ) الآية 45 من سورة النمل الآتية وفيها ما يدلك على غيرها ، على أن لغات الأجانب كلها لا تثنية فيها لأنهم يعبرون بالجمع على

ما فوق الواحد "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" متعادين في الأرض كما تعاديتم في السماء "وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ" تمكثون فيها منها "وَمَتَاعٌ" تتمتعون به فيها "إِلى حِينٍ 24" انقضاء آجالكم "قالَ فِيها تَحْيَوْنَ" لمدة المقدرة لكم "وَفِيها تَمُوتُونَ" فتدفنون إلى أجل معلوم تبقون في برزخكم

"وَمِنْها تُخْرَجُونَ 25" يوم القيامة عند النفخة الثانية "يا بَنِي آدَمَ" اعلموا أنا "قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ" جار مجرى التعظيم.

مطلب تواصي اللّه لخلقه والتزين للصلاة وغيرها :

(23/261)

وكل ما أعطاه اللّه لعبده فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو أو سفل كما تقول رفعت حاجتي إلى الأمير فليس فيه نقل من سفل إلى علو "لِباساً" لما كان المطر سبب النبات وكان النبات سبب اللباس، لأنه يكون من النبات ومن الحيوان الذي يأكل النبات، جعله نازلا باعتبار ما يؤول إليه "يُوارِي" يستر ويغطي "سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً" تتزينون به من الأثاث والمتاع، تقول العرب تريش الرجل إذا تمول، أي كل ما تحتاجونه في دينكم، إلا أن هناك شيئا هو أعظم نفعا لكم إذا تزينتم به "و" هو "لِباسُ التَّقْوى" الذي يتحلى به الإنسان بامتثال أوامر

ربه واجتناب نواهيه "ذِلِكَ" لباس التقوى وقد أشار إليه بلفظ البعد تعظيما لشأنه لأن نفعه يؤول إلى الآخرة الباقية فهو حتما "خَيْرٌ" من اللباس والرياش المختصين بالدنيا لأن غايتهما دفع الحر والقر والتنعم في هذه الدنيا الفانية إلى حين ، أما لباس التقوى فإنه يقي من عذاب اللّه ويورث الدار الآخرة الباقية والنعيم الدائم قال :

إذا أنت لم تلبس ثيابا من النقي عريت وان وارى القميص قميص

ثم أشار إلى عظمته أيضا فقال "ذِلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ" الدالة على فضله ورحمته بعباده إذ أنزل عليهم ماء أنبت به ما يكون لباسا وغذاء للحيوان الذي يكون منه ما يؤكل ويلبس وغيره من الحيوانات الناطقة وغيرها من الوحوش والطيور والحوت "لعلكم تذكرون 26" هذه النعم الدنيوية والأخروية فتشكرونها إظهارا لمنة اللّه الذي وقاكم من العري وستر عوراتكم وكفاكم مؤنتكم .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الستر من التقوى وهو كذلك "يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ" فيوقعنّكم في المحنة إذا أصغيتم لوساوسه ويحرمنكم من الجنة بإغوائه "كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ" آدم وحواء لما انصاعا لخداعه "مِنَ الْجَنَّةِ" المعدة للطائعين

فحرمهم من نعيمها في الدنيا فانتبهوا وتيقظوا لأن من قدر على تغريرهما يستطيع أن يستميلكم إلى أهوائه ويستذلكم عن منهج الحق إلى سبيله الباطلة من باب أولى ، لأنكم مهما كنتم لا تبلغون درجة أبويكم .

تؤذن هذه الآية بالنهي عن الطواف بالبيت عراة إذ كانوا يفعلونه في الجاهلية "يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما الذي كانا يرتديانه في الجنة بسبب فتنته لهما ، وقد أسند النزع إلى الشيطان لأنه السبب الظاهري فيه وإلا في الحقيقة هو اللّه "لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما" انتقاما منهما لأن أحدهما آدم هو السبب بإخراجه من الجنة فيريد الانتقام منه ومن زوجته ومن ذريتهما أيضا "إِنَّهُ" إبليس وجيشه "يَراكُمْ" أيها الناس "هُوَ وَقَبِيلُهُ" ذريته لأن قبيل المرء ذريته وعترته ، والقبيلة بنو أب واحد ، وقبيلة معطوف على ضمير انه لا على الضمير البارز لأنه تأكيد لضمير يراكم "مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ" في دار الدنيا ، وإذا كان كذلك فعلينا معشر المتقين أن نستعين عليهم بمن يراهم ولا يرونه ذلك الإله العظيم القادر الذي من لجأ اليه وقاه ومن استعاذ به حماه ومن توكل عليه كفاه لا إله إلا هو له الخلق والأمر .

أما ما جاء من أن حضرة الرسول رآه وأراد ربطه بسارية المسجد كما تقدم في الآية 35 من ص فهو من خصوصياته صلّى اللّه عليه وسلم ، ورؤية ابن مسعود جن نصيبين الآتي بيانها أول سورة الجن في ج 2 ، فهي على غير صورهم الحقيقية ، ولهذا قال الشافعي رحمه

اللّه ، من زعم أنه رآهم على صورهم التي خلقوا عليها فقد ردّت شهادته وعزّر لمخالفته القرآن .

(25/261)

هذا وليعلم أن بني آدم يرون الجن في الآخرة وهم لا يرونهم عكس الدنيا ويكونون أي مؤمنو الجن في فنائها قال تعالى "إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ 27" بنا ليزيدوا في غيهم ومن لم يكن وليه اللّه سلط عليه الشيطان "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً" مما يستقبح من الأفعال ، والضمير ، يعود إلى غير المؤمنين أولياء الشياطين ومنهم الطوافون عراة "قَالُوا" لك يا حبيبي إذا نهيتهم عنها إنا "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا" ولذلك نفعلها ، هذه حجتهم الحقيقية والثانية قولهم بهت وافتراء "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا" فرد اللّه عليهم بقوله "قُلْ" لهم يا أكمل الرسل "إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ"

بل بالعفة والستر والصلاح وكل ما هو من شأن التقوى "أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ" أيها الكفرة "مَا لَا تَعْلَمُونَ 28" حقيقة استفهام انكار جيء به للتوبيخ والتقريع "قُلْ" يا رسولي "أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ" العدل وكل ما هو مستقيم حسن طاهر فكيف تسندون له الأمر بالفحشاء ثم قال جل شأنه على طريق عطف الأمر على الخبر وهو جملة "قُلْ أَمَرَ رَبِّي" أي "و" قل لهم

"أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ" لأن الكلام فيه حذف وإضمار وأمثاله في القرآن كثير وهو إيجاز غير مخل وحاشا كلام اللّه من الخلل والنقص والزيادة الكائنة في كلام البشر بسبب الإيجاز والإطناب .

(26/261)

وإنما يزيده براعة وبلاغة أي توجهوا اليه "عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ" تقصدون فيه عبادة ربكم "وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" لا لغيره بالاستقامة الكاملة واعلموا أيها الناس أنه تعالى "كَما بَدَأَكُمْ" من العدم أول مرة فعدتم أحياء في هذه الدنيا "تَعُودُونَ 29" اليه يوم القيامة أحياء كاملي الخلق لأنه تعالى يعيد لكم ما طرأ عليكم من النقص في الدنيا ويجمع كل أجزائكم المتفرقة بعد الموت وتحشرون اليه المؤمن مؤمنا والكافر كافرا ، يؤيد هذا قوله تعالى "فَرِيقاً هَدى" وهم الذين خلقوا في الأزل مؤمنين لاتباعهم طريق الحق الذي خلقوا اليه "وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ" وهم الكافرون في سابق علمه وذلك "إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" باختيارهم

ورضاهم وإيثارهم عليها "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ 30" بفعلهم ذلك مع ما هم عليه من الضلال ، كلا ان زعمهم هذا باطل روى مسلم عن جابر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم

(السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه) وقوله (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) فالمخلوقون للجنة لا بد وأن يختم لهم بصالح العمل وان فعلوا ما فعلوا من الشر بتوفيق اللّه والمخلوقون للنار لا بد وأن يختم لهم بسيئة وان عملوا ما عملوا من الخير يخذلان اللّه ايّاهم .

قال تعالى "يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ" من اللباس النظيف الحسن والطيب والدهن وترجيل الشعر وتنظيف البراجم والأسنان لأن الصلاة مناجاة للرب فيستحب لمن يقف أمام ربه

(27/261)

أن يتزين له بكل انواع الزينة المباحة شرعا ليكون طاهر البدن والثوب والمكان طاهر القلب ، فلا يليق بالمسلم إذا دعي لوليمة أو مقابلة ذي جاه أن يتزين له بما يقدر عليه حتى أن بعضهم ليستعير أو يستأجر ما يتزين به ، وة أو رؤية حية أو عقرب قرب غافل أو صغير أو مرور من تحت جدار متداع أو نداء والد لولده لا يعلم أنه في الصلاة ، وإنه رحمه اللّه قطعها خوف فوات الخشوع المطلوب في الصلاة ، لأن انشغاله برائحة كريهة تسبب ضياعه ، والسرعة في إنهاء الصلاة قد توجب نقصا فيها .

وليس المراد في هذه الآية الصلاة المكتوبة لأنها لم تفرض بعد وإنما أراد الدخول لكل مسجد يقف فيه العبد بين يدي ربه لصلاة أو عبادة أو اعتكاف أو طواف بالمسجد الحرام ، قال ابن عباس كانت المرأة تطوف بالبيت عارية تقول من يعيرني تطوافا اي خرقة تجعلها على عورتها ثم تقول :

اليوم يبدو كله أو بعضه وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ، أخرجه مسلم .

وقال مجاهد كان حي من اهل اليمن إذا قدم حاجا يقول لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب عصيت به ربي فإن قدر على أن يستعير مئزرا فعل وإلا طاف عاريا فنزلت وسيأتي زيادة توضيح لهذا البحث في الآية 197 فما بعدها من البقرة في ج 3 إن شاء اللّه .

وهذا الأمر للوجوب وفيه دليل وجوب ستر العورة بما يواريها من الثياب الطاهرة .

مطلب في الأكل المسنون وذم الشبع وبعض وصايا اللّه لعباده فيه :

قال تعالى : "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا" مما أحل لكم من أنواع الطعام وأجناسه والشراب وأصنافه ، قال الكلبي كانت بنو عامر في ايام حجهم لا تأكل دسما تعظيما ، فقال المسلمون نحن أحق بتعظيم اللّه وبيته منهم يا رسول اللّه فأولى أن لا نأكل ، فأنزل اللّه هذه الآية .

فلما أباح اللّه لهم ذلك نهاهم عما من شأنه أن يكون منهم فقال : "وَلا تُسْرِفُوا" فيما أحله اللّه لكم من طيبات الأطعمة والأشربة بأن تتجاوزوا حدّ الشبع وتفرطوا في تعدد أوقاته وأنواعه ، فإن الأكل في اليوم مرتين من الإسراف المذموم المنهي عنه شرعا ، ومن الإسراف بل والشره أن يأكل كلما يشتهي ، اخرج أبو نعيم عن عمر بن الخطاب قال إياكم والبطنة من الطعام والشراب فأنهما مفسدة للجسد مورثة للسقم مكسلة عن الصلاة وعليكم بالقصد فيهما فانه أصلح للجسد وابعد من السرف وان اللّه يبغض الحبر السمين (لأنه لو كان يتعظ فيما علم لأضعفه الخوف من اللّه) ولهذا قالوا ان القاضي إذا سمن بعد توليه القضاء فهو دليل على عدم اهتمامه بأمور الناس ، وان الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه ومن وصايا أطباء اليابان لا تأكل اللحم إلا مرة في اليوم ولا تشرب مسكرا ولا تدخن واكتف بقليل من القهوة والشاي واستحم يوميا بالماء الساخن وارتد الصوف الخفيف صيفا وشتاء ونم باكرا وأفق باكرا لتنعش بالهواء الطلق ودع غرفتك مفتوحة ليلا واجتنب المؤثرات العقلية واحرص على الراحة يوما في الأسبوع وتزوج البكر وخالط العلماء .

وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن أنس قال قال صلّى اللّه عليه وسلم ان من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت .

واخرج البيهقي عن عائشة قالت رآني صلّى اللّه عليه وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين ،

فقال يا عائشة أما تحبين ان يكون لك شغل إلا في جوفك ، الأكل في اليوم مرتين من الإسراف .

وعليه فيكون الأكل الشرعي مرة في الصباح ومرة في المساء ، قال تعالى : من حق اهل الجنة (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا) الآية 62 من سورة مريم الآتية فإذا أكل نهارا مرتين وأكل مساء اخرى كان مسرفا ، ولا شك ان الأكل يختلف باختلاف الأشخاص والأمكنة .

(29/261)

واخرج ابن ابي شيبة عن ابن عباس انه قال : كل ما شئت والبس ما شئت ما اخطأتك خصلتان سرف ومخيله .

وهذا لا ينافي ما ذكره الثعلبي وغيره من الآدباء بأنه ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي ويلبس ما تشتهيه الناس وهو عندي مطلوب لأن ما يأكله لا يطلع عليه أحد وما يلبسه يظهر للناس وهو من الاقتصاد بمكان .

ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني فقال يوما لعلي بن واقد : أليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان ؟ فقال له جمع اللّه الطب كله في

نصف آية ، قال ما هي ؟ قال قال تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا) فقال وهل يؤثر عن رسولكم شيء في الطب ؟ فقال قد جمع الطب كله في ألفاظ يسيرة ، قال وما هي ؟ قال قال (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأعط كل بدن ما عودته .) فقال :

النصراني : والله ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا . – من الكشاف – قال ومن النصائح الطبية ما قاله الحارث بن كلدة من حكماء العرب الأقدمين : لا تتزوج من النساء إلا شابة ، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ، ولا يتعالج المريض ما احتمل بدنه الداء .

هذا وقال تعالى "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ 31" في الأكل والشرب واللبس وغيره ، والذي لا يحبه الله يبغضه فعلينا ان نجتنب ما يكرهه ربنا .

واعلم ان هذه الآية والتي قبلها لا تتعارضان مع الآية 6 من سورة التكاثر المارة لأنه ليس كل شيء يسأل عنه المرء يوم القيمة يعاقب عليه فضلا عن تلك وردت عامة وهاتين جاءتا بمعرض الرد على الكفار الذين يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم .

الا فلينتبه العاقل ويجتنب الإسراف المنافي لرضاء الله والويل كل الويل لمن لا يرضي الله .

(30/261)

ويا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء المتعجرفين عما أحل اللّه لهم من الطيبات الزاعمين تحريمها او كراهتها في بعض الأوقات والأمكنة والأحوال "مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ" من الأرض وأنزلها من السماء لنفعهم من حيوان ونبات ومعدن وما يعمل ويحصل منها "وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ" الذي يستلذ به الإنسان ، وفي هذه الآية دليل على ان جميع المطعومات والمشروبات و الملبوسات حلال طيب ، تؤيدها الآية 29 من البقرة وهي جملة (خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) لان الأصل في جميع الأشياء الحل والإباحة الا ان الشارع خصص هذا العام والتحليل والتحريم من خصائص اللّه ورسوله ليس لأحد من البشر مهما علت رتبته في العلم والمعرفة وما سمت فطنته في الحذق والفهم وما رفعت مكانته في الإمارة والسلطة ان يحل شيئا مما حرم اللّه ورسوله او يحرم شيئا مما أحلاه ، والآية تتناول جميع اصناف الزينة ولو لا ورود النص بالذهب والفضة والحرير بحديث رسول اللّه والخنزير والميتة والدم والخمر والميتة في كتاب اللّه ، لدخلت في هذه الآية لعموم نصّها المؤيد بقوله جل قوله "قُلْ" يا محمد لأمتك كل ما يستلذّ ويشتهى عدا ما ورد النهي فيه هو من الطيبات التي "هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا" غير خالصة لهم وحدهم لأن الكفار والفساق يشاركونهم فيها جميعها ويزيدون عليهم ولكنها "خالِصَةً لهم" أي للمؤمنين وحدهم "يَوْمَ الْقِيامَةِ" في جنة اللّه لا يشاركهم فيها أحد من أولئك الكفرة وهي لهم خالية من الكدر والتنغيص والأذى بخلاف شهوات الدنيا فمحشوة بذلك مملوءة من الأكدار ،

وإيجاد هذه الطيبات في الأصل للمؤمنين في الدنيا ايضا وصارت للكافرين بالتبعية ولكنها لم تصف للمؤمنين وفيه قيل :

جبلت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذاء والأكدار

(31/261)

و خالصة بالرفع على انها خبر لمبتدأ محذوف وقرأت بالنصب على انها حال من الضمير الذي في الظرف الذي هو الخبر أي هي ثابتة الذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيمة والأول أوجه من حيث الإعراب والقراءة بالمصاحف على النصب لذلك كان اولى من الرفع قال تعالى "كَذَلِكَ" أي مثل هذا التفصيل البديع "نُفَصِّلُ الْآيَاتِ" ونوضّحها ونبيّنها "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ 32" حقائقها وخصائصها ويعتقدون ان اللّه وحده المحلل والمحرم لا غيره "قُلْ" يا حبيبي لهؤلاء الكفار "إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ" كل ما تزايد قبحه فهو فاحش "ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ" سرها وجهرها "وَالْإِثْمَ" من كل ما يؤثم الإنسان فعله في جميع ما يطلق عليه اسم الذنب ، وقد ذكر التعميم بعد التخصيص لئلا يتوهم ان التحريم مقصور على الكبائر الفاحشة من قول أو فعل لكنها صرفت في العرف الآن إلى الزنى واللواطة فاذا أطلقت انصرفت إليهما والا ففي الأصل لا تقتصر عليهما .

مطلب معنى الإثم والبغي :

وأما ما جرى عليه بعض المفسرين من أن الإثم هو الخمر فلا دليل عليه ، بل لا يصح لأن العرب لم تسمها بهذا الاسم في الجاهلية ولا في الإسلام .

(32/261)

نعم هي داخلة تحت الإثم لأنها سببه ، ولأن مرتكبها آثم ، إلا أن هذا لا يصرف معنى الإثم إليها فتفسيرها بالخمر خطأ بين بل غلط واضح ، وليعلم أن الخمر حرمت بالمدينة بعد واقعة أحد ولم يقل أحد بأن هذه الآية مدنية لينصرف معناها إليه ولو كان مراد اللّه في هذه تحريم الخمر لما وردت الآيات بعدها بالتحريم تدريجيا باسمه الصريح المتعارف ، إذ لو كان المراد بكلمة الإثم لكان المنهي عنه صريحا وكان بتا ، ولا داعي حينئذ لتحريمه بعد ورود الآيات متتابعة أولا في النهي عن تعاطيه تعريضا في الآية 67 من النحل في ج 2 ، ثم النهي عن تعاطيه في الآية 219 من البقرة بسبب نفعيته وائمه ، ثم في الصلاة في الآية 42 من النساء ج 3 ، ثم في الكف عنه جزما في جميع الأحوال في الآية 90 من المائدة أيضا في ج 3 ، وهذا من مقاصد اقدامي على هذا التفسير بالنمط الذي سرت فيه ليعلم غير العالم هذا وشبهه مما هو مقدم أو مؤخر ، مطلق أو مقيد ، عام أو خاص ، ناسخ أو منسوخ بالمعنى

المراد فيهما واللّه الهادي إلى سواء السبيل .

هذا ، وما استدل به بعض المفسرين من قول القائل :

نهانا رسول اللّه أن نقرب الزنى وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

لا يكون حجة لأن الخمر بعد أن حرمت صارت اثما ، ولأنها غير معروفة عندهم بهذا

الاسم وقد خصها لينصرف المعنى إليها وكذلك الاستدلال بقول الآخر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

لأنه يتأثم به وقد نعته لينصر معناه عليه وعلى هذا جرى ابن الفارض رحمه اللّه بقوله :

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما شربت التي في تركها عندي الإثم

(33/261)

لا يكون دليلا على التسمية قبل التحريم وكله جار مجرى المجاز لأنها صارت إثما كبيرا بعد

التحريم أما قبله فلا "وَالْبَغْيَ" أي الظلم والاستطالة على الناس وانما أفرده بالذكر مع انه

داخل تحت الفواحش والإثم لعظم ارتكابه مبالغة في الزجر عن الأقدام عليه ، ولوخامة

عاقبته يوشك أن لا يمهل اللّه فاعله إلى الآخرة بل يعجل عقوبته في الدنيا وفيه قيل :

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

وقال الآخر :

ان يعد ذو بغي عليك فخله وارقب زمانا لانتقام باغي

واحذر من البغي الوخيم فلو بغى جبل على جبل لدك الباغي

"بِغَيْرِ الْحَقِّ" متعلق بالبغي لأنه لا يكون الا بغير الحق ، فإذا كان الاعتداء بحق لا يسمى بغيا بل مقابلة وهي جائزة ، أما لو بغى عليك بضربة يد فقابلته بالسيف فقد بغيت عليه ، ولو شتمك بلسانه فشتمته وضربته فقد بغيت عليه لأن اللّه أباح المقابلة بالمثل ، راجع الآية 194 من البقرة في ج 3 .

وقد قال تعالى في الآية 190 منها : (وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .) ومن لا يحبه اللّه يبغضه والأحسن عدم المقابلة والسكوت قال أبو نواس :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

ربما استفتحت بالنطق مغاليق الحمام

انما السالم من أل نجم فاه بلجام

وقال تعالى : (وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ) الآية 134 من آل عمران في ج 2 ، ولهذا البحث صلة في الآية 37 فما بعدها من سورة الشورى في ج 2 فراجعه ففيه الكفاية ، قال تعالى "وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ" حرم الإشراك لأنه مضاهاة للربوبية وهو أعظم المحرمات لأنه

كفر ، أما بقية المحرمات إذا لم يستحلها مقترفها فلا يكون كافرا بل عاصيا ، أي تعبدوا شيئا "ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

(34/261)

سُلْطاناً" حجة أو برهانا بأن يشرك به أو معه غيره من مكوناته ، وهذا على نفي الإنزال إذ لا يجوز أن ينزل سلطانا على ذلك ، وهو تهكم بالمشركين لأنه لما امتنع حصول الحجة بالشرك وجب أن يكون قولهم به باطلا مطلقا "وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ 33" من الكذب والبهتان في اتخاذ الشريك والتحليل والتحريم والولد والصاحبة تعالى اللّه عن ذلك كله ، أي كما حرم ما هو في صدد الآية كذلك حرم هذا أيضا لأنه افتراء محض على اللّه ، فالذي حرم عليكم هو الحرام ، وما حلله لكم هو الحلال لا مجال لكم في الخوض في ذلك البتة ، قال تعالى "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ" تلبث فيه في هذه الدنيا مع نبيها يأمرهم وينهاهم خلاله حتى إذا أصروا على كفرهم أمهلهم ليرجعوا "فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ" المقدر لتعذيبهم ولم ينتهوا أخذهم حالا إذ "لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً" عنه بل ولا لحظة لأن المراد بالساعة هنا مطلق الزمن "وَلا يَسْتَقْدِمُونَ 24" ساعة حذف من الثاني بدلالة الأول كما في الآية 17 من

سورة ق المارة .

مطلب في الساعة بقسميها :

(35/261)

واعلم أن الساعة في عرف المنجمين تنقسم إلى مستوية وتسمى فلكية ، وهو زمان مقداره خمس عشرة درجة أبدا وكل درجة أربع دقائق ، وإلى معوجة وتسمى زمانية ، وهي زمان مقدر بنصف سدس النهار أو الليل أبدا ، ويستعمل الأولى أهل الحساب غالبا ، والثانية الفقهاء واهل الكلام ونحوهم ، وجملة الليل والنهار عندهم أربع وعشرون ساعة أبدا سواء كانت مستوية أو معوجة ، إلا أن كل من الليل والنهار لا يزيد على اثنى عشر ساعة معوجة أبدا ، ولهذا يطولان ويقصران ، وقد تتساوى الساعة المستوية والساعة المعوجة عند استواء الليل والنهار ، ونظير هذه الآية الجملة الأخيرة من الآية 28 من سورة يونس في ج 2 ، وفيها وعيد بإنزال العذاب على قريش إذا لم يؤمنوا بنبيهم وينتهوا عما نهاهم عنه ، وتهديد عظيم بسوء العاقبة إذا أصروا ، فيكون شأنهم شأن كل أمّة كذبت نبيّها بعذاب الاستئصال ، وكان نزولها حين سألوا حضرة الرسول إنزال عليه الصلاة والسلام العذاب الذي يهددهم به فأخبرهم فيها

أن له أجلا لا يتعداء لحظة إذا سألتم استعجاله أو تأخيره مهما استغثتم به منه "يا بَنِي آدَمَ إِمَّا" هي إن الشرطية ضمت إليها ما فأدغمت لتأكيد الشرط ولذا لزمت الفعل الذي يليه النون الثقيلة والخفيفة مثل "يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ" من جنسكم لا من الملائكة "يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي" من أوامر ونواهي وقصص وأمثال ، وجواب الشرط "فَمَنِ اتَّقَى" ما نهي عنه واعتبر بما وقع على الأولين "وَأَصْلَحَ" نفسه باتباع ما أمر به واتعظ بما قص عليه "فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" في الآخرة مما يخافه المجرمون "وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ 35" على ما فاتهم في الدنيا ، لأنهم يرون من نعيم الآخرة الدائم ما ينسيهم تلك الزخارف الدنيوية المموهة الفانية المشوبة بالأكدار المصاحبة للهم والغم المتناولة بالكد والتعب ، وهي إن خلت من حرام فلا تخلو من مشبوه كما لا يخلو أهلها من كذب وكبر والله تعالى يقول "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا" ولم يؤمنوا برسلنا استعظاما عليهم وماتوا على كفرهم "أُولَئِكَ" الذين هذه صفاتهم وهذا شأنهم وديدنهم هم "أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ 35" لا يخرجون منها أبدا "فَمَنْ أَظْلَمُ" واشنع وأفظع ظلما "مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا" أي تقول عليه ما لم يقله اختلاقا من لدنه من تحريم ما لم يحرم "أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ" المنزلة على رسوله

المصرّحة بعدم الشريك والمثيل والولد والصاحبة له جلّ شأنه "أُولَئِكَ" الذين هذه سجيتهم "يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ" اللوح المحفوظ المدون فيه كل ما عملوا وهو حظهم مما قدر عليهم فيه وما قدر لهم في الدنيا من الرزق والعمر والبلاء "حَتَّى إِذا" فرغ ما لهم عنده من ذلك كله حتى الهواء "جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ" فيسألونهم سؤال توبيخ وتبكيت لا استعلام "قالُوا" لهم رسل الموت "أَيْنَ ما

(37/261)

كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من الآلهة التي كنتم تعبدونها وتلجأون إليها في مهامّكم وعند الشدة ، ادعوهم الآن ليدفعوا عنكم الموت "قالُوا" المتوفون المكذبون "ضَلُّوا عَنَّا" غابوا وتركونا عند أشد حاجتنا إليهم وقد تبين لنا الآن عدم نفعهم وإنا كنا مغرورين بهم ولا ندري أين هم الآن ، وذلك بعد أن استعانوا بهم فلم يردوا

عليهم لذلك قال تعالى "وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ 37" جاحدين وحدانية اللّه ونبوة رسله وما أنزل عليهم من الكتب ، واعترافهم هذا تحسر على ما فات ، وهذا السؤال والجواب واجب الإيمان به بمقتضى ظاهر القرآن وانه واقع لا محالة ، وعدم سماعنا له لا يكون حجة لعدم وقوعه لأن اللّه قادر على ان يسمع وان لا يسمع ولا تعارض بين ما في

هذه الآية وآية "وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ" 23 من الأنعام في ج 2 لأن مواقف القيامة متعددة كما مر في الآية 60 من ص وما يرشدك لغيرها فيها وهذا غير سؤال القبر الذي يجب الاعتقاد به وهو لا يسمع ايضا أما سؤال يوم القيمة فيكون على ملأ الأشهاد ولا تردد فيه ، ومنه آية الأنعام المارة ولهذا قلنا لا تعارض بينهما .

هذا والطوائف مختلفة والأحوال شتى وان ما مشى عليه بعض المفسرين بأن هذا السؤال يكون يوم القيمة للكافرين من قبل ملائكة العذاب وحكمه حكم آية الأنعام ينافيه ظاهر الآية المفسرة الدالة على وقوعه في الموت ، وعلى هذا يكون هنا سؤال عند الموت وآخر في القبر لا يسمعان والثالث في البعث في جميع مواقف القيمة مسموع .

(38/261)

تدبر و"قالَ" تعالى لأولئك الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر "ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ" أي بيتها وهي التي "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ" قدمهم لمزيد شرهم ولكون شرهم عدوانا "وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ" جزاء اشراككم وبهتكم في الدنيا فهي مأواكم ومقركم "كُلَّما دَخَلَتْ" النار فهم "أُمَّةٌ" جماعة أو ملة واحدة "لَعَنَتْ أُخْتَها" من اهل ملتها التي أضلتها فتلعن التابعة المتبوعة التي أضلتها وتلعن المتبوعة التابعة حيث زادت في عذابها "حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها"

تلاحقوا واجتمعوا جميعا الأولون والآخرون "قالَتْ أُخْراهُمْ" الأتباع "لِأُولاهُمْ" المتبوعين من القادة والرؤساء "رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا" في الدنيا عن الهدى وسنّوا لنا طرق الردى وأمرونا باتباعهم "فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ" لأنهم ضلوا وأضلوا ، والضعف في اللغة ما زاد على المثل غير مقيد بمثلين أو أكثر فأوله المثل وأكثره غير محصور لذلك يطلق على مثل الشيء وتضعيفه عند الإطلاق ، فاذا أضيف لعدد اقتضى ذلك العدد

مثله فاذا قلت ضعف عشرة او ضعف مائة فذلك عشرون ومائتان بلا خلاف "قالَ" تعالى "لِكُلٍّ" منهم ومنكم "ضِعْفٌ" اما هم فلضلالهم وإضلالهم ، وأما أنتم فلضلالكم واتخاذكم المتبوعين أولياء تأتمرون بأمرهم وتنتهون بنهيهم .

وهذا الضعف كالأول غير مقيد بالمثل فيشمل أضعافا كثيرة لأنه لم يضعف لعدد ، تدبّر .

"وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ 38" ما أعد اللّه لكل منكم من العذاب لان كلا منكم مشغول بما هو فيه – وقرىء لا يعلمون بالياء – .

مطلب مواقف يوم القيامة وإمكان القدرة :

وعليه تكون هذه الجملة منفصلة عما قبلها بسبب الالتفات في الخطاب إلى البغية "وَقَالَتْ أُولاهُمْ" المتقدمون عليهم في المنزلة "لِأُخْراهُمْ" المتأخرين عنهم مكانة بحسب الدنيا أي قالت الأشراف للسفلة "فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ" لأنكم كفرتم فما كفرنا فنحن وأنتم متساوون في العذاب وسببه ، وهذا مرتب على قوله تعالى على وجه السبب "لِكُلٍّ ضِعْفٌ" فهو يؤذن بالمساواة ، والفاء جواب الشرط أي إذا كان كما قال تعالى وهو كما قال فلا فضل لكم علينا فلما ذا تدعون علينا وبعد ان يزجوا فى النار ويزداد تصايحهم فيها يقول لهم تعالى قوله "فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ 39" في الدنيا من الأعمال الخبيثة ، فيسكتون بعد سماع كلام اللّه الذي لا يبدل وهو القائل (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" الدالة على عظمتنا وقدرتنا الموضحة لأحكام ديننا المبلغة على لسان انبيائنا "وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها" فلم يعتنوا بها ويلتفتوا إليها في الدنيا "لا تُفَتَّحُ لَهُمْ" الآن كما هو الحال عند موتهم "أَبْوابُ السَّماءِ" أي لا يسمع دعاؤهم حين يستغيثون بنا في هذا الموقف كما لا يصعد لهم عمل في الدنيا ولا ترفع أرواحهم إليها إذا ماتوا لأن كلامهم وأعمالهم وأرواحهم خبيثة فهم محرومون من بركة السماء وغيرها ورحمة خالقها إذ لا يصعد إلى اللّه الا الكلم الطيب والعمل الصالح والأرواح الطاهرة "وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" هؤلاء المستكبرون عنا في حياتهم الدنيا "حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ" يدخل "فِي سَمِّ الْخِياطِ" ومن المعلوم عدم إمكان دخوله أي لا يدخلون ابدا ، وهذا من ضرب المحال كقوله لا آتيك حتى يشيب الغراب أو يبيضّ القار أو يسود الثلج ،

وخص الجمل لأنه أكبر الحيوانات في الجملة عندهم ، حتى انهم يضربون به المثل فيقولون جسم الجمال وأحلام العصافير ، لقليل العقل .

(40/261)

ويضربون المثل الضيق المسلك بثقب الإبرة كناية عن الشيء الذي لا يكون قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

ويطلق الجمل على الحبل الغليظ ولذلك فسره به بعض المفسرين لأنه مما يسلك إلا أن سلكه في الابرة محال ، وعلى كل فيكون دخولهم في الجنة محالا ، كما أن دخول الجمل أو الحبل الغليظ في ثقب الابرة محال ، لأنه مما لا تتعلق به القدرة لعدم إمكانه ما دام العظيم على عظمه والضيق على ضيقه لأنها انما تتعلق بالممكنات الصرفة ، والممكن الولوج بتصغير الغليظ وتوسيع الضيق فاذا أراد اللّه تعالى مثل هذا فعل ما يريد وهو على كل شيء قدير .

واعلم أن من فسر الجمل بالحبل قرأه بضم الجيم وتشديد الميم كي يراد به الحبل الذي ذكرناه في الآية 33 في المرسلات المارة قال تعالى "وَكَذِلِكَ" مثل ذلك الجزاء الفظيع "نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ 40" في دنياهم في الدار الآخرة وأل فيه للجنس فيشمل كل مجرم

ثم بين حالتهم في النار بقوله "لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ" فراش تحتهم "وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ" أغطية

منها ونظير هذه الآية قوله "مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" الآية 16 ص الزمر في ج 2 يعني أن النار محيطة بهم "كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الشديد "نَجْزِي الظَّالِمِينَ 41" أنفسهم في الدنيا بالعذاب الشنيع في الآخرة وحرمانهم من الجنة "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" في دنياهم لهم ما يشاءون في الآخرة لا يضيّق عليهم فيها أبدا لأنا "لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها" بما يسهل عليها ويكون في طوقها ممّا لا حرج فيه عليها من الأعمال وهذه جملة اعتراضية بين المبتدأ وهو الموصول والخبر وهو "أُولئِكَ" أي المؤمنون باللّه العاملون صالحا هم "أَصْحابُ الْجَنَّةِ" في الآخرة الدائمة و"هُمْ فِيها خالِدُونَ 42" أبدا ، والذي أحسن وقوعها مناسبتها للمعنى لأنه لما ذكر العمل ت (23)

(41/261)

الصالح الذي لا كلفة فيه ذكر أنه في وسعهم فعله ، وفيه تنبيه للكفرة على أن الجنة مع عظمها يتوصل إليها بالعمل الصالح السهل إجراؤه على العامل قال تعالى "وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ" كان بينهم في الدنيا فلم يبق بين أهل الجنة إلا التوادد والتعاطف ، قال علي كرم اللّه وجهه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، وما قيل أنه قال فينا واللّه أهل بدر نزلت هذه الآية لا يصح ، لأن الآية مكية بالاتفاق وحادثة بدر بعد الهجرة بسنتين

في

دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا ولا تموتوا أبدا ، وإن لكم تصحوا ولا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا ولا تهرموا عليه وسلم لن يدخل الجنه أحد يعمله وإنما يدخلها برحمة اللّه تعالى ، لأن دخول الجنة حقيقة برحمة اللّه إلا أن انقسام المنازل والدرجات بالأعمال .

وإن المؤمن لن ينال العمل الصالح إلا برحمة اللّه وتوفيقه فيكون دخول الجنة برحمة اللّه ثوابا وجزاء على الأعمال الصالحة في الدنيا قال صاحب بدء الأمالي :

دخول الناس في الجنّات فضل من الرحمن يا أهل الأمالي

ونظير هذه الآية 32 من سورة النحل والآية 63 من سورة الزخرف في ج 2 ولا يخفي ما في هذه الآية من الرد الواضح على القدرية الزاعمين أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى ولم يخلق اللّه له ذلك .

مطلب خطأ قول القدرية :

قال الشيخ أبو منصور إن المعتزلة خالفوا اللّه فيما أخبروا وأبا البشر الثاني نوحا عليه السلام وأهل الجنة وأهل النار وإبليس أيضا .

فاللّه تعالى قال : (يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) الآية 29 من سورة الرعد في ج 3 .

وقال نوح وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ) الآية 34 من سورة هود في ج 2 .

وقال أهل الجنة (وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ) الآية المارة .

(42/261)

وقال أهل النار (لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ) الآية 21 من سورة ابراهيم في ج 2 .

وقال إبليس (فَبِما أَغْوَيْتَنِي) الآية 15 المارة فدونك أعرض قول المعتزلة على هذه وانظر قول اللّه حكاية عن قول الموحدين وهم في مقعد صدق (وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ) فى حال الدنيا مع قولهم (المهتدي من اهتدى بنفسه) وانظر هداك اللّه ما تختاره فلا شك أنك تقول اللّه الهادي ولا تعدل عنه ابدا إذ لا يوازي قول اللّه قول .

ثم شرع جل شرعه فيما يقع بينهما من المحادثة فقال : "وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ" وذلك بعد أن استقر كل بمكانه "أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا" على لسان رسله من النعيم المقيم "حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ" من العذاب المترتب على تكذيبكم رسلكم في الدنيا "حَقًّا قالُوا نَعَمْ" وجدناه حقا ومسنا ألمه "فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ" هو صاحب الصور إسرافيل عليه السلام أو غيره من الملائكة وما قيل أنه علي عليه السلام بعيد عن الصحة لعدم الدليل ولأنه كرم اللّه وجهه يكون إذ ذاك في حظائر القدس فكيف يكون مؤذنا في ذلك

المقام فهو أكبر مقاما وأعز شأنا وأرفع مكانا وأعظم من ذلك وكيفية الأذان هي "أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ 44" إعلاما بسرور أهل الجنة وخزي أهل النار .

واعلم أن "أَنْ" هذه والتي قبلها مخففتان من الثقيلة أو مفسرة لكيفية المناداة وهو الأصوب لأن المخففة يعقبها اللام وهو مفقود هنا .

(43/261)

راجع آخر سورة القلم المارة ، وقرأها بعضهم بالتشديد كما قرأ (نعم) بكسر العين ، هذا ، وأن الذين لعنهم اللّه هم "الَّذِينَ" كانوا "يَصُدُّونَ" الناس في الدنيا "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" السوي "وَيَبْغُونَهَا" اي سبيل اللّه التي سنها لعباده من الحق والعدل السويين ويحاولون أن يجعلوها "عِوَجاً" مائلة إلى الباطل فيبدلونها عما هي عليه .

والعوج بالكسر يكون في الدين والطريق أي المذهب الذي يتدين به وما يدرك بفكر وبصيرة كالأرض البسيطة والمعاش ، وبالفتح بالخلقة تقول في ساقه عوج وما يدرك بالبصر كالخشب المنتصب ونحوه راجع تفسير الآية الأولى من سورة الكهف في ج 2 "وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ 45" منكرون لانهم لم يصدقوا بوجودها حينما كانو في الدنيا ولا يقال كيف يسمع أهل النار وهم في الأرض نداء أهل الجنة وهم في السماء ، لأن اللّه قادر ان يقوي أصوات

اهل الجنة واسماع اهل النار ويصير البعيد

قريبا ولا يعجزه شيء ، وهذا النداء من العموم إلى العموم ، لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد ، فكل فريق من الجنة ينادي من كان يعرفه في الدنيا من أهل النار الكفرة "وَبَيْنَهُما" أي أهل الجنة وأهل النار "حِجابٌ" سور وهو المذكور في قوله تعالى "فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ" الآية 13 من سورة الحديد في ج 3 ، والمراد بالرحمة الجنة وبالعذاب النار .

واعلم أن هذه الآية والآية التي نحن بصددها تفيدان أن ليس بينهما سوى هذا الحجاب المعبر عنه بالسور ويؤيد هذا حديث الصراط الممدود على متن جهنم فإن من يقطعه يصل إلى الجنة مع أن الجنة في السماء والنار في الأرض فانظر قدرة القادر بعظم هذا الحجاب وإسماع أقوال الطرفين ورؤيتهما بعضهما لبعض آمنّا وصدقنا وأيقنا بأن اللّه تعالى قادر على أكثر من هذا وأعظم .

مطلب في اصحاب الأعراف :

"وَعَلَى الْأَعْرافِ" أعالي الحجاب وهو السور المذكور "رِجالٌ" من آخر المسلمين دخولا في الجنة لقصور أعمالهم وهم المرجون لأمر اللّه المذكورون في الآية 106 من سورة التوبة في ج 3 فإنهم يحبسون عليه فيقضون على شرفه البارزة ويقال لكل مرتفع عرف ، ويبقون عليه بين الجنة والنار إلى أن يأذن اللّه لهم بدخول الجنة والانصراف عن النار وهؤلاء الرجال "يَعْرِفُونَ كُلًّا" من الفريقين المذكورين "بِسِيماهُمْ" علامات لهم فيهم أو بسيماهم التي صاروا إليها وهي بياض وجه المؤمن ونضارته وسواد وجه الكافر وزرقة عيونه "وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ" إذا عرضوا لهم ورأوا ما هم عليه من السرور فيقولون لهم "أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ" يهنونهم في هذه التحية بالسلامة من هول الآخرة وحصول الأمن لهم بدخول الجنة وهؤلاء المسلمون "لَمْ يَدْخُلُوها" أي الجنة بعد لأنهم ينتظرون أمر اللّه فيهم "وَهُمْ يَطْمَعُونَ 46" بدخولها لوثوق أملهم بربهم ورجاء لطفه بهم وعطفه عليهم بعدم زجهم في النار ، بسبب قلة حسناتهم عن سيئاتهم ولعدم وجود دار في الآخرة غير الجنة أو النار ، ولأن من نجا من النار طمع

بدخول الجنة بلا شك ، وحاشا كرم اللّه وفضله أن يدخلهم النار بعد أن أوقفهم خارجها ، لأن خيار البشر لا يرجح جهة الشر على الخير فكيف بخالق الخيار القائل "خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ" الآية 102 من سورة التوبة في ج 3 والخلطة لا تقتضي التسوية فقد تكون أكثر وأقل ومساوية ، وعسى من جانبه جل جلاله تكون لتحقيق هذا ، واعلم أن ما قيل بأن هؤلاء الذوات فقهاء أو أنبياء أو ملائكة وان درجتهم أعلى من الجنة وأن وجودهم على الأعراف ليطلعوا على حال الفريقين لا دليل يؤيده وسياق التنزيل يأباه وسياقه ينفيه لأن اللّه تعالى يقول "وَهُمْ يَطْمَعُونَ" أي بدخول الجنة مما يدل على أنهم لم يستحقوها بعمل مرجح بل بطمعهم بفضل اللّه وبمنّه عليهم يرجون ادخالهم الجنة بترجيح حسناتهم على سيئاتهم وصرف النظر عن جهة الزيادة والنقصان ، وانظر ما يقول اللّه عز قوله "وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ" وظهر لهم حالهم وما حل بهم من العذاب أعرضوا عنهم فلم يكلموهم والتفتوا إلى من أنعم على أولئك وانتقم من هؤلاء خائفين من مصيرهم لأنه لم يتحقق لهم بعد فاستعاذوا من حالهم و"قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 47" أي باعدنا عنهم فزعا مما شاهدوه من أنواع عذابهم فإن هذه الآية تؤيد ما جرينا عليه من التفسير بان أصحاب الأعراف قوم استوت أو نقصت حسناتهم عن سيئاتهم وقد أوقفهم اللّه على شرف السور كما مر وليسوا بفقهاء ولا أنبياء ولا ملائكة كما جاء في ذلك القيل ولذلك صاروا يتضرعون إلى ربهم بان لا يجعلهم من أهل

النار وان شدة الهول والفزع مما رأوا من عذاب جهنم أنساهم طلب الجنة لأنهم يريدون البقاء على الأعراف على أن لا يدخلوا النار فقط والله أعلم بمراده بكلامه وكأن هؤلاء يبقون موقوفين على الأعراف مشرفين على الفريقين حتى

(46/261)

الأخير ينظرون من يدخل الجنة فيهنئونه ، ومن يدخل النار فيستعيذون منه ، ولهذا أخير عنه مولاهم بقوله "وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا" التنكير هنا يدل على أن المنادين عظماء معروفين بالدنيا كرؤوس الكفر ، وتكرير لفظ

الأعراف مع كفاية الإضمار للفرق بين المراد منهم هنا ، لأن المنادى هناك الكل وهنا البعض ، ولزيادة التقرير "يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ" التي كانوا عليها في الدنيا ، لأن صورة الرجل مهما شوهت لا بد أن تبقى سيماها الدالة عليها ، انظر إلى صور الرجال الذين يعلنونهم في الجرائد الهزلية كيف يشوهونها ويخرجون بعضها عن صورة الإنسان إلى غيره من الحيوانات وعند ما تراها تعرفها صورة من هي ، فكذلك هنا لأن الله تعالى لم يجعل شيئا في الآخرة إلا وجعل له مثالا في الدنيا إلا أن الفرق شاسع "قَالُوا" أصحاب الأعراف لأولئك الرجال الكبار المشهورين "مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ" كثرتكم في الدنيا وما جمعتموه من مال ونشب

واتباع وأشياع "و" ما أغنى عنكم أيضا "ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ 48" عن الإيمان بالرسل وعلى الناس أجمع في دنياكم ، وهذا استفهام تقريع وتوبيخ ، أي أن ذلك كله ما وقاكم من عذاب اللّه بل زادكم تعذيبا به .

قال الكلبي ينادونهم من على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان يا فلان ، لكل جحجاح فخور من فراعنة أمة محمد وهكذا

فراعنة الأنبياء السالفين ينادونهم جماعة منهم الذين يعرفونهم .

(47/261)

ثم خاطبوهم ثانيا مشيرين إلى طائفة من أهل الجنة كانوا فقراء في الدنيا يسخرون منهم ويستهزئون بهم ويضحكون عليهم قائلين "هؤُلاءِ" صهيب وسلمان وخباب وغيرهم من فقراء أمة محمد وأصحاب العفة الذين كنتم تأنفون مجالستهم في الدنيا حتى أنكم طلبتم من حضرة الرسول أن يعين لهم مجلسا على حدة لئلا يحضروا معكم تباعدا عن أوساخهم ورثاثة لباسهم "الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ" حالة كونكم في الدنيا بأنه "لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ" نراهم قد نالوها وقد قال لهم ربهم الذي كنتم تجحدونه "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ" فدخلوها وأنتم الآن في النار تعذبون وهم ينعمون وقد زادهم فضلا بقوله لهم "لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ" الآن مما يخافه غيركم

"وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ 49" على ما فتكم من نعم الدنيا ولا مما يلاقي هؤلاء إذ لا يهمكم شأنهم الآن كما كانوا في الدنيا لا يهتمون بكم ، وكذلك الذين من هذا القبيل من أتباع الرسل المتقدمة ، لأن الآيات كلها عامة ، وان تخصيصها بأناس لا ينفي عمومها عن شمول غيرهم ، تدبر ، قال تعالى "وَنَادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ" لنطفىء به بعض حرارة هذه النار المحرقة "أو" أعطونا "مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ" من الأشربة الطيبة لنبلّ به غليل قلوبنا ، وهذه الآية تؤيد ما ذكرناه آنفا من أن الجنة فوق النار وأن لا حاجز بينهما غير السور المار ذكره "قالُوا" مجيبين لهم "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما" أي ماء الجنة وشرابها "عَلَى الْكافِرِينَ 50" به الجاحدين رسله وكتبه وهم

(48/261)

"الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ" في الدنيا فجعلوه "لَهْواً وَلَعِباً" فحرموا ما شاءوا وأحلوا ما أرادوا وعبدوا ما زين لهم الشيطان وعملوا ما هوته أنفسهم "وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا" بزخارفها الفانية وخدعهم أملهم فيها فلم يلتفتوا إلى صانعهم الحقيقي وكتابه المنزل ولم يكترثوا برسله بل أهانوهم وكذبوهم "فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ" من رحمتنا فنهملهم ولا نعتد بهم ولا نسمع دعاءهم "كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا" وأهملوه فلم يعملوا صالحا لأجله ولم يعتدوا به لذلك فإني أعرض

عنهم كما أعرضوا عن آياتي ورسلي "وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ 51" يكذبون بها وبالذين جاءوهم بها ، وسمى اللّه جزاء نسيانهم نسيانا على طريق المجاز ، وهو عبارة عن تركهم في العذاب وعدم الالتفات إليهم وقد تعبر العرب بالنسيان عن الترك وإلا فإن اللّه تعالى لا ينسى شيئا ، والمعنى أنا نعاملهم معاملة الناسين عبيدهم من خيرهم لأنهم لم يعترفوا بوحدانيتنا في الدنيا وأشركوا معنا من لا يستحق العبادة ولا ينفع نفسه .

هذا ما قصه اللّه على نبيه من حال آدم وإبليس وأحوال الذين عبدوا غيره ، والذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم ، وحال أهل النار وأهل الجنة وأهل الأعراف ، هم التفت إلى نبيه صلّى اللّه عليه وسلم وقال مقسما "وَلَقَدْ جِئْناهُمْ" أي قومك يا محمد "بِكِتابٍ" عظيم جليل أنزلناه عليك وقد "فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ" منا بوجه تفصيله ووضحنا حلاله وحرامه ومواعظه وأخباره وقصصه وأمثاله وجعلناه "هُدىً" لمن اهتدى به "وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 52" به فلما ذا لا يؤمن هؤلاء الكفرة كي يقتبسوا من أنواره وينتفعوا بنوّاره كغيرهم ممن ذاق حلاوته ، "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ" أي أيتوقعون ما أوعدوا به من العذاب فيه ، وما يؤول إليه أمرهم

و هو النار تصديقا لوعده ، فقل لهم يا أكمل الرسل "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ" هو يوم هلاكهم في الدنيا أو يوم عذابهم في الآخرة وإذ ذاك "يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ" إتيان تأويله وتركوا امتثال أوامره ونواهيه "قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ" أي يعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف ، ويقولون حين نزول الموت بهم أو وقت تعذيبهم بالآخرة "فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا" اليوم مما حل بنا (على المعنيين لأن الآية صالحة لهما وموافقة لمعناهما وجائز تأويله بهما) إذ لا طريق للخلاص منه إلا بالشفاعة "أو" إذا لم تكن شفاعة أمهلنا يا ربنا بأن "نُرَدُّ" إلى الدنيا "فَنَعْمَلَ" الفاء واقعة في جواب الاستفهام مثل فيشفعوا أي نعمل عملا صالحا "غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" من السيء فنبدل الكفر بالتوحيد والعصيان بالطاعة فلا يجابون إلى طلبهم ، وهيهات أن يزاد في أجل المحتضر أو يرجع أحد من الآخرة ولعدم وجود الشفيع وعدم إمكان إمهالهم أو إرجاعهم إلى الدنيا فإنهم "قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" بصرف أعمارهم التي هي رأسمالهم في الشرك والمعاصي "وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ 53" في الدنيا من قولهم إن الأوثان آلهة وإن الملائكة بنات اللّه ، وادعاء أهل الكتابين عزيرا والمسيح أبناء اللّه تعالى عن ذلك وعدم اعتراف اليهود بنبوة عيسى ومحمد والنصارى بنبوة محمد عليهم الصلاة والسلام .

مطلب في السموات والأرض والعرش وآيات الصفات :

قال تعالى ردا على هؤلاء المغترّين "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ" قدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 36 .

(50/261)

من سورة ق المارة إذ لم يكن زمن خلق السموات شمس ولا قمر ليعرف الزمن ، وهذا على حد قوله تعالى : (لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا" الآية 61 من سورة مريم الآتية ، أي بمقدارها في الدنيا بالنسبة لنا حسبما نعرفه لأن الجنه لا ليل فيها ولا نهار ، ولهذا البحث صلة في الآية 9 من سورة فصلت في ج 2 فراجعه تعرف هذا وبدأ الأيام وآخرها وما خلق فيها ، والمراد بالاستواء الاستيلاء وعليه قوله :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

لأن الاستواء بمعناه المعروف محال على اللّه تعالى وهذه من آيات الصفات التي مر ذكرها في الآية 30 من سورة ق المارة وفيها ما ترشد إليه من المواضع الأخرى الباحثة عن هذا ، وخصّ العرش بالذكر مع أنه مستول على المخلوقات كافة لأنه أعظمها وأعلاها ولا يعرفه البشر إلا بالاسم وهو بما وصفه اللّه تعالى به نفسه فتفسيره تلاوته كما مر تفصيله وللبحث فيه صلة في الآية 4 من سورة طه الآتية .

هذا وان المنقول عن جعفر الصادق والحسن وأبي حنيفة ومالك وغيرهم من أعلام الأئمة أن الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والجحود له كفر والسؤال عنه بدعة ، وقد ألمعنا إلى شيء من هذا أول سورة القمر المارة بأنه فلك الافلاك والفلك الأطلس وانه الجسم المحيط بسائر الأجسام ويكنى به عن العزة والسلطان والملك وقيل في المعنى :

إذا ما بنوا مروان ثلث عروشهم وأودت كما أودت إياد وحمير

وقول الآخر :

أن يقتلوك فقد ثلث عروشهم بعيينة بن الحارث بن شهاب

قال تعالى : "يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ" يلبسه ظلمة حتى يذهب بنوره وكذلك يغشي النهار الليل فيغطيه بنوره حتى يمحق ظلامه ولم يؤت بالجملة الثانية لدلالة الأولى عليها كما مر في الآية 17 من سورة ق المارة "يَطْلُبُهُ حَثِيثاً" طلبا سريعا إذ نعقب أحدهما الآخر فيخلفه دون فاصلة ما وقيل فيه :

(51/261)

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غرابا ذا قوادم جوّن

وقال الآخر :

وكأن الشوق باب للدجى ماله خوف هجوم الصبح فتح

"وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ" جل علاه وتعريفه من طلوعهن وغروبهن وسيرهن ورجوعهن وسرعة دورانهن بانتظام بديع يتحركن بحركة الفا الأعظم وهي أشد الحركات سرعة فإن الإنسان إذا رفع رجله وضعها بشدة عدوه تحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل حسبما يقوله الفلكيون ، ويمكن أن يكون أكثر أو أقل لأن أقوالهم ظنية تقديرية ، وهذا هو معنى الطالب الحثيث جلت قدرته الصانع الحكيم الذي جعل هذه الحركات مستمرة إلى انقضاء الدنيا وأوان خراب هذا العالم بصورة منتظمة وقد أفرد ذكر الشمس والقمر مع أنهما داخلان في النجوم بل هما منها لبيان شرفهما على سائر الكواكب ، لا لزيادة نورهما الواصل إلى الأرض فقط بل لمعرفة الأوقات في سيرهما ومنازلهما وكثرة منافعهما في نمو النبات وطعمه وتلوينه وغير ذلك .

مطلب التناكح المعنوي :

وقد ذكر اللّه الغشيان هنا والإيلاج في الآية 27 من آل عمران وغيرها لأنها مكررة كثيرا والمراد بهما التناكح المعنوي وجعله ساريا في جميع الموجودات الملمع إليها في قوله تعالى : (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الآية 3 من سورة الرعد في ج 3 وقبل توسع علم النبات ما كان أحد يعلم بازدواج النبات ووجود ذكر وأنثى في كل زهرة غير اللّه أنظر ، كم من غيوب يكشفها اللّه لنا في هذا القرآن العظيم ونحن عنه غافلون وهذا أمر صحيح

وان صح ذلك فما أصح قولهم في ضرب المثل للأمور المتوقعة (الليلة حبلى وستلد العجائب) هذا وأمر الحث عليه ظاهر لمن ذاق عسيلة النكاح والحاصل من هذا الغشيان على قولهم ما في العالم من معدن ونبات وحيوان وهو المواليد الثلاثة أو في جميع الحوادث على الإطلاق ومنه قوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشي

(52/261)

لكن مع العلم والإيقان بأن المؤثر الحقيقي هو اللّه وحده وهو الذي خلق فيها تلك التأثيرات ، اما أقوال المنجمين فقد تكون صحيحة وتكون فاسدة وكل ما ذكروه من تقدير فهو بالنسبة لما يبدو لهم في المكبرات من كبر النجوم وسيرها فيبنون علمهم وأقوالهم فيه على الظن والحدس لا على اليقين والصدق ، تأمل .

"أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" فرق بينهما ليعلم خلقه أن كلامه غير مخلوق لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله ولهذا قال سفيان بن عيينة من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى من جملة خلقه فقد كفر ، ومن جمع بين الخلق والأمر فقد كفر فالخلق راجع لما ذكره من السموات والأرض والأفلاك ، والأمر هو كلامه يأمر هذه المخلوقات وغيرها بما أراد كاملا

، وكيف يكون من خلقه لها نقص أو زيادة وهو "تَبارَكَ" وتعالى "اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ 54" أجمع وخالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم .

راجع بحث خلق القرآن في المقدمة تعلم أن كلامه منزه ومقدس عن أن يكون مخلوقا .

قال في بدء الامالي :

وما القرآن مخلوقا تعالى كلام الرب عن جنس المقال

وهذا ولما اخبر جل اخباره بأنه المنفرد بالخلق والأمر أمر عباده أن يتذللوا اليه لكشف مهماتهم فقال "ادْعُوا رَبَّكُمْ" أيها الخلق "تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً" بما ترونه من مصالحكم الدنيوية والاخروية ولا تتجاوزوا فيها إلى مضرة غيركم فتعتدوا "إِنَّهُ" ربكم الذي يجيب دعائكم "لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ 55" في الدعاء على الغير أو بطلب ما لا يليق بالداعي من المقامات ، لأن الدعاء على الغير من غير ظلم منه تعد وطلب ما لا يليق اعتداء ، ومن الاعتداء رفع الصوت لما فيه من قلة الأدب مع المولى ومجاوزة الحد في كل شيء اعتداء .

(53/261)

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الاشعري قال كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال صلّى اللّه عليه وسلم : أيها الناس اربعوا "أي

ارفقوا بأنفسكم واقصروا عن الصياح في الدعاء" على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم ، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .

قال أبو موسى وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة الا باللّه العلي العظيم في نفسي فقال يا عبد اللّه ابن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت بلى يا رسول اللّه ، قال :

لا حول ولا قوة الا باللّه العلى العظيم .

مطلب آداب الدعاء والقراءة :

وقال تعالى في الآية 3 من سورة مريم الآتية "إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا" أي بما يسمع نفسه وهذا الحد كان في الدعاء كنفس الداع أما إذا كان الناس

(54/261)

يؤمنون على دعائه فيرفع صوته بقدر ما يسمعهم وكذلك الجهر في الصلاة قال تعالى "وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها" الآية 112 من سورة الإسراء الآتية فإذا زاد على اسماع الغير فيكون عمل عملا مكروها في الصلاة ، وكذلك إذا خافت إلى حد لا تسمعه الجماعه ، وفي الخطبة أيضا ينبغي أن يلاحظ هذا الحد ، إذ المقصود اسماع الحاضرين فقط فمن زاد

أو نقص فقد تعدى وظلم ، أخرج أبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب الأمر أن يقول اللهم اني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، ثم قرأ "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" وهذا هو الحكم الشرعي في الدعاء ومن آدابه أنه إذا خاف الرياء أخفى وإذا أمنه جهر بقدر الحاجة وهو الأفضل ويكره إذا خيف التشويش على قارئ أو مصل أو إيقاظ نائم "أو مشتغل بعلم شرعي" ، قال تعالى "وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" ايها الناس بان تقطعوا السبل وتنهبوا الأموال وتعتدوا على الخلق بضرب أو قتل فايقاع الفساد على هذا الوجه هو خراب الأرض وإهلاك أهلها وكيف تخربونها "بَعْدَ إِصْلاحِها" ببعثة الرسل وبيان الشرائع بالنهي عن الفساد والأمر بالإصلاح والدعاء إلى طاعة اللّه وترك الكفر ودواعيه وتكذيب الرسل وجحود ما جاءوا به من عند اللّه فكل هذا فساد مناف للإصلاح الذي فيه قوام الكون "وَادْعُوهُ خَوْفاً" من عقابه وعدله "وَطَمَعاً" بثوابه وفضله متضرعين اليه مخبتين له ومعنى الخوف انزعاج في الباطن لما لا يؤمن من المضار وتوقع مكروه يحصل ، والطمع توقع أمر محبوب ، وأحسنوا أيها الناس

لأنفسكم وغيركم بالمحافظة على الأمن لأنه إذا فقد انقطعت الطرق وقلقت الناس ، وتراحموا فيما بينكم "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ 56" أعمالهم مع أنفسهم وغيرهم الذين يتأدبون بآداب اللّه فلا يتجاوزون حدوده في الدعاء والعمل مع اللّه ولا مع عباده امتثالا لامره وأمر رسوله فهؤلاء هم المحسنون ، وتفيد هذه الآية أن غير المحسنين بعيدون من رحمة اللّه ، ألا فليتق اللّه الذين يسيئون ويقولون اللّه غفور رحيم ولا يصرفون قسما من حياتهم فى عبادة اللّه طلبا لهذه الرحمة والمغفرة .

وينبغي أن يجمعوا في طلب الرزق من الحلال ويقولوا اللّه كريم ، ولا شك أن اللّه غفور رحيم ولكن هل تجد رحمة في كتاب اللّه مطلقة من قيد ؟ كلا ، فإنها في هذه الآية مقيدة بالإحسان ، وفي آية 8 من سورة

مطلب في الرحمة واكتساب التأنيث والتذكير والمطر :

ومعنى

(56/261)

ذا من تدبير حكمته تعالى فإنه يحرك الرياح بشدة فتثير السحاب يدل على هذا قوله جل قوله في الآية 22 من سورة الحجر في ج 2 (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) ، ثم ينضم بعضه إلى بعض

فيتراكم وينعقد فيحيل تلك الأبخرة المتراصة إلى ماء ثم يسوقه إلى حيث يشاء فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء بدليل قوله "سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ" ما حل لا كلا فيه لأجل إحيائه بالغيث وإنبات الزرع فيه ، والبلاد الميتة كثيرة فقد يختص منها ما يريده وقد يعم رحمته عليها كلها "فَأَنْزَلْنا بِهِ" أي البلد الميت "الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ" أي الماء المنعصر من تلك السحب أشجارا فيها "مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ" أي مثل هذا الإخراج بعد الاحياء "نُخْرِجُ الْمَوْتى " من قبورهم أحياء عند بعثهم بعد الموت ، أي فكما نحي الأرض بعد موتها نحي الخلق بعد موتهم لا فرق علينا بينهما فاعتبروا "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ 57" بالأمثال التي نضربها لكم لتعوا المراد منها وتتعظوا به ، وقد ضربنا لكم هذا المثل يا منكري البعث وجاحدي إعادة الأجسام بأرواحها ليذكروا أن النبات عندنا بمثابة الإنسان بجامع الاعادة في كل قال تعالى "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ" تراه "يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ" بتيسيره حسنا وافيا "وَالَّذِي خَبُثَ" ترابه كالسبخة من الأرض "لا يَخْرُجُ" نباته بسهولة "إِلَّا نَكِداً" عسرا بمشقة وكلفة قليلا لا خير فيه ، وهذه الكلمة لم تكرر في القرآن ، وهذا الطيب والخبيث يشملان الإنسان أيضا غالبا لأن الدّن ينضح بما فيه "كَذلِكَ" مثل هذا التصريف البديع "نُصَرِّفُ الْآياتِ" ونكررها المرة بعد الأخرى "لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ 58" نعمنا على هدايتهم للتفكر في ذلك ، لأن الحكمة من تكرارها سوق همّة البشر

للاعتبار في مكونات اللّه ، وهذا مثل ضربه اللّه تعالى هنا للمؤمن الذي يؤثر فيه الوعظ وينتفع فيه فهو كالأرض الطيبة تؤتي أكلها ضعفين ، والكافر الذي لا ينجع فيه ولا يأتمر به فهو كالأرض الخبيثة فإنها تجحد البذر ولا ينفعها السقي والحرث كما لا ينفع الكافر الزجر والنهي ، وبعد هذه الأمثال شرع جل شأنه يقص على رسوله حالة إخوانه الأنبياء الماضين مع أممهم ليسليه عما يراه من قومة فقال مقسمه "لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً" بن لمك بن منوشلخ بن أخنوخ بن إدريس عليهما السلام وكان نجارا ، وبعث على كمال الخمسين من عمره ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة لم يترك فيها طريقا من طرق النصح إلا أتاهم به ، وحذر وأنذر وسلك اللين والخشوع طيلة هذه المدّة ، ولم يؤمن من قومه إلا بعض ذويه ، وعاش بعد إغراق قومه ستين سنة ، فيكون عمره ألفا وستين سنة ، وقيل له يا أطول الأنبياء عمرا كيف رأيت الدنيا ؟ قال دخلت من باب وخرجت من آخر وهو أول نبي عذّبه اللّه قومه وأول من قاسى أشدّ الهوان وأكبر الأذى في سبيل الدعوة إلى اللّه ، ومع أنه عمر في الدنيا ما عمر فقد ذمها وصغرها وقصر شأنها والناس لم يتعظو فيتها لكوا عليها مع علمهم أن مصيرها الفناء "إِلى قَوْمِهِ" الذين هو

منهم مطلب قصة سيدنا نوح عليه السلام :

"فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ" وحده واتركوا هذه الأصنام فإنها ليس بآلهة "مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" فلا تشركوا به شيئا "إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِنْ أصررتم على ما أنتم عليه "عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ 95" في الدنيا ، يريد به الطوفان الذي أعلمه اللّه به وفي الآخرة التعذيب بالنار ، قال عليه السلام إني أخاف مع أنه على يقين من ذلك إذ أوحى له به ربه ، إلا أنه لا يعلم وقت نزوله أيعاجلها به أم يتأخر "قَالَ الْمَلَأُ" الأشراف أولو الحل والعقد "مِنْ قَوْمِهِ" يا نوح "إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ" عن طريق الصواب لأنك تدعونا إلى شيء لم نعرفه نحن ولا آباؤنا فزيفك هذا "مُبِينٍ 60" واضح لا خفاء فيه ردا على نصحه لهم وانما قالوا ذلك لأنه لما خوفهم بالطوفان رأوه يصنع السفينة في أرض لا ماء فيها ، أي

أنك تتعب دون فائدة وهذا من الضلال لأن السفينة لا تجري على اليبس ، ولم يعلموا أن الذي أمره بعملها هناك قادر على إيجاد الماء لها ،

لهذا رد عليهم "قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ 61" إليكم لأرشدكم و"أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي" أوامره ونواهيه مما يعود لنفعكم "وَأَنْصَحُ لَكُمْ" فأرغبكم بفعل طاعته ليثيبكم عليها دار النعيم الدائم وأحذركم من معصيته لئلا يحل بكم

عذابه الدنيوي ثم ترجعوا إلى عذابه في الآخرة ، وهذا معنى النصح أما معنى الرسالة فهو عبارة عن تبليغ الرسول ما يوحى إليه من الذي أرسله إلى المرسل إليهم وتعريفه لهم وبيان ما يترتب عليه فعله وتركه وفعل نصح يتعدى باللام كما هنا وبغيره كقوله :

نصحت بني عوف فلم يتقبّلوا نصحي ولم تنجح لديهم رسائلي

(59/261)

إلا أن تعديه باللام أفصح لمجيئه بالقرآن نبع الفصاحة والبلاغة ومأخذها "وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ 62" من قدرته وشدة بطشه بأعدائه "أَ وَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى " لسان "رَجُلٍ مِنْكُمْ" تعرفون نسبه ومكانته فيكم "لِيُنْذِرَكُمْ" سوء عاقبة عملكم وانكبابكم على الشرك "وَلِتَتَّقُوا" عقاب اللّه المترتب على عدم قبوله "وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ 63" برفع العذاب المقدر نزوله عليكم في الدنيا وبإنالة الجزاء الحسن في الآخرة لأن القصد من إرسال الرسل من اللّه إليكم هو الإنذار بالكف عن المعاصي والركون للتقوى التي مصيرها الفوز برحمة اللّه "فَكَذَّبُوهُ" وجحدوا رسالته وأهانوه ، فنزل بهم العذاب على الوجه المبين في الآية 40 من سورة هود في ج 2 قال تعالى "فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ آمنوا مَعَهُ" من الغرق إذ أمرناهم أن يركبوا "فِي الْفُلْكِ" التي علمناه كيفية صنعها "وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآياتِنا" عن بكرة أبيهم "إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ 64" عن الحق وطرقه ، يقال عم لعمى البصيرة وعام لعمى البصر ، قال زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

وسيأتي أن عمى البصيرة يسمى عمها وسنذكر القصة مفصلة في تفسير الآية 25 من سورة هود فما بعدها في ج 2 .

قال تعالى "وَإِلى" قوم "عادٍ" أرسلنا ت (24)

(60/261)

"أَخاهُمْ هُوداً" بن شالخ بن ارفخشف بن سام بن نوح وقيل عبد اللّه بن رباح ابن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ولهذا قال أخاهم لأنه منهم ، وهذه عاد الاولى وكانت منازلهم بالأحقاف ، الرمل عند عمان وحضر موت راجع ما بيناه عنهم في الآية 5 من سورة الفجر المارة وذكرهم في الآية 15 من فصلت في ج 2 والآية 21 من الأحقاف أيضا "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ" ينعم عليكم فكيف تجعلون معه إلها آخر "أَ فَلا تَتَّقُونَ 65" ففيه وتخافون عقابه فيعذبكم كما عذّب قوم نوح وذلك لان كيفية إغراقهم مستفيضة بينهم "قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ" المتوغلون بالكفر لأنهم كافرون ويأمرون

غيرهم بالكفر بهود عليه السلام ويصدّونهم عن سماع نصحه والإيمان بربه "إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ" خفة عقل وسخافة رأي وحمق ، وإنما قالوا له ذلك لأنه زيّف لهم عبادتهم ونسبهم للسفه وقلة العقل وعدم انصياعهم باتخاذ ربّ واحد فقابلوه بالمثل وزادوا عليه قولهم "وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ 66" في ادعائك الرسالة من اللّه لأنّك رجل مثلنا "قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ" واني رجل مثلكم حقا "وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ 67" أرسلني لنصحكم وأمرني "أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي" التي خيرني بها عليكم "وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ 68" على تبليغها كما تلقيتها ، وإنما قال أمين لأن إعلامهم بامانته واجب عليه ليعلموا أن ما يأمرهم به هو من أمر اللّه بلا زيادة ولا نقص وانه لم يأتهم بشيء من عند ولا ليمدح نفسه ولا بمقابلة قولهم "إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ" لأن من أدب الأنبياء وحسن خلقهم ترك المقابلة بالسوء وكظم ما يسمعونه من النقد والإغضاء عن حقارتهم لهم لأن أقوالهم تصدر عن حلم وأناة ، وأقوال الكافرين من قوم عن جهل وسفاهة ، و

فيه تعليم للمقدرين للنصح والإرشاد كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ، والفرق بين قول نوح أنصح وقول هود ناصح لأن قول نوح كان متماديا ليل نهار كما أخبر عنه

ربه بقوله "إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا" الآية 5 من سورته في ج 2 ، وقول هود منقطع ولأنه لم يعش فيهم ما عاش نوح وإن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة بخلاف صيغة اسم الفاعل لدلالتها على الحال فقط .

ثم قال لهم "أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ" المراد به هنا وفي الآية المتقدمة ما أرسلا به وأنزل عليهما من اللّه كما يقال للقرآن ذكر وقد يفسّر بالموعظة "مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ" بأس اللّه وعذابه قصد نجاتكم "وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ" ربكم "خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ" في أرضه ومكنكم إياها بعد إهلاكهم إذا لم يبق من قومه الا من ركب السفينة وهم ثمانون نسمة .

(62/261)

وقد سميت الأرض التي نزلوا بها قرية الثمانين وهي معروفة حتى الآن بلفظ كردي "هشتاند" في الجزيرة قرب جبل الجودي الذي رست عليه "وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً" طولا وقوة وكثرة عليهم ، قيل كان طول أحدهم ما بين اثنى عشر ذراعا وستين ذراعا "فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ" نعمه المترادفة عليكم "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ 69" تفوزون برضائه لأن ذكر النعم يفضي إلى شكرها المؤدي إلى النجاة في الآخرة والزيادة في الدنيا ، راجع الآية 7 من

سورة ابراهيم في ج 2 "قالُوا أَجِئْتَنا" كان له صلّى اللّه عليه وسلم معبدا يتعبد به قبل الرسالة فلما شرفه اللّه بها جاءهم ليأمرهم وينهاهم حسب تعاليم ربه التي تلقاها لذلك قالوا له أجئتنا من معبدك "لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ" كما تزعم أن ليس رب غيره "وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا" من الآلهة عن طريق الاستفهام الإنكاري لاستبعادهم اختصاص العبادة بإله واحد وترك الأوثان والشرك الذي نشأوا عليه من قبل بعثته .

ومثله من هذه بالجهة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم إنه كان اتخذ غار حراء معبدا واعتزل قومه الذين كانوا يعكفون على عبادة الأصنام ، حتى جاءته النبوة فيه فأنذر بها قومه وقالوا له مثل ما قالوا له آنفا ، وقالوا له أيضا "فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 70" في ادعائك

الرسالة من اللّه إلينا وأن العذاب سينزل علينا ان لم نصدقك ونؤمن بربك

"قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ" رجز أي عذاب عظيم أبدلت الزاي سينا فيه وأصل الرجس الاضطراب ثم شاع في معنى العذاب لاضطراب من يحل ، به وقال بن زيد ، الرجس بمعنى العذاب في كل القرآن مأخوذ من الارتجاس وهو الارتجاز "وَغَضَبٌ" سخط

وطرد "أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ" لأحجار تعبدونها "سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ" آلهة وهي خلو من اسمها ومعناها ، لا دليل لكم عليها باستحقاق العبادة لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تبصر ولا تسمع ، فتسميتكم لها آلهة "ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ" حجة أو برهان بل ابتدعتموها ابتداعا وكذلك آباؤكم الذين قلدتموهم بعبادتها لهذا أنصحكم أن تقلعوا عنها وتؤمنوا بالإله الواحد وإذا بقيتم مصرين على ذلك "فَانْتَظِرُوا" نزول العذاب من ربي بكم "إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ 7" وقوعه إيفاء لوعيد الله لكم ووعده لي باهلاككم ونجاتي وفي هذا تهديد شديد لهم ان لم يرجعوا عن كفرهم ويؤمنوا به وبربه وقد أوقعه عليهم بدليل قوله "فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا" لمن صدق وآمن بوعدنا ووعيدنا "وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" الدالة على صدق نبينا إنجازا لوعدنا له فأنزلنا بهم العذاب المترتب على تكذيبهم لنبيهم وعدم اكتراثهم به وأهلكناهم جميعا إهلاك استئصال لأن الدابر أصل الشيء أو الكائن خلفه فقطع دابرهم كناية عن تدميرهم عن آخرهم .

ولهذا فإن عادا الأولى لا خلف لها "وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ 32" بي ولا بالذي أرسلته إليهم ونفي الإيمان عنهم مع تكذيبهم اشعار بأنهم خصوا بالهلاك لإصرارهم على الكفر ولو لم يهلكهم لبقوا مصرين عليه ولم يؤمنوا ، فهو كالعذر في عدم الصبر عليهم .

مطلب قصة هود عليه السلام :

وخلاصة القصة أن قوم هود تبسطوا في الأرض وعتو عتوا شديدا بما أعطوه من القوة والمال والكثرة ، وكان لهم ثلاثة أصنام الصداء والصمود والهباء ، وقد تغالوا في عبادتها وكان هود عليه السلام اعتزلهم إلى أن أرسله اللّه إليهم فأبدى لهم نصحه وخوّفهم وحذرهم مرفضوا الإصغاء إليه فأمسك اللّه عنهم القطر ثلاث سنين ، وكانت عادتهم إذا نزل بهم بلاء فزعوا إلى بيت اللّه الحرام يطلبون الفرج منه عند بيته ، ولما طال عليهم الأمر أوفدوا سبعين رجلا من خيارهم إلى بيت اللّه برئاسته قيل بن عنتر ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد وكان مؤمنا يكتم إيمانه

مثل مؤمن آل فرعون الذي سخره اللّه لموسى عليه السلام ، فنزلوا على معاوية ابن أبي بكر عميد العماليق نسبة إلى جدهم عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وهم أخوال معاوية هذا ، حينما كان مخيّما بظاهر مكة شرفها اللّه ، وهو يومئذ سيد مكة ، فأبطأوا عنده يشربون الخمور ويأكلون السمين ويسمعون غناء الجرادتين ومن جملة ما غنتهم به قول معاوية المذكور الذي علمه لهما وأمرهما بغنائه ليتيقظوا من غفلتهم وليحرضهم على إيفاء ما جاءوا لأجله من عند قومهم وهو :

ألا يا قيل ويحك قم وهينم لعل اللّه يسقينا غماما

فيسقي أرض عاد إن عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس ترجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم أيامى

وان الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعاديّ سهاما

وأنتم هاهنا فيما أتيتم نهاركم وليلكم تماما

فقبّح وفدكم من وفد قوم ولا لاقوا التحية والسلاما

ولما فرغتا منه تيقظوا وقال لهم مرثد واللّه لا تسقون ما لم تطيعوا نبيكم هودا وأظهر إيمانه

وطفق يلومهم بقوله :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ما تبلهم السماء

لهم صنم يقال لهم صمود يقابله صداء والهباء

فبصرنا الرسول سبيل رشد وأبصرنا الهدى وجلي العماء

(65/261)

و إن إله هود هو إلهي على اللّه التوكل والرجاء

فقد حكم الإله وليس جورا وحكم اللّه ان غلب الهواء

على عاد وعاد شر قوم فقد هلكوا وليس لهم بقاء

واني لن أفارق دين هود طوال الدهر أو يأتي الفناء

ثم بادر بإرشاد الوفد لطاعة هود فلم يفعلوا وردّوا عليه شر ردّ وبقوا مصرين على كفرهم وعبادة أوثانهم وأنفتهم من اتباع هود وقال طهمة بن البحري يرد على مرثد بن سعد .

الا يا سعد إنك من قبيل ذوي كرم وانك من ثمود

فإنا لا نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين قوم ورمل والصداء مع العمود

ونترك دين آباء كرام وذي رأي ونتبع دين هود

وقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا وخرجوا إلى مكة ولما توسطوا الحرم قال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم وأتى على دعائه الوفد كله ثم لحق بهم مرثد حيث أطلقه معاوية بعد ذهاب الوفد من عنده ورفع يديه إلى اللّه وقال اللهم اعطني سؤلي برا وصدقا ولا تدخلني فيما يدعونك ، فأعطي سؤله ، ثم جاء لقمان بن عاد وهو سيدهم أي سيد الوفد وقال : اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني طول العمر ، فأعطى عمر سبعة أنسر ، عاش كل واحد ثمانين سنة آخرهم اسمه لبيد ، وقال قيل اللهم إني اختار لنفسي ما يصيب قومي ، فقيل له إنه الهلاك ، فقال :

لا أبالي لا حاجة لي بالبقاء بعدهم ، فأجاب اللّه لكل دعوته .

هذا ، وليعلم أن قلوب الكفرة لا تزال متشابهة قال تعالى (تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية 118 من البقرة في ج 3 لأن ردّ الكافرين لأنبيائهم قديما متشابه وحتى الآن " و قد كانت عندي خادمة من الأرمن من الذين اضطرهم الأتراك للهجرة وصاروا يأخذون منهم طائفة طائفه إلى الجزيرة فتعدمهم وجئت يوما للدار فرأيت الخادمة تهيىء نفسها للسفر مع طائفتها ، فقلت لها إن ذهبت قتلت وأنا أقدر على إبقائك عندي ، فقالت لا عيش لي بعد قومي ، فذهبت وقتلت معهم" ولما خرجوا من مكة ووصلوا إلى خوصهم هلكوا معهم جميعا إذ ظهرت عليهم سحابات ثلاث حمراء وبيضاء وسوداء ، فاختار قيل السوداء لزعمه أكثر ماء واستبشر بها وقد أخبر اللّه عنهم في الآية 24 من سورة الأحقاف في ج 2 بقوله "هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا" فجاءهم ريح عقيم استمرت سبع ليال وثمانية أيام ، فأهلكتهم جميعا وارتحل مرثد مع جملة المؤمنين صحبة نبيهم هود

الى مكة وبقوا فيها إلى أن ماتوا جميعا رحمهم اللّه .

قالوا : وان كل نبي إذا منا أهلك اللّه قومه يأتي إلى مكة مع قومة المؤمنين يعبدون اللّه فيها حتى يموتوا ، وقد في المقدمة أن هذه القصص لا يعتمد على صحتها لأنها من نقل الأخباريين ، وانا نأخذ خلاصة ما لا مبالغة فيه وننبه القارئ ليكون على علم منه ونكفيه مؤونة تشوقه لقراءتها في تفاسير أو قصص مشحونة بما لا يعقل ، وممزوجة بما لا يجوز قراءته : قال تعالى "وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً" في النسب لا في الدين وهو ابن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن جاوز بن ثمود ابن غابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ" على صحة رسالتي وهي "هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ" أخرجها "لَكُمْ آيَةً" على صدقي "فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ" من ضرب أو منع من شرب أو مرعى فاذا فعلتم بها شيئا من ذلك "فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ 73" لا تطيقه أجسامكم ولا يقيكم منه أحد ولا مرد له من اللّه "وَاذْكُرُوا" يا قوم "إِذْ جَعَلَكُمْ" اللّه ربي الذي ادعو لعبادته "خُلَفاءَ" في الأرض "مِنْ بَعْدِ عادٍ" وقد علمتم ما حل بهم من العذاب "وَبَوَّأَكُمْ" أنزلكم "فِي الْأَرْضِ" أي أرض الحجاز لأن ثمد نسبة إلى ماء بين الشام والمدينة من أرض الحجاز وجعلها منازل لكم وملككم إياها "تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً" ذات غرف عالية تصيفون فيها "وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً" ناحية ذات حجر تشتون فيها ، وهذا مما يدل على زيادة ترفهم ونعيمهم في الدنيا بالنسبة لوقتهم "فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ" نعمه المترادفة عليكم طلبا لدوامها ، وفيها حث من اللّه لعباده على

شكر نعمه وحق لها أن تشكر لأن الشكر يزيدها كما نوهنا عنه آنفا في الآية 69 المارة فراجع ما

(68/261)

ذكرناه هناك "وَلا تَعْثَوْا" تكثروا الفساد وتأتوا بأشده وأفظعه "فِي الْأَرْضِ" التي منحكم اللّه إياها وغيرها مما كانت في تلك الغير حالة كونكم "مُفْسِدِينَ 74" فيها فإن مطلق الإفساد يزيل النعم عنكم ويعرضكم للهلاك ولا تكفروا فان الكفر يمحقكم "قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا" عن دعوة صالح الصالحة وأنفوا من إرشاده الحق "مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا"

الفقراء مالا ورجالا "لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ" به عليه السلام من المستضعفين وهذه الجملة جاءت بدلا من الجملة قبلها على طريق الاستفهام الإنكاري "أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ" استهزاء بهم لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك ومعتقدون به ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر ، إذ لم يقولوا لهم ، نعم بل "قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ 75" مصدقون وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم فكأنهم قالوا لهم نعلم بإرساله .

وبما أرسل به ولا نشك بما جاء به ونخبركم انا مؤمنون به لأن الإيمان به واجب فهل تؤمنون به

مثلنا فأجابوهم أيضا بمثل جوابهم بمقتضى الظاهر فبذل ان يقولوا لهم انا بما أرسل به مؤمنون "قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا" لأولئك المستضعفين "إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ 76"

وفائدة هذا الرد على ما قاله.

المؤمنون من جعلهم إياه معلوما ومعلما عندهم، أي أن الذي فلتموه ليس معلوما عندنا ولا مسلما، وبما أن جواب المؤمنين لم يزدهم إلا عتوا اتفقوا على مخالفة رسولهم "فَعَقَرُوا النَّاقَةَ" التي هي آيته أي قطعوا عروقها وهم قد ذبحوها ذبحا وسمي النحر عقرا لأن الناحر يعقر البعير

(69/261)

أولا ثم ينحره أي أنهم عقروها ثم ذبحوها "وَعَتَوْا" ازداد استكبارهم "عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا" به من العذاب الذي تهددنا به "إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ 77" من قبل اللّه كما تزعم فدعا ربه "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" خفقان القلب من أثر الزلزلة الشديدة الناشئة من الصيحة إذ جاء في 43 من سورة الذاريات في ج 2 الآية وكذلك في سورة المؤمنين الآية 41 "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ" والصيحة الشديدة يحصل منها الخفقان من شدة الخوف لأنها خارقة للعادة كيف لا وهي من السيد جبريل عليه السلام الذي وصفه اللّه بالقوة فلا بدع

أن تزلزل الأرض منها ويضطرب من عليها "فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ 78" على ركبهم ميتين وهم قعود ، والجثوم للناس والطير ولبقية الحيوانات البروك "فَتَوَلَّى" صالح "عَنْهُمْ" لما رأى ما حل بهم وصار يخاطبهم آسفا على عدم ايمانهم به وهو مدبر عنهم وهذا كما فعل رسول اللّه محمد صلّى اللّه عليه وسلم مع أهل القليب ، راجع الآية 8 من سورة الأنفال في ج 3

"وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي" بإرسالي من لدنه إليكم "وَنَصَحْتُ لَكُمْ" بأن تؤمنوا به وحذرتكم غليظ عذابه "وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ 79" بل تبغونهم وتعادونهم شأن أمثالكم الكفرة .

مطلب قصة صالح عليه السلام :

(70/261)

وخلاصة القصة أن قبيلة ثمود لما ملكت الأرض بعد عاد كثروا وعمروا كثيرا فعكفوا على عبادة الأصنام ، وأفسدوا في الأرض ، فأرسل اللّه لهم صالحا فصار يدعوهم إلى طريقه السوي ويأمرهم بترك الإفساد فلم يقبلوا ولم يؤمن منهم الا قليل من فقرائهم ، وقد كبر سنه عليه السلام وألح على قومه بترك عبادة الأوثان والإفساد فطلبوا منه آية على صدقه بأن

يخرج لهم من صخرة كبيرة عند الحجر تسمى الكائية ناقة عشراء جوفاء وبراء مخرجه تشاكل البخت من الإبل ، ذات السنامين ويؤمنوا به ، فقبل منهم وأخد عليهم العهود والمواثيق على ذلك فصلّى ودعا ربه ، وهم أخرجوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب له فأجاب اللّه دعاءه وخيّبهم وأوثانهم ، وأخرج له ناقة كما طلبوا تشاكل البخت من الإبل ذات السنامين ويؤمنوا به ، فقبل منهم وأخذا عليهم العهود والمواثيق على ذلك .

فصلّى ودعا ربه ، وهم أخرجوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب له ، فأجاب اللّه دعاءه او خيبهم وأوثانهم ، وأخرج له ناقة كما طلبوا تشاكل البخت من الإبل رجعلها اللّه معجزة عظيمة له وهي نفسها معجزة أيضا ، لأن ثمود لهم ماء يشربون منه هم وحيواناتهم يوما وهي تشرب بقدر ما يشربون جميعا ، وكانوا يحلبونها يوم شربها فيكفيهم حليبها كلهم وكانت تمنع الحيوانات عن شرب الماء في نوبتها وهذه الخصال دلت بأنها من أعظم المعجزات وأكبر الآيات فآمن به قليل من قومه وازداد الآخرون عتوا ، وبما أنهم الأكثر قر رأيهم على ذبحها فذبحوها بداعي أنها تقاسمهم الماء وكأن الحليب الذي يأخذونه منها لا يكفيهم عنه قاتلهم أليس الأمر كذلك

(71/261)

"بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ 81" متجاوزون الحلال إلى الحرام ولذلك آثرتم الدبر على الفرج ، وإنما ذمهم اللّه لأن القصد من وضع الشهوة في الإنسان طلب الولد وبقاء النوع الإنساني وتكاثره لعمران الدنيا إلى أجل أراده اللّه ، فإذا عدل عن هذا القصد تعطل الكون وكانت تلك الشهوة بهيميّة محضة ، ولهذا خصهم اللّه بالإسراف لأنه وضع الشيء بغير محله "وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ" تجاه تعنيفه لهم على قبح فعلهم ونصحه لهم بتركه "إِلَّا أَنْ قالُوا" بعضهم لبعض "أَخْرِجُوهُمْ" أي لوطا ومن آمن به "مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ 82" من صنيعكم ويتنزهون مما أنتم عليه .

قال ابن عباس عابوهم بما يمدح به قال تعالى "فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ" لأنها لم تؤمن به وكانت تخبر قومها بمن يأتيه من الضيفان وتحرضهم عليهم لذلك "كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ 83" الباقين مع المعذبين من قومها ولم يقل من الغابرات ، لأنها هلكت مع الرجال المغلّب ذكرهم على النساء ، والغبر البقاء يقال غبر في داره إذا بقي "وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً" عظيما مهولا لأنه مطر عذاب لا مطر رحمة ، والتنوين يدل على شدة فظاعته ، وقلّ أن يأتي المطر بمعنى الغيث بل قد لا يوجد في القرآن إلا بمعنى العذاب ، وأمطر بمعنى أرسل ، ومطر بمعنى أصاب ، فيكون مطر الرحمة وأمطر للعذاب "فَانْظُرْ" أيها العاقل المفكر "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ 84" فهي شيء عظيم لا تتصوره العقول ، هذا ما قصه اللّه علينا من خبر لوط

عليه السلام مع قومه .

مطلب قصة قوم لوط عليه السلام :

(72/261)

وقال الأخباريون كانت المؤتفكة خمس مدائن بين الشام والمدينة مخصبة ذات زروع وثمار ، فآذاهم الناس بالأخذ منها فعرض لهم إبليس وقال لهم إذا فعلتم بهم كذا (ودعاهم إلى نفسه فلاطوا به علّمهم لعنه اللّه هذه الفعلة الخبيثة ابتداعا من حيث لم تخطر ببالهم ، فهو أول من ليط به لأنه كان يظهر لهم على صورة البشر)

امتنعوا من التعدي على ثماركم ونجوتم بها ، فأطاعوه وعملوا بما أشار به عليهم فهو أول من سن هذه السنة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وصاروا كلما مرّ بهم أحد تعاونوا عليه وفعلوا به ، فكان لهم ما قال اللعين ، لأن الناس امتنعت حتى من المرور على قراهم لأنهم رأوا ما لم يسمعوا به من الخزي والعار ، وداموا عليه حتى استحكم فيهم هذا الفعل القبيح ، واستحسنوه حتى صاروا يفعلونه ببعضهم وبنسائهم أيضا ، فأهلكهم اللّه بعد أن وقع منهم التعدي على لوط وضيفانه من الملائكة ، كما سيأتي في تفسير الآية 77 من سورة هود في ج 2 ، وكيفية إهلاكهم كما قال مجاهد أن جبريل عليه السلام نزل إلى

الأرض فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها من تحت الثرى ورفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بما أمطروا من الحجارة .

الحكم الشرعي : الحرمة القطعية ويكفر مستحله .

قال في التتارخانية نقلا عن السراجية : اللواطة بمملوكه ومملوكته حرام ، وكذا امرأته ، إلا أنه لا يكفر مستحلّه ، وهذا بخلاف اللواطة بالأجنبية والأجنبي فإنه يكفر مستحلّه قولا واحدا ، قال الإمام الأعظم لا حدّ بوطء الدبر مطلقا وفيه التعزير ويقتل من تكرر منه على المفتى به كما في الأشباه .

(73/261)

وقال الإمامان : إن فعل بالأجانب حدّ كحد الزنى ، وإن في عبده وأمته وزوجته بنكاح صحيح أو فاسد فلا حدّ اجماعا ، كما في الكافي وغيره بل يعزّر في ذلك كله ويقتل من اعتاده ، وروي عن علي كرم اللّه وجهه أنه رجم لوطيا وهو أشبه بما قص اللّه تعالى من إهلاك قوم لوط بإمطار الحجارة عليهم ، وقد أخرجه البيهقي وصححه الحاكم وعليه فيكون حدّه الرجم .

هذا ، وقد جاء عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : (لعن اللّه سبعة من خلقه فوق

سبع سموات فردد لعنته على واحد منها ثلاثا ولعن بعد كل واحدة لعنة لعنة ، فقال ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط) الحديث .

وجاء أيضا (أربعة يصبحون في غضب اللّه ويمسون في سخطه) وعدّ منهم من يأتي الرجل – .

وزعم علي بن الوليد المعتزلي أنه لا يمتنع أن تجعل اللواطة في الجنة لزوال المفسدة ، ولأنها من جملة

الملاذ وليس هناك أذى أو قطع نسل ولذلك أبيح شرب الخمر فيها للذة إذ ليس هناك زوال عقل ولا عربدة ، فقال له أبو يوسف القزويني الميل إلى الذكور عادة قبيحة والمحل (الدبر) لم يخلق للوطء ، فلم تبحه شريعة ما ، بخلاف الخمر فإنه خلق للشرب وأباحته بعض الشرائع قبل الإسلام ، بل أوله كان مباحا ، ومهما كان فلا يقاس قبح اللواط بالخمر .

مطلب رد أبي يوسف على المعتزلي :

وانكار قبح اللواطة مكابرة ، وكانت الجاهلية مع ارتكابهم كافة المفاسد تعيّر بها فيقولون فلان معفر استه بمعرض الذم ، وإذا كنت يا ابن الوليد ترضى به اليوم فهل ترضى به غدا في الجنة ، وذلك لأنه كان مأبونا قد ألف ذلك واعتاده والعياذ باللّه ، فجرّه اعتياده إلى الجرأة على القول بأن هذه الفاحشة الخبيثة من ملاذ الجنة المطهرة من الأرجاس ، قبحه اللّه وقبح فاعليها ومحبذيها .

وقد صحح العلماء الأعلام أنها لا تكون في الجنة قطعا لأن اللّه سماها فاحشة هنا وخبثا في الآية 73 من سورة الأنبياء في ج 2 ، والجنة منزهة عن الفواحش والخبائث ، قال بعض العارفين واللّه الذي لا إله إلا هو لو لم يذكر اللّه عمل قوم لوط في كتابه ما خطر ببالي كونه واقعا أو يقع ، وذلك لطهارة سريرته وكماله ، لأن الكامل لا يرى النقص ، وألحق بعض العلماء السّحاق باللواطة ، وبدأ أيضا في قوم لوط ، لأن رجالهم لما استغني بعضهم ببعض بعد أن ألفوا اللواطة تركوا نساءهم ، فصارت المرأة منهم تأتي الأخرى .

جاء عن حذيفة رضي اللّه عنه قال : إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وعن أبي عمرة قال : قلت لمحمد بن علي ، عذب اللّه نساء قوم لوط بعمل رجالهم ، فقال له : اللّه أعدل من ذلك ، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، فعذبهن كما عذبهم جزاء وفاقا .

وعن علي كرم اللّه وجهه قال على المنبر سلوني ، فقال ابن الكواء هل تؤتى النساء في أعجازهن ؟ فقال سفلت وسفّه اللّه بك ، ألم تسمع قوله تعالى (أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ) هذا وإن العلماء صرحوا بأن حرمة اللواطة أشدّ من الزنى عقلا وطبعا وشرعا ،

أما عقلا وطبعا فإن العقول السليمة والطبيعة الطاهرة لم تألفه لشدة قبحه فعلا ومحلا ، وأما شرعا فلأن حرمة الزنا تزول بالتزويج والحد والشراء إذا كان المفعول به رقيقا ولا يمكن شيء من ذلك في اللواطة .

وقول الإمام بعدم الحدّ تعليظا لأن الحد مطهر عنده ، وبه قال أكثر العلماء ، وعليه فيلقى اللّه من أجري عليه الحد خاليا مما عمله بخلاف ما لا حد فيه كاللواطة ، فإنه يلقى اللّه فاعلها ملوثا بجرمه .

(75/261)

هذا ، وإن بعض السفهاء والفسقة خبيثي النفوس نجسي العقيدة كابن الوليد المذكور أخزاهم اللّه جميعا وأذلهم ، يفتخرون بمثل هذه الفعلة الفظيعة ومنهم يفعلها انتقاما انتقم اللّه منه في الدنيا والآخرة ، ومن المفعول بهم من اتخذها مهنة ، أهانه اللّه ، ومنهم من يقدم نفسه لبعض الخبثاء أمثالهم من الموظفين ومن هو واسطة لهم لعنهم اللّه وأزال نعمه عنهم ليوظفه أضافه اللّه لإخوانه قوم لوط ، وفضحهم في الدنيا وعذبهم في الآخرة ، ومنهم من ابتلي بها والعياذ باللّه حتى أنهم ليعطون مالا لمن يفعل بهم وهم كثيرون في زماننا ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك ، لأنهم تقوا بنعمتك على معصيتك .

قال تعالى "وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً" بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليهما السلام ، أي أرسله إلى قومه ولد مدين ومدين صارا اسما للقبيلة ، وكان عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وكانوا كافرين ينقصون الكيل ويبخسون الميزان ، فبادر بنصحهم وتحذيرهم عاقبة أمرهم "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ" موعظة "مِنْ رَبِّكُمْ" فاتعظوا بها ، ولم تذكر لسيدنا شعيب معجزة في القرآن والقول بأنه لم يكن له معجزة غلط لأن الفاء في قوله جل قوله "فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ" أتت لترتيب الأمر على مجيء البينة ، والقول بأنها عاطفة على (اعْبُدُوا) بعيد لا يكاد يقوله عارف ، وعدم ذكرها في القرآن لا يدل على عدم تخصيصه بشيء من المعجزات التي لا بد لكل نبي منها دلالة على صدق دعوته مما من شأنه أن يعجز البشر على مثله ، ومن المعلوم أن ليس كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن العظيم وما من عموم إلا وقد خصص ، وروي أنه لما كان موسى عليه السلام عنده

(76/261)

يرعى بغنمه حاربت عصاه التنين ، وهذه العصا أعطاه إياها شعيب عليه السلام وهي عصا آدم ، وقد وقعت على يد موسى سبع مرات وهو عند شعيب ، وقد وعد موسى

بأن يكون له الدرع من أولاد غنمه ، فولدت كلها درعا ، وهذه معجزة أيضا إذ لم يسبق أن أغناما كثيرة تلد كلها درعا على نمط واحد ، ولم يكن موسى إذ ذاك نبيا لتكون هذه المعجزات له ، فتكون كلها لشعيب .

هذا ، وبعد أن أهلك اللّه قومه أرسله إلى أصحاب الأيكة فأهلكهم اللّه بعذاب يوم الظلة كما سيأتي في الآية 189 من سورة الشعراء الآتية ، ولم يبعث اللّه نبيا مرتين غيره فهذا من خصائصه أيضا وهي فضيلة عظيمة ، وقيل إنه بعث مرة ثالثة إلى أصحاب الرّس المبينة في الآية 12 من سورة ق المارة ، وإن إهلاك قومه مرتين لعدم اجابتهم دعوته بعد معجزة أيضا .

مطلب في عمى شعيب عليه السلام :

وهنا مسألة وهي أن العلماء نصّوا على أن الأنبياء سالمون من كل عيب ونقص حسي أو معنوي ، ولا شك أن العمى نقص حسي ، ومما هو شائع أن سيدنا شعيب كان أعمى ، فإذا صح ذلك فيكون هذا طارئا عليه بعد النبوة كبلاء أيوب وعمى يعقوب عليهم السلام ، إلا أن بلاء أيوب وعمى يعقوب زالا بحياتهما بنص القرآن لأنه من جملة ما ابتلى به أصفياءه ليختبرهم أي ليظهر للناس حالهم معه مع وجود البلاء وإلا فهو عالم بهم قبل ، فلو كان عمى شعيب من هذا أقيل لذكره اللّه في القرآن كما ذكر بلاء غيره ، وإذ لم يذكره فلا محل للقول بعماه ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 84 من سورة يوسف في ج 2 والآية 25 من

سورة القصص الآتية ، فظهر من هذا أنه لو كان أعمى حقيقة لما أغفله القرآن ، وعليه فإن القول بعماه غير صحيح ، قال تعالى "وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ : أَشْيَاءَهُمْ" حقوقهم في الكيل والوزن والذرع وغيره أي لا تقصوها ، أدوها كاملة وافية فإنه أبرأ الذمة .

(77/261)

وأمرأ للقلب "وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" بأن تسلبوا أو تقتلوا أو تؤذوا المارة والقارّة من العباد "بَعْدَ إِصْلاحِها" ببعثة الرسل الذين أقاموا فيها العدل بين الناس وحاربوا الفساد والظلم ، بل اسلكوا طريقهم أيها الناس في الإصلاح النافع

ذكره في الدارين "ذِلِكُمْ" عدم البخس والنقص والإفساد "خَيْرٌ لَكُمْ" عند بارئكم وأنمى لأموالكم وأصلح لنفوسكم "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ 85" بالله وما أقوله لكم عنه "وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ" طريق عام أو خاص والباء هنا للملاصقة والملابسة ، والأولى أن تكون بمعنى ، على ، لمناسبة فعل قعد ، أي لا تقعدوا على مطلق طريق بدلالة التنوين "تُوعِدُونَ" من آمن بي وتهدّدونه لتعيدوه إلى الكفر الذي أنتم عليه وتمنعون الآخرين من الإيمان بالله وبما جئتكم به منه "وَتَصُدُّونَ" العامة والخاصة "عَنْ" سلوك "سَبِيلِ اللَّهِ" المستقيمة الحقة "مَنْ آمَنَ" به "وَتَبْغُونَها" أي طريق الله العادلة "عِوَجاً" مائلة عن الصواب ، وتلتمسون الزيغ لها

وتصفونها للناس بالاعوجاج وعدم الاستقامة لئلا يسلكونها ، راجع الآية 45 المارة والآية الأولى من سورة الكهف في ج 2 ، قال ابن عباس كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى إليهم أن شعيبا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ، وهكذا كانت قريش تفعل بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم كما سيأتي في الآية 70 من سورة النمل الآتية أيضا "وَاذْكُرُوا" يا قوم توالي نعم اللّه عليكم وأفضاله "إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ" في العدد والعدد والقوة والمال والأولاد والعز لأن كثر المشدد يدل على التكثير ، قالوا إن مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط فرمى في نسلها البركة وهذا مما يستوجب شكر اللّه ، يا قوم فمالكم تكفرون به ولا تفكرون بعاقبة أمركم فتلتفتوا "وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ 86" من الأمم

السالفة حيث أهلكهم اللّه حينما كذبوا رسلهم "وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ" في التوحيد والتصديق بالنبوة والمعاد واجتناب المناهي وامتثال الأوامر "وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا" بشيء من ذلك أو اختلفتم بينكم من أجل الإيمان بذلك وعدمه "فَاصْبِرُوا" انتظروا أيها المعاندون "حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا" وتروا حكمه كيف يعزّ المؤمن ويذل الكافر "وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ 87" لأنه منزه عن الجور والحيف في حكمه وهو الحاكم

الحقيقي الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ له ، وما سمي الناس حكاما إلا مجازا "قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ" جوابا لنصحه وتهديده ، واللّه إن لم ترتدع "لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا" ما دمت مناوئا لنا ولآلهتنا وعاداتنا "أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا" فتكون مثلنا تعمل ما نعمل وتترك ما أنت عليه ، كلفوه عليه السلام اختيار أحد الأمرين مع أنه لم يكن على ملتهم قط حتى يكلفوه العودة إليها .

ولكن الذين آمنوا به كانوا على ملتهم فخاطبوه تبعا لهم ، وقال بعض المفسرين إنّ عاد بمعنى صار واستشهد بقول القائل :

فإن لم تك الأيام تحسن مرة اليّ فقد عادت لهن ذنوب

(79/261)

أي صارت وعليه يكون المعنى أو لتصيرنّ على ملتنا "قالَ" لهم شعيب عليه السلام على طريق الاستفهام الإنكاري "أَ وَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ 88" أي أتريدون أن نفعل أحد الأمرين كرها لأن الواو هنا للحال ، وكأنهم قالوا له نعم كرها فقال عليه السلام "قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً" فيما وعظناكم به "إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ" الضالة المهلكة "بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها" واتضح لنا بطلانها وقد نظم نفسه في جملة المؤمنين مع أنه كان بريئا مما كانوا عليه لأن الكفر على الأنبياء

محال ، ولكنه تكلم بلسان قومه المؤمنين مجريا الكلام على حكم التغليب "وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا" وهي ملة الكفر ونترك الحق الذي نحن عليه "إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا" خذلاننا ومنعنا من الطاقة القدسية ، فحينئذ يمضي فينا قضاؤه وقدره تنفيذا لسابق علمه ، وهذا القول من شعيب على لسان قومه المؤمنين أيضا الذين لا يقدرون أن يردوا عليهم لضعفهم وهو من قبيل الاستسلام لمشيئة اللّه ، لأن الأنبياء والكاملين دائما يخافون العاقبة وانقلاب الأمر لعلمهم ان الإله لا يقيد ولا يسأل عما يفعل ، فإن العبد كلما ازداد قربا من ربه ازداد خوفا منه ومعرفة بعظمته .

قال الخليل عليه السلام "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" الآية 35 من سورة ابراهيم في ج 2 وكان محمد صلّى اللّه عليه وسلم يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، ومن المعلوم بداهة ان ابراهيم يجتنب الأصنام وان محمدا ثابت قلبه على دين ربه ، وعليه يكون معنى الاستثناء : إلا أن يكون قد سبق في علمك ومشيئتك أن نعود فيها .

يدل على هذا قوله "وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً" ت (25)

بما كان قبل أن يكون وما سيكون قبل تكوينه .

ونظير هذا قول إبراهيم في الآية 80 من سورة الأنعام في ج 2 لأنه لما ردّ الأمر إلى المشيئة وهي غيب عليه مجد اللّه بالانفراد بعلم الغيب ، وكذلك شعيب لما رد المشيئة إلى اللّه مجده بقوله وسع إلخ وقال "عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا" في أمورنا كلها فقد أظهر عجزه للّه واعتماده عليه وحده وأعرض عن المفاوضة مع الكافرين إذ رأى إصرارهم وأيس من ايمانهم ، ثم قال هو والمؤمنون به "رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا" الذين لم يؤمنوا بك وهم مكلفون أن يؤمنوا إيمانا "بِالْحَقِّ" الواجب عليهم اتباعه وسلوكه "وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ 89" الحاكمين ، وفتح هنا بمعنى حكم وقضى بلغة اليمن وفرقة من حمير ومراد قال قائلهم :

ألا أبلغ بني عصم رسولا فإني عن فتح حكم غنيّ

أي غني عن قاضيهم وإن اهل عمان يسمون القاضي فاتحا ، ويؤذن قوله عليه السلام بانه ترك الأسباب إلى مسببها واقبل إلى ربه بمن معه "وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ" لبعضهم "لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً" وتركتم دين آبائكم الذي عليه أسلافكم من قبل "إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ 90" مغبونون لخلافكم اوائلكم وحرمانكم من فوائد البخس والتطفيف الذي ينهاكم عنه فلما أظهر اللّه للناس إصرارهم على الكفر والمعاصي أهلكهم

"فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ 91" تقدم تفسيره آنفا في الآية 78 المارة قال تعالى "الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا" أي ذهبوا وكأنهم لم يوجدوا في الدنيا دهرا طويلا برغادة عيش وهذا معنى غنى وضده الفقر قال حاتم . .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكأسهما الدهر

فما زادنا بغيا على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

(81/261)

"الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ 92" أنفسهم ونشبهم في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة "فَتَوَلَّى" شعيب "عَنْهُمْ" أي المهلكين "وَقالَ" آسفا على عدم إيمانهم ومبيّنا تقصيرهم وعدم تقصيره بإرشادهم "يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى" أحزن وأتوجع "عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ 93" أي

لا يجب على ذلك لأني لم آل جهدا في نصحهم ، وانما قال هذا لأنه كان يتوقع منهم الإيمان وكانوا كثيرين لذلك أحس بالحزن عليهم واشتد به الأمر حتى قال ما قال وعزّى نفسه بأنهم هم الذين اهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر وعدم التفاتهم إلى نصحه وقد تقدم إليهم بالمعذرة وهكذا عاقبة كل أمة لم تؤمن برسولها وهو شأن صغار العقول الذين يقال فيهم :

إذا الأحوال دبّرها شباب فإن مصيرها صاح الرزايا

متى تصل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركايا

ومن يثني الأصاغر عن مراد وقد جلس الأكابر في الزوايا

وانّ ترفّع الوضعاء يوما على الرفعاء من بعض البلايا

إذا استوت الأسافل والأعالي فقد طابت منادمة المنايا

مطلب قصه سيدنا شعيب عليه السلام :

(82/261)

هذا ما قصه اللّه علينا في أمر شعيب وقومه وكيفية إهلاكهم ، اما ما ذكره القصاص فخلاصته أنه عليه السلام أرسله اللّه إلى اصحاب الأيكة فلم يؤمنوا فأرسل عليهم حرا شديدا أخذ بانفاسهم وحبس الريح عليهم سبعة أيام ولم يجدوا ما يقيهم منه حيث لا واقي من أمر اللّه فهربوا إلى البرية فأظلتهم سحابة فيها ريح طيبة وهي الظلة المذكورة في الآية 189 من سورة الشعراء الآية ، فاجتمعوا تحتها كلهم فالهبها اللّه نارا عليهم ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا جميعا ، ثم أرسله إلى أهل مدين الذين كان ملوكهم أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ، وكان ملكهم حين إهلاك الظلة ، كلمن ، فلما دعاهم إلى الإيمان ولم يؤمنوا أيضا أرسل عليهم جبريل عليه السلام فصاح بهم صيحة أخذتهم الرجفة من هولها فأهلكوا جميعا كما جاء في الآية 37 من سورة العنكبوت ج 2 وقالوا ان كلمن رثته بنته عند نزول العذاب بهم بقولها :

كلمن قد هدّد كن هلكه وسط المحلة

سيد القوم أتاه الحتف نار تحت ظلة

جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحلة

(83/261)

وليس هذا مما يعول عليه ، والأحرى عدم صحته لأن العذاب نزل دفعة واحدة فمتى تمكنت من إنشاء هذه الأبيات ، وعلى القول بأنها كانت مع المسلمين ، فإن أباها لم يهلك بالظّلة لأن أصحاب الظلة أهل الأيكة الذي ذكرهم في الآية 189 من سورة الشعراء وأبوها هلك بالصيحة مع قومه أهل مدين ، وهذه الزيادة أسقطت اعتبار صحة الأبيات فيها على فرض أنها مسلمة لم تهلك ، وهكذا الأخباريون أحيانا يهرفون بما لا يعرفون ، ولذلك لا يوقن بنقلهم قال تعالى "وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ" تشير هذه الجملة بالإجمال إلى سائر الأمم وأحوالها مع أنبيائها وفيها تخويف لقريش وتحذير من أن تكون عاقبتهم الإهلاك إن لم يؤمنوا كسائر الأمم الكافرة ، وفيها حذف وإضمار أي فكذبوه "إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ" الفقر ودواعيه "وَالضَّرَّاءِ" المرض ولوازمه "لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ 94" إلى ربهم

فيرجعون عن كفرهم فيؤمنوا فيقبلهم ويعفو عنهم ، وفي هذه الجملة زجر لكافة الكفرة بأن يقلعوا عما هم عليه وإلا فمصيرهم التدمير .

(84/261)

وتعريف لحضرة الرسول بأحوال الأنبياء مع أممهم وسنة اللّه فيهم تسلية له ليهون عليه ما يلاقيه من قومه من الأذى والتكذيب "ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ" أي بدل البلاء والمحنة والشدة التي كانوا عليها بالسعة والصحة والرخاء مما يستدعي الإيمان بنا والانقياد إلى طاعتنا شكرا لنعمنا عليهم بدفع السيء عنهم وجلب الحسن لهم "حَتَّى عَفَوْا" كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم ، وعفى تأتي بمعنى زاد قال تعالى (وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) الآية 229 من البقرة في ج 3 وبمعنى كثر ونمى كما هاهنا ، أما ما جاء في الحديث أعفوا اللحى واحفوا الشارب ، بمعنى اتركوا اللحى لا تحلقوها وليس المراد لا تقصوا منها شيئا إذ يجوز أخذ ما زاد منها على القبضة والمراد بإحفاء الشارب الأخذ منه أيضا بحيث تظهر حواف الشفة ، وقد غلط من فسّره بالحلق ، لأن الرسول لم يفعله ولأنه مثلة والشريعة جميلة مجملة لا تأمر بما هو مثلة ، ولهذا البحث صلة في الآية 187 من هذه السورة .

أما ما فسره أبو مسلم بأن المراد من عفوا اعرضوا عن الشكر ، فليس بيانا للمعنى اللغوي بل أخذا من معنى الآية وليس بشيء

(85/261)

"وَقَالُوا" لما غفلوا عن استدراجنا إياهم ولم يعلموا كيفية إملائنا للظالم وأخذه على غرّة ، واننا تارة نأخذ العاصين بالشدّة وطورا بالرخاء ، وظنوا أن عادة الدهر هكذا مرة سيئا وأخرى حسنا ، وأن الشدة لم تكن عقوبة ، قال بعضهم لبعض اثبتوا على ما أنتم عليه كما ثبت آباؤكم من قبل إذ "قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ" مثلنا فصبروا ولم يغيروا دينهم بسبب ما أصابهم ، ولما أظهروا ما انطوت عليه سرائرهم إثر إنعامنا عليهم ولم يصغوا لنصح رسلهم أوقعنا بهم ما هدّدوا به "فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ 65" بشيء من المخاوف لأنهم كانوا في مأمن من العذاب بزعمهم ولم يخطر مكروه ببالهم قال تعالى "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا" بالله ورسله وعملوا ما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه "وَاتَّقَوْا" الكفر والإفساد في الأرض "لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ" من رياح لينة وغيث نافع "وَالْأَرْضِ" من نبات وثمر ولصببنا عليهم الخيرات من كل جهة "وَلَكِنْ كَذَّبُوا" آياتنا ورسلنا "فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ 96" من الأعمال الخبيثة وعاقبناهم بأنواع العذاب "أَفَأَمِنَ

أَهْلُ الْقُرى "كفار مكة وأضرابهم فيشمل كل أهل قرية كذبت الرسل وأنكرت ما جاءتهم به "أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا" عذابنا "بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ 97" أي لا يأمنوا وقوع العذاب بهم على غرة وغفلة

أبت ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ قال يا بنتاه إن أباك يخاف البيات ، أراد الآية المارة ، رحمه اللّه

(86/261)

رحمة واسعة ، فيجب على كل عاقل أن يخاف هذا ، لأن الموت يأتي بغتة والقيامة كذلك ، فإذا حلّ الأجل لا يستطيع القائم القعود ولا القاعد القيام ، ولهذا حث الشارع على الوصية ، فلا ينبغي له أن ينام إلا ووصيته تحت رأسه ، لئلا يفاجئه الموت فلا يتمكن من بيان ماله وما عليه ، وما يريد أن يخصّ منه لأرحامه ولوجوه البر فيندم من حيث لا ينفعه الندم قال تعالى "أَ وَلَمْ يَهْدِ" يتبين من أحوال الأمم السابقة "لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ" إهلاك "أَهْلِها" بنوع من أنواع العذاب الذي قصصناه عليك يا أكمل الرسل بأنا "لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ" أخذناهم "بِذُنُوبِهِمْ" كما أخذنا من قبلهم "وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ" فلا نتركها تعي منافع الإيمان ونهملها وشأنها حتى تختار الكفر والشرك كما فعلنا بمن قبلهم من الأمم

الباغية وإذا ختمنا على قلوبهم منعناها من قبول الإيمان "فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ 100" المواعظ الحسنة سماع قبول ، أي لا يقبلونها لأنا لا نريد إيمانهم لخبث طويتهم وإصرارهم على الكفر

(87/261)

قال تعالى "تِلْكَ الْقُرى" التي بينا لأهلها طريقي الخير والشر كقوم نوح وعاد وصالح وهود ولوط وشعيب الذين ختمنا على قلوبهم لعلمنا بخبثها فلم ندعها تقبل نصح رسلهم وأهلكناهم ببغيهم "نَقُصُّ عَلَيْكَ" يا محمد "مِنْ أَنْبائِها" أخبار أهلها وأمر رسلهم معهم لتعلم ماهية مقاومتهم للرسل وعاقبة أمرهم معهم وتتيقن أنا ناصروك على قومك كما نصرناهم ، ومهلكو من لم يؤمن بك كما أهلكنا من لم يؤمن بهم "وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" مثلما جئنهم بالمعجزات "فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا" بعد رؤية ما أظهروه لهم من المعجزات "بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ" قبل مجيء الرسل إليهم ورؤية آياتهم ، بل استمروا على كفرهم وأصروا على عنادهم ، وفاجأوا رسلهم بالتكذيب ، ولم يلتفتوا إلى معجزاتهم ، فكانت حالتهم بعد مجيء الرسل كحالتهم قبلها كأن لم يبعث إليهم أحد ولم يؤمروا ولم ينهوا وهذه الآية قريبة في المعنى من قوله تعالى : (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) الآية 28 من سورة الأنعام في ج 2 ، أي لو أحييناهم بعد معاينة العذاب لم يؤمنوا "كَذلِكَ" مثل هذا الطبع المحكم "يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى

قُلُوبِ الْكافِرِينَ 101" الذين

سبق في علم اللّه أنهم لا يؤمنون من قومك ولو جاءتهم كل آية وأنهم يختارون الكفر عنادا "و" من جملة أخلاقهم الذميمة وخصالهم المستهجنة نقض العهد والميثاق لأنا "ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ" أي الأمم الخالية "مِنْ عَهْدٍ" أوفوا به لنا في عالم الذر ، كما أنهم لم يوفوا بعهدهم لرسلهم ، لأنهم كلما عاهدوهم على الإيمان نقضوا ، فلا وفاء لهم البتة .

مطلب في تفاوت حروف الجرّ . .

وألقاب الملوك :

وجيء ، بمن ، هنا للتأكيد والإحكام كما نوهنا به في الآية 80 المارة ولا يعبّر عن مثل هذا بسيف خطيب أن زائدة لأنه قول زائد ، إذ لا نزاع بأن قولك ما جاءني من أحد أبلغ من قولك ما جاءني أحد ، وعليه يكون وجودها له معنى بليغ في النفوس والأسماع لا يكون بغيرها ، وبني كلام اللّه على البلاغة لأنها من معجزاته وانظر لهذا الجناس التام المماثل بين قوله وما وجدنا وبين قوله "وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ 201" خارجين عن طاعتنا ناكثين ميثاقنا الذي أخذناه عليهم حين أخرجنا ذراريهم من ظهور أبيهم آدم عليه السلام

المبين في الآية 170 الآتية ، قال ابن عباس إنما أهلك اللّه أهل القرى لأنهم لم يحفظوا ما وصاهم به ، وإن في صدر هذه الآية مخففة من الثقيلة وخبرها ضمير الشأن واللام ، في لفاسقين اللام الفارقة بين أن النافية والمخففة حيث أوجبوا وجود اللام بعد أن المخففة ، لئلا تلتبس بالنافية التي لا يأتي اللام بعدها ، والمعنى أنه أي الحال والشان وجدنا أكثرهم فاسقين راجع الآية 45 المرة ، وقال بعض المفسرين إنّ إن بمعنى ما واللام بمعنى إلّا ، أي ما وجدنا أكثرهم إلّا فاسقين وهو وجيه وفيه من البلاغة ما لا يوجد في التفسير الأول ، وسياق صدر هذه الآية بواتي المعنى إلا أن مجيء اللام بمعنى إلّا شاذّ ، لهذا قدمنا الأول مع اختيارنا للثاني لولا ذلك المانع ، قال تعالى "ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ" "مُوسى " بن عمران بآياتنا التسع الآتية بعد في هذه السورة "إِلى فِرْعَوْنَ" الوليد بن مصعب بن الريان ملك مصر المبالغ في الكبرياء والجبروت والإفراط حتى ادعى الإلهية وكلمة فرعون علم لكل من يملك القبط ، كما أن النجاشي لمن يملك الحبشة

(89/261)

و قيصر للروم ، وخاقان للترك ، وكسرى للفرس ، والخليفة للمسلمين ، والعزيز لمصر ، وحمير لتبّع ، وحمى للهند ، وجالوت للبربر ، ونمرود للصابئة ، ومقوقس للاسكندرية

"وَمَلَائِهِ" خص أشراف قومه بالذكر لأنهم إذا آمنوا آمن أتباعهم ولأن أتباعهم يشقون بعدم إيمانهم ويقتلون بعدم طاعتهم ويهانون لأجلهم "فَظَلَمُوا بِها" كفروا وجحدوا وأجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد قال تعالى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الآية 12 من لقمان في ج 2 ، "فَانْظُرْ" يا سيد الرسل "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ 103" بالأرض حيث أمرهم إلى الهلاك ، ثم شرع يبين له ما وقع لموسى مع قومه ليهون عليه ما يلاقيه من قومه بقوله جلّ قوله "وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ 104" إليك وإلى قومك "حقيق" جدير فمن "عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" لأني رسوله والرسول لا يقول إلا الذي أرسل به ومن شأن كل رسول أن يكون أمينا على ما أرسل به وأن يؤديه كما أمر به إذا كان من مثله لمثله فكيف إذا كان من عند اللّه فهو حتما لا يتصور فيه إلا الحق والصدق .

وقرأ نافع عليّ بالتشديد وعليها يرتفع الجار والمجرور بالابتداء ويكون خبره أن لا أقول .

وقرأ عبد اللّه (حقيق بأن لا أقول) على تقدير حرف الجر وهو على أو الباء فيكون التقدير (أنا حقيق بأن لا أقول) فتكون على بمعنى الباء كما كانت الباء بمعنى على في ، قوله تعالى : (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ) الآية 85 المارة .

ومن المعلوم أن حروف الجر تخلف بعضها أي تأتي من بمعنى الباء ، والباء بمعنى على ، وعلى بمعنى في وهكذا وقرأ أبي (بأن لا أقول) والأولى فيها وجوه 1 - أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الالتباس كما في قول خراش بن زهير :

كذبتم وبيت اللّه حتى تعالجوا قوادم حرب لا تلين ولا تمري

وتلحق خيل لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضياطرة الحمرى

(90/261)

أي وتشقى الضياطرة بالرماح والضياطرة الرجال العظام فتكون كقراءة نافع .

2 - تكون على حد ان ما لزمك فقد لزمته أي فلما كان قول الحق حقيق عليه

كان هو حقيقا على قول الحق لإزماله 3 - أن يضمن حقيق معنى حريص كما ضمن هجني

بمعنى ذكرني .

4 وهو الأوجه الأدخل في نكت القرآن أن يغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك

المقام لاقتضاء المقام ، لا سيما وقد روي أن فرعون قال له إني رسول من رب العالمين فقال

له موسى أنا حقيق على قول الحق واجب علي أن أقوله ولا يرضى الحق إلا بمثلي قال تعالى

: "قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ" حجة واضحة "مِنْ رَبِّكُمْ" أضاف الاسم الجليل إليهم مع عدم

اعترافهم به لتأكيد وجوب الإيمان ، وإيذانا بأن ما يزعمونه من الألوهية باطل "فَأَرْسِلْ" يا

فرعون "مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ 105" يعقوب عليه السلام لأنهم سكنوا مصر زمن يوسف

عليه السلام ، الذين خذلتهم بقهرك وتعمدت إذلالهم بظلمك وقصدت احتقارهم

بكبريائك فدعهم يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم وخل سبيلهم من الرق بمقتضى أمر الحق وإلا سينزل بك وبقومك ما لم يكن بالحسبان كما وعدني ربي ، وإنما سلطه اللّه عليهم بعد أن كانوا ملوكا قادة حكاما بسبب اختلافهم ونبذهم دين آبائهم ، أي خل عنهم وأطلقهم وسلمني إياهم لأني من ولد إسرائيل وقد أرسلني اللّه لأخلصهم منك وأرشدك وإياهم إلى الايمان به وحده .

مطلب كيفية معجزة موسى وأنواعها :

(91/261)

قالَ فرعون يا موسى "إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ" تدل على رسالتك وصدقك "فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 106" بقولك لتثبت دعواك عندنا ونتبعك "فَأَلْقى عَصاهُ" بين أيديهم "فَإِذا هِيَ" بلا معالجة واستعمال أسباب وأدوات واعية للتبدل كما يفعله السحرة "ثُعْبانٌ مُبِينٌ 107" ذكر واضح من الحيات الكبار ، واعلم أن لا معارضة بين هذه الآية والآية 31 من القصص الآتية لأنها بمجرد إلقائها صارت في عظم الجثة كالثعبان في الجسم ، لهذا وصفها هنا به ، وفي صفه الحركة كانت كالحية الصغيرة لذلك وصفها هناك بالجان ، أي الحية الصغيرة ، قال ابن عباس والسديّ لما ألقى موسى عصاه وصارت حية عظيمة خضراء

شقراء فاغرة فاها ، ما بين لحييها ثمانون ذراعا ، وقامت على ذنبها مرتفعة عن الأرض بقدر

(92/261)

ميل ، واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ، فتوجهت نحو فرعون لتأخذه ، فوثب عن سريره هاربا ، وأحدث ، وانهزم الناس المجتمعون ، وقتل بعضهم بعضا ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ، فصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها ، وأرسل معك بني إسرائيل وأومن بك ، فأخذها فعادت عصا كما كانت دون عمل أي شيء ، ثم نكث عهده ولم يؤمن وطلب منه آية أخرى ، فقام "وَنَزَعَ يَدَهُ" أخرجها من تحت إبطه "فَإِذا هِيَ" دون توسط شيء ما من وضع عقاقير أو غيرها أيضا ظهرت "بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ 108" بياضا عجيبا خارقا للعادة لها شعاع يفوق نور الشمس ، ولما كان البياض المفرط عيبا في الجسد لأنه من نوع البرص ، قال تعالى في الآية 23 من سورة طه (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي برص ، وهذا مما يعجز عنه البشر أيضا ولذلك سميت معجزة وهي على قسمين 1 - قسم على نوع قدرة البشر ولكنهم عجزوا عنه لتدل على أنها من فعل اللّه وعلى صدق النبي كتمني الموت في قوله تعالى (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الآية 94

من البقرة في ج 3 ، فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم أنه من عند اللّه ودل على صدق الرسول .

2 – القسم الثاني ما هو خارج عن قدرة البشر كاحياء الموتى وقلب العصا حية حقيقية لا بتمويه السحرة ، وإخراج الناقة من الصخرة وكلام الحجر والشجر والحيوان ، ونبع الماء من بين الأصابع ، وتكثير القليل واحالة الماء صخرا والمشي عليه كما وقع لسيدنا عيسى ومحمد وموسى وغيرهم من الأنبياء صلوات اللّه عليهم وسلامه ومما هو خارق للعادة ويعجز البشر عن مثلها ، فإذا أتى النبي بشيء من هذه علم على أنه من عند اللّه وأن اللّه أظهرها على يده لتكون برهانا على صدق ما يخبر به عن ربه ، راجع أول سورة القمر المارة تجد تفصيل بحث المعجزات .

(93/261)

هذا وقد ثبت بالحجة والعقل أن اللّه تعالى قادر على خلق الأشياء وإبداعها من غير أصل سابق وإخراجها من العدم ، وأنه قادر على قلب الأعيان فبالأحرى أن يكون قادرا على خلق المعرفة والإيمان في قلوب عباده من غير واسطة ، ولكنه جلت قدرته أرسل إليهم رسلا ليعرفهم معالم دينه وتكليفاته وجعلهم

واسطة بينه وبينهم ليبلغوهم كلامه ويعرفوهم أحكام دينه ، وقد تكون الواسطة من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء ، ومن جنس البشر كالأنبياء مع الأمم ، ولا مانع من هذا عقلا ، والمراد بالعقل هو السليم الذي يصدر عنه الفكر السامي والتدبير النافع ، وإلا فلا يسمى عقلا بل طيشا ، كما أن النفس لا تكون طاهرة ، إلا إذا كان لها مبدأ شريف تحلى بمكارم الأخلاق ناشيء عن قلب طيب ولا يكون القلب طيبا إلا إذا كان له حب طاهر في الأمور النافعة وإلا فهو رجس ، فإذا جاز هذا في العقل ، وقد جاءت الرسل بمعجزات دلت على صدقهم وجب تصديقهم في جميع ما يأتون به ، لأن المعجزة مع التحدي من النبي قائمة مقام قول اللّه عز وجل ، صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه ، وتختلف عن الكرامة بعدم دعوى التحدي وتخالف السحر بعدم الدوام ، قال تعالى "قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ" وهم أهل الحل والعقد من عماله بعد رؤية هاتين الآيتين "إِنَّ هذا" الساحر موسى "لَساحِرٌ عَلِيمٌ 109" ماهر في السحر لأنه يأخذ بأعين الناس ويخيل لهم قلب العصى حية والسمرة بياضا ناصعا ، وكان عليه السلام آدم اللون أسمر وقد أراهم يده السمراء بيضاء تتوقد نورا وكان في ذلك الزمن السحر غالب على كل ما يدعى من الفضل كما كان الطب في زمن عيسى و

البلاغة في زمن محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يعارض هذه الآية ما جاء في سورة الشعراء الآتية انها من قول فرعون لملائه لأن الكلام متبادل بينهم فتارة هو يقول لملائه كما في الآية 34 منها وأخرى هم يقولون له كما في هذه الآية لما بهرهم مما رآوا ، وهذا من باب اتحاد الرأي وتوارد الخاطر في الكلام ، ولإعلام العامة أن هذا سحر ليس كما يقول موسى معجزة "يُرِيدُ" هذا الساحر موسى "أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ" أيها القبط وطن آبائكم "فَما ذا تَأْمُرُونَ 110" به من الرأي ، أشيروا عليّ بما يجب أن أعمله لحفظ كيانكم وبلادكم وعلو كلمتكم لأن هذا يريد سلب ملككم ونعمتكم ويستعيدكم كما استعبدنا قومه

"قالُوا" لما رأوا فرعون هم بقتله وتوقف على أخذ رأيهم "أَرْجِهْ وَأَخاهُ" هرون ، لأنه كان معه إلا أنه لم يتول شيئا ولم يتكلم لأن اللّه أرسله مصدقا لأخيه وعونا له ونائبا عنه بغيابه

أي أخرهما لا تقتلهما ليتبين حالهما للناس أنهما ساحران ، وقال بعض المفسرين أرادوا حبسهما ، ولذلك قال صاحب روح البيان إنه لم يكن قادرا على حبسهما لما رأى من المعجزتين ، وهو وجيه ، ولكن يرده ما جاء في سورة الشعراء بعد نظير هذه الآية في الآية

35 منها (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) وما قيل إن آية الشعراء هذه نزلت قبل آية الأعراف هذه غير سديد لأن الشعراء لم تنزل بعد وأن الطواسيم نزلت متوالية ، أما إذا أراد أنه في علم اللّه غير قادر على حبسهما فمسلم والواقع يؤيده إذ لم يثبت أنه حبسهما ، ثم قالوا له "وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ 115" من شرطتك يجمعون لك السحرة من كافة المدن ، واشتقاق المدينة من مدن بالمكان إذا أقام به وأمرهم بحزم وعزم "يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ 112" بالسحر ماهر بفتونه ليتبارون معه ، فإن كان ما عنده من السحر غلبوه وظهروا عليه وبان للناس أنه وأخوه ساحران ، فإذا قتلتهما بعد ذلك فلا لوم عليك لأنهما مفسدان والمفسد يجوز قتله ، أما قتلهما الآن قبل أن يظهر كذبهما للعامة ففيه ما فيه من التعدي والظلم وسوء السمعة على الملك ونحن لا نريد أن تسام بالظلم ، وان تقتل دون أن يتحقق استحقاق القتل لمن تقتله .

(96/261)

وجاء في الآية 27 من الشعراء سحّار بالمبالغة وهو الذي يدوم سحره ويعلّم الناس السحر ، والساحر من يكون سحره منقطعا وقتا دون وقت ، قال ابن عباس والسدي وابن اسحق : لما رأى فرعون من سلطان اللّه وقدرته في العصا واليد قال لا نقاتل موسى إلا بمن

هو أشد منه سحرا فبعث غلمانا من بني إسرائيل إلى مدينة الغوصاء ليعلموهم السحر ، وضرب لموسى موعدا للمباراة بعد أن تعلموا جاءوا ومعلموهم ، فقال فرعون للمعلم : ما صنعته ؟ قال علمتهم سحرا لا يطيقه أهل الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فلا طاقة لهم به ثم بعث من مماليكه حسبما أشار عليه ملؤه ، فلم يترك ساحرا إلا أتى به ، قال مقاتل ، جمع اثنين من القبط وسبعين من بني إسرائيل ، ثم قال الملأ لفرعون إن غلبوا موسى علمنا والناس أجمع أنه ساحر وإذ ذاك إذا قتلتهما فلا لوم عليك لما في بقائهما من الفساد والإفساد ، وإن غلبهم صدقناه واتبعناه ، فلم يرد على كلامهم لأن الشق الأخير منه لم يعجبه لأنه بفطنته علم أن ما جاء به موسى من عند اللّه وفي تصديقه ذهاب ملكه ، ولو لا خشيته ذهاب الملك لآمن به ، لأن ما هو عليه من حذق ومهارة لا يخفى عليه السحر من غيره .

مطلب ما وقع بين موسى والسحرة :

(97/261)

"وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا" يا فرعون أ"إِنَّ لَنا لَأَجْراً" عندكم تعطونا إياه "إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ 113" لموسى وأخيه ولا يقال هنا إن حق الكلام أن يقال (فقالوا) لأن الكلام فيه حذف وإيجاز وهو من محسنات البديع في الكلام والتقدير كأن سائلا سئل ما قالوا إذ

جاءوا إليه فأجيب بقوله قالوا ومثله كثير في القرآن وهذه جرأة من القائل راجع الآية 67 من يونس في ج 2 وما ترشدك إليه "قال" فرعون بحضور ملأه لأن القول الفصل له وإنما لملائه إبداء الرأي فقط ، وهكذا يكون الوزراء مع الملوك راجع الآية 32 من سورة النمل الآتية "نَعَمْ" إن لكم عندنا لأجرا وتكرمة "وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ 114" عندنا رفعة ومكانة إذا غلبتم موسى ، وأخذهم لأرض الميعاد وجاء موسى وأخوه وتفاوض مع السحرة وأبدى لهم نصحه ، وأخبرهم أن ما جاء به ليس بسحر ، بل هو من عند اللّه ، وأكد لهم ذلك ، وأرشدهم للكف عما جاءوا به ، فلم ينجع بهم لما يؤملونه من فرعون وهم لم يروا بعد من موسى شيئا "قالُوا" كف عنا ما تقول "يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ" عصاك أو غيرها مما عندك من أنواع السحر "وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ 115" ما عندنا من أصناف السحر ، وإما هنا بكسر الهمزة لأنها للتخيير وهكذا تكون مكسورة في الشرط والشك أيضا ، ومفتوحة في الأمر والنهي والخبر ، وإنما قدموه وجعلوا له الخيار في التقديم للإلقاء تأدبا معه لما علموا منه أثناء المفاوضة أنه على علم عظيم ومناظرة مفحمة ، حتى أنهم لولا الخوف من فرعون لما ناظروه إذ حصل لهم شبه اليقين أنه ليس بساحر ولذلك منّ اللّه عليهم بالإيمان والهداية ، مكافأة لاحترامهم نبيه موسى وتأدبهم معه ، وإنما أمرهم أن يتقدموا عليه بالإلقاء بإلهام من اللّه لظهور معجزته وبيان غلبه "قالَ أَلْقُوا" ما عندكم إن كنتم

ترون أنكم محقون في مباراتي وان ما تفعلونه حق لا تمويه "فَلَمَّا أَلْقَوْا" ما معهم من الحبال والعصي وغيرها ، وتمثلت للناس بغير ما هي عليه ، إذ "سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ" وحرّفوها عن إدراك الحقيقة بالتمويه والتخييل ، ولذلك لم يقل جل قوله سحروا الناس لأن السحر صرف العين عن إدراك الشيء وقلبه إلى صورة أخرى بأعينهم ، والمعجزة قلب الأعيان حقيقة وبقاء الجوارح على حالها "وَاسْتَرْهَبُوهُمْ" أي طلبوا بذلك التخيل إيقاع الرهبة والخوف في قلوب الناس من شدة ما أروهم من سحرهم الموصوف بقوله تعالى "وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ 116" بأعين الناس إذ أروهم الحبال حيات عظيمة والأخشاب جبالا شامخة وقد تراكمت الحيات بعضها على بعض وملأت الوادي وتشامخت الجبال حتى لا يكاد يدركها الطرف فخاف الناس وفزعوا لهول ما رأوا وذلك لأنهم طلوا الجبال بالزئبق وحشوا الأخشاب به أيضا ، قبل طلوع الشمس ، حتى رآها الناس أنها حبال وأخشاب ، وصاروا يدمدمون عليها حتى طلعت الشمس وارتفعت ، فلما وصلت حرارتها إلى العصي التوى بعضها على بعض ، وارتفعت هي والأخشاب ، وكذلك الأحبال بتأثير الزئبق وتطاولت وكلما ازدادت حرارة الشمس ازدادت حركاتها وعظمها ، فخيّل للناس أنها صارت حيات وجبالا حقيقية ، قالوا وكانت الأرض التي وقعت فيها المباراة ميلا بميل ، فلما امتلأت بذلك ضاقت بالناس وتباعدوا فزعا مما رأوا ، إذ غلب على ظنهم حقيقة

ما رأوا من حركات العصي والأخشاب والأحبال وتعاظمها ، وذلك قوله تعالى (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى) الآية 94 ، وقوله (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى) الآية 65 من سورة طه الآتية ، وإنما خاف عليه السلام أن يصدق الناس ما رأوه حقيقة ولهذا خاف ليس إلا لأنه بتعليم اللّه إياه علم أن ذلك سحر وهو موقن أنه يغلبهم لعلمه بحقيقة عملهم فخاف لفزع الناس واضطرابهم ، وخوفهم أن يتفرقوا

(99/261)

قبل أن يشاهدوا معجزته ، وهو إنما أمر السحرة بالتقدم عليه ليرى الناس عظمة ما جاءوا به ، ويكبروها ، حتى إذا ألقى عصاه وأبطلت ما جاءوا به لأن اللّه جعل فيها قوة تلقف الزئبق من حبالهم وعصيهم وأخشابهم ، قال تعالى (تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ)
الآية الآتية وهو الزئبق لا نفس العصي والأحبال والأخشاب بل ما طليت به وتعيدها إلى حالتها الأولى ، فظهر للناس كذب السحرة وأن ما فعلوه لا حقيقة له ويعترفون بعظمة معجزة موسى وإكبار غلبه لهم ، ولو أنه تقدم بالإلقاء

(100/261)

لم يظهر أن الغلب له ولقال الناس أنهم لم يقدروا عليه فقط ، فلم يظهر غلبه للعامة بمثل هذه الكيفية العظيمة الباهرة ، قال تعالى "وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ" فألقاها حالا "فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ 117" أي تبلع ما زوّروه بأعين الناس وخيّلوا لهم به قلبه عن حقيقته فعاد الحبل حبلا والعصى عصى والخشب خشبا كما كانت وتمثلت عصى موسى بالصورة المارة في الآية 107 فظهر حق موسى وبطل السحرة "فَوَقَعَ الْحَقُّ" من اللّه على يد رسوله "وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 118" من السحر ، واتضح أمر السحرة بين الناس وظهر لهم كذبهم وتمويههم وتخييلهم وعجزهم عن مناواة موسى "فَغُلِبُوا هُنالِكَ" في ذلك المشهد العظيم وقهروا وخسئوا "وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ 119" أي فرعون وجماعته باندحار السحرة ، وذلوا بأعين الناس لظهور عجزهم عن مقابلة موسى وأخيه ، ولما عرف السحرة أن ما جاء به موسى ليس من عنده ولا هو من نوع السحر الذين هم أعلم بطرقه ، وما هو إلا من عند اللّه سحبتهم العناية الإلهية والألطاف الربانية المقدرة لهم في علمه الأزلي على هذه الحادثة تابوا من كفرهم توبة نصوحا وآمنوا بموسى ، قال تعالى "وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ 120" للّه تعالى استغفروا من ذنوبهم بمقابلة رسوله الذي تحقق لديهم صدقه ، إذ لو كان ما جاء به سحر لبقيت حبالهم وعصيهم وأخشابهم على حالها ولا يضرهم أن يأتي موسى بمثلها أو أعظم منها ولكان غاية ما في الأمر أن يقول الناس جاء كل من الفريقين

بسحر عظيم ولهذا حلت الهداية قلوبهم عند ما عاينوا قدرة اللّه في عصي موسى الباهرة مما هو ليس في طوق البشر

(101/261)

ثم "قالُوا" بأعلى صوتهم على مسمع من فرعون وملاءه والناس أجمعين "آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ 121" ليعلم الناس كلهم حقيقة غلبة موسى واندحارهم ، وأن موسى صادق وهم كاذبون وأنهم لم يخشوا فرعون ولا غيره بقول الحق ، فقال لهم فرعون تعنوني قالوا لا وإنما نعني غيرك لأنا أعلنا إيماننا باللّه "رَبِّ مُوسى وَهارُونَ 122" زادوا هرون لئلا يتوهم أنه المقصود بذلك لأنه ربى موسى فأزالوا توهمه وأكدوا إليه إيمانهم باللّه ، وأن قصدهم برب موسى أنه هو الإله الذي لا رب غيره دون أي فزع وخوف "قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ" بالإيمان وآمركم به "إِنَّ هذا" الذي صنعتموه ودبرتموه بينكم "لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ" أنتم وموسى "فِي الْمَدِينَةِ" قاعدة مصر والإسكندرية كما قيل أن الحادثة كانت فيها قبل خروجكم للمناظرة وقد عملتم هذه الحيلة "لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها" وهم القبط وتستولوا عليها أنتم وموسى وقومه ، ولهذا لم تقدموا بما يكون فيه الغلب لنا عليه "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ 123" عاقبة أمركم هذا ، وما سأفعله بكم أنتم وموسى الذي أغواكم .

ساق لهم هذا الوعيد والتهديد بطريق الإجمال للتهويل وهو من بديع الكلام ، ثم عقبه بالتفسير تفصيلا فقال وعزتي "لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ" اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس "ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ 124" أنتم وموسى وهرون ، تشهيرا بكم وتنكيلا لأمثالكم .

قال ابن عباس : أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل مخالفة هو فرعون "قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ 125" عائدون إليه إذا فعلت ذلك بنا أو لم تفعله ، وإنا لا نبالي بما تفعله بعد علمنا بأنا صائرون إلى الآخرة ، وأن مردنا إلى اللّه ، فلأن نأته مقتولين في سبيله أولى من أن نأتيه ميتين حتف أنفنا باقين على كفرنا .

(102/261)

بارك اللّه فيهم فكأن قائله

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي شق كان في اللّه مضجعي

ويقول أيضا :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

ويقول مهددا لفرعون :

إلى ديان يوم العرض نمضي وعند اللّه تجتمع الخصوم

ثم خاطبوه قائلين "وَما تَنْقِمُ مِنَّا" أي تكرهه وتطعن به علينا وتعيبنا به وتنتقم منا بسببه ومالنا عندك ذنب فتعذبنا عليه "إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا" على يد رسوله موسى وهذا مما نفتخر به لأنه أصل المحاسن كلها فافعل بنا ما بدا لك إذا كان هذا ذنبا على حد قوله في الآية 18 من سورة طه (فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ) وفي هذه الآية من أنواع البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم ، ثم انهم أعرضوا عن مخاطبته وفزعوا إلى اللّه والتجئوا إليه وسألوه بقولهم "رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً" على ما يوقعه بنا من التعذيب الدنيوي واغمرنا بالصبر وأفض علينا من عنايتك لنثبت على الإيمان بك "وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ 126" لك قائمين على دينك لا يؤثر بنا وعيد فرعون وتهديده بما يعدنا ليصرفنا عن دينك القويم .

(103/261)

قال ابن عباس كانوا أول النهار سحرة كفرة وآخره شهداء وبررة ، ولهذا قال الكلبي ان فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، وقال غيره إنه لم يقدر عليهم لأن اللّه قال في الآية 35 من سورة القصص الآتية (فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ) وهو الصواب واللّه أعلم ، وسيأتي لهذا البحث صلة عند تفسير هذه الآية إن شاء اللّه "وَقالَ

الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ" لفرعون بعد أن عاينوا ما عاينوا وعرفوا ان بقي الحال على ما هو عليه ذهب ملكهم ، كما أخبرهم فرعون قيل "أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ" بني إسرائيل على ما هم عليه وتركهم احياء ، بعد أن تعظموا بما وقع في موسى فتذعهم على حالتهم هذه ولا تنتقم منهم وقد شاع بين الناس علو كلمة موسى على السحرة المنتخبين من قبلك بعد أن آمنوا به والتحقوا مع قومه بعد غلبهم لأنه إذا تركهم وشأنهم تقوى شوكتهم وتعلو كلمتهم ، ويلتحق بهم غيرهم "لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" التي هي ملكك ويأمرون الناس بمخالفتك والخروج عليك وينبذون طاعتك فتدارك الأمر قبل الفوات .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل .

وهذه الآية تشير إلى ما أشارت اليه آية القصص الأنفة الذكر من أنه لم يسلط على السحرة لأن اللّه لم يقدره أن يفعل بهم شيئا فضلا عن موسى وأخيه وأن اللّه ت (26)

تعالى لم يذكر لنا عن تنفيذ وعيده بهم شيئا "وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ" فينبذ كما جميعا ويذر بالنصب عطفا على ليفسدوا أو نصب بجواب الاستفهام بعد فاء السببية أو واو المعية وعلى هذا قول الخطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء

قال ابن عباس : كانت لفرعون بقرة يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ،

ولذلك صاغ لهم السامري عجلا لأنه من جنس معبودهم ، ولذلك عكفوا عليه وانكبوا على عبادته دون ترو .

(104/261)

وقال السدى : كان فرعون اتخذ أصناما لقومه يأمرهم بعبادتها ويقول لهم أنا ربكم الأعلى أي ربكم ورب هذه الأصنام راجع الآية 24 من سورة النازعات في ج 2 وهذا والمراد من قوله تعالى على لسان ملأ فرعون (يَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) وقيل إنه كان يعبد ولا يعبد استدلالا بالآية 38 من سورة القصص الآتية وهي قوله تعالى : (ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي) وكان دهريا ينكر الصانع .

وقيل إنه عني بالآلهة الشمس والقمر ، لأنه يعبدها وعلى كل فهو كافر ملعون جبار خبيث متعنت عات عنيد ، ولذلك قال مجيبا لملأ "سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ" الذكور "وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ" للخدمة كما كنا نفعل بها قبل ظهور موسى ثم جاهر بكبريائه فقال : "وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ 127" غالبون لم نتغير ولا يغرنا ما جاء به موسى وهم تحت أيدينا لا قدرة لهم على مقاومتنا إذ لا عدد لهم ولا قوة قصد المتهوّر الطائش ، ان بني إسرائيل تعلم فعله السابق بهم من قتل الذكور وترك الإناث منذ حمل بموسى ، وكيفية استرقاقهم قبل وذلك أنه لما رأى

عجزه عن الانتقام من موسى بما أوقعه اللّه في قلبه من الهيبة له صار يندد بهم بذلك ففجر بنو إسرائيل خوفا من أن يفعل بهم ما ذكره ، ففزعوا إلى موسى وشكوا أمرهم إليه ليبين لهم المخلص منه "قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ" عليه "وَاصْبِرُوا" على ما أنتم عليه ، فإن اللّه مانعه منكم "وإِنَّ الْأَرْضَ ليست لفرعون وإنما هي "لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ" المحمود "لِلْمُتَّقِينَ 128" وأنتم منهم فيكون لكم النصر عليه والظفر بأرضه لا محالة وصا

(105/261)

يمنّيهم بهلاك فرعون وقومه ويطمعهم باستملاك أرضه تسلية لهم وتثبيتا لعزمهم "قالُوا" يا موسى "أُوذِينا" من قبل فرعون وقومه "مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا" أوذينا أيضا أي قبل ولادتك وبعدها فمتى يكون ما توعدنا به وذلك لأن قلوبهم مقطعة من أذى القبط قبلا وبوجود موسى خفت وطأتهم عليهم وبعد حادثة السحرة خافوا أن يوقع بهم ما هدّدهم به من استيناف الحالة الأولى قتل الذكور واسترقاق الإناث واستخدام الآخرين ، وطالبوه إنجاز ما وعدهم به يظنون أن الأمر بيد موسى والذليل المحتقر أمثالهم ، يظن أن العزيز مثل موسى قادر على كل شيء "قالَ" لهم موسى إن الأمر بيد اللّه ينجزه بالوقت المقدر له في

علمه الأولى وليس بيدي كما تزعمون لأوقعه بهم حالا ، فاصبروا يا قوم "عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ" قبل أن يمكنه من إيقاع شيء فيكم "وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ" بدله ويجعلكم ملوكا على أرضه أمناء على عباده ، وهذا توكيد لما سلّاهم به على أبلغ وجه وهو عنده واقع جزما لأنه من وعد اللّه الذي لا يخلف وعده ، وعسى هنا للقطع وعبر بها تأدبا مع ربه ولهذا قال "فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ 128" إذا خلفتم فيها أتحسنون الخلافة في عباده وأرضه أم لا ، وهل تشكرون أم تكفرون بعد .

(106/261)

وفي هذه الآية رمز للبشارة بتنفيذ ما وعدهم به ، ولكنهم لضعف إيمانهم وصغر نفوسهم التي تربت على الذل لا يصدقون ويريدون الأمر فورا ، ثم شرع تعالمت شرائعه في تفصيل مبادئ إيقاع الإهلاك في فرعون وقومه فأوحى إلى موسى أن يحدث قومه بما هو فاعل بهم ، قال تعالى "وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ" القبط خاصة لأنه منهم وأضاف إليه لفظ آل مع أنه خاص بالأشراف بمقابل أهل في غيرهم ، لما له من الشرف الدنيوي بين قومه وان كان في نفس الأمر ، خسيسا وإن الكلمات التعظيمية للملوك جارية حتى الآن سواء كان كتابيا أو وثنيا فضلا عن المسلم "بِالسِّنِينَ" جمع سنة ، والمراد بها سني القحط والجدب ومنه قوله

صلّى اللّه عليه وسلم في دعائه على قريش : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف .

وفي رواية : سنينا كسنين يوسف ، فالأول منون على لغة بن عامر وبنو تميم يقولون سنين بلا تنوين

ويجرون إعرابها على النون بالحركات كحين عند من يعربها ، وعليه فإن النون لا تحذف بالإضافة كما جاء أعلاه وعليه قول الشاعر :

دعاني من نجد فإن سنينه لعبن بنا شيبا وشيّبننا مردا

واللغة المشهورة إعرابها بالحروف لأنها من ملحقات جمع المذكر السالم ، وتقول العرب مستهم السنة إذا أخذهم الجوع ، قال الأبو صيري :

وأحيت السنة الشهباء دعوته حتى حكت غرة بالأعصر الدهم

مطلب ما أوقع اللّه يفرعون من الآيات :

(107/261)

وهذه أول آية أوقعها اللّه فيهم وفيها إعلام بأنه لم يمهل فرعون وقومه بعد أن صمّموا على تنفيذ خطتهم القديمة وهو أكرم من ذلك ، والآية الثانية قوله "وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ" من زروعهم وأشجارهم إذ أوقع عليها آفات أفسدتها قال قتادة السنون لأهل البوادي ونقص

الثمرات لأهل المدن "لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ 130" أن ذلك بسبب إصرارهم على الكفر وظلمهم لبني إسرائيل علهم يرجعون عما صمموا عليه ، لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند اللّه فيلجأون إليه ،

قال تعالى حاكيا ما وقع منهم بقوله "فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ" في خصب وسعة وصحة "قالُوا لَنا هذِهِ" استحقاقا ولم يردوها إلى اللّه ولم يروها منه "وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ" من جدب وضيق ومرض "يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ" من بني إسرائيل فيقولون ما أصابنا بلاء إلا حين رأيناهم تشاؤهما بهم ، وهذا دليل على أنهم لم يتعظوا ولم ينتبهوا بما صب عليهم من العذاب ، أدخل جل شأنه على الحسنة لأن وقوعها كالكائن ، ولأن جواب إذا يكون حقيقة غالبا ، وإن على السيئة المنكرة لندرة وقوع جوابها إذ قد يكون شكا .

قال سعيد بن جبير : عاش فرعون ستمائة وعشرين سنة ملك منها أربعمائة سنة لم ير فيها مكروها قط في بدنه ولا في ماله وملكه فلو جعل له وجع يوم أو حمى ليلة أو جوع ساعة لما ادعى الربوبية ، قال تعالى ردا عليهم "أَلا" أداة تنبيه على أن شؤمهم ليس من موسى وأصحابه "إِنَّما طائِرُهُمْ"

(108/261)

شؤمهم "عِنْدَ اللَّهِ" وحده بسبب كفرهم ، وأداة الحصر تشعر بذلك "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ 131 "كونه من عند اللّه لأنهم يضيفون الحوادث للأسباب الظاهرة لا إلى قضاء اللّه وقدره ، وبما أن موسى يحذرهم وينذرهم مقت اللّه إن لم يطيعوه فيسندوا ما يصيبهم إليه ، وتفيد الآية أن بعضهم يعلم حقيقة ذلك ومنهم فرعون ولكن لا يعملون بما يعلمون "وَقَالُوا" القبط لموسى بعد انقشاع الآيتين المارتين "مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ" بيان لهما وسموها آية على طريق الاستهزاء تبعا لتسمية موسى سخرية به ، ولو اعتقدوها آية لما قالوا "لِتَسْحَرَنا بِها" فتصرفنا عن ديننا بضروب سحرك وإنا إن فعلت ما فعلت "فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ 132" لسحرك ولا مصدقين لأنه زائل ، ومهما هذه اسم شرط على الصحيح في الأصل ومحلها رفع الابتداء ، وخبرها إما الشرط أو الجزاء أو كلاهما على اختلاف في ذلك ، ويجوز أن تكون ظرفا قال ابن مالك إنه مسموع من العرب وأنشد :

وإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

على أنها هنا ظرف بمعنى متى خلافا لمن منع ذلك ولهذا استعملها المنطقيون بمعنى كلما وجعلوها سورا للكلية لإفادتها العموم .

أما في الآية فليست ظرفا البتة وأصلها ما الجزائية ضمت إليها ما المزيدة المذكورة للجزاء ثم قلبت ألف ما الأولى هاء لعدم تكرار الحرفين المتجانسين لاستثقاله عندهم فصارت مهما وموضعها النصب بتأتنا ، والضمير في به وبها يعودان للآية ، وأنت الثاني باعتبار المعنى ، فاغتاظ موسى عليه السلام واعترته الحدة ، فدعا عليهم لأنهم فضلا عن أنهم لم يتعظوا بالآيات المتقدمة العصا واليد اللتين كسرت شوكتهم وأذلتهم ، والقحط والنقص اللذين أوقعا فيهم ما أوقعاه رموه بالشؤم وأيأسوه من الإيمان بدلالة معنى مهما وأفادتها ذلك ، فأجاب اللّه دعاءه بانزال عقاب آخر عليهم وهي الآية الثالثة وتكون الخامسة مع آيتي اليد والعصا بينه بقوله "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ" بأن فجرنا الأرض عيونا وأرسلنا السماء بالمياه الغزيرة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا إلى تراقيهم قالوا ولم يدخل بيوت بني إسرائيل شيء منه ، مع أنها مختلطة مع بيوتهم ودام ذلك سبعة أيام ،

(110/261)

فمن جلس منهم غرق ومن بقي قائما نجا وبقي معذبا لا يقدر أن يستريح أو يتحرك من موضعه خشية الغرق ، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك لئن كشف عنا هذا آمنا بك وأرسلنا معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فرفعه عنهم وأنبت لهم الكلأ والزرع ، وضاعف لهم الثمر

بصورة لم يروها قبل ، فكلفهم الإيفاء بوعدهم فأبوا وقالوا ما كان ذاك عذابا وإنما هو نعمة ، ونكثوا عهدهم وازداد طغيانهم ، فدعا عليهم بقوله يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وطغى ، وان قومه قد نكثوا العهد ، رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة ، فبعث عليهم عذابا سادسا بينه بقوله "وَالْجَرادَ" المعروف فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم وسقوف دورهم ، ولم يدخل دور بني إسرائيل ، فضجوا إلى موسى وفزعوا لشدة ما حل بهم وأعطوه العهود والمواثيق بأنه إذا كشف عنهم هذا الضر يؤمنون به ويرسلون معه بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشفه بعد أن دام سبعة أيام وقبل أن يقضي على البقية الباقية من مواشيهم ، فلما كشف عنهم ، قالوا بقي لدينا ما يكفينا ما نحن بتاركي ديننا من أجلك ونكثوا عهودهم ، فدعا عليهم فأرسل اللّه عذابا سابعا ذكره بقوله "وَالْقُمَّلَ" القمل المعروف وقيل هو الدّبى أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها وقيل البراغيث أو كبار القراد أو السوس الذي يخرج من الحنطة والحشمان نوع من الجراد أو صغار الذر ، وكان الحسن يقرأها بفتح القاف وسكون الميم بما يدل على أنه القمل ، وبه قال عطاء الخراساني ، فملأ طعامهم وشرابهم وآلمهم بقرحة وأكل منهم شعور رؤسهم وأهدابهم وحواجبهم ، ولم يصيب بني إسرائيل شيء منه ، فاشتد عليهم البلاء أكثر من ذي قبل ، فعجوا إلى موسى واستغاثوا به ووثقوا إليه العهود وعظموا له الايمان بأنه إذا

كشف عنهم هذه المرة يؤمنون ولا يعودون إلى الكفر ويرسلون معه بني إسرائيل ، وذلك بعد أن دام عليهم سبعة أيام أيضا ، فرق لهم موسى و

(111/261)

رحمهم ودعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يبق منه واحدة ، فقالوا ما كنا نوقن أنه ساحر مثل اليوم ! كيف ذهب ما كنا نراه بكلمة واحدة ، ونكثوا عهدهم ، ونقضوا أيمانهم ، فدعا عليهم ، فأرسل عذابا ثامنا بينه بقوله

"وَالضَّفَادِعَ" حيوان معلوم بري وبحري والفرق بينهما وجود غشاء رقيق بين أصابع البحري ليستعين به على العوم في الماء والبري خلو منه لعدم الحاجة ، إليه جلت عظمته أعطى كل شيء ما يحتاجه ، هدى كل خلقه لمنافعهم وأحسن كل شيء خلقه ، فلا نقص ولا اعوجاج فيما خلق فامتلأت بيوتهم وأفنيتهم وأوانيهم وأطعمتهم منها ، حتى صارت تثب عليهم إذا تكلموا ، فتدخل أفواههم ، ولم يصب بني إسرائيل شيء منه ، لأنه مرسل إلى القبط خاصة والقبط قانعون بأنه معجزة مسلطة عليهم فقط لأنهم يرون أن بني إسرائيل سالمون منه ، ولكنهم طغاة معاندون حريصون على بقاء ملكهم مع الكفر لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، ودام سبعة أيام أيضا حتى ذاقوا العذاب الأليم والبلاء العظيم فوقعوا على

موسى باكين شاكين مستغيثين به قائلين : هذه المرة نتوب ولا نعود أبدا ، وأكثروا له من العهود و

(112/261)

المواثيق ، وغلظوا له الأيمان بأنه إذا كشفه عنهم يؤمنون ويرسلون معه بني إسرائيل ، ولا يعودون إلى الكفر فدعى فكشفه عنهم حتى لم تر واحدة منها فقالوا هذا سحر مثل القمل فأين ذهبت هذه الضفادع لو كانت حقيقية ؟ ولم ينتبهوا أن الذي أحدثها عليهم بلحظة واحدة قادر على إزالتها عنهم بمثلها ، ولكنهم لا يعقلون بقلوبهم ولا يتذكرون ذلك ، ونكثوا ونقضوا أيضا ، فاشتد غضب موسى عليهم ودعا اللّه ربه ، فأرسل عليهم عذابا تاسعا إذا عد القحط ونقص الثمرات اثنين أما أذاعوا واحدا كما قال قتادة في الآية 30 المارة آنفا فتكون هذه الآية ثامنة وبينها بقوله "وَالدَّمَ" الرعاف كما قاله زيد اني اسلم وقال غيره سال النّيل عليهم دما عبيطا وانقلبت مياه الآبار والعيون وغيرها كذلك على القبط خاصة ، حتى أن القبطي والاسرائيلي إذا اجتمعا على ماء واحد فيكون من جهة القبطي دما وما يلي الاسرائيلي ماء ، وهكذا إذا تناول القبطي من أمام الاسرائيلي ماء انقلب دما وإذا تناول الاسرائيلي دما من القبطي انقلب ماء ، ومع هذا كله لم يعتبروا ولم يجزموا أنه من عند

اللّه ، ولكنهم لما يرونه ملازما لهم يراجعون فرعون أولا فيقول لهم سحركم موسى بضروب السحر وقوي عليكم ، فيقولوا ، له من أين سحرنا

(113/261)

والأمر كما ترى ؟ فيقول اصبروا وكان نفسه يمضغ الأشجار فتعصر في فيه دما ، ولكنه لشدة عتوه يتحمل ويمّني قومه لئلا يروا ضعفا فيه ، ودام الحال عليهم سبعة أيام ولما لم يروا من فرعون ما ينقذهم وهو يمنّيهم بالصبر ، شأن كل مرة ، رجعوا إلى موسى شاكين باكين متذللين خاضعين ، فرقّ لهم لكثرة ما يوثقون له الأيمان فطمع بصدقهم فدعا اللّه فأزاله عنهم وكذلك لم يؤمنوا لسابق شقائهم مع رؤيتهم هذه المعجزات "آياتٍ مُفَصَّلاتٍ" واضحات دالات على صدق نبوة موسى وقد ذاقوا عذابها كلها ، ولم ينجح بهم ، مع انها معجزات لا تحتاج إلى فكر وروية ملموسة حسية ظاهرة تبع بعضها بعضا ، قالوا وكان بين كل آية وأخرى شهر واحد ، مرتبات ، كما يستفاد من قوله هنا مفصلات "فَاسْتَكْبَرُوا" عن الإيمان بها وبمن أنزلها وأنزلت عليه مع أن كل منها كافية للتصديق والإيمان ولكن ما كان اللّه ليهدي قوما خلقوا في الأزل ضلالا "وَكَانُوا مُجْرِمِينَ 133" بإصرارهم على الكفر وانفتهم عن الإيمان وبعد أن يكون الإنسان مجرما لم يبق له إلا الحكم عليه ، وهكذا إذا أوقع أحد

جرما يكون أولا مدعى عليه ثم ظنينا ثم متهما ثم مجرما ثم محكوما ، هذا وقد اشتد غضب موسى فدعا عليهم بما ألهمه ربه ، فأجاب دعاءه بما ذكره بقوله عز قوله "وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ" الموت قال سعيد بن حيدر هو الطاعون وهذا هو العذاب الأخير وهو الآية التاسعة على قول قتادة فمات منهم في اليوم الأول سبعون الفا فأمسوا لا يتدافنون روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم ، فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه .

(114/261)

وهذه الرواية الأولى على بنى إسرائيل لا يستدل بها على ما نحن فيه لأن الرجز هذا خاص بالضبط كسائر الآيات المتقدمة أما على الرواية الثانية وهي على من قبلكم فيصلح دليلا لما هنا .

هذا ولما رأو ما حل بهم نسوا فرعون والسحر وعجوا واقعين على الأقدام "قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ" وأوصاك به من النبوة والمرحمة ،

(115/261)

و هذه الياء للقسم الاستعطافي كذا يستعطفونه عليه السلام وهم باكون ضاجون قائلين والله ربك "لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ" الموت الذي حل بنا بافترائنا عليك وكذبنا بمواثيقنا ونقضنا عهودنا فالآن وعزة ربك وجلاله "لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ 134" وو الله ربك لا يسعنا بعد هذا إنكار أو تكذيب أو القول بأنه سحر لأنه الموت يا موسى ذقناه ولمسناه هذا ، الذي لا رجوع بعده بخلاف الآيات الأول لأنا نراها تزول فتتغير عقب زوالها وتعود إلى الكفر وننقض عهودنا ومواثيقنا بسبب رؤيتنا عودة الحالة السابقة إلى طبيعتها ، أما الآن فلا وأكثروا من العويل والاستكانة وتمسكوا به خاضعين خاشعين ، ولما رأى اعترافهم بالآيات وآنس منهم الصدق في هذه المرة حنّ عليهم وقبل رجائهم فدعى الله مولاه بكشفه عنهم فأجاب دعائه أيضا .

قال تعالى : "فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ" أتى بالظاهر موضع المضمر للتأكيد وقد أخرناه "إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ" وهو وقت إغراقهم بالبحر المعلوم وقته عنده والذي هم واصلون اليه لا محالة "إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ 135" ما أعطوه من إيمان وعهود ومواثيق ، وعاد إلى الطعن والتكذيب شأنهم في كل مرة ولا يقال إن الله تعالى عالم بأن آل فرعون لم يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، فلم والى عليهم هذه المعجزات لأنه نظير قوله جل قوله : لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً .

قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الآية 164 الآتية .

مطلب جواب اللّه ورسوله عمّا يقال :

هذا هو جواب اللّه إلى هذا المعترض وجواب لرسول .

(116/261)

هو قوله تعالى : (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) يفعل ما يشاء ربكم ما يريد ، وهذا جواب أهل السنة والجماعة ، أما جواب المعتزلة القائلين برعاية الأصلح إن اللّه علم من قوم فرعون أن بعضهم يؤمن بتوالي المعجزات وظهورها فلذلك والاها عليهم واللّه أعلم بمراده وهو قول وجيه لو لم يقترن برعاية الأصلح أي أن فعل الأصلح للعبد واجب على اللّه عندهم ومذهب أهل السنة والجماعة بخلافه .

قال صاحب الجوهرة :

وما قيل إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

وقال في بدء الأمالي :

وما أن فعل أصلح ذو افتراض على الهادي المقدس ذي التعالي

ومعنى النكث في الأصل فل طاقات الغزل ليغزل ثانيا فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه .

راجع تفسير الآية 91 من بعدها في سورة النمل في ج 2 ، وجواب لما مقدر تؤذن به إذا الفجائية أي فاجئوا بالنكث ، وما قيل بأن جوابها الجملة المقترنة بها فيه تساهل وتسامح وكلا من لما وإذا معمول لذلك الفعل المقدر الأولى ظرفه والثاني مفعوله وذلك محافظة لما ذهبوا اليه من أنه يجب أن يكون الذي يلي لما من الفعلين ماضيين لفظا أو معنى إلا أن مقتضى ما ذكروا من أن إذ وإذا الفجائتين في موقع المفعول به للفعل لأن لما تجاب بإذا الفجائية الداخلة على الجملة الاسمية فلا لزوم إلى هذا التكليف بتقدير الفعل قال تعالى "فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ" أي فرعون وقومه ومناصريه جزاء نكثهم المترادف "فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ" معظم ماء البحر وسلبنا نعمتنا منهم وأهلكناهم .

(117/261)

قال ابن قتيبة : اليم سرياني معرب وما قيل إنه أسم خاص للبحر الذي غرق فيه فرعون وقومه ليس بشيء ، قال الألوسي في روح المعاني إن هذا القول غريق في يم الضعف وإنما جعلنا هذا الإغراق عقوبة لهم "بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا" الدالة على صدق نبينا "وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ 136" لاهين لاعبين لم يتفكروا بمن أظهرها ولم يتذكروا بها ولم يبالوا بمن أنزلها وأنزلت عليه ولم يتعظوا بنزول النقمة بهم المسببة عن الأعراض عن تلك الآيات وعدم

التفاتهم إلى زجر نبيّهم واعراضهم عما يؤول اليه أمرهم واتباع من كان السبب فيها ، فكأنها لم تكن ، والغفلة ليست من فعل الإنسان ، على أن من شاهد مثل تلك الآيات لا ينبغي له التكذيب بل التصديق والانقياد قال تعالى : "وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ" أي يستذلون ويسترقون ويهانون وهم بنوا إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم للخدمة ولا أعظم من هذا اهانة وهوانا فجعلنا نحن إليه الكل من الذكور الذين كانوا مملوكين ملوكا وأنبياء وملكناهم "مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا" اي جهاتها بما فيها بيت المقدس ومصر والشام وهذا أولى من الاقتصار على ارض

مصر التي كانوا فيها عبيدا هم ونساؤهم ، وهذه الأرض هي "الَّتِي بارَكْنا فِيها" بكثرة الثمار والزروع والأشجار والخصب وسعة الرزق وكونها مساكن الأنبياء والصالحين ومرقدهم ، وكلها كانت داخلة في ملك داوود وسليمان وهما من بني إسرائيل ولم يقتصر ملكهما على مصر والشام بل بيت المقدس وما حواليه واليمن وغيرها هذا ، وقد جاء في فضل الشام أحاديث كثيرة اخترنا منها ما أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي أيوب الأنصاري قال : ليهاجرن الرعد والبرق والبركات إلى الشام .

واخرج ابن عساكر عن حمزة ابن ربيعة قال : سمعت أنه لم يبعث نبي إلا من الشام فإن لم يكن منها اسرى به إليها .

وهذا مؤيد بإسراء حضرة الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم ومهاجرة ابراهيم ولوط عليهما الصلاة السلام ، لانهم ليسوا منها .

مطلب ما جاء في مدح الشام :

واخرج احمد عن عبد اللّه بن خولة الأزدي أنه قال يا رسول اللّه خر لي بلدا أكون فيه ، قال عليك بالشام فإنه خيرة اللّه تعالى من أرضه يجتبي إليه خيرته من عباده .

واخرج ابن عساكر عن واثلة ابن الأصقع قال : سمعت رسول اللّه يقول عليكم بالشام فإنها صفوة بلاد اللّه يسكنها خيرته من عباده .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد اللّه ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا لحق بالشام .

وجاء من حديث أحمد والترمذي والبيهقي وابن حبان والحاكم أيضا عن زيد بن ثابت أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : طوبى ، للشام ، فقيل له ولم ؟ قال إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها .

هذا ، والأحاديث في فضل الشام كثيرة ، إلا أن فيها مقالا فمنها الضعيف والمنكر والموضوع ، وسبب وضع بعضها ما كان يتملّق به بعض المنافقين زمن الأمويين ، والشام اسم للاقليم المعروف من حدود الحجاز إلى الترك ، ومن مصر إلى العراق ، قال في القاموس الشام

بلاد عن مشأمة القبلة وسميت بذلك لأن قوما من بني كنعان تشاءموا أي تياسروا إليها ولأنها مساكن سام بن نوح وأن السين تقرأ بالعبرية شينا .

أخرج ابن ابي لحاتم عن ابي الأعمش وكان قد أدرك أصحاب رسول اللّه أنه سئل عما بورك من الشام ، أي مبلغ حده فقال : أول حدوده

عريش مصر ، والحد الآخر طرف الثنية ، والحد الآخر الفرات ، والحدّ الآخر جعل فيه قبر هود عليه السلام .

وان دمشق أو جلق المعروفة الآن بالشام فهي داخلة هذا الإقليم ، وفيها خاصة ما قاله بعضهم :

دمشق غدت جنة للورى زها وصفا العيش في ظلها

وفيها لدى النفس ما تشتهي ولا عيب فيها سوى أهلها

وقال آخر :

تجنب دمشق ولا تأتها وإن شاقك الجامع الجامع

(119/261)

فسوق الفسوق بها نافق وفجر الفجور بها ساطع

وهذا القائل تشابه قلبه مع قلب من حرّف ما كتب على معرض دمشق عام 1934 عبارة معرض دمشق وسوقها بعبارة : معرص دمشق وفسوقها ، وهكذا قلوب المنافقين تتشابه كقلوب الكافرين ألا تراهم على وتيرة واحدة في أفكارهم ومداهنتهم راجع الآية 118 من البقرة في ج 3 .

وقال آخر :

قيل ما يقول في الشام حبر شام من بارق الهنا ما شامه

قلت ماذا أقول فى وصف أرض هي في وجنة المحاسن شامه

وفي الحقيقة هي الآن قبة الإسلام ومعهد العلوم وباب التقوى ومعدن حلق الذكر وتداول كتاب اللّه ومركز أهل الفضل والصلاح وكنانة اللّه في أرضه وملاك الخيرات .

أما ما يتفوه به بعضهم فله نوع من الصحة لأنها بلدة عظيمة فيها الغث والسمين ، وكل يعمل على شاكلته :

(لكل امرئ في دهره ما تعودا) (وكل إناء بالذي فيه ينضح)

والطيور على أشكالها تقع ، فنسأل اللّه أن يولي الأمور خيارها ويوفقهم وسائر المسلمين لإزالة ما وصمهم به عدوهم ، قال تعالى "وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى " التي هي النصر على العدو وانجاز الوعد بتمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها وتلك منّة جلّى "عَلى بَنِي

إِسْرائِيلَ" من اللّه إذ ذاك ، أما الآن فنسأله بحرمته أن يدمرهم ويذيقهم أشد ما لاقاه آباؤهم ويطهر الأرض المقدسة منهم ويولي عليهم من يعيد لهم زمن فرعون إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، لأنهم لم يقدروا

(120/261)

نعم اللّه الذي جعلهم بعد الرق أحرارا وبعد الذل أعزاء وجعل منهم ملوكا وأنبياء بعد العبودية "بِما صَبَرُوا" اولا على الأذى والقتل والأسر ، إعادة اللّه عليهم وذلك لأنهم انتظروا وعد نبيهم موسى عليه السلام بالفرج الذي مناهم به أربعين سنة ، ولا شك أن الانتظار أشد من النار ، قال تعالى "وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ" من البنايات العالية والقصور الشامخة في مصر وغيرها "وَما كانُوا يَعْرِشُونَ 137" من الكرم وغيره في الجنان ، وجاز ضم راء يعرشون والكسر أفصح ، وقد حصل هذا التدمير باغراقهم بالبحر وتركهم ديارهم وجناتهم وبالطوفان الذي أوقعه اللّه عليهم المنوه به في الآية 123 المارة ، وهذا آخر ما قصه اللّه علينا في هذه السورة بما جرى بين فرعون وموسى ، وانظر ما يقصه اللّه علينا مما أحدثه بنو إسرائيل بعد ألطاف اللّه عليهم التي يجب أن يقابلوها بالشكر ، قال تعالى "وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ" بعد انجائهم منه وإغراق فرعون وقومه وخلفناه وراء

ظهورهم وأمنوا من كيد فرعون وقومه الذي قطع أمعاءهم كما سيأتي في القصة مفصلا بالآية 53 من سورة الشعراء الآتية "فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ" قال قتادة هم طائفة من لخم كانوا نزولا على الرقة أي ساحل البحر لا الرقة التي على شاطىء الفرات من أعمال دير الزور ، ولعلها سميت رقة لهذا السبب أيضا ، وقال غيره هم الكنعانيون الذين أمر اللّه موسى بقتالهم ولما رأوهم "قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ" تماثيل من الأصنام وكانت على صورة البقر أي ليعبدوها مثلهم ، قاتلهم اللّه استحسنوا عمل أولئك الكفرة وطلبوا مثله ولم وتجفّ أقدامهم بعد من انجائهم من البحر "قال" موسى زجرا لهم وتعجبا من حالهم وقولهم هذا بعد رؤية تلك الآيات التي خلصتهم من عبودية القبط وأهلكت أعداءهم دونهم على

مرأى منهم ، إذ كانوا في البحر جميعا ، وصادف خروج آخر واحد منهم دخول آخر واحد من القبط فيه ، ولما رأى عليه السلام طيشهم هذا "قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ 138" عظمة اللّه وقوة سلطانه ولا تقدرون نعمه ، أتريدون أن تشركوا باللّه وتكفروا نعمه بعد أن نجاكم من الذل والعار والخزي والقتل والغرق "إِنَّ هؤُلاءِ" الذين ترونهم يعبدون الأصنام ويتخذون

عبادتها قربة إلى اللّه ، الذين تريدون أن يكون لكم مثل ما لهم من الأوثان "مُتَبَّرٌ" مدمّر هالك "ما هُمْ فِيهِ" من الحال ويؤدي إلى تدميرهم وليس بدين يتدين به وأن اللّه سيقدرني على تحطيم أصنامهم هذه وتبديدها وتصييرها فتاتا ، لأن عبادتهم لها كفر محض واشراك مع حضرة الربوبية ومثل هذا الطلب محرم وهؤلاء قوم حمق "وَبَاطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 139" من صنعها وعبادتها فهم كفار يجب قتالهم ، لأنهم لم يريدوا بعبادتها وجه اللّه ثم "قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً" كلا لا إله غيره "وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ 140" في زمانكم وهو المستحق للعبادة وحده لأنه النافع الضار ، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر فكيف تريدون عبادتها وهي لا تدفع شرا عن نفسها هذا جزاء اللّه منكم أيها الفسقة .

أخرج الترمذي عن أبي واقد الليثي أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين امرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا (أي طائفة ممن معه) اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم سبحان اللّه هذا كما قال قوم موسى (اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ) والذي نفسي بيده لتركبن سنن من قبلكم ، الحديث .

(122/261)

ثم شرع يعدد عليهم نعمه فقال "وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ" يولونكم ويكلفونكم ويبغونكم "سُوءَ الْعَذَابِ" أشده وأقساه ثم بينه بقوله "يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ" العذاب المهين محنة فظيعة "بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ 141" لا أعظم منه في الدنيا فهو غاية الذل ونهاية الخزي والعار ، فالرب الذي أنجاكم من وأهلك عدوكم وملككم أرضه وماله ، أليق بكم أن تشتغلوا بعبادته طلبا لرضاه وشكرا لما أولاكم وأجدر أن لا تشركوا معه شيئًا أبدا ، لا أن تقولوا اجعل لنا إلها من أحجار وأخشاب ومعادن جامدة أو من حيوان عاجز ، انتهوا عن هذا واستغفروا لئلا يحل بكم غضبه ، قال تعالى "وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً" للتشرف بمناجاتنا وهو شهر ذي القعدة "وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ" من ذي الحجة "فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"

مع يوم العيد الذي هو يوم الوعد ، وذلك أنه عليه السلام بعد أن نجى اللّه قومه وعبر بهم البحر وزجرهم على ما وقع منهم ، وكان وعد قومه بأنه إذا أهلك اللّه عدوهم يأتيهم بكتاب من عند ربه فيه ما يأتون وما يذرون .

ولما تمّ له ذلك طالبه قومه به ، فسأل ربه انجاز وعده ، فأمره أن يصوم ذا القعدة ثلاثين يوما فصامها ، وأنكر خلوف فمه ، فأوحى اللّه إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم عندي

أطيب من ريح المسك ، ثم أمره أن يصوم عشرة أيام من أول ذي الحجة ويحضر لمناجاته وإنزال الكتاب عليه ، فصامها وتوجه إلى المحل الذي أمره أن يحضر فيه "وَقَالَ . . .

(123/261)

لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي" مدة ذهابي لمناجاة ربي "وَأَصْلِحْ" أمورهم واحسن خلافتي فيك وفيهم وراقبهم في حركاتهم وسكناتهم "وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ 142" منهم ، وقد أعطى هذه الأوامر أخاه وهو يعلم أنه يصلح ولا يسلك سبيل من أفسد منهم ولكنه من قبيل التوكيد لشدة حرصه عليهم ، ولعلمه بصغر عقولهم ، ولأنهم قوم تربّوا على الذل والصغار لا يأمن أن يستميلهم الأشرار ، وتوصية لهرون الذي لا يتصور منه وقوع ما أوصاه به ، وحذره عنه ، على حد قول سيدنا إبراهيم (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) الآية 260 من البقرة في ج 3 ، وعلى حد قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا) الآية 134 من سورة النساء ، أي اثبتوا على إيمانكم وداوموا عليه ، فكأنه يقول لأخيه دم على أخلاقك وإصلاحك شأنهم كما كنت أنا وأنت دائبين عليه ، وكأنه عليه السلام نفث في روعه أنهم سيزيغون عن عبادة اللّه بما يسوله لهم شرارهم فأوصى أخاه بما أوصاه لأن الأنبياء ملهمون ، وسبب وصيته هذه أن الرئاسة كانت لموسى دون هرون ، وقال الشيخ محي الدين

العربي الأكبر في فتوحاته ما معناه إن هرون نبي أصالة ورسول بحكم التبعية فلعل هذا الاستخلاف من آثار تلك التبعية ، وقيل إن هذا كان كما يقوله أحد المأمورين بمصلحة واحدة إذا أراد الذهاب لحاجة كن عوضا عني ، أي ابذل جهدك ووسعك بحيث يكون عملك عمل اثنين ، وهو وصية لأن هرون مثل موسى مرسل لبني إسرائيل أيضا .

مطلب ميقات موسى وتكليمه :

قال تعالى "وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا" الذي عيّناه له في طور سيناء "وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ" من غير واسطة ولا كيفية .

(124/261)

وقد ذهب الحنابلة ومن تابعهم إلى أن كلام اللّه تعالى حروف وأصوات متقطعة وأنه قديم ، وذهب المتكلمون إلى أنه صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وهي صفة أزلية قديمة ، وعليه فإن القائلين بهذا القول قالوا إن موسى سمع تلك الصفة القديمة الأزلية حقيقة وقالوا : فكما أنه لا تبعد رؤية ذاته وليست جسما ولا عرضا ، فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع أنه ليس بصوت ولا حرف ، ومع هذا فإنه لا يشبه كلام المخلوقين ولا محذور من ذلك ، أما من قال إن تكليمه تعالى عبارة عن خلق الكلام منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه محفوظا في

الألواح ، وهو ما ذهب إليه الزمخشري ومن على طريقته من المعتزلة فهو قول باطل ، لانه يقضي بأن تقول الشجرة التي كلمه منها أو الجرم الذي كلمه عليه إنني أنا اللّه ، وإن هذه الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول ذلك فظهر فساد مذهبهم في هذا .

(125/261)

وإن مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه جمهور العلماء وبعض من المتكلمين سلفا وخلفا ، هو أن اللّه تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض في تأويله ، والحقيقة أن اللّه تعالى كلم موسى بلا واسطة ولا كيفية ، وأسمعه كلامه ومناجاته ، فاستحلى ما سمع وطمع في رؤيته لغلبة شوقه إليه "قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ" سأل عليه السلام ربه أن يريه ذاته المقدسة مع علمه بأن اللّه لا يرى في الدنيا بسائق ما هاج به من الغرام في لذة المناجاة وما فاض عليه من الجلال حتى استغرق في بحر محبّته ، فسأل الرؤية ، ولعل هذه أيضا من جملة ما ألهم بأنه سيأتي نبي بعده يرى ربه بأم عينه فطمع بذلك وطلبها ، أو أنه طلب التمكن من الرؤية مطلقا بالتجلي والظهور وهما مقدمان على النظر ومسببان له ، ففي الكلام ذكر الملزوم وإرادة اللازم فيكون المعنى : مكني من رؤيتك أو تجلّ علي فأنظر إليك

وأراك ، ولم يرد إيجاد الرؤية لعلمه باستحالتها في الدنيا فأجابه ربه بالمنع "قالَ لَنْ تَرانِي" وأنت على ما أنت عليه لأن البشر لا يطيق

(126/261)

النظر إليّ في هذه الدار ، وفي هذا دليل لأهل السنة والجماعة على جواز الرؤية في الآخرة ، لأن موسى اعتقد أن اللّه يرى ، فسأل الرؤية لأنها جائزة واعتقاد جواز ما لا يجوز على اللّه كفر ، ولأنه تعالى لم يقل لن أرى ليكون نفيا للجواز ولو لم يكن مرئيا لأخبر بأنه ليس بمرئي إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ، قال تعالى "وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ" طور سيناء الذي هو قريب منه واسمه زبيد "فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ" بعد أن تجلى عليه وبقي كما هو عليه الآن "فَسَوْفَ تَرانِي" إذا تجليت عليك أيضا ، وهذا دليل أيضا على جواز الرؤية لأنه علقها باستقرار الجبل وهو ممكن وتعليق الشيء بالممكن دليل على إمكانه كالتعليق بالممتنع دليل على امتناعه ، والدليل على أن استقرار الجبل ممكن قوله (جَعَلَهُ دَكًّا) ولم يقل اندك ، وما أوجده اللّه تعالى كان جائزا أن لا يوجد لو لم يوجده ، لأنه مختار في فعله ، ولأنه تعالى ما آيسه من الرؤية ولا عاتبه على طلبها كما عاتب نوحا بقوله :

(أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ) الآية 46 من سورة هود في ج 2 ، ولا يقال أن محمدا من

البشر وكيف رأى ربه وقوي على رؤيته ، لأن اللّه تعالى أودع فيه قوة على ذلك مكنته من الرؤية لأنها من خصوصياته صلّى اللّه عليه وسلم كما خص موسى بالتكليم وقواه على سماع كلامه مشافهة دون غيره ، فلا مناقشة في هذا وما عموم إلا خصص .

(127/261)

هذا ، ومن قال انّ (لن) للتأبيد والدوام واستدل على عدم جواز الرؤية حتى في الآخرة فقد أخطأ إذ لا شاهد له بالعربية على قوله ، ولا دليل له في الكتاب والسنة وأن الدلائل لإثبات الرؤية في الآخرة صريحة في قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ) الآية 24 من سورة القيامة المارة ، وجاء في الصحيحين أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، ومما ينقض قوله أنّ لن للنفي ألا يرى قوله تعالى في نعت اليهود (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) الآية 95 من البقرة في ج 3 ، مع أنهم يتمنونه يوم القيامة في قوله تعالى (وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ) الآية 77 من الزخرف في ج 2 ، وقوله (يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ) الآية 17 من سورة الحاقة في ج 2 ، وقوله في الآية 25 من سورة مريم الآتية (يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا) ت (27)

فظهر لك من هذا كله أنّ لن ليست للتأبيد ، قال تعالى "فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ" أي ظهر له على الوجه اللائق بجنابه بعد أن جعله مدركا ، لذلك قال الشيخ أبو منصور نقلا عن

الأشعري ، أنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلما ورؤية حتى رأى ربه ، فلما رآه جلت رؤيته "جَعَلَهُ دَكًّا" مفتوتا ساوى به الأرض بحيث لم يبق له أثر ، والدّكّ والدق أخوان وكذلك الشك والشق ، وهذا نص بكونه مرئيا ثابت لا مرية فيه ، ونص بجهل منكر الرؤية كما مرت الإشارة إليه ، ولا يستغرب هذا ، لأنه داخل في قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) الآية 44 من سورة الإسراء الآتية ، فظاهر هذه الآية يستلزم كون جميع الأشياء حية مدركة بحياة وإدراك لا يقين بها ، وكل بنسبة عالمه ، وإذا دققت النظر في مغزى اسمه القادر هان عليك ما لا يقبله عقلك أو تتصوره مخيّلتك ، اللهم بصرنا وأرشدنا إلى ما به النجاة من الحيرة .

(128/261)

هذا ، والاحتجاج بجمادية الجبل لا قيمة له ، لأن اللّه تعالى قال في الآية 9 من سورة سباء في ج2 (يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ) فالذي أقدر الجبال على التسبيح مع داود عليه السلام أقدر هذا الجبل على الفهم والتعقل وخلق فيه رؤية متعلقة بذات اللّه تعالى ، وكونه مخاطبا بهذا الخطاب مشروط بحلول الحياة له والعقل فيه فهكذا هنا ، فلم يبق مجال للقول بإنكار الرؤية وجوازها بعد أن بان لك تبعتها بالدلائل العقلية والسمعية ، وعلمت بأن ما جاء به منكر

الرؤية مصدره التأويل والتفسير راجع تفسير الآية 102 من سورة الأنعام في ج 2 ، قال ابن عباس : ظهر نور الربوبية للجبل فصار ترابا "وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً" صائحا مغشيا عليه ساقطا على الأرض من هيبة الربوبية وعظمتها التي لا تكيف "فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ" تعاليت وتنزهت عن المثالية والمشابهة لخلقك وعن أن يثبت أحد لمشاهدتك "تُبْتُ إِلَيْكَ" عن سؤال الرؤية في الدنيا ومن أن أسألك شيئا بغير إذنك "وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ 143" بأن البشر لا يطيق رؤيتك في الدنيا إلا من قربته منك وقويته بمعونتك وأيدته بتأييدك وخصصته بها دون سائر خلقك ، وكان رمز إليه بأنه سيظهر نبي بعدك يرى ربه "قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ"

(129/261)

اخترتك وميزتك "عَلَى النَّاسِ" الموجودين على الأرض في زمنك "بِرِسالاتِي" التي أرسلتك بها لتبلغها لعبادي وهي الصحف التي أنزلتها إليك قبل أسفار التوراة التي أنزلها عليك الآن "وَبِكَلامِي" لك دون واسطة "فَخُذْ ما آتَيْتُكَ" من هذه الفضائل التي خصصتك بها وحدك ولم تكن لأحد قبلك فاقبلها واعمل بها "وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ 144" نعمائي من تشريفك بالرسالة وتتويجك بالتكليم ، ولا يضق صدرك من منعي لك الرؤية لأنها لم تقدر

لك في أزلي ، فرضي موسى ، وشكر ربه ، قال تعالى "وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ" المسطور عليها التوراة "مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ" يحتاج إليه هو وقومه من أمر ونهي وحلال وحرام وحدود وأحكام "فَخُذْها بِقُوَّةٍ" بجد وعزم وحزم "وَأْمُرْ قَوْمَكَ" يا رسولي "يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها" عند وقوع شيء له جهتان ، كالعفو فإنه أحسن من القصاص ، والصبر فإنه خير من الانتقام والضجر ، والكظم فهو أولى من الانتصار ، والصلة فهي أحسن من القطيعة ، وهذه موافقة لشريعتنا قال تعالى (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) الآية 55 من سورة الزمر في ج 2 ، والقرآن كله حسن وإنما الفرق بين الحسن والأحسن كثرة الثواب ، ويستدل من هذه الآية أن التكليف كان على موسى أشد منه على قومه إذ لم يرخص له ما رخص لهم من الأخذ بالأحسن بل خصصه بالحزم ، وهو من أولي العزم إذ يقول له (فَخُذْها بِقُوَّةٍ) وكذلك كلف صلّى اللّه عليه وسلم بأكثر مما كلفت أمته فكلف بقيام الليل على سبيل الفرض ومنع من تطليق نسائه ومن الزواج عليهنّ ، إلى غير ذلك .

مطلب أعمال الكفرة ورؤية موسى ربه :

هذا ، وقد أمره ربه في مناجاته هذه بعد أن أقر عينه بالاصطفاء أن يمرّن قومه على الأخلاق الفاضلة لعلمه بما يصدر عنهم بخلافها لتكون عليهم الحجة ولهذا نبههم بقوله "سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ 145" الخارجين عن الطاعة الذين يؤثرون الأخلاق السافلة على العالية ، فليعتبر قومك يا محمد بالأمم الماضية كيف دمرناها لما

(131/261)

أصروا على الكفر ، وعليهم أن يتعظوا قبل أن يحل بقومك ما حل بهم من الوبال والتنكيل وليعلموا أني "سَأَصْرِفُ عَنْ" فهم ومعرفة معنى "آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ" على خلقي "بِغَيْرِ الْحَقِّ" حسبما تسوّل لهم أنفسهم فيظلمون ويبغون على الناس بمقتضى دينهم الباطل الذي اختلقوه وتلقوه من آبائهم الضالين "وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ" من آياتي التي أظهرتها لهم على أيدي رسلهم "لا يُؤْمِنُوا بِها" ولا يزيدهم نزولها وتبليغها لهم من قبل رسلهم إلا إنكارا وإصرارا على الكفر "وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا" بل يعرضون عنه "وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا" عنادا وعتوا لا جهلا لأن كل من عنده لمحة من إدراك يميز بين الرشد والغي ، كما يميز بين الظلمة والنور فيعرف الأول نافعا والثاني ضارا ولكنهم لا يريدون إلا الانكباب على عوائدهم الشائنة "ذلِكَ" اختيارهم طريق الشر على طريق الخير

، وإيثارهم الكفر على الإيمان "بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا" الواضحة الدالة على حسن ما أمرناهم به بواسطة رسلنا "وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ 146" غير مفكرين بها ولا ملقين لها بالا ، لاهين عن الاتعاظ بها معرضين عنها "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ" فجمعوا بين التكذيب والجحود أمثال من تقدمهم من الأمم المهلكين ، المصرفين عن فهم حقائق آياتنا والتصديق بالبعث والحشر "حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ" التي عملوها بالدنيا من برّ وصلة وقرى ضيف وفك أسير وإغاثة ملهوف وإقالة عثرة ومطلق إحسان ، مما يثاب عليه المؤمن في الآخرة من عوائدهم الحسنة التي كانوا يفعلونها بطلت ومحق ثوابها ، لأنهم لم يفعلوها لوجه اللّه في الدنيا ولذلك لم ينتفعوا فيها بالآخرة ، وقد حرموا من ثوابها بسبب تكذيبهم وكفرهم ، ولأنا قد كافأناهم عليها في الدنيا بكثرة الأموال و

الأولاد والصحة والأمن والجاه لأنا لا نضيع أجر من أحسن عمله ، فإن كان مؤمنا أثبناه عليه في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا كافيناه عليه في الدنيا فقط وما له في الآخرة من نصيب ، فانظروا "هَلْ يُجْزَوْنَ" هؤلاء وأضرابهم يوم القيامة "إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ 147" بدنياهم فيجازون عليه إن خيرا فخير ، وان شرا فشر ، إلا أن الكافر يعجل له

ثواب عمله الصالح في الدنيا ليلقى اللّه ولا حسنة له راجع تفسير الآية 20 من سورة الأحقاف في ج 2 ، والمؤمن يدخر له هذا .

مطلب إشارات القوم في الرؤية :

وقد اختلف المفسرون والعلماء بأن موسى عليه السلام هل رأى ربه بعد هذا الطلب أم لا ؟ فذهب الأكثر إلى عدم الرؤية لا قبل الصعق ولا بعده ، وقال الشيخ الأكبر إنه رآه بعد الصعق ، لأنه كان موتا ، أخذا من قوله تعالى :

(فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) الآية 68 من سورة الزمر في ج 2 ، أي أنه حين صعق مات فرأى ربه وسأله عما جاء في الآية وأجابه بما جاء فيها ، ووافقه على هذا ، القطب الرازي .

أخرج الحاكم والترمذي في نوادر الأصول وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم هذه الآية (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) فقال : قال اللّه يا موسى إنه لن يراني حيّ إلا مات ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسامهم .

وجاء في الخبر الذي رواه أبو الشيخ عن ابن عباس : يا موسى إنه لا يراني أحد فيحيا ، قال موسى رب ان أراك ثم أموت أحب إلي من ألا أراك ثم أحيا .

وجاء في باب الإشارات : (قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) قال هيهات ذلك وأين الثريا من الثرى ومن يد المتناول أنت بعد في بعد الاثنينية وحجاب جبل الانانية ، فإذا أردت ذلك فخل نفسك وأتني ، فهان عليه الفناء في جانب الرؤية للمحبوب ولم يعز لديه كل شيء إذا رأى عزة المطلوب ، فبذل وجوده وأعطاه موجوده ، فتجلى ربه لجبل أنانيته ثم منّ عليه برؤيته ، وكان وما كان وأشرقت الأرض بنور ربها وطغى المصباح إذ طلع الصباح وصدح هزار الانس في رياض القدس (ينعم)

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرقّ من النسيم إذا سرى

وأباح طرفي نظرة أمّلتها فغدوت معروفا وكنت منكرا

فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبرا

وقد أبدع ابن الفارض في تائيته الكبرى فمن شاقه البحث فليراجعها ، ففيها ما تقرّ به العين ويشرح الصدر وترتاح له الجوارح ، وإن كتب الصوفية العارفين كالرسالة القشيرية والأبريز والإنسان الكامل وغيرها مما تقدم ذكره في المقدمة ملأى من هذا ، فمن أراد الوصول إلى حضرة القبول ، فليخل نفسه ويتوجه بكلية قلبه ولبه إلى ربه ، وإلّا لا وصول ولا قبول .

قال عيسى عليه السلام : لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، ولن يلج ملكوت السموات إلّا من

ولد مرتين .

هذا ، وإن السادة الصوفية قالوا بصحة الصعق الذي يحصل لبعضهم عند سماع آية رغبة أو رهبة أو ما في معناهما من هذا ، كما أشرنا إليه في تفسير الآية 14 من سورة المزمل المارة .

وأرى أن لا يعترض عليهم في ذلك كما لا يعترض على ما جاء في كتبهم من عبارات قصر الفهم عن إدراك معناها ووقف العقل عن تناول مغزاها .

مطلب الصعق وتحريم النظر في كتب القوم لغيرهم :

فقد جاء في ص 294 في الجزء الثالث من حاشية الدر المختار لابن عابدين ما نصه :

(134/261)

(نحن قوم يحرم النظر في كتبنا) وذلك لأنهم تواطأوا على ألفاظ اصطلحوا عليها فيما بينهم وأرادوا بها غير معناها المتعارف ، فمن حملها على معناها الظاهر فقد كفر .

وقد سئل بعضهم عن هذا فأجابه بما نصه : (الغيرة على أن يدعي طريقنا من لا يحسنه ويدخل فيه من ليس من أهله) وقد سئل العلامة عز الدين بن عبد السلام عن ابن العربي وكان يطعن فيه ويقول هو زنديق ، فقال هو القطب ، فقال لم تطعن فيه ، فقال لا أخون

ظاهر الشرع ، أي أنه كان يرى منه ما يخالف الشرع ظاهرا فيطعن فيه من هذه الجهة .

راجع تفسير الآية 42 من سورة والنجم ، ومن هذا القبيل كان اعتراض موسى عليه السلام على الخضر .

راجع الآية 65 فما بعدها من سورة الكهف في ج 2 ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 27 من سورة الزمر في ج 2 .

هذا ، وقد ذهب الشيخ ابراهيم الكوراني إلى أنه عليه السلام رأى ربه سبحانه حقيقة قبل الصعق فصعق لذلك كما دكّ الجبل عند التجلي ، واستدل بما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : لما تجلى اللّه لموسى عليه السلام كان يبصر دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء من مسيرة عشرة فراسخ ،

وبما أخرجه عن أبي معشر أنه قال : مكث موسى عليه السلام أربعين ليلة لا ينظر إليه أحد إلا مات من نور رب العالمين ، وجمع بين هذا وبين قوله صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه أعطى موسى الكلام وأعطاني الرؤية وفضلني بالمقام المحمود والحوض المورود .

(135/261)

بأن الرؤية التي أعطاها لنبينا صلّى اللّه عليه وسلم هي الرؤية مع الثبات والبقاء من غير صعق ، كما أن الكلام الذي إعطاء لموسى كذلك بخلاف رؤية موسى فإنها لم تجتمع له مع البقاء ، وعلى هذا فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الدجال أنه لن يرى أحدكم ربه حتى يموت ، هو أن أحدا لا يراه في الدنيا مع البقاء ولا يجمع له في الدنيا بينهما ، ولهذا قال عيسى عليه السلام : لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين ، أي بعد أن يصل إلى درجة الأبرار فتموت نفسه فتنقل إلى رتبة المقربين فتحيا بها فيرى أن ما كان منه في الدرجة الأولى خطأ ينبغي الاستغفار منه والتوبة عن مثله ، لما هو من العمل الذي ولد عليه في رتبة المقربين .

ولهذا قالوا حسنات الأبرار سيئات المقربين ، هذا واللّه أعلم .

واعلم أن الذاهبين إلى عدم الرؤية مطلقا ، وهو ما ذهبت إليه يجيبون عما ذكر في حديث أبي هريرة وخبر أبي معشر المارين آنفا ، بأن الثاني ليس فيه أكثر من اثبات سطوع نور اللّه تعالى على وجه موسى وليس في ذلك إثبات الرؤية لجواز أن يشرق نور منه تعالى على وجهه عليه السلام في غير رؤية ، إذ لا تلازم بين الرؤية وإشراق النور ، وبأن الأول ليس نصا في ثبوت الرؤية المطلوبة له عليه السلام ، لأنها كما قال غير واحد عبارة عن التجلي الذاتي وللّه تجليات شتى غير ذلك ، فلعل التجلي الذي أشار إليه الحديث على تقدير صحته واحد منها وقد يقطع بذلك ، فإنه سبحانه تجلى عليه بكلامه واصطفائه وقرب منه على

الوجه الخاص اللائق به ، ولا يبعد أن يكون هذا سببا لذلك الابصار ، وهذا أولى مما قيل إن اللام في لموسى للتعليل ، ومتعلق تجلى محذوف ، أي لما تجلى اللّه للجبل لأجل إرشاد موسى كان عليه السلام يبصر بسبب إشراق بعض أنواره تعالى عليه حين التجلي للجبل ما يبصر ، وهذا الحق الذي لا محيص عنه .

(136/261)

أما الزمخشري فقد بالغ في عدم إمكان الرؤية وأصر على أنّ لن للتأبيد ولدوام النفي وتأكيده ،

وقال إن قول موسى (تبت إليك) دليل على خطأه بسؤال الرؤية ، وقال في كشافه أعجب من المتسمين بالإسلام المسميين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة (أي قولهم إن اللّه تعالى يرى بلا كيفية مثل الحوقلة والبسملة والصلعمة وغيرها) فإنه من مصنوعات أشياخهم والقول ما قاله بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمري مؤكفه

قد شبهوه بخلقه فتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه

ويريد بهذا هو وجماعته ومن تابعهم من المعتزلة نفي الرؤية لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه

وسلم ليلة الإسراء المجمع عليها ، لأنه من غلاة منكريها والتشنيع على القائلين بها ، وقد رد على قولهم هذا تاج الدين السبكي رحمه اللّه بقوله :

عجبا لقوم ظالمين تلقبوا بالعدل ما فيهم لعمري معرفة

قد جاءهم من حيث لا يدرونه تعطيل ذات اللّه مع نفي الصفة

وتلقّبوا عدلية قلنا نعم عدلوا بربهم فحسبهم سفه

وقال صاحب مبدأ الأمالي :

يراه المؤمنون بغير كيف وإدراك وضرب من مثال

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

أي من نعمة الرؤية لأن جزاءهم حرمانها ، قال تعالى "وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ" أي بعد ذهابه للمناجاة وتخليف أخيه هرون عليهم مدة غيابه "مِنْ حُلِيِّهِمْ" جمع حلي كندى وهو ما يتزين به من الذهب والفضة والجواهر "عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ" صياح صوت كصوت البقر .

مطلب أصوات الحيوانات وقصة العجل :

حيث يسمى خوارا ، كالثغاء للغنم ، واليعار للمعز ، والينيب للنيس ، والنباح للكلب ، والسحيل .

والنهيق للحمار ، والزئير للأسد ، والعواء والوعوعة للذئب ، والضباح

للثعلب ، والصنّى للفيل ، والثغيم للضبي ، والقباع للخنزير ، والمواء للهرة ، والصهيل والضبح والقنع والحمحمة للخيل ، والرغاء للناقة ، والضغيب للأرنب ، والعرار للظليم ذكر النعام ، والعرمرة للبازي ، والغقغقة للصقر ، والصفير للنسر ، والهديل للحمام ، والسجيع للقمري ، والسقسقة للعصفور ، والنعيق والنعيب للغراب ، والصقاع والزقاء للديك ، والقوقاء والنقنقة للدجاج ، والفحيح للحية ، والنقيق للضفدع ، والصّئيّ للعقرب وللفأر ، والصرير للجراد ، إلى غير ذلك .

وقرأ عليّ كرم اللّه وجهه جوار بجيم مضمومة وهمزة ، وهو الصوت الشديد كالصياح والصراخ ، وهي تصحيف خوار بلا زيادة في الحروف .

وخلاصة القصة أن بني إسرائيل كانوا استعاروا حلي القبط ليتزينوا به في عيدهم وذهبوا مع موسى إلى البحر قبل أن يردّوه إليهم ، وقد هلك القبط في البحر حينما تبعوهم ونجوهم منه وبقي حليهم عندهم فصار ملكا لهم ، لأن الاستيلاء على مال الكفّار يوجب زوال ملكيته عنهم وصيرورته ملكا للمتولى عليه ، لذلك نسبه اللّه إليهم ، وهذا مما هو موافق لشريعتنا من شريعة موسى عليه السلام إذا كان لا يعد من الغنائم الحربية لأنها لم تحل لبني

إسرائيل ومن شريعتهم حرقها ، أما في شريعتنا فهي حلال ومن خصائص الأمة المحمدية الخمس المختص بحضرة الرسول الآتي بيانه في الآية 158 الآتية ، ولما مر على ذهاب موسى عليه السلام ثلاثون يوما ولم يعد إليهم ولم يعلموا أن اللّه زاده عشرة أيام أخر ويعلمون أن موسى لا يخلف وعده ، وكان السامري من قوم موسى منافقا وكان رجلا حاذقا وهو كما قيل رباه جبريل عليه السلام واسمه موسى أيضا وفيه وفي موسى عليه السلام قال القائل :

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر وموسى الذي رباه فرعون مرسل

(138/261)

وكان يرى جبريل عليه السلام ويرى أن حافر فرسه كلما وطىء شيئا اخضرّ فعرف المغزى من ذلك وهو إحياء الأرض الميتة بوطىء حافر فرسه فأخذ شيئا من تراب أثر فرسه واحتفظ فيه ، وكان مطاعا في بني إسرائيل فوسوس إليه الشيطان أن يصنع صنما لهم فكلفهم بإحضار الحلي الذي استعاروه من القبط بداعي أنه لا يجوز لهم أخذه ، فأحضروه له فصاغه عجلا وأخرج ذلك التراب فوضعه في هيكل العجل

فصار له صراخ كصراخ العجل ، فقال لهم هذا هو الإله الذي قصده موسى قد نسيه هنا ، لأن المدة المعينة مضت ولم يحضر وأغراهم بذلك وأمرهم بعبادته ، وصاروا كلما صاح سجدوا له .

وهذا الذي خطر على قلب موسى في توصية أخيه وخوفه على بني إسرائيل الضلال .

قيل إن تصويته كان يحصل من أنابيب صاغها في بطنه وكلما دخل فيها الهواء صوتت ، والأول أصح على القول بأنه وضعت فيه حياة خاصة بسبب التراب المار ذكره ، والثاني أجدر بالقبول للعقول لما للهواء من التأثير في المكونات التي اطلع عليها البشر ، وخاصة أهل هذا الزمن والعجل لولد البقر خاصة ، ولولد الناقة حرار ، والفرس مهر ، والحمار جحش ، والشاة حمل ، والمعزى جدي ، والأسد شبل ، والفيل دغفل ، والكلب جرو ، والظبي خشف ، والأرنب خرنق ، ويضرب فيه المثل بالنعومة قال :

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضّاها ولا تملق

واعمد لأخرى ذات دلّ مونق ليّنة اللمس كمس الخرنق

(139/261)

و لولد الضبع فرعل ، والدب دسيم ، والخنزير فنوص ، والحية حويش ، والنعام رأل ، والدجاجة فروج ، والفأر ردوص ، والضب حسل ، فرد اللّه على السامري بقوله "أَلَمْ يَرَوْا" هؤلاء السفهة "أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ" هذا العجل "وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا" لأنه لا يعقل ولا يفهم "اتَّخَذُوهُ" ليرشدهم إلى طريق الصواب أم ليدفع عنهم ضرا ويجلب لهم نفعا كآحاد البشر ، وهذا تقريع وتشنيع على فرط ضلالهم وإضلالهم بالأمور النظرية "وَكانُوا ظالِمِينَ 148" باتخاذهم إياه وإعراضهم عن عبادة اللّه مع علمهم بأنه صورة مصنوعة لا تقدر على شيء ومن كان كذلك فهو ناقص والناقص لا يصلح للألوهية ، وهذه الآية كالآية 89 من سورة طه الآتية من حيث المعنى ، وقد أنّبهم هرون عليه السلام بما فى معناها وأمرهم بالكف عنه والرجوع لعبادة اللّه فلم يفعلوا كما سيأتي في الآيتين 90 و 91 من سورة طه أيضا ، ولما ينغهم قدوم موسى أحسّوا بسوء صنيعهم وعرفوا أنهم على ضلال فأنزل اللّه قوله جل قوله

(140/261)

"وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ" هذا مثل تقوله العرب لكل نادم على أمر لأن من شأن من اشتد ندمه أن يعض يده ويضرب بها على فخذه فتصير يده ساقطة والسقوط عبارة عن النزول

من أعلى إلى أسفل ، لذلك يقولون لمن هذا شأنه سقط في يده "وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا" تيقنوا وعلموا أن عبادتهم العجل خطأ صراح ، وندموا على ما وقع منهم وعدم التفاتهم إلى نصح هرون عليه السلام في ترك عبادته ، ولاموا بعضهم فانقسموا شطرين شطرا مع السامري عكفوا على عبادته ، وشطرا مع هرون امتنعوا عنها ثم ندم بعض الذين أغواهم السامري حيث عرفوا الحق مع هرون بعد أن أكثر لهم من إسداء النصح وتفنيد الصورة المصنوغة وطلبوا من هرون العفو وسؤال المغفرة من اللّه "قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا" ذلتنا هذه "لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ 149" في الدنيا والآخرة اعترافا منهم بالذنب وإظهارهم الرغبة إلى اللّه رهبة منه وطلبا لإقالة عثرتهم ، قال تعالى "وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ" من طور سيناء حيث أخبره ربه بما فعل قومه كما سيأتي في الآية 84 من سورة طه أيضا ، وكان عليه السلام "غَضْبانَ أَسِفاً" شديد الحزن على ما وقع من قومه أثناء مناجاة ربه بما أوجب تركها ورجوعه لإنقاذهم مما هم فيه "قال" مخاطبا لهم جميعا أو لكل من الفريقين على حدة ، لأن منهم من لم يزل منكبا على عبادة العجل حتى شاهدهم بنفسه كما قال تعالى في الآية 99 من سورة طه حينما كلفهم هرون بالانكفاف عنه قالوا (لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى) "بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي" وهذا صالح لخطاب الطرفين لعبدة العجل والسامري ، لأنهم كفروا بعبادة العجل وتركهم عبادة اللّه وإلى هرون

ومن معه إذ لم يمنعوهم ويحولوا دون عبادتهم للعجل فيحجبونهم عن الكفر فقال الظالمون تأخرت عن موعدك وظننا أن هذا هو الإله الذي

(141/261)

ذهبت إليه فعبدناه ، قال موسى "أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ" فتقدمتم به قبل وقته .

وهذا معنى العجلة ، ولذلك صارت مذمومة بخلاف السرعة لأنها عمل الشيء أول وقته فلا تكون مذمومة وعليها قوله تعالى في الآية من سورة طه : (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) ولما سمع منهم جوابهم اشتد غضبه عليهم "وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ" المسطور عليها التوراة ، وضرب المثل : (ليس الخبر كالمعاينه) ينطبق هنا لأن اللّه أخبره بأن قومه عبدوا العجل ولم يلق الألواح بل استمر على سماع المناجاة ، وفي مجيئه لم ير زيادة على ما أخبره به ربه ، ولكن الرؤية لها وقع شديد وتأثير بليغ لهذا اشتد غضبه عليه السلام فترك الألواح "وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ" لزيادة موجدته ، ولأنه لم يرسل إليه خبرا بفعلهم هذا ليرجع ويتلافى الأمر ، فاعتذر إليه هرون بقوله الذي قصه اللّه ال يَا بْنَ أُمَّ"

لم يقل يا ابن أبي أو يا أخي مع أن أباهما واحد أيضا طلبا لترقيقه عليه ولأن أمه هي التي قاست بتربيته ما قاست من أجله ، فلعله أن يرحمه بسائق رحمة أمه له ، لهذا استعطفه

بذلك ليرق قلبه عليه ثم أوضح له معذرته وسبب الإقامة معهم وعدم لحوقه ليخبره بصنيعهم بقوله "إِنَّ الْقَوْمَ" بعد ذهابك يا ابن أمي قد "اسْتَضْعَفُونِي" فلم يلتفتوا لقولي ولم يصغوا إلي "وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي" حينما شددت عليهم بالمنع من عبادة العجل "فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ" بما

توقعه بي فتسرهم بما ينالني من مكروه (والشماتة الفرح ببلية العدو) "وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 250" أنفسهم بعبادة العجل والتشويق لعبادته ، ولا تؤاخذني بعدم إخبارك لأني لما أردت ذلك هددوني بالقتل ولم أقدر أن أنفكّ عنهم ،

(142/261)

ولما سمع موسى من أخيه معذرته وعلم أنه تعدى عليه "قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي" ما فعلناه بأخي لأنه من أجلك وتبين لي أنه لم يستوجب جزاء ما "وَلِأَخِي" اغفر أيضا لعدم قدرته على منعهم وعدم تقصيري في نصحهم وعدم تركهم له لإخباري "وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ" الواسعة لمثل ما وقع منا وأعظم "وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 251" فاشملنا برحمتك يا إلهنا واغمرنا بعفوك الضافي ، ثم قال تعالى مخاطبا لأولئك الظالمين اعلم يا موسى "إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ" وعبدوه من دوني "سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ" في الآخرة إن لم يتوبوا وتقبل توبتهم

"وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أيضا بأن يعترفوا بخطيئاتهم ذليلين حقيرين ، يعلوهم الصغار بإسلام أنفسهم للقتل "وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ 152" علينا ، وهذا مما أخبر اللّه به موسى أثناء المناجاة بدليل صرف الاستقبال في سينالهم بالنسبة لوقت الإخبار .

(143/261)

وقد أخبرنا اللّه عن كيفية توبتهم في الآية 54 من سورة البقرة في ج 3 ، وهذه من الأمور الشاقة المبينة في الآية 156 الآتية المخصصة بشريعة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لأن التوبة تقبل قولا وتتم بحسن النية ، أما اليهود فلا تقبل توبتهم إلا باستئذان من اللّه ولا تكون إلّا فعلا ، فيا حسرتهم لم يؤمنوا به ولم يتبعوه كي يستفيدوا من هذا التخفيف ، وان أسلافهم الكرام ، لما أخبرهم موسى بقبول توبتهم على أن يقتل بعضهم بعضا رضوا بحكم اللّه فقتل بعضهم بعضا حتى أن الأب صار يقتل ابنه والابن أباه والأخ أخاه ، وهكذا حتى ماتوا شهداء تائبين رحمهم اللّه ، ولا يتصور بعد هذا أن ينالهم غضب وذلة لأن الحد مزيل للعقوبة ومطهر منها ولا حد أكبر من القتل ولا أفظع منه بالصورة المذكورة ، واللّه تعالى أكبر من أن يجعل على عباده عذابين ، وخاصة بعد أن خضعوا لأمره وأنابوا لمراده وهذا أحسن وجه للتفسير ، وما قاله ابن جريج من أن الغضب والذّلة لمن مات على عبادة العجل أو فر

من القتل وجيه ، ولكن المفسرين على خلافه ، ولذلك جرينا على أن الغضب لمن لم يتب منهم ولم تقبل توبته ، أي بأن كان حال يأس ، ومن قال ان المراد بهم اليهود الذين في زمن المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم ومن قال ان المراد بهم أولاد الذين عبدوا العجل على عهده صلّى اللّه عليه وسلم ، وفسر الغضب بعذاب الآخرة مطلقا والذلة بالجزية .

(144/261)

ومن قال أن الآية على حذف مضاف أي سينال أولادهم ذلك يأباه سياق التنزيل ، ولا يوجد ما يؤيده من أمارة أو دليل ، لأن هذه الآية مكية بالاتفاق ولم يوجد في مكة بين الرسول واليهود أخذ ، وردّ ، وإنما هذا من جملة ما قصه اللّه على رسوله من أخبار الماضين ، وهذه الأقوال ناشئه من عدم النظر إلى ترتيب نزول السور قال أبو قلابة هذه الآية جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة بان يذله اللّه في الدنيا ويغضب عليه في الآخرة ، وقال سفيان بن عينية هي في كل مبتدع إلى يوم القيمة .

وقال مالك بن انس : ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلة ، ثم قرأ هذه الآية ، قال والمبتدع مفتر في دين اللّه .

مطلب عظيم عفو اللّه وتكسير الألواح :

ومما يؤيد ما اخترناه لتفسير هذه الآية على الوجه المار ذكره ، قوله تعالى "وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ 153" لأن حكمها عام يدخل فيه عبدة العجل وغيرهم مهما عظمت جنايتهم ، وهي من أعظم البشارة للمذنبين التائبين ، لأن الذنوب مهما عظمت فعفو اللّه أعظم وما أحسن ما قيل :

أنا مذنب أنا مسرف أنا عاصي هو غافر هو راحم هو عافي

قابلتهن ثلاثة بثلاثة وستغلبن أوصافه أوصافي

وقول أبي نواس :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بان عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

وقوله أيضا :

إذا كنت بالميزان أوعدت من عصى فوعدك بالغفران ليس له خلف

لئن كنت ذا بطش شديد وقوة فمن جودك الإحسان والمن واللطف

ركبنا خطايانا وعفوك مسبل وهلا لشيء أنت ساتره كشف

إذا نحن لم نهفو وتعفو تكرما فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

وقول الشافعي رحمه اللّه :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سلّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

(145/261)

قال تعالى مبينا بقية ما وقع لموسى مع قومه "وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ" أي سكنت ثورته استعاد السكوت للسكوت لأنه بمعناه وقرأ معاوية ابن قرة سكن وهي تصحيف أيضا "أَخَذَ الْأَلْوَاحَ" التي القاها على الأرض حال شدة الغضب عند مشاهدة طائفة من قومه عاكفين على عبادة العجل "وَفِي نُسْخَتِهَا" المكتوب عليها التوراة "هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ 153"

(146/261)

يخافون من شدة عذابه ، قالوا انها لم تتكسر حين ألقاها أولا حال الغضب ، إذ لم يوجد حديث صحيح أو خبر صادق يمكن الاحتجاج به على تكسيرها ، والقول بأنها تكسرت ثم عادت في لوحين بعد أن كانت في سبعة الواح ، وبعد أن صام أربعين يوما ، ننقله على

علاته ، إذ لم نقف على ما يؤيده ، وكذلك القول ، بأنها تكسرت ولم تعد ، وأن النسخ في الآية من شذاذها المكسرة ، وأحسن هذه الأقوال القول ببقائها نفسها لم يطرأ عليها شيء حين الإلقاء ، ويليه القول بانها عادت بعد التكسير لحالتها الأولى لموافقته ظاهر القرآن إذ يقول الله تعالى (أَخَذَ الْأَلْوَاحَ) بلام التعريف بما يدل على أنها هي نفسها لأن المعرفة إذا أعيدت تكون غير الأولى ، بخلاف النكرة كما بيناه في سورة الانشراح المارة والمراد بنسختها ما نسخ في اللوح المحفوظ منها وكتب فيها ، فالفعلة هنا بمعنى المفعول كالخطبة ومن قال انها تكسرت استند لهذه الآية إذ قال في آية أخذ الألواح المارة عدد 145 (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ) وفي هذه الآية الكائنة بعد الإلقاء قال وفي نسختها هدى ورحمة فقط ولهذا قالوا إنها كانت سبعة أسباع ، واحد فيه الأحكام والحدود المعبر عنها بالرحمة والهدى للخلق لتعلقها في مصالحم وهي الباقية ، والستة التي فيها تفصيل كل شيء من بداية الخلق لنهايته تكسرت ووضع رذاذها في التابوت ، وإليه الإشارة في الآية 246 من سورة البقرة في ج 3 ، وعلى هذا فالعلوم التي أوحاها الله لسيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم مما هو خاص بنفسه لم يبثها ، أما الذي هو خاص بالبشر فبلغه إليهم والله أعلم .

ثم إن بني إسرائيل لما رجعوا وتابوا لم يعرف عليه السلام مناط قبول توبتهم وكيفيتها فلهذه

الغاية ولقبول اعتذار هارون عليه السلام ومن كان معه الذين لم يحولوا بين العجل وعابديه ولم يخبروا موسى بالأمر .

(147/261)

مطلب الميقات الثاني الذي وقته اللّه لموسى :

أوحى اللّه إلى موسى ما ذكره بقوله "وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا"

فيها حذف الجار واتصال الفعل بالمجرور ، والأصل من قومه وهذا من باب الحذف والإيصال ، وعليه قول الفرزدق :

منا الذي اختير الرجال سماحة وجودا إذا هبّ الرياح الزعازع

والمراد بالميقات هنا الميقات الثاني الذي خصصه به ربه لمناجاته من توبة التابعين للسامري واعتذار المعتذرين المذكورين ، وقد استصحب هذا العدد المختار من قومه معه وتوجه لمناجاة ربه بخلاف ذهابه للميقات الأول الذي ذهب به لأجل استلام التوراة التي وعده بها كما مر ذكره في الآية 141 ، وهؤلاء المختارون كلهم ممن كان مع هرون ولم يعبد العجل ، وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ثم دخل بهم في الوقت الذي وقته له ربه ما بين الغمام والجبل في طور سيناء وقال لهم أدنوا مني فدنوا حتى دخلوا كلهم فسجد وسجدوا معه وسمعوا كلام

اللّه لموسى ، فطمعوا وقالوا (أرنا اللّه جهرة) حتى نؤمن لك فما أتموا كلامهم حتى أخذتهم الصاعقة ورجف بهم الجبل فماتوا جميعا ، وهذا أصح ما قاله المفسرون في هذه الآية ، كما سيأتي تفصيلهم في تفسير الآية 55 من سورة البقرة في ج 3 إن شاء اللّه "فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" ورآهم موسى جثثا هامدة "قالَ" وقد أخذته الدهشة لموتهم "رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ" خروجهم معي إلى ميقاتك هذا حين فرطوا في النهى عن عبادة العجل ولم يفارقوا عبدته حين إصرارهم على عبادته "وَإِيَّايَ" أهلكت أيضا قبل أن أخرج بهم إليك .

(148/261)

وهذا تواضع منه إلى ربه وتسليم إليه ، أي وأهلكتني أيضا حين طلبت منك الرؤية التي أدت إلى طلبهم إياها وكان لحقه وهم من أن يتهمه بنو إسرائيل بقتلهم لأنهم قوم بهت ظنّان ، وصار يتضرع إلى ربه ويبكي ويقول "أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ" عبدة العجل الظالمون "مِنَّا" دون رضا واختيارنا ، لا يا رب لا تفعل ذلك ولا تأخذنا بذنب غيرنا وأنت لا تقاصص أحد إلا بما اقترفه ، وصار يردد أقوالا كهذه ، وهو يعلم أن البلاء يعم الصالح والطالح لأن الصالح إذا لم يردع الطالح يكون راضيا بعمله فيستحق الجزاء من هذه الحيثية ولهذا البحث صلة في الآية 24 من سورة الأنفال في ج 3 ، لأن المسبب للذنب

والحاث عليه والمهيء أسبابه يعاقب كالفاعل في شريعته ، وفي شريعتنا يعاقب لكن ليس كالفاعل ، ولهذا دأب يتحنّن ويستعطف ربه بإحيائهم حتى أحياهم له جميعهم بمنه وفضله ، ولما اطمأن بحياتهم وقد أخذ منه الخوف مأخذه قال في حال شدته وارتعاده "إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ" اختبارك وما افتتن أولئك الجهال إلا بمحنتك وابتلائك لعبادك وهذه الفتنة "تُضِلُّ بِها" عن طريقك السوي "مَنْ تَشاءُ" إضلاله فيضل وفاقا لما هو في علمك الأزلي "وَتَهْدِي بِها مَنْ تَشاءُ" هدايته فيهتدي طبقا لما هو مكتوب في أزلك "أَنْتَ وَلِيُّنا" لا ولي لنا غيرك ولا مرجع لنا في كشف مصابنا إلاك "فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ 155" فضلا منك ، وغيرك قد لا يغفر إلا لغرض ولا يعفو إلا لعوض ، وذلك بمحض اللطف منك ، والناس لطلب السمعة والرياء ونشر الصيت أو لدفع ضر حاضر أو لأمل مستقبل ، طلب عليه السلام المغفرة له لإقدامه على الحضرة المقدسة بقوله (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) ولقومه لجرأتهم على طلب الرؤية ، وقد سمعوا ما وقع عليه من أجلها "وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً" بالحياة الطيبة فيها "وَفِي الْآخِرَةِ" حسنة أيضا وحذفت من الثانية لدلالة الأولى عليها وقد تقدم مثله في الآية 17 من سورة ق المارة وبعدها كثير ، ومن هنا فما بعد أكثر

أي المثوبة الحسنى وهي الجنة "إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ" تبنا توبة نصوحا من أن نسألك ما لا ترضى وما لا يجوز طلبه ، مشتق من هاد إذا رجع وتاب قال :

إني امرؤ مما جنيت هائد ربي اغفر إني إليك عائد

(150/261)

و لهذا ومنذ ذلك اليوم سمو يهودا ، وقيل كانوا يدعون بأسباطهم ، وما قيل أن منهم من اسمه يهوذا كان ملكا وسموا باسمه ، فهو بعد هذا لأنهم قبله كانوا عبيدا "قالَ" تعالى يا موسى قل لقومك هذا الحكم الذي فضيته عليهم بقبول التوبة هو "عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ" لا اعتراض لأحد عليّ فيما أفعل ، ولا راد لحكمي فيما أحكم ، وفيه إشارة إلى غلظ عقوبة عابدي العجل ، لأنه القتل كما سيأتي في الآية المنوه بها آنفا من سورة البقرة .

واعلم يا موسى كما أن عذابي شديد فإن عفويت (28)

عظيم "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" وفيها إعلام بشمول رحمته قبول عذر المعتذرين وفي نسبة العذاب بصيغة المضارع ، ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات ، والعذاب مقتضى معاصي العباد ، والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة أيضا .

أما عدم التصريح بها فقيل تعظيما لأمر الرحمة ، وقيل إشعار بغاية ظهورها ، ولما نزلت هذه الآية بلفظها العام قال إبليس عليه اللعنة ! أنا شيء أيضا يريد بذلك شموله بالرحمة ، أخزاه اللّه ، وتطاولت نفسه الخبيثة إليها فنزع ذلك من وهم قوله تعالى "فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ" الكفر وللفواحش "وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" لعيالي ، وخص الزكاة بالذكر مع دخولها في معنى التقوى تعريضا لقوم موسى لأن إنفاق المال عليهم شاق لشدة حرصهم ومزيد حبهم للدنيا "وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ 156" لا يجحدون شيئا منها أبدا ، فأيس الخبيث من هذه الرحمة ، ثم طمحت نفوس أهل الكتابين فقالوا نحن نتقي ونزكي ونؤمن باللّه فنزع اللّه منهم هذا الظن بقوله "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ" محمدا بدليل وصفه في قوله "النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ" ولا نبي أمي غيره .

مطلب تخصيص الأمة المحمدية بالرحمة والأمور الشاقة على أهل الكتابين :

ثم أكد وصفه بقوله "الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ" سأبين تعريفه وما يتعلق به في الآية 104 من سورة آل عمران في ج 3 ليعملوا به "وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ" ليجتنبوه وسيأتي تفسير هناك أيضا "وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ" من كل ما

استطابته النفس عدا ما نص على تحريمه ، وهو عام في كل طيب ، والمراد هنا لحوم الإبل وشحوم الغنم والمعز والبقر لأهل الكتاب ، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام للعرب ، وتشمل كل ما حرموه على أنفسهم مما هو في التوراة والإنجيل وما هو من عندياتهم ومفترياتهم وسيأتي تفصيل هذا في الآية 136 من سورة الأنعام في ج 2 والآية 102 من المائدة والآية 93 من آل عمران في ج 3 "وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير اللّه والربا والرشوة والخمر والميسر ، وكل ما خبث

(152/261)

من الفعل والقول والعمل "وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ" التكاليف الشاقة ، كقطع عضو المذنب في غير السرقة ، وعدم قبول التوبة إلّا بالقتل ، وقطع الثوب المتنجس ، وإحراق الغنائم ، وتعيين القصاص في الخطأ ، وعدم قبول الدية ، وعدم قبول العفو ، وعدم جواز الصلاة إلا في الكنائس ، ومؤاخذة المتسبب كالفاعل ، وتحريم العمل يوم السبت والأحد ، وعدم التطهير بغير الماء ، وحرمة أكل الصائم بعد النوم ، ومنع الطيبات عنهم بما اكتسبوا من الذنوب ، وغير ذلك "وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ" المتقدم ذكرها ، المقيدين بها الموجودة في التوراة لأن الإنجيل لا أحكام فيه غير تحليل بعض ما حرم على اليهود لقوله تعالى على لسان عيسى

عليه السلام (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) في الآية 50 من آل عمران في ج 3 ، ولهذا فإن النصارى تابعون في الأحكام إلى التوراة ، قال عطاء : كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلّوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعا للّه تعالى وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها على السارية ليحبس نفسه على العبادة وذلك قوله تعالى "فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ" بهذا الرسول الموصوف بالأوصاف المذكورة وهو لا شك محمد صلّى اللّه عليه وسلم "وَعَزَّرُوهُ" عظموه ووقروه "وَنَصَرُوهُ" على أعدائه وعلى إقامة ما جاء به من الدين "وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ" وهو القرآن العظيم منور القلوب والأخلاق ، وإنما قال معه لأنه أنزل مع النبوّة مع جبريل عليه السلام إليه صلّى اللّه عليه وسلم "أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ 151" الفائزون بكل خير ، الناجون من كل شر ، وهذه الرحمة الموصوفة يفوز بها كل مؤمن باللّه متبع رسوله سواء كان من بني إسرائيل أو غيرهم ولا يمكن تخصيصها فيمن كانوا على زمن موسى إلى إرسال عيسى لأنه لا يجوز أن يتبعوا شرائع نبي لم يبعث بل يجوز

أن يعتقدوا نبوته حسبما وصفه اللّه في التوراة ، كما أنه من المعلوم أن الإنجيل لا وجود له حسا في ذلك الزمن ، فيكون المراد منه أمة عيسى الذين سيجدون نعته صلّى اللّه عليه وسلم مكتوبا في الإنجيل الذي سينزله اللّه عليهم ، إذ من المحال أن يجدوه قبل نزوله .

وذكره قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبي صلّى اللّه عليه وسلم والقرآن الكريم قبل مجيئهما .

مطلب وصف الرحمة وصفة الرسول في الكتب القديمة :

أما اللاحقون زمانه في هاتين الأمتين فلا تكتب لهم هذه الرحمة إلّا باتباعه بأن يؤمنوا به وينصروه ويعظموه ويتبعوا ما جاء به ، وقد وصفه اللّه بأنه الرسول أي الواسطة بينه وبين خلقه لتبليغ أوامره ونواهيه وشرائعه ، وبأنه النبي المخبر عن اللّه وهو من أعلى المراتب وأشرفها وصفا ، وأنه الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا من أسنى التعظيم وصفا لإتيانه بالقرآن العظيم بأفصح اللغات ، ومن أكبر البراهين على رسالته لأنه لو كان يقرأ ويكتب لاتهم بأنه تعلمه من الغير وكتبه عنهم وقرأه عليهم ، وهذه النسبة أحسن من النسبة لأم القرى أو إلى الأم بحيث لم يخرج عما ولدته عليه أمه لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : نحن أمة أمّية لا نكتب ولا نحسب .

واعلم أن الأمّية كمال مادي يعود نفعه على المعاش وليست بكمال روحي ، ولهذا فإنها بحق الرسول كمال لتنزهه عن الصنايع العملية التي هي من أسباب المعاش ، أما بحقنا فنقص

لاحتياجنا لذلك ، ولهذا البحث صلة في الآية 47 من سورة العنكبوت في ج 2 فراجعها تجد تفصيله بصورة أوسع .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال :

(154/261)

لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفات رسول اللّه في التوراة ، فقال أجل إنه موصوف في التوراة ببعض صفته بالقرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب (كثير الصياح) في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء (الكافرة لأن الاعوجاج ضدّ الاستقامة) بأن تقول لا إله إلا اللّه ، ويفتح به أعينا عمياء ، وآذانا صما وقلوبا غفلا ، (لا يصل إليها شيء ينفعها ، كأنها في غلاف عن سماع الحق) ومثله في رواية البخاري وغيره .

وجاء من حديث أخرجه ابن مسعود وابن عساكر من طريق موسى بن يعقوب الربعي عن سهيل مولى خيثمة قال :

قرأت في الإنجيل نعت محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، أنه لا قصير ولا طويل ، أبيض ، ذو

ضفيرتين ، بين كتفيه خاتم ، لا يقبل الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ، ويحلب الشاة ، ويلبس قميصا مرقوعا .

ومن فعل ذلك فقد بريء من الكبر وهو يفعل ذلك ، وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد .

وفي الزبور أيضا راجع الآية 104 وسورة الأنبياء في ج 2 ، وإنما لم يذكره اللّه هنا لأن بني إسرائيل سابقا ولاحقا يقرأون التوراة والإنجيل فقط ، لذلك اقتصر عليهما ، ولأن الزبور خلو من الأحكام مقتصر على الأمثال والأدعية ، والتنزيه ، وجاء من خبر أخرجه البيهقي في الدلائل عن وهب ابن منبه قال : إن اللّه تعالى أوحى في الزبور : يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد ، لا أغضب عليه أبدا ، ولا يغضبني أبدا ، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثلما أعطيت الأنبياء ، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتي يوم القيامة ، ونورهم مثل نور الأنبياء .

(155/261)

وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا إلى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء

قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الأنبياء قبلهم ، يا داود إني فضلت محمدا وأمته على الأمم كلها ، أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم : لا اؤاخذهم بالخطأ والنسيان ، وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته ، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم جعلته لهم أضعافا مضاعفة ، ولهم عندي أضعاف مضاعفة ، وأفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا ، أو قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم ، فإن دعوني استجبت لهم فإما أن يروه عاجلا وإما أن أصرف عنهم سوءا وإما أن أدخره لهم في الآخرة .

يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقا بها فهو معي في جنتي وكرامتي ، ومن لقيني وقد كذب محمدا وبما جاء به واستهزأ بكتابي صببت عليه في قبره العذاب صبا وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار .

وإلى غير ذلك من الأخبار الناطقة بأنه صلّى اللّه عليه وسلم مكتوب نعته في الكتب السماوية قبل أن يطرأ عليها التبديل والتغيير ، ومن راجع الآية 47 من سورة العنكبوت في ج 2 يجد ما يغنيه عن غيرها .

مطلب عموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلم :

قال تعالى "قُلْ" يا أكمل الرسل لقومك وللخلق أجمع "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ" وحده "وَرَسُولِهِ" محمد "النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ" مما نزل عليه منها ومما نزل على الأنبياء قبله من أسفار وصحف وكتب ، وقرأ بعضهم (كلمته) وأراد بأنها عيسى بن مريم تعريضا باليهود ، وتنبيها على أن من لم يؤمن به ويعتقد بأنه من روح اللّه وأمه صدّيقة طاهرة عذراء لا يعتبر إيمانه ، بل هو كافر لأن من لم يؤمن به على هذه الصفة لم يؤمن بالقرآن ومحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وان جاحدهما لا شك بكفره .

وهذه القراءة جائزة لأنها من حيث الرسم موافقة ، وغاية ما فيها قصر الميم ، والقراءة إذا لم يكن فيها نقص حرف أو زيادته لا بأس بها "وَاتَّبِعُوهُ" جميعكم عربكم وعجمكم يهودكم ونصاراكم مجوسكم وصابئتكم ، على اختلاف مللكم ونحلكم وأجناسكم وألوانكم والسنتكم "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ 158" بهديه إلى طريق الصواب .

(157/261)

تشير هذه الآية بوضوح لا مزيد عليه بأن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم رسول من اللّه مرسل إلى البشر كافة رسالة عامة ، لعموم اللفظ المخاطب به ، والأمر فيها للوجوب ، مما يدل على صحة دعواه عموم الرسالة للإنس والجن أيضا ، راجع تفسير أول الفرقان الآتية والآية 28 من سورة سبأ في ج 2 والآيتين 15 و 69 من سورة المائدة في ج 3 تعلم بأنه مرسل لمن على الأرض على الإطلاق ، لا خصوص العرب كما يقوله بعض أهل الكتاب والمبتدعة والزنادقة وغيرهم ممن لا نصيب لهم في معرفة كتاب اللّه ولا حظ لهم في الآخرة ، وتعلن أيضا بأن الذي أرسله هو مالك الملك والكون ومدبره الإله الواحد الذي لا شريك له القادر على الإحياء والإماتة ، ومؤكدة لزوم الإيمان به أولا لأنه الأصل ثم برسوله الموصوف بوصف يميزه عن غيره ، ويخصصه بأنه محمد بن عبد اللّه لا غيره ، لأن الإيمان به فرع عن الإيمان باللّه ، وملزمة عامة الخلق باتباعه فيما يأمر

وينهى ، رجاء الوصول إلى الرشد والصواب ، وهذه المتابعة واجبة بالأقوال كلها أما بالأفعال فيفعل ما كان يفعله الرسول من واجبات لم يخص بها نفسه ، أما ما خص به نفسه كصوم الوصال والتزوج بأكثر من أربعة وعدم الوجوب عليه في القسم وما شاكل ذلك فلا ، راجع الآية 144 المارة ، وأن يتابعه على طريق الندب بما يفعله أيضا مما لم يختص به ويتأدب بآدابه .

روى البخاري ومسلم عن جابر قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من الأنبياء قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة .

وفي رواية وبعثت إلى الناس عامة بدلا من كل أحمر وأسود .

والمراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب أو الإنس والجن .

(158/261)

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : فضلت على الأنبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون .

وعليه فقد ثبت عموم رسالته بالقرآن والحديث قال تعالى "وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ" جماعة عظيمة وطائفة طاهرة مؤمنة "يَهْدُونَ" الناس "بِالْحَقِّ وَبِهِ" أي الحق "يَعْدِلُونَ 159" بين الناس في أحكامهم .

مطلب ما قضى به صلّى اللّه عليه وسلم والمراد من قوم موسى :

وهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية إمّا قوم متمسكون بدين موسى قبل تبديله وتغييره وما توا عليه ، وإما أن تكون بحق من أسلم منهم وحسن إسلامه على عهد محمد صلّى اللّه عليه وسلم كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ، وعلى هذا تكون هذه الآية من قبيل الآيات المغيبة أي إخبار حضرة الرسول بغيب لم يقع قبل وقوعه ، لأن وقت نزول هذه الآية لم يكن عبد اللّه ولا غيره مسلما من اليهود ، والأول أوجه لشموله كل من مات قبل بعثة محمد على دين موسى وعيسى الحقيقيين ، واللّه أعلم ، لأن لفظ الآية يدل على الكثرة ، وعبد اللّه وأصحابه فليلون ، وما قيل بجواز إطلاق

(159/261)

الكثرة عليهم بسبب إخلاصهم في الدين على حد قوله (إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً) الآية 120 من سورة النحل في ج 2 فوجيه ، أما ما قيل بأن أحد الأسباط الذين لم يشترك بقتل الأنبياء كان يتبرأ من بقية الأسباط الذين اشتركوا في قتلهم ، وسأل اللّه أن يبعده عنهم ، ففتح اللّه نفقا عبروا منه إلى ما وراء الصين أو هم قوم بأقصى الشرق على نهر يسمى الأردن ، وأن رسول اللّه رآهم ليلة الإسراء وأبلغوه سلام موسى عليه السلام ووصفوهم بأوصاف كاملة وأن الرسول أقرأهم عشر سور من القرآن وأوصاهم بالصلاة والزكاة وبالجمعة وترك

السبت ، فلم يرد به نقل صحيح ، وفيه ما ينفيه لأن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة ، وكذلك الجمعة لم تقم إلا هناك ، وغير معقول أن يأمرهم بشيء لم يؤمر به بعد وكان نزول أكثر من عشر سور فكيف يقتصر على تعليم عشر فقط وهو مأمور بأن لا يكتم من وحي اللّه شيئا على أحد ، وهذا كاف لبطلان هذا القول والنقل ، ومما يدل على عدم صحته أنه صلّى اللّه عليه وسلم لم يذكر شيئا عن هؤلاء الجماعة في جملة ما ذكره مما رآه ليلة الإسراء لأن هذا أيضا من جملة العجائب ، فلو كان لذكره لقومه لهذا لا عبرة به ، لأنه من نقل الأخباريين والقصّاص فهو أضعف من الضعيف لا يلتفت إليه البتة ، وإنما نقلناه ليطلع عليه القارئ ويردّ على من تكلم به ويفنده له واللّه أعلم .

(160/261)

قال تعالى "وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً" قبيلة من اثنى عشر ولدا وهم أولاد يعقوب عليه السلام المبينين في تفسير الآية 9 من سورة يوسف في ج 2 ، والسبط ابن الولد ويقال له حفيد كما في الآية 72 من سورة النحل في ج 2 ولم تتكرر في القرآن ، والسبط جاء في سورة البقرة أيضا فقط ، والاستعمال الجاري بين الناس أن الحفيد ابن الابن والسبط ابن البنت "أمما" جماعات وطوائف وهو بدل من اثنى عشر والمميز ما عدا العشرة يكون مفردا

فعلى القاعدة النحوية يقتضي أن يكون سبطا ولكنه لما كان بمعنى القبيلة وهو المراد هنا والقبيلة أسباط لا سبط واحد وضع أسباط موضع القبيلة "وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ" بالتيه لأنهم عطشوا وليس لديهم ماء وفسر الإيحاء بقوله "أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ"

(161/261)

فضربه عليه السلام "فَانْبَجَسَتْ" ترشحت عن ماء قليل وهو معنى الانبجاس ولم تكرر هذه في القرآن أيضا ، وجاء في الآية 60 من البقرة في ج 3 (انفجرت) أي خرج منها ماء كثير ، قال يعبر بالانبجاس اعتبارا بأول الخروج ، وبالانفجار اعتبارا بنهايته "منه" أي الحجر المضروب "اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً" لكل سبط عين "قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ" منها على حدة لئلا يدخل سبط على الآخر فيأخذ من سقائه فيختلفوا والله أكرم من أن يجعل على عباده عذابين ، عذاب التيه وعذاب الاختلاف ، ثم شكوا إلى موسى بعد أن أمن لهم شربهم عدم وجود ما يظلهم من الشمس فدعا الله ربه فأجابه بقوله : "وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ" بحيث صار يسير معهم إذا ساروا ويسكن إذا وقفوا ثم شكوا إليه الجوع إذ نفد ما عندهم فدعا ربه فأجابه بقوله "وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى " المنّ معروف شيء حلو لزج

يضرب إلى البياض ، والسلوى نوع من الطير يسمى الآن السمن أميز من العصفور ، جلّت قدرته هو الذي شردهم جزاء مخالفتهم ، وهو الذي تلطف بهم وتعطف عليهم وقال لهم "كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ" من الماء العذب والمن الحلو والسلوى الدسم والظل الوافر طيلة مدة تيهكم "و" هؤلاء لما كفروا بهذه النعم الجليلة التي تأتيهم دون تعب وقالوا قد سئمنا منها ، كما سيأتي في الآية 61 من البقرة من ج 3 "ما ظَلَمُونا وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ 160" بتضجرهم وعدم صبرهم كأن لهم علينا منّة ويتطلبون ما تهوى أنفسهم ، ولم يعلموا أنا إنما نعاقبهم لسوء أعمالهم .

ونرحمهم لعلهم يرجعون إلينا تائبين ، لأن المكلف إذا مر بشيء فعدل إلى غيره كان هو الجاني على نفسه ، وهو الظالم لها ، لأنه أوردها للشرّ ، فيكون وبال ظلمه عليه لا على غيره .

مطلب أسباب تشرد بني إسرائيل والآيات المدنيات :

ثم شرع جل شأنه يقص علينا أسباب تشردهم وعملهم الذي أوجبه فقال (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ) بواسطة نبيهم عليه السلام "اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ" بيت المقدس المبارك "وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ

شِئْتُمْ" من ثمارها وفواكهها وحبوبها وبقلها "وَقُولُوا حِطَّةٌ" أي حط عنا ذنوبنا يا ربنا شكرا للنعم الموجودة فيها ، مما لم يكن لكم مثله قبل "وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً" تعظيما للبيت وإجلالا لربه الذي أنعم عليكم بدخولها ومنحكم من خيراتها وبركاتها "نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ" المتراكمة عليكم وأحسنوا لأنفسكم وغيركم لأنا "سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ 161" على المغفرة ثوابا من إفضالنا ، وخيرا مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر "فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" أو أمرنا هذه ولم يقدروا نعمنا عليهم وقالوا "قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ" فبدل الحطة قالوا خطة ، وبدل أن يدخلوا الباب ساجدين احتراما لنا خاضعين لأوامرنا دخلوه زحفا على أستاههم "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ" بسبب مخالفتهم هذه "رِجْزاً" عذابا شديدا نازلا عليهم "مِنَ السَّماءِ" وهو الموت والفرق بين أنزلنا وأرسلنا أن الإرسال يدل على الكثرة ، والإنزال على القلة وذلك "بِما كانُوا يَظْلِمُونَ 162) أنفسهم لخروجهم عن الطاعة وسيأتي زيادة تفصيل لتفسير هذه الآية عند تفسير نظيرتها الآية 58 من سورة البقرة من ج 3 .

وهذه أولى الآيات المدنيات في هذه السورة ، وهي كما ذكرنا في مثلها مغرضة بين ما قبلها وما بعدها كالمستطردة قال تعالى (وَسْئَلْهُمْ) يا أكمل الرسل يريد اليهود الموجودين معه في المدينة "عَنِ الْقَرْيَةِ" هي طبرية وقيل مدينة بين مدين والطور أو مصر والمدينة أو بين مدين وعيوني على الساحل "الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ" قريبة منه على ساحله والحاضرة المدينة الكبيرة المرتبط بها غيرها من القرى والقصبات ، ويقال لساكنها حضريّ ضد البادية فالمخيم بها بدويّ "إِذْ يَعْدُونَ" يتعدون حدود اللّه ويتجاوزون أوامره التي سنّها لهم وأوجبها عليهم "فِي السَّبْتِ" الذي حرم عليهم العمل فيه ثم بين تعديهم بمناسبة ذكرى مخالفتهم المذكورة آنفا فقال "إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً" ظاهرة متتابعة على وجه الماء "وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ" وهذا من قبيل الإلهام لهذه الحيوانات كأنها تعلم أن أحدا لا يعارضها يوم السبت فتظهر

وتتلهى على الساحل وتعلم أنها تصاد في غيره فتختفي "كَذلِكَ" مثل هذا الاختبار والابتلاء "نَبْلُوهُمْ" نمتحنهم "بِما كانُوا يَفْسُقُونَ 163" يخرجون من طاعتنا ونحن أعلم بما يقع منهم قبل الاختبار ، ولكنا نظهره لعبادنا ليعلموا حال المخالفين لهم ، وإنا لا نعذب أحدا بغير ذنب وقد نثيب بغير عمل تفضلا منا .

وهذه الآية من الأخبار بالغيب معجزة له صلّى اللّه عليه وسلم تجاه يهود زمانه إذ أخبرهم بما وقع في أسلافهم بمخالفة اللّه أدت لمسخهم قردة وخنازير كما في الآية 165 الآتية ونظريتها الآية 60 من سورة المائدة من ج 3 فقد أخبرهم صلّى اللّه عليه وسلم ما اقترفه آباؤهم زمن سيدنا داود عليه السلام ، مع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يخرج من مكة طيلة عمره حتى هاجر إلى المدينة وفي المدينة لم يطلع على كتب الأقدمين لعدم معرفته القراءة ، وهم يعلمون ذلك ، وسبب مسخهم أنهم كانوا حفروا حياضا وسقوا لها ساقية متصلة بالبحر فصارت الأسماك تدخلها يوم السبت على حسب عادتها لعدم المعارضة لها ولم تعرف ما حيك لها من الحيل ، فسدّوا عليها طرف الساقية من جهة البحر يوم السبت وتركوها حتى إذا دخل يوم الأحد اصطادوها ، فعاقبهم اللّه بالمسخ ، ولهذا قال بعض العلماء من أكل الربا بالحيلة حشر يوم القيامة على صورة القردة والخنازير ، كما سيأتي في الآية 274 من البقرة من ج 3 ، قال تعالى "وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ" جماعة "مِنْهُمْ" أي يهود ذلك الزمن لأنهم بعد اقترافهم هذا الذنب بالحيلة والمكر افترقوا ثلاث فرق : فرقة تطاولت فتعدت حدود اللّه باقترافهم صيد السمك على تلك الصورة ، وفرّقة سكتت ولم تشاركهم في خداعهم هذا ولم تنههم عنه ، وفرقة نهت وامتنعت من المشاركة وحذّرت الفاعلين غضب اللّه .

كما كانت حالتهم في عبادة العجل إذ افترقوا ثلاث فرق أيضا كما مر في الآية 148 .

مطلب الرضى بالمعصية معصية

:

فقال الساكتون للناجين "لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ" في هذه الدنيا جزاء عملهم القبيح "أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً" في الآخرة على ذلك ولم تتركوهم وشأنهم (قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ) غدا في الآخرة إذا سئلنا عن ذلك ، لئلا نكون قد

(165/261)

فرطنا في واجبنا المطلوب منها وهو النهي ، لئلا نعد راضين بفعلهم ، لأن الساكت عن فعل منهى عنه كالراضي به ، والراضي كالفاعل .

وفيه تقريع للفرقة الساكتة ، لأن سكوتهم قد يعد رضى وإقرارا في بعض الأحوال .

لهذا روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) وجاء في حديث آخر : (ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من لا ينكر عليهم إلا عمّهم اللّه بعذابه) .

ثم قال تعالى على لسان الناهين "وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ 164" اللّه فيما فعلوا فيرجعوا إليه خوفا من عقابه وينتفعوا بموعظتنا ، وإنا طمعا بارتداعهم وتوبتهم نصحناهم قياما بالواجب المترتب علينا ، قال تعالى "فَلَمَّا نَسُوا" هؤلاء المخالفون "ما ذُكِّرُوا بِهِ" من قبل الناهين ولم يقبلوا موعظتهم "أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ" لأنهم قاموا بما هو مترتب عليهم ولم يسكنوا ليؤاخذوا بسكوتهم الذي يعد رضى منهم "وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ" عظيم محزن مخز "بِما كانُوا يَفْسُقُونَ 165" يخرجون عن طاعتنا والفرق بين يفسقون ويظلمون أن الظالمين من وصفوا بالظلم والفاسقين من خرجوا عن الطاعة ، وإنما عد تركهم نسيانا لإهمالهم الأخذ بنصح جماعتهم وتشبيه التارك بالنّاسي استعارة ، والجامع بينهما عدم المبالاة في كل ، ويجوز أن يكون مجازا مرسلا لعلاقته السببية ، ولم يحمل على ظاهره لأن النسيان في شريعتنا لا يؤاخذ عليه ، والترك عن عمد يترتب عليه العقاب .

روى ابن ماجه عن البيهقي عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال :

(إن اللّه تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) أما في شريعة موسى عليه السلام فالنسيان مؤاخذ عليه ، وكذلك الخطأ ، كما مرّ في تفسير الآية 157 ، وقوله صلّى

اللّه عليه وسلم رفع ، يدل على عدم العذاب في شريعتنا على الثلاثة الواردة في الحديث والعقاب على من قبلنا عليها وإلا لم يقل رفع ، تأمل ، وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما : يقول اللّه (أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا) فلا أدري ما فعل اللّه بالفرقة الثالثة الساكتة وجعل يبكي ، فقال عكرمة جعلني اللّه

فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما عليه الفرقة المقترفة وقالوا للفرقة الناهية لم تعظون إلخ الآية ، إنه وإن لم يقل أنجيتهم فلم يقل أهلكتهم ، فأعجبه قولي وأمر لي ببردين وكسانيهما ، وقال نجت الساكتة يؤيده قول يمان بن رباب نجت الطائفتان وهو قول الحسن أي الآمرة والساكتة ، أما ما قاله ابن زيد وروي عن أبي عبد اللّه :

نجت الناهية فقط فمستبعد هذا على شريعتنا ، أما على شريعة موسى فلا وعلى كل فاللّه تعالى أكبر وأكرم قال تعالى "فَلَمَّا عَتَوْا" أبوا الرجوع "عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ" تكبرا وأنفة "قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ 166" أذلاء صاغرين منسوخين فكانوا كذلك .

مطلب في خزي اليهود ورفع عيسى عليه السلام :

قال تعالى "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ" أعلم وفيه معنى التوعد والتهديد لافترانه بالقسم الدالّ عليه وجود لامه في قوله "لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ" أي اليهود ، لأنهم بدلوا وغيروا أحكام التوراة وأجروا أحكام ما بقي منها على الضعيف دون القوي ، وحرّفوا كثيرا منها ، وكذلك فعل النصارى في الإنجيل لما رأوا أن حضرة الرسول يخبر عما فيهما ، وكانوا قبلا يحورون ما يتعلق بالأحكام فقط ، فلما ظهر الرسول صاروا يرفعون منها ما يتعلق بأوصافه صلّى اللّه عليه وسلم قصد نهي اتباعهم له والإيمان به ، مع أن الواجب عليهم إبقاؤها والإيمان بما جاء فيها مصدقا للقرآن أخزاهم اللّه ، ولهذا أقسم اللّه جل شأنه على الجزم بأنه ليرسلنّ عليهم "إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ" يكلفهم على الدوام "سُوءَ الْعَذابِ" أقساه وأشده مما لا رحمة فيه "إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ" إذا شاء عقاب أمثال هؤلاء في الدنيا فضلا عن عذاب الآخرة "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ 167" لمن آمن ورجع عن كفره ودخل بالإسلام فلم يعاقبه ولم يسأله عما فعل لعظيم مغفرته وكبر عفوه ، لأن الإسلام يجبّ ما قبله .

ومن جملة إذلال اليهود وإصغارهم أنهم صاروا يؤدون الجزية إلى المجوس لما سلّط اللّه عليهم بختنصر وسنجاريب وملوك الروم ، فساموهم وأهانوهم ، ولم يزالوا كذلك محتقرين إلى زمن محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فقبل من أسلم منهم ومن لم يسلم قبل منه الجزية

فأدوها له صاغرين ، وهي ملازمة لهم إلى يوم القيامة إن شاء اللّه ، ولو لا أن اللّه تعالى منعه من قتالهم لدمرهم ولم يبق منهم أحدا ، ولكن للّه حكم لا تعيها عقولنا وهم في زماننا محقّرون أيضا مهانون يعطون أضعاف الجزية التي كانوا يؤدونها للمسلمين إلى الانكليز والأمريكان الذين لا يقيمون لهم وزنا كالإسلام الذين ساووهم في كافة الحقوق اتباعا لقوله صلّى اللّه عليه وسلم لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وهم أخزاهم اللّه أعداء الداء للإسلام ، لا يذكرون معروفهم ولا يعترفون بإحسانهم ، وإن العز الذي يتوقعونه في فلسطين بواسطة المذكورين في هذا الزمن الذي نحن فيه ويتطاولون إليه سيكون إن شاء اللّه الذل والصغار لهم فيه ، لأنه إنما يكون – لا كونه اللّه لهم – تحت رقابة الأمريكيين وهو الاستعمار بعينه ، راجع الآية 7 من سورة الإسراء الآتية ، فنسأل اللّه أن يجمع كلمة الإسلام ويهلك الصهيونيين ، وإن من بقي مشردا منهم بآخر الزمن يتبعون الدّجال ويدعون إلهيته ، فيزدادون كفرا على كفرهم ، لأنهم يزعمونه المسيح الذي أخبر به موسى عليه السلام وأوجب عليهم اتباعه ، ولم يعلموا بل يعلمون ويجحدون أن المسيح عيسى بن مريم الذي كذبوه وناوءوه عتوا وعنادا وحبا ببقاء الرئاسة لهم وقصدوا قتله قاتلهم اللّه ، فأنجاه منهم ربه وحفظه من أن تنال قدسيته أيديهم القذرة ، فألقى شبهه على المنافق يهوذا الأسخريوطي الذي دلهم عليه لقاء دراهم معدودة ، مثل قيمة يوسف عليه السلام التي ابتاعه فيها اخوته قبل

تشرّفهم بالنبوة ، راجع تفسير الآية 9 من سورة يوسف في ج 2 ، إذ ما من نبي إلا وله منافق ، يدلك على هذا قوله تعالى في الآية 31 من سورة الفرقان الآتية فقد جعل اللّه لموسى السّامري ، ولمحمد عبد اللّه بن أبي بن سلول ، وهذا لعيسى عليهم السلام ، فقتل هذا الخبيث جزاء وفاقا وصلب وبصق عليه وسخر به ، إذ يقولون له أنت المعلم لما ذا لا تخلص نفسك وكنت

(169/261)

جئت بخلاص العالم ولم يقبلوا منه ما اعتذر به بأنه ليس المعلم (أي عيسى إذ كانوا يسمونه معلما) أنا الذي دللتكم عليه ، فيزيدونه لكما ولطما وصفعا وبصاقا ، ويقولون له الآن تنكر نفسك وكنت تدعي النبوة وخراب الهيكل إلى غير ذلك ، كما سيأتي توضيحه في الآية 158 من

(170/261)

سورة النساء في ج 3 وذلك أن اللّه تعالى الكامل إذا جعل شيئا جعله كاملا فلما ألقى شبهه على يهوذا صار كأنّه هو عيسى نفسه ، ولذلك فإن أمه والنساء معها لم ينكرن أنه هو حقيقة ، لذلك صرن يبكين عليه وحزنّ لأجله ، إذ لا يستطيع أحد أن يقول ليس هو بعيسى ، هذا وإن اللّه تعالى سيهلك الدجال مسيح اليهود وأتباعه على يد مسيح المسلمين الذي سمي مسيحا لأنه يمسح بيده المريض والأعمى والأكمه والأبرص فيبرأ بإذن اللّه تعالى حالا ، بخلاف مسيح اليهود الذي هو الدجال ، فإنه إنما سمي مسيحا لأنه ممسوح العين اليمنى أعور أشقر ، فأين هذا من ذاك ، وإن اللّه تعالى لا بدّ وأن يسلط على يهود زماننا من يهلكهم ويزيد في ذلهم وصغارهم ، وسنورد الأحاديث الصحيحة الدالة على نزول عيسى وقتله الدجال واقامة القسط في الأرض بين الناس في الآية 61 من سورة الزخرف في ج 2 إن شاء اللّه تعالى القائل "وَقَطَّعْنَاهُمْ" أي اليهود قطعهم اللّه وأخزاهم "فِي الْأَرْضِ أُمَماً" فرقا وطوائف مشتتين محقرين فلا تجد أرضا خالية منهم أخلاهم اللّه منها ولا بلدا إلا وفيها منهم غير حماة ، ولذا قيل حماها اللّه من كل ظالم أي كل يهودي لأنه لا يكون إلا ظالما ، وهذا حتى تستقيم القاعدة (ما من عموم إلا وخصص) ولا يعلم السبب في حماية حماة من اليهود إلا أهل حمص الذين قلدوهم بذلك ، لأن كلا من أهالي هاتين البلدتين يعرف خبايا الآخر على الحقيقة وزيادة (وهذه نكتة أتينا بها هنا) قال تعالى "مِنْهُمُ" اليهود الأولون

على زمن موسى فمن بعده حتى زمن محمد صلّى اللّه عليه وسلم "الصَّالِحُونَ" الذين ثبتوا على دينهم فلم يغيروا ولم يبدلوا حتى ماتوا عليه قبل بعثة عيسى عليه

(171/261)

السلام ، والذين أدركوا عيسى وآمنوا به وبقوا على إيمانهم حتى بعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم وماتوا على ذلك ، والذين أدركوا محمدا وآمنوا به وماتوا على إيمانهم فهم صالحون من أهل الجنة ، لأن اللّه تعالى لا يظلم حق أحد والقرآن كلام اللّه لم يغمط حق أحد أيضا ولا يغفل ذكره كيف وهو القائل في كتابه (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من سورة الأنعام في ج 2 "وَمِنْهُمْ دُونَ ذِلِكَ" فسقة ومخطئون ، لأنهم خالفوا بعض الأوامر وامتثلوا بعضها وماتوا قبل بعثة عيسى

ومحمد - عليهما السلام - على الصورة المذكورة أعلاه ، ومنهم كفرة وهم الذين غيروا وبدلوا وحرفوا وكفروا بعيسى ومحمد وكتابهما ، وهؤلاء لم يشر إليهم القرآن هنا اكتفاء بما ذكر قبلا وبما سيذكر بعد ، ودائما هم متفرقون إلى ثلاث فرق منذ التحاقهم بموسى إلى اليوم فرّقهم اللّه وشتت كلمتهم ، قال تعالى "وَبَلَوْناهُمْ" امتحناهم واختبرناهم "بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ" لأن النعمة إذا شكرت ترغب بالطاعة فتدعوا إلى الإيمان والشدة يخاف

عاقبتها فتدعو إلى الإيمان أيضا ، أي إنا بلوناهم بكلا الأمرين "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ 168" عن غيهم فلم ينجع بهم "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ" الخلف القسري الذي يجيء بعد قرن كان قبله ، أي حدث من بعدهم حدث سوء تبدل عما كان عليه ، وهو بسكون اللام وإذا فتحت قيل خلف خير خلف صدق أما ما جاء في قول زهير :

لنا القوم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة اللّه تابع

وما جاء في قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فاسكان اللام بالأول وهو في معرض المدح وفتحها في الثاني وهو في معرض الذم فلضرورة الشعر .

(172/261)

وقال البصريون يجوز تحريك اللام وسكونها في الرديء وفي الجيد التحريك فقط ، وهؤلاء هم الفرقة الثالثة الكافرة المشار إليها في الآية 165 المارة لأنها لم تذكر فيها ، قال تعالى في ذمّهم إنهم "وَرِثُوا الْكِتَابَ" التوراة بانتقالها لهم من آبائهم فلم يعملوا بها وصاروا "يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا" الشيء "الْأَدْنى " من حطام الدنيا الذميمة كالرشوة القبيحة ، وقد تنزه القرآن

عن التصريح بها لخساستها ودناءة آخذيها ، راجع الآية 128 من البقرة في ج 3 كي يبدلوا أحكام التوراة التي آلت إليهم بطريق الإرث ويحرفونها ويغيرون ما فيها لقاء عرض تافه حقير ، والعرض بفتح الراء يطلق على جميع متاع الدنيا ، فيقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر ، وأما بسكونه فكل ما يطلق عليه لفظ مال غير النقدي "وَيَقُولُونَ" مع عملهم هذا "سَيُغْفَرُ لَنا" ما نفعله ، يتمنون ويطمعون

(173/261)

بالمغفرة أماني باطلة "وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ" أيضا حلالا كان أو حراما ، مصرين على عملهم غير تائبين منه ، أي ان الذين كانوا من هذه الفرقة يعيبون المرتشين المحرفين المغيرين المبدلين ، إذا جاءهم عرض مثل عرض سلفهم لا يمتنعون عن أخذه أيضا ، فوبخهم اللّه تعالى بقوله "أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" في العهد والصدق في المواثيق التي أخذها اللّه عليهم في التوراة "وَدَرَسُوا" والحال أنهم قد قرأوا "ما فِيهِ" من تلك العهود والمواثيق "وَالدَّارُ الْآخِرَةُ" واطلعوا في التوراة أيضا على ما أعده اللّه لأهل طاعته من الثواب ، ولأهل معصيته من العقاب المرتب على الامتثال والانقياد ، والتغيير والتبديل والتحريف فيها ، وعرفوا أن العمل الصالح لتلك الدار "خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ"

العمل السيء هناك في تلك الدار الآخرة "أَفَلا تَعْقِلُونَ 169" أن ما فيها من الخير خير وأبقى مما يأخذونه في الدنيا من الرشوة .

أخرج الترمذي عن شداد بن أوس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : الكيس من دان نفسه (حاسبها) وعمل لما بعد الموت .

(قبل أن يحاسب عليها) والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني .

والشاهد فيه أن اليهود يعضون اللّه ويطلبون مغفرته ، قال تعالى "وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ" ويعتصمون به ويعملون بما فيه "وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ" المفروضة عليهم لأن هذه من الآيات المدنيات كما ذكرنا ، وخص الصلاة بالذكر مع أنها داخلة بالتمسك تنبيها على عظم شأنها لأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان باللّه ورسوله "إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ 170" أنفسهم الثابتين على صلاحهم ، نزلت هذه الآية في عبد اللّه بن سلام وأصحابه الذين أسلموا في المدينة من يهودها ، فطوبى لهم ولمن يثبت على الإسلام ويموت عليه ،

(174/261)

ثم ندّد في بني إسرائيل السابق ذكرهم بمناسبة ذكر الصالحين منهم فقال "وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ" الطور أو جبلا غيره ، وهذه الجملة عطف على جملة وإذ قيل لهم المارة في الآية 161

المكية وكلمة تتقنا لم تكرر في القرآن وسيأتي في الآيتين 63 ، 93 من سورة البقرة في ج 3 ما يتعلق بهذا ، أي رفعناه وصيرناه "فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ" خيمة كبيرة ت (29) أو سحابة غيم عظيمة ، أي اذكر يا محمد لقومك ويهود زمانك حين خلعنا الجبل من أصله من الأرض ، ورفعناه فوقهم إلى جهة السماء ، وجعلناه كالسقف على المعاندين من أسلافهم الموجودين عندك الآن .

وكل ما يقي من الشمس يسمى ظلة حتى الشمسية المتعارفة لأنها تقي من وهج الشمس والمطر ، ولذلك تسمى ظلة ومظلة "وَظَنُّوا" تيقنوا وجزموا "أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ" لا محالة إن لم يمتثلوا ما أمروا به وقلنا لهم "خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ" بجد وعزم وحزم أي تقبلوا أحكامه جبرا عنكم "وَاذْكُرُوا ما فِيهِ" كله لا تنسوه واعملوا به فإن عدم العمل به يؤدي إلى النسيان ، والنسيان يؤدي إلى الهلاك ، وإذا أردتم النجاة داوموا على ذكره "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 171" وقوع الجبل عليكم وسبب ذلك أنهم أبو قبول أحكام التوراة لمشقّتها فلما رأوا الجبل ساقطا عليهم لا محالة سجد كل منهم على خدّه وحاجبه الأيسرين وجعل ينظر إلى الجبل بعينه اليمنى خوفا من سقوطه عليه إلى أن زيح عنهم ، ولذلك إذا اقتضى أن يسجدوا للّه شكرا أو لصلاة اعتادوها سجدوا كذلك على تلك الصفة .

انتهت الآيات المدنيات .

مطلب كيفية أخذ العهد على الذرية :

(175/261)

قال تعالى "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ" وبين كيفية الإشهاد بقوله "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ" مربّيكم ومالك أمركم وليس لأحد دخل في شأنكم غيري "قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا" على أنفسنا بذلك ، وهنا يحسن الوقف لأنه من تتمة كلام الذرية ، ومن استحسن الوقف على بلى قال إن شهدنا من كلام الملائكة ، أي قال لهم اشهدوا على خلقي هؤلاء قالوا شهدنا ، والأول أولى بالنظر لسياق الآية وعدم ذكر الملائكة قبلها يؤيده قوله تعالى "أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" حين نسألكم عن هذا العهد "إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا" الميثاق "غَافِلِينَ 172" أي لم ننتبه إليه حين أخذه علينا "أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ" زماننا هذا وقد سنّوا لنا الشرك بالتاء على الخطاب للذرية وهي القراءة المختارة في المصاحف ، أما القراءة بالياء على الغيبة فيتجه ولكنه

(176/261)

ليس مختارا ، لأن اللّه تعالى صرف الخطاب عن حبيبه محمد إلى نسم الذرية كافة لئلا يحتجوا بعد فيقولوا "وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ" لم نهتد إلى طريق التوحيد ورفض الشرك "أَفَتُهْلِكُنَا" يا ربنا "بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ 113" أسلافنا وهذا الخطاب لجميع الخلق الموجودين ومن بعدهم ومن تقدمهم على طريق التغليب ، أي فعلنا ما فعلنا من أخذ هذا العهد عليكم أيها الناس ، لئلا يبقى لكم عذر ، ولا يسعهم الاعتذار إذ ذاك ، ولا تقبل لهم حجة لثبوت أخذه عليهم كلهم في الأزل ولأن الرسل المتتابعة ذكرتهم به فضلا عن أنه مما يتذكر به بمجرد العقل ، لأن العاقل يفهم بادىء الرأي أن شيئا لا ينفع ولا يضر لا يستحق الاحترام والتعظيم فكيف يستحق العبادة ، وان إلها قادرا على الإحياء والإماتة خالفا لهذه المكونات الذي هو من جملتها ، هو المستحق للعبادة وحده ، كيف وقد جبلت النفوس على حبّ النفع وكره الضر ، فكيف لا يتيقظون لذلك ؟ ولهذا قطع اللّه قبول عذرهم في هذه الآية التي ذكر بها رسوله محمدا وأخبره بهذا العهد المأخوذ من البشر فردا فردا ، وخلاصة القول في كيفية هذا العهد على ما قاله الأنبارى من مذاهب أصحاب الحديث وغيرهم ، وما استنبط من بعض الآيات والأحاديث وأقوال كبار العلماء ، أن اللّه جلّت قدرته أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده إلى يوم القيامة بعضهم من بعض بحسب ما يتوالد الأبناء عن الآباء ، ولذلك لم يقل من ظهر آدم مع أن الذرية في الحقيقة كلها من ظهره ،

وإذا تنبهت إلى معنى قوله تعالى في الآية 98 من سورة الأنعام في ج 2 ، وهو جملة (فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) عرفت ذلك بداهة كما سيأتي في تفسيرها .

(177/261)

ثم أخذ عليهم الميثاق بأنه خالقهم وأنهم من مصنوعاته وحده ، وأن لا رب لهم يستحق العبادة غيره ، فاعترفوا بذلك وأذعنوا بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم ، وقبلوا ما كلّفوه ، كما جعل للجبال عقولا خاطبهم بها ، راجع تفسير الآية 10 من سورة سبأ والآية 11 من سورة فصلت والآية 68 من سورة النحل والآية 80 من سورة الأنبياء في ج 2 تعلم حقيقة هذا ، إذ جعل الجماد والحيوان صالحا للخطاب بما ركب فيهما من عقل

كيف وهو الذي جعل النملة تتكلم بما ينم عن رفع الضر عنها وعن جماعتها وجلب النفع لهم ، كما سيأتي في الآية 18 من سورة النمل الآتية بما ركب فيها من عقل ، وجعل البعير والظبي والحجر والشجر تكلم حضرة الرسول بما أودع فيها من فهم لرفع ظلامتها إليه ، وسعي الشجرة إليه ، وانشقاق القمر بإشارته ، إذا فلا يمتري من عنده لمحة من عقل أن يتردد في هذا العهد وأخذه من نسم الذرية وإجابتهم لخالقهم بما ذكر ، اعترافا بالعبودية له

وإذعانا لعظمته ، وإن هذا العهد لقطع العذر يوم القيامة ، وعدم قبول الاحتجاج بعدم علمهم به حينما يسألون عنه ، وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية الموافق لمذهب أهل السنة والجماعة من السلف الصالح والخلف الناجح ، وهو مؤيد بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم بن يسار الجهني بأن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه سئل عن قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) الآية قال : سئل عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال إن اللّه تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون .

(178/261)

فقال يا رسول اللّه ففيم العمل ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم : إن اللّه سبحانه وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخل الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل أهل النار ، فيدخل النار – أخرجه مالك في الموطأ وأبو داود وقال حديث حسن ، وأخرج الطبري نحوه عن أبي هريرة ، وأخرجه الترمذي أيضا وقال حديث حسن صحيح ولا

منافاة بين الآية والحديث من حيث أن الحديث يقول من ظهر آدم والآية تتضمن من ظهر ذريته لما مر تفصيله في تفسيرها آنفا ، وقد بين اللّه تعالى سبب أخذ العهد آخر الآية وخاطبهم بإيجاب الاعتراف بربوبيته عليهم على طريق الاستفهام التقريري وإجابته بأسرها بالإيجاب ، وأوجب على الرسل تذكير أقوامهم ومن أرسلوا إليهم بهذا العهد ، وان الرسل لا شك نبهوهم له وأرشدوهم للمحافظة عليه ، لئلا يبقى لهم عذر ، فمن أنكر كان معاندا ناقضا عهده لا عذر له البتة ، قال تعالى

"وَكَذَلِكَ" أو مثل هذا التفصيل البليغ "نُفَصِّلُ الْآيَاتِ" ونوضحها ليتدبرها الناس فيعرضوا عن الكفر ويرجعوا إلى الإيمان "وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ 174" إلى تذكر ميثاقهم الأول فيعملون بمقتضاه حتى لا تحق عليهم كلمة العذاب .

هذا ، وبعد أن ذكر اللّه تعالى رسوله بتذكير قومه في هذا العهد العظيم وبين كيفيته ذكّره بقضية أخرى ليذكرها لقومه على سبيل الاتعاظ والانتباه والتحذير فقال عز قوله "وَاتْلُ" يا أكرم الرسل "عَلَيْهِمْ" أي قومك .

وقال بعض المفسرين على اليهود ، وهو غير سديد ، لأن الآية مكية ولا مخاطبة بينه وبين اليهود بمكة ، على أن لا مانع من شمولها اليهود وغيرهم لأنها جاءت بلفظ عام ولأنه مرسل إلى الخلق كافة ولا سيما أنه تلاها عليهم عند وصوله إلى المدينة بعد هجرته من مكة لا عند نزول الآية ، فالقول باختصاصهم بها لا صحة له .

أي أخبرهم "نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا" من علماء بني إسرائيل .

مطلب قصة بلعام ابن باعوراء وسببها :

قيل إنه من الكنعانيين من بلد الجبارين ، أو من مدينة البلقاء ، واسمه بلعام أو بلعم بن باعوراء أو باعراء أو ابن امرئ ، اوتي علما ببعض كتب اللّه المنزلة على الرسل قبله وفي زمانه فكفر بها ونبذها وراء ظهره "فَانْسَلَخَ مِنْها" انسلاخ الجلد عن الشاة ، ويقال لكل من فارق شيئا على أتم وجه انسلخ منه .

وفي هذه الآية دلالة على أن العلم لا ينزع من الرجل لقوله جل شأنه انسلخ لا انسلخت منه ، يؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : (إن اللّه لا ينزع العلم انتزاعا من قلوب الرجال ، وإنما يكون بفقد العلم بموت العلماء) .

والقرآن يفسر ببعضه وبالسنة تدبر قوله جل قوله "فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ" لحقه وأدركه ، وفيه تلميح المبالغة باللحوق إذ جعل كأنه أمام الشيطان والشيطان مبالغ في اتباعه وهو من الذم بمكان على حد قوله :

وكان فتى من جند إبليس فارتقى به الحال حتى صار إبليس من جنده

"فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ 175" بعد أن كان من المهتدين الراشدين ، قال تعالى "وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها" بتلك الآيات التي علمها إلى منازل الأبرار ومراتب الأخيار "وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ" ركن ومال ملازما "إِلَى الْأَرْضِ" أي الدنيا رغبة بملاذّها ، ونزولا لشهواتها الوضيعة ، وأصل الإخلاد اللزوم للمكان من الخلود ، ولما في ذلك من الميل فسّر به كما فسرت الأرض بالدنيا لأنها حاوية لشهواتها ، وبالطلب منها أنه يخلد إليها فخلد "وَاتَّبَعَ هَواهُ" بإيثار الدنيا على الآخرة "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ" بالخساسة والدناءة لأنه يرجع من قيئه ويأكل القذرة والجيفة أحب إليه من اللحم الغريفي ، قال الإمام الشافعي رحمه اللّه :

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة وليتنا ما نرى مما نرى أحدا

(180/261)

إن الكلاب لتهدا في مرابضها والناس ليس بهاد شرهم أبدا

وقال الفقيه منصور في شعب الإيمان :

الكلب أحسن عشرة وهو النهاية في الخساسة

ممّن ينازع في الرياسة قبل أوقات الرياسة

والكلب المضروب به المثل "إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ" لتزجره أيها الإنسان وتشد عليه وتطرده

"يَلْهَثْ" يدلع لسانه بالنفس الشديد ، وهو طبع في الكلب لأنه لا يقدر لنقص الهواء المتسخّن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبه وانقطاع فؤاده ، بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تحتاج إلى النفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء "أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" فاللهث غريزة فيه لا تنقيد في حال التعب والعطش وشدة الحر ، إلا أن الحالة تزداد معه فيها "ذِلِكَ" المثل الذي ضربه اللّه عز وجل لعباده فيمن آتاه الحكمة وتركها وعدل عنها فترك آخرته وآثر دنياه في الخسة والضعة ، بأخس الحيوانات في أحسن أحواله ، لأن الكلب حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه وهذا هو "مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا" أي مثل العالم الذي اتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ، لأن الحريص على الدنيا إذا وعظته لا ينجع به وإن لم تعظه ، فهو باق على حرصه فصار الحرص على الدنيا

(181/261)

طبعا له غريزيا ، وهذا المثل الذي ضربه اللّه للمكذب بآياته يعم كل مكذب بها لأنهم إذا جاءتهم الرسل بالهداية لم يهتدوا فهم ضلال في كل حال "فَاقْصُصِ" يا سيد الرسل على قومك هذا "الْقَصَصَ" من أخبار الكافرين بآياتنا "لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ 176" فيها فيتعظون ، ولفظ الكلب لم يأت في القرآن إلا هنا وفي الآيتين 17 و23 من سورة الكهف في ج2 ،

"ساءَ مَثَلًا" أي بئس المثل مثل "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا" وقدم المفعول للحصر فقال "وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ 177" لا غيرها لأن وبال تكذيبهم خاص بهم ، قال تعالى "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ" منكم أيها الناس "فَهُوَ الْمُهْتَدِي" حقا وثواب هدايته له "وَمَنْ يُضْلِلْ (منكم) فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ 178" دنياهم وآخرتهم ، ولا أضر من هذا الخسران .

(182/261)

وخلاصة القصة على ما ذكره الأخباريون ونقله ابن عباس ومحمد بن اسحق والسدي وغيرهم هو أن موسى عليه السلام لما قصد الجبّارين نزل أرض كنعان من الشام ، فقال أهلها إلى بلعام ، وكان عنده اسم اللّه الأعظم إن موسى صنديد ومعه جنود كثيرة وأنت رجل مجاب الدعوة ، فادع عليه ليرد نفسه وجنوده عنا لئلا يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل ، فقال لهم هذا نبي وإن فعلت معه ما تريدون ذهبت دنياي وآخرتي ، قالوا لا بد أن تفعل ، فقال حتى أستأمر ربي ، قالوا لا بأس ، فاستخار ربه فأري أن لا يدعو عليه ، فأخبر قومه ، فألحوا عليه وأهدوا إليه هدايا وطلبوا منه أن يدعو عليه ، فاستأمر ربه ثانية فلم يؤمر بذلك ، فأخبرهم فراجعوه ، وقالوا لو كره ربك لنهاك عنه ، ثم تضرعوا إليه وأغروه بما قدموا له من المال حتى فتنوه ، فركب أتانه وتوجه إلى جبل هناك يسمى

حسانا ليظلع عليه بني إسرائيل ويدعو عليهم ، فربضت الأتان فصار يضربها فقامت ثم ربضت أيضا ، وهكذا عدة مرات ، ولما آلمها قالت له إنك تسوقني والملائكة يردونني ، ويلك كف عني ، أتذهب ويحك إلى مناوأة نبيّ اللّه الذي علمك اسمه لتستجلب به رضاه أو سخطه فتدعو على نبيه ، فلم ينزع عن ضربها ، فألهمت بمطاوعته كما ألهمت معاكسته ، فانطلقت به وصعدت الجبل ، فترجل عنها ونظر

(183/261)

إلى بني إسرائيل حتى إذا أشرف عليهم صار يدعو باسم اللّه الأعظم أن يخذلهم ، فانصرف دعاؤه إلى قومه ، وصار كلما دعا على قوم موسى بشيء أوقعه اللّه على قومه ولا يدعو لقومه بشيء إلا صرفه اللّه إلى قوم موسى ، وذلك أنه صار ينطق بغير اختياره فقال له قومه : ويلك يا بلعام إنما تدعو لهم وعلينا فقال هذا مما لا أملكه ، فقد غلبني اللّه عليه ، ولم يزل يدعو لقومه وعلى بني إسرائيل وهو يجاب بالعكس حتى اندلع لسانه وقال لهم ذهبت دنياي وآخرتي ولم يبق لكم إلا المكر والحيل ، وسأبين لكم ما يكون به إليكم الغلبة عليه ، فقالوا كيف قال : جمّلوا نساءكم واتركوهن بين معسكرهم وأوصوهن أن لا يمنعن أحدا من الزنى بهنّ فإن زنى واحد منهم بواحدة منكم كفيتموهم ، ففعلوا وطافت

نساؤهم بين عساكرهم فمرت امرأة تسمى كستى بنت صور من أجمل النساء على رمزي بن شلهوم من عظماء بني إسرائيل فاقتادها ، قرآه موسى فقال هي حرام عليك لا تقربها ، فلم ينته ، وأدخلها قبته وضاجعها ، فأرسل اللّه الطاعون على قوم موسى ، وكان صاحب أمره فخاص ابن العيزار غائبا ، فلما

حضر وبلغه ذلك دخل عليهما بالقبة وانتظمهما بحربته ، ورفعهما إلى السماء وقال اللهم هذا فعلنا بمن عصاك فأرنا فعلك في عدونا واكشف عنا ما ابتلينا به بسببه ، فرفع اللّه عنهم الطاعون ، وقد بلغ من مات من حين ضاجعها إلى زمن قتلهما سبعين ألفا .

وفي بلعام المذكور نزلت هذه الآية على حضرة الرسول ليقصها على قومه ، وهي من الإخبار بالغيب معجزة له صلّى اللّه عليه وسلم .

وتروى هذه القصة بصورة أخرى .

(184/261)

وهي أن ملك البلقاء كلف بلعاما أن يدعو على بني إسرائيل وموسى وكان ما كان مما قصصناه أعلاه وفيها أن اللّه استجاب دعاءه ووقع موسى وقومه في التيه ، وأن موسى قال رب كما استجبت دعاءه فاستجب دعائي عليه وانزع منه اسمك الأعظم والإيمان ،

فاستجاب اللّه دعاءه وسلخه من المعرفة ، فخرجت من صدره كحمامة بيضاء ، ولا يقال كيف يدعو موسى بسلبه الإيمان ويرضى له بالكفر مع علو منصبه وأمره بدعوة الناس إلى الإيمان ذلك لأنه لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده كفره وارتداده عن الإيمان بدعائه عليه وعلى قومه وإيثاره الدنيا على الآخرة

إلا أن هذه الرواية بعيدة عن الصواب بحق موسى ، لأن التيه قدره عليهم بسبب مخالفتهم لأمره في حرب الجبارين وكان عليه روح وراحة ، وهذا مما لا شك فيه في حقه ، أما على قومه ، فكان فيه بعض المشقة والكلفة جزاء مخالفتهم أمره وكان هذا بدعائه عليهم لا بدعاء بلعام كما سيأتي في الآية 25 من المائدة في ج 3 ، قال الألوسي في تفسيره روح المعاني أنا أعجب من هذا الشقي لم لم يدع على ملك البلقاء ليخلص من شره ويدعو على موسى ، ما هي إلا جهالة سوداء .

هذا ، وما جاء في كلام أبي المعتمر من أن بلعاما أوتي النبوة مردود لأن الأنبياء معصومون مما وقع من بلعام وان بلعاما كفر وهم معصومون من الكفر ، ولعل هذا أراد ما أوتيه من الآيات والاسم الأعظم ، على حد قوله صلّى اللّه عليه وسلم من حفظ القرآن فقد طوى النبوة في جنبيه .

مطلب قصة أمية بن الصلت :

وقال عبد اللّه بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم إن هذه الآية نزلت في أمية بن الصلت الثقفي ، وكان قرأ الكتب القديمة وعلم أن اللّه مرسل رسولا ورجا أن يكون هو ، فلما شرف محمدا بالرسالة حسده وكذبه وقال لو كان نبيا ما قتل أقرباءه ، قاتله اللّه ألم يعلم أن النبي مرسل للقريب والبعيد ، وأن الكافر عنده كافر سواء كان من أقربائه أو من أعدائه ، لأن الجامع فيما بينه وبين الناس هو الإيمان ، فلما مات أتت أخته ضارعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فسألها عن كيفية وفاته فقالت : نزل عليه اثنان من السقف فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رأسه أوعى فقال وعى ، قال أذكى قال أبى ، فسألته عن هذا فقال خيرا أريد بي فصرف عني ثم قال :

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني قبل ما قد بدا لي في خلال الجبال أرعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

فقال لها صلّى اللّه عليه وسلم بعد أن سمع هذا منها أنشديني ما سمعت من شعره ، فقالت سمعته يقول ذات يوم :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ولا شيء أعلى منك جدا وأمجد

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

من قصيدة طويلة أتت على آخرها ثم قالت أيضا :

وقف الناس للحساب جميعا فشقيّ معذب وسعيد

حتى أتت على آخرها ثم قالت أيضا :

عند ذي العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والخفاء الخفيّا

يوم يأت الرحمن وهو رحيم إنه كان وعده مأتيا

رب إن تعف فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب بريّا

فقال صلّى اللّه عليه وسلم : إن أخاك آمن شعره وكفر قلبه .

مطلب قصتي النعمان والبسوس :

(186/261)

وقيل إنها نزلت في النعمان بن صيفي الراهب ، كما روي عن ابن أبي حاتم بأنه رجل ترهب في الجاهلية وقدم المدينة على حضرة الرسول ، فسأله عن دينه فقال صلّى اللّه عليه وسلم الحنيفية ديني ودين جدّي إبراهيم عليه السلام ، فقال له أنا عليها ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم :

لكنك أدخلت فيها ما ليس منها فلست عليها ، فقال له : أمات اللّه الكاذب منا طريدا

وحيدا ، وخرج إلى الشام واستنفر المنافقين ، وطلب من قيصر النجدة لمحاربة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فلم يجبه ولم يوفق لمطلبه وبقي مقهورا حتى مات بالشام طريدا وحيدا .

إلا أن هذه لا تصح أن تكون سببا للنزول ، لأن الآية مكية والحادثة هذه وقعت في المدينة ، وإنما تنطبق في المعنى على هذا وأضرابه من كل من آثر دنياه على آخرته كما تقدم في تفسيرها ، ولأن بين نزول هذه الآية وحادثة النعمان هذا الذي سلب اللّه نعمته وأهلكه بحكمه على نفسه سنين كثيرة راجع تفسير الآية 107 من سورة التوبة في ج 3 .

وقيل إنها نزلت في البسوس ، وهي رواية عن ابن عباس ، وخلاصة القصة أنه كان رجلا له زوجة وثلاثة أولاد وقد أعطي ثلاث دعوات مستجابات ، فقالت له زوجته اجعل لي منها واحدة ففعل ، فقالت أدع

اللّه أن يجعلني أجمل امرأة ، فدعا فصارت فرغبت عنه ، فدعا عليها فصارت كلبة ، فقال أولادها لأبيهم إن الناس تعيرنا بأمنا فادع اللّه أن يردّها إلى حالتها الأولى ففعل ، فذهبت دعواته فيها .

وليست بشيء لأن البسوس امرأة لا رجل ، ويضرب فيها المثل فيقال أشأم من البسوس (وحرب البسوس) وهي بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرّة الذي قتل ابن عمه كليب بسبب قتله ناقتها التي دخلت في حماه ، فشكته إلى جساس فاغتاظ منه واستحين الفرصة من كليب ، ولا زال يترصده حتى رآه خرج إلى حماه أعزل فتبعه وطعنه من قفاه بحربته فوقع صريعا على الأرض ، ولما رآه وعرفه أنه ابن عمه طلب منه ماء فأعطاه طعنة أخرى فقال كليب :

المستجير بعمر وعند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فذهبت مثلا ومات كليب فطلب ثأره أخوه المهلهل ودام الحرب بينهما أربعين سنة ، وقصتها مشهورة بالتواتر ولم يذكر لنا التاريخ بسوسا غير هذه .

وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار أن الذي نزلت فيه هذه الآية رجل من علماء بني إسرائيل كان يقدمه موسى عليه السلام في الشدائد ويكرمه وينعم عليه ، فبعثه إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان به ، وكان مجاب الدعوة فترك دين موسى وتبع دين ملك مدين ، قال المرحوم السيد محمود الآلوسي : هذه الرواية أولى عندي بالقبول ووجه اختياره لها ، والله أعلم أن نظم التنزيل جاء مطلقا وتنطبق الآية على من هذا شأنه ، لأن الرواية جاءت مطلقة في رجل من بني إسرائيل والآية مطلقة أيضا فلذلك اختارها .

وقال الحسن وابن كيسان إن المراد بهذه الآية منافقو أهل الكتاب ، وهذا بعيد أيضا إذ لا

منافقين فيمكة والآية مكية ، وأبعد منه قول أبي مسلم إن المراد به فرعون وبالآيات الحجج والمعجزات التي ظهرت على يد موسى والأول أولى ، قال تعالى "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا" خلقنا وهذا قسم من اللّه أي وعزتنا لقد هيأنا "لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" الكافرين منهم ولا تنافي بين هذه الآية وقوله : (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 57 من الذاريات ، لأنه تعالى خلق للعبادة من علم أنه يعبده ، وخلق لجهنم من علم

(188/261)

أنه يجحده وكم من عام يراده به الخصوص ، ومن قال أن هذه اللام التي فى لجهنم لام العاقبة كاللام في قوله تعالى : (لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) الآية 88 من سورة يونس في ج 2 ، وكاللام في قول صاحب الزبد :

له ملك ينادي كل يوم لدوا للموت وابنوا للخراب

بمعنى أنه لما كانت عاقبتهم جهنم جعلوا كأنهم خلقوا لها فرارا عن إرادة المعاصي .

لا عبرة به ، لأنه عدول عن الظاهر ، ولأن اللام واقعة في جواب القسم كما ذكرنا ، والآية الأخرى والبيت المستشهد به لا قسم فيهما .

على أن هذه الآية نفسها حجة واضحة لمذهب أهل السنة القائلين : إن اللّه تعالى خالق

أعمال العباد جميعها خيرها وشرها بصريح اللفظ قال تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الآية 97 من الصافات في ج 2 ، ولا زيادة على بيان اللّه ، ثم وصف هؤلاء المخلوقين لجهنم بقوله عز قوله "لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها" لأن معنى الفقه الفهم والعلم ثم جعل علما على علم الدين ، وهؤلاء لا يفهمون المراد من خلقهم ولا يعلمون ما يصيرون إليه "وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها" طريق الهدى والرشد ولا ينظرون بها آيات اللّه وأدلة توحيده في سمائه وأرضه "وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها" المواعظ سماع قبول لأنهم صمّ فإنهم للشر أسمع من الخير ، ولكنهم قوم صرفوا حواسهم كلها إلى الدنيا وأعرضوا عن الآخرة ، لذلك حرموا نعم تلك الحواس فيما يؤول به إلى خيرهم فلم ينتفعوا فيها قال الشاعر :

وعوراء الكلام صممت عنها وإني إذ أشاء لها سميع

ولهذا قال ابن الفارض رحمه اللّه :

إذا نظرت ليلى فكلي أعين وإن نطقت ليلى فكلي مسامع

(189/261)

"أُولئِكَ" الذين هذه صفتهم "كَالْأَنْعامِ" البهائم العجم "بَلْ هُمْ أَضَلُّ" منها لأنها تعرف ما ينفعها ويضرها ولهذا تراها تجتنب بعض الأعشاب ولا تلقي نفسها من الصعدات ،

وتخاف كل صيحة ، وتنقي ما تراه من أسورة وغيرها فتتنبه وتقف وترجع إلى الوراء وتجتنب الحفر والمياه ، وهؤلاء لا يعرفون عاقبة ما يضرهم ولا نفع ما يسرهم معرفته حقيقة ، مع أنهم أعطوا ما لم تعطه الحيوانات من القوة العقلية "أُولَئِكَ" المشبهون بالأنعام "هُمُ الْغافِلُونَ 178" عن فهم هذه الأمثال المضروبة لمن يعقل عله يتعظ بها .

مطلب في أسماء اللّه الحسنى :

"وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى " تأنيث الأحسن اسم تفضيل ، لأنها أحسن أسمائه وكل أسمائه حسنة ، إلا أن هذه تدل على معاني حسنه من تحميد وتمجيد وتقديس وتنبىء عن معاني كثيرة ومغازي شريفة لا تدل عليها غيرها .

قال مقاتل : إن رجلا من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلم دعا اللّه ودعا الرحمن ، فقال أبو جهل قبحه ولعنه اللّه :

يزعمون أنهم يعبدون ربا واحدا فما لهذا يدعو إلهين ؟ جهلا منه بصفات اللّه ، فنزلت هذه الآية .

أما ما قيل من أنها نزلت حينما قرأ رجل في صلاته (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ) الآية قبل الأخيرة من سورة الإسراء الآتية ، فغير وجيه لأنها لم تنزل ، بعد وسنأتي على معاني أسماء اللّه الحسنى في أوائل سورة طه الآتية إن شاء اللّه .

روى البخاري ومسلم عن ابي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

(إن للّه تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة ، واللّه وتر يحب الوتر) وفي رواية ، من أحصاها .

(190/261)

وفي رواية أخرى إن للّه تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر ، وهي معلومة محصورة في نوعين الأول عدم افتقاره إلى غيره والثاني افتقار غيره إليه "فَادْعُوهُ بِها" أيها الناس لا بغيرها من الأسماء ، وفي هذه الجملة دليل على أن أسماء اللّه تعالى توقيفية لا اصطلاحية ، ويؤكده عدم جواز قولك اللّه سخي بدل جواد ، وعاقل بدل عالم ، وطبيب بدل حكيم ، وعارف بدل خبير ، وعدم جواز الدعاء بغيرها لقوله جل قوله "وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ" لا تقلدوهم بما يقولون واتركوهم وشأنهم إذا لم يمتثلوا أمركم بالميل عن الإلحاد الذي هو عدول عن القصد والاستقامة إذ لا يجوز أن تطلق أسماء غيره عليه ولا أسماءه على غيره ولا نسميه بما لم يسم به نفسه مما لم يرد في قرآن أو سنة ، فلا يجوز أن تقول يا ضار يا مانع يا خالق القردة

يا هدام الديار على الانفراد ، بل إذا قلت هذا فقل : يا ضار يا نافع يا معطي يا مانع ، يا

خالق الخلق يا جبار القلوب ، تأدبا معه جل جلاله ، وإن كان في الحقيقة تلك من أسمائه لأنه هو المدمر والمخرّب والمحرّك ، ولكنها ليست من الأسماء الحسنى ، وكذلك لا يجوز أن نسميه باسم لا نعرف معناه كما جاء في الطلاسم والتعاويذ والرقى ، فقد يكون مما لا يليق بجنابه العظيم فنعرض أنفسنا لما لا يرضاه مما يشير إليه قوله تعالت قدرته "سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 119" أولئك الملحدون في أسمائه ، وفيها من الوعيد والتهديد ما لا يخفى على بصير .

(191/261)

أما ما ذكره الشيخ علي محفوظ في الفصل التاسع من كتابه (الإبداع في مضار الابتداع) من أن من يسميه تعالى بغير اسم ورد في القرآن أو السنّة فقد كفر ، ففيه ما فيه من المبالغة وحمل على السادة الصوفية وتنديد بهم ، فهو قول مغالى فيه لا محل له من القبول ، لأن التكفير أمر عظيم لا يكون إلا بإنكار أحد أركان الإسلام ، وقال العلماء المنصفون لو وجد تسع وتسعون قولا بالتكفير وواحد بعدمه يفتى بالواحد ، إذ لا يخرج الرجل من الإسلام إلا بإنكار ما دخل به فيه ،

قال تعالى "وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ" جماعة إلى الجنة وهذا بمقابل (وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ) في الآية

السابقة ونظيرتها الآية 159 المارة ، وهذه الطائفة المباركة هم الذين دأبهم أنهم "يَهْدُونَ بِالْحَقِّ" ويرشدون الناس إلى طريقه "وَبِهِ يَعْدِلُونَ 180" بأحكامهم على أنفسهم وعلى غيرهم لا يفرقون في الحق بين قريب وغريب وعدو وصديق وحقير وشريف .

قال ابن عباس يريد بهذه الآية أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

روى البخاري ومسلم عن معاوية قال وهو يخطب :

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر اللّه لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر اللّه وهم على ذلك) .

وفي الآية هذه والحديث هذا إشارة إلى أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه ، قال تعالى "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا" من أي أمة كانت لأن الصيغة للعموم فتتناول الكل إلا ما دل الدليل على استثنائه فهؤلاء "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ" شيئا فشيئا إلى الهلاك "مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ 181" ما يراد بهم ولا يشعرون بمصيرهم ولا يحسون

(192/261)

بمنقلبهم حتى يستأصلوا بالعذاب على غرّة ، وذلك أن اللّه تعالى يفتح عليهم الدنيا ويزيدهم من نعيمها ما عليه يغبطون ، وإذا أقدموا على ذنب أو عملوا جرما فتح عليهم

أبواب الرزق ليزدادوا تماديا في الشرّ ويحسبون أنه أثرة من اللّه آثرهم بها على غيرهم وينسيهم سيئاتهم حتى لا يرجعوا عنها ويستغفروا منها ويظنوا أن اللّه لا يحاسبهم عليها وهم لا يعلمون أن ذلك كله عربون لأخذهم بغتة وإهلاكهم على حين غفلة ، إذ يفاجئهم بأمر لا محيص لهم منه ، ويدل على هذا قوله "وَأُمْلِي لَهُمْ" أمهلهم بإطالة أعمارهم ولا أعاجلهم بالعقوبة حتى يظنوا أنهم أهملوا ، ولم يذكروا "إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ 182" قوي شديد لا يجارى ولا يبارى ، ومن جملة هذا الكيد أن أغلق عليهم باب التوبة ، فلا أجعلهم يتصورونها .

(193/261)

وأراد بالكيد هنا الأخذ وإنما سمي كيدا تشبيها به من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الباطن خذلان ثم شرع يندد في كفار قريش بقوله عز قوله "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا" هؤلاء الذين يصمونك بالجنة أيها الكامل مع أني أقول لهم "ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ" فكيف ينسبونك إلى الجنون وأنت مصاحب لهم ليل نهار ويعلمون يقينا أنك أكمل البشر وأقول لهم "إِنْ" ما "هُوَ" صاحبكم "إِلَّا نَذِيرٌ" لكم يخوفكم من أن يأخذكم ربكم بعذاب شديد لا تطيقونه إن أصررتم على كفركم ولم تؤمنوا به وهو "مُبِينٌ 183" لكم طريق الخير وموضح لكم سبل

الصواب ومرشدكم لكل ما به نفعكم واجتناب ما يضركم ، نزلت هذه الآية حينما وقف صلّى اللّه عليه وسلم على الصفا ودعى قريشا فخذا فخذا وحذرهم بأس اللّه تعالى ووقائعه إن لم يؤمنوا به ، وأنه ينزل بهم من العذاب ما أخذ به من قبلهم ، فقال بعضهم لبعض إن هذا لمجنون دعوه يصوت حتى الصباح فأكذبهم اللّه فيها ، طفق يحثهم على دلائل وحدانيته مما يؤدي لإيمانهم إن كانوا يعقلون ، فقال "أَ وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وعظمتهما وما فيهما من المنافع ، والملكوت هو الملك زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة مثل جبروت ورحموت مبالغة في التجبر والرّحمة ، ويتأملوا "فى ما خَلَقَ اللَّهُ" فيهما وبينهما وما فوقهما وتحتهما "مِنْ شَيْءٍ" ذكر الشيء ليعم فيشمل جميع الأشياء العلوية والسفلية ، إذ في كل منها عبر توجب التفكر والتدبر والنظر لدلالتها على آثار قدرته في مكوناته وعجائب صنعه في مخلوقاته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(194/261)

أي لما ذا لم يتذكر الناس فيما برأه ربهم في هذين الهيكلين العظيمين وما خلقه لهم فيهم "وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ" فيموتوا على كفرهم فيخسروا آخرتهم كما خسروا

دنياهم ، فيا سيد الرسل إذا لم يؤمنوا بك وأنت الذي لا نبيّ ولا كتاب بعدك "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ 184" لأنك خاتم الأنبياء وكتابك خاتم الكتب ، أي أنهم لا يؤمنون البتة لأن اعراضهم هذا لسابق ضلالهم وأنهم في علم اللّه خبثاء لا يتوقع منهم الهدى لأن "مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ" أبدا إذ طبع اللّه على قلوبهم فمالوا عن الحق إلى الضلال وقد أعماهم عن سلوكه لأنه يريدهم إلى ما قدره إليهم في أزله "وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ 185" لا يدركون شيئا في بصيرتهم كما لا يرونه بأبصارهم فهم دائما متحيرون لا يهتدون إلى صواب

:

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة إلى أين يسعى من يغص بماء

مطلب في الساعة ومعنى احفوا الشارب :

ثم إن من كفرة قريش من سأل حضرة الرسول عن الساعة التي يخوفهم بها لأنهم ينكرونها فيقولون له متي تكون فأنزل اللّه "يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ" سؤال سخرية واستهزاء لأنهم لا يصدقون بها لهذا يقولون لك هؤلاء الكفرة "أَيَّانَ مُرْساها" يريدون متى تأتي ، لأن الإرساء هو الوقوف والإثبات ، فإذا جاءت فكأنها ثبتت أمامهم فأنزل اللّه "قُلْ" يا سيد الرسل أنا لا أعلم وقت مجيئها "إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي" وحده لا يعلمها غيره ، فكما أنه أخفى عليكم أجل موتكم فقد أخفاها عليّ وعلى الناس أجمع ليكونوا كلهم على حذر دائم من وقوعها ، فإخفاؤها أدعى لملازمة الطاعة والمثابرة عليها والمبادرة إلى التوبة والمباعدة عن المعاصي

"لا يُجَلِّيها" ليظهرها ويكشف أمرها "لِوَقْتِها" المقدر لها كي يراها الناس "إِلَّا هُوَ" وحده ، واعلموا أيها الناس إن الساعة قد "ثَقُلَتْ" عظمت وكبرت وقيل

(195/261)

خفيت لأن الشيء إذا ثقل خفي فأبدل اللفظ به ، وعليه فإن في الآتية بمقام على ، أي اشتد هولها على من "فِي السَّماواتِ" من الملائكة "و" على من في "الْأَرْضِ" من الثقلين الإنس والجن وأهمهم شأنها وأخافهم هولها ، وهنا حذف لفظ أهل وهو من بديع الكلام ولذلك قدرنا (من) لفظ قبل السموات والأرض ، واعلموا أيها الناس إنها "لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً" فجأة على غرة وغفلة من الناس أجمع .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة الوالدة حديثا) فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط (يطين ويصلح) حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته (بضم الهمزة اللقمة) إلى فيه فلا يطعمها .

ومن هنا قال بعضهم إن الساعة تؤلف ولا تؤلفان لأن حروف بغتة بحساب الجمل ألف

وثمانمائة واثنان والصحيح انها وأربعمائة واثنان ، لأن التاء مكررة فيها والمكرر لا يحسب عادة ولكن تضاف حروف الكلمة لها فتكون 1406 ، ونحوها قوله تعالى (لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) الآية 76 من الإسراء الآتية ، فإن حروفها عدا المكرر 1399 وحروفها 11 فتكون 1410 تدبر .

وأعلم أن هذا لطريق الاستنباط لا غير ، وفي الحقيقة لا يعلم مداها إلا هو "يَسْئَلُونَكَ" يا سيد الرسل "كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها" بليغ في علمها شديد السؤال عنها ، أي .

يسألونك عنها كأنك حفي بها ففيه حذف والإحفاء هو الاستقصاء بالشيء ومنه حديث احفوا الشارب المار ذكره في الآية 95 أي استقصوا في قصه حتى يكون كالحاجب بأن تكون له حواف ، أي تبدو منه حواف شفته .

(196/261)

وقد أخطأ صنعا من زين شاربه استدلالا بهذا الحديث لزعمه أن معنى الإحفاء هو ذاك ، مع أنه مع بقاء اللحية مثلة ، وحاشا رسول اللّه أن يأمر بها ، ألم يعلم هذا المتحفف أن رسول اللّه لم يزّين شاربه بالموسى ولا بالمقصّ بل كان يأخذ منه ما زاد على الشفة ، وأنه لا يأمر بما لا يفعل ، وأن الاقتداء به هدى والمخالفة له ضلال .

قرأ ابن مسعود (حفيّ بها) أي كأنك عالم بها مراعاة لمعنى الباء المؤدية لمعنى ت (30) عن في الآية المارة ، وهي قراءة إن صحت عنه فهي شاذة لا يجوز أن تقرأ لما فيها من إبدال حرف بغيره متباينين في المعنى ، وقيل إن معنى حفى عن الشيء إذا بحث عن تعرف حاله ، واستقصاه إذا اعتنى به ، وعليه قول الأعشى :

فإن تسألوا عني فيا رب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

والأول أولى ، راجع الآية 95 المارة في بحث الإحفاء وعلى كل "إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ" كرر الجواب جل شأنه لتكرار السؤال تأكيدا للحكم وتقديرا له واشعارا بعلّته على الطريقة البرهانية بإيراد اسم الذات المنبئ عن استتباعها بصفات الكمال التي من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم ، فالسؤال الأول عن بيان وقت قيام الساعة ، والثاني عن بيان أحوالها الشافة ، ولهذا قال جل شأنه "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ 186" معنى اختصاص علم اللّه بها ، فبعضهم ينكرها رأسا ولا يسأل عنها إلا تلاعبا ، وبعضهم يعلم أنها واقعة ، ولهذا قال أكثرهم :

ويزعم أن محمدا واقف على وقت وقوعها فيسأل جهلا ، وبعضهم يزعم أن العلم بها من مقتضيات الرسالة فيتخذ السؤال ذريعة إلى القدح فيها بأن يقول كيف يدعي الرسالة ويخوفنا القيامة ولا يعرف متى تقوم ، وبعضهم واقف على جلية الحال ويسأل امتحانا فهو ملحق بالجاهلين لعدم علمه بعمله وعمله بعلمه .

هذا ، ولما سأل أهل مكة محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ألا يخبرك ربك بالأسعار لنتيقن ونتحقق الربح ، وبالجدب والخصب لنأمن على أنفسنا وحيواناتنا من الجوع والعطش ، أنزل اللّه "قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً" لأني بشر مثلكم فلا أقدر على دفع الضر وجلب الخير "إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ" لي من ذلك أن أملكه بتمليكه إياي ، وهذا غاية في إظهار العبودية ونهاية في التبري عن خصائص الإلهية ومبالغة في إظهار العجز ، وبما أن ذلك من العلم بالغيب أتبع هذا التبرّي بقوله "وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ" كما تظنون "لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ" الذي يمكن التقصي عنه بالتوقي من موجباته ولم أكن مغلوبا لكم في بعض الأحوال ، وهذا قبل أن يطلعه اللّه على بعض مغيباته ولما أطلعه أخبره ، قال تعالى : (فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ
أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ)

الآيتان 26 و27 من سورة الجن الآتية ، ثم أكد نفي ذلك بقوله "إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ" للكافرين أمثالكم من أن يلحقهم غضب اللّه إن لم يرجعوا عن كفرهم "وَبَشِيرٌ" بالثواب العظيم من اللّه "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 187" بي ويصدقون رسالتي ، ثم ذكرهم بأصل خلقهم بقوله عز قوله "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ" هي نفس آدم عليه السلام "وَجَعَلَ مِنْها" من نفسها زوجها" حواء لأنها خلقت من نفس آدم ، لذلك قال منها أي من جنسها ، وقد جاء في الخبر أن اللّه تعالى خلق حواء من ضلع آدم اليسرى ، ونظير هذه الآية من حيث المعنى الآية الأولى من سورة النساء في ج 3 والآية 97 من سورة الأنعام في ج 2 ، أما كيفية خلقها فعلى ما هو عند اللّه تعالى مما هو مجهول عندنا ، واللّه لا يعجزه شيء وقال تعالى في الآية 72 من سورة النحل في ج 2 (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً) وعليه ينبغي أن تكون من هنا ابتدائية ، ويكون المعنى من جنسكم أيضا ، ويحتمل أن تكون تبعيضية ، فيصير المعنى من جسدكم ، فالمعنى الأول ينطبق على آدم وسائر البشر ، وعلى الأخير لا ينطبق إلا على آدم ، وسنأتي على تفصيل كل من هذه الآيات في محله إن شاء اللّه "لِيَسْكُنَ إِلَيْها" يأوي ويأنس بها واللام للعلة الغائبة ، أي يطمئن إليها .

مطلب أدب التعبير وحمل حواء الأول :

وقد ذكّر الضمير في ليسكن ولم يؤنثه باعتبار النفس كما هو الظاهر لأن المراد منها آدم ، ولو أنث الضمير على الظاهر لتوهم نسبة السكون للأنثى وهو خلاف المقصود من قوله "فَلَمَّا تَغَشَّاهَا" والغشي منسوب للذكر قولا واحدا وهو أحسن كناية عن الجماع وأكثر أدبا فيه ، لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة ، وفي هذا تنبيه لحفظ اللسان من الكلام البذيء ولو كان لا بأس به ، ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم : تأدبوا بآداب اللّه كي ينزه الإنسان دائما لسانه عن ذكر ما فيه فحش ولو حلالا ، وهذا من جملة آداب القرآن ، ويقال له أدب التعبير في علم البلاغة "حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً" بادىء بدء لأنه عبارة عن نطفة فلا يحس بها ثم يتدرج إلى علقة فمضغة وهكذا إلى

كماله ، ولهذا قال تعالى "فَمَرَّتْ بِهِ" أي بحملها لخفته لأن كبره في الرحم تدريجيا والثقل التدريجي لا يحس به غالبا ، وقرأ أبو العالية مرت بالتخفيف مثل ظلت ، في ظللت أو من المرية أي شكت في حملها ، لأنه شيء لم يعهد عندهما قبل وقرأ ابن الجحدري فمارت من ماريمور إذا جاء وذهب يريد به الحمل لأنه يتقلب بالمشيمة ، وكل هذه القراءات جائزة إذ لا زيادة فيها ولا نقص والتصحيف لا بأس به .

أما ما نقل عن ابن عباس أنه قرأ استمرت ففيها زيادة حرف وتبديل حرف فلا يجوز قراءتها "فَلَمَّا أَثْقَلَتْ" بكمال الحمل وارتفاع البطن وصارت تتألم لضرب الولادة "دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما" تضرعا وإخباتا لأنهما رأيا شيئا عجيبا لم يصرفا مصيره وخافا عاقبة الأمر واهتما بحال خروج الولد ، فتوجها إلى مالك أمرهما وطلبا منه حسن العاقبة فقالا "لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً" بشرا سويا مثلنا سالما من النقص والزيادة "لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 188" لنعمائك دائبين عليه ، وذلك لأنهما لم يريا أحدا من جنسهما ولم يكن إذ ذاك غير الجن والحيوان والوحش والطير ، فخافا أن يكون من جنس أحدهما فرغبا إلى ربهما أن يكون على شكلهما ولونهما "فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً" كما أرادا "جعلا" أي نسلهما وأولاده على حذف مضاف مثل قولك سال الوادي وتريد ماءه ، ومثل قوله تعالى : (وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ) يريد أهلها ، وحذف المضاف متعارف عند العرب واتخذا "له" للإله الواحد "شُرَكاءَ" من الملائكة والبشر والحيوان والجماد وغيرها من مخلوقاته وأشركوها بعبادته "فِيما آتاهُما" أي أولادهما وأنفسهما من النسل إذ أضافوا ذلك إليهما ، وإنما ثني الضمير باعتبار أن الذي أتاهما ذكر وأنثى ، وعبر بما بدل من لأن هذين الصنفين عند ولادتهما ملحقان بما لا يعقل وإنما أسند الجعل للنسل كله مع أن البعض لم يجعل لتلبسه بمحض الإيمان لأنهم الأكثر على حد قولهم (بنو تميم قتلوا فلانا) والقاتل واحد ، وقوله تعالى : (وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ)

الآية 67 من سورة مريم الآتية وليس كل إنسان يقول ذلك "فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 189" معه من لا يستحق العبادة ، وجمع الضمير على عوده للنسل الذي أشرك ، وفيه تغليب

(201/261)

المذكر على المؤنث إيذان بعظم الشرك ولأن من جوّز الشريك الواحد جوز الشركاء ، وقد أضاف جل شأنه في هذه الآية فعل الآباء إلى الأبناء متهكما فيما آل إليه أمر ذريتهم ، كما أضاف فعل الأبناء إلى الآباء في قوله اتخذتم العجل .

وقتلتم نفسا .

الآيات 51 و92 و72 من سورة البقرة في ج 3 إذ خاطب فيها اليهود الذين على زمن محمد صلّى اللّه عليه وسلم بما فعل آباؤهم زمن موسى عليه السلام وهذا أحسن الأقوال في تفسير هذه الآية .

ولا يقال إن هذا من قبيل الرأي وتفسير على خلاف الظاهر ، لما ذكرنا في المقدمة من لزوم اتباع الظاهر حسب المستطاع ، إذ لا استطاعة هنا ولا مخلص إلا بالأخذ على خلاف الظاهر ، لأنه أليق بالمقام وأوفق للمعنى ، ولأنه إذا تعذرت الحقيقة وجب الجنوح إلى المجاز

، ولأن إعمال الكلام ولو تأويلا عند جواز المعنى أولى من إهماله .

وبلي هذا القول قول من قال إن الضمير في خلقكم يعود إلى قريش آل قصي ، إذ لا يجوز عوده لآدم عليه السلام ، لأن إسناد الشرك إليه محال ، كيف وهو نبي معصوم ! واستدل بضمير الجمع في (يُشْرِكُونَ) لأنهم خلقوا من جنس قصي وزوجته القرشية بنت سيد مكة من خزاعة ، وقد سميا أولادهما عبد مناف وعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ، بدلا من عبد اللّه وعبد الرحمن مثلا ، فيكون المراد بهذه الآية هما وأعقابهما الذين اقتدوا فيهما بالشرك ، وأيد قوله هذا بقول أم معبد :

فيا لقصي ما روى اللّه عنكم به من فخار لا يبارى وسؤدد

حتى قال جماعة من العلماء إنه تفسير حسن لا إشكال فيه .

نعم هو وجيه إلا أنه يرد عليه عدم علمنا بقصي وزوجته بأنهما وعدا اللّه عند الحمل بما ذكر في الآية ، لأنهما كانا كافرين وكانت قريش متفرقة ، ثم جمعها قصي ولذلك سمي مجمعا ، فلم يخلق المذكورون من نفسه فضلا عن أنه لا محل لاستغرابهما الحمل مثل آدم وزوجته .

(202/261)

أما ما قاله بعض المفسرين من أن الإشراك بالتسمية فقط وهو لا يعد شركا وجوزوا إطلاقه على آدم عليه السلام وزوجته ، واستدلّوا بما قاله عكرمة ما أشرك آدم ولا حواء ولكن كان لا يعيش لهما ولد ، فأتاهما الشيطان وقال لهما ، إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث يعني نفسه ، لأنه كان بين الملائكة يسمى حارثا ففعلا فعاتبهما اللّه على ذلك بما ذكر بالنسبة لمنصبهما ، على حد حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقول الآخرين من أنه يفهم من قوله تعالى أثقلت ، أن حواء كانت تسقط حملها قبل كماله ، فلما كمل في هذه المرة دعوا اللّه بما قصه في هذه الآية ، واستدل بما أخرجه الترمذي وأحمد وحسنه الحاكم وصححه عن سمرة بن جندب قال :

قال صلّى اللّه عليه وسلم : لما ولدت حواء طاف إبليس وكانت لا يعيش لها ولد ، فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته ، قال القطب : لا بعد هذا شركا لأن أسماء الأعلام لا تفيد مفهوماتها اللغوية ، ولكن أطلق عليها لفظ الشرك تغليظا وإيذانا بأن ما عليه أولئك السائلون أمر عظيم .

وقال الطيبي : هذا أحسن الأقوال لأنه مقتبس من مشكاة النبوة .

وقال غيرهم إنه موافق لسياق الآية المنزلة بحسب الظاهر ، ولا يصار لغيره إلا بدليل ، أقول نعم لو كان هذا الحديث مسلما بصحته أما لا فلا :

لأن في سنده عمر بن ابراهيم المصري ، قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به متروك وفضلا عن هذا فإنه ليس مرفوعا بل هو موقوف على سمرة ، والموقوف على الصحابي فيه ما فيه ، والدليل إذا طرقه الاحتمال سقط الاستدلال به ، وقد جاءت روايات أخرى عن معمر عن الحسن ، وعن ابن جرير عن الحسن ، وعن قتادة عن الحسن كلها مختلفة باللفظ متضاربة بالمعنى ، وإن هكذا روايات لا تخلو عن الدس من أهل الكتاب ، لأنه لو ثبت عن الحسن ما نقلوه عنه لما فسرت هذه الآية على غير ما روي عنه ، وهناك رواية أن الآية نزلت في تسمية آدم وحواء ولديهما بعبد الحارث خرجها ابن جرير عن الخبر ، بما يدل على أن هذه وتلك منقولة عن أهل الكتاب لما قيل إنها نزلت في اليهود والنصارى ، لأنهم هوّدوا ونصّروا أولادهم إلى غير ذلك من الأقوال التي لا ترتكز على ما يطمئن له الضمير ويركن إليه العقل ، وشكّ أن الآية من المشكلات وقد تضاربت فيها آراء المفسرين ، وأحسن شي ما أثبتناه في تفسيرها وهو ما اعتمده جهابذة المفسرين ، ولو كان هناك حديث صحيح لا غبار عليه يفهم منه تفسيرها على غير ما جرينا عليه لاتبعناه ، قال الشافعي رحمه

إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وعلى هذا أكثر المفسرين من أساطين الإسلام الذين هم أعلى رتبة وأسنى مقاما من مخالفيهم .

(204/261)

هذا ، وكان يولد لهما في كل بطن ذكر وأنثى وكانا يزوجان ذكر البطن الأول البنت من البطن الثانية وذكر البطن الثانية البنت من البطن الأول ، وهكذا تناسلا وكثرا ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 27 من سورة المائدة في ج 3 ، ومن هذا النسل من جرأ واتخذ لحضرته سبحانه شركاء ، من الأصنام والنجوم والملائكة والنار والبقر وغيرها من مخلوقاته تعالى اللّه عن ذلك وتنزه ، وأشركا ذلك النسل فيما أتاهما من الأولاد إذ أضافوا ذلك إليهم ، وعبّر هنا أيضا بما دون من لأن هذه الاضافة وقعت منها عند الولادة والأولاد إذ ذاك ملحقون بما لا يعقل كما أشرنا إليه آنفا ، وإسناد الجعل للنسل على العموم ، مع أن البعض لم يجعلوا جاء على ما هو متعارف عند العرب كما مر في تفسير الآية 189 ومثله قوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ) الآية 16 من سورة عبس المارة والمراد بعض الإنسان تدبر وقل "فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 190" فيه ذلك النسل الذي جعل له شركاء ، وفيه تغليب

المذكر على المؤنث وإيذانا بعظم إشراكهم ، قال منددا صنيعهما على طريق الاستفهام الإنكاري

(205/261)

"أَيُشْرِكُونَ" بي وأنا خالقهم "ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً" من الأشياء أصلا ، ومن حق المعبود أن يكون خالقا وهؤلاء "وَهُمْ يُخْلَقُونَ 191" بصنع أيدي مخلوقي وجاء ضمير الجمع على صفة من يعقل بناء على اعتقاد الكفار بأن الأصنام تعقل وتنفع وتضر ، فأجراها مجرى من يعقل ، وفي قوله "وَلا يَسْتَطِيعُونَ" أولئك الأوثان المتخذة شركاء لي "هم" لعابديهم عند حاجتهم لهم "نَصْراً" مما يحل بهم من أمر مهم أو خطب ملمّ "وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ 192" أيضا إذا وقع عليهم تعد من كسر واهانة "وَإِنْ تَدْعُوهُمْ" أيها الكفرة "إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ" هذا بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم بالنص ، والهدى مجرد الدلالة على البغية والإرشاد إلى طريق حصولها من غير أن تجعل للطالب ، راجع تفسير الآية 17 من سورة فصلت في ج 2 "سَواءٌ عَلَيْكُمْ" أيها المشركون بهم "أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ . 193"

وهذا مثل ضربه اللّه تعالى في عدم الإفادة منهم في الدعاء وعدمه ، أي أن دعاءكم لهم في

عدم الإفادة وسكوتكم عنهم سيان ، فلا يتغير حالكم في الحالتين كما لا يتغير حالهم في الحالين ، لأنها جماد والجماد يستوي فيه الحالان ، وقال بعض المفسرين إن ضمير تدعوهم يعود لحضرة الرسول على سبيل التعظيم ، أو له وللمؤمنين وضمير المفعولين في (تدعوهم) و(أ دعوتموهم) للمشركين والمراد بالهدى دين الحق ، أي إن تدعو المشركين إلى الإسلام لا يتبعوكم .

(206/261)

إلا أن سياق النظم الكريم وسياقه لا يساعد هذا البتة كما ترى ، لأنه لو كان كذلك لقال عليهم مكان عليكم كما في قوله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) الآية 10 من سورة يس الآتية ، لأن استواء الدعاء وعدمه إنما هو بالنسبة للمشركين لا بالنسبة للداعين فإنهم فائزون بفضل الدعوة ، وإن من نقل هذا القول عن الحسن لم يتثبت بنقله ولم يترو بصحته .

أما من نقله عن الطبرسي فإن صح فليس بشيء لأنه رحمه اللّه لم يحقق ما ينقله حتى قيل عنه إنه (حاطب ليل) ومما يقرر ما جرينا عليه ويؤكده قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" وتسمونهم آلهة ليسوا بآلهة إنما هم "عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ" مسخّرون مذلّلون للّه ومن جملة

مملوكيه قرأ ابن سعيد بتخفيف (إن) ونصب عباد على حد قول القائل :

إن هو مستوليا على أحد إلا على أضعف المجانين

وقرأ آخرون بنصب أمثالكم أيضا على أنّ أن المخففة تنصب الجزأين المبتدأ والخبر على حد قوله :

إذا اسودّ جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافا إن حراسنا أسدا

والقراءة الأولى أولى وهي التي عليها المصاحف المختارة على غيرها إذ ذكرنا غير مرة إن القراءة إذا لم تكن تبدل أو تغير فتجوز وإلا فلا لأن التخفيف والتشديد والمد والإمالة لا تغير الحروف ولا الكلمات ولا المعنى وكل ما كان كذلك فلا بأس به "فَادْعُوهُمْ" أيها المشركون "فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ" ما تدعونهم به "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 194" في زعمكم أنهم ينفعونكم ، وهذا تحقيق لمضمون ما قبله وتبكيت

(207/261)

لهم بما يدّعونه فهم من القدرة والهدى والضلال ، ومما يؤكد هذا ويزيد في التوبيخ ونفي ما يتوهمونه في أوثانهم قوله جل قوله "أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها" حتى تخاطبوهم ؟ وترجوا نصرهم كأناس أمثالكم ،

كلا ليس لهم حواس كحواسكم وجوارحكم فليس لكم مصلحة بهم أصلا ، فيا أكمل الرسل "قُلِ" لهؤلاء الأغبياء "ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ" واستعينوا بهم لينصروكم أو يدفعوا عنكم ضرا ، إن كان ما تتصورونه بها حقا "ثُمَّ كِيدُونِ" جميعا أنتم وشركاؤكم بما تستطيعون من أنواع الحيل والمكر فإن قدرتم علي "فَلا تُنْظِرُونِ 195" لحظة واحدة ولا تمهلوني لأستعين بأحد عليكم ، وإذا تحققتم عدم نصرتها وعدم إجابتها دعاءكم وظهر لكم عجزها وعجزكم أيضا عن أن تمسوني بشيء لأن معبودي يملك النصر ويجيب الدعاء فلا يمكّنكم من إيصال كيدكم إلي ، وذلك "إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ" القوي العزيز القاهر لكل شيء الحافظ لمن يتولاه الخاذل من يتكل على غيره المذل من عاداه هو الإله "الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ" علي وشرفني بالنبوة "وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ 196" أمثالي لعمارة هذه الأرض ويطهرها من الشرك ويحفظني ومن اتبعني من كيد الكائدين وينصرنا على من يناوئنا "وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" أنتم وأمثالكم أوثانا "لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ 197" كررت هذه الآية بالمعنى بزيادة بعض الكلمات زيادة في التقريع والتوبيخ ، وفيها بيان أن الفرق بين من من تجوز عبادته وهو اللّه ، ومن لا تجوز وهي أوثانكم المشار إليها بقوله "وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى" لما به نفعكم واجتناب ضركم في الدنيا والآخرة "لا يَسْمَعُوا" دعاءكم لأنها جماد أو حيوان "وَتَرَاهُمْ" يا سيد الرسل "يَنْظُرُونَ

إِلَيْكَ" أي يخيل إليك يا حبيبي أن الأصنام تبصر من ينظرها بعيونها المصنوعة من الجواهر المتلألئة "وَهُمْ لاَيُبْصِرُونَ 198 " لأن قوة النظر لا تكون بشيء مما يصوغونه من مكوناتنا ، وإنما هي من قدرة الإله الخالق الذي أعجز جميع خلقه عن معرفة المادة الموجودة في الأعين ولا يزالون عاجزين إلى أن يشاء اللّه .

هذا ما يقتضيه سياق الآية بالنسبة لما قبلها ، ونقل عن الحسن أن الخطاب في (وإن تدعوهم) إلى المؤمنين وضمير المفعول للمشركين ، على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى (يَنْصُرُونَ) خاتمة الآية قبلها وعليه يكون المعنى : وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الإسلام لا يلتفتوا إليكم ولا يقبلوا منكم .

وعليه يحسن تفسير السماع بالقول ، وجعل وتراهم خطابا لسيد المخاطبين بطريق التجريد ، ويكون في الكلام تنبيه على أن ما فيه عليه الصلاة والسلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد ، وهو وجيه أيضا .

مطلب : في مكارم الأخلاق التي يأمر بها اللّه رسوله :

قال تعالى "خُذِ الْعَفْوَ" الميسور من أخلاق الناس مما يسهل عليهم ولا تستقص عليهم فينفروا منك ، وهذا كقوله صلّى اللّه عليه وسلم : يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ، أي لا تكلفهم بما يشق عليهم واقبل منهم ما تيسر وعليه قوله :

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في ثورتي حين أغضب

يريد سكوتها عند ثورة غضبه ، وفي رواية : في صورتي أي لا تقابليني بما أتكلم عليك .

ويجوز أن يكون المراد اعف عن المذنبين من أصحابك ، وعاملهم بالعفو ، وهو أولى لموافقة الظاهر وما يوافق الظاهر أظهر .

روى البخاري عن عبد اللّه بن الزبير قال : ما نزلت هذه الآية إلا في أخلاق الناس ، ومعنى العفو لغة الفاضل الزائد على قدر الحاجة من المال ، ولذلك قال ابن عباس : معناها هنا خذ ما عفا من أموال الناس مما آتوك به لا تكلفهم غيره .

(209/261)

وهذا قبل نزول آية الصدقات عدد 266 من سورة البقرة في ج 3 ، وأخرج أبو الشيخ عن الجوهري أنه قال : لما نزلت هذه الآية كان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه ويتصدق بالفاضل ، إلى أن نزلت آية الزكاة "وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ" المستحسن من الأفعال والأقوال فإنه أقرب إلى قول الناس ، لأن الأمر بالجميل من الأقوال والأفعال وكل ما يرتضيه العقل والشرع من الخصال إذا كان بالمعروف يتلقى بالقبول ، وجاء في باب التأويل : وأمر بكل ما يأمرك اللّه به وعرفته من الوحي وهو كما ترى "وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ 199"

بمقالك وكتابك وربك ، ولا تكافئهم على سفههم ولا تمارهم على جدالهم ، وعاملهم بالحكمة وأغض عما يسوءك منهم وعن مساوئهم ، وقابلهم بأخلاقك لا بأخلاقهم ، فإنه أجدر بمقامك وأوقع بمكانتك وأليق بمخاطبتك ودم على هذا حتى يأتي الوقت الذي ستؤمر فيه بقسرهم ، وهذه الآية أجمع آية في القرآن العظيم لمكارم الأخلاق ، ففي أخذه بالعفو صلة من قطيعة والصفح عن من ظلمه ، وفي الأمر بالمعروف تقوى اللّه وغض البصر عن المحارم وصون اللسان عن الكذب ، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن السفهاء ومنازعة اللجوجين ، ولا شيء منها إلا وهو داخل في هذه الآية الكريمة من جوامع الكلم ، هذا وان ما قاله السدي بأن هذه الآية منسوخة بآية القتال لا وجه له ، ولا توجد ضرورة داعية إلى دعوى النسخ لأنها عبارة عن تحري حسن المعاملة والمعاشرة مع الناس وتوخي تبدل الجهد وإفراغ الوسع في الإحسان إليهم والمداراة لهم فيما لا يضر بالدين ويجلب إلى المودة وتحسين العلائق معهم .

مطلب في النسخ والنزغ ومعناه .

(210/261)

وأساس هذا كله المحبة للحق ، ومن دواعي المحبة وملاكها هذه المعاملة المبيّنة أعلاه والمعاشرة التي هي أساس كل خير وخلاصته ، وإذا علم أن للقرآن العظيم مادة عامة ومادة خاصة وان استعمال كل في موقعه من الحكمة التي ينبغي أن يتحلى بها كل حكيم محاكم لأمره ناظر عاقبته أيقن أن لا نسخ في هذه الآية وأشباهها مما أشرنا إليه قبلا سنشير به بعد ، وقد علم كل أناس مشربهم ولكل وجهة ، فالسعيد من لا يتعدى بوجهته ظاهر كلام اللّه ما وجد له محملّا خشية أن يقع بما لا يرضيه ، وفقنا اللّه لرضاه .

هذا .

وما أحسن وقع هذه الآية الجليلة بعد تعداد أباطيل المشركين وقبائحهم بما لا يطاق حمله : قال ابن زيد لما نزلت هذه الآية قال صلّى اللّه عليه وسلم : كيف بالغضب يا رب ؟ فأنزل اللّه جل انزاله "وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ" أي نخس بوسوسة يروم إبقاءها في قلبك الشريف على خلاف ما أمرت به في هذه الآية وما قبلها مما أنزل عليك من الوحي فلا تمل إليه ولا تركن لما ينخسك به ولا

تطعه بوساوسه في كل ما هو مخالف لشرعك وأخلاقك التي أمرت بها ، وإذا ضاق صدرك مما ينزغه ولم تقدر على دفعه "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ" بالالتجاء إليه "إِنَّهُ سَمِيعٌ" لإجابة استعاذاتك به سريع لقبولها بأن يعصمك من نزغه وينزعه من قلبك فلا يترك فيه شيئا منها لما فيه من الخطر على مقام النبوة الذي تكلف اللّه بعصمته فلا يثبت فيه شيء لا يرضاه لك ، ومعنى النزغ لغة شك الجلد بالابرة أو بطرق العصاة وكذلك النخس والنسغ وقد يكون بمعنى الإفساد وهو بالنسبة لحضرة الرسول باعتباره المجازي عبارة عن اعتراء الغضب ليس إلا "عَلِيمٌ 200" بك وبما ينالك من جميع خلقه ليسمع تضرعك إليه ويعلم ما تريده منه قبل استعاذتك به ، روى مسلم عن ابن مسعود قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا وإياك يا رسول اللّه ، قال وإياي إلا ان اللّه أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير (قال الشيخ محيي الدين النووي يروى فأسلم بفتح الميم أي صار مؤمنا لا يأمر إلا بخير ، وبفتحها أي أسلم من فتنته وشره ، واختاره الخطابي ، ورجح القاضي عياض الأول وقال : الأمة مجمعة على عصمة الأنبياء من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه ، وهذا الحديث يشير إلى التحذير من فتنته ووسوسته واغوائه وهذا الخطاب قد يراد به غير الرسول لأنه صلّى اللّه عليه وسلم معصوم من النزغ وهو جار على حد قوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الآية 65 من الزمر في ج 2 لأنه معصوم من الشرك قطعا وعليه يكون المراد بالآية جنس الإنسان ومثله فيما نحن في

تفسيرها أي مطلق إنسان ونظير هذه الآية 36 من سورة فصلت في ج 2 فإنهما مطلقتان بطلب الاستعاذة في جميع الأحوال أما آية النحل عدد 99 في ج 2 فهي خاصة بالقراءة والمراد فيها مطلق قارئ لا مطلق إنسان كما هنا ، تدبر ، إذ يخاطب صلّى اللّه عليه وسلم بشيء ويراد

(212/261)

به غيره وهو جار بين العرب حتى ضرب به المثل وهو "إياك اعني واسمعي يا جارة"

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا" ربهم ورسخت التقوى بقلوبهم واتصفوا بها "إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ" لمّة ألمت به "مِنَ الشَّيْطانِ" لأن الطائف ما يطوف بالإنسان ويلم به وقرىء "طيف" وهو مثله بالمعنى ويفيد الوسوسة أو تسمى طيفا أو طائفا

إيذانا بأنها لا تؤثر بالأنبياء البتة ، فكأنها تطوف حولهم فلا تمسهم ولا تؤثر فيهم بل لا تصل إليهم ولهذا عبر بالنزغ بحقهم لأنه أول الوسوسة ، وبالمس بحق المتقين لأنه لا يكون إلا بعد التمكن من النزغ فيهم ، فيعقبه المس ، ولهذا جاءت هذه الآية تأكيدا وتقريرا لوجوب الاستعاذة المارة عند حدوث الوسوسة لئلا يتخطى الأمر إلى المس ، وإنباء بأن عادة المتقين إذا اعتراهم المس وأحسوا به ركنوا إلى ذكر اللّه استنادا لقوله "تَذَكَّرُوا" أوامره

ونواهيه فيما طرأ عليهم منه فيلجأون إلى اللّه من مكايد الشيطان ومكره "فَإِذا هُمْ" بسبب الذكرى التي أمروا بها عند وقوع غفلة أدت إلى الوسوسة أو اعراض سبب المس "مُبْصِرُونَ 201" مواقع خطاهم فيعدلون عنها إلى السداد ويدفعون خطراته بعد أن يزنوها بميزان الشرع ويعرضوها على أصوله وقواعده ويستغفروا ربهم منها إذا ظهر لهم مخالفتها فيغفرها لهم .

وقد بينا الحكم الشرعي في الاستعاذة في المقدمة فراجعها تعلم سنيتها في سائر الأحوال .

هذا ، ولما ذكر اللّه تعالى حال الأنبياء والمتقين شرع في بيان حال من يقبل نزعات الشيطان ويؤثر فيهم مسه فقال عز قوله "وَإِخْوانُهُمْ" الجاهلين المبعدين من طرق التقوى وهم الشياطين قرناء الفسقة من البشر "يَمُدُّونَهُمْ" يكونون لهم مددا وعدونا "فِي الغَيِّ" وطرقه فيزيدونهم على غيهم غيا قصد ضلالهم وإضلالهم .

(213/261)

وقرأ الجحدري يمادّونهم من باب المفاعلة ، أي كأن الشيطان يعاضدهم بالإغراء وتهوين المعاصي بأعينهم على إغواء البشر أيضا فهم يعينون الشياطين بالاتباع والامتثال "ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ 202" لا يمسكون عن إغوائهم ولا يكفون عن مسهم فيصروا على تلك

الوساوس ولا يرجعوا عنها إن استطاعوا ، حتى إذا تمكنوا منها عمدوا إلى المس فيتدرجوا فيه إلى أن يوقعوه في الغيّ والإغواء فيصير من صنفهم وقد علمت أن ضمير الجمع المضاف إليه أولا في إخوانهم والمفعول ثانيا في يمدونهم يعودان إلى الجاهلين ، وضمير الفاعل في يقصرون يعود إلى الشياطين إخوان الجاهلين ، فالخبر جاء على غير ما هو له على حد قوله : أقوم إذا الخيل جالوا في كويتها . . .

قال تعالى "وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ" معجزة باهرة ظاهرة "قالُوا" لك المشركون

(214/261)

يا سيد الرسل "لَوْلا اجْتَبَيْتَها" اختلقتها وأنشأتها كما أتيت بغيرها استهزاء وسخرية بك "قُلْ" يا حبيبي أنا لا أفتري شيئا من عندي ، ولا أقدر على إجابة طلبكم إظهار آية ما "إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ" وأتلقاه "مِنْ رَبِّي" دون اقتراح عليه بإنزال الآيات ، إذ ليس لي ذلك أبدا ، وإذا كنتم تقنعون بالآيات وتؤمنون بها فدونكم "هذا" القرآن الذي أنزله علي وبلغتكم إياه فهو أعظم آية وأكبر معجزة وهو "بَصائِرُ" دلائل وحجج وبراهين قاطعة "مِنْ رَبِّكُمْ" تبصركم بصدقي وتنير لكم طرق الحق وتريكم الهدى والرشد لأنها نفسها "هُدىً" لمن أراد الاهتداء لسلوك العناية الإلهية "وَرَحْمَةٌ" من الرحيم ونعمة من المنعم لعباده ومنّة من

المنّان "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 203" به ويتبعون رسله ، أما الكافرون فهو لهم ضلال في الدنيا وعذاب في الآخرة لأن هذا القرآن نور لأناس ظلمة لآخرين بآن واحد ، إذ يسمعه اثنان فيكون لأحدهما نور وللآخر همى كما سيأتي في تفسير الآية 44 من فصلت في ج 2 والآيه 11 من الأحقاف أيضا فراجعهما .

مطلب الناس على ثلاث مراتب :

ومن هنا يعلم أن الناس على ثلاث مراتب : فالذين بلغوا غاية علم التوحيد حتى صار لهم كالمشاهد هم أصحاب عين اليقين فهم السابقون المقربون ، فالقرآن في حق هؤلاء بصائر ، والذين بلغوا درجة الاستدلال والنظر هم أصحاب علم اليقين فهم أصحاب اليمين ، فالقرآن في حقهم هدّى ، والذين ليسوا من الطريقين وهم عامة المسلمين فهم أصحاب اليقين وهم المقلدون لأهل العلم الماشون على طريقهم ، فالقرآن في حقهم رحمة والذين دون هؤلاء إذا ماتوا على الإيمان فهم ناجون لأن من زحزح عن النار فقد فاز ، وإلا فالعياذ بالله هم الخاسرون في الدنيا والآخرة مع إخوانهم الكافرين إخوان الشياطين .

(215/261)

وهكذا كما يتفاوت الناس في العلم والعمل والمكانة في الدنيا يتفاوتون في الآخرة بالمنازل والدرجات في الجنة ، وكما أن الجنة درجات فكذلك النار دركات ، وقد ألمعنا لما يتعلق في هذا البحث في سورة التكاثر المارة .

مطلب وجوب الاستماع والسكوت عند القراءة :

قال تعالى "وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ" أيها الناس بتفكر وتدبر وأصفوا له بكليتكم لتفهموا معانيه وتعوا مواعظه "وَأَنْصِتُوا" عند قراءته ليقر في قلوبكم وتلهموا مبانيه لأن الكلام عند سماعه لا يجوز إذ يضيع المغزى المراد منه لذلك أمركم ربكم بالسكوت ، وهذان أمران ظاهرهما الوجوب ، فيكون الاستماع والسكوت واجبين عليكم أيها المؤمنون عند قراءة القرآن بدليل هذه الآية ، وكلمة أنصتوا لم تكرر إلا في الآية 29 من سورة الأحقاف ج 2 ، قال الحسن وأهل الظاهر (إذا قرىء القرآن في أي وقت وموضع يجب على كل واحد الاستماع والسكوت لعموم الأمر ، ولذلك قال عروة ابن الزبير والقاسم بن محمد إن المأموم يقرأ إذا أسرّ الإمام ولا يقرأ إذا جهر وهو رواية عن ابن عمرو ، هذا بالنسبة للتفسير أحسن من رواية من رأى وجوبها في حالتي الإسرار والجهر إذ قال به الأوزاعي وذهب إليه الشافعي رضي اللّه عنه وهو مروي عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ ، وحجتهم أن الآية نزلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ولم يفرق بين السرية والجهرية ، ويستدلون بالأخبار الواردة بقراءة الفاتحة ، وأحسن من روايته من رأى عدم

القراءة في الحالتين وهو مروي عن جابر وإليه ذهب أصحاب الرأي ، وقال الحسن وأبو حنيفة رحمهما اللّه وحجتهم ظاهر هذه الآية لأنه لا يعدل عن الظاهر إلّا بمسوغ أقوى ولا يوجد ، وإن القول الأول هو الحالة الوسطى وخير الأمور أوساطها ، لأن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن ، ودلّت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام ، فحملنا

(216/261)

مدلول الآية على صلاة الجهر ومدلول السنة على صلاة السرّ جمعا بين دلائل الكتاب والسنة ، وإذا أنعم النظر وأمعن الفكر وجد هذا القول أحسن الأقوال ، فاتبعوه "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ 204" باقتضاء ما أمرتم به وابتعاد ما نهيتم عنه ، وإن وجوب الاستماع هو سبب نزول هذه الآية لمناسبة السباق وموافقة السياق ، وقيل نزلت في تحريم الكلام في الصلاة إذ كانوا يتكلمون فيها فمنعوا ، وقيل إنها نزلت في ترك الجهر خلف الإمام إذ كانوا

(217/261)

يجهرون خلفه : ، وهذه روايات وأقاويل بعيدة عن الثبوت ولا شيء يؤيدها ، لأن الصلاة لم تفرض بعد على القول بأن الإسراء وقع في السنة العاشرة من البعثة عند نزول أول سورة الإسراء الآتيه وهو الصحيح ، أما على القول بأن الإسراء كان في السنه الخامسة أو السادسة عند نزول سورة والنجم المارة المنوه بها في بحث الإسراء صراحة فسديد ، ولكن يا للأسف لم نجد ما يؤيده حتى الآن ، وقد ذكرنا ما يتعلق في هذا البحث آخر سورة والنجم فراجعه ، واعلم أن الآية عامة مطلقة في القراءة دون الصلاة مما يطلب الاستماع إليها والإنصات لها ، أما ما روي عن ابن مسعود أنه سمع أناسا يقرأون مع الإمام فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفقهوا (وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) إلخ كما أمركم اللّه فهو لا يؤيد سبب النزول ولا دليل فيه عليه وإنما ينصرف على لزوم الإنصات عند قراءة الإمام وهو واجب بلا شك ، وإذا كان الإنصات دون الصلاة واجب ففيها من باب أولى ، وان ابن مسعود قال هذا القول في حادثة أناس يقرأون مع الإمام في المدينة لا في سبب النزول الكائن في مكة : لأنه لا يعرف تاريخ قوله هذا ليستدل به على النزول فإن في مكة فهو غير صحيح وإن في المدينة لا دليل له عليه ، وأضعف من هذه الأقوال القول بأنها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة ، لأن هذه الآية مكية قطعا وإنما وجبت الجمعة في المدينة ، تأمل هذا واعرف مزية هذا التفسير الذي جاء على ترتيب نزول القرآن وعرفك المقدم والمؤخر ، وإلا لغرقت في أقوال ينسيك آخرها أولها ولا رتبكت واحتججت بروايات تضارب

إحداها الأخرى فتفحم من غير غلب وتحقر من غير ذنب فتسكت للواقع وأنت محق في المواقع ، فاحمد اللّه .

مطلب في الذكر السري وحالة الخوف والرجاء :

(218/261)

"وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ" سرا لا تسمع به غيرك ، وهذا خطاب لخاصة الرسول وعامة المؤمنين ، لأن انتفاع الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع على هذه الصفة لقربها من الإخلاص وبعدها من الرياء ، لا سيما إذا كان الذاكر استحضر في قلبه عظمة المذكور لما فيه من الإشعار بقرب العبد من ربه عز وجل .

وفي هذه الآية إيذان بمقام الرجاء لأن لفظ الرب يشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فإذا تذكر العبد إنعام ربه عليه وإحسانه إليه يقوى مقام رجائه ، وإذا كان الذكر باللسان فقط عاريا عن حضور القلب كان عديم الفائدة التي هي استشعار عظمة المذكور واستحضاره وتخيلك بين يديه وتصورك بلا كيف وجود عظيم الوجود أمامك وجلاله وكبريائه فوقك .

وبعد أن بين اللّه تعالى مقام الرجاء في صدر هذه الآية أعقبه بالإشارة إلى مقام الخوف فقال

وإذا ذكرت ربك فاذكره "تَضَرُّعاً" إليه بإظهار الذل والخضوع وإبداء الاستكانة إلى المذكور "وَخِيفَةً" من هيبته لأنك في حال مخاطبته في حضرته ، ومن عرف عظم المقام وجب أن يكون في حالة خوف ورهبة وخشية لا محالة ، وإذا حصل هذا في قلب الذاكر وكان بين الخوف والرجاء ، قوي إيمانه وتنور قلبه وثبت جنانه فتفجرت منه الحكمة ، فعلى العاقل أن لا يفارق حالة الخوف والرجاء في الشدة والرخاء وأن يصاحبهما في جميع حالاته لا في حالة الذكر فقط ، إلا أنه يستحب له أن يغلب حالة الخوف على الرجاء في حالة الصحة والرفاء ، وحالة الرجاء على الخوف في حالة المرض والاحتياج ، لأن مقام الموت والحاجة مقام رجاء ومقام الصحة والرفاه مقام خوف فى الغالب لأنه لا يدري ما يحل به ويفجأ به .

(219/261)

قال أنس رضي اللّه عنه : دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك ؟ قال : أرجو اللّه يا رسول اللّه وأخاف ذنوبي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : لا يجتمعان (الخوف والرجاء) في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللّه ما يرجو منه وآمنه مما يخاف – أخرجه الترمذي – .

ومن هذه الآية الكريمة أخذ السادة الصوفية بارك اللّه فيهم الذكر السري وجعلوه من أورادهم وهو دليل واضح لهم لا يحتاج إلى تعليل مؤيد لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : خير الذكر الخفي وخير المال ما يكفي - أخرجه أحمد - فمن تقول بعد هذا النص القاطع بأن الذكر الخفي لا أجر فيه لذاكره فقد أخطأ وهو لا أجر له على اجتهاده هذا بل يأثم ، واللّه أعلم إذ لا اجتهاد في مورد النص وإنما يجتهد في المشكلات والمتشابهات مما لا نص قطعي فيها ففي مثلها إذا أخطأ يكون له أجر وإذا أصاب أجران ت (31)

لأن اجتهاده فيما لا نص فيه غاية وسعه ونهاية جهده في بذل فكرته وقدح فطنته أما الأمور الظاهرة كهذه فلا محل للاجتهاد فيها .

(220/261)

هذا ، وقد جاء النص هنا بلفظ الأمر الدال على الوجوب ولا صارف له عن حقيقته فالمعترض عليه غير مصيب ، تنبه ، ثم بين جل شأنه حالة ثانية لذكره جل ذكره فقال "وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ" أي مقتصدا ، أرفع من الذكر الخفي وأدنى من الجهري لما فيه من رعاية الأدب مع المذكور ، لان ارتفاع الصوت بحضرته غير جائز لما فيه من سوء الأدب ، وهذه الحالة مطلوبة في الصلاة أيضا ، قال تعالى : (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها) الآية

110 من سورة الإسراء الآتية ومطلوبة في الدعاء أيضا قال صلّى اللّه عليه وسلم لأناس يرفعون أصواتهم بالدعاء (إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا) ومرغوبة في كل حال قال تعالى (لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ) الآية الثانية هن سورة الحجرات في ج 3 ، هذا ومن كمال فقه الرجل لزومه هذه الحالة في هذه الأحوال وغيرها ، ومن تأدبه مراعاتها في مخاطبة الناس ولا سيما للعلماء العاملين لأنهم ورثة الأنبياء والمشايخ الكاملين لاقتفائهم آثارهم .

(221/261)

ثم بين جل شأنه أحسن الأوقات لذكره بقوله "بِالْغُدُوِّ" أول النهار بكرة "وَالْآصالِ" آخره عشيا والغدوة من طلوع الفجر أو طلوع الشمس وتمامها من طلوع الشمس إلى الضحوة والآصال جمع أصيل ما بين العصر والمغرب ، فإذا قام الإنسان بذكر ربه في هذين الوقتين ختم نهاره بخير كما بدأه بخير وإذا سلمت الغاية والمغيا فاللّه أكرم بالعفو عما يقع بينهما ، وإنما خص هذين الوقتين لأن الإنسان يقوم صباحا من نومه الذي هو أخو الموت ليتداول عمله نهارا فينبغي له أن يذكر اللّه فيه شكرا على نعمة نومه وافاقته وأنه لم يتوفاه فيه قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا

الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) الآية 42 من سورة الزمر في ج 2 ، وكذلك ينبغي له أن نذكره بعد المساء بعد فراغ أشغاله وخاصة عند النوم ليختم يومه بخير شكرا على نعمة إبقائه وراحته من أعماله ، لأنه قد لا يقوم من نومه فيموت على ذكر اللّه ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : من كان آخر كلامه

(222/261)

لا إله إلا اللّه دخل الجنة ، ففيه بشارة عظيمة للذاكر فإذا فعل هذا بات مطمئنا قرير العين فمن تلبس بهاتين الحالتين وداوم عليهما كان ناجيا ومن تركهما يخشى عليه الهلاك لذلك ختم اللّه تعالى هذه الآية المشتملة عليهما بقوله عظم قوله "وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ 205" عن الذكر في هذين الوقتين المقربين إلى اللّه فتعتريك الغفلة عن ذكره فتكون بعيدا عنه ، والبعد عنه والعياذ باللّه هلاك ما بعده هلاك لأن مقام الغفلة خطر عظيم ، إذ ربما أن كان الأجل الذي أخبرنا اللّه بإتيانه على بغتة ، فإياك أيها العبد أن تغفل عن ذكر ربك الذي سواك فعدلك ولم يجعلك كالبهائم الغافلة عما يراد بها ، ودوام على ذكره في كل الأوقات والأحوال وان فاتك الذكر لأمر ما في هذين الوقتين فاقضه في غيرهما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً) الآية 62 من سورة الفرقان الآتية .

ترشد هذه الآية إلى أن من فاته الذكر النهار قضاه ليلا ومن قامه ليلا قضاه نهارا لأن الليل يخلف النهار وبالعكس ، وانظر إلى مدح اللّه عباده الذاكرين في قوله (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ) الآية 191 من آل عمران في ج 3 وفي قوله (تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً) الآية 16 من سورة السجدة في ج 2 ، فمن فعل هذا كان قريبا من اللّه وحصل على ملاك الخير في

(223/261)

الدنيا والآخرة ودخل في جملة من مدحهم اللّه وهنيئا لمن كان في عدادهم ثم أخبر اللّه عباده أهل السماء ليقتدوا بهم فقال "إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ" من الملائكة المقربين مكانة ومنزلة لأقرب مكان ومنزل ، فهم مع علو مراتبهم ورفعة شأنهم وقربهم من ربهم بالزلفى والرقى "لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ" ولا يلتفتون لغيره بل يتذللون لعظمته ويخضعون لهيبته ، فيؤدون العبادة له حسبما أمروا بها أمام كبريائه لأنهم عبيد طائعون منقادون لسلطانه وقد قال في وصفهم لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (الآية 7 من سورة التحريم ج 3) طوعا واختيارا وحبا بقربهم منه طلبا لمرضاته وليتصف عباده أهل الأرض بصفة عباده أهل السماء "وَيُسَبِّحُونَهُ"

ينزهونه عما لا يليق بجنابه ويقدسونه ويمجدونه بما هو أهله "وَلَهُ يَسْجُدُونَ 206"

خضوعا وخشوعا لجلاله ويفوزون بهذه الصفات المحمودة المرضية .

مطلب ما قاله بعض الأكابر في هذه الآية :

قال بعض الأكابر إن قوله واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية إشارة إلى أعلى المراتب وهي صفة الواصلين المشاهدين ، وقوله سبحانه (ودون الجهر) رمز إلى المرتبة الوسطى وهي نصيب السائرين إلى مقام المشاهدة وقوله جل قوله (وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ) ايماء إلى مرتبة النازلين من السالكين وقال مشيرا إلى كلمة (خيفة) :

أشتاقه فإذا بدا اطرقت من إجلاله

لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

(224/261)

وقوله عز قوله : (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) هم المقربون من الملائكة والمفنون أنفسهم به من البشر الباقون به سبحانه وهم أرباب الاستقامة أهل المقام العظيم (لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ) لعدم احتجابهم بالأنانية وانمحاقهم بالكيفية والكمية (ويسبحونه) بنفيها (وله يسجدون) بالفناء التام وطمس البقية الباقية من مهجهم ، وهذه السجدة من عزائم السجود واجبة

على القارئ والمستمع كما نوهنا به آخر سورة والنجم المارة وقد بينا فيها وفي سورة العلق كيفية السجود وما يقرأ فيه بصورة مفصلة .

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه ابن عمر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان يقرأ القرآن فقرأ سورة فيها سجدة فسجد وسجدنا معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت الصلاة .

وروى مسلم عن ابي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله أمر ابن آدم في السجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار .

ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بهذه اللفظة ، هذا ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 227.484 ﴾

(225/261)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/262)

الجزء الثانى والستون بعد المائتين

فصل فى الوقف والابتداء

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأعراف

مكية إلا قوله واسألهم عن القرية أو الخمس آيات فمدني

المص تقدم عليه في سورة البقرة كتاب انزل اليك صالح حرج منه كاف لتذر به صالح إن جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف وان جعل معطوفا على قوله لتنذر فليس بوقف للمؤمنين تام من ربكم جائز أولياء كاف تذكرون حسن وقال أبو عمرو فيهما تام قائلون كاف وكذا ظالمين والمرسلين بعلم صالح غائبين حسن وكذا الحق المفلحون كاف يظلمون تام معايش كاف تشكرون تام لآدم كاف من الساجدين تام إذ أمرتك كاف من طين صالح الصاغرين كاف وكذا يبعثون ومن المنظرين المستقيم صالح وعن شمائلهم شاكرين حسن وكذا مدحورا أجمعين تام من حيث شئتما مفهوم من الظالمين كاف من سواتهما صالح من الخالدين كاف لمن الناصحين صالح بغرور كاف وكذا من ورق الجنة عدوّ مبين حسن ظلمنا أنفسنا صالح من الخاسرين تام اهبطوا حسن وقال أبو عمرو كاف عدوّ كاف إلى

حين حسن تخرجون تام وريشا حسن على قراءة ولباس التقوى بالرفع مبتدأ وليس بوقف على ذلك بالنصب عطفا على لباسا ذلك خير حسن يذكرون تام سوآتهما كاف لا ترونهم تام لا يؤمنون كاف أمرنا بها حسن بالفحشاء كاف ما لا تعلمون تام بالقسط كاف كل مسجد صالح تعودون حسن وكذا الضلالة من دون الله جائز مهتدون تام واشربوا كاف وكذا ولا تسرفوا المسرفين تام من الرزق كاف في الحياة الدنيا كاف عند بعضهم على قراءة رفع خاصة وليس بوقف على قراءة نصبها يوم القيامة حسن وقال أبو عمرو لقوم يعملون كاف وقال أبو عمرو تام أجل صالح ولا يستقدمون تام عليهم جائز يحزنون تام النار مفهوم خالدون حسن بآياته كاف وكذا من الكتاب من دون الله صالح كافرين تام في النار كاف لعنت أختها صالح من النار كاف لا تعلمون حسن من فضل كاف تكسبون تام سم الخياط كاف المجرمين حسن غواش صالح الظالمين تام وكذا خالدون ويجوز الوقف على وسعها إن جعل خبر المبتدأ وان الوقف على أصحاب الجنة كان مفهوما من تحتهم الأنهار كاف هدانا لهذا كاف على قراءة ما بعده بالواو وحسن على قراءة من قرأه بلا واو

(5/262)

بالحق حسن تعملون وقيل كاف وبينهما حجاب تام وقال أبو عمرو كاف بسيماهم حسن
وكذا أن سلام عليكم ويطمعون قال بعضهم وكذا لم يدخلوها مع القوم الظالمين تام وكذا
تستكبرون وبرحمة تحزنون تام مما رزقكم الله كاف على الكافرين تام إن جعل ما بعده مبتدأ
خبره فاليوم ننساهم وليس بوقف إن جعل ذلك نعتا للكافرين بل الوقف على الحياة الدنيا
وهو كاف يجحدون تام يؤمنون حسن وقال أبو عمرو تام إلا تأويله كاف كنا نعمل حسن
وقال أبو عمرو كاف أنفسهم جائز يفترون تام حثيثا حسن على قراءة ما بعده بالرفع على
الابتداء والخبر وليس بوقف على قراءته بالنصب عطفا على السموات بأمره حسن وكذا
ألا له الخلق والأمر العالمين تام وخفية كاف المعتدين تام وطعما كاف من المحسنين تام رحمته
صالح من كل الثمرات حسن تذكرون تام بأذن ربه حسن وقال أبو عمرو كاف إلا نكدا
كاف يشكرون تام غيره كاف عظيم ومبين العالمين حسن وكذا ما لا تعلمون وترحمون وقال
أبو عمرو في الثلاثة كاف في الفلك صالح بآياتنا كاف عمين تام هودا مفهوم غيره كاف تتقون
تام من الكاذبين كاف العالمين حسن وكذا ناصح أمين وقال أبو عمرو فيهما كاف لينذركم
كاف وكذا بسطة تفلحون حسن وقال أبو عمرو كاف آباؤنا صالح من الصادقين حسن
وكذا وغضب من سلطان كاف المنتظرين حسن برحمة منا صالح مؤمنين تام مفهوم غيره
كاف وكذا من ربكم ولكم آية وفي أرض الله أليم حسن وقال أبو عمرو كاف بيوتا كاف آلاء
الله صالح مفسدين تام مرسل من ربه كاف مؤمنون حسن وقال أبو عمرو كاف كافرون

كاف وكذا من المرسلين جاثمين حسن وقال أبو عمرو كاف الناصحين تام الفاحشة صالح وكذا من العالمين مسرفون تام من قريتكم جائز يتطهرون كاف وكذا من الغابرين مطرا جائز المجرمين تام شعبيا مفهوم غيره من ربكم مفهوم الميزان صالح أشياءهم جائز بعد إصلاحها كاف مؤمنين حسن وكذا مؤمنين حسن وكذا عوجا فكثركم كاف المفسدين حسن بيننا صالح الحاكمين تام ملتنا كاف وكذا

(6/262)

كارهين ونجانا الله منها ربنا حسن وكذا كل شيء علما وتوكلنا الفاتحين تام لخاسرون كاف جاثمين حسن كأن لم يغنوا فيها حسن إن جعل ما بعده مبتدأ خبره كانوا الخاسرين وصالح إن جعل ذلك بدلا من الذين كفروا الخاسرين كاف قوم كافرين تام يضرعون كاف حتى عفوا صالح لا يشعرون حسن وكذا يكسبون نائمون كاف وأفأمنوا

مكرر

(7/262)

الله القوم الخاسرين تام بذنوبهم صالح لا يسمعون تام من أنبائها حسن من قبل كاف الكافرين
حسن من عهد وكذا الفاسقين فظلموا بها صالح المفسدين تام رب العالمين حسن وكذا إلا
الحق بني اسرائيل كاف وكذا الصادقين مبين صالح للناظرين حسن من أرضكم كاف إن
جعل فماذا تأمرون من كلام فرعون وما قبله حكاية عن الملا وليس بوقف إن جعل ذلك
حكاية عن الملأ تأمرون كاف حاشرين رأس آية وليس بوقف لأن ما بعده من تمامي الحكاية
عن الملأ ساحر عليم حسن الغالبين كاف من المقرّبين حسن الملقين كاف بسحر عظيم تام
عصاك صالح يأفكون كاف وكذا يعملون وصاغرين ساجدين صالح رب موسى وهرون
تام قبل آذن لكم كاف أهلها صالح فسوف تعلمون كاف وكذا أجمعين ومنقلبون جاءتنا
حسن صبرا كاف مسلمين وآلهتك حسن قاهرون تام واصبروا حسن من عباده كاف
للمتقين حسن ما جئتنا كاف كيف تعملون تام تذكرون كاف لنا هذه صالح ومن معه تام
وكذا لا يعلمون بمؤمنين كاف وكذا مفصلات مجرمين حسن بني إسرائيل كاف وكذا ينكثون
غافلين حسن باركنا فيها كاف وكذا بما صبروا ويعرشون وعلى أصنام لهم آلهة صالح
تجهلون تام ما هم فيه جائز ما كانوا يعملون حسن وكذا على العالمين سوء العذاب كاف
وكذا نساءكم عظيم حسن أربعين ليلة كاف المفسدين تام انظر إليك كاف وكذا فسوف
تراني إلى الجبل مفهوم صعقا كاف أول المؤمنين تام وبكلامي صالح من الشاكرين كاف لكل
شيء صالح بأحسنها كاف الفاسقين حسن بغير الحق كاف لا يؤمنوا بها صالح وكذا لا

يتخذوه سبيلا يتخذوه سبيلا كاف غافلين تام أعمالهم حسن وكذا يعملون له خوار تام سبيلا حسن وكذا ظالمين ومن الخاسرين من بعدي كاف وكذا أمر ربكم ويجره إليه يقتلوني صالح الظالمين تام في رحمتك صالح الراحمين تام في الحياة الدنيا كاف المفترين تام وكذا رحيم الالواح كاف يرهبون حسن لميقاتنا صالح واياي حسن وكذا السفهاء منا تضل بها من تشاء صالح وتهدى من تشاء حسن الغافرين كاف إنا هدنا إليك

(8/262)

حسن وكذا من أشاء كل شيء كاف يؤمنون حسن إن نصب الذي بعده أو رفع على المدح وصالح إن رفع بدلا من الذين قبله وان كان فيه فصل بين البدل والمبدل منه لطول الكلام والإنجيل كاف كانت عليهم حسن وقال أبو عمرو كاف هم المفلحون تام وكذا والأرض يحيى ويميت كاف لعلكم تهتدون حسن يعدلون كاف وقال أبو عمرو تام أسباطا أمما حسن وقال أبو عمرو كاف الحجر كاف وكذا عشرة عينا ومشربهم والسلوى وما رزقناكم ويظلمون خطاياكم صالح وقال أبو عمرو كاف المحسنين حسن يظلمون كاف لا تأتيهم تام وقال أبو عمرو كاف وزعم بعضهم إن الوقف على كذلك تام يفسقون حسن عذابا شديدا كاف يتقون حسن ينهون عن السوء صالح يفسقون كاف وكذا خاسئين سوء العذاب

حسن وقال أبو عمرو كاف لسريع العقاب جائز رحيم حسن وقال أبو عمرو كاف أمما كاف وكذا دون ذلك ويرجعون سيغفر لنا صالح يأخذوه حسن إلا الحق كاف ودرسوا ما فيه حسن يتقون تام المصلحين كاف واقع بهم صالح تتقون تام قالوا بلى شهدنا منهم من قال الوقف على بلى فشهدنا من كلام الملائكة لما قال الله تعالى لذرية آدم حين مسح ظهره وأخرجهم منه ألست بربكم قالوا بلى فأقروا له بالعبودية فقال الله تعالى للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا وقيل الله تعالى والملائكة ومنهم من قال الوقف على شهدنا فشهدنا من كلام بني آدم والوقف على التقديرين كاف وقال ابن الانباري ليس شهدنا بوقف لتعلق أن بأشهدهم بتقدير كراهة أن تقولوا غافلين لا يوقف عليه ما بعده معطوف على ما قبله من بعدهم حسن وكذا المبطلون يرجعون تام الغاوين كاف واتبع هو صالح أو تتركه يلهث كاف وكذا كذبوا بآياتنا يتفكرون تام وكذا يظلمون والخاسرون فأن وقف على المهتدين فصالح من الجن والإنس كاف وكذا لا يسمعون بها وبل هم أضل هم الغافلون تام فادعوه بها حسن وكذا في أسمائه ويعملون وبه يعدلون تام لا يعلمون حسن وكذا وأملى لهم إن كيدي متين تام وكذا أولم يتفكروا من جنة حسن وقال أبو عمرو كاف

مبين تام قد اقترب أجلهم كاف يؤمنون تام فلا هادي له حسن على قراءة ويذرهم بالرفع
وليس بوقف على قراءة ذلك بالجزم عطفا على محله يعمهون تام مرساها صالح إلا هو
حسن وقال أبو عمرو كاف والأرض كاف إلا بغتة تام حفي عنها صالح لا يعملون تام ما
شاء الله حسن وكذا وما مسنى السوء وقيل تام وقال أبو عمرو
فيهما كاف يؤمنون تام ليسكن إليها كاف وكذا فرت به من الشاكرين حسن فيما آتاهما
كاف يشركون حسن وقال أبو عمرو في الأول تام وفي الثاني كاف صامتون تام إن كنتم
صادقين حسن وقال أبو عمرو تام فلا تنظرون تام الكتاب كاف الصالحين تام ينصرون
حسن لا يسمعوا صالح وقال أبو عمرو في الأول تام وفي الثاني كاف لا يبصرون تام الجاهلين
حسن فأستعذ بالله كاف عليم تام مبصرون صالح وقال أبو عمرو تام لا يقصرون كاف
وكذا لولا اجتبيتها من ربي حسن وقال أبو عمرو كاف يؤمنون تام ترحمون حسن وقال أبو
عمرو تام وقال أبو عمرو تام الغافلين تام وقال أبو عمرو كاف آخر السورة تام . ف يؤمنون تام
ليسكن إليها كاف وكذا فرت به من الشاكرين حسن فيما آتاهما كاف يشركون حسن وقال
أبو عمرو في الأول تام وفي الثاني كاف صامتون تام إن كنتم صادقين حسن وقال أبو عمرو
تام فلا تنظرون تام الكتاب كاف الصالحين تام ينصرون حسن لا يسمعوا صالح وقال أبو
عمرو في الأول تام وفي الثاني كاف لا يبصرون تام الجاهلين حسن فأستعذ بالله كاف عليم
تام مبصرون صالح وقال أبو عمرو تام لا يقصرون كاف وكذا لولا اجتبيتها من ربي حسن

وقال أبو عمرو كاف يؤمنون تام ترحمون حسن وقال أبو عمرو تام وقال أبو عمرو تام الغافلين تام وقال أبو عمرو كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ 292. 318 ﴾

(10/262)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني

سورة الأعراف

مكية إلاَّ قوله واسألهم عن القرية الثمان أو الخمس آيات إلى قوله وإذ نتقنا الجبل فمدني وهي مائتان وخمس آيات في البصري والشامي وست في المدني والمكي والكوفي اختلافهم في خمس آيات المص عدها الكوفي مخلصين له الدين عدها البصري والشامي كما بدأكم تعودون عدها الكوفي ضعفاً من النار عدها المدنيان والمكي الحسنى على بني إسرائيل الثالث عدها المدنيان وكلهم عد بني إسرائيل الأول والثاني ولم يعدوا الرابع ولا قوله من الجنّ والإنس وفيها ما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع أربعة مواضع فدلاهما بغرور ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين وخر موسى صعقاً عذاباً شديداً وكلمها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة وحروفها أربعة عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرة أحرف

(المص) تقدم أنَّ في الحروف التي في فواتح السور الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع من وجهين والنصب من وجه والجر من وجه فالرفع كونها مبتدأ والخبر فيما بعدها أو خبر مبتدأ محذوف والنصب كونها مفعولاً لفعل محذوف والجر على إضمار حرف القسم أو هي قسم فعلى أنَّها مبتدأ أو خبر مبتدأ أو مفعول فعل محذوف فالوقف عليها كاف وإن جعل كتاب خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب كان الوقف على المص تاماً وإن جعل في موضع جر على القسم والجواب محذوف جاز الوقف عليها وليس بوقف إن جعل قسماً وما بعده جوابه والتقدير وهذه الحروف إنَّ هذا الكتاب يا محمد هو ما وعدت به وحينئذ فلا يوقف على المص وهكذا يقال في جميع الحروف التي في أوائل السور على القول بأنها معربة وأنَّ لها محلاً من الإعراب

كتاب أنزل إليك (جائز) لأنَّ كتاب خبر مبتدأ محذوف وأنزل جملة في موضع رفع صفة لكتاب أي كتاب موصوف بالإنزال إليك

حرج منه (كاف) إن علقت لام كي بفعل مقدر أي أنزلناه إليك لتنذر به وليس بوقف إن علقت بأنزل

لتنذر به (حسن) إن جعل ما بعده مستأنفاً خبر مبتدأ محذوف أي وهو ذكرى للمؤمنين

وحذف مفعول لتنذر أي الكافرين وليس بوقف إن عطفت وذكري على كتاب لتعلق اللام

بأنزل أو عطفته على لتنذر أي وتذكرهم

وذكرى للمؤمنين (تام) إن جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وليس

بوقف إن جعل الخطاب للأمة وحدها لأَنَّه يكون الإنذار بمعنى القول أي لتقول يا محمد اتبعوا

ما أنزل إليكم من ربكم ومن حيث كونه رأس آية يجوز

من ربكم (جائز)

أولياء (كاف) وقال أبو حاتم تام

تذكرون (تام)

قائلون (كاف) وقيل تام

ظالمين (كاف) ومثله المرسلين قيل ليس بكاف لعطف فلنقصن على فلنسألن

بعلم (أكفى) منهما

غائبين (تام)

الحق (حسن) وقيل كاف للابتداء بالشرط

المفلحون (كاف)

يظلمون (تام)

معايش(كاف) وقيل تام ومعايش جمع معيشة فلا يهمز لأنَّ ياءه أصلية عين الكلمة غير زائدة ولا منقلبة وأما الهمز في بضائع ورسائل فمنقلب عن ألف وفي عجائز عن واو

تشكرون (تام)

ثم صورناكم (جائز) ومثله لآدم والوصل أوضح لعطف الماضي على فعل الأمر بفاء التعقيب

إلاَّ إبليس (جائز)

من الساجدين (كاف)

إذ أمرتك (حسن) لما فيه من الفصل بين السؤال والجواب وذلك أنَّ الفعل الذي بعده جواب إلاَّ أن الفاء حذفت منه وما استفهامية مبتدأ والجملة بعدها خبر ما أي أيّ شيء منعك من السجود أو أن لا تسجد أو ما الذي دعاك أن لا تسجد

أنا خير منه (جائز)

من طين (كاف) ومثله من الصاغرين و يبعثون و المنظرين

المستقيم(جائز)

وعن شمائلهم(كاف) عند العباس بن الفضل وقال غيره ليس بكاف لاتصال ما بعده به قاله النكزاوي

شاكرين (كاف)

مدحوراً (تام) عند نافع وأبي حاتم على أن اللام التي بعده لام الابتداء ومن موصولة

ولأملأنَّ جواب قسم محذوف بعد من تبعك لسد جواب القسم مسده وذلك القسم

المحذوف وجوابه في موضع خبر من الموصولة

أجمعين (كاف)

من حيث شئتما (جائز)

الظالمين (كاف)

من سوآتهما (جائز) وقيل كاف

(12/262)

الخالدين (كاف)

الناصحين (حسن) وقيل ليس بوقف للعطف

بغرور (أحسن) مما قبله

من ورق الجنة (كاف) لأنَّه آخر جواب لما

مبين (حسن)

أنفسنا (صالح) وقيل ليس بوقف لأنَّ ما بعده متصل به

من الخاسرين (كاف)

اهبطوا (حسن) وقال الأخفش تام إن جعل ما بعده مبتدأ خبره لبعض عدو وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع الحال من الضمير في اهبطوا أي اهبطوا متباغضين

عدو (كاف)

إلى حين (تام) ومثله تخرجون

وريشاً (كاف) على قراءة ولباس التقوى بالرفع خبر مبتدأ محذوف وبها قرأ حمزة وعاصم وابن كثير وأبو عمرو وليس بوقف على قراءته بالنصب عطفاً على لباساً أي أنزلنا لباساً وأنزلنا لباس التقوى وبها قرأ نافع وابن عامر والكسائي

ذلك خير (كاف) على القراءتين أي لباس التقوى خير من الثياب لأنَّ الفاجر وإن لبس الثياب الفاخرة فهو دنس وقيل لباس التقوى الحياء

من آيات الله ليس بوقف لأنَّ ما بعده حرف ترج وهو لا يبدأ به

يذكرون (تام)

من الجنة ليس بوقف لأنَّ ينزع حال من الضمير في أخرج أو من أبويكم لأنَّ الجملة فيها ضمير الشيطان وضمير الأبوين ونسبة النزع والإراءة إلى الشيطان لتسببه في ذلك

سوآتهما (كاف) وقال أبو حاتم تام للابتداء بعده بأنَّه وليس بوقف على قراءة عيسى بن عمران أنه بفتح الهمزة والتقدير لأنَّه

من حيث لا ترونهم (تام)

لا يؤمنون (كاف)

(13/262)

أمرنا بها (حسن) وجه حسنه إنَّه فاصل بين الاعتقادين إذ تقليد الكفار آباءهم ليس طريقاً لحصول العلم وقولهم والله أمرنا بها افتراء عليه تعالى إذ كل كائن مراد لله تعالى وإن لم يكن مرضياً له ولا آمراً به وما ليس بكائن ليس بمراد له تعالى إذ قد أمر العباد بما لم يشأه منهم كأمره بالإيمان من علم موته على الكفر كإبليس ووزيريه أبوي جهل ولهب إذ هم مكلفون بالإيمان نظراً للحالة الراهنة لقدرتهم ظاهراً وإن كان عاجزين عنه باطناً لعلم الله تعالى بأنهم لا يؤمنون إذ قد علم تعالى ممن يموت على الكفر عدم إيمانه فامتنع وجود الإيمان منه وإذا كان وجود الإيمان ممتنعاً فلا تتعلق الإرادة به لأنَّها تخصيص أحد الشيئين بالفعل أو الترك بالوقوع تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد

بالفحشاء (أحسن) مما قبله وقال نافع تام

ما لا تعلمون (كاف) وكذا بالقسط

كل مسجد (جائز) ومثله له الدين على أنَّ الكاف في محل نصب نعت لمصدر محذوف

تقديره تعودون عوداً مثل ما بدأكم وتام إن نصب فريقاً بهدى أو جعلت الجملتان مستأنفتين وليس بوقف إن نصبتا حالين من فاعلين تعودون أي تعودون فريقاً مهدياً وفريقاً حاقاً عليه الضلالة فنصب فريقاً الثاني بإضمار فعل يفسره ما بعده أي وأضلَّ فريقاً فهو من باب الاشتغال وروى عن محمد بن كعب القرظي أنَّه قال في هذه الآية يختم للمرء بما بديء به ألا ترى أنَّ السحرة كانوا كفاراً ثم ختم لهم بالسعادة وأنَّ إبليس كان مع الملائكة مؤمناً ثم عاد إلى ما بديء به فعلى هذه التأويلات لا يوقف على تعودون قاله النكزاوي

الضلالة (حسن)

من دون الله (جائز)

مهتدون (تام)

مسجد (جائز)

واشربوا (حسن)

ولا تسرفوا (أحسن) مما قبله

المسرفين (تام)

(14/262)

من الرزق (حسن) وكذا في الحياة الدنيا على قراءة نافع خالصة بالرفع استئنافاً خبر مبتدأ محذوف تقديره هي خالصة للمؤمنين يوم القيامة أو الرفع خبر بعد خبر والخبر الأول هو للذين منوا والتقدير قل الطيبات مستقرة للذين آمنوا في الحياة الدنيا وهي خالصة لهم يوم القيامة وإن كانوا في الدنيا تشاركهم الكفار فيها وليس بوقف على قراءة باقي السبعة بالنصب على الحال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً لهي والتقدير قل هي مستقرة للذين آمنوا في حال خلوصها لهم يوم القيامة

ويوم القيامة (حسن)

يعلمون (كاف) ولا وقف من قوله قل إنَّما حرم ربي إلا ما لا تعلمون فلا يوقف على بطن ولا على بغير الحق ولا على سلطاناً لاتساق الكلام بعضه ببعض لأنَّ العطف يصير الأشياء كالشيء الواحد

ما لا تعلمون (تام)

أجل (جائز)

أجلهم ليس بوقف لأنَّ جواب إذا لم يأت بعد

ولا يستقدمون (تام) لانتهاء الشرط بجوابه آياتي ليس بوقف لأنَّ الفاء في جواب إن الشرطية في قوله إما يأتينكم

عليهم (جائز)

يحزنون (تام)

أصحاب النار (جائز)

خالدون (تام)

بآياته (حسن) وكاف عند أبي حاتم

من الكتاب (حسن) وتام عند نافع

يتوفونهم ليس بوقف لأنَّ قالوا جواب إذا

من دون الله (حسن)

عنا (جائز)

كافرين (تام)

في النار (كاف)

لعنت أختها (حسن)

جميعاً ليس بوقف لأنَّ قالت جواب إذا فلا يفصل بينهما بالوقف

ضعفاً من النار (حسن)

لا تعلمون (كاف)

من فضل (حسن)

تكسبون (تام) ولا وقف إلى قوله في سم الخياط فلا يوقف على عنها ولا على أبواب

السماء

في سم الخياط (حسن)

نجزي المجرمين (كاف)

غواش (حسن)

الظالمين(تام)

إلاَّ وسعها (جائز) إن جعلت جملة لا نكلف حبر والذين آمنوا وليس بوقف إن جعلت جملة أولئك الخبر وتكون جملة لا تكلف اعتراضاً بين المبتدأ والخبر وفائدة الاعتراض تنبيه الكفار على أنَّ الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل اليسير من غير مشقة

أصحاب الجنة (جائز)

خالدون (كاف)

(15/262)

من غل (جائز) على استئناف ما بعده قيل إنَّ أهل الجنة إذا سيقوا إليها وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فيشربون من واحدة منهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور ويشربون من الأخرى فتجري عليهم نضرة النعيم فلن يسغبوا ولن يشحنوا

بعدها أبداً اهـ كواشي

الأنهار (حسن) وقيل كاف

لهذا (كاف) على قراءة من قرأ ما بعده بالواو حسن على قراءة من قرأه بلا واو وجواب لولا الجملة قبلها وهو وما كنا لنهتدي أي من ذوات أنفسنا لولا أن هدانا الله فإنَّ وما حيزها في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف وجواب لولا مدلول عليه بقوله وما كنا لنهتدي وقرأ الجماعة وما كنا بواو وهو كذا في مصاحف الأمصار وفيها وجهان أظهرهما أنَّها واو الاستئناف والجملة بعدها مستأنفة والثاني أنها حالية وقرأ ابن عامر ما كنا لنهتدي بدون واو الجملة محتملة الاستئناف والحال وهي في مصحف الشاميين كذا فقد قرأ كل بما في مصحفه اهـ سمين

لولا أن هدانا الله (حسن) ومثله بالحق

تعملون (تام)

حقاً (كاف) لأنه آخر الاستفهام

قالوا نعم (أكفى) منه

الظالمين (كاف) وفي محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فكاف إن جعل الذين في محل رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين وحسن إن جعل في موضع نصب بإضمار أعني وليس بوقف إن جر نعتاً لما قبله أو بدلاً منه ومن حيث كونه رأس آية يجوز

عوجاً (جائز) ومثله كافرون من حيث كونه رأس آية يجوز

حجاب (كاف)

بسيماهم (حسن) وقيل كاف

(16/262)

أن سلام عليكم (حسن) وقيل الوقف لم يدخلوها ثم يبتديء وهم يطمعون أي في دخولها فقوله وهم يطمعون مستأنف غير متصل بالنفي لأنَّ أصحاب الأعراف قالوا لأهل الجنة قبل أن يدخلوها سلام عليكم أي سلمتم من الآفات لأنَّهم قد عرفوهم بسيما أهل الجنة فيكون المعنى على هذا لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها فيكون النفي واقعاً على الدخول لا على الطمع وهذا أولى وإن جعلت النفي واقعاً على الطمع لم يجز الوقف على لم يدخلوها وذلك إنك تريد لم يدخلوها طامعين وإنَّما دخلوها في غير طمع فيكون النفي منقولاً من الدخول إلى الطمع أي دخلوها وهم لا يطمعون كما تقول ما ضربت زيداً وعنده أحد معناه ضربت زيداً وليس عنده أحد والأول أولى عند الأكثر

يطمعون (كاف)

الظالمين (تام)

بسيما هم ليس بوقف لأنَّ ما بعده نعت رجالاً

تستكبرون (تام)

برحمة (حسن) لتناهي الاستفهام والأقسام وكلام الملائكة قد انقطع ثم قال الله لهم ادخلوا الجنة فحسنه باعتبارين فإن نظرت إلى الانقطاع من حيث الجملة كان تاماً وإن نظرت إلى التعلق من حيث المعنى كان حسناً وقيل ليس بوقف لأنَّ أهل الأعراف قالوا لأهل النار ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون فأقسم أهل النار أنَّ أهل الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون فعلى هذا لا يوقف على برحمة للفصل بين الحكاية والمحكي عنه عن كلام الملائكة وكلام أهل النار أو كلام الله تعالى والحكاية والمحكي كالشيء الواحد اهـ نكزاوي مع زيادة للإيضاح

يحزنون (تام)

ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ليس بوقف لأنَّ قوله أن أفيضوا منصوب بإن المصدرية أو المفسرة

مما رزقكم الله (حسن) وفي محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع على أنه مبتدأ وخبره فاليوم ننساهم والوقف على الكافرين حينئذ تام ومثله إن رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين وكاف إن جعل في موضع نصب بإضمار أعني وليس بوقف إن جر نعتاً للكافرين أو بدلاً منهم أو عطف بيان

الحياة الدنيا (حسن)

هذا ليس بوقف لأنَّ وما كانوا معطوف على ما في كما نسوا وما فيها مصدرية والتقدير كنسيانهم وكونهم جحدوا بآيات الله أي فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كما كانوا بآياتنا يجحدون أي بجحدهم لآياتنا

يجحدون (تام)

يؤمنون (كاف) ومثله إلاَّ تأويله لأنَّ يوم منصوب بما بعده وهو يقول فلذلك انفصل مما قبله والجملة بعد يوم في تقدير مصدر أي يوم إتيان تأويله

بالحق (حسن) ومثله كنا نعمل

أنفسهم (جائز)

يفترون (تام)

على العرش (حسن)

حثيثاً (أحسن) مما قبله على قراءة ما بعده بالرفع مستأنفاً منقطعاً عما قبله على الابتداء

والخبر وبها قرأ ابن عامر هنا وفي النحل برفع الشمس وما عطف عليها ورفع مسخرات ووافقه حفص عن عاصم في النحل خاصة على رفع والنجوم مسخرات وليس بوقف على قراءة الباقين بالنصب في الموضعين عطفاً على السموات لأنَّ ما بعدها معطوف على ما قبله ومسخرات حال من هذه المفاعيل

بأمره (حسن) وقبل كاف على القراءتين

ألا له الخلق والأمر (كاف)

رب العالمين (تام)

وخفية (كاف)

المعتدين (تام) أي في الدعاء بأن يدعو الشخص وهو متلبس بالكبر أو بالجهر والصياح وفي الحديث لستم تدعون أصم ولا غائباً إنَّما تدعون سميعاً قريباً

وطمعاً (كاف)

المحسنين (تام)

رحمته (جائز)

من كل الثمرات (حسن) والكاف في كذلك نعت لمصدر محذوف أي تخرج الموتى إخراجاً كإخراجنا هذه الثمرات

تذكرون (تام)

بإذن ربه (كاف) على استئناف ما بعده

إلاَّ نكداً (حسن) والنكد في اللغة النز القليل قال مجاهد يعني أن في بني آدم الطيب والخبيث

يشكرون (تام)

(18/262)

اعبدوا الله (حسن)

غيره (أحسن) منه على القراءتين جره نعتاً لا له على اللفظ ورفعه نعتاً له على المحل

عظيم (كاف) ومثله مبين وكذا العالمين على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما

بعده في موضع رفع نعت رسول للفصل بين النعت والمنعوت

ما لا تعلمون (كاف) ومثله ترحمون

في الفلك (جائز)

بآياتنا (كاف)

عمين (تام) لأنَّه آخر القصة

هوداً (حسن) ومثله اعبدوا الله

غيره (كاف) ومثله تتقون وكذا الكاذبين

العالمين (حسن) وقيل كاف على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في محل

رفع نعت رسول

رسالات ربي (جائز)

أمين (كاف) للاستئناف الإنكاري التوبيخي

لينذركم (حسن) ومثله بسطة

تفلحون (كاف)

آباؤنا (جائز)

من الصادقين (كاف) ومثله وغضب وكذا من سلطان لأنه آخر الاستفهام

فانتظروا (حسن)

المنتظرين (كاف)

برحمة منا (جائز) ومثله بآياتنا

مؤمنين (تام) لأنه آخر القصة

صالحاً (جائز) ومثله اعبدوا الله

غيره (كاف) ومثله من ربكم وآية وفي أرض الله

بسوء ليس بوقف لمكان الفاء

أليم (كاف) ولا وقف من قوله واذكروا إلى بيوتاً لاتساق ما بعده

بيوتاً (كاف)

إلاَّ الله (جائز)

مفسدين (كاف)

من ربه (جائز)

مؤمنون (كاف) ومثله كافرون ومثله المرسلين

جاثمين (كاف)

ونصحت لكم ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده

الناصحين (تام) لأنه آخر القصة وانتصب لوطاً بإضمار وأرسلنا

الفاحشة (جائز)

العالمين (حسن)

من دون النساء (جائز)

مسرفون (كاف) ومثله من قريتكم

يتطهرون أكفى

الغابرين (كاف)

مطراً (جائز)

المجرمين (تام)

شعيباً (جائز) ومثله اعبدوا الله

غيره (كاف)

من ربكم (جائز)

والميزان (كاف) ومثله أشياءهم وكذا بعد إصلاحها ومؤمنين وعوجاً وفكثركم

المفسدين (تام) للابتداء بالشرط

لم يؤمنوا ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت وهو فاصبروا فلا يفصل بين الشرط وجوابه

بالوقف

بيننا (حسن)

(19/262)

الحاكمين (تام) وفي قوله أو لتعودن في ملتنا جوازاً إطلاق العود على من لم يتقدم فعله لأنَّ

الرسل لم تكن في ملتهم قبل لأَّنهم لم يدخلوا في ملة أحد من الكفار فالمراد بالعود الدخول

ومنه حديث الجهنميين عادوا حمماً أي صاروا إلاَّ أَّنهم كانوا حمماً ثم عادوا حمماً

في ملتنا (حسن) ومثله كارهين وقيل ليس بوقف لبشاعة الابتداء بما بعده وإذا كان محكياً

عن السيد شعيب كان أشنع ولكن الكلام معلق بشرط هو بعقبه والتعليق بالشرط إعدام

ونجانا الله منها وإلاَّ أن يشاء الله ربنا وكل شيء علماً وعلى الله توكلنا وبين قومنا بالحق كلها وقوف حسان

الفاتحين (تام)

لخاسرون (كاف) ومثله جاثمين على استئناف ما بعده مبتدأ خبره كأن لم يغنوا فيها وليس بوقف إن جعل ما بعده نعتاً لما قبله أو بدلاً من الضمير في أصبحوا أو حالاً من فاعل كذبوا ومن حيث كونه رأس آية يجوز

كأن لم يغنوا فيها (حسن) وقيل تام إن جعل ما بعده مبتدأ خبره كانوا هم الخاسرين وليس بوقف إن جعل ذلك بدلاً من الذين قبله

الخاسرين (كاف)

نصحت لكم (جائز) لأنّ كيف للتعجب فتصلح للابتداء أي فكيف أحزن على من لا يستحق أن أحزن عليه

كافرين (تام)

يضرعون (كاف)

حتى عفوا (جائز) وقال الأخفش تام قال أبو جعفر وذلك غلط لأن وقالوا معطوف على عفوا إلاَّ أنَّه من عطف الجمل المتغايرة المعنى

لا يشعرون (كاف) ومثله يكسبون وكذا نائمون لمن حرك الواو وليس بوقف على قراءة من

سكنها وهو نافع وابن عامر وابن كثير وقرأ الباقون بفتحها ففي قراءة من سكن الواو جعل أو بجملتها حرف عطف ومعناها التقسيم ومن فتح الواو وجعلها للعطف ودخلت عليها همزة الاستفهام مقدمة عليها لأنَّ الاستفهام له صدر الكلام وإن كانت بعدها تقديراً عند الجمهور

وهم يلعبون (كاف) ومثله مكر الله

الخاسرون (تام) للاستفهام بعده

(20/262)

بذنوبهم (جائز) للفصل بين الماضي والمستقبل فإنَّ نطبع منقطع عما قبله لأنَّ أصبناهم ماض ونطبع مستقبل وقال الفراء تام لأنَّ نطبع على قلوبهم ليس داخلاً في جواب لو ويدل على ذلك قوله فهم لا يسمعون

والوقف على لا يسمعون (تام)

من أنبائها (حسن) ومثله بالبينات لعطف الجملتين المختلفتين لأنَّ ضمير فما كانوا ليؤمنوا إلاَّ أهل مكة وضمير جاءتهم للأمم السابقة مع أنَّ الفاء توجب الاتصال وكذا من قبل الكافرين (كاف) للابتداء بالنفي ومثله من عهد

لفاسقين (تام) وثم وردت لترتيب الأخبار فيبتدأ بها لأنَّها جاءت أول قصة أخرى

فظلموا بها (حسن) للفصل بين الماضي والمستقبل مع العطف بالفاء

المفسدين(تام)

العالمين(حسن) ورأس آية كل ما في كتاب الله من ذكر أن لا فهو بغير نون إلاَّ في عشرة مواضع

فهو بنون منها حقيق على أن لا أقول والوقف على حقيق أحسن على قراءة نافع عليّ

بتشديد ياء المتكلم على أنَّ الكلام تم عند قوله حقيق لأنَّ حقيق نعت رسول أي رسول

حقيق من رب العالمين أرسلت وعلى هذا لا يوقف على العالمين لأنَّ حقيق صفة رسول أو

خبر بعد خبر وليس حقيق وقفاً إن جعلت أن لا أقول أن وصلتها مبتدأ وحقيق خبراً أو

حقيق مبتدأ وأن لا أقول خبراً أو أن لا أقول فاعل بحقيق وهذا أعذب الوجوه لوضوحه

لفظاً ومعنى وقرأ العامة على حرف جر مجرداً من ياء المتكلم

إلاَّ الحق (حسن)

من ربكم (جائز)

بني إسرائيل (كاف) ورأس آية

الصادقين (حسن)

مبين (جائز)

للناظرين(حسن) ومثله لساحر عليم على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل في موضع الصفة لما قبله

(21/262)

من أرضكم (حسن) إن جعل فماذا تأمرون من كلام فرعون ويؤيد كونه من كلامه قالوا أرجه ويريد أن يخرجكم من أرضكم فهو قول الملأ وليس بوقف إن جعل من كلام الملأ وخاطبوا فرعون وحده بقولهم تأمرون تعظيماً له كما تخاطب الملوك بصيغة الجمع أو قالوا ذلك له ولأصحابه ويجوز أن تكون ماذا كلها اسماً واحداً مفعولاً ثانياً لتأمرون والمفعول الأول محذوف وهو ياء المتكلم والتقدير بأي شيء تأمرونني ويجوز أن تكون ما وحدها استفهاماً ما مبتدأ وذا اسم موصول بمعنى الذي خبر عنها وتأمرون صلة ذا ومفعول تأمرون محذوف وهو ضمير المتكلم والثاني الضمير العائد على الموصول والتقدير فأي شيء تأمرونيه أي تأمرونني به

تأمرون (كاف) حاشرين رأس آية وليس بوقف لأنَّ ما بعده من تمام الحكاية عن الملأ ولا يوقف على حاشرين لأنَّ قوله يأتوك جواب قوله وأرسل فلا يفصل بين الأمر وجوابه

ساحر عليم (كاف) ومثله نحن الغالبين

قال نعم (جائز)

المقربين (حسن)

الملقين (كاف)

قال ألقوا (حسن) ومثله واسترهبوهم

بسحر عظيم (تام)

عصاك (جائز) عند بعضهم وقيل ليس بوقف لأنَّ ما بعده يفسر ما قبله

ما يأفكون (كاف) ومثله يعملون و صاغرين و ساجدين على استئناف ما بعده وليس

بوقف إن جعل ما بعده حالاً من فاعل انقلبوا

العالمين ليس بوقف لأنَّ ما بعده بدل مما قبله

رب موسى وهرون (تام) وقدم موسى هنا على هرون وإن كان هرون أسن منه لكبره في

الرتبة أو لأنَّه هنا وقع فاصلة كما قدم هرون على موسى في طه لوقوعه فاصلة ومات هرون

قبل موسى بثلاث سنين

قبل أن آذن لكم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده داخلاً في

القول

أهلها (جائز) على أنَّ اللام في قوله لتخرجوا منها أهلها من صلة مكرتموه ومن جعلها متعلقة

بمحذوف تقديره فعلتم ذلك لتخرجوا وقف على المدينة وقال نافع تام

فسوف تعلمون (كاف) ومثله أجمعين وكذا منقلبون

لما جاءتنا (حسن)

صبراً (جائز)

مسلمين (تام)

(22/262)

في الأرض (جائز) إن نصب ويدرك عطفاً على جواب الاستفهام وهو ليفسدوا بإضمار إن والمعنى أنَّ يكون الجمع بين تركك موسى وقومه للإفساد وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك أي أنَّ هذا مما لا يمكن وليس قصد الملأ بذلك زندقة فرعون على موسى وقومه وليس بوقف إن قريء بالرفع على أتذر كما يروى عن الحسن أنَّه كان يقرأ ويذرك بالرفع وكذا إن نصب عطفاً على ما قبله أو جعل جملة في موضع الحال فلأهل العربية في إعراب ويذرك خمسة أوجه أنظرها إن شئت

وآلهتك (حسن) ومثله نساءهم

قاهرون (تام)

واصبروا (كاف) للابتداء بأن

من عباده (حسن)

للمتقين (كاف)

ما جئتنا (حسن)

في الأرض ليس بوقف لأنَّ بعده فاء السببية

تعلمون (تام)

يذكرون (كاف)

لنا هذه (حسن) والمراد بالحسنة العافية والرخاء والسيئة البلاء والعقوبة

ومن معه (كاف) عند الله الأولى وصله

لا يعلمون (كاف) ومثله بمؤمنين و مفصلات و قوماً مجرمين ومن وقف على ادع لنا ربك

وابتدأ بما عهد عندك وجعل الباء حرف قسم فقد تسعف وأخطأ لأنَّ باء القسم لا

يحذف معها الفعل بل متى ذكرت الباء لابد من الإتيان بالفعل بخلاف الواو

بما عهد عندك (جائز)

بني إسرائيل (حسن) ورأس آية أيضاً

ينكثون (كاف)

فانتقمنا منهم (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده نفس الانتقام

غافلين (كاف)

يستضعفون ليس بوقف لأنَّ مشارق الأرض منصوب على أنه مفعول ثان لأورثنا قال السجستاني نصبوا مشارق بأورثنا ولم ينصبوها بالظرف ولم يريدوا في مشارق الأرض وفي مغاربها قال أبو بكر بن الأنباري فإنكاره النصب على الظرفية خطأ لأنَّ في مشارق ومغارب وجهين أحدهما أنَّها منصوبة بأورثنا على غير معنى محل وهو الذي يسميه الكسائي صفة ويسميه الخليل ظرفاً والوجه الثاني أن تنصب التي بأورثنا وتنصب مشارق ومغارب على المحل كأنك قلت وأورثنا القوم الأرض التي باركنا فيها مشارق الأرض ومغاربها فلما حذف الجار نصباً وإذا نصبت مشارق ومغارب بوقوع الفعل عليها على غير معنى المحل جعلت التي باركنا فيها نعت مشارق ومغارب وعليهما فلا يوقف على يستضعفون 0

والوقف على ومغاربها (هذا في أصل الكتاب ولعل الصحيح : ومغاربها التي باركنا فيها ، لعدم صحة فصل الصلة عن الموصول والله تعالى أعلم (أنس) (حسن) إن جعلت التي باركنا فيها منقطعاً عما قبله قال الأخفش باركنا فيها هو تمام الكلام 0

بما صبروا (كاف) ومثله يعرشون و أصنام لهم و كما لهم آلهة كلها حسان 0

تجهلون (كاف)

ما هم فيه (جائز)

يعملون (كاف) ومثله العالمين على قراءة الجماعة غير ابن عامر في قوله وإذ أنجيناكم بالنون على لفظ الجمع لأنّ كلام موسى قد تم وليس بوقف على قراءة ابن عامر وإذ أنجاكم على لفظ الواحد الغائب لأنَّ ما بعده متصل بكلام موسى وإخباره عن الله تعالى في قوله أغير الله أبغيكم إلهاً فهو مردود عليه فلا يقطع منه اهـ نكزاوي

سوء العذاب (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل بدلاً من يسومونكم

نساءكم (حسن)

عظيم (تام)

أربعين ليلة (حسن)

وأصلح (جائز) على استئناف النهي نهاه عن اتباع سبيلهم وأمره إياه بالإصلاح على سبيل التأكيد لا لتوهم أنَّه يقع منه خلاف الإصلاح لأنَّ منصب النبوة منزة عن ذلك

المفسدين (تام)

وكلمه ربه ليس بوقف لأنَّ قال جواب لما

إليك (حسن) ومثله لن تراني ومثله إلى الجبل للابتداء بالشرط مع الفاء ومثله فسوف تراني

و صعقا قرأ الأخوان دكاء بالمد بوزن حمراء والباقون دكاً بالقصر والتنوين

أول المؤمنين (تام)

وبكلامي (جائز)

الشاكرين (كاف)

من كل شيء (حسن) إن نصب ما بعده بفعل مقدر وليس بوقف إن نصب بما قبله أو أبدل

منه أو نصب على المفعول من أجله أي كتبنا له تلك له تلك الأشياء للاتعاظ والتفصيل

لكل شيء (حسن) ومثله بأحسنها

الفاسقين (تام)

بغير الحق (كاف) للابتداء بالشرط

لا يؤمنوا بها (كاف) للابتداء بالشرط أيضاً

سبيلاً (حسن)

يتخذوه سبيلاً (كاف)

غافلين (تام)

أعمالهم (حسن)

يعلمون (تام)

له خوار (حسن) ومثله سبيلاً لئلاَّ تصير الجملة صفة سبيلاً فإن الهاء ضميراً لعجل وكذا

ظالمين وقال أبو جعفر فيهما تام

قد ضلوا ليس بوقف لأنَّ قالوا بعده جواب لما

الخاسرين (كاف)

أسفاً ليس بوقف لأنَّ قال جواب لما ورسموا بئسما موصولة كلمة واحدة باتفاق وتقدم

الكلام على ذلك

من بعدي (كاف) للابتداء بالاستفهام ومثله أمر ربكم

يجره إليه (حسن) اتفق علماء الرسم على رسم ابن أم ابن كلمة وأم كلمة على إرادة

الاتصال ويأتي الكلام على التي في طه

يقتلونني (جائز) ووصله أحسن لأنَّ الفاء في جواب شرط مقدر أي إذا هموا بقتلي فلا

تشمتهم بضربي

الظالمين (تام)

في رحمتك (حسن)

الراحمين (تام)

في الحياة الدنيا (كاف) وقيل تام إن جعل إنَّ الذين اتخذوا العجل وما بعده من كلام موسى

وهو أشبه بسياق الكلام وقوله في الحياة الدنيا آخر كلامه ثم قال تعالى وكذلك نجزي المفترين ولا يبلغ درجة التمام إن جعل ذلك من كلام الله تعالى إخباراً عما ينال عباد العجل ومخاطبة لموسى بما ينالهم ويدل عليه قوله وكذلك نجزي المفترين وعلى هذا لم يتم الوقف على قوله في الحياة الدنيا ولكنه كاف

المفترين (تام)

وآمنوا (كاف)

رحيم (تام)

(25/262)

الغضب ليس بوقف لأنَّ جواب لما لم يأت وهو قوله أخذ الألواح فلا يفصل بينهما بالوقف الألواح (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل وفي نسختها جملة في محل نصب حالاً من الألواح أو من ضمير موسى

يرهبون (كاف) وقيل تام

لميقاتنا (حسن)

وإياي (كاف) ومثله السفهاء منا

إن هي إلاَّ فتنتك (جائز) لأنَّ الجملة لا توصف بها المعرفة ولا عامل يجعلها حالاً قاله السجاوندي

وتهدي من تشاء (حسن) ومثله وارحمنا

الغافرين (كاف)

هدنا إليك (حسن) ومثله من أشاء للفصل بين الجملتين

كل شيء (كاف) في محل الذين بعد يؤمنون الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع من وجهين والنصب من وجهين والجر من ثلاثة فتام إن رفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر أما الجملة الفعلية من قوله يأمرهم بالمعروف أو الجملة الاسمية وكاف إن نصب الذين أو رفع على المدح وليس بوقف إن جر بدلاً من الذين يتقون أو نعتاً أو عطف بيان ومن حيث كونه رأس آية يجوز

والإنجيل (كاف) على استئناف ما بعده وقيل تام لأنَّ ما بعده يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو يأمرهم وأن يكون نعتاً لقوله مكتوباً أو بدلاً أي يجدونه آمراً أو صلة للذي قائماً مقام يجدونه كالبدل من تلك الجملة أي الأمي الذي يأمرهم قاله السجاوندي مع زيادة للإيضاح والأمي بضم الهمزة وهي قراءة العامة نسبة إلى الأمة أو إلى الأم فهو مصدر لأم يؤم أي قصد يقصد والمعنى أنَّ هذا النبي مقصود لكل أحد وفيه نظر لأنَّه لو كان كذلك لقيل الأمي بفتح الهمزة وقد يقال إنَّه من تغيير النسبة أو نسبة لأمّ القرى وهي مكة ، أول من أظهر

الكتابة أبو سفيان بن أمية عم أبي سفيان بن حرب

كانت عليهم (حسن)

أنزل معه ليس بوقف لأنَّ أولئك خبر قوله فالذين

المفلحون (تام)

(26/262)

جميعاً (حسن) إن رفع ما بعده أو نصب على المدح وليس بوقف إن جر نعتاً للجلالة أو

بدلاً منها لكن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم جميعاً وأجاز ذلك الزمخشري

واستبعده أبو البقاء

والأرض (حسن) لأنَّ الجملة بعده تصلح أن تكون مبتدأً أو حالاً

يحيي ويميت (حسن)

وكلماته (جائز) للأمر بعده

تهتدون (تام)

يعدلون (كاف)

أمما (حسن) وإن اتفقت الجملتان لكن أوحينا عامل إذ استسقاه فلم يكن معطوفاً على

قطعنا فإنَّ تفريق الأسباط لم يكن في زمن الاستسقاء

والحجر و عيناً و مشربهم و والسلوى و رزقناكم كلها حسان

يظلمون (كاف)

خطياتكم (حسن)

المحسنين (كاف)

غير الذي قيل لهم ليس بوقف لمكان الفاء 0

يظلمون (كاف)

شرعاً (جائز)

لا تأتيهم (تام) على القول بعدم الإتيان بالكلية فإنهم كانوا ينظرون إلى الحيتان في البحر يوم السبت فلم يبق حوت إلاَّ اجتمع فيه فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تظهر إلى السبت المقبل فوسوس إليهم الشيطان وقال لهم إنَّ الله لم ينهكم عن الاصطياد وإنَّما نهاكم عن الأكل فاصطادوا وقيل قال لهم إنَّما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضاً على ساحل البحر فتأتي إليها الحيتان يوم السبت فإذا كان يوم الأحد خذوها ففعلوا ذلك ثم اعتدوا في السبت فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا فمسخ الله شبانهم قردة ومشايخهم خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يبق ممسوخ فوق ثلاثة أيام أبداً وأما من قال إنَّ الإتيان في غير يوم السبت كان أقل من يوم السبت أو بطلب ونصب لأنَّ التشبيه من تمام الكلام فالوقف على

كذلك قال مجاهد حرمت عليهم الحيتان يوم السبت فكانت تأتيهم فيه شرعاً لأمنها ولا تأتيهم في غيره إلاَّ أن يطلبوها فقوله كذلك أي تأتيهم شرعاً وهنا تم الكلام ونبلوهم مستأنف ومحل الكاف نصب بالإتيان على الحال أي لا تأتي مثل ذلك الإتيان أو الكاف صفة مصدر بعده محذوف أي نبلوهم بلاء كذلك فالوقف على كذلك حسن فيهما أو تام

(27/262)

يفسقون (كاف) إن علق إذ باذكر مقدراً مفعولاً به

قوماً ليس بوقف لأنَّ ما بعده صفة لقواه قوماً كأنَّه قال لم تعظون قوماً مهلكين

عذاباً شديداً (حسن)

يتقون (كاف) إن رفع معذرة على أنه خبر مبتدأ محذوف أي قالوا موعظتنا معذرة وقرأ حفص عن عاصم معذرة بالنصب بفعل مقدر أي نعتذر معذرة أو نصب بالقول لأنَّ المعذرة تتضمن كلاماً والمفرد المتضمن لكلام إذا وقع بعد القول نصب المفعول به كقلت قصيدة وشعراً

ينهون عن السوء (جائز)

يفسقون (كاف) كل ما في كتاب الله من ذكر عما فهو بغير نون بعد العين إلاَّ هنا في قوله عن ما

نهوا عنه فهو بنون كما ترى

خاسئين (حسن) وقيل كاف

سوء العذاب (حسن) وقال أبو عمرو كاف 0

لسريع العقاب (جائز) ووصله أولى للجمع بين الصفتين ترغيباً وترهيباً كما تقدم 0

رحيم (كاف) ومثله أمما و دون ذلك و يرجعون

سيغفر لنا (جائز)

يأخذوه (حسن)

إلاَّ الحق (كاف) ومثله ما فيه وكذا يتقون 0

تعقلون (تام) إن جعل والذين يمسكون مبتدأ وليس بوقف إن عطف على قوله الذين يتقون فلا يوقف على يتقون ولا على تعقلون وإن جعل والذين مبتدأ وخبره أنَّا لا نضيع لم يوقف على قوله وأقاموا الصلاة لأنَّه لا يفصل بين المبتدأ والخبر بالوقف لأنَّ المصلحين هم الذين يمسكون بالكتاب وفي قوله وأقاموا الصلاة إعادة المبتدأ بمعناه والرابط بينهما العموم في المصلحين أو ضمير محذوف تقديره المصلحين منهم 0

المصلحين (تام)

واقع بهم (حسن)

تتقون (تام) إن علق إذ باذكر مقدراً مفعولاً به وإن عطف على ما أو على وإذ نتقنا الجبل لم يتم الكلام على ما قبله واختلف في شهد نا هل هو من كلام الله أو من كلام الملائكة أو من كلام الذرية فعلى أَنَّه من كلام الملائكة وأنَّ الذرية لما أجابوا ببلى قال الله للملائكة اشهدوا عليهم فقالت الملائكة شهدنا فبلى آخر قصة الميثاق فاصلة بين السؤال والجواب فالوقف على بلى تام لأَنَّه تعلق له بما بعد لا لفظاً ولا معنى وعلى أَنَّه من كلام الذرية فالوقف على شهدنا وأن متعلقة بمحذوف أي فعلنا ذلك أن تقولوا يوم القيامة فإذا لا يوقف على بلى لتعلق ما بعدها بما قبلها لفظاً ومعنى وقال ابن الأنباري لا يوقف على بلى ولا على شهدنا لتعلق إن بقوله وأشهدهم فالكلام متصل بعضه ببعض 0

غافلين ليس بوقف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله 0

من بعدهم (حسن) للابتداء بالاستفهام 0

المبطلون (كاف)

يرجعون (تام)

الغاوين (كاف)

واتبع هواه (حسن) وقيل كاف لأنَّ ما بعده مبتدأ 0

أو تتركه يلهث (حسن) فهو لا يملك ترك اللهث 0

بآياتنا (كاف)

يتفكرون (تام)

مثلاً (جائز) إن جعل الفاعل مضمراً تقديره ساء مثلهم مثلاً ويكون القوم خبر مبتدأ محذوف تقديره هم القوم وليس بوقف إن جعل القوم فاعلاً بساء لأَّنه لا يفصل بين الفعل والفاعل 0

يظلمون (تام)

فهو المهتدي (حسن) بإثبات الياء وصلاً وقفاً باتفاق القراء هنا خلافاً لما في سورتي الكهف والإسراء فإنَّ أبا عمرو ونافعاً يثبتانها وصلاً والباقون يحذفونها فيهما وقفاً ووصلاً 0

الخاسرون (تام)

والأنس (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في موضع النعت لقوله كثيراً 0

لا يسمعون بها (حسن)

أضل (كاف)

الغافلون (تام)

فادعوه بها (كاف) ومثله في أسمائه

يعملون (تام) ومثله يعدلون

لا يعلمون (كاف) على استئناف ما بعده 0

وأملي لهم (كاف) للابتداء بعده بأن 0

متين (تام)

أولم يتفكروا (أتم) للابتداء بعده بالنفي 0

(29/262)

من جنة(حسن) وقال أبو عمرو كاف للابتداء بعد بالنفي والمعنى أو لم يتأملوا ويتدبروا في انتقاء هذا الوصف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّه منتف عنه بلا محالة ولا يمكن لمن أمعن الفكر إن ينسب ذلك إليه 0

مبين (تام)

من شيء ليس بوقف لأنَّ وأن عسى متعلق بينتظروا فهو في محل جر عطفاً على ملكوت أي أو لم ينظروا في أنَّ الأمر والشأن عسى أن يكون فأن يكون فاعل عسى وهي حينئذ تامة لأنَّها متى رفعت إن وما في حيزها كانت تامة 0

أجلهم (كاف) للابتداء بالاستفهام أي إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فكيف يؤمنون بغيره 0

يؤمنون (تام)

فلا هادي له (كاف) على قراءة ونذرهم بالنون والرفع على الاستفهام لأَّنه منقطع عنه وبها قرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وليس بوقف لمن قرأ ويذرهم بالياء والجزم لأَّنه معطوف على موضع الفاء وذلك أنَّ موضعها جزم لأَّنها جواب الشرط وجوابه مجزوم أنشد هشام :

أيا صدقت فإنني لك كاشح وعلى انتقاصك في الجباية أزددي

فجزم أزددي عطفاً على محل الفاء وأنشد الأخفش البصري :

دعني وأذهب جانباً يوماً واكفك جانباً

فجزم وأكفك عطفاً على محل الفاء وقرأ حمزة والكسائي ويذرهم بالياء والجزم وقرأ عاصم وأبو عمرو ويذرهم بالياء والرفع فإن جعلته معطوفاً على ما بعد الفاء لم يجز الوقف على ما قبله وإن جعلته مستأنفاً وقفت على ما قبله 0

يعمهون (تام)

مرساها (حسن)

عند ربي (جائز) لاختلاف الجملتين 0

إلاَّ هو (كاف) عند أبي عمرو وعند نافع تام

والأرض (حسن)

إلاَّ بغتة (تام)

حفيّ عنها (كاف) للأمر بعده أي عالم ومعتن بها وبالسؤال عنها 0

قل إنَّما علمها عند الله الأولى وصله للاستدراك بعده 0

لا يعلمون (تام)

ما شاء الله (حسن) وقيل كاف من الخير ليس بوقف لعطف وما مسني السوء على جواب لو 0

(30/262)

وما مسني السوء (تام) إن فسر السوء بالجنون الذي نسبوه إليه فكان ابتداء بنفي بعد وقف أي ما بي جنون إن أنا إلاَّ نذير وبشير لقوم يؤمنون أو المعنى لو علمت الغيب من أمر القحط لاستكثرت من الطعام وما مسني الجوع والأولى أن يحمل السوء على الجنون الذي نسبوه إليه 0

لقوم يؤمنون (تام)

ليسكن إليها (حسن) ومثله فمرت به

الشاكرين (كاف)

فيما آتاهما (كاف) أيضاً لانقضاء قصة آدم وحواء عليهما السلام وما بعده تخلص إلى قصة

العرب وإشراكهم ولو كانت القصة واحدة لقال عما يشركون كقوله دعوا الله ربهما فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما 0

يشركون (كاف) ومثله يخلقون وينصرون ولا يتبعوكم قرأ نافع بتخفيف الفوقية ومثله يتبعهم الغاوون في الشعراء والباقون بالتشديد فهما لغتان 0

صامتون (تام) ومثله أمثالكم

صادقين (كاف) وكذابها الأخيرة وفي المواضع الثلاثة لا يجوز الوقف لأنَّ أم عاطفة والمعنى يقتضي الوصل لأنَّ الاستفهام قد يحمل على الابتداء به 0

فلا تنظرون (تام)

الكتاب (كاف) على استئناف ما بعده 0

الصالحين (تام) على القراءتين قرأ العامة وليي مضافاً لياء المتكلم المفتوحة أضاف الولي إلى نفسه وقريء وليّ الله بياء مشددة مفتوحة وجر الجلالة بإضافة الولي إلى الجلالة

ينصرون (كاف)

لا يسمعوا (جائز)

لا يبصرون (تام)

الجاهلين (كاف) ومثله بالله

عليم (تام)

مبصرون (كاف) لأنَّ وإخوانهم مبتدأ ويمدحونهم خبر

لا يقصرون (كاف) ومثله اجتبيتها وكذا من ربي

وهدى ورحمة ليس بوقف لتعلق ما بعده بما قبله

يؤمنون (تام)

وأنصتوا ليس بوقف لحرف الترجي بعده وتعلقه كتعلق لام الكافي 0

ترحمون (تام)

والآصال (جائز)

الغافلين (تام)

ويسبحونه (جائز)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى في بيان الوقف والابتدا صـ 292. 318 ﴾

(31/262)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الأعراف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

من ذلك قراءة أبي جعفر : "ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا" 1 بضم الهاء .

قال أبو الفتح : هذا مذهب ضعيف جدًّا ؛ وذلك أن الملائكة مجرورة ، ولا يجوز أن يكون حذَف همزة "اسجدوا" وألقى حركتها على الهاء من موضعين :

أحدهما : أن هذا التخفيف إنما هو في الوصل ، والوصل يحذف هذه الهمزة أصلًا إذ كانت همزة وصل ، فيا ليت شعري من أين له همزة أصلًا في الوصل حتي يُلقي حركتها للتخفيف على ما قبلها ، وليست كذلك الهمزات التي تُلقى للتخفيف حركاتهن على ما قبلهن ؛ لأن لك أن تثبت هذه الهمزة قبل حذفها للتخفيف ؟ ألا تراك أنك إذا خففت همزة أنت من قولك : مَن أنت جاز منَ انت ؛ لأن لك أن تحققها قبل التخفيف فتقول : من أنت ؟ وليس لك أن تثبت همزة "اسجدوا" في الوصل فتقول : للملائكة أُسجدوا ، فيجوز تخفيفها فيما بعد .

وهذا واضح ، وهو أذهب في الفحش من قول الفراء : مَنْ فتح "ميم" من قوله تعالى : "ألف لام ميم الله" 2 ، إنه حذف همزة "الله" وألقى حركتها على ميمِ "ميمَ" ؛ لأن له أن يقول : إن الهجاء عندنا على الوقف ، فإذا وصل فإنه مع ذلك ينوِي الوقف ، والوقف يجوز معه قطع همزة "الله" ، وليس كذلك "ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا" ؛ لأنه ليس من حروف الهجاء

فيُنوَى فيه الوقف عليه ثم تخفيف همزته ، وعلى أن مذهب الفراء هناك أيضًا مدفوع عندنا لأنه لا يُخَفَّفُ إلا في الوصل ، والوصل يُسقط همزة اسم الله تعالى ، فالطريق في الفساد واحدة وإن كان فيه في قول الفراء ذلك القدر من تلك الشبهة الضعيفة .

فإن قال الفراء : قولهم : "نون وَالْقَلَمِ"3 بترك إدغام النون في الواو يدل أن نية الوقف

---

1 سورة الأعراف : 11 .

2 سورة آل عمران : 1 ، 2 .

3 سورة القلم : 1 .

(32/262)

في هذه الحروف مع الوصل موجودة ؛ إذ لو كانت موصولة ألبتة لوجب الإدغام ، وأن يقال : "57ظ" "نووّالقلم" ، كما تدغم النون في الواو من قوله عز وجل : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ 1 .

قيل له : ولو كانت في وصلها على حكم الوقف ألبتة عليها لوجب إظهار النون فقيل : "نونْ والقلم" بإظهار النون ؛ لقولك في الوقف : "نون" بإظهار النون ، فترْك إظهار النون من قوله تعالى : "نون والقلم" يدل على نية الوصل ، وإنما لم يكن هناك إدغام لعمري تعقبًا لما كان

عليه من الوقف ، وإلا فهو موصول لا محالة ، وإذا كان موصولًا وجب حذف الهمزة أصلًا ، وإذا حذفت أصلًا لم تجد هناك لفظًا تحقّقه أو تخففه .

ويؤكد ذلك عندك قراءتهم "كاف ها يا عين صاد" بإخفاء النون من عين عند الصاد ، كما تُخفى في الوصل إذا قلت : عجبت من صالح ، ونحو ذلك .

فقد ترى إلى جريان هذا مع أنه حرف هجاء كجريانه في حال وصله نون عين وسين قاف من قوله : عين سين قاف ، فأُخفيت النون من عين عند السين ، والنون من سين عند القاف ، كما تُخفيان في : عين سالم ، ومن قاسم .

ويؤكد أيضًا عندك إدغام الدال من صاد في الذال من "ذِكْر" في قوله : "عين صاد ذِكْرُ رحمةِ ربِّك"2 ، كإدغامها فيها في غير الهجاء ، كقولك : تعهد ذلك الباب .

وهذا ينبهك على أن ترك إدغام النون من قوله : "نون والقلم" إنما هو لئلا يجتمع هناك ثلاث واوات ، فثقل عليهم أن يقولوا : "نووَّالقلم" ، ولو كان لنية الوقف ألبتة لظهرت الدال من "صاد ذكر رحمة ربك" ، هذا أعلى القراءة وإن كان بعضهم قد أظهرها ، إلا أن الإدغام أقوى رواية وقياسًا ، فهذا أحد وجهي قبح قراءة أبي جعفر : "ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا لِآدَمَ" .

والآخر : أن التخفيف في نحو هذا إنما يكون إذا كان الحرف الأول قبل الهمزة ساكنًا صحيحًا نحو : "قد أفلح"3 ، فإذا خففت الهمزة ألقيت حركتها على الساكن قبلها فقَبِلَها

لسكونه ، ثم حذفت الهمزة تخفيفًا ، فقلت : "قَدَ فْلَحَ" ، وكذلك : مَن أبوك إذا خففته قلت : مَنَ بُوك ؟

فأما إذا كان قبل الهمزة حرف متحرك وأردت تخفيفها فإنك لا تلقى حركة الهمزة عليه ، ألا تراك لا تقول : فلان يضربَ خَاه ، تريد : يضربُ أَخاه ؟ لأن باء يضرب متحركة ، فما

---

1 سورة الشورى : 8 ، وفي الأصل : ما له ، وهو تحريف .

2 سورة مريم : 1 ، 2 .

3 سورة المؤمنون : 1 .

فيها من حركتها لا يسوّغ نقل حركة أخرى إليها عوضًا من حركتها ؛ ولذلك ضعفت عندنا قراءة الكسائي : "بما أُنزِلَّيْك" 1 ؛ لأن اللام من أُنزل مفتوحة ، فلا ينقل عليها كسرة همزة إليك ثم يلتقي المثلان متحركين ، فيسكن الأول منهما ، ويدغم في الثاني كما جُعل ذلك في قوله : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ 2 ؛ إذ كانت النون من لكن ساكنة فساغت3 حذف همزة أناء وإلقاء حركتها على النون قبلها ، فصارت "لكنَنَا" ، فكُره التقاء المثلين متحركين ، فأُسكن الأول منهما وأُدغم في الثاني ، فصار لكنَّا كما ترى .

وقد ذكرنا هذا في غير هذا الموضع من كلامنا مصنفاً وغير مصنَّف .

فإن قلت : فما تصنع بما أخبركم به أبو علي عن أبي عبيدة من قول بعضهم : دعه في حِرُمِّه - بضم الراء - وهو يريد : في حرأُمه ؟ ألا ترى كيف أَلقى حركة همزة "أم" على الراء وقد كانت "58و" مكسورة ثم حذف الهمزة ، وإلى ما حكاه أحمد بن يحيى من قول أبي السرار في خبر ذكره عند سعيد بن سليم وابنُ الأعرابي حاضرٌ من قول امرأة رأت أبا السرار عند بناتها ، فأنكرته : أفي السَّوَتَنْتُّه ؟ وهي تريد : أفي السَّوْءةِأَنْتَّه ؟ فحذفت همزة "أنتنه" وألقت حركتها على تاء "السوءة" وهي مكسورة .

قيل : هذا من الشذوذ ؛ بحيث لا يقاس على ضعفه ، فضلاً عنه على قلته .

وأيضاً ، فإنه حذف همزة ثابتة موجودة في الوصل ، وليست كذلك همزة "اسجدوا" ؛ لأنها بلا خلاف معدومة في الوصل أصلاً ، وما هو معدوم في اللفظ لا يعْرِض فيه تخفيف ولا تحقيق .

فإن توهَّم متوهم أنه يرى قطع همزة "اسجدوا" على ضعف ذلك ، ثم فعل من بعد نحوًا من حكاية أبي عبيدة : دعه في حِرُمِّه ، فإن هذا أفحش ، من حيث كانت همزة "اسجدوا" مما لا يجوز في القرآن قطعه أصلاً ؛ لخبث ذلك في الشعر فضلاً عن التنزيل ، وما يجب فيه من تخير أفصح اللغات له .

ويزيد في قبح ذلك أنه إن نوى قطع همزة "اسجدوا" فإنما ذلك للوقف قبلها ، والوقف هنا

قبلها لا يجوز من حيث كان قوله : "اسْجُدُوا لِآدَمَ" معمولَ قوله : "قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ" ، ولا يحسن الوقف على الناصب دون منصوبه ؛ بل لا يجوز الوقف على العامل دون معموله ؛ لاتصاله به ، وكونه في بعض الأماكن كالجزء من العامل فيه ، نحو : لا رجل في الدار ، ومررت بي ، والمال لي

---

1 سورة المائدة : 68 .

2 سورة الكهف : 38 .

3 انظر الصفحة 237 من هذا الجزء .

فيمن أسكن الياء ، فهذا كله وما تركناه من نحوه يشهد بفساد قراءة أبي جعفر : "لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا" .

ومن ذلك قراءة الزهري : "مَذُومًا مَدْحُورًا" 1 .

قال أبو الفتح : هذا على تخفيف الهمزة من "مَذْءُومًا" ، كقولك في مسئول : مسول .

فإن قلت : أفيكون مِن ذِمتُه أَذيمة ؟ قيل : لو كان منه لكان مَذِيمًا كمبيع ومكيل .

فإن قيل : فقد حكى الفراء : هذا بُرّمَكُول ، ورجل مسورٌ به ، وقد قالوا في مهيب :

مَهوب .

قيل : هذا من الشذوذ في منزلة القُصْيا ، فلا يحسن الحمل عليه ؛ وإنما ذكرناه لئلا يورده من يضعف نظره وهو يظنه طائلًا ، فلا تحفل به .

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي جعفر وشيبة والزهري : "سَوَّاتِهما"2 بتشديد الواو .

قال أبو الفتح : حكى سيبويه ذلك لغة قليلة ، والوجه في تخفيف نحو ذلك أن تحذف الهمزة وتلقى حركتها على الواو قبلها ، فتقول في تخفيف نحو السوءة : السَّوَة ، وفي تخفيف الجيئة : الجيَة ، ومنهم من يقول : السَّوَّة والْجيَّة ، وهو أدون اللغتين وأضعفهما ، ومنهم من يقول في المنفصل من أوْ أَنت : أوَّنت ، وفي أبو أيوب : أَبوُّيوب ، وهو في المنفصل أسهل منه في المتصل ؛ لما يوهم "سَوَّة" أنه من مضاعف الواو ، نحو : القُوَّة والْحُوَّة .

وقرأ : "سوْءَتِهما"3 واحدة مجاهد .

ووجه ذلك أن السوءَة في الأصل فَعْلَة من ساء يسوء ، كالضربة والقتلة ، فأَتاها التوحيد من قِبَلِ المصدرية التي فيها .

فإن قلت : إن الفَعْلَة واحدة من جنسها ، والواحد مُعرَّض للتثنية والجمع .

قيل : قد يوضع الواحد موضع الجماعة ، وقد مضى ذلك مشروحًا . "58ظ"

---

1 سورة الأعراف : 18 .

2 سورة الأعراف : 20 .

3 قال في البحر 4/ 279 : وقرأ مجاهد والحسن : "من سوتهما" بالإفراد وتسهيل الهمزة ؛ بإبدالها واوًا وإدغام الواو فيها .

(35/262)

ومن ذلك قراءة ابن محيصن : "من هذِي الشجرة" 1 .

قال أبو الفتح : هذا هو الأصل في هذه الكلمة ، وإنما الهاء في "ذه" بدل من الياء في "ذي" ، يدل على الياء الأصل قولهم في المذكر : "ذا" ، فالألف في ذا بدل من الياء في ذي ، وأصل ذا عندنا ذَيّ ، وهو من مضاعف الياء مثل : حي ، فحذفت الياء الثانية التي هي لام تخفيفًا فبقي ذَيْ . قال لي أبو علي : فكرهوا أن يشبه آخره آخر كي وأي ، وأبدلوها ألف كما أبدلت في باءَس ويايَس 2 .

ويدل على أن أصل ذا ذَيّ وأنه ثلاثي جواز تحقيره في قولك : ذَيَّا ، ولو كان ثنائيًّا لما جاز تحقيره كما لا تحقر "ما" ، "ومَن" لذلك . وقد شرحت هذا الموضع في كتابي الموسوم بالمنصف بما يمنع من الإطالة بذكره هنا .

فأما الياء اللاحقة بعد الهاء في "هذهِي سبيلي" 3 ونحوه فزائدة ، لحقت بعد الهاء تشبيهًا لها بهاء الإضمار في نحو : مررت بهِي ، ووجه الشبه بينهما أن كل واحد من الاسمين

معرفة مبهمة لا يجوز تنكيره ، وإذا وَقَفْتَ قلت : هذهْ ، فأسكنت الهاء ، ومنهم من يدعها على سكونها في الوصل كما يسكِّنها عند الوقف عليها ، كما أن منهم من يسكن الهاء المضمرة إذا وصلها فيقول : مررت بِهْ أَمس ، وذكر أبو الحسن أنها لغة لأزْد السراة ، وأنشد هو وغيره :

فظَلْت لدى البيت العتيق أُخليه ومِطْواي مشتاقان لهْ أَرِقان4

وروينا عن قطرب قول الآخر :

وأَشربُ الماء ما بي نحوَه عَطَشٌ إلا لأَنَّ عيونَهْ سَيْلُ وادِيها 5

---

1 سورة الأعراف : 19 .

2 قال في المنصف 3/ 35 : يقال : يئس ييئس وييئس وياءس يأسًا فهو يائس وأيس يايس ، فهو آيس .

3 سورة يوسف : 108 .

4 ليعلى الأحول الأزدي ، ورُوي : "الحرام" مكان "العتيق" ، و"أشيمه وأريفه" مكان "أخيله" . ورُوي الشطر الآخر : "ومطواي من شوق له أرقان" . وضمير أخيله وله للبرق في بيت قبله . أخليه : من أخيلت السحابة إذا رأيتها مخيلة للمطر بضم الميم ؛ أي : تخيل من رآها أنها ماطرة ، مطواي : صاحباي . الخزانة : 2/ 401 ، والخصائص : 1/ 128 والمنصف : 3/ 84 .

5 بهامش الأصل : "في الأصل : ويشرب" . وانظر : الخزانة : 2/ 402 ، والضرائر للألوسي : 83 .

(36/262)

ومن ذلك قراءة الزهري : "يُخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا" من أَخْصَفْت ، و"يَخِصفان" الحسن بخلاف ، وقرأ "يُخَصِّفَان" 1 ابن بريدة والحسن والزهري والأعرج ، واختلف عنهم كلهم .

قال أبو الفتح : مألوف اللغة ومستعملها خَصَفت الورق ونحوه ، وما أخصفت فكأنها منقولة من خصفت ؛ كأنه – والله أعلم – يُخْصِفان أنفسهما وأجسامهما من ورق الجنة ، ثم حذف المفعول على عادة حذفه في كثير من المواضع ، أنشد أبو علي للحطيئة :

منعَّمةٌ تصون إليك منها كصونك من رداءٍ شرْعبيِّ 2

أي : تصون الحديث وتخزنه .

وأما قراءة الحسن : "يَخِصِّفَان" ، فإنه أراد بها يختصفان يفتعلان من خصفت ، كقولهم : قرأت الكتاب واقترأته ، وسمعت الحديث واسمتعته ؛ فآثر إدغام التاء في الصاد فأسكنها ، والخاء قبلها ساكنة ، فكسرها لالتقاء الساكنين ؛ فصارت "يَخِصِّفان" .

وأما من قرأها "يَخَصِّفان" 3 ، فإنه أراد أيضاً إدغام التاء في الصاد فأسكنها على العبرة في

ذلك ، ثم نقل الفتحة إلى الخاء ؛ فصار "يَخَصِّفان" .

ويجوز "يِخِصِّفَّانِ" بكسر الياء فيمن كسر الخاء إتباعًا ، كما قال أبو النجم :

تَدافُعَ الشّيبِ ولم تِقتّلِ4

أراد : تَقْتَتِل على ما ذكرت لك . ونحو من ذلك القراءة : يَهَدِّي ويَهِدِّي ويِهِدِّي5 ، وأصله كله يَهتدي "59و" على ما مضى .

وأما من قرأ : "يُخَصِّفَان" وهو ابن بريدة والحسن أيضًا والأعرج ، واختلف عنهم كلهم فهو يُفَعِّلان ، كيُقَطِّعان ويكسران ، وهذا واضح .

---

1 سورة الأعراف : 22 . وقال في البحر 4/ 280 : وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وابن وثاب : "يخصفان" بفتح الياء ، وكسر الخاء والصاد . وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب كذلك ، إلا أنه فتح الخاء ، ورُويت عن ابن ريدة وعن يعقوب .

2 تصون إليك : أي عندك ، الشرعبي : ضرب من ثياب اليمن . ويُروى : "تصور" مكان "تصون" ، "كصورك" مكان "كصونك" ؛ أي : تميل إليك منها عند العناق كإمالتك الرداء عند التحامك به . الديوان : 35 .

3 لم يسبق لهذه القراءة ذكر هنا .

4 تقدم في ص59 من هذا الجزء .

5 سورة يونس : 35 ، والأولى قراءة ابن كثير وابن عامر وورش ، والثانية قراءة حفص ويعقوب ، والثالثة قراءة أبي بكر . وانظر : إتحاف فضلاء البشر : 150 .

(37/262)

ومن ذلك قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - وجماعة وعاصم بخلاف : "ورِياشًا" 1 بالفتح2 .

قال أبو الفتح : يحتمل رِيَاشٌ شيئين :

أحدهما : أن يكون جمع رِيش ، فيكون كشِعْب وشِعَاب ولِهْب3 ولِهَاب ، ولِصْب4 ولِصَاب ، وشِقْب5 وشِقَاب .

والآخر : أن يكونا لغتين : فِعْلٌ وفِعَال . هكذا قال أبو الحسن ، قال : وقال الكلابيون : الرياش : ما كان من لباس أو حشو من فراش ألآو دثار ، والريش : المتاع والأموال . وقد يكون الريش في الثياب دون المال . ويقال : هو حسن الريش ؛ أي الثياب . والرياش : القشر6 ، وهما كما ترى متداخلان .

ومن ذلك قراءة ابن سيرين : "فَإِذَا جَاءَ آجَالُهُمْ"7 .

قال أبو الفتح : هذا هو الظاهر ؛ لأن لكل إنسان أجلًا . فأما إفراد الأجل فلأنه جعله

جنسًا ، أو لأنه مصدر فأتته الجنسية من قِبل المصدرية ، وحسن الإفراد لإضافته أيضاً إلى الجماعة ، ومعلوم أن لكل إنسان أجلًا ، وعليه جاء قوله :

في حَلقِكم عظْم وقد شَجينا 8

لأن لكل إنسان حلقًا ، وتقول على هذا : رأس القوم صُلْبٌ ؛ أي : رءوسهم صِلَاب .

ويجوز أن تقول : رأس القوم صِلَاب ؛ حملًا على المعنى .

وندع الإطالة بالشواهد إشفاقًا من الإطالة التي سئلنا اجتنابها على ما بينا في صدر الكتاب .

---

1 سورة الأعراف : 26 .

2 أي : فتح الياء ، وقراءة الجماعة : ﴿ وَرِيشًا ﴾ .

3 اللهب : الصدع في الجبل ، والشعب الصغير فيه .

4 اللصب : الشعب الصغير في الجبل ، أضيق من اللهب ، وأوسع من الشعب .

5 الشقب : مهواة ما بين جبلين ، أو صدع في كهوف الجبال ولصوب الأودية دوة الكهف يوكر فيها الطير .

6 مما يطلق عليه القشر : كل ملبوس .

7 سورة الاعراف : 34 .

8 للمسيب بن زيد مناة ، وصدره :

لا تنكروا القتل وقد سبينا

شَجِيَ بالعظم بالكسر يشجى شجًا : اعترض العظم في حلقه . وانظر : اللسان "شجى" .

(38/262)

ومن ذلك قراءة أُبي بن كعب والأعرج والحسن : "إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ منكم" 1 بالتاء .

قال أبو الفتح : في هذه القراءة بعض الصنعة ؛ وذلك لقوله فيما يليه : ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ . فالأشبه بتذكير يقصون التذكير بالياء في قراءة الجماعة : ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ، فتقول على هذا : قامت الزيود وقام الزيدون ، وتذكر لفظ قام لتذكير الزيدون ، وتؤنث لفظ قامت لأن الزيود مكسر ولا يختص بالتذكير ؛ لقولك : الهنود . وقد يجوز قامت الزيدون ، إلا أن قام أحسن .

ومن ذلك ما رُوي عن أبي عمرو : "حَتَّى إِذَا إِدَّارَكُوا" 2 ، ورُوي عنه أيضًا : "حتى إذا" يقف ثم يقول : "تَدَارَكُوا" ، وظهور التاء في "تداركوا" قراءة ابن مسعود والأعمش .

وقراءة أخرى : "إذا آدَّاركوا" ، قرأ بها مجاهد وحميد ويحيى وإبراهيم .

قال أبو الفتح : قَطْعُ أبي عمرو همزة "ادَّاركوا" في الوصل مشكل ؛ وذلك أنه لا مانع من

حذف الهمزة ؛ إذ ليست مبتدأة كقراءته الأخرى مع الجماعة . وأمثل ما يصرف إليه هذا أن يكون وقف على ألف "إذا" مُمَيِّلًا بين هذه القراءة وقراءته الأخرى التي هي "تداركوا" ، فلما اطمأن على الألف لذلك القدر من التمييل بين القراءتين لزمه الابتداء بأول الحرف ، فأثبت همزة الوصل مكسورة على ما يجب من ذلك في ابتدائها ، فجرى هذا التمييل في التلوم3 عليه وتطاول الصوت به مجرى وِقفة التذكر في نحو قولك : قالوا – وأنت تتذكر – الآن من قول الله سبحانه : "قالُوا الآن"4 ، فتثبت الواو من قالوا لتلومك عليها "59ظ" للاستذكار ، ثم تثبت همزة الآن ؛ أعني : همزة لام التعريف .

ومثله "اشْتروُوا" إذا وقفت مستذكرًا "للضلالة"5 ، فتضم الواو من "اشتروا" على ما كانت عليه من الضم لالتقاء الساكنين ، ثم تشبع الضمة لإطالة صوت وِقفة الاستذكار ، فتُحدِث هناك واوًا تنشأ عن ضمة واو الضمير ، ثم تبتدئ فتقول : "ألضلالة" ، فتقطع همزة الوصل لابتدائك بها ، فهذا أمثل ما يقال في هذا .

---

1 سورة الأعراف : 35 .

2 سورة الأعراف : 38 .

3 التلوم : التمكث والانتظار .

4 سورة البقرة : 71 .

5 سورة البقرة : 16 .

ولا يحسن أن تقول : إنه قطع همزة الوصل ارتجالًا هكذا ؛ لأن هذا إنما يسوغ لضرورة الشعر . فأما في القرآن فمعاذ الله وحاشا أبي عمرو ، ولا سيما وهذه الهمزة هنا إنما هي في فعل ، وقلما جاء في الشعر قطع همزة الوصل في الفعل ؛ وإنما يجيء الشيء النزر من ذلك في الاسم ، نحو قول جميل :

ألا لا أرى إثنين أحسن شيمة على حَدَثان الدهر مني ومن جُمْل 1

وقول الآخر :

يا نفس صبرًا كل حي لاق وكل إثنين إلى افتراق 2

أي : لاق منيته ، فحذف المفعول ، وإنما قل قطع همزة الوصل هذه في الفعل ، وجاء ما جاء من ذلك في الاسم ؛ حيث كان الفعل مظنة من همزة الوصل ، وإنما تدخل من الأسماء ما ضارع الفعل .

وباب همزات الأسماء أن تكون قطعًا ، فلما غلب القطع عليها جرت الألسن على العادة في ذلك ، واستجازوا قطع همزة الوصل لما ذكرنا .

وليست حال همزة الوصل في الفعل كذلك ؛ لأنها معتادة هناك ، فازداد قطعها من الفعل

ضِيقَ عُذْرٍ لما ذكرنا .

فأما "حتى إذا آدَّاركوا" بإثبات ألف "إذا" مع سكون الدال من "ادَّاركوا" فإنما ذلك لأنه أجرى المنفصل مجرى المتصل ، فشبهه بشابَّة ودابَّة ونحو قولهم : لاها آلله ذا بإثبات الألف في "ها" ، وترك حذفها لالتقاء الساكنين كما حذفت في قول من قال : لاها الله ذا[3] .

وقال لي أبو علي : فيها أربع لغات : لاهَا لله ذا بحذف الألف ، ولاها آلله ذا بمدها تشبيهًا بالمتصل على ما مضى في دابة . ولاها آلله بإثبات ألف ها وهمزة الله بوزن لاها عَلَّاة ذا .

والرابعة : لاهَألله ذا في وزن هَعَلّله ذا ، تحرك ألف "ها" لالتقاء الساكنين وتقلبها همزة ، كما قرأ أيوب السختياني : "ولا الضَّأِّلين" ، بوزن الضَعَلِّين . وعليه ما حكاه أبو زيد من قولهم : شأَّبة ومأَدَّة .

ومثله أيضًا قراءة أبي عمرو ، ورويناها عن قطرب عنه : "قالوا اطَّيْرنا"[4] ، وحُكي عن بعضهم : هذان عبدا آللهِ .

---

1 انظر : كتاب الضرائر للألوسي : 135 .

2 انظر : الخصائص : 2/ 475 .

3 كتب في الأصل كلمة "قصر" فوق "ها" .

4 سورة النمل : 47 .

وحُكي عنهم : له ثلثآ المال وهو أشد ؛ لأنه غير مدغم .

وقال بعضهم : يآ آلله ، وبعضهم : يا ألله ، وبعضهم : يألله ، وبعضهم : يالله ، فحذف ألف يا لالتقاء الساكنين .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وأبي العلاء بن الشخير ورويت عن أبي رجاء : "حَتَّى يَلِجَ الْجُمَّلُ" 1 ، وقرأ : "الْجُمَل" – بضم الجيم وفتحة الميم مخففة – ابن عباس وسعيد بن جبير بخلاف وعبد الكريم وحنظلة ومجاهد بخلاف .

وقرأ : "الْجُمْل" – بضم الجيم وسكون الميم – ابن عباس وسعيد بن جبير بخلاف عنهما .

"60و"

وقرأ : "الْجُمُل" – بضمتين والميم خفيفة – ابن عباس .

وقرأ أبو السمال : "الْجَمْل" مفتوحة الجيم ساكنة الميم .

قال أبو الفتح : "أما "الْجُمَّل" بالتثقيل و"الْجُمُل" بالتخفيف فكلاهما الحبل الغليظ من القنب ، ويقال : حبل السفينة ، ويقال : الحبال المجموعة ، وكله قريب بعضه من بعض .

وأما "الْجُمْل" فقد يجوز في القياس أن يكون جمع جَمَل كأَسَد وأُسْد ووَثَن ووُثْن ، وكذلك

المضموم الميم أيضاً كأُسُد .

وأما "الْجَمْل" فبعيد أن يكون مخففاً من المفتوح لخفة الفتحة ، وإن كان قد جاء عنهم قوله :

وما كل مبتاع ولو سَلْف صَفْقَهُ براجع ما قد فاته بِرِداد2

ومن ذلك قراءة عكرمة : "لا يَنالُهُم اللَّهُ بِرَحْمَةٍ دَخَلُوا الْجَنَّةَ"3 .

وقرأ طلحة بن مُصرِّف4 : "بِرَحْمَةٍ أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ" أي : فُعِلَ ذلك بهم .

---

1 سورة الأعراف : 40 .

2 البيت للأخطل ، وفي الهامش : وإن سلف . ورُوي : "مغبون" مكان "مبتاع" ، و"يراجع" بالياء مكان "براجع" بالباء ، و"بوداد" مكان "برداد" . المبتاع : المشتري ، الصفق : مصدر صفق البائع ، إذا ضرب بيده على يد صاحبه عند المبايعة ، والمراد إيجاب البيع ، وضمير صفقه للمبتاع أو المغبون ، الرداد بكسر الراء : مصدر راد البائع صاحبه إذا فاسخه البيع . وانظر : الديوان : 137 ، وشرح شواهد الشافية : 18 – 21 .

3 سورة الأعراف : 49 .

4 هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب أبو محمد ، ويقال له : أبو عبد الله الهمداني الكوفي ، تابعي كبير ، له اختيار في القراءة ينسب إليه . قال العجلي : اجتمع قراء الكوفة في منزل الحكم بن عيينة فأجمعوا على أنه أقرأ أهل الكوفة ، فبلغه ذلك ، فغدا إلى الأعمش

فقرأ عليه ليذهب عنه ذلك . أخذ القراءة عرضاً من إبراهيم بن يزيد النخعي والأعمش ويحيى بن وثاب ، وروى القراءة عرضاً عنه الكسائي وغيره ، ومات سنة 112 .

طبقات القراء : 1/ 343 .

(41/262)

قال أبو الفتح : الذي في هاتين القراءتين خطابهم بقوله سبحانه : "لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" ، وطريق ذلك أن قوله : "أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ" الوقف هنا ، ثم يُستأنف فيقال : "دَخَلُوا الجنة" ، أو "أُدْخِلُوا الجنة" أي : قد دخَلوا أو أُدخلوا ، وإضمار قد موجود في الكلام نحو قوله : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ 1 أي : قد حصرت صدورهم ؛ أي : فقد دخلوا الجنة ، فقال لهم : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ، وقد اتسع عنهم حذف القول كقوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ 2 أي : يقولون لهم : سلام عليكم ، وقال الشاعر :

رَجْلان من ضبة أخبرانا إنا رأينا رجلًا عريانا 3

أي قالا : إنا رأينا ، ولذلك كَسَر . هكذا مذهب أصحابنا في نحو هذا من إضمار القول .

وقد يجوز أن يكون قوله : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ قولًا مرتجلًا لا على تقدير

إضمار القول ؛ لكن استأنف الله عز وجل خطابهم ، فقال : "أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ" ، كما استأنفه تعالى على القراءة المشهورة وهي : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ .

ومثله من ترك كلام إلى كلام آخَرَ بيتُ الكتاب ، وهو قوله :

ألا يا بيتُ بالعلياء بيتُ[4]

ألا تراه حمله على أنه نادى البيت ، ثم ترك خطابه وأقبل على صاحبه ، فقال : بالعلياء بيتُ ، ثم رجع إلى خطاب البيت فقال له :

ولولا حب أهلك ما أتيت

وسألني قديمًا بعض مَن كان يأخذ عني ، فقال : لِمَ لا يكون "بيت" الثاني تكريرًا على الأول

---

1 سورة النساء : 90 .

2 سور الرعد : 23 .

3 الخصائص : 2/ 338 .

4 عجزه كما سيذكره بعد :

ولولا حب أهلك ما أتيت

وانظر : الكتاب : 1/ 312 .

كقولك : يا زيد زيد ، ويكون بالعلياء في موضع الحال من البيت الأول ، كما كان قول النابغة :

يا دارَ ميةَ بالعلياء 1

قوله : "بالعلياء" في موضع الحال ؛ أي : يا دار مية عالية مرتفعة ، فيكون كقوله :

يا بؤس للجهل ضَرَّارًا لأقوام2

هذا معنى ما أورده بعد أن سددت السؤال ومكنته ، فقلت : لا يجوز ذلك هنا ؛ وذلك أنه لو كان البيت الثاني تكريرًا على الأول لقال : لولا حُب أهلك ما أتيت ، فيكون كقولك : يا زيد ، لولا مكانك ما فعلت كذا ، وأنت لا تقول : يا زيد ، ولولا مكانك لم أفعل كذا3 ، فإذا بَطَلَ هذا ثبت ما قاله صاحب الكتاب من كونه كلامًا بعد كلام ، وجملة تتلو جملة .

وهذا واضح ، فقوله على هذا : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ ﴾ جملة لا موضع لها من الإعراب من حيث كانت مرتجلة ، وهي في القول الأول منصوب الموضع على الحال ؛ أي : دخلوا الجنة أو أُدخلوا الجنة ، مقولًا لهم هذا الكلام الذي هو : لا خوف عليكم ، وحُذِفَ القول وهو منصوب على الحال ، وأقيم مقامه قوله : "لا خوف عليكم" فانتصب "60ظ" انتصابه ، كما أن قولهم : كلَّمته فاه إلى فِيّ منصوب على الحال ؛ لأنه ناب عن : جاعلًا فاه إلى فِيّ ، أو لأنه وقع موقع مشافهة التي هي نائبة عن مشافِهًا له .

ومن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق : "أو نُرَدَّ "4 بنصب الدال .

---

1 البيت بتمامه :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

ورُوي : أعيت جوابًا وما بالربع من أحد . وروي هذا الشطر عجزًا لقوله :

وقفت فيه طويلًا كي أسائلها

وانظر : الكتاب : 1/ 364 ، وشرح المعلقات السبع للزوزني : 193 .

2 صدره :

قالت بنو عامر خالوا بني أسد

والبيت للنابغة ؛ يعني : ما كان من عزم بني عامر على قومه في مقاطعة بني أسد والدخول لي حلفهم ، فجعلهم في ذلك . خالوا : تاركوا ، ويقال للمطلقة : خلية . الكتاب : 1/ 364 ، والخصائص : 3/ 106 .

3 أي : وقد قال الشاعر : ولولا حب .

4 سورة الأعراف : 53 .

قال أبو الفتح : الذي قبله مما هو متعلق به قوله : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ ، ثم قال : "أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" فعطف "نرد" على "يشفعوا" ، وهو منصوب لأنه جواب الاستفهام وفيه معنى التمني ؛ وذلك أنهم قد علموا أنه لا شفيع لهم ، وإنما يتمنون أن يكون لهم هناك شفعاء ، فيردوا بشفاعتهم ، فيعملوا ما كانوا لا يعملونه من الطاعة ؛ فيصير به المعنى إلى أنه كأنهم قالوا : إن نُرزق شفعاء يشفعوا لنا أو نُرْدَد ، وتقديره مع رفع نرد على قراءة الجماعة : أن نُرزق شفعاء يشفعوا لنا ، وإن نردد نعمل غير الذي كنا نعمل . وذلك أنهم مع نصب "نرد" تمنوا الشفعاء وقطعوا بالشفاعة ، وتمنوا الرد أيضاً وضَمِنُوا عمل ما لم يكونوا يعملونه ؛ أي : إن نُردد نعمل غير الذي كنا نعمل كأنه قال : أو هل نرد فنعمل .

فأما قوله سبحانه : "يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ" 1 ، فقال فيه أبو الحسن : إنهم إنما تمنوا الرد ، وضمنوا ألا يُكَذِّبُوا ، وهذا يوجب النصب لأنه جواب للتمني ، قال : إلا أنه عُطِفَ في اللفظ والمراد به الجواب ، وشَبَّهه بقول الله سبحانه : "وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ" 2 بالجر ، قال : فهي في اللفظ معطوفة على المسح ، وفي المعنى معطوفة على الغسل ، قال ونحو منه : هذا حجر ضَبٍّ خربٍ . وقرأها الحسن : "أو تُريدُ فَنَعْملُ" فهو على هذه القراءة على أنهم تمنوا إرادته عز وجل إيمانَهم وعملَهم .

فإن قيل : وكيف يصح تمنيهم إرادتَه منهم الإيمانَ ، ومعلوم أنه هو المراد منهم لقوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ 3 وغيره من الآي ؟

قيل : يكون معناه إرادة اقتسار لهم على الإيمان لا رَدّ منه تعالى الأمر إليهم فيه ، فيكون هذا كقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ 4 أي : لو شاء مشيئة إلجاء أو إكراه لا عَرْض وترغيب .

وساغ في هذه القراءة تمنيهم العمل ؛ إذ كان بلطف الله – عز وجل – لهم فيه وإعانته إياهم عليه .

---

1 سورة الأنعام : 27 .

2 سورة المائدة : 6 .

3 سورة الذاريات : 56 .

4 سورة يونس : 99 .

وإن شئت قلت : عطَف "نعمل" بالرفع لفظًا وهو ينوي أنه جواب ؛ أي : إن شاء الله ذلك مشيئة إلجاء عملنا لا محالة ، فيعطفه لفظًا وهو يريد الجواب على ما مضى .

ومن ذلك قراءة حُميد : "يَغْشَى" 1 بفتح الياء والشين ، ونصب "الليل" ورفع "النهار" 2 .

قال أبو الفتح : اتصال قوله تعالى : "يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ" بقوله : "ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ"

اتصال الحال بما قبلها ، ويكون هناك عائد منها إلى صاحبها وهو الله تعالى ؛ أي : يَغشَى الليلَ النهارُ بأمره أو بإذنه ، وحذف العائد كما يحذف من خبر المبتدأ في نحو قولهم : السَّمْنُ مَنَوان بدرهم ؛ أي : منوان منه بدرهم .

ودعانا إلى إضمار هذا العائد أن تتفق القراءتان على معنى واحد ؛ ألا ترى إلى قراءة الجماعة : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ ، وأن هذه الجملة في موضع الحال ؛ أي : استوى على العرش مُغْشِيًا الليل النهار ؛ أي : استوى عليه في هذه الحال "61و" .

فقوله إذن : ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ بدل من قوله : "يغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ" للتوكيد ، وهو على قراءة الجماعة : "يُغْشِي" أو "يُغَشِّي" حال من الليل ؛ أي : يُغَشِّي الليل النهار طالبًا له حثيثًا ، وحثيثًا بدل من طالب أو صفة له ؛ لأن طالبًا لو كان منطوقًا به حال هناك ، والحال عندنا فوصف3 من حيث كانت في المعنى خبرًا ، والأخبار توصف ؛ لكن الصفات عندنا لا توصف .

وإن شئت يكون "حثيثًا" حالًا من الضمير في يطلبه ، وفيه من بعد هذا ما أذكره ؛ وذلك أن الفاعل في المعنى من أحد المفعولين في قراءة الجماعة هو الليل ؛ لأنه المفعول الأول ، كقولك : أعطيت زيدًا عمرًا ، فزيد هو الآخذ وعمرو هو المأخوذ ، وأغشيت جعفرًا خالدًا ، فالغاشي جعفر والمغشيُّ هو خالد ، والفاعل في قراءة حميد هو النهار ؛ لأنه مرفوع : "يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ" ، فالفاعلان والمفعولان جميعًا مختلفان على ما ترى .

1 سورة الأعراف : 54 .

2 قال في البحر المحيط : "وقرأ بالتضعيف الأخوان وأبو بكر ، وبإسكان الغين باقي السبعة ، وبفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضم اللام حميد بن قيس ، كذا قال عنه أبو عمرو الداني . . . . قال ابن عطية : وأبو الفتح أثبت . انتهى ، وهذا الذي قاله من أن أبا الفتح أثبت كلام لا يصح ؛ إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفة رواياتها واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءات . . . " . 4/ 309 .

3 كذا بالأصل ، والأخفش يجيز زيادة الفاء في جميع خبر المبتدأ . شرح الكافية : 1/ 102 .

(45/262)

ووجه صحة القراءتين جميعًا والتقاء معنَيَيْهما أن الليل والنهار يتعاقبان ، وكل واحد منهما وإن أزال صاحبه فإن صاحبه أيضًا مُزيلٌ له ، فكل واحد منهما على هذا فاعل وإن كان مفعولًا ، ومفعول وإن كان فاعلًا . وعلى أن الظاهر في الاستحثاث هنا إنما هو النهار ؛ لأنه بسفوره وشروقه قد أظهر أثرًا في الاستحثاث من الليل . وبعدُ ، فليس النهار إلا ضوء الشمس ، والشمس كائنة محدثة ، ولا ضوء قبل أن يخلقها لله جل وعز ، فالضوء إذن هو

الهاجم على الظلمة ، ويطلبه حثيثًا ، على هذا حال من النهار ؛ لأنه هو الأحث منهما .

ويجوز في قراءة الجماعة أن يكون يطلبه حالا من النهار وإن كان مفعولًا ، كقولك : ضربتْ هندٌ زيدًا مؤلِمَة له ، فقد يكون مؤلمة حالًا لزيد ، كما قد يجوز أن يكون حالًا من هند ؛ وذلك أن لكل واحد منهما في الحال ضميرًا . ومثله قول الله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ 1 ، قد يجوز أن يكون "تحمله" حالًا منها ، ويجوز أن يكون حالًا منه ، وقد يجوز أيضًا أن يكون2 منهما جميعًا على قوله :

فلئن لقيتك خاليين لتعلما أيي وأيك فارسا الأحزاب ؟3

ويجوز أيي وأيك فارسُ الأحزاب ؛ أي : أينا فارس الأحزاب ، فكذلك يكون قوله : يطلبه حثيثًا ، حالًا منهما جميعًا على ما مضى ؛ لأن لهما جميعًا فيه ضميرًا . ولو كان الآية فأتت به قومها تحمله إليه4 لجاز أن يكون ذلك حالًا منها ، ومنه ومنهم جميعًا ؛ لحصول ضمير كل واحد منهم في الجملة التي هي حال ، فاعرف ذلك .

ولعمري إنك إذا قلت : أغشيتُ زيدًا عمرًا ، فإن العرف أن يكون زيد هو الغاشي وعمرو هو المغشيّ ، إلا أنه قد يجوز فيه قلب ذلك ، لكن مع قيام الدلالة عليه ، ألا ترى إلى قوله :

فدع ذا ولكن من ينالُك خيرُه ومن كان يعطي حقَّهن القَصائدا ؟

أراد : يعطي القصائد حقهن ، ثم قدم المفعول الثاني فجعله قبل الأول من حيث كانت القصائد هنا هي الآخذة في المعنى ، ونحوه : كسوت ثوبًا زيدًا ، ساغ تقديمه لارتفاع الشك

فيه ، وليس

---

1 سورة مريم : 27 .

2 في ك : أن يكون حالًا .

3 انظر : شرح الشواهد الكبرى للعيني بهامش الخزانة : 3/ 422 .

4 الضمير للقوم .

كذلك يُغشي "61ظ" الليل النهار ؛ من حيث كانا متساويي الحالين في الغِشْيان ، وعلى كل حال فكل واحد منهما غاشٍ لصاحبه .

ومن ذلك قراءة الحسن بخلاف وقتادة وأبي رجاء والجحدري وسهل بن شعيب 1 :

"نُشْرًا" 2 بضم النون وجزم الشين .

وقرأ : "بَشْرًا" – بفتح الباء ساكنة الشين – أبو عبد الرحمن بخلاف .

وقرأ : "بُشُرًا" – بالباء مضمومة منونين – ابن عباس والسلمي بخلاف وعاصم بخلاف .

وقرأ : "بُشْرى" – غير منونة على فُعْلَى – محمد بن السميفع وابن قطيب .

وقرأ : "نَشَرًا" – بفتح النون والشين – مسروق 3 .

قال أبو الفتح : أما "نُشْرًا" فتخفيف "نُشُرًا"4 في قراءة العامة ، والنُّشُر جمع نَشُور ؛ لأنها تَنْشُر السحاب وتستدرُّه ، والتثقيل أفصح لأنه لغة الحجازيين ، والتخفيف في نحو ذلك لتميم .

وأما "بُشُرًا" فجمع بشير ؛ لأنه الريح تبشِّر بالسحاب .

وأما "بَشْرًا" فمصدر في موضع الحال ، كقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ 5 أي : ساعيات ، فكذلك "بَشْرًا" أي : باشرات في معنى مبشرات ، يقال : بَشَرتُ الرجل أبشُرُه بَشْرًا ، فأنا باشر وهو مبشور ، وأبشرته أُبْشِرُه ، فأنا مُبْشِر وهو مُبْشَر . وبشَّرته تبشيرًا ، فأنا مُبَشِّر وهو مُبَشَّر . وبَشِر بالأمر يَبْشَر به ، فهو بَشِرٌ ، كفرح به يفرح فرحًا ، وهو فَرِح ، وأبشر هو أيضًا يُبْشِرُ إبشارًا ، ومنه المثل السائر :

أبشر بما سرك عيني تختلج6

---

1 هو سهيل بن شعيب الكوفي ، عرض على عاصم بن أبي النجود وعلي أبي بكر بن عياش ، وروى القراءة عنه عبد الله بن حرملة بن عمرو .

2 سورة الأعراف : 57 .

3 هو مسروق بن الأجدع بن مالك أبو عائشة ، ويقال : أبو هشام الهمداني الكوفي . أخذ القراءة عرضًا عن عبد الله بن مسعود ، وروى عن أبي بكر وعمر وعلي وغيرهم . وروى القراءة عنه عرضًا يحيى بن وثاب . توفي سنة 63 . طبقات القراء : 2/ 294 .

4 هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب ، ووافقهم ابن محيصن واليزيدي ، كما في الإتحاف : 136 .

5 سورة البقرة : 260 .

6 انظر : أساس البلاغة "خلج" .

(47/262)

والبِشَارَة : حسن البَشَرَة ، قال أبو إسحاق : قيل لما يُفْرَح به بِشارة ؛ لأن الإنسان إذا فرح حسنت بَشَرته .

فإن قيل : فإن البَشَرة قد يبين عليها الحسن تارة والقبح أخرى ، فكيف خُص به ها هنا حسنها دون قبحها ؟

قيل : من عادتهم أن يوقعوا على الشيء الذي يختصونه بالمدح اسم الجنس المطلق على جميع أجزائه المختلفة ، ألا تراهم قالوا : لفلان خُلُق فخصوه بالمدح ، وإن كان الخلق يكون قبيحًا كما يكون حسنًا ؟

وقالوا للكعبة : بيت الله ، والبيوت كلها لله ، فخصوا باسم الجنس أشرف أنواعه .

وقالوا : فلان متكلم ، يعنون به صاحب النظر ، والناس كلهم متكلمون .

وأما "بُشْرَى" على فُعْلَى فمنصوبة على الحال أيضاً ؛ أي : مُبشِّرات على ما مضى .

وفي "نَشَرًا" فعلى حذف المضاف ؛ أي : ذوات نشر ، والنَّشَر أن تنتشر الغنم بالليل فترعى ، فهذا على تشبيه السحاب في انتشاره وعمومه من هاهنا ومن هاهنا بالغنم إذا انتشرت للرعي .

ومن ذلك قراءة علي – عليه السلام – وابن عباس وابن مسعود وأنس بن مالك وعلقمة والجحدري والتيمي وأبي طالوت وأبي رجاء : "وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ" 1 .

وقرأ : "وَيَذَرْكَ" – بإسكان الراء – الأشهب .

وقرأ : "ويذرُك"2 نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف .

قال أبو الفتح : أما "إِلَاهَتَك" فإنه عبادتك ، ومنه الإله ؛ أي : مستحق العبادة ، وقد سميت الشمس إِلاهَة وأَلاهة3 ؛ لأنهم كانوا يعبدونها ، ويقال : تَأَّله تألهًا . قال رؤبة :

سبَّحن واسترجعن من تألهي4

---

1 سورة الأعرف : 127 .

2 قال في البحر المحيط 4/ 367 : وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف عنه : "ويذرُك" بالرفع عطفًا على أتذر .

3 في القاموس المحيط أنه مثلث .

4 قبله :

لله در الغانيات المده

المده : من مدهه يمدهه مدهًا ، مثل مدحه . وانظر : الديوان : 165 ، واللسان "مده ، وأله" .

(48/262)

أي : عبادتي ، ويقال : لاهِ أبوك ، ولهْ أبوك ، ولَهْيَ أبوك ولَهِ أبوك ، وفي تصريفها بعض الطول ؛ فندعه تخفيفًا .

وأما "ويذَرُك" بالرفع فعلى الاستئناف "62و" أي : فهو يذرك .

وأما "يذَرْك" بالإسكان فيمن "يذَرُك" ، كقراءة أبي عمرو : "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرْكُمْ" 1 .

وحكى أبو زيد : "رُسُلْنا" بإسكان اللام استثقالًا للضمة مع توالي الحركات ، ولم يسكن أبو عمرو "يَأْمُرُهم" كما أسكن "يأمركم" ؛ وذلك لخفاء الهاء وخفتها فجاء الرفع على واجبه . وليست الكاف في "يأمركم" بخفِّيه ولا خفيفة خفة الهاء ولا خفاءها ، فثقل النطق بها فحذف ضمتَها .

ومن ذلك قراءة الحسن : "إنما طَيْرُكُمْ 2 عند الله" 3 .

قال أبو الفتح : الطير جمع طائر في قول أبي الحسن ، وفي قول صاحب الكتاب : اسم للجمع

، بمنزلة الجامل والباقر غير مكسَّر .

وروينا عن قطرب في كتابه الكبير أن الطير قد تكون واحدًا ، كما أن الطائر الذي يقرأ به الجماعة واحد ، وعلى أنه قد يكون الطائر جِمَاعًا بمنزلة الجامل والباقر . وأنشد ابن الأعرابي :

وبالعثانين وبالحناجر كأنه تَهتانُ يومٍ ماطرِ

على رءوسٍ كرُءوس الطائر4

ومن ذلك قراءة الحسن : "عَلَيْهِمُ الْقَمْل"5 بفتح القاف ، وسكون الميم .

قال أبو الفتح : "القَمْل" هنا : هو هذا المعروف ، ولا يجوز أن يكون تحريف القُمَّل ، ولا لغة

---

1 سورة النساء : 58 .

2 كذا في الأصل ، والكشاف : 1/ 342 ، وفي البحر المحيط : 4/ 37 ، وإتحاف فضلاء الشر : 138 : "طيرهم" .

3 سورة الأعراف : 131 .

4 العثانين : جمع عثنون وهو اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين أو ما نبت علي الذقن وتحته سفلًا أو هو طولها ، وشعيرات طوال تحت حنك البعير . وقد أورد البيت الأخير غير معزو في الخصائص : 2/ 490 .

5 سورة الأعراف : 133 ، وأولها : فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل . . .

فيه ، كالجمْل والْجُمَّل في قراءة من قرأ : "حَتَّى يَلِجَ الْجَمْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ" ؛ لأن لهذا وجهًا قائمًا معروفًا ، وهو هذا القَمْل المعروف .

ومن ذلك قراءة الحسن أيضًا : "سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ" 1 .

قال أبو الفتح : ظاهر هذه القراءة مردود ؛ لأنه سأُفْعِلُكم من رأيتُ ، وأصله : سَأُرْئِيكُم ، ثم خففت الهمزة بحذفها وإلقاء حركتها على الراء ، فصارت سأُريكم . قالوا : وإذن لا وجه لها ، ونحو من هذا قراءته أيضًا : "ولا أَدْرَأْتُكُم به" ، إلا أن له وجهًا ما ، هو أن يكون أراد : "سأُرِيكم" ثم أشبع ضمة الهمزة فأنشأ عنها واوًا ، فصارت "سَأُورِيكم" .

وقد جاء من هذا الإشباع الذي تنشأ عنه الحروف شيء صالح نثرًا ونظمًا ، فمن المنثور قولهم : بينا زيد قائم جاء عمرو ، إنما يراد بين أوقات زيد قائم جاء فلان ، فأشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفًا . ومثله قول عنترة :

يَنْبَاع من ذِفْرَى غَضوب جسرة2

أراد : ينبع ، فأشبع فتحة الباء فنشأت عنها ألف كما ترى ، على هذا حمله لنا أبو علي سنة إحدى وأربعين ، وقد قال الأصمعي مع ذلك يقال : انباع الشجاع ينباع انبياعًا إذا

انخرط ماضيًا من الصف .

وأخبرنا أبو علي عن أحمد بن يحيى أنه قال : يقال : جِيء به من حيثُ ولَيْسا 3 .

ورَوى الفراءُ عن بعضهم أنه سمعه يقول : أكلت لحما شاة ، وهو يريد : لحم شاة ، فأشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفًا ، وهو اعتراض بين المضاف والمضاف إليه علي ضيق الوقت وقصره بينهما . ومنه المسموع عنهم في الصياريف والدراهيم 4 ، وأنشدنا أبو علي :

---

1 سورة الأعراف : . 145

2 عجزه :

زيافة مثل الفنيق المكدم

وانظر الصفحة 164 من هذا الجزء .

3 أشبع فتحة ليس . وانظر : الخصائص : 3/ . 123

4 يشير إلى قول الفرزدق :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهيم تنقادُ الصياريف

ويُروى : "الدراهم" مكان "الدراهيم" ، وانظر : الديوان : 570 .

وأنني حيثما يسري الهوى بصري من حَوْثُما سلكوا أثنى فأَنظور 1

يريد : فأنظره ، فأشبع الضمة فأنشأ عنها واوًا ، هكذا رواه أبو علي يسري من سريت ، ورواه ابن الأعرابي "62 ظ" : يشري – بالشين معجمة – أي : يُقلق ويحرك الهوى بصري ، وما أحسن هذه الرواية وأطرفها ! وأنشد غيرهما :

عَيْطاء جَمَّاء العِظَام عُطْبولْ كأَن في أنيابها القَرَنْفولْ2

يريد : القَرَنْفُل ، فإذا جاز هذا ونحوه نظمًا ونثرًا ساغ أيضاً أن يُتأول لقراءة الحسن : "سأُورِيكُمْ" ، أراد : سأُرِيكم وأشبع ضمة الهمزة فأنشأ عنها واوًا ، وهو أبو سعيد ، والمأثور من فصاحته ومتعالَم قوة إعرابه وعربيته ! فهذا مع ما فيه من نظائره أمثل من أن يُتلقي بالرد صِرفًا غير منظور له ولا مسعيٍّ في إقامته . وزاد في احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ ، فمُكن الصوت فيه وزاد إشباعه واعتماده ، فأُلحقت الواو فيه لما ذكرنا .

ومن ذلك قراءة مجاهد : "فَلا تَشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ"3 ، وقرأ أيضًا : "فَلا يَشْمَتْ بِيَ الْأَعْدَاءُ" .

قال أبو الفتح : الذي رويناه عن قطرب في هذا أن قراءة مجاهد : "فَلا تَشْمَتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ" رفع – كما ترى – بفعلهم ، فالظاهر أن انصرافه إلى الأعداء ، ومحصوله : يا رب ، با تُشْمِتْ أنت بي الأعداء ، كقراءة الجماعة .

فأما مع النصب فإنه كأنه قال: لا تَشْمَتْ بي أنت يا رب، وجاز هذا كما قال سبحانه: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ 4 ونحوه مما يجري هذا المجرى، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلًا نصب به الأعداء 5، فكأنه قال: لا تُشْمِتْ بي الأعداء، كقراءة الجماعة.

---

1 ينسبه الزوزني في شرح المعلقات السبع "144" إلى إبراهيم بن هرمة.

يُروى: "وأنني حوثما يثني"، ويُروى: "يشري" بالشين مكان "يسري"، ويروى: "حيثما" في الشطرين، وحوث: لغة في حيث، ويشري مضارع اشريته، متعدي شري البرق من باب فرح إذا كثر لمعانه، وشري زمام الناقة إذا كثر اضطرابه، وانظر: سر صناعة الإعراب: 1/ 3، والخزانة: 1/ 58.

2 رُوي: "ممكورة جم العظام"، العيطاء: الطويلة العنق، والمكمورة: المطوية الخلق من النساء، العطبول: المرأة الفتية الجميلة العنق. وانظر: الخصائص: 3/ 124، واللسان "قرنفل".

3 سورة الأعراف: 150، وقراءة مجاهد هذه برفع "الأعداء" ونصبها.

4 سورة البقرة: 15.

5 قال في البحر المحيط 4/ 396: وهذ خروج عن الظاهر، وتكلف في الإعراب. وقد روي: تعدى يشمت لغة، فلا يتكلف أنها لازمة مع نصب الأعداء، وأيضًا قوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم ﴾ إنما ذلك على سبيل المقابلة لقولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون ﴾ فقال:

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم ﴾ ، وكقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ ، ولا يجوز ذلك ابتداء من غير مقابلة .

(51/262)

ومن ذلك قراءة أبي وَجْزَة السعدي : "هِدْنا إليك" 1 .

قال أبو الفتح : أما "هُدْنا" بضم الهاء مع الجماعة فتُبْنَا ، والْهُود : جمع هائد ؛ أي : تائب .

وأما "هِدْنا" بكسر الهاء في هذه القراءة فمعناه انجذبنا وتحركنا ، يقال : هادَني يهيدُني هيْدًا ؛ أي : جذبني وحركني ، فكأنه قال : إنا هِدْنا أنفسنا إليك2 ، وحركناها نحو طاعتك .

قال :

أَلِمَّا عليها فانعَيانِيَ وانظرا أينصتها أم لا يُهيِّدُها ذِكْري

أي : أم لا يهيجها ويهزها ذكري ، ومنه قولهم في زجر الإبل : هِيد ؛ أي : أسرعي . قال ذو الرمة :

إذا حداهن بهيدٍ هِيدِ صفحْن للأزرار بالخدود3

ومن ذلك قال ابن رومي4 : حدثني أحمد بن موسى ، وحدثني الثقة عنه أنه قرأ : "النَّبِيَّ

الْأَمِّيَّ"5 بفتح الهمزة ، يقول : يأْتم به مَنْ قبله .

قال أبو الفتح : هذا منسوب إلى مصدر أَمَمت الشيء أَمًّا ، كقولك : قصدته قصدًا ، ثم أضيف إليه عليه السلام ، هذا على هذا التفسير الذي سبق ذكره .

وقد يجوز مع هذا أن يكون أراد الأُمي بضم الهمزة كقراءة الجماعة ، ثم لحقه تغيير النسب ، كقولهم في الإضافة إلى أُمَيَّة : أَموى ، بفتح الهمزة ، وكقولهم في الدهر : دُهْرِي ، وفي الأمس : إِمْسِي ، وفي الأفق : أَفَقِي بفتح الهمزة ، وهو باب كبير واسع عنهم .

---

1 سورة الأعراف : 156 .

2 في ك : إليك أنفسنا .

3 هيد وهيد "بفتح الهاء وكسرها" : من زجر الإبل واستحثاثها . صفحن : نظرن بصفاح خدودهن, الأزرار : الحلق التي تجعل في أنوف النوق ، وتعقد فيها الأزمة . وانظر : الديوان : 161 ، وأراجيز العرب للبكري : 69 .

4 هو محمد بن عمر بن عبد الله بن رومي ، ويقال : فيروز ، أبو عبد الله البصري ، مقرئ جليل . أخذ القراءة عرضاً عن العباس بن الفضل وأبي محمد اليزيدي ، وهو من أجل أصحابهما ، وروى عن أحمد بن موسى اللؤلئي وعن الكسائي حروفهما . وروى الحروف عنه محمد بن عبيد بن عقيل وعلي بن الحسن . طبقات القراءة : 2/ 218 .

5 سورة الأعراف : 157 .

ومن ذلك قراءة الحسن وعمرو 1 الأسواري : "أُصيبُ به مَن أَسَاءَ"2 .

قال أبو الفتح : هذه القراءة أشد إفصاحًا بالعدل من القراءة الفاشية التي هي : "مَن أشاء" ؛ لأن العذاب "63و" في القراءة الشاذة مذكور علة الاستحقاق له ، وهو الإساءة ، والقراءة الفاشية لا يُتناول من ظاهرها علة أصابة العذاب له ، وأن ذلك لشيء يرجع إلى الإنسان ، وإن كنا قد أحطنا علمًا بأن الله تعالى لا يظلم عباده ، وأنه لا يعذب أحدًا منهم إلا بما جناه واجترمه على نفسه ، إلا أنا لم نعلم ذلك من هذه الآية ؛ بل من أماكن غيرها .

وظاهر قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَشَاء ﴾ بالشين معجمة ربما أوهم من يضعف نظره من المخالفين أنه يعذب من يشاء من عباده ، أساء أو لم يسئ ، نعوذ بالله من اعتقاد ما هذه سبيله ، وهو حسبنا ووليّنا .

ومن ذلك قراءة الجحدري وسليمان التيمي وقتادة : "وعَزَرُوه"3 خفيفة الزاي .

قال أبو الفتح : مشهور اللغة في ذلك : عزَّرت الرجل : أي عظمته ، وهو مشدد ، وقد قالوا : عَزَرتُ الرجل عن الشيء بتخفيف الزاي إذا منعته عن الشيء ، ومنه سمي الرجل : عَزْرة ؛ فقد يجوز أن يكون "وعزَرُوه" على هذه القراءة ؛ أي : منعوه وحجزوا ذكره عن

السوء ، كقوله : سبحان الله ، ألا ترى أن أبا الخطاب فسره فقال : براءة الله من السوء ؟ فبرّأته من الشيء وحجزته عنه بمعنى واحد .

ومن ذلك قراءة يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان : "عَشِرة"4 ، وقرأ "عشَرة" بفتح الشين بخلاف .

قال أبو الفتح : أما "عشِرة" بكسر الشين فتميمية ، وأما إسكانها فحجازية .

واعلم أن هذا موضع طريف ؛ وذلك أن المشهور عن الحجازيين تحريك الثاني من الثلاثي إذا كان مضمومًا أو مكسورًا ، نحو : الرسُل والطنُب والكبِد والفخِذ ، ونحو : ظرُف وشرُف وعلِم وقدِم . وأما بنو تميم فيسكنون الثاني من هذا ونحوه ، فيقولون : رُسْل وكُتْب وكَبْد وفَخْذ ، وقد ظَرْف وقد عَلْم ، لكن القبيلتين جميعًا فارقتا في هذا الموضع من العدد معتاد لغتهما ، وأخذت كل

---

1 هو عمرو بن فايد أبو علي الأسواري البصري ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن . روى عنه الحروف حسان بن محمد الضرير وبكر بن نصار العطار . مما روى عنه : "إياك نعبد وإياك" بتخفيف الياء . طبقات القراء : 1/ 602 .

2 سورة الأعراف : 156 ، 157 .

3 سورة الأعراف : 157 .

4 سورة الأعراف : 160 .

واحدة منهما لغة صاحبتها وتركت مألوف اللغة السائرة عنها ، فقال أهل الحجاز : اثنتا عشْرة بالإسكان ، والتميميون عشِرة بالكسرة .

وسبب ذلك ما أذكره ؛ وذلك أن العدد موضع يَحْدث معه ترك الأصول ، وتُضم فيه الكلم بعضه إلى بعض ، وذلك من أحد عشر إلى تسعة عشرة ، فلما فارقوا أصول الكلام من الإفراد وصاروا إلى الضم فارقوا أيضًا أصول أوضاعهم ومألوف لغاتهم ، فأسكن من كان يحرك ، وحرك من كان يسكن ، كما أنهم لما حذفوا هاء حنيفة للإضافة حذفوا معها الياء ، فقالوا : حنفي ، ولما لم يكن في حنيف هاء تحذف فتحذف لها الياء قالوا فيه : حنيفي ، كقولهم : الجاه ، وأصله عندنا الوجه ، فقلبوه فقدموا العين على الفاء ، وكان قياسه أن يقولوا : جَوْه ، إلا أنهم لما قلبوا شجُعوا عليه فغيروا بناءه . فأصاروه من جَوْه إلى جَوَه ، فانقلبت الواو التي هي فاء في موضع العين ألفًا لانفتاح ما قبلها وحركتها ، فصارت جاه كما ترى .

وحسَّن ذلك لهم أيضًا ما أذكره ؛ وهو أنهم قد علموا أنهم إذا حركوا الواو وقبلها فتحة انقلبت ألفًا وهي "63ظ" ساكنة كما تعلم أبدًا ، فصار عودهم إلى سكون الحرف

مسوغًا لهم تحريكه المؤدي إلى سكونه ، حتى كأنهم لم يحدثوا في الحروف حدثًا .

فإن قيل : فهلا أقروا الواو على سكونها ، واستغنوا بذلك عن تحريكها المؤدي إلى سكون الحرف المنقلب عنها وهو الألف .

قيل : الذي فعلوه أصنع ؛ وذلك أنهم إذا قلبوه ألفًا صار بمنزلة وجود الحركة فيه ؛ لأن الألف في نحو هذا لا تنقلب إلا عن حركة وهي مع هذا ساكنة ، فاجتمع لهم في الألف أمران :

أحدهما : تحريك الساكن لما عَرَض لهم هناك في القلب على عادتهم في إلحاق التحريف[1] بعضه ببعض .

والآخر : سكون الألف لفظًا مع ما قدمناه من اعتقاد تحريكها معنى .

وإذا أدى الحرف الساكن مع خفته تأدية المحرَّك على ثقله ، فتلك صنعة مأنُوس بها مُعْتَمَدٌ مثلها ، وما لحقه تغيير ما فدعا ذاك إلى إلحاقه تغييرًا ثانيًا كثير في اللغة جدًّا ، ألا ترى إلى أحد قولي سيبويه في أَيْنُق : إن الياء فيها بدل من الواو التي هي عين في أصل الكلمة ؛ وذلك أن أصلها أَوْنُق ، وقد حكاها الفراء فيما رويناه عنه ، فقدمت العين على الفاء فصار تقديرها أونق ، فلما تقدمت العين على الفاء فتوهنت بذلك قلبوها ياء فقالها : أينق ، وكذلك لما أَعلُّوا

---

1 المراد : التغيير والميل عن المعتاد في الاستعمال .

فاء الفعل من اتقى بأن أبدلوها تاء وأدغموها في تاء افتعل أعلُّوها أيضًا بالحذف ، فقالوا : تَقَى يَتْقِي . ومثله ما أنشده أبو زيد من قول الشاعر 1 :

قَصَرْتُ له القبيلة إذا تَجهْنا وما ضافت بشدته ذراعي

فيمن رواه بفتح الجيم2 ، ألا ترى أن وزنه افتعلنا من الوجه او تَجَهْنا ، فلما أُبدلت الواو تاء وأدغمت في تاء افتعل فصارت اتجه ، شجُعوا على أن حذفوها أيضًا فقالوا : تَجَه ؟ فوزن تَجَه الآن على لفظه تَعَل ، ومضارعه يتَجِه ، ومثاله يتَعِل ، وكذلك تَقَى فَعَل ، والجاه وزنه على اللفظ بسكون الألف عَفْل ، وهو قبل القلب عَفَل ؛ لأنه صار من جَوْه إلى جَوَه ، وأصله الأول فعْل لأنه وَجْه ، ولولا إشفاقي من الإطالة لبسطت هذا ونحوه بسطًا يونِقُ عارفيه وأهله ، وفيما ذكرنا دليل على ما أُغفل .

وأما "اثنتا عشَرة" بفتح الشين فعلى وجه طريف ؛ وذلك أن قوله : "اثنتي" يختص بالتأنيث ، و"عشَرة" بفتح الشين تختص بالتذكير ، وكل واحد من هذين يدفع صاحبه . وأقرب ما تُصرف هذه القراءة إليه أن يكون شبَّه اثنتي عَشَرة بالعقود ما بين العشرة إلى المائة ، ألا تراك تقول : عشرون وثلاثون ، فتجد فيه لفظ التذكير ولفظ التأنيث ؟ أما التذكير فالواو والنون

، وأما التأنيث فقولك : ثلاث من ثلاثون ؛ ولذلك صلحت ثلاثون إلى التسعين للمذكر والمونث فقلت : ثلاثون رجلًا وثلاثون امرأة ، وتسعون غلامًا وتسعون جارية ، فكذلك أيضًا هذا الموضع .

ألا تراه قال تعالى : ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ ؟3 فـ"أَسْبَاطًا" يؤذن بالتذكير ، و"أمم" يؤذن بالتأنيث ، وهذا واضح .

وحَسُن تشبيه اثنتي عشرة "64و" برءوس العقود دون المائة من حيث كان إعراب كل واحد منهما بالحرف لا بالحركة ، وذلك اثنتا عشْرة واثنتي عشْرة ، فهذا نحو من قولهم : عشرون وعشرين ، وخمسون وخمسين ، وتسعون وتسعين ، فافهمه .

ومما يدلك على أن ضم أسماء العدد بعضها إلى بعض يدعو إلى تحريفها عن عادة استعمالها قولهم : أحد عشر رجلًا وإحدى عشرة امرأة ، وكان قياس أربع وأربعة وخمس وخمسة أن يكون

---

1 لمرداس بن حصين من بني عبيد اله بن كلاب ، شاعر جاهلي . قصرت : حبست ، القبيلة : اسم فرسه .

2 هو الأصمعي ، ورواية أبي زيد "تجهنا" بكسر الجيم . وانظر : النوادر : 6 ، 7 ، والخصائص : 2/ 286 ، واللسان "وجه" .

3 سورة الأعراف : 160 .

هذا أَحد وأَحَدة ، أفلا ترى إلى إحدى – وهي فِعْلَى وأصلها وِحْدى – كيف عاقبت في المذكر فعلًا ، وهو أحد وأصله وَحَد ؟

فأما إحدى وعشرون إلى التسعين فإنه لما سبق التحريف إليها في إحدى عشرة ثبت فيها فيما بعد .

ومن ذلك ما رواه قتادة عن الحسن : "وقولوا حِطَّةً" 1 بالنصب .

قال أبو الفتح : هذا منصوب عندنا على المصدر بفعل مقدر ؛ أي : احْطُطْ عنا ذنوبنا حِطَّةً .

قال :

واحطُط إلهي بفضلٍ منك أوزاري

ولا يكون "حطة" منصوبًا بنفس قولوا ؛ لأن قلت وبابها لا ينصب المفرد إلا أن يكون ترجمة الجملة ، وذلك كأن يقول إنسان : " لا إله إلا الله ، فتقول أنت قلت : حقًّا ؛ لأن قوله : لا إله إلا الله حق ، ولا تقول : قلت زيدًا ولا عمرًا ، ولا قلت قيامًا ولا قعودًا ، على أن تنصب هذين المصدرين بنفس قلت لما ذكرته .

ومن ذلك قراءة شهر بن حوشب2 وأبي نهيك3 : "يَعَدُّونَ فِي السَّبْت"4 .

قال أبو الفتح : أراد يعتدون ، فأسكن التاء ليدغمها في الدال ، ونقل فتحتها إلى العين ، فصار يعَدُّون ، وقد مضى مثله في يَخَصِّف5 .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر وشيبة وأبي عبد الرحمن والحسن واختلف عن نافع : "بعَذابٍ بِيسٍ"6 فعل بلا همز ، و"بِئْسٍ" وهي قراء السلمي بخلاف ، ويحيى وعاصم بخلاف ،

---

1 سورة الأعراف : 161 .

2 هو شهر بن حوشب أبو سعيد الأشعري الشامي ثم البصري ، تابعي مشهور . عرض عليه أبو نهيك علباء بن أحمر ، ومات سنة 100 ، وقيل غير ذلك . طبقات القراء : 1/ 329 .

3 هو علباء بن أحمر أبو نهيك اليشكري الخراساني ، له حروف من الشواذ تنسب إليه ، وقد وثقوه ، عرض على شهر بن حوشب وعكرمة مولى ابن عباس . وروى عنه داود بن أبي الفرات وغيره ، وروى عنه حروفه أبو المهلب العتكي ، وقد خرج مسلم حديثه . طبقات القراء : 1/ 515 .

4 سورة الأعراف : 163 ، وقراءة الجماعة : ﴿يَعْدُونَ﴾ بفتح الياء وسكون العين .

5 انظر الصفحة : 245 ، والآية "يَخْصِفَانِ" ، وهذه قراءة الحسن فيما روى عنه محبوب

، ورُويت عن ابن أبي بردة ويعقوب . البحر المحيط : 4/ 280 .

6 سورة الأعراف : 165 .

(56/262)

والأعمش بخلاف ، وعيسى الهمداني .

"بَيْئِس" مثل فَيْعِل ابن عباس وعاصم بخلاف .

"بَيْئَس" طلحة بن مصرف .

وقرأ أبو رجاء : "بائس" ، و"بَيَسٍّ" وزن فَعَلّ .

وقراءة نصر بن عاصم وجُؤَيَّة1 بن عائذ : و"بَأْس"2 ورُوي عن مالك بن دينار أيضاً .

و"بَيِّسٍ" وزن فَعِّلٍ ، يروى عن نصر بن عاصم أيضاً .

و"بِئس" وزن فِعِل قراءة زيد بن ثابت و"بِئْس" .

ومما رويت عن الحسن و"بَيْس" ، ورويت عن نافع أيضاً .

قال أبو الفتح : أما "بِيس" بغير همز على وزن فِعْل فيحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون أراد مثال فِعْل ، فيكون كما جاء من الأوصاف على فِعْل ، نحو :

نِضْو3 ونِقْض4 وحِلْف ، وأصله الهمز كقراءة مَن قرأ "بِئْسٍ" بالهمز ، إلا أنه خفف فأبدل

ياء فصارت "بيس" كبِير وذيب ، فيمن خفف .

والآخر : أن يكون أراد فَعِلًا ، فأصله بَئِس كمَطِر وحَذِر ، ثم أسكن ونقل الحركة من العين إلى الفاء كالعبرة فيما كان على فَعِل وثانيه حرف الحلق كفَخِذ ونَغِر[5] وجِئِز[6] ، فصار إلى بِئس ، ثم خفف فقال : بِيس ، على ما مضى .

وأما "بَئِس" على فَعِل فجاء على قولهم : قد بَئِس الرجل بآسةً : إذا شَجُعَ ، فكأنه عذاب مُقدِم عليهم وغير متأخر عنهم .

وقد يجوز أيضًا أن يكون "بَئِس" مقصورًا من بئيس كالقراءة "64ظ" الفاشية ، كما قالوا في لبيق : لَبق ، وفي سيمج سَمج .

وأما "بَيْئِس" على فَيْعِل ففيه النظر ؛ وذلك أن هذا البناء مما يختص به ما كان معتل العين كسيِّد وهين ودين ولين ، ولم يجئ في الصحيح ، وكأنه إنما جاء في الهمزة لمشابهتها حرفي العلة ، والشبه بينها وبينهما من وجوه كثيرة .

---

1 هو جؤية بن عائك ، ويقال : ابن عائذ ، أبو أناس – بضم الهمزة ونون بعدها – الأسدي الكوفي . روى القراءة عن عاصم ، وذكر الداني أن له اختيارًا في القراءة . طبقات القراء : 1/ 199 .

2 الواو هنا لا محل لها ، فالآية ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ .

3 النضو : المهزول .

4 النقض : المنقوض .

5 النغر : الذي غلا جوفه وغضب ، والفعل كفرح .

6 الجئز : الغضان .

(57/262)

وأما "بَيْسٍ" في وزن جَيْشٍ فطريق صنعته أنه أراد بَئِس ، فخفف الهمزة فصارت بين بين ؛ أي : بين الهمزة والياء ، فلما قاربت الياء ثقلت فيها الكسرة فأسكنها طلبًا للاستخفاف ، فصارت في اللفظ ياء ، كما خففوا نحو صَيِدَ البعير ، فقالوا : صيْدَ وإن كنت العين في صيِد ياء محضة وكانت في بَئِس همزة مخففة ، إلا أنه شبهها بياء صَيِد لما ذكرنا من مقاربتها في اللفظ الياء ، ونحو من ذلك قول ابن ميادة :

فكان يوْميْذٍ لها حكمُها

أراد : يومئذ ، فخفف فصارت الهمزة بين بين وأشبهت الياء فأسكنها ، فقال : "يَوْمَيْذٍ" ، فهذا كبَيْسٍ على ما ترى .

وقد يجوز أن يكون أراد تخفيف بَيْئِس ، فصارت بَيِس ثم أسكن تخفيفًا ، كقولهم في عَلِمَ : عَلْم ، وفي كلمة : كَلْمة ، وفي فَخِذ : فَخْذ ، ومثال بيْس على هذا فَيْل .

فأما "بائس" فاسم الفاعل من بِئس على ما قدمنا ذكره .

وأما "بَيَس" 1 فطريف ، وظاهر أمره أن يكون جاء على ماضٍ مثالُه فَيْعَل كهَيْنَم2 ، ثم خففت الهمزة فيه وأُلقيت حركتها على الياء فصار بَيَس ، وجاز اعتقاد هذا الفعل وإن لم يظهر كأشياء تثبت تقديرًا ولا تبرز استعمالًا .

وأما "بَيِّس" بتشديد الياء وكسرها ، فليس على فَعِّل كما ظن ابن مجاهد ؛ بل هو على فَيْعِل تخفيف بيِئس على قول من قال من تخفيف سوءَة : سَوَّة ، وفي تخفيف شيء : شيّ ، فأبدل الهمزة على لفظ ما قبلها ، وعليه قول الشاعر :

يعجل ذا القباضة الوحِيَّا أن يرفع المئزر عنه شَيَّا 3

فصار بَيِّس كما ترى .

وأما "بأْسٍ" فتخفيف بَئِس ، كقولك في سَئِم : سأْم ، وفي عِلِم عَلْم .

وأما "بَيْس" فالعمل فيه من تخفيف الهمزة ثم إسكانها فيما بعد كالعمل في "بَيْسٍ" وهو يريد الاسم ، وقد مضى ذلك .

---

1 لم يذكر هذا الوجه فيما سبق .

2 الهينمة : الصوت الخفي .

3 القباضة : الانكماش والسرعة ، الوحي : السريع ، وورد الشاهد غير معزوٍّ في كل من اللسان والصحاح "قبض" .

وأما "بِئس" فعلى الإتباع مثل : فِخِذ وشِهِد . قال أبو حاتم في قراءة بعضهم : "بِئَيس" ، فهذا في الصفة بمنزلة حِذْيم1 فِعْيَل ، وكذا مثَّله أبو حاتم أيضًا .

وحكى أبو حاتم أيضًا "بِئيس" كشِعِير وبِعِير ، فكسر أوله لكسر الهمزة بعده .

وحكى أيضًا فيها "بَئِّس" فَعِّل ، وأنكرها فردها ألبتة ، وأنكر قراءة الحسن : "بِئْس" وقال : لو كان كذا لما كان بُدٌّ معها من "ما" بِئسما كنعم ما .

ومن ذلك قراءة زهير عن خُصَيف : "مِنْ ظُهورهم ذُرِّيئَتَهم"2 واحدة مهموزة .

قال أبو الفتح : هذا يمنع مِن تَأَوُّل الذرية فيمن لم يهمز أنها من الذر أو من ذَرَوت أو من ذَرَيْت ، ويقطع بأنها من ذَرَأْتُ ؛ أي : خلقتُ .

فإن قلت : فهلا أجزْتَ أن تكون من الذَّر وجعلتها فُعْلِيَّة غير أنها همزت كما وجد بخط الأصمعي : قَطًا جؤني3 .

قيل : هذا من الشذوذ ؛ بحيث لا يُسمع أصلًا ، فضلًا عن "65و" أن يتخذ قياسًا .

ومن ذلك قراءة السلمي : "وادَّارسُوا ما فيه"4 ، وعباس عن الضبي عن الأعمش : "وادَّكَروا ما فيه" .

قال أبو الفتح : "ادَّارسُوا" تدارسوا ، كقوله : "ادَّاركوا"5 ، والعمل فيهما واحد ، وقد تقدم .

---

1 الحذيم : القاطع .

2 سورة الأعراف : 172 .

3 القطا الجوني : ضرب من القطا سود بطون الأجنحة والقوادم ، قصار الأذناب ، وأرجلها أطول من أرجل الكدري ، وأجسامها أضخم ، تعدل جونية بكدريتين ، وفي الأصل : جونيء ، وهو تحريف ؛ ففي المخصص 8/ 157 قال – يعني : أبا حاتم : ووجد في بعض رقاع الأصمعي بعد موته : بعض العرب يهمز الجوني ، ولم يقله غيره .

الفارسي : هو على توهم الضمة التي في الجيم واقعة على الواو . ومثله قراءة مَن قرأ : "فاستوى على سؤقه" . وحُكي عن أبي العباس أنه قال : كان أبو حية النميري يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة . . .

وفي اللسان مثله نقلًا عنه بتصرف ، وانظر الخصائص : 3/ 146 ، وكأن وجه المشابهة التي عقدها ابن جني بين ذريئتهم وجؤني هو مطلق الهمز القليل في كلتا الكلمتين ، دون تقيد بنوع الحرف المهموز ولا بمكانه من الكلمة التي جاء فيها .

4 سورة الأعراف : 169 .

5 سورة الأعراف : 38 ، وانظر الصفحة 247 من هذا الجزء .

وأما "وادَّكَرُوا" فأراد تذكروا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا ﴾ 1 .

ومن ذلك قراءة السُّلمي : "إِيَان مرساها" 2 بكسر الهمزة .

قال أبو الفتح : أما "أَيَّان" بفتح الهمزة ففَعْلان ، وبكسرها فِعْلان ، والنون فيهما زائدة حملاً على الأكثر في زيادة النون في نحو ذلك .

فإن قيل : فهلا جعلتها فِعَّالا من لفظ أين ، قيل : يمنع من ذلك أن أيان ظرفُ زمان وأين ظرف مكان ؛ لكنها ينبغي أن تكون من لفظ "أي" ؛ لما ذكرناه من اعتبار زيادة النون في نحو هذا .

ولأن "أيًّا" استفهام كما أن "أَيان" استفهام ، وأن "أَيّ" أين كانت فهي بعض من كل ، والبعض لا يخص زمانًا من مكان ولا جوهرًا من حدث ، فحملها على "أي" أولى من حملها على أين .

وقد كنا قلنا في أي هذه : إنها من لفظ أَوَيْتُ ومعناه .

أما اللفظ فلأن باب طويت وشويت أضعاف باب حَيِيت وعَيِيت .

وأما المعنى فلأن البعض آوٍ إلى الكل ومتساند إليه ، فهي إذن من قوله :

يأْوي إلى مُلْطٍ له وكَلْكَلِ3

يصف البعير يقول : إنه يتساندُ بعضُه إلى بعض ، فهو أقوى له ، فأصلها على هذا أَوْيٌ ، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء فصارت أَيّ ، كقولك : طويت الكتاب طيًّا ، وشويت اللحم شَيًّا .

ولو سمت رجلًا بأَيَّان ، فتحت الهمزة أو كسرتها ، لم تصرفه معرفة ؛ لأنها كحَمْدان وعِمْران ، وإن كسَّرت ذلك الاسم على سِرْحان وسَراحين وحَوْمانة4 وحوامِين قلت : أوايين ، فظهرت الواو التي هي عين أَوْيتُ ، كقولك في تكسير ريَّان أو جمعه على مثال مفاعيل : روايِين ، تظهر الواو التي هي عينه لزوال علة القلب عنها .

---

1 سورة النمل : 47 .

2 سورة الأعراف : 187 ، وفي الأصل : "أيان يبعثون" ، وهذه في النحل : 21 ، وفي النمل : 65 ، وكسر همزة أيان لغة سليم ، ومنهم السلمي . البحر المحيط : 4/ 419 ، 434 .

3 الملط : جمع ملاط ككتاب ؛ وهو المرفق ، الكلكل : الصدر .

4 الحومانة : المكان الغليظ المنقاد .

ومن ذلك قراءة ابن عباس : "كأَنَّك حفيٌّ بِها" 1 .

قال أبو الفتح : ذهب أبو الحسن في قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ إلى أن تقديره : يسألونك عنها كأنك حفي بها ، فأخر "عن" وحذف الجار والمجرور للدلالة عليهما ، فهذا الذي قدره أبو الحسن قد أظهره ابن عباس ، وحذف "عنها" لدلالة الحال عليها ، ألا ترى أنه إذا كان حفيًّا بها فمن العرف وجاري عادة الاستعمال أن يُسْأَل عنها ، كما أنه إذا سئل عنها فليس ذلك إلا لحفاوته بها ؟ وإذا لم يكن بها حفيًّا لم يكن عنها مسئولًا ، وكل واحد من حرفي الجر دل عليه ما صحبه فساغ حذفه ، وهذا واضح .

ومن ذلك قراءة ابن يعمر : "فَمَرَت بِه" 2 خفيفة .

قال أبو الفتح : أصله "فمرَّت به" مثقلة ، كقراءة الجماعة ، غير أنهم قد حذفوا نحو هذا تخفيفًا لثقل التضعيف . وحكى ابن الأعرابي فيما رويناه عنه فيما أحسب : ظَنْتُ زيدًا يفعل كذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ 3 فيمن أخذه من القرار لا من الوقار ، وهذا الحذف في المكسور أسوغ ؛ لأنه اجتمع فيه مع "65ظ" التضعيف الكسرة ، وكلاهما مكروه ، وهو قوله تعالى : ﴿ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ 4 أي : ظَلِلْتَ ، وقالوا : مَسْتُ يده : أي مَسِسْتُها . وقال أبو زبيد :

خلا أن العتاق من المطايا أَحسن به فهُن إليه شُوسُ 5

أراد : أحسسن ، وهذا وإن كان مفتوحًا فإنه قد حُمل الهمزة والزائدة ، فازداد ثقلًا .

---

1 سورة الأعراف : 187 ، والقراءة الفاشية : ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ .

2 سورة الأعراف : 189 .

3 سورة الأحزاب : 33 .

4 سورة طه : 97 .

5 من قصيدة في وصف الأسد ، ويروى : "سوى" مكان "خلا" . وقبله :

فباتوا يدلجون وبات يسري بصير بالدجى هاد عموس

إلى أن عرسوا وأنخت منهم قريبًا ما يحس له مسيس

عموس : قوي شديد ، الشوس : جمع أشوس وشوساء ، من الشوس ؛ وهو النظر بمؤخَّر العين تكبرًا أو تغيظًا . وانظر : الخصائص : 2/ 438 ، وشواهد الكشاف : 69 .

(61/262)

وقرأ : "فَمَارتْ به" بألف عبد الله بن عمرو ، وهذا من ماريمور : إذا ذهب وجاء ، والمعنى واحد ، ومنه سُمي الطريق مَوْرا للذَّهاب والمجيء عليه ، ومنه الْمُورُ : التراب لذلك .

وقرأ ابن عباس : "فاستَمرَّت به "1 ، ومعناه : مرَّت مكلِّفَة نفسَها ذلك ؛ لأن استفعل إنما يأتي في أكثر الأمر لمعنى الطلب ؛ كقولك : استطعم أي : طلب الطُّعْم ، واستوهب : طلب الْهِبَة ، والباب على ذلك .

ومن ذلك قراءة سعيد بن جبير : "إِنِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا "2 نَصْبٌ ، "أمثالَكم " نصب .

قال أبو الفتح : ينبغي – والله أعلم – أن تكون إن هذه بمنزلة ما ، فكأنه قال : ما الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم ، فأعمل إن إعمال "ما" ، وفيه ضعف ؛ لأن إن هذه لم تختص بنفي الحاضر اختصاص "ما" به ، فتجري مجرى ليس في العمل ، ويكون المعنى : إنْ هؤلاء الذين تدعون من دون الله إنما هي حجارة أو خشب ، فهم أقل منكم لأنكم أنت عقلاء ومخاطبون ، فكيف تعبدون ما هو دونكم ؟

فإن قلت : ما تصنع بقراءة الجماعة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ؟ فكيف يُثبت في هذه ما نفاه في هذه ؟

قيل : يكون تقديره أنهم مخلوقون كما أنتم أيها العباد مخلوقون ، فسماهم عبادًا على تشبيههم في خلقهم بالناس3 ، كما قال : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ 4 ، وكما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ 5 أي : تقوم الصنعة فيه مقام تسبيحه .

---

1 سورة الأعراف : 189 ، وهذه إحدى الروايتين عند ابن عباس والأخرى :

"فاستمرت بحملها" ، وانظر : البحر المحيط : 4/ 439 .

2 سورة الأعراف : 194 .

3 وخرجها أبو حيان بما يجعل الآيتين متطابقتين في المعنى دون تأويل ، وهو أن إنْ هي المخففة من الثقيلة ، وأعملها عمل المشددة ، ونصب خبرها على لغة مَن ينصب من ينصب أخبار إن أخواتها ، أو على إضمار فعل تقديره : إن الذين تدعون من دون الله تدعون عبادًا أمثالكم . البحر المحيط : 4/ 444 .

4 سورة الرحمن : 6 .

5 سورة الإسراء : 44 .

ومن ذلك قراءة الجحدري : "يُمَادُّونَهم" 1 .

قال أبو الفتح : هو يُفَاعِلونهم من أَمددته بكذا ، فكأنه قال : يعاونونهم .

ومن ذلك قراءة أبي مِجْلَز 2 : "بالغُدُوِّ والإِيصال" 3 بكسر الألف .

قال أبو الفتح : هو مصدر آصلنا فنحن مؤصلون ؛ أي : دخلنا في وقت الأصيل . قال أبو النجم :

فَصَدرت بعد أَصِيل المؤصِل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 1 صـ 239 .

270 ﴾

---

1 سورة الأعراف : 202 ، وقرأ نافع : "يمدونهم" مضارع أمد ، وباقي السبعة : "يمدونهم" من مد . البحر المحيط : 4/ 451 .

2 هو لاحق بن حميد السدوسي البصري ، تابعي . البحر المحيط : 4/ 453 .

3 سورة الأعراف : 205 .

(63/262)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الأعراف

مكية إلا ثمان آيات من ( ) واسألهم ( ) إلى ( ) وإذ نتقنا ( ) وآيها مائتان وخمس بصري وشامي وست حرمي وكوفي خلافها خمس المص كوفي وتعودون كوفي أيضا له الدين بصري وشامي ضعفا من النار والحسنى على بني إسرائيل حرمي وقيل يستضعفون مدني أول شبه الفاصلة تسعة فدليهما بغرور سم الخياط والإنس في النار صراط توعدون فرعون بالسنين وموسى صعقا ولا ليهديهم سبيلا عذابا شديدا ورابع بني إسرائيل وعكسه ستة

من طين فسوف تعلمون ثم لأصلبنكم أجمعين وثلاثة من بني إسرائيل الأول

القراآت تقدم السكت لأبي جعفر على كل حرف من المص وأمال ذكرى أبو عمرو وابن

ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق

(64/262)

واختلف في ﴿ قليلا ما يتذكرون ﴾ الآية 3 فابن عامر بياء قبل التاء مع تخفيف الذال

والباقون بتاء فوقية بلا ياء قبلها وخفف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف على

أصلهم والباقون بالتشديد وتقدم إمالة جاء لحمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه وأدغم

ذال إذ جاءهم أبو عمرو وهشام واتفق على قراءة معايش بالياء بلا همز لأن ياءها أصلية

جمع معيشة من العيش وأصلها معيشة مفعلة متحركة الياء فلا تنقلب في الجمع همزة كما في

الصحاح قال وكذا مكايل ومبايع ونحوهما وما رواه خارجة عن نافع من همزها فغلط فيه

إذ لا يهمز إلا ما كانت الياء فيه زائدة نحو صحائف ومدائن وأمال دعويهم حمزة والكسائي

وخلف وأبو عمرو والأزرق بخلفهما وقرأ للملائكة اسجدوا بضم التاء وصلا أبو جعفر

بخلف عن ابن وردان والوجه الثاني له إشمام كسرتها الضم كما مر بالبقرة عن المطوعي

مذموما بواو واحدة بلا همز في الحالين وهو تخفيف ﴿ مذؤما ﴾ في قراءة الجمهور بالنقل

وحذف الهمز ووقف حمزة عليه كذلك بالنقل وأما بين بين فضعيف جدا وسهل الهمزة الثانية من لأملان الأصبهاني عن ورش وتقدم لأبي عمرو في حيث شيتما ثلاثة أوجه إدغام الثاء من حيث في شين شيتما مع الإبدال

ومع الهمز أما الإدغام مع الهمز فيمتنع لكنه ليعقوب من المصباح كما تقدم وعن الحسن سوآتهما وسوآتكم بالإفراد حيث جاء وتقدم الخلاف في مدهما عن الأزرق وما وقع للجعبري من جعل ثلاثة الواو مضروبة في ثلاثة الهمزة فتبلغ تسعة تعقبه في النشر كما مر بأنه لم يجد أحدا روى الإشباع في اللين إلا وهو يستثنى سوآت فالخلاف بين التوسط والقصر وكل من وسطها مذهبه في البدل التوسط فعليه يكون فيها أربعة فقط توسط الواو مع توسط الهمزة وثلاثة الهمزة مع قصر الواو ونظمها

وسوآت قصر الواو والهمز ثلثا

ووسطهما فالكل أربعة فادر

(65/262)

ووقف عليها حمزة بالنقل على القياس وبالإدغام إلحاقا للواو الأصلية بالزائدة وأما بين فضعيف وأمال ما نهيكما حمزة والكسائي وكذا خلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا نهاكم

بالحشر وكذا فدليهما بغرور وناديهما وعن الحسن (يخصفان) بكسر الياء والخاء وتشديد الصاد والأصل يختصفان وأدغم راء تغفر لنا أبو عمرو بخلف عن الدوري واختلف في (ومنها تخرجون) الآية 25 هنا وفي الروم الآية 19 و(كذلك تخرجون) وهو الأول منها وفي الزخرف الآية 11 وآخر الجاثية الآية 35 فحمزة والكسائي وخلف بفتح الحرف الأول وضم الراء مبنيا للفاعل وافقهم الأعمش في الأربعة وقرأ ابن ذكوان ويعقوب كذلك هنا وافقهما الحسن وقرأ ابن ذكوان أيضا في الزخرف كذلك واختلف عنه في الروم فروى الطبري وأبو القاسم الفارسي عن النقاش عن الأخفش عنه كذلك وكذا هبة الله عن الأخفش وبه قرأ الداني على الفارسي عن النقاش قال في النشر ولا ينبغي أن يؤخذ من التيسير بسواه وروى سائر الرواة عن ابن ذكوان بضم التاء وفتح الراء مبنيا للمفعول وبه قرأ الباقون في الأربعة غير أن الحسن وافق ابن ذكوان في حرف الزخرف ولا خلاف في بناء الفاعل للكل في ثان الروم وهو إذا أنتم تخرجون وكذا حرف الحشر لا يخرجون معهم قال في النشر وعبارة الشاطبي موهمة له لولا ضبط الرواية لأن منع الخروج منسوب إليهم وكذا اتفقوا على يوم يخرجون من الأجداث بسأل حملا على قوله تعالى يوفضون وعن الحسن رياشا بفتح الياء وألف بعدها جمع ريش كشعب وشعاب وأمال يواري الدوري عن الكسائي من طريق أبي عثمان الضرير وفتحها من طريق جعفر كالباقين فيقرأ له بالوجهين كموضعي المائدة كما تقدم ولذا أطلق في الطيبة فقال تمار مع أوار مع يوار

واختلف في (ولباس التقوى) الآية 26 فنافع وابن عامر والكسائي وكذا أبو جعفر بنصب السين عطفا على لباسا وافقهم الحسن والشنبوذي والباقون بالرفع إما مبتدأ وذلك ثان وخير خبر الثاني وهو وخبره خبر الأول والرابط اسم الإشارة وإما خبر محذوف أي وهو أو ستر العورة لباس التقوى ويوقف لحمزة على يا بني آدم بالتخفيف مع عدم السكت وبالسكت على الياء وبالنقل وبالإدغام فهي أربعة وهو متوسط بغيره المنفصل وأمال يراكم أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وابدل الثانية من بالفحشاء أتقولون ياء مفتوحة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وضم الهاء من عليهم الضلالة حمزة ويعقوب في الحالين وضمها معهما وصلا والكسائي وخلف أما الميم فكسرها وصلا أبو عمرو وضمها الباقون وفتح سين يحسبون ابن عامر عامر وحمزة وأبو جعفر

واختلف في (خالصة) الآية 32 فنافع بالرفع خبر هي وللذين آمنوا متعلق بخالصة وجعلها القاضي خبرا بعد خبر والباقون بالنصب على الحال من الضمير المستقر في الظرف وهو أعني الظرف خبر المبتدأ وفتح ياء الإضافة من حرم ربي الفواحش غير حمزة

وقرأ (ينزل) الآية 33 بالتخفيف ابن كثير وابو عمرو ويعقوب وأسقط الهمزة الأولى من جاء أجلهم قالون والبزي وأبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب وسهل الثانية ورش وأبو جعفر ورويس من غير طريق أبي الطيب ولورش من طريق الأزرق ثان وهو إبدالها ألفا خالصة ولا يجوز له المد كآمنوا لعروض حرف المد بالإبدال وضعف السبب بتقدمه على الشرط ولقنبل ثلاثة إسقاط الأولى من طريق ابن شنبوذ وتسهيل الثانية من طريق غيره والثالث له إبدالها ألفا كالأزرق والباقون بتحقيقها وأسكن سين رسلنا أبو عمرو وعن المطوعي تداركوا بتاء مفتوحة موضع همزة الوصل وأمال أخراهم أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه وحمزة والكسائي وخلف

(67/262)

وقلله الأزرق وأمال لأوليهم وأولاهم حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى أبو عمرو والأزرق

وقرأ (هؤلاء أضلونا) الآية 38 بإبدال الثانية ياء مفتوحة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

واختلف في ( ) ولكن لا تعلمون ( ) الآية 38 فأبو بكر بالغيب والضمير يعود على الطائفة

السائلة أو عليهما والباقون بالخطاب إما للسائلين وإما لأهل الدنيا واتفق على الخطاب في وأن تقولوا على الله مالا تعلمون

واختلف في (لا تفتح لهم) الآية 40 فأبو عمرو بالتأنيث والتخفيف وافقه ابن محيصن وعن اليزيدي بفتح الفوقية مبنيا للفاعل ونصب أبواب فخالف أبا عمرو وقرأ حمزة والكسائي وكذا خلف بالتذكير والتخفيف وافقهم الحسن والأعمش بخلف عن المطوعي في التذكير والباقون بتاء التأنيث والتشديد وكلهم ضم حرف المضارعة إلا الحسن فإنه فتحه كاليزيدي وإلا المطوعي فإنه فتح مع التذكير فقط ومن فتحه نصب أبواب على المفعولية وأدغم جهنم مهاد رويس بخلف عنه كأبي عمرو وأدغمه يعقوب بكماله من المصباح كسائر المثلين وعن ابن محيصن الجمل بضم الجيم وتشديد الميم مفتوحة وهو كالقلس والفلس حبل عظيم يفتل من حبال كثيرة للسفينة

واختلف في ( ) وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (الآية 43 فابن عامر بغير واو على أن الجملة الثانية موضحة ومبينة للأولى والباقون بإثبات الواو للاستئناف أو حالية وأمال هدانا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأدغم دال لقد جاءت أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأدغم تاء أورثتموها ابو عمرو وابن ذكوان بخلفه وهشام وحمزة والكسائي وتقدم قريبا إمالة نادى

واختلف في (نعم) الآية 44 فالكسائي بكسر العين حيث جاء وهو أربعة هنا موضعان

وفي الشعراء والصافات لغة صحيحة لكنانة وهذيل خلافا لم طعن فيها وافقه الشنبوذي والباقون بالفتح لغة باقي العرب وأبدل همز مؤذن واوا مفتوحة الأزرق وأبو جعفر وكذا وفق حمزة

(68/262)

واختلف في) أن لعنة الله (الآية 44 فنافع وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بإسكان النون مخففة ورفع لعنة على أن أن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن ولعنة مبتدأ والظرف بعده خبره والجملة خبر أن وافقهم اليزيدي وابن محيصن من المفردة واختلف عن قنبل فروى عنه ابن مجاهد والشطوي عن ابن شنبوذ كذلك وروى عنه ابن شنبوذ إلا الشطوي عنه بتشديد النون ونصب لعنة وبه قرأ الباقون وفتحت أن لوقوع الفعل عليها أي بأن ولعنة اسمها والظرف خبرها ويأتي موضع النور في محله إن شاء الله تعالى

وتقدم إمالة سيماهم بالبقرة وأما تلقاء أصحاب فهمزتان مفتوحتان تقدم حكمهما قريبا في جاء أجلهم غير أن من أبدل الهمزة الثانية عن الأزرق وقنبل يشبع المد هنا للساكن بعد وأمال ونادى وما أغنى وننساهم حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى والأزرق وأبدل الثانية من الماء أو ياء مفتوحة نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ورويس وكسر

التنوين من برحمة ادخلوا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب واختلف فيه عن قنبل لكونه عن جر فكسره ابن شنبوذ وضمه ابن مجاهد

واختلف أيضا عن ابن ذكوان فروى النقاش عن الأخفش كسره وكذا الرملي عن الصوري وروى الصوري من سائر طرقه الضم وهما صحيحان عن ابن ذكوان من طريقيه كما في النشر وبالضم قرأ الباقون وأدغم دال ولقد جئناهم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وكذا خلف وعن ابن محيصن فضلناه بالضاد المعجمة أي على غيره وعن الحسن فنعمل برفع اللام أي فنحن نعمل ونصبه الجمهور على ما انتصب عليه فيشفعوا واتفق على رفع نرد على أنه عطف فعلية على اسمية وهي هل لنا الخ

واختلف في (يغشي الليل) الآية 54 هنا والرعد الآية 3 فأبو بكر وحمزة والكسائي وكذا يعقوب وخلف بفتح الغين وتشديد الشين من غشي المضاعف وافقهم الحسن والأعمش والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين فيهما من أغشى

(69/262)

واختلف في ( ) والشمس والقمر والنجوم مسخرات (الآية 54 هنا وفي النحل الآية 12 فابن عامر فيهما برفع الشمس ما عطف عليها ورفع مسخرات على الابتداء والخبر وقرأ

حفص برفع النجوم مسخرات بالنحل لأن الناصب ثمة سخر فلو نصب النجوم ومسخرات لصار اللفظ سخرها مسخرات فيلزم التأكيد وقرأ الباقون بالنصب في الموضعين والنصب في مسخرات بالكسرة فوجهه هنا أنه عطف على السموات ومسخرات حال من هذه المفاعيل وفي النحل على الحال المؤكدة وهو مستفيض أو على إضمار فعل قبل النجوم أي وجعل الخ

وقرأ أبو بكر (وخفية) الآية 55 بكسر الخاء كما مر بالأنعام وغلظ الأزرق لام إصلاحا وقرأ الريح بالجمع نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب

واختلف في (بشرا) الآية 57 هنا والفرقان الآية 48 والنمل الآية 63 فقرأ عاصم بالباء الموحدة المضمومة وإسكان الشين في الثلاثة جمع بشير كنذير ونذر وقرأ ابن عامر بالنون مضمومة وإسكان الشين وهي مخففة من قراءة الضم وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين مصدر واقع موقع الحال بمعنى ناشرة أو منشورة أو ذات نشر وافقهم الأعمش وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بضم النون والشين جمع ناشر كنازل ونزل وشارف وشرف وافقهم ابن محيصن واليزيدي وأدغم أقلت سحابا أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام من طريق الداجوني وابن عبدان عن الحلواني وأظهرها عنه الحلواني من باقي طرقه كالباقين

وقرأ (ميت) الآية 57 بالتشديد نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وقرأ

تذكرون بتخفيف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في (إلا نكدا) الآية 58 فأبو جعفر بفتح الكاف وعن ابن محيصن سكونها وهما مصدران والباقون بكسرها اسم فاعل أو صفة مشبهة

(70/262)

واختلف في) من إله غيره (الآية 59 هنا وفي هود الآية 61 والمؤمنون الآية 23 فالكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء بعدها على النعت أو البدل من إله لفظا وافقهما المطوعي وابن محيصن بخلف والثاني له نصب الراء وضم الهاء على الاستثناء والباقون برفع الراء وضم الهاء على النعت أو البدل من موضع إله لأن من مزيدة فيه وموضعه رفع أما بالابتداء أو الفاعلية وفتح ياء الإضافة من إني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويوقف لحمزة وهشام بخلف عنه على قال الملأ كل ما في هذه السورة ونحوه مما كتب بالألف بإبدال الهمزة ألفا لفتح ما قبلها وبتسهيلها بين بين على الروم فهما وجهان ولا يجوز إبدالها واوا بحركة نفسها لمخالفة الرسم وعدم صحته رواية كما في النشر واختلف في (أبلغكم) الآية 62 68 معا هنا وفي الأحقاف الآية 23 فأبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام في الثلاثة وافقه اليزيدي والباقون بالفتح والتشديد وعن المطوعي

واذكروا بفتح الذال والكاف وتشديدهما وأمال وزادكم في الخلق بسطة حمزة وهشام وابن ذكوان بخلفهما والباقون بالفتح

وقرأ ﴿ بصطة ﴾ الآية 69 بالسين الدوري عن أبي عمرو وهشام وخلف عن حمزة وكذا رويس وخلف واختلف عن قنبل والسوسي وابن ذكوان وحفص وخلاد وتقدم تفصيل طرقهم بالبقرة وعن الأعمش وإلى ثمود بكسر الدال منونة وعن الحسن وتنحتون بفتح الحاء وألف بعدها في هذه السورة خاصة وأدغم دال قد جاءتكم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأدغم إذ جعلكم أبو عمرو وهشام

وقرأ (بيوتا) الآية 74 بكسر الباء قالون وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف

(71/262)

واختلف في (قال الملأ) الآية 75 بعد مفسدين في قصة صالح فابن عامر بزيادة واو للعطف قبل قال والباقون بغير واو اكتفاء بالربط المعنوي وقرأ أئنكم لتأتون الرجال بهمزة واحدة على الخبر نافع وحفص وأبو جعفر والباقون بهمزتين على الاستفهام فابن كثير ورويس بتسهيل الثانية بلا ألف وابو عمرو بالتسهيل مع الألف والباقون بالتحقيق مع الألف

ولهشام وجه ثان وهو التحقيق مع الألف وتقدم إله غيره وكذا قد جائتكم

وقرأ (صراط) الآية 86 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة وإثبات الخلاف هنا في الأصل لخلاد غير مقروء به لأنه انفرادة عن ابن عبيد ولذا لم يعول عليه في الطيبة وكذا كل منكر ما عدا حرف الفاتحة كما تقدم بها وأمال إذ نجانا وآسى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه

وقرأ نبيء بالهمز نافع وابدل همز البأساء أبو عمرو بخلفه وابو جعفر

وقرأ لفتحنا بالتشديد ابن عامر وابن وردان وابن جماز ورويس بخلفهما ومر تفصيله بالأنعام

واختلف في (أوأمن) الآية 98 فنافع وابن كثير وابن عامر وابو جعفر بسكون الواو على أن أو حرف عطف للتقسيم أي أفأمنوا إحدى العقوبتين وافقهم ابن محيصن والباقون بفتحها على أن واو العطف دخلت عليها همزة الإنكار مقدمة عليها لفظا وإن كانت بعدها تقدير أي أفأمنوا مجموع العقوبتين وورش على أصله في النقل

وقرأ (نشاء أصبناهم) الآية 100 بإبدال الثانية واوا مفتوحة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وتقدم ولقد جاءتهم آنفا

وقرأ (رسلهم) الآية 101 بسكون السين أبو عمرو

واختلف في ﴿ حقيق علي أن ﴾ الآية 105 فنافع بفتح الياء مشددة دخل حرف الجر على ياء المتكلم فقلبت الفها ياء وأدغمت فيها وفتحت وافقه الحسن والباقون بالألف على ان (على) التي هي حرف جر دخلت على أن وتكون على بمعنى الباء أي حقيق بقول الحق ليس إلا أو يضمن حقيق معنى حريص قال القاضي أو للأعراف في الوصف بالصدق والمعنى إنه حق واجب علي القول الحق لأن أكون أنا قائلة لا يرضى إلا بمثلي ناطقا به انتهى ومثله في الكشاف وتقدم نظير وقد جئتكم غير مرة وفتح ياء الإضافة من فأرسل معي حفص وحده وأمال فألقى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ ﴿ (أرجئه) ﴾ الآية 111 هنا وفي الشعراء الآية 36 بهمزة ساكنة ابن كثير وابو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو بكر من طريق أبي حمدون ونفطويه وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بغير همز فيهما وهما لغتان يقال أرجأت وأرجيته أي أخرته كتوضأت وتوضيت والحاصل من اختلافهم في الهمز وهاء الكناية فيها ست قراآت متواترة ثلاثة مع الهمز وثلاثة مع تركه فأما التي مع تركه فأولها قراءة قالون وابن وردان من طريق ابن هارون وهبة الله أرجه بكسر الهاء مختلسة بلا همز ثانيها قراءة ورش والكسائي وابن جماز وابن وردان من طريق ابن شبيب وخلف في اختياره أرجهي بإشباع

كسرة الهاء بلا همز ثالثها قراءة عاصم من غير طريق نفطويه وأبي حمدون عن أبي بكر وحمزة أرجه بسكون الهاء بلا همز وافقهما الأعمش وأما الثلاثة التي مع الهمز فأولها قراءة ابن كثير وهشام من طريق الحلواني ارجئهو بضم الهاء مع الإشباع والهمز وافقهما ابن محيصن الثانية قراءة أبي عمرو وهشام من طريق الداجوني وأبي بكر من طريق أبي حمدون ونفطوية ويعقوب أرجئه باختلاس ضمة الهاء مع الهمز وافقهم اليزيدي والحسن الثالثة قراءة ابن ذكوان أرجئه بالهمز واختلاس كسرة الهاء فلهشام وجهان اختلاس ضمة الهاء وإشباعها كلاهما مع الهمز ولأبي بكر وجهان أيضا ترك الهمز مع إسكان الهاء والهمز مع اختلاس ضمتها ولابن وردان وجهان ترك الهمز مع اختلاس كسرة الهاء ومع إشباعها وقد طعن في قراءة ابن ذكوان بأن الهاء لا تكسر إلا بعد كسر أو ياء ساكنة واجيب بأن الفاصل بينها وبين الكسرة الهمزة الساكنة وهو حاجز غير حصين واعتراض أبي شامة رحمة الله تعالى على هذا الجواب متعقب

واختلف في (بكل ساحر) الآية 112 هنا ويونس الآية 79 فحمزة والكسائي وخلف بتشديد الحاء وألف بعدها فيهما على وزن فعال للمبالغة وإمالة الدوري عن الكسائي

والباقون بألف بعد السين وكسر الحاء خفيفة كفاعل من غير إمالة لا خلاف في تشديد موضع الشعراء ومر إمالة جاء

وقرأ ﴿ أئن ﴾ الآية 113 بهمزة واحدة على الخبر نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر والباقون بهمزتين على الاستفهام وهم على أصولهم السابق تقريرها قريبا في أئنكم وتقدم إمالة الناس للدوري عن أبي عمرو من طريق أبي الزعراء

(74/262)

واختلف في (تلقف) الآية 117 هنا وفي طه الآية 69 والشعراء الآية 45 فحفص بسكون اللام وتخفيف القاف في الثلاثة من لقف كعلم يعلم يقال لقفت الشيء أخذته بسرعة فأكلته وابتلعته والباقون بفتح اللام وتشديد القاف فيهن من تلقف وتقدم تشديد تائه للبزي بخلفه وغلظ الأزرق لام بطل وصلا على الأصح واختلف عنه في الوقف كما مر وأما ءامنتم هنا وطه والشعراء فالقراء فيها على أربع مراتب الأولى قراءة قالون والأزرق والبزي وابي عمرو وابن ذكوان وهشام من طريق الحلواني والداجوني من طريق زيد وأبي جعفر بهمزة محققة وأخرى مسهلة وألف بعدها في الثلاث وللأزرق فيها ثلاثة البدل وإن تغير الهمز كما مر ولم يبدل أحد عنه الثانية ألفا فقول الجعبري وورش على بدله بهمزة محققة

وألف بدل عن الثانية وألف أخرى عن الثالثة ثم تحذف إحداهما للساكنين تعقبه في النشر ثم قال ولعل ذلك وهم من بعضهم حيث رأى بعض الرواة عن ورش يقرؤها بالخبر فظن أن ذلك على وجه البدل وليس كذلك بل هي رواية الأصبهاني ورواية أحمد بن صالح ويونس وأبي الأزهر كلهم عن ورش يقرؤنها

(75/262)

بهمزة كحفص فمن كان من هؤلاء يرى المد لما بعد الهمز عد ذلك فيكون مثل آمنوا إلا أنه بالاستفهام وأبدل وحذف انتهى ونقله في الأصل وأقره على عادته قال فظهر أن من يقرأ عن ورش بهمزة واحدة إنما يقرأ بالخبر المرتبة الثانية لورش من طريق الأصبهاني وحفص ورويس بهمزة محققة بعدها ألف في الثلاث وهي تحتمل الخبر المحض والاستفهام وحذف الهمزة اعتمادا على قرينة التوبيخ المرتبة الثالثة لقنبل وهو يفرق بين السور الثلاث فهنا أبدل همزتها الأولى واوا خالصة حالة الوصل واختلف عنه في الهمزة الثانية فسهلها عنه ابن مجاهد وحققها مفتوحة ابن شنبوذ وأما إذا ابتدأ فبهمزتين ثانيتهما مسهلة كرفيقه البزي وأما طه والشعراء فسبق ويأتي الحكم فيهما إن شاء الله تعالى المرتبة الرابعة لهشام فيما رواه عنه الداجوني من طريق الشذائي وأبي بكر وحمزة والكسائي وروح وخلف بهمزتين

محققتين وألف بعدهما من غير إدخال ألف بينهما في الثلاث ولم يختلفوا في إبدال الثالثة ألفا لأنها فاء الكلمة أبدلت لسكونها بعد فتح وذلك أن أصل هذه الكلمة أأمنتم بثلاث همزات الأولى للاستفهام الإنكاري والثانية همزة أفعل والثالثة فاء الكلمة فالثالثة يجب قلبها ألفا على القاعدة والأولى محققة ليس إلا غير أن حمزة إذا وقف يسهلها بين بين في وجه لكونها حينئذ من المتوسط بغيره المنفصل وأما الثانية ففيها الخلاف ولم يدخل أحد من القراء ألفا بين الهمزتين في هذه الكلمة لئلا يجتمع أربع متشابهات كما تقدم في باب بيانه وعن ابن محيصن والحسن لأقطعن ولأصلبنكم هنا وطه والشعراء بفتح الهمزة وسكون القاف والصاد وتخفيف اللام والطاء وفتح الأولى وضم الثانية من قطع وصلب الثلاثي وعن الحسن ويذرك بالرفع عطفا على أتذر أو استئناف وعن ابن محيصن والحسن ﴿ وإلهتك ﴾ بكسر الهمزة وفتح اللام وبعدها ألف على أنه مصدر بمعنى عبادتك

(76/262)

واختلف في (سنقتل) الآية 127 فنافع وابن كثير وابو جعفر بفتح النون وإسكان القاف وضم التاء مخففة وافقهم ابن محيصن والباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة للتكثير لتعدد المحال وعن الحسن يورثها بفتح الواو وتشديد الراء على المبالغة وعنه أيضا

طيرهم بياء ساكنة بعد الطاء بلا ألف ولا همز اسم جمع وقيل جمع وعنه والقمل بإسكان الميم وتخفيفها وتقدم حكم عليهم الطوفان عليهم الرجز من حيث ضم الهاء والميم وكسرهما ووقف على كلمت ربك بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وإمالة الكسائي وقفا وسهل همز إسرائيل أبو جعفر مع المد والقصر وثلث الأزرق همزة بخلفه ومر وقف حمزة عليه أوائل البقرة

واختلف فيبعرشون) الآية 137 هنا والنحل الآية 68 فابن عامر وأبو بكر بضم الراء فيهما وهما لغتان يقال عرش الكرم يعرشه بضم الراء وكسرها وهو أفصح

واختلف في (يعكفون) الآية 138 فحمزة والكسائي والوراق عن خلف والمطوعي وابن مقسم والقطيعي عن ادريس عنه بكسر الكاف لغة أسد وافقهم الحسن والأعمش وروى الشطي عن إدريس ضمها وبه قرأ الباقون لغة بقية العرب

واختلف في (وإذ أنجيناكم) الآية 141 فابن عامر بألف بعد الجيم من غير ياء ولا نون مسندا إلى ضمير الله تعالى والباقون بياء ونون وألف بعدها مسندا إلى المعظم قال في النشر والعجب أن ابن مجاهد لم يذكر هذا الحرف في كتابه السبعة

واختلف في ( ) يقتلون أبناءكم ( ) الآية 141 فنافع بفتح الياء وسكون القاف وضم التاء مخففة على الأصل والباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة للمبالغة

وقرأ ﴿ ووعدنا) ﴾ الآية 142 بغير ألف أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وعن ابن محيصن رب أرني بضم الباء بخلفه وأسكن راء أرني ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ولأبي عمرو اختلاس كسرة الراء أيضا من روايتيه كما مر بالبقرة واتفقوا على إثبات ياء تراني معا في الحالين وأمالها أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وكسر النون وصلا من ولكن انظر أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وضمها الباقون وأمال تجلى والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (دكاء) الآية 143 هنا والكهف الآية 98 فحمزة والكسائي وخلف بالمد والهمز من غير تنوين فيهما بوزن حمراء من قولهم ناقة دكاء أي منبسطة السنام غير مرتفعة أي أرضا مستوية وقرأ عاصم كذلك في الكهف فقط وافقهم فيهما الأعمش والباقون بالتنوين بلا مد ولا همز مصدر واقع موقع المفعول به أي مدكوكا مفتتا قال ابن عباس صار ترابا وقال الحسن ساح في الأرض وهو مفعول ثان لجعل على المشهور فيهما

وقرأ (وأنا اول) الآية 143 بالمد نافع وأبو جعفر وفتح ياء الإضافة من إني اصطفيتك ابن كثير وابو عمرو

واختلف في ﴿ برسالتي) ﴾ الآية 144 فنافع وابن كثير وابو جعفر وروح بالتوحيد والمراد به المصدر أي بإرسالي إياك أو المراد بتبليغ رسالتي وافقهم ابن محيصن وقرأ الباقون

بالألف على الجمع يعني أسفاء التوراة وعن المطوعي وبكلمي بكسر اللام وفتح ياء الإضافة من آياتي الذين غير ابن عامر وحمزة

واختلف في (سبيل الرشد) الآية 146 فحمزة والكسائي وخلف بفتح الراء والشين وافقهم الأعمش والباقون بضم الراء وسكون الشين لغتان في المصدر كالبخل والبخل

(78/262)

واختلف في (حليهم) الآية 148 فحمزة والكسائي بكسر الحاء واللام وتشديد الياء مكسورة على الاتباع لكسرة اللام وافقهما ابن محيصن وقرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف الياء إما مفرد أريد به الجمع أو اسم جمع مفرده حلية كقمح وقمحة والباقون بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء مكسورة جمع حلى كفلس وفلوس والأصل حلوى اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وادغمت في الياء وضم هاء يهديهم يعقوب وكذا أيديهم وأدغم دال قد ضلوا ورش وأبو عمرو وأبن عامر وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في ( ) يرحمنا ربنا ويغفر لنا (الآية 149 فحمزة والكسائي وخلف بالخطاب فيهما ونصب الباء من ربنا على النداء وافقهم الأعمش والباقون بالغيب فيهما ورفع ربنا

على أنه فاعل وأدغم راء يغفر لنا أبو عمرو بخلف عن الدوري وفتح ياء الإضافة من بعدي أعجلتم نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر

(79/262)

واختلف في (ابن أم) الآية 150 هنا وفي طه الآية 94 فابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم فيهما كسر بناء عند البصريين لأجل ياء المتكلم والباقون بفتحها فيهما لتركيبهما تركيب خمسة عشر بالشبه اللفظي عندهم فعلى هذا ليس ابن مضافا لأم بل مركب معها ومذهب الكوفيين أن ابن مضاف لأم وأم مضافة للياء قلبت الياء ألفا تخفيفا فانفتحت الميم كقوله يا بنت عما لا تلومي واهجعي ثم حذفوا الألف وبقيت الفتحة دالة عليها ويوقف عليه لحمزة بالتحقيق والتسهيل كالواو وعن ابن محيصن تشمت بفتح التاء والميم جعله لازما فرفع به الأعداء على الفاعلية وعنه ضم باء رب اغفر ومر إدغام الراء في اللام وأبدل الهمزة الثانية واوا مفتوحة من تشاء أنت نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس وفتح ياء الإضافة من عذابي أصيب نافع وابو جعفر وأمال الدنيا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وعن الدوري عنه الكبرى أيضا وعن الحسن من أشاء بسين مهملة وفتح الهمزة على المضي لكن قال الداني لا

تصح هذه القراء عن الحسن وهمز النبيء نافع

وأمال (التوراة) الآية 157 بين بين قالون وحمزة بخلفهما والأزرق وأمالها كبرى الأصبهاني وأبو عمرو وابن ذكوان وحمزة في ثانية والكسائي وخلف والثاني لقالون الفتح وقرأ يأمرهم بالسكون والاختلاس أبو عمرو وروى الإتمام عن الدوري عنه

كالباقين وتقدم حكم عليهم الخبائث واختلف في إصرهم فابن عامر بفتح الهمزة ومدها وفتح الصاد وألف بعدها على الجمع والباقون بكسر الهمزة والقصر وإسكان الصاد بلا ألف على الإفراد اسم جنس وعن المطوعي عشرة بكسر الشين وعنه إسكانها لغة الحجاز وبه قرأ الجمهور

وأمال (استسقاه) الآية 160 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وعن المطوعي ما رزقتكم بالتاء مضمومة على الإفراد

وقرأ قيل لهم بالإشمام هشام والكسائي ورويس

(80/262)

وقرأ ﴿ تغفر ﴾ الآية 161 بالتأنيث مبنيا للمفعول نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالنون مبنيا للفاعل

واختلف في (خطيئاتكم) الآية 161 فنافع وأبو جعفر ويعقوب (خطيئاتكم) بجمع السلامة ورفع التاء على النيابة عن الفاعل وقرأ ابن عامر بالإفراد ورفع التاء كذلك وهو واقع موقع الجمع لفهم المعنى وقرأ أبو عمرو خطاياكم على وزن عطاياكم بجمع التكسير مفعولا لنغفر وافقه اليزيدي وابن محيصن بخلفه والباقون بجمع السلامة وكسر التاء نصبا على المفعولية وأما موضع نوح فأبو عمرو بوزن قضايا والباقون بجمع السلامة مخفوضا بالكسرة واتفقوا على خطاياكم بالبقرة للرسم

وتقدم إشمام قيل وغلظ لام ظلموا الأزرق بخلفه وقرأ واسئلهم بنقل حركة الهمزة إلى السين ابن كثير والكسائي وخلف في اختياره وكذا يقف حمزة وأدغم ذال إذ تأتيهم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وضم هاء تأتيهم يعقوب وكذا لا تأتيهم

وعن الحسن لا يسبتون بضم الياء وكسر الباء وعن المطوعي بفتح الياء وضم الموحدة ووقف على لم بهاء السكت البزي ويعقوب بخلفهما

واختلف في (معذرة) الآية 164 فحفص بالنصب على المفعول من أجله أي وعظناهم لأجل المعذرة أو على المصدر أي تعتذر معذرة أو على المفعول به لأن المعذرة تتضمن كلاما وحينئذ تنصب بالقول كقلت خطبة وافقه اليزيدي فخالف أبا عمرو والباقون بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي موعظتنا أو هذه معذرة والعذر التنصل من الذنب

واختلف في (بئيس) الآية 165 فنافع وأبو جعفر وزيد عن الداجوني عن هشام بكسر

الباء الموحدة وياء ساكنة بعدها من غير همز مثل عيس وقرأ ابن ذكوان وهشام من طريق زيد عن الداجوني كذلك إلا أنه بالهمز الساكن بلا ياء على أنه صفة

(81/262)

على فعل كحذر نقلت كسرة الهمزة إلى الباء ثم سكنت ووجه قراءة نافع كذلك أي أن أصله ما ذكر ثم أبدل الهمزة ياء واختلف عن أبي بكر فالجمهور عن يحيى بن آدم عنه بباء مفتوحة ثم ياء ساكنة ثم همزة مفتوحة على وزن ضيغم صفة على فيعل وهو كثير في الصفات وروى الجمهور عن العليمي عنه بفتح الباء وكسر الهمزة وياء ساكنة على وزن رئيس وصف على فعيل كشديد للمبالغة وبه قرأ الباقون وعن الحسن كسر الباء وهمزة ساكنة وفتح السين بلا تنوين

ويوقف عليها لحمزة بالتسهيل كالياء وإبدالها ياء ضعيف وعن الأعمش يفسقون بكسر السين ومر ترقيق راء قردة للأزرق وإخفاء أبي جعفر تنوينها عند الخاء بعدها بالبقرة وذكر الأصل أن أبا جعفر أبدل همزة خاسين وليس كذلك وتقدم ما فيه ويوقف عليه لحمزة بالتسهيل بين بين وبحذف الهمزة اتباعا للرسم والإبدال ياء ضعيف وسهل الأصبهاني عن ورش همزة تأذن بلا خلف واختلف عنه في تأذن ربكم بإبراهيم كما مر وتقدم قريبا إدغام

إذ في التاء وعن الحسن (ورثوا) بضم الواو وتشديد الراء مبنيا للمفعول وضم رويس هاء إن يأتهم

وقرأ ﴿ يعقلون ﴾ الآية 169 بالخطاب نافع وابن عامر وحفص ويعقوب والباقون بالغيب

واختلف في (يمكسون) الآية 170 فأبو بكر بسكون الميم وتخفيف السين من أمسك وهو متعد فالمفعول محذوف أي دينهم أو أعمالهم بالكتاب والباء للحال أو الآلة والباقون بالفتح والتشديد من مسك بمعنى تمسك فالباء للآلة كهي في تمسكت بالحبل

(82/262)

واختلف في ( ) ذريتهم ( ) الآية 172 هنا ويس الآية 41 والأول والثاني من الطور الآية 21 فابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالإفراد في الأربعة مع ضم تاء أول الطور وفتحها في الثلاثة وافقهم ابن محيصن والأعمش وقرأ نافع وابو جعفر بإفراد أول الطور والجمع في الثلاثة مع كسر التاء فيها وضمها أول الطور وقرأ أبو عمرو بالجمع هنا وموضعي الطور مع كسر التاء في الثلاثة وبالإفراد في يس مع فتح تائه وافقه اليزيدي وقرأ ابن عامر ويعقوب بالجمع في الأربعة مع رفع التاء أول الطور وكسرها في الثلاثة وعن الحسن كأبي

عمرو إلا أنه رفع اول الطور فكلهم رفع تاء اول الطور إلا أبا عمرو واليزيدي فكسراها وظهر على قراءة التوحيد هنا أن ذريتهم مفعول يأخذ على حذف مضاف أي ميثاق ذريتهم أما على الجمع فيحتمل أن يكون ذرياتهم بدلا من ضمير ظهورهم كما أن من ظهورهم بدل من بني آدم بدل بعض ومفعول أخذ محذوف والتقدير

وإذ أخذ ربك من ظهور ذريات بني آدم ميثاق التوحيد قال الجعبري في الخبر مسح الله ظهر آدم بيده فاستخرج من هو مولود إلى يوم القيامة كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك أخذت عليهم العهد بأن يعبدوني ولا يشركون شيئا وعلى رزقهم ثم قال لهم ألست بربكم فقالوا بلى فقالت الملائكة شهدنا فقطع عذرهم يوم القيامة انتهى

وأمال بلى حمزة والكسائي وخلف وشعبة من طريق أبي حمدون عن يحيى وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وصححهما في النشر عنه من روايتيه لكنه اقتصر في طيبته في ذكر الخلاف على الدوري

(83/262)

واختلف في (أن تقولوا أو تقولوا) الآية 172 173 فأبو عمرو بالغيب فيهما جريا على ما تقدم أي أشهدهم لئلا يعتذروا يقولوا ما شعرنا أو الذنب لأسلافنا وافقه ابن محيصن

واليزيدي والباقون بالخطاب على الالتفات وأظهر ثاء يلهث نافع وابن كثير وهشام وعاصم وأبو جعفر بخلف عنهم والباقون بالإدغام واختاره للجميع صاحب النشر وحكى ابن مهران الإجماع عليه وأدغم ذال ولقد ذرأنا أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويوقف لحمزة على ولله الأسماء ونحوه بالنقل والسكت في الهمزة الأولى وبالبدل في الثانية مع المد والتوسط والقصر وفيها الروم بالتسهيل مع المد والقصر فهي عشرة ويمتنع عدم السكت والنقل في الأولى لعدم صحته رواية كما مر بالبقرة

واختلف في (يلحدون) الآية 180 هنا والنحل الآية 103 وفصلت الآية 40 فحمزة بفتح الياء والحاء في الثلاثة من لحد ثلاثيا وافقه الأعمش وقرأ الكسائي وخلف عن نفسه كذلك في النحل والباقون بضم الياء وكسر الحاء في الثلاثة من ألحد وقيل هما بمعنى وهو الميل ومنه لحد القبر لأنه يمال بحفرة إلى جانبه بخلاف الضريح فإنه يحفر في وسطه وأمال عسى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو وأبدل الأصبهاني همزة فبأي ياء مفتوحة وبه مع التحقيق وقف حمزة

واختلف في ﴿ ونذرهم ﴾ الآية 186 فنافع وابن كثير وابن عامر وابو جعفر بنون العظمة ورفع الراء على الاستئناف وافقهم ابن محيصن وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء على الغيبة ورفع الراء وافقهم اليزيدي والحسن وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء وجزم الراء عطفا على محل قوله تعالى فلا هادي له وافقهم الأعمش وأمال طغيانهم

الدوري عن الكسائي وحده وأمال مرسيها حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

ومثله تغشيها وقرأ السوء إن بإبدال الثانية واوا مكسورة

بتسهيلها كالياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس وأما تسهيلها كالواو فتقدم رده

(84/262)

وقرأ إن أنا إلا بالمد قالون بخلف عنه واتفق الكل على إدغام أثقلت دعوا الله

واختلف في ﴿ جعلا له شركا) ﴾ الآية 190 فنافع وأبو بكر وأبو جعفر بكسر الشين

وإسكان الراء وتنوين الكاف من غير همز اسم مصدر أي ذا شرك أي إشراك وقيل بمعنى

النصب وافقهم ابن محيصن والباقون بضم الشين وفتح الراء وبالمد والهمز بلا تنوين جمع

شريك

واختلف في (لا يتبعوكم) الآية 193 هنا و(يتبعهم) في الشعراء الآية 224 فنافع

بسكون التاء وفتح الباء الموحدة فيهما وافقه الحسن والباقون بفتح التاء مشددة وكسر

الموحدة فيهما وهما لغتان

واختلف في (يبطشون) الآية 195 هنا و(يبطش) بالذي بالقصص الآية 19 و(نبطش

) بالدخان الآية 16 فأبو جعفر بضم الطاء في الثلاثة وافقه الحسن والباقون بالكسر فيهن

والبطش الأخذ بالقوة والماضي بطش بالفتح فيهما كخرج يخرج وضرب يضرب وكسر اللام من قل ادعوا عاصم وحمزة ويعقوب وضمها الباقون وأثبت الياء في كيدون وصلا أبو عمرو وهشام من طريق الداجوني وأبو جعفر وفي الحالين قنبل من طريق ابن شنبوذ من طريق الحلواني ويعقوب وأثبتها في فلا تنظرون في الحالين يعقوب

(85/262)

واختلف في ﴿ (إن ولي الله) ﴾ الآية 196 فابن حبش عن السوسي بياء واحدة مفتوحة مشددة وكذا روى أبو نصر الشذائي عن ابن جمهور عن السوسي وشجاع عن أبي عمرو وأبو خلاد عن اليزيدي عن أبي عمرو نصا وعبد الوارث عن أبي عمرو أداء ووجهت على أن ياء فعيل مدغمة في ياء المتكلم والياء التي هي لام الكلمة محذوفة وهذا أحسن ما قيل في تخريجها أو أن ولي اسم نكرة غير مضاف والأصل إن وليا لله فوليا اسم إن والله خبرها ثم حذف التنوين لالتقاء الساكنين ولم يبق إلا كون اسمها نكرة والخبر معرفة وهو وارد ومنه وإن حراما إن أسب مجاشعا قال في النشر وبعضهم يعبر بالإدغام وهو خطأ إذ المشدد لا يدغم في المخفف وافقه الحسن بلا خلاف عنه وروى الشنبوذي عن ابن جمهور عن السوسي كسر الياء المشددة بعد الحذف وهي قراءة عاصم والحجدري وغيره ويلزم

منه ترقيق الجلالة ووجه في النشر ذلك بأن المحذوف ياء المتكلم لملاقاتها ساكنا كما تحذف آيات الإضافة لذلك قال فقيل على هذا إنما يكون هذا الحذف حالة الوصل فإذا وقف أعادها وليس كذلك

بل الرواية الحذف فيهما وأجرى الوقف مجرى الوصل كما في اخشون اليوم ويقض الحق ويحتمل أن يخرج على قراءة حمزة في مصرخي الآتي إن شاء الله تعالى وقرأ الباقون بياءين مشددة مكسورة فمخففة مفتوحة

واختلف في ﴿ طيف ﴾ الآية 201 فابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب بياء ساكنة من غير ألف ولا همز على وزن ضيف مصدر من طاف يطيف كباع يبيع وافقهم اليزيدي والشنبوذي والباقون بألف وهمزة مكسورة من غير ياء اسم فاعل من طاف يطوف واختلف في (يمدونهم) الآية 202 فنافع وأبو جعفر بضم الياء وكسر الميم من أمد وقرأ الباقون بفتح الياء بفتح الياء وضم الميم من مد وأبدل همزة قرىء ياء مفتوحة أبو جعفر ونقل همز قرآن ابن كثير

(86/262)

المرسوم ﴿ ما يتذكرون ﴾ بياء قبل التاء في الشامي بعض المصاحف ورياشا بألف بعد الياء وقبل الشين واتفق على الياء في يأتي تأويله وإن تراني وفسوف تراني واستضعفوني وكادوا يقتلونني فهو المهتدي وكتب في الشامي ما كنا لنهتدي بلا واو بصطة هنا بالصاد اتفاقا بخلافها في البقرة فإنها بالسين وكتب في الشامي وقال الملوا بقصة صالح بواو بكل سحار هنا وآخر يونس بألف بعد الحاء في بعض المصاحف وفي بعضها قبلها واتفق على كتابة ضحى وهم بالياء بدل الألف المنقلبة عن الواو ونقل نافع حذف ألف طئرهم عند الله هنا وألف وبطل ما كانوا يعملون قال وباطل ما كانوا يعملون أفمن وخرج ويبطل الباطل بالأنفال وكتب في الشامي وإذا نجيناكم بياء بين الجيم والكاف وفي باقي المصاحف بياء ونون وألف صورتها بينهما نافع عن المدني يؤمن بالله وكلمته بلا ألف وكذا لكلمته ويكلمته بالكهف وبالشورى وروى نافع أيضا خطيتكم هنا ونوح بلا ألف وفيهما صورتا ياء وتاء ونقل أيضا عليهم الخبيث هنا والتي كانت تعمل الخبيث بالأنبياء بلا ألف وكتب في أكثرها سأوريكم دار بزيادة واو بعد الألف وكتب في بعضها طيف بغير ألف بعد الطاء

المقطوع والموصول اتفقوا على قطع أن عن لا في عشرة منها حقيق على أن لا وأن لا يقولوا على الله هنا وعلى قطع عن في قوله عن ما نهوا واختلف في قطع لام كلما دخلت أمة هاء التأنيث أن ﴿ رحمت الله ﴾ بالتاء كالبقرة وما يأتي وكذا ﴿ كلمت ربك الحسنى ﴾)

ياآت الإضافة سبع (ربي الفواحش) الآية 33 (أني أخاف) الآية 59 (بعدي أعجلتم

) الآية 150 (فأرسل معي) الآية 105 (إني اصطفيتك) الآية 44 (آياتي الذين) الآية 146 (عذابي أصيب) الآية 156

ومن الزوائد ثنتان (ثم كيدون) الآية 195 (فلا تنظرون) الآية (195) . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر صـ 280 . 295 ﴾

(87/262)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الأعراف "

" المص " سكت أبو جعفر على ألف ولام وميم وص سكتة خفيفة بلا تنفس ، وظاهر أن السكت على لام يلزم منه إظهارها وعدم إدغامها في ميم . والباقون بترك السكت في ذلك كله .

" تذكرون " قرأ الشامي بياء قبل التاء مع تخفيف الذال ، وقرأ الأخوان وخلف وحفص بحذف الياء وتخفيف الذال ، والباقون بحذف الياء وتشديد الذال .

" بأسنا " معا ، قائلون ، إليهم ، عليهم ، غائبين ومن خفت ، خسروا ، في الأرض ، خير منه ، صراطك ، أيديهم ، ومن خلفهم ، جلي .

" للملائكة اسجدوا " قرأ أبو جعفر بضم التاء وصلا ، والباقون بكسرها كذلك .

" أنظرني إلى " أجمع العشرة على إسكان يائه .

" مذءوما " لا توسط فيه ولا مد لورش لوقوع الهمز بعد ساكن صحيح كقرآن ، ولحمزة فيه النقل عند الوقف فقط .

" شئتما " أبدل همزة في الحالين أبو جعفر والسوسي ، وعند الوقف حمزة .

" سوآتهما الثلاثة وسوآتكم " اجتمع فيها لورش اللين وهو الواو والبدل فأسا البدل فورش على أصله من إجراء الأوجه الثلاثة فيه ، وأما اللين فقد اختلف فيه عنه ، فمن العلماء من استثناه من حكم اللين ولم يجز فيه إلا القصر فألحقه بحرف اللين الذي لا همز بعده .

ومنهم من ألحقه بغيره من أمثاله فأجرى فيه التوسط والإشباع .

وعلى هذا يكون لورش في الكلمة تسعة أوجه حاصلة من ضرب الثلاثة التي في الواو في الثلاثة التي في البدل ، ولكن الذي حققه إمام الفن ابن الجزري واستصوبه أن الخلاف في الواو دائر بين القصر والتوسط فقط ولا إشباع فيها ، وذلك لأن من مذهبه الإشباع في اللين يستثني واو سوءات فيقصرها ، وأن ورشا ليس له إلا أربعة أوجه فقط . وهي قصر الواو وعليه في البدل الثلاثة ثم توسط الواو والبدل معا . ويمتنع توسط الواو مع مد البدل لأن من مذهبه التوسط في الواو ، ليس له في البدل إلا التوسط فقط وقد نظم ابن الجزري هذه الأوجه الأربعة في بيت واحد فقال:

وسوءات قصر الواو والهمز ثلثا ووسطهما فالكل أربعة فادرِ

ولحمزة في الوقف عليها وجهان النقل والإدغام لأصالة الواو .

" تخرجون " قرأ ابن ذكوان والأخوان ويعقوب وخلف بفتح التاء وضم الراء ، والباقون بضم التاء وفتح الراء .

" يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا – إلى خير " فيها لورش خمسة أوجه: الأول: قصر البدلين والواو مع فتح ذات الياء ، الثاني: البدلين وقصر الواو مع التقليل ، الثالث: البدلين والواو مع التقليل أيضا ، الرابع: البدلين وقصر الواو مع الفتح ، الخامس: البدلين وقصر الواو مع التقليل . وينبغي أن يعلم أن ليس المراد من القصر في الواو أن تمد حركتين ، بل المراد من القصر إذهاب المد بالكلية والنطق بواو ساكنة مجردة عن المد .

" ولباس التقوى " قرأ المدنيان والشامي والكسائي بفتح السين ، والباقون بضمها .

" خير " رقق الراء ورش .

" يذكرون " أجمعوا على تشديد الذال لأن المختلف فيه ما كان مبدوءا بالتاء المثناة الفوقية .

" بالفحشاء أتقولون " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء خالصة ، والباقون يحققونها ، ولا خلاف في تحقيق الأولى .

" عليهم الضلالة " سبق مثله .

" ويحسبون " جلي .

" مهتدون " آخر الربع .

الممال

يراكم وذكرى للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش ، دعواهم والتقوى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه . فجاءها وجاءهم لابن ذكوان وحمزة وخلف . نار للبصري والدوري والتقليل لورش . نهاكما . فدلاهما وناداهما وهدى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه . الضلالة للكسائي بلا خلاف .

واعلم أن يواري لا إمالة فيه لدوري الكسائي من طريق الحرز . وذكر الشاطبي الخلاف فيه خروج عن طريقه فلا يقرأ به .

المدغم

" الصغير " إذ جاءهم للبصري وهشام ، تغفر لنا للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " أمرتك قال ، جهنم منكم ، حيث شئتما ، ينزع عنهما ، هو وقبيله ، أمر ربي ، ولا إدغام في يكون لك لسكون ما قبل النون .

" خالصة " قرأ نافع برع التاء ، والباقون بنصبها .

" ربي الفواحش " أسكن حمزة الياء وصلا ووقفا مع حذفها في الوصل ، وفتحها الباقون وصلا وأسكنوها وقفا .

" ينزل " خففه المكي والبصريان ، وشدده الباقون .

" جاء أجلهم " هو مثل جاء أحد ، وسبق في سورة النساء .

" لا يستأخرون " أبدل همزة مطلقا ورش والسوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة ، ورقق ورش راءه .

" يأتينكم ، وأصلح ، فلا خوف عليهم " تقدم كله غير مرة .

" رسلنا " أسكن أبو عمرو السين وضمها الباقون .

" هؤلاء أضلونا " حكمه حكم بالفحشاء أتقولون لجميع القراء .

" فآتهم " ضم الهاء رويس في الحالين ، وكسرها غيره كذلك .

" ولكن لا تعلمون " قرأ شعبة بياء الغيب ، والباقون بتاء الخطاب ، وهذا هو الموضع الرابع المختلف فيه . وأما المواضع الثلاثة قبله فمحل اتفاق فتأمل .

" لا تفتح " قرأ أبو عمرو بالتاء الفوقية مع التخفيف ، والأخوان وخلف بالياء التحتية مع التخفيف ، والباقون بالتاء الفوقية مع التشديد .

" من غل " أخفى النون في الغين مع الغنة أبو جعفر ، وأظهرها غيره .

" تحتهم الأنهار " تقدم مثله .

" وما كنا لنهتدي " قرأ ابن عامر بحذف الواو قبل ما ، والباقون بإثباتها .

" نعم " قرأ الكسائي بكسر العين ، والباقون فتحها .

" مؤذن " أبدل ورش وأبو جعفر الهمزة واوا خالصة مطلقا ، وكذلك حمزة إن وقف ، والباقون بتحقيق الهمزة .

" أن لعنة " قرأ نافع وقنبل وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بإسكان النون ورفع لعنة ، والباقون بفتحها مع التشديد ونصب لعنة .

" يطمعون " آخر الربع .

الممال

(90/262)

اتقى وهدانا معا ونادى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه . القيامة للكسائي بلا خلاف ، الدنيا ولأولاهم معا ، وبسيماهم بالإمالة للأصحاب ، والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، افترى وأخراهم معا بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، النار الأربعة للبصري والدوري والتقليل لورش ، كافرين للبصري والدوري ورويس بالإمالة ولورش بالتقليل ، جاء وجاءتهم وجاءت لابن ذكوان وحمزة وخلف .

المدغم

" الصغير " لقد جاءت للبصري وهشام والأخوين وخلف . أورثتموها للبصري وهشام والأخوين .

" الكبير " الرزق قل ، أظلم ممن ، كذب بآياته ، قال لكل ، العذاب بما ، جهنم مهاد ، رسل ربنا .

" تلقاء أصحاب " قرأ قالون والبزي والبصري بإسقاط الهمزة الأولى مع القصر والمد ، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية ، ولورش وقنبل إبدالها ألفا مع المد المشبع للساكنين .

" برحمة ادخلوا " قرأ البصريان وعاصم وحمزة وابن ذكوان بخلف عنه بكسر التنوين وصلا ، والباقون بالضم ، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان .

" من الماء أو " مثل هؤلاء أضلونا ، وقد سبق .

" لا خوف عليكم " لا يخفى ما فيه ليعقوب .

" يغشى " قرأ شعبة والأخوان ويعقوب وخلف بفتح الغين وتشديد الشين ، والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين .

" والشمس والقمر والنجوم مسخرات " قرأ ابن عامر برفع الأسماء الأربعة ، والباقون بنصبها ، ولا يخفى أن نصب مسخرات يكون بالكسرة الظاهرة لكونه جمع مؤنث سالما .

" بأمره " في الوقف عليه لحمزة إبدال الهمزة ياء محضة وتحقيقها .

" وخفية " قرأ شعبة بكسر الخاء ، والباقون بضمها .

" إصلاحها " غلظ اللام ورش .

" وادعوه " وصل الهاء المكي .

" إن رحمت الله " مما رسم بالتاء ووقف عليه بالهاء المكي والبصريان والكسائي ، والباقون بالتاء .

" وهو " جلي .

" الرياح " قرأ المكي والأخوان وخلف بإسكان الياء التحتية من غير ألف بعدها على الإفراد ، والباقون بفتحها وألف بعدها على الجمع .

" بشرا " قرأ المدنيان والمكي والبصريان بالنون المضمومة مع ضم الشين . وقرأ الشامي بالنون المضمومة مع سكون الشين ، والأخوان وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين وعاصم وحده بالباء الموحدة المضمومة مع سكون الشين .

" ميت " قرأه بالتخفيف ابن كثير وابن عامر وشعبة وأبو عمرو ويعقوب ، وبالتشديد الباقون .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف ، وشددها الباقون .

" لا يخرج إلا نكدا " قرأ ابن وردان بخلف عنه بضم الياء وكسر الراء ، والباقون بفتح الياء وضم الراء ، وهو الوجه الثاني لابن وردان . وقرأ أبو جعفر بفتح كاف نكدا ، والباقون بكسرها .

" من إله غيره " أخفى أبو جعفر التنوين في الغين مع الغنة ، والباقون بالإظهار . وقرأ أبو جعفر والكسائي بخفض الراء ، والباقون برفعها ، ولا يخفى أنه يلزم من خفض الراء كسر الهاء بعدها ومن رفعها ضم الهاء .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها الباقون .

" الملأ " فيه لحمزة وهشام وقفا الإبدال ألفا والتسهيل مع الروم .

" أبلغكم " قرأ أبو عمرو بإسكان الباء وتخفيف اللام ، والباقون بفتح الباء وتشديد اللام .

" ذكر . لينذركم " رقق ورش الراء فيهما .

" عمين " آخر الربع " .

الممال

النار معا ، للبصري والدوري ولورش بالتقليل ، الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس ، وبالتقليل لورش ، ونادى معا وأغنى وننساهم وهدى لدى الوقف عليه ، واستوى بالإمالة للأصحاب وبالتقليل لورش بخلفه ، بسيماهم والدنيا والموتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، لنراك ، بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش ، جاءت وجاءهم لابن ذكوان وحمزة وخلف .

المدغم

" الصغير " " ولقد جئناهم ، ولقد جاءت للبصري وهشام والأخوين وخلف ، أقلت سحابا للبصري والأخوين وخلف .

" الكبير " : رزقكم الله ؛ الذين نسوه ، رسل ربنا ، والنجوم مسخرات ، وأعلم من الله .

" من إله غيره تقدم آنفا ؛ وكذلك: أبلغكم "

" بسطة " قرأ نافع والبزي وابن ذكوان وشعبة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلاد بخلف عنه بالصاد ، والباقون بالسين ، وأما ما اقتضاه كلام الشاطبي من أن لابن ذكوان وجهين كخلاد فخروج عن طريقه وطريق أصله فلا يقرأ لابن ذكوان من طريق الحرز إلا بالصاد فقط كما ذكرنا .

" أجئتنا " أبدله السوسي وأبو جعفر مطلقا ، وحمزة عند الوقف .

" فائْتنا ، فانتظروا ، فأنجيناه ، دابر ، مؤمنين " كله جلي .

" من إله غيره " سبق قريبا .

" بسوء " لحمزة وهشام وقفا النقل والإدغام ، وعلى كل السكون المحض والروم .

" بيوتا " ضم الباء حفص والبصريان وورش وأبو جعفر وكسرها غيرهم .

" مفسدين " قرأ الشامي بزيادة واو قبل قال ، والباقون بغير واو . .

" كافرون " فيه ترقيق الراء لورش .

" يا صالح ائتنا " أبدل همزة حالة وصل صالح بائتنا ورش والسوسي وأبو جعفر سواء وقفوا على ائتنا أم وصلوه بما بعده ، وكذلك حمزة إذا وقف على ائتنا ، وأما عند الوقف على صالح والابتداء بائتنا فالجميع يبتدئون بهمزة وصل مكسورة مع إبدال الهمزة ياء ساكنة مدية . ولا توسط فيه ولا مد لورش لوقوع حرف المد فيه بعد همز الوصل نحو ائت بقرآن فهو من المستثنيات .

" إنكم لتأتون الرجال " قرأ نافع وأبو جعفر وحفص بهمزة واحدة مسكورة على الخبر ، والباقون بزيادة همزة مفتوحة قبل الهمزة المكسورة على الاستفهام . وكل حسب مذهبه في الهمزة الثانية: من تحقيق وتسهيل وإدخال وتركه فابن كثير . ورويس يسهلان بلا إدخال ، وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال وهشام بالتحقيق والإدخال ، وهذا من المواضع السبعة التي يدخل فيها هشام قولا واحدا ، والباقون بالتحقيق بلا إدخال ، وهم ابن ذكوان وشعبة والأخوان وخلف وروح .

" عليهم ، من إله غيره ، في الأرض إصلاحها ، خير ، مؤمنين ، صراط ، يؤمنوا . فاصبروا . وهو ، خير " كله واضح .

" الحاكمين " آخر الربع .

الممال

(93/262)

" لنراك " بالإمالة للأصحاب والبصري ، والتقليل لورش . جاءكم وجاءتكم معا لابن ذكوان وحمزة وخلف ، وزادكم لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه ، دارهم للبصري والدوري بالإمالة ، ولورش بالتقليل ، فتولى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه .

المدغم

" الصغير " إذ جعلكم معا للبصري وهشام ، قد جاءتكم معا للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " وقع عليكم ، أمر ربهم ، قال لقومه . سبقكم .

" لخاسرون " فيه الترقيق لورش .

" من نبي " قرأ نافع بالهمز ، وغيره بالياء المشددة .

" بالبأساء " جلي .

" لفتحنا " شدد التاء الشامي وأبو جعفر ورويس ، وخففها الباقون .

" عليهم " بأسنا ، نائمون ، واضح كله .

" أو أمن " قرأ المدنيان والمكي والشامي بإسكان الواو وورش على أصله من نقل حركة الهمزة إلى الواو مع حذف الهمزة . والباقون بفتح الواو .

" نشاء أصبناهم " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا خالصة ؛ والباقون بتحقيقها ، ولا خلاف بين القراء في تحقيق الأولى .

" رسلهم " أسكن السين أبو عمرو ، وضمها غيره .

" وملائه " وقف عليه حمزة بالتسهيل فقط .

" فظلموا " فيه لورش تغليظ اللام .

" حقيق على " قرأ نافع بالياء المشددة المفتوحة بعد اللام ، والباقون بألف بعد اللام .

" معي " قرأ حفص بفتح الياء ، والباقون بإسكانها .

" بني إسرائيل " تقدم غير مرة .

" جئت بآية فأت ، عصاه . لساحر . تأمرون " لا يخفى ما فيه .

" أرجه " قرأ قالون وابن وردان بترك الهمز وبكسر الهاء من غير صلة . وقرأ ورش والكسائي وابن جماز وخلف في اختياره بترك الهمز وبكسر الهاء مع صلتها ، وقرأ ابن كثير وهشام بهمزة ساكنة بعد الجيم وبضم الهاء مع الصلة . وقرأ البصريان كذلك ولكن من غير صلة للهاء . وقرأ ابن ذكوان بهمزة ساكنة بعد الجيم وبكسر الهاء من غير صلة . وقرأ عاصم وحمزة بترك الهمز وبإسكان الهاء .

(94/262)

" بكل ساحر " قرأ الأخوان وخلف بلا ألف بعد السين وبفتح الحاء وتشديدها وألف بعدها ، والباقون بألف بعد السين وكسر الحاء مخففة .

" إن لنا لأجرا " قرأ المدنيان والمكي وحفص بهمزة واحدة مكسورة على الخبر . والباقون بهمزتين . الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام . وكل على أصله . فالبصري

يسهل الثانية مع الإدخال ، وهشام يحققها مع الإدخال كذلك ، لأن هذا من المواضع السبعة التي يدخل فيها بلا خلاف . وابن ذكوان وشعبة والأخوان وخلف وروح يحققونها بلا إدخال . ورويس يسهلها بلا إدخال .

" نعم " كسر الكسائي العين ، وفتحها غيره .

" عظيم " آخر الربع .

الممال

نجانا . وفتولى . وآسى . وضحى لدى الوقف عليه ، وفألقى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه . كافرين والكافرين للبصري والدوري ورويس بالإمالة ولورش بالتقليل دارهم لهؤلاء كذلك ما عدا رويسا . القرى الأربعة بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش .

موسى معا ويا موسى للأصحاب بالإمالة وللبصري وورش بالتقليل بخلف عن ورش .

جاءتهم وجاء وجاءوا لابن ذكوان وحمزة وخلف . سحار بالإمالة لدوري الكسائي وحده ولا تقليل فيه لورش كما هو ظاهر ، الناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير " ولقد جاءتهم وقد جئتكم . للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " نطبع على . نكون نحن .

" تلقف " قرأ البزي بتشديد التاء وصلا ، وبفتح اللام وبتشديد القاف مطلقا ، وعند الابتداء يخفف التاء ويفتح اللام ويشدد القاف .

وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بفتح اللام وتشديد القاف ، وكلهم ما عدا البزي يخفف التاء .

" يأفكون " إبداله ظاهر وصلا ووقفا .

" وبطل " غلظ ورش اللام وصلا نوله في الوقف وجهان ، والتغليظ مقدم .

" آمنتم " أصل هذه الكلمة أأأمنتم بثلاث همزات الأولى والثانية مفتوحتان والثالثة ساكنة وقد أجمعوا على إبدال الثالثة حرف مد من جنس حركة ما قبلها فتبدل ألفا عملا بقول الشاطبي:

(95/262)

وإبدال أخرى الهمزتين لكلهم إذا سكنت عزم كآدم أو هلا

واختلفوا في الأولى والثانية واختلافهم في الأولى من حيث حذفها وإثباتها وتغييرها .

وفي الثانية من حيث تحقيقها وتسهيلها ، وإليك مذاهب القراء العشرة في كل منهما . قرأ حفص ورويس بإسقاط الأولى وتحقيق الثانية . وقرأ المدنيان والبزي والبصري والشامي

بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية . وقرأ قنبل حال وصل آمنتم بفرعون قبلها بإبدال الأولى واوا خالصة وتسهيل الثانية . وفي حال البدء بآمنتم يقرأ كالبزي . وقرأ شعبة والأخوان وخلف وروح بتحقيق الأولى والثانية معا .

وينبغى أن تعلم أن كل من يسهل الثانية هنا لا يدخل ألفا بينها وبين الأولى وإن كان مذهبه الإدخال لقول الشاطبي : ولا بحيث ثلاث يتفقن تنزلا وعلل ذلك ابن الجزري بقوله لئلا يصير اللفظ في تقرير أربع ألفات الأولى همزة الاستفهام والثانية الألف الفاصلة والثالثة همزة القطع والرابعة المبدلة من الهمزة الساكنة ، وذلك إفراط في التطويل وخروج عن كلام العرب . انتهى . وينبغي أن تعلم كذلك أن ورشا ليس له هنا إلا التسهيل كما سبق فليس له الإبدال وعللوا ذلك بما يترتب على إبدال الثانية ألفا من التباس الاستفهام بالخبر . هذا ، وورش على أصله من القصر والتوسط والإشباع لأن تغيير الهمز بالتسهيل لا يمنع من البدل كما تقدم ، ولحمزة فيها وقفا تحقيق الثانية وتسهيلها لتوسطها بزائد ، وهو همزة الاستفهام .

" سنقتل " قرأ المدنيان والمكي بفتح النون وإسكان القاف وضم التاء بلا تشديد ، والباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة .

" قاهرون ، واصبروا ، طائرهم ، تأتينا ، جئنا ، تأتنا ، بمؤمنين ، مفصلات ، إسرائيل " جلي .

" عليهم الطوفان . عليهم الرجز " تقدم غير مرة .

" وتمت كلمت " أجمعوا على قراءتها بالإفراد ، والمشهور رسمها بالتاء ، ووقف عليها بالهاء المكي والبصريان والكسائي . وغيرهم بالتاء .

" يعرشون " قرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء ، والباقون بكسرها .

(96/262)

" يعكفون " قرأ ألأخوان وخلف بكسر الكاف ، والباقون بضمها .

" وإذ أنجيناكم " قرأ الشامي بألف بعد الجيم من غير ياء ولا نون ، والباقون بياء ونون بعد الجيم وألف بعدهما .

" يقتلون " قرأ نافع بفتح الياء وسكون القاف وضم التاء وتخفيفها ، والباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مع تشديدها .

" عظيم " آخر الربع .

الممال

موسى الأربعة وبموسى ويا موسى معا لدى الوقف عليهما ، والحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه ، جاءتنا وجاءتهم لابن ذكوان وحمزة وخلف ، عسى بالإمالة للأصحاب ، وبالتقليل لورش بخلف عنه ، آلهة للكسائي وقفا بلا خلاف .

المدغم

" الكبير " السحرة ساجدين ، آذن لكم ، تنقم منا ، وآلهتك قال ، فما نحن لك ، وقع عليهم ، ويستحيون نساءكم .

" وواعدنا " قرأ أبو جعفر والبصريان بحذف الألف قبل العين ، والباقون بإثباتها .

" أرني " قرأ ابن كثير والسوسي ويعقوب بإسكان الراء . وقرأ الدوري عن البصري باختلاس كسرتها ، والباقون بالكسرة الكاملة ، ولا خلاف بين القراء في إسكان ياء أرني .

" ولكن انظر " قرأ البصريان وعاصم وحمزة بكسر النون وصلا ، والباقون بضمها .

" دكا " قرأ الأخوان وخلف بهمزة مفتوحة بعد الألف وبحذف التنوين ، وحينئذ يكون المد متصلا ، فكل حسب مذهبه فيه ، والباقون بحذف الهمزة والمد وبإثبات التنوين .

" وأنا أول " قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف أنا وصلا ، ولا يخفى ما يترتب عليه من المد ، واتفقوا على إثبات الألف وقفا .

" إني اصطفيتك " قرأ المكي والبصري بفتح الياء وصلا ، والباقون بإسكانها وحذفها وصلا للساكنين ، واتفقوا على إسكانها وقفا .

" برسالاتى " قرأ المدنيان والمكي وروح بحذف الألف التي بعد اللام ، والباقون بإثباتها .

" سأريكم ، سأصرف " لحمزة وقفا تحقيق الهمز وتسهيله .

" آياتي الذين " أسكن الشامي وحمزة الياء في الحالين مع حذفها في الوصل ، وفتحها الباقون وصلا ، وأسكنوها وقفا .

(97/262)

" سبيل الرشد " قرأ الأخوان وخلف بفتح الراء والشين ، والباقون بضم الراء وإسكان الشين .

" يتخذوه معا " وصل المكي هاء الضمير .

" ولقاء " فيه لحمزة وهشام خمسة القياس وهى معلومة .

" حليهم " قرأ الأخوان بكسر الحاء واللام وتشديد الياء وكسرها ، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وإسكان اللام وكسر الياء مخففة ، والباقون بضم الحاء وكسر اللام والياء مشددة .

" يهديهم ، أيديهم " ضم الهاء يعقوب .

" يرحمنا ربنا ويغفر لنا " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب في الفعلين ، ونصب باء ربنا والباقون بياء الغيبة فيهما ورفع باء ربنا .

" بئسما " أبدل الهمز في الحالين ورش والسوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة .

" بعدي أعجلتم " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" برأسي " جلي .

" ابن أم " قرأ ابن عامر وشعبة والأخوان وخلف بكسر الميم ، والباقون بفتحها ، ووقف عليه حمزة بالتحقيق فقط من طريق الحرز لفصل ابن عن أم .

" تشاء أنت " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا خالصة . والباقون بتحقيقها ، ولا خلاف في تحقيق الأولى .

" الغافرين " آخر الربع .

الممال

لفظ موسى كله والدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، تراني معا بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . جاء لابن ذكوان وحمزة وخلف ، تجلى وألقى وهدى لدى الوقف عليها بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه ، الناس لدوري البصري .

المدغم

قد ضلوا لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف ، يغفر لنا ، واغفر لي ، وفاغفر لنا للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " لأخيه هارون ، قال رب أرني ، قال لن ، أفاق قال ، قوم موسى ، أمر ربكم ، قال رب اغفر لي ، السيئات ثم ، قال رب لو شئت ، ولا إدغام في فتم ميقات ربه ، والغي

يتخذوه للتثقيل .

" عذابي أصيب به " فتح الياء المدنيان ، وأسكنها غيرهما .

" أشاء ، وشيء ، ويؤتون ، يؤمنون ، النبي ، يأمركم ، عليهم الخبائث ، عليهم الغمام عليهم المن " سبق كله مرارا .

(98/262)

" إصرهم " قرأ الشامي بفتح الهمزة ومدها وفتح الصاد وإثبات ألف بعدها ، والباقون بكسر الهمزة وإسكان الصاد ، ولا خلاف بين القراء في تفخيم رائه لوجود حرف الاستعلاء .

" عليهم ، وعزروه ، ونصروه ، النبي ، وممن خلقنا ، وظللنا ، ظلمونا ، ظلموا ، قيل ، شئتم " كله جلي .

" تغفر لكم خطيئاتكم " قرأ المدنيان والشامي ويعقوب بالتاء الفوقية المضمومة وفتح الفاء .

وقرأ هؤلاء خطيئاتكم بكسر الطاء وبعدها ياء ساكنة ، وبعد الياء همزة مفتوحة ممدودة مع ضم التاء ، إلا أن الشامي يقصر الهمزة . وقرأ الباقون نغفر بالنون المفتوحة مع كسر الفاء

، وخطيئاتكم كقراءة نافع ومن معه ولكنهم يكسرون التاء إلا أبا عمرو فيقرأ خطاياكم بفتح الطاء وألف بعدها وفتح الياء وألف بعدها بوزن قضاياكم .

" قولا غير " فيه الإخفاء لأبي جعفر ، والترقيق لورش .

" واسألهم " قرأ المكي والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة إلى السين مع حذف الهمزة ، وبهذا الوجه يقف حمزة ، والباقون بإسكان السين وبعدها همزة مفتوحة .

" حاضرة " فيه الترقيق لورش .

" تأتيهم " معا لا يخفى ما فيه من الإبدال وضم الهاء .

" لم " سبق مثله مرارا .

" معذرة " قرأ حفص بنصب التاء ، والباقون برفعها ، ورقق ورش راءه .

" السوء " فيه لحمزة وهشام النقل والإدغام مع السكون والروم .

" بئيس " قرأ المدنيان بكسر الباء الموحدة ، وبعدها ياء ساكنة مدية ولا همز لهما . وقرأ الشامي بكسر الباء الموحدة وبعدها همزة ساكنة . وقرأ شعبة بخلف عنه بباء موحدة مفتوحة ، وبعدها ياء ساكنة ، وبعد الياء الساكنة همزة مفتوحة ، والباقون بباء موحدة مفتوحة وبعدها همزة مكسورة ممدودة ، وهو الوجه الثاني لشعبة ، ووقف عليه حمزة بالتسهيل كالياء فقط .

" قردة خاسئين " رقق راءه ورش ، وأخفى أبو جعفر التنوين في الخاء مع الغنة ، ولحمزة في

الوقف التسهيل بين بين والحذف ، ولا شيء فيه لأبي جعفر .

" وإن يأتهم " قرأ رويس بضم الهاء ، والباقون بكسرها .

(99/262)

" أفلا تعقلون " قرأ المدنيان وابن عامر وحفص ويعقوب بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .

" يمسكون " قرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين ، والباقون بفتح الميم وتشديد السين .

" المصلحين " آخر الربع .

الممال

الدنيا ، وموسى معا ، والسلوى بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري ، وورش بخلف عنه .

التوراة . بالإمالة للبصري وابن ذكوان والكسائي وخلف في اختياره ، وبالتقليل لورش وحمزة . ولقالون فيه الفتح والتقليل ، وينهاهم واستسقاه والأدنى ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " نغفر لكم للبصري بخلف عن الدوري . إذ تأتيهم وإذ تأتون للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " أصيب به ، ويضع عنهم . قوم موسى ، قيل لهم معا ، حيث شئتم ، تأذن ربك ، سيغفر لنا ، ولا إدغام في إليك قال لسكون ما قبل الكاف .

" ذريتهم " قرأ المدنيان والبصريان والشامي بإثبات الألف بعد الياء التحتية مع كسر التاء . والباقون بحذف الألف ونصب التاء .

" أن تقولوا ، أو تقولوا " قرأ أبو عمرو بياء الغيب في الفعلين ، والباقون بتاء الخطاب فيهما .

" عليهم ، شئنا ، ذرأنا ، كثيرا ، لا يبصرون " فهو كله ظاهر .

" المهتدي " أجمع العشرة على إثبات يائه في الحالين .

" يلحدون " قرأ حمزة بفتح الياء والحاء ، والباقون بضم الياء وكسر الحاء .

" وممن خلقنا " أخفى النون في الخاء مع الغنة أبو جعفر ، والباقون بالإظهار .

" نذير " فيه ترقيق الراء لورش .

" فبأي " فيه لحمزة وقفا تحقيق الهمزة وإبدالها ياء خالصة .

" ويذرهم " قرأ المدنيان والمكي والشامي بالنون ورفع الراء ، وقرأ البصريان وعاصم بالياء التحتية ورفع الراء ، وقرأ الأخوان وخلف بالياء التحتية وجزم الراء .

" السوء إن " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا خالصة وعنهم تسهيلها بين بين ، وحققها الباقون ، وأجمعوا على تحقيق الأولى .

(100/262)

" أنا إلا " أثبت قالون بخلف عنه ألف أنا وصلا ، والباقون بحذفها ، وهو الوجه الثاني لقالون ولا خلاف في إثباتها وقفا .

" يؤمنون " آخر الربع .

الممال

بلى وهواه وعسى ومرساها بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه ، الحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، جنة وبغتة للكسائي وقفا بلا خلاف ، طغيانهم لدوري الكسائي وحده بالإمالة ، ولا تقليل فيه لورش . الناس لدوري البصري .

شاء : لابن ذكوان وحمزة وخلف .

المدغم

" الصغير " يلهث ذلك : أظهر الثاء ورش وابن كثير وهشام وأبو جعفر بلا خلاف عنهم ،

ولقالون الإظهار والإدغام والباقون بالإدغام ، ولقد ذرأنا ؛ للبصري والشامي والأخوين وخلف .

" الكبير " آدم من ، أولئك كالأنعام ، يسألونك كأنك .

" شركاء " قرأ المدنيان وشعبة بكسر الشين وإسكان الراء وتنوين الكاف من غير همز ، والباقون بضم الشين وفتح الراء ومد الكاف وهمزة مفتوحة بعد المد وحذف التنوين .

" لا يتبعوكم " قرأ نافع بسكون التاء وفتح الباء ، والباقون بفتح التاء وتشديدها وكسر الباء .

" يبطشون " قرأ أبو جعفر بضم الطاء ، والباقون بكسرها .

" يبصرون " فيه ترقيق الراء لورش .

" قل ادعو " قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بكسر اللام وصلا ، والباقون بضمها كذلك .

" كيدون " قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلا وحذفها وقفا ، وقرأ يعقوب وهشام بإثباتها في الحالين ، وذكر الشاطبي الخلاف لهشام خروج عن طريقه وطريق أصله .

فالمقروء له به من طرق الحرز إنما هو الإثبات في الحالين كيعقوب . وقرأ الباقون بحذفها في الحالين .

" فلا تنظرون " أثبت يعقوب الياء في الحالين ، وحذفها غيره كذلك ، ورقق ورش راءه .

" وهو ، لا يبصرون ، وأمر " كله جلي .

" طائف " قرأ المكي والبصريان والكسائي بحذف الألف التي بعد الطاء وإثبات ياء ساكنة بعدها في مكان الهمزة . وقرأ الباقون بألف بعد الطاء وهمزة مكسورة بعد الألف في موضع الياء .

" مبصرون . يقصرون " فيهما ترقيق الراء لورش .

(101/262)

" يمدونهم " قرأ المدنيان بضم الياء وكسر الميم ، والباقون وبفتح الياء وضم الميم .

" لم تأتهم " ضم رويس الهاء ، وكسرها الباقون .

" بصائر " رقق الراء ورش .

يؤمنون . القرآن . جلي .

" قرئ " أبدل أبو جعفر الهمزة ياء خالصة مفتوحة وصلا وساكنة وقفا ، ووقف عليه حمزة كوقف أبي جعفر .

" لا يستكبرون " رقق الراء ورش .

" يسجدون " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

تغشاها وآتاهما معا ، وفتعالى لدى الوقف والهدى معا ويتولى لدى الوقف ويوحى وهدى لدى الوقف بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه ، وتراهم بالإمالة للأصحاب والبصري ، والتقليل لورش .

المدغم

" أثقلت دعوا " لجميع القراء .

" الكبير ، خلقكم " لا يستطيعون نصركم ، العفو وأمر ؛ من الشيطان نزغ ، ولا إدغام في ولا يستطيعون لهم لوقوع السكون قبل النون مفتوحة بعد ساكن ، ولا في وليي الله لأن المثلين في كلمة ولكون الأول مشددا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة صـ 130.115 ﴾

(102/262)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

سورة الأعراف

قوله تعالى المص هي آية في عدد الكوفيين وكذلك الم فإن قيل فهلا عدوا المر فقل لأن الراء

حرفان وأعدل الأسماء والأفعال ما كان ثلاثيا لأن الوقف يصلح عليه فما كان ثلاثيا عد أية وما كان حرفين لم يعد فإن قيل فهلا عدوا صاد وفاف وهما ثلاثيان فقل كل ما كان من هذه الحروف قد ضم إلى غيره فيعد ثم إذا انفرد لم يعد آية كقوله المص وعسق وطس لأنهم قد ضموه إلى الميم في طسم قوله تعالى قليلا ما تذكرون يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد مضى ذكر علله فيما سلف

سورة الأعراف قوله تعالى ومنها تخرجون يقرا بضم التاء وفتح الراء وبفتح التاء وضم الراء ها هنا وفي الروم والزخرف والجاثية فالحجة لمن ضم التاء أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله والحجة لمن فتح التاء أنه أراد أن الله عز وجل إذا أخرجهم يوم القيامة فهم الخارجون والتاء في الوجهين دليل المخاطبة قوله تعالى ولباس التقوى يقرا بالنصب والرفع والحجة لمن نصب أنه عطفه على ما تقدم بالواو فأعربه بمثل إعرابه والحجة لمن رفع أنه ابتدأه بالواو والخبر خير وذلك نعت ل لباس ودليله أنه في قراءة عبد الله وابي ولباس التقوى خير ليس فيه ذلك ومعناه أنه الحياء قوله تعالى خالصة يوم القيامة يقرا بالرفع والنصب فالحجة لمن قرأه بالرفع أنه أراد قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا وهي لهم خالصة يوم القيامة والحجة لمن نصب أنه لما تم الكلام دونها نصبها على الحال قوله تعالى لا تفتح لهم يقرأ بالتاء والتشديد وبالياء والتخفيف وقد تقدمت العلة في ذلك آنفا بما يغنى عن إعادته ومعناه لا يرفع عملهم ولا

يجاب دعاؤهم قوله تعالى ولكن لا تعلمون يقرا بالياء والتاء على ما ذكرنا من الحجة في نظائره قوله تعالى قالوا نعم يقرا بكسر العين وفتحها فالحجة لمن كسر أنه

(103/262)

فرق بين هذه اللفظة التي يوجب بها وبين النعم من الإبل إذا نكر ووقف عليه والحجة لمن فتح أنه قال هما لغتان فاخترت الفتح لخفته ولم ألتفت إلى موافقة اللفظ فإن قيل فما الفرق بين نعم وبلى فقل الفرق بينهما أن نعم يلفظ بها في جواب الاستفهام وبلى يلفظ بها في جواب الجحد قوله تعالى أن لعنة الله يقرأ بتشديد أن والنصب وبتخفيفها والرفع وقد ذكرت علتيهما في البقرة قوله تعالى لا ينالهم الله برحمة يقف بعض القراء على رحمة وما شاكلها مثل الآخرة والقيامة ومرية ومعصية بالإمالة ما لم يكن فيه حرف مانع منها والحجة له في ذلك أنه شبه الهاء في أواخر هذه الحروف بالألف في قضى ورمى فأمال لذلك فإن قيل أفتميل جميع ما كان في القرآن من أمثال ذلك فقل قد دللتك على موضع الإمالة وعرفتك ما لا يجوز فيه للحرف المانع من ذلك فإن قيل ما تقول في شرر وبررة فقل لا يمال هذا وما ضارعه لأن الأصل في الإمالة لذوات الياء فإذا كان قبلها حرف من الحروف الموانع وهن

الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والقاف امتنعت الإمالة لاستعلائهن في الفم واستثقال الإمالة والحقوا بهن الراء للتكرير الذي فيها ففتحتها قبل الألف بمنزلة فتحتين كما كانت

(104/262)

كسرتها بعد الألف بمنزلة كسرتين فلما امتنعت الألف التي هي الأصل من الأمالة للمانع كانت الهاء التي هي مشبهة بها من الإمالة أبعد وأمنع فإن قيل أفتميل الطامة والصاخة كما أملت دابة فقل لا لأن قبل الألف حرف من الحروف الموانع فإن قيل فلم أملت المعصية فقل لكسرة الصاد وكذلك الآخرة لكسرة الخاء فاعرف ما أصلت لك فإنه يشفى بك على جواز الإمالة وامتناعها الباقون بالتفخيم على الأصل سواء كان الحرف مانعا أو مبيحا قوله تعالى وما كنا لنهتدي يقرأ بإثبات الواو وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه رد بها بعض الكلام على بعض والحجة لمن طرحها أنه ابتدأ الكلام فلم تحتج إليها وكذلك هي في مصاحف أهل الشام بغير واو قوله تعالى أورثتموها وقرأ بالإدغام والإظهار فالحجة لمن أدغم مقاربة الثاء للتاء في المخرج والحجة لمن أظهر أن الحرفين مهموسان فإذا أدغما خفيا فضعفا فلذلك حسن الإظهار فيهما قوله تعالى يغشى الليل النهار يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد تكرير الفعل ومداومته ودليله قوله تعالى فغشاها ما غشى والحجة لمن خفف أنه

أخذه من أغشى يغشي ودليله قوله فأغشيناهم فهم لا يبصرون ومعناهما واحد مثل أنزل ونزل غير أن التشديد أبلغ قوله تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات يقرأ بالنصب والرفع

(105/262)

فالحجة لمن نصب أنه عطفه على قوله يغشى فأضمر فعلا في معنى يغشى ليشاكل بالعطف بين الفعلين والحجة لمن رفع أنه جعل الواو حالا لا عاطفة فأستأنف بها فرفع كما تقول لقيت زيدا وأبوه قائم تريد وهذه حال أبيه قوله تعالى خفية يقرأ بضم الخاء وكسرها وقد ذكر في الأنعام قوله تعالى بشرا يقرأ بالنون والباء وبضم الشين وإسكانها فالحجة لمن قرأه بالنون وضم الشين أنه جعله جمعا لريح نشور كما تقول امرأة صبور ونساء صبر والحجة لمن فتح النون وأسكن الشين أنه جعله مصدرا ودليله قوله والناشرات نشرا وهي الرياح التي تهب من كل وجه لجمع السحاب الممطرة والحجة لمن قرأه بالباء وضم الشين أنه جعله جمع ريح بشور وهي التي تبشر بالمطر ودليله قوله تعالى الرياح مبشرات والحجة لمن أسكن الشين في الوجهين أنه كره الجمع بين ضمتين متواليتين فأسكن تخفيفا قوله تعالى ما لكم من إله غيره يقرأ بالرفع والخفض فالحجة لمن قرأه بالرفع أنه جعله حرف استثناء فأعربه بما كان الاسم يعرب

به بعد إلا كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله ويجوز الرفع في غير على الوصف ل إله قبل دخول من عليه كقوله تعالى هل من خالق غير الله والحجة لمن خفض أنه جعله وصفا لإله ولم يجعله استثناء فهو قولك معي درهم غير زائف وسيف غير كهام قوله تعالى أبلغكم رسالات ربي يقرا بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير الفعل ومداومته ودليله قوله تعالى يأيها الرسول بلغ ما أنزل

(106/262)

إليك والحجة لمن خفف أنه أخذه من أبلغ ودليله قوله تعالى لقد أبلغتكم رسالة ربي قوله تعالى أئنكم لتأتون الرجال يقراها هنا بالاستفهام والإخبار فالحجة لمن استفهم ثانيا أنه جعله جوابا واستدل بقوله آلله أذن لكم أم على الله تفترون فأعاد الاستفهام ثانيا والعرب تترك ألف الاستفهام إذا كان عليها دليل من أم كقول أمرئ القيس تروح من الحي أم تبتكر وماذا يضيرك لو تنتظر والحجة لمن قرأه بالإخبار أنه اجترأ بالأول من الثاني ودليله قوله أفإن مت فهم الخالدون قوله تعالى في قصة صالح قال الملأ يقرا بإثبات الواو وحذفها فحذفها على الابتداء وإثباتها للعطف قوله تعالى أو أمن أهل القرى يقرا بإسكان الواو وتحريكها

فالحجة لمن أسكن أنه جعل العطف بأو التي تكون للشك والإباحة والحجة لن حرك أنه جعل العطف بالواو وأدخل عليها ألف الاستفهام ليكون الأول من لفظ الثاني في قوله أفأمن

(107/262)

قوله تعالى لفتحنا عليهم يقرا بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد مرة بعد مرة والحجة لمن خفف أنه أخذه من فتح يفتح إذا فعل ذلك مرة واحدة قوله تعالى حقيق على يقرا بإرسال الياء وبتشديدها فالحجة لمن أرسلها أنه جعل على حرفا وأوقعها على ألا أقول فكان بها في موضع خفض والحجة لمن شدد أنه أضاف الحرف إلى نفسه فاجتمع فيه ياءان الأولى من أصل الكلمة والثانية ياء الإضافة فأدعمت الأولى في الثانية وفتحت لالتقاء الساكنين كما قالوا لدي وإلى ويكون ألا أقول في موضع رفع بخبر الابتداء قوله تعالى أرجه وأخاه يقرا بالهمز وتركه وبإشباع الضمة والهمز وباختلاس الحركة وبكسر الهاء وإسكانها مع ترك الهمز فأما تحقيق الهمز وتركه فلغتان فاشيتان قرئ بهما ترجئ من تشاء وترجى من تشاء وأما إشباع الضمة واختلاس حركتها فالحجة فيه أن هاء الكناية غذا أسكن ما قبلها لم يجز فيها إلا الضم لأن ما بعد الساكن كالمبتدأ يدلك على ذلك قولك منه وعنه بالاختلاس ومنهمو وعنهمو بالإشباع فمن أشبع فعلى الأصل

(108/262)

ومن أختلس أراد التخفيف فاجتزأ بالضمة من الواو وأما من ترك الهمز وكسر الهاء فإنه أسقط الياء علامة للجزم وكسر الهاء لانكسار ما قبلها ووصلها بياء لبيان الحركة وأما من أسكن الهاء فله وجهان أحدهما أنه توهم أن الهاء آخر الكلمة فأسكنها دلالة على الأمر أو تخفيفا لما طالت الكلمة بالهاء وروى هشام بن عمار عن ابن عامر أرجئه بالهمز وكسر الهاء وهو عند النحويين غلط لأن الكسر لا يجوز في الهاء إذا سكن ما قبلها كقوله وأشركه في امري وله وجه في العربية وذلك أن الهمزة لما سكنت للأمر والهاء بعدها ساكنة على لغة من يسكن الهاء كسرها لالتقاء الساكنين قوله تعالى بكل ساحر عليم يقرأ بإثبات الألف والتخفيف وبطرحها والتشديد في كل القرآن إلا في الشعراء فإنه بالتشديد إجماع فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير الفعل والإبلاغ في العمل والدلالة على أن ذلك ثابت لهم فيما مضى من الزمان كقولهم هو دخال خراج إذا كثر ذلك منه وعرف به والحجة لمن أثبت الألف وخفف أنه جعله اسما للفاعل مأخوذا من الفعل

(109/262)

وكل ما أتى بعده عليم فهو ساحر إلا التي في الشعراء فإنها في السواد قبل الألف فلم يختلف فيها أنها سحار وما كان بعده مبين فهو سحر قوله تعالى أئن لنا لأجرا يقرأ بتحقيق الهمزتين وبتحقيق الأولى وتليين الثانية وبطرح الأولى وتحقيق الثانية فالحجة لمن أثبت الهمزتين أنه اتى به على الأصل لأن الأولى للأستفهام والثانية همزة إن والحجة لمن لين الثانية أنه تجافى أن يخرج من فتح الهمزة إلى كسرة ثانية فقلبها إلى لفظ الياء تليينا والحجة لمن طرح الأولى أنه أخبر بإن ولم يستفهم فأثبت همزة إن وأزال همزة الاستفهام قوله تعالى تلقف يقرأ بفتح اللام وتشديد القاف وبإسكان اللام وتخفيف القاف فالحجة لمن شدد أنه أراد تتلقف فحزل إحدى التاءين وبقى القاف على تشديدها والحجة لمن أسكن وخفف أنه أخذه من لقف يلقف ومعناهما تلتقم وتلتهم أي تبتلع قوله تعالى آآمنتم به يقرأ بتحقيق الهمزتين ومدة بعدهما وبهمزة ومدة بعدها وبواو وهمزة بعدها ساكنة وبواو ولا همزة بعدها فالحجة لمن حقق الهمزتين ومد أنه جمع بين ثلاث همزات الأولى همزة التوبيخ بلفظ الاستفهام والثانية ألف القطع والثالثة همزة الأصل ووزنه أأفعلتم فالفاء هي موضع المدة والحجة لمن همز ومد أنه لين ألف القطع فوصل مدها بمد ألف الأصل والحجة لمن أتى بلفظ الواو وهمزة ساكنة بعدها أنه لين ألف القطع فصارت واوا لانضمام النون قبلها فرجعت الهمزة التي هي فاء الفعل إلى أصلها قبل التليين فإن قيل فيجب أن تكون الواو ساكنة لأنها ملينة من همزة فقل إن الواو الساكنة

إذا لقيها ساكن حركت لالتقاء الساكنين كقوله فلا تخشوا الناس وقد نسب القارىء بذلك إلى الوهم والحجة لمن قرأ بلفظه كالواو ولا همزة معها فإنه أشبع ضمة النون فصارت كلفظ الواو وخزل الهمزة الثانية وخلفها بمدة ودل بالفتح على سقوط الهمزة المفتوحة قوله تعالى سنقتل أبناءهم ومثله يقتلون أبناءكم يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير القتل بأبناء بعد أبناء ودليله قوله وقتلوا تقتيلا والحجة لمن خفف أنه أراد فعل القتل مرة واحدة ودليله قوله تعالى واقتلوهم حيث ثقفتموهم قوله تعالى يورثها من يشاء يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير الميراث لقرن بعد قرن ودليله قول النبي صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله عئم ما لم يعلم والحجة لمن خفف أنه أخذه من أورث ودليله قوله تعالى كذلك وأورثناها قوما آخرين قوله تعالى وما كانوا يعرشون ويعكفون يقرآن بضم عين الفعل وكسرها وهما لغتان والحجة لذلك أن كل فعل انفتحت عين ماضيه جاز كسرها وضمها في المضارع قياسا إلا أن يمنع السماع من ذلك وما كانت عين ماضيه مضمومة لزمت الضمة عين مضارعه إلا أن يشذ شيء من الباب فلا

حكم للشاذ فالأصل ما ذكرته لك فاعرفه إن شاء الله قوله تعالى وإذ أنجيناكم يقرا بإثبات الياء والنون وبحذفهما فالحجة لمن

(111/262)

أثبتهما أنه من إخبار الله تعالى عن نفسه بنون الملكوت وعليها جاء قوله رب ارجعون والحجة لن حذفها أنه من إخبار النبي عليه السلام عن الله والفاعل مستتر في الفعل وإذ في أول الكلام متعلقة بفعل دليله قوله تعالى واذكروا إذ أنتم قليل وإنما وعظهم الله تعالى بما أمتحن به من كان قبلهم وذكرهم نعمه عليهم وحذرهم من حلول النقم عند مخالفته قوله تعالى جعله دكا يقرا بالقصر والتنوين وبالمد وترك التنوين ها هنا وفي الكهف فالحجة لمن قصر ونون أنه جعله مصدرا كقوله إذا دكت الأرض دكا دكا وهذا اللفظ لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر والمصدر اسم للفعل فلما كان الفعل لا يثنى ولا يجمع كان الأصل بتلك المثابة والحجة لمن مد ولم ينون أنه صفة قامت مقام الموصوف وأصله أرضا ملساء من قول العرب ناقة دكاء أي لا سنام لها فهذا يثني ويجمع ولم ينون لأنه وزن لا ينصرف في معرفة ولا نكرة لاجتماع علامة التأنيث والوصف فيه فإن قيل فقوله دكت الأرض خرج لفظ المصدر فيه على فعله وليس ها هنا لفظ لفعل يخرج المصدر عليه فقل إن المصدر ها هنا يخرج على

المعنى لا على اللفظ لأنه يريد بقوله تعالى جعله دكه وذلك معروف عند العرب قال ذو الرمة والودق يستن عن أعلى طريقته جول الجمان جرى في سلكه الثقب فنصب جول الجمان لأنه أراد بقوله يستن يجول قوله تعالى برسالاتي يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أن الله تعالى إنما أرسله مرة واحدة بكلام كثير والحجة لمن جمع أنه طابق بين اللفظين لتكون

(112/262)

رسالاتي مطابقة لكلامي وإن أراد بالجمع معنى الواحد كما قال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات يريد نبينا عليه السلام قوله تعالى وإن يروا سبيل الرشد يقرا بضم الراء وإسكان الشين وبفتحهما فالحجة لمن ضم أنه أراد به الهدى التي هي ضد الضلال ودليله قوله تعالى قد تبين الرشد من الغي والغي ها هنا الضلال والحجة لمن فتح أنه أراد به الصلاح في الدين ودليله قوله تعالى وهيء لنا من أمرنا رشدا أي صلاحا وقيل هما لغتان كقولهم السقم والسقم قوله تعالى من حليهم يقرا بضم الحاء وكسرها وهما جمع حلي فالحجة لمن ضم أنه أتى به على أصل ما يجب لجمع فعل وأصله حلوي كما قالوا فلوس فلما تقدمت الواو بالسكون قلبوها إلى الياء وأدغموها للمماثلة فتشديد الياء لذلك والحجة لمن كسر أنه استثقل الخروج من ضم إلى كسر فكسر الحاء ليقرب بها بعض اللفظ من بعض طلبا

للتخفيف قوله تعالى لئن لم يرحمنا ربنا يقرأ بالياء والرفع وبالتاء والنصب فالحجة لمن قرأ بالتاء أنه جعلها دليلا لخطاب الله تعالى لأنه حاضر وإن كان عن العيون غائبا ونصب مريدا للنداء كقوله تعالى ذرية من حملنا يريد نداء المضاف والحجة لمن قرا بالياء أنه أخبر عن الله تعالى في حال الغيبة ورفعه بفعله الذي صيغ له وجعل ما اتصل بالفعل من الكناية مفعولا به قوله تعالى ابن أم يقرا بفتح الميم وكسرها فالحجة لمن فتح أنه جعل الاسمين اسما واحدا كخمسة عشر فبناه على الفتح

(113/262)

وقال الزجاج إنما جاز الفتح في هذا وفي ابن عم لكثرة الاستعمال ألا ترى أن الرجل يقول ذلك لمن لا يعرفه فكأنه لكثرة الاستعمال عندهم يخرج عمن هو له فخفف الكلمتان بأن جعلتا واحدة وبنيتا على الفتح ولا يجوز ذلك في غيرهما وقال المبرد أراد يا بن أمي فقلب من الياء ألفا فقال يا بن أما ثم حذف الألف استخفافا كما حذف الياء من قوله يا بن أمي فقال يا بن أم وجاز له قلب الياء ألفا لأن النداء قريب من الندبة وهما قياس واحد إذا قلت يا أماه وأنشد يا بنت عما لا تلومي واهجعي والحجة لمن كسر الميم أنه أراد يا بن أمي فحذف الياء واجتزأ منها بالكسرة لأن النداء باب بني على الحذف واختص به فاتسعوا

فيه بالحذف والقلب والإبدال والوجه في العربية إثبات الياء ها هنا لأن الاسم الذي فيه مضاف إلى المنادى وليس بمنادى قال الشاعر يا بن أمي ولو شهدتك إذ تدعو تميما وأنت غير مجاب قوله تعالى ويضع عنهم إصرهم يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه أراد ثقل ما اجترموه في الجاهلية ودليله قوله عليه السلام محا الإسلام ما قبله

(114/262)

والحجة لمن قراه بالجمع أنه طابق بذلك بينه وبين قوله تعالى والأغلال التي كانت عليهم قوله تعالى يغفر لكم خطاياكم يقرأ بضم التاء وجمع خطيئة وتوحيدها والرفع وبالنون والجمع فالحجة لمن قرأه بضم التاء أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله ودل بالتاء على تأنيث ما يأتي بعدها ورفع ذلك باسم ما لم يسم فاعله سواء أفرد أو جمع لأنه قام مقام الفاعل والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعل الفعل إخبارا عن الله تعالى ونصب قوله خطاياكم بتعدي الفعل إليها ولم يبن للنصب فيها دليل لأن آخرها ألف والألف لا تقبل شيئا من الحركات والحجة لمن قرأه بالنون وجمع السلامة أنه كسر التاء في موضع النصب لأنها في التأنيث بمنزلة الياء في التذكير فكما نابت في الجمع عن النصب والخفض كذلك نابت الكسرة في التأنيث عن النصب والخفض قوله تعالى قالوا معذرة يقرا بالرفع والنصب فالحجة لمن قرأه بالرفع أنه أراد أحد

وجهين من العربية إما أن يكون أراد قالوا موعظتنا إياهم معذرة فتكون خبر إبتداء محذوف أو يضمر قبل ذلك ما يرفعه كقوله سورة أنزلناها يريد هذه سورة والحجة لمن نصب أن الكلام جواب كأنه قيل لهم لم تعظون قوما هذه سبيلهم قالوا نعظهم اعتذارا ومعذرة قوله تعالى بعذاب بئس يقرا بئيس بالهمزة على وزن فعيل وبئس بإثبات الهمز وحذف الياء على وزن فعل وبيس بكسر الياء وفتحها من غير همز وبيأس بفتح الباء وإسكان الياء وهمزة مفتوحة على وزن فيعل فهذه خمس لغات مشهورات مستعملات في القراءة قوله تعالى والذين يمسكون بالكتاب ها هنا وفي الممتحنة يقرآن بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أخذه من مسك يمسك إذا عاود فعل التمسك بالشيء

(115/262)

ودليله أنه في حرف أبي والذين مسكوا بالكتاب والحجة لمن خفف أنه أخذه من أمسك يمسك ودليله قوله تعالى أمسك عليك زوجك ولم يقل مسك قوله تعالى من ظهورهم ذرياتهم يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه جعله موحدا في اللفظ مجموعا في المعنى ودليله قوله تعالى أو الطفل والحجة لمن جمع أنه طابق بذلك بين اللفظين لقوله من ظهورهم ومعنى الآية أن الله مسح ظهر آدم فأخرج الخلق منه كأمثال الذر فأخذ عليهم العهد بعقل

ركبه فيهم وناداهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا فكل أحد إذا بلغ الحلم علم بعقله أن الله عز وجل خالقه واستدل بذلك عليه فإن قيل فما وجه بعث الرسل فقل إيضاح للبراهين وتأكيد للحجة عليهم قوله تعالى أن تقولوا يقرا بالياء والتاء وقد ذكر من الحجة في نظائره ما يدل عليه ويغني عن إعادته قوله تعالى وذروا الذين يلحدون يقرأ بضم الياء وكسر الحاء وبفتحهما ها هنا وفي النحل والسجدة فالحجة لمن ضم الياء وكسر الحاء أنه أخذه من ألحد يلحد والحجة لمن فتحهما أنه أخذه من لحد يلحد وهما لغتان معناهما الميل والعدول ومنه أخذ لحد القبر قوله تعالى ونذرهم بالنون والرفع وبالياء والجزم فالحجة لمن قرأ بالنون والرفع أنه استأنف الكلام لأنه ليس قبله ما يرده بالواو عليه والحجة لمن قرأه بالياء والجزم أنه عطفه على موضع الفاء في الجواب من قوله فلا هادي له

(116/262)

قوله تعالى جعلا له شركاء يقرا بضم الشين والمد وطرح التنوين وبكسر الشين وإسكان الراء والتنوين فالحجة لمن قرأه بضم الشين أنه جعله جمع شريك فمنعه من الصرف لأن الهمزة التي في آخره مشاكلة لهمزة حمراء وما أشبهها والحجة لمن قرأه بكسر الشين أنه أراد المصدر ومعنى الآية أن ابليس لعنه الله أتى حواء وهي عند أول حمل حملت فقال لها ما

هذا الذي في بطنك أبهيمة أم حية قالت لا أدري قال لها إن دعوت الله تعالى أن يجعله بشرا سويا تسمينه باسمي قالت نعم فلما أتاهما الله ولدا صالحا جعلا له شركاء فيه فسمياه عبد الحرث باسم إبليس لعنه الله قوله تعالى ان وليي الله إجماع القراء على قراءته بثلاث ياءات الأولى ياء فعيل زائدة والثانية لام الفعل أصلية والثالثة ياء الإضافة فأدغمت الزائدة في الأصلية واتصلت بها ياء الإضافة ففتحت لالتقاء الساكنين هذا لفظ القراء إلا ما رواه ابن اليزيدي عن أبيه عن أبي عمرو إن ولي الله بياء مشددة مفتوحة فإن صح ذلك عنه فإنه حذف الوسطى وأدغم في الإضافة وفتحها كما قالوا إلى وعلي ولدي بفتح الياء قوله تعالى إذا مسهم طيف يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه جعله اسم الفاعل من طاف الخيال إذا طرق النائم وهما لغتان طاف طوفا وأطاف مطافا ومعنى طائف الشيطان وساوسه ولممه وختله قال الشاعر وتضحى على غب السرى وكأنما أطاف بها من طائف الجن أولق والحجة لمن حذفها أنه أراد به رده إلى الأصل وأصله طويف فلما تقدمت الواو

(117/262)

بالسكون قلبت ياء وأدغمت في الياء فثقل عليهم تشديد الياء مع كسرها فخففوه بأن طرحوا إحدى الياءين وأسكنوا كما قالوا هين لين قال حسان بن ثابت جنية أرقني طيفها يذهب صبحا وترى في المنام قوله تعالى لا يتبعوكم يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد به لا يسيرون على أثركم ولا يركبون طريقتكم في دينكم والحجة لمن خفف أنه أراد به لا يلحقوكم ومنه قول العرب اتبعه إذا سار في أثره وتبعه إذا لحقه وقيل هما لغتان فصيحتان قوله تعالى ثم كيدوني يقرا بإثبات الياء وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنها غير فاصلة ولا آخر آية والحجة لمن حذفها أنه أدى ما وجده في السواد فأما قوله في سورة المرسلات فكيدون فأكثر القراء على حذفها لأنها فاصلة في آخر آية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 153 . 169 ﴾

(118/262)

وقال ابن زنجلة :

7 - سورة الأعراف

قليلا ما تذكرون

قرأ حمزة والكسائي وحفص قليلا ما تذكرون بتخفيف الذال

وقرأ الباقون بالتشديد والأل تتذكرون من خفف حذف إحدى التاءين وهي الثانية وهما زائدتان إلا أن الأولى تدل على معنى الاستقبال والثانية إنما دخلت على معنى فعلت الشيء على تمهل نحو قولك تفهمت الشيء أي أخذت على مهل ومن شدد أدغم التاء في الذال لقرب مكان هذه من مكان هذه

وقرأ ابن عامر قليلا ما يتذكرون بياء وتاء أي قليلا ما يتذكرون هم وكذلك مكتوب في مصاحفهم

قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون 25

قرأ حمزة والكسائي بن عامر ومنها تخرجون بفتح التاء جعلوا الفعل لهم لأن الله جل وعز إذا بعثهم يوم القيامة فأحياهم وأخرجهم خرجوا كما تقول مات فلان فتنسب الفعل إليه وإنما أماته الله وحجتهم قوله فيها تحيون وفيها تموتون على تصيير الفعل لهم فكذلك أيضا و منها تخرجون على ما تقدمه من الكلام وفي التنزيل ما يدل على قراءتهم وهو قوله وإذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون بالفتح

وقرأ الباقون تخرجون بالضم على ما لم يسم فاعله وحجتهم إجماع الجميع على قوله ثم إنكم يوم القيامة تبعثون على أنهم مفعولون ولم يسم الفاعل والمعنيان يتداخلان لأن الله إذ أخرجهم خرجوا وإذا خرجوا ف بإخراج الله خرجوا فهم فاعلون مفعولون

يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير 26

قرأ نافع و ابن عامر والكسائي وريشا ولباس التقوى بالنصب عطفوا على الريش المعنى وأنزلنا عليكم لباس التقوى

وقرأ الباقون بالرفع قال الزجاج ورفعه على ضربين أحده

(119/262)

أن يكون مبتدأ ويكون ذلك من صفته ويكون خير خبر الابتداء المعنى ولباس التقوى المشار إليه خير ويجوز أن يكون ولباس التقوى مرفوعا بإضمار هو المعنى وهو لباس التقوى أي وستر العورة لباس المتقين وحجتهم ما جاء في التفسير قيل ولباس التقوى أفضل من الأثاث والكسوة وجاء أيضا ولباس التقوى الحياء

قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة 32

قرأ نافع خالصة يوم القيامة بالرفع أي هي خالصة للذين آمنوا قال الزجاج قوله خالصة خبر بعد خبر كما تقول زيد عاقل لبيب فالمعنى قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة

وقرأ الباقون خالصة نصبا على الحال كما تقول المال لزيد خالصا

قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون 38

قرأ أبو بكر قال لكل ضعف ولكن لا يعلمون بالياء إخبار عن غيب المعنى ولكن لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر

وقرأ الباقون بالتاء أي ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق منكم من العذاب ويجوز والله أعلم ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك

إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء 40

قرأ أبو عمرو لا تفتح بالتاء والتخفيف وقرأ حمزة والكسائي بالياء والتخفيف وقرأ الباقون بالتاء والتشديد وحجة التاء قوله وفتحت أبوابها ذهبوا إلى جماعة الأبواب وحجة من قرأ بالياء هي أنه لما فصل بين المؤنث وبين فعله بفاصل صار الفاصل كالعوض من التأنيث والتذكير والتأنيث في هذا النوع قد جاء بهما التنزيل فمن الأول قوله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ومن التأنيث قوله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ولو ذكر أما وأنث فعل اللحوم كان جائزا حسنا

(120/262)

فأما التشديد فإنه من التفتيح مرة بعد مرة أخرى وهذا هو المختار لأنها جماعة وحجتهم

قوله مفتحة لهم الأبواب ولم يقل مفتوحة وقال وغلقت الأبواب ومن خفف دل على المرة

الواحدة ومعنى قوله لا تفتح لهم أبواب السماء أي لا يستحاب لهم دعاؤهم فتفتح لهم

أبواب السماء وقد ذكرت في تفسير القرآن

قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين 44

قرأ الكسائي قالوا نعم بكسر العين حيث كان وحجته

ما روي في الحديث أن رجلا لقي النبي صلى الله عليه و سلم وآله بمنى فقال أنت الذي يزعم

أنه نبي فقال

نعم بكسر العين وروي أيضا أن عمر سأل رجلا شيئا فقال نعم فقال قل نعم إنما النعم الإبل

وقرأ الباقون نعم بالفتح وهما لغتان

قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو والقواس عن ابن كثير أن لعنة الله أن خفيفة لعنة الله رفع

وقرأ الباقون أن بالتشديد لعنة نصب

من خفف فله مذهبان أحدهما أنه أراد أن الخفيفة عن أن الثقيلة كما قال جل وعز أن لا

يقدرون على شيء أراد أنهم والثاني بمعنى أي التي هي تفسير كأنها تفسر لما أذنوا به أراد

فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله وهذا حكاه الخليل وحجة التخفيف قوله ونودوا أن تلكم

الجنة و أن سلام عليكم ولم يقرأ أحد أن تلكم ولا أن سلاما

يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره 54

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يغشي الليل النهار بالتشديد وفي الرعد أيضا من غشى يغشي أي يغشي الله الليل النهار وحجتهم أن هذا فعل يتردد ويتكرر وذلك أن كل يوم وكل ليلة غير اليوم الآخر وغير الليلة الأخرى فالتغشية مكررة مردودة لمجيئها يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة وفي التنزيل فغشاها ما غشى

وقرأ الباقون بالتخفيف وحجتهم قوله فأغشيناهم فهم لا يبصرون وقال كأنما أغشيت وجوههم قطعا ولم يقل غشيت

(121/262)

قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع جعل الواو واو حال كما تقول لقيت زيدا ويده على رأسه أي رأيته في هذه الحال فكذلك قوله يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر أي حالهما التسخير وكذلك والنجوم مسخرات ويجوز أن يكون والشمس والقمر رفعا على الابتداء والخبر مسخرات

وقرأ الباقون بالنصب على إضمار خلق لأنه لما قال قبلها إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ثم قال والشمس والقمر دل على أن المعنى وخلق الشمس والقمر كما خلق

السموات والأرض

وهو الذي يرسل الريح بشرا بين يدي رحمته 57

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نشرا بين بضم النون والشين جمع نشور كقولك صبور وصبر وعجوز وعجز ورسول ورسل قال اليزيدي العرب تقول هذه رياح نشر مثل قولك نساء صبر قال أبو عبيد الريح النشور التي تهب من كل جانب وتجمع السحابة الممطرة وقال غيره الريح النشور التي تنشر السحاب

وقرأ الباقون نشرا بضم النون وسكون الشين أراد نشرا فخفف مثل رسل ورسل

وقرأ حمزة والكسائي نشرا بفتح النون وسكون الشين قال الفراء النشر من الرياح الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب فكأن الفراء ذهب إلى أن النشر صنف من صنوف الرياح ونوع من أنواعها

وقال آخرون يجوز أن يكون قوله نشرا مصدر نشرت الريح السحاب نشرا فكأن معنى ذلك على هذا التأويل وهو الذي يرسل الرياح ناشرة للسحاب ثم اكتفى بالمصدر عن الفاعل كما تقول العرب رجل صوم ورجل فطر أي صائم

قال أبو عبيدة وحجته في هذه القراءة قوله والناشرات نشرا

وقرأ عاصم بشرا بالياء وإسكان الشين أخذه من البشارة وحجته قوله ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وذلك أن الريح تبشر بالمطر وكان عاصم ينكر أن تكون الريح تنشر وكان

يقول المطر ينشر أي يحيي الأرض بعد موتها يقال نشر وأنشر إذا أحيا

ما لكم من إله غيره 59

قرأ الكسائي ما لكم من إله غيره بالخفض جعله صفة ل إله ولموافقة اللفظ المعنى

(122/262)

وقرأ الباقون ما لكم من إله غيره بالرفع أي ما لكم إله غيره ودخلت من مؤكدة وهو المختار على مذهب التحقيق لأن غير إذا كانت بمعنى إلا جعلت على إعراب ما بعد إلا وأنت قائل ما لكم من إله إلا الله ولو جعلت مكان إلا غير رفعته والاستثناء بعد الجحد تحقيق

أبلغكم رسالت ربي 62

قرأ أبو عمرو أبلغكم رسالات بالتخفيف من أبلغ يبلغ

وحجته قوله لقد أبلغتكم رسالات ربي فرد أبو عمرو ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وقرأ الباقون أبلغكم بالتشديد وحجتهم قوله تبارك وتعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وقال الذين يبلغون رسالات الله وهما لغتان مثل عظمت الأمر وأعظمته

قال الملأ الذين استكبروا من قومه 75

قرأ ابن عامر في قصة صالح وقال الملأ الذين استكبروا من قومه بزيادة واو كذلك في

مصاحفهم

وقرأ الباقون بغير الواو فمن قرأ بالواو عطفه على ما قبله ومن قرأ بغير الواو ابتدأ بغير عطف

إنكم لتأتون الرجال 81

قرأ نافع وحفص إنكم لتأتون الرجال بكسر الألف على الخبر

وقرا ابو عمرو ءاينكم بهمز ثم بمد بعد الهمز أصل الكلمة إنكم ثم دخلت همزة الاستفهام وصار أئنكم فاستثقل الجمع بين الهمزتين فأدخل بينهما ألفا ليبعد المثل عن المثل ويزول الاجتماع فيخف اللفظ فصار ءائنكم ثم لين الثانية فصار ءاينكم وحجته أن العرب تستثقل الهمزة الواحدة فتخففها في أخف أحوالها وهي ساكنة نحو كأس وبأس وتقلبها ألفا فإذا كانت تخففها وهي وحدها فأن تخففها ومعها مثلها أولى

وقرأ ابن كثير أينكم بهمزة واحدة غير مطولة وهو أن تحقق الأولى وتخفف الثانية والثانية إذا خففت جعلت بين الهمزة وبين الحرف الذي عنه حركة الهمزة وهو ها هنا همزة مكسورة والأصل إنكم ثم دخلت همزة الاستفهام فصار أئنكم ثم لين الثانية فصار أينكم

قرأ ابن عامر في رواية هشام ءائنكم بهمزتين بينهما مدة وهو أن تزاد الألف بين الهمزتين ليبعد المثل عن المثل فيخف اللفظ بالهمزتين مع الحائل بينهما وهو المدة

وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة أئنكم بهمزتين وحجتهم أن الهمزة حرف من حروف المعجم كغيره من سائر الحروف جاز الجمع بينهما من غير تغيير كقوله أتمدونن بمال و لعلكم تتفكرون فجعلوا الهمزتين كغيرهما من سائر الحروف فافهم ذلك وقس وابن على هذا جميع ما يأتي في القرآن من هذا النوع من اختلاف القراء على ما بينت لك

لفتحنا عليهم بركت من السماء والأرض 96

قرأ ابن عامر لفتحنا بالتشديد أي مرة بعد مرة وحجته قوله بركات من السماء ولم يقل بركة

وقرأ الباقون بالتخفيف أرادوا الواحد

أوأمن أهل القرى 98

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر أو أمن أهل القرى بإسكان الواو جعلوه نسقا في الاستفها كما تقول أقمت أو قعدت

وقرأ الباقون أو أمن بفتح الواو جعلوا واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام وهو المختار لأنه مثل قوله قبلها أفأمن أهل القرى

حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق 105

قرأ نافع حقيق علي مشددة الياء وحجته ما جاء في التفسير حقيق علي أي واجب علي

كما يقول الرجل هذا علي واجب فالياء الأخيرة ياء الإضافة والأولى من نفس الكلمة فأدغمت الأولى في الثانية وفتحت الثانية لالتقاء الساكنين على أصلها ومثله لدي وإلي

وقرأ الباقون حقيق على ألا أقول بالتخفيف معناه حقيق بألا أقول كقولك جدير وخليق ألا أفعل كذا وقال قوم معناه حريص على ألا أقول وحجتهم قراءة ابن مسعود قرأ حقيق بألا اقول قال الفراء الباء بمعنى على كقول العرب فلان على حالة حسنة و بحالة حسنة قالوا أرجه وأخاه 111

قرأ ابن كثير وهشام عن ابن عامر أرجئه مهموزة بواو بعد الهاء في اللفظ واصل هذه الهاء التي للمضمر أن تكون مضمومة

(124/262)

بعدها واو كقولك ضربتهو يا فتى و مررت بهويا فتى زعم سيبويه أن الواو زيدت على الهاء في المذكر كما زيدت الألف في المؤنث كقولك ضربتها ومررت بها ليستوي المذكر والمؤنث في باب الزيادة وعلامة الأمر في أرجئهو سكون الهمزة

وقرأ أبو عمرو وأرجئه مضمومة الهاء من غير إشباع اكتفاء بالضمة عن الواو لأنها نابت عن الواو وأخرى أن الهاء ليست بحاجز حصين فكأن الساكن الذي قبلها ملاق للساكن

الذي بعدها فتحذف الواو كما يحذف الساكن عند ملاقاة ساكن

وقرأ نافع والكسائي أرجهي بغير همزة وبحر الهاء يصلان بياء والأصل في هذه الهاء الضمة كما ذكرنا ولكنهم قلبوا الواو ياء لانكسار ما قبلها أعني كسرة الجيم وإنما اختار الكسرة على الضمة التي هي الأصل لاستثقال الضمة بعد الكسرة ألا ترى أنه رفض في اصل البناء فلم يجئ بناء على فعل مضمومة العين بعد كسرة الفاء

وقرأ الحلواني عن نافع أرجه بكسر الهاء من غير إشباع وحجته هي أن الكسرة تدل على الياء وتنوب كما قال أكرمن و أهانن والأصل أكرمني وأهانني

وقرأ عاصم وحمزة أرجه بترك الهمزة وسكون الهاء وحجتهما ذكرها الفراء قال إن من العرب من يسكن الهاء إذ تحرك ما قبلها فيقول ضربته ضربا شديدا فينزلون الهاء وأصلها الضمة بمنزلة أنتم وأصل الميم الرفع ولم يصلوها بواو والذي يدل على ما قال أنك تردها إلى الأصل مع المضمر فتقول رأيتموه قال الله تعالى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فأجريا الهاء وأصلها الضم مجرى الميم قال الشاعر . . . فيصلح اليوم ويفسده غدا . . .

وقرأ ابن عامر أرجئه بالهمز وكسر الهاء من غير إشباع

قال أهل النحو هذا غلط لأن الكسرة لا تجوز في الهاء إذا سكن ما قبلها نحو منهم بكسر الهاء قال وإنما يجوز كسر الهاء إذا كان ما قبلها ياء أو كسرة فتكسر الهاء لأجلهما وله وجه قد ذكره بعض النحويين قال إن الهمزة لما سكنت للجزم وبعدها الهاء ساكنة على لغة من يسكن فكسر الهاء لالتقاء الساكنين وليس هذا كقولهم منهم لأن الهاء هنالك لا تكون إلا متحركة

يأتوك بكل سحر عليم 112

قرأ حمزة والكسائي بكل سحار عليم بالألف بعد الحاء وكذلك في يونس وحجتهما إجماع الجميع على قوله في سورة الشعراء بكل سحار عليم 37 ولا فرق بينهما وبين ما أجمعوا عليه فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه وأخرى أن سحارا أبلغ من ساحر وأشد مبالغة في الوصف من ذلك علام أبلغ من عالم فكذلك سحار أبلغ من ساحر

وقرأ الباقون يأتوك بكل ساحر الألف قبل الحاء وحجتهم إجماعهم على قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى

قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين 113

قرأ نافع وابن كثير وحفص قالوا إن لنا لأجرا على الخبر

وقرأ أبو عمرو إين لنا بالمد وقرأ هشام بهمزتين بينهما مدة وقرأ الباقون أئن بهمزتين وقد كرنا الحجة عند قوله أئنكم لتأتون الرجال 81

فإذا هي تلقف ما يأفكون 116

قرأ حفص عن عاصم فإذا هي تلقف ساكنة اللام من لقفت الشيء ألقفه

وقرأ الباقون تلقف بالتشديد من تلقف يتلقف على وزن تعلم يتعلم والأصل تتلقف

فحذفوا إحدى التاءين مثل تذكرون ويوم يأتي لا تكلم أي لا تتكلم

وقرأ البزي فإذا هي تلقف بتشديد التاء أراد تتلقف فأدغم التاء في التاء وكذلك في طه

قال فرعون آمنتم به 123

(126/262)

قرأ ورش عن نافع وحفص قال فرعون آمنتم به على لفظ الخبر بغير استفهام أي صدقتم به

وقرأ نافع والبزي عن ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر قال فرعون آمنتم بالهمز والمد على

الاستفهام أي أجعلتم له الذي أراد في آمنتم ثلاث ألفات ألف الاستفهام بمعنى التوبيخ

والألف الوسطى ألف افعل وهي ألف القطع والأخيرة فاء الفعل والأصل قبل دخول ألف

التوبيخ ءامنتم بهمزة بعدها ألف ملينة الأصل أأمنتم فخفف مثل آدم

قرأ ابن كثير في رواية القواس قال فرعون وامنتم بواو في اللفظ إذا وصل ولا يهمز واعلم أن

هذه الهمزة إذا خففت لم تكن بين بين بل تنقلب واوا لأن جعلها بين بين هو أن تكون الهمزة

والألف والألف لا تقع قبلها ضمة فمنعت ضمة النون في قال فرعون أن تجعل الهمزة بين بين وجرت مجرى الهمة في جؤن إذا خففت قلبت واوا فتقول جون وكذلك كل همزة مفتوحة قبلها ضمة فإنك إذا خففتها قلبتها واوا مثل لا يواخذكم الله و المولفة

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر قال فرعون آآمنتم بهمزتين وحجتهم أن الهمزة حرف من حروف المعجم كغيره من سائر الحروف جاز الجمع بينهما نحو ما يجتمع في الكلمة حرفان فيؤتى بكل واحد منهما من غير تغيير كقوله لعلكم تتفكرون فجعلوا الهمزتين كغيرهما من سائر الحروف

قال سنقتل أبناءهم 127

قرأ نافع وابن كثير قال سنقتل أبناءهم بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد لكثرة القتل مرة بعد مرة فأكثر ما تكلم به العرب التشديد ومن خفف فإنه أراد مرة واحدة

وما كانوا يعرشون 137

قرأ ابن عامر وأبو بكر يعرشون بضم الراء وقرأ الباقون بكسر الراء

فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم 138

قرأ حمزة والكسائي يعكفون بكسر الكاف وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان تقول عكف يعكف ويعكف وكذلك عرش يعرش ويعرش

وإذ أنجينكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم 141

قرأ ابن عامر وإذ أنجاكم من آل فرعون بغير ياء ولا نون وكذا في مصاحفهم والمعنى وإذ أنجاكم الله

(127/262)

وقرأ الباقون وإذ أنجيناكم بالياء والنون أخبر جل وعز عن نفسه بلفظ الملوك

قرأ نافع يقتلون أبناءكم بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد

فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا 143

قرأ حمزة الكسائي جعله دكاء بالمد والهمز قال الأخفش قول تعالى دكاء أي جعله مثل دكاء ثم حذف المضاف وأقم المضاف إليه مقامه كما قال وسل القرية التي والعرب تقول ناقة دكاء أي لا سقام لها وقال قطرب قوله دكاء صفة التقدير جعله أرضا دكاء أي ملساء فأقيمت الصفة مقام الموصوف وحذف الموصوف ودل عليه الصفة كما قال سبحانه وقولوا للناس حسنا أي قولا حسنا

وقرأ الباقون دكا منونا جعلوا دكا مصدرا من دككت الشيء إذا كسرته وفتته فتأويله جعلته مفتتا كالتراب وحجتهم قوله تعالى كلا إذا دكت الأرض دكا دكا المعنى فلما تجلى ربه للجبل جعل مدكوكا فكأنه دكه فيجعل قوله دكا مصدرا صدر عن معنى الفعل لا عن

لفظه

قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي 144

قرأ نافع وابن كثير إني اصطفيتك على الناس برسالتي على التوحيد وحجته ما بعده

وبكلامي

وقرأ الباقون برسالاتي على الجمع أرسله مرارا

وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا 146

قرأ حمزة والكسائي الرشد بفتح الراء والشين وقرأ الباقون بضم الراء وسكون الشين وهما

لغتان مثل السقم والسقم والحزن

والحزن قال أبو عمرو سبيل الرشد أي الصلاح وتصديقها قوله فإن آنستم منهم رشدا

والرشد في الدين فلذلك قرأ في الكهف مما علمت رشدا

واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا 148

قرأ حمزة والكسائي من حليهم بكسر الحاء

وقرأ الباقون بالضم وحجتهم أن الضم هو الأصل وفيه علم الجمع وذلك أن الحلي جمع حلي

مثل حقو وحقي والأصل حلوي مثل قلب وقلوب فلما سبقت الواو الياء قلب الواو ياء

فأدغمت في الياء فصارت حلي بضم الحاء واللام فاجتمعت ضمتان وبعدهما ياء مشددة

فكان ذلك أشد ثقلا فكسرت اللام لمجيء الياء فصارت حلي بضم الحاء وكسر اللام

وحجة من كسر الحاء هي أنه استثقل ضمة الحاء بعد كسر اللام وبعدها ياء فكسر الحاء لمجاورة كسرة اللام وأخرى أنهم قد أجمعوا على قوله من عصيهم فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

قال لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين 149

قرأ حمزة والكسائي لئن لم ترحمنا بالتاء على الخطاب ربنا بالنصب على النداء أي يا ربنا وتغفر لنا بالتاء وحجتهما أن في حرف أبي قالوا ربنا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا

وقرأ الباقون لئن لم يرحمنا بالياء ربنا بالرفع على الخبر ويغفر بالياء أيضا وحجتهم هي أنه لما تبين لهم الضلال بعبادتهم العجل قال بعضهم لبعض لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ما جنيناه على أنفسنا لنكونن من الخاسرين فجرى الكلام على لفظ الخبر من بعضهم لبعض

قال ابن أم إن القوم استضعفوني 150

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص قال ابن أم بفتح الميم جعلوا الاسمين اسما واحدا نحو خمسة عشر ففتحوا ابن أم وابن عم لكثرة استعمالهم هذا الاسم

واعلم أن النداء كلام محتمل الحذف فجعلوا ابن و أم شيئا واحدا وقال آخرون إنهم أرادوا

الندبة ب ابن أماه قالوا والعرب تقول يا بن عماه والأصل يا بن أمي ثم قلبت الياء ألفا فصارت يا بن أما ثم حذفت الألف لأن الفتحة تنوب عنها

وقرأ أهل الشام والكوفة قال ابن أم بالكسر وكذلك في طه والأصل يا بن أمي بإثبات الياء ثم حذفوا الياء لأن الكسرة نابت عن الياء وحجتهم قوله يا قوم لا أسألكم فإن قيل لم حذفت الياء من قولك يا بن أم والمنادى ها هنا الابن لا الأم وهو مثل قولك يا غلام غلامي وها هنا لم تجوز حذف الياء وإنما سقطت الياء من المنادى من نحو يا قوم ويا عباد

الجواب عنه إنما جاز حذف الياء من الأم تشبيها بياء الإضافة في قول القائل يا غلام وذلك أنا جعلنا الاسمين اسما واحدا فتنزلا منزلة اسم واحد كأنك تنادي واحدا لأنك إذا قلت يا بن أم كأنك قلت يا أخ فهو بمنزلة قولك يا غلام ويا قوم

(129/262)

ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم 157

قرأ ابن عامر ويضع عنهم آصارهم على الجمع أي أثقالهم تقول إصر وآصار مثل جذع وأجذاع وفي قراءته همزتان الأولى ألف الجمع والثانية اصلية فلما اجتمعت همزتان لينوا الثانية والأصل أآصارهم وحجته أنه لم يختلف في جمع الأغلال وهي نسق على الإصر

وكذلك آصارهم لقوله والأغلال التي كانت عليهم قيل إن الآصار هي العهود

وقرأ الباقون إصرهم وحجتهم قوله تعالى ربنا ولا تحمل علينا إصرا وقوله وأخذتم على ذلكم إصري فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

عن سعيد بن جبير ويضع عنهم إصرهم قال شدة العبادة

وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئتكم سنزيد المحسنين 161

قرأ نافع تغفر لكم بالتاء مضمومة خطيئاتكم على الجمع

وضم التاء على ما لم يسم فاعله وهي جمع سلامة كما تقول صحيفة وصحائف وحجته أن أول الآية وإذ قيل لهم على ما لم يسم فاعله فكذلك تغفر على ما لم يسم فاعله والتاء في قوله تغفر فعل جماعة تقدم

وقرأ ابن عامر تغفر بالتاء أيضا إلا أنه وحد فقرأ خطيئتكم وحجته أن الواحدة تؤدي عن الجمع قال الله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر

وقرأ أبو عمرو نغفر لكم بالنون الله أخبر عن نفسه وحجته قوله سنزيد المحسنين خطاياكم بالجمع جمع تكسير كما تقول رعية ورعايا وبرية وبرايا وضحية وضحايا

قال سيبويه الأصل في خطايا خطائي مثل خطائع فيجب أن يبدل من هذه الياء همزة فيصير خطائئي مثل خطايع وإنما همز ليكون فرقا بين الأصلية وغير الأصلية مثل معيشة فتجتمع همزتان فنقلب الثانية ياء فتصير خطائي مثل خطاعي ثم يجب أن تقلب الياء

والكسرة إلى الفتحة والألف فتصير خطاءا مثل خطاءا فيجب أن تبدل الهمزة ياء لوقوعها بين ألفين فتصير خطايا وإنما أبدلت الهمزة حين وقعت بين ألفين لأن الهمزة مجانسة للألفات فاجتمعت ثلاثة أحرف من جنس واحد

وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة نغفر بالنون أيضا خطيئاتكم

(130/262)

بالتاء مهموزة على الجمع جمع السلامة نحو سفينة وسفينات وصحيفة وصحيفات وخطيئة وخطيئات على وزن فعيلات وهي في موضع نصب وإنما كسرت التاء لأنها غير أصلية

قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون 164

قرأ حفص عن عاصم قالوا معذرة بالنصب على المصدر وحجته أن الكلام جواب كأنه قيل لهم لم تعظون قوما الله مهلكهم فأجابوا فقالوا نعظهم اعتذارا ومعذرة إلى ربهم

وقرأ الباقون معذرة بالرفع قال سيبويه معناه موعظتنا إياهم معذرة فالمعنى أنهم قالوا الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة هؤلاء لعلهم يتقون

وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون 165

قرأ ابن عامر بعذاب بئس بكسر الباء وبهمزة ساكنة خرج الهمزة على الأصل ولم يلف في الهمزة ها هنا ثقل لخفة الحرف وقلة حروفه

وقرأ نافع بعذاب بيس بغير همز فعل من البؤس ترك همزه فأبدلت الياء من الهمزة لثقل الهمز لأن الياء أخف منه

وقرأ أبو بكر عن عاصم بيأس على فيعل مثل رجل صيرف إذا كان يتصرف في الأمور

وقرأ الباقون بعذاب بئيس على فعيل من البؤس وتفسيره الشديد

ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون

والذن يمسكون بالكتاب 169 و170

قرأ نافع وابن عامر وحفص أفلا تعقلون بالتاء على الخطاب وقرأ الباقون بالياء إخبار عنهم

قرأ أبو بكر والذين يمسكون بالكتاب بالتخفيف أي يأخذون بما فيه من حلاله وحرامه

وحجته قوله فكلوا مما أمسكن عليكم وقوله أمسك عليك زوجك ولم يقل مسك

وقرأ الباقون يمسكون بالتشديد وحجتهم في ذلك أنهم قالوا إنما يقال مسكت بالشيء فإذا خففوا لم يدخلوا بالباء وقالوا أمسكت الشيء ولا يقال أمسكت بالشيء

الجواب عن قراءة أبي بكر أن العرب تزيد الباء وفي كتاب الله عينا يشرب بها عباد الله أي يشربها والباء زائدة فكذلك تقول أمسكت بالشيء معناه أمسكت الشيء

وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا 172 و173

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو من ظهورهم ذرياتهم بالألف وكسر التاء وحجتهم أن الذريات الأعقاب المتناسلة وأنها إذا كانت كذلك كانت أكثر من الذرية واحتج أبو عمرو في ذلك عند قوله هب لنا من أزواجنا و ذريتنا قرة أعين أن الذرية ما كان في حجورهم وأن الذريات ما تناسل بعدهم وأحال أن تكون ذريات بقد قوله قرة أعين وقال لأن الإنسان لا تقر عينه بما كان بعده

وقرأ أهل مكة والكوفة ذريتهم وحجتهم أن الذرية لما في الجحور وما يتناسل بعد والدلالة على ذلك قوله تعالى أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم فلا شيء أكثر من ذرية آدم والذين لم يرهم آدم من ذريته أكثر من الذين رآهم وقد أجمعوا هنا على ذرية بلا خلاف بين الأمة فكان رد ما اختلفوا إلى ما أجمعوا عليه أولى بالصواب وقوله عقيب ذلك وكنا ذرية من بعدهم 173 بلفظ واحد أدل دليل على صحة التوحيد إذ كانوا هم الذين أخبر عنهم وقد أجمعوا على التوحيد

قرأ أبو عمرو أن يقولو يوم القيامة أو يقولوا بالياء فيهما وحجته ذكرها اليزيدي فقال وتصديقها قوله من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم وبعدها أيضا وكذلك نفصل الآيات ولعلهم

يرجعون 174 فذكر أبو عمرو فذهب إلى أن الكلام أجري على لفظ ما تقدمه من الخبر عن الذرية لأن الكلام ابتداؤه بالخبر عنهم فما كان في سياقه فهو جار على لفظه ومعناه فكل هذا خبر عنهم

وقرأ الباقون بالتاء ردوا الكلام على المخاطبة وحجتهم قوله ألست بربكم فجرى ما بعده على لفظه وسياقه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم وآله

وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهوره ذريتهم قال

أخذوا من ظهره كما يؤخذ من الراس بالمشط فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة

(132/262)

شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أي لئلا تقولوا يوم القيامة

وذروا الذين يلحدون في أسمائه 180

قرأ حمزة وذروا الذين يلحدون بفتح الياء والحاء وقرأ الباقون يلحدون بضم الياء وكسر الحاء

قال الكسائي هما لغتان يقال لحد وألحد وقال غيره يلحدون أي يطعنون في أسمائه ويلحدون

يعرضون وكان ابن جريج يقول يلحدون قال اشتقوا أسماء آلهتهم من أسماء الله اشتقوا العزى من العزيز و اللات من الله وقال أبو عبيد يلحدون يجورون ولا يستقيمون وإنما سمي اللحد لأنه في ناحية ولو كان مستقيما كان ضريحا وحجة الرفع قوله ومن يرد فيه بإلحاد أي باعتراض

من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون 185

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير ونذرهم في طغيانهم بالنون والرفع على الاستئناف أي نحن نذرهم أخبر عن نفسه

وقرأ أبو عمرو وعاصم ويذرهم بالياء والرفع على الاستئناف ايضا وحجتهما قوله من يضلل الله ثم قال ويذرهم أي ويذرهم الله إخبار عنه

قرأ حمزة والكسائي ويذرهم بالياء والجزم عطفا على موضع الفاء في قوله فلا هادي له المعنى من يضلل الله يذره في طغيانه

جعلا له شركاء فيما ءاتهما 190

قرأ نافع وأبو بكر جعلا له شركا بكسر الشين وحجتهما أنها قراءة ابن عباس وهي مع ذلك أبعد من الالتباس لأنهما لم يجعلا له شركاء جماعة وإنما سميا الولد عبد الحارث ولا يقال للحارث شركاء لأنه واحد وكأن المعنى فلما آتاهما صالحا جعلا له نصيبا لم يخلصاه له بتسميتهما إياه عبد الحارث والتفاسير على ذلك تدل كان ابن جبير يقول شركا في طاعته

ولم يكن في عبادته قال الزجاج من قرأ شركا فهو مصدر شركت الرجل أشركه شركا قال بعضهم ينبغي أن يكون عن قراءة من قرأ شركا جعلا لغيره شركا يقول لأنهما لا ينكران إن يكون الأصل له جل وعز فالشرك يجعل لغيره وهذا على معنى جعلا له ذا شرك فحذف ذا مثل وسل القرية

(133/262)

وقرأ الباقون شركاء على فعلاء جمع شريك وحجتهم في ذلك أن آدم وحواء كانا يدينان بأن ولدهما من رزق الله وعطيته ثم سمياه عبد الحارث فجعلا لإبليس فيه شركاء بالاسم ولو كانت القراءة شركا وجب أن يكون الكلام جعلا لغيره فيه شركا وفي نزول وحي الله جل وعز بقوله جعلا له ما يوضح أن الصحيح من القراءة شركاء بضم الشين على ما بيناه فإن قال قائل فإن آدم

وحواء إنما سميا ابنهما عبد الحارث والحارث واحد وقوله شركاء جماعة قيل إن العرب تخرج الخبر عن الواحد مخرج الخبر عن الجماعة كقوله تعالى الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم

وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم 193

قرأ نافع لا يتبعوكم ساكنة التاء من تبع يتبع

وقرأ الباقون لا يتبعوكم من اتبع يتبع وحجتهم إجماع الجميع على قوله إلا لنعلم من يتبع الرسول بالتشديد

إن الذين اتقوا إذا مسهم طئف من الشيطن تذكروا فإذا هم مبصرون 201

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة طائف بالألف من طاف به إذا دار حوله فهو طايف كذا قال الكسائي وقال غيره هو من طاف به من وسوسة الشيطان

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو طيف من الشيطان أي لمة وخطرة من الشيطان وكان مجاهد يقول طيف من الشيطان غضب وحجتهم قوله قبله وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ولم يقل نازغ وقال وإذا مسكم الضر ولم يقل الضار ويقال أصابته نظرة ولا يقال ناظرة فقوله طيف يحتمل أن يكون مصدر طاف يطيف طيفا كما يقال طاف الخيال يطيف طيفا ويحتمل أن يكون اسما مثل الطاف سواء كما يقال مائت وميت والذي يدل عليه قراءة ابن مسعود طيف بالتشديد مثل هين وهين بالتشديد والتخفيف

وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون 202

قرأ نافع وإخوانهم يمدونهم بضم الياء وكسر الميم من من أمد يمد وهو من قولك أمددت الجيش إذا زدته بمدد قال الله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين فمعنى يمدونهم يزيدونهم غيا وكأنه قال يمدونهم من الغي

(134/262)

وقرأ الباقون يمدونهم بفتح الياء من مد يمد إذا جر فقوله يمدونهم أي يجرونهم في الغي وقال قوم يمدونهم يتركونهم في الغي تقول العرب لأمدنك في باطلك أي لأتركنك فيه ولا أخرجك منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 279.306﴾

(135/262)

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة الأعراف

62 الآية الأولى منها

قوله تعالى : (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) الأعراف : 12-13 .

وقال في سورة الحجر 32-34 : (قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين* قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون* قال فاخرج منها فإنك رجيم) .

وقال في سورة ص75 : (. . يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي . .) الآية ، قال : (أنا خير منه . .) الآية سورة ص : 76 .

للسائل أن يسأل فيقول : إذا كان هذا في قصة واحدة ، ووقع في كلام الله تعالى حكاية عما قال إبليس ، وعما قيل له عندما يظهر من عصيانه ، فلماذا اختلفت الحكايتان والمحكي شيء واحد ؟

والجواب ما قلته فيما قبله ، وأقوله فيما بعده من أن اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها ، وإنما المقصود ذكر المعني ، فإن الألفاظ إذا اختلفت وأدت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء .

فقوله عز وجل هامنا : (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) وقوله في سورة الحجر 32 : (إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين) وقوله في سورة ص 75 : (. . يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) أقوال ثلاثة ، في بعض ألفاظها اختلاف وفي المعنى اتفاق ، وهي : (ما منعك أن تسجد) و (ما منعك ألا تسجد) و (ما لك ألا تكون مع الساجدين) .

فأما قوله : (لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) سورة ص : 75 فيه زيادة

إخبار عن حال لم تكن في الآيتين المتقدمتين ، ولم يقل عندهما إنه لم يكن هناك خطاب إلا ما حكيناه فيهما ، فتكون الزيادة معدودة في الاختلاف .

(136/262)

وأما قوله ، وهو حكاية ما كان من جواب إبليس في سورة الأعراف 12 وفي سورة ص 76 : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وفي سورة الحجر 36 : (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) .

فغنه يحصل للسامع في الآيات الأربع معنى واحد ، وهو ذكر ما حمله على ترك السجود لآدم عليه السلام ، لما كان مخلوقا من النار ، وآدم مخلوقا من الطي ، ورأى أصله أشرف من أصله ، وإن كان في إحداهما ذكر بعض ما دعاه إلى ما فعل ، وفي الآخر ينكر كله من مقابلة أصله

بأصله ، وتوهمه أنه أشرف ، إن سجود الأشرف لما دونه لا يجوز .

وكذلك ما حكاه الله تعالى من قوله له في سورة الأعراف 13 (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) لا يخالف قوله في سورة الحجر 34-35 : (قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) ولا يخالف أيضا قوله في سورة

ص 77-78 : (قال فاخرج منها فإنك رجيم *وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) لأنه إذا أمره بالخروج من الجنة أو من السماء فقد أمره بالهبوط إلى الأرض .

وقوله : (وإن عليك اللعنة) الحجر : 35 و (لعنتي) واحد ، لأن اللعنة في الحقيقة إبعاد الله من يعصيه عن الخير ، ثم لعن الملائكة والناس من التبع للعنة ، نعوذ بالله منها .

63 الآية الثانية منها

قوله تعالى : (قالانظرني إلى يوم يبعثون* قالإنك من المنظرين) الأعراف : 14-15 .

وقال في سورة الحجر 36-38 وسورة ص 79-81 : (قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون* قال فإنك من المنظرين* إلى يوم الوقت المعلوم) .

للسائل أن يسأل عن إدخال الفاء في قوله : (رب فأنظرني) في سورتي الحجر وص ، وحذفها منه في سورة الأعراف ؟

والجواب أن يقال : إن قوله : (أنظرني) في سورة الأعراف وقد مستأنفا ، غير مقصود به عطف على ما يقع به هذا السؤال عقيبه فلم يحتج إلى الفاء .

(137/262)

والجواب أيضا : لما لم يكن إجابة له إلى ما طلب لم يكن أيضا معطوفا عليه بالفاء ، وإنما سأل تأخير اجله ، فقال : (إنك) ف حكمي ممن أخر أجله ، لا لأجل مسألتك .

وأما في الآيتين في سورتي الحجر وص فإنه قال عز من قائل : (قال رب فأنظرني) وجاء بعد إخبار الله بلعنه له ، فكأنه قال : يا رب إن لعنتي وآيستني من الجنة فأخر أجلي إلى يوم يبعثون ، ويوم يبعثون هو يوم القيامة ، لا يوم الإماتة ، فلم تقع الإجابة إلى ما طلب ، لأنه قال : (فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم) أي : إلى الوقت الذي هو آخر أوقات الأحياء فاقتضى إضمار إن لعنتي يا رب أن يأتي بالفاء فيقول : فأنظرني ويأتي في جوابه بها وهو قوله : (فإنك من المنظرين) ، لأن التقدير : إن طلبت تأخير الأجل وتنفيس المهل من أجل أن لعنت فإنك مؤخر الموت لما حكمت به لك ، لا لإجابتك إلى مسألتك ، فهو معطوف على السؤال عطف الكلام على الكلام الذي يقتضيه ، لا عطف الإيجاب على السؤال ، لأن الله تعالى لم يجب عاصيا مثله إلى ما

يسأل .

فدخول الفاء في الموضعين لتقدم ذكر العن وأن المعنى : وأن المعنى : إن آيستني من رحمتك فأخر أجلي لأنال من عدوي الذي كان سبب ذلك ما أقدر عليه من الإغواء له ، ولكم يكون من نسله ، واستشفى بذلك لجهله ، نعوذ بالله من طاعة الهوى المؤدي إلى سبيل الردى .

64 الآية الثالثة منها

قوله تعالى : (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم* ثم لآتينهم من بين أديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) الأعراف : 16-17 .

وقال في سورة الحجر 39-40 : (قال رب بما أغويتني لأزينهن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين) .

وقال في سورة ص 82-83 : (قال فبعزتي لأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين)

(138/262)

للسائل أن يسأل في هذه الآي عن شيئين : أحدهما : اختلاف المحكيات ، ففي موضع (فبما أغويتني) وفي موضع (رب بما أغويتني) وفي الآخر (فبعزتك) ؟

والثاني : حذف الفاء في سورة الحجر من قوله : (رب بما أغويتني) وإثباتها في الآيتين الأخريين ؟ .

والجواب عن اختلاف الألفاظ المحكية ان يقال متى حملت الباء على القسم في قوله : (فبما أغويتني) و (رب بما أغويتني) في الآيتين بشهادة الآية الثالثة ، وهي : (فبعزتك) لم يكن هناك

اختلاف في المعنى ، لأن المراد في قوله : (بما أغويتني) : بإغوائك إياي ، وهو يحتمل وجوها من المعاني .

أحدهما : أن يكون المراد : بتخييبك إياي لأجتهدن في تخييبهن في تخييبهم ، وهذا ظاهر الكلام ، لأن القسم متلقى بالام ، ولأن قوله : (فبعزتك) في مقابلتهما من الآية الأخرى وتخييب الله إياه هو بعزته ، ومنه قول الشاعر :

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

أي : من يخب لم ينل خيرا يشهد لذلك صدر البيت ، وهو :

فمن يلق خيرا يحمده الناس أمره .

والثاني أن يكون المراد بإهلاكك إياي بأن لعنتي ، وهذا الفعل أيضا عزة من الله تعالى .

وكذلك إن حمل على معنى الحكم بغوايته فهو عزة من الله تعالى .

وإذا كان كذلك تساوت في المعنى ، وكل قسم ، والإغواء الذي هو التخييب أو الإهلاك أو الحكم بالغواية ، كل ذلك عزة من الله تعالى ، فالقسم به كالقسم بعزته .

والجواب عن السؤال الثاني ، وهو حذف الفاء من قوله : (رب بما أغويتني) ولأن الدعاء في الصدر يستأنف بعده الكلام ، والقصة غير مقتضاة لما قبلها كما إقتضاه قوله : (رب فأنظرني) والفاء توجب ما بعدها بما قبلها .

والنداء أولا يوجب القطع واستئناف الكلام لا سيما في قصة لا يقتضيها ما قبلها ، فلم

تحسن الفاء مع قوله : (رب بما أغويتني) ، والموضعان الآخران لم يدخل الكلام فيهما نداء يوجب استئناف ما بعده ، فلذلك وصل القسم فيهما بالأول بدخول الفاء .

65 الآية الرابعة منها

(139/262)

قوله تعالى : (. . فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين* الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون) الأعراف : 44-45 .

وقال في سورة هود : 18-19 : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين *الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) .

للسائل أن يسأل عن إعادة هم في قوله : (وهم بالآخرة هم كافرون) في سورة هود ، وترك ذلك في سورة الأعراف ؟ .

والجواب أن يقال : إن الذي في سورة الأعراف جاء على أصله غير مزيد فيه ما يجري مجرى التوكيد ، والذي في سورة هود جاء بعد قوله : (ويقول الأشهاد هؤلاء الذي كذبوا على ربهم) فأشير إليهم ، ثم قال : (ألا لعنة الله على الظالمين) فأظهر ذكر الظالمين في موضع

الإضمار ، ولو أجرى على الحكم في إضمار الاسم عقيب الذكر لكان : ألا لعنة الله عليهم لأن المراد ب الظالمين هم المشار إليهم بقوله : (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) .

فلما أظهر مكان الإضمار تضمن معنى هم ، أي : الظالمون هم الذين كذبوا على ربهم ، وأشير بالكلام المتقدم إليهم ، فلما استمر الكلام على الإضمار بعد ذكر الظالمين صار الظاهر كأنهم غير المشار إليهم بقوله : (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فأعيد هم في قوله : (هم كافرون) لتحقق الكفر عليهم بنسبة الأوصاف المتقدمة إليهم ، وأولها كذبهم على ربهم ، ثم ظلمهم لأنفسهم ، وصدهم عن

سبيل الله ، وأولها كذبهم على ربهم ، ثم ظلمهم لأنفسهم ، وصدهم عن سبيل الله ، ووصفهم لها بدل الاستقامة بالاعوجاج ، وكفرهم وصدهم عن سبيل الله ، ووصفهم لها بدل الاستقامة بالإعوجاج ،

وكفرهم في هذه الأفعال بالله واستحقاقهم به ، عقوبة الله في الآية . فلما لم يصرف الخبر الثاني في سورة الأعراف مصرف ما ليس هو بالأول لم يحتج إلى توكيده .

(140/262)

ولما عدل في سورة هود عن إعادة الضمير إلى الأول ، ووضع مكانه ظاهر يحتمل أن يكون غير الأول ، وعنى هم أنهم هم ، كان الموضع موضع توكيد لتحقيق الخبر عنهم بالكفر ، وتثبيته عليهم بأوكد لفظ ، لأنا لما قلنا : هم هم ، فهو المعاد المعاد في قوله : (وهم بالآخرة هم كافرون) ، إلا أنا نبين بذلك المكان مكان توكيد لنفرق بينه وبين الأول .

66 الآية الخامسة منها

قوله تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء . . .) الأعراف : 57 .

وقال في سورة الفرقان : 48 : (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وانزلنا من السماء ماء طهورا) .

وقال في سورة الروم 48 : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله . . .) .

وقال في سورة الملائكة 9 : (والله أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) .

للسائل أن يسأل فيقول : هذه الآي الأربع قد خصت آيتان منها بقوله (يرسل) على لفظ المستقبل ، وآيتان بقوله (أرسل) على لفظ الماضي ، فهل في كل مكان ما قتضي اللفظ الذي خصه ، أم كل جائز لو جاء عليه ؟

والجواب أن يقال : بل لكل ما يوجب في الإختيار اللفظ الذي جاء عليه ، وإن كان وصف الله عز وجل بأنه أرسل الرياح فبسط بها السحاب فساقه فأنزل منه الأمطار فأحيا بها البلاد ، كوصفه بأنه يفعل ذلك في المستقبل ، لأنه قادر كما كان ، وقد عودنا فعل ذلك وأعلمناه مشاهدة .

إلا أن الآية التي في سورة الأعراف جاء فيها (يرسل) بلفظ المستقبل ، لأن قبلها : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين) . الأعراف : 55-56 فكان في ذلك بعث على الدعاء والتضرع ،

(141/262)

وتعليق الخوف والطمع بما يكون منه من الرحمة وصنوف ما رزق الله الخلق من النعم فكان لفظ المستقبل أشبه بموضع الخوف والطمع للداعين ، وأدعى لهم إلى الدعاء .

وأما في سورة الفرقان ، ومجيء هذا اللفظ فيها بلفظ الماضي فلأن قبل الآية : (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا * وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا * وهو

الذي أرسل الرياح) الفرقان : 45-48 فلما عدد أنواع ما أنعم به ، وكان إرسال الرياح من جملة عده مع ما تقمه ، وأخبر منه عما فعله وأوجده .

وأما في سورة الروم فغن قبل الآية : (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجزي الفلك بأمره . . .) الروم : 46 ، فبنى قوله : (الله الذي يرسل الرياح . .) على البناء الذي جعل عليه ما هو من آياته ، فحث على الاعتبار بما يعتاد من فعله تبارك الله سبحانه وتعالى .

وأما في سورة الملائكة ، واختيار لفظ الماضي فيها على المستقبل فلأن أولها : (الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا . . .) فاطر : 1 بمعنى فطر وجعل ، وخاتمة هذه العشر من مبتدأ السورة : (والله الذي أرسل الرياح . . .) فاطر : 9 فلما اقترح العشر من أول السورة بالتمدح بما صنع أتبعه ما كان من جنسه مما فعل ، فكان اختيار لفظ الماضي ها هنا ، فافهمه فإنه يفتح عليك ما يشبهه إن شاء الله تعالى .

67 الآية السادسة منها

قوله تعالى : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) الأعراف : 59 .

وقال في سورة هود 25 : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) .

وفي سورة المؤمنين 23 : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) .

للسائل ان يسأل عن حذف الواو من (لقد أرسلنا) في سورة الأعراف ، والإتيان بها في سورتي هود والمؤمنين ؟

(142/262)

والجواب أن يقال إن الآيات التي تقدمت قوله تعالى : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . .) في سورة الأعراف إلى أن اتصلت به في وصف ما اختص الله عز وجل به من أحداث خلقه وبدائع فعله من حيث قال : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام . .) الأعراف : 54 إلى ذكر الشمس والقمر ، والرياح والأمطار والنبات ، والسهل من الأرض والطيب ، والحزن منها والصلد ، ولم يكن فيها ذكر بعثة نبي ومخالفة من كان له من عدو ، فصار كالأجنبي من الأول فلم يعطف

عليه ، واستؤنف ابتداء كلام ليدل على أنه في حكم المنقطع من الأول .

وليس كذلك الآية التي في سورة هود ، لأن أولها افتتح إلى أن انتهى إلى قصة نوح بما هو احتاج على الكفار بآيات الله التي أظهرها على أيدي أنبيائه ، وألسنتهم صلوات الله عليهم ، وتوعد لهم على كفرهم ، وذكر قصة من قصص من تقدمهم من الأنبياء الذين جحد بآياتهم أممهم ، فعطفت هذه الآية على ما قبلها إذ كانت مثلها ألا ترى أن أول السورة) ألر

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير* ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير) هود : 1-2 وبعد العشر منها : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز . .) إلى قوله : (. . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . .) هود 12-13 ، ثم وصف حال من آمن بالله ورسله ، وأخبت إلى ربه ، وحال من افترى على ربه ، وحصل على خسران نفسه وشبههما بحال من انطوى على ذكره في قوله : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا . . .) هود 24 فاقتضى تشابه القصتين عطف الثانية على الأولى .

وأما في سورة المؤمنين فإن قبل هذه الآية منها : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين المؤمنون : 12 ثم قوله : (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين المؤمنون : 17 ثم انقطعت الآي إلى قوله : (وعليها وعلى الفلك تحملون

المؤمنون : 22 ، فكان ما تقدم في هذا المكان مثل ما تقدم الآية في سورة الأعراف إلا أنه باينة بأن كان فيه : (ولقد خلقنا الإنسان) وقوله (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) ثم انقطعت إلى قوله : (وعليهما وعلى الفلك تحملون

والفلك التي يحمل عليها مما اتخذه نوح عليه السلام ، فدخلت واو العطف في قصة نوح عليه السلام للفظين المتقدمين ، وهما : (ولقد) في رؤوس الآيتين ، وللمعنى المقتضى من ذكر الفلك الذي نجى الله عليه من جعله أصل الخلق وبذر هذا النسل .

68 الآية السابعة منها

قوله تعالى متصلا بقوله : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) الأعراف : 59 .

وقال في سورة هود 25-26 : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين *فقال ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) .

وقال في سورة المؤمنين23 : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره أفلا تتقون) .

للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكيات كقوله بعد : (مالكم من إله غيره) : (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقال في سورة هود : (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وفي المؤمنين : (ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) والقصة قصة واحدة ؟

والجواب أن يقال : إن للأنبياء صلوات الله عليهم مقامات مع أممهم يكرر فيها الإعذار والإنذار ، ويرجع فيها عودا على بدء ، الوعد والوعيد ، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله

، ورفض عبادة ما سوى الله تعالى في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله ، مثل الواعظ يفتن في مقاله ، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه ، جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب ، وقد اختلفت في الأصل باتفاقها ، لأنه قال لهم مرة باللفظ الذي حكى ، ومرة أخرى بلفظ آخر في معناه كما ذكر .

(144/262)

وكذلك الجواب يرد من اقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم ، وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه ، فلا وجه إذا للاعتراض على هذا ونحوه .

69 الآية الثامنة منها :

متصلة بهذه الآية قوله تعالى : قال من قومه إنا لنراك في ضلال مبين*قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، الأعراف : 60-61 .

وقال في سورة هود : فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا .

وقال في سورة المؤمنين : فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم ، الآية .

للسائل أن يسأل فيقول : لأي معنى خلت قال في سورة الأعراف من الفاء وقد جاء مثلها في السورتين بالفاء وهو فقال ؟

والجواب أن يقال : إن الموضعين اللذين دخلتهما الفاء ما بعدهما مما اقتضاه كلام النبي مما رآه الكفار جوابا له ، فكان بناء الجواب على الابتداء يوجب دخول الفاء .

وليس كذلك الآية في سورة الأعراف ، لأنهم في جوابهم صاروا كالمبتدئين له بالخطاب ، غير سالكين طريق الجواب ، لأنهم قالوا : إنا لنراك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ، الأعراف : 60-61 فكان كلامهم له كالكلام الذ يبتدئ به الإنسان صاحبه ، فلذلك جاء بغير فاء مخالفا طريقة ما الكلام بعده مبني بناء الجواب .

ومما أخرج من الأجوبة مخرج الابتداء بالكلام وإن كان في ضمنه الجواب قوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها

لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله لا امرأته كانت من الغابرين) العنكبوت : 31-32 . فلم يأت بالفاء في اللفظتين اللذين كان ما بعد كل واحد منهما كالجواب لما قبله .

(145/262)

ومما يؤكد صحة هذا القول قوله تعالى فيما كان من جواب عاد لهوج : (وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا

لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) . الأعراف 65-66 ، ولم يقل : فقال الكلأ لأن ما بعد قال هنا مسلوك به طريق الابتداء بالخطاب ، إذ رمي بالسفاهة كما رمي نوح - عليه السلام - بالضلالة ، فلم تدخل على واحد منهما الفاء التي تجعل الثاني متعلقا بالأول تعلق الجواب بالابتداء .

70 الآية التاسعة منها :

قوله تعالى : (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) الأعراف : 62 .

وقال في قصة هود : (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ضريح ناصح أمين) الأعراف : 68 .

للسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله : (وأنصح لكم) وبين قوله (وأنا لكم ناصح أمين) وما الذي اقتضى الاسم في الآخر والفعل في الأول ، وهل كان يصح أحدهما مكان صاحبه ؟

والجواب عن ذلك من وجهين :

أحدهما أن يقال : إن المعنى كلام نوح عليه السلام ما نطق به القرآن ، ومعنى كلام هود عليه السلام ما ذكره الله تعالى حاكيا عنه ، وليس لقائل أن يقول : إذ كان القولان صحيحين في موضعهما فهلا قال أحدهما قول آخر ؟

والوجه الثاني أن يقال : إن قول نوح عليه السلام جواب من ضلل ، لأنه قيل له : (إنا لنراك في

ضلال مبين) ، الأعراف : 60 وهود عليه السلام قيل له : (إنا لنراك في سفاهة) .

الأعراف : 66 .

(146/262)

والضلال من صفات الفعل ، تقول ضل فهو ضال ، والسفاهة من صفات النفس وهي ضد الحلم ، وهو معنى ثابت يولد الخفة ، والعجلة المذمومتين ، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة ، فكان جواب من عيب بفعل مذموم نفيه بفعل محمود ، لا بل بأفعال تنفي ما ادعوه عليه ، وهي أن قال لست ضالا ولكني رسول من رب العالمين أؤدي إليكم ما تحملت من أوامره ، وأدعوكم بإخلاص إلى إصلاح أمركم ، وأعلم من سوء عاقبة ما أنتم عليه ما لا تعلمون فنفى الضلال بهذه الأفعال .

وهود عليه السلام لما رمي بالسفاهة وهي من الخصال المذمومة الثابتة ، وليست من الأفعال التي

ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مرارا كثيرة ، فكان نفيها بصفات ثابتة تبطلها أولى ، كما كان نفي الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى .

فقوله : (وأنا لكم ناصح أمين) أي أنا ثابت لكم على النصح ثقة في النفس ، لا أنتقل من

النصح إلى الغش ، ولا أتبدل خيانة بالأمانة وكان جواب كل من الكلامين ما لاق به واقتضاه .

71 الآية العاشرة منها

قوله تعالى : (فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذي كذبوا بآتنا إنهم كانوا قوما عمين) الاعراف : 64

وقال في سورة يونس 73 : (فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فنظر كيف كان عاقبة المنذرين) .

للسائل أن يسأل فيقول : لم اختصت الآية الأولى بقوله (فأنجيناه والذين معه) والثانية بقوله : (فنجيناه ومن معه) وزاد فيها (وجعلناهم خلائف) ؟

والجواب أن يقال : السورتان مكيتان جميعا ، إلا الآية في سورة الأعراف ، وقوله : أنجينا أصل في هذا الباب ، لأن أفعلت في باب النقل أصل ل فعلت وهو أكثر ، تقول : نجا ، وأنجيته كما تقول : ذهب وأذهبته ، ودخل وأدخلته .

فأما فلته فمن القلة ، بحيث يمكن عده ، نحو فزع وفزعته وخاف وخوفته وقد يجاء معه الهمزة فيقال : أفزعته وأخفته ، ولا يجاء مع تشديد العين الهمزة ولا تقول : ذهبته ، ودخلته في أذهبته ، وأدخلته .

فالآية الأولى جاءت على الأصل الأكثر ، ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على أنجيناه كقوله تعالى : (فأنجيناه والذين معه برحمة منا . .) الاعراف : 72 وكقوله : (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) الشعراء : 65 ، وكقوله : (فأنجاه الله من النار) العنكبوت : 24 .

وليست الجيم المزيدة المشددة في (نجيناه) للكثرة ، وإنما هي المعاقبة للهمزة بدلالة قوله تعالى في ذي النون : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) الأنبياء 88 ولا كثرة هناك .

وأما قوله : (والذين معه في الفلك) فهو الأصل ، ومن تجيء بمعناها ، وتكونان مشتركتين في معان والذين خالصة للخبر ، مخصوصة بالصلة ، فاستعمل الأصل في اللفظين ، وهما : أنجينا والذين .

ولما كرر هذا الذكر كان العدول إلى اللفظين الآخرين اللذين هما معناهما ، وهما : نجينا ومن أشبه بطريقة الفصحاء وعادة البلغاء .

وأما قوله : (وجعلناهم خلائف) في الآية الثانية فإنه زيادة في الخبر عن أحوال الذين نجوا من الغرق فصاروا خلفاء للهالكين . وقيل : كانوا ثمانين نفسا ، وهلك سائر أهل الأرض .

فإن قال قائل : كان الإراق قبل أن جعلوا خلائف ، فكيف قدم عليه ؟

قلنا : جوز أن يكون معنى (وجعلناهم خلائف) وإنما قدم لأنه من صفة الذين أجاهم ، فلما أخبر عنهم بذلك ضم إليه الخبر الثاني ، ويجوز أن يكون معنى (وجعلناهم خلائف) أي حكمنا لهم بذلك ، ثم كان الإغراق بعده على أن الواو لا ترتيب فيها ، ولا يمتنع أن يكون المذكور بعدها مقدما على ما قبلها .

72 الآية الحادية عشرة منها

قوله تعالى في قصة نوح (. . . قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ف> روها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) الأعراف : 72 .

(148/262)

وقال في سورة هود 64 : (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) .

وقال في سورة الشعراء 155-156 : (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم* ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) .

للسائل أن يسأل عن اختلاف الخبر الواحد في الأماكن الثلاثة ، وهو حكاية ما قاله صالح

عليه السلام لقومه لما حذرهم التعرض للناقة ؟

والجواب أن يقال : إن هؤلاء سألوا أن يخرج لهم من هضبة ملساء ناقة ، فسأل الله تعالى صالح عليه السلام ، وفي خبر آخر : أنه بدأهم بهذه الآية ، لا عن مسألة كانت منهم ، فانفرجت عن ناقة بعد ما تمخضت تمخض المرأة ، والناقة عشراء ، فنتجت بعد ذلك فصلا ، فكانت ترد ماء لهم بين جبلين يوما فتشربه كله وتسقيم اللبن بدله ، وللقوم شرب يوم يخصهم ، فثقل عليهم السلام التعرض لها إلى أن عقرها أحمر ثمود ، فصار سبب هلاكهم .

فالآية الألة من سورة الأعراف عامة في جمل ما كان من وعظه لهم ، لأنه قال : (قد جاءتكم بينة من ربكم) أي آية تشهد بصحتها نفوسكم أنها من قدرة الله تعالى المختصة بفعله ، لا بفعل غيره ، ثم قال : (هذه ناقة الله لكم آية) هود : 64 أي : هذه ناقة ليست ملك أحمد منكم ، وإنما هي لله استخرجها من الصخرة أو الهضبة أمارة لصدق نبيه لتؤمنوا عندها ، فاتركوها ترع في الصحارى التي هي أرض الله من الكلأ الذي هو من نعمة الله تعالى ، ولا تتعرضوا لها بسوء

فيأخذكم عذاب أليم ينال منكم ويؤلمكم .

(149/262)

وهذه المعاني المجملة في الآية الأولى زيدت بيانا في الآيتين ، فالآية الأولى تحذير للقوم على طريق العموم . وأما قوله تعالى في الثانية : (فيأخذكم عذاب قريب) هود 64 بعد ما قال في الآية الأولى : (أليم) فإنه اختص هذا المكان ب (قريب) لما بعده من قوله : (فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . .) هود : 65 قدر المدة التي بينهم وبين هلاكهم ، وقرب ما توعدهم به من عذاب الله لهم ، والقريب لا ينافي الأليم بل هو أشد ألما ، إذ لم يكن بعد مهل فاختصاص الآية الثانية ب (قريب) دون (أليم) لما ذكرنا من قرب الميعاد المقرون ذكره إلى ذكره .

وأما الآية الثالثة واختصاصها بقوله : (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) الشعراء : 165 فلأن قبلها ذكر اليومين المقسومين بين الناقة وبينهم ، كأنه قال لهم : إن منعتموها يومها بعقر ولا تتركونه لها أخذكم عذاب يوم عظيم .

فيوم تؤلمونها فيه فيكون به يوم يؤلمكم الله فيه بعذاب الاستئصال ، وهو يوم عظيم عليكم ، وكل ذلك بمعنى واحد ، وهو أنهم إن عقروها عوقبوا ، بالألفاظ المختلفة دائرة على هذا المعنى ، واختلافها لاختلاف مواضعها المقتضية تغيير الألفاظ فيها .

73 الآية الثانية عشرة منها

قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : (فأخذتكم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) الأعراف : 78 .

وقال فيهم في سورة هود 65 : (فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . .) .

وقال فيهم في هذه السورة بعد هذه الآية : (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين) هود : 67 .

وقال في قصة شعيب عليه السلام وقومه في سورة الأعراف 91 : (فأخذتكم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) .

وقال في هذه القصة في سورة هود 94 (وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) .

للسائل أن يسأل عن قوله تعالى : (فأصبحوا في دارهم) وتوحيد الدار في موضع ، وجمعها في موضع ، وهل هناك فرقان بين موضع الواحد وموضع الجمع ؟

(150/262)

والجواب أن يقال : إذا كان الجمع والتوحيد جائزين كان وجه التوحيد على طريقين :

أحدهما : أن يراد بدارهم بلدهم ، فيوحد ذهابا إلى معنى البلد ، وهو موحد .

أو يذهب به مذهب الجنس كما تقول : دينارهم شر من درهمهم ، كما قال :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبابليين حفا بالعفاريت

بقي الكلام في اختصاص موضع بالتوحيد ، وموضع بالجمع ، وأن يقال : هل ذلك لفائدة تخصصه به ؟

فنقول : إنه تعالى وحد ذلك في كل مكان ذكر في ابتدائه : (وإلى ثمود أخاهم صالحا) الأعراف : 73 ، هود : 61 (وإلى مدين أخاهم شعيبا) الأعراف : : 85 ، هود : 84 ، العنكبوت : 37 ولم يذكر إخراج النبي ومن آمن معه من بينهم ، فجعلهم بني أب واحد ، وجعلهم لذلك أهل دار واحدة ، ورجاء أيضا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة .

وكل موضع موضع أخبر عن تفرقه بينهم ، وإخراج النبي ومن آمن منهم معه ، أخبر عنهم الإخبار الدال على تفرق شملهم ، وتشتت أمرهم ، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة ، وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة فقال : (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا . . . * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) هود : 66-67 .

فإن قال قائل : فقد قال في قصة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف 91 : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) فوحد الدار أ وقد خرج شعيب عليه السلام من بين أظهرهم ، ووقع الحكم بتفرق شملهم ، فكان ما ذهبت إليه يقتضي أن يجمع الدار فيقال ديارهم في هذا المكان ؟ .

والجواب أن يقال : إنه لم يتقدم في هذا الموضع ذكر إخراجه بينهم مع الذين آمنوا معه ، كما

ذكر في الموضعين الآخرين في قصة صالح عليه السلام في سوروة هود ، وفي قصة شعيب فيها .

(151/262)

ألا ترى قال في قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف وسورة هود قبل أن أخبر أنه نجاه ومن آمن معه منهم لما جاء أمره مرتين ، فوحد الدار فيهما ، وفي الموضع الذي ذكرت قصته مع المؤمنين منهم جمع الدار فيها .

وكذلك جاء في قصة شعيب عليه السلام في موضعين : أحدهما : جمع فيه ، وفي الآخر وحد ، والجمع حيث ذكر إخراجه منهم مع المؤمنين معه ، فتدبره إن شاء الله تعالى .

74 الآية الثالثة عشرة منها

قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) الأعراف : 79 .

وقال في قصة شعيب عليه السلام : (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) الأعراف : 93 .

للسائل أن يسأل عن إفراد الرسالة في قصة صالح عليه السلام ، وجمعها في قصة شعيب

عليه السلام ، وما الفائدة المخصصة لكل واحد من الفظين بمكانه ؟

والجواب عن ذلك أن يقال : إن الذي نطق به القرآن من تحذير صالح عليه السلام قومه بعد أن أمرهم باتقاء الله تعالى وطاعته ، وهو أمر الناقة ، والمنع من التعرض لها ، فجعل الرسالة جملة لما لم يفصل تفصيل ما أتى به شعيب عليه السلام حين نهاهم عن عبادة الأوثان بدلالة قوله تعالى : (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد هود : 87 ثم قال : (إن لكم رسول أمين* فاتقوا الله وأطيعون) الشعراء : 178-179 ثم قال : (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين* وزنوا بالقسطاس المستقيم* ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) الشعراء : 181- 183 وقال : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله . .) الأعراف : 86 .

(152/262)

قيل في التفسير : هم العشارون ، عن قتادة والسدي ، وقيل : كانوا يقعدون من قصد شعيبا فيوعدونه ويصدونه عن دين الله ، فهذه التي أمر شعيب بها قومه أشياء كثيرة ، ليس ما أمر به صالح قومه مثها كثرة ، فلهذا جمع الرسالة فقال : (رسالات ربي) وقال في

قصة صالح عليه السلام : (رسالة ربي) .

وجواب ثان : وهو على ما يروى أن أيكة غير مدين ، وأن شعيبا عليه السلام بعث إلى أمتين ، وهذا عن قتادة . وقيل : الأيكة : الغيضة الملتفة ، وأصحاب الأيكة هم أهل مدين ، فإذا حمل على الأول كان إلى كل واحدة من أمتيه رسالة ، فجمع لاختلاف قوله ، وتخصيص كل منهم برسالة من الله .

فغن قال قائل : عذاب الله أهلكوا ، وقد نطق القرآن بالرجفة في أمرهم ، ونطق بالصيحة التي خروا لها وماتوا ، ونطق بعذاب يوم الظلة ، وهي سحابة أظلتهم فأحرقهم الحر تحتها ، وهذه أنواع من العذاب مختلفة ، وفي كل واحد منها ما يغني عن الآخر في الغهلاك ، فإذا أهلكوا بأحدها اكتفى به عن غيرها ؟

والجواب أن يقال : في التفسير عن محمد بن كعب ، قال : عذب قوم شعيب عليه السلام بثلاثة اصناف من العذاب ، أصابتهم الرجفة فخرجوا من ديارهم ، ثم أصابهم حر شديد ، ففرقوا من أن

يدخلوا البيوت خوف الزلزلة ، فبعث الله عليهم الظلة ، وهي سحبة أنمنشئت لهم فصاح رجل منهم : هل لكم في الظلة ؟ هل لكم في الظلة ؟ وفي رواية : عليكم بالظلة ، فما رأيت كاليوم من ظل أطيب ولا أبرد ، فلجأوا إليها هربا من الحر الذي أصابهم ، فلما اجتمعوا تحتحا أمطرتهم نارا فأحرقتهم وقيل : صيح بهم صيحة واحدة فماتوا منها فعلى هذا

سلطت عليهم الأنواع الثلاثة من العذاب عذاب الاستئصال .

75 الآية الرابعة عشرة منها

(153/262)

قوله تعالى : (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين* إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون* وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون* فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) الأعراف : 80-83 .

وقال في سورة النمل 54-58 : (ولوطا إذ قال قوله أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون* أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون* فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون* فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين* وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) .

وقال في سورة العنكبوت 28-30 : (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين* قال رب انصرني على

القوم المفسدين) .

للسائل أن يسأل في هذه الآي عن موضع :

فالأول : قوله في سورة الأعراف 81 : (. . شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون)

وقال فيما وقع في سورة النمل 55 : (شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) .

والثاني : قوله تعالى بعد ذلك : (وما كان جواب قومه) في سورة الاعراف 82 بالواو ،

وقال فيما أشبهه من سورة النمل 56 : (فما كان جواب قومه) بالفاء ، وهل صلح

أحدهما مكان الآخر في الاختيار ؟

والثالث : قوله في سورة الأعراف 82 : (إلا أن قالوا أخرجوهم) وقال في سورة النمل 56

: (إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط) فأضمر في الأول واظهر في الثاني ؟

والرابع : قوله في سورة الأعراف 83 : (إلا امرأته كانت من الغابرين) وفي سورة النمل 57

: (إلا

امرأته قدرناه من الغابرين) .

والخامس : قوله في سورة الأعراف 80 : (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من

العالمين) وقال في سورة النمل 54 : (أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) .

والسادس : اختلاف المحكيات ، قال في سورة الأعراف 82 (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم) وفي النمل 56 : (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط) وفي العنكبوت 29 (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) .

فأما المسألة الأولى ، وهي مجيء (بل أنتم قوم مسرفون) في الأعراف ، و (بل أنتم قوم تجهلون) في سورة النمل ، فالمسرف مجهل بإسرافه ، والجاهل مسرف بأفعاله ، إذ الإسراف مجاوزة الحد الواجب إلى الفساد ، فيجوز أن يكون لوط عليه السلام لما كانت له مع قومه مقامات قال في بعضها هذا اللفظ ، وفي بعضها اللفظ الآخر ، ولم يناف أحدهما الآخر .

ثم اختصاص مسرفين بسورة الأعراف ، فلأن الآيات التي قبلها فواصلها أسماء جمعت هذا الجمع ، من حيث قال : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض . .) الأعراف : 74 فكانت فاصلة هذه الآية : (مفسدين) وفاصلة ما بعدها : (مؤمنون) وما بعدها : (كافرون) وبعدها : (المرسلين) وبعدها : (جاثمين) وبعدها : (الناصحين) ، وبعد ذلك إذ انتهى إلى هذه الآية (العالمين) فكان الاسم أحق بالوضع في هذا المكان لتتساوى الفواصل ، وفي سورة النمل تقدم الآية التي فاصلتها : (بل أنتم قوم تجهلون) . النمل : 55 قوله تعالى : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون* ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) النمل :

52-54 فلما تناسقت هذه الأفعال في هذه الفواصل التي قبل هذه الفواصل التي قبل هذه الفاصلة كان بناؤها على ما قبلها بلفظ الفعل أولى بها ، فجاء : (تجهلون) في هذا الموضع و (مسرفون) في الأول لهذا من القصد والله تعالى أعلم .

(155/262)

وأما المسألة الثانية في اختصاص الواو بسورة الأعراف في قوله : (وما كان جواب قومه) ، والفاء في سورة النمل : (فما كان جواب قومه) فلأن قبلها (مسرفون) وهو اسم وإن أدى معنى الفعل ، و (تجهلون) صريح لفظ الفعل والأجوبة التي تتعلق بالأول المبتدأ به ، وإنما أصلها ف الأفعال التي تقع وتوجد لوجود غيرها ، والواو والفاء جائزتان في الموضعين إلا انه يختار حيث جاء الأصل الذي وضعت الفاء فيه لتوجب ما بعدها لوجود ما قبلها ، وهو الفعل ، واختيرت الواو حيث كان الملفوظ به الاسم ليفرق بين الموضعين ، فيختار لكل ما هو أليق به ، إذ ليس الاسم

أصلا فيما جعلت الفاء للجواب فيه .

وأما المسألة الثالثة ، وهي إضمار آل لوط في الأعراف حيث قال (إلا أن قالوا أخرجوهم) وإظهاره في سورة النمل لما قال : (أخرجوا آل لوط من قريتكم) فالجواب عنه أن يقال : إن

السورتين ميتان وموجب هذا الإضمار والإظهار ان يكون ما جاء فيه الإظهار نازلا قبل ما جاء فيه من الإضمار ، فلما أظهر في الآية المنزلة قبل اعتمد في القصة التي هي عند ذكرهم على الإضمار الذ أصله أن يكون بعد تقدم الذكر .

وأما المسألة الرابهة وهي (إلا امرأته كانت من الغابرين) في سورة الأعراف ، وفي سورة النمل : (إلا امرأته قدرناها من الغابرين) فالجواب عنها ما يدل عليه الجواب عن المسألة الثالثة ، وهو أن هذه القصة في سورة النمل نازلة قبل القصة التي في سورة الأعراف بدليل الإضمار والإظهار ، وإذا بنينا على هذا فإن قوله : (إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أي : كتبنا عليها أن تكون من الباقين في القرية الهالكين مع أهلها ، فلما ذكر في الآية المنزلة أولا أحال في الثانية على الأولى في البيان فقال : (كانت من الغابرين) أي : في تقدير الله الذي قدره لها ، وأخبر فيما قبل عن حكمه عليها .

(156/262)

وأما المسألة الخامسة فهي قوله تعالى في سورة الأعراف : (. . أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وقال في سورة النمل : (أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) فالجواب عنها على ما بينا ، وهو أن ذكر قصة لوط وقومه نزل القرآن به قبل ذكره في سورة الأعراف ،

وتبكيتهم على الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، وفحشهم فيها قبل الإخبار عن سبقهم إليها ، فكان قوله : (وأنتم تبصرون) أي : لا تتكاتمون بها ، لأنهم كانوا في مجالسهم لا يتحاشون عنها ، وقيل : (وأنتم تبصرون) فحشها وشناعة قبحها ، وهذه صفة ترجع إلى الفعلة نفسها ، ثم إنهم لم يسبقوا إليها ، كما قيل في الخبر : نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وهذا وصف حقه أي يجيء بعد توفيه الفاحشة حق وصفها في نفوسها ، فأخر ذكره إلى حكاية الثانية لهذه القصة ، وقد خاطبهم لوط عليه السلام بذلك وأكثر منه في مقامات إنكاره عليهم ودعائهم لهم .

وأما المسألة السادسة فعن اختلاف المحكيات ، إذ كان في سورتي الأعراف والنمل : (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) و (أخرجوا آل لوط) وقال في سورة العنكبوت : (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا إئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) والجواب عن ذلك أن هؤلاء لما كرر عليهم لوط عليه السلام الإنكار وأعاد عليهم الإعذار والإنذار ، قال في موقف ما

حكاه الله تعالى عنه ، فكان جوابهم له في ذلك الموقف ما ذكره الله تعالى . والجواب الثاني وإن خالف الجواب الأول فهو من جهتهم ، وإذا خالفوا بين الأجوبة تناولت الحكاية مختلفها ، على لو كان كل ذلك في موقف واحد لكان جائزا أن يكون جواب طائفة منهم ما ذكر أولا ، وجواب طائفة أخرى ما ذكر ثانيا ، وكل من الطائفتين قومه .

فإذا قيل : (وما كان جواب قومه) أ بعض قومه ، فإذا كان قاله بعض ورضي به الآخرون ، فكلهم أو في حكم القائلين ، فلا يقدح ما جاء من اختلاف أجوبتهم في الآيات التي نزلت في هذه القصة على ما يظنه المعترض ، وإنما يتعلق بمثله من جهل للأنبياء عليهم السلام موافقها ، ولم يعرف اللغات ومصارفها ، وهذا كثير في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وحكايتها في هذه السور وغيرها مما نقف عليه إن شاء الله .

76 الآية الخامسة عشرة منها

تشتمل على ثلاث مسائل :

قوله تعالى : (نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرون) الأعراف : 101 .

وقال في سورة يونس 74 : (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين) .

للسائل ان يسأل عن اختلاف ما اختلف في الآيتين المتشابهتين فلم سقط (به) في سورة الأعراف دون سورة يونس ؟ ولم قال : (يطبع الله) في الأولى ، و (نطبع) في الثانية ؟ ولم

جعل الطبع على قلوب الكافرين في الأعراف ، وعلى قلوب المعتدين في يونس ؟

والجواب عن ذلك : أن سقوط (به) من قوله : (كذبوا) هو للبناء على ما جعل صدرا لهذه الآيات التي نزلت في الترغيب والترهيب ، وهو : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون الأعراف : 96 فقوله : (ولكن كذبوا) لم يذكر له مفعول ، وأنساقت الآيات بعد التحذير المتوالي بقوله : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا) الأعراف : 97 ثم ختمت بقوله : (تلك القرى نقص عليك مكن أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) الأعراف : 101 .

فالمكذبون هنا هم المكذبون في قوله (ولكن كذبوا) فدل على ذلك بأن أجرى مجراه في حذف ما

يتعدى إليه كذب وما يتعدى إليه كذب إذا كان غير مميز يتعدى إليه بالباء ، كقوله : (كذبوا بآياتنا) يونس : 73 . وإذا كان من المميزين فإنه يتعدى إليه بغير حرف إضافة نحو كذبه كقوله تعالى (فكذبوا رسلي) سبأ : 45 فالمحذوف في هذا المكان هو المفعول به ، وهو

الذي يتعدى إليه الفعل بالباء .

وأما قوله تعالى في سورة يونس 74 : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) وإثبات المفعول به هنا فلأن قبله نوح عليه السلام ، وهي (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله) . يونس : 71 . ثم بعده : (فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك) ثم بعده : (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) يونس : 73 فجاءت كذب أمام القصة المبنية على القصة التي قبلها متعدية إلى ما وجب لها في موضعها ، فروعي تعديها ، فلما وقعت الإشارة في قوله : (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوه من قبل) إلى تكذيب من كذب من قوم نوح ، اختير تعدية الفعل المكرر على الفعل الأول ، ليعلم أن هذا الفعل معني به ما تقدم ، فلما جاء ذلك متعديا جاء هذا مثله . ولما لم يجيء في الآية التي في سورة الأعراف متعديا لم يجيء فيما بني عليه إلا محذوف المفعول به .

وأما الجواب عن قوله) كذلك يطبع الله) الأعراف : 101 و (كذلك نطبع) يونس : 74 فلأن الآية في سورة الأعراف مبنية على ما تقدمها من الآيات ، وهي تنتقل من الإضمار إلى الإظهار ، ومن الإظهار إلى الإضمار ، أعني في أخبار الله عز وجل عن نفسه لقوله : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا) الأعراف : 97 . و (أن يأتيهم بأسنا ضحى) الأعراف : 97 وقوله بعده : (أفأمنوا مكر الله) الأعراف : 99 فأظهر : ولم يقل : أفأمنوا مكرنا .

فلما وقع هذا الإخبار في هذا المكان ، ثم جاء بعده : (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو شاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم) الأعراف : 100 . فأجرى الفعل على إضمار فاعله ، ثم عاد إلى ذكر الطبع ، كان إجراؤه على إظهار الفاعل أشبه بما بنيت عليه الآيات المتقدمة من الانتقال من الإضمار إلى الإظهار المختار استعماله في المكان .

وأما الآية التي في سورة يونس وهي : (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يونس : 74 . فلأن ما قبلها جار على حد واحد وسنن لاحب وهو إضمار الفاعل من حيث في قصة نوح قبلهن وهي من مبتدأ العشر (واتل عليهم نبأ نوح) يونس : 71 إلى أن قال) فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين* ثم بعثنا من بعده رسلا إلى

قومهم) فقال بعده : كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يونس : 73-74

ولم يتقدمه ما يخالفه هذا المنهج ، ولم يبن على الطريقين فاتبع الأول وحمل عليه في إضمار الفاعل فيه .

والمسألة الثالثة في هذه الآية قوله في سورة الأعراف 101 : (على قلوب الكافرين) وفي

سورة يونس 74 : (على قلوب المعتدين) فالجواب عنها : أن الآيات التي تقدمت في سورة الأعراف تضمنت وصف الكفاء ، لأنه لا يحذر عقاب الله ومجيئه بياتا أو ضحى إلا الكفار ، ثم إطلاق الخاسرين لا يكون إلا في الكافرين/فلما وقع التصريح بصفات الكفر صرح به عند ذكر الطبع ، ولما كانت الآية في سورة يونس قد تقدمها في وصف الكفار ما كان كالكناية عنهم فقال : (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) يونس : 73 . وما كل منذر كافر ، كنى عن الكفار بعده عند ذكر الطبع بـ المعتدين وما كل معتد كافر ، فمخالفة كل واحدة من الآيتين للأخرى إنما هي لموافقة ما قبل كل واحدة منهما من طرح الكلام وقصد الالتئام .

77 الآية السادسة عشرة منها

(160/262)

قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : (قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين* فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين* ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين* قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم* يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون* قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين* يأتوك بكل ساحر عليم* وجاء السحرة

فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين* قال نعم وإنكم لمن المقربين* قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين) . الأعراف : 106-115 .

وقال في سورة الشعراء مكان قولهك (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) الأعراف : 109 . (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم* يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون* قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين* يأتوك بكل سحار عليم* فجمع السحرة) . الشعراء : 34-38 .

للسائل أن يسأل في هذه القصة عن مسائل : أولها : قوله في سورة الأعراف 109-110 . (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم* يريد أن يخرجكم من أرضكم) ثم قال في سورة الشعراء 34 . (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم) .

فأخبر في الأولى أن قائل ذلك الملأ من قومه وفي الثانية أن فرعون هو القائل ذلك لملئه ، وهذا اختلاف ظاهر في الخبرين ؟

والجواب أن يقال : إن قول الملأ فيما حكاه الله تعالى في سورة الأعراف قول فرعون ، أداه عنه رؤساء قومه إلى عامة اصحابه ، والدليل على أن ذلك قوله ، وأنهم فيه مؤدو رسالة عنه قول العامة في جوابه : (أرجه وأخاه) الأعراف : 111 ، فكان هذا خطابا لفرعون ولم يكن للملأ ، إذ لو كان لهم لكان : أرجوه وأخاه وإذا كان كذلك لم يخالف ما قاله في الشعراء من أنه : (قال للملأ حوله) الشعراء : 34 بل يكون هو البادئ بذلك لمن حوله

ليؤدوا إلى من بعد عنه قوله .

فإن قال قائل : فكيف اختصت سورة الأعراف بحكاية ما قال الملأ ، وسورة الشعراء بما قاله فرعون ؟

(161/262)

قيل : إن أول من رد قول موسى عليه السلام فرعون ، ثم ما لأنه عليه ملؤه ، وهو ما حكاه الله تعالى في سورة الشعراء واقتص حاله حيث أخبر عنه بما قاله : (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) الشعراء : 18 . إلى أن انتهت الآيات إلى القصة المودعة ذكر السحرة ، فقل فرعون للملأ حوله ما أدوه عنه إلى غيرهم ، وسورة الشعراء مكية كسورة الأعراف ، وترتيب الاقتصاص يقتضي أن تكون قبلها ، وفي السورة الثانية أخبر عما أداه عنه ملؤه إلى الناس الذين أجابوه بأن (أرجه وأخاه) فكان قول فرعون للملأ حوله سابقا قول الملأ الذين أدوا إلى غيرهم قوله ، فذكر حيث قصد اقتصاص أول من دعاء موسى عليه السلام إلى طاعة الله تعالى .

78 الآية السابعة منها

قوله تعالى فيها : (يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) الأعراف : 110 .

وقوله في سورة الشعراء 35 : (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) .

للسائل أن يسأل فيقول : ذكر في الآية الأولى : أنه قال : (يريد أن يخرجكم من أرضكم) فحسب ، وذكر في الثانية أنه قال : (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) والقول واحد ، فلماذا اختلف ؟

والجواب أن يقال : لما أسند الفعل في سورة الشعراء إلى فرعون ، وحكى ما قاله وأنه قال للملأ حوله من قومه (إن هذا لساحر عليم) الشعراء : 34 وكان أشهدهم تمردا وأولهم تجبرا ، وأبلغهم فيما يرد به الحق ، كان في قوله : (يريد أن يخرجكم من أرضكم) ذكر السبب الذي يصل به إلى الإخراج ، وهو (بسحره) فأشبع المقال بعد قوله : (إن هذا لساحر عليم) بأن ذكر أنه (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره .) .

وأما الموضع الذي لم يذكر فيه (بسحره) فهو ما حكى من قول الملأ في سورة الأعراف ، حيث

قال : (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم* يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) الأعراف : 109-110 والملأ لم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما أورده موسى

عليه السلام ، ولم يجفوا في الخطاب جفاءه ، فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ السحر من فعله بعد ما أخرجه بصفته حيث قال : (إن هذا لساحر عليم) .

فإن قال قائل : فقد ذكر الله عز وجل في سورة طه 63 عن الملأ أنهم : (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . . .) .

قيل له : قوله تعالى : (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى* قالوا إن هذان لساحران . . .) طه : 62-63 خبر عن فرعون وملئه فلما كان من جملتهم غلب أمره على أمرهم ، ألا ترى أن ابتداء ذلك : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) طه : 56 وهذا خبر عن فرعون ، ثم بعده : (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى* فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى* قال موعدكم يوم الزينة . .) طه : 57-59 وهو خطاب لفرعون ومن تبعه ، ويجوز أن يكون له وحده على ما يخاطب به الملوك من لفظ الجمع كما يخبرون بمثله عن أنفسهم ، فذكر قوله : (بسحره) فيما حكاه من كلام فرعون ، فلذلك خلا منه الموضع الذي كان الخبر فيه عن الملأ عن قومه . فاعلمه إن شاء الله تعالى .

79 الآية الثامنة عشرة منها

قوله تعالى : (قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين) الأعراف : 111 .

وقال في سورة الشعراء 36 : (قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين) .

للسائل أن يسأل فيقول : لأي معنى اختلف اللفظان في الآيتين ، فكان في الأولى أرسل وفي الثانية وهل يجوز أحدهما مكان الآخر ؟

(163/262)

والجواب أن يقال : اللفظتان نظيرتان ، تستعمل إحداهما مكان الأخرى ، وقد جاء : بعث الرسول ، وأرسله معا ، إلا أن أرسل يختص بما لا يختص به بعث لأن البعث لا يتضمن ترتيبا ، والإرسال أصله : تنفيذ من فوق إلى أسفل .

وأرسل في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملأ المؤدين كلام فرعون إليهم ، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما استأمرهم فيه واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب ، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم به المخاطب ، كما خفم في تحميله ملأه أن يؤدوا كلامه إلى من دونه .

ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاه فرعون بنفسه من مخاطبة قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه ، وتسوية قدره ، لقوله : (قال للملأ حوله) الشعراء : 34 كان هذا الموضع مخالفا للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم ، فخص باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم ، وهو قوله : ابعث .

80 الآية التاسعة منها

قوله تعالى بعد ما قال : (يأتوك بكل ساحر عليم) الأعراف : 112 (وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا) الأعراف : 113 .

وقال في سورة الشعراء بعد : (بكل سحار عليم) الشعراء : 37 (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم* وقيل للناس هل أنتم مجتمعون* لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين* فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا . . .) الشعراء : 38-41 .

لسائل أن يسأل فيقول : المحكى في الشعراء أكثر من المحكى في سورة الأعراف بعد قوله : (يأتوك بكل سحار عليم) إلى أن انتهى قوله تعالى إلى ما هو خبر عن السحرة من قولهم لفرعون : (أئن لنا لأجرا) الشعراء : 41 ؟

والجواب ما دللنا عليه من أن ما في سورة الشعراء أشد ابتداء مبعثه إليه حيث قال : (وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين* قوم فرعون ألا يتقون) الشعراء : 10-11 .

(164/262)

فجاء في هذه الآيات التي في ذكر السحرة من بيان ما جرى ما لم يجيء في التي في سورة الأعراف ، فمنه قول الله تعالى : (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) الشعراء : 38 كما قال

في سورة طه 57-59 : (قال أجأتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى* فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى* قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) فهذا هو قوله : (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) الشعراء : 38 .

وفي سورة الأعراف لما لم تبدأ القصة فيها بذكر مبعثه عله السلام ، وابتداء أمره لم تكن مبنية على ما بنيتا عليه من اقتصاص معظم حاله ، وأول ما كان من مبعثه حيث يقول : (اذهب إلى فرعون إنه طغى* قال رب اشرح لي صدري* ويسر لي أمري) طه 24-26 .

فلما كان القصد في سورة الأعراف ذكر الجمل من بعض ما كان ، لا ذكر تفصيله ، كان الاقتصار بعد ذكر إرسال الحاشرين إلى السحرة ، ومجيئهم يغني عن ذكر توعدهم ليوم يظهرون فيه حيلهم وتمويهاتهم ، إذ معلوم أن مثل ذلك الخطب الجسيم ، وحشر العدد الكثير ينتهي إلى يوم يتواعد إليه

مشهود ، وعلى هذا يبني الكلام في أكثر متشابه هذه القصة .

81 الآية العشرون منها

قوله تعالى في الآية التي قبل : (وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) الأعراف : 113 .

وقال في سورة الشعراء 41 : (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن

الغالبين) .

للسائل أن يسأل فيقول : كيف اختلفت الآيتان ، وكيف جاز : (وجاء السحرة فرعون قالوا) وحق الكلام أن يكون في قالوا واو أو فاء ، نحو جاء السحرة فرعون فقالوا أئن لنا لأجرا ، أو وقالوا ؟

(165/262)

والجواب أن يقال : لما تقدم في سورة الشعراء ما شرحه أكثر وما في سورة الأعراف أوجز وأخصر ، كان قوله في الأعراف : (وجاء السحرة فرعون) بمعنى ما كان بإزائه في سورة الشعراء : (فلما جاء السحرة) فلم يحتج في جواب لما إلى فاء ولا إلى واو ، وكذلك هنا في سورة الأعراف ، لما قصد هذا المعنى دل بحذف العاطف على هذا القصد ، فكأنه قال : فلما جاء السحرة فرعون قالوا أئن لنا لأجرا .

82 الآية الحادية والعشرون منها

قوله تعالى : (قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين* قال نعم وإنكم لمن المقربين) الأعراف : 113-114 .

وقال في سورة الشعراء 42 : (قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) .

للسائل أن يسأل عن زيادة إذا في سورة الشعراء ، وخلو سورة الأعراف منها ؟

والجواب أن معنى قوله إذا جواب وجزاء ، وكان من قول فرعون لهم : إن غلبتم فجزائي أن أجازيكم بإعلاء رتبتكم ، وتقريب منزلتكم ، لأنها موضع بني على فصل اقتصاص لما جرى ، لم يبن غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء .

83 الآية الثانية والعشرون منها

قوله تعالى : (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين) الأعراف : 115 .

وقال في سورة طه 65 : (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) .

للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي في الموضعين مع ذلك في شيء واحد ؟

والجواب أن يقال : أن المقصود معنى واحد ، فاختير في سورة الأعراف : (. . وإما أن نكون نحن

الملقين) لأن الفواصل قبله على هذا الوزان ، واختير في سورة طه : (وإما أن نكون أول من ألقى) لذلك .

ومثله قوله تعالى : (وألقي السحرة ساجدين) في سورة الأعراف 120 وسورة الشعراء 46 لتكون الفاصلة فيهما مساوية للفواصل قبلها ، وبإزاء (ساجدين) قوله : (فألقى السحر سجدا . .) في سورة طه 70 لذلك .

ومثله قوله تعالى : (قالوا آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون) في السورتين للفواصل التي حملت هذه عليها . وقال في سورة طه 70 : (. . قالوا آمنا برب هارون وموسى) فقدم هارون ليكون موسى فاصلة مثل الفواصل المتقدمة .

فهذا ونحوه مما يراعى الفواصل ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (. . . وأطعنا الرسولا) و (فأضلوا سبيلا) فزيدت الألف ، لا للبدل من التنوين ، إذ لا تنوين مع الألف واللام ، وإنما ذلك للتوفقه بينهما وبين الفواصل التي قبلها وبعدهما ، نحو (تقتيلا) و (وتبديلا) و (وقريبا) و (سعيرا) و (نصيرا) وبعدهما : (كبيرا) و (وجيها) و (سديدا) و (عظيما) .

84 الآية الثالثة والعشرون منها

قوله تعالى : (قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) الأعراف : 121-122 .

وقال في سورة الشعراء 47-48 مثله .

وقال في سورة طه 70 : (. . . قالوا آمنا برب هارون وموسى) .

للسائل أن يسأل فيقول : لم كرر ذكر رب في السورتين ولم يكرره في سورة طه ، وإنما قال : (قالوا آمنا برب هارون وموسى) ؟

والجواب أن يقال : إذا قيل : (رب العالمين) فقد دخل فيهم موسى وهارون وهما دعوا إلى رب العالمين لما قالا : (. . إنا رسول رب العالمين) الشعراء : 16 إلا إنه كرر في السورتين :

(رب موسى وهارون) ليدل بتخصصهما بعد العموم على تصديقهم بما جاءا به عليهما السلام عن الله تبارك وتعالى ، فكأنهم قالوا : آمنا برب العالمين ، وهو الذي يدعو إليه موسى وهارون .

وأما في سورة طه فلم يذكر رب العالمين لأنه كان الكلام يتم به آية كما ثم في السورتين ، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها سورة طه ، فقال تعالى : (آمنا برب هارون وموسى) وربهما هو رب العالمين ، وكان القصد حكاية المعنى لا أداء اللفظ على جهته كما دللنا عليه قبل .

85 الآية الرابعة والعشرون منها

قوله تعالى : (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم . . .) الأعراف : 123

(167/262)

وقال في سورة طه 71 : (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . .)

للسائل أن يسأل عن موضعين من هذه الآية :

أحدهما : إظهار اسم فرعون لعنه الله في سورة الأعراف في هذا اللفظ وإضماره له في مثله من سورتي طه والشعراء ؟

والثاني : قوله : (آمنتم به) وقال في الموضعين الآخرين : (آمنتم له) ووجه اختلافهما ؟

والجواب عن السؤال الأول ، وهو إظهار اسم فرعون في سورة الأعراف ، لأنه جاء في الآية العاشرة من الآيى التي أضمر فيها ذكره ، وهي قوله : (قال نعم وإنكم لمن المقربين) الأعراف : 114

وجاء في الآية العاشرة من هذه السورة : (قال فرعون أمنتم به) الأعراف : 123 ولم يبعد هذا الذكر في الآيتين اللتين في سورة طه والشعراء ، لأن فرعون مذكور في سورة طه في جملة قومه الذين اخبر عنهم بقوله : (قال أجأتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) طه : 57 وبعده : (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) طه : 60-61 وهذا خطابه لفرعون وقومه ، وضمرهم منطو على ضميره إلى قوله : (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا . .) طه : 64 .

والذكر في قوله : (قال آمنتم له . .) طه : 71 إنما هو السابع من الآي التي جرى ذكره فيها . وكذلك في سورة الشعراء لم يبعد الذكر بعده في سورة الأعراف ، ألا ترى أن آخر ما ذكر فيما اتصل بهذه الآية قوله تعالى : (قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) الشعراء : 42 وذكره بعد ذلك في الآية الثامنة من الآي التي جرى ذكره فيها .

فلما بعد الذكر في سورة الأعراف خلاف بعده في السورتين إذ كان في إحداهما في السابعة ،

وفي الأخرى في الثامنة ، وهي الأعراف في العاشرة أعيد ذكره الظاهر لذلك .

والجواب عن السؤال الثاني وهو قوله : (آمنتم به) غير الهاء في (آمنتم له ، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى .

(168/262)

فالتي في (آمنتم به) تعود إلى رب العالمين ، لأنه تعالى حكى عنهم أنهم : (قالوا آمنا برب العالمين) الأعراف : 121 وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام وأما الهاء في قوله : (آمنتم له)

تعود إلى موسى عليه السلام ، والدليل على ذلك أنه جاء في السورتين بعدها : (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . . .) طه : 71 ، الشعراء : 49 فالهاء في (إنه) هي التي في (آمنتم له) فلا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام .

والذي جاء بعد قوله : (آمنتم به) قوله : (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة . . . .) الأعراف : 132 أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم ، أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد ، ويجوز أن يكون الهاء في (أمنتم به) ضمير موسى عليه السلام ، لأنه يقال : آمن بالرسول ، أي أظهرتم تصديقه ، وأقدمتم على خلافي قبل أن آذنت لكم فيه

، وهذا المكر مكرتموه ،

تعود إلى موسى عليه السلام ، والدليل على ذلك أنه جاء في السورتين بعدها : (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . . .) طه : 71 ، الشعراء : 49 فالهاء في (إنه) هي التي في (آمنتم له) فلا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام .

والذي جاء بعد قوله : (آمنتم به) قوله : (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة . . . .) الأعراف : 132 أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم ، أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد ، ويجوز أن يكون الهاء في (أمنتم به) ضمير موسى عليه السلام ، لأنه يقال : آمن بالرسول ، أي أظهرتم تصديقه ، وأقدمتم على خلافي قبل أن آذنت لكم فيه ، وهذا المكر مكرتموه ،

وسر أسررتموه لتقلبوا الناس على ، فاقتضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به .

(169/262)

فأما الإيمان له موضعين الآخرين فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله ، ومن أجل ما أتى به من الآيات ، فكأنه قال : آمنتم برب العالمين لأجل ما ظهر لكم على يدي موسى عليه السلام من

آياته ، والموضع الذي ذكر فيه (له) أي من أجله ، وعبر عنه باللام هو الموضع الذي قصد فيه إلى الإخبار ب (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) فلذلك خص باللام ، والأول خص بالباء . وقد تدل اللام على الإتباع فيكون المعنى : اتبعتموه لأنه كبيركم في عمل السحر ، وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ، ولا يتبع الدعي إليه .

86الآية الخامسة والعشرون منها

قوله تعالى : (فسوف تعملون) الأعراف : 123 .

وقال في سورة طه 71 : (. . إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم . . .

وقال في سورة الشعراء 49 : (. . إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم) .

للسائل أن يسأل فيقول : قال في سورة الأعراف : (فسوف تعلمون) ولم يقل في سورة طه ، وإنما أدخل الفاء على قوله : (فلأقطعن) طه : 71 ، وأما في سورة الشعراء فإنه أتى ب سوف تعلمون مع اللام فقال : (فلسوف تعلمون) فما وجه اختلاف هذه ، واختصاص بعض بمكان دون غيره ؟

والجواب أن يقال : إن قوله تعالى : (فسوف تعلمون) من الوعيد المبهم المعرض بأي : فعلت بجهل ما تعرف من بعد نتيجته ، وطرحت بذر شر ، عند حصده تعلم نهايته . وهذا النوع من الوعيد أبلغ من الإفصاح بقدره ، على أنه قد قرن إليه بيانه ، وهو : (لأقطعن أيديكم)

الآية الأعراف : 124 ،

فنطق القرآن بحكاية التعريض بالوعيد والإفصاح بالتهديد معا .

وأما اختصاص سورة الشعراء بقوله : (فلسوف) وزيادة اللام فلتقريب ما خوفهم به من اطلاعهم

(170/262)

عليه وقربه منهم ، حتى كأنه في الحال موجود : إذ اللام للحال ، فالجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال ، إنما هو لتحقيق الفعل ، وإدائه من الوقوع كما قال تعالى : (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) النحل : 124 فجمع بين اللام وبين يوم القيامة كما جمع بينها وبين سوف على ما قاله عز وجل : (. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . .) النحل : 77 .

وقد بينا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصا لأحوال موسى عليه السلام في بعثه ، وابتداء أمره ، وانتهاء حاله مع عدوه ، فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له ، المحقق وقوعه إلى اللفظ المفصح بمعناه ، ثم وقع الإقتصار في السورة التي لم يقصد فيها من اقتصاص الحال ما قصد في سورة الشعراء على ذكر بعض ما هو في موضع البسط والشرح ، وهو

التعريض بالوعيد مع الإفصاح به .

وأما في سور طه فإنه اقتصر على التصريح بما أوعدهم به وترك : (فسوف تعلمون) وقال : (فلأقطعن أيديكم) طه : 71 إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها ، وهو قوله بعده : (. . ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) طه : 71 فاللام والنون في :

(لتعلمن) للقسم ، وهما لتحقيق الفعل وتوكده ، كما أن اللام في قوله : (فلسوف تعلمون) الشعراء : 49 لإدناء الفعل وتقريبه ، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحال من إعلاء الحق وإزهاق الباطل .

87الآية السادسة والعشرون منها

قوله تعالى (. . ثم لأصلبنكم أجمعين) الأعراف : 124 .

وقال في السورتين طه 71 والشعراء 49 : (. . ولأصلبنكم . . .) بالواو .

للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة الأعراف ب ثم والأخريين بالواو ؟

(171/262)

والجواب أن يقال : إن السورتين اللتين اختصا بالواو هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر والبسط الأوسع ، والواو أشبه بهذا المعنى ، لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقا لما قبلها كالتعقيب الذي يفاد بالفاء ، ويجوز أن يكون متراخيا عنه كالمهلة التي تفاد ب ثم لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدما على ما قبلها ، ومجامعا لها ، إذ ه موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها ، فكانت الواو أشبه بهذين المكانين .

وثم تختص بأحد المواضع التي تصلح الواو لجميعها ، فلما كانت مقتصرا بها على بعض ما وضعت له الواو ، استعملت حيث اختصرت الحال ، فاقترن بكل مكان ما يليق بالمقصود فيه فلذلك خصت ثم بسورة الأعراف ، والواو بالسورتين الأخيرتين . والله أعلم .

88 الآية السابعة والعشرون منها

قوله تعالى : (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) الأعراف : 125 .

وقال في سورة الشعراء 50 : (قالوا لا ضير إلى ربنا منقلبون) .

للسائل أن يسأل عن زيادة قوله : (لا ضرير) على ما ذكر في سورة الأعراف واختصاص تلك بها من دون هذه ؟ .

والجواب أن يقال : إنهم قابلوا وعيده بما يهونه ويزيل ألمه من انتقالهم إلى ثواب ربهم مع المتحقق من منقلب معذبهم ، فجاء في سورة الشعراء وهي التي قصد بها الإقتصاص الأكبر : (لا ضرير) أي لا ضرر علينا ، فإن منقلبنا إلى جزاء ربنا فننعم أبدا ، وتعذب أنت

أبدا ، فالضرر الذي تحاول إنزاله بنا ، بك نازل ، وعليك مقيم ، ونحن نألم ساعة لا يعتد بها مع دوام النعيم بعدها ، فكأنه لم يلحقنا ضرر وفي سورة الاعراف وقع الإقتصار على قوله : (. . . إنا إلى ربنا منقلبون) وفيه كفاية وإبانة عن هذا المعنى ، ودلالة بناء على ما قصد فيها مما يبين وشرح في سواها .

89 الآية الثامنة والعشرون منها

قوله تعالى : (. . قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون* قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . . .) . الأعراف : 187-188 .

(172/262)

قوله تعالى : (. . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين *قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . . .) .

للسائل أن يسأل عن الآيتين ، وتقدم النفع على الضر في الأولى ، وتأخيره عنه في الأخرى ، وهل لفائدة أوجبت في الاختيار تقديم المقدم وتأخير المؤخر ؟

والجواب أن يقال : إن الألى بعد قوله : (يسألونك عن الساعة أان مرساها قل إنما علمها عند ربي) وبعده : (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الأعراف : 178

فكان معنى قوله : (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) أي : لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب لها ، إلا ما ملكنية الله ، فلا أملك إلا ما ملكت ولا أعلم إلا ما علمت .

والذي تسألون عنه أخفى الغيوب ، وأنا لا أعلم منها ما هو أقرب إلى جحم الظنون ، فكيف ما يختص به علام الغيوب ؟ ولو علمت الغيب لاستكثرت في السنة المخصبة ما يدفع كلب المجدبة ،

وقيل لاستكثرت من العمل الصالح ، الذي أتحقق أنه رفع الأعمال عند الله تعالى درجة ، لأن من علم الغيب عرف الأفضل عند الله ولم يتركه إلى ما هو دونه وقوله (وما مسني السوء) الأعراف : 188 أي : ما بي جنون كما زعم المشركون ، وقيل : الفقر لاستكثاري من الخير الذي يتدارك به الفقر عند شدة الزمان .

وأما الآية في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى ، وقبلها (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) يونس : 46 .

أي : إن أريناك بعض ما نتوعد به هؤلاء الكفار من العذاب في عاجل الدنيا حتى تراه نازلا بهم في حياتك ، أو أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم ، فإن ذلك لا يفوتهم ، لأن مرجعهم إلى حيث يبجازذى فيه العباد ، ولا يملك بعضهم أمر بعض ، ويقول الكفار : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يونس : 48 .

قل لا أملك ما وعدكم الله من هذا العذاب ، ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب ، كما لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله أن يملكينه منهما ، فتقديم ضر على نفع في هذه الآية لخروجها عن ذكر العذاب الذي قال الله تعالى فيه بعدها : (أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون) . يونس : 51 ثم إن اللفظة التي تزاوج لفظة الضر هي لفظة النفع ومعناه في الآية : إنه لا يملك الله منه عباده ، وأنا واحد منهم ، فلذلك أتبع ذكره ذكره .

90 الآية التاسعة والعشرون :

قوله تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) الأعراف : 200 .

وقال في سورة حم السجدة : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إن هو السميع العليم) .

للسائل أن يسأل فيقول : لأي معنى جاء في الآية من سورة الأعراف (سميع عليم) على لفظ النكرة ، وفي سورة حم السجدة معرفتين بالألف واللام مؤكدتين بـ هو ؟

والجواب أن يقال : إن الأول وقع في فاصلة ما قبلها من الفواصل أفعال جماعة ، واسماء

مأخوذة من الأفعال نحو قوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) الأعراف : 190 . وبعده (يخلقون) الأعراف : 191 و (ينصرون)

الأعراف : 192 و (لا يبصرون) الأعراف : 198 و (الجاهلين) الأعراف : 199 .

فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل ، أعني النكرة ، وكان المعنى : استعذ بالله إنه يسمع استعاذك ، ويعلم استجارتك .

والتي في سورة (حم السجدة) قبلها فواصل سلك بها طريق الأسماء ، وهي ما في قوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فصلت : 34-35 .

(174/262)

فقوله : (ولي حميم) ليس من السماء التي يراد بها الأفعال ، وكذلك قوله : (ذو حظ عظيم) ليس ذو حظ بمعنى فعل ، فأخرج (سميع عليم) بعد الفواصل التي هي على سنن الأسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذي يؤدي معنى الفعل ، فكأنه قال : إنه هو الذي لا يخفي عليه مسموع ولا معلوم ، فليس القصد الإخبار عن الفعل ، كما كان في الأولى : إنه يسمع الدعاء ، ويعلم الإخلاص ، فهذا فرق ما بين المكانين .

انقضت سورة الأعراف عن تسع وعشرين آية ، فيها ثمان وثلاثون مسألة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل صـ 102.135 ﴾

(175/262)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الأعراف 7

مكية قال قتادة إلا قوله تعالى (﴿ واسألهم عن القرية ﴾) الآية فإنها نزلت بالمدينة

ولا نظير لها في عددها

وكلمها ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمس وعشرون كلمة

وحروفها أربعة عشر ألفا وثلاث مئة وعشرة أحرف

وهي مئتان وخمس آيات في البصري والشامي وست في المدنيين والمكي والكوفي

اختلافها خمس آيات (﴿ المص ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ مخلصين له الدين ﴾) عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ كما بدأكم تعودون ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ ضعفا من النار ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم

يعدها الباقون (﴿ الحسنى على بني إسرائيل ﴾) الثالث عدها المدنيان والمكي أيضا ولم يعدها الباقون وكلهم عد (﴿ بني إسرائيل ﴾) الأول والثاني ولم يعد (﴿ بني إسرائيل ﴾) الرابع و(﴿ من الجن والإنس في النار ﴾)

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع أربعة مواضع (﴿ فدلاهما بغرور ﴾ آل فرعون بالسنين) (﴿ وخر موسى صعقا ﴾ عذابا شديدا)

للمؤمنين

2 تذكرون

3 قائلون

4 ظالمين

5 المرسلين

6 غائبين

7 المفلحون

8 يظلمون

9 تشكرون

10 الساجدين

11 طين

12 الصاغرين

13 يبعثون

14 المنظرين

15 المستقيم

16 شاكرين

17 أجمعين

18 الظالمين

19 الخالدين

20 الناصحين

21 مبين

22 الخاسرين

23 إلى حين

24 تخرجون

25 يذكرون

26 لا يؤمنون

27 لا تعلمون

28 مهتدون

30 المسرفين

31 يعلمون

32 لا تعلمون

33 يستقدمون

34 يحزنون

35 خالدون

36 كافرين

37 من النار

* لا تعلمون

38 تكسبون

39 المجرمين

40 الظالمين

41 خالدون

42 تعملون

43 الظالمين

44 كافرون

45 يطمعون

46 الظالمين

47 تستكبرون

48 تحزنون

49 الكافرين

50 يجحدون

51 يؤمنون

52 يفترون

53 العالمين

54 المعتدون

55 المحسنين

56 تذكرون

57 يشكرون

58 عظيم

59 مبين

60 العالمين

61 لا تعلمون

62 ترحمون

63 عمين

64 تتقون

65 الكاذبين

66 العالمين

67 أمين

68 تفلحون

(176/262)

---

69 الصادقين

70 المنتظرين

71 مؤمنين

72 أليم

73 مفسدين

74 مؤمنين

75 كافرون

76 المرسلين

77 جاثمين

78 الناصحين

79 العالمين

80 مسرفون

81 يتطهرون

82 الغابرين

83 المجرمين

84 مؤمنين

85 المفسدين

86 الحاكمين

87 كارهين

88 الفاتحين

89 لخاسرون

90 جاثمين

91 نائمون

92 كافرين

93 يضرعون

94 لا يشعرون

95 يكسبون

96 نائمون

97 يلعبون

98 الخاسرون

99 لا يسمعون

100 الكافرين

101 لفاسقين

102 المفسدين

103 العالمين

104 بني إسرائيل

105 الصادقين

106 مبين

107 للناظرين

108 عليم

109 تأمرون

110 حاشرين

111 عليم

112 الغالبين

113 المقربين

114 الملقين

115 عظيم

116 يأفكون

117 يعملون

118 صاغرين

119 ساجدين

120 العالمين

121 وهارون

122 تعلمون

123 أجمعين

124 منقلبون

125 مسلمين

126 قاهرون

127 للمتقين

128 تعلمون

129 يذكرون

130 لا يعلمون

131 بمؤمنين

132 مجرمين

133 بني إسرائيل

134 ينكثون

135 غافلين

136

بني إسرائيل

*يعرشون

137 تجهلون

138 يعلمون

139 العالمين

140 عظيم

141 المفسدين

142 المؤمنين

143 الشاكرين

144 الفاسقين

145 غافلين

146 يعملون

147 ظالمين

148 الخاسرين

149 الظالمين

150 الراحمين

151 المفترين

152 رحيم

153 يرهبون

154 الغافرين

155 يؤمنون

156 المفلحون

157 تهتدون

158 يعدلون

159 يظلمون

160 المحسنين

161 يظلمون

162 يفسقون

163 يتقون

164 يفسقون

165 خاسئين

166 رحيم

167 يرجعون

168 تعقلون

169 المصلحين

170 تتقون

171 غافلين

172 المبطلون

173 يرجعون

174 الغاوين

175 يتفكرون

176 يظلمون

177 الخاسرون

178 الغافلون

179 يعملون

180 يعدلون

181 لا يعلمون

182 متين

183 مبين

184 يؤمنون

185 يعمهون

186 لا يعلمون

187 يؤمنون

188 الشاكرين

189 يشركون

190 يخلقون

191 ينصرون

192 صامتون

193 صادقين

194 فلا تنظرون

195 الصالحين

196 ينصرون

197 لا يبصرون

198 الجاهلين

199 عليم

200 مبصرون

201 لا يقصرون

202 يؤمنون

203 ترحمون

204 الغافلين

205 يسجدون. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 155. 157﴾

(177/262)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(المص) قد ذكرنا في أول البقرة ما يصلح أن يكون ها هنا ويجوز أن تكون هذه الحروف في موضع مبتدأ، و (كتاب) خبره، وأن تكون خبر مبتدإ محذوف: أي المدعو به المص.

وكتاب خبر مبتدإ محذوف: أي هذا أو هو ، و (أنزل) صفة له (فلا يكن) النهى في اللفظ للحرج ، وفي المعنى المخاطب: أي لا تحرج به ، و (منه) نعت للحرج ، وهى لابتداء الغاية ، أي لا تحرج من أجله و (لتنذر) يجوز أن يتعلق اللام بأنزل ، وأن يتعلق بقوله " فلا يكن " أي لا تحرج به لتتمكن من

الإنزال ، فالهاء في منه للكتاب أو للإنزال ، والهاء في (به) للكتاب (وذكرى) فيه ثلاثة أوجه: أحدها منصوب ، وفيه وجهان: أحدهما هو حال من الضمير في أنزل وما بينهما معترض ، والثانى أن يكون معطوفا على موضع لتنذر: أي لتنذر وتذكر: أي ولذكري .

والثانى أن يكون في موضع رفع ، وفيه وجهان: أحدهما هو معطوف على كتاب ، والثانى خبر ابتداء محذوف: أي وهو ذكرى .

والوجه الثالث أن يكون في موضع جر عطفا على موضع تنذر .

وأجاز قوم أن يعطف على الهاء به ، وهذا ضعيف لأن الجار لم يعد .

قوله تعالى (من ربكم) يجوز أن يتعلق بأنزل ، ويكون لابتداء الغاية ، وأن يتعلق بمحذوف ، ويكون حالا: أي أنزل إليكم كائنا من ربكم ، و (من دونه) حال من أولياء ، و (قليلا ما تذكرون) مثل " فقليلا ما يؤمنون " وقد ذكر في البقرة ، وتذكرون بالتخفيف على حذف إحدى التاءين ، وبالتشديد على الإدغام .

قوله تعالى (وكم من قرية) في كم وجهان: أحدهما هي مبتدأ ، ومن قرية تبيين ، ومن زائدة ،

والخبر (أهلكناها) وجاز تأنيث الضمير العائد على "كم" لأن كم في المعنى قرى، وذكر بعضهم أن أهلكناها صفة لقرية، والخبر (فجاءها بأسنا)

(178/262)

وهو سهو، لأن الفاء تمنع ذلك، والثاني أن "كم" في موضع نصب بفعل محذوف دل عليه أهلكناها، والتقدير: كثيرا من القرى أهلكنا، ولا يجوز تقديم الفعل على "كم" إن كانت خبرا، لأن لها صدر الكلام إذ أشبهت رب، والمعنى: وكم من قرية أردنا إهلاكها، كقوله "فإذا قرأت القرآن" أي أردت قراءته، وقال قوم: هو على القلب: أي وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها، والقلب هنا لا حاجة إليه فيبقى محض ضرورة، والتقدير: أهلكنا أهلها فجاء أهلها "بياتا" البيات اسم للمصدر وهو في موضع الحال، ويجوز أن يكون مفعولا له ويجوز أن يكون في حكم الظرف (أو هم قائلون) الجملة حال، وأو لتفصيل الجمل: أي جاء بعضهم بأسنا ليلا وبعضهم نهارا، والواو هنا واو أو، وليست حرف العطف سكنت تخفيفا.

وقد ذكرنا ذلك في قوله "أو كلما عاهدوا عهدا".

قوله تعالى (دعواهم) يجوز أن يكون اسم كان، و (إلا أن قالوا) الخبر، ويجوز العكس.

قوله تعالى (بعلم) هو في موضع الحال: أي عالمين .

قوله تعالى (والوزن) فيه وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، و (يومئذ) خبره .

والعامل في الظرف محذوف: أي والوزن كائن يومئذ ، و (الحق) صفة للوزن أو خبر مبتدإ محذوف ، والثاني أن يكون الوزن خبر مبتدإ محذوف: أي هذا الوزن ، ويومئذ ظرف ، ولا يجوز على هذا أن يكون الحق صفة لئلا يفصل بين الموصول وصلته (1) .

قوله تعالى (بما كانوا) " ما " مصدرية: أي بظلمهم ، والباء متعلقة بخسروا .

قوله تعالى (معايش) الصحيح أن الياء لا تهمز هنا لأنها أصلية ، وحركت لأنها في الأصل محركة ، ووزنها معيشة كمحبسة ، وأجاز قوم أن يكون أصلها الفتح ، وأعلت بالتسكين في الواحد كما أعلت في يعيش ، وهمزها قوم وهو بعيد جدا .

ووجهه أنه شبه الأصلية بالزائدة نحو سفينة وسفائن (قليلا ما تشكرون) مثل الذى تقدم .

قوله تعالى (ولقد خلقناكم) أي إياكم ، وقيل الكاف للجنس المخاطب .

وهنا مواضع كثيرة قد تقدمت (لم يكن) في موضع الحال .

قوله تعالى (أن لا) في موضع الحال ، و (إذ) ظرف لتسجد .

قوله تعالى (خلقتني من نار) الجار في موضع الحال: أي خلقتني كائنا من نار ، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية فيتعلق بخلقتنى ، ولا زائدة .

أي وما منعك أن تسجد .

قوله تعالى (فيها) يجوز أن يكون حالا ، ويجوز أن يكون ظرفا .

قوله تعالى (فبما) الباء تتعلق ب (لاقعدن) وقيل الباء بمعنى اللام (صراطك) ظرف ، وقيل التقدير: على صراطك .

قوله تعالى (وعن شمائلهم) هو جمع شمال ، ولو جمع أشملة وشملاء جاز .

قوله تعالى (مذءوما) يقرأ بالهمز ، وهو من ذأمته إذا عبته .

ويقرأ " مذوما " بالواو من غير همز فيه وجهان: أحدهما أنه ألقى حركة الهمزة على الذال وحذفها .

والثانى أن يكون أصله مذيما لان الفعل منه ذامه يذيمه ذيما ، فأبدلت الياء واوا كما قالوا في مكيل مكول وفى مشيب مشوب ، وهو وما بعده حالان .

ويجوز أن يكون (مدحورا) حالا من الضمير في مذءوما (لمن) في موضع رفع بالابتداء ، وسد القسم المقدر وجوابه مسد الخبر ، وهو قوله (لاملان) ، و (منكم) خطاب

---

(1) قوله (لئلا يفصل بين الموصول وصلته) قال السفاقسى: قلت: ولا أدرى أين الصلة

والموصول هنا ، لعله بين الصفة والموصوف وصحفه الناسخ ، وهو على هذا غير مستقيم اه .

(*)

لجماعة ، ولم يتقدم إلا خطاب واحد ، ولكن نزلة منزلة الجماعة لأنه رئيسهم ، أو لأنه رجع من الغيبة إلى الخطاب ، والمعنى واحد .

قوله تعالى (هذه الشجرة) يقرأ هذى بغير هاء ، والأصل في " ذا " أذيى لقولهم في التصغير " ذيا " فحذفت الياء الثانية تخفيفا وقلبت الياء الأولى ألفا لئلا تبقى مثل كى ، فإذا خاطبت المؤنث رددت الياء وكسرت الذال لئلا يجتمع عليه التأنيث والتغيير ، وأما الهاء فجعلت عوضا من المحذوف حين رد إلى الأصل ، ووصلت بياء لأنها مثل هاء الضمير في اللفظ .

(180/262)

قوله تعالى (من سوآتهما) الجمهور على تحقيق الهمزة ، ويقرأ بواو مفتوحة وحذف الهمزة ، ووجهه أنه ألقى حركة الهمزة على الواو ، ويقرأ بتشديد الواو من غير همز ، وذلك على إبدال الهمزة واوا ، ويقرأ " سوأتهما " على التوحيد وهو جنس (إلا أن تكونا) أي إلا مخافة أن تكونا فهو مفعول من أجله (ملكين) بفتح اللام وكسرها ، والمعنى مفهوم .

قوله تعالى (لكما لمن الناصحين) هو مثل قوله " وإنه في الآخرة لمن الصالحين " وقد ذكر في البقرة (فدلاهما بغرور) الألف بدل من ياء مبدلة من لام ، والأصل دللهما من الدلالة لا من الدلال ، وجاز إبدال اللام لما صار في الكلمة ثلاث لامات .

بغرور يجوز أن تتعلق الباء بهذا الفعل ، ويجوز أن تكون في موضع الحال من الضمير المنصوب: أي وهما مغترين .

قوله تعالى (وطفقا) في حكم كاد ، ومعناها الأخذ في الفعل ، و (يخصفان) ماضيه خصف ، وهو متعد إلى مفعول واحد ، والتقدير: شيئًا (من ورق الجنة) وقرئ بضم الياء وكسر الصاد مخففا ، وماضيه أخصف ، وبالهمزة يتعدى إلى اثنين ، والتقدير: يخصفان أنفسهما ، ويقرأ بفتح الياء وتشديد الصاد وكسرها مع فتح الخاء وكسرها مع فتح الياء وكسرها ، وقد ذكر تعليل ذلك في قوله " يخطف أبصارهم "

(عن تلكما) وقد ذكرنا أصل تلك ، والإشارة إلى الشجرة ، وهى واحدة والمخاطب اثنان ، فلذلك ثنى حرف الخطاب .

قوله تعالى (ومنها تخرجون) الواو في الأصل تعطف هذه الأفعال بعضها على بعض ، ولكن فصل بينهما بالظرف لأنه عطف جملة على جملة ، وتخرجون بضم التاء وفتحها ، والمعنى فيها مفهوم .

قوله تعالى (وريشا) هو جمع ريشة ، ويقرأ " رياشا " وفيه وجهان: أحدهما هو جمع واحده

ريش مثل ريح ورياح ، والثانى أنه اسم للجمع مثل اللباس (ولباس التقوى) يقرأ بالنصب عطفا على ريشا .

(181/262)

فإن قيل: كيف ينزل اللباس والريش ؟ قيل: لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر والمطر ينزل ، جعل ما هو المسبب بمنزلة السبب ، ويقرأ بالرفع على الابتداء ، و (ذلك) مبتدأ ، و (خير) خبره ، والجملة خبر لباس ، ويجوز أن يكون ذلك نعتا للباس: أي المذكور والمشار إليه ، وأن يكون بدلا منه أو عطف بيان ، وخير الخبر ، وقيل لباس التقوى خبر مبتدإ محذوف تقديره: وساتر عوراتكم لباس التقوى ، أو على العكس: أي ولباس التقوى ساتر عوراتكم ، وفي الكلام حذف مضاف: أي ولباس أهل التقوى ، وقيل المعنى: ولباس الاتقاء الذى يتقى به النظر ، فلا حذف إذا .

قوله تعالى (لا يفتننكم) النهى في اللفظ للشيطان ، والمعنى: لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم (كما أخرج) أي فتنة كفتنة أبويكم بالإخراج (ينزع عنهما) الجملة في موضع الحال إن شئت من ضمير الفاعل في أخرج ، وإن شئت من الأبوين لأن فيه ضميرين لهما ، وينزع حكاية أمر قد وقع ، لأن نزع اللباس عنهما كان قبل الإخراج .

فإن قيل الشيطان لم ينزع عنهما اللباس .

قيل: لكنه تسبب فنسب الإخراج والنزع إليه (هو وقبيله) هو توكيد لضمير الفاعل ليحسن العطف عليه .

قوله تعالى (وأقيموا) في تقدير الكلام وجهان: أحدهما هو معطوف على موضع القسط على المعنى: أي أمر ربى فقال اقسطوا وأقيموا ، والثانى في الكلام حذف تقديره: فأقبلوا وأقيموا ، و (الدين) منصوب بمخلصين ، ولايجوز هنا فتح اللام في مخلصين لأن ذكر المفعول يمنع من أن لا يسمى الفاعل (كما) الكاف نعت لمصدر محذوف: أي (تعودون) عودا كبدئكم (فريقا هدى) فيه وجهان: أحدهما هو منصوب بهدى (وفريقا) الثاني منصوب بفعل محذوف تقديره: وأضل فريقا ، وما بعده تفسير للمحذوف ، والكلام كله حال من الضمير في تعودون ، وقد مع الفعل مرادة تقديره: تعودون قد هدى فريقا وأضل فريقا .

(182/262)

والوجه الثاني أن فريقا في الموضعين حال وهدى وصف للأول ، و (حق عليهم) وصف للثاني ، والتقدير: تعودون فريقين ، وقرأ به أبى ، ولم تلحق تاء التأنيث لحق للفصل ، أو لأن التأنيث غير حقيقي .

قوله تعالى (عند كل مسجد) ظرف لخذوا ، وليس بحال للزينة لأن أحدها يكون قبل ذلك ، وفى الكلام حذف تقديره: عند قصد كل مسجد .

قوله تعالى (قل هي) هي مبتدأ ، وفى الخبر ستة أوجه: أحدها (خالصة) على قراءة من رفع ، فعلى هذا تكون اللام متعلقة بخالصة: أي هي خالصة لمن آمن في الدنيا ، و (يوم القيامة) ظرف لخالصة ، ولم يمتنع تعلق الظرفين بها لأن اللام للتبيين ، والثانى ظرف محض ، وفى متعلقة بآمنوا ، والثانى أن يكون الخبر للذين ، وخالصة خبر ثان ، وفى متعلقة بآمنوا ، والثالث أن يكون الخبر للذين ، وفى الحياة الدنيا معمول الظرف الذى هو اللام: أي يستقر للذين آمنوا في الحياة الدنيا وخالصة خبر ثان ، والرابع أن يكون الخبر في الحياة الدنيا ، وللذين متعلقة بخالصة ، والخامس أن تكون اللام حالا من الظرف الذى بعدها على قول الأخفش ، والسادس أن تكون

خالصة نصبا على الحال على قراءة من نصب ، والعامل فيها للذين ، أو في الحياة الدنيا إذا جعلته خبرا ، أو حالا ، والتقدير: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها له يوم القيامة: أي إن الزينة يشاركون فيها في الدنيا وتخلص لهم في الآخرة ، ولايجوز أن تعمل في خالصة زينة الله لأنه قد وصفها بقوله التى ، والمصدر إذا وصف لا يعمل ، ولاقوله أخرج لأجل الفصل الذى بينهما وهو قوله قل ، وأجاز أبو علي أن يعمل فيها حرم وهو بعيد لأجل الفصل أيضا (كذلك نفصل) قد ذكرنا إعراب نظيره في البقرة والأنعام .

قوله تعالى (ما ظهر منها وما بطن) بدلان من الفواحش و (بغير الحق) متعلق بالبغى ، وقيل هو من الضمير الذى في المصدر إذ التقدير : وإن تبغوا بغير الحق ، وعند هؤلاء يكون في المصدر ضمير .

(183/262)

قوله تعالى (جاء أجلهم) هو مفرد في موضع الجمع ، وقرأ ابن سيرين آجالهم على الأصل لأن لكل واحد منهم أجلا .

قوله تعالى (يقصون عليكم) يجوز أن يكون في موضع رفع صفة لرسل ، وأن يكون حالا من رسل أو من الضمير في الظرف .

قوله تعالى (من الكتاب) حال من نصيبهم .

قوله تعالى (من قبلكم) يجوز أن يكون ظرفا لخلت ، وأن يكون صفة لأمم ، و (من الجن) حال من الضمير في خلت ، أو صفة أخرى لأمم (في النار) متعلق بادخلوا ، ويجوز أن يكون صفة لأمم أو ظرفا لخلت (اداركوا) يقرأ بتشديد

الدال وألف بعدها ، وأصلها تداركوا فأبدلت التاء دالا وأسكنت ليصح إدغامها .

ثم أجلبت لها همزة الوصل ليصح النطق بالساكن ، ويقرأ كذلك إلا أنه بغير ألف بعد الدال ،

ووزنه على هذا افتعلوا ، فالتاء هنا بعد الدال مثل اقتتلوا ، وقرئ

في الشاذ " تداركوا " على الأصل: أي أدرك بعضهم بعضا ، وقرئ " إذا إداركوا " بقطع الهمزة عما قبلها وكسرها على نية الوقف على ما قبلها والابتداء بها ، وقرئ " إذا داركوا " بألف واحدة ساكنة والدال بعدها مشددة ، وهو جمع بين ساكنين ، وجاز ذلك لما كان الثاني مدغما كما قالوا دابة وشابة ، وجاز في المنفصل كما جاز في المتصل ، وقد قال بعضهم اثنا عشر بإثبات الألف وسكون العين ، وستري في موضعه إن شاء الله تعالى ، و (جميعا) حال (ضعفا) صفة لعذاب ، وهو بمعنى مضعف أو مضاعف ، و (من النار) صفة أخرى ، ويجوز أن يكون حالا .

قوله تعالى (لكل ضعف) أي لكل عذاب ضعف من النار ، فحذف لدلالة الأول عليه ، (ولكن لا تعلمون) بالتاء على الخطاب ، وبالياء على الغيبة .

(184/262)

قوله تعالى (لا تفتح) يقرأ بالتاء ، ويجوز في التاء الثانية التخفيف والتشديد التكثير ، ويقرأ بالياء لأن تأنيث الأبواب غير حقيقي ، وللفصل أيضا (الجمل) يقرأ بفتح الجيم وهو الجمل المعروف ، ويقرأ في الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة لأن تخفيف المفتوح

ضعيف ، ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الحبل الغليظ ، وهو جمع مثل صوم وقوم ، ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أسد وأسد ، ويقرأ كذلك إلا أن الميم ساكنة وذلك على تخفيف المضموم (سم الخياط) بفتح السين وضمها لغتان (وكذلك) في موضع نصب (نجزى) على أنه وصف لمصدر محذوف .

قوله تعالى (غواش) هو جمع غاشية ، وفى التنوين هنا ثلاثة أوجه: أحدها أنه تنوين الصرف ، وذلك أنهم حذفوا الياء من غواشي فنقص بناؤها عن بناء مساجد وصارت مثل سلام ، فلذلك صرفت .

والثانى أنه عوض من الياء المحذوفة .

والثالث أنه عوض من حركة الياء المستحقة ، ولما حذفت الحركة وعوض عنها التنوين حذفت الياء لالتقاء الساكنين .

وفى هذه المسألة كلام طويل يضيق هذا الكتاب عنه .

قوله تعالى (والذين آمنوا) مبتدأ ، وفى الخبر وجهان: أحدهما (لا نكلف نفسا إلا وسعها) والتقدير: منهم ، فحذف العائد كما حذف في قوله " ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " والثانى أن الخبر (أولئك أصحاب الجنة) ولا مكلف معترض بينهما .

قوله تعالى (من غل) هو حال من " ما " (تجرى من تحتهم) الجملة في موضع الحال من الضمير

المجرور بالإضافة ، والعامل فيها معنى الإضافة .

قوله تعالى (هدانا لهذا) قد ذكرناه في الفاتحة (وما كنا) الواو للحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، ويقرأ بحذف الواو على الاستئناف ، و (لنهتدي) قد ذكرنا إعراب مثله في قوله تعالى " ما كان الله ليذر المؤمنين " (أن هدانا) هما في تأويل المصدر ، وموضعه رفع بالابتداء لأن الاسم الواقع بعد " لولا " هذه كذلك وجواب " لولا " محذوف دل عليه ما قبله تقديره: لولا أن هدانا الله ما كنا لنهتدي .

(185/262)

وبهذا حسنت القراءة بحذف الواو (أن تلكم) في أن وجهان: أحدهما هي بمعنى أي ولا موضع لها ، وهي تفسير للنداء .

والثاني أنها مخففة من الثقيلة واسمها محذوف والجملة بعدها خبرها : أي ونودوا أنه تلكم الجنة ، والهاء ضمير الشأن ، وموضع الكلام كله نصب بنودوا ، وجر على تقديره بأنه (أورثتموها) يقرأ بالإظهار على الأصل ، وبالإدغام لمشاركة التاء في الهمس وقربها منها في المخرج وموضع الجملة نصب على الحال من الجنة ، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، ولا يجوز أن يكون حالا من تلك لوجهين: أحدهما أنه فصل بينهما بالخبر .

والثانى أن تلك مبتدأ والابتداء لا يعمل في الحال ، ويجوز أن تكون الجنة نعتا لتلكم أو بدلا ، وأورثتموها الخبر ، ولايجوز أن تكون الجملة حالا من الكاف والميم ، لأن الكاف حرف للخطاب ، وصاحب الحال لا يكون حرفا ، ولأن الحال تكون بعد تمام الكلام ، والكلام لا يتم بتلكم .

قوله تعالى (أن قد وجدنا) أن يجوز أن تكون بمعنى أي ، وأن تكون مخففة (حقا) يجوز أن تكون حالا ، وأن تكون مفعولا ثانيا ، ويكون وجدنا بمعنى علمنا (ما وعد ربكم) حذف المفعول من وعد الثانية ، فيجوز أن يكون التقدير: وعدكم ، وحذفه لدلالة الأول عليه ، ويجوز أن يكون التقدير: ما وعد الفريقين ، يعنى نعيمنا وعذابكم ، ويجوز أن يكون التقدير: ما وعدنا ، ويقوى ذلك أن ما عليه أصحاب النار شر ، والمستعمل فيه أوعد ، ووعد يستعمل في الخير أكثر (نعم) حرف يجاب به عن الاستفهام في إثبات المستفهم عنه ، ونونها وعينها مفتوحتان ، ويقرأ بكسر العين وهى لغة ، ويجوز كسرهما جميعا على الإتباع

(بينهم) يجوز

أن يكون ظرفا لأذن ، وأن يكون صفة لمؤذن (أن لعنة الله) يقرأ بفتح الهمزة وتخفيف النون وهى مخففة: أي بأنه لعنة الله ، ويجوز أن تكون بمعنى أي ، لأن الأذان قول ، ويقرأ بتشديد النون ونصب اللعنة وهو ظاهر ، وقرئ في الشاذ بكسر الهمزة: أي فقال أن لعنة الله .

قوله تعالى (الذين يصدون) يجوز أن يكون جرا ونصبا ورفعا .

قوله تعالى (ونادوا) الضمير يعود على رجال (أن سلام) أي أنه سلام ، ويجوز أن تكون بمعنى أي (لم يدخلوها) أي لم يدخل أصحاب الجنة الجنة بعد (وهم يطمعون) في دخولها : أي نادوهم في هذه الحال ، ولا موضع لقوله: وهم يطمعون على هذا ، وقيل المعنى: إنهم نادوهم بعد أن دخلوا ، ولكنهم دخلوها وهم لا يطمعون فيها ، فتكون الجملة على هذا حالا .

قوله تعالى (تلقاء) هو في الأصل مصدر ، وليس في المصادر تفعال بكسر التاء إلا تلقاء وتبيان ، وإنما يجئ ذلك في الأسماء نحو التمثال والتمساح والتقصار ،

وانتصاب تلقاء هاهنا على الظرف: أي ناحية أصحاب النار .

قوله تعالى (ما أغنى) ويجوز أن تكون " ما " نافية ، وأن تكون استفهاما .

قوله تعالى (لا ينالهم) تقديره: أقسمتم عليه بأن لا ينالهم ، فلا ينالهم هو المحلوف عيه

(ادخلوا) تقديره: فالتفتوا إلى أصحاب الجنة فقالوا ادخلوا ، ويقرأ في الشاذ " وادخلوا " على الاستيئناف ، وذلك يقال بعد دخولهم (لاخوف عليكم) إذا قرئ " ادخلوا " على الأمر كانت الجملة حالا: أي ادخلوا آمنين ، وإذا قرئ على الخبر كان رجوعا من الغيبة إلى الخطاب .

قوله تعالى (أن أفيضوا) يجوز أن تكون أن مصدرية وتفسيرية ، و (من الماء) تقديره شيئا من الماء (أو مما) قيل أو بمعنى الواو ، واحتج لذلك بقوله (حرمهما) وقيل هي على بابها ، وحرمهما على المعنى فيكون فيه حذف: أي كلا منهما أو كليهما .

قوله تعالى (الذين اتخذوا دينهم) يجوز أن يكون جرا ونصبا ، ورفعا و (لهوا) مفعول ثان ، والتفسير ملهوا به وملعوبا به ، ويجوز أن يكون صيروا عادتهم ، لأن الدين قد جاء بمعنى العادة .

قوله تعالى (على علم) يجوز أن يكون فصلناه مشتملا على علم ، فيكون حالا من الهاء ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل: أي فصلناه عالمين: أي على علم منا (هدى ورحمة) حالان: أي ذا هدى وذا رحمة ، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف .

(187/262)

قوله تعالى (يوم يأتي) هو ظرف ل (يقول) ، (فيشفعوا لنا) هو منصوب على جواب الاستفهام (أو نرد) المشهور الرفع ، وهو معطوف على موضع من شفعاء تقديره: أو هل نرد (فنعمل) على جواب الاستفهام أيضا ، ويقرأ

برفعهما : أي فهل نعمل ، وهو داخل في الاستفهام ، ويقرآن بالنصب على جواب

الاستفهام .

قوله تعالى (يغشى الليل) في موضعه وجهان: أحدهما هو حال من الضمير في خلق ، وخبر إن على هذا " الله الذى خلق " .

والثانى أنه مستأنف ويغشى بالتخفيف وضم الياء ، وهو من أغشى ويتعدى إلى مفعولين: أي يغشى الله الليل النهار ، ويقرأ " يغشى " بالتشديد ، والمعنى واحد ، ويقرأ " يغشى " بفتح الياء والتخفيف ، والليل فاعله (يطلبه) حال من الليل أو من النهار ، و (حثيثا) حال من الليل لأنه الفاعل ، ويجوز أن يكون من النهار فيكون التقدير: يطلب الليل النهار محثوثا ، وأن يكون صفة لمصدر محذوف: أي طلبا حثيثا (والشمس) يقرأ بالنصب ، والتقدير وخلق الشمس ، ومن رفع استأنف .

قوله تعالى (وخفية) يقرأ بضم الخاء وكسرها وهما لغتان ، والمصدران حالان ، ويجوز أن يكون مفعولا له ، ومثله خوفا وطمعا .

قوله تعالى (قريب) إنما لم تؤنث لأنه أراد المطر ، وقيل إن الرحمة والترحم بمعنى ، وقيل هو على النسب: أي ذات قرب كما يقال امرأة طالق ، وقيل هو فعيل بمعنى مفعول كما قالوا لحية دهين وكف خضيب ، وقيل أرادوا المكان: أي أن مكان رحمة الله قريب ، وقيل فرق بالحذف بين القريب من النسب وبين القريب من غيره .

قوله تعالى (نشرا) يقرأ بالنون والشين مضمومتين وهو جمع .

وفي واحده وجهان: أحدهما نشور مثل صبور وصبر ، فعلى هذا يجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل: أي ينشر الأرض ، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول كركوب بمعنى مركوب أي منشورة بعد الطى ، أو منشرة: أي محياة من قولك: أنشر الله الميت فهو منشر ويجوز أن يكون جمع ناشر مثل نازل ونزل ، ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على

(188/262)

تخفيف المضموم ، ويقرأ " نشرا " بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نشر بعد الطى ، أو من قولك: أنشر الله الميت فنشر: أي عاش ، ونصبه على الحال: أي ناشرة أو ذات نشر ، كما تقول جاء ركضا: أي راكضا ، ويقرأ " بشرا " بالباء وضمتين وهو جمع بشير مثل قليب وقلب ، ويقرأ كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف ، ومثله في المعنى " أرسل الرياح مبشرات " ويقرأ " بشرى " مثل حبلى أي ذات بشارة ، ويقرأ " بشرا " بفتح الباء وسكون الشين وهو مصدر بشرته إذا بشرته (سحابا) جمع سحابة ، وكذلك وصفها بالجمع (لبلد) أي لإحياء بلد (به الماء) الهاء ضمير الباء أو ضمير السحاب أو ضمير الريح ، وكذلك الهاء في (به) الثانية .

قوله تعالى (يخرج نباته) يقرأ بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات ، ويقرأ كذلك إلا أنه يضم

الياء على ما لم يسم فاعله ، ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات: أي فيخرج الله أو الماء (بإذن ربه) متعلق بيخرج (إلا نكدا) بفتح النون وكسر الكاف وهو حال ، ويقرأ بفتحهما على أنه مصدر: أي ذا نكد ، ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف ، وهو مصدر أيضا وهو لغة ، ويقرأ "يخرج" بضم الياء وكسر الراء ، ونكدا مفعوله .

قوله تعالى (من إله غيره) من زائدة ، وإله مبتدأ ، ولكم الخبر ، وقيل الخبر محذوف: أي مالكم من إله في الوجود ، ولكم تخصيص ، وتبيين .

وغيره بالرفع فيه وجهان: أحدهما هو صفة "لإله" على الموضع ، والثاني هو بدل من الموضع مثل: لا إله إلا الله ، ويقرأ بالنصب على الاستثناء ، وبالجر صفة على اللفظ

(عذاب يوم عظيم) وصف اليوم بالعظم ، والمراد عظم ما فيه .

قوله تعالى (من قومه) حال من الملا ، و (نراك) من رؤية العين ، فيكون

(في ضلال) حالا ، ويجوز أن تكون من رؤية القلب فيكون مفعولا ثانيا .

(189/262)

قوله تعالى (أبلغكم) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون صفة لرسول على المعنى ، لأن الرسول هو الضمير في "لكني" ولو كان يبلغكم لجاز لأنه يعود على لفظ رسول ، ويجوز أن

يكون حالا ، والعامل فيه الجار من قوله من رب (وأعلم من الله) بمعنى أعرف ، فيتعدى إلى مفعول واحد ، وهو " ما " وهى بمعنى الذى أو نكرة موصوفة .

ومن الله فيه وجهان: أحدهما هو متعلق بأعلم: أي ابتداء علمي من عند الله .

والثانى أن يكون حالا من " ما " أو من العائد المحذوف .

قوله تعالى (من ربكم) يجوز أن يكون صفة لذكر ، وأن تتعلق بجاءكم (على رجل) يجوز أن يكون حالا من: أي نازلا على رجل ، وأن يكون متعلقا بجاءكم على المعنى لأنه في معنى نزل إليكم ، وفى الكلام حذف مضاف: أي على قلب رجل أو لسان رجل .

قوله تعالى (في الفلك) هو حال من " من " أو من الضمير المرفوع في معه ، والأصل في (عمين) عميين فسكنت الأولى وحذفت .

قوله تعالى (هودا) بدل من أخاهم ، وأخاهم منصوب بفعل محذوف: أي وأرسلنا إلى عاد ، وكذلك أوائل القصص التى بعدها .

قوله تعالى (ناصح أمين) هو فعيل بمعنى مفعول .

قوله تعالى (في الخلق) يجوز أن يكون حالا من (بسطة) وأن يكون متعلقا بزادكم .

والآلاء جمع ، وفى واحدها ثلاث لغات: إلى بكسر الهمزة وألف واحد بعد اللام ، وبفتح الهمزة كذلك ، وبكسر الهمزة وسكون اللام وياء بعدها .

قوله تعالى (وحده) هو مصدر محذوف الزوائد .

وفى موضعه وجهان: أحدهما هو مصدر في موضع الحال من الله: أي لنعبد الله مفردا وموحدا ، وقال بعضهم:

هو حال من الفاعلين: أي موحدين له .

والثانى أنه ظرف: أي لنعبد الله على حياله قاله يونس ، وأصل هذا المصدر الإيجاد من قولك أوحدته ، فحذفت الهمزة والألف وهما الزائدان .

قوله تعالى (من ربكم) يجوز أن يكون حالا من (رجس) وأن يتعلق بوقع (في أسماء) أي ذوى أسماء أو مسميات .

(190/262)

قوله تعالى (آية) حال من الناقة ، والعامل فيها معنى ما في هذه من التنبيه والإشارة ، ويجوز أن يعمل في آية لكم ، ويجوز أن يكون لكم حالا من آية ، ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم الخبر ، وجاز أن يكون آية حالا لأنها بمعنى علامة ودليلا (تأكل) جواب الأمر (فيأخذكم) جواب النهى ، وقرئ بالرفع وموضعه حال .

قوله تعالى (من سهولها) يجوز أن يكون حالا من (قصورا) ومفعولا ثانيا لتتخذون ، وأن تتعلق بتتخذون لا على أن تتخذون يتعدى إلى مفعولين بل إلى واحد ، و " من " لابتداء

غاية الاتخاذ (وتنحتون الجبال) فيه وجهان: أحدهما أنه بمعنى

تتخذون فيكون (بيوتا) مفعولا ثانيا .

والثاني أن يكون التقدير من الجبال على ما جاء في الآية الأخرى ، فيكون بيوتا المفعول ،

ومن الجبال على ما ذكرنا في قوله من سهولها .

قوله تعالى (لمن آمن) هو بدل من قوله " للذين استضعفوا " بإعادة الجار كقولك: مررت بزيد

بأخيك .

قوله تعالى (فأصبحوا) يجوز أن تكون التامة ، ويكون (جاثمين) حالا ، وأن تكون الناقصة ،

وجاثمين الخبر ، وفي دارهم متعلق بجاثمين .

قوله تعالى (ولوطا) أي وأرسلنا لوطا ، أو واذكر لوطا ، و (إذ) على التقدير

الأول ظرف ، وعلى الثاني يكون ظرفا لمحذوف تقديره: واذكر رسالة لوط إذ (ما سبقكم

بها) في موضع الحال من الفاحشة أو من الفاعل في أتأتون تقديره مبتدئين (أئنكم) يقرأ

بهمزتين على الاستفهام ، ويجوز تخفيف الثانية وتليينها ، وهو جعلها بين الياء والألف ،

ويقرأ بهمزة واحدة على الخبر (شهوة) مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع الحال (من

دون النساء) صفة لرجال: أي منفردين عن النساء (بل أنتم) بل هنا للخروج من قصة إلى

قصة ، وقيل هو إضراب عن محذوف تقديره: ما عدلتم بل أنتم مسرفون .

قوله تعالى (وما كان جواب قومه) يقرأ بالنصب والرفع ، وقد ذكر في آل عمران وفي الأنعام .

قوله تعالى (مطرا) هو مفعول أمطرنا ، والمطر هنا الحجارة كما جاء في الآية الأخرى " وأمطرنا عليهم حجارة " .

قوله تعالى (ولا تبخسوا) هو متعد إلى مفعولين وهما (الناس) و (أشياءهم) وتقول: بخست زيدا حقه: أي نقصته إياه .

قوله تعالى (توعدون) حال من الضمير في تقعدوا (من آمن) مفعول تصدون لا مفعول توعدون ، إذ لو كان مفعول الأول لكان تصدونهم (وتبغونها) حالا ، وقد ذكرناها في قوله تعالى " يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله " في آل عمران .

قوله تعالى (أو لو كنا كارهين) أي ولو كرهنا تعيدوننا " ولو " هنا بمعنى إن لأنه المستقبل ، ويجوز أن تكون على أصلها ، ويكون المعنى إن كنا كارهين في هذه الحال .

قوله تعالى (قد افترينا) هو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع ، وإنما سد مسد جواب (إن عدنا) وساغ دخول قد هاهنا لانهم قد نزلوا الافتراء عند العود منزلة الواقع

فقرنوه بقد ، وكأن المعنى قد افترينا الآن إن هممنا بالعود (إلا أن يشاء) المصدر في موضع نصب على الاستثناء ، والتقدير: إلا وقت أن يشاء الله ، وقيل هو استثناء منقطع ، وقيل

إلا في حال مشيئة الله ، و (علما) قد ذكر في الأنعام .

قوله تعالى (إذا لخاسرون) إذا هنا متوسطة بين اسم إن وخبرها ، وهى حرف معناه الجواب ، ويعمل في الفعل بشروط مخصوصة وليس " ذا " موضعها .

قوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا) لك فيه ثلاثة أوجه: أحدها هو مبتدأ .

وفى الخبر وجهان: أحدهما (كأن لم يغنوا فيها) وما بعده جملة أخرى ، أو بدل من الضمير في يغنوا ، أو نصب بإضمار أعنى .

والثانى أن الخبر (الذين كذبوا شعيبا كانوا) و "كأن لم يغنوا " على هذا حال من الضمير في كذبوا ، والوجه الثاني أن يكون صفة لقوله " الذين كفروا من قومه " والثالث أن يكون بدلا منه ، وعلى الوجهين يكون كأن لم حالا .

قوله تعالى (حتى عفوا) أي إلى أن عفوا : أي كثروا (فأخذناهم) هو معطوف على عفوا .

(192/262)

قوله تعالى (أو أمن أهل القرى) يقرأ بفتح الواو على أنها واو العطف دخلت عليه همزة الاستفهام ، ويقرأ بسكونها وهى لأحد الشيئين ، والمعنى: أفأمنوا إتيان العذاب ضحى ، أو أمنوا بأن يأتيهم ليلا ؟ وبياتا الحال من بأسنا ، أي مستخفيا باغتيالهم ليلا .

قوله تعالى (فلا يأمن مكر الله) الفاء هنا للتنبيه على تعقيب العذاب أمن مكر الله .

قوله تعالى (أو لم يهد للذين) يقرأ بالياء ، وفاعله (أن لو نشاء) وأن مخففة من الثقيلة: أي أو لم يبين لهم علمهم بمشيئتنا ، ويقرأ بالنون وأن لو نشاء مفعوله وقيل فاعل يهدى ضمير اسم الله تعالى (فهم لا يسمعون) الفاء لتعقيب عدم

السمع بعد الطبع على القلب من غير فصل .

قوله تعالى (نقص عليك من أنبائها) هو مثل قوله " ذلك من أنباء الغيب نوحيه " وقد ذكر في آل عمران ، ومثل قوله تعالى " تلك آيات الله نتلوها " وقد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (لأكثرهم) هو حال من (عهد) ومن زائدة: أي ما وجدنا عهدا لأكثرهم (وإن وجدنا) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف: أي وإنا وجدنا واللام في (لفاسقين) لازمة لها لتفصل بين أن المخففة وبين إن بمعنى " ما " وقال الكوفيون: من الثقيلة " إن " بمعنى " ما " وقد ذكر في البقرة عند قوله " وإن كانت لكبيرة " .

قوله تعالى (كيف كان) كيف في موضع نصب خبر كان ، (عاقبة) اسمها ، والجملة في موضع نصب بفا نظر .

قوله تعالى (حقيق) وخبره (أن لا أقول) على قراءة من شدد الياء ، في على ، وعلى متعلق بحقيق ، والجيد أن يكون " أن لا " فاعل حقيق لأنه ناب عن بحق على ، ويقرأ على ألا ، والمعنى واجب بأن لا أقول ، وحقيق ها هنا على الصحيح صفة لرسول ، أو خبر ثان ،

كما تقول: أنا حقيق بكذا: أي أحق ، وقيل المعنى على قراءة من شدد الياء أن يكون حقيق صفة لرسول ، وما بعده مبتدأ وخبر: أي على قول الحق .

قوله تعالى (فإذا هي) " إذا " للمفاجأة ، وهى مكان ، وما بعدها مبتدأ .

(193/262)

و (ثعبان) خبره ، وقيل هي ظرف زمان ، وقد أشبعنا القول فيها فيما تقدم .

قوله تعالى (فماذا تأمرون) هو مثل قوله " ماذا ينفقون " وقد ذكر في البقرة .

وفي المعنى وجهان: أحدهما أنه من تمام الحكاية عن قول الملا .

والثانى أنه مستأنف

من قول فرعون ، تقديره: فقال ماذا تأمرون ، ويدل على ما بعده ، وهو قوله (قالوا أرجه وأخاه) وأرجئه يقرأ بالهمزة وضم الهاء من غير إشباع وهو الجيد ، وبالإشباع وهو ضعيف لأن الهاء خفية ، فكأن الواو التى بعدها تتلو الهمزة ، وهو قريب من الجمع بين ساكنين ، ومن هنا ضعف قولهم عليه مال بالإشباع ، ويقرأ بكسر الهاء مع الهمز وهو ضعيف ، لأن الهمز حرف صحيح ساكن ، فليس قبل الهاء ما يقتضى الكسر .

ووجهه أنه أتبع الهاء كسرة الجيم ، والحاجز غير حصين ، ويقرأ من غير همز من أرجيت

بالياء ، ثم منهم من يكسر الهاء ويشبعها ، ومنهم من لا يشبعها ، ومنهم من يسكنها ، وقد بينا ذلك في " يؤده إليك " .

قوله تعالى (بكل ساحر) يقرأ بألف بعد السين وألف بعد الحاء مع التشديد وهو الكثير .

قوله تعالى (أئن لنا) يقرأ بهمزتين على الاستفهام والتحقيق والتليين على ما تقدم وبهمزة واحدة على الخبر .

قوله تعالى (إما أن تلقى) في موضع أن والفعل وجهان: أحدهما رفع: أي أمرنا إما الإلقاء ، والثانى نصب: أي إما أن تفعل الإلقاء .

قوله تعالى (واسترهبوهم) أي طلبوا إرهابهم ، وقيل هو بمعنى أرهبوهم مثل قر واستقر .

قوله تعالى (أن ألق) يجوز أن تكون أن المصدرية ، وأن تكون بمعنى: أي (فإذا هي تلقف) يقرأ بفتح اللام وتشديد القاف مع تخفيف التاء مثل تكلم ، ويقرأ " أتلقف " بتشديد التاء أيضا ، والأصل تتلقف فأدغمت الأولى في الثانية ووصلت بما قبلها فأغنى عن همزة الوصل ، ويقرأ بسكون اللام وفتح القاف ، وماضيه لقف مثل علم .

قوله تعالى (قالوا آمنا) يجوز أن يكون حالا: أي فانقلبوا صاغرين قد قالوا ، ويجوز أن يكون مستأنفا (رب موسى) بدل مما قبله .

قوله تعالى (قال فرعون آمنتم) يقرأ بهمزتين على الاستفهام ، ومنهم من يحقق الثانية ، ومنهم من يخففها ، والفصل بينهما بألف بعيد لأنه يصير في التقدير كأربع ألفات ، ويقرأ بهمزة واحدة على لفظ الخبر ، فيجوز أن يكون خبرا في المعنى وأن يكون حذف همزة الاستفهام ، وقرئ " فرعون وآمنتم " بجعل الهمزة الأولى واوا لانضمام ما قبلها .

قوله تعالى (وما تنقم) يقرأ بكسر القاف وفتحها ، وقد ذكر في المائدة .

قوله تعالى (ويذرك) الجمهور على فتح الراء عطفا على ليفسدوا ، وسكنها بعضهم على التخفيف ، وضمها بعضهم: أي وهو يذرك ، ويقرأ (وآلهتك) مثل العبادة والزيادة ، وهى العبادة .

قوله تعالى (يورثها) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا من الله .

قوله تعالى (بالسنين) الأصل في سنة سنهة ، فلامها هاء لقولهم: عاملته مسانهة وقيل لامها واو لقولهم سنوات ، وأكثر العرب تجعلها كالزيدون ، ومنهم من يجعل النون حرف الإعراب ، وكسرت سنيها إيذانا بأنها جمعت على غير القياس (من لثمرات) متعلق بنقص ، والمعنى وبتنقص الثمرات .

قوله تعالى (يطيروا) أي يتطيروا ، وقرئ شاذا " تطيروا " على لفظ الماضي (طائرهم) على لفظ الواحد ، ويقرأ طيرهم ، وقد ذكر مثله في آل عمران .

قوله تعالى (مهما) فيها ثلاثة أقوال: أحدها أن " مه " بمعنى اكفف ، و " ما " اسم للشرط كقوله " ما يفتح الله للناس من رحمة " والثانى أن أصل " مه " ما الشرطية زيدت عليها ما كما زيدت في قوله " إما يأتينكم " ثم أبدلت الألف الأولى هاء لئلا

تتوالى كلمتان بلفظ واحد .

والثالث أنها بأسرها كلمة واحدة غير مركبة ، وموضع الاسم على الأقوال كلها نصب ب (تأتنا) والهاء في " به " تعود على ذلك الاسم .

قوله تعالى (الطوفان) قيل هو مصدر ، وقيل هو جمع طوفانة ، وهو الماء المغرق الكثير

(والجراد) جمع جرادة الذكر والأنثى .

(195/262)

سواء (والقمل) يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون الميم ، قيل هما لغتان ، وقيل هما القمل المعروف في الثياب ونحوها ، والمشدد يكون في الطعام (آيات) حال من الأشياء المذكورة .

قوله تعالى (بما عهد عندك) يجوز أن تتعلق الباء بادع: أي بالشئ الذى علمك الله الدعاء به .

ويجوز أن تكون الباء للقسم (إذا هم ينكثون) هم مبتدأ وينكثون الخبر ، وإذا للمفاجأة وقد تقدم ذكرها .

قوله تعالى (وأورثنا) يتعدى إلى مفعولين ، فالأول (القوم) .

و(الذين كانوا) نعت .

وفى المفعول الثاني ثلاثة أوجه: أحدها (مشارق الأرض ومغاربها) والمراد أرض الشام أو مصر ، و (التى باركنا) على هذا فيه وجهان: أحدهما هو صفة المشارق والمغارب .

والثانى صفة الأرض ، وفيه ضعف لأن فيه العطف على الموصوف قبل الصفة .

والقول الثاني أن المفعول الثاني لأورثنا التى باركنا : أي الأرض التى باركنا ، فعلى هذا في المشارق والمغارب وجهان: أحدهما هو ظرف ليستضعفون .

والثانى أن تقديره: يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها ، فلما حذف الحرف وصل الفعل بنفسه فنصب .

والقول الثالث أن التى باركنا صفة على ما تقدم ، والمفعول الثاني محذوف تقديره: الأرض أو الملك (ما كان يصنع) " ما " بمعنى الذى .

وفى اسم كان وجهان: أحدهما هو ضمير " ما " وخبرها يصنع فرعون ، والعائد محذوف ، أي يصنعه .

والثانى أن اسم كان فرعون .

وفي يصنع ضمير فاعل ، وهذا ضعيف لأن يصنع يصلح أن يعمل في فرعون فلا يقدر تأخيره كما لا يقدر

تأخير الفعل في قولك: قام زيد ، وقيل " ما " مصدرية وكان زائدة ، وقيل ليست زائدة ، ولكن كان الناقصة لا تفصل بين " ما " وبين صلتها .

(196/262)

وقد ذكرنا ذلك في قوله " بما كانوا يكذبون " وعلى هذا القول تحتاج كان إلى اسم ، ويضعف أن يكون اسمها ضمير الشأن لأن الجملة التي بعدها صلة " ما " فلا تصلح للتفسير فلا يصلح بها الإيضاح ، وتمام الاسم لأن المفسر يجب أن يكون مستقبلا فتدعو الحاجة إلى أن نجعل فرعون اسم كان وفي يصنع ضمير يعود عليه ، و (يعرشون) بضم الراء وكسرها لغتان ، وكذلك يعكفون ، وقد قرئ بهما فيهما .

قوله تعالى (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) الباء هنا معدية كالهمزة والتشديد ، أي أجزنا ببني إسرائيل البحر وجوزنا .

قوله تعالى (كما لهم آلهة) في " ما " ثلاثة أوجه: أحدها هي مصدرية ، والجملة بعدها صلة لها ، وحسن ذلك أن الظرف مقدر بالفعل .

والثانى أن " ما " بمعنى الذى ، والعائد محذوف ، وآلهة بدل منه تقديره: كالذى هو لهم ، والكاف وما عملت فيه صفة لإله: أي إلها مماثلا للذى لهم .

والوجه الثالث أن تكون " ما " كافة للكاف ، إذ من حكم الكاف أن تدخل على المفرد ، فلما أريد دخولها على الجملة كفت بما .

قوله تعالى (ما هم فيه) يجوز أن تكون " ما " مرفوعة بمتبر ، لأنه قوى بوقوعه خبرا ، وأن تكون " ما " مبتدأ ومتبر خبر مقدم .

قوله تعالى (أغير الله) فيه وجهان: أحدهما هو مفعول أبغيكم ، والتقدير: أبغى لكم فحذف اللام ، و (إلها) تمييز .

والثانى أن إلها مفعول أبغيكم غير الله صفة له قدمت عليه فصارت حالا (وهو فضلكم) يجوز أن يكون حالا ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (ثلاثين ليلة) هو مفعول ثان لواعدنا ، وفيه حذف مضاف تقديره: إتيان ثلاثين أو تمام ثلاثين ، و (أربعين ليلة) حال تقديرها : فتم ميقات ربه كاملا ، وقيل هو مفعول تم ، لأن معناه بلغ ، فهو كقولهم: بلغت أرضك جريبين ، و (هارون) بدل أو عطف بيان ، ولو قرئ بالرفع لكان نداء أو خبر مبتدإ محذوف .

قوله تعالى (جعله دكا) أي صيره ، فهو متعد إلى اثنين ، فمن قرأ " دكا " جعله مصدرا بمعنى المدكوك: وقيل تقديره: ذا دك ، ومن قرأ بالمد جعله مثل أرض دكاء أو ناقة دكاء ، وهى التى لا سنام لها ، و (صعقا) حال مقارنة .

قوله تعالى (سأريكم) قرئ في الشاذ بواو بعد الهمزة ، وهى ناشئة عن الإشباع وفيها بعد .

قوله تعالى (سبيل الرشد) يقرأ بضم الراء وسكون الشين وبفتحهما : وسبيل الرشاد بالألف والمعنى واحد .

قوله تعالى (والذين كذبوا) مبتدأ وخبره (حبطت) ويجوز أن يكون الخبر (هل يجزون) وحبطت حال من ضمير الفاعل في كذبوا ، وقد مرادة .

قوله تعالى (من حليهم) يقرأ بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف الياء وهو واحد ، ويقرأ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء وهو جمع أصله حلوى ، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأخرى ثم كسرت اللام إتباعا لها ويقرأ بكسر الحاء واللام والتشديد على أن يكون أتبع الكسر الكسر (عجلا) مفعول اتخذه و (جسدا) نعت أو بدل أن بيان من حليهم ، ويجوز أن يكون صفة لعجل قدم فصار حالا ، وأن يكون متعلقا باتخذ ، والمفعول الثاني محذوف أي إلها .

قوله تعالى (سقط في أيديهم) الجار والمجرور قائم مقام الفاعل ، والتقدير:

سقط الندم في أيديهم .

قوله تعالى (غضبان) حال من موسى ، و (أسفا) حال آخر بدل من التى قبلها ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذى في غضبان .

قوله تعالى (يجره إليه) يجوز أن يكون حالا من موسى ، وأن يكون حالا من الرأس ، ويضعف أن يكون حالا من أخيه (قال ابن أم) يقرأ بكسر الميم ، والكسرة تدل على الياء المحذوفة ، وبفتحها .

وفيه وجهان: أحدهما أن الألف محذوفة ، وأصل الألف الياء ، وفتحت الميم قبلها فانقلبت ألفا وبقيت الفتحة تدل عليها ، كما قالوا: يا بنت عما .

(198/262)

والوجه الثاني أن يكون جعل ابن والأم بمنزلة خمسة عشر ، وبناهما على الفتح (فلا تشمت) الجمهور على ضم التاء وكسر الميم ، و (الأعداء) مفعوله ، وقرئ بفتح التاء والميم ، والأعداء فاعله ، والنهى في اللفظ للأعداء وفي المعنى لغيرهم وهو موسى ، كما تقول: لا أرينك ها هنا ، وقرئ بفتح التاء والميم ونصب الأعداء والتقدير: لا تشمت أنت بى فتشمت بى الأعداء ، فحذف الفعل .

قوله تعالى (والذين عملوا السيئات) مبتدأ والخبر (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) والعائد محذوف: أي غفور لهم أو رحيم بهم .

قوله تعالى (وفى نسختها) الجملة حال من الألواح (لربهم يرهبون) في اللام ثلاثة أوجه: أحدها هي بمعنى من أجل ربهم ، فمفعول يرهبون على هذا محذوف: أي يرهبون عقابه .

والثانى هي متعلقة بفعل محذوف تقديره: والذين هم (1) يخشعون لربهم .

والثالث هي زائدة ، وحسن ذلك لما تأخر الفعل .

قوله تعالى (واختار موسى قومه) اختار يتعدى إلى مفعولين: أحدهما بحرف الجر وقد حذف هاهنا ، والتقدير: من قومه ، ولا يجوز أن يكون (سبعين) بدلا عند الأكثرين ، لأن المبدل منه في نية الطرح ، والاختيار لابد له من مختار ومختار منه ، والبدل يسقط المختار منه ، وأرى أن البدل جائز على ضعف ، ويكون التقدير سبعين رجلا منهم (أتهلكنا) قيل هو استفهام: أي أتعمنا بالإهلاك ، وقيل معناه النفى: أي ما نهلك من لم يذنب ، و (منا) حال من السفهاء (تضل بها) يجوز أن يكون مستأنفا ، ويجوز أن يكون حالا من الكاف في فتنتك إذ ليس هنا ما تصلح أن يعمل في الحال .

قوله تعالى (هدنا) المشهور ضم الهاء ، وهو من هاد يهود إذا تاب ، وقرئ بكسرها ، وهو من هاد يهيد إذا تحرك أو حرك: أي حركنا إليك نفوسنا (من أشاء) المشهور في القراءة الشين ، وقرئ بالسين والفتح ، وهو فعل ماض: أي أعاقب المسئ .

قوله تعالى (الذين يتبعون) في الذين ثلاثة أوجه: أحدها هو جر على أنه صفة للذين يتقون أو بدل منه .

والثانى نصب على إضمار أعنى .

(199/262)

والثالث رفع: أي هم الذين يتبعون ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر " يأمرهم ، وأولئك هم المفلحون " (الأمي) المشهور ضم الهمزة ، وهو منسوب إلى الأم ، وقد ذكر في البقرة ، وقرئ بفتحها .

وفيه وجهان: أحدهما أنه من تغيير النسبة كما قالوا أموى .

والثانى هو منسوب إلى الأم وهو القصد : أي الذى هو على القصد والسداد (يجدونه) أي يجدون اسمه و (مكتوبا) حال و (عندهم) ظرف لمكتوب أو ليجدون (يأمرهم) يجوز أن يكون خبرا للذين .

وقد ذكر ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، أو أن يكون حالا من النبي أو من الضمير في مكتوب (إصرهم) الجمهور على الافراد وهو جنس ، ويقرأ

---

(1) (قوله تقديره والذين هم) كذا بالنسخ التى بأيدينا ، والمناسب أن يقول للذين هم

ليوافق نظم لتلاوة كما لا يخفى اه .

(*)

آصارهم على الجمع لاختلاف أنواع الثقل الذى كان عليهم ، ولذلك جمع الأغلال .

(وعزروه) بالتشديد والتخفيف وقد ذكر في المائدة .

قوله تعالى (الذى له ملك السموات) موضع نصب بإضمار أعنى ، أي في موضع رفع على إضمار هو ، ويبعد أن يكون صفة لله أو بدلا منه لما فيه من الفصل بينهما بإليكم وحاله وهو متعلق برسول .

قوله تعالى (وقطعناهم اثنتى) فيه وجهان: أحدهما أن قطعنا بمعنى صيرنا فيكون اثنتى عشرة مفعولا ثانيا .

والثانى أن يكون حالا: أي فرقناهم فرقا ، و (عشرة) بسكون الشين وكسرها وفتحها لغات قد قرئ بها ، و (أسباطا) بدل من اثنتى عشرة لا تمييز لأنه جمع ، و (أمما) نعت لأسباط ، أو بدل بعد بدل ، وأنث اثنتى عشرة ، لأن التقدير: اثنتى عشرة أمة (أن اضرب) يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون بمعنى أي .

قوله تعالى (حطة) هو مثل الذى في البقرة ، و (نغفر لكم) قد ذكر في البقرة ما يدل على ما هاهنا .

قوله تعالى (عن القرية) أي عن خبر القرية ، وهذا المحذوف هو الناصب للظرف الذى هو قوله (إذ يعدون) وقيل هو ظرف لحاضرة ، وجوز ذلك أنها كانت موجودة في ذلك الوقت ثم خربت ، ويعدون ، خفيف ، ويقرأ بالتشديد والفتح والأصل يعتدون ، وقد ذكر نظيره في يخطف (إذ تأتيهم) ظرف ليصعدون و (حيتانهم) جمع حوت أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، (شرعا) حال من الحيتان (ويوم لا يسبتون) ظرف لقوله (لا تأتيهم) .

قوله تعالى (معذرة) يقرأ بالرفع: أي موعظتنا معذرة ، وبالنصب على المفعول له: أي وعظنا للمعذرة ، وقيل هو مصدر: أي نعتذر معذرة .

قوله تعالى (بعذاب بئيس) يقرأ بفتح الباء وكسر الهمزة وياء ساكنة بعدها .

وفيه وجهان: أحدهما هو نعت للعذاب مثل شديد .

والثانى هو مصدر مثل النذير ، والتقدير: بعذاب ذى بأس: أي ذى شدة ، ويقرأ كذلك إلا أنه بتخفيف الهمزة وتقريبها من الياء ، ويقرأ بفتح الباء وهمزة مكسورة لا ياء بعدها .

وفيه وجهان: أحدهما هو صفة مثل قلق وحنق .

والثانى هو منقول من بئس الموضوعة للذم إلى الوصف ، ويقرأ كذلك إلا أنه بكسر الباء إتباعا ، ويقرأ بكسر الباء وسكون الهمزة ، وأصلها

فتح الباء وكسر الهمزة ، فتكسر الباء إتباعا ، وسكن الهمزة تخفيفا ، ويقرأ كذلك إلا أن

مكان الهمزة ياء ساكنة ، وذلك تخفيف كما تقول في ذئب ذيب ، ويقرأ بفتح الباء وكسر الياء وأصلها همزة مكسورة أبدلت ياء ، ويقرأ بياءين على فيعال ، ويقرأ " بيس " بفتح الباء والياء من غير همز وأصله باء ساكنة وهمزة مفتوحة ، إلا أن حركة الهمزة ألقيت على الياء ولم تقلب الياء ألفا لأن حركتها عارضة ، ويقرأ " بيأس " مثل ضيغم ، ويقرأ بفتح الباء وكسر الياء وتشديدها مثل سيد وميت وهو ضعيف ، إذ ليس في الكلام مثله من الهمز ، ويقرأ " بأيس " بفتح الباء وسكون الهمزة وفتح الياء ، وهو بعيد إذ ليس في الكلام فعيل ، ويقرأ كذلك إلا أنه بكسر الباء مثل عثير وحديم .

(201/262)

قوله تعالى (تأذن) هو بمعنى أذن: أي أعلم (إلى يوم القيامة) يتعلق بتأذن أو ببيعث وهو الأوجه ، ولا يتعلق ب (يسومهم) لأن الصلة أو الصفة لا تعمل فيما قبلها .

قوله تعالى (وقطعناهم في الأرض أمما) مفعول ثان أو حال (منهم الصالحون) صفة لأمم أو بدل منه ، و (دون ذلك) ظرف أو خبر على ما ذكرنا في قوله " لقد تقطع بينكم " .

قوله تعالى (ورثوا الكتاب) نعت لخلف (يأخذون) حال من الضمير

في ورثوا (ودرسوا) معطوف على ورثوا ، وقوله " ألم يؤخذ " معترض بينهما ، ويقرأ

ادارسوا وهو مثل اداركوا فيها وقد ذكر .

قوله تعالى (والذين يمسكون) مبتدأ ، والخبر (إنا لا نضيع أجر المصلحين) والتقدير منهم ، وإن شئت قلت إنه وضع الظاهر موضع المضمر : أي لا نضيع أجرهم ، وإن شئت قلت لما كان الصالحون جنسا والمبتدأ واحدا منه استغنيت عن ضمير ، ويمسكون بالتشديد والماضي منه مسك ، ويقرأ بالتخفيف من أمسك ، ومعنى القراءتين تمسك بالكتاب : أي عمل به ، والكتاب جنس .

قوله تعالى (وإذ نتقنا) أي اذكر إذ ، و (فوقهم) ظرف لنتقنا أو حال من الجبل غير مؤكدة ، لأن رفع الجبل فوقهم تخصيص له ببعض جهات العلو (كأنه) الجملة حال من الجبل أيضا (وظنوا) مستأنف ، ويجوز أن يكون معطوفا على نتقنا فيكون موضعه جرا ، ويجوز أن يكون حالا ، وقد معه مرادة (خذوا ما آتيناكم) قد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (وإذ أخذ) أي واذكر (من ظهورهم) بدل من بنى آدم : أي من ظهور بنى آدم ، وأعاد حرف الجر مع البدل وهو بدل الاشتمال (أن تقولوا) بالياء والتاء وهو مفعول له : أي مخافة أن تقولوا ، وكذلك (أو تقولوا) .

قوله تعالى (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) الكلام كله حال من الكلب تقديره يشبه الكلب لاهثا في كل حال .

قوله تعالى (ساء) هو بمعنى بئس ، وفاعله مضمر : أي ساء المثل ، و (مثلا) مفسر (القوم) أي مثل القوم ، لابد من هذا التقدير لأن المخصوص بالذم من جنس فاعل بئس ، والفاعل المثل ، والقوم ليس من جنس المثل ، فلزم أن يكون التقدير مثل القوم فحذفه وأقام القوم مقامه .

قوله تعالى (لجهنم) يجوز أن يتعلق بذرأنا ، وأن يتعلق بمحذوف على أن يكون حالا من (كثيرا) أي كثيرا لجهنم ، و (من الجن) نعت لكثير (لهم قلوب) نعت لكثير أيضا .

قوله تعالى (الأسماء الحسنى) الحسنى صفة مفردة لموصوف مجموع ، وأنث لتأنيث الجمع (يلحدون) يقرأ بضم الياء وكسر الحاء ، وماضيه ألحد ، وبفتح الياء والحاء وماضيه لحد ، وهما لغتان .

قوله تعالى (وممن خلقنا) نكرة موصوفة أو بمعنى الذى .

قوله تعالى (والذين كذبوا) مبتدأ ، و (سنستدرجهم) الخبر ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بفعل محذوف فسره المذكور : أي سنستدرج الذين .

قوله تعالى (وأملى) خبر مبتدإ محذوف: أي وأنا أملى ، ويجوز أن يكون معطوفا على نستدرج وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (ما بصاحبهم) في " ما " وجهان: أحدهما نافية ، وفي الكلام حذف تقديره: أو لم

يتفكروا في قولهم به جنة .

والثانى أنها استفهام: أي أو لم يتفكروا أي شئ بصاحبهم من الجنون مع انتظام أقواله وأفعاله ، وقيل هي بمعنى الذى ، وعلى هذا يكون الكلام خرج عن زعمهم .

قوله تعالى (وأن عسى) يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، وأن تكون مصدرية وعلى كلا الوجهين هي في موضع جر عطفا على ملكوت ، و (أن يكون) فاعل عسى

وأما اسم يكون فمضمر فيها وهو ضمير الشان ، و (قد اقترب أجلهم) في موضع نصب خبر كان ، والهاء في (بعده) ضمير القرآن .

قوله تعالى (فلا هادى) في موضع جزم على جواب الشرط (ويذرهم)

بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم عطفا على موضع " فلا هادى " وقيل سكنت لتوالى الحركات .

(203/262)

قوله تعالى (أيان) اسم مبنى لتضمنه حرف الاستفهام بمعنى متى ، وهو خبر ل (مرساها)

والجملة في موضع جر بدلا من الساعة تقديره: يسألونك عن زمان حلول الساعة ،

ومرساها مفعل من أرسى ، وهو مصدر مثل المدخل والمخرج بمعنى الإدخال والإخراج:

أي متى أرساها (إنما علمها) المصدر مضاف إلى المفعول وهو مبتدأ ، و (عند) الخبر

(ثقلت في السموات) أي ثقلت على أهل السموات والأرض: أي تثقل عند وجودها ،

وقيل التقدير: ثقل علمها على أهل السموات (حفى عنها) فيه وجهان ، أحدهما تقديره:

يسألونك عنها كأنك حفى أي معنى بطلبها فقدم وأخر .

والثانى أن عن بمعنى الباء: أي حفى بها ، وكأنك حال من المفعول ، وحفى بمعنى محفو ،

ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى فاعل .

قوله تعالى (لنفسي) يتعلق بأملك ، أو حال من نفع (إلا ما شاء الله) استثناء من الجنس

(لقوم) يتعلق ببشير عند البصريين ، وبنذير عند الكوفيين .

قوله تعالى (فمرت به) يقرأ بتشديد الراء من المرور ، ومارت بالألف وتخفيف الراء من المور

، وهو الذهاب والمجئ .

قوله تعالى (جعلا له شركاء) يقرأ بالمد على الجمع ، وشركا بكسر الشين وسكون الراء

والتنوين ، وفيه وجهان: أحدهما تقديره: جعلا لغيره شركا أي نصيبا .

والثانى جعلا له ذا شرك ، فحذف في الموضعين المضاف .

قوله تعالى (أدعوتموهم) قد ذكر في قوله " سواء عليهم أأنذرتهم " ، و (أم أنتم صامتون)

جملة اسمية في موضع الفعلية ، والتقدير: أدعوتموهم أم صمتم .

قوله تعالى (إن الذين تدعون) الجمهور على تشديد النون ، و (عباد)

خبر إن ، و (أمثالكم) نعت له والعائد محذوف: أي تدعو بهم ، ويقرأ عبادا ، وهو حال من العائد المحذوف ، وأمثالكم الخبر ، ويقرأ إن بالتخفيف وهي بمعنى " ما " وعبادا خبرها ، وأمثالكم يقرأ بالنصب نعتا لعبادا ، وقد قرئ أيضا " أمثالكم " بالرفع على أن يكون عبادا حالا من العائد المحذوف ، وأمثالكم الخبر ، وإن بمعنى " ما " لا تعمل عند سيبويه وتعمل عند المبرد .

(204/262)

قوله تعالى (قل ادعوا) يقرأ بضم اللام وكسرها ، وقد ذكرنا ذلك في قوله " فمن اضطر " .

قوله تعالى (إن ولي الله) الجمهور على تشديد الياء الأولى وفتح الثانية وهو الأصل ، ويقرأ بحذف الثانية في اللفظ لسكونها وسكون ما بعدها ، ويقرأ بفتح الياء الأولى ولا ياء بعدها ، وحذف الثانية من اللفظ تخفيفا .

قوله تعالى (طيف) يقرأ بتخفيف الياء .

وفيه وجهان: أحدهما أصله طيف مثل ميت فخفف .

والثاني أنه مصدر طاف يطيف إذا أحاط بالشئ ، وقيل هو مصدر يطوف قلبت الواو ياء وإن كانت ساكنة كما قلبت في أيد وهو بعيد ، ويقرأ طائف على فاعل .

قوله تعالى (يمدونهم) بفتح الياء وضم الميم من مد يمد مثل قوله " ويمدهم في طغيانهم " ويقرأ بضم الياء وكسر الميم من أمده إمدادا (في الغى) يجوز أن يتعلق بالفعل المذكور ، ويجوز أن يكون حالا من ضمير المفعول أو من ضمير الفاعل .

قوله تعالى (فاستمعوا له) يجوز أن تكون اللام بمعنى لله ، أي لأجله ، ويجوز أن تكون زائدة: أي فاستمعوه ، ويجوز أن تكون بمعنى إلى .

قوله تعالى (تضرعا وخفية) مصدران في موضع الحال ، وقيل هو مصدر لفعل من غير المذكور بل من معناه (ودون الجهر) معطوف على تضرع ، والتقدير:

قوله تعالى (قل ادعوا) يقرأ بضم اللام وكسرها ، وقد ذكرنا ذلك في قوله " فمن اضطر " .

قوله تعالى (إن ولى الله) الجمهور على تشديد الياء الأولى وفتح الثانية وهو الأصل ، ويقرأ بحذف الثانية في اللفظ لسكونها وسكون ما بعدها ، ويقرأ بفتح الياء الأولى ولا ياء بعدها ، وحذف الثانية من اللفظ تخفيفا .

قوله تعالى (طيف) يقرأ بتخفيف الياء .

وفيه وجهان: أحدهما أصله طيف مثل ميت فخفف .

والثانى أنه مصدر طاف يطيف إذا أحاط بالشئ ، وقيل هو مصدر يطوف قلبت الواو ياء وإن كانت ساكنة كما قلبت في أيد وهو بعيد ، ويقرأ طائف على فاعل .

قوله تعالى (يمدونهم) بفتح الياء وضم الميم من مد يمد مثل قوله " ويمدهم في طغيانهم " ويقرأ بضم الياء وكسر الميم من أمده إمدادا (في الغى) يجوز أن يتعلق بالفعل المذكور ، ويجوز أن يكون حالا من ضمير المفعول أو من ضمير الفاعل .

قوله تعالى (فاستمعوا له) يجوز أن تكون اللام بمعنى لله ، أي لأجله ، ويجوز أن تكون زائدة: أي فاستمعوه ، ويجوز أن تكون بمعنى إلى .

قوله تعالى (تضرعا وخفية) مصدران في موضع الحال ، وقيل هو مصدر لفعل من غير المذكور بل من معناه (ودون الجهر) معطوف على تضرع ، والتقدير: مقتصدين (بالغدو) متعلق بادعوا (والآصال) جمع الجمع ، لأن الواحد أصيل ، وفعيل لا يجمع على أفعال بل على فعل ثم فعل على أفعال ، والأصل أصيل وأصل ثم آصال ، ويقرأ شاذا ، والإيصال بكسر الهمزة وياء بعدها ، وهو مصدر أصلنا إذا دخلنا في الأصيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 1 صـ 267. 291 ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الأعراف

[سورة الأعراف (7) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (1)

"المص" في محل رفع مبتدأ . أو حروف لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 2]

كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

"كِتابٌ" خبره أو خبر لمبتدأ محذوف . "أُنْزِلَ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور "إِلَيْكَ" ونائب الفاعل مستتر . والجملة في محل رفع صفة لكتاب . "فَلا يَكُنْ" فعل مضارع ناقص مجزوم بالسكون ولا ناهية جازمة ، والفاء للاستئناف . "فِي صَدْرِكَ" متعلقان بمحذوف خبر يكن .

"حَرَجٌ" اسمها . "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف صفة حرج ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

"لِتُنْذِرَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ، والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل أنزل . "بِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما . "وَذِكْرى " اسم معطوف على المصدر المؤول أي للإنذار والذكرى وقيل معطوف

على كتاب. "لِلْمُؤْمِنِينَ" اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجار والمجرور متعلقان بالمصدر ذكرى.

[سورة الأعراف (7) : آية 3]

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3)

(207/262)

"اتَّبِعُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله واسم الموصول "ما" مفعوله. "إِلَيْكُمْ" متعلقان بأنزل. "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف حال من نائب فاعل الفعل المبني للمجهول أنزل، والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَلا تَتَّبِعُوا" مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، ولا ناهية جازمة. "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما أو بمحذوف حال من أولياء كان صفة له فلما تقدم صار حالا. "أَوْلِياءَ" مفعول به "قَلِيلًا" صفة لمصدر محذوف، أو لظرف محذوف أي تذكرا أو زمنا قليلا. "ما تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل وما زائدة. والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

[سورة الأعراف (7) : آية 4]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4)

"وَكَمْ" كم خبرية مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ . "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه تمييز . "أَهْلَكْناها" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل رفع خبر .

"فَجاءَها بَأْسُنا" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة معطوفة . "بَياتاً" ظرف أو حال منصوبة . "أَوْ" حرف عطف . "هُمْ قائِلُونَ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة على بياتا فهي في محل نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : آية 5]

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5)

(208/262)

"فَما" ما نافية والفاء للاستئناف . "كانَ" ماض ناقص "دَعْواهُمْ" اسم كان مرفوع بالضمة المقدرة على الألف ، والهاء في محل جر بالإضافة . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن متعلق بدعواهم . "جاءَهُمْ بَأْسُنا" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "إِلَّا" أداة حصر . "أَنْ قالُوا" المصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب خبر كان . "إِنَّا" إن واسمها . "كُنَّا" كان واسمها و"ظالِمِينَ" خبرها وجملة كنا ظالمين في محل رفع خبر إن .

[سورة الأعراف (7) : آية 6]

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)

"فَلَنَسْئَلَنَّ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة واللام لام القسم ، والفاء حرف استئناف . "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به ، والجملة لا محل لها جواب القسم . "أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَلَنَسْئَلَنَّ" سبق اعرابها "الْمُرْسَلِينَ" مفعول به والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 7]

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (7)

"فَلَنَقُصَّنَّ" مثل فلنسألن . "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما . "بِعِلْمٍ" متعلقان بمحذوف حال مبيّنين بعلم . "وَما كُنَّا غائِبِينَ" كان واسمها وخبرها وما نافية والجملة معطوفة أو حالية .

[سورة الأعراف (7) : آية 8]

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8)

"الْوَزْنُ" مبتدأ . "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ إذ ظرف لما مضى من الزمن مبني على السكون في محل جر بالإضافة ، وتنوينه تنوين عوض عن جملة محذوفة يوم تقوم الساعة . "الْحَقُّ" صفة للوزن أو خبر ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَمَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، والفاء استئنافية "ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ" فعل ماض وفاعله . "فَأُولَئِكَ" الفاء رابطة واسم إشارة في محل رفع مبتدأ أول . "هُمُ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ثان أو ضمير فصل لا محل له و"الْمُفْلِحُونَ" خبر أولئك أو خبر المبتدأ الثاني هم وجملة هم المفلحون في محل رفع خبر أولئك وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط ، وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ من .

[سورة الأعراف (7) : آية 9]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

"وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ" الجملة الفعلية معطوفة . "فَأُولَئِكَ" مبتدأ والفاء رابطة "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ أولئك والجملة واقعة في محل جزم جواب الشرط وجملة "خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" صلة الموصول لا محل لها . "بِما" مصدرية والمصدر المؤول من ما والفعل الناقص "كانُوا" بعدها في محل جر بالباء . "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل بعدهما وجملة "يَظْلِمُونَ" في محل نصب خبر كان .

[سورة الأعراف (7) : آية 10]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10)

(210/262)

"وَلَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم. وقد حرف تحقيق "مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ" فعل ماض وفاعله ومفعوله، وقد تعلق الجار والمجرور بهذا الفعل والجملة لا محل لها من الإعراب. "وَجَعَلْنا لَكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله. "فِيها" متعلقان بمحذوف حال من معايش كان صفة له فلما تقدم عليه صار حالا. "مَعايِشَ" مفعول به والجملة معطوفة "قَلِيلًا" صفة لمصدر محذوف. "ما" زائدة وجملة "تَشْكُرُونَ" مستأنفة لا محل لها أو حالية.

[سورة الأعراف (7) : آية 11]

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11)

"وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ" اللام واقعة في جواب القسم وماض وفاعله ومفعوله "ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ" عطف "ثُمَّ" حرف عطف "قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله

والجملة معطوفة.

"اسْجُدُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله. "لِآدَمَ" اسم مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، والجار والمجرور متعلقان باسجدوا، والجملة مقول القول "فَسَجَدُوا" فعل ماض وفاعل والجملة معطوفة. "إِلَّا" أداة استثناء "إِبْلِيسَ" مستثنى منصوب. "لَمْ" جازمة "يَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم واسمها ضمير مستتر تقديره هو. "مِنَ السَّاجِدِينَ" متعلقان بمحذوف خبر يكن، والجملة في محل نصب حال أو مستأنفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 12]

قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)

"قالَ" الجملة مستأنفة "ما مَنَعَكَ" ما اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، منعك فعل ماض ومفعوله وفاعله أنت والجملة في محل رفع خبر. "أن" حرف مصدري ونصب "لا" زائدة.

و المصدر المؤول من الفعل "تَسْجُدَ" والحرف المصدري قبله في محل جر بحرف الجر أي ما منعك من السجود والجار والمجرور متلعقان بالفعل قبلهما . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن مبني على السكون في محل نصب متعلق بتسجد ، "أَمَرْتُكَ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بالإضافة ، "قالَ" فعل ماض ، "أَنَا" مبتدأ ، "خَيْرٌ مِنْهُ" خبر تعلق به الجار والمجرور بعده لأنه اسم تفضيل أصله أخير . "خَلَقْتَنِي" فعل ماض وفاعله ومفعوله والنون للوقاية والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب .

"مِنْ نارٍ" متعلقان بالفعل قبلهما وجملة "وَخَلَقْتَهُ" معطوفة "مِنْ طِينٍ" متعلقان بالفعل قبلهما .

[سورة الأعراف (7) : آية 13]

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)

"قالَ" الجملة مستأنفة "فَاهْبِطْ مِنْها" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور والفاعل أنت والفاء زائدة والجملة مقول القول "فَما" ما نافية والفاء عاطفة "يَكُونُ" فعل مضارع تام بمعنى يجوز تعلق به الجار والمجرور بعده ، "أَنْ تَتَكَبَّرَ"

المصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع فاعل "فِيها" متعلقان بالفعل قبلهما ، وجملة فما يكون معطوفة "فَاخْرُجْ" الجملة معطوفة . "إِنَّكَ" إن والكاف اسمها "مِنَ الصَّاغِرِينَ" اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة في محل

نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 14 الى 15]

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15)

(212/262)

"قالَ" الجملة مستأنفة "أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ" فعل أمر للدعاء تعلق به الجار والمجرور ، الفاعل أنت والنون للوقاية والياء مفعول به . "يُبْعَثُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون مبني للمجهول والواو نائب فاعل ، والجملة في محل جر بالإضافة وجملة أنظرني مقول القول . "قالَ" الجملة مستأنفة "إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ" مثل إنك من الصاغرين .

[سورة الأعراف (7) : آية 16]

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)

"قالَ" سبق إعرابها "فَبِما" الفاء زائدة . الباء حرف جر . ما مصدرية "أَغْوَيْتَنِي" فعل ماض مبني على السكون ، والتاء فاعل ، والنون للوقاية ، والياء مفعول به . والمصدر المؤول من الفعل وما قبله في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف ، وجملة القسم مقول القول .

"لَأَقْعُدَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ، أقعدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة . وفاعله أنا "لَهُمْ" متعلقان بأقعدن . "صِراطَكَ" منصوب بنزع الخافض ، أو ظرف مكان متعلق بالفعل قبله . "الْمُسْتَقِيمَ" صفة . وجملة لأقعدن لا محل لها جواب القسم .

[سورة الأعراف (7) : آية 17]

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17)

"ثُمَّ" عاطفة "لَآتِيَنَّهُمْ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل أنا ، والهاء مفعول به ، واللام واقعة في جواب القسم . والجملة لا محل لها جواب القسم "مِنْ بَيْنِ" متعلقان بالفعل قبلهما . "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الياء للثقل . والهاء في محل جر بالإضافة .

(213/262)

"وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ" عطف . "وَلا تَجِدُ" فعل مضارع مرفوع . فاعله أنت لا نافية . "أَكْثَرَهُمْ" مفعول به أول "شاكِرِينَ" مفعول به ثان . أو حال ، والجملة مستأنفة لا محل

لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 18]

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

"قالَ" الجملة مستأنفة "اخْرُجْ" منها فعل أمر تعلق به الجار والمجرور بعده فاعله أنت والجملة مقول القول .

"مَذْؤُماً" حال . "مَدْحُوراً" حال ثانية . "لَمَنْ" اللام موطئة للقسم . من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ . "تَبِعَكَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور فاعله هو "مِنْهُمْ" والكاف مفعول به . "لَأَمْلَأَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم "أملأن" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة . والفاعل أنا "جَهَنَّمَ" مفعوله . "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "أَجْمَعِينَ" توكيد منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم .

والجملة لا محل لها جواب القسم ، وقد سد جواب القسم مسد جواب الشرط . وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ .

[سورة الأعراف (7) : آية 19]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19)

"وَيا آدَمُ" يا أداة نداء ومنادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب ، والواو عاطفة "اسْكُنْ" فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والجملة معطوفة على جملة اخرج . . "أَنْتَ" توكيد للضمير المستتر في الفعل "وَزَوْجُكَ" اسم معطوف على أنت . "الْجَنَّةَ" مفعول به . "فَكُلا" فعل أمر مبني على حذف النون ، وألف الاثنين فاعل والجملة معطوفة بالفاء . "مِنْ" حرف جر "حَيْثُ" ظرف مكان مبني على الضم في محل جر بمن ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "شِئْتُما" فعل ماض مبني على السكون والتاء فاعل وما للتثنية ، والجملة في محل جر بالإضافة . "وَلا تَقْرَبا" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والألف فاعل "هذِهِ" اسم إشارة في محل نصب مفعول به . "الشَّجَرَةَ" بدل منصوب بالفتحة . "فَتَكُونا" فعل مضارع ناقص منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية وعلامة نصبه حذف النون وألف الإثنين اسمها . وأن المضمرة والفعل بعدها في تأويل مصدر معطوف على ما قبله والتقدير فلا يكن منكم قرب فظلم . "مِنَ الظَّالِمِينَ" متعلقان بمحذوف خبر .

[سورة الأعراف (7) : آية 20]

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20)

"فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والشيطان فاعله والجملة معطوفة.

"لِيُبْدِيَ" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بوسوس "لَهُمَا" متعلقان بيبدي. "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به.

(215/262)

"وُورِيَ عَنْهُما" فعل ماض مبني للمجهول، تعلق به الجار والمجرور ونائب فاعله ضمير مستتر تقديره هو. "مِنْ سَوْآتِهِما" متعلقان بمحذوف حال. "وَقالَ" الجملة مستأنفة "ما نَهاكُما" ما: نافية وفعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف، والكاف مفعوله والجملة مقول القول. "رَبُّكُما" فاعل.

"عَنْ" حرف جر "هذِهِ" اسم إشارة في محل جر بحرف الجر. "الشَّجَرَةِ" بدل مجرور "إِلَّا" أداة حصر. "أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ" فعل مضارع ناقص وألف الإثنين اسمها وملكين خبرها والمصدر المؤول من أن الناصبة والفعل في محل جر بالإضافة أي كراهة كونكما ملكين "أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ" عطف.

[سورة الأعراف (7) : آية 21]

وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)

"وَقاسَمَهُما" فعل ماض والهاء مفعوله والميم والألف للتثنية والفاعل هو يعود إلى الشيطان. "إِنِّي" إن وياء المتكلم اسمها. "لَكُما" متعلقان بالناصحين بعدها. "لَمِنَ النَّاصِحِينَ" اللام هي المزحلقة "من النَّاصِحِينَ" متعلقان بمحذوف خبر إن. والجملة الاسمية "إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ" لا محل لها جواب القسم، وجملة "قاسَمَهُما" معطوفة على جملة قال ما نهاكما.

[سورة الأعراف (7) : آية 22]

فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

(216/262)

"فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ" الفاء عاطفة وفعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده والفاعل هو والهاء مفعول به والجملة معطوفة. "فَلَمَّا" ظرفية حينية والفاء استئنافية "ذاقَا الشَّجَرَةَ" فعل

ماض وألف الإثنين فاعله والشجرة مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة . "بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف المحذوفة منعا لالتقاء الساكنين ، وقد تعلق به الجار والمجرور بعده وسوآتهما فاعل مرفوع ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَطَفِقا" فعل ماض ناقص ، والألف اسمها .

"يَخْصِفانِ عَلَيْهِما" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، والألف فاعله وجار ومجرور متعلقان بالفعل وكذلك الجار والمجرور "مِنْ وَرَقِ" "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "وَناداهُما رَبُّهُما" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة معطوفة . "أَلَمْ أَنْهَكُما" فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة لأنه معتل الآخر والكاف مفعول به . "تِلْكُمَا" ت اسم إشارة مبني على الكسر في محل جر بعن واللام للبعد والكاف للخطاب وما للتثنية . "الشَّجَرَةَ" بدل "وَأَقُلْ لَكُما" مضارع معطوف على أنهكما مجزوم مثله بالسكون وقد تعلق به الجار والمجرور بعده ، والجملة معطوفة . "إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ" إن واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بعدو و "مُبِينٌ" صفة والجملة مقول القول .

[سورة الأعراف (7) : آية 23]

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

"قالا" فعل ماض وفاعل . "رَبَّنا" منادى مضاف منصوب . "ظَلَمْنا أَنْفُسَنا" فعل ماض

وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول . "وَإِنْ" شرطية والواو عاطفة . "لَمْ" جازمة "تَغْفِرْ" مضارع مجزوم وهو فعل الشرط .

(217/262)

"وَتَرْحَمْنا" عطف "لَنَكُونَنَّ" اللام واقعة في جواب الشرط . نكونن فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة واسمها ضمير مستتر تقديره نحن "مِنَ الْخاسِرِينَ" متعلقان بمحذوف خبرها والجملة لا محل لها جواب شرط لم يقترن بالفاء . . . وقد أغنى جواب الشرط عن جواب القسم . ويجوز أن تعرب جملة لنكونن جواب القسم واللام لام القسم وقد أغنى عن جواب الشرط .

[سورة الأعراف (7) : آية 24]

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (24)

"قالَ" الجملة مستأنفة "اهْبِطُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول .

"بَعْضُكُمْ" مبتدأ . "لِبَعْضٍ" متعلقان بالخبر "عَدُوٌّ" والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَلَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر ، ومثلها الجار والمجرور "فِي الْأَرْضِ" . "مُسْتَقَرٌّ" مبتدأ مؤخر

"وَمَتاعٌ" عطف. "إِلى حِينٍ" متعلقان بمحذوف صفة متاع أي متاع ممتد إلى حين، والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 25]

قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25)

"قالَ" الجملة مستأنفة "فِيها تَحْيَوْنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون، تعلق به الجار والمجرور قبله والواو فاعله.

والجملة معطوفة. "وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ" معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 26]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)

(218/262)

"يا بَنِي" يا أداة نداء، بني منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة. "آدَمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة بدل الكسرة اسم علم اعجمي. "قَدْ" حرف تحقيق. "أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً" فعل ماض مبني على

السكون تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله ولباسا مفعوله والجملة مستأنفة لا محل لها .

"يُوارِي" فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل هو . "سَوْآتِكُمْ" مفعول به منصوب بالكسرة بدل الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم ، والجملة في محل نصب صفة لباس . "وَرِيشاً" عطف . "وَلِباسُ" الواو حالية لباس مبتدأ "التَّقْوى" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف . "ذِلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "خَيْرٌ" خبره . والجملة الاسمية ذلك خير خبر المبتدأ لباس . "ذِلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ . "مِنْ آياتِ" متعلقان بمحذوف خبره ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "لَعَلَّهُمْ" لعل والهاء اسمها وجملة "يَذَّكَّرُونَ" في محل رفع خبرها .

وجملة "لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" تعليلية لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأعراف (7) : آية 27]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)

"يا بَنِي آدَمَ" تقدم إعرابها في الآية السابقة . "لا يَفْتِنَنَّكُمُ" يفتننّ مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، وهو في محل جزم بلا الناهية ، والكاف مفعوله والميم لجمع الذكور . و"الشَّيْطانُ" فاعله ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "كَما" الكاف حرف جر ، ما مصدرية . "أَخْرَجَ" فعل ماض فاعله مستتر "أَبَوَيْكُمْ" مفعوله منصوب بالياء ، وحذفت النون للإضافة ، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "مِنَ الْجَنَّةِ" متعلقان بالفعل أخرج. والمصدر المؤول من ما المصدرية والفعل بعدها في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف والتقدير لا يفتننكم الشيطان فتنة كائنة كفتنة . "يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور ولباسهما مفعوله والجملة في محل نصب حال . "لِيُرِيَهُما" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والفاعل هو والهاء مفعوله والجملة في محل نصب حال ، وهو منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل "سَوْآتِهِما" مفعوله الثاني منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم . والمصدر المؤول من أن المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر باللام ،

(220/262)

والجار والمجرور متعلقان بالفعل ينزع. "إِنَّهُ" إن والهاء اسمها وجملة "يَراكُمْ" في محل رفع خبر إن وجملة "إِنَّهُ يَراكُمْ" تعليلية لا محل لها من الإعراب. "هُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع توكيد للضمير المستتر في الفعل يراكم. "وَقَبِيلُهُ" اسم معطوف على الضمير المرفوع في يراكم. "حَيْثُ" ظرف مكان مبني على الضم في محل: جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يراكم. "لا تَرَوْنَهُمْ" فعل مضارع والهاء مفعوله ولا نافية والجملة في محل جر بالإضافة. "إِنَّا" إن واسمها. "جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ" فعل ماض وفاعله ومفعولاه والجملة في محل رفع خبر إن. وجملة "إِنَّا جَعَلْنَا" تعليلية لا محل لها من الإعراب.

"لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل جعلنا وجملة "لا يُؤْمِنُونَ" صلة الموصول لا محل لها.

[سورة الأعراف (7): آية 28]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28)

(221/262)

"وَإِذا" ظرفية شرطية غير جازمة، والواو استئنافية "فَعَلُوا فاحِشَةً" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بالإضافة وجملة "قالُوا" لا محل لها جواب شرط غير جازم.

"وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله وآباءنا مفعوله ، والجملة مقول القول مفعول به . "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ وجملة "أَمَرَنا بِها" خبره والجملة الاسمية "اللَّهُ أَمَرَنا بِها" معطوفة . "قُلْ" فعل أمر والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها وجملة "لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ" في محل رفع خبرها والجملة الاسمية "إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ" في محل نصب مفعول به . "أَتَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والهمزة للاستفهام والجملة مقول القول . "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل قبله "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة "لا تَعْلَمُونَ" صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 29]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)

"قُلْ" فعل أمر والجملة مستأنفة لا محل لها . "أَمَرَ" فعل ماض "رَبِّي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "بِالْقِسْطِ" متعلقان بأمر . "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ" فعل أمر مبني على حذف النون وفاعله ومفعوله . والجملة معطوفة على ما قبلها . "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بأقيموا . "كُلِّ" مضاف إليه "مَسْجِدٍ" مضاف إليه "وَادْعُوهُ" فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة . "مُخْلِصِينَ" حال منصوبة بالياء . "لَهُ" متعلقان باسم الفاعل مخلصين قبله .

"الدِّينَ" مفعول به لاسم الفاعل ، وفاعله ضمير مستتر . "كَما" الكاف حرف جر ما مصدرية . "بَدَأَكُمْ" فعل ماض فاعله هو والكاف مفعوله والمصدر المؤول من الحرف المصدري والفعل في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت لمصدر محذوف والتقدير تعودون عودا مثل بدئكم .

وجملة "تَعُودُونَ" استئنافية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 30]

فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

"فَرِيقاً" مفعول به مقدم للفعل "هَدى" . وجملة "فَرِيقاً هَدى" في محل نصب حال أي هاديا فريقا ومضلا فريقا . "وَفَرِيقاً" مفعول به لفعل محذوف تقديره وأضل والجملة معطوفة ، وجملة "حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ" في محل نصب صفة لفريق . "إِنَّهُمُ" إن والهاء اسمها . "اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ" فعل ماض وفاعله ومفعولاه . "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف صفة أولياء والجملة خبر إن ، وجملة "إِنَّهُمُ" تعليلية لا محل لها من الإعراب . "وَيَحْسَبُونَ" مضارع مرفوع

والجملة معطوفة "أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ" أن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي يحسبون.

[سورة الأعراف (7) : آية 31]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)

(223/262)

"يا بَنِي آدَمَ" تقدمت في الآية 25. "خُذُوا زِينَتَكُمْ" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "زِينَتَكُمْ" مفعوله، والجملة ابتدائية. "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. "كُلِّ" مضاف إليه "مَسْجِدٍ" مضاف إليه "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا" عطف على خذوا "وَلا تُسْرِفُوا" مضارع مجزوم بحذف النون لسبقه بلا الناهية والجملتان كلوا ولا تسرفوا معطوفتان. وجملة "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" تعليلية لا محل لها من الإعراب وجملة "لا يُحِبُّ" خبر إن.

[سورة الأعراف (7) : آية 32]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "مَنْ" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة "حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ" خبره

"الَّتِي" اسم موصول في محل نصب صفة لزينة وجملة "أَخْرَجَ" صلة الموصول لا م حل لها "وَالطَّيِّباتِ" عطف على زينة منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة جمع مؤنث سالم. "مِنَ الرِّزْقِ" متعلقان بمحذوف حال، "قُلْ" سبق إعرابها "هِيَ" مبتدأ "لِلَّذِينَ" متعلقان بالخبر، وجملة "آمَنُوا" صلة الموصول لا محل لها. "فِي الْحَياةِ" متعلقان بالفعل "الدُّنْيا" صفة الحياة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "خالِصَةً" حال منصوبة. "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بخالصة. "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "كَذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف نفصل الآيات تفصيلا مثل ذلك.. وجملة "نُفَصِّلُ" تعليلية لا محل لها من الإعراب وجملة "يَعْلَمُونَ" صفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 33]

(224/262)

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة. "حَرَّمَ" ماض فاعله مستتر "رَبِّيَ" فاعل حرم مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم، والياء في محل جر بالإضافة. "الْفَواحِشَ"

مفعول به . "ما ظَهَرَ مِنْها" ما اسم موصول مبني على السكون في محل نصب بدل من الفواحش وجملة ظهر صلة الموصول لا محل لها . "وَما بَطَنَ" عطف . "وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ" عطف على الفواحش . "بِغَيْرِ" متعلقان بالبغي . "الْحَقِّ" مضاف إليه ، وجملة "إِنَّما حَرَّمَ" مقول القول . "وَأَنْ تُشْرِكُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل ، والمصدر المؤول معطوف أيضا حرم ربي الفواحش والشرك .

"بِاللَّهِ" متعلقان بتشركوا . "ما" اسم موصول مفعول به "لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً" مضارع مجزوم تعلق به الجار والمجرور وسلطانا مفعوله والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَأَنْ تَقُولُوا" المصدر المؤول معطوف تقديره حرم الشرك وقول ما لا تعلمون . "عَلَى" حرف جر "اللَّهِ" لفظ الجلالة في محل جر متعلقان بالفعل قبلهما "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به وجملة "لا تَعْلَمُونَ" صلته .

[سورة الأعراف (7) : آية 34]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

"وَلِكُلِّ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم. "أُمَّةٍ" مضاف إليه "أَجَلٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "فَإِذا" الفاء استئنافية. "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة وجملة "جاءَ أَجَلُهُمْ" في محل جر بالإضافة. "لا يَسْتَأْخِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله. "ساعَةً" ظرف زمان والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. وجملة "وَلا يَسْتَقْدِمُونَ" عطف.

[سورة الأعراف (7) : آية 35]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35)

"يا بَنِي آدَمَ" سبق اعرابها "إِمَّا" إن شرطية جازمة، ما زائدة. "يَأْتِيَنَّكُمْ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم، والكاف مفعوله "رُسُلٌ" فاعله والجار والمجرور "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة "رُسُلٌ"، والجملة مستأنفة. "يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله وآياتي مفعوله منصوب بالكسرة والياء في محل جر بالإضافة. والجملة في محل رفع صفة رسل. "فَمَنِ" من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، والفاء رابطة لجواب الشرط، "اتَّقى" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة وهو في محل جزم فعل الشرط ومثله "أَصْلَحَ". "فَلا" الفاء رابطة لجواب الشرط، ولا نافية لا عمل لها. "خَوْفٌ" مبتدأ. "عَلَيْهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة في محل جزم جواب الشرط، وجملة "فَمَنِ اتَّقى" استئنافية. "هُمْ" ضمير منفصل في محل رفع

مبتدأ وجملة "يَحْزَنُونَ" في محل رفع خبره وجملة "وَلا هُمْ" معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 36]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36)

(226/262)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ. "كَذَّبُوا بِآياتِنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة صلة الموصول وجملة "اسْتَكْبَرُوا عَنْها" معطوفة. "أُولئِكَ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. "أَصْحابُ" خبره وجملة "أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ" في محل رفع خبر المبتدأ الذين. "هُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ. "فِيها" متعلقان بالخبر المؤخر "خالِدُونَ" والجملة الاسمية في محل نصب حال. وجملة "الَّذِينَ" معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 37]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37)

"فَمَنْ" من اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، والفاء استئنافية . "أَظْلَمُ" خبره ، "مِمَّنِ" اسم موصول مبني على السكون في محل جر بمن والجار والمجرور متعلقان بأظلم . "افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وكذبا مفعوله والجملة صلة الموصول . وجملة "أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ" معطوفة . "أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ . "يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ" مضارع ومفعوله وفاعله من الكتاب متعلقان بمحذوف حال من نصيبهم . والجملة الفعلية خبر أولئك . "حَتَّى" حرف غاية وجر . "إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا" فعل ماض ومفعوله وفاعله والتاء للتأنيث والجملة في محل جر بالإضافة . "يَتَوَفَّوْنَهُمْ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله والجملة في محل نصب حال . وجملة "قالُوا" لا محل لها جواب شرط غير جازم . "أَيْنَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم ، "ما كُنْتُمْ" ما اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر ، كنتم كان والتاء اسمها وجملة "تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" خبرها "قالُوا" الجملة مستأنفة لا محل لها وجملة "ضَلُّوا عَنَّا" مقول القول ، وجملة "شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ" معطوفة . "أَنَّهُمْ" أن واسمها وجملة "كانُوا كافِرِينَ" خبرها . وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر ، شهدوا على

أنفسهم بكفرهم ، والجار والمجرور متعلقان بشهدوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 38]

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38)

(228/262)

"قالَ" الجملة مستأنفة "ادْخُلُوا" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور "فِي أُمَمٍ" مبني على حذف النون والواو فاعله ، والجملة مقول القول . "قَدْ خَلَتْ" قد حرف تحقيق وفعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده ،

مبني على الفتحة المقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ، والتاء للتأنيث والجملة في محل جر صفة لأمم . "مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" متعلقان بمحذوف صفة لأمم . "فِي النَّارِ" متعلقان بالفعل ادخلوا "كُلَّما" ظرفية زمانية تفيد معنى الشرط ، وجملة "دَخَلَتْ أُمَّةٌ" في محل جر بالإضافة وجملة "لَعَنَتْ أُخْتَها" لا محل لها جواب شرط غير جازم ، "حَتَّى" حرف غاية وجر . "إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة .

"ادَّارَكُوا" فعل ماض مبني على الضم والواو فاعله. "فِيها" متعلقان بادارَكوا. "جَمِيعاً" حال والجملة في محل جر بالإضافة. "قالَتْ" فعل ماض. "أُخْراهُمْ" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر. هم ضمير متصل في محل جر بالإضافة. "لِأُولاهُمْ" اسم مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف للتعذر والجار والمجرور متعلقان بالفعل قالت. والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم.

"رَبَّنا" منادى مضاف منصوب، ونا في محل جر بالإضافة. "هؤُلاءِ" اسم اشارة في محل رفع مبتدأ مبني على الكسرة. "أَضَلُّونا" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل رفع خبر المبتدأ. "فَآتِهِمْ" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة، لأنه معتل الآخر، والهاء مفعوله الأول والميم للجمع. والفاء قبله هي الفصيحة. "عَذاباً" مفعوله الثاني "ضِعْفاً" صفة لعذاب. "مِنَ النَّارِ" متعلقان بمحذوف صفة ثانية لعذاب، وجملة "آتهم" لا محل لها جواب شرط مقدر. "قالَ" الجملة مستأنفة "لِكُلٍّ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ "ضِعْفٌ" والجملة مفعول به لقال "وَلكِنْ" حرف استدراك والواو حالية.

وجملة "لا تَعْلَمُونَ" في محل نصب حال.

(229/262)

[سورة الأعراف (7) : آية 39]

وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

"وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ" تقدم إعرابها في الآية السابقة. "فَما" الفاء زائدة، ما نافية. "كانَ" ماض ناقص "لَكُمْ عَلَيْنا" متعلقان بمحذوف خبر كان. "مِنْ فَضْلٍ" من حرف جر زائد، فضل اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه اسم كان والجملة مقول القول مفعول به. "فَذُوقُوا" الفاء هي الفصيحة، والجملة الفعلية "ذوقوا الْعَذابَ" جواب شرط مقدر لا محل لها إذا كان القول حاصلا فذوقوا العذاب . . . "بِما" ما موصولة أو مصدرية "كُنْتُمْ" الجملة صلة، وجملة "تَكْسِبُونَ" في محل رفع خبر كنتم.

[سورة الأعراف (7) : آية 40]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40)

"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" الذين اسم موصول اسم إن والجملة بعده صلة الموصول لا محل لها وجملة "اسْتَكْبَرُوا عَنْها" معطوفة عليها. "لا تُفَتَّحُ" مضارع مبني للمجهول و"أَبْوابُ" نائب فاعله. "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة في محل رفع خبر إن "وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله، لا نافية، والجملة معطوفة. "حَتَّى يَلِجَ" مضارع منصوب بأن المضمرة

بعد حتى ، والمصدر المؤول من الفعل

والحرف المصدري قبله في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بيدخلون .

"الْجَمَلُ" فاعل "فِي سَمِّ" متعلقان بالفعل يلج . "الْخِياطِ" مضاف إليه "وَكَذلِكَ" اسم الإشارة في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت لمصدر محذوف "نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ" جزاء مثل جزاء المكذبين . . .

(230/262)

"الْمُجْرِمِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 41]

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

"لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ "مِهادٌ" . "مِنْ جَهَنَّمَ" متعلقان بمحذوف خبر ثان . والجملة الاسمية في محل نصب حال أو مستأنفة لا محل لها . "مِنْ فَوْقِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "غَواشٍ" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة . "وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ" تقدم إعرابها في الآية السابقة . وجملة "وَمِنْ فَوْقِهِمْ" معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 42]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ وجملة "آمَنُوا" صلة الموصول لا محل لها . "وَعَمِلُوا" الجملة معطوفة "الصَّالِحاتِ" مفعول به لعملوا منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة الفعلية معطوفة "لا نُكَلِّفُ" مضارع ولا نافية . "نَفْساً" مفعول به أول . "إِلَّا" أداة حصر "وُسْعَها" مفعول به ثان والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والجملة اعتراضية "أُولئِكَ" اسم اشارة مبتدأ "أَصْحابُ" خبر والجملة الاسمية خبر الذي . "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "هُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "فِيها" متعلقان بالخبر "خالِدُونَ" خبره والجملة في محل نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : آية 43]

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

"وَنَزَعْنا" فعل ماض وفاعله . "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "فِي صُدُورِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول . "مِنْ غِلٍّ" متعلقان بمحذوف حال . والجملة معطوفة . "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والأنهار فاعله والجملة في محل نصب حال . "وَقالُوا" الجملة معطوفة "الْحَمْدُ" مبتدأ . "لِلَّهِ" متعلقان بمحذوف خبره والجملة مقول القول . "الَّذِي" اسم موصول في محل جر صفة . "هَدانا" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر ، وفاعله هو ونا مفعوله "لِهذا" متعلقان بهدانا . "وَما" ما نافية والواو استئنافية . "كُنَّا" كان ونا اسمها . "لِنَهْتَدِيَ" اللام لام الجحود ، نهتدي منصوب بأن المضمرة بعد لام الجحود ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر وما كنا ميسرين للاهتداء والجملة مستأنفة .

"لَوْلا" حرف شرط غير جازم . "أَنْ" حرف مصدري ونصب . "هَدانَا اللَّهُ" فعل ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع مبتدأ والخبر محذوف بعد لولا لولا هداية اللّه موجودة . . . "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم . قد حرف تحقيق "جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا" فعل ماض وفاعله ومضاف إليه "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال والجملة لا محل لها جواب القسم المقدر .

"وَنُودُوا" فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم والواو نائب فاعل "أَنْ" مفسرة أو مخففة من أن .

(232/262)

"تِلْكُمُ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ . واللام للبعد والكاف حرف خطاب والميم للجمع . "الْجَنَّةُ" بدل أو خبر وجملة "أُورِثْتُمُوها" في محل نصب حال فإن أعربت الجنة بدلا فجملة أورثتموها خبر المبتدأ "أُورِثْتُمُوها" فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل ، والتاء نائب فاعل ، والميم علامة جمع الذكور ، والواو لإشباع الضمة ، وها مفعول به . "بِما" ما موصولة ومتعلقان بالفعل "كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" كان والتاء اسمها والجملة خبرها .

[سورة الأعراف (7) : آية 44]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44)

(233/262)

"وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة. "أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا" أن تفسيرية أو مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف والجملة بعده خبر والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر المحذوف، والجار والمجرور متعلقان بالفعل نادى نادوا بوجدان ما وعد . . . وعلى اعتبارها تفسيرية فالجملة بعدها مفسرة لا محل لها. ما اسم موصول في محل نصب مفعول به وجملة وعدنا صلة الموصول لا محل لها. "رَبُّنا" فاعل "حَقًّا" مفعول به ثان. "فَهَلْ" هل حرف استفهام والفاء استئنافية وجملة "وَجَدْتُمْ" مستأنفة. "قالُوا" ماض وفاعله "نَعَمْ" حرف جواب وجملة "فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ" مستأنفة بعد الفاء. "بَيْنَهُمْ" ظرف زمان متعلق بأذن. "أَنْ" مخففة أو تفسيرية "لَعْنَةُ" خبر أن المخففة أو مبتدأ بعد أن التفسيرية. "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَلَى الظَّالِمِينَ" متعلقان بمحذوف خبر. والجملة الاسمية مفسرة أو المصدر المؤول من أن المخففة والفعل في محل جر. وأن الثانية مثل الأولى، والجملة خبرها.

[سورة الأعراف (7) : آية 45]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45)

"الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة للظالمين، "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بالفعل يصد، "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه وجملة "يَصُدُّونَ" صلة الموصول لا محل لها.

"وَيَبْغُونَهَا" مضارع مرفوع بثبوت النون ، والواو فاعله وها مفعوله . "عِوَجاً" حال منصوبة والجملة معطوفة . "وَهُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ ، والواو حالية . "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بالخبر بعدهما والجملة في محل نصب حال . "كافِرُونَ" خبر .

[سورة الأعراف (7) : آية 46]

(234/262)

وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)

"وَبَيْنَهُما" مفعول فيه ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم ، والهاء في محل جر بالإضافة ، وما للتثنية ، والواو استئنافية . "حِجابٌ" مبتدأ مؤخر ، والجملة الاسمية مستأنفة "وَعَلَى الْأَعْرافِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ "رِجالٌ" والجملة مستأنفة . "يَعْرِفُونَ كُلًّا" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور "بِسِيماهُمْ" والواو فاعله وكلا مفعوله ، والجملة في محل رفع صفة لرجال . "وَنادَوْا أَصْحابَ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة بعد الواو . "الْجَنَّةِ" مضاف إليه . "أَنْ" مخففة أو تفسيرية مثل أن في الآيات السابقة . "سَلامٌ" مبتدأ . "عَلَيْكُمْ" متعلقان بمحذوف خبره والجملة تفسيرية أو

خبرية. "لَمْ" جازمة "يَدْخُلُوها" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل وها مفعول به والجملة مستأنفة. "وَهُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة "يَطْمَعُونَ" خبر والجملة الاسمية في محل نصب حال بعد واو الحال.

[سورة الأعراف (7) : آية 47]

وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47)

"وَإِذا" إذا ظرف يتضمن معنى الشرط "صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والتاء للتأنيث. "تِلْقاءَ" ظرف مكان متعلق بصرفت "أَصْحابِ" مضاف إليه، "النَّارِ" مضاف إليه.

والجملة في محل جر بالإضافة بعد إذا الشرطية. "رَبَّنا" منادى مضاف منصوب بالفتحة ونا ضمير متصل في محل جر بالإضافة. "لا تَجْعَلْنا" مضارع للدعاء مجزوم، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به ولا ناهية جازمة. "مَعَ الْقَوْمِ" متعلقان بتجعلنا "الظَّالِمِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم، والجملة مفعول به.

[سورة الأعراف (7) : آية 48]

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48)

"وَنادى أَصْحابُ" فعل ماض وفاعل. "الْأَعْرافِ" مضاف إليه "رِجالًا" مفعول به والجملة مستأنفة "يَعْرِفُونَهُمْ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله والميم لجمع الذكور والجملة في محل نصب صفة. "بِسِيماهُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما. "قالُوا" الجملة تفسيرية "ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده وجمعكم فاعله، وما نافية لا عمل لها، والجملة مقول القول. "وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ" فعل ماض ناقص، والتاء اسمها، وما مصدرية والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها معطوف على جمعكم ما أغنى عنكم جمعكم ولا استكباركم. وجملة تستكبرون في محل رفع خبر كنتم.

[سورة الأعراف (7) : آية 49]

أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49)

"أَهؤُلاءِ" اسم إشارة مبني على الكسرة في محل رفع مبتدأ، والها للتنبيه والهمزة للاستفهام.

"الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر ، "أَقْسَمْتُمْ" فعل ماض وفاعله والجملة صلة الموصول . "لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والهاء مفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة لا محل لها جواب القسم ولا نافية لا عمل لها . "ادْخُلُوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله و "الْجَنَّةَ" مفعوله والجملة مقول القول لفعل محذوف يقول اللّه لهم ادخلوا الجنة . . . "لا خَوْفٌ" لا نافية ومبتدأ مرفوع . "عَلَيْكُمْ" متعلقان بمحذوف خبره والجملة في محل نصب حال . "وَلا أَنْتُمْ" أنتم ضمير منفصل في محل مبتدأ ولا نافية وجملة "تَحْزَنُونَ" خبره والجملة الاسمية ولا أنتم . . . معطوفة . . .

[سورة الأعراف (7) : آية 50]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50)

"وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ" فعل ماض وأصحاب الأولى فاعله وأصحاب الثانية مفعوله والنار مضاف إليه ، والجنة مضاف إليه ، والجملة مستأنفة . "أَنْ" مخففة من أن أو تفسيرية . "أَفِيضُوا" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور علينا "مِنَ الْماءِ" متعلقان بأفيضوا . "أَوْ" عاطفة "مِمَّا" مؤلفة من من وما الموصولية والجملة الفعلية "رَزَقَكُمُ اللَّهُ" صلة الموصول لا محل لها ، وجملة "قالُوا" مستأنفة لا محل لها .

"إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مقول القول وجملة "حَرَّمَهُما" في محل رفع خبر .

"عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بالفعل قبلهما .

[سورة الأعراف (7) : آية 51]

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51)

(237/262)

"الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر صفة للكافرين . "اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً" فعل ماض وفاعله ومفعولاه .

"وَلَعِباً" عطف والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَغَرَّتْهُمُ" فعل ماض مبني على الفتح ، والتاء للتأنيث والهاء مفعوله والميم لجمع الذكور . "الْحَياةُ" فاعل و"الدُّنْيا" صفة مرفوعة والجملة معطوفة . "فَالْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل "نَنْساهُمْ" والفاء استئنافية والجملة مستأنفة لا محل لها . "كَما" الكاف حرف جر وما مصدرية ، وهي مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف ننساهم نسيانا كائنا كنسيان لقاء يومهم هذا . "نَسُوا" ماض وفاعله "لِقاءَ" مفعول به

"يَوْمِهِمْ" مضاف إليه والهاء في محل جر بالإضافة. "هذا" اسم اشارة في محل جر بدل أو صفة. "وَما كانُوا" فعل ماض ناقص والواو اسمها وما مصدرية والمصدر المؤول معطوف على المصدر السابق وكونهم يجحدون "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل بعدهما. وجملة "يَجْحَدُونَ" في محل نصب خبر.

[سورة الأعراف (7) : آية 52]

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية، اللام واقعة في جواب القسم المقدر، قد حرف تحقيق. "جِئْناهُمْ" فعل ماض ونا فاعله والهاء مفعوله. "بِكِتابٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "فَصَّلْناهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر صفة لكتاب وجملة "جِئْناهُمْ" لا محل لها جواب القسم "عَلى عِلْمٍ" متعلقان بمحذوف حال من مفعول فصلناه أي فصلناه مشتملا على علم. "هُدىً" مفعول لأجله أو حال. "وَرَحْمَةً" عطف. "لِقَوْمٍ" متعلقان بالمصدر هدى أو برحمة. وجملة "يُؤْمِنُونَ" في محل جر صفة لقوم.

[سورة الأعراف (7) : آية 53]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53)

(239/262)

"هَلْ" حرف استفهام . "يَنْظُرُونَ" فعل مضارع والواو فاعله "إِلَّا" أداة حصر "تَأْوِيلَهُ" مفعوله . "إِلَّا" أداة حصر . "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل يقول "يَأْتِي تَأْوِيلُهُ" فعل مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "يَقُولُ الَّذِينَ" فعل مضارع واسم الموصول فاعله "نَسُوهُ" فعل ماض مبني على الضم والواو فاعله والهاء مفعوله . "مِنْ" حرف جر "قَبْلُ" ظرف زمان مبني على الضم لقطعه عن الإضافة في محل جر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل نسوه . "قَدْ جاءَتْ رُسُلُ" فعل ماض وفاعله والتاء للتأنيث . قد حرف تحقيق "رَبِّنا" مضاف إليه ، ونا ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل جاءت . "فَهَلْ" هل حرف استفهام والفاء للاستئناف "لَنا" متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "مِنْ" حرف جر زائد . "مِنْ شُفَعاءَ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ ، مجرور بالفتحة ممنوع من الصرف ، اسم مؤنث منته بألف ممدودة ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

"فَيَشْفَعُوا" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل معطوف على شفعاء هل لنا شفعاء فشفاعة منهم . "لَنا" متعلقان بالفعل "أَوْ" حرف عطف . "نُرَدُّ" فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل تقديره نحن ، والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير فهل من شفعاء أو هل نرد ؟ . "فَنَعْمَلَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، والمصدر المؤول معطوف على ما قبله . "غَيْرَ" مفعول به "الَّذِي" اسم موصول في محل جر بالإضافة . "كُنَّا" كان ونا اسمها وجملة "نَعْمَلُ" خبرها وجملة كنا صلة الموصول . "قَدْ" حرف تحقيق . "خَسِرُوا" فعل ماض وفاعل "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به والجملة مستأنفة . "وَضَلَّ عَنْهُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول "ما" فاعله وجملة "كانُوا" صلة الموصول وجملة "يَفْتَرُونَ" في

(240/262)

محل نصب خبر .

[سورة الأعراف (7) : آية 54]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي

اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54)

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ" إن واسمها ولفظ الجلالة خبرها . "الَّذِي" اسم موصول في محل رفع صفة . "خَلَقَ السَّماواتِ" فعل ماض ومفعوله "وَالْأَرْضَ" عطف "فِي سِتَّةِ" متعلقان بالفعل خلق "أَيَّامٍ" مضاف إليه . "ثُمَّ" عاطفة وجملة "اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ" معطوفة ، "يُغْشِي" فعل مضارع . "اللَّيْلَ" مفعول به أول "النَّهارَ" مفعول به ثان والجملة في محل نصب حال وكذلك جملة "يَطْلُبُهُ حَثِيثاً" حال . "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ" عطفت على السموات والأرض . . . "مُسَخَّراتٍ" حال منصوبة بالكسرة لأنها جمع مؤنث سالم . "بِأَمْرِهِ" متعلقان بمسخرات "أَلا" أداة استفتاح . "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "الْخَلْقُ" مبتدأ "وَالْأَمْرُ" عطف "تَبارَكَ اللَّهُ" فعل ماض جامد ولفظ الجلالة فاعله . "رَبُّ" صفة أو بدل "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء ، والجملتان مستأنفتان .

[سورة الأعراف (7) : آية 55]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55)

"ادْعُوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله . "رَبَّكُمْ" مفعوله "تَضَرُّعاً" حال منصوبة .

"وَخُفْيَةً" اسم معطوف . "إِنَّهُ" إن واسمها وجملة "لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" خبرها . والجملة

الاسمية "إِنَّهُ لا يُحِبُّ" مستأنفة وكذلك الجملة الفعلية "ادْعُوا رَبَّكُمْ" .

[سورة الأعراف (7) : آية 56]

(241/262)

وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)

"وَلا تُفْسِدُوا" فعل مضارع مجزوم بحذف النون لسبقه بلا الناهية الجازمة والواو فاعله والجملة معطوفة .

"فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل قبلهما وكذلك الظرف "بَعْدَ" متعلق بالفعل . "إِصْلاحِها" مضاف إليه .

"وَادْعُوهُ" فعل أمر مبني على حذف النون وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "خَوْفاً وَطَمَعاً" حالان ، "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ" إن واسمها وخبرها ولفظ الجلالة مضاف إليه ، "مِنَ الْمُحْسِنِينَ" متعلقان بقريب . وجملة "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ" تعليلية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 57]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ

فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)

"وَهُوَ" ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ ، واسم الموصول "الَّذِي" بعده خبره والجملة معطوفة . "يُرْسِلُ الرِّياحَ" فعل مضارع ومفعوله وفاعله هو "بُشْراً" حال والجملة صلة الموصول لا محل

(242/262)

لها . "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بيرسل . "يَدَيْ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى وحذفت النون للإضافة . و"رَحْمَتِهِ" مضاف إليه . "حَتَّى" حرف ابتداء . "إِذا" ظرفية شرطية . "أَقَلَّتْ سَحاباً" فعل ماض ومفعوله والتاء تاء التأنيث الساكنة و"ثِقالاً" صفة والجملة في محل جر بالإضافة "سُقْناهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "لِبَلَدٍ" متعلقان بسقناه "مَيِّتٍ" صفة . "فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله والماء مفعوله والجملة معطوفة . "فَأَخْرَجْنا بِهِ" ماض وفاعله وبه متعلقان بالفعل . "مِنْ كُلِّ" متعلقان بمفعول به محذوف أخرجنا أنواعا من كل "الثَّمَراتِ" "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "نُخْرِجُ الْمَوْتى" إخراجا مثل إخراج الثمر من الشجر الميت . . . "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" لعل والكاف اسمها

وجملة تذكرون خبرها وجملة لعلكم تذكرون تعليلية.

[سورة الأعراف (7) : آية 58]

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

"وَالْبَلَدُ" مبتدأ. "الطَّيِّبُ" صفة. "يَخْرُجُ نَباتُهُ" فعل مضارع وفاعل والجملة في محل رفع خبر المبتدأ.

"بِإِذْنِ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول به محذوف يخرج طيبا بإذن اللّه. "رَبِّهِ" مضاف إليه. والجملة الاسمية والبلد . . . مستأنفة. "وَالَّذِي" اسم موصول مبتدأ وجملة "لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً" خبره وجملة "خَبُثَ" صلة الموصول لا محل لها. "إِلَّا" أداة حصر "نَكِداً" حال. "كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ" تقدم إعرابها وجملة "يَشْكُرُونَ" في محل جر صفة لقوم. والجار والمجرور لقوم متعلقان بنصرّف.

[سورة الأعراف (7) : آية 59]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، قد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا نُوحاً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "إِلى قَوْمِهِ" ونا فاعله ونوحا مفعوله والجملة مستأنفة . "فَقالَ" الجملة معطوفة "يا قَوْمِ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "اعْبُدُوا اللَّهَ" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة مقول القول . "ما" نافية لا عمل لها . "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "مِنْ" حرف جر زائد . "إِلهٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "غَيْرُهُ" صفة إله على المحل مرفوعة بالضمة ، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب . "إِنِّي" إن والياء اسمها . "أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور وعذاب مفعوله . "يَوْمٍ" مضاف إليه . "عَظِيمٍ" صفة . والجملة في محل رفع خبر إن .

[سورة الأعراف (7) : آية 60]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60)

"قالَ الْمَلَأُ" فعل ماض وفاعل . "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال من الملأ والجملة مستأنفة . "إِنَّا" إن ونا اسمها . "لَنَراكَ" اللام المزحلقة ونراك فعل مضارع مرفوع بالضمة

المقدرة على الألف فاعله مستتر والكاف مفعوله ، "فِي ضَلالٍ" متعلقان بالفعل قبلهما .

"مُبِينٍ" صفة والجملة خبر إنا وجملة إنا . . مقول القول .

[سورة الأعراف (7) : آية 61]

قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61)

(244/262)

"قالَ يا قَوْمِ" سبق اعرابها "لَيْسَ" فعل ماض ناقص ، و"بِي" متعلقان بمحذوف خبرها و"ضَلالَةٌ" اسمها والجملة مفعول به . "وَلكِنِّي" حرف مشبه بالفعل والياء اسمها و"رَسُولٌ" خبرها وقد تعلق به الجار والمجرور بعده "مِنْ رَبِّ" . "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، والجملة الاسمية معطوفة ، وجملة قال مستأنفة كالتي سبقتها .

[سورة الأعراف (7) : آية 62]

أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62)

"أُبَلِّغُكُمْ" فعل مضارع والكاف مفعوله الأول ، والميم علامة جمع الذكور "رِسالاتِ" مفعول به ثان منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم . "رَبِّي" مضاف إليه مجرور

بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء في محل جر بالإضافة ، والجملة في محل جر صفة لرسول . "وَأَنْصَحُ لَكُمْ" الجملة الفعلية معطوفة وكذلك جملة "وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ" . . . "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به وجملة "لا تَعْلَمُونَ" صلته .

[سورة الأعراف (7) : آية 63]

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)

"أَوَعَجِبْتُمْ" فعل ماض مبني على السكون ، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل ، والميم علامة جمع الذكور ، والواو عاطفة والهمزة للاستفهام ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة أكذبتم وعجبتم . . "أَنْ" حرف مصدري ونصب . "جاءَكُمْ" فعل ماض والكاف مفعول به ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر أو عجبتم لمجيء رجل منكم ؟ "ذِكْرٌ" فاعل جاءكم "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل جاءكم .

"عَلى رَجُلٍ" متعلقان بمحذوف صفة لذكر "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لرجل .

"لِيُنْذِرَكُمْ" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والكاف مفعوله ، والمصدر

المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل جاء "وَلِتَتَّقُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعله ، والمصدر المؤول معطوف على المصدر قبله للإنذار والتقوى . "وَلَعَلَّكُمْ" حرف مشبه بالفعل ، والكاف اسمها ، والميم لجمع الذكور "تُرْحَمُونَ" فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعله ، والجملة في محل رفع خبر ، وجملة لعلكم ترحمون تعليلية لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأعراف (7) : آية 64]

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64)

"فَكَذَّبُوهُ" فعل ماض مبني على الضم ، والواو فاعله ، والهاء مفعوله ، والجملة مستأنفة بعد الفاء ، "فَأَنْجَيْناهُ" فعل ماض مبني على السكون ونا فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة . "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على ضمير النصب الهاء . "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول . "فِي الْفُلْكِ" متعلقان بالفعل أنجينا . "وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة . "كَذَّبُوا بِآياتِنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ، والواو فاعله والجملة صلة الموصول "إِنَّهُمْ" إن والهاء اسمها والميم لجمع الذكور . "كانُوا قَوْماً" كان واسمها وخبرها . "عَمِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم ، والجملة في

محل رفع خبر إن. والجملة الاسمية إنهم . . . تعليلية لا محل لها من الإعراب.

[سورة الأعراف (7) : آية 65]

(246/262)

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65)

"وَإِلى عادٍ" متعلقان بفعل محذوف تقديره وأرسلنا والجملة المقدرة معطوفة "أَخاهُمْ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة، والهاء في محل جر بالإضافة، "هُوداً" بدل منصوب. "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ" تقدم إعرابها في الآية 59 جملة قال مستأنفة لا محل لها "أَفَلا" الهمزة للإستفهام. والفاء عاطفة، ولا نافية لا عمل لها وجملة "تَتَّقُونَ" معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 66]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (66)

"قالَ الْمَلَأُ" فعل ماض وفاعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع صفة، والجملة مستأنفة لا محل لها وجملة "كَفَرُوا" صلة. "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال من الملأ "إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ" تقدم إعراب مثلها في الآية 60. "وَإِنَّا" إن واسمها. "لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ" فعل

مضارع تعلق به الجار والمجرور والكاف مفعوله.

والجملة في محل رفع خبر إن، واللام المزحلقة.

[سورة الأعراف (7) : آية 67]

قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (67)

تقدم إعراب مشابه في الآية 61

[سورة الأعراف (7) : آية 68]

أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (68)

ينظر في إعرابها الآية 62 - "وَأَنَا" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ. "لَكُمْ" متعلقان بالخبر "ناصِحٌ". "أَمِينٌ" صفة أو خبر ثان والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 69]

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69)

"أَوَعَجِبْتُمْ" ينظر في إعرابها الآية 63. "وَاذْكُرُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو

فاعله . "إِذْ" بمعنى وقت مبني على السكون في محل نصب مفعول به . والجملة معطوفة بالواو على جملة مقدرة أي لا تعجبوا واذكروا . . . "جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ" فعل ماض والكاف مفعوله الأول و"خُلَفاءَ" مفعوله الثاني "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بمحذوف صفة لخلفاء . "قَوْمِ" مضاف إليه . و"نُوحٍ" مضاف إليه والجملة في محل جر بالإضافة . و"زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والكاف مفعوله الأول وبصطة مفعوله الثاني أو هي تمييز والجملة معطوفة . "فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ" فعل ماض وفاعله ومفعوله واللّه لفظ الجلالة مضاف إليه ، والفاء هي الفصيحة أي إذا عرفتم ذلك فاذكروا آلاء اللّه ، والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر . وجملة "تُفْلِحُونَ" خبر لعل ، وجملة "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" تعليلية لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأعراف (7) : آية 70]

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70)

"قالُوا" فعل ماض والواو فاعله . "أَجِئْتَنا" فعل ماض مبني على السكون والتاء فاعله ، ونا مفعوله ، والهمزة للاستفهام والجملة مقول القول . "لِنَعْبُدَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به . "وَحْدَهُ" حال منصوبة والهاء في محل جر بالإضافة . "وَنَذَرَ" عطف على نعبد . "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به . "كانَ" فعل ماض ناقص . "يَعْبُدُ آباؤُنا" فعل مضارع وفاعله وقد وقع التنازع بين كان التي تطلب اسما ويعبد الذي يطلب فاعلا . وجملة كان صلة الموصول لا محل لها وجملة "يَعْبُدُ آباؤُنا" في محل نصب خبر . "فَأْتِنا" فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره ، لأنه معتل الآخر وفاعله أنت ونا مفعوله ، والفاء هي الفصيحة إذا كان قولك صحيحا فآتنا بما تعدنا . . . "بِما" اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "تَعِدُنا" فعل مضارع ومفعوله والجملة صلة . "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتَ" فعل ماض ناقص والتاء اسمه والفعل في محل جزم فعل الشرط . "مِنَ الصَّادِقِينَ" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص ، وجملة كنت ابتدائية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 71]

قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ

وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71)

"قال قَدْ وَقَعَ" سبق اعراب مثلها "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل وقع . "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف حال

(249/262)

من رجس كان صفة له فلما تقدم عليه صار حالا . "رِجْسٌ" فاعل "وَغَضَبٌ" معطوف .

"أَتُجادِلُونَنِي" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والياء مفعوله ، والنون الأولى للوقاية والهمزة للإستفهام .

"فِي أَسْماءٍ" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة مستأنفة لا محل لها وجملة قد وقع عليكم مقول القول . . . "سَمَّيْتُمُوها" فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل المتحركة ، والتاء في محل رفع فاعل والميم علامة جمع الذكور ، وقد أشبعت ضمتها إلى الواو . "أَنْتُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع توكيد لتاء الفاعل في سميتموها "وَآباؤُكُمْ" اسم معطوف .

"ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ولفظ الجلالة فاعله "مِنْ سُلْطانٍ" مفعوله ومن حرف جر زائد والجملة في محل جر صفة لأسماء ، وكذلك جملة سميتموها قبلها .

"فَانْتَظِرُوا" الفاء هي الفصيحة ، انتظروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل

والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم مقدر إذا أشركتم فانتظروا . "إِنِّي" إن واسمها . "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بالمنتظرين بعده والكاف في محل جر بالإضافة . "مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إني ، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأعراف (7) : آية 72]

فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

(250/262)

"فَأَنْجَيْناهُ" فعل ماض مبني على السكون ، ونا فاعله والهاء مفعوله والجملة مستأنفة بعد الفاء ، "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على الضمير المنصوب . "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول والتقدير والذين آمنوا معه . والهاء في محل جر بالإضافة . "بِرَحْمَةٍ" متعلقان بالفعل أنجينا . "مِنَّا" متعلقان بمحذوف صفة لرحمة . "وَقَطَعْنا" فعل ماض وفاعله "دابِرَ" مفعوله والجملة معطوفة ، "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر بالإضافة . "كَذَّبُوا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده "بِآياتِنا" والواو فاعله ، والجملة صلة الموصول . . . "وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ" كان واسمها وخبرها وما نافية والجملة مستأنفة لا محل

لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 73]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73)

"وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً" هذا كقوله تعالى في الآية 64 "وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً" الذي تقدم في السورة . "قَدْ جاءَتْكُمْ" فعل ماض والتاء للتأنيث والكاف مفعول به والميم للجمع "بَيِّنَةٌ" فاعل مرفوع .

"مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة بينة . "هذِهِ" اسم إشارة مبني على الكسرة في محل رفع مبتدأ .

"ناقَةُ" خبر "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور . "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف حال لآية لأنه تقدم عليه .

"آيَةً" حال من ناقة منصوبة . والجملة الاسمية "هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ" استئنافية أو مفسرة ل بينة قبلها .

"فَذَرُوها" الفاء هي الفصيحة ، ذروها فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم مقدر إذا ثبت ذلك فذروها "تَأْكُلْ" فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر ، تعلق به الجار والمجرور وفاعله مستتر "فِي أَرْضِ" ، "اللَّهَ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة لا محل لها جواب شرط لم يقترن بالفاء أو إذ الفجائية . "وَلا تَمَسُّوها" مضارع مجزوم بحذف النون لسبقه بلا الناهية الجازمة ، والواو فاعله والهاء مفعوله "بِسُوءٍ" متعلقان بالفعل قبلهما ، والجملة معطوفة . "فَيَأْخُذَكُمْ" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، والكاف مفعوله . والمصدر المؤول من أن والفعل معطوف على مصدر مقدر قبله "عَذابٌ" فاعل "أَلِيمٌ" صفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 74]

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ" تقدم إعرابها في الآية 69 "وَبَوَّأَكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده "فِي الْأَرْضِ" . والكاف مفعوله والفاعل ضمير مستتر والجملة معطوفة على جملة جعلكم ، "تَتَّخِذُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله . "مِنْ سُهُولِها" جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من قصورا ، كان صفة فلما تقدم صار حالا "قُصُوراً" مفعول به ، والجملة في محل نصب حال . "وَتَنْحِتُونَ" فعل مضارع وفاعله . "الْجِبالَ" مفعول به أول . "بُيُوتاً" مفعول به ثان . أو الجبال منصوب بنزع الخافض أي من الجبال . . . والجملة معطوفة . "فَاذْكُرُوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله والفاء هي الفصيحة . "آلاءَ" مفعوله . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم إذا كان ذلك حقا . . . "وَلا تَعْثَوْا" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعل . "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف حال من مفسدين بعدهما . "مُفْسِدِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأعراف (7) : آية 75]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75)

"قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا" ينظر في إعرابها الآية 66 . "لِلَّذِينَ" اللام حرف جر ، الذين اسم موصول مبني على السكون في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قال . "اسْتُضْعِفُوا" فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم ، والواو نائب فاعل . والجملة صلة الموصول لا محل لها . "لِمَنْ" اللام حرف جر ، من اسم موصول مبني على السكون في محل جر باللام ، والجار والمجرور بدل من للذين قبلهما . "آمَنَ" فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى من . "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل آمن والجملة صلة الموصول . "أَتَعْلَمُونَ" فعل مضارع والواو فاعله ، والهمزة للاستفهام والجملة مقول القول . "أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ" أن واسمها وخبرها ، وهما في تأويل مصدر مسد مفعولي علم . "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان باسم المفعول مرسل . "قالُوا" جملة مستأنفة . "إِنَّا" إن واسمها . "بِما" متعلقان بالفعل . "أُرْسِلَ" فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب فاعله ضمير مستتر تقديره هو . "بِهِ" متعلقان بأرسل والجملة صلة الموصول . والجملة الاسمية إنا . . . مؤمنون مفعول به بعد القول . "بِهِ" متعلقان بالخبر "مُؤْمِنُونَ" خبر .

[سورة الأعراف (7) : آية 76]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76)

"قالَ الَّذِينَ" فعل ماض واسم الموصول بعده فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها وجملة

"اسْتَكْبَرُوا" صلة الموصول لا محل لها . "إِنَّا" إن ونا المدغمة اسمها "بِالَّذِي" متعلقان بالخبر "آمَنْتُمْ" فعل ماض ، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل . والميم لجمع الذكور ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "بِهِ" متعلقان بالفعل "كافِرُونَ" خبر والجملة الاسمية إنا بالذي آمنتم به كافرون مفعول به بعد القول .

[سورة الأعراف (7) : آية 77]

(254/262)

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77)

"فَعَقَرُوا النَّاقَةَ" فعل ماض وفاعله ومفعوله ، والجملة مستأنفة . "وَعَتَوْا" فعل ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة ، والواو فاعل . "عَنْ أَمْرِ" متعلقان بالفعل قبلهما . "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والجملة معطوفة . "يا صالِحُ" يا أداة نداء ، صالح منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب "ائْتِنا بِما تَعِدُنا . . " تقدم إعرابها في الآية 70

[سورة الأعراف (7) : آية 78]

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78)

"فَأَخَذَتْهُمُ" فعل ماض مبني على الفتح ، والتاء للتأنيث ، والهاء مفعول به والميم لجمع الذكور .

"الرَّجْفَةُ" فاعل والجملة معطوفة . "فَأَصْبَحُوا" فعل ماض ناقص ، والواو اسمها . "فِي دارِهِمْ" متعلقان بالخبر "جاثِمِينَ" المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 79]

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

"فَتَوَلَّى" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف ، تعلق به الجار والمجرور بعده ، والجملة معطوفة . "يا قَوْمِ" منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا . "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المقدر واللّه لقد أبلغتكم ، قد حرف تحقيق . "أَبْلَغْتُكُمْ" فعل ماض مبني على السكون ، والتاء فاعله والكاف مفعوله الأول و"رِسالَةَ" مفعوله الثاني . "رَبِّي" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة ، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم المقدر . وجملة يا قوم لقد أبلغتكم . . . مقول القول . وجملة "نَصَحْتُ" لكم

معطوفة . "وَلكِنْ" حرف استدراك . "لا تُحِبُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله ، ولا نافية لا عمل لها . "النَّاصِحِينَ" مفعول به منصوب بالياء ، والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 80]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80)

"وَلُوطاً" مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب . "قالَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده "لِقَوْمِهِ" والجملة في محل جر بالإضافة ، وجملة اذكر لوطا معطوفة . "أَتَأْتُونَ" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، والواو فاعل والهمزة للاستفهام . "الْفاحِشَةَ" مفعول به والجملة مقول القول . "ما سَبَقَكُمْ" فعل ماض والكاف مفعوله والميم علامة جمع الذكور ، ما نافية لا عمل لها . "بِها" متعلقان بالفعل قبلهما . "مِنْ أَحَدٍ" من حرف جر زائد ، أحد اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل . "مِنَ الْعالَمِينَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة أحد . والجملة الفعلية في محل نصب حال من الفاحشة .

[سورة الأعراف (7) : آية 81]

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81)

"إِنَّكُمْ" إن والكاف اسمها والميم للجمع . "لَتَأْتُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله

، واللام هي المزحلقة . "الرِّجالَ" مفعول به والجملة في محل رفع خبر إن . "شَهْوَةً" مفعول لأجله منصوب أو حال "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال من الرجال . "النِّساءِ" مضاف إليه . "بَلْ" حرف إضراب .

"أَنْتُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ . "قَوْمٌ" خبر ، "مُسْرِفُونَ" صفة مرفوعة بالواو ، والنون عوضا عن التنوين في الاسم المفرد . والجملة الاسمية مستأنفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 82]

(256/262)

وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82)

"وَما" الواو استئنافية ما نافية . "كانَ" فعل ماض ناقص . "جَوابَ" خبرها مقدم . "قَوْمِهِ" مضاف إليه ، والهاء في محل جر بالإضافة . "إِلَّا" أداة حصر . "أَنْ" حرف مصدري ونصب . "قالُوا" فعل ماض ، والواو فاعله وهو في محل نصب بأن ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل رفع اسم كان .

"أَخْرِجُوهُمْ" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله والهاء مفعوله والميم علامة جمع الذكور .

"مِنْ قَرْيَتِكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما ، والجملة مفعول به . "إِنَّهُمْ" إن والهاء اسمها . "أُناسٌ" خبرها .

والجملة تعليلية لا محل لها "يَتَطَهَّرُونَ" فعل مضارع وفاعله والجملة في محل رفع خبر إن .

[سورة الأعراف (7) : آية 83]

فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83)

"فَأَنْجَيْناهُ" فعل ماض مبني على السكون ، وفاعله ومفعوله ، والجملة مستأنفة . "وَأَهْلَهُ" اسم معطوف على ضمير النصب ، والهاء في محل جر بالإضافة . "إِلَّا" أداة استثناء . "امْرَأَتَهُ" مستثنى منصوب والهاء في محل جر بالإضافة . "كانَتْ" فعل ماض ناقص ، واسمها ضمير مستتر تقديره هي . "مِنَ الْغابِرِينَ" متعلقان بمحذوف خبر . والجملة في محل نصب حال من امرأته .

[سورة الأعراف (7) : آية 84]

وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

"وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "عَلَيْهِمْ" ، ونا فاعله ، و"مَطَراً" مفعوله ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم إذا كان ذلك حاصلا "فَانْظُرْ" . . . "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم . "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها . "الْمُجْرِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجملة في محل نصب مفعول به للفعل انظر . . .

[سورة الأعراف (7) : آية 85]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)

(258/262)

"وَإِلى مَدْيَنَ" مدين اسم مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ، اسم علم أعجمي ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل المحذوف أرسلنا . "أَخاهُمْ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة . والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة والميم علامة جمع الذكور . "شُعَيْباً" بدل منصوب ، والجملة معطوفة . "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ" تقدم نظيرها في الآية 59 "قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ" فعل ماض ومفعوله وفاعله . "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة

من بينة . "فَأَوْفُوا الْكَيْلَ" فعل أمر وفاعله ومفعوله والفاء هي الفصيحة ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَلا تَبْخَسُوا" مضارع مجزوم بلا والواو فاعل و"النَّاسَ" مفعول به أول "أَشْياءَهُمْ" مفعول به ثان والجملة معطوفة . "وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" لا ناهية وفعل مضارع مجزوم "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بتفسدوا . "إِصْلاحِها" مضاف إليه "ذِلِكُمْ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، واللام للبعد والكاف للخطاب . "خَيْرٌ" خبر و"لَكُمْ" متعلقان بخير ، والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

"إِنْ" حرف شرط جازم ، "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها . "مُؤْمِنِينَ" خبرها منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم .

والجملة استئنافية . وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

[سورة الأعراف (7) : آية 86]

وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)

"وَلا تَقْعُدُوا" لا ناهية وفعل مضارع مجزوم تعلق به الجار والمجرور بعده "بِكُلِّ" . "صِراطٍ" مضاف .

"تُوعِدُونَ" فعل مضارع وفاعله والجملة في محل نصب حال وجملة "وَتَصُدُّونَ" معطوفة عليها . "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مَنْ" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به والجملة الفعلية "آمَنَ بِهِ" صلة الموصول لا محل لها "وَتَبْغُونَهَا" فعل مضارع وفاعله

نصب مفعول به والجملة الفعلية "آمَنَ بِهِ" صلة الموصول لا محل لها "وَتَبْغُونَهَا" فعل مضارع وفاعله ومفعوله ، "عِوَجاً" حال والجملة معطوفة فهي في محل نصب حال كذلك .

"وَاذْكُرُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة على جملة لا تقعدوا . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب . "كُنْتُمْ قَلِيلًا" ، كان واسمها وخبرها والجملة في محل جر بالإضافة . "فَكَثَّرَكُمْ" فعل ماض والكاف مفعول به والجملة معطوفة "وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" تقدم إعرابها في الآية 84 .

[سورة الأعراف (7) : آية 87]

وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87)

"وَإِنْ" الواو استئنافية ، إن حرف شرط جازم يجزم فعلين مضارعين . "كانَ" فعل ماض ناقص ، مبني على الفتحة الظاهرة وهو في محل جزم فعل الشرط . "طائِفَةٌ" اسمها .

"مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة طائفة ، "آمَنُوا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "بِالَّذِي" ، والجملة في محل نصب خبر كان .

"أُرْسِلْتُ" فعل ماض مبني للمجهول ، مبني على السكون ، والتاء ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل ، والجملة صلة الموصول ، "بِهِ" متعلقان بأرسلت . "وَطَائِفَةٌ" اسم معطوف على طائفة الأولى .

(260/262)

"لَمْ يُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة في محل رفع صفة طائفة . "فَاصْبِرُوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعل ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، والجملة في محل جزم جواب الشرط . "حَتَّى" حرف غاية وجر . "يَحْكُمَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بالفعل اصبروا . "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل . "بَيْنَنَا" ظرف متعلق بالفعل قبله . "وَهُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ ، والواو حالية . "خَيْرُ" خبر . "الْحَاكِمِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم . والجملة الاسمية في محل نصب حال . والله أعلم .

[سورة الأعراف (7) : آية 88]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88)

"قالَ الْمَلَأُ" فعل ماض وفاعله. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع صفة. "اسْتَكْبَرُوا" فعل ماض وفاعله. "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال من فاعل استكبروا، والجملة صلة الموصول.

(261/262)

"لَنُخْرِجَنَّكَ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف مفعول به، واللام واقعة في جواب القسم المقدر، والجملة لا محل لها جواب القسم. "يا شُعَيْبُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب. "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح معطوف على الكاف في لنخرجنك. "آمَنُوا" فعل ماض مبني على الضم متعلق به الظرف "مَعَكَ" بعده. والواو فاعله "مِنْ قَرْيَتِنا" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة صلة الموصول "أَوْ" حرف عطف. "لَتَعُودُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم تعودن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وأصلها تعودون ثم اتصلت به نون التوكيد الثقيلة فأصبح تعودونن ومن ثم حذفت

النون الأولى لكراهة توالي النونات فصار تعودون ثم حذفت الواو الساكنة منعا من التقاء الساكنين ، وبقيت الضمة دليلا عليها ، والواو فاعل إذا كان معنى تعودن ترجعن . ويمكن أن نعرب تعودون فعل مضارع ناقص بمعنى تصيرن والواو اسمها والجار والمجرور بعدها متعلقان بمحذوف خبرها ، والجملة معطوفة على جملة لنخرجنك يا شعيب "فِي مِلَّتِنا" متعلقان بالفعل قبلهما . "قالَ" الجملة مستأنفة "أَوَلَوْ" الهمزة حرف استفهام . والواو حرف عطف . "لَوْ" حرف شرط غير جازم . "كُنَّا كارِهِينَ" كان واسمها ، و"كارِهِينَ" خبرها منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مفعول به وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه .

[سورة الأعراف (7) : آية 89]

قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89)

"قَدِ" حرف تحقيق . "افْتَرَيْنا" فعل ماض مبني على السكون ، تعلق به الجار والمجرور بعده "عَلَى اللَّهِ" ، و"نا" فاعله ، و"كَذِباً" مفعوله ، والجملة مستأنفة . "إِنْ" حرف شرط جازم . "عُدْنا" فعل ماض ، و"نا" فاعله ، وهو في محل جزم فعل الشرط – أو فعل ماض ناقص ، كما في الفعل أو لتعودنّ .

"فِي مِلَّتِكُمْ" متعلقان بالفعل عدنا .

"بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بالفعل عدنا كذلك . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون .

"نَجَّانَا" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف ، و(نا) ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به . "اللَّهِ" لفظ الجلالة فاعل "مِنْها" متعلقان بالفعل نجانا والجملة في محل جر بالإضافة "وَما يَكُونُ" الواو استئنافية وما نافية يكون فعل مضارع ناقص "لَنا" متعلقان بمحذوف خبر .

"أَنْ نَعُودَ" أن ناصبة ومضارع منصوب ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع اسم يكون .

"فِيها" متعلقان بالفعل نعود . "إِلَّا" أداة استثناء . "أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" فعل مضارع منصوب بأن ولفظ الجلالة فاعله . "رَبُّنا" بدل مرفوع . والمصدر المؤول في محل نصب على الاستثناء والتقدير ما يكون لنا أن نعود فيها إلا في حال مشيئة اللّه . "وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ" فعل ماض

وفاعله ومفعوله. "عِلْماً" تمييز منصوب، والجملة مستأنفة. "عَلَى اللَّهِ" متعلقات بتوكلنا "تَوَكَّلْنا" فعل ماض مبني على السكون، ونا فاعله. "رَبَّنا" منادى مضاف، و(نا) مضاف إليه. "افْتَحْ" فعل دعاء والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. "بَيْنَنا" ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. "وَبَيْنَ" عطف. "قَوْمِنا" مضاف إليه مجرور و(نا) في محل جر بالإضافة. "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل افتح، والجملة مستأنفة. "وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ" الجملة الاسمية في محل نصب حال. "الْفاتِحِينَ" مضاف إليه.

[سورة الأعراف (7) : آية 90]

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90)

"وَقالَ الْمَلَأُ" . . . تقدم إعرابها في الآية 88. "لَئِنِ" اللام موطئة للقسم. "إن" شرطية جازمة.

"اتَّبَعْتُمْ" فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله والميم لجمع الذكور. "شُعَيْباً" مفعول به، والجملة مقول القول. "إِنَّكُمْ" إن حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها، والميم للجمع. "إِذاً" حرف جواب وجزاء. "لَخاسِرُونَ" خبر مرفوع وعلامة رفعه الواو، والنون عوضا

عن التنوين في الاسم المفرد ، واللام هي المزحلقة ، والجملة الاسمية لا محل لها جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة القسم عليه على القاعدة" إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للسابق منهما .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 91 الى 92]

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92)

"فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" تقدم إعرابها في الآية 78 . "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ . "كَذَّبُوا شُعَيْباً" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة صلة الموصول . "كَأَنْ" مخففة من كأن المشبهة بالفعل . واسمها ضمير الشأن محذوف . "لَمْ يَغْنَوْا" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل . "فِيهَا" متعلقان بيغنوا والجملة في محل رفع خبر كأن ، والجملة الاسمية كأن . . . في محل رفع خبر المبتدأ الذين . "كانُوا" فعل ماض ناقص والواو اسمها . "هُمُ" ضمير فصل لا محل له من الإعراب .

"الْخاسِرِينَ" خبر منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجملة خبر لاسم الموصول .

[سورة الأعراف (7) : آية 93]

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)

"فَتَوَلَّى عَنْهُمْ" . . . . تقدم إعرابها في الآية 79 . "فَكَيْفَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال . والفاء هي الفصيحة . "آسى " فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر ، وقد تعلق به الجار والمجرور بعده . "كافِرِينَ" صفة مجرورة بالياء ، والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر .

[سورة الأعراف (7) : آية 94]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94)

"وَما أَرْسَلْنا" الواو استئنافية ما نافية أرسلنا فعل ماض مبني على السكون ، متعلق به الجار والمجرور "فِي قَرْيَةٍ" و(نا) فاعله ، "مِنْ نَبِيٍّ" من حرف جر زائد . "نَبِيٍّ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به . "إِلَّا" أداة حصر . "أَخَذْنا" فعل ماض وفاعله . "أَهْلَها" مفعوله . "بِالْبَأْساءِ" متعلقان بالفعل .

"وَالضَّرَّاءِ" عطف . والجملة في محل نصب حال على تقدير قد قبلها وما أرسلنا . . . . إلا حال كوننا قد أخذنا . "لَعَلَّهُمْ" لعل والهاء اسمها وجملة "يَضَّرَّعُونَ" خبرها وجملة لعلهم تعليلية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 95]

ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (95)

(265/262)

"ثُمَّ" حرف عطف. "بَدَّلْنا" فعل ماض مبني على السكون و(نا) فاعله. "مَكانَ" مفعوله الأول "السَّيِّئَةِ" مضاف إليه. "الْحَسَنَةَ" مفعوله الثاني. "حَتَّى" حرف غاية وجر. "عَفَوْا" فعل ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعل. والمصدر المؤول من أن المضمرة بعد حتى والفعل في محل جر بحتى، والجار والمجرور متعلقان بالفعل بدلنا، وجملة بدلنا معطوفة. "وَقالُوا" معطوف على عفوا. "قَدْ" حرف تحقيق. "مَسَّ آباءَنَا" فعل ماض ومفعول به، "الضَّرَّاءُ" فاعل "وَالسَّرَّاءُ" عطف والجملة مقول القول. "فَأَخَذْناهُمْ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والفعل معطوف على عفوا. "بَغْتَةً" حال أو نائب مفعول مطلق. "وَهُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. وجملة "لا يَشْعُرُونَ" في محل رفع خبر وجملة وهم لا يشعرون في محل نصب حال.

[سورة الأعراف (7) : آية 96]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96)

"وَلَوْ" حرف شرط غير جازم ، الواو استئنافية . "أَنَّ أَهْلَ" أن واسمها "الْقُرى" مضاف إليه وجملة "آمَنُوا" خبرها . والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل رفع فاعل لفعل محذوف . والتقدير ولو ثبت إيمان أهل القرى . . . . "وَاتَّقَوْا" معطوفة على آمنوا . . . . "لَفَتَحْنا" اللام

(266/262)

واقعة في جواب الشرط . فتحنا فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده . "و نا" فاعله . "بَرَكاتٍ" مفعوله منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم . "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بمحذوف صفة لبركات . . والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَلكِنْ" حرف استدراك ، والواو عاطفة . "كَذَّبُوا" فعل ماض والواو فاعله والجملة معطوفة . "فَأَخَذْناهُمْ" فعل ماض وفاعله ومفعوله . "بِما" ما اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . أو ما مصدرية . . "كانُوا" فعل ماض ناقص ، والواو اسمها وجملة "يَكْسِبُونَ" خبر وجملة كانوا صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأعراف (7) : آية 97]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (97)

"أَفَأَمِنَ" فعل ماض ، والفاء عاطفة والهمزة للاستفهام ، والجملة معطوفة على جملة أخذناهم . "أَهْلُ" فاعل . "الْقُرى" مضاف إليه . "أَنْ يَأْتِيَهُمْ" مضارع منصوب والهاء مفعوله ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به والتقدير إتيان بأسنا . "بَأْسُنا" فاعل . "بَياتاً" ظرف زمان أو حال بمعنى بائتين . والجملة الاسمية "وَهُمْ نائِمُونَ" في محل نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : آية 98]

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98)

إعراب هذه الآية كسابقتها . "ضُحًى" ظرف زمان متعلق بالفعل قبله .

[سورة الأعراف (7) : آية 99]

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99)

"أَفَأَمِنُوا" فعل ماض والواو فاعله ، والفاء عاطفة والهمزة للاستفهام . "مَكْرَ" مفعول به . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة . "فَلا" الفاء عاطفة . لا نافية . "يَأْمَنُ" فعل مضارع والفاعل هو .

"مَكْرَ" مفعول به والجملة معطوفة. "إِلَّا" أداة حصر. "الْقَوْمُ" فاعل. "الْخاسِرُونَ" صفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 100]

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100)

"أَوَلَمْ يَهْدِ" فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة، الواو عاطفة والهمزة للاستفهام.

"لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة. "يَرِثُونَ الْأَرْضَ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة الموصول. "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بيرثون. "أَهْلِها" مضاف إليه والهاء في محل جر بالإضافة. "أَنْ" مخففة من أنّ واسمها ضمير الشأن محذوف وتقديره أنه. "لَوْ" حرف شرط غير جازم. "نَشاءُ" فعل مضارع، والفاعل مستتر، وجملة نشاء في محل رفع خبر، وأن واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل يهد، أو في محل نصب مفعول به، وفاعل يهد ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى اللّه. "أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده، و(نا) فاعله والهاء مفعوله، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن، والواو استئنافية. "فَهُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. "لا يَسْمَعُونَ" فعل

مضارع مرفوع بثبوت النون ، والواو فاعل و(لا) نافية ، والجملة في محل رفع خبر ، والجملة الاسمية (فهم لا يسمعون) معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 101]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101)

(268/262)

"تِلْكَ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ ، واللام للبعد ، والكاف للخطاب . "الْقُرى" بدل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر ، "نَقُصُّ عَلَيْكَ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور كما تعلق به "مِنْ أَنْبائِها" وفاعله نحن والجملة في محل رفع خبر المبتدأ تلك . ويجوز أن نعرب القرى خبرا والجملة بعدها حالا . "وَلَقَدْ" الواو استئنافية ، واللام واقعة في جواب القسم المقدر . "قد" حرف تحقيق . "جاءَتْهُمْ" فعل ماض مبني على الفتح والتاء للتأنيث ، والهاء مفعول به والميم علامة جمع الذكور . "رُسُلُهُمْ" فاعل والهاء في محل جر بالإضافة ، والميم للجمع . "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة لا محل لها جواب القسم ، وجملة القسم المقدرة وجوابها مستأنفة لا محل لها . "فَما" الفاء عاطفة ، ما نافية .

"كانُوا" كان والواو اسمها . "لِيُؤْمِنُوا" اللام لام الجحود . "يؤمنوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام الجحود ، وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل ، والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر كانوا أي ما كانوا مريدين للإيمان .

(269/262)

"بِما" اسم موصول مبني على السكون في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . أو (ما) مصدرية والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها "كَذَّبُوا" في محل جر بالباء أي بتكذيبهم ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يؤمنوا . وعلى الأول فالجملة صلة الموصول . "مِنْ" حرف جر . "قَبْلُ" ظرف زمان مبني على الضم في محل جر لانقطاعه عن الإضافة . "كَذلِكَ" الكاف حرف جر . "ذا" اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق مقدّر أي يطبع اللّه على قلوب الكافرين طبعا كائنا كطبعه على قلوب السابقين . "يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ . . " فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور ولفظ الجلالة فاعله . "الْكافِرِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 102]

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102)

"وَما" نافية لا عمل لها والواو استئنافية. "وَجَدْنا" فعل ماض وفاعله. "لِأَكْثَرِهِمْ" متعلقان بالفعل وجدنا أو بمحذوف حال "مِنْ عَهْدٍ" كان صفة له فلما تقدم صار حالا على القاعدة. "مِنْ عَهْدٍ" من حرف جر زائد وعهد اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به، والجملة مستأنفة. "وَإِنْ" مخففة من الثقيلة لا عمل لها لأنه وليها فعل ولهذا جاء بعدها اللام الفارقة التي تفرق بين النافية والمخففة. "وَجَدْنا" فعل ماض وفاعل. "أَكْثَرَهُمْ" مفعول به. "فاسقين" مفعول به ثان واللام هي الفارقة والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 103]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)

(270/262)

"ثُمَّ" حرف عطف يفيد التراخي. "بَعَثْنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "مِنْ بَعْدِهِمْ" و(نا) فاعله. "مُوسى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر. "بِآياتِنا"

متعلقان بمحذوف حال من موسى أو بالفعل . "إِلى فِرْعَوْنَ" اسم مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، وهما متعلقان ببعثنا ، والجملة معطوفة .

"وَمَلَائِهِ" اسم معطوف . "فَظَلَمُوا بِها" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعل . والفاء حرف عطف ، والجملة معطوفة . "فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ . . . . " تقدم إعرابها في الآية 84 .

[سورة الأعراف (7) : آية 104]

وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104)

"وَقالَ مُوسى " فعل ماض وفاعل والواو استئنافية ، والجملة مستأنفة .

"يا فِرْعَوْنُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب . "إِنِّي" إن والياء اسمها .

"رَسُولٌ" خبرها .

"مِنْ رَبِّ" متعلقان بمحذوف صفة لرسول . "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة الاسمية" إني رسول . . . . مقول القول .

[سورة الأعراف (7) : آية 105]

حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (105)

"حَقِيقٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره" أنا حقيق . "عَلى " حرف جر . "أَنْ" حرف

ناصب . "لا أَقُولَ" مضارع منصوب فاعله أنا ولا نافية لا عمل لها . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بعلى .

(271/262)

و الجار والمجرور متعلقان بحقيق لأنه بمعنى مفعول أو فاعل . "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بأقول . "إِلَّا" أداة حصر . "الْحَقَّ" مفعول به منصوب . "قَدْ" حرف تحقيق . "جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده والتاء فاعله والكاف مفعوله . "فَأَرْسِلْ" أمر والفاء هي الفصيحة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت . "مَعِيَ" ظرف مكان منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء في محل جر بالإضافة ، وهو متعلق بأرسل . "بَنِي" مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، وحذفت النون للإضافة ، وهو مضاف . "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ممنوع من الصرف اسم علم أعجمي ، والجملة الفعلية لا محل لها جواب شرط غير جازم إذا علمت ذلك فأرسل معي بني إسرائيل .

[سورة الأعراف (7) : آية 106]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106)

"قالَ" الجملة استئنافية. "إِنْ" حرف شرط جازم. "كُنْتَ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها. "جِئْتَ" ماض مبني على السكون والتاء فاعل والجملة في محل نصب خبر كنت. "بِآيَةٍ" متعلقان بجئت.

"فَأْتِ" الفاء رابطة وفعل أمر مبني على حذف حرف العلة لأنه معتل الآخر، والفاعل أنت. "بِها" متعلقان بالفعل قبلهما. "إِنْ" شرطية "كُنْتَ" فعل الشرط "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بمحذوف خبر، وحذف جواب لشرط لدلالة ما قبله عليه.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 107 الى 108]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)

(272/262)

"فَأَلْقى" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف، والفاعل هو. "عَصاهُ" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة، والجملة معطوفة. "فَإِذا" إذا الفجائية، والفاء عاطفة. "هِيَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ. "ثُعْبانٌ" خبر. "مُبِينٌ" صفة، والجملة معطوفة. "وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ" . . . . كسابقتها. "لِلنَّاظِرِينَ" متعلقان ببيضاء.

[سورة الأعراف (7) : آية 109]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109)

"قالَ الْمَلَأُ" فعل ماض وفاعل. "مِنْ قَوْمِ" متلعقان بمحذوف حال من الملأ، "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة. والجملة مستأنفة. "إِنَّ هذا" إن واسم الإشارة اسمها. "لَساحِرٌ" اللام المزحلقة. "ساحر" خبرها. "عَلِيمٌ" صفة والجملة مقول القول..

[سورة الأعراف (7) : آية 110]

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110)

"يُرِيدُ" فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو والمصدر المؤول من "أَنْ" الناصبة والفعل "يُخْرِجَكُمْ" مفعول به. "مِنْ أَرْضِكُمْ" متعلقان بالفعل يخرجكم، وجملة يريد في محل رفع خبر ثان.

"فَما ذا" اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم. والفاء هي الفصيحة.

"تَأْمُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومفعوله محذوف تقديره تأمروننا. والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 111 الى 112]

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112)

(273/262)

"قالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة. "أَرْجِهْ" فعل أمر مبني على السكون المقدر على الهمزة المحذوفة للتخفيف أرجئه، والهاء ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به. والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. "وَأَخاهُ" اسم معطوف على الهاء منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة. والهاء ضمير متصل مبني على الضم في محل جر بالإضافة، والجملة مقول القول. "وَأَرْسِلْ" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور "فِي الْمَدائِنِ". والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. "حاشِرِينَ" حال أو مفعول به منصوب بالياء. "يَأْتُوكَ" مضارع مجزوم جواب الطلب أرسل. والواو فاعل والكاف مفعول به. "بِكُلِّ" متعلقان بيأتوك. "ساحِرٍ" مضاف إليه. "عَلِيمٍ" صفة والجملة لا محل لها جواب شرط لم يقترن بالفاء.

[سورة الأعراف (7) : آية 113]

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113)

"وَجاءَ السَّحَرَةُ" فعل ماض وفاعل. "فِرْعَوْنَ" مفعول به والجملة مستأنفة. "قالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة كذلك. "إِنَّ لَنا" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إن. "لَأَجْراً" اسمها. واللام لام الابتداء والجملة مقول القول. "إِنَّ" حرف شرط جازم. "كُنَّا" فعل ماض ناقص مبني على السكون، ونا اسمها "نَحْنُ" ضمير فصل لا محل له أو توكيد للضمير نا. "الْغالِبِينَ" خبر كنا منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم. وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

[سورة الأعراف (7) : آية 114]

قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)

"قالَ" فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى فرعون والجملة مستأنفة. "نَعَمْ" حرف جواب أغنى عن قوله إن لكم لأجرا.. "وَإِنَّكُمْ" إن والكاف اسمها والجار والمجرور "لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ" متعلقان بمحذوف خبرها والواو عاطفة، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة المقدرة.

[سورة الأعراف (7) : آية 115]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "يا مُوسى " منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف المقصورة في محل نصب . "إِمَّا" أداة شرط وتفصيل تفيد التخيير . "أَنْ تُلْقِيَ" مضارع منصوب والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع مبتدأ والتقدير إما إلقاؤك مبدوء به وإما إلقاؤنا . . . "أَنْ" ناصبة . "نَكُونَ" فعل مضارع ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره نحن . "نَحْنُ" ضمير فصل أو توكيد للضمير المستتر . "الْمُلْقِينَ" خبر والمصدر معطوف .

[سورة الأعراف (7) : آية 116]

قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)

"قالَ" سبق إعرابها "أَلْقُوا" فعل أمر مبني عل حذف النون ، والواو فاعل والجملة مقول القول ، "فَلَمَّا" ظرفية شرطية ، والفاء عاطفة . "أَلْقُوا" فعل ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ، والواو فاعل والجملة في محل جر بالإضافة . "سَحَرُوا" فعل ماض وفاعل والجملة جواب لما . "أَعْيُنَ" مفعول به . "النَّاسِ" مضاف إليه . "وَاسْتَرْهَبُوهُمْ" فعل ماض وفاعله ومفعوله ، والجملة معطوفة . "وَجاؤُ" فعل ماض وفاعله والجملة معطوفة . "بِسِحْرٍ" متعلقان بالفعل قبلهما . "عَظِيمٍ" صفة والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 117]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117)

(275/262)

"وَأَوْحَيْنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده "إِلى مُوسى" و(نا) فاعله. "أَنْ" حرف تفسير.

"أَلْقِ" فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل أنت. "عَصاكَ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة والجملة تفسيرية لا محل لها، ويجوز أن تكون أن مصدرية والمصدر المؤول مفعول به.

"فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية. "هِيَ" ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ.

"تَلْقَفُ" فعل مضارع فاعله هي والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية (هي تلقف) معطوفة على جملة مقدرة فألقاها فإذا هي . . . . "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به، وجملة "يَأْفِكُونَ" صلة الموصول أو ما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به "تلقف إفكهم".

[سورة الأعراف (7) : الآيات 118 الى 119]

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119)

"فَوَقَعَ الْحَقُّ" فعل ماض وفاعل والجملة معطوفة. "وَبَطَلَ ما" فعل ماض واسم الموصول فاعل. أو ما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل رفع فاعل بطل. "كانُوا" الواو اسمها وجملة "يَعْمَلُونَ" في محل رفع خبر. وجملة كانوا صلة الموصول. "فَغُلِبُوا" فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب فاعل. "هُنالِكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية واللام للبعد، والكاف للخطاب. والجملة معطوفة. "وَانْقَلَبُوا" فعل ماض وفاعله. "صاغِرِينَ" حال منصوبة بالياء والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 120 الى 122]

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122)

"وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله. "ساجِدِينَ" حال والجملة معطوفة.

"قالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة أو حالية على تقدير قد قبلها أي قائلين . "آمَنَّا" فعل ماض وفاعل والجملة مقول القول . "بِرَبِّ" متعلقان بآمنا . "الْعالَمِينَ" مضاف إليه ، "رَبِّ" بدل من رب قبلها .

"مُوسى " مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر .

"وَهارُونَ" اسم معطوف مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة . اسم علم أعجمي .

[سورة الأعراف (7) : آية 123]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123)

"قالَ فِرْعَوْنُ" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة . "آمَنْتُمْ" فعل ماض وفاعله والميم لجمع الذكور . "بِهِ" متعلقان بآمنتم وكذلك الظرف "قَبْلَ" . "أَنْ" ناصبة . "آذَنَ" مضارع منصوب . فاعله أنا والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة . "لَكُمْ" متعلقان بآذن . "أَنْ" حرف مشبه بالفعل . "هذا" اسم إشارة

مبني على السكون في محل نصب اسم إن . "لَمَكْرٌ" خبرها واللام المزحلقة . "مَكَرْتُمُوهُ" فعل ماض مبني على السكون ، والتاء فاعل . والهاء مفعول به وقد أشبعت الضمة فتولدت منها الواو . والجملة في محل رفع صفة لمكر . "فِي الْمَدِينَةِ" متعلقان بالفعل قبلهما . "لِتُخْرِجُوا" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل . والمصدر المؤول في محل جر

باللام ، والجار والمجرور متعلقان بمكرتموه .

"مِنْها" متعلقان بتخرجوا . "أَهْلَها" مفعول به والهاء في محل جر بالإضافة . "فَسَوْفَ" حرف استقبال والفاء استئنافية . "تَعْلَمُونَ" فعل مضارع وفاعل والجملة مستأنفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 124]

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)

(277/262)

"لَأُقَطِّعَنَّ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، واللام واقعة في جواب القسم المقدر . والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا . "أَيْدِيَكُمْ" مفعول به منصوب بالفتحة ، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة والميم لجمع الذكور . والجملة الفعلية لا محل لها جواب القسم . "وَأَرْجُلَكُمْ" عطف ، "مِنْ خِلافٍ" متعلقان بالفعل أو بمحذوف حال من أيديكم . . . "ثُمَّ" حرف عطف ، "لَأُصَلِّبَنَّكُمْ" كإعراب لأقطعن والكاف مفعوله "أَجْمَعِينَ" توكيد للضمير قبله منصوب وعلامة نصبه الياء والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 125]

قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "إِنَّا" إن ونا اسمها "إِلى ربِّنا" متعلقان بالخبر "مُنْقَلِبُونَ" خبرها مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الاسمية مقول القول . .

[سورة الأعراف (7) : آية 126]

وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126)

(278/262)

"وَما تَنْقِمُ" فعل مضارع متعلق به الجار والمجرور منا ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت . وما نافية ، والواو استئنافية فالجملة مستأنفة . "إِلَّا" أداة حصر . "أَنْ" حرف مصدري ونصب . "آمَنَّا" فعل ماض مبني على السكون ، ونا فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به . وما تنقم إلا إيماننا . "بِآياتِ" متعلقان بآمنا "رَبِّنا" مضاف إليه . "لَمَّا" ظرفية حينية "جاءَتْنا" فعل ماض ، والتاء للتأنيث ونا مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر يعود إلى الآيات والجملة في محل جر بالإضافة . "رَبِّنا" منادى مضاف منصوب ، ونا ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "أَفْرِغْ" فعل دعاء تعلق به الجار والمجرور "عَلَيْنا" . "صَبْراً" مفعول به . والجملة مقول القول المحذوف . "وَتَوَفَّنا" فعل دعاء مبني على حذف

حرف العلة . ونا مفعوله والفاعل أنت "مُسْلِمِينَ" حال منصوبة بالياء . والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 127]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127)

"وَقالَ الْمَلَأُ" فعل ماض وفاعل . "مِنْ قَوْمِ" متعلقان بمحذوف حال من الملأ . "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، والجملة مستأنفة . "أَتَذَرُ مُوسى " فعل مضارع ومفعوله والفاعل مستتر تقديره أنت ، والهمزة للاستفهام ، والجملة مقول القول .

(279/262)

"وَقَوْمَهُ" عطف على موسى منصوب بالفتحة ، والهاء في محل جر بالإضافة . "لِيُفْسِدُوا" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ، والواو فاعل ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بتذر . "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيفسدوا . "وَيَذَرَكَ" مضارع منصوب معطوف على يفسدوا ، والكاف مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . "وَآلِهَتَكَ" عطف على الكاف في يذرك ، والكاف ضمير متصل

في محل جر بالإضافة. "قالَ" الجملة استئنافية. "سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ" فعل مضارع ومفعوله والفاعل نحن والجملة مقول القول. "وَنَسْتَحْيِي" فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن. "نِساءَهُمْ" مفعول به، والهاء مضاف إليه. "وَإِنَّا" إن واسمها والواو حالية. "فَوْقَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالخبر. "قاهِرُونَ" خبر مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الاسمية في محل نصب حال.

[سورة الأعراف (7) : آية 128]

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

"قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور لقومه وموسى فاعل والجملة مستأنفة. "اسْتَعِينُوا" فعل أمر مبني على حذف النون، تعلق به الجار والمجرور بعده "بِاللَّهِ" والواو فاعله والجملة مفعول به.

"وَاصْبِرُوا" عطف. "إِنَّ الْأَرْضَ" إن واسمها. "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بمحذوف خبر إن، والجملة تعليلية لا محل لها. "يُورِثُها" فعل مضارع والهاء مفعول به أول واسم الموصول "مَنْ" المفعول الثاني والجملة في محل نصب حال وجملة "يَشاءُ" صلة الموصول. "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بيشاء.

"وَالْعاقِبَةُ" مبتدأ مرفوع. "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 129]

قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "أُوذِينا" فعل ماض مبني للمجهول، مبني على السكون، تعلق به الجار والمجرور بعده "مِنْ قَبْلِ". ونا نائب فاعل والجملة مقول القول. "أَنْ" ناصبة "تَأْتِيَنا" مضارع منصوب بالفتحة الظاهرة، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة من قبل إتيانك . . . . "وَمِنْ بَعْدِ" عطف على من قبل "ما جِئْتَنا" فعل ماض والتاء فاعله ونا مفعوله، وما مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بالإضافة: من بعد مجيئك إلينا.

"قالَ" الجملة مستأنفة "عَسى" فعل ماض جامد.

"رَبُّكُمْ" اسمها. "أَنْ يُهْلِكَ" المصدر المؤول في محل رفع خبر عسى والتقدير مهلك (عدوكم). "وَيَسْتَخْلِفَكُمْ" فعل مضارع منصوب معطوف، والكاف مفعوله. "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل قبلهما. "فَيَنْظُرَ" الفاء فاء السببية. "ينظر" مضارع منصوب بأن

المضمرة بعد فاء السببية ، والمصدر المؤول معطوف على الخبر مهلك . ويجوز أن تكون الفاء عاطفة . . "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال . "تَعْمَلُونَ" فعل مضارع وفاعله والجملة في محل نصب مفعول به للفعل ينظر .

[سورة الأعراف (7) : آية 130]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)

(281/262)

"وَلَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المقدر ، وقد حرف تحقيق ، والواو استئنافية .

"أَخَذْنا" فعل ماض وفاعله و"آلَ" مفعوله ، "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة ممنوع من الصرف اسم علم أعجمي . "بِالسِّنِينَ" اسم مجرور بالباء وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجار والمجرور متعلقان بأخذنا ، والجملة لا محل لها من الإعراب واقعة في جواب القسم .

"وَنَقْصٍ" عطف على بالسنين . "مِنَ الثَّمَراتِ" متعلقان بالمصدر نقص . "لَعَلَّهُمْ" لعل والهاء اسمها ، والميم لجمع الذكور . "يَذَّكَّرُونَ" فعل مضارع وفاعل والجملة في محل رفع خبر لعل . والجملة الاسمية لعلهم يذكرون لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 131]

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131)

"فَإِذا" ظرفية شرطية غير جازمة، والفاء استئنافية. "جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ" فعل ماض والتاء للتأنيث والهاء مفعول به "الْحَسَنَةُ" فاعل، والجملة في محل جر بالإضافة. "قالُوا" الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم. "لَنا" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر "هذِهِ" اسم الإشارة مبتدأ، والجملة الاسمية مفعول به. "وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ" إن شرطية تصبهم فعل مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط، وسيئة فاعله، والهاء مفعوله والجملة معطوفة. "يَطَّيَّرُوا" فعل مضارع مجزوم بحذف النون جواب الشرط، تعلق به الجار والمجرور "بِمُوسى" بعده والواو فاعل، والجملة لا محل لها لأنها لم تقترن بالفاء . . "وَمَنْ" اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على موسى. "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول والتقدير والذين آمنوا معه، والهاء في محل جر بالإضافة.

(282/262)

"أَلا" أداة استفتاح. "إِنَّما" كافة ومكفوفة. "طائِرُهُمْ" مبتدأ. "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "وَلكِنَّ" حرف مشبه بالفعل والواو حالية. "أَكْثَرَهُمْ" اسمها. "لا يَعْلَمُونَ" فعل مضارع مرفوع والواو فاعله. "لا" نافية لا عمل لها والجملة الفعلية في محل رفع خبر لكن. والجملة الاسمية (ولكن أكثرهم . . . .) حالية.

[سورة الأعراف (7) : آية 132]

وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132)

"وَقالُوا" الجملة معطوفة. "مَهْما" اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ والجملة مقول القول. "تَأْتِنا" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة، ونا مفعوله وفاعله أنت وهو في محل جزم فعل الشرط، "بِهِ" متعلقان بتأتنا. "مِنْ آيَةٍ" متعلقان بمحذوف حال. "لِتَسْحَرَنا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ونا مفعول به والفاعل أنت والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بتأتنا "بِها" متعلقان بتسحرنا. "فَما" ما نافية تعمل عمل ليس والفاء رابطة لجواب الشرط مهما. "نَحْنُ" ضمير رفع منفصل في محل رفع اسمها. "بِمُؤْمِنِينَ" خبرها والباء حرف جر زائد. "لَكَ" متعلقان بالخبر مؤمنين والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط مجملتا الشرط خبر مهما.

[سورة الأعراف (7) : آية 133]

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133)

"فَأَرْسَلْنا" فعل ماض وفاعله. "عَلَيْهِمُ" متعلقان بأرسلنا "الطُّوفانَ" مفعوله. "وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ" أسماء معطوفة. "آياتٍ" حال منصوبة بالكسرة جمع مؤنث سالم. "مُفَصَّلاتٍ" صفة.

(283/262)

"فَاسْتَكْبَرُوا" فعل ماض وفاعل والجملة معطوفة. "وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 134]

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134)

"وَلَمَّا" ظرفية شرطية والواو عاطفة. "وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والرجز فاعله، والجملة في محل جر بالإضافة. جملة "قالُوا" لا محل لها جواب لما.

"يا مُوسَى" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب. "ادْعُ لَنا رَبَّكَ" فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، تعلق به الجار والمجرور والفاعل أنت "لَنا"، "رَبَّكَ" مفعوله، والكاف مضاف إليه. "بِما" مصدرية مؤولة بمصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ادع. أو ما موصولية. "عَهِدَ" الجملة صلة "عِنْدَكَ" ظرف مكان متعلق بالفعل عهد. "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم إن حرف شرط جازم. "كَشَفْتَ" فعل ماض وفاعل، "الرِّجْزُ" مفعول به.

"عَنَّا" متعلقان بكشف "الرِّجْزُ" مفعول به. "لَنُؤْمِنَنَّ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله نحن واللام واقعة في جواب القسم. "لَكَ" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة واقعة في جواب القسم. وجملة كشف ابتدائية لا محل لها، وجملة "لَنُرْسِلَنَّ" معطوفة على ما قبلها. "مَعَكَ" ظرف والكاف مضاف إليه "بَنِي" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة. "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة.

[سورة الأعراف (7) : آية 135]

فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135)

"فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ" انظر إعراب الآية السابقة. "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بمحذوف حال من الرجز.

"هُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. "بالِغُوهُ" خبر مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة، وحذفت النون للإضافة، والجملة في محل جر صفة لأجل، "إِذا" الفجائية "هُمْ" مبتدأ "يَنْكُثُونَ" الجملة خبر.

[سورة الأعراف (7) : آية 136]

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)

"فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ" فعل ماض متعلق به الجار والمجرور، ونا فاعله، والجملة معطوفة، وكذلك جملة "فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ" فأغرقناهم في اليم، "بِأَنَّهُمْ" أن والهاء اسمها، "كَذَّبُوا" فعل ماض متعلق به الجار والمجرور "بِآياتِنا" والواو فاعله والجملة في محل رفع خبر أن. والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل جر بالباء أغرقناهم بتكذيبهم . . . "وَكانُوا" كان والواو اسمها. "عَنْها" متعلقان بالخبر "غافِلِينَ" والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 137]

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137)

(285/262)

"وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول . والجملة معطوفة . "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب صفة . "كانُوا" كان والواو اسمها . "يُسْتَضْعَفُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل . والجملة في محل نصب خبر . وجملة كانوا يستضعفون صلة الموصول . "مَشارِقَ" مفعول به ثان . "الْأَرْضِ" مضاف إليه . "وَمَغارِبَهَا" عطف على مشارق "الَّتِي" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة . "بارَكْنا" فعل ماض ، ونا فاعله "فِيها" متعلقان ببارَكنا والجملة صلة . "وَتَمَّتْ كَلِمَتُ" فعل ماض وفاعله ، والتاء للتأنيث . "رَبِّكَ" مضاف إليه . "الْحُسْنى" صفة كلمة مرفوعة وعلامة رفعها الضمة المقدرة على الألف للتعذر "عَلى" حرف جر . "بَنِي" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، وحذفت النون للإضافة ، "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة ، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة . "بِما" ما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها "صَبَرُوا" بمصدر في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل تمت .

"وَدَمَّرْنا" فعل ماض وفاعل. "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به والجملة معطوفة.

"كانَ" فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر. "يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ" فعل مضارع وفاعل.

"وَقَوْمُهُ" عطف على فرعون. والجملة في محل نصب خبر كان.. وجملة كان واسمها وخبرها صلة الموصول لا محل لها. "وَما كانُوا يَعْرِشُونَ" عطف.

[سورة الأعراف (7) : آية 138]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

"وَجاوَزْنا" فعل ماض وفاعل. "بِبَنِي" متعلقان بالفعل "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه "الْبَحْرَ" مضاف إليه.

(286/262)

"فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ" فعل ماض متعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة معطوفة.

"يَعْكُفُونَ" فعل مضارع وفاعل والجملة في محل جر صفة لقوم. "عَلى أَصْنامٍ" متعلقان بالفعل "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لأصنام. "قالُوا" الجملة مستأنفة. "يا مُوسَى" سبق

إعرابها . "اجْعَلْ لَنا" فعل أمر متعلق به الجار والمجرور والفاعل أنت "إِلهاً" مفعوله . "كَما" الكاف حرف جر وما مصدرية أو موصولية . "لَهُمْ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "آلِهَةٌ" . والمصدر المؤول من ما وما بعدها في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة إلها أي إلها معبودا كآلهتهم . . . . "قالَ" الجملة مستأنفة . "إِنَّكُمْ قَوْمٌ" إن واسمها وجملة إنكم قوم . . مقول القول مفعول به . "تَجْهَلُونَ" الجملة صفة قوم .

[سورة الأعراف (7) : آية 139]

إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "هؤُلاءِ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب اسم إن . "مُتَبَّرٌ" خبر إنّ .

"ما" اسم موصول مبني على السكون في محل رفع نائب فاعل لمتبر . "هُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ . و"فِيهِ" متعلقان بمحذوف خبره والجملة صلة الموصول لا محل لها .

والجملة الاسمية : إنّ هؤلاء . . استئنافية . "وَباطِلٌ" خبر مقدم . "ما" اسم موصول مبتدأ . "كانُوا" كان واسمها وجملة يعملون في محل نصب خبرها . وجملة كانوا صلة الموصول لا محل لها والجملة الاسمية وباطل ما كانوا يعملون . . معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 140]

قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140)

"قالَ" الجملة استئنافية "أَغَيْرَ" مفعول به مقدم ، والهمزة للاستفهام . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور . "أَبْغِيكُمْ" فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء للثقل . والكاف مجرورة بنزع الخافض . أبغي لكم "إِلهاً" تمييز . والجملة مقول القول .

"وَهُوَ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ .

الواو حالية . "فَضَّلَكُمْ" فعل ماض متعلق به الجار والمجرور والفاعل هو "عَلَى الْعالَمِينَ" . والكاف مفعوله والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ . والجملة الاسمية وهو فضلكم في محل نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : آية 141]

وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

في سورة البقرة الآية 49 نجيناكم بدل أنجيناكم . . ويذبحون أبناءكم بدل يقتلون أبناءكم .

"وَإِذْ" مفعول فيه لفعل محذوف تقديره : اذكروا وقت . . . . والجملة في محل جر بالإضافة .

"يَسُومُونَكُمْ" فعل مضارع وفاعل ومفعول به أول. "سُوءَ" مفعول به ثان، "الْعَذابِ" مضاف إليه والجملة حالية، وجملة "يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ" بدل من جملة "يَسُومُونَكُمْ". "وَفِي ذلِكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. "بَلاءٌ" "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة بلاء. "عَظِيمٌ" صفة والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 142]

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

(288/262)

"وَواعَدْنا مُوسى" فعل ماض وفاعل ومفعول به أول. "ثَلاثِينَ" مفعول به ثان. "لَيْلَةً" تمييز. والجملة مستأنفة. "وَأَتْمَمْناها" فعل ماض ونا فاعله والها مفعوله. "بِعَشْرٍ" متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة معطوفة. "فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ" فعل ماض وفاعله. "أَرْبَعِينَ" مفعوله، والجملة معطوفة. "لَيْلَةً" تمييز.

"قالَ مُوسى" فعل ماض وفاعل. "لِأَخِيهِ" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة.

والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. "هارُونَ" بدل مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، والجملة معطوفة. "اخْلُفْنِي" فعل أمر مبني على السكون والنون للوقاية، والياء مفعول به والفاعل تقديره أنت. "فِي قَوْمِي" متعلقان بالفعل قبلهما. "وَأَصْلِحْ" عطف على اخلف. "وَلا تَتَّبِعْ" لا ناهية ومضارع مجزوم بلا الناهية، والفاعل أنت. "سَبِيلَ" مفعول به.

"الْمُفْسِدِينَ" مضاف إليه والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 143]

وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

(289/262)

"وَلَمَّا" ظرفية شرطية والواو عاطفة. "جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وموسى فاعله. والجملة في محل جر بالإضافة. "وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ" فعل ماض والهاء مفعوله وربّه فاعله، والجملة معطوفة. "قالَ" فعل ماض وفاعله ضمير مستتر والجملة لا

محل لها جواب شرط غير جازم. "رَبِّ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم. "أَرِنِي" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة لأنه معتل الآخر، والنون للوقاية. والياء مفعوله الأول. ومفعوله الثاني محذوف تقديره نفسك، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. "أَنْظُرْ إِلَيْكَ" مضارع مجزوم جواب الطلب وفاعله مستتر ومتعلقان بالفعل قبلهما، وجواب الطلب وفعله مقول القول. "قالَ" الجملة مستأنفة "لَنْ" حرف ناصب. "تَرانِي" مضارع منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والنون للوقاية، والياء مفعول به، والجملة مقول القول، "وَلَكِنِ" حرف استدراك والواو عاطفة. "انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور فاعله أنت والجملة معطوفة. "فَإِنِ" إن شرطية جازمة والفاء عاطفة. "اسْتَقَرَّ" ماض في محل جزم فعل الشرط. "مَكانَهُ" ظرف مكان متعلق باستقر.

(290/262)

"فَسَوْفَ" حرف استقبال والفاء رابطة لجواب الشرط. "تَرانِي" مضارع مرفوع والجملة في محل جزم جواب الشرط. "فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ" الفاء عاطفة، لما شرطية، تجلى فعل ماض وفاعله، والجملة في محل جر بالإضافة. "جَعَلَهُ دَكًّا" فعل ماض ومفعولاه والفاعل

هو والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "وَخَرَّ مُوسى" فعل ماض وفاعل. "صَعِقاً" حال والجملة معطوفة. "فَلَمَّا أَفاقَ" الفاء استئنافية لما شرطية جازمة وماض وفاعله مستتر "قالَ" الجملة لا محل لها جواب لما. "سُبْحانَكَ" مفعول مطلق لفعل محذوف، والكاف في محل جر بالإضافة. "تُبْتُ" فعل ماض وفاعله. "إِلَيْكَ" متعلقان بتبت. والجملة مقول القول. "وَأَنَا أَوَّلُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة. "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه.

[سورة الأعراف (7) : آية 144]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

"قالَ" الجملة مستأنفة "يا مُوسى" منادى مفرد علم. "إِنِّي" إن واسمها. "اصْطَفَيْتُكَ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل رفع خبر إن. وجملة إن واسمها وخبرها مقول القول. "عَلَى النَّاسِ" متعلقان بالفعل قبلهما. "بِرِسالاتِي" اسم مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء في محل جر بالإضافة. والجار والمجرور متعلقان باصطفيتك. "وَبِكَلامِي" عطف. "فَخُذْ" الفاء هي الفصيحة. "خذ" أمر. "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به. والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم مقدر إذا كان ذلك حاصلا فخذ ما آتيتك. . "آتَيْتُكَ" ماض وفاعله والكاف مفعوله والجملة صلة ما. "وَكُنْ" فعل أمر ناقص واسمه محذوف تقديره أنت. "مِنَ الشَّاكِرِينَ"

متعلقان بمحذوف خبره والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 145]

(291/262)

وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145)

"وَكَتَبْنا" فعل ماض متعلق به كل من الجار والمجرور "لَهُ" و"فِي الْأَلْواحِ، مِنْ كُلِّ . . " ونا فاعله . "شَيْءٍ" مضاف إليه مجرور . والجملة مستأنفة . "مَوْعِظَةً" مفعول لأجله .

"وَتَفْصِيلاً" عطف . "لِكُلِّ" متعلقان بتفصيلا . "شَيْءٍ" مضاف إليه . "فَخُذْها" فعل أمر ومفعوله والفاء واقعة في جواب شرط مقدر .

والفاعل مستتر "بِقُوَّةٍ" متعلقان بخذها والجملة لا محل لها ، جواب شرط غير جازم مقدر .

"وَأْمُرْ

قَوْمَكَ"

فعل أمر ومفعوله والفاعل ضمير مستتر والكاف في محل جر بالإضافة ، والجملة معطوفة .

"يَأْخُذُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل .

"بِأَحْسَنِها" متعلقان بيأخذوا ، والجملة مفعول لفعل الأمر أأمر . "سَأُرِيكُمْ" فعل مضارع مرفوع والفاعل أنت والكاف مفعوله ، والميم علامة جمع الذكور . "دارَ" مفعوله الثاني والأصل مصير دار الفاسقين . .

"الْفاسِقِينَ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 146]

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (146)

(292/262)

"سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور ، "الَّذِينَ" اسم الموصول مفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا والجملة مستأنفة . "يَتَكَبَّرُونَ" فعل مضارع وفاعل . "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيتكبرون والجملة صلة . "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال . "الْحَقِّ" مضاف إليه "وَإِنْ" شرطية "يَرَوْا" فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون لأنه فعل الشرط والواو فاعل و "كُلَّ" مفعول به . "آيَةٍ" مضاف إليه "لا يُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم لأنه

جواب الشرط، ولا نافية لا عمل لها . "بِها" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة لا محل لها جواب شرط لم تقترن بالفاء أو إذا الفجائية . "وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا" صدر الآية سبق إعرابها لا يتخذوه سبيلا فعل مضارع وفاعله ومفعولاه، والجملة لا محل لها كسابقتها . "ذِلِكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ . واللام للبعد والكاف حرف خطاب . "بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا" أن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ . "وَكانُوا" كان واسمها . "عَنْها" متعلقان بالخبر "غافِلِينَ" والجملة معطوفة على جملة الخبر كذبوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 147]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ . "كَذَّبُوا بِآياتِنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَلِقاءِ" عطف . "الْآخِرَةِ" مضاف إليه . "حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ" فعل ماض وفاعل والجملة في محل رفع خبر المبتدأ الذين .

"هَلْ" حرف استفهام يفيد النفي . "يُجْزَوْنَ" فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعله ، وهو المفعول الأول . "إِلَّا" أداة حصر "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به ثان .

"كانُوا" كان والواو اسمها والجملة صلة الموصول لا محل له وجملة "يَعْمَلُونَ" في محل نصب خبرها .

[سورة الأعراف (7) : آية 148]

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (148)

"وَاتَّخَذَ قَوْمُ" فعل ماض وفاعل . "مُوسى" مضاف إليه . "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان باتخذ ، والجملة مستأنفة . "مِنْ حُلِيِّهِمْ" متعلقان بالفعل . "عِجْلًا" مفعول به . "جَسَداً" بدل منصوب . "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "خُوارٌ" مبتدأ ، والجملة الاسمية في محل نصب صفة جسدا .

"أَلَمْ يَرَوْا" الهمزة للاستفهام لم حرف جازم يروا مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعل والجملة مستأنفة . "أَنَّهُ" أن والهاء اسمها . "لا يُكَلِّمُهُمْ" فعل مضارع فاعله هو والهاء مفعوله والميم لجمع الذكور ، ولا نافية والجملة في محل رفع خبر أن ، وأن وما بعدها سد مسد مفعولي يروا .

"وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا" فعل مضارع ومفعولاه ، ولا نافية ، والجملة معطوفة . "اتَّخَذُوهُ" فعل

ماض مبني على الضم وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة ، وجملة كانوا ظالمين معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 149]

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149)

(294/262)

"وَلَمَّا" ظرفية شرطية . "سُقِطَ" فعل ماض مبني للمجهول . "فِي أَيْدِيهِمْ" اسم مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل ، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة . والميم علامة جمع الذكور والجار والمجرور متعلقان بمحذوف نائب فاعل . والجملة في محل جر بالإضافة . "وَرَأَوْا" فعل ماض مبني على الضمة المقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ، والواو فاعل . "أَنَّهُمْ" أن واسمها وجملة "قَدْ ضَلُّوا" في محل رفع خبرها . وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي رأوا . "قالُوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم . "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية . "لَمْ" حرف جازم .

"يَرْحَمْنا" مضارع مجزوم ومفعوله و"رَبُّنا" فاعله ، والجملة ابتدائية لا محل لها . "وَيَغْفِرْ"

عطف . "لَنا" متعلقان بيغفر . "لَنَكُونَنَّ" فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، واللام واقعة في جواب القسم ، واسمها ضمير مستتر تقديره نحن ، والجملة لا محل لها جواب القسم . وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه . "مِنَ الْخاسِرِينَ" متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص .

[سورة الأعراف (7) : آية 150]

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

(295/262)

"وَلَمَّا" الواو عاطفة ولما الحينية الشرطية "رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وموسى فاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "غَضْبانَ" حال . "أَسِفاً" حال ثانية . "قالَ" الجملة جواب لما لا محل لها . "بِئْسَما" فعل ماض لإنشاء الذم والفاعل ضمير مستتر . "ما" نكرة موصوفة مبنية

(296/262)

على السكون في محل نصب على التمييز . "خَلَفْتُمُونِي" فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل المتحركة ، والميم لجمع الذكور وقد أشبعت حركة الميم الضمة إلى الواو ، والنون للوقاية ، والياء مفعول به ، والجملة في محل نصب صفة ما . "مِنْ بَعْدِي" اسم مجرور بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء في محل جر بالإضافة ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "أَعَجِلْتُمْ" الهمزة للاستفهام وفعل ماض وفاعله . "أَمْرَ" مفعوله . "رَبِّكُمْ" مضاف إليه ، والجملة مستأنفة . "وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ" ماض ومفعوله وفاعله هو والجملة معطوفة على قال . "وَأَخَذَ بِرَأْسِ" ماض فاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "أَخِيهِ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة ، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة ، والجملة معطوفة . "يَجُرُّهُ إِلَيْهِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والهاء مفعوله والجملة في محل نصب حال . "قَالَ" ماض فاعله مستتر "ابْنَ أُمَّ" جزءان مبنيان على الفتح في محل نصب على النداء ، أو ابن منادى وأمّ : مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف المحذوفة المنقلبة عن ياء . وقد دل على الألف المحذوفة الفتحة كما في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم . "إِنَّ الْقَوْمَ" إن واسمها . "اسْتَضْعَفُونِي" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل رفع خبر إن وجملة إن القوم مفعول به . "كَادُوا" كاد واسمها . "يَقْتُلُونَنِي" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة في محل

نصب خبر كادوا وجملة كادوا معطوفة. "فَلا" الفاء هي الفصيحة، ولا ناهية جازمة. "تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ" مضارع مجزوم تعلق به الجار والمجرور والأعداء مفعوله والفاعل ضمير مستتر، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية. "تَجْعَلْنِي" مضارع مجزوم والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل أنت. "مَعَ

(297/262)

الْقَوْمِ" ظرف مكان والقوم مضاف إليه. "الظَّالِمِينَ" صفة مجرورة وعلامة جرها الياء لأنها جمع مذكر سالم والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 151]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

"قالَ" ماض فاعله مستتر "رَبِّ" منادى بيا النداء المحذوفة. "اغْفِرْ لِي" فعل دعاء تعلق به الجار والمجرور وفاعله أنت. "وَلِأَخِي" اسم مجرور بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم، والياء في محل جر بالإضافة، والجار والمجرور معطوفان. "وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ" فعل دعاء تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله والجملة معطوفة. "وَأَنْتَ" أنت ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والواو حالية. "أَرْحَمُ" خبر.

"الرَّاحِمِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة في محل نصب حال.

[سورة الأعراف (7) : آية 152]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

"إِنَّ" حرف شبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن. "اتَّخَذُوا الْعِجْلَ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والمفعول الثاني محذوف أي اتخذوا العجل إلها، والجملة صلة الموصول لا محل لها.

(298/262)

"سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ" فعل مضارع ومفعوله وفاعله والسين للاستقبال والجملة في محل رفع خبر إن. "مِنْ رَبِّهِمْ" متعلقان غضب. "وَذِلَّةٌ" عطف "وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ" متعلقان بذلة. "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالفتحة المقدرة على الألف. "وَكَذلِكَ" الكاف حرف جر، ذا اسم إشارة في محل جر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق: نجزي المفترين جزاء كائنا كذلك الجزاء. "نَجْزِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة والفاعل مستتر تقديره

نحن . "الْمُفْتَرِينَ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء ، والجملة مستأنفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 153]

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ ، والواو استئنافية والجملة مستأنفة .

"عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ" فعل ماض وفاعل ومفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة صلة الموصول . "ثُمَّ تَابُوا" ماض وفاعله وثم حرف عطف "مِنْ بَعْدِهَا" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة معطوفة ، وكذلك جملة آمنوا . "إِنَّ رَبَّكَ لَغَفُورٌ" إن اسمها وخبرها واللام المزحلقة .

و"رَحِيمٌ" خبر ثان والجملة في محل رفع خبر المبتدأ الذين .

[سورة الأعراف (7) : آية 154]

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

"وَلَمَّا" ظرفية شرطية والواو استئنافية . "سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والغضب فاعله والجملة في محل جر بالإضافة ، وجملة "أَخَذَ الْأَلْواحَ" لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَفِي نُسْخَتِها" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "هُدىً" مبتدأ مؤخر . "وَرَحْمَةٌ" عطف . "لِلَّذِينَ" متعلقان بالمصدر رحمة . "هُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ . "لِرَبِّهِمْ" اللام حرف جر زائد .

"ربهم" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به مقدم . "يَرْهَبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل . والجملة خبر هم . وجملة هم لربهم يرهبون : صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 155]

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155)

"وَاخْتارَ مُوسى" فعل ماض وفاعل . "قَوْمَهُ" مفعول به منصوب بنزع الخافض أصلها من قومه . والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "سَبْعِينَ" مفعول به منصوب بالياء .

"رَجُلًا" تمييز . "لِمِيقاتِنا" متعلقان بالفعل اختار ، والجملة مستأنفة . "فَلَمَّا" لما ظرفية شرطية . والفاء استئنافية . "أَخَذَتْهُمُ" فعل ماض وتاء التأنيث والهاء مفعوله . "الرَّجْفَةُ"

فاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "قالَ" الجملة لا محل لها لأنها جواب لما . "رَبِّ" منادى مضاف . وجملة النداء مقول القول . "لَوْ" حرف شرط غير جازم . "شِئْتَ" فعل

(300/262)

ماض وفاعل والجملة لا محل لها جملة فعل الشرط . "أَهْلَكْتَهُمْ" فعل ماض وفاعل ومفعول به . "مِنْ قَبْلُ" ظرف زمان مبني على الضم في محل جر لانقطاعه عن الإضافة ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "وَإِيَّايَ" ضمير منفصل مبني على الفتح في محل نصب معطوف على الهاء في أهلكتهم ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "أَتُهْلِكُنا" فعل مضارع ومفعوله والفاعل أنت والهمزة للاستفهام . "بِما" ما اسم موصول مبني على السكون في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل . "فَعَلَ السُّفَهاءُ" فعل ماض وفاعل . "مِنَّا" متعلقان بمحذوف حال من السفهاء والجملة صلة الموصول . "إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ" مبتدأ وخبر وإن نافية بمعنى ما وإلا أداة حصر ، والجملة مستأنفة مع القول . "تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول مفعوله والجملة في محل نصب حال ، وجملة تشاء صلة الموصول . "وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ" عطف . "أَنْتَ وَلِيُّنا" مبتدأ وخبر . "فَاغْفِرْ لَنا" فعل دعاء تعلق به الجار والمجرور وفاعله أنت ، والفاء هي

الفصيحة. والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر. "وَارْحَمْنا" عطف "وَأَنْتَ خَيْرُ" مبتدأ وخبر. "الْغافِرِينَ" مضاف إليه والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال أو مستأنفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 156]

وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156)

(301/262)

"وَاكْتُبْ لَنا" فعل دعاء تعلق به الجار والمجرور وفاعله أنت. "فِي هذِهِ" اسم الإشارة في محل جر متعلقان بمحذوف حال. "الدُّنْيا" بدل. "حَسَنَةً" مفعول به. "وَفِي الْآخِرَةِ" عطف. "إِنَّا" إن ونا اسمها. "هُدْنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "إِلَيْكَ". ونا فاعله، والجملة في محل رفع خبر إنا، وجملة إنا هدنا إليك تعليلية لا محل لها. وجملة قال مستأنفة. "عَذابِي" مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء في محل جر بالإضافة. "أُصِيبُ بِهِ" مضارع تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول:

"مَنْ" مفعوله وفاعله مستتر والجملة في محل رفع خبر ، وجملة "أَشاءُ" صلة . "وَرَحْمَتِي" مبتدأ ، "وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" وسعت ماض وتاء التأنيث وكل مفعوله وشيء مضاف إليه والجملة خبر . وجملة ورحمتي . . . . معطوفة . "فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور بعده فاعله أنا ، والها مفعوله والفاء عاطفة والجملة معطوفة ، وجملة "يَتَّقُونَ" صلة الموصول لا محل لها . "وَيُؤْتُونَ" فعل مضارع وفاعل "الزَّكاةَ" مفعول به . والجملة معطوفة "وَالَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ . "هُمْ" مبتدأ خبره جملة يؤمنون . "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل بعدهما . والجملة الاسمية "هُمْ . . . يُؤْمِنُونَ" في محل رفع خبر المبتدأ الذين .

[سورة الأعراف (7) : آية 157]

(302/262)

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

"الَّذِينَ" اسم موصول بدل من الذين في الآية السابقة . "يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة صلة الموصول . "النَّبِيَّ" بدل . "الْأُمِّيَّ" بدل ثان . واسم الموصول "الَّذِي" بدل ثالث .

"يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا" فعل مضارع وفاعله ومفعولاه . "عِنْدَهُمْ" ظرف مكان متعلق بمكتوبا . "فِي التَّوْرَاةِ" متعلقان بمحذوف حال "وَالْإِنْجِيلِ" معطوف .

"يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ" الجملة الفعلية في محل نصب حال . "وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ" الجمل الفعلية بعدها معطوفة عليها . "وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل هو والجار والمجرور متعلقان بالفعل .

"وَالْأَغْلَالَ" عطف "الَّتِي" اسم موصول في محل نصب صفة للأغلال . "كَانَتْ" فعل ماض وناقص واسمها ضمير مستتر . "عَلَيْهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر كانت والجملة صلة .

"فَالَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، والفاء استئنافية وجملة "آمَنُوا" صلة الموصول "بِهِ" متعلقان بآمنوا "وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا" الجمل معطوفة "النُّورَ" مفعول به .

(303/262)

"الَّذِي" اسم موصول في محل نصب صفة النور . "أُنْزِلَ مَعَهُ" ماض مبني للمجهول تعلق به الظرف معه ونائب الفاعل محذوف والجملة صلة الموصول . "أُولَئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ . "هُمُ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ثان أو ضمير فصل لا محل له .

"الْمُفْلِحُونَ" خبر هم والجملة الاسمية هم المفلحون في محل رفع خبر أولئك . وجملة أولئك هم المفلحون خبر اسم الموصول فالذين .

[سورة الأعراف (7) : آية 158]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "يا أَيُّهَا" أي منادى مبني على الضم نكرة مقصودة ، في محل نصب بأداة النداء وها حرف تنبيه لا محل له . "النَّاسُ" بدل . "إِنِّي رَسُولُ" إن واسمها وخبرها . "اللَّهِ إِلَيْكُمْ" لفظ الجلالة مضاف إليه . "إِلَيْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال : مبعوثا إليكم . "جَمِيعاً" حال . والجملة مقول القول .

"الَّذِي" اسم موصول في محل جر بدل من اللّه ، أو في محل رفع مبتدأ . "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "مُلْكُ" "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" عطف والجملة صلة الموصول . "لا إِلهَ" لا نافية

للجنس وإله اسمها ، وخبرها محذوف تقديره موجود . "إِلَّا" أداة حصر . "هُوَ" ضمير منفصل في محل رفع بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف . والجملة بدل من جملة الصلة قبلها . "يُحيِي" الجملة كذلك بدل من الجملة قبلها . "ويُمِيتُ" الجملة معطوفة . "فَآمِنُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله . "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء وهما متعلقان بآمنوا . "وَرَسُولِهِ" عطف والجملة مستأنفة . "النَّبِيِّ" بدل ثان . "الْأُمِّيِّ" بدل ثالث "الَّذِي" اسم موصول بدل رابع ، وجملة "يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ" صلة الموصول . "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء ومتعلقان بيؤمن و"كَلِماتِهِ" معطوف . "وَاتَّبِعُوهُ" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة على آمنوا . "لَعَلَّكُمْ" لعل والكاف اسمها والميم علامة جمع الذكور والجملة تعليلية لا محل لها وجملة "تَهْتَدُونَ" في محل رفع خبر لعل .

[سورة الأعراف (7) : آية 159]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

"وَمِنْ قَوْمِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "مُوسى" مضاف إليه . "أُمَّةٌ" مبتدأ مؤخر

والجملة مستأنفة بعد الواو. "يَهْدُونَ" مضارع وفاعله. "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال أي متلبسين بالحق، والجملة في محل رفع صفة. "وَبِهِ" متعلقان بالفعل "يَعْدِلُونَ" بعدهما والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الأعراف (7) : آية 160]

(305/262)

وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

"وَقَطَّعْناهُمُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به أول. "اثْنَتَيْ" مفعول به ثان منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بالمثنى. "عَشْرَةَ" جزء لا محل له من الإعراب. "أَسْباطاً" تمييز منصوب أو بدل. "أُمَماً" بدل منصوب من أسباطا والجملة معطوفة. "وَأَوْحَيْنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "إِلى مُوسى" ونا فاعله. "إِذِ" ظرف لما مضى من الزمن متعلق بأوحينا. "اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة في محل جر

بالإضافة. "أَنِ" تفسيرية. وجملة "اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ" لا محل لها مفسرة.

"فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ" الفاء عاطفة وفعل ماض تعلق به الجار والمجرور. "اثْنَتا" فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف

[سورة الأعراف (7) : آية 161]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّدا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (162)

"فَبَدَّلَ الَّذِينَ" الفاء عاطفة وماض، واسم الموصول فاعله "ظَلَمُوا" الجملة صلة. "قَوْلًا" مفعول به.

(306/262)

"غَيْرَ" صفة. "الَّذِي" اسم موصول في محل جر بالإضافة "قِيلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "لَهُمْ" متعلقان به، "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ". "بِما" ما مصدرية والمصدر الأول في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بأرسلنا. وقد تقدم إعراب هذه الآية في سورة البقرة برقم 59 مع اختلاف لا يكاد يذكر.

[سورة الأعراف (7) : آية 163]

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163)

"وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور والهاء مفعوله وفاعله مستتر ، والجملة مستأنفة .

"الَّتِي" اسم موصول في محل جر صفة . "كانَتْ حاضِرَةَ" كان واسمها ضمير مستتر وحاضرة خبرها .

"الْبَحْرِ" مضاف إليه . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان متعلق بحاضرة . "يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "إِذْ" ظرف متعلق بيعدون أو بدل من إذ الأولى . "تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ" فعل مضارع ومفعوله وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل . "سَبْتِهِمْ" مضاف إليه . "شُرَّعاً" حال . "وَيَوْمَ" عطف .

(307/262)

وجملة "لا يَسْبِتُونَ" الجملة في محل جر بالإضافة وجملة "لا تَأْتِيهِمْ" في محل نصب حال .

"كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف : التقدير "نَبْلُوهُمْ"

بلاء كائنا كذلك البلاء . "نَبْلُوهُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله "بِما" مصدرية والمصدر المؤول منها ومن الفعل الذي بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل نبلوهم . "كانُوا" الجملة صلة وجملة "يَفْسُقُونَ" في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 164]

وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164)

"وَإِذْ" عطف على إذ الأولى في الآية السابقة . "قالَتْ أُمَّةٌ" فعل ماض وفاعل . "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لأمة والجملة في محل جر بالإضافة . "لِمَ" ما اسم استفهام في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بتعظون . والجملة الفعلية لم "تَعِظُونَ" الجملة مقول القول . "قَوْماً" مفعول به "اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ" لفظ الجلالة مبتدأ ومهلكهم خبر والهاء مضاف إليه والجملة مقول القول "أَوْ مُعَذِّبُهُمْ" عطف . "عَذاباً" مفعول مطلق . "شَدِيداً" صفة . "قالُوا" الجملة مستأنفة . "مَعْذِرَةً" مفعول لأجله أي وعظناهم لأجل المعذرة أو مفعول مطلق : لنعتذر معذرة . وبالرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره موعظتنا معذرة . . "إِلى رَبِّكُمْ" متعلقان بمعذرة . والجملة المقدرة مقول القول . "وَلَعَلَّهُمْ" لعل واسمها وجملة "يَتَّقُونَ" في محل رفع خبر وجملة (ولعلهم) معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 165]

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (165)

(308/262)

"فَلَمَّا" لما ظرفية شرطية والفاء استئنافية. "نَسُوا" فعل ماض وفاعله واسم الموصول "ما" مفعوله.

"ذُكِّرُوا بِهِ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور والواو نائب فاعل. "أَنْجَيْنَا" فعل ماض وفاعله "الَّذِينَ" اسم الموصول مفعوله. "يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ" مضارع تعلق به الجار والمجرور بعده والواو فاعله والجملة صلة الموصول وجملة أنجينا لا محل لها جواب شرط غير جازم. والجملة الفعلية "وَأَخَذْنَا الَّذِينَ" معطوفة وجملة "ظَلَمُوا" صلة الموصول.

"بِعَذابٍ" متعلقان بظلموا. "بَئِيسٍ" صفة. "بِما كانُوا" المصدر المؤول من ما والفعل بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل أخذنا، أي أخذنا الذين ظلموا بسبب فسقهم. "يَفْسُقُونَ" الجملة خبر كانوا.

[سورة الأعراف (7) : آية 166]

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (166)

"فَلَمَّا" ظرفية شرطية. "عَتَوْا" فعل ماض وفاعل الجملة مضاف إليه. "عَنْ ما" جار ومجرور متعلقان بالفعل. "نُهُوا" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة صلة. "عَنْهُ" متعلقان بالفعل. "قُلْنا لَهُمْ" الجملة لا محل لها جواب الشرط. "كُونُوا قِرَدَةً" كان واسمها وخبرها.

"خاسِئِينَ" صفة والجملة مقول القول.

[سورة الأعراف (7) : آية 167]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167)

"وَإِذْ" ظرف زمان منصوب لفعل محذوف تقديره اذكر وقت، والجملة المقدرة مستأنفة. "تَأَذَّنَ رَبُّكَ" فعل ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة.

(309/262)

"لَيَبْعَثَنَّ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واللام واقعة في جواب لقسم مفهوم من قوله تأذن. والجملة لا محل لها جواب القسم. "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما. "إِلى يَوْمِ" متعلقان بالفعل يبعثن. "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "مَنْ" اسم موصول في محل

نصب مفعول به .

"يَسُومُهُمْ" فعل مضارع والهاء مفعوله الأول . "سُوءَ" مفعوله الثاني . "الْعَذابِ" مضاف إليه والجملة صلة . "إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة . والجملة تعليلية . "الْعِقابِ" مضاف إليه "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة . "رَحِيمٌ" خبر ثان .

[سورة الأعراف (7) : آية 168]

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)

"وَقَطَّعْناهُمْ" فعل ماض وفاعل ومفعول أول . "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "أُمَماً" مفعول به ثان .

"مِنْهُمُ" متعلقان بمحذوف خبر . "الصَّالِحُونَ" مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم . "وَمِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "دُونَ" الظرف متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف : أي منهم أناس ها بطون دون ذلك . "ذلِكَ" اسم الإشارة في محل جر بالإضافة .

وجملة منهم الصالحون في محل نصب صفة أمما ، وجملة ومنهم دون ذلك : معطوفة .

"وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله والهاء مفعوله

"وَالسَّيِّئاتِ" عطف والجملة مستأنفة. "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" لعل واسمها وجملة يرجعون خبر والجملة الاسمية تعليلية.

[سورة الأعراف (7) : آية 169]

(310/262)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (169)

"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وخلف فاعله، والجملة معطوفة على جملة (و قطعناهم)، والجملة الفعلية "وَرِثُوا الْكِتابَ" في محل رفع صفة خلف. "يَأْخُذُونَ عَرَضَ" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة صفة ثانية. "هذَا" اسم إشارة في محل جر بالإضافة. "الْأَدْنى" بدل مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة. "وَيَقُولُونَ" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة. "سَيُغْفَرُ لَنا" مضارع مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور "لَنا" ونائب فاعله يرجع إلى ما قبله، أي سيغفر لنا الأخذ . . والجملة مقول القول. "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن شرطية "يَأْتِهِمْ"

مضارع مجزوم بإن وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره والهاء مفعوله و"عَرَضَ" فاعله . "مِثْلُهُ" صفة ، والجملة مستأنفة . "يَأْخُذُوهُ" مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة لا محل لها جواب شرط جازم لم تقترن بالفاء .

(311/262)

"أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ" الهمزة للاستفهام ومضارع مبني للمجهول مجزوم تعلق به الجار والمجرور "مِيثاقُ" نائب فاعله ، "الْكِتابِ" مضاف إليه . "إِنْ" حرف مصدري ونصب . "لا" نافية . "يَقُولُوا" مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل . "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بالفعل . "إِلَّا" أداة حصر . "الْحَقَّ" مفعول به ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر والتقدير : بعدم قولهم إلا الحق . . "وَدَرَسُوا ما فِيهِ" فعل ماض وفاعله واسم الموصول ما مفعوله ، و"فِيهِ" متعلقان بمحذوف صلة أي ما كتب فيه ، وجملة درسوا معطوفة على جملة يؤخذ لأنها بمعنى أخذ . . "وَالدَّارُ" مبتدأ . "الْآخِرَةُ" صفة . "خَيْرٌ" خبره والجملة الاسمية مستأنفة . "لِلَّذِينَ" متعلقان بخير قبلهما . وجملة "يَتَّقُونَ" صلة الموصول لا محل لها . "أَفَلا تَعْقِلُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة والهمزة للاستفهام .

[سورة الأعراف (7) : آية 170]

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ . "يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ" مضارع مرفوع بثبوت النون متعلق به الجار والمجرور والواو فاعله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها والجملة الفعلية "وَأَقامُوا الصَّلاةَ" معطوفة . "إِنَّا" إن ونا اسمها أصلها إننا حذفت نونها تخفيفا . "لا نُضِيعُ" لا نافية ومضارع مرفوع "أَجْرَ" مفعوله . "الْمُصْلِحِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة في محل رفع خبر إنا . والجملة الاسمية "إِنَّا لا نُضِيعُ" . . في محل رفع خبر المبتدأ الذين .

[سورة الأعراف (7) : آية 171]

(312/262)

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

"وَإِذْ" ظرفية حينية متعلقة بالفعل المقدر اذكر . والواو عاطفة والجملة المقدرة معطوفة على جملة وإذ تأذن ربك . . "نَتَقْنَا الْجَبَلَ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بالإضافة . "فَوْقَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل . "كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ" كأن واسمها وخبرها والجملة في محل نصب حال . "وَظَنُّوا" فعل ماض وفاعل والواو عاطفة . "أَنَّهُ واقِعٌ" أن واسمها وخبرها . "بِهِمْ" متعلقان بواقع . وأن وما بعدها سد مسد مفعولي ظنّ "خُذُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مستأنفة . "ما آتَيْناكُمْ" فعل ماض مبني على السكون ونا فاعله والكاف مفعوله واسم الموصول قبله مفعول خذوا والجملة صلة الموصول . "بِقُوَّةٍ" متعلقان بخذوا . "وَاذْكُرُوا" أمر وفاعله "ما" اسم موصول مفعول به "فِيهِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول . "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" لعل واسمها وجملة تتقون خبر والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 172]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (172)

"وَإِذْ" سبق إعرابها "أَخَذَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه. "مِنْ" حرف جر. "بَنِي" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. وحذفت النون للإضافة. "آدَمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. "مِنْ ظُهُورِهِمْ" بدل من الجار والمجرور قبلهما. "ذُرِّيَّتَهُمْ" مفعول به للفعل أخذ، والجملة في محل جر بالإضافة. "وَأَشْهَدَهُمْ" فعل ماض والهاء مفعوله. "عَلى أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة. "أَلَسْتُ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها والهمزة للاستفهام. "بِرَبِّكُمْ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر لست، والكاف في محل جر بالإضافة والميم لجمع الذكور والباء حرف جر زائد. والجملة مقول القول المحذوف. "قالُوا" الجملة مستأنفة. "بَلى" حرف جواب. "شَهِدْنا" فعل ماض وفاعل والجملة مفعول به. "أَنْ تَقُولُوا" مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر، والتقدير: لئلا تقولوا والجار والمجرور متعلقان بالفعل شهدنا وقيل التقدير: شهدنا كراهية قولكم.. "يَوْمَ" متعلق بتقولوا. "إِنَّا" إن واسمها.

"كُنَّا" كان واسمها. "عَنْ هذا" متعلقان بالخبر "غافِلِينَ" والجملة في محل رفع خبر إنا وجملة إنا كنا.. مقول القول.

[سورة الأعراف (7): آية 173]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)

"أَوْ" عاطفة "تَقُولُوا" عطف على أن تقولوا والتقدير لئلا تقولوا . "إِنَّما" كافة ومكفوفة . "أَشْرَكَ آباؤُنا" فعل ماض وفاعل مرفوع ونا في محل جر بالإضافة . "مِنْ قَبْلُ" قبل ظرف زمان مبني على الضم في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بأشرك والجملة مقول القول . "وَكُنَّا ذُرِّيَّةً" كان واسمها وخبرها . "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بمحذوف صفة ذرية والجملة معطوفة . "أَفَتُهْلِكُنا" فعل مضارع ومفعول به والهمزة للاستفهام . "بِما" ما اسم موصول في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل ، والجملة مستأنفة . والجملة الفعلية "فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" صلة .

[سورة الأعراف (7) : آية 174]

وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

"وَكَذلِكَ" اسم إشارة في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق والتقدير نفصل الآيات تفصيلا كائنا . كذلك التفصيل . "نُفَصِّلُ" مضارع وفاعله نحن . "الْآياتِ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم . "وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" الجملة مستأنفة . وجملة يرجعون خبر لعل .

[سورة الأعراف (7) : آية 175]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (175)

"وَاتْلُ" فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت. "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل. "نَبَأَ" مفعول به، والجملة معطوفة على الجملة المقدرة (و اذكر إذ أخذ . .). "الَّذِي" اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. "آتَيْناهُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به أول.

(315/262)

"آياتِنا" مفعول به ثان والجملة صلة الموصول. "فَانْسَلَخَ مِنْها" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور فاعله مستتر، والفاء عاطفة. "فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة معطوفة. "فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ" كان واسمها ضمير مستتر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبرها والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 176]

وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

(176)

"وَلَوْ" لو شرطية غير جازمة. "شِئْنا" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة. "لَرَفَعْناهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله، واللام واقعة في جواب الشرط والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "بِها" "وَلَكِنَّهُ" لكن والهاء اسمها والجملة الفعلية "أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ" خبرها، والجملة الاسمية ولكنه معطوفة، وكذلك جملة "وَاتَّبَعَ هَواهُ" معطوفة. "فَمَثَلُهُ" مبتدأ والهاء في محل جر بالإضافة والفاء استئنافية. "كَمَثَلِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. "الْكَلْبِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة. "إِنْ" حرف

(316/262)

جازم يجزم فعلين مضارعين. "تَحْمِلْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط تعلق به الجار والمجرور وفاعله أنت والجملة في محل نصب حال. "يَلْهَثْ" مضارع مجزوم جواب الشرط وفاعله ضمير مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم لم يقترن بالفاء أو إذا الفجائية. "أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" عطف. "ذلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف حرف خطاب. "مَثَلُ" خبره. "الْقَوْمِ" مضاف إليه. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر صفة والجملة مستأنفة لا محل لها. "كَذَّبُوا" فعل ماض وفاعله. "بِآياتِنا" متعلقان

بكذبوا والجملة صلة الموصول. "فَاقْصُصِ" فعل أمر وفاعله ضمير مستتر، والفاء هي الفصيحة. "الْقَصَصَ" مفعول به والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم مقدر: إذا عرفت ذلك فاقصص القصص.. وجملة "لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" تعليلية لا محل لها وجملة يتفكرون خبر لعل.

[سورة الأعراف (7): آية 177]

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)

"ساءَ" فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر يفسره التمييز بعده أي ساء مثل القوم الذين كذبوا. والجملة خبر مقدم "مَثَلًا" تمييز منصوب. "الْقَوْمُ" مبتدأ مؤخر. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع صفة. "كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة صلة الموصول. "وَأَنْفُسَهُمْ" مفعول به مقدم. والهاء في محل جر بالإضافة والميم علامة جمع الذكور. "كَانُوا" كان واسمها، والجملة معطوفة، وجملة "يَظْلِمُونَ" خبرها.

[سورة الأعراف (7): آية 178]

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)

"مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ . "يَهْدِ" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف الياء لأنه معتل الآخر ، وهو فعل الشرط ومفعوله محذوف أي يهده و "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "فَهُوَ" الفاء رابطة للجواب وهو ضمير رفع في محل رفع مبتدأ . "الْمُهْتَدِي" خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء للثقل ، والجملة في محل جزم جواب الشرط . وجملتا الشرط والجواب خبر من "وَمَنْ يُضْلِلْ" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله . "فَأُولَئِكَ" الفاء رابطة للجواب واسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ . "هُمُ" ضمير فصل لا محل له أو ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ . "الْخاسِرُونَ" خبره وجملة هم الخاسرون خبر أولئك ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من .

[سورة الأعراف (7) : آية 179]

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179)

"وَلَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم ، قد حرف تحقيق ، والواو للاستئناف . "ذَرَأْنا" فعل ماض وفاعل .

"لِجَهَنَّمَ" متعلقان بالفعل . "كَثِيراً" مفعول به . "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بمحذوف صفة لكثيرا . "وَالْإِنْسِ" عطف "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "قُلُوبٌ" مبتدأ مؤخر ، والجملة

الاسمية في محل نصب صفة لكثيرا . "لا يَفْقَهُونَ" مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل ولا نافية لا عمل لها . "بِها" متعلقان بالفعل ، والجملة في محل رفع صفة قلوب .

(318/262)

"وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها" إعرابهما كإعراب الآية السابقة .

"أُولئِكَ" مبتدأ "كَالْأَنْعامِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ أولئك والجملة الاسمية مستأنفة .

"بَلْ" حرف إضراب "هُمْ أَضَلُّ" مبتدأ وخبر . والجملة معطوفة . "أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ" إعرابها كإعراب "فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ" .

[سورة الأعراف (7) : آية 180]

وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (180)

"وَلِلَّهِ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "الْأَسْماءُ" مبتدأ . "الْحُسْنى" صفة مرفوعة بالضمة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر . والجملة الاسمية مستأنفة . "فَادْعُوهُ" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله والهاء مفعوله والفاء هي الفصيحة ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم .

"بِها" متعلقان بالفعل. "وَذَرُوا" فعل أمر وفاعله. "الَّذِينَ" اسم موصول مفعوله والجملة معطوفة.

"يُلْحِدُونَ" مضارع وفاعله. "فِي أَسْمائِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول "سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع مبني للمجهول والواو نائب فاعله واسم الموصول ما مفعوله والجملة مستأنفة، وجملة كانوا صلة الموصول لا محل لها وجملة يعملون في محل نصب خبر.

[سورة الأعراف (7) : آية 181]

وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

(319/262)

"وَمِمَّنْ" من اسم موصول مبني على السكون في محل جر بمن، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "خَلَقْنا" ماض وفاعله "أُمَّةٌ" مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، والجملة الفعلية "خَلَقْنا" صلة الموصول. "يَهْدُونَ" مضارع وفاعله. "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل والجملة في محل رفع صفة. "وَبِهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "يَعْدِلُونَ" والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 182]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (182)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، والجملة الفعلية "كَذَّبُوا بِآيَاتِنا" صلة الموصول .

"سَنَسْتَدْرِجُهُمْ" السين للاستقبال وفعل مضارع والهاء مفعوله ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن . "مِنْ" حرف جر "حَيْثُ" ظرف مبني على الضم في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ، والجملة في محل رفع خبر .

وجملة "لا يَعْلَمُونَ" في محل جر بالإضافة .

[سورة الأعراف (7) : آية 183]

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)

"وَأُمْلِي" الواو عاطفة أو استئنافية وفعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله أنا "لَهُمْ"

"وَأُمْلِي" الواو عاطفة أو استئنافية وفعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله أنا "لَهُمْ" متعلقان بالفعل . والجملة معطوفة أو مستأنفة . "إِنَّ كَيْدِي" إن حرف مشبه بالفعل كيدي اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "مَتِينٌ" خبر . والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 184]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (184)

(320/262)

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام، والواو عاطفة، ولم حرف نفي وجزم وقلب. "يَتَفَكَّرُوا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه ح

نافية "بِصاحِبِهِمْ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ جنة، "مِنْ" حر جر زائد "جِنَّةٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به للفعل يتفكروا الذي علق عن العمل بسبب ما النافية. "إِنْ" نافية لا عمل لها. "هُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ. "إِلَّا" أداة حصر. "نَذِيرٌ" خبر. "مُبِينٌ" صفة، والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 185]

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)

"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا" . . إعرابها كإعراب الآية السابقة، "وَما" اسم موصول مبني على السكون

في محل جر بفي المقدرة وهو معطوف على ملكوت "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" عطف "وَما خَلَقَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل. والجملة الفعلية صلة الموصول. "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان بمحذوف حال و"أَنْ" المخففة واسمها ضمير الشأن أي وأنه. "عَسى" فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر، والمصدر المؤول من أن و"اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ" الفعل الناقص يكون وأن قبله في محل نصب خبرها. واسم يكون ضمير مستتر أيضا، والجملة الفعلية في محل نصب خبرها.

"فَبِأَيِّ" جار ومجرور متعلقان بالفعل يؤمنون، والفاء هي الفصيحة. "حَدِيثٍ" مضاف إليه "بَعْدَهُ" متعلقان بمحذوف صفة لحديث، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "يُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعله.

[سورة الأعراف (7) : آية 186]

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

(321/262)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ، والجملة الفعلية "يُضْلِلِ اللَّهُ" في محل رفع خبر والجملة الاسمية من يضلل مستأنفة. "فَلا" الفاء رابطة للجواب ولا نافية للجنس. "هادِيَ"

اسمها . "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبرها أو باسم الفاعل هادي والخبر محذوف .

"وَيَذَرُهُمْ" مضارع فاعله هو والهاء مفعوله والميم لجمع الذكور . "فِي طُغْيانِهِمْ" متعلقان بيعمهون ، وجملة يذرهم استئنافية وجملة "يَعْمَهُونَ" حالية .

[سورة الأعراف (7) : آية 187]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (187)

"يَسْئَلُونَكَ" مضارع مرفوع بثبوت النون تعلق به الجار والمجرور "عَنِ السَّاعَةِ" والواو فاعله والكاف مفعوله ، والجملة مستأنفة . "أَيَّانَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر "مُرْساها" مبتدأ والهاء مضاف إليه ، والجملة الاسمية بدل من الساعة .

"قُلْ" الجملة مستأنفة . "إِنَّما" كافة ومكفوفة . "عِلْمُها" مبتدأ والهاء في محل جر بالإضافة . "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر . "رَبِّي" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة والجملة مقول القول . "لا" نافية "يُجَلِّيها" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور "لِوَقْتِها" والهاء مفعوله . "إِلَّا هُوَ" إلا أداة حصر هو فاعل . والجملة في محل نصب حال .

وجملة "ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" مستأنفة. "لا تَأْتِيكُمْ" فعل مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله ولا نافية. "إِلَّا" أداة حصر. "بَغْتَةً" حال، والجملة مستأنفة "يَسْئَلُونَكَ" الجملة مستأنفة. "كَأَنَّكَ" كأن والكاف اسمها. "حَفِيٌّ عَنْها" خبرها تعلق به الجار والمجرور عنها بها "إِنَّما" والجملة في محل نصب حال. "قُلْ" أمر فاعله مستتر. "إِنَّما" كافة ومكفوفة "عِلْمُها" مبتدأ "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان ولفظ الجلالة مضاف إليه. "لكِنَّ أَكْثَرَ" لكن واسمها وجملة يعلمون خبرها "النَّاسِ" مضاف إليه "لا يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله ولا نافية.

[سورة الأعراف (7) : آية 188]

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "لا" نافية "أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور فاعله مستتر نفعا مفعوله والجملة مقول القول. "وَلا ضَرًّا" عطف. "إِلَّا" أداة استثناء. "ما" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء والجملة الفعلية "شاءَ اللَّهُ" صلته. "وَلَوْ"

حرف شرط غير جازم. "كُنْتُ" كان واسمها. وجملة "أَعْلَمُ الْغَيْبَ" خبرها. وجملة "لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ" جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَما" الواو عاطفة وما نافية. "مَسَّنِيَ" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والنون للوقاية. "السُّوءُ" فاعل والجملة معطوفة. "إِنْ" نافية. "أَنَا" مبتدأ. "إِلَّا" أداة حصر. "نَذِيرٌ" خبر. "وَبَشِيرٌ" معطوف والجملة مستأنفة. "لِقَوْمٍ" متعلقان ببشير. وجملة "يُؤْمِنُونَ" في محل جر صفة.

(323/262)

[سورة الأعراف (7) : آية 189]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

(324/262)

"هُوَ" ضمير رفع منفصل مبتدأ . "الَّذِي" اسم موصول في محل رفع خبر والجملة مستأنفة . "خَلَقَكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "مِنْ نَفْسٍ" وفاعله هو والكاف مفعوله "واحِدَةٍ" صفة والجملة صلة الموصول . وجملة "وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها" معطوفة . "لِيَسْكُنَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بجعل . "فَلَمَّا" ظرفية شرطية ، والفاء عاطفة . "تَغَشَّاها" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر . والهاء مفعوله والفاعل هو والجملة في محل جر بالإضافة . "حَمَلَتْ" فعل ماض وتاء التأنيث . وفاعله هي "حَمْلًا" مفعول مطلق باعتباره مصدرا ومفعول به إن كان غير مصدر . "خَفِيفاً" صفة والجملة لا محل لها جواب لما ، وجملة "فَمَرَّتْ بِهِ" معطوفة . "فَلَمَّا" حينية شرطية "أَثْقَلَتْ" الجملة معطوفة . "دَعَوَا" فعل ماض مبني على الفتحة وألف الإثنين فاعل . "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعوله . "رَبَّهُما" بدل ، والجملة جواب لما لا محل لها . "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية جازمة . "آتَيْتَنا" فعل ماض مبني على السكون والتاء فاعله . ونا مفعوله . "صالِحاً" صفة لمفعول به محذوف أي ولدا صالحا والجملة ابتدائية . "لَنَكُونَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، "مِنَ الشَّاكِرِينَ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص ، والجملة لا محل لها جواب القسم . وقد أغنى عن جواب الشرط وجملة القسم والجواب مفسرة لجملة دعوا اللّه . .

[سورة الأعراف (7) : آية 190]

فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)

(325/262)

"فَلَمَّا" لما ظرفية شرطية. "آتاهُما" فعل ماض فاعله هو والهاء مفعوله الأول. وما للتثنية. "صالِحاً" صفة لمفعول ثان أي ولدا صالحا، والجملة في محل جر بالإضافة. "جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والألف فاعله و"شُرَكاءَ" مفعوله والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "فِيما" ما اسم موصول في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة شركاء، وجملة "آتاهُما" صلة. "فَتَعالَى اللَّهُ" فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل والجملة مستأنفة. "عَمَّا يُشْرِكُونَ" ما مصدرية وهي مع الفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل أي: تعالى اللّه عن شركهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 191]

أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191)

"أَيُشْرِكُونَ" مضارع والواو فاعله والهمزة للاستفهام. "ما" اسم موصول في محل نصب

مفعول به . "لا يَخْلُقُ شَيْئاً" فعل مضارع ومفعوله والفاعل مستتر ، ولا نافية والجملة صلة الموصول . وجملة "أَيُشْرِكُونَ" مستأنفة . "وَهُمْ" ضمير منفصل مبتدأ ، والواو حالية . "يُخْلَقُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة في محل رفع خبر المبتدأ هم والجملة الاسمية وهم يخلقون حالية .

[سورة الأعراف (7) : آية 192]

وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192)

"وَلا يَسْتَطِيعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله ولا نافية لا عمل لها . "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف حال من نصرا ، "نَصْراً" مفعول به والجملة معطوفة . "وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ" الجملة الفعلية معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 193]

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (193)

(326/262)

"وَإِنْ" شرطية "تَدْعُوهُمْ" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعله والهاء مفعوله .

"إِلَى الْهُدى " متعلقان بالفعل . "لا يَتَّبِعُوكُمْ" مضارع مجزوم جواب الشرط ولا نافية والجملة لا محل لها جواب شرط جازم لم يقترن بالفاء أو إذا الفجائية .

"سَواءٌ" مبتدأ مرفوع أو خبر وما بعده مبتدأ . "عَلَيْكُمْ" متعلقان بسواء والجملة استئنافية . "أَدَعَوْتُمُوهُمْ" الهمزة للاستفهام وفعل ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل والتاء ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل والهاء مفعول به والميم لجمع الذكور . وقد أشبعت الضمة فصارت واوا .

والهمزة للتسوية والاستفهام ، وهي مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل رفع خبر المبتدأ ، أو مبتدأ وسواء خبر . "أَمْ" حرف عطف . "أَنْتُمْ" مبتدأ . "صامِتُونَ" خبر والجملة معطوفة .

[سورة الأعراف (7) : آية 194]

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (194)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن . "تَدْعُونَ مِنْ دُونِ" مضارع تعلق به الجار والمجرور والجملة صلة الموصول . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه .

"عِبادٌ" خبر . "أَمْثالُكُمْ" صفة .

"فَادْعُوهُمْ" الفاء الفصيحة ، وفعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله

، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. وجملة "فَلْيَسْتَجِيبُوا" معطوفة. "لَكُمْ" متعلقان بالفعل. "إِنَّ" شرطية "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها وهو في محل جزم فعل الشرط. "صادِقِينَ" خبرها، وجملة فعل الشرط لا محل لها ابتدائية، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

[سورة الأعراف (7) : آية 195]

(327/262)

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (195)

"أَلَهُمْ" الهمزة للاستفهام وجار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر "أَرْجُلٌ" مبتدأ. والجملة استئنافية.

وجملة "يَمْشُونَ بِها" في محل رفع صفة. وكذلك إعراب الجمل الأخرى وهي "أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها"

. "أَيْدٍ" مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة. "قُلِ" الجملة مستأنفة. "ادْعُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "شُرَكاءَكُمْ" مفعوله،

والجملة مقول القول .

"ثُمَّ" عاطفة "كِيدُونِ" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله ، والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعوله والجملة معطوفة . "فَلا" لا ناهية "تُنْظِرُونِ" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون .

[سورة الأعراف (7) : آية 196]

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "وَلِيِّيَ" اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبرها "الَّذِي" اسم الموصول في محل رفع صفة وجملة "نَزَّلَ الْكِتابَ" لا محل لها لأنها صلة الموصول . "وَهُوَ" هو : ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ، والجملة معطوفة "يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" الجملة في محل رفع خبر المبتدأ .

[سورة الأعراف (7) : آية 197]

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197)

(328/262)

"وَالَّذِينَ" الواو عاطفة واسم موصول في محل رفع مبتدأ والجملة معطوفة "تَدْعُونَ" الجملة صلة ، "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالفعل وجملة "لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ" خبر المبتدأ . وينظر إعراب الآية (10) .

[سورة الأعراف (7) : آية 198]

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (198)

"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ" ينظر الآية 193 . . "وَتَراهُمْ" فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف للتعذر ، وفاعله مستتر والهاء مفعوله ، والجملة مستأنفة . "يَنْظُرُونَ" فعل مضارع والواو فاعله .

"إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل ، والجملة في محل نصب حال وكذلك الجملة الاسمية بعدها "وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ" ، والجملة الفعلية لا يبصرون خبر المبتدأ هم

[سورة الأعراف (7) : آية 199]

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (199)

"خُذِ الْعَفْوَ" فعل أمر ومفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت . "وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور بالعفو فاعله مستتر ، والجملة معطوفة ومثلها "وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ" .

[سورة الأعراف (7) : آية 200]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)

"وَإِمَّا" إن الشرطية وما زائدة ، والواو عاطفة . "يَنْزَغَنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والكاف مفعوله وجملة فعل الشرط ابتدائية لا محل لها . "مِنَ الشَّيْطانِ" متعلقان بمحذوف حال من نزغ ، كان صفة له فلما تقدم عليه صار حالا . "نَزْغٌ" فاعل . "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ" الفاء رابطة للجواب وفعل أمر تعلق به الجار والمجرور وفاعله مستتر ، والجملة في محل جزم جواب الشرط .

"إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة الأعراف (7) : آية 201]

(329/262)

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول اسمها . "اتَّقَوْا" فعل ماض والواو فاعله والجملة صلة الموصول . "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه . "مَسَّهُمْ طائِفٌ" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "مِنَ الشَّيْطانِ" متعلقان بمحذوف صفة لطائف . "تَذَكَّرُوا" فعل ماض وفاعل والجملة لا محل لها جواب شرط غير

جازم وفعل الشرط وجوابه خبر إن . . "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية. "هُمْ" مبتدأ. "مُبْصِرُونَ" خبره والجملة معطوفة.

[سورة الأعراف (7) : آية 202]

وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (202)

"وَإِخْوانُهُمْ" الواو استئنافية ومبتدأ مرفوع والهاء في محل جر بالإضافة والجملة استئنافية، "يَمُدُّونَهُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والميم لجمع الذكور والجملة خبر. "فِي الْغَيِّ" متعلقان بالفعل. "ثُمَّ" حرف عطف "لا يُقْصِرُونَ" لا نافية مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعله. ولا نافية والجملة معطوفة على الجملة الاستئنافية قبلها.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 203 الى 204]

وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

(330/262)

"إِذا" سبق أعربها في 201 "لَمْ تَأْتِهِمْ" مضارع مجزوم بلم والهاء مفعوله "بِآيَةٍ" متعلقان بالفعل والجملة في محل بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب إذا لا محل لها "لَوْلا" حرف تحضيض "اجْتَبَيْتَها" ماض وفاعله ومفعوله "قُلْ" فعل أمر "إِنَّما" كافة مكفوفة "أَتَّبِعُ" مضارع فاعله مستتر "ما" اسم موصول والجملة مقول القول "يُوحى" مضارع مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور "إِلَيَّ" ونائب الفاعل مستتر "مِنْ رَبِّي" متعلقان بمحذوف حال والجملة صلة "هذا بَصائِرُ" مبتدأ وخبر "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة بصائر "وَهُدىً" "وَرَحْمَةٌ" عطف "لِقَوْمٍ" متعلقان برحمة "يُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعله والجملة صفة قوم. "وَإِذا" ينظر الآية 201. "قُرِئَ الْقُرْآنُ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة في محل جر بالإضافة. "فَاسْتَمِعُوا" أمر مبني على حذف النون وفاعله والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "لَهُ" متعلقان بالفعل. "وَأَنْصِتُوا" عطف. "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" لعل واسمها والجملة "تُرْحَمُونَ" خبرها وجملة لعلكم تعليلية لا محل لها.

[سورة الأعراف (7) : آية 205]

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205)

"وَاذْكُرْ رَبَّكَ" فعل أمر ومفعوله والجملة معطوفة. "فِي نَفْسِكَ" متعلقان بالفعل. "تَضَرُّعاً"

حال أو مفعول لأجله. "وَخِيفَةً" عطف. "وَدُونَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف معطوف على خيفة والتقدير

(331/262)

وداعيا دون الجهر . . من القول: متعلقان بالمصدر قبلهما. "بِالْغُدُوِّ" متعلقان باذكر . . "وَالْآصالِ" معطوف. "وَلا تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بالسكون لسبقه بلا الناهية. واسم تكن محذوف "مِنَ الْغافِلِينَ" متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص، والجملة معطوفة على جملة واذكر . .

[سورة الأعراف (7) : آية 206]

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن. "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول: الذين قرّبوا "عِنْدَ" ظرف مكان. "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية استئنافية وجملة "لا يَسْتَكْبِرُونَ" الفعلية في محل رفع خبر إن. "عَنْ عِبادَتِهِ" متعلقان بالفعل، وجملة "يُسَبِّحُونَهُ" معطوفة. "وَلَهُ يَسْجُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله وتعلق بالفعل الجار والمجرور قبله

والجملة معطوفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 1 صـ 350.

416 ﴾

(332/262)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْأَعْرَاف

ذكر فِيهَا اثْنَيْنِ وَعشْرين حَدِيثا

457 - قَوْله

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ من تواضع الله رفع حكمته وَقَالَ انْتَعش نَعشك الله وَمن تكبر وَعدا طوره وهصه الله إِلَى الأَرْض

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أَبْوَاب كَلَام الصَّحَابَة فِي بَاب كَلَام عمر حَدثنَا أَبُو خَالِد الْأَحْمَر وَعبد الله بن إِدْرِيس وسُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن ابْن عجلَان عَن بكير بن عبد الله بن الْأَشَج عَن معمر بن أبي حَبِيبَة عَن عبيد الله ابْن عدي بن الْخِيَار قَالَ قَالَ عمر إِن العَبْد إِذا تواضع لله رفع الله حكمته وَقَالَ انْتَعش نَعشك الله فَهُوَ فِي نَفسه صَغِير وَفِي أنفس

النَّاس كَبِير وَإِن العَبْد إِذا تعظم وَعدا طوره وهصه الله إِلَى الأَرْض وَقَالَ اخْسَأْ خساك الله فَهُوَ فِي نَفسه كَبِير وَفِي أنفس النَّاس صَغِير حَتَّى لَهو أَحْقَر عِنْدهم من خِنْزِير انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي السَّادِس وَالْخمسين من طَرِيق عَلّي بن الْمَدِينِيّ عَن سُفْيَان عَن مُحَمَّد بن عجلَان بِهِ وَزَاد ثمَّ قَالَ عمر أَيهَا النَّاس لَا تبغضوا الله فِي عباده قَالُوا وَكَيف ذَاك يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ قَالَ يكون أحدهم إِمَامًا فَيطول عَلَى الْقَوْم الصَّلَاة حَتَّى يبغض إِلَيْهِم مَا هم فِيهِ وَيقْعد أحدهم قَاصا فَيطول عَلَى الْقَوْم حَتَّى يبغض إِلَيْهِم مَا هم فِيهِ

وَرَوَاهُ فِي كتاب الْمدْخل عَن أبي عبد الله الْحَاكِم حَدثنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب ثَنَا أَحْمد بن شَيبَان ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن ابْن عجلَان

(333/262)

وَرُوِيَ بعضه مَرْفُوعا رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كتاب الْعِلَل ثَنَا الْحُسَيْن بن إِسْمَاعِيل الْمحَامِلِي ثَنَا الْبُخَارِيّ ثَنَا عَلّي بن الحكم ثَنَا سَلام أَبُو الْمُنْذر عَن عَلّي ابْن زيد بن جدعَان عَن يُوسُف بن مهْرَان عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ مَا من آدَمِيّ إِلَّا وَملك آخذ بِحِكْمَتِهِ فَإِذا رفع نَفسه قيل للْملك ضع حكمته وَإِذا وضع نَفسه قيل للْملك ارْفَعْ حكمته قَالَ الدَّار قطني حَدِيث لَا يثبت عَلّي بن زيد ضَعِيف

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّار قطني وَنقل كَلَامه

458 - الْحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ إِن الشَّيْطَان قعد لِابْنِ آدم بأَطْرُقِهِ قعد لَهُ بطريق الْإِسْلَام فَقَالَ لَهُ تضع دينك وَدين آبَائِك فَعَصَاهُ فَأسلم ثمَّ قعد لَهُ بطريق الْهِجْرَة فَقَالَ لَهُ تدع دِيَارك وتتغرب فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثمَّ قعد لَهُ بطريق الْجِهَاد فَقَالَ لَهُ تقَاتل فَتقْتل فيقسم مَالك وَتنْكح امْرَأَتك فَعَصَاهُ فقاتل

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننيه الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى فِي كتاب الْجِهَاد من حَدِيث سَالم بن أبي الْجَعْد عَن سُبْرَة بن الْفَاكِه وَيُقَال ابْن أبي الْفَاكِه قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول إِن الشَّيْطَان قعد لِابْنِ آدم بأَطْرُقِهِ فَقعدَ لَهُ بطريق الْإِسْلَام فَقَالَ لَهُ تسلم وَتَذَر دينك وَدين آبَائِك فَعَصَاهُ وَأسلم ثمَّ قعد لَهُ بطريق الْهِجْرَة فَقَالَ تهَاجر وَتَدَع أَرْضك وَسماك وَإِنَّمَا مثل المُهَاجر كَمثل الْفرس فِي الطول فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثمَّ قعد لَهُ بطريق الْجِهَاد فَقَالَ تُجَاهِد فَتقْتل فَتنْكح

(334/262)

الْمَرْأَة وَيقسم الْمَال فَعصَاهُ فَجَاهد فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَمن فعل ذَلِك كَانَ حَقًا عَلَى الله أَن يدْخلهُ الْجنَّة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْحَادِي عشر من الْقسم الثَّالِث

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أول الْجِهَاد وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْجِهَاد

وَوهم الطِّيبِيّ فِي كِتَابه فَقَالَ رَوَاهُ النَّسَائِيّ من حَدِيث سُبْرَة بن معبد وَإِنَّمَا هُوَ سُبْرَة بن الْفَاكِه كَمَا ذكر

459 - قَوْله

عَن ابْن عمر أَنه كَانَ إِذا رَأَى فِي عبد من عبيده طَاعَة وَحسن صَلَاة أَعْتقهُ وَكَانَ عبيده يَفْعَلُونَ ذَلِك طلبا لِلْعِتْقِ فَقيل لَهُ إِنَّهُم يخدعونك فَقَالَ من خدعنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عمر بن الْخطاب من حَدِيث مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق ثَنَا قُتَيْبَة بن سعيد ثَنَا مُحَمَّد بن يزِيد بن خُنَيْس ثَنَا عبد الْعَزِيز ابْن أبي رواد عَن نَافِع قَالَ كَانَ ابْن عمر إِذا اشْتَدَّ عجبه بشَيْء من مَاله قربه لربه وَكَانَ رَقِيقه قد عرفُوا مِنْهُ ذَلِك فَرُبمَا شمر أحدهم فَيلْزم الْمَسْجِد فَإِذا رَآهُ ابْن عمر عَلَى هَذِه الْحَالة الْحَسَنَة أَعْتقهُ فَيَقُول لَهُ أَصْحَابه يَا أَبَا عبد الرَّحْمَن وَالله مَا بهم إِلَّا أَن يخدعونك فَقَالَ من خدعنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة ابْن عمر أَنا مُحَمَّد بن يزِيد بن خُنَيْس عَن عبد الْعَزِيز بن أبي رواد بِهِ

460 - الحَدِيث الثَّانِي

(335/262)

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قَالَت مَا رَأَيت من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَا رَأَى مني تَعْنِي الْعَوْرَة

قلت رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده ثَنَا مُجَاهِد بن مُوسَى ثَنَا مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْأَسدي ثَنَا أَبُو كَامِل بن الْعلَا عَن أبي صَالح أرَاهُ عَن ابْن عَبَّاس قَال قَالَت عَائِشَة مَا أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أحدا من نِسَائِهِ إِلَّا مقنعا يُرْخِي الثَّوْب عَلَى رَأسه وَمَا رَأَيته من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَا رَآهُ مني تَعْنِي الْفرج انْتَهَى

وَمن طَرِيق أبي يعْلى رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي كِتَابه الْوَفَاء

وَرَوَاهُ الدَّار قطني فِي كِتَابه الْمُسَمَّى غرائب مَالك حَدثنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل ابْن إِسْحَاق الْفَارِسِي ثَنَا مُحَمَّد بن كَامِل بن مَيْمُون الزيات ثَنَا زيد بن الْحسن ثَنَا مَالك بن أنس حَدثنِي ابْن شهَاب الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت مَا نظرت إِلَى فرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم وَلَا نظر إِلَى فَرجي قطّ انْتَهَى ثمَّ قَالَ مُحَمَّد ابْن كَامِل وَزيد بن حسن ضعيفان وَلَا يَصح هَذَا عَن مَالك وَلَا عَن الزُّهْرِيّ انْتَهَى

وَمن طَرِيق الدَّار قطني رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية وَنقل كَلَامه بحُرُوفِهِ

وَبَعض الحَدِيث رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الشَّمَائِل فِي بَاب حَيَاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَابْن ماجة فِي سننه فِي الطَّهَارَة وَفِي النِّكَاح من حَدِيث عبد الله بن يزِيد عَن مولَى لعَائِشَة عَن عَائِشَة قَالَت مَا رَأَيْت فرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قطّ انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه

(336/262)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير من حَدِيث بركَة بن مُحَمَّد الْحلَبِي ثَنَا يُوسُف بن أَسْبَاط ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن مُحَمَّد بن جحادة عَن قَتَادَة عَن أنس عَن عَائِشَة مثله انْتَهَى

461 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كل مَا شِئْت والبس مَا شِئْت مَا أَخْطَأَتك خصلتان سرف ومخيلة

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْأَدَب وَفِي كتاب اللبَاس ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن إِبْرَاهِيم بن ميسرَة عَن طَاوس عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كل مَا شِئْت والبس مَا شِئْت مَا

أَخْطَأتك خلَّتَانِ سرف ومخيلة انْتَهَى

وَذكره الْبُخَارِيّ تَعْلِيقا فِي صَحِيحه فِي كتاب اللبَاس فَقَالَ وَقَالَ ابْن عَبَّاس . . . فَذكره

وَورد مثله مَرْفُوعا وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي الزَّكَاة وَابْن ماجة فِي اللبَاس من حَدِيث

قَتَادَة عَن عَمْرو بن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كلوا

وَاشْرَبُوا وتصدقوا وَالْبَسُوا مَا لم يخالطه إِسْرَاف ومخيلة انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْأَطْعِمَة وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد

وَلم يخرجَاهُ

462 - الْحَدِيث الثَّالِث

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمعدة بَيت الدَّاء وَالْحمية رَأس كل دَوَاء وَأعْطِ كل بدن

مَا عودته

قلت وَذكر الْمُؤلف لَهُ حِكَايَة فَقَالَ حُكِيَ عَن الرشيد أَنه كَانَ لَهُ طَبِيب نَصْرَانِيّ حذق

فَقَالَ لعَلي بن حُسَيْن بن وَاقد يَوْمًا لَيْسَ فِي كتابكُمْ من علم الطِّبّ شَيْء وَالْعلم علمَان علم

الْأَدْيَان وَعلم الْأَبدَان فَقَالَ لَهُ عَلّي قد جمع الله الطِّبّ فِي نصف آيَة من كِتَابه قَالَ وَمَا هِيَ

قَالَ قَوْله تَعَالَى وكلوا وَاشْرَبُوا

(337/262)

وَلَا تسرفوا) فَقَالَ النَّصْرَانِي وَلَا يُؤثر عَن رَسُولكُم أَيْضا شَيْء فِي الطِّبّ فَقَالَ قد جمع نَبينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطِّبّ فِي كَلِمَتَيْنِ قَالَ وَمَا هما . . . فَذكر لَهُ الحَدِيث قَالَ النَّصْرَانِي مَا ترك كتابكُمْ وَلَا نَبِيكُم لجَالِينُوس طِبًّا

قلت غَرِيب جدا

ورد فِي هَذَا الْمَعْنى حديثان

أَحدهمَا مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالثَّلَاثِينَ من حَدِيث إِبْرَاهِيم بن جريج الرهاوي عَن زيد بن أبي أنيسَة عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمعدة حَوْض الْبدن وَالْعُرُوق إِلَيْهَا وَارِدَة فَإِذا صحت الْمعدة صدرت الْعُرُوق بِالصِّحَّةِ وَإِذا فَسدتْ الْمعدة صدرت الْعُرُوق بِالسقمِ انْتَهَى ثمَّ قَالَ إِسْنَاده ضَعِيف انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضعفَاهُ وَقَالَ حَدِيث بَاطِل لَا أصل لَهُ وَإِبْرَاهِيم بن جريج قَالَ الْأَزْدِيّ فِيهِ مَتْرُوك

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله هَذَا حَدِيث لَا يَصح وَلَا يعرف من كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلم يسند إِبْرَاهِيم بن جريج غير هَذَا وَكَانَ طَبِيبا فَجعل لَهُ إِسْنَادًا انْتَهَى

أخرجه الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط بالسند الْمَذْكُور

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء عَن يَحْيَى بن عبد الله الْبَابلُتِّي عَن إِبْرَاهِيم بن جريج بِهِ وَأعله بِيَحْيَى الْبَابلُتِّي وَقَالَ إِنَّه كثير الْخَطَأ لَا يقبل مَا انْفَرد بِهِ وَلم يعله بِابْن جريج وَلَا ترْجم لَهُ فِي كِتَابه وَذكره ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات

الْحَدِيث الثَّانِي حَدِيث أصل كل دَاء الْبردَة

رَوَاهُ ابْن عدي فِي كَامِله من ثَلَاث طرق

(338/262)

أَحدهَا حَدثنَا عبد الرَّحْمَن بن الْقَاسِم الْكُوفِي ثَنَا يُونُس بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا ابْن وهب عَن عَمْرو بن الْحَارِث عَن دراج عَن أبي الْهَيْثَم عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أصل كل دَاء الْبردَة انْتَهَى ثمَّ قَالَ هَذَا بَاطِل بِهَذَا الْإِسْنَاد وَأَخْطَأ عبد الرَّحْمَن عَلَى يُونُس انْتَهَى

الثَّانِي ثَنَا أَبُو يعْلى ثَنَا الحكم بن مُوسَى ثَنَا مسلمة بن عَلّي الْخُشَنِي عَن ابْن جريج عَن رجل عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أصل كل دَاء الْبرد انْتَهَى وَأعله بِمسلمَة وَضَعفه عَن الْبُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن معِين وَوَافَقَهُمْ

الثَّالِث عَن مُحَمَّد بن جَابر عَن تَمام بن نجيح عَن الْحسن عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَصل كل دَاء الْبرد انْتَهَى وَضعف تَمامًا عَن الْبُخَارِيّ وَوَثَّقَهُ عَن ابْن مِعِين قَالَ وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ حَدِيث مُنكر

ثمَّ رَوَاهُ عَن عباد بن مَنْصُور عَن الْحسن قَوْله قَالَ وَهُوَ أشبه بِالصَّوَابِ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّار قطني عَن ابْن حبَان بِسَنَدِهِ عَن مُحَمَّد بن جَابر عَن تَمام بن نجيح بِهِ ثمَّ قَالَ هَكَذَا رَوَاهُ الْبرد وَقد رَوَاهُ غَيره الْبردَة بِالْهَاءِ وَهِي التُّخمَة حَكَى الْأَعْمَش أَنه قَالَ سَأَلت أَعْرَابِيًا عَن الْبردَة فَقَالَ التُّخمَة قَالَ ابْن قُتَيْبَة وَلست أحفظ هَذَا عَن عُلَمَائِنَا فَإِن كَانَ صَحِيحا فَالْمَعْنَى حسن انْتَهَى كَلَامه

وَقَالَ الدَّار قطني فِي علله هَذَا الحَدِيث رَوَاهُ أَبُو نعيم الْحلبِي عَن مُحَمَّد ابْن جَابر الْحلبِي عَن تَمام عَن الْحسن عَن أنس وَمُحَمّد بن جَابر وَتَمام ضعيفان

(339/262)

وَرُوِيَ عَن عباد بن مَنْصُور عَن الْحسن قَوْله وَهُوَ أشبه بِالصَّوَابِ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء عَن تَمام بن نجيح وَأعله بِتَمَام وَقَالَ إِنَّه مُنكر الحَدِيث جدا يروي عَن الثِّقَات أَشْيَاء مَوْضُوعَة كَأَنَّهُ الْمُتَعَمد لَهَا انْتَهَى

463 - قَوْله

عَن عَلّي فِي قَوْله تَعَالَى وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورهمْ من غل إِخْوَانًا قَالَ إِنّي لأرجو أَن أَكون أَنَا وَعُثْمَان وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر مِنْهُم

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي آخر الْكتاب حَدثنَا وَكِيع عَن أبان ابْن عبد الله البَجلِيّ عَن نعيم بن أبي هِنْد عَن ربعي بن حِرَاش عَن عَلّي فَذكره

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا مُحَمَّد بن نور عَن معمر عَن قَتَادَة قَالَ قَالَ عَلّي فِي قَوْله تَعَالَى . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة الزُّبَيْر أخبرنَا قبيصَة بن عقبَة ثَنَا سُفْيَان عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد عَن أَبِيه قَالَ قَالَ عَلّي

464 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ سَيكون قوم يعتدون فِي الدُّعَاء فَحسب الْمَرْء أَن يَقُول اللَّهُمَّ إِنّي أَسأَلك الْجنَّة وَمَا قرب إِلَيْهَا من قَول وَعمل وَأَعُوذ بك من النَّار وَمَا قرب إِلَيْهَا من قَول وَعمل ثمَّ قَرَأَ إِنَّه لَا يحب الْمُعْتَدِينَ

قلت رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث شُعْبَة أَخْبرنِي زِيَاد بن

مِخْرَاق سَمِعت قيس بن عَبَايَة عَن مولَى لسعد يَقُول إِن سَعْدا سمع ابْنا لَهُ يَقُول اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك الْجنَّة وغرفها وَكَذَا وَكَذَا وَأَعُوذ بك من النَّار وأغلالها وَكَذَا وَكَذَا فَقَالَ لَهُ سعد لقد سَأَلت الله خيرا كثيرا وتعوذت بِهِ من شَرّ كَبِير وَإِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول سَيكون قوم يعتدون فِي الدُّعَاء وَبِحَسْبِكَ أَن تَقول اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك الْجنَّة وَمَا قرب إِلَيْهَا من قَول وَعمل وَأَعُوذ بك من النَّار وَمَا قرب إِلَيْهَا من قَول وَعمل قَالَ وَلَا أَدْرِي قَوْله وَبِحَسْبِكَ أَن تَقول هِيَ من قَول سعد أم من قَول النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده حَدثنَا شُعْبَة بِهِ سندا ومتنا إِلَّا أَنه قَالَ فِيهِ وَبِحَسْبِكَ أَن تَقول اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك من الْخَيْر كُله مَا علمت مِنْهُ وَمَا لم أعلم وَأَعُوذ بك من الشَّرّ كُله مَا علمت مِنْهُ وَمَا لم أعلم انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الدَّعْوَات بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق الطَّيَالِسِيّ بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَفِي سنَن أبي دَاوُد بعضه رَوَاهُ فِي كتاب الطَّهَارَة من حَدِيث قيس عَن عبد الله بن مُغفل أَنه سمع ابْنه يَقُول اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك الْقصر الْأَبْيَض عَن يَمِين الْجنَّة إِذا دَخلتهَا فَقَالَ أَي بني سل الله الْجنَّة وتعوذ بِهِ من النَّار فَإِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول سَيكون فِي هَذِه الْأمة قوم يعتدون فِي الدُّعَاء وَالطهُور انْتَهَى

(341/262)

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالسِّتِّينَ من الْقسم الثَّالِث عَن أبي نعَامَة عَن ابْن مُغفل بِهَذَا الْمَتْن وَكَذَلِكَ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتَاب الدُّعَاء وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي كتَاب الدُّعَاء بِسَنَد أبي دَاوُد وَمَتنه وَلم يذكر فِيهِ الطّهُور

465 - الْحَدِيث الْخَامِس

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَتَحَنَّث قبل الْبَعْث بحراء فَلَمَّا أُوحِي إِلَيْهِ جَاءَ قومه يَدعُوهُم

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي أول صَحِيحه وَمُسلم فِي كتَاب الْإِيمَان عَن عَائِشَة قَالَت أول مَا بُدِئَ بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الرُّؤْيَا الصَّالِحَة فِي النّوم وَكَانَ لَا يرَى رُؤْيا إِلَّا جَاءَت مثل فلق الصُّبْح ثمَّ حبب إِلَيْهِ الْخَلَاء وَكَانَ يخلوا بغَار حراء فَيَتَحَنَّث فِيهِ مُخْتَصر

466 - الْحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين مر بِالْحجرِ فِي غَزْوَة تَبُوك قَالَ لأَصْحَابه لَا يدخلن أحد مِنْكُم الْقريَة وَلَا تشْربُوا من مَائِهَا وَلَا تدْخلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبين إِلَّا أَن تَكُونُوا بَاكِينَ أَن يُصِيبكُم مثل مَا أَصَابَهُم

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي مَوَاضِع من صَحِيحه فِي الصَّلَاة وَفِي الْمَغَازِي وَفِي التَّفْسِير وَفِي

بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي آخر الْكتاب عَن عبد الله بن عمر قَالَ مَرَرْنَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْحجر فَقَالَ لنا لَا تدْخلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِين إِلَّا أَن تَكُونُوا بَاكِينَ حذرا أَن يُصِيبكُم مثل مَا أَصَابَهُم انْتَهَى

(342/262)

وَرَوَى الْبُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق فِي بَاب قَوْله تَعَالَى وَإِلَى ثَمُود أَخَاهُم صَالحا عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما نزل الْحجر فِي غَزْوَة تَبُوك أَمرهم أَن لَا يشْربُوا من مَائِهَا وَلَا يَسْتَقُوا من بِئْرهَا فَقَالُوا قد عَجنا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا فَأَمرهمْ أَن يطْرَحُوا ذَلِك الْعَجِين وَيُهرِيقُوا ذَلِك الْمَاء انْتَهَى

467 - الْحَدِيث السَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعَلي يَا عَلّي أَتَدْرِي من أَشْقَى الْأَوَّلين قَالَ الله وَرَسُوله أعلم قَالَ عَاقِر نَاقَة صَالح أَتَدْرِي من أَشْقَى الآخرين قَالَ الله وَرَسُوله أعلم قَالَ قَاتلك

قلت رُوِيَ من حَدِيث عمار بن يَاسر وَمن حَدِيث جَابر بن سَمُرَة وَمن حَدِيث صُهَيْب وَمن حَدِيث عَلّي

أما حَدِيث عمار فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه الْكُبْرَى فِي خَصَائِص عَلّي من طَرِيق مُحَمَّد بن

إِسْحَاق ثني يزِيد بن مُحَمَّد بن خثيم عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ حَدثنِي أَبوك مُحَمَّد بن خثيم بن مرْثَد الْمحَاربي عَن عمار بن يَاسر قَال كنت أَنا وَعلي بن أبي طَالب رَفِيقَيْنِ فِي غَزْوَة الْعسرَة فَذكرهَا إِلَى أَن قَال فَقَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا عَلّي أَلا أخْبرك بأشْقَى النَّاس رجلَيْن قَال بلَى يَا رَسُول الله قَال أُحَيْمِر ثَمُود الَّذِي عقر النَّاقة وَالَّذِي يَضْربك يَا عَلّي عَلَى هَذِه وَأَشَار إِلَى رَأسه حَتَّى يبل هَذِه وَوضع يَده عَلَى لحيته . . .

الْحَدِيث مُخْتَصر

وَكَذَلِك رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَابْن هِشَام فِي السِّيرَة وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل وَقَال صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

(343/262)

وَأما حَدِيث جَابر بن سَمُرَة فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه ثمَّ أخرجه النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى عَن إِسْمَاعِيل بن أبان بِهِ سَوَاء وَأَبُو نعيم فِي كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب الثَّامِن وَالْعِشْرين عَن الطَّبَرَانِيّ حَدثنَا عَبْدَان بن أَحْمد ثَنَا يُوسُف ابْن مُوسَى ثَنَا إِسْمَاعِيل بن أبان ثَنَا نَاصح عَن سماك بن حَرْب عَن جَابر بن سَمُرَة قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعَلي يَا عَلّي من أَشْقَى ثَمُود قَال عَاقِر النَّاقة فَمن أَشْقَى هَذِه الْأمة قَال الله أعلم قَال

قَاتلك انْتَهَى

وَأما حَدِيث صُهَيْب فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه أَيْضا وَأَبُو يعْلى فِي مُسْنده من حَدِيث رشدين بن سعد عَن يزِيد بن عبد الله بن الْهَاد عَن عُثْمَان بن صُهَيْب عَن أَبِيه صُهَيْب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يَوْمًا لعَلي يَا عَلّي تَدْرِي من أَشْقَى الْأَوَّلين قَالَ الَّذِي عقر النَّاقة يَا رَسُول الله قَالَ صدقت وَتَدْرِي من أَشْقَى الآخرين قَالَ لَا أعلم يَا رَسُول الله قَالَ الَّذِي يَضْرِبك عَلَى هَذِه وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى يَافُوخه فَكَانَ عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه يَقُول لأهل الْعرَاق أما وَالله لَوَدِدْت أَنه

قد انْبَعَثَ أشقاكم فَخَضَّبَ هَذِه يَعْنِي لحيته من هَذِه يَعْنِي رَأسه انْتَهَى

وَعَن الطَّبَرَانِيّ أَيْضا رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

(344/262)

وَأما حَدِيث عَلّي فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة وَالشَّمْس وَضُحَاهَا ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَلّي بن إِسْمَاعِيل ثَنَا مُحَمَّد بن عِيسَى بن السكن ثَنَا عَاصِم بن عَلّي عَن قيس بن الرّبيع عَن مُسلم الْأَعْوَر عَن ابْن عدي عَن عَلّي قَالَ قَالَ لي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا عَلّي أَتَدْرِي من أَشْقَى الْأَوَّلين قَالَ قلت عَاقِر نَاقَة ثَمُود قَالَ صدقت فَمن

أَشْقَى الآخرين قلت لَا أَدْرِي قَالَ الَّذِي يَضْرِبك عَلَى هَذِه يَعْنِي رَأسه كَمَا عَاقِر نَاقَة الله أَشْقَى من بني ثَمُود انْتَهَى

468 - الحَدِيث الثَّامِن قَالَ المُصَنّف وَمِنْه الْمُجثمَة الَّتِي ورد النَّهْي عَنْهَا وَهِي الْبَهِيمَة تربط وَتجمع قوَائِمهَا

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث أبي الدَّرْدَاء وَمن حَدِيث الْعِرْبَاض بن سَارِيَة وَمن حَدِيث أبي ثَعْلَبَة الْخُشَنِي وَمن حَدِيث أنس بن مَالك وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث جَابر

أما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الْأَشْرِبَة وَالتِّرْمِذِيّ فِي الْأَطْعِمَة وَالنَّسَائِيّ فِي الذَّبَائِح من حَدِيث قَتَادَة عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَهَى عَن الشّرْب من فِي السقاء وَعَن ركُوب الْجَلالَة وَعَن الْمُجثمَة انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْتَدْركه وَابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع من الْقسم الثَّانِي وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْحَج وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ

(345/262)

وَأما حَدِيث أبي الدَّرْدَاء فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الصَّيْد من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد أبي أَيُّوب الإِفْرِيقِي عَن صَفْوَان بن سليم عَن سعيد بن الْمسيب عَن أبي الدَّرْدَاء قَالَ نهَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن أكل الْمُجثمَة وَهِي الَّتِي تصبر بِالنَّبلِ انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب

قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي عَن هَذَا الحَدِيث فَقَالَ سعيد بن الْمسيب عَن أبي الدَّرْدَاء لَا يَسْتَوِي

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ إِسْنَاده حسن وَلَا نعلم رَوَى سعيد عَن أبي الدَّرْدَاء غير هَذَا الحَدِيث

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده

وَكَأَن بَين سعيد وَأبي الدَّرْدَاء رجلا آخر وَسَيَأْتِي بَيَانه فِي الزمر من حَدِيث الْخَطفَة

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أخبرنَا ابْن عُيَيْنَة عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن يزِيد بن عبد الله السَّعْدِيّ عَن سعيد بن الْمسيب بِهِ

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَأَبُو يعْلى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا عَلّي بن عَاصِم ثَنَا سُهَيْل بِهِ

حَدثنَا جرير عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن عبد الله بن يزِيد رجل من بني سعد بن بكر عَن ابْن الْمسيب بِهِ

وَمن طريقهما رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَأما حَدِيث الْعِرْبَاض بن سَارِيَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ أَيْضا فِي الصَّيْد عَن أم حَبِيبَة بنت الْعِرْبَاض بن سَارِيَة عَن أَبِيهَا الْعِرْبَاض بن سَارِيَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَهَى عَن الْمُجثمَة وَسكت عَنهُ التِّرْمِذِيّ

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْبيُوع وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

أما حَدِيث أبي ثَعْلَبَة الْخشَنِي فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي الذَّبَائِح من

(346/262)

وَأما حَدِيث أبي الدَّرْدَاء فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الصَّيْد من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد أبي أَيُّوب الإفْرِيقِي عَن صَفْوَان بن سليم عَن سعيد بن الْمسيب عَن أبي الدَّرْدَاء قَالَ نَهَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن أكل الْمُجثمَة وَهِي الَّتِي تصبر بِالنَّبلِ انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب

قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي عَن هَذَا الحَدِيث فَقَالَ سعيد بن الْمسيب عَن أبي الدَّرْدَاء لَا يَسْتَوِي

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ إِسْنَاده حسن وَلَا نعلم رَوَى سعيد عَن أبي الدَّرْدَاء غير هَذَا

الحَدِيث

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده

وَكَأَن بَين سعيد وَأبي الدَّرْدَاء رجلا آخر وَسَيَأْتِي بَيَانه فِي الزمر من حَدِيث الْخَطفَة

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أخبرنَا ابْن عُيَيْنَة عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن يزِيد بن عبد الله السَّعْدِيّ عَن سعيد بن الْمسيب بِهِ

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَأَبُو يعْلى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا عَلّي بن عَاصِم ثَنَا سُهَيْل بِهِ

حَدثنَا جرير عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن عبد الله بن يزِيد رجل من بني سعد بن بكر عَن ابْن الْمسيب بِهِ

وَمن طريقهما رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَأما حَدِيث الْعِرْبَاض بن سَارِيَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ أَيْضا فِي الصَّيْد عَن أم حَبِيبَة بنت الْعِرْبَاض بن سَارِيَة عَن أَبِيهَا الْعِرْبَاض بن سَارِيَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَهى عَن الْمُجثمَة وَسكت عَنهُ التِّرْمِذِيّ

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْبيُوع وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي ثَعْلَبَة الْخُشَنِي فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي الذَّبَائِح من

حَدِيث جُبَير بن نفير عَن أبي ثَعْلَبَة الْخُشَنِي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا تحل الْمُجثمَة وَلَا كل ذِي نَاب من السبَاع

وَرَوَاهُ الدَّارِمِيّ فِي مُسْنده أخبرنَا عبد الله بن مسلمة ثَنَا أَبُو أويس ابْن عَم مَالك بن أنس عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي إِدْرِيس الْخولَانِيّ عَن أبي ثَعْلَبَة الْخُشَنِي . . . فَذكره

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا زَكَرِيَّا بن عدي أَنا بَقِيَّة عَن بحير بن سعد عَن خَالِد بن معدان عَن جُبَير بن نفير بِهِ سَوَاء

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كتاب الْأَطْعِمَة بِسَنَد ابْن أبي شيبَة سَوَاء أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حرم يَوْم خَيْبَر كل ذِي نَاب من السبَاع وَالْمُجَثَّمَة وَالْحمار الْإِنْسِي انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْبيُوع من حَدِيث حَمَّاد بن سَلَمَة عَن أَيُّوب عَن عِكْرِمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ نَهَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الْمُجثمَة وَالْجلالَة وَسكت عَنهُ

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده ثَنَا حُسَيْن بن عَلّي عَن زَائِدَة عَن مُحَمَّد ابْن عَمْرو عَن أبي سَلَمَة عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده أَيْضا ثَنَا هَاشم بن الْقَاسِم ثَنَا عِكْرِمَة بن

عمار عَن يَحْيَى بن أبي كثير عَن أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن عَن جَابر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم خَيْبَر حرم الْمُجثمَة وَالْخلْسَة وَالنهبَة مُخْتَصر

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث عِكْرِمَة بن عمار بِهِ

(348/262)

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الرَّحِيم ثَنَا شَبَابَة ثَنَا الْمُغيرَة بن مُسلم ثَنَا مطر عَن قَتَادَة عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَهَى عَن الْمُجثمَة وَالْجَلالَة وَالشرب من فِي السقاء انْتَهَى

وَرَوَى حَدِيث أبي هُرَيْرَة أَيْضا ثَنَا مُحَمَّد بن يسَار ثَنَا عبد الْوَهَّاب ثَنَا مُحَمَّد بن عَمْرو

469 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن جَابر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما مر بِالْحجرِ قَالَ لَا تسألوا الْآيَات فقد سَأَلَهَا قوم صَالح فَأَخَذتهم الصَّيْحَة فَلم تبْق مِنْهُم إِلَّا رجلا وَاحِدًا كَانَ فِي حرم الله قَالُوا من هُوَ قَالَ ذَاك أَبُو رِغَال فَلَمَّا خرج من الْحرم أَصَابَهُ مَا أَصَاب قومه

(349/262)

قلت رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن عبد الله بن عُثْمَان بن خثيم عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر ابْن عبد الله أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما نزل الْحجر فِي غَزْوَة تَبُوك قَامَ فَخَطب النَّاس فَقَالَ يأيها النَّاس لَا تسألوا نَبِيكُم عَن الْآيَات هَؤُلَاءِ قوم صَالح سَأَلُوا نَبِيّهم أَن يبْعَث لَهُم آيَة فَبعث الله لَهُ النَّاقة فَكَانَت ترد من هَذَا الْفَج فَتَشرب مَاءَهُمْ يَوْم وُرُودهَا وَيَشْرَبُونَ من لَبنهَا مثل مَا كَانُوا يبزوون من مَائِهِمْ فَعَتَوْا عَن أَمر رَبهم فَعَقَرُوهَا فَوَعَدَهُمْ الله ثَلَاثَة أَيَّام وَكَانَ مَوْعُودًا من الله غير مَكْذُوب ثمَّ جَاءَتْهُم الصَّيْحَة فَأهْلك الله من كَانَ تَحت مَشَارِق الْأَرْض وَمَغْربهَا مِنْهُم إِلَّا رجلا كَانَ فِي حرم الله فَمَنعه حرم الله من عَذَاب الله قَالُوا يَا رَسُول الله من هُوَ قَالَ أَبُو رِغَال انْتَهَى قَالَ الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وَقَالَ شَيخنَا الذَّهَبِيّ هُوَ عَلَى شَرط مُسلم

رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا معمر عَن عبد الله بن عُثْمَان بن خثيم بِهِ وَزَاد فِيهِ زِيَادَة قَالَ معمر وَأَخْبرنِي إِسْمَاعِيل بن أُمَيَّة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر بِقَبْر أبي رِغَال فَقَالَ أَتَدْرُونَ مَا هَذَا قَالُوا الله وَرَسُوله أعلم قَالَ هَذَا قبر أبي رِغَال قَالُوا وَمن أَبُو رِغَال قَالَ رجل من ثَمُود كَانَ فِي حرم الله فَمَنعه حرم الله من عَذَاب الله فَلَمَّا خرج أَصَابَهُ مَا أَصَاب قومه فَدفن هَاهُنَا وَدفن مَعَه

غُصْن من ذهب فَنزل الْقَوْم فَابْتَدَرُوهُ وَبَحَثُوا عَنهُ بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى اسْتَخْرجُوا الْغُصْن قَالَ معمر قَالَ الزُّهْرِيّ وَأَبُو رغَال هُوَ أَبُو ثَقِيف انْتَهَى

وَعَن عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما والطبري فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ وَمَتنه بِزِيَادَتِهِ

470 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر بِقَبْر أبي رِغَال فَقَال أَتَدْرُونَ من هَذَا قَالُوا الله وَرَسُوله أعلم فَذكر قصَّة أبي رِغَال وَأَنه دفن هَاهُنَا وَدفن مَعَه غُصْن من ذهب فَابْتَدَرُوهُ وَبَحَثُوا عَنهُ بِأَسْيَافِهِمْ وَاسْتَخْرَجُوا الْغُصْن

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْخراج من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن أُمَيَّة عَن بجير بن أبي بجير عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول حِين خرجنَا مَعَه إِلَى الطَّائِف فمررنا مَعَه بِقَبْر فَقَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَذَا قبر أبي رِغَال وَكَانَ بِهَذَا الْحرم يدْفع عَنهُ فَلَمَّا خرج أَصَابَته النقمَة الَّتِي أَصَابَت قومه بِهَذَا الْمَكَان فَدفن فِيهِ وَآيَة ذَلِك أَنه دفن مَعَه غُصْن من ذهب إِن أَنْتُم نَبَشْتُمْ عَنهُ أَصبْتُم

مَعَه فَابْتَدَرَهُ النَّاس فَاسْتَخْرَجُوا الْغُصْن انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي النَّوْع السَّادِس من الْقسم الثَّالِث وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَعَن الطَّبَرَانِيّ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

(351/262)

قَالَ ابْن الْقطَّان فِي كتَاب الْوَهم وَالْإِيهَام والْحَدِيث من أجل بجير بن أبي بجير لَا يَصح فَإِنَّهُ مَجْهُول الْحَال قَالَ ابْن معِين لَا يعرف إِلَّا بِهَذَا الْحَدِيث وَلم أسمع أحدا رَوَى عَنهُ غير إِسْمَاعِيل بن أُمَيَّة انْتَهَى

وَقَوله فَبَحَثُوا عَنهُ بأَسْيَافِهِمْ تقدم فِي الْحَدِيث قبله فِي رِوَايَة مرسله

471 - الْحَدِيث الْعَاشِر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَبَقَك بهَا عكاشة

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتَاب الطِّبّ وَمُسلم فِي الْإِيمَان عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عرضت عَلَي الْأُمَم فَجعل النَّبِي وَالنَّبِيَّان يمرون مَعَهم الرَّهْط وَالنَّبِيّ لَيْسَ مَعَه أحد حَتَّى رفع لي سَواد عَظِيم قلت مَا هَذَا أمتِي هَذِه قيل مُوسَى وَقَومه قيل انْظُر إِلَى الْأُفُق فَإِذا سَواد عَلَى الْأُفُق ثمَّ قيل لي انْظُر هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاق

السَّمَاء فَإِذا سَواد قد مَلأ الْأُفق قيل هَذِه أمتك وَيدخل الْجنَّة من هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ ألفا بِغَيْر حِسَاب ثمَّ دخل وَلم يبين لَهُم فَأَفَاضَ الْقَوْم وَقَالُوا نَحن الَّذين آمنا بِاللَّه واتَّبعنا رَسُوله فَنحْن هم أم أَوْلَادنَا الَّذين ولدُوا فِي الْإِسْلَام وَإِنَّمَا ولدنا فِي الْجَاهِلِيَّة فَبلغ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَخرج فَقَالَ هم الَّذين لَا يسْتَرقون وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى ربهم يَتَوَكَّلُونَ فَقَالَ عكاشة بن مُحصن أَنا مِنْهُم يَا رَسُول الله قَالَ نعم فَقَامَ آخر فَقَالَ أَمنهم أَنا قَالَ سَبَقَك بهَا عكاشة انْتَهَى

(352/262)

وَلمُسلم فِيهِ عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا يدْخل من أمتِي الْجنَّة سَبْعُونَ ألفا بِغَيْر حِسَاب فَقَامَ عكاشة بن مُحصن قَالَ يَا رَسُول الله ادْع الله أَن يَجْعَلنِي مِنْهُم فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُم فَقَامَ آخر فَقَالَ يَا رَسُول الله ادْع الله أَن يَجْعَلنِي مِنْهُم فَقَالَ سَبَقَك بهَا عكاشة انْتَهَى وَلمُسلم نَحوه عَن عمرَان بن حُصَيْن وَينظر الْأَطْرَاف

472 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام اعْفُوا اللحَى

قلت تقدم فِي الْبَقَرَة

473 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

فِي الحَدِيث سَتَرَوْنَ ربكُم كَمَا ترَوْنَ الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي تَفْسِير سُورَة النّسَاء وَفِي غَيره وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث عَطاء بن يسَار عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ أَن نَاسا قَالُوا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَل نرَى ربنَا يَوْم الْقِيَامَة فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَل تضَارونَ فِي الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر قَالُوا لَا يَا رَسُول الله قَالَ فَإِنَّكُم سَتَرَوْنَهُ كَذَلِك . . . الحَدِيث بِطُولِهِ

وَأَخْرَجَا نَحوه عَن عَطاء بن يزِيد اللَّيْثِيّ عَن أبي هُرَيْرَة أَن نَاسا قَالُوا يَا رَسُول الله هَل نرَى ربنَا يَوْم الْقِيَامَة فَقَالَ هَل تضَارونَ فِي الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر قَالُوا لَا يَا رَسُول الله قَالَ هَل تضَارونَ فِي الشَّمْس لَيْسَ دونهَا سَحَاب قَالُوا لَا قَالَ فَإِنَّكُم ترَوْنَهُ كَذَلِك . . . الحَدِيث بِطُولِهِ

(353/262)

وَأَخْرَجَا فِي الصَّلَاة عَن قيس بن أبي حَازِم سَمِعت جرير بن عبد الله يَقُول كُنَّا جُلُوسًا عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذْ نظر إِلَى الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر فَقَالَ أما إِنَّكُم سَتَرَوْنَ ربكُم كَمَا ترَوْنَ هَذَا الْقَمَر لَا تضَامون فِي رُؤْيَته فَإِن اسْتَطَعْتُم أَن لَا تغلبُوا عَن صَلَاة قبل طُلُوع الشَّمْس وَقبل غُرُوبهَا يَعْنِي الْفجْر وَالْعصر ثمَّ قَرَأَ جرير وَسبح بِحَمْد ربك قبل طُلُوع

الشَّمْس وَقبل غُرُوبهَا انْتَهَى

وَرَوَى الْبُخَارِيّ فِي كتاب التَّوْحِيد بِهَذَا الْإِسْنَاد قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكُم سَتَرَوْنَ ربكُم عيَانًا انْتَهَى

474 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن الفضيل قَالَ ذكر لنا عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا عظمت أمتِي الدُّنْيَا نزع عَنْهَا هَيْبَة الْإِسْلَام وَإِذا تركُوا الْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر حرمت بركَة الْوَحْي

قلت لم أَجِدهُ عَن الفضيل بن عِيَاض

وَالْحَدِيث رَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول حَدثنَا عمر بن أبي عمر ثَنَا مُحَمَّد بن المتَوَكل عَن البخْتري بن عبيد عَن سُلَيْمَان الْأَغَر عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا عظمت أمتِي الدُّنْيَا نزع مِنْهَا هَيْبَة الْإِسْلَام وَإِذا تركت الْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر حرمت بركَة الْوَحْي وَإِذا تَسَابَّتْ أمتِي سَقَطت من عين الله عَزَّ وَجَلَّ انْتَهَى ذكره فِي الْأَصْل الْخَامِس وَالسبْعين بعد الْمِائَة

475 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس الْكَلْب مُنْقَطع الْفُؤَاد يَلْهَث إِن حمل عَلَيْهِ أَو لم يحمل عَلَيْهِ

476 - قَوْله

وَفِي كتاب عمر إِلَى خَالِد بن الْوَلِيد بَلغنِي أَن أهل الشَّام اتَّخذُوا لَك دلوكا عجن بِخَمْر وَإِنِّي لَأَظُنكُمْ آل الْمُغيرَة ذَرْء النَّار

قلت رَوَاهُ الإِمَام أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث حَدثنِي إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش عَن حميد بن ربيعَة عَن سُلَيْمَان بن مُوسَى أَن عمر كتب إِلَى خَالِد بن الْوَلِيد بَلغنِي أَنَّك دخلت حَماما بِالشَّام وَأَن من بهَا من الْأَعَاجِم أعدُّوا لَك دلوكا عجن بِخَمْر وَإِنِّي لَأَظُنكُمْ آل الْمُغيرَة ذَرْء النَّار انْتَهَى ثمَّ قَالَ يرْوَى ذَرْء بِالْهَمْزَةِ وَيروَى ذرو بِالْوَاو فَمن قَالَ ذَرْء بِالْهَمْزَةِ فَإِنَّهُ أَرَادَ خلق النَّار أَي إِنَّكُم خلقتُمْ لَهَا من قَوْلهم ذرأ الله الْخلق يَذْرَؤُهُمْ ذَرْءًا وَمن قَالَ

ذرو بِالْوَاو فَهُوَ من ذرى يذرو قَالَ تَعَالَى تَذْرُوهُ الرِّيَاح أَي إِنَّكُم تَذرُونَ فِي النَّار ذَروا وَالدُّلُوك بِفَتْح الدَّال مَا يدلك بِهِ كَالسحُور انْتَهَى كَلَامه

477 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ يَقُول إِذا قَرَأَ وَمِمَّنْ خلقنَا أمة يهْدُونَ بِالْحَقِّ هَذِه لكم وَقد أعطي الْقَوْم بَين أَيْدِيكُم مثلهَا

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره عَن قَتَادَة وَابْن جريج قَالَا بلغنَا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ هَذِه الْآيَة وَمِمَّنْ خلقنَا إِلَى آخِره وَسَنده إِلَى قَتَادَة وَابْن جريج فِي أول كِتَابه

478 - الحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ إِن من أمتِي قوما عَلَى الْحق حَتَّى ينزل عِيسَى

(355/262)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَارِيخه الْأَوْسَط فِي بَاب الْعين الْمُهْملَة فِي تَرْجَمَة عبيد الله الطفَاوِي قَالَ قَالَ لِي مُحَمَّد بن يَحْيَى حَدثنَا النُّفَيْلِي ثَنَا مُحَمَّد بن سَلمَة عَن أبي وَاصل عَن عبيد الله الطفَاوِي قَالَ قَالَ جَابر بن عبد الله قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا تزَال طَائِفَة من أمتِي يُقَاتلُون عَلَى الْحق حَتَّى ينزل عِيسَى بن مَرْيَم انْتَهَى وَهَذِه عَادَة البُخَارِيّ فِيمَا لم يكن عَلَى شَرطه

وَرَوَى أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا بهز ثَنَا حَمَّاد بن سَلمَة ثَنَا قَتَادَة عَن مطرف عَن عمرَان بن حُصَيْن أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا تزَال طَائِفَة من أمتِي عَلَى الْحق حَتَّى يَأْتِي أَمر الله وَينزل عِيسَى بن مَرْيَم انْتَهَى

وَفِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ قَالَ الرّبيع بن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ هَذِه الْآيَة فَقَالَ إِن من أمتِي قوما عَلَى الْحق حَتَّى ينزل عِيسَى بن مَرْيَم انْتَهَى وَسَنَده إِلَى الرّبيع ابْن أنس فِي أول كِتَابه

وَرَوَى أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده حَدثنَا حَفْص بن عبد الله الْحلْوانِي ثَنَا بهْلُول بن مُورق الشَّامي عَن مُوسَى بن عُبَيْدَة عَن أَخِيه عَن جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا تزَال طَائِفَة من أمتِي ظَاهِرين عَلَى الْحق حَتَّى ينزل عِيسَى ابْن مَرْيَم فَيَقُول إِمَامهمْ تقدم فَيَقُول أَنْتُم أَحَق أَمر كرم الله بِهِ هَذِه الْأمة انْتَهَى

479 - الْحَدِيث السَّادِس عشر

(356/262)

عَن قَتَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم علا الصَّفَا فَدَعَاهُمْ فخذا فخذا فَحَذَّرَهُمْ بَأْس الله تَعَالَى فَقَالَ قَاتلهم يَعْنِي الْكفَّار إِن صَاحبكُم هَذَا لَمجْنُون بَات يصوت إِلَى الصَّبَاح قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن زُرَيْع ثَنَا سعيد عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن نَبِي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ عَلَى الصَّفَا فَدَعَا قُرَيْشًا فخذا فخذا يَا بني فلَان يَا بني فلَان يُحَذرهُمْ بَأْس الله وَوَقَائعه فَقَالَ قَائِلهمْ إِن صَاحبكُم هَذَا لَمجْنُون بَات يصوت إِلَى الصَّبَاح فَأَنْزل الله تَعَالَى أَو لم يتفكروا مَا بِصَاحِبِهِمْ من جنَّة إِن هُوَ إِلَّا نَذِير مُبين انْتَهَت الْآيَة انْتَهَى

وَكَذَلِكَ ذكره الثَّعْلَبِيّ فَقَالَ وَقَالَ قَتَادَة ذكر لنا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَامَ عَلَى

الصَّفَا . . . إِلَى آخِره

480 - الحَدِيث السَّابِع عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن السَّاعَة تهيج بِالنَّاسِ وَالرجل يصلح حَوْضه وَالرجل يسْقِي مَاشِيَته وَالرجل يقوم سلْعَته فِي سوقه وَالرجل يخْفض مِيزَانه وَيَرْفَعهُ

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ أَيْضا أخبرنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن السَّاعَة تهيج بِالنَّاسِ . . . إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِهَذَا اللَّفْظ

(357/262)

والْحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ بِغَيْر هَذَا اللَّفْظ أَخْرجَاهُ عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لتقومن السَّاعَة وَقد نشر الرّجلَانِ ثوبهما بَينهمَا فَلَا يتبايعانه وَلَا يطويانه وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة وَقد انْصَرف الرجل بِلَبن لقحته فَلَا يطعمهُ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة هُوَ يلط حَوْضه فَلَا يسْقِي فِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة وَقد رفع أَكلته إِلَى فِيهِ فَلَا يطْعمهَا انْتَهَى

وَلم يُخرجهُ الْبَغَوِيّ فِي تَفْسِيره إِلَّا بِلَفْظ الصَّحِيح

481 - الحَدِيث الثَّامِن عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يسروا وَلَا تُعَسِّرُوا

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الْعلم وَمُسلم فِي الْمَغَازِي من حَدِيث أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يسروا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تنفرُوا انْتَهَى

482 - الحَدِيث التَّاسِع عشر

قيل لما نزلت خُذ الْعَفو وَأمر الْعرف سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جِبْرِيل فَقَالَ لَا أَدْرِي حَتَّى أسأَل ثمَّ رَجَعَ فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِن رَبك يَأْمُرك أَن تصل من قَطعك وَتُعْطِي من حَرمك وَتَعْفُو عَمَّن ظلمك

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنِي الْحُسَيْن بن الزبرقَان النَّخعِيّ ثَنَا حُسَيْن الْجعْفِيّ عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن أُمّي الْمرَادِي قَالَ لما أنزل الله عَلَى نبيه خُذ الْعَفو وَأمر بِالْعرْفِ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لجبريل مَا هَذَا قَالَ لَا أَدْرِي حَتَّى أسأَل . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَيْضا أَنا ابْن عُيَيْنَة عَن أُمّي الْمرَادِي . . . فَذكره وَهُوَ مُرْسل

(358/262)

وَأَخْطَأ الطِّيبِيّ فِي قَوْله رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده من حَدِيث عقبَة بن عَامر وَالَّذِي رَوَاهُ أَحْمد لَيْسَ هُوَ هَذَا الحَدِيث وَلَفظه عَن عقبَة بن عَامر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهُ يَا عقبَة أَلا أخْبرك بِأَفْضَل أَخْلَاق الدُّنْيَا أَن تصل من قَطعك وَتُعْطِي من حَرمك وَتَعْفُو عَمَّن ظلمك انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره أَخْبرنِي الْحُسَيْن بن عَلّي النَّيْسَابُورِي فِيمَا أجَازه لِي ثَنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن يَحْيَى الْأَنْطَاكِي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْمَدِينِيّ ثَنَا عبد الله ابْن نَافِع بن ثَابت الزبيرِي ثَنَا عبد الْعَزِيز بن عبد الله الْمَاجشون عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة خُذ الْعَفو وَأمر بِالْعرْفِ وَأعْرض عَن الْجَاهِلين قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا جِبْرِيل مَا تَأْوِيل هَذِه الْآيَة قَالَ حَتَّى أسأَل فَصَعدَ ثمَّ نزل فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِن الله يَأْمُرك أَن تصفح عَمَّن ظلمك وَتُعْطِي من حَرمك وَتصل من قَطعك انْتَهَى

حَدثنَا أَحْمد بن إِسْحَاق بن نيخاب الطِّيبِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن يُونُس ثَنَا عبد الله ابْن دَاوُد الْخُرَيْبِي ثَنَا عبَادَة بن مُسلم عَن الْعَلَاء بن بدر عَن قيس بن سعد ابْن عبَادَة قَالَ لما نظر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى حَمْزَة بن عبد الْمطلب قَالَ وَالله لَأُمَثِّلَن بسبعين مِنْهُم فجَاء جِبْرِيل بِهَذِه الْآيَة خُذ الْعَفو وَأمر بِالْعرْفِ وَأعْرض عَن الْجَاهِلين فَقَالَ يَا جِبْرِيل مَا هَذَا قَالَ لَا أَدْرِي حَتَّى أسأَل ثمَّ عَاد فَقَالَ إِن الله يَأْمُرك أَن تَعْفُو عَمَّن ظلمك وَتصل من

قَطعك وَتُعْطِي من حَرمك انْتَهَى

483 - الْحَدِيث الْعشْرُونَ

(359/262)

قَالَ الْمُصَنّف وَفِي قصَّة أم معبد

(فيالقصي مَا زوَى الله عَنْكُم . . . بِهِ من فخار لَا يُبَارَى وسؤدد)

قلت حَدِيث أم معبد يرْوَى من حَدِيث أم معبد وَاسْمهَا عَاتِكَة بنت خَالِد من خُزَاعَة وَكَانَ منزلهَا بِقديد قَالَه ابْن سعد فِي الطَّبَقَات وَمن حَدِيث زَوجهَا أبي معبد وَمن حَدِيث أَخِيهَا حُبَيْش بن خَالِد كلهم يرويه بِمَعْنى وَاحِد

(360/262)

فَحَدِيث حُبَيْش بن خَالِد رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْهِجْرَة من حَدِيث حزَام بن هِشَام بن خَالِد عَن أَبِيه هِشَام بن حُبَيْش بن خَالِد عَن أَبِيه حُبَيْش بن خَالِد أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين خرج من مَكَّة خرج إِلَى الْمَدِينَة هُوَ وَأَبُو بكر وَمولى أبي بكر

عَامر بن فهَيْرَة وَدَلِيلهمَا عبد الله بن الْأُرَيْقط اللَّيْثِيّ مروا عَلَى خَيْمَتي أم معبد الْخزَاعِيَّة وَكَانَت بَرزَة جلدَة تَحْتَبِي بِفنَاء الْقبَّة ثمَّ تَسْقِي وَتطعم فَسَأَلُوهَا لَحْمًا وَتَمْرًا لِيَشْتَرُوهُ مِنْهَا فَلم يُصِيبُوا عِنْدهَا شَيْئًا وَكَانَ الْقَوْم مُرْمِلِينَ مُسنَّتَيْنِ فَنظر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شَاة فِي كسر الْخَيْمَة فَقَالَ مَا هَذِه الشَّاة يَا أم معبد قَالَت شَاة خلفهَا الْجهد عَن الْغنم قَالَ هَل بهَا من لبن قَالَت هِيَ أجهد من ذَلِك قَالَ أَتَأْذَنِينَ لي أَن أَحْلبهَا قَالَت نعم بِأبي أَنْت وَأمي إِن رَأَيْت بهَا حَلبًا فاحلبها فَدَعَا بهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمسح ضرْعهَا وَسَمَّى الله ودعا لَهَا فِي شَاتهَا فتفاجت عَلَيْهِ وَدرت واجترت ودعا بِإِنَاء يربض الرَّهْط فَحلبَ فِيهِ ثجًّا حَتَّى علاهُ الْبَهَاء ثمَّ سَقَاهَا حَتَّى رويت وَسَقَى أَصْحَابه حَتَّى رووا وَشرب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرهم ثمَّ حلب فِيهِ ثَانِيًا حَتَّى ملأهُ ثمَّ غَادَرَهُ عِنْدهَا ثمَّ بَايَعهَا وَارْتَحلُوا عَنْهَا فَمَا لَبِثت حَتَّى جَاءَ زَوجهَا أَبُو معبد يَسُوق أَعْنُزًا عِجَافًا تساوكن هزالًا مُخهنَّ قَلِيل فَلَمَّا رَأَى أَبُو معبد اللَّبن عجب وَقَالَ من أَيْن لَك هَذَا اللَّبن يَا أم معبد وَالشَّاة عَازِب حِيَال وَلَا حَلُوب فِي الْبَيْت فَقَالَت لَا

(361/262)

وَالله إِنَّه مر بِنَا رجل مبارك من حَاله كَذَا وَكَذَا قَالَ صَفيه لي يَا أم معبد

قَالَت رَأَيت رجلا ظَاهر الْوَضَاءَة أَبْلَج الْوَجْه حسن الْخلق لم تَعبه تَجلَّةٌ وَلم تزر بِهِ صَلْعَةٌ

وسيم قسيم فِي عَيْنَيْهِ دعجٌ وَفِي أَشْفَاره وَطف وَفِي صَوته صَهل وَفِي عُنُقه سَطَعَ وَفِي

لحيته كَثَافَة أَزجّ أقرن إِن صمت فَعَلَيهِ الْوَقار وَإِن تكلم سما وَعَلِيهِ الْبَهَاء أجمل النَّاس وَأَبْهَاهُ

من بعيد وَأَجْلَاهُ وَأحسنه من قريب حُلْو الْمنطق فصل لَا تزر وَلَا هزر كَأَن منْطقَة خَرَزَات

نظم ينحدرن ربعَة لَا بَأْس من طوله وَلَا تَقْتَحِمُهُ عين من قصر غُصْن بَين غُصْنَيْن فَهُوَ أَنْضَرُ

الثَّلَاثَة منْظرًا وَأَحْسَنهمْ قدرا لَهُ رُفَقَاء يحفونَ بِهِ إِن قَالَ أَنْصتُوا لقَوْله وَإِن أَمر تبَادرُوا إِلَى

قَوْله مَحْفُودٌ مَحْسُود لَا عَابس وَلَا مُفند فَقَالَ أَبُو معبد هُوَ وَالله صَاحب قُرَيْش الَّذِي ذكر

لنا من أمره مَا ذكر وَلَقَد هَمت أَن أَصْحَبهُ وَلَأَفْعَلَن إِن وجدت إِلَى ذَلِك سَبِيلا فَأَصْبح

صَوت بِمَكَّة عَالِيا يَسْتَمِعُون الصَّوْت وَلَا يَدْرُونَ من صَاحبه وَهُوَ يَقُول

(جزي الله رب النَّاس خير جَزَائِهِ . . . رَفِيقَيْنِ حلا خَيْمَتي أم معبد)

(هما نَزَّلَاهَا بِالْهُدَى واهتدت بِهِ . . . فقد فَازَ من أَمْسَى رَفِيق مُحَمَّد)

(فيالقصي مَا زوَى الله عَنْكُم . . . بِهِ من فعال لَا تجازى وسؤدد)

(ليهون بني كَعْب مقَام فَتَاتهمْ . . . ومقعدها بِالْمُؤْمِنِينَ بمَرْصَد)

(دَعَاهَا بِشَاة حَائِل فتحلبت . . . عَلَيْهِ صَرِيحًا ضرَّة الشَّاة مُزْبِد)

(فغادره رهنا لَدَيْهَا لحالب . . . يُرَدِّدهَا فِي صدر بعد مورد)

فَلَمَّا سمع حسان الْهَاتِف بذلك شَبَّبَ يُجَاوب الْهَاتِف فَقَالَ

(لقد خَابَ قوم زَالَ عَنْهُم نَبِيّهم . . . وَقدس من يسري إِلَيْهِم وَيَغْتَدِي)

(362/262)

(ترحل عَن قوم فضلت عُقُولهمْ . . . وَحل عَلَى قوم بِنور مُجَدد)

(هدَاهُم بِهِ بعد الضَّلَالَة رَبهم . . . فَأَرْشَدَهُمْ من يتبع الْحق يرشد)

(وَهل يَسْتَوِي ضلال قوم تسفهوا . . . عَمى وَهُدَاة يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ)

(وَقد نزلت مِنْهُ عَلَى أهل يثرب . . . ركاب هدى حلت عَلَيْهِم بِأَسْعَد)

(نَبِي يرَى مَا لَا يرَى النَّاس حوله . . . وَيَتْلُو كتَاب الله فِي كل مشْهد)

(وَإِن قَالَ فِي يَوْم مقَالَة غَائِب . . . فَتَصْدِيقهَا فِي الْيَوْم أَو فِي ضحى الْغَد)

(ليهن أَبَا بكر سَعَادَة جده . . . بِصُحْبَتِهِ من يسْعد الله يسْعد)

قَالَ الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ ثمَّ أخرجه من حَدِيث عبد الْملك ابْن وهب الْمذْحِجِي ثَنَا الْحر بن الصَّبَاح النَّخعِيّ عَن أبي معبد . . . فَذكره وَسكت عَنهُ وَرَوَاهُ من حَدِيث حُبَيْش كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِم وَالْبَيْهَقِيّ وَأَبُو نعيم فِي كِتَابَيْهِمَا دَلَائِل النُّبُوَّة وَابْن

سعد فِي الطَّبَقَات وَزَادُوا فِيهِ قَالَ عبد الْملك فَبلغنَا أَن أم معبد هَاجَرت إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

(363/262)

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ وَأَبُو نعيم من حَدِيث أبي معبد وَانْفَرَدَ أَبُو نعيم بِحَدِيث أم معبد رَوَاهُ من حَدِيث سليط بن قيس الْأَنْصَارِيّ قَالَ وَكَانَ بَدْرِيًّا عَن أم معبد أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر بهَا لما خرج إِلَى الْهِجْرَة وَهِي لَا تعرفه فَقَالَ لَهَا يَا أم معبد هَل عنْدك من لبن . . . فَذكر الْحَدِيث بِطُولِهِ ثمَّ قَالَ وَقيل إِن رَاوِي هَذَا السِّيَاق سليط بن قيس شهد بَدْرًا وَاسْتَشْهدَ مَعَ أبي عُبَيْدَة بن مَسْعُود الثَّقَفِيّ فِي خلَافَة عمر بن الْخطاب ثمَّ أسْند إِلَى عبد الْملك بن وهب الْمذْحِجي أَنه قَالَ بَلغنِي أَن أم معبد هَاجَرت وَأَسْلمت وَلَحِقت بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات قي تَرْجَمَة أم معبد أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ عَن حزَام بن هِشَام عَن أَبِيه عَن أم معبد . . . فَذكره الْقِصَّة مختصرة لَيْسَ فِيهَا الشّعْر وَزَاد فِي آخرهَا قَالَت أم معبد فَبَقيت الشَّاة الَّتِي لمس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضرْعهَا عندنَا حَتَّى كَانَ زمَان الرَّمَادَة أَيَّام عمر بن الْخطاب سنة ثَمَانِي عشرَة من الْهِجْرَة وَكُنَّا

نَحْلُبهَا صَبُوحًا وغبوقا وَمَا فِي الأَرْض قَلِيل وَلَا كثير قَالَ وَكَانَت أم معبد مُؤمنَة مسلمة قَالَ الْوَاقِدِيّ وَقَالَ غَيره قدمت بعد الْهِجْرَة وَأسْلمت

484 - الْحَدِيث الْحَادِي وَالْعشْرُونَ

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يَا رب كَيفَ وَالْغَضَب فَنزلت وَإِمَّا يَنْزغَنك من الشَّيْطَان نَزغ . . . الْآيَة

(364/262)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنِي يُونُس بن عبد الْأَعْلَى أَنا ابْن وهب قَالَ قَالَ عبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم لما نزلت هَذِه الْآيَة قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَيفَ يَا رب وَالْغَضَب فَنزلت وَإِمَّا يَنْزغَنك من الشَّيْطَان نَزغ . . . انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن عبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم هَكَذَا من غير سَنَد وَكَذَلِكَ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط

485 - قَوْله

قَالَ أَبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه إِن لي شَيْطَانا يعْتَرِينِي

قلت أخبرنَا شَيخنَا الْمسند صدر الدِّين أَبُو الْفَتْح مُحَمَّد بن الإِمَام شرف الدِّين مُحَمَّد بن

أبي قَاسم المندومي قِرَاءَة عَلَيْهِ وَأَنَا أسمع فِي سنة أَربع وَخمسين وَسَبْعمائة بِالْقَاهِرَة أَنا الشَّيْخ نجيب الدِّين عبد اللَّطِيف بن عبد الْمُنعم الْحرَّانِي سَمَاعا عَلَيْهِ فِي سنة إِحْدَى وَسبعين وسِتمِائَة أَنا أَبُو طَاهِر الْمُبَارك بن أبي الْمَعَالِي بن الْمَعْطُوس أَنا أَبُو الْغَنَائِم بن الْمُهْتَدي بِاللَّه عَن أبي إِسْحَاق الْبَرْمَكِي أَنا أَبُو مُحَمَّد عبد الله ابْن إِبْرَاهِيم بن مَاس الْبَزَّار ثَنَا أَبُو معشر الْحسن بن سُلَيْمَان الدَّارِمِيّ ثَنَا عبد الْوَاحِد ابْن غياث ثَنَا أَبُو هِلَال ثَنَا الْحسن قَالَ لما اسْتخْلف أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه تكلم بِكَلَام وَالله مَا تكلم بِهِ أحد غَيره فَقَالَ يأيها النَّاس تكلفوني سنة نَبِيكُم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَإِن الله كَانَ يعْصم نبيه بِالْوَحْيِ إِنِّي وَالله لَوَدِدْت أَنَّكُمْ كفيتموني وَإِن لي شَيْطَانا يعْتَرِينِي فَإِذا اعْتَرَانِي فاجتنبوني لَا أُؤْثِر فِي أَشْعَاركُم وَأَبْشَاركُمْ

(365/262)

وتعاهدوني بِأَنْفُسِكُمْ فَإِن اسْتَقَمْت فَاتبعُونِي وَإِن زِغْت فقوموني انْتَهَى وَقع لنا هَذَا فِي الْجُزْء الْمَعْرُوف بِجُزْء الْأَنْصَارِيّ

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أَخْبَرنَا وهب بن جرير بن حَازِم ثَنَا أبي سَمِعت الْحسن يَقُول خطب أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه يَوْمًا فَقَالَ وَالله مَا أَنا بِخَيْرِكُمْ وَلَقَد كنت لمقامي

هَذَا كَارِهًا لَوَدِدْت أَن فِيكُم من يَكْفِينِي أفتظنون أَنِّي أعمل فِيكُم سنة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا لَا أقوم لَهَا إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يعْصم بِالْوَحْي وَكَانَ مَعَه ملك وَإِن لِي شَيْطَانا يعْتَرِينِي فَإِذا غضِبت اجتنبوني أَن أُؤْثِر فِي أَشْعَاركُم وَأَبْشَاركُمْ أَلا فراعوني فَإِن اسْتَقَمْت فَأَعِينُونِي وَإِن زِغْت فقوموني انْتَهَى

أخبرنَا عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن رجل عَن الْحسن أَن أَبَا بكر . . . فَذكره نَحوه

(366/262)

رَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة أبي بكر فَقَالَ أخبرنَا وهب بن جرير ثَنَا أبي سَمِعت الْحسن قَالَ لما بُويِعَ أَبُو بكر قَامَ خَطِيبًا فوَالله مَا خطب خطبَته أحد فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد فَإِنِّي وليت هَذَا الْأَمر وَأَنا كَارِه فوَالله لَوَدِدْت أَن بَعْضكُم كَفَانِيهِ أَلا وَإِنَّكُمْ إِن كلفتموني أَن أعمل فِيكُم بمثل عمل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم أقِم بِهِ إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ عبدا أَكْرمه الله بِالْوَحْي وَعَصَمَهُ وَإِنَّمَا أَنا بشر وَلست بِخَير من أحد مِنْكُم فراعوني فَإِن اسْتَقَمْت فَاتبعُونِي وَإِن زِغْت فقوموني وَاعْلَمُوا أَن لِي شَيْطَانا يعْتَرِينِي فَإِذا رَأَيْتُمُونِي غضِبت فاجتنبوني لَا أُؤْثِر فِي أَشْعَاركُم وَأَبْشَاركُمْ

486 - الْحَدِيث الثَّانِي وَالْعشْرُونَ

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْأَعْرَاف جعل الله يَوْم الْقِيَامَة بَينه وَبَين إِبْلِيس سترا وَكَانَ آدم شَفِيعًا لَهُ يَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْفَارِسِي ثَنَا أَبُو مُحَمَّد عبد الله ابْن أَحْمد الشَّيْبَانِيّ ثَنَا أَبُو عَمْرو الْحُرَيْثِيُّ ثَنَا أَبُو أَحْمد مُحَمَّد بن عبد الْوَهَّاب ثَنَا أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس ثَنَا سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من طَرِيق أبي بكر بن أبي دَاوُد السجسْتَانِي بِسَنَدِهِ فِي آخر الْكتاب

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدِّمين فِي آل عمرَان

(367/262)

وَذكره أَبُو شُجَاع الديلمي فِي كتاب الفردوس من حَدِيث ابْن عَبَّاس عَلَى عَادَته فِي ذكر الرَّاوِي وَحذف اسْم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس ثَنَا سَلام بن سليم بِهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 1 صـ 455.483﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الأعراف

قوله تعالى : (فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) ، الآية : 2 :

ظاهره النهي ، ومعناه نفي الحرج عنه ، أي لا يضيقن صدرك أن لا يؤمنوا به ، فعليك البلاغ ، وليس عليك سوى الإنذار به شيء من إيمانهم وكفرهم .

ومثله قوله :

(فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ) ، الآية «1» .

وقال :

(لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) «2» .

قوله تعالى : (اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) ، الآية : 3 .

معناه معلوم ، ومن جملة ما أنزل اللّه تعالى المباحات ، فعلى ذلك يلزم من ظاهره الأمر باتباع

المباح ، ويلزم منه دخول المباح تحت الأمر .

---

(1) سورة الكهف آية 6 .

(2) سورة الشعراء آية 3 .

(369/262)

ولكن يجاب عنه بأن اعتقاد الإباحة في المباحات ، وتمييزه عن المعاصي والمناهي واجب ، وذلك هو معنى اتباع ما أنزل اللّه علينا .

واعلم أن الذي أنزله اللّه علينا ينقسم إلى ما يتعلق بالتلاوة ، وإلى ما يتعلق بالأحكام دون التلاوة ، والكل من عند اللّه حتى لا يتوهم متوهم منع نسخ القرآن بالسنة .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) ، الآية : 11 :

فقوله : خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة ، يقتضي أن يكون المراد بقوله خلقناكم آدم عليه السلام ، ويجوز مثل ذلك ، وهو التعبير بنا عن آدم ، لأنه أصلنا ، قال تعالى :

(وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) «1» .

وقال تعالى : (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) «2» .

والمخاطبون بذلك في زمن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يقتلوا الأنبياء .

وقال آخرون : إن ثم راجعة إلى صلة المخاطبة ، فكأنه قال : ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة ، وقد شرحنا هذا في الأصول عند ذكر معاني الحروف .

قوله تعالى : (ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إمه «3» .

ومعنى آخر : أغويتني أي حكمت بغوايتي ، كقولك أضللتني أي حكمت بضلالتي ، وقال : أغويتني أي أهلكتني .

قوله تعالى : (وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ) الآية : 19 . قرن قربهما الشجرة بالوعيد ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد ،

---

(1) سورة الأعراف آية 16

(2) سورة طه آية 121 .

(3) أنظر اللسان ، والقاموس المحيط ، ومختار الصحاح . والمصباح المنير .

(370/262)

وظنا أنه نهى كراهة وبين به أو أمكن أنه أشير إلى شجرة بعينها ، فظنا أن المراد به العين ، وكأن المراد به الجنس ، كقول النبي عليه السلام حين أخذ ذهبا وحريرا فقال : «هذان حرامان على ذكور أمتي» «1» .

وقال في خبر آخر : هذان مهلكا أمتي .

وإنما أراد به الجنس لا العين .

قوله تعالى : (يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً) الآية 26 .

اعلم أن ظاهره الإنعام بإنزال اللباس ، ويجوز أن يكون عين اللباس على هيئته قد أنزله اللّه تعالى على آدم حين أهبطه وتاب عليه ، ويجوز أن يكون قد أنزل ما يحصل منه اللباس من بزره «2» ، وقد ظن علي بن موسى القمي وأبو بكر الرازي ، أن في ذلك دلالة على وجوب ستر العورة ، وذلك أنه قال : (يُوارِي سَوْآتِكُمْ) ، فذلك إشارة إلى الوجوب ، وليس فيه دلالة على ما ذكروه ، بل فيه دلالة على الإنعام فقط .

واحتجوا عليه أيضا بأن قوله تعالى :

(لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما) «3» .

وذلك يدل أيضا على التحذير من زوال النعمة ، كما نزل بآدم عليه السلام ، هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا ، والأمر بخلاف ذلك .

---

(1) أخرجه أبو داود باسناد حسن ، ورواه علي رضي اللّه عنه .

(2) والبزر كل حب يبرز للنبات ، وقال القرطبي : لباسا .

(3) سورة الأعراف آية 27 .

قوله تعالى : (يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) الآية : 31 .

ظاهره الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، للفعل الذي يتعلق بالمسجد ، تعظيما للمسجد والفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف ، ولا يدل ظاهر ذلك على وجوب الستر في الصلاة في المسجد أو خارج المسجد ، فإن القدر الذي يستر العورة لا يسمى زينة وتجملا .

وكثير من المتكلمين في أحكام القرآن زادوا في ذلك دلالة على الوجوب للصلاة ، لأن الذي أمرنا بذلك عند كل مسجد لم يكن لعين المسجد ، وإنما كان للفعل الواقع في المسجد ، والذي عظم المسجد لأجله الطواف والصلاة ، أما الطواف فلا يعم كل مسجد ، وفي القرآن عند كل مسجد ، والاعتكاف لم يشرف المسجد لأجله ، بل كان عبادة لأجل المسجد ، فلم يبق إلا الفعل الذي يشرف به المسجد ، ووجب تعظيم المسجد لأجله وهو الصلاة .

فإذا قيل : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ، عرف به أنه لم يجب للمسجد ، وإنما وجب لما عظم المسجد لأجله وهو الصلاة ، فمتى وجب الستر للصلاة كان شرطا ، إلا أن الدليل قام على الزيادة على قدر الستر ، وأنها غير واجبة ، فبقي مقدار الستر واجبا .

ومالك لا يوجب الستر شرطا للصلاة ، ويقول إن فقد الستر لا يبطل الصلاة ، ويقول : قوله تعالى : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ، روى الرواة أنه نزل في ستر الطواف والنهي عنه عريانا ، وهذا فيه نظر ، فإنه تعالى قال : (عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ، والطواف يختص بمسجد معين ، والثاني : أنه إن ورد على سبب خاص ، لا يمتنع لأجله التعلق بعموم اللفظ .

(372/262)

ويرد على هذا ، أن الذي ورد الستر فيه – لم يجعل الستر شرطا – وهو الطواف ، فكيف يجعل شرطا لما سواه ؟

ويجاب عنه بأن وجوب الستر لأجل الطواف ظاهر في كونه شرطا له ، وأنه يمتنع الاعتداد به دونه ، ولكن قام الدليل في الطواف على خلاف الظاهر ، وبقي ما عداه على ما يقتضيه الأصل .

وهذا يرد عليه ، أن الأصل أن ما وجب لغيره يفهم منه أنه إذا أتى به دونه ، كان تاركا للواجب ، فمن أين أنه لا تجب الصلاة ، دونه ؟

والذي احتج به مالك ، أن ستر العورة لم يجب للصلاة ، فقد روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال :

قلت : يا رسول اللّه ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر فقال :

احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك . قال فقلت :

يا رسول اللّه ، فإذا كان أحدنا خاليا ، فقال : اللّه أحق أن يستحى منه « 1 » .

فإذا لم يكن الستر من فروض الصلاة لم يكن وجوبها متعلقا بالصلاة ، فإذا لم يتعلق بها لزم منه جواز الصلاة دونه ، وهذا ينعكس في الطهارة التي لم يكن وجوبها إلا للصلاة .

فعلى هذا ، النهي عن الصلاة دون الستر ، كالنهي عن الصلاة في البقعة المغصوبة .

الجواب أن الستر في غير الصلاة إنما يجب عند ظهوره للناس ، فلو استخلى بنفسه ، فيجوز أن يكشف فخذه ، وإن كان في السوأتين خلاف ، وإذا أراد الصلاة وجب ستر جميع ذلك ، فذلك يدل على أن الستر وجب للصلاة .

---

(1) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب وأصحاب السنن

(373/262)

وروى أبو هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال :

«لا يصلين أحدكم في ثوب واحد ليس على فخذه منه شيء» « 1 » .

وعن عائشة أنها روت أنه عليه الصلاة والسلام قال :

«لا يقبل اللّه صلاة امرأة إلا بخمار» «2» .

فنفى قبولها لمن بلغت الحيض ، فصلتها مكشوفة الرأس ، كما نفى قبولها مع عدم الطهارة بقوله : «لا يقبل اللّه الصلاة بغير طهور» .

وقد روي عن مالك أنه قال فيمن صلّى في ثوب نجس أو عاريا ، إنه يعيد ما دام الوقت ، وهذا يتعلق به عليه ، ويدل على بطلان قوله أنه لا تعلق له بالصلاة .

فهذا تمام هذا الكلام .

وذكر إسماعيل بن إسحاق في نصرة قول مالك ، أن صلاة العريان جائزة ، فلو كان الستر شرطا لما جاز ، كما لا يجوز صلاة الحائض ، لأن الحيض ينافي الطهارة .

وهذا غلط فاحش ، فإن صلاة الأمي جائزة ، مع أن القراءة شرط للصلاة أو فرضها ، وأن منافاة الحيض للصلاة لا لمكان عدم الطهارة ، فإن الحيض ينافي الصوم أيضا ، وليس من شرطه الطهارة ، ولكنه محض تعبد .

ومما نعلق به ، أن الوضوء لما كان شرطا للصلاة وجب عليه أن ينوي الطهارة للصلاة ، ولو كان الستر واجبا للصلاة ، لوجب أن ينوي به الصلاة ، وليس كالاستقبال ، فإن الاستقبال الواجب يقترن بالصلاة بخلاف الستر ، فنية الصلاة تشتمل على الاستقبال ، وقد أجاب علماؤنا

---

(1) أخرجه الامام أحمد في مسنده والترمذي في سننه .

(2) الحاكم في المستدرك والنسائي في سننه .

(374/262)

عنه بأن نية الصلاة تشتمل عليه ، وهذا قررناه في مسائل الخلاف «1» .

قوله تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا) الآية : 31 .

ظاهره يوجب الأكل والشرب من غير إسراف ، وقد أريد به الإباحة في بعض الأحوال ، والإيجاب في بعضها ، فأما الإيجاب ، فمثل أن يضعف عن أداء الواجبات ، فواجب عليه أن يأكل ما يزول معه الضرر ، وظاهر هذا يقتضي الأكل والشرب في المأكولات والمشروبات إلا أن يحظره دليل بعد أن لا يكون مسرفا فيما يأتيه من ذلك ، فإنه أطلق الأكل والشرب على شرط أن لا يكون مسرفا فيهما ، والإسراف هو مجاوزة الحد ، فتارة يتجاوز حد الحلال إلى الحرام ، وتارة في الإنفاق والتمحيق ، كما قال اللّه تعالى : (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ) «2» ، والإسراف مذموم ، ونقيضه الإقتار وهما مذمومان ، والاقتصاد والتوسط هو المشروع ، ومنه قيل دين اللّه تعالى بين المقصر والغالي وقد قال تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً) «3» .

وقال لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم :

(وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ) «4» .

ومن الإسراف في الأكل ، الأكل فوق الشبع ، وكل ذلك محظور .

---

(1) أنظر ما ذكره الامام مسلم في صحيحه عن ابن عباس في هذا الخصوص . [. . . . .]

(2) سورة الإسراء آية . 27

(3) سورة الفرقان آية 67 .

(4) سورة الإسراء آية 29

(375/262)

قوله تعالى : (إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ) ، الآية : 33 :

اعلم أن الفواحش في اللغة ، تقع على كل قبيح بولغ في نعته بالقبح ، ولذلك يقال قبيح فاحش .

وفي الآية ما يمنع من إجرائه على الفواحش كلها ، فإنه ذكر الإثم والبغي ، فدل على أن المراد بالفواحش بعضها ، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنا ، ليصح أن يعطف عليه

الإثم ، والإثم لا يمكن حمله ها هنا على كل معصية صغيرة وكبيرة ، فإن ذلك يمنع العطف ، بل المراد به شرب الخمر ، لقوله تعالى : (قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ) «1» ، وأما البغي بغير الحق فهو التطاول على الناس .

وقد قيل : ذكر الفواحش ، والمراد بها الكبائر ، وذكر الإثم ، والمراد به صغائرها ، ثم عطف على الأمرين ما يدخل فيهما ، وهو البغي بغير الحق ، والمعنى به أن يتجاوز في طلب الأمر ، الحدّ الذي يحسن ، فيوصف عنده أنه بغي ، لأن الأصل في البغي الطلب ، ثم جعل للطلب المذموم ، فدخل في الآية كل أنواع الظلم والبغي على الناس ، والانقياد بغير حق ، ثم حرم اتباع ما لا دليل عليه ، والقول بما لا نعلم صحته ، فدخل في ذلك قبح التمسك بالمذاهب ، وقبح اتباع ما لا يجب اتباعه ، فجمعت الآية المحرمات ، كما جمع ما قبلها المحللات في قوله : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ) «2» ، مع ما فيه من تحريم الإسراف فيه ، ولما حرم المحرمات نبه على اتباع الحجج والأدلة لكي يكون المكلف متحرزا في أمر دينه ودنياه .

---

(1) سورة البقرة آية 219 .

(2) سورة الأعراف آية 32 .

قوله تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) «1» : ظاهرها الندب إلى إخفاء الدعاء ، فعلمنا ربنا كيف ندعوه ، وروى أبو موسى الأشعري قال : كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فسمعهم يرفعون أصواتهم فقال :

«أيها الناس انكم لا تدعون أصمّا ولا غائبا» «2» .

وروى سعد بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى» «3» .

واستدل أصحاب أبي حنيفة بذلك ، على أن إخفاء آمين ، أولى من الجهر بها ، لأنها دعاء ، والدليل عليه ما روي في تأويل قوله تعالى : (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما) «4» .

قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن ، فسماهما اللّه تعالى داعيين .

والجواب عنه أن إخفاء الدعاء كان أفضل ، لأنه أبعد عن الرياء .

وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة ، فإشهارها اشهار شعار ظاهر ، وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره ، وقد ندب الإمام إلى إشهار القراءة المشتملة على الدعاء ، والتأمين في آخرها ، معناه : حقّق اللهم ما سألناك .

وإذا كان الدعاء مما سن الجهر فيه ، فالتأمين على الدعاء تابع له ، وجار مجراه ، وهذا بين .

قوله تعالى : (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها) الآية : 145 .

(1) سورة الأعراف آية 55 .

(2) أخرجه الامام البخاري والامام مسلم في صحيحيهما .

(3) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو يعلى وأبن حبان في صحيحه ، وأبو عوانة ، والبيهقي في الشعب

(4) سورة يونس آية 89 .

(377/262)

قال بأحسن ما كنت فيه ، وهو الفرائض ، دون المباح الذي لا حمد فيه ولا ثواب ، وكذلك قوله تعالى : (فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) «1» .

قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ) الآية : 199 .

أمر بمراعاة مكارم الأخلاق ومداراة الناس .

وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «أثقل شيء في ميزان المرء يوم القيامة الخلق الحسن» «2» .

وروى ابن عمر أن رجلا سأل النبي عليه الصلاة والسلام : أي المؤمنين أفضل ؟ فقال أحسنهم خلقا .

وروى سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال :

«إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» «3» .

والعفو هو التسهيل والتيسير .

فالمعنى استعمال العفو ، وقبول ما سهل من أخلاق الناس ، وترك الاستقصاء عليهم في المعاملات ، وقبول العذر ونحوه .

وقال ابن عباس في قوله : (خُذِ الْعَفْوَ) ، قال : هو العفو من الأموال قبل أن ينزل فرض الزكاة ، ومنه قوله : (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) «4» أي ترك له ، والعفو عن الذنب ترك العقوبة عليه .

---

(1) سورة الزمر آية 17 - 18 .

(2) أخرجه الترمذي في سننه وقال حديث صحيح .

(3) أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبزار ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي اللّه عنه .

(4) سورة البقرة آية 178 .

وقوله : وأمر بالعرف : العرف المعروف ، وفي الخبر الصحيح عن أبي جري جابر بن سليم قال :

ركبت قعودا ثم أتيت إلى المدينة فطلبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وأنخت قعودي بباب المسجد ، فدلوني على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر ، فقلت : السلام عليك يا رسول اللّه ، فقال : وعليك السلام ، فقلت : إنا معشر البادية قوم فينا الجفاء فعلمني كلمات ينفعني اللّه بها ، فقال : ادن ثلاثا ، فدنوت ، فقال : أعد عليّ ، فأعدت ، فقال :

اتق اللّه ولا تحقرن من المعروف شيئا ، وأن تلقى آخاك بوجه منبسط ، وأن تفرغ من فضل دلوك في إناء المستسقى ، وإن امرؤ سبك بما يعلم فيك فلا تسبه بما تعلم فيه ، فإن اللّه تعالى جاعل لك أجرا وعليه وزرا ، ولا تسبن شيئا مما خولك اللّه تعالى . قال أبو جري : فوالذي ذهب بنفسه ما سببت بعده شاة ولا بعيرا «1» .

قوله تعالى : (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ) .

يجوز أن يكون في ترك مخاوضتهم في الباطل ، ويجوز أن يكون قبل الأمر بالقتال .

قوله تعالى : (وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا) :

الآية : 204 .

قد اختلف الفقهاء في القراءة خلف الإمام .

---

(1) رواه أحمد وأبو داود النسائي والبغوي والماوردي وابن حبان والطبراني وأبو نعيم والبيهقي والضياء في المختارة وغيرهم مع اختلاف في الترتيب ورواه الترمذي بالإسناد الصحيح وأبو داود جابر بن سليم (راجع فيض القدير للمناوي [. . . . .]

(379/262)

فقال أبو حنيفة وأصحابه وابن أبي ليلى والثوري والحسن بن صالح :

لا يقرأ فيما جهر ولا فيما أسر .

وقال مالك : يقرأ فيما أسر ولا يقرأ فيما جهر ، وهو قول للشافعي ، رواه المزني عنه .

وروى البويطي عنه ، أنه يقرأ بفاتحة الكتاب وسورة فيما يسر فيه ، ولا يقرأ فيما يجهر فيه إلا بفاتحة الكتاب .

وإذا ثبت ذلك ، كأن هؤلاء الفقهاء اتفقوا على أن الإنصات مأمور به ، فإنا رأيناهم يأمرون بالإنصات فيما يجهر ، ويتركون لأجله إما الفاتحة وإما السورة ، أما أبو حنيفة ليس يترك القراءة خلف الإمام لغرض الاستماع فإنه يقول فيما أسر فيه الإمام لا يقرأ المأموم ، ولأن عنده مقدار الواجب من القراءة آية حقيقة ، وذلك يمكن قراءته بعد الإنصات وسماع قراءة الإمام ، أو حال هوى الإمام إلى الركوع ، ولم يقل أحد إنه يترك دعاء الاستفتاح لقوله :

(وَأَنصِتُوا) ، ولا يترك تكبيرات الصلاة لقوله :

(أَنصِتُوا) ، ولا أن أحدا يفهم من هذا ، أن الواحد منا إذا كان يقرأ القرآن ، فلا يجوز لغيره أن يقعد معه ويقرأ ، ولا يجوز في المجلس الواحد أن يقرأ جماعة ، كل واحد منهم يقرأ لنفسه ، فإذا لم يكن للآية تعلق بمنع الناس من قراءة القرآن ، لغرض استماع القرآن في غير الصلاة .

ولا للآية أيضا دلالة على منع قراءة الأذكار ، لغرض استماع القرآن في الصلاة ، فمن أين دلت الآية على منع القراءة ، لا لغرض الاستماع مع إسرار الإمام في الصلاة ؟

وقد اعتقد كثير من الناس أن هذه الآية نصا .

وقال عبد الجبار بن أحمد في كتاب فوائد القرآن ، وهو مشهور

(380/262)

بانتحال مذهب الشافعي في الفروع : إن دلالة ظاهر الآية قوية ، وصرح بهذه العبارة التي ذكرناها في الفروع .

وعندنا أن من فهم معنى الآية ، وفهم الوجوه التي ذكرناها ، لا يرى للآية تعلقا بما نحن فيه ، وللآية محامل :

منها أن الناس كانوا يكثرون اللغط والشغب في قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ،

ويمنعون الأحداث من سماعها تعنتا وعنادا على ما حكى اللّه عن الكفار حيث قال :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) «1» .

فأمر اللّه تعالى المسلمين حالة أداء الوحي ، أن يكونوا على خلاف هذه الحالة ، وأن يستمعوا ، ومدح اللّه الجن على ذلك فقال :

(وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) «2» .

ويدل على ذلك أن اللّه تعالى أمر بالاستماع ، وأمر بالإنصات بعده ، فلا يخفى على عاقل أن الإنصات للاستماع ، وإنما يجب الاستماع متى وجب الإسماع والتبليغ ، وإنما وجب ذلك فيما ذكرناه من تبليغ الوحي ، فأما ما يقرؤه الإنسان لنفسه ، فلا تعلق له بذلك .

نعم ، يندب المأموم إلى أن لا يجهر بالقراءة خلف الإمام إذا جهر ، حتى لا تثقل عليه القراءة ، فهذا هو القدر المندوب إليه ، وإذا لم يجب على

---

(1) سورة فصلت آية 26 .

(2) سورة الأحقاف آية 29 .

الإمام الإسماع ، وليس في الاستماع غرض لأجله يجب الإسماع ، فمن أين يجب الاستماع لما لا يجب إسماعه ؟

ولو قال قائل مطلقا : لا يجب على المرء أن ينصت ويسمع قراءة القرآن ، كان صدقا ، وإنما هذا الذي قالوه في الصلاة .

ولئن قال قائل : إن الإنصات لتبليغ الوحي لا يختص بالقرآن ، وكذلك إن حمل حامل الآية على الخطبة ، فالاستماع للخطبة لا يختص بالقرآن ، فالذي ذكرتموه يختص بلا دليل .

فيقال لهم : وأنتم أيضا خصصتم بلا دليل ، فإنه قال : وإذا قرئ القرآن . وليس يجب الاستماع في غير الصلاة ، فالذي ذكرتموه يخصّص بلا دلالة .

وقال كثير من أصحاب الشافعي :

إن المأموم يتحرى وقت سكتة الإمام ، وكان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سكتتان في صلاته ، فإن تعذر ذلك فيقرأ وقت قراءته سرّا .

وقال آخرون منهم : معنى الإنصات ، لا يجهر بالقراءة منازعا للإمام ، وإذا أخفى ذلك لم يخرج عن الإنصات .

وقد قيل : المراد به السكوت ، حتى لا يقرأ البتة إلا عند فراغ الإمام .

وقال هؤلاء : لأجل ذلك أمر المأموم بتأخير القراءة عن حال الجهر أو تقديمه ، وذلك إجماع .

واعلم أن الذي يوجب تأخير القراءة ، ليس يوجب بدليل الآية على وجوب استماع قراءة القرآن مطلقا ، فإن دلالة الآية في الصلاة وغيرها واحدة ، وإنما يقول ذلك ليجمع بين سماع المتدبرين وإنصات المعتبرين

(382/262)

وقراءة المصلين ، وإذا لم تكن القراءة في حالة سكتة الإمام ، فالقراءة أولى ، كما يكبر ويقرأ دعاء الاستفتاح ، ولا يترك المفروض من القراءة لمكان فضيلة الجماعة ، فهذا هو التأويل الظاهر .

وبالجملة ، لا يخفى على عاقل أن اللّه سبحانه وتعالى إذا أمر بالاستماع .

والإنصات ، فإنما أمر به ليكون داعيا إلى ترك باطل من اللهو والهزء وأشغال الدنيا ، لا ليكون ذلك داعيا إلى ترك مفروض عند اللّه تعالى عز وجل ، وهذا بين :

ويدل عليه ما روي عن محمد بن كعب القرظي قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه ، فإذا قال بسم اللّه الرحمن الرحيم ، قالوا مثل ما يقول ، حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة ، فلبث ما شاء اللّه أن يلبث ، فنزل قوله تعالى :

(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) «1» .

وهذا يدل على أن المعين بالإنصات ، ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

وقال قتادة :

في هذه الآية : كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيقول :

كم صليتم ؟ كم بقي ؟ فأنزل اللّه تعالى :

---

(1) أنظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري ، وتفسير الطبري ، وتفسير الفخر الرازي ، وابن كثير والقرطبي ، والدر المنثور للسيوطي ، وأحكام القرآن لابن الغربي .

(383/262)

(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) «1» .

وعن مجاهد قال :

كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجاتهم فنزل قوله :

(وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 131.147﴾

---

(1) أنظر تفسير ابن كثير والدر المنثور .

(2) تفسير مجاهد ، والطبري ، والدر المنثور .

(384/262)

وقال العلامة القنوجي :

سورة الأعراف

[وآياتها مائتان وخمس أو ست آيات]

هي مكيّة إلا ثمان آيات ، وهي قوله : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ إلى قوله : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ .

[قاله] «1» ابن عباس وابن الزبير ، وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد «2» .

وقال قتادة : آية من الأعراف مدنية : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ وسائرها مكية .

وقد ثبت أن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يقرأ بها في المغرب ، يفرقها في الركعتين «3» .

[الآية الأولى]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

(31) .

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ هذا خطاب لجميع بني آدم وإن كان واردا على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب «4» .

والزينة : ما يتزين به الناس من الملبوس ، أمروا بالتزيين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف «5» .

---

(1) ما بين [المعقوفين] قال بدون الهاء في «المطبوعة» وهو غير مناسب للسياق ، والصواب ما أثبتناه .

(2) انظر : الطبري (8/ 85) ، وزاد المسير (3/ 164) ، الدر المنثور (3/ 67) .

(3) حديث صحيح : رواه البخاري (2/ 246) ، وأبو داود (812) ، والنسائي (2/ 169 ، 170) ، وأحمد في «المسند» (5/ 418) ، والطبراني (3893) ، (4823) عن زيد بن ثابت مرفوعا .

(4) فائدة : في سبب نزول هذه الآية انظر : مسلم (1/ 162) ، والطبري (8/ 160) ، والحاكم (2/ 319 ، 320) ، وتفسير ابن كثير (2/ 210) .

(5) انظر : زاد المسير لابن الجوزي (3/ 187) ، والطبري (8/ 160) ، وابن كثير (2/ 210) ، والدر المنثور (3/ 78) . [. . . . .]

وقد استدل بالآية على ستر العورة في الصلاة ، وإليه ذهب جمهور أهل العلم ، بل سترها واجب في كل حال من الأحوال ، وإن كان الرجل خاليا ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة «1» ، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل في كتب الفروع «2» .

[الآية الثانية]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ الزينة : ما يتزين به الإنسان ، من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة ، كالمعادن التي لم يرو نهي عن التزين بها ، والجواهر ونحوها ، وما قيل لها الملبوس خاصة فلا وجه له بل هو من جملة ما تشمله الآية ، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة ، الغالية القيمة ، إذا لم يكن مما حرّمه اللّه ، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة ، ولا يمنع منها مانع شرعي ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا .

وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس ، فإنه لا زهد في ترك

الطيّب منها ، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه ، أو حرمه على غيره .

---

(1) حديث حسن : رواه أبو داود (4017) ، والترمذي (2769) ، وابن ماجة (1920) ، وأحمد (5/ 403) ، والحاكم (4/ 179 ، 180) ، عن بهز بن حكيم عن أبيه مرفوعا ، وبهز وأبوه صدوقان . وحسنه الترمذي ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(2) قال ابن حزم : «واتفقوا أن ستر العورة في الصلاة لمن قدر على ثوب مباح لباسه له فرض . (مراتب الإجماع ص 34) .

قال ابن الحاجب : في ستر العورة في الرجل ثلاثة أقوال : السوأتان خاصة ، ومن السرّة إلى الركبة ، والسرة حتى الركبة ، وقيل : ستر جميع البدن واجب . (جامع الأمهات ص 89) .

قال الحصني : السرة والركبة ليستا من العورة وهو ذلك على الصحيح الذي نصّ عليه الشافعي ، انظر : كفاية الأخيار (ص 119) . وكلام المصنف في «الروضة النّدية (ص 81 ، 82)» .

ونيل الأوطار للشوكاني (2/ 61 ، 70) .

و ما أحسن ما قاله ابن جرير الطبري : لقد أخطأ من آثر لباس الصوف والشعر على لباس القطن ، والكتّان مع وجود السبيل إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفا من عارض الشهوة «1» .

وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ : أي المستلذات من الطعام ، وقيل : هو اسم عام كسيا ومطعما .

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا : أي أنها لهم بالأصالة والاستحقاق وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة .

خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ أي مختصة بهم يوم القيامة ، لا يشاركهم فيها الكفار «2» .

قرأ نافع خالصة بالرفع ، وهي قراءة ابن عباس على أنها خبر بعد خبر ، وقرأ الباقون بالنصب على الحال «3» .

قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز الوقف على الدنيا لأن ما بعدها متعلق بقوله لِلَّذِينَ آمَنُوا حال بتقدير قُلْ هِيَ ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة «4» .

---

(1) انظر : الطبري (8/ 113) ، وزاد المسير (3/ 189) ، والنكت والعيون (2/ 19) ، ومعاني الفراء (1/ 377) ، والقرطبي (7/ 200) ، والبحر المحيط (4/

283) .

(2) قال ابن الأنباري : هي للذين آمنوا في الدنيا مشتركة ، وهي لهم في الآخرة خالصة (النكت 2/ 52 ، الزاد 3/ 189) .

(3) قال الأزهري : «من رفع فقال : (خالصة) فهي على أنه خبر بعد خبر ، كما تقول : زيد عاقل لبيب ، المعنى : قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، أراد جلّ وعزّ أنها حلال للمؤمنين ، يعني : الطيبات من الرّزق ويشركهم فيها الكافر ، واعلم أنها تخلص للمؤمنين في الآخرة لا يشركهم فيها كافر .

ومن قرأ (خالصة) بالنصب نصبها على الحال ، على أن العامل في قوله (في الحياة الدنيا) في تأويل الحال ، كأنك قلت : هي ثابتة للمؤمنين مستقرة في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة (معاني القراءات ص 178) بتحقيقنا – المزيدي – وكذلك الحجة لابن خالويه (ص 84) والإقناع لابن الباذش ، والمفتاح للمغربي – بتحقيقنا – أيضا – دار الكتب – بيروت .

(4) قال النحاس : «قال الأخفش (قل هي للذين آمنوا لأن المعنى : هي خالصة يوم القيامة) ها هنا تمّ الكلام لأن المعنى : هي خالصة يوم القيامة للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، قال أبو جعفر : وهذا شرح حسن ، وفي المعنى قول آخر ، قال الضحاك وغيره من أهل التأويل أن المعنى : قل هي للذين آمنوا يشاركهم فيها غيرهم في الحياة الدنيا وتخلص يوم

القيامة للذين آمنوا ، والتمام - كما قال الأخفش - على المعنيين جميعا (القطع والائتناف) بتحقيقنا - دار الكتب العلميّة - بيروت .

(387/262)

[الآية الثالثة]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33) .

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ جمع فاحشة ، وهي كل معصية .

ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ : أي ما أعلن منها وما أستر ، وقيل هي خاصة بفواحش الزنا ! ولا وجه لذلك .

وَالْإِثْمَ : يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم ، وقيل : هو الخمر خاصة ، ومنه قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

وقد أنكر التخصيص جماعة من أهل العلم ، وحقيقته أنه جميع المعاصي .

وقال الفراء : الإثم ما دون الحق والاستطالة على الناس «1» . انتهى .

وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به .

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ : أي الظلم المجاوز للحد ، وإفراده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله : وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ [النحل : 90] .

وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أي وأن تجعلوا للّه شريكا ، لم ينزل عليكم به حجة ، والمراد التهكم بالمشركين لأن اللّه لا ينزل برهانا بأن يكون غيره شريكا .

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33) : بحقيقته ، وأن اللّه قاله ، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى اللّه سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأذن بها .

[الآية الرابعة]

وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

---

(1) انظر : معاني الفرّاء (1/ 377 ، 38) ، وتفسير ابن عطية (5/ 484 ، 485) ، وزاد المسير (3/ 190) ، والطبري (8/ 123) ، والنكت والعيون (2/ 25) .

(388/262)

وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا أمرهم اللّه سبحانه بالاستماع للقرآن ، والإنصات له عند قراءته ، لينتفعوا به ، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح .

قيل : هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام وقيل : هذا خاص بقراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم للقرآن دون غيره ! ولا وجه لذلك ، مع أن اللفظ أوسع من هذا ، والعام لا يقصر على سببه فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة ، وعلى أي صفة ، مما يجب على السامع ، إلا ما استثنى الذي أنزل عليه القرآن صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، كقراءة المأموم الفاتحة خلف إمامه سرا وجهرا ، فإنه قد صح في ذلك أخبار شهيرة واضحة ، وآثار كثيرة فائحة ، توجب تأكد قراءة فاتحة الكتاب ، ولزومها للمقتدي ، بل صرح غير واحد من أئمة الفقه والحديث المعتبرين بكون ذلك مذهب أكثر الصحابة والتابعين رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين .

ولم يصح أثر ، فضلا عن خبر ، صريح في النهي عن الفاتحة خاصة ، وإن استدل جماعة من أهل العلم بالعمومات الواردة فلينصف .

ولقد فصلت المرام بعون اللّه في «مسك الختام» و«الروضة الندية» «1» و«هداية السائل إلى أدلة المسائل» وفيه «إعلام الأعلام بقراءة الفاتحة خلف الإمام» لبعض الأحباب لنا ، وهي مختصر نفيس «2» .

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) : أي تنالون الرحمة ، وتفوزون بها ، بامتثال أمر اللّه سبحانه وتعالى .

[الآية الخامسة] وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ

وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205) .

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ : أمره اللّه سبحانه أن يذكره في نفسه ، فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص ، وأدعى للقبول .

---

(1) انظر تفصيل كلامه رحمه اللّه في «الروضة الندية» ، (1/ 87 ، 89) ونقل قول ابن قيم في أعلام الموقعين : «وردت النصوص المحكمة الصريحة الصحيحة في تعيين قراءة الفاتحة . . .» .

(2) انظر : الطبري (9/ 164) ، ابن كثير (3/ 541) ، الدر المنثور (3/ 156) ، وتفسير ابن عطية (6/ 196) .

(389/262)

وقيل : المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الأذكار التي يذكر اللّه بها .

وقال النحاس : لم يختلف في معنى : وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ أنه الدعاء «1» .

وقيل : هو خاص بالقرآن ، أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر .

وتَضَرُّعاً وَخِيفَةً : تنتصبان على الحال .

وَدُونَ الْجَهْرِ : أي المجهور به معطوف على ما قبله ، أي اذكره حال كونك متضرعا وخائفا

ومتكلما بكلام هو دون الجهر .

مِنَ الْقَوْلِ ، وفوق السر يعني قصدا بينهما .

بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ : متعلق ب (اذكر) ، أي : أوقات الغدوات والأصائل .

والغدو : جمع غدوة .

والآصال : جمع أصيل ، قاله الزجاج والأخفش ، مثل يمين وأيمان ، وقيل :

الآصال جمع [أصل ، والأصل] «2» جميع أصيل ، فهو على هذا جمع الجمع . قاله الفرّاء «3» .

قال الجوهري «4» : الأصيل من بعد العصر إلى المغرب ، وجمعه أصل وآصال وأصائل كأنه جمع أصلية ، وخص هذين الوقتين لشرفهما ، والمراد دوام الذكر للّه كما قال تعالى : وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205) أي عن ذكر اللّه عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 303.298 ﴾

---

(1) انظر : معاني النحاس (2/ 123) .

(2) ما بين [المعقوفين] سقط من المطبوعة واستدرك من فتح القدير (2/ 281) .

(3) انظر : معاني الفراء (1/ 410) ، والزجاج (2/ 448) .

(4) انظر : الصحاح (أصل) .

وقال السايس :

من سورة الأعراف

قال اللّه تعالى : وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

أي إذا قرأ أيّ قارئ غيركم فاستمعوا له سماع تدبر وتذكر .

واللام في قوله لَهُ قيل : إنها لام الأجل ، وقيل : إنّها صلة ، والمعنى فاستمعوه ، وقيل : إنّها بمعنى (إلى) .

والإنصات السكوت يقال : نصت وأنصت إذا سكت وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أي لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أقصى ما تبتغون .

وقد وردت الآية هكذا عامة في وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال ، وعلى جميع الأوضاع خارج الصلاة وداخلها ، كلّ ذلك يجب فيه الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ .

وقد اختلف العلماء في الحكم إذا كان الناس خلف الإمام هل يجب عليهم الاستماع والإنصات ، ويسقط عنهم فرض القراءة ، أم لا يجب عليهم ؟ بل عليهم أن يقرؤوا سواء في

ذلك جهريّة الإمام وسرّيته ، أو ذلك خاص بالسرية دون الجهرية .

ذهب الحنفية إلى أنّ المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقا جهرا كان يقرأ الإمام أو سرا .

وذهب جماعة إلى أنّ المأموم يقرأ إذا أسرّ الإمام ، ولا يقرأ إذا جهر ، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد والزهري ومالك وابن المبارك وأحمد .

وذهب الشافعي رضي اللّه عنه فيما رواه المزني عنه إلى أن المأموم يقرأ مطلقا أسرّ الإمام أو جهر ، وروى البويطي عنه أنّه يقرأ في السرية أمّ القرآن ، ويضم السورة ، وفي الجهرية أمّ القرآن فقط .

قال الآلوسي : والمشهور عند الشافعي أنّه لا سورة للمأموم الذي يسمع الإمام في جهرية ، بل يستمع ، فإن بعد بأن لم يسمع ، أو سمع صوتا لا يميز حرفه ، أو كانت سرّية قرأ في الأصح .

تلك هي آراء العلماء في قراءة المأموم خلف الإمام ، والحنفية يحتجون بظاهر

(391/262)

هذه الآية ، يقولون : إن اللّه تعالى طلب ممن قرئ القرآن بمحضر منه شيئين : الاستماع والإنصات ، وذلك عام في كل الأحوال والأوقات ، لا يخرج منه شيء إلا ما أخرجه الدليل ، فإن أخرج الدليل مثلا ما إذا كان المصلي يصلي وآخر ليس معه في الصلاة يقرأ ، كان ذلك

خارجا ، وبقي ما عداه على وجوب الاستماع والسكوت ، وإذا كانت سرية اكتفينا منه بالإنصات ، لأنه الممكن ، وهو يعلم أنّ الإمام يقرأ ، فعليه أن يلزم الصمت عملا بهذه الآية .

والحنفية في هذا الذي ذهبوا إليه يشاركون كثيرا من جلة الصحابة رضوان اللّه عليهم ، فهو مذهب علي ، وابن مسعود ، وسعد ، وجابر ، وابن عباس ، وأبي الدرداء ، وأبي سعيد ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأنس .

بل لقد روي عن بعضهم ذمّ من قرأ خلف الإمام ،

فقد روى عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي كرم اللّه وجهه قال : من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة .

وعن زيد بن ثابت قال : من قرأ خلف الإمام ملئ فوه ترابا .

وروي عنه أنّ من قرأ خلف الإمام فلا صلاة له .

وقال الشعبي : أدركت سبعين بدريا كلهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام .

ويروي الحنفية تأييدا لمذهبهم أخبارا كثيرة بعضها مرفوع وفي رفعه مقال ، وبعضها مرسل .

من ذلك ما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» عن مجاهد قال : قرأ رجل من الأنصار خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الصلاة فنزلت : وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ إلخ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّما

جعل الإمام ليؤتمّ به ، فإذا كبّر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا» «1» .

وأخرج أيضا عن جابر أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من كان له إمام فقراءته له قراءة» .

وكل ما قيل في هذا الحديث أنّه مرسل ، والحنفية يحتجون بالمراسيل .

على أنه قد رواه أبو حنيفة مرفوعا بسند صحيح .

روى محمد بن الحسن في «موطئه» قال : أنبأنا أبو حنيفة حدثنا أبو الحسن موسى ابن أبي عائشة عن عبد اللّه بن

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (1/ 201) ، 10 - كتاب الأذان ، 82 - باب إيجاب التكبير حديث رقم (734) ، ومسلم في الصحيح (1/ 309) ، 4 - كتاب الصلاة ، 19 - باب ائتمام المأموم حديث رقم (86/ 414) .

(392/262)

شداد ، عن جابر بن عبد اللّه ، عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من صلّى خلف إمام فإنّ قراءته له قراءة»

والروايات في ذلك كثيرة ، وفي بعضها عن أبي حنيفة أنّ رجلا قرأ خلف النبي في الصلاة

فنهاه آخر فتنازعا ، وكان ذلك في الظهر أو العصر ، فذكرا ذلك للنبي فقال الذي قدمنا لك .

هذا طرف مما يحتج به الحنفية لمذهبهم .

وأما حجة المالكية ومن يرى رأيهم : فما

رواه مالك وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : «هل قرأ أحد منكم آنفا» ، فقال رجل : نعم يا رسول اللّه ، فقال : «إني أقول ما لي أنازع في القرآن» قال فانتهى الناس عن القراءة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيما جهر فيه من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم «1» .

وروى مسلم «2» عن عمران بن حصين قال : صلّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بنا صلاة الظهر أو العصر ، فقال : «أيكم قرأ خلفي بسبح اسم ربك الأعلى» ؟ فقال رجل : أنا ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «قد علمت أنّ بعضكم خالجنيها» .

وروي عن عبادة بن الصامت قال : صلّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : «إنّي لأراكم تقرءون وراء إمامكم» قال قلنا : يا رسول اللّه إي واللّه ، قال : «فلا تفعلوا إلا بأمّ القرآن» «3»

وأنت ترى أن هذين الحديثين يدلان على مذهب الشافعية لا على مذهب المالكية .

والشافعية يستدلون بهذين الحديثين وبما ثبت من أنّه لا صلاة إلا بقراءة ، ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ، وبقوله : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وقد جمع البخاري في المسألة جزءا كاملا ، وكان رأيه رحمه اللّه أنّ المأموم يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة الجهرية ، وهو مذهب الشافعي ورواية عن مالك رحمه اللّه ، وعلى كلّ حال فإنّ أدلة هذه المسألة متعارضة ، وقد سلك كلّ إمام طريقا في الجمع بينها ، وموضع ذلك كتب الفقه .

قال اللّه تعالى : وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206) قيل : الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو أمر بإخفاء كلّ ذكر ، لأنّ الإخفاء أدخل في

---

(1) رواه أبو داود في السنن (1/ 313) ، كتاب الصلاة ، باب من كره القراءة حديث رقم (826) ، والنسائي في السنن (1 - 2/ 478) ، كتاب الافتتاح ، باب ترك القراءة حديث رقم (918) . [. . . . .]

(2) رواه مسلم في الصحيح (1/ 298) ، 4 - كتاب الصلاة ، 12 - باب نهي المأموم حديث رقم (47/ 398) .

(3) رواه أبو داود في السنن (1/ 311) ، كتاب الصلاة ، باب من ترك القراءة حديث رقم (823) .

الإخلاص ، وقيل : المراد بالذكر في النفس أن يكون عارفا بمعاني الأذكار التي يردّدها على لسانه ، مستحضرا لصفات الكمال والعظمة والجلال ، وذلك لأنّ المراد من الذكر أثره ، وهو الخشية ، فما لم يكن ذاكرا بقلبه فكيف يخشى .

وقيل : الخطاب لمستمع القرآن ، والمراد أمر المأموم بالقراءة سرّا بعد فراغ الإمام من قراءته تَضَرُّعاً وَخِيفَةً أي متضرعا خائفا وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ أي ذاكرا متكلما بكلام هو دون الجهر من القول .

قال ابن عباس هو أن يسمع نفسه . وقيل : المراد أن يقع الذكر متوسطا بين الجهر والمخافتة ، على حدّ قوله تعالى : وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها [الإسراء : 110] .

بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ .

الغدو جمع غدوة ، وهي ما بين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس .

والآصال : جمع الجمع لأصيل ، وقيل : غير هذا ، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنما خصّ هذين الوقتين بالذكر ، قيل : لأنهما وقتا هجوع وسكون ، فيكون الذكر فيهما ألصق بالقلب وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ عن ذكر اللّه إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206) هم الملائكة ، فهم ينزّهونه ، ويخصّونه بغاية العبودية .

وهذه آية من آيات السجدة المعدودة في القرآن ، طلب السجود ممن قرأها ، أو سمعها ، روي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ، يقول يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 420.423 ﴾

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 87) ، 1 - كتاب الإيمان ، 35 - باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة حديث رقم (133/ 81) .

(394/262)

تأملات في سورة الأعراف / للشيخ صالح المغامسي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله

وأصحابه وعلى سائر من اقتفى أثره واتبع منهجه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد .

أيها الإخوة المؤمنون: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فهذا هو اللقاء الأول من المجموعة الثانية من التأملات حول تفسير كلام ربنا جل وعلا وقبل أن نشرع فيما نود تفسيره نبين أمورا :

أن هذه هي التفسيرات هي أشبه بالتأملات والتعليقات على كتاب رب العالمين جل جلاله والمقصود الأسمى منها الناحية العلمية وتبقى الناحية الوعظية فيها تبعا للناحية العلمية فالمخاطب بهذا الدرس طلبة العلم في المقام الأول ولهذا فإن التفصيل في بعض القضايا أمر ملح فليس المقصود الوعظ المحض وإنما المقصود إيجاد جيل علمي يفقه كلام الرب تبارك وتعالى .

ومتى وجد هذا الجيل تبوأ الصدارة في الأمة ونفع الناس ، لأنه لا يعقل أن يتصدر إنسان لتعليم الناس وهو يجهل ما جاء في الكتاب العظيم من آيات بينات وعظات بالغات يهذب الله بها خلقه ويرشد الله جل وعلا بها عباده .

(395/262)

ولقد قال الله جل وعلا في كتابه: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ قال العلماء في تفسيرها : إن من تفسيرها أن علم التفسير علم يعان عليه صاحبه وهو أجل العلوم وقد بينا هذا كثيرا في دروس سابقة نشرت وإنما أجدد التذكير بها . على أننا ونحن نفسر سنقف عند آيات معينة نختارها من السورة التي نفسرها وربما تستغرق السورة الواحدة عدة دروس وربما تستغرق السورة درسا واحدا بحسب ما فيها والله جل وعلا ذكر أن كتابه مثاني أي يثنى يفصل ما كان فيه إجمالا ويبين ما كان فيه مبهما ويبسط الله جل وعلا الحديث عن موضوع ثم يقوله باختصار في سورة أخرى وهكذا , فعلى هذا سنقف عندما نرى أن الوقوف عنده ملزم وما كان غير مكرر في القرآن فهذا يجب الوقوف عنده . فمثلا في سورة يوسف لم تتكرر قصة يوسف إلا في سورة واحدة فلا ينبغي تجاوزها إلى وصلنا إلى السورة بخلاف غيرها كقصة موسى مثلا وردت في عدة سور من القرآن الكريم . هذه مقدمة يظهر أنه من الواجب التذكير بها .

أما السورة التي سنبدأ بها هذه الدروس فهي سورة الأعراف :

ونبدأ بسورة الأعراف لأننا انتهينا في المجموعة الأولى من التأملات إلى سورة الأنعام .

فنستهل هنا سورة الأعراف .

وقبل أن نشرع في اختيار الآيات من السورة يجب أن تعلم أنه حتى تفقه القرآن تبدأ به بنظرة كلية ثم تصغر هذه النظرة حتى تصل إلى الزبدة التي تريدها .

فسورة الأعراف من حيث الجملة سورة مكية إلا بضع آيات منها وهي :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ ، فهذه القصة ذكر أنها نزلت في المدينة . أما السورة إجمالا فهي سورة مكية .

والقرآن المكي له خصائص تختلف عن القرآن المدني:

لأن القرآن المكي يهتم بقضايا ثلاث: إثبات توحيد والربوبية والألوهية لله . وذكر صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . والبعث والنشور وأهوال اليوم الآخر .

(396/262)

هذه قضايا القرآن المكي على وجه الإجمال ويندرج فيها قضايا كتذكير الله بنعمه على خلقه وهذا يندرج في إثبات التوحيد .

أما القرآن المدني:

فإن أكثره تشريع وأحكام وفقهيات كما في سورة البقرة وآل عمران ، وحديث عن السير والغزوات التي كانت في أيامه صلوات الله وسلامه عليه في المدينة وقد بينا في دروس سابقة أن القرآن المكي و القرآن المدني أو السور المكية والسور المدنية أو بتعبير أقل اختصارا الآيات المكية والآيات المدنية في تسميتها هذه خلاف طويل بين العلماء لكن أرجح الأقوال

إن شاء الله أن المقصود بالمكي ما نزل قبل الهجرة والمقصود بالمدني ما نزل بعد الهجرة هذا أرجح الأقوال ، على هذا قلنا مرارا إن قول الله جل وعلا : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ آية مدنية رغم أنها نزلت في جوف الكعبة والرسول آخذ بعضدتي باب الكعبة أنزل الله جل وعلا عليه قوله : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فخرج إلى الناس ونادى على بني شيبة وأعطاهم مفتاح الكعبة تنفيذا للآية ، فالآية نزلت في مكة بل في الكعبة لكنها تسمى آية مدنية لأنها نزلت بعد ؟ بعد الهجرة .

فسورة الأعراف من حيث الجملة سورة مكية وهي من أطول سور القرآن المكي ، وعدد آيها كما هو معلوم 206 آيات قلنا إنها جملة مكية إلا بضع آيات منها . هذه السورة بدأها الله جل وعلا في إثبات صدق هذا الكتاب وما فيه من خير عظيم وختمها بقوله تبارك وتعالى: ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ ، ختمها بآية سجدة وبحسب ترتيب المصحف هذه الآية آية السجدة في الأعراف أول سجدة في القرآن ومن حيث ترتيبها في آي سورة الأعراف هي آخر آية في سورة الأعراف ، وهذا يعني ما بين فاتحة السورة وما بين خاتمتها .

تضمنت السورة جملة من القضايا منها :

خلق آدم عليه الصلاة والسلام أبو البشر وما ذكر الله جل وعلا فيها من قصته مع إبليس ، ثم بعد ذلك خاطب الله جل وعلا بني آدم بصفة أن آدم أبوهم خاطبهم جل وعلا وناداهم بأربع نداءات :

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ﴾ ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ﴾ إلى آخر الآية ، ذكرهم الله جل وعلا بأربع نداءات ثم إنه جل وعلا فصل ما أجمله في الأنعام لكن هذا التفصيل ليس بترتيب النزول بل بترتيب المصحف ، وإلا الأعراف سورة مكية والأنعام سورة مدنية فعلى هذا سورة الأعراف جاء فيها ما أجمله الله في الأنعام .

الله في الأنعام ذكر الرسل جملة :

﴿

وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم*ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين*وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين*وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على

العالمين ﴾ هؤلاء ذكرهم الله جملة ثم جاء في الأعراف بحسب ترتيب المصحف بدأ يفصل فلم يذكر في الأنعام قصة نوح ولا موسى ولا غيرهما ثم بدأ يفصل بدأ بالأعراف ففصل فيها قصة نوح وقصة هود إلى عاد وقصة صالح إلى ثمود وقصة لوط إلى أهل سدوم وقصة شعيب إلى أهل مدين وقصة موسى إلى فرعون وبني إسرائيل ، فهؤلاء ستة من الأنبياء ذكر الله جل وعلا خبرهم تفصيلا فيصبح ترتيب المصحف أنه أجمل في سورة الأنعام وفصل في سورة الأعراف ، ثم ذكر الله جل وعلا في السورة بعضا من آياته الدالة على عظيم خلقه وأعاد فيها أن أحدا لا يملك نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله تأكيدا للتوحيد هذا كله عن سورة الأعراف جملة ، بعد هذا التصور الكامل عن السورة ننتقل إلى اختيار بعض الآيات المتعلقة بتفسيرها .

على أنه ينبغي أن تعلم أن :

(398/262)

العلم لا يظهر بجلاء إلا إذا اجتمع بعضه إلى بعض ، إذا اجتمع بعضه إلى بعض يظهر العلم فإذا جمعت أشتات العلم واكتمل لديك مع الإلحاح والكتابة والتدوين والحفظ وسؤال الله التوفيق يكونه العلم لديك ، تراه في أول أمره صعبا كالبحر لكنه يسير على من يسره الله جل

وعلا إليه ، كالبناء عندما يريد أن يبنيه صاحبه يراه متوسع الأطراف بعيدا ، لا يرى إلا حديده وما أشبه ذلك حتى إذا اكتمل بعضه إلى بعض قام بنيانا ، كذلك العلم يجب على من تصدر للتدريس أن يعين من يطلب العلم على يديه في فقه العلم وإنه يعطي أشتات العلم حتى يجتمع شيئًا فشيئًا ، وهذا كله أعاننا الله وإياكم بتوفيق من الله وفضل والأمر كله مبدأ ومنتهى وأوسط فضل من الله تبارك وتعالى يهبه جل وعلا لمن يشاء .

قال الله جل وعلا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ المص * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ ، هذا أول السورة وأنا لا أبدأ تفسيرا قبل أن أفسر أول آية في السورة نفسها لأنها مفتاح قد نتجاوز بعض الآيات نعم لكن أول آية في السورة لا بد من تفسيرها لأنها مدخل .

﴿ المص ﴾ :هذه من الحروف المتقطعة وقد مرت معنا في دروس سابقة وأنا أتكلم إجمالا باعتبار التدريس العام ، مرت أنها من الذي اختص الله جل وعلا بعلمه هذا قول جمهور العلماء وهو الأظهر .

﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ معنى الآية : هذا كتاب فحذف المبتدأ لدلالة الخبر عليه على قول الكسائي ومن تبعه والمعنى أن هذا الكتاب المقصود به القرآن . وقد نكرت هنا كتاب لدلالة التعظيم ، أي أن هذا الكتاب أعظم من أن يعرف فإذا عرف في آية أخرى فباعتبار علميته واشتهاره هذا كتاب أنزل

إليك ، والمخاطب في المقام الأول هنا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ .

فسر الحرج بأحد تفسيرين:

(399/262)

التفسير الأول : فسر بالشك ، فيصبح معنى الآية هذا كتاب من الله فلا يكن في قلبك شك منه ، وإذا قلنا بهذا التفسير يصبح هذه الآية لها قرائن كقوله تبارك وتعالى : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ .

التفسير الثاني : اختار جمهور العلماء على أن المراد بالحرج هنا الضيق ، فيصبح معنى الآية فلا يكن في صدرك ضيق منه ، هذا الضيق لا يفهم أن النبي صلى الله عليه وسلم جبل على ضيقة الصدر هذا محال لأن الله هيأه صلى الله عليه وسلم لأن يختم به الله النبوات ويتم به الرسالات وليس في القرآن أصلا ما يدعو للضيق في المؤمنين إذن ينجم الضيق من أن هذا القرآن آياته واضحة ظاهرة بينة لا تحتاج إلى دليل لا تحتاج إلى إثبات أنها من عند الله فالعرب أفصح البلغاء وأبلغ الفصحاء ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن . ينجم الضيق مثالا كالطالب الذي عندك تعلمه فأنت لا يصيبك الضيق ولا الحرج ولا الغضب

على طالب لم يفقه مسألة صعبة وإنما يصيبك الحرج والضيق على الطالب الذي لا يفهم المسألة الواضحة ، المسألة الواضحة التي بينة ظاهرة لا تحتاج إلى علم فيأتي إنسان لا يفقهها يصيبك ضيق حرج في صدرك فالضيق الذي يصيبه صلى الله عليه وسلم من أن دلائل نبوته قاهرة ومعجزاته ظاهرة ومع ذلك لم يؤمنوا به ! فنجم عن هذا ضيق في صدره ، فالله يقول له فليكن صدرك منشرحا بهذا القرآن لأنه أجل كتاب وأعظم منزل به الهداية والرحمة لكل أحد أراد أن ينتفع به وإن لم ينتفع به قومك وكذبوه وردوه عليك .

هذا ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ ثم ذكر العلة من إنزاله : فاللام هنا لام التعليل ﴿ لتنذر ﴾ ولذلك جاء الفعل بعدها منصوبا ﴿ لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ لم يقل الله من المنذر بالقرآن قال: ﴿ لتنذر به ﴾ لكن لما ذكر الذكرى قال ﴿ وذكرى ﴾ لمن ﴿ للمؤمنين ﴾ .

(400/262)

إذن من المنذر بالقرآن ؟ أعظم قواعد العلم أن القرآن يفسر بالقرآن والله يقول : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾ ، إذن المحذوف هنا هو الموجود في سورة مريم ، لتنذر به قوم لدا ، يعني الكفار .

﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ والإنذار في اللغة هو الإعلام المقرون بالتهديد ، على هذا تنجم قاعدة أن كل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذار ، ﴿ لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ فإن قال قائل إن الله قال في آية أخرى أنه ينذر بالقرآن المؤمنين قال جل وعلا: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ فيجاب عن هذا بأن الإنذار على قسمين:

إنذار عام وإنذار انتفاع ، الإنذار العام ينصرف للكفار أما إنذار الانتفاع ينصرف إلى المؤمنين .

﴿ لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ هذه الآية الأولى ثم قال الله جل وعلا:

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ فأخبر الله جل وعلا أن اثنين يسألان يوم القيامة : المرسلون والمرسل إليهم ، لكن الله لم يقل هنا ماذا يسأل هؤلاء ولا ماذا يسأل أولئك ، فأين قال الله وأنا قلت أعانكم الله أن تستحضروا القرآن هذا علم التفسير أين قال الله ماذا يسأل المرسلون وماذا يسأل من أرسل إليهم ؟ هنا الله يقول : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ لكنه لم يقل ماذا يسألون ، أما الجواب :

فإن الله قال عن الأول : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ قال عنها : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ ، فيكون السؤال للأمم ما هو سؤالهم ؟ ﴿ ماذا أجبتم المرسلين ﴾

هذا من تفسير القرآن بالقرآن . قال الله في القصص: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ هذا حل الإشكال الأول ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ .

(401/262)

يبقى حل الإشكال الثاني قال الله جل وعلا : ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ ماذا يسأل المرسلون ؟ قال الله في المائدة: ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ ، فالإشكال الإجمال الذي في سورة الأعراف فصل في موضعين: فصل في القصص وفصل في المائدة وهذا من تفسير القرآن بالقرآن .

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين*والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون*ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ :

الله جل وعلا حكم عدل ويوم القيامة يحشر الناس على أرض بيضاء نقية لم يعص الله جل وعلا فيها قط وليس في تلك الأرض معلم لأحد ، الآن أنت تتفق مع زميلك مع جارك مع أخيك على أن تلتقي به في مكان ما فتجعل له أمارة مثلا : مستشفى , إشارة , علامة , دار , مبنى , محل تجاري بينك وبينه تذهب إليه هذا المكان المعلم هو سبب التقائكما .

يوم القيامة يحشر الناس على أرض بيضاء نقية ليس فيها معلم لأحد ليس فيها شيء بارز

تجتمع عنده الناس والناس يحشرون حفاة عراة غرلا بهما ليس معهم شيء إذا كان في الدنيا فيه ملك صوري تملكه بيديك ثيابك دابتك سيارتك في يوم القيامة يخرج الناس لا يعلمون شيئا ، الله يقول في القرآن: ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ والفراش يموج بعضه في بعض ومعنى الآيتين الجمع بينهما أن الناس عندما يخرجون يخرجون أول الأمر كالفراش لا يعرفون أين يذهبون ! فإذا تقدمهم إسرافيل وهو الداعي قال الله جل وعلا : ﴿ يومئذ يتبعون الداعي ﴾ انتظموا خلف إسرافيل فأصبحوا انتقلوا من حالة الفراش إلى حالة الجراد هذا كله يكون يوم القيامة يوم القيامة له أهوال عظيمة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لابن عباس: "مع أنني على ما قلت عني لو أن لي ملء الأرض ذهبا لافتديت به من هو المطلع" .

(402/262)

مما يكون يوم القيامة الميزان ، وأهل السنة يقولون سلك الله بنا وبكم سبيلهم يقولون: إنه ميزان حقيقي له كفتان وله لسان ، والله جل وعلا يقول ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ، والله يقول هنا ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه ﴾ القصد بكلمة الحق أنه لا جور

فيه ولا ظلم ولا بخس ولا رهق ميزان حق يكفي أن الله جل وعلا قائم عليه فهو تبارك وتعالى أعدل الحاكمين وأحكم العادلين .

على هذا اختلف العلماء ما الذي يوزن ؟ مع اتفاقهم جملة أهل السنة على أنه يوجد ميزان له كفتان ، على أقوال أشهرها :

القول الأول : أن الذي يوزن العمل نفسه ، والذين قالوا بهذا القول احتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان) موضع الشاهد أنه قال أن : (الحمد لله تملأ الميزان) فهذا معنى إن العمل نفسه يوزن ، وقال صلى الله عليه وسلم :(اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غايتان أو فرقان طير صواف تحاجان عن أصحابها) فهذا من من أدلة من قال إن الذي يوزن العمل .

(403/262)

القول الثاني : إن الذي يوزن صحائف العمل ، وهؤلاء احتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم كما عند الترمذي بسند صحيح : (إن الله سيخلص رجلا من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيقول له ربه: أتنكر مما رأيت شيئا ؟ فيقول لا يا رب فيقول الله جل وعلا له أظلمك كتبتي الحافظون فيقول: لا يا رب ،

فيقول الله:إن لك عندنا بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فيقول يا رب وما تغني هذه البطاقة مع هذه السجلات: فتوضع البطاقة في كفة والسجلات في كفة" قال صلى الله عليه وسلم: " فطاشت السجلات ورجحت البطاقة "وعند زيادة عند الترمذي " ولا يثقل مع اسم الله شيء) فهذه أدلة من قال إن الذي يوزن صحائف العمل ، والقول الأول أنه يوزن العمل .

القول الثالث: أنه يوزن صاحب العمل وهؤلاء احتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين (يؤتى بالرجل السمين يوم القيامة –والمقصود الكافر– يؤتى بالرجل السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة) ثم قرأ عليه الصلاة والسلام : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ هذه أحد أدلة من قال إن الذي يوزن صاحب العمل ، واحتجوا كذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ضحك الصحابة من رجل عبد الله بن مسعود قال صلى الله عليه وسلم : (أتعجبون من دقة ساقيه فلهما أثقل في الميزان من جبل أحد) . أي رجلا عبد الله بن مسعود أثقل في الميزان من جبل أحد هذه هي أدلة من قال إن الذي يوزن صاحب العمل .

قال الحافظ بين كثير رحمه الله تعالى جمعا بين الأدلة :

ولا يبعد أن يوزن هذا تارة وهذا تارة وهذا تارة ، والأظهر والله تعالى أعلم أنه يوزن العمل وصاحبه وصحائف الأعمال جمعا بين الأحاديث وجمعا بين الآثار ، وهذا هو الذي

تستقيم به الآيات والله تعالى أعلم .

﴿

(404/262)

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ فالذي يعنينا هنا كخطاب قرآني أن يعنى الإنسان بأعماله الصالحة وأن يسعى فيما يثقل به الميزان ومن أعظم ما يثقل به الميزان حسن الخلق الذي تتعامل به مع الناس قال عليه الصلاة والسلام : (الدين المعاملة) ولم يكن صلوات الله وسلامه عليه فضا ولا غليظا في خطابه فليس الدين مجرد ركعات تؤدى في المساجد وإن كانت الصلاة في الذروة الأعلى من الدين ولكن الدين جملة معاملة مع إخوانك المؤمنين مع والديك مع أبنائك مع زوجاتك مع جيرانك مع عامة المسلمين تحب لهم ما تحب لنفسك تؤثرهم على نفسك تقبل اعتذارهم وتقيل عثراتهم وتقدم الصورة المثلى لما أمر الله به في كتابه وما أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت:(كان خلقه القرآن) ، أي أنه يطبق القرآن صلوات الله وسلامه عليه ، ومن الخطأ العظيم الذي نقع فيه أن نعتقد أن اتصالنا بالدين وقف على أشهر معينة كرمضان أو أماكن

معينة كالمساجد وإنما يعبد الله جل وعلا بكل لسان وفي كل مكان وأخوة الإسلام تفرض علينا مطالب شتى في تعاملنا نكون بها إن شاء الله عباد الله إخوانا كما أمر نبينا صلى الله عليه وسلم .

قال الله جل وعلا كذلك في هذه الآيات:

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ ، هذه تكلمنا عنها في تفسير سورة البقرة وأنا أتكلم إجمالا:

(405/262)

خلق الله جل وعلا أبانا آدم عليه السلام من قبضة قبضت من الأرض وجاء في بعض الآثار أن الله بعث ملكا يقبض تلك القبضة فلما وصل إلى الأرض قالت له الأرض : " أعوذ بالله منك " فرجع إلى ربه فسأله الله وهو أعلم قال : " يا رب استعاذت بك فأعذتها " فبعث الله وهو أعلم ملكا آخر غيره فقالت له الأرض مثل ما قالت لصاحبه فرجع إلى ربه فقال له مثل ما قال الأول فبعث الله ملكا ثالثا فلما جاء أن يقبض من الأرض قالت الأرض كما قالت لصاحبيه " أعوذ بالله منك " قال : " وأنا أعوذ بالله أن لا أنفذ أمره " ثم أخذ قبضة من الأرض هذه القبضة جاءت مجتمعه مخلوطة ممزوجة فلما رفعت إلى ربنا جل جلاله

خلطت بماء فأضحت طينا ثم تركت فترة فأضحت صلصالا من فخار بحيث أنه لو قرع يحدث صوتا على هذا هذه المراحل الثلاث كلها ذكرها الله جل وعلا في كتابه فقال جل ذكره : ﴿ خلقناكم من تراب ﴾ وقال: ﴿ خلقناهم من طين ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ لأن هذه المراحل الثلاث كلها مر بها خلق أبينا آدم .

ثم قال الله جل وعلا هنا : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ لكن الله لم يقل في الأعراف هل صور آدم على هيئة حسنة أم على هيئة غير حسنة فأين أثبت الله حسن خلق آدم ؟ في سورة التين: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ . ولهذا قال بعض الفقهاء لو أن رجلا قال لامرأته: " أنت طالق إن لم يكن وجهك أحسن من القمر " لا تطلق ، ولو كانت من أقبح الناس وجها لأن الله جل وعلا يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .

ثم وقع من أبينا آدم عليه الصلاة والسلام المعصية بالأكل من الشجرة وأهبط إلى الأرض فلما أهبط إلى الأرض جاءت النداءات الربانية الإلهية لبني آدم فناداهم الله في الأعراف بأربع نداءات:

(406/262)

قال في الأولى جل وعلا: ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ﴾ ، هذه الآية مسوقة في سياق الامتنان واللباس هو اللباس الضروري الذي تستر به العورة ، والريش هو اللباس الزائد عن الضروري التي يتجمل به الإنسان .

﴿ قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم ﴾ أي عوراتكم ، وسميت العورة سوءة لأن العاقل يسوؤه أن تظهر عورته للناس ، فالله يقول في باب الامتنان على عباده: ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ﴾ لباسا ضروريا ولباسا زائدا تتزينون به .

فلما ذكر الله اللباس الحسي ذكر اللباس المعنوي فقال جل وعلا : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ أي خير من كل شيء خير من كل لباس .

ولباس التقوى: أن يكون الإنسان مكتسيا بتقوى الرب تبارك وتعالى في قلبه يخشى الله تبارك وتعالى ويخافه يجتنب نواهيه ويأتي أوامره هذا هو المؤمن حقا الذي ارتدى خير لباس:

ليس الجمال بمئزر ***فاعلم وإن رديت بردا

إن الجمال معادن ومنا***ـاقب أورثن مجدا

فاللباس الحسي يبلى يبيد ولا ينفعك في الآخرة تستر به عورتك في الدنيا أما لباس التقوى

هو الذي عليه معيار العقاب والحساب والثواب يوم القيامة .

ثم قال الله جل وعلا : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ ، سنتكلم كلام علمي وكلام وعظي حول هذه الآية .

﴿

يا بني آدم ﴾ هذا خطاب ويسمى نداء علامة فمتى يسمى النداء نداء كرامة ؟ إذا قال الله في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ هذا نداء كرامة ، وإذا قال ﴿ يا أيها الناس ﴾ أو ﴿ يا بني آدم ﴾ هذا نداء علامة لأنه يشترك فيه المؤمن والكافر وإنما علموا بنسبتهم إلى أبيهم .

(407/262)

﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ﴾ وهو العدو الأول ﴿ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ الأبوان هنا آدم وحواء وإنما سميا أبوان رغم أن حواء امرأة من باب التغليب وقد قلنا في دروس عدة مكررة إن العرب إذا تكلمت عن اثنين وأرادت أن تثني تغلب لكن معيار التغليب يختلف من مثنى إلى مثنى ، فقالوا في الأبوين الأبوان غلبوا الرجل على المرأة لأن الرجل أفضل من المرأة عموما ، وقالوا في المدينة ومكة المكتان لأن مكة أفضل عند الجمهور

، وقالوا في الحسن والحسين الحسنان لأن الحسن أكبر ، وقالوا في الشمس والقمر القمران

القمر مذكر والشمس مؤنث:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ***ولا التذكير فخر للهلال

فلو كل النساء كمن ذكرنا ***لفضلت النساء على الرجال

لأن القمر مذكر قالوا القمران .

فهنا قول الله جل وعلا : ﴿ لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ لما ذاقا من الشجرة حصل أن بدت السوءتان لآدم وحواء فعلما أنهما وقعا في أمر عظيم .

من هنا تعلم أن هذا القرآن أنزله الله هداية للناس فأول طريق للمعاصي نزع الحياء من قلب المؤمن ، أول طريق للمعصية نزع الحياء من قلب المؤمن فأول ما أراده إبليس حتى يغوي آدم وزوجته وذريته لجأ إلى أول قضية أن يريهما عوراتهما فإذا كشفت السوءتان في مكان ظاهر واستمرأ النظر إليها تصبح النفس والعياذ بالله هين لين عليها ما ترى فتستمرئ كل الفواحش فتنساق بعد ذلك إلى المعاصي من غير أن تعلم .

(408/262)

ولهذا تعلم أن ما صنعه الشيطان قديما يصنعه شياطين الإنس حديثا ، فأكثر ما يسعى إليه القائمون على القنوات الفاجرة أن يبثوا أشياء تكشف من خلالها العورات حتى تعتاد الأسرة المسلمة أبا وأما وأحفادا وأبناء أن ينظروا إلى تلك العورات وأن يصبح أمرا بدهيا مستساغا لدى الأسرة ككل أن تنظر إلى الفواحش والإغراءات وما يكون من اتصالات محرمة وكشف العورات إما عن سبيل رقص أو سبيل غناء أو سبيل تمثيل أو غير ذلك فتصبح الأسرة والعياذ بالله بعد ذلك أي معصية تهون وتسهل على الجميع ويصبح أمر الله جل وعلا عياذا بالله هينا على تلك القلوب ، فمن أراد الله جل وعلا أن يعصمه أول ما يعظم فيه يعظم فيه مسألة الحياء في قلبه والإنسان إذا جبل على الحياء يقول عليه الصلاة والسلام : (الحياء لا يأتي إلا بخير) .

وقد ترى أنت بعض الناس على مسألة تستغرب كيف يصنعها والفرق بينك وبينه ليس العلم فهو يعلم وأنت تعلم لكن الفرق بينك وبينه أن مسألة الحياء شجرة نابتة في قلبك والحياء في قلبه غير موجود فلما ذهب الحياء من نفسه من قلبه سهل عليه أن يأتي المعاصي ، قال صلى الله عليه وسلم (كل أمتي معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم يستره ربه ـ أي على معصية ـ فإذا أصبح قال يا فلان أما علمت أن البارحة فعلت كذا وكذا وكذا !) يقول صلى الله عليه وسلم : (يمسي يستره الله ويصبح يكشف ستر الله عنه) نعوذ بالله من فجأة نقمته وزوال نعمته .

وهذا الذي يصل إلى هذه المرحلة طبع على قلبه تماما كمن يذهب إلى حانات الغرب وبارات الشرق فيقع في المعاصي والفجور وبنات الزنا وأشباه ذلك ثم والعياذ بالله مع أن الله قد ستر عليه يصور نفسه ثم يأتي بتلك الصور ويجمع أقرانه وخلطاءه وأمثاله ليعرض عليهم تلك الصور ويريهم إياها هذا قد يصل إلى حد الكفر ، لأنه في الغالب لا يصنع امرؤ مثل هذا إلا وهو يستحل ما حرم الله وإن كنا لا نكفر أحدا بعينه لكن نقول: إن هذا من أعظم الدلائل على ذهاب الخشية من القلب واستيلاء الشيطان على تلك القلوب يقول صلى الله عليه وسلم : (من ابتلي من هذه القاذورات بشي فليستتر بستر الله عليه) .

والمؤمن يسأل الله دائما الستر والعافية ومحو الذنوب في الدنيا والآخرة .

لكن المقصود من الآية : أن نبين أن من أعظم طرائق إبليس لإغواء الناس أن ينزع عنهم لباسهما كما قال الله جل وعلا : ﴿ ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ فالله كتب أن الإنس لا ترى الجن والجن ترى الإنس .

وقد قلنا في دروس سابقة إن العرب تسمي الجن خمسة أسماء .وأنا مضطر للكلام العلمي لأني قلت الكلام في مقامه الأول علمي .:

يسمون الجني العادي جني فإذا كان مما يسكن البيوت يسمونه عمار وإذا كان مما يتعرض للصبيان يسمونها أرواح فإذا كان فيه شيء من التمرد يسمونه شيطان فإذا ازداد تمرده يسمونه عفريت . ذكر هذا الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى .

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ يستنبط من هذه الآية أن عقد الولاية ما بين الإنس والشيطان قائم على عدم الإيمان لأن الله جل وعلا قال : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ . فعدم الإيمان بالله عقد ما بين الإنسي والشيطان .

(410/262)

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۞ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، حتى قال الله جل وعلا بعد ذلك بآيات: ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ كذبوا بآياتنا أي لم يصدقوا الرسل واستكبروا عنها أي لم ينقادوا لها ، كذبوا بالآيات عدم التصديق واستكبروا عنها أي عدم الانقياد ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة ﴾ .

الإنسان تخرج روحه من جسده بعد أن تكون هذه الروح قد ألفت الجسد فإذا خرجت كانت روحا مؤمنة تفتح لها أبواب السماء وإن كانت روحا كافرة أو منافقة أغلقت في وجهها أبواب السماء عياذا بالله ، فالله جل وعلا يقول هنا : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ هذا جزاء الأول وهذا قبل البعث ثم قال: ﴿ ولا يدخلون الجنة ﴾ يعني بعد البعث ، على هذا الآية نص على أن الكافر لا يدخل الجنة ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ الجمل الحيوان المعروف وسم الخياط الخرم الذي في الإبرة فالخرم الذي في الإبرة من أضيق الأشياء والجمل من أعظم المخلوقات جسما والمقصود من الآية تعليق على الاستحالة فكما أنه محال أن يدخل الجمل بهذه الخلقة العظيمة في سم الخياط فمحال أن يدخل الكافر الجنة ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ ولن يلج الجمل في سم الخياط ﴿ وكذلك نجزي المجرمين*لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ .

(411/262)

لما ذكر الله حال أهل الكفر ذكر حال أهل الإيمان والأصل في القرآن أنه يبدأ بالكفار ويختم بالمؤمنين قال سبحانه: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ جعلنا الله وإياكم منهم ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ ، ذكر الله جل وعلا هنا ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾

وقد استنبط العلماء من هذه الآية وأمثالها قاعدة فقهية وهذه القاعدة تقول:

" لا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة " . فمثلا الله جل وعلا جعل من واجبات الوضوء مثلا غسل اليدين إلى المرفقين فلو أن أحد الناس من حادث مثلا قطعت يده ماذا نصنع بواجب الوضوء ؟ يسقط عنه للعجز .

لا يوجد يد أصلا وقد يكون العجز أقل من ذلك: الإنسان يجب عليه أولا أن يتوضأ بالماء فإذا عجز عن الوصول للماء أو أضره الماء رغم وجوده هذا الواجب يسقط وينتقل إلى مسألة أخرى هي التيمم حتى قد يصل أحيانا أنه يصلي بدون وضوء وبدون تيمم إذا كان عاجزا فلا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة ، وهذا معنى قول الله جل وعلا : ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

ثم قال سبحانه: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾

الناس يبقون بشر مهما بلغوا في الارتفاع في الطاعات لا يخرجهم عن كونهم بشر والنبي صلى الله عليه وسلم في الذروة من البشر وهو يقول عليه الصلاة والسلام : (أنا أغضب كما تغضبون) ولما قيل له إن إحدى أمهات المؤمنين حاضت في الحج غضب وقال : (حلقى قعرى) تغير كلامه صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر نقل عنه أنه يغضب وعمر كل الناس يغضبون ، فالإنسان مهما بلغ يبقى بشرا إلا أن نبينا صلى الله عليه وسلم معصوم وغيره من الناس غير معصوم على هذا أحيانا يبقى في الصدر شيء ولو خفيف تبقى مؤمن تدخل الجنة لكن فيه في الصدر بينك وبين زيد شيء ، الله من إكرامه لأهل الجنة قبل أن يدخلوا الجنة وهم ماضون ذاهبون إلى الجنة يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار هذا الغل الباقي القليل الذي باقي في القلوب ينزعه الله منهم قبل أن يدخلوا الجنة قال صلى الله عليه وسلم : (يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بينهم مظالم كانت بينهم في الدنيا) .

قال علي رضي الله عنه أمير المؤمنين حصل بينه وبين الزبير بن العوام رضي الله عنه شيء من سوء التفاهم وكادا يقتتلان في المعركة فذكر علي الزبير بقول للنبي صلى الله عليه وسلم فترك الزبير أرض المعركة قناعة منه بقول رسول صلى الله عليه وسلم فتبعه رجل يقال له

ابن جرموز فقتله ، وممن نازع عليا طلحة بن عبيد الله صحابي جليل أحد العشرة المبشرين وقد أحنى ظهره يوم أحد حتى يرقى النبي عليه الصلاة والسلام على ظهره فقال عليه الصلاة والسلام : (أوجب طلحة) يعني وجبت له الجنة ومع ذلك كان هناك سوء تفاهم بسيط ما بين طلحة والزبير وعلي كل منهم يرى الصواب معه وكلهم في المحل الأعلى من الصحابة ، قال علي رضي الله عنه: قال : "إني لأرجو الله أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم " ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار ﴾ " .

(413/262)

فالكمال عزيز والصحابة رضي الله عنهم أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم والله رضي عنهم وشهد برضاه عنهم في كتابه ولا ينبغي لعاقل أن يدخل فيما كان بينهم كلهم مجتهد رضي الله عنهم وأرضاهم نسأل الله أن يرزقنا جوارهم مع نبينا صلى الله عليه وسلم في جنات النعيم .

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ هذا الكلام يقوله أهل الجنة اعترافا منهم بأن الهداية من الله ـ جعلني الله وإياكم برحمته ممن يقولها في الجنة ـ ، وهذا يؤكد على أمر عظيم

على أن من يطلب الهداية فليطلبها من الله ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) .

ولا يشمت الإنسان بأحد خوفا من أن ينتكس كما انتكس غيره وإنما المؤمن يسأل الله السلامة ولا يشمت بأحد ويسأل الله غفران الذنوب وستر العيوب ورحمته حتى نلقاه .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا ﴾ أي هؤلاء المؤمنين نودوا ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

يوجد باء عوض ويوجد باء سبب , يعني باء تختص بالعوض وباء تختص بالسبب ، شف هذا قلم فلو ذهبت إلى المتجر وسألت صاحب المتجر : " بكم هذا القلم ؟ " قال : " بريال " فأعطيته ريالا فأعطاك القلم ، فهذا الريال عوض عن القلم بمعنى مكافئ له ، ولو هذا القلم أحسن كان أصبح الريال أكثر من ريال يصبح مثلا بعشرة ، فهذه باء عوض .

(414/262)

في باء أيها الأحبة اسمها باء السبب . تأتي لصاحب متجر فيسألك: " من أين أنت ؟ " فتقول له مثلا : " من جدة " ويكون هو قد سكن جدة قديما فتسأله : " من أي حي " يقول "

من النزلة " يكون هو ساكن النزلة قديما فتطلب ماء فيقول هذا الماء خذه لأننا أنا وأنت كنا نسكن في حي واحد ، فسكنك الحي الذي سكن فيه صاحب المتجر عوض عن الماء أو سبب في الحصول على الماء ؟ سبب في الحصول على الماء .

تعفو عن إنسان لأنه صاحب أخيك يحصل لك سيارة يأتي إنسان يصدم سيارتك فتنزل غاضبا فعندما ترى من صدمك تعرف أنه صاحب لأخيك فتعفو عنه أنت عفوت عنه لا لأنه أعطاك عوض بل لأن صداقته لأخيك سبب في عفوك عنه .

طيب يقول الله جل وعلا : ﴿ أورثتموها ﴾ أي الجنة ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ هذه الباء عوض أو سبب ؟

هذه الباء باء أعمالكم سبب في دخول الجنة ، وإلا الأعمال لا يمكن أن تكون عوضا عن ماذا ؟ عن الجنة لأن الجنة أكبر من أعمالنا .

لكن قال بعض العلماء من السلف كلمة جميلة في هذا الباب قالوا : "إن المؤمنين ينجون من النار بعفو الله ، ويدخلون الجنة برحمة الله ، ويرثون منازل غيرهم بأعمالهم الصالحة "

﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

ثم ذكر الله جل وعلا ما يكون يوم القيامة وذكر تبارك وتعالى عدة نداءات:

النداء الأول: نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار .

والنداء الثاني: نداء أصحاب الأعراف لأصحاب الجنة .

النداء الثالث : ونداء أصحاب الأعراف لأصحاب النار .

النداء الرابع : ونداء أصحاب النار لأصحاب الجنة .

في هذه السورة التي سميت بسورة الأعراف لأن الله ذكر فيها الأعراف . ولم يرد ذكر أصحاب الأعراف في القرآن إلا في هذه السورة .

(415/262)

قال الله جل وعلا : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين*الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون ﴾ هذا النداء الأول يكون من أصحاب الجنة إلى أصحاب النار أن أصحاب الجنة يفتخرون على أصحاب النار بأنهم وجدوا ما وعدهم الله من النعيم حق ، فيسألونهم هل وجدتم ما وعدكم الله من الجحيم حق ؟ فيقولون نعم ، فيستمع الفريقان بعد ذلك إلى مؤذن يؤذن يقول: ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾

.

قال طاووس بن كيسان رحمه الله لهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي المعروف قال: " يا

أمير المؤمنين اذكر يوم الأذان " ، قال : " وما يوم الأذان ؟ " قال : " إن الله يقول ﴿ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ " فصعق هشام رحمه الله فقال طاووس بن كيسان : " سبحان الله هذا ذل الصفة فكيف بذل المعاينة ! " أي صعقت وأنا مجرد وصفت لك اليوم فكيف لو عاينته ورأيته بعينيك ! .

ثم قال الله جل وعلا: ﴿ وبينهما ﴾ أي بين الجنة والنار ﴿ حجاب ﴾ هذا الحجاب جاء مفسرا في سورة الحديد : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ .

قال الله جل وعلا : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف ﴾ مكان مرتفع ﴿ رجال ﴾ الله أعلم بهم قيل إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم وهذا قول حذيفة واختاره أكثر المفسرين وقيل إنهم أنبياء وقيل إنهم ملائكة ولا يوجد نص نجزم به ونفيء إليه .

﴾

وبينهما حجاب وعلى الأعراف يعرفون كلا بسيماهم ﴾ يعني يعرفون أهل الجنة ويعرفون أهل النار بسيماهم أي بعلاماتهم فإن الله قال عن أهل الجنة : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ وقال عن أهل الكفر: ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ أي أعينهم زرقا فيعرف المجرمون بزرقة أعينهم ويعرف المؤمنون جعلني الله وإياكم منهم بما عليهم من نظرة نعيم .

(416/262)

هؤلاء أصحاب الأعراف عندما يقفون عليها معهم نور هذا النور يجعلهم يطمعون أن يدخلوا الجنة فيقفون حكما بين الفريقين قال الله جل وعلا : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة ﴾ المنادي أصحاب الأعراف والمنادى أصحاب الجنة ﴿ أن سلام عليكم ﴾ وتقف ثم ينقطع الكلام ﴿ لم يدخلوها ﴾ والمعنى أن أصحاب الأعراف لم يدخلوها في أظهر الأقوال ﴿ وهم يطمعون ﴾ أي ويطمعون في دخولها وهذا الطمع الرغبة في دخولها حث عليها أنهم ما زالوا يملكون النور ولم ينقطع . ثم بعد أن يرون أهل الجنة تصرف أبصارهم من غير إرادة منهم إلى أهل النار قال الله جل وعلا : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ إذا رأوا أهل النار وما هم فيه من عظيم الجحيم والنكال والحميم تعوذوا بالله واستجاروا به ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ .

ثم قال الله جل وعلا : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ﴾ أي رجالا كانوا في الدنيا على الكفر يصدون عن سبيل الله ﴿ قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون*أهؤلاء ﴾ أي الضعفاء الفقراء المساكين ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ كنتم تقسمون في الدنيا أنهم لن ينالوا رحمة ولا مغفرة ! ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

ثم قال الله جل وعلا: ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ جعلنا الله وإياك في هذه الحالة ممن ينادى لا ممن ينادي ، فإن الله جل وعلا بقدرته يجعل لأهل النار اطلاعا على أهل الجنة فإذا رأوها أحوج ما يكون إليه أهل النار الماء قال الله جل وعلا: ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ فيجيبهم أهل الإيمان ﴿ قالوا إن الله حرمهما ﴾ الماء والرزق ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ فلا يوجد شيء يحتاجه أهل النار أول أمر أكثر من احتياجهم إلى الماء لأنهم إذا استسقوا في النار يسقون ماء حميما كما قال الله ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ ، فقد أخذ العلماء من هذه الآية أن من أفضل القربات إلى الله سقي الماء ، وقد قال العلماء إنه ثبت في الصحيح: (أن الله جل وعلا غفر لرجل لأنه سقى كلبا) فكيف بمن سقى مؤمنا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ولما قيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما : "يا ابن عم رسول ما أفضل الصدقة ؟ قال : أن تسقي الماء " .

أين أنت من قول الله جل وعلا : ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله

حرمهما على الكافرين ﴾ ثم ذكر الله بعضا من نعوت الكافرين قال: ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ وليس الله جل وعلا ينسى أبدا ﴿ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ ، ولكن هذا في لغة العرب يسمى المشاكلة في الكلام وإنما يتركهم الله جل وعلا من غير نصرة من غير ظهرة ؟ ؟ ؟ ؟

من غير معين ، حتى يتساقطوا في جهنم . ثم بين الله جل وعلا عظيم كتابه قال سبحانه : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون*هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي في الدنيا ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

(418/262)

فيتمنون أمرين: ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ وهذه قطعها الله بقوله: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وطلبوا أمرا ثانيا : ﴿ أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ وهذه قطعها الله جل وعلا عنهم أن الله لن يخرجهم من النار ﴿ أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

فلما ذكر الله تبارك وتعالى حال الفريقين وذكر الحالة الثالثة وهي حال أهل الأعراف عرف الله جل وعلا بذاته العلية ، والقرآن أيها المؤمن كله فاضل لكن آياته فيها فاضل وفيها مفضول ، أما كونه فاضل فلأن القرآن كله من عند الله وأما كونه فاضل ومفضول فإن من آيات الله ما تتكلم عن الله فجمعت الفضل من وجهتين:

الوجهة الأولى: أنها كلام الله .

والوجهة الثانية: أنها تتحدث عن الله

وليس هناك أحد أعلم بالله من الله ولذلك من أراد أن يرقق قلبه وتدمع عينه فليقرأ ما تكلم الله جل وعلا به عن ذاته العلية كخواتم سورة الحشر وأوائل سورة الحديد وهذه الآيات التي في الأعراف وفي الفرقان يتكلم الرب جل وعلا عن ذاته العلية أو آية الكرسي ، فكل آية تحدث الله فيها عن ذاته العلية فإن الله جل وعلا لا أحد أعلم به منه قال الله جل وعلا : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ وقال : ﴿ أأنتم أعلم أم الله ﴾ .

فالآيات التي يتحدث فيها الرب جل وعلا عن ذاته العلية هي أعظم آيات القرآن قدرا لأنها جمعت المجد من طرفيه: كونها من الله وكونها تتحدث عنه جل جلاله .

قال الله جل وعلا : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين*ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾

.

هذه مجمل ما تكلم الله جل وعلا به عنه عن ذاته العلية .

هذا وصلى الله على محمد وعلى آله ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

تأملات في سورة الأعراف / للشيخ صالح المغامسي ﴾

(419/262)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

«سورة الأعراف» (7)

«المص» (1) : ساكن لأنه جرى مجرى سائر فواتح السور اللواتى جرين مجرى حروف التّهجّى ، وموضعه ومعناه على تفسير سائر ابتداء السور .

«كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» (2) رفع من موضعين أحدهما : أنزل إليك كتاب ، والآخر على الاستئناف .

«فَلا يَكُنْ» : (2) ساكن لأنه نهى «فى صدرك حرج منه» أي ضيق .

«بَياتاً» (3) : أي ليلا بيّتهم بياتا وهم نيام.

«أَوْ هُمْ قائِلُونَ» (3) : أي نهارا إذا قالوا.

«فَما كانَ دَعْواهُمْ» (4) لها موضعان أحدهما قولهم ودعواهم، والآخر ادّعاؤهم.

«1»

---

(1) «لها . . . ادعاؤهم» : قال الطبري : (8/ 81) : وللدعوى فى كلام العرب وجهان أحدهما الدعاء، والآخر الادعاء . . . إلخ.

(420/262)

«ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ» (11) «1» مجازه : ما منعك أن تسجد، والعرب تضع «لا» فى موضع الإيجاب وهى من حروف الزوائد، قال [أبو النجم] :

فما ألوم البيض أَلّا تسخرا ممّا رأين الشمط القفندرا (24)

أي ما ألوم البيض أن يسخرن، القفندر : القبيح السّمج، وقال [الأحوص :

ويلحيننى فى اللّهو أَلّا أحبّه وللّهو داع دائب غير غافل (25)

أراد : فى اللهو أن أحبه، [قال العجاج :

فى بئر لا حور سرى وما شعر (22)

الحور : الهلكة ، وقوله لا حور : أي فى بئر حور ، و«لا» فى هذا الموضع فضل]

«اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً» . (17) وهى من ذأمت الرجل ، وهى أشد مبالغة من ذممت ومن ذمت الرجل تذيم ، وقالوا فى المثل : لا تعدم الحسناء ذاما ، «2» أي ذما ، وهى لغات .

---

(1) «ما منعك أن تسجد» وفى البخاري : يقول : ما منعك أن تسجد (و القائل كأنه عبد اللّه بن عباس) ، وقال ابن حجر : كذا لأبى ذر فأوهم أنه وما بعده من تفسير ابن عباس كالذى قبله وليس كذلك ، ولغير أبى ذر «ما منعك» ، وقال غيره :

ما منعك إلخ وهو الصواب ، فإن هذا كلام أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 224) .

(2) «لا تعدم . . . ذاما» : هذا المثل فى نوادر أبى زيد 97 ، ومجمع الأمثال 2/ 109 والفرائد 2/ 181 . [. . . . .]

(421/262)

«مَدْحُوراً» (17) أي مبعدا مقصى ، ومنه قولهم : ادحر عنك الشيطان ، [و قال العجّاج :

فأنكرت ذا جمّة نميرا دجر عراك يدجر المدحورا] «1»

«وَقَاسَمَهُما» (20) أي حالفهما ، وله موضع آخر فى موضع معنى القسمة .

«سَوْآتِهما» (21) كناية عن فرجيهما .

«وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما» (21) يقال طفقت أصنع كذا وكذا كقولك :

ما زلت أصنع ذا وظللت ، «2» ويخصفان الورق بعضه إلى بعض .

«وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ» (23) إلى وقت يوم القيامة ، وقال :

وما مزاحك بعد الحلم والدّين وقد علاك مشيب حين لا حين «3»

أي وقت لا وقت .

---

(1) : لم أعثر على هذين الشطر فى ديوانه ، ولكن فيه (ص 25) :

جاءت بزحم يزحم المدحورا

(2) «سوآتهما . . . وظللت» : وقال البخاري فى تفسير سورة الأعراف ومرة فى أحاديث الأنبياء : يخصفان أخذ الخصاف من ورق الجنة يؤلفان الورق يخصفان الورق بعضه إلى بعض . قال ابن حجر (فى تفسير السورة 8/ 224) : كذا لأبى عبيدة لكن باختصار (و فى أحاديث الأنبياء 6/ 259) : هو تفسير أبى عبيدة أيضا .

(3) مطلع قصيدة لجرير يهجو بها الفرزدق ، وهى فى ديوانه 586 وورد فى الكتاب 1/ 313 والطبري 8/ 96 والشنتمرى 1/ 358 والخزانة 2/ 94 .

«ورياشا» (25) [الرياش والريش واحد] ، «1» وهو ما ظهر من اللباس والشارة وبعضهم يقول : أعطانى رجلا بريشه أي بكسوته وجهازه وكذلك السرج بريشه ، والرياش أيضا : الخصب والمعاش .

«إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ» (26) أي وجيله الذي هو منه . «2»

«كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ» (28 ، 29) نصبهما جميعا على إعمال الفعل فيهما أي هدى فريقا ثم أشرك الآخر فى نصب الأول وإن لم يدخل فى معناه والعرب تدخل الآخر المشرك بنصب ما قبله على الجوار وإن لم يكن فى معناه ، وفى آية أخرى «يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً» (76/ 31) وخرج فعل الضلالة مذكرا والعرب تفعل ذلك إذا فرّقوا بين الفعل وبين المؤنثة لقولهم : مضى من الشهر ليلة .

---

(1) «الرياش» قال القرطبي (8/ 184) : وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبت له دابة بريشها أي بكسوتها وما عليها من اللباس ، وفى البخاري : وقال غيره (أي غير ابن عباس) : الرياش والريش واحد وهو ما ظهر من اللباس ، وقال ابن حجر : هو قول أبى عبيدة ، وزاد : تقول . . . المعاش (فتح الباري 6/ 258 ، 8/ 224)

(2) «وقبيله . . . منه» : كذا فى البخاري : قال ابن حجر : هو كلام أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 225) .

(423/262)

«حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا «1» فِيها جَمِيعاً» (37) أي اجتمعوا فيها ، ويقال تدارك لى عليه شىء أي اجتمع لى عنده شىء ، وهو مدغم التاء فى الدال فثقلت الدال .

«عَذاباً ضِعْفاً» (37) أي عذابين مضعف (؟) فصار شيئين .

«فِي سَمِّ الْخِياطِ» (39) أي فى ثقب الإبرة وكل ثقب من عين أو أنف أو أذن أو غير ذلك فهو سمّ والجميع سموم . «2»

«لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ» (40) أي فراش وبساط ولا تنصرف جهنم لأنه اسم مؤنثة على أربعة أحرف .

«وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ» (40) واحدتها غاشية وهى ما غشاهم فغطاهم من فوقهم «3»

---

(1) «اداركوا» : روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة ونبه على أن ما عند البخاري هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 225) .

(2) «سم . . . سموم» : روى ابن حجر كلامه هذا عنه فى فتح الباري 8/ 225 .

(3) «واحدتها . . . فوقهم» : روى ابن حجر كلامه هذا عنه فى فتح الباري 8/ 225 ، وهو فى الطبري 8/ 122 .

(424/262)

«لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها» (21) : طاقتها ، يقال : لا أسع ذلك .

«وَعَلَى الْأَعْرافِ «1» رِجالٌ يَعْرِفُونَ» (45) مجازها : على بناء سور لأن كل مرتفع من الأرض عند العرب أعراف ، قال :

كل كناز لحمه نياف كالعلم الموفى على الأعراف 241

«2» وقال الشّمّاخ :

وظلّت بأعراف تفالى كأنها رماح نحاها وجهة الرّيح راكز 242

«3» أي على نشز .

«بِسِيماهُمْ» (45) منقوصة ، والمعنى : بعلاماتهم .

«وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ» (46) أي حيال أصحاب النار ، وفى آية أخرى «تِلْقاءَ مَدْيَنَ» (28/ 22) أي حيال مدين وتجاهه .

«فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ» (50) مجازه : نؤخرهم ونتركهم ، «كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا» (50)

أي كما تركوا أمر ربهم وجحدوا يوم القيامة.

---

(1) «الأعراف إلخ» : قال الأثرم : الأعراف كل ما ارتفع ، ومنه قول اللّه «وَعَلَى الْأَعْرافِ» الآية : (الأغانى 14/ 127) .

(2) : الرجز فى الطبري 8/ 126 والقرطين 1/ 178 واللسان (نوف)

(3) : ديوانه 53 والطبري 8/ 126 .

(425/262)

«هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» (52) أي هل ينظرون إلّا بيانه ومعانيه وتفسيره .

«خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» (52) مجازه : غبنوا أنفسهم وأهلكوا قال الأعشى :

لا يأخذ الرّشوة فى حكمه ولا يبالى غبن الخاسر (214)

«إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (55) هذا موضع يكون فى المؤنثة والثنتين والجميع منها بلفظ واحد ولا يدخلون فيها الهاء لأنه ليس بصفة ولكنه ظرف لهن وموضع ، «1» والعرب تفعل ذلك فى قريب «2» وبعيد قال :

فان تمس ابنة السّهمىّ منا بعيدا لا نكلّمها كلاما «3»

وقال الشّنفرى :

نوّرقنى وقد أمست بعيدا وأصحابى بعيهم أو تباله «4»

---

(1) «هذا موضع . . . وموضع» : الضمائر فى هذه الجملة مضطربة .

(2) «قريب إلخ» : قال القرطبي (7/ 227) : وقال أبو عبيدة : ذكر قريب على تذكير المكان أي مكانا قريبا . قال على بن سليمان : هذا خطأ ولو كان كما قال لكان «قريب» منصوبا فى القرآن .

(3) : لم أجده فيما لدى من المراجع . [. . . . .]

(4) : لم أجده فى مظانه - عليهم بفتح أوله جبل بالغور بين مكة والعراق .

انظر معجم ما استعجم 3/ 988 . ومعجم البلدان 3/ 766 . وتبالة : بفتح أوله وباللام على وزن فعالة بقرب الطائف على طريق اليمن من مكة وهى لبنى مازن . انظر معجم ما استعجم 1/ 301 ومعجم البلدان 1/ 816 .

(426/262)

فإذا جعلوها صفة فى معنى مقترية قالوا : هى قريبة وهما قريبتان وهن قريبات .

«يرسل الرّياح نشرا» (56) «1» أي [متفرقة] من كل مهبّ وجانب وناحية .

«أقلّت سحابا» أي ساقت .

«لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً» (57) أي قليلا عسرا فى شدة «2» قال :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت أعطيت تافها نكدا «3»

تافه : قليل .

«آلاءَ اللَّهِ» (68) أي نعم اللّه ، وواحدها فى قول بعضهم «ألى» تقديرها قفا ، وفى قول بعضهم «إلى» تقديرها معى .

---

(1) «نشرا» : قرأ عاصم بالباء مضمومة وإسكان الشين ، وابن عامر بالنون مضمومة وإسكان الشين ، وحمزة الكسائي بالنون مفتوحة وإسكان الشين والباقون بالنون مضمومة وضم الشين (الداني 110) .

(2) «نكدا . . . شدة» : روى ابن حجر فى فتح الباري 8/ 225 هذا الكلام مع البيت المستشهد به عن أبى عبيدة .

(3) فى الطبري 8/ 139 وفتح الباري .

(427/262)

[جعل الأعشى واحدها إلى خفيف «1» فقال :

أبيض لا يرهب الهذال ولا يقطع رحما ولا يخون إلا] «2»

«رِجْسٌ» (70) أي عذاب وغضب .

«وَبَوَّأَكُمْ» (73) أي أنزلكم [قال ابن هرمة :

وبوّئت فى صميم معشرها فتمّ فى قومها مبوّؤها] «3»

وزوّجكم .

«وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» (76) أي تكبروا وتجبروا ، يقال جبّار عات .

«جاثِمِينَ» (77) أي بعضهم على بعض جثوم ، وله موضع آخر جثوم على الرّكب ، قال جرير :

عرفت المنتأى وعرفت منها مطايا القدر كالحدأ الجثوم «4»

«امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» (582) أي كانت قد غبرت من كبرها فى الغابرين ، فى الباقين حتى هرموا وهرمت وهى قد أهلكت مع قومها فلم تغبر بعدهم فتبقى ولكنها كانت قبل ذلك من الغابرين ، وجعلها من الرجال والنساء

---

(1) خفيف : أي مخفف من الإل الذي هو العهد ، انظر اللسان (ألا) .

(2) للاعشى ميمون فى ديوانه 157 . والطبري 5/ 117 واللسان (ألا) .

(3) فى اللسان (بوأ) وشواهد المغني 279 .

(4) ديوانه 507 – والطبري 8/ 153 .

وقال : من الغابرين ، لأن صفة النساء مع صفة الرجال تذكّر إذا أشرك بينهما وقال العجاج :

فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر «1»

أي ما بقي وقال الأعشى :

عض بما أبقى المواسى له من أمّه فى الزّمن الغابر «2»

ولم يختن فيما مضى فبقى من الزمن الغابر أي الباقي ألا ترى أنه قد قال :

وكنّ قد أبقين منها أذى عند الملاقى وافر الشافر

«وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ» (84) مجازه : لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوها وقالوا فى المثل : «نحسبها حمقاء وهى باخسة» أي ظالمة . «3»

«تَبْغُونَها عِوَجاً» (85) مكسورة الأول مفتوح ثانى الحروف وهو الاعوجاج فى الدين وفى الأرض ، وفى آية أخرى :

---

(1) استشهد أبو عبيدة بهذا الرجز وبالبيتين الآتيين فى تفسير آية 171 من سورة الشعراء فى الجزء الثاني من هذا الكتاب وهما فى ديوان العجاج 15 والطبري 11/

198 ، 112/16 والقرطبي 7/ 246 ، 132/13 .

(2) ديوانه 106 من قصيدة يهجو بها علقمة ويذكر أمه – والأول فى الأضداد للأصمعى 58 ولأبى حاتم السجستاني 154 والطبري 8/ 154 واللسان والتاج (غير) والثاني فى اللسان (لقى) .

(3) «لا تظلموا . . . ظالمة» : أخذ الطبري (8/ 155) هذا الكلام برمته وقد مضى تخريج المثل .

(429/262)

«لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً» (20/ 107) والعوج إذا فتحوا أوله والحرف الثاني فهو الميل فيما كان قائما نحو الحائط والقناة والسنّ ونحو ذلك .

«افْتَحْ بَيْنَنا «1» وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ» (88) أي احكم بيننا . قال :

والقاضي يقال له الفتاح ، قال :

ألا أبلغ بنى عصم رسولا بأنى عن فتاحتكم غنىّ «2»

---

(1) «افتح بيننا» : وفى البخاري الفتاح القاضي افتح بيننا اقض . قال ابن حجر (8/ 225) : كذلك وقع هنا والفتاح لم يقع فى هذه السورة وإنما هو فى سورة سبأ وكأنه ذكره

هنا توطئة لتفسير قوله فى هذه السورة : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ولعله وقع فيه تقديم وتأخير من النساخ فقد قال أبو عبيدة فى قوله «افتح بيننا وبين قومنا» أي احكم بيننا وبين قومنا قال الشاعر «ألا أبلغ» البيت : الفتاح القاضي انتهى كلامه ومنه ينقل البخاري كثيرا . وروى ابن جرير من طرق عن قتادة عن ابن عباس قال ما كنت أدرى ما معنى قوله افتح بيننا إلخ . وقال الطبري :

ذكر الفراء أن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وذكر غيره من أهل العلم بكلام العرب أنه من لغة مراد وأنشد لبعضهم بيتا وهو : «ألا أبلغ» البيت .

(2) فى إصلاح المنطق 26 والطبري 9/ 3 والسمط 927 والقرطبي 13/ 94 واللسان والتاج (فتح) . البيت مختلف فى عزوه وقال الميمنى فى السمط ما نصه : البيت رواه يعقوب فى الإصلاح 1/ 188 غير معزو وروايته «بنى عمرو» وكذا فى اللسان (فتح) منسوبا للأسعر الجعفي وفى زيادات الجمهرة 2/ 4 برواية «بنى بكر بن عبد» منسوبا لأعشى قيس (ولم يرو له أحد) . . . ولكن ليس ثمة أحد من العشو فى كندة فالأعشى فيه مصحف الأسعر وهو من جعفى بطن من كندة ، وقال أبو محمد ابن السيرافي (وعنه اللسان مادة قتا) وجدت هذا البيت للشويعر الجعفي على خلاف ما رواه يعقوب . ثم وجدته لمحمد بن حمران أبى حمران فى الحماسة الصغرى لأبى تمام ص 46 :

أبلغ بنى حمران أنى عن عداوتكم غنى

بتقييد القافية فى تسعة أبيات (السمط 928) . والجعفي هو مرثد بن حمران الجعفي يكى أبا حمران (ولعل محمد بن حمران مصحف مرثد . . .) وهو جاهلى ، راجع ترجمته فى المؤتلف 47 والسمط 94 .

(430/262)

وهو لبعض مراد .

«الرَّجْفَةُ» (90) : من رجفت بهم الأرض أي تحركت بهم

«كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا» (91) أي لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا فيها ، قال مهلهل غنيت دارنا تهامة فى الدهر وفيها بنو معدّ حلولا «1» وقولهم مغانى الديار منها ، واحدها مغنى قال : أتعرف مغنى دمنة ورسوم «2» «3»

---

(1) «كأن لم يغنوا . . . ورسوم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 226 . [. . . . .]

(2) البيت من كلمة طويلة له فى كتاب البسوس 78 – 80 وهو فى اللسان والتاج

(غنو) .

(3) فى فتح الباري 8/ 226 .

(431/262)

«فَكَيْفَ آسى» (92) أي أحزن وأتندم وأتوجع ، ومصدره الأسى ، وقال :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى «1» (191)

«حَتَّى عَفَوْا» (94) مجازه : حتى كثروا ، «2» وكذلك كل نبات وقوم وغيره إذا كثروا :

فقد عفوا ، قال [لبيد :

فلا تتجاوز العطلات منها إلى البكر المقارب والكروم

ولكنّا نعضّ السّيف منها بأسوق عافيات اللّحم كوم

«3» [أي كثيرات اللحم] «الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ» (94) أي الضّرّ ، والسّرّ وهو السرور .

«لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ» (95) أي لأنزلنا عليهم

---

(1) : الشطر للعجاج كما مر .

(2) حتى كثروا : كذا فى الكامل 305 وقال ابن حجر : قال أبو عبيدة فى قوله تعالى

«حتى عفوا» أي كثروا وكذلك . . . إلى قوله : فقد عفوا قال الشاعر «ولكنا نعض»

البيت (فتح الباري 8/ 226) .

(3) : البيتان فى ديوانه 1/ 9 - واللسان (عطل) والثاني فى الكامل 305 والطبري 9/ 5 واللسان (عفو) أيضا .

(432/262)

يقال : قد فتح اللّه على فلان ولفلان ، وذلك إذا رزق وأصاب الخير وأقبلت عليه الدنيا وإذا ارتج على القارئ فتحت عليه فلقّنته .

«أ ولم نهد للّذين» (99) مجازه : أو لم نبين لهم ونوضح لهم .

«وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ» (96) مجازه : مجاز نختم .

«وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ» (101) مجازه وما وجدنا لأكثرهم عهدا أي وفاء ولا حفيظة و«من» من حروف الزوائد وقد فسّرناها فى غير هذا الموضع .

«وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» (101) : أي لكافرين ، ومجازه :

إن وجدنا أكثرهم إلّا فاسقين ، أي ما وجدنا ، وله موضع آخر أنّ العرب تؤكّد باللام كقوله :

أمّ الحليس لعجوز شهربه «1»

«فَظَلَمُوا بِها» (101) مجازه : فكفروا بها .

---

(1) الشطر فى الخزانة 4/ 328 . قال البغدادي فى عزوه : وهذا البيت نسبه الصاغاني فى العباب إلى عنترة بن عروس أم الحليس «البيت» ، قال بعض الناس اللام مقحمة فى العجوز وأنشد الآمدى فى ترجمة عنترة هذا : «أب عجوز من سليم شهر به» انتهى . وقد رجعت إلى المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء للآمدى ولم أر فيه البيت الذي نقله عنه والذي فيه : ومنهم عنترة بن عروس مولى ثقيف . . . وهذا الشعر مذكور فى صحاح الجوهري أيضا فى تلك المادة ، ولم يتعرض له ابن برى ولا الصفدي فيما كتباه على الصحاح بشىء والله أعلم بقائله وقال العيني : قائله رؤبة بن العجاج ونسبه الصاغاني فى اللباب إلى عنترة بن عروس ، وهو الصحيح . هذا كلامه والخليس بضم الحاء . وأنا لم أجده فى ترجمة عنترة بن عروس فى المؤتلف (150) ، وهو فى الصحاح واللسان والتاج (شهرب) وفى العيني 1/ 535 وشواهد المغني 206 – الشهربة والشهبرة العجوز الكبيرة (اللسان) .

(433/262)

«حقيق علىّ أن لا أقول» (104) : مجازه : حق علىّ أن لا أقول إلّا الحقّ ، ومن قرأها «حَقِيقٌ عَلى «1» أَنْ لا أَقُولَ ولم يضف «على» إليه فإنه يجعل مجازه مجاز حريص على أن

لا أقول ، أو فحق أن لا أقول .

---

(1) «حقيق على» : وفى الطبري (9/ 9) اختلفت القراء فى قراءة قوله «حقيق على ألا أقول على اللّه إلا الحق» فقرأه جماعة من قراء المكيين والمدنيين والبصرة والكوفة حقيق على ألا أقول بإرسال الياء من «على وترك تشديدها بمعنى أنا حقيق بأن لا أقول على اللّه إلا الحق فوجهوا معنى على إلى معنى الباء ، كما يقال : رميت بالقوس ، وعلى القوس ، وجئت على حسنة وبحال حسنة ، وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول : إذا قرى ذلك كذلك فمعناه حريص على ألا أقول ألا بحق وقرأ ذلك جماعة من أهل المدينة حقيق على أن لا أقول بمعنى واجب على أن أقول وحق على ألا أقول .

وروى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الآية فى فتح الباري 6/ 308 .

(434/262)

«ثُعْبانٌ مُبِينٌ» (106) أي حية ظاهرة .

« [وَنَزَعَ يَدَهُ]» (107) أخرج يده «فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ» (107) من غير سوء ، ولكنها كانت آية لأنه كان آدم .

«أَرْجِهْ وَأَخاهُ» (110) مجازه : أخّره .

«إِنَّ لَنا لَأَجْراً» (113) ثوابا وجزاء ، واللام المفتوحة تزاد توكيدا .

«سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ» (115) أي غشّوا أعين الناس وأخذوها .

«وَاسْتَرْهَبُوهُمْ» (115) وهو من الرهبة مجازه : خوفوهم . «1»

«تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ» (116) أي تلهم ما يسحرون ويكذبون أي تلقمه .

«أَفْرِغْ عَلَيْنا» (125) أنزل [علينا]

«قالَ عَسى رَبُّكُمْ» (128) وعسى من اللّه عز وجل فى كل القرآن أجمع واجبة .

«وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ» (129) مجازه ابتليناهم بالجدوب ف «آل فرعون» : أهل دين فرعون وقومه .

---

(1) «استرهبوهم . . . خوفوهم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 226) .

(435/262)

«أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» (130) مجازه : إنما طائرهم ، «1» وتزاد «ألا» للتنبيه والتوكيد ، ومجاز «طائرهم» : حظهم ونصيبهم .

«الطُّوفانَ» (132) مجازه من السيل : البعاق والدّباش «2» وهود باش شديد سيله ،

ومن الموت الذريع المبالغ السريع . «3»

«وَالْقُمَّلَ» (132) «4» عند العرب هو الحمنان ، والحمنان : ضرب من الفردان واحدتها حمنانة .

---

(1) «طائرهم» : روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 225 .

(2) الدباش : سيل دباش عظيم (اللسان) .

(3) «السيل . . . السريع» : نقل الطبري (9/ 20) هذا الكلام عن بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة . ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة مرة فى أحاديث الأنبياء ومرة فى كتاب التفسير وقال : قال : أبو عبيدة : الطوفان : مجازه من السيل . . . المتتابع الذريع . . . قال أبو عبيدة القمل عند العرب هى الحمنان قال الأثرم الراوي عنه : والحمنان يعنى بالمهملة ضرب من القردان وقيل هى أصغر وقيل أكبر وقيل هى الدبى بفتح المهملة وتخفيف الموحدة مقصور . وانظر فتح الباري 6/ 308 ، 8/ 225 .

(4) «والقمل . . . حمنانة» : روى الطبري (9/ 20) هذا الكلام وكذلك ابن حجر فى فتح الباري 8/ 225 . وفى اللسان : وقال أبو عبيدة القمل عند العرب الحمنان (قمل) القرطبي (7/ 269) : وقال أبو عبيدة الحمنان وهو ضرب من القراد واحدتها حمنانة .

«الرِّجْزُ» (133) مجازه: العذاب.

«بِما عَهِدَ عِنْدَكَ» (133) مجازه: أوصاك وأعلمك.

«فِي الْيَمِّ» (135) أي فى البحر، قال:

كباذخ اليمّ سقاه اليمّ «1»

«يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ» (136) «2» مجازه: يبنون ويعرش ويعرش لغتان، وعريش مكّة: خيامها.

«وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ» (137) مجازه: قطعنا.

«يَعْكُفُونَ» (137) أي يقيمون، ويعكفون لغتان.

«مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ» (138) أي مبيّت ومهلك.

«أَبْغِيكُمْ إِلهاً» (139) أي أجعل لكم.

---

(1) الشطر فى الطبري 9/ 27.

(2) «و ما كانوا يعرشون»: روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 226. [.....]

«جَعَلَهُ دَكًّا» (142) أي مستويا مع وجه الأرض، وهو مصدر جعله صفة، ويقال: ناقة دكّاء أي ذاهبة السّنام مستو ظهرها «1» أملس، وكذلك أرض دكّاء، [قال الأغلب: هل غير غار دكّ غارا فانهدم] «2»

«لَهُ خُوارٌ» (147) أي صوت كخوار البقر إذا خار، وهو يخور.

«وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» (148) «3» يقال لكل من ندم وعجز عن شيء ونحو ذلك: سقط في يد فلان.

«غَضْبانَ أَسِفاً» (149) من شدة، يقال: أسف وعند وأضم، «4» ومن شدّة الغضب يتأسف عليه أي يتغيظ.

---

(1) «جعله . . . ظهرها»: رواه ابن حجر في فتح الباري 6/ 307.

(2) هو الأغلب بن جشم العجلي مخضرم. انظر ترجمته في المؤتلف 22، والأغاني 18/ 164 والسمط 801. ولعل الشطر من كلمة بعضها في حماسة ابن الشجري 37.

(3) «سقط في . . . إلخ»: وفي البخاري: كل من ندم سقط في يده. قال ابن حجر

(8/ 226) : قال أبو عبيدة فى قوله تعالى «وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» يقال لكل . . . فى يده فلان . وانظر فتح الباري أيضا فى 6/ 308 . وفى الطبري (9/ 40) : تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف وعاجز عن شىء قد سقط فى يديه وأسقط لغتان .

(4) الأضم : الغضب .

(438/262)

«وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ» (153) أي سكن لأن كل كاف عن شىء فقد سكت عنه أي كفّ عنه وسكن ، ومنه : سكت فلم ينطق .

«وَاخْتَارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا» (154) مجازه : اختار موسى من قومه . ولكن بعض العرب يجتازون فيحذفون «من» ، قال العجّاج :

تحت التي اختار له اللّه الشّجر «1»

أي تحت الشجرة التي اختار له اللّه من الشجر .

«إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ» (155) مجازه : إنا تبنا إليك [هو من التهويد فى السير ترفق به وتعرج وتمكث] .

«الْمَنَّ» (159) شىء يسقط على الشجر .

«وَالسَّلْوى» (12) طائر يظنون أنه السّمانى ، والسمانى أيضا مخفف ، وله موضع آخر لكل شيء سلا عن غيره ، ومنه السّلوان قال :

لو أشرب السّلوان ما سليت «2»

---

(1) ديوانه 15 - والطبري 9/ 48 واللسان (خير) .

(2) الشطر من أرجوزة فى ديوان رؤبة 25 - 27 ، وهو فى اللسان (سلو) .

(439/262)

وعلى التخفيف : «سمانى لبادى» ، «1» [تقول] الصبيان إذا نصبوا له يستدرجونه : سمانى لبادى أي يلبد بالأرض أي لا يبرح.

[«أسباطا»] : الأسباط (159) قبائل بنى إسرائيل واحدهم سبط يقال : من أي سبط أنت ، أي من أي قبيلة وجنس . «2»

قال أبو عبيدة : «فانبجست» (159) أي انفجرت .

«إِذْ يَعْدُونَ «3» فِي السَّبْتِ» (162) إذ يتعدّون فيه عما أمروا به ويتجاوزونه

«شرّعا» (162) أي شوارع. «4»

---

(1) «لبادى» : قال فى التاج : لبدى ولبادى بالضم والتشديد ويخفف عن كراع : طائر على شكل السمانى إذا أسف على الأرض لبد فلم يكد يطير حتى يطار وقيل لبادى طائر يقال له لبادى البدى لا تطيرى ويكرر حتى يلنزق بالأرض فيؤخذ ، وفى التكملة قال الليث وتقول الصبيان الأعراب إذا رأوا السمانى : سمانى لبادى البدى ، لا ترى فلا تزال تقول ذلك وهى لابدة بالأرض أي لاصقة وهو يطيف بها حتى يأخذها (لبد) .

(2) «الأسباط . . . وجنس» : وفى البخاري : الأسباط قبائل بنى إسرائيل قال ابن حجر : هو قول أبى عبيدة وزاد : واحدها إلخ (فتح الباري 8/ 226) .

(3) «إذ يعدون» : وفى البخاري : يعدون فى السبت يتعدون ثم يتجاوزون : قال ابن حجر : تقدم فى أحاديث الأنبياء وهو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 226) .

وقد أورده البخاري فى أحاديث الأنبياء ، انظر فتح الباري 6/ 325 .

(4) «شرعا أي شوارع» : كذا فى البخاري وفتح الباري 8/ 226 . وقد أورده البخاري فى أحاديث الأنبياء أيضا وقال ابن حجر (6/ 325) هو قول أبى عبيدة أيضا .

(440/262)

«بِعَذابٍ بَئِيسٍ» (164) أي شديد . «1» قال ذو الإصبع [العدوانىّ

أإن رأيت بنى أبيك مجمّحين إليك شوسا] «2»

حنقا علىّ وما ترى لى فيهم أثرا بئيسا

«قِرَدَةً خاسِئِينَ» (165) أي قاصين مبعدين ، يقال : خسأته عنى وخسأ هو عنى .

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ» (166) مجازه : وتأذن ربك ، مجازه : أمر وهو من الإذن وأحلّ وحرّم ونهى .

«وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً» (167) أي فرّقناهم فرقا .

---

(1) «بئيس شديد» : كذا فى البخاري ، وقال ابن حجر قال أبو عبيدة فى قوله بعذاب إلخ (فتح الباري 8/ 226) .

(2) ذو الإصبع العدواني أحد الحكماء الشعراء ترجم له فى المؤتلف 118 .

والخزانة 2/ 408 - والبيت الأول فى اللسان (شوس) والثاني فى الطبري 9/ 64 .

والشوس : رفع الرأس تكبرا ، التجميح : التحديق فى النظر بملء الحدقة (اللسان ، شوس) .

«فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ» (168) ساكن ثانى الحروف ، وإن شئت حركت الحرف الثاني وهما فى المعنى واحد كما قالوا : أثر وأثر ، وقوم يجعلونه إذا سكّنوا ثانى حروفه إذا كانوا مشركين ، وإذا حركوه جعلوه خلفا صالحا .

«عَرَضَ هذَا الْأَدْنى » (168) أي طمع هذا القريب الذي يعرض لهم فى الدنيا .

«وَدَرَسُوا ما فِيهِ» (168) مجازه : من دراسة الكتب ويقال : قد درست إمامى أي حفظته وقرأته ، يقال : ادرس على فلان أي اقرأ عليه .

«وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» (170) أي رفعنا فوقهم ، وقال العجّاج :

ينتق أقتاد الشّليل نتقا «1»

أي يرفعه عن ظهره ، وقال [رؤبة] :

ونتقوا أحلامنا الأثاقلا «2» «3»

---

(1) «نتقنا . . . الأثاقلا» : قال الطبري (9/ 69) : واختلف أهل العلم بكلام العرب فى معنى قوله «نتقنا» وقال بعض البصريين معنى نتقنا رفعنا واستشهد بقول العجاج . . . الأثاقلا ، وقد حكى عن قائل هذه المقالة قول آخر وهو أن أصل النتق والنتوق كل شىء قلعته من موضعه فرميت به ، يقال : منه : نتقت نتقا ، قال : ولهذا قيل للمرأة الكبيرة ناتق لأنها ترمى بأولادها رميا واستشهد ببيت النابغة :

لم يحرموا حسن الغداء وأمهم دحقت عليك بناتق مذكار

(و هذا البيت فى ديوانه من الستة 14)

(2) ديوانه 40 . [. . . . .]

(3) ديوانه 122 - واللسان (نتق) .

(442/262)

«أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ» (176) لزم وتقاعس وأبطأ يقال فلان مخلد أي بطيء الشّيب ، والمخلد الذي تبقى ثنيتاه حتى تخرج رباعيتاه ، «1» وهو من ذاك أيضا .

«وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ» (178) أي خلقنا .

«وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» (179) يجورون ولا يستقيمون ومنه سمّى اللحد لأنه فى ناحية القبر .

(«سَنَسْتَدْرِجُهُمْ») (182) : والاستدراج «2» أن تأتيه من حيث لا يعلم ومن حيث تلطف له حتى تغترّه .

---

(1) «أي قعد . . . رباعيتاه» الذي ورد فى الفروق : روى الطبري (9/ 81) هذا الكلام عن بعض البصريين ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ . 226

(2) «و الاستدراج . . . إلخ» : روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة فى فتح

الباري 8/ 226 . وقال الطبري (9/ 86) : وأصل الاستدراج، اغترار المستدرج بلطف من حيث يرى المستدرج أن المستدرج إليه محسن . . . إلخ.

(443/262)

«وَأُمْلِي لَهُمْ» (182) أي أؤخرهم ، ومنه قوله : مضى ملىّ من الدهر عليه «1» وملاوة وملاوة وملاوة فيها ثلاث لغات : ضمة وكسرة وفتحة . ويقال : ملّاك اللّه ولدك ، وتمليت حبيبا ، اى مدّ اللّه لك فى عمره . «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا» (19/ 46) منها قال العجّاج :

ملاوة ملّيتها كأنى صاحب صنج نشوة مغنّى] «2»

«إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (182) أي شديد .

«ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ» (183) أي ما به جنون . «3»

«أَيَّانَ مُرْساها» (186) أي متى ، وقال :

أيان تقضى حاجتى أيّانا أما ترى لنجحها إبّانا النهاية واللسان (ملى) .

(2) : ديوانه 66 - واللسان والتاج (ملى) .

(3) «ما بصاحبهم . . . جنون» : نقله ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 226 .

(4) : فى الطبري 9/ 87 والقرطبي 7/ 335 واللسان (أبن) .

(5) «أي متى خروجها» : نقله ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 227 .

(444/262)

«لاَ يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ» (186) مجازها : لا يظهرها ولا يخرجها إلّا هو [يقال جلّى لى الخبر وقال بعضهم : جله لى الخبر ، والجلاء جلاء الرأس إذا ذهب الشعر] قال طرفة :

سأحلب عيسا صحن سمّ فأبتغى به جيرتى إن لم يجلوا لى الخبر «1»

أي يوضحون لى الأمر وهذا يهجوهم ، يقال : عاسها يعيسها ، والعيس ماء الفحل .

«ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» (186) مجازها : خفيت ، وإذا خفى عليك شىء ثقل .

«كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها» (186) أي حفىّ بها ، ومنه قولهم : تحفيت به فى المسألة . «2»

---

(1) : لم أجد البيت فى ديوانه من الستة وصدره فى اللسان وهو فى التاج كاملا (عيس) .

(2) «أي حفى . . . المسألة» : هذا الكلام فى الطبري 9/ 89 .

«حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً» (188) مفتوح الأول إذا كان فى البطن وإذا كان على العنق فهو مكسور الأول وكذلك اختلفوا فى حمل النخلة فجعله بعضهم من الجوف ففتحه وجعله بعضهم على العنق فكسره.

«فَمَرَّتْ بِهِ» (188) مجازه: استمرّ بها الحمل فأتمّته.

«خُذِ الْعَفْوَ» (198) أي الفضل وما لا يجهده، يقال خذ من أخيك ما عفا لك.

«بِالْعُرْفِ» (198) مجازه: المعروف.

«وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ «1» مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ» (199) مجازه: وإما يستخفنك منه خفة وغضب وعجلة، ومنه قولهم: نزغ الشّيطان بينهم أي أفسد وحمل بعضهم على بعض.

«طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ» (200) مجازه: لمم قال [الأعشى]:

وتصبح عن غب السّرى وكأنّما ألمّ بها من طائف الجنّ أولق «2»

---

(1) «وإما ينزغنك»: روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 227.

(2): ديوانه 147 - والجمهرة 1/ 76 واللسان (طيف).

وهو من طفت به أطيف طيفا ، قال :

أنّى ألّم بك الخيال يطيف ومطافه لك ذكرة وشعوف «1»

«يَمُدُّونَهُمْ «2» فِي الغَيِّ» (201) مجازه : يزّينون لهم الغى والكفر ، ويقال :

مدّ له فى غيّه زيّنه له وحسّنه وتابعه عليه .

«هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» (202) هذا القرآن ما يتلى عليكم ، فلذلك ذكّره ، والعرب تفعل ذلك ، قال :

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة وللسبع أركى من ثلاث وأكثر «3»

ذكّر ثلاثة ذهب به إلى بطن ثم أنثه لأنه ذهب به إلى قبيلة ومجاز بصائر أي حجج وبيان وبرهان .

---

(1) : البيت لكعب بن زهير ، فى ديوانه 113 - وهو فى الطبري 9/ 99 واللسان (طيف) وشواهد الكشاف 190 .

(2) «يمدونهم» : روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 227 . [. . . . .]

(3) : البيت للقتال الكلابي حسبما أنشده سيبويه 2/ 181 وهو فى الشنتمرى 2/ 175 وفى فتح الباري 6/ 266 .

(447/262)

واحدتها بصيرة وقال الجعفىّ :

حملوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتى يعدو بها عتد وأمي «1»

البصيرة «2» الترس ، والبصيرة الحلقة من حلق الدرع ، فيجوز أن يقال للدرع كلها بصيرة والبصيرة من الدم الذي بمنزلة الورق الرّشاش منه والجديّة «3» أوسع من البصيرة والبصيرة مثل فرسن البعير فهو بصيرة والجديّة أعظم من ذلك ، والإسبأة والأسابىّ فى طول «4» ، قال :

والعاديات أسابىّ الدّماء بها كأنّ أعناقها أنصاب ترجيب «5»

«تَضَرُّعاً وَخِيفَةً» (204) أي خوفا وذهبت الواو بكسرة الخاء .

---

(1) : الجعفي : الاسعر الجعفي اسمه مرثد بن حمران الجعفي يكنى أبا حمران وهو جاهلى وقد مرت ترجمته فى رقم 251 . - والبيت هو السابع من القصيدة الأولى من مختارات الأصمعى 3 - 4 وهو فى الجمهرة 1/ 259 وفى الصحاح واللسان والتاج (بصر)

ونسبه الجوهري أيضا إلى الجعفي وقال : وكان أبو عبيدة يقول : البصيرة فى هذا البيت الترس والدرع وكان يرويه «حملوا بصائرهم» .

(2) والبصيرة : قال فى اللسان : وقيل هو ما لزق بالأرض من الجسد وقيل هو قدر فرسن البعير (بصر) .

(3) والجدية : مالزق بالجسد (اللسان – بصر) .

(4) الإسبة والإسباءة الطريقة من الدم والأسابى الطرق من الدم وأسابى الدماء (اللسان) .

(5) لسلامة بن جندل فى ديوانه 7 – وشرح المفضليات 223 والاقتضاب 323 واللسان والتاج (سبى) والعيني 2/ 237 . – الترجيب : التعظيم (الاقتضاب) .

(448/262)

«وَالْآصالِ» (204) «1» واحدتها أصل وواحد الأصل أصيل ومجازه : ما بين العصر إلى المغرب ، وقال [أبو ذؤيب] :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقصد فى أفيائه بالأصائل «2»

[يقال : آخر النهار] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 1 صـ 210. 239 ﴾

---

(1) والآصال : وفى البخاري : واحده أصيل وهو بين العصر إلى المغرب كقولك بكرة وأصيلا وقال ابن حجر هو قول أبى عبيدة أيضا بلفظه ، قال ابن التين ضبط فى نسخة أصل بضمتين وفى بعضها أصيل بوزن عظيم وليس ببين إلا ان يريد أن الآصال جمع أصيل فيصح (فتح الباري 8/ 227) .

(2) : ديوان الهذليين 1/ 141 - والأغانى 6/ 57 والخزانة 2/ 489 ، 564 ،

(449/262)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الأعراف»

[سورة الأعراف (7) : آية 9]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

قوله : وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ [7] .

فهذه استعارة . لأن الخسران فى التعارف إنما هو النقص فى أثمان المبيعات . وذلك يخص الأموال لا النفوس . إلا أنه سبحانه لما جاء بذكر الموازين وثقلها وخفتها جاء بذكر

الخسران بعدها ، ليكون الكلام متفقا ، وقصص الحال متطابقا .

فكأنه سبحانه جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة ، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم ، كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم .

وذكر خسرانهم لها لأنهم عرّضوها للخسار ، وأوجبوا لها عذاب النار . فصارت فى حكم العروض المتلفات ، وتجاوزوا حد الخسران فى الأثمان ، إلى حد الخسران فى الأعيان .

[سورة الأعراف (7) : آية 16]

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)

وقوله سبحانه حاكيا عن إبليس : قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [16] وهذه استعارة . والصراط ها هنا كناية عن الدين ، جعله اللّه سبحانه طريقا للنجاة والمفاز «1» ، فى دارى القرار والمجاز ، وإنما قال صراطك . لما كان الدين كالطريق المؤدية إلى رضا اللّه سبحانه ومثوبته «2» . الموصلة إلى نعيمه وجنته . فكان إبليس- لعنه اللّه- إنما يوعد بالقعود على طريق الدين ليضل عنه كل قاصد ، ويردّ عنه كل

---

(1) فى الأصل «و المفار» بالراء المهملة . وهو تحريف من الناسخ .

(2) فى الأصل «و مصوبته» ولا معنى لها هنا لأن المصوبة معناها المصيبة وضعف العقل وليس هذا جزاء رضا اللّه سبحانه وتعالى .

وارد ، بمكره وخدائعه ، وتلبيسه «1» ووساوسه . تشبيها بالقاعد على مدرجة بعض السبل ، ليخوف «2» السالكين منها ، ويعدل بالقاصدين عنها . والمراد : لأقعدن لهم على صراطك المستقيم ، فلما حذف الجارّ انتصب الصراط .

والحذف هاهنا أبلغ فى الفصاحة ، وأعرق فى أصول العربية . ونظيره قول الشاعر «3» :

كما عسل الطريق الثعلب أي عسل فى الطريق .

وكل ما فى القرآن من ذكر سبيل اللّه سبحانه ، فالمراد به الطريق المفضية إلى طاعته عاجلا ، وإلى جنته آجلا .

[سورة الأعراف (7) : آية 22]

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

وقوله سبحانه : فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ [22] . وهذه استعارة . والمراد أنه أوقعهما فى أهوائه

بغروره لهما . وكل واقع فى مثل ذلك فإنه نازل من علو إلى استفال ، ومن كرامة إلى إذلال .

فلذلك قال تعالى : فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير ، عند القول فيما اختلف العلماء فيه من ذنوب الأنبياء عليهم السلام .

[سورة الأعراف (7) : آية 26]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)

وقوله تعالى : يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ، ذلِكَ خَيْرٌ [26]

---

(1) فى الأصل «و تلبيته» ولا معنى لها . والصواب ما أثبتناه ، لأن تلبيس إبليس هو ما يدلس به على الناس ليضلهم عن سبيل اللّه .

(2) فى الأصل «لتخوف» وهو تحريف ، لأن القاعد هو الذي يخوف السالكين .

(3) هو الشاعر ساعدة بن جؤية يصف رمحا . والبيت كاملا هو :

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه ، كما عسل الطريق الثعلب انظر ابن هشام فى «أوضح المسالك» ج 2 ص 16 .

وقد قرئ: ورياشا «1». وهما جميعا استعارة هاهنا «2». لأن المراد بهما اللباس.

وسمى اللباس ريشا ورياشا تشبيها بريش الطائر الذي يستر جملته. ومن كلام العرب: أعطيته رجلا بريشه. أي بكسوته.

وقال المفسرون: معنى لباس التقوى ما كان من الملابس يستر العورة، لأن ستر العورة من أسباب التقوى. وقرئ: ولباس التّقوى. نصبا بأنزلنا عليكم. والرفع فيه على معنى الابتداء. ويكون خير خبرا له. فيكون المعنى: ولباس التقوى المشار إليه خير.

وهذا أسدّ القولين فى هذا المعنى.

[سورة الأعراف (7): آية 29]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)

وقوله تعالى: وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ [29] وهذه استعارة.

لأن الوجه لا يصح عليه القيام. والمعنى: فوجّهوا وجوهكم عند كل مسجد. ويجوز أن يكون معنى ذلك: فتوجّهوا بجملتكم نحو كل مسجد. لأن وجه الشيء عبارة عن جملته.

[سورة الأعراف (7): الآيات 40 الى 41]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى

يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ [40]

وهذه استعارة. والمراد لا يصلون إلى الجنة ولا يتسهل لهم السبيل إليها، ولا يستحقون بأعمالهم للدخول إليها. ومثل ذلك قوله سبحانه: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ «3» أي سهّلنا خروجه من السماء إلى الأرض، ورفعنا الحواجز بينه وبين الخلق.

وقوله تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ [41] وهذه استعارة.

وقد مضى فى (آل عمران) إلا «4» أن الزيادة هاهنا قوله سبحانه: وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ

---

(1) قرأ ذلك الحسن وعاصم من رواية المفضل الضبي، كما قرأه أبو عمرو من رواية الحسين بن على الجعفي

(2) الاستعارة فى قوله تعالى «قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً» لا تتضح إلا إذا كان اللباس هو المطر الذي به ينبت القطن والكتان. أي أنزلنا عليكم مطرا ينتج القطن والنبات الذي تتخذون منه ملابسكم- انظر القرطبي ج 7 ص 184.

(3) سورة القمر. الآية رقم 11. [. . . . .]

(4) فى الأصل «لأن الزيادة» وهو تحريف من الناسخ وصوابه «إلا أن . .» كما أثبتناه.

فكأنه جعل لهم من النار أمهدة مفترشة «1» وأغشية مشتملة ، فيكون استظلالهم بحرها ، كاستقرارهم على جمرها . نعوذ باللّه من ذلك .

[سورة الأعراف (7) : آية 43]

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

وقوله سبحانه : وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ [43] . وهذه استعارة . لأنه ليس هناك شيء يتأتى «2» نزعه على الحقيقة . والمعنى : أزلنا ما فى صدورهم من الغل بإنسائهم إياه ، وبإحداث «3» أبدال له تشغل أماكنه من قلوبهم ، وتشفع مواقعه من صدورهم . وقال بعض المفسرين : معنى ذلك : أهل الجنة لا يحسد بعضهم بعضا على علو المنزلة فيها ، والبلوغ إلى مشارف رتبها . والحسد : الغل .

وقوله تعالى : وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [43] وهذه استعارة خفية . وقد تكون استعارة خفية ، واستعارة جلية . وذلك أن حقيقة الميراث فى

الشرعهو ما انتقل إلى الإنسان من ملك الغير بعد موته على جهة الاستحقاق .

فأما صفة اللّه تعالى بأنه الوارث لخلقه كقوله : وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ «4» وكقوله : وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «5» فهو مجاز . والمراد : أنه الباقي بعد فناء خلقه ، وتقوّض سمائه وأرضه .

وقد استعمل ذلك أيضا فى نزول قوم ديار قوم بعدهم ، وأخذ قوم أموال قوم بعد إجلائهم وحربهم «6» . فقال سبحانه فى هذه السورة : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها [137] . وقال تعالى فى

---

(1) فى الأصل «مفوننه» وهو تحريف .

(2) فى الأصل «يثانى» وهو تحريف .

(3) فى الأصل «و بأحداب» وهو تحريف .

(4) سورة القصص . الآية رقم 58 .

(5) سورة آل عمران . الآية رقم 180 وسورة الحديد . الآية رقم 10 .

(6) فى الأصل «و حرمبم» وهو تحريف صوابه ما أثبتناه ، مما يجزم به السياق .

موضع آخر : وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها «1» وليس يصح فى إيراث الجنة مثل هذه المعاني التي ذكرناها ، لأن الجنة لا يسكنها قوم بعد قوم قد فارقوها وانتقلوا عنها . فقوله سبحانه : أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها على الأصل الذي قدّمناه استعارة . ويكون المعنى الذي يسوغ هذه الاستعارة أن هؤلاء المؤمنين لما عملوا فى الدار الدنيا أعمالا استحقوا عليها الجزاء والثواب ، ولم يصحّ أن يوفر عليهم ذلك إلا فى الجنة ، وهى من الدار الآخرة ، فكأنهم استحقوا دخولها . فحسن من هذا الوجه أن يوصفوا بأنهم أورثوها ، وإن لم يكن سكناهم لها بعد سكنى قوم آخرين انتقلوا عنها . وسوّغ ذلك أيضا اختلاف حال الدارين ، وانتقالهم من الأولى إلى الآخرة .

فكأنّ ما عملوه فى الدار الأولى كان سببا لما وصلوا إليه فى الدار الآخرة ، كما يستحقّ الميراث بالسبب .

[سورة الأعراف (7) : آية 45]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45)

وقوله تعالى : الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً [45] وهذه استعارة ، فإن «2» سبيل اللّه سبحانه : دينه . ومعنى ويبغونها عوجا أي يبتغون عنها المتحاول ، ويطلبون منها الفسح والمخارج ، ويوهمون بالشبهات أنها معوجة غير قويمة ، ومضطربة غير مستقيمة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 53 الى 54]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54)

وقوله تعالى : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ [53] وقد مضى نظير ذلك فى أول السورة .

وقوله سبحانه : يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ [54] «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 142. 146 ﴾

---

(1) سورة الأحزاب . الآية رقم 27 .

(2) فى الأصل «بأن» وهو تحريف .

(3) هنا قطعة ناقصة من الأصل تبلغ قدر ست ورقات من الآية رقم 53 من الأعراف إلى الآية رقم 64 من سورة التوبة .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الأعراف

بدأت سورة الأعراف بحديث مجمل عن قضيتين: الأولى تتصل بالقرآن الكريم . والثانية فى المنكرين له والمكذبين جملة بالوحى الإلهى . فى القضية الأولى نزل قوله تعالى "كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . . " والحرج المنهى منه يجيء من سوء استقبال المشركين لمن يريد هدايتهم ، وتزهيدهم فى مواريثهم . والإنذار إعلام مع تخويف ، والمطلوب من المستمعين عامة أن يتبعوا الكتاب الناصح لهم ، ويهجروا ما عداه من تقاليد لا خير فيها ، مهما كان مصدرها . فإن الأولياء المتبعين من دون الله لن يجيئوا بخير ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وقد تحدثت السورة بعدئذ عن الكتاب فى جملة مواضع منها قوله تعالى " ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله . . . ؟ " . يعنى هل ينتظرون إلا أن يتحقق وعده ووعيده ، فيظفر المؤمنون بالنصر والثواب ، ويكتوى الكافرون بالهزيمة والعقاب ؟ . ومنها قوله تعالى "إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين " . وهذا على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ومعناه أن

الله يتولى نصره وحفظه حتى يبلغ ما نزل على قلبه ، ويجعل الحياة تستضيء به وتسير بتوجيهه . ومنها قوله تعالى فى ضرورة تدبر هذا الكتاب والانتفاع بما حوى من علوم "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون" . فالكتاب ذكرى للمؤمنين ونماء لعقولهم ورحمة

تهبط عليهم . . .

(455/262)

أما القضية الثانية التى افتتحت بها السورة فهى تدرك من قوله تعالى " وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين" . وهلاك القرى التى تمردت على المرسلين سنة وعاها التاريخ . وقد فصلت سورة الأعراف ما وقع لعاد وثمود ومدين ، وقوم نوح وقوم لوط . . ويظهر أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء الأولين لعرب الجزيرة شمالا وجنوبا ، فلما كفر أولئك العرب وآذوا رسلهم دمر الله عليهم وأباد خضراءهم . ثم آتى موسى الكتاب ليهدى به مصر ، وبنى إسرائيل ، وشرح مواقف الفراعنة واليهود شرحا واسعا . فلما زاغوا عن الصراط ورفضوا هدايات الله أوقع بهم بطشه . ثم عاد الوحى الخاتم مرة أخرى إلى وسط الجزيرة ،

واستطاع محمد بفضل الله أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن يجعل من العرب الذين اهتدوا به أمة وسطا ورثت الوحى إلى قيام الساعة ولا زال وحيها مصونا وكتابها قائما . وسيبقى البشر ما بقيت الحياة الدنيا مكلفين بسماع هذا الكتاب والاقتباس منه لأنه وحده الذى يقيهم السيئات . والمهم أن يقدر العرب رسالتهم ، وأن يعرفوا نفاسة الميراث الذى اختصهم الله به عندما قال: "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . . " . وأن يوقنوا بأنهم مساءلون عن موقفهم منه " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين " . وبين الله سبحانه فى صدر السورة أن الحساب الجامع سوف يبت فى مصير كل إنسان ، " والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون " . لكن هذا البيان الموجز أعقبه بعد قليل تفصيل كاشف عن مصاير الطوائف المختلفة التى اختصمت فى ربها على صعيد الأرض .

(456/262)

فهناك أولا المؤمنون ، ثم أصحاب الأعراف ثم الكافرون . وقد جرى حوار بين هؤلاء وأولئك نرى أن نتوقف قليلا عنده . إن أهل الجنة يحيون فى عالم من السماحة والحب

والسلام ، مشغولون بشيء واحد هو تسبيح الله وتحميده ، وهم يشعرون بما أسدى الله إليهم من نعماء ويقولون "الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله" . إنهم - بإزاء ما رأوا من فضل - يجردون أنفسهم من كل استحقاق ، ويشعرون كأن العطاء الأعلى هو الذى سبق بهم وأنا لهم تلك المكانة . وهنا يذكرهم الله بسعيهم القديم وجهدهم المقبول " ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " وعندما ما يطمئنون إلى أحوالهم يتذكرون خصوم الأمس من الجبابرة والملاحدة فيحبون أن يعرفوا ما لاقوا " ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين " . إن هؤلاء الظلمة كانوا ينكرون البعث والجزاء ، وكانوا يبطشون بالمستضعفين من المؤمنين ، وكانوا يشوهون معالم الحق ويغلقون طرقه ، فها هم أولاء يجدون مصيرهم العدل . . واختصت هذه السورة بذكر أصحاب الأعراف ، ومنهم أخذت اسمها . والشائع بين المفسرين أن هؤلاء قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فانتظروا حتى يبت الله فى أمرهم ! وأرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأمم إلى الخير ! ! فإن الأعراف هى القمم الرفيعة ، ومنها سُمِّى عرف الديك عرفا . . . وهم فى الآخرة يرقبون الجماهير والرؤساء فى ساحة الحساب ، ويلقون بالتحية أهل الجنة ، وبالشماتة أهل

النار . وحديث القرآن الكريم عنهم يرجح هذا الفهم فهم يتكلمون بثقة ويوبخون المذنبين على ما اقترفوا ويستعيذون بالله من مصيرهم . .

(457/262)

ومن المستبعد أن يكون ذلك موقف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم لا يدرون أين يذهب بهم ؟ . وهناك نداء أخير من أهل النار وهم يرسلون صراخ النجدة "ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . . " . وهيهات فلن يجيرهم من الله أحد ! ! لقد كفروا بالله ، وجحدوا لقاءه ولم يخطر ببالهم هذا اليوم ولا استعدوا له بشيء فمن أين تأتيهم النجدة ؟ . وهنا نذكر أن معانى القرآن متداخلة متضافرة تلتقى كلها فى سياق واحد يعمل عمله فى النفس ، وليست هدايات القرآن فصولا مقسمة على نحو متميز . وهكذا العالم تراه مصدرا لأشتات العلوم وهو كيان واحد يستقى منه علماء الأحياء وعلماء طبقات الأرض وعلماء الفلك وعلماء القوى المحركة . . الخ . من لطائف التعبير أن يذكر بنو آدم فى أول سورة الأعراف والمقصود أبوهم ، وأن يذكر آدم نفسه فى آخر السورة ويقصد بنوه ! فى أول السورة يقول تعالى " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . " . وفى آخر السورة يقول الله جل شأنه فى خطايا البشر

وشركهم واعوجاج سيرهم "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها . . . " . ثم يقول: "فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون" . وظاهر أن الذين اقترفوا جريمة الإشراك هم أبناء آدم الذين اضطربت عقولهم فزاغوا . . ! ! والنظم القرآنى أولا وأخيرا يعنى البشرية جمعاء ، ويذكر رسالة الإنسان التى كلف بها ولم يحسن أداءها . . .

والإنسان مع الشيطان ليس مغلوبا على أمره ، وإنما هو مخدوع كبير أو مستغفل غرير ! إن الشيطان يملك جهاز إذاعة طويلة الأمواج أو قصيرتها ، والإنسان يستطيع أن يسمع وألا يسمع .

(458/262)

فمن ضبط جهاز استقباله على محطة إرسال معينة سمع ما يريد ، وإلا فهو بمنجاة . ولا يملك الشيطان إلا قدرة البث ولا يقدر أبدا على تضليل إنسان بقوته ! ! والغريب أن الإنسان نسى ما وقع لأبيه عندما طرد من الجنة ، ولا يبالى أن تتكرر المأساة لا سيما والشيطان قد أقسم على إذلال أبناء آدم جميعا . "قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم

شاكرين . . " . أما كان ينبغى أن نحذر هذا الحقد المبين ؟ ؟ . والأغرب أن تجئ خدعة آدم من حيلة مكشوفة لا تنطلى على ذكى يقظ ! لقد قال إبليس له: إنك منعت من الشجرة حتى لا تكون ملكا ! ! وكان آدم قادرا على أن يقول له: إن الملائكة سجدت لى فكيف أهبط عن مكانتى ؟ إن ما أنا فيه أفضل ! ! وأطمع إبليس آدم فى الخلود إذا أكل من الشجرة ! ! ومن قال: إن آدم وبنيه ليسوا من الخالدين ؟ حتى لو ماتوا ، فالموت نقلة إلى حياة أقوى وأكبر ! ! إن الشيطان أفاك خداع ، واللوم لا يوجه إليه ، وإنما يوجه إلى من انخدع به . . . ومن وقع فى مصيدته بهذا الشرك المكشوف . . . ! ! وفقد آدم ما كان فيه من النعيم ، وهبط هو وزوجته إلى الأرض ليأكلوا بكد اليمين وعرق الجبين ! ! وتعرضت ذراريهم للتجربة الأولى والخدعة القديمة ، ترى هل يعتبرون ؟ . "قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" . إلى وقت محدود وعمر معدود ثم ترجعون إلى الخالق الكبير ليسألكم عن حالكم فى هذه الفترة أكنتم عبيدا له أم عبيدا للشيطان ؟ ؟ . " قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون" . وبعد هذا السرد لقصة آدم اتجه الحديث إلى أولاده على مر العصور فنودوا أربع مرات ليسمعوا نصائح ربهم وينجوا من كيد عدوهم ! ونلحظ فى هذه النصائح أنها حداء إلى الإنسانية الرفيعة أو إلى دين الفطرة !

والمحزن أن عالمنا المعاصر مفتون بإنسانية هابطة أو علمانية تشده إلى التراب . وتربطه بنزعاته وقلما ترفعه إلى السماء ، من حيث جاء . فلنتدبر هذه النداءات الأربعة: أولها يتصل بالملابس ! لقد انفرد الإنسان دون سائر الحيوان بارتداء ثيابه ، وحسنا فعل فهى تستر عورته وتزين هيئته . . وللناس فى ملابسهم تجاوزات: فقد يختالون فيها ويستكبرون . وقد يزنون أنفسهم بقيمة ما يرتدون . وقد تقصر النساء ثيابها حتى لتكاد تكشف سؤاتها ! وقد تضيقها وترققها حتى لتكاد تصف وتشف ! وهذا كله لا يسوغ فإن شرف الإنسان ليس فى ثوبه ، وقيمته ليست فيما يرتديه . هناك ثوب آخر يكسو باطنه ، ويبرز حقيقته هو ما سماه القرآن بلباس التقوى ، وما عناه الشاعر بقوله: إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل . ! وقال شاعر آخر: لأن أزجى عند العرى بالخلق واكتفى من يسير الزاد بالعلق خير وأكرم لى من أن أرى مننا معقودة للئام الناس فى عنقى يعنى أفضل لبس خلقات بالية وأكل لقيمات تافهة على أن أمد يدى إلى أحد لألبس الغالى "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون" . ونحن فى تفسيرنا نربط بين هذا التذكر ، وبين قول الله أول السورة " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون" . وقوله بعد ذلك " وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا

سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون" . ما أكثر أسباب التذكر ولكن الإنسان ينسى ! ويتكرر النداء "يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . . . "لا ينبغى أن يقع للأبناء ما وقع للأب من قبل !

(460/262)

لقد نجح الشيطان فى إخراج آدم من الجنة فهل ينجح فى حرمان بنيه منها ؟ وتعريتهم كما عراه ! إنه عدو حاقد ، ويستطيع أن يراكم وأنتم لا ترونه ، فهو عليكم أقدر ! لكنه لا يقدر على غواية مؤمن لأن الإيمان حرز حريز ، وشباكه لا يقع فيها إلا فاقد الإيمان . . ومن الأعذار المرفوضة تقليد الآباء الجهلة واختلاق أسباب كاذبة للسلوك المعوج . كان الذين يطوفون بالكعبة عرايا يقولون لا نطوف فى ملابس عصينا الله فيها ! ! وأغلب المتدينين المنحرفين يضمون تحت خيمة الغيبيات أمورا ما أنزل الله بها من سلطان ، تخالف العقل والنقل ، ثم يزعمون أن الله أمرهم بها . والله أعلى وأجل من أن يأمر بفاحشة مضادة للذوق والفكر والفطرة "أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل أمر ربي بالقسط" . إن العدالة طريق مأنوس للبشر كلهم فما الحرج فى سلوكه ؟ . ولماذا لا نسلم كياننا كله لمن

خلقنا ، وإليه نعود ؟ "وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون" . فكن مع أهدى الفريقين وأولاهما بالنجاة والكرامة .

يعتمد التدين المزور على الرهبانية والتقشف فى ربط الناس بربهم ولذلك يهتم برداءة الهيئة ورثاثة الملبس وخشونة الطعام ومخاصمة الطيبات . وتعاليم الإسلام تسير عكس هذا الاتجاه ، وتحقق العبودية لله داخل النفس الإنسانية قبل كل شئ . فتهتم بسلامة الصدر وكبح الأثرة وإكتان التواضع والمرحمة . ولأن يقف الإنسان مصليا فى لباس حسن خير من أن يقف مصليا فى لباس زرى . ومن هنا جاءت الآية " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" . وفى الحديث "كل ما شئت والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة" والواقع أن الرذيلة تكمن فى الإسراف الذى يحمل على التوسع الممجوج فى الطعام والكسوة ، وعلى التماس الوجاهة بهذا السلوك . .

(461/262)

على أن الدين ليس سباقا فى كمال الأجسام ، ولا اكتنازا لهذا الحطام . والمرء فى سعيه للآخرة يقل اكتراثه بكثير من اللذائذ ، ولكنه لن يتعبد بلبس الخرق أو أكل الخشاش ! ! "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق " ؟ . وإضافة الزينة إلى الله تعنى أنه مصدرها وشارعها وقابل عباده فيها . ويزداد المعنى وضوحا فى قوله " قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " . أى ينفردون بها فى الآخرة ، وقد يشركهم غيرهم فيها أثناء هذه الحياة . . ! "قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن " . حرم الخفى من الجرائم والمكشوف كالحقد والغضب "والإثم والبغي بغير الحق" . سائر الذنوب وخاصة الاستطالة على الآخرين واستباحتهم . وقد لاحظ نقدة الفكر الدينى أن بعض الناس يقصر ثيابه دلالة تقوى ، وفى قلبه كبر فرعون ! ونبهت السنة إلى أن الله يكره العائل المزهو أى الفقير المتكبر ، والكبر قد يكون فى صدر لابس الخيش ، وقد يتنزه عنه لابس الكتان . . ! ! المهم سلامة الفطرة واستجماع شمائلها . . والتعلق بالله الواحد ، والبراءة من سائر الشركاء هو الأساس الأول للفطرة . والإنسان عندما يخلو بنفسه لا يتجه إلى إلهين أو ثلاثة ! إنما يتجه إلى إله واحد ، يجأر إليه فى الضراء ، ويلهج بشكره فى السراء . والواقع أن الشرك نضح بيئات ضالة فقدت رشدها وآذت غيرها . وقد قام الإسلام على الفطرة عقيدة وأخلاقا ، والقرآن هنا يقول " وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " . وفى السورة نفسها بيان لاحق بأن مواثيق هذه

الفطرة مأخوذة على الإنسان منذ نشأته الأولى "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" ! !

(462/262)

والسياق الكريم يشير إلى أن الإنسان لا يعذر فى شروده عن التوحيد ، مهما كانت ضراوة الوسط الذى عاش فيه . فإن نداء الفطرة داخل نفسه ينبغى أن يقاوم كل عوج ، ويستبقى معرفة الله منزهة عن كل شائبة . والفطرة تعنى قابلية النفس لتلقى عقيدة التوحيد وحدها . وإذا كانت ترفض الشرك فهى من باب أولى تأبى الإلحاد ! ! والحق أن طبيعتنا العقلية والنفسية تأبى وجودا بلا موجد أو خلقا بلا خالق ، تأبى الزعم بأن الحياة انطلقت من صفر ! ! إننا نشعر بفقرنا إلى آخر ! ! منه بدأنا ، ولكن من هذا الآخر الذى منحنا الحياة ؟ ؟ إننا بوحى الفطرة لا ننساق إلا إلى الله رب العالمين الذى يدين الكل بالعبودية له ! من يكون هذا الآخر عند المشركين ؟ لا وجود له إلا فى أوهام المخدوعين . ! ! ولذلك جاء – بعد وصاة بنى آدم بالتوحيد الخالص – هذا التقريع للذين ظلموا أنفسهم "فمن أظلم

ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب . . . " أى ما قدر لهم على ظهر الأرض من أرزاق وأعمار . "حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين " .

وللذهول عن الله أسباب ، أولها فيما أرى ما ينشأ عن اتصال الإلف واطراد العادة من مشاعر كاذبة . فالغنى من طول الشبع ينسى ألم الجوع ، والسليم من استمرار الصحة ينسى ألم المرض ، وكلاهما يظن الحياة لا تعدو ما أحس . بل إن الإنسان الفذ ينسيه حاضره الغالب ما عراه فى ماضيه القريب أو البعيد من شئون أخرى على نحو ما قال الشاعر .

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ما تمولا ! ونحن مع اختلاف الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر نظن أن ذلك الواقع ضربة لازب ، وأنه لا مصرف له كأنما يقع من تلقاء نفسه ! ! فاحتاج الأمر إلى الوحى الإلهى يذكر الناس أن الله فاعل ذلك كله . .

(463/262)

"إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين" . ومع تقلب الزمان يتعرض الناس للحلو والمر والهزيمة والنصر . وهم

فقراء إلى ربهم يباعد عنهم ما يكرهون ويقارب منهم ما يشتهون . ولذلك قال " ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين" . وما أكثر ما يتقلب الناس فى هذه الدنيا بين الوعد والوعيد والخوف والرجاء ، وما أكثر ما يشعرون بأن ما يطلبون لا يسوقه إلا الله ، وما يكرهون لا يدفعه إلا الله ! ! ولذلك قال "وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون" . مع بدء سورة الأعراف بدأت عدة معان مجملة أخذت تتسع كأنها رءوس مثلثات تضمنت قواعدها تفاصيل شتى ، على أن هذه المعانى لا تسير فى تيارات منفصلة ، بل تراها وهى تتلاقى كأنها ضفائر متناسقة هدفها جميعا تكوين الإيمان والعبرة والاستقامة والوعى . . والمهم هو الاستقبال المعقول ، فإن المطر المنهمر على الحجارة لا ينبت منها شيئا . "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون" . أطنبت سورة الأعراف فى ذكر الأمم التى تمردت على الوحى فصرعها بغيها . ويلاحظ أن أغلب هذه الأمم فى المناطق العربية ! فقوم نوح بالعراق ، وعاد باليمن وما جاورها ، وثمود بأعلى الحجاز ، ومدين بين سيناء والأردن ، وقوم لوط شرق فلسطين ، وهؤلاء جميعا قاوموا المرسلين وجحدوا ما جاءوا به . . وسبقت قصة آدم قصص هؤلاء كلهم ، وبرز فيها معنى ينبغى

أن نذكره . فإن الشيطان غرر بآدم حتى طرده من الجنة ، ولا يزال يقطع الطريق على أبنائه حتى لا يعودوا إليها . ! .

(464/262)

ولن نشرح بقية القصص فهى مكررة فى القرآن الكريم ، ولن يعرف تاريخ أمة من قصة واحدة بل من جملة الوحى المفرق على سور كثيرة . وإنما يعنينا هنا أن نتساءل: كم من القرون سلخت هذه الأمم جميعا من تاريخ الحياة ؟ . إننى بعد التأمل أجد أن الحياة من أيام الطوفان إلى الآن تبلغ ثمانين قرنا . . فكم سلخت الأمم بين آدم ونوح ؟ ما أحسبها تزيد عن هذا الأمد ! ! ولم يحدثنا القرآن بتفصيل عن هذه الأجيال بين آدم ونوح ! ومن هنا فأنا أشك فى البحوث الجيولوجية التى تخبرنا أن جمجمة آدمية وجدت ودل فحصها على أن لها عشرات الملايين من السنين ! ! جمجمة من هذه ؟ لعل هناك خلائق أخرى غير الجان سكنت هذه الأرض ! أيا ما كان الأمر فهذا بحث لا يهمنا . وقد تدبرت تعليق القرآن الكريم على هلاك الأمم المكذبة فوجدت أن الأمر لم يكن إنذارا ، فعصيانا ، فعقابا . كلا لقد طال الأمر ، وامتدت أجيال ، وتوارثت الأقوام النذر كما توارثت التكذيب فحاق بها ما حاق ! ترى ذلك فى قوله تعالى " وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء

والضراء لعلهم يضرعون * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون " . ومعنى عفوا زادوا ، والسيئة والحسنة هنا الأحوال حسنها وسيئها ، وليس المراد الطاعات والمعاصى . . والأمم التى أبيدت هى التى حفرت قبرها بيدها ، فما وقعت بها شائبة ظلم . "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون" . وكان على الخلوف أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد ، ولكنهم لم يعتبروا ، فهلكوا

(465/262)

"أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون" . وهكذا طوى القدر صفحة العرب العاربة ومن لف لفها . ثم نقل الرسالات إلى الشعبة الثانية من الجنس السامى . . . إلى بنى إسرائيل قال تعالى: "ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " . وكان أولاد يعقوب – الملقب بإسرائيل – يعيشون عيشة البدو فى صحراء الشام ، ثم استدعاهم يوسف فسكنوا مصر ، وهناك تناسلوا وزادت أعدادهم . ورفضوا الذوبان

فى الشعب المصرى ، وانفردوا بعقائدهم وتقاليدهم ، ونشب بينهم وبين المصريين خصام شديد ، واستذلهم الفراعنة وأنزلوا بهم مآسى موجعة . حتى شاء الله فأنقذهم على يدى موسى بعد مراحل متطاولة قال لهم موسى خلالها : "عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون" . والكلمة ناضحة بما كان يخافه موسى من قومه . وقد كان صادق الحدس فى سوء ظنه بهم . فإنهم بعد نجاتهم من المظالم التى قصمت ظهورهم ، بفضل الله وحده ، كان أول ما صنعوه النزوع إلى عبادة الأصنام " وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون " . والغريب أن حنينهم إلى الوثنية سيطر على أفكارهم وأعصابهم فما كاد موسى يذهب لمناجاة ربه حتى اتخذوا من حليهم عجلا جسدا ، ليعبدوه من دون الله . وفى هذا الصنيع يقول الله تعالى "إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين" . والحق أن جمهرة كبرى من اليهود كان إيمانها مغشوشا ، وكانت شهواتهم تغلب عليهم . وكانوا يحتالون على الله فى التنفيس عنها ، فإذا حرم عليهم الصيد يوم السبت ، ورأوا السمك كثيرا فى الماء صنعوا وراءه حاجزا يمنعه من الهرب ، ثم جاءوا يوم الأحد وأخذوه .

"واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون" . ويظهر أن العقلاء رفضوا هذا المسلك ، ثم انقسموا أينصحون قومهم لعلهم يرعوون أم يتركونهم يأسا منهم لله " فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون " . وقد حكى لنا التاريخ أن الدولة اليهودية سقطت فى يد أعدائها " وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . . . " . وفى الحديث الشريف أن نبينا صلى الله عليه وسلم سئل: " أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم ، إذا كثر الخبث" . وشتت الله شمل بنى إسرائيل ، ومكن أهل الأرض منهم ، وتأذن بأن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . . وظاهر من سيرة اليهود أن فسادهم عن علم ، فالأولون من الأمم الهالكة كان الجهل يطغيهم ويطيش بمسالكهم أما اليهود فقد عبثوا بالوحى وتمردوا على حملته "كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون " . وحديثهم عن الله لا أدب فيه ولا توقير ، وقد سبق أن قالوا لموسى " فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون" . وترادفت وقاحاتهم على هذا النحو فحقت عليهم كلمة ربك ، ولذلك بعد أن سرد الوحى قصتهم قال " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى

الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . . . " . وهذا السياق يصدق فى كل فرد وكل شعب تأتيه هداية الله فيزهد فيها ويرخص قيمتها . . وقد قامت اليوم دولة لليهود على حساب العرب ، والسبب واضح ، أن اليهود قاتلوا شرا منهم !

(467/262)

قاتلوا العرب والعرب معطلون لحدود الله ، مستبيحون لحرماته ، تاركون للواء محمد لا يمشى تحته أحد ، وسائرون تحت ألوية الغدر والعصيان . . فلا عجب أن ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم مصداق قوله بعد ذلك فى اليهود وكل مارق "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل . . . " . بعد الحديث عن الأمم التى هلكت لسوء سلوكها نقرأ آيتين جديرتين بالتأمل : الأولى قوله تعالى " من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون" . وقوله بعد ذلك "من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون " . ونؤكد أنه ليس فى هاتين الآيتين ولا فى غيرهما مما يشبهما أية أثارة من جبر ! إن حرية الإرادة البشرية فوق الجدل وإلا سقط التكليف كله واعتبر الوجود مهزلة ! ! ونلفت النظر

إلى أن هناك ضلالا ، وأن هناك إضلالا ، ولا يضل الله سبحانه إلا من ضل . !هناك زيغ وهناك إزاغة ولا يزيغ الله سبحانه إلا من زاغ . كما قال فى سورة أخرى " قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . . . . " . ويغلب تذييل الآيات بما يثبت الاختيار البشرى ونجد هنا قوله تعالى " . . . ويذرهم في طغيانهم يعمهون" بعد قوله "من يضلل الله فلا هادي له" إشارة إلى أن هلاكهم وليد طغيانهم . وفى الآية التى سبقتها " . . ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون" إشارة إلى أن مسلكهم هو سبب خسارهم . . وعلى سنة القرآن فى التعبير البلاغى يجئ نظم الآيات فنحن نقول: تأخذ الأفران وقودها من الأخشاب الجافة والأعواد اليابسة . ونقول: يأخذ السقوط أهله من الكسالى والقاعدين . وهذه كلها عبارات مجازية فلا الأفران تأخذ ولا السقوط يأخذ . . وعلى هذا النحو جاء التعبير القرآنى "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها . . . . " والخ .

(468/262)

والمراد أن القلوب المحجوبة والعيون المغلقة تقود أصحابها إلى جهنم وعلى كل امرئ يريد النجاة أن يفتح قلبه وعينه وذلك فى مقدوره بيقين . ! ولذلك قال جل شأنه " أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة . . . " ! " أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله

من شيء . . . " . وفاقد الفكر والنظر لا يلومن إلا نفسه . وقد نصح الله المسلمين كيما يتجنبوا مصاير الأولين أن يحسنوا علاقاتهم بالله ، وأن يدعوه سبحانه بأسمائه الحسنى ويبتعدوا عن الشرك القبيح والظن السيئ " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . . . . " . . ولا شك أن الكمال والمجد والغنى لله وحده ، ونحن عند الحيرة ندعو الهادى ، وعند الظلمة ندعو النور وعند الحاجة ندعو الغنى ، أما المقطوعون عن الله فهم يدعون غيره ، أو يجهلون قدره فهم ملحدون فى أسمائه محجوبون عن ذاته ! . والخاصة الأولى للأمة الإسلامية صدق توحيدها وعبوديتها " وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون" 0 إن لله مكرا بالمجرمين قد تذهلهم عنه لذات عاجلة أو انتصارات خادعة أو تقلب فى البلاد مقرون بالسطوة والكبر . . وهذه الأحوال من إملاء الله للمبطلين ، ثم يجزهم حبل المنية إلى مصارعهم من حيث لا يعلمون قال تعالى: " وأملي لهم إن كيدي متين" . والمطلوب من أهل الحق إذا لحقتهم البأساء والضراء ألا يضطرب يقينهم ويفتر حماسهم ، بل يجب أن يصابروا الليالى الكالحة حتى يدركوا النصر الإلهى وهو آت حتما وإن طالت السنون . ولما كان الإيمان باليوم الآخر امتدادا للإيمان بالله وأسمائه فإن النفس البشرية تتطلع إلى معرفة ميقاته ، وتتطلع إلى الساعة المؤذنة به . وقد يسعى البعض إلى رسول الله - بصلة خاصة - يحاول عن طريقه اكتشاف ذلك المجهول الغائب !

وقد نزل الوحى رافضا هذه المحاولات وكاشفا أن علم الساعة لله وحده: "يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو . . . " . والواقع أن استشرافنا لهذه المعرفة قليل الغناء ، إنه قد يعنى المعاصرين لقيام الساعة ، أما نحن فساعتنا تبدأ من حين الوفاة . عندئذ ننتقل إلى العالم الآخر ، ونعرف أن الحياة الدنيا كانت وهما كبيرا . . ! ومن خصائص الإسلام التوكيد على نبوة محمد وعبوديته إنه ليس إلها ولا شبه إله ولا جزء إله ، إنه عبد لله الواحد لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا . . وكذلك سائر الملائكة والبشر ، ومن زعم غير هذا فهو كذوب . . وعادت سورة الأعراف – كما بدأت . تتحدث عن آدم ، لقد ذكر هنا والمراد ذريته كما ذكرت الذرية أول السورة والمراد آدم نفسه . والسياق هنا عاتب غاضب ! إن الله غمر أبناء آدم بأنعمه ، فبدل أن يشكروا له أشركوا به ! "أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون" . ثم اتجه الخطاب إلى الدعاة وإمامهم منددا بجمود هؤلاء المشركين وعدم استفادتهم من الوحى النازل لهدايتهم "وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون" . وهذا جمود مستغرب ، وعلى سيد الدعاة أن

يصمد أمامه مستمسكا بالكتاب الذى نزل عليه قائلا بلسانه وجنانه "إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين" . وهذا الكتاب أجدى من الخوارق الحسية التى ينتظرونها ويطالبون بها " . . . قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" . ومهما طال التعنت وزادت المكابرة فعلى الرسول الكريم أن يصبر "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" . . .

(470/262)

إن هذه السورة قصّت فى أوائلها كيف نجح الشيطان فى إخراج آدم من الجنة ، وبينت أن محاولاته لتضليل بنيه لن تنتهى ! لكن الشيطان لا يملك أكثر من الوسوسة . وما دام الإنسان مؤمنا فستنهزم الوساوس وترتد مدحورة "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون" . لكن الذين حرموا هذا القلب الصاحى يتبعون الشيطان فيقودهم إلى مهالكهم ! وخير ما يعصم المرء تشبثه بذكر الله ، فإن هذا الذكر يعصمه من الزلل ويستبقيه فى مستوى رفيع . وخير الذكر هو الكتاب الكريم "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون" . وليس هذا الذكر حركة لسان مع غفلة قلب وشرود ذهن . إن الذكر وعى مكتمل وهو من وظائف العقل قبل كل شئ . ويجب أن

يكون موصولا لا متقطعا ، ومسيطرا على السر والجهر ، وباعثا على الرغبة والرهبة: "واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين" . وبهذا الذكر ينتظم المؤمن العابد مع الكون كله ، وهو يسبح بحمد ربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 109.125 ﴾

(471/262)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/263)

الجزء الثالث والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 10 ﴾ من نفس السورة

(4/263)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/263)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الأعراف

أقول: مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمني الله سبحانه: أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : (هوَ الذي خلَقَكُم من طين) وقال في بيان القرون: (كَم أَهلكنا من قبلهم من قرن) وأشير فيها إلى ذكر المرسلين ، وتعداد كثير منهم ، وكانت الأمور الثلاثة وتفصيلها فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط ، بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت فيها وذلك تفصيل إجمال قوله: (خلَقَكُم مِن طين) ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية إهلاكهم ، تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً ، لم يقع نظيره في سورة غيرها ، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم ، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الآيات الثلاثة وأيضاً ، فذلك تفصيل قوله: (وهوَ الذي جعلَكُم خلائفَ الأَرض) ولهذا صدر هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة وقال في قصة عاد : (جعلَكُم خُلفاء مِن بعدِ قوم نوح) وفي قصة ثمود : (جعلَكُم خُلفاء من بعد عاد) وأيضاً فقد قال في الأنعام: (كتَبَ ربَكُم على نفسهِ الرحمة) وهو موجز ، وبسطه هنا بقوله: (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) إلى آخره فبين من كتبها لهم وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو: أَنه قد تقدم هناك: (وأَن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه) وقوله:

(وهذا كتابٌ أَنزلناهُ مباركٌ فاتبعوه) وقوله: (وهذا كتابٌ أَنزلناهُ مباركٌ فاتبعوه) فافتتح هذه السورة أيضاً باتباع الكتاب في قوله: (كتاب أُنزِلَ إليك) إلى (اتبعوا ما أُنزِلَ إليكُم مِن رَبكُم) وأيضاً لما تقدم في الأنعام: (ثم يُنبئهم بِما كانوا يَفعَلون) (ثُمَ إلى ربكُم مرجِعكم فيُنَبئكُم بما كنتم فيه تختَلفون) قال في مفتتح هذه السورة: (فلنسأَلن الذينَ أُرسِلَ إليهم ولنسألن المُرسَلين) (فلنقصن عليهم بعلم) وذلك شرح التنبئة المذكورة وأيضاً فلما قال في الأنعام: (من جاء بالحسنة فله عشر أَمثالِها) وذلك لا يظهر إلا في الميزان، افتتح هذه السورة بذكر

(6/263)

الوزن، فقال: (والوزن يومئذٍ الحق) ثم ذكر من ثقلت موازينه، وهو من زادت سيئاته على حسناته، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 101.102﴾

(7/263)

قوله تعالى ﴿ المص (1) ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يتذكرون ﴾ بياء الغيبة ثم تاء التفعل : ابن عامر . والباقون كما مر في آخر الأنعام .

الوقوف : ﴿ المص ﴾ ه كوفي ﴿ للمؤمنين ﴾ ه ﴿ أولياء ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ ه ﴿ قائلون ﴾ ه ﴿ ظالمين ﴾ ه ﴿ المرسلين ﴾ ه لا للعطف ﴿ غائبين ﴾ ه ﴿ الحق ﴾ ج لابتداء الشرط مع فاء التعقيب ﴿ المفلحون ﴾ ه ﴿ يظلمون ﴾ ه ﴿ معايش ﴾ ط ﴿ تشكرون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 197 ﴾

(8/263)

اللغَة : ﴿ حَرَجٌ ﴾ ضيق يقال : حَرِج المكانُ أو الصدرُ إذا ضاق ﴿ بَيَاتاً ﴾ قال الراغب : البَيَاتُ والتبيتُ : قصدُ العدو ليلاً ﴿ قَآئِلُونَ ﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة ﴿ مَذْءُوماً ﴾ مذموماً يقال ذأمه أي ذمه وحقَّره ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ مطروداً يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿ سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ السوأة : العورة سميت بذلك

لأن الإنسان يسوءه ظهورها ﴿ طَفِقَا ﴾ شرعاً وأخذا يقال : طفِق يطفق إذا ابتدأ وأخذ ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ يرقعان ويلزقان ﴿ رِيشاً ﴾ لباساً تتجملون به وأصل الريش : المالُ والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينةٌ له وجمال ﴿ قَبِيلُهُ ﴾ جنوده وأصل القبيل : الجماعةُ سواءً كانوا من أصلٍ أو أصول شتى ﴿ فَاحِشَةً ﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطوافُ حول البيت عراةً وكل أمرٍ قبيح يسمى فاحشة ، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 436.435 ﴾

(9/263)

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس : ﴿ المص ﴾ أنا الله أفصل ، وعنه أيضاً : أنا الله أعلم وأفصل ، قال الواحديّ : وعلى هذا التفسير فهذه الحروف واقعة في موضع جمل ، والجمل إذا كانت ابتداء وخبراً فقط لا موضع لها من الإعراب ، فقوله : أنا الله أعلم ، لا موضع لها من الأعراب ، فقوله : "أنا" مبتدأ وخبره قوله : "الله" وقوله : "أعلم" خبر بعد خبر ، وإذا كان

المعنى ﴿ المص ﴾ أنا الله أعلم كان إعرابها كإعراب الشيء الذي هو تأويل لها ، وقال السُّدّيّ : ﴿ المص ﴾ على هجاء قولنا في أسماء الله تعالى أنه المصور .

قال القاضي : ليس هذا اللفظ على قولنا : أنا الله أفصل ، أولى من حمله على قوله : أنا الله أصلح ، أنا الله أمتحن ، أنا الله الملك ، لأنه إن كانت العبرة بحرف الصاد فهو موجود في قولنا أنا الله أصلح ، وإن كانت العبرة بحرف الميم ، فكما أنه موجود في العلم فهو أيضاً موجود في الملك والامتحان ، فكان حمل قولنا : ﴿ المص ﴾ على ذلك المعنى بعينه محض التحكم ، وأيضاً فإن جاء تفسير الألفاظ بناء على ما فيها من الحروف ، من غير أن تكون تلك اللفظة موضوعة في اللغة لذلك المعنى ، انفتحت طريقة الباطنية في تفسير سائر ألفاظ القرآن بما يشاكل هذا الطريق .

وأما قول بعضهم : إنه من أسماء الله تعالى فأبعد ، لأنه ليس جعله إسماً لله تعالى ، أولى من جعله اسماً لبعض رسله من الملائكة ، أو الأنبياء ، لأن الاسم إنما يصير اسماً للمسمى بواسطة الوضع والاصطلاح ، وذلك مفقود ههنا ، بل الحق أن قوله : ﴿ المص ﴾ اسم لقب لهذه السورة ، وأسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسميات ، بل هي قائمة مقام الإشارات ، ولله تعالى أن يُسَمِّيَ هذه السورة بقوله : ﴿ المص ﴾ كما أن الواحد منا إذا حَدَثَ له ولد فإنه يسميه بمحمد .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ المص ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبره ، وقوله :

﴿ أَنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ صفة لذلك الخبر .

أي السورة المسماة بقولنا : ﴿ المص كتاب أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .

فإن قيل : الدليل الذي دل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو أن الله تعالى خصه بإنزال هذا القرآن عليه ، فما لم نعرف هذا المعنى لا يمكننا أن نعرف نبوته ، وما لم نعرف نبوته ، لا يمكننا أن نحتج بقوله ، فلو أثبتنا كون هذه السورة نازلة عليه من عند الله بقوله : لزم الدور .

قلنا : نحن بمحض العقل نعلم أن هذه السورة كتاب أنزل إليه من عند الله .

والدليل عليه أنه عليه الصلاة والسلام ما تلمذ لأستاذ ، ولا تعلم من معلم ، ولا طالع كتاباً ولم يخالط العلماء والشعراء وأهل الأخبار ، وانقضى من عمره أربعون سنة ، ولم يتفق له شيء من هذه الأحوال ، ثم بعد انقضاء الأربعين ظهر عليه هذا الكتاب العزيز المشتمل على علوم الأولين والآخرين ، وصريح العقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الوحي من عند الله تعالى .

فثبت بهذا الدليل العقلي أن ﴿ المص ﴾ كتاب أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه وإلهه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 13.14 ﴾

(10/263)

وقال السمرقندى :

﴿ المص ﴾ قال ابن عباس يعني : أنا الله أعلم وأفصل معناه : أعلم بأمور الخلق وأفصل الأحكام والأمور والمقادير ، وليس لي شريك في تدبير الخلق : ويقال : معناه أنا الله المصور .

ويقال : أنا الله الناصر .

ويقال : أنا الله الصادق .

وروى معمر بن قتادة قال : إنه اسم من أسماء القرآن ويقال هو قسم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ المص ﴾ روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : ﴿ المص ﴾ قسم أقسم الله عزّ وجلّ ، وقال عطاء بن أبي رباح : هو من ثناء الله سبحانه على نفسه ، أبو صالح عن ابن عباس : اسم من أسماء الله تعالى ، أبو الضحى عن ابن عباس : أنا الله أفصل وقال وهي هجاء موضوع ، قتادة : اسم من أسماء القرآن . وقيل : اسم السورة ، مجاهد : فواتح افتتح الله بها كتابه ، الشعبي : فواتح السور من أسماء الله تعالى إذا وصلها كانت اسماً .

وقال أبو روق : أنا الله الصادق ، سعيد بن جبير : أنا الله أصدق ، محمد بن كعب : إلاّ أن

افتتاح اسمه أحد أول آخر ، واللام افتتاح اسمه لطيف ، والميم افتتاح اسمه مجيد وملك ، والصاد افتتاح اسمه صمد وصادق أحد وصانع المصنوعات .

ورأيت في بعض التفاسير معنى ﴿ المص ﴾ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الإنشراح : 1] وقيل : هي حروف هجاء مقطّعة ، وقيل : هي حساب الجمل ، وقيل : هي حروف اسم الله الأعظم ، وقيل : هي حروف تحوي معاني كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ المص ﴾

فيه لأهل التأويل تسعة أقاويل :

أحدها : معناه : أنا الله أُفَصِّل ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أنه [حرف] هجاء [من] المصور ، قاله السدي .

والثالث : أنه اسم السورة من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

والرابع : أنه اسم السورة مفتاح لها ، قاله الحسن .

والخامس : أنه اختصار من كلام يفهمه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

والسادس : هي حروف هجاء مقطعة نبه بها على إعجاز القرآن .

والسابع : هي من حساب الجمل المعدود استأثر الله بعلمه .

والثامن : هي حروف تحوي معاني كثيرة دل الله تعالى خلقه بها على مراده من كل ذلك .

والتاسع : هي حروف اسم الله الأعظم .

ويحتمل عندي قولاً عاشراً : أن يكون المراد به : المصير إلى كتاب أنزل إليك من ربك ، فحذف باقي الكلمة ترخيماً وعبر عنه بحروف الهجاء لأنها تذهب بالسامع كل مذهب ، وللعرب في الاقتصار على الحروف مذهب كما قال الشاعر :

قلت لها قفي فقالت

قاف . . . . . .

أي وقفت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى ﴿ المص ﴾ قد ذكرنا في أول سورة "البقرة" كلاماً مجملاً في الحروف المقطعة أوائلَ السور ، فهو يعم هذه أيضاً .

فأما ما يختص بهذه الآية ففيه سبعة أقوال .

أحدها : أن معناه : أنا الله أعلم وأفصل ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس .

والثاني : أنه قَسَمٌ : أقسم الله به ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنها اسم من أسماء الله تعالى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أن الألف مفتاح اسمه "الله" واللام مفتاح اسمه "لطيف" ، والميم مفتاح اسمه "مجيد" ، والصاد مفتاح اسمه "صادق" ، قاله أبو العالية .

والخامس : أن (المص) : اسم للسورة ، قاله الحسن .

والسادس : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

والسابع : أنها بعض كلمة .

ثم في تلك الكلمة قولان .

أحدهما : المصوّر ، قاله السدي .

والثاني : المصير إلى كتاب أُنزل إليك ، ذكره الماوردي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

بِسمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل ﴿ المص ﴾ قال ابن عباس : معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله أعلم وأفصل وعنه أن المص قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله تعالى ، وقال قتادة : المص اسم من أسماء القرآن ، وقال الحسن : هو اسم للسورة ، وقال السدي : هو بعض اسمه تعالى المصور ، وقال أبو العالية : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح صادق وصبور .

وقيل : هي حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهي سره في كتابه العزيز ، وقيل : هي حروف اسمه الأعظم وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ المص ﴾

هذه السورة مكية كلها قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد والضحاك وغيرهم ، وقال مقاتل إلا قوله ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ إلى قوله : ﴿ من ظهورهم ذرياتهم ﴾ فإن ذلك مدني وروي هذا أيضاً عن ابن عباس .

وقيل إلى قوله : ﴿ وإذ نتقنا ﴾ واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ واستطرد منه لما بعده وإلى قوله آخر السورة ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعيّة ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ وتقدّم الكلام على هذه الحروف المقطّعة أوائل السورة في أول البقرة وذكر ما حدسه الناس فيها ولم يقم دليل على شيء من تفسيرهم يعين ما قالوا وزادوا هنا لأجل الصاد أنّ معناه أنا الله أعلم وأفصّل رواه أبو الضحى عن ابن عباس أو المصور قاله السدي : أو الله الملك النصير قاله بعضهم أو أنا الله المصير إليّ ، حكاه الماوردي أو المصير كتاب فحذف الياء والراء ترخيماً وعبّر عن المصير بالمص قاله التبريزي .

وقيل عنه : أنا الله الصادق .

وقيل معناه ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ قاله الكرماني قال : واكتفى ببعض الكلام وهذه الأقوال في الحروف المقطعة لولا أن المفسرين شحنوا بها كتبهم خلفاً عن سلف لضربنا عن

ذكرها صفحاً فإن ذكرها يدل على ما لا ينبغي ذكره من تأويلات الباطنية وأصحاب الألغاز والرموز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ المص ﴾ إما مسرودٌ على نمط التعديدِ بأحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورةِ البقرة فلا محلَّ له من الإعراب ، وإما اسمٌ للسورة فمحلُّه الرفعُ على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ ، والتقديرُ هذا ألمص أي مسمّىً به ، وتذكيرُ اسمِ الإشارة مع تأنيث المسمَّى لما أن الإشارةَ إليه من حيث إنه مسمّىً بالاسم المذكور لا من حيث أنه مسمّىً بالسورة وإنما صحت الإشارةُ إليه مع عدم سبقِ ذكرِه لما أنه باعتبار كونِه بصدد الذكرِ صار في حكم الحاضِر المشاهَد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(14/263)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرَّحيم .

﴿ المص ﴾ سبق الكلام في مثله وبيان ما فيه فلا حاجة إلى الإعادة خلا أنه قيل هنا : إن معنى ذلك المصور وروي ذلك عن السدي ، وأخرج البيهقي وغيره عن ابن عباس أن

المعنى أنا الله أعلم وأفصل ، واختاره الزجاج وروي عن ابن جبير ، وفي رواية أخرى عن الحبر أنه وكذا نظائره قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه سبحانه .

وعن الضحاك أن معناه أنا الله الصادق ، وعن محمد بن كعب القرظي أن الألف واللام من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد ؛ وقيل : المراد به ألم نشرح لك صدرك .

وذكر بعضهم أنه ما من سورة افتتحت بألم إلا وهي مشتملة على ثلاثة أمور بدء الخلق والنهاية التي هي المعاد والوسط الذي هو المعاش وإليها الإشارة بالاشتمال على المخارج الثلاثة الحلق واللسان والشفتين ، وزيد في هذه السورة على ذلك الصاد لما فيها مع ما ذكر من شرح القصص وهو كما ترى والله تعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(15/263)

وقال ابن عاشور :

﴿ المص (1) ﴾

هذه الحروف الأربعة المقطّعة التي افتتحت بها هاته السّورة ، يُنطَق بأسمائها (أَلِفْ لاَمْ مِيمْ صَادْ) كما يَنْطِق بالحروف ملقِّن المتعلّمين للهجاء في المكتب ، لأنّ المقصود بها أسماء

الحروف لا مسميّاتها وأشكالها ، كما أنّك إذا أخبرت عن أحد بخبر تذكر اسم المخبر عنه دون أن تَعْرِض صورته أو ذاته ، فتقولُ مثلاً : لقيت زيداً ، ولا تقول : لقيت هذه الصورة ، ولا لقيتُ هذه الذات .

فالنّطق بأسماء الحروف هو مقتضَى وقوعها في أوائل السّور التي افتتحت بها ، لقصد التّعريض بتعجيز الذين أنكروا نزول القرآن من عند الله تعالى ، أي تعجيزِ بلغائهم عن معارضته بمثله كما تقدّم في سورة البقرة .

وإنّما رسموها في المصاحف بصور الحروف دون أسمائها ، أي بمسمّيات الحروف التي يُنطق بأسمائها ولم يرسموها بما تُقْرأ به أسماؤُها ، مراعاة لحالة التّهجي (فيما أحسب) ، أنّهم لو رسموها بالحروف التي يُنطق بها عند ذكر أسمائها خَشُوا أن يلتبس مجموعُ حروف الأسماءِ بكلمات مثل (يَاسين) ، لو رسمت بأسماء حروفها أن تلتبس بنداء من اسمه سين .

فعدلوا إلى رسم الحروف علماً بأنّ القارىء في المصحف إذا وجد صورة الحرف نَطق باسم تلك الصّورة .

على معتادهم في التّهجي طرداً للرسم على وتيرة واحدة .

على أنّ رسم المصحف سنّة سنّها كُتاب المصاحف فأُقِرّت .

وإنّما العمدة في النّطق بالقرآن على الرّواية والتّلقي ، وما جُعلت كتابة المصحف إلاّ تذكرة وعوناً للمتلقّي .

وتقدّم هذا في أوّل سورة البقرة وفيما هنا زيادة عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(16/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ المص (1) ﴾

قبل أن نبدأ خواطرنا في سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة في كتاب الله ، الله يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الانعام : 165]

ونقرأ الكلمة الأخيرة في سورة الأنعام ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ ، وتصبح القراءة : " غفور رحيم " " بسم الله " .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنّه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن

كان في بعض الآيات إقلاب ، وفي بعضها إدغام ، وهذا بغُنَّة ، وهذا بغير غُنَّة ، ويقول الحق :

بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ

﴿ المص ﴾

وفي هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : " ألف " ثم نسكت لنقرأ " لام " ثم نسكت لنقرأ " ميم " ثم نسكت لنقرأ " صاد " . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل " الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وَمِيمٌ حرف " .

(17/263)

والرسول صلى الله عليه وسلم أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : " أعوذ بالله من

الشيطان الرجيم " ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1]

ونقرأ هنا في أول سورة الأعراف : ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1]

وهي حروف مقطعة . نطقت بالإِسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قُرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول "كاف " " تاء " " باء " ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسماها فهو "كَ" .

إذن فكل حرف له مسمى ، أي الصوت الذي يقوله الإِنسان ، وله اسم ، والأمي ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذي يفهم أنه حين يقول : "كتب " أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الأمي فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أمي لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

لابد أنه قد عُلِّمَهَا وتلقاها ، والحق هو القائل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 18]

فالذي سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد " ألم " في أول البقرة ، وفي أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1]

(18/263)

ما الفرق بين الألف واللام والميم في أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها في أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشَّرْح ؟ أنت تقرأها في أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها في أول سورة الفيل مسميات . والذي جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ في أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ في أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترئ ليقرأ القرآن دون سماع من معلم . لا ، لابد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ ﴿ المص ﴾ في أول سورة الأعراف ، وهي حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً في فواتح السور ، وقد يوجد منها في أول السورة حرف واحد مثل : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ [ق : 1]

وكذلك قوله الحق : ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1]

وكذلك قوله الحق : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : 1]

ومرة يأتي من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق : ﴿ حم ﴾ [الأحقاف : 1]

ومرة تأتي ثلاثة حروف مقطعة مثل : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1]

ومرة يأتي الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق : ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1]

ومرة يأتي بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق : ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1]

(19/263)

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفي ، أو مستعلٍ ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعل ، أو مفخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذي قاله يعلم ما ينتهي إليه خلقه في هذه الحروف المقطعة وله في ذلك حكمة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًا ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم ؟ ! فهو إذن قد تلقنها ، وإننا نعلم أن القرآن جاء متحديًا العرب ؛ ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يُتَحَدَّى إلا من كان

بارعاً في هذه الصنعة .

وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة والشعر ، والسجع وبالأمثال ؛ فهم أمة كلام ، وفصاحة ، وبلاغة ، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم ، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فالمادة الخام – وهي اللغة – واحدة ، ومن حروف اللغة نفسها التي برع العرب فيها . وبالكلمات نفسها التي يستعملونها ، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله ؛ لأنه جاء من رب قادر ، وكلام العرب وبلاغتهم هي من صنعة الإنسان المخلوق العاجز .

(20/263)

وهكذا نعلم سر الحروف المقطعة التي جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمي لم يتعلم شيئاً ، لكنه عرف أسماء الحروف ، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها – كما قلت – إلا المتعلم ، وقد علمه الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويمكن للعقل البشري أن يحوم حول هذه الآيات ، وفي هذه الحروف معان كثيرة ، ونجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا في مجال جلال وجمال القرآن الكثير ، فتجد متصوفاً يقول إن " المص " جاءت هنا لحكمة ، فأنت تنطق أو كلمة

ألف وهي الهمزة من الحلق ، واللام تنطقها من اللسان ، والميم تنطقها من الشفة ، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة .

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم في أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم . إشارة إلى أولية خلق الإنسان ، ووسطاً وهو المعاش ، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة في الدار الأخرة ، وجاءت " الصاد " لأن في هذه السورة قصص أغلب الأنبياء .

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها ، أنردها عليه ؟ لا نردها بطبيعة الحال ، ولكن نقول له : أذلك هو كل علم الله فيها ؟ . لا ؛ لأن علينا أن نتعرف على المعاني التي فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا ، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله ؛ لأن أفهامنا قاصرة .

ونحن البشر نضع كلمات لا معنى لها لكي تدل على أشياء تخدم الحياة ، فمثلا نجد في الجيوش من يضع " كلمة سر " لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف الكلمة . من يعرف " كلمة السر " يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها . ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه : ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ المص (1) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ المص ﴾ قال : أنا الله أفصل .

وأخرج ابن جرير عن سعيد في قوله ﴿ آلمص ﴾ قال : أنا الله أفصل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن ابن عباس في قوله ﴿ المص ﴾ وطه ، وطسم ، ويس ، وص ، وحم ، وحم عسق ، وق ، ون ، وأشباه هذا فإنه قسم أقسم الله به ، وهي من أسماء الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ المص ﴾ قال : هو المصوّر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ المص ﴾ قال : الالف من الله ، والميم من الرحمن ، والصاد من الصمد .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ المص ﴾ قال : أنا الله الصادق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم .

الباء مكسورة في نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء وهي صغيرة القامة في الخط ، ونقطها الذي تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القلة ، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف ، فهي تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه .

والسين " من بسم الله " حرف ساكن فالإشارة من الباء ألا تذر – في الخضوع والتذلل ، والجهد والتوسل – ميسورا ، ثم تسكن منتظرا للتقدير ، فإن من القبول بفضله .

فذلك المأمول ، وإن رد بحكم فله الحكم ، فتوافق تقديره بالموافقة في الرضا به ، إذ الميم تشير إلى مننه إن شاء ، ثن إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إن لم يمن ، .

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق سبحانه بذلك من دون الخلق ، فهم على بيان مما يخفى على الخلق فالغيب لهم كشف ، والخبر لهم

عيان ، وما للناس علم فلهم وجود .

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البسط بما) .

. (فيه من وجوه المراعاة وصنوف لطائف المناجاة ، فهم في جنات النعيم ، وعيش بسط وتكريم ، ودوام روح مقيم .

والميم تشير إلى محبة الحق – سبحانه – لهم بدءا فإنها هي اللموجبة لمحابهم ، إذ عنها صدر كل حب فبمحبته لهم أحبوه ، وبقصده إليهم طلبوه ، وبإرادته لهم أرادوه .

ويقال نزهة أسرار الموحدين في الإناحة بعقوة بسم الله ، فمن حل تلك الساحة رتع في حدائق القدس ، واستروح إلى نسيمك الأنس .

(23/263)

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم ، فللأغنياء موقفهم عرفات ، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات .

ويقال قالة " بسم الله " ربيع الأحباب ، أزهارها لطائف الوصلة ، ونورها زوائد القربة .

﴿ المص (1) ﴾

هذه الحروف من المتشابه في القرآن على طريقة قوم من السَلَف ، والحق – سبحانه –

مستأثر بعلمها دون خلقه . وعلى طريقة قوم فلها معانٍ تُعْرَف ، وفيها إشارات إلى أشياء توصَف : فالإِلف تشير إلى أُلفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة ، فهي – في التحقيق – في ذلك المعنى كالمتحدة ؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكلين ، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون .

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثَه فلم يحتشم من بَذْل روحه .

ويقال الألف تجرُّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء ، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه .

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف ؛ فمرةً أصبحت مفتوحة ، ومرةً مسكونة ، ومرة مرفوعة ، وأمّا الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي .

وأمّا الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين في القصد ، وصدق أحوال العارفين في الوجد ، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب ، إذ العطش نعت كلِّ قاصد ، كما أن الدهشة وصف كل واحد .

ويقال الصاد تبدي محبةً للصدورِ وهو بلاء الأحباب .

ويقال الصاد تطالبك بالصدق في الود ، وأمارة الصدق في الود بلوغ النهاية والكمال ، حتى

لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالمنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 516. 518 ﴾

(24/263)

قوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

لما ذكر سبحانه في آخر التي قبلها أنه أنزل إليهم كتاباً مباركاً ، وأمر باتباعه وعلل إنزاله وذكر ما استتبعه ذلك مما لا بد منه في منهاج البلاغة وميدان البراعة ، وكان من جملته أن أمر المدعوين به ليس إلا إليه ، إن شاء هداهم وإن شاء أضلهم واستمر فيها لا بد منه في تتميم ذلك إلى أن ختم السورة بما انعطف على ما افتتحت به ، فاشتد اعتناقه له حتى صارا كشيء واحد ؛ أخذ يستدل على ما ختم به تلك من سرعة العقاب وعموم البر والثواب وما تقدمه ، فقال مخبراً عن مبتدإ تقديره : هو ﴿ كتاب ﴾ أي عظيم أوضح الطريق المستقيم فلم يدع بها لبساً ولم يذر خيراً إلا أمر به ولا شراً إلا نهى عنه ، فإنزاله من عظيم

رحمته ؛ ثم وصفه بما أكد ما أشار إليه من رحمته بقوله : ﴿ أنزل إليك ﴾ أي وأنت أكرم الناس نفساً وأوسعهم صدراً وأجملهم قلباً وأعرقهم إصالة وأعرفهم باستعطاف المباعد واستجلاب المنافر المباغض ، وهذا شيء قد خصك به فرفعك على جميع الخلق درجات لا تحصى ومراتب لا حد لها فتستصى .

(25/263)

ولما كان المقصود من البعثة أولاً النذارة للرد عما هم عليه من الضلال ، وكانت مواجهة الناس بالإنذار شديدة على النفوس ، وكان الإقدام عليها من الصعوبة بمكان عظيم ؛ قدم قوله مسبباً عن تخصيصه بهذه الرحمة : ﴿ فلا يكن ﴾ وعبر عن القلب بمسكنه الذي هو أوسع منه مبالغة في الأمر فقال : ﴿ في صدرك حرج ﴾ أي شيء من ضيق بهم أو خوف أو نحو ذلك ﴿ منه ﴾ على ما تعلق ب " أنزل " من قوله : ﴿ لتنذر به ﴾ أي نذري لكل من بلغه أو للمخالفين من سرعة العقاب على نحو ما أوقع سبحانه بالقرون الماضية والأمم السابقة - كما أشار إليه آخر الأنعام ، وسيقص من أخبارهم من هذه السورة ﴿ و ﴾ لتنذر به ﴿ ذكرى ﴾ أي عظيمة ﴿ للمؤمنين ﴾ أي بالبشر والمواعظ والغفران والرحمة على ما أشار إليه ختام الأنعام ، وحذف المفعول يدل على عموم الرسالة لكل من أمكن

إنذاره وتذكيره من العقلاء ، ويجوز أن تتعلق لام " لتنذر " بمعنى النهي ، أي انف الحرج لكذا ، فإن من كان منشرح الصدر أقدم على ما يريد أو يحرج ، أي لا يكن الحرج الواقع لأجل أن تنذر ، أي لأجل إنذارك به ، والنهي للنبي صلى الله عليه وسلم ، حُوّل إلى الحرج مبالغة وأدباً ، ويجوز أن يكون التقدير : لتنذر به وتذكر به ، فإنه نذرى للكافرين وذكرى للمؤمنين ، والآية على كل تقدير من الاحتباك : إثباته " لتنذر " أولاً ، دال على حذف " لتذكر " ثانياً ، وإثبات المؤمنين ثانياً دال على حذف المخالفين أولاً ، فإن النفوس على قسمين : نفوس بليدة جاهلة بعيدة عن عالم الغيب غريقة في طلب اللذات الجسمانية والشهوات الحيوانية فبعثة الرسل في حقهم إنذار وتخويف ، ونفوس شريفة مشرقة بالأنوار الإلهية فبعثة الرسل في حقهم تذكير لأن هذه النفوس بمقتضى جواهرها الأصلية وجبلتها الخلقية مستعدة للانجذاب إلى عالم القدس إلا أنه ربما غشيها غواش من عالم الأجساد فيعرض لها نوع ذهول وغفلة ، فإذا سمعت دعوة الأنبياء واتصلت بها أنوار أرواح رسل الله تذكرت

(26/263)

مركزها وأبصرت منشأها ، فاشتاقت إلى ما حصل هناك من الروح والريحان فطارت نحوهم كل مطار فتمحضت لديها تلك الأنوار ؛ وقال أبو حيان : واعتلاق هذه السورة بما

قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 155] واستطرد ممنه لما بعده إلى قوله في آخر السورة ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [الأنعام : 165] وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم ، وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية ، ذكر ما يكون به التكاليف ، وهو الكتاب الإلهي ، وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 155] - انتهى .

(27/263)

وقال شيخه الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال تعالى ابتداء بالاعتبار ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ [الأنعام : 6] ثم قال تعالى ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ [الأنعام : 10] ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [الأنعام : 11] ثم قال تعالى ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ﴾ [الأنعام : 34] وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴾ [الأنعام : 42] ، وقال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم

رسل منكم يقصون عليكم آياتي ﴾ [الانعام : 13] فوقعت الإحالة في هذه الآي على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم وهلاك تلك القرون بتكذيبهم وعتوهم وتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم بجريان ما جرى له بمن تقدمه مت الرسل ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ [الأنعام : 33] فاستدعت الإحالة والتسلية بسط أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية ، والإعلام بصبر الرسل – عليهم السلام – عليهم وتلطفهم في دعائهم ، ولم يقع في السور الأربع قبل سورة الأنعام مثل هذه الإحالة والتسلية وقد تكررت في سورة الأنعام كما تبين بعد انقضاء ما قصد من بيان طريق المتقين أخذاً وتركاً وحال من حاد عن سننهم ممن رامه أو قصده فلم يوفق له ولا أتم له أمله من الفرقتين : المستندة للسمع والمعتمدة للنظر ، فحاد الأولون بطارىء التغيير والتبديل ، وتنكب الآخرون بسوء التناول وقصور الأفهام وعلة حيد الفريقين السابقة الأزلية ؛ فلما انقضى أمر هؤلاء وصرف الخطاب إلى تسليته عليه السلام وتثبيت فؤاده بذكر أحوال الأنبياء مع أممهم وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة ، وقد كان قدّم

(28/263)

لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذكر الأنبياء

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] بسط تعالى حال من وقعت الإحالة عليه ، واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود إلى قوله سبحانه ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ [هود : 120] فتأمل بما افتتحت به السورة المقصودة بها قصص الأمم وبما اختتمت يَلُح لك ما أشرت إليه – والله أعلم بمراده ، وتأمل افتتاح سورة الأعراف بقوله ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [الأعراف : 7] وختم القصص فيها بقوله : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [الأعراف : 176] بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعام ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ [الأعراف : 175] ، ثم قال : ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 176] فتأمل هذا الإيماء بعد ذكر القصص ، وكيف ألحق مَنْ كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم بمن قص ذكره من المكذبين ، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما ممن كفر على علم ، وفي ذلك أعظم موعظة ، قال الله تعالى إثر ذلك ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾ [الأعراف : 178] ، فبدأ الاستجابة بنبيه صلى الله عليه وسلم بذكر ما أنعم عليه وعلى من استجاب له فقال تعالى : ﴿ المص

كتاب أنزل إليك ﴾ [الأعراف : 1-2] فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب الذي جعله هدى للمتقين ، وأشار هنا ما يحمله عليه من التسلية وشرح الصدور بما جرى من العجائب والقصص مع كونه هدى ونوراً ، فقال ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ [الأعراف : 2] أي أنه قد تضمن مما أحلناك عليه ما يرفع الحرج ويسلي النفوس لتنذر به كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل ، ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك سننهم ، وليتذكر المؤمنون ؛ ثم أمر عباده بالاتباع لما أنزله فقال : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الأعراف : 3] فإنة هلاك من نقص عليكم خبره من الأمم إنما كان لعدم الاتباع والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والإنس ،

(30/263)

ثم أتبع ذلك بقصة آدم عليه السلام ليبين لعباده ما جرت سنته فيهم من تسلط الشياطين وكيده وأنه عدو لهم ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف : 27] ووقع في قصة آدم هنا ما لم يقع في قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك كتصريح اللعين بالحسد وتصور خيريته بخلقه من النار وطلبة الإنظار والتسلط على ذرية آدم والإذن له في ذلك ووعيده ووعيد متبعيه ثم أخذ في الوسوسة إلى آدم عليه السلام

وحلفه له ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ [الأعراف : 21] وكل هذا مما أجمل في سورة البقرة ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها ، أعني أنها تفيد مهما تكررت ما لم يكن حصل منها أولاً ؛ ثم انجزت الآي إلى ابتداء قصة نوح عليه السلام واستمرت القصص إلى قصص بني إسرائيل ، فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط في قصة آدم وما جرى من محنة إبليس ، وفصل هنا الكثير وذكر ما لم يذكر في البقرة حتى لم يتكرر بالحقيقة ولا التعرض لقصص طائفة معينة فقط ، ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلتا القصتين مستقل شاف ، وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله ووضح كماله ، فتبارك من هذا كلامه ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة .

ولما أعقب تعالى قصصهم في البقرة بأمره نبيه والمؤمنين بالعفو والصفح فقال تعالى ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ [البقرة : 109] أعقب تعالى أيضاً هنا بقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] وقد خرجنا عن المقصود فلنخرج إليه – انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 3 . 6 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج القائلون بخلق القرآن بقوله : ﴿ كتاب أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ قالوا إنه تعالى وصفه بكونه منزلاً

، والإنزال يقتضي الانتقال من حال إلى حال ، وذلك لا يليق بالقديم ، فدل على أنه مُحْدَث .

(31/263)

وجوابه : أن الموصوف بالإنزال والتنزيل على سبيل المجاز هو هذه الحروف ، ولا نزاعَ في كونها مُحْدَثة مخلوقة ، والله أعلم .

فإن قيل : فهب أن المراد منه الحروف ، إلا أن الحروف أعراض غير باقية ، بدليل أنها متوالية ، وكونها متوالية يشعر بعدم بقائها ، وإذا كان كذلك ، فالعَرَض الذي لا يبقى زمانين ، كيف يعقل وصفه بالنزول ؟

والجواب : أنه تعالى أحدث هذه الرقوم والنقوش في اللوح المحفوظ ، ثم إن الملك يطالع تلك النقوش ، وينزل من السماء إلى الأرض ، ويعلم محمداً تلك الحروف والكلمات ، فكان المراد بكون تلك الحروف نازلة ، هو أن مبلغها نزل من السماء إلى الأرض بها .

فائدة :

الذين أثبتوا لله مكاناً تمسكوا بهذه الآية فقالوا : إنّ كلمة "من" لابتداء الغاية .

وكلمة "إلى" لانتهاء الغاية .

فقوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يقتضي حُصول مَسافة مبدؤها هو الله تعالى وغايتها محمد ، وذلك يدل على أنه – تعالى – مختص بجهة فوق ، لأن النزول هو الانتقال من فوق إلى أسفل .

وجوابه : لما ثبت بالدلائل القاهرة أن المكان والجِهة على الله تعالى محال وجب حمله على التأويل الذي ذكرناه ، وهو أن الملك انتقل به من العلو إلى أسفل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 14 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى ﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾

فصل

قال الفخر :

في تفسير الحرج قولان :

الأول : الحرج الضيق ، والمعنى : لا يضيق صدرك بسبب أن يكذبوك في التبليغ .

والثاني : ﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي شك منه ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 94] وسمي الشك حرجاً ، لأن الشاك ضيق الصدر حرج الصدر ، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسح القلب .

(32/263)

ثم قال تعالى : ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ هذه "اللام" بماذا تتعلق ؟ فيه أقوال : الأول : قال الفراء : إنه متعلق بقوله : ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ على التقديم والتأخير ، والتقدير : كتاب أنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه .

فإن قيل : فما فائدة هذا التقديم والتأخير ؟

قلنا : لأن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر ، فلهذا السبب أمره الله تعالى بإزالة الحرج عن الصدر ، ثم أمره بعد ذلك بالإنذار والتبليغ .

الثاني : قال ابن الأنباري : اللام ههنا بمعنى : كي .

والتقدير : فلا يكن في صدرك شك كي تنذر غيرك .

الثالث : قال صاحب "النظم" : اللام ههنا : بمعنى : أن .

والتقدير : لا يضق صدرك ولا يضعف عن أن تنذر به ، والعرب تضع هذه اللام في موضع "أن" قال تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة : 32] وفي موضع أخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ [الصف : 8] وهما بمعنى واحد .

والرابع : تقدير الكلام : أن هذا الكتاب أنزله الله عليك ، وإذا علمت أنه تنزيل الله تعالى ، فاعلم أن عناية الله معك ، وإذا علمت هذا فلا يكن في صدرك حرج ، لأن من كان الله حافظاً له وناصراً ، لم يخف أحداً ، وإذا زال الخوف والضيق عن القلب ، فاشتغل بالإنذار والتبليغ والتذكير اشتغال الرجال الأبطال ، ولا تبال بأحد من أهل الزيغ والضلال

والإبطال .

ثم قال : ﴿ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : يريد مواعظ للمصدقين .

قال الزجاج : وهو اسم في موضع المصدر .

قال الليث : الذكرى اسم للتذكرة ، وفي محل ذكرى من الإعراب وجوه قال الفراء : يجوز أن يكون في موضع نصب على معنى : لتنذر به ولتذكر ، ويجوز أن يكون رفعاً بالرد على قوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ والتقدير : كتاب حق وذكرى ، ويجوز أيضاً أن يكون التقدير ، وهو ذكرى ، ويجوز أن يكون خفضاً ، لأن معنى لتنذر به ، لأن تنذر به فهو في موضع خفض ، لأن المعنى للإنذار والذكرى .

(33/263)

فإن قيل : لم قيد هذه الذكرى بالمؤمنين ؟

قلنا : هو نظير قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] والبحث العقلي فيه أن النفوس البشرية على قسمين : نفوس بليدة جاهلة ، بعيدة عن عالم الغيب ، غريقة في طلب اللذات الجِسْمانية ، والشهوات الجسدانية ونفوس شريفة مشرقة بالأنوار الإلهية مستعدة بالحوادث الروحانية ، فبعثة الأنبياء والرسل في حق القسم الأول ، إنذار وتخويف ، فإنهم

لما غرقوا في نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، احتاجوا إلى موقظ يوقظهم ، وإلى منبه ينبههم .

وأما في حق القسم الثاني فتذكير وتنبيه ، وذلك لأن هذه النفوس بمقتضى جواهرها الأصلية مستعدة للانجذاب إلى عالم القدس والاتصال بالحضرة الصَّمدية ، إلا أنه ربما غشيها غواش من عالم الجسم ، فيعرض لها نوع ذهول وغفلة ، فإذا سمعت دعوة الأنبياء واتصل بها أنوار أرواح رسل الله تعالى ، تذكرت مركزها وأبصرت منشأها ، واشتاقت إلى ما حصل هنالك من الروح والراحة والريحان ، فثبت أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حق طائفة ، وذكرى في حق طائفة أخرى ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 15.14 ﴾

(34/263)

وقال السمرقندى :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾

يعني : أن هذا الكتاب أُنزل إليك يا محمد ﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي : فلا يقعن في قلبك شك منه من القرآن أنه من الله عز وجل .

فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره .

كقوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] .

ويقال : ﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي فلا يضيقنّ صدرك بتكذيبهم إياك .

كقوله عز وجل : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 30]

والحرج في اللغة هو الضيق .

ثم قال : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ على معنى التقديم يعني : كتاب أنزلناه إليك لتنذر به أي لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : وعظة للمؤمنين الذين يتبعونك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾

قال أبو العالية : ضيق ، وقال مجاهد : تنك ، وقال الضحاك : إثمّ ، وقال مقاتل : فلا يكن في قلبك شك في القرآن . إنّه من الله ، وقيل : معناه لا اطبق قلبك بإنذار من أرسلتك بإنذاره وإبلاغ من أمرتك بإبلاغه إياه ﴿ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي عظة لهم وموعظة ، وموضعه رفع مردود على الكتاب .

وقيل : هو نصب على المصدر تقديره ويذكر ذكرى . ويجوز أن يكون في موضع الخفض على معنى لتنذر في موضع خفض ، والمعنى الإنذار والذكرى ، وأمّا ذكرى فمصدر فيه

ألف التأنيث [بمنزلة] دعوت دعوى ورجعت رجعى إلاّ أنّه اسم في موضع المصدر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن .

﴿ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ وفي الحرج ها هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الضيق ، قاله الحسن ، وهو أصله .

(35/263)

قال الشماخ بن ضرار :

ولو ردت المعروف عندي رددتها . . . لحاجة لا العالي ولا المتحرج

ويكون معناه : فلا يضيق صدرك خوفاً ألا تقوم بحقه .

والثاني : أن الحرج هنا الشك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي . قال الراجز :

آليت لولا حرج يعروني . . . ما جئت أغزوك ولا تغزوني

ومعناه : فلا تشك فيما يلزمك فيه فإنما أنزل إليك لتنذر به .

والثالث : فلا يضيق صدرك بأن يكذبوك ، قاله الفراء .

ثم قال : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فجعله إنذاراً للكافرين وذكرى للمؤمنين ليعود نفعه على الفريقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ الآية ، قال الفراء وغيره ﴿ كتاب ﴾ رفع على الخبر للحروف ، كأنه قال هذه الحروف كتاب أنزل إليك ، ورد الزجّاج على هذا القول بما لا طائل فيه ، وقال غيره : ﴿ كتاب ﴾ رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هذا كتاب و ﴿ أنزل إليك ﴾ في موضع الصفة ل ﴿ كتاب ﴾ ، ثم نهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يبرم أو يستصحب من هذا الكتاب أو بسبب من أسبابه حرجاً ، ولفظ النهي هو للحرج ومعناه للنبي عليه السلام ، وأصل الحرج الضيق ، ومنه الحرجة الشجر الملتف الذي قد تضايق ، و" الحرج " ها هنا يعم الشك والخوف والهم وكل ما يضيق الصدر ، وبحسب سبب الحرج يفسر الحرج ها هنا ، وتفسيره بالشك قلق ، والضمير في ﴿ منه ﴾ عائد على الكتاب أي بسبب من أسبابه ، و" من " ها هنا لابتداء الغاية ، وقيل يعود على التبليغ الذي يتضمنه معنى الآية ، وقيل على الابتداء .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعم الجهات التي هي من

سبب الكتاب ولأجله وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك .

(36/263)

وقوله تعالى : ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ اعتراض في أثناء الكلام ، ولذلك قال بعض الناس إن فيه تقديماً وتأخيراً ، وقوله ﴿ لتنذر ﴾ اللام متعلقة ب ﴿ أنزل ﴾ . وقوله ﴿ وذكرى ﴾ معناه تذكرة وإرشاد ، و ﴿ ذكرى ﴾ في موضع رفع عطفاً على قوله ﴿ كتاب ﴾ . فالتقدير هذه الحروف كتاب وذكرى ، وقيل رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب فالتقدير هذه الحروف كتاب منزل إليك وذكرى ، فهي عطف على منزل داخلة في صفة الكتاب ، وقيل ﴿ ذكرى ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره لتنذر به وتذكر ذكرى للمؤمنين ، وقيل نصبها على المصدر وقيل ﴿ ذكرى ﴾ في موضع خفض عطفاً على قوله ﴿ لتنذر ﴾ أي لإنذارك وذكرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كتاب أُنزِلَ إليك ﴾ قال الأخفش : رفع الكتاب بالابتداء .

ومذهب الفراء : أن الله اكتفى في مفتَتَح السور ببعض حروف المعجم عن جميعها ، كما يقول القائل : "ا ب ت ث" ثمانية وعشرون حرفا ؛ فالمعنى : حروف المعجم : كتاب أنزلناه إليك .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يرتفع الكتاب باضمار : هذا الكتاب .

وفي الحرج قولان .

أحدهما : أنه الشك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه الضيق ، قاله الحسن ، والزجاج .

وفي هاء "منه" قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ؛ فعلى هذا ، في معنى الكلام قولان .

أحدهما : لا يضيقنَّ صدرك بالإبلاغ ، ولا تخافنَّ ، قاله الزجاج : والثاني : لا تشُكَنَّ أنه من عند الله .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى مضمر ، وقد دل عليه الإِنذار ، وهو التكذيب ، ذكره ابن الانباري .

قال الفراء : فمعنى الآية : لا يضيقنَّ صدرك إن كذبوك .

قال الزجاج : وقوله تعالى : ﴿ لتنذر به ﴾ مقدَّم ؛ والمعنى : أُنزل إليك لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين ، فلا يكن في صدرك حرج منه .

﴿ وذكرى ﴾ يصلح أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض ؛ فأما النصب ، فعلى قوله : أُنزل إليك لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين أي : ولتذكِّرَ به ذكرى ، لان في الإنذار معنى التذكير .

ويجوز الرفع على أن يكون : وهو ذكرى ، كقولك : وهو ذكرى للمؤمنين .

فأما الخفض فعلى معنى : لتنذر ، لأن معنى "لتنذر" لأن تنذر ؛ المعنى : للانذار والذكرى ، وهو في موضع خفض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي ضِيق ؛ أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ ؛ لأنه رُوي عنه عليه السلام أنه قال : "إني أخاف أن يَثْلغُ رأسي فيدعوه خبزَة" الحديث .

خرّجه مسلم .

قال الكِيا : فظاهره النهي ، ومعناه نفي الحرج عنه ؛ أي لا يضيق صدرك ألاّ يؤمنوا به ، فإنما عليك البلاغ ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيء من إيمانهم أو كفرهم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ [الكهف : 6] الآية .

وقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرَج هنا الشك ، وليس هذا شك الكفر إنما هو شك الضيق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : 97] .

وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته .

وفيه بعدٌ .

والهاء في "مِنْهُ" للقرآن .

وقيل للإنذار ؛ أي أنزل إليك الكتاب لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه .

فالكلام فيه تقديم وتأخير .

وقيل للتكذيب الذي يعطيه قوّة الكلام .

أي فلا يكن في صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وذكرى ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض .

فالرفع من وجهين ؛ قال البصريون : هي رفع على إضمار مبتدأ .

وقال الكسائيّ : عطف على "كتاب" .

والنصب من وجهين ؛ على المصدر ، أي وذكِّر به ذكرى ؛ قاله البصريون .

وقال الكسائي : عطف على الهاء في "أنزلناه" .

والخفض حملاً على موضع "لِتُنْذِرَ بِهِ" .

والإنذار للكافرين ، والذكرى للمؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ يعني هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ يعني : فلا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به إلى الناس ﴿ لتنذر به ﴾ يعني : أنزلت إليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بإنذاره ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ يعني : ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم ، تقديره : كتاب أنزلناه إليك لتنذر به وذكر للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه .

قال ابن عباس : فلا تكن في شك منه لأن الشك لا يكون إلا من ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ونهيه تعالى أن يكون في صدره حرج منه أيّ من سببه لما تضمنه من أعباء الرسالة وتبليغها لمن لم يؤمن بكتاب ولا اعتقد صحة رسالة وتكليف الناس أحكامها وهذه أمور صعبة

ومعانيها يشق عليه ذلك وأسند النهي إلى الحرج ومعناه نهي المخاطب عن التعرض للحرج ، وكان أبلغ من نهي المخاطب لما فيه من أنّ الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك فانتهِ أنت عنه بعدم التعرّض له ولأن فيه تنزيه نبيه صلى الله عليه وسلم بأن ينهاه فيأتي التركيب فلا تخرج منه لأنّ ما أنزله الله تعالى إليه يناسب أن يسرّ به وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهّله لإنزال كتابه عليه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه فلهذه الفوائد عدل عن أن ينهاه ونهي الحرج وفسر الحرج هنا بالشك وهو تفسير قلق وسمّى الشكّ حرجاً لأن الشاكّ ضيّق الصدر كما أنّ المتيقن منشرح الصدر وإن صحّ هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه الخطاب إليه لفظاً وهو لأمته معنى أي فلا يشكّوا أنه من عند الله .

(39/263)

وقال الحسن : الحرج هنا الضيق أي لا يضيق صدرك من تبليغ ما أرسلت به خوفاً من أن لا تقوم بحقّه .

وقال الفرّاء : معناه لا يضيق صدرك بأن يكذّبوك كما قال تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ وقيل : الحرج هنا الخوف أي لا تخف منهم وإن كذبوك وتمالؤوا عليك قالوا : ويحتمل أن يكون الخطاب له ولأمته ، والظاهر أنّ الضمير

في ﴿ منه ﴾ عائد على الكتاب ، وقيل على التبليغ الذي تضمنه المعنى .

وقيل على التكذيب الذي دلّ عليه المعنى ، وقيل على الإنزال ، وقيل على الإنذار .

قال ابن عطية : وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعمّ جميع الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرّض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ اعتراض في أثناء الكلام ، ولذلك قال بعض الناس إن فيه تقديماً وتأخيراً ﴿ ولتنذر ﴾ متعلق بأنزل انتهى .

وكذا قال الحوفي والزمخشري أنّ اللام متعلقة بقوله ﴿ أنزل ﴾ وقاله قبلهم الفرّاء ولزم من قولهم أن يكون قوله : فلا يكن في صدرك حرج اعتراضاً بين العامل والمعمول .

وقال ابن الأنباري : التقدير فلا يكن ﴿ في صدرك ﴾ حرج منه كي تنذر به فجعله متعلقاً بما تعلّق به في صدرك وكذا علقه به صاحب النظم فعلى هذا لا تكون الجملة معترضة

وجوّز الزمخشري وأبو البقاء الوجهين إلا أنّ الزمخشري قال : (فإن قلت) : بم يتعلق قوله : ﴿ لتنذر ﴾ (قلت) : بأنزل أي أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهي لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم ولذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجّعه اليقين على الإنذار لأنّ صاحب اليقين جَسور متوكّل على عصمته انتهى .

فقوله أو بالنهي ظاهره أنه يتعلق بالنّهي فيكون متعلقاً بقوله فلا يكن كان عندهم في تعليق المجرور والعمل في الظرف فيه خلاف ومبناه على أنه هل تدلّ كان الناقصة على الحدث أم لا فمن قال إنها تدلّ على الحدث جوّز فيها ذلك ، ومن قال إنها لا تدلّ عليه لم يجوّز ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(41/263)

وقال أبو السعود :

وقوله عز وجل : ﴿ كِتَابٌ ﴾ على الوجه الأولِ خبرُ مبتدإ محذوفٍ وهو ما ينبىء عنه تعديدُ الحروفِ كأنه قيل : المؤلَّفُ من جنس هذه الحروفِ مراداً به السورةُ كتابٌ الخ ، أو اسمُ إشارةٍ أشير به إليه تنزيلاً لحضور المؤلَّفِ منه منزلةَ حضورِ نفسِ المؤلّف ، أي هذا كتابٌ الخ ، وعلى الوجه الثاني خبرٌ بعد خبرٍ جيء به إثرَ بيانِ كونه مترجماً له باسمٍ بديع مُنبىءٍ عن غرابته في نفسه إبانةً لجلالة محلّه ببيان كونِه فرداً من أفراد الكتبِ الإلهية حائزاً للكمالات المختصَّة بها وقد جُوّز كونُه خبراً ، وألمص مبتدأٌ أي المسمّى بألمص كتابٌ وقد عرفتَ ما فيه من أن ما يجعل عنواناً للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتسابِ إليه

عند المخاطَب ، وإذْ لا عهدَ بالتسمية قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها ﴿ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أي من جهته تعالى بُني الفعلُ للمفعول جرياً على سَنن الكبرياءِ وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهورِ تعيُّنه وهو السرُّ في ترك ذكرِ مبدأ الإنزال كما في قوله جل ذكره : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ونظائرِه والجملةُ صفةٌ لكتابٌ مشرّفةٌ له ولمن أُنزل إليه وجعلُه خبراً له على معنى : كتابٌ عظيمُ الشأنِ أُنزل إليك خلاف الأصل ﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ أي شك كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ خلا أنه عبّر عنه بما يلازمه من الحَرَج فإن الشاكَّ يعتريه ضيقُ الصدرِ كما أن المتيقّنَ يعتريه انشراحُه وانفساخُه مبالغةً في تنزيه ساحتِه عليه الصلاة والسلام ، وما قد يقع من نسبته إليه في ضمن النهي فعلى طريقةِ التهييجِ والإلهاب والمبالغة في التنفير والتحذيرِ بإيهام أن ذلك من القبح والشرّية بحيث ينهى عنه من لا يمكنُ صدورُه عنه أصلاً فكيف بمن يُمكن ذلك منه ، والتنوينُ للتحقير والجرُّ في قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ﴾ متعلقٌ بحرَجٌ يقال : حرِج

(42/263)

منه أي ضاق به صدرُه أو بمحذوف وقع صفةً به أي حرجٌ كائنٌ منه أي لا يكن فيك ما في حقّيته أو في كونه كتاباً منزلاً إليك من عنده تعالى ، فالفاءُ على الأول لترتيب النهي أو

الانتهاء على مضمون الجملةِ فإنه مما يوجب انتفاءَ الشكّ فيما ذُكر بالكلية وحصولَ اليقينِ به قطعاً ، وأما على الثاني فهي لترتيب ما ذُكر على الإخبار بذلك لا على نفسه فتدبر .

(43/263)

وتوجيه النهي إلى الحرَج مع أن المرادَ نهيُه عليه الصلاة والسلام عنه إما لما مر من المبالغة في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذُكر فإن النهيَ عن الشيء مما يوهم إمكانَ صدورَ المنهيِّ عنه عن المنْهيّ ، وإما للمبالغة في النهي فإن وقوعَ الشكّ في صدره عليه الصلاة والسلام سببٌ لاتصافه عليه الصلاة والسلام به ، والنهيُ عن السبب نهيٌ عن المسبَّب بالطريق البرهاني ونفيٌ له من أصله بالمرة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ الآية ، وليس هذا من قبيل لا أُرَيَنّك ها هنا فإن النهيَ هناك واردٌ على المسبب مرادٌ به النهيُ عن السبب فيكونُ المآلُ نهيَه عليه الصلاة والسلام عن تعاطي ما يُورِثُ الحرَجَ فتأملْ . وقيل : الحرجُ على حقيقته أي لا يكنْ فيك ضيقُ صدرٍ من تبليغه مخافةَ أن يكذّبوك وأن تُقصّر في القيام بحقه فإنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيبَ قومِه له وإعراضَهم عنه فكان يضيق صدرُه من الأداء ولا ينبسِطُ له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم ، فالفاءُ حينئذ للترتيب على مضمون الجملةِ أو على الإخبار به فإن كلاًّ

منهما موجبٌ للإقدام على التبليغ وزوالِ الخوفِ قطعاً وإن كان إيجابُه الثاني بواسطة الأول ، وقولُه تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ أي بالكتاب المنزل متعلقٌ بأُنزل وما بينهما اعتراضٌ توسّط بينهما تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وحسماً لتوهم أو موردَ الشكّ هو الإنزالُ للإنذار وقيل : متعلقٌ بالنهي فإن انتفاءَ الشكّ في كونه منزلاً من عنده تعالى موجبٌ للإنذار به قطعاً وكذا انتفاءُ الخوفِ منهم أو العلمُ بأنه موفقٌ للقيام بحقه موجبٌ للتجاسر على ذلك . وأنت خبيرٌ بأنه لا يتأتى على التفسير الأولِ لأن تعليلَ النهي عن الشك بما ذكر من الإنذار والتذكيرِ مع إيهامه لإمكان صدورِه عنه عليه الصلاة والسلام مُشعرٌ بأن المنهيَّ عنه ليس محذوراً لذاته بل لإفضائه إلى فوات

(44/263)

الإنذارِ والتذكير لا أقل من الإيذان بأن ذلك معظمُ غائلتِه ولا ريب في فساده ، وأما على التفسير الثاني فإنما يتأتى التعليلُ بالإنذار لا بتذكير المؤمنين إذ ليس فيه شائبةُ خوفٍ حتى يُجعل غايةً لانتفائه ، وقوله تعالى : ﴿ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في حيز النصبِ بإضمار فعلِه معطوفاً على تنذرَ أي وتذكّرَ المؤمنين تذكيراً ، أو الجرّ عطفاً على محل أن تنذرَ أي للإنذار والتذكير ، وقيل : مرفوعٌ عطفاً على كتابٌ أو خبرٌ لمبتدإ محذوفٍ ، وتخصيصُ التذكيرِ

بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذارِ بالكفرة أي لتنذرَ به المشركين وتذكرَ المؤمنين ، وتقديمُ الإنذار لأنه أهمُّ بحسب المقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(45/263)

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ كِتَابٌ ﴾ على بعض الاحتمالات خبر لمبتدأ محذوف أي هو أو ذلك كتاب ، وقوله سبحانه : ﴿ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أي من عنده تعالى صفة له مشرفة لقدره وقدر من أنزل إليه صلى الله عليه وسلم .

وبني الفعل للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر في ترك ذكر مبدأ الإنزال ، والتوصيف بالماضي إن كان الكتاب عبارة ، كالقرآن عن القدر المشترك بين الكل والجزء ظاهر ، وإن كان المجموع فلتحققه جعل كالماضي .

واختار الزمخشري ومن وافقه أن المراد بالكتاب هنا السورة وفيه من المبالغة ما لا يخفى إن قلنا : إنه لم يطلق على البعض وإذا قلنا بإطلاقه على ذلك كما في قولهم : ثبت هذا الحكم بالكتاب فالأمر واضح .

ومن الناس من جوز جعل ﴿ كِتَابٌ ﴾ مبتدأ والجملة بعده خبره على معنى كتاب أي كتاب أنزل إليك .

ولا يخفى أن الأول أولى لأن هذا خلاف الأصل .

وحذف المبتدأ أكثر من أن يحصى .

﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي شك كما قال ابن عباس وغيره .

وأصله الضيق واستعماله في ذلك مجاز كما في "الأساس" علاقته اللزوم فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه .

والقرينة المانعة هو امتناع حقيقة الحرج والضيق من الكتاب وإن جوزتها فهو كناية .

وعلى التقديرين هو قد صار حقيقة عرفية في ذلك كما قاله بعض المحققين .

وجوز أن يكون باقياً على حقيقته لكن في الكلام مضاف مقدر كخوف عدم القبول والتكذيب فإنه صلى الله عليه وسلم كان يخاف قومه وتكذيبهم وإعراضهم عنه وأذاهم له .

ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] الآية .

وللأول قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] وقد يقال : إنه كناية عن الخوف والخوف كما يقع على المكروه يقع على سببه .

"وتوجيه النهي إلى الحرج بمعنى الشرك مع أن المراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن ذلك قيل : إما للمبالغة في تنزيه ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فإن النهي عن الشيء مما يوهم إمكان صدور المنهي عنه عن المنهي وإما للمبالغة في النهي فإن وقوع الشك في صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه وحاشاه به والنهي عن السبب نهي عن المسبب بالطريق البرهاني ونفى له بالمرة كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ [المائدة : 8] وليس هذا من قبيل لا أرينك ههنا فإن النهي هناك وارد على المسبب مراداً به النهي عن السبب فيكون المآل نهيه عليه الصلاة والسلام عن تعاطي ما يورث الحرج فتأمل" انتهى .

والذي ذهب إليه بعض المحققين أن المراد نهي المخاطب عن التعرض للحرج بطريق الكناية وأنه من قبيل لا أرينك ههنا في ذلك لما أن عدم كون الحرج في صدره من لوازم عدم كونه متعرضاً للحرج كما أن عدم الرؤية من لوازم عدم الكون ههنا فالنافي لكونه من قبيل ذلك إن أراد الفرق بينهما باعتبار أن المراد في أحدهما النهي عن السبب والمراد المسبب وفي الآخر بالعكس فلا ضير فيه ، ولهذا عبر البعض باللزوم دون السببية .

وإن أراد أنه ليس من الكناية أصلاً فباطل .

نعم جوز أن يكون من المجاز .

والمشهور أن الداعي لهذا التأويل أن الظاهر يستدعي نهي الحرج عن الكون في الصدر والحرج مما لا ينهى وله وجه وجيه فليفهم .

والجملة على تقدير كون الحرج حقيقة كما يفهمه كلام الكشاف كناية عن عدم المبالات بالأعداء .

وأياً ما كان فالتنوين في ﴿ حَرَجٌ ﴾ للتحقير ، و(من) متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع صفة له أي حرج ما كائن منه .

والفاء تحتمل العطف إما على مقدر أي بلغه فلا يكن في صدرك الخ وإما على ما قبله بتأويل الخبر بالإنشاء أو عكسه أي تحقق إنزاله من الله تعالى إليك أو لا ينبغي لك الحرج وتحتمل الجواب كأنه قيل : إذا أنزل إليك فلا يكن الخ .

(47/263)

وقال الفراء إنها اعتراضية ، وقال بعض المشايخ هي لترتيب النهي أو الانتهاء على مضمون الجملة إن كان المراد لا يكن في صدرك شك ما في حقيته فإنه مما يوجب انتفاء الشك فيما

ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعاً ، ولترتيب ما ذكر على الإخبار بذلك لا على نفسه إن كان المراد لا يكن فيه شك في كونه كتاباً منزلاً إليك .

وللترتيب على مضمون الجملة أو على الإخبار به إذا كان المراد لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك أو أن تقصر في القيام بحقه فإن كلاً منهما موجب للإقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعاً وإن كان إيجاب الثاني بواسطة الأول .

ولا يخفى ما في أوسط هذه الشقوق من النظر فتدبر .

﴿ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ أي بالكتاب المنزل .

والفعل قيل إما منزل منزلة اللازم أو أنه حذف مفعوله لإفادة العموم ، وقد يقال : إنه حذف المفعول لدلالة ما سيأتي عليه .

واللام متعلقة بأنزل عند الفراء وجملة النهي معترضة بين العلة ومعلولها وهو المعنى بما نقل عنه أنه على التقديم والتأخير .

قيل : وهذا مما ينبغي التنبيه له فإن المتقدمين يجعلون الاعتراض على التقديم والتأخير لتخلله بين أجزاء كلام واحد وليس مرادهم أن في الكلام قلباً .

ووجه التوسيط إما أن الترتيب على نفس الإنزال لا على الإنزال للإنذار وإما رعاية الاهتمام مع ما في ذلك على ما قيل من الإشارة إلى كفاية كل من الإنزال والإنذار في نفي الحرج .

أما كفاية الثاني فظاهرة لأن المخوف لا ينبغي أن يخاف من يخوفه ليتمكن من الإنذار على ما يجب .

(48/263)

وأما كفاية الأول فلأن كون الكتاب البالغ غاية الكمال منزلاً عليه عليه الصلاة والسلام خاصة من بين سائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام يقتضي كونه رحيب الصدر غير مبال بالباطل وأهله ، وعن ابن الأنباري أن اللام متعلقة بمتعلق الخبر أي لا يكن الحرج مستقراً في صدرك لأجل الإنذار ، وقيل : إنها متعلقة بفعل النهي وهو الكون بناءً على جواز تعلق الجار بكان الناقصة لدلالتها على الحدث على الصحيح ، وقيل : يجوز أن يتعلق بحرج على معنى أن الحرج للإنذار والضيق له لا ينبغي أن يكون .

وقال العلامة الثاني : إنه معمول للطلب أو المطلوب أعني انتفاء الحرج وهذا أظهر لا للمنهي أي الفعل الداخل عليه النهي كما قيل لفساد المعنى .

وأطلق الزمخشري تعلقه بالنهي ، واعترض بأنه لا يتأتى على التفسير الأول للحرج لأن تعليل النهي عن الشك بما ذكر من الإنذار والتذكير مع إيهامه لإمكان صدوره عنه صلى الله عليه وسلم مشعر بأن المنهي عنه ليس بمحذور لذاته بل لإفضائه إلى فوات الإنذار والتذكير لا

أقل من الإيذان بأن ذلك معظم غائلته ولا ريب في فساده ، وأما على التفسير الثاني فإنما يتأتى التعليل بالإنذار لا بتذكير المؤمنين إذ ليس فيه شائبة خوف حتى يجعل غاية لانتفائه ؛ وأنت خبير بأن كون المنهى عنه محذوراً لذاته ظاهر ظهور نار القرى ليلاً على علم فلا يكاد يتوهم نقيضه .

(49/263)

والقول بأنه لا أقل من الإيذان بأن ذلك معظم غائلته لا فساد فيه بناءً على ما يقتضيه المقام وإن كان بعض غوائله في نفس الأمر أعظم من ذلك وأن الآية ليست نصاً في تعليل النهي بالإنذار والتذكير كما سيتضح لك قريباً إن شاء الله تعالى حتى يتأتى الاعتراض نظراً للتفسير الثاني ، سلمنا أنها نص لكنا نقول : لم لا يجوز أن يكون ذلك من قبيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [الفتح : 1 ، 2] الآية .

﴿ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نصب بإضمار فعله عطفاً على (تنذر) أي وتذكر المؤمنين تذكيراً .

ومنع الزمخشري فيما نقل عنه العطف بالنصب على محل ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ معللاً بأن المفعول له

يجب أن يكون فاعله وفاعل المعلل واحداً حتى يجوز حذف اللام منه .

ويمكن كما في "الكشف" أن يقال : لا منع من أن يكون التذكير فعل المنزل الحق تعالى إلا أنه يفوت التقابل بين الإنذار والتذكير .

نعم يحتمل الجر بالعطف على المحل أي للإنذار والتذكير .

ويحتمل الرفع على أنه معطوف على ﴿ كِتَابٌ ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي هو ذكرى ، والفرق بين الوجهين على ما في "الكشف" أن الأول معناه أن هذا جامع بين الأمرين كونه كتاباً كاملاً في شأنه بالغاً حد الإعجاز في حسن بيانه وكونه ذكرى للمؤمنين يذكرهم المبدأ والمعاد .

والثاني يفيد أن هذا المقيد بكونه كتاباً من شأنه كيت وكيت هو ذكرى للمؤمنين ويكون من عطف الجملة على الجملة فيفيد استقلاله بكل من الأمرين وهذا أولى ، لفظاً ومعنى وتخصيص التذكير بالمؤمنين لأنهم المنتفعون به أو للإيذان باختصاص الإنذار بالكافرين وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(50/263)

وقال ابن عاشور :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

ذكرنا في طالعة سورة البقرة أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السّور أعقبت بذكر القرآن أو الوحي أو ما في معنى ذلك ، وذلك يرجح أن المقصود من هذه الحروف التّهجي ، إبلاغاً في التّحدي للعرب بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن وتخفيفاً للعبء عن النّبيء صلى الله عليه وسلم فتلك جملة مستقلّة وهي هنا معدودة آية ولم تعدّ في بعض السّور .

فقوله : ﴿ كتب ﴾ مبتدأ ووقع الابتداء ، بالنّكرة إمّا لأنّها أريد بها النّوع لا الفرد فلم يكن في الحكم عليها إبهام وذلك كقولهم : رجلٌ جاءني ، أي لا امرأة ، وتمرة خيرٌ من جرادة ، وفائدة إرادة النّوع الردّ على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله ، واستبعادهم ذلك ، فذكّرهم الله بأنّه كتاب من نوع الكُتب المنزّلة على الأنبياء ، فكما نزلت صحف إبراهيم وكتاب موسى كذلك نَزَل هذا القرآن ، فيكون تنكير النّوعية لدفع الاستبعاد ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قالوا لا تخف خَصْمَان بغى بعضنا على بعض ﴾ [ص : 22] فالتّنكير للنّوعيّة .

وإما لأن التّنكير أريد به التّعظيم كقولهم : "شرّ أهَرّ ذَا نَاب" أي شرٌ عظيم .

وقول عُوَيْف القوافي:

خَبَرٌ أتَانِي عن عُيَيْنَةَ موجِع . . .

كادَت عليه تَصَدعّ الأَكْبَادُ

أي هو كتاب عظيم تنويهاً بشأنه فصار التنكير في معنى التوصيف .

وإمّا لأنّه أريد بالتّنكير التعجيب من شأن هذا الكتاب في جميع ما حفّ به من البلاغة والفصاحة والإعجاز والإرشاد ، وكونه نازلاً على رجل أمّيّ .

(51/263)

وقوله : ﴿ أنزل إليك ﴾ يجوز أن يكون صفة ل ﴿ كتاب ﴾ فيكون مسوغاً ثانياً للابتداء بالنّكرة ويجوز أن يكون هو الخبر فيجُوز أن يكون المقصود من الأخبار تذكير المنكرين والمكابرين ، لأنّ النّبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعلمون أنّه أنزل من عند الله ، فلا يحتاجون إلى الإخبار به ، فالخبر مستعمل في التّعريض بتغليط المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بالإعراض ، ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتنان والتّذكير بالنّعمة ، فيكون الخبر مستعملاً في الامتنان على طريقة المجاز المرسل المركب .

ويجوز أن يجعل الخبر هو قوله : ﴿ أنزل إليك ﴾ مع ما انضمّ إليه من التّفريع والتّعليل ، أي هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصّدر به ، فإنّه أنزل إليك لتنذر به الكافرين وتذكِّر

المؤمنين ، والمقصود : تسكين نفس النّبي صلى الله عليه وسلم وإغاظة الكافرين ، وتأنيس المؤمنين ، أي : هو كتاب أنزل لفائدة ، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صرك حرج إن كذّبوا .

وبهذه الاعتبارات وبعدم منافاة بعضها لبعض يحمل الكلام على إرادة جميعها وذلك من مطالع السّور العجيبة البيان .

ومن المفسّرين من قدّروا مبتدأ محذوفاً ، وجعلوا ﴿ كتب ﴾ خبراً عنه ، أي هذا كتاب ، أي أنّ المشار إليه القرآن الحاضر في الذّهن ، أو المشار إليه السّورة أطلق عليها كتاب ، ومنهم من جعل ﴿ كتاب ﴾ خبراً عن كلمة

﴿ آلمص ﴾ [الأعراف : 1] وكلّ ذلك بمعزل عن متانة المعنى .

وصِيغ فعل : ﴿ أنزل ﴾ بصيغة النائب عن الفاعل اختصاراً ، للعِلم بفاعل الإنزال ، لأنّ الذي يُنزل الكتب على الرّسل هو الله تعالى ، ولما في مادة الإنزال من الإشعار بأنّه من الوحي لملائكة العوالم السّماوية .

والفاء في قوله : ﴿ فلا يكن في صدرك ﴾ اعتراضية إذ الجملة معترضة بين فعل ﴿ أنزل ﴾ ومتعلّقة وهو ﴿ لتنذر به ﴾ ، فإنّ الاعتراض يكون مقترناً بالفاء كما يكون مقترناً بالواو كما في قوله تعالى : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ [ص : 57] وقوله : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى ﴾ [النساء : 135] .

وقول الشّاعر وهو من الشّواهد :

اعْلَمْ فعِلْمُ المرء يَنْفَعُه . . .

أنْ سَوف يأتي كُلّ ما قُدّرا

وقول بشّار بن برد :

كقائلة إنّ الحمار فَنَحّه . . .

عن القتّ أهلُ السّمسم المُتهذّبِ

وليست الفاء زائدة للاعتراض ولكنّها ترجع إلى معنى التّسبّب ، وإنّما الاعتراض حصل بتقديم جملتها بين شيئين متّصلين مبادرة من المتكلّم بإفادته لأهمّيته ، وأصل ترتيب الكلام هنا : كتاب أنزل إليك لتنذر به وذِكْرَى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه ، وقد ذكَر في "مغني اللّبيب" دخول الفاء في الجملة المعترضة ولم يذكر ذلك في معاني الفاء فتوهّم متوهّمون أنّ الفاء لا تقع في الجملة المعترضة .

والمعنى أنّ الله أنزله إليك لا ليكون في صدرك حرج ، بل لينشرح صدرك به .

ولذلك جاء في نفي الحرج بصيغة نَهْي الحرج عن أن يحصل في صدر النّبيء صلى الله عليه وسلم ليكون النّهي نهي تكوين ، بمعنى تكوين النّفي ، عكس أمر التّكوين الذي هو بمعنى تكوين الإثبات .

مُثِّلَ تكوين نفي الحرج عن صدره بحالة نهي العاقل المدرِك للخطاب ، عن الحصول في المكان .

(53/263)

وجَعَل صاحب "الكشاف" النّهي متوجّهاً في الحقيقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي نهيه عن المبالاة بالمكذّبين بالقرآن ، والغمّ من صنيعهم ، وجعل النّهي في ظاهر اللّفظ متوجّهاً إلى الحرج للمبالغة في التّكليف ، باقتلاعه من أصله على طريقة قول العرب : "لاَ أرَيَنَّكَ ههنا" أي لا تحضر فأراك ، وقولهم : "لا أعْرِفَنَّك تفعل كذا" أي لا تفعلْه فأعرّفَك به ، نهياً بطريق الكناية ، وأيّاً ما كان فالتّفريع مناسب لمعاني التّنكير المفروض في قوله : ﴿ كتاب ﴾ ، أي فلا يكن في صدرك حرج منه من جهة ما جَرّه نزوله إليك من تكذيب قومك وإنكارهم نزوله ، فلا يكن في صدرك حرج منه من عظم أمره وجلالِه ، ولا يكن في صدرك حرج منه فإنّه سبب شرح صدرك بمعانيه وبلاغته .

و(مِنْ) ابتدائيّة ، أي حرج ينشأ ويسري من جرّاء المذكور ، أي من تكذيب المكذّبين به ، فلمّا كان التّكذيب به من جملة شؤونه ، وهو سبب الحرج ، صح أن يجعل الحرج مسبّباً عن الكتاب بواسطة .

والمعنى على تقدير مضاف أي حرج من إنكاره أي إنكار إنزاله من الله .

والحرج حقيقته المكان الضيّق من الغَابات الكثيرة الأشجار ، بحيث يعسر السلوك فيه ، ويستعار لحالة النّفس عند الحزن والغضب والأسف ، لأنّهم تخيّلوا للغاضب والآسِف ضيقاً في صدره لما وجدوه يعسر منه التّنفّس من انقباض أعْصاب مجاري النفَس ، وفي معنى الآية قوله تعالى:

﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير ﴾ [هود : 12] .

و﴿ لتنذر ﴾ متعلّق بـ ﴿ أنزل ﴾ على معنى المفعول لأجله ، واقترانه بلام التعليل دون الإتيان بمصدر منصوب لاختلاف فاعل العامل وفاعِل الإنذار .

وجعل الإنذار به مقدّماً في التّعليل لأنّه الغرض الأهم لإبطال ما عليه المشركون من الباطل وما يخلفونه في النّاس من العوائد الباطلة التي تُعاني أزالتها من النّاس بعدَ إسلامهم .

﴿ ذكرى ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ لتنذر به ﴾ ، باعتبار انسباكه بمصدر فيكون في محل جرّ ، ويجوز أن يكون العطف عطف جملة ، ويكون ﴿ ذكرى ﴾ مصدراً بدلاً من فعله ، والتّقدير : وذَكِّرْ ذكرى للمؤمنين ، فيكون في محلّ نصب فيكون اعتراضاً . وحذف متعلّق ﴿ تنذر ﴾ ، وصرح بمتعلّق ﴿ ذكرى ﴾ لظهور تقدير المحذوف من ذكر مقابله المذكور ، والتّقدير : لتنذر به الكافرين ، وصرح بمتعلّق الذّكرى دون متعلّق ﴿ تنذر ﴾ تنويها بشأن المؤمنين وتعريضاً بتحقِير الكافرين تجاه ذكر المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(55/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾ وساعة تسمع " أنزل " فافهم أنه جاء من جهة العلو أي أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد في صدر رسول الله حرج ؟ . لننتبه أنه ساعة يأتي أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ، فالنهي ليس لرسول الله صلى الله عليه

وسلم وإنما النهي للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أم محمداً قد يضيق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكينا ، أي لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً . ﴿ . . . فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشر ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل في سورة البقرة : ﴿ . . . هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(56/263)

وهنا نلاحظ ان الرسالات تقتضي مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرَسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدي وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ ﴾ من الله وهو المرسِل ، و" إليك " لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(57/263)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ الآية .

قال مجاهد ، وقتادة ، والسدي : ﴿ حرج ﴾ أي شك . أي لا يكن في صدرك شك في كون هذا القرآن حقاً ، وعلى هذا القول فالآية ، كقوله تعالى : ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [البقرة : 147] وقوله : ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين ﴾ [آل عمران : 60] ، وقوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] .

والممتري : هو الشاك . لأنه مفتعل من المرية وهي الشك ، وعلى هذا القول فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

والمراد نهى غيره عن الشك في القرآن ، كقول الراجز :

إياك أعني واسمعي يا جارة . . . وكقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] ، وقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ، وقوله : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [البقرة : 120] الآية .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يفعل شيئاً من ذلك ، ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلى غيره في ضمن خطابه صلى الله عليه وسلم .

وجمهور العلماء : على أن المراد بالحرج في الآية الضيق . أي لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك ، لأن تحمل عداوة الكفار ، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر ، وكذلك تكذيبهم له صلى الله عليه وسلم مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة " ، أخرجه مسلم . والثلغ : الشدخ وقيل ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر .

ويدل لهذا الوجه الأخير في الآية قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : 97] ، وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

ويؤيد الوجه الأخير في الآية أن الحرج في لغة العرب : الضيق . وذلك معروف في كلامهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ [النور : 61] ، وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] ، وقوله : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام : 125] أي شديد الضيق إلى غير ذلك من الآيات ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة ، أو جميل :

فخرجت خوف يمينها فتبسمت . . . فعلمت أن يمينها لم تحرج

وقول العرجبي :

عوجي علينا ربة الهودج . . . إنك إلا تفعلي تحرجي

والمراد بالإحراج في البيتين : الإدخال في الحرج . بمعنى الضيق كما ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

لم يبين هنا المفعول به لقوله النذر ، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : 97] ، وقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] ، إلى غير ذلك من الآيات .

كما أنه بين المفعول الثاني للإنذار في آيات أخر ، كقوله ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف : 2] الآية ، وقوله : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] ، وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [النبأ : 40] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(59/263)

وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالإنذار للكفار ، والذكرى للمؤمنين ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : 97] ، وقوله : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] .

ولا ينافي ما ذكرنا من أن الإنذار للكفار ، والذكرى للمؤمنين . أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخَشِيَ الرحمن بالغيب فَبَشِّرْهُ

بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس : 11] . لأنه ملا كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم ، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم ، لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم .

ومن أساليب اللغة العربية : التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء .

وحاصل تحرير المقام في هذا المبحث : أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين .

أحدهما : عام لجميع الناس كقوله : ﴿ يا أيها المدثر قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : 1-2] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] .

وهذا الإنذار العام : هو الذي قصر على المؤمنين قصراً إضافياً في قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ الآية . لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم .

والثاني : إنذار خاص بالكفار لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب ، وهو الذي يذكر في القرآن مبيناً أنه خاص بالكفار دون المؤمنين كقوله : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ ، وقوله هنا : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اه .

والإنذار في اللغة العربية : الإعلام المقترن بتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذاراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾

مَخْرَجُهُ مَخْرَجُ النَّهْيِ وَمَعْنَاهُ نَهْيُ الْمُخَاطَبِ عَنْ التَّعَرُّضِ لِلْحَرَجِ .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ فِي الْحَرَجِ أَنَّهُ الضِّيقُ ، وَذَلِكَ أَصْلُهُ ، وَمَعْنَاهُ : فَلَا يَضِقْ صَدْرُك خَوْفًا أَنْ لَا تَقُومَ بِحَقِّهِ ، فَإِنَّمَا عَلَيْك الْإِنْذَارُ بِهِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ : ﴿ الْحَرَجُ هُنَا الشَّكُّ ، يَعْنِي لَا تَشُكَّ فِي لُزُومِ الْإِنْذَارِ بِهِ ﴾ .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ لَا يَضِقْ صَدْرُك بِتَكْذِيبِهِمْ إيَّاك ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَعَلَّك بَاخِعٌ نَفْسَك عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(61/263)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْك فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِك حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ بَعْضُهُمْ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِك حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ نَهْيٌ فِي الظَّاهِرِ ، وَلَكِنَّهُ لِنَفْيِ الْحَرَجِ .

وَعَجَبًا لَهُ مَعَ عَمَلٍ يَقَعُ فِي مِثْلِهِ ، وَالنَّهْيُ عَنْ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي نَفْيَهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَنْهَى عَنْ أَشْيَاءَ وَتُوجَدُ ، وَيَأْمُرُ بِأَشْيَاءَ فَلَا تُوجَدُ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ نَهْيٌ عَنْ حَالِهِ ؛ قِيلَ لِمُحَمَّدٍ : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِك حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ ، وَأُعِينَ عَلَى امْتِثَالِ النَّهْيِ بِخَلْقِ الْقُدْرَةِ لَهُ عَلَيْهِ ؛ كَمَا فَعَلَ بِهِ فِي سَائِرِ التَّكْلِيفَاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْحَرَجُ : هُوَ الضِّيقُ .

وَقِيلَ : هُوَ الشَّكُّ .

وَقِيلَ : هُوَ التَّبَرُّمُ ؛ وَإِلَى الْأَوَّلِ يَرْجِعُ ؛ فَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّكُّ فَقَدْ أَنَارَ اللَّهُ فُؤَادَهُ بِالْيَقِينِ ، وَإِنْ كَانَ التَّبَرُّمُ فَقَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الدِّينَ ، وَإِنْ كَانَ الضِّيقُ فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْعُلُومِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْمَعَارِفِ ، وَذَلِكَ مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ ، وَخَفَّفَ عَلَيْهِ ثِقَلَ الْعِبَادَةِ حَتَّى جُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ فَكَانَ يَقُولُ : ﴿ أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ ﴾ .

وَمِنْ تَمَامِ النِّيَّةِ فِي الْعِبَادَةِ النَّشَاطُ إلَيْهَا وَالْخِفَّةُ إلَى فِعْلِهَا ، وَخُصُوصًا الصُّبْحَ وَالْعِشَاءَ ؛ فَهُمَا أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ حَسْبَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : فَذَكَرَ مِنْ حَدِيثِ : أَنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ ﴾ .

وَلَيْسَ يَخْلُو أَحَدٌ عَنْ وُجُودِ الثِّقَلِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ تَكْلِيفًا ، بَيْدَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْتَمِلُهُ وَيَخْرُجُ بِالْفِعْلِ عَنْهُ ، وَالْمُنَافِقُ يُسْقِطُهُ .

فَإِنْ قِيلَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَالْعَاصِي إذَا أَسْقَطَهُ أَمُنَافِقٌ هُوَ ؟ قُلْنَا : لَا ، وَلَكِنَّهُ فَاعِلٌ فِعْلَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ ﴾ أَيْ فَعَلَ فِعْلَ الْكُفَّارِ فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(63/263)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ قال : الشك . وقال لأعرابي : ما الحرج فيكم ؟ قال : الشك اللنهس .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ قال : شك .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ قال : ضيق .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي هذا القرآن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(64/263)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : "كِتَابٌ " : يجوز أن يكون خبراً عن الأحْرُف قَبْلَهُ ، وأن يكون خبراً للمبتدأ مُضْمِرٍ ، أي : هو كتابٌ ، كذا قدَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ .

ويجوز أن يكون كتابٌ مبتدأ و " أُنْزِلَ " صفتُهُ و " فَلاَ تَكُنْ " خبره ، والفاءُ زائدةٌ على رأي الأخْفَشِ أي : كتابٌ موصوفٌ بالإنزالِ إليكَ ، لا يكنْ في صدرك حرجٌ منهُ ، وهو بعيدٌ

جدّاً .

والقائمُ مقام الفاعل في " أُنْزِلَ " ضميرٌ عائد على الكتابِ ، ولا يجوز أن يكون الجارَّ ؛ لئلا تخلو الصفةُ من عائدٍ .

والمرادُ بالكتابِ القرآن الكريم .

قوله : " مِنْهُ " متعلق بـ " حَرَجٌ " .

و " مِنْ " سببيَّةٌ أي حرج بسببه تقول : حَرِجْتُ منه أي : ضقْتُ بسببه ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوف على أنَّهُ صفةٌ له أي : حَرَجٌ كَائِنٌ وصادر منه ، والضَّمِيرُ في " مِنْهُ " يجوز ن يعود على الكِتابِ وهو الظَّاهِرُ ، ويجوزُ أن يعود على الإنزالِ المدلول عليه بـ " أُنْزِلَ " ، أو عَلى الإنذارِ ، أو على التَّبْليغِ المدلُولِ عليهما بسياق الكلامِ ، أو على التَّكْذِيبِ الَّذِي تضمنه المعنى ، والنهي في الصُّورةِ للحَرَج ، والمرادُ الصَّادِرُ منه مبالغةً في النَّهْيِ عن ذلك كأنَّهُ قيل : لا تتعاطى أسباباً ينشأ عنها حرج ، وهو من باب " لا أرَيَنَّكَ ههنا " ، النهي متوجه على المتكلم والمراد به المخاطب كأنه قال : لا تكن بحضرتي فأراك ومثله : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ [طه : 16] .

قوله : " لِتُنْذِرَ بِهِ " في متعلق هذا " اللاَّم " ثلاثة أوجه .

أحده : أنَّها متعلِّقة بـ " أُنْزِلَ " أي : أُنْزِلَ إليك للإنذار ، وهذا قول الفرَّاء قال : اللاَّم في " لِتُنْذِرَ

" منظومٌ بقوله : " أُنْزِلَ " على التَّقْديمِ والتَّأخِير ، على تقدير : كتاب " أُنْزِلَ إليكَ لِتُنْذِرَ بِهِ فلا يَكُنْ " .

(65/263)

وتبعه الزَّمَخْشَرِيُّ والحُوفِيُّ ، وأبو البقاءِ على ذلك ، وعلى هذا تَكُونُ جُمْلَةُ النَّهْي معترِضَةً بَيْنَ العِلَّة ومعلولها ، وهو الذي عناه الفرَّاءُ بقوله : " على التَّقْدِيم والتَّأخير " .

والثاني : أنَّ اللامَ متعلّقةٌ بما تعلَّقَ به خَبَرُ " الكَوْنِ " إذ التقدير : فلا يكن حَرَجٌ مستقراً في صَدْرِكَ لأجْلِ الإنْذَارِ .

كذا قاله أبو حيَّان عن الأنْبَارِيِّ ، فإنَّهُ قال : " وقال ابْنُ الأنْبَارِيّ : التقدير : فلا يكن في صدرك حرجٌ منه كي تُنْذِرَ بِهِ فجعله متعلقاً بما تعلَّق به " في صَدْرِكَ " ، وكذا علَّقه به صاحبُ " النَّظْمِ " ، فعلى هذا لا تكون الحملة معترضة " .

قال شهابُ الدِّين : الذي نقله الواحديُّ عن نصِّ ابْنِ الأنباريِّ في ذلك أن " اللاَّمَ " متعلّقةٌ بـ " الكون " ، وعن صاحب " النَّظْمِ " أنَّ اللاَّمَ بمعنى " أنْ " وسنأتي بنصَّيْهما إن شاء الله تعالى ، فيجوز أن يكون لهما كلامان .

الثالث : أنَّها متعلّقةٌ بنفس الكَوْنِ ، وهو مَذْهَبُ ابن الأنْبَارِيِّ والزَّمَخْشَرِيِّ ، وصاحب "

النَّظْمِ " على ما نقله أبو حيَّان .

قال أبو بَكْرِ بْن الأَنْبَارِيّ : ويجوز أن تكون اللاَّمُ صلةً للكون على معنى : " فلا يَكُن في صَدْرِكَ شيء لتنذر ، كما يقول الرجُل للرَّجُل لا تكن ظالماً لتقضي صاحبك دينه فتحمل لام كي على الكون " .

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : فإن قُلْتَ : بِمَ تعلَّق به " لِتُنْذِرُ " ؟ قُلْتُ : بـ " أُنزل " أي : أنزل لإنذارك به ، أو بالنَّهي ؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم ، وكذا إذا علم أنَّهُ من عند الله شجعه اليقين على الإنْذَارِ .

قال أبو حيَّان : " فقوله : بالنَّهْي ظاهره أنَّهُ يتعلَّقُ بفعل النهي فيكونُ متعلقاً بقوله : " فَلاَ يَكُنْ " ، وكان في تعليق المجرور والعمل في الظَّرْفِ فيه خلاف ، وَمَبْنَاهُ على أنَّ " كان " النَّاقِصَة هل تدل على حدثٍ أم لا ؟

(66/263)

فمن قال : إنَّهَا تدلُّ على الحدثِ جوَّزَ ذلك ، ومن قال : لا تَدُلُّ عليه منعه " .

قال شهابُ الدِّين : الزَّمَخْشَرِيُّ مسبوق إلى هذا الوجه ، بل ليس في عبارته ما يدلُّ على أنَّهُ متعلق بـ " يَكُونُ " بل قال " بالنَّهْي " فقد يريدُ بما تضمَّنه من المعنى ، وعلى تقدير ذلك

فالصَّحيحُ أنَّ الأفعالَ النَّاقِصَةَ كلَّهَا لها دلالةٌ على الحدثِ إلاَّ "لَيْسَ" ، وقد أقمت على ذلك أدلَّةً وأتيتُ من أقوالِ النَّاسِ بما يَشْهَدُ لصحَّةِ ذلك كقولِ سيبويه ، وغيره في غير هذا المَوْضُوعِ.

وقال صاحبُ "النَّظْم" : وفيه وجهٌ آخرُ ، وهو أن تكون اللاَّمُ بمعنى أنْ والمعنى : لا يضيقُ صَدْرُكَ ولا يَضْعُفْ [عن] أن تُنْذِرَ به ، والعربُ تضعُ هذه اللام في موضع "أنْ" كقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ ﴾ [التوبة : 32] وفي موضع آخر : ﴿ لِيُطْفِئُوا ﴾ [الصف : 8] فهما بمعنى واحد .

قال شهابُ الدِّين : هذا قولٌ ساقطٌ جدّاً ، كيف يكون حرفُ مختص بالأفعال يقع موضع آخر مختص بالسماء ؟

قوله : "وَذِكْرَى" يجوزُ أن يكون في محلِّ رَفْعٍ ، أو نَصْبٍ ، أو جَرٍّ .

فالرَّفْعُ من وجهين ، أحدهما : أنها عطف على "كِتَابٌ" أي : كتابٌ وذكرى أي : تَذْكِيرٌ ، فهي اسم مَصْدَرٍ وهذا قول الفرَّاءِ .

والثاني من وجهي الرَّفْع : أنَّهَا خبر مُبتدأ مُضْمرٍ أي : هو ذكرى ، وهذا قولُ الزَّجَّاج .

والنَّصْبُ من ثلاثة أوْجُهٍ :

أحدها : أنَّهُ منصوبٌ على المصدر بفعل من لَفْظِهِ تَقْديرُهُ : وتذكر ذكرى أي تَذْكِيراً .

الثاني : [أنها] في محلِّ نَصْبٍ نَسَقاً على مَوْضِعِ "لِتُنْذِرَ" فإن موضعه نصب ، فيكونُ إذْ ذاكَ معطُوفاً على المَعْنَى ، وهذا كما تعطفُ الحال الصريحة على الحالِ المؤوَّلة كقوله تعالى : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ [يونس : 12] ، ويكونُ حينئذٍ مفعولاً من أجْلِهِ كما نقُولُ : "جِئْتُكَ لِتُكْرِمَنِي وإحْسَاناً إليَّ" .

الثالث : قال أبو البقاء : – وبه بَدَأَ – : "إنَّها حال من الضمير في "أنزل" وما بينهما مُعْتَرِضٌ" .

وهذا سَهْوٌ فإنَّ "الواو" مانعة من ذلك ، وكيف تَدْخُلُ الواوُ على حالٍ صريحةٍ ؟ والجرُّ من وجهين أيضاً .

أحدهما : العطفُ على المَصْدَرِ [المُنْسَبِك من "أنْ" المقدَّرة بعد لام كي ، والفعل ، والتَّقديرُ : للإنْذَارِ والتَّذْكِيرِ .

والثاني : العطفُ] على الضَّميرِ في "بِهِ" ، وهذا قول الكُوفيّين ، والذي حسَّنَهُ كون "ذِكْرَى" في تقدير حرفٍ مصدريٍّ – وهو "أنْ" – والفعل لو صرح بـ "أنْ" لحسُنَ معها حذفُ حرفِ الجرِّ ، فهو أحْسَنُ من "مررتُ بِكَ وَزَيْدٍ" إذ التَّقْديرُ : لأن تنذر به وبأن تُذَكِّر .

وقوله : "لِلمُؤمِنِيْنَ" يجوز أن تكون "اللاَّمُ" مزيدةً في المفعولِ به تقويةً له ؛ لأنَّ العامل فَرْعٌ ،

والتقديرُ : وتذكّرَ المُؤمنينَ .

ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمحذُوفٍ ؛ لأنَّهُ صِفَةٌ لـ " ذِكْرَى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 5.9 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

(68/263)

كتاب الأحباب تحفة الوقت ، وشفاءٌ لمقاساة ألم البعد ، وهو لداء الضنى مُزيل ، ولشفاء الشكّ مُقيل ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ ولم يقل : في قلبك ؛ فإن قلبه – عليه السلام – في محل الشهود ، ولذلك قال ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : 97] وكذلك قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ . وقال للمصطفى صلوات الله عليه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] . فإن القلب في محل الشهود ، وهو أبداً بدوام أُنس القرب ، قال صلى الله عليه وسلم : " تنام

عيني ولا ينام قلبي " وقال : " أسألك لذة النظر " وصاحب اللذة لا يكون له حرج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 516.519 ﴾

(69/263)

قوله تعالى ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم سبحانه إليه صلى الله عليه وسلم في أمر الإنذار والإذكار بالكتاب تقدم إلى اتباعه فأمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع أهل الضلال وما يوحي إليهم أولياؤهم من زخارفهم بعد أن أخبر بكونه ذكرى أنه سبب لعلو شأنهم وعز سلطانهم ، فقال ملتفتاً إليهم مقبلاً بعز جلاله عليهم ﴿ اتبعوا ﴾ أي حملوا أنفسكم حملاً عظيماً بجد ونشاط على اتباع ﴿ ما أنزل إليكم ﴾ أي قد خصصتم به دون غيركم فاشكروا هذه النعمة ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لم يزل محسناً إليكم ﴿ ولا تتبعوا ﴾ ولعله عبر بالافتعال إيماء إلى أن ما كان دون علاج – بل هفوة وبنوع غفلة – في محل العفو ﴿ من دونه ﴾ أي دون ربكم ﴿ أولياء ﴾ أي

من الذين نهيناكم عنهم في الأنعام وبينا ضررهم لكم من شياطين الإنس والجن وعدم إغنائهم وأن الأمر كله لربكم .

ولما كانوا قد خالفوا في اتباعهم صريح العقل وسليم الطبع ، وعندهم أمثلة ذلك لو تذكروا ، قال منبهاً لهم على تذكر ما يعرفون من تصرفاتهم : ﴿ قليلاً ﴾ وأكد التقليل ب " ما " النافي وبإدغام تاء التفعيل فقال : ﴿ ما تذكرون ﴾ أي تعالجون أنفسكم على ذكر ما هو مركوز في فطركم الأولى فإنكم مقرون بأن ربكم رب كل شيء ، فكل من تدعون من دونه مربوب ، وأنتم لا تجدون في عقولكم ولا طباعكم ولا استعمالاتكم ما يدل بنوع دلالة على أن مربوباً يكون شريكاً لربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 7 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن أمر الرسالة إنما يتم بالمرسل وهو الله سبحانه وتعالى والمرسل وهو الرسول ، والمرسل إليه ، وهو الأمة ، فلما أمر في الآية الأولى الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي ، وعزم صحيح أمر المرسل إليه .

وهم الأمة بمتابعة الرسول .

فقال : ﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الحسن : يا ابن آدم ، أمرت باتباع كتاب الله وسنة رسوله .

واعلم أن قوله : ﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبِّكُمْ ﴾ يتناول القرآن والسنة .

فإن قيل : لماذا قال : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكُمُ ﴾ وإنما أنزل على الرسول .

قلنا : إنه منزل على الكل بمعنى أنه خطاب للكل .

إذا عرفت هذا فنقول : هذه الآية تدل على أن تخصيص عموم القرآن بالقياس لا يجوز لأن عموم القرآن منزل من عند الله تعالى .

والله تعالى أوجب متابعته ، فوجب العمل بعموم القرآن ولما وجب العمل به امتنع العمل بالقياس ، وإلا لزم التناقض .

فإن قالوا : لما ورد الأمر بالقياس في القرآن .

وهو قوله : ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر : 2] كان العمل بالقياس عملاً بما أنزل الله .

قلنا : هب أنه كذلك إلا أنا نقول : الآية الدالة على وجوب العمل بالقياس إنما تدل على الحكم المثبت بالقياس ، لا ابتداء بل بواسطة ذلك القياس .

وأما عموم القرآن ، فإنه يدل على ثبوت ذلك الحكم ابتداء لا بواسطة ، ولما وقع التعارض كان الذي دل عليه ما أنزله الله ابتداء أولى بالرعاية من الحكم الذي دل عليه ما أنزله الله بواسطة شيء آخر ، فكان الترجيح من جانبنا .

والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ قالوا معناه ولا تتولوا من دونه أولياء من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع .

ولقائل أن يقول : الآية تدل على أن المتبوع إما أن يكون هو الشيء الذي أنزله الله تعالى أو غيره .

أما الأول : فهو الذي أمر الله باتباعه .

وأما الثاني : فهو الذي نهى الله عن اتباعه ، فكان المعنى أن كل ما يغاير الحكم الذي أنزله الله تعالى فإنه لا يجوز إتباعه .

إذا ثبت هذا فنقول : إن نفاة القياس تمسكوا به في نفي القياس .

فقالوا الآية تدل على أنه لا يجوز متابعة غير ما أنزل الله تعالى والعمل بالقياس متابعة لغير ما أنزله الله تعالى ، فوجب أن لا يجوز .

فإن قالوا : لما دل قوله فاعتبروا على العمل بالقياس كان العمل بالقياس عملاً بما أنزله الله

تعالى أجيب عنه بأن العمل بالقياس ، لو كان عملاً بما أنزله الله تعالى ، لكان تارك العمل بمقتضى القياس كافراً لقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] وحيث أجمعت الأمة على عدم التكفير علمنا أن العمل بحكم القياس ليس عملاً بما أنزله الله تعالى ، وحينئذ يتم الدليل .

وأجاب عنه مثبتو القياس : بأن كون القياس حجة ثبت بإجماع الصحابة والإجماع دليل قاطع وما ذكرتموه تمسك بظاهر العموم ، وهو دليل مظنون والقاطع أولى من المظنون .

(71/263)

وأجاب : الأولون بأنكم أثبتم أن الإجماع حجة بعموم قوله : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين ﴾ [النساء : 115] وعموم قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] وعموم قوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ [آل عمران : 110] وبعموم قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تجتمع أمتي على الضلالة " وعلى هذا فإثبات كون الإجماع حجة ، فرع عن التمسك بالعمومات ، والفرع لا يكون أقوى من الأصل .

فأجاب مثبتو القياس : بأن الآيات والأحاديث والإجماع لما تعاضدت في أثبات القياس

قويت القوة وحصل الترجيح .

والله أعلم .

المسألة الثالثة :

الحشوية الذين ينكرون النظر العقلي والبراهين العقلية ، تمسكوا بهذه الآية وهو بعيد لأن العلم بكون القرآن حجة موقوف على صحة التمسك بالدلائل العقلية ، فلو جعلنا القرآن طاعناً في صحة الدلائل العقلية لزم التناقض وهو باطل .

المسألة الرابعة :

قرأ ابن عامر ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : 62] بالياء تارة والتاء أخرى .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء وتخفيف الذال ، والباقون بالتاء وتشديد الذال .

قال الواحدي رحمه الله : تذكرون أصله تتذكرون فأدغم تاء تفعل في الذال لأن التاء مهموسة ، والذال مجهورة والمجهور أزيد صوتاً من المهموس ، فحسن إدغام الأنقص في الأزيد ، وما موصولة بالفعل وهي معه بمنزلة المصدر .

فالمعنى : قليلاً تذكركم ، وأما قراءة ابن عامر ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ بياء وتاء فوجهها أن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قليلاً ما يتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب ، وأما قراءة حمزة والكسائي وحفص ، خفيفة الذال شديدة الكاف ، فقد حذفوا التاء التي

أدغمها الأولون ، وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة والله أعلم .

قال صاحب "الكشاف" : وقرأ مالك بن دينار ولا تبتغوا من الابتغاء من قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلامِ دِينًا ﴾ [آل عمران : 85] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 16.17 ﴾

(72/263)

وقال السمرقندى :

﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

أي صدقوا ، واعملُوا بما أنزل على نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن ويقرؤوه عليكم ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : ولا تتّخذوا من دون الله أربابا ، ولا تعبدوا غيره .

ثم أخبر عنهم فقال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ما : صلة في الكلام ومعناه : قليلاً تتعظون . يعني : إنهم لا يتعظون به شيئاً .

قرأ ابن عامر ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ على لفظ المغايبة بالياء .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء على معنى

المخاطبة بتشديد الذال والكاف لأن أصله تتذكرون فأدغم إحدى التاءين في الذال .

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص تَذَكَّرون بتخفيف الذال ، فأسقط التشديد للتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

أي قل لهم : اتبعوا ولا تتبعوا من دونه أولياء .

قرأ العامّة بالعين من الاتباع ، وروى عاصم الجحدري عن أبي [الشيخ] ومالك بن دينار " ولا تبتغوا " بالغين المعجمة أي لا تطلبوا ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ الآية ،

قال الطبري وحكاه : التقدير قل اتبعوا فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدم الذكر عليه ،

وقالت قوله اتبعوا أمر يعم النبي صلى الله عليه وسلم وأمته .

(73/263)

قال القاضي أبو محمد : والظاهر أن يكون أمراً لجميع الناس أي اتبعوا ملة الإسلام والقرآن ، وقرأ الجحدري " ابتغوا ما أنزل " ، من الابتغاء ، وقرأ مجاهد " ولا تبتغوا " من الابتغاء أيضاً ، وقوله ﴿ أولياء ﴾ يريد كل ما عبد واتبع من دون الهل كالأصنام والأحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك ، والضمير في قوله ﴿ من دونه ﴾ راجع على ﴿ ربكم ﴾ ، هذا أظهر وجوهه وأبينها ، وقيل يعود على قوله ﴿ اتبعوا ما ﴾ ، وقيل يعود على الكتاب المتقدم الذكر ، و ﴿ قليلاً ﴾ نعت لمصدر نصب بفعل مضمر ، وقال مكي هو منصوب بالفعل الذي بعده ، قال الفارسي و ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما تذكرون ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر " تذّكّرون " بتشديد الذال والكاف ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في روياة حفص " تَذّكرون " بتخفيف الذال وتشديد الكاف ، وقرأ ابن عامر " يتذكرون " بالياء كناية عن غيب ، وروي عنه إنه قرأ " تتذكرون " بتاءين على مخاطبة حاضرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ﴾ إن قيل : كيف خاطبه بالإفراد في الآية الأولى ، ثم جمع بقوله : "اتبعوا" ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لما علم أن الخطاب له ولأمته ، حسن الجمع لذلك المعنى .

والثاني : أن الخطاب الأول خاص له ؛ والثاني محمول على الإِنذار ، والإِنذار في طريق القول ، فكأنه قال : لتقول لهم منذراً : ﴿ اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ﴾ ، ذكرهما ابن الانباري .

والثالث : أن الخطاب الثاني للمشركين ، ذكره جماعة من المفسرين ؛ قال : والذي أنزل إليهم القرآن .

(74/263)

وقال الزجاج : الذي أُنزل : القرآن وما أتى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه مما أنزل عليه ، لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ أي : لا تتولوا مَنْ عدل عن دين الحق ؛ وكلُّ من ارتضى مذهباً فهو ولي أهل المذهب .

وقوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ ما : زائدة مؤكِّدة ؛ والمعنى : قليلاً تتذكرون .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ﴿ تذّكّرون ﴾ مشددة الذال والكاف .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ﴿ تذكّرون ﴾ خفيفة الذال مشددة

الكاف .

قال أبو علي : من قرأ ﴿ تذَّكرون ﴾ بالتشديد ، أراد ﴿ تتذكرون ﴾ فأدغم التاء في الذال ، وإدغامها فيها حسن ، لأن التاء مهموسة ، والذال مجهورة ؛ والمجهور أزيد صوتاً من المهموس وأقوى ؛ فادغام الأنقص في الأزيد حسن .

وأما حمزة ومن وافقه ، فانهم حذفوا التاء التي أدغمها هؤلاء ، وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة .

وقرأ ابن عامر : "يتذكرون" بياء وتاء ، على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى : قليلاً ما يتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني الكتاب والسنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

وقالت فرقة : هذا أمر يعمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته .

والظاهر أنه أمرٌ لجميع الناس دونَه .

أي اتبعوا ملَّة الإسلام والقرآن ، وأحِلوا حلالَه وحرِّموا حرامه ، وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

ودلّت الآية على ترك اتباع الآراء مع وجود النصِّ .

(75/263)

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ "مِنْ دُونِهِ" من غيره .

والهاء تعود على الرب سبحانه ، والمعنى : لا تعبدوا معه غيره ، ولا تتخذوا مَن عدلَ عن دين الله وِلياً .

وكل من رضي مذهباً فأهل ذلك المذهب أولياؤه .

وروي عن مالك ابن دِينار أنه قرأ ﴿ وَلاَ تَبْتَغُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ولا تطلبوا .

ولم ينصرف "أولياء" لأن فيه ألف التأنيث .

وقيل : تعود على "ما" من قوله : ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ "ما" زائدة .

وقيل : تكون مع الفعل مصدراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي : قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم يعني من القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان .

قال الحسن : يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم والله ما نزلت آية إلا ويجب أن تعلم فيما أنزلت وما معناها ، وبنحو هذا قال الزجاج : أي اتبعوا القرآن وما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فإنه مما أنزل لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ومعنى الآية أن الله تعالى لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإنذار في قوله لتنذر به كان معنى الكلام أنذر القوم ﴿ وقل لهم اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ، وقيل : معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، وقيل : هو خطاب للكفار أي اتبعوا أيها المشركون ما أنزل إليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عيله من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ يعني ولا تتخذوا الذين يدعونكم إلى الكفر والشرك فتتبعوهم .

(76/263)

والمعنى : ولا تتولوا من دونه شياطين الإنس والجن فيأمروكم بعبادة الأصنام واتباع البدع والأهواء الفاسدة ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ يعني ما تتعظون إلا قليلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ اتبِعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾

لما ذكر تعالى أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتّباعه وما أنزل إليكم يشمل القرآن والسنة لقوله ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ونهاهم عن ابتغاء أولياء من دون الله كالأصنام والرّهبان والكهّان والأحبار والنار والكواكب وغير ذلك والظاهر أن الضمير في ﴿ من دونه ﴾ عائد على ﴿ ربكم ﴾ .

وقيل على ما وقيل على الكتاب والمعنى لا تعدلوا عنه إلى الكتب المنسوخة .

وقيل أراد بالأولياء الشياطين شياطين الجنّ والإنس وإنهم الذين يحملون على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلّون عن دين الله .

وقرأ الجحدري : ابتغوا من الإبتغاء .

وقرأ مجاهد ومالك بن دينار .

ولا تبتغوا من الابتغاء أيضاً والظاهر أنّ الخطاب هو لجميع الناس .

وقال الطبري وحكاه : التقدير ﴿ قل اتبعوا ﴾ فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدّم الذكر

عليه وانتصب ﴿ قليلا ﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف و﴿ ما ﴾ زائدة أي يتذكرون تذكراً قليلاً أي حيث يتركون دين الله ويتّبعون غيره وأجاز الحوفي أن يكون نعتاً لمصدر محذوف والناصب له ولا تتّبعوا أي اتّباعاً قليلاً .

وحكى ابن عطيّة عن الفارسيّ : إن ﴿ ما ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية انتهى .

وتمّم غيره هذا الإعراب بأنّ نصب قليلاً على أنه نعت لظرف محذوف أي زماناً قليلاً نذكّركم أخبر أنهم لا يدّعون الذكر إنما يعرض لهم في زمان قليل وما يذكرون في موضع رفع على أنه مبتدأ والظرف قبله في موضع الخبر وأبعد من ذهب إلى أن ﴿ ما ﴾ نافية .

(77/263)

وقرأ حفص والإخوان ﴿ تذكرون ﴾ بتاء واحدة وتخفيف الذال ، وقرأ ابن عامر ﴿ يتذكرون ﴾ بالياء والتاء وتخفيف الذال ، وقرأ باقي السبعة بتاء الخطاب وتشديد الذال وقرأ أبو الدرداء وابن عباس وابن عامر في رواية بتاءين ، وقرأ مجاهد بياء وتشديد الذال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾

كلامٌ مستأنفٌ خوطب به كافةُ المكلفين بطريق التلوينِ وأُمروا باتباع ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم قبل تبليغِه بطريق الإنذار والتذكيرِ ، وجعلُه منزلاً إليهم بواسطة إنزالِه إليه عليه الصلاة والسلام إثرَ ذلك ما يصححه من الإنذار والتذكير لتأكيد وجوبِ اتباعه ، وقولُه تعالى : ﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلقٌ بأُنزل على أن (من) لابتداء الغايةِ مجازاً أو بمحذوف وقع حالاً من الموصول أو من ضميره في الصلة ، وفي التعرُّض لوصف الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين مزيدُ لطفٍ بهم وترغيبٌ لهم في الامتثال بما أُمروا به وتأكيدٌ لوجوبه ، وجعلُ ما أنزل هاهنا عاماً للسنة القولية والفعلية بعيدٌ . نعم يعمُّهما حكمُه بطريق الدِلالةِ لا بطريق العبادةِ ولما كان اتباعُ ما أنزله الله تعالى اتباعاً له تعالى عُقّب الأمرُ بذلك بالنهي عن اتباع غيرِه تعالى فقيل : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ ﴾ أي من دون ربكم الذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق ، ومحلُّه النصبُ على أنه حالٌ من فاعل فعلِ النهي أي لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ من الجن والإنسِ بأن تقبلوا منهم ما يُلْقونه إليكم بطريق الوسوسةِ والإغواءِ من الأباطيل ليضلّوكم عن الحق ويَحملوكم على البدع والأهواءِ الزائغةِ أو مِنْ أولياءَ قُدّم عليه لكونه نكرةً إذ لو أُخر عنه لكان صفةً له أي أولياءَ كائنةً غيرَه تعالى ، وقيل :

الضميرُ للموصول على حذف المضافِ في أولياء ولا تتبعوا من دون ما أَنزل أباطيلَ أولياءَ كأنه قيل : ولا تتبعوا من دون دينِ ربّكم دينَ أولياءَ وقرىء ولا تبتغوا كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيفِ الذال ، وقرىء بتشديدها على إدغام التاء المهموسةِ في الذال المجهورة ، وقرىء يتذكرون على صيغة الغَيبة ، وقليلاً نُصب إما بما بعده على أنه

(79/263)

نعتٌ لمصدر محذوفٍ مقدَّمٍ للقصر ، أو لزمانٍ كذلك محذوفٍ و(ما) مزيدةٌ لتأكيد القِلة ، أي تذكرا قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون لا كثيراً حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دينَ الله تعالى وتتبعون غيرَه ، ويجوز أن يُراد بالقلة العدمُ كما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مسوقٌ لتقبيح حالِ المخاطَبين ، والالتفاتُ على القراءة الأخيرةِ للإيذان باقتضاء سوءِ حالِهم في عدم الامتثالِ بالأمر والنهي على صرفِ الخطابِ عنهم وحكايةِ جناياتِهم لغيرهم بطريق المباثّة ، وإما نُصبَ على أنه حالٌ من فاعل لا تتبعوا وما مصدريةٌ مرتفعةٌ به أي لا تتبعوا من دونه أولياءَ قليلاً تذكّركم لكن لا على توجيه النهي إلى المقيد فقط كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُمْ سكارى ﴾

بل إلى المقيد والقيدِ جميعاً ، وتخصيصُه بالذكر لمزيد تقبيحِ حالِهم بجمعهم بين المنكرين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(80/263)

وقال الآلوسى :

﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبِّكُمْ ﴾

خطاب لكافة المكلفين ، والمراد بالموصول الكتاب المنزل إليه صلى الله عليه وسلم كما روي عن قتادة إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر وجعل منزلاً إليهم لتأكيد وجوب الاتباع ؛ وقيل : المراد به ما يعم الكتاب والسنة فليس من وضع المظهر موضع المضمر .

وإيثاره لفائدة التعميم وتشميم من أسلوب قول الأنمارية هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها وتتميم لشرح الصدر فإنه لما شجع أمر الجميع باتباع جميع ما يرسمه ليكون أدعى لانشراح صدره عليه الصلاة والسلام ورحب ذراعه .

ولا يخفى أن هذا الحمل بعيد .

نعم يعم السنة بأقسامها الحكم بطريق الدلالة لا بطريق العبارة ، و ﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بأنزل على أنها لابتداء الغاية مجازاً أو بمحذوف وقع حالاً من الموصول أو من ضميره في الصلة ،

وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم في الامتثال بما أمروا به وتأكيد لوجوبه إثر تأكيد .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ الضمير المجرور عائد إلى ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ والجار متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل فعل النهي أي ولا تتبعوا متجاوزين ربكم الذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق أولياء من الشياطين والكهان بأن تقبلوا منهم ما يلقونه إليكم من الأباطيل ليضلوكم عن الحق بعد إذ جاءكم ويحملوكم على البدع والأهواء الزائغة .

ويجوز أن يكون الجار متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ قدم عليه لكونه نكرة أي أولياء كائنة غيره تعالى ، وأن يكون متعلقاً بالفعل قبله أي تعدلوا عنه سبحانه إلى غيره .

(81/263)

ولما كان اتباع ما أنزله سبحانه جل وعلا اتباعاً له عز شأنه عقب الأمر السابق بهذا النهي ، وقيل : الضمير لما أنزل على حذف مضاف في ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ أي لا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء ، وكأنه قيل : ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين أولياء ، وذلك التقدير لأنه لا يحسن وصف المنزل بكونه دونهم ، وجوز كون الضمير للمصدر أي لا تتبعوا أولياء اتباعاً من دون اتباعكم ما أنزل إليكم وفيه بعد .

وقرأ مجاهد ﴿ تَبْتَغُواْ ﴾ بالغين المعجمة من الابتغاء .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون لا كثيراً حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون الحق وتتبعون غيره ، فقليلاً نعت مصدر أو زمان محذوف أقيم مقامه ونصبه بالفعل بعده وقدم عليه للقصر ، و﴿ مَا ﴾ مزيد لتأكيد القلة لأنها تفيدها في نحو أكلت أكلاً ما فهي ههنا قلة على قلة ، والظاهر من القلة معناها ، وجوز أن يراد بها العدم كما في قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 88] وأجيز أن يكون ﴿ قَلِيلاً ﴾ نعت مصدر لتتبعوا أي اتباعاً قليلاً ، قيل : ويضعفه أنه لا معنى حينئذٍ لقوله سبحانه : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ وأما النهي عن الاتباع القليل فلا يضر لأنه يفهم منه غيره بالطريق البرهاني ، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿ لاَ تَتَّبِعُواْ ﴾ و(ما) مصدرية أو موصولة فاعل له كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] والنهي متوجه إلى القيد والمقيد جميعاً واعترض بأنه لا طائل تحت معناه وأن وجه بما وجه ، وأن يكون (ما) مصدرية أو موصولة مبتدأ ، و﴿ قَلِيلاً ﴾ على معنى زماناً قليلاً خبره ، وقيل : إن (ما) نافية و﴿ قَلِيلاً ﴾ معمول لما بعده ، والكوفيون يجوزون عمل ما بعد (ما) النافية فيما قبلها ، والمعنى ما تذكرون قليلاً فكيف تذكرون كثيراً وليس بشيء .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بحذف إحدى التاءين وذال مخففة .

وقرأ ابن عامر ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ بياء تحتية ومثناة فوقية وذال مخففة ، وفي طريق شاذة عنه بتاءين فوقيتين .

وقرأ الباقون بتاء فوقية وذال مشددة على إدغام التاء المهموسة في الذال المجهورة ، والجملة على ما قاله غير واحد اعتراض تذييلي مسوق لتقبيح حال المخاطبين ، والالتفات على القراءة المشهورة عن ابن عامر للإيذان باقتضاء سوء حالهم في عدم الامتثال بالأمر والنهي صرف الخطاب عنهم ، وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباتة ولا حجة في الآية لنفاة القياس كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(82/263)

وقال ابن عاشور :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) ﴾

بيان لجملة : ﴿ لتنذر به ﴾ [الأعراف : 2] بقرينة تذييلها بقوله : قليلاً ما تذكرون .

فالخطاب موجّه للمشركين ويندرج فيه المسلمون بالأولى ، فبعد أن نوّه الله بالكتاب المنزّل إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم وبيّن أن حكمة إنزاله للإنذار والذّكرى ، أمر النّاس أن يتّبعوا ما أنزل إليهم ، كلٌّ يتبع ما هو به أعلق ، والمشركون أنزل إليهم الزّجر عن الشّرك

والاحتجاج على ضلالهم ، والمسلمون أنزل إليهم الأمر والنّهي والتّكليف ، فكلٌّ مأمور باتّباع ما أنزل إليه ، والمقصود الأجْدَر هم المشركون تعريضاً بأنّهم كفروا بنعمة ربّهم ، فوصْفُ (الرب) هنا دون اسم الجلالة : للتّذكير بوجوب اتّباع أمره ، لأنّ وصف الربوبيّة يقتضي الامتثال لأوامره ، ونهاهم عن اتّباع أوليائهم الذين جعلوهم آلهة دونه ، والموجه إليهم النّهي هم المشركون بقرينة قوله : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ .

والاتِّباع حقيقته المشي وراء ماشٍ ، فمعناه يقتضي ذاتين : تابعاً ومتوبعاً ، يقال : اتَّبع وتَبِع ، ويستعار للعمل بأمر الآمر نحو : ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفعصيت أمري ﴾ [طه : 92 ، 93] وهو استعارة تمثيليّة مبنيّة على تشبيه حالتين ، ويستعار للاقتداء بسيرة أو قَوْل نحو : ﴿ ولا تَتّبعوا خطوات الشيطان ﴾ [البقرة : 168] وهو استعارة مصرّحة تنبني على تشبيه المحسوس بالمعقول مثل قوله تعالى : ﴿ إن أتَّبِع إلاّ مَا يُوحى إليّ ﴾ [الأنعام : 50] ، ومنه قوله هنا : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ .

والمراد بما أنزل هو الكتاب المذكور بقوله : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ [الأعراف : 2] .

وقوله : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ تصريح بما تضمّنه : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ لأنّ فيما أنزل إليهم من ربّهم أنّ الله إلهٌ واحد لا شريك له ، وأنّه الولي ، وأنّ الذين اتَّخذوا من دونه أولياء اللَّهُ حفيظ عليهم ، أي مجازيهم لا يخفى عليه فعلَهم ، وغيرَ ذلك من آي القرآن ؛ والمقصود من هذا النّهي تأكيد مقتضى الأمر باتّباع ما أنزل إليهم اهتماماً بهذا الجانب ممّا أنزل إليهم ، وتسجيلاً على المشركين ، وقطعاً لمعاذيرهم أن يقولوا إنّنا اتَّبعنا ما أنزل إلينا ، وما نرى أولياءنا إلاّ شفعاءَ لنا عند الله فما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى ، فإنّهم كانوا يموهون بمثل ذلك ، ألا ترى أنّهم كانوا يقولون في تلبيتهم : "لبّيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك" فموقع قوله : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم ﴾ موقع الفَصل الجامع من الحد ، وموقع ﴿ ولا تتبعوا ﴾ موقع الفصل المانع في الحَدّ .

والأولياء جمع ولي ، وهو المُوالي ، أي الملازم والمعاون ، فيطلق على النّاصر ، والحليف ، والصاحب الصّادق المودّة ، واستعير هنا للمعبود وللإله : لأنّ العبادة أقوى أحوال الموالاة ، قال تعالى : ﴿ أم اتّخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي ﴾ [الشورى : 9] وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أتّخذ ولياً ﴾ في سورة الأنعام (14) ، وهذا هو المراد هنا .

والاتّباع في قوله : ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ يجوز أن يكون مستعملاً في المعنى الذي استعمل فيه الاتّباع في قوله : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ وذلك على تقدير : لا

تتّبعوا ما يأتيكم من أولياء دون الله ، فإن المشركين ينسبون ما هم عليه من الدّيانة الضّالة إلى الآلهة الباطلة ، أو إلى سدنة الآلهة وكُهّانها ، كما تقدّم عند قوله تعالى:

(84/263)

﴿ وكذلك زَيّن لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم ﴾ [الأنعام : 137] ، وقوله : ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ كما في سورة الأنعام (136) ، وعلى تلك الاعتبارات يجري التّقدير في قوله : أولياء ﴾ أي لا تمتثلوا للأولياء أو أمرهم أو لدعاة الأولياء وسدنتهم .

ويجوز أن يكون الاتّباع مستعاراً للطّلب والاتّخاذ ، أي ولا تتّخذوا أولياء غيره نحو قولهم : هو يتّبع زلة فلان .

وفي الحديث : " يتّبع بها شَعَف الجبال ومواقعَ القطر " أي يتطلبها .

و(مِنْ) في قوله : ﴿ من دونه ﴾ ابتدائيّة ، و(دون) ظرف للمكان المجاوز المنفصل ، وقد جرّ بمن الجارة للظروف ، وهو استعارة للترك والإعراض .

والمجرور في موضع الحال من فاعل ﴿ تتّبعوا ﴾ ، أي لا تتّبعوا أولياء متّخذينَها دونه ، فإنّ المشركين وإن كانوا قد اعترفوا لله بالإلهيّة واتبعوا أمره بزعمهم في كثير من أعمالهم : كالحج

ومناسكه ، والحَلِف باسمه ، فهم أيضاً اتّبعوا الأصنام بعبادتها أو نسبةِ الدّين إليها ، فكلّ عمل تقرّبوا به إلى الأصنام ، وكلّ عمل عملوه امتثالا لأمر ينسب إلى الأصنام ، فهم عند عمله يكونون متّبعين اتّباعاً فيه اعراض عن الله وترك للتّقرب إليه ، فيكون اتّباعاً من دون الله ، فيدخل في النّهي ، وبهذا النّهي قد سُدت عليهم أبواب الشّرك وتأويلاته كقولهم : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] فقد جاء قوله : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ في أعلى درجة من الايجاز واستيعاب المقصود .

وأفاد مجموع قوله : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ مفاد صيغة قصر ، كأنّه قال : لا تتّبعوا إلاّ ما أمر به ربّكم ، أي دون ما يأمركم به أولياؤكم ، فعُدل عن طريق القصر لتكون جملة : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ مستقلّة صريحة الدّلالة اهتماماً بمضمونها على نحو قول السَّمَوْأل أوْ الحَارثي:

تَسيلِ على حد الظُّبات نفوسنا . . .

(85/263)

وليست على غير الظبَات تسيل

وجملة : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ هي في موضع الحال من ﴿ لا تَتَّبعوا ﴾ ، وهي حال

سببيّة وكاشفة لصاحبها ، وليست مقيّدَة للنّهي : لظهور أنّ المتّبعين أولياءَ من دون الله ليسوا إلاّ قليلي التذكر .

ويجوز جعل الجملة اعتراضاً تذييلياً .

ولفظ (قليلاً) يجوز أن يحمل على حقيقته لأنّهم قد يتذكّرون ثمّ يعرضون عن التّذكّر في أكثر أحوالهم فهم في غفلة معرضون ، ويجوز أن يكون (قليلاً) مستعاراً لمعنى النّفي والعدم على وجه التّلميح كقوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ [البقرة : 88] (فإنّ الإيمان لا يوصف بالقلّة والكثرة) .

والتّذكّر مصدر الذّكر بضمّ الذال وهو حضور الصورة في الذّهن .

وقليل مستعمل في العدم على طريقة التّهكّم بالمضيع للأمر النّافع يقال له : إنّك قليل الإتيان بالأمر النّافع ، تنبيهاً له على خطئه ، وإنّه إن كان في ذلك تفريط فلا ينبغي أن يتجاوز حدّ التّقليل دون التّضييع له كلّه .

و(ما) مصدريّة والتّقدير : قليلاً تَذَكُّركم ، ويجوز أن يكون ﴿ قليلاً ﴾ صفة مصدر محذوف دلّ عليه ﴿ تذكرون ﴾ و(ما) مزيدة لتوكيد القلّة ، أي نوع قلّة ضعيف ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَنْ يضرِبَ مثلاً مَّا ﴾ [البقرة : 26] .

وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ في سورة البقرة (88) .

والمعنى : لو تذكّرتم لما اتّبعتم من دونه أولياء ولما احتجتم إلى النّهي عن أن تتّبعوا من دونه

أولياء ، وهذا نداء على إضاعتهم النّظر والاستدلال في صفات الله وفي نقائص أوليائهم المزعومين .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما تذّكرون ﴾ بفوقية واحدة وتشديد الذال على أنّ أصله تَتَذكّرون بتاءين فوقيتين فقلبت ثانيتُهما ذالاً لتقارب مخرجيهما ليتأتى تخفيفه بالإدغام .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف بتخفيف الذال على حذف إحدى التاءين اختصاراً .

(86/263)

وقرأه ابن عامر : ﴿ يتذكّرون ﴾ بتحتيّة في أوّله ثمّ فوقيّة ، والضّمير عائد إلى المشركين على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، أعرض عنهم ووجّه الكلام على غيرهم من السّامعين : إلى النّبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(87/263)

وقال القاسمي :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] .

قوله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل ، وهو القرآن ، والمراد بـ : ﴿ مَا أُنْزِلَ ﴾ : القرآن والسنة ، وقوفا مع عمومه ، لقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : استدل به بعضهم على أن المباح مأمور به ، لأنه من جملة ما أنزل الله ، وقد أمرنا الله باتباعها – انتهى – .

وأقول : هذا غلو في الاستنباط ، وتعمق بارد ، ويرحم الله القائل : إذا اشتد البياض صار بَرَصاً .

﴿ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : لا تتبعوا أولياء غيره تعالى ، من الجن والإنس ، فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع .

﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : ما تتعظون إلا قليلا ، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دينه تعالى ، وتتبعون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 6.

7 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

(وَهِيَ السُّورَةُ السَّابِعَةُ فِي الْعَدَدِ وَسَادِسَةُ السَّبْعِ الطُّوَلِ وَآيَاتُهَا 205 آيَاتٍ عِنْدَ الْقُرَّاءِ الْبَصْرِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ و206 عِنْدَ الْمَدَنِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ)

الْأَعْرَافُ مَكِّيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ أُطْلِقَ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَاسْتَثْنَى قَتَادَةُ آيَةَ (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ) (163) رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ حِبَّانَ . قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الْإِتْقَانِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : مِنْ هُنَا إِلَى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) (172) مَدَنِيٌّ . اهـ وَكَأَنَّ قَائِلَ هَذَا رَأَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مُتَّصِلٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِالْمَعْنَى فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهَا مَكِّيًّا وَبَعْضُهَا مَدَنِيًّا وَبِهَذَا النَّظَرِ نَقُولُ : إِنَّ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ وَهُوَ قِصَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَنَّ الْغَايَةَ وَهِيَ (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الْمُغَيَّا فَهِيَ بَدْءُ سِيَاقٍ جَدِيدٍ عَامٍّ . وَمُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمُخْتَارُ .

مُنَاسَبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا :

سُورَةُ الْأَعْرَافِ أَطْوَلُ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، فَلَوْ كَانَ تَرْتِيبُ السَّبْعِ الطُّوَلِ

مُرَاعًى فِيهِ تَقْدِيمُ الْأَطْوَلِ فَالْأَطْوَلِ مُطْلَقًا لَقُدِّمَتِ الْأَعْرَافُ عَلَى الْأَنْعَامِ ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ قَبْلَهَا – وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا نَزَلَتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً مِثْلَهَا – فَلَمْ يَبْقَ وَجْهٌ لِتَقْدِيمِ الْأَنْعَامِ إلَّا أَنَّهَا أَجْمَعُ لِمَا تَشْتَرِكُ السُّورَتَانِ فِيهِ وَهُوَ أُصُولُ الْعَقَائِدِ وَكُلِّيَّاتِ الدِّينِ الَّتِي أَجْمَلْنَا جُلَّ أُصُولِهَا فِي خَاتِمَةِ تَفْسِيرِهَا ، وَكَوْنِ مَا أُطِيلَ بِهِ فِي الْأَعْرَافِ كَالشَّرْحِ لِمَا أُوجِزَ بِهِ فِيهَا أَوِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ ، وَلَا سِيَّمَا عُمُومُ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَصَصُ الرُّسُلِ قَبْلَهُ وَأَحْوَالُ أُقْوَامِهِمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بَعْضَ هَذَا التَّنَاسُبِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ مَعَ مَا قَبْلَهُمَا فِي فَاتِحَةِ تَفْسِيرِ الْأُولَى (رَاجِعْ ص240 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ) وَسَنَزِيدُهُ تَفْصِيلًا فِيمَا نَذْكُرُهُ فِي خَاتِمَةِ الْأَعْرَافِ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَا فِي خَاتِمَةِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْأُصُولِ الْكُلِّيَّةِ فِيهَا إنْ أَحْيَانَا اللَّهُ تَعَالَى . وَأَمَّا سَبَبُ تَأْخِيرِ نُزُولِ الْأَنْعَامِ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا عُلِمَ مِنَ التَّدْرِيجِ فِي تَلْقِينِ الدِّينِ وَمُرَاعَاةِ اسْتِعْدَادِ الْمُخَاطَبِينَ فِيهِ وَهِيَ أَجْمَعُ لِلْأُصُولِ الْكُلِّيَّةِ وَلِرَدِّ شُبُهَاتِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ بَيْنَ مَا يُرَاعَى مِنَ التَّرْتِيبِ فِي دَعْوَتِهِمْ وَمَا يُرَاعَى فِي تِلَاوَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْقُرْآنِ .

وَذَكَرَ السُّيُوطِيُّ فِي الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ مَا نَقَلَهُ الْآلُوسِيُّ عَنْهُ ، وَهُوَ أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ لَمَّا كَانَتْ لِبَيَانِ الْخَلْقِ وَفِيهَا (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ 6 : 2) وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي بَيَانِ

(91/263)

الْقُرُونِ : (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ 6 : 6) وَأُشِيرَ إِلَى ذِكْرِ الْمُرْسَلِينَ وَتَعْدَادِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَكَانَ مَا ذُكِرَ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ - جِيءَ بِهَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَهَا مُشْتَمِلَةً عَلَى شَرْحِهِ وَتَفْصِيلِهِ ، فَبُسِطَ فِيهَا قِصَّةُ آدَمَ ، وَفُصِّلَتْ قِصَصُ الْمُرْسَلِينَ وَأُمَمِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ هَلَاكِهِمْ أَكْمَلَ تَفْصِيلٍ . وَيَصْلُحُ هَذَا أَنْ يَكُونَ تَفْصِيلًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) (6 : 165) وَلِهَذَا صَدَّرَ السُّورَةَ بِخَلْقِ آدَمَ الَّذِي جَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي قِصَّةِ عَادٍ : (جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) (69) وَفِي قِصَّةِ ثَمُودَ : (جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ) (74) وَأَيْضًا فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (6 : 54) وَهُوَ كَلَامٌ مُوجَزٌ وَبَسَطَهُ سُبْحَانَهُ هُنَا بِقَوْلِهِ : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) (156) وَأَمَّا وَجْهُ ارْتِبَاطِ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ بِآخِرِ الْأُولَى فَهُوَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) (6 : 153) (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ) (6 : 155) وَافْتَتَحَ هَذِهِ بِالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَأَيْضًا لِمَا تَقَدَّمَ (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (6 : 159) (ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (6 : 164) قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ فِي مُفْتَتَحِ هَذِهِ السُّورَةِ : (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ

(92/263)

أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ) (6) إِلَخْ . وَذَلِكَ مِنْ شَرْحِ التَّنْبِئَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَأَيْضًا لَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ) (6 : 160) الْآيَةَ وَذَلِكَ لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي الْمِيزَانِ افْتَتَحَ هَذِهِ بِذِكْرِ الْوَزْنِ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ) (8) ثُمَّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ وَهُوَ مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، ثُمَّ مَنْ خَفَّتَ وَهُوَ عَلَى الْعَكْسِ . ثُمَّ ذَكَرَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ وَهُمْ فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ مَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ اهـ . وَنَكْتَفِي بِهَذَا مَعَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلَهُ هُنَا وَإِنْ كَانَ مِنَ السَّهْلِ بَسْطُهُ بِأَوْضَحَ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَالزِّيَادَةِ عَلَيْهِ . وَنَشْرَعُ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ مُسْتَعِينِينَ بِإِلْهَامِهِ وَتَفْهِيمِهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

المص (1)

(93/263)

(المص) هَذِهِ حُرُوفٌ مُرَكَّبَةٌ فِي الرَّسْمِ بِشَكْلِ كَلِمَةٍ ذَاتِ أَرْبَعَةِ أَحْرُفٍ وَلَكِنَّهَا تُقْرَأُ بِأَسْمَاءِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ سَاكِنَةً هَكَذَا : أَلِفْ ، لَامْ ، مِيمْ ، صَادْ ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ حِكْمَةَ افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ وَأَمْثَالِهَا بِأَسْمَاءِ حُرُوفٍ لَيْسَ لَهَا مَعْنًى مَفْهُومٌ غَيْرُ مُسَمَّى تِلْكَ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلَامُ هِيَ تَنْبِيهُ السَّامِعِ إِلَى مَا سَيُلْقَى إِلَيْهِ بَعْدَ هَذَا الصَّوْتِ مِنَ الْكَلَامِ حَتَّى لَا يَفُوتَهُ مِنْهُ شَيْءٌ . فَهِيَ كَأَدَاةِ الِافْتِتَاحِ " أَلَا " وَ " هَاءِ " التَّنْبِيهِ . وَإِنَّمَا خُصَّتْ سُوَرٌ مُعَيَّنَةٌ مِنَ الطُّوَلِ وَالْمِئِينَ الْمَثَانِي وَالْمُفَصَّلِ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الِافْتِتَاحِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتْلُوهَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ لِدَعْوَتِهِمْ بِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِثْبَاتِ الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ ، وَكُلُّهَا مَكِّيَّةٌ إِلَّا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ - وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ فِيهِمَا مُوَجَّهَةً إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ - وَكُلُّهَا مُفْتَتَحَةٌ بِذِكْرِ الْكِتَابِ إِلَّا سُورَةَ مَرْيَمَ وَسُورَتَيِ الْعَنْكَبُوتِ وَالرُّومِ وَسُورَةَ (ن) . وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنًى مِمَّا فِي هَذِهِ السُّوَرِ يَتَعَلَّقُ بِإِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ .

(94/263)

فَأَمَّا سُورَةُ مَرْيَمَ فَقَدْ فُصِّلَتْ فِيهَا قِصَّتُهَا بَعْدَ قِصَّةِ يَحْيَى وَزَكَرِيَّا الْمُشَابِهَةِ لَهَا . وَيَتْلُوهُمَا ذِكْرُ رِسَالَةِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ مَبْدُوءًا كُلٌّ مِنْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ) وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنُ . فَكَأَنَّهُ قَالَ فِي كُلٍّ مِنْ قِصَّةِ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَقِصَّةِ مَرْيَمَ وَعِيسَى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ) وَذِكْرُ هَذِهِ الْقِصَصِ فِي الْقُرْآنِ مِنْ دَلَائِلِ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ هَذَا لَا هُوَ وَلَا قَوْمُهُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ بَعْدَ تَفْصِيلِ قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (11 : 49) وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ يُوسُفَ بَعْدَ سَرْدِ قِصَّتِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (12 : 102) وَخُتِمَتْ هَذِهِ السُّورَةُ " أَيْ سُورَةُ مَرْيَمَ " بِإِبْطَالِ الشِّرْكِ وَإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ اتِّخَاذِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْوَلَدِ ، وَتَقْرِيرِ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ . فَهِيَ بِمَعْنَى سَائِرِ السُّوَرِ الَّتِي كَانَتْ تُتْلَى لِلدَّعْوَةِ وَيُقْصَدُ بِهَا إِثْبَاتُ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَرِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَصِدْقِ كِتَابِهِ الْحَكِيمِ .

(95/263)

وَأَمَّا سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ وَسُورَةُ الرُّومِ فَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدِ افْتُتِحَتْ بَعْدَ (الم) بِذِكْرِ أَمْرٍ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالدَّعْوَةِ . فَالْأَوَّلُ الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ ، وَهِيَ إِيذَاءُ الْأَقْوِيَاءِ لِلضُّعَفَاءِ وَاضْطِهَادُهُمْ لِأَجْلِ إِرْجَاعِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ . كَانَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُطْفِئُونَ نُورَ الْإِسْلَامِ وَيُبْطِلُونَ دَعْوَتَهُ بِفِتْنَتِهِمْ لِلسَّابِقِينَ إِلَيْهِ وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ

(96/263)

لَا نَاصِرَ لَهُمْ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ بِحَمِيَّةِ نَسَبٍ وَلَا وَلَاءٍ وَكَانَ الْمُضْطَهَدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجْهَلُونَ حِكْمَةَ اللهِ بِظُهُورِ أَعْدَائِهِ عَلَيْهِمْ ، فَبَيَّنَ اللهُ فِي فَاتِحَةِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ الْفِتْنَةَ فِي الدِّينِ مِنْ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ يَمْتَازُ بِهَا الصَّادِقُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ الصَّابِرِينَ . فَكَانَتِ السُّورَةُ جَدِيرَةً بِأَنْ تُفْتَتَحَ بِالْحُرُوفِ الْمُنَبِّهَةِ لِمَا بَعْدَهَا . وَالْأَمْرُ الثَّانِي الَّذِي افْتُتِحَتْ بِهِ سُورَةُ الرُّومِ هُوَ الْإِنْبَاءُ بِأَمْرٍ وَقَعَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمَّا يَكُنْ وَصَلَ خَبَرُهُ إِلَى قَوْمِهِ – وَبِمَا سَيَعْقُبُهُ مِمَّا هُوَ فِي ضَمِيرِ الْغَيْبِ ذَلِكَ أَنَّ دَوْلَةَ فَارِسَ غَلَبَتْ دَوْلَةَ الرُّومِ فِي الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ قَدْ طَالَ أَمْرُهُ بَيْنَهُمَا فَأَخْبَرَ اللهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ ، وَبِأَنَّ الْأَمْرَ سَيَدُولُ وَتَغْلِبُ الرُّومُ الْفُرْسَ فِي مَدَى بِضْعِ

(97/263)

سِنِينَ . وَبِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْصُرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ صَدَقَ الْخَبَرُ وَتَمَّ الْوَعْدُ فَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا مُعْجِزَةً مِنْ أَظْهَرِ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ وَالْآيَاتِ الْمُثْبِتَةِ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَلَوْ فَاتَ مَنْ تَلَاهَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَةٌ مِنْ أَوَّلِهَا لَمَا فَهِمُوا مِمَّا بَعْدَهَا شَيْئًا فَكَانَتْ جَدِيرَةً بِأَنْ تُبْدَأَ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُسْتَرْعِيَةِ لِلْأَسْمَاعِ الْمُنَبِّهَةِ لِلْأَذْهَانِ . وَكَانَ هَذَا بَعْدَ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ بَعْضَ الِانْتِشَارِ ، وَتَصَدِّي رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ لِمَنْعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدَّعْوَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ وَلَا سِيَّمَا فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ ، وَكَانَ السُّفَهَاءُ يَلْغَطُونَ إِذَا قَرَأَ وَيَصْخَبُونَ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (41 : 26) .

(98/263)

وَأَمَّا سُورَةُ " ن " فَفَاتِحَتُهَا وَخَاتِمَتُهَا فِي بَيَانِ تَعْظِيمِ شَأْنِ الرَّسُولِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَفْعِ شُبْهَةِ الْجُنُونِ عَنْهُ ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بَعْدَ سُورَةِ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)

(96 : 1) وَكَانَتْ شُبْهَةُ رَمْيِهِ – حَمَاهُ اللهُ وَكَرَّمَهُ – بِتُهْمَةِ الْجُنُونِ مِمَّا يَتَبَادَرُ إِلَى الْأَذْهَانِ مِنْ غَيْرِ عَدَاوَةٍ وَلَا مُكَابَرَةٍ ، فَإِنَّ رَجُلًا أُمِّيًّا فَقِيرًا وَادِعًا سَلِمًا ، لَيْسَ بِرَئِيسِ قَوْمٍ وَلَا قَائِدِ جُنْدٍ ، وَلَا ذِي تَأْثِيرٍ فِي الشَّعْبِ بِخِطَابَةٍ وَلَا شِعْرٍ ، يَدَّعِي أَنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ عَلَى ضَلَالِ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ لِهِدَايَةِ هَؤُلَاءِ الْخَلْقِ ، وَأَنَّ دِينَهُ سَيَهْدِي الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَإِصْلَاحَ شَرْعِهِ سَيَعُمُّ جَمِيعَ الْأُمَمِ ، لَا يُسْتَغْرَبُ مِنْ مَدَارِكِ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الْأُمِّيِّينَ الْجَاهِلِينَ بِسُنَنِ اللهِ فِي الْأُمَمِ وَآيَاتِهِ فِي تَأْيِيدِ الْمُرْسَلِينَ ، أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ مَا يَصِفُونَ بِهِ صَاحِبَ هَذِهِ الدَّعْوَى قَبْلَ ظُهُورِ الْآيَاتِ وَالْعُلُومِ بِقَوْلِهِمْ : " إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ " وَبَعْدَ ظُهُورِهَا بِقَوْلِهِمْ : " سَاحِرٌ أَوْ كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ " وَبَعْدَ ظُهُورِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ : بِقَوْلِهِمْ : " مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ " (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (51 : 52 ، 53) .

(99/263)

نَعَمْ قَدْ قِيلَ : إِنَّ (ن) هُنَا بِمَعْنَى الدَّوَاةِ ، وَلِذَلِكَ قُرِنَ بِالْقَلَمِ لِبَيَانِ أَنَّ هَذَا الدِّينَ يَقُومُ بِالْعِلْمِ وَالْكِتَابَةِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ قَبْلَهَا : (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) (96 : 3 ، 4) وَقِيلَ : إِنَّهُ بِمَعْنَى الْحُوتِ لِأَنَّ فِي السُّورَةِ ذِكْرًا لِصَاحِبِ الْحُوتِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

، وَلَوْ صَحَّ هَذَا أَوْ ذَاكَ لَمَا كُتِبَتِ النُّونُ مُفْرَدَةً وَنُطِقَتْ سَاكِنَةً ، بَلْ كَانَتْ تُذْكَرُ مُرَكَّبَةً وَمُعْرَبَةً كَقَوْلِهِ : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) (21 : 87) وَإِنَّمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذُكِرَ ، كَمَا يَصِحُّ فِي سَائِرِ

تِلْكَ الْحُرُوفِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا إِشَارَاتٌ إِلَى مَعَانٍ مُعَيَّنَةٍ تَظْهَرُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ ، أَوْ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ تَذْهَبُ فِيهَا الْأَفْهَامُ مَذَاهِبَ تُفِيدُ أَصْحَابَهَا عِلْمًا أَوْ عِبْرَةً ، بِشَرْطِ أَنْ تَتَّفِقَ مَعَ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا مُرَادَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِحَسَبِ دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى مَعَانِيهَا .

(100/263)

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْأَخِيرِ جَعَلَ بَعْضُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ هَذِهِ الْأَحْرُفَ مُقْتَطَعَةً مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ جُمَلٍ مِنَ الْكَلَامِ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا : أَخْرَجَ أَكْثَرُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي (المص) قَالَ أَنَا اللَّهُ أَفْضَلُ . وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَرَوَى هُوَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ فِيهِ قَالَ : هُوَ الْمُصَوِّرُ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ فِيهِ قَالَ : الْأَلِفُ مِنَ اللَّهِ ، وَالْمِيمُ مِنَ الرَّحْمَنِ ، وَالصَّادُ مِنَ الصَّمَدِ . وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ الضَّحَّاكِ فِيهِ قَالَ : أَنَا اللَّهُ الصَّادِقُ .

وَرَوَى أَبْنَاءُ جَرِيرٍ ، وَالْمُنْذِرُ ، وَأَبُو حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (المص) وَ(طه) وَ(طسم) وَ(حم عسق) وَ(ق) وَ(ن) وَأَشْبَاهُ هَذَا أَنَّهُ قَسَمٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ وَهِيَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى .

(101/263)

وَأَقْرَبُ مِنْ هَذَا إِلَى الْفَهْمِ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ لِلسُّوَرِ – وَالِاسْمُ الْمُرْتَجَلُ لَا يُعَلَّلُ – وَهُوَ مَا اخْتَرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ (الم) مِنْ سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ ، وَهُوَ لَا يُنَافِي مَا بَيَّنَّاهُ مِنَ الْحِكْمَةِ آنِفًا ، وَهِيَ الَّتِي فُتِحَ عَلَيْنَا بِهَا فِي دَرْسِ التَّفْسِيرِ الَّذِي كُنَّا نُلْقِيهِ فِي مَدْرَسَةِ دَارِ الدَّعْوَةِ وَالْإِرْشَادِ وَقَدْ فَصَّلْنَاهُ فِيهِ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ ، إِذْ أَثْبَتْنَا أَنَّ مِنْ حُسْنِ الْبَيَانِ وَبَلَاغَةِ التَّعْبِيرِ ، الَّتِي غَايَتُهَا إِفْهَامُ الْمُرَادِ مِنَ الْإِقْنَاعِ وَالتَّأْثِيرِ ، أَنْ يُنَبِّهَ الْمُتَكَلِّمُ الْمُخَاطَبَ إِلَى مُهِمَّاتِ كَلَامِهِ وَالْمَقَاصِدِ الْأُولَى بِهَا ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ يُحِيطَ عِلْمُهُ بِمَا يُرِيدُهُ هُوَ مِنْهَا ، وَيَجْتَهِدُ فِي إِنْزَالِهَا مِنْ نَفْسِهِ فِي أَفْضَلِ مَنَازِلِهَا وَمِنْ ذَلِكَ التَّنْبِيهُ لَهَا قَبْلَ الْبَدْءِ بِهَا لِكَيْلَا يَفُوتَهُ شَيْءٌ مِنْهَا . وَقَدْ جَعَلَتِ الْعَرَبُ مِنْهُ هَاءَ التَّنْبِيهِ وَأَدَاةَ الِاسْتِفْتَاحِ ، فَأَيُّ غَرَابَةٍ فِي أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الَّذِي بَلَغَ حَدَّ الْإِعْجَازِ فِي الْبَلَاغَةِ وَحُسْنِ الْبَيَانِ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا الْإِمَامُ الْمُقْتَدَى ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ فِي

الْإِصْلَاحِ وَالْهُدَى ؟ وَمِنْهُ مَا يَقَعُ فِي أَثْنَاءِ الْخِطَابِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ وَتَكْيِيفِهِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ صَيْحَةِ التَّخْوِيفِ وَالزَّجْرِ ، أَوْ غُنَّةِ الِاسْتِرْحَامِ وَالْعَطْفِ ، أَوْ رَنَّةِ النَّعْيِ وَإِثَارَةِ الْحُزْنِ أَوْ نَغَمَةِ التَّشْوِيقِ وَالشَّجْوِ ، أَوْ هَيْعَةِ الِاسْتِصْرَاخِ عِنْدَ الْفَزَعِ ، أَوْ صَخَبِ التَّهْوِيشِ وَقْتَ الْجَدَلِ . وَمِنْهُ الِاسْتِعَانَةُ

بِالْإِشَارَاتِ ، وَتَصْوِيرُ الْمَعَانِي بِالْحَرَكَاتِ وَمِنْهُ كِتَابَةُ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ أَوِ الْجُمَلِ بِحُرُوفٍ كَبِيرَةٍ أَوْ وَضْعُ خَطٍّ فَوْقَهَا أَوْ تَحْتَهَا .

هَذَا وَإِنِّي بَعْدَ أَنْ هُدِيتُ إِلَى هَذِهِ الْحِكْمَةِ لِبَدْءِ سُوَرٍ مَخْصُوصَةٍ بِهَذِهِ الْأَحْرُفِ بَحَثْتُ

عَنْ سَلَفٍ لِي فِي ذَلِكَ فَرَاجَعْتُ التَّفْسِيرَ الْكَبِيرَ لِلرَّازِيِّ لِسَعَةِ اطِّلَاعِهِ وَبَسْطِهِ لِكُلِّ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ وَلَمْ أَكُنْ أَقْرَأُ مِثْلَ هَذَا مِنْهُ ، فَأَلْفَيْتُهُ قَدْ ذَكَرَ لِلنَّاسِ قَوْلَيْنِ فِي هَذِهِ الْأَحْرُفِ .

(أَحَدُهُمَا) أَنَّهَا عِلْمٌ مَسْتُورٌ وَسِرٌّ مَحْجُوبٌ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، وَأَنَّهُ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : فِي كُلِّ كِتَابٍ سِرٌّ ، وَسِرُّهُ فِي الْقُرْآنِ أَوَائِلُ السُّوَرِ ، وَعَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : إنَّ لِكُلِّ كِتَابٍ صَفْوَةً ، وَصَفْوَةُ هَذَا الْكِتَابِ حُرُوفُ التَّهَجِّي . (وَنَقُولُ : قَدْ نَقَلَ أَهْلُ الْأَثَرِ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ) ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنْكَرُوا هَذَا الْقَوْلَ وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِالْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَالْمَعْقُولِ ، وَفَصَّلَ ذَلِكَ

.

(ثَانِيهِمَا) أَنَّ مَعْنَاهَا مَعْلُومٌ ، وَنَقَلَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ فِيهَا 21 قَوْلًا ، الثَّانِي عَشَرَ مِنْهَا

(104/263)

قَوْلُ ابْنِ رَوْقٍ وَقُطْرُبٍ أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا قَالُوا : (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (41 : 26) وَتَوَاصَوْا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى - لِمَا أَحَبَّ مِنْ صَلَاحِهِمْ وَنَفْعِهِمْ - أَنْ يُورِدَ عَلَيْهِمْ مَا لَا يَعْرِفُونَهُ لِيَكُونَ سَبَبًا لِإِسْكَاتِهِمْ وَاسْتِمَاعِهِمْ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْحُرُوفَ فَكَانُوا إذَا سَمِعُوهَا قَالُوا كَالْمُتَعَجِّبِينَ : اسْمَعُوا إلَى مَا يَجِيءُ بِهِ مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِذَا أَصْغَوْا هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِاسْتِمَاعِهِمْ ، وَطَرِيقًا إلَى انْتِفَاعِهِمْ اهـ . ثُمَّ سُمِّيَ هَذَا حِكْمَةً فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ، وَهُوَ كَمَا

قُلْنَا ، ثُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ لِلشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيٍّ تَفْسِيرًا مُخْتَصَرًا - عَلَى طَرِيقَةِ الْمُفَسِّرِينَ لَا الصُّوفِيَّةِ - اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى .

وَفِي شَرْحِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ تَنْبِيهَاتٌ مَا نَصُّهُ " قَالَ الْحَرْبِيُّ : الْقَوْلُ بِأَنَّهَا تَنْبِيهَاتٌ جَيِّدٌ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ عَزِيزٌ وَفَوَائِدُهُ عَزِيزَةٌ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَرِدَ عَلَى سَمْعِ مُنْتَبِهٍ ، فَكَانَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُلِمَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ كَوْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَالَمِ الْبَشَرِ مَشْغُولًا فَأُمِرَ جِبْرِيلُ بِأَنْ يَقُولَ عِنْدَ نُزُولِهِ : الم ، وَحم لِيَسْمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ جِبْرِيلَ فَيُقْبِلُ عَلَيْهِ وَيَصْغَى إِلَيْهِ (قَالَ) وَإِنَّمَا

(105/263)

لَمْ تُسْتَعْمَلِ الْكَلِمَاتُ الْمَشْهُورَةُ فِي التَّنْبِيهِ كَـ " أَلَا " وَ " أَمَّا " لِأَنَّهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَعَارَفَهَا النَّاسُ فِي كَلَامِهِمْ ، وَالْقُرْآنُ كَلَامٌ لَا يُشْبِهُ الْكَلَامَ فَنَاسَبَ أَنْ يُؤْتَى فِيهِ بِأَلْفَاظِ تَنْبِيهٍ لَمْ تُعْهَدْ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي قَرْعِ سَمْعِهِ اهـ . وَقِيلَ : إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ لَغَوْا فِيهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا النَّظْمَ الْبَدِيعَ لِيَعْجَبُوا مِنْهُ وَيَكُونَ تَعَجُّبُهُمْ لَهُ سَبَبًا لِاسْتِمَاعِهِمْ لَهُ ، وَاسْتِمَاعُهُمْ لَهُ سَبَبًا لِاسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ فَتَرِقُّ الْقُلُوبُ وَتَلِينُ الْأَفْئِدَةُ اهـ .

وَأَقُولُ : إِنَّ جَعْلَ التَّنْبِيهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَبْعَدٌ ، وَقَدْ كَانَ يَتَنَبَّهُ وَتَغْلِبُ

الرُّوحَانِيَّةُ عَلَى طَبْعِهِ الشَّرِيفِ بِمُجَرَّدِ نُزُولِ الرُّوحِ الْأَمِينِ عَلَيْهِ وَدُنُوِّهِ مِنْهُ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا وَرَدَ فِي نُزُولِ الْوَحْيِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَلَا يَظْهَرُ فِيهِ وَجْهُ تَخْصِيصِ بَعْضِ السُّوَرِ بِالتَّنْبِيهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ التَّنْبِيهُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ ، ثُمَّ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْمَدِينَةِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا ؛ إِذْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَوَجَّهُونَ بِكُلِّ قُوَاهُمْ إِلَى مَا يَتْلُوهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَكُلُّهُ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ ، فَهُمْ مَقْصُودُونَ بِهَذَا التَّنْبِيهِ بِالدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ .

وَقَدْ ظَهَرَ بِمَا اسْتَقْصَيْنَاهُ مِنَ التَّتَبُّعِ أَنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ هَذِهِ الْحِكْمَةَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا بَيَّنَّاهَا بِهِ

(106/263)

ابْتِدَاءً وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، وَلَوْ رَأَى مِثْلَ هَذَا الْبَيَانِ ابْنُ كَثِيرٍ لَمَا ضَعَّفَ هَذَا الْوَجْهَ إِذْ نَقَلَهُ مُوجَزًا مُجْمَلًا عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَقَدْ رَجَّحَ هُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ هَذِهِ الْحُرُوفِ بَيَانُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُفْرَدَةِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا جَمِيعُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ ، وَقَدْ أَطْنَبَ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ مِنْ مُفَسِّرِي عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ الزَّمَخْشَرِيُّ وَتَلَاهُ الْبَيْضَاوِيُّ وَاخْتَارَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ ابْنُ تَيْمِيَةَ وَتَبِعَهُ تِلْمِيذُهُ الْحَافِظُ الْمِزِّيُّ فَيُرَاجَعُ فِي مَحَلِّهِ .

(107/263)

(كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ) إِذَا قِيلَ إِنَّ (المص) اسْمٌ لِلسُّورَةِ فَهُوَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ (كِتَابٌ) وَإِلَّا فَهَذَا خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ ذَلِكَ كِتَابٌ كَقَوْلِهِ : (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ) (2 : 1 ، 2) وَتَنْكِيرُ (كِتَابٌ) لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي جُمْلَةُ الْقُرْآنِ الْمُشَارُ إِلَى بَعْضِهِ الْمُنَزَّلُ بِالْفِعْلِ ، وَجُمْلَةُ (أُنْزِلَ إِلَيْكَ) صِفَةٌ لَهُ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ تَعْظِيمِ قَدْرِهِ وَقَدْرِ مَنْ أُنْزِلَ إِلَيْهِ ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي كَانَ بَدْءُ نُزُولِهِ فِيهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَإِنَّمَا قِيلَ : (أُنْزِلَ) وَلَمْ يَقُلْ أَنْزَلَ اللَّهُ أَوْ أَنْزَلْنَاهُ إِيجَازًا مُؤْذِنًا بِأَنَّ الْمُنْزِلَ مُسْتَغْنٍ عَنِ التَّعْرِيفِ ، وَعَنْ إِسْنَادِهِ إِلَى الضَّمِيرِ أَوِ الِاسْمِ الصَّرِيحِ ، فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الْبَدِيعَ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ فَوْقِ ذَلِكَ الْعَرْشِ الرَّفِيعِ (فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) حَرَجُ الصَّدْرِ ضِيقُهُ وَغَمُّهُ وَهُوَ مِنَ الْحَرَجَةِ الَّتِي هِيَ مُجْتَمَعُ

(108/263)

الشَّجَرِ الْمُشْتَبِكِ الْمُلْتَفِّ الَّذِي لَا يَجِدُ السَّالِكُ فِيهِ سَبِيلًا وَاضِحًا يَنْفُذُ مِنْهُ ، أَوِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ ، وَقَدْ فَسَّرَ الْحَرَجَ هُنَا بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ تَفْسِيرُهُ بِالشَّكِّ كَمَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ وَعَزَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ إِلَى

مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ . وَوَجَّهُوهُ بِأَنَّ الشَّكَّ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ حَرَجِ الصَّدْرِ وَضِيقِ الْقَلْبِ .
وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِهِ فِي الْأَنْعَامِ (الْآيَةِ 125) وَقَالَ الرَّاغِبُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ قِيلَ : هِيَ نَهْيٌ .
وَقِيلَ : دُعَاءٌ . وَقِيلَ : حُكْمٌ مِنْهُ نَحْوَ (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) (94 : 1) اهـ . وَالنَّهْيُ أَوِ
الدُّعَاءُ عَنْ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَظِنَّةُ الْوُقُوعِ فِي نَفْسِهِ ، وَبِحَسْبِ سُنَنِ اللَّهِ
وَنِظَامِ الْأَسْبَابِ فِي خَلْقِهِ ، وَالْأَمْرُ هُنَا كَذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ يَحُولَ دُونَ وُقُوعِهِ مَانِعٌ كَعِنَايَةِ اللَّهِ
وَتَأْيِيدِهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَمْرٌ عَظِيمٌ بَلْ هُوَ أَعْظَمُ شَأْنٍ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَ
فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) (73 : 5) ثُمَّ نَزَلَ فِي
تَفْسِيرِهِ : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (59 : 21) وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ الْوَحْيُ وَهُوَ

(109/263)

يَتَفَصَّدُ عَرَقًا ، وَكَانَ يَكَادُ يَهِيمُ بِشِدَّةِ وَقْعِهِ وَعِظَمِ تَأْثِيرِهِ حَتَّى يَكَادَ يُلْقِي بِنَفْسِهِ مِنْ شَاهِقِ
الْجَبَلِ ، وَأَيُّ قَلْبٍ يَحْتَمِلُ وَصَدْرٍ يَتَّسِعُ لِكَلَامِ اللَّهِ الْعَظِيمِ ، يَنْزِلُ بِهِ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، إِذَا لَمْ
يَتَوَلَّ سُبْحَانَهُ بِفَضْلِهِ شَرْحَهُ وَإِعَانَتَهُ عَلَى

حَمْلِهِ ، وَهُوَ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَى رَسُولِهِ بِقَوْلِهِ : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) فَهَذَا وَجْهُ مَظِنَّةِ وُقُوعِ الْحَرَجِ بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ الْأَصْلِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّسُولِ نَفْسِهِ ، وَكَوْنِهِ تَعَالَى صَرَفَهُ عَنْهُ بِشَرْحِهِ لِصَدْرِهِ ، وَيَصِحُّ فِيهِ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ تَكْوِينِيًّا .

(110/263)

وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ بِاعْتِبَارِ تَبْلِيغِهِ إِيَّاهُ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلِّفَ بِهِ هِدَايَةَ الثَّقَلَيْنِ وَإِصْلَاحَ أَهْلِ الْخَافِقَيْنِ ، وَمِنَ الْمُتَوَقَّعِ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّ الْمُتَصَدِّيَ لِذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى أَشَدَّ الْإِيذَاءِ وَالْمُقَاوَمَةِ ، وَالطَّعْنِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَهِيَ أَسْبَابٌ لِضِيقِ الصَّدْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْحِجْرِ : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) (15 : 97) وَفِي آخِرِ سُورَةِ النَّحْلِ بَعْدَهَا : (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) (16 : 127) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ . وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ سُورَةِ هُودٍ : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (11 : 12) وَالْمُرَادُ مِنَ

النَّهْيِ عَنْ أَمْرٍ طَبْعِيٍّ كَهَذَا الِاجْتِهَادِ فِي مُقَاوَمَتِهِ وَالتَّسَلِّي عَنْهُ بِوَعْدِ اللَّهِ وَالتَّأَسِّي بِمَنْ سَبَقَ مِنْ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

(111/263)

فَهَذَانِ الْوَجْهَانِ الْوَجِيهَانِ ، مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ . يُنَافِيَانِ مَا رُوِيَ مِنْ تَفْسِيرِ الْحَرَجِ بِالشَّكِّ ، وَيُغْنِيَانِ عَمَّا تَمَحَّلَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَوْجِيهِهِ بِالتَّأْوِيلِ الشَّبِيهِ بِالْمَحَكِّ ، وَمَا أَكْثَرُ مَا رُوِيَ فِي التَّفْسِيرِ بِصَحِيحٍ حَتَّى بَالَغَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فَقَالَ لَا يَصِحُّ فِيهِ شَيْءٌ ، وَمَا كُلُّ مَا صَحَّ مِنْهُ مَقْبُولٌ ، إلَّا إذَا صَحَّ رَفْعُهُ إلَى الْمَعْصُومِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) (10 : 94) فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ فَرْضِ الْمُحَالِ الْمَأْلُوفِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَالْمَحَالِّ ، وَشَرْطُ " إنْ " لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَمِثْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ نَهْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ دُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ : (فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ) (10 : 106) وَقَوْلُهُ فِي غَيْرِهَا : (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) (43 : 81) وَفِي ابْنِ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي آيَةِ يُونُسَ : " لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ " .

(112/263)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) تَعْلِيلٌ لِإِنْزَالِ الْكِتَابِ . وَالْجُمْلَةُ قَبْلَهُ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ لِإِفَادَةِ أَنَّ الْإِنْذَارَ بِهِ إنَّمَا يَكُونُ مُطْلَقًا أَوْ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ مَعَ انْتِفَاءِ الْحَرَجِ مِنَ الصَّدْرِ ، وَانْشِرَاحِهِ لِلنُّهُوضِ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَقِيلَ : تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنِ الْحَرَجِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ مَصْدَرِيَّةٌ كَقَوْلِهِ : (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) (61 : 8) أَيْ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِأَجْلِ الْإِنْذَارِ بِهِ لِئَلَّا يُكَذِّبَكَ النَّاسُ . وَالْإِنْذَارُ التَّعْلِيمُ الْمُقْتَرِنُ بِالتَّخْوِيفِ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الْمُخَالَفَةِ ، وَهُوَ يَتَعَدَّى إلَى مَفْعُولَيْنِ : الْمُنْذَرِ وَالْعِقَابِ الَّذِي

(113/263)

يُنْذِرُهُ ، أَيْ يُخَوَّفُ مِنْ وُقُوعِهِ بِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا) (78 : 40) وَقَوْلُهُ : (وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) وَالْمَفْعُولَانِ يُذْكَرَانِ كِلَاهُمَا تَارَةً وَيُذْكَرُ أَحَدُهُمَا تَارَةً بَعْدَ أُخْرَى بِحَسَبِ الْمُنَاسَبَاتِ ، وَقَدْ حُذِفَ كُلٌّ مِنْهُمَا هُنَا لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ حَسَبَ الْقَاعِدَةِ ، أَيْ لِتُنْذِرَ بِهِ جَمِيعَ النَّاسِ إذْ تَبْلُغُهُمْ دِينَ اللَّهِ وَكُلَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ مِنْ عِقَابِهِ تَعَالَى

لِمَنْ يَعْصِي رُسُلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَهُوَ إيجَازٌ بَلِيغٌ يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ بِعْثَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) (6 : 92) وَقَدْ صَرَّحَ بِجَعْلِ الْإِنْذَارِ عَامًّا لِأُمَّةِ الْبَعْثَةِ كَافَّةً بِقَوْلِهِ : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (25 : 1) وَكَثِيرًا مَا يُوَجَّهُ إلَى الْكُفَّارِ وَالظَّالِمِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُعَاقَبُونَ حَتْمًا ، وَقَدْ يُخَصُّ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ قَطْعًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) (35 : 18)

وَقَوْلُهُ : (إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) (36 : 11) وَقَوْلُهُ : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلَى رَبِّهِمْ) (6 : 51) الْآيَةَ .

(114/263)

وَأَمَّا الذِّكْرَى فَهِيَ مَصْدَرٌ لِذِكْرِ الشَّيْءِ بِقَلْبِهِ وَبِلِسَانِهِ ، وَالِاسْمُ الذِّكْرُ بِالضَّمِّ وَكَذَا بِالْكَسْرِ ، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ : نَصَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ وَابْنُ قُتَيْبَةَ ، وَأَنْكَرَ الْفَرَّاءُ الْكَسْرَ فِي ذِكْرِ الْقَلْبِ وَقَالَ : اجْعَلْنِي عَلَى ذُكْرٍ مِنْكَ . بِالضَّمِّ لَا غَيْرَ ؛ وَلِهَذَا اقْتَصَرَ جَمَاعَةٌ عَلَيْهِ اهـ

.

وَقَالَ الرَّاغِبُ : وَالذِّكْرَى كَثْرَةُ الذِّكْرِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الذِّكْرِ اهـ . وَلَعَلَّهُ أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ

كَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ النَّافِعِ وَالْمَوْعِظَةِ الْمُؤَثِّرَةِ - وَلَا أَذْكُرُ أَنَّهَا اسْتُعْمِلَتْ فِيهِ بِمَعْنَى ذِكْرِ اللِّسَانِ إلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) (79 : 42 ، 43) عَلَى وَجْهٍ وَفُسِّرَتْ بِالْعِلْمِ - وَلَا بِمَعْنَى مُطْلَقِ التَّذَكُّرِ إلَّا فِي قَوْلِهِ : (فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (6 : 68) لِأَنَّهُ فِي مُقَابِلِ الْإِنْسَاءِ وَقَدْ خَصَّهَا هُنَا بِالْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْمَوَاعِظِ كَمَا قَالَ فِي الذَّارِيَاتِ : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ 51) (: 55) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : (وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (29 : 51) وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) (21 : 84) فِي سُورَةِ ص : (وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (38 : 43) وَفِي سُورَةِ ق : (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (50 : 8) .

(115/263)

وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ هُنَا مَنْ كَتَبَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِيمَانَ سَوَاءٌ كَانُوا آمَنُوا عِنْدَ نُزُولِ السُّورَةِ أَمْ لَا .

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ مَعَ مَا قَبْلَهُ : أُنْزِلَ إلَيْكَ الْكِتَابُ لِتُنْذِرَ بِهِ قَوْمَكَ وَسَائِرَ النَّاسِ ، وَتُذَكِّرَ بِهِ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَتَعِظَهُمْ ذِكْرَى نَافِعَةً مُؤَثِّرَةً لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُسْتَعِدُّونَ لِلِاهْتِدَاءِ بِهِ - أَوْ أُنْزِلَ إلَيْكَ لِلْإِنْذَارِ الْعَامِّ وَالذِّكْرَى الْخَاصَّةِ ، أَوْ هُوَ ذِكْرَى - أَوْ حَالَ كَوْنِهِ ذِكْرَى - لِمَنْ آمَنُوا وَلِمَنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ

يُؤْمِنُونَ .

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) هَذَا بَيَانٌ لِلْإِنْذَارِ الْعَامِّ ، الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى جَمِيعِ الْأَنَامِ ، وَهُوَ عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ الَّذِي يَكْثُرُ حَذْفُهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ ، لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْأُسْلُوبِ وَسِيَاقِ الْكَلَامِ ، أَيْ قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، الَّذِي هُوَ خَالِقُكُمْ وَمُرَبِّيكُمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورِكُمْ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي لَهُ وَحْدَهُ الْحَقُّ فِي شَرْعِ الدِّينِ لَكُمْ وَفَرْضِ الْعِبَادَاتِ عَلَيْكُمْ ، وَالتَّحْلِيلِ لِمَا يَنْفَعُكُمْ ، وَالتَّحْرِيمِ لِمَا يَضُرُّكُمْ ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِكُمْ مِنْكُمْ (وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) تَتَّخِذُونَهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يُوَسْوِسُونَ لَكُمْ ، بِمَا يُزَيِّنُ لَكُمْ ضَلَالَ تَقَالِيدِكُمْ وَالِابْتِدَاعَ فِي دِينِكُمْ ، فَتُوَلُّونَهُمْ أُمُورَكُمْ ، وَتُطِيعُونَهُمْ فِيمَا يَرُومُونَ

(116/263)

مِنْكُمْ ، مِنْ وَضْعِ أَحْكَامٍ ، وَحَلَالٍ وَحَرَامٍ ، زَاعِمِينَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَقْلِيدُهُمْ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ ، أَوْ لِلِاقْتِدَاءِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ ، فَإِنَّمَا عَلَى الْعَالِمِ بِدِينِ اللهِ تَبْلِيغُهُ وَبَيَانُهُ لِلْمُتَعَلِّمِ لَا بَيَانَ آرَائِهِ وَظُنُونِهِ فِيهِ – وَلَا أَوْلِيَاءَ تَتَّخِذُونَهُمْ لِأَجْلِ إِنْجَائِكُمْ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى ذُنُوبِكُمْ ، وَجَلْبِ النَّفْعِ لَكُمْ أَوْ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ بِصَلَاحِهِمْ يُقَرِّبُونَكُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، أَوْ

يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ أَوِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ اللهَ رَبُّكُمْ هُوَ الْوَلِيُّ ، أَيِ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَ الْعِبَادِ بِالتَّشْرِيعِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَلَهُ وَحْدَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَبِيَدِهِ النَّفْعُ وَالضُّرُّ (قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) أَيْ تَذَكُّرًا قَلِيلًا تَتَذَكَّرُونَ ، أَوْ زَمَنًا قَلِيلًا تَتَذَكَّرُونَ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ فَلَا يُجْهَلَ وَيُحْفَظَ فَلَا يُنْسَى ، مِمَّا يَجِبُ لِلرَّبِّ تَعَالَى ، وَيَحْظُرُ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ غَيْرُهُ فِيهِ ، أَوْ قَلِيلًا مَا تَتَّعِظُونَ بِمَا تُوعَظُونَ بِهِ فَتَرْجِعُونَ عَنْ تَقَالِيدِكُمْ وَأَهْوَائِكُمْ إِلَى مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ . قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ " تَذَكَّرُونَ " بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ وَتَخْفِيفِ الذَّالِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ ، عَلَى أَنَّ أَصْلَهَا (تَتَذَكَّرُونَ) وَقَرَأَهَا ابْنُ عَامِرٍ "يَتَذَكَّرُونَ" بِالْيَاءِ عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ

(117/263)

بِالتَّاءِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الْأُخْرَى فِيهَا .

قَدْ حَقَّقْنَا مَعْنَى الْوِلَايَةِ لُغَةً وَأَنْوَاعَ اسْتِعْمَالِهَا فِي الْقُرْآنِ مِرَارًا أَقْرَبُهَا مَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) (6 : 129) وَبَيَّنَّا وَجْهَ الْحَصْرِ فِي كَوْنِ اللهِ تَعَالَى هُوَ وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَفْسِيرِ : (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) (6 : 14) وَزِدْنَا هَذَا بَيَانًا فِي تَفْسِيرِ : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ

مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (6 : 51)

وَكَذَا تَفْسِيرُ : (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) (6 : 70) كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَاتٍ أُخْرَى مِمَّا قَبْلَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَمِنْ أَوْسَعِهَا وَأَعَمِّهَا بَيَانًا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) (2 : 257) الْآيَةَ وَفِيهِ تَفْصِيلُ وِلَايَةِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوِلَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ،

وَوِلَايَةِ الطَّاغُوتِ لِلْكَافِرِينَ .

(118/263)

وَنَكْتَفِي هُنَا بِأَنْ نَقُولَ : إنَّ الْوِلَايَةَ الَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَلِّي الْأَمْرِ - مِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِرَبِّ الْعِبَادِ وَإِلَهِهِمُ الْحَقِّ ، وَهِيَ قِسْمَانِ : (أَحَدُهُمَا) شَرْعُ الدِّينِ ، عَقَائِدُهُ وَعِبَادَاتُهُ وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ . (وَثَانِيهِمَا) الْخَلْقُ وَالتَّدْبِيرُ الَّذِي هُوَ فَوْقَ اسْتِطَاعَةِ النَّاسِ فِي أُمُورِ الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ الَّتِي مَكَّنَ اللَّهُ مِنْهَا جَمِيعَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، كَالْهِدَايَةِ بِالْفِعْلِ ، وَتَسْخِيرِ الْقُلُوبِ ، وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ - وَكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالثَّوَابِ

وَالْعِقَابِ ، فَكُلُّ مَا وَرَدَ مِنْ حَصْرِ الْوِلَايَةِ فِي اللهِ تَعَالَى فَالْمُرَادُ بِهِ تَوَلِّي أُمُورِ الْعِبَادِ فِيمَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ كَسْبُهُمْ وَشَرْعُ الدِّينِ لَهُمْ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا .

(119/263)

وَالْمُتَبَادَرُ هُنَا مِنَ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى ، هُوَ النَّهْيُ عَنْ طَاعَةِ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَمْرِ الدِّينِ غَيْرَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي طَاعَةِ أَحْبَارِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ فِيمَا أَحَلُّوا لَهُمْ وَزَادُوا عَلَى الْوَحْيِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَمَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُبَاحَاتِ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) (9 : 31) وَكُلُّ مَنْ أَطَاعَ أَحَدًا طَاعَةً دِينِيَّةً فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ لَمْ يُنْزِلْهُ رَبُّهُ إِلَيْهِ فَقَدِ اتَّخَذَهُ رَبًّا ، وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي عَدَمِ جَوَازِ طَاعَةِ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَلَا الْأُمَرَاءِ فِي اجْتِهَادِهِ فِي أُمُورِ الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ تَدَيُّنًا ، وَمَا عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا بَيَانُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ وَتَبْلِيغُهُ ، وَإِرْشَادُ النَّاسِ إِلَى فَهْمِهِ وَمَا عَسَى أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْعَمَلِ عَلَى النَّصِّ ، وَحِكْمَةُ الدِّينِ فِي الْأَحْكَامِ كَبَيَانِ سِمْتِ الْقِبْلَةِ فِي الْبِلَادِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَهُمْ لَا يُتَّبَعُونَ فِي ذَلِكَ لِذَوَاتِهِمْ ، بَلِ الْمُتَّبَعُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ بِنَصِّهِ أَوْ فَحْوَاهُ عَلَى حَسَبِ رِوَايَتِهِمْ لَهُ وَتَفْسِيرِهِمْ لِمَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا يُطَاعُ أُولُو الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي تَنْفِيذِ مَا أَنْزَلَهُ

اللهُ تَعَالَى ، وَفِيمَا نَاطَهُ بِهِمْ مِنِ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ فِي سِيَاسَةِ الْأُمَّةِ وَأَقْضِيَتِهَا الَّتِي تَخْتَلِفُ الْمَصَالِحُ فِيهَا

(120/263)

بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ . وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي بُطْلَانِ الْقِيَاسِ وَنَبْذِ الرَّأْيِ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ الْمَحْضَةِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَمَا يَتَعَلَّقُ

بِهِ مِنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ فِي تَفْسِيرِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (4 : 59) الْآيَةَ ، وَتَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101) الْآيَةَ .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ مِنْ بَيَانِ الدِّينِ دَاخِلٌ

(121/263)

فِي عُمُومِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا عَلَى لِسَانِهِ ، وَكَذَا اتِّبَاعُهُ فِي أَحْكَامِهِ الِاجْتِهَادِيَّةِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِهِ وَبِطَاعَتِهِ ، وَأَخْبَرَنَا بِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنْهُ ، وَقَالَ لَهُ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

إِلَيْهِمْ) (16 : 44) وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ الْوَارِدَةَ فِي السُّنَّةِ مُوحًى بِهَا ، وَأَنَّ الْوَحْيَ لَيْسَ مَحْصُورًا فِي الْقُرْآنِ ، وَالْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ : إنَّهَا مُسْتَنْبَطَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ فِي مَسْأَلَةِ تَأْبِيرِ النَّخْلِ ، وَرُوِيَ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إنْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ قَدْ أَذِنَ لَنَا أَلَّا نَأْخُذَ بِظَنِّهِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَقَالَ : " أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ وَثَابِتِ بْنِ أَنَسٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ ، فَمَا الْقَوْلُ بِظَنِّ غَيْرِهِ ؟ وَمِنْهُ اجْتِهَادُ الْعُلَمَاءِ فِيمَا ذَكَرْنَا آنِفًا .

(122/263)

قَالَ الرَّازِيُّ : هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَخْصِيصَ عُمُومِ الْقُرْآنِ بِالْقِيَاسِ لَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّ عُمُومَ الْقُرْآنِ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَوْجَبَ مُتَابَعَتَهُ فَوَجَبَ الْعَمَلُ بِعُمُومِ الْقُرْآنِ ، وَلَمَّا وَجَبَ الْعَمَلُ بِهِ امْتَنَعَ الْعَمَلُ بِالْقِيَاسِ وَإِلَّا لَزِمَ التَّنَاقُضُ ، فَإِنْ قَالُوا : لِمَا وَرَدَ الْأَمْرُ

بِالْقِيَاسِ فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْلُهُ : (فَاعْتَبِرُوا) كَانَ الْعَمَلُ بِالْقِيَاسِ عَمَلًا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ – قُلْنَا : هَبْ أَنَّهُ كَذَلِكَ ، إلَّا أَنَّا نَقُولُ : الْآيَةُ الدَّالَّةُ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِالْقِيَاسِ إنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْحُكْمِ الْمُثْبَتِ بِالْقِيَاسِ لَا ابْتِدَاءً بَلْ بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ الْقِيَاسِ ، وَأَمَّا عُمُومُ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ ذَلِكَ الْحُكْمِ ابْتِدَاءً لَا بِوَاسِطَةٍ ، وَلَمَّا وَقَعَ التَّعَارُضُ كَانَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ابْتِدَاءً أَوْلَى بِالرِّعَايَةِ مِنَ الْحُكْمِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِوَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ ، فَكَانَ التَّرْجِيحُ مِنْ جَانِبِنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

وَقَدْ نَقَلْنَا فِي بَحْثِ الْقِيَاسِ أَنَّ الرَّازِيَّ قَدْ رَدَّ فِي مَحْصُولِهِ كَوْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (59 : 2) دَلِيلًا عَلَى الْقِيَاسِ الْأُصُولِيِّ وَهُوَ مُصِيبٌ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ أَوْرَدَ اسْتِدْلَالًا آخَرَ بِالْآيَةِ لِنُفَاةِ الْقِيَاسِ وَأَوْرَدَ عَلَيْهِ مُنَاقَشَةَ الْقِيَاسِيِّينَ فِيهِ ، وَنَحْنُ فِي غِنًى عَنْ ذَلِكَ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْمَسْأَلَةِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ الَّتِي أَشَرْنَا إلَيْهَا آنِفًا .

(123/263)

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْحَشْوِيَّةَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ النَّظَرَ الْعَقْلِيَّ وَالْبَرَاهِينَ الْعَقْلِيَّةَ تَمَسَّكُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قَالَ : وَهُوَ بَعِيدٌ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِكَوْنِ الْقُرْآنِ حُجَّةً مَوْقُوفٌ عَلَى صِحَّةِ التَّمَسُّكِ

(124/263)

بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ ، فَلَوْ جَعَلْنَا الْقُرْآنَ طَاعِنًا فِي صِحَّةِ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ لَزِمَ التَّنَاقُضُ وَهُوَ بَاطِلٌ اهـ . وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ هَدَى إِلَى الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ بِاسْتِدْلَالِهِ بِالْمَعْقُولِ ، وَمُخَاطَبَتِهِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَأَصْحَابِ الْعُقُولِ ، عَلَى أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ تُنْكِرُ النَّظَرَ الْعَقْلِيَّ وَالْبَرَاهِينَ الْعَقْلِيَّةَ مُطْلَقًا ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ وَأَهْلُ الْبَصِيرَةِ عَلَى أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ جَعْلَ الْعَقَائِدِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ مَحَلًّا لِنَظَرِيَّاتٍ فَلْسَفِيَّةٍ ، وَمَوْقُوفًا إِثْبَاتُهَا عَلَى اصْطِلَاحَاتٍ جَدَلِيَّةٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، وَلَمْ يَسْتَفِدْ أَصْحَابُهَا مِنْهَا غَيْرَ تَفْرِيقِ الدِّينِ ، وَاخْتِلَافِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْبُعْدِ عَنْ حَقِّ الْيَقِينِ ، وَيَرَى هَؤُلَاءِ أَنَّ كَوْنَ الْقُرْآنِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى قَدْ ثَبَتَ ثُبُوتًا عَقْلِيًّا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، فَوَجَبَ اتِّبَاعُهُ بِتَلَقِّي الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مِنْهُ مَعَ اجْتِنَابِ التَّأْوِيلِ لِلصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ بِالنَّظَرِيَّاتِ الْكَلَامِيَّةِ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 260. 275 ﴾

(125/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) ﴾

وما دام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذي جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم : ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 3]

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أي طلب الهداية فيقول : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3]

وحينما يأتي الحق سبحانه في مثل هذه الآيات ويقول : " وذكرى " . أو " وذكّر " إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذي أخذ علينا أيام كنا في عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ . . . ﴾ [الأعراف : 172]

هذا هو الإقرار في عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسي الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التي تلقوها ؛ لأن آدم وحواء ما نزلا إلى الأرض قال لهما الحق : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ . . . ﴾ [طه : 123]

وهكذا نعلم أن هناك " هدى " قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا " الهدى " منقولاً في سلسلة الحياة كما وصلت كل أقضية الحياة . ويأتي سبحانه لنا بحيثيات الاتباع . ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 3]

(126/263)

فالمنهج الذي يأتي من الرب الأعلى هو الذي يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم في أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربي القادر . الذي ربّى ، وخلق من عدم ، وأمد من عدم ، وهو المتولي للتربية ، ولا يمكن أن يربي أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربي قيمنا بالأخلاق . ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

ومادام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتي لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر . فها يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها البشر . بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التي تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا نستنكف أن نكون عبيداً له .

﴿ . . . وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3]

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك في اتباع منهج الله تتجلّى في أنك لا تخضع لمساوٍ لك ، وهذه ميزة الدين الذي يجعل الإنسان يحيا في الكون وكرامته محفوظةً ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذي ليس له رب فساعة أن تأتي له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد ينتحر .

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم . ويوقظ القيم والمناعة الدينية التي توجد في الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شيء انحرافي تنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هي النفس اللوامة . فإذا ما سكتت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمارة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذي حوله يعدله .

(127/263)

وهذه فائدة التواصي بالحق والصبر ، فكل واحد يوصَّى في ظرف ، ويوصِّي في ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتي شخص آخر لم يضعف في هذه الشهوة وينصح

الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصي ؛ فالوصية لا تأتي من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصياً فيما هو فيه قوي ، ويوصي فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجيء رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى في أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، فالتواصي باقٍ إلى أن تقوم الساعة . ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ﴾ [آل عمران : 110]

وهذه خاصية لن تنتهي أبداً ، فإن رأيت منكراً فلابد من خلية خير تنكره وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع وتنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتي رسول بعد سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(128/263)

فصل

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

هُوَ أَنْ يَكُونَ تَصَرُّفُهُ مَقْصُورًا عَلَى مُرَادِ أَمْرِهِ ؛ وَهُوَ نَظِيرُ الِائْتِمَامِ ، وَهُوَ أَنْ يَأْتَمَّ بِهِ فِي اتِّبَاعِ مُرَادِهِ وَفِي فِعْلِهِ غَيْرُ خَارِجٍ عَنْ تَدْبِيرِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَكُونُ فَاعِلُ الْمُبَاحِ مُتَّبِعًا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قِيلَ لَهُ : قَدْ يَكُونُ مُتَّبِعًا إذَا قَصَدَ بِهِ اتِّبَاعَ أَمْرِهِ فِي اعْتِقَادِ إبَاحَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وُقُوعُ الْفِعْلِ مُرَادًا مِنْهُ ، وَأَمَّا فَاعِلُ الْوَاجِبِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الِاتِّبَاعُ فِي وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : اعْتِقَادُ وُجُوبِهِ ، وَالثَّانِي : إيقَاعُ فِعْلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، فَلَمَّا ضَارَعَ الْمُبَاحَ الْوَاجِبَ فِي الِاعْتِقَادِ ؛ إذْ كَانَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وُجُوبُ الِاعْتِقَادِ بِحُكْمِ الشَّيْءِ عَلَى تَرْتِيبِهِ وَنِظَامِهِ فِي إبَاحَةٍ أَوْ إيجَابٍ جَازَ أَنْ يَشْتَمِلَ قَوْلُهُ : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ عَلَى الْمُبَاحِ وَالْوَاجِبِ وَقَوْلُهُ : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ حَالٍ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ الِاعْتِرَاضُ عَلَى حُكْمِهِ بِأَخْبَارِ الْآحَادِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِاتِّبَاعِهِ قَدْ ثَبَتَ بِنَصِّ التَّنْزِيلِ ، وَقَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ غَيْرُ ثَابِتٍ بِنَصِّ التَّنْزِيلِ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ تَرْكُهُ ؛ لِأَنَّ لُزُومَ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ قَدْ ثَبَتَ مِنْ طَرِيقٍ يُوجِبُ الْعِلْمَ وَخَبَرُ الْوَاحِدِ يُوجِبُ الْعَمَلَ فَلَا يَجُوزُ تَرْكُهُ وَلَا الِاعْتِرَاضَ بِهِ عَلَيْهِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ أَصْحَابِنَا فِي أَنَّ قَوْلَ مَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ فِي أَخْبَارِ الْآحَادِ غَيْرُ مَقْبُولٍ ؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَا جَاءَكُمْ مِنِّي فَاعْرِضُوهُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ عَنِّي وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَلَيْسَ عَنِّي .

﴾ فَهَذَا عِنْدَنَا فِيمَا كَانَ وُرُودُهُ مِنْ طَرِيقِ الْآحَادِ ، فَأَمَّا مَا ثَبَتَ مِنْ طَرِيقِ التَّوَاتُرِ فَجَائِزٌ تَخْصِيصُ الْقُرْآنِ بِهِ وَكَذَلِكَ نَسْخُهُ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ ﴾ عَنْهُ فَانْتَهُوا فَمَا تَيَقَّنَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ فَإِنَّهُ فِي إيجَابِ الْحُكْمِ بِمَنْزِلَةِ الْقُرْآنِ ، فَجَائِزٌ تَخْصِيصُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَكَذَلِكَ نَسْخُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(130/263)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : مَعْنَاهُ أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ ، وَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ ، وَاسْتَبِيحُوا مُبَاحَهُ ، وَارْجُوا وَعْدَهُ ، وَخَافُوا وَعِيدَهُ ، وَاقْتَضُوا حُكْمَهُ ، وَانْشُرُوا مِنْ عِلْمِهِ عِلْمَهُ ، وَاسْتَجْسُوا خَبَايَاهُ ، وَلِجُوا زَوَايَاهُ ، وَاسْتَثِيرُوا جَاثِمَهُ ؛ وَفُضُّوا خَاتَمَهُ ، وَأَلْحِقُوا بِهِ مُلَائِمَهُ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : بِاتِّبَاعِ مَا يُؤْثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ عَارَضَهُ إذَا وَضَحَ مَسْلَكُهُ ؛ فَتَارَةً يَكُونُ نَاسِخًا لَهُ ، وَأُخْرَى خَاصًّا وَمُتَمِّمًا فِي حُكْمٍ عَلَى طُرُقِ مَوَارِدِهِ الْمَعْلُومَةِ ، بِشُرُوطِهَا الْمَحْصُورَةِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(131/263)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مِنْ رَبِّكُمْ " يجوزُ فيه وجهان :

أحدهما : أنه يتعلَّقُ بـ " أنزل " وتكون " مِنْ " لابتداء الغايةِ المجازية .

الثاني : أنْ يتعلَّقُ بـ " أنزل " وتكون " مِنْ " لابتداء الغايةِ المجازية .

الثاني : أنْ يتعلَّق بمحذوف على أنَّهُ حالٌ : إمّا من الموصول ، وإمَّا من عائده القائم مقام

الفاعل .

قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : لا تَتَّخِذُوا غيره أَوْلِيَاءَ تطيعونَهُم في مَعْصِيَةِ اللَّهِ .

قوله : " مِنْ دُونِهِ " يجُوزُ أن يتعلق بالفعل قَبْلَهُ ، والمعنى : لا تَعْدِلُوا عَنْهُ إلى غيره من الشَّيَاطِينِ والكُهَّانِ .

والثاني : أن يتعلق بِمَحْذُوفٍ ؛ لأنه كان في الأصْلِ صفة لـ " أولياء " فلمَّا تقدَّم نُصِبَ حالاً ، وإليه يميل تَفْسِيرُ الزَّمَخْشَرِيِّ ، فإنَّهُ قال : " أي لا تتولَّوْا من دونه شياطين الإنس والجن ؛ فيحملوكم على الأهواء والبدع " .

والضَّمِيرُ في " دونه " يعود على " رَبِّكُمْ " ولذلك قال الزَّمَخشريُّ " مِنْ دُونِ اللَّهِ " ، ويجُوزُ أن يعود على " مَا " الموصُولةِ ، وأن يعود على الكتابِ المُنَزَّل ، والمعنى : لا تَعْدِلُوا عنه إلى الكُتُبِ المَنْسُوخَةِ .

(132/263)

وقرأ الجَحْدَرِيُّ : " ابْغُوا " بالغين المعجمة من الابتغاء .

ومالك بن دينار ومجاهد : " ولا تَبْتَغُوا " من الابتغاء أيضاً من قوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ

الإسلام دِيناً ﴾ آل عمران : 85] .

قوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قد تقدَّم نظيرُهُ في قوله : ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 88] وهو أنَّ " قَلِيلاً " نعت مصدر محذوف أي : تذكُّراً قليلاً تذكرون ، أوْ نعت ظرف زمانٍ مَحْذُوفٍ أيضاً أي : زماناً قَلِيلاً تذكَّرون ، فالمصدرُ أو الظَّرْفُ منصوب بالفعل بعدهُ ، و " مَا " مزيدةٌ

وقد أجَازَ الحُوفِيُّ أن تكون نَعْتَ مصدرٍ محذوف لقوله : " ولا تَتَّبِعُوا " أي : ولا تَتَّبِعُوا من دونه أوْلِيَاءَ اتِّبَاعاً قليلاً ، وهو ضعيف ؛ لأنه يصيرُ مَفْهُومُهُ أنَّهم غير مَنْهِيِّين عن اتِّبَاعِ الكَثِيرِ ، ولكِنَّهُ مَعْلُومٌ من جهة المَعْنَى ، فلا مَفْهُوم لَهُ .

وحكى ابْنُ عطيَّة عن أبي عَلِيٍّ أنَّ " مَا " مصدرية موصولة بالفِعْلِ بَعْدَها ، واقْتَصَرَ على هذا القَدْر ، ولا بُدَّ لَهُ من تَتِمَّة ، فقال بعض الناس : ويكون " قَلِيلاً " نعت زمان محذوف ، وذلك الزَّمَانُ المحذوف في محلِّ رفع خبر مقدّماً و " مَا " المصدريَّةُ ، وما بَعْدَها بتأويل مصدر مبتدأ مؤخراً ، والتَّقدِيرُ : زمناً قليلاً تذكُّركم أي : أنَّهُم لا يقع تذكرهم إلا في بعض الأحْيَانِ ونظيره : " زمناً قليلاً قيامك " .

وقد قِيلَ : إنَّ " ما " هذه نَافِيَةٌ ، وهو بعيد ؛ لأن " ما " لا يَعْمَلُ ما بَعْدَهَا فيما قبلها عند البصريين ، وعلى تقدير تَسْلِيم ذلك فيصيرُ المعنى : ما تذكرون قليلاً ، وليس بِطَائِلٍ ، وهذا

كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] عند من جعلها نافية .

(133/263)

وهناك وَجْهٌ لا يمكن أن يأتي ههنا وهو أن تكون " مَا " مصدريَّةٌ ، وهي وما بعدها في محل رفع بالفاعلية بـ " قَلِيلاً " الذي هو خبر كان ، اولتقدير : كانُوا قليلاً هُجُوعُهُم ، وأمَّا هنا فلا يمكن ذلك لعدم صحَّةِ نصب " قليلاً بقوله : " وَلاَ تَتَّبِعُوا " حتى يجعل " ما تَذَكَّرُون " مرفوعاً به .

ولا يجوز أَن يكون " قَلِيلاً " حالاً من فاعل " تَتَّبِعُوا " و " ما تَذَكَّرُونَ " مرفوعاً به ، إذْ يصيرُ المعنى : أَنَّهُم نُهُوا عن الاتِّباعِ في حال قلَّة تذكرهم ، وليس ذلك بمُرَادٍ .

وقرأ ابن عامر : " قَلِيلاً ما تَذكرُونَ " باليَاءِ تَارةً والتَّاءِ أخرى ، وقرأ حَمْزَةُ والكِسَائِي وحفص عن عاصم بتاء واحدة وتخفيف الذال ، والباقون بتاء وتشديد الذَّال .

قال الواحِديُّ : " تذكَّرُون " أصله " تتذَكَّرُونَ " فأدغمت تاء تفعل في الذَّال ؛ لأنَّ التَّاء مهموسة والذَّال مجهورة ، والمجهور أزيد صوتاً من المَهْمُوسِ ، فحسن إدغام الأنقص في الأزيد ، و " مَا " موصولة بالفِعْلِ ، وهي معه بِمَنْزلَةِ المصْدَرِ فالمعنى : قَلِيلاً تَذَكُّرَكُمْ .

وأمَّا قراءةُ ابْنِ عامر "يَتَذكَّرُونَ" بياء وتاء فوجهها أنَّ هذا خطابٌ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أي: قَلِيلاً ما يتذكرون هؤلاء الَّذِينَ ذُكِّرُوا بها الخِطَابِ.

وأمَّا قراءةُ الأخَوَيْنِ، وحفص خفيفة الذَّالِ شدِيدَة الكَافِ، فقد حَذَفُوا التي أدْغَمَهَا الأوَّلُون، وتقدَّم الكلامُ على ذلك في الأنعام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 10.13 ﴾. باختصار.

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) ﴾

اسْتَسْلِموا لمطالبات التقدير، قِفُوا حيثما وقفتم، وتحققوا بما عرفتم، وطالعوا بما كوشفتم، ولا تلاحظوا غيراً، ولا تركنوا إلى عِلَّةٍ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 519 ﴾

(134/263)

قوله تعالى ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من أعظم ما يتذكر سار النعم وضار النقم للإقبال على الله والإعراض عما سواه وعدم الأغترار باسباب الأمن والراحة ، قال : ﴿ وكم ﴾ أي قلّ تذكركم وخوفكم من سطواتنا والحال أنه كم ﴿ من قرية ﴾ وإن جلت ؛ ولما كان المراد المبالغة في الإهلاك ، أسنده إلى القرية والمراد أهلها فقال : ﴿ أهلكناها ﴾ أي بما لنا من العظمة لظلمها باتباع من دون الله ، فلا تغتروا بأوليائكم من دونه وأنتم عالمون بأنهم لم ينفعوا من ضل من الأمم السالفة وقت إنزالنا بهم السطوة وإحلالنا بهم النقمة وتحقق المهلكون إذ ذاك – مع أنهم كانوا أشد بطشاً وأكثر عدداً وأمتن كيداً – عدم إغنائهم فلم يوجهوا آمالهم نحوهم .

ولما كان المعنى : أردنا إهلاكها وحكمنا به ، سبب عنه قوله : ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ أي عذابنا بما لنا من القوة والعظمة ، أو الإهلاك على حقيقته وهذا تفصيل له وتفسير ؛ ولما كان لا فرق في إتيان عذابه سبحانه بين كونه ليلاً أو نهاراً ، وكان أفحش البأس وأشده ما كان في وقت الراحة والدعة والغفلة قال : ﴿ بياتاً ﴾ أي وقت الاستكنان في البيوت ليلاً كما أهلك قوم لوط عليه السلام وقت السحر .

(135/263)

ولما كان المراد بالقرية اهلها ، بينه بقوله لأنه إذا حذف المضاف جاز فيه اعتباران بحسب ما يحسن من المعنى : أن لا يلتفت إليه – كما في اول الآية ، وإن يلتفت إليه – كما في هذا الأخير لبيان أن الأهل هم المقصودون بالذات لأنه موضع التهديد : ﴿ أو هم قائلون ﴾ أي نائمون وقت القائلة أو مستريحون من غير نوم كما أهلك قوم شعيب عليه السلام ، يعني أنهم كانوا في كل من الوقتين غافلين بسبب أنهم كانوا آمنين ، لم يظنوا أن شيئاً من أعمالهم موجب للعذاب ولا كانوا مترقبين لشيء منه ، فالتقدير : بياتاً هم فيه بائتون أي نائمون ، أو قائلة هم فيها قائلون أي نائمون ، فالآية من الاحتباك : دل إثبات " بياتاً " أولاً على حذف " قائلة " ثانياً ، وإثبات " هم قائلون " ثانياً على حذف " هم نائمون " أولاً ، والذي أرشدنا إلى هذا المعنى الحسن سوق " هم " من غير واو ، وهذا قريب من قوله تعالى فيما يأتي ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ [الأعراف : 97] فالأقرب أن يكون المحذوف أولاً نائمون ، وثانياً نهاراً ، فيكون التقدير : بياتاً هم فيه نائمون ، أو نهاراً هم فيه قائلون ، وبين عظمة ما جاءهم وهوله بأنهم في كل من الوقتين لم يقع في فكر أحد منهم التصويب إلى مدافعته بما سبب عن ذلك من قوله : ﴿ فما كان دعواهم ﴾ أي قولهم الذي استدعوه ﴿ إذ جاءهم بأسنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أي إلا قولهم ﴿ إنا كنا ﴾ أي بما لنا من الجبلة ﴿ ظالمين ﴾ أي في أنا لم نتبع من أنزل إلينا من ربنا ، فلم يفدهم ذلك شيئاً غير شدة التحسر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 7 ـ 8 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالإنذار والتبليغ ، وأمر القوم بالقبول والمتابعة ذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والإعراض عنها من الوعيد ،

(136/263)

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : موضع كم رفع بالابتداء وخبره أهلكناها .

قال : وهو أحسن من أن يكون في موضع نصب لأن قولك زيد ضربته أجود من قولك زيداً ضربته ، والنصب جيد عربي أيضاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] .

المسألة الثانية :

قيل : في الآية محذوف والتقدير : وكم من أهل قرية ويدل عليه وجوه : أحدها : قوله : ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ والبأس لا يليق إلا بالأهل .

وثانيها : قوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فعاد الضمير إلى أهل القرية .

وثالثها : أن الزجر والتحذير لا يقع للمكلفين إلا بإهلاكهم .

ورابعها : أن معنى البيات والقائلة لا يصح إلا فيهم .

فإن قيل : فلماذا قال أهلكناها ؟

أجابوا بأنه تعالى رد الكلام على اللفظ دون المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ ﴾ [الطلاق : 8] فرده على اللفظ .

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ [الطلاق : 10] فرده على المعنى دون اللفظ ، ولهذا السبب قال الزجاج : ولو قال فجاءهم بأسنا لكان صواباً ، وقال بعضهم : لا محذوف في الآية والمراد إهلاك نفس القرية لأن في إهلاكها بهدم أو خسف أو غيرهما إهلاك من فيها ، ولأن على هذا التقدير يكون قوله : ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ محمولاً على ظاهره ولا حاجة فيه إلى التأويل .

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول : قوله : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ يقتضي أن يكون الإهلاك متقدماً على مجيء البأس وليس الأمر كذلك ، فإنّ مجيء البأس مقدم على الإهلاك والعلماء أجابوا عن هذا السؤال من وجوه :

الأول : المراد بقوله : ﴿ أهلكناها ﴾ أي حكمنا بهلاكها فجاءها بأسنا .

وثانيها : كم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا كقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] وثالثها : أنه لو قال وكم من قرية أهلكناها فجاءهم إهلاكنا لم يكن السؤال وارداً فكذا ههنا لأنه تعالى عبر عن ذلك الإهلاك بلفظ البأس .

(137/263)

فإن قالوا : السؤال باق ، لأن الفاء في قوله : ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ فاء التعقيب ، وهو يوجب المغايرة .

فنقول : الفاء قد تجيء بمعنى التفسير كقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ويديه " فالفاء في قوله فيغسل للتفسير ، لأن غسل الوجه واليدين كالتفسير لوضع الطهور مواضعه .

فكذلك ههنا البأس جار مجرى التفسير ، لذلك الإهلاك ، لأن الإهلاك ، قد يكون بالموت المعتاد ، وقد يكون بتسليط البأس والبلاء عليهم ، فكان ذكر البأس تفسيراً لذلك الإهلاك .

الرابع : قال الفراء : لا يبعد أن يقال البأس والهلاك يقعان معاً كما يقال : أعطيتني فأحسنت ، وما كان الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله ، وإنما وقعا معاً فكذا ههنا ، وقوله :

﴿ بَيَاتًا ﴾ قال الفراء يقال : بات الرجل يبيت بيتاً ، وربما قالوا بياتاً قالوا : وسمي البيت لأنه يبات فيه .

قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿ بَيَاتًا ﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين وقوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : أنه حال معطوفة على قوله : ﴿ بَيَاتًا ﴾ كأنه قيل : فجاءها بأسنا بائتين أو قائلين .

قال الفراء : وفيه واو مضمرة ، والمعنى : أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو وهم قائلون ، إلا أنهم استثقلوا الجمع بين حرفي العطف ، ولو قيل : كان صواباً ، وقال الزجاج : أنه ليس بصواب لأن واو الحال قريبة من واو العطف ، فالجمع بينهما يوجب الجمع بين المثلين وأنه لا يجوز ، ولو قلت : جاءني زيد راجلاً وهو فارس لم يحتج فيه إلى واو العطف .

البحث الثاني : كلمة "أو" دخلت ههنا بمعنى أنهم جاءهم بأسنا مرة ليلاً ومرة نهاراً ، وفي القيلولة قولان : قال الليث : القيلولة نومة نصف النهار .

وقال الأزهري : القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر ، وإن لم يكن مع ذلك نوم ، والدليل عليه : أن الجنة لا نوم فيها والله تعالى يقول : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] ومعنى الآية أنهم جاءهم بأسنا وهم غير متوقعين له ، إما ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون ، والمقصود : أنهم جاءهم

العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على نزول ذلك العذاب ، فكأنه قيل : للكفار لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة والفراغ ، فإن عذاب الله إذا وقع ، وقع دفعة من غير سبق أمارة فلا تغتروا بأحوالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 19.18 ﴾

(138/263)

وقال السمرقندى :

﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾

معناه : وكم من أهل قرية وعظناهم فلم يتعظوا فأهلكناهم ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ أي جاءها عذابنا بعد التكذيب ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي ليلاً .

سمي الليل بياتاً لأنه يبات فيه ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ عند القيلولة .

فإن لم تتّعظوا أنتم يأتيكم العذاب ليلاً أو نهاراً كما أتاهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بالعذاب وموضع (كم) الرفع بالابتداء وخبره في (

أهكلناها) وإن شئت نصبته برجوع الهاء ، ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ بَيَاتاً ﴾ ليلا [كما يأتِ بالعساكر] ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ يعني نهاراً في وقت [القائلة] وقائلون نائمون ظهيرة ، ومعنى الآية : (أو هم قائلون) يعني : إن من هذه القرى ما أُهلكت ليلا ومنها ما أُهلكت نهاراً وإنّما حذفوها [لاستثقالهم] نسقاً على نسق ، هذا قول الفراء ، وجعل [الزجاج] بمعنى أو [التحيّر] والإباحة تقديره : جاءهم بأسنا مرّة ليلا ومرّة نهاراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ الآية ،

هذا إخبار من الله تعالى عن حال من أهلكه بكفر تحذيراً للمخاطبين به عن مثله ، وقوله : ﴿ وَكَم ﴾ هي كلمة توضع للتكثير ، " ورُب " موضوعة للتقليل ، وذلك هو الفرق بين كم ورب .

قال الفرزدق :

كم عمة لك يا جرير وخالة . . . فدعاء قد حلبت على عشاري

فدل ذلك على تكثير العمات والخالات :

وفي قوله : ﴿ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً ﴾ وإنما الهلاك بعد مجيء البأس أربعة أوجه :

أحدها : معناه أهلكناها حكماً فجاءها بأسنا فعلاً .

والثاني : أهلكناها بإرسال الملائكة إليها بالعذاب فجاءها بأسنا بوقوع العذاب لهم .

والثالث : أهلكناها بخذلاننا لها عن الطاعة فجاءها بأسنا عقوبة على المعصية .

(139/263)

والرابع : أن البأس والهلاك وقعا معاً في حال واحدة ، لأن الهلاك كان بوقوع البأس فلم يفترقا ، وليس دخول الفاء بينهما موجبة لافتراقهما بل قد تكون بمعنى الواو كما يقال أعطيت وأحسنت ، فكان الإحسان بالعطاء ولم يكن بعد العطاء ، قاله الفراء .

وقوله : ﴿ بَيَاتاً ﴾ يعني في نوم الليل .

﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ يعني في نوم النهار وقت القائلة .

فإن قيل : فلم جاءهم بالعذاب في وقت النوم دون اليقظة ؟ قيل : لأمرين :

أحدهما : لأن العذاب في وقت الراحة أشد وأغلظ .

والثاني : لئلا يتحرزوا منه ويهربوا عنه ، لاستسلام النائم وتحرز المستيقظ ، والبأس : شدة العذاب ، والبؤس : شدة الفقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ كم ﴾ في موضع رفع بالابتداء والخبر ﴿ أهلكناها ﴾ ، ويصح أن يكون الخبر في قوله ﴿ فجاءها ﴾ و ﴿ أهلكناها ﴾ صفة ، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره وكم أهلكنا من قرية أهلكناها ، وقدر الفعل بعدها – وهي خبرية – تشبيهاً لها بالاستفهامية في أن لها في كل حال صدر الكلام ، وقالت فرقة المراد وكم من أهل قرية وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقام المضاف ، وقالت فرقة إنما عبر بالقرية لأنها أعظم في العقوبة إذا هلك البشر وقريتهم ، وقد بين في آخر الآية بقوله ﴿ أوهم ﴾ أن البشر داخلون في الهلاك ، فالآية على هذا التأويل تتضمن هلاك القرية وأهلها جميعاً ، وعلى التأويل الأول تتضمن هلاك الأهل ولا معنى لذكر القرية ، والمراد بالآية التكثير ، وقرأ ابن أبي عبلة : " وكم من قرية أهلكناهم فجاءهم بأسنا " . وقوله ﴿ فجاءها ﴾ يقتضي ظاهره أن المجيء بعد الإهلاك ، وذلك ، وذلك مستحيل فلم يبق إلا أن يعدل على ظاهر هذا التعقيب فقيل الفاء قد تجيء بمنزلة الواو ولا تعطى رتبة .

(140/263)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف وقيل عبر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك ، قال مكي في المشكل : مثل قوله ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ ﴾ [النحل : 98] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يحتج به في تأويل من قال الفاء في هذه الآية لتعقيب القول ، وقيل المعنى " أهلكناها " بالخذلان وقلة التوفيق فجاءها بأسنا بعد ذلك ، وقال الفراء وحكاه الطبري أن الإهلاك هو مجيء البأس ومجيء البأس هو الإهلاك فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة ، وقيل إن الفاء لترتيب القول فقط فكأنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أهلكها ثم قال فكان من أمرها مجيء البأس .

و﴿ بياناً ﴾ نصب على المصدر في موضع الحال ، و﴿ قائلون ﴾ من القائلة ، وإنما خص وقتي الدعة والسكون لأن مجيء العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيه من البغت والفجأة ، و﴿ أو ﴾ في هذا الموضع كما تقول : الناس في فلان صنفان حامد أو ذام ، فكأنه قال جاءهم بأسنا فرقتين بائتين أو قائلين ، وهذا هو الذي يسمى اللف ، وهو إجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة ، والبأس : العذاب ، وقيل : المراد أو وهم قائلون فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو وهذا تكلف لأن معنى اللف باق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ "كم" تدل على الكثرة ، و"رب" موضوعة للقلة .

قال الزجاج : المعنى : وكم من أهل قرية ، فحذف الأهل ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ محمول على لفظ القرية ؛ والمعنى : فجاءهم بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ؛ إما ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون .

قال ابن قتيبة : بأسنا : عذابنا .

وبياتا : ليلاً .

وقائلون : من القائلة نصف النهار .

فإن قيل : إنما أتاها البأس قبل الإهلاك ، فكيف يقدَّم الهلاك ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

(141/263)

أحدها : أن الهلاك والبأس ، يقعان معاً ، كما تقول : أعطيتني فأحسنت ؛ وليس الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله ، وإنما وقعا معاً ، قاله الفراء .

والثاني : أن الكون مضمر في الآية ، تقديره : أهلكناها ، وكان بأسنا قد جاءها ، فأُضمر الكون ، كما أُضمر في قوله : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ [البقرة : 102] أي : ما كانت الشياطين تتلوه .

وقوله تعالى : ﴿ إن يسرق ﴾ [يوسف : 77] أي : إن يكن سرق .

والثالث : أن في الآية تقديماً وتأخيراً ، تقديره : وكم من قرية جاءها بأسنا بياتاً ، أو هم

قائلون ، فأهلكناها ، كقوله تعالى : ﴿ إني متوفيك ورافعك إليَّ ﴾ [آل عمران : 55]

أي : رافعك ومتوفيك ، ذكرهما ابن الانباري .

قوله تعالى : ﴿ أو هم قائلون ﴾ قال الفراء : فيه واو مضمرة ؛ والمعنى : فجاءها بأسنا بياتاً ، أو وهم قائلون ، فاستثقلوا نسقاً على نسق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ "كم" للتكثير ؛ كما أن "رُبَّ" للتقليل .

وهي في موضع رفع بالابتداء ، و"أهلكنا" الخبر .

أي وكثير من القرى وهي مواضع اجتماع الناس أهلكناها .

ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها ، ولا يقدّر قبلها ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله .

ويقوّي الأوّل قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : 17] .

ولولا اشتغال "أَهْلَكْنَا" بالضمير لانتصب به موضع "كم" .

ويجوز أن يكون "أَهْلَكْنَا" صفة للقرية ، و"كم" في المعنى هي القرية ؛ فإذا وصفت القرية فكأنك قد وصفت كم .

يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾ [النجم : 26] فعاد الضمير على "كم" على المعنى ؛ إذ كانت الملائكة في المعنى .

فلا يصح على هذا التقدير أن يكون "كم" في موضع نصب بإضمار فعل بعدها .

﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء .

(142/263)

فقال الفرّاء : الفاء بمعنى الواو ، فلا يلزم الترتيب .

وقيل : أي وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا ؛ كقوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

وقيل : إن الهلاك واقع ببعض القوم ؛ فيكون التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع .

وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا .

وقيل : أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها ، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال .

والبأس : العذاب الآتي على النفس .

وقيل : المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم في وقت كذا ؛ فمجيء البأس على هذا هو الإهلاك .

وقيل : البأس غير الإهلاك ؛ كما ذكرنا .

وحكى الفرّاء أيضاً أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدّمت أيهما شئت ؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ؛ مثل دَنَا فقَرُب ، وقَرُب فدنا ، وشتمني فأساء ، وأساء فشتمني ؛ لأن الإساءة والشتم شيء واحد .

وكذلك قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] .

المعنى والله أعلم انشق القمر فاقتربت الساعة .

والمعنى واحد .

﴿ بَيَاتاً ﴾ أي ليلاً ؛ ومنه البيت ، لأنه يبات فيه .

يقال : بات يبيت بيتاً وبياتاً .

﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أي أو وهم قائلون ، فاستثقلوا فحذفوا الواو ؛ قاله الفرّاء .

وقال الزجاج : هذا خطأ ، إذا عاد الذكرُ استغني عن الواو ، تقول : جاءني زيد راكباً أو هو ماش ، ولا يحتاج إلى الواو .

قال المهدويّ : ولم يقل بياتاً أو وهم قائلون لأن في الجملة ضميراً يرجع إلى الأوّل فاستغنى عن الواو .

وهو معنى قول الزجاج سواء ، وليس أو للشك بل للتفصيل ؛ كقولك : لأكرِمنّك منصفاً لي أو ظالماً .

وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت .

و"قَائِلُونَ" من القائلة وهي القيْلُولة ؛ وهي نوم نصف النهار .

وقيل : الاستراحة نصفَ النهار إذا اشتدّ الحرّ وإن لم يكن معها نوم .

(143/263)

والمعنى : جاءهم عذابنا وهم غافلون إمّا ليلاً وإمّا نهاراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾

لما أمر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإنذار والإبلاغ ، وأمر أمته باتباع ما أنزله إليهم حذرهم نقمته وبأسه إن لم يتبعوا ما أمروا به فذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والإعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ ، قيل : فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لأن المقصود بالإهلاك أهل القرية لا القرية ، وقيل : ليس فيه حذف لأن إهلاك القرية إهلاك لأهلها ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ يعني عذابنا .

فإن قلت مجيء البأس وهو العذاب إنما يكون قبل الإهلاك فكيف قال أهلكناها فجاءها بأسنا ؟

قلت : معناه وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا .

وقال الفراء : الهلاك والبأس قد يقعان معاً كما يقال أعطيتني فأحسنت إليّ فلم يكن الإحسان قبل الإعطاء ولا بعده وإنما وقعا معاً .

وقال غيره : لا فرق بين قولك أعطيتني فأحسنت إليّ أو أحسنت إليّ فأعطيتني فيكون أحدهما بدلاً من الآخر ﴿ بياتاً ﴾ يعني فجاءها عذابنا ليلاً قبل أن يصبحوا ﴿ أو هم قائلون ﴾ من القيلولة وهي نوم نصف النهار أو استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة .

ومقصود الآية أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم منغير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قَائلون ﴾

﴿ كم ﴾ هنا خبرية التقدير وكثير من القرى أهلكناها وأعاد الضمير في أهلكناها على معنى كم وهي في موضع رفع بالابتداء وأهلكناها جملة في موضع الخبر وأجازوا أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل يفسّره أهلكناها تقديره وكم من قرية أهلكنا أهلكناها ولا بدّ في الآية من تقدير محذوف مضاف لقوله أو هم قائلون فمنهم من قدّره وكم من أهل قرية ومنهم من قدّره أهلكنا أهلها وينبغي أن يقدّر عند قوله ﴿ فجاءها ﴾ أي فجاء أهلها لمجيء الحال من أهلها بدليل أو هم قائلون لأنه يمكن إهلاك القرى بالخسف والهدم وغير ذلك فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله ﴿ فجاءها ﴾ .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ وكم من قرية أهلكناهم فجاءهم ﴾ فيقدّر المضاف وكم من أهل قرية ولا بد من تقديره صفة للقرية محذوفة أي من قرية عاصية ويعقّب مجيء البأس وقوع الإهلاك لا يتصوّر فلا بدّ من تجوّز إما في الفعل بأن يراد به أردنا إهلاكها أو حكمنا بإهلاكها ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ وأما أن يختلف المدلولان بأن يكون المعنى أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءها بأسنا بعد ذلك وإما أن يكون التجوّز في الفاء بأن تكون بمعنى الواو وهو ضعيف أو تكون لترتيب القول فقط فكأنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أهلكها ثم قال فكان من أمرها مجيء البأس .

وقال الفرّاء : إنّ الإهلاك هو مجيء البأس ومجيء البأس هو الإهلاك فلما تلازما لم يبالِ أيهما قدّم في الرتبة ، كما تقول شتمني فأساء وأساء فشتمني لأن الإساءة والشتم شيء واحد .

وقيل : الفاء ليست للتعقيب وإنما هي للتفسير ، كقوله : توضّأ فغسل كذا ثم كذا وانتصب بياناً على الحال وهو مصدر أي ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ بائتين أو قائلين وأو هنا للتنويع أي جاء مرة ليلاً كقوم لوط ومرة وقت القيلولة كقوم شعيب وهذا فيه نشر لما لفّ في قوله ﴿ فجاءها ﴾ وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدّعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أقطع وأشقّ ولأنه يكون المجيء فيه على غفلة من المهلكين ، فهو كالمجيء بغتةً وقوله ﴿ أو هم قائلون ﴾ جملة في موضع الحال ونصّ أصحابنا أنه إذ دخل على جملة الحال واو العطف فإنه لا يجوز دخول واو الحال عليها فلا يجوّز جاء زيد ماشياً أو وهو راكب .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : لا يقال جاء زيد هو فارس بغير واو فما بال قوله تعالى : ﴿ أو هم قائلون ﴾ (قلت) : قدّر بعض النحويين الواو محذوفة ورده الزّجاج .

وقال : لو قلت جاءني زيد راجلاً أو هو فارس أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج فيه إلى واو لأنّ الذكر قد عاد إلى الأول والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حُذفت الواو استثقالاً لاجتماع حرفي عطف لأنّ واو الحال هي واو العطف استُعيرت للوصل فقولك

جاء زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حدّه وأما جاءني زيد هو فارس فخبيث انتهى .

(146/263)

فأما بعض النحويين الذي اتهمه الزمخشري فهو الفرّاء ، وأما قول الزّجاج في التمثيلين لم يحتج فيه إلى الواو لأنّ الذكر قد عاد إلى الأول ففيه إبهام وتعيينه لم يجز دخولها في المثال الأول ويجوز أن يدخل في المثال الثاني فانتفاء الاحتياج ليس على حدّ سواء لأنه في الأول لامتناع الدخول وفي الثاني لكثرة الدخول لا لامتناعه ، وأما قول الزمخشري والصحيح إلى آخرها فتعليله ليس بصحيح لأنّ واو الحال ليست حرف عطف فيلزم من ذكرها اجتماع حرفي عطف لأنها لو كانت للعطف للزم أن يكون ما قبل الواو حالاً حتى يعطف حالاً على حال فمجيئها في ما لا يمكن أن يكون حالاً دليل على أنها ليست واو عطف ولا لحظ فيها معنى واو عطف تقول جاء زيد والشمس طالعة فجاء زيد ليس بحال فيعطف عليه جملة حالية وإنما هذه الواو مغايرة لواو العطف بكل حال وهي قسم من أقسام الواو كما تأتي للقسم وليست فيه للعطف إذا قلت والله ليخرجنّ وأما قوله : فخبيث فليس بخبيث وذلك أنه بناه على أن الجملة الإسمية إذا كان فيها ضمير ذي الحال فإنّ حذف الواو منها شاذ وتبع في

ذلك الفرّاء وليس بشاذ بل هو كثير وقوعه في القرآن وفي كلام العرب نثرها ونظمها وهو أكثر من رمل يبرين ومها فلسطين وقد ذكرنا كثرة مجيء ذلك في شرح التسهيل وقد رجع عن هذا المذهب الزمخشري إلى مذهب الجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(147/263)

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾

شروعٌ في إنذارهم بما جرى على الأمم الماضيةِ بسبب إعراضِهم عن اتباع دينِ الله تعالى وإصرارِهم على اتباع دينِ أوليائِهم ، وكم خبريةٌ للتكثير في موضع رفعٍ على الابتداء كما في قولك : زيد ضربته ، والخبرُ هو الجملةُ بعدها ومن قرية تمييزٌ والضميرُ في أهلكناها راجعٌ إلى معنى كم أي كثيرٌ من القرى أهلكناها أو في موضع نصب بأهلكناها كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ والمرادُ بإهلاكها إرادةُ إهلاكِها كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ﴾ أي أردنا إهلاكَها ﴿ فَجَاءهَا ﴾ أي فجاء أهلَها ﴿ بَأْسُنَا ﴾ أي عذابُنا ﴿ بَيَاتًا ﴾ مصدر بمعنى الفاعل واقعٌ موقعَ الحال أي بائتين كقوم لوطٍ ﴿ أَوْ هُمْ

قَائِلُونَ ﴾ عطفٌ عليه أي وقائلين من القيلولة نصفَ النهار كقوم شعيب وإنما حُذفت الواو من الحال المعطوفةِ على أختها استثقالاً لاجتماع العاطفَين فإن واو الحال حرفُ عطفٍ قد استعيرت للوصل لا اكتفاءً بالضمير كما في جاءني زيد هو فارس فإنه غيرُ فصيح ، وتخصيصُ الحالتين بالعذاب لما أن نزولَ المكروهِ عند الغفلة والدعَةِ أفظعُ وحكايتَه للسامعين أزجرُ وأردَعُ عن الاغترار بأسباب الأمن والراحةِ ، ووصفُ الكلِّ بوصفي البياتِ والقيلولة مع أن بعضَ المُهلَكين بمعزل منهما لا سيما القيلولةِ للإيذان بكمال غفلتِهم وأمنِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(148/263)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾

شروع في تذكيرهم وإنذارهم ما نزل بمن قبلهم من العذاب بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى وإصرارهم على أباطيل أوليائهم ، و﴿ كَمْ ﴾ خبرية للتكثير في محل رفع على الابتداء ؛ والجملة بعدها خبرها و﴿ مِنْ ﴾ سيف خطيب و﴿ قَرْيَةٌ ﴾ تمييز . ويجوز أن يكون محل ﴿ كَمْ ﴾ نصباً على الاشتغال ، وضمير ﴿ أهلكناها ﴾ راجع إلى

معنى كم فإن المعنى قرى كثيرة أهلكناها ، والمراد بإهلاكها إرادة إهلاكها مجازاً كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] الآية فلا إشكال في التعقيب الذي تفهمه الفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا ، واعترض هذا الجواب بعض المدققين بأن فيه إشكالاً أصولياً ، وهو أن الإرادة إن كانت باعتبار تعلقها التنجيزي فمجيء البأس مقارن لها لا متعقب لها وبعدها ، وإن لم يرد ذلك فهي قديمة فإن كان البأس يعقبها لزم قدم العالم وإن تأخر عنها لزم العطف بثم .

(149/263)

وأجيب بأن المراد التعلق التنجيزي قبل الوقوع أي قصدنا إهلاكها فتدبر ، وقيل : إن المراد بالإهلاك الخذلان وعدم التوفيق فهو استعارة أو من إطلاق المسبب على السبب ، وإلى هذا يشير كلام ابن عطية وتعقب بأنه اعتزالي وأن الصواب أن يقال : معناه خلقنا في أهلها الفسق والمخالفة فجاءها بأسنا ، وقيل : المراد حكمنا بإهلاكها فجاءها ، وقيل : الفاء تفسيرية نحو توضأ فغسل وجهه الخ .

وقيل : إن الفاء للترتيب الذكري .

وقال ابن عصفور : إن المراد أهلكناها هلاكاً من غير استئصال فجاءها هلاك

الاستئصال ، وقال الفراء : الفاء بمعنى الواو أو المراد فظهر مجيء بأسنا واشتهر ، وقيل : الكلام على القلب وفيه تقديم وتأخير أي أهلكناها بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فجاءها بأسنا فالإهلاك في الدنيا ومجيء البأس في الآخرة فيشمل الكلام عذاب الدارين ، ويأباه ما بعد إباء ظاهراً فإنه يدل على أن العذاب في الدنيا ، وقدر غير واحد في النظم الكريم مضافاً أي فجاء أهلها .

وجوز بعضهم الحمل على الاستخدام لأن القرية تطلق على أهلها مجازاً ، ومن الناس من قدر في الأول المضاف أيضاً مع أن القرية تتصف بالهلاك وهو الخراب .

والبيات في الأصل مصدر بات يبيت بيتاً وبيتة وبياتاً وبيتوتة ، وذكر الراغب : "أن البيات وكذا التبييت قصد العدو ليلاً" .

وقال الليث : البيتوتة الدخول في الليل ، ونصبه على الحال بتأويله ببائتين .

وجوز أن يكون على الظرفية وهو خلاف الظاهر ، واحتمال النصب على المفعولية له كما زعم أبو البقاء مما لا يلتفت إليه .

و(أو) للتنويع وما بعدها عطف على الحال وهو في موضع الحال أيضاً وأضمرت فيه الواو كما قال ابن الأنباري لوضوح المعنى ومن أجل أن (أو) حرف عطف والواو كذلك فاستثقلوا الجمع بين حرفين من حروف العطف فحذفوا الثاني ، ونقل ذلك عن الفراء أيضاً .

وتعقب بأن واو الحال مغايرة لواو العطف بكل حال وهي قسم من أقسام الواو كواو القسم بدليل أنها تقع حيث لا يمكن أن يكون ما قبلها حالاً وكونها للعطف يقتضي أن لا تقع إلا حيث يكون ما قبلها حالا حتى تعطف حالا على حال .

وقال ابن المنير : "إن هذه الواو لا بد أن تمتاز عن واو العطف بمزية ألا تراها تصحب الجملة الاسمية بعد الفعلية [في قولك : جاءني زيد وهو راكب] ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغايرين (وإن لم يكن قبيحاً فالأفصح) خلافه وحيث رأيناها تتوسط (بينهما) (1) والكلام (حينئذ) (1) هو الأفصح أو المتعين علمنا امتيازها (بمعنى وخاصية) عن واو العطف وإذا ثبت ذلك فلا غرو في اجتماعهما .

وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصية فإما أن تسلبه حينئذ لغناء العاطفة عنها أو تستمر عليه (وتجامع أو كما تجامع الواو لكن في الفصيح) لما فيها من زيادة معنى الاستدراك (في مثل قوله ﴿ ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : 12] وعلى هذا فالاجتماع ممكن بلا كراهية ، فلو قلت : سَبِّحِ الله تعالى وأنت راكع أو وأنت ساجد لكان فصيحاً لا خبث فيه ولا كراهة" خلافاً لأبي حيان مدعياً أن النحويين نصوا على أن الجملة الحالية إذا

دخل عليها حرف عطف امتنع دخول واو الحال عليها للمشابهة اللفظية فالمثال على هذا غير صحيح ، وظاهر كلام الزمخشري أن هذه الواو واو العطف في الأصل ثم استعيرت للحال لما فيها من الربط فقد خرجت عن العطف واستعملت لمعنى آخر لكنها أعطيت حكم أصلها في امتناع مجامعتها لعاطف آخر ، وعلى هذا ينبغي أن يحمل كلام ذينك الإمامين وهذا مذهب لهما ولمن اتبعهما .

وقال بعض النحاة : إن الضمير هنا مغن عن إضمار الواو والاكتفاء به غير شاذ كما قيل بل هو أكثر من رمل يبرين ومها فلسطين ، وقد نقل عن الزمخشري الرجوع إلى هذا القول والمسألة خلافية وفيها تفصيل .

(151/263)

ففي "البديع" الاسمية الحالية لا تخلو من أن تكون من سبب ذي الحال أو أجنبية فإن كانت من سببه لزمها العائد والواو تقول : جاء زيد وأبوه منطلق وخرج عمرو ويده على رأسه إلا ما شذ من قولهم : كلمته فوه إلى في .

وإن كانت أجنبية لزمتها الواو ونابت عن العائد .

وقد يجمع بينهما نحو قدم عمرو وبشر قام إليه وقد جاءت بلا واو ولا ضمير كما في قوله :

ثم انتصينا جبال الصفد معرضة . . .

عن اليسار وعن إيماننا جدد

فإن جبال الصفد معرضة حال بلا واو ولا ضمير .

وعن الشيخ عبد القاهر جعل ذلك على قسمين ما يلزمه الواو مطلقاً وهو ما إذا صدر بضمير ذي الحال نحو جاء زيد وهو يسرع لأن إعادة ضميره تقتضي أن الجملة مستأنفة لئلا تلغو الإعادة فإذا لم يقصد الاستئناف فلا بد من الواو وما عداه تلزمه الواو في الفصيح إلا على طريق التشبيه بالمفرد والتأويل فإنه حينئذ قد تترك الواو جوازاً ، وقيل ولم يسلم : إن الضابط في ذلك أنه إذا كان المبتدأ ضمير ذي الحال تجب الواو وإلا فإن كان الضمير فيما صدر به الجملة سواء كان مبتدأ نحو فوه إلى في و ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : 36] أو خبراً نحو وجدته حاضراه الجود والكرم فلا يحكم بضعفه لكونه الرابط في أول الجملة وإلا فضعيف قليل .

(152/263)

وقال ابن مالك وتبعه ابن هشام ونقل عن السكاكي : إنه إذا كانت الجملة الاسمية مؤكدة لزم الضمير وترك الواو نحو هو الحق لا شبهة فيه و ﴿ ذلك الكتاب لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2

] ، واختار ابن المنير "أن المصحح لوقوع هذه الجملة هنا حالاً من غير واو هو العاطف إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية لما عطفت عليه في الحالية فيستغني عن واو الحال كما أنك تعطف على المقسم به فتدخله في حكم القسم من غير واو نحو (موقعة) (1) ﴿ واليل إِذَا يغشى والنهار إِذَا تجلى ﴾ [الليل : 1 ، 2] وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس الجوار الكنس واليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 15 17] ويستغنى عن تكرار حرف القسم بنيابة العاطف منابه" فليفهم .

وأياً ما كان فحاصل المعنى أتاهم عذابنا تارة ليلاً كقوم لوط عليه السلام وتارة وقت القيلولة كقوم شعيب عليه السلام .

والقيلولة من قال يقيل فهو قائل ويقال قيلا وقائلة (وميقالاً) ومقيلاً ، وهي كما في "القاموس" نصف النهار ، أو هي (الراحة والدعة) نصف النهار وإن لم يكن معها نوم كما في "النهاية" ، واستدل له بقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ إذ الجنة لا نوم فيها .

(153/263)

وقال الليث : هي نومة نصف النهار ، ودفع الاستدلال بأن ذلك مجاز ، وإنما خص إنزال العذاب عليهم في هذين الوقتين لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ، وفي التعبير في الحال الأولى بالمصدر وجعلها عين البيات وفي الحال الثانية بالجملة الاسمية المفيدة في المشهور للثبوت مع تقديم المسند إليه المفيد للتقوى ما لا يخفى من المبالغة ، وكذا في وصف الكل بوصف البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما إيذان بكمال الأمن والغفلة ، وفي هذا ذم لهم بالغفلة عما هم بصدده ، وإنما خولف بين العبارتين على ما قيل وبنيت الحال الثانية على تقوى الحكم والدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لأن القيلولة أظهر في إرادة الدعة وخفض العيش فإنها من دأب المترفين والمتنعمين دون من اعتاد الكدح والتعب .

وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(154/263)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) ﴾

عطف على جملة : ﴿ ولا تتّبعوا ﴾ [الأعراف : 3] وهذا الخبر مستعمل في التّهديد

للمشركين الذين وجه إليهم التّعريض في الآية الأولى والذين قصدوا من العموم .

وقد ثلث هنا بتمحيض التّوجيه إليهم .

وإنّما خُصّ بالذّكر إهلاك القرى ، دون ذكر الأمم كما في قوله : ﴿ فأمّا ثمود فأهلكوا بالطّاغية وأمّا عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ [الحاقة : 5 ، 6] ، لأنّ المواجهين بالتّعريض هم أهل مكّة وهي أمّ القرى ، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها ولأنّ تعليق فعل ﴿ أهلكنا ﴾ بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشّمول ، فهو مغن عن أدوات الشّمول ، فالسّامع يعلم أنّ المراد من القرية أهلها لأنّ العبرة والموعظة إنّما هي بما حصل لأهل القرية ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ [يوسف : 82] ونظيرهما معاً قوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ [الأنبياء : 6] ، فكلّ هذا من الإيجاز البديع ، والمعنى على تقدير المضاف ، وهو تقدير معنى .

وأجرى الضّميران في قوله : ﴿ أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ على الإفراد والتّأنيث مراعاة للفظ قرية ، ليحصل التماثل بين لفظ المعاد ولفظ ضميره في كلام متّصلِ القرب ، ثمّ أجريت ضمائر القرية على صيغة الجمع في الجملة المفرعة عن الأولى في قوله : ﴿ أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم ﴾ إلخ لحصول الفصل بين الضّمير ولفظ معاده بجملة فيها ضمير معاده غير لفظ القرية ، وهو ﴿ بأسنا بياتاً ﴾ لأنّ (بياتاً) متحمّل لضمير البأس ، أي

مبيّتاً لهم ، وانتقل منه إلى ضمير القرية باعتبار أهلها فقال : ﴿ أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم ﴾ .

و(كم) اسم حال على عدد كثير وهو هنا خبر عن الكثرة وتقدّم في أوّل سورة الأنعام .

والإهلاك : الإفناء والاستئصال .

(155/263)

وفعل ﴿ أهلكناها ﴾ يجوز أن يكون مستعملاً في معنى الإرادة بحصول مدلوله ويجوز أن يكون مستعملاً في ظاهر معناه .

والفاء في قوله : ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ عاطفة جملة : ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ على جملة : ﴿ أهلكناها ﴾ ، وأصل العاطفة أن تفيد ترتيب حصول معطوفها بعد حصول المعطوف عليه ، ولما كان مجيء البأس حاصلاً مع حصول الإهلاك أو قبلَه ، إذ هو سبب الإهلاك ، عسر على جمع من المسفّرين معنى موقع الفاء هنا ، حتّى قال الفرّاء إنّ الفاء لا تفيد التّرتيب مطلقاً ، وعنه أيضاً إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدّمت أيّهما شئت مثل شتمني فأساء وأساء فشتمني .

وعن بعضهم أنّ الكلام جرى على طريقة القلب ، والأصل : جاءها بأسنا فأهلكناها ،

وهو قلب خلي عن النّكتة فهو مردود ، والذي فسّر به الجمهور : أنّ فعل (أهلكناها) مستعمل في معنى إرادة الفعل كقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم ﴾ [النحل : 98] وقوله : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] الآية أي فإذا أردت القراءة ، وإذا أردتم القيام إلى الصّلاة ، واستعمال الفعل في معنى إرادة وقوع معناه من المجاز المرسل عند السكاكي قال : ومن أمثلة المجاز قوله تعالى: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] استعمل ﴿ قرأت ﴾ مكان أردت القراءة لكون القراءة مسبّبة عن إرادتها استعمالاً مجازياً بقرينة الفاء في ﴿ فاستعذ بالله ﴾ ، وقولُه : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ في موضع أردنا إهلاكها بقرينة ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ والبأس الإهلاك .

(156/263)

والتّعبير عن إرادة الفعل بذكر الصّيغة التي تدلّ على وقوع الفعل يكون لإفادة عزم الفاعل على الفعل ، عزماً لا يتأخّر عنه العمل ، بحيث يستعار اللّفظ الدّال على حصول المراد ، للإرادة لتشابههما ، وإمّا الإتيان بحرف التّعقيب بعد ذلك فللدّلالة على عدم التّريّث ، فدلّ الكلام كلّه : على أنّه تعالى يريد فيخلق أسباب الفعل المراد فيحصل الفعل ، كلّ ذلك يحصل

كالأشياء المتقارنة ، وقد استفيد هذا التّقارن بالتّعبير عن الإرادة بصيغة تقتضي وقوع الفعل ، والتّعبير عن حصول السّبب بحرف التّعقيب ، والغرض من ذلك تهديد السّامعين المعاندين وتحذيرهم من أن يحلّ غضب الله عليهم فيريد إهلاكهم ، فضيَّقَ عليهم المهلّة لئلا يتباطأوا في تدارك أمرهم والتّعجيل بالتّوبة .

والذي عليه المحققون أنّ التّرتيب في فاء العطف قد يكون التّرتيبَ الذكريّ ، أي ترتيب الإخبار بشيء عن الإخبار بالمعطوف عليه .

ففي الآية أخبر عن كيفيّة إهلاكهم بعد الخبر بالإهلاك ، وهذا التّرتيب هو في الغالب تفصيل بعد إجمال ، فيكون من عطف المفصّل على المجمل ، وبذلك سمّاه ابن مالك في "التّسهيل" ، ومثَّل له بقوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عُرباً ﴾ [الواقعة : 35 ، 37] الآية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ [الزمر : 72] أو قوله ﴿ فأزلهما الشّيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ [البقرة : 36] لأنّ الإزلال عن الجنّة فُصل بأنّه الإخراج ، وقوله تعالى : ﴿ كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ [القمر : 54] وهذا من أساليب الإطناب وقَد يغفل عنه .

والبأس ما يحصل به الألم ، وأكثر إطلاقه على شدّة الحساب ولذلك سمّيت الحرب البأساء

، وقد مضى عند قوله تعالى : ﴿ والصّابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس ﴾ في سورة البقرة (177) ، والمراد به هنا عذاب الدّنيا .

(157/263)

واستعير المجيء لحدوث الشّيء وحصوله بعد أن لم يكن تشبيهاً لحُلول الشّيء بوصول القادم من مكان إلى مكان بتنقُّل خطواته ، وقد تقدّم نظير هذا في قوله تعالى : فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا في سورة الأنعام (43) .

والبيات مصدر بَات ، وهو هنا منصوب على الحال من البأس ، أي جاءهم البأس مبَيِّتا لهم ، أي جاءهم ليلاً ، ويطلق البيات على ضرب من الغارة تقع ليلاً ، فإذا كان المراد من البأس الاستعارة لشدّة الحرب كما المراد من البيات حالة من حال الحرب ، هي أشدّ على المغزوّ ، فكان ترشيحاً للاستعارة التّمثيليّة ، ويجوز أن يكون بياتاً ﴾ منصوباً على النّيابة عن ظرف الزّمان أي في وقت البيات .

وجملة ﴿ هم قائلون ﴾ حال أيضاً لعطفها على ﴿ بياتاً ﴾ بأو ، وقد كفى هذا الحرفُ العاطف عن ربط جملة الحال بواو الحال ، ولولا العطف لكان تجرد مثل هذه الجملة عن الواو غير حسَن ، كما قال في "الكشاف" ، وهو متابع لعبد القاهر .

وأقول : إنّ جملة الحال ، إذا كانت جملة اسميّة ، فإمّا أن تكون منحلّة إلى مفردين : أحدهما وصف صاحب الحال ، فهذه تَجَرّدُها عن الواو قبيح ، كما صرّح به عبد القاهر وحقّقه التفتازاني في "المطوّل" ، لأنّ فصيح الكلام أن يجاء بالحال مفردة إذ لا داعي للجملة ، نحو جاءني زيد هو فارس ، إذ يغني أن تقول : فارساً .

وأمّا إذا كانت الجملة اسميّة فيها زيادة على وصف صاحب الحال ، وفيها ضمير صاحب الحال ، فخلوها عن الواو حسن نحو قوله تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ ﴾ [طه : 123] فإنّ هذه حالة لكلا الفريقين ، وهذا التّحقيق هو الذي يظهر به الفرق بين قوله : ﴿ بعضكم لبعض عدوّ ﴾ [طه : 123] وقولهم ، في المثال : جاءني زيد هو فارس ، وهو خير ممّا أجاب به الطيبي وما ساقه من عبارة "المفتاح" وعبارة ابن الحاجب فتأمّله .

وعُلّل حذف واو الحال بدفع استثقال توالي حرفين من نوع واحد .

(158/263)

و (أو) لِتقسيم القُرى المهلَكة : إلى مهلكة في اللّيل ، ومهلّكة في النّهار ، والمقصود من هذا التّقسيم تهديد أهل مكّة حتّى يكونوا على وجل في كلّ وقت لا يدرون متى يحلّ بهم

العذاب ، بحيث لا يأمنون في وقت مَّا .

ومعنى : ﴿ قائلون ﴾ كائنون في وقت القيلولة ، وهي القائلة ، وهي اسم للوقت المبتدىء من نصف النّهار المنتهي بالعصر ، وفعله : قال يقيل فهو قائل ، والمقيل الرّاحة في ذلك الوقت ، ويطلق المقيل على القائلة أيضاً .

وخصّ هذان الوقتان من بين أوقات اللّيل والنّهار : لأنّهما اللّذان يطلب فيهما النّاس الرّاحة والدعة ، فوقوع العذاب فيهما أشدّ على النّاس ، ولأنّ التّذكير بالعذاب فيهما ينغص على المكذّبين تخيّل نعيمَ الوقتين .

والمعنى : وكم من أهلِ قرية مشركين أهلكناهم جزاء على شركهم ، فكونوا يا معشر أهل مكّة على حذر أن نصيبكم مثل ما أصابهم فإنّكم وإياهم سواء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(159/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) ﴾

وساعة تسمع "كم " فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن تستفهم

عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يعرف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه . وهل القرى هي التي تهلك أم يهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتي مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق في سورة يوسف : ﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير . . . ﴾ [يوسف : 82]

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المباني ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق : اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها . ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ .

وأيهما يأتي أولاً : الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك ؟ . الذي يأتي أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أزلاً ، أي أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق . ونعلم أن القرية هي المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أزلاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتي به في قرآن

يتلى ؛ ليأتي السلوك موافقاً ما أخبر به الله . ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الأعراف : 4]

(160/263)

والبأس هو القوة التي ترد ولا تقهر ، و" بيتاً " أي بالليل ، ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أي في القيلولة . ولماذا يأتي البأس في البيات أو في القيلولة ؟ . ونجد في خبر عمّن أَهْلِكُوا مثل قوم لوط أنّه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك في القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا . ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ [الصافات : 177]

أي يأتيهم الدمار في وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس . ﴿ . . . فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الأعراف : 4]

وإذا قال سبحانه : ﴿ بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هي الوقت الذي ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجيء البأس الذي سيهلكهم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) ﴾

خوف الله تعالى في هذه الآية الكريمة الكفار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، بأنه أهلك كثيراً من القرى بسبب تكذيبهم الرسل ، فمنهم من أهلكها بياتاً أي ليلاً ، ومنهم من أهلكها وهم قائلون ، أي في حال قيلولتهم ، والقيلولة : الاستراحة وسط النهار . يعني : فاحذروا تكذيب رسولي صلى الله عليه وسلم لئلا أنزل بكم مثل ما أنزلت بهم ، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله : ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : 10] ، وقوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : 45] ، وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ [القصص : 58] ، وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [محمد : 10] ، ثم بين أنه يريد تهديدهم بذلك بقوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : 10] إلى غير ذلك من الآيات .

(162/263)

وقد هدد تعالى أهل القرى بأن يأتيهم عذابه ليلاً في حالة النوم ، أو ضحى في حالة اللعب ، في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : 97-98] . وهدد أمثالهم من الذين مكروا السيئات بقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرض أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 45-47] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(163/263)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وفي "كَمْ" وجهان :

أحدهما : أنَّهَا في موضعِ رفع بالابتداء ، والخبرُ الجُمْلَة بعدها ، و" مِنْ قَرْيَةٍ " تمييزٌ ، والضمير في " أهْلَكْنَاهَا " عائد على معنى "كَمْ" ، وهي هنا خبرية للتَّكْثيرِ ، والتَّقدير : وكثير من القرى أهْلَكْنَاهَا .

قال الزَّجَّاجُ : و"كَمْ" في موضع رَفْع بالابتداءِ أحسن من أن تكون في موضع نَصْبٍ ؛ لأن قولك : " زَيْدٌ ضَرَبْتُهُ " أجود من قولك : " زَيْداً ضربتُهُ " بالنَّصْب ، والنَّصْبُ جيِّدٌ عربيٌّ أيضاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ، ونقل أبو البقاءِ عن بعضهم أنه جعل " أهْلَكْنَاهَا " صفة لـ " قرية " ، والخبر قوله : " فَجَاءَهَا بَأْسُنَا " قال : وهو سَهْوٌ ؛ لأن " الفَاءَ " تمنع من ذلك .

قال شهابُ الدِّين : ولو ادَّعى مدَّعٍ زيادَتَها على مذهب الأخفش لم تُقبل دَعْوَاهُ ؛ لأن الأخفش إنَّمَا يَزِيدُهَا عند الاحتياج إلى زيادتها .

الثاني : أنَّهَا في موضع نَصْبٍ على الاشتغال بإضمار فعل يفسِّره ما بعده ، ويقدَّرُ الفِعْلُ متأخَّراً عن "كم" ؛ لأن لها صدر الكلام ، والتَّقديرُ : وكم من قريةٍ أهلكناها [أهلكناها] ، وإنَّمَا كان لها صدر الكلام لوَجْهَيْنِ :

أحدهما : مضارعتها لـ "كم" الاستفهامية .

والثاني : أنَّهَا نقيضة " رُبَّ " ؛ لأنها للتكثير و" رُبَّ " للتَّقْلِيلِ فحُمل النقيضُ على نَقِيضهِ كما يحملون النظير على نظيره ، ولا بد من حَذْفِ مُضافٍ في الكلام لقوله تعالى : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ فاضطرَرْنَا إلى تَقْدير محذوفٍ ؛ لأن البَأسَ لا يليق بالأهْلِ ، ولقوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ فعاد الضمير إلى أهل القرية ، وأيضاً فلأن التَّحْذِيرَ لا يقع إلاَّ للمُكَلَّفينَ ، وأيضاً والقَائِلَةُ لا تَلِيقُ إلاَّ بالأهْلِ .

ثم منهم مَنْ قدَّره قبل قرية أي : كم من أهْلِ قَرِيةٍ ، ومنهم مَنْ قدَّرَهُ قبل " ها " في أهلكنَاهَا أي : أهْلَكْنَا أهلها ، وهذا ليس بشَيءٍ ؛ لأن التَّقادير إنَّمَا تكُونُ لأجل الحَاجَةِ ، والحاجةُ لا تَدْعُو إلى تَقْدير هذا المُضَافِ في هَذَيْنِ الموضِعَيْنِ المذكُورَيْنِ ؛ لأن غهلاكَ القرْيَة يمكنُ أن يقعَ عليها نَفْسِهَا ، فإن القُرى قد تُهْلَكُ بالخَسْفِ والهَدْمِ والحريقِ والغرَقِ ونحوه ، وإنما يحتاج إلى ذلك عند قوله : " فَجَاءَهَا " لأجل عَوْدِ الضَّمير من قوله : " هُمْ قَائِلُونَ " عليه ، فيقدَّرُ : وكم من قَرْيَةٍ أهلكناها فَجَاءَ أهلها بأسنا .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : فإن قلت : هل يقدَّرُ المُضَافُ الذي هو الأهل قبل القَرْيَةِ ، أو قَبْلَ الضَّمير في " أهلكْنَاهَا " .

قلتُ : إنَّمَا يُقدَّرُ المُضَافُ للحاجَةِ ، ولا حَاجَةَ فإن القريَةَ تَهْلَكُ ، كما يَهْلَكُ أهلها وإنَّما قَدَّرْنَاهُ قبل الضمير في " فَجَاءَهَا " لقوله : ﴿ ﴾ وَظَاهِر الآية : أنَّ مجيءَ البَأسِ بعد الإهلاكِ وعقيبة ؛ لأنَّ الفاءَ تعطي ذلك لكن الواقعَ إنما هو مجيءُ البَأسِ ، وبعدَهُ يقعُ الإهلاك .

فمن النُّحَاةِ من قال الفاء تأتي بمعنى " الوَاوِ " فلا ترتب ، وجعل من ذلك هذه الآيَةَ ، وهو ضَعِيفٌ ، والجمهور أجَابُوا عن ذلك بوجهين :

أحدهما : أنَّهُ على حذف الإرادة أي : أرَدْنَا إهلاكها كقوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن ﴾ [النحل : 98] ، " إذَا دَخَلَ أحَدُكُمُ الخَلاء فَلْيُسَمِّ [اللَّهَ] " ، وقيل : حكمنا بِهَلاكِهَا .

الثاني : أنَّ معنى " أهْلَكْنَاهَا " أي : خذلناهُم ولم نوفقهم فنشأ عن ذلك هَلاَكُهُم ، فعبر بالمسَّبب عن سَبَبِهِ وهو بابٌ واسع .

وثَمَّ أجوبة ضعيفة ؛ منها : أنَّ الفاء هاهنا تفسيرية نحو : " تَوَضَّأ فغسل وجهه ثم يديه " فليست للتعقيب ومنها أنَّها للتَّرتيب في القَوْلِ فقط كما أخبر عن قرى كثيرة أنَّها أهلكها [ثم] قال : فكان من أمرها مجيء البأس ومنها ما قاله الفرَّاءُ ، وهو : أن الإهلاكَ هو مجيء البَأسِ ، ومجيءُ البأسِ هو الإهلاكُ ، فلما كانا مُتلازِمَيْنِ لم يبال بأيِّهما قدَّمت في الرتبة ،

كقولك : " شتمني فأساء " ، وأساءَ فَشَتَمَنِي ، فالإساءَةُ والشَّتْمُ شيءٌ واحدٌ ، فهذه ستَّةُ أقوال .

واعلم أنَّه إذا حُذِفَ مُضافٌ ، وأقيم المضافُ إليه مقامَهُ جاز لك اعتباران :

أحدهما : الالتفاتُ إلى ذلِكَ المحذوفِ .

(165/263)

والثاني – وهو الأكْثَرُ – عَدمُ الالتفاتِ إليه ، وقد جُمع الأمرانِ هنا ، فإنَّهُ لم يُراع المحذوفَ في قوله : " أهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا " وراعاهُ في قوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ ، هذا إذا قدَّرْنَا الحذفَ قبل " قَرْيَةٍ " ن أمَّا إذا قَدَّرْنَا الحذف قبل ضمير " فَجَاءَهَا " فإنَّهُ لم يراعِ إلاَّ المحذوفَ فقط وهو غيرُ الأكْثَرِ .

قوله : " بَيَاتاً " فيه ثلاثة أُوْجُهٍ :

أحدها : [أنَّهُ] منصوب على الحال وهو في الأصل مصدر ، يقال : بَاتَ يَبِيتُ بيْتاً وبيتة وبَيَاتاً وبَيْتُوتَةً .

قال اللَّيْثُ : " البَيْتُوتَةُ " : " دخولُكَ في اللَّيْلِ " فقوله : " بَيَاتاً " أي : بَائِتِينَ وجوَّزوا أن يكون مفعولاً لهُ ، وأنْ يكونَ في حكم الظَّرْفِ .

وقال الوَاحِديُّ : قوله " بَيَاتاً " أي : ليلاً وظاهرُ هذه العِبَارة أنْ تكون ظَرْفاً ، لولا أن يُقَالَ : أراد تَفْسِير المعنى .

قال الفرَّاءُ : يقالُ : بات الرَّجُل يَبيتُ بَيْتاً ، وربَّمَا قالوا : بَيَاتاً ، وقالوا : سُمِّيَ البيتُ بَيْتاً ؛ لأَنَّهُ يُبَاتُ فيه .

قوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُو ﴾ هذه الجملةُ في محلِّ نصب نَسَقاً على الحال ، و" أو " هنا للتَّنْويع لا لِشَيءٍ آخر كأَنَّهُ قيل : آتاهُ بأسُنَا تارةً لَيْلاً كقوم لوطٍ ، وتَارَةً وَقْتَ القَيْلُولَةِ كقوم شُعَيْبٍ .

وهل يحتَاجُ إلى تَقْدِيرِ واوِ حالٍ قَبْلَ هذه الجُمْلَةِ أم لا ؟ خلافٌ بين النَّحْوِيِّينَ .

قال الزمخشريُّ : " فإن قُلْتَ : لا يُقَالُ : جاءَ زيدٌ هو فارسٌ " بغيرِ واوٍ فما بالُ قوله تعالى : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ ؟

قلتُ : قدَّر بعض النَّحويين الواو محذوفَةً ، وردَّهُ الزَّجَّاج وقال : لو قلتَ : جاءني زيدٌ رَاجِلاً ، أو هو فارس ، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج إلى " واو " ؛ لأن الذِّكر قد عام على الأوَّل .

(166/263)

والصَّحِيحُ أنَّها إذا عُطِفَتْ على حالٍ قبلها حذفت الواو استثقالاً ؛ لاجتماع حرفي عطف ؛ لأن واو الحال [هي] واو العطف استُعِيرَتْ للوصل ، فقولك : " جاء زَيدٌ راجلاً أو هو فارس " كلامٌ فصيح وارد على حدّه ، وأمَّا " جاءني زَيْدٌ هو فارس " فخبيث .

قال أبو حيَّان : أما [بعضُ النَّحويين الذي أبهمه] الزمخشريُّ فهو الفرَّاءُ ، وأما قول الزَّجَّاج : كلا التمثيلين لم يحتج فيه إلى الواو ؛ لأن الذِّكر قد عاد على الأوَّلِ ففيه إبْهَامٌ وتعيينه أنَّهُ يمتنعُ دخولها في المثالِ الأوَّلِ [ويجوز في المثال] الثاني ؛ فليس انتفاءُ الاحتياج على حدٍّ سواء ؛ لأنه في الأوّلِ لامتناع الدُّخُولِ ، وفي الثاني لكثرتِهِ لا لامتناعه .

قال شهابُ الدِّين : أمَّا امتناعُهَا في المثالِ الأوَّلِ ؛ فلأن النَّحْويين نَصُّوا على أنَّ الجملة الحاليَّة إذا دَخَلَ عليها حرفُ عطفٍ امتنع دخولُ واوِ الحالِ عليها ، والعلَّةُ فيه المشَابَهَةُ اللَّفظيَّةُ ؛ ولأن واو الحال في الأصل عاطفةٌ ، ثم قال أبو حيَّان .

وأمَّا قولُ الزمخشري فالصَّحيحُ إلى آخره ، فتعليلُهُ ليس بصَحِيحٍ ؛ لأنَّ واوَ الحال ليست بحرف عَطْفٍ فيلزم من ذكرها اجتماعُ حَرْفَيْ عَطْفٍ ؛ لأنَّها لو كانت حرف عطفٍ للزم أن يكونَ ما قَبْلَهَا حالاً ، حتى يعطف حالاً على حالٍ ، فمجيئُها فيما لا يمكن أن يكُونَ حالاً دليل على أنَّهَا ليست واو عطْفٍ ، ولا لُحظ فيها معنى واوِ عَطْفٍ تقُولُ : " جاء زيدٌ ، والشمسُ طالِعَةٌ " فجاءَ زَيْدٌ ليس بحالٍ فيعطف عليها جُمْلَة حالٍ ، وإنَّمَا هذه الواوُ مغايرة

لواو العَطْفِ بكل حال ، وهي قسمٌ من أقسام الواو كما تأتي للقسم ، وليستْ فيه للعَطْفِ كما إذا قلت : " واللَّه لَيَخْرُجَنَّ " .

(167/263)

قال شهابُ الدّين : أبو القَاسِم لم يدَّعِ في واو الحال أنَّها عاطفة ، بل يدَّعِي أنَّ أصلها العَطْفَ ، ويدلُّ على ذلك قوله : استُعِيرَتْ للوصول ، فلو كانت عَاطِفَةً على حالِهَا لما قَالَ : اسْتَعِيرَتْ فَدَلَّ قوله ذلك على أنَّها خجرت عن العطف ، واسْتُعْمِلَتْ لمعنى آخر لكنها أعطيت حكم أصلها في امْتِنَاعِ مجامَعَتِهَا لعاطفٍ آخر .

وأمَّا تسمِيَتُهَا حرف عطف ، فباعْتِبَارِ أصْلِهَا ونَظِيرُ ذلك أيضاً واو " مع " فإنَّهم نَصُّوا على أنَّ أصلها واوُ عَطْفٍ ، ثمَّ استعملتْ في المعيَّةِ ، فكذلك واوُ الحَالِ لامتناعِ أن يكُونَ أصْلُهَا واوَ العطف .

ثم قال أبو حيَّان : " وأمّا قوله " فَخَبِيثٌ " فليس بِخَبِيثٍ ؛ وذلك أنَّهُ بَنَاهُ على أنَّ الجملة الحالِيَّة إذا كانت اسميَّةً ، وفيها ضميرُ ذي الحَالِ فحذفُ الواوِ منها [شاذٌ] وتبع في ذلك الفرَّاء ، وليس بِشَاذٍّ بل هو كثيرٌ في النَّظْمِ والنَّثْرِ .

قال شهابُ الدّين : قد يبق أبا القاسم في تسمية هذه الواو حرف عَكْفٍ الفرَّاءُ ، وأبو بَكْرٍ

بْنُ الأَنْبَارِيِّ .

قال الفرَّاءُ : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ فيه واو مُضْمَرَةٌ ، المعنى : أهلكناها فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أو هم قائلون فاستثقلوا نسقاً على أثَرِ نَسَقٍ ، ولو قيل لكَانَ صواباً .

قلتُ : قد تقدَّم أنَّ الشَّيخَ نقل أنَّ الواوَ ممتنعةٌ في هذا المثال ، ولم يَحكِ خِلافاً ، وهذا قَوْلُ الفرَّاءِ : " ولو قيل لكان صواباً " مُصَرِّحُ بالخلاف له .

وقال أبو بَكْرٍ : أضْمِرَتْ واوُ الحالِ لوُضُوحِ معناها كما تَقُولُ العرب : " لقيتُ عَبْدَ الله مُسْرِعاً ، أو هو يَرْكُضُ " فَيَحْذِفُونَ الواوَ لأَمْنِهِمُ اللَّبس ، لأن الذِّكْرَ قد عَادَ على صاحب الحال ، ومن أجل أنَّ " أو " حرف عطف والوُ كَذلِكَ ، فاسْتَثْقَلُوا جمعاً بين حرفين من حروفِ العَطْفِ ، فَحَذَفُوا الثَّانِي .

(168/263)

قال شهابُ الدِّين : فهذا تَصْرِيحٌ من هذين الإمَامَيْنِ بما ذكره أبُوا القَاسِم ، وإنما ذكرتُ نص هذين الإمَامَيْنِ ؛ لأعلم اطلاعه على اقوال النَّاسِ ، وأنَّهُ لا يأتي بغير مُصْطَلحِ أهْلِ العلم كما يرميه به غير مرَّةٍ .

و " قَائِلونَ " من القَيْلُولَةِ .

يقال : قَالَ يَقِيلُ [قَيْلُولَةً ﴾ فهو قَائِلٌ كـ " بائع " والقيلُولَةُ : الرَّاحَةُ والدعَةُ في الحرِّ وسط النهار ، وإن لم يكن معها نَوْمٌ .

وقال اللَّيث : هي نَوْمَةُ نِصْفِ النَّهَارِ .

قال الأزْهَرِيُّ : " القيلولة : الرَّاحَةُ ، وإن لم يكن فيها نَوْمٌ بدليل قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] ، والجَنَّةُ لا نَوْمَ فيها " .

قال شهابُ الدِّينِ : و" ولا دليل فيما ذَكَرَ ؛ لأن المقيل هنا خرج عن موضعه الأَصْلِيِّ إلى مُجَرَّدِ الإقامة بدليل أَنَّهُ لا يراد أيضاً الاستراحة في نِصْفِ النَّهَارِ في الحر فقد خَرَجَ عن موضعه عندنا وعندكم إلى ما ذكرنا ، والقَيْلُولَةُ مصدرٌ ومثلها : القَائِلَةُ والقيلُ والمَقِيلُ " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 13 . 17 ﴾

(169/263)

قوله تعالى ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾ قال أهل اللغة : الدعوى اسم يقوم مقام الادعاء ، ومقام الدعاء .

حكى سيبويه : اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين ، ودعوى المسلمين .

قال ابن عباس : فما كان تضرعهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين فأقروا على أنفسهم بالشرك .

قال ابن الأنباري : فما كان قولهم إذ جاءهم بأسنا إلا الاعتراف بالظلم والإقرار بالإساءة وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ الاختيار عند النحويين أن يكون موضع أن رفعاً بكان ويكون قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ نصباً كقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [النمل : 56] وقوله : ﴿ فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِى النار ﴾ [الحشر : 17] وقوله : ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن ﴾ [الجاثية : 25] قال ويجوز أن يكون أيضاً على الضد من هذا بأن يكون الدعوى رفعاً ، و﴿ أن قالوا ﴾ نصباً كقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ ﴾ [البقرة : 177] على قراءة من رفع البر ، والأصل في هذا الباب أنه إذا حصل بعد كلمة كان معرفتان فأنت بالخيار في رفع أيهما شئت ، وفي نصب الآخر كقولك كان زيد أخاك وإن شئت كان زيداً أخوك .

قال الزجاج : إلا أن الاختيار إذا جعلنا قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ في موضع رفع أن يقول : ﴿ فَمَا كَانْ دَعْوَاهُمْ ﴾ فلما قال : كان دل على أن الدعوى في موضع نصب ، ويمكن أن يجاب عنه بأنه يجوز تذكير الدعوى ، وإن كانت رفعاً فتقول : كان دعواه باطلاً ، وباطلة ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 19 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم أخبر عن حال من أتاهم العذاب فقال : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ أي لم يكن قولهم حين جاءهم العذاب ولم تكن لهم حيلة إلا أنهم تضرعوا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي ظلمنا أنفسنا بترك طاعة ربنا من التوحيد يعني : إن قولهم بعد ما جاءهم العذاب يعني : الهلاك لم ينفعهم فاعتبروا بهم .

فإنكم إذا جاءكم العذاب لا ينفعكم التضرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي قولهم ودعاؤهم مثل قوله تعالى ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ قال الشاعر :

وإن مذلت رجلي دعوتك أشتفي . . . بدعواك من مذل بها فتهون

مذل رجله إذا خدرت ﴿ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ ﴾ عذابنا إلاّ أن قالوا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ مسيئين آثمين ولأمره مخالفين أقرّوا على أنفسهم .

روى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما هلك قوم حتّى يعذروا من

أنفسهم . قال : قلت : كيف يكون ذلك ؟

فقرأ هذه الآية : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ ﴾ الآية " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فما كان دعواهم ﴾ الآية ، تبين في هذه الآية غاية البيان أن المراد في الآية قبلها أهل القرى ، والدعوى في كلام العرب لمعنيين ، أحدهما الدعاء قال الخليل : تقول اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين ومنه قول عز وجل : ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ [الأنبياء : 15] .

ومنه قول الشاعر [الطويل]

وإن مَذِلَتْ رجلي دعوتك أشتفي . . . بدعواك من مذل بها فيهونُ

والثاني الادعاء ، فقال الطبري : هي في هذا الموضع بعنى الدعاء .

(171/263)

قال القاضي أبو محمد : ويتوجه أن يكون أيضاً بمعنى الادعاء ، لأن من ناله مكروه أو حزبه حادث فمن شأنه أن يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاء المذكورين في هذه الآية ،

ومن شأنه أيضاً أن يدعي معاذير وأشياء تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه ، فيتجه أن يكون هؤلاء بحال من يدعي معاذير ونحوها ، فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوى ثم استثنى من غير الأول ، كأنه قال لم يكن دعاء أو ادعاء إلا الإقرار والاعتراف ، أي هذا كان بدل الدعاء أو الادعاء ، وتحتمل الآية أن يكون المعنى فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف ، ونحو من الآية قول الشاعر : [الفرزدق]

وقد شهدت قيس فما كان نصرها . . . قتيبة إلا عضها بالأباهم

واعترافهم وقولهم ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم ، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها ، وروى ابن مسعود عن النبي عليه السلام أنه قال " ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم " . وفسر عبد الملك بن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية . و﴿ دعواهم ﴾ خبر كان ، واسمها ﴿ إلا أن قالوا ﴾ وقيل بالعكس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فما كان دعواهم ﴾ قال اللغويون : الدعوى ها هنا بمعنى الدعاء والقول .

والمعنى : ما كان قولهم وتداعيهم إذ جاءهم العذاب إلا الاعتراف بالظلم .

قال ابن الأنباري : وللدعوى في الكلام موضعان .

أحدهما : الإدعاء .

والثاني : القول والدعاء .

قال الشاعر :

إذا مَذِلَتْ رِجْلي دعوتُكِ أشْتفي . . .

بدَعْواكِ مِنْ مَذْلٍ بها فيهُون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

قال القرطبى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلا أَن قَالُواْ ﴾

الدعوى الدعاء ؛ ومنه قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ [يونس : 10] .

وحكى النحويون : اللهم أشركنا في صالح دعوى من دعاك .

وقد تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء .

(172/263)

والمعنى : أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين .

و ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ في موضع نصب خبر كان ، واسمها ﴿ إِلاَّ أَن قالوا ﴾ .

نظيره ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [العنكبوت : 29] ويجوز أن تكون

الدعوى رفعاً ، و "أَنْ قَالُوا" نصباً ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ ﴾ [البقرة : 177

] برفع "البر" وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى أَن كَذَّبُواْ ﴾ [البقرة : 10

] برفع "عاقبة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فما كان دعواهم ﴾

يعني فما كان دعاء أهل القرية التي جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء ، قال سيبويه : تقول العرب اللهم أشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ ﴿ أذ جاءهم بأسنا ﴾ يعني عذابنا ﴿ إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ يعني أنهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظَالمين ﴾

قال ابن عباس : دعواهم تضرّعهم إلا إقرارهم بالشرك .

وقيل دعواهم دعاؤهم .

قال الخليل : يقول اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين ومنه فما زالت تلك دعواهم .

وقيل : ادعاؤهم أي ادعوا معاذير تحسّن حالهم وتقيّم حجتهم في زعمهم .

قال ابن عطية : وتحتمل الآية أن يكون المعنى فما آلت دعاويهم التي كانت في حال كفرهم

إلى اعتراف ومنه قول الشاعر :

وقد شهّدت قيس فما كان نصرها . . .

قتيبة إلا عضّها بالأباهم

(173/263)

وقال الزمخشري : ويجوز فما كان استغاثتهم إلاّ قولهم هذا لأنه لا مستغاث من الله بغيره من قولهم ﴿ دعواهم ﴾ بالكعب قالوا ودعواهم اسم كان وإلا أن قالوا الخبر وأجازوا العكس والأول هو الذي يقتضي نصوص المتأخّرين أن لا يجوز إلا هو فيكون ﴿ دعواهم ﴾ الاسم و﴿ إلا أن قالوا ﴾ الخبر لأنه إذا لم تكن قرينة لفظية ولا معنوية تبين الفاعل من المفعول وجب تقديم الفاعل وتأخير المفعول نحو : ضرب موسى عيسى وكان وأخواتها مشبّهة في عملها بالفعل الذي يتعدّى إلى واحد ، فكما وجب ذلك فيه وجب ذلك في المشبّه به وهو كان ودعواهم وإلا أن قالوا لا يظهر فيهما لفظ يبين الاسم من الخبر ولا معنى فوجب أن يكون السابق هو الاسم واللاحق الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾

أي دعاؤهم واستغاثتُهم ربَّهم أو ما كانوا يدّعونه من دينهم وينتحِلونه من مذهبهم ﴿ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا ﴾ عذابُنا وعاينوا أَماراتَه ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ جميعاً ﴿ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي إلا اعترافَهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتَهم ببطلانه تحسراً عليه وندامةً وطمعاً في الخلاص ، وهيهاتَ ولاتَ حينَ نجاةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(174/263)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾

أي دعاؤهم واستغاثتهم كما في قوله تعالى : ﴿ دعواهم فِيهَا ﴾ [يونس : 10] وقول بعض العرب فيما حكاه الخليل وسيبويه : اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين أو ادعاءهم كما هو المشهور في معنى الدعوى ﴿ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا ﴾ عذابنا وشاهدوا أماراته ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ جميعاً ﴿ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسراً (عليه) وندامة وطمعاً في الخلاص وهيهات ولات حين نجاة .

وفي جعل هذا الاعتراف عين ذلك مبالغة على حد قوله

: تحية بينهم ضرب وجيع . . .

و﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ يجوز فيه كما قال أبو البقاء أن يكون اسم كان والخبر ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ أن يكون هو الخبر و﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ الاسم ، ورجح الثاني بأن جعل الأعراف اسماً هو المعروف في كلامهم .

والمصدر هنا يشبه المضمر لأنه لا يوصف وهو أعرف من المضاف .

وأورد عليه أن الاسم والخبر إذا كانا معرفتين وإعرابهما غير ظاهر لا يجوز تقديم أحدهما على الآخر فتعين الأول .

وأجيب عنه بأن ذلك عند عدم القرينة والقرينة هنا كون الثاني أعرف وترك التأنيث ، وأيضاً ذاك لم يكن حصر فإن كان يلاحظ ما يقتضيه .

ورجح في "الكشف" الثاني بأنه الوجه المطابق لنظائره في القرآن .

والمعنى عليه أشد ملاءمة لأن الفرض أن قولاً آخر لم يقع هذا الموقع ، فالمقصود الحكم على القول المخصوص بأنه هو الدعاء وزيد تأكيداً بإدخال أداة القصر ، وليس من التقديم في شيء لأن حق المقصور عليه التأخير أبداً فتأمل وتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فما كان دعواهم ﴾ يصحّ أن تكون الفاء فيه للترتيب الذّكري تبعاً للفاء في قوله : ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ لأنّه من بقيّة المذكور ، ويصحّ أن يكون للتّرتيب المعنوي لأنّ دعواهم ترتّبت على مجيء البأس .

والدعوى اسم بمعنى الدّعاء كقوله : [يونس : 10] وهو كثير في القرآن ، والدّعاء هنا لرفع العذاب أي الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب ، وذلك أنّ شأن النّاس إذا حلّ بهم العذاب أن يجأروا إلى الله بالاستغاثة ، ومعنى الحصر أنّهم لم يستغيثوا الله ولا توجّهوا إليه بالدّعاء ولكنّهم وضعوا الاعتراف بالظّلم موضع الاستغاثة فلذلك استثناه الله من الدّعوى .

ويجوز أن تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء أي : انقطعت كلّ الدّعاوي التي كانوا يدعونها من تحقيق تعدّد الآلهة وأنّ دينهم حقّ ، فلم تبق لهم دعوى ، بل اعترفوا بأنّهم مبطلون ، فيكون الاستثناء منقطعاً لأنّ اعترافهم ليس بدعوى .

واقتصارهم على قولهم : ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ إمّا لأنّ ذلك القول مقدّمة التّوبة لأنّ التّوبة يتقدّمها الاعتراف بالذّنب ، فهم اعترفوا على نيّة أن ينتقلوا من الاعتراف إلى طلب العفو ،

فعوجلوا بالعذاب ، فكان اعترافهم آخر قولهم في الدّنيا مقدّمة لشهادةِ ألسنتهم عليهم في الحشر ، وإمّا لأنّ الله أجرى ذلك على ألسنتهم وصرفهم عن الدّعاء إلى الله ليحرمهم موجبات تخفيف العذاب .

وأيّاً ما كان فإنّ جريان هذا القول على ألسنتهم كان نتيجة تفكّرهم في ظلمهم في مدّة سلامتهم ، ولكنّ العنادَ والكبرياء يصدّانهم عن الإقلاع عنه ، ومن شأن مَن تصيبه شدّة أن يَجري على لسانه كلام ، فمن اعتاد قول الخير نطق به ، ومن اعتاد ضدّه جرى على لسانه كلام التّسخّط ومُنكر القول ، فلذلك جرى على لسانهم ما كثر جولانه في أفكارهم .

(176/263)

والمراد بقولهم : ﴿ كنا ظالمين ﴾ أنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد ، وتكذيب الرّسل ، والإعراض عن الآيات ، وصم الأذان عن الوعيد والوعظ ، وذلك يجمعه الإشراكُ بالله ، قال تعالى : ﴿ إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] ، وذلك موضع الاعتبار للمخاطبين بقوله : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ [الأعراف : 3] أي أنّ الله لم يظلمهم ، وهو يحتمل أنّهم عَلموا ذلك بمشاهدة العذاب وإلهامِهم أنّ مثل ذلك العذاب لا ينزل إلاّ بالظّالمين ، أو بوجدانهم إياه على الصّفة الموعود بها على أُلسنة رسلهم ، فيكون الكلام

إقراراً محضاً أقرّوا به في أنفسهم ، فصيغة الخبرِ مستعملة في إنشاء الإقرار ، ويحتمل أنّهم كانوا يعلمون أنّهم ظالمُون ، من قبل نزول العذاب ، وكانوا مصرين عليه ومكابرين ، فلمّا رأوا العذاب ندموا وأنصفوا من أنفسهم ، فيكون الكلام ، إقراراً مشوباً بحسرة وندامة ، فالخبر مستعمل في معناه المجازي الصّريح ومعناه الكنائي ، والمعنى المجازي يجتمع مع الكناية باعتبار كونه مجازاً صريحاً .

وهذا القول يقولونه لغير مخاطَب معيَّن ، كشأن الكلام الذي يجري على اللّسان عند الشّدائد ، مثل الويل والثّبور ، فيكون الكلام مستعملاً في معناه المجازي ، أو يقوله بعضهم لبعض ، بينهم ، على معنى التّوبيخ ، والتّوقيف على الخطأ ، وإنشاء النّدامة ، فيكون مستعملاً في المعنى المجازي الصّريح ، والمعنى الكنائي ، على نحو ما قرّرتُه آنفاً .

والتّوكيد بإنّ لتحقيق للنّفس أو للمخاطبين على الوجهين المتقدّمين أو يكون قولهم ذلك في أنفسهم ، أو بين جماعتهم ، جارياً مجرى التّعليل لنزول البأس بهم والاعتراف بأنّهم جديرون به ، ولذلك أطلقوا على الشّرك حينئذ الاسم المشعر بمذمّته الذي لم يكونوا يطلقونه على دينهم من قبل .

واسم كان هو : ﴿ أن قالوا ﴾ المفرغ له عمل كان ، و﴿ دعواهم ﴾ خبر (كان) مقدّم ، لقرينة عدم اتّصال كان بتاء التّأنيث ، ولو كان : (دعوى) هو اسمها لكان اتّصالها بتاء التّأنيث أحسن ، وللجري على نظائره في القرآن وكلام العرب في كلّ موضع جاء فيه المصدر المؤول من أنْ والفعل محصوراً بعد كان ، نحو قوله تعالى:

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ﴾ [الأعراف : 82] ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ [آل عمران : 147] وغير ذلك ، وهو استعمال ملتزم ، غريب ، مطّرد في كلّ ما وقع فيه جزء الإسناد ذاتين أريد حصر تحقّق أحدهما في تحقّق الآخر لأنّهما لمَّا اتّحدا في الماصْدق ، واستويا في التّعريف كان المحصور أولى باعتبار التّقدّم الرّتبي ، ويتعيّن تأخيره في اللّفظ ، لأنّ المحصور لا يكون إلاّ في آخر الجزأين ، ألا ترى إلى لزوم تأخير المبتدأ المحصورِ .

واعلم أن كون أحد الجزأين محصوراً دون الآخر في مثل هذا ، ممّا الجزآن فيه متحدَا الماصْدق ، إنّما هو منوط باعتبار المتكلّم أحدهما هو الأصلَ والآخر الفرع ، ففي مثل هذه الآية اعتبر قولهم هو المترقّب من السّامع للقصّة ابتداء ، واعتبر الدّعاء هو المترقّب ثانياً ، كأنّ السّامع يسأل : ماذا قالوا لمَّا جاءهم البأس ، فقيل له : كان قولهم : ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ دعاءَهم ، فأفيد القول وزيد بأنّهم فرّطوا في الدّعاء ، وهذه نكتة دقيقة تنفعك في نظائر هذه الآية ، مثل قوله : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم ﴾ [

الأعراف : 82] ، على أنّه قد قيل : إنّه لاطِّراد هذا الاعتبار مع المصدر المؤول من (أن) والفعل عِلَّة لفْظيّة : وهي كون المصدر المؤول يشبه الضّمير في أنّه لا يوصف ، فكان أعرف من غيره ، فلذلك كان حقيقاً بأن يكون هو الاسم ، لأنّ الأصل أنّ الاعرف من الجُزأين وهو الذي يكون مسنداً إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(178/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ نفهم أن المسألة ادعاء . ونحن نقول : فلان ادّعى دعوى على فلان ، فإما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألاّ يقيم .

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء : ﴿ . . . وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلاَّ أَن قالوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 5]

ويشرح ربنا هذا الأمر في آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه ،

فسبحانه القائل : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير * فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 10-11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ، ثم قرأ ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن مسعود مرفوعاً . مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(179/263)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) ﴾

ين تعالى في هذه الآية الكريمة أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البينات ، أو في حال القيلولة ، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين .

وأوضح هذا المعنى في قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُواْ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 11-15] .

قال ابن جرير – رحمه الله – في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم " حدثنا بذلك ابن حميد . حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد الله بن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم " قال : قلت لعبد الله كيف يكون ذلك ؟ قال : فقرأ هذه الآية ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 5] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(180/263)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾

جوَّزُوا في " دَعْواهُم " وجهين :

أحدهما : أن يكون اسْماً لـ " كان " ، و ﴿ إِلاَّ أَن قالوا ﴾ خبرها ، وفيه خدشٌ من حيث إنَّ غير الأعرف جعل اسماً والأعْرَفُ جعل خبراً ، وقد تقدَّم ذلك في أوَّل الأنعام عند ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ [الأنعام : 23] .

والثانى : أن يكون " دَعْوَاهُم " خبراً مقدماً و ﴿ إِلاَّ أَن قالوا ﴾ اسماً مؤخراً كقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا ﴾ [النمل : 56] ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النار ﴾ [الحشر : 17] ، و ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الجاثية : 25] ذكر ذلك الزَّمخشريُّ ومكيُّ بن أبي طالبٍ ، وسبقهما إلى ذلك الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ ، ولكن ذلك يشكل من قاعدة أخرى ذكرها النُّحاةُ ، وهو أنَّ الاسم والخبر في هذا الباب متى خفي إعرابُهُمَا ؛ وجَبَ تَقْدِيمُ الاسمِ ، وتأخير الخبر نحو : كان موسى صاحبي ، وما كان دعائي إلاَّ أن اسْتَغْفَرْتُ ، قالوا : لأنهما كالمفعولِ والفاعلِ فمتى خَفِيَ الإعْرَابُ التزم كل في مَرْتَبَتِهِ ، وهذه الآيةُ مما نحن فيه فكيف يُدَّعى فيها ذَلِكَ ، بل كيف يَخْتَارُهُ الزَّجَّاجُ ؟ وقد رأيتُ كلام الزَّجَّاجِ هنا فيمكن أن يُؤخَذَ منه جَوابٌ عن هذا المكانِ ، وذلك أنه قال : " إلاَّ أنَّ الاختيار

إذا كانت " الدَّعْوَى " في موضع رفع أن يقول : فما كانت دَعْوَاهُم ، فَلَمَّا قال : " كَانَ دَعْوَاهُمْ " دلَّ على أن " الدَّعْوى " في موضع نصب ، غير أنه يجوز تَذْكِير الدعوى وإن كانت رفعاً ، فمن هنا يقال : تذكير الفعل فيه قرينة مرجِّحةٌ لإسنادِ الفِعْلِ إلى " أنْ قَالُوا " ، ولو كان مسنداً للدَّعْوَى لكان الأرجح " كَانَتْ " كما قال ، وهو قَرِيبٌ من قولك : " ضَرَبَتْ مُوسَى سَلْمَى " فقدمت المفعول بقرينةِ تأنيثِ الفِعْلِ ، وأيضاً فإنَّ ثمَّ قَرِينَةً أخرى ، وهي كَوْنُ الأعْرَفِ أحَقُّ أن يكون اسماً من غير الأعرف " .

(181/263)

والدَّعْوَى تكون بمعنى الدُّعَاءِ ، وبمعنى الادِّعَاءِ ، والمقْصُودُ بها ههنا يحتمل الأمرين جميعاً ، ويحتمل أيضاً أنْ تكونَ بمعنى الاعتراف ، فمن مَجيئها بمعنى الدُّعَاءِ ما حَكَاهُ الخَلِيلُ : " اللَّهُمَّ أشْرِكْنا فِي صالح دعوى المُسلمين " يريد في صالح دُعَائِهم ؛ وأنشدوا : [الطويل]

2402 - وإنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ اشْتَفِي . . .

بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَتَهُونُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ [الأنبياء : 15] وقال الزَّمخشريُّ : [ويجوز] : فما كان استغاثتهم لا قولهم هذا ؛ لأنه لا يستغاثُ من اللَّهِ تعالى بغيره ، من قولهم :

دعواهم يا لكعب .

وقال ابنُ عطيَّة : وتحتملُ الآيةُ أن يكون المعنى : فما آلت دَعَاويهم التي كانت في حال كُفْرِهِمْ إلا إلى الاعتراف ؛ كقول الشاعر : [الطويل]

2403 - وَقدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا . . .

قَتَيْبَةَ إلاَّ عَذَّها بالأَبَاهِمِ

و" إذ " منصوب بـ " دعواهم " .

وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ "كُنَّا " وخبرها في محل رفع خبر لـ " إنَّ " ، وَ" إنّ " وما في حيزها في محل نَصْبٍ محكياً بـ " قَالُوا " ، و" قَالتوا " وما في حيزه لا محل له لوقوعه صلةً لـ " إنَّ " ، و" أنّ " وما في حيزها في محلِّ رفع ، أو نصب على حسب ما تقدَّم من كونها اسماً ، أو خبراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 17.19 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) ﴾

يعني كم من قرية ركنوا إلى الغفلة ، واغتروا بطول المهلة ؛ باتوا في (خَفْضِ) الدعة وأصبحوا وقد صادفتهم البلايا بغتة ، وأدركتهم القضيةُ فجأة ، فلا بلاء كُشِف عنهم ، ولا دعاءَ

سُمِع لهم ، ولا فرار نَفَعَهم ، ولا صريخ أنقذهم . فما زالوا يفزعون إلى الابتهال ، ويصيحون : الويل ! ويدعون إلى كشف الضر ، ويبكون من مسّ السوء ؟ ! بادوا وكأنه لا عين ولا أثر ، ولا لأحدٍ منهم (خبر) . تلك سُنَّة الله في الذين خَلَوْا من الكافرين ، وعادته في الماضين من الماردين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 519 ﴾

(182/263)

قوله تعالى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم سبب عما مضى من أمر الرسول والأمم قوله دفعاً لوهم من يظن أن الأمر انقضى بما عذبوا به في الدنيا : ﴿ فلنسئلن ﴾ أي بما لنا من العظمة على جهة التوبيخ والتقريع للعصاة والتشريف والتعظيم للمطيعين ، وأظهر موضع الإضمار تعميماً فقال : ﴿ الذين ﴾ . ولما كانت الملامة على تكذيب الرسول لا بقيد كونه معيناً بنى للمفعول قوله : ﴿ أرسل إليهم ﴾ أي وهم الأمم ، هل امتثلوا أوامرنا وأحجموا عند زواجرنا كما أمرتهم الرسل أم لا ﴿ ولنسئلن ﴾ أي بعظمتنا ﴿ المرسلين ﴾ أي هل كان في صدورهم حرج مما أرسلناهم

به وهل بلغوه أم لا يوم تكونون شهداء على الناس بما علمتم من شهادتي في هذا القرآن ويكون الرسول عليكم شهيداً فإنا لا بد أن نحييكم بعد الموت ثم نسألكم في يوم تظهر فيه السرائر وتنكشف - وإن اشتد خفاؤها - الضمائر ، ولنرين الأفعال والأقوال ، ولا نترك شيئاً من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 8 ﴾

وقال الفخر :

في تقرير وجه النظم وجهان :

(183/263)

الوجه الأول : أنه تعالى لما أمر الرسل في الآية المتقدمة بالتبليغ ، وأمر الأمة بالقبول والمتابعة ، وذكر التهديد على ترك القبول والمتابعة بذكر نزول العذاب في الدنيا ، أتبعه بنوع آخر من التهديد ، وهو أنه تعالى يسأل الكل عن كيفية أعمالهم يوم القيامة .

الوجه الثاني : أنه تعالى لما قال : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلا أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ [الأعراف : 5] أتبعه بأنه لا يقع يوم القيامة الاقتصار على ما يكون منهم من الاعتراف بل ينضاف إليه أنه تعالى يسأل الكل عن كيفية أعمالهم ، وبين أن هذا السؤل لا يختص بأهل العقاب بل هو عام في أهل العقاب وأهل الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 14 صـ 19. 20 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ الذين أرسل إليهم ﴾ هم الأمة ، والمرسلون هم الرسل ، فبين تعالى أنه يسأل هذين الفريقين ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92] .

ولقائل أن يقول : المقصود من السؤال أن يخبر المسؤول عن كيفية أعماله ، فلما أخبر الله عنهم في الآية المتقدمة أنهم يقرون بأنهم كانوا ظالمين ، فما الفائدة في ذكر هذا السؤال بعده ؟ وأيضاً قال تعالى بعد هذه الآية : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ فإذا كان يقصه عليهم بعلم ، فما معنى هذا السؤال ؟

والجواب : أنهم لما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين ، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير ، والمقصود منه التقريع والتوبيخ .

فإن قيل : فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة ؟

قلنا : لأنهم إذا أثبتوا أنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة التحق التقصير بكليته بالأمة ، فيتضاعف إكرام الله في حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير ، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق الكفار ، لما ثبت أن كل التقصير كان منهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ والمراد أنه تعالى يكرر ويبين للقوم ما أعلنوه وأسروه من أعمالهم ، وأن يقص الوجوه التي لأجلها أقدموا على تلك الأعمال ، ثم بين تعالى أنه إنما يصح منه أن يقص تلك الأحوال عليهم لأنه ما كان غائباً عن أحوالهم بل كان عالماً بها ؟ وما خرج عن علمه شيء منها ، وذلك يدل على أن الإلهية لا تكمل إلا إذا كان الإله عالماً بجميع الجزئيات ، حتى يمكنه أن يميز المطيع عن العاصي ، والمحسن عن المسيء ، فظهر أن كل من أنكر كونه تعالى عالماً بالجزئيات ، امتنع منه الاعتراف بكونه تعالى آمراً ناهياً مثيباً معاقباً ، ولهذا السبب فإنه تعالى أينما ذكر أحوال البعث والقيامة بين كونه عالماً بجميع المعلومات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 19 . 20 ﴾

(184/263)

وقال السمرقندى :

ثم أخبر عن حال يوم القيامة فقال : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ يعني : الأمم لنسألنهم هل بلغكم الرسل ما أرسلوا به إليكم وماذا أجبتم الرسل ؟ ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين ﴾ عن تبليغ الرسالة .

وهذا كقوله عز وجل : ﴿ لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ للكافرين عَذَابا أَلِيماً ﴾ [

الأحزاب : 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرسَلِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لنسألن الذين أرسل إليهم عن قبول الرسالة والقيام بشروطها ، ولنسألن المرسلين عن أداء الرسالة والأمانة فيها .

والثاني : لنسألن الذين أرسل إليهم عن حفظ حرمان الرسل ، ولنسألن المرسلين عن الشفقة على الأمم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ﴾ الآية

وعيد من الله عز وجل لجميع العالم ، أخبر أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم ويسأل النبيين عما بلغوا .

قال القاضي أبو محمد : وقد نفي السؤال في آيات وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي وقد أثبت في آيات كهذه الآية وهذا هو سؤال التقرير ، فإن الله قد أحاط علماً بكل ذلك قبل السؤال فأما الأنبياء والمؤمنون فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة ، وأما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً ، فمن أنكر منهم قص عليه بعلم ، وقرأ ابن مسعود ابن عباس " فلنسألن الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا ولنسألن المرسلين " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلنسألنَّ الذين أُرسل إليهم ﴾ يعني : الأمم يُسأَلون : هل بلَّغكم الرُّسُلُ ، وماذا أجبتم ؟ ويسأل الرسل : هل بَلَّغتم ، وماذا أُجبتم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

(185/263)

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون .

وفي التنزيل ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : 26] .

وفي سورة القصص ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] يعني إذا استقرّوا في العذاب .

والآخرة مَواطنُ : موطن يسألون فيه للحساب .

وموطن لا يسألون فيه .

وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح .

وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح؛ أي عن جواب القوم لهم .

وهو معنى قوله : ﴿ لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 78] على ما يأتي .

وقيل : المعنى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي الأنبياء ﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ أي الملائكة الذين أرسلوا إليهم .

واللام في "فلنسألنّ" لام القسم وحقيقتها التوكيد .

وكذا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾

يعني : نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ يعني ولنسألن الرسل الذي أرسلناهم إلى الأمم هل بلغتم رسالاتنا وأديتم إلى الأمم ما أُمرتم بتأديته إليهم أم قصرتم في ذلك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية : يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه أنه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

وقال السدي : يسأل الأمم ماذا عملوا فيما جاءت به الرسل ويسأل الرسل هل بلَّغوا ما أرسلوا به .

فإن قلت : قد أخبر عنهم في الآية الأولى بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم في قوله إنا كنا ظالمين فيما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك ؟

قلت : لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار .

(186/263)

فإن قلت : فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلنا إليهم من الأمم ؟

قلت : إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسألة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليه من الأمم فتكون هذه المسألة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضاً لأنهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين ﴾ أي نسأل الأمم المرسل إليهم عن

أعمالهم وعن ما بلّغه إليهم الرّسل لقوله و﴿ يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ ، ويسأل الرسل عما أجاب به من أرسلوا إليه كقوله ، ﴿ يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة عذاباً وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء ثواباً وكرامة .

وقد جاء السؤال منفيّاً ومثبتاً بحسب المواطن أو بحسب الكيفيّات كسؤال التوبيخ والتأنيس وسؤال الاستعلام البحث منفيّ عن الله تعالى إذ أحاط بكل شيء علماً .

وقيل المرسل إليهم الأنبياء والمرسلون الملائكة وهذا بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(187/263)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾

بيانٌ لعذابهم الأخرويّ إثرَ بيانِ عذابِهم الدنيويّ خلا أنه قد تعرض لبيان مبادي أحوالِ المكلفين جميعاً لكونه أدخلَ في التهويل ، والفاءُ لترتيب الأحوالِ الأخرويةِ على الدنيوية ذِكراً حسَبَ ترتبها عليها وجوداً ، أي لنسألن الأممَ قاطبةً قائلين : ماذا أجبتم المرسلين ؟ ﴿

وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِين ﴾ عما أُجيبوا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ والمرادُ بالسؤال توبيخُ الكفرة وتقريعُهم ، والذي نُفيَ بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ سؤالُ الاستعلامِ أو الأولُ في موقف الحساب والثاني في موقف العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(188/263)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾

بيان كما قال الطبرسي لعذابهم الأخروي إثر بيان عذابهم الدنيوي خلا أنه تعرض كما قيل لبيان مبادي أحوال المكلفين جميعاً لكونه أدخل في التهويل .

والفاء عند البعض لترتيب الأحوال الأخروية على الدنيوية ذكراً حسب ترتبها عليها وجوداً .

وذكر العلامة الطيبي أن الفاء فصيحة على معني فما كان دعواهم في الدنيا إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا فقطعنا دابرهم ثم لنحشرنهم فلنسألنهم ، ووضع على هذا الظاهر موضع الضمير لمزيد التقرير .

وقال في "الكشف" : لعل الأوجه أن يجعل هذا متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ اتبعوا وَلاَ تَتَّبِعُواْ ﴾ [الأعراف : 3] ويجعل قوله سبحانه : ﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ ﴾ [الأعراف : 4] الخ معترضاً حثا على الاعتبار بحال السابقين ليتشمروا في الاتباع اه .

والأمر عند من جعل الكلام السابق على التقديم والتأخير وادعى أن مجيء البأس في الآخرة سهل كما لا يخفى ، أي لنسألن الأمم قاطبة أو هؤلاء قائلين ماذا أجبتم المرسلين ؟ .

(189/263)

﴿ وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين ﴾ ماذا أجيبوا ، والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم ، والمنفي في قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 39] سؤال الاستعلام فلا منافاة بين الآيتين ، وجمع آخرون بينهما بأن للمثبت موقفاً وللمنفي آخر .

وقال الإمام : "إنهم لا يسألون عن الأعمال (أي ما فعلتم) ولكن يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال والصوارف التي صرفتهم عنها" أي لم كان كذا ، وقيل : معنى ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ لا يعاقب بذنبه غيره ، وقيل : المراد من الذين أرسل إليهم الأنبياء ومن المرسلين الملائكة الذين بلغوهم رسالات ربهم .

وروي ذلك عن فرقد وهو كما ترى ، وقيل : لا حاجة إلى التوفيق فإن المنفى هو السؤال عن الذنب لا مطلق السؤال .

ورد بأن عدم قبول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ذنب وأي ذنب فسؤالهم عنه ينافيه وفيه نظر .

وتخصيص سؤال المرسلين عليهم السلام بما ذكرنا هو الذي يشهد به الأخبار وتدل عليه الآثار ، وفي القرآن ما يؤيد ذلك فقد قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] وتخصيص سؤال الذين أرسل إليهم بما تقدم هو الذي جرى عليه جماعة من المفسرين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري أنه يقال للذين أرسل إليهم : هل بلغكم الرسل ؟ ويقال للمرسلين : ماذا ردوا عليكم .

وأخرج أيضاً عن القاسم أبي عبد الرحمن أنه تلا هذه الآية فقال يسأل العبد يوم القيامة عن أربع خصال يقول ربك : ألم أجعل لك جسداً ففيم أبليته ؟ ألم أجل لك علماً ففيم عملت بما علمت ؟ ألم أجعل لك مالاً ففيم أنفقته في طاعتي أم في معصيتي ؟ ألم أجعل لك عمرا ففيم أفنيته ؟ .

وأخرج هو وغيره عن طاوس أنه قرأ ذلك فقال الإمام : يسأل عن الناس والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده ، ولعل الظاهر أن سؤال كل من المرسل إليهم والمرسلين هنا عن أمر يتعلق بصاحبه ، ولا يأبى هذا أن المكلفين يسألون عن أمور أخر والمواقف يوم القيامة شتى ويسأل السيد ذو الجلال عباده فيها عن مقاصد عديدة فطوبى لمن أحذ بعضده السعد فأجاب بما ينجيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(191/263)

وقال ابن عاشور :

الفاء في قوله : ﴿ فلنسألن ﴾ عاطفة ، لِترتيب الأخبار لأنّ وجود لام القسم علامة على أنّه كلام أُنُفٌ انتقال من خبر إلى خبر ، ومن قصة إلى قصة وهو انتقالٌ من الخبر عن حَالتهم الدنيوية إلى الخبر عن أحوالهم في الآخرة .

وأكّد الخبر بلام القسم ونون التّوكيد لإزالة الشكّ في ذلك .

وسؤال الذين أرسل إليهم سُؤال عن بلوغ الرّسالة .

وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر ، قال تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ [القصص : 65] .

وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرّسالة سؤال إرهاب لأُمَمِهم ، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب ، وقد تقدّم ذلك في قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] وقوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ [المائدة : 109] .

و﴿ الذين أرسل إليهم ﴾ ، هم أمم الرّسل ، وعبّر عنهم بالموصول لما تدُلّ عليه الصّلة من التّعليل ، فإن فائدة الإرسال هي إجابة الرّسل ، فلا جرم أن يسأل عن ذلك المُرسَل إليهم ، ولمّا كان المقصود الأهمّ من السّؤال هو الأمم ، لإقامة الحجّة عليهم في استحقاق العقاب ، قُدّم ذكرهم على ذكر الرّسل ، ولما تدُلّ عليه صلة (الذي) وصلة (ال) من أنّ المسؤول عنه هو ما يتعلّق بأمر الرّسالةِ ، وهو سؤال الفريقين عن وقوع التّبليغ .

ولَمَّا دلّ على هذا المعنى التّعبيرُ : بـ ﴿ الذين أرسل إليهم ﴾ والتّعبيرُ : بـ ﴿ المرسلين ﴾ لم يحتجّ إلى ذكر جواب المسؤولين لظهور أنّه إثبات التّبليغ والبلاغ .

والفاء في قوله : ﴿ فلنقصن عليهم ﴾ للتفريع والتّرتيب على قوله : ﴿ فلنسألن ﴾ ، أي لنسألنّهم ثمّ نخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم ، أي فلنقصّنّ عليهم تفاصيل أحوالهم ، أي فعِلْمُنا غَنِي عن جوابهم ولكن السّؤال لغرض آخر .

(192/263)

وقد دلّ على إرادة التّفصيل تنكيرُ علم في قوله : ﴿ بعلم ﴾ أي علم عظيم ، فإنّ تنوين (عِلم) للتعظيم ، وكمالُ العلم إنّما يظهر في العلم بالأمور الكثيرة ، وزاد ذلك بياناً قولُه : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ الذي هو بمعنى : لا يعزب عن علمنا شيء يغيب عنّا ونغيب عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(193/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتي للإقرار ، ومسألة السؤال وردت في القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون

[101 :

ويقول سبحانه أيضاً ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10]

ويقول جل وعلا : ﴿ . . . وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78]

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39]

ثم يقول هنا : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6]

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن – والعياذ بالله – متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان في اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربي ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أيكون القرآن معجزا وهو متعارض ؟ ! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريده قائل القرآن . وفي أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

(194/263)

إذن فالسؤال يأتي لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أي يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ في الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير * فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 10-11] وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار اعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ﴾ [فصلت : 21]

والحق هنا يقول : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ . . . ﴾ [المائدة : 109]

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريعاً للمرسَل إليهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال الثعالبى :

وروى أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب "فَضْلِ العلمِ" بِسَنَدِهِ عن مَالِك أنه قال : بلغني أن العلماء يُسْأَلُونَ يوم القيامة كما تُسْأَلُ الأنبياء يعني عن تَبْلِيغ العِلمِ انتهى .

وخرج أبو نُعَيْم الحافظ من حديث الأَعْمَشِ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من عَبْدٍ يخطو خطوةً إلا يُسْأَلُ عنها ما أَرَادَ بها " . وقد ذكرنا حَدِيثَ مسلم عن أبي برزة في غير هذا المَوْضِعِ . وخرج الطبراني بسنده عن ابن عُمَرَ قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا كان يَوْمُ القِيَامَةِ دَعَا اللَّه بِعَبْدٍ من عِبَادِهِ ، فيوقفه بين يَدَيْهِ ، فيسأله عن جَاهِهِ ، كما يسأله عن عَمَلِهِ " انتهى .

وروى مالك عن يحيى بن سَعِيدٍ ، قال : بلغني أن أَوَّلَ ما ينظر فيه من عَمَلِ الْمَرْءِ ، الصلاة ، فإن قُبِلَتْ منه نُظِرَ فيما بقي من عَمَلِهِ ، وإن لم تُقْبَلْ منه لم يُنْظَرْ في شَيْءٍ من عمله .

وروى أبو داود ، والترمذي ، والنَّسائي ، وابن ماجه معنى هذا الحديث مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول ما يُحاسَبُ به النَّاسُ يوم القِيَامَةِ من

أعمالهم الصَّلاَةُ" قال : يقول ربُّنا عزَّ وجلَّ للملائكة انْظُرُوا في صَلاَةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أم نَقَصَهَا ، فإن كانت تَامَّةً كُتبت تَامَّةً ، وإن كان انتُقِصَ منها شيءٌ ، قال الله : انظروا هل لعبدي من تَطَوُّعٍ ؟ فإن كان له تَطَوَّع قال : أتموا لعبدي فَرِيضَتَهُ من تَطَوُّعِهِ ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك . انتهى .

واللفظ لأبي داود .

وقال النسائي : ثم سائر الأعمال تجري على ذلك انتهى من "التذكرة" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(196/263)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية,

هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ, عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ , وقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقد جاءت آيات أخر تدل على

خلاف ذلك كقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ , وكقوله: ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع, وأداته غالبا (لم) ، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع, والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام ، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ, مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴾ , وكقوله: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴾ ، وكقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ ، وكقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات ، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها .

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون .

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه ، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 131.132 ﴾

فائدة ثانية

قال الشيخ الشنقيطي :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) ﴾

لم يبين هنا الشيء المسؤول عنه المرسلون ، ولا الشيء المسؤول عنه الذين أرسل إليهم .

وبين في مواضع أخر أنه يسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم ، ويسأل الأمم عما أجابوا به رسلهم .

قال في الأول : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] .

وقال في الثاني : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ [القصص : 65] .

وبين في موضع آخر أنه يسأل جميع الخلق عما كانوا يعلمون ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92-93] .

وهنا إشكال معروف : وهو أنه تعالى قال هنا : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] ، وقال أيضاً : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92-93] ، وقال : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] ، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة ، مع أنه قال : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] ، وقال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ

﴾ [الرحمن : 39] .

وقد بينا وجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وسنزيده إيضاحاً هنا إن شاء الله تعالى .

(198/263)

اعلم أولاً : أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة . أخص من السؤال المثبت فيها . لأن السؤال المنفي فيها مقيد بكونه سؤالاً عن ذنوب خاصة . فإنه قال : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] فخصه بكونه عن الذنوب ، وقال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] فخصه بذلك أيضاً . فيتضح من ذلك أن سؤال الرسل والموؤودة مثلاً ليس عن ذنب فعلوه فلا مانع من وقوعه . لأن المنفي خصوص السؤال عن ذنب ، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى : ﴿ لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 8] الآية ، وقوله بعد سؤاله لعيسى المذكور في قوله : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] الآية . ﴿ قَالَ الله هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] الآية ، والسؤال عن الذنوب المنفي في الآيات : المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام . لأنه جل وعلا محيط علمه بكل شيء ،

ولا ينافي نفي هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع . لأنه نوع من أنواع العذاب ، ويدل لهذا أن سؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات : 24-25] . وقوله : ﴿ أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : 15] . إلى غير ذلك من الآيات وباقي أوجه الجمع مبين في كتابنا المذكور – والعلم عند الله تعالى – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(199/263)

فصل

قال القرطبى :

باب ما جاء في سؤال الأنبياء وفي شهادة هذه الأمة للأنبياء على أممهم

قال الله تعالى : فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ، وقال : فوربك لنسألنهم أجمعين . فيبدأ بالأنبياء عليهم السلام فيقول : ماذا أجبتم قيل : في تفسيرها كانوا قد علموا ولكن ذهبت عقولهم وعزبت أفهامهم ونسوا من شدة الهول وعظيم الخطب وصعوبة الأمر فقالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ثم يقربهم الله

تعالى فيدعى نوح عليه السلام ، ويقال : إن الهيبة تأخذ بمجامع قلوبهم فيذهلون عن الجواب . ثم إن الله يثبتهم ويحدث لهم ذكراً فيشهدون بما أجابت به أممهم ويقال إنما قالوا ذلك تسليماً كما فعل المسيح في قوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . والأول أصح لأن الرسل يتفاضلون ، والمسيح من أجلهم لأنه كلمة الله وروحه ، قاله أبو حامد .

وخرج ابن ماجه ، حدثنا أبو كريب وأحمد بن سنان قالا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ويجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فتدعى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال : هل بلغ هذا ؟ فيقولون : نعم فيقول : وما علمكم بذلك ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه . قال فذلك قوله تعالى : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .

وذكره البخاري أيضاً بمعناه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم فيقال لأمته :

هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ، فذلك قوله : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .

أخرجه ابن المبارك في رقائقه مرسلاً بأطول من هذا فقال : أخبرني رشدين ابن سعد قال : أخبرني ابن أنعم المغافري عن حبان بن أبي جبلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى إسرافيل عليه السلام ، فيقول له ربه : ما فعلت في عهدي هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم قد بلغت جبريل فيدعى جبريل عليه السلام فيقول : هل بلغك إسرافيل عهدي ؟ فيقول : نعم يا رب قد بلغني ، فيخلي عن إسرافيل ، ويقال لجبريل هل بلغت عهدي ؟ فيقول جبريل : نعم قد بلغت الرسل فيدعي الرسل فيقول : هل بلغكم جبريل عهدي ؟ فيقولون : نعم . فيخلي عن جبريل ، ثم يقال للرسل هل بلغكم عهدي ؟ فيقولون : قد بلغنا أممنا ، فتدعى الأمم فيقال لهم : هل بلغكم الرسل عهدي ؟ فمنهم المصدق ومنهم المكذب فتقول الرسل : إن لنا عليهم شهوداً يشهدون أن قد بلغنا مع شهادتك فيقول : من يشهد لكم ؟ فيقولون محمد وأمته فتدعى

أمة محمد فيقول : تشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليه ؟ فيقولون : نعم ، رب شهدنا أن قد بلغوا ، فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لهم الرب : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولا ، وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصك علينا إنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول الرب : صدقوا . فذلك قوله عز وجل : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، والوسط العدل لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيد قال ابن أنعم : فبلغني أنه يشهد يومئذ أمة محمد إلا من كان في قلبه حنة على أخيه .

قلت : وذكر هذا الخبر أبو محمد في كتاب العاقبة له ، فذكر بعد قوله : والوسط العدل ، ثم

يدعى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ثم ينادي كل إنسان باسمه واحداً واحداً ويسألون واحداً واحداً ، وتعرض أعمالهم على رب العزة جل جلاله قليلها وكثيرها حسنها وقبيحها .

قال المؤلف : وذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة أن هذا يكون بعد ما يحكم الله تعالى بين البهائم ويقتص للجماء من القرناء ويفصل بين الوحش والطير ، ثم يقول لهم : كونوا

تراباً فتسوى بهم الأرض وحينئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ويتمنى الكافر فيقول : يا ليتني كنت تراباً . ثم يخرج النداء من قبل الله تعالى : أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى به له هرج عظيم ، فيقول الله تعالى : أين ما سطرت فيك من توارة وزبور وإنجيل وفرقان ؟ فيقول : يا رب نقله مني الروح الأمين فيؤتى به يرعد وتصك ركبتاه ، فيقول الله تعالى : يا جبريل هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحيي أصدق ؟ قال : نعم يا رب . قال : فما فعلت فيه ؟ قال : أنهيت التوراة إلى موسى ، وأنهيت الزبور إلى داود وأنهيت الإنجيل إلى عيسى ، وأنهيت الفرقان إلى محمد عليه السلام ، وأنهيت إلى كل رسول رسالته وإلى أهل الصحف صحائفهم ، فإذا بالنداء يا نوح فيؤتى به يرعد وتصطك فرائصه فيقول : يا نوح زعم جبريل أنك من المرسلين , قال : صدق ، فقيل له : ما فعلت مع قومك ؟ قال دعوتهم ليلاً نهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ، فإذا بالنداء يا قوم نوح فيؤتى بهم زمرة واحدة . فيقال : هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة . فيقولون : يا ربنا كذب ما بلغنا من شيء وينكرون الرسالة ، فيقول الله : يا نوح ألك بينة ؟ فيقول : نعم يا رب بينتي عليهم محمد وأمته ، فيقولون : كيف ونحن أول الأمم وهم آخر الأمم ؟ فيؤتى بالنبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا محمد هذا نوح يستشهد فيشهد له تبليغ الرسالة فيقرأ صلى الله عليه وسلم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه إلى آخر السورة ، فيقول

الجليل جل جلاله : قد وجب عليكم الحق وحقت كلمة العذاب على الكافرين فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب ، ثم ينادي : أين هود ؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل قوم نوح مع نوح فيستشهد عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وخيار أمته فيتلو كذبت عاد المرسلين فيؤمر بهم إلى النار مثل أمة نوح ، ثم ينادي : يا صالح ويا ثمود فيأتون فيستشهد صالح عندما ينكرون فيتلوا النبي صلى الله عليه وسلم كذبت ثمود المرسلين إلى آخر القصة فيفعل بهم مثلهم ولا يزال يخرج أمة بعد أمة قد أخبر عنهم القرآن بياناً وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى وقروناً بين ذلك كثيراً وقوله ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها وقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات وفي ذلك تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم تارخ وتارح ودوحا و أسرا وما أشبه ذلك حتى ينتهي النداء إلى أصحاب الرس وتبع وقوم إبراهيم ، وفي كل ذلك لا يرفع لهم ميزان ولا يوضع لهم حساب وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، والترجمان يكلمهم لأن الرب تعالى من نظر إليه وكلمه لم يعذبه ، ثم ينادي بموسى ابن عمران فيأتي وهو كأنه ورقة في ريح عاصف قد اصفر لونه واصطكت ركبتاه فيقول له : يا ابن عمران جبريل يزعم أنه بلغك الرسالة والتوراة فتشهد له بالبلاغ ؟ قال : نعم : قال فارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك من ربك فيرقى المنبر ، ثم يقرأ فينصت له كل من في الموقف فيأتي بالتوراة غضة طرية على حسنها

يوم أنزلت حتى تتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوماً ثم ينادي يا داود فيأتي وهو يرعد وكأنه ورقة في ريح عاصف تصطك ركبتاه فيصفر لونه ، فيقول الله جل ثناؤه يا داود : زعم جبريل أنه بلغك الزبور فتشهد له البلاغ ؟ فيقول : نعم يا رب فيقال له : ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك . فيرقى ثم يقرأ وهو حسن الناس صوتاً . وفي الصحيح أنه صاحب المزامير . ثم ينادي

(203/263)

المنادي أين عيسى بن مريم ؟ فيؤتى به على باب المرسلين فيقول : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ثم يحمد تحميداً ما شاء الله تعالى ويثنى عليه كثيراً ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ، فيضحك الله ويقول هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم يا عيسى ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل الذي بلغك جبريل ، فيقول : نعم ثم يرقى ويقرأ فتشخص إليه الرؤوس لحسن ترديده وترجيعه فإنه أحكم الناس به رواية فيأتي به غضاً طرياً حتى يظن الرهبان أنهم ما عملوا به قط ، ثم ينقسم قومه فرقتين المجرمون مع المجرمين والمؤمنون مع المؤمنين . ثم يخرج النداء

أين محمد ؟ فيؤتى به صلى الله عليه وسلم فيقول يا محمد هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن ، فيقول : نعم يا رب فيقال له ارجع إلى منبرك واقرأ فيتلوا صلى الله عليه وسلم القرآن فيأتي به غضاً طريا له حلاوة وعليه طلاوة ويستبشر به المتقون وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة والمجرمون وجوههم مغبرة مقترة فإذا تلا النبي القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط .

وقد قيل للأصمعي تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله قال : يا ابن أخي يوم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأني ما سمعته ، فإذا فرغت قراءة الكتب خرج النداء من قبل سرداقات الجلال : وامتازوا اليوم أيها المجرمون فيرتج الموقف ويقوم فيه روع عظيم والملائكة قد امتزجت بالجن والجن بيني آدم والكل لجة واحدة ثم يخرج النداء : يا آدم ابعث بعث النار ، فيقول : كم يا رب ؟ فيقال له : من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة على ما يأتي بيانه ، فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب كما قال الصديق رضي الله عنه : نحن حفنات بحفنات الرب سبحانه وتعالى

، على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

باب ما جاء في الشهداء عند الحساب

قال العلماء : وتكون المحاسبة بمشهد من النبيين وغيرهم قال الله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقال فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . وشهيد كل أمة نبيها . وقيل إنهم كتبة الأعمال وهو الأظهر فتحضر الأمة ورسولها ، فيقال للقوم : ماذا أجبتم المرسلين ، ويقال للرسل ماذا أجبتم ؟ فتقول الرسل لا علم لنا على ما تقدم في الباب قبل ، ثم يدعى كل واحد على الانفراد فالشاهد عليه صحيفة عمله وكاتبها فإنه قد أخبر في الدنيا أن عليه ملكين يحفظان أعماله وينسخانها . وذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة أن المنادي ينادي من قبل الله لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ، فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق فما صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ، وذلك أن أعمال الخلائق تعرض على الله في كل يوم فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في ذلك الكتاب العظيم وهو قوله تعالى إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ثم ينادي بهم فرداً فرداً فيحاسب كل واحد منهم ، فإذا الأقدام تشهد واليدان . وهو قوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقد جاء في الخبر أن رجلاً منهم يوقف بين يدي الله تبارك وتعالى فيقول له : يا عبد السوء كنت مجرماً عاصياً ، فيقول : ما فعلت ؟

فيقال له : عليك بينة فيؤتى بحفظته فيقول كذبوا علي فتشهد جوارحه عليه فيؤمر به إلى النار ، فيجعل يلوم جوارحه ، فتقول له : ليس عن اختيارنا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وقد تقدم هذا المعنى مستوفى ، وتقدم أن الأرض والأيام والليالي والمال ممن تشهد ، وإذا قال الكافر لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ختم علي فيه فتشهد أركانه كما تقدم .

باب ما جاء في شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته

(205/263)

ابن المبارك ، أخبرنا رجل من الأنصار ، عن المنهال بن عمرو ، حدثنا أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا تعرض على النبي صلى الله عليه وسلم أمته غدوة وعشية فيعرفهم بسماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم يقول الله تبارك وتعالى : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً .

فصل : قلت : قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله تعالى يوم الخميس ويوم الأثنين ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ولا تعارض ، فإنه يحتمل أن يخص نبينا عليه السلام بالعرض كل يوم ويوم الجمعة مع الأنبياء والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 333 . 339 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) ﴾

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ سوال تعنيف وتعذيب .

﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ سؤال تشريف وتقريب .

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ عن القبول فيتقنَّعون بذل الخجل .

﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة ، فالكلُّ بِسِمةِ العبودية والتوقير ، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 520 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان السؤال يفهم خفاء المسؤول عنه على السائل ، سبب عن ذلك ما يزيل هذا الوهم بقوله مؤذناً بأنه أعلم من المسؤولين عما سألهم عن : ﴿ فلنقصن ﴾ أي بما لنا من صفات العظمة المستلزمة لكل كمال ﴿ عليهم ﴾ أي المسؤولين من الرسل وأممهم ، جميع أحوالهم وما يستحقون من جزائها ﴿ بعلم ﴾ أي مقطوع به لا مظنون ، فقد كنا معهم في جميع تقلباتهم ﴿ وما كنا ﴾ أي في وقت من الأوقات كما هو مقتضى ما لنا من العظمة ﴿ غائبين ﴾ أي مطلقاً ولا عن أحد من الخلق بل علمنا شامل لجميع الكليات والجزئيات لأن ذلك مقتضى العظمة ما لنا من صفات الكمال ، ومن لم يكن محيط العلم بأن يميز المطيع من العاصي لا يصح أن يكون إلهاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 8 ـ 9 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ يدل على أنه تعالى عالم بالعلم ، وأن قول من يقول : إنه لا علم لله قول باطل .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ وبين

قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 39] وقوله : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] .

قلنا فيه وجوه : أحدها : أن القوم لا يسألون عن الأعمال ، لأن الكتب مشتملة عليها ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها . وثانيها : أن السؤال قد يكون لأجل الاسترشاد والاستفادة ، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة ، كقول القائل ألم أعطك وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يبَنِى آدمَ ﴾ [ياس : 60] قال الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا . . إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى لا يسأل أحداً لأجل الاستفادة والاسترشاد ، ويسألهم لأجل توبيخ الكفار وإهانتهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الصافات : 27] ثم قال : ﴿ فَلاَ أنساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] فإن الآية الأولى تدل على أن المسألة الحاصلة بينهم إنما كانت على سبيل أن بعضهم يلوم بعضاً ، والدليل عليه قول : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ [القلم : 30] وقوله : ﴿ فَلاَ أنساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ معناه أنه لا يسأل بعضهم بعضاً على سبيل الشفقة واللطف ، لأن النسب يوجب الميل والرحمة والإكرام .

والوجه الثالث : في الجواب : أن يوم القيامة يوم طويل ومواقفها كثيرة ، فأخبر عن بعض

الأوقات بحصول السؤال ، وعن بعضها بعدم السؤال .

فائدة :

(208/263)

الآية تدل على أنه تعالى يحاسب كل عباده ، لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا رُسُلاً أو مُرْسَلاً إليهم ، ويبطل قول من يزعم أنه لا حساب على الأنبياء والكفار .

فائدة :

الآية تدل على كونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ ولو كان تعالى على العرش لكان غائباً عنا .

فإن قالوا : نحمله على أنه تعالى ما كان غائباً عنهم بالعلم والإحاطة .

قلنا : هذا تأويل والأصل في الكلام حمله على الحقيقة .

فإن قالوا : فأنتم لما قلتم أنه تعالى غير مختص بشيء من الأحياز والجهات ، فقد قلتم أيضاً بكونه غائباً .

قلنا : هذا باطل لأن الغائب هو الذي يعقل أن يحضر بعد غيبة ، وذلك مشروط بكونه مختصاً بمكان وجهة ، فأما الذي لا يكون مختصاً بمكان وجهة وكان ذلك محالاً في حقه ،

امتنع وصفه بالغيبة والحضور ، فظهر الفرق والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 20 . 21 ﴾ . بتصرف يسير .

(209/263)

وقال السمرقندى :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ أي : فلنخبرنّهم بما عملوا في الدنيا ببيان وعلم منا ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ عَمّا بلغت الرسل وعما ردَّ عليهم قومهم .

ومعناه : وما كنا نسألهم لنعلم ذلك ولكن نسألهم حجةً عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فلنقصن ﴾ أي فلنسردن عليهم أعمالهم قصة قصة ، ﴿ بعلم ﴾ أي بحقيقة ويقين ، قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

قال القاضي أبو محمد : يشبه أن يكون الكلام هنا استعارة إذ كل شيء فيه مقيد ، ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أي ما كنا من لا يعلم جميع تصرفاتهم كالغائب عن الشيء الذي لا يعرف له حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ فلنقصنَّ عليهم ﴾ أي : فلنُخبرنَّهم بما عملوا بعلم منا ﴿ وما كنا غائبين ﴾ عن الرسل والأمم .

وقال ابن عباس : يوضع الكتاب فيتكلم بما كانوا يعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ .

قال ابن عباس : ينطق عليهم .

﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ أي كنا شاهدين لأعمالهم .

ودلت الآية على أن الله تعالى عالمٌ بعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾

يعني : فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا إليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا ﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعني عنهم وعن أفعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الأمم فيما أجابوا .

فإن قلت كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾

وبين قوله ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ وإذا كان عالماً فما فائدة هذا السؤال ؟

(210/263)

قلت : فائدة سؤال الأمم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات ، التقريع ، والتوبيخ للكفار لأنهم إذ أقروا على أنفسهم كان أبلغ في المقصود ، فأما سؤال الاسترشاد والاستثبات ، فهو منفي عن الله عز وجل ، لأنه عالم بجميع الأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها ، فهو العالم بالكليات ، والجزئيات ، وعلمه بظاهر الأشياء كعلمه بباطنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلنقصّن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾

أي نسرد عليهم أعمالهم قصّة قصّة ﴿ بعلم ﴾ منّا لذلك واطّلاع عليه ﴿ وما كنّا غائبين ﴾ عن شيء منه بل علمنا محيط بجميع أعمالهم ، ظاهرها وباطنها ، وهذا من أعظم التوبيخ والتقريع حيث يقرّون بالظلم وتشهد عليهم أنبياؤهم ويقصّ الله عليهم أعمالهم .

قال وهب : يقال للرجل منهم أتذكر يوم فعلت كذا أتذكر حين قلت كذا حتى يأتي على

آخر ما فعله وقاله في دنياه وفي قوله ﴿ بعلم ﴾ دليل على إثبات هذه الصفة لله تعالى وإبطال لقول من قال لا علم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَنَقصَنَّ عَلَيهِم ﴾

أي على الرسل حين يقولون : لا علم لنا إنك أنت علامُ الغيوب ، أو عليهم وعلى المرسَل إليهم جميعاً ما كانوا عليه ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ أي عالمين بظواهرهم وبواطِنهم أو بعلومنا منهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ عنهم في حال من الأحوال فيخفى علينا شيءٌ من أعمالهم وأحوالِهم ، والجملةُ تذييلٌ مقرِّر لما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(211/263)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾

قيل أي على الرسل حين يكلون الأمر إلى علمه تعالى ويقولون : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلام الغيوب ﴾ [المائدة : 109] أو عليهم وعلى المرسل إليهم جميعاً جميع أحوالهم .

وعن ابن عباس أنه ينطق عليهم كتاب أعمالهم ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ أي عالمين بظواهرهم وبواطنهم

أو بمعلومنا منهم ، والباء على الأول للملابسة ؛ والجار والمجرور حال من فاعل (نقص) ، وعلى الثاني الباء متعلق بنقص ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ عنهم في حال من الأحوال ، والمراد الإحاطة التامة بأحوالهم وأفعالهم بحيث لا يشذ منها شيء عن علمه سبحانه ، والجملة إما حال أو استئناف لتأكيد ما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والقَصّ : الإخبار ، يقال : قصّ عليه ، بمعنى أخبره ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ يقص الحقّ ﴾ في سورة الأنعام (57) .

وجملة : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ معطوف على ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ ، وهي في موقع التّذييل .

والغائب ضدّ الحاضر ، وهو هنا كناية عن الجاهل ، لأنّ الغيبة تستلزم الجهالة عرفاً ، أي الجهالة بأحوال المَغيب عنه ، فإنّها ولو بلغتْه بالأخبار لا تكون تامة عنده مثل المشاهد ، أي : وما كنّا جاهلين بشيء من أحوالهم ، لأنّنا مطّلعون عليهم ، وهذا النّفي للغيبة مثل إثبات المعيَّة في قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ [الحديد : 4] .

وإثباتُ سؤال الأمم هنا لا ينافي نفيه في قوله تعالى : ﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : 78] وقوله ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : 39] لأنّ المسؤول عنه هنا هو التّبليغ والمنفيَّ في الآيتين الآخريين هو السّؤال لمعرفة تفاصيل

ذنوبهم ، وهو الذي أريد هنا في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(212/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) ﴾

أي سيخبرهم بكل ما عملوا في لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أي من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ أي أنه مع الجميع ، وما دام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو في كل زمان وفي كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك في إطار قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، ومثل هذه المعاني في الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه

حين تحدثنا عن مجيء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شيء ، وما كان غائباً في حدث أو مكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(213/263)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا ، وأخبرهم بأنه جل وعلا لم يكن غائباً عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا ، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق ، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير ، وجليل وحقير ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : 7] ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ

شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة الرد الصريح على المعتزلة النافين صفات المعاني ، القائلين : إنه تعالى عالم بذاته ، لا بصفة قامت بذاته ، هي العلم ، وهكذا في قولهم : قادر مريد ، حي سميع ، بصير متكلم ، فإنه هنا أثبت لنفسه صفة العلم بقوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : 166] الآية . وهي أدلة قرآنية صريحة في بطلان مذهبهم الذي لا يشك عاقل في بطلانه وتناقضه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(214/263)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ قال : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلغوا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلم ﴾ قال : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون .

وأخرج عبد بن حميد عن قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ قال : أحدهما الأنبياء وأحدهما الملائكة ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ قال : ذلك قول الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ يقول : الناس نسألهم عن لا إله إلا الله ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ قال : هل بلغكم الرسل ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ قال : ماذا ردوا عليكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن القاسم أبي عبد الرحمن . انه تلا هذه الآية فقال : يسأل العبد يوم القيامة عن أربع خصال . يقول ربك : ألم اجعل لك جسداً ففيم أبليته ؟ الم اجعل لك علماً ففيم عملت بما علمت ؟ ألم أجعل لك مالاً ففيم أنفقته في طاعتي أم في معصيتي ؟ ألم اجعل لك عمراً ففيم أفنيته ؟

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن وهيب بن الورد قال : بلغني أن أقرب الخلق إلى الله اسرافيل والعرش على كاهله ، فإذا نزل الوحي دلى اللوح من نحو العرش ، فيقرع جبهة اسرافيل فينظر فيه ، فيرسل إلى جبريل فيدعوه فيرسله ، فإذا كان يوم القيامة دعي اسرافيل فَيُؤْتَى به ترتعد فرائصه ، فيقال له : ما صنعت فيما أدى إليك اللوح ؟ فيقول : أي رب أديته إلى جبريل . فَيُدْعَى جبريل فيؤتى به ترتعد فرائصه ، فيقال له : ما صنعت فيما أدى إليك إسرافيل ؟ فيقول : أي رب بلغت الرسل . فيدعى بالرسل ترتعد فرائصهم ، فيقال لهم : ما صنعتم فيما أدى إليكم جبريل ؟ فيقولون : أي رب بلغنا الناس . قال : فهو قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي سنان قال : أقرب الخلق إلى الله اللوح وهو معلق بالعرش ، فإذا أراد الله أن يوحي بشيء كتب في اللوح ، فيجيء اللوح حتى يقرع جبهة إسرافيل ، وإسرافيل قد غطى وجهه بجناحيه لا يرفع بصره اعظاماً لله ، فينظر فيه فإن كان إلى أهل السماء دفعه إلى ميكائيل ، وإن كان إلى أهل الأرض دفعه إلى جبريل ، فأول من يحاسب يوم القيامة ، اللوح يدعى به ترعد فرائصه ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقول ربنا : من يشهد لك ؟ فيقول : اسرافيل . فيدعى إسرافيل ترعد فرائصه ،

فيقال له : هل بلغك اللوح ؟ فإذا قال نعم قال اللوح : الحمد لله الذي نجاني من سوء الحساب ، ثم كذلك .

(216/263)

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال : إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل : يا إسرافيل هات ما وكلتك به . فيقول : نعم يا رب في الصور كذا وكذا ثقبة ، وكذا روح الإِنس منها كذا وكذا ، وللجن منها كذا وكذا ، وللشياطين منها كذا وكذا ، وللوحوش منها كذا وكذا ، وللطير منها كذا كذا ، وللبهائم منها كذا وكذا ، وللهوام منها كذا وكذا ، وللحيتان منها كذا وكذا ، فيقول الله عز وجل : خذه من اللوح . فإذا هو مثلاً بمثل لا يزيد ولا ينقص ، ثم يقول عز وجل : هات ما وكلتك يا ميكائيل . فيقول : نعم يا رب أنزلت من السماء كذا وكذا كيلة ، وزنة كذا وكذا مثقالاً ، وزنة كذا وكذا قيراطاً ، وزنة كذا وكذا خردلة ، وزنة كذا وكذا درة ، أنزلت في سنة كذا وكذا كذا وكذا ، وفي شهر كذا وكذا كذا وكذا ، وفي جمعة كذا وكذا كذا وكذا ، وفي يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وفي ساعة كذا وكذا كذا وكذا أنزلت للزرع منه كذا وكذا ، وأنزلت للشياطين منه كذا وكذا ، وأنزلت للانس منه كذا وكذا ، وأنزلت للبهائم كذا وكذا ، وأنزلت للوحوش كذا وكذا ، وللطير كذا وكذا ،

وللحيتان كذا وكذا ، وللهوام كذا وكذا . فذلك كله كذا وكذا ، فيقول : خذه من اللوح . فإذا هو مثلاً بمثل لا يزيد ولا ينقص ، ثم يقول : يا جبريل هات ما وكلتك به . فيقول نعم يا رب أنزلت على نبيك فلان كذا وكذا آية في كذا وكذا ، في جعمة كذا وكذا ، في يوم كذا وكذا ، وأنزلت على نبيك فلان كذا وكذا آية ، وكذا وكذا سورة ، فيها كذا وكذا آية ، فذلك كذا وكذا آية ، فذلك كذا وكذا حرفاً ، وأهلكت كذا وكذا مدينة ، وخسفت بكذا وكذا . فيقول : خذه من اللوح . فإذا هو مثلاً بمثل لا يزيد ولا ينقص . ثم يقول هات ما وكلتك به يا عزرائيل . فيقول : نعم يا رب قبضت روح كذا وكذا إنسي ، وكذا وكذا جني ، وكذا وكذا شيطان ، وكذا وكذا غريق ، وكذا وكذا حريق ، وكذا وكذا كافر ، وكذا وكذا شهيد ، وكذا وكذا هديم ، وكذا وكذا لديغ ، وكذا

(217/263)

وكذا في سهل ، وكذا وكذا في جبل ، وكذا وكذا طير ، وكذا وكذا هوام ، وكذا وكذا وحش ، فذلك كذا وكذا جملته كذا وكذا ، فيقول : خذه من اللوح . فإذا هو مثلاً بمثل لا يزد ولا ينقص .

وأخرج أحمد عن معاوية بن حيدة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن ربي

دَاعِيَّ وأنه سائلي هل بلغت عبادي ، وإني قائل رب إني قد بلغتهم فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ثم إنكم تدعون مفدمة أفواهكم بالفدام ، إن أول ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه ".

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن طاوس .

أنه قرأ هذه الآية فقال الإِمام يسأل عن الناس ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإِمام يسأل عن الناس ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده " .

وأخرج ابن حبان وأبو نعيم عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فأعدوا للمسائل جواباً . قالوا : وما جوابها ؟ قال : أعمال البر " .

وأخرج الطبراني في الكبير عن المقدام " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة ، بين يديه راية يحملها وهم يتبعونه ، فيسأل

عنه ويسألون عنه " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من أمير يؤمر على عشرة إلا سُئِلَ عنهم يوم القيامة " .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : أن الله سائل كل ذي رعية عما استرعاه أقام أمر الله فيهم أم أضاعه ، حتى أن الرجل ليسأل عن أهل بيته .

(218/263)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ينظر في صلاته فإن صلحت فقد أفلح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(219/263)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) ﴾

فلنخبرنهم يومَ الفصلِ ما هو عليه اليوم ، ونوقفهم على ما أسلفوه ، ونقيمنهم في مقام الصَّغَارِ ومحل الخزي ، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير .

ويقال أجرى الحقُّ – سبحانه – سُنَّتَه بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوَّفهم بعقوبته تارة ؛ فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ [البقرة : 48] يعني العذاب الواقع في ذلك اليوم ، وقال في موضع آخر ﴿ ويحذِّركم الله نفسه ﴾ [آل عمران : 28] وهذا أبلغ في التخويف ، وقال ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق : 14] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 520 ﴾

(220/263)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ المص (1) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

قوله : ﴿ المص ﴾ قد تقدّم في فاتحة سورة البقرة ما يغني عن الإعادة ، وهو إما مبتدأ

وخبره ﴿ كتاب ﴾ ، أي ﴿ المص ﴾ حروف ﴿ كتاب أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا "المص" أي المسمى به ، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، و ﴿ كتاب ﴾ خبر المبتدأ على الوجه الأوّل ، أو خبر مبتدأ محذوف على الثاني ، أي هو كتاب .

قال الكسائي : أي هذا كتاب ، و ﴿ أنزل إليك ﴾ صفة له .

﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ الحرج : الضيق ، أي لا يكن في صدرك ضيق منه ، من إبلاغه إلى الناس مخافة أن يكذبوك ويؤذوك ، فإن الله حافظك وناصرك .

(221/263)

وقيل : المراد لا يضق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ ، وقال مجاهد وقتادة : الحرج هنا الشك ، لأن الشاك ضيق الصدر ، أي لا تشك في أنه منزل من عند الله ، وعلى هذا يكون النهي له صلى الله عليه وسلم من باب التعريض ، والمراد أمته ، أي لا يشك أحد منهم في ذلك ، والضمير في ﴿ منه ﴾ راجع إلى الكتاب ، فعلى الوجه الأوّل : يكون على تقدير مضاف ، أي من إبلاغه ، وعلى الثاني : يكون التقدير من إنزاله ، والضمير في ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ راجع إلى الكتاب ، أي لتنذر الناس بالكتاب الذي

أنزلناه إليك ، وهو متعلق بأنزل ، أي أنزل إليك لإنذارك للناس به ، أو متعلق بالنهي ، لأن انتفاء الشك في كونه منزلاً من عند الله ، أو انتفاء الخوف من قومه يقوّيه على الانذار ويشجعه ، لأن المتيقن يقدم على بصيرة ، ويباشر بقوّة نفس .

قوله : ﴿ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذكرى التذكير .

قال البصريون : الذكرى في محل رفع على إضمار مبتدأ .

وقال الكسائي : هي في محل رفع عطفاً على كتاب ، ويجوز النصب على المصدر ، أي وذكر به ذكرى قاله البصريون .

ويجوز الجر حملاً على موضع ﴿ لتنذر ﴾ أي للإنذار والذكرى ، وتخصيص الذكرى بالمؤمنين ، لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك ، وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين .

قوله : ﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : الكتاب ، ومثله السنة لقوله : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] ونحوها من الآيات ، وهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته .

(222/263)

وقيل : هو أمر للأمة بعد أمره صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ، وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ نهي للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله ، فالضمير على هذا في ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ يرجع إلى ربّ ، ويجوز أن يرجع إلى "ما" في ﴿ ما أنزل إليكم ﴾ أي لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلدونهم في دينكم ، كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه عليهم .

قوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ انتصاب ﴿ قليلاً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر ، أي تذكراً قليلاً ، و" ما " مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل ﴿ لا تتبعوا ﴾ ، و" ما " مصدرية ، أي لا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً تذكرهم ، قرىء " تَذَكَرُونَ " بالتخفيف بحذف إحدى التاءين ، وقرىء بالتشديد على الإدغام .

قوله : ﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ "كم" هي الخبرية المفيدة للتكثير ، وهي في موضع رفع على الابتداء و﴿ أهلكناها ﴾ الخبر ، ﴿ من ﴾ قرية تمييز ، ويجوز أن تكون في محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها ، لأن لها صدر الكلام ، ولولا اشتغال ﴿ أهلكناها ﴾ بالضمير لجاز انتصاب "كم" به ، والقرية موضع اجتماع الناس ، أي كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها ، أو أهلكنا أهلها ، والمراد أردنا إهلاكها .

قوله : ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مرّ ؛ لأن ترتيب

مجيء البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير ، إذ الإهلاك هو نفس مجيء البأس .

وقال الفراء : إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير ، والمعنى : أهلكناها وجاءها بأسنا ، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها .

وقيل : إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية ؛ فيكون المعنى : وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع .

(223/263)

وقيل المعنى : وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا .

وقيل : أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا ، والبأس : هو العذاب .

وحكي عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ، مثل دنا فقرب ، وقرب فدنا .

﴿ بَيَاتًا ﴾ أي ليلاً ، لأنه يبات فيه ، يقال بات يبيت بيتاً وبياتاً ، وهو مصدر واقع موقع الحال ، أي بائتين .

قوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ معطوف على ﴿ بياتاً ﴾ أي بائتين أو قائلين ، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استثقالاً لاجتماع الواوين واو العطف وواو الحال ، هكذا قال الفراء .

واعترضه الزجاج فقال : هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو ، تقول : جاءني زيد راكباً ، أو هو ماش ، لأن في الجملة ضميراً قد عاد إلى الأوّل ، و" أو " في هذا الموضع للتفصيل لا للشك .

والقيلولة هي نوم نصف النهار .

وقيل : هي مجرد الاستراحة في ذلك الوقت لشدّة الحرّ من دون نوم ، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة ، فمجيء العذاب فيهما أشدّ وأفظع .

قوله : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلا أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ الدعوى : الدعاء ، أي فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب ، إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم ، ومثله

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ [يونس : 10] أي آخر دعائهم .

وقيل : الدعوى هنا بمعنى الادّعاء ، والمعنى : ما كان ما يدّعونه لدينهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده ، واسم كان ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ وخبرها (دعواهم) ويجوز العكس ، والمعنى : ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين .

(224/263)

قوله : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا وعيد شديد ، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ ، واللام لام القسم ، أي لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم ، والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية ﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ أي الأنبياء الذين بعثهم الله ، أي نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ، ومن أطاع منهم ومن عصى .

وقيل المعنى : فلنسألن الذين أرسل إليهم ، يعني الأنبياء ، ولنسألن المرسلين ، يعني الملائكة ، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه : ﴿ وَلاَ يسأَل عَن ذنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] لما قدّمنا غير مرة أن الآخرة مواطن ، ففي موطن يسألون ، وفي موطن لا يسألون ، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى ، بالنسبة إلى يوم القيامة ، فإنه محمول على تعدّد المواقف مع طول ذلك اليوم طولاً عظيماً ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ أي على الرسل والمرسل إليهم ، ما وقع بينهم عند الدعوة منهم بعلم لا بجهل ، أي عالمين بما يسرون وما يعلنون ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ عنهم في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن النجار في تاريخه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ المص ﴾ قال : أنا الله أفصل .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به ، وهي من أسماء الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ المص ﴾ قال : هو المصوّر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ المص ﴾ قال : الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد .

(225/263)

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، قال معناه : أنا الله الصادق ، ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن ، وتفسير بالحدس ، ولا حجة في شيء من ذلك ، والحق ما قدّمنا في فاتحة سورة البقرة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ قال : الشك ، وقال الأعرابيّ : ما الحرج فيكم ؟ قال : اللبس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن مجاهد ، نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، قال : ضيق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود : ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ، ثم قرأ ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾ الآية .

وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، عن ابن عباس ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ قال : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلغوا ، ﴿ فلنقصنّ عليهم بعلم ﴾ ، قال : بوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

وأخرج عبد بن حميد ، عن فرقد ، في الآية قال : أحدهما الأنبياء ، وأحدهما الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في الآية قال : نسأل الناس عن قول لا إله إلا الله ، ونسأل جبريل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(226/263)

قوله تعالى ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدمت الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ [الأنعام : 152] الآية إلى المساواة الحقيقية في الميزان معجوز عنها وأنه أبعد المقادير عن التساوي ، والنص في قوله تعالى ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ [الأنعام : 160] على قدرة القدير على ذلك ، وختم الآية السالفة بإحاطة العلم على الوجه الأبلغ المقتضي لذلك على أعلى الوجوه ، أكد الأمر أيضاً وقصره على علمه هنا فقال : ﴿ والوزن ﴾ بميزان حقيقي لصحف الأعمال أو للاعمال أنفسها بعد تصويرها بما تستحقه من الصور أو بغير ذلك بعد أن يقذف الله في القلوب العلم به ، ولعله حال من نون العظمة في الاية التي قبلها ، أي إنا لا نكتفي بما نقص بل نزنه فيصير بحيث يظهر لكل أحد أنه على غاية ما يكون من التساوي ؛ قال أبو حيان وعلي بن الحسين النحوي الأصفهاني في إعرابه : " الوزن " مبتدأ ﴿ يومئذ ﴾ ظرف منصوب به ﴿ الحق ﴾ خبر المبتدأ ، زاد الأصفهاني فقال : واستضعف إعمال المصدر وفيه لام التعريف وقد ذكرنا أنه جاء في التنزيل ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾ [النساء : 148] - انتهى .

(227/263)

أي والوزن في ذلك اليوم مقصور على الحق ، يطابقه الواقع مطابقة حقيقية لا فضل فيها أصلاً ولا يتجاوز الوزن في ذلك اليوم الحق إلى شيء من الباطل بزيادة ذرة ولا نقصها ولا ما دون ذلك ، فتحرر أن مقصود السورة الحث على اتباع الكتاب ، وهو يتضمن الحث على اتباع الرسول والدلالة على التوحيد والقدرة على البعث ببيان الأفعال الهائلة في ابتداء الخلق وإهلاك الماضين إشارة إلى أن من لم يتبعه ويوحد – من إنزله على هذا الأسلوب الذي لا يستطاع ، والمنهاج الذي وقفت دونه العقول والطباع ، لما قام من الأدلة على توحيده بعجز من سواه عن أقواله وأفعاله – أوشك أن يعاجله قبل يوم البعث بعقاب مثل عقاب الأمم السالفة والقرون الخالية مع ما ادخر له في ذلك اليوم من سوء المنقلب وإظهار اثر الغضب .

ولما أخبر أن العبرة بالميزان على وجه يظهر أنه لا حيف فيه بوجه ، تسبب عنه قوله : ﴿ فمن ثقلت ﴾ أي دست ورسبت على ما يعهد في الدنيا ﴿ موازينه ﴾ أي موزونات أعماله ، أي أعماله الموزونة ، ولعله عبر بها عنها إشارة إلى ان كل عمل يوزن على حدة ليسعى في إصلاحه ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الهمم ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ المفلحون ﴾ أي الظاهرون بجميع مآربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 9.10 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن من جملة أحوال القيامة السؤال والحساب ، بين في هذه

الآية أن من جملة أحوال القيامة أيضاً وزن الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 21 ﴾

(228/263)

فصل

قال الفخر :

في تفسير وزن الأعمال قولان : الأول : في الخبر أنه تعالى ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة يوزن به أعمال العباد خيرها وشرها ، ثم قال ابن عباس : أما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فتوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته ، فذلك قوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الناجون قال وهذا كما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبياء : 47] وأما كيفية وزن الأعمال على هذا القول ففيه وجوه : أحدهما : أن أعمال المؤمن تتصور بصورة حسنة ، وأعمال الكافر بصورة قبيحة ، فتوزن تلك الصورة : كما ذكره ابن عباس .

(229/263)

والثاني : أن الوزن يعود إلى الصحف التي تكون فيها أعمال العباد مكتوبة ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يوزن يوم القيامة فقال : "الصحف" وهذا القول مذهب عامة المفسرين في هذه الآية ، وعن عبد الله بن سلام ، أن ميزان رب العالمين ينصب بين الجن والإنس يستقبل به العرش إحدى كفتي الميزان على الجنة ، والأخرى على جهنم ، ولو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن ، وجبريل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان ويؤتى له بتسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مد البصر فيها خطاياه وذنوبه فتوضع في كفة الميزان ثم يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله يوضع في الأخرى فترجح " وعن الحسن : بينما الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم واضع رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها قد أغفى فسالت الدموع من عينها فقال : "ما أصابك ما أبكاك ؟ " فقالت : ذكرت حشر الناس وهل يذكر أحد أحداً ، فقال لها : " يحشرون حُفاة عُراة غرلاً " ﴿لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس : 37] لا يذكر أحد أحداً عند الصحف ، وعند وزن الحسنات والسيئات ، وعن عبيد بن عمير يؤتى بالرجل العظيم الأكول الشروب فلا يكون له وزن بعوضة .

والقول الثاني : وهو قول مجاهد والضحاك والأعمش ، أن المراد من الميزان العدل والقضاء وكثير من المتأخرين ذهبوا إلى هذا القول ، وقالوا حمل لفظ الوزن على هذا المعنى سائغ في اللغة والدليل عليه فوجب المصير إليه .

(230/263)

وأما بيان أن حمل لفظ الوزن على هذا المعنى جائز في اللغة ، فلأن العدل في الأخذ والإعطاء ، لا يظهر إلا بالكيل والوزن في الدنيا فلم يبعد جعل الوزن كناية عن العدل ، ومما يقوي ذلك أن الرجل إذا لم يكن له قدرة ولا قيمة عند غيره يقال : إن فلاناً لا يقيم لفلان وزناً قال تعالى : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] ويقال أيضاً فلان استخف بفلان ، ويقال هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه ، أي يعادله ويساويه مع أنه ليس هناك وزن في الحقيقة قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا قوة . . عندي لكل مخاصم ميزانه

أراد عندي لكل مخاصم كلام يعادل كلامه فجعل الوزن مثلاً للعدل .

إذا ثبت هذا فنقول : وجب أن يكون المراد من هذه الآية هذا المعنى فقط والدليل عليه أن الميزان ، إنما يراد ليتوصل به إلى معرفة مقدار الشيء ، ومقادير الثواب والعقاب لا يمكن

إظهارها بالميزان ، لأن أعمال العباد أعراض وهي قد فنيت وعدمت ، ووزن المعدوم محال ، وأيضاً فبتقدير بقائها كان وزنها محالاً ، وأما قولهم الموزون صحائف الأعمال أو صور مخلوقة على حسب مقادير الأعمال .

(231/263)

فنقول : المكلف يوم القيامة ، إما أن يكون مقراً بأنه تعالى عادل حكيم أو لا يكون مقراً بذلك فإن كان مقراً بذلك ، فحينئذ كفاه حكم الله تعالى بمقادير الثواب والعقاب في علمه بأنه عدل وصواب وإن لم يكن مقراً بذلك لم يعرف من رجحان كفة الحسنات على كفة السيئات أو بالعكس حصول الرجحان لاحتمال أنه تعالى أظهر ذلك الرجحان لا على سبيل العدل والإنصاف فثبت أن هذا الوزن لا فائدة فيه ألبتة ، أجاب الأولون وقالوا إن جميع المكلفين يعلمون يوم القيامة أنه تعالى منزه عن الظلم والجور ، والفائدة في وضع ذلك الميزان أن يظهر ذلك الرجحان لأهل القيامة ، فإن كان ظهور الرجحان في طرف الحسنات ، ازداد فرحه وسروره بسبب ظهور فضله وكمال درجته لأهل القيامة وإن كان بالضد فيزداد غمه وحزنه وخوفه وفضيحته في موقف القيامة ، ثم اختلفوا في كيفية ذلك الرجحان ، فبعضهم قال يظهر هناك نور في رجحان الحسنات ، وظلمة في رجحان

السيئات ، وآخرون قالوا بل بظهور رجحان في الكفة .

فائدة :

الأظهر إثبات موازين في يوم القيامة لا ميزان واحد والدليل عليه قوله : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسطِ لِيَوْمِ القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] وقال في هذه الآية : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ، ولأفعال الجوارح ميزان ، ولما يتعلق بالقول ميزان آخر .

قال الزجاج : إنما جمع الله الموازين ههنا ، فقال : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ ولم يقل ميزانه لوجهين : الأول : أن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد .

فيقولون : خرج فلان إلى مكة على البغال .

والثاني : أن المراد من الموازين ههنا جمع موزون لا جمع ميزان وأراد بالموازين الأعمال الموزونة ولقائل أن يقول هذان الوجهان يوجبان العدول عن ظاهر اللفظ ، وذلك إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على ظاهره ولا مانع ههنا منه فوجب إجراء اللفظ على حقيقته فكما لم يمتنع إثبات ميزان له لسان وكفتان فكذلك لا يمتنع إثبات موازين بهذه الصفة ، فما الموجب لترك الظاهر والمصير إلى التأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 22 . 23 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال السمرقندى :

﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾

أَيّ وزن الأعمال يومئذ بالعدل ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ أي : رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ أي الناجون .

وتكلموا في وزن الأعمال .

قال بعضهم : توزن الصحائف التي كتبها الحفظة في الدنيا .

وقال بعضهم : يجعل للأعمال صورة وتوضع في الميزان .

وقال بعضهم : هذا على وجه المثل وهو كناية عن التعديل ، وهو قول المعتزلة .

وقال بعضهم : قد ذكر الله تعالى الوزن فنؤمن به ولا نعرف كيفيته .

وروى بلال الحبشي عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ جِبْرِيلَ صَاحِبُ الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ زِنْ بَيْنَهُمْ فَرَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلا دِرْهَمَ يَوْمَئِذٍ ، وَلا فِضَّةَ ، وَلا دِينَارَ ، فَيَرُدُّ الظَّالِمُ عَلَى الْمَظْلُومِ مَا وَجَدَ لَهُ مِنْ حَسَنَةٍ .
فَإِنْ لَمْ تُوجَدْ لَهُ حَسَنَةٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ فَتُرَدُّ عَلَى الظَّالِمِ فَيَرْجِعُ الظَّالِمُ وَعَلَيْهِ سَيِّئَاتٌ مِثْلُ الْجَبَلِ "

وروي عن ابن عباس أنه قال : توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان .

فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، وتثقل حسناته على سيئاته .

وأما الكافر فيؤتى بعمله في أقبح صورة ، وتثقل سيئاته على حسناته .

وقال بعضهم : لا يوزن عمل الكافر ، وإنما توزن الأعمال التي بإزائها الحسنات . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني [السؤال] ﴿ الحق ﴾ قال مجاهد : والقضاء يومئذ العدل ، وقال آخرون : أراد به دون [وزن الأعمال] وذلك أن الله عزّ وجلّ ينصب الميزان له [يدان وكفّان] يوم القيامة يوزن أعمال العباد خيرها وشرها فيثقل مرّة ميزان الحسنات لنجاة مَنْ يريد نجاته . ويخفّف مرّة ميزان الحسنات علامة هلاك مَنْ يُريد هلاكه .

(233/263)

فإن قيل : ما الحكمة في وزن أعمال العباد والله هو العالم بمقدار كلّ شيء قبل خلقه إياه وبعده قلنا أربعة أشياء : أحدهما : امتحان الله تعالى عباده بالإيمان به في الدنيا ، والثاني : جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى .

والثالث : تعريف الله عزّ وجلّ للعباد ما عند الله من جزاء على خير وشر ، والرابع : إلقائه

الحجّة عليه .

ونظيره قوله ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] الآية فأخبر ما تأتي الأعمال ونسخها مع علمه بها ما ذكرناه من المعاني والله أعلم .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ قال مجاهد : حسناته ﴿ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الوزن ها هنا هو القضاء بالحق ، أي بالعدل ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه موازنة الحسنات والسيئات بعلامات يراها الناس يوم القيامة .

والثالث : أنه موازنة الحسنات والسيئات بميزان له كفتان ، قاله الحسن وطائفة .

واختلف من قال بهذا في الذي يوزن على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الذي يوزن هو الحسنات والسيئات بوضع إحداهما في كفة والأخرى في كفة ، قاله الحسن والسدي .

والثاني : أن الذي يوزن صحائف الأعمال ، فأما الحسنات والسيئات فهي أعمال ، والوزن إنما يمكن في الأجسام ، قاله عبد الله بن عمر .

والثالث : أن الذي يوزن هو الإنسان ، قال عبيد بن عمير ، قال يؤتى بالرجل العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه فمن قُضي له بالطاعة .

والثاني : معناه فمن كانت كفة حسناته أثقل من كفة سيئاته .

والثالث : معناه فمن زادت حسناته على سيئاته .

﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني بما لهم من الثوب ، وبضده إذا خفت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(234/263)

﴿ الوزن ﴾ مصدر وزن يزن ، ورفعه بالابتداء و ﴿ الحق ﴾ خبره ، و ﴿ يومئذ ﴾ ظرف منتصب ب ﴿ الوزن ﴾ ويصح أن يكون ﴿ يؤمئذ ﴾ خبر الابتداء ، و ﴿ الحق ﴾ نعت ل ﴿ الوزن ﴾ والتقدير الوزن الحق ثابت أو ظاهر يومئذ ، و ﴿ يومئذ ﴾ إشارة إلى يوم القيامة ، والفصل بين الخلائق ، واختلف الناس في معنى الوزن والموازين

فقالت فرقة : إن الله عز وجل أراد أن يعلم عباده أن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل فمثل لهم في ذلك بالوزن والميزان إذ لا يعرف البشر أمراً أكثر تحريراً منه ، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظة الوزن والميزان كما استعار ذلك أبو طالب في قوله :

بميزان قسط لا يخس شعيرة . . . له حاكم من نفسه غير عائل

قال القاضي أبو محمد : وهذا القول أصح من الأول من جهات ، أولها أن ظواهر كتاب الله عز وجل تقتضيه وحديث الرسول عليه السلام ينطق به ، من ذلك : قوله لبعض الصحابة وقد قال له يا رسول الله أين أجدك في القيامة ؟ فقال " اطلبني عند الحوض فإن لم تجدني فعند الميزان " ، ولو لم يكن الميزان مرئياً محسوساً لما أحاله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطلب عنده ، وجهة أخرى أن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيء منه ولا تختل صحته ، وإذا كان الأمر كذلك فلم نخرج من حقيقة اللفظ إلى مجازه دون علة ؟ وجهة ثالثة وهي أن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يعرف إلا سمعاً ، وإن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أقوال الملحدة والزنادقة في أن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إنما هي ألفاظ يراد بها غير الظاهر .

(235/263)

وروي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيره ، وكذلك استعير على قولهم الثقل والخفة لكثرة الحسنات وقلتها ، وقال جمهور الأمة : إن الله عز وجل أراد أن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأمر قد عرفوه في الدنيا وعهدته أفهامهم ، فميزان القيامة له عمود وكفتان على هيئة موازين الدنيا ، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام ، وقالوا : هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يرده نظر .

قال القاضي أبو محمد : فينبغي أن يجري في هذه الألفاظ إلى حملها على حقائقها ، وأما " الثقل " و" الخفة " فإن الآثار تظاهرت بأن صحائف الحسنات والسيئات توضع في كفتي الميزان فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلاً وخفة على نحو إحداثه ذلك في جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت نزول الوحي عليه ، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أنه قال : كنت أكتب حتى نزلت

﴿ غير أولي الضرر ﴾ [النساء : 95] وفخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي حتى كادت أن ترض فخذي ، وفي الحديث أنه كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله لثقل الحادث فيه ، ولا بد لنا أن نعلم أن الثقل الحادث مع الحسنات إنما يتعلق بجسم ، إذ العرض لا يقول بالعرض ، فجائز أن يحدث الثقل في الصحائف وهو أقربها إلى الظن ، وجائز أن يحدث في ذلك من الأجسام المجاورة لتلك الحال ، وإلى حدوثه

في الصحائف ذهب أبو المعالي ، ورويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئته وطوله وأحواله لم تصح بالإسناد ، فلم نر للإطالة بها وجهاً ، وقال الحسن فيما روي عنه : بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزاناً على حدة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول مردود الناس على خلافه ، وإنما لكل أحد وزن يختص به والميزان واحد ، وروي عن مجاهد في قوله ﴿ ثقلت موازينه ﴾ أن " الموازين " الحسنات نفسها .

(236/263)

قال القاضي أبو محمد : وجمع لفظ " الموازين " إذ في الميزان موزونات كثيرة فكأنه أراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان . و ﴿ المفلحون ﴾ في اللغة المدركون لبغيتهم الناجحون في طلبهم ومنه قول عبيد : [الرجز]

أفلحْ بما شئت فقد يبلغ بالضْـ . . . ـعف وقد يُخْدَعُ الأريبُ

فأما قول الشاعر : [المنسرح]

والمسْي والصبح لا فلاح معهْ . . . فقد قيل إنه بمعنى البقاء .

قال القاضي أبو محمد : والبقاء بلوغ بغية بلوغ بغية فالمعنيان متقاربان ، ووزن الله تعالى

أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياء وجلائلها نظير كتبه أعمالهم في صحائفهم واستنتساخه ذلك ونظير استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً ، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وزنت في أعماله ولا بد ، فإن قال قائل كيف تثقل موازين العصاة من المؤمنين بالتوحيد ويصح لهم حكم الفلاح ثم تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاء لا محالة ؟ فقالت طائفة إنه توزن أعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار ثم عند إخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة ، وأيضاً فمعرفة العاصي أنه غير مخلد فلاح وإن تقدمه شقاء على جهة التأديب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ أي : العدل .

وإنما قال : "موازينه" لأن "من" في معنى جميع ، يدل عليه قوله : ﴿ فأولئك ﴾ .

وفي معنى ﴿ يظلمون ﴾ قولان .

أحدهما : يجحدون .

والثاني : يكفرون .

قال الفراء : والمراد بموازينه : وزنه .

والعرب تقول : هل لك في درهم بميزان درهمك ، ووزن درهمك ، ويقولون : داري بميزان

دارك ، ووزن دارك ؛ ويريدن : حذاء دارك .

قال الشاعر :

قَدْ كنتُ قَبْلَ لقائكم ذا مِرّةٍ . . .

عندي لكلِّ مُخَاصِمٍ ميزانُه

يعني : مثل كلامه ولفظه .

فصل

والقول بالميزان مشهور في الحديث ، وظاهر القرآن ينطق به .

(237/263)

وأنكرت المعتزلة ذلك ، وقالوا : الأعمال أعراض ، فكيف توزن ؟ فالجواب : أن الوزن يرجع إلى الصحائف ، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الناس يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلاً ، كُلُّ سِجِلٍّ مدُّ البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب .

فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يا رب ؛ فيقول : بلى ، إن لك

عندنا حسنة واحدة ، لا ظُلم عليك اليوم ، فيُخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتوضع السجِلاَّت في كفة ، والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة " أخرجه أحمد في "مسنده" ، والترمذي .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب ، فلا يزن جناح بعوضة " فعلى هذا يوزن الإنسان .

قال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان ، له لسان وكِفّتان .

فأما المؤمن ، فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته ، وأما الكافر ، فيؤتى بعمله في أقبح صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فيخف وزنه .

وقال الحسن : للميزان لسان وكفتان .

وجاء في الحديث : " أن داود عليه السلام سأل ربه ان يريه الميزان ، فأراه إياه ، فقال : يا إلهي ، من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات ، فقال : يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة " وقال حذيفة : جبريل صاحب الميزان يوم القيامة ، فيقول له ربه : زن بينهم ، ورُدَّ من بعضهم على بعض ؛ فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة .

فإن لم تكن له حسنة ، أخذ من سيئات المظلوم ، فرد على سيئات الظالم ، فيرجع وعليه مثل الجبال .

فإن قيل : أليس الله يعلم مقادير الأعمال ، فما الحكمة في وزنها ؟ فالجواب : أن فيه خمسة حكم .

(238/263)

إحداها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا .

والثانية : إظهار علامة السعادة والشقاوة في الأخرى .

والثالثة : تعريف العباد ما لهم من خير وشر .

والرابعة : إقامة الحجة عليهم .

والخامسة : الإعلام بأن الله عادل لا يظلم .

ونظير هذا أنه أثبت الاعمال في كتاب ، واستنسخها من غير جواز النسيان عليه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ ابتداء وخبر .

ويجوز أن يكون ﴿ الحق ﴾ نعته ، والخبر ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

ويجوز نصب ﴿ الحق ﴾ على المصدر .

والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان .

قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد .

وهذا هو الصحيح ، وهو الذي ورد به الخبر على ما يأتي .

وقيل : الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق .

وقال مجاهد : الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها .

وعنه أيضاً والضحاكِ والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذِكر الوزن ضربُ مثلٍ ؛ كما تقول : هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه ، أي يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وَزْنٌ .

قال الزجاج : هذا سائغٌ من جهة اللسان ، والأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان .

قال القشيرِيّ : وقد أحسن فيما قال ، إذ لو حمل الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدّين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد ، والشياطينُ والجنّ على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة .

وقد أجمعت الأُمة في الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .

وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر ، وصارت هذه الظواهر نصوصاً .

قال ابن فُورَك : وقَدْ أنكرت المعتزلة الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها ، إذ

لا تقوم بأنفسها .

ومن المتكلِّمين من يقول : إن الله تعالى يقلِب الأعراض أجساماً فيزنها يوم القيامة .

(239/263)

وهذا ليس بصحيح عندنا ، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف .

وقد روي في الخبر ما يحقِّق ذلك ، وهو أنه روي : " أن ميزان بعضِ بني آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رِق مكتوب فيه "لا إله إلاَّ الله" فيثقل " فقد عُلِمَ أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال ، وأن الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد ، ويثقله إذا أراد بما يُوضع في كِفتيه من الصحف التي فيها الأعمال .

وفي صحيح مسلم عن صَفْوان بن مُحْرِز قال قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النَّجْوى ؟ قال سمعته يقول : "يُدْنَى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كَنَفه فيُقَرِّره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أي ربِّ أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " فقوله : " فيعطى

صحيفة حسناته " دليل على أن الأعمال تكتب في الصحف وتوزن .

وروى ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُصاح برجل من أُمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سِجِلاً كل سِجِل مدّ البصر ثم يقول الله تبارك وتعالى هل تنكر من هذا شيئاً فيقول لا يا ربّ فيقول أظَلَمْتك كَتَبَتِي الحافظون فيقول لا ثم يقول ألك عذر ألك حسنة فيهاب الرجل فيقول لا فيقول بلى إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك اليوم فتُخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول يا رب ما هذه البِطاقة مع هذه السِّجِلاّت فيقول إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كِفة والبطاقة في كِفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة "

زاد الترمذيّ " فلا يثقل مع اسم الله شيء " وقال : حديث حسن غريب .

وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في "الكهف والأنبياء" إن شاء الله تعالى .

(240/263)

قوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ "مَوَازِينُهُ" جمع ميزان ، وأصله مِوزان ، قلبت

الواو ياء لكسرة ما قبلها .

وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يوزن بكل ميزان منها صِنف من أعماله .

ويمكن أن يكون ذلك ميزاناً واحداً عُبِّرَ عنه بلفظ الجمع ؛ كما تقول : خرج فلان إلى مكة على البغال ، وخرج إلى البصرة في السفن .

وفي التنزيل : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] .

وإنما هو رسول واحد في أحد التأويلين .

وقيل : الموازين جمع موزون ، لا جمع ميزان .

أراد بالموازين الأعمال الموزونة .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ مثله .

وقال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكِفّتان ؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته ؛ فذلك قوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة فيوضع في كِفّة الميزان فيخف وزنه حتى يقع في النار .

وما أشار إليه ابن عباس قريب مما قيل : يخلق الله تعالى كل جزء من أعمال العباد جوهراً فيقع الوزن على تلك الجواهر .

وردّه ابن فُورك وغيره .

وفي الخبر : " إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بِطاقة كالأنملة فيلقيها في كِفّة الميزان اليمنَى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأبِي أنت وأُميّ ! ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك فمن أنت ؟ فيقول أنا محمد نبيك وهذه صلواتك التي كنت تُصلّي عليّ قد وفيتك أحوج ما تكون إليها " ذكره القشيرِيّ في تفسيره .

وذكر أن البطاقة (بكسر الباء) رُقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر .

(241/263)

وقال ابن ماجه : قال محمد بن يحيى : البِطاقة الرُّقعة ، وأهل مصر يقولون للرُّقْعة بِطاقة .

وقال حذيفة : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السَّلام ، يقول الله تعالى : " يا جبريل زِنْ بينهم فرُدّ من بعض على بعض " قال : وليس ثمّ ذهب ولا فضة ؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أخِذ من حسناته فردّ على المظلوم ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم ؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أن الله تعالى يقول يوم القيامة يا آدم ابرز إلى جانب

الكرسي عند الميزان وانظر ما يرفع إليك من أعمال بَنِيك فمن رجح خيرُه على شره مثقالَ حَبّة فله الجنة ومن رجح شره على خيره مثقال حبة فله النار حتى تعلم أني لا أَعذب إلاَّ ظالماً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾

يعني والوزن يوم سؤال الأمم والرسل وهو يوم القيامة العدل ، وقال مجاهد : المراد بالوزن هنا القضاء ، ومعنى الحق العدل .

وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالوزن وزن الأعمال بالميزان وذلك أن الله عز وجل ينصب ميزاناً له لسان وكفتان كل كفة ما بين المشرق والمغرب ، قال ابن الجوزي : جاء في الحديث " أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه إياه فقال إليه من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات فقال يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة " وقال حذيفة : جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظلم ما وجد له من حسنة لإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل .

فإن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة في وزنها ؟

قلت : فيه حكم منها إظهار العدل ، وأن الله عز وجل لا يظلم عباده ، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ومنها تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى ، ثم اختلف العلماء في كيفية الوزن فقال بعضهم : توزن صحائف الأعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله عز وجل سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول الله تبارك وتعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فإنه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يقل مع اسم الله شيء " أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل .

وقال ابن عباس : يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة

قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس : أن الأعمال تتصور صوراً وتوضع تلك الصور في المزان ويخلق الله في تلك الصور ثقلاً وخفة .

(243/263)

ونقل البغوي عن بعضهم أنها توزن الأشخاص واستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة " أخرجاه في الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الأشخاص في المزان لأن المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال إن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ جمع ميزان ، وأورد على هذا أنه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد ، وقيل : إنه ينصب لكل عبد ميزان ، وقيل : إنما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعني من رجحت أعماله بالحسنة الموزونة التي لها وزن وقدر ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ يعني : هم الناجون غداً والفائزون

بثواب الله وجزائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾

(244/263)

اختلفوا هل ثَم وزن وميزان حقيقة أم ذلك عبارة عن إظهار العدل التام والقضاء السويّ والحساب المحرّر فذهبت المعتزلة إلى إنكار الميزان وتقدّمهم إلى هذا مجاهد والضحّاك والأعمش وغيرهم ، وعبّر بالثقل عن كثرة الحسنات وبالخفة عن قلّتها ، وقال جمهور الأمّة بالأول وأنّ الميزان له عمود وكفّتان ولسان وهو الذي دل عليه ظاهر القرآن والسنّة ينظر إليه الخلائق تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة وقطعاً للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم وتشهد عليهم بها أيديهم وأرجلهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وأما الثقل والخفة فمن صفات الأجسام وقد ورد أنّ الموزون هي الصّحائف التي أثبتت فيها الأعمال ، فيُحدث الله تعالى فيها ثقلاً وخفةً وما ورد في هيئته وطوله وأحواله لم يصحَّ إسناده وجمعت الموازين باعتبار الموزونات والميزان واحد ، هذا قول الجمهور .

وقال الحسن لكل أحد يوم القيامة ميزان على حدة وقد يعبّر عن الحسنات بالموازين فيكون ذلك على حذف مضاف أي من ثقلت كفّه موازينه أي موزوناته فيكون موازين جميع موزون لا جمع ميزان ، وكذلك ومن خفّت كفّة حسناته و ﴿ الوزن ﴾ .

مبتدأ وخبره ظرف الزمان والتقدير والوزن كائن يوم أن نسألهم ونقّص عليهم وهو يوم القيامة و ﴿ الحقّ ﴾ صفة للوزون ويجوز أن يكون ﴿ يومئذ ﴾ ظرفاً للوزن معمولاً له و ﴿ الحقّ ﴾ خبر ويتعلّق ﴿ بآياتنا ﴾ بقوله ﴿ يظلمون ﴾ لتضمّنه معنى يكذّبون أو لأنها بمعنى يجحدون وجحد تعدّى بالباء قال : ﴿ وجحدوا بها ﴾ والظاهر أنّ هذا التقسيم هو بالنسبة للمؤمنين من أطاع ومن عصى وللكفّار فتوزن أعمال الكفار .

وقال قوم : لا ينصب لهم ميزان ولا يحاسبون لقوله ﴿ وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وإنما توزن أعمال المؤمن طائعهم وعاصيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(245/263)

وقال أبو السعود :

﴿ والوزن ﴾ أي وزنُ الأعمالِ والتمييزُ بين راجحِها وخفيفِها وجيّدِها ورديئها ، ورفعُه

على الابتداء ، وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ خبرُه وقوله تعالى : ﴿ الحق ﴾ صفتُه ، أي والوزنُ الحقُّ ثابتٌ يومَ إذ يكون السؤالُ والقَصّ ، وقيل : خبرُ مبتدأ محذوفٍ كأنه قيل : ما ذلك الوزن ؟ فقيل : الحقُّ أي العدلُ السويُّ ، وقرىء القسطُ واختُلف في كيفية الوزن والجمهورُ على أن صحائفَ الأعمالِ هي التي توزن بميزان له لسانٌ وكِفّتان ينظُر إليه الخلائقُ إظهاراً للمَعْدلة وقطعاً للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتُهم وجوارحُهم ويشهد عليهم الأنبياءُ والملائكةُ والأشهادُ وكما يُثبَتُ في صحائفهم فيقرءونها في موقف الحساب ، ويؤيده ما رُوي (أن الرجلَ يؤتى به إلى الميزان فيُنشر له تسعةٌ وتسعون سجلاًّ مدى البصر فيخرُج له بطاقةٌ فيها كلمتا الشهادة فتوضَع السجلاتُ في كِفة والبِطاقةُ في كفة فتطيش السجلاتُ وتثقُل البطاقةُ) وقيل : يوزن الأشخاصُ لما روي عنه عليه الصلاة والسلام : " أنه ليأتي العظيمُ السمينُ يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة " وقيل : الوزنُ عبارة عن القضاء السويِّ والحُكمُ العادلُ وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك واختاره كثيرٌ من المتأخرين بناءً على أن استعمالَ لفظِ الوزنِ في هذا المعنى شائعٌ في اللغة والعُرفِ بطريق الكناية قالوا : إن الميزانَ إنما يُراد به التوصلُ إلى معرفة مقاديرِ الشيءِ ، ومقاديرُ أعمالِ العباد لا يمكن إظهارُها بذلك لأنها أعراضٌ قد فَنِيَت وعلى تقدير بقائها لا تَقبل الوزن ، وقيل : إن الأعمالَ الظاهرةَ في هذه النشأةِ بصور عرضيةٍ تبرُز في النشأة الآخرة بصور جوهريةٍ مناسبةٍ لها في الحسن والقبحِ حتى إن الذنوبَ والمعاصيَ تتجسم هناك

وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حُمل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذين يَأْكُلُونَ أموال

(246/263)

اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ وكذا قولُه عليه الصلاة والسلام في حق مَنْ يشرب من إناء الذهب والفضةِ : " إنما يُجرجِر في بطنه نارَ جهنم " ولا بُعدَ في ذلك ، ألا يُرى أن العلم يَظهر في عالم المثالِ على صورة اللبنِ كما لا يخفى على من له خِبرةٌ بأحوال الحضَراتِ الخمس . وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صورٍ حسنةٍ وبالأعمال السيئة على صور قبيحةٍ فتوضع في الميزان إن قيل : إن المكلّف يوم القيامةِ إما مؤمنٌ بأنه تعالى حكيمٌ منزّهٌ عن الجَوْر فكيفيةُ حكمِه تعالى بكيفيات الأعمالِ وكمياتها ظاهرةٌ ، وإما منكِرٌ له فلا يسلمُ حينئذ أن رجحانَ بعضِ الأعمالِ على بعض لخصوصيات راجعةٍ إلى ذوات تلك الأعمالِ بل يُسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه فما الفائدةُ في الوزن ؟ أجيب بأنه ينكشف الحالُ يومئذ وتظهر جميعُ الأشياء بحقائقها على ما هي عليه وبأوصافها وأحوالِها في أنفسها من الحسن والقبحِ وغيرِ ذلك وتنخلع عن الصور المستعارةِ التي بها ظهرت في الدنيا فلا يبقى لأحد ممن يشاهدَها شُبهةٌ

في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها وأن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقيةِ المستتبعةِ لصفاته ، ولا يخطُر بباله خلافُ ذلك والله تعالى أعلم .

(247/263)

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتبة على الوزن ، والموازينُ إما جمعُ ميزانٍ أو جمعُ موزونٍ على أن المرادَ به ما له وزنٌ وقدْرٌ وهو الحسنات ، فإن رجحانَ أحدِهما مستلزم لرجحان الآخَر ، أي فمَنْ رجَحت موازينُه التي توزن بها حسناتُه أو أعمالُه التي لها قدْرٌ وزنة ، وعن الحسن البصري وحُقّ لميزانٍ توضع فيه السيئاتُ أن يخِفّ ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بثقل الميزانِ ، والجمعيةُ باعتبار معناه كما أن جمعَ الموازينِ لذلك ، وأما ضميرُ موازينِه فراجعٌ إليه باعتبار لفظِه ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو طبقتِهم وبُعد منزلتهم في الفصل والشرف ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بالنجاة والثوابِ ، وهم إما ضميرُ فصلٍ يفصل بين الخبر والصفةِ ويؤكد النسبةَ ويفيد اختصاصَ المسندِ بالمسند إليه أو مبتدأٌ خبرُه المفلحون والجملةُ خبرٌ لأولئك ، وتعريفُ المفلحون للدِلالة على أنهم الناسُ الذين بلغك أنهم مُفلحون في الآخرة ، أو إشارةٌ إلى ما

يعرِفه كلُّ أحد من حقيقة المفلحين وخصائصِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(248/263)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ والوزن ﴾ أي : لصحائف الأعمال بميزان له لسان وكفتان ينظر إليها الخلائق إظهاراً للعدل وقطعاً للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم ويؤيده ما روي أنّ رجلاً يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مدّ البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة والبطاقة رقعة صغيرة تجعل في طيّ الثوب يكتب فيها ثمنه ، وقيل : توزن الأعمال .

روي عن ابن عباس : يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان ، وقيل : توزن الأشخاص لما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة" وقوله تعالى : ﴿ يومئذٍ ﴾ أي : يوم السؤال المذكور وهو يوم القيامة خبر المبتدأ الذي هو

الوزن ، وقوله تعالى : ﴿ الحق ﴾ أي : العدل السوي صفته ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أي : رجحت على ما يعهد في الدنيا بصحائف الأعمال أو حسناته أو به على الأقوال الماضية ، وعن الحسن : وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يرجح ويثقل وحق لميزان توضع فيه السيآت أن يخف .

فإن قيل : الميزان واحد فما وجه الجمع ؟

أجيب : بأنّ العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل : إنه ينصب لكل عبد ميزان ، وقيل : إنما جمعه لأنّ الميزان يشتمل على الكفتين واللسان والساهون ولا يتم الوزن إلا بذلك كله ، وقيل : جمع لاختلاف الموزونات وتعدد الجمع فهو جمع موزون أو ميزان ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 180.179 ﴾

(249/263)

وقال الآلوسى :

﴿ والوزن ﴾ أي وزن الأعمال والتمييز بين الراجح منها والخفيف والجيد والرديء ، وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ ﴾ أي وزن الأعمال والتمييز بين الراجح منها والخفيف والجيد

والرديء ، وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ متعلق بمحذوف خبره ، وقوله تعالى : ﴿ الحق ﴾ صفته أي والوزن الحق ثابت يوم إذ يكون السؤال والقص .

واختار هذا بعض من المعربين ، وقيل : الظاهر أن ﴿ الحق ﴾ خبر و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرف للوزن لئلا يقع الفصل بين الصفة والموصوف .

ولعل وجه عدم اختيار هذا أن فيه أعمال المصدر المعرف وهو قليل .

وفي "الكشف" ليس المعنى على أن الوزن هو الحق بل أن الوزن الحق يكون يومئذ ألا يرى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] وذكر الأصفهاني في شرح اللمع لابن جني أن (الحق) بدل من الضمير المستتر في الظرف ، وهو وجه حسن إلا أن الأول رجح جانب المعنى ولم يبال بالفصل بالخبر لاتحاده من وجه بالمبتدأ لا سيما والظرف يتوسع فيه .

وجوز أبو البقاء أن يكون (الحق) خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل : ما ذلك الوزن ؟ فقيل : هو الحق أي العدل السوي .

وأن يكون (الوزن) خبر مبتدأ محذوف أيضاً أي هذا الوزن وهو كما ترى .

وقرىء ﴿ القسط ﴾ "والوزن كما قال الراغب معرفة قدر الشيء يقال : وزنته وزنا وزنة ، والمتعارف فيه عند العامة ما يقدر (بالقسطاس) والقبان" .

واختلف في كيفيته يوم القيامة .

والجمهور كما قال القاضي على أن صحائف الأعمال هي التي توزن بميزان له لسان وكفتان لينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعادلة وقطعاً للمعذرة كما يسألون عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم .

ولا تعرض لهم لماهية هاتيك الصحائف والله تعالى أعلم بحقيقتها .

ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فيقول سبحانه : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون فيقول : لا يا رب فيقول سبحانه أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول لا يا رب فيقول جل شأنه : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات ثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء "

وهذه الشهادة على ما قاله القرطبي نقلاً عن الحيكم الترمذي ليست شهادة التوحيد لأن

من شأن الميزان أن يوضع في إحدى كفتيه شيء وفي الأخرى ضده فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة ومن المستحيل أن يؤتى لعبد واحد بكفر وإيمان معاً فيستحيل أن توضع شهادة التوحيد في الميزان أما بعد الإيمان فإن النطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة فتوضع في الميزان كسائر الحسنات .

وأيد ذلك بقوله جل وعلا في الحديث : " إن لك عندنا حسنة " دون أن يقول سبحانه : إيماناً .

وجوز أن يكون المراد هذه الكلمة إذا كانت آخر كلامه في الدنيا .

وجوز غيره أن تكون كلمة التوحيد ، ومنع لزوم وضع الضد في الكفة الأخرى ليلزم المحال فتدبر .

(251/263)

وجاء في خبر آخر أخرجه ابن أبي الدنيا والنميري في كتاب "الإعلام" عن عبد الله أيضاً قال : إن لآدم عليه السلام من الله عز وجل موقفا في فسح من العرش عليه ثوبان أخضران كأنه نخلة سحوق ينظر إلى من ينطلق به من ولده إلى الجنة ومن ينطلق به إلى النار فبينا آدم على ذلك إذ نظر إلى رجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينطلق به إلى النار فينادي آدم

عليه السلام يا أحمد يا أحمد فيقول عليه الصلاة والسلام : لبيك يا أبا البشر فيقول : هذا رجل من أمتك ينطلق به إلى النار قال صلى الله عليه وسلم : فأشد المئزر وأسرع في أثر الملائكة فأقول : يا رسل ربي قفوا فيقولون .

نحن الغلاظ الشداد الذين لا نعصي الله تعالى ما أمرنا ونفعل ما نؤمر فإذا أيس النبي صلى الله عليه وسلم قبض على لحيته بيده اليسرى واستقبل العرش بوجهه فيقول : يا رب قد وعدتني أن لا تخزيني في أمتي فيأتي النداء من قبل العرش أطيعوا محمداً وردوا هذا العبد إلى المقام فيخرج صلى الله عليه وسلم بطاقة بيضاء كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى وهو يقول بسم الله فترجح الحسنات على السيئات فينادي المنادي سعد وسعد جده وثقلت موازينه انطلقوا به إلى الجنة فيقول يا رسل ربي : قفوا حتى أسأل هذا العبد الكريم على ربه فيقول : يا بني أنت وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك من أنت ؟ فقد أقلتني عثرتي ورحمت عبرتي فيقول عليه الصلاة والسلام .

أنا نبيك محمد وهذه صلاتك التي كنت تصلي علي وفيتكها أحوج ما تكون إليها انتهى .

ولعل فعل مثل هذا إذا صح الخبر مبالغة في إظهار كرامة النبي صلى الله عليه وسلم على ربه عز وجل بين الأولين والآخرين .

وقيل : توزن الأشخاص ، واحتجوا له بما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : " إنه ليؤتى العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة ولا أدري على هذا ما يوضع في الكفة الأخرى من الميزان إذا وضع المذنب في إحداهما ، ووضع شخص في مقابلة شخص لا أراه إلا كما ترى ، والخبر ليس نصاً في الدعوى كما لا يخفى ، وقيل : إن هذه الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تظهر في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح ، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وصححه غير واحد وقال : إن عليه الاعتقاد ، وفي الآثار ما يؤيده .

فقد أخرج ابن عبد البر عن إبراهيم النخعي قال : يجاء بعمل الرجل فيوضع بكفة ميزانه يوم القيامة فيخف فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه فيرجحه فيقال له : أتدري ما هذا ؟ فيقول : لا فيقال له : هذا فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس ، وأخرج ابن المبارك عن حماد بن أبي سليمان بمعناه .

وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل ، واستعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريق الكناية وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، وإليه ذهب المعتزلة إلا أن منهم من جوز الوزن بالمعنى المتعارف عقلاً وإن لم يقض بثبوته كالعلاف وبشر بن المعتمر ، ومنهم من أحاله لأن الأعمال أعراض وهي مما لا تبقى ومما لا يمكن

إعادتها ، سلمنا بقاءها أو إمكان إعادتها لكنها أعراض والأعراض يمتنع وزنها إذ لا توصف بثقل ولا خفة ، سلمنا إمكان وزنها لكن لا فائدة في ذلك إذ المقصود إنما هو العلم بتفاوت الأعمال والله تعالى عالم بذلك وما لا فائدة فيه ففعله قبيح والرب تعالى منزه عن فعل القبيح ، وجوابه يعلم مما قدمنا .

وفسر هؤلاء الميزان بالعدل والإنصاف .

(253/263)

واعترض الآمدي على ذلك بأن الميزان موصوف بالثقل والخفة ، والعدل والإنصاف لا يوصفان بذلك ، وفي الأخبار ما هو صريح في أن الميزان جسماني ، فقد أخرج الحاكم وصححه عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسع فتقول الملائكة : يا رب من يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى : من شئت من خلقي فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك " وفي رواية ابن المبارك واللالكائي عنه قال : يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعه فتقول الملائكة من يزد هذا ؟ الحديث .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " خلق الله

تعالى كفتيْ الميزان مثل السموات والأرض فقال الملائكة : يا ربنا من تزن بهذا ؟ فقال : أزن به من شئت " وفي بعض الآثار " أن الله تعالى كشف عن بصر داود عليه السلام فرأى من الميزان ما هاله حتى أغمي عليه فلما أفاق قال : يا رب من يملأ كفة هذا حسنات فقال جل شأنه : يا داود إذا رضيت عن عبد ملأتها بشق تمرة تصدق بها "

إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة .

(254/263)

فالأولى كما قال الزجاج اتباع ما جاء في الأحاديث ولا مقتضي للعدول عن ذلك ، فإن قيل : إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه فما الفائدة في الوزن ؟ أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هي عليه وبأوصافها وأحوالها في أنفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها وإن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته

الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك قاله بعض المحققين والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن ، والموازين إما جمع ميزان وجمعه مع أن المشهور الصحيح أن الميزان مطلقاً واحد باعتبار تعدد الأوزان أو الموزونات ، وكذا إذا قلنا بأن ميزان كل شخص واحد وفي الكلام مضاف مقدر أي كفة موازينه ، وإما جمع موزون وإضافته للعهد ، لترتب الفلاح على ذلك فالمراد الحسنات ، والجمع على هذا ظاهر ، وكذا لو قلنا إن لكل عمل ميزاناً ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة ، والجمعية باعتبار معناه كما أن إفراد ضمير ﴿ موازينه ﴾ العائد إليه باعتبار لفظه ، وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة ، وهو مبتدأ و ﴿ هُمْ ﴾ إما ضمير فصل يفصل به بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه و ﴿ المفلحون ﴾ أي الفائزون بالنجاة والثواب خبر .

وإما مبتدأ ثان و ﴿ المفلحون ﴾ خبره والجملة خبر المبتدأ الأول ، وتعريف المفلحين للدلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون في الآخرة أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) ﴾

في هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفي وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله في الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهنا قول كريم يقول فيه الحق سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة . . . ﴾ [الأنبياء : 47]

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عدل في ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ . نعم ، الميزان في هذا اليوم حق ودقيق ، لنذكر انه قال من قبل : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 160]

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شيء فيه موزون ، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التي يؤدي بها كل كائن المطلوبَ منه ، ولذلك يقوله سبحانه : ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7]

ولم نر السماء قذفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق .

والوزن في يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففي هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعاني

إما خللاً في الآلة التي يوزن بها ، وإمّا خللاً في الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجري فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ .

(256/263)

فكأن الميزان في الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثاني يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان في هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتي اليوم الآخر فلا ملك لأحد : ﴿ . . . لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16]

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك في الدنيا قد استخلف فيه الحق عباده ، فهذه الولاية تنتهي في اليوم الآخر : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-11]

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات ، ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووزان وموزون تقتضي ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(257/263)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الوزن مبتدأ ، وفي الخبر وجهان :

أحدهما : هو الظَّرْف أي : الوزن كائن أو مستقرٌّ يومئذٍ أي : يوم إذ يُسْأَلُ الرُّسُلُ والمرسلُ إليهم .

فحذف الجملة المضاف إليها " إذْ " وعوَّض منها التَّنْوين ، هذا مذهب الجُمْهُور خلافاً للأخْفَش .

وفي " الحقّ " على هذا الوجه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه نَعْتٌ للوزن أي : الوزن الحق في ذلك اليوم .

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوفٍ كأَنَّهُ جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ من قائل يقول : ما ذلك الوزن ؟

فقيل : هو الحقُّ لا البَاطِلُ .

الثالث : أنه بدلٌ من الذَّميرِ المستكن في الظَّرْفِ وهو غَرِيبٌ ذكره مَكِيٌّ .

والثاني : من وجهي الخبر أن يكون الخبر " الحق " ، و " يومئذ " على هذا فيه وجهان :

أحدهما : أَنَّهُ منصوب على الظَّرْفِ ناصبه " الوَزْنُ " أي : يقع الوَزْنُ ذلك اليوم .

والثاني : أَنَّهُ مفعول به على السَّعَةِ وهذا الثاني ضعيفٌ جدّاً لا حَاجَةَ إليه .

ولَمَّا ذَكَرَ أبو البقاءِ كون " الحق " خبراً ، وجعل "يَوْمَئِذٍ " ظرفاً للوزن قال : " ولا يَجُوزُ على هذا أن يكون صِفَةً ، لِئَلاّ يلزم الفَصْلُ بين المَوصُولِ وصِلَتِهِ " .

قال شهابُ الدّين : وأين الفَصْلُ ؟ فإن التركيبَ القرآنيَّ إنما جاء فيه " الحق " بعد تمام الموصول بصلته ، وإذا تمَّ الموصول بصلته جاز أن يُوصَفَ .

تقول : " ضَرْبُكَ زَيْداً يَوْمَ الجُمْعَةِ الشديدُ حسنٌ " .

فالشَّديدُ صفةِ لِضَربِكَ .

(258/263)

فإنْ تَوَهَّمَ كون الصِّفَةِ محلُّها أن تقع بعد الموصوف وتليه ، فَكَأَنَّهَا مُقدَّمَةٌ في التَّقدير فَحَصَلَ الفَصْلُ تقديراً فإن هذا لا يُلْتَفَتُ إليه ؛ لأنَّ تلك المعمولات من تَتِمَّةِ الموصول فلم تل إلاَّ

الموصول وعلى تقدير اعتقاد ذلك له ، فالمَانِعُ من ذلك أيضاً صيرورةُ المبتدأ بلا خبر ، لأَنَّكَ إذا جعلت "يَومئذٍ " ظرفاً للوزن و" الحقُّ " صفته فأين خبره ؟ فهذا لو سَلِمَ من المانع الذي ذكره كان فيه هذا المانع الآخر .

وقد طوَّلَ مكيٌّ بذكر تقدير " الحقّ " على " يومئذ " وتأخيره عنهُ باعتبار الإعرابات المتقدمة ، وهذا لا حَاجَةَ إليه لأَنَّا مقيَّدُونَ في القرآن بالإتيان بنَظْمِهِ .

وذكر أيضاً أنه يجوز نصبه ، يعني أَنَّهُ لو قُرِىءَ به لكان جَائِزاً ، وهذا أيضاً لا حاجة إليه .

قوله : " مَوَازِيْنُهُ " فيها قولان :

أحدهما : أَنَّها جمع ميزان : الآلة [التي] يوزنُ بها ، وإنَّمَا جمع ؛ لأن كلَّ إنسانٍ له ميزان يخصُّه على ما جاء في التَّفْسير ، أو جُمع باعتبار الأعمال الكثيرة وعبّر عن هذا الحال بالمحل .

والثاني : أَنَّها جمع موزون ، وهي الأعمال ، والجمع حينئذٍ ظاهر .

قيل : إنَّمَا جمع الميزان ههنا ، وفي قوله : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] ؛ لأَنَّه لا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزانٌ ، ولأفعال الجوارح ميزانٌ ، ولما يتعلق بالقول ميزان .

وقال الزَّجَّاجُ : إنَّمَا جمع الموازين ههنا لوجهين :

الأوَّلُ : أنَّ العرب قد تُوقِعُ لَفْظَ الجَمْعِ على الواحد فيقولون : خرج فلان إلى مَكَّةَ راكباً

البِغَالَ .

والثاني : أن الموازين ههنا جمع موزون لا جمع ميزان .

قال القرطبيُّ : والموازين جمع ميزان وأصلُهُ : " مِوْزَانٌ " قلبت الواوُ ياءٌ لكسرة ما قبلها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 21 . 22 ﴾

(259/263)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ ومن خفت ﴾ أي طاشت ﴿ موازينه ﴾ أي التي توزن فيها الأعمال الصالحة ﴿ فأولئك ﴾ المبعدون ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي التي هي رأس مالهم فكيف بما دونها ﴿ بما كانوا بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿ يظلمون ﴾ أي باستمرار ما يجد دونه من وضعها في غير المحل الذي يليق بها فعل من هو في ظلام ؛ قال الحسن ، وحق الميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل ، وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 10 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية فيها مسائل :

المسألة الأولى :

أنها تدل على أن أهل القيامة فريقان منهم من يزيد حسناته على سيئاته ، ومنهم من يزيد سيئاته على حسناته ، فأما القسم الثالث وهو الذي تكون حسناته وسيئاته متعادلة متساوية فإنه غير موجود .

المسألة الثانية :

قال أكثر المفسرين المراد من قوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ الكافر والدليل عليه القرآن والخبر والأثر .

(260/263)

أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ فأولئك الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بآياتنا يَظْلِمُونَ ﴾ ولا معنى لكون الإنسان ظالماً بآيات الله إلا كونه كافراً بها منكراً لها ، فدل هذا على أن المراد

من هذه الآية أهل الكفر ، وأما الخبر فما روي أنه إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجرته بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك فمن أنت ؟ فيقول : " أنا نبيك محمد وهذه صلاتك التي كنت تصلي علي قد وفيتك أحوج ما تكون إليها " ، وهذا الخبر رواه الواحدي في "البسيط" ، وأما جمهور العلماء فرووا ههنا الخبر الذي ذكرناه من أنه تعالى يلقى في كفة الحسنات الكتاب المشتمل على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

قال القاضي : يجب أن يحمل هذا على أنه أتى بالشهادتين بحقهما من العبادات ، لأنه لو لم يعتبر ذلك لكان من أتى بالشهادتين يعلم أن المعاصي لا تضره ، وذلك إغراء بمعصية الله تعالى .

ولقائل أن يقول : العقل يدل على صحة ما دل عليه هذا الخبر ، وذلك أن العمل كلما كان أشرف وأعلى درجة ، وجب أن يكون أكثر ثواباً ، ومعلوم أن معرفة الله تعالى ومحبته أعلى شأناً ، وأعظم درجة من سائر الأعمال ، فوجب أن يكون أوفى ثواباً ، وأعلى درجة من سائر الأعمال .

وأما الأثر فلأن ابن عباس وأكثر المفسرين حملوا هذه الآية على أهل الكفر .

وإذا ثبت هذا الأصل فنقول : إن المرجئة الذين يقولون : المعصية لا تضر مع الإيمان تمسكوا

بهذه الآية وقالوا إنه تعالى حصر أهل موقف القيامة في قسمين : أحدهما : الذين رجحت كفة حسناتهم وحكم عليهم بالفلاح.

والثاني : الذين رجحت كفة سيئاتهم ، وحكم عليهم بأنهم أهل الكفر الذين كانوا يظلمون بآيات الله ، وذلك يدل على أن المؤمن لا يعاقب ألبتة.

ونحن نقول في الجواب : أقصى ما في الباب أنه تعالى لم يذكر هذا القسم الثالث في هذه الآية إلا أنه تعالى ذكره في سائر الآيات فقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 116] والمنطوق راجح على المفهوم ، فوجب المصير إلى إثباته ، وأيضاً فقال تعالى في هذا القسم : ﴿ فأولئك الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ ونحن نسلم أن هذا لا يليق إلا بالكافر وأما العاصي المؤمن فإنه يعذب أياماً ثم يُعفى عنه ، ويتخلص إلى رحمة الله تعالى ، فهو في الحقيقة ما خسر نفسه بل فاز برحمة الله أبد الآباد من غير زوال وانقطاع. والله أعلم.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 23.24 ﴾

(261/263)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾

أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿ فأولئك الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ أي غبنوا حظ أنفسهم ﴿ بِمَا كَانُواْ بِآيَاتنا يَظْلِمُونَ ﴾ بما كانوا بآياتنا يجحدون ، بأنه ليس من الله تعالى .

وقد ذكر الموازين بلفظ الجمع .

قال بعضهم : لأن المراد بها جميع الموزون .

وقال بعضهم : أراد به الميزان لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين والخيوط .

وقد ذكر باسم الجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ يِظْلِمُونَ ﴾ يجحدون قال حذيفة : صاحب الموازين يوم القيامة جبرائيل يقول الله تعالى " يا جبرائيل زن بينهم فردَّ بعضهم على بعض "

قال : وليس ثمّ ذهب ولا فضّة وإن كان للظالم حسنات أخذ من حسناته فيرد على المظلوم وإن لم يكن له حسنات يحمل عليه من سيئات صاحبه ، يرجع الرجل وعليه مثل الجبال .

قال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان لسان وكفتان فأمّا المؤمن فيؤتي بعمله في أحسن صورة فيرتفع في كفّة الميزان وهو الحق فينقل حسناته على سيئاته فيوضع عمله في الجنّة يعرفها بعمله فذلك قوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ الناجون ولهم غرف بمنازلهم في الجنّة إذا أنصرفوا إليها من أهل [الجنّة] إذا أنصرفوا إلى منازلهم .

وأمّا الكفّار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فيوضع في كفّة الميزان وهي الباطل فيخفّ وزنه

حتّى يقع في النار ثمّ يقال للكافر : اِلحقْ بعملك .

فإن قيل : كيف يصح وزن الأعمال وهي أعراض وليست بأجسام فيجوز وزنها ووصفها بالثقل والخفة وإنما توزن الأعمال التي فيها أعمال العباد مكتوبة .

(262/263)

يدلّ عليه حديث عبد الله بن عمر ، وقال : يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان ثمّ خرج له تسعة وتسعون سجلاً كلّ سجل منها مثل مدى البصر فيها خطاياه وذنوبه فيوضع في الكفّة ثمّ يُخرج له كتاب مثل الأنملة فيها شهادت أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم يوضع في الكفّة الأُخرى فيرجّح خطاياه وذنوبه ، ونظير هذه الآية قوله ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] .

فإنّ قيل : لِم جمعه وهو ميزان واحد .

قيل : يجوز أن يكون [أعظم] جميعاً ومعناه واحد كقوله ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [آل عمران : 173] ﴿ يا أيها الرسل ﴾ [المؤمنون : 51] وقال الأعشي :

ووجه نقي اللون صاف يزيّنه . . . مع الجيد لبّات لها ومعاصم

أراد لبّة ومعصماً .

وقيل : أراد به الأعمال الموزونة .

وقيل : الأصل ميزان عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلّق به .

وقيل : جمعه لأن الميزان ما اشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولا يحصل الوزن إلاّ باجتماعهما .

وقيل : الموازين أصله : ميزان يفرق به بين الحق والباطل وهو العقل ، وميزان يفرّق بين الحلال والحرام وهو العلم ، وميزان يفرّق به بين السعادة والشقاوة هو عدم سهو الإرادة ، وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ الآية ،

المعنى من خفت كفة حسناته فشالت ، و ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ أي بالهلاك والخلود في النار وتلك غاية الخسارة ، وقوله : ﴿ بما كانوا ﴾ أي جزاء بذلك كما تقول أكرمتك بما أكرمتني ، و" ما " في هذا الموضع مصدرية ، و" الآيات " هنا البراهين والأوامر والنواهي و ﴿ يظلمون ﴾ أي يضعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ ومن خفَّت موازينه ﴾

يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ يعني سبب ذلك الخسران أنهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرّون بها . روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾

أي موازينُ أعمالِه أو أعمالُه التي لا وزن لها ولا اعتدادَ بها وهي أعْمالُه السيئة ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبار اتصافِهم بتلك الصفة القبيحةِ ، والجمعيةُ ومعنى البُعدِ لما مر آنفاً في نظيره وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ أي ضيّعوا الفطرةَ السليمةَ التي

فُطروا عليها وقد أُيدت بالآيات البينة وقولُه تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ متعلق بخسروا وما مصدريةٌ وبآياتنا متعلقٌ بيظلمون على تضمين معنى التكذيبِ قُدِّم عليه لمراعاة الفواصلِ ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلمِ في الدنيا أي فأولئك الموصوفون بخفة الموازينِ خسروا أنفسَهم بسبب تكذيبِهم المستمر بآياتنا ظالمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(264/263)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأولئك الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ بتضييع فطرة الإسلام التي ما من مولود إلا يولد عليها أو فطرة الخير الذي هو أصل الجبلة .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ متعلق بخسروا ، وما مصدرية و﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بيظلمون ؛ وقدم عليه للفاصلة ، وعدى الظلم بالباء لتضمنه معنى التكذيب أو الجحود ، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا .

وظاهر النظم الكريم أن الوزن ليس مختصاً بالمسلمين بل الكفار أيضاً توزن أعمالهم التي لا توقف لها على الإسلام وإلى ذلك ذهب البعض .

وادعى القرطبي أن الصحيح أنه يخفف بها عذابهم وإن لم تكن راجحة كما ورد في حق أبي طالب .

وذهب الكثير إلى أن الوزن مختص بالمسلمين .

وأما الكفار فتحبط أعمالهم كيفما كانت ، وهو أحد الوجهين في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] ولا يخفف بها عنهم من العذاب شيء ، وما ورد من التخفيف عن أبي طالب فقد قال السخاوي : إن المعتمد أنه مخصوص به ، وعلى هذا فلا بد من ارتكاب خلاف الظاهر في الآية ، وهي على كلا التقديرين ساكتة عن بيان حال من تساوت حسناته وسيئاته وهم أهل الأعراف على قول .

ومن هنا استدل بها بعضهم على عدم وجود هذا القسم ، ورد بأنه قد يدرج في القسم الأول لقوله سبحانه : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا وَءاخَرَ سَيِّئاً عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 102] وعسى من الله تعالى تحقيق كما صرحوا به وفيه نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(265/263)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [9] .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي : حسناته في الميزان ﴿ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالعقوبة ﴿ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ أي : يكفرون .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية ذكر الميزان ، ويجب الإيمان به . انتهى .

وقال الإمام الغزالي في " المضنون " : تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور ، وبالموت ينكشف الغطاء كما قال تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ ، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده ، وهي مقادير تلك الآثار ، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض ، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يجري سبباً يعرف الخلق في لحظة واحدة مقادير الأعمال ، بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد . فحدّ الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ، ومثاله في العالم

المحسوس مختلف ، فمنه الميزان المعروف ، ومنه القبان للأثقال ، والإصطرلاب لحركات الفلك والأوقات ، والمسطرة للمقادير والخطوط ، والعروض لمقادير حركات الأصوات .

فالميزان الحقيقي ، إذا مثله الله عز وجل للحواس ، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها

.

فحقيقة الميزان وحده موجود في جميع ذلك ، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان ، وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل ، وللخيال عند التمثيل ، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات ، والتصديق بجميع ذلك واجب . انتهى .

الثاني : الذي يوضع في الميزان يوم القيامة . قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً .

(266/263)

قال البغوي : يروى هذا عن ابن عباس ، كما جاء في " الصحيح " : < أن البقرة وآل عِمْرَان يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غَيابتان ، أو فِرقان من طير صَوَاف > .

ومن ذلك في " الصحيح " : قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، < فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك > ، وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : < فيأتي المؤمن شاب حسن اللون ، طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح > . وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

فالأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية ، تبرز على هذا القول في النشأة الآخرة بصور جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح .

فالذنوب والمعاصي تتجسم هناك ، وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ . الآية

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم في حق من يشرب من إناء الذهب والفضة : < إنما يجرجر في بطنه نار جهنم > ، ولا بعد في ذلك ، ألا يرى أن العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن .

(267/263)

وقيل : صحائف الأعمال هي التي توزن ، ويؤيده حديث البطاقة ، فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه ، وابن ماجه والحاكم والبيهقي وابن مردويه عن عبد الله بن عُمَر وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا ، يا رب ! فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

، فيقول : يا رب ! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة > .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما في الحديث : < يؤتى يوما القيامة بالرجل السمين ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، ثم قرأ : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ > .

وفي مناقب عبد الله بن مسعود ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < أتعجبون من دقة ساقيه ؟ والذي نفسي بيده ! لهما في الميزان أثقل من أحد > .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم – انتهى .

قال أبو السعود : وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوي ، والحكم العادل ، وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، بناء على أن استعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريقة الكناية ، قالوا : إن الميزان إنما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشيء ، ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك ، لأنها أعراض قد فنيت ، وعلى تقدير بقائها ، لا تقبل الوزن . انتهى . وأصله للرازي .

(268/263)

قال في " العناية " : فمنهم من أول الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل ، أو مقابلتها بجزائها ، من قولهم : وازنه ، إذا عادله ، وهو إما كناية أو استعارة ، بتشبيه ذلك بالوزن المنتصف بالخفة والثقل ، بمعنى الكثرة والقلة ، والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف . انتهى .

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .

قال في " فتح البيان " : وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه ، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الإستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة لأحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلٌّ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم ، وليتهم جاءوا

بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها ، بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ، ومن أنكره فليصفِّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه .

وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

(269/263)

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً مذكورة في كتب السنة المطهرة ، وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرهما ، فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق ، والصباح يغني عن المصباح . انتهى .

وخلاصته ، أن الأصل في الإطلاق الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت ، ولا تعذر هاهنا .

الثالث : إن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد ؟ فما الحكمة في وزنها ؟

قلت : فيه حكم :

منها : إظهار العدل ، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده .

ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى .

ومنها : تعريف العباد ما لهم من خير وشر ، وحسنة وسيئة .

ومنها : إظهار علامة السعادة والشقاوة .

ونظيره ، أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ، ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم ، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى ، كذا في " اللباب " .

وقال أبو السعود : إن قيل : إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور ، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها ، وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات

تلك الأعمال ، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه ، فما الفائدة في الوزن ؟ أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ ، وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هي عليه ، وبأوصافها وأحوالها في أنفسها من الحسن والقبح ، وغير ذلك ، وتنخلع عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا ، فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها ، وأن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ، ولا يخطر بباله خلاف ذلك – انتهى .

وقد سبقه إلى نحوه الرازي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 8.12 ﴾

(270/263)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفي هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهي حالة تساوي الكفتين يأتي في أول سورة الأعراف ، ولكنه – سبحانه يقول بعد ذلك في سورة الأعراف : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شيء فيه ، فحينا يأتي شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتي شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف يجلسون ؛ لا هم في الجنة ولا هم في النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 46]

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان ؛ إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التي أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . إلخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تباعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام عليًّا عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً في وقت واحد ؟ فقال : وأي عجب في هذا ؟ أليس هو رازقهم في وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جدًّا . وهيّنة فسبحانه لا يتأبى عليه شيء . ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 9] نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتي اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شيء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتي الإجابة من الحق : ﴿ . . . بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن وزنه للأعمال يوم القيامة حق أي لا جور فيه ، ولا ظلم ، فلا يزاد في سيئات مسيء ، ولا ينقص من حسنات محسن .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء : 40] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن من ثقلت موازينهم أفلحوا ، ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم ، ولم يفصل الفلاح والخسران هنا .

وقد جاء في بعض المواضع ما يدل على أن المراد بالفلاح هنا كونه في عيشة راضية في الجنة ، وأن المراد بالخسران هنا كونه في الهاوية من النار ، وذلك في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ

مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-11] .

وبين أيضاً خسران من خفت موازينه بقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 103-104] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(273/263)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) ﴾

أخرج اللالكائي في السنة والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب قال " بينا نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم في أناس إذ جاء رجل ليس عليه سحناء سفر ، وليس من أهل البلد ، يتخطى حتى ورك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يجلس أحدنا في الصلاة ، ثم وضع يده على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ما

الإِسلام ؟ قال : الإِسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج وتعتمر ، وتغتسل من الجنابة ، وتتم الوضوء ، وتصوم رمضان ، قال : فإن فعلت هذا فأنا مسلم ؟ قال نعم . قال : صدقت يا محمد قال : ما الإِيمان ؟ قال : الإِيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالجنة والنار والميزان ، وتؤمن بالبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : فإذا فعلت هذا فأنا مؤمن ؟ قال : نعم . قال : صدقت " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ قال : العدل ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ قال : حسناته ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ قال : حسناته .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن عبد الله بن العيزار قال : إن الإِقدام يوم القيامة لمثل النبل في القرن ، والسعيد من وجد لقدميه موضعاً ، وعند الميزان ملك ينادي : ألا إن فلان بن فلان ثقلت موازينه وسعد سعادة لن يشقي بعدها أبداً ، ألا إن فلان خَفَّتْ موازنيه وشقى شقاء لن يسعد بعده أبداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ قال : توزن الأعمال .

(274/263)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، فمن أراد الله به خيراً ختم له بخير عمله ، ومن أراد به شراً ختم له بشر عمله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحارث الأعور قال : إن الحق ليثقل على أهل الحق كثقله في الميزان ، وأن الحق ليخف على أهل الباطل كخفته في الميزان .

وأخرج ابن المنذر واللالكائي عن عبد الملك بن أبي سليمان قال : ذكر الميزان عند الحسن فقال : له لسان وكفتان .

وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال : يوضع الميزان بين شجرتين عند بيت المقدس .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير واللالكائي عن حذيفة قال : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام ، يرد بعضهم على بعض فيؤخذ من حسنات الظالم فترد على المظلوم ، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فردت على الظالم .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي في قوله ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ قال : أخبرني أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : له لسان وكفتان يوزن ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ومنازلهم في الجنة بما كانوا بآياتنا يظلمون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم

المفلحون ﴾ قال : للنبي صلى الله عليه وسلم بعض أهله : يا رسول الله هل يذكر الناس أهليهم يوم القيامة ؟ قال " أما في ثلاث مواطن فلا : عند الميزان ، وعند تطاير الصحف في الأيدي ، وعند الصراط " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحده دخل النار ، ثم قرأ ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ الآيتين . ثم قال . إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الأعراف .

(275/263)

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإِخلاص عن علي بن أبي طالب قال : من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة ، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة .

وأخرج أبو الشيخ عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن

رجحت سيئاته على حسناته دخل النار " .

وأخرج البزار وابن مردويه واللالكائي والبيهقي عن أنس رفعه قال : إن ملكاً موكل بالميزان ، فيؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان بن قلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خفت ميزانه نادى الملك : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والآجري في الشريعة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن عائشة . أنها ذكرت النار فبكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مالك . . ؟ ! قالت : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحداً حيث توضع الميزان حتى يعلم اتخف ميزانه أم تثقل ، وعند تطاير الكتب حين يقال ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أو من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب كثيرة وحسك كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا " .

وأخرج الحاكم وصححه عن سليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله : لمن شئت من خلقي . فتقول الملائكة : سبحانك . . . ! ما عبدناك حق

عبادتك ، ويوضع الصراط مثل حد الموسى ، فتقول الملائكة : من تنحى على هذا ؟ فيقول : من شئت من خلقي . فيقولون : سبحانك . . . ! ما عبدناك حق عبادتك " .

(276/263)

وأخرج ابن المبارك في الزهد والآجري في الشريعة واللالكائي عن سلمان قال : يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعه ، فتقول الملائكة : من يزن هذا ؟ فيقول : من شئت من خلقي . فتقول الملائكة : سبحانك . . . ! ما عبدناك حق عباتك .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خلق الله كفتي الميزان مثل السماء والأرض . فقالت الملائكة : يا ربنا من تزن بهذا ؟ قال : أزن به من شئت . وخلق الله الصراط كحد السيف فقالت الملائكة : يا ربنا من تجيز على هذا ؟ قال : أجيز عليه من شئت " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : الميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات والسيئات ، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان ، فتثقل على السيئات فتؤخذ فتوضع في الجنة عند منازله ، ثم يقال للمؤمن : الحق بعملك .

فينطلق إلى الجنة فيعرف منازله بعمله ، ويؤتى بالسيئات في أقبح صوره فتوضع في كفة الميزان ، فتخف والباطل خفيف فتطرح في جهنم إلى منازله فيها ، ويقال له : الحق بعملك إلى النار . فيأتي النار فيعرف منازله بعمله وما أعد الله له فيها من ألوان العذاب . قال ابن عباس : فلهم أعرف بمنازلهم في الجنة والنار بعملهم من القوم ينصرفون يوم الجمعة راجعين إلى منازلهم .

وأخرج الترمذي وحسنه والبيهقي في البعث عن أنس قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي يوم القيامة فقال " أنا فاعل . قلت : يا رسول الله أين أطلبك ؟ قال : أطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان . قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن " " .

(277/263)

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل

سجل منها مد البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب . فيقول : أفلك عذراً وحسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا يا رب . فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة ، وأنه لا أظلم عليك اليوم . فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء " .

وأخرج أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " توضع الموازين يوم القيامة فيؤتي بالرجل فيوضع في كفه ويوضع ما أحصى عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر به ، صائح يصيح عند الرحمن : لا تعجلوا لا تعجلوا فإنه قد بقي له . فيؤتى ببطاقة فيها : لا إله إلا الله . فتوضع مع الرجل في كفة حتى تميل به الميزان " .

(278/263)

وأخرج ابن أبي الدنيا والنميري في كتاب الأعلام عن عبد الله بن عمرو قال " إن لآدم عليه السلام من الله عز وجل موقفاً في فسح من العرش ، عليه ثوبان أخضران كأنه سحوق ،

ينظر إلى من ينطلق به من ولده إلى الجنة ، وينظر إلى من ينطلق به من ولده إلى النار ، فبينا آدم على ذلك إذ نظر إلى رجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينطلق به إلى النار ، فينادي آدم : يا أحمد . فيقول : لبيك يا أبا البشر . فيقول هذا رجل من أمتك ينطلق به إلى النار ، فأشد المئزر وأسرع في أثر الملائكة وأقول : يا رسل ربي قفوا . فيقولون : نحن الغلاظ الشداد الذين لا نعصي الله ما أمرنا ونفعل ما نؤمر . فإذا أيس النبي صلى الله عليه وسلم قبض على لحيته بيده اليسرى واستقبل العرش بوجهه ، فيقول : يا رب قد وعدتني أن لا تخزيني في أمتي ؟ فيأتي النداء من عند العرش : أطيعوا محمداً وردوا هذا العبد إلى المقام . فأخرج من حجزتي بطاقة بيضاء كالأنملة ، فألقيها في كفة الميزان اليمنى وأنا أقول : بسم الله . فترجح الحسنات على السيئات ، فينادي سعد وسعد جده وثقلت موازينه : انطلقوا به إلى الجنة ، فيقول : يا رسل ربي قفوا حتى أسأل هذا العبد الكريم على ربه . فيقول : بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك من أنت ؟ فقد : أقلتني عثرتي . فيقول : أنا نبيك محمد ، وهذه صلاتك التي كنت تصلي علي ، وافتك أحوج ما تكون إليها " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر عن النبي صى الله عليه وسلم قال " أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله " .

وأخرج البخاري ومسلم والترميذي والنسائي وابن ماجة واللالكائي عن أبي هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " .

(279/263)

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند جيد عن أنس قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال " ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال عليك بحسن الخُلق وطول الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران قال : قلت لأم الدرداء : أما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ؟ قالت : نعم ، دخلت عليه فسمعته يقول " أول ما يوضع في الميزان الخُلق الحسن " .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان واللالكائي عن أبي الدرداء قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلق حسن " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب قال : أعطيت ناقة في سبيل الله ، فأردت أن أشتري من نسلها ، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال " دعها تأتي يوم القيامة هي وأولادها جميعاً في ميزانك " .

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه ، فإن رجح وإلا شفعت " .

(280/263)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن مغيث بن سميّ وعن مسروق قالا : تعبَّد راهب في صومعة ستين سنة ، فنظر يوماً في غب سماء فقال : لو نزلت فإني لا أرى أحداً فشربت من الماء وتوضأت ثم رجعت إلى مكاني ، فتعرضت له امرأة فتكشفت له ، فلم يملك نفسه إن وقع عليها ، فدخل بعض تلك الغدران يغتسل فيه ، وأدركه الموت وهو على تلك الحال ، ومر به سائل فأوما إليه أن خذ الرغيف رغيفاً كان في كسائه ، فأخذ المسكين الرغيف ومات ، فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كفة ، وجيء بخطيئته فوضعت في كفة ،

فرجحت بعمله حتى جيء بالرغيف ، فوضع مع عمله فرجح بخطيئته .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سفينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بخ بخ خمس ما أثقلهن في الميزان . سبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، وفرط صالح يفرطه المسلم " .

وأخرج أبو يعلى وابن حبان عن عمرو بن حريث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أنفقت عن خادمك من عمله كان لك أجره في موازينك " .

وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من توضأ فمسح بثوب نظيف فلا بأس به ومن لم يفعل فهو أفضل ، لأن الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن سعيد بن المسيب أنه كره المنديل بعد الوضوء ، وقال : هو يوزن .

وأخرج الترمذي والبيهقي في شعب الإِيمان عن الزهري قال : إنما كره المنديل بعد الوضوء لأن كل قطره توزن .

وأخرج المرهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ، فيرجح مداد

العلماء على دماء الشهداء " .

وأخرج الديلمي من حديث ابن عمر وابن عمرو . مثله .

(281/263)

وأخرج عبد البر في فضل العلم عن إبراهيم النخعي قال : يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيخف ، فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه فترجح ، فيقال له : أتدري ما هذا ؟ فيقول : لا . فيقال له : هذا فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس .

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن حماد بن أبي سليمان قال : يجيء رجل يوم القيامة فيرى عمله محتقراً ، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميراثه ، فيقال : هذا ما كنت تعلم الناس من الخير فورث بعدك فأجرت فيه .

وأخرج ابن المبارك عن أبي الدرداء قال : من كان الأجوفان همه خسر ميزانه يوم القيامه .

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن ليث قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : أمة محمد أثقل الناس في الميزان ، ذلت ألسنتهم بكلمة ثقلت على من كان قبلهم : لا إله إلا الله .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أيوب قال : سمعت من غير واحد من أصحابنا : أن العبد يوقف على الميزان يوم القيامة فينظر في الميزان ، وينظر إلى صاحب

الميزان فيقول صاحب الميزان : يا عبد الله أتفقد من عملك ذلك شيئاً ؟ فيقول : نعم . فيقول : ماذا ؟ فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فيقول صاحب الميزان : هي أعظم من أن توضع في الميزان . قال موسى بن عبيدة : سمعت أنها تأتي يوم القيامة تجادل عمن كان يقولها في الدنيا جدال الخصم .

وأخرج أبو داود والحاكم عن أبي الأزهر زهير الأنماري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه قال " اللهمَّ اغفر لي ، وأخسَّ شيطاني ، وفكَّ رهاني ، وثَقِّلْ ميزاتي ، واجعلني في النديّ الأعلى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(282/263)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) ﴾

عطف جملة : ﴿ والوزن يومئذٍ الحق ﴾ على جملة ﴿ فلنقصن ﴾ [الأعراف : 7] ، لما تضمّنته المعطوف عليها من العلم بحسنات النّاس وسيّئاتهم ، فلا جرم أشعرت بأنّ مظهرَ ذلك العلم وأثَرَه هو الثّواب والعقاب ، وتفاوتُ درجات العاملين ودركاتهم تفاوتاً لا

يُظلم العامل فيه مثقال ذرّة ، ولا يفوتُ ما يستحقّه إلاّ أن يتفضّل الله على أحدٍ برفع درجة أو مغفرة زلة لأجل سلامة قلب أو شفاعة أو نحو ذلك ، ممّا الله أعلم به مِن عبادِه ، فلذلك عقبت جملة : ﴿ فلنقصن ﴾ [الأعراف : 7] بجملة : ﴿ والوزن يومئذٍ الحق ﴾ فكأنّه قيل : فلنقصنّ عليهم بعلم ولنُجَازِيَنّهم على أعمالهم جزاء لا غبن فيه على أحد .

والتّنوين في قوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ عوض عن مضاف إليه دلّ عليه : ﴿ فلنسألن الذين أرْسِلَ إليهم ﴾ [الأعراف : 6] وما عطف عليه بالواو وبالفاء ، والتّقدير : يومَ إذ نسألهم ونسأل رُسلَهم ونقُص ذنوبهم عليهم .

والوزن حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين أو كليهما في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار ، وإذ قد كان تساوي الجسمين الموزونين نادر الحصول تعيَّن جُعلت أجسام أخرى يُعرف بها مقدار التّفاوت ، فلا بد من آلة توضع فيها الأشياء ، وتسمّى الميزان ولها أشكال مختلفة شكلاً واتساعاً .

والأجسام التي تجعل لتعيين المقادير تُسمّى مَوازين ، وَاحِدُها ميزان أيضاً وتسمّى أوزاناً واحدها وَزْن ، ويطلق الوزن على معرفة مقدار حال في فضل ونحوِه قال تعالى : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ [الكهف : 105] وفي حديث أبي هريرة ، في "الصّحيحين" : " إنَّه ليؤتى بالعظيم السمين يومَ القيامة لا يَزن عند الله جَناح بعوضة " .

ويستعار استعارة تمثيلية للتدبير في أحوال ، كقول الراعي:

وَزَنَتْ أميَّةُ أَمْرَها فدَعَتْ له . . .

(283/263)

من لَمْ يكن غُمِراً ولا مَجهولاً

فالوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقادير مَا تستحقّه الأعمال من الثّواب والعقاب تعييناً لا إجحاف فيه ، كتعيين الميزان على حسب ما عيّن الله من ثواب أو عقاب على الأعمال ، وذلك ممّا يعلمه الله تعالى : ككون العمل الصّالح لله وكونِه رِيَاء ، وككون الجهاد لإعلاء كلمة الله أو كونِه لمجرّد الطمع في الغنيمة ، فيكون الجزاء على قدر العمل ، فالوزن استعارة ، ويجوز أن يراد به الحقيقة فقد قيل توضع الصحائف التي كتبتها الملائكة للأعمال في شيء خلقه الله ليجعله الله يوم القيامة ، ينطق أو يتكيّف بكيفيّةٍ فيدلّ على مقادير الأعمال لأربابها ، وذلك ممكن ، وقد وردت أخبار في صفة هذا الميزان لم يصحّ شيء منها .

والعِبارات في مثل هذا المقام قاصرة عن وصف الواقعات ، لأنّها من خوارق المتعارف ، فلا تعدُو العباراتُ فيها تقريبَ الحقائق وتمثيلها بأقصى ما تعارفه أهل اللّغة ، فما جاء منها بصيغة المصدر غيرَ متعلّق بفعل يقتضي آلة فحمْلُه على المجاز المشهور كقوله تعالى : ﴿ فلا

نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾

[الكهف : 105] .

وما جاء منها على صيغة الاسماء فهو محتمل مثل ما هنا لقوله : ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ إلخ ومثل قول النّبيء صلى الله عليه وسلم "كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان " وما تعلّق بفعل مقتض آلة فحمله على التمثيل أو على مخلوق من أمور الآخرة مثل قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] .

وقد ورد في السنّة ذكر الميزان في حديث البطاقة التي فيها كلمة شهادة الإسلام ، عند التّرمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحديث قول النّبي صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك : " فاطلبْني عند الميزان " خرّجه التّرمذي .

(284/263)

وقد اختلف السلف في وجود مخلوق يبيّن مقدار الجزاء من العمل يسمّى بالميزان توزن فيه الأعمال حقيقة ، فاثبت ذلك الجمهور ونفاه جماعة منهم الضحاك ومجاهد والأعمش ، وقالوا : هو القضاء السوي ، وقد تبع اختلافهم المتأخرون فذهب جمهور الأشاعرة وبعض المعتزلة إلى تفسير الجمهور ، وذهب بعض الأشاعرة المتأخرين وجمهورُ المعتزلة إلى ما

ذهب إليه مجاهد والضحاك والأعمش ، والأمر هين ، والاستدلال ليس ببيّن والمقصود المعنى وليس المقصود آلته .

والإخبار عن الوزن بقوله : ﴿ الحق ﴾ إن كان الوزن مجازاً عن تعيين مقادير الجزاء فالحق بمعنى العدل ، أي الجزاء عادل غير جائز ، لأنّه من أنواع القضاء والحكم ، وإن كان الوزن تمثيلاً بهيئة الميزان ، فالعدل بمعنى السوي ، أي والوزن يومئذ مساوٍ للأعمال لا يرجح ولا يحجف .

وعلى الوجهين فالإخبار عنه بالمصدر مبالغة في كونه محقاً .

وتفرع على كونه الحق قوله : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ ، فهو تفصيل للوزن ببيان أثره على قدر الموزون .

ومحل التّفريع هو قوله : ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ وقوله : فأولئك الذين خسروا أنفسهم إذ ذلك مفرّع على قوله : ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ وقوله : ومن خفت موازينه .

وثقل الميزان في المعنى الحقيقي رجحان الميزان بالشّيء الموزون ، وهو هنا مستعار لاعتبار الأعمال الصّالحة غالبة ووافرة ، أي من ثقلت موازينه الصّالحات ، وإنّما لم يذكر ما ثقلت به الموازين لأنّه معلوم من اعتبار الوزن ، لأنّ متعارف النّاس أنّهم يزنون الأشياء المرغوب في شرائها المتنافس في ضبط مقاديرها والتي يتغابن النّاس فيها .

والثّقل مع تلك الاستعارة هو أيضاً ترشيح لاستعارة الوزن للجزاء ، ثمّ الخفّة مستعارة لعدم الأعمال الصّالحة أخذاً بغاية الخفة على وزان عكس الثّقل ، وهي أيضاً ترشيح ثان لاستعارة الميزان ، والمراد هنا الخفّة الشّديدة وهي انعدام الأعمال الصّالحة لقوله : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

والفلاَح حُصول الخير وإدراك المطلوب .

والتّعريف في ﴿ المفلحون ﴾ للجنس أو العهد وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في سورة البقرة (5) .

وما صْدَقُ (مَن) واحد لقوله : ﴿ موازينه ﴾ ، وإذ قد كان هذا الواحد غير معيّن ، بل هو كلّ من تحقّق فيه مضمون جملة الشّرط ، فهو عام صح اعتباره جماعة في الإشارة والضّميرين من قوله : ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ .

والإتيان بالإشارة للتّنبيه على أنّهم إنّما حصلوا الفلاَح لأجل ثقل موازينهم ، واختير اسم إشارة البعد تنبيهاً على البعد المعنوي الاعتباري .

وضمير الفصل لقصد الانحصار أي هم الذين انحصر فيهم تحقّق المفلحين ، أي إن علمتَ جماعة تعرف بالمفلحين فهم هُم .

والخسران حقيقته ضد الرّبح ، وهو عدم تحصيل التّاجر على ما يستفضله من بيعه ،

ويستعار لفقدان نفع ما يرجى منه النّفع ، فمعنى ﴿ خسروا أَنفُسَهُم ﴾ فقدوا فوائدها ، فإن كلّ أحد يرجو من مواهبه ، وهي مجموع نفْسِه ، أن تجلب له النّفع وتدفع عنه الضرّ : بالرأي السَّديد ، وابتكار العمل المفيد ، ونفوس المشركين قد سوّلت لهم أعمالاً كانت سبب خفّة موازين أعمالهم ، أي سبب فقد الأعمال الصّالحة منهم ، فكانت نفوسهم كرأسسِ مال التّاجر الذي رجا منه زيادة الرّزق فأضاعه كلّه فهو خاسر له ، فكذلك هؤلاء خسروا أنفسهم إذ أوقعتهم في العذاب المقيم ، وانظر ما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ في سورة الأنعام (20) .

وقوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ في سورة البقرة (16) .

(286/263)

والباء في قوله : بما كانوا ﴾ باء السّببيّة ، وما مصدرية أي بكونهم ظلموا بآياتنا في الدّنيا ، فصيغة المضارع في قوله : ﴿ يظلمون ﴾ لحكاية حالهم في تجدّد الظلم فيما مضى كقوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه ﴾ [فاطر : 9] .

والظلم هنا ضدّ العدل : أي يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقّها من الصدق .

وضمن ﴿ يظلمون ﴾ معنى يُكَذّبون ، فلذلك عُدّي بالباء ، فكأنّه قيل : بما كانوا يظلمون

فيكذبون بآياتنا على حد قوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلماً وعلواً ﴾ [النمل : 14] .

وإنّما جعل تكذيبهم ظلما لأنّه تكذيب ما قامت الأدلّة على صدقه فتكذيبه ظلم للأدلّة بدحضها وعدم إعمالها .

وتقديم المجرور في قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ على عامله ، وهو ﴿ يظلمون ﴾ ، للاهتمام بالآيات .

وقد ذكرت الآية حال المؤمنين الصّالحين وحال المكذّبين المشركين إذ كان النّاس يوم نزول الآية فريقين : فريق المؤمنين ، وهم كلّهم عاملون بالصّالحات ، مستكثرون منها ، وفريق المشركين وهم أخلياء من الصّالحات ، وبقي بين ذلك فريق من المؤمنين الذين يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيّئاً وذلك لم تتعرّض له هذه الآية ، إذ ليس من غرض المقام ، وتعرّضت له آيات أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(287/263)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيتين

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾

الوزن مبتدأ وخبره الحق ، أي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه ، أو الخبر يومئذ ، والحق وصف للمبتدأ ، أي الوزن العدل كائن في هذا اليوم وقيل : إن الحق خبر مبتدأ محذوف .

واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن الكائن في هذا اليوم ، فقيل : المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً ، وهذا هو الصحيح ، وهو الذي قامت عليه الأدلة وقيل : توزن نفس الأعمال ، وإن كانت أعراضاً فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً كما جاء في الخبر الصحيح : " إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافّ " وكذلك ثبت في الصحيح أنه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك .

وقيل : الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق .

وقيل : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذكرهما من باب ضرب المثل ، كما تقول هذا الكلام في وزن هذا .

قال الزجاج : هذا سائغ من جهة اللسان ، والأولى أن نتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان .

قال القشيري : وقد أحسن الزجاج فيما قال ، إذ لو حمل [الميزان على هذا ، فليحمل]

الصراط على الدين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد ، والشياطين والجنّ على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة ، ثم قال : وقد أجمعت الأمة في الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل ، وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر ، وصارت هذه الظواهر نصوصاً انتهى .

والحق هو : القول الأوّل .

(288/263)

وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه ، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة على أحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها ، بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ، ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح

لعينيه .

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في مواضع من القرآن كقوله : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبياء : 47] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور فَلاَ أنساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] ، وقوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأُوْلَئِكَ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خالدون ﴾

[المؤمنون : 102 ، 103] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : 40] ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-9] .

والفاء في ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ للتفصيل .

والموازين : جمع ميزان ، وأصله موزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال .

وقيل : إن الموازين جمع موزون ، أي فمن رجحت أعماله الموزونة ، والأوّل : أولى .

(289/263)

وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله.

وقيل: وهو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال، والإشارة بقوله: ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إلى "من"، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير ﴿ موازينه ﴾ باعتبار لفظه هو مبتدأ خبره ﴿ هُمْ المفلحون ﴾ والكلام في قوله: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأولئك الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ مثله، والباء في ﴿ بِمَا كَانُواْ بآياتنا يَظْلِمُونَ ﴾ سببية، و"ما" مصدرية.

ومعنى ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ يكذبون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(290/263)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "بِمَا كَانُوا" متعلِّقٌ بـ "خَسِرُوا"، و"مَا" مَصْدريَّةٌ، و"بِآيَاتِنَا" متعلِّقٌ بـ "يَظْلِمُونَ" قُدِّمَ عليه للفَاصِلَةِ.

وتعدَّى "يَظْلِمُونَ" بالباءِ: إمَّا لتَضَمُّنِهِ معنى التَّكْذيب نحو: ﴿ كَذَّبُواْ بِأَيَاتِنَا ﴾ وإمَّا

لِتَضَمُّنِهِ معنى الجَحْدِ نحو ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ [النمل : 14] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 24 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) ﴾

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص ، وأحوالهم بميزان الصدق . فَمَنْ كانت أعمالُهم بالرياء مصحوبة لم يَقْبَل أعمالَهم ، ومَن كانت أحوالُهم بالإعجاب مشوبةً لم يرفع أحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 520.522 ﴾

(291/263)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ المص (1) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) ﴾

﴿ المص ﴾ . . ألف . لام . ميم . صاد . .

هذا المطلع من الحروف المقطعة سبق الكلام عن نظائره في أول سورة البقرة وفي أول سورة آل عمران . وقد اخترنا في تفسيرها الرأي القائل ، بأنها حروف مقطعة يشير بها إلى أن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر ، ثم يعجزهم أن يؤلفوا منها كلاماً كهذا القرآن ، وأن هذا بذاته برهان أن هذا القرآن ليس من صنع البشر ، فقد كانت أمامهم الأحرف والكلمات التي صيغ منها ، فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآناً مثله . فلا بد من سر آخر وراء الأحرف والكلمات . . وهو رأي نختاره على وجه الترجيح لا الجزم . والله أعلم بمراده .

وعلى ذلك يصح القول بأن ﴿ المص ﴾ مبتدأ خبره : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ . . بمعنى أن هذه الأحرف وما تألف منها هي الكتاب . . كما يصح القول بأن ﴿ المص ﴾ مجرد إشارة للتنبيه على ذلك المعنى الذي رجحناه . و ﴿ كتاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو كتاب : أو هذا كتاب . .

﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين ﴾ . .

كتاب أنزل إليك للإنذار به والتذكير . . كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون ؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ؛ ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات .

فالحرج في طريقه كثير ، والمشقة في الإنذار به قائمة . . لا يدرك ذلك – كما قلنا في التعريف بالسورة – إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف ؛ وإلا من يعاني من الصدع به هذه المعاناة ؛ وإلا من يستهدف من التغيير الكامل الشامل في قواعد الحياة البشرية وجذورها ، وفي مظاهرها وفروعها ، ما كان يستهدفه حامل هذا الكتاب أول مرة – صلى الله عليه وسلم – ليواجه به الجاهلية الطاغية في الجزيرة العربية وفي الأرض كلها . .

وهذا الموقف ليس مقصوراً على ما كان في الجزيرة العربية يومذاك ، وما كان في الأرض من حولها . . إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً ، وقع مرة ، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه ! . . إن الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة . . وهو يواجهها كما واجهها أول مرة ، كلما انحرفت هي وارتدت إلى مثل ما كانت فيه أول مرة ! . . إن البشرية تنتكس بين فترة وأخرى وترجع إلى جاهليتها – وهذه هي " الرجعية " البائسة المرذولة – وعندئذ يتقدم الإسلام مرة أخرى ليؤدي دوره في انتشالها من هذه " الرجعية " مرة أخرى كذلك ؛

والأخذ بيدها في طريق التقدم والحضارة ؛ ويتعرض حامل دعوته والمنذر بكتابه للحرج الذي تعرض له الداعية الأولى – صلى الله عليه وسلم – وهو يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس في وحل الجاهلية ؛ والغيبوبة في ظلامها الطاغي ! ظلام التصورات .

وظلام الشهوات . وظلام الطغيان والذل . وظلام العبودية للهوى الذاتي ولأهواء العبيد أيضاً ! ويتذوق من يتعرض لمثل هذا الحرج ، وهو يتحرك لاستنقاذ البشرية من مستنقع الجاهلية ، طعم هذا التوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ . .

(293/263)

ويعلم – من طبيعة الواقع – من هم المؤمنون الذين لهم الذكرى ، ومن هم غير المؤمنين الذين لهم الإنذار . ويعود هذا القرآن عنده كتابا حيا يتنزل اللحظة ، في مواجهة واقع يجاهده هو بهذا القرآن جهاداً كبيراً . .

والبشرية اليوم في موقف كهذا الذي كانت فيه يوم جاءها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب ، مأموراً من ربه أن ينذر به ويذكر ؛ وألا يكون في صدره حرج منه ،

وهو يواجه الجاهلية ، ويستهدف تغييرها من الجذور والأعماق . .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاءها هذا الدين ، وانتكست البشرية إلى جاهلية كاملة شاملة للأصول والفروع والبواطن والظواهر ، والسطوح والأعماق ! .

انتكست البشرية في تصوراتها الاعتقادية ابتداء – حتى الذين كان آباؤهم وأجدادهم من المؤمنين بهذا الدين ، المسلمين لله المخلصين له الدين – فإن صورة العقيدة قد مسخت في تصورهم ومفهومهم لها في الأعماق . .

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم ، وليقيم عالماً آخر ، يقر فيه سلطان الله وحده ، ويبطل سلطان الطواغيت . عالماً يعبد فيه الله وحده – بمعنى " العبادة " الشامل – ولا يعبد معه أحد من العبيد . عالماً يخرج الله فيه – من شاء – من عبادة العباد إلى عبادةِ الله وحده . عالماً يولد فيه " الإنسان " الحر الكريم النظيف . . المتحرر من شهوته وهواه ، تحرره من العبودية لغير الله .

(294/263)

جاء هذا الدين ليقيم قاعدة : " أشهد أن لا إله إلا الله " التي جاء بها كل نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري – كما تقرر هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم – وشهادة

أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر ، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء . فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته . . وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً في خلق الكون وتدبيره وتصريفه ؛ ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلاّ لله وحده . ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين ، والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله .

هذه هي قاعدة هذا الدين من ناحية الاعتقاد . . فأين منها البشرية كلها اليوم ؟

إن البشرية تنقسم شيعاً كلها جاهلية .

شيعة ملحدة تنكر وجود الله أصلاً وهم الملحدون .

. فأمرهم ظاهر لا يحتاج إلى بيان !

وشيعة وثنية تعترف بوجود إله ، ولكنها تشرك من دونه آلهة أخرى وأرباباً كثيرة . كما في الهند ، وفي أواساط إفريقية ، وفي أجزاء متفرقة من العالم .

وشيعة " أهل كتاب " من اليهود والنصارى . وهؤلاء أشركوا قديماً بنسبة الولد إلى الله . كما أشركوا باتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله – لأنهم قبلوا منهم ادعاء حق الحاكمية وقبلوا منهم الشرائع . وإن كانوا لم يصلوا لهم ولم يسجدوا ولم يركعوا أصلاً ! . . ثم هم اليوم يقصون حاكمية الله بجملتها من حياتهم ويقيمون لأنفسهم أنظمة يسمونها "

الرأسمالية " و" الاشتراكية " . . وما إليها . ويقيمون لأنفسهم أوضاعاً للحكم يسمونها " الديمقراطية " و" الديكتاتورية " . . . وما إليها . ويخرجون بذلك عن قاعدة دين الله كله ، إلى مثل جاهلية الإغريق والرومان وغيرهم ، في اصطناع أنظمة وأوضاع للحياة من عند أنفسهم .

(295/263)

وشيعة تسمي نفسها " مسلمة " ! وهي تتبع مناهج أهل الكتاب هذه – حذوك النعل بالنعل ! – خارجة من دين الله إلى دين العباد . فدين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي يضعه للحياة وقانونه . ودين العباد هو منهجهم للحياة وشرعهم ونظامهم الذي يضعونه للحياة وقوانينهم !

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين للبشرية ؛ وانتكست البشرية بجملتها إلى الجاهلية . . شيعها جميعاً لا تتبع دين الله أصلاً . . وعاد هذا القرآن يواجه البشرية كما واجهها أول مرة ، يستهدف منها نفس ما استهدفه في المرة الأولى من إدخالها في الإسلام ابتداء من ناحية العقيدة والتصور . ثم إدخالها في دين الله بعد ذلك من ناحية النظام والواقع . . وعاد حامل هذا الكتاب يواجه الحرج الذي كان يواجهه رسول الله – صلى الله

عليه وسلم – وهو يواجه البشرية الغارقة في مستنقع الجاهلية ، المستنيمة للمستنقع الآسن ، الضالة في تيه الجاهلية ، المستسلمة لاستهواء الشيطان في التيه ! . . وهو يستهدف ابتداء إنشاء عقيدة وتصور في قلوب الناس وعقولهم تقوم على قاعدة : أشهد أن لا إله إلا الله . وإنشاء واقع في الأرض آخر يعبد فيه الله وحده ، ولا يعبد معه سواه . وتحقيق ميلاد للإنسان جديد . يتحرر فيه الإنسان من عبادة العبيد ، ومن عبادة هواه !

إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً ، وقع مرة ، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه . . إنه اليوم مدعو لأداء دوره الذي أداه مرة ، في مثل الظروف والملابسات والأوضاع والأنظمة والتصورات والعقائد والقيم والموازين والتقاليد . . . التي واجهها أول مرة .

(296/263)

إن الجاهلية حالة ووضع ؛ وليست فترة تاريخية زمنية . . والجاهلية اليوم ضاربة أطنابها في كل أرجاء الأرض ، وفي كل شيع المعتقدات والمذاهب والأنظمة والأوضاع . . إنها تقوم ابتداء على قاعدة : " حاكمية العباد للعباد " ، ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد . تقوم على أساس أن يكون " هوى الإنسان " في أية صورة من صوره هو الإله المتحكم ، ورفض أن تكون " شريعة الله " هي القانون المحكم .

. ثم تختلف أشكالها ومظاهرها ، وراياتها وشاراتها ، وأسماؤها وأوصافها ، وشيعها ومذاهبها . . غير أنها كلها تعود إلى هذه القاعدة المميزة المحددة لطبيعتها وحقيقتها . . وبهذا المقياس الأساسي يتضح أن وجه الأرض اليوم تغمره الجاهلية . وأن حياة البشرية اليوم تحكمها الجاهلية . وأن الإسلام اليوم متوقف عن " الوجود " مجرد الوجود ! وأن الدعاة إليه اليوم يستهدفون ما كان يستهدفه محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تماماً ؛ ويواجهون ما كان يواجهه – صلى الله عليه وسلم – تماماً ، وأنهم مدعوون إلى التأسي به في قول الله – سبحانه – له :

﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ . .

ولتوكيد هذه الحقيقة وجلائها نستطرد إلى شيء قليل من التفصيل :

إن المجتمعات البشرية اليوم – بجملتها – مجتمعات جاهلية . وهي من ثم مجتمعات " متخلفة " أو " رجعية " ! بمعنى أنها " رجعت " إلى الجاهلية ، بعد أَن أخذ الإسلام بيدها فاستنقذها منها . والإسلام اليوم مدعو لاستنقاذها من التخلف والرجعية الجاهلية ، وقيادتها في طريق التقدم و" الحضارة " بقيمها وموازينها الربانية .

(297/263)

إنه حين تكون الحاكمية العليا لله وحده في مجتمع – متمثلة في سيادة شريعته الربانية – تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً حقيقياً كاملاً من العبودية للهوى البشري ومن العبودية للعبيد . وتكون هذه هي الصورة الوحيدة للإسلام أو للحضارة – كما هي في ميزان الله – لأن الحضارة التي يريدها الله للناس تقوم على قاعدة أساسية من الكرامة والتحرر لكل فرد . ولا كرامة ولا تحرر مع العبودية لعبد . . لا كرامة ولا تحرر في مجتمع بعضه أرباب يشرعون ويزاولون حق الحاكمية العليا ؛ وبعضهم عبيد يخضعون ويتبعون هؤلاء الأرباب ! والتشريع لا ينحصر في الأحكام القانونية . فالقيم والموازين والأخلاق والتقاليد . . كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه شاعرين أو غير شاعرين ! . . ومجتمع هذه صفته هو مجتمع رجعي متخلف . . أو بالاصطلاح الإسلامي : " مجتمع جاهلي مشرك " !

وحين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكر ومنهج الحياة . ويكون هذا كله صادراً من الله ، لا من هوى فرد ، ولا من إرادة عبد . فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متحضراً متقدماً . أَو بالاصطلاح الإسلامي : مجتمعاً ربانياً مسلماً . . لأن التجمع حينئذ يكون ممثلاً لأعلى ما في " الإنسان " من خصائص – خصائص الروح والفكر – فأما حين تكون آصرة التجمع هي الجنس واللون والقوم والأرض . . وما إلى ذلك من الروابط . . فإنه يكون مجتمعاً رجعيا متخلفا . . أو بالاصطلاح الإسلامي : مجتمعاً

جاهلياً مشركاً . . ذلك أن الجنس واللون والقوم والأرض .

. وما إلى ذلك من الروابط لا تمثل الحقيقة العليا في " الإنسان " . فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض . ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر !

(298/263)

ثم هو يملك بإرادته الإنسانية الحرة – وهي أسمى ما أكرمه الله به – أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته من ضلال إلى هدى عن طريق الإدراك والفهم والاقتناع والاتجاه .

ولكنه لا يملك أبداً أن يغير جنسه ، ولا لونه ، ولا قومه . لا يملك أن يحدد سلفاً مولده في جنس ولا لون ؛ كما لا يمكنه أن يحدد سلفا مولده في قوم أو أرض . . فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة هو بدون شك أرقى وأمثل وأقوم من المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمور خارجة عن إرادتهم ولا يد لهم فيها !

وحين تكون " إنسانية الإنسان " هي القيمة العليا في مجتمع ؛ وتكون " الخصائص الإنسانية " فيه موضع التكريم والرعاية ، يكون هذا المجتمع متحضراً متقدما . . أو بالاصطلاح الإسلامي : ربانياً مسلماً . . فأما حين تكون " المادة " – في أية صورة من صورها – هي القيمة العليا . . سواء في صورة " النظرية " كما في الماركسية ، أو في صورة " الإنتاج المادي

"كما في أمريكا وأوربا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي هو القيمة العليا ، التي تهدر في سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية – وفي أولها القيم الأخلاقية – فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً رجعياً متخلفاً . . أو بالاصطلاح الإسلامي : مجتمعاً جاهلياً مشركاً . .

. . إن المجتمع الرباني المسلم لا يحتقر المادة ؛ لا في صورة " النظرية " باعتبار المادة هي التي تؤلف كيان هذا الكون الذي نعيش فيه ؛ ولا في صورة " الإنتاج المادي " والاستمتاع به . فالإنتاج المادي من مقومات خلافة الإنسان في الأرض بعهد الله وشرطه ؛ والاستمتاع بالطيبات منها حلال يدعو الإسلام إليه – كما سنرى في سياق هذه السورة – ولكنه لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص " الإنسان " ومقوماته ! كما تعتبرها المجتمعات الجاهلية . . الملحدة أو المشركة . .

(299/263)

وحين تكون القيم " الإنسانية " والأخلاق " الإنسانية " – كما هي في ميزان الله – هي السائدة في مجتمع ، فإن هذا المجتمع يكون متحضراً متقدماً . . أو بالاصطلاح الإسلامي . . ربانياً مسلماً . . والقيم " الإنسانية " والأخلاق " الإنسانية " ليست مسألة

غامضة ولا مائعة ؛ وليست كذلك قيماً وأخلاقاً متغيرة لا تستقر على حال – كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا الفوضى في الموازين ، فلا يبقى هنالك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم . . إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان " خصائص الإنسان " التي ينفرد بها دون الحيوان . وتُغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويجعل منه إنساناً .

وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان . . وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت ، لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها " التطوريون " ! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرى صناعية . ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية . ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية ! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة ، على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها ، وحتمية في نشأتها وتقريرها . إنما تكون هناك فقط " قيم وأخلاق إنسانية " يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر . " وقيم وأخلاق حيوانية " – إذا صح هذا التعبير – يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف . . أو بالاصطلاح الإسلامي تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية ؛ وقيم وأخلاق رجعية جاهلية !

إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية ، لا يمكن أن تكون

مجتمعات متحضرة ، مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي ! إن هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم في الإنسان ذاته .

(300/263)

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز الإنساني عن الحيوان . ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية – ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة – رذيلة أخلاقية ! إن المفهوم " الأخلاقي " ينحصر في المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية – أحيانا في حدود مصلحة الدولة ! – والكتّاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والزوجات والفتيان والشبان : إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية !

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة – من وجهة النظر " الإنسانية " . وبمقياس خط التقدم الإنساني . . وهي كذلك غير إسلامية . . لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته ، وتنمية خصائصه الإنسانية ، وتغلبها على نزعاته الحيوانية . . ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في وصف المجتمعات البشرية الحاضرة ، وإغراقها في

الجاهلية . . من العقيدة إلى الخلق . ومن التصور إلى أوضاع الحياة . . ونحسب أن هذه الإشارة المجملة تكفي لتقرير ملامح الجاهلية في المجتمعات البشرية الحاضرة . ولتقرير حقيقة ما تستهدفه الدعوة الإسلامية اليوم وما يستهدفه الدعاة إلى دين الله . . إنها دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام : عقيدة وخلقاً ونظاماً . . إنها ذات المحاولة التي كان يتصدى لها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنها ذات النقطة التي بدأ منها دعوته أول مرة . وإنه ذات الموقف الذي وقفه بهذا الكتاب الذي أنزل إليه ؛ وربه – سبحانه – يخاطبه :

﴿ كتاب أنزل إليك ، فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ . .

(301/263)

وفي الوقت الذي وجه الله – سبحانه – هذا التكليف إلى رسوله ، وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة – وإلى كل قوم يواجههم الإسلام ليخرجهم من الجاهلية – الأمر باتباع ما أنزل في هذا الكتاب ، والنهي عن اتباع الأولياء من دون الله .

ذلك أن القضية في صميمها هي قضية " الاتباع " . . من يتبع البشر في حياتهم ؟ يتبعون أمر الله فهم مسلمون . أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون ؟ إنهما موقفان مختلفان لا يجتمعان :

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلاً ما تذكرون ﴾ .

هذه هي قضية هذا الدين الأساسية . . إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله ، والاعتراف له بالربوبية ، وإفراده بالحاكمية التي تأمر فتطاع ، ويتبع أمرها ونهيها دون سواه . . وإما اتباع للأولياء من دونه فهو الشرك ، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة . . وكيف والحاكمية ليست خالصة له سبحانه ؟ !

وفي الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم – كان الكتاب منزلاً إليه بشخصه : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ . . وفي الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلاً إليهم من ربهم : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ . فأما الرسول – صلى الله عليه وسلم – فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر . وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه ، ولا يتبعوا أمر أحد غيره . . والإسناد في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتحضيض والاستجاشة . فالذي ينزل له ربه كتاباً ، ويختاره لهذا الأمر ، ويتفضل عليه بهذا الخير ، جدير بأن يتذكر وأن يشكر ؛ وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر .

ولأن المحاولة ضخمة . . وهي تعني التغيير الأساسي الكامل الشامل للجاهلية : تصوراتها وأفكارها ، وقيمها وأخلاقها ، وعاداتها وتقاليدها ، ونظمها ، وأوضاعها ، واجتماعها واقتصادها ، وروابطها بالله ، وبالكون ، وبالناس . .

لأن المحاولة ضخمة على هذا النحو ؛ يمضي السياق فيهز الضمائر هزاً عنيفاً ؛ ويوقظ الأعصاب إيقاظاً شديداً ؛ ويرج الجبلات السادرة في الجاهلية ، المستغرقة في تصوراتها وأوضاعها رجاً ويدفعها دفعاً . . وذلك بأن يعرض عليها مصارع الغابرين من المكذبين في الدنيا ، ومصائرهم كذلك في الآخرة :

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين . . فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . .

إن مصارع الغابرين خير مذكر ، وخير منذر . . والقرآن يستصحب هذه الحقائق ، فيجعلها مؤثرات موحية ، ومطارق موقظة ، للقلوب البشرية الغافلة .

إنها كثيرة تلك القرى التي أهلكت بسبب تكذيبها . أهلكت وهي غارة غافلة . في الليل وفي ساعة القيلولة ، حيث يسترخي الناس للنوم ، ويستسلمون للأمن :

﴿ وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾ .

وكلتاهما .

. البيات والقيلولة . . ساعة غرّة واسترخاء وأمان ! والأخذ فيهما أشد ترويعا وأعنف وقعا . وأدعى كذلك إلى التذكر والحذر والتوقي والاحتياط !

ثم ما الذي حدث ؟ إنه لم يكن لهؤلاء المأخوذين في غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم دعوى يدعونها إلا الإقرار !

﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ﴾ . .

والإنسان يدعي كل شيء إلا الاعتراف والإقرار ! ولكنهم في موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوى ! ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ . . فيا له من موقف مذهل رعيب مخيف ، ذلك الذي يكون أقصى المحاولة فيه هو الاعتراف بالذنب والإقرار بالشرك !

(303/263)

إن الظلم الذي يعنونه هنا هو الشرك . فهذا هو المدلول الغالب على هذا التعبير في القرآن . . فالشرك هو الظلم . والظلم هو الشرك . وهل أظلم ممن يشرك بربه وهو خلقه ؟ !

وبينما المشهد معروض في الدنيا ، وقد أخذ الله المكذبين ببأسه ، فاعترفوا وهم يعاينون بأس الله أنهم كانوا ظالمين ؛ وتكشف لهم الحق فعرفوه ، ولكن حيث لا تجدي معرفة ولا اعتراف ، ولا يكف بأس الله عنهم ندم ولا توبة . فإن الندم قد فات موعده ، والتوبة قد

انقطعت طريقها بحلول العذاب . .

بينما المشهد هكذا معروضاً في الدنيا إذا السياق ينتقل ، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة . بلا توقف ولا فاصل . فالشريط المعروض موصول المشاهد ، والنقلة تتخطى الزمان والمكان ، وتصل الدنيا بالآخرة ، وتلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة ؛ وإذا الموقف هناك في لمحة خاطفة :

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . .

إن التعبير على هذا النحو المصور الموحي ، خاصية من خواص القرآن . . إن الرحلة في الأرض كلها تطوى في لمحة . وفي سطر من كتاب . لتلتحم الدنيا بالآخرة ؛ ويتصل البدء بالختام !

فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء ، فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذي أخذهم وهم غارون :

﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ . .

ولكنه السؤال الجديد ، والتشهير بهم على الملأ الحاشد في ذلك اليوم المشهود :

﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم – وما كنا غائبين ﴾ .

(304/263)

فهو السؤال الدقيق الوافي ، يشمل المرسل إليهم ويشمل المرسلين . . وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الحاشد ؛ وتفصل فيه الخفايا والدقائق ! . . يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون . ويسأل الرسل فيجيبون . ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه ! يقصه عليهم – سبحانه – بعلم فقد كان حاضراً كل شيء . وما كان – سبحانه – غائباً عن شيء . . وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير !

﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ . .

إنه لا مجال هنا للمغالطة في الوزن ؛ ولا التلبيس في الحكم ؛ ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين .

.

﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ . .

فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح . . وأي فلاح بعد

النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة ، في نهاية الرحلة المديدة ، وفي ختام المطاف الطويل ؟

﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . .

فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطئ . وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ؟ إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له ؟

لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ والظلم – كما أسلفنا – يطلق في التعبير القرآني ويراد به الشرك أو الكفر : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾

ولا ندخل هنا في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان – كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر " الإسلامي " ! . . فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل . مذ كان الله سبحانه ليس كمثله شيء . . وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق . . من أن الحساب يومئذ بالحق ، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وأن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1254 . 1261 ﴾

(305/263)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر الخلق بمتابعة الرسل وحذرهم من مخالفتهم ، فأبلغ في تحذيرهم بعذاب الدنيا ثم بعذاب الآخرة ، التفت إلى تذكيرهم ترغيباً في ذلك بإسباغ نعمه وتحذيراً من سلبها ، لأن المواجهة أردع للمخاطب ، فقال في موضع الحال من ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ : ﴿ ولقد مكناهم ﴾ أي خسروها والحال أنا مكناكم من إنجائها بخلق القوى والقدر وإدرار النعم ، وجعلنا مكاناً يحصل التمكن فيه ﴿ في الأرض ﴾ أي كلها ، ما منها من بقعة إلا وهي صالحة لانتفاعهم بها ولو بالاعتبار ﴿ وجعلنا لكم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيها معايش ﴾ أي جميع معيشة ، وهي أشياء يحصل بها العيش ، وهو تصرف أيام الحياة بما ينفع ، والياء أصلية فلذا لا تهمز ، وكذا ما ولي ألف جمعه حرف علة أصلي وليس قبل ألفه واو كأوائل ولا ياء كخيائر جمع أول وخير فإنه لا يهمز إلا شاذاً كمنائر ومصائب جمع منارة ومصيبة .

ولما كان حاصل ما مضى أنه سبحانه أوجدهم وقوّاهم وخلق لهم ما يديم قواهم ، فأكلوا خيره وعبدوا غيره ، أنتج قوله على وجه التأكيد : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي لمن أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة بما تنجون به أنفسكم ؛ وقال أبو حيان : إنه راجع للذين خوطبوا ب ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم ﴾ [الأعراف : 3] وما بينهما أورد مورد الاعتبار

والاتعاظ بذكر ما آل إليه أمرهم في الدنيا وما يؤول إليه في الآخرة – انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 10 ﴾

(306/263)

فصل

قال الفخر :

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام ، وبقبول دعوتهم ثم خوفهم بعذاب الدنيا ، وهو قوله : ﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] ثم خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين : أحدهما : السؤال ؛ وهو قوله : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : 6] والثاني : بوزن الأعمال ، وهو قوله : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ [الأعراف : 8] رغبهم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية بطريق آخر وهو أنه كثرت نعم الله عليهم ، وكثرة النعم توجب الطاعة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ مكناكم فِى الأرض وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ فقوله : ﴿ مكناكم فِى الأرض ﴾ أي جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً

ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم فيها معايش ، والمراد من المعايش : وجوه المنافع وهي على قسمين ، منها ما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء مثل خلق الثماء وغيرها ، ومنها ما يحصل بالاكتساب وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل الله وإقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاماً من الله تعالى ، وكثرة الإنعام لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد ، ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال والانعام عالم بأنهم لا يقومون بشكره كما ينبغي ، فقال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وهذا يدل على أنهم قد يشكرون والأمر كذلك ، وذلك لأن الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلة عقل كل عاقل ، ونعم الله على الإنسان كثيرة ، فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه ، إنما التفاوت في أن بعضهم قد يكون كثير الشكر ، وبعضهم يكون قليل الشكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 24. 25 ﴾

فصل

قال الفخر :

روى خارجة عن نافع أنه همز ﴿ معائش ﴾ قال الزجاج : جميع النحويين البصريين يزعمون أن همز ﴿ معائش ﴾ خطأ ، وذكروا أنه إنما يجوز جعل الياء همزة إذا كانت زائدة نحو صحيفة وصحائف ، فأما معايش فمن العيش ، والياء أصلية ، وقراءة نافع لا أعرف لها وجهاً ، إلا أن لفظة هذه الياء التي هي من نفس الكلمة أسكن في معيشة فصارت هذه

الكلمة مشابهة لقولنا صحيفة ، فجعل قوله : ﴿ معائش ﴾ شبيهاً لقولنا صحائف فكما أدخلوا الهمزة في قولنا : صحائف فكذا في قولنا معائش على سبيل التشبيه ، إلا أن الفرق ما ذكرناه أن الياء في معيشة أصلية وفي صحيفة زائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 25 ﴾

(307/263)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَقَدْ مكناكم فِى الأرض ﴾

أي مكناكم في الأرض وعمرناكم ، فذكر لهم التهديد ، ثم ذكر لهم النعم ليستحيوا من ربهم ولا يعصوه ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ يعني : الرزق وهو ما يخرج من الأرض من الكروم والثمار والحبوب .

وروى خارجة عن نافع أنه قرأ معائش بالهمز لأنه على ميزان فعائل مثل الكبائر والصغائر .

وقرأ الباقون بغير همز ، لأنّ الياء أصلية وكان على ميزان مفاعل .

ثم قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ يعني : إنكم لا تشكرون هذه النعمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأرض ﴾ ملّكناكم في الأرض ووطّأنا لكم وجعلنّاها لكم قراراً ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يعيشون بها أيام حياتكم من المأكل والمشرب والمعايش جمع المعيشة الياء من الأصل فلذلك لا تهمز ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فيما صنعت إليكم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : سهلنا عليكم التصرف فيها حتى وصلتم إلى مرادكم منها .

والثاني : ملكناكم إياها حتى صرتم أحق بها .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما تعيشون به من نبات وحيوان .

والثاني : ما تتوصلون به إلى معايشكم فيها من زراعة أو عمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

الخطاب لجميع الناس ، والمراد أن النوع بجملته ممكن في الأرض ، و" المعايش " جمع معيشة وهي لفظة تعم المأكول الذي يعاش به والتحرف الذي يؤدي إليه ، وقرأ الجمهور " معايِش " بكسر الياء دون همز ، وقرأ الأعرج وغيره " معائش " بالهمز كمدائن وسفائن ، ورواه خارجة عن نافع ، وروي عن ورش " معايْش " بإسكان الياء ، فمن قرأ " معايش " بتصحيح الياء فهو الأصوب لأنها جمع معيشة وزنها مفعلة ، ويحتمل أن تكون مفعُلة بضم العين قالهما سيبويه ، وقال الفراء مفعلة بفتح العين فالياء في معيشة أصلية وأعلت معيشة لموافقتها الفعل الذي هو يعيش في الياء أي في المتحرك والساكن ، وصححت " معايِش " في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ ولأن التكسير معنى لا يكون في الفعل إنما تختص به الأسماء ، ومن قرأ " معايْش " فعلى التخفيف من " معايِش " ، وقرأ " معائِش " فأعلها فذلك غلط ، وأما توجيهه فعلى تشبيه الأصل بالزائد لأن معيشة تشبه في اللفظ صحيفة فكما يقال صحائف قيل " معائِش " ، وإنما همزت ياء صحائف ونظائرها مما الياء فيه زائدة لأنها لا أصل لها في الحركة وإنما وزنها فعيلة ساكنة ، فلما اضطر إلى تحريكها في الجمع بدلت بأجلد منها .

و﴿ قليلاً ﴾ نصب ب﴿ تشكرون ﴾ ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ زائدة ، ويحتمل أن تكون مع الفعل بتأويل المصدر ، ﴿ قليلاً ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره شكراً قليلاً شكركم ، أو شكراً قليلاً تشكرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد مكنّاكم في الأرض ﴾

فيه قولان .

أحدهما : مكنّاكم إياها .

والثاني : سهّلنا عليكم التصرف فيها .

وفي المعايش قولان .

أحدهما : ما تعيشون به من المطاعم والمشارب .

والثاني : ما تتوصّلون به إلى المعايش ، من زراعة ، وعمل ، وكسب .

وأكثر القراء على ترك الهمز في "معايش" وقد رواها خارجة عن نافع مهموزة .

(309/263)

قال الزجاج : وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ ، لأن الهمز إنما يكون في الياء الزائدة ، نحو صحيفة وصحائف ؛ فصحيفة من الصحف ؛ والياء زائدة ، فأما معايش ، فمن العيش ، فالياء أصلية .

قوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي : شكركم قليل .

وقال ابن عباس : يريد : أنكم غير شاكرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾

أي جعلناها لكم قراراً ومِهاداً ، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة .

والمَعايش جمع مَعيشة ، أي ما يُتعيَّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة .

يُقال : عاش يَعِيش عَيْشاً ومَعاشاً ومَعِيشاً ومَعِيشة وعِيشَة .

وقال الزجاج : المَعِيشة ما يُتوصّل به إلى العيش .

ومعِيشة في قول الأخفش وكثيرٍ من النحويين مَفْعِلة .

وقرأ الأعرج : "مَعَائِشَ" بالهمز .

وكذا روى خارجة بن مُصْعَب عن نافع .

قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ؛ لأن الواحدة مِعيشة ، أصلها معيِشة ، فزيدت ألف الوصل وهي ساكنة والياء ساكنة ، فلا بدّ من تحريكٍ إذ لا سبيل إلى الحذف ، والألف لا

تحرّك فحرّكت الياء بما كان يجب لها في الواحد .

ونظيره من الواو مَنارة ومَناوِر ، ومَقام ومَقاوِم : كما قال الشاعر :

وَإِنّي لقَوّامٌ مَقاوِمُ لم يكن . . .

جرير ولا مولى جريرٍ يَقُومها

وكذا مصيبة ومَصَاوِب .

وهذا الجيد ، ولغة شاذة مصائب ، قال الأخفش : إنما جاز مصائب لأن الواحدة مُعْتَلّة .

قال الزجاج : هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم .

ولكن القول أنه مثل وسادة وإسادة ، وقيل : لم يجز الهمز في مَعايش لأن المعيشة مَفْعِلة ؛

فالياء أصلية ، وإنما يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن ، وصحيفة وصحائف ،

وكريمة وكرائم ، ووظيفة ووظائف ، وشبهه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7

صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾

(310/263)

يعني ولقد مكناكم أيها الناس في الأرض ، والمراد من التمكين التمليك وقيل : معناه جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً أو قدرناكم على التصرف فيها ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ جمع معيشة يعني به جمع وجوه المنافع التي تحصل بها الأرزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهي على قسمين :

أحدهما : ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب .

والثاني : ما يتحصل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع وكلا مقسمين في الحقيقة إنما يحصل بفضل الله وإنعامه وإقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك أن جميع معايش العالم إنعام من الله تعالى على عباده وكثرة الإنعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال على عباده وإنعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ يعني : على ما صنعت إليكم وأنعمت به عليكم ، وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الأوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر ، تصور النعمة وإظهار ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(311/263)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ مكناكم فِى الأرض ﴾

لما أمر الله سبحانه أهلَ مكةَ باتباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتباع غيرِه وبيّن لهم وخامةَ عاقبتِه بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلّد في الآخرة ذكّرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبةِ للشكر ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي إثرَ ترهيبِ أي جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ المعايشُ جمعُ معيشةٍ وهي ما يُعاش به من المطاعم والمشاربِ وغيرِها ، أو ما يُتوصَّل به إلى ذلك والوجهُ في قراءته إخلاصُ الياء وعن ابن عامرٍ أنه همزةٌ تشبيهاً له بصحائف ومدائن ، والجعلُ بمعنى الإنشاء والإبداع ، أي أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعِكم فيها أسباباً تعيشون بها ، وكلٌّ واحد من الظرفين متعلقٌ به أو بمحذوف وقع حالاً من مفعوله المُنكّر ، إذ لو تأخر لكان صفةً له وتقديمُهما على المفعول من أن حقهما التأخيرُ عنه لما مر غيرَ مرةٍ من الاعتناء بشأن المقدمِ والتشويقِ إلى المؤخر ، فإن النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ لا سيما عند كونِ المقدم منبئاً عن منفعة للسامع تبقى مترقبةً لورود المؤخَّرِ فيتمكن فيها عند الورودِ فضلُ تمكّن ، وأما تقديمُ اللامِ على في فلما أنه المنبئُ عما ذُكر من المنفعة فالاعتناءُ بشأنه أتمُّ والمسارعةُ إلى ذكره أهمّ .

هذا وقيل : إن الجعلَ متعدَ إلى مفعولين ثانيهما أحدُ الظرفين على أنه مستقر ، قُدّم على الأول ، والظرفُ الآخَرُ إما لغوٌ متعلقٌ بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالاً من المفعول الأول كما مر ، وأنت خبيرٌ بأنه لا فائدةَ معتدٌّ بها في الإخبار بجعل المعايشِ حاصلةً لهم أو حاصلةً في الأرض ، وقولُه تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي تلك النعمةَ ، تذييلٌ مَسوقٌ لبيان سوءِ حالِ المخاطبين وتحذيرِهم وبقيةُ الكلامِ فيه عينُ ما مر في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(312/263)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ مكناكم فِى الأرض ﴾

ترغيب في قبول دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بتذكير النعم إثر ترهيب .

وذكر الطيبي أن هذا نوع آخر من الإنذار فإنه جملة قسمية معطوفة على قوله سبحانه : ﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 3] على تقدير قل اتبعوا وقل والله لقد مكناكم ، والمعنى جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً .

وقيل : أقدرناكم على التصرف فيها فهو حينئذ كناية ورجحت هنا الحقيقة .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب ونحوها أو ما تتوصلون به إلى ذلك ، وهو في الأصل مصدر عاش يعيش عيشاً وعيشة ومعاشا ومعيشة بوزن مفعلة ، والجمهور على التصريح بالياء فيها ، وروي عن نافع (معائش) بالهمز وغلطه النحويون ومنهم سيبويه في ذلك لأنه لا يهمز عندهم بعد ألف الجمع إلا الياء الزائدة كصحيفة وصحائف وأما معايش فياؤه أصلية هي عين الكلمة لأنها من العيش وبالغ أبو عثمان فقال : إن نافعا لم يكن يدري بالعربية ، وتعقب ذلك بأن هذه القراءة وإن كانت شاذة غير متواترة مأخوذة من الفصحاء الثقات والعرب قد تشبه الأصلي بالزائد لكونه على صورته ، وقد سمع هذا عنهم فيما ذكر وفي مصائب ومنائر أيضاً .

(313/263)

وقول سيبويه : إنها غلط يمكن أن يراد به أنها خارجة عن الجادة والقياس ، وكثيراً ما يستعمل الغلط في كتابه بهذا المعنى .

والجعل بمعنى الإنشاء والإبداع وكل واحد من الظرفين متعلق به أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر إذ لو تأخر لكان صفة له ؛ وتقديمهما على المفعول مع أن حقهما التأخير عنه كما قال بعض المحققين للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر فإن النفس عند تأخير ما

حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم منبئاً عن منفعة السامع تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ، وأما تقديم اللام على في فلما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة والاعتناء بشأنه أتم والمسارعة إلى ذكره أهم ، وقيل : إن الجعل متعد إلى مفعولين ثانيهما أحد الظرفين على أنه مستقر قدم على الأول ، والظرف الآخر إما لغو متعلق بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالاً من المفعول الأول كما مر ، واعترض بأنه لا فائدة يعتد بها في الأخبار بجعل المعايش حاصلة لهم أو حاصلة في الأرض .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمة الجسيمة ، وهو تذييل مسوق لبيان سوء (حال) المخاطبين وتحذيرهم قال الطيبي : والتذييل بذلك لأن الشكر مناسب لتمكينهم في البلاد والتصرف فيها كما أن التذكر في الجملة السابقة موافق للتمييز بين اتباع دين الحق ودين الباطل ، وبقية الكلام في هذه الجملة على طرز ما مر في نظيرها فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(314/263)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾

عطف على جملة : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ [الأعراف : 3]

فهذا تذكير لهم بأن الله هو ولي الخلق ، لأنّه خالقهم على وجه الأرض ، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم ، وتوبيخ على قلّة شكرها ، كما دلّ عليه تذييل الجملة بقوله : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ فإنّ النّفوس التي لا يزجُرها التّهديد قد تنفعها الذكريات الصّالحة ، وقد قال أحد الخوارج وطُلب منه أن يخرج إلى قتال الحجّاج بن يوسف وكان قد أسدى إليه نِعماً :

أأقَاتِلُ الحجّاجَ عن سلطانه . . .

بيدٍ تُقِرّ بأنَّها مَوْلاَتِه

وتأكيد الخبر بلام القسم وقد ، المفيد للتّحقيقِ ، تنزيلٌ للذين هم المقصود من الخطاب منزّلة من ينكر مضمون الخبر لأنّهم لما عَبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أنّ الله هو الذي مكَّنهم من الأرض ، أو كحال من ينكر وقوع التمكين من أصله .

(315/263)

والتّمكين جعل الشّيء في مكان ، وهو يطلق على الإقدار على التّصرف ، على سبيل الكناية ، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ مَكَّنَّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ في

سورة الأنعام (6) وهو مستعمل هنا في معناه الكنائي لا الصّريح ، أي جعلنا لكم قدرة ، أي أقدَرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التّصرف في مخلوقاتها ، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتّغلّب على مصاعبه ، وليس المراد من التّمكين هنا القوّة والحكم كالمراد في قوله تعالى : ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ [الكهف : 84] لأنّ ذلك ليس حاصلاً بجميع البشر إلاّ على تأويل ، وليس المراد بالتمكين أيضاً معناه الحقيقي وهو جعل المكان في الأرض لأنّ قوله : ﴿ في الأرض ﴾ يمنع من ذلك ، لأنّه لو كان كذلك لقال ولقد مكناكم الأرضَ ، وقد قال تعالى عن عاد : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ [الأحقاف : 26] أي جعلنا ما أقررناهم عليه أعظم ممّا أقدرناكم عليه ، أي في آثارهم في الأرض أمّا أصل القرار في الأرض فهو صراط بينهما .

ومعايش جمع معيشه ، وهي ما يعيش به الحيّ من الطّعام والشّراب ، مشتقّة من العيش وهو الحياة ، وأصل المعيشة اسم مصدر عاش قال تعالى : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ [طه : 124] سمي به الشّيء الذي يحصل به العيش ، تسمية للشّيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتّى صار مساوياً للحقيقة .

وياء (معايش) أصل في الكلمة لأنّها عين الكلمة من المصدر (عَيْش) فوزن معيشة مفعلة ومعايش مَفاعل ، فحقّها أن ينطق بها في الجمع ياء وأن لا تقلب همزة .

لأن استعمال العرب في حرف المدّ الذي في المفرد أنّهم إذا جمعوه جمعاً بألف زائدة ردّوه إلى أصله واواً أو ياء بعد ألف الجمع ، مثل : مفَازة ومفاوِز ، فيما أصله واو من الفوز ومعيبة ومعايب فيما أصله الياء ، فإذا كان حرف المدّ في المفرد غير أصلي فإنّهم إذا جمعوه جمعاً بألف زائدة قلبوا حرف المد همزة نحو قِلاَدة وقلاِئد ، وعَجُوز وعجَائز ، وصحيفَه وصحائف ، وهذا الاستعمال من لطائف التّفرقه بين حرف المد الأصلي والمد الزّائد واتّفق القراء على قراءته بالياء ، وروى خارجة بن مصعب ، وحميد بن عمير ، عن نافع أنّه قرأ : معائش بهمز بعد الألف ، وهي رواية شاذة عنه لا يُعْبَأ بها ، وقُرِىء في الشاذ : بالهمز ، رواه عن الأعرج ، وفي "الكشاف" نسبة هذه القراءة إلى ابن عامر وهو سهو من الزمخشري .

وقوله : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ هو كقوله في أوّل السّورة ﴿ قليلاً ما تذكّرون ﴾ [الأعراف : 3] ونظائره .

والخطاب للمشركين خاصة ، لأنّهم الذين قَل شكرهم لله تعالى إذا اتّخذوا معه آلهة .

ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم كما تقدّم آنفاً في أوّل السّورة ، ويجوز أن يكون على حقيقته أي إن شكركم الله قليل .

لأنّهم لمّا عرفوا أنّه ربّهم فقد شَكروه ، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره والإقبال

على عبادة الأصنام وما يتبعها ، ويجوز أن تكون القلّة كناية عن العدم على طريقة الكلام المقتصد استنزالاً لتذكرهم .

وانتصب (قليلاً) على الحال من ضمير المخاطبين و(ما) مصدريّة ، والمصدر المؤول في محلّ الفاعل بقليلاً فهي حال سببيّة .

وفي التّعقيب بهذه الآية لآية : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] إيماء إلى أنّ إهمال شكر النّعمة يعرّض صاحبها لزوالها ، وهو ما دلّ عليه قوله : ﴿ أهلكناها ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(317/263)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

كَانَتِ الْآيَةُ الْأُولَى مِنَ السُّورَةِ فِي بَيَانِ إِنْزَالِ الْكِتَابِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُنْذِرَ بِهِ كُلَّ النَّاسِ ، وَذِكْرَى وَمَوْعِظَةً لِأَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ لِمَا يَبْدَأُ بِهِ مِنَ

التَّبْلِيغِ ، وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِاتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَلَّا يَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَحَدًا يَتَوَلَّوْنَهُ فِي أَمْرِ التَّشْرِيعِ الْخَاصِّ بِالرَّبِّ تَعَالَى . وَلَمَّا كَانَ الْإِنْذَارُ تَعْلِيمًا مَقْرُونًا بِالتَّخْوِيفِ مِنْ عَاقِبَةِ الْمُخَالَفَةِ قَفَّى عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْأُولَى - الَّتِي هِيَ أُمُّ الْقَوَاعِدِ لِأُصُولِ الدِّينِ - بِالتَّخْوِيفِ مِنْ عَاقِبَةِ الْمُخَالَفَةِ لَهَا وَلِمَا يَتْلُوهَا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ ، فَبَدَأَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِالتَّخْوِيفِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا فَقَالَ :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) "كَمْ" خَبَرِيَّةٌ تُفِيدُ الْكَثْرَةَ وَالْقَرْيَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْأُمَّةِ ، قَالَ الرَّاغِبُ : الْقَرْيَةُ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ وَلِلنَّاسِ جَمِيعًا (أَيْ مَعًا) وَيُسْتَعْمَلُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ، قَالَ تَعَالَى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) (12 : 82) قَالَ كَثِيرٌ مِنْ

(318/263)

الْمُفَسِّرِينَ : مَعْنَاهُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلِ الْقَرْيَةُ هَاهُنَا الْقَوْمُ أَنْفُسُهُمْ . اهـ . أَيْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ مُضَافٍ ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِالتَّقْدِيرِ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ هُنَا لِأَنَّ الْقَرْيَةَ تَهْلَكُ كَمَا يَهْلَكُ أَهْلُهَا ، وَلَكِنَّهُمْ يُقَدِّرُونَ الْمُضَافَ فِي قَوْلِهِ : (فَجَاءَهَا بَأْسُنَا) فَيَقُولُونَ : جَاءَ أَهْلَهَا بَأْسُنَا - بِدَلِيلِ وَصْفِهِمْ بِالْبَيَاتِ وَالْقَيْلُولَةِ ، وَالْمَدِينَةُ

لَا تَبيتُ وَلَا تَقِيلُ ، وَالْبَيَاتُ : الْإِغَارَةُ عَلَى الْعَدُوِّ لَيْلًا وَالْإِيقَاعُ بِهِ فِيهِ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُ فَهُوَ اسْمٌ لِلتَّبْيِيتِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ مَا يُدَبِّرُهُ الْمَرْءُ أَوْ يَنْوِيهِ لَيْلًا ، وَمِنْهُ تَبْيِيتُ نِيَّةِ الصِّيَامِ . وَقِيلَ : يَأْتِي مَصْدَرًا لِبَاتَ يَبِيتُ إِذَا أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ . وَالْبَأْسُ الشِّدَّةُ وَالْقُوَّةُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا ، وَالْقَائِلُونَ : هُمُ الَّذِينَ يَقِيلُونَ ، أَيْ يَنَامُونَ لِلِاسْتِرَاحَةِ وَسَطَ النَّهَارِ ، وَقِيلَ : يَسْتَرِيحُونَ وَإِنْ لَمْ يَنَامُوا ، يُقَالُ : قَالَ يَقِيلُ قَيْلًا وَقَيْلُولَةً .

(319/263)

وَالْمَعْنَى : وَكَثِيرًا مِنَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهَا لِعِصْيَانِ رُسُلِهَا فِيمَا جَاءُوهَا بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهَا ، فَكَانَ هَلَاكُهَا عَلَى ضَرْبَيْنِ ، بِأَنْ جَاءَ بَعْضَهُمْ بَأْسُنَا حَالَ كَوْنِهِمْ مُبَيِّتِينَ أَوْ بَائِتِينَ لَيْلًا كَقَوْمِ لُوطٍ ، وَجَاءَ بَعْضَهُمْ وَهُمْ قَائِلُونَ آمِنُونَ نَهَارًا كَقَوْمِ شُعَيْبٍ . وَالْوَقْتَانِ وَقْتَا دَعَةٍ وَاسْتِرَاحَةٍ ، فَفِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَأْمَنَ صَفْوَ اللَّيَالِي وَلَا مُوَاتَاةَ الْأَيَّامِ ، وَلَا يَغْتَرَّ بِالرَّخَاءِ فَيُعِدَّهُ آيَةً عَلَى الِاسْتِحْقَاقِ لَهُ الَّذِي هُوَ مَظِنَّةُ الدَّوَامِ ، وَقَدْ يُعْذَرُ بِالْغَفْلَةِ قَبْلَ مَجِيءِ النَّذِيرِ ، وَأَمَّا بَعْدَهُ فَلَا عُذْرَ وَلَا عَذِيرَ ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِغُرُورِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ بِقُوَّتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ وَعِزَّةِ عَصَبِيَّتِهِمْ ، وَبِمَا كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهَا آيَةُ رِضَى اللهِ عَنْهُمْ (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (34 : 35) وَلَيْسَ أَمْرُهُمْ بِأَعْجَبَ مِنَ الْأَقْوَامِ الَّتِي عَرَفَتْ هِدَايَةَ الْقُرْآنِ ،

أَوْ سُنَنَ اللهِ فِي نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ هِيَ تَغْتَرُّ بِمَا هِيَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ دَلِيلًا عَلَى الْهَلَاكِ ، وَلَا تَرْجِعُ عَنْ غَيِّهَا حَتَّى يَأْتِيَهَا الْعَذَابُ .

(320/263)

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْآيَةِ مَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ ، إِذْ ظَنُّوا أَنَّ عَطْفَ " جَاءَهَا " عَلَى " أَهْلَكْنَا " بِالْفَاءِ يُفِيدُ أَنَّ مَجِيءَ الْبَأْسِ وَقَعَ عَقِبَ الْإِهْلَاكِ وَهُوَ مُحَالٌ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ ، غَافِلِينَ عَنْ كَوْنِهِ بَيَانًا تَفْصِيلِيًّا لِنَوْعَيْنِ مِنْهُ ، أَحَدُهُمَا لَيْلِيٌّ وَالْآخَرُ نَهَارِيٌّ كَمَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا ، وَتَفَصَّى بَعْضُهُمْ كَالزَّمَخْشَرِيِّ مِنْهُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِهْلَاكِ إِرَادَتُهُ كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ : (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ) (5 : 6) إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ إِلَيْهَا .

وَفِي الْآيَةِ مِنْ مَبَاحِثِ اللُّغَةِ وَالْبَلَاغَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ حُذِفَ مِنْهَا وَاوُ الْحَالِ لِاسْتِثْقَالِ الْجَمْعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَاوِ الْعَطْفِ وَالْأَصْلُ : أَوْ هُمْ قَائِلُونَ . وَلَمْ أَرَ أَحَدًا تَعَرَّضَ لِنُكْتَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْحَالِ الْمُفْرَدَةِ وَجُمْلَةِ الْحَالِ هُنَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ الْإِفْرَادِ ، لَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا) (4 : 43) حَيْثُ انْفَرَدْنَا بِبَيَانِ فَرْقٍ وَجِيهٍ بَيْنَ الْحَالَيْنِ هُنَالِكَ يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى وَيَنْطَبِقُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ

(321/263)

الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ، وَلَا يَأْتِي مِثْلُهُ هُنَا لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ خَاصٌّ بِمَا كَانَتِ الْحَالُ فِيهِ وَصْفًا لِفَاعِلِ الْعَامِلِ فِيهَا كَآيَةِ النِّسَاءِ وَمِثْلِ قَوْلِكَ : نَذَرْتُ أَنْ أَعْتَكِفَ صَائِمًا أَوْ وَأَنَا صَائِمٌ ، وَهِيَ هُنَا وَصْفٌ لِمَفْعُولِهِ فَتَأَمَّلْ . وَقَدْ بَحَثَ الْمُفَسِّرُونَ الَّذِينَ يَعْنُونَ بِالْإِعْرَابِ فِي مَسْأَلَةِ الْوَاوِ فِي الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ هَلْ هِيَ لَامُ الْعَطْفِ أَوْ غَيْرُهَا ، وَمَتَى تَجِبُ فِي الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ هِيَ وَالضَّمِيرُ مَعًا وَمَتَى يَجِبُ أَحَدُهُمَا ، وَهِيَ مَبَاحِثُ لَفْظِيَّةٌ نَعُدُّوهَا لِأَنَّهَا قَلَّمَا تُفِيدُ فِي الْمَعَانِي وَنُكَتِ الْبَلَاغَةِ فَائِدَةً تُذْكَرُ .

(322/263)

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) الدَّعْوَى فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِمَا يَدَّعِيهِ الْإِنْسَانُ ، وَالِادِّعَاءُ نَفْسُهُ ، وَالدُّعَاءُ بِمَعَانِيهِ ، وَالْقَوْلُ مُطْلَقًا ، فَفِي الْمِصْبَاحِ : وَدَعْوَى فُلَانٍ كَذَا - أَيْ قَوْلُهُ اهـ . وَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا : فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ - وَعَلَى مَا قَبْلَهُ : (فَمَا) كَانَتْ غَايَةَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الدِّينِ وَزَعْمِهِمْ فِيهِ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ - أَوْ كَانُوا يَدَّعُونَهُ عَلَى

الرُّسُلِ مِنَ التَّكْذِيبِ وَإِرَادَةِ التَّفَضُّلِ عَلَيْهِمْ - إِلَّا الِاعْتِرَافَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ وَالشَّهَادَةِ بِبُطْلَانِهِ . وَفِي التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ الْإِخْبَارُ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَوْلِ عَنْ جِنْسِهِ ، وَهُوَ غَيْرُ الْإِخْبَارِ بِالشَّيْءِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَالْأَوَّلُ صَحِيحٌ فَصِيحٌ وَإِنِ اتَّحَدَتِ الْمَادَّةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) (3 : 147) فَكَيْفَ إِذَا اخْتَلَفَتْ كَمَا هُنَا

.

(323/263)

وَالْعِبْرَةُ فِي الْآيَةِ : أَنَّ كُلَّ مُذْنِبٍ يَقَعُ عَلَيْهِ عِقَابُ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا يَنْدَمُ وَيَتَحَسَّرُ وَيَعْتَرِفُ بِظُلْمِهِ وَجُرْمِهِ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ سَبَبُ الْعِقَابِ ، وَمَا كُلُّ مُعَاقَبٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ مَا يَجْهَلُ أَكْثَرُ النَّاسِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْعِقَابِ ، وَأَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى بِجَعْلِ عِقَابِهَا أَثَرًا لَازِمًا لَهَا فِي الدُّنْيَا فَلَا تَطَّرِدُ فِي الْأَفْرَادِ كَاطِّرَادِهَا فِي الْأُمَمِ ، وَلَا تَكُونُ دَائِمًا مُتَّصِلَةً بِاقْتِرَافِ الذَّنْبِ ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَقَعُ عَلَى التَّرَاخِي فَلَا يَشْعُرُ فَاعِلُهَا بِأَنَّهَا أَثَرٌ لَهُ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْآلَامِ لَا يَعْرِفُ أَكْثَرُ السُّكَارَى مِنْهُ غَيْرَ مَا يَعْقُبُ الشُّرْبَ مِنْ

(324/263)

صُدَاعٍ وَغَثَيَانٍ ، وَهُوَ مِمَّا يَسْهُلُ عَلَيْهِمُ احْتِمَالُهُ وَتَرْجِيحُ لَذَّةِ النَّشْوَةِ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا مَا يُوَلِّدُهُ السُّكْرُ مِنْ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ وَالْكَبِدِ وَالْجِهَازِ التَّنَاسُلِيِّ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفِ النَّسْلِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِلْأَمْرَاضِ وَانْقِطَاعِهِ أَحْيَانًا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ (الْعَقْلِيَّةِ) فَهِيَ تَحْصُلُ بِبُطْءٍ ، وَقَلَّمَا يَعْلَمُ غَيْرُ الْأَطِبَّاءِ أَنَّهَا مِنْ تَأْثِيرِ السُّكْرِ . ثُمَّ قَلَّمَا يُفِيدُ الْعِلْمُ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِ تَأْثِيرِهَا هَذِهِ الدَّرَجَةَ أَنْ تَحْمِلَ السِّكِّيرَ عَلَى التَّوْبَةِ ؛ لِأَنَّ دَاءَ الْخُمَارِ يُزْمِنُ وَحُبَّ السُّكْرِ يُضْعِفُ الْإِرَادَةَ ، وَمَضَارُّ الزِّنَا الْجَسَدِيَّةُ أَخْفَى مِنْ مَضَارِّ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَمَفَاسِدُهُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ أَخْفَى مِنْ مَضَارِّهِ الْجَسَدِيَّةِ ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَفْطِنُ لَهَا . وَيَا لَيْتَ كُلَّ مَنْ عَلِمَ

(325/263)

بِضَرَرِ ذَنْبِهِ بَعْدَ وُقُوعِهِ يَرْجِعُ عَنْهُ وَيَتْرُكُهُ وَيَتُوبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْهُ ، وَلَا يَكْتَفِي بِالِاعْتِرَافِ بِظُلْمِهِ ، وَلَا بِالْإِقْرَارِ بِذَنْبِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهِ لَا فِي دُنْيَاهُ ، وَلَا فِي دِينِهِ ، وَإِذَا كَانَ الرَّاسِخُ فِي الْفِسْقِ لَا يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ عَلَيْهِ ضَرَرُهُ وَعَلِمَ بِهِ ، فَكَيْفَ يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ لَمْ يُصِبْهُ مِنْهُ ضَرَرٌ أَوْ أَصَابَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي بِهِ ؟ إِنَّمَا تَسْهُلُ التَّوْبَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِلَّا فَهِيَ لِأُولِي الْعَزَائِمِ الْقَوِيَّةِ الَّذِينَ تَقْهَرُ إِرَادَتُهُمْ شَهَوَاتِهِمْ فَهُمُ الْأَقَلُّونَ .

(326/263)

وَأَمَّا ذُنُوبُ الْأُمَمِ فَعِقَابُهَا فِي الدُّنْيَا مُطَّرِدٌ ، وَلَكِنَّ لَهَا آجَالًا وَمَوَاقِيتَ أَطْوَلَ مِنْ مِثْلِهَا فِي ذُنُوبِ الْأَفْرَادِ ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ كَمَا تَخْتَلِفُ فِي الْأَفْرَادِ بَلْ أَشَدُّ ، فَإِذَا ظَهَرَ الظُّلْمُ وَاخْتِلَالُ النِّظَامِ وَنَشَأَ التَّرَفُ وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ تَمْرَضُ أَخْلَاقُهَا فَتَسُوءُ أَعْمَالُهَا وَتَنْحَلُّ قُوَاهَا ، وَيَفْسُدُ أَمْرُهَا وَتَضْعُفُ مَنْعَتُهَا ، وَيَتَمَزَّقُ نَسِيجُ وَحْدَتِهَا ، حَتَّى تُحْسَبَ جَمِيعًا وَهِيَ شَتَّى - فَيُغْرِي ذَلِكَ بَعْضَ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ بِهَا ، فَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا ، وَتَسْتَأْثِرُ بِخَيْرَاتِ بِلَادِهَا ، وَتَجْعَلُ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً . فَهَذِهِ سُنَّةٌ مُطَّرِدَةٌ فِي الْأُمَمِ عَلَى تَفَاوُتِ أَمْزِجَتِهَا وَقُوَاهَا ، وَقَلَّمَا تَشْعُرُ أُمَّةٌ بِعَاقِبَةِ ذُنُوبِهَا قَبْلَ وُقُوعِ عُقُوبَتِهَا ، وَلَا يَنْفَعُهَا بَعْدَهُ أَنْ يَقُولَ الْعَارِفُونَ : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَعُمُّهَا الْجَهْلُ حَتَّى لَا تَشْعُرَ بِأَنَّ مَا حَلَّ بِهَا ، إِنَّمَا كَانَ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيهَا ، فَتَرْضَى بِاسْتِذْلَالِ الْأَجْنَبِيِّ ، كَمَا رَضِيَتْ مِنْ قَبْلُ بِمَا كَانَ سَبَبًا لَهُ مِنَ الظُّلْمِ الْوَطَنِيِّ ، فَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا قَوْلُنَا فِي الْمَقْصُورَةِ :

مَنْ سَاسَهُ الظُّلْمُ بِسَوْطِ بَأْسِهِ . . . هَانَ عَلَيْهِ الذُّلُّ مِنْ حَيْثُ أَتَى

وَمَنْ يَهُنْ هَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ . . . وَعِرْضُهُ وَدِينُهُ الَّذِي ارْتَضَى

(327/263)

وَقَدْ تَنْقَرِضُ بِمَا يَعْقُبُهُ الْفِسْقُ وَالذُّلُّ مِنْ قِلَّةِ النَّسْلِ وَلَا سِيَّمَا فُشُوُّ الزِّنَا وَالسُّكْرِ ، أَوْ تَبْقَى مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُدْغَمَةٌ فِي الْكَثْرَةِ الْغَالِبَةِ لَا أَثَرَ لَهَا تُعَدُّ بِهِ أُمَّةٌ . وَقَدْ تَتَوَالَى عَلَيْهَا الْعُقُوبَاتُ حَتَّى تَضِيقَ بِهَا ذَرْعًا ، فَتَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِهَا ، فَلَا تَجِدُهَا بَعْدَ طُولِ الْبَحْثِ إلَّا فِي أَنْفُسِهَا ، وَتَعْلَمُ صِدْقَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) (42 : 30) ثُمَّ تَبْحَثُ عَنِ الْعِلَاجِ فَتَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (13 : 11) وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّغْيِيرُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، وَالْعَمَلِ الَّذِي تَصْلُحُ بِهِ الْقُلُوبُ فَتَصْلُحُ الْأُمُورُ ، كَمَا قَالَ الْعَبَّاسُ عَمُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ تَوَسَّلَ بِهِ عُمَرُ وَالصَّحَابَةُ بِتَقْدِيمِهِ لِصَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ بِهِمْ : اللَّهُمَّ إنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إلَّا بِذَنْبٍ ، وَلَمْ يُرْفَعْ إلَّا بِتَوْبَةٍ . خِلَافًا لِلْحَشْوِيَّةِ الَّذِينَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ الْبَلَاءَ إنَّمَا يَرْتَفِعُ كَرَامَةً لِلصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَتَوَسَّلُ بِهِمُ الْمُذْنِبُونَ وَالْمُفْسِدُونَ . وَمَتَى عَلِمَتِ الْأُمَّةُ دَاءَهَا وَعِلَاجَهُ فَلَا تَعْدِمُ الْوَسَائِلَ لَهُ .

(328/263)

فَلْيَنْظُرِ الْقَارِئُ أَيْنَ مَكَانُ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْعِبْرَةِ ، وَالشُّعُورِ بِعُقُوبَةِ الْجِنَايَةِ وَالْحَاجَةِ إِلَى عِلَاجِ التَّوْبَةِ ، وَقَدْ ثُلَّتْ عُرُوشُهَا ، وَخَوَتْ صُرُوحُ عَظَمَتِهَا عَلَى عُرُوشِهَا ، وَكَانَتْ أَجْدَرَ الشُّعُوبِ بِمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ فِي هَلَاكِ الْأُمَمِ وَاتِّقَائِهَا ، وَأَسْبَابِ حِفْظِ الدُّوَلِ وَبَقَائِهَا ، فَقَدْ أَرْشَدَهَا إِلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَلَكِنْ أَيْنَ هِيَ مِنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ تَرَكَ تَذْكِيرَهَا بِهِ الْعُلَمَاءُ ، فَهَجَرَهُ الدَّهْمَاءُ ، وَجَهِلَ أَحْكَامَهُ وَحِكَمَهُ الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ ، ثُمَّ نَبَتَتْ فِيهَا نَابِتَةٌ لَا تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، أَقْنَعَهُمْ أَسَاتِذَتُهُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ ، بِأَنْ لَا سَبَبَ لِهُبُوطِهَا وَسُقُوطِهَا إِلَّا اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ ، فَأَضَلُّوهُمُ السَّبِيلَ ، وَلَفَتُوهُمْ عَنِ الدَّلِيلِ ، فَذَنْبُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَهُ ، وَذَنْبُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يُقِيمُونَهُ ، هَؤُلَاءِ مُقَلِّدَةٌ لِلْأَجَانِبِ الطَّامِعِينَ الْخَادِعِينَ ، وَأُولَئِكَ مُقَلِّدَةٌ لِشُيُوخِ الْحَشْوِيَّةِ الْجَامِدِينَ ، فَمَتَى تَنْتَشِرُ دَعْوَةُ الْمُصْلِحِينَ أُولِي الِاسْتِقْلَالِ ، فَتُجْمَعُ الْكَلِمَةُ بِمَا أُوتِيَتْ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالِاعْتِدَالِ ، عَلَى قَوْلِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) .

(329/263)

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

بَيَّنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَنَّهُمَا بَدْءٌ لِلْإِنْذَارِ - بَعْدَ بَيَانِ أَصْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ - بِالتَّذْكِيرِ بِعَذَابِ الْأُمَمِ الَّتِي عَانَدَتِ الرُّسُلَ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَذْكِيرٌ بِعَذَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، قَفَّى بِهِ عَلَى تَخْوِيفِ قَوْمِ الرَّسُولِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ ، بِتَخْوِيفِهِمْ مِمَّا يَعْقُبُهُ مِنَ الْعَذَابِ الْآجِلِ ، وَهُوَ الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ .

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) عَطَفَ هَذَا عَلَى مَا قَبْلَهُ بِالْفَاءِ لِأَنَّهُ يَعْقُبُهُ وَيَجِيءُ بَعْدَهُ ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْيَأْسِ آخِرُ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا . وَقِيلَ : إِنَّ " الْفَاءَ " هُنَا هِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْفَصِيحَةَ ، وَقَدْ أُكِّدَ الْخَبَرُ بِلَامِ الْقَسَمِ وَنُونِ التَّوْكِيدِ ، لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ مِنَ الْعَرَبِ فِي أَوَّلِ الدَّعْوَةِ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ ، وَلِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ تَأْثِيرٌ فِي الْأَنْفُسِ

(330/263)

وَلَا سِيَّمَا خَبَرُ الْمَشْهُورِ بِالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ كَانُوا يُلَقِّبُونَهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ بِالْأَمِينِ ، وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ أُرْسِلَ إلَيْهِمْ جَمِيعُ الْأُمَمِ الَّتِي بَلَغَتْهَا دَعْوَةُ الرُّسُلِ ، يَسْأَلُ تَعَالَى كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَنْ رَسُولِهِ إلَيْهِ وَعَنْ تَبْلِيغِهِ لِآيَاتِهِ ، وَبِمَاذَا أَجَابُوهُمْ وَمَا عَمِلُوا مِنْ إيمَانٍ وَكُفْرٍ ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَيَسْأَلُ الْمُرْسَلِينَ عَنِ التَّبْلِيغِ مِنْهُمْ وَالْإِجَابَةِ مِنْ أَقْوَامِهِمْ

.

(331/263)

بُيِّنَ هَذَا الْإِجْمَالُ فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) (61 : 130) وَفِي سُورَةِ الْقَصَصِ : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) (28 : 65) وَفِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : (وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (13 :29) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) (16 : 56) وَهُوَ مَا ابْتَدَعُوهُ فِي الدِّينِ كَجَعْلِهِمْ لِمَعْبُودَاتِهِمْ نَصِيبًا مِمَّا رُزِقُوا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ ، يَتَقَرَّبُونَ إلَيْهِمْ بِهَا بِنَذْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إلَى اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَمِنْهُ مَا يُنْذِرُهُ الْقُبُورِيُّونَ لِأَوْلِيَائِهِمْ ، وَأَعَمُّ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي النَّحْلِ أَيْضًا : (وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(16 : 93) وَهُوَ خِطَابٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، وَمِثْلُهُ فِي التَّأْكِيدِ وَالْعُمُومِ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (15 : 92 ، 93) وَمِنْهُ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْمَشَاعِرِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ : (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (7 : 36) وَقَالَ تَعَالَى فِي سُؤَالِ الرُّسُلِ : (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) (5 : 109) وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ .

(332/263)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : نَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا أَجَابُوا الْمُرْسَلِينَ ، وَنَسْأَلُ الْمُرْسَلِينَ عَمَّا بَلَّغُوا . وَنَحْوُهُ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَقِيلَ : إِنَّ " الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ " هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ ، وَ " الْمُرْسَلِينَ " هُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ نَزَلُوا عَلَيْهِمْ بِالْوَحْيِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : جِبْرِيلُ خَاصَّةً ، وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ : فَإِنَّ الرُّسُلَ يُسْأَلُونَ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى أَقْوَامِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (4 : 41) وَلَا حَاجَةَ إِلَى شَهَادَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الرُّسُلِ لِئَلَّا يُنْكِرُوا الرِّسَالَةَ ، فَمَا هِيَ ذَنْبٌ يَتَوَقَّعُ إِنْكَارُهُ مِنْهُمْ لَوْ لَمْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ مِنْ ذَلِكَ . وَفِي السُّؤَالِ الْعَامِّ وَمَا يُسْأَلُ عَنْهُ النَّاسُ أَحَادِيثُ سَيَأْتِي بَعْضُهَا

.

فَإِنْ قِيلَ : هَذِهِ الْآيَاتُ تُثْبِتُ السُّؤَالَ الْعَامَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَشْمَلُ الْعَقَائِدَ وَالْأَعْمَالَ وَهِيَ حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ : (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (28 : 78) وَفِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (55 : 39) قُلْنَا : قَدْ أَجَابَ الْمُفَسِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِأَجْوِبَةٍ أَشَرْنَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 129) إِلَى بَعْضِهَا ، وَهُوَ أَنَّ لِلْقِيَامَةِ مَوَاقِفَ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْيَوْمِ وَالسُّؤَالِ وَالْجَوَابِ وَالِاعْتِذَارِ يَكُونُ فِي بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ . وَالصَّوَابُ أَنَّ نَفْيَ السُّؤَالِ عَنِ الذَّنْبِ فِي آيَةِ الرَّحْمَنِ لَا إِشْكَالَ فِيهِ لِأَنَّ مَا بَعْدَ الْآيَةِ يُفَسِّرُهَا بِأَنَّ الْمُرَادَ لَا يُسْأَلُ أَحَدٌ عَنْ ذَنْبِهِ لِأَجْلِ أَنْ يُعْرَفَ الْمُجْرِمُ وَيَمْتَازَ مِنْ غَيْرِهِ ، إِذْ قَالَ بَعْدَهَا : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) (55 : 41) وَهُوَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : لِمَ لَا يُسْأَلُونَ وَبِمَ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ مِنْهُمْ وَيَمْتَازُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ فَقَالَ : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) وَلَا مَنْدُوحَةَ عَنْ حَمْلِ آيَةِ الْقَصَصِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَالْأَوَّلِ ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّ الْمُذْنِبَ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ هَلْ أَذْنَبْتَ أَوْ هَلْ فَعَلْتَ كَذَا مِنَ الذُّنُوبِ ؟ أَيْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ مِنْهُ بِذُنُوبِهِ وَقَدْ أَحْصَاهَا عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَهُوَ يَجِدُ مَا

(334/263)

عَمِلَ حَاضِرًا فِي كِتَابِهِ مُتَمَثِّلًا فِي نَفْسِهِ ، مَعْرُوضًا لَهَا فِيمَا يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْضَائِهِ وَجَوَارِحِهِ – وَإِنَّمَا يَسْأَلُهُ لِمَ عَمِلَ كَذَا – أَيْ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ بِهِ ، وَهُوَ يَتَّفِقُ مَعَ تَفْسِيرِهِ هُنَا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ) قَالَ : يُوضَعُ الْكِتَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا

(335/263)

كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَصْلُ الْقَصِّ تَتَبُّعُ الْأَثَرِ ، فَيَكُونُ بِالْعَمَلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أُمِّ مُوسَى : (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) (28 : 11) وَبِالْقَوْلِ ، وَمِنْهُ : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) (12 : 3) وَهِيَ الْأَخْبَارُ الْمُتَتَبَّعَةُ كَمَا حَقَّقَهُ الرَّاغِبُ فَلَيْسَ كُلُّ خَبَرٍ قَصَصًا ، أَيْ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَى الرُّسُلِ وَعَلَى أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ كُلَّ مَا وَقَعَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ قَصَصًا بِعِلْمٍ مِنَّا ، يُحِيطُ بِكُلِّ مَا كَانَ مِنْهُمْ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، أَوْ عَالِمِينَ بِكُلِّ مَا كَانَ مِنْهُمْ وَمَا كَتَبَهُ الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ عَنْهُمْ (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) عَنْهُمْ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَلَا وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ،

بَلْ كُنَّا مَعَهُمْ نَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ وَنُبْصِرُ مَا يَعْمَلُونَ ، وَنُحِيطُ عِلْمًا بِمَا يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ ، كَمَا قَالَ : (وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) (4 : 108) فَالسُّؤَالُ لِأَجْلِ الْبَيَانِ وَالْإِعْلَامِ ، لَا لِأَجْلِ الِاسْتِبَانَةِ وَالِاسْتِعْلَامِ ، وَهَذَا الْقَصَصُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْحِسَابُ وَيَتْلُوهُ الْجَزَاءُ ، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي بَيَانِهِ كَثِيرَةٌ .

(336/263)

أَمَّا الْآيَاتُ فَتَأْتِي فِي مَوَاضِعِهَا ، وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَمِنْهَا حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : فَالْإِمَامُ يُسْأَلُ عَنِ النَّاسِ ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ ، وَالْمَرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَالْعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ " وَوَرَدَ بِأَلْفَاظٍ أُخْرَى . وَفِي مَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَأَعِدُّوا لِلْمَسَائِلِ جَوَابًا " قَالُوا : وَمَا جَوَابُهَا ؟ قَالَ : " أَعْمَالُ الْبِرِّ " وَفِي مَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ " إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ ذِي رَعِيَّةٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ أَقَامَ أَمْرَ اللَّهِ

(337/263)

فِيهِمْ أَمْ ضَيَّعَهُ . حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَلُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ " وَمَا رَوَاهُ فِي الْكَبِيرِ عَنِ الْمِقْدَامِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَا يَكُونُ رَجُلٌ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا جَاءَ يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ رَايَةٌ يَحْمِلُهَا وَهُمْ يَتْبَعُونَهُ ، فَيُسْأَلُ عَنْهُمْ وَيُسْأَلُونَ عَنْهُ " وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ " أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْظَرُ فِي صِلَاتِهِ ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ " وَمَا رَوَاهُ هُوَ وَالْبَزَّارُ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ حَاسَبَهُ اللهُ حِسَابًا يَسِيرًا وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ – قَالُوا : وَمَا هِيَ قَالَ – تُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ " وَرَوَى أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ

(338/263)

مَرْفُوعًا " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ . قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ

فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ . قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ – وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَّادٌ فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ " .

(339/263)

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ مَرْفُوعًا وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ : " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا عَمِلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ " وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ بِلَفْظِ " لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ " وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنِ بْنِ قَيْسٍ ، وَحُسَيْنٌ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ اهـ . وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تُذْكَرُ كَثِيرًا فِي بَعْضِ خُطَبِ

الْجُمُعَةِ وَذَكَرَ السَّفَارِينِيُّ فِي شَرْحِ عَقِيدَتِهِ أَنَّ الْبَزَّارَ وَالطَّبَرَانِيَّ رَوَيَاهُ بِهِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ بِلَفْظِ " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ " إلخ .

وَرَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ مَرْفُوعًا " الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي " عَلَّمَ عَلَيْهِ السُّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِالصِّحَّةِ . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ بَعْدَ ذِكْرِهِ – وَآخِرُهُ عِنْدَهُ"

(340/263)

وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ " – هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَمَعْنَى " دَانَ نَفْسَهُ " حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يُخَفَّفُ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا اهـ .

وَلَمَّا كَانَ الْجَزَاءُ عَلَى حَسَبِ الْأَعْمَالِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ تَنْضَبِطُ وَتُقَدَّرُ بِالْوَزْنِ وَإِقَامَةِ الْمِيزَانِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ .

(341/263)

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ) قَالَ الرَّاغِبُ : الْوَزْنُ مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشَّيْءِ . يُقَالُ وَزَنْتُهُ وَزْنًا وَزِنَةً . وَالْمُتَعَارَفُ فِي الْوَزْنِ عِنْدَ الْعَامَّةِ مَا يُقَدَّرُ بِالْقِسْطِ وَالْقَبَّانِ اهـ . وَتَفْسِيرُهُ الْوَزْنُ بِالْمَعْرِفَةِ تَسَاهُلٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَلٌ يُرَادُ بِهِ تَعَرُّفُ مِقْدَارِ الشَّيْءِ بِالْآلَةِ الَّتِي تُسَمَّى الْمِيزَانَ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْهُ ، وَبِالْقِسْطَاسِ وَهُوَ مِنَ الْقِسْطِ وَمَعْنَاهُ النَّصِيبُ الْعَادِلُ أَوْ بِالْعَدْلِ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ ، وَأُطْلِقَ عَلَى الْعَدْلِ مَجَازًا ، وَكَذَا الْمِيزَانُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ) (4 : 17) وَقَوْلُهُ فِي الرُّسُلِ كَافَّةً : (وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) (57 : 25) وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ اسْتَقَامَ مِيزَانُ النَّهَارِ . إِذَا انْتَصَفَ . وَلَيْسَ لِفُلَانٍ وَزْنٌ - أَيْ قَدْرٌ لِخِسَّتِهِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (18 : 105) قَالَ الرَّاغِبُ وَقَوْلُهُ : (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ) (7 : 8) فَإِشَارَةٌ إِلَى الْعَدْلِ فِي مُحَاسَبَةِ النَّاسِ كَمَا قَالَ : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (21 : 47) أَيْ وَلِذَلِكَ . قَالَ عَقِبَهُ (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (21 : 47) وَالتَّجَوُّزُ بِالْوَزْنِ وَالْمِيزَانِ فِي الشِّعْرِ كَثِيرٌ .

(342/263)

وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ : وَالْوَزْنُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي يَسْأَلُ اللهُ فِيهِ الرُّسُلَ وَالْأُمَمَ ، وَيَقُصُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا كَانَ مِنْهُمْ ، هُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَحِقُّ بِهِ الْأُمُورُ وَتُعْرَفُ بِهِ حَقِيقَةُ كُلِّ أَحَدٍ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . وَذَهَبَ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ الْإِعْرَابِ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى : أَنَّ الْوَزْنَ الْحَقُّ كَائِنٌ يَوْمَئِذٍ ، لَا أَنَّ الْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ حَقٌّ ، فَالْحَقُّ صِفَةٌ لِلْوَزْنِ وَيَوْمَئِذٍ هُوَ الْخَبَرُ عَنْهُ أَوِ الْمَعْنَى وَالْوَزْنُ كَائِنٌ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ الْحَقُّ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ .

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) قِيلَ : إِنَّ الْمَوَازِينَ جَمْعُ مِيزَانٍ فَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ لِكُلِّ امْرِئٍ مِيزَانٌ وَقِيلَ : لِكُلِّ عَمَلٍ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ وَاحِدٌ وَأَنَّهُ يُجْمَعُ بِاعْتِبَارِ الْمُحَاسَبِينَ وَهُمُ النَّاسُ أَوْ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْعَرَبِ : سَافَرَ فُلَانٌ عَلَى الْبِغَالِ وَإِنْ رَكِبَ بَغْلًا وَاحِدًا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَوَازِينَ جَمْعُ مَوْزُونٍ ، وَالْمَعْنَى فَمَنْ رَجَحَتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِ بِالْإِيمَانِ وَكَثْرَةِ حَسَنَاتِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّعِيمِ فِي دَارِ الثَّوَابِ (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

(343/263)

أَيْ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِ بِالْكُفْرِ وَكَثْرَةِ سَيِّئَاتِهِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، إِذْ حُرِمُوا السَّعَادَةَ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لَهَا لَوْ لَمْ يُفْسِدُوا فِطْرَتَهَا بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ، بِسَبَبِ مَا

كَانُوا يَظْلِمُونَهَا بِكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ مُسْتَمِرِّينَ عَلَى ذَلِكَ مُصِرِّينَ عَلَيْهِ إِلَى نِهَايَةِ أَعْمَارِهِمْ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ ، وَعُدِّيَ الظُّلْمُ بِالْبَاءِ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الْكُفْرِ وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (آيَةِ 103) وَفِي غَيْرِهَا .

(344/263)

وَظَاهِرُ هَذَا التَّقْسِيمِ أَنَّهُ لِفَرِيقَيِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْفَلَاحِ ، وَالْكَافِرِينَ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْخُسْرَانِ ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا فَهُوَ مُفْلِحٌ وَإِنْ عُذِّبَ عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِهَا ، فَهَذَا الْوَزْنُ الْإِجْمَالِيُّ الَّذِي يَمْتَازُ بِهِ فَرِيقُ الْجَنَّةِ وَفَرِيقُ السَّعِيرِ ، وَهُنَالِكَ قِسْمٌ ثَالِثٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَيَتْبَعُ الْوَزْنُ الْإِجْمَالِيُّ الْوَزْنَ التَّفْصِيلِيَّ لِلْفَرِيقَيْنِ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : إِنَّ الْوَزْنَ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي الْكَافِرِينَ : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) وَأَجَابَ الْآخَرُونَ بِأَنَّ مَعْنَاهُ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا فِي بَحْثِ الْوَزْنِ فِي اللُّغَةِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُمْ قِيمَةٌ وَلَا قَدْرٌ ، وَهُوَ لَا يَنْفِي وَزْنَ أَعْمَالِهِمْ وَظُهُورَ خِفَّتِهَا وَخُسْرَانِهِمْ وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ

آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (23 : 102 - 105) وَمِنَ الْمُسْتَغْرَبِ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ آيَتَيِ الْمَوَازِينِ فِي الثِّقَلِ وَالْخِفَّةِ مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ الْكُفَّارَ لَا يُحَاسَبُونَ

(345/263)

مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ ؛ إِذْ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ فَتُحْصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرُّونَ بِهَا وَيُجْزَوْنَ بِهَا . وَهُوَ سَهْوٌ سَبَبُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مَا كَانَ عَلِقَ بِذِهْنِهِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، وَمَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا وَلَهُ حَسَنَاتٌ وَلَكِنَّ الْكُفْرَ يُحْبِطُهَا فَتَكُونُ هَبَاءً مَنْثُورًا وَهِيَ تُحْصَى مَعَ السَّيِّئَاتِ وَتُضْبَطُ بِالْوَزْنِ الَّذِي بِهِ يَظْهَرُ مِقْدَارُ الْجَزَاءِ وَتَفَاوُتُهُمْ فِيهِ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنِ الْكَافِرِ بِسَبَبِ عَمَلِهِ الصَّالِحِ بِمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنَ التَّخْفِيفِ عَنْ أَبِي طَالِبٍ بِمَا كَانَ مِنْ حِمَايَتِهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُبِّهِ لَهُ ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ الْخُصُوصِيَّةُ فِي نَوْعِ التَّخْفِيفِ وَمِقْدَارِهِ ، إِذْ مِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَالْمُجْمَعِ عَلَيْهِ أَنَّ عَذَابَ الْكُفَّارِ مُتَفَاوِتٌ ، وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ عَذَابُ أَبِي جَهْلٍ كَعَذَابِ أَبِي طَالِبٍ لَوْلَا الْخُصُوصِيَّةُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) (4 : 40) وَمِنَ الْمَشَاهِدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَنَّ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ وَيَعْبُدُهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ ،

وَالْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ إنَّمَا أَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ فِي الْحُبِّ وَالْعِبَادَةِ كَمَا

قَالَ فِي

(346/263)

أَنْدَادِهِمْ : (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ 2 : 165) - وَهُوَ يَتَضَمَّنُ إثْبَاتَ حُبِّهِمْ لِلَّهِ - وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَصِلُونَ الْأَرْحَامَ وَيَفْعَلُونَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ، وَيَمْتَنِعُونَ عَنِ الْفَوَاحِشِ خَوْفًا مِنَ اللهِ . فَهَلْ يُسَوِّي الْحَكَمُ الْعَدْلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُرْتَكِبِي الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْجِنَايَاتِ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَا سِيَّمَا الْجَاحِدِينَ الْمُعَطِّلِينَ وَمُكَذِّبِي الرُّسُلِ مِنْهُمْ ؟ حَاشَ لِلَّهِ . نَعَمْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ مُسْلِمٍ بِأَنَّهُمْ يُجَازَوْنَ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ لَا يَمْنَعُ وَزْنَهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَلَّا يَكُونَ لَهَا مَعَ الْكُفْرِ وَالسَّيِّئَاتِ دَخْلٌ فِي رُجْحَانِ مَوَازِينِهِمْ .

(347/263)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْوَزْنِ وَالْمَوَازِينِ ، هَلْ هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْعَدْلِ التَّامِّ فِي تَقْدِيرِ مَا بِهِ يَكُونُ الْجَزَاءُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَتَأْثِيرِهَا فِي إصْلَاحِ الْأَنْفُسِ وَتَزْكِيَتِهَا ، وَفِي

إِفْسَادِهَا وَتَدْسِيَّتِهَا ، أَمْ هُنَاكَ وَزْنٌ حَقِيقِيٌّ ، حِكْمَتُهُ إِظْهَارُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ وَعَدْلِهِ فِي جَزَائِهِمْ عَلَيْهَا ؟ ذَهَبَ إِلَى الْأَوَّلِ مُجَاهِدٌ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ - وَكَذَا الْأَعْمَشُ وَالضَّحَّاكُ حَكَاهُ الرَّازِيُّ عَنْهُمَا - وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي الْآيَةِ كَمَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ) قَالَ : الْعَدْلُ (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) قَالَ حَسَنَاتُهُ . (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) قَالَ سَيِّئَاتُهُ اهـ . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ نَحْوَهُ عَنْهُ وَسَيَأْتِي فِيمَا لَخَّصَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ .

(348/263)

وَالْجُمْهُورُ عَلَى الثَّانِي ، بَلْ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ - كَمَا نَقَلَ الْحَافِظُ عَنْهُ - أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْمِيزَانِ ، وَأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ لِسَانٌ وَكِفَّتَانِ وَيَمِيلُ بِالْأَعْمَالِ . وَأَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمِيزَانَ وَقَالُوا هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْعَدْلِ فَخَالَفُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لِأَنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَضَعُ الْمَوَازِينَ لِوَزْنِ الْأَعْمَالِ لِيَرَى الْعِبَادُ أَعْمَالَهُمْ مُمَثَّلَةً لِيَكُونُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَاهِدِينَ . وَقَالَ ابْنُ فُورَكٍ : أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمِيزَانَ بِنَاءً مِنْهُمْ عَلَى أَنَّ الْأَعْرَاضَ يَسْتَحِيلُ وَزْنُهَا إِذْ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا . قَالَ : وَقَدْ رَوَى بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْلِبُ الْأَعْرَاضَ أَجْسَامًا فَيَزِنُهَا . انْتَهَى .

(349/263)

نَقَلَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ مَا ذُكِرَ فِي شَرْحِ آخَرِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْبُخَارِيِّ وَهُوَ (بَابُ قَوْلِ اللهِ : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (21 : 47) وَأَنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَقَوْلَهُمْ تُوزَنُ) وَقَفَّى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى أَنَّ الْمِيزَانَ بِمَعْنَى الْعَدْلِ وَالْقَضَاءِ فَأَسْنَدَ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) قَالَ : إِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ ، كَمَا يَجُوزُ وَزْنُ الْأَعْمَالِ كَذَلِكَ يَجُوزُ الْحَطُّ وَمِنْ طَرِيقِ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : الْمَوَازِينُ الْعَدْلُ . وَالرَّاجِحُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ . وَأَخْرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ اللَّالِكَائِيُّ فِي السُّنَّةِ عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ : يُوضَعُ الْمِيزَانُ وَلَهُ كِفَّتَانِ لَوْ وُضِعَ فِي إِحْدَاهُمَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

وَمَنْ فِيهِنَّ لَوَسِعَتْهُ – وَمِنْ طَرِيقِ

(350/263)

عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ : ذُكِرَ الْمِيزَانُ عِنْدَ الْحَسَنِ فَقَالَ : لَهُ لِسَانٌ وَكِفَّتَانِ . وَقَالَ الطِّيبِيُّ : قِيلَ إِنَّمَا تُوزَنُ الصُّحُفُ . وَأَمَّا الْأَعْمَالُ فَإِنَّهَا أَعْرَاضٌ فَلَا تُوصَفُ بِثِقَلٍ وَلَا خِفَّةٍ . وَالْحَقُّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَعْمَالَ حِينَئِذٍ تُجَسَّدُ أَوْ تُجْعَلُ فِي أَجْسَامٍ فَتَصِيرُ أَعْمَالُ الطَّائِعِينَ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ وَأَعْمَالُ الْمُسِيئِينَ فِي صُورَةٍ قَبِيحَةٍ ثُمَّ تُوزَنُ ، وَرَجَّحَ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الصَّحَائِفُ الَّتِي تُكْتَبُ فِيهَا الْأَعْمَالُ ، وَنُقِلَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : تُوزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ قَالَ : فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالصُّحُفُ أَجْسَامٌ فَيَرْتَفِعُ الْإِشْكَالُ ، وَيُقَوِّيهِ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ الَّذِي أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَالْحَاكِمُ صَحَّحَهُ وَفِيهِ " فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ " انْتَهَى . وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْأَعْمَالَ هِيَ الَّتِي تُوزَنُ ، وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَثْقَلُ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ " وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَفَعَهُ " تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ دَخَلَ النَّارَ - قِيلَ : وَمَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ ؟ قَالَ : أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ " أَخْرَجَهُ

(351/263)

خَيْثَمَةُ فِي فَوَائِدِهِ ، وَعِنْدَ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي الزُّهْدِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ نَحْوُهُ مَوْقُوفًا . وَأَخْرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ اللَّالِكَائِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ عَنْ حُذَيْفَةَ مَوْقُوفًا أَنَّ صَاحِبَ الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اهـ . مَا لَخَّصَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ .

أَقُولُ : وَقَدِ اسْتَقْصَى السُّيُوطِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ مَا وَرَدَ فِي الْمِيزَانِ أَوِ الْوَزْنِ مِنَ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ وَالسَّقِيمَةِ أَوْ جُلِّهِ ، وَلَيْسَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْهَا إِلَّا مَا خَتَمَ بِهِ الْبُخَارِيُّ صَحِيحَهُ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَرْفُوعُ "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ " وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَا فِي كُتُبِ السُّنَنِ الْمُعْتَمِدَةِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَرْفُوعٌ فِي صِفَةِ الْمِيزَانِ وَلَا فِي أَنَّ لَهُ كِفَّتَيْنِ وَلِسَانًا فَلَا نَغْتَرُّ بِقَوْلِ الزَّجَّاجِ . إِنَّ هَذَا مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ . فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُصَنِّفِينَ يَتَسَاهَلُونَ بِإِطْلَاقِ كَلِمَةِ الْإِجْمَاعِ وَلَا سِيَّمَا غَيْرُ الْحُفَّاظِ الْمُتْقِنِينَ ، وَالزَّجَّاجُ لَيْسَ مِنْهُمْ ، وَيَتَسَاهَلُونَ فِي عَزْوِ كُلِّ مَا يُوجَدُ فِي كُتُبِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى جَمَاعَتِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ السَّلَفِ ، وَلَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْخَلَفُ مِنْهُمْ ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ كَمَا عَلِمْتُ ،

(352/263)

فَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْوَزْنَ بِمِيزَانٍ ، هَلْ هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ أَمْ لِكُلِّ شَخْصٍ أَوْ لِكُلِّ عَمَلٍ مِيزَانٌ ؟ وَفِي الْمَوْزُونِ بِهِ حَتَّى قِيلَ إِنَّهُ الْأَشْخَاصُ لَا الْأَعْمَالُ ، وَفِي صِفَةِ الْمَوْزُونِ وَالْوَزْنِ ، وَفِيمَنْ يُوزَنُ لَهُمْ ، أَلِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً أَمْ لَهُمْ وَلِلْكُفَّارِ ؟ وَفِي صِفَةِ الْخِفَّةِ وَالثِّقَلِ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

وَلِهَذَا الْخِلَافِ ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ : (أَحَدُهَا) اخْتِلَافُ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ عَنِ السَّلَفِ وَأَكْثَرُهَا لَا يَصِحُّ وَلَا يُحْتَجُّ بِمِثْلِهِ فِي الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ فَضْلًا عَنِ الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ .

(ثَانِيهَا) الِاخْتِلَافُ فِي فَهْمِهَا .

(353/263)

(ثَالِثُهَا) الرَّأْيُ وَالتَّخَيُّلُ وَالْقِيَاسُ مَعَ الْفَارِقِ فَإِنَّ الْخَلَفَ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَى مَذَاهِبِ السُّنَّةِ خَاضُوا فِيمَا خَاضَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنْ تَحْكِيمِ الرَّأْيِ فِي أُمُورِ الْغَيْبِ ، فَالْمُعْتَزِلَةُ أَخْطَئُوا فِي قِيَاسِ عَالَمِ الْغَيْبِ عَلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَإِنْكَارِ وَزْنِ الْأَعْمَالِ بِحُجَّةِ أَنَّهَا أَعْرَاضٌ لَا تُوزَنُ وَأَنَّ عِلْمَ اللهِ بِهَا يُغْنِي عَنْ وَزْنِهَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بَعْضُ الْمُنْتَمِينَ إِلَى السُّنَّةِ رَدًّا مَبْنِيًّا عَلَى أَسَاسِ مَذْهَبِهِمْ فِي قِيَاسِ عَالَمِ الْغَيْبِ عَلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَتَطْبِيقِ أَخْبَارِ الْآخِرَةِ عَلَى الْمَعْهُودِ الْمَأْلُوفِ فِي الدُّنْيَا فَزَعَمُوا أَنَّ الْأَعْمَالَ تَتَجَسَّدُ وَتُوزَنُ أَوْ تُوضَعُ فِي صُوَرٍ مُجَسَّمَةٍ أَوْ أَنَّ

الصَّحَائِفَ الَّتِي تُكْتَبُ فِيهَا الْأَعْمَالُ هِيَ الَّتِي تُوزَنُ بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا كَصَحَائِفَ الدُّنْيَا إِمَّا رِقٌّ (جِلْدٌ) وَإِمَّا وَرَقٌ .

(354/263)

وَالْأَصْلُ الَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ فِي الْإِيمَانِ بِعَالَمِ الْغَيْبِ أَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ مِنْ أَخْبَارِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُحَكِّمُ رَأْيَنَا فِي صِفَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ . فَنُؤْمِنُ إِذًا بِأَنَّ فِي الْآخِرَةِ وَزْنًا لِلْأَعْمَالِ قَطْعًا ، وَنُرَجِّحُ أَنَّهُ بِمِيزَانٍ يَلِيقُ بِذَلِكَ الْعَالَمِ يُوزَنُ بِهِ الْإِيمَانُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْأَعْمَالُ ، لَا نَبْحَثُ عَنْ صُورَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ وَلَا عَنْ كِفَّتَيْهِ إِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ فِيهِمَا كَمَا صَوَّرَهُ الشَّعْرَانِيُّ فِي مِيزَانِهِ . وَيُؤْخَذُ مِنْ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِاعْتِبَارِ تَأْثِيرِهَا فِي النَّفْسِ مِنْ تَزْكِيَةٍ أَوْ تَدْسِيَةٍ وَهُوَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ جُلُّ الْجَزَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ . وَإِذَا كَانَ الْبَشَرُ قَدِ اخْتَرَعُوا مَوَازِينَ لِلْأَعْرَاضِ كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، أَفَيَعْجِزُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَنْ وَضْعِ مِيزَانٍ لِلْأَعْمَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ بِمَا أَحْدَثَتْهُ فِي الْأَنْفُسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ ؟ ! وَالنَّقْلُ وَالْعَقْلُ مُتَّفِقَانِ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ بِصِفَاتِ النَّفْسِ الثَّابِتَةِ لَا بِمُجَرَّدِ مَا كَانَ سَبَبًا لَهَا مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالْأَعْرَاضِ الزَّائِلَةِ : قَالَ

تَعَالَى : (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (6 : 139) وَقَالَ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ

(355/263)

دَسَّاهَا) (91 : 7 - 10) وَفِي سُورَةِ الْأَعْلَى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (87 : 14 ، 15) وَقَدْ حَقَّقْنَا هَذَا الْبَحْثَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ آخِرُهَا تَفْسِيرُ خَاتِمَةِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

وَتَقَدَّمَ أَنَّ حِكْمَةَ وَزْنِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْحِسَابِ أَنَّهُ يَكُونُ أَعْظَمُ مَظْهَرٍ لِعَدْلِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَيْ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَظَمَتِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ، إِذْ يَرَى فِيهِ عِبَادُهُ أَفْرَادًا وَشُعُوبًا وَأُمَمًا ذَلِكَ بِأَعْيُنِهِمْ ، وَيَعْرِفُونَهُ مَعْرِفَةَ إِدْرَاكٍ وَوِجْدَانٍ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ أَعْمَالَهُمْ تَتَجَلَّى لَهُمْ فِيهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ تَتَجَلَّى لَهُمْ وَلِسَائِرِ الْخَلْقِ فِي خَارِجِهَا ثَانِيًا ، فَيَا لَهُ مِنْ مَنْظَرٍ مَهِيبٍ ، وَيَا لَهُ مِنْ مَظْهَرٍ رَهِيبٍ ، وَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ قَالَ إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، لِلِاسْتِغْنَاءِ بِعِلْمِ اللَّهِ عَنْهُ .

(356/263)

وَلَوْلَا تَحْكِيمُ النَّاسِ الرَّأْيَ وَالْخَيَالَ فِيمَا لَا مَجَالَ لَهُمَا فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ ، وَاهْتِمَامُهُمْ بِكُلِّ مَا رُوِيَ فِيهِ عَنِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، لَكُنَّا فِي غِنًى عَنْ إِطَالَةِ الْكَلَامِ فِي حِكَايَةِ تِلْكَ الِاخْتِلَافَاتِ ، بِالِاخْتِصَارِ فِي بَيَانِ الْعَقَائِدِ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، ثُمَّ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُخَرَّجَةِ فِي دَوَاوِينِ السُّنَّةِ الْمَشْهُورَةِ ، دُونَ الشَّاذَّةِ وَالْغَرِيبَةِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْغَرِيبَةِ فِي هَذَا الْبَابِ " حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ " الَّذِي سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي " بَابِ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَرْفُوعًا وَلَفْظُهُ " إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَيُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ - فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ فَقَالَ : فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ . (قَالَ) فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ

الْبِطَاقَةُ وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ " قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَتَصْحِيحُ الْحَاكِمِ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي سَنَدِ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَهُ مِمَّنْ تَكَلَّمَ فِيهِمْ غَيْرُ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَرِيكٍ الَّذِي بَالَغَ الْجُوزَجَانِيُّ فَوَصَفَهُ بِالْكَذِبِ لَكَفَى . وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَفِي سَنَدِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ الْخُرَاسَانِيُّ قَالُوا : إنَّ لَهُ مَنَاكِيرَ . وَطَرِيقُ الْجَمِيعِ وَاحِدَةٌ . وَجَعَلَهُ دَلِيلًا عَلَى كَوْنِ الْمِيزَانِ ذَا كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ غَيْرِ مُتَعَيِّنٍ لِإِمْكَانِ جَعْلِ الْكَلَامِ اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً ، وَجَعْلِ الْكِفَّةِ تَرْشِيحًا لَهَا فَإِنَّ بَابَ الْمَجَازِ فِي رُجْحَانِ الْعُقُولِ وَالْآرَاءِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ وَاسِعٌ جِدًّا ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالْوَزْنِ وَالْمِيزَانِ كَثِيرٌ كَمَا قُلْنَا ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْحَدِيثَ لَا يَنْهَضُ بِسَنَدِهِ وَلَا بِدَلَالَتِهِ حُجَّةً عَلَى عَقِيدَةٍ قَطْعِيَّةٍ وَلَا رَاجِحَةٍ ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ أَنَّ الْحَافِظَ بَعْدَ أَنْ نَقَلَ عَنِ الْقُرْطُبِيِّ تَرْجِيحَ وَزْنِ الصُّحُفِ وَالِاسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ بِالْحَدِيثِ تَقْوِيَةً لِأَثَرِ ابْنِ عُمَرَ بِهِ – قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْأَعْمَالَ هِيَ الَّتِي تُوزَنُ ، وَاسْتَدَلَّ بِحَدِيثِ وَزْنِ الْأَخْلَاقِ وَهُوَ صَحِيحٌ ، وَقَدْ عَدَّهُ مُعَارِضًا لِحَدِيثِ الْبِطَاقَةِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ دَرَجَتَهُ فِي الصِّحَّةِ .

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ الْعُلَمَاءُ مَتْنَ هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَلِمَةً مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَرْجَحُ

عَلَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الذُّنُوبِ وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَى إِبَاحَتِهَا وَالْإِغْرَاءِ بِهَا ، وَإِلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِكَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْمُرْجِئَةُ عَلَى قَوْلِهِمْ : إِنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ . وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجْوِبَةٍ لَعَلَّ أَقْوَاهَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ التِّرْمِذِيُّ مِنْ أَنَّ وَجْهَ تَخْلِيصِ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ بِالشَّهَادَتَيْنِ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا فَآمَنَ فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَا خِلَافَ فِي نَجَاةِ مِثْلِهِ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ هَذِهِ السُّورَةَ بِذِكْرِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ لِيُنْذِرَ بِهِ جَمِيعَ الْبَشَرِ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ ، وَبَيَانِ أَسَاسِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ وَهُوَ أَنَّ وَاضِعَ الدِّينِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى رَبُّ الْعِبَادِ ، فَالْوَاجِبُ فِيهِ اتِّبَاعُ مَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ وَأَلَّا يَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ وَيَعْمَلُونَ بِمَا يَأْمُرُونَهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةٍ وَحَلَالٍ وَحَرَامٍ ، وَأَنَّهُ قَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِبَيَانِ نَوْعَيِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَ بِهِ مَنْ يَتَّبِعُونَ أُولَئِكَ الْأَوْلِيَاءَ أَيْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ فَهَذَا مَوْضُوعُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ .

(359/263)

وَلَمَّا كَانَ الدِّينُ الَّذِي أَمَرَ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ التَّنْزِيلِ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ - إلَّا مَا بَيَّنَهُ مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ بِأَمْرِهِ - هُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ الْمُبَيِّنُ لِكُلِّ مَا يُوَصِّلُهَا إلَى كَمَالِهَا ، وَالنَّاهِي لَهَا عَنْ كُلِّ مَا يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَذَا الْكَمَالِ وَكَانَ افْتِتَانُ النَّاسِ بِأَمْرِ الْمَعِيشَةِ مِنْ أَسْبَابِ إفْسَادِ الْفِطْرَةِ بِالْإِسْرَافِ فِي الشَّهَوَاتِ ، مِنْ حَيْثُ إنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعِيشَةِ سَبَبًا

لِإِصْلَاحِهَا بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُوجِبِ لِلْمَزِيدِ مِنْهُ - لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ذَكَّرَ سُبْحَانَهُ النَّاسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ وَخَلْقِ أَنْوَاعِ الْمَعَايِشِ فِيهَا ، وَهُوَ بَدْءُ سِيَاقٍ طَوِيلٍ فِيهِ بَيَانُ خَلْقِ نَوْعِهِمُ الْإِنْسَانِيِّ مُسْتَعِدًّا لِلْكَمَالِ وَمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَصُدُّهُ عَنْهُ ، وَمَا يَنْبَغِي لِأَفْرَادِهِ مِنْ اتِّقَاءِ فِتْنَةِ هَذِهِ الْوَسْوَسَةِ وَعَدَمِ اتِّخَاذِ شَيَاطِينِهَا الْمُلْقِينَ لَهَا أَوْلِيَاءَ يَتْبَعُونَهُمْ دُونَ مَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى كُفْرِ النِّعَمِ عِوَضًا عَنِ الشُّكْرِ ، وَعَلَى تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ ، وَيَتْلُوهُ مَا شَرَعَهُ لَهُمْ مِنَ الزِّينَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ وَمَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ فِيهِمَا .

(360/263)

فَهَذَا السِّيَاقُ الِاسْتِطْرَادِيُّ أَوِ الْمُشْبِهُ لِلِاسْتِطْرَادِ يَبْتَدِئُ مِنَ الْآيَةِ الْعَاشِرَةِ إِلَى الْآيَةِ الثَّالِثَةِ وَالثَّلَاثِينَ ، ثُمَّ يَعُودُ الْكَلَامُ إِلَى ذِكْرِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ لِلْأُمَمِ وَجَزَاءِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَاتَّبَعَهُمْ وَمَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَعَصَاهُمْ ، وَفِيهِ تَفْصِيلٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ جَزَاءِ الْآخِرَةِ – فَتَأَمَّلْ دِقَّةَ بَلَاغَةِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهَا نَوْعٌ خَاصٌّ مِنْ أَنْوَاعِ إِعْجَازِهِ الْكَثِيرَةِ قَالَ تَعَالَى :

(361/263)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ) أَيْ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا أَوْطَانًا تَتَبَوَّءُونَهَا وَتَتَمَكَّنُونَ مِنَ الرَّاحَةِ فِي الْإِقَامَةِ فِيهَا ، وَتَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِاللَّامِ وَ (قَدْ) لِتَذْكِيرِ الْغَافِلِينَ عَنْ كَوْنِهِ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ بِهِ وَبِمَا عَطَفَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ : (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) جَمْعُ مَعِيشَةٍ وَهِيَ مَا تَكُونُ بِهِ الْعِيشَةُ وَالْحَيَاةُ الْجُسْمَانِيَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَغَيْرِهَا . أَيْ وَأَنْشَأْنَا لَكُمْ فِيهَا ضُرُوبًا شَتَّى مِمَّا تَعِيشُونَ بِهِ عِيشَةً رَاضِيَةً وَالنُّكْتَةُ فِي تَقْدِيمِ " لَكُمْ فِيهَا " عَلَى " مَعَايِشَ " مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يُقَدَّمَ الْمَفْعُولُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْفِعْلِ هُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ خَلْقِ الْمَعَايِشِ كَوْنُهَا نِعَمًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى النَّاسِ جَعَلَهُمْ مَالِكِينَ لَهَا ، مُتَمَكِّنِينَ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَا ، لَا كَوْنُهَا مَجْعُولَةً وَمَخْلُوقَةً ، وَالْقَاعِدَةُ فِي تَقْدِيمِ بَعْضِ الْكَلَامِ عَلَى بَعْضٍ هِيَ أَنْ يُقَدَّمَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَالْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ مِنْهُ كَمَا حَقَّقَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ

كَوْنَ الْمَعَايِشِ لَهُمْ أَهَمَّ مِنْ كَوْنِهَا فِي الْأَرْضِ الَّتِي مَكَّنَهُمْ فِيهَا - فَهَهُنَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ الْمَعَايِشُ وَكَوْنُهَا فِي الْوَطَنِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ الْمَرْءُ وَكَوْنُ الْمَرْءِ مَالِكًا لَهَا وَمُتَصَرِّفًا فِيهَا ، وَلَا مَشَاحَةَ فِي أَنَّ الْأَهَمَّ عِنْدَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِمَا يَعِيشُ بِهِ وَيَتْلُوهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ

(362/263)

فِي وَطَنِهِ وَيَتْلُوهُ أَنْوَاعُهُ وَأَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً وَهُوَ مَا أَفَادَهُ تَرْكِيبُ الْكَلِمَاتِ فِي الْآيَةِ وَلَا تَجِدُ هَذِهِ الدِّقَّةَ فِي تَقْدِيمِ مَا يَنْبَغِي وَتَأْخِيرِ مَا يَنْبَغِي مُطَّرِدَةً إلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْمَعَايِشُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى وَأَنْعَامٍ وَطَيْرٍ وَسَمَكٍ وَمِيَاهٍ صَافِيَةٍ وَأَشْرِبَةٍ مُخْتَلِفَةِ الطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ - وَكَانَتْ بِذَلِكَ - تَقْتَضِي شُكْرًا كَثِيرًا - وَكَانَ الشَّكُورُ مِنَ الْعِبَادِ قَلِيلًا (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) قَالَ تَعَالَى عَقِبَ الِامْتِنَانِ بِهَا : (قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) أَيْ شُكْرًا قَلِيلًا تَشْكُرُونَ هَذِهِ النِّعَمَ لَا كَثِيرًا يُنَاسِبُ كَثْرَتَهَا وَحُسْنَهَا وَكَثْرَةَ الِانْتِفَاعِ بِهَا . وَشُكْرُ النِّعْمَةِ لِلْمُنْعِمِ يَكُونُ أَوَّلًا بِمَعْرِفَتِهَا لَهُ وَالِاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ هُوَ مُسْدِيهَا وَالْمُنْعِمُ بِهَا - وَثَانِيًا بِالْحَمْدِ لَهُ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِهَا - وَثَالِثًا بِالتَّصَرُّفِ بِهَا فِيمَا يُحِبُّهُ وَيُرْضِيهِ وَهُوَ مَا أَسْدَاهَا لِأَجْلِهِ مِنْ حِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ . وَهُوَ هُنَا حِفْظُ حَيَاتِنَا الْبَدَنِيَّةِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ خَاصَّةً وَعَامَّةً وَالِاسْتِعَانَةُ بِذَلِكَ عَلَى حِفْظِ حَيَاتِنَا الرُّوحِيَّةِ الَّتِي تَكْمُلُ بِهَا

الْفِطْرَةُ بِتَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ وَتَأْهِيلِهَا لِحَيَاةِ الْآخِرَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، وَسَيَأْتِي فِي هَذَا السِّيَاقِ بَيَانٌ لِأُصُولِ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ 29 . . .) الخ .

(363/263)

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْمَبَاحِثِ اللَّفْظِيَّةِ قِرَاءَةُ نَافِعٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ (مَعَائِشَ) بِالْهَمْزِ ، وَغَلَّطَهُ سِيبَوَيْهِ وَمَنْ تَبِعَهُ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ أَنَّهُ لَا يُهْمَزُ بَعْدَ أَلِفِ الْجَمْعِ إِلَّا الْيَاءُ الزَّائِدَةُ فِي الْمُفْرَدِ كَصَحِيفَةٍ وَصَحَائِفَ ، وَيَاءُ مَعِيشَةٍ أَصْلِيَّةٌ فَيَجِبُ عِنْدَهُمْ أَنْ تَثْبُتَ فِي الْجَمْعِ كَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ الْمُتَوَاتِرَةُ ، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ عَنْ نَافِعٍ غَيْرُ مُتَوَاتِرَةٍ وَلِذَلِكَ عَدُّوهَا خَطَأً مِنْهُ . وَالصَّوَابُ أَنَّهُ رَوَاهَا وَهُوَ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَفْتَجِرَهَا افْتِجَارًا وَفِي الْمِصْبَاحِ قَوْلُ أُنَّهَا مِنْ مَعَشَ لَا مَنْ عَاشَ فَالْيَاءُ زَائِدَةٌ وَجَمْعُهَا مَعَائِشُ قَالَ : وَبِهِ قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَدَنِيُّ وَالْأَعْرَجُ أَيْ فِي الشَّوَاذِّ وَأَلْحَقَهَا الْمُفَسِّرُونَ وَبَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ بِمَا سُمِعَ عَنِ الْعَرَبِ مِنْ أَمْثَالِهَا كَمَصَائِبَ وَمَعَائِبَ ، وَقَالُوا إِنَّهُ مِنْ تَشْبِيهِ مَفَاعِلَ بِفَعَائِلَ . وَنَقُولُ إِنَّ الْعَرَبَ لَا حَجْرَ عَلَيْهِمْ بِمَا وَضَعَهُ غَيْرُهُمْ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الِاسْتِقْرَاءِ النَّاقِصِ ، وَالْقُرْآنُ أَعْلَى مِنْ كُلِّ كَلَامٍ فَأَوْلَى أَلَّا يُنْكَرَ مِنْهُ شَيْءٌ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ بِهِ لُغَةً عِنْدَ مَنْ رَوَاهَا وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ كَوْنُهَا قُرْآنًا إِلَّا بِالتَّوَاتُرِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 275 . 291 ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾

المُمَكَّن هو الذي يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال مكّنتك من كذا . أي أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكننا سبحانه في الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تغب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحراراتها . ما في الدنيا يؤدي مهمته ، ولم نُمكَّن في الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذي خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمَكَّن ، وكل شيء مستجيب لك . بتسخير الله له . ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأرض وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : 10]

و" معايش " جمع معيشة ، والمعيشة هي الحياة ، فالعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز في القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوّم أساسي في الحياة .

وقول الحق : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصًّا عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراً خاصًّا لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ في الأكل يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم " ، ويقول بعد الأكل : " الحمد لله " ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : " بسم الله " وعندما يمضغها ويبلعها يقول : " الحمد لله " لأنها لم تقف في حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : " بسم الله " . وننتهي منها فنقول : " الحمد لله " وكذلك في الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأتَّى منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه في جسمه ؛ لأنها كلها " بسم الله " . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعما كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ومن الحمق ألا نشكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ الآية .

لم يبين هنا كيفية هذه المعايش التي جعل لنا في الأرض ، وكلنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ إِلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرض شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : 24-32] .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأَرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] ، وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى ﴾ [طه : 53-54] .

وذكر كثيراً من ذلك في سورة النحل كقوله : ﴿ والأَنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : 5] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(367/263)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " وجَعَلْنَا لكم " يجوز أن يكون " جَعَلَ " بمعنى " خَلَقَ " فيتعدَّى لواحد فيتعلَّقُ الجاران بـ " مَعَايِشَ " ، والثَّاني أحد الجارين ، والآخر : إمَّا حال متعلِّقَةٌ بمحذوف ، وإمَّا متعلِّقةٌ بنفس الجعل وهو الظَّاهِرُ .

و " مَعَايِش " جمع مَعيشَةٍ ، وفيها ثلاثةُ مذاهب :

مذهبُ سيبويه والخَلِيل : أنَّ وزنها مَفْعُلَةٍ بضَمِّ العين ، أو مَفْعِلة بكسرها ، فعلى الأوَّلِ جُعلتِ الضَّمَّةُ كَسْرَةً ، ونُقِلَتْ إلى فَاءِ الكَلِمَةِ .

وقياس قول الأَخْفَشِ في هذا النَّحوِ أن يغيِّر الحرفَ لا الحَرَكَة ، ف " معيشة " عنده شَاذَّةٌ إذْ كان يَنْبَغِي أَن يقال فيها مَعُوشة .

وأمَّا على قولنا إنَّ أصلها " مَعِيشَةٌ " بكسر العين فلا شُذُوذَ فيها ومذهب الفرَّاءِ : أنَّ

وزنها مَفْعلة بفتح العين ، وليس بشيءٍ .

والمعيشةُ اسمٌ لما يُعاشُ به أي : يُحْيا وقال الزَّجَّاجُ : المعيشةُ ما يتوصلون به إلى العيش وهي في الأصل مصدر لـ " عَاشَ " يعيشُ عَيْشاً ، وعِيْشَةً قال تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] ، ومَعَاشاً : قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 11] ، ومَعِيشاً قال رُؤبةُ : [الرجز]

2406 - إلَيْكَ أشْكُوا شِدَّةَ المَعيشِ . . .

وَجُهْدَ أعْوَامٍ تَنَفْنَ رِيشِي

والعامَّةُ على " مَعَايشَ " بصريح الياءِ .

وقد خرج خارجةُ فَرَوَى عن نافع " مَعَائِشَ " بالهَمْزِ ، وقال النَّحْوِيُّون : هذا غَلَطٌ ؛ لأَنَّهُ لا يهمز عندهم إلا ما كان فيه حرفُ المدّ زائداً نحو : صَحَائِف ومَدَائِن ، وأمَّا " مَعَايِش " فالياءُ أصلٌ ؛ لأنها من " العَيْشِ " .

قال الفَارِسيُّ - عن أبي عثمان - : " أصل أُخْذِ هذه القراءة عن نَافعٍ " قال : " ولَمْ يَكُنْ يَدْرِي ما العَرَبِيَّةُ " .

(368/263)

قال شهابُ الدّينِ : وقد فعلتِ العربُ مثل هذا ، فَهَمَزُوا " مَنَائِرَ ومَصَائِبَ " جمع " منارةٍ ومُصِيبَة " والأصل " مَنَاوِرُ ، ومَصَاوِبُ " وقد غلَّطَ سيبويه من قال مصائِبَ ، ويعني بذلك أَنَّهُ غلطه بالنسبة إلى مخالفة الجادَّةِ ، وهذا كما تقدَّم عنه أنه قال : " واعْلَمْ أنَّ بعضهم يغلط فيقول : إنَّهم أجمعونَ ذَاهِبُونَ " [قال] ومنهُمْ من يأتي بها على الأصل فَيَقُولُ : مصاوب ومناور ، وهذا كما قالوا في جمع " مقالٍ " و" مقام " : " مقاول " و" مقاوم " في رجوعهم بالعين إلى أصلها قال : وأنشد النَّحْوِيُّون على ذلك : [الطويل]

2407 - وإنِّي لَقَوَّامٌ مقَاوِمَ لَمْ يَكُنْ . . .

جَرِيرٌ ولا مَوْلَى جرِيرٍ يَقُومُهَا

ووجه همزها أَنَّهُم شبَّهوا الاصليَّ بالزَّائد فتوهموا أن " معيشة " بزنة " صحيفة " فهمزوها كما همزا " تيك " قالوا : ونظير ذلك في تشبيههم الأصل بالزائد قولهم في جميع " مسيل " " مُسْلان " ، توهَّموه على أَنَّه على زِنَةِ " قضيبٍ وقُضْبَان " وقالوا في جمعه " أَمْسِلَة " كأَنَّهُم تَوَهَّمُوا أَنَّهُ بزنة " رَغيفٍ ، وأَرْغِفَةٍ " وإنَّما مسيل وزنه " مفعلٌ " ؛ لأنه من سيلان الماءِ ، وأَنْشَدُوا على " مَسِيلٍ ، وأَمْسِلة " قول أَبِي ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيِّ : [الوافر]

2408 - بِوَادٍ لا أَنِيسَ بِهِ يبابٍ . . .

وأَمْسِلَةٍ مَذَانِبُهَا خَلِيفُ

وقال الزَّجَّاجُ: جميعُ نُحَاةِ البَصْرَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّ همزها خَطَأ ، ولا أعلم لها وجهاً إلاَّ التَّشْبِيه بـ "صحيفة" و"صحائف" ، ولا ينبغي التَّعْوِيلُ على هذه القراءة.

(369/263)

قال شهابُ الدين : وهذه القراءةُ لم يَنْفَرِدْ بها نافعٌ بل قَرَأَهَا جماعة جلَّةٌ معه ؛ فإنَّها منقولة عن ابن عامر الذي قَرَأَ على جماعة من الصَّحابةِ كـ "عُثْمان" و"أبي الدَّرْدَاءِ" و"معاوية" ، وقد يبق ذلك في "الأنعام" ، فقد قَرَأَ بها قَبْلَ ظُهُورِ اللَّحْنِ ، وهو عربي فَصِيحٌ وقَرَأَ بها أيضاً زيدُ بْنُ عَلِيٍّ ، وهو على جانب من الفَصَاحَة والعلم الذي لا يدانيه فيه إلاَّ القليل ، وَقَرأ بها أيضاً الأَعْمَشُ والأَعْرَجُ وكفى بهما في الإتْقَانِ والضَّبْطِ .

وقد نقل الفرَّاءُ أَنَّ قلب هذه الياء تشبيها لها بياء "صحيفة" قد جاء ، وإن كان قليلاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 25 . 26 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾

سَهَّلنا عليكم أسباب المعيشة ، ويسَّرنا لكم أحوال التصرف ، ثم أراد منكم أَنْ تتخذوا

إليه سبيلاً ، ولم يعتصِ عليه مراد .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ لاستعمالكم - في الخلاف - أبدانكم ، ولإنفاقكم - بالإسراف - أحوالكم ، ولاستغراقكم - في الحظوظ - أوقاتكم . فلا نعمة الفراغ شكرتم ، ولا من مسِّ العقوبة شكوتم . . . خسرتم وما شعرتم ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 522 ﴾

(370/263)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ المص (1) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾

(371/263)

التفسير : قد تقدم في أول الكتاب مباحث هذه المقطعة على سبيل العموم . وعن ابن عباس معنى المص أنا الله أعلم وأفصل . وقال السدي : معناه أنا المصوّر . وقيل : معناه ألم نشرح لك صدرك بدليل ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ كما زاد في الرعد راء لقوله بعده ﴿ رفع السموات ﴾ [الآية : 2] ثم إن جعلنا هذه الحروف بدل جملة فلا محل لها من الإعراب ، وإن كانت اسماً للسورة جاز أن يكون ﴿ المص ﴾ مبتدأ و ﴿ كتاب ﴾ يعني به السورة خبره والجملة بعده صفة له ، وجاز أن يكون ﴿ المص ﴾ خبر مبتدأ محذوف وكذا ﴿ كتاب ﴾ أي هذه المص هو كتاب أنزل إليك . والدليل على أنه منزل من الله تعالى هو أنه ما تلمذ لأستاذ ولا تعلم من معلم ولا طالع كتاباً ولم يخالط أهل الأخبار والأشعار وقد مضى على ذلك أربعون سنة ثم ظهر عليه هذا الكتاب المشتمل على علوم الأولين والآخرين فلن تبقى شبهة في أنه مستفاد بطريق الوحي . القائلون بخلق القرآن زعموا أن الإنزال يقتضي الانتقال من حال إلى حال وهذا من سمات المحدثات . وأجيب بأن الموصوف بالإنزال والتنزيل على سبيل المجاز هو الحروف والألفاظ ولا نزاع في كونها محدثة مخلوقة . فإن قيل : الحروف أعراض غير باقية بدليل أنه لا يمكن الإتيان بها إلا على سبيل التوالي وعدم الاستقرار فكيف يعقل وصفها بالنزول ؟ أجيب بأنه تعالى أحدث هذه الرقوم في اللوح المحفوظ ثم إن الملك طالع تلك النقوش وحفظها ونزل فعلمها محمداً صلى الله

عليه وآله . ثم قال : ﴿ فلا يكن في صدرك حرج ﴾ أي شك . وسمي الشك حرجاً لأن الشاك ضيق الصدر حرج كما أن المتيقن منفسح الصدر منشرح ، ومعنى ﴿ منه ﴾ أي من شأن الكتاب أي لا تشك في أنه منزل من عند الله أو من تبليغه أي لا يضق صدرك من الأداء وتوجه النهي إلى الحرج كقولهم لا أرينك ههنا والمراد نهيه عن الكون بحضرته فإن ذلك سبب رؤيته ومثله قوله تعالى ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ [التوبة : 123] ظاهره أمر للمشركين وإنه في الحقيقة

(372/263)

أمر للمؤمنين بأن يغلظوا على المشركين . وفي متعلق قوله ﴿ لتنذر ﴾ أقوال . قال الفراء : إنه متعلق ب ﴿ أنزل ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير أي أنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج . وفائدة التقديم والتأخير أن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر .

(373/263)

وقال ابن الأنباري : إنه متعلق بالنهي واللام بمعنى كي والتقدير : فلا يكن في صدرك شك كي تقدر على إنذار غيرك لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار لأن صاحب اليقين جسور لتوكله على ربه وثقته بعصمته . وقال صاحب النظم : اللام بمعنى " أن " كقوله : ﴿ يريدون أن يطفئوا ﴾ [التوبة : 32] وفي موضع آخر ﴿ ليطفؤا ﴾ [الصف : 8] والتقدير لا يضق صدرك ولا تضعف عن أن تنذر به . وقيل : إن تقدير الكلام هذا الكتاب أنزله الله عليك وإذا علمت أنه تنزيل الله تعالى فاعلم أن عناية الله معك وإذا علمت هذا فلا يكن في صدرك حرج لأن من كان الله له حافظاً وناصراً لم يخف أحداً ، وإذا زال الخوف والضيق عن القلب فاشتغل بالإبلاغ والإنذار اشتغال الرجال الأبطال ولا تبال بأحد من أهل الضلال والإبطال . ثم قال : ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ قال ابن عباس : يريد مواعظ للمصدقين . وقال الزجاج : هو اسم في موضع المصدر . قال الليث : الذكرى اسم للتذكرة . وقال صاحب الكشاف : محل ذكرى يحتمل النصب بإضمار فعلها كأنه قيل لتنذر به وتذكر تذكيراً ، والرفع عطفاً على كتاب ، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف والجر للعطف على محل ﴿ أن تنذر ﴾ أي للإنذار وللذكرى . وإنما لم نقل على محل لتنذر لأن المفعول له يجب أن يكون فاعله وفاعل الفعل المعلل واحداً ولو صح ذلك لكان محله النصب لا الجر . وخص الذكرى بالمؤمنين كقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] والتحقيق فيه أن النفوس البشرية منها بليدة بعيدة عن عالم الغيب

غريقة في بحر اللذات الجسمانية فتحتاج إلى زاجر قويّ ، ومنها مشرقة بالأنوار الإلهية مستعدة للإنجذاب إلى عالم القدس إلا أنها غشيتها غواش من عالم الجسم فعرض لها نوع ذهول وغفلة ، فالصنف الأول يحتاج إلى إنذار وتخويف وأما الصنف الثاني فإذا سمعت دعوة الأنبياء واتصل بها أنوار أرواح رسل الله تعالى تذكرت معدنها وأبصرت مركزها واشتاقت إلى ما

(374/263)

هنالك من الروح والراحة والريحان فلم تحتج إلا إلى تذكرة وتنبيه ، فثبت أنه سبحانه أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حق طائفة وذكرى في شأن طائفة . ثم كما أمر الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي وعزم صحيح أمر المرسل إليهم وهم الأمة بالمتابعة فقال : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ومعنى كونه منزلاً إليهم أنهم مخاطبون بذلك مكلفون به وإلا فهو بالحقيقة منزل على الرسول ، قالت العلماء : المنزل متناول للقرآن والسنة جميعاً . عن الحسن : يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة رسوله . وفي الآية دلالة على أن تخصيص عموم القرآن بالقياس غير جائز لأن متابعة المنزل واجبة فلو عمل بالقياس لزم التناقض .

فإن قيل : العمل بالقياس لكونه مستفاداً من القرآن وهو قوله : ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر : 2] عمل بالقرآن أيضاً . قلنا : بعد التسليم إن الترجيح معنا لأن العمل بالمنزل ابتداء أولى من العمل بالمنزل بواسطة ، ثم أكد الأمر المذكور بقوله : ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ أي لا تتخذوا من دون الله ﴿ أولياء ﴾ من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع . ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ من دونه ﴾ لما أنزل أي لا تتبعوا من دون الله أولياء . احتج نفاة القياس بأن الآية دلت على أنه لا يجوز متابعة غير ما أنزل الله تعالى والعمل بالقياس . متابعة غير ما أنزل فلا يجوز . لا يقال العمل بالقياس عمل بالمنزل لقوله : ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر : 2] لأنا نقول : لو كان الأمر كذلك لكان تارك العمل بمقتضى القياس كافراً لقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [الكافرون : 44] وقد أجمعت الأمة على عدم تكفيره . أجاب مثبتو القياس بأن كون القياس حجة ثبت بإجماع الصحابة والإجماع دليل قاطع وظاهر العموم دليل مظنون فلا يعارض القاطع . وزيف بأنكم أثبتم أن الإجماع حجة بعموم قوله ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ [النساء : 115] ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ [آل عمران :

110] وبعموم قوله صلى الله عليه وآله " لا تجتمع أمتي على الضلالة " والفرع لا يكون أقوى من الأصل . أجاب المثبتون بأن الآيات والأحاديث والإجماع لما تعاضدت في إثبات القياس قوي الظن وحصل الترجيح . ومن الحشوية من أنكر النظر في البراهين العقلية تمسكاً بالآية . وأجيب بأن العلم بكون القرآن لحجة موقوف على صحة التمسك بالدلائل العقلية فكيف تنكر . ثم ختم المخاطبة بنوع معاتبة فقال : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي تذكرون تذكراً قليلا . و" ما " مزيدة لتوكيد القلة . ثم ذكر ما في ترك المتابعة من الوعيد فقال : ﴿ وكم من قرية ﴾ فموضع "كم " رفع بالابتداء و" من " مزيدة

(376/263)

للتأكيد والبيان أي كثير من القرى ﴿ أهلكناها ﴾ مثل زيد ضربته وتقدم النصب أيضاً عربي جيد وفي الآية حذف لا لقرينة الإهلاك فقط فإن القرية تهلك بالهدم والخسف كما يهلك أهلها ولكنه يقال التقدير : وكم من أهل قرية لقوله ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ والبأس بالأهل أنسب ولقوله : ﴿ أوهم قائلون ﴾ ولأن الزجر والتحذير لا يقع للمكلفين إلا بهلاكهم ولأن معنى البيات والقيلولة لا يصح إلا فيهم . وإنما قال : ﴿ فجاءها ﴾ رداً بالكلام على اللفظ أو كما يقال الرجال فعلت . وهنا سؤال وهو أن قوله : ﴿ فجاءها

بأسنا ﴾ يقتضي أن يكون الهلاك مقدماً على مجيء البأس ولكن الأمر بالعكس .

والعلماء أجابوا بوجوه منها : أن المراد حكمنا بهلاكها أو أردنا أهلاكها فجاءها كقوله : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا ﴾ [المائدة : 6] ومنها أن معنى الإهلاك ومعنى مجيء البأس واحد فكأنه قيل : وكم من قرية أهلكناها فجاءهم إهلاكنا وهذا كلام صحيح .

(377/263)

فإن قيل : كيف يصح والعطف يوجب المغايرة ؟ فالجواب أن الفاء قد تجيء للتفسير كقوله صلى الله عليه وآله " لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ويديه " فإن غسل الوجه واليدين كالتفسير لوضع الطهور مواضعه فكذا ههنا مجيء البأس جار مجرى التفسير للإهلاك لأن الإهلاك قد يكون بالموت المعتاد وقد يكون بتسليط البأس والبلاء عليهم وقريب منه قول الفراء : لا يبعد أن يقال البأس والهلاك يقعان معاً كما يقال : أعطيتني فأحسنت . وما كان الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله وإنما وقعا معاً . ومنها أن ذلك محمول على حذف المعطوف والتقدير : أهلكناهم فحكم بمجيء البأس لأن الإهلاك أمارة للحكم بوصول مجيء البأس . ومنها أنه من باب القلب الذي يشجع عليه أمن الإلباس كقوله : عرضت الناقة على الحوض . وقوله ﴿ بياتاً ﴾ قال الجوهري : بيت العدوّ أي

أوقع بهم ليلاً والاسم البيات . وفي الكشاف أنه مصدر بات الرجل بياتاً حسناً . وعلى القولين فإنه وقع موضع الحال بمعنى بائتين أو مبيتين . ثم قال : ﴿ أوهم قائلون ﴾ والجملة حال معطوفة على ﴿ بياتاً ﴾ كأنه قيل : فجاءها بأسنا مبيتين أو بائتين أو قائلين . وإنما حسن ترك الواو ههنا من الجملة الاسمية الواقعة حالاً لأن واو الحال قريب من واو العطف لأنها استعيرت منها للوصل فالجمع بين حرف العطف وبينه جمع بين المثلين وذلك مستثقل . فقولك : جائني زيد راجلاً أو هو فارس . كلام فصيح ، ولو قلت : جاءني زيد هو فارس كان ضعيفاً . وقال بعض النحويين : الواو محذوفة مقدرة ورده الزجاج لما قلنا . أما معنى القيلولة فالمشهور أنها نومة الظهيرة . وقال الأزهري : هي الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن نوم لقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ [الفرقان : 24] والجنة لا نوم فيها وإنما خص وقتا البيات والقيلولة لأنهما وقتا الغفلة والدعة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع . وكأنه قيل للكفار لا تغتروا

(378/263)

بالفراغ والرفاه والأمن والسكون فإن عذاب الله إنما يجيء دفعة من غير سبق أمارة .

أيا راقد الليل مسوراً بأوّله . . . إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

فقوم لوط ألهكوا وقت السحر ، وقوم شعيب وقت القيلولة . ثم قرر حالهم عند مجيء البأس فقال : ﴿ فما كان دعواهم ﴾ أي ما كانوا يدعونه من قبل دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده والإقرار بالإساءة والظلم على أنفسهم . وقال ابن عباس : فما كان تضرعهم واستغاثتهم إلا قولهم هذا وذلك إقرار منهم على أنفسهم بالشرك . وقال أهل اللغة : الدعوى اسم يقوم مقام الدعاء . حكى سيبويه اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين ودعوى المسلمين أي فما كان دعاؤهم ربهم إلا اعترافهم بعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما فرط منهم وفرطوا فيه . ومحل ﴿ دعواهم ﴾ وعلى عكسه محل ﴿ إن قالوا ﴾ يجوز أن يكون نصباً أو رفعاً كما سبق في إعراب قوله :

(379/263)

﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ﴾ [الأنعام : 23] ثم ذكر على ترك القبول والمتابعة وعيداً آجلاً فقال : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ﴾ نسأل المرسل إليهم عما أجابوا به رسلهم كقوله : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ [القصص : 65] ﴿ ولنسئلن المرسلين ﴾ ﴿ فلنقصن عليهم ﴾ أي على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم

﴿ بعلم ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿ وما كنا غائبين ﴾ عنهم وعما وجد منهم . فإن قيل : ما الفائدة في سؤال المرسل إليهم بعد ما أخبر عنهم أنهم اعترفوا بذنوبهم ؟ فالجواب أنهم لما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب الظلم أو التقصير تقريعاً وتوبيخاً . فإن قيل : ما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة ؟ قلنا : ليلتحق كل التقصير بالأمة فيتضاعف إكرام الله تعالى في حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع مواجب التقصير ، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق الكفار . فإن قلت : كيف الجمع بين قوله : ﴿ فلنسئلن ﴾ وبين قوله : ﴿ فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : 39] فالجواب بعد تسليم اتحاد الزمان والمكان أن القوم لعلهم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب مشتملة عليها ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إليها وعن الصوارف التي صرفتهم عنها . أو المراد نفي سؤال الاستفادة والاسترشاد وإثبات سؤال التوبيخ والإهانة فلا تناقض . وفي الآية إبطال قول من زعم أنه لا حساب على الأنبياء ولا على الكفار ، وفيها أنه سبحانه عالم بالكليات وبالجزئيات ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السموات ، فالإلهية لا تكمل إلا بذلك . وفيها أنه غير مختص بشيء من الأحياز والجهات وإلا كان غائباً من غيره . ثم بيّن أن من جملة أحوال يوم القيامة وزن الأعمال فقال : ﴿ والوزن ﴾ وهو مبتدأ خبره ﴿ يومئذ ﴾ وقوله ﴿ الحق ﴾ صفة المبتدأ أي الوزن العدل يوم يسأل الله الأمم ورسلهم .

(380/263)

وقيل : لا يجوز الإخبار عن شيء وقد بقيت منه بقية فيجب على هذا أن يكون ﴿ الحق ﴾ خبراً و ﴿ يومئذٍ ﴾ ظرفاً للوزن ومعنى الحق أنه كائن لا محالة . وفي كيفية الميزان قولان : الأول ما جاء في الخبر " إنه تعالى ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة يوزن به أعمال العباد خيرها وشرها " وكيف توزن فيه وجهان : أحدهما أن المؤمن تتصوّر أعماله بصور حسنة وأعمال الكافر بصور قبيحة فتوزن تلك الصور ذكره ابن عباس . وثانيهما أن الوزن يعود إلى الصحف التي تكون فيها أعمال العباد . " يروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عما يوزن يوم القيامة فقال : الصحف " وعن عبد الله بن سلام أن ميزان العالمين ينصب بين الجن والإنس يستقبل به العرش إحدى كفتي الميزان على الجنة والأخرى على جهنم ولو وضعت السموات والأرض في إحدهما لوسعتهن ، وجبريل آخذ بعموده ناظر إلى لسانه ، وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(381/263)

" يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان ويؤتى له بتسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر فيها خطاياه وذنوبه فتوضع في كفة الميزان ثم يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله فيوضع في الآخرة فترجح " قال القاضي : يجب أن يحمل هذا على أنه يأتي بالشهادتين بحقهما من العبادات وإلا كان إغراء على المعصية . ورد بأنه خلاف الظاهر وبأنه لا يبعد أن يكون ثواب كلمة الشهادة أوفى وأوفر من سائر الأعمال لأن معرفة الله تعالى أشرف العقائد والأعمال . وروى الواحدي في البسيط أنه إذا خف حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجزته بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم : بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وخلقك فمن أنت ؟ فيقول : أنا نبيك وهذه صلواتك التي كنت تصليها عليّ قد وافتك أحوج ما تكون إليها القول الثاني قول مجاهد والضحاك والأعمش وكثير من المتأخرين أن المراد من الميزان العدل لأن العدل في الأخذ والإعطاء لا يظهر إلا بالوزن والكيل فلا يبعد جعل الوزن مجازاً عن العدل . ومما يؤكد ذلك أن أعمال العباد أعراض وأنها قد فنيت وعدمت ووزن المعدوم محال وكذا لو قدر بقاؤها . وأما قولهم الموزون صحائف الأعمال أو صور مخلوقة على حسب مقادير الأعمال فنقول : المكلف يوم القيامة إما أن يكون مقراً بأنه تعالى عادل حكيم وحينئذٍ يكفيه حكم الله تعالى بمقادير الثواب والعقاب في علمه بأنه عدل وصواب ،

وإما أن لا يكون مقراً فلا نعرف من رجحات الحسنات على السيئات وبالعكس حقية الرجحان . أجاب الأولون بأن جميع المكلفين يعترفون يوم القيامة أنه تعالى منزه عن الظلم والجور لكن الفائدة في وضع الميزان ظهور الرجحان لأهل الموقف وازدياد الفرح والسرور للمؤمن وبالضدّ للكافر . واختلف العلماء أيضاً في كيفية الرجحان فقال

(382/263)

بعضهم : يظهر هناك نور في رجحان الحسنات وظلمة في رجحان السيئات . وقال آخرون : بل يظهر الرجحان في الكفة . واختلف أيضاً في الموازين فقيل : إنها جمع موزون وأراد الأعمال الموزونة والميزان المنصوب واحد . ولئن سلم أنها جمع الميزان فالعرب قد توقع لفظاً لجمع على الواحد فتقول : خرج فلان إلى مكة على الأفراس والبغال . قاله الزجاج . وقال الأكثرون : كما لا يمتنع إثبات ميزان له لسان وكفتان فكذلك لا يمتنع إثبات موازين بهذه الصفة فما الموجب لترك الظاهر والمصير إلى التأويل قال عز من قائل :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] وأيضاً لا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ولأفعال الجوارح ميزان ولما يتعلق بالقول ميزان آخر . ثم إن المرجئة الذين يقولون المعصية لا تضر مع الإيمان قالوا : إن الله حصر أهل الموقف في قسمين منهم من تزيد

حسناته على سيئاته ومنهم على العكس ولا ريب أن هذا القسم أهل الكفر لأنه حكم عليهم بأنهم الذين خسروا أنفسهم بسبب الظلم بآيات الله أي التكذيب بها وهذا لا يليق إلا بالكافر . ولئن سلم أن العاصي معاقب لكنه يعاقب أياماً ثم يعفى عنه ويتخلص إلى رحمة الله تعالى فهو بالحقيقة ما خسر نفسه بل فاز برحمة الله أبد الآباد من غير زوال ولا انقطاع . قيل : في الآية دلالة على أن الذي تكون حسنات وسيئاته متعادلتين متساويتين غير موجود والله أعلم .

(383/263)

ثم لما فرغ من التخويف بالعذاب الآجل رغب الخلائق في قبول دعوة الأنبياء بطريق آخر وهو تذكير النعم فإن ذلك يوجب الطاعة فقال : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾ أقدرناكم على التصرف فيها ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ هي جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها ، أو ما يتوصل به إلى ذلك وبالجملة وجوه المنافع التي تحصل بتخليق الله تعالى ابتداء كالأثمار ، أو بواسطة كالاكتساب ولوجه في معايش تصريح الياء لأنها أصلية لا زائدة كصحائف بالهمز في صحيفة . وعن ابن عامر أو نافع في بعض الروايات الهمز تشبيهاً بصحائف واستبعده النحويون البصريون . ثم عاتب المكلفين بأنهم

لا يقومون بشكر نعمه كما ينبغي فقال : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ وفيه إشارة إلى أنهم قد يشكرون ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 197 . 204 ﴾

(384/263)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ المص ﴾ هو إله من لطفه أفرد عباده للمحبة وللمعرفة وأنعم عليهم بالصدق والصبر لقبول كمالية المعرفة والمحبة بواسطة ﴿ كتاب أنزل على قلبك ﴾ فانفسح له صدرك وانشرح فلم يبق فيه ضيق وحرج بخلاف ما أنزل من الكتب في الألواح والصحف فقد عرض لبعضهم ضيق عطن فألقى الألواح . وكما شرف نبيه بالكتاب المنزل على قلبه حتى صار خلقه القرآن شرف أمته بأن أمرهم باتباع ما أنزل إليهم ليتخلقوا بأخلاق الله . ﴿ وكم من قرية ﴾ قبل أفسدنا استعدادها ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ أي إزاغة قلوبهم بإصبع القهارية وأهلها نائمون على فراش الحسبان ﴿ قائلون ﴾ في نهار الخذلان فما كان ادّعاؤهم إلا أن قالوا من قصر نظرهم لا من طريق الأدب ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ فنسبوا

التصرف إلى أنفسهم ولم يعلموا أن الله تعالى مقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ﴾ وهم عامة الخلائق هل قبلتم الدعوة وعملتم بما أمرتم أم لا فيكون السؤال سؤال تعنيف وتعذيب أو هم الذين قبلوا الدعوة فيكون السؤال سؤال تشريف وتقريب ﴿ ولنسئلن المرسلين ﴾ سؤال إنعام وإكرام هل بلغتم وهل وجدتم أمماً قابِلي الدعوة ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ فليعلمن أنا ما أرسلنا الرسل إليهم عبثاً وإنما أرسلناهم لأمر عظيم وخطب جسيم ﴿ وما كنا غائبين ﴾ عن الرسل بالنصر والمعونة وعن المرسل إليهم بالتوفيق والعناية ﴿ والوزن يومئذ ﴾ لأهل الحق لا الباطل لا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

(385/263)

روي أنه يوم القيامة يؤتى بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة . ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والأحوال الكاملة ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ من شر أنانيتهم وإنما جمع الموازين لأن لبدن كل مكلفٍ ميزاناً يوزن به أعماله ولنفسه ميزاناً يوزن به صفاتها ولقلبه ميزاناً يوزن به أوصافه ولروحه ميزاناً يوزن به نعوته ولسره ميزاناً يوزن به أحواله ولخفيه ميزاناً يوزن به أخلاقه . والخفي لطيفة روحانيّة قابلة لفيض الأخلاق الربانية ولهذا قال صلى الله عليه وآله : " ما وضع في الميزان شيء

أقل من حسن الخلق " وذلك أنه ليس من نعوت المخلوقين وإنما هو خلق رب العالمين والعباد مأمورون بالتخلق بأخلاقه ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ أفسدوا استعدادها ﴿ ولقد مكناكم ﴾ هيأنا لكم خلافة الأرض دون غيركم من الحيوانات والملك ﴿ وجعلنا لكم ﴾ خاصة ﴿ معايش ﴾ ولكل صنف من الملك والحيوانات معيشة واحدة وذلك أن الإنسان مجموع من الملكية والحيوانية والشيطانية والإنسانية . فمعيشة الملك هي معيشة روحه ، ومعيشة الحيوان هي معيشة بدنه ، ومعيشة الشيطان هي معيشة نفسه الأمارة بالسوء ، وقد حصل للإنسان بهذا التركيب مراتب الإنسانية وإنها لم تكن لكل واحد من الملك والحيوان والشيطان وهي القلب والسر والخفي ، فمعيشة قلبه هي الشهود ، ومعيشة سره هي الكشوف ، ومعيشة خفيه هي الوصال والوصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 204 . 205 ﴾

(386/263)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 11 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 12 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه ما منحهم به من التمكين ، ذكّرهم ما كانو عليه قبل هذه المكنة من العدم تذكيراً بالنعم في سياق دال على البعث الذي فرغ من تقريره ، وعلى ما خص به أباهم آدم عليه السلام من التمكين في الجنة بالخلق والتصوير وإفاضة روح الحياة وروح العلم وأمر أهل سماواته بالسجود له والغضب على من عاداه وطرده عن محل كرامته ومعدن سعادته وإسكانه هو بذلك المحل الأعلى والموطن الأسنى مأذوناً له في كل ما فيه إلا شجرة واحدة ، فلما خالف الأمر أزاله عنه وأخرجه منه ؛ وفي ذلك تحذير لأهل المكنة من إزالة المنة في استدرار النعمة وإحلال النقمة فقال : ﴿ ولقد خلقناكم ﴾ أي بما لنا من صفات العظمة ﴿ ثم صورناكم ﴾ أي قدرنا خلقكم ثم تصويركم بأن جعلنا فيكم قابلية قريبة من ذلك بتخصيص كل جزء من المادة بمقداره

المعين بتخمير طينة آدم عليه السلام على حالة تقبل ذلك كما يهيأ التراب بتخميره بإنزال المطر لأن يكون منه شجرة ، وقد تكون تلك الشجرة مهيأة لقبول صورة الثمرة وقد لا تكون كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 12-14] وقال النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح " وعنه أيضاً رضي الله عنه عند مسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب ! أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك " الحديث .

(6/264)

فظاهر هذا الحديث مخالف للفظ الذي قبله وللآية ، فيحمل على أن معنى صورها : هيأها في مدة الأربعين الثانية لقبول الصورة تهيئة قريبة من الفعل ، وسهل أولها بالتخمير على هيئة مخصوصة بخلاف ما قبل ذلك ، فإنها كانت نطفة فكانت بعيدة عن قبول الصورة ، ولذلك اختلفوا في احترامها وهل يباح إفسادها والتسبب في إخراجها ، ومعنى " خلق " : قدر أي جعل لكل شيء من ذلك حداً لا يتجاوزه في الجملة ، والدليل على هذا المجاز شكه في كونها ذكراً أو أنثى ، ولو كان ذلك على ظاهره لما حصل شك في كونها ذكراً أو أنثى إذ آلة الذكر والأنثى من جملة الصورة ، وبهذا تلتئم هذه الاية مع قوله تعالى ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ [ص : 71] فهذا خلق بالفعل ، والذي في هذه السورة بإيداعه القوة المقربة منه ، والمراد من الآية التذكير بالنعم استعطافاً إلى المؤالفة وتفظيعاً بحال المخالفة ، أي خسروا أنفسهم والحال أنا أنعمنا عليهم بنعمة التمكين بعد أن أنشأناهم على الصورة المذكورة بعد أن كانوا عدماً وأسجدنا ملائكتنا لأبيهم وطردنا من تكبر عليه طرداً لا طرد مثله ، وأبعدناه عن محل قدسنا بعداً لا قرب معه ، وأسكنا أباهم الجنة دار رحمتنا وقربنا ، فقال تعال مترجماً عن ذلك : ﴿ ثم قلنا ﴾ أي على ما لنا من الاختصاص بالعظمة ﴿ للملائكة ﴾ أي الموجودين في ذلك الوقت من أهل السماوات والأرض كلهم ، بما دلت عليه " ال " سواء قلنا : إنها للاستغراق أو الجنس ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي بعد كونه رجلاً

قائماً سوياً ذا روح كما هو معروف من التسمية ؛ ثم سبب عن هذا الأمر قوله :

﴿ فسجدوا ﴾ أي كلهم بما دل عليه الاستثناء في قوله : ﴿ إلا إبليس ﴾ ولما كان معنى ذلك لإخراجه ممن سجد أنه لم يسجد ، صرح به فقال : ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾ أي لآدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 10.12 ﴾

(7/264)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لأملأن ﴾ بتليين الهمزة الثانية حيث كان : الأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف : ﴿ تخرجون ﴾ من الخروج : حمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب وابن ذكوان الباقون : مبنياً للمفعول من الإخراج والله أعلم .

الوقوف : ﴿ إلا إبليس ﴾ ط لأنه معرفة فلا تصلح الجملة صفة له . ﴿ الساجدين ﴾ ه ﴿ إذ أمرتك ﴾ ط ﴿ منه ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد المقول . ﴿ طين ﴾ ه ﴿ الصاغرين ﴾ ه . ﴿ يبعثون ﴾ ه ﴿ المنظرين ﴾ ه ﴿ المستقيم ﴾ ه لا للعطف ﴿ شمائلهم ﴾ ط ﴿ شاكرين ﴾ ه ﴿ مدحوراً ﴾ ط لأن ما بعده ابتداء قسم محذوف .

﴿ أجمعين ﴾ ه ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ الخالدين ﴾ ه ﴿ الناصحين ﴾ ه ﴿ بغرور ﴾ ج لأن جواب " لما " منتظر مع الفاء ﴿ ورق الجنة ﴾ ط لأن الواو للاستئناف ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ أنفسنا ﴾ سكتة للأدب إعلاماً بانقطاع الحجة قبل ابتداء الحاجة. ﴿ الخاسرين ﴾ ه ﴿ عدو ﴾ ط لعطف المختلفين ﴿ إلى حين ﴾ ه ﴿ تخرجون ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 205. 206 ﴾

(8/264)

فصل

قال الفخر :

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتخويف أولاً ثم بالترغيب ثانياً على ما بيناه ، والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق ، فبدأ في شرح تلك النعم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ مكناكم فِى الأرض وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ [الأعراف : 10] ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجوداً للملائكة ، والإنعام على

الأب يجري مجرى الإنعام على الابن فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات ، ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : 28] فمنع تعالى من المعصية بقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ وعلل ذلك المنع بكثرة نعمه على الخلق ، وهو أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ، ثم خلق لهم ما في الأرض جميعاً من المنافع ، ثم أتبع تلك المنفعة بأن جعل آدم خليفة في الأرض مسجوداً للملائكة ، والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجحود فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا المعنى بغير هذا الترتيب فهذا بيان وجه النظم على أحسن الوجوه .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى ذكر قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في القرآن في سبعة مواضع : أولها : في سورة البقرة ، وثانيها : في هذه السورة ، وثالثها : في سورة الحجر ، ورابعها : في سورة بني إسرائيل ، وخامسها : في سورة الكهف ، وسادسها : في سورة طه ، وسابعها : في سورة ص .

إذا عرفت هذا فنقول : في هذه الآية سؤال ، وهو أن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ يفيد أن المخاطب بهذا الخطاب نحن .

ثم قال بعده : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ تفيد التراخي ، فظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلقنا وتصويرنا ، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك ، فلهذا السبب اختلف الناس في تفسير هذه الآية على أربعة أقوال : الأول : أن قوله : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ﴾ أي خلقنا أباكم آدم وصورناكم ، أي صورنا آدم ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ وهو قول الحسن ويوسف النخوي وهو المختار ، وذلك لأن أمر الملائكة بالسجود لآدم تأخر عن خلق آدم وتصويره ، ولم يتأخر عن خلقنا وتصويرنا أقصى ما في الباب أن يقال : كيف يحسن جعل خلقنا وتصويرنا كناية عن خلق آدم وتصويره ؟ فنقول : إن آدم عليه السلام أصل البشر ، فوجب أن تحسن هذه الكناية نظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ﴾ [البقرة : 63] أي ميثاق أسلافكم من بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام ، ويقال : قتلت بنو أسد فلاناً ، وإنما قتله أحدهم . قال عليه السلام : ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل ، وإنما قتله أحدهم ، وقال تعالى مخاطباً لليهود في زمان محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذْ أنجيناكم مِّنْ ءالِ ﴾ [الأعراف : 141] ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ [البقرة : 72] والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم ، فكذا ههنا .

الثاني : أن يكون المراد من قوله : ﴿ خلقناكم ﴾ آدم ﴿ ثُمَّ صورناكم ﴾ أي صورنا ذرية

آدم عليه السلام في ظهره ، ثم بعد ذلك قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، وهذا قول مجاهد .

فذكر أنه تعالى خلق آدم أولاً ، ثم أخرج أولاده من ظهره في صورة الذر ، ثم بعد ذلك أمر الملائكة بالسجود لآدم .

الوجه الثالث : خلقناكم ثم صورناكم ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فهذا العطف يفيد ترتيب خبر على خبر ، ولا يفيد ترتيب المخبر على المخبر .

(10/264)

والوجه الرابع : أن الخلق في اللغة عبارة عن التقدير ، كما قررناه في هذا الكتاب ، وتقدير الله عبارة عن علمه بالأشياء ومشيئته لتخصيص كل شيء بمقداره المعين فقوله :

﴿ خلقناكم ﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر في هذا العالم .

وقوله : ﴿ صورناكم ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة على ما جاء في الخبر أنه تعالى قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فخلق الله عبارة عن حكمه ومشيئته ، والتصوير عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ ، ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له وهذا التأويل عندي أقرب من سائر الوجوه .

المسألة الثالثة :

ذكرنا في سورة البقرة أن هذه السجدة فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أن المراد منها مجرد التعظيم لا نفس السجدة .

وثانيها : أن المراد هو السجدة ، إلا أن المسجود له هو الله تعالى ، فآدم كان كالقبلة .

وثالثها : أن المسجود له هو آدم ، وأيضاً ذكرنا أن الناس اختلفوا في أن الملائكة الذين أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم هل هم ملائكة السموات والعرش أو المراد ملائكة الأرض ، ففيه خلاف ، وهذه المباحث قد سبق ذكرها في سورة البقرة .

المسألة الرابعة :

ظاهر الآية يدل على أنه تعالى استثنى إبليس من الملائكة ، فوجب كونه منهم وقد استقصينا أيضاً هذه المسألة في سورة البقرة ، وكان الحسن يقول : إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور ، والملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ولا يعصون ، وليس كذلك إبليس ، فقد عصى واستكبر ، والملائكة ليسوا من الجن ، وإبليس من الجن ، والملائكة رسل الله ، وإبليس ليس كذلك ، وإبليس أول خليقة الجن وأبوهم ، كما أن آدم صلى الله عليه وسلم أول خليقة الإنس وأبوهم .

قال الحسن : ولما كان إبليس مأموراً مع الملائكة استثناه الله تعالى ، وكان اسم إبليس شيئاً

آخر ، فلما عصى الله تعالى سماه بذلك وكان مؤمناً عابداً في السماء حتى عصى ربه فأهبط إلى الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 25.27 ﴾

(11/264)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾

أي : خلقنا آدم وأنتم من ذريته ، ثم صورناكم يعني : ذريته .

ويقال : ﴿ خلقناكم ﴾ يعني : آدم خلقه من تراب ﴿ ثُمَّ صورناكم ﴾ يعني : آدم صوره بعد ما خلقه من طين .

ويقال : ﴿ خلقناكم ﴾ نطفاً في أصلاب الآباء ﴿ ثُمَّ صورناكم ﴾ في أرحام الأمهات .

﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة ﴾ على وجه التقديم أي : وقلنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ ثُمَّ بمعنى الواو .

ويقال : معناه خلقناكم وصورناكم وقلنا للملائكة : اسجدوا لآدم وهي سجدة التحية لا سجدة الطاعة فالعبادة لله تعالى ، والتحية لآدم عليه السلام ﴿ فَسَجَدُواْ إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ الساجدين ﴾ أي لم يسجد مع الملائكة لآدم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ قال ابن عباس : خلقنا أصلكم وأباكم آدم ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ في أرحام أُمهاتكم قال قتادة والربيع والضّحاك والسدي : أمّا خلقناكم فآدم وأمّا صوّرناكم فذرّيته . قال مجاهد : خلقنا آدم ثمّ صوّرناكم في ظهر آدم .

وقال عكرمة : خلقناكم في أصلاب الرجال وصورناكم في أرحام النساء قال عطاء : خلقوا في ظهر آدم ثمّ صوروا في الأرحام .

وقال يمان : خلق الإنسان في الرحم ثمّ صوّره ففتق سمعه وبصره وأصابعه ، فإن قيل : ما وجه قوله ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ وإنّما خلقنا بعد ذلك وثمّ يوجب الترتيب والتراخي . كقول القائل : قمت ثمّ قعدت لا يكون القعود إلاّ بعد القيام .

قلنا : قال قوم : على التقديم والتأخير ، قال يونس : الخلق والتصوير واحد [. . . . .] إلينا ، كما نقول : قد ضربناكم وإنّما ضربت سيّدهم ، قال الأخفش : ثمّ بمعنى الواو ومجازه : قلنا ، كقول الشاعر :

سألت ربيعة من خيرها . . . أباً ثم أُماً فقالت لمّه

أراد أباً وأُمّا .

﴿ فسجدوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ لآدم فقال الله لإبليس حين امتنع من السجود لآدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾

فيه لأهل التأويل أربعة أقاويل :

أحدها : ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء ، قاله عكرمة .

والثاني : ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم في ظهره ، قاله مجاهد .

والثالث : خلقناكم نطفاً في أصلاب الرجال وترائب النساء ، ثم صورناكم عند اجتماع النطفتين في الأرحام ، وهو معنى قول الكلبي .

والرابع : خلقناكم في بطون أمهاتكم ، ثم صورناكم فيها بعد الخلق بشق السمع والبصر ، قاله معمر .

﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ فإن قيل فالسجود عبادة لا تجوز إلا الله تعالى ، فكيف أمر به لآدم عليه السلام ؟ قيل : فيه لأهل العلم قولان :

أحدهما : أنه أمرهم بالسجود له تكرمة وهو لله تعالى عبادة .

والثاني : أنه جعله قبلة سجودهم لله تعالى .

فإن قيل : فالأمر بالسجود لآدم قبل تصوير ذريته ، فكيف قال : ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اسْجُدُواْ ﴾ ؟

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه صورهم في صلب آدم ثم قال للملائكة : اسجدوا .

والثاني : معناه ثم صورناكم ثم أخبرناكم بِأَنَّا قلنا للملائكة : اسجدوا .

والثالث : اي في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ثم صورناكم .

وفيه جواب رابع أنكره بعض النحويين وهو : أن ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا بمعنى الواو ، قاله الأخفش .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(13/264)

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ الآية ، هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجيب من غريب الصنعة وإسداء النعمة ، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر ، وإلا فلم يعر المخلوق قط من صورة ،

واضطراب الناس في ترتيب هذه الآية لأن ظاهرها يقتضي أن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أن يسجدوا ، وقد صححت الشريعة أن الأمر لم يكن كذلك ، فقالت فرقة : المراد بقوله : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ آدم بنفسه وإن كان الخطاب لبنيه ، وذلك لما كان سبب وجود بنيه بما فعل فيه صح مع تجوز أن يقال إنه فعل في بنيه ، وقال مجاهد : المعنى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذر في صورة البشر .

قال القاضي أبو محمد : ويترتب في هذين القولين أن تكون ﴿ ثم ﴾ على بابها في الترتيب والمهلة ، وقال عكرمة والأعمش : المراد خلقناكم في ظهور الآباء وصورناكم في بطون الأمهات . وقال ابن عباس والربيع بن أنس : أما ﴿ خلقناكم ﴾ فآدم وأما ﴿ صورناكم ﴾ فذريته في بطون الأمهات ، وقاله قتادة والضحاك .

وقال معمر بن راشد من بعض أهل العلم : بل ذلك كله في بطون الأمهات ، من خلق وتصوير .

قال القاضي أبو محمد : وقالت هذه الفرقة إن ﴿ ثم ﴾ لترتيب الأخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في أنفسها . وقال الأخفش ﴿ ثم ﴾ في هذه الآية بمعنى الواو ، ورد عليه نحويو البصرة .

و " ملائكة " وزنه إما مفاعلة وإما معافلة بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة ، وهنالك ذكرنا هيئة السجود والمراد به ومعنى إبليس وكيف كان قبل المعصية ، وأما قوله في هذه الآية ﴿ إلا إبليس ﴾ فقال الزجّاج هو استثناء ليس من الأول ولكن إبليس أمر بالسجود بدليل قوله تعالى : ﴿ ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك ﴾ [الأعراف : 12] وقال غير الزجّاج : الاستثناء من الأول لأنّا لو جعلناه منقطعاً على قول من قال إن إبليس لم يكن من الملائكة لوجب أن إبليس لم يؤمر بالسجود ، إلا أن يقول قائل هذه المقالة إن أمر إبليس كان بوجه آخر غير قوله : ﴿ اسجدوا ﴾ وذلك بيّن الضعف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " للملائكةُ اسجدوا " بضم الهاء وهي قراءة ضعيفة . ووجهها أنه حذف همزة ﴿ اسجدوا ﴾ وألقى حركتها عن الهاء ، وذلك لا يتجه لأنها محذوفة مع جر الهاء بحركة ، أي شيء يلغى إنما يكون في الوصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾

فيه ثمانية أقوال .

أحدها : ولقد خلقناكم في ظهر آدم ، ثم صورناكم في الأرحام ، رواه عبد الله بن الحارث

عن ابن عباس .

والثاني : ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال ، وصورناكم في أرحام النساء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : "ولقد خلقناكم" ، يعني بني آدم "ثم صورّناكم" ، يعني ذريته من بعده رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : "ولقد خلقناكم" ، يعني آدم ، "ثم صورناكم" في ظهره ، قاله مجاهد .

والخامس : "خلقناكم" نطفاً في أصلاب الرجال ، وترائب النساء ، "ثم صورّناكم" عند اجتماع النطف في الأرحام ، قاله ابن السائب .

والسادس : "خلقناكم" في بطون أُمهاتكم ، "ثم صورناكم" فيما بعد الخلق بشق السمع والبصر ، قال معمر .

والسابع : "خلقناكم" ، يعني آدم خلقناه من تراب ، "ثم صورناكم" ، أي : صوَّرناه ، قاله الزجاج ، وابن قتيبة .

(15/264)

قال ابن قتيبة : فجعل الخلق لهم إذ كانوا منه ؛ فمن قال : عنى بقوله "خلقناكم" آدم ، فمعناه : خلقنا أصلكم ؛ ومن قال : صورنا ذريته في ظهره ، أراد إخراجهم يوم الميثاق كهيئة الذر .

والثامن : "ولقد خلقناكم" يعني الأرواح ، "ثم صورناكم" يعني الأجساد ، حكاه القاضي أبو يعلى في "المعتمد" .

وفي "ثم" المذكورة مرتين قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الواو ، قاله الأخفش .

والثاني : أنها للترتيب ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾

لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه .

وقد تقدّم معنى الخلق في غير موضع .

"ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ" أي خلقناكم نُطفاً ثم صوّرناكم ، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .

وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما : المعنى خلقنا آدم ثم صوّرناكم في ظهره .

وقال الأخفش : "ثم" بمعنى الواو .

وقيل : المعنى "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ" يعني آدم عليه السَّلام ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، ثم صورناكم ؛ على التقديم والتأخير .

وقيل : "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ" يعني آدم ؛ ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر .

"ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ" راجع إليه أيضاً .

كما يُقال : نحن قتلناكم ؛ أي قتلنا سيدكم .

﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير ؛ عن ابن عباس أيضاً .

وقيل : المعنى ولقد خلقناكم ، يريد آدم وحوّاء ؛ فآدم من التراب وحوّاء من ضلع من أضلاعه ، ثم وقع التصوير بعد ذلك .

فالمعنى : ولقد خلقنا أبويْكم ثم صوّرناهما ؛ قاله الحسن .

وقيل : المعنى خلقناكم في ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق .

هذا قول مجاهد ، رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح .

قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال .

يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم ، ثم صوّرهم حين أخذ عليهم الميثاق ، ثم كان السجود بعد .

ويقوّي هذا ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : 172] .

والحديث .

" أنه أخرجهم أمثال الذَّرِّ فأخذ عليهم الميثاق " وقيل : "ثم" للإخبار ، أي ولقد خلقناكم يعني في ظهر آدم صلى الله عليه وسلم ، ثم صَوّرناكم أي في الأرحام .

قال النحاس : هذا صحيح عن ابن عباس .

قلت : كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] يعني آدم .

وقال : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] .

ثم قال : "جَعَلْنَاهُ" أي جعلنا نسله وذريته ﴿ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 13] الآية .

فآدم خُلِق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذريته صُوِّروا في أرحام الأُمهات بعد أن خُلقوا فيها وفي أصلاب الآباء .

وقد تقدّم في أوّل سورة "الأنعام" أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتُرْبَة ؛ فتأمله .

وقال هنا : ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ وقال في آخر الحشر : ﴿ هُوَ الله الخالق البارىء المصور ﴾ [الحشر : 24] .

فذكر التصوير بعد البَرء .

وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

وقيل : معنى "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ" أي خلقنا الأرواح أوّلاً ثم صوّرنا الأشباح آخراً .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ استثناء من غير الجنس .

وقيل : من الجنس .

وقد اختلف العلماء : هل كان من الملائكة أم لا ؛ كما سبق بيانه في "البقرة" . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾

يعني : ولقد خلقناكم أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله في ظهر أبيكم آدم ثم صورناكم في أرحام النساء صوراً مخلوقة .

(17/264)

فإن قلت على هذا التفسير يكون قوله ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يقتضي الأمر بالسجود كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لأن كلمة ثم للتراخي

ومعلوم أن الأمر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته ؟

قلت : يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم أيها المخاطبون ثم أخبرناكم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على الخبر .

وقيل في معنى الآية : ولقد خلقناكم يعني آدم ، ثم صورناكم يعني ذريته ، وهذا قول ابن عباس .

وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني في ظهره وعلى هذين القولين إنما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أو لأنه أبو البشر فكانه في خلقه خلق من خرج من صلبه ؛

وقيل : إن الخلق والتصوير يرجع إلى آدم عليه الصلاة والسلام وحده .

والمعنى : ولقد خلقناكم يعني آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعني آدم صورة من طين ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يعني بعد إكمال خلقه وقد تقدم في سورة البقرة الكلام في معنى هذا السجود وأنه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود ، وقيل : بل كان حقيقة السجود وأن المسجود له هو الله تعالى وإنما كان آدم كالقبلة للساجدين ، وقيل : بل كان المسجود له وكان ذلك بأمر الله تعالى وهل كان هذا الأمر بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره في سورة البقرة .

وقوله تعالى : ﴿ فسجدوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ إلا إبليس ﴾ يعني : فسجد الملائكة لآدم إلا إبليس ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾ يعني له وظاهر الآية يدل على أن إبليس كان من الملائكة لأن الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول : إن إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور وإنما استثناه من الملائكة لأنه كان مأموراً بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه أنه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

قال أبو حيان :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

لمّا تقدّم ما يدلّ على تقسيم المكلفين إلى طائع وعاصٍ فالطائع ممتثل ما أمر الله به مجتنب ما نهى عنه والعاصي بضدّه أخذ ينبّه على أنّ هذا التقسيم كان في البدء الأول من أمر الله للملائكة بالسجود فامتثل من امتثل وامتنع من امتنع ، وأنه أمر تعالى آدم ونهى فحكى عنه ما يأتي خبره فنبّه أولاً على موضع الاعتبار وإبراز الشيء من العدم الصّرف إلى الوجود والتصوير في هذه الصورة الغريبة الشكل المتمكّنة من بدائع الصانع والظاهر أنّ الخطاب عام لجميع بني آدم ويكون على قوله ثم قلنا ما أن تكون فيه ثم بمعنى الواو فلم ترتّب ويكون

الترتيب بين الخلق والتصوير أو تكون ﴿ ثم ﴾ في ﴿ ثم قلنا ﴾ للترتيب في الإخبار لا في الزمان وهذا أسهل محمل في الآية ومنهم من جعل ﴿ ثم ﴾ للترتيب في الزمان واختلفوا في المخاطب ، فقيل المراد به آدم وهو من إطلاق الجمع على الواحد ، وقيل المراد به بنوه فعلى القول الأول يكون الخطاب في الجملتين لآدم لأنّ العرب تخاطب العظيم الواحد بخطاب الجمع ، وقيل الخطاب في الأولى لآدم وفي الثانية لذرّيته فتحصل المهلة بينهما ﴿ وثم ﴾ الثالثة لترتيب الأخبار ، وروى هذا العوفي عن ابن عباس .

(19/264)

وقيل : خلقناكم لآدم ثم صوّرناكم لبنيه يعني في صلبه عند أخذ الميثاق ثم قلنا فيكون الترتيب واقعاً على بابه وعلى القول الثاني وهو أنّ الخطاب لبني آدم ، فقيل : الخطاب على ظاهره وإن اختلف محل الخلق والتصوير فروي الحارث عن ابن عباس خلقناكم في ظهر آدم ثم صوّرناكم في الأرحام ، وقال ابن جبير عنه خلقناكم في أصلاب الرجل ثم صوّرناكم في أرحام النساء ، وقاله عكرمة وقتادة والضحّاك والأعمش ، وقال ابن السائب خلقناكم نطفاً في أصلاب الرجال وترائب النساء ثم صوّرناكم عند اجتماع النطف في الأرحام ، وقال معمّر بن راشد حاكياً عن بعض أهل العلم خلقناكم في بطون أمهاتكم وصوّرناكم فيها

بعد الخلق شقّ السّمع والبصر ﴿ وثم ﴾ على هذه الأقوال في قوله ﴿ ثم قلنا ﴾ للترتيب في الأخبار ، وقيل الخطاب لبني آدم إلا أنه على حذف مضاف التقدير ولقد خلقنا أرواحكم ثم صوّرنا أجسامكم حكاه القاضي أبو يعلى في المعتمد ويكون ﴿ ثمّ ﴾ في ﴿ ثم قلنا ﴾ لترتيب الأخبار ، وقيل التقدير ولقد خلقنا أباكم ثم صوّرنا أباكم ثم قلنا فثم على هذا للترتيب الزماني والمهلة على أصل وضعها ، وقيل هو من تلوين الخطاب يخاطب العين ويراد به الغير فيكون الخطاب لبني آدم والمراد آدم كقوله

﴿ وإذ نّجيناكم من آل فرعون ﴾ ﴿ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ هو خطاب لمن كان بحضرة الرسول من بني إسرائيل والمراد أسلافهم .

ومنه قول الشاعر :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها . . .

وزادت على ما وطّدت من مناقب

فأنتم بذي قارٍ أمالت سيوفكم . . .

عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

(20/264)

وهذه الوقعة كانت لآبائهم وتقدّم تفسير ﴿ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا إبليس ﴾ في سورة البقرة فأغنى عن إعادته وقوله ﴿ لم يكن من السّاجدين ﴾ جملة لا موضع لها من الإعراب مؤكدة لمعنى ما أخرجه الاستثناء من نفي سجود إبليس كقوله ﴿ أبى واستكبر ﴾ بعد قوله ﴿ إلا إبليس ﴾ في البقرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(21/264)

وقال ابن كثير:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ [فَسَجَدُوا] ﴾ (1)

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ] ﴾

الآية [الحجر : 28 - 30] ، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ، عليه السلام ، بيده من طين لازب ، وصوره بشرًا [سويا] ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الرب تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير "سورة البقرة" .

وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير : أن المراد بذلك كله آدم ، عليه السلام .

وقال سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ قال : خُلِقوا في أصلاب الرجال ، وصُوِّروا في أرحام النساء .

رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه

ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضا : أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم : الذرية .

وقال الربيع بن أنس ، والسُّدي ، وقتادة ، والضحاك في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أي : خلقنا آدم ثم صورنا الذرية .

(22/264)

وهذا فيه نظر ؛ لأنه قال بعده : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم ، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ [البقرة : 57] والمراد : آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى [عليه السلام] ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء . وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ] ﴾ [المؤمنون : 12 - 13] فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة ، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس ، لا معينا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 391.392 ﴾

(23/264)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾

تذكيرٌ لنعمة عظيمةٍ فائضةٍ على آدمَ عليه السلام ساريةٍ إلى ذريته موجبةٍ لشكرهم كافةً ، وتأخيرُه عن تذكير ما وقع قبله من نعمة التمكينِ إما لأنها فائضةٌ على المخاطَبين بالذات

وهذه بالواسطة ، وإما للإيذان بأن كلا منهما نعمةٌ مستقلةٌ مستوجبةٌ للشكر على حيالها ، فإن رعايةَ الترتيبِ الوقوعيِّ ربما تؤدّي إلى توهّم عدِّ الكلِّ نعمةً واحدةً كما ذكر في قصة آدمَ . وتصديرُ الجملتين بالقسم وحرفِ التحقيقِ لإظهار كمالِ العناية بمضمونها ، وإنما نُسب الخلقُ والتصويرُ إلى المخاطَبين مع أن المرادَ بهما خلقُ آدم عليه السلام وتصويرُه حتماً توفيةً لمقام الامتنانِ حقَّه وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظاً من خلقه عليه السلام وتصويرِه لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكةِ له عليه السلام بل من الأمور الساريةِ إلى ذريته جميعاً إذ الكلُّ مخلوقٌ في ضمن خلقِه على نمطه ومصنوعٌ على شاكلته فكأنهم الذي تعلق به خلقُه وتصويرُه ، أي خلقنا أباكم آدمَ طيناً غيرَ مُصوَّرٍ ثم صوَّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويمٍ سارَ إليكم جميعاً ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ ﴾ صريحٌ في أنه ورد بعد خلقِه عليه الصلاة والسلام وتسويته ونفخِ الروحِ فيه أمرٌ مُنجَزٌ غيرُ الأمر المعلَّق الواردِ قبل ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجدين ﴾ وهو المراد بما حكي بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ الآية ، في سورة البقرة وسورةِ بني إسرئيلَ وسورةِ الكهف وسورةِ طه من غير تعرضٍ لوقته ، وكلمة ثم ها هنا تقتضي تراخِيَه عن التصوير من غير تعرضٍ لبيان ما جرى بينهما من الأمور وقد بينا في سورة البقرةِ أن ذلك ظهورُ فضلِ آدمَ عليه

السلام بعد المحاورة المسبوقةِ بالإخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ

(24/264)

رَبُّكَ للملائكة إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فإن ذلك أيضاً من جملة ما نيط به الأمرُ المعلقُ من التسوية ونفخِ الروح ، وعدمُ ذكرِه عند الحكايةِ لا يقتضي عدمَ ذكره عند وقوعِ المحكيّ كما أن عدم ذكرِ الأمرِ المنْجزِ لا يستلزمُ عدمَ مسبوقيتِه به فإن حكايةَ كلامٍ واحدٍ على أساليبَ مختلفةٍ يقتضيها المقامُ ليست بعزيزة في الكلام العزيزِ ، فلعله قد ألقى إلى الملائكة عليهم السلام أو إلى جميع ما يتوقفُ عليه الأمرُ المنجزُ إجمالاً بأن قيل مثلاً : إني خالقٌ بشراً من طين وجاعلٌ إياه خليفةً في الأرض فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي وتبيَّن لكم فضلُه فقَعوا له ساجدين ، فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ما قالوا ، أو ألقيَ إليهم خبرُ الخلافةِ بعد تحققِ الشرائطِ المذكورةِ بأن قيل إثرَ نفخِ الروحِ : إني جاعلٌ هذا خليفةً في الأرض فهنالك ذكروا في حقه عليه السلام ما ذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الأسماءِ فشاهدوا منه عليه السلام ما شاهدوا فعند ذلك

ورد الأمرُ المنْجزُ اعتناءً بشأن المأمور به وإيذاناً بوقته ، وقد حُكيَ بعضُ الأمور المذكورة في بعض المواطنِ وبعضُها في بعضها اكتفاءً بما ذكر في كل موطنٍ عما تُرك في موطن آخرَ .

(25/264)

والذي يرفع غشاوةَ الاشتباهِ عن البصائر السليمةِ أن ما في سورة (ص) من قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ الآيات ، بدلٌ من قولِه : ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فيما قبله من قوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الاعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي بكلامهم عند اختصامِهم ، ولا ريب في أن المرادَ بالملأ الأعلى الملائكةُ وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ حسبما أطبق عليه جمهورُ المفسرين ، وباختصامِهم ما جرى بينهم في شأن الخلافةِ من التقاول الذي جملتُه ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ، ومن قضية البدلية وقوعُ الاختصام المذكورِ في تضاعيف ما شُرح فيه مفصّلاً من الأمر المعلّق وما علق به من الخلق والتسويةِ ونفخِ الروحِ فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكةِ وعنادِ إبليسَ ولعنِه وإخراجه من بين الملائكةِ وما جرى بعده من الأفعالِ والأقوالِ ، وإذ ليس تمامُ الاختصامِ بعد سجود الملائكةِ وعنادِ إبليسَ ومكابرةِ إبليسَ وطردِه من البين لما عرفت من أنه أحدُ المختصمِين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فإذن هو بعد نفخِ الروحِ وقبل السجودِ بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى

أعلم .

﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ أي الملائكةُ عليهم السلام بعد الأمرِ من غير تلعثم ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ استثناءٌ متصلٌ لما أنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة متصاً بصفاتهم فغُلّبوا عليه في (فسجدوا) ثم استُثنِيَ استثناءَ واحدٍ منهم ، أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم : الجنّ كما مر في سورة البقرة فقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُن مّنَ الساجدين ﴾ أي ممن سجد لآدمَ كلامٌ مستأنفٌ مُبينٌ لكيفية عدمِ السجود المفهومِ من الاستثناء فإن عدمَ السجودِ قد يكون للتأمل ثم يقع السجودُ ، وبه عُلم أنه لم يقعْ قطُّ .

وقيل : منقطعٌ فحينئذ يكون متصلاً بما بعده أي لكنْ إبليسِ لم يكن من الساجدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(26/264)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾

تذكير لنعمة أخرى ، وتأخيره عن تذكير ما وقع (بعده) من نعمة التمكن في الأرض إما لأنها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة ، وإما للإيذان بأن كلا منهما نعمة مستقلة ،

والمراد خلق آدم عليه السلام وتصويره كما يقتضيه ظاهر العطف الآتي لكن لما كان مبتدأ للمخاطبين جعل خلقه خلقاً بهم ونزل منزلته فالتجوز على هذا في ضمير الجمع بجعل آدم عليه السلام كجميع الخلق لتفرعهم عنه أو في الإسناد إذ أسند ما لآدم الذي هو الأصل والسبب إلى ما تفرع عنه وتسبب .

وجعل بعضهم الكلام على تقدير المضاف ، وذهب الإمام إلى أنه كناية عن خلق آدم عليه السلام ، والمعنى خلقنا أباكم آدم عليه السلام طيناً غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار ذلك إليكم .

وجوز أن يكون التجوز في الفعل ، والمراد ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه ، ويعود هذا إلى ابتداء خلق الجنس وابتداء خلق كل جنس بإجاد أول أفراده . فهو نظير قوله تعالى : ﴿ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] .

(27/264)

وعلى هذين الوجهين يظهر وجه العطف بثم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ وزعم الأخفش أن ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا بمعنى الواو ، وتعقبه الزجاج بأنه خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه ولا من يوثق بعلمه لأن ثم للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غيره ، وإنما

المعنى إنا ابتدأنا خلق آدم عليه السلام من تراب ثم صورناه أي هذا أصل خلقكم ثم بعد الفراغ من أصلكم قلنا الخ ، وقيل : إن ﴿ ثُمَّ ﴾ لترتيب الأخبار لا للترتيب الزماني حتى يحتاج إلى توجيه ، والمعنى خلقناكم يا بني آدم مضغاً غير مصورة ثم صورناكم بشق السمع والبصر وسائر الأعضاء كما روي عن يمان أو خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء كما روي عن عكرمة ثم نخبركم أنا قلنا للملائكة الخ وإلى هذا ذهب جماعة من النحويين منهم علي بن عيسى والقاضي أبو سعيد السيرافي وغيرهما ، وقال الطيبي : يمكن أن تحمل ﴿ ثُمَّ ﴾ على التراخي في الرتبة لأن مقام الامتنان يقتضي أن يقال : إن كون أبيهم مسجوداً للملائكة أرفع درجة من خلقهم وتصويرهم .

وفيه تلويح إلى شرف العلم وتنبيه للمخاطبين على تحصيل ما فاز به أبوهم من تلك الفضيلة ، ومن ثم عقب في البقرة الأمر بالسجود مسألة التحدي بالعلم .

وعن ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة والسدي أن المعنى خلقنا آدم عليه السلام ثم صورناكم في ظهره ثم قلنا الخ .

وقد تقدم الكلام في المراد بالملائكة المأمورين بالسجود ، وكذا الكلام في المراد بالسجود .

(28/264)

وذكر بعض المحققين أن الظاهر أن يقال : ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم إلا أنه عدل عن ذلك لأن الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم عليه السلام على ما نطق به قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 29 وص : 72] والواقع بعد تصويره إنما هو قوله سبحانه : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ وذلك لتعيين وقت السجدة المأمور بها قبل ، والحاصل أنه سبحانه أمرهم أولاً أمراً معلقاً ثم أمرهم ثانياً أمراً منجزاً مطابقاً للأمر للأمر السابق فلذا جعله حكاية له ، وفي ذلك ما لا يخفى من الاعتناء بشأن آدم عليه السلام .

﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ أي الملائكة عليهم السلام بعد القول من غير تلعثم كلهم أجمعون ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ استثناء متصل سواء قلنا : إن إبليس من الملائكة حقيقة أم لا ، أما على الأول : فظاهر ، وأما على الثاني : فلأنه لما كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة متصفاً بغالب صفاتهم غلبوا عليه في ﴿ سَجَدُواْ ﴾ ثم استثنى استثناء واحد منهم .

وقيل : منقطع بناء على أنه من الجن وأنهم ليسوا من جنس الملائكة ولا تغليب ، والأول هو المختار .

وذكر قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي ممن سجد لآدم عليه السلام مع أنه علم من الاستثناء عدم السجود لأن المعلوم من الاستثناء عدم العموم لا عموم العدم ، والمراد الثاني أي أنه لم يصدر منه السجود مطلقاً لا معهم ولا منفرداً .

وهذا إنما يفيده التنصيص كذا قيل ، ونظر فيه بأن التنصيص المذكور لا يفيد عموم الأحوال والأوقات فلا يتم ما ذكر ، وتحقيق هذا المقام على ما ذكره المولى سري الدين أن يقال : إن القوم اختلفوا في أن الاستثناء من النفي إثبات أم لا ، فقال الشافعي : نعم فيكون نقيض الحكم ثابتاً للمستثنى بطريق العبارة ، ويوافقه ظاهر عبارة "الهداية" .

وذهب طائفة من الحنفية إلى أنه بطريق الإشارة .

(29/264)

وذهب آخرون إلى أن المستثنى في حكم المسكوت عنه ، وإنما يستفاد الحكم بطريق مفهوم المخالفة .

واختار صاحب "البحر" أنه منطوق إشارة تارة وعبارة أخرى .

وإذا تقرر هذا فيمكن أن يقال في الجواب : إن المقام لما كان مقام التسجيل على إبليس بعدم السجود والتشهير والتوبيخ بتلك القبيحة الهائلة كان خليقاً بالتصريح جديراً بالاحتياط لضعف التعويل على القرينة لائقاً بكمال الإيضاح والتقرير فعدل عن طريق الحذف ، وإن كان الكلام دالاً على المحذوف إلى منهج الذكر والتصريح به ، وهذا على رأي الشافعي ومن وافقه ظاهر وإليه أشار السراج الهندي في مباحث الاستثناء من "شرح المغني" ،

وأما على باقي المذاهب فالأمر أظهر لأن الحكم على المستثنى بنقيض حكم المستثنى منه إما بطريق الإشارة أو مفهوم المخالفة ، وعلى كل فالمقام يأبى الاكتفاء بمثل ذلك ويقتضي التصريح بذكر الحكم .

وادعى مولانا ابن الكمال أن هذه الجملة إنما جيء بها لانقطاع الاستثناء وأنه لو كان الاستثناء متصلاً يكون الإتيان بها ضائعاً لأن عدم كون إبليس من الساجدين يفهم من الاستثناء على تقدير اتصاله .

ولا يخفى ما فيه على من أحاط علماً بما ذكرنا .

واعترضه البعض أيضاً بأنه على تقدير الانقطاع يكون ذلك ضائعاً أيضاً بناء على ما ظنه فإن ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى غير مختص بالمتصل ، ولذا لا نراهم يذكرون مع المستثنى المنقطع أيضاً نقيض حكم المستثنى منه إلا قليلاً ، ولو تم ما ذكره لوجب ذكر الخبر مع كل منقطع فليفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(30/264)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ

مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾ [الأعراف : 10] تذكيراً بنعمة إيجاد النّوع ، وهي نعمة عناية ، لأنّ الوجود أشرف من العدم ، بقطع النّظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب ، وبنعمة تفضيله على النّوع بأنْ أمَر الملائكة بالسّجود لأصله ، وأُدمج في هذا الامتنان تنبيهٌ وإيقاظ إلى عداوة الشّيطان لنوع الإنسان من القِدم ، ليكون ذلك تمهيداً للتّحذير من وسوسه وتضليله ، وإغراء بالإقلاع عمّا أوقع فيه النّاس من الشّرك والضّلالة ، وهو غرض السورة ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف : 27] ومَا تلاه من الآيات ، فلذلك كان هذا بمنزلة الاستدلال وُسِّط في خلال الموعظة .

والخطاب للنّاس كلّهم ، والمقصود منه المشركون ، لأنّهم الغرض في هذه السورة .

وتأكيد الخبر باللاّم و(قد) للوجه الذي تقدّم في قوله : ﴿ ولقد خلقناكم ﴾ ، وتعدية فعلي الخلق والتّصوير إلى ضمير المخاطبين ، لما كان على معنى خلق النّوع الذي هم من أفراد تعيّن أن يكون المعنى : خلقنا أصلكم ثمّ صوّرناه ، وهو آدم ، كما أفصح عنه قوله : ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ .

والخلق الإيجاد وإبراز الشّيء إلى الوجود ، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وَصْف الله به .

والتّصوير جعل الشّيء صورة ، والصّورة الشّكل الذي يشكّل به الجسم كما يشكّل الطين بصورة نوع من الأنواع .

(31/264)

وعطفت جملة ﴿ صورناكم ﴾ بحرف (ثمّ) الدّالة على تراخي رتبة التّصوير عن رتبة الخلق ، لأنّ التّصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانيّة المتقنة حسناً وشرفاً ، بما فيها من مشاعر الإدراك والتّدبير ، سواء كان التّصوير مقارناً للخلق كما في خلق آدم ، أم كان بعد الخلق بمدّة ، كما في تصوير الأجنّة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر ، كقوله تعالى : ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ﴾ [المؤمنون : 14] .

وتعدية فعلي (خلقنا) و(صوّرنا) إلى ضمير الخطاب ينتظم في سلك ما عاد إليه الضّمير قبله في قوله : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾ [الأعراف : 10] الآية فالخطاب للنّاس كلّهم توطئة لقوله فيما يأتي : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف : 27] والمقصود بالخصوص منه المشركون لأنّهم الذين سوّل لهم الشّيطان كفران هذه النّعم لقوله تعالى عقب ذلك : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا

﴾ [الأعراف : 28] وقوله فيما تقدّم : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ [الأعراف : 3] .

وأمّا تعلُّق فعلي الخلق والتّصوير بضمير المخاطبين فمراد منه أصل نوعهم الأوّل وهو آدم بقرينة تعقيبه بقوله : ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فنُزل خلق أصل نوعهم منزلةَ خلق أفراد النّوع الذين منهم المخاطبون لأنّ المقصود التّذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم ونظيره قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية ﴾

(32/264)

[الحاقة : 11] أي حملنا أصولكم وهم الذين كانوا مع نوح وتناسل منهم النّاس بعد الطّوفان ، لأنّ المقصود الامتنان على المخاطبين بإنجاء أصولهم الذين تناسلوا منهم ، ويجوز أن يؤول فعلا الخلق والتّصوير بمعنى إرادة حصول ذلك ، كقوله تعالى : حكاية عن كلام الملائكة مع إبراهيم : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ [الذاريات : 35] أي أردنا إخراج من كان فيها ، فإن هذا الكلام وقع قبل أمر لوط ومَن آمن به بالخروج من القرية .

ودلّ قوله : ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ على أنّ المخلوق والمصوّر هو آدم ،

ومعنى الكلام خلقنا أصلكم وصوّرناه فبرز موجوداً معيَّناً مسمّى بآدم ، فإنّ التّسمية طريق لتعيين المسمّى ، ثمّ أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه فقلنا للملائكة اسجدوا له فوقع إيجاز بديع في نسج الكلام .

و(ثُمّ) في قوله : ﴿ ثم قال للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ عاطفةٌ الجملةَ على الجملة فهي مقيّدة للتّراخي الرّتبي لا للتّراخي الزّماني وذلك أنّ مضمون الجملة المعطوفة هنا أرقى رتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها .

وقوله : ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ ، تقدّم تفسيره ، وبيانُ ما تقدّم أمَر الله الملائكةَ بالسّجود لآدم ، من ظهور فضل ما علمه الله من الأسماء ما لم يَعلِّمه الملائكة ، عند قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ في سورة البقرة (34) .

وتعريف ﴿ الملائكة ﴾ للجنس فلا يلزم أن يكون الأمر عاماً لجميع الملائكة ، بل يجوز أن يكون المأمورون هم الملائكة ، الذين كانوا في المكان الذي خُلق فيه آدم ، ونقل ذلك عن ابن عبّاس ، ويحتمل الاستغراق لجميع الملائكة .

وطريق أمرهم جميعاً وسجودِهم جميعاً لآدم لا يعلمه إلاّ الله ، لأنّ طرق علمهم بمراد الله عنهم في العالم العلوي لا تقاس على المألوف في عالم الأرض .

واعلم أن أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم لا يقتضي أن يكون آدمُ قد خلق في العالم الذي فيه الملائكة بل ذلك محتمل ، ويحتمل أنّ الله لمّا خلق آدم حشر الملائكة ، وأطلعهم على هذا الخلق العجيب ، فإنّ الملائكة ينتقلون من مكان إلى مكان فالآية ليست نصّاً في أنّ آدم خلق في السّماوات ولا أنّه في الجنّة التي هي دار الثّواب والعقاب ، وإن كان ظاهرها يقتضي ذلك ، وبهذا الظاهر أخذ جمهور أهل السنّة ، وتقدّم ذلك في سورة البقرة .

واستثناء إبليس من الساجدين في قوله : ﴿ إلا إبليس ﴾ يدلّ على أنّه كان في عداد الملائكة لأنّه كان مختلطا بهم .

وقال السكاكي في "المفتاح" عُدّ إبليس من الملائكة بحكم التّغليب .

وجملة : عغتاة ، ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾ حال من (إبليس) ، وهي حال مؤكدة لمضمون عاملها وهو ما دلّت عليه أداة الاستثناء ، لما فيها من معنى : أستثنِي ، لأنّ الاستثناء يقتضي ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنَى ، وهو عين مدلول : لم يكن من الساجدين فكانت الحال تأكيداً .

وفي اختيار الاخبار عن نفي سجوده بجعْلِه من غير السّاجدين : إشارة إلى أنّه انتفى عنه السّجود انتفاء شديداً لأنّ قولك لم يكن فلان من المهتدين يفيد من النّفي أشدّ ممّا يفيده قولك لم يكن مُهتدياً كما في قوله تعالى:

﴿ قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة الأنعام (56) .

ففِي الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى خلق في نفس إبليس جبلة تدفعه إلى العصيان عندما لا يوافق الأمر هواه ، وجعل له هوىً ورأياً ، فكانت جبلته مخالفة لجبلة الملائكة .

(34/264)

وإنّما استمرّ في عِداد الملائكة لأنّه لم يَحدث من الأمر ما يخالف هواه ، فلمّا حدث الأمرُ بالسّجود ظَهر خُلق العصيان الكامِنُ فيه ، فكان قوله تعالى : لم يكن من الساجدين ﴾ إشارة إلى أنّه لم يقدّر له أن يكون من الطائفة السّاجدين ، أي انتفى سجوده انتفاء لارجاء في حصوله بعدُ ، وقد عُلِم أنّه أبى السّجود إباء وذلك تمهيداً لحكاية السّؤال والجواب في قوله : ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ ابتداء المحاورة ، لأنّ ترك إبليس السّجود لآدم بمنزلة جواب عن قول الله : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ ، فكان بحيث يتوجّه إليه استفسار عن سبب تركه السّجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(35/264)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت في سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية تتوزع على سبع سور ، في سبعة مواضع موجودة في سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة في في كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطة ، وهناك لقطة ثانية ، وتلك لقطة ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لابد أن يكررها الله ؛ لتستقر في أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها في أشياء ، فهو يكررها كما كررها في استحضار النعم في سورة واحدة في قوله سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

إنه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار * وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * ويبقى

وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 14-28]

وكل نعمة يقول بعدها : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(36/264)

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر في القلوب حتى في الآذان الصماء ؛ فمرة يأتي بها في شيء ظاهره أنه ليس نعمة ، مثل قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 35-36]

وجاء الحق بذكر كل ذلك ؛ لأنه ساعة يجلي لنا الأمور على حقائقها ونحن في دار التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا ؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد والتنحي عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فحين يدخل الابن إلى المدرسة نقول له : إن قصرت في كذا فسوف ترسب ، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة ، فلم تتركه دون أن تبصره بعواقب الأمور ، وأيضا ساعة ترى شراً يحيق بالكافرين ، فإن هذا الأمر يسرك ، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة ، فالعذاب نقمة على الكافر ، ونعمة على

المقابل وهو المؤمن .

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها في القرآن سبع مرات ؛ لأنها قصة بدء الخلق ، وهي التي تجيب عن السؤال الذي يبحث عن إجابته الإنسان ؛ لأنه تلفت ليجد نفسه في كون معد له على أحسن ما يكون . ولم يجيء الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسان على الكون ، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق ، والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان في الكون ، فأنت تستقرئ أجناساً في الكون ، وكل جنس له مهمة ، ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب في خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكي يغذي الحيوان ، والحيوان ينفعك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب في خدمتك .

(37/264)

أمّا أنت أيها الإِنسان فما عملك في هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإِنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرِّف الإِنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإِنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله في كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإِنسان خبراً من الخالق . إنه – سبحانه – يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا

المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة في سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أن نبحث لنتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل في دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هي من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لأننا نعلم أن العبقريات تأتي في آخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغي المعجز . وليس من المعقول ان يأتي بأخبار الكون وهو الأمي الذي مات أبوه وهو في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو في السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذي أدراه – إذن – انه سيمهل ويمد في أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

(38/264)

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15]

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يُوحَى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية في قوله الحق : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16]

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبيّن لهم : هل علمتم عني خلال عمري أني قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ [الأعراف : 11]

(39/264)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشري أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته في الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته في الوجود . يجب عليه أن يترك كل

تخمين وظنٍ ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن تأتي فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأي شيء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبيًّا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله في قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإِنسان ، وقد حكم سبحانه في هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشري في هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه القضية ويحسمها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51]

فكأن الذي يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإِنسان هو مضل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكا له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإِنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإِنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائيّاً ويرجع إلى الوراء فلابد أن يجد أن الأمر منطقي ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئي ، وليس التكاثر في البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالي وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا

ورجعنا إلى الزمن الماضي يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتي من اثنين ، وحلّ الله لنا اللغز فقال : ﴿ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴾ [النساء : 1]

(40/264)

وهذا كلام صحيح يثبته الإحصاء ويتقنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلا . ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً . . . ﴾ [النساء : 1]

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ . . . ﴾ [الذاريات : 49]

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حوّاء فهل أخذ جزءًا من آدم وخلق منه حوّاء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضا ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حوّاء ، وأعطانا النموذج في واحد ، وقال : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

و ﴿ مِنْهَا ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعيضية ، مثلها مثل قوله الحق : " رسول من أنفسكم " .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها " محمد " ، بل جعل محمداً صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ [البقرة : 30]

وهذا أول بلاغ ، ثم اتبع ذلك : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 29]

إذن فقبل النفخ في الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو " المسوّى منه " ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنّها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : " من ماء " نقول : نعم ، وإن قال " من طين " فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهي مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

(41/264)

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذي نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التي نتجه إليها عند الصلاة . ولكنْ لنا هنا ملاحظة ، ونقول : إننا لا نسجد إلا الله ، ومادام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدي الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكنْ الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس : ﴿ . . . أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75 ﴾

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . . ﴾ [الرعد : 11]

وهناك الرقيب ، والعتيد والقعيد . وفي كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك ملك مخصوص بها ، ويبلغنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا

للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ وهذا ترتيب اخباري ، وليس ترتيباً للأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً في خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوي توجد فيه كل صفات الإنسان .

(42/264)

ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبيك ، وقد نزل من والدك وهو حي ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حي ، وعلى ذلك فكل مكائن الآن فيه كائن الآن فيه جزئ حي من لدن آدم ، لم يطرأ عليه موت في أي حلقة من الحلقات .

إذن فكلنا كنا مطمورين في جزيئات آدم ، وقال ربنا سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ [الأعراف : 172]

ونقول : صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم ، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً ، وكل ذلك في ترتيب طبيعي ، وهو سبحانه له أمور يبديها ولا يبتديها ، أي أنه سبحانه يظهرها فقط ، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ [الأعراف : 11]

وعرفنا من هم الملائكة من قبل ، وما هي علة السجود . ﴿ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ .

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين . وهذا دليل على أنه دخل في الأمر بالسجود ، ولكن هل إبليس من الملائكة ؟ لا ؛ لأنك إذا جئت في القرآن ووجدت نصًّا يدل بالالتزام ، ونصًّا يدل بالمطابقة والقطع فاحمل نص الالتزام على النص المحكم الذي يقطع بالحكم . وقد قال الحق في ذلك : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . . ﴾ [الكهف : 50]

وفي هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكية ، وتقرير أنه من الجن ، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار ، يمكنه أن يعصي يمكنه أن يطيع أو أن يعصي ، إذن فقوله الحق : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ .

(43/264)

يعني أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإِنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أي الذي يزهو في محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصي الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً – أيضاً – لأن يعصي ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم في أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر الطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة وما دام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(44/264)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ قال : خلقوا في أصلاب الرجال ، وصوروا في أرحام النساء .

وأخرج الفريابي عق ابن عباس في الآية قال : خلقوا في ظهر آدم ، ثم صوروا في الأرحام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس قال : أما قوله ﴿ خلقناكم ﴾ فآدم ﴿ ثم صورناكم ﴾ فذريته .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولقد خلقناكم ﴾ قال : آدم ﴿ ثم صورناكم ﴾ قال : في ظهر آدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ قال : خلق الله آدم من طين ، ثم صوركم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم كسى العظام لحماً .

وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن الكلبي ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ قال : خلق الإِنسان في الرحم ، ثم صوره فشق سمعه وبصره وأصابعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(45/264)

من فوائد الشيخ / محمود غريب فى الآية الكريمة

(التكرار في القرآن) ***

قال لي ما سبب التكرار في القرآن ؟

قلت له : هل يمكن أن تصور الجامع صورة واحدة تظهر كل جوانبه قال لا . . . لا بد من عدة لقطات من جوانب مختلفة . قلت : هذا سر التكرار في القرآن . حتى قول الله تعالى في سورة الرحمن ((فبأي آلاء ربكما تكذبان)) وهي أكثر آية تكررت في سورة واحدة . . . فان كل مرة تذكر فيها تشير إلى أمر يغاير ما سبقت له في المرة السابقة فهي بعد كل مقطع قرآني في السورة تذّكر بالنعمة التي أشار لها المقطع والقارئ الفاهم للقرآن لا يصعب عليه إدراك ذلك . . أما التكرار في القصة فيمكنك – قارئي الكريم – أن تدرك سره لو أحضرت مصحفا وقرأت الآيات التي أشير إليها حتى لا يطول المقال بكتابة الآيات .

والقصة التي اخترتها لك:-

- قصة الناقة - وقد ذكرت في السور الآتية - الأعراف . هود . الإسراء . الشعراء . القمر . الشمس . ثم ذكرت في النمل والحجر وفصلت والحاقة إشارة لا تصريحا .

وألان مع الآيات .

سورة الأعراف -73- إلى - 79 - والدراس للآيات يراها تكلمت عن النقاط الآتية :-

أولا : ذكرت أن الناقة هي * ناقة الله * نسبها الله إليه تعظيما لها .

ثانيا : ذكرت الجانب الحضاري في عهد ثمود قال تعالى : ((وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا)) .

ثالثا : ذكرت الحوار الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين من قوم صالح واستهانة المستكبرين بالمعجزة ثم عقرهم الناقة . . .

ثم تأتي صورة هود آية -61 - إلى -68-

فتضيف جانبا جديد من الأخبار :

أولا : حوار القوم مع صالح عليه السلام ورده عليهم .

ثانيا : تحدد المدة التي عاشها القوم بعد عقر الناقة بثلاثة أيام)) ثم أخذتهم الصيحة .

ثالثا : بينت أن الله نجى صالحا والذين آمنوا معه ((لما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين امنوا

معه برحمة منا)) . . .

وكل هذه الأخبار جديدة لم تذكر في سورة الأعراف . . . .

(46/264)

ثمّ تأتي سورة الحجر آية – 80 –إلى 84 وتذكر المكان الذي دارت عليه حوادث القصة

. . .أن اسم المكان * الحجر * بكسر الحاء . . . .وهو مكان بين الحجاز والشام

وتسمى مدائن صالح . . .

وفي سورة الشعراء تبرز ملامح جديدة في الآيات – 141 –إلى – 159 –

أولا: – تبين أن صالحا لم يطلب أجرا على دعوته ((وما أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا

على رب العالمين))

ثانيا : – تخبرنا عن الجانب الزراعي في بلادهم ((في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها

هضيم))

ثالثا : – تبين أن القوم هم الذين طلبوا معجزة من النبي صالح ((فات بآية إن كنت من

الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم)) – 155 –

رابعا : – تظهر ندم القوم بعد عقر الناقة ((فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب))

ومعلوم أنه ندم مشاهدة العذاب . . . . . وليس ندم التوبة . . . .

سورة النمل من الآية – 45 – إلى – 53 –

تحدثنا السورة عن مؤامرة لزعماء القوم أرادوا قتل صالح عليه السلام وأهله ولكنّ الله تعالى أبطل مكرهم وعذبهم . . . . . ((وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثمّ نقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون))

وفي سورة فصلت والذاريات والحاقة لمحات سريعة كالتذكرة والعبرة . . . . .

ثمّ تأتي سورة القمر آية – 23 – إلى –32 –

فتذكر لنا أن القوم جميعا قد اشتركوا في عقر الناقة وذلك لأنهم ذهبوا إلى صاحبهم لعقرها . . . . ((فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر)) – 30 – كما تذكر للمرة الأولى أن الذي عقر الناقة قد شرب الخمر قبل أن يرتكب جريمته لأن الخمر تهّون الجرائم ((فتعاطى فعقر)) أي تعاطى الخمر . . .

وتأتي سورة الشمس آية – 11 – إلى نهاية السورة

وهنا تظهر الملامح الأخيرة وتتلخص في نقطتين : –

الأولى : – أن الرجل الذي عقر الناقة هو أشقى القوم . . . . ((إذ انبعث أشقاها)) . . .

الثانية :- أن القوم قد أهلكوا بذنوبهم لم يظلمهم الله تعالى ((فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها)) .

وبعد : ----------

هذه لمحة سريعة أتقدم بها بين يديك أيها القارئ الكريم حول هذا الموضوع العظيم تاركا لك الإجابة على هذا السؤال : هل في القرآن تكرار ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

وأظنه قد وضح ذلك أن مجموع آيات القرآن قي الموضوع الواحد تعطي صورة كاملة عن الموضوع .

أقول ذلك :-

حتى لا نخطي فهم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ سلسلة حتى لا نخطي فهم القرآن للشيخ محمود غريب ﴾

(48/264)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " لَمْ يَكُنْ " هذه الجملة استئنافِيَّةٌ ؛ لأنها جوابُ سؤال مقدَّرٍ ، وهذا كما تقدَّم في قوله في البقرة " أَبَى " ، وتقدَّم أنَّ الوقف على إبليس .

وقيل : فائدة هذه الجُمْلَة التَّوكيد لما أخرجه الاستثناء من نفي سجود إبليس .

وقال أبو البقاءِ : إنَّهَا في محلِّ نصب على الحال أي : إلاَّ إبليس حال كونه ممتنعاً من السُّجُودِ ، وهذا كما تقدَّم له في البقرة من أن " أَبَى " في موضع نصب على الحال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 29 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذي أردناكم ، وأقمناكم في الشواهد التي اخترنا لكم ؛ فمِنْ قبيح صورته خَلْقاً ومن مليح ، ومن سقيم حالته خُلُقاً ، ومن صحيح . ثم إنا نعرفكم سابِق آيادينا إلى أبيكم ، ثم لاحِقَ خلافه بما بقي عِرْقٌ منه فيكم ، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم) ويعاديكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 522 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان مخالف الملك في محل العقاب ، تشوف السامع إلى خبره فأجيب بقوله : ﴿ قال ﴾ أي لإبليس إنكاراً عليه توبيخاً له استخراجاً لكفره الذي كان يخفيه بما يبدي من جوابه ليعلم الخلق سبب طرده ﴿ ما منعك ﴾ ولما كانت هذه العبارة قد صرحت بعدم سجوده ، فكان المعنى لا يلبس بإدخال " لا " في قوله : ﴿ ألا تسجد ﴾ أتى بها لتفيد التأكيد بالدلالة على اللوم على الامتناع من الفعل والإقدام على الترك ، فيكون كأنه قيل : ما منعك من السجود وحملك على تركه ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أمرتك ﴾ أي حين حضر الوقت الذي يكون فيه أداء المأمور به ﴿ قال ﴾ أي إبليس ناسباً ربه سبحانه إلى الجور أو عدم العلم بالحق ﴿ أنا خير منه ﴾ أي فلا يليق لي السجود لمن هو دوني ولا أمري بذلك لأنه مناف للحكمة ؛ ثم بين وجه الخيرية التي تصورها بسوء فهمه أو بما قاده إليه سوء طبعه بقوله :

﴿ خلقتني من نار ﴾ أي فهي أغلب أجزائي وهي مشرفة مضيئة عالية غالبة ﴿ وخلقته من طين ﴾ أي هو أغلب أجزائه وهو كدر مظلم سافل مغلوب ، وقد غلط غلطاً فاحشاً فإن الإيجاد خير من الإعدام بلا نزاع ، والنار سبب الإعدام والمحق لما خالطته ، والطين سبب النماء والتربية لما خالطه ، هذا لو كان الأمر في الفضل باعتبار العناصر والمبادىء وليس كذلك ، بل هو باعتبار الغايات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 12 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود فإن ذلك الأمر قد تناول إبليس ، وظاهر هذا يدل على أن إبليس كان من الملائكة ، إلا أن الدلائل التي ذكرناها تدل على أن الأمر ليس كذلك وأما الاستثناء فقد أجبنا عنه في سورة البقرة .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يقتضي أنه تعالى ، طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود ، وليس الأمر كذلك .

فإن المقصود طلب ما منعه من السجود ، ولهذا الإشكال حصل في الآية قولان :

القول الأول : وهو المشهور أن كلمة لا صلة زائدة ، والتقدير : ما منعك أن تسجد ؟ ا وله نظائر في القرآن كقوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] معناه : أقسم .

وقوله : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 95] أي يرجعون .

وقوله : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] أي ليعلم أهل الكتاب .

وهذا قول الكسائي ، والفراء ، والزجاج ، والأكثرين .

والقول الثاني : أن كلمة ﴿ لا ﴾ ههنا مفيدة وليست لغواً وهذا هو الصحيح ، لأن الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب ، وعلى هذا القول ففي تأويل الآية وجهان : الأول : أن يكون التقدير : أي شيء منعك عن ترك السجود ؟ ا ويكون هذا الاستفهام على سبيل الإنكار ومعناه : أنه ما منعك عن ترك السجود ؟ ا كقول القائل لمن ضربه ظلماً : ما الذي منعك من ضربي ، أدينك ، أم عقلك ، أم حياؤك ؟ ا والمعنى : أنه لم يوجد أحد هذه الأمور ، وما امتنعت من ضربي .

الثاني : قال القاضي : ذكر الله المنع وأراد الداعي فكأنه قال : ما دعاك إلى أن لا تسجد ؟ ا لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها .

المسألة الثالثة :

احتج العلماء بهذه الآية على أن صيغة الأمر تفيد الوجوب ، فقالوا : إنه تعالى ذم إبليس بهذه الآية على ترك ما أمر به ولو لم يفد الأمر الوجوب لما كان مجرد ترك المأمور به موجباً للذم .

فإن قالوا : هب أن هذه الآية تدل على أن ذلك الأمر كان يفيد الوجوب ، فلعل تلك الصيغة في ذلك الأمر كانت تفيد الوجوب .

فلم قلتم إن جميع الصيغ يجب أن تكون كذلك ؟

(51/264)

قلنا : قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يفيد تعليل ذلك الذم بمجرد ترك الأمر ، لأن قوله : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ مذكور في معرض التعليل ، والمذكور في قوله : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ هو الأمر من حيث أنه أمر لا كونه أمراً مخصوصاً في صورة مخصوصة ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون ترك الأمر من حيث إنه أمر موجبٌ للذم ، وذلك يفيد أن كل أمر فإنه يقتضي الوجوب وهو المطلوب .

المسألة الرابعة :

احتج من زعم أن الأمر يفيد الفور بهذه الآية قال : إنه تعالى ذم إبليس على ترك السجود في الحال ، ولو كان الأمر لا يفيد الفور لما استوجب هذا الذم بترك السجود في الحال .

المسألة الخامسة :

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ طلب الداعي الذي دعاه إلى ترك السجود ، فحكى تعالى عن إبليس ذكر ذلك الداعي ، وهو أنه قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ومعناه : أن إبليس قال إنما لم أسجد لآدم ، لأني خير منه ، ومن كان خيراً من غيره فإنه لا يجوز أمر ذلك الأكمل بالسجود لذلك الأدون ! ثم بين المقدمة الأولى وهو قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ بأن قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ والنار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل ، فوجب كون إبليس خيراً من آدم .

أما بيان أن النار أفضل من الطين ، فلأن النار مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السموات ملاصق لها ، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السموات ، وأيضاً فالنار قوية التأثير والفعل ، والأرض ليس لها إلا القبول والانفعال . والفعل أشرف من الانفعال ، وأيضاً فالنار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة ، وأما الأرضية والبرد واليبس فهما مناسبان الموت .

والحياة أشرف من الموت ، وأيضاً فنضج الثمار متعلق بالحرارة ، وأيضاً فسن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلاً في هذين الوقتين ، وأما وقت الشيخوخة ، فهو وقت البرد واليبس المناسب للأرضية ، لا جرم كان هذا الوقت أرداً أوقات عمر الإنسان ، فأما بيان أن المخلوق من الأفضل أفضل فظاهر ، لأن شرف الأصول يوجب شرف الفروع .

وأما بيان أن الأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون فلأنه قد تقرر في العقول أن من أمر أبا حنيفة والشافعي وسائر أكابر الفقهاء بخدمة فقيه نازل الدرجة كان ذلك قبيحاً في العقول ، فهذا هو تقرير لشبهة إبليس .

فنقول : هذه الشبهة مركبة من مقدمات ثلاثة .

أولها : أن النار أفضل من التراب ، فهذا قد تكلمنا فيه في سورة البقرة .

وأما المقدمة الثانية : وهي أن من كانت مادته أفضل فصورته أفضل ، فهذا هو محل النزاع والبحث ، لأنه لما كانت الفضيلة عطية من الله ابتداء لم يلزم من فضيلة المادة فضيلة الصورة .

ألا ترى أنه يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ، والنور من الظلمة والظلمة من النور ، وذلك يدل على أن الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله تعالى لا بسبب فضيلة الأصل

والجوهر .

وأيضاً التكليف إنما يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال العقل ، فالمعتبر بما انتهى إليه لا بما خلق منه ، وأيضاً فالفضل إنما يكون بالأعمال وما يتصل بها لا بسبب المادة .

ألا ترى أن الحبشي المؤمن مفضل على القرشي الكافر .

المسألة السادسة :

احتج من قال : أنه لا يجوز تخصيص عموم النص بالقياس بأنه لو كان تخصيص عموم النص بالقياس جائزاً لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد والتوبيخ العظيم ، ولما حصل ذلك دل على أن تخصيص عموم النص بالقياس لا يجوز ، وبيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة : ﴿ اسجدوا لأَدَمَ ﴾ [الأعراف : 11] خطاب عام يتناول جميع الملائكة .

ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس .

(53/264)

وهو أنه مخلوق من النار والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، فيلزم كون إبليس أشرف من آدم عليه السلام ، ومن كان أشرف من غيره ، فإنه لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون الأدنى .

والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر ، ولا معنى للقياس إلا ذلك ، فثبت أن إبليس ما عمل في هذه الواقعة شيئاً إلا أنه خصص عموم قوله تعالى للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ بهذا القياس ، فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزاً لوجب أن لا يستحق إبليس الذم على هذا العمل : وحيث استحق الذم الشديد عليه ، علمنا أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وأيضاً ففي الآية دلالة على صحة هذه المسألة من وجه آخر ، وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : ﴿ اهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأَعراف : 13] فوصف تعالى إبليس بكونه متكبراً بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص ، وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله ، ولما دلت هذه الآية على أن تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله ، ودلت هذه الآية على أن التكبر على الله يوجب العقاب الشديد والإخراج من زمرة الأولياء والإدخال في زمرة الملعونين ، ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز .

وهذا هو المراد مما نقله الواحدي في "البسيط" ، عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس ، فكفر بقياسه ، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس .

هذا جملة الألفاظ التي نقلها الواحدي في "البسيط" عن ابن عباس .

فإن قيل : القياس الذي يبطل النص بالكلية باطل .

أما القياس الذي يخصص النص في بعض الصور فلم قلتم أنه باطل ؟ وتقريره أنه لو قبح أمر من كان مخلوقاً من النار بالسجود لمن كان مخلوقاً من الأرض ، لكان قبح أمر من كان مخلوقاً من النور المحض بالسجود لمن كان مخلوقاً من الأرض أولى وأقوى ، لأن النور أشرف من النار ، وهذا القياس يقتضي أن يقبح أمر أحد من الملائكة بالسجود لآدم ، فهذا القياس يقتضي رفع مدلول النص بالكلية وأنه باطل .

وأما القياس الذي يقتضي تخصيص مدلول النص العام ، لم قلتم : إنه باطل ؟ فهذا سؤال حسن أوردته على هذه الطريقة وما رأيت أحداً ذكر هذا السؤال ويمكن أن يجاب عنه ، فيقال : إن كونه أشرف من غيره يقتضي قبح أمر من لا يرضى أن يلجأ إلى خدمة الأدنى الأدون ، أما لو رضي ذلك الشريف بتلك الخدمة لم يقبح ، لأنه لا اعتراض عليه في أنه يسقط حق نفسه ، أما الملائكة فقد رضوا بذلك ، فلا بأس به ، وأما إبليس فإنه لم يرض بإسقاط هذا الحق ، فوجب أن يقبح أمره بذلك السجود ، فهذا قياس مناسب ، وأنه يوجب تخصيص النص ولا يوجب رفعه بالكلية ولا إبطاله فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزاً ، لما استوجب الذم العظيم ، فلما استوجب استحقاق هذا الذم العظيم في حقه علمنا أن

ذلك إنما كان لأجل أن تخصيص النص بالقياس غير جائز . والله أعلم .

المسألة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ لا شك أن قائل هذا القول هو الله لأن قوله : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ لا يليق إلا بالله سبحانه .

وأما قوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ﴾ فلا شك أن قائل هذا القول هو إبليس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 27.30 ﴾

(55/264)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

يعني : أن تسجد ولا زيادة .

ومعناه : ما منعك عن السجود إذ أمرتك بالسجود لآدم ﴿ قَالَ ﴾ إبليس عليه اللعنة : إنما لم أسجد لأني ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ أي هذا الذي منعني عن السجود .

فاشتغل اللعين بالقياس والقياس في موضع النص باطل ، لأنه لما أقرّ بأنه هو الذي خلقه .

فقد أقرّ بأن عليه واجب وعليه أن يأتمر بأمره .

ومع ذلك لو كان القياس جائزاً في موضع النص ، فإن قياسه فاسداً ، لأنّ الطين أفضل من النار ، لأنّ عامة الثمار والفواكه والحبوب تخرج من الطين ، ولأن العمارة من الطين والنار للخراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ قال بعضهم : لا زائدة [وإن صلة] تقدير الكلام : ما منعك السجود لآدم ، لأن المنع يتعدّى إلى مفعولين قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 95] .

قال الشاعر :

ويلحينني في اللهو أن لا أحبه . . . وللهو داع دائب غير غافل

أراد : أن أُحبَّة .

وقال آخر :

فما ألوم البيض أن لا تسخروا . . . لما رأيتي الشمط القفندرا

وقال آخر :

أبى جوده لا البخل واستعجلت به . . . نعم الفتى لا يمنع الجود قاتله

أراد : أبى جوده البخل .

سمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا الهيثم الجهني يحكي عن أحمد بن يحيى ثعلب قال : كان بعضهم يكره القالا ، وتناول في المنع بمعنى القول ، لأن القول والفعل يمنعان ، وتقديره : من قال لك لا تسجد . قال بعضهم : معنى المنع الحول بين المرء وما يريد . والممنوع مضطر إلى خلاف ما منع منه فكأنّه قال : أي شيء اضطرّك إلى أن لا تسجد .

(56/264)

﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ قال إبليس مجيباً له ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ لأنّك ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ﴾ والنار خير وأفضل واصفى وأنور من الطين قال ابن عباس : أوّل مَنْ قاس إبليس . فأخطأ القياس فمَنْ قاس الدين بشيء من رأيه قرنه مع إبليس .

وقال ابن سيرين : أوّل مَنْ [قاس] إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلاّ بالمقاييس .

وقالت الحكماء : أخطأ عدو الله حين فضّل النار على الطين ، لأن الطين أفضل من النار من وجوه :

أحدها : إنّ من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والاناة والحُلم والحياء والصبر ، وذلك هو الداعي لآدم في السعادة التي [سبقت] له إلى التوبة والتواضع والتضرّع وأدرته المغفرة والاجتباء والهداية والتوبة ومن جوهر النار الخفّة والطيش والحدّة والارتفاع

والاضطراب ، وذلك الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سيقت له إلى الاستكبار والإصرار فأدركه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاق .

والثاني : أنّ الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفريقها .

والثالث : أن الخبر ناطق بأن تراب الجنّة مسك أذفر ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وفي النار تراباً .

والرابع : أن النار سبب العذاب وهي عذاب الله لأعدائه وليس التراب سبباً للعذاب .

والخامس : أنّ الطين [يُسقى] من النار والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ ما ﴾ استفهام والمقصود به التوبيخ والتقريع ، و ﴿ لا ﴾ في قوله " أن لا " قيل هي زائدة ، والمعنى ما منعك أن تسجد وهي ك " لا " في قول الشاعر : [الطويل]

أبى جودُه لا البخلَ واسْعَجَلَتْ به . . . نَعَمْ من فتى لا يمنعُ الجود قاتله

(57/264)

وهذا على أحد الأقوال في هذا البيت فقيل " لا " فيه زائدة . وقال الزجّاج : مفعولة والبخل بدل منها ، وحكى الطبري عن يونس عن أبي عمرو بن العلاء : أن الرواية فيه لا البخل بخفض اللام لأن " لا " قد تتضمن جوداً إذا قالها من أمر بمنع الحقوق والبخل عن الواجبات . ومن الأبيات التي جاءت لا فيها زائدة قول الشاعر : [الكامل]

افَعَنْكِ لا بَرْق كأنّ وميضه . . . غاب تسنمه ضرام مثقبُ

وقيل في الآية ليست لا زائدة ، وإنما المعنى ما منعك فأحوجك أن تسجد ، وقيل : لما كان ﴿ ما منعك ﴾ بمعنى من أمرك ومن قال لك حسن أن يقول بعدها ﴿ ألا تسجد ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وجملة هذا الغرض أن يقدر في الكلام فعل يحسن حمل النفي عليه ، كأنه قال ما أحوجك أو حملك أو اضطرك ، وجواب إبليس اللعين ليس عما سئل عنه ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه ، فكأنه قال : منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين . وروي عن ابن عباس أنه قال : لا أسجد وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً ، يقول إن النار أقوى من الطين وظن إبليس أن النار أفضل من الطين وليس كذلك بل هي في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق ، فلما ظن إبليس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلاً على سكون الطين وبلادته قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق في النار من الطيش والخفة والاضطراب ، وفي الطين من الوقار والأناة والحمل والتثبيت .

قال القاضي أبو محمد : وفي كلام الطبري نظر ، وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس .

قال القاضي أبو محمد : قال الطبري يعنيان الخطأ ولا دليل من لفظهما عليه ولا يتأول عليهما إنكار القياس ، وإنما خرج كلامهما نهياً عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم ، فأرادا حمل الناس على الجادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾

(58/264)

"ما" استفهام : ومعناها : الإنكار .

قال الكسائي : "لا" ها هنا زائدة .

والمعنى : ما منعك أن تسجد ؟ وقال الزجاج : موضع "ما" رفع .

والمعنى : أي شيء منعك من السجود ؟ و"لا" زائدة مؤكدة ؛ ومثله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : 29] قال ابن قتيبة : وقد تزاد "لا" في الكلام .

والمعنى : طرحُها لإباءٍ في الكلام ، أو جحد ، كهذه الآية .

وإنما زاد "لا" لأنه لم يسجد .

ومثله : ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : 109] على قراءة من فتح "أنها" ، فزاد "لا" لأنهم لم يؤمنوا ؛ ومثله : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] وقال الفراء : "لا" ها هنا جحد محض ، وليست بزائدة ، والمنع راجع إلى تأويل القول ، والتأويل : من قال لك لا تسجد ؛ فأحل المنع محل القول ، ودخلت بعده "أن" ليدل على تأويل القول الذي لم يتصرح لفظه .

وقال ابن جرير : في الكلام محذوف ، تقديره : ما منعك من السجود ، فأحوجك أن لا تسجد ؟ قال الزجاج : وسؤال الله تعالى لإبليس "ما منعك" توبيخ له ، وليُظهر أنه معاند ، ولذلك لم يتب ، وأتى بشيء في معنى الجواب ، ولفظه غير الجواب ، لأن قوله : ﴿ أنا خير منه ﴾ إنما هو جواب ، أيكما خير ؟ ولكن المعنى : منعني من السجود فضلي عليه .

ومثله قولك للرجل : كيف كنت ؟ فيقول : أنا صالح ؛ وإنما الجواب : كنت صالحا ، فيجيب بما يُحتاج إليه وزيادة .

قال العلماء : وقع الخطأ من إبليس حين قاس مع وجود النص ، وخفي عليه فضل الطين على النار ؛ وفضله من وجوه .

أحدها : أن من طبع النار الطيش والالتهاب والعجلة ، ومن طبع الطين الهدوء والرزانة .

والثاني : أن الطين سبب الإِنبات والإِيجاد ، والنار سبب الإعدام والإهلاك .

والثالث : أن الطين سبب جمع الأشياء ، والنار سبب تفريقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

فيه أربع مسائل :

(59/264)

الأولى قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ "ما" في موضع رفع بالابتداء ؛ أي أي شيء منعك .

وهذا سؤال توبيخ .

﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ في موضع نصب ، أي من أن تسجد .

و"لا" زائدة .

وفي ص ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] وقال الشاعر :

أَبى جُودُه لا البخلَ فاستعجلت به . . .

نَعَمْ من فتًى لا يمنع الجودَ نائلُه

أراد أبى جوده البخل ، فزاد "لا" .

وقيل ؛ ليست بزائدة ؛ فإن المنع فيه طرف من القول والدعاء ، فكأنه قال : من قال لك ألاّ تسجد ؟ أو من دعاك إلى ألاّ تسجد ؟ كما تقول : قد قلت لك ألاّ تفعل كذا .

وقيل : في الكلام حذف ، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألاّ تسجد .

قال العلماء : الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد : وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك .

وكان أمره من قبل خلق آدم ؛ يقول الله تعالى : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

فكأنه دخله أمر عظيم من قوله ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

فإن في الوقوع توضيع الواقع وتشريفاً لمن وقع له فأضمر في نفسه ألاّ يسجد إذا أمره في ذلك الوقت .

فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سُجَّداً ، وبَقِيَ هو قائماً بين أظهرهم ؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره .

فقال الله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ أي ما منعك من الانقياد لأمري ؛ فأخرج سِرّ ضميره فقال : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ .

الثانية قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يدل على ما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضي الوجوب بمطلقه من غير قَرِينَة ؛ لأن الذمّ عُلِّق على ترك الأمر المطلق الذي هو قوله عزّ وجلّ للملائكة

: ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ وهذا بيّن .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ أي منعني من السجود فضلِي عليه ؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى .

كما تقول : لمن هذه الدار ؟ فيقول المخاطَب : مالكها زيد .

(60/264)

فليس هذا عين الجواب ، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب .

﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين ؛ لعلوّها وصعودها وخفتها ، ولأنها جوهر مضيء .

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أوّل من قاس إبليس فأخطأ القياس .

فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس .

قال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر إلاَّ بالمقاييس .

وقالت الحكماء : أخطأ عدوّ الله من حيث فضل النار على الطين ، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق .

فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة :

أحدها أن من جوهر الطين الرّزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم ، والحياء ، والصبر .

وذلك هو الداعي لآدم عليه السَّلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع ، فأورثه المغفرة والإجتباء والهداية .

ومن جوهر النار الخفة ، والطيش ، والحدّة ، والارتفاع ، والاضطراب .

وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء ؛ قاله القفّال .

الثاني إن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مِسك أذفر ، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً .

الثالث أن النار سبب العذاب ، وهي عذاب الله لأعدائه ؛ وليس التراب سبباً للعذاب .

الرابع أن الطين مستغنٍ عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب .

قلت ويحتمل قولاً خامساً وهو أن التراب مسجد وطهور ؛ كما جاء في صحيح الحديث .

والنار تخويف وعذاب ؛ كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ [الزمر : 16] .

وقال ابن عباس : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه ، وهو أوّل من قاس برأيه .

والقياس في مخالفة النصِّ مردود .

الرابعة واختلف الناس في القياس إلى قائل به ، ورادٍّ له ؛ فأما القائلون به فهم الصحابة والتابعون ، وجمهور من بعدهم ، وأن التعبد به جائز عقلاً واقع شرعاً ، وهو الصحيح .

(61/264)

وذهب القفّال من الشافعية وأبو الحسين البصرِيّ إلى وجوب التعبّد به عقلاً .

وذهب النظّام إلى أنه يستحيل التعبد به عقلاً وشرعاً ؛ وردّه بعض أهل الظاهر .

والأوّل الصحيح .

قال البخارِيّ في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) : المعنى لا عصمة لأحد إلاَّ في كتاب الله أو سنة نبيه أو في إجماع العلماء إذا وُجد فيها الحكُم فإن لم يوجد فالقياس .

وقد ترجم على هذا (باب من شبّه أصلاً معلوماً بأصل مبيَّن قد بيّن الله حكمها ليفهم السائل) .

وترجم بعد هذا (باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها) .

وقال الطبريّ : الإجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإجماع الأُمة هو الحق الواجب ، والفرض اللازم لأهل العلم .

وبذلك جاءت الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعن جماعة الصحابة والتابعين .

وقال أبو تمام المالكيّ : أجمعت الأُمة على القياس ؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والوَرِق في الزكاة .

وقال أبو بكر : أقِيلوني بيعتي .

فقال عليّ : واللَّهِ لا نقيلك ولا نستقيلك ، رضِيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ؟ فقاس الإمامة على الصَّلاة .

وقاس الصدّيقُ الزكاة على الصَّلاةِ وقال : والله لا أفرق بين ما جمع الله .

وصرّح عليّ بالقياس في شارب الخمر بمحضر من الصحابة وقال : إنه إذا سكِر هَذَى ، وإذا هَذَى افْترى ؛ فحدّه حدّ القاذف .

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري كتاباً فيه : الفَهْم الفَهْمَ فيما يختلِجُ في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة ، اعرف الأمثال والأشباه ، ثم قِسِ الأُمور عند ذلك ، فاعمد إلى أحبِّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى .

الحديثَ بطوله ذكره الدارقطنيّ .

وقد قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في حديث الوَبَاء ، حين رجع عمر من سَرْغ : نَفِرّ من قَدَر الله ؟ فقال عمر : نعم ! نفِرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله .

ثم قال له عمر : أرأيت . . .

فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار ، وحسبُك .

وأما الآثار وآي القرآن في هذا المعنى فكثير .

وهو يدل على أن القياس أصل من أُصول الدين ، وعِصمة من عِصم المسلمين ، يرجع إليه المجتهدون ، ويفزع إليه العلماء العاملون ، فيستنبطون به الأحكام .

وهذا قول الجماعة الذين هم الحجة ، ولا يلتفت إلى من شذَّ عنها .

وأما الرأي المذموم والقياس المتكلّف المنهي عنه فهو ما لم يكن على هذه الأُصول المذكورة ؛ لأن ذلك ظنٌّ ونَزَغٌ من الشيطان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] .

وكل ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذمّ القياس فهي محمولة على هذا النوع من القياس المذموم ، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم .

وتتميم هذا الباب في كتب الأُصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك ﴾

يعني : قال الله عز وجل لإبليس أي شيء منعك من السجود لآدم إذ أمرتك به فعلى هذا

التأويل تكون كلمة لا في قوله أن لا تسجد صلة زائدة وإنما دخلت للتوكيد والتقدير ما منعك أن تسجد فهو كقوله : ﴿ لا أقسم ﴾ وقوله ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ أي يرجعون وقوله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أي يعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين .

وقيل : إن كلمة لا هنا على أصلها مفيدة وليست بزائدة لأنه لا يجوز أن يقال إن كلمة من كتاب الله زائدة أو لا معنى لها ، وعلى هذا القول حكى الواحدي عن أحمد بن يحيى : أن لا في هذه الآية ليست زائدة ولا توكيداً لأن معنى قوله ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء .

(63/264)

وقال الطبري والصواب في ذلك أن يقال إن في الكلام محذوفاً تقديره ما منعك من السجود فأحوجك إن لا تسجد فترك ذكر ذلك أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن القاضي قال : ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعي فكأنه قال ما دعاك إلى أن لا تسجد لأن مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها .

فإن قلت : لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به ؟

قلت : إنما سأله للتوبيخ والتقريع له ولإظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يت الله عليه ﴿ قال ﴾ يعني قال إبليس مجيباً لله تعالى عما سأله عنه ﴿ أنا خير منه ﴾ .

فإن قلت قوله أنا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه في قوله تعالى : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ فلم يجب بما منعه من السجود فإنه كان ينبغي له أن يقول منعني كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه .

(64/264)

قلت : استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ والنار خير من الطين وأنور وإنما قال أنا خير منه لما رأى أنه أشد منه قوة وأفضل منه أصلاً وذلك لفضل الجنس الذي خلق منه وهو النار على الطين الذي خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهذا الذي حمل الخبيث إبليس مع الشقاء الذي سبق له من الله تعالى في الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف

بأمر ربه فأورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم أن في جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياة والتثبت وهذا كان الداعي لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التي سبقت له من الله تعالى في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة ، ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان : أول من قاس إبليس فأخطأ وقال ابن سيرين أيضاً : ما عبدت الشمس والقمر لا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذي قاسه إبليس لعنه الله تعالى لما رأى أن النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يدر أن الفضل لمن جعله الله فاضلاً وأن الأفضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الأصل والجوهر وأيضاً الفضيلة إنما تحصل بسبب الطاعة وقبول الأمر ، فالمؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام بأشياء لم يخص بها غيره وهو أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية إلى غير ذلك ما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التي سبقت له في القدم وأورث إبليس كبره اللعنةَ والطردَ للشقاوة التي سبقت له في القدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(65/264)

وقال أبو حيان :

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾

الظاهر أنّ لا زائدة تفيد التوكيد والتحقيق كهي في قوله لئلا يعلم أي لأن يعلم وكأنه قيل ليتحقّق علم أهل الكتاب وما منعك أن تحقّق السجود وتلزمه نفسك إذ أمرتك ويدلّ على زيادتها قوله تعالى ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ وسقوطها في هذا دليل على زيادتها في ﴿ ألا تسجد ﴾ والمعنى أنه وبّخه وقرّعه على امتناعه من السجود وإن كان تعالى عالماً بما منعه من السجود وما استفهامية تدلّ على التوبيخ كما قلنا وأنشدوا على زيادة لا قول الشاعر :

أفعنك لا برق كأنّ وميضه . . .

غاب يسقمه ضرام مثقب

وقول الآخر :

أبي جوده لا البخل واستعجلت به . . .

نعم من فتى لا يمنع الجود قائله

وأقول لا حجّة في البيت الأول إذ يحتمل أن لا تكون فيه لا زائدة لاحتمال أن تكون عاطفة وحذف المعطوف والتقدير أفعنك لا عن غيرك وأما البيت الثاني فقال الزّجاج لا مفعولة والبخل بدل منها ، وقال أبو عمرو بنُ العلاء : الرواية فيه لا البخل بخفض اللام جعلها

مضافة إلى البخل لأنّ لا قد ينطق بها ولا تكون للبخل انتهى .

وقد خرّجته أنا تخريجاً آخر وهو أن ينتصب البخل على أنه مفعول من أجله ولا مفعولة ، وقال قوم : لا في أن لا تسجد ليست زائدة واختلفوا ، فقيل يقدّر محذوف يصحّ معه المعنى وهو ما منعك فأحوجك أن لا تسجد ، وقيل يحمل قوله ما منعك يصحّ معه النفي ، فقيل معنى ما منعك من أمرك ومن قال لك أن لا تسجد .

﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾

(66/264)

هذا ليس بجواب مطابق للسؤال لكنه يتضمن الجواب إذ معناه منعني فضلي عليه لشرف عنصري على عنصره وهذا يقتضي عنده أنّ النار خير من الطين وإذا كان كذلك فالناشىء من الأفضل لا يسجد للمفضول ، قالوا : وذلك أنّ النار جسم مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السّموات ملاصق لها ، والطين مظلم كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السموات ، والنار قوّية التأثير والفعل والطين ليس له إلا القبول والانفعال ، والفعل أشرف من الانفعال والنار مناسبة للحرارة الغريزيّة وهي مادة الحياة والطين ببرده ويبسه مناسب للموت وإذا تقرّر هذا فالمخلوق من الأفضل أفضل فلا يؤمر

الأفضل بخدمة المفضول ألا ترى أنه لو أمر مثلاً مالك وأبو حنيفة بخدمة من هو دونهما في العلم لكان ذلك قبيحاً في العقل ثم قالوا أخطأ إبليس من حيث فضل النار على الطين وهما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق والطين أفضل من النار وجوه ، أحدها أنّ من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة والحلم والحياء والصبر وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له في التوبة والتواضع والتضرع فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدّة والارتفاع والاضطراب وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت إلى الاستكبار والإصرار فأورثه الهلاك واللعنة والعذاب قاله القفال ، ثم ذكروا وجوهاً عشرة يظهر بها فضل التراب على النار ثم قالوا : لا يدل من كانت مادته أفضل على أنه تكون صورته أفضل إذ الفضيلة عطية من الله تعالى ، ألا تراه يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر وأن الحبشيّ المؤمن خير من القرشيّ الكافر وإذا كانت المقدّمة غير مسلمة لم ينتج والمقدمتان أن تقول إبليس ناري المادة وكلّ ناريّ المادة أفضل من ترابي المادة فإبليس أفضل من ترابي المادة والمقدمة الثانية ممنوعة فلا تنتج .

وقال ابن عباس والحسن وابن سيرين أول من قاس إبليس ، قال ابن عباس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس ، وقالا : وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس .

وقال بعض العلماء : أخطأ قياسه وذهب علمه أنّ الرّوح الذي نفخ في آدم ليس من طين واستدلّ نفاة القياس على إبطاله بقصّه إبليس ولا حجّة فيها لأنه قياس في مورد النص فهو فاسد فلا يدلّ على بطلان القياس حيث لا نصّ واستدلّ بقوله ﴿ إذ أمرتك ﴾ على أنّ مطلق الأمر يدلّ على الوجوب ويدلّ على الفور لذمّ إبليس على امتناعه من السجود في الحال ولو لم يدلّ على الوجوب ولا على الفور لم يستوجب الذمّ في الحال ولا مطلقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(68/264)

وقال ابن كثير :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى : ﴿ مَا [مَنَعَكَ] أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ لا ها هنا زائدة .

وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد ، كقول الشاعر :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل "إن" وهي للنفي ، على "ما" النافية ؛ لتأكيد النفي ، قالوا : وكذلك هاهنا : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ ﴾ مع تقدم قوله : ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

حكاهما ابن جرير وردهما ، واختار أن "منعك" تضمن معنى فعل آخر تقديره : ما أحوجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك ، ونحو ذلك . وهذا القول قوي حسن ، والله أعلم .

وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه الله : وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه ، بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه ، وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : 72] فشذ من بين الملائكة بتَرْك السجود ؛ فلهذا أبلس من الرحمة ، أي : أيس من الرحمة ، فأخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح . والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة ؛ ولهذا خان إبليس

عنصره ، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة .

وفي صحيح مسلم ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُلِقَت الملائكة من نور ، وخُلقَ إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم" هكذا رواه مسلم (1) .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2996) .

(69/264)

وقال ابن مَرْدُوَيه : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا إسماعيل ، عن عبد الله بن مسعود ، حدثنا نُعَيم ابن حماد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن الزهري ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خلق الله الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من [مارج من] نار ، وخلق آدم

مما وُصِفَ لكم" . قلت لنعيم بن حماد : أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال : باليمن

(1) وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح : "وخلقت الحور العين من الزعفران" (2) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير ، عن ابن شَوْذَب ، عن مطر الوَرَّاق ، عن الحسن في قوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ قال : قاس إبليس ، وهو أول من قاس . إسناده صحيح .

وقال : حدثني عمرو بن مالك ، حدثنى يحيى بن سليم الطائفي عن هشام ، عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 392 . 393 ﴾

---

(1) رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (20904) .

(2) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (237/8) من طريق عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، رضي الله عنه ، وفي إسناده عبيد الله بن زحر ، قال ابن حبان في المجروحين : "يروى الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات ، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله ، وعلي بن يزيد ، والقاسم أبو عبد الرحمن ، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم" .

(70/264)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدمِ سجود ، كأنه قيل : فماذا قال الله تعالى حينئذ ؟ وبه يظهر وجهُ الالتفاتِ إلى الغَيبة إذ لا وجهَ لتقدير السؤال على وجه المخاطبة ، وفيه فائدةٌ أخرى هي الإشعارُ بعدم تعلقِ المحكيِّ بالمخاطَبين كما في حكاية الخَلْقِ والتصوير ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ أي أن تسجُد كما وقع في سورة ص ، و(لا مزيدةٌ مؤكدةٌ لمعنى الفعل الذي دخلت عليه كما في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ منبّهةٌ على أن الموبَّخَ عليه تركُ السجود ، وقيل : الممنوعُ عن الشيء مصروفٌ إلى خلافه فالمعنى ما صرفك إلى أن تسجد ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ قيل : فيه دِلالةٌ على أن مُطلقَ الأمرِ للوجوب والفور ، وفي سورة الحِجْر : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ وفي سورة ص : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ واختلافُ العبارات عند الحكايةِ يدل على أن اللعينَ قد أدمج في معصية واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ مخالفةَ الأمرِ ومفارقةَ الجماعةِ والإباءِ عن الانتظام في سلك أولئك المقرّبين والاستكبارَ مع تحقير آدمَ عليه السلام ، وقد وُبِّخ حينئذ على كل واحدة منها ، لكن اقتُصر عند الحكاية في كل موطنٍ على ما ذكر فيه اكتفاءً بما ذكر في موطن آخرَ وإشعاراً بأن كلَّ واحدةٍ منها كافيةٌ في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه ، وقد تُركت حكايةُ التوبيخِ رأساً في سورة البقرة وسورة بني إسرائيلَ وسورة الكهفِ وسورة طه .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كما سبق مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية التوبيخِ كأنه قيل : فماذا قال اللعينُ عند ذلك ؟ فقيل : قال : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ متجانفاً عن تطبيق جوابِه على السؤال بأن يقول : منعني كذا مدّعياً لنفسه بطريق الاستئنافِ شيئاً بيّنَ الاستلزامِ لمنعه من السجود على زعمه ، ومشعِراً بأن مَنْ شأنُه هذا لا يحسُن أن يسجُدَ لمن دونه فكيف يحسُن أن يؤمرَ به ؟ كما ينبىء عنه ما في سورة الحجر من قوله : ﴿ لَمْ أَكُن لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ فهو أولُ من أسس بنيانَ التكبر ، واخترع القولَ بالحُسن والقُبح العقليَّين ، وقولُه تعالى : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ تعليلٌ لما ادعاه من فضله ، ولقد أخطأ اللعينُ حيث خَصّ الفضلَ بما من جهة المادةِ والعنصُر ، وزل عنه ما من جهة الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي بغير واسطةٍ على وجه الاعتناءِ به وما من جهة الصورة كما نُبّه عليه بقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وما من جهة الغايةِ وهو ملاكُ الأمرِ ولذلك أُمر الملائكةُ بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلمُ منهم بما يدور عليه أمرُ الخلافةِ في الأرض وأن له خواصَّ ليست لغيره ، وفي الآية دليلٌ على الكون والفساد وأن الشياطينَ أجسامٌ كائنةٌ ،

ولعل إضافةَ خلق البشرِ إلى الطين ، والشياطينِ إلى النار باعتبار الجُزءِ الغالب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(72/264)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كأنه قيل : فماذا قال الله تعالى حينئذ ؟ وبه كما قيل يظهر وجه الالتفات إلى الغيبة إذ لا وجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة .

وفيه فائدة أخرى هي الإشعار بعدم تعلق المحكي بالمخاطبين كما في حكاية الخلق والتصوير أي قال الله تعالى لإبليس حين لم يكن من الساجدين .

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ المشهور أن (لا) مزيدة بدليل قوله سبحانه في آية أخرى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] وقد جاءت كذلك في قوله سبحانه : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد : 29] أي ليعلم ، وهي في ذلك كما قال غير واحد لتأكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه .

واستشكل بأنها كيف تؤكد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه .

قال الشهاب : والذي يظهر لي أنها لا تؤكده مطلقاً بل إذا صحب نفياً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح كما في ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ وَلاَ الضالين ﴾ (الفاتحة ؛ 7) وكما هنا فإنها تؤكد تعلق المنع به ، ومن هنا قالوا إنها منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود .

وقيل : إنها غير زائدة بأن يكون المنع مجازاً عن الإلجاء والإضطرار فالمعنى ؛ ما اضطرك إلى أن لا تسجد .

وجعله السكاكي مجازاً عن الحمل ولا قرينة للمجاز أي ما حملك ودعاك إلى أن لا تسجد ؟ وليس بين الجعلين كثير فرق .

وجوز أن يكون ذلك من باب التضمين ، وقال الراغب : "المنع يقال في ضد العطية كرجل مانع ومناع أي بخيل ، ويقال في الحماية ومنه مكان منيع وقد منع وفلان ذو منعة أي عزيز ممتنع على من يرومه ، والمنع في الآية من الثاني أي ما حملك عن عدم السجود .

﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ بالسجود ، و﴿ إِذْ ﴾ ظرف لتسجد ، وهذه الآية أحد أدلة القائلين بأن الأمر (المطلق للوجوب و) للفور لأنه ذم على ترك المبادرة ولولا أن الأمر للفور لم يتوجه الذم عليه وكان له أن يجيب بأنك ما أمرتني بالبدار وسوف أسجد .

(73/264)

وأجيب بأن الفور إنما هو من قوله تعالى : ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ساجدين ﴾ [ص : 72] وليس من صيغة الأمر إلا أن بعضهم منع دلالة الفاء الجزائية على التعقيب من غير تراخ ، وقال آخرون : إن الاستدلال إنما هو بترتب اللوم على مخالفة الأمر المطلق حيث قال سبحانه : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ولم يقل جل شأنه إذ قلت فقعوا له ساجدين فتدبر ، وفي حكاية التوبيخ ههنا بهذه العبارة وفي سورة الحجر (32) بقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ وفي سورة ص (75) بقوله سبحانه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ إشارة إلى أن اللعين أدمج في معصية واحدة غير واحدة وقد وبخ على كل من ذلك لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر وإشعاراً بأن كل واحدة من هاتيك المعاصي كافية في التوبيخ و(إظهار) بطلان ما ارتكبه ، وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه والله تعالى أعلم بحكمة كل .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما تقدم مبني على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل : فماذا قال اللعين عند ذلك ؟ فقيل : قال : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ هو من الأسلوب الأحمق فإن الجواب المطابق للسؤال منعني كذا وهذا جواب عن أيكما خير ؟ وفيه دعوى شيء بين الاستلزام للمقصود بزعمه ومشعر بأن من هذا شأنه لا يحسن أن يسجد لمن دونه فكيف

يحسن أن يؤمر به ؟ فاللعين أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين .

(74/264)

وقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ تعليل لما ادعاه عليه اللعنة من فضله عليه عليه السلام ، وحاصله أني مخلوق من عنصر أشرف من عنصره لأن عنصري علوي نير قوي التأثير مناسب لمادة الحياة وعنصره بضد ذلك والمخلوق من الأشرف أشرف لأن شرف الأصل يوجب شرف الفرع فأنا كذلك والأشرف لا يليق به الانقياد لمن هو دونه ، وقد أخطأ اللعين فإن كون النار أشرف من التراب ممنوع فإن كل عنصر من العناصر الأربع يختص بفوائد ليست لغيره وكل منها ضروري في هذه النشأة ولكل فضيلة في مقامه وحاله فترجيح بعضها على بعض تطويل بلا طائل ، على أن من نظر إلى أن الأرض أكثر منافع للخلق لأنها مستقرهم وفيها معايشهم وأنها متصفة بالرزانة التي هي من مقتضيات الحلم والوقار وإلى أن النار دونها في المنافع وأنها متصفة بالخفة التي هي من مقتضيات الطيش والاستكبار والترفع علم ما في كلام اللعين ، وأيضاً شرف الأصل لا يوجب شرف الفرع

.

إنما الورد من الشوك ولا . . .

ينبت النرجس إلا من بصل

ويكفي في ذلك أنه قد يخرج الكافر من المؤمن ، وأيضاً قد خص الشرف بما هو من جهة المادة والعنصر مع أن الشيء كما يشرف بمادته وعنصره يشرف بفاعله وغايته وصورته ، وهذا الشرف في آدم عليه السلام دونه فإن الله تعالى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وجعله خليفة في الأرض كما قص سبحانه لما أودعه فيه ، وأيضاً أي قبح في خدمة الفاضل للمفضول تواضعاً وإسقاطاً لحظ النفس على أن الخدمة في الحقيقة إنما كانت لله تعالى ، وإلى هذا أشار ظافر الإسكندري بقوله

: أنت المراد بنظم كل قصيدة . . .

بنيت على الأفهام في تبجيله كسجود أملاك السماء لآدم

وسجودهم لله في تأويله . . .

ثم الظاهر أن هذا الجواب من اللعين كان مع تسليم أنه مأمور بالسجود وحينئذ فخطؤه أظهر من نار على علم إذ يعود ذلك إلى الاعتراض على المالك الحكيم .

وقال بعضهم : إنه لم يسلم أنه كان مأموراً بل أخرج نفسه من العموم بالقياس .

واستدل أهل هذا القول بهذا التوبيخ على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس .

وأجيب بأن هذا ليس من التخصيص بل هو إبطال للنص ورفع له بالكلية وفيه تأمل .

وأخرج أبو نعيم في "الحلية" والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله تعالى له : اسجد لآدم فقال : أنا خير منه " الخ .

قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس .

واستدل بهذا ونحوه من منع القياس مطلقاً .

وأجيب عن ذلك بأن المذموم هو القياس والرأي في مقابلة النص أو الذي يعدم فيه شرط من الشروط المعتبرة وتحقيق ذلك في محله .

وفي الآية دليل على الكون والفساد لدلالتها على خلق آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة وإيجادهما ، وعلى استحالة الطين والنار عما كانا عليه من الطينية والنارية لما ترتب منهما ما تركب ، وعلى أن إبليس ونحوه أجسام حادثة لا أرواح قديمة ، قيل : ولعل إضافة خلق آدم عليه السلام إلى الطين وخلقه إلى النار باعتبار الجزء الغالب ، وإلا فقد تقرر أن

الأجسام من العناصر الأربعة وبعض الناس من وراء المنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(76/264)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

وضمير : ﴿ قال ﴾ عائد إلى معلوم من المقام أي قال اللَّهُ تعالى بقرينة قوله : ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا ﴾ ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قُلنا ، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتاً ، نكتته تحويل مقام الكلام ، إذ كان المقامُ مقام أمرٍ للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة .

و ﴿ مَا ﴾ للاستفهام ، وهو استفهام ظاهره حقيقي ، ومشوب بتوبيخ ، والمقصود من الاستفهام إظهار مقصد إبليس للملائكة .

و ﴿ منعك ﴾ معناه صدّك وكفّك عن السجود فكان مقتضى الظاهر أن يقال : ما منعك أن تسجد لأنّه إنّما كفّ عن السّجود لا عن نفي السجود فقد قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ [ص : 75] ، فلذلك كان ذكر (لا) هنا

على خلاف مقتضى الظاهر ، فقيل هي مزيدة للتّأكيد ، ولا تفيد نفياً ، لأنّ الحرف المزيد للتّأكيد لا يفيد معنى غيرَ التّأكيد .

و(لاَ) من جملة الحروف التي يؤكّد بها الكلام كما في قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] وقوله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ [الحديد : 29] أي ليعلم أهل الكتاب علماً محقّقاً .

وقوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] أي ممنوع أنّهم يرجعون منعاً محقّقاً ، وهذا تأويل الكسائي ، والفراء ، والزّجاج ، والزّمخشري ، وفي توجيه معنى التّأكيد إلى الفعل مع كونِ السّجود غير واقعٍ فلا ينبغي تأكيده خفاءٌ لأنّ التّوكيد تحقيق حصول الفعل المؤكّد ، فلا ينبغي التّعويل على هذا التّأويل .

(77/264)

وقيل (لا) نافية ، ووجودها يؤذن بفعل مقدر دلّ عليه ﴿ منعك ﴾ لأنّ المانع من شيء يدعو لضدّه ، فكأنّه قيل : ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد ، فإمّا أن يكون ﴿ منعك ﴾ مستعملاً في معنى دعَاك ، على سبيل المجاز ، و(لا) هي قرينة المجاز ، وهذا تأويل السكاكي في "المفتاح" في فصل المجاز اللّغوي ، وقريبٌ منه لعبد الجبّار فيما نقله الفخر

عنه ، وهو أحسن تأويلاً ، وإمّا أن يكون قد أريد الفعلان ، فذُكر أحدهما وحذف الآخر ، وأشير إلى المحذوف بمتعلّقه الصّالح له فيكون من إيجاز الحذف ، وهو اختيار الطّبري ومن تبعه .

وانظر ما قلتُه عند قوله تعالى : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني ﴾ في سورة طه (92 ، 93) .

وقوله : ﴿ إذ أمرتك ﴾ ظرف ل ﴿ تسجد ﴾ ، وتعليق ضميره بالأمر يقتضي أن أمر الملائكة شامل له ، إمّا لأنّه صنف من الملائكة ، فخلق الله إبليس أصلاً للجنّ ليجعل منه صنفاً مُتَمَيِّزاً عن بقيّة الملائكة بقبوله للمعصية ، وهذا هو ظاهر القرآن ، وإليه ذهب كثير من الفقهاء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إلا إبليس كانَ من الجنّ ﴾ [الكهف : 50] الآية ، وإما لأنّ الجنّ نوع آخر من المجردات ، وإبليس أصل ذلك النّوع ، جعله الله في عداد الملائكة ، فكان أمرهم شاملاً له بناء على أن الملائكة خلقوا من النّور وأنّ الجنّ خلقوا من النّار ، وفي "صحيح مسلم" ، عن عائشة رضي الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار " وإلى هذا ذهب المعتزله وبعض الأشاعرة ، وقد يكون المراد من النّار نوراً مخلوطاً بالمادة ، ويكون المراد بالنّور نوراً مجرداً ، فيكون الجنّ نوعاً من جنس الملائكة أحطّ ، كما كان الإنسان نوعاً من جنس

الحيوان أرقى .

وفُصِل : ﴿ قال أنا خير منه ﴾ لوقوعه على طريقة المحاورات .

(78/264)

وبَيّن مانعه من السّجود بأنّه رأى نفسه خيراً من آدم ، فلم يمتثل لأمر الله تعالى إياه بالسّجود لآدم ، وهذا معصية صريحة ، وقوله : ﴿ أنا خير منه ﴾ مسوق مساق التّعليل للامتناع ولذلك حذف منه اللام .

وجملة : ﴿ خلقتني من نار ﴾ بيان لجملة : ﴿ أنا خير منه ﴾ فلذلك فصلت ، لأنّها بمنزلة عطف البيان من المبيّن .

وحصَل لإبليس العلم بكونه مخلوقاً من نار ، بإخبار من الملائكة الذين شهدوا خلقَه ، أو بإخبار من الله تعالى .

وكونه مخلوقاً من النّار ثابت قال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ﴾ [الرحمن : 14 ، 15] وإبليس من جنس الجنّ قال تعالى في سورة الكهف (50) : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه ﴾ واستند في تفضيل نفسه إلى فضيلة العنصر الذي خلق منه على العنصر الذي خلق منه

آدم .

والنّار هي الحرارة البالغة لشدّتها الالتهاب الكائنة في الأجسام المصهورة بأصل الخلقة ، كالنّار التي في الشّمس ، وإذا بلغت الحرارة الالتهام عرضت النّارية للجسم من معدن أو نبات أو تراب مثل النّار الباقية في الرّماد .

والنار أفضل من التّراب لقوّة تأثيرها وتسلّطها على الأجسام التي تلاقيها ، ولأنّها تضيء ، ولأنّها زكيّة لا تلصق بها الأقذار ، والتّراب لا يشاركها في ذلك وقد اشتركا في أن كليهما تتكوّن منه الأجسام الحيّة كلّها .

وأمّا النّور الذي خُلق منه الملَكُ فهو أخلَص من الشّعاع الذي يبيّن من النّار مجرّدا عن ما في النّار من الأخلاط الجثمانيّه .

(79/264)

والطّينُ التّراب المختلط بالماء ، والماءُ عنصر آخر تتوقّف عليه الحياة الحيوانيّة مع النّار والتّراب ، وظاهر القرآن في آيات هذه القصة كلّها أنّ شرف النّار على التّراب مقرّر ، وأنّ إبليس أُوخذ بعصيان أمر الله عصياناً باتّاً ، والله تعالى لمّا أمر الملائكه بالسّجود لآدم قد عَلِم استحقاق آدمَ ذلك بما أوْدع الله فيه من القوّة التي قد تبلغ به إلى مبلغ الملائكة في الزّكاء

والتّقديس ، فأمّا إبليس فغرّه زكاء عنصره وذلك ليس كافياً في التّفضيل وحده ، ما لم يَكن كِيَانُه من ذلك العنصر مهيّئاً إياه لبلوغ الكمالات ، لأنّ العبرة بكيفيّة التّركيب ، واعتبار خصائص المادة المركّب منها بعد التّركيب ، بحسب مقصد الخالق عند التّركيب ، ولا عبرة بحالة المادة المجرّدة ، فاللّه تعالى ركب إبليس من عنصر النّار على هيئة تجعله يستخدم آثار القوّة العنصريّة في الفساد والاندفاع إليه بالطّبع دون نظر ، بحسب خصائص المادة المركّب هو منها ، وركّب آدم من عنصر التّراب على هيئة تجعله يستخدم آثار القوّة العنصريّة في الخبر والصّلاح والاندفاع إلى ازدياد الكمال بمحض الاختيار والنّظر ، بحسب ما تسمح به خصائص المادّة المركّب هو منها ، وكلّ ذلك منوط بحكمة الخالق للتّركيب ، وركّب الملائكة من عنصر النّور على هيئة تجعلهم يستخدمون قواهم العنصرية في الخيرات المحضة ، والاندفاع إلى ذلك بالطّبع دون اختيار ولا نظر ، بحسب خصايص عنصرهم ، ولذلك كان بلوغ الإنسان إلى الفضائل الملكيّة أعلى وأعجب ، وكان مبلغه إلى الرّذائل الشّيطانيّة أحطّ وأسهل ، ومن أجل ذلك خوطب بالتّكليف .

(80/264)

ولأجل هذا المعنى أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم أصل النّوع البشري لأنّه سجود اعتراف لله تعالى بمظهر قدرته العظيمة ، وأمر إبليس بالسّجود له كذلك ، فأمّا الملائكة فامتثلوا أمر الله ولم يعلموا حكمته ، وانتظروا البيان ، كما حكى عنهم بقوله : ﴿ قالوا سبحانك لا عِلْم لنا إلا ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم ﴾ [البقرة : 32] فجاءهم البيان مجملاً بقوله : ﴿ إنّي أعلَمُ ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : 30] ثمّ مفصّلا بقصّة قوله : ﴿ ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : 31] إلى قوله ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ في سورة البقرة (33) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(81/264)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [12]

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه وتعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أي : أن تسجد كما وقع في سورة : ﴿ ص ﴾ ، ولا ، مزيدة للتنبيه على أن الموبّخ عليه ترك السجود ، ولتوكيد

لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ ، كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك .

وتوقف بعض المحققين في وجه إفادة لا النافية تأكيد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه ، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكده مطلقاً ، بل إذا صحبت نفياً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح ، كما في : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، وكما هنا ، فإنها تؤكد تعلق المنع به . انتهى .

وقيل : ما منعك ، محمول على ما حملك وما دعاك ، مجازاً أو تضميناً .

وقال الراغب : المنع ضد العطية ، وقد يقال في الحماية ، والمعنى ما حماك عن عدم السجود ؟ ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود ، مع علمه به ، للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره ، وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم عليه السلام ، كما أوضحه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ قال ابن كثير : هذا من العذر الذي هو أكبر من الذنب . انتهى .

وإنما قال هذا ولم يقل : منعني كذا ، مطابقة للسؤال ، لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ، ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول ، مع ما في طيّها من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله .

فالجملة متضمنة لجواب بقياس استدلاليّ ؛ وهي من الأسلوب الأحمق كما في قصة نمرود .

وقد علل ما ادعاه من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، لأنها جوهر نورانيّ ، وهو ظلمانيّ ، ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ . أي : بغير واسطة ، وباعتبار الصورة ، كما نبه عليه بقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ، وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض ، وأن له خواصّ ليست لغيره .

وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته ، يشرف بفاعله وغايته وصورته ، والثلاثة في آدم عليه السلام دونه ، فاستبان غلطه .

وفي " اللباب " أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق ، وأخطأ طريق الصواب ، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهذا الذي حمله ، مع سابقة شقائه على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورده ذلك العطب والهلاك .

ومن جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت ، وهذا كان الداعي لآدم

عليه السلام ، مع سابقة سعادته ، إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة

.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجانّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم > . رواه مسلم

.

تنبيه :

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن الحسن في قوله تعالى :

﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ قال : قال إبليس وهو أول من قاس .

(83/264)

وأخرج أيضاً بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس ، ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالقياس ، وإلا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد .

قال الرازي : بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ خطاب عام يتناول جميع الملائكة ، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس ، وهو أنه مخلوق من

النار ، والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، والأشرف لا يجوز أن لا يؤمر بخدمة الأدنى ، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر ، ولا معنى للقياس إلا ذلك .

وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذم ، وما ذاك إلا لعدم جوازه ، وأيضاً ففي الآية دلالة على ذلك من وجه آخر : وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ فوصفه الله تعالى بكونه متكبراً ، بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص ، وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبّر على الله .

ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد ، والإخراج من زمرة الأولياء .

ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وهذا هو المراد مما نقله الواحديّ في " البسيط " عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه ، فمن قاس الدين بشيء من رأيه ، قرنه الله مع إبليس ، هذا ما نقله الواحدي في " البسيط " عن ابن عباس ، وأفاده الرازي .

وقد روي عن السلف آثار كثيرة في ذم القياس ، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس ، وعن مسروق قال : لا أقيس شيئاً بشيء ، فتزلّ قدمي بعد ثبوتها .

وعن الشعبي : إياكم والقياس ، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام ، وحرمتم الحلال ، ولأن أتغنى غنية ، أحب إليّ من أن أقول في شيء برأيي .

(84/264)

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر رحمه الله من هذا المعنى آثاراً وافرة في " جامع بيان العلم وفضله " وقال : احتج من نفى القياس بهذه الآثار ومثلها ، وقالوا في حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة ، وتكلم داود في إسناد حديث معاذ ، وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ ، ولم يُسَمُّوا ، قال الحافظ ابن عبد البر : وحديث معاذ صحيح مشهور ، رواه الأئمة العدول ، وهو أصل في الاجتهاد والقياس على الأصول ، ثم قال : وسائر الفقهاء قالوا في هذه الآثار وما كان مثلها في ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، أو القياس الذي يردّ به أصل ، والقول في دين الله بالظن ، ألا ترى إلى قول من قال منهم : أول من قاس إبليس ؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأي الفاسد ، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا في رد الفروع إلى أصولها ، لا في رد الأصول بالرأي والظن ، وإذا صح النص من الكتاب والأثر بطل القياس

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ الآية ، وأي

: أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خُلق منه آدم ، وما خلق منه إبليس ؟ ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلة ليست بمانعة من أن يأمره الله بما يشاء ، فهذا ومثله لا يحلّ ولا يجوز ، وأما القياس على الأصول ، والحكم للشيء بحكم نظيره ، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف ، وبل كل من رُوي عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً ، لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف في الأحكام .

وقال مسروق الوراق :

~كلنا من الدين قبل اليوم في سعةٍ

حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس

~قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأي عند الفقر والبوس

~أما العُرَيب فقوم لا عطاء لهم وفي الموالي علاماتُ المفاليس

فلقيه أبو حنيفة فقال : هجوتنا ، نحن نرضيك ، فبعث إليه بدراهم فقال :

(85/264)

إذا ما أهل مصرٍ بادَهونا بآبدةٍ من الفُتيا لطيفهْ

~أتيناهم بمقياسٍ صحيحٍ صَليبٍ من طراز أبي حنيفهْ

~إذا سمِعَ الفقيهُ بهِ وَعاهُ وأثبته بحِبرٍ في صحيفهْ

قال ابن عبد البر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك الزمن ، فقال :

~إذا ذو الرأي خاصَمَ عن قياسٍ وجاء ببدعة منه سخيفهْ

~أتيناهم بقول الله فيها وآثار مبرّزةٌ شريفهْ

هكذا حكاه ابن عبد البر في " جامع فضل العلم " ، وله فيه في باب ما جاء في ذم القول في دين الله بالرأي والقياس على غير أصل ، مقالات سابغة جديرة بالمراجعة .

ومما ذكر فيه : أن أهل الحديث أفرطوا في أبي حنيفة ، وتجاوزوا الحدّ .

قال : والسبب الموجب لذلك ، عندهم ، إدخاله الرأي والقياس على الآثار ، واعتبارهما ، وأكثرُ أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر بطل النظر ، وكان ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره ، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأي

وجُلّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده ، كإبراهيم النَّخعِي وأصحاب ابن مسعود ، إلا أنه أغرق هو وأصحابه في تنزيل النوازل ، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم ، فأتى منهم في ذلك خلاف كبير للسلف ، ثم قال : وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل

في آية ، أو مذهب في سنة ، ردّ من أجل ذلك المذهب سنة أخرى بتأويل سائغ ، أو ادعاء نسخ ، إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيراً ، وهو يوجد لغيره قليل .

قال : لليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، مما قال مالك فيها برأيه . قال : وقد كتبت إليه أعظه في ذلك .

هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً .

(86/264)

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه : أنه روي عن علي وزيد أنهما احتجا بقياس ، فمن ادعى إجماعهم – أي : الصحابة – على ترك العمل بالرأي والقياس مطلقاً فقد غلط ، ومن ادعى أنه من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأي والقياس فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم ، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها ، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها . انتهى .

وقال ابن تيمية رحمه الله في فتوى أخرى : والصحابة كانوا يحتجون في عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم ، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأي ، ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً .

والقياس الصحيح نوعان :

أحدهما : أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر في الشرع ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه سئل عن فأرة وقعت في سمن ، فقال : < ألقوها وما حولها ، وكلوا سمنكم > ، وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن ، فلهذا قال جماهير العلماء : أن [في المطبوع : إنه] أي : نجاسة وقعت في دهن من الأدهان كالفأرة التي تقع في الزيت ، وكالهرّ الذي يقع في السمن ، فحكمها حكم تلك الفأرة التي وقعت في السمن .

ومن قال من أهل الظاهر : إن هذا الحكم لا يكون إلا في فأرة وقعت في سمن ، فقد أخطأ ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخص الحكم بتلك الصورة ، لكن لما استفتى عنها أفتى فيها ، و الاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع ، فأجاب المفتي عن ذلك ، خصه لكونه سئل عنه ، لا لاختصاصه

بالحكم ، ومثل هذا أنه سئل عن رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمّخة بخلوق فقال : انزع عنك الجبة الخلوق ، واصنع في عمرتك ما كنت تصنع في حجك .

فأجابه عن الجبة ، ولو كان عليه قميص أو نحوه ، كان الحكم كذلك بالإجماع .

والنوع الثاني من القياس : أن ينص على حكم لمعنى من المعاني ، ويكون ذلك المعنى موجوداً في غيره ، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوى بينهما ، وكان هذا قياساً صحيحاً .

فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يستعملونهما ، وهما من باب فهم مراد الشارع ، فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يعرف مراده باللفظ ، وإذا عرفنا مراده ، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك ، لا لمعنى يخص الأصل ، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك ، وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص ، منعنا القياس ، كما أنا علمنا أن الحج خص به الكعبة ، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان ، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة ، وأن المفروض من الصلوات خص به الخمس ، ونحو ذلك ، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على المنصوص غيره .

وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة ، كتعيين الكعبة وشهر رمضان ، أو عين بعض الأقوال والأفعال ، كتعيين القراءة في الصلاة ، والركوع والسجود ، بل وتعيين التكبير وأم القرآن ، فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم ، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وقياس الحلال

بالنص على الحرام بالنص ، من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

(88/264)

وكذلك قياس المشركين الذين قاسوا الميتة بالمذكّي وقالوا أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ؟ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ . فهذه الأقيسة الفاسدة ، وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد ، وكل من الحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه ، فقياسه فاسد . وكل من سوى بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد . لكن من القياس ما يعلم صحته ، ومنه ما يعلم فساده ، ومنه ما لم يتبين أمره . فمن أبطل القياس مطلقاً فقوله باطل . ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل .

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته ، فقد استدل بما لا يعلم صحته ، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لا يعلم عدالته ، فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى ما يعلم صحته ، وإلى ما يعلم فساده ، وإلى ما هو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها .

ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة ، سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة ،

وهذا هو المراد من قول من قال : النصوص تتناول أفعال المكلفين .

ويراد بالنص ما دلالته قطعية لا تحتمل النقيض ، كقوله :

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ و : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ ، فالكتاب هو النص ، والميزان هو العدل . والقياس الصحيح من باب العدل ، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتفريق بين المختلفين ، ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة

(89/264)

النص ، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد ، ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً ، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح ، ومن كان متبحراً في الأدلة الشرعية ، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص وبالأنيسة ، فثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة ، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر ، كما يدل النص على ذلك ، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء ، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة كما دل القرآن على هذا المعنى ، وهذا المعنى موجود في جميع الأربة المسكرة ، لا فرق في ذلك بين

شراب وشراب ، فالفرق بين الأنواع المشتركة من الجنس تفريق بين المتماثلين ، وخروج عن

موجب القياس الصحيح ، كما هو خروج عن موجب النصوص .

وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس ، لكن يقولون : معنا آثار توافق ، اتبعناها ، ويقولون : إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر ، وغلطوا في فهم النص ، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم .

ومعرفة عموم الأسماء الموجودة في النص وخصوصها ، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، وقد قال تعالى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ والكلام في ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا – والله أعلم – انتهى كلامه رحمه الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 13 .

20 ﴾

(90/264)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

(12) ﴾

ثم قال كما يحكي القرآن الكريم : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء : 61] وهكذا كان الموقف استكباراً واستلاءً . وقوله الحق : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75]

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ أي ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ . وهذا يعني أن الأسلوب الأول جاء ب " لا " النافية ، والأسلوب الثاني جاء على عدم وجود " لا " النافية . وقوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعني : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ هي التي تحتاج لوقفة . لذلك قال العلماء : إن " لا " هنا زائدة ، ومَنْ أَحْسَن الأدب منهم قال : إن " لا " صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة " منع " ولأي أمر تأتي ، وأنت تقول : " منعت فلاناً أن يفعل " ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

(91/264)

إذن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتي " منع "

للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هي في ﴿ مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ ، وممتنع تعني أنه امْتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنّه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلي وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب في وجود التكرار في القرآن .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12]

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أي وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال في الرد على ربّه : ﴿ . . . أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12]

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أزلاً أنّ إبليس قد امتنع باقتناع لا بقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكأن المسألة دارت في ذهنه ليوجد حيثية لعدم السجود . ولا يصح في عرفه الإبليسي أن يسجد الأعلى للأدنى ، فما دام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فكأن النار لها علو ، وهو في ذلك مخطئ تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس

أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدي مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع في النار .

(92/264)

إذن فالخيرية تتأتى في الأمرين معا مادام كل منهما يؤدي مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شيء في الوجود حين يوضع في منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضي أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذي جعله يؤدي مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى في متساوي المهمة ، ولكن لإبليس قال : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ . . . ﴾ [الأعراف : 12]

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله في أمره ، وكأنه يخطِّئ الحق في أمره ، ويردّ الأمر على الآمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له : ﴿ قَالَ فَاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(93/264)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

ذكر في هذه الآية الكريمة : أن إبليس – لعنه الله – خلق من نار ، وعلى القول بأن إبليس هو الجان الذي هو أبو الجن . فقد زاد في مواضع أخر أوصافاً للنار التي خلقه منها . من ذلك أنها نار السموم . كما في قوله : ﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ﴾ [الرحمن : 15] ، والمارج أخص من مطلق النار لأنه اللهب الذي لا دخان فيه .

وسميت نار السموم : لأنها تنفذ في مسام البدن لشدة حرها . وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " ورواه عنها أيضاً الإمام أحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(94/264)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " ، وقال فى سورة الحجر : " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) " ، فى الآيتين مما يسأل عنه قوله تعالى فى الأولى "ما منعك " وفى الثانية "مالك " ، وفى الأولى استفتاح بسؤاله عن امتناعه بقوله "ما منعك " من غير ندائه باسمه وفى الثانية نداؤه "يا إبليس " وفى الأولى قوله "ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك " وفى الثانية "ألا تكون مع الساجدين " وفى الأولى قال "أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " وفى الثانية : "لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون " وفى الأولى قال : "فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين " ، وفى الثانية : "فاخرج منها فإنك رجيم " ، فهذه خمس سؤالات .

فأقول : إنه لما تقدم فى الأعراف ذكر خلق الإنسان وتصويره من غير ذكر المادة التى خلق

منها قال تعالى : "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم " والخطاب لبنى آدم ولم يذكر خلق غيرهم من ملك أو جن .

(95/264)

ثم إن الأمر بالسجود ورد للملائكة ولم يرد إشعار بأن إبليس من غيرهم فسبق من ظاهر الكلام أنه منهم ومأمور معهم لاستثنائه منهم فناسب هذا قوله : "وما منعك " ، لأنه مأمور بظاهر ما تقدم وناسب ذلك أيضا وعضد ما قلناه قوله "إذ أمرتك " ، ولما لم يقع ذكر لخلق غير الآدميين ولا ذكرت مادة خلق الإنسان ناسب ذلك ما ذكره سبحانه عن إبليس من قوله : "أن خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " ، فاستوفى ذكر المادتين وبنى على ذلك ما توهم من فضل النار على الطين .

(96/264)

أما آية الحجر فقد تقدم قبلها قوله تعالى : "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون " إلى قوله : "فقعوا له ساجدين " فأشارت الآية بظاهرها إلى أن إبليس من الملائكة وقد

نطقت الآية أن الملائكة هم المأمورون بالسجود ، فبحسب هذا البادى من الظاهر وردت المعية فى قوله : "مالك ألا تكون مع الساجدين " فلما لم يكن فى أصل الخلقة والمادة منهم وكان الأمر بظاهر العبارة لهم وإن كان مرادا أنه معهم فبحسب هذا قيل له : "مالك ألا تكون مع الساجدين " ، فقيل "معهم " إذ ليس منهم قال تعالى : "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " وبحسب ذلك استؤنف نداؤه فقيل : "يا إبليس مالك " ولم يقل "ما منعك " لأن ذلك لو قيل كا يقتضى أنه منهم ولك يكن ليناسب ما أشار إليه صدر الكلام من أنه ليس منهم فنودى باسمه المشعر بطرده ومغايرته لهم فقيل "يا إبليس " فتناسب أيضا ما ورد فى الحجر من تبيين خلق إبليس من النار وفصله من الملائكة ما أعقب به من محكى قوله : "لم أكن لأسجد لبشر من صلصال من حمإ مسنون "واحتقاره مادة الطين وتفضيله مادة النار عليها فناسب هذا تعقيب أمره بالخروج فى قوله تعالى : "اخرج منها " وقيل فى آية الأعراف : "اهبط منها " وليس التعبير بالإخراج كالتعبير بالهبوط فقد أمر آدم بالهبوط ولم يقصد من تعنيفه ما قصد بإبليس فالفرق ما بين العبارتين فيما تعطيانه قيل فى الأعراف "فاهبط منها " إذ لم يتقدم فيها من أنه ليس من الملائكة كما تقدم فى الحجر بل ظاهر ما فى الأعراف أنه منهم ، فجرى الأمر آخرا مناسبا لهذا الظاهر فعبر بالهبوط ، ولما تقدم فيه الحجر أنه ليس من الملائكة لخلقه من نار سموم فأشعر ذلك بشر المادة ناسبه قوله : "فاخرج منها " وإتباع ذلك بما يلائمه من الوصف ويناسبه من قوله : "فإنك رجيم " ثم بما كتب عليه

من الطرد واللعنة ولم يرد فى الأعراف هكذا بل روعى فيه مناسبة ما تقدم ، ولئلا يتنافر الكلام ويتنافر المعنى فقيل : "فما

(97/264)

يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين " فإن

قلت : فقد قيل هنا "فاخرج" كما قال فى سورة الحجر : قلت : تدرج به إلى التعنيف وسيق هناك من أول وهلة وجاء كل على ما يجب ويناسب ولم يكن ليناسب ورود العكس فى السورتين والله أعلم بما أراد وقد حصل جواب السؤالات بأسرها والحمد لله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 177.178 ﴾

(98/264)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ الآية .

في هذه الآية إشكال بين قوله: ﴿ مَنَعَكَ ﴾ مع (لا) النافية ؛ لأن المناسب في الظاهر لقوله: ﴿ مَنَعَكَ ﴾ بحسب ما يسبق إلى ذهن السامع لا ما في نفس الأمر هو حذف (لا) فيقول: "ما منعك أن تسجد" دون "ألا تسجد" وأجيب عن هذا بأجوبة ؛ من أقربها هو ما اختاره ابن جرير في تفسيره وهو أن في الكلام حذفا دل المقام عليه وعليه فالمعنى: ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد إذ أمرتك وهذا الذي اختاره ابن جرير قال ابن كثير: "إنه حسن قوي" .

ومن أجوبتهم أن (لا) صلة ويدل له قوله تعالى في سورة (ص) : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ الآية ، وقد وعدنا فيما مضى أنا إن شاء الله نبيّن القول بزيادة (لا) مع شواهده العربية في الجمع بين قوله: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 132 ﴾

(99/264)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

﴿ (12)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ قال : حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال : أنا ناري وهذا طيني ، فكان بدء الذنوب الكبر ، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم فأهلكه الله بكبره وحسده .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي صالح قال : خلق إبليس من نار العزة ، وخلقت الملائكة من نور العزة .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ قال : قاس إبليس وهو أول من قاس .

وأخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن جده " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال أو من قاس أمر الدين برأيه إبليس . قال الله له : اسجد لآدم . فقال ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ قال جفعر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

في " لا " هذه وجهان :

أظهرهما : أنها زائدة للتوكيد .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " لا " في " ألَّا تسجد " صلة بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [سورة ص : 75] ومثلها ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] بمعنى ليعلم ، ثم قال : فإن قلت ما فائدةُ زيادتها ؟

قلت : توكيد بمعنى الفعل الذي يدخلُ عليه ، وتحقيقه كأنه قيل : يستحق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السُّجُود ، وتُلزمه نفسك إذا أمرتك ؟ .

وأُنْشَدُوا على زيادة " لا " قول الشَّاعر : [الطويل]

2410 - أَبَى جُودُهُ لا البُخْلَ واسْتَعْجَلَتْ نَعَمْ . . .

بِهِ مِنْ فَتًى لا يَمْنَعُ الجُودَ نَائِلُهْ

يروى " البُخْل " بالنصب والجر ، والنصبُ ظاهرُ الدلالة في زيادتها ، تقديره : أبى جُودُهُ البخل .

وأمَّا رواية الجر فالظَّاهرُ منها عدم الدلالة على زيادتها ، ولا حجَّة في هذا البيت على زيادة " لا " في رواية النَّصْبِ ، ويتخرَّجُ على وجهين :

أحدهما : أن تكون " لا " مفعولاً بها ، و" البخل " بدلٌ منها ؛ لأن " لا " تقالُ في المنع فهي مؤدِّية للبُخْلِ .

والثاني : أنَّها مفعول بها أيضاً ، و" البُخْل " مفعول من أجْلِهِ ، والمعنى : أبي جُودُه لفظ " لا " لأجل البُخْلِ أي : كَرَاهَة البُخْلِ ، ويؤيِّدُ عدمَ الزِّيادةِ روايةُ الجَرِّ .

قال أبو عمرو بْنُ العلاءِ : " الرِّوايةُ فيه بخفض " البُخْلِ " ؛ لأن " لا " تستعمل في البُخْلِ " ، وأنشدُوا أيضاً على زيادتها قول الآخر : [الكامل]

2411 - . . .

أفَعَنْكِ لا بَرْقٌ كأنَّ وَميضَهُ

غَابٌ تَسَنَّمَهُ ضِرَامٌ مُثْقَبُ . . .

يريد أفعنك بَرْقٌ ، وقد خرجَّه أبو حيَّان على احتمال كَوْنِهَا عاطفة ، وحذف المعطوف ، والتقديرُ : أفعنك لا عن غَيْرِك .

وكون " لا " في الآية زائدة هو مذهب الكسائي ، والفراء والزجاج ، وما ذكرناه من كون البخل بدلا من " لا " ، و" لا " مفعول بها هو مذهب الزجاج .

وحكى بعضهم عن يونس قال : كان أبو عمرو بن العلاء يجر " البخل " ويجعل " لا " مضافة

إليه ، أراد أبي جوده لا التي هي للبخل ؛ لأن " لا " قد تكون للبخل وللجود ، فالتي للبخل معروفة ، والتي للجود أنه لو قال له : " امنع الحق " أو " لا تعط المساكين " فقال : " لا " كان جودا .

(101/264)

قال شهاب الدين : يعني فتكون الإضافة للتبيين ، لأن " لا " صارت مشتركة فميزها بالإضافة ، وخصصها به ، وقد تقدم طرف جيد من زيادة " لا " في أواخر الفاتحة .

وزعم جماعة أن " لا " في هذه الآية الكريمة غير زائدة لكن اختلفت عبارتهم في تصحيح معنى ذلك ؟

فقال بعضهم : في الكلام حذف يصح به النفي والتقدير : ما منعك فأحوجك ألا تسجد ؟

وقال بعضهم : المعنى ما ألجأك ألا تسجد .

وقال بعضهم من أمرك ألا تسجد ؟ أو من قال لك ألا تسجد ، أو ما دعاك ألا تسجد .

قالوا : ويكون هذا استفهاما على سبيل الإنكار ، ومعناه أنه ما منعك عن ترك السجود شيء ، كقول القائل لمن ضربه ظلما : ما الذي منعك من ضربي ، أدينك أم عقلك أم جارك .

والمعنى أنه لم يوجد أحد هذه الأمور ، وما امتنعت من ضربي .

وقال القاضي : ذكر الله المنع وأراد الداعي فكأنه قال : ما دعاك إلى ألا تسجد ؛ لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها .

وهذا قول من يتحرج من نسبة الزيادة إلى القرآن ، وقد تقدم تحقيقه ، وأن معنى الزيادة على معنى يفهمه أهل العلم ، وإلا فكيف يدعي زيادة في القرآن بالعرف العام ؟ هذا ما لا يقوله أحد من المسلمين .

و" ما " استفهامية في محل رفع بالابتداء ، والخبر الجملة بعدها أي : أي شيء منعك ؟ .

و" أن " في محل نصب ، أو جر ؛ لأنها على حذف حرف الجر إذ التقدير : ما منعك من السجود ؟ و" إذ " منصوب ب " تسجد " أي : ما منعك من السجود وقت أمري إياك به .

قوله : " خلقتني من نار " لا محل لهذه الجملة ؛ لأنها كالتفسير والبيان للخيرية ومعناه : أنا لم أسجد لآدم ؛ لأني خير منه ومن كان خيرا من غيره فإنه لا يجوز أمر ذلك الأكمل بالسجود لذلك الأدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 29 . 31 ﴾ .

باختصار .

(102/264)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

أي لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجودِ لآدم لو كُنْتَ تُعَظِّم أمري ؟ فيتحقق الموحدون أن موجِبَ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ ، ولو ساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود .

قال : ﴿ أنا خير منه ﴾ ادَّعى الخيرية ، وكان الواجب عليه – لولا الشقوة – أَنْ يؤثِرَ التذلَّلَ على التكبُّر ، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحقّ .

ثم إنه وإنْ سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفس لأنه بِحَظٍّ ، فلم يزِدْه قياسُه إلا في استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره ، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه – سبحانه – وقسمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 521.522 ﴾

(103/264)

كلام نفيس للإمام ابن عبد البر

قال رحمه الله ما نصه :

باب نفي الالتباس في الفرق بين الدليل " والقياس وذكر من ذم القياس على غير أصل وما يرده من القياس أصل قال أبو عمر رحمه الله : " لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة ، وهم أهل الفقه والحديث في نفي القياس في التوحيد وإثباته في الأحكام إلا داود بن علي بن خلف الأصفهاني ثم البغدادي ومن قال بقولهم ، فإنهم نفوا القياس في التوحيد والأحكام جميعا ، وأما أهل البدع فعلى قولين في هذا الباب سوى القولين المذكورين ، منهم من أثبت القياس في التوحيد والأحكام جميعا ، ومنهم من أثبته في التوحيد ونفاه في الأحكام وأما داود بن علي ومن قال بقوله ، فإنهم أثبتوا الدليل والاستدلال في الأحكام وأوجبوا الحكم بخبر الآحاد العدول كقول سائر فقهاء المسلمين في الجملة ، والدليل عند داود ومن اتبعه نحو قول الله جل وعز ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ لو قال قائل : فيه دليل على رد شهادة الفساق كان مستدلا مصيبا وكذلك قوله ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وكان فيه دليل على قبول خبر العدل ، ونحو قول الله عز وجل ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ دليل على أن كل مانع من السعي إلى الجمعة واجب تركه ؛ لأن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن جميع أضداده ، ونحو قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من باع نخلا قد أبرت فثمرها للبائع إلا أن يشترط المبتاع " دليل على أنها

إذا بيعت ولم تؤبر فثمرها للمبتاع ، ومثل هذا النحو حيث كان من الكتاب والسنة ، وقال سائر العلماء : في هذا الاستدلال قولان أحدهما أنه نوع من أنواع القياس وضرب منه على ما رتب الشافعي وغيره من مراتب القياس وضروبه وأنه يدخله ما يدخل القياس من العلل ، والقول الآخر أنه هو القياس بعينه وفحوى خطابه " قال أبو عمر : " القياس الذي لا يختلف أنه قياس هو تشبيه الشيء بغيره إذا أشبهه والحكم للنظير بحكم نظيره إذا كان في معناه والحكم للفرع بحكم أصله إذا قامت فيه العلة التي من

أجلها وقع الحكم ، ومثال القياس أن السنة المجمع عليها وردت بتحريم البر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والذهب بالذهب والورق بالورق والملح بالملح إلا مثلا بمثل ويدا بيد فقال قائلون من الفقهاء : القياس حكم الزبيب والسلت والدخن والأرز كحكم البر والشعير والتمر وكذلك الفول والحمص ، وكل ما يكال ويؤكل ويدخر ويكون قوتا وإداما وفاكهة مدخرة ؛ لأن هذه العلة في البر والشعير والتمر والملح موجودة ، وهذا قول مالك وأصحابه ومن تابعهم وقال آخرون : العلة في البر وما ذكر معه في الحديث من الذهب والورق والتمر والشعير أن ذلك كله موزون أو مكيل فكل مكيل أو موزون فلا يجوز فيه إلا

ما يجوز في السنة من النساء والتفاضل هذا قول الكوفيين ومن تابعهم وقال آخرون : العلة في البر أنه مأكول وكل مأكول فلا يجوز إلا مثلا بمثل ، يدا بيد ، سواء كان مدخرا أو غير مدخر ، سواء كان يكال أو يوزن أو لا يكال ولا يوزن ، هذا قول الشافعي ومن ذهب مذهبه ومن قال بقوله وقال الشافعي الذهب والورق لا يشبههما غيرهما من الموزونات ، لأنهما قيم المتلفات وأثمان المبيعات فليستا كغيرهما من المذكورات معهما ؛ لأنهما يجوزان تسليما في كل شيء سواهما وإلى هذا مال أصحاب مالك في تعليل الذهب والورق خاصة ، وقال داود : البر بالبر والشعير بالشعير والذهب بالذهب والورق بالورق والتمر بالتمر والملح بالملح ، هذه الستة الأصناف لا يجوز شيء منها بجنسه إلا مثلا بمثل يدا بيد ولا يجوز شيء منها بجنسه ولا بغير جنسه منها نسيئة وما عدا ذلك كله فبيعه جائز نسيئة ويدا بيد ، متفاضلا وغير متفاضل ؛ لعموم قول الله تعالى وأحل الله البيع وحرم الربا فكل بيع حلال إلا ما حرمه الله في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يحكم لشيء بما في معناه ولم يعتبر المعاني والعلل وما أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول إلا طائفة من أهل البصرة مبتدعة ابن سيار النظام ومن سلك سبيله

(105/264)

، وأما فقهاء الأمصار فلكل واحد منهم سلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، وقد ذكر حجة كل واحد منهم وما اعتل به من جهة النظر والأثر في كتاب التمهيد فأغنى عن ذكره ها هنا ، وأما داود فلم يقس على شيء من المذكورات الست في الحديث غيرها ، ورد العلماء عليه هذا القول وحكموا لكل شيء مذكور بما في معناه وردوا على داود ما أصل بضروب من القول ، وألزموه صنوفا من الإلزامات يطول ذكرها لا سبيل إلى الإتيان بها في كتابنا هذا وحجج الفريقين كثيرة جدا من جهة النظر قد أفردوا لها كتابا "

1042 - واحتج من ذهب مذهب داود من جهة الأثر بما حدثناه عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك ، ثنا نعيم بن حماد قال : نا عيسى بن يونس ، عن حريز بن عثمان الرحبي قال : نا عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفترق أمتي على بضع (1) وسبعين فرقة (2) أعظمها على أمتي فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله تعالى " قال أبو عمر : هذا عند أهل العلم بالحديث حديث غير صحيح ، حملوا فيه على نعيم بن حماد ، وقال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين : حديث عوف بن مالك هذا لا أصل له ، وأما ما روي عن السلف في ذم القياس فهو عندنا قياس على غير أصل ، أو قياس يرد به أصل

---

(1) البضع : العدد بين الثلاثة إلى التسعة

(2) الفرقة : الشعبة أو الجماعة

(106/264)

1043 - حدثنا أحمد بن سعيد بن بشر ، وأحمد بن محمد قالا : نا وهب بن مسرة ، ثنا محمد بن وضاح ، ثنا محمد بن ماهان قال : سمعت محمد بن كثير ، عن ابن شوذب ، عن مطر ، عن الحسن قال : " أول من قاس إبليس قال : خلقتني من نار وخلقته من طين "

1044 - وبهذا الإسناد عن ابن ماهان قال : سمعت يحيى بن سليم الطائفي ، غير مرة يقول : أنا داود بن أبي هند ، عن ابن سيرين قال : " أول من قاس إبليس وإنما عبدت الشمس والقمر بالمقاييس "

1045 - حدثنا عبد الوارث ، ثنا قاسم ، ثنا أحمد بن زهير ، نا محمد بن محبوب ، ثنا أبو عوانة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عامر ، عن مسروق قال : " إني أخاف أن أقيس فتزل قدمي "

1046 - قال أحمد بن زهير ، وثنا أحمد بن يونس ، ثنا زهير ، ثنا جابر عن عامر قال : قال مسروق ، " لا أقيس شيئا بشيء قلت : لم ؟ قال : أخشى أن تزل رجلي "

1047 - وذكر نعيم بن حماد ، ثنا ابن إدريس ، عن عمه ، داود ، عن الشعبي ، عن مسروق قال : " لا أقيس شيئًا بشيء فتزل قدمي بعد ثبوتها "

(107/264)

1048 - قال نعيم ، ونا وكيع ، عن عيسى الحناط ، عن الشعبي قال : " إياكم والقياس فإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام وحرمتم الحلال ولأن أتعنى عنية أحب إلي من أن أقول في شيء برأيي " وذكر الشعبي ، مرة أخرى القياس فقال : " أيش في القياس " وقال الشعبي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تهلك أمتي حتى تقع في المقاييس ، فإذا وقعت في المقاييس فقد هلكت " " وقد ذكرنا في هذا المعنى زيادة في باب ذم الرأي من هذا الكتاب ؛ لأنه معنى منه ، وبالله التوفيق ، فاحتج من نفى القياس بهذه الأثار ومثلها وقالوا في حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة وتكلم داود في إسناد حديث معاذ ورده ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ ولم يسموا ، قال أبو عمر : وحديث معاذ صحيح مشهور رواه الأئمة العدول وهو أصل في الاجتهاد والقياس على الأصول وبه قال جمهور العلماء وسائر الفقهاء ، وقالوا في هذه الآثار وما كان مثلها في ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، والقول في دين الله بالظن ألا ترى إلى قول من قال منهم :

أول من قاس إبليس " رد أصل العلم بالرأي الفاسد والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا في رد الفروع إلى أصولها ، لا في رد الأصول بالرأي والظن ، وإذا صح النص من الكتاب والأثر بطل القياس والنظر وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة الآية ، وأي أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خلق منه آدم وما خلق منه إبليس ، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلة ليست بمانعة من أن يأمره الله بما يشاء ؟ فهذا ومثله لا يحل ولا يجوز . وأما القياس على الأصول والحكم للشيء بحكم نظيره فهذا ما لم يخالف فيه أحد من السلف ، بل كل من روي عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصا لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل مخالف للسلف في الأحكام "

(108/264)

1049 - أخبرنا عبد الوارث ، ثنا قاسم ، ثنا أحمد بن زهير قال : أنا سليمان بن أبي شيخ ، قال : قال مساور الوراق : كنا من الدين قبل اليوم في سعة حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأي عند الفقر والبوس أما العريب فقوم لا عطاء لهم وفي الموالي (1) علامات المفاليس فلقيه أبو حنيفة فقال :

هجوتنا نحن نرضيك فبعث إليه بدراهم فقال : إذا ما أهل مصر بادهونا بآبدة من الفتيا لطيفه أتيناهم بمقياس صحيح صليب من طراز أبي حنيفه إذا سمع الفقيه به وعاه وأثبته بحبر في صحيفه قال أبو عمر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك الزمان فقال : إذا ذو الرأي خاصم عن قياس وجاء ببدعة منه سخيفه أتيناهم بقول الله فيها وآثار مصححة شريفه فكم من فرج محصنة عفيفة أحل حرامها بأبي حنيفة قال أبو عمر رحمه الله : هذا تحامل وجهل واغتياب وأذي للعلماء ؛ لأنه إذا كان له في النازلة كتاب منصوص وأثر ثابت لم يكن لأحد أن يقول بغير ذلك فيخالف النص والنص ما لا يحتمله التأويل وما احتمله التأويل على الأصول واللسان العربي كان صاحبه معذورا

---

(1) الموالي : العجم وهم غير العرب

(109/264)

1050 - أنشدنا أبو القاسم عبد الوارث بن سفيان قال : أنشدنا أبو محمد قاسم بن أصبغ قال : أنشدنا محمد بن وضاح ببغداد على باب أبي مسلم الكشي قال : قال لي غلام خليل : أنشدني بعض البصريين لبعض شعرائهم يهجو أبا حنيفة وزفر بن الهذيل إن كنت كاذبة بما حدثتني فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر الواثبين على القياس تعديا والناكبين عن

الطريقة والأثر خلت البلاد فارتعوا في رحبها ظهر الفساد ولا سبيل إلى الغير " قال لنا أبو القاسم : قال لنا قاسم بن محمد ولد محمد بن وضاح وكان أدرك غلام خليل ومات محمد بن محمد بن وضاح بجزيرة إقريطش " قال أبو عمر : " بلغني أن أبا جعفر الطحاوي أنشد هذه الأبيات : فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر فقال : " وددت أن لي أجرهما وحسناتهما وعلي إثمهما وسيئاتهما ، وكان من أعلم الناس بسير القوم وأخبارهم ؛ لأنه كان كوفي المذهب وكان عالما بجميع مذاهب الفقهاء رحمه الله وقد رويت في ذم الرأي والقياس آثار كثيرة وسنورد لها بابا في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى " . انتهى انتهى . اهـ ﴿جامع بيان العلم / لابن عبد البر حـ 2 صـ 74 . 78﴾

(110/264)

وقال أيضا رحمه الله تعالى ما نصه :

باب ما جاء في ذم القول في دين الله تعالى بالرأي والظن والقياس على غير أصل وعيب الإكثار من المسائل دون اعتبار

1186 - حدثني عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا علي بن محمد ثنا أحمد بن داود ، ثنا سحنون بن سعيد ، ثنا عبد الله بن وهب ، ثنا عبد الله بن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن

عروة بن الزبير ، قال : حج علينا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فجلست إليه فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله عز وجل لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعا ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون " قال عروة : فحدثت بذلك عائشة رضي الله عنها ، ثم إن عبد الله بن عمرو حج بعد ذلك فقالت لي عائشة : يا ابن أخي ، انطلق إلى عبد الله فاستثبت منه الحديث الذي حدثتني به عنه ، قال : فجئته فسألته فحدثني به كنحو ما حدثني فأتيت عائشة فأخبرتها فعجبت وقالت : والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو ، قال ابن وهب : وأخبرني عبد الرحمن بن شريح ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أيضا

1187 - وحدثني عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، قال : نا عبيد الله بن عبد الواحد بن شريك ، ثنا نعيم بن حماد ، نا ابن المبارك ، ثنا عيسى بن يونس ، عن حريز بن عثمان الرحبي ، ثنا عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم يحرمون به ما أحل الله ويحللون به ما حرم الله "

1188 - وأخبرنا أحمد بن قاسم ، ويعيش بن سعيد ، قالا : نا قاسم بن أصبغ ، ثنا محمد بن إسماعيل الترمذي ، ثنا نعيم بن حماد ، ثنا ابن المبارك ، ثنا عيسى بن يونس ، ثنا حريز ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحللون الحرام ويحرمون الحلال " وروي عن يحيى بن معين أنه قال : حديث عوف بن مالك الذي يرويه عيسى بن يونس ليس له أصل ، ونحوه عن أحمد بن حنبل رحمه الله قال أبو عمر : هذا هو القياس على غير أصل والكلام في الدين بالتخرص والظن ، ألا ترى إلى قوله في الحديث : " يحلون الحرام ويحرمون الحلال " ومعلوم أن الحلال ما في كتاب الله أو سنة رسوله تحليله ، والحرام ما في كتاب الله أو سنة رسول الله تحريمه ، فمن جهل ذلك وقال فيما سئل عنه بغير علم وقاس برأيه حرم ما أحل الله بجهله وأحل ما حرم الله من حيث لم يعلم ، فهذا هو الذي قاس الأمور برأيه فضل وأضل ومن رد الفروع في علمه إلى أصولها فلم يقل برأيه

1189 - حدثنا عبيد بن محمد ، ثنا عبد الله بن محمد القاضي ، بالقلزم ، ثنا محمد بن إبراهيم بن زياد بن عبد الله الرازي ، ثنا الحارث بن عبد الله ، بهمدان قال : نا عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي ، عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعمل هذه الأمة برهة (1) بكتاب الله وبرهة بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعملون بالرأي فإذا فعلوا ذلك فقد ضلوا "

---

(1) البرهة : الزمان الطويل

(112/264)

1191 - حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، قال : أنا علي بن محمد ، قال : أنا أحمد بن داود ، ثنا سحنون ، ثنا ابن وهب ، قال : ثنا يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال وهو على المنبر : " يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبا ؛ لأن الله عز وجل يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف "

1192 - وبه عن ابن وهب ، قال : أخبرني ابن لهيعة ، عن ابن الهادي ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : " أصبح أهل الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن يرووها فاستبقوها بالرأي "

1193 - قال ابن وهب ، وأخبرني عبد الله بن عياش ، عن محمد بن عجلان ، عن عبيد الله بن عمر ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : " اتقوا الرأي في دينكم " ، قال سحنون : " يعني البدع "

1194 - قال ابن وهب ، وأخبرني رجل ، من أهل المدينة ، عن ابن عجلان ، عن صدقة بن أبي عبد الله ، أن عمر بن الخطاب ، كان يقول : " إن أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا : لا نعلم ، فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم "

(113/264)

1195 - أخبرنا أحمد بن عبد الله بن محمد ، قال : حدثني أبي ح ، وأخبرنا عبد الله بن محمد بن يوسف ، قال : أنا سهل بن إبراهيم ، قالا جميعا : ثنا محمد بن فطيس ، ثنا أحمد بن يحيى الأودي الصوفي ، ثنا عبد الرحمن بن شريك ، قال : حدثني أبي ، عن مجالد بن سعيد ، عن عامر يعني الشعبي ، عن عمرو بن حريث ، قال : قال عمر رضي الله عنه : " إياكم وأصحاب الرأي ؛ فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا "

1196 - أخبرنا محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسين البغدادي ، ثنا أبو بكر بن أبي داود ، ثنا محمد بن عبد الملك القزاز ، ثنا ابن أبي مريم ، ثنا نافع بن يزيد ، عن ابن الهادي ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إياكم والرأي ؛

فإن أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا في الدين برأيهم " قال أبو بكر بن أبي دواد : " أهل الرأي هم أهل البدع ، وهو القائل في قصيدته : ودع عنك آراء الرجال وقولهم فقول رسول الله أزكى وأشرح

1197 - حدثنا أحمد بن عبد الله ، نا الحسن بن إسماعيل ، نا عبد الملك بن بحر ، نا محمد بن إسماعيل ، نا سنيد ، نا يحيى بن زكريا ، عن مجالد بن سعيد ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : " لا يأتي عليكم زمان إلا وهو شر من الذي قبله ، أما إني لا أقول : أمير خير من أمير ولا عام أخصب من عام ، ولكن فقهاءكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفا ، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم "

(114/264)

1198 - حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا علي ، ثنا أحمد ، قال : حدثنا سحنون ، ثنا ابن وهب ، ثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : " ليس عام إلا والذي بعده شر منه ، لا أقول : عام أمطر من عام ، ولا عام أخصب من عام ، ولا أمير خير من أمير ، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فيهدم الإسلام ويثلم "

1199 - وحدثنا محمد بن إبراهيم ، ثنا أحمد بن مطرف ، ثنا سعيد بن عثمان ، وسعيد بن خمير ، قالا : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن المجالد بن سعيد ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : " ليس عام إلا الذي بعده شر منه ، ولا أقول : عام أمطر من عام ولا عام أخصب من عام ولا أمير خير من أمير ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فيهدم الإسلام ويثلم "

1200 - وحدثنا يونس بن عبد الله ، ثنا محمد بن معاوية ، ثنا جعفر بن محمد الفريابي ، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، ثنا أبو خالد الأحمر ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن مسروق ، قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، " قراؤكم وعلماؤكم يذهبون ويتخذ الناس رءوسا جهالا يقيسون الأمور برأيهم "

1201 - حدثنا أحمد بن عبد الله ، ثنا الحسن بن إسماعيل ، ثنا عبد الملك بن بحر ، ثنا محمد بن إسماعيل ، قال : نا سنيد بن داود ، ثنا محمد بن فضيل ، عن سالم بن أبي حفصة ، عن منذر الثوري ، عن الربيع بن خثيم ، أنه قال : " يا عبد الله ، ما علمك الله في كتابه من علم فاحمد الله وما استأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه ، ولا تتكلف فإن الله عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين "

1202 – قال ونا سنيد ، ثنا محمد بن فضيل ، عن داود بن أبي هند ، عن مكحول ، عن أبي ثعلبة الخشني ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها وعفا عن أشياء رحمة لكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها "

1203 – حدثنا عبد الرحمن ، نا أحمد ، نا محمد بن علي ، نا عفان ، نا عبد الرحمن بن زياد ، نا الحسن بن عمرو الفقيمي ، عن أبي فزارة ، قال ابن عباس : " إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ، فمن قال بعد ذلك برأيه فما أدري أفي حسناته يجد ذلك أم في سيئاته "

1204 – حدثنا عبد الرحمن ، ثنا علي ، حدثنا أحمد ، ثنا سحنون ، نا ابن وهب ، قال : أخبرني ابن لهيعة ، عن عبيد الله بن أبي جعفر ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، " السنة ما سنه الله ورسوله ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة "

1205 – قال ابن وهب ، وأخبرني يحيى بن أيوب ، عن هشام بن عروة ، أنه سمع أباه ، يقول : " لم يزل أمر بني إسرائيل مستقيما حتى أدرك فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم فأحدثوا فيهم بالرأي فأضلوا بني إسرائيل "

1206 - قال ابن وهب ، وأخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن أبي عيسى ، عن الشعبي ، أنه سمعه يقول : " إياكم والمقايسة فوالذي نفسي بيده لئن أخذتم بالمقايسة لتحلن الحرام ولتحرمن الحلال ، ولكن ما بلغكم من حفظ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحفظوه "

1207 - حدثنا خلف بن القاسم ، نا محمد بن القاسم بن شعبان ، نا إسحاق بن إبراهيم بن يونس ، نا عبد الله بن محمد الضعيف ، نا إسماعيل ابن علية ، نا صالح بن مسلم ، عن الشعبي ، قال : " إنما هلكتم حين تركتم الآثار ، وأخذتم بالمقاييس "

1208 - حدثنا خلف بن قاسم نا ابن شعبان ، نا محمد بن محمد بن زيد ، نا أبو هاشم الأشجعي ، عن جابر ، عن الشعبي عن مسروق ، قال : " لا أقيس شيئًا بشيء " قلت : لمه ؟ قال : " أخاف أن تزل قدمي "

(116/264)

1209 - حدثنا ابن قاسم ، نا ابن شعبان ، نا إسحاق بن إبراهيم ، نا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق ، نا النضر بن شميل ، نا ابن عون ، عن ابن سيرين ، قال : "كانوا يرون أنه على الطريق ما دام على الأثر "

1210 - حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن ، قالا : نا أحمد بن سعيد ، نا إسحاق بن إبراهيم ، نا محمد بن علي بن مروان ، نا محمد بن عبد العزيز ، نا النضر بن شميل ، أنا ابن عون ، عن ابن سيرين ، قال : "كانوا يرون أنه على الطريق ما دام على الأثر "

1211 - قال : حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة ، قال : سمعت علي بن الحسن بن شقيق يقول : سمعت عبد الله بن المبارك ، يقول لرجل : " إن ابتليت بالقضاء فعليك بالأثر "

1212 - قال : ونا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة ، قال : أخبرني أبي ، قال : أنا عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، قال : " إنما الدين بالآثار "

1213 - قال : ثنا ابن أبي رزمة ، قال : سمعت عبدان بن عثمان ، يقول : سمعت عبد الله بن المبارك ، يقول : " ليكن الذي تعتمد عليه هو الأثر وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث " وعن شريح أنه قال : " إن السنة سبقت قياسكم فاتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم لن تضلوا ما أخذتم بالأثر "

1214 - وروى عمرو بن ثابت ، عن المغيرة ، عن الشعبي ، قال : " إن السنة لم توضع بالمقاييس "

1215 - وروى الحسن بن واصل ، عن الشعبي ، قال : " إنما هلك من كان قبلكم حين

تشعبت بهم السبل وحادوا عن الطريق ، فتركوا الآثار وقالوا في الدين برأيهم فضلوا وأضلوا "

1216 - وذكر نعيم بن حماد ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، قال : " من يرغب برأيه عن أمر الله عز وجل يضل "

(117/264)

1217 - وذكر ابن وهب ، قال : أخبرني بكر بن مضر ، عن رجل ، من قريش أنه سمع ابن شهاب ، يقول وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأي وتركهم السنن فقال : " إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حين استبقوا الرأي وأخذوا فيه "

1218 - قال : وأخبرني يحيى بن أيوب ، عن هشام بن عروة أنه كان يقول : " السنن السنن ؛ فإن السنن قوام الدين "

25010 - قال : وكان عروة ، يقول : " أزهد الناس في عالم أهله "

1219 - أخبرنا محمد بن محمد ، ثنا محمد بن أحمد بن يحيى ، ثنا ابن الأعرابي ، ثنا ابن الزيادي ، ثنا يزيد بن أبي حكيم ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن هشام بن عروة ، عن

عروة ، قال : " إن بني إسرائيل لم يزل أمرهم معتدلا حتى نشأ فيهم مولدون أبناء سبايا الأمم ، فأخذوا فيهم بالرأي فضلوا وأضلوا "

(118/264)

1220 - وحدثنا محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسين ، ثنا أبو بكر بن عبد الحميد الواسطي ، قال : ثنا محمد بن المثنى أبو موسى ، قال : نا حجاج بن منهال ، ثنا حماد بن سلمة ، عن غير واحد ، عن الزهري ، قال : " إياكم وأصحاب الرأي ؛ أعيتهم الأحاديث أن يعوها " قال أبو عمر رحمه الله : " اختلف العلماء في الرأي المقصود إليه بالذم والعيب في هذه الآثار المذكورة في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم ، وعن التابعين لهم بإحسان فقالت طائفة : الرأي المذموم هو البدع المخالفة للسنن في الاعتقاد كرأي جهم وسائر مذاهب أهل الكلام ؛ لأنهم قوم استعملوا قياسهم وآراءهم في رد الأحاديث فقالوا : لا يجوز أن يرى الله عز وجل في القيامة ؛ لأنه تعالى يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ فردوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم ترون ربكم يوم القيامة " وتأولوا في قول الله عز وجل : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ تأويلا لا يعرفه أهل اللسان ولا أهل الأثر ، وقالوا : لا يجوز أن يسأل الميت في قبره

لقول الله عز وجل ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ فردوا الأحاديث المتواترة في عذاب القبر وفتنته وردوا الأحاديث في الشفاعة على تواترها ، وقالوا : لن يخرج من النار من فيها ، وقالوا : لا نعرف حوضا ولا ميزانا ، ولا نعقل ما هذا وردوا السنن في ذلك كله برأيهم وقياسهم إلى أشياء يطول ذكرها من كلامهم في صفات الباري تبارك وتعالى وقالوا : علم الباري محدث في حين حدوث المعلوم ؛ لأنه لا يقع علمه إلا على معلوم فرارا من قدم العالم بزعمهم ، فلهذا قال أكثر أهل العلم : إن الرأي المذموم المعيب المهجور الذي لا يحل النظر فيه ولا الاشتغال به هو الرأي المبتدع وشبهه من ضروب البدع "

(119/264)

1221 - حدثنا محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسين ، ثنا أبو بكر بن أبي داود ، ثنا أحمد بن سنان ، قال : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : " مثل الذي ينظر في الرأي ثم يتوب منه مثل المجنون الذي عولج ثم برئ فأعقل ما يكون قد هاج به "

1222 - وحدثنا محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسين نا ابن أبي داود ، قال : سمعت أبي يقول : سمعت أحمد بن حنبل ، يقول : " لا تكاد ترى أحدا نظر في هذا الرأي إلا وفي قلبه دغل " وقال آخرون وهم جمهور أهل العلم : " الرأي المذموم في هذه الآثار عن النبي

صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين هو القول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون ، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات ، ورد الفروع والنوازل بعضها على بعض قياسا دون ردها على أصولها ، والنظر في عللها واعتبارها ، فاستعمل فيها الرأي قبل أن تنزل وفرعت وشققت قبل أن تقع ، وتكلم فيها قبل أن تكون بالرأي المضارع للظن ، قالوا : وفي الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيل السنن ، والبعث على حملها وترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها ومن كتاب الله عز وجل ومعانيه واحتجوا على صحة ما ذهبوا إليه من ذلك بأشياء منها "

1223 - ما أخبرنا به خلف بن أحمد ، ثنا أحمد بن مطرف ، ثنا سعيد بن عثمان ، ثنا نصر بن مرزوق ، ثنا أسد بن موسى ، ثنا شريك ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عمر ، قال : " لا تسألوا عما لم يكن ؛ فإني سمعت عمر ، يلعن من سأل عما لم يكن "

1224 - وحدثنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، ثنا محمد بن بكر ، ثنا أبو داود ، ثنا إبراهيم بن موسى الرازي ، ثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن عبد الله بن سعد ، عن الصنابحي ، عن معاوية رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن الأغلوطات "

1225 - وأخبرنا سعيد بن نصر ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا ابن وضاح ، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، قال : نا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن عبد الله بن سعد ، عن الصنابحي ، عن معاوية قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات " فسره الأوزاعي قال : يعني صعاب المسائل

1226 - وحدثنا خلف بن سعيد ، قال أخبرنا عبد الله بن محمد ، ثنا أحمد بن خالد ، ثنا علي بن عبد العزيز ، ثنا سليمان بن أحمد ، ثنا الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن عبد الله بن سعد ، عن عبادة بن نسي ، عن الصنابحي ، عن معاوية بن أبي سفيان أنهم ذكروا المسائل فقال : أما تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نهى عن عضل المسائل " " واحتجوا أيضا بحديث سهل بن سعد وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المسائل وعابها ، وبأنه صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل يكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال "

1227 - حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثني أبي ، ثنا عبد الرحمن بن مهدي ، ثنا مالك ، عن الزهري ، عن سهل بن سعد ، قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها " " هكذا ذكره أحمد بن زهير بهذا الإسناد وهو خلاف لفظ الموطأ ، وقال الدراقطني : لم يرو عبد الرحمن بن مهدي عن

مالك في حديث اللعان إلا هذه الكلمة وتابعه على ذلك قراد أبو نوح ، ونوح بن ميمون المضروب عن مالك فذكر حديث عبد الرحمن بن مهدي من رواية أبي خيثمة والمخزومي ، وأحمد بن سنان ، عن ابن مهدي ، كما ذكره ابن أبي خيثمة سواء ، قال : ثنا أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سعيد البزار "

1228 - ثنا عباس بن محمد ، قال : حدثنا قراد ، قال : ثنا مالك ، عن ابن شهاب عن سهل بن سعد ، قال "كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها "

(121/264)

1229 - قال : ونا عبد الله بن محمد بن أبي سعيد ، والحسين بن صفوان ، قالا : نا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثني أبي ، ثنا نوح بن ميمون أبو محمد بن نوح ، قال : ثنا مالك ، عن ابن شهاب ، ثنا سهل بن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه كره المسائل وعابها "

1230 - حدثنا خلف بن أحمد ، وعبد الرحمن بن يحيى ، قالا : ثنا أحمد بن سعيد ، نا إسحاق بن إبراهيم بن نعمان ، ثنا محمد بن علي بن مروان ، نا عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان الدمشقي ، قال : نا ضمرة ، ثنا الأوزاعي ، عن عبدة بن أبي لبابة ، قال : " وددت

أن أحظى من أهل هذا الزمان أن لا أسألهم عن شيء ولا يسألوني عن شيء يتكاثرون بالمسائل كما يتكاثر أهل الدراهم بالدراهم "

(122/264)

1231 - وأخبرنا عبد الوارث ، ثنا قاسم ، ثنا أحمد بن زهير ، ثنا عبد الوهاب بن نجدة ، ثنا إسماعيل بن عياش ، ثنا شرحبيل بن مسلم ، أنه سمع الحجاج بن عامر الثمالي ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم وكثرة السؤال " " وفي سماع أشهب ، سئل مالك عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال " فقال : أما كثرة السؤال فلا أدري أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثرة المسائل ؟ فقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها وقال الله عز وجل ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ فلا أدري أهو هذا أم السؤال في مسألة الناس في الاستعطاء ؟ " وقد ذكرنا ما للعلماء من القول في " قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال " مبسوطا في كتاب التمهيد ، والحمد الله واحتجوا أيضا بما رواه ابن شهاب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، أنه سمع أباه ، يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على

المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته " ، رواه عن ابن شهاب معمر ، وابن عيينة ، ويونس بن يزيد ، وغيرهم وهذا لفظ حديث يونس بن يزيد من رواية ابن وهب عنه "

1233 - وروى ابن وهب أيضا قال : حدثني ابن لهيعة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم " قال : وأخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك

(123/264)

1234 - حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد ، ثنا سعيد بن أحمد بن عبد ربه ، ثنا أسلم بن عبد العزيز ، قال : ثنا يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن طاوس ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو على المنبر : " أحرج بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن ؛ فإن الله عز وجل قد بين ما هو كائن " وحدثنا محمد ثنا أحمد بن مطرف ، ثنا سعيد بن عثمان ، وسعيد بن خمير ، قالا : نا يونس ، فذكر

بإسناده مثله

1235 - وروى جرير بن عبد الحميد ، ومحمد بن فضيل ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : " ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم كلهن في القرآن ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ ، ﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ قال : ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم " قال أبو عمر : " ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث ، قال : ومن تدبر الآثار المروية في ذم الرأي المرفوعة وآثار الصحابة والتابعين في ذلك علم أنه ما ذكرنا ، قالوا : ألا ترى أنهم كانوا يكرهون الجواب في مسائل الأحكام ما لم تنزل فكيف يوضع الاستحسان والظن والتكلف وتسطير ذلك واتخاذه دينا وذكروا من الآثار أيضا ما "

1236 - حدثنا سعيد بن نصر ، نا قاسم بن أصبغ ، نا ابن وضاح ، نا أبو بكر بن أبي شيبة ، نا أبو خالد الأحمر ، عن محمد بن عجلان ، عن طاوس ، عن معاذ بن جبل ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها ؛ فإنكم إن لا تفعلوا أوشك أن يكون فيكم من إذا قال سدد ووفق ، وإنكم إن عجلتم تشتت بكم الطرق ها هنا وها هنا "

1237 - حدثنا أحمد بن عبد الله ، نا الحسن بن إسماعيل ، نا عبد الملك بن أبجر ، نا محمد بن إسماعيل الصائغ ، نا سنيد ، نا يزيد بن زريع ، عن حبيب بن الشهيد ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إنه لا يحل لأحد أن يسأل عما لم يكن ؛ إن الله تبارك وتعالى قد قضى فيما هو كائن "

1238 - قال : ونا سنيد ، ثنا سفيان ، عن عبد الملك بن أبجر ، عن الشعبي ، عن مسروق ، قال : سألت أبي بن كعب عن مسألة ، فقال : " أكانت هذه بعد ؟ " قلت : لا قال : " فأجمني حتى تكون "

1239 - وحدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا علي بن محمد ، ثنا أحمد بن داود ، ثنا سحنون ، ثنا ابن وهب ، قال : أنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه ، " أنه كان لا يقول برأيه في شيء يسأل عنه حتى يقول أنزل أم لا ؟ " فإن لم يكن نزل لم يقل فيه ، وإن وقع تكلم فيه ، قال : وكان إذا سئل عن مسألة فيقول : " أوقعت ؟ " فيقال له : يا أبا سعيد ما وقعت ولكنا نعدها فيقول : " دعوها فإن كانت وقعت أخبرهم "

1240 - قال ابن وهب ، وأخبرني ابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي ، يقول ، في شيء قط برأيه قال : وربما سئل عن الشيء فيقول : " هذا من خالص

السلطان "

1241 - وروينا عن بشر بن الحارث ، قال : قال سفيان بن عيينة : " من أحب أن يسأل ، وليس بأهل أن يسأل فما ينبغي أن يسأل "

1242 - قال ابن وهب : وأخبرني بكر بن مضر ، عن ابن هرمز ، قال : " أدركت أهل المدينة وما فيها إلا الكتاب والسنة والأمر ينزل فينظر فيه السلطان " قال : وقال لي مالك : " أدركت أهل هذه البلاد وإنهم ليكرهون هذا الإكثار الذي في الناس اليوم " قال ابن وهب : يريد المسائل

15014 - قال : وقال مالك : " إنما كان الناس يفتون بما سمعوا وعلموا ولم يكن هذا الكلام الذي في الناس اليوم "

(125/264)

1243 - قال ابن وهب : وأخبرني أشهل بن حاتم ، عن عبد الله بن عون ، عن ابن سيرين ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لأبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه : " ألم أنبأ أنك تفتي الناس ولست بأمير ؟ ول حارها من تولى قارها "

1244 - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقول : " إياكم وهذه الفضل ؛ فإنها إذا

نزلت بعث الله عز وجل إليها من يقيمها ويفسرها "

1245 - وقال ابن وهب ، أخبرني ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان سأل ابن شهاب ، فقال له ابن شهاب ، "أكان هذا يا أمير المؤمنين ؟ " قال : لا ، قال : " فدعه فإنه إذا كان أتى الله عز وجل له بفرج "

1246 - حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثني أبي ، قال حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عمر رضي الله عنه ، قال : " يا أيها الناس لا تسألوا عما لم يكن ، فإن عمر كان يلعن من سأل عما لم يكن "

1247 - وحدثنا عبد الوارث ، ثنا قاسم ، ثنا أحمد بن زهير ، ثنا أبي ، ثنا عبد الرحمن بن مهدي ، ثنا موسى بن علي ، عن أبيه قال : كان زيد بن ثابت ، إذا سأله إنسان عن شيء ، قال : " آلله أكان هذا ؟ " فإن قال : " نعم نظر وإلا لم يتكلم "

1248 - حدثنا أحمد بن عبد الله ، نا الحسن بن إسماعيل ، نا عبد الملك بن أبجر ، نا محمد بن إسماعيل ، نا سنيد ، نا يحيى بن زكريا ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عامر قال : أتى زيد بن ثابت ، قوم فسألوه عن أشياء ، فأخبرهم بها ، فكتبوها ثم قالوا : لو أخبرناه قال : فأتوه فأخبروه فقال : " عذرا لعل كل شيء حدثتكم خطأ ، إنما اجتهدت لكم رأيي "

1249 - قال : وحدثنا سنيد ، ثنا حماد بن زيد ، عن عمرو بن دينار قال : قيل لجابر بن

زيد ، إنهم يكتبون ما يسمعون منك فقال : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ " يكتبون رأيا أرجع عنه غدا "

(126/264)

1250 - قال : وحدثنا سنيد ، ثنا يزيد ، عن العوام بن حوشب ، عن المسيب بن رافع قال : " كان إذا جاء الشيء من القضاء ليس في الكتاب ولا في السنة سمي صوافي الأمراء فيرفع إليهم فجمع له أهل العلم فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق "

1251 - وذكر الطبري في كتاب تهذيب الآثار له نا الحسن بن الصباح البزار قال : حدثني إسحاق بن إبراهيم الحنيني قال : قال مالك ، " قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تم هذا الأمر واستكمل ، فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتبع الرأي ؛ فإنه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك فاتبعته ، فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته أرى هذا لا يتم "

11130 - وقال عبدان ، سمعت عبد الله بن المبارك يقول : " ليكن الذي تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث "

11131 - قال : وقال ابن المبارك ، قال مالك بن دينار لقتادة : " أتدري أي علم رفعت

قمت بين الله وبين عباده ؟ " فقلت : هذا لا يصلح وهذا لا يصلح "

11132 - وذكر الحسن بن علي الحلواني ، قال : حدثني علي بن المديني ، ثنا معن بن عيسى ، ثنا مالك ، عن يحيى بن سعيد قال : جاء رجل إلى سعيد بن المسيب ، فسأله عن شيء ، فأملاه عليه فسأله عن رأيه ، فأجابه فكتب الرجل فقال رجل من جلساء سعيد : أيكتب أيا أبا محمد رأيك ؟ فقال سعيد للرجل : " ناولنيها ، فناوله الصحيفة فحرقها "

11133 - قال : نا نعيم ، ثنا ابن المبارك ، عن عبد الله بن وهب ، أن رجلا ، جاء إلى القاسم بن محمد فسأله عن شيء ، فأجابه فلما ولى الرجل دعاه فقال له : " لا تقل إن القاسم يزعم أن هذا هو الحق ، ولكن إن اضطررت إليه عملت به "

(127/264)

11134 - وروى محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسن ، ثنا جعفر بن محمد الفريابي ، ثنا العباس بن الوليد بن مزيد قال : أخبرني أبي ، قال : سمعت الأوزاعي يقول : " عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس وإياك وآثار الرجال وإن زخرفوا لك القول " ورواه غير الفريابي عن العباس بن الوليد ، عن أبيه ، عن الأوزاعي مثله ، وقال : " وإن زخرفوه بالقول

"

11135 - وذكر البخاري ، عن بكير ، عن الليث قال : قال ربيعة ، لابن شهاب : " يا أبا بكر إذا حدثت الناس برأيك فأخبرهم أنه رأيك ، وإذا حدثت الناس بشيء من السنة فأخبرهم أنه سنة لا يظنوا أنه رأيك "

11136 - حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا علي بن محمد ، ثنا أحمد بن داود ، ثنا سحنون ، ثنا ابن وهب قال : قال لي مالك بن أنس ، رحمه الله وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل : " يا عبد الله ما علمته فقل به ودل عليه ، وما لم تعلم فاسكت عنه وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء "

11137 - أخبرني أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي ، قال : حدثني أبي ، ثنا محمد بن عمر بن لبابة ، ثنا مالك بن علي القرشي ، ثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي قال : دخلت على مالك فوجدته باكيا فسلمت عليه فرد علي ثم سكت عني يبكي فقلت له : يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك ؟ قال لي : " يا ابن قعنب إنا لله على ما فرط مني ، ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي وهذه المسائل ، وقد كان لي سعة فيما سبقت إليه "

11138 - وذكر محمد بن حارث بن أسد الخشني في كتابه في فضائل سحنون ، قال : أنا أبو عبد الله محمد بن عباس النحاس قال : سمعت أبا عثمان ، سعيد بن محمد الحداد يقول

: سمعت سحنون بن سعيد يقول : " ما أدري ما هذا الرأي سفكت به الدماء واستحلت به الفروج واستخفت به الحقوق غير أنا رأينا رجلا صالحا فقلدناه "

(128/264)

11139 - أخبرنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم ، ثنا مضر بن محمد ، ثنا إبراهيم بن عثمان المصيصي ، ثنا مخلد بن الحسين ، عن الأوزاعي قال : " إذا أراد الله عز وجل أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط " " وروينا عن الحسن أنه قال : " إن شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل يعنتون بها عباد الله "

11140 - حدثنا محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسين ، ثنا جعفر بن محمد الفريابي ، ثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي قال : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : سمعت حماد بن زيد يقول : قيل لأيوب : ما لك لا تنظر في الرأي ؟ قال أيوب : " قيل للحمار ما لك لا تجتر ؟ قال : أكره مضغ الباطل " وروينا عن رقبة بن مصقلة ، أنه قال لرجل يختلف إلى أبي حنيفة : " يا هذا يكفيك من رأيه ما مضغت وترجع إلى أهلك بغير ثقة " وسئل رقبة بن مصقلة عن أبي حنيفة ، فقال : " هو أعلم الناس بما لم يكن وأجهلهم بما قد كان ، " وقد روي هذا القول عن حفص بن غياث في أبي حنيفة يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى ، والله أعلم "

11141 - حدثنا أحمد بن عبد الله ، ثنا الحسن بن إسماعيل ، ثنا عبد الملك بن بحر ، نا محمد بن إسماعيل ، نا سنيد ، ثنا مبارك بن سعيد ، عن صالح بن مسلم قال : سمعت الشعبي يقول : " والله لقد بغض هؤلاء القوم إلي المسجد حتى لهو أبغض إلي من كناسة داري " قلت : من هم يا أبا عمرو ؟ " قال : الآرائيون ، قال : ومنهم الحكم وحماد وأصحابهم "

11142 - وحدثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا القاسم بن أصبغ قال : أنا ابن وضاح ، ثنا يوسف بن عدي ، ثنا عبيدة بن حميد ، عن عطاء بن السائب قال : قال الربيع بن خثيم ، " إياكم أن يقول الرجل لشيء : إن الله حرم هذا ونهى عنه ، فيقول الله : كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه قال : أو يقول : إن الله أحل هذا وأمر به فيقول الله : كذبت ، لم أحله ولم آمر به "

(129/264)

11143 - وذكر ابن وهب ، وعتيق بن يعقوب ، أنهما سمعا مالك بن أنس يقول : " لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ، ولا أدري أحدا أقتدي به يقول في شيء هذا حلال وهذا حرام ، ما كانوا يجترئون على ذلك وإنما كانوا يقولون : نكره هذا ونرى هذا حسنا ، ونتقي هذا ولا نرى هذا ، وزاد عتيق بن يعقوب ، ولا يقولون حلال ولا حرام أما

سمعت قول الله عز وجل : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ الحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله " قال أبو عمر : " معنى قول مالك هذا أن ما أخذه من العلم رأيا واستحسانا لم يقل فيه حلال ولا حرام ، والله أعلم " وقد روي عن مالك ، أنه قال في بعض ما كان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه : إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول : وما كل الظنون تكون حقا ولا كل الصواب على القياس "

11144 - حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، نا قاسم بن أصبغ ، نا أحمد بن زهير ، نا يحيى بن أيوب ، نا علي بن هشام بن البريد ، نا الزبرقان السراج قال : قال أبو وائل ، " لا تقاعد أصحاب : أرأيت "

11145 - وحدثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا أحمد بن زهير ، ثنا أبي ، ثنا الأشجعي ، عن ابن أبي خالد ، عن الشعبي قال : " ما كلمة أبغض إلي من : أرأيت "

(130/264)

11146 - وقال أبو ذر الهروي ، أخبرنا أحمد بن عبد الله الأصبهاني بالري قال : أنبأنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي قال : حدثنا وهب بن إسماعيل ، عن داود الأودي قال : قال الشعبي : " احفظ عني ثلاثا لها شأن : إذا سألت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك : أرأيت ، فإن الله يقول في كتابه ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ حتى فرغ من الآية ، والثانية إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئا بشيء فربما حرمت حلالا أو حللت حراما ، والثالثة : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : لا أعلم وأنا شريكك "

11147 - وحدثنا محمد بن خليفة ، ثنا محمد بن الحسين قال : أنا عبيد الله بن موسى ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي قال : " إنما هلك من كان قبلكم في : " أرأيت "

11148 - وذكر العقيلي في التاريخ الكبير ثنا يحيى بن عثمان ، ثنا عبد الغني بن سعيد الثقفي قال : سمعت الليث بن سعد يقول : " رأيت ربيعة بن أبي عبد الرحمن في المنام فقلت له : يا أبا عثمان ما حالك ؟ فقال : صرت إلى خير إلا أني لم أحمد على كثير مما خرج مني من الرأي "

11149 - أخبرنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا علي بن محمد ، ثنا أحمد بن داود ، ثنا سحنون ، ثنا ابن وهب قال : وأخبرني يحيى بن أيوب قال : بلغني أن أهل العلم ، كانوا يقولون : " إذا أراد الله ألا يعلم عبده خيرا شغله بالأغاليط "

11150 - حدثنا محمد بن زكريا ، ثنا أحمد بن سعيد ، ثنا أحمد بن خالد ، ثنا مروان بن عبد الملك ، ثنا العباس بن الفرج قال : حدثنا ابن الشاذكوني ثنا سفيان بن عيينة قال : قال ابن شبرمة : " أنا أول من سمى أصحاب المسائل الهداهد " وقال : سألنا ولما نألوا عم سؤالنا وكم من عريف طرحته الهداهد

(131/264)

11151 - حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ووهب بن مسرة قالا : نا ابن وضاح ، ثنا أبو جعفر هارون بن سعيد بن الهيثم الأيلي قال : أنا عبد الله بن مسلمة القرشي قال : سمعت مالكا يقول : " ما زال هذا الأمر معتدلا حتى نشأ أبو حنيفة فأخذ فيهم بالقياس فما أفلح ولا أنجح "

11152 - قال ابن وضاح ، وسمعت أبا جعفر الأيلي يقول : سمعت خالد بن نزار يقول : سمعت مالكا يقول : " لو خرج أبو حنيفة على هذه الأمة بالسيف كان أيسر عليهم مما أظهر فيهم من القياس والرأي "

11153 - وحدثنا خلف بن القاسم ، ثنا أبو طالب محمد بن زكريا ثنا موسى بن هارون بن إسحاق الهمداني ، عن الحميدي ، عن ابن عيينة قال : " لم يزل أمر أهل الكوفة

معتدلا حتى نشأ فيهم أبو حنيفة " قال موسى : " وهو من أبناء سبايا الأمم ، أمه سندية وأبوه نبطي قال : والذين ابتدعوا الرأي ثلاثة وكلهم من أبناء سبايا الأمم وهم ربيعة بالمدينة وعثمان البتي بالبصرة وأبو حنيفة بالكوفة " قال أبو عمر : " وأفرط أصحاب الحديث في ذم أبي حنيفة رحمه الله وتجاوزوا الحد في ذلك ، والسبب الموجب لذلك عندهم إدخاله الرأي والقياس على الآثار واعتبارهما ، وأكثر أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر من جهة الإسناد بطل القياس والنظر ، وكان رده لما رد من الأحاديث بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأي ، وجل ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعا لأهل بلده كإبراهيم النخعي وأصحاب ابن مسعود إلا أنه أغرق وأفرط في تنزيل النوازل هو وأصحابه والجواب فيها برأيهم واستحسانهم ، فيأتي منهم من ذلك خلاف كثير للسلف وشنع هي عند مخالفيهم بدع وما أعلم أحدا من أهل العلم إلا وله تأويل في آية أو مذهب في سنة رد من أجل ذلك المذهب بسنة أخرى بتأويل سائغ أو ادعاء نسخ ، إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيرا وهو يوجد لغيره قليلا "

(132/264)

11154 - وقد ذكر يحيى بن سلام ، قال : سمعت عبد الله بن غانم في مجلس إبراهيم بن الأغلب يحدث عن الليث بن سعد ، أنه قال : " أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة ، كلها مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قال فيها برأيه قال : ولقد كتبت إليه أعظه في ذلك " قال أبو عمر : " ليس أحد من علماء الأمة يثبت حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرده دون ادعاء نسخ ذلك بأثر مثله أو بإجماع أو بعمل يجب على أصله الانقياد إليه أو طعن في سنده ، ولو فعل ذلك أحد سقطت عدالته فضلا عن أن يتخذ إماما ولزمه اسم الفسق ، ولقد عافاهم الله عز وجل من ذلك ، ونقموا أيضا على أبي حنيفة الإرجاء ، ومن أهل العلم من ينسب إلى الإرجاء كثير لم يعن أحد بنقل قبيح ما قيل فيه كما عنوا بذلك في أبي حنيفة لإمامته ، وكان أيضا مع هذا يحسد وينسب إليه ما ليس فيه ويختلق عليه ما لا يليق به وقد أثنى عليه جماعة من العلماء وفضلوه ولعلنا إن وجدنا نشطة نجمع من فضائله وفضائل مالك ، والشافعي ، والثوري ، والأوزاعي رحمهم الله كتابا ، أملنا جمعه قديما في أخبار أئمة الأمصار إن شاء الله تعالى "

11155 - وحدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا أحمد بن سعيد ، ثنا أبو سعيد بن الأعرابي ، ثنا عباس بن محمد الدوري قال : سمعت يحيى بن معين يقول : " أصحابنا يفرطون في أبي حنيفة وأصحابه " فقيل له : أكان أبو حنيفة يكذب ؟ فقال : " كان أنبل من ذلك "

11156 - حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد ، ثنا يوسف بن يعقوب النجيرمي بالبصرة ثنا العباس بن الفضل قال : سمعت سلمة بن شبيب يقول : سمعت أحمد بن حنبل يقول : " رأي الأوزاعي ، ورأي مالك ، ورأي سفيان كله رأي ، وهو عندي سواء وإنما الحجة في الآثار "

(133/264)

11157 - حدثنا عبد الوارث ، ثنا قاسم ، ثنا أحمد بن زهير ، ثنا مصعب بن عبد الله ، ثنا الدراوردي قال : " إذا قال مالك : وعليه أدركت أهل بلدنا والمجتمع عليه عندنا فإنما يريد ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وابن هرمز " وذكر محمد بن الحسين الأزدي الحافظ الموصلي في الأخبار التي في آخر كتابه في الضعفاء قال : يحيى بن معين ، " ما رأيت أحدا أقدمه على وكيع " وكان يفتي برأي أبي حنيفة وكان يحفظ حديثه كله ، وكان قد سمع من أبي حنيفة حديثا كثيرا قال الأزدي : هذا من يحيى بن معين تحامل وليس وكيع كيحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي وقد رأى يحيى بن معين هؤلاء وصحبهم ، قال : وقيل ليحيى بن معين يا أبا زكريا ، أبو حنيفة كان يصدق في الحديث ؟ قال : نعم صدوق ، قيل له : والشافعي كان يكذب ؟ قال : ما أحب حديثه ولا ذكره ، قال : وقيل ليحيى بن معين :

أيما أحب إليك أبو حنيفة أو الشافعي أو أبو يوسف القاضي ؟ فقال : أما الشافعي فلا أحب حديثه ، وأما أبو حنيفة فقد حدث عنه قوم صالحون وأبو يوسف لم يكن من أهل الكذب ، كان صدوقا ولكن لست أرى حديثه يجزئ قال أبو عمر : لم يتابع يحيى بن معين أحد في قوله في الشافعي وقوله في حديث أبي يوسف وحديث الشافعي أحسن من أحاديث أبي حنيفة ، وقال الحسن بن علي الحلواني : قال لي شبابة بن سوار : كان شعبة حسن الرأي في أبي حنيفة وكان يستنشدني أبيات مساور الوراق : إذا ما الناس يوما قايسونا بآبدة من الفتيا لطيفه وذكر الأبيات ، وقال علي بن المديني : أبو حنيفة روى عنه الثوري ، وابن المبارك ، وحماد بن زيد ، وهشيم ، ووكيع بن الجراح ، وعباد بن العوام ، وجعفر بن عون ، وهو ثقة لا بأس به ، وقال يحيى بن سعيد : ربما استحسنا الشيء من قول أبي حنيفة فنأخذ به . قال يحيى : وقد سمعت من أبي يوسف الجامع الصغير ، ذكره الأزدي نا محمد بن حرب ، سمعت علي بن المديني ، فذكره من أوله إلى آخره حرفا بحرف " قال أبو عمر رحمه الله

(134/264)

: " الذين رووا عن أبي حنيفة ووثقوه وأثنوا عليه أكثر من الذين تكلموا فيه ، والذين تكلموا فيه من أهل الحديث ، أكثر ما عابوا عليه الإغراق في الرأي والقياس والإرجاء وكان يقال : يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه قالوا : ألا ترى إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، أنه قد هلك فيه فتيان محب مفرط ومبغض مفرط وقد جاء في الحديث أنه يهلك فيه رجلان محب مطر ومبغض مفتر ، وهذه صفة أهل النباهة ومن بلغ في الدين والفضل الغاية ، والله أعلم " وقال أبو عمر : " بلغني عن سهل بن عبد الله التستري ، أنه قال : " ما أحدث أحد في العلم شيئًا إلا سئل عنه يوم القيامة فإن وافق السنة سلم وإلا فهو العطب " وقد ذكرنا من الآثار في باب أصول العلم وفي باب صفة العالم ما يغني عن الكلام في هذا الباب ، وبالله التوفيق "

11158 - أخبرنا عبد الله بن محمد بن يحيى نا الحسن بن محمد بن عثمان الفسوي ببغداد نا أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي ثنا الحسن بن الصباح ثنا إسحاق بن إبراهيم الحنيني قال : قال مالك بن أنس : " قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استكمل هذا الأمر ، فإنما ينبغي أن يتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة ، ولا يتبع الرأي ، فإنه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك فاتبعته ، فأنت كلما جاء رجل فغلبك اتبعته ، أرى هذا لا يتم "

11159 - وحدثنا عبد الله نا الحسن نا يعقوب نا أحمد بن عثمان عن عمر بن حفص

بن غياث عن أبيه قال : "كنت أجالس أبا حنيفة فربما سمعته يقول في اليوم الواحد في المسألة الواحدة خمسة أقوال ينتقل من قول إلى قول فقمت عنه وتركته وطلبت الحديث "

(135/264)

11160 - حدثنا عبد الله نا الحسن نا يعقوب نا عبد الله بن عثمان قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : كان يعجبني مجالسة سفيان الثوري وكنت إذا شئت رأيته مصليا وإذا شئت رأيته في الزهد وإذا شئت رأيته في الغامض من الفقه ورب مجلس شهدته ما صلي فيه على النبي صلى الله عليه وسلم قال عبدان : كأنه عرض بمجلس أبي حنيفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ جامع بيان العلم / لابن عبد البر حـ 2 صـ 133.150 ﴾

(136/264)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَد يَقُولُ : إنَّهُ مَا مِنْ مَسْأَلَةٍ يُسْأَلُ عَنْهَا إلَّا وَقَدْ تَكَلَّمَ الصَّحَابَةُ فِيهَا أَوْ فِي نَظِيرِهَا وَالصَّحَابَةُ كَانُوا يَحْتَجُّونَ فِي عَامَّةِ مَسَائِلِهِمْ بِالنُّصُوصِ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْهُمْ وَكَانُوا

يَجْتَهِدُونَ رَأْيَهُمْ وَيَتَكَلَّمُونَ بِالرَّأْيِ وَيَحْتَجُّونَ بِالْقِيَاسِ الصَّحِيحِ أَيْضًا .

وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَا فَارِقَ بَيْنَ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ إلَّا فَرْقٌ غَيْرُ مُؤَثِّرٍ فِي الشَّرْعِ كَمَا ثَبَتَ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصحيح أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ فَأْرَةٍ وَقَعَتْ فِي سَمْنٍ فَقَالَ : أَلْقُوهَا وَمَا حَوْلَهَا وَكُلُوا سَمْنَكُمْ ﴾ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِتِلْكَ الْفَأْرَةِ وَذَلِكَ السَّمْنِ ؛ فَلِهَذَا قَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ : إنَّهُ أَيُّ نَجَاسَةٍ وَقَعَتْ فِي دُهْنٍ مِنْ الْأَدْهَانِ كَالْفَأْرَةِ الَّتِي تَقَعُ فِي الزَّيْتِ وَكَالْهِرِّ الَّذِي يَقَعُ فِي السَّمْنِ فَحُكْمُهَا حُكْمُ تِلْكَ الْفَأْرَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي السَّمْنِ . وَمَنْ قَالَ مِنْ

(137/264)

أَهْلِ الظَّاهِرِ : إنَّ هَذَا الْحُكْمَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي فَأْرَةٍ وَقَعَتْ فِي سَمْنٍ فَقَدْ أَخْطَأَ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَخُصَّ الْحُكْمَ بِتِلْكَ الصُّورَةِ لَكِنْ لَمَّا اُسْتُفْتِيَ عَنْهَا أَفْتَى فِيهَا وَالِاسْتِفْتَاءُ إذَا وَقَعَ عَنْ قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ نَوْعٍ فَأَجَابَ الْمُفْتِي عَنْ ذَلِكَ خَصَّهُ لِكَوْنِهِ سُئِلَ عَنْهُ ؛ لَا لِاخْتِصَاصِهِ بِالْحُكْمِ . وَمِثْلُ هَذَا أَنَّهُ ﴿ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ مُضَمَّخَةٌ بِخَلُوقٍ فَقَالَ : انْزِعْ عَنْك الْجُبَّةَ وَاغْسِلْ عَنْك الْخَلُوقَ وَاصْنَعْ فِي عُمْرَتِك مَا

كُنْت تَصْنَعُ فِي حَجّك ﴾ فَأَجَابَهُ عَنْ الْجُبَّةِ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ قَمِيصٌ أَوْ نَحْوُهُ كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ بِالْإِجْمَاعِ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنْ الْقِيَاسِ :

أَنْ يَنُصَّ عَلَى حُكْمٍ لِمَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي وَيَكُونُ ذَلِكَ الْمَعْنَى مَوْجُودًا فِي غَيْرِهِ فَإِذَا قَامَ دَلِيلٌ مِنْ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَعْنَى الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ سُوِّيَ بَيْنَهُمَا وَكَانَ هَذَا قِيَاسًا صَحِيحًا . فَهَذَانِ النَّوْعَانِ كَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ يستعملونهما وَهُمَا مِنْ بَابِ فَهْمِ مُرَادِ الشَّارِعِ ؛ فَإِنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِكَلَامِ الشَّارِعِ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَنْ يُعْرَفَ ثُبُوتُ اللَّفْظِ عَنْهُ وَعَلَى أَنْ يُعْرَفَ مُرَادُهُ بِاللَّفْظِ وَإِذَا عَرَفْنَا مُرَادَهُ : فَإِنَّ عَلِمْنَا أَنَّهُ حُكْمٌ لِلْمَعْنَى الْمُشْتَرَكِ لَا لِمَعْنًى يَخُصُّ

(138/264)

الْأَصْلَ أَثْبَتْنَا الْحُكْمَ حَيْثُ وُجِدَ الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكُ وَإِنْ عَلِمْنَا أَنَّهُ قَصَدَ تَخْصِيصَ الْحُكْمِ بِمَوْرِدِ النَّصِّ مَنَعْنَا الْقِيَاسَ كَمَا أَنَّا عَلِمْنَا أَنَّ الْحَجَّ خُصَّ بِهِ الْكَعْبَةُ وَأَنَّ الصِّيَامَ الْفَرْضَ خُصَّ بِهِ شَهْرُ رَمَضَانَ وَأَنَّ الِاسْتِقْبَالَ خُصَّ بِهِ جِهَةُ الْكَعْبَةِ وَأَنَّ الْمَفْرُوضَ مِنْ الصَّلَوَاتِ خُصَّ بِهِ الْخَمْسَ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ هُنَا أَنْ نَقِيسَ عَلَى الْمَنْصُوصِ غَيْرَهُ . وَإِذَا عَيَّنَ الشَّارِعُ مَكَانًا

أَوْ زَمَانًا لِلْعِبَادَةِ كَتَعْيِينِ الْكَعْبَةِ وَشَهْرِ رَمَضَانَ ؛ أَوْ عَيَّنَ بَعْضَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ كَتَعْيِينِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ بَلْ وَتَعْيِينِ التَّكْبِيرِ وَأُمِّ الْقُرْآنِ فَإِلْحَاقُ غَيْرِ الْمَنْصُوصِ بِهِ يُشْبِهُ حَالَ أَهْلِ الْيَمَنِ الَّذِينَ أَسْقَطُوا تَعْيِينَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَقَالُوا : الْمَقْصُودُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ مِنْ السَّنَةِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ . وَقِيَاسُ الْحَلَالِ بِالنَّصِّ عَلَى الْحَرَامِ بِالنَّصِّ مِنْ جِنْسِ قِيَاسِ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ إنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ وَكَذَلِكَ قِيَاسُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاسُوا الْمَيْتَةَ بِالْمُذَكَّى وَقَالُوا : أَتَأْكُلُونَ مَا قَتَلْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ ؟ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ

(139/264)

أَطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فَهَذِهِ الْأَقِيسَةُ الْفَاسِدَةُ . وَكُلُّ قِيَاسٍ دَلَّ النَّصُّ عَلَى فَسَادِهِ فَهُوَ فَاسِدٌ وَكُلُّ مَنْ أَلْحَقَ

مَنْصُوصًا بِمَنْصُوصٍ يُخَالِفُ حُكْمَهُ فَقِيَاسُهُ فَاسِدٌ وَكُلُّ مَنْ سَوَّى بَيْنَ شَيْئَيْنِ أَوْ فَرَّقَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ بِغَيْرِ الْأَوْصَافِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَقِيَاسُهُ فَاسِدٌ لَكِنْ مِنْ الْقِيَاسِ مَا يُعْلَمُ صِحَّتُهُ وَمِنْهُ مَا يُعْلَمُ فَسَادُهُ وَمِنْهُ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ أَمْرُهُ . فَمَنْ أَبْطَلَ الْقِيَاسَ مُطْلَقًا فَقَوْلُهُ بَاطِلٌ

وَمَنْ اسْتَدَلَّ بِالْقِيَاسِ الْمُخَالِفِ لِلشَّرْعِ فَقَوْلُهُ بَاطِلٌ وَمَنْ اسْتَدَلَّ بِقِيَاسٍ لَمْ يَقُمْ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّتِهِ فَقَدْ اسْتَدَلَّ بِمَا لَا يَعْلَمُ صِحَّتَهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِرِوَايَةِ رَجُلٍ مَجْهُولٍ لَا يَعْلَمُ عَدَالَتَهُ . فَالْحُجَجُ الْأَثَرِيَّةُ وَالنَّظَرِيَّةُ تَنْقَسِمُ إلَى : مَا يُعْلَمُ صِحَّتُهُ وَإِلَى مَا يُعْلَمُ فَسَادُهُ وَإِلَى مَا هُوَ مَوْقُوفٌ حَتَّى يَقُومَ الدَّلِيلُ عَلَى أَحَدِهِمَا . وَلَفْظُ النَّصِّ يُرَادُ بِهِ تَارَةً أَلْفَاظُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ سَوَاءٌ كَانَ اللَّفْظُ دَلَالَتُهُ قَطْعِيَّةٌ أَوْ ظَاهِرَةٌ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ : النُّصُوصُ تَتَنَاوَلُ أَحْكَامَ أَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ . وَيُرَادُ بِالنَّصِّ مَا دَلَالَتُهُ قَطْعِيَّةٌ لَا تَحْتَمِلُ النَّقِيضَ كَقَوْلِهِ ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ و ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ فَالْكِتَابُ هُوَ النَّصُّ وَالْمِيزَانُ هُوَ الْعَدْلُ . وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ مِنْ بَابِ الْعَدْلِ ؛ فَإِنَّهُ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَتَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ وَدَلَالَةُ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ تُوَافِقُ دَلَالَةَ النَّصِّ فَكُلُّ قِيَاسٍ خَالَفَ دَلَالَةَ النَّصِّ فَهُوَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ

(140/264)

وَلَا يُوجَدُ نَصٌّ يُخَالِفُ قِيَاسًا صَحِيحًا كَمَا لَا يُوجَدُ مَعْقُولٌ صَرِيحٌ يُخَالِفُ الْمَنْقُولَ الصَّحِيحَ .

وَمَنْ كَانَ مُتَبَحِّرًا فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ أَمْكَنَهُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَى غَالِبِ الْأَحْكَامِ بِالنُّصُوصِ

وَبِالْأَقْيِسَةِ . فَثَبَتَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النَّصِّ وَالْقِيَاسِ دَلَّ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الْأَمْثِلَةِ ؛ فَإِنَّ الْقِيَاسَ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ مُسْكِرٍ كَمَا يَدُلُّ النَّصُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تُوقِعُ بَيْنَنَا الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَتَصُدُّنَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ كَمَا دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْرِبَةِ الْمُسْكِرَةِ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ شَرَابٍ وَشَرَابٍ فَالْفَرْقُ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ الْمُشْتَرَكَةِ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَخُرُوجٌ عَنْ مُوجِبِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ كَمَا هُوَ خُرُوجٌ عَنْ مُوجِبِ النُّصُوصِ وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ قَوْلَهُمْ خِلَافُ الْقِيَاسِ لَكِنْ يَقُولُونَ : مَعَنَا آثَارٌ تُوَافِقُهُ اتَّبَعْنَاهَا وَيَقُولُونَ : إنَّ اسْمَ الْخَمْرِ لَمْ يَتَنَاوَلْ كُلَّ مُسْكِرٍ . وَغَلِطُوا فِي فَهْمِ النَّصِّ - وَإِنْ كَانُوا مُجْتَهِدِينَ مُثَابِينَ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ - وَمَعْرِفَةُ عُمُومِ الْأَسْمَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي النَّصِّ وَخُصُوصِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ . وَالْكَلَامُ فِي تَرْجِيحِ نفاة الْقِيَاسِ وَمُثْبِتِيهِ يَطُولُ اسْتِقْصَاؤُهُ لَا تَحْتَمِلُ هَذِهِ الْوَرَقَةُ بَسْطَهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 19 صـ 285 . 289 ﴾

(141/264)

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

القياس في القرآن :

وقد أرشد الله تعالى عباده إليه في غير موضع من كتابه فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان وجعل النشأة الأولى أصلا والثانية فرعا عليها وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنبات وقاس الخلق الجديد الذي أنكره أعداؤه على خلق السموات والأرض وجعله من قياس الأولى كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأولى وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم وضرب الأمثال وصرفها في الأنواع المختلفة وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما والفرق بين المختلفين وإنكار الجميع بينهما .

قالوا : ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين فإنه إما

استدلال بمعين علي معين أو بمعين على عام أو بعام على معين أو بعام على عام فهذه الأربعة هي مجامع ضروب الاستدلال .

(142/264)

فالاستدلال بالمعين على المعين: هو الاستدلال بالملزوم على لازمه فكل ملزوم دليل على لازمه فإن كان التلازم بين الجانبين كان كل منهما دليل على الآخر ومدلولا له وهذا النوع ثلاثة أقسام أحدهما الاستدلال بالمؤثر على الأثر والثاني الاستدلال بالأثر على المؤثر والثالث الاستدلال بأحد الأثرين على الآخر فالأول كالاستدلال بالنار على الحريق والثاني كالاستدلال بالحريق على النار والثالث كالاستدلال بالحريق على الدخان ومدار ذلك كله على التلازم فالتسوية بين المتماثلين هو الاستدلال بثبوت أحد الأثرين على الآخر وقياس الفرق هو الاستدلال بانتفاء أحد الأثرين على انتفاء الآخر أو بانتفاء اللازم على انتفاء ملزومه فلو جاز التفريق بين المتماثلين لانسدت طرق الاستدلال وغلقت أبوابه .

قالوا: وأما الاستدلال بالمعين على العام فلا يتم إلا بالتسوية بين المتماثلين إذ لو جاز الفرق لما كان هذا المعين دليلا على الأمر العام المشترك بين الأفراد ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل

على من سلك سبيلهم واتصف بصفتهم وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال وتعدية هذا الخصوص إلى العموم كما قال تعالى عقيب أخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم وما حل بهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ فهذا محض

(143/264)

تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية ولا تمت الحجة ومثل هذا قوله تعالى عقيب أخباره عن عقوبة قوم عاد حين رأوا العارض في السماء فقالوا ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ فقال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ثم قال ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فتأمل قوله ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ كيف تجد المعنى أن حكمكم كحكمهم وإنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسلنا ولم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش فأنتم كذلك تسوية بين

المتماثلين وأن هذا محض عدل الله بين عباده .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله .

(144/264)

وكذلك كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار أو كان اللفظ يعمها وهو الصواب فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين ولولا أن حكم النظير حكم نظيره حتى تعبر العقول منه إليه لما حصل الاعتبار وقد نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم فقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول لا تليق نسبته إليه سبحانه وقال تعالى أم حسب الذين اجترحوا

(145/264)

السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وقال تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أفلا تراه كيف ذكر العقول ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه وجعله قرينه ووزيره فقال تعالى الله ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ وقال ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ وقال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ فهذا الكتاب ثم قال ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ والميزان يراد به العدل والآلة التي يعرف بها العدل وما يضاده والقياس الصحيح هو الميزان فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به فإنه يدل على العدل وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل وممدوح ومذموم ولهذا لم يجيء في القرآن مدحه ولا ذمه ولا الأمر به ولا النهي عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد .

تقسيمات للقياس:

فالصحيح هو الميزان الذي أنزله مع كتابه .

والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع على الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضي

بالمعاوضة المالية وقياس الذين قاسوا الميتة على المذكى في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح هذا بسبب من الآدميين وهذا بفعل الله ولهذا تجد في كلام السلف ذم القياس وأنه ليس من الدين وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به وهذا حق وهذا حق كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

والأقيسة المستعملة في الاستدلال ثلاثة قياس علة وقياس دلالة وقياس شبه وقد وردت كلها في القرآن .

قياس العلة:

(146/264)

فأما قياس العلة فقد جاء في كتاب الله عز وجل في مواضع منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات وهو مجيئها طوعا لمشيئته وتكوينه فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ووجود حواء من غير أم فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به .

ومنها قوله تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله وهم الأصل وأنتم الفرع والعلة الجامعة التكذيب والحكم الهلاك .

ومنها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون وبين أن ذلك كان لمعنى القياس وهو ذنوبهم فهم الأصل ونحن الفرع والذنوب العلة الجامعة والحكم الهلاك فهذا محض قياس العلة وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم .

(147/264)

ومنه قوله تعالى ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به فقيل هو رفع خبر مبتدأ محذوف أي أنتم كالذين من قبلكم وقيل: نصب بفعل محذوف تقديره فعلتم كفعل الذين من قبلكم والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل وقيل إن التشبيه في العذاب ثم قيل العامل محذوف أي لعنهم وعذبهم كما لعن الذين من قبل وقيل بل العامل ما تقدم أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم ولعنهم كلعنهم ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد وسوى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا فرق غير مؤثر فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر وألغى الوصف الفارق ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع وقوله ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ هو الحكم والذين من قبل هم الأصل والمخاطبون الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ قال: "بذنبهم" ويروي عن أبي هريرة.

وقال ابن عباس: "استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا".

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ كأنه الذي خلق للإنسان وقدر له كما يقال قسمه الذي قسم له ونصيبه الذي نصب له أي أثبت وقطه الذي قط له أي قطع .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة" والآية تتناول ما ذكره السلف كله فإنه سبحانه قال: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة وكذلك الأموال والأولاد وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخلاق فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال فاستمتعم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم فدل هذا على أن حكمهم حكمهم وأنه ينالهم ما نالهم لأن حكم النظير حكم نظيره .

ثم قال: ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ فقيل الذي صفة لمصدر محذوف أي كالخوض

الذي خاضوا وقيل لموصوف محذوف أي كخوض القوم الذي خاضوا وهو فاعل الخوض وقيل الذي مصدرية كما أي كخوضهم وقيل: هي موضع الذين .

البدع واتباع الهوى جالبة لكل شر:

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق فالأول البدع والثاني اتباع الهوى وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء وبهما كذبت الرسل وعصي الرب ودخلت النار وحلت العقوبات فالأول من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: "احذروا من الناس صنفين صاحب هوى فتنه هواه وصاحب دنيا أعجبته دنياه" .

(149/264)

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته

البدع فنفاها والدنيا فأباها وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات قال تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ .

وفي بعض المراسيل: "إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات" .

فقوله تعالى ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة وقوله ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ إشارة إلى الشبهات وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات وكثيرا ما يجتمعان فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله .

والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم ويخوض كخوضهم وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم ثم حضهم على القياس والاعتبار بمن قبلهم فقال ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن علق عليه من الحكم وأن الأصل

والفرع قد تساويا في المعنى الذي علق به العقاب وأكده كما تقدم بضرب من الأولى وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه ؟ .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ فهذا قياس جلي يقول سبحانه إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم فذكر أركان القياس الأربعة علة الحكم وهي عموم مشيئته وكمالها والحكم وهو إذهابه بهم وإتيانه بغير والأصل وهو من كان من قبل والفرع وهم المخاطبون .

ومنه قوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به والفرع نفوسهم فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة .

ومن قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ فأخبر سبحانه أنه أرسل محمدا صلى الله

عليه وسلم إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون وأن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذا وبيلا فهكذا من عصى منكم محمدا صلى الله عليه وسلم وهذا في القرآن كثير جدا فقد فتح لك بابه .

فصل

قياس الدلالة:

وأما قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها ومنه قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

(151/264)

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته وإحياء الأرض دليل العلة .

منه قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ فدل بالنظير على النظير وقرب أحدهما من الآخر جدا بلفظ

الإخراج أي يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .

منه قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ .

فبين سبحانه كيفية الخلق واختلاف أحوال الماء في الرحم إلى أن صار منه الزوجان الذكر والأنثى وذلك أمارة وجود صانع قادر على ما يشاء والله سبحانه عباده بما أحدثه في النطفة المهينة الحقيرة من الأطوار وسوقها في مراتب الكمال من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى صارت بشرا سويا في أحسن خلق وتقويم على أنه لا يحسن به أن يترك هذا البشر سدى مهملا معطلا لا يأمره ولا ينهاه ولا يقيمه في عبوديته وقد ساقه في مراتب الكمال من حين كان نطفة إلى أن صار بشرا سويا فكذلك يسوقه في مراتب كماله طبقا بعد طبق وحالا بعد حال إلى أن يصير جاره في داره يتمتع بأنواع النعيم وينظر إلى وجهه ويسمع كلامه .

ومنه قوله سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ فأخبر سبحانه أنهما إحياءان وأن أحدهما معتبر بالآخر مقيس عليه ثم ذكر قياسا آخر أن من الأرض ما يكون أرضا طيبة فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتها بإذن ربها ومنها ما تكون أرضا خبيثة لا تخرج نباتها إلا نكدا أي قليلا غير منتفع به فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ما أخرجت الأرض الطيبة فشبه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض بحصول الحياة بهذا وهذا وشبه القلوب بالأرض إذا هي محل الأعمال كما أن الأرض محل النبات وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يزكو عليه ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر ولا تخرج نباتها به إلا قليلا لا ينفع وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله وتدبره بان أثره عليه فشبه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه فينبت من كل زوج كريم والمعرض عن الوحي عكسه والله الموفق .

ومنه قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ يقول سبحانه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ﴾ فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى فهما نظيران في الإمكان والوقوع فإعادتكم بعد الموت خلقا جديدا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها ؟ ! .

وقد أعاد الله سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه وبأوجز العبارات وأدلها

وأفصحها وأقطعها للعذر وألزمها للحجة كقوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فدلهم بالنشأة الأولى على

الثانية وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما في تعلق بكل واحدة منهما وقد جمع سبحانه بين النشأتين في قوله وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى وفي قوله ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ إلى قوله ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ وفي قوله ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فتضمنت هذه الآيات عشر أدلة أحدها قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ فذكره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل بل لما نسي خلقه ضرب المثل فتحت قوله ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ألطف جواب وأبين دليل وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئا فلان جحدني الإحسان إليه ونسي الثياب التي

عليه والمال الذي معه والدار التي هو فيها حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فهذا جواب واستدلال قاطع ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه لجميع الخلق فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم ولا قدرة فوق قدرته من خلق السموات والأرض وإذا أراد شيئًا قال له كن

فيكون وبيده ملكوت كل شيء فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم ولم تعجز عن النشأة الأولى ولا عن خلق السموات والأرض ؟ ! .

ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل فقال ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فإذن فهذا دليل على قدم قدرته وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد الموت بارد يابس والحياة طبعها الرطوبة والحرارة فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوا بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة .

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال ﴿ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ فكونه خلاقا عليما يقتضي أن يخلق ما يشاء ولا يعجزه ما أرداه من الخلق ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه ولا عن شيء أبدا فقال ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يمكنه الاستعصاء عليه ولا يتعذر عليه بل يأتي طائعا منقادا لمشيئته وأرادته ثم زاده تأكيدا وإيضاحا بقوله ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظما لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاءه فيه ثم ختم السورة بقوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كما أنهم ابتدأوا منه

هو فكذلك مرجعهم إليه فمنه المبدأ وإليه المعاد وهو الأول والآخر وأن إلى ربك المنتهى .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا

خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ فتأمل تضمن هذه الكلمات على اختصارها وإيجازها وبلاغتها للأصل والفرع والعلة والحكم.

(157/264)

ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ فرد عليهم سبحانه ردا يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقا جديدا فقال ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقا جديدا بعد أن صاروا عظاما ورفاتا قيل لهم كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم ومضمون الدليل أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقة إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي ولم تسبقوني ولم تفوتوني كما يقول القائل لمن هو في قبضته اصعد إلى السماء فإني لاحقك أي لو صعدت إلى السماء لحقتك وعلى هذا فمعنى الآية لو كنتم حجارة أو حديدا أو أعظم خلقا من ذلك لما

أعجزتموني ولما فتموني وقيل المعنى كونوا حجارة أو حديدا عند أنفسكم أي صوروا أنفسكم وقدروها خلقا لا يضمحل ولا ينحل فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقا جديدا وبين المعنيين فرق لطيف فإن المعنى الأول يقتضي أنكم لو قدرتم على نقل خلقتكم من حالة إلى حالة هي أشد منها وأقوى لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم ولم تعجزونا فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك ؟

(158/264)

والمعنى الثاني يقتضي أنكم صوروا أنفسكم وأنزلوها هذه المنزلة ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا أم قدرتنا ومشيئتنا محيطة بكم ولو كنتم كذلك وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة بل لا تجد العقول السليمة عن الإذعان والانقياد لها بدا فلما علم القوم صحة هذا البرهان وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم فقالوا من يعيدنا وهذا سواء كان سؤالا منهم عن تعيين المعيد أو إنكارا منهم له فهو من أقبح التعنت وأبينه ولهذا كان جوابه ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ولما علم القوم أن هذا جواب قاطع انتقلوا إلى باب آخر من التعنت وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة فأنغضوا إليه رءوسهم وقالوا متى هو فقال تعالى ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل

واستلزامه لمدلوله استلزاما لا محيد عنه وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصحه وأوضحه فلله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور ودل بالنظير على نظيره وجعل ذلك آية ودليلا على خمسة

(159/264)

مطالب أحدها : وجود الصانع وأنه الحق المبين وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله الثاني أنه يحي الموتى الثالث عموم قدرته على كل شيء الرابع إتيان الساعة وأنه لا ريب فيها الخامس أنه يخرج الموتى من القبور كما

أخرج النبات من الأرض .

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارا لصحة مقدماته ووضوح دلالته وقرب تناوله وبعده من كل معارضة وشبهة وجعله تبصرة وذكرى كما قال تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك فإذا تذكر تبصر به فالتذكر قبل التبصر وإن قدم عليه في اللفظ كما قال تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون والتذكر تفعل من الذكر وهو حضور صورة من المذكور في القلب فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة فأبصر ما جعل دليلا عليه فكان في حقه تبصرة وذكرى والهدى مداره على هذين الأصلين التذكر والتبصر .

وقد دعا سبحانه الإنسان إلى أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه ويستدل بذلك على معاده وصدق ما أخبرت به الرسل فقال في الأول ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ فالدافق على بابه ليس فاعلا بمعنى مفعول كما يظنه بعضهم بل هو بمنزلة ماء جار وواقف وساكن ولا خلاف أن المراد بالصلب صلب الرجل واختلف في الترائب فقيل المراد به ترائبه أيضا وهي عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الثندوة وقيل المراد ترائب المرأة والأول أظهر لأنه سبحانه قال

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب فلا بد أن يكون ماء الرجل خارجا من بين هذين المختلفين

(160/264)

كما قال في اللبن: "يخرج من بين فرث ودم" وأيضا فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نطفة في غير موضع والنطفة هي ماء الرجل كذلك قال أهل اللغة قال الجوهري: "والنطفة الماء الصافي قل أو كثر والنطفة ماء الرجل والجمع نطف" وأيضا فإن الذي يوصف بالدفق والنضح إنما هو ماء الرجل ولا يقال نضحت المرأة الماء ولا دفقته والذي أوجب لأصحاب القول الآخر ذلك أنهم رأوا أهل اللغة قالوا: "الترائب موضع القلادة من الصدر" قال الزجاج: "أهل اللغة مجمعون على ذلك" وأنشدوا لامرىء القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة . . . ترائبها مصقولة كالسجنجل

وهذا لا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة بل يطلق على الرجل والمرأة قال الجوهري: "الترائب عظام الصدر ما بين الترقوة والثندوة" .

وقوله: ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ الصحيح أن الضمير يرجع على الإنسان أي أن الله على رده إليه لقادر يوم القيامة وهو اليوم الذي تبلى فيه السرائر ومن قال أن الضمير يرجع على

الماء أي إن الله على رجعه في الإحليل أو في الصدر أو حبسه عن الخروج لقادر فقد أبعد وإن كان الله سبحانه قادرا على ذلك ولكن السياق يأباه وطريقة القرآن وهي الاستدلال بالمبدأ والنشأة الأولى على المعاد والرجوع إليه وأيضا فإنه قيده بالظرف وهو ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ والمقصود أنه سبحانه دعا الإنسان أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه فإن ذلك يدله دلالة ظاهرة على معاده ورجوعه إلى ربه .

وقال تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ فجعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلا على إخراجه هو منها بعد موته استدلالا بالنظير على النظير .

(161/264)

ومن ذلك قوله سبحانه ردا على الذين قالوا ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي مثل هؤلاء المكذبين والمراد به النشأة الثانية وهي الخلق الجديد وهي المثل المذكور في غير موضع وهم هم بأعيانهم فلا تنافي في شيء من ذلك بل هو الحق الذي دل عليه العقل

والسمع ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبط عليه أمر المعاد وبقي منه في أمر مريج والمقصود أنه دلهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة والبعث وأكد هذا القياس بضرب من الأولى وهو أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسوله وتعجيز قدرته ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه جاحد له لم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ وقال المؤمن للكافر الذي قال ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ فقال له ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مقر به .

ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ يقول تعالى انظروا كيف بدأت الخلق فاعتبروا الإعادة بالابتداء

ومنه قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ وقال تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ودعا علينا والسجل الورق المكتوب فيه والكتاب نفس المكتوب واللام بمنزلة على أي نطوي السماء كطي الدرج على ما فيه من السطور المكتوبة ثم استدل على النظير بالنظير فقال ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ .

فصل

قياس الشبه:

وأما قياس الشبه فلم يحكمه الله سبحانه إلا عن المبطلين فمنه قوله تعالى إخبارا عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف فقالوا: هذا مقيس على أخيه بينهما شبه من وجوه عديدة وذاك قد سرق فكذلك هذا وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ والقياس

بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي وهو قياس فاسد والتساوي في قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقا ولا دليل على التساوي فيها فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها .

(163/264)

ومنه قوله تعالى إخبارا عن الكفار أنهم قالوا ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر فكما لا نكون نحن رسلا فكذلك أنتم فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا وهذا من أبطل القياس فإن الواقع من التخصيص والتفضيل وجعل بعض هذا النوع شريفا وبعضه دنيا وبعضه مرءوسا وبعضه رئيسا وبعضه ملكا وبعضه سوقة يبطل هذا القياس كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وأجابت الرسل عن هذا السؤال بقولهم ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وأجاب الله سبحانه عنه بقوله ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

وكذلك قوله سبحانه ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ فاعتبروا المساواة في البشرية وما هو من خصائصها من الأكل والشرب وهذا مجرد قياس شبه وجمع صوري ونظير هذا قوله ذَلِكَ ﴿ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ .

ومن هذا قياس المشركين الربا على البيع بمجرد الشبه الصوري ومنه قياسهم الميتة على الذكي في إباحة الأكل بمجرد الشبه .

(164/264)

وبالجملة فلم يجيء هذا القياس في القرآن إلا مردودا مذموما ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ فبين الله سبحانه أن هذه الأصنام أشباح وصور خالية عن صفات الإلهية وأن المعنى المعتبر معدوم فيها وأنها لو دعيت لم تجب فهي صورة خالية عن أوصاف ومعان تقتضي عبادتها وزاد هذا تقريرا بقوله ﴿ لَهُمْ أَرْجُلٌ

يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي أن جميع ما لهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها لأن المعنى المراد المختص بالرجل هو مشيها وهو معدوم في هذه الرجل والمعنى المختص باليد هو بطشها وهو معدوم في هذه اليد والمراد بالعين إبصارها وهو معدوم في هذه العين ومن الأذن سمعها وهو معدوم فيها والصور في ذلك كله ثابتة موجودة وكلها فارغة خالية من الأوصاف والمعاني فاستوى وجودها وعدمها وهذا كله مدحض لقياس الشبه الخالي عن العلة المؤثرة والوصف المقتضي للحكم والله أعلم.

فصل: معنى المثل وحكمة ذكره في القرآن:

(165/264)

ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر كقوله تعالى في حق المنافقين ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين مثلا ناريا ومثلا مائيا لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور

(166/264)

والماء مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحا ونورا وجعل قابليه أحياء في النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي وأنهم بمنزلة من استوقد نارا لتضيء له وينتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به وانتفعوا به وآمنوا به وخالطوا المسلمين ولكن لما ألم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفىء عنهم وذهب الله بنورهم ولم يقل بنارهم فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الاضاءة وأبقى عليهم ما فيها من وتركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع ولهذا قال فهم لا يرجعون ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي فشبههم بأصحاب صيب وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه

الصواعق فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثير من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ويقول مخنثهم سدوا عنا هذا الباب واقرأوا شيئا غير هذا وترى قلوبهم مولية وهو يجمحون لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد وتليت عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم وثقلت عليهم ولو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء

(167/264)

الراشدين وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل ذلك عليهم جدا وأنكرته قلوبهم وهذا كله شبه ظاهر ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم .

فصل: المثل في حق المؤمن:

وقد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يشاركها وهكذا يضرب الله الحق والباطل ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء

فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القبل وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما والله الموفق .

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء وهذا من أبلغ التشبيه والقياس ولما كانت الدنيا عرضة لهذه

الآفات والجنة سليمة منها قال ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية من يشاء فذاك عدله وهذا فضله .

فصل

(169/264)

ومنها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فإنه سبحانه ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء وسمعه أصم عن سماع الأصوات والفريق الآخر بصير القلب سميعه كبصير العين وسميع الأذن فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ .

(170/264)

ومنها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر سبحانه أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو من أوهن البيوت وأضعفها وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا كما قال تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ .

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده وفي القرآن أكثر من ذلك وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده .

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفي عنهم علم ذلك بقوله ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا فلو علموا ذلك لما فعلوه ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقدرة فكان الأمر بخلاف ما ظنوه .

فصل

(171/264)

ومنها قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلا بالسراب ومثلا بالظلمات المتراكمة وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان أحدهما من يظن انه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له

وهكذا

الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له وليست كذلك وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها والسراب لا حقيقة له وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى وتأمل ما تحت قوله ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ والظمآن الذي قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانه أحوج ما كان إليه فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ولغير الله جعلت كالسراب فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها فلم يجدوا شيئا ووجدوا الله سبحانه ثم فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم .

(172/264)

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث التجلي يوم القيامة: "ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون قالوا :

نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون فيقولون: نريد أن تسقينا فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون" وذكر الحديث وهذه حال كل صاحب باطل فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه فإن الباطل لا حقيقة له وهو كاسمه باطل فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلا وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه بل صار معذبا بفوات نفعه وبحصول ضد النفع فلهذا قال تعالى ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى.

فصل

(173/264)

النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين وظلمة اتباع الغنى والهوى فحالهم كحال من كان في بحر لجي

لا ساحل له وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء والظلمات المضادة للنور نظير المثلين الذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين وهو المثل المائي والمثل الناري وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة فكذلك الكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له وحظهم الظلمات المتراكمة وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى وآثروا الباطل على الحق وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه بعد أن عرفوه فهذا حال المغضوب عليهم والأول حال الضالين وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ ﴾ إلى قوله ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم وهم أهل

(174/264)

النور

والضالين هم أصحاب السراب والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة والله أعلم .

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد .

(175/264)

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا بل تركهم في على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل"

فلذلك أقول: جف القلم على علم الله فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحي به قلبه وروحه كما يحي بدنه بالروح التي ينفخها فيه فهما حياتان: حياة البدن بالروح وحياة الروح والقلب بالنور ولهذا سمى سبحانه الوحي روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه كما قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وقال ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فجعل وحيه روحا ونورا فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ما له من نور .

فصل

(176/264)

ومنها قوله تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى

والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه وما ينفعها فتؤثره والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه .

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وهذا دليل قياس احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها فقال هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك

سواء تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه وقال ابن عباس: "تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا" والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عبيد لي فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.

فصل

قياس الطرد وقياس العكس:

ومنها قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هذان مثلان متضمنان

قياسين من قياس العكس وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه فإن القياس نوعان قياس طرد يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه وقياس عكس يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان فالله سبحانه هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سرا وجهرا وليلا ونهارا يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء فكيف يجعلونها شركاء لي ويعبدونها من دوني

(178/264)

مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين هذا قول مجاهد وغيره وقال ابن عباس: "هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرا وجهرا والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده" فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء ؟ والقول الأول أشبه بالمراد فإنه أظهر في بطلان الشرك وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسبا بقوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً

عَبْداً مَمْلُوكاً لاَيَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموجد كمن رزقه منه رزقا حسنا والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء فهذا ما نبه عليه المثل وأرشد إليه فذكره ابن عباس منبها على إرادته لا أن الآية اختصت به فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله .

فصل

وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه أيضا فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه

سبحانه عالم به معلم له راض به آمر لعباده به محب لأهله لا يأمر بسواه بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه وهو المجاورون له عن يمينه على منابر من نور وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما كما في الحديث الصحيح: "اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك" فقضاؤه هو أمره الكوني ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يأمر إلا بحق وعدل وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل وإن كان في المقضي المقدر ما هو جور وظلم فالقضاء غير المقضي والقدر غير المقدر ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فقوله ﴿ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ نظير قوله ناصيتي بيدك وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ نظير قوله: "عدل في قضاؤك" فالأول ملكه والثاني حمده وهو سبحانه له الملك وله الحمد وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل فهو على الحق في أقواله وأفعاله فلا يقضي يقضى على العبد بما يكون ظالما له به ولا يأخذه بغير ذنبه ولا ينقصه من حسناته شيئا ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئا ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ولا يفعل

قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يقول:

(180/264)

إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته لا يظلم أحدا منهم شيئا ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبي نجيح عنه: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال: "الحق" وكذلك رواه ابن جريج عنه .

وقالت فرقة: هي مثل قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ وهذا اختلاف عبارة فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر وقد فرق سبحانه بين كونه آمرا بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم أن مراد العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه فهو حق .

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره وفي ملكه وقبضته وهذا وإن كان حقا فليس هو معنى الآية وقد فرق شعيب بين قوله ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها وبين قوله ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فهما معنيان مستقلان .

فالقول قول مجاهد وهو قول أئمة التفسير ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

(181/264)

وقد قال تعالى ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله

ومجده من قول الحق وفعله وبالله التوفيق .

فصل

وفي الآية قول ثان مثل الأية سواء أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر وقد تقدم ما في هذا القول وبالله التوفيق .

فصل

ومنها قوله تعالى في تشبيه من أعرض عن كلامه وتدبره ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه وهذا من بديع القياس والتمثيل فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر وهي لا تعقل شيئا فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته .

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فقاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته .

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فشبه سبحانه من أتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرا وأخسها نفسا وهمته لا تتعدى بطنه وأشدها

شرها وحرصا ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض بتشمم ويستروح حرصا وشرها ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه وإذا رميت

(183/264)

إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري والعذرة أحب إليه من الحلوى وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبا واحدا يتناول منها شيئا إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسه .

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى قال ابن جريج الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فهو

مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع قلت مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء فالكلب من أقل الحيوانات صبرا عن الماء وإذا عطش أكل الثرى من العطش وإن كان فيه صبر على الجوع وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثا يلهث قائما وقاعدا وماشيا وواقفا وذلك لشدة حرصه فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف فإن حملت عليه

(184/264)

الموعظة والنصيحة فهو يلهف وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف قال مجاهد وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به وقال ابن عباس: "إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى خير كالكلب إن كان رابضا لهث وإن طرد لهث" وقال الحسن: "هو المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع وعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك" وقال عطاء: "ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه" وقال أبو محمد بن قتيبة: "كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال

المرض والعطش فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته" وقال: "إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث" ونظيره قوله سبحانه ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ .

(185/264)

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى فمنها قوله ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه ثم قال: ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه ومنها قوله سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون: ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ وكان محفوظا محروسا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئا إلا على غرة وخطفة فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء ومنها أنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست

بمجرد العلم فإن هذا كان من العلماء وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به

(186/264)

فنعوذ بالله من علم لا ينفع وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسا فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه والمعنى لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه قال ابن عباس: "ولو شئنا لرفعناه بعمله بها" وقالت طائفة الضمير في قوله ﴿ لَرَفَعْنَاهُ ﴾ : "عائد على الكفر" والمعنى لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا قال مجاهد وعطاء: "لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه" وهذا المعنى حق والأول هو مراد الآية وهذا من لوازم المراد وقد تقدم أن السلف كثيرا ما ينبهون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها وقوله ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن جبير: "ركن إلى الأرض" وقال مجاهد: "سكن" وقال مقاتل: "رضي بالدنيا" وقال أبو عبيدة: "لزمها وأبطأ والمخلد من الرجال هو الذي يبطيء مشيته ومن الدواب التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته" وقال الزجاج: "خلد وأخلد وأصله من الخلود وهو الدوام والبقاء" ويقال: أخلد فلان بالمكان

إذا أقام به قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك . . . وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قلت: ومنه قوله تعالى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي قد خلقوا للبقاء لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون وهم على سن واحد أبدا وقيل هم المقرطون في آذانهم والمسورون في أيديهم وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها وذلك أمارة التخليد على ذلك السن فلا تنافي بين القولين وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قال الكلبي اتبع مسافل الأمور وترك معاليها وقال أبو روق اختار الدنيا على الآخرة وقال عطاء: "أراد الدنيا وأطاع شيطانه" وقال ابن دريد: "كان هواه مع القوم" يعني الذين حاربوا موسى وقومه وقال يمان: "اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل"

(187/264)

فإن قيل: الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها أو ينفي ما أثبت كما تقول: لو شئت لأعطيته لكني لم أعطه ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته فالاستدراك يقتضي ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ أو لم نرفع فكيف استدرك بقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ .

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني وذلك أن مضمون قوله ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من إيثار الله ومرضاته على هواه ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

وقال الزمخشري: المعنى: لو لزم آياتنا لرفعناه بها فذكر المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها قال: ألا ترى إلى قوله ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ ﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله فوجب أن يكون ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ في معنى ما هو فعله ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال لو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزليا قدريا فأين قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ من قوله ولو لزمها ثم إذا كان اللزوم لها موقوفا على مشيئة الله وهو الحق بطل أصله وقوله: "إن مشيئة الله تابعة للزومه الآيات" من أفسد الكلام وأبطله بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله فمشيئة الله سبحانه متبوعة لا تابعة وسبب لا مسبب وموجب مقتض لا مقتضى فما شاء الله وجب وجوده ولم لم يشأ امتنع وجوده.

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ

الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه ولما كان المرتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت ولما كان المغتاب عاجزا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه ولما كان المغتاب متمتعا بعرض أخيه متفكها بغيبته وذمه متحليا بذلك شبه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه ولما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شبه بمن يحب أن يأكل لحم أخيه ميتا ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه .

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم وهم أشد شيء نفرة عنه فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو

نظيره ومشبهه وبالله التوفيق .

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾

(189/264)

فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه فلذلك قال ﴿ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثرا من ثواب ولا فائدة نافعة فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه موافقا لشرعه والأعمال أربعة فواحد مقبول وثلاثة مردودة فالمقبول: الخالص الصواب فالخالص أن يكون لله لا لغيره والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله والثلاثة مردودة ما خالف ذلك .

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار وبها تسعر النار على أصحابها وينشىء الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا كما ينشىء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار .

فصل: كلمة التوحيد وأثرها في نفس المؤمن:

ومنها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: "الكلمة الطيبة هي

شهادة أن لا إله إلا الله" فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: "كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا الله كشجرة طيبة وهو المؤمن أصلها ثابت قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء" وقال الربيع بن أنس: "كلمة طيبة هذا مثل الإيمان فالإيمان الشجرة الطيبة وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه وفرعه في السماء خشية الله" والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها .

(191/264)

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها

لسانه وتصدقها جوارحه ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب كما قال تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت .

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا متصفا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء وهي مخرجة لثمرتها كل وقت .

(192/264)

ومن السلف من قال: "إن الشجرة الطيبة هي النخلة" ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح ومنهم من قال: "هي المؤمن نفسه" كما قال محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة" يعني بالشجرة الطيبة المؤمن ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض وقال عطية العوفي في قوله ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال: "ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله" وقال الربيع بن أنس: "أصلها ثابت وفرعها في السماء" قال: "ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له أصلها ثابت" قال: "أصل عمله ثابت في الأرض وفرعها في السماء" قال: "ذكره في السماء ولا اختلاف بين القولين والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك" ومن قال من السلف: "إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنة" .

حكمة تشبيه المؤمن بالشجرة:

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته .

فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر فكذلك

شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به فعروقها العلم والمعرفة واليقين وساقها الإخلاص وفروعها الأعمال وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدل المرضي فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ومنها : أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر والتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن

الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم" وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم .

ومنها : أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع ويكون الحكم له أو يضعف الأصل

(194/264)

ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كثير وهو لا يشعر فالمؤمن دائما سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها فبسقيها تبقى وتدوم وبتنقية ما حولها تكمل وتتم والله المستعان وعليه التكلان .

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الوقفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة وأعمالنا التي توجب التوبة

والاستغفار وإلا فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان وزكت النفوس وخلصت الأعمال وتجرت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم وتتلاشى عنده معارف الخلق وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته .

فصل

ضرب المثل للكافر:

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار فلا عرق ثابت ولا فرع عال ولا ثمرة زاكية فلا ظل ولا جنى ولا ساق قائم ولا عرق في الأرض ثابت فلا أسفلها مغدق ولا أعلاها مونق ولا جنى لها ولا تعلو بل تعلى .

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه .

قال الضحاك: "ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار" يقول ليس لها أصل ولا فرع وليس لها ثمرة ولا فيها منفعة كذلك الكافر لا يعمل خيرا ولا يقوله ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة .

وقال ابن عباس: "ومثل كلمة خبيثة وهي الشرك كشجرة خبيثة يعني الكافر اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء" يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: "مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء".

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: "إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرا ولا في السماء مصعدا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة".

وقوله ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ أي استؤصلت من فوق الأرض ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم ومن حرمه فقد

حرم وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾

(196/264)

وقال تعالى لأكرم خلقه ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: "وهو يسألهم ويثبتهم" وقال تعالى لرسوله ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فالخلق كلهم قسمان موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد فبهما يثبت الله عبده فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ فأثبت الناس قلبا أثبتهم قولا والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب فالقول نوعان: ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا وأقلهم ثباتا وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق

من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به فقال: والله ما فهمت منه شيئًا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل فما منح العبد أفضل من منحة القول الثابت ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر.

سؤال القبر:

(197/264)

وقد جاء هذا مبينا في أحاديث صحاح فمنها ما في المسند من حديث داود ابن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال: يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعده فقال: ما تقول في هذا

الرجل فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقال له هذا منزلك لو كفرت بربك فأما

إذا آمنت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض له فيقال له اسكن ثم يفسح له في قبره وأما الكافر والمنافق فيقال له ما تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري فيقال له لا دريت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذا كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين قال بعض أصحابه يا رسول الله ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء" .

(198/264)

وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب وروى المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قبض روح المؤمن فقال: يأتيه آت يعني في قبره فيقول: من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم قال: فينتهره فيقول: ما ربك وما دينك وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حيث يقول الله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد فيقال له: صدقت" وهذا

حديث صحيح وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين قال: إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي

(199/264)

محمد جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت فيقال له: صدقت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث" قال الأعمش عن المنهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قبض روح المؤمن قال: فترجع روحه في جسده ويبعث إليه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه ويقولان: من ربك؟ فيقول الله وما دينك؟ فيقول: الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول محمد رسول الله فيقولان له: وما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ " رواه ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد وفي صحيحه أيضا من حديث أبي هريرة يرفعه قال: "إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون

عنه مدبرين فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه وكان الصيام عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة ما قبلي مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلي مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس ما قبلي مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك عنه فيقول دعوني حتى أصلي فيقال إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألوني فيقال له أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه فيقول أمحمد صلى الله عليه وسلم فيقال نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفسح له قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ثم يفتح

(200/264)

له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من

التراب وذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ " ولا تستطل هذا الفصل المعترض في المفتي والشاهد والحاكم بل وكل مسلم أشد ضرورة إليه من الطعام والشراب والنفس وبالله التوفيق .

فصل

(201/264)

ومنها قوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره ويجوز لك في هذا التشبيه أمران أحدهما أن تجعله تشبيها مركبا ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة فصور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى فتمزق مزقا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به والثاني أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته

وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد منها وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه وتؤزه أزا وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء .

فصل

(202/264)

ومنها قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه ولا

يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه .

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف

(203/264)

والعجز بقوله ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قيل الطالب العابد والمطلوب المعبود فهو عاجز متعلق بعاجز وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز وعلى هذا فقيل: الطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه وقيل الطالب الذباب والمطلوب الإله فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب والمستلب فمن جعل هذا إلها مع القوي العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه.

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ فتضمن هذا المثل ناعقا أي مصوتا بالغنم وغيرها ومنعوقا به وهو الدواب فقيل: الناعق العابد وهو الداعي للصنم والصنم المنعوق به المدعو وإن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره.

واستشكل صاحب الكشاف وجماعة معه هذا القول وقالوا قوله ﴿ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ لا يساعد عليه لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء.

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

أحدها : أن (إلا) زائدة والمعنى بما لا يسمع دعاء ونداء قالوا : وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر :

حراجيج ما تنفك إلا مناخة

أي ما تنفك مناخة وهذا جواب فاسد فإن (إلا) لا تزاد في الكلام .

الجواب الثاني : أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو .

الجواب الثالث : أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه هو في دعاء ونداء وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء .

(204/264)

وقيل : المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت فالراعي هو داعي الكفار والكفار هم البهائم المنعوق بها .

قال سيبويه : المعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به وعلى قوله فيكون المعنى : ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها .

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب وأن تجعله من التشبيه المفرق فإن جعلته من المركب

كان تشبيها للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء وإن جعلته من التشبيه المفرق فالذين كفروا بمنزلة البهائم ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم.

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء كان المراد بها الجهاد

أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرا فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه وسمحت به نفسه وخرج من قلبه قبل خروجه من يده فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه وبحسب طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله في أرض زكية فمغلة بحسب بذره وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي ونفي الدغل والنبات الغريب عنه فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال وكان مثله كمثل جنة بربوة وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح فتتربى الأشجار هناك أتم تربية فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل فإن لم يصبها وابل فطل مطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها يزكو على الطل وينمى عليه مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل .

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلا ومنهم من يكون إنفاقه طلا والله لا يضيع مثقال ذرة فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويبطل حسناته كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت فإذا كان يوم استيفاء الأعمال وإحراز الأجور وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة فحسرته حينئذ أشد من

حسرة هذا على جنته .

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحة بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه جميع الفواكه والثمر وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها وهو ثمر النخيل والأعناب فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته فأصبح يوما وقد وجده محترقا كله كالصريم فأي حسرة أعظم من حسرته ؟ .

(206/264)

قال ابن عباس: "هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره" وقال مجاهد : "هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت" وقال السدي: "هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه" "وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوما عن هذه الآية فقالوا : الله أعلم فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك قال ضرب مثلا لعمل قال

لأي عمل قال لرجل غني يعمل بالحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها" قال الحسن: "هذا مثل قل والله من يعقل من الناس شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا" .

فصل

ما يبطل الأعمال من المن والأذى والرياء:

فإن عرض لهذه الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن والأذى والرياء فالرياء يمنع انعقادها سببا للثواب والمن والأذى يبطل الثواب الذي كانت سببا له فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب فأصابه وابل وهو المطر الشديد فتركه صلدا لا شيء عليه وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثل به تعرف عظمة القرآن وجلالته فإ

(207/264)

الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمان والمؤذي فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر

فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه فبرز ما تحته حجرا صلدا لا نبات فيه وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه وبالله التوفيق .

فصل

ومنها قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبتغون به وجه الله وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريح شديدة البرد جدا يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته .

واختلف في الصر فقيل: البرد الشديد وقيل: النار قاله ابن عباس قال ابن الأنباري: "وإنما وصفت النار بأنها صر لتصريتها عند الالتهاب" وقيل: "الصر الصوت الذي يصحب الريح

من شدة هبوبها" والأقوال الثلاثة

متلازمة فهو برد شديد محرق يبسه للحرث كما تحرقه النار وفيه صوت شديد .

(208/264)

وفي قوله: ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأيبسته فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها .

فصل

ومنها قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحون والرجل المتشاكس الضيق الخلق فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين .

والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه بل هو سالم لمالكه من غير

تنازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليه لمصالحه فهل يستوي هذان العبدان .

وهذا من أبلغ الأمثال فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فصل

(209/264)

ومنها قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾

فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار ومثلين للمؤمنين فتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال فإن الأسباب كلها

تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا ﴿قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ .

(210/264)

قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال فلا اتصال فوق اتصال البنوة الأبوة والزوجية ولم يغن نوح عن ابنه ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئا قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾ وقال تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ وقال: ﴿وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذا كله تكذيب

لأطماع المشركين الباطلة أن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة أو يجيرهم من عذاب الله أو هو يشفع لهم عند الله وهذا أصل ضلالة بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله وهو الذي بعث الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه

بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم .

فصل

وأما المثلان اللذان للمؤمنين: فأحدهما امرأة فرعون ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا إذا فارقه في كفره وعمله فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين .

(211/264)

المثل الثاني للمؤمنين: مريم التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها والثانية لا تضرها وصلتها وسببها والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئًا .

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والتحذير من تظاهرهن عليه وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله

ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله صلى الله عليه وسلم كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام: "ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة" .

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضا اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئا قذف أعداء الله اليهود لها ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبي صلى الله عليه وسلم فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون .

قالوا: فهذا بعض ما اشتمل عليه القرآن من التمثيل والقياس والجمع والفرق واعتبار العلل والمعاني وارتباطها بأحكامها تأثيرا واستدلالا .

الاستفادة من ضرب الأمثال:

قالوا: قد ضرب الله سبحانه الأمثال وصرفها قدرا وشرعا ويقظة ومناما ودل عباده على الاعتبار بذلك وعبورهم من الشيء إلى نظيره واستدلالهم بالنظير على النظير بل هذا أهل عبارة الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة ونوع من أنواع الوحي فإنها مبنية على القياس والتمثيل واعتبار المعقول بالمحسوس.

تأويل الرؤيا:

ألا ترى أن الثياب في التأويل كالقمص تدل على الدين فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين كما أول النبي صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم والقدر المشترك بينهما أن كلا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس فالقميص يستر بدنه والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس.

ومن هذا تأويل اللبن بالفطرة لما في كل منهما من التغذية الموجبة للحياة وكمال النشأة وأن الطفل إذا خلي وفطرته لم يعدل عن اللبن فهو مفطور على إيثاره على ما سواه وكذلك فطرة الإسلام التي فطر الله عليها الناس.

ومن هذا تأويل البقر بأهل الدين والخير الذين بهم عمارة الأرض كما أن البقر كذلك مع عدم

شرها وكثرة خيرها وحاجة الأرض وأهلها إليها ولهذا لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم بقرا تنحر كان ذلك نحرا في أصحابه .

ومن ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل لأن العامل زارع للخير والشر ولا بد أن يخرج له ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره فالدنيا مزرعة والأعمال البذر ويوم القيامة يوم طلوع الزرع للباذر وحصاده .

ومن ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين والجامع بينهما أن المنافق لا روح فيه ولا ظل ولا ثمر فهو بمنزلة الخشب الذى هو كذلك ولهذا شبه الله تعالى المنافقين بالخشب المسندة لأنهم أجسام خالية عن الإيمان والخير وفي كونها مسندة نكتة أخرى وهي أن الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكا فارغا غير منتفع به جعل مسندا بعضه إلى بعض فشبه المنافقين بالخشب في الحالة التي لا ينتفع فيها بها .

(213/264)

ومن ذلك تأويل النار بالفتنة لإفساد كل منهما ما يمر عليه ويتصل به فهذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان وهذه تحرق القلوب والأديان والإيمان .

ومن ذلك تأويل النجوم بالعلماء والأشراف لحصول هداية أهل الأرض بكل منهما ولارتفاع الأشراف بين الناس كإرتفاع النجوم .

ومن ذلك تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس .

ومن ذلك خروج الدم في التأويل يدل على خروج المال والقدر المشترك أن قوام البدن بكل واحد منهما .

ومن ذلك الحدث في التأويل يدل على الحدث في الدين فالحدث الأصغر ذنب صغير والأكبر ذنب كبير .

ومن ذلك أن اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين فاليهودية تدل على فساد القصد واتباع غير الحق والنصرانية تدل على فساد العلم والجهل والضلال .

ومن ذلك الحديد في التأويل وأنواع السلاح يدل على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته .

ومن ذلك الرائحة الطيبة تدل على الثناء الحسن وطيب القول والعمل والرائحة الخبيثة بالعكس والميزان يدل على العدل والجراد يدل على الجنود والعساكر والغوغاء الذين يموج بعضهم في بعض والنحل يدل على من يأكل طيبا ويعمل صالحا والديك رجل عالي الهمة بعيد الصيت والحية عدو أو صاحب بدعة يهلك بسمه والحشرات أوغاد الناس والخلد رجل أعمى يتكفف الناس بالسؤال والذئب رجل غشوم ظلوم غادر فاجر والثعلب رجل

غادر مكار محتال مراوغ عن الحق والكلب عدو ضعيف كثير الصخب والشر في كلامه وسبابه أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثر له على دينه والسنور العبد والخادم الذي يطوف على أهل الدار والفأرة امرأة سوء فاسقة فاجرة والأسد رجل قاهر مسلط والكبش الرجل المنيع المتبوع.

(214/264)

ومن كليات التعبير أن كل ما كان وعاء للماء فهو دال على الأثاث وكل ما كان وعاء للمال كالصندوق والكيس والجراب فهو دال على القلب وكل مدخول بعضه في بعض وممتزج ومختلط فدال على الاشتراك والتعاون أو النكاح وكل سقوط وخرور من علو إلى سفل فمذموم وكل صعود وارتفاع فمحمود إذا لم يجاوز العادة وكان ممن يليق به وكل ما أحرقته النار فجائحة

وليس يرجى صلاحه ولا حياته وكذلك ما انكسر من الأوعية التي لا ينشعب مثلها وكل ما خطف وسرق من حيث لا يرى خاطفه ولا سارقه فإنه ضائع لا يرجى وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أو لم يغب عن عين صاحبه فإنه يرجى عوده وكل زيادة محمودة في الجسم والقامة واللسان والذكر واللحية واليد والرجل فزيادة خير وكل زيادة متجاوزة للحد في

ذلك فمذمومة وشر وفضيحة وكل ما رأى من اللباس في غير موضعه المختص به فمكروه كالعمامة في الرجل والخف في الرأس والعقد في الساق وكل من استقضي أو استخلف أو أمر أو استوزر أو خطب ممن لا يليق به ذلك نال بلاء من الدنيا وشرا وفضيحة وشهرة قبيحة وكل ما كان مكروها من الملابس فخلقه أهون على لابسه من جديده والجوز مال مكنوز فإن تفقع كان قبيحا وشرا ومن صار له ريش أو جناح صار له مال فإن طار سافر وخروج المريض من داره ساكتا يدل على موته متكلما يدل على حياته والخروج من الأبواب الضيقة يدل على النجاة والسلامة من شر وضيق هو فيه وعلى توبة ولا سيما إن كان الخروج إلى فضاء وسعة فهو خير محض والسفر والنقلة من مكان إلى مكان انتقال من حال إلى حال بحسب حال المكانين ومن عاد في المنام إلى حال كان فيها في اليقظة عاد إليه ما فارقه من خير أو شر وموت الرجل دل على توبته ورجوعه إلى الله لأن الموت رجوع إلى الله قال تعالى ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ والمرهون مأسور بدين أو بحق عليه لله أو لعبيده ووداع المريض أهله أو توديعهم له دال على موته .

(215/264)

وبالجملة فما تقدم من أمثال القرآن كلها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال بها وكذلك من فهم القرآن فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن فالسفينة تعبر بالنجاة

(216/264)

لقوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ وتعبر بالتجارة والخشب بالمنافقين والحجارة بقساوة القلب والبيض بالنساء واللباس أيضا بهن وشرب الماء بالفتنة وأكل لحم الرجل بغيبته والمفاتيح بالكسب والخزائن والأموال والفتح يعبر مرة بالدعاء ومرة بالنصر وكالملك يرى في محله لا عادة له بدخولها يعبر بإذلال أهلها وفسادها والحبل يعبر بالعهد والحق والعضد والنعاس قد يعبر بالأمن والبقل والبصل والثوم والعدس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئا أدنى بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار والمرض يعبر بالنفاق والشك وشهوة الرياء والطفل الرضيع يعبر بالعدو لقوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ والنكاح بالبناء والرماد بالعمل الباطل لقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ والنور يعبر بالهدى والظلمة بالضلال ومن ههنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائي وقد ولاه القضاء فقال له: "يا أمير

المؤمنين إني رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم بينهما نصفين فقال عمر: "مع أيهما كنت" قال: "مع القمر على الشمس" قال: "كنت مع الآية الممحوة اذهب فلست تعمل لي عملا ولا تقتل إلا في لبس من الأمر فقتل يوم صفين" وقيل لعابر: "رأيت الشمس والقمر دخلا في جوفي فقال: تموت" واحتج بقوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ وقال رجل لابن سيرين رأيت معي أربعة أرغفة خبز فطلعت الشمس فقال تموت إلى أربعة أيام ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ وأخذ هذا التأويل أنه حمل رزقه أربعة أيام وقال له آخر رأيت كيسي مملوءا أرضة فقال أنت ميت ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا

(217/264)

قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ والنخلة تدل على الرجل المسلم وعلى الكلمة الطيبة والحنظلة تدل على ضد ذلك والصنم يدل

على العبد السوء الذي لا ينفع والبستان يدل على العمل واحتراقه يدل على حبوطه لما تقدم في أمثال القرآن ومن رأى أنه ينقض غزلا أو ثوبا لعبيده مرة ثانية فإنه ينقض عهدا وينكثه والمشي سويا في طريق مستقيم يدل على استقامته على الصراط المستقيم والأخذ

في بنيات الطريق يدل على عدوله عنه إلى ما خالفه وإذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال فسلك أحدهما فإنه من أهلها وظهور عورة الإنسان له ذنب يرتكبه ويفتضح به وهروبه وفراره من شيء نجاة وظفر وغرقه في الماء فتنة في دينه ودنياه وتعلقه بحبل بين السماء والأرض تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله فإن انقطع به فارق العصمة إلا أن يكون ولي أمرا فإنه قد يقتل أو يموت .

فالرؤيا أمثال مضروبة يضربها الملك الذي قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بما ضرب له من المثل على نظيره ويعبر منه إلى شبهه ولهذا سمي تأويلها تعبيرا وهو تفعيل من العبور كما أن الاتعاظ يسمى اعتبارا وعبرة لعبور المتعظ من النظير إلى نظيره ولولا أن حكم الشيء حكم مثله وحكم النظير حكم نظيره لبطل هذا التعبير والاعتبار ولما وجد إليه سبيل ولقد أخبر سبحانه أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه وأمر باستماع أمثاله ودعا عباده إلى تعقلها والتفكير فيها والاعتبار بها وهذا هو المقصود بها .

التساوي بين المتماثلين في الأحكام الشرعية:

(218/264)

وأما أحكامه الأمرية الشرعية فكلها هكذا تجدها مشتملة على التسوية بين المتماثلين وإلحاق النظير بنظيره واعتبار الشيء بمثله والتفريق بين المختلفين وعدم تسوية أحدهما بالآخر وشريعته سبحانه منزهة من أن تنهى عن شيء لمفسدة فيه ثم تبيح ما هو مشتمل على تلك المفسدة أو مثلها أو أزيد منها فمن جوز ذلك على الشريعة فما عرفها حق معرفتها ولا قدرها حق قدرها وكيف يظن بالشريعة أنها تبيح شيئًا لحاجة المكلف إليه ومصلحته ثم تحرم

ما هو أحوج إليه والمصلحة في إباحته أظهر وهذا من أمحل المحال ولذلك كان من المستحيل أن يشرع الله ورسوله من الحيل ما يسقط به ما أوجبه أو يبيح به ما حرمه ولعن فاعله وآذنه بحربه وحرب رسوله وشدد فيه الوعيد لما تضمنه من المفسدة في الدنيا والدين ثم بعد ذلك يسوغ التوصل إليه بأدنى حيلة ولو أن المريض اعتمد هذا فيما يحميه منه الطبيب ويمنعه منه لكان معينا على نفسه ساعيا في ضرره وعد سفيها مفرطا وقد فطر الله سبحانه عباده على أن الحكم النظير حكم نظيره وحكم الشيء حكم مثله وعلى إنكار التفريق بين المتماثلين وعلى إنكار الجمع بين المختلفين والعقل والميزان الذي أنزله الله سبحانه شرعا وقدرا يأبى ذلك .

الجزاء من جنس العمل:

لذلك كان الجزاء مماثلا للعمل من جنسه في الخير والشر فمن ستر مسلما ستره الله ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن أقال نادما أقاله الله عثرته يوم القيامة ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن ضار مسلما ضار الله به ومن شاق شاق الله عليه ومن خذل مسلما في موضع يجب نصرته فيه خذله الله في موضع يجب نصرته فيه ومن سمح سمح الله له والراحمون يرحمهم الرحمن وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ومن أنفق أنفق عليه ومن أوعى أوعى عليه ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه ومن جاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى الله عليه فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل .

القرآن يعلل الأحكام:

لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت واقتضائها لأحكامها وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها ويوجب تخلف أثرها عنها كقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وقوله ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ

وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ ﴾ ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ وقد جاء التعليل في الكتاب العزيز بالباء تارة وباللام تارة وبأن تارة وبمجموعهما تارة وبكي تارة ومن أجل تارة وترتيب الجزاء على الشرط تارة وبالفاء المؤذنة بالسببية تارة وترتيب الحكم على الوصف المقتضي له تارة وبلما تارة وبأن المشددة تارة وبلعل تارة وبالمفعول له تارة فالأول كما تقدم واللام كقوله ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ وأن كقوله ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ثم قيل التقدير لئلا تقولوا وقيل كراهة أن تقولوا وأن واللام كقوله ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وغالب ما يكون هذا النوع في النفي فتأمله وكي كقوله ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً ﴾ والشرط والجزاء كقوله ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ والفاء كقوله ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ

فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ وترتيب الحكم على الوصف كقوله ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ وقوله ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وقوله ﴿ نَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ

(221/264)

الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ و ﴿ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ ولما كقوله ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ وإن المشددة كقوله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ ولعل كقوله ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ والمفعول له كقوله ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .

أي لم يفعل ذلك جزاء نعمة أحد من الناس وإنما فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى ومن أجل كقوله ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

النبي يعلل الأحكام:

(222/264)

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم علل الأحكام والأوصاف المؤثرة فيها ليدل على ارتباطها بها وتعديها بتعدي أوصافها وعللها كقوله في نبيذ التمر: "تمرة طيبة وماء طهور" وقوله: "إنما جعل الاستئذان من أجل البصر" وقوله: "إنما نهيتكم من أجل الدافة" وقوله في الهرة "ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات" ونهيه عن تغطية رأس المحرم الذي وقصته ناقته وتقريبه الطيب وقوله: "فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا" وقوله: "إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم" ذكره تعليلا لنهيه عن نكاح المرأة على عمتها وخالتها وقوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ وقوله في الخمر والميسر ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن بيع الرطب بالتمر "أينقص الرطب إذا جف قالوا: نعم فنهى عنه" وقوله: "لا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه" وقوله: "إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخرة دواء وإنه يتقي بالجناح الذي فيه الداء" وقوله: "إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس" وقال وقد سئل عن مس الذكر هل ينقض الوضوء فقال: "هل هو إلا بضعة منك" وقوله في ابنة حمزة: "إنها لا تحل لي إنها ابنة

أخي من الرضاعة" وقوله في الصدقة: "إنها لا تحل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس" .

وقد قرب النبي صلى الله عليه وسلم الأحكام إلى أمته بذكر نظائرها

(223/264)

وأسبابها وضرب لها الأمثال فقال له عمر: "صنعت اليوم يا رسول الله أمرا عظيما قبلت وأنا صائم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت لو تمضمت بماء وأنت صائم فقلت: لا بأس بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فصم" ولولا أن حكم المثل حكم مثله وأن المعاني والعلل مؤثرة في الأحكام نفيا وإثباتا لم يكن لذكر هذا التشبيه معنى فذكره ليدل به على أن حكم النظير حكم مثله وأن نسبة القبلة التي هي وسيلة إلى الوطء كنسبة وضع الماء في الفم الذي هو وسيلة إلى شربه فكما أن هذا الأمر لا يضر فكذلك الآخر وقد قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله فقال: "إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل والحج مكتوب عليه أفأحج عنه قال: أنت أكبر ولده قال: نعم قال: أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكان يجزىء عنه قال: نعم قال: فحج عنه" فقرب الحكم من الحكم وجعل دين الله سبحانه في وجوب القضاء أو في قبوله بمنزلة دين الآدمي وألحق النظير بالنظير وأكد هذا المعنى بضرب من الأولى وهو قوله:

"اقضوا الله فالله أحق بالقضاء" ومنه الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان يكون عليه وزر؟ قالوا: نعم قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال يكون له أجر" وهذا من قياس العكس الجلي البين وهو إثبات نقيض حكم الأصل في الفرع لثبوت ضد علته فيه ومنه الحديث الصحيح: "أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني امرأتي ولدت غلاما أسود وإني أنكرته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل قال نعم قال فما ألوانها قال حمر قال هل فيها من أورق قال إن فيها لورقا قال فإنى ترى ذلك جاءها قال يا رسول الله عرق نزعه قال ولعل هذا عرق نزعه" ولم يرخص له في الانتفاء منه ومن تراجم

(224/264)

البخاري على هذا الحديث: "باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل" ثم ذكر بعده حديث ابن عباس: "أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج أفأحج عنها قال نعم حجي عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته قالت نعم فقال: "اقضوا الله فإن الله أحق

بالوفاء" .

الناس طرفان ووسط في القياس:

وهذا الذي ترجمه البخاري هو فصل النزاع في القياس لا كما يقوله المفرطون فيه ولا المفرطون فإن الناس فيه طرفان ووسط فأحد الطرفين من ينفي العلل والمعاني والأوصاف المؤثرة ويجوز ورود الشريعة بالفرق بين المتساويين والجمع بين المختلفين ولا يثبت أن الله سبحانه شرع الأحكام لعلل ومصالح وربطها بأوصاف مؤثرة فيها مقتضية لها طردا وعكسا وأنه قد يوجب الشيء ويحرم نظيره من كل وجه ويحرم الشيء ويبيح نظيره من كل وجه وينهى عن الشيء لا لمفسدة فيه ويأمر به لا لمصلحة بل لمحض المشيئة المجردة عن الحكمة والمصلحة وإزاء هؤلاء قوم أفرطوا فيه وتوسعوا جدا وجمعوا بين الشيئين اللذين فرق الله بينهما بأدنى جامع من شبه أو طرد أو وصف يتخيلونه علة يمكن أن يكون علته وأن لا يكون فيجعلونه هو السبب الذي علق الله ورسوله عليه الحكم بالخرص والظن وهذا هو الذي أجمع السلف على ذمه كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم يذكر في الأحكام العلل والأوصاف المؤثرة فيها طردا وعكسا كقوله للمستحاضة التي سألته هل تدع الصلاة زمن استحاضتها فقال: "لا إنما ذلك عرق وليس بالحيضة" فأمرها أن تصلي مع هذا الدم وعلل بأنه دم عرق وليس بدم حيض وهذا قياس يتضمن الجمع والفرق .

قد تغني العلة عن ذكر الأصل:

فإن قيل: فشرط صحة القياس ذكر الأصل المقيس عليه ولم يذكر في الحديث.

(225/264)

قيل: هذا من حسن الاختصار والاستغناء بالوصف الذي يستلزم ذكر الأصل المقيس عليه فإن المتكلم قد يعلل بعلة يغني ذكرها عن الأصل ويكون تركه لذكر الأصل أبلغ من ذكره فيعرف السامع الأصل حين يسمع ذكر العلة فلا يشكل عليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين علل عدم وجوب الصلاة مع هذا الدم بأنه عرق صار الأصل الذي يرده إليه هذا الكلام معلوما فإن كل سامع سمع هذا يفهم منه أن دم العرق لا يوجب ترك الصلاة ولو قال: "هو عرق فلا يوجب ترك الصلاة كسائر دم العروق" لكان عيا وعد من الكلام الركيك ولم يكن لائقا بفصاحته وإنما يليق هذا بعجرفة المتأخرين وتكلفهم وتطويلهم.

ونظير هذا قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن مس ذكره: "هل هو إلا بضعة منك" فاستغنى بهذا عن تكلف قوله: كسائر البضعات.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للمرأة التي سألته: "هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت فقال نعم فقالت أم سليم أو تحتلم المرأة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: "إنما النساء شقائق الرجال" .

فبين أن النساء والرجال شقيقان ونظيران لا يتفاوتان ولا يتباينان في ذلك وهذا يدل على أنه من المعلوم الثابت في فطرهم أن حكم الشقيقين والنظيرين حكم واحد سواء كان ذلك تعليلا منه صلى الله عليه وسلم للقدر أو للشرع أو لهما فهو دليل على تساوي الشقيقين وتشابه القرينين وإعطاء أحدهما حكم الآخر .

فصل

حديث معاذ في القياس:

(226/264)

وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم معاذا على اجتهاد رأيه فيما لم يجد فيه نصا عن الله ورسوله فقال شعبة: حدثني أبو عون عن الحارث بن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال: "كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال: أقضي بما في كتاب الله قال: فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله

الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم" فهذا حديث وإن كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك لأنه يدل على شهرة الحديث وأن الذي حدث به الحارث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون عن واحد منهم لو سمي كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث وقد قال بعض أئمة الحديث: "إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يديك به" قال أبو بكر الخطيب: "وقد قيل إن عبادة بن نسى" رواه عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ وهذا إسناد متصل ورجاله معروفون بالثقة على أن أهل العلم قد نقلوه واحتجوا به فوقفنا بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا وصية لوارث" وقوله في البحر: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" وقوله: "إذا اختلف المتبايعان في الثمن والسلعة قائمة تحالفا وترادا البيع" وقوله: "الدية على العاقلة" وإن كانت هذه الأحاديث

(227/264)

لا تثبت من جهة الإسناد ولكن ما تلقتها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها فكذلك حديث معاذ لما احتجوا به جميعا غنوا عن طلب الإسناد له انتهى كلامه .

وقد جوز النبي صلى الله عليه وآله وسلم للحاكم أن يجتهد رأيه وجعل له على خطئه في اجتهاد الرأي أجرا واحدا إذا كان قصده معرفة الحق واتباعه

فصل

الصحابة يجتهدون ويقيسون:

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهدون في النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض ويعتبرون النظير بنظيره .

قال أسد بن موسى: ثنا شعبة عن زبيد اليامي عن طلحة بن مصرف عن مرة الطبيب عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة: "كل قوم على بينة من أمرهم ومصلحة من أنفسهم يزرون على من سواهم ويعرف الحق بالمقايسة عند ذوي الألباب" وقد رواه الخطيب وغيره مرفوعا ورفعه غير صحيح .

وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحكام ولم يصنفهم كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق وقال: لم يرد منا التأخير وإنما أراد سرعة النهوض فنظروا إلى المعنى واجتهد آخرون

وأخروها إلى بني قريظة فصلوها ليلا نظروا إلى اللفظ وهؤلاء سلف أهل الظاهر وهؤلاء سلف أصحاب المعاني والقياس .

ولما كان علي رضي الله تعالى عنه باليمن أتاه ثلاثة نفر يختصمون في غلام فقال كل منهم هو ابني فأقرع علي بينهم فجعل الولد للقارع وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء علي رضي الله عنه .

واجتهد سعد بن معاذ في بني قريظة وحكم فيهم باجتهاده فصوبه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات" .

(228/264)

واجتهد الصحابيان اللذان خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما وقال للذي لم يعد : "أصبت السنة وأجزأتك صلاتك" وقال للآخر : "لك الأجر مرتين" .

ولما قاس مجزز المدلجي وقاف وحكم بقياسه وقيافته على أن أقدام زيد وأسامة ابنه بعضها مع بعض سر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى برقت أسارير وجهه من صحة هذا القياس وموافقته للحق وكان زيد أبيض وابنه أسامة أسود فألحق هذا القائف

الفرع بنظيره وأصله وألغى وصف السواد والبياض الذي لا تأثير له في الحكم .

وقد تقدم قول الصديق رضي الله عنه في الكلالة: "أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان أراه ما خلا الوالد والولد" فلما استخلف عمر قال: "إني لأستحيي من الله أن أرد شيئا قاله أبو بكر" وقال الشعبي عن شريح قال: قال لي عمر: "اقض بما استبان لك من كتاب الله فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح" وقد اجتهد ابن مسعود في المفوضة وقال: "أقول فيها برأيي" ووفقه الله للصواب وقال سفيان: عن عبد الرحمن الأصبهاني عن عكرمة قال: "أرسلني ابن عباس إلى زيد بن ثابت أسأله عن زوج وأبوين فقال: للزوج النصف وللأم الثلث ما بقي وللأب

بقية المال فقال: تجده في كتاب الله أو تقوله برأيك قال أقوله برأيي ولا أفضل أما على أب" وقايس علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزيد بن ثابت في المكاتب وقايسه في الجد والإخوة وقاس ابن عباس الأضراس بالأصابع وقال عقلها سواء اعتبروها بها .

اجتماع الفقهاء على مسائل في القياس:

قال المزني: "الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا وهلم جرا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم" قال: "وأجمعوا بأن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها" .

قال أبو عمر بعد حكاية ذلك عنه: "ومن القياس المجمع عليه صيد ما عدا المكلب من الجوارح قياسا على الكلاب" بقوله: "وما علمتم من الجوارح مكلبين" قال عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ فدخل في ذلك المحصنون قياسا وكذلك قوله في الإماء ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ فدخل في ذلك العبد قياسا عند الجمهور إلا من شذ ممن لا يكاد يعد قوله خلافا وقال في جزاء الصيد المقتول في الإحرام ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً ﴾ فدخل فيه قتل الخطأ قياسا عند الجمهور إلا من شذ وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ فدخل في ذلك الكتابيات قياسا وقال في الشهادة في المداينات ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ فدخل في معنى ﴿ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قياسا المواريث والودائع والغصوب وسائر الأموال .

وأجمعوا على توريث البنتين الثلثين قياسا على الأختين وقال عمن أعسر بما بقي عليه من الربا ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ فدخل في ذلك كل معسر بدين حلال وثبت ذلك قياسا .

(230/264)

ومن هذا الباب توريث الذكر ضعفي ميراث الأنثى منفردا وإنما ورد النص في اجتماعهما بقوله ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ وقال ﴿ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ ومن هذا الباب أيضا قياس التظاهر بالبنت على التظاهر بالأم وقياس الرقبة في الظهر على الرقبة في القتل بشرط الإيمان وقياس تحريم الأختين وسائر القرابات من الإماء على الحرائر في الجمع في التسري قال وهذا لو تقصيته لطال به الكتاب .

الرد على من ينفون القياس:

قلت: بعض هذه المسائل فيها نزاع وبعضها لا يعرف فيها نزاع بين السلف وقد رام بعض نفاة القياس إدخال هذه المسائل المجمع عليها في العمومات اللفظية فأدخل قذف الرجال في قذف المحصنات وجعل المحصنات صفة للفروج لا للنساء وأدخل صيد الجوارح كلها في

قوله ﴿ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ﴾ وقوله ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ وإن كان من لفظ الكلب فمعناه مغرين لها على الصيد قاله مجاهد والحسن وهو رواية عن ابن عباس وقال أبو سليمان الدمشقي: "مكلبين معناه معلمين" وإنما قيل لهم مكلبين لأن الغالب من صيدهم إنما يكون بالكلاب .

وهؤلاء وإن أمكنهم ذلك في بعض المسائل كما جزموا بتحريم أجزاء الخنزير لدخوله في قوله: ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ وأعادوا الضمير إلى المضاف إليه دون المضاف فلا يمكنهم ذلك في كثير من المواضع وهم مضطرون فيها ولا بد إلى القياس أو القول بما لم يقل به غيرهم ممن تقدمهم فلا يعلم أحد من أئمة الفتوى يقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن فأرة وقعت في سمن: "ألقوها وما حولها وكلوه" إن ذلك مختص بالسمن دون سائر الأدهان والمائعات هذا مما يقطع بأن الصحابة والتابعين وأئمة الفتيا

(231/264)

لا يفرقون به بين السمن والزيت والشيرج والدبس كما لا يفرق بين الفأرة والهرة في ذلك وكذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الرطب بالتمر لا يفرق عالم يفهم عن الله ورسوله بين ذلك وبين بيع العنب بالزبيب ومن هذا أن الله سبحانه قال في المطلقة ثلاثا

﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا والمراد به تجديد العقد وليس ذلك مختصا بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق حلت للأول قياسا على الطلاق ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تأكلوا في آنية من الذهب والفضة ولا تشربوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة" وقوله: "الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم" وهذا التحريم لا يختص بالأكل والشرب بل يعم سائر وجوه الانتفاع فلا يحل له أن يغتسل بها ولا يتوضأ بها ولا يدهن فيها ولا يتكحل منها وهذا أمر لا يشك فيه عالم ومن ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم المحرم عن لبس القميص والسراويل والعمامة والخفين ولا يختص ذلك بهذه الأشياء فقط بل يتعدى النهي إلى الجباب والدلوق والمبطنات والفراجي والأقبية والعرقشينات وإلى القبع والطاقية والكوفية والكلوثة والطيلسان والقلنسوة وإلى الجوربين والجرموقين والزربول ذي الساق وإلى التبان ونحوه .

ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجار" فلو ذهب معه بخرقة وتنظف أكثر من الأحجار

أو قطن أو صوف أو خز ونحو ذلك جاز وليس للشارع غرض في غير التنظيف والإزالة فما كان أبلغ في ذلك كان مثل الأحجار في الجواز وأولى .

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يبيع الرجل على بيع أخيه أو يخطب على خطبته ومعلوم أن المفسدة التي نهى عنها في البيع والخطبة موجودة في الإجارة فلا يحل له أن يؤجر على إجارته وإن قدر دخول الإجارة في لفظ البيع العام وهو بيع المنافع فحقيقتها غير حقيقة البيع وأحكامها غير أحكامه .

ومن ذلك قوله سبحانه في آية التيمم ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾ فألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر على اختلافها في نقضها بالغائط والآية لم تنص من أنواع الحدث الأصغر إلا عليه وعلى اللمس على قول من فسره بما دون الجماع وألحقت الاحتلام بملامسة النساء وألحقت واجد ثمن الماء بواجده وألحقت من خاف على نفسه أو بهائمه من العطش إذا توضأ بالعادم فجوزت له التيمم وهو واجد للماء وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمريض في العدول عنه إلى البدل وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها وتعليق الحكم به وكونه متعلقا بمصلحة العبد أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة التناول لها

ليست بجرية الفهم مما لا ينكر تناول العمومين لها فمن الناس من يتنبه لهذا ومنهم من يتنبه لهذا ومنهم من يتفطن لتناول العمومين لها .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾ وقاست الأمة الرهن في الحضر على الرهن في السفر والرهن مع وجود الكاتب على الرهن مع عدمه فإن استدل على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم رهن

(233/264)

درعه في الحضر فلا عموم في ذلك فإنما رهنها على شعير استقرضه من يهودي فلا بد من القياس إما على الآية وإما على السنة ومن ذلك أن سمرة بن جندب لما باع خمر أهل الذمة وأخذه في العشور التي عليهم فبلغ عمر فقال قاتل الله سمرة أما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها" وهذا محض القياس من عمر رضي الله عنه فإن تحريم الشحوم على اليهود كتحريم الخمر على المسلمين وكما ثمن الشحوم المحرمة فكذلك يحرم ثمن الخمر الحرام .

ومن ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم جعلوا العبد على النصف من الحر في النكاح والطلاق والعدة قياسا على ما نص الله عليه من قوله ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ

فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال عبد الرزاق: أنا سفيان بن عيينة عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "ينكح العبد اثنيتن" .

وقال عبد الرزاق: أنبأنا سفيان الثوري وابن جريج قالا: ثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة قال: "ينكح العبد اثنتين" .

وذكر الإمام أحمد عن محمد بن سيرين قال: "سأل عمر بن الخطاب الناس: كم يتزوج العبد ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: "اثنتين وطلاقه ثنتان" وهذا كان بمحضر من الصحابة فلم ينكره أحد .

وقال محمد بن عبد السلام الخشني: حدثنا محمد بن المثنى ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث بن أبي سليم عن عطاء قال: "أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن العبد لا يجمع بين النساء فوق اثنتين" .

وروى حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس أن عمر قال:

"لو أستطيع أن أجعل عدة الأمة حيضة ونصفا لفعلت فقال رجل: يا أمير المؤمنين فاجعلها شهرا ونصف" فسكت .

وقال عبد الله بن عتبة عن عمر: "عدة الأمة إذا لم تحض شهران كعدتها إذا حاضت حيضتين".

وروى ابن عيينة عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عتبة عن عمر: "ينكح العبد امرأتين ويطلق طلقتين وتعتد الأمة حيضتين وإن لم تكن تحيض فشهرين أو شهرا ونصفا" وقال علي: "عدة الأمة حيضتان فإن لم تكن تحيض فشهر ونصف".

والمقصود أن الصحابة رضي الله عنهم نصفوا ذلك قياسا على تنصيف الله سبحانه الحد على الأمة.

ومن ذلك أن الصحابة قدموا الصديق في الخلافة وقالوا: "رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟" فقاسوا الإمامة الكبرى على إمامة الصلاة وكذلك اتفاقهم على كتابة المصحف وجمع القرآن فيه وكذلك اتفاقهم على جمع الناس على مصحف واحد وترتيب واحد وحرف واحد وكذلك منع عمر وعلي من بيع أمهات الأولاد برأيهما وكذلك تسوية الصديق بين الناس في العطاء برأيه وتفضيل عمر برأيه وكذلك إلحاق عمر حد الخمر بحد القذف برأيه وأقره الصحابة وكذلك توريث عثمان بن عفان رضي الله عنه المبتوتة في مرض الموت برأيه ووافقه الصحابة وكذلك قول ابن عباس في نهي

النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام قبل قبضه قال: "أحسب كل شيء بمنزلة الطعام" وكذلك عمر وزيد لما ورثا الأم ثلث ما بقي في مسألة زوج وأبوين وامرأة وأبوين قاسا وجود الزوج على ما إذا لم يكن زوج فإنه حينئذ يكون للأب ضعف ما للأم فقدرا أن الباقي بعد الزوج والزوجة كل المال وهذا من أحسن القياس فإن قاعدة الفرائض أن الذكر والأنثى إذا اجتمعا وكانا في درجة واحدة فإما أن يأخذ الذكر ضعف ما تأخذه الأنثى كالأولاد وبني الأب

(235/264)

وإما أن تساويه كولد الأم وأما أن الأنثى تأخذ ضعف ما يأخذ الذكر مع مساواته لها في درجته فلا عهد به في الشريعة فهذا من أحسن الفهم عن الله ورسوله وكذلك أخذ الصحابة في الفرائض بالعول وإدخال النقص على جميع ذوي الفروض قياسا على وإدخال النقص على الغرماء إذا ضاق مال المفلس عن توفيتهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للغرماء: "خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك" وهذا محض العدل على أن تخصيص بعض المستحقين بالحرمان وتوفية بعضهم بأخذ نصيبه ليس من العدل.

اتفاق الصحابة في قياس حد الشرب على حد القذف:

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن أيوب السختياني عن عكرمة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاور الناس في حد الخمر وقال: "إن الناس قد شربوها واجترءوا عليها" فقال له علي كرم الله وجهه: "إن السكران إذا سكر هذى وإذا هذى افترى فاجعله حد الفرية" فجعله عمر حد الفرية ثمانين ورواه مالك عن ثور بن زيد الديلي أن عمر شاور الناس ورواه وكيع حدثنا ابن أبي خالد عن الشعبي قال: "استشارهم عمر" فذكره ولم ينفرد علي بهذا القياس بل وافقه عليه الصحابة قال الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن ابن عوف عن وبرة الصلي قال: "بعثني خالد بن الوليد إلى عمر فأتيته وعنده علي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف متكئون في المسجد فقلت: له إن خالد بن الوليد يقرأ عليك السلام ويقول لك إن الناس انبسطوا في الخمر وتحاقروا العقوبة فما ترى فقال: عمر هم هؤلاء عندك قال: فقال علي: أراه إذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفتري ثمانون فاجتمعوا على ذلك فقال عمر: بلغ صاحبك ما قالوا فضرب خالد ثمانين وضرب عمر ثمانين" قال: "وكان عمر إذا أتي بالرجل القوي المنتهك في الشراب ضربه ثمانين وإذا أتى بالرجل الذي كان منه الزلة الضعيف ضربه أربعين وجعل ذلك عثمان أربعين وثمانين" وهذه مراسيل ومسندات من وجوه متعددة يقوي بعضها بعضا وشهرتها تغني عن إسنادها .

الصحابة يقيسون في فرض الجد مع الإخوة:

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري عن عيسى بن أبي عيسى الخياط عن الشعبي قال: "كره عمر الكلام في الجد حتى صار جدا" وقال: "إنه كان من رأي أبي بكر أن الجد أولى من الأخ" وذكر الحديث وفيه فسأل عنها زيد بن ثابت فضرب له مثلا بشجرة خرجت ولها أغصان قال: فذكر شيئا لا أحفظه فجعل له الثلث قال الثوري: "وبلغني أنه قال يا أمير المؤمنين شجرة نبتت فانشعب منها غصن فانشعب من الغصن غصنان فما جعل الغصن الأول أولى من الغصن الثاني وقد خرج الغصنان من الغصن الأول" قال: "ثم سأل عليا فضرب له مثلا واديا سال فيه سيل فجعله أخا فيما بينه وبين ستة فأعطاه السدس وبلغني أن عليا كرم الله وجهه حين سأله عمر جعله سيلا" قال: "فانشعب منه شعبة ثم انشعبت شعبتان" فقال: "أرأيت لو أن هذه الشعبة الوسطى تيبس أما كانت ترجع إلى الشعبتين جميعا" قال الشعب: "فكان زيد يجعله أخا حتى يبلغ ثلاثة هو ثالثهم فإن زادوا على أعطاه الثلث" وكان علي يجعله أخا ما بينه وبين ستة وهو سادسهم ويعطيه السدس فإن زادوا على ستة أعطاه السدس وصار ما بقي بينهم وقال القاضي إسماعيل بن إسحاق حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه أن عمر بن الخطاب لما استشار في ميراث

الجد والإخوة قال زيد : "وكان رأيي يومئذ أن الإخوة أحق بميراث أخيهم من الجد وعمر بن الخطاب يرى يومئذ أن الجد أولى بميراث ابن ابنه من إخوته فتحاورت أنا وعمر محاورة شديدة فضربت له في ذلك مثلا فقلت لو أن شجرة تشعب من أصلها غصن ثم تشعب في ذلك الغصن خوطان ذلك الغصن يجمع الخوطين دون الأصل

(237/264)

ويغذوهما ألا ترى يا أمير المؤمنين أن أحد الخوطين أقرب إلى أخيه منه إلى الأصل قال زيد فأنا أعذله وأضرب له هذه الأمثال وهو يأبى إلا أن الجد أولى من الإخوة" ويقول والله لو أني قضيته اليوم لبعضهم لقضيت به للجد كله ولكن لعلى لا أخيب منهم أحدا ولعلهم أن يكونوا كلهم ذوى حق وضرب على وابن عباس لعمر يومئذ مثلا معناه لو أن سيلا سال فخلج منه خليج ثم خلج من ذلك الخليج شعبتان .

ورأى الصديق أولى من هذا الرأي وأصح في القياس لعشرة أوجه ليس هذا موضع ذكرها .

والجواب عن هذه الأمثلة: أن المقصود أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يستعملون القياس في الأحكام ويعرفونها بالأمثال والأشباه والنظائر ولا يلتفت إلى من يقدح في كل سند من

هذه الأسانيد وأثر من هذه الآثار فهذه في تعددها واختلاف وجوهها وطرقها جارية مجرى التواتر المعنوي الذي لا يشك فيه وإن لم يثبت كل فرد فرد من الأخبار به .

وقال عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج قال: أخبرني عمرو قال: أخبرني حي بن يعلى بن أمية أنه سمع أباه يقول وذكر قصة الذي قتلته امرأة أبيه وخليلها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أن اقتلهما فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم قال ابن جريج: فأخبرني عبد الكريم وأبو بكر قالا جميعا : "إن عمر كان يشك فيها حتى قال له علي يا أمير المؤمنين أرأيت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم قال: نعم قال: وذلك حين استخرج له الرأي" .

قياس ابن عباس في مناقشته مع الخوارج:

وقال عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج عمن حدثه عن ابن عباس قال: "أرسلني علي إلى الحرورية لأكلمهم فلما قالوا: لا حكم إلا لله قلت أجل صدقتم لا حكم إلا لله وإن الله حكم في رجل وامرأته وحكم

في قتل الصيد فالحكم في رجل وامرأته والصيد أفضل أم الحكم في الأمة يرجع بها ويحقن دماءها ويلم شعثها" .

وقال عبد الله بن المبارك: حدثنا عكرمة بن عمار ثنا سماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول: "قال علي: لا تقاتلوهم حتى يخرجوا فإنهم سيخرجون قال: قلت يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة فإني أريد أن أدخل عليهم فأسمع من كلامهم وأكلمهم فقال علي: أخشى عليك منهم قال: وكنت رجلا حسن الخلق لا أوذي أحدا قال فلبست أحسن ما يكون من اليمنية وترجلت ثم دخلت عليهم وهم قائلون فقالوا لي: ما هذا اللباس فتلوت عليهم القرآن قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس أحسن ما يكون من اليمنية فقالوا: لا بأس فما جاء بك فقلت أتيتكم من عند صاحبي وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بالوحي منكم وعليهم نزل القرآن أبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم فما الذي نقمتم فقال: بعضهم إن قريشا قوم خصمون قال الله عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ فقال بعضهم: كلموه فانتحى لي رجلان رجلان أو ثلاثة فقالوا: إن شئت تكلمت وإن شئت تكلمنا فقلت: بل تكلموا فقالوا: ثلاث نقمناهن عليه جعل الحكم إلى الرجال وقال الله: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فقلت: قد جعل الله الحكم من أمره إلى الرجال في ربع درهم في الأرنب وفي المرأة وزوجها فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أفخرجت من هذه قالوا: نعم قالوا: وأخرى محا نفسه أن يكون أمير المؤمنين فإن لم

يكن أمير المؤمنين فأمير الكافرين هو فقلت: لهم أرأيتم إن قرأت من كتاب الله عليكم وجئتكم به من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أترجعون قالوا: نعم قلت: قد سمعتم أو أراه قد بلغكم أنه لما كان يوم الحديبية جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك فقال رسول الله صلى الله عليه

(239/264)

وسلم لعلي

"امح يا علي" أفخرجت من هذه قالوا: نعم قال: وأما قولكم قتل ولم يسب ولم يغنم أفتسبون أمكم وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها فإن قلتم نعم فقد كفرتم بكتاب الله وخرجتم من الإسلام فأنتم بين ضلالتين وكلما جئتهم بشيء من ذلك أقول: أفخرجت منها فيقولون نعم قال: فرجع منهم ألفان وبقي ستة آلاف" وله طرق عن ابن عباس وقياسه المذكور من أحسن القياس وأوضحه.

وقد أنكر ابن عباس على زيد بن ثابت مخالفته للقياس في مسألة الجد والإخوة فقال ألا يتقي

الله زيد يجعل ابن الابن ابنا ولا يجعل أب الأب أبا وهذا محض القياس .

ولما خص الصديق أم الأم بالميراث دون أم الأب قال له بعض الأنصار لقد ورثت امرأة من ميت لو كانت هي الميتة لم يرثها وتركت امرأة لو كانت هي الميتة ورث جميع ما تركت فشرك بينهما .

قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن يحي بن سعيد عن القاسم بن محمد قال: "جاءت جدتان إلى أبي بكر فأعطى الميراث أم الأم دون أم الأب فقال: له رجل من الأنصار من بني حارثة يقال له عبد الرحمن بن سهل يا خليفة رسول الله قد أعطيت الميراث التي لو ماتت لم يرثها فجعل الميراث بينهما" .

ولما شهد أبو بكرة وأصحابه على المغيرة بن شعبة بالحد ولم يكملوا النصاب حدهم عمر قياسا على القاذف ولم يكونوا قذفه بل شهودا وقال عثمان لعمر: "إن تتبع رأيك فرأيك أسد وإن تتبع رأي من قبلك فلنعلم ذو الرأي كان" وقال علي: "اجتمع رأيي ورأي عمر في بيع أمهات الأولاد أن لا يبعن ثم رأيت بيعهن فقال له قاضيه عبيدة السلماني يا أمير المؤمنين رأيك مع رأي عمر في الجماعة أحب إلينا من رأيك وحدك في الفرقة" .

ولما أرسل عمر إلى المرأة فأسقطت جنينها استشار الصحابة فقال له عبد الرحمن بن عوف وعثمان: "إنما أنت مؤدب ولا شيء عليك" وقال له علي: "أما المأثم فأرجو أن يكون محطوطا عنك وأرى عليك الدية فقاسه عثمان

وعبد الرحمن على مؤدب امرأته وغلامه وولده وقاسه علي على قاتل الخطأ فاتبع عمر قياس علي" .

ولما احتضر الصديق رضي الله عنه أوصى بالخلافة إلى عمر رضى الله عنه وقاس ولايته لمن بعده إذ هو صاحب الحل والعقد على ولاية المسلمين له إذا كانوا هم أهل الحل والعقد وهذا من أحسن القياس .

رآى الصحابة في المرآة المخيرة:

وقال على كرم الله وجهه: "سألني أمير المؤمنين عمر عن الخيار فقلت: إن اختارت زوجها فهي واحدة وهو أحق بها وإن اختارت نفسها فهي واحدة بائنة فقال: ليس كذلك إن اختارت نفسها فهي واحدة وهو أحق بها وإن اختارت زوجها فلا شيء فاتبعته على ذلك فلم خلص الأمر إلى وعلمت أنى أسأل عن الفروج عدت إلى ما كنت أرى فقال له زاذان: لأمر جامعت عليه أمير المؤمنين وتركت رأيك له أحب إلينا من أمر انفردت به فضحك وقال: أما إنه قد أرسل إلى زيد بن ثابت وخالفني وإياه وقال: إن اختارت زوجها فهى واحدة وزوجها أحق بها وإن اختارت نفسها فهي ثلاث" وهذا رأى منهم كلهم رضى

الله عنهم ورأى عمر رضى الله عنه أقوى وأصح .

وقال عمر لعلى: "إني قد رأيت في الجد رأيا فاتبعوني فقال على رضى الله عنه: إن نتبع رأيك فرأيك رشيد وإن نتبع رأى من قبلك فنعم ذو الرأي كان" وهل مع زيد بن ثابت في مسائل الجد والأخوة والمعادة والأكدرية نص من القرآن أوسنة أو إجماع إلا مجرد الرأي .

ومن ذلك اختلافهم في قول الرجل لامرأته: "أنت على حرام" فقال شيخا الإسلام وبصرا الدين وسمعه أبو بكر وعمر: "هو يمين" وتبعهما حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس وقال سيف الله على كرم الله وجهه وزيد: "هو طلاق ثلاث" وقال ابن مسعود: "طلقة واحدة" وهذا من الاجتهاد والرأي

الصحابة أول من قاسوا واجتهدوا:

(241/264)

فالصحابة رضى الله عنهم مثلوا الوقائع بنظائرها وشبهوها بأمثالها وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها وفتحوا للعلماء باب الاجتهاد ونهجوا لهم طريقه وبينوا لهم سبيله وهل يستريب عاقل في أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: "لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان" إنما كان ذلك لأن الغضب يشوش عليه قلبه وذهنه ويمنعه من كمال الفهم ويحول

بينه وبين استيفاء النظر ويعمى عليه طريق العلم والقصد فمن قصر النهى على الغضب وحده دون الهم المزعج والخوف المقلق والجوع والظمأ الشديد وشغل القلب المانع من الفهم فقد قل فقهه وفهمه والتعويل في الحكم على قصد المتكلم والألفاظ لم تقصد لنفسها وإنما هي مقصودة للمعاني والتوصل بها إلى معرفة مراد المتكلم ومراده يظهر من عموم لفظه تارة ومن عموم المعنى الذي قصده تارة وقد يكون فهمه من المعنى أقوى وقد يكون من اللفظ أقوى وقد يتقاربان كما إذا قال الدليل لغيره لا تسلك هذا الطريق فإن فيها من يقطع الطريق أو هي معطشة مخوفة علم هو وكل سامع أن قصده أعم من لفظه وأنه أراد نهيه عن كل طريق هذا شأنها فلو خالفه وسلك طريقا أخرى عطب بها حسن لومه ونسب إلى مخالفته ومعصيته ولو قال الطبيب للعليل وعنده لحم ضأن لا تأكل الضأن فإنه يزيد في مادة المرض لفهم كل عاقل منه أن لحم الإبل والبقر كذلك ولو أكل منهما لعد مخالفا والتحاكم في ذلك إلى فطر الناس وعقولهم ولو من عليه غيره بإحسانه فقال والله لا أكلت له لقمة ولا شربت له ماء يريد خلاصه من منته عليه ثم قبل منه الدراهم والذهب والثياب والشاة ونحوها لعده العقلاء واقعا فيما هو أعظم مما حلف عليه ومرتكبا لذروة سنامه ولو لامه عاقل على كلامه لمن لا يليق به محادثته من امرأة أوصي فقال والله لا كلمته ثم رآه خاليا به يواكله ويشاربه ويعاشره ولا يكلمه لعدوه مرتكبا لأشد مما حلف عليه وأعظمه .

العمل بالقياس فطرة فطر الله عليها الناس:

وهذا مما فطر الله عليه عباده ولهذا فهمت الأمة من قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ﴾ جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها .

وفهمت من قوله تعالى ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى فلو بصق رجل في وجه والديه وضربهما بالنعل وقال إني لم أقل لهما أف لعده الناس في غاية السخافة والحماقة والجهل من مجرد تفريقه بين التأفيف المنهي عنه وبين هذا الفعل قبل أن يبلغه نهي غيره ومنع هذا مكابرة للعقل والفهم والفطرة فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده والألفاظ لم تقصد لذواتها وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه سواء كان بإشارة أو كتابة أو بإيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة لا يخل بها أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره ومشبهه فيقطع العارف به وبحكمته وأوصافه على أنه يريد هذا ويكره هذا ويحب هذا ويبغض هذا وأنت تجد من

له اعتناء شديد بمذهب رجل وأقواله كيف يفهم مراده من تصرفه ومذاهبه ويخبر عنه بأنه يفتي بكذا ويقوله وأنه لا يقول بكذا ولا يذهب إليه لما لا يوجد في كلامه صريحا وجميع أتباع الأئمة مع أئمتهم بهذه المثابة .

العبرة بالإرادة لا باللفظ:

وهذا أمر يعم أهل الحق والباطل لا يمكن دفعه فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة فإذا دعي إلى

غداء فقال: والله لا أتغدى أو قيل له "نم" فقال: والله لا أنام أو "اشرب هذا الماء" فقال: والله لا أشرب فهذه كلها ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم التي يقطع السامع عند سماعها بأنه لم يرد النفي العام إلى آخر العمر والألفاظ ليست تعبدية والعارف يقول ماذا أراد واللفظي يقول ماذا قال كما كان الذين لا يفقهون إذا خرجوا من عند النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ماذا قال آنفا وقد أنكر الله سبحانه عليهم وعلى أمثالهم بقوله: ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ فذم من لم يفقه كلامه والفقه أخص من الفهم وهو فهم مراد المتكلم من كلامه وهذا قدر زائد على مجرد وضع اللفظ في اللغة

وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم .

وقد كان الصحابة يستدلون على إذن الرب تعالى وإباحته بإقراره وعدم إنكاره عليهم في زمن الوحي وهذا استدلال على المراد بغير لفظ بل بها عرف من موجب أسمائه وصفاته وأنه لا يقر على باطل حتى يبينه وكذلك استدلال الصديقة الكبرى أم المؤمنين خديجة بما عرفته من حكمة الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته ورحمته أنه لا يخزي محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه يصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق وإن من كان بهذه المثابة فإن العزيز الرحيم الذي هو أحكم الحاكمين وإله رب العالمين لا يخزيه ولا يسلط عليه الشيطان وهذا استدلال منها قبول ثبوت النبوة والرسالة بل استدلال على صحتها وثبوتها في حق من هذا شأنه فهذا معرفة منها بمراد الرب تعالى وما يفعله من أسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وإحسانه ومجازاته المحسن بإحسانه وأنه لا يضيع أجر المحسنين وقد كانت الصحابة أفهم الأمة لمراد نبيها وأتبع له وإنما كانوا يدندنون حول معرفة مراده ومقصوده ولم يكن أحد منهم يظهر له مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعدل عنه إلى غيره البتة .

كيف يعرف مراد المتكلم:

والعلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه وتارة من عموم علته

والحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ وعلى الثاني أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر .

أغلاط أصحاب الألفاظ وأصحاب المعاني:

وقد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفة مراد المتكلم فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها وهضمها تارة وتحميلها فوق ما أريد بها تارة ويعرض لأرباب المعاني فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ فهذه أربع آفات هي منشأ غلط الفريقين .

ونحن نذكر بعض الأمثلة لذلك ليعتبر به غيره فنقول:

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فلفظ الخمر عام ففي كل مسكر فإخرج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها تقصير به وهضم لعمومه بل الحق ما قاله صاحب الشرع كل مسكر خمر وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمه لها تقصير أيضا به وهضم لمعناه فما الذي جعل النرد الخالي عن العوض من الميسر وأخرج الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر كما قال غير واحد من السلف إنه ميسر وقال علي كرم الله وجهه: "هو ميسر العجم" .

وأما تحميل اللفظ فوق ما يحتمله فكما حمل لفظ قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ وقوله في آية البقرة ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ مسألة العينة التي هي ربا بحيلة وجعلها من التجارة لعمر الله إن الربا الصريح تجارة للمرابي وأي تجارة وكما حمل قوله تعالى: ﴿ فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ على مسألة التحليل وجعل التيس المستعار الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلا في اسم الزوج وهذا في التجارة يقابل الأول في التقصير .

ولهذا كان معرفة حدودها ما أنزل الله على رسوله أصل العلم وقاعدته وأخيته التي يرجع إليها فلا يخرج شيئا من معاني ألفاظه عنها ولا يدخل فيها ما ليس منها بل يعطيها حقها ويفهم المراد منها .

ومن هذا لفظ الإيمان والحلف أخرجت طائفة منه الإيمان الالتزامية التي يلتزم صاحبها بها إيجاب شيء أو تحريمه وأدخلت طائفة فيها التعليق المحض الذي لا يقتضي حضا ولا منعا والأول نقص من المعنى والثاني تحميل له فوق معناه .

ومن ذلك لفظ الربا أدخلت فيه طائفة ما لا دليل على تناول اسم الربا له كبيع الشيرج بالسمسم والدبس بالعنب والزيت بالزيتون وكل ما استخرج من ربوي وعمل منه بأصله وإن خرج عن اسمه ومقصوده وحقيقته وهذا لا دليل عليه يوجب المصير إليه من من كتاب ولا من سنة ولا إجماع ولا ميزان صحيح وأدخلت فيه من مسائل مد عجوة ما هو أبعد شيء عن الربا وأخرجت طائفة أخرى منه ما هو من الربا الصحيح حقيقة قصدا وشرعا كالحيل الربوية التي هي أعظم مفسدة من الربا الصريح ومفسدة الربا البحت الذي لا يتوصل إليه بالسلاليم أقل بكثير وأخرجت منه طائفة بيع الرطب بالتمر وإن كان كونه من الربا أخفى من كون الحيل الربوية منه فإن التماثل موجود فيه في الحال دون المآل وحقيقة الربا في الحيل الربوية أكمل وأتم منها في العقد الربوي الذي لا حيلة فيه .

ومن ذلك لفظ البينة قصرت بها طائفة فأخرجت منه الشاهد واليمين وشهادة العبيد العدول الصادقين المقبولي القول على الله ورسوله وشهادة النساء منفردات في المواضع التي لا يحضرهن فيه الرجال كالأعراس والحمامات وشهادة الزوج في اللعان إذا نكلت المرأة وأيمان المدعين الدم إذا ظهر اللوث ونحو ذلك ما يبين الحق أعظم من بيان الشاهدين

وشهادة القاذف وشهادة الأعمى على ما يتيقنه وشهادة أهل الذمة على الوصية في السفر إذا لم يكن هناك مسلم وشهادة الحال في تداعي الزوجين متاع البيت وتداعي النجار والخياط آلتهما ونحو ذلك وأدخلت فيه طائفة ما ليس منه كشهادة مجهول الحال الذي لا يعرف بعدالة ولا فسق وشهادة وجوه الأجر ومعاقد القمط ونحو ذلك والصواب أن كل ما بين الحق فهو بينة ولم يعطل الله ولا رسوله حقا بعد ما تبين بطريق

(247/264)

من الطرق أصلا بل حكم الله ورسوله الذي لا حكم له سواه أنه متى ظهر الحق ووضح بأي طريق كان وجب تنفيذه ونصره وحرم تعطيله وإبطاله وهذا باب يطول استقصاؤه ويكفي المستبصر التنبيه عليه وإذا فهم هذا في جانب اللفظ فهم نظيره في جانب المعنى سواء .

الظاهرية وأصحاب الرأي مفرطون:

وأصحاب الرأي والقياس حملوا معاني النصوص فوق ما حملها الشارع وأصحاب الألفاظ والظواهر قصروا بمعانيها عن مراده فأولئك قالوا: "إذا وقعت قطرة من دم في البحر فالقياس أنه ينجس" ونجسوا بها الماء الكثير مع أنه لم يتغير منه شيء البتة بتلك القطرة وهؤلاء قالوا: "إذا بال جرة من بول وصبها في الماء لم تنجسه وإذا بال في الماء نفسه ولو أدنى

شيء نجسه" ونجس أصحاب الرأي والمقاييس القناطير المقنطرة ولو كانت ألف ألف قنطار من سمن أو زيت أو شيرج بمثل رأس الإبرة من البول والدم والشعرة الواحدة من الكلب والخنزير عند من ينجس شعرهما وأصحاب الظواهر والألفاظ عندهم لو وقع الكلب والخنزير بكماله أو أي ميتة كانت في أي ذائب كان من زيت أو شيرج أو خل أو دبس أو ودك غير السمن ألقيت الميتة فقط وكان ذلك المائع حلالا طاهرا كله فإن وقع ما عدا الفأرة في السمن من كلب أو وخنزير أو أي نجاسة كانت فهو طاهر حلال ما لم يتغير. ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنتقب المرأة ولا تلبس القفازين" يعني في الإحرام فسوى بين يديها ووجها في النهي عما صنع على قدر العضو ولم يمنعها من تغطية وجهها ولا أمرها بكشفه البتة ونساؤه صلى الله عليه وسلم أعلم الأمة بهذه المسألة وقد كن يسدلن على وجوههن إذا حاذاهن الركبان فإذا جاوزوهن كشفن وجوههن وروى وكيع عن شعبة عن يزيد الرشك عن معاذة العدوية قالت: سألت عائشة: "ما تلبس المحرمة؟ فقالت: لا تنتقب ولا تتلثم وتسدل الثوب على وجهها" فجاوزت طائفة ذلك

ومنعتها من تغطية وجهها جملة قالوا: وإذا سدلت على وجهها فلا تدع الثوب يمس وجهها فإن مسه افتدت ولا دليل على هذا البتة وقياس قول هؤلاء إنها إذا غطت يدها افتدت فإن النبي صلى الله عليه وسلم سوى بينهما في النهي وجعلهما كبدن المحرم فنهى عن لبس القميص والنقاب والقفازين هذا للبدن وهذا للوجه وهذا لليدين ولا يحرم ستر البدن فكيف يحرم ستر الوجه في حق المرأة مع أمر الله لها أن تدني عليها من جلبابها لئلا تعرف ويفتتن بصورتها ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المحرم ولا يخمر رأسه لجاز تغطيته بغير العمامة.

وقد روى الإمام أحمد عن خمسة من الصحابة عثمان وابن عباس وعبد الله ابن الزبير وزيد بن ثابت وجابر أنهم كانوا يخمرون وجوههم وهم محرمون فإذا كان هذا في حق الرجل وقد أمر بكشف رأسه فالمرأة بطريق الأولى والأحرى.

وقصرت طائفة أخرى فلم تمنع المحرمة من البرقع ولا اللثام قالوا: إلا أن يدخلا في اسم النقاب فتمنع منه وعذر هؤلاء أن المرجع إلى ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ودخل في لفظ المنهي عنه فقط والصواب النهي عما عما دخل في عموم لفظه وعموم معناه وعلته فإن البرقع واللثام وإن لم يسميا نقابا فلا فرق بينهما وبينه بل إذا نهيت عن النقاب فالبرقع واللثام أولى ولذلك منعتها أم المؤمنين من اللثام.

ومن ذلك لفظ الفدية أدخل فيها طائفة خلع الحيلة على فعل المحلوف عليه مما هو ضد

الفدية إذ المراد بقاء النكاح بالخلاص من الحنث وهي إنما شرعت لزوال النكاح عند الحاجة إلى زواله وأخرجت منه طائفة ما فيه حقيقة الفدية ومعناها واشترطت له لفظا معنيا وزعمت أنه لا يكون فدية وخلعا إلا به

(249/264)

وأولئك تجاوزوا به وهؤلاء قصروا به والصواب أن كل ما دخله المال فهو فدية بأي لفظ كان والألفاظ لم ترد لذواتها ولا تعبدنا بها وإنما هي وسائل إلى المعاني فلا فرق قط بين أن تقول اخلعني بألف أو فادني بألف لا حقيقة ولا شرعا ولا لغة ولا عرفا وكلام ابن عباس والإمام أحمد عام في ذلك لم يقيده أحدهما بلفظ ولا استثنى لفظا دون لفظ بل قال ابن عباس: "عامة طلاق أهل اليمن الفداء" وقال الإمام أحمد: "الخلع فرقة وليس بطلاق" وقال: "الخلع ما كان من جهة النساء" وقال: "ما أجازه المال فليس بطلاق" وقال: "إذا خالعها بعد تطليقتين فإن شاء راجعها فتكون معه على واحدة".

وقال في رواية أبي طالب: "الخلع مثل حديث سهلة إذا كرهت المرأة الرجل" وقالت: "لا أبرأ لك قسما ولا أطيع لك أمرا ولا أغتسل لك من جنابة فقد حل له أن يأخذ منها ما أعطاها" لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أتردين عليه حديقته" قلت: وقد قال في

الحديث: "اقبل الحديقة وطلقها تطليقة" وجعل أحمد ذلك فداء .

وقال ابن هانىء: "سئل أبو عبد الله عن الخلع: أفسخ أم طلاق هو أم تذهب إلى حديث ابن عباس كان يقول فرقة وليس بطلاق ؟ فقال أبو عبد الله: كان ابن عباس يتأول في هذه الآية: ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ " وكان ابن عباس يقول: "هو فداء" قال ابن عباس: "ذكر الله الطلاق في أول الآية والفداء في وسطها وذكر الطلاق بعد" فالفداء ليس هو بطلاق وإنما هو فداء فجعل ابن عباس وأحمد الفداء فداء لمعناه لا للفظه وهذا هو الصواب فإن الحقائق لا تتغير بتغير الألفاظ وهذا باب يطول تتبعه .

(250/264)

والمقصود أن الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ولا يقصر بها ويعطي اللفظ حقه والمعنى حقه وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه وأخبرهم أنهم أهل العلم ومعلوم أن الاستباط إنما هو استنباط المعاني والعلل ونسبة بعضها إلى بعض فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله ومشبهه ونظيره ويلغي ما لا

يصح هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهري: الاستنباط كالاستخراج ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط وإنما تنال به العلل والمعاني والأشباه والنظائر ومقاصد المتكلم والله سبحانه ذم من سمع ظاهرا مجردا فأذاعه وأفشاه وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه .

يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفي على غير مستنبطه ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين ومن هذا قول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل: "هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس ؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه" .

ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ومراد المتكلم بكلامه ومعرفة حدود كلامه بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد .

وأنت إذا تأملت قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وأن هذا القرآن جاء من

عند الله وأن الذي جاء به روح مطهر فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ووجدت الآية أخت قوله ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ

(251/264)

وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ووجدتها دالة أيضا بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في ذباب ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ "لا يمسه" لا يجد طعمه ولا نفعه إلا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ وتجد تحته أيضا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة وان القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي رضي الله عنه .

وتأمل قوله تعالى لنبيه ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ كيف يفهم منه أنه إذا كان وجود بدنه وذاته فيهم دفع عنهم العذاب وهم أعداؤه فكيف وجود سره والإيمان به

ومحبته ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص أفليس دفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحرى ؟ .

(252/264)

وتأمل قوله تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ كيف تجد تحته بألطف دلالة وأدقها وأحسنها أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر فإذا وقعت الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر تقع مكفرة باجتناب الشرك وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: "ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة" وقوله: "إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه" بل محو التوحيد الذي هو توحيد الكبائر أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر

وتأمل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ كيف نبههم بالسفر الحسي على السفر إليه

وجمع لهم بين السفرين كما جمع لهم الزادين في قوله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ فجمع لهم بين زاد سفرهم وزاد معادهم وكما جمع بين اللباسين في قوله ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فذكر سبحانه زينة ظواهرهم وبواطنهم ونبههم بالحسي على المعنوي وفهم هذا القدر زائد على فهم مجرد اللفظ ووضعه في أصل اللسان والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعلام الموقعين حـ 1 صـ 130 . 227 ﴾

(253/264)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/265)

الجزء الخامس والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 13 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 23 ﴾ من نفس السورة

(4/265)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا أمراً ظاهراً ، وكان مجرد التكبر على الله كفراً على أيّ وجه كان ، أعرض عن جوابه بغير الطرد الذي معناه نزوله المنزلة الذي موضع ما طلب من علوها فاستأنف قوله ﴿ قال ﴾ مسبباً عن إبائه قوله : ﴿ فاهبط منها ﴾ مضمراً للدار التي كان فيها وهي الجنة .

فإنها لا تقبل عاصياً ، وعبر بالهبوط الذي يلزم منه سقوط المنزلة دون الخروج ، لأن مقصود هذه السورة الإنذار وهو أدل عليه ، وسبب عن أمره بالهبوط الذي معناه النزول والحدور والانحطاط والنقصان والوقوع في شيء منه قوله : ﴿ فما يكون ﴾ أي يصح ويتوجه بوجه من الوجوه ﴿ لك أن تتكبر ﴾ أي تتعمد الكبر وهو الرفعة في الشرف والعظمة والتجبر ، ولا مفهوم لقوله ﴿ لك ﴾ ولا لقوله ﴿ فيها ﴾ لوجود الصرائح بالمنع من الكبر مطلقاً ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ [النحل : 23] ، ﴿ كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر ﴾ [غافر : 35] ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ [غافر : 48] ، وإنما قيد بذلك تهويلاً للأمر ، فكأنه قيل : لا ينبغي التكبر إلا لنا ، وكلما قرب الشخص من محل القدس الذب هو مكان المطيعين المتواضعين جل تحريم الكبر عليه " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل كبر " رواه مسلم وغيره عن ابن مسعود رضي الله

عنه ، وسبب عن كونها لا تقبل الكبر قوله : ﴿ فاخرج ﴾ أي من الجنة دار الرضوان ، فانتقى أن يكون الهبوط من موضع عال من الجنة إلى موضع منها أحط منه ، ثم علل أمره بالهبوط والخروج بقوله مشيراً إلى كل من أظهر الاستكبار ألبس الصغار : ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ أي الذين هم أهل للطرد والبعد والحقارة والهوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 12.13 ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا ﴾ فلا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى ، ومثل هذه المناظرة بين الله سبحانه وبين إبليس مذكور في سورة ﴿ ص ﴾ على سبيل الاستقصاء .

(5/265)

إذا ثبت هذا فنقول : إنه لم يتفق لأحد من أكابر الأنبياء عليهم السلام مكالمة مع الله مثل ما اتفق لإبليس ، وقد عظم الله تشريف موسى بأن كلمه حيث قال : ﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : 143] وقال : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] فإن كانت هذه المكالمة تفيد الشرف العظيم فكيف حصلت على

أعظم الوجوه لإبليس ؟ وإن لم توجب الشرف العظيم ، فكيف ذكره الله تعالى في معرض التشريف الكامل لموسى عليه السلام ؟

والجواب : أن بعض العلماء قال : إنه تعالى قال لإبليس على لسان من يؤدي إليه من الملائكة ما منعك من السجود ؟ ولم يسلم أنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة .

قالوا : لأنه ثبت أن غير الأنبياء لا يخاطبهم الله تعالى إلا بواسطة ، ومنهم من قال : إنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة ، ولكن على وجه الإهانة بدليل أنه تعالى قال له : ﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ وتكلم مع موسى ومع سائر الأنبياء عليهم السلام على سبيل الإكرام ألا ترى أنه تعالى قال لموسى : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ [طه : 13] وقال له ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِى ﴾ [طه : 41] وهذا نهاية الإكرام .

قوله تعالى : ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾ قال ابن عباس : يريد من الجنة ، وكانوا في جنة عدن وفيها خلق آدم .

وقال بعض المعتزلة : إنه إنما أمر بالهبوط من السماء ، وقد استقصينا الكلام في هذه المسألة في سورة البقرة .

﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أي في السماء .

قال ابن عباس : يريد أن أهل السموات ملائكة متواضعون خاشعون فاخرج إنك من الصاغرين ، والصغار الذلة .

قال الزجاج : إن إبليس طلب التكبر فابتلاه الله تعالى بالذلة والصغار تنبيهاً على صحة ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : " من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله " وقال بعضهم : لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 30 ﴾ . بتصرف يسير .

(6/265)

وقال السمرقندى :

ثم قال له عز وجل : ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾

قال مقاتل : أي اهبط من الجنة ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة .

وقال الكلبي : فاهبط منها أي اخرج من الأرض والحق بجزائر البحور ، ولا تدخل الأرض إلا كهيئة السارق وعليه ذل الخوف وهو يروغ فيها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، لا ينبغي لك أن تتكبر في هذه الأرض على بني آدم ﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ يعني : من المهانين المذلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا ﴾ أي من الجنّة ، وقيل : من السماء إلى الأرض فألحقه بجزائر البحور

وإنّما سلطانه وعظمته في خزائن البحور وعرشه في البحر الأخضر فلا يدخل في الأرض إلاّ لهبة السارق عليه أطمار تروع فيها [مَنْ يخرج] منها ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ فليس لك أن ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ في الجنّة ، وليس ينبغي أن يسكن الجنّة ولا السماء [متكبر] ولا بخلاف أمر الله عزّ وجلّ ﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ الأذلاء والصغر الذل والمهانة قال إبليس عند ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدهما : أنه أُهْبِط من السماء لأنه كان فيها ، قاله الحسن .

والثاني : من الجنة .

والثالث : أنه أهبط من المنزلة الرفيعة التي استحقها بطاعة الله إلى المنزلة الدِّنِيَّةِ التي استوجبها لمعصيته ، قاله ابن بحر .

﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ وليس لأحد من المخلوقين أن يتكبر فيها ولا في غيرها ، وإنما المعنى : فما لمن يتكبر أن يكون فيها وإنما المتكبر في غيرها .

وفي التكبر وجهان :

أحدهما : تكبر عن الله أن يمتثل له .

والثاني : تكبر عن آدم أن يسجد له .

﴿ فَاخْرُجْ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : من المكان الذي كان فيه من السماء أو الجنة .

والثاني : من جملة الملائكة الذين كان منهم أو معهم .

(7/265)

﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالمعصية في الدنيا لأن العاصي ذليل عند من عصاه .

والثاني : بالعذاب في الآخرة لأن المعذب ذليل بالعذاب .

وفي هذا القول من الله تعالى لإبليس وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك على لسان بعض الملائكة .

والثاني : أنه أراه معجزة تدله على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ

﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فاهبط منها ﴾ الآية ،

أمر من الله عز وجل لإبليس بالهبوط في وقت عصيانه في السجود ، فيظهر من هذا أنه إنما أهبط أولاً وأخرج من الجنة وصار في السماء ، لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة ثم أمر آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء والحية .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله بحسب ألفاظ القصة والله أعلم .

وقوله ﴿ فما يكون لك ﴾ معناه فما يصح لك ولا يتم ، وليس يقتضي هذا اللفظ أن التكبر له في غيرها على ما ذهب إليه بعض المعترضين ، تضمنت الآية أن الله أخبر إبليس أن الكبرياء لا يتم له ولا يصح في الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياء في كل موضع وأما لو أخذنا ﴿ فما يكون ﴾ على معنى فما يحسن وما يجمل كما تقول للرجل ما كان لك أن لا تصل قرابتك لغير معنى الإغلاظ على إبليس ، وقوله : ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ حكم عليه بضد المعصية التي عصى بها وهي الكبرياء فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأمله ، والصغار الذل قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فاهبط منها ﴾ في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى السماء ، لأنه كان فيها ، قاله الحسن .

والثاني : إلى الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ إن قيل : فهل لأحد أن يتكبر في غيرها ؟

فالجواب : أن المعنى : ما للمتكبر أن يكون فيها ، وإنما المتكبر في غيرها .

وأما الصاغر ، فهو الذليل .

والصغار : الذل .

(8/265)

قال الزجاج : استكبر إبليس بابائه السجود ، فأعلمه الله أنه صاغر بذلك . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا ﴾ أي من السماء .

﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون .

﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ أي من الأذلين .

ودل هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل .

وقال أبو رَوْق والبَجَلِيّ : "فَاهْبِطْ مِنْهَا" أي من صورتك التي أنت فيها ؛ لأنه افتخر بأنه من النار فشوّهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه .

وقيل : ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾ أي انتقل من الأرض إلى جزائر البحار ؛ كما يُقال : هبطنا أرض

كذا أي انتقلنا إليها من مكان آخر ، فكأنه أخرج من الأرض إلى جزائر البحار فسلطانه فيها ، فلا يدخل الأرض إلاَّ كهيئة السارق يخاف فيها حتى يخرج منها .

والقول الأوّل أظهر .

وقد تقدّم في "البقرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ قال فاهبط منها ﴾

يعني قال الله تعالى لإبليس لعنه الله اهبط من الجنة .

وقيل : من السماء إلى الأرض .

والهبوط الإنزال والانحدار من فوق على سيل القهر والهوان والاستخفاف ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ يعني فليس لك أن تستكبر في الجنة عن أمري وطاعتي لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو في السماء متكبر مخالف لأمر الله عز وجل فأما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون في الأرض ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ يعني : إنك من الأذلاء المهانين والصّغار الذل والمهانة .

قال الزجاج : استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة .

وقيل : كان له ملك الأرض فأخرجه الله تعالى منها إلى جزائر البحر الأخضر وعرشه عليه فلا يدخل الأرض إلا خائفاً كهيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار رثة يروع فيها حتى يخرج

منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

(9/265)

﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين ﴾ .

(10/265)

لما كان امتناعه من السجود لسبب ظهور شفوقه على آدم عند نفسه قابلة الله بالهبوط المشعر بالنزول من علوّ إلى أسفل والضمير في ﴿ منها ﴾ لم يتقدّم له مفسر يعود عليه ، فقيل : يعود على الجنة وكان إبليس من سكانها ، وقال ابن عباس : كانوا في جنة عدن لا في جنة الخلد وخلق آدم من جنة عدن ، وقال ابن عطية : أهبط أولاً وأخرج من الجنة وصار في السماء لأنّ الأخبار تظافرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة ثم أمر آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء والحية وهذا كله بحسب ألفاظ القصة والله أعلم انتهى ، وقيل : يعود على السماء ، قال الزمخشري : ﴿ فاهبط منها ﴾ من السماء التي هي مكان

المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين ، وقيل : يعود على الأرض فكأنه كان له ملكها أمره أن يهبط منها إلى جزائر البحار فسلطانه فيها فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق يخاف فيها حتى يخرج منها وهذا يحتاج إلى صحة نقل ، وقيل : يعود على صورته التي كان فيها لأنه افتخر أنه من النار فشوهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه قاله أبو روق ، وقيل : عائد على المدينة التي كان فيها ذكره الكرماني ويحتاج إلى تصحيح نقل ، وقيل يعود على المنزلة والرّتبة الشريفة التي كان فيها في محل الاصطفاء والتقريب إلى محل الطّرد والتعذيب ومعنى فما يكون لك لا يصح لك أو لا يتم أو لا ينبغي بل التكبّر منهيّ عنه في كل موضع ، وقيل : هو على حذف معطوف دلّ عليه المعنى التقدير فيها ولا في غيرها ، وقيل المعنى ما للمتكبر أن يكون فيها وكرّر معنى الهبوط بقوله ﴿ فاخرج ﴾ لأنّ الهبوط منها خروج ولكنه أخبر بصغاره وذلّته وهو أنه جزاء على تكبّره قوبل بالضدّ مما اتّصف به وهو الصغار هو ضدّ التكبر والتكبر تفعل منه لأنه خلق كبيراً عظيماً ولكنه هو الذي تعاطى الكبر ومن كلام عمر ومن تكبّر وعدا طوره رهصه الله إلى الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(11/265)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كما سلف ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾ لترتيب الأمرِ على ما ظهر من اللعين من مخالفة الأمرِ وتعليلِه بالأباطيل وإصرارِه على ذلك ، أي فاهبِطْ من الجنة ، والإضمار قبل ذكرِها لشهرة كونِه من سكانها قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا في عدْنٍ لا في جنة الخلد ، وقيل : من زمرة الملائكةِ المعزّزين فإن الخروجَ من زمرتهم هبوطٌ وأيُّ هبوط ، وفي سورة الحجر : ﴿ فاخرج مِنْهَا ﴾ وأما ما قيل من أن المرادَ الهبوطُ من السماء فيردّه أن وسوستَه لآدمَ عليه السلام كانت بعد هذا الطردِ فلا بد أن يُحمل على أحد الوجهين قطعاً ، وتكونُ وسوستُه على الوجه الأول بطريق النداءِ من باب الجنة كما رُوي عن الحسن البصري ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ أي فمما يصح ولا يستقيم لك ولا يليقُ بشأنك ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة أو في زمرة الملائكة . تعليلٌ للأمر بالهبوط فإن عدمَ صحةِ أن يتكبر فيها علةٌ للأمر المذكور ، فإنها مكانُ المطيعين الخاشعين ولا دِلالة فيه على جواز التكبُّر في غيرها ، وفيه تنبيه على أن التكبرَ لا يليق بأهل الجنةِ وأنه تعالى إنما طرده لتكبُّره لا لمجرد عصيانِه وقوله تعالى : ﴿ فاخرج ﴾ تأكيدٌ للأمر بالهبوط متفرّعٌ على علته وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ تعليلٌ للأمر بالخروج مُشعرٌ بأنه لتكبره ، أي من الأذلاء وأهلِ الهوانِ على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبُّرك . وعن عمر رضي الله عنه (من تواضعَ لله رفع الله حكمتَه وقال : انتعش أنعشك الله ، ومن تكبر

وعَدا طَوْرَه وهَصَه الله إلى الأرض) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(12/265)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما سلف ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾ لترتيب الأمر على ما ظهر منه من الباطل ، وضمير ﴿ مِنْهَا ﴾ قيل للجنة ، وكونه من سكانها مشهور ، والمراد بها عند بعض الجنة التي يسكنها المؤمنون يوم القيامة .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها روضة بعدن وفيها خلق آدم عليه السلام وكانت على نشز من الأرض في قول .

"وأصل الهبوط الانحدار على سبيل القهر كما في هبوط الحجر .

وإذا استعمل في الإنسان ونحوه فعلى سبيل الاستخفاف" كما قال الراغب .

ولم يشترط بعضهم فيه سوى الانتقال من شريف إلى ما دونه لقوله تعالى : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ [البقرة : 61] والأمر عليه واضح وإن لم نقل : إن تلك الجنة كانت على نشز ، وقيل :

الضمير لزمرة الملائكة أي اخرج من زمرة الملائكة المعززين ، فإن الخروج من زمرتهم هبوط وأي هبوط .

وفي سورة الحجر (43) ﴿ فاخرج مِنْهَا ﴾ وقيل : الضمير للسماء ، وإليه ذهب جماعة .

ورد بأن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد فلا بد أن يحمل على أحد الوجهين السابقين قطعاً ، ويكون وسوسته على الوجه الأول بطريق النداء من باب الجنة كما روي عن الحسن البصري .

وأجيب بأنه يحتمل أن يكون المراد من ذلك الجنة أو زمرة الملائكة أيضاً بناء على أن الأولى ومعظم الثانية في السماء أو يقال : إن القصة وقعت في الأرض وكانت الجنة فيها وبعد العصيان حجب اللعين من السماء التي هي مقره ومعبده ، ومعني أمره بالخروج منها أمره بقطع علائقه عنها واتخاذها مأوى له بعد .

وهذا كما تقول لمن غصب دارك مثلاً عند نحو القاضي : أخرج من داري مع أنه إذ ذاك ليس فيها تريد لا تدخلها واقطع علائقك عنها .

وقيل : الضمير للأرض .

فقد روي أنه أخرج منها إلى الجزائر وأمر أن لا يدخلها إلا خفية ، ويبعده أنه لا يظهر للتخصيص في قوله تعالى : ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ أي فما يصح ولا يستقيم ولا يليق بشأنك ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ على هذا وجه إلا على بعد .

وأما على الأوجه السابقة فالوجه ظاهر وهو مزيد شرافة المخرج منه وعلو شأنه وتقدس ساحته .

ومن هنا يعلم أنه لا دلالة في الآية على جواز التكبر في غير ذلك عند القائلين بالمفهوم ، والجملة تعليل للأمر بالهبوط ولا يخفى لطافة التعبير به دون الخروج في مقابلة قوله : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ﴾ [الأعراف : 12] المشير إلى ارتفاع عنصره وعلو محله ، والتكبر على ما قيل كالكبر وهو الحالة التي يختص بها الشخص من إعجابه بنفسه .

وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره وأعظم ، والمراد بالتكبر ههنا إما التكبر على الله تعالى وهو أعظم التكبر ويكون بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة .

وفسره بعضهم بالمعصية .

وإما التكبر على آدم عليه السلام بزعمه أنه خير منه وأكبر قدراً .

وقيل : المراد ما هو أعم منه ومن التكبر على الملائكة حيث زعم أن له خصوصية ميزته عليهم وأخرجته من عمومهم وفيه تأمل .

وزعم البعض أن في الآية تنبيهاً على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة فكما يمنع من القرار فيها يمنع من دخولها بعد ذلك وأنه تعالى إنما طرده لتكبره لا لمجرد عصيانه ، وهو ظاهر على أحد الاحتمالات كما لا يخفى .

والظرف إما متعلق بما عنده أو بمحذوف وقع حالاً .

وقوله تعالى : ﴿ فاخرج ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط متفرع عليه .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ تعليل للأمر بالخروج مشعر بأنه لتكبره أي إنك من أهل الصغار والهوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبرك .

(14/265)

أخرج البيهقي في "شعب الايمان" عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تواضع لله رفعه الله تعالى ، ومن تكبر وضعه الله عز وجل " ومن حديثه رضي الله تعالى عنه " من تواضع لله تعالى رفع الله تعالى حكمته وقال : انتعش نعشك الله ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله تعالى إلى الأرض " وقيل : المراد من الأذلاء في الدنيا بالذم واللعن وفي الآخرة بالعذاب بسبب ما ارتكبه من المعصية والتكبر ، وإذلال الله تعالى المتكبرين يوم القيامة مما نطقت به الأخبار .

أخرج الترمذي عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يقال له : بولس يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار " وفسر بعضهم الصاغر بالراضي بالذل كما هو المشهور فيه .

والمراد وصفه بأنه خسيس الطبع دنيء وأنه رأى نفسه أكبر من غيره وليس بالكبير .

ولقد أبدع أبو نواس بقوله خطاباً له :

سوأة بالعين أنت اختلست الن . . .

اس غيظاً عليهم أجمعينا

تهت لما أمرت في سالف الده . . .

ر وفارقت زمرة الساجدينا

عند ما قلت لا أطيق سجودا . . .

لمثال خلقته رب طينا

حسداً إذ خلقت من مارج الن . . .

ار لما كان مبتدأ العالمينا

ثم صيرت في القيادة تسعى . . .

يا مجير الزناة واللائطينا

وله أيضاً من أبيات فيه :

تاه على آدم في سجدة . . .

وصار قواداً لذريته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(15/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾

وقد عاقبه الله على عصيانه بإخراجه من المكان الذي كان فيه في اعتلاء وهو السّماء ، وأحل الملائكة فيه ، وجعله مكاناً مقدّساً فاضِلاً على الأرض فإنّ ذلك كلّه بجعل آلهي بإفاضة الأنوار وملازمة الملائكة ، فقال له : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ .

والتّعبير بالهبوط إمّا حقيقة إن كان المكان عالياً ، وإمّا استعارة للبعد عن المكان المشرّف ، بتشبيه البُعد عنه بالنّزول من مكان مرتفع وقد تقدّم ذلك في سورة البقرة .

والفاء في جملة : ﴿ فاهبط ﴾ لترتيب الأمر بالهبوط على جواب إبليس ، فهو من عطف كلام متكلّم على كلام متكلّم آخر ، لأنّ الكلامين بمنزلة الكلام الواحد في مقام المحاورة ، كالعطف الذي في قوله تعالى : ﴿ قال إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ﴾ [البقرة

: 124] .

والفاء دالة على أن أمره بالهبوط مسبّب عن جوابه .

وضمير المؤنّث المجرور بمن في قوله : ﴿ منها ﴾ عائد على المعلوم بين المتكلّم والمخاطب ، وتأنيثه إمّا رعي لمعناه بتأويل البقعة ، أو للفظ السّماء لأنّها مكان الملائكة ، وقد تكرّر في القرآن ذكر هذا الضّمير بالتّأنيث .

وقوله : ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ الفاء للسّببيّة والتّفريع تعليلاً للأمر بالهبوط ، وهو عقوبة خاصه عقوبةَ إبعاد عن المكان المقدّس ، لأنّه قد صار خُلُقُه غير ملائم لمّا جعل الله ذلك المكان له ، وذلك خُلقُ التّكبر لأنّ المكان كان مكاناً مقدّساً فاضلاً لا يكون إلاّ مطهّراً من كلّ ما له وصف ينافيه وهذا مبدأ حاوله الحكماء الباحثون عن المدينة الفاضلة وقد قال مالك رحمه الله : لا تحْدِثوا بدعة في بلدنا .

وهذه الآية أصل في ثبوت الحقّ لأهل المحلّة أن يخرجوا من محلّتهم من يخشى من سيرته فشّو الفساد بينهم .

(16/265)

ودلّ قوله : ﴿ ما يكون لك ﴾ على أنّ ذلك الوصف لا يغتفر منه ، لأنّ النّفي بصيغة (ما يكون لك) كذا أشدّ من النّفي بـ (ليس لك كذا) كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ الآية في آل عمران (79) ، وهو يستلزم هنا نهيا لأنّه نفاه عنه مع وقوعه ، وعليه فتقييد نفي التّكبّر عنه بالكون في السّماء لوقوعه علّة للعقوبة الخاصة وهي عقوبة الطّرد من السّماء ، فلا دلالة لذلك القيد على أنّه يكون له أن يتكبّر في غيرها ، وكيف وقد علم أنّ التّكبّر معصية لا تليق بأهل العالم العلويّ .

وقوله : فاخرج ﴾ تأكيد لجملة ﴿ فاهبط ﴾ بمرادفها ، وأُعيدت الفاء مع الجملة الثّانية لزيادة تأكيد تسبّب الكبر في إخراجه من الجنّة .

وجملة : ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة استينافاً بيانياً ، إذا كان المراد من الخبر الإخبار عن تكوين الصّغار فيه بجعل الله تعالى إياه صاغراً حقيراً حيثما حلّ ، ففصلها عن التي قبلها للاستيناف ، ويجوز أن تكون واقعة موقع التّعليل للإخراج على طريقة استعمال (إنّ) في مثل هذا المقام استعمال فاء التّعليل ، فهذا إذا كان المراد من الخبر إظهار ما فيه من الصّغار والحقارة التي غَفَل عنها فذهبت به الغفلة عنها إلى التّكبّر .

وقوله : ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ أشدّ في إثبات الصّغار له من نحو : إنّك صَاغر ، أوْ قد صَغُرت ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قد ضللتُ إذا وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة الأنعام (56) ، وقوله آنفاً : لم يكن من الساجدين ﴾ .

والصّاغر المتّصف بالصّغار وهو الذلّ والحقارة ، وإنّما يكون له الصّغار عند الله لأنّ جبلته صارت على غير ما يرضي الله ، وهو صغار الغواية ، ولذلك قال بعد هذا : ﴿ فبما أغويتني ﴾ [الأعراف : 16] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(17/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) ﴾

والهبوط يستدعي الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التي وصفها الله بأنها عالية في هي السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعي أن يكون هبوطاً مكانياً ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . . . ﴾ [هود : 48]

أي اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون في محضر الملائكة ؛ فقد كان في محضر

الملائكة ؛ لأنه الزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختارا أن يطيع أو أن يعصي ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون في هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ﴿ قَالَ فَاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ . . . ﴾ [الأعراف : 13]

أي ما ينبغي لك أن تتكبر فيها .

(18/265)

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الآمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فما دامت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذي أهله أن يكون في العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون في الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفي هذا هبوط لقيمة كلامه في أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذي توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن

الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم . "

وهو ذلك مثل الميكروب ، لأنه هذه طبيعة النار ، وهي المادة التي خُلق منها . وهي تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أي شيء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن لا تعتقد أن عنصريتك هي التي أعطتك هذا التمييز ، وإنما هي إرادة المُعَنْصر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه – سبحانه – يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوما لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه في مجلس سليمان ، جعل الذي عنده علم من الكتاب ، يأتي بقوة أعلى من قوة " عفريت " من الجن .

فالحق هو القائل : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجن . . . ﴾ [النمل : 39]

وهذا يدل على أن هناك أذكياء وأغبياء في عالم الجن أيضاً . وجاء الذي عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن في الزمن ، فقد قال هذا العفريت : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ . . . ﴾ [النمل : 39]

(19/265)

والمقام هو الفترة الزمنية التي قد يقعدها سليمان في مجلسه ، فماذا قال الذي عنده علم من الكتاب – وهو إنسان – ؟ ﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . ﴾ [النمل : 40]

كأنه سيأتي بعرش بلقيس قبل أن ينته سليمان من ردّ طرفه الذي أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ . . . ﴾ [النمل : 40]

كأن المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إنني أقدر بطلاقة قدرتي أن اجعل الأدنى يتحكم في الأعلى ؛ لأنها إرادة من عَنْصَرَ العناصر . ﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ [الأعراف : 13]

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير على أن الهبوط أمر معنوي ، أي أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغَار هو الذل والهوان ؛ لأنه قَابَل الأمر باستكبار ، فلابد أن يجازى بالصَّغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهذيب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذي يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليجعل الإرث منه ،

ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(20/265)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر ، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلا ، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة ، وذلك ي قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ ، والصغار : أشد الذل والهوان ، وقوله : ﴿ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الأعراف : 18] ، ونحو ذلك من الآيات ، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة ، وإنما يحصل له نقيض ذلك . وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر : 56] .

(21/265)

وبين في مواضع أخر كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر – أعاذنا الله والمسلمين منه – فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله ، والاهتداء بها كما في قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ [الأعراف : 146] الآية . ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : 60] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 35] ، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى كما في قوله : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ [النحل : 23] ، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعيذ إلا مما هو شر . كما في قوله : ﴿ وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ [غافر : 27] إلى غير ذلك من نتائجه السيئة ، وعواقبه الوخيمة ، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية : أن المتواضع لله جل وعلا يرفعه الله .

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] ، وقوله : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : 83] وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه أوحي

إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد " ، وقد قال الشاعر :

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه . . . على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه . . . إلى صفحات الجو وهو وضيع

وقال أبو الطيب المتنبي :

ولو لم يعل إلا ذو محل . . . تعالى الجيش وانحط القتام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(22/265)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) ﴾

فارِقْ بساطَ القربة ؛ فإنَّ التكبّرَ والترفّعَ على البساط تركٌ للأدب ، وتركُ الأدبِ يوجِب الطرد .

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبِّر ، والمتكبِّر بعيد عن الحق سبحانه ، ورؤية

المقام قَدْحٌ في الربوبية إذ لا قَدْرَ لغيره تعالى ، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلا فقد نازع الربوبية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 522 ﴾

(23/265)

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم أن الحسد قد أبعده ونزل به عن ساحة الرضى وأقعده ، تمادى فيه فسأل ما يتسبب به إلى إنزال المحسودين عن درجاتهم العاليه إلى دركته السافلة ، ولم يسأل بشقاوته فيما يعليه من دركته السافلة إلى درجاتهم العالية ، وذلك بأن ﴿ قال ﴾ أي إبليس ، وهو استئناف ؛ ولما كان السياق – ولاسيما الحكم بالصغار العاري عن تقييد – يأبى لأن يكون سبباً لسؤاله الانتظار ، ذكره بصيغة الإحسان فقال ﴿ أنظرني ﴾ أي بالإمهال ، أي اجعلني موجوداً بحيث أنظر وأتصرف في زمن ممتد ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي من القبور ، وهو يوم القيامة ، وكان اللعين طلب بهذا أنه لا يموت ، فإن ذلك الوقت ليس وقتاً للموت ، إنما هو وقت إفاضة الحياة الأبدية في شقاوة أو سعادة ، فأعلم سبحانه أنه حكم له بالانتظار ،

لكن لا على ما أراده ولا على أنه إجابة له ، ولكن هكذا سبق في الأزل في حكمه في قديم علمه ، وإليه يرشد التعبير بقوله : ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾ أي في الجملة ، ومنعه من الحماية عن الموت بقوله كما ذكره في سورتين الحجر وص ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ [الحجر : 38 ، ص : 81] ، وهو وقت النفخة الأولى التي يموت فيها الأحياء فيموت هو معهم ، وكان ترك هذه الجملة في هذه السورة لأن هذه السورة للإنذار ، وإبهام الأمر أشد في ذلك ، وإجابة إلى الإنظار وهو يريد به الفساد ، لأنه لا يعدو أمره فيه وتقديره به ، ولأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل ، ولتظهر حكمته تعالى في الثواب والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 13.14 ﴾

فصل

(24/265)

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يدل على أنه طلب الإنظار من الله تعالى إلى وقت البعث وهو وقت النفخة الثانية حين يقوم الناس لرب العالمين ومقصوده أنه لا يذوق الموت فلم يعطه الله تعالى ذلك بل قال إنك من المنظرين ثم ههنا قولان : الأول : أنه تعالى

أنظره إلى النفخة الأولى لأنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ إِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ [الحجر : 37 ، 38] والمراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلهم ، وقال آخرون : لم يوقت الله له أجلاً بل قال : ﴿ إِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ وقوله في الأخرى : ﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ المراد منه .

الوقت المعلوم في علم الله تعالى .

قالوا : والدليل على صحة هذا القول أن إبليس كان مكلفاً والمكلف لا يجوز أن يعلم أن الله تعالى أخر أجله إلى الوقت الفلاني لأن ذلك المكلف يعلم أنه متى تاب قبلت توبته فإذا علم أن وقت موته هو الوقت الفلاني أقدم على المعصية بقلب فارغ ، فإذا قرب وقت أجله تاب عن تلك المعاصي فثبت أن تعريف وقت الموت بعينه يجري مجرى الإغراء بالقبيح ، وذلك غير جائز على الله تعالى .

وأجاب الأولون : بأن تعريف الله عز وجل كونه من المنظرين إلى يوم القيامة لا يقتضي إغراءه بالقبيح لأنه تعالى كان يعلم منه أنه يموت على أقبح أنواع الكفر والفسق سواء أعلمه بوقت موته أو لم يعلمه بذلك ، فلم يكن ذلك الإعلام موجباً إغراءه بالقبيح ، ومثاله أنه تعالى عرف أنبياءه أنهم يموتون على الطهارة والعصمة ، ولم يكن ذلك موجباً إغراءهم بالقبيح لأجل أنه تعالى علم منهم سواء عرفهم تلك الحالة أو لم يعرفهم هذه الحالة أنهم يموتون على الطهارة والعصمة فلما كان لا يتفاوت حالهم بسبب هذا التعريف لا جرم ما كان ذلك التعريف

إغراء بالقبيح فكذا ههنا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 31 ﴾

(25/265)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

يعني : أجلني إلى يوم البعث ، اليوم الذي يخرج الناس من قبورهم .

قال ابن عباس : أراد الخبيث ألا يذوق الموت ، فأبى الله تعالى أن يعطيه ذلك .

فـ ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ إلى النفخة الأولى ، فحينئذٍ يذوق الموت وتصيبه المرارة بعدد الأولين والآخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي ﴾ أخرّني واجلني وأمهلني ولا تمتني ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ من قبورهم وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة ، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت ، ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ المؤخّرين .

ثمّ بيّن مدّة النظر والمهلة في موضع آخر ، فقال ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ [الحجر : 38]

وهي النفخة الأولى حين ثبوت الخلق كلّهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه سأله الإنظار بالعقوبة إلى البعث وهو يوم القيامة .

والثاني : أنه سأله الإنظار بالحياة إلى يوم يبعثون وهو يوم القيامة لئلا يذوق الموت ، فَأُجِيبَ بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهي النفخة الأولى ليذوق الموت بين النفختين وهو أربعون سنة ، قاله الكلبي .

فإن قيل : فكيف قدر الله مدة أجله وفي ذلك إغواؤه بفعل المعاصي تعويلاً على التوبة في آخر الأجل ؟

قيل : قد علم الله من حاله أنه لا يتوب من معصيته بما أوجبه من لعنته بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فجاز مع علمه بهذه أن يقدر له مدة أجله ولو كان كغيره ما قدرت له مدة أجله .

فإن قيل : كيف أقدم إبليس على هذا السؤال مع معصيته ؟ قيل : كما ينبسط الجاهل في سؤال ما لا يستحقه .

فإن قيل : فكيف أجاب الله سؤاله مع معصيته ؟ قيل : في إجابته دعاء أهل المعاصي قولان :

(26/265)

أحدهما : لا تصح إجابتهم لأن إجابة الدعاء تكرمة للداعي وأهل المعاصي لا يستحقون الكرامة ، فعلى هذا إنما أنظره الله تعالى وإن كان عقيب سؤاله ابتداء منه لا إجابة له .

والثاني : أنه قد يجوز أن تجاب دعوة أهل المعاصي على وجه البلوى وتأكيد الحجة ، فتكون إجابة المطيعين تكرمة ، وإجابة العصاة بلوى .

فإن قيل : فهل ينظر غير إبليس إلى الوقت الذي سأل وقد قال من المنظرين ؟ قيل : نعم وهو من لم يقض الله تعالى عليه الموت من عباده الذين تقوم عليهم الساعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم سأل إبليس ربه أن يؤخره إلى يوم البعث طمع أن لا يموت ، إذ علم أن الموت ينقطع بعد البعث ومعنى ﴿ أنظرني ﴾ أخرني فأعطاه الله النظرة إلى يوم الوقت المعلوم ، فقال أكثر الناس الوقت المعلوم هو النفخة الأولى في الصور التي يصعق لها من في السماوات ومن في

الأرض من المخلوقين ، وقالت فرقة بل أحاله على وقت معلوم عنده عز وجل يريد به يوم موت إبليس وحضور أجله دون أن يعين له ذلك ، وإنما تركه في عماء الجهل به ليغمه ذلك ما عاش .

قال القاضي أبو محمد : وقال بعض أهل هذه المقالة : إن إبليس قتلته الملائكة يوم بدر ورووا في ذلك أثراً ضعيفاً .

قال القاضي أبو محمد : والأول من هذه الأقوال أصح وأشهر في الشرع ، ومعنى ﴿ من المنظرين ﴾ من الطائفة التي تأخرت أعمارها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلاف أوقاتها ، فقد عم تلك الفرقة إنظار وإن لم يكونوا أحياء مدة الدهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال أنظرني ﴾ أي أمهلني وأخرني ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ ، فأراد أن يعبر قنطرة الموت ؛ وسأل الخلود ، فلم يجبه إلى ذلك ، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم .

وقد بين مدة إمهاله في (الحجر) بقوله : ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ [الحجر : 38] وفي ما سأل الإمهال له قولان .

أحدهما : الموت .

والثاني : العقوبة .

(27/265)

فإن قيل : كيف قيل له : ﴿ إنك من المنظرين ﴾ وليس أحد أُنظِر سواه ؟ فالجواب : أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم ، فهو منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب .

طلب ألاّ يموت لأن يوم البعث لا موت بعده ؛ فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس والسدّي وغيرهما : أُنْظَره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم .

وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين ؛ فأبى الله ذلك عليه .

وقال : ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ولم يتقدّم ذِكْرُ من يبعث ؛ لأن القصة في آدم وذريته ، فدلّت القرينةُ على أنهم هم المبعوثون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني : قال إبليس عند ذلك ﴿ أنظرني ﴾ يعني أخِّرني وأمهلني فلا تمتني ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ يعني من قبورهم وهي النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث إبليس لعنه الله لأنه سأل ربه الإمهال وقد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله تعالى إلى البقاء في الدنيا ولكنه كره أن يكون ذائقاً للموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب إلى ما سأل به ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ إنك من المنظرين ﴾ يعني من المؤخرين الممهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى : ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم .

فإن قلت : فما وجه قولك إنك من المنظرين وليس أحد ينظر سواه ؟

قلت : معناه إن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم ﴿ قال ﴾ يعني إبليس ﴿ فبما أغويتني ﴾ يعني فبأي شيء أضللتني فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتني ثم ابتدأ فقال ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(28/265)

وقال النسفى :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أمهلني إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الأخيرة ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ إلى النفخة الأولى .

وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء ، وفيه تقريب لقلوب الأحباب أي هذا بريء بمن يسيئني فكيف بمن يحبني وإنما جسره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال علمه بحلم ذي الجلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 46 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظَرين ﴾

هذا يدلّ على إقراره بالبعث وعلمه بأن آدم سيكون له ذرية ونسل يعمّرون الأرض ثم يموتون وإن منهم من ينظر فيكون طلبه الإنظار بأن يغويهم ويوسوس إليهم فالضمير في ﴿ يبعثون ﴾ عائد على ما دلّ عليه المعنى إذ ليس في اللفظ ما يعود عليه وحكمة استنظاره وإن كان ذلك سبباً للغواية والفتنة إنّ في ذلك ابتلاء العباد بمخالفته وطواعيته وما يترتب على ذلك من إعظام الثّواب بالمخالفة وإدامة العقاب بالطواعيّة وأجابه تعالى بأنه من المنظرين أي من المؤخرين ولم يأتِ هنا بغاية للانتظار وجاء مغياً في الحجر وفي ص بقوله ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ ويأتي تفسيره في الحجر إن شاء الله ، ومعنى من المنظرين من الطائفة التي تأخّرت أعمارها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلاف أوقاتها فقد شمل

تلك الطائفة انظار وإن لم يكونوا أحياء مدة الدهر ، وقيل من المنظرين جمع كثير مثل قوم يونس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(29/265)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كما مر مبنيٌّ على سؤال نشأ مما قبله ، كأنه قيل : فماذا قال اللعينُ بعد ما سمع هذا الطردَ المؤكد ؟ فقيل : قال : ﴿ أَنظِرْنِى ﴾ أي أمهلني ولا تُمِتْني ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي آدمُ وذرّيتُه للجزاء بعد فنائِهم ، وهو وقتُ النفخةِ الثانية ، وأراد اللعينُ بذلك أن يجد فُسحةً لإغوائهم ويأخُذَ منهم ثأرَه وينجُوَ من الموت لاستحالته بعد البعث ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كما سلف ﴿ إِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ ورودُ الجوابِ بالجملة الاسميةِ مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يُشعر بأن السائلَ تبَعٌ لهم في ذلك صريحٌ في أنه إخبارٌ بالإنظار المقدرِ لهم أزلاً لا إنشاءٌ لإنظار خاصَ به إجابةً لدعائه وأن استنظارَه كان طلباً لتأخير الموتِ إذ به يتحقق كونُه من جملتهم لا لتأخير العقوبةِ كما قيل أي إنك من جملة الذين أخّرتُ آجالَهم أزلاً حسبما تقتضيه الحِكمةُ التكوينيةُ إلى وقت فناءٍ غيرَ ما استثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخةُ الأولى لا إلى وقت البعثِ الذي هو المسؤول ، وقد تُرك

التوقيتُ للإيجاز ثقةً بما وقع في سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكرُ النداء والفاءُ في الاستنظار والإنظار تعويلاً على ما ذُكر فيهما بقوله عز وجل : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إِلَىٰ يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وفي إنظاره ابتلاءٌ للعباد وتعريضٌ للثواب .

(30/265)

إن قلتَ لا ريبَ في أن الكلامَ المحكيَّ له عند صدورِه عن المتكلم حالةٌ مخصوصةٌ تقتضي ورودَه على وجه خاصَ من وجوه النظمِ بحيث لو أخل بشيء من ذلك سقط الكلامُ عن رتبة البلاغةِ البتة ، فالكلامُ الواحدُ المحكيُّ على وجوه شتى إن اقتضى الحالُ ورودَه على وجه معينٍ من تلك الوجوهِ الواردةِ عند الحكاية فذلك الوجهُ هو المطابقُ لمقتضى الحالِ والبالغُ إلى رتبة البلاغةِ دون ما عداه من الوجوه ، إذا تمهّد هذا فنقولُ : لا يخفى أن استنظارَ اللعينِ إنما صدر عنه مرةً واحدةً لا غيرُ ، فمقامُه إن اقتضى إظهارَ الضراعةِ وترتيبَ الاستنظار على ما حاق به من اللعن والطردِ على نهج استدعاءِ الجبْرِ في مقابلة الكسر كما هو المتبادرُ من قوله : رب فأنظرني حسبما حُكي عنه في السورتين ، فما حكي ها هنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلاً عن العروج إلى معارج الإعجازِ

، قلنا : مقامُ استنظاره مُقتضٍ لما ذُكر من إظهار الضراعةِ وترتيب الاستنظارِ على الحِرمان المدلولِ عليه بالطرد والرجم ، وكذا مقامُ الإنظارِ مقتضٍ لترتيب الإخبارِ بالإنظار على الاستنظار وقد طُبّق الكلامُ عليه في تينك السورتين ووُفّي كلُّ واحد من مقامَي الحكايةِ والمحكيِّ جميعاً حظَّه . وأما هاهنا فحيث اقتضى مقامُ الحكايةِ مجردَ الإخبار بالاستنظار والإنظارِ سيقت الحكايةُ على نهج الإيجاز والاختصارِ من غير تعرّضٍ لبيان كيفيةِ كل واحدٍ منهما عند المخاطبة والحِوار ، إن قلت : فإذن لا يكونُ ذلك نقلاً للكلام على ما هو عليه ولا مطابقاً لمقتضى المقامِ قلنا : الذي يجب اعتبارُه في نقل الكلامِ إنما هو أصلُ معناه ونفسُ مدلولِه الذي يفيده ، وأما كيفيةُ إفادتِه له فليس مما يجب مراعاتُه عند النقل البتة ، بل قد تراعى وقد لا تراعى حسب اقتضاءِ المقامِ ، ولا يقدح في أصل الكلامِ تجريدُه عنها بل قد يراعى عند نقلِه كيفياتٍ وخصوصياتٍ لم يُراعِها المتكلمُ أصلاً ولا يُخلُّ

(31/265)

ذلك بكون المنقولِ أصلَ المعنى ، ألا يُرى أن جميعَ المقالات المنقولةِ في القرآن الكريمِ إنما تحكى بكيفيات واعتباراتٍ لا يُكاد يَقدِر على مراعاتها مَنْ تكلم بها حتماً ، وإلا لأمكن صدورُ الكلام المعجزِ عن البشر فيما إذا كان المحكيُّ كلاماً ، وأما عدمُ مطابقتِه لمقتضى

الحالِ فمنشؤه الغفلةُ عما يجب توفيرُ مقتضاه من الأحوال ، فإن مَلاكَ الأمرِ هو مقامُ الحكايةِ ، وأما مقام وقوعِ المحكيِّ فإن كان مقتضاه موافقاً لمقتضى مقامِ الحكايةِ يُوفَّى كلُّ واحدٍ من المقامين حقَّه كما في سورة الحجر وسورة ص ، فإن مقامَ الحكايةِ فيهما لمّا كان مقتضياً لبسط الكلامِ وتفصيلِه على الكيفيات التي وقع عليها رُوعيَ حقُّ المقامين معاً ، وأما في هذه السورةِ الكريمةِ فحيث اقتضى مقامُ الحكايةِ الإيجازَ رُوعيَ جانبُه .

ألا يُرى أن المخاطبَ المنكِرَ إذا كان ممن لا يفهم إلا أصلَ المعنى وجب على المتكلم أن يجرّدِ كلامَه عن التأكيد وسائرِ الخواصِّ والمزايا التي يقتضيها المقامُ ويخاطِبَه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصِدَ معنى زائداً يفهمه سامعٌ آخرُ بليغٌ هو تجريدُه عن الخواصِّ رعايةً لمقتضى حالِ المخاطَبِ في الفهم ، وبذلك يرتقي كلامُه عن رتبة أصواتِ الحيواناتِ كما حُقِّق في مقامه فإذا وجب مراعاةُ مقامِ الحكايةِ مع إفضائها إلى تجريد الكلامِ عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنُّك بوجوب مراعاتِه مع تحلية الكلام بمزايا أُخَرَ يرتقي بها إلى رتبة الإعجازِ لا سيما إذا وُفِّيَ حقَّ مقامِ وقوعِ المحكيِّ في السورتين الكريمتين وكان هذا الإيجازُ مبنياً عليه وثقة به ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(32/265)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل : فماذا قال اللعين بعد ما سمع ما سمع ؟ فقيل : قال : ﴿ أَنظِرْنِى ﴾ أي أمهلني ولا تمتني ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي آدم عليه السلام وذريته وهو وقت النفخة الثانية ، وأراد بذلك أن يجد فسحة في الإغواء وأخذ الثأر ونجاة من الموت إذ لا موت بعد البعث .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر ﴿ إِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ ظاهره ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : 14] حيث وقع في مقابلة كلامه لكن في سورة الحجر وص التقييد بيوم الوقت المعلوم ، واختلف في المراد منه فالمشهور أنه يوم النفخة الأولى دون يوم البعث لأنه ليس بيوم موت ، وجوز بعضهم أن يكون المراد منه يوم البعث ولا يلزم أن لا يموت فلعله يموت أول اليوم ويبعث مع الخلق في تضاعيفه .

وفي كتاب "العرائس" عن كعب الأحبار أن إبليس إنما يذوق طعم الموت يوم الحشر وذكر في كيفية موته وقبض عزرائيل روحه ما يقضي منه العجب ، ولم ترضِ ذلك الفاضل السفاريني وقال في كتابه "البحور الزاخرة" : أخرج نعيم بن حماد في "الفتن" والحاكم في "المستدرك" عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : لا يلبثون يعني الناس بعد يأجوج ومأجوج حتى تطلع الشمس من مغربها فتجف الأقلام وتطوى الصحف فلا يقبل من أحد توبة ويخر

إبليس ساجداً ينادي إلهي مرني أن أسجد لمن شئت وتجتمع إليه الشياطين فتقول يا سيدنا إلى من نفزع ؟ فيقول : إنما سألت ربي أن ينظرني إلى يوم البعث فأنظرني إلى يوم الوقت المعلوم وقد طلعت الشمس من مغربها وهذا يوم الوقت المعلوم وتصير الشياطين ظاهرة في الأرض حتى يقول الرجل : هذا قريني الذي كان فالحمد لله الذي أخزاه ولا يزال إبليس ساجداً باكياً حتى تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد انتهى .

(33/265)

ومنه يعلم أن المراد باليوم المعلوم ما صرح به اللعين وهو قبل يوم النفخة الأولى بكثير ، وهذا قول لم نر أحداً من المفسرين ذكره وهو الذي ارتضاه هذا الفاضل وقال : إن الخبر في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي وليس ابن مسعود ككعب الأحبار ممن يتلقى من كتب أهل الكتاب .

وأنت تعلم أنه إن صحت نسبة هذا الخبر إلى ابن مسعود ينبغي أن لا يعدل إلى القول بما يخالفه ولكن في صحة نسبته إليه رضي الله تعالى عنه عندي تردد .

وقيل : المراد به وقت يعلم الله تعالى انتهاء أجله فيه وقد أخفي عنا وكذا عن اللعين ، وأوجب على هذا أن يكون قبل النفخة الثانية .

واستدل له بعضهم بأن اللعين كان مكلفاً والمكلف لا يجوز أن يعلم أجله لأنه يقدم على المعصية بقلب فارغ حتى إذا قرب أجله تاب فتقبل توبته وهذا كالإغراء على المعاصي فيكون قبيحاً .

وأجيب بأن من علم الله تعالى من حاله أنه يموت على الطهارة والعصمة كالأنبياء عليهم السلام أو على الكفر والمعاصي كإبليس وأشياعه فإن إعلامه بوقت أجله لا يكون إغراء على المعصية لأنه لا يتفاوت حاله بسبب ذلك التعريف والإعلام .

وظاهر النظم الكريم عند غير واحد أن هذه إجابة لدعائه كلاً أو بعضاً ، وفي ذلك دليل لمن قال : إن دعاء الكافر قد يستجاب وهو الذي ذهب إليه الدبوسي وغيره من الفقهاء خلافاً لما نقله في "البزازية" عن البعض من أنه لا يجوز أن يقال : إن دعاء الكافر مستجاب لأنه لا يعرف الله تعالى ليدعوه ، والفتوى على الأول للظاهر ولقوله صلى الله عليه وسلم : " دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافراً " .

وحمل الكفر على كفران النعمة لا كفران الدين خلاف الظاهر ، ولا يلزم من الاستجابة المحبة والإكرام فإنها قد تكون للاستدراج .

(34/265)

وقال بعض المحققين : الجملة أخبار عن كونه من المنظرين في قضاء الله عالى من غير ترتب على دعائه ، وادعى أن ورودها اسمية مع التعرض لشمول ما سأله اللعين الآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم في ذلك صريح في أن ذلك إخبار بأن الإنظار المذكور لهم أزلاً لا إنشاء لا لإنظار خاص به إجابة لدعائه ، ويعلم من ذلك أيضاً أن استنظاره كان طلباً لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ولا يخلو عن حسن .

والحكمة في إنظاره ذلك الزمن الطويل مع ما هو عليه عليه اللعنة من الإفساد مما ينبغي أن يفوض علمها إلى خالق العباد .

وقد ذكر الشهرستاني "عن شارح الأناجيل الأربعة صورة مناظرة جرت بين الملائكة وبين إبليس بعد هذه الحادثة وقد ذكرت في التوراة ، وهي أن اللعين قال للملائكة : إني أسلم أن لي إلهاً هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لكن لي على حكمه أسئلة ، الأول : ما الحكمة في الخلق ؟ لا سيما وقد كان عالماً أن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا النار . الثاني : ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود إليه منه نفع ولا ضرر وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف ؟ الثالث : هب أنه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني بالسجود لآدم ؟ الرابع : لما عصيته في ترك السجود فلم لعنني وأجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضرر ؟ الخامس : أنه لما فعل ذلك لم سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم ؟ السادس : لما استمهلته المدة الطويلة

في ذلك فلم أمهلني ، ومعلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً ؛ قال شارح الأناجيل فأوحى الله تعالى إليه من سرادق العظمة والكبرياء يا إبليس أنت ما عرفتني ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض علي في شيء من أفعالي فإني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسئل عما أفعل" انتهى .

وفي السؤال السادس : ما يؤيد القول الأول في الجملة .

(35/265)

ولا يخفى أن هذه الشبهات يصعب على القائلين بالحسن والقبح العقليين الجواب عنها بل قال الإمام : إنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصاً وكان الكل لازماً .

ويعجبني ما يحكى أن سيف الدولة بن حمدان خرج يوماً على جماعته فقال : قد عملت بيتاً ما أحسب أن أحداً يعمل له ثانياً إلا إن كان أبا فراس وكان أبو فراس جالساً فقيل له : ما هو ؟ فقال قولي

: لك جسمي تعله . . .

فدمي لم تطله

فابتدر أبو فراس قائلاً

: قال إن كنت مالكا . . .

فلي الأمر كله

وعلل الزمخشري إجابته إلى استنظاره بأن في ذلك ابتلاء العباد وفي مخالفته أعظم الثواب وحكمه حكم ما خلق الله تعالى في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاهي والملاذ وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده .

وتعقبه العلامة الثاني كغيره بأنه مبني على تعليل أفعاله تعالى بالأغراض وعدم إسناد خلق القبائح والشرور إليه سبحانه مع أنه ليس بشيء لأن حقيقة الابتلاء في حقه تعالى محال ومجاز لا يدفع السؤال ، ولأن ما في متابعته من أليم العقاب أضعاف ما في مخالفته من عظيم الثواب بل لو لم يكن له الإنظار والتمكين لم يكن من العباد إلا الطاعات وترك المعاصي فلم يكن إلا الثواب كالملائكة .

ولا يخفى ما فيه إلا أن قوله بعد : والأولى : أن لا يخوض العبد في أمثال هذه الأسرار ويفوض حقيقتها إلى الحكيم المختار مما نقول به لأن معرفة ذلك في غاية الصعوبة على أرباب القال وأهل الجدال .

هذا وإنما ترك التوقيت في هذه الآية ثقة بما وقع في سورة الحجر وص كما ترك ذكر النداء والفاء في الاستنظار والإنظار تعويلاً على ما ذكر فيهما .

"فإن قلت : لا ريب في أن الكلام المحكي له عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة تقتضي وروده على وجه خاص من وجوه النظم بحيث لو أخل بشيء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة ألبتة فالكلام الواحد المحكي على وجوه شتى إن اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند تلك الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ إلى رتبة البلاغة دون ما عداه من الوجوه ونقول حينئذ : لا يخفى أن استنظار اللعين إنما صدر عنه مرة واحدة لا غير فمقامه إن اقتضى إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على ما حلق به من اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر في مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ [الحجر : 36 ، ص : 79] حسبما حكى عنه في السورتين فما حكى عنه ههنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلاً عن العروج إلى معارج الإعجاز .

قلت : أجاب مولانا شيخ الإسلام عن هذا السؤال بعد أن ساقه بأن "مقام استنظاره مقتضٍ لما ذكر من إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الإنظار مقتضٍ لترتيب الإخبار بالإنظار على الإستنظار ، وقد طبق

الكلام عليه في تينك السورتين ووفى كل من مقامي الحكاية والمحكي جميعاً حظه ، وأما ههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الإخبار بالإستنظار والإنظار سيقت الحكاية على نهج الإيجاز والإختصار من غير تعرض لكيفية كل منهما عند المخاطبة والحوار ، ولا يلزم أن لا يكون ذلك نقلاً للكلام على ما هو عليه ولا مطابقاً لمقتضى المقام .

فالذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله (الذي يفيده) وأما كيفية الإفادة فقد تراعى وقد لا تراعى حسب الاقتضاء .

ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها بل قد تراعى عند نقله كيفيات (وخصوصات) (2) لم يراعها المتكلم أصلاً بل قد لا يقدر على مراعاتها .

وجميع المقالات المحكية في الآيات من ذلك القبيل وإلا لما كان الكثير منها معجزاً ، وملاك الأمر في المطابقة مقام الحكاية وأما مقام المحكي فإن كان مقتضاه موافقاً لذلك وفي كل منهما حقه كما في السورتين وإلا لا كما فيما هنا" فليفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(37/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) ﴾

لّما كوّن الله فيه الصّغار والحقارة بعد عزّة الملَكية وشرفها انقلبت مرامي همّته إلى التّعلق بالسّفاسف (إذَا ما لم تكن إبل فمَعْزَى) فسأل النَّظِرة بطول الحياة إلى يوم البعث ، إذ كان يعلم قبل ذلك أنّه من الحوادث الباقية لأنّه من أهل العالم الباقي ، فلمّا أهبط إلى العالم الأرضي ظنّ أنّه صائر إلى العدم فلذلك سأل النَظِرة إبقاء لما كان له من قبلُ ، وإذ قد كان ذلك بتقدير الله تعالى وعِلمه ، وبَدر من إبليس طلب النظِرة ، قال الله تعالى : ﴿ إنك من المنظرين ﴾ أي إنّك من المخلوقات الباقية .

وقد أفاد التّأكيد بإنّ والإخبارُ بصيغة ﴿ من المنظرين ﴾ أنّ إنظاره أمر قد قضاه الله وقدّره من قبلِ سؤاله ، أي تحقّق كونك من الفريق الذين أنظروا إلى يوم البعث ، أي أنّ الله خلق خلقاً وقدّر بقاءهم إلى يوم البعث ، فكشف لإبليس أنّه بعض من جملة المنظرين من قبل حدوث المعصية منه ، وإن الله ليس بمغيّر ما قدّره له ، فجواب الله تعالى لإبليس إخبار عن أمر تَحقّق ، وليسَ إجابة لطلبة إبليس ، لأنّه أهون على الله من أن يجيب له طلَباً ، وهذه هي النّكتة في العدول عن أن يكون الجواب : أنْظرْتك أو أجبت لك ممّا يدلّ على تكرمة باستجابة طلبه ، ولكنّه أعلمه أنّ ما سأله أمر حَاصل فسؤاله تحصيل حاصل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [15]

﴿ قَالَ ﴾ أي : الله له : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أي : من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية .

قال ابن كثير : أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ، ولا معقب لحكمه .

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشميّ اليماني في تفسيره " التهذيب " : ومتى قيل : ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون ؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى ، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية ، ومتى قيل : هل خاطبه بهذا ؟ قلنا : يحتمل ذاك ، ويحتمل أنه أمر ملكاً فخاطبه به ، ومتى قيل : هل يجوز إجابة دعاء الكافر ؟ فيه خلاف .

الأول : قيل لا ، لأنه إكرام وتعظيم – عن أبي علي – ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة ، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه ، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع .

الثاني : يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له ، لأنه تفضل – عن أبي بكر أحمد بن علي – وليس بالوجه .

ومتى قيل : إذا أنظر هل يكون إغراء بالمعصية ؟ قلنا : لا ، لأنه لم يعلم ما الوقت المعلوم ، فلا يكون إغراء مع تجويزه هجوم الموت عليه ، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار ، ولعنه – علم أنه لا يختار الإيمان أبداً .

ومتى قيل : ما فائدة إنظاره ؟ قلنا : لطف له ، لأنه يمكنه من استدراك أمره ، وهل يضل به أحد ؟ قال أبو علي ، لا ، لقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ ولأنه لو ضل به ، لكان بقاؤه مفسدة ن فكان الله تعالى لا ينظره .

فأما أبو هاشم فيجوّز أن يضل به أحد ، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة ، ويجوز أن يكون لطفاً من وجوه :

(39/265)

أحدها أن المكلف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح ، كان ثوابه أكثر ، ولأنه تعالى عرفنا عداوته ، والعاقل يجتهد في أن يغيظ عدوه ويغمه ، وذلك إنما يكون بطاعة ربه ، ومن

أطاعه فمن قِبَل نفسه أتى ، لا من قبل ربه . انتهى كلام الجشمي ، وهو جارٍ على أصول المعتزلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 20 . 22 ﴾

(40/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) ﴾

ومعنى ﴿ أَنظِرْنِي ﴾ أمهلني أي لا تمتني بسرعة ، ولا تجعل أجلي قريباً ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظرين . . . ﴾

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكي يشفي غليله من بني آدم وآدم ؛ انه جاء له بالصَّغَار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد في أن يغري أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكأن إبليس في هذا الطلب أراد أن يُنْقذ من الموت وأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث الذي يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . ﴾ [آل عمران : 185]

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصي من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله

أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه في كل وقت . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ [الحجر : 38]

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68]

وكأن إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لابد أن يكون قبل النفخة الأولى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/265)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "قال أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين " وفى سورة الحجر وسورة ص : "قال ربك فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم " فورد فى آيتى الحجر وص وزيادة الفاء فى قوله "فأنظرنى " وفى قوله "فإنك " وزيادة قوله "رب " ولم يرد ذلك فى الأعراف ، فيسأل عنه ؟

وجواب ذلك والله أعلم : أن مناسبة ما تقدم كل واحدة من الآى الثلاث من الاسهاب والتأكيد أو الإيجاز ألا ترى أن مجموع الكلم الواقعة من لدن قوله فى سورة الأعراف "ولقد خلقناكم" وهو ابتداء القصة إلى قوله : "قال أنظرنى إلى يوم يبعثون" بضع وأربعون كلمة ، والوارد فى الحجر من لدن قوله : "ولقد خلقنا الإنسان" إلى قوله : "قال رب فأنظرنى" بضع وسبعون كلمة وفى سورة ص من لدن قوله "إذ قال ربك" إلى الآية بضع وستون كلمه ، فقد وضح ما قصد فى الأعراف من إيجاز الاخبار فى القصة وما فى السورتين بعد من الإطناب ثم إنه ورد فى سورتى الحجر وص التأكيد بكل وأجمع فى قوله : "كلهم أجمعون" ولم يرد ذلك فى الأعراف فقصد ما قلناه وتناسب الإطناب والتأكيد ولاءم ما ورد من الزيادة فى السورتين الأخيرتين ولم يكن ليناسب العكس والله أعلم بما أراد .

فإن قلت ما وجه ورود القصة الواحدة موجزة ومطولة أخرى ؟

قلت : ليحصل من ذلك الاطلاع على علىّ البلاغة وجلالة النظم وعلى فصاحة فى طرفى الإيجاز والإطناب ، فإن الفصيح البليغ من البشر إن رام هذا لم يف فى الطرفين بما يريده ووضح التفاوت فى هذا بوجه .

فإن قلت فما وجه تقديم الموجز على المطول ؟ قلت : شبه ذلك بالمجمل من الكلام والمفصل وإنما يريده التفصيل بعد الإجمال فهذا الجواب منزل على الترتيب الثابت ، والله سبحانه أعلم بما أراد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 178 . 179 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

وإنما أنظره ابتلاء للعباد وتمييزاً بين المخلص ومتبع الهوى ، وتعريضاً للثواب بمخالفته ، وقيل : أنظره مكافأة له بعبادته التي مضت في السماء وعلى وجه الأرض ؛ ليعلم أنه لا يضيع أجر العاملين وقيل أمهله وأبقاه إلى آخر الدهر استدراجاً له من حيث لا يعلم ليتحمل من الأوزار ما لا يتحمل غيره من الأشرار والكفار ، فأنظره إلى يوم القرار ليحصل الاعتبار به لذوي الأبصار بأن أطول الأعمار في هذه الدار لرئيس الكفار وقائد زمرة الفجار .

واختلف العلماء هل كلم الله تعالى إبليس بغير واسطة أو لا ؟ والصحيح أنّه كلّمه بواسطة ملك لأن كلام الباري لمن كلمه رحمة ورضى وتكرم وإجلال ألا ترى أن موسى عليه السلام فضل بذلك على الأنبياء ما عدا الخليل ومحمداً صلى الله عليه وسلّم

فإن قيل : أليس رسالته أيضاً تشريفاً وقد كانت لإبليس على غير وجه التشريف ، كذلك كلامه يكون تشريفاً لغير إبليس ولا يكون تشريفاً لإبليس .

قيل : مجرد الإرسال ليس بتشريف وإنما يكون لإقامة الحجة بدلالة أن موسى عليه السلام

أرسله الله إلى فرعون وهامان ولم يقصد إكرامهما وإعظامهما لعلمه بأنهما عدوان ، وكان كلامه إياه تشريفاً له ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ (القصص : 62) أي : على لسان بعض ملائكته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 183.184 ﴾

(43/265)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) ﴾

أجاب دعاءَه في الحال ولكن كان ذلك مكراً به لأنه مكَّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة ، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقوةً . ليعلمَ الكافةُ أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمةً ولطفاً بل قد تكون بلاءً ومكراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 522 ﴾

(44/265)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد حكم عليه بالشقاء ، قابل نعمة الإمهال وإطالة العمر بالتمادي في الكفر وأخبره عن نفسه بذلك بأن ﴿ قال ﴾ مسبباً عن إيقاعه في المعصية بسبب نوع الآدميين ﴿ فبما أغويتني ﴾ أي فبسبب إغوائك لي ، وهو إيجاد الغي واعتقاد الباطل في قلبي من أجلهم والله ﴿ لأقعدن لهم ﴾ أي أفعل في قطعهم عن الخير فعل المتمكن المقبل بكليته المتأني الذي لا شغل له غير ما أقبل عليه في مدة إمهالك لي بقطعهم عنك بمنعهم من فعل ما أمرتهم به ، وحملهم على فعل ما نهيتهم عنه ، كما يقعد قاطع الطريق على السابلة للخطف ﴿ صراطك ﴾ أي في جميع صراطك ، بما دل عليه نزع الخافض ﴿ المستقيم ﴾ وهو الإسلام بجميع شعبه ، ومن أسند الإغواء إلى غير الله بسبب اعتقاده أن ذلك مما ينزه الله عنه ، فقد وقع في شر مما فر منه ، وهو أنه جعل في الوجود فاعلين يخالف اختيار أحدهما اختيار الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 14 ﴾

فصل

قال الفخر :

قول إبليس : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ يدل على أنه أضاف إغواءه إلى الله تعالى ، وقوله في آية

أخرى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] يدل على أنه أضاف إغواء العباد إلى نفسه .

فالأول : يدل على كونه على مذهب الجبر .

والثاني : يدل على كونه على مذهب القدر ، وهذا يدل على أنه كان متحيراً في هذه المسألة ، أو يقال : أنه كان يعتقد أن الإغوار لا يحصل إلا بالمغوي فجعل نفسه مغوياً لغيره من الغاوين ، ثم زعم أن المغوي له هو الله تعالى قطعاً للتسلسل ، واختلف الناس في تفسير هذه الكلمة ، أما أصحابنا فقالوا : الإغواء إيقاع الغي في القلب ، والغي هو الاعتقاد الباطل وذلك يدل على أنه كان يعتقد أن الحق والباطل إنما يقع في القلب من الله تعالى .

أما المعتزلة فلهم ههنا مقامان : أحدهما : أن يفسروا الغي بما ذكرناه .

والثاني : أن يذكروا في تفسيره وجهاً آخر .

أما الوجه الأول : فلهم فيه أعذار .

الأول : أن قالوا هذا قول إبليس فهب أن إبليس اعتقد أن خالق الغي والجهل والكفر هو الله تعالى ، إلا أن قوله ليس بحجة .

الثاني : قالوا : إن الله تعالى لما أمر بالسجود لآدم فعند ذلك ظهر غيه وكفره فجاز أن يضيف ذلك الغي إلى الله تعالى بهذا المعنى ، وقد يقول القائل : لا تحملني على ضربك أي لا تفعل ما أضربك عنده .

الثالث : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ والمعنى : إنك بما لعنتني بسبب آدم فأنا لأجل هذه العداوة ألقى الوساوس في قلوبهم .

الرابع : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر : 39] أي خيبتني من جنتك عقوبة على عملي لأقعدن لهم .

(45/265)

الوجه الثاني : في تفسير الإغواء الإهلاك ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : 59] أي هلاكاً وويلاً ، ومنه أيضاً قولهم : غوى الفصيل يغوي غوى إذا أكثر من اللبن حتى يفسد جوفه ، ويشارف الهلاك والعطب ، وفسروا قوله : ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : 34] إن كان الله يريد أن يهلككم بعنادكم الحق ، فهذه جملة الوجوه المذكورة .

واعلم أنا لا نبالغ في بيان أن المراد من الإغواء في هذه الآية الإضلال ، لأن حاصله يرجع إلى قول إبليس وأنه ليس بحجة ، إلا أنا نقيم البرهان اليقيني على أن المغوي لإبليس هو الله تعالى ، وذلك لأن الغاوي لا بد له من مغو ، كما أن المتحرك لا بد له من محرك ، والساكن لا بد له من مسكن ، والمهتدي لا بد له من هاد .

فلما كان إبليس غاوياً فلا بد له من مغوي ، والمغوي له إما أن يكون نفسه أو مخلوقاً آخر أو الله تعالى ، والأول : باطل .

لأن العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية .

والثاني : باطل وإلا لزم إما التسلسل وإما الدور .

والثالث : هو المقصود . والله أعلم .

فائدة :

الباء في قوله : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ فيه وجوه :

الأول : إنه باء القسم أي بإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم أي ، بقدرتك علي ونفاذ سلطانك في لأقعدن لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة ، بأن أزين لهم الباطل ، وما يكسبهم المآثم ، ولما كانت (الباء) باء القسم كانت (اللام) جواب القسم (وَمَا) بتأويل المصدر و ﴿ أَغْوَيْتَنِى ﴾ صلتها .

والثاني : أن قوله : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم ، والمراد إنك لما أغويتني فأنا أيضاً أسعى في إغوائهم .

(46/265)

الثالث : قال بعضهم : (مَا) في قوله : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ للاستفهام كأنه قيل : بأي شيء أغويتني ثم ابتدأ وقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ وفيه إشكال ، وهو أن إثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على "ما" الاستفهامية قليل .

فائدة :

قوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ لا خلاف بين النحويين أن "على" محذوف والتقدير : لأقعدن لهم على صراطك المستقيم .

قال الزجاج : مثاله قولك ضرب زيد الظهر والبطن والمعنى على الظهر والبطن وإلقاء كلمة "على" جائز ، لأن الصراط ظرف في المعنى : فاحتمل ما يحتمله لليوم والليلة ، في قولك آتيك غداً وفي غد .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ فيه أبحاث .

البحث الأول : المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ، ولهذا المعنى ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة حتى لا يفتر عنها .

والبحث الثاني : إن هذه الآية تدل على أنه كان عالماً بالدين الحق والمنهج الصحيح ، لأنه قال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ وصراط الله المستقيم هو دينه الحق .

البحث الثالث : الآية تدل على أن إبليس كان عالماً بأن الذي هو عليه من المذهب

والاعتقاد هو محض الغواية والضلال ، لأنه لو لم يكن كذلك لما قال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ وأيضاً كان عالماً بالدين الحق ، ولولا ذلك لما قال : ﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ . وإذا ثبت هذا فكيف يمكن : أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالاً وغواية وبكونه مضاداً للدين الحق ومنافياً للصراط المستقيم فإن المرء إنما يعتقد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقاً ، فأما مع العلم بأنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ويرضى به ويعتقده .

(47/265)

واعلم أن من الناس من قال أن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل لأنه متى علم أن مذهبه ضلال وغواية ، فقد علم أن ضده هو الحق ، فكان إنكاره إنكاراً بمحض اللسان ، فكان ذلك كفر عناد ، ومنهم من قال لا بل كفره كفر جهل وقوله : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ وقوله : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ يريد به في زعم الخصم ، وفي اعتقاده ، والله أعلم .

فائدة :

احتج أصحابنا بهذه الآية في بيان أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه ولا في دنياه وتقريره أن إبليس استمهل الزمان الطويل فأمهله الله تعالى ، ثم بين أنه إنما استمهله

لإغواء الخلق وإضلالهم وإلقاء الوساوس في قلوبهم ، وكان تعالى عالماً بأن أكثر الخلق يطيعونه ويقبلون وسوسته كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين ﴾ [سبأ : 20] فثبت بهذا أن إنظار إبليس ، وإمهاله هذه المدة الطويلة يقتضي حصول المفاسد العظيمة والكفر الكبير ، فلو كان تعالى مراعياً لمصالح العباد لامتنع أن يمهله ، وأن يمكنه من هذه المفاسد فحيث أنظره وأمهله علمنا أنه لا يجب عليه شيء من رعاية المصالح أصلاً ، ومما يقوي ذلك أنه تعالى بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق ، وعلم من حال إبليس أنه لا يدعو إلا إلى الكفر والضلال ، ثم إنه تعالى أمات الأنبياء الذين هم الدعاة للخلق ، وأبقى إبليس وسائر الشياطين الذين هم الدعاة للخلق إلى الكفر والباطل ومن كان يريد مصالح العباد امتنع منه أن يفعل ذلك .

قالت المعتزلة : اختلف شيوخنا في هذه المسألة .

فقال الجبائي : إنه لا يختلف الحال بسبب وجوده وعدمه ، ولا يضل بقوله أحد إلا من لو فرضنا عدم إبليس لكان يضل أيضاً ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بفاتنين إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 162 ، 163] ولأنه لو ضل به أحد لكان بقاؤه مفسدة .

وقال أبو هاشم يجوز أن يضل به قوم ، ويكون خلقه جارياً مجرى خلق زيادة الشهوة ، فإن هذه الزيادة من الشهوة لا توجب فعل القبيح إلا أن الامتناع منها يصير أشق ، ولأجل تلك الزيادة من المشقة تحصل الزيادة في الثواب ، فكذا ههنا بسبب إبقاء إبليس يصير الامتناع من القبائح أشد وأشق ، ولكنه لا ينتهي إلى حد الإلجاء والإكراه .

(49/265)

والجواب : أما قول أبي علي فضعيف ، وذلك لأن الشيطان لا بد وأن يزين القبائح في قلب الكافر ويحسنها إليه ، ويذكره ما في القبائح من أنواع اللذات والطيبات ، ومن المعلوم أن حال الإنسان مع حصول هذا التذكير والتزيين لا يكون مساوياً لحاله عند عدم هذا التذكير ، وهذا التزيين والدليل عليه العرف ، فإن الإنسان إذا حصل له جلساء يرغبونه في أمر من الأمور ويحسنونه في عينه ويسهلون طريق الوصول إليه ويواظبون على دعوته إليه ، فإنه لا يكون حاله في الإقدام على ذلك الفعل كحاله إذا لم يوجد هذا التذكير والتحسين والتزيين والعلم به ضروري ، وأما قول أبي هاشم فضعيف أيضاً لأنه إذا صار حصول هذا التذكير والتزيين حاصلاً للمرء على الإقدام على ذلك القبيح كان ذلك سعياً في إلقائه في المفسدة ،

وما ذكره من خلق الزيادة في الشهوة ، فهو حجة أخرى لنا في أن الله تعالى لا يراعي المصلحة ، فكيف يمكنه أن يحتج به ؟ والذي يقرره غاية التقرير : أن لسبب حصول تلك الزيادة في الشهوة يقع في الكفر وعقاب الأبد ، ولو احترز عن تلك الشهوة فغايته أنه يزداد ثوابه من الله تعالى بسبب زيادة تلك المشقة وحصول هذه الزيادة من الثواب شيء لا حاجة إليه ألبتة ، إما دفع العقاب المؤبد فإليه أعظم الحاجات ، فلو كان إله العالم مراعياً لمصالح العباد لاستحال أن يهمل الأهم الأكمل الأعظم لطلب الزيادة التي لا حاجة إليها ولا ضرورة ، فثبت فساد هذه المذاهب وأنه لا يجب على الله تعالى شيء أصلاً ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 31.34 ﴾ . بتصرف يسير .

(50/265)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾

قال الكلبي : أي فكما أضللتني .

وقال مقاتل : يعني أما إذا أضللتني .

وقال بعضهم : فبما أغويتني يعني : فبما دعوتني إلى شيء غويت به .

﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ يعني : لأقعدن لهم على طريقك المستقيم ، وهو دين الإسلام فأصدّ الناس عن ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ .

اختلفوا في ما قال : فبعضهم قال : هو استفهام يعني فبأي شيء أغويتني ثمّ ابتدأ فقال ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ فقيل : هو ما الجزاء يعني فإنّك أغويتني لأجل أنك أغويتني لأقعدن ، وقيل : هو ما المصدر في موضع القسم تقديره : بإغوائك إياي لأقعدن كقوله ﴿ بِمَا غَفَرَلِي ﴾ [يس : 27] يعني بغفران ربّي .

وقوله أغويتني أضللتني عن الهدى . وقيل : أهلكتني ، من قول العرب غوى الفصيل [يعني] غوي وذلك إذا فقد اللبن فمات . قال الشاعر :

معطفة الأثناء ليس فصيلها . . . برازئها دراً ولا ميّت غوى

وحكى عن بعض قبائل طي أنها تقول : أصبح فلان غاوياً أي مريضاً غاراً ، وقال محمد بن جرير : أصل الإغواء في كلام العرب تزيين الرجل للرجل الشيء حتّى يحسنه عنده غاراً له .

قال الثعلبي : وأخبرنا أبو بكر محمد بن محمد الحسين بن هاني قال حدثنا أبو عبد الله محمد

بن محمد [الراوساني] قال : حدثنا عليّ بن سلمة قال : حدثنا أبو معاوية الضرير عن رجل لم يسمّ قال : كنت [عند] طاووس في المسجد الحرام فجاء رجل ممّن يرمي القدر من كبار الفقهاء فجلس إليه فقال طاووس : [يقوم أو يقام] فقام الرجل فقال لطاووس : تقول هذا الرجل فقيه ، فقال إبليس : أفقه منه بقول إبليس ربِ بما أغويتني ويقول : هذا أنا أغوي نفسي .

﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ يعني لأجلسنّ [لبني آدم] على طريقك القويم وهو الإسلام كما قال أوعجلتم أمر ربّكم يعني عن أمر ربّكم .

(51/265)

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه كان يقول : " إن الشيطان قعد لبني آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ، فعصاه فأسلم ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك فإنّما مثل المهاجر كالفرس في الطول . فعصاه وهاجر ثمّ قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال : أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصا له وجاهد " .

وعن عون بن عبد الله ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ قال : طريق مكّة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

اختلف أهل العربية في معنى قوله : ﴿ فبما أغويتني ﴾ على قولين :

أحدهما : أنه على معنى القسم وتقديره : فبإغوائك لي لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

والثاني : أنه على معنى المجازاة ، تقديره : فلأنك أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

واختلف أهل العلم في قوله : ﴿ أَغْوَيْتَنِي ﴾ على أربعة أقاويل :

أحدها : معناه أضللتني ، قاله ابن عباس وابن زيد .

والثاني : معناه خيبتني من جنتك ، ومنه قول الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . . ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

أي ومن يخب .

والثالث : معناه عذبتني كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : 59] أي عذاباً ، قاله الحسن .

والرابع : معناه أهلكتني بلعنك لي ، يقال غوى الفصيل إذا أشفى على الهلاك بفقد اللبن ، قال الشاعر :

معطفة الأثناء ليس فصيلها . . . برازئها دراً ولا ميّت غوى

وقوله : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي على صراطك المستقيم ، وفيه تأويلان :

أحدهما : طريق مكة ليصد عن قصدها في الحج والعمرة ، قاله ابن مسعود .

والثاني : طريق الحق ليصد عنها بالإغواء ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(52/265)

وقوله : ﴿ فبما ﴾ يحتمل أن يريد به القسم كما تقول فبالله لأفعلن ، ويحتمل أن يريد به معنى المجازاة كما تقول فبإكرامك يا زيد لأكرمنك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا أليق المعاني بالقصة ، ويحتمل أن يريد فمع إغوائك لي ومع ما أنا عليه من سوء الحال لأتجلدن ولأقعدن ، ولا يعرض لمعنى المجازاة ويحتمل أن يريد بقوله ﴿ فبما ﴾ الاستفهام عن السبب في إغوائه ، ثم قطع ذلك وابتدأ الإخبار عن قعوده لهم ، وبهذا فسر الطبري أثناء لفظه و ﴿ أغويتني ﴾ قال الجمهور معناه أضللتني من الغي .

وعلى هذا المعنى قال محمد بن كعب القرظي فيما حكى الطبري : قاتل الله القدرية

لإبليس أعلم بالله منهم ، يريد في أنه علم أن الله يهدي ويضل ، وقال الحسن ﴿ أغويتني ﴾ لعنتني . وقيل معناه خيبتني .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله تفسير بأشياء لزمت إغواءه ، وقالت فرقة ﴿ أغويتني ﴾ معناه أهلكتني ، حكى ذلك الطبري ، وقال : هو من قولك غوى الفصيل يغوي غوى إذا انقطع عنه اللبن فمات ، وأنشد : [الطويل]

معطَّفةُ الأثناءِ لَيْسَ فَصيلُها . . . بِرَازِئِها دراً ولا ميت غوى

قال : وقد حكي عن بعض بعض طيىء : أصبح فلان غاوياً أي مريضاً ، وقوله : ﴿ لأقعدن لهم صراطك ﴾ يريد على صراطك وفي صراطك وحذف كما يفعل في الظروف ، ونحوه قول الشاعر : [ساعدة بن جؤية] .

لدن بهز الكف يعسل متنه . . . فيه كما عسل الطريق الثعلب

وقال مجاهد : ﴿ صراطك المستقيم ﴾ يريد به الحق . وقال عون بن عبد الله : يريد طريق مكة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تخصيص ضعيف وإنما المعنى لأتعرضن لهم في طريق شرعك وعبادتك ومنهج النجاة فلأصدنهم عنه . ومنه قوله عليه السلام : " إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، نهاه عن الإسلام وقال تترك دين آبائك فعصاه فأسلم فنهاه عن

الهجرة وقال تدع أهلك وبلدك فعصاه فهاجر ، فنهاه عن الجهاد وقال تقتل وتترك ولدك فعصاه فجاهد فله الجنة " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(53/265)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فبما أغويتني ﴾ في معنى هذا الإِغواء قولان .

أحدهما : أنه بمعنى : الإِضلال ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنه بمعنى : الإهلاك ، ومنه قوله : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ [مريم : 59] أي : هلاكاً ، ذكره ابن الأنباري .

وفي معنى "فبما" قولان .

أحدهما : أنها بمعنى القسم ، أي : فباغوائك لي .

والثاني : أنها بمعنى الجزاء ، أي : فبأنك أغويتني ، ولأجل أنك أغويتني ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

قال الفراء ، والزجاج : أي على صراطك .

ومثله قولهم : ضُرب زيد الظهر والبطن .

وفي المراد بالصراط ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه طريق مكة ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وسعيد بن جبير ؛ كأن المراد صدُّهم عن الحج .

والثاني : أنه الإِسلام ، قاله جابر بن عبد الله ، وابن الحنفية ، ومقاتل .

والثالث : أنه الحق ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ الإغواء إيقاعُ الغيّ في القلب ؛ أي فبما أوقعت في قلبي من الغيّ والعِناد والاستكبار .

وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل ، بل هو كفر عناد واستكبار .

وقد تقدّم في "البقرة" .

قيل : معنى الكلام القسَمُ ، أي فبإغوائك إياي لأقعدنّ لهم على صراطك ، أو في صراطك ؛ فحذف .

دليل هذا القول قوله في (ص) : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] فكأن إبليسَ أعظَم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد ، فأقسم به إعظاماً لقدره

عنده .

وقيل : الباء بمعنى اللام ، كأنه قال : فلإغوائك إياي .

وقيل : هي بمعنى مع ، والمعنى فمع إغوائك إياي .

وقيل : هو استفهام ، كأنه سأل بأيّ شيء أغواه ؟ .

وكان ينبغي على هذا أن يكون : فَبِم أغويتني ؟ .

وقيل : المعنى فبما أهلكتني بلعنك إياي .

(54/265)

والإغواء الإهلاك ، قال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] أي هلاكاً .

وقيل : فبما أضللتني .

والإغواء : الإضلال والإبعاد ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : خيّبتني من رحمتك ؛ ومنه قول الشاعر :

ومن يَغْوَ لا يعدم على الغي لائماً . . .

أي من يَخِب .

وقال ابن الأعرابيّ : يقال غوى الرجل يغوِي غَيّاً إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو في نفسه .

وهو أحَد معاني قوله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 124] أي فسد عيشه في الجنة .

ويقال : غوِي الفصيل إذا لم يدِرّ لبن أمه .

الثانية مذهب أهل السنة أن الله تعالى أضلّه وخلق فيه الكفر ، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى .

وهو الحقيقة ، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له ، صادر عن إرادته تعالى .

وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زيّنَه لهم ، ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليسُ ، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه ، تعالى الله عن ذلك .

فيقال لهم : وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبيّ مكرم معصومٍ .

وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نصحي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : 34] وقد روي أن طاوساً جاءه رجل في المسجد الحرام ، وكان متهماً بالقَدر ، وكان من الفقهاء الكبار ؛ فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تُقام ؟ فقيل لطاوس : تقول هذا لرجل فقيه ا فقال : إبليس أفقه منه ، يقول إبليس : ربِّ بما أغويتني .

ويقول هذا : أنا أُغْوِي نفسي .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ أي بالصّدّ عنه ، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك ، أو يضلوا كما ضل ، أو يُخَيَّبوا كما خُيِّب ؛ حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة في "أَغْوَيْتَنِي" .

(55/265)

والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة ، و"صِرَاطَكَ" منصوب على حذف "على" أو "في" من قوله : "صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ" ؛ كما حكى سيبويه "ضرب زيد الظهر والبطن" .

وأنشد :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه . . .

فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعْلَبُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾

وقيل : هي باء القسم تقديره فبإغوائك إياي وقيل معناه فيما أوقعت في قلبي الغي الذي كان سبب هبوطي إلى الأرض من السماء وأضللتني عن الهدى لأقعدن لهم صراطك المستقيم

يعني لأجلسن على طريقك القويم وهو طريق الإسلام .

وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذي يسلكونه إلى الجنة وذلك بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم .

وقيل : المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يعني يمنعهم من الهجرة .

وقيل : المراد به الحج .

والقول الأول أولى لأنه يعم الجميع ومعنى لأردنَّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم ولأضلنَّهم كما أضللتني .

عن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله عليه وسلم يقول : " إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة قعد له في طريق الإسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه وأسلم ، وقعد له بطريق الهجر فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الهل أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة " أخرجه النسائي ، وقوله تعالى إخباراً عن إبليس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾

(56/265)

الظاهر أن الباء للقسم وما مصدرية ولذلك تلقيت الالية بقوله : ﴿ لأقعدن ﴾ ، قال الزمخشري وإنما أقسم بالإغواء لأنّه كان تكليفاً من أحسن أفعال الله لكونه تعريضاً لسعادة الأبد ، فكان جديراً أن يقسم به انتهى ، وقيل : الباء للسبب أي بسبب إغوائك إياي وعبر ابن عطية عنها بأن يراد بها معنى المجازاة قال : كما تقول فبإكرامك لي يا زيد لأكرمنك قال وهذا أليق بالقصة ، قال الزمخشري ، (فإن قلت) : بم تعلقت الباء فإن تعليقها بلأقعدن تصد عنه لام القسم لا تقول والله بزيد لأمرن (قلت) : تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره ﴿ فبما أغويتني ﴾ أقسم بالله ﴿ لأقعدن ﴾ أي بسبب إغوائك أقسم انتهى ، وما ذكره من أن اللام تصدّ عن تعلّق الباء بلأقعدن ليس حكماً مجمعاً عليه بل في ذلك خلاف ، وقيل : ما استفهامية كأنه استفهم عن السبب الذي أغواه وقال بأي شيء أغويتني ثم ابتدأه مقسماً فقال : لأقعدنّ لهم وضعف بإثبات الألف في ما الاستفهامية ، وذلك شاذّ أو

ضرورة نحو قولهم عما تسأل فهذا شاذّ والضرورة كقوله :

على ما قام يشتمني لئيم . . .

(57/265)

ومعنى ﴿ أغويتني ﴾ أضللتني قاله ابن عباس والأكثرون أو لعنتني قاله الحسن أو أهلكتني قاله ابن الأنباري ، أو خيبتني قاله بعضهم ، وقيل : ألقيتني غاوياً ، وقيل : سميتني غاوياً لتكبّري عن السجود لمن أنا خير منه ، وقيل : جعلتني في الغيّ وهو العذاب ، وقيل : قضيت على من الأفعال الذّميمة ، وقيل : أدخلت على داء الكبر ، وقال الزمخشري : فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغيّ كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم نفساً ومناصب وعن الأصم أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك والمعنى فبسبب وقوعي في الغيّ لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم انتهى ، وهو والأصمّ فسّرا على مذهب الاعتزال في نفي نسبة الإغواء حقيقة وهو الإضلال إلى الله وكذلك من فسر ﴿ أغويتني ﴾ معنى ألفيتني غاوياً وهو فرار من ذلك وقوله في الملائكة إنهم أفضل من آدم نفساً ومناصب هو مذهب المعتزلة ، وقال محمد بن كعب القرظي : قاتل الله القدريّة لإبليس أعلم بالله منهم يريد في أنه علم أن الله

يهدي ويضلّ وجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر فجلس إلى طاووس في المسجد الحرام فقال له طاووس : تقوم أو تقام فقام الرّجل فقيل له : أتقول هذا الرجل فقيه ، فقال : إبليس أفقه منه قال : ربّ بما أغويتني ، وهذا يقول أنا أغوي نفسي وجعل الزمخشري هذه الحكاية من تكاذيب المجبرة وذكرها ثم قال كلاماً قبيحاً يوقف عليه في كتابه وعبر بالقعود عن الثبوت في المكان والثابت فيه قالوا : وانتصب ﴿ صراطك ﴾ على إسقاط على قاله الزجاج ، وشبه بقول العرب ضرب زيد الظهر والبطن أي على الظهر والبطن وإسقاط حرف الجرّ لا ينقاس في مثل هذا لا يقال قعدت الخشبة تريد قعدت على الخشبة قالوا أو على الظرف كما قال الشّاعر فيه .

كما عسل الطريق الثعلب . . .

(58/265)

وهذا أيضاً تخريج فيه ضعف لأنّ ﴿ صراطك ﴾ ظرف مكان مختص وكذلك الطريق فلا يتعدّى إليه الفعل إلا بواسطة في ، وما جاء خلاف ذلك شاذّ أو ضرورة وعلى الضرورة أنشدوا :

كما عسل الطريق الثعلب . . .

وما ذهب إليه أبو الحسين بن الطّراوة من أنّ الصراط والطريق الطرف مبهم لا مختص ردّه عليه أهل العربية ، والأولى أن يُضمّن ﴿ لأقعدنّ ﴾ معنى ما يتعدّى بنفسه فينتصب الصّراط على أنه مفعول به والتقدير لألزمنّ بقعودي صراطك المستقيم وهذا الصّراط هو دين الإسلام وهو الموصل إلى الجنة ، ويضعف ما روي عن ابن مسعود وعون بن عبد الله أنه طريق مكة خصوصاً على العقبة المعروفة بعقبة الشيطان يضلّ الناس عن الحج ومعنى قعوده أنه يعترض لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وفي الحديث " أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه نهاه عن الإسلام وقال أتترك دين آبائك فعصاه وأسلم فنهاه عن الهجرة ، وقال : تدع أهلك وبلدك فعصاه فهاجر فنهاه عن الجهاد وقال : تقتل وتترك ولدك فعصاه فجاهد فله الجنة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(59/265)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كأمثاله ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ الباءُ للقسم كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لاَغْوِيَنَّهُمْ ﴾ فإن إغواءَه تعالى إياه أثرٌ من آثار قُدرته عز وجل وحُكمٌ من أحكام

سلطانِه تعالى ، فمآلُ الإقسامِ بهما واحدٌ ، فلعل اللعينَ أقسم بهما جميعاً فحكى تارةً قسَمَه بأحدهما وأخرى بالآخر ، والفاءُ لترتيب مضمونِ الجملةِ على الإنظار ، وما مصدريةٌ أي فأقسم بإغوائك إياي ﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ أو للسببية على أن الباءَ متعلقةٌ بفعل القسمِ المحذوفِ لا بقوله : ﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ كما في الوجه الأول ، فإن اللام تصُدّ عن ذلك أي فبسبب إغوائِك إياي لأجلهم أُقسم بعزتك لأقعُدّن لآدمَ وذرّيته ترصّداً بهم كما يقعُد القُطّاع للقطع على السابلة ﴿ صراطك المستقيم ﴾ الموصِلَ إلى الجنة وهو دينُ الإسلام ، فالقعودُ مجازٌ متفرّعٌ على الكناية ، وانتصابُه على الظرفية كما في قوله :

كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ . . . وقيل : على نزع الجارّ تقديرُه على صراطك كقولك : ضرب زيد الظهرَ والبطنَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(60/265)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كنظائره ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ الفاء لترتيب مضمون الجملة التي بعد على الإنظار ، والباء إما للقسم أو للسببية ، و(ما) على التقديرين مصدرية ، والجار والمجرور متعلق بأقسم ؛ وقيل : إنه على تقدير السببية متعلق بما بعد اللام ، وفيه أن لها

الصدر على الصحيح فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وجوز بعضهم كون (ما) استفهامية لم يحذف ألفها وأن الجار متعلق بأغويتني ولا يخفى ضعفه .

والإغواء خلق الغي وأصل الغي الفساد ومنه غوى الفصيل وغوى إذا بشم وفسدت معدته ، وجاء بمعنى الجهل من اعتقاد فاسد كما في قوله سبحانه : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم وَمَا غوى ﴾ [النجم : 2] وبمعنى الخيبة كما في قوله

: فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . .

ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

ومنه قوله تعالى : ﴿ وعصى ءادَمَ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] واستعمل بمعنى العذاب مجازاً بعلاقة السببية ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] .

ولا مانع عند أهل السنة أن يراد بالإغواء هنا خلق الغي بمعنى الضلال أي بما أضللتني وهو المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ونسبة الإغواء بهذا المعنى إلى الله عز وجل مما يقتضيه عموم قوله سبحانه : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الأنعام : 102] والمعتزلة يأبون نسبة مثل ذلك إليه سبحانه وقالوا في هذا تارة : إنه قول الشيطان فليس بحجة ، وأولوه أخرى بأن الإغواء النسبة إلى الغي كأكفره إذا نسبه إلى الكفر أو إنه بمعنى إحداث سبب الغي وإيقاعه وهو الأمر بالسجود .

وقال بعضهم : إن الغي هنا بمعنى الخيبة أي بما خيبته من رحمتك أو الهلاك أي بما أهلكته

بلعنك إياه وطردك له ، والذي دعاهم إلى هذا كله عدم قولهم بأن الله تعالى خالق كل شيء وأنه سبحان لا خالق غيره ولم يكفهم ذلك حتى طعنوا بأهل السنة القائلين بذلك .

(61/265)

وما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفايا الشرك بما لم يسبق به إبليس عليه اللعنة نعوذ بالله سبحانه وتعالى من التعرض لسخطه .

نعم الإغواء بمعنى الترغيب بما فيه الغواية والأمر به كما هو مراد اللعين من قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ [ص : 82] مما لا يجوز من الله تعالى شأنه كما لا يخفى ، ثم إن كانت الباء للقسم يكون المقسم به صفة من صفات الأفعال وهو مما يقسم به في العرف وإن لم تجر الفقهاء به أحكام اليمين .

ولعل القسم وقع من اللعين بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر ، وإن كانت سببية فالقسم بالعزة أي فبسبب إغوائك إياي لأجلهم أقسم بعزتك .

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لآدم عليه السلام وذريته ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة ﴿ صراطك المستقيم ﴾ الموصل إلى الجنة وهو الحق الذي فيه رضاك .

أخرج أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في "شعب الإيمان" عن سبرة بن

الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الشيطان قعد لابن آدم في طرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسمائك وإنما مثل المهاجر كالفرس في طوله ؟ فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد ثم قال صلى الله عليه وسلم : "فمن فعل ذلك منهم فمات أو وقصته دابته فمات كان حقاً على الله تعالى أن يدخله الجنة " ولعل الاقتصار منه صلى الله عليه وسلم على هذه المذكورات للاعتناء بشأنها والتنبيه على عظم قدرها لما أن المقام قد اقتضى ذلك لا للحصر .

ونظير ذلك ما روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما وغيرهما من تفسير الصراط المستقيم بطريق مكة والكلام من باب الكناية أو التمثيل ، ونصب (الصراط) إما على أنه مفعول به بتضمين ﴿ أقعدن ﴾ معنى ألزمن أو على نزع الخافض أي على صراطك كقولك ضرب زيد الظهر والبطن أو على الظرفين وجاء نصب ظرف المكان المختص عليها قليلاً ، ومن ذلك في المشهور قوله

: لدن بهز الكف يعسل متنه . . .

فيه كما عسل الطريق الثعلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ﴾

الفاء للتّرتيب والتسبب على قوله : ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ [الأعراف : 13] ثمّ قوله ﴿ إنك من المنظرين ﴾ [الأعراف : 15] .

فقد دلّ مضمون ذينك الكلامين أنّ الله خلق في نفس إبليس مَقدرة على إغواء النّاس بقوله : ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ [الأعراف : 13] وإنّه جعله باقياً متصرّفاً بقواه الشرّيرة إلى يوم البعث ، فأحسّ إبليس أنّه سيكون داعية إلى الضّلال والكفر ، بجبلةٍ قَلَبه الله إليها قَلْباً وهو من المَسخ النّفساني ، وإنّه فاعل ذلك لا محالة مع علمه بأنّ ما يصدر عنه هو ضلال وفساد ، فصدور ذلك منه كصدور النّهش من الحيّة ، وكتحرّك الأجفان عند مرور شيء على العين ، وإن كان صاحب العين لا يريد تحريكهما .

والباء في قوله : ﴿ فبما أغويتني ﴾ سببيّة وهي ظرف مستقِر واقع موقع الحال من فاعل ﴿ لأقعدن ﴾ ، أي أقسم لهم حال كون ذلك مني بسبب إغوائك إياي .

واللاّم في ﴿ لأقعدن ﴾ لام القسم : قصد تأكيد حصول ذلك وتحقيق العزم عليه .

وقدم المجرور على عامله لإفادة معنى التّعليل ، وهو قريب من الشّرط فلذلك استحقّ التّقديم فإنّ المجرور إذا قُدم قد يفيد معنى قريباً من الشرطيّة ، كما في قول النّبي صلى الله

عليه وسلم "كما تكونوا يُوَلَّى عليكم " وفي رواية جزم تكونوا مع عدم معاملة عامله معاملة جواب الشّرط بعلامة الجزم فلم يرو "يولى" إلاّ بالألف في آخره على عدم اعْتبار الجزم .

وذلك يحصل من الاهتمام بالمتعلّق ، إذ كان هو السّبب في حصول المتعلَّق به ، فالتّقديم للاهتمام ، ولذلك لم يكن هذا التّقديم منافياً لتصدير لام القسم في جملتها ، على أنّا لا نلتزم ذلك فقد خولف في كثير من كلام العرب .

وما مصدريّة ، والقعود كناية عن الملازمة كما في قول النّابغة:

قُعوداً لدى أبياتهم يَشْمدونهم . . .

رمَى اللَّهُ في تلك الأكُف الكوانع

(63/265)

أي ملازمين أبياتاً لغيرهم يُرِد الجلوس ، إذ قد يكونون يسألون واقفين ، وماشين ، ووجه الكناية هو أنّ ملازمة المكان تستلزم الإعياء من الوقوف عنده ، فيقعد الملازم طلباً للرّاحة ، ومن ثم أطلق على المستجير اسم القَعيد ، ومن إطلاق القعيد على الملازم قوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ [ق : 17] أي ملازم إذ الملَك لا يوصف بقعود ولا قيام .

ولمّا ضمن فعل : ﴿ لأقعدن ﴾ معنى الملازمة انتصب ﴿ صراطك ﴾ على المفعولية ، أو على تقدير فعل تضمّنه معنى لأقعدن تقديره : فامْنَعَنّ صراطك أو فَأَقْطَعَنّ عنهم صراطك ، واللاّم في لهم للأجل كقوله : ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ [التوبة : 5] . وإضافة الصّراط إلى اسم الجلالة على تقدير اللاّم أي الصّراط الذي هو لك أي الذي جعلته طريقاً لك ، والطّريق لله هو العمل الذي يحصل به ما يرضي الله بامتثال أمره ، وهو فعل الخيرات ، وترك السيّئات ، فالكلام تمثيل هيئة العازمين على فعل الخير ، وعزمهم عليه ، وتعرّض الشّيطان لهم بالمنع من فعله ، بهيئة السّاعي في طريق إلى مقصد ينفعه وسعيه إذا اعترضه في طريقه قاطع طريق منعه من المرور فيه .

(64/265)

والضّمير في ﴿ لهم ﴾ ضمير الإنس الذين دلّ عليهم مقام المحاورة ، التي اختصرت هنا اختصاراً دعا إليه الاقتصار على المقصود منها ، وهو الامتنان بنعمة الخلق ، والتّحذير من كيد عدوّ الجنس ، فتفصيل المحاورة مشعر بأنّ الله لمّا خلق آدم خاطب أهل الملإ الأعلى بأنّه خلقه ليَعْمر به وبنسله الأرضَ ، كما أنبأ بذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] فالأرض مخلوقة يومئذ ، وخلق الله آدم

ليعمرها بذريته وعلم إبليس ذلك من إخبار الله تعالى الملائكةَ فحكى الله من كلامه ما به الحاجة هنا : وهو قوله : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ الآية وقد دلّت آية سورة الْحِجْر على أنّ إبليس ذكر في محاورته ما دلّ على أنّه يريد إغواءَ أهل الأرض في قوله تعالى : ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين ﴾ [الحجر : 39 ، 40] فإن كان آدم قد خلق في الجنّة في السّماء ثمّ أهبط إلى الأرض فإن علم إبليس بأنّ آدم يصير إلى الأرض قد حصل من إخبار الله تعالى بأن يجعله في الأرض خليفة ، فعلم أنّه صائر إلى الأرض بعد حين ، وإن كان آدم قد خُلق في جنّة من جنّات الأرض فالأمر ظاهر ، وتقدّم ذلك في سورة البقرة .

وهذا الكلام يدلّ على أنّ إبليس عَلِم أنّ الله خلق البشر للصّلاح والنّفعِ ، وأنّه أودع فيهم معرفة الكمال ، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد ، فلذلك سُمّيت أعمال الخير ، في حكاية كلام إبليس ، صراطاً مستقيماً ، وإضافه إلى ضمير الجلالة ، لأنّ الله دعا إليه وارد من النّاس سلوكه ، ولذلك أيضاً ألزم ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينا هم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ .

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدواً لبني آدم ، لأنّه يطلب منهم ما لم يُخلقوا لأجله وما هو منافٍ للفطرة التي فطر الله عليها البشر ، فالعداوة متأصّلة وجبليّة بين طبع الشّيطان وفطرة الإنسان السّالمة من التّغيير ، وذلك ما أفصح عنه الجَعل الإلهي المشار إليه بقوله : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ [البقرة : 36] ، وبه سيتّضح كيف انقلبت العداوة ولاية بين الشّياطين وبين البشر الذين استحبُّوا الضّلال والكفر على الإيمان والصّلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(66/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغَيّ وهو : الإهلاك ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ . . . فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59]

وحين نقرأ ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ أي فبإغوائك يا الله لي سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله لكن هل يغوي ربنا أو يهدي ؟ . إن الله يهدي دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم

يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصي ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذي أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذي اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوي وإنما يهدي ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة " افعل " و" لا تفعل " ، واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية . ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16]

(67/265)

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون مضجعاً نائماً . وأريح الحالات أن يكون نائماً مضجعاً ؛ لأن الجسم في هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل جسمه

على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : " اقعد حتى ترتاح " ولو قعد وكان متعباً فيقال له : " مضجع قليلاً لترتاح " .

ولماذا اختار الشيطان أن يقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو في حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول : ﴿ واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . . ﴾ [التوبة : 5]

ولم يقل : " قفوا " حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراخي والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذي يحفظ له قوته ، ويبقى له انتباهه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ .

ومادام الشيطان سيغوي ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون في طريق الهداية .

إنما من غوى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون في الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب .

إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة في كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلي يأتي له الوسواس ، ويشككني في الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتي لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية في الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . . . ﴾ [الأعراف : 200]

لماذا ؟ . لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجري منك مجري الدم في العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التي لا تضبطها ؛ ويأتي إليك بمهام الأشياء في وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التي لم تكن تتذكرها ، ويأتي لك بأعقد المسائل وأنت تصلي ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان في مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو في المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل في هذه الحال ؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله ﴾

فمعنى ﴿ فاستعذ ﴾ أي فالتجئ منه إلى الله ؛ لإن الله الذي أعطاه الخاصية في أن يتغلغل

فيك ، وفي دمك ، وفي خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " بفزع والتجاء إليه – سبحانه – فإنه – جل شأنه – ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة : مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

(69/265)

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهرَ عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع مني مال في أرض كنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلني عليه أيها الشيخ ؟ .

وبطبيعة الحال كان هذا السؤال في غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بني ليس في ذلك شيء من العلم ، ولكني احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدي ربك مصليا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدي صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلا : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لا يدعك تتم

ليلتك مع ربك ، وسيأتي ليُخبرك ، فهلاّ أتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد : وكيف يقسم ، لأنه في آية أخرى يقول : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82]

لقد استطاع أن يأتي بالقسم الذي يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أي بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت الغالب الذي لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29]

فأقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 83]

(70/265)

لأن الذي يريده الله مهدّيًا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا في معركة ، إنما يدخل مع خلقه في معركة ليس له فيه حجة ولا قوة ؛ لأن الذي يغلب في المعارك إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يقنعك لتفعل

أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتي في الآخرة يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي . . . ﴾ [إبراهيم : 22]

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإِنسان من هذه الأبواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(71/265)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن ابن عباس ﴿ فبما أغويتني ﴾ قال : أضللتني .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق بقية عن أرطاة عن رجل من أهل الطائف في قوله ﴿ فبما أغويتني ﴾ قال : عرف إبليس أن الغواية جاءته من قبل الله فآمن بالقدر .

وأخرج ابن شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ قال : الحق .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿ لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ﴾ قال طريق مكة .

وأخرج عبد بي حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله ﴿ لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ﴾ قال طريق مكة .

وأخرج أبو الشيخ من طريق عون عن ابن مسعود . مثله .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز إبليس معهم بمثل عدتهم .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية يقول : أقعد لهم فأصدهم عن سبيلك .

وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإِيمان عن سبرة ابن الفاكه " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم في طرقه ، فقعد له بطريق الإِسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في طوله ؟ فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ فعصاه فجاهد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل

ذلك منهم فمات أو وقصته دابته فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة " . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(72/265)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ في هذه " الباء " وجهان :

أحدهما : أنَّهَا قسميَّةٌ وهو الظَّاهِرُ أي : بقدرتك عليَّ ، ونفاذ سُلْطانِكَ فيَّ لأقْعَدَنَّ لهم على الطَّريق المُسْتَقِيم الذي يسلكونه إلى الجَنَّةِ بأن أزيِّنَ لهم الباطِل ، وما يُكْسِبُهُمْ المآثِمَ . ويدل على أنها باء القسم قوله تعالى في سورة " ص " : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ [الآية : 82] .

والثاني : أنَّها سببيَّةٌ ، وبه بدأ الزَّمَخْشَرِيُّ قال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ فبسبب إغوائِكَ إيَّايَ ؛ لأقعدن لهم ، ثم قال : " والمعنى فَبِسَبَبِ وُقُوعِي في الغَيِّ لأجْتَهِدَنَّ في إغوائهم حتَّى يَفْسُدُوا بسببي كما فَسَدْتُ بسببهم " .

فإنْ قُلْتَ : بِمَ تعلَّقَتِ " البَاءُ " ؛ فإنَّ تعلها بـ " لأقْعَدُنَّ " يصدُّ عنه لام القسم لا تقولُ : واللَّه

بزيدٍ لأمرنّ ؟

قُلْتُ : تعلَّقتْ بفعل القَسَمِ المَحْذُوف تقديره ، فبما أغْوَيْتَني أقْسِمُ باللَّهِ لأقعدنّ [أي] : فبسبب إغوائك أقسم .

ويجُوزُ أن يكون " البَاءُ " للقسم أي : فأقْسِمُ بإغْوَائِكَ لأقْعُدَنَّ .

قال شهابُ الدّين .

وهذان الوَجْهَانِ سبقه إليهما أبو بَكْرِ بْنُ الأنْبَارِيِّ ، وذكر عبارةً قريبةً من هذه العِبارَةِ .

(73/265)

وقال أبو حيان : " وما ذكره من أنَّ اللاَّمَ تصدُّ عن تعلُّقِ البَاءِ بـ " لأقْعُدَنَّ " ليس حكماً مجتمعاً عليه ، بل في ذلك خِلافٌ " .

قال شهابُ الدّين : أما الخلافُ فنعم ، لكنَّهُ خلافٌ ضعيفٌ لا يعتد به أبو القَاسِمُ ، والشَّيْخُ نَفْسُهُ قد قال عند قوله تعالى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف : 18] في قراءة من كَسَرَ اللاَّمَ في " لِمَنْ " : إنَّ ذلك لا يجيزه الجمهورُ ، وسيأتي مبيّناً إن شاء اللَّهُ تعالى .

و " مَا " تَحْتَمِلُ ثلاثةَ أوْجُهٍ :

أظهرها : أَنَّهَا مَصْدَرِيَّةٌ أي : فَبِإغوائِكَ إيَايَ .

والثاني : أَنَّها استفهاميَّةٌ يعني أَنَّهُ اسْتَفْهَمَ عن السَّبب الذي إغواهُ به فقال : فبأيِّ شيءٍ من الأَشْيَاءِ أَغْوَيْتَنِي ؟ ثم استأنَفَ جُمْلَةً أَقْسَمَ فيها بقوله : " لأَقْعُدَنَّ " وهذا ضعيفٌ عند بعضهم ، أو ضرورةً عند آخرينَ من حيثُ أنَّ " مَا " الاسفتهاميَّة إذا جُرَّت حُذِفَتْ أَلفُهَا ، ولا تثبت إلاَّ في شذوذ كقولهم : عمَّا تَسْأَلُ ؟ أو ضَرُورَةً كقوله : [الوافر]

2412 - عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ . . .

كَخِنْزِير تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ

والثالث : أَنَّها شرطيةٌ ، وهو قول ابن الأَنْبَارِيِّ ، ونَصُّهُ قال - رحمه الله - : ويجوز أن يكون " مَا " بتأويل الشَّرْطِ ، و" الباء " من صلة الإغواء ، والفاءُ المضْمَرَةُ جوابُ الشَّرْطِ ، والتقديرُ : فبأي شيء أغويتني فلأقعدن لهم صراطَكَ ؛ فتُضْمَرُ الفاءُ [في] جواب الشَّرْطِ كما تُضْمِرُهَا في قولك : " إلَى مَا أَوْمَأْتَ أَنِّي قَابِلُهُ ، وبما أمرت أني سامعٌ مطيعٌ " .

وهذا الذي قاله ضعيف جدّاً ، فإنَّهُ على تقدير صحَّةِ معناهُ يمتنعُ من حيث الصناعةُ ، فإن فاء الجزاء لا تُحذف إلاَّ في ضَرُورَةِ الشِّعْرِ كقوله : [البسط]

2413 - مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا . . .

والشَّرُّ بالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ مِثْلانِ

أيْ : فالله .

وكان المبرد لا يُجَوِّز ذلك ضرورة أيضاً ، وينشد البيت المذكور : [البسيط]

2414 - مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ فالرَّحْمَنُ يَشْكُرُهُ . . . . . .

فعلى قول أبي بكر يكونُ قوله : " لأَقْعدنَّ " جواب قسم محذوف ، وذلك القسَمُ المقدَّرُ ، وجوابه جوابُ الشَّرْطِ ، فيقدَّرُ دخول الفَاءِ على نفس جُمْلَةِ القَسَمِ مع جوابها تقديرُهُ : فبما أغْوَيْتَنِي فواللَّهِ لأَقْعُدَنَّ .

هذا يتمم مذهبه .

والإغواء إيقاع الغَيِّ في القَلْبِ أي : بما أَوْقَعْتَ في قلبي من الغَيِّ والعِنَادِ والاستكبار وقد تقدَّمَ في البَقَرَة .

قوله : " صِرَاطكَ " في نَصْبِهِ ثلاثة أَوْجُهٍ :

أحدها : أَنَّهُ منصوبٌ على إسْقَاطِ الخَافِضِ .

قال الزَّجَّاج : ولا اختلاف بين النَّحويين أنَّ " على " محذوفة كقولك : " ضَرَبَ زيد الظَّهْرَ والبطنَ ، أي : على الظَّهْرِ والبَطْن " .

إلا أن هذا الذي قاله الزَّجَّاجُ - وإن كان ظاهِرُهُ الإجماع - ضعيف من حيث إنَّ حَرْفَ

الجرِّ لا يطَّردُ حَذْفُهُ ، بل هو مخصوص بالضَّرُورَةِ أو الشُّذوذِ ؛ كقوله : [الوافر]

2415 - مُرُّونَ الدِّيَارَ فَلَمْ تَعُوجُوا . . . . . .

[وقوله] : [الطويل]

2416 - . . . . . .

لَوْلاَ الأسَى لقَضَانِي

[وقوله] : [الطويل]

فَبَتُّ كَأَنَّ العَائِدَاتِ فَرَشْنَنِي . . . . . .

أَنَّهُ منصوبٌ على الظَّرفِ ، والتَّقديرُ : لأَقْعُدَنَّ لهم في صِرَاطِكَ .

وهذا أيضاً ضعيف ؛ لأنَّ " صِرَاطكَ " ظرف مكان مُخْتَصّ ، والظَّرْفُ المكانيُّ المختصُّ ، لا يصل إليه الفِعْلُ بنفسه ، بل بـ " في " تقول : صلَّيْتُ في المسجد ، ونمت في السُّوقِ .

ولا تقول : صليتُ المَسْجِدَ إلا فيما استثني في كُتُبِ النحوِ ، وإنْ وَرَدَ غير ذلك ، كان شاذّاً ؛ كقولهم " رَجَعَ ادْرَاجَهُ " و " ذَهَبْتُ " مع " الشَّام " خاصَّةً أو ضرورةً ؛ كقوله : [الطويل]

جَزَى اللَّهُ بالخَيْرَاتِ مَا فَعَلا بِكُمْ . . .

رَفِيقَيْنِ قَالاَ خَيْمَتَيْ أمِّ مَعْبَدِ

في خَيْمَتَي ، وجعلُوا نظير الآيةِ في نَصْبِ المكان المختصِّ قول الآخر : [الكامل]

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنَهُ . . .

فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

وهذا البيتُ أَنْشَدَهُ النُّحَاةُ على أَنَّهُ ضَرُورةٌ ، وقد شذَّ ابن الطَّرَاوَةِ عن مذهب النُّحَاةِ

فجعل " الصِّراط " و" الطَّرِيقَ " في هذين الموضعين مكانين مُبْهَمَيْن .

وهذا قولٌ مردودٌ ؛ لأن المُخْتَصَّ من الأمكنة ما له أقطار تحويه ، وحدود تحصره ،

والصِّراطُ والطَّرِيقُ من هذا القبيل .

الثالث : أَنَّهُ منصوبٌ على المفعول به ؛ لأن الفِعْلَ قبله – وإنْ كان قاصراً – فقد ضُمِّن معنى

فِعْلٍ مُتَعَدٍّ .

والتقديرُ : لألزمن صراطك المستقيمَ بقُعُودي عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل

حـ 9 صـ 37. 39 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ﴾

جَاهَرَ الحقيقةَ بالخلاف بعد ما أظهر من نفسه غايةَ الخلوص في العبودية ، فَعُلِمَ أن جميع ما كان منه في سالف حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 522 ﴾

(76/265)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد أقام نفسه في ذلك بغاية الجد ، فهو يفعل فيه بالوسوسة بنفسه ومن أطاعه من شياطين الجن والإنس ما يفوت الحد ويعجز القوى ، أشار إليه بحرف التراخي فقال مؤكداً : ﴿ ثم لآتينهم ﴾ أي إتياناً لا بد لي منه كائناً ابتداؤه ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي مواجهة ، فأحملهم على أن يفعلوا ما يعلمون أنه خطأ ﴿ و ﴾ كائناً ﴿ من خلفهم ﴾ أي مغافلة ، فيعملون ما هو فاسد في غاية الفساد ولا شعور لهم بشيء من فساده حين تعاطيه فأدلهم بذلك على تعاطي مثله وهم لا يشعرون ﴿ وعن ﴾ أي ومجاوزاً للجهة التي عن

﴿ أيمانهم ﴾ إليهم ﴿ وعن ﴾ أي ومجاوزاً لما عن ﴿ شمائلهم ﴾ أي مخايلة ، فيفعلونه وهو مشتبه عليهم ، وهذه هي الجهات التي يمكن الإتيان منها ، ولعل فائدة " عن " المفهمة للمجاوزة وصل خطى القدام والخلف ليكون إتيانه مستوعباً لجميع الجهة المحيطة ، وأفهمت الجهات الأربع قدحه وتلبيسه فيما يعلمونه حق علمه وما يعلمون شيئاً منه وما هو مشتبه عليهم اشتباهاً قليلاً أو كثيراً ، وهم من ترك ذكره الأعلى أنه لا قدرة له على الإتيان منه لئلا يلتبس أمره بالملائكة ، وقد ذكر ذلك في بعض الآثار كما ذكره في ترجمة ورقة بن نوفل رضي الله عنه .

ولما عزم اللعين على هذا عزماً صادقاً ورأى أسبابه ميسرة من الإنظار ونحوه ، ظن أنه بما راى لهم من الشهوات والحظوظ يظفر بأكثر حاجته ، فقال عاطفاً على تقديره : فلأغوينهم وليتبعنني : ﴿ ولا تجد أكثرهم ﴾ كما هي عادة الأكثر في الخبث ﴿ شاكرين ﴾ فأريد به الشقاء فأغرق في الحسد ، ولو أريد بالشقي الخير لاستبدل بالحسد الغبطة فطلب أن يرتقي هو إلى درجاتهم العالية بالبكاء والندم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة خضوعاً لمقام الربوبية وذلاً لعظيم شأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 15.14 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في ذكر هذه الجهات الأربع قولان :

القول الأول : أن كل واحد منها مختص بنوع من الآفة في الدين .

والقائلون بهذا القول ذكروا وجوهاً : أحدها : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني أشككهم في صحة البعث والقيامة ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ألقي إليهم أن الدنيا قديمة أزلية .

وثانيها : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ والمعنى أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني أقوي رغبتهم في لذات الدنيا وطيباتها وأحسنها في أعينهم ، وعلى هذين الوجهين فالمراد من قوله : ﴿ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآخرة لأنهم يردون عليها ويصلون إليها ، فهي بين أيديهم ، وإذا كانت الآخرة بين أيديهم كانت الدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها .

وثالثها : وهو قول الحاكم والسدي ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني الدنيا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾

الآخرة ، وإنما فسرنا ﴿ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالدنيا ، لأنها بين يدي الإنسان يسعى فيها ويشاهدها ، وأما الآخرة فهي تأتي بعد ذلك .

ورابعها : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ في تكذيب الأنبياء والرسل الذين يكونون حاضرين ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ في تكذيب من تقدم من الأنبياء والرسل .

وأما قوله : ﴿ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ ففيه وجوه : أحدها : ﴿ عَنْ أيمانهم ﴾ في الكفر والبدعة ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ في أنواع المعاصي .

وثانيها : ﴿ عَنْ أيمانهم ﴾ في الصرف عن الحق ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ في الترغيب في الباطل .

وثالثها : ﴿ عَنْ أيمانهم ﴾ يعني أفترهم عن الحسنات ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أقوى دواعيهم في السيئات .

(78/265)

قال ابن الأنباري : وقول من قال ، الأيمان كناية عن الحسنات والشمائل عن السيئات قول حسن ، لأن العرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك ، يريد اجعلني من المقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين .

وروى أبو عبيد عن الأصمعي أنه يقال : هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة ، وإذا خبثت منزلته قال : أنت عندي بالشمال ، فهذا تلخيص ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الجهات الأربع .

أما حكماء الإسلام فقد ذكروا فيها وجوهاً أخرى .

أولها : وهو الأقوى الأشرف أن في البدن قوى أربعاً ، هي الموجبة لقوات السعادات الروحانية ، فإحداها : القوة الخالية التي يجتمع فيها مثل المحسوسات وصورها وهي موضوعة في البطن المقدم من الدماغ ، وصور المحسوسات إنما ترد عليها من مقدمها ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

والقوة الثانية : القوة الوهمية التي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات ، وهي موضوعة في البطن المؤخر من الدماغ ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ .

والقوة الثالثة : الشهوة وهي موضوعة في الكبد وهي من يمين البدن .

والقوة الرابعة : الغضب ، وهو موضوع في البطن الأيسر من القلب ، فهذه القوى الأربع هي التي تتولد عنها أحوال توجب زوال السعادات الروحانية والشياطين الخارجة ما لم تستعن بشيء من هذه القوى الأربع ، لم تقدر على إلقاء الوسوسة ، فهذا هو السبب في تعيين هذه الجهات الأربع ، وهو وجه حقيقي شريف .

وثانيها : أن قوله : ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ المراد منه الشبهات المبنية على التشبيه . أما في الذات والصفات مثل شبه المجسمة .

(79/265)

وأما الأفعال : مثل شبه المعتزلة في التعديل والتخويف والتحسين والتقبيح ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ المراد منه الشبهات الناشئة عن التعطيل ، وإنما جعلنا قوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ لشبهات التشبيه ، لأن الإنسان يشاهد هذه الجسمانيات وأحوالها ، فهي حاضرة بين يديه ، فيعتقد أن الغائب يجب أن يكون مساوياً لهذا الشاهد ، وإنما جعلنا قوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ كناية عن التعطيل ، لأن التشبيه عين التعطيل ، فلما جعلنا قوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن التشبيه وجب أن نجعل قوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ كناية عن التعطيل .

وأما قوله : ﴿ وَعَنْ أيمانهم ﴾ فالمراد منه الترغيب في ترك المأمورات ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ الترغيب في فعل المنهيات .

وثالثها : نقل عن شقيق رحمه الله أنه قال : ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع ، من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي .

أما من بين يدي فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم .

فاقرأ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [طه : 82] وأما من خلفي : فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر ، فاقرأ ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] وأما من قبل يميني : فيأتيني من قبل الثناء فاقرأ ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : 83] وأما من قبل شمالي : فيأتيني من قبل الشهوات فاقرأ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ : 54] .

والقول الثاني : في هذه الآية أنه تعالى حكى عن الشيطان ذكر هذه الوجوه الأربعة ، والغرض منه أنه يبالغ في إلقاء الوسوسة ، ولا يقصر في وجه من الوجوه الممكنة ألبتة .

وتقدير الآية : ثم لآتينهم من جميع الجهات الممكنة بجميع الاعتبارات الممكنة .

(80/265)

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال له : تدع ديارك وتتغرب فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل ، ويقسم مالك ، وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل " ، وهذا الخبر يدل على أن الشيطان لا يترك جهة من جهات

الوسوسة إلا ويلقيها في القلب .

فإن قيل : فلم لم يذكر مع الجهات الأربع من فوقهم ومن تحتهم .

قلنا : أما في التحقيق فقد ذكرنا أن القوى التي يتولد منها ما يوجب تفويت السعادات الروحانية ، فهي موضوعة في هذه الجوانب الأربعة من البدن .

وأما في الظاهر : فيروى أن الشيطان لما قال هذا الكلام رقت قلوب الملائكة على البشر ، فقالوا : يا إلهنا كيف يتخلص الإنسان من الشيطان مع كونه مستولياً عليه من هذه الجهات الأربع ، فأوحى الله تعالى إليهم أنه بقي للإنسان جهتان : الفوق والتحت ، فإذا رفع يديه إلى فوق في الدعاء على سبيل الخضوع ، أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة . والله أعلم .

المسألة الثانية :

أنه قال : ﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ فذكر هاتين الجهتين بكلمة ﴿ مِنْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ فذكر هاتين الجهتين بكلمة ﴿ عَنْ ﴾ ولا بد في هذا الفرق من فائدة .

فنقول : إذا قال القائل جلس عن يمينه ، معناه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين غير ملتصق به .

قال تعالى : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ [ق : 17] فبين أنه حضر على هاتين الجهتين ملكان ، ولم يحضر في القدام والخلف ملكان ، والشيطان يتباعد عن الملك ، فلهذا المعنى خص اليمين والشمال بكلمة ﴿ عَنْ ﴾ لأجل أنها تفيد البعد والمباينة ، وأيضاً فقد ذكرنا أن المراد من قوله : ﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الخيال ، والوهم ، والضرر الناشىء منهما هو حصول العقائد الباطلة ، وذلك هو حصول الكفر ، وقوله : ﴿ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ الشهوة ، والغضب ، والضرر الناشىء منهما هو حصول الأعمال الشهوانية والغضبية ، وذلك هو المعصية ، ولا شك أن الضرر الحاصل من الكفر لازم ، لأن عقابه دائم .

أما الضرر الحاصل من المعصية فسهل لأنه عقابه منقطع ، فلهذا السبب خص هذين القسمين بكلمة ﴿ عَنْ ﴾ تنبيهاً على أن هذين القسمين في اللزوم والاتصال دون القسم الأول .

والله أعلم بمراده .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : هذا القول من إبليس كالدلالة على بطلان ما يقال : إنه يدخل في بدن ابن آدم ويخالطه ، لأنه لو أمكنه ذلك لكان بأن يذكره في باب المبالغة أحق .

ثم قال تعالى حكاية عن إبليس أنه قال : ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ وفيه سؤال : وهو أن هذا من باب الغيب فكيف عرف إبليس ذلك فلهذا السبب اختلف العلماء فيه فقال بعضهم كان قد رآه في اللوح المحفوظ ، فقال له على سبيل القطع واليقين .

(82/265)

وقال آخرون : إنه قاله على سبيل الظن لأنه كان عازماً على المبالغة في تزيين الشهوات وتحسين الطيبات ، وعلم أنها أشياء يرغب فيها غلب على ظنه أنهم يقبلون قوله فيها على سبيل الأكثر والأغلب ويؤكد هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ فَرِيقاً ﴾ [سبأ : 20] والعجب أن إبليس قال للحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ فقال الحق ما يطابق ذلك ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وفيه وجه آخر وهو أنه حصل للنفس تسع عشرة قوة ، وكلها تدعو النفس إلى اللذات الجسمانية .

والطيبات الشهوانية فخمسة منها هي الحواس الظاهرة ، وخمسة أخرى هي الحواس الباطنة ، واثنان الشهوة والغضب ، وسبعة هي القوى الكامنة ، وهي الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، والغاذية ، والنامية ، والمولدة فمجموعها تسعة عشر وهي

بأسرها تدعو النفس إلى عالم الجسم وترغبها في طلب اللذات البدنية ، وأما العقل فهو قوة واحدة ، وهي التي تدعو النفس إلى عبادة الله تعالى وطلب السعادات الروحانية ولا شك أن استيلاء تسع عشرة قوة أكمل من استيلاء القوة الواحدة لا سيما وتلك القوى التسعة عشر تكون في أول الخلقة قوية ويكون العقل ضعيفاً جداً وهي بعد قوتها يعسر جعلها ضعيفة مرجوحة فلما كان الأمر كذلك ، لزم القطع بأن أكثر الخلق يكونون طالبين لهذه اللذات الجسمانية معرضين عن معرفة الحق ومحبته فلهذا السبب قال : ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 34 . 36 ﴾

(83/265)

وقال السمرقندى :

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾

روى أسباط عن السدي قال : من بين أيديهم الدنيا أدعوهم إليها ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآخرة أشككهم فيها ﴿ وَعَنْ أيمانهم ﴾ قال الحق : أشككهم فيه ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ قال : الباطل أخففه عليهم وأرغبهم فيه .

وقال في رواية الكلبي : ثم لآتينّهم من بين أيديهم من أمر الآخرة ، فأزيّن لهم التكذيب بالبعث بأنه لا جنة ولا نار ، ومن خلفهم من أمر الدنيا فأزينها في أعينهم وأرغبهم فيها ، فلا يعطون حقاً عن أيمانهم أي : من قبل دينهم فإن كانوا على الضلالة زيّنتها لهم ، وإن كانوا على الهدى شبّهته عليهم حتى يشكوا فيه ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ من قبل اللذات والشهوات .

ويقال : معناه لآتينهم بالإضلال من جميع جهاتهم ويقال : ﴿ عَنْ أيمانهم ﴾ فيما أمروا به ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ فيما نهوا عنه .

ويقال : ﴿ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أي : فيما يعملون لأنه يقال عملت بذلك ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ يعني ذرية آدم لا يكونون شاكرين لنعمتك ، ويقال شاكرين مؤمنين وقال في آية أُخرى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين ﴾ [سبأ : 20] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية

قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : (ثم لآتينّهم) من بين أيديهم يقول [أشككهم] في آخرتهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [أن يُقيم في كتابهم] ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ اشتبه عليهم أمر دينهم ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ [أُشهّي] لهم المعاصي .

روى عطيّة عن ابن عباس قال : أما بين أيديهم فمن قِبل دنياهم وأمّا من خلفهم [فإنّه] آخرتهم وأمّا من إيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم .

(84/265)

وقال قتادة : أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنّه لا يعذّب ولا جنّة ولا نار ، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزيّنها لهم ودعاهم إليها ، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطّأهم عنها ، وعن شمائلهم يزين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها ، إياك يا بن آدم من كل وجه غير أنّه لم يأتك من فوقك لم يستطيع أن يحول بينك وبين رحمة الله .

وقال الحكم والسدّي ﴿ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ : يعني الدنيا أدعوهم إليها وأُرغبهم فيها وأُزينها لهم . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من قِبَل الآخرة أُشككهم و[أثبطهم] فيها . ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ من قبل الحق أصدهم عنه [أبتلكم] فيه ، وعن شمائلهم من قِبل الباطل أُخففه عليهم وأُزينه لهم وأُرغبهم فيه .

وقال مجاهد : من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون ، قال ابن جريج : معنى قوله : من حيث يبصرون أي يخطئون حيث يعلمون أنّهم يخطئون وحيث لا يبصرون لا يعلمون أنهم يخطئون .

وقال الكلبي : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ من قِبل آخرتهم أخبرهم أنّه لا جنّة ولا نار ولا نشور . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من قِبل دنياهم فأمرهم بجمع الأموال لا يعطون لها حقّاً [وأُخوفهم الضيعة] على ذرّيتهم .

﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ من قِبل دينهم [فأُبيّن] لكلّ قوم ما كانوا [يعبدون] وإن كانوا على هدى شبّهته عليهم حتّى أخرجتهم منه ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ من قِبل الشهوات واللذات فأُزيّنها لهم .

وقال شقيق بن إبراهيم : ما من صباح إلاّ وقعد لي الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، أما من بين يدي فأقول : لا تحزن فإنّ الله غفور رحيم ، ويقول ذلك ﴿ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهتدى ﴾ [طه : 82] .

(85/265)

وأمّا من خلفي فتخوّفني الضيعة على عيالي ومحللي فأقول ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] .

وأما من قِبَل يميني فيأتيني من قبل [الثناء] فأقول والعاقبة للمتقين .

وأمّا من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات واللّذات فأقول ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا

يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ : 54] .

﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ قال الله عزّ وجلّ لإبليس . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ الآية .

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي أشككهم في آخرتهم ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أرغبهم في دنياهم ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ : أي من قبل حسناتهم ، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِم ﴾ من قبل سيئاتهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : ﴿ مِنّ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ : من قبل ، دنياهم ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ : من قبل آخرتهم ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ : الحق أشككهم فيه ، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِم ﴾ : الباطل أرغبهم فيه ، قاله السدي وإبراهيم .

والثالث : ﴿ مِنّ بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ من حيث ينظرون ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِم ﴾ ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِم ﴾ : من حيث لا يبصرون ، قاله مجاهد .

والرابع : أراد من كل الجهات التي يمكن الاحتيال عليهم منها ، ولم يذكر من فوقهم لأن رحمة الله تصده ، ولا من تحت أرجلهم لما فيه التنفير ، قاله بعض المتأخرين .

ويحتمل تأويلاً خامساً : ﴿ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ : فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون على طاعة ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِم ﴾ : فيما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عن معصية ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِم ﴾ : من قبل غناهم فلا ينفقونه في مشكور ، ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِم ﴾ : من قبل فقرهم فلا يمتنعون فيه عن محظور .

(86/265)

ويحتمل سادساً : ﴿ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ : بسط أملهم ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِم ﴾ تحكيم جهلهم ، ﴿ وعن أيمانهم ﴾ : فيما ييسر لهم ، ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِم ﴾ : فيما تعسر عليهم ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : شاكرين لنعمك .

والثاني : مقيمين على طاعتك .

فإن قيل : فكيف علم إبليس ذلك ؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أنه ظن ذلك فصدق ظنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ [سبأ : 20] وسبب ظنه أنَّه لما أغوى آدم واستزله قال : ذرية هذا أضعف منه ، قاله الحسن .

والثاني : أنه يجوز أن يكون علم ذلك من جهة الملائكة بخبر من الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾

هذا توكيد من إبليس في أنه يجد في إغواء بني أدم ، وهذا لم يكن حتى علم إبليس أن الله يجعل في الأرض خليفة وعلم أنه آدم وإلا فلا طريق له إلى علم أنسال آدم من ألفاظ هذه الآيات .

قال القاضي ابو محمد : ومقصد هذه الآية أن إبليس أخبر عن نفسه أنه يأتي إضلال بني آدم من كل جهة وعلى كل طريق يفسد عليه ما أمكنه من معتقده وينسيه صالح أعمال الآخرة ويغريه بقبيح أعمال الدنيا ، فعبر ذلك بألفاظ تقتضي الإحاطة بهم ، وفي اللفظ تجوز ، وهذا قول جماعة من المفسرين ، وقال ابن عباس فيما روى عنه : أراد بقوله ﴿ من بين أيديهم ﴾ الآخرة ﴿ ومن خلفهم ﴾ الدنيا ﴿ وعن أيمانهم ﴾ الحق ، ﴿ وعن شمائلهم ﴾ الباطل ، وقال ابن عباس أيضاً فيما روي عنه : ﴿ من بين أيديهم ﴾ هي الدنيا ﴿ ومن خلفهم ﴾ هي الآخرة ﴿ وعن أيمانهم ﴾ الحسنات ﴿ وعن شمائلهم ﴾ السيئات . وقال مجاهد : من " بين أيديهم وعن أيمانهم " : معناه حيث يبصرون " ومن خلفهم وعن شمائلهم " حيث لا يبصرون .

وقوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ خبر أن سعايته تفعل ذلك ظناً منه وتوهماً في خلقة آدم حين رأى خلقته من أشياء مختلفة فعلم أنه ستكون لهم شيم تقتضي طاعته كالغل والحسد والشهوات ونحو ذلك ، قال ابن عباس وقتادة : إلا أن إبليس لم يقبل أنه يأتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً إلى أن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومنّه ، وما ظنه إبليس صدقه الله عز وجل . ومنه قوله : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ [سبأ : 20] فجعل أكثر العالم كفرة ، ويبينه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث : " يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم أخرج بعث النار ، فيقول : يا رب وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين وواحد إلى الجنة " ونحوه مما يخص أمة محمد عليه السلام : " ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود " .

قال القاضي أبو محمد : وقوله كالشعرة يحتمل أن يريد شعرة واحدة وهو بعيد لأن تناسب الحديث الأول يرده ، ويحتمل أن يريد الشعرة التي هي للجنس ، والقصد أن يشبههم بثور أسود قد أنبتت في خلال سواده شعرة بيضاء ، ويحتمل أن يريد اللمعة من الشعر الأبيض ، وهذا فيه بعد ، و﴿ شاكرين ﴾ معناه مؤمنين لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن ،

قاله ابن عباس وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾

فيه سبعة أقوال .

أحدها : ﴿ من بين أيديهم ﴾ أشككهم في آخرتهم ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أرغبهم في دنياهم ، ﴿ وعن أيمانهم ﴾ أي : من قِبل حسناتهم ، ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قِبل سيئاتهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : مثلُه ، إلا أنهم جعلوا ﴿ من بين أيديهم ﴾ الدنيا ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ الآخرة ، قاله النخعي ، والحكم بن عتيبة .

(88/265)

والثالث : مثل الثاني ، إلا أنهم جعلوا ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل الحق أصدَّهم عنه ، ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قبل الباطل أردُّهم إليه ، قاله مجاهد ، والسدي .

والرابع : ﴿ من بين أيديهم ﴾ من سبيل الحق ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ من سبيل الباطل ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل آخرتهم ، ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من أمر الدنيا ، قاله أبو صالح .

والخامس : ﴿ من بين أيديهم ﴾ ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من حيث يبصرون .

﴿ ومن خلفهم ﴾ ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من حيث لا يبصرون ، نقل عن مجاهد أيضاً .

والسادس : أن المعنى لأتصرفن لهم في الإِضلال من جميع جهاتهم ، قاله الزجاج ، وأبو سليمان الدمشقي .

فعلى هذا ، يكون ذكر هذه الجهات ، للمبالغة في التأكيد .

والسابع : ﴿ من بين أيديهم ﴾ فيما بقي من أعمارهم ، فلا يقدمون فيه على طاعة ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ فيما مضى من أعمارهم ، فلا يتوبون فيه من معصية ، ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل الغنى ، فلا ينفقونه في مشكور ، ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قبل الفقر ، فلا يمتنعون فيه من محظور ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : موحِّدين ، قاله ابن عباس .

والثاني : شاكرين لنعمتك ، قاله مقاتل .

فإن قيل : من أين علم إبليس ذلك ؟ فقد أسلفنا الجواب عنه في سورة (النساء) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾

قال ابن عباس : من بين أيديهم يعني من قبل الآخرة فأشككهم فيهم ، ومن خلفهم يعني من قبل الدنيا فأرغبهم فيها ، وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي .

وإنما جعل الآخرة من بين أيديهم في هذا القول لأنهم منقلبون إليها وصائرون إليها فعلى هذا الاعتبار فالدنيا خلفهم لأنها وراء ظهورهم .

(89/265)

وقال ابن عباس في رواية عنه : من بين أيديهم يعني من قبل دنياهم يعني أزينها في قلوبهم ، ومن خلفهم من قبل الآخرة ، فأقول لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم ، وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم وإنما جعل الدنيا من بين أيديهم في هذا القول لأن الإنسان يعسى فيها ويشاهدها فهي حاضرة بين يديه والآخرة غائبة عنه فهي خلفه .

وقال الحكم بن عتبة : من بين أيديهم يعني من قبل الدنيا فأزينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأثبطهم عنها وعن أيمانهم يعني من قبل الحق فأصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فأزينه لهم وقال قتادة : أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن إيمانهم من قبل حسناتهم فبطأهم

عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها .

أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك فلم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى .

وقال مجاهد يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون ، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون .

ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون أنهم يخطئون ومن حيث لا يبصرون أنهم يخطئون ولا يعلمون أنهم يخطئون ، وقيل : من بين أيديهم يعني فيما بقي من أعمالهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعني ما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية عن أيمانهم يعني من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشركون ومن خلفهم يعني من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور نالوه .

(90/265)

وقال شقيق البلخي : ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي أما بين يدي فيقول : لا تخف إن الله غفور رحيم فأقرأ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في

الفقر فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، وأما من قبل يميني فيأتيني من الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين ، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون .

وقيل إن ذكر هذه الجهات الرضع إنما أريد بها التأكيد والمبالغة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم وأنه لا يقصر في ذلك ، ومعنى الآية على هذا القول : ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ يعني ولا تجد يا رب أكثرهم بني آدم شاكرين على نعمك التي أنعمت بها عليهم .

وقال ابن عباس : معناه ولا تجد أكثرهم موحدين .

فإن قلت : كيف علم الخبيث إبليس حتى قال ولا تجد أكثرهم شاكرين ؟

قلت : قاله ظناً فأصاب منه قوله تعالى ، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه وقيل إنه كان عازماً على المبالغة في تزيين الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بني آدم إلى ذلك فقال هذه المقالة وقيل إنه رآه مكتوباً في اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

الظاهر أنّ إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له والجدّ في إضلاله من كل وجه يمكن ولما كانت هذه الجهات يأتي منها العدوّ غالباً ذكرها لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقة ، وقال ابن عباس : ﴿ من بين أيديهم الآخرة ﴾ أشككهم فيها وأنه لا بعث ﴿ ومن خلفهم ﴾ الدّنيا أرغبهم فيها وزيّنها لهم وعنه أيضاً وعن النخعي والحكم بن عتبة عكس هذا ، وعنه ﴿ وعن أيمانهم ﴾ الحقّ وعن ﴿ شمائلهم ﴾ الباطل وعنه أيضاً : و﴿ عن أيمانهم ﴾ الحسنات وعن ﴿ شمائلهم ﴾ السيئات ، وقال مجاهد : الأوّلان حيث ينصرون والآخران حيث لا ينصرون ، وقال أبو صالح الأوّلان الحقّ والباطل والآخران الآخرة والدنيا ، وقيل : الأولان بفسحة الأمل وبنسيان الأجل والآخران فيما تيسر وفيما تعسر ، وقيل الأولان فيما بقي من أعمارهم فلا يطيعون وفيما مضى منها فلا يندمون على معصية والآخران فيما ملكته أيمانهم فلا ينفقونه في معروف ومن قبل فقرهم فلا يمتنعون عن محظور .

وقال أبو عبد الله الرازي حاكياً عن من سماه هو حكماء الإسلام من بين أيديهم القوة الخياليّة وهي تجمع مثل المحسوسات وصورها وهي موضوعة في البطن المقدّم من الدماغ

ومن خلفهم القوة الوهميّة وهي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات وهي موضوعة في البطن المؤخر من الدماغ وعن أيمانهم قوة الشهوة وهي موضوعة في البطن الأيمن من القلب وعن شمائلهم قوة الغضب وهي موضوعة في البطن الأيسر من القلب فهذه القوى الأربعة هي التي يتولد عنها أحوال توجب زوال السعادة الروحانية والشياطين الخارجة ما لم تشعر بشيء من هذه القوى الأربع لم تقدر على إلقاء الوسوسة فهذا هو السبب في تعيين هذه الجهات الأربع وهو وجه تحقيق انتهى ، وهو بعيد من مناحي كلام العرب والمتشرّعين قال : وعلى هذا لم يحتج إلى ذكر العلوّ والسّفل لأن هاتين الجهتين ليستا بمقرّ شيء من القوى المفسدة لمصالح السعادة الروحانية انتهى .

(92/265)

وقال ابن عباس : لم يقل من فوقهم لأن رحمة الله تنزل عليهم من فوقهم ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان من تحتهم فيه توحش ،

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف قيل ﴿ من بين أيديهم ﴾ ﴿ ومن خلفهم ﴾ بحرف الابتداء و ﴿ عن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ بحرف المجاوزة ، (قلت) : المفعول فيه عدى إليه الفعل تعديته إلى المفعول به كما اختلفت حروف التعدية في ذلك اختلفت في هذا

وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله قلنا معنى على يمينه أنه يمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما ذكرنا في فعال ونحوه من المفعول به قولهم رميت عن القوس وعلى القوس ومن القوس لأنّ السّهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدىء الرمي منها فكذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه بمعنى في لأنهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل انتهى ، وهو كلام لا بأس به ، وأقول إنما خصّ بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكن في الإتيان لأنهما أغلب ما يجيء العدو وبسالته في مواجهة قرنه غير خائف منه والخلف من جهة غدر ومخاتلة وجهالة القرن بمن يغتاله ويتطلب غرّته وغفلته وخصّ الأيمان والشمائل الحرف الذي يدل على المجاوزة لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العدوّ وإنما يتجاوز إتيانه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك وقدمت الأيمان على الشمائل لأنها الجهة التي هي القوية في ملاقاة العدوّ ، وبالأيمان البطش والدفع فالقرن الذي يأتي من جهتها أبسل وأشجع إذ جاء من الجهة التي هي أقوى في الدفع والشمائل جهة ليست في القوة والدفع كالأيمان .

وقال ابن عباس شاكرين موحدين وعنه وعن غيره مؤمنين لأنّ ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن ، وقال مقاتل شاكرين لنعمتك ، وقال الحسن : ثابتين على طاعتك ولا يشكرك إلا القليل منهم وهذه الجملة المنفية يحتمل أن تكون داخلة في خبر القسم معطوفة على جوابه ويحتمل أن تكون استئناف إخبار لي مقسماً عليه أخبر أنّ سعايته وإتيانه إيّاهم من جميع الوجوه يفعل ذلك وهل هذا الإخبار منه كان على سبيل التظني لقوله ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ أو على سبيل العلم قولان وسبيل العلم إما رؤيته ذلك في اللوح المحفوظ أو استفادته من قوله ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ أو من الملائكة بإخبار الله لهم أو بقولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ أو بإغواء آدم وذريته أضعف منه أو يكون قوى ابن آدم تسعة عشر قوة وهي خمس حواس ظاهرة وخمس باطنة والشهوة والغضب ، وسبع سابقة وهي الجاذبة والممسكة والهاضمة والدّافعة والقاذفة والنامية والمولدة وكلها تدعو إلى عالم الجسم إلى اللذات البدنية ، والعقل قوة واحدة تدعو إلى عبادة الله وتلك في أول الخلق والعقل إذ ذاك ضعيف أقوال ستة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾

أي من الجهات الأربعِ التي يُعتاد هجومُ العدوِّ منها مثلُ قصدِه إياهم للتسويل والإضلال من أي وجهٍ يتيسر بإتيان العدوِّ من الجهات الأربعِ ولذلك لم يُذكر الفوقُ والتحتُ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما (مِنْ بَيْنِ أيدِيهِمْ) من قِبَل الآخرةِ . و(من خلفهم) من جهة الدنيا ، و(عن أيمانِهم وعن شمائلهم) من جهة حسناتِهم وسيئاتِهم . وقيل : من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدِرون على التحرز منه ، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيّقظهم واحتياطِهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك ، وإنما عُدّي الفعلُ إلى الأوَّلَيْن بحرف الابتداء لأنه منهما متوجهٌ إليهم وإلى الآخَرَين بحرف المجاوزة فإن الآتيَ منهما كالمنحرف المتجافي عنهم المارِّ على عَرضهم ، ونظيرُه جلست عن يمينه ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ أي مطيعين وإنما قاله ظناً لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ لما رأى منهم مبدأ الشرِّ متعدداً ومبدأَ الخيرِ واحداً ، وقيل : سمعه من الملائكة عليهم السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾

أي من الجهات الأربع التي يعتاد هجوم العدو منها ، والمراد لأسولن لهم ولأضلنهم بقدر الإمكان إلا أنه شبه حال تسويله ووسوسته لهم كذلك بحال إتيان العدو لمن يعاديه من أي جهة أمكنته ولذا لم يذكر الفوق والتحت إذ لا إتيان منهما فالكلام من باب الاستعارة التمثيلية و﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ [الأعراف : 16] على ما قيل ترشيح لها ، وبعضهم لم يخرج الكلام على التمثيل واعتذر عن ترك جهة الفوق بأن الرحمة تنزل منها وعن ترك جهة التحت بأن الإتيان منها يوحش ، والاعتذار عن الأول بما ذكر أخرجه غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وروي أيضاً عن عكرمة والشعبي والاعتذار عن الثاني نسبه الطبرسي إلى الحبر أيضاً ، ولا يبعد على ذلك أن يكون الكلام تمثيلاً أيضاً ويكون الفرق بين التوجيهين بأن ترك هاتين الجهتين على الأول لعدمهما في الممثل به وعلى الثاني لعدمهما في الممثل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن

﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ من قبل الآخرة لأنها مستقبلة آتية وما هو كذلك كأنه بين الأيدي ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من قبل الدنيا لأنها ماضية بالنسبة إلى الآخرة ولأنها فانية متروكة مخلفة ﴿ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ من جهة حسناتهم وسيآتهم ، وتفسير الأيمان بالحسنات والشمائل بالسيآت لأنهم يجعلون المحبوب في جهة اليمين وغيره في جهة الشمال كما قال

: بثين أفي يمنى يديك جعلتني . . .

فأفرح أم صيرتني في شمالك

وقال الأصمعي : يقال هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة وبالشمال على عكس ذلك ، والكلام على هذا يجوز أن يكون فيه مجازات أو استعارات أو كنايات .

(96/265)

ونظير هذا ما قيل : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من حيث لا يعلمون و ﴿ عَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك ، وقال بعض حكماء الإسلام : إن في البدن قوى أربعا : القوة الخالية التي تجتمع فيها

مثل المحسوسات وموضعها البطن المقدم من الدماغ وإليها الإشارة بقوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ والقوة الوهمية التي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات ومحلها البطن المؤخر من الدماغ وإليها الإشارة بقوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ والقوة الشهوانية ومحلها الكبد وهو عن يمين الإنسان وإليها الإشارة بقوله : ﴿ وَعَنْ أيمانهم ﴾ والقوة الغضبية ومحلها القلب الذي هو في الشق الأيسر وإليها الإشارة بقوله : ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ والشيطان ما لم يستعن بشيء من هذه القوى لا يقدر على إلقاء الوسوسة ، وهذا عندي نوع من الإشارة كما لا يخفى ، وقيل : غير ذلك ، وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه إليهم وإلى الآخرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم ، ونظيره قولهم : جلست عن يمينه ، وذكر القطب في بيان وجه ذلك ما بناه على ما قاله بعض حكماء الإسلام وهو أن (من) للاتصال و(عن) للانفصال ، وأثر الشيطان في قوتي الدماغ حصول العقائد الباطلة كالشرك والتشبيه والتعطيل ، وهي مرتسمة في النفس الإنسانية متصلة بها ، وفي الشهوة والغضب حصول الأعمال السيئة الشهوانية والغضبية وهي تنفصل عن النفس وتنعدم فلهذا أورد في الجهتين الأوليين ﴿ مِنْ ﴾ الاتصالية وفي الأخريين ﴿ عَنْ ﴾ الانفصالية ، وقيل : خص اليمين والشمال بعن لأن ثمة ملكين يقتضيان التجاوز عن ذلك وفيه نظر لا يخفى ، وادعى بعضهم أن الآية كالدليل على أن اللعين لا يمكنه أن يدخل

في بدن ابن آدم ويخالطه إذ لو أمكنه ذلك لذكره في باب المبالغة ؛ وحديث " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " من باب التمثيل .

وقد يجاب بأن التمثيل اقتضى عدم الذكر فتدبر .

﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ أي مطيعين ، وإنما قال ذلك ظناً كما روي عن الحسن . وأبي مسلم لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ [سبأ : 2] لما رأى أن للنفس تسع عشرة قوة الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب والقوى السبع النباتية الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة وإنها بأسرها تدعو النفس إلى عالم الجسم وأن ليس هناك ما يدعو إلى عالم الأرواح إلا قوة واحدة وهي العقل وما يصنع واحد مع متعدد " :

أرى ألف بأن لا يقوم بها دم

فكيف ببان خلفه ألف هادم "

وعن الجبائي أنه سمع ذلك من الملائكة فقاله على سبيل القطع ، وقيل : إنه رآه قبل في اللوح المحفوظ .

ووجد إما بمعنى صادف فينصب مفعولاً واحداً وهو ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ وشاكرين حال ، وإما بمعنى علم فينصب مفعولين ثانيهما ﴿ شاكرين ﴾ والجملة إما معطوفة على المقسم عليه وإما مستأنفة ، وإنما لم يفرعها على ما تقدم لأن مضمونها بمقتضى الجبلة أيضاً لا بمجرد إغوائه ، ووجه التعبير بالأكثر ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(98/265)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ ثم لأتيناهم ﴾ (ثمّ) فيها للتّرتيب الرّتبي ، وهو التّدرّج في الأخبار إلى خبر أهم لأنّ مضمون الجملة المعطوفة أوقع في غرض الكلام من مضمون الجملة المعطوف عليها ، لأنّ الجملة الأولى أفادت التّرصد للبشر بالإغواء ، والجملة المعطوفة أفادت التّهجّم عليهم بشتّى الوسائل .

وكما ضُرب المثل لهيئة الحرص على الإغواء بالقعود على الطريق ، كذلك مُثلت هيئة التّوسل إلى الإغواء بكلّ وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدوّ إذ يأتيه من كلّ جهة حتّى يصادف الجهة التي يتمكّن فيها من أخذه ، فهو يأتيه من بين يديه ومِن خلفه وعن

يمينه وعن شماله حتّى تخور قوّة مدافعته ، فالكلام تمثيل ، وليس للشّيطان مسلك للإنسان إلاّ من نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه ، وليست الجهات الأربع المذكوره في الآية بحقيقه ، ولكنّها مجاز تمثيلي بما هو متعارف في محاولة النّاس ومخاتلتهم ، ولذلك لم يذكر في الآية الإتيان من فوقهم ومن تحتهم إذ ليس ذلك من شأن النّاس في المخاتلة وإلاّ المهاجمة .

وعُلِّق ﴿ بين أيديهم ﴾ و﴿ خلفهم ﴾ بحرف (مِن) وعلّق ﴿ أيمانهم ﴾ و﴿ شمالهم ﴾ بحرف عن جرياً على ما هو شائع في "لسان العرب" في تعدية الأفعال إلى أسماء الجهات ، وأصل (عن) في قولهم : عن يمينه وعن شماله المجاوزة : أي من جهة يمينه مجاوِزا له ومجافياً له ، ثمّ شاع ذلك حتّى صارت (عن) بمعنى على ، فكما يقولون : جلس على يمينه يقولون : جلس عن يمينه ، وكذلك (مِن) في قولهم مِن بين يديه أصلها الابتدا يقال : أتاه من بين يديه ، أي من المكان المواجه له ، ثمّ شاع ذلك حتّى صارت (من) بمنزلة الحرف الزّائد يجرّ بها الظّرف فلذلك جُرّت بها الظّروف الملازمة للظّرفيّة مثل عند ، لأنّ وجود (مِن) كالعدم ، وقد قال الحريري في "المقامة النّحويّة" (مَا منصوبٌ على الظرف لا يَخفِضه سوى حرف : "فهي هنا زائدة ويجوز اعتبارها ابتدائيّة .

(99/265)

والأيمان جمع يمين ، واليمين هنا جانب من جسم الإنسان يكون من جهة القطب الجنوبي إذا استقبل المرء مشرق الشّمس ، تعارفه النّاس ، فشاعت معرفته ولا يشعرون بتطبيق الضّابط الذي ذكرناه ، فاليمين جهة يتعرّف بها مواقع الأعضاء من البدَن يقال العَيْن اليمنى واليد اليُمنى ونحو ذلك .

وتتعرّف بها مواقع من غيرها قال تعالى : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ [الصافات : 28] .

وقال امرؤ القيس:

عَلَى قَطَنٍ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوبه . . .

لذلك قال أئمّة اللّغة سمّيت بلاد اليَمَن يَمَناً لأنّه عن يمين الكعبة ، فاعتبروا الكعبة كشخص مستقبلٍ مشرق الشّمس فالرّكن اليماني منها وهو زاوية الجدار الذي فيه الحجر الأسود باعتبار اليد اليمنى من الإنسان ، ولا يدري أصل اشتقاق كلمة (يَمِين) ، ولا أن اليُمْن أصل لها أو فرع عنها ، والأيمان جمع قياسي .

والشّمائل جمع شِمَال وهي الجهة التي تكون شِمَالاً لمستقبلِ مشرِق الشّمس ، وهو جمع على غير قياس .

وقوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ زيادة في بيان قوّة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلاّ القليل من النّاس ، وقد عَلِم ذلك بعلم الحدس وترتيب المسبّبات .

وكني بنفي الشّكر عن الكفر إذ لا واسطة بينهما كما قال تعالى : ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [البقرة : 152] ووجهُ هذه الكناية ، إن كانت محكيّة كما صدرت من كلام إبليس ، أنّه أراد الأدب مع الله تعالى فلم يصرّح بين يديه بكفر أتباعه المقتضي أنّه يأمرهم بالكفر ، وإن كانت من كلام الله تعالى ففيها تنبيه على أنّ المشركين بالله قد أتَوا أمراً شنيعاً إذ لم يشكروا نعمه الجمّة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(100/265)

وقال القاسمى :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [17]

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ أي : من جميع الجهات الأربع ، مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي : وجه يمكنه ، بإتيان العدو من الجهات الأربع التي يعتاد هجومه منها ، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت .

﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أي : مستعملين لقواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم ، في طريق الطاعة والتقرب إلى الله ، وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن ،

كقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

روى الإمام أحمد عن سَبْرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماؤك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول ، قال : فعصاه فهاجر ، قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنطح المرأة ويقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة > .

وقال الحافظ : ورد في الحديث استعاذة من تسلط الشيطان على الْإِنْسَانْ من جهاته كلها فروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان

(101/265)

والحاكم عن عبد الله بن عُمَر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي : < اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي > . ورواه البزار عن ابن عباس .

فائدة :

قال الجشمي : تدل الآية أنه سأل الإنظار ، وأنه تعالى أنظره ، وقد بينا ما قيل فيه ، وتدل على شدة عداوته لبني آدم وحرصه على إضلالهم ، وتدل على أن أكثر بني آدم غير شاكرين ، وتدل على أن الإضلال فعل إبليس ، والقبول عنه فعلهم ، لذلك أضافه إليهم ، وذمهم عليه ، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك . انتهى .

والكلام في أمثالها معروف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 23 . 24 ﴾

(102/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ (17) ﴾

فالذي بين اليد هو ما كان إلى الإمام ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من الوراء ، ﴿ وعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي من جهة اليمين ، ﴿ وعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ أي من جهة اليسار . والشيء الذي أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتي الشيطان من الأمام فهو يشككهم في حكاية الآخرة ويشككهم في البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون في وجود دار أخرى سيُجَازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَآؤُنَا الأولون ﴾ [الصافات : 16-17]

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنّه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه – سبحانه – عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله – جل شأنه – تستوي لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شيء سهل وهيّن وآخر صعب وشاق ويبلغنا – سبحانه – بتمام إحاطة علمه فيقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا

تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4]

أي أن لكل واحدٍ كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

(103/265)

والشيطان – أيضاً – يأتي من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتي من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتي حين يبلغ بعض الناس منصبًا كبيراً ، وقد كبرت سنّه ، ويقبل على الله بشرّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقًّا فأمّن عليهم في يد ربهم ، ولا تؤمّن حياتهم في جهة ثانية . ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء : 9]

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هي الجهة التي يلجأ إليها مستغيثا ومستجيرا بربه ، والتحتية هي جهة العبودية الخاصة . فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو في هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : 17]

(104/265)

ويأتي الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتي عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ و﴿ عَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ولم يأت ب " على " لأن " على " فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية : ﴿ . . . وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/265)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى مخبرا عن قول إبليس : " قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) " ، وفى سورة الحجر : " قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) " .

(106/265)

إن سأل سائل عن وجه اختلاف الوارد فى السورتين المحكى من قول إبليس مع اتحاد القصة فجوابه : أن المعنى الحاصل من قوله فى السورتين واحد لا إشكال فيه ثم اختلف التعبير عن ذلك بحسب ما تقدم فى كل واحدة من السورتين وما استدعاه من المناسبة ولما تقدم فى الأعراف قوله تعالى : "اتبعوا ما انزل إليكم من ربكم " والإشارة إلى القرآن لأنه يوضح الطريق إليه وهو الصراط المستقيم قال تعالى : "وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه " والاشارة بهذا إلى المنزل قرآنا لأنه مبين للصراط المستقيم الذى طمع اللعين فى الاستيلاء عليه وقطه سالكه فقيل عبارة عن مرامه من ذلك : "لأقعدن لهم صراطك المستقيم " إلى

آخر المحكى من كلامه ، ومراده : لأستولين لهم عليه لا على ما فهمه بعض المتأخرين حين رام الحاق مثل هذا من الذروف المختصة بالمبهمة منها وخالف الناس فى ذلك ، ولو كان الأمر على ما قال لكان وصول الفعل الذى هو "لأقعدن " على تقدير حرف الوعاء الذى هو "فى " وكان يفسد المعنى لأن المراد اللعين وطعمه إنما كان فى الاستيلاء على الطريق بدليل حصره الجهات فى قوله : "من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم " ، فهذا طلب أخذهم بكل الجهات وطمع فى الاستيلاء وأن يكون له سلطان ولهذا قال عز وجل له : "إن عبادى ليس لك عليهم سلطان " ولو كان على تقدير حرف الوعاء لناقض هذا الغرض ولكان تقديره لأقعدن لهم فى صراطك وهذا ضد ما يقتضيه تقدير على من الاستيلاء وقد بسط هذا فى موضعه وأن الصواب ما عليه جماعة النحويين وما فهموا عليه كلام سيبويه رحمه الله من أن الطريق مختص لا مبهم وأن المعنى هنا فى الآية على تقدير حرف الاستيلاء لا حرف الوعاء ولما قد كان قد ورد فى الحجر منعه ومنع جنوده عن تعرف خبر السماء واستراق السمع فى قوله عز وجل : "وقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين .

وحفظناها من كل شيطان رجيم .

(107/265)

إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين " فلما صد من هذه الجهة عدل إلى الأخرى فقال : "لأزينن لهم فى الأرض " أى إن كنت ممنوعا عن إغوائهم من حيث خبر السماء وإبداء المقدرات مما يوجهه الله إلى ملائكته مما يحدث فى علم الأرض وقد سبق فى العلم القديم فإن كنت قد معتنى عن إغوائهم من هذه الجهة رجعت إلى إغوائهم من هذه الجهة رجعت إلى إغوائهم من جهة لم تمنعنى عنها لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا من عصمته منى ولم تجعل لى السبيل إليه وهم عبادك المخلصون ، فلأجل اختلاف المتقدم فى كل من السورتين ما اختلف المبنى عليه من المحكى عن إبليس من طمعه وورد كل على ما يناسب ولم يكن ليناسب تعقيب ما ورد فى الأعراف بما أعقب المتقدم فى سورة الأعراف والله سبحانه أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 179.180 ﴾

(108/265)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ (17) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ قال : أشككهم في آخرتهم ﴿ ومن خلفهم ﴾ فأرغبهم في دنياهم ﴿ وعن أيمانهم ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وعن شمائلهم ﴾ استن لهم المعاصي وأخف عليهم الباطل ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ قال : موحدين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ من قبل الدنيا ﴿ ومن خلفهم ﴾ من قبل الآخره ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل حسناتهم ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قبل سيئاتهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ﴾ قال لهم : أن لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل حسناتهم ابطأهم عنها ﴿ وعن شمائلهم ﴾ زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها ، أتاك يا ابن آدم من قبل وجهك غير أنه لم يأتك من فوقك ، لا يستطيع أن يكون بينك وبين رحمة الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير واللالكائي في السنة عن ابن عباس في الآية قال : لم يستطع أن يقول : من فوقهم . علم أن الله فوقهم . وفي لفظ : لأن الرحمة تنزل من فوقهم .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : يأتيك يا ابن آدم من كل جهة غير أنه لا يستطيع أن يحول

بينك وبين رحمة الله ، إنما تأتيك الرحمة من فوقك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال إبليس : لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم . قال الله : أنزل عليهم الرحمة من فوقهم .

(109/265)

وأخرج أبو الشيخ عن أبي صالح في قوله ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ من سبل الحق ﴿ ومن خلفهم ﴾ من سبل الباطل ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من أمر الآخره ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من الدنيا .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي " اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(110/265)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ثم لآتينهم " جُمْلَةٌ معطوفةٌ على جواب القسم أيضاً وأخبر أَنَّهُ بعد أنْ يَقْعُدَ على الصِّراطِ يأتي من هذه الجهات الأربع ، ونوَّع حَرْفَ الجرِّ فَجرَّ الأوَّلَيْن [" بـ " مِنْ " والثَّانيين بـ " عَنْ " لنكته ذكرها الزَّمَخْشَرِي .

قال – رحمه الله – : " فإن قُلْتَ كَيْفَ قيلَ : مِنْ بين أيديهمْ ، ومن خلفهم بحرف الابتداء ، وعنْ أيْمَانِهم ، وعن شَمَائِلِهمْ بحرف المُجاوَزَةِ ؟

قلت " : المفعول فيه عُدِّي إليه الفِعْلُ نحو تعديته إلى المفعُول به ، فكما اختلف حروفُ التَّعْدِيَة في ذلك اختلفت في هذا ، وكانت لغة تُؤخَذُ ولا تُقاسُ ، وإنَّمَا يُفتش عن صِحَّةِ موقعها فقط ، فلما سمعناهم يَقُولُون : جلس عن يمينه ، وعلى يمينه ، وعن شماله ، وعلى شماله قلنا : معنى " عَلَى يَمِينِهِ " أَنَّهُ تمكَّن من جهة اليمين تمكُّن المُسْتعلِي من المُسْتَعْلَى عليه .

ومعنى " عَنْ يَمِينِهِ " أَنَّهُ جَلَسَ مُتَجافِياً عن صاحب اليمينِ غير مُلاصِق له مُنْحَرِفاً عنه ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى استعمل في المُتَجَافِي وغيره كما ذكرنا في " تعالى " .

ونحوه من المفعول به قولهم : " رَمَيْتُ على القَوْسِ ، وعن القَوْسِ ، ومن القَوْسِ " لأنَّ السَّهْمَ يَبْعُدُ عنها ، ويستعليها إذا وضع على كَبدهَا للرَّمْي ، ويَبْتَدِىء الرَّمْيُ منها ، فلذلك قالوا :

جلس بين يديه وخلفه بمعنى " في " ؛ لأَنَّهُمَا ظَرْفَانِ ويَبْتَدِىءُ الرَّمْيُ منها ، فلذلك قالوا :

جلس بين يديه وخلفه بمعنى طفي " ؛ لأَنَّهُمَا ظَرْفَانِ للفعل ، ومِنْ بين يديه ومن خلفه ؛ لأنَّ الفِعْلَ يقع في بعض الجِهَتَيْنِ كا تقُولُ : جِئْتُ من اللَّيْل تريدُ بعض اللَّيل " .

قال شهابُ الدِّين : " وهذا كلامُ مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ في فهم كلامِ العرب " .

وقال أبو حيَّان : وهو كلامٌ لا بَأْسَ به .

فلم يوفِّ حقَّهُ .

(111/265)

ثم قال : وأقُولُ : وإنَّما خصَّ بين الأيدي ، والخلف بحرف الابتداءِ الذي هو أمكن في الإتْيَانِ ؛ لأَنَّهُمَا أغلب ما يجيءُ العدوُّ منهما فَيَنَال فرصتَهُ ، وقدَّم بين الأيدِي على الخَلْفِ ؛ لأَنَّهَا الجِهَةُ الَّتِي تَدُلُّ على إقدام العَدُوِّ وبسالته في مواجهة قِرْنِهِ غير خَائِفٍ مِنْهُ ، والخلف جهة غدر ومخاتلة ، وجهالة القِرْنِ بمَنْ يغتاله ، ويتطلب غِرَّتَهِ وغَفْلَتَهِ ، وخصَّ الأيمان والشَّمائِلَ بالحرف الذي يدلُّ على المجاوزة ؛ لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العَدُوّ ، وإنما يجاوز إتْيَانَهُ إلى الجِهَةِ الَّتِي هي أغْلَبُ في ذلِكَ ، وقُدِّمَتِ الأيمان على الشَّمائِل ؛ لأنها هي الجِهَةُ القويَّةُ في مُلاقَاةِ العَدُوِّ ، وبالأيمان البَطْشُ والدَّفْعُ ، فالقرن الي يأتي من جهتها أبْسَلُ وأشْجَعُ

إذ جاء من الجهة الَّتي هي أقوى في الدَّلاْعِ ، والشَّمَائِل ليست في القُوّةِ والدَّفْعِ كالأيمان .

[والأيمانُ] والشَّمَائِلُ جَمْعا يمينٍ وشمالٍ ، وهما الجَارِحَتَانِ وتجمعان في القلَّة على أفْعُلٍ ،

قال : [الرجز]

[2420] - يَأتِي لَهَا مِنْ أيمُنٍ وأشْمُلِ . . .

والشَّمَائِلُ يُعبَّرُ بها عن الأخلاق والشّيم تقول : له شمائل حسنة ، ويُعبَّر عن الحسنات

باليمين ، وعن السَّيِّئَات بالشَّمَال ؛ لأنَّهُمَا منشأ الفعلين : الحسن السيّىء .

2421 - أَبَثْنَى ، أفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي . . .

فأفْرَحَ أمْ صَيَّرتني فِي شِمَالِكِ

يكنون بذلك عن عِظَمِ المنْزِلَةِ عند الشَّخْصِ وخِسَّتِها ، وقال : [الطويل]

2422 - رَأَيْتُ بَنِي العَلاَّتِ لَمَّا تَضَافَرُوا . . .

يَجُوْزُوْنَ سَهْمِي بَيْنَهُمْ فِي الشَّمَائِلِ

والشَّمائل : جمع شمال بفتح الشّين وهي الرِّيح .

قال امرؤ القيس : [الطويل]

2423 - وَهَبَّتْ لَهُ رِيحٌ بِمُخْتَلِفِ الصَّوَى . . .

صَبَاً وشَمَالٌ فِي مَنَازِلِ قُفَّالِ

والألف في " الشَّمال " زائدة ، لذا يُزاد فيها الهمزة أيضاً بعد الميم وقبلها فيقولون : شَمْأل وشَأْمَل ، يدلُّ على ذلك كلِّه سقوطه في التَّصْرِيفِ قالوا : " أشملت الريح " إذا هبت شمالاً .

(وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

الوجدان هنا يحتمل أن يكون بمعنى اللِّقَاءِ ، أو بمعنى العِلْم أي : لا تُلْقي أكثرهم شاكرين أو لا تعلم أكثرهم شاكرين ف " شاكرين " حال على الأَوَّلِ ، مفعول ثانٍ على الثَّانِي .

وهذه الجملة تحتمل وجهين :

أحدهما : أنَّ تكون استئنافية أخبر اللَّعِينُ بذلك لتظنّيه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ [سبأ : 20] ، أو لأَنَّهُ علمه بطريق قيل : لأنه كان قد رأى ذلك في اللَّوْح المَحْفوظِ .

ويحتمل أن تكون دَاخِلَةً في حيّز ما قبلها من جواب القسمِ فتكونُ معطوفةً على قوله : " لأَقْعُدَنَّ " أَقْسَمَ على جملتين مُثْبَتَتَيْنِ ، وأخرى منفيَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 44 . 48 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) ﴾

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبهم ، ويتسلطُ عليهم من جميع جهاتهم ، ولم يَعْلَمْ أن الحقَّ سبحانه قادر على حفظهم عنه ، فإنَّما يكيد بهم مِنَ القدرةِ حَصَلَ ، وبالمشيئة يوجد ، ولو كان الأمر به أو إليه لَكَانَ أَوْلى الخَلْقِ بأنْ يُؤَثِّرَ فيه كدْحُه نَفْسَه ، وحيْث لم ينفعه جهدُه في سالِف أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 523 ﴾

(113/265)

فصل في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم

قال ابن القيم :

قال الله تعالى إخبارا عن عدوه إبليس ، لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خير منه وإخراجه من الجنة أنه سأله أن يُنْظِره ، فأنظره ، ثم قال عدو الله: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16- 17] .

قال جمهور المفسرين والنحاة: حذف "على" فانتصب بالفعل. والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك. والظاهر: أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنه، ولأرصدنه، ولأعوجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: "دينك الواضح" وقال ابن مسعود: "هو كتاب الله" وقال جابر: "هو الإسلام" وقال مجاهد: "هو الحق".

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد تقدم حديث سبرة بن أبى الفاكه: "إِن الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابنِ آدَمَ بأَطْرُقِهِ كُلِّهَا" الحديث.

فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف: 17].

قال ابن عباس، فى رواية عطية عنه: "مِن قِبَل الدنيا" وفى رواية علي عنه "أشككهم فى آخرتهم".

وكذلك قال الحسن: "من قبل الآخرة، تكذيبا بالبعث والجنة والنار".

وقال مجاهد: "من بين أيديهم من حيث يبصرون"

قال ابن عباس: "أرغبهم فى دنياهم" وقال الحسن: "من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم".

وعن ابن عباس رواية أخرى: "من قبل الآخرة".

وقال أبو صالح: "أشككهم فى الآخرة وأباعدها عليهم" وقال مجاهد أيضاً: "من حيث لا يبصرون".

وعن أيمانهم قال ابن عباس: "أشبه عليهم أمر دينهم" وقال أبو صالح: "الحق أشككهم فيه"

وعن ابن عباس أيضاً: "من قبل حسناتهم".

قال الحسن: "من قبل الحسنات أثبطهم عنها".

(114/265)

وقال أبو صالح أيضاً: "من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم: أُنفِّقُه عليهم وأُرَغِّبُهم فيه".

وقال الحسن "وعن شمائلهما لسيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويرغبهم فيها ويزينها فى أعينهم".

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "ولم يقل من فوقهم؛ لأنه علم أن الله من فوقهم".

قال الشعبي: "فالله عز وجل أنزل الرحمة عليهم من فوقهم".

وقال قتادة: "أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك. لم يستطع أن

يحول بينك وبين رحمة الله" .

قال الواحدي: "وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات ، والشمائل كناية عن السيئات ، حسن ؛ لأن العرب تقول: اجعلني فى يمينك ، ولا تجعلني فى شمالك ، تريد : اجعلني من المقدمين عندك ، ولا تجعلني ، من المؤخرين" ، وأنشد لابن الدمينة:

أَلُبْنَى ، أَفِى يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِى فَأَفْرَحُ ، أَمْ صَيَّرْتِنِى فى شِمَالِكِ ؟

وروى أبو عبيد عن الأصمعى: "هو عندنا باليمين: أى بمنزلة حسنة ، وبضد ذلك هو عندنا بالشمال" ، وأنشد :

رَأَيْتُ بَنِى الْعَلاتِ لَمَّا تَظَافَرُوا يَحُوزُونَ سَهْمى بَيْنَهُمْ فى الشَّمَائِلِ وحكى الأزهرى عن بعضهم فى هذه الآية ﴿ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف: 17]: "أى لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة ﴿ ومن خلفهم ﴾ [الأعراف: 17] بأمر البعث ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: 17]: أى لأضلنهم فيما يعملون ؛ لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك ، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئًا ؛ لأنهما الأصل فى التصرف ، فجعلتا مثلا لجميع ما يعمل بغيرهما" .

وقال آخرون منهم أبو إسحاق والزمخشرى ، واللفظ لأبى إسحاق: ذكر هذه الوجوه للمبالغة فى التوكيد ، أى: لآتينهم من جميع الجهات ، والله أعلم ، أتصرف لهم فى الإضلال من جميع جهاتهم .

وقال الزمخشري: ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب ، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله:

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِسَوْطِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: 64].

وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: "أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك" . وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ما قاله السلف ، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين .

قال شقيق: "ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه: 82] .

وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه ، فأقرأ: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: 6] .

ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء ، فأقرأ: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: 128] .

ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات ، فأقرأ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾

[سبأ: 54].

قلت: السبل التى يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصدا له، فإن سلكها فى طاعة وجده عليها يُثبِّطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملا له وخادما ومعينا وممنيا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: 25].

قال الكلبي: "ألزمناهم قرناء من الشياطين". وقال مقاتل: "هيأنا لهم قرناء من الشياطين". وقال ابن عباس: "ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة".

(116/265)

والمعنى: زينوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة والإعراض عنها.

وقال الكلبى: "زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث، وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة". وهذا اختيار الفراء.

وقال ابن زيد : "زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم ، وما يستقبلون منها" . والمعنى: على هذا زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه .

فقول عدو الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [الأعراف: 17] .

يتناول الدنيا والآخرة ، وقوله: ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: 17] .

فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير ، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه ، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها ، وهذا يفصل ما أجمله في قوله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 82] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إغاثة اللهفان حـ 1 صـ 102. 105 ﴾

(117/265)

قوله تعالى ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : ماذا قال له ؟ قيل : ﴿ قال ﴾ في جواب ما ذكر لنفسه في هذا السياق

من القوة والاقتدار وأبان عنه من الكبر والافتخار ما دل على أنه من أهل الصغار ، لا يقدر على شيء إلا بإقرار العزيز الجبار ، مصرحاً بما أريد من الهبوط الذي ربما حمل على النزول من موضع من الجنة عال إلى مكان منها أحط منه ﴿ اخرج منها ﴾ أي الجنة ﴿ مذءوماً ﴾ أي محقوراً مخزياً بما تفعل ، قال القطاع : ذأمت الرجل : خزيته ، وقال ابن فارس : ذأمته ، أي حقرته ﴿ مدحوراً ﴾ أي مبعداً مطروداً عن كل ما لا أريده .

ولما علم بعض حاله ، تشوفت النفس إلى حال من تبعه ، فقال مقسماً مؤكداً بما يحق له من القدرة التامة والعظمة الكاملة : ﴿ لمن تبعك منهم ﴾ أي بني آدم ، وأجاب القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال : ﴿ لأملأن جهنم منكم ﴾ أي منك ومن قبيلك ومنهم ﴿ أجمعين ﴾ أي لا يفوتني منكم أحد ، فلم يزل من فعل ذلك منكم على أذى نفسه ولا أبالي أنا بشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 15 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكره ، خاطبه الله تعالى بما يدل على الزجر والإهانة فقال : ﴿ أَخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من الجنة أو من السماء ﴿ مذءُوماً ﴾ قال الليث : ذأمت الرجل فهو مذؤم أي محقور والذام الاحتقار ، وقال الفراء : ذأمته إذا عبته يقولون في المثل لا تعدم الحسناء ذاماً .

وقال ابن الأنباري المذؤم المذموم قال ابن قتيبة مذؤماً مذموماً بأبلغ الذم قال أمية :

وقال لإبليس رب العباد . . أن اخرج دحيراً لعيناً ذؤما

وقوله : ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ الدحر في اللغة الطرد والتبعيد ، يقال دحره دحراً ودحوراً إذا طرده وبعده ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً ﴾ [الصافات : 8 ، 9] وقال أمية :

وبإذنه سجدوا لآدم كلهم . . إلا لعيناً خاطئاً مدحوراً

(118/265)

وقوله : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللام فيه لام القسم ، وجوابه قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ قال صاحب "الكشاف" روى عصمة عن عاصم : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ ﴾ بكسر اللام بمعنى ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ هذا الوعيد وهو قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقيل : إن لأملأن في محل الابتداء ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ ﴾ خبره قال أبو بكر الأنباري الكناية في قوله : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ عائد على ولد آدم لأنه حين قال : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ﴾ [الأعراف : 11] كان مخاطباً لولد آدم فرجعت الكناية إليهم .

قال القاضي : دلت هذه الآية على أن التابع والمتبوع معنيان في أن جهنم تملأ منهما ثم إن

الكافر تبعه ، فكذلك الفاسق تبعه فيجب القطع بدخول الفاسق النار ، وجوابه أن المذكور في الآية أنه تعالى يملأ جهنم ممن تبعه ، وليس في الآية أن كل من تبعه فإنه يدخل جهنم فسقط هذا الاستدلال ، ونقول هذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 37 ﴾

(119/265)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾

قال الكلبي ومقاتل : يعني اخرج من الجنة مذؤوماً أي معيباً مدحوراً أي : مطروداً .

وقال الزجاج : مذؤوماً أي مذموماً .

يقال : دأمت الرجل وذممته إذا عبته مدحوراً أي : مبعداً من رحمة الله تعالى .

﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي : مَنْ أطاعك فيما دعوته إليه .

واللام زيادة للتأكيد ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أي : ممن أطاعك منهم من الجن والإنس ، ويكون هذا اللفظ بمعنى القسم والتأكيد وأنه يفعل

ذلك لا محالة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾

أي معيباً والذيم والذأم أشد العيب ، وهو أبلغ من الذم ، يقال : ذمّه يذمّه ذمّاً فهو مذموم [وذائمه يذائمه] ذأماً [فهو مذؤوم وذامه] بذمة ذيماً ، مثل سار يسير ، فهو مذيم والمدحور [المقصي] يقال : دَحَره يدحره دحراً إذا أبعده وطرده .

قال ابن عباس : مذؤوم عنه ﴿ مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ يعني صغيرًا مطروداً إذ قال الربيع ومجاهد : مذؤوماً [ممقوتاً] وروى عطيّة : مذؤوماً ممقوتاً ، أبو العالية : مذؤوماً [مزرياً] به .

وقال الكلبي : مذؤوماً ملوماً مدحوراً مقصياً من الجنّة ومن كل خير ، وقال عطاء : مذؤوماً ملعوناً .

وقال الكسائي : المذؤوم المقبوح . وقال النضير بن شميل : المذؤوم [المحبوس] وقال أبان عن ثعلب والمبرّد : المذؤوم المعيب .

قال الأعشى :

وقد قالت قبيلة إذ رأتني . . . وإذ لا تعدم الحسناء ذأماً

وقال أُميّة بن أبي الصلب :

قال لإبليس رب العباد . . . أخرج [رجس الدنيا] مذؤماً

﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من بني آدم ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ ﴾ منك ومن ذريتك وكفار

ذرية آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : من حيث كان من جنة أو سماء .

(120/265)

والثاني : من الطاعة ، على وجه التهديد .

﴿ مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ في قوله : ﴿ مَذْءُوماً ﴾ خمسة تأويلات :

أحدها : يعني مذموماً ، قاله ابن زيد ، وقرأ الأعمش ﴿ مذوماً ﴾

والثاني : لئيماً ، قاله الكلبي .

والثالث : مقيتاً ، قاله ابن عباس .

والرابع : منفياً ، قاله مجاهد .

والخامس : أنه شدة العيب وهو أسوأ حالاً من المذموم ، قاله الأخفش ، قال عامر بن جذامة :

جذامة لم يأخذوا الحق بل . . . زاغت قلوبهم قبل القتال ذأماً

وأما المدحور ففيه قولان :

أحدهما : المدفوع . الثاني : المطرود ، قاله مجاهد والسدي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قال اخرج منها ﴾

الضمير في ﴿ منها ﴾ عائد على الجنة و ﴿ مذءوماً ﴾ معناه معيباً يقال ذأمه إذا عابه ومنه الذأم وهو العيب .

وفي المثل : " لن تعدم لحسناء ذاماً " أي عيباً ، وسهلت فيه الهمزة ، ومنه قول قيل حمير :

أردت أن تذيمه فمدهته يريد فمدحته ، وحكى الطبري أنه يروى هذا البيت : [الطويل]

صَحِبْتُكَ إذ عيني عليها غِشاوةٌ . . . فلمّا انجلتْ قَطعتُ نفس أُذيمُها

قال القاضي أبو محمد : والرواية المشهورة ألومها . ومن الشاهد في اللفظ قول الكميت : [الخفيف]

وهمُ الأقربونَ من كلّ خيرٍ . . . وَهُمُ الأبعدونَ من كل ذامِ

ومن الشاهد في مدحور قول الشاعر : [الوافر]

ودحرت بني الحصيب إلى قديد . . . وقد كانوا ذوي أشر وفخر

وقرأ الزهري وأبو جعفر والأعمش في هذه الآية " مذوماً " على التسهيل ، و﴿ مدحوراً ﴾ معناه مقصياً مبعداً . وقرأت فرقة " لَمن تبعك " بفتح اللام وهي على هذه لام القسم المخرجة الكلام من الشك إلى القسم ، وقرأ عاصم الجحدري والأعمش " لِمن تبعك " بكسر اللام ، والمعنى لأجل من تبعك ﴿ لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ فأدخله في الوعيد معهم بحكم هذه الكاف في ﴿ منكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال اخرج منها مذؤوماً ﴾

(121/265)

قرأ الأعمش : "مذوماً" بضم الذال من غير همز .

قال الفراء : الذَّأْمُ : الذمُّ ، يقال : ذأمْتُ الرجلَ ، أذأَمُه ذأْماً ؛ وذممْتُه ، أذُمُّه ذمّاً ، وذِمْتُه ، أذيمُه ذَيْماً ، ويقال : رجل مذؤوم ، ومذموم ، ومَذيم ، بمعنى : قال حسان بن ثابت :

وأقاموا حتى أبيروا جميعاً . . .

في مَقامٍ وكُلُّهم مَذؤوم

قال ابن قتيبة : المذؤوم : المذموم بأبلغ الذم .

والمدحور : المقصى المبعَد .

وقال الزجاج : معنى المذؤوم : كمعنى المذموم ، والمدحور : المبعد من رحمة الله .

واللام من "لأملأن" لام القسم ؛ والكلام بمعنى الشرط والجزاء ، كأنه قيل له : من تبعك ، أُعذبْه ، فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد .

فلام "لأملأن" هي لام القسم ، ولام ﴿ لَمن تبعك ﴾ توطئة لها .

فأما قوله : "منهم" فقال ابن الأنباري : الهاء والميم عائدتان على ولد آدم ، لانه حين قال : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ﴾ [الأعراف : 11] كان مخاطباً لولد آدم ، فرجع إليهم ، فقال : ﴿ لَمن تبعك منهم ﴾ فجعلهم غائبين ، لأن مخاطبتهم في ذا الموضع توقع لَبْساً ، والعرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب .

ومن قال : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ خطاب لآدم ، قال أعاد الهاء والميم على ولده ، لأن ذكره يكفي من ذكرهم ؛ والعرب تكتفي بذكر الوالد من ذكر الأولاد إذا انكشف المعنى وزال اللبس .

قال الشاعر :

أرى الخَطَفى بَذَّ الفرزدقُ شِعْرَهُ . . .

ولكنَّ خيراً من كُلَيبٍ مُجاشِعُ

أراد : أرى ابن الخطفى ، فاكتفى بالخطفى من ابنه .

قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم منكم ﴾ يعني : أولاد آدم المخالفين وقرناءهم من الشياطين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا ﴾ أي من الجنة .

﴿ مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ .

"مَذْؤُوماً" أي مذموماً .

والذَّأْمُ : العيب ، بتخفيف الميم .

(122/265)

قال ابن زيد : مذؤوماً ومذموماً سواء ؛ يقال : ذأَمْته وذَمَمته وذِمْته بمعنىً واحد .

وقرأ الأعمش "مَذُوماً" .

والمعنى واحد ؛ إلا أنه خفف الهمزة .

وقال مجاهد : المذْمُوم المنفيّ .

والمعنيان متقاربان .

والمدحور : المبعَد المطرود : عن مجاهد وغيره .

وأصله الدفع .

﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ اللام لام القسم ، والجواب "لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ" .

وقيل : "لَمَنْ تَبِعَكَ" لام توكيد .

"لأَمْلأَنّ" لام قَسَم .

والدليل على هذا أنه يجوز في غير القراءة حذف اللام الأولى ، ولا يجوز حذف الثانية .

وفي الكلام معنى الشرط والمجازاة ؛ أي من تبعك عذبته .

ولو قلت : من تبعك أعذبه لم يجز ؛ إلا أن تريد لأعذبه .

وقرأ عاصم من رواية أبي بكر بن عَيَّاش "لِمن تبِعك منهم" بكسر اللام .

وأنكره بعض النحويين .

قال النحاس : وتقديره والله أعلم من أجل من تبعك .

كما يقال أكرمت فلاناً لك .

وقد يكون المعنى : الدّحر لمن تبعك .

ومعنى ﴿ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي منكم ومن بني آدم ؛ لأن ذكرهم قد جرى إذ قال : "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ" خاطب ولد آدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قال اخرج منها ﴾

أي : قال الله تعالى لإبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه اخرج منها يعني من الجنة فإنه لا ينبغي أن يسكن فيها العصاة ﴿ مذؤوماً ﴾ يعني معيباً والذأم أشد العيب ﴿ مدحوراً ﴾ يعني مطروداً مبعداً .

وقال ابن عباس : صغيراً ممقوتاً .

وقال قتادة : لعيناً مقيتاً وقال الكلبي : ملوماً مقصياً من الجنة ومن كل خير ﴿ لمن تبعك منهم ﴾ يعني من بني آدم ﴿ لأملان جهنم منكم أجمعين ﴾ اللام لام القسم أقسم الله تعالى أن من اتبع إبليس من بني آدم وأطاعه منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً ﴾

الجمهور على أنّ الضمير عائد على الجنة والخلاف فيه كالخلاف في ﴿ فاهبط منها ﴾ وهذه ثلاث أوامر أمر بالهبوط مطلقاً ، وأمر بالخروج مخبراً أنه ذو صغار ، وأمر بالخروج مقيداً بالذمّ والطرد ، وقال قتادة : ﴿ مذؤوماً ﴾ لعيناً ، وقال الكلبي : ملوماً ، وقال مجاهد : منفيّاً ، وقيل : ممقوتاً و ﴿ مدحوراً ﴾ مبعداً من رحمة الله أو من الخير أو من الجنة أو من التوفيق أو من خواصّ المؤمنين أقوال متقاربة ، وقرأ الزهري وأبو جعفر والأعمش : مذوماً بضم الذال من غير همز فتحتمل هذه القراءة وجهين أحدهما ، وهو الأظهر ، أن تكون من ذأم المهموز سهل الهمزة وحذفها وألقى حركتها على الذّال والثاني أن يكون من ذام غير المهموز يذيم كباع يبيع فأبدل الواو بياء كما قالوا في مكيل مكول ، وانتصب ﴿ مدحوراً ﴾ على أنه حال ثانية على من جوّز ذلك أو حال من الضمير في ﴿ مذؤوماً ﴾ أو صفة لقوله ﴿ مذؤوماً ﴾ .

(124/265)

﴿ لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين ﴾ قرأ الجمهور ﴿ لمن ﴾ بفتح اللام الابتداء ومن موصولة ﴿ ولأملأنّ ﴾ جواب قسم محذوف بعد من تبعك وذلك القسم

المحذوف وجوابه في موضع خبر من الموصولة ، وقرأ الجحدري وعصمة عن أبي بكر عن عاصم ﴿ لمن تبعك منهم ﴾ بكسر اللام واختلفوا في تخريجها ، فقال ابن عطية : المعنى لأجل من تبعك منهم ﴿ لأملأن ﴾ انتهى ، فظاهر هذا التقدير أنّ اللام تتعلق بلأملأن ويمتنع ذلك على قول الجمهور أن ما بعد لام القسم لا يعمل فيما قبله ، وقال الزمخشري بمعنى لمن تبعك منهم الوعيد وهو قوله ﴿ لأملان جهنم منكم أجمعين ﴾ على أنّ ﴿ لأملانّ ﴾ في محل الابتداء و ﴿ لمن تبعك ﴾ خبره انتهى فإن أراد ظاهر كلامه فهو خطأ على مذهب البصريين لأنّ قوله ﴿ لأملأن ﴾ جملة هي جواب قسم محذوف فمن حيث كونها جملة فقط لا يجوز أن تكون مبتدأة ومن حيث كونها جواباً للقسم يمتنع أيضاً لأنها إذ ذاك من هذه الحيثية لا موضع لها من الإعراب ومن حيث كونها مبتدأة لها موضع من الإعراب ولا يجوز أن تكون الجملة لها موضع ولا موضع لها بحال لأنه يلزم أن تكون في موضع رفع لا في موضع رفع داخلاً عليها عامل غير داخل وذلك لا يتصور ، وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي : اللام متعلقة من الذأم والدّحر ومعناه أخرج بها تين الصفتين لأجل أتباعك ذكر ذلك في كتاب اللوامح في شواذ القراءات ومعنى ﴿ منكم ﴾ منك وممن تبعك فغلب الخطاب على الغيبة كما تقول أنت وإخوتك أكرمكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما سلف مراراً ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴾ أي من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة ﴿ مَذْءُومًا ﴾ أي مذموماً من ذأَمه إذا ذمّه ، وقرىء مَذوماً كَمَسول في مسؤل ، أو كَمَكول في مكيل ، من ذامه يذيمه ذيماً ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللامُ موطئةٌ للقسم وجوابه ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرط ، وقرىء لِمَنْ تبعك بكسر اللام على أنه خبرُ (لأملأن) على معنى لِمَنْ تبعك هذا الوعيدُ ، أو علةٌ لاخرُجْ و(لأملأن) جوابٌ محذوفٌ ومعنى (منكم) منك ومنهم على تغليب المخاطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(126/265)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر غير مرة .

﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من الجنة أو من زمرة الملائكة أو من السماء الخلاف السابق ﴿ مَذْءُومًا ﴾ أي مذموماً كما روي عن ابن زيد أو مهاناً لعيناً كما روي عن ابن عباس وقتادة

، وفعله ذأم .

وقرأ الزهري ﴿ مذوماً ﴾ بذال مضمومة وواو ساكنة وفيه احتمالان الأول أن يكون مخففاً من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، والثاني أن يكون من ذام بالألف كباع وكان قياسه على هذا مذيم كمبيع إلا أنه أبدلت الواو من الياء على حد قولهم ؛ مكول في مكيل مع أنه من الكيل ، ونصبه على الحال وكذا قوله تعالى : ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ وهو من الدحر بمعنى الطرد والإبعاد ، وجوز في هذا أن يكون صفة .

واللام في قوله سبحانه : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ على ما في "الدر المصون" موطئة للقسم و(من) شرطية في محل رفع مبتدأ .

وقوله عز اسمه ﴿ لأَمْلأَنَّ مَنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ جواب القسم وهو ساد مسد جواب الشرط ، والخلاف في خبر المبتدأ في مثل ذلك مشهور ، وجوز أن تكون اللام لام الابتداء و(من) موصولة مبتدأ صلتها ﴿ ﴾ جواب القسم وهو ساد مسد جواب الشرط ، والخلاف في خبر المبتدأ في مثل ذلك مشهور ، وجوز أن تكون اللام لام الابتداء و(من) موصولة مبتدأ صلتها ﴿ تَبِعَكَ ﴾ والجملة القسمية خبر .

وقرأ عصمة عن عاصم ﴿ لِمَنْ ﴾ بكسر اللام فقيل .

إنها متعلقة بالأملان .

ورد بأن لام القسم لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وقيل : إنها متعلقة بالذأم والدحر على

التنازع وأعمال الثاني أي أخرج بها تين الصفتين لأجل اتباعك وقيل : إن الجار والمجرور خبر مبتدأ محذوف يقدر مؤخراً أي لمن اتبعك هذا الوعيد .

ودل على قوله سبحانه : ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ الخ ، ولعل ذلك مراد الزمخشري بقوله : أن ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ في محل المبتدأ و ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ ﴾ خبره كما يرشد إليه بيان المعنى .

و ﴿ مّنكُمْ ﴾ بمعنى منك ومنهم فغلب فيه المخاطب كما في قوله سبحانه : ﴿ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النحل : 55] ثم إن الظاهر أن هذه المخاطبات لأبليس عليه اللعنة كانت منه عز وجل من غير واسطة وليس المقصود منها الإكرام والتشريف بل التعذيب والتعنيف ، وذهب الجبائي إلى أنها كانت بواسطة بعض الملائكة لأن الله تعالى لا يكلم الكافر وفيه نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(127/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

أعاد الله أمره بالخروج من السّماء تأكيداً للأمرين الأولِ والثّاني : قال : ﴿ اهبط منها ﴾

إلى قوله ﴿ فاخرج ﴾ [الأعراف : 13] .

ومذءوم اسم مفعول من ذأمه مهموزاً إذا عابَه وذمَّه ذأماً وقد تسهل همزة ذأم فتصير ألفاً فيقال ذَام ولا تسهل في بقيّة تصاريفه .

مدحور مفعول من دَحره إذا أبعده وأقصاه ، أي : أخرجُ خروجَ مذمُوم مطرود ، فالذّمِ لِمَا اتّصف به من الرّذائل ، والطّرد لتنزيه عالم القُدس عن مخالطته .

واللاّم في ﴿ لمن تبعك ﴾ موطئة للقسم .

و(مَن) شرطية ، واللاّم في لأَمْلأنّ لام جواب القسم ، والجواب ساد مسد جواب الشّرط ، والتّقدير : أُقسِم من تبعك منهم لأَمْلأنّ جهنّم منهم ومنك ، وغُلِّب في الضّمير حال الخطاب لأنّ الفرد الموجود من هذا العموم هو المخاطَب ، وهو إبليس ، ولأنّه المقصود ابتداء من هذا الوعيد لأنّه وعيد على فعله ، وأمّا وعيد اتّباعه فبالتّبع له ، بخلاف الضّمير في آية الحجر (43) وهو قوله : ﴿ وإن جهنّم لموعدهم أجمعين ﴾ [الحجر : 43] لأنّه جاء بعد الإعراض عن وعيده بفعله والاهتمام ببيان مرتبة عباد الله المُخْلَصين الذين ليس لإبليس عليهم سلطان ثمّ الإهتمام بوعيد الغاوين .

وهذا كقوله تعالى في سورة الحجر (41 43) : ﴿ قال هذا صراط عليّ مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ والتّأكيد بأجمعين للتّنصيص على العموم لئلا يحمل على التّغليب ، وذلك أنّ الكلام جرى

على أمّة بعنوان كونهم إتباعاً لواحد ، والعرب قد تجري العموم في مثل هذا على المجموع دون الجمع ، كما يقولون : قتلت تميمٌ فُلاناً ، وإنّما قتله بعضهم ، قال النّابغة في شأن بني حُنّ (بحاء مهملة مضمومه) :

وهُمْ قتلوا الطاءِي بالجَوّ عَنْوَة . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(128/265)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [18] .

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوما ﴾ بالهمزة في القراءة المشهورة ، من ذأمهُ ، إذا حقره وذمه ، وقرئ (مذوماً) بذال مضمومة وواو ساكنة ، وهي تحتمل أن تكون مخففة من المهموز ، بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، وأن تكون من المعتل ، وكان قياسه مذيم كمبيع ، إلا أنه أبدلت الواو من الياء ، على حد قولهم مَكُول في مكيل ، و مَشوب في مشيب .

﴿ مَدْحُوراً ﴾ مقصياً مطروداً .

﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللام فيه ، لتوطئة القسم ، وجوابه

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، أي : لمن أطاعك من الجن والإنس ، لأملأن جهنم من كفاركم ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴾ .

قال الجشميّ : وإنما قال ذلك لأنه لا يكون في جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين ، وكفار الإنس وفساقهم ، الذين انقادوا له وتركوا أمر الله لأمره ، فجمعهم في الخطاب ، ومتى قيل : لم ضيَّق جهنم ووسَّع الجنة ؟ قلنا : لأن جهنم حبس ، والجنة دار ملك .

ومتى قيل : فما الفائدة في قوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ ﴾ قلنا : لطفاً ليكون المكلف تبعاً للأنبياء دون الشياطين ، ولطفاً لإبليس وحزبه ، لأنه غاية في الزجر والنهي .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس ، وأنه يملأ جهنم منهم ، ولا بد فيه من شرط ، وهو أن لا يتوب ، أو لا يكون معه طاعة أعظم ، وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه ، تحذيراً عن مثل حاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 24.25 ﴾

(129/265)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

هَذَا شُرُوعٌ فِي بَيَانِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِ أَصْلِ النَّشْأَةِ الْآدَمِيَّةِ ، وَاسْتِعْدَادِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعَلَاقَتِهَا بِالْأَرْوَاحِ الْمَلَكِيَّةِ وَالشَّيْطَانِيَّةِ ، وَمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنْ مَوَانِعِ الْكَمَالِ بِإِغْوَاءِ عَدُوِّ الْبَشَرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَلِيهِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَا يُتَّقَى بِهِ ذَلِكَ الْإِغْوَاءُ وَالْفَسَادُ ، قَالَ تَعَالَى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) الْخِطَابُ لِبَنِي آدَمَ ، وَالْمَعْنَى خَلَقْنَا جِنْسَكُمْ أَيْ مَادَّتَهُ مِنَ الصَّلْصَالِ وَالْحَمَأِ الْمَسْنُونِ وَهُوَ الْمَاءُ وَالطِّينُ اللَّازِبُ الْمُتَغَيِّرُ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ بِأَنْ جَعَلْنَا مِنْ تِلْكَ الْمَادَّةِ صُورَةَ بَشَرٍ سَوِيٍّ قَابِلٍ لِلْحَيَاةِ ، أَوْ قَدَّرْنَا إِيجَادَكُمْ تَقْدِيرًا ، ثُمَّ صَوَّرْنَا مَادَّتَكُمْ تَصْوِيرًا ، وَمَعْنَى الْخَلْقِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ التَّقْدِيرُ ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى إِيجَادِ الشَّيْءِ الْمُقَدَّرِ عَلَى صِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ . قَالَ فِي حَقِيقَةِ الْمَادَّةِ مِنْ أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ : خَلَقَ الْخَرَّازُ الْأَدِيمَ (أَيِ الْجِلْدَ) وَالْخَيَّاطُ الثَّوْبَ – قَدَّرَهُ قَبْلَ الْقَطْعِ ، وَأَخْلَقَ لِي هَذَا الثَّوْبَ (قَالَ) وَمِنَ الْمَجَازِ خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ أَوْجَدَهُ عَلَى تَقْدِيرٍ أَوْجَبَتْهُ الْحِكْمَةُ اهـ . وَلَكِنَّ هَذَا الْمَجَازَ اللُّغَوِيَّ

صَارَ حَقِيقَةً شَرْعِيَّةً . وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَظْهَرُ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةِ وَهُوَ يُصَدِّقُ بِخَلْقِ آدَمَ وَبِخَلْقِ مَجْمُوعِ النَّاسِ ، فَإِنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ يُقَدِّرُ اللَّهُ خَلْقَهُ ثُمَّ يُصَوِّرُ الْمَادَّةَ الَّتِي يَخْلُقُهُ مِنْهَا فِي بَطْنِ أُمِّهِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ فِي الْجُمْلَتَيْنِ ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ : (إِحْدَاهَا) وَرُوَاتُهَا كَثِيرُونَ وَصَحَّحَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ قَالَ فِيهِمَا : خُلِقُوا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَصُوِّرُوا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ . (وَالثَّانِيَةُ) خُلِقُوا فِي ظَهْرِ آدَمَ ثُمَّ صُوِّرُوا فِي الْأَرْحَامِ . أَخْرَجَهَا الْفِرْيَابِيُّ . (وَالثَّالِثَةُ) قَالَ : أَمَّا " خَلَقْنَاكُمْ " فَآدَمُ ، وَأَمَّا " ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ " فَذُرِّيَّتُهُ . أَخْرَجَهَا ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ نَحْوُهَا قَالَ : خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ صَوَّرَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ عِظَامًا ثُمَّ كَسَا الْعِظَامَ لَحْمًا . وَعَنْ مُجَاهِدٍ : خَلَقْنَاكُمْ يَعْنِي آدَمَ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ يَعْنِي فِي ظَهْرِ آدَمَ . وَعَنِ الْكَلْبِيِّ قَالَ : خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ فِي الرَّحِمِ ثُمَّ صَوَّرَهُ فَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَأَصَابِعَهُ اهـ .

مُلَخَّصًا مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ . وَالتَّقْدِيرُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا هُوَ الْمُوَافِقُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ . وَالْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ عِنْدَنَا وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْهِنْدُوسِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِذَلِكَ قَالَ :

(ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) أَيْ قُلْنَا ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ، مَا جَعَلْنَاهُ بِهِ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَعَلَّمْنَاهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ . (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) أَيْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جُمْلَتِهِمْ لِأَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . وَهُوَ مِنَ الْجِنِّ لَا مِنْهُمْ . وَإِنْ كَانَتِ الْجِنُّ نَوْعًا مِنْ جِنْسِهِمْ ، أَوِ الْجِنَّةُ (بِالْكَسْرِ) جِنْسًا لِلْمَلَائِكَةِ وَلِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ هُمْ مَرَدَةُ الْجِنِّ وَأَشْقِيَاؤُهُمْ . وَهَذَا السُّجُودُ تَكْرِيمٌ مِنَ اللهِ لِآدَمَ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ ، إِذْ نَصُّ الْقُرْآنِ الْقَطْعِيُّ قَدْ تَكَرَّرَ بِأَنَّهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ ، أَوْ هُوَ بَيَانٌ لِاسْتِعْدَادِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ وَمَا صَرَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ قُوَى الْأَرْضِ الَّتِي تُدَبِّرُهَا الْمَلَائِكَةُ بِأُسْلُوبِ التَّمْثِيلِ الْقَصَصِيِّ ، وَالْأَمْرُ فِيهِ وَفِيمَا بَعْدَهُ تَكْوِينِيٌّ قَدَرِيٌّ ، لَا تَكْلِيفِيٌّ شَرْعِيٌّ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (41 : 11) وَسَيَأْتِي تَوْضِيحُهُ فِي أَثْنَاءِ الْقِصَّةِ وَفِي نِهَايَتِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى – وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذَا السُّجُودَ كَرَامَةٌ كَرَّمَ اللهُ بِهَا آدَمَ . وَقَالَ : كَانَتِ السَّجْدَةُ لِآدَمَ وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ . وَمِثْلُهُ عَنْ قَتَادَةَ ، وَزَادَ أَنَّ إِبْلِيسَ حَسَدَ آدَمَ عَلَى هَذَا التَّكْرِيمِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى

أَنَّهُ تَكْرِيمٌ امْتَحَنَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَاعَةَ ذَلِكَ الْعَالَمِ الْغَيْبِيِّ لَهُ فَظَهَرَتْ عِصْمَةُ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ وَفِسْقَ إبْلِيسَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إبْلِيسَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلَّا قَلِيلًا) (17 : 62) حَسَدَهُ عَلَى هَذَا التَّكْرِيمِ فَحَمَلَهُ الْحَسَدُ عَلَى الِاسْتِكْبَارِ وَالْفُسُوقِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ كَمَا صَرَّحَتْ بِهِ الْآيَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي الْبَقَرَةِ وَالْكَهْفِ وَغَيْرِهِمَا وَيَدُلُّ عَلَيْهِ جَوَابُ السُّؤَالِ التَّالِي .

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ) أَيْ قَالَ تَعَالَى لَهُ : مَا مَنَعَكَ مِنْ امْتِثَالِ الْأَمْرِ فَحَمَلَكَ عَلَى أَلَّا تَسْجُدَ لِآدَمَ مَعَ السَّاجِدِينَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَرْتُكَ فِيهِ بِالسُّجُودِ ؟ وَاسْتَدَلَّ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ عَلَى الْفَوْرِ ، (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) أَيْ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّنِي أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ؛ لِأَنَّكَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، وَالنَّارُ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ وَأَشْرَفُ ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْأَشْرَفِ أَنْ يُكَرِّمَ مَنْ دُونَهُ وَيُعَظِّمَهُ ، أَيْ وَإِنْ أَمَرَهُ بِذَلِكَ رَبُّهُ ، وَهَذَا الْجَوَابُ يَتَضَمَّنُ ضُرُوبًا مِنَ الْجَهْلِ الْفَاضِحِ ، مَا أَوْقَعَ اللَّعِينَ فِيهَا إلَّا حَسَدُهُ وَكِبْرُهُ فَإِنَّهُمَا يُعْمِيَانِ الْبَصَائِرَ .

(133/265)

(الْأَوَّلُ) الِاعْتِرَاضُ عَلَى رَبِّهِ وَخَالِقِهِ كَمَا تَضَمَّنَهُ جَوَابُهُ ، وَمِثْلُهُ فِي هَذَا كُلُّ مَنْ يَعْتَرِضُ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا لَا يُوَافِقُ هَوَاهُ ، وَهَذَا كُفْرٌ لَا يَقَعُ مِثْلُهُ مِنْ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إذَا خَفِيَتْ عَلَيْهِ حَقِيقَةٌ أَوْ حِكْمَةٌ لِلَّهِ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِهِ بَحَثَ عَنْهَا بِالتَّفَكُّرِ وَالْبَحْثِ وَسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ ، وَصَبَرَ إلَى أَنْ يَهْتَدِيَ إلَى مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ قَلْبُهُ ، مُكْتَفِيًا قَبْلَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا لَا يُعْلَمُ مِنْ حَقَائِقِ خَلْقِهِ ، وَحِكَمِ شَرْعِهِ ، وَفَوَائِدِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

(الثَّانِي) الِاحْتِجَاجُ عَلَيْهِ بِمَا يُؤَيِّدُ بِهِ اعْتِرَاضَهُ ، وَالْمُؤْمِنُ الْمُذْعِنُ لَا يَحْتَجُّ عَلَى رَبِّهِ ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ لِلَّهِ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ .

(134/265)

(الثَّالِثُ) جَعْلُ امْتِثَالِ أَمْرِ الرَّبِّ تَعَالَى مَشْرُوطًا بِاسْتِحْسَانِ الْعَبْدِ لَهُ وَمُوَافَقَتِهِ لِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ ، وَهُوَ رَفْضٌ لِطَاعَةِ الرَّبِّ ، وَتَرَفُّعٌ عَنْ مَرْتَبَةِ الْعَبْدِ ، وَتَعَالٍ مِنْهُ إلَى وَضْعِ نَفْسِهِ مَوْضِعَ النِّدِّ ، وَهُوَ فِي حُكْمِ الدِّينِ كُفْرٌ ، وَفِي الْعَقْلِ حَمَاقَةٌ وَجَهْلٌ ، فَإِنَّ الرَّئِيسَ لِأَيَّةِ حُكُومَةٍ أَوْ جَيْشٍ أَوْ

جَمْعِيَّةٍ أَوْ شَرِكَةٍ إذَا كَانَ لَا يُطِيعُهُ الْمَرْءُوسُونَ لَهُ إلَّا فِيمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ ، وَآرَاءَهُمْ ، لَا يَلْبَثُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَفْسُدَ بِأَنْ تَخْتَلَّ الْحُكُومَةُ وَتَسْقُطَ ، وَيَنْكَسِرَ الْجَيْشُ وَيَهْلَكَ ، وَتَنْحَلَّ الشَّرِكَةُ وَتُفْلِسَ ، وَهَكَذَا يُقَالُ فِي كُلِّ مَصْلَحَةٍ يَقُومُ بِإِدَارَتِهَا كَثْرَةٌ ، يَرْجِعُ نِظَامُهَا إلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَبَوَارِجِ الْحَرْبِ وَسُفُنِ التِّجَارَةِ وَمَعَامِلِ الصِّنَاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ الصَّلَاحُ وَالنِّظَامُ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَتَوَقَّفُ

(135/265)

عَلَى طَاعَةِ الرَّئِيسِ وَهُوَ لَيْسَ رَبًّا تَجِبُ طَاعَتُهُ لِذَاتِهِ وَلَا لِنِعَمِهِ ، وَلَا مَعْصُومًا مِنَ الْخَطَأِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، فَمَا الْقَوْلُ فِي وُجُوبِ طَاعَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عَبِيدِهِ ؟ ! وَيُشَارِكُ إبْلِيسَ فِي هَذَا الْجَهْلِ وَمَا قَبْلَهُ كَثِيرُونَ مِمَّنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ مُؤْمِنِينَ : يَتْرُكُونَ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِمَّا يُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى تَرْكِ الصِّيَامِ مَثَلًا بِأَنَّ لَا فَائِدَةَ فِي الْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، أَوْ بِأَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ صِيَامِهِمْ ! ! عَلَى أَنَّ حِكَمَ الصِّيَامِ كَثِيرَةٌ جَلِيَّةٌ كَمَا بَيَّنَّاهَا مِرَارًا فِي التَّفْسِيرِ (ص117 وَمَا بَعْدَهَا ج2 ط الْهَيْئَةِ) . وَفِي الْمَنَارِ .

رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَالدَّيْلَمِيُّ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " أَوَّلُ مَنْ قَاسَ أَمْرَ الدِّينِ بِرَأْيِهِ إبْلِيسُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ اسْجُدْ لِآدَمَ

فَقَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ " . إلَخْ . قَالَ جَعْفَرٌ فَمَنْ قَاسَ أَمْرَ الدِّينِ بِرَأْيِهِ قَرَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِبْلِيسَ . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ . أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إبْلِيسُ .

(136/265)

(الرَّابِعُ) الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْخَيْرِيَّةِ بِالْمَادَّةِ الَّتِي كَانَ مِنْهَا التَّكْوِينُ . وَهَذَا جَهْلٌ ظَاهِرٌ مِنْ وُجُوهٍ : (أَحَدُهَا) أَنَّ خَيْرِيَّةَ الْمَوَادِّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لَيْسَ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي يُمْكِنُ إثْبَاتُهَا بِالْبُرْهَانِ ، وَإِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ اعْتِبَارِيَّةٌ تَخْتَلِفُ فِيهَا الْآرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ . وَأُصُولُ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ التَّرْكِيبِ عَنَاصِرُ بَسِيطَةٌ قَلِيلَةٌ يُرَجَّحُ أَنَّهَا مُتَحَوِّلَةٌ عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ فَنِّ الْكِيمْيَاءِ .

(ثَانِيهَا) أَنَّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ أَصْلُهَا خَسِيسٌ ، فَالْمِسْكُ مِنَ الدَّمِ ، وَجَوْهَرُ الْأَلْمَاسِ مِنَ الْكَرْبُونِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْفَحْمِ ، وَالْأَقْذَارِ الَّتِي تُعَافُ مِنْ مَادَّةِ الطَّعَامِ الَّذِي يُشْتَهَى وَيُحَبُّ .

(ثَالِثُهَا) أَنَّ الْمَلَائِكَةَ خُلِقُوا مِنَ النُّورِ وَهُوَ قَدْ خُلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَهُوَ اللَّهَبُ الْمُخْتَلِطُ بِالدُّخَّانِ فَمَا فَوْقَهُ دُخَّانٌ وَمَا تَحْتَهُ لَهَبٌ صَافٍ ، فَإِنَّ مَادَّةَ الْمَرْجِ مَعْنَاهَا الْخَلْطُ وَالِاضْطِرَابُ .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ النُّورَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ ، وَالنَّارُ الصَّافِيَةُ خَيْرٌ مِنَ اللهَبِ الْمُخْتَلِطِ بِالدُّخَانِ .
وَقَدْ سَجَدَ الْمَلَائِكَةُ الْمَخْلُوقُونَ مِنَ النُّورِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى فَكَانَ هُوَ أَوْلَى ، بَلْ أَوْلَى بِأَنْ يُقَالَ لَهُ : أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى .

(137/265)

(الْخَامِسُ) إِذَا سَلَّمْنَا جَدَلًا أَنَّ خَيْرِيَّةَ الشَّيْءِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَفْصِلُهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ نَوْعِهِ وَمُشَخِّصَاتِ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي يَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَابِعَةٌ لِلْمَادَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ جِنْسِهِ - فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَحْيَاءِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةٌ مِنَ الطِّينِ بِالذَّاتِ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ ، وَهِيَ خَيْرُ مَا فِيهَا بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الِاعْتِبَارَاتِ الَّتِي تَعْرِفُهَا الْعُقُولُ ، وَلَيْسَ لِلنَّارِ أَوْ لِمَارِجِهَا مِثْلَ هَذِهِ الْمَزَايَا وَلَا مَا يَقْرُبُ مِنْهَا .

(السَّادِسُ) أَنَّ اللَّعِينَ غَفَلَ عَمَّا خَصَّ اللهُ بِهِ آدَمَ مِنْ خَلْقِهِ بِيَدِهِ ، وَالنَّفْخِ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعْلِ اسْتِعْدَادِهِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ فَوْقَ اسْتِعْدَادِ غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَمِنْ تَشْرِيفِهِ بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَجَعْلِهِ بِتِلْكَ الْمَزَايَا أَفْضَلَ مِنْ أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ ، وَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ إِبْلِيسَ بِعُنْصُرِ الْخِلْقَةِ وَبِالطَّاعَةِ .

(138/265)

فَهَذِهِ أُصُولُ الْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ الَّتِي أَوْقَعَ إِبْلِيسَ فِيهَا حَسَدُهُ لِآدَمَ وَاسْتِكْبَارُهُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ بِالسُّجُودِ لَهُ . وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ وَنُظَرَاءَهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ مُرْتَكِسُونَ فِيهَا كُلِّهَا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى ، قَالَ قَتَادَةُ : حَسَدَ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ وَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَهَذَا طِينِيٌّ ، فَكَانَ بَدْءُ الذُّنُوبِ الْكِبْرَ ، وَاسْتَكْبَرَ عَدُوُّ اللهِ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ فَأَهْلَكَهُ اللهُ بِكِبْرِهِ وَحَسَدِهِ ، وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ الْكِبْرِ وَالتَّكَبُّرِ .

(139/265)

وَهَذَا التَّفْصِيلُ مَبْنِيٌّ عَلَى كَوْنِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لِلتَّكْلِيفِ ، وَأَنَّهُ وَقَعَ حِوَارٌ فِيهِ بَيْنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ ، وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْأَمْرَ لِلتَّكْوِينِ (كَمَا سَيَأْتِي عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ) وَأَنَّ الْقِصَّةَ بَيَانٌ لِغَرَائِزِ الْبَشَرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالشَّيْطَانِ ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ مَلَائِكَةَ الْأَرْضِ الْمُدَبِّرَةَ بِأَمْرِ اللهِ وَإِذْنِهِ لِأُمُورِهَا بِالسُّنَنِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ نِظَامِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) (79 : 5) مُسَخَّرَةً لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ ، إِذْ خَلَقَ اللهُ هَذَا النَّوْعَ مُسْتَعِدًّا

لِلانْتِفَاعِ بِهَا كُلِّهَا بِعِلْمِهِ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا ، وَبِعَمَلِهِ بِمُقْتَضَى هَذِهِ السُّنَنِ كَخَوَاصِّ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالْكَهْرَبَاءِ وَالنُّورِ وَالْأَرْضِ مَعَادِنِهَا وَنَبَاتِهَا وَحَيَوَانِهَا ، وَإِظْهَارِهِ لِحُكْمِ اللهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ فِيهَا ، وَمُسْتَعِدًّا لِاصْطِفَاءِ اللهِ بَعْضَ أَفْرَادِهِ ، وَاخْتِصَاصِهِمْ بِوَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ ، وَإِقَامَةِ مَنِ اهْتَدَى بِهِمْ لِدِينِهِ وَمِيزَانِ شَرْعِهِ . وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (2 : 31) إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ الشَّيْطَانَ عَاتِيًا مُتَمَرِّدًا عَلَى الْإِنْسَانِ بَلْ عَدُوًّا لَهُ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَانَ بِرُوحِهِ وَسَطٌ بَيْنَ رُوحِ الْمَلَائِكَةِ الْمَفْطُورِينَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَإِقَامَةِ سُنَنِهِ فِي صَلَاحِ الْخَلْقِ ، وَبَيْنَ رُوحِ الْجِنِّ الَّذِينَ يَغْلِبُ عَلَى شِرَارِهِمْ - وَهُمُ الشَّيَاطِينُ - التَّمَرُّدُ وَالْعِصْيَانُ ،

(140/265)

وَقَدْ أَعْطَى الْإِنْسَانَ إِرَادَةً وَاخْتِيَارًا مِنْ رَبِّهِ فِي تَرْجِيحِ مَا بِهِ يَصْعَدُ إِلَى أُفُقِ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَا بِهِ يَهْبِطُ إِلَى أُفُقِ الشَّيَاطِينِ ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي هَذَا السِّيَاقِ .

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْمَبَاحِثِ اللُّغَوِيَّةِ زِيَادَةُ " لَا " فِي جُمْلَةِ " مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ " إِذْ قَالَ فِي سُورَةِ " ص " : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ) (38 : 75) وَقَدْ عُهِدَ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ أَنْ تَجِيءَ " لَا " فِي سِيَاقِ النَّفْيِ الصَّرِيحِ وَغَيْرِ الصَّرِيحِ لِتَقْوِيَتِهِ وَتَوْكِيدِهِ ، وَكَذَا فِي

غَيْرِ النَّفْيِ وَذَلِكَ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ . وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَحَاوُرِ مُوسَى وَهَارُونَ مِنْ سُورَةِ طَهَ : (قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) (20 : 92 ، 93) وَعَدُّوا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) (6 : 109) ،

وَقَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) (6 : 151) وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنَى النَّفْيِ وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا .

(141/265)

وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَّجَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالَهَا مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى جَعْلِ " لَا " غَيْرَ زَائِدَةٍ وَهِيَ طَرِيقَةُ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ . وَتَقَدَّمَ مَا اخْتَرْنَاهُ فِي آيَتَيِ الْأَنْعَامِ وَأَشَرْنَا آنِفًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى أَنَّ مَنَعَ هُنَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْحَمْلِ ، وَالتَّضْمِينُ كَثِيرٌ مِنَ التَّنْزِيلِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ لَمْ يَجْعَلْهُ النَّحْوِيُّونَ قِيَاسًا ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ كَثِيرًا بِالتَّعْدِيَةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ) (4 : 2) إِذْ ضَمِنَ الْأَكْلُ مَعْنَى الضَّمِّ فَعُدِّيَ بِ " إِلَى " ، وَيَقْرُبُ مِنْهُ تَعْبِيرُ سُورَةِ الْحِجْرِ : (مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) (15 : 32) وَالتَّقْدِيرُ : أَيُّ شَيْءٍ عَرَضَ لَكَ فَحَمَلَكَ عَلَى أَلَّا تَكُونَ مَعَهُمْ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ تَضْمِينَ الْمَنْعِ هُنَا مَعْنَى الْإِلْزَامِ وَالِاضْطِرَارِ ، فَيَكُونُ

التَّقْدِيرُ : مَا أَلْزَمَكَ أَوِ اضْطَرَّكَ إِلَى أَلَّا تَسْجُدَ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ الْفَصْلَ فِي حِكَايَةِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ جَمِيعًا بِـ " قَالَ " وَارِدٌ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فَإِنَّ مَنْ يَسْمَعُ السُّؤَالَ يَتَشَوَّقُ لِمَعْرِفَةِ الْجَوَابِ . وَيَنْزِلُ مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْهُ فَيُجَابُ .

(142/265)

(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا) الْهُبُوطُ الِانْحِدَارُ وَالسُّقُوطُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَا دُونِهِ ، أَوْ مِنْ مَكَانَةٍ وَمَنْزِلَةٍ إِلَى مَا دُونِهَا . فَهُوَ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ ، وَالْفَاءُ لِتَرْتِيبِ هَذَا الْجَزَاءِ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الذَّنْبِ قَبْلَهُ ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا آدَمَ وَكَانَتْ عَلَى نَشْزٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَدْ كَانَتِ الْيَابِسَةُ قَرِيبَةَ الْعَهْدِ بِالظُّهُورِ فِي خِضَمِّ الْمَاءِ ، فَخَيْرُ مَا يَصْلُحُ مِنْهَا لِسُكْنَى الْإِنْسَانِ يَفَاعُهَا وَأَنْشَازُهَا ، أَوِ الَّتِي أَسْكَنَهُ إِيَّاهَا بَعْدَ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ وَهِيَ جَنَّةُ الْجَزَاءِ عَلَى الْقَوْلِ بِهَا - يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا وَرَدَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْهُبُوطِ لَهُ وَلِآدَمَ وَزَوْجِهِ بَعْدَ ذِكْرِ سُكْنَى الْجَنَّةِ مِنْ سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَطه . وَقِيلَ : إِنَّهُ يَعُودُ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مُلْحَقًا بِمَلَائِكَةِ الْأَرْضِ الْأَخْيَارِ قَبْلَ أَنْ يَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ مِنْ جِنْسِ الْجِنَّةِ (بِكَسْرِ الْجِيمِ) بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ، فَيَكُونُ نَوْعَيْنِ مَلَائِكَةً وَشَيَاطِينَ ، كَمَا قِيلَ فِي جَنَّةِ آدَمَ إِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ حَيَاةِ

النَّعِيمِ الْأُولَى لِلنَّوْعِ الَّتِي تُشْبِهُ نَعِيمَ الطُّفُولِيَّةِ لِأَفْرَادِهِ ، وَتَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) أَيْ فَمَا يَنْبَغِي لَكَ وَلَيْسَ مِمَّا تُعْطَاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ أَنَّ

(143/265)

تَتَكَبَّرَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُعَدِّ لِلْكَرَامَةِ ، أَوْ فِي هَذِهِ الْمَكَانَةِ الَّتِي هِيَ مَنْزِلَةُ الْمَلَائِكَةِ لِأَنَّهَا مَكَانَةُ الِامْتِثَالِ وَالطَّاعَةِ . وَالْكِبْرُ اسْمٌ لِلتَّكَبُّرِ وَهُوَ مَصْدَرُ تَكَبَّرَ أَيْ تَكَلَّفَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ أَوْ أَكْبَرَ مِمَّنْ هِيَ فِي ذَاتِهَا أَصْغَرُ مِنْهُ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ تَفْسِيرُ الْكِبْرِ بِأَنَّهُ " بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ وَهُوَ تَفْسِيرٌ لَهُ بِمَظْهَرِهِ الْعَمَلِيِّ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ ، وَهُوَ أَلَّا يُذْعِنَ لِلْحَقِّ إِذَا ظَهَرَ لَهُ بَلْ يَدْفَعُهُ أَوْ يُنْكِرُهُ تَجَبُّرًا وَتَرَفُّعًا ، وَأَنْ يَحْتَقِرَ غَيْرَهُ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ يَدُلُّ عَلَى

(144/265)

عَدَمِ الِاعْتِرَافِ لَهُ بِمَزِيَّتِهِ وَفَضْلِهِ ، أَوْ بِتَنْقِيصِ تِلْكَ الْمَزِيَّةِ بِادِّعَاءِ أَنَّ مَا دُونَهَا هُوَ فَوْقَهَا سَوَاءٌ ادَّعَى ذَلِكَ لِنَفْسِهِ فَرَفَعَهَا عَلَى غَيْرِهَا بِالْبَاطِلِ ، أَوِ ادَّعَاهُ لِغَيْرِهِ بِأَنْ يُفَضِّلَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى

بَعْضٍ بِقَصْدِ احْتِقَارِ الْمُفَضَّلِ عَلَيْهِ وَتَنْقِيصِ قَدْرِهِ . (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) هَذَا تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالْهُبُوطِ مُتَفَرِّعٌ عَلَيْهِ . أَيْ فَاخْرُجْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ أَوِ الْمَكَانَةِ . وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ : (إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) أَيْ أُولِي الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ ، أَظْهَرَ حَقِيقَتَكَ الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ ، بِإِظْهَارِهِ لِمَا كَانَ كَامِنًا فِي نَفْسِكَ مِنْ عِصْيَانِ الِاسْتِكْبَارِ . (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) (3 : 179) وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ تَعَالَى جَازَاهُ بِضِدِّ مُرَادِهِ ، إِذْ أَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ عَنْ مَنْزِلَتِهَا الَّتِي كَانَتْ فِيهَا ، فَجُوزِيَ بِهُبُوطِهَا مِنْهَا إِلَى مَا دُونَهَا ، كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْشُرُ الْمُتَكَبِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصُورَةٍ حَقِيرَةٍ يَطَؤُهُمْ فِيهَا النَّاسُ بِأَرْجُلِهِمْ ، كَمَا أَنَّهُ يُبْغِضُهُمْ إِلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا فَيَحْتَقِرُونَهُمْ وَلَوْ فِي أَنْفُسِهِمْ – وَهَذَا التَّوْجِيهُ أَلْيَقُ بِقَوْلِ مَنْ جَعَلَ الْأَمْرَ لِلتَّكْلِيفِ . وَلَكِنَّ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ جَرَى عَلَيْهِ بَعْدَ جَزْمِهِ بِالْقَوْلِ بِأَنَّهُ

(145/265)

لِلتَّكْوِينِ وَاقْتِصَارِهِ عَلَيْهِ قَالَ :

"يَقُولُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ بِأَمْرٍ قَدَرِيٍّ كَوْنِيٍّ : فَاهْبِطْ مِنْهَا بِسَبَبِ عِصْيَانِكَ لِأَمْرِي وَخُرُوجِكَ

عَنْ طَاعَتِي ، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا . قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) أَيِ الذَّلِيلِينَ الْحَقِيرِينَ . مُعَامَلَةً لَهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ ، وَمُكَافَأَةً لِمُرَادِهِ بِضِدِّهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ ، وَسَأَلَ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ " .

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أَيْ قَالَ بِلِسَانِ قَالِهِ عَلَى التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ أَوْ لِسَانِ حَالِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ عَلَى الْآخَرِ : رَبِّ أَخِّرْنِي وَأَمْهِلْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُ آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ فَأَكُونَ أَنَا وَذُرِّيَّتِي أَحْيَاءً مَا دَامُوا أَحْيَاءً وَأَشْهَدُ انْقِرَاضَهُمْ وَبَعْثَهُمْ (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) أَيْ قَالَ تَعَالَى لَهُ مُخْبِرًا ، أَوْ قَالَ مُرِيدًا وَمُنْشِئًا كَمَا يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَجَابَهُ تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ اهـ . فَهُوَ يُؤَكِّدُ بِهَذَا مَا اخْتَارَهُ فِي مَدْلُولِ هَذَا الْحِوَارِ وَهُوَ أَنَّهُ بَيَانٌ لِمُقْتَضَى التَّكْوِينِ الَّذِي هُوَ مُتَعَلِّقُ الْمَشِيئَةِ ، لَا مُرَاجَعَةَ أَقْوَالٍ مِنْ مُتَعَلِّقِ صِفَةِ الْكَلَامِ .

(146/265)

وَظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّهُ جُعِلَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ السُّؤَالِ إِيجَازًا ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَجَابَهُ إِلَى مَا سَأَلَ ، وَلَكِنَّ هَذَا السُّؤَالَ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ فَكَانَ جَوَابُهُ بِلَفْظٍ آخَرَ وَهُوَ : (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) (15 : 36 - 38) أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَرَادَ إِبْلِيسُ أَلَّا يَذُوقَ الْمَوْتَ فَقِيلَ لَهُ " إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ " قَالَ : النَّفْخَةُ الْأُولَى ، وَبَيْنَ النَّفْخَةِ وَالنَّفْخَةِ أَرْبَعُونَ سَنَةً . وَأَخْرَجَ الْأَوَّلُ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : فَلَمْ يُنْظِرْهُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، وَلَكِنْ أَنْظَرَهُ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، وَالنَّفْخَةُ الْأُولَى فِي الصُّورِ هِيَ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا جَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَالثَّانِيَةُ هِيَ الَّتِي بِهَا يُبْعَثُونَ وَلَيْسَ بَعْدَهَا مَوْتٌ . وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَذُوقَ الْمَوْتَ ، وَهَذِهِ النَّفْخَةُ تُسَمَّى نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) (27 : 87) وَنَفْخَةُ الصَّعْقِ لِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى

(147/265)

فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) (39 : 68) وَلِاخْتِلَافِ الْوَصْفَيْنِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُ : إِنَّ النَّفَخَاتِ ثَلَاثٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : أَرْبَعٌ . وَلَكِنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ أَنَّهُمَا ثِنْتَانِ : وَهُمَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) (79 : 6 ، 7) فَهُمْ يَفْزَعُونَ فَيُصْعَقُونَ ، أَيْ يَمُوتُونَ بِالْأُولَى وَهِيَ الرَّاجِفَةُ وَيُبْعَثُونَ بِالثَّانِيَةِ الَّتِي تَرْدُفُهَا وَتَتْبَعُهَا . وَأَصْلُ الصَّعْقِ تَأْثِيرُ الصَّاعِقَةِ فِيمَنْ تُصِيبُهُ مِنْ إِغْمَاءٍ وَغَشَيَانٍ أَوْ مَوْتٍ هُوَ الْغَالِبُ ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ عَلَى الْغَشَيَانِ مِنْ كُلِّ صَوْتٍ شَدِيدٍ وَعَلَى الْمَوْتِ مِنْهُ كَمَا فَسَّرَهُ الْفَيُّومِيُّ فِي الْمِصْبَاحِ .

وَفِيمَنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْفَزَعِ وَالصَّعْقِ عَشَرَةُ أَقْوَالٍ عَلَى مَا اسْتَقْصَاهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ ، لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ذِكْرُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ . وَمَا مِنْ قَوْلٍ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ إِلَّا

(148/265)

وَفِيهِ نَظَرٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ ، وَلَمْ يَصِحَّ فِي قَوْلٍ مِنْهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ مُتَّصِلُ الْإِسْنَادِ فِيمَا يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِهِمْ ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ لِأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ . مَنِ الَّذِينَ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يُصْعَقُوا ؟ قَالَ : " هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " قَالَ الْحَافِظُ صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ وَرَجَّحَهُ الطَّبَرِيُّ اهـ . وَلَكِنَّ الْحَافِظَ لَمْ يَذْكُرْ هَذَا قَوْلًا مُسْتَقِلًّا بَلْ أَدْمَجَهُ فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ إِنَّهُمْ

الْأَنْبِيَاءُ . أَيْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِشُهَدَاءِ اللهِ حُجَجُهُ عَلَى خَلْقِهِ بِحُسْنِ سِيرَتِهِمْ وَاسْتِقَامَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا إذْ يَشْهَدُونَ فِي الْآخِرَةِ بِضَلَالِ كُلِّ مَنْ كَانَ مُخَالِفًا لِهَدْيِهِمْ وَسُنَّتِهِمْ فِي اتِّبَاعِ دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْأَنْبِيَاءُ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ قَطْعًا ، فَكُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا قَالَ : (فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (4 : 41) وَهَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءُ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، يَقِلُّونَ تَارَةً وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يُجْعَلَ هَذَا قَوْلًا مُسْتَقِلًّا فَإِنَّ الشُّهَدَاءَ أَعَمُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنَ الصِّدِّيقِينَ ، فَكُلُّ نَبِيٍّ شَهِيدٌ وَكُلُّ صِدِّيقٍ شَهِيدٌ ، وَمِنَ الشُّهَدَاءِ مَنْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ ، وَلَكِنَّ كُلَّ شَهِيدٍ صَالِحٌ وَمَا كُلُّ صَالِحٍ بِشَهِيدٍ ، فَبَيْنَ طَبَقَاتِ (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ

(149/265)

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) (4 : 69) الْعُمُومُ وَالْخُصُوصُ الْمُطْلَقُ .

وَإِذَا كَانَ الصَّعْقُ الْمُرَادُ هُوَ الْمَوْتُ فَلَا يَظْهَرُ لِلْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُسْتَثْنَى هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَجْهٌ ، وَكَذَا إذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْغَشَيَانُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي آيَةِ النَّمْلِ بِالْفَزَعِ وَكَانَتِ النَّفْخَةُ الْمُحْدِثَةُ لَهُ هِيَ الْأُولَى إذْ يَتْلُوهُ مَوْتُ الْخَلْقِ وَخَرَابُ الدُّنْيَا كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ . وَظَاهِرُ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ يَوْمَ الْبَعْثِ ، وَهُوَ خِلَافُ الْمُتَبَادِرِ مِنَ الْآيَاتِ كُلِّهَا .

فَعُلِمَ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ إِبْلِيسَ لَا يَنْتَهِي إِنْظَارُهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ بَلْ يَمُوتُ عَقِبَ النَّفْخَةِ الْأُولَى الَّتِي يَتْلُوهَا خَرَابُ هَذِهِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ : (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) (69 : 13 ، 14) إِلَّا إِذَا قِيلَ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَوْمَ الْبَعْثِ يُطْلَقُ تَارَةً عَلَى مَا يَشْمَلُ زَمَنَ مُقَدِّمَاتِهِ فَيُسَمَّى كُلُّ ذَلِكَ يَوْمًا ، كَمَا يُطْلَقُ تَارَةً عَلَى زَمَنِ الْمُقَدِّمَاتِ وَحْدَهَا وَتَارَةً عَلَى زَمَنِ الْغَايَةِ وَحْدَهَا ؛ إِذْ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ الزَّمَنُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ فِيهِ كَأَيَّامِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةِ . وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ الْآيَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ آنِفًا مِنْ سُورَةِ الْحَاقَّةِ : (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) (69 : 15) الْآيَاتِ . وَفِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا النَّاطِقُ بِأَنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُ

مُوسَى آخِذاً بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ قَالَ " فَلَا أَدْرِي أَرَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَظَاهِرُهُ أَنَّ ذَلِكَ غَشَيَانٌ يَقَعُ بَعْدَ الْبَعْثِ فِي مَوْقِفِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُمَّ صَعْقُ النَّفْخَةِ الْأُولَى الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتَ إِلَّا مَنِ اسْتَثْنِيَ ، وَإِلَّا كَانَ مُشْكِلًا يَحْتَاجُ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُعَارِضُهُ مِمَّا عَلِمْتَ بَعْضَهُ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَقَامُ بِالَّذِي يَتَّسِعُ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . وَقَدِ اسْتَشْكَلَ الْمُفَسِّرُونَ وَلَا سِيَّمَا عُلَمَاءُ الْكَلَامِ مِنْهُمْ هَذَا الْإِنْظَارَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ وَالْإِغْوَاءِ وَسَيَأْتِي بَيَانُ حِكْمَتِهِ بَعْدَ انْتِهَاءِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

(152/265)

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الْإِغْوَاءُ : الْإِيقَاعُ فِي الْغِوَايَةِ وَهِيَ ضِدُّ الرَّشَادِ ؛ لِأَنَّهَا فِي أَصْلِ اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْفَسَادِ الْمُرْدِي مِنْ قَوْلِهِمْ غَوَى الْفَصِيلُ - كَهَوَى وَرَمَى ، وَغَوِيَ كَهَوِيَ وَرَضِيَ - إِذَا فَسَدَ جَوْفُهُ مِنْ كَثْرَةِ اللَّبَنِ فَهَزَلَ وَكَادَ يَهْلَكُ . وَصِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يَصِلُ سَالِكُهُ إِلَى السَّعَادَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا سُبْحَانَهُ لِمَنْ تَزَكَّى نَفْسُهُ بِهِدَايَةِ الدِّينِ الْحَقِّ وَتَكْمِيلِ الْفِطْرَةِ ، وَالْفَاءُ لِتَرْتِيبِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الَّتِي تَلِيهَا عَلَى مَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا ، وَالْبَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ أَوِ الْقَسَمِ وَالْمَعْنَى فَبِسَبَبِ إِغْوَائِكَ إِيَّايَ مِنْ أَجْلِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ أُقْسِمُ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ أَوْ فِيهِ أَوْ لَأَلْزَمَنَّهُ فَأَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَأَقْطَعُهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ

أُزَيِّنَ لَهُمْ سُلُوكَ طُرُقٍ أُخْرَى أُشَرِّعُهَا لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ لِيَضِلُّوا عَنْهُ ، وَهُوَ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ : (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) أَيْ فَلَا أَدَعُ جِهَةً مِنْ جِهَاتِهِمُ الْأَرْبَعِ إِلَّا وَأُهَاجِمُهُمْ مِنْهَا ، وَهَذِهِ جِهَاتٌ مَعْنَوِيَّةٌ كَمَا أَنَّ الصِّرَاطَ الَّذِي يُرِيدُ إِضْلَالَهُمْ عَنْهُ مَعْنَوِيٌّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) (6 : 153) الْآيَةَ مَا يُوَضِّحُ مَا هُنَا ، وَفُسِّرَ فِي الْآثَارِ بِالْإِسْلَامِ ، وَبِطَرِيقَيِ

(153/265)

الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ لِصَدِّهِ عَنْهُمَا (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) لِنِعَمِكَ عَلَيْهِمْ فِي عُقُولِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ وَمَا يَهْدِيهِمْ إِلَى تَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ مِنْ تَعَالِيمِ رُسُلِكَ لَهُمْ ، أَيْ لَا يَكُونُ الشُّكْرُ التَّامُّ الْمُمْكِنُ صِفَةً لَازِمَةً لِأَكْثَرِهِمْ بَلْ لِلْأَقَلِّينَ مِنْهُمْ ، قِيلَ إِنَّهُ قَالَ هَذَا عَنْ ظَنٍّ فَأَصَابَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (34 : 20) وَقِيلَ عَلَى عِلْمٍ بِالدَّلَائِلِ لَا بِالْغَيْبِ ، وَالدَّلَائِلُ النَّظَرِيَّةُ غَيْرُ الْقَطْعِيَّةِ ظُنُونٌ .

وَتَقَدَّمَ تَعْرِيفُ الشُّكْرِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ) وَهِيَ فَاتِحَةُ هَذَا السِّيَاقِ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ الْأَرْبَعِ قَالَ : (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) قَالَ أُشَكِّكُهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) فَأُرَغِّبُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ

(وَعَنْ أَيمَانِهِمْ) أُشْبِهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ (وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) أَسْتَنُّ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) قَالَ : مُوَحِّدِينَ فَسَّرَ الشُّكْرَ بِأَصْلِ أُصُولِهِ وَمَنْبَتِ جَمِيعِ فُرُوعِهِ وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ فِي مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ . " مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ " مِنْ قِبَلِ الدُّنْيَا ، " وَمِنْ خَلْفِهِمْ " - مِنْ قِبَلِ الْآخِرَةِ " وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ " : مِنْ قِبَلِ حَسَنَاتِهِمْ " وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ " مِنْ جِهَةِ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَهِيَ إِنَّمَا تُخَالِفُ الْأُولَى فِي تَفْسِيرِ مَا بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْخَلْفِ مُخَالَفَةَ تَنَاقُضٍ فِي اللَّفْظِ وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ هَلِ الْمُرَادُ فِيمَا بَيْنَ الْأَيْدِي مَا هُوَ حَاضِرٌ أَوْ مَا هُوَ مُسْتَقْبَلٌ ، وَهَلِ الْمُرَادُ بِالْخَلْفِ مَا يَتْرُكُهُ الْمَرْءُ وَيَتَخَلَّفُ عَنْهُ وَهُوَ الدُّنْيَا أَمْ مَا هُوَ وَرَاءَ حَيَاتِهِ الْحَاضِرَةِ وَهُوَ الْآخِرَةُ ؟ اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَيْنِ ، وَعَنْهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ " مِنْ فَوْقِهِمْ " عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَهُمْ ، وَفِي لَفْظٍ : لِأَنَّ الرَّحْمَةَ تَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ مَا هُوَ بِمَعْنَى مَا ذُكِرَ مَعَ تَفْصِيلٍ مَا كَمَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ . وَهُمَا مِنْ تَلَامِيذِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْفَوْقِيَّةُ مَعْنَوِيَّةٌ كَغَيْرِهَا ، وَإِثْبَاتُ الْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى تَنْطِقُ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ وَمِنْ صِفَاتِهِ " الْعَلِيُّ " فَنُؤْمِنُ بِهِ مَعَ تَنْزِيهِهِ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ

(155/265)

صِفَاتِ خَلْقِهِ جَمِيعًا ، وَقَدْ شَرَحْنَاهُ مِنْ قَبْلُ بِمَا أَثْبَتْنَا بِهِ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِيهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ مِنْ حَيْثُ يُبْصِرُونَ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ حَيْثُ لَا يُبْصِرُونَ ، وَحَاصِلُ الْمَعْنَى كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ جَمِيعُ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَالْخَيْرُ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَالشَّرُّ يُحَسِّنُهُ لَهُمْ ، وَرَوَى أَحْمَدُ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَابْنُ حِبَّانَ ، وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ " اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي " .

(156/265)

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا) يُقَالُ ذَأَمَ الْمَتَاعَ (مِنْ بَابِ فَتَحَ) وَذَامَهُ بِالتَّخْفِيفِ يُذِيمُهُ ذَيْمًا وَذَامًا (بِالْقَلْبِ) إذَا عَابَهُ وَذَمَّهُ . وَيُقَالُ دَحَرَ الْجُنْدُ الْعَدُوَّ إذَا طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ فَهُوَ بِمَعْنَى اللَّعْنِ ، وَبِذَلِكَ وَرَدَ التَّفْسِيرُ الْمَأْثُورُ لِلَّفْظَيْنِ ، وَالْأَمْرُ الْأَوَّلُ بِالْخُرُوجِ قَدْ ذُكِرَ لِبَيَانِ سَبَبِهِ

وَهَذَا لِبَيَانِ صِفَتِهِ ، وَالْمَعْنَى اخْرُجْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا حَالَ كَوْنِكَ مَعِيبًا مَذْمُومًا مِنَ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ مَطْرُودًا مِنْ جَنَّتِهِ ، فَهُوَ بِمَعْنَى لَعَنَهُ وَجَعَلَهُ رَجِيمًا فِي آيَاتٍ أُخْرَى (لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) جَهَنَّمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْجَزَاءِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، أَخْبَرَ تَعَالَى خَبَرًا مُؤَكَّدًا بِالْقَسَمِ بِأَنَّ مَنْ يَتَّبِعْ إِبْلِيسَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فِيمَا يُزَيِّنُهُ لَهُمْ مِنَ

الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالْفُجُورِ وَالْفِسْقِ ؛ فَإِنَّ جَزَاءَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ أَهْلَ دَارِ الْعَذَابِ يَمْلَؤُهَا مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَفِي آخِرِ سُورَةِ ص : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (38 : 85) وَيَدْخُلُ فِي خِطَابِهِ أَعْوَانُهُ فِي الْإِغْوَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَالنُّصُوصُ فِيهِمْ كَثِيرَةٌ ، وَقَوْلُهُ : (مِنْهُمْ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَلْءَ يَكُونُ مِنْ بَعْضِهِمْ وَإِلَّا قِيلَ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ بِكُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ مَنْ يَتْبَعُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ فِي بَعْضِ الْمَعَاصِي يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ وَيَعْفُو عَنْهُمْ .

(157/265)

وَفِي سُورَتَيِ الْحِجْرِ وَص اسْتِثْنَاءُ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ مِنْ إِغْوَائِهِ – لَعَنَهُ اللهُ – حِكَايَةً عَنْهُ وَهُوَ مُقَابِلُ الْأَكْثَرِ هُنَا . وَأَكَّدَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (15 : 42) وَنَحْوِهِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (17

: 65) وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يُفِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ دَاعِيَةُ شَرٍّ ، وَمَا تَبِعَهُ مَنْ تَبِعَهُ إِلَّا مُخْتَارًا مُرَجِّحًا لِلْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ وَلِلشَّرِّ عَلَى الْخَيْرِ ، فَقَدْ قَالَ فِي سِيَاقِ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُضِلِّينَ وَالضُّعَفَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ : (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) (14 : 22) وَسَيَأْتِي فَائِدَةُ التَّذْكِيرِ بِهَذَا عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْآتِيَةِ فِي نُصْحِ بَنِي آدَمَ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ .

(158/265)

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَا سِيَّمَا الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْهُمْ خِطَابَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ لِلشَّيْطَانِ فِي هَذَا التَّحَاوُرِ الطَّوِيلِ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، هَلْ هُوَ خِطَابٌ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ كَالْوَحْيِ لِرُسُلِ الْبَشَرِ أَمْ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَكَيْفَ وَهُوَ يَقْتَضِي التَّكْرِيمَ ؟ وَتَحَكَّمُوا فِي الْجَوَابِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يَطَّلِعُ عَلَى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَيَعْلَمُ مُرَادَ اللَّهِ فِي جَوَابِ أَسْئِلَتِهِ ، وَاسْتَشْكَلُوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِإِغْوَاءِ الْبَشَرِ وَإِضْلَالِهِمُ الْمُبِينِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) (الْآيَةَ 17 : 64) مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) (7 : 28) وَإِنَّمَا يُشْكِلُ هَذَا كُلُّهُ عَلَى مَا جَرَوْا عَلَيْهِ مِنْ جَعْلِ الْخِطَابِ لِلتَّكْلِيفِ . وَأَمَّا إذَا جَعَلَ الْخِطَابَ لِلتَّكْوِينِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ كَثِيرٍ فَلَا إشْكَالَ ، لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ بَيَانِ الْوَاقِعِ مِنْ صِفَةِ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ وَطَبِيعَةِ الشَّيْطَانِ وَاسْتِعْدَادِهِمَا وَأَعْمَالِهِمَا الِاخْتِيَارِيَّةِ .

وَلِلْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فِيهَا جَدَلٌ طَوِيلٌ ، فَالْأَوَّلُونَ يُثْبِتُونَ الْإِغْوَاءَ وَالْإِضْلَالَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَيَنْفُونَ رِعَايَةَ الرَّبِّ لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي كُلٍّ مِنْ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَيَجْعَلُونَ الْإِنْسَانَ مَجْبُورًا فِي صُورَةِ مُخْتَارٍ ، وَالْآخَرُونَ

(159/265)

يُخَالِفُونَهُمْ ، فَنَدَعُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمَبَاحِثِ الْجَدَلِيَّةِ لِابْنَيْ بَجْدَتِهَا الرَّازِيِّ وَالزَّمَخْشَرِيِّ ، وَنَخْتِمُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِبَيَانِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِ إبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ الشَّيَاطِينِ وَكَشْفِ شُبْهَةِ الْمُسْتَشْكِلِينَ لَهُ وَلِخَلْقِ الْإِنْسَانِ مُسْتَعِدًّا لِقَبُولِ إغْوَائِهِ فَإِنَّهَا مِمَّا يُحْتَاجُ إلَيْهِ هُنَا حَتَّى عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ السِّيَاقَ كُلَّهُ لِبَيَانِ حَقِيقَةِ التَّكْوِينِ .

حِكْمَةُ خَلْقِ اللَّهِ الْخَلْقَ وَاسْتِعْدَادُ الشَّيْطَانِ وَالْبَشَرِ لِلشَّرِّ :

اعْلَمْ أَنَّ الْحِكْمَةَ الْعُلْيَا لِخَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ أَنْ يَتَجَلَّى بِهَا الرَّبُّ الْخَالِقُ لَهَا بِمَا هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، لِيُعْرَفَ وَيُعْبَدَ ، وَيُشْكَرَ وَيُحْمَدَ ، وَيَحْكُمَ وَيَجْزِيَ فَيَعْدِلَ وَيَغْفِرَ وَيَعْفُوَ وَيَرْحَمَ ، إِلَخْ . فَهِيَ مَظْهَرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ . وَمَجْلَى سُنَنِهِ وَآيَاتِهِ ، وَتُرْجُمَانُ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ، (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) (17 : 44) لِذَلِكَ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَالنِّظَامِ ، الدَّالَّيْنِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَوَحْدَانِيَّةِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (27 : 88) (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (32 : 7) كَمَا نَطَقَ الْقُرْآنُ ، الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ بَلْ لَيْسَ فِي خَلْقِهِ مَا هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا الشَّرُّ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ ، مَدَارُهُ عَلَى مَا يُؤْلِمُ الْأَحْيَاءَ أَوْ تَفُوتُ بِهِ مَصْلَحَةٌ أَوْ مَنْفَعَةٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَيَكُونُ شَرًّا لَهُ إِنْ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ أَعْظَمُ ، أَوْ دَفْعُ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرَ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَأَلَّمُ مِنَ الدَّوَاءِ الَّذِي يُزِيلُ مَرَضَهُ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ أَوْ أَطْوَلُ إِيلَامًا مِنْهُ ، وَقَدْ تَفُوتُهُ مَنْفَعَةٌ صَغِيرَةٌ يَكُونُ فَوْتُهَا سَبَبًا لِمَنْفَعَةٍ أَكْبَرَ مِنْهَا ، كَالَّذِي يَبْذُلُ مَالَهُ فِي الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لِمِلَّتِهِ وَوَطَنِهِ فَيُكْرَمُ وَيَكُونُ قُدْوَةً فِي الْخَيْرِ . وَحَظُّهُ مِنْ كَرَامَةِ الْأُمَّةِ

وَعُمْرَانِ الْوَطَنِ أَعْظَمُ مِمَّا بَذَلَ مِنَ الْمَالِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ مِنْ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَهِيَ سَبِيلُ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ – ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَالزُّلْفَى عِنْدَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى تَحَقُّقِ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يَخْلُقَ مَا عَلِمْنَا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَنْ تَكُونَ الْمُقَابَلَاتُ وَالنِّسَبُ بَيْنَ بَعْضِهَا مُخْتَلِفَةً مِنْ تَوَافُقٍ وَتَبَايُنٍ وَتَضَادٍّ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ فِي نِظَامِ الْخَلْقِ أَنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ ، وَأَنْ تَكُونَ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ ، وَأَنْ يُسِيءَ بَعْضُهُمْ إِلَى نَفْسِهِ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ مَفْطُورًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ، دَائِبًا عَلَى عِبَادَتِهِ وَحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ مُخْتَارًا فِي عَمَلِهِ ، مُسْتَعِدًّا لِلْأَضْدَادِ فِي مَيْلِهِ وَطَبْعِهِ ، يَتَنَازَعُهُ عَامِلَا الْكُفْرِ وَالشُّكْرِ ، وَتَشْتَبِهُ عَلَيْهِ حَقِيقَتَا التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ ، وَتَتَجَاذَبُهُ دَاعِيَتَا الْفُجُورِ وَالْبِرِّ ، فَيَكُونُ لِشُكْرِهِ وَبِرِّهِ وَطَاعَتِهِ لِرَبِّهِ مِنْ عِظَمِ الشَّأْنِ مَعَ مُعَارَضَةِ الْمَوَانِعِ مَا لَيْسَ

لِلْفُطُورِ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ يَعْصِي فَيُفِيدُهُ الْعِصْيَانُ خَوْفًا وَرَهْبَةً ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى التَّوْبَةِ فَيَكُونُ لَهُ أَوْفَرُ حَظٍّ مِنْ اسْمَيِ الْعَفُوِّ الْغَفُورِ وَقَدْ يَسْتَكْبِرُ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ وَيُصِرُّ عَلَى الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، فَيَكُونُ مَوْضِعًا لِعِقَابِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ ، وَآيَةٌ فِيهِ عَلَى تَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ .

(163/265)

وَلَا نَعْرِفُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْخَلْقِ مَفْطُورًا عَلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، مَجْبُورًا عَلَى الْفِسْقِ وَالْكُفْرِ فَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ عَلَى أَنَّهُ لَوْ وُجِدَ لَمَا صَحَّ أَنْ يَعْتَرِضَ بِهِ الْعَبْدُ الْمَرْبُوبُ عَلَى الرَّبِّ الْمَعْبُودِ وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُبَيِّنَةُ لِمَعْصِيَةِ إبْلِيسَ - وَهُوَ شَرُّ أَفْرَادِ هَذَا النَّوْعِ الْمُسَمَّى بِالْجِنِّ - تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُخْتَارًا فِي عِصْيَانِهِ بَانِيًا إيَّاهُ عَلَى شُبْهَةٍ احْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ خَلَقَ اللَّهُ نَوْعَهُ فَكَانُوا كَالْبَشَرِ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، كَمَا يُعْلَمُ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ بِاسْمِهِمْ (الْجِنِّ) وَقَالَ تَعَالَى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلَّا إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) (18 : 50) الْفِسْقُ الْخُرُوجُ مِنَ الشَّيْءِ ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُودُهُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، وَعُقُوبَتُهُ بِإِخْرَاجِهِ مِنْهُمْ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ . وَقَدْ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ بَعْدَ عِصْيَانِ إبْلِيسَ ، وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ آدَمَ تَابَ إلَى رَبِّهِ

فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ وَاجْتَبَاهُ وَجَعَلَهُ مَوْضِعَ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ أَصَرَّ عَلَى عِصْيَانِهِ وَاحْتَجَّ عَلَى رَبِّهِ فَلَعَنَهُ وَأَخْزَاهُ ، وَجَعَلَهُ مَوْضِعَ عَدْلِهِ فِي عِقَابِهِ ، وَقَصَّ قَصَصَهُمَا عَلَى الْمُكَلَّفِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا بِمَا أَظْهَرَ حَقِيقَةَ النَّوْعَيْنِ ، وَمَآلَ الْعَمَلَيْنِ ، عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ،

(164/265)

وَابْتِلَاءً – اخْتِبَارًا – لِلْعَالَمِينَ يَمِيزُ اللهُ بِهِ الْمُحْسِنِينَ وَالْمُسِيئِينَ ، وَيُزِيلُ بَيْنَ الطَّيِّبِينَ وَالْخَبِيثِينَ ، إِذْ كَانَ مِنْ سُنَنِهِ فِيهِمَا أَنَّ الْحَيَاةَ جِهَادٌ ، يَظْهَرُ بِهِ مَا أُودِعَ فِي النُّفُوسِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ ، وَأَنَّ مِنْ حِكَمِ تَفَاوُتِ الْبَشَرِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمُ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ ، وَالْحَكِيمُ وَالْحَاكِمُ ، وَالْمَسُوسُ وَالسَّائِسُ ، وَالْقَائِدُ وَالْجُنْدِيُّ ، وَالْمَخْدُومُ وَالْخَادِمُ ، وَالزَّارِعُ وَالصَّانِعُ ، وَالتَّاجِرُ وَالْعَامِلُ . فَلَوْلَا الْعُمَّالُ – مَثَلًا – لَمَا اتَّسَعَتْ مَسَائِلُ الْعُلُومِ بِالْأَعْمَالِ ، وَلَمَا أَمْكَنَ الِانْتِفَاعُ بِمَا كَشَفَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ وَخَوَاصِّ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا عُرِفَتْ نِعَمُ الْخَالِقِ وَسُنَنُهُ وَدَقَائِقُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتُهُ فِي الْأَشْيَاءِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الصِّفَاتِ وَمَظَاهِرِ الْأَسْمَاءِ ، وَمُوجِبَاتِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ كُلَّ مَا خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فَهُوَ حَسَنٌ فِي نَفْسِهِ ، مُتْقَنٌ فِي صُنْعِهِ ، مُظْهِرٌ

لِنَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ مِنْ حِكَمِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمِنْ كَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَا شَيْءَ مِنْهُ بِبَاطِلٍ وَلَا بِشَرٍّ مَحْضٍ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (15 : 85) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) (38 : 27)

(165/265)

وَإِذَا كَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَى فِيمَا ذَكَرَ مِنْ مَعْصِيَتَيْ أَبَوَيِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ظُهُورُ اسْتِعْدَادِهِمْ وَإِظْهَارُ حُكْمِهِ تَعَالَى فِي الْجَزَاءِ عَلَى الذُّنُوبِ فِي حَالَيِ التَّوْبَةِ مِنْهَا وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا ، وَالْعِبْرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ ، وَحُسْنُ الْأُسْوَةِ ، وَسُوءُ الْقُدْوَةِ ، وَالِابْتِلَاءُ وَالْجِهَادُ وَغَيْرُهُ مِمَّا بَيَّنَّا – وَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ الْأَوَّلِ بِسَبَبِ وَسْوَسَةِ الْآخَرِ – فَلَا خَفَاءَ فِي اسْتِمْرَارِ ذَلِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ؛ لِأَنَّهُ مِنْ مُقْتَضَى فِطْرَةِ نَوْعَيْهِمَا ، الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ فِيهِمَا ، فَجِنْسُ الْجِنِّ أَوِ الْجِنَّةِ الْغَيْبِيِّ الرُّوحَانِيِّ نَوْعَانِ أَوْ صِنْفَانِ : صِنْفٌ مَلَكِيٌّ يُلَابِسُ بَعْضُهُ أَرْوَاحَ الْبَشَرِ الْمَيَّالَةِ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ فَتُقَوِّي دَاعِيَتَهُمَا فِيهَا ، وَصِنْفٌ شَيْطَانِيٌّ يُلَابِسُ أَرْوَاحَ الْبَشَرِ الْمَيَّالَةِ إِلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ فَتُقَوِّي دَاعِيَتَهُمَا فِيهَا ، كَمَا بَيَّنَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ ،

وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ " ثُمَّ قَرَأَ (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) (2 : 268) الْآيَةَ - رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ حِبَّانَ ،

(166/265)

وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ ، وَرُوَاةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ - وَمَثَلُ اتِّصَالِ نَوْعَيِ الْجِنَّةِ الرُّوحِيَّةِ بِرُوحِ الْإِنْسَانِ كُلٌّ بِمَا يُنَاسِبُ طَبْعَهُ - كَمَثَلِ اتِّصَالِ نَوْعَيِ الْجِنَّةِ الْمَادِّيَّةِ بِجَسَدِهِ وَتَأْثِيرِهَا فِيهِ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ ، وَهِيَ مَا يُسَمِّيهِ الْأَطِبَّاءُ بِالْمِيكْرُوبَاتِ وَسَمَّاهَا بَعْضُ الْأُدَبَاءِ النَّقَاعِيَّاتِ ، فَإِنَّ مِنْهَا جِنَّةَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْبِئَةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْجِسْمِ الْقَابِلِ لَهَا بِضَعْفِهِ ، وَالْمِيكْرُوبَاتُ الَّتِي تَقْوَى بِهَا الصِّحَّةُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ .

قَالَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِهِ : وَالْجِنُّ يُقَالُ عَلَى وَجْهَيْنِ (أَحَدُهُمَا) لِلرُّوحَانِيِّينَ : الْمُسْتَتِرَةُ عَنِ الْحَوَاسِّ كُلِّهَا بِإِزَاءِ الْإِنْسِ ، فَعَلَى هَذَا تَدْخُلُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ فَكُلُّ مَلَائِكَةٍ جِنٌّ وَلَيْسَ كُلُّ جِنٍّ مَلَائِكَةً ، وَعَلَى هَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ : الْمَلَائِكَةُ كُلُّهَا جِنٌّ . وَقِيلَ : بَلِ الْجِنُّ بَعْضُ الرُّوحَانِيِّينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَانِيِّينَ ثَلَاثَةٌ : أَخْيَارٌ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . وَأَشْرَارٌ وَهُمُ

الشَّيَاطِينُ ، وَأَوْسَاطٌ فِيهِمْ أَخْيَارٌ وَأَشْرَارٌ وَهُمُ الْجِنُّ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) (72 : 1) إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) (72 : 14) وَالْجِنَّةُ جَمَاعَةُ الْجِنِّ اهـ . وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا لَا يُخَالِفُ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنْ وَحْدَةِ الْجِنْسِ ؛

(167/265)

فَإِنَّهُ غَلَبَ عَلَى قِسْمَيْنِ مِنْهُ اسْمَانِ مُمَيَّزَانِ لَهُمَا لِتَضَادِّهِمَا . وَقَدْ فُسِّرَتِ الْجِنَّةَ - بِالْكَسْرِ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) (37 : 158) بِالْمَلَائِكَةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ قَبْلَ الْآيَةِ عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) (37 : 149) الْآيَاتِ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَأَبُو مَالِكٍ وَقَتَادَةُ : إِنَّ الْجِنَّةَ فِي الْآيَةِ الْمَلَائِكَةُ ، وَإِنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسَبِ قَوْلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ) أَيِ الْمَلَائِكَةُ (إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) فِي النَّارِ مُقْدِمُونَ عَلَى عَذَابِ الْكُفْرِ . اهـ . مُلَخَّصًا بِالْمَعْنَى .

نَكْتَفِي هُنَا بِهَذَا وَنُحِيلُ فِي زِيَادَةِ بَسْطِهِ وَإِيضَاحِهِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ بَيَانِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْبَشَرِ مُتَفَاوِتِي الِاسْتِعْدَادِ مُخْتَارِينَ فِي الْأَعْمَالِ وَكَذَا مَا بَيَّنَّاهُ فِي

خَلْقِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَوَسْوَسَتِهِمْ وَدَرَجَةِ تَأْثِيرِهَا فِي آيَاتِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا وَمَا حَقَّقْنَاهُ فِي مَسْأَلَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَلِلْمُحَقِّقِ ابْنِ الْقَيِّمِ بَحْثٌ طَوِيلٌ فِي حِكَمِ اللهِ فِي خَلْقِ إِبْلِيسَ يُرَاجَعُ فِي مَحَلِّهِ .

(168/265)

وَمِنَ الْمَبَاحِثِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ إِذَا قُوبِلَ مَا هَاهُنَا بِمَا فِي سُورَةِ الْحِجْرِ يُرَى خِلَافٌ فِي الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ فِي مَقُولِ الْقَوْلِ مِنْ بَعْضِ الْأَسْئِلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ ، مَعَ الِاتِّفَاقِ عَلَى الْفَصْلِ فِي بَدْءِ كُلٍّ مِنْهَا بِـ " قَالَ " عَلَى الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ . فَهَاهُنَا عَطَفَ أَمْرَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ لِإِبْلِيسَ بِالْهُبُوطِ وَأَمْرَهُ الْأَوَّلَ لَهُ بِالْخُرُوجِ بِالْفَاءِ ، وَكَذَا قَوْلُ إِبْلِيسَ " فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي " عَلَى أَنَّهُ مُرَتَّبٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ مُتَفَرِّعٌ عَنْهُ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي مَوَاضِعِهِ . وَفَصَلَ طَلَبَ إِبْلِيسَ لِلْإِنْظَارِ وَجَوَابَ الرَّبِّ لَهُ وَأَمْرَهُ الثَّانِيَ بِالْخُرُوجِ وَأَمَّا فِي سُورَةِ الْحِجْرِ فَقَدْ وَصَلَ كُلًّا مِنْ طَلَبِ الْإِنْظَارِ وَجَوَابِهِ بِالْفَاءِ وَكَذَا فِي سُورَةِ ص ، وَفَصَلَ تَعْلِيلَ إِغْوَائِهِ لِلنَّاسِ بِإِغْوَاءِ الرَّبِّ لَهُ إِذْ قَالَ : (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي) (15 : 39) فَخَالَفَ ذَلِكَ مَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَلَكِنِ اتَّفَقَتِ السُّورَتَانِ فِي عَطْفِ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ بِالْفَاءِ .

فَهَاهُنَا يُقَالُ : إِنَّنَا عَلِمْنَا مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي قَصَصِهِ الْمُكَرَّرَةِ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ مُنَزَّلَةً لِأَجْلِ الْعِبْرَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ اخْتَلَفَتْ أَسَالِيبُهَا بَيْنَ إِيجَازٍ وَإِطْنَابٍ ، وَذُكِرَ فِي بَعْضِهَا مِنَ الْمَعَانِي وَالْفَوَائِدِ مَا لَيْسَ فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ ، حَتَّى لَا تُمَلَّ لِلَفْظِهَا وَلَا لِمَعَانِيهَا ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الْأَقْوَالَ الْمَحْكِيَّةَ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ مُعَبِّرَةٌ

(169/265)

عَنِ الْمَعَانِي وَشَارِحَةٌ لِلْحَقَائِقِ وَلَيْسَتْ نَقْلًا لِأَلْفَاظِ الْمُحْكَى عَنْهُمْ بِأَعْيَانِهَا ، فَإِنَّ بَعْضَ أُولَئِكَ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ أَعَاجِمُ ، وَلَمْ تَكُنْ لُغَةُ الْعَرَبِيِّ مِنْهُمْ كَلُغَةِ الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهَا وَبَلَاغَتِهَا - دَعْ مَا قِيلَ فِيهِ هُنَا مِنْ أَنَّ الْقِصَّةَ مُبَيِّنَةٌ لِحَقَائِقَ ثَابِتَةٍ فِي نَفْسِهَا بِأُسْلُوبِ التَّمْثِيلِ ، وَمَا ثَمَّ أَقْوَالٌ قِيلَتْ بِالْعَرَبِيَّةِ وَلَا غَيْرِهَا - عَلِمْنَا هَذَا وَذَاكَ . وَلَكِنَّ الَّذِي نَجْزِمُ بِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي كِتَابِ اللهِ اخْتِلَافٌ فِي الْمَعَانِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَنَاقُضًا ، وَأَنَّ اخْتِلَافَ الْأَسَالِيبِ وَطُرُقَ التَّعْبِيرِ فِيهِ عَنِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ لَا تَخْتَلِفُ إِلَّا لِنُكَتٍ تُفِيدُ مِنْ فَهْمِهَا فَائِدَةً لَفْظِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً ، فَمَا فَائِدَةُ مَا ذُكِرَ مِنِ اخْتِلَافِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ فِي سُورَتَيِ الْأَعْرَافِ وَالْحِجْرِ ؟

(170/265)

الْجَوَابُ : أَنَّ الْوَصْلَ بِالْعَطْفِ بِالْفَاءِ فِي مَوْضِعِهِ أَفَادَ مَعْنًى زَائِدًا عَلَى مَا وَرَدَ فِي مِثْلِهِ بِالْفَصْلِ اسْتِئْنَافًا وَلَا يَحْتَاجُ فِي زِيَادَةِ الْفَائِدَةِ إِلَى نُكْتَةٍ غَيْرِهَا ، عَلَى أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ السِّيَاقَ فِي كُلٍّ مِنَ الْمَوْضِعَيْنِ وَجَدْتَ أَنَّ طَلَبَ إِبْلِيسَ الْإِنْظَارَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ قَدْ ذُكِرَ بَعْدَ أَمْرِهِ بِالْخُرُوجِ مَعْطُوفًا بِالْفَاءِ لِتَرَتُّبِهِ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَوَصْفِهِ بِأَنَّهُ رَجِيمٌ مَقْرُونًا بِفَاءِ السَّبَبِيَّةِ وَلَعَنَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ – فَلَا غَرْوَ إِذَا جُعِلَ طَلَبُهُ لِلْإِنْظَارِ فِيهَا مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ مُتَفَرِّعًا عَنْهُ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ إِذْ طَرَدْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ ، فَأَطِلْ حَيَاتِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ إِتْمَامًا لِحِكْمَتِكَ ، فَأَجَابَهُ تَعَالَى جَوَابًا مَعْطُوفًا عَلَى طَلَبِهِ إِلَى مَا تَتِمُّ بِهِ الْحِكْمَةُ ، لَا إِلَى مَا تَتَحَقَّقُ بِهِ أُمْنِيَّتُهُ فِي النَّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ . وَلَعَلَّ مِنْ حِكَمِهِ تَعَالَى فِي إِنْظَارِ إِبْلِيسَ أَنْ يَتَمَتَّعَ فِي الدُّنْيَا جَزَاءً عَلَى مَا كَانَ مِنْ عِبَادَتِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ لَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَدَ هَذَا مِنْ طَلَبِهِ الْإِنْظَارَ .

(171/265)

وَأَمَّا نُكْتَةُ حَذْفِ الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ : (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي) مَعَ إِثْبَاتِهَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ لِارْتِبَاطِهَا بِمَا قَبْلَهَا فَهِيَ كَمَا قَالَ الْخَطِيبُ الْإِسْكَافِيُّ : إِنَّ الدُّعَاءَ فِي الصَّدْرِ

يُسْتَأْنَفُ بَعْدَهُ الْكَلَامُ وَالْقِصَّةُ غَيْرُ مُقْتَضِيَةٍ لِمَا قَبْلَهَا كَمَا اقْتَضَاهَا قَوْلُهُ : (رَبِّ فَأَنْظِرْنِي) وَالْفَاءُ تُوجِبُ اتِّصَالَ مَا بَعْدَهَا بِمَا قَبْلَهَا ، وَالنِّدَاءُ أَوَّلًا يُوجِبُ الْقَطْعَ وَاسْتِئْنَافَ الْكَلَامِ وَلَا سِيَّمَا فِي قِصَّةٍ لَا يَقْتَضِيهَا مَا قَبْلَهَا ، فَلَمْ تَحْسُنِ الْفَاءُ مَعَ قَوْلِهِ : (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي) وَالْمَوْضِعَانِ الْآخَرَانِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمَا نِدَاءٌ يُوجِبُ اسْتِئْنَافَ مَا بَعْدَهُ ، فَلِذَلِكَ وُصِلَ الْقَسَمُ فِيهِمَا بِالْأَوَّلِ بِدُخُولِ الْفَاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 291. 306 ﴾

(172/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تخيّل أنه ذكي ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل : ﴿ . . . إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76]

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطاني . وهنا يقول الحق : ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً . . . ﴾ [

الأعراف : 18]

وقال له الحق من قبل : ﴿ قَالَ فَاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ [الأعراف : 13]

إذن فهناك هبوط وخروج بصَغار ومجاوزة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه في حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرد واللعن . ويقول الحق سبحانه : ﴿ . . . لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 18]

وفي هذا اخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدَّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه – جل شأنه – قد أعد الجنة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 10-11]

وقوله الحق : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98]

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذي امتنع عن طاعة أمر الآمر الأعلى بالسجود لآدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

بين في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس : اخرج منها في حال كونك مذءوماً مدحوراً .

والمذءوم : المعيب أو الممقوت ، والمدحور : المبعد عن الرحمة ، المطرود ، وأنه أوعده بملء جهنم منه ، وممن تبعه . وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 84-85] وقوله : ﴿ قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الإسراء : 63-64] ، وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الشعراء : 94-95] إلى غير ذلك من الآيات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قال أخرج منها مذءوماً ﴾ قال : ملوماً ﴿ مدحوراً ﴾ قال : مقيتاً .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ مذءوماً ﴾ قال : مذموماً ﴿ مدحوراً ﴾ قال : منفياً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ مذءوماً ﴾ قال : منفياً ﴿ مدحوراً ﴾ قال : مطروداً .

وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ مذءوماً ﴾ قال : معيباً ﴿ مدحوراً ﴾ قال : منفياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾

" مذؤوماً مَدْحُوراً " حالان من فاعل " اخرج " عند من يجيز تعدد الحال لذي حال واحدة ، ومَنْ لا يُجيز ذلك ف " مَدْحُوراً " صفة لـ " مذؤوماً " أو هي حالٌ من الضَّمير في الجارِّ قَبْلَهَا ، فيكونُ الحالانِ مُتَدَاخِلَيْنِ .

و " مَذْءُوماً مَدْحُوراً " اسما مفعول مِنْ : ذَأَمَهُ وَدَحَرَهُ .

فأمَّا ذَأَمَهُ فيقالُ : بالهمز : ذَأَمَه ، يَذْأَمُهُ كرَامَه يَرْأَمُهُ ، وذَامَهُ يَذِمُهُ كبَاعَه يَبِيعُهُ من غَيْر هَمْزٍ ، وعليه قولهم : " لنْ تَعْدَمَ الحَسْنَاءُ ذَاماً " يروى بهمزةٍ ساكنةٍ أو ألف ، وعلى اللُّغَةِ الثَّانية قول الشاعر : [الطويل]

2424 - تَبِعْتُك إذْ عَيننِي عَلَيْهَا غَشَاوَةٌ . . .

فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أذِيمُهَا

فَمَصْدَرُ المَهمُوز : ذَأْمٌ كرأس ، وأمَّا مصدر غير المهموز فَسُمِعَ فيه ذَامٌ بألف ، وحكى ابْنُ الأَنْبَارِيِّ فيه ذيماً كينعٍ قال : يقال : ذَأَمْتُ الرَّجُلَ أَذْأَمُه ، وذِمْتُه أَذِيمُه ذَيْماً ، وذَمَمْتُه أَذُمُّه ذَماً بمعنىً ؛ وأنشد : [الخفيف]

2425 - وأقَامُوا حَتَّى أبِيرُوا جَمِيعاً . . .

فِي مقَامٍ وكُلُّهُمْ مَذْءُومْ

: العَيْبُ ومنه المثلُ المتقدِّمُ : " لن تَعْدَمَ الحَسْنَاءُ ذاماً " أي كُلُّ امرأة حسنة لا بدَّ أن يكون فيها عيب ما وقالوا : " أرَدْتَ أنْ تُذيمَهُ فمَدَهْتَهُ " أي : " تُعيبُه فَمَدحْتَهُ " فأبدل الحاء هاء : وقيل : الذَّامُ : الاحتقارُ ، ذأَمْتُ الرجل : أي : احْتَقَرْتُهُ ، قاله الليثُ .

وقيل : الذَّامُ الذَّمُّ ، قاله ابن قيتبة وابن الأَنْبَاريِّ ؛ قال أُمَيَّةُ : [المتقارب]

2426 - وَقَالَ لإبْلِيسَ رَبُّ العِبَادِ . . .

[أن] اخْرُجْ لَعِيناً دَحِيراً مَذُومَا

والجمهور على " مَذْءُوماً " بالهمز .

وقرأ أبُوا جَعْفَرٍ والأعمشُ والزُّهْرِيُّ " مَذُوْماً " بواوٍ واحدةٍ من دون همز وهي تَحْتَمِلُ وجهين :

(176/265)

أحدهما - ولا ينبغي أن يُعْدَلَ عنه - أنَّهُ تَخْفِيف " مذؤوماً " في القراءةِ الشَّهيرةِ بأن أُلْقِيَتْ حَرَكَةُ الهَمْزَةِ على الذَّالِ السَّاكنة ، وحُذِفَت الهَمْزَةُ على القاعدةِ المُشْتَهِرَةِ في تَخْفيفٍ مثله

، فوزن الكلمة آل إلى " مَفُول " لحَذْفِ العَيْنِ .

والثاني : انَّ هذه القراءة مَأخُوذةٌ من لغة مَنْ يَقُولُ : ذِمْتُه أذِيمُه كبِعْتُهُ أبِيعُهُ ، وكان من حقِّ اسم المَفْعُولِ في هذه اللُّغَةِ مَذِيمٌ كمبيع قالوا : إلا أنَّهُ أبْدِلَتِ الواوُ من اليَاءِ على حدِّ قولهم " مَكْثُولٌ " في " مَكِيلٍ " مع أنَّهُ من الكيل ومثلُ هذه القراءةِ في احْتِمالِ الوجهين قول أمَيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ في البيت المُتقدِّمِ أنشده الواحِديُّ على لغةِ " ذَامَهُ " بالألف "يَذِيمُهُ " بالياء ، ولَيْتَهُ جعله محتملاً للتَّخْفِيفِ من لُغَةِ الهَمْزِ .

والدَّحْرُ : الطَّرْدُ والإبْعَادُ يقال : دَحَرَهُ ، يَدْحَرُهُ دَحْراً ، ودُحوراً ؛ ومنه : ﴿ ويُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً ﴾ [الصافات : 8 ، 9] ؛ وقول أميَّةَ في البيت المتقدم " لَعِيناً دَحِيراً " .

وقوله أيضاً : [الكامل]

2427 - وبإذْنِهِ سَجَدُوا لآدَمَ كُلُّهُمْ . . .

إلاَّ لَعِيناً خَاطِئاً مَدْحُوراً

وقال الآخرُ : [الوافر]

2428 - دَحَرْتُ بَنِي الحَصِيبِ إلى قَدِيدٍ . . .

وقَدْ كَانُوا ذَوِي أشَرٍ وفَخْرٍ

[قال ابن عباس : " مذءُوماً أي : ممقوتاً " .

وقال قتادةُ : " مَذْءُوماً مدحوراً أي : ليعناً شقيّاً " .

وقال الكَلْبِيُّ : " مَذموماً ملوماً مدحوراً مقصيّاً من الجنَّةِ ومن كُلِّ خَيْر "] .

قوله : " لَمْن تبعكَ " في هذه " اللاَّم " وفي " من " وجهان :

(177/265)

أظهرهما : أنَّ اللاَّمَ هي المُوطِّئَةُ لقسم مَحْذُوفٍ ، و " مَنْ " شَرْطِيَّةٌ في محلِّ رفع بالابتداء ، و " لأملأنَّ " جواب القسم المَدْلُول عليه بلام التَوْطِئَة ، وجوابُ الشَّرْطِ محذوفٌ لِسَدِّ جواب القَسَم مَسَدَّه .

وقد تقدَّم إيضاحُ ذلك مراراً .

والثاني : أنَّ اللاَّم لامُ الابتداء ، و " مَنْ " مَوْصُولَةٌ و " تَبِعَكَ " صلتها ، وهي في محلِّ رفع بالابتداء أيضاً ، و " لأَمْلأنَّ " جوابُ قسمٍ محذوفٍ ، وذلك القَسَمُ المَحْذُوفُ ، وجوابُه في محلِّ رفع خبرٍ لهذا المُبْتَدَأ ، والتَّقْديرُ ، للّذي تبعك منهم ، واللَّهِ لأَمْلأنَّ جَهَنَّم منكم .

فإن قُلْتَ : أَيْنَ العِائِدُ من الجملة القسمِيَّةِ الواقِعَةِ خبراً عن المبتدأ ؟

قلتُ : هو مُتَضَمَّنٌ في قوله " مِنْكُمْ " ؛ لأَنَّهُ لَمَّا اجتمع ضَمِيراً غَيْبَةٍ وخطابٍ غلب الخطابُ على ما عُرِفَ .

وفَتْحُ اللاَّم هو قراءةُ العامَّة .

وقرأ عَاصِمٌ في رواية أبي بكر من بعض طرقه والجَحْدَرِيُّ : "لِمَنْ" بكسرها ، وخُرِّجَتْ على ثلاثةِ أوْجُهٍ :

أحدها – وبه قال ابنُ عطيَّة – أنَّها تتعلَّقُ بقوله "لأَمْلأنَّ" فإنَّهُ قال : ﴿ لأجْلِ مَنْ تَبِعَكَ مِنْهُم لأَمْلأنَّ ﴾ ، وظاهرُ هذا أنَّهَا متعلِّقةٌ بالفعل بعد لام القسم .

وقاب أبو حيَّان : " ويمتنعُ ذلك على قَوْلِ الجُمْهُورِ تقديرها ؛ لأنَّ ما بعد لام القسم لا يعملُ فيما قبلها " .

والثاني : أنَّ اللاَّمَ متعلِّقَةٌ بالذَّأم والدَّخرِ ، والمعنى : أخْرُجْ بها تين [الصِّفتين] لأجل اتِّباعِكَ .

ذكره أبو الفَضْلِ الرَّازِيُّ في كتاب " اللَّوَامِح " على شَاذِّ القراءة .

قال شهابُ الدِّين : ويمكن أن تَجِيءَ المسْألةُ من باب الإعمال ، لأن كلاًّ من " مذءوماً " و" مدحوراً " يطلبُ هذا الجارَّ عند هذا القَائِلِ من حيثُ المعنى ، ويكون الإعمال للثَّانِي كما هو مختار البصريِّين للحذف من الأوَّلِ .

(178/265)

والثالث : أن يكون هذا الجَارُّ خبراً مُقَدَّماً ، والمُبْتَدَأ محذوف تَقْدِيرُهُ : لَمَنْ تَبِعَكَ منهم هذا الوعيدُ ، ودَلَّ على قوله هذا الوعيد قوله : " لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ " ؛ لأن هذا القسم وجوابه وعيدٌ ، وهذا الذي أراد الزَّمخشريُّ بقوله : يَعْنِي لمن تبعك منهم الوعيد وهو قوله : " لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ " على أنَّ " لأَمْلأَنَّ " في محلِّ الابتداء و " لَمَنْ تَبِعَكَ " خبره .

قال أبو حيَّان : " فإن أراد ظاهر كلامه فهو خطأٌ على مذهب البصريين ؛ لأنَّ قوله : " لأَمْلأَنَّ " جملةٌ هي : جوابُ قسم محذوف ، من حَيْثُ كونها جُمْلَةً فقط ، لا يجوز أن تكون مبتدأة ، ومن حيث كونها جواباً للقسم المحذوف يمتنع أيضاً ؛ لأنها إذْ ذاك من هذه الحَيْثِيَّة لا موضع لها من الإعراب ، ومن حيث كونها مبتدأ لها موضع من الإعراب ولا يجُوزُ أن تكون الجُمْلَةُ لها مَوضعٌ من الإعراب لا موضع لها من الإعراب وهو محال ؛ لأَنَّهُ يلزم أن تكون في موضع رفع ، لا في موضع رَفْعٍ ، داخل عليها عاملٌ غَيْرُ داخلٍ عليها عامل ، وذلك لا يُتَصَوَّرُ " .

قال شهابُ الدِّينِ بعد أنْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : " بمعنى لمن تبعك الوعيد وهو لأملأنَّ " : كيف يحسن أنْ يتردد بعد ذلك فيقال : إنْ أرَادَ ظاهِرَ كلامه ، كيف يريدُهُ مع التَّصْرِيح بتأويله هو بنفسه ؟ وأمَّا قَوْلُهُ على أنَّ " لأَمْلأَنَّ " في محلِّ الابتداء ، فإنَّمَا قاله ؛ لأَنَّهُ دَالٌّ على الوعيدِ الذي هو في محل الابتداء ، فنسب إلى الدَّالِّ ما يُنْسَبُ إلى المدْلُولِ من جِهَةِ المَعْنَى .

وقول الشَّيْخ أيضاً " ومِنْ حَيْثُ كَوْنهَا جواباً للقسم المحذوف يمتنع أيضاً إلى آخره " كلام متحمّل عليه ؛ لأَنَّهُ لا يريد جملة الجواب فقط أَلْبَتَّةَ ، إنَّمَا يريدُ الجملة القَسَمِيَّةَ برُمتِهَا ، وأَنَّما استغنى بِذِكْرِهَا عن ذكر قسيمها ؛ لأَنَّها مَلْفُوظٌ بها ، وقد تقدَّم ما يُشْبِهُ هذا الاعتراض الأخير عليه ، وجوابُهُ .

وأمَّا قَوْلُ الشَّيْخ : " ولا يَجُوزُ أن تكُونَ الجملة لها مَوْضعٌ من الإعراب لا موضع لها من الإعراب " إلى آخر كلامِهِ كُلِّهِ شيء واحد ليس فيه مَعْنىً زَائدٌ .

قوله : " أجْمَعِيْنَ " تَأكيدٌ .

واعْلَمْ أنَّ الأَكْثَرَ في أجمع وأخواته المستعملة في التَّأكيد إنَّمَا يُؤتَى بها بَعْدَ " كُلٍّ " نحو : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : 30] وفي غير الأكثر قَدْ تَجِيءُ بدون " كل " كهذه الآية الكريمةِ ، فإنَّ " أجْمَعينَ " تأكيد لـ " مِنْكُمْ " ، ونظيرُهَا فيما ذكر ما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 43] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 48 . 51 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

﴿

أخرجه من درجته ، ومن حالته ورتبته ، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته ، ثم تخليده أبداً في عقوبته ، ولا يذيقه ذرةً من يَرْدِ رحمته ، فأصبح وهو مقدَّمٌ على الجملة ، وأمسى وهو أبعد الزُّمرة ، وهذه آثار قهر العِزَّة . فأيُّ كَبِدٍ يسمع هذه القصة ثم لا يتفتت ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 523 ﴾

(180/265)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

قوله : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبيده .

والمعنى : خلقناكم نطفاً ثم صوّرناكم بعد ذلك ، وقيل المعنى : خلقنا آدم من تراب ، ثم صورناكم في ظهره .

وقيل : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ﴾ يعني : آدم ذكر بلفظ الجمع ؛ لأنه أبو البشر ، ﴿ ثُمَّ صورناكم ﴾ راجع إليه ، ويدلّ عليه : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم عليه السلام .

وقال الأخفش : إن " ثم " في ﴿ ثُمَّ صورناكم ﴾ بمعنى الواو .

وقيل المعنى : خلقناكم من ظهر آدم ، ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق .

قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال وقيل المعنى : ولقد خلقنا الأرواح أوّلاً ، ثم صوّرنا الأشباح ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، أي أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ قيل : الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس ؛ لأنه كان منفرداً بينهم ، أو كما قيل : لأن من الملائكة جنساً يقال لهم الجنّ .

وقيل : غير ذلك .

وقد تقدّم تحقيقه في البقرة .

قوله : ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ الساجدين ﴾ .

جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ، ومن جعل الاستثناء منقطعاً قال معناه : لكن إبليس لم يكن من الساجدين ، وجملة : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال له الله ؟ و"لا" في ﴿ أَلَا تَسْجُدَ ﴾ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى في سورة ص : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] ؛ وقيل إن "منع" بمعنى قال ، والتقدير : من قال لك أن لا تسجد ؛ وقيل "منع" بمعنى دعا ، أي ما دعاك إلى أن لا تسجد .

وقيل : في الكلام حذف ، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أي وقت أمرتك ، وقد استدل به على أن الأمر للفور ، والبحث مقرر في علم الأصول ، والاستفهام في ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك ، وجملة : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فما قال إبليس ؟ وإنما قال في الجواب ﴿ أنا خير منه ﴾ ، ولم يقل : منعني كذا ، لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منه .

والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله .

ثم علل ما ادّعاه من الخيرية بقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ اعتقاداً منه أن

عنصر النار أفضل من عنصر الطين .

وقد أخطأ عدوّ الله ، فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه ، وطول بقائه ، وهي حقيقة مضطربة سريعة النفاد ، ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها ، وهي عذاب دونه ، وهي محتاجة إليه لتتحيز فيه ، وهو مسجد وطهور ، ولولا سبق شقاوته ، وصدق كلمة الله عليه ، لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة ، فعنصرهم النوري أشرف من عنصره الناري .

(182/265)

وجملة ﴿ قَالَ فاهبط ﴾ استئنافية كالتي قبلها ، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر ، أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم ، إلى الأرض التي هي مقرّ من يعصي ويطيع ، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ، ويعصى أمر ربه مثلك ، ولهذا قال ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ .

ومن التفاسير الباطلة ما قيل إن معنى ﴿ اهبط مِنْهَا ﴾ أي أخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها صورة مشوّهة مظلمة ؛ وقيل المراد هبوطه من الجنة .

وقيل من زمرة الملائكة ، وجملة ﴿ فاخرج ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط ، وجملة ﴿ إنك من

الصاغرين ﴾ تعليل للأمر ، أي إنك من أهل الصغار ، والهوان على الله ، وعلى صالحي عباده ، وهكذا كل من تردّى برداء الاستكبار ، عوقب بلبس رداء الهوان والصغار .

ومن ليس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع .

وجملة : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ استئنافية كما تقدّم في الجمل السابقة ، أي أمهلني إلى يوم البعث ، وكأنه طلب أن لا يموت ، لأن يوم البعث لا موت بعده ، والضمير في ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ لآدم وذريته ، فأجابه الله بقوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ أي الممهلين إلى ذلك اليوم ، ثم تعاقب بما قضاه الله لك ، وأنزله بك في دركات النار .

قيل : الحكمة في إنظاره ابتلاء العباد ، ليعرف من يطيعه ممن يعصيه .

وجملة : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة ، واردة جواباً لسؤال مقدّر ، والباء في ﴿ فَبِمَا ﴾ للسببية ، والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها .

وقيل : الباء للقسم كقوله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] أي فبإغوائك إياي ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، والإغواء : الإيقاع في الغيّ .

وقيل : الباء بمعنى اللام ، وقيل : بمعنى مع .

والمعنى : فمع إغوائك إياي .

وقيل : " مَا " في ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ للاستفهام .

والمعنى : فبأي شيء أغويتني ؟ والأوّل : أولى .

ومراده بهذا الإغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه ، وأن ذلك كان بإغواء الله له ، حتى اختار الضلالة على الهدى .

وقيل : أراد به اللعنة التي لعنه الله ، أي فبما لعنتني فأهلكتني ، لأقعدنّ لهم ومنه : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] أي هلاكاً .

وقال ابن الأعرابي : يقال : غوى الرجل يغوي غياً ، إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه ، ومنه : ﴿ وعصى ءادَمَ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] أي فسد عيشه في الجنة ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لأجهدنّ في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسبب تركي السجود لأبيهم .

والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة .

وانتصابه على الظرفية ، أي في صراطك المستقيم كما حكى سيبويه ضرب زيد الظهر والبطن ، واللام في (لأقعدنّ) لام القسم ، والباء في ﴿ فبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ متعلقة بفعل القسم المحذوف ، أي فبما أغويتني أقسم لأقعدنّ .

قوله : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ ذكر الجهات الأربع ؛ لأنها هي التي يأتي منها العدو عدوّه ، ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت ،

وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين " بمن " ، وإلى الآخريين " بعن " ، لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجهاً إلى ما يأتيه بكلية بدنه ، والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفاً ، فناسب في الأوليين التعدية بحرف الابتداء ، وفي الأخريين التعدية بحرف المجاوزة ، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتي حقيقة .

وقيل المراد : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ من دنياهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من آخرتهم ﴿ وَعَنْ أيمانهم ﴾ من جهة حسناتهم ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ من جهة سيئاتهم ، واستحسنه النحاس .

(184/265)

قوله : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ أي وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين ، لتأثير وسوستي فيهم وإغوائي لهم ، وهذا قاله على الظنّ ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ [سبأ : 20] .

وقيل : إنه سمع ذلك من الملائكة فقاله ، وعبر بالشكر عن الطاعة أو هو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء .

وجملة ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا ﴾ استئناف ، كالجمل التي قبلها ، أي من السماء أو الجنة أو من

بين الملائكة كما تقدّم ﴿ مَذْءومًا ﴾ أي مذموماً من ذأمه إذا ذمّه ، يقال : ذأمته وذممته بمعنى .

وقرأ الأعمش "مذموماً" .

وقرأ الزهريّ "مذوماً" بغير همزة ؛ وقيل المذءوم : المنفي ، والمدحور : المطرود .

قوله : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم ، وجوابه : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقيل : اللام في ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ ﴾ للتوكيد ، وفي ﴿ لأَمْلاَنَّ ﴾ لام القسم .

والأوّل : أولى ، وجواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط ، لأن مَنْ شرطية ، وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره .

وقرأ عاصم في رواية عنه "لَّمَن تَبِعَكَ" بكسر اللام ، وأنكره بعض النحويين .

قال النحاس : وتقديره والله أعلم ، من أجل من اتبعك كما يقال : أكرمت فلاناً لك .

وقيل : هو علة لا خرج ، وضمير ﴿ مّنكُمْ ﴾ له ولمن اتبعه ، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ، والأصل منك ومنهم .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلَقَدْ

خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ قال : خلقوا في أصلاب الرجال ، وصوّروا في أرحام النساء .

وأخرج الفريابي عنه أنه قال : خلقوا في ظهر آدم ، ثم صوّروا في الأرحام .

(185/265)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه أيضاً قال : أما ﴿ خلقناكم ﴾ فآدم ، وأما ﴿ ثم صوّرناكم ﴾ فذريته .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عكرمة ، في الآية قال : خلق إبليس من نار العزة .

وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : أوّل من قاس إبليس في قوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ وإسناده صحيح إلى الحسن .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، والديلمي ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن جدّه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله له اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه ، قرنه الله يوم القيامة بإبليس ، لأنه اتبعه بالقياس ، وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث ،

فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوّة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ فبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ أضللتني .

وأخرج عبد بن حميد ، عنه ، في قوله : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ قال : طريق مكة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال : أشككهم في آخرتهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال : أرغبهم في دنياهم ﴿ وَعَنْ أيمانهم ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ قال : أسنّ لهم المعاصي وأحق عليهم الباطل ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ قال : موحدين .

(186/265)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ يقول : من حيث يبصرن ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من حيث لا يبصرون ﴿ وَعَنْ أيمانهم ﴾ من حيث يبصرون ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ من حيث لا يبصرون .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عنه ، أيضاً في الآية قال : لم يستطع أن يقول من فوقهم .

وفي لفظ علم أن الرحمة تنزل من فوقهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : ﴿ مَذْءومًا ﴾ قال : ملوماً ، مدحوراً : قال مقيتاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ مَذْءومًا ﴾ قال : منفياً ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ قال : مطروداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾ . باختصار يسير .

(187/265)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] الألف إشارة إلى الذات الأحدية واللام إلى الذات مع صفة العلم والميم إلى معنى محمد وهي حقيقته والصاد إلى صورته عليه الصلاة والسلام .

وقد يقال : الألف إشارة إلى التوحيد والميم إلى الملك واللام بينهما واسطة لتكون بينهما رابطة والصاد لكونه حرفاً كري الشكل قابلاً لجميع الأشكال كما قال الشيخ الأكبر قدس

سره : فيه إشارة إلى أن الأمر وإن ظهر بالأشكال المختلفة والصور المتعددة أوله وآخره سواء ، ولا يخفى لطف افتتاح هذه السورة بهذه الأحرف بناء على ما ذكره الشيخ قدس سره في "فتوحاته" من أن لكل منها ما عدا الألف الأعراف وأما الألف فقد ذكر نفعنا الله تعالى ببركات علومه أنه ليس من الحروف عند من شم رائحة من الحقائق لكن قد سمته العامة حرفاً فإذا قال المحقق ذلك فإنما هو على سبيل التجوز في العبادة والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي ضيق من حمله فلا تسعه لعظمه فتتلاشى بالفناء والوحدة والاستغراق في عين الجمع ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2] أي ليمكنك الإنذار والتذكير إذ بالاستغراق لا ترى إلا الحق فلا يتأتى منك ذلك ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ من قرى القلوب ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أفسدنا استعدادها ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا ﴾ أي بائتين على فراش الغفلة في ليل الشباب ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [الأعراف : 4] تحت ظلال الأمل في نهار المشيب ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ [الأعراف : 8] هو عند كثير من الصوفية اعتبار الأعمال .

(188/265)

وذكروا أن لسان ميزان الحق هو صفة العدل وإحدى كفتيه هو عالم الحس والكفة الأخرى هو عالم العقل فمن كانت مكاسبه من المعقولات الباقية والأخلاق الفاضلة والأعمال الخيرية المقرونة بالنية الصادقة ثقلت أي كانت ذا قدر وأفلح هو أي فاز بالنعيم الدائم ومن كانت مقتنياته من المحسوسات الفانية واللذات الزائلة والشهوات الفاسدة والأخلاق الرديئة خفت ولم يعتن بها وخسر هو نفسه لحرمانه النعيم هلاكه ﴿ وَلَقَدْ مكناكم فِي الأرض ﴾ إذ جعلناكم خلفاء فيها ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ متعددة دون غيركم فإن له معيشة واحدة ، وذلك لأن الإنسان فيه ملكية وحيوانية وشيطانية فمعيشة روحه معيشة الملك ومعيشة بدنه معيشة الحيوان ومعيشة نفسه الأمارة معيشة الشيطان .

وله معايش غير ذلك وهي معيشة القلب بالشهود ومعيشة السر بالكشوف ومعيشة سر السر بالوصال " قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ " [الأعراف : 10] ولو شكرتم ما رضيتم بالدون .

﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ أي ابتدأنا ذلك بخلق آدم عليه السلام وتصويره ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ ﴾ فإنه المظهر الأعظم ، وفي الخبر " خلق الله آدم على صورته " وفي رواية " على صورة الرحمن " ﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ وانقادوا للحق ﴿ إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مّنَ الساجدين ﴾ [الأعراف : 11] لنقصان بصيرته ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12] أراد اللعين أنه من الحضرة الروحانية وأن آدم عليه

السلام ليس كذلك ﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا ﴾ أي من تلك الحضرة ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن الكبر ينافيها ﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾

(189/265)

[الأعراف : 13] الأذلاء بالميل إلى مقتضيات النفس ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ قسم بما هو من صفات الأفعال ولم يكن محجوباً عنها بل كان محجوباً عن الذات الأحدية ﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] وهو طريق التوحيد ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أي لأجتهدن في إضلالهم ، وقد تقدم ما قاله بعض حكماء الإسلام في ذلك ، وفي "تأويلات النيسابوري" كلام كثير فيه وما قاله البعض أحسنه في هذا الباب ، وذكر بعضهم لعدم التعرض لجهتي الفوق والتحت وجها وهو أن الإتيان من الجهة الأولى غير ممكن له لأن الجهة العلوية هي التي تلي الروح ويرد منها الإلهامات الحقة والالقاءات الملكية ونحو ذلك ، والجهة السفلية يحصل منها الأحكام الحسية والتدابير الجزئية في باب المصالح الدنيوية وذلك غير موجب للضلالة بل قد ينتفع به في العلوم الطبيعية والرياضية وفيه نظر .

﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ [الأعراف : 17] مستعملين ما خلق لهم لما خلق له .

﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا ﴾ حقيراً ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ بالأنانية ورؤية غير الله تعالى وارتكاب المعاصي ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 18] فتبقون محبوسين في سجين الطبيعة معذبين بنار الحرمان عن المراد وهو أشد العذاب وكل شيء دون فراق المحبوب سهل وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(190/265)

(كلام في إبليس وعمله)

قال صاحب الميزان :

عاد موضوع إبليس موضوعا مبتذلا عندنا لا يعبأ به دون أن نذكره أحيانا ونلعنه أو نتعوذ بالله منه أو نقبح بعض أفكارنا بأنها من الأفكار الشيطانية ووساوسه ونزغاته دون أن نتدبر فنحصل ما يعطيه القرآن الكريم في حقيقة هذا الموجود العجيب

الغائب عن حواسنا ، وما له من عجيب التصرف والولاية في العالم الإنساني .

وكيف لا وهو يصاحب العالم الإنساني على سعة نطاقه العجيبة منذ ظهر في الوجود حتى ينقضي أجله وينقرض بانطواء بساط الدنيا ثم يلازمه بعد الممات ثم يكون قرينه حتى يورده

النار الخالدة ، وهو مع الواحد منا كما هو مع غيره هو معه في علانيته وسره يجاريه كلما جرى حتى في أخفى خيال يتخيله في زاوية من زوايا ذهنه أو فكرة يواريها في مطاوى سريرته لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يغفل عنه بشغل شاغل .

وأما الباحثون منا فقد أهملوا البحث عن ذلك وبنوا على ما بنى عليه باحثوا الصدر الأول سالكين ما خطوا لهم من طريق البحث ، وهي النظريات الساذجة التي تلوح للافهام العامية لاول مرة تلقوا الكلام الالهي ثم التخاصم في ما يهتدي إليه فهم كل طائفة خاصة ، والتحصن فيه ثم الدفاع عنه بأنواع الجدال ، والاشتغال بإحصاء إشكالات القصة وتقرير السؤال والجواب بالوجه بعد الوجه .

(191/265)

لم خلق الله إبليس وهو يعلم من هو ؟ لم أدخله في جمع الملائكة وليس منهم ؟ لم أمره بالسجدة وهو يعلم أنه لا يأتمر ؟ لم لم يوفقه للسجدة وأغواه ؟ لم لم يهلكه حين لم يسجد ؟ لم أنظره إلى يوم يبعثون أو إلى يوم الوقت المعلوم ؟ لم مكنه من بني آدم هذا التمكين العجيب الذي به يجري منهم مجرى الدم ؟ لم أيده بالجنود من خيل ورجل وسلطه على جميع ما للحياة الإنسانية به مساس ؟ لم لم يظهره على حواس الإنسان ليحترز مساسه ؟ لم لم يؤيد

الإنسان بمثل ما أيده به ؟ ولم لم يكتم أسرار خلقة آدم وبنيه من إبليس حتى لا يطمع في إغوائهم ؟ وكيف جازت المشافهة بينه وبين الله سبحانه وهو أبعد الخليقة منه وأبغضهم إليه ولم يكن بنبي ولا ملك ؟ فقيل بمعجزة وقيل : بإيجاد آثار تدل على المراد ولا دليل على شئ من ذلك .

ثم كيف دخل إبليس الجنة ؟ وكيف جاز وقوع الوسوسة والكذب والمعصية هناك وهي مكان الطهارة والقدس ؟ وكيف صدقه آدم وكان قوله مخالفا لخبر الله ؟ وكيف طمع في الملك والخلود وذلك يخالف اعتقاد المعاد ؟ وكيف جازت منه المعصية وهو نبي معصوم ؟ وكيف قبلت توبته ولم يرد إلى مقامه الأول والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؟ وكيف . . . ؟ وكيف . . . . ؟

وقد بلغ من إهمال الباحثين في البحث الحقيقي واسترسالهم في الجدال إشكالا وجوابا أن ذهب الذاهب منهم إلى أن المراد بآدم هذا آدم النوعي والقصة تخييلية محضة واختار آخرون أن إبليس الذي يخبر عنه القرآن الكريم هو القوة الداعية إلى الشر من الإنسان ! .

(192/265)

وذهب آخرون إلى جواز انتساب القبائح والشنائع إليه تعالى وأن جميع المعاصي من فعله ، وأنه يخلق الشر والقبيح فيفسد ما يصلحه ، وأن الحسن هو الذي أمر به والقبيح هو الذي نهى عنه ، وآخرون : إلى أن آدم لم يكن نبيا ، وآخرون : إلى أن الأنبياء غير معصومين مطلقا ، وآخرون إلى أنهم غير معصومين قبل البعثة وقصة الجنة قبل بعثة آدم ، وآخرون : إلى أن ذلك كله من الامتحان واختبار ولم يبينوا ما هو الملاك الحقيقي في هذا الامتحان الذي يضل به كثيرون ويهلك به الأكثرون ، ولولا وجود ملاك يحسم مادة الاشكال لعادت الاشكالات بأجمعهم .

والذي يمنع نجاح السعي في هذه الابحاث ويختل به نتائجها هو أنهم لم يفرقوا في هذه المباحث جهاتها الحقيقية من جهاتها الاعتبارية ، ولم يفصلوا التكوين عن التشريع فاختل بذلك نظام البحث ، وحكموا في ناحية التكوين غالبا الاصول الوضيعة الاعتبارية الحاكمة في التشريعيات والاجتماعيات .

والذي يجب تحريره وتنقيحه على الحر الباحث عن هذه الحقائق الدينية المرتبطة بجهات التكوين أن يحرر جهات : الأولى : أن وجود شئ من الأشياء التي يتعلق بها الخلق والايجاد في نفسه – أعني وجوده النفسي من غير إضافة – لا يكون إلا خيرا ولا يقع إلا حسنا ، فلو فرض محالا تعلق الخلقة بما فرض شرا في نفسه عاد أمرا موجودا له آثار وجودية يبتدئ من الله ويرتزق برزقه ثم ينتهي إليه فحاله حال سائر الخليقة ليس فيه أثر من الشر والقبح إلا أن

يرتبط وجوده بغيره فيفسد نظاما عادلا في الوجود أو يوجب حرمان جمع من الموجودات من خيرها وسعادتها ، وهذه هي الاضافة المذكورة .

ولذلك كان من الواجب في الحكمة الإلهية أن ينتفع من هذه الموجودات المضرة الوجود بما يربو على مضرتها وذلك قوله تعالى : " الذي أحسن كل شئ خلقه " السجدة

(193/265)

: 7 ، وقوله : " تبارك الله رب العالمين " الأعراف : 54 ، وقوله : " وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم " أسرى : 44 .

والثانية : أن عالم الصنع والايجاد على كثرة أجزائه وسعة عرضه مرتبط بعضه ببعض معطوف آخره إلى أوله فإيجاد بعضه إنما هو بإيجاد الجميع ، وإصلاح الجزء إنما هو بإصلاح الكل فالاختلاف الموجود بين أجزاء العالم في الوجود وهو الذي صير العالم عالما ثم ارتباطها يستلزم استلزاما ضروريا في الحكمة الإلهية نسبة بعضها إلى بعض بالتنافي والتضاد أو بالكمال والنقص والوجدان والفقدان والنيل والحرمان ، ولولا ذلك عاد جميع الأشياء إلى شئ واحد لا تميز فيه ولا اختلاف ويبطل بذلك الوجود قال تعالى : " وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر " القمر : 50 .

فلولا الشر والفساد والتعب والفقدان والنقص والضعف وأمثالها في هذا العالم لما كان للخير والصحة والراحة والوجدان والكمال والقوة مصداق ، ولا عقل منها معنى لانا إنما ناخذ المعاني من مصاديقها .

ولولا الشقاء لم تكن سعادة ، ولولا المعصية لم تتحقق طاعة ، ولولا القبح والذم لم توجد حسن ولا مدح ، ولولا العقاب لم يحصل ثواب ، ولولا الدنيا لم تتكون آخره .

فالطاعة مثلا امتثال الأمر المولوي فلو لم يمكن عدم الامتثال الذي هو المعصية لكان الفعل ضروريا لازما ، ومع لزوم الفعل لا معنى للامر المولوي لامتناع تحصيل الحاصل ومع عدم الأمر المولوي لا مصداق للطاعه ولا مفهوم لها كما عرفت .

ومع بطلان الطاعة والمعصية يبطل المدح والذم المتعلق بهما والثواب والعقاب والوعد والوعيد والإنذار والتبشير ثم الدين والشريعة والدعوة ثم النبوة والرسالة ثم الاجتماع والمدنية ثم الإنسانية ثم كل شئ ، وعلى هذا القياس جميع الأمور المتقابلة في النظام ، فافهم ذلك .

(194/265)

ومن هنا ينكشف لك أن وجود الشيطان الداعي إلى الشر والمعصية من أركان نظام العالم الإنساني الذي إنما يجرى على سنة الاختيار ويقصد سعادة النوع .

وهو كالحاشية المكتنفة بالصراط المستقيم الذي في طبع هذا النوع أن يسلكه كادحا إلى ربه ليلاقيه ، ومن المعلوم أن الصراط إنما يتعين بمتنه صراطا بالحاشية الخارجة عنه الحافة به فلولا الطرف لم يكن وسط فافهم ذلك وتذكر قوله تعالى : " قال فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم " الأعراف : 16 ، وقوله : " قال : هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين " الحجر : 42 .

إذا تأملت في هاتين الجهتين ثم تدبرت آيات قصة السجدة وجدتها صورة منبئة عن الروابط الواقعية التي بين النوع الإنساني والملائكة وإبليس عبر عنها بالأمر والامتثال والاستكبار والطرد والرجم والسؤال والجواب ، وأن جميع الاشكالات الموردة فيها ناشئة من التفريط في تدبر القصة حتى أن بعض من تنبه لوجه الصواب وأنها تشير إلى ما عليه طبائع الإنسان والملك والشيطان ذكر أن الأمر والنهي – يريد أمر إبليس بالسجدة ونهي آدم عن أكل الشجرة – تكوينيان فأفسد بذلك ما قد كان إصلحه ، وذهل عن أن الأمر والنهي التكوينيين لا يقبلان التخلف والمخالفة ، وقد خالف إبليس الأمر وخالف آدم النهي .

الثالثة : أن قصة الجنة مدلولها – على ما تقدم تفصيل القول فيها في سورة البقرة – ينبئ عن أن الله سبحانه خلق جنة برزخية سماوية ، وأدخل آدم فيها قبل أن يستقر عليه الحياة

الارضية ، ويغشاه التكليف المولوي ليختبي بذلك الطباع الإنساني فيظهر به أن الإنسان لا يسعه إلا أن يعيش على الأرض ، ويتربى في حجر الأمر والنهي فيستحق السعادة والجنة بالطاعة ، وأن كان دون ذلك فدون ذلك ، ولا يستطيع الإنسان أن يقف في موقف القرب وينزل في منزل السعادة إلا بقطع هذا الطريق .

(195/265)

وبذلك ينكشف أن لا شئ من الاشكالات التي أوردوها في قصة الجنة فلا الجنة كانت جنة الخلد التي لا يدخلها إلا ولي من أولياء الله تعالى دخولا لا خروج بعده إبدا ، ولا الدار كانت دارا دنيوية يعاش فيها عيشة دنيوية يديرها التشريع ويحكم فيها الأمر والنهي المولويان بل كانت دارا يظهر فيها حكم السجية الإنسانية لا سجية آدم عليه السلام بما هو شخص آدم إذ لم يؤمر بالسجدة له ولا أدخل الجنة إلا لأنه إنسان كما تقدم بيانه .

رجعنا إلى أول الكلام : لم يصف الله سبحانه من ذات هذا المخلوق الشرير الذي سماه إبليس إلا يسيرا وهو قوله تعالى : "كان من الجن ففسق عن أمر ربه" الكهف : 50 ، وما حكاه عنه في كلامه : " خلقتني من نار " فبين أن بدء خلقته كان من نار من سنخ الجن وإما ما الذي آل إليه أمره فلم يذكره صريحا كما أنه لم يذكر تفصيل خلقته كما فصل القول في خلقة

الإنسان .

نعم هناك آيات واصفة لصنعه وعمله يمكن أن يستفاد منها ما ينفع في هذا الباب قال تعالى حكايه عنه : " لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين " الأعراف : 17 .

فأخبر أنه يتصرف فيهم من جهة العواطف النفسانية من خوف ورجاء وأمنية وأمل وشهوة وغضب ثم في أفكارهم وإرادتهم المنبعثة منها .

(196/265)

كما يقارنه في المعنى قوله : " قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الأرض " الحجر : 39 ، أي لازينن لهم الأمور الباطلة الرديئة الشوهاء بزخارف وزينات مهيأة من تعلق العواطف الداعية نحو اتباعها ولاغوينهم بذلك كالزنا مثلا يتصوره الإنسان وتزينه في نظره الشهوة ويضعف بقوتها ما يخطر بباله من المحذور في اقترافه فيصدق به فيقترفه ، ونظير ذلك قوله : " يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا " النساء : 120 ، وقوله : " فزين لهم الشيطان أعمالهم " النحل : 63 .

كل ذلك – كما ترى – يدل على أن ميدان عمله هو الإدراك الإنساني ووسيلة عمله

العواطف والاحساسات الداخلة فهو الذي يلقي هذه الاوهام الكاذبة والافكار الباطلة في النفس الإنسانية كما يدل عليه قوله : " الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس " الناس : 5 .

لكن الإنسان مع ذلك لا يشك في أن هذه الافكار والاوهام المسماة وساوس شيطانية أفكار لنفسه يوجدها هو في نفسه من غير أن يشعر بأحد سواه يلقيها إليه أو يتسبب إلى ذلك بشئ كما في سائر أفكاره وآرائه التي لا تتعلق بعمل وغيره كقولنا :

الواحد نصف الاثنين والأربعة زوج وأمثال ذلك .

(197/265)

فالانسان هو الذي يوجد هذه الافكار والاوهام في نفسه كما أن الشيطان هو الذي يلقيها إليه ويخطرها بباله من غير تزاحم ، ولو كان تسببه فيها نظير التسببات الدائرة فيما بيننا لمن ألقى إلينا خبرا أو حكما أو ما يشبه ذلك لكان إلقاؤه إلينا لا يجامع استقلالنا في التفكير ، ولا تنفت نسبة الفعل الاختياري إلينا لكون العلم والترجيح والإرادة له لا لنا ، ولم يترتب على الفعل لوم ولا ذم ولا غيره ، وقد نسبه الشيطان نفسه إلى الإنسان فيما حكاه الله من قوله يوم القيامة : " وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم

فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم " إبراهيم : 22 ، فنسب الفعل والظلم واللوم إليهم وسلبها عن نفسه ، ونفى عن نفسه كل سلطان إلا السلطان على الدعوة والوعد الكاذب كما قال تعالى : " إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين " الحجر : 42 فنفى سبحانه سلطانه إلا في ظرف الاتباع ونظيره قوله تعالى : " قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد " ق : 27 .

وبالجملة فإن تصرفه في إدراك الإنسان تصرف طولي لا ينافي قيامه بالانسان وانتسابه إليه انتساب الفعل إلى فاعله لا عرضي ينافي ذلك .

(198/265)

فله أن يتصرف في الادراك الإنساني بما يتعلق بالحياة الدنيا في جميع جهاتها بالغرور والتزيين فيضع الباطل مكان الحق ويظهره في صورته فلا يرتبط الإنسان بشئ إلا من وجهه الباطل الذي يغره ويصرفه عن الحق ، وهذا هو الاستقلال الذي يراه الإنسان لنفسه أولا ثم لسائر الأسباب التي يرتبط بها في حياته فيحجبه ذلك عن الحق ويلهوه عن الحياة الحقيقية كما

تقدم استفاده ذلك من قوله المحكي : " فبما أغويتني لاقعدن لهم " الأعراف : 16 ، وقوله : " رب بما أغويتني لازينن لهم في الأرض " الحجر : 39 .

ويؤدي ذلك إلى الغفلة عن مقام الحق وهو الأصل الذي ينتهي ويحلل إليه كل ذنب قال تعالى : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الانس والجن لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " الأعراف : 179 .

فاستقلال الإنسان بنفسه وغفلته عن ربه وجميع ما يتفرع عليه من سيئ الاعتقاد وردئ الاوهام والافكار التي يرتضع عنها كل شرك وظلم إنما هي من تصرف الشيطان في عين إن الإنسان يخيل إليه أنه هو الموجد لها القائم بها لما يراه من استقلال نفسه فقد صبغ نفسه صبغة لا يأتيه اعتقاد ولا عمل إلا صبغه بها .

وهذا هو دخوله تحت ولاية الشيطان وتدبيره وتصرفه من غير أن يتنبه لشئ أو يشعر بشئ وراء نفسه قال تعالى : " إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون " الأعراف : 27 .

(199/265)

وولاية الشيطان على الإنسان في المعاصي والمظالم على هذا النمط نظير ولاية الملائكة عليه في الطاعات والقربات ، قال تعالى : " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياءكم في الحياة الدنيا " حم السجدة : 31 ، والله من ورائهم محيط وهو الولي لا ولي سواه قال تعالى : " ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع " السجدة : 4 .

وهذا هو الاحتناك أي الالجام الذي ذكره فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله : " قال أ رأيتك هذا الذي كرمت علي .

.

.

لاحتنكن ذريته إلا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا " أسرى : 64 ، أي لالجمنهم فأتسلط عليهم تسلط راكب الدابة الملجم لها عليها يطيعونني فيما آمرهم ويتوجهون إلى حيث أشير لهم إليه من غير أي عصيان وجماح .

ويظهر من الآيات أن له جندا يعينونه فيما يأمر به ويساعدونه على ما يريد وهو القبيل الذي ذكر في الآية السابقة : " إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم " وهؤلاء وإن بلغوا من كثرة

العدد وتفنن العمل ما بلغوا فإنما صنعهم صنع نفس إبليس ووسوستهم نفس وسوسته كما يدل عليه قوله : " لاغوينهم أجمعين " الحجر : 39 ،

وغيره مما حكته الآيات نظير ما يأتي به أعوان الملائكة العظام من الأعمال فتنسب إلى رئيسهم المستعمل لهم في ما يريده ، قال تعالى في ملك الموت : " قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم " السجدة : 11 ، ثم قال : " حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون " الأنعام : 61 إلى غير ذلك .

(200/265)

وتدل الآية : " الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس " الناس : 6 على أن في جنده اختلافا من حيث كون بعضهم من الجنة وبعضهم من الانس ويدل قوله : " أ فتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو " الكهف : 50 ، أن له ذريه هم من أعوانه وجنوده لكن لم يفصل كيفية إنتشاء ذريته منه .

كما أن هناك نوعا آخر من الاختلاف يدل عليه قوله : " وأجلب عليهم بخيلك ورجلك " في الآية المتقدمة ، وهو الاختلاف من جهة الشدة والضعف وسرعة العمل وبطؤه فإن الفارق بين الخيل والرجل هو السرعة في اللحوق والادراك وعدمها .

وهناك نوع آخر من الاختلاف في العمل ، وهو الاجتماع عليه والانفراد كما يدل عليه أيضا قوله تعالى : " وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون " المؤمنون : 98 ولعل قوله تعالى : " هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ " الشعراء : 223 من هذا الباب .

فملخص البحث : أن إبليس لعنه الله موجود مخلوق ذو شعور وإرادة يدعو إلى الشر ويسوق إلى المعصية كان في مرتبة مشتركة مع الملائكة غير متميز منهم إلا بعد خلق الإنسان وحينئذ تميز منهم ووقع في جانب الشر والفساد ، وإليه يستند نوعا من الاستناد انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم وميله إلى جانب الشقاء والضلال ، ووقوعه في المعصية والباطل كما أن الملك موجود مخلوق ذو إدراك وإرادة إليه يستند نوعا من الاستناد اهتداء الإنسان إلى غاية السعادة ومنزل الكمال والقرب ، وإن لابليس أعوانا من الجن والانس وذرية مختلفي الأنواع يجرون بأمره إياهم أن يتصرفوا في جميع ما يرتبط به الإنسان من الدنيا وما فيها بإظهار الباطل في صورة الحق ، وتزيين القبيح في صورة الحسن الجميل .

(201/265)

وهم يتصرفون في قلب الإنسان وفي بدنه وفي سائر شؤون الحياة الدنيا من أموال وبنين وغير ذلك بتصرفات مختلفة اجتماعا وانفرادا ، وسرعة وبطؤا ، وبلا واسطة ومع الواسطة والواسطه ربما كانت خيرا أو شرا وطاعة أو معصية .

ولا يشعر الإنسان في شئ من ذلك بهم ولا أعمالهم بل لا يشعر إلا بنفسه ولا يقع بصره إلا بعمله فلا أفعالهم مزاحمة لاعمال الإنسان ولا ذواتهم وأعيانهم في عرض وجود الإنسان غير أن الله سبحانه أخبرنا أن إبليس من الجن وأنهم مخلوقون من النار ، وكان أول وجوده وآخره مختلفان .

(بحث عقلي وقرآني مختلط)

قال في روح المعاني : وقد ذكر الشهرستاني عن شارح الأناجيل الاربعة صورة مناظرة جرت بين الملائكة وبين إبليس بعد هذه الحادثة ، وقد ذكرت في التوراة ، وهي أن اللعين قال للملائكة : إني أسلم أن لي إلها هو خالقي وموجدي لكن لي على حكمه أسئلة : الأول : ما الحكمة في الخلق لا سيما وقد كان عالما أن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا النار ؟ .

الثاني : ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود إليه منه نفع ولا ضرر ، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف ؟ .

الثالث : هب أنه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني بالسجود لآدم ؟ .

الرابع : لما عصيته في ترك السجود فلم لعنني وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه

ولي فيه أعظم الضرر ؟ .

الخامس : أنه لما فعل ذلك لم سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم ؟ .

السادس : لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني ومعلوم أنه لو كان العالم خاليا من الشر لكان ذلك خيرا ؟ .

[45]

قال شارح الأناجيل : فأوحى الله تعالى إليه من سرادق العظمة والكبرياء : يا إبليس أنت ما عرفتني ، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض علي في شئ من أفعالي فإني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسال عما أفعل ، (انتهى) .

(202/265)

ثم قال الآلوسي : قال الإمام – الرازي – إنه لو اجتمع الاولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصا ، وكان الكل لازما .

ثم قال الآلوسي : ويعجبني ما يحكى أن سيف الدولة بن حمدان خرج يوما على جماعته فقال : قد عملت بيتا ما أحسب أن أحدا يعمل له ثانيا إلا أن كان أبا فراس وكان أبو فراس جالسا ، فقيل له : ما هو فقال : قولي : لك جسمي تعله * فدمي لن تطله فابتدر أبو فراس

قائلا : قال إن كنت مالكا * فلي الأمر كله .

انتهى أقول : ما مر من البيان في أول الكلام السابق يصلح لدفع هذه الشبهات الستة عن آخرها ويكفي مؤنتها من غير أن يحتاج إلى اجتماع الأولين والآخرين ثم لا ينفعهم اجتماعهم على ما ادعاه الإمام فليست بذاك الذي يحسب ، ولتوضيح الأمر نقول : أما الشبهة الأولى : فالمراد بالحكمة – وهي جهة الخير والصلاح الذي يدعو الفاعل إلى الفعل في الخلق إما الحكمة في مطلق الخلق وهو ما سوى الله سبحانه من العالم ، وإما الحكمة في خلق الإنسان خاصة .

فإن كان سؤالا عن الحكمة في مطلق الخلق والايجاد فمن المبرهن عليه أنه فاعل تام لمجموع ما سواه غير مفتقر في ذلك إلى متمم يتمم فاعليته ويصلح له ألوهيته فهو مبدء لما سواه منبع لكل خير ورحمة بذاته ، واقتضاء المبدء لما هو مبدء له ضروري ، والسؤال عن الضروري لغو كما أن ملكة الجود تقتضي بذاتها أن ينتشر أثرها وتظهر بركاتها لا لاستدعاء أمر آخر وراء نفسها يوجب لها ظهور الاثر وإلا لم تكن ملكة ، فظهور أثرها ضروري لها وهو أن يتنعم بها كل مستحق على حسب استعداده واستحقاقه ، واختلاف المستحقين في النيل بحسب اختلاف استحقاقهم أمر عائد إليهم لا إلى الملكة التي هي مبدء الخير .

وأما حديث الحكمة في الخلق والايجاد بمعنى الغاية وجهة الخير المقصودة للفاعل في فعله فإنما يحكم العقل بوجوب الغاية الزائدة على الفاعل في الفاعل الناقص الذي يستكمل بفعله ويكتسب به تماما وكمالا ، وأما الفاعل الذي عنده كل خير وكمال فغايته نفس ذاته من غير حاجة إلى غاية زائدة كما عرفت في مثال ملكة الجود ، نعم يترتب على فعله فوائد ومنافع كثيرة لا تحصى ونعم إلهية لا تنقطع وهي غير مقصودة إلا ثانيا وبالعرض ، هذا في أصل الايجاد .

وإن كان السؤال عن الحكمة في خلق الإنسان كما يشعر به قوله بعد : لا سيما وقد كان عالما أن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا النار فالحكمه بمعنى غاية الفاعل والفائدة العائدة إليه غير موجودة لما عرفت أنه تعالى غني بذاته لا يفتقر إلى شئ مما سواه حتى يتم أو يكمل به ، وأما الحكمة بمعنى الغاية الكمالية التي ينتمي إليها الفعل وتحرز فائدته فهو أن يخلق من المادة الارضية الخسيسة تركيب خاص ينتهي بسلوكه في مسلك الكمال إلى جوهر علوي شريف كريم يفوق بكمال وجوده كل موجود سواه ، ويتقرب إلى ربه تقربا كماليا لا يناله شئ غيره فهذه غاية النوعية الإنسانية .

غير أن من المعلوم أن مركبا أرضيا مؤلفا من الاضداد واقعا في عالم التزاحم والتنافي محفوفا بعلل وأسباب موافقة ومخالفة لا ينجو منها بكله ، ولا يخلص من إفسادها بآثارها المنافية

جميع أفراده فلا محالة لا يفوز بالسعادة المطلوبة منه إلا بعض أفراده ، ولا ينجح في سلوكه نحو الكمال إلا شطر من مصاديقه لا جميعها .

وليست هذه الخصيصة أعني فوز البعض بالكمال والسعادة وحرمان البعض مما يختص به الإنسان بل جميع الأنواع المتعلقة الوجود بالمادة الموجودة في هذه النشأة كأنواع الحيوان والنبات وجميع التركيبات المعدنية وغيرها كذلك فشئ من هذه الأنواع الموجودة – وهي ألوف وألوف – لا يخلو عن غاية نوعية هي كمال وجوده ،

(204/265)

وهي مع ذلك لا تنال الكمال إلا بنوعيته ، وأما الافراد والاشخاص فكثير منها تبطل دون البلوغ إلى الكمال ، وتفسد في طريق الاستكمال بعمل العلل والأسباب المخالفة لانها محفوفة بها ولا بد لها من العمل فيها جريا على مقتضى عليتها وسببيتها .

ولو فرض شئ من هذه الأنواع غير متأثر من شئ من العوامل المخالفة كالنبات مثلا غير متأثر من حرارة وبرودة ونور وظلمة ورطوبة ويبوسة والسمومات والمواد الارضية المنافية لتركيبه كان في هذا الفرض إبطال تركيبه الخاص أولا ، وإبطال العلل والأسباب ثانيا ، وفيه إبطال نظام الكون فافهم ذلك .

ولا ضير في بطلان مساعي بعض الافراد أو التركيبات إذا أدى ذلك إلى فوز بعض آخر بالكمال والغاية الشريفة المقصودة التي هي كمال النوع وغايته فإن الخلقة المادية لا تسع أزيد من ذلك ، وصرف الكثير من المادة الخسيسة التي لا قيمة لها في تحصيل القليل من الجوهر الشريف العالي استرباح حقيقي بلا تبذير أو جزاف .

فالعلة الموجبة لوجود النوع الإنساني لا تريد بفعلها إلا الإنسان الكامل السائر إلى أوج السعادة في دنياه وآخرته إلا أن الإنسان لا يوجد إلا بتركيب مادي ، وهذا التركيب لا يوجد إلا إذا وقع تحت هذا النظام المادي المنبسط على هذه الاجزاء الموجودة في العالم المرتبطة بعضها ببعض المتفاعلة فيما بينها جميعا بتأثيراتها وتأثراتها المختلفة ، ولازم ذلك سقوط بعض أفراد الإنسان دون الوصول إلى كمال الإنسانية فعلة وجود الإنسان تريد السعادة الإنسانية أولا وبالذات ، وأما سقوط بعض الافراد فإنما هو مقصود ثانيا وبالعرض ليس بالقصد الاولي .

(205/265)

فخلقه تعالى الإنسان حكمته بلوغ الإنسان إلى غايته الكمالية ، وأما علمه بأن كثيرين من أفراده يكونون كفارا مصيرهم إلى النار لا يوجب أن يختل مراده من خلقه النوع الإنساني ،

ولا أنه يوجب أن يكون خلقه الإنسان الذي سيكون كافرا علة تامة لكفره أو لصيرورته إلى النار ، كيف ؟ وعلة كفره التامة بعد وجوده علل وعوامل خارجية كثيرة جدا ، وآخرها اختياره الذي لا يدع الفعل ينتسب إلا إليه فالعلة التي أوجدت وجوده لم توجد إلا جزء من أجزائه علة كفره ، وأما تعلق القضاء الإلهي بكفره فإنما تعلق به عن طريق الاختيار لا بأن يبطل اختياره وإرادته ويضطر إلى قبول الكفر كسقوط الحجر المرمي إلى فوق نحو الأرض بعامل الثقل اضطرارا .

وأما الشبهة الثانية فقوله : " ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود إليه منه نفع ولا ضرر ؟ " مغالطة من باب إسراء حكم الفاعل الناقص الفقير إلى الفاعل التام الغني في ذاته فحكم العقل بوجوب رجوع فائدة من الفعل إلى الفاعل إنما هو في الفاعل الناقص المستكمل بفعله المنتفع به دون الفاعل المفروض غنيا في ذاته .

فلا حكم من العقل أن كل فاعل حتى ما هو غني في ذاته لا جهة نقص فيه يجب أن يكون له في فعله فائدة عائدة إليه ، ولا أن الموجود الذي هو غني في ذاته لا جهة نقص فيه حتى يستكمل بشئ فهو يمتنع صدور فعل عنه .

والتكليف وإن كان في نفسه أمرا وضعيا اعتباريا لا يجري في متنه الأحكام الحقيقية إلا أنه في المكلفين واسطة ترتبط بها الكمالات اللاحقة الحقيقية بسابقتها فهي وصلة بين حقيقتين : توضيح ذلك ملخصا : أنا لسنا نشك عن المشاهدة المتكررة والبرهان أن ما بين أيدينا من الأنواع الموجودة التي نسميها بما فيها من النظام الجاري عالما ماديا واقعة تحت الحركة التي ترسم لكل منها بقاء بحسب حاله ، ووجودا ممتدا يبتدي من حالة النقص وينتهي إلى حالة الكمال ، وبين أجزاء هذا الامتداد الوجودي المسمى بالبقاء ارتباطا وجوديا حقيقيا يؤدي به كل سابق إلى لاحقه ، ويتوجه به النوع من منزل من هاتيك المنازل إلى ما يليه بل هو قصد من أول حين يشرع في الحركة آخر مرحلة من شأن حركته أن ينتهي إليه .

فالحبة من القمح من أول ما تنشق للنمو قاصدة نحو شجرة الحنطة الكاملة نشوء وعليها سنابلها ، والنطفة من الحيوان متوجهة إلى فرد كامل من نوعه واجد لجميع كمالاته النوعية وهكذا ، وليس النوع الإنساني بمستثنى من هذه الكلية البتة فهو أيضا من أول ما يأخذ فرد منه في التكون عازم نحو غايته متوجه إلى مرتبة انسان كامل واجد لحقيقة سعادته سواء بلغ في مسير حياته إلى ذلك المبلغ أم حالت دونه الموانع .

والإنسان لما اضطر بحسب سنخ وجوده إلى أن يعيش عيشة اجتماعية ، والعيشة الاجتماعية إنما تتحقق تحت قوانين وسنن جارية بين أفراد المجتمع وهي عقائد وأحكام وضعية اعتبارية – التكاليف الدينية أو غير الدينية – تتكون بالعمل بها في الإنسان عقائد

وأخلاق وملكات هي الملاك في سعادة الإنسان في دنياه وكذا في آخرته وهي لوازم الأعمال المسماة بالثواب والعقاب .

(207/265)

فالتكليف يستبطن سيرا تدريجيا للإنسان بحسب حالاته وملكاته النفسانية نحو كماله وسعادته يستكمل بطي هذا الطريق والعمل بما فيه طورا بعد طور حتى ينتهي إلى ما هو خير له وأبقى ، ويخيب مسعاه إن لم يعمل به كالفرد من سائر الأنواع الذي يسير نحو كماله فينتهي إليه أن ساعدته موافقة الأسباب ، ويفسد في مسيره نحو الكمال أن خذلته ومنعته .

فقول القائل " وما الفائدة في التكليف ؟ " كقوله ما الفائدة في تغذي النبات ؟ أو ما الفائدة في تناسل الحيوان من غير نفع عائد ؟ .

وأما قوله : " وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف " مغالطة أخرى لما عرفت أن التكليف في الإنسان أو أي موجود سواه يجري في حقه التكليف واقع في طريق السعادة متوسط بين كماله ونقصه في وجوده الذي إنما يتم ويكمل له بالتدريج ، فإن كان المراد بتحصيل ما يعود من التكليف إلى المكلفين من غير واسطة

التكليف تعيين طريق آخر لهم بدلا من طريق التكليف ووضع ذاك الطريق موضع هذا الطريق وحال الطرقين في طريقيتهما واحد عاد السؤال في الثاني كالاول : لم عين هذا الطريق وهو قادر على تحصيل ما يعود منه إليهم بغيره ؟ والجواب أن العلل والأسباب التي تجمعت على الإنسان مثلا على ما نجدها تقتضي أن يكون مستكملا بالعمل بتكاليف مصلحة لباطنه مطهرة لسره من طريق العادة .

وإن كان المراد بتحصيله من غير واسطة التكليف تحصيله لهم من غير واسطة أصلا وإفاضة جميع مراحل الكمال ومراتب السعادة لهم في أول وجودهم من غير تدريج بسلوك طريق فلازمه بطلان الحركات الوجودية وانتقاء المادة والقوة وجميع شؤون الامكان والموجود المخلوق الذي هذا شأنه مجرد في بدء وجوده تام كامل سعيد في أصل نشأته ، وليس هو الإنسان المخلوق من الأرض الناقص أولا المستكمل تدريجيا ففي الفرض خلف .

(208/265)

وأما الشبهة الثالثة فقوله " هب إنه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني بالسجود لآدم ؟ " فجوابه ظاهر فإن هذا التكليف يتم بالايتمار به صفة العبودية لله سبحانه ، ويظهر بالتمرد

عنه صفة الاستكبار ففيه على أي حال تكميل من الله واستكمال من إبليس إما في جانب السعادة وإما في جانب الشقاوة ، وقد اختار الثاني .

على أن تكليفه وتكليف الملائكة بالسجدة تعيينا للخط الذي خط لآدم فإن الصراط المستقيم الذي قدر لآدم وذريته أن يسلكوه لا يتم أمره إلا بمسدد معين يدعو الإنسان إلى هداه وهو الملائكة ، وعدو مضل يدعوه إلى الانحراف عنه والغواية فيه وهو إبليس وجنوده كما عرفت فيما تقدم من الكلام .

وأما الشبهة الرابعة : فقوله " لما ذا لعنني وأوجب عقابي بعد المعصية ولا فائدة له فيه ؟ الخ .

" جوابه أن اللعن والعقاب أعني ما يشتملان عليه من الحقيقة من لوازم الاستكبار على الله الذي هو الأصل المولد لكل معصية ، وليس الفعل الالهي مما يجر إليه نفعا أو فائدة حتى يمتنع فيما لا نفع فيه يعود إليه كما تقدمت الإشارة إليه .

وليس قوله هذا إلا كقول من يقول فيمن استقى سما وشربه فهلك به : لم لم يجعله الله شفاء وليس له في إماتته به نفع وله فيه أعظم الضرر ؟ هلا جعله رزقا طيبا للمسموم يرفع عطشه وينمو به بدنه ؟ فهذا كله من الجهل بمواقع العلل والأسباب التي أثبتها الله في عالم الصنع والايجاد فكل حادث من حوادث الكون يرتبط إلى علل وعوامل خاصة من غير تخلف واختلاف قانونا كليا .

فالمعصية إنما تستتبع العقاب على النفس المتقذرة بها إلا أن تتطهر بشفاعة أو توبة أو حسنة تستدعي المغفرة ، وإبطال العقاب من غير وجود شئ من أسبابه هدم لقانون العلية العام ، وفي انهدامه انهدام كل شئ .

(209/265)

وأما الشبهة الخامسة : أعني قوله " إنه لما فعل ذلك لم سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم ؟ " فقد ظهر جوابه مما تقدم فإن الهدى والحق العملي والطاعة وأمثالها إنما تتحقق مع تحقق الضلال والباطل والمعصية وأمثالها ، والدعوة إلى الحق إنما تتم إذا كان هناك دعوة إلى باطل ، والصراط المستقيم إنما يكون صراطا لو كان هناك سبل غير مستقيمة تسلك بسالكها إلى غاية غير غايته .

فمن الضروري أن يكون هناك داع إلى الباطل يهدي إلى عذاب السعير ما دامت النشأة الإنسانية قائمة على ساقها والإنسانية محفوظة ببقائها النوعي بتعاقب أفرادها فوجود إبليس من خدم النوع الإنساني ولم يمكنه الله منهم ولا سلطه عليهم إلا بمقدار الدعوة كما صرح (1) به القرآن الكريم وحكاه (2) عنه نفسه فيما يخاطب به الناس يوم القيامة .

وأما الشبهة السادسة : فإما قوله " لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني ؟ " فقد

ظهر جوابه مما تقدم آنفا .

وأما قوله : " ومعلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا " فقد عرفت أن معنى كون العالم خاليا من الشر مأمونا من الفساد كونه مجردا غير مادي ، ولا معنى محصل لعالم مادي يوجد فيه الفعل من غير قوة والخير من غير شر والنفع من غير ضر والثبات من غير تغير والطاعة من غير معصية والثواب من غير عقاب .

وأما ما ذكره من جوابه تعالى عن شبهات إبليس بقوله : " يا إبليس أنت ما عرفتني ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض علي في شئ من أفعالي فإني أنا الله الذي لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل " فجواب يوافق ما في التنزيل الكريم ، قال تعالى : " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " الأنبياء : 23 .

(210/265)

وظاهر المنقول من قوله تعالى أنه جواب إجمالي عن شبهاته لعنه الله لا جواب تفصيلي عن كل واحد واحد ، ومحصله : أن هذه الشبهات جميعا سؤال واعتراض عليه تعالى : ولا يتوجه إليه اعتراض لأنه الله لا إله إلا هو لا يسأل عما يفعل .

وظاهر قوله تعالى أن قوله " لا يسأل " متفرع على قوله : " فإني " الخ ، فمفاد الكلام أن الله

تعالى لما كان بإنيته الثابتة بذاته الغنية لذاته هو الإله المبدئ المعيد الذي يبتدئ منه كل شئ وينتهي إليه كل شئ فلا يتعلق في فعل يفعله بسبب فاعلي آخر دونه ، ولا يحكم عليه سبب غائي آخر يبعثه نحو الفعل بل هو الفاعل فوق كل فاعل ، والغاية وراء كل غاية فكل فاعل يفعل بقوة فيه وإن القوة لله جميعا ، وكل غاية إنما تقصد وتطلب لكمال ما فيه وخير ما عنده وبيده الخير كله .

ويتفرع عليه أنه تعالى لا يسأل في فعله عن السبب فإن سبب الفعل إما فاعل وإما غاية وهو فاعل كل فاعل وغاية كل غاية ، وأما غيره تعالى فلما كان ما عنده من قوة الفعل موهوبا له من عند الله ، وما يكتسبه من جهة الخير والمصلحة بإفاضة منه تعالى بتسبيب الأسباب وتنظيم العوامل والشرائط فإنه مسؤول عن فعله لم فعله ؟ وأكثر ما يسأل عنه إنما هو الغاية وجهة الخير والمصلحة ، وخاصة في الأفعال التي يجري فيه الحسن والقبح والمدح والذم من الأفعال الاجتماعية في ظرف الاجتماع فإنها المتكئة على مصالحه ، فهذا بيان تام يتوافق فيه البرهان والوحي .

(211/265)

وأما المتكلمون فإنهم بما لهم من الاختلاف العميق في مسألة : أن أفعال الله هل تعلل بالاغراض ؟ وما يرتبط بها من المسائل اختلفوا في تفسير أن الله لا يسأل عن فعله فالاشاعرة لتجويزهم الإرادة الجزافية واستناد الشرور والقبائح إليه تعالى ذكروا أن له أن يفعل ما يشاء من غير لزوم أن يشتمل فعله على غرض فتنطبق عليه مصلحة محسنة وليس للعقل أن يحكم عليه كما يحكم على غيره بوجوب اشتمال فعله على غرض وهو ترتب مصلحة محسنة على الفعل .

والمعتزلة يحيلون الفعل غير المشتمل على غرض وغاية لاستلزامه اللغو والجزاف المنفي عنه تعالى فيفسرون عدم كونه تعالى مسؤولا في فعله بأنه حكيم والحكيم هو الذي يعطي كل ذي حق حقه فلا يفعل قبيحا ولا لغوا ولا جزافا ، والذي يسأل عن فعله هو من يمكن في حقه إتيان القبيح واللغو والجزاف فهو تعالى غير مسؤول عما يفعل وهم يسألون .

والبحث طويل الذيل وقد تعارك فيه ألوف الباحثين من الطائفتين ومن وافقهم من غيرهم قرونا متمادية ، ولا يسعنا تفصيل القول فيه على ما بنا من ضيق المجال غير أنا نشير إلى حقيقة أخرى يسفر به الحجاب عن وجه الحق في المقام .

لا ريب أن لنا علوما وتصديقات نركن إليها ، ولا ريب أنها على قسمين : القسم الأول : العلوم والتصديقات التي لا مساس لها طبعا بأعمالنا وإنما هي علوم تصديقية تكشف عن الواقع وتطابق الخارج سواء كنا موجودين عاملين أعمالنا الحيوية الفردية أو الاجتماعية أم لا

كقولنا : الاربعة زوج ، والواحد نصف الاثنين ، والعالم موجود ، وإن هناك أرضا وشمسا وقمرا إلى غير ذلك ، وهي إما بديهية لا يدخلها شك ، وإما نظرية تنتهي إلى البديهيات وتتبين بها .

(212/265)

والقسم الثاني : العلوم العملية والتصديقات الوضعية الاعتبارية التي نضعها للعمل في ظرف حياتنا ، والاستناد إليها في مستوى الاجتماع الإنساني فنستند إليها في إرادتنا ونعلل بها أفعالنا الاختيارية ، وليست مما يطابق الخارج بالذات كالقسم الأول وإن كنا نوقعها على الخارج إيقاعا بحسب الوضع والاعتبار لكن ذلك إنما هو بحسب الوضع لا بحسب الحقيقة والواقعية كالاحكام الدائرة في مجتمعاتنا من القوانين والسنن والشؤون الاعتبارية كالولاية والرئاسة والسلطنة والملك وغيرها فإن الرئاسة التي نعتبرها لزيد مثلا في قولنا " زيد رئيس " وصف اعتباري ، وليس في الخارج بحذائه شئ غير زيد الإنسان وليس كوصف الطول أو السواد الذي نعتبرهما لزيد في قولنا " زيد طويل القامة ، أسود البشرة " وإنما اعتبرنا معنى الرئاسة حيث كونا مجتمعا من عدة أفراد لغرض من الاغراض الحيوية وسلمنا إدارة أمر هذا المجتمع إلى زيد ليضع كلا موضعه الذي يليق به ثم يستعمله فيما يريد فوجدنا نسبة زيد

إلى المجتمع نسبة الرأس إلى الجسد فوصفناه بأنه رأس لينحفظ بذلك المقام الذي نصبناه فيه وينتفع بآثاره وفوائده .

فالاعتقاد بأن زيدا رأس ورئيس إنما هو في الوهم لا يتعداه إلى الخارج غير أنا نعتبره معنى خارجيا لمصلحة الاجتماع ، وعلى هذا القياس كل معنى دائر في المجتمع الإنساني معتبر في الحياة البشرية متعلق بالاعمال الإنسانية فإنها جميعا مما وضعه الإنسان وقلبها في قالب الاعتبار مراعاة لمصلحة الحياة لا يتعدى وهمه .

(213/265)

فهذان قسمان من العلوم ، والفرق بين القسمين : أن القسم الأول مأخوذ من نفس الخارج يطابقه حقيقة ، وهو معنى كونه صدقا ويطابقه الخارج وهو معنى كونه حقا فالذي في الذهن هو بعينه الذي في الخارج وبالعكس : وأما القسم الثاني فإن موطنه هو الذهن من غير أن ينطبق على خارجه إلا أنا لمصلحة من المصالح الحيوية نعتبره ونتوهمه خارجيا منطبقا عليه دعوى وإن لم ينطبق حقيقة .

فكون زيد رئيسا لغرض الاجتماع ككونه أسدا التشبيه والاستعاره لغرض التخيل الشعري ، وتوصيفنا في مجتمعنا زيدا بأنه رأس في الخارج كتوصيف الشاعر زيدا بأنه أسد خارجي

، وعلى هذا القياس جميع المعاني الاعتباريه من تصور أو تصديق .

وهذه المعاني الاعتبارية وإن كانت من عمل الذهن من غير أن تكون مأخوذة من الخارج فتعتمد عليه بالانطباق إلا أنها معتمدة على الخارج من جهة أخرى وذلك أن نقص الإنسان مثلا وحاجته إلى كماله الوجودي ونيله غاية النوع الإنساني هو الذي اضطره إلى اعتباره هذه المعاني تصورا وتصديقا فإبقاء الوجود والمقاصد الحقيقية المادية أو الروحية التي يقصدها الإنسان ويبتغيها في حياته هي التي توجب له إن يعتبر هذه المعاني ثم يبني عليها أعماله فيحرز بها لنفسه ما يريده من السعادة .

ولذلك تختلف هذه الأحكام بحسب اختلاف المقاصد الاجتماعية فهناك أعمال وأمور كثيرة تستحسنها المجتمعات القطبية مثلا وهي بعينها مستقبحة في المجتمعات الاستوائية ، وكذلك الاختلافات الموجودة بين الشرقيين والغربيين وبين الحاضرين والبادين ، وربما يحسن عند العامة من أهل مجتمع واحد ما يقبح عند الخاصة ، وكذلك اختلاف النظر بين الغني والفقير ، وبين المولى والعبد ، وبين الرئيس والمرؤوس ، وبين الكبير والصغير ، وبين الرجل والمرأة .

نعم هناك أمور اعتبارية وأحكام وضعية لا تختلف فيها المجتمعات وهي المعاني التي تعتمد على مقاصد حقيقية عامة لا تختلف فيها المجتمعات كوجوب الاجتماع نفسه ، وحسن العدل ، وقبح الظلم ، فقد تحصل أن للقسم الثاني من علومنا أيضا اعتمادا على الخارج وإن كان غير منطبق عليه مستقيما انطباق القسم الأول .

إذا عرفت ذلك علمت أن علومنا وأحكامنا كائنة ما كانت معتمدة على فعله تعالى فإن الخارج الذي نماسه فننتزع ونأخذ منه أو نبني عليه علومنا هو عالم الصنع والايجاد وهو فعله ، وعلى هذا فيعود معنى قولنا مثلا : " الواحد نصف الاثنين بالضرورة " إلى أن الله سبحانه يفعل دائما الواحد والاثنين على هذه النسبة الضرورية ، وعلى هذا القياس ، ومعنى قولنا : " زيد رئيس يجب احترامه " إن الله سبحانه أوجد الإنسان إيجادا بعثه إلى هذه الدعوى والمزعمة ثم إلى العمل على طبقه ، وعلى هذا القياس كل ذلك على ما يليق بساحة قدسه عز شأنه .

وإذا علمت هذا دريت أن جميع ما بأيدينا من الأحكام العقلية سواء في ذلك العقل النظري الحاكم بالضرورة والامكان ، والعقل العملي الحاكم بالحسن والقبح المعتمد على المصالح والمفاسد مأخوذة من مقام فعله تعالى معتمدة عليه .

فمن عظيم الجرم أن نحكم العقل عليه تعالى فنقيد إطلاق ذاته غير المتناهية فنحده بأحكامه المأخوذة من مقام التحديد والتقييد ، أو أن نقنن له فنحكم عليه بوجوب فعل كذا

وحرمة فعل كذا وأنه يحسن منه كذا ويقبح منه كذا على ما يراه قوم فإن في تحكيم العقل النظري عليه تعالى حكما بمحدوديته والحد مساوق للمعلولية فإن الحد غير المحدود والشئ لا يحد نفسه بالضرورة ، وفي تحكيم العقل العملي عليه جعله ناقصا مستقبلا تحكم عليه القوانين والسنن الاعتبارية التي هي في الحقيقة دعاو وهمية كما عرفت في الإنسان فافهم ذلك .

(215/265)

ومن عظيم الجرم أيضا أن نعزل العقل عن تشخيص أفعاله تعالى في مرحلتي التكوين والتشريع أعني أحكام العقل النظرية والعملية .

أما في مرحلة النظر فكأن نستخرج القوانين الكلية النظرية من مشاهدة أفعاله ، ونسلك بها إلى ثبات وجوده حتى إذا فرغنا من ذلك رجعنا فأبطلنا أحكام العقل الضرورية معتلا بأن العقل أهون من أن يحيط بساحته أو ينال كنه ذاته ودرجات صفاته ، وأنه فاعل لا بذاته بل بإرادة فعلية ، والفعل والترك بالنسبة إليه على السوية وأنه لا غرض له في فعله ولا غاية ، وأن الخير والشر يستندان إليه جميعا ، ولو أبطلنا الأحكام العقلية في تشخيص خصوصيات أفعاله وسننه في خلقه فقد أبطلناها في الكشف عن أصل وجوده ، وأشكل من ذلك أنا

نفينا بذلك مطابقة هذه الأحكام والقوانين المأخوذة من الخارج للمأخوذ منه ، والمنتزعة للمنتزع منه وهو عين السفسطة التي فيها بطلان العلم والخروج عن الفطرة الإنسانية إذ لو خالف شيء من أفعاله تعالى أو نعوته هذه الأحكام العقلية كان في ذلك عدم انطباق الحكم العقلي على الخارج المنتزع عنه – وهو فعله – ولو جاز الشك في صحة شيء من هذه الأحكام التي نجدها ضرورية كان الجميع مما يجوز فيه ذلك فينتفي العلم ، وهو السفسطة .

(216/265)

وأما في مرحلة العمل فليتذكر أن هذه الأحكام العملية والامور الاعتبارية دعاو اعتقادية ومخترعات ذهنية وضعها الإنسان ليتوسل بها إلى مقاصده الكمالية وسعادة الحياة فما كان من الأعمال مطابقا لسعادة الحياة وصفها بالحسن ثم أمر بها وندب إليها ، وما كان منها على خلاف ذلك وصفها بالقبح والمساءة ثم نهى عنها وحذر منها – وحسن الفعل وقبحه موافقة لغرض الحياة وعدمها – والغايات التي تضطر الإنسان إلى جعل هذه الاوامر والنواهي وتقنين هذه الأحكام واعتبار الحسن والقبح في الأفعال هي المصالح المقتضية للجعل ففرض حكم تشريعي ولا حسن في العمل به ولا مصلحة تقتضيه كيفما فرض فرض متطارد الاطراف لا محصل له .

والذي شرعه الله سبحانه من الأحكام والشرائع متحد سنخا مع ما نشرعه فيما بيننا أنفسنا من الأحكام فوجوبه وحرمته وأمره ونهيه ووعده ووعيده مثلا من سنخ ما عندنا من الوجوب والحرمة والأمر والنهي والوعد والوعيد لا شك في ذلك ، وهي معان اعتبارية وعناوين ادعائيد غير أن ساحته تعالى منزهة من أن تقوم به الدعوى التي هي من خطاء الذهن فهذه الدعاوى منه تعالى قائمة بظرف الاجتماع كالترجي والتمني منه تعالى القائمين بمورد المخاطبة لكن الأحكام المشرعد منه تعالى كالاحكام المشرعة منا متعلقة بالانسان الاجتماعي السالك بها من النقص إلى الكمال ، والمتوسل بتطبيق العمل بها إلى سعادة الحياة الإنسانية فثبت أن لفعله تعالى التشريعي مصلحة وغرضا تشريعيا ، ولما أمر خبه أو نهى عنه حسنا وقبحا ثابتين بثبوت المصالح والمفاسد .

فقول القائل : إن أفعاله التشريعية لا تعلل بالاغراض كما لو قال قائل : إن ما مهده من الطريق لا غاية له ، ومن الضروري أن الطريق إنما يكون طريقا بغايته ،

(217/265)

والوسط إنما يكون وسطا بطرفه ، وقول القائل : إنما الحسن ما أمر به الله والقبيح ما نهى عنه فلو أمر بما هو قبيح عقلا ضروريا كالظلم كان حسنا ، ولو نهى عن حسن بالضرورة

العقلية كالعدل كان قبيحا كما لو قال قائل : أن الله لو سلك بالانسان نحو الهلاك والفناء كان فيه حياته السعيدة ، ولو منعه عن سعادته الخالدة الحقيقية عادت السعادة شقاوة .

فالحق الذي لا محيص عنه في المرحلتين : أن العقل النظري مصيب فيما يشخصه ويقضي به من المعارف الحقيقية المتعلقة به تعالى فإنا إنما نثبت له تعالى ما نجده عندنا من صفة الكمال كالعلم والقدرة والحياة ، واستناد الموجودات إليه وسائر الصفات الفعلية العليا كالرحمة والمغفرة والرزق والأنعام والهداية وغير ذلك على ما يهدي إليه البرهان .

غير أن الذي نجده من الصفات الكمالية لا يخلو عن محدودية وهو تعالى أعظم من أن يحيط به حد ، والمفاهيم لا تخلو عنه لأن كل مفهوم مسلوب عن غيره منعزل عما سواه وهذا لا يلائم الإطلاق الذاتي فتوسل العقل إلى رفع هذه النقيصة بشئ من النعوت السلبية تنزيها وهو أنه تعالى أكبر من أن يوصف بوصف وأعظم من أن يحيط به تقييد وتحديد فمجموع التشبيه والتنزيه يقربنا إلى حقيقة الأمر ، وقد تقدم في ذيله قوله تعالى : " لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة " المائدة : 73 ، من غرر خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام ما يبين هذه المسألة بأوفى بيان ويبرهن عليها بأسطع برهان فراجعه إن شئت .

هذا كله في العقل النظري .

وأما العقل العملي فقد عرفت أن أحكام هذا العقل جارية في أفعاله تعالى التشريعية غير أنه تعالى إنما شرع ما شرع واعتبر ما اعتبر لا لحاجة منه إليه بل ليتفضل به على الإنسان مثلا وهو ذو الفضل العظيم فيرتفع به حاجة الإنسان فله سبحانه في تشريعه غرض لكنه قائم بالانسان الذي قامت به الحاجة لا به تعالى ، ولتشريعاته مصالح مقتضية لكن المنتفع بها هو الإنسان دونه كما تقدم .

وإذا كان كذلك كان للعقل أن يبحث في أطراف ما شرعه من الأحكام ويطلب الحصول على الحسن والقبح والمصلحة والمفسدة فيها لكن لا لأن يحكم عليه فيأمره وينهاه ويوجب ويحرم عليه كما يفعل ذلك بالانسان إذ لا حاجة له تعالى إلى كمال مرجو حتى يتوجه إليه حكم موصل إليه بخلاف الإنسان بل لأنه تعالى شرع الشرائع وسن السنن ثم عاملنا معاملة العزيز المقتدر الذي نقوم له بالعبودية وترجع إليه حياتنا ومماتنا ورزقنا وتدبير أمورنا ودساتير أعمالنا وحساب أفعالنا والجزاء على حسناتنا وسيئاتنا فلا يوجه إلينا حكما إلا بحجة ، ولا يقبل منا معذرة إلا بحجة ، ولا يجزينا جزاء إلا بحجة كما قال : " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " النساء : 165 ، وقال : " ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينه " الانفال : 42 إلى غير ذلك من احتجاجاته يوم القيامة على الانس والجن .

ولازم ذلك أن يجري في أفعاله تعالى في نظر العقل العملي ما يجري في أفعال غيره بحسب السنن التي سنها .

وعلى ذلك جرى كلامه سبحانه قال : " إن الله لا يظلم الناس شيئا " يونس : 44 ، وقال : " إن الله لا يخلف الميعاد " آل عمران : 9 ، وقال : " وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين " الدخان : 38 ، وفي هذا المعنى الآيات الكثير التي نفى فيها عن نفسه الرذائل الاجتماعية .

(219/265)

وفي ما تقدم من معنى جريان حكم العقل النظري والعملي في ناحيته تعالى آيات كثيرة ففي القسم الأول كقوله تعالى : " الحق من ربك فلا تكن من الممترين " آل عمران : 60 ولم يقل : الحق مع ربك لأن القضايا الحقة والاحكام الواقعية مإخوذة من فعله لا متبوعة له في عمله حتى يتإيد بها مثلنا ، وقوله : " والله يحكم لا معقب لحكمه " الرعد : 41 ، فله الحكم المطلق من غير أن يمنعه مانع عقلي أو غيره فإن الموانع والمعقبات إنما تتحقق بفعله وهي متأخرة عنه لا حاكمة أو مؤثرة فيه ، وقوله : " وهو الواحد القهار " الرعد : 16 ، وقوله : " والله غالب على أمره " يوسف : 21 ، وقوله : " إن الله بالغ إمره " الطلاق : 3 ، فهو

القاهر الغالب البالغ الذي لا يقهره شئ ولا يغلب عن شئ ولا يحول بينه وبين أمره حائل يزاحمه ، وقوله : " ألا له الخلق والأمر " الأعراف : 54 ، إلى غير ذلك من الآيات المطلقة التي ليس دونها مقيد .

نعم يجري في أفعاله الحكم العقلي لتشخيص الخصوصيات وكشف المجهولات لا لأن يكون متبوعا بل لأنه تابع لازم مأخوذ من سنته في فعله الذي هو نفس الواقع الخارج ، ويدل على ذلك جميع الآيات التي تحيل الناس إلى التعقل والتذكر والتفكر والتدبر ونحوها فلو لا إنها حجة فيما أفادته لم يكن لذلك وجه .

وفي القسم الثاني : نحو قوله : " استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم " الانفال : 24 ، يدل على إن في العمل بالاحكام مصلحة الحياة السعيدة ، وقوله : " قل إن الله لا يأمر بالفحشاء " الأعراف : 28 ، وظاهره أن ما هو فحشاء في نفسه لا يأمر به الله لا أن الله لو أمر بها لم تكن فحشاء ، وقوله : " لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " لقمان : 13 ، وآيات كثيرة أخرى تعلل الأحكام المجعولة بمصالح موجودة فيها كالصلاة والصوم والصدقات والجهاد وغير ذلك لا حاجة إلى نقلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 8 صـ 35 .

﴿ 59

قوله تعالى ﴿ وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أوجب له ما ذكر من الشقاوة تماديه في الحسد وكثرة كلامه في محسوده ، التفت إلى محسوده الذي لم يتكلم فيه كلمة واحدة ، بل اشتغل بنفسه في البكاء على ذنبه ، واكتفى بفعل ربه بما ينجيه من حبائل مكره التي نصبها بما ذكر ، ليكون ذلك سبب سعادته ، فقال عطفاً على ﴿ اخرج منها ﴾ : ﴿ ويا آدم اسكن ﴾ ولما كان المراد بهذا الأمر هو نفسه لا التجوز به عن بعض من يلابسه ، أكد ضميره لتصحيح العطف ورفع التجوز فقيل : ﴿ أنت وزوجك الجنة ﴾ .

(221/265)

ولما كان السياق هنا للتعرف بأنه مكن لأبينا في الجنة أعظم من تمكينه لنا في الأرض بأن حباه فيها رغد العيش مقارناً لوجوده ؛ ثم حسن في قوله : ﴿ فكلا ﴾ العطف بالفاء الدال

على أن المأكول كان مع الإسكان ، لم يتاخر عنه ، ولا منافاة بينه وبين التعبير بالواو في البقرة ، لأن مفهوم الفاء نوع داخل تحت مفهوم الواو ، ولا منافاة بين النوع والجنس ، وقوله : ﴿ من حيث شئتما ﴾ بمعنى رغداً أي واسعاً ، فإنه يدل على إباحة الأكل من كل شيء فيها غير المنهي عنه ، وأما آية البقرة فتدل على إباحة الأكل منها في أيّ مكان كان ، وهذا السياق إلى آخره مشير إلى أن من خالف أمره تعالى ثل عرشه وهدم عزه وإن كان في غاية المكنة ونهاية القوة كما أخرج من أعظم له المكنة بإسجاد ملائكته وإسكان جنته وإباحة كل ما فيها غير شجرة واحده ؛ أكد تحريمها بالنهي عن قربانها دون الاكتفاء بالنهي عن غشيانها فقال : ﴿ ولا تقربا ﴾ أي فضلاً عن أن تتناولا ﴿ هذه الشجرة ﴾ مشيراً إلى شجرة بعينها أو نوعها ؛ ثم سبب عن القربان العصيان ، فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه فقال : ﴿ فتكونا ﴾ أي بسبب قربها ﴿ من الظالمين ﴾ أي بالأكل منها الذي هو مقصود النهي فتكونا بذلك فاعلين فعل من يمشي في الظلام ؛ ثم سبب عن ذلك بيان حال الحاسد مع المحسودين فيما سأل الإنظار بسببه ، وأنه وقع على كثير من مراده واستغوى منه أمماً تجاوزوا الحد وقصر عنهم مدى العد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 15 . 16 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية مشتملة على مسائل : أحدها : أن قوله : ﴿ اسكن ﴾ أمر تعبد أو أمر إباحة وإطلاق من حيث إنه لا مشقة فيه فلا يتعلق به التكليف .

وثانيها : أن زوج آدم هو حواء ، ويجب أن نذكر أنه تعالى كيف خلق حواء ، وثالثها : أن تلك الجنة كانت جنة الخلد ، أو جنة من جنان السماء أو جنة من جنان الأرض .

ورابعها : أن قوله : ﴿ فَكُلاَ ﴾ أمر إباحة لا أمر تكليف .

(222/265)

وخامسها : أن قوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ نهي تنزيه أو نهي تحريم .

وسادسها : أن قوله : ﴿ هذه الشجرة ﴾ المراد شجرة واحدة بالشخص أو النوع .

وسابعها : أن تلك الشجرة أي شجرة كانت .

وثامنها : أن ذلك الذنب كان صغيراً أو كبيراً .

وتاسعها : أنه ما المراد من قوله : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ وهل يلزم من كونه ظالماً بهذا القربان الدخول تحت قوله تعالى : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [هود : 18] ،

وعاشرها : أن هذه الواقعة وقعت قبل نبوة آدم عليه السلام أو بعدها ، فهذه المسائل العشرة قد سبق تفصيلها وتقريرها في سورة البقرة فلا نعيدها ، والذي بقي علينا من هذه

الآية حرف واحد ، وهو أنه تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا ﴾ [البقرة : 35] بالواو ، وقال ههنا : ﴿ فَكُلاَ ﴾ بالفاء فما السبب فيه ، وجوابه من وجهين : الأول : أن الواو تفيد الجمع المطلق ، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب ، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ، ولا منافاة بين النوع والجنس ، ففي سورة البقرة ذكر الجنس وفي سورة الأعراف ذكر النوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 37 . 38 ﴾

(223/265)

وقال السمرقندى :

﴿ وَيَا آدَمُ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾

يعني : وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي : من حيث أحببتما موسعاً عليكما ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ يعني : لا تأكلا من هذه الشجرة ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ فتصيرا من الضارين بأنفسكما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ يعني حواء ، وفي الجنة التي أمر بسكناها قولان :

أحدهما : في جنة الخلد التي وعد المتقون ، وجاز الخروج منها لأنها لم تجعل ثواباً فيخلد فيها ولا يخرج منها .

والثاني : أنها جنة من جنات الدنيا لا تكليف فيها وقد كان مكلفاً .

﴿ فَكُلاَ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من حيث شئتما من الجنة كلها .

والثاني : ما شئتما من الثمار كلها لأن المستثنى بالنهي لمَّا كان ثمراً كان المأمور به ثمراً .

﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ قد ذكرنا اختلاف الناس فيها على ستة أقاويل :

أحدها : أنه البُرّ ، قاله ابن عباس .

والثاني : الكَرْم ، قاله السدي .

والثالث : التين ، قاله بان جريج . والرابع : شجرة الكافور ، قاله علي بن أبي طالب .

والخامس : شجرة العلم ، قاله الكلبي .

والسادس : أنها شجرة الخلد التي كانت تأكل منها الملائكة ، قاله ابن جدعان ، وحكى محمد بن إسحاق عن أهل الكتابين أنها شجرة الحنظل ولا أعرف لهذا وجهاً .

فإذا قيل : فما وجه نهيهما عن ذلك مع كمال معرفتهما ؟

قيل : المصلحة في استدامة ، المعرفة ، والابتلاء بما يجِب فيه الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(224/265)

إذا أمر الإنسان بشيء هو متلبس به فإنما المقصد بذلك أن يستمر على حاله ويتمادى في هيئته وقوله تعالى لآدم ﴿ اسكن ﴾ هو من هذا الباب ، وأكد الضمير الذي في قوله ﴿ اسكن ﴾ بقوله ﴿ أنت ﴾ وحينئذ جاز العطف عليه وهو ضمير لا يجوز إظهاره ولا يترتب ، والعطف على الضمير الملفوظ به لا يجوز إلا بعد تأكيده كقولك قمت أنت وزيد لأن الضمير بمنزلة حرف من الفعل ، وهذا الضمير الذي في ﴿ اسكن ﴾ أضعف من الملفوظ به فأحرى أن لا يصح العطف عليه إلا بعد التأكيد .

وقوله : ﴿ فكلا ﴾ هو من أكل فأصله أكلا فحذفت فاء الفعل لاجتماع المثلين واستغني عن الأخرى لما تحرك ما بعدها ، وحسن أيضاً حذف فاء الفعل لأنهم استثقلوا الحركة على حرف علة ، وهذا باب كل فعل أوله همزة ووزنه فعل كأخذ وأمر ونحوه وكان القياس

أن لا يحذف فاء الفعل ولكن ورد استعمالهم هكذا ، ويقال قرب يقرب ، و ﴿ هذه الشجرة ﴾ الظاهر أنه أشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأرادها ويحتمل أن يشير إلى شجرة معينة وهو يريد النوع بجملته ، وعبر باسم الواحدة كما تقول أصاب الناس الدينار والدرهم وأنت تريد النوع .

قال القاضي أبو محمد : وعلى الاحتمالين فأدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهي عنه قاله جمهور المتأولين ، وبذلك أغواه إبليس لعنه الله بقولك إنك لم تنه إلا لئلا تخلد أو تكون ملكاً ، فيبطل بهذا قول من قال إن آدم إنما أخطأ متأولاً بأن ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأكل من النوع فلم يعذر بالخطأ .

قال القاضي أبو محمد : وذلك أن هذا القائل إنما يفرض آدم معتقداً أن النهي إنما تعلق بشجرة معينة فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد إنك لم تنه إلا لئلا تخلد ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهي عنه ؟ ولا فرق بين أكله ما يعتقد أنه لم ينه عنه وبين أكله سائر المباحات له .

(225/265)

قال القاضي أبو محمد : والهاء الأخيرة في ﴿ هذه ﴾ بدل من الياء في هذي أبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاء حملاً على الوقف ، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة إلا " هذه " وقرأ ابن محيصن " هذي الشجرة " على الأصل ، وقوله ﴿ فتكونا ﴾ نصب في جواب النهي .

قال القاضي أبو محمد : وتعلق الناس بهذه الآية في مسألة الحظر والإباحة ، وذلك أن مسألة الحظر والإباحة تكلم الناس فيها على ضربين فأما الفقهاء فدعاهم إلى الكلام فيها أنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عز وجل ولا في سنة نبيه ولا في إجماع ، ويعتم وجه استقرائها من أحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها ، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أي جهة يحملها من الإجازة والمنع ، فقال بعضهم إذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر ونأخذ فيه بالشدة ونستبرىء لأنفسنا ، إذ الله عز وجل قد بين لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه وأحل ما أراد تحليله ، ولم يترك ذكر هذه النازلة إلا عن قصد فاجترامنا نحن عليها لا تقتضيه الشريعة ، وقال بعضهم بل نحملها على الإباحة لأن الله عز وجل قد أكمل لنا ديننا وحرم علينا ما شاء تحريمه ، ولم يهمل النص على نازلة إلا وقد تركها في جملة المباح ، وبعيد أن يريد في شيء التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في عمى الجهالة به ، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأ الحظر ، وقال بعضهم بل نحمل ذلك على الوقف أبداً ولا نحكم فيه بحظر ولا إباحة بل نطلب فيه النظر والقياس أبداً ، وذلك أنّا نجد الله عز وجل يقول في كتابه ﴿ حرم

عليكم ﴾ في مواضع ، ويقول ﴿ أحل لكم ﴾ في مواضع .

فدل ذلك على أن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر ، إما مخصوصاً بها وإما مشتملاً عليها وعلى غيرها ، ولو كانت الأشياء على الحظر لما قال في شيء حرم عليكم ولو كانت على الإباحة لما قال في شيء أحل لكم .

(226/265)

قال القاضي أبو محمد : وهذا أبين الأقوال ولم يتعرض الفقهاء في هذه المسألة إلى النظر في تحسين العقل وتقبيحه ، وإنما تمسكوا في أقوالهم هذه بأسباب الشريعة وذهبوا إلى انتزاع مذاهبهم منها ، وأما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة فإن المعتزلة ومن قال بقولهم إن العقل يحسن ويقبح نظروا في المسألة من هذه الجهة فقالوا نفرض زمناً لا شرع فيه أو رجلاً نشأ في برية ولم يحسن قط بشرع ولا بأمر ولا بنهي أو نقدر آدم عليه السلام وقت إهباطه إلى الأرض قد ترك وعقله قبل أن يؤمر وينهى كيف كانت الأشياء عليه أو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين ، فقال بعضهم الذي يحسن في العقل أن تكون محظورة كلها حتى يرد الإذن باستباحتها ، وذلك أن استباحتها تعد على ملك الغير وإذا

قبح ذلك في الشاهد فهو في حق الله أعظم حرمة ، وذهب بعض هذه الفرقة إلى استثناء التنفس والحركة من هذا الحظر وقالوا إن هذه لا يمكن غيرها .

(227/265)

قال القاضي أبو محمد : ويمكن أن يقدر الاضطرار إليها إباحة لها ، وقال بعضهم : بل يحسن في العقل أن تكون مباحة إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر عليه فيه كالاستظلال بالجدران ونحوه مباح ، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالى ووجود أجوز ، إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه ، ويتعلق بحقه شيء من ذلك ، وقال أهل الحق والسنة في هذا النحو من النظر ، بل الأمر في نفسه على الوقف ولا يوجب العقل تحسيناً ولا تقبيحاً بمجرده يدان به ، ولا يتجه حكم الحسن والقبيح إلا بالشرع ، وقال بعضهم : والعقل لم يخل قط من شرع ، فلا معنى للخوض في هذه المسألة ولا لفرض ما لا يقع ، وذهبوا إلى الاحتجاج بأن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأوامر والنواهي في الجنة ، بقوله تعالى له حين جرى الروح في جسده فعطس : قل الحمد لله يا آدم ، وبقوله : اسكن وكل ولا تقرب ونحو هذا ، وقال القاضي ابن الباقلاني في التقريب والإرشاد : إن الفقهاء الذين قالوا بالحظر والإباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم ، ولكنهم رأوا

لهم كلاماً ملفقاً مموهاً فاستحسنوه دون أن يشعروا بما يؤول إليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقبيحه .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا الكلام حمل على فقهاء الشرع واستقصار لهم ، والصواب أن لا يظن بهم هذا الخلل وإنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإباحة من الشرع وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أنهم يدفعون الحق في أن العقل لا يحسن ولا يقبح دون الشرع ، وقد تقدم في سورة البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾

أي وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه وطرده من الجنة ﴿ فكُلا من حيث شئتما ﴾ يعني فكُلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما .

(228/265)

فإن قلت : قال في سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق ؟

قلت : قال الإمام فخر الدين الرازي إن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ تقدم في سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

أي وقلنا يا آدم وتقدّم تفسير هذه الآية في البقرة .

إلا أن هنا فكلا من حيث شئتما وفي البقرة ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، قالوا : وجاءت على أحد محاملها وهو أن يكون الثاني بعد الأول وحذف رغداً هنا على سبيل الاختصار وأثبت هناك لأنّ تلك مدنية وهذه مكية فوُفّي المعنى هناك باللفظ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَا ءادَمَ ﴾ أي وقلنا كما وقع في سورة البقرة ، وتصديرُ الكلامِ بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقّي المأمورِ به ، وتخصيصُ الخطابِ به عليه السلام للإيذان بأصالته في تلقي الوحي وتعاطي المأمور به ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ هو من السكَن الذي هو عبارةٌ عن اللُّبْثِ والاستقرارِ والإقامةِ لا من السكون الذي هو ضدُّ الحركة ، وأنت ضميرٌ أُكّد به المستكنُّ ليصحَّ العطفُ عليه ، والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ لبيان المرادِ مما في سورة البقرة من قوله تعالى : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من أن ذلك كان جمعاً مع الترتيب ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ في معنى منها حيث شئتما ، ولم يُذكر هاهنا (رَغَداً) ثقةً بما ذكر هناك ، وتوجيهُ الخطابِ إليهما لتعميم التشريفِ والإيذانِ بتساويهما في مباشرة المأمورِ به فإن حوّاءَ أُسوةٌ له عليه السلام في حق الأكلِ بخلاف السكنِ فإنها تابعةٌ له فيه ولتعليق النهي بها صريحاً في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ وقرىء هذي وهو الأصل لتصغيره على ذيّا والهاءُ بدلٌ من الياء ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ إما جزمٌ على العطف أو نصبٌ على الجواب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَا آدَمُ اسكن ﴾

أي وقلنا كما وقع في سورة البقرة (53) فهذه القصة بتمامها معطوفة على مثلها وهو قوله سبحانه : ﴿ قُلْنَا للملائكة اسجدوا ﴾ [الأعراف : 11] على ما ذهب إليه غير واحد من المحققين ، وإنما لم يعطفوه على ما بعد ﴿ قَالَ ﴾ [الأعراف : 18] أي قال يا إبليس اخرج ويا آدم اسكن لأن ذلك في مقام الاستئناف والجزاء لما حلف عليه اللعين وهذا من تتمة الامتنان على بني آدم والكرامة لأبيهم ، ولا على ما بعد ﴿ قُلْنَا ﴾ [الأعراف : 11] لأنه يؤول إلى قلنا للملائكة يا آدم .

وادعى بعضهم أن الذي يقتضيه الترتيب العطف على ما بعد ﴿ قَالَ ﴾ وبينه بما له وجه إلا أنه خلاف الظاهر ، وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به ، وتخصيص الخطاب بآدم عليه السلام للإيذان بأصالته بالتلقي وتعاطي المأمور به .

و ﴿ اسكن ﴾ من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكون الذي هو ضد الحركة ، وقد تقدم الكلام في ذلك وفي قوله سبحانه : ﴿ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ وتوجيه

الخطاب إليهما في قوله تعالى : ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به فإن حواء أسوة له عليه السلام في حق الأكل بخلاف السكنى فإنها تابعة له فيها ولتعليق النهي الآتي بهما صريحاً ، والمعنى فكلا منها حيث شئتما كما في البقرة ، ولم يذكر ﴿ رَغَدًا ﴾ هنا ثقة بما ذكر هناك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ مبالغة في النهي عن الأكل منها وقرىء "هذي" وهو الأصل إلا أنه حذفت الياء وعوض عنها الهاء فهي هاء عوض لا هاء سكت .

قال ابن جني : ويدل على أن الأصل هو الياء قولهم في المذكر : ذا والألف بدل من الياء إذ الأصل ذي بالتشديد بدليل تصغيره على ذيا وإنما يصغر الثلاثي دون الثنائي كما ومن فحذفت إحدى اليائين تخفيفاً ثم أبدلت الأخرى ألفاً كراهة أن يشبه آخره أخر كي .

﴿ فَتَكُونَا ﴾ أي فتصيراً ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم ، و ﴿ تَكُونَا ﴾ يحتمل الجزم على العطف على ﴿ تَقْرَبَا ﴾ والنصب على أنه جواب النهي . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(231/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) ﴾

الواو من قوله : ﴿ ويا آدم ﴾ عاطفة على جملة : ﴿ أخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ [الأعراف : 18] الآية ، فهذه الواوُ من المحكي لا من الحكاية ، فالنّداء والأمرُ من جملة المقول المحكي يقال : أي قال الله لإبليس اخرج منها وقال لآدم ﴿ ويا آدم اسكن ﴾ ، وهذا من عطف المتكلِّم بعض كلامه على بعض ، إذا كان لبعض كلامه اتّصال وتناسب مع بعضه الآخر ، ولم يكن أحدُ الكلامين موجّهاً إلى الذي وجّه إليه الكلام الآخَر ، مع اتّحاد مقام الكلام ، كما يفعل المتكلّم مع متعدّدِين في مجلس واحد فيُقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصه ومنه قول النبيّء صلى الله عليه وسلم في قضيّة الرّجل والأنصاري الذي كان ابنُ الرّجل عسيفاً عليه : " والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله عزّ وجلّ أما الغنم والجارية فرَدٌّ عليك وعلى ابنك جلدُ مائة وتغريب عام ، واغْدُ يا أُنَيْسُ على زوجة هذا فإن اعترفت فارْجُمْها " ومن أسلوب هذه الآية ما في قوله تعالى : ﴿ قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعْرِض عن هذا واستغفري لذنبك ﴾ [يوسف : 28 ، 29] حكاية لكلام العزيز ، أي العزيز عطفَ خطابّ امرأته على خطابه ليوسف .

فليست الواو في قوله : ﴿ ويا آدم اسكن ﴾ بعاطفة على أفعال القَوْل التي قبلها حتّى يَكون

تقدير الكلام : وقُلنا يا آدم اسكن ، لأنّ ذلك يفيت النّكت التي ذكرناها ، وذلك في حضرة واحدة كان فيها آدم والملائكة وإبليس حضوراً .

(232/265)

وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة ، لأنّ إعطاء النّعم لمرضي عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقَب ، وإظهاراً للتّفاوت بين مستحقّ الإنعام ومستحقّ العقوبة فلا يفيد الكلام من المعاني ما أفاده العطف على المقول المحكي ، ولأنّه لو أريد ذلك لأعيد فعل القول .

ثمّ إن كان آدم خُلق في الجنّة ، فكان مستقراً بها من قبل ، فالأمر في قوله : ﴿ اسكن ﴾ إنّما هو أمر تقرير : أي أبق في الجنّة ، وإن كان آدم قد خُلق خارج الجنّة فالأمر للإذن تكريماً له ، وأيّاً مّا كان ففي هذا الأمر ، بمسمع من إبليس ، مقمعة لإبليس ، لأنّه إن كان إبليس مستْقراً في الجنّة من قبل فالقمع ظاهر إذ أطرده الله وأسكن الذي تكبَّر هو عن السّجود إليه في المكان المشرّف الذي كان له قبل تكبّره ، وإن لم يكن إبليس ساكناً في الجنّة قبلُ فإكرام الذي احتقره وترفع عليه قمع له ، فقد دلّ موقع هذا الكلام ، في هذه السّورة ، على معنى عظيم من قمع إبليس ، زائد على ما في آية سورة البقرة ، وإن كانتا متماثلتين في اللّفظ

، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع وهذا من بدائع إعجاز القرآن .

ووجد إيثار هذه الآية بهذه الخصوصية إنّ هذا الكلام مسوق إلى المشركين الذين اتخذوا الشّيطان ولياً من دون الله ، فأمّا ما في سورة البقرة فإنّه لموعظة بني إسرائيل ، وهم ممّن يحذر الشّيطان ولا يتّبع خطواته .

والنّداء للإقبال على آدم والتّنويهِ بذكره في ذلك الملا .

(233/265)

والإتيانُ بالضّمير المنفصل بعد الأمر ، لقصد زيادة التّنكيل بإبليس لأن ذكر ضميره في مقام العطف يذكر غيره بأنّه ليس مثله ، إذ الضّمير وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهومُ مخالفةٍ فإنّه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضّمير بالقرينة على طريقة التعريض ولا يمنع من هذا الاعتبار في الضمير كون إظهاره لأجل تحسينِ أو تصحيح العطف على الضّمير المرفوع المستتر ، لأن تصحيحَ أو تحسين العطف يحصل بكلّ فاصل بين الفعل الرافع للمستتر وبين المعطوف ، لا خصوص الضّمير ، كأن يقال : ويا آدم اسكن الجنّةَ وزوجُك ، فما اختير الفصل بالضّمير المنفصل إلاّ لما يفيد من التّعريض بغيره .

وهذه نكتة فاتني العلم بها في آية سورة البقرة فضمّها إليها أيضاً .

والكلام على قوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ يعلم ممّا مضى من الكلام على نظيره من سورة البقرة .

سوى أن الذي وقع في سورة البقرة (35) ﴿ وكلا ﴾ بالواو وهنا بالفاء ، والعطف بالواو أعم ، فالآية هنا أفادت أنّ الله تعالى أذن آدم بأن يتمتّع بثمار الجنّة عقب أمره بسكنى الجنّة .

وتلك منّة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام ، ولما كان ذلك حاصلاً في تلك الحضرة ، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس ، الذي تكبّر وفضل نفسه عليه ، كان الحال مقتضياً إعلام السّامعين به في المقام الذي حُكي فيه الغضب على إبليس وطردُه ، وأما آية البقرة فإنّما أفادت السّامعين أنّ الله امتن على آدم بمنّة سكنى الجنّة والتّمتّع بثمارها ، لأنّ المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته ، والتّحذير من كيد الشّيطان ذلك الكيد الذي هم واقعون في شيء منه عظيم .

(234/265)

على أنّ آية البقرة (35) لم تخل عن ذكر ما فيه تكرمة له وهو قوله : ﴿ رغداً ﴾ لأنه مدح للمُمْتن به أو دعاء لآدم ، فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم ، وقد وزعت على

عادة القرآن في توزيع أغراض القصص على مواقعها ، ليحصل تجديد الفائدة ، تنشيطاً للسّامع ، وتفنّناً في أساليب الحكاية ، لأنّ الغرض الأهمّ من القصص في القرآن إنّما هو العبرة والموعظة والتأسي .

وقوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ أشدّ في التّحذير من أن يُنهى عن الأكل منها ، لأنّ النّهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها وقد تقدّم نظيره في سورة البقرة .

والنّهي عن قربان شجرة خاصة من شجر الجنّة : يحتمل أن يكون نهي ابتلاء .

جعل الله شجرة مستثناة من شجر الجنّة من الإذن بالأكل منها تهيئة للتكليف بمقاومة الشّهوة لامتثال النّهي .

فلذلك جعل النّهي عن تناولها محفوفة بالأشجار المأذون فيها ليلتفت إليها ذهنهما بتركها ، وهذا هو الظّاهر ليتكّون مختلف القوى العقليّة في عقل النّوع بتأسيسها في أصل النّوع ، فتنتقل بعده إلى نسله ، وذلك من اللّطف الإلهي في تكوين النّوع ومن مظاهر حقيقة الربوبيّة والمربوبيّة ، حتى تحصل جميع القوى بالتدريج فلا يشقّ وضعها دفعة على قابليّة العقل ، وقد دلّت الآيات على أن آدم لمّا ظهر منه خاطر المخالفة أكل من الشّجرة المنهي عنها ، فأعقبه الأكلُ حدوث خاطر الشّعور بما فيه من نقايصَ أدركها بالفطرة ، فمعناه أنّه زالت منه البساطة والسّذاجة .

ويحتمل أن يكون ذلكِ لخصوصيّة في طبع تلك الشّجرة أن تثير في النّفس علم الخير والشرّ

كما جاء في التّوراة أنّ الله نهاه عن أكل شجرة معرفة الخير والشرّ ، وهذا عندي بعيد ، وإنّما حكى الله لنا هيئة تطوّر العقل البشري في خلقة أصل النّوع البشري نظيرَ صنعه في قوله : ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلّها ﴾ [البقرة : 31] .

(235/265)

والإشارة إلى شجرة مشاهدة وقد رويت روايات ضعيفة في تعيين نوعها وذلك ممّا تقدّم في سورة البقرة .

وانتصب : ﴿ فتكونا ﴾ على جواب النّهي ، والكون من الظّالمين متسبّب على القرب المنهي عنه ، لا على النّهي ، وذلك هو الأصل في النّصب في جواب النّهي كجواب النّفي ، أن يعتبر التّسبّب على الفعل المنفي أو المنهي ، بخلاف الجزم في جواب النّهي فإنّه إنّما يجزم المسبَّب على إنشاء النّهي لا على الفعل المنهي ، والفرق بينهما : أنّ النّصب على اعتبار التسبب ، والتسبب ينشأ عن الفعل لا عن الإخبار والإنشاء بخلاف الجزم فإنه على اعتبار الجواب ، تشبيهاً بالشّرط ، فاعتبر فيه معنى إنشاء النّهي تشبيهاً للإنشاء بالاشتراط .

والمراد بـ ﴿ الظّالمين ﴾ الذين يحقّ عليهم وصف الظلم : إما لظلمهم أنفسهم وإلقائها في

العواقب السيّئة ، وإمّا لاعتدائهم على حقّ غيرهم فإنّ العصيان ظلم لحقّ الربّ الواجب طاعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(236/265)

وقال القاسمى :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [19]

قوله تعالى : ﴿ وَيَا آدَمُ ﴾ أي : وقلنا يا آدم : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ أي : جنة الخلد ، أو جنة في الأرض .

قال الجشمي : وقد تقدم ذكر هذه القصة ، والفائدة في إعادتها أن القرآن نزل في بضع وعشرين سنة ، والعوارض تعرض ، والوفود تقدم ، فكانت القصة تعاد ، ليسمع من لم يسمع ، استصلاحاً ولطفاً ، لأن في إعادة قصة واحدة ، في مواضع بألفاظ مختلفة ، كل واحد منها في نهاية الحسن ، من إعجاز القرآن .

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ ﴾ أي : من كل مكان : ﴿ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

الظَّالِمِينَ ﴾ أي : فتصير من الذين ظلموا أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 25 ﴾

(237/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ وَيَآءَادَمُ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ .

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هي جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذي يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذي قالوا : إن الجنة هي جنة الآخرة ، لم يفطنوا إلى مدلول كلمة " جنة " ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى في اللغة " غلبة الاستعمال " ، أي تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هي التي تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتي اللفظ في القرآن والمتكلم هو الله ،

فلابد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته في اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربي مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ في اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوي ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعي الاصطلاحي .

(238/265)

مثال ذلك كلمة " الحج " فأنت ساعة تسمع كلمة " الحج " تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة في أشهر معلومة ، على الرغم من أن " الحج " في اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أي شيء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإِسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله في الحج بالمعنى الشرعي ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة " الصلاة " إنها في اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ أي ادع لهم ، ولما جاء الإِسلام أخذ الكلمة من اللغة ، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحي جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهي الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنىً اصطلاحيًّا أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصلي ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله في معناه الأصلي فلك ذلك ،

ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة " صلاة " أصبحت هي الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصلي كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة " الجنة " ساعة تُطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوي للجنة أنها المكان الذي فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر الإنسان وتُجنّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفي بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجيء بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [البقرة : 266]

وكذلك يقول سبحانه : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ [الكهف : 32]

(239/265)

وقوله الحق : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : 15]

وأقول : إن علينا أن نبحث في آفاق مرادات الله حين يُعْلمنا من لدنه ويقفنا على المعنى

المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة في الأرض : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ [البقرة : 30]

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصى وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله في الأرض خليفة . والذي كان يجب أن نسأل عنه : ما دام قد جعله الله خلفية في الأرض فما الذي جاء بحكاية الجنة هذه ؟ !

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة في " افعل " و" لا تفعل " ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد في المجتمع ، أما الذي لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه " افعل " و" لا تفعل " لا يفسد به المجتمع . إذن ف " افعل " و" لا تفعل " هي مقياس ضمان الصلاح في الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فما دام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوي ؛ فسيزين لك في " افعل " ، و" لا تفعل " ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلي . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال " افعل " إلى مجال " لا تفعل " ، وكذلك يحاول أن يزين لك " أن تفعل " ما هو في مجال " لا تفعل " فترتبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها في الدنيا وينعم في الآخرة ؛ لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خليفته في الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقيًّا نظريًّا ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألاّ يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة في " افعل " و" لا تفعل " . وحذره من العقبات التي تعترض " افعل " ؛ حتى لا تجيء في منطقة " لا تفعل " ، وكذلك من العقبات في منطقة " لا تفعل " حتى لا تجيء في منطقة " افعل " ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب في أي شيء أبداً في أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هي الجنة وهي بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شيء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

" كل " هذا هو الأمر ، و" لا تقرب " هذا هو النهي . وأوضح سبحانه لآدم أن الذي سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذي ثبتت عداوته إنّه " إبليس " ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82]

كأن الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله – سبحانه – وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذي يعطي المقوم فلا فضلات تتعبه ، ولا ينفخ

ولا يعاني من متاعب في الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطي لآدم القدر المقوم .

وسبحانه قادر على كل شيء بدليل أنه يرعى الجنين في بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذي يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذي يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإِعداد .

(241/265)

إذن فالجنة التي وُجد فيها آدم بداية ليست هي جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لابد أن تأتي بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم – كما علمنا – مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعني أنها مكان التدريب على المهمة في الخلافة أمراً متمثلاً في ﴿ فَكُلاَ ﴾ ، ونهياً متمثلاً في ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ لأن القِربان مظنة أنه يؤدي إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكأن الله جعل لآدم في جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : ل " افعل " ، والرمز الثاني : ل " لا تفعل " ، ونجد أن الذي نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا

من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن ما يؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأي منظر . ولذلك في كثير من الأشياء التي يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفي قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو القائل :

﴿ . . . فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ [الحج : 30]

ولم يقل : " لا تعبدوا الأوثان " ، بل قال : " فاجتنبوا " ، والشأن في " الخمر " أيضاً جاء بالاجتناب . لكنّ بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد في الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر . لكن الاجتناب يقتضي ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد في المكان الذي توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها . ﴿ . . . وَلَا تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [الأعراف : 19]

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقا في أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أي منكما ، فهو قد خالف ما شرعته لكما ، ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ اي لا تدخلا في اطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطي نفسك شهوة قليلة في زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً في زمن طويل وبشكل أشد . وهذا ظلم لنفسك ، كما أنه دليل على أنك غير مأمون عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(243/265)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) ﴾

لما أسكن آدمَ الجنةَ خَلَق معه سببَ الفتنةِ ، وهو ما أكرمه به من الزوجة ، وأي نقصٍ يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 523 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم بين أنه أقل من أن يكون له فعل ، وأن الكل بيده سبحانه ، هو الذي جعله آلة لمراده منه ومنهم ، وأن من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، فقال :

﴿ فوسوس ﴾ أي القى في خفاء وتزيين وتكرير واشتهاء ﴿ لهما الشيطان ﴾ أي بما مكنه الله منه من أنه يجري من الإنسان مجرى الدم ويلقى له في خفاء ما يميل به قلبه إلى ما يريد ؛ ثم بين علة الوسوسة بقوله : ﴿ ليبدي ﴾ أي يظهر ﴿ لهما ما روي ﴾ أي ستر وغطي بأن جعل كأنه وراءهما لا يلتفتان إليه ﴿ عنهما ﴾ والبناء للمفعول إشارة إلى أن الستر بشيء لا كلفة عليهما فيه كما يأتي في قوله ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ [الأعراف : 27] و ﴿ من سوءاتهما ﴾ أي المواضع التي يسوءهما انكشافها ، وفي ذلك أن إظهار السوءة موجب للعبد من الجنة وأن بينهما منفية الجمع وكمال التباين .

ولما أخبر بالوسوسة وطوى مضمونها مفهماً أنه أمر كبير وخداع طويل ، عطف عليه قوله : ﴿ وقال ﴾ اي في وسوسته أيضاً ، أي زين لهما ما حدث بسببه في خواطرهما هذا القول : ﴿ ما نهاكما ﴾ وذكرهما بوصف الإحسان تذكيراً بإكرامه لهما تجزئة لهما على ما يريد منهما فقال : ﴿ ربكما ﴾ أي المحسن إليكما بما تعرفانه من أنواع إحسانه ﴿ عن ﴾ أي ما جعل نهايتكما في الإباحة للجنة متجاوزة عن ﴿ هذه الشجرة ﴾ جمع بين الإشارة والاسم زيادة في الاعتناء بالتنصيص ﴿ إلا أن ﴾ أي كراهية أن ﴿ تكونا ملكين ﴾ أي في عدم الشهوة وفي القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم ﴿ أو تكونا ﴾ أي بما يصير لكما من الجبلة ﴿ من الخالدين ﴾ أي الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 16 . 17 ﴾

(245/265)

فصل فى الإسرائيليات والموضوعات في قصة آدم عليه السلام

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

فمن تلك الإسرائيليات : ما رواه ابن جرير 1 في تفسيره بسنده عن وهب بن منبه قال : لما أسكن الله آدم وذريته أو زوجته –الشك من أبي جعفر ، وهو في أصل كتابه "وذريته"–

ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها متشعبة بعضها في بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم2 ، وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته ، فلما أراد إبليس أن يستنزلهما دخل في جوف الحية ، وكانت للحية أربعة قوائم ، كأنها بختية3 من

---

1 هو الإمام ابن جرير ، وقد شك في اللفظ الذي سمعه ممن أخذ عنه ، أهو ذريته أم زوجته ؟ فيذكر ذلك رعاية للأمانة في الرواية والظاهر لفظ "زوجته" لأن آدم عليه السلام لم تكن له ذرية في الجنة .

2 وكيف والملائكة لا تأكل ولا تشرب ؟

3 ناقة .

أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته فجاء بها إلى حواء ، فقال : انظري إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها فأخذت حواء فأكلت منها ، ثم ذهبت إلى آدم ، فقالت له مثل ذلك حتى أكل منها ، فبدت لهما سوءاتهما ، فدخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ قال : أنا هنا يا رب ، قال : ألا تخرج ؟ قال :

أستحيي منك يا رب ، قال : ملعونة الأرض التي خلقت منها ، لعنة يتحول عمرها شوكا . . . . ثم قال : يا حواء ، أنت التي غررت عبدي ؛ فإنك لا تحملين حملا إلا حملتيه كرها ، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك ، أشرفت على الموت مرارا ، وقال للحية : أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدي ، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك ، ولا يكن لك رزق إلا التراب ، أنت عدوة بني آدم ، وهم أعداؤك . . . . قال عمرو : قيل لوهب : وما كانت الملائكة تأكل ! ! قال : يفعل الله ما يشاء 1 ، قال ابن جرير : وروى ابن عباس نحو هذه القصة .

ثم ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس ، وعن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة نحو هذا الكلام2 ، وفي السند أسباط عن السدي ، وعليهما تدور الروايات ، وقد قدمنا حالهما في الرواية .

وكذلك : ذكر السيوطي في "الدر المنثور" ما رواه ابن جرير وغيره في هذا ، مما روي عن ابن عباس ، وابن مسعود ، ولكنه لم يذكر الرواية عن وهب من منبه3 ، وأغلب كتب التفسير بالرأي ذكرت هذا أيضا ، وكل هذا من قصص بني إسرائيل الذي تزيدوا فيه ، وخلطوا حقا بباطل ، ثم حمله عنهم ابن عباس ، وغيره من الصحابة والتابعين ، وفسروا به القرآن الكريم .

ويرحم الله ابن جرير ، فقد أشار بذكره الرواية عن وهب : إلى أن ما يرويه عن ابن عباس ،

وابن مسعود إنما مرجعه إلى وهب وغيره من مُسلِمة أهل الكتاب ، ويا لتيه لم ينقل شيئًا من هذا ، ويا ليت من جاء بعده من المفسرين صانوا تفاسيرهم عن مثل هذا .

---

1 هذا تهرب من الجواب ، وعجز عن تصحيح هذا الكذب الظاهر .

2 تفسير ابن جرير ج 1 ص 186 ، 187

3 الدر المنثور ج 1 ص 53 .

وفي رواية ابن جرير الأولى ما يدل على أن الذين رووا عن وهب وغيره كانوا يشكون فيما يروونه لهم ، فقد جاء في آخرها : "قال عمرو 1 ، قيل لوهب : وما كانت الملائكة تأكل ؟ ! ! قال : يفعل الله ما يشاء" فهم قد استشكلوا عليه : كيف أن الملائكة تأكل ؟ ! وهو لم يأتِ بجواب يُعتدُّ به .

ووسوسة إبليس لآدم عليه السلام لا تتوقف على دخوله في بطن الحية ؛ إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة ، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه ، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا ، ولم تكن لها قوائم كالبختي ، ولا شيء من هذا 2 .

ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ :

ومن الروايات التي لا تثبت ما ذكره السيوطي في "الدر" قال: أخرج الطبراني في المعجم الصغير، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فأوحى الله إليه، ومن محمد ؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب، "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدرا ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخر النبيين، من ذريتك، ولولا هو ما خلقتك" ثم قال: وأخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند واه[3] عن علي، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فقال: إن الله أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس ببيسان، والحية بأصبهان، وكان للحية قوائم كقوائم البعير، ومكث آدم بالهند سنة باكيا على خطيئته، حتى بعث الله إليه

---

1 هو عمرو بن عبد الرحمن بن مهرب الراوي عن وهب.

2 انظر التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثالث؛ لتزداد يقينا أنه من الإسرائيليات وليس منه شيء عن المعصوم صلى الله عليه وسلم.

3 السند الواهي: هو الشديد الضعف الذي ربما يصل إلى حد السقوط والوضع.

جبريل ، وقال : يا آدم ألم أخلُقْك بيدي ؟ ألم أنفخ فيك من روحي ؟ ألم أُسْجِد لك ملائكتي ؟ ألم أزوجك حواء أمتي ؟ قال : بلى ، قال : فما هذا البكاء ؟ قال : وما يمنعني من البكاء ، وقد أخرجت من جوار الرحمن ، قال : فعليك بهذه الكلمات ، فإن الله قابل توبتك ، وغافر ذنبك ، قل : اللهم إني أسألك بحق محمد ، وآل محمد ، سبحانك لا إله إلا أنت ، عملت سوءا وظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنك أنت الغفور الرحيم ، اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءا وظلمت نفسي ، فتب علي ، إنك أنت التواب الرحيم ، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم . ولا أدري ما دام سنده واهيا لم ذكره ؟ ! ومثل هذا عليه أمارات الوضع والاختلاق .

ويسترسل السيوطي في الدر ، فيذكر عن ابن عباس : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، فتاب عليه ، قال : "سأل بحق محمد ، وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت على ، فتاب عليه" ، ومثل هذا لا يشك طالب حديث في اختلاقه وأنه من وضع الشيعة ، واختلاقهم ، ثم يسترسل في الرواية ، فيذكر : أن آدم لما هبط كان مسودًّا جسمه ثم بيض الله جسده بصيامه ثلاثة أيام ، ولذلك سميت بالأيام

البيض ، وأنه عليه السلام كان يشرب من السحاب ، بل يروى عن عكب أنه أول من ضرب الدينار والدرهم ، إلى غير ذلك مما لا يخرج عن كونه من الإسرائيليات .

التفسير الصحيح للكلمات :

والصحيح في الكلمات هو : ما روي عن طرق عدة : أنها قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وقد رواه السيوطي في الدر 1 من طرق عدة ، ولكنه خلط عملا صالحا ، وآخر سيئا ، وقد أفاض ابن جرير في تفسيره في ترجيح هذا القول ، وإن ذكر غيره من الأقوال التي هي بعيدة عن الحق والصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 178 . 181 ﴾

---

1 الدر المنثور ج1 ص 58 ، 6 ، 61 .

فصل

قال الفخر :

يقال : وسوس إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره ، وبه سمي صوت الحلي وسواساً وهو فعل غير متعد كقولنا : ولولوت المرأة ، وقولنا : وعوع الذئب ، ورجل موسوس بكسر الواو ولا

يقال موسوس بالفتح ، ولكن موسوس له وموسوس إليه ، وهو الذي يلقي إليه الوسوسة ، ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس إليه ألقاها إليه ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : كيف وسوس إليه وآدم كان في الجنة وإبليس أخرج منها .

والجواب : قال الحسن : كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له ، وقال أبو مسلم الأصفهاني : بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض ، والذي يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل في جوف الحية ودخلت الحية في الجنة فتلك القصة الركيكة مشهورة ، وقال آخرون : إن آدم وحواء ربما قرباً من باب الجنة ، وكان إبليس واقفاً من خارج الجنة على بابها ، فيقرب فيقرب أحدهما من الآخر وتحصل الوسوسة هناك .

السؤال الثاني : أن آدم عليه السلام كان يعرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله .

(250/265)

والجواب : لا يبعد أن يقال إن إبليس لقي آدم مراراً كثيرة ورغبه في أكل الشجرة بطرق كثيرة فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه في آدم عليه السلام .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ .

والجواب : معنى وسوس له أي فعل الوسوسة لأجله والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ في هذا اللام قولان : أحدهما : أنه لام العاقبة كما في قوله : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] وذلك لأن الشيطان لم يقصد بالوسوسة ظهور عورتهما ، ولم يعلم أنهما إن أكلا من الشجرة بدت عوراتهما ، وإنما كان قصده أن يحملهما على المعصية فقط .

الثاني : لا يبعد أيضاً أن يقال : إنه لام الغرض ثم فيه وجهان : أحدهما : أن يجعل بدو العورة كناية عن سقوط الحرمة وزوال الجاه ، والمعنى : أن غرضه من إلقاء تلك الوسوسة إلى آدم زوال حرمته وذهاب منصبه .

والثاني : لعله رأى في اللوح المحفوظ أو سمع من بعض الملائكة أنه إذا أكل من الشجرة بدت عورته ، وذلك يدل على نهاية الضرر وسقوط الحرمة ، فكان يوسوس إليه لحصول هذا الغرض ، وقوله : ﴿ مَا ووري عنهما من سوءَاتهما ﴾ فيه مباحث :

البحث الأول : ما وري مأخوذ من المواراة يقال : واريته أي سترته .

قال تعالى : ﴿ يواري سوأة أخيه ﴾ [المائدة : 31] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي لما أخبره بوفاة أبيه : "اذهب فواره" .

البحث الثاني : السوأة فرج الرجل والمرأة ، وذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان .

قال ابن عباس رضي الله عنهما كأنهما قد ألبسا ثوباً يستر عورتهما ، فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُما ﴾ .

(251/265)

البحث الثالث : دلت هذه الآية على أن كشف العورة من المنكرات وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول وقوله : ﴿ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ يمكن أن يكون هذا الكلام ذكره إبليس بحيث خاطب به آدم وحواء ، ويمكن أيضاً أن يكون وسوسة أوقعها في قلوبهما ، والأمران مرويان إلا أن الأغلب أنه كان ذلك على سبيل المخاطبة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ ومعنى الكلام أن إبليس قال لهما في الوسوسة : إلا أن تكون ملكين وأراد به أن تكونا بمنزلة الملائكة إن أكلتما منها أو تكونا من الخالدين إن أكلتما ، فرغبهما بأن أوهمهما أن من أكلها صار كذلك وأنه تعالى إنما نهاهما عنها لكي لا يكونا بمنزلة الملائكة ولا يخلدا ، وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : كيف أطمع إبليس آدم في أن يكون ملكاً عند الأكل من الشجرة مع أنه شاهد الملائكة متواضعين ساجدين له معترفين بفضله .

والجواب : من وجوه : الأول : أن هذا المعنى أحد ما يدل على أن الملائكة الذين سجدوا لآدم هم ملائكة الأرض .

أما ملائكة السموات وسكان العرش والكرسي والملائكة المقربون فما سجدوا ألبتة لآدم ، ولو كانوا سجدوا له لكان هذا التطميع فاسداً مختلاً .

وثانيها : نقل الواحدي عن بعضهم أنه قال : إن آدم علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة ، ولم يعلم ذلك لنفسه فعرض عليه إبليس أن يصير مثل الملك في البقاء ، وأقول : هذا الجواب ضعيف ، لأن على هذا التقدير المطلوب من الملائكة هو الخلود وحينئذ لا يبقى فرق بين قوله : ﴿ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ وبين قوله : ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ .

(252/265)

والوجه الثاني : قال الواحدي : كان ابن عباس يقرأ ملكين ويقول : ما طمعا في أن يكونا ملكين لكنهما استشرفا إلى أن يكونا ملكين ، وإنما أتاهما الملعون من جهة الملك ، ويدل على هذا قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه : 20] وأقول هذا الجواب أيضاً ضعيف ، وبيانه من وجهين : الأول : هب أنه حصل الجواب على هذه القراءة : فهل يقول ابن عباس إن تلك القراءة المشهورة باطلة أو لا يقول ذلك ؟ والأول باطل ، لأن

تلك القراءة قراءة متواترة ، فكيف يمكن الطعن فيها ، وأما الثاني : فعلى هذا التقدير الإشكال باق .

لأن على تلك القراءة يكون بالتطميع قد وقع في أن يصير بواسطة ذلك الأكل من جملة الملائكة وحينئذ يعود السؤال .

والوجه الثاني : أنه تعالى جعل سجود الملائكة والخلق له في أن يسكن الجنة ، وأن يأكل منها رغداً كيف شاء وأراد ، ولا مزيد في الملك على هذه الدرجة .

السؤال الثاني : هل تدل هذه الآية على أن درجة الملائكة أكمل وأفضل من درجة النبوة .

والجواب من وجوه : الأول : أنا إذا قلنا إن هذه الواقعة كانت قبل النبوة لم يدل على ذلك ولأن آدم حين طلب الوصول إلى درجة الملائكة ما كان من الأنبياء ، وعلى هذا التقدير فزال الاستدلال .

والثاني : أن بتقدير "أن" تكون هذه الواقعة وقعت في زمان النبوة فلعل آدم عليه السلام رغب في أن يصير من الملائكة في القدرة والقوة والشدة أو في خلقة الذات بأن يصير جوهراً نورانياً ، وفي أن يصير من سكان العرش والكرسي ، وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال .

السؤال الثالث : نقل أن عمرو بن عبيد قال للحسن في قوله : ﴿ إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ وفي قوله : ﴿ وقاسمهما ﴾ قال عمرو وقلت للحسن : فهل صدقاه في

ذلك .

فقال الحسن معاذ الله لو صدقاه لكانا من الكافرين ووجه السؤال : أنه كيف يلزم هذا التكفير بتقدير : أن يصدقا إبليس في ذلك القول .

(253/265)

والجواب : ذكروا في تقرير ذلك التكفير أنه عليه السلام لو صدق إبليس في الخلود لكان ذلك يوجب إنكار البعث والقيامة ، وأنه كفر .

ولقائل أن يقول : لا نسلم أنه يلزم من ذلك التصديق حصول الكفر ؟ وبيانه من وجهين :

الأول : أن لفظ الخلود محمول على طول المكث لا على الدوام ، وعلى هذا الوجه يندفع ما ذكروه .

الوجه الثاني : هب أن الخلود مفسر بالدوام ، إلا أنا نسلم أن اعتقاد الدوام يوجب الكفر وتقريره أن العلم بأنه تعالى هل يميت هذا المكلف أو لا يميته ، علم لا يحصل إلا من دليل السمع فلعله تعالى ما بين في وقت آدم عليه السلام أنه يميت الخلق ، ولما لم يوجد ذلك الدليل السمعي كان آدم عليه السلام يجوز دوام البقاء ، فلهذا السبب رغب فيه ، وعلى هذا التقدير : فالتكفير غير لازم .

السؤال الرابع : ثبت بما سبق أن آدم وحواء لو صدقا إبليس فيما قال لم يلزم تكفيرهما ، فهل يقولون إنهما صدقاه فيه قطعاً ؟ وإن لم يحصل القطع فهل يقولون إنهما ظنا أن الأمر كما قال ؟ أو ينكرون هذا الظن أيضاً .

والجواب : أن المحققين أنكروا حصول هذا التصديق قطعاً وظناً ، بل الصواب أنهما إنما أقدما على الأكل لغلبة الشهوة ، لا أنهما صدقاه علماً أو ظناً كما نجد أنفسنا عند الشهوة نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه ، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال .

السؤال الخامس : قوله : ﴿ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ هذا الترغيب والتطميع وقع في مجموع الأمرين أو في أحدهما .

والجواب : قال بعضهم : الترغيب كان في مجموع الأمرين ، لأنه أدخل في الترغيب .

وقيل : بل هو على ظاهره على طريقة التخيير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 38 . 41 ﴾

(254/265)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾

أي : زيّن لهما الشيطان ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ يعني : أراد إبليس لعنه الله بالوسوسة ليظهر ما سترا من عوراتهما ، والسوأة كناية عن العورة .

وذلك أن إبليس لما رأى محسوده في الجنة ورأى نفسه طريداً لم يصبر ، واحتال لإخراجهما فأتاهما ﴿ وَقَالَ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ يعني : أنكما لو أكلتما تصيران كالملكين تموتان أبداً أو تكونا كالملائكة وتعلمان الخير والشر .

﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ يعني : إن لم تكونا مَلَكَيْنِ فتكونا من الخالدين لا تموتان .

وقرأ بعضهم مَلِكَيْنِ بالكسر كما قال : في آية أُخرى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ يا أدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه : 120] وهي قراءة يحيى بن كثير وهي قراءة شاذة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَوَسْوَسَ ﴾ يعني إليهما ومعناه فحدث إليهما ﴿ الشيطان لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ يعني ليظهر لهما ما غطى وستر عنهما من عوراتهما ، وقال وهب : كان عليهما نور لا يرى سوءاتهما ثمّ بين الوسوسة ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا ﴾ يا آدم وحواء ﴿ رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ يعني إلاّ أن تكونا وكراهيّة أن يكونا من الملائكة يعملان الخير والشر .

وقرأ ابن عباس والضحاك ويحيى بن أبي معين : ملكين بكسر اللام من الملك أخذوها من

قوله ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه : 120] .

﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ من الباقين الذين لا يموتون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الْشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا . . . ﴾

(255/265)

أما الوسوسة فهي إخفاء الصوت بالدعاء ، يقال وسوس له إذا أوهمه النصيحة ، ووسوس إليه إذا ألقى إليه المعنى ، وفي ذلك قول رؤبة بن العجاج :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق . . . سراً وقد أوّن تأوين العقق

فإن قيل : فكيف وسوس لهما وهما في الجنة وهو خارج عنها ؟ فعنه ثلاثة أجوبة هي أقاويل اختلف فيها أهل التأويل :

أحدها : أنه وسوس إليها وهما في الجنة في السماء ، وهو في الأرض ، فوصلت وسوسته بالقوة التي خلقها الله له إلى السماء ثم الجنة ، قاله الحسن .

والثاني : أنه كان في السماء وكانا يخرجان إليه فيلقاهما هناك .

والثالث : أنه خاطبهما من باب الجنة وهما فيها .

﴿ . . . وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

وهذا هو الذي ألقى به من الوسوسة إليهما استغواءً لهما بالترغيب في فضل المنزلة ونعيم الخلود .

فإن قيل : هل تصورا ذلك مع كمال معرفتهما ؟

قيل : إنما كملت معرفتهما بالله تعالى لا بأحكامه .

وفي قول إبليس ذلك قولان :

أحدهما : أنه أوهمهما أن ذلك في حكم الله جائز أن يقلب صورتهما إلى صور الملائكة وأن يخلدهما في الجنة .

والثاني : أنه أوهمهما أنهما يصيران بمنزلة الملائكة في علو المنزلة مع علمهما بأن قلب الصور لا يجوز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا . . . ﴾

" الوسوسة " الحديث في اختفاء همساً وسراراً من الصوت ، والوسواس صوت الحلي فشبه الهمس به ، وسمي إلقاء الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إذ هي أبلغ السرار

وأخفاه ، هذا حال الشيطان معناه الآن ، وأما مع أدم فممكن أن تكون وسوسة إذ هي أبلغ السرار وأخفاه ، هذا حال الشيطان معنا الآن ، وأما مع آدم فممكن أن تكون وسوسة بمجاورة خفية أو بإلقاء في نفس ، ومن ذلك قول رؤبة : [الرجز]

(256/265)

وسوس يدعو جاهراً رب الفلق . . . فهذه عبارة عن كلام خفي ، و﴿ الشيطان ﴾ يراد به إبليس نفسه ، واختلف نقلة القصص في صورة وسوسته فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحية مستخفياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة ، وروي أن آدم وحواء كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما ، وروي أن الله أقدره على الإلقاء في أنفسهما فأغواهما وهو في الأرض .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف يرده لفظ القرآن ، واللام في قوله ﴿ ليبدي ﴾ هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة ، وهذا بحسب آدم وحواء وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة لأنه لم يكن له علم بها فيقصدها .

قال القاضي أبو محمد : ويمكن أن تكون لام كي على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتهما وإلقائهما في العقوبة غير مخصصة ، و﴿ ما ووري ﴾ معناه ما ستر ، من قولك

وارى يواري إذ ستر ، وظاهر هذا اللفظ أنها مفاعلة من واحد ، ويمكن أن تقدر من اثنين لأن الشيء الذي يوارى هو أيضاً من جهة ، وقرأ ابن وثاب " ما وري " بواو واحدة ، وقال قوم : إن هذه اللفظة في هذه الآية مأخوذة من وراء .

قال القاضي أبو محمد : وهو قول يوهنه التصريف ، و" السوأة " الفرج والدبر ، ويشبه أن يسمى بذلك لأن منظره يسوء ، وقرأ الحسن ومجاهد من " سوّتهما " بالإفراد وتسهيل الهمزة وشد الواو ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والحسن والزهري : " سوّتهما " بالإفراد وتسهيل الهمزة وتشديد الواو وحكاها سيبويه لغة ، قال أبو الفتح : ووجهها حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو ، فيقولون سوة ومنهم من يشدد الواو ، وقالت طائفة إن هذه العبارة إنما قصد بها أنهما كشفت لهما معانيهما وما يسوءهما ولم يقصد بها العورة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول كان اللفظ يحتمله إلا أن ذكر خصف الورق يرده إلا أن يقدر الضمير في ﴿ عليهما ﴾ [الآية : 22] عائداً على بدنيهما إذا تمزقت عنهما ثياب الجنة ، فيصح القول المذكور .

وقوله تعالى : ﴿ وقال ما نهاكما ﴾ الآية هذا القول الذي حكي عن إبليس يدخله من هذا التأويل ما دخل الوسوسة ، فممكن أن يقول هذا مخاطبة وحواراً ، وممكن أن يقول إلقاء في النفس ووحياً و ﴿ إلا أن ﴾ تقديره عند سيبويه والبصريين إلا كراهية أن ، وتقديره عند الكوفيين " إلا أن لا " على إضمار لا .

قال القاضي أبو محمد : ويرجح قول البصريين أن إضمار الأسماء أحسن من إضماء الحروف ، وقرأ جمهور الناس " ملَكين " بفتح اللام وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبي كثير والضحاك " مِلكين " بكسر اللام ، ويؤيد هذه القراءة قوله في آية أخرى ﴿ وملك لا يبلى ﴾ [طه : 120] .

قال القاضي أبو محمد : وقال بعض الناس : يخرج من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر وهي مسألة اختلف الناس فيها وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة والفضل بيد الله ، وقال ابن فورك : لا حجة في هذه الآية لأنه يحتمل أن يريد ملكين في أن لا تكون لهما شهوة في طعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾

قيل : إن الوسوسة : إخفاء الصوت ، قال ابن فارس : الوسواس : صوت الحلي ، ومنه وسواس الشيطان .

و﴿ لهما ﴾ بمعنى "إليهما" ، ﴿ ليبدي لهما ﴾ أي : ليظهر لهما ﴿ ما ووري عنهما ﴾ أي : ستر .

وقيل : إن لام ﴿ ليبدي ﴾ لام العاقبة ؛ وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عورتهما ، ولم تكن الوسوسة لظهورها .

قوله تعالى : ﴿ إلا أن تكونا ملَكين ﴾ قال الأخفش ، والزجاج : معناه : ما نهاكما إلا كراهة أن تكونا ملَكَين .

وقال ابن الأنباري : المعنى : إلا أن لا تكونا ، فاكتفى ب "أن" من "لا" فأسقطها .

فإن قيل : كيف انقاد آدم لإبليس ، مستشرفاً إلى أن يكون ملكاً ، وقد شاهد الملائكة ساجدة له ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه عرف قربهم من الله ، واجتماع أكثرهم حول عرشه ، فاستشرف لذلك ، قاله ابن الأنباري .

(258/265)

والثاني : أن المعنى : إلا أن تكونا طويلَي العمر مع الملائكة ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ لا تموتان أبداً ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وقد روى يعلى بن حكيم عن ابن كثير : "أن تكونا مِلكين" بكسر اللام ، وهي قراءة الزهري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ أي إليهما .

قيل : داخل الجنة بإدخال الحية إياه .

وقيل : من خارج ، بالسّلطنة التي جعلت له .

وقد مضى هذا في "البقرة" .

والوسوسة : الصوت الخفيّ .

والوَسْوَسَةُ : حديث النفس ؛ يقال : وسوست إليه نفسُه وَسوسة ووِسواساً (بكسر الواو) .

والوَسواس (بالفتح) : اسم ؛ مثل الزّلزال .

ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى : وَسْوَاس .

قال الأعشى :

تَسْمعُ للحلى وَسَواساً إذا انصرفت . . .

كما آستعانَ بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

والوسواس : اسم الشيطان ؛ قال الله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الوسواس الخناس ﴾ .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي ليظهر لهما .

واللام لام العاقبة ؛ كما قال : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ .

وقيل : لام كي .

و ﴿ وُورِيَ ﴾ أي سُتر وغُطي عنهما .

ويجوز في غير القرآن أُورِيَ ، مثل أُقِّتَتْ و ﴿ مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (من عوراتها) وسمي الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه .

ودل هذا على قبح كشفها فقيل : إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما ؛ كان عليهما نَوْرٌ لا ترى عوراتهما فزال النور .

وقيل : ثوب ؛ فتهافت ، والله أعلم .

﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ "أن" في موضع نصب ، بمعنى إلا ، كراهيةَ أن ؛ فحذف المضاف .

هذا قول البصريين .

والكوفيون يقولون : لئلا تكونا .

وقيل : أي إلا ألاّ تكونا ملكين تعلمان الخير والشر .

وقيل : طِمع آدم في الخلود ؛ لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة .

قال النحاس : وبيّن الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع من القرآن ؛ فمنها هذا ، وهو ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ .

ومنه ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [هود : 31] .

ومنه ﴿ وَلاَ الملائكة المقربون ﴾ [النساء : 172] .

وقال الحسن : فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة .

وقال غيره : فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية ؛ فلهذا يقع التفضيل في كل شيء .

وقال ابن فُورك .

لا حجة في هذه الآية ؛ لأنه يحتمل أن يريد مَلكيْن في ألاّ يكون لهما شهوة في طعام .

واختيار ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة ؛ وقد مضى في "البقرة" .

وقال الكلبيّ : فضلوا على الخلائق كلهم ، غير طائفة من الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ؛ لأنهم من جملة رُسُل الله .

وتمسّك كل فريق بظواهر من الشريعة ، والفضل بيد الله .

وقرأ ابن عباس "مَلِكين" بكسر اللام ، وهي قراءة يحيى بن أبي كثير والضحاك .

وأنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال : لم يكن قبل آدم صلى الله عليه وسلم مِلك

فيصيرا ملكين .

قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام ، ولا يجوز على هذه القراءة الأولى لخفة الفتحة .

قال ابن عباس : أتاهما الملعون من جهة الملك ؛ ولهذا قال ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه : 120] .

وزعم أبو عبيد أن احتجاج يحيى بن أبي كثير بقوله : "ومُلْكٍ لاَ يبلى" حجة بينة ، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها .

قال النحاس : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ قراءة شاذّة .

وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام ، وجُعِل من الخطأ الفاحش .

وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة ؛ وهي غاية الطالبين .

وإنما معنى ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ المقام في ملك الجنة ، والخلود فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾

يعني فوسوس إليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان ، يقال : وسوس إذا تكلم كلاماً خفيفاً مكرراً وأصله من صوت الحلي ومعنى وسوس لهما فعلَ الوسوسة وألقاها إليهما .

فإن قلت : كيف وسوس إليهما وآدم وحواء في الجنة وإبليس قد أُخرج منها ؟

قلت : ذكر الإمام فخر الدين الرازي في الجواب عن السؤال عن الحسن أنه قال : كان يوسوس في الأرض إلى السماء إلى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له .

قوله وقال أبو مسلم الأصبهاني : بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض والذي يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل في جوف الحية فدخلت به الحية إلى الجنة فقصه مشهورة ركيكة ، وقال آخرون : إن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان إبليس واقفاً من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك .

فإن قلت : إن آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله ؟

قلت : يحتمل أن يقال إن إبليس لقي آدم مراراً كثيرة ورغبه في أكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها رجاء نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما ﴿ إني لكما من الناصحين ﴾ فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام إبليس في آدم حتى أكل من الشجرة ﴿ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ يعني ليظهر لهم ما غطى وستر عوراتهما وقوله ما ووري مأخوذ من المواراة وهي الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج الرجل والمرأة سمي بذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام في قوله ليبدي هلما لام العاقبة وذلك لأن إبليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وإنما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما أن بدت عوراتهما ﴿ وقال ﴾ يعني وقال إبليس لآدم وحواء ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ﴾ يعني عن الأكل من هذه الشجرة ﴿ إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ يعني إنما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون وإنما أطمع إبليس آدم بهذه الآية لأنه علم أن الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب أن يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم أو يكون من الخالدين الذين لا يموتون أبداً .

فإن قلت : ظاهر الآية يدل على أن الملَك أفضل من الأنبياء لأن آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه .

(262/265)

قلت : ليس في ظاهر الآية ما يدل على ذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل أن يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أو من الخالدين وعلى تقديره أن تكون هذه الواقعة في زمان النبوة بعد أن شرف بها آدم إنما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لأنهم أفضل منه حتى يلتحق بهم في الفضل لأنه طلب إما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لا يموتون أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾

(263/265)

أي فعل الوسوسة لأجلهما وأما قوله ﴿ فوسوس ﴾ إليه فمعناه ألقى الوسوسة إليه ، قال الحسن : وصلت وسوسته لهما في الجنة وهو في الأرض بالقوة التي خلقها الله له ، قال ابن عطية : وهذا قول ضعيف يردّه لفظ القرآن ، وقيل : كان في السماء وكانا يخرجان إليه ، وقيل : من باب الجنة وهما بها ، وقيل : كان يدخل إليهما في فم الحية ، وقال الكرماني : ألهمهما ، وقال ابن القشيري : أورد عليهما الخواطر المزيّنة وهذان القولان يخالفان ظاهر القرآن لأن ظاهره يدلّ على قول ومحاورة وقسم والظاهر أنّ اللام لام كي قصد إبداء سوآتهما وتنحطّ مرتبتهما بذلك ويسوؤهما بكشف ما ينبغي ستره ولا يجتنبان نهى الله فيكون هو وهما سواء في المخالفة هو أمر بالسجود فأبى ، وهما نهيا فلم ينتهيا ، وقال قوم : إنها لام الصيرورة لأنه لم يكن له علم بهذه العقوبة المخصوصة فيقصدها ، قال الزمخشري : وفيه دليل على أنّ كشف العورة من عظائم الأمور وأنه لم يزل مستهجناً في الطّباع مستقبحاً في العقول انتهى ، وهو على مذهبه الاعتزالي في أنّ العقل يقبح ويحسن ، والظاهر أنه يراد مدلول سوآتهما نفسهما وهما الفرْج والدّبر قيل : وكانا لا يريانهما قبل أكل الشجرة فلما أكلا بدتا لهما ، وقيل : لم يكن كل واحد يرى سوأة صاحبه ، وقال قتادة كنى سوءاتهما عن جميع بدنهما وذكر السوأة لأنها أقبح ما يظهر من بني آدم .

وقرأ الجمهور ﴿ ووري ﴾ ، وقرأ عبد الله أوري بإبدال الواو همزة وهو بدل جائز ، وقرأ ابن وثاب ما وري بواو مضمومة من غير واو بعدها على وزن كسى ، وقرأ مجاهد والحسن من سوّتهما بالإفراد وتسهيل الهمزة بإبدالها واواً وإدغام الواو فيها ، وقرأ الحسن أيضاً وأبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصّاح من سوّاتهما بتسهيل الهمزة وتشديد الواو ، وقرىء من سواتهما بواو واحدة وحذف الهمزة ووجهه أنه حذفها وألقى حركتها على الواو فمن قرأ بالجمع فهو من وضع الجمع موضع التثنية كراهة اجتماع مثلين ومن قرأ بالإفراد فمن وضعه موضع التثنية ويحتمل أن يكون الجمع على أصل وضعه باعتبار أنّ كل عورة هي الدّبر والفرْج وذلك أربعة : فهي جمع وإلا أن تكونا ملكين استثناء مفرّغ من المفعول من أجله أي ما نهاكما ربّكما لشيء إلا كراهة أن تكونا ملكين ويقدره الكوفيّون إلا أن تكونا وإضمار الاسم وهو كراهة أحسن من إضمار الحرف وهو لا ، وقال الزمخشري : وفيه دليل على أنّ الملائكة بالمنظر الأعلى وأن البشريّة تلمح مرتبتها انتهى .

وقال ابن فورك : لا حجة في هذه الآية على أنّ الملائكة أفضل من البشر لأنه يحتمل أن يريد ملكين في أن لا يكون لهما شهوة في طعام انتهى ، وقرأ ابن عباس والحسن بن علي والضحّاك

ويحيى بن كثير والزهري وابن حكيم عن ابن كثير ملكين بكسر اللام ، ويدلّ لهذه القراءة ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ ومن الخالدين من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(265/265)

وقال أبو السعود :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾

أي فعل الوسوسةَ لأجلهما أو تكلم لهما كلاماً خفياً متداركاً متكرّراً ، وهي في الأصل الصوتُ الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوَسَ الحَلْيُ وقد سبق بيانُ كيفيةِ وسوستِه في سورة البقرة ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي ليُظهر لهما واللامُ للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءَهما بانكشاف عورتيهما ، ولذلك عبّر عنهما بالسوأة وفيه دليلٌ على أن كشف العورةِ في الخلوة وعند الزوجِ من غير حاجة قبيحٌ مستهجَنٌ في الطباع ﴿ مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما وكانا لا يَرَيانها من أنفسهما ولا أحدُهما من الآخر ، وإنما لم تُقلب الواوُ المضمومةُ همزةً في المشورة كما قلبت في أويصِل : تصغير واصل لأن الثانيةَ مدةٌ ، وقرىء سَوَاتِهما بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الواو ،

وبقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها ﴿ وَقَالَ عطف على وسوس بطريق البيان ﴿ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة ﴾ أي عن أكلها ﴿ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ أي إلا كراهة أن تكونا ملكين ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة ، وليس فيه دلالةٌ على أفضلية الملائكةِ عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائقَ لا تنقلب وإنما كانت رغبتُهما في أن يحصُل لهما أوصافُ الملائكةِ من الكمالات الفطريةِ والاستغناء عن الأطعمة والأشربة وذلك بمعزل من الدِلالة على الأفضلية بالمعنى المتنازَعِ فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(266/265)

وقال الآلوسى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾

أي فعل الوسوسة لأجلهما أو ألقى إليهما الوسوسة وهي في الأصل الصوت الخفي المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلي وسوسة ، وقد كثرت فعللة في الأصوات كهينمة وهمهمة وخشخشة ، وتطلق على حديث النفس أيضاً وفعلها وسوس وهو لازم ويقال : رجل موسوس بكسر الواو لا تفتح على ما قاله ابن الأعرابي .

وقال غيره : يقال موسوس بالفتح وموسوس إليه فيكون الأول على الحذف والإيصال .

والكلام في كيفية وسوسة اللعين قد تقدمت الإشارة إليه في سورة البقرة .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي ليظهر لهما ، واللام إما للعاقبة لأن الشيطان لم يقصد بوسوسته ذلك ولم يخطر له ببال وإنما ءال الأمر إليه ، وإما للتعليل على ما هو الأصل فيها ، ولا يبعد أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما انكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة ، ويكون هذا مبنياً على الحدس أو العلم بالسماع من الملائكة أو الاطلاع على اللوح .

قيل : وفي ذلك دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع .

﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءِتِهِمَا ﴾ أي ما غطي وستر عنهما من عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وكانت مستورة بالنور على ما أخرجه الحكيم الترمذي وغيره عن وهب بن منبه أو بلباس كالظفر على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي ، وجمع السوآت على حد ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] واعتبار الأجزاء بعيد ، والمتبادر من هذا الكلام حقيقته ، وقيل هو كناية عن إزالة الحرمة وإسقاط الجاه ، و ﴿ وُورِيَ ﴾ بواوين ماضي وارى كضارب وضورب أبدلت ألفه واواً فالواو الأولى فاء الكلمة والثانية زائدة .

وقرأ عبد الله ﴿ أوري ﴾ بالهمزة لأن القاعدة إذا اجتمع واوان في أول كلمة فإن تحركت الثانية أو كان لها نظير متحرك وجب إبدال الأولى همزة تخفيفاً مثال الأول أويصل وأواصل في تصغير واصل وتصغيره ومثال الثاني أولى أصله وولى فأبدلت الأولى لما تحركت الثانية في الجمع وهو أول فإن لم يتحرك بالفعل أو القوة جاز الإبدال وعدمه كما هنا قاله الشهاب نقلاً عن النحاة.

وقرىء ﴿ سوأتهما ﴾ بالإفراد والهمزة على الأصل و﴿ سوتهما ﴾ بإبدال الهمزة واواً وإدغام الواو في الواو، وقرىء ﴿ سواتهما ﴾ بالجمع وطرح حركة الهمزة على ما قبلها وحذفها و﴿ سواتهما ﴾ بالطرح وقلب الهمزة واواً والإدغام.

﴿ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ﴾ عطف على (وسوس) بطريق البيان ﴿ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة ﴾ أي الأكل منها ﴿ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ استثناء مفرغ من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفي ليكون علة أي كراهية أن تكونا أو لئلا تكونا ملكين ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ أي الذين لا يموتون أصلاً أو الذين يخلدون في الجنة.

وقرأ ابن عباس ويحيى بن كثير ﴿ مَلَكَيْنِ ﴾ بكسر اللام.

قال الزجاج: ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى حكاية عن اللعين ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه: 120].

استدل بالآية على أفضلية الملائكة حيث إن اللعين قال ذلك ولم ينكر عليه ، وارتكب آدم عليه السلام المنهي عنه طمعاً فيما أشار إليه الشيطان من الصيرورة ملكاً فلولا أنه أفضل لم يرتكبه ، وأجيب بأن رغبتهما إنما كانت في أن يحصل لهما أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الأطعمة والأشربة ونحو ذلك ونحن لا نمنع أفضلية الملائكة من هذه الأوجه وإنما نمنع أفضليتهم من كل الوجوه والآية لا تدل عليه ، وأيضاً قد يقال : إن رغبتهما كانت في الخلود فقط وفي آية طه (120) ما يشير إليه حيث عقب فيها الترغيب في الخلود بالأكل ، واعترض بأن رغبتهما في الخلود تستلزم الكفر لما يلزم ذلك من إنكار البعث والقيامة ، ومن ثم قال الحسن لعمرو بن عبيد لما قال له : إن آدم وحواء هل صدقا قول الشيطان : معاذ الله تعالى لو صدقا لكانا من الكافرين ، وأجيب بأن المراد من الخلود طول المكث والتصديق به ليس بكفر ولو سلم أن المراد الدوام الأبدي فلا نسلم أن اعتقاد ذلك إذ ذاك كفر لأن العلم بالموت والبعث بعده يتوقف على الدليل السمعي ولعله لم يصل إليهما وقتئذ .

وادعى بعضهم أن المراد بالخلود العارض بعد الموت بدخول الجنة وحينئذ لا إشكال إلا أنه

خلاف الظاهر .

وعن السيد المرتضى في معنى الآية أنه قال : إن اللعين أوهمهما أن المنهي عن تناول الشجرة الملائكة والخالدون خاصة دونهما كما يقول أحدنا لغيره : ما نهيت عن كذا إلا أن تكون فلانا يريد أن المنهي هو فلان دونك ، وهو كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(269/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾

كانت وسوسة الشّيطان بقرب نهي آدم عن الأكل من الشّجرة ، فعبّر عن القرب بحرف التّعقيب إشارة إلى أنّه قرب قريب ، لأنّ تعقيب كلّ شيء بحسبه .

والوسوسة الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلاّ المُداني للمتكلّم ، قال رؤبة يصف صائداً :

وَسْوَسَ يَدعُو جاهداً ربّ الفلق . . .

سِرّاً وقد أوّنَ تأوِينُ العُقق

وسمي إلقاء الشيطان وسوسة : لأنّه ألقَى إليهما تسويلاً خفياً من كلامٍ كلمهما أو انفعالٍ في

أنفسهما .

كهيئة الغاش الماكر إذْ يُخفِي كلاماً عَن الحاضرين كيلا يفسدوا عليه غشّه بفضح مضاره فألقى لهما كلاماً في صورة التّخافت ليوهمهما أنّه ناصح لهما وأنّه يخافت الكلام ، وقد وقع في الآية الأخرى التّعبير عن تسويل الشّيطان بالقول : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخُلْد وملك لا يبلى ﴾ [طه : 120] ثمّ درج اصطلاح القرآن وكلام الرّسول عليه الصّلاة والسّلام على تسمية إلقاء الشّيطان في نفوس النّاس خواطرَ فاسدة ، وسوسة تقريباً لمعنى ذلك الإلقاء للأفهام كما في قوله : ﴿ من شر الوسواس الخنّاس ﴾ [الناس : 4] وهذا التّفصيل لإلقاء الشّيطان كيده انفردت به هذه الآية عن آية سورة البقرة لأنّ هذه خطاب شامل للمشركين وهم أخلياء عن العلم بذلك فناسب تفظيع أعمال الشّيطان بمسمع منهم .

واللاّم في : ﴿ ليبدي ﴾ لام العاقبة إذا كان الشّيطان لا يعلم أنّ العصيان يفضي بهما إلى حدوث خاطر الشرّ في النّفوس وظهور السوآت ، فشبّه حصول الأثر عقب الفعل بحصول المعلول بعد العلّة كقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] وإنّما التقطوه ليكون لهم قرّة عين ، وحسن ذلك أن بدوّ سوآتهما ممّا يرضي الشّيطان .

ويجوز أن تكون لام العلّة الباعثة إذا كان الشيطان يعلم ذلك بالإلهام أو بالنّظر ، فالشّيطان وسوس لآدم وزوجه لغرض إيقاعهما في المعصية ابتداء ، لأنّ ذلك طبعه الذي جبل على عمله ، ثم لغرض الإضرار بهما ، إذ كان يعلم أنّهما يعصيان الله بالأكل من الشّجرة ، ولمّا كان عدُوّاً لهما كان يسعى إلى مَا يؤذيهما ، ويحسدهما على رضَى الله عنهما ، ويعلم أنّ العصيان يُفضي بهما إلى سوء الحال على الإجمال ، فكان مظهر ذلك السوء إبداءَ السوْآت ، فجُعل مفصِّلُ العلّة المجملة عند الفاعل هو العلّةَ ، وإن لم تخطر بباله ، ويحتمل أن يكون الشّيطان قد علم ذلك بعلم حصل له من قبل .

والحاصل أنّه أراد الإضْرار ، لأنّه قد استقرّ في طبعه عداوة البشر ، كما سيصرّح به فيما بعدُ ، وفي قوله تعالى : ﴿ إن الشّيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ [فاطر : 6] .

والإبداء ضدّ الإخفاء ، فالإبداء كشف الشّيء وإظهاره ، ويطلق مجازاً على معرفة الشّيء بعد جهله يقال : بدَا لي أنْ أفعل كذا .

وأسند إبداءُ السوْآت إلى الشّيطان لأنّه المتسبّب فيه على طريقة المجاز العقلي والسوآت جمعُ سوْأة وهي اسم لما يسوء ويتعيّر به من النّقايص ، ومِن سَب العرب قولهم : سوأةً لك ، ومن تلهّفهم : يا سوْأتَا .

ويكنّى بالسوأة عن العورة .

ومعنى ووُري عنهما حجب عنهما وأخفي ، مشتقاً من المواراة وهي التّغطيّة والإخفاء وتطلق المواراة مجازاً على صرف المرء عن علم شيء بالكتمان أو التّلبيس .

والسّوآت هنا يجوز أن تكون جمع السوأة للخصلة الذّميمة كما في قول أبي زبيد :

لَم يَهْب حُرمة النّديم وحُقَّت . . .

يا لَقَوْمي للسوأةِ السوآءِ

(271/265)

فتكون صيغة الجمع على حقيقتها ، والسّوآت حينئذٍ مستعمل في صريحه ، ويجوز أن تكون جمع السوأة ، المكنى بها عن العورة ، وقد روي تفسيرها بذلك عن ابن عبّاس كقوله تعالى : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ﴾ [الأعراف : 26] وعلى هذا فصيغة الجمع مستعملة في الاثنين للتّخفيف كقوله تعالى : ﴿ فقد صَغَت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] .

وسيجيء تحقيق معنى هذا الإبداء عند قوله تعالى بعد هذا : ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ﴾ [الأعراف : 22] .

وعطفُ جملة : ﴿ وقال ما نهاكما ربكما ﴾ على جملة ﴿ فوسوس ﴾ يدلّ على أنّ

الشّيطان وسوس لهما وسوسة غيرَ قوله : ﴿ ما نهاكما ﴾ إلخ ثمّ ثنى وسوسته بأن قال مَا نهاكما ، ولو كانت جملة : ﴿ ما نهاكما ﴾ إلى آخرها بياناً لجملة ﴿ فوسوس ﴾ لكانت جملة : ﴿ وقال ما نهاكما ﴾ بدون عاطف ، لأنّ البيان لا يعطف على المبيَّن .

وفي هذا العطف إشعار بأنّ آدم وزوجه تردّدا في الأخذ بوسوسة الشّيطان فأخذ الشيطان يراودهما .

ألا ترى أنّه لم يعطف قوله ، في سورة طه (120) : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ فإنّ ذلك حكاية لابتداء وسوسته فابتدأ الوسوسة بالإجمال فلم يعيّن لآدم الشّجرة المنهي عن الأكل منها استنزالاً لطاعته ، واستزلالاً لقدمه ، ثمّ أخذ في تأويل نهي الله إياهما عن الأكل منها فقال ما حكي عنه في سورة الأعراف : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ الآية فأشار إلى الشّجرة بعد أن صارت معروفة لهما زيادة في إغرائهما بالمعصية بالأكل من الشّجرة ، فقد وزّعت الوسوسة وتذييلها على السّورتين على عادة القرآن في الاختصار في سوْق القصص اكتفاء بالمقصود من مغزى القصّة لئلا يصير القصصُ مقصداً أصلياً للتنزيل .

(272/265)

والإشارة بقوله : ﴿ عن هذه لشجرة ﴾ إلى شجرة معيّنة قد تبيّن لآدم بعد أن وسوس إليه الشّيطان أنّها الشّجرة التي نهاه الله عنها ، فأراد إبليس إقدامه على المعصية وإزالة خوفه بإساءة ظنّه في مراد الله تعالى من النّهي .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا أن تكونا ملكين ﴾ استثناء من علل ، أي ما نهاكما لعلّة وغرض إلاّ لغرض أن تكونا مَلكين ، فتعين تقدير لام التّعليل قبل (أنْ) وحذف حروف الجرّ الدّاخلة على (أنْ) مطرد في كلام العرب عند أمن اللّبس .

وكونُهما مَلكين أو خالدَيْن علّة للنّهي : أي كونكما ملَكين هو باعث النّهي ، إلاّ أنّه باعث باعتبار نفي حصوله لا باعتبار حصوله ، أي هو علّة في الجملة ، ولذلك تأوّله سيبويه والزمخشري بتقدير : كراهة أن تكونا .

وهو تقدير معنى لا تقدير إعراب ، كما تقدّم في سورة الأنعام ، وقيل حذفت (لا) بعد (أن) وحذفها موجود ، وبذلك تأوّل الكوفيون وقد تقدم القول فيه .

وقد أوهم إبليس آدم وزوجه أنّهما متمكّنان أن يصيرا ملكين من الملائكة ، إذا أكلا من الشّجرة ، وهذا من تدجيله وتلبيسه إذْ ألفى آدم وزوجه غير متبصّرَيْن في حقائق الأشياء ، ولا عالِمَيْن المقدار الممكن في انقلاب الأعيان وتطوّرِ الموجودات ، وكانا يشاهدان تفضيل الملائكة عند الله تعالى وزلفاهم وسعة مقدرتهم ، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من

الملائكة إذا أكلا من الشّجرة ، وقيل المراد التشبيهُ البليغ أي إلاّ أن تكونا في القرب والزلفى كالمَلكين ، وقد مثل لهما بما يعرفان من كمال الملائكة .

(273/265)

وقوله : ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ عطف على : ﴿ أن تكونا ملكين ﴾ وأصل (أو) الدّلالة على التّرْديد بين أحد الشّيئين أو الأشياء ، سواء كان مع تجويز حصول المتعاطفات كلّها فتكون للإباحة بعد الطّلب ، وللتّجويز بعد الخبر أو للشكّ ؛ أم كان مع منع البعض عند تجويز البعض فتكون للتّخيير بعد الطّلب وللشكّ أو التّرْديد بعد الخبر ، والتّرديدُ لا ينافي الجزم بأن أحد الأمرين واقع لا محالة كما هنا ، فمعنى الكلام أن الآكل من هذه الشّجرة يكون مَلَكاً وخالداً ، كما قال عنه في سورة طه (120) : ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ فجعل نهي الله لهما عن الأكل لاَ يَعدو إرادة أحد الأمرين ، ويستفاد من المقام أنّه قد يريد حرمانهما من الأمرين جميعاً بدلالة الفحوى ، ولم يكن آدم قد علم حينئذ أنّ الخلود متعذر ، وأنّ الموت والحشر والبعث مكتوب على النّاس ، فإنّ ذلك يتلقّى من الوحي كما في قوله تعالى لهما في الآية الأخرى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : 36] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ما وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [20]

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أي : إبليس بأكل الشجرة مخيلاً لهما النفع .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي : يظهر لهما : ﴿ مَا وُورِيَ ﴾ أي : ستر : ﴿ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾ أي : عوراتهما واللام في : ﴿ لِيُبْدِيَ ﴾ إما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدوره منهما ، أي : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوآتهما ، أو للتعليل والغرض ، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريق ما .

تنبيه :

في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوأة ، لأنه يسوء صاحبها . .

قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ، وأنه كان في شريعة آدم عليه السلام .

قال القاضي : لا دليل في الآية على الوجوب ، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك .

قال الأصم : في الآية دليل على أنهما كرها التعريّ ، وإن لم يكن لهما ثالث ، ففي ذلك دليل على قبح التعري ، وإن لم يكن مع المتعري أحد ، إلا لحاجة ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا ﴾ أي : إلا كراهة أن تكونا : ﴿ مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ أي : من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين .

وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لارتكابهما ذلك طمعاً في نيل ما ذكر ، وأجاب من لم ير هذا ، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم ، ولئن كانت بعدها ، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة ، أو لخلقة الذات ، بأن يصير جوهراً نورانياً – أشار له الرازي .

(275/265)

وقال الناصر : لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته لأن الملائكة أفضل ، أن يكون الأمر كذلك في علمه تعالى ، ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ، وهو في ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً ، وليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ، ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على

أنه كذب لهما وغرهما ، إذ قال الله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ فلعل تفضيل الملائكة على النبوة من جملة غروره . انتهى .

قال السيوطي في " الإكليل " : وأنا أقول : لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية ، والكلام الذي فيها ، حكاه الله تعالى عن قول إبليس في معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس ، وإنما يستدل من كلامه تعالى ، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه ، وإن لم يكن ذلك ، فكلام حكاه راضياً به مقراً له . انتهى .

على أنه قرئ (مَلِكين) بكسر اللام ، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبي كثير .

قال الواحدي : إنما أتاهما إبليس من جهة الملك . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ . انتهى .

والقراءة الشاذة قد تكون تفسيراً للمتواترة ، كما لا يخفى ، وبه يندفع ما للرازي هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 26 . 27 ﴾

(276/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾

كلمة " وسوس " تدل على الهمس في الإغواء ، ونعرف أن الذي يتكلم في خير لا يهمه أن يسمعه الناس . لكن من يتكلم في شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتي همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحي منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشيء ، و" وسوس " مأخوذة من الصوت المغري ، لأن الوسوسة هي صوت رنين الذهب والحلي ، إذن فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مغرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾ يعطينا حيثيات البراءة لحواء ؛ لأن الشائع أن حواء هي التي ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً . ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ . [الأعراف : 20]

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدي لهما ما ووري من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشيء الذي حرمه ربنا ستظهر سواءتهما ، و" السوءة " هي ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة .

وكأنهما في البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ .

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكأن كل إنسان منهما لا يرى سوءتيه ، وكذلك لا يرى سوءتي الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جداً . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – : " ما رأيت ولا أرى مني " ، وفي هذا القول تتجلّى قمة الأدب لأنها لم تجيء حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبني على الستر . وذلك حين حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " " يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين " ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : " الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد . "

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [الأعراف : 20]

وبماذا ووري ؟ . لا بد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء الكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يواري السوءات ، ويقال : إنّ أيّ إنسان يكون في غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتم نَفْسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك إنه يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة .

وجرّبها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإِله .

أو أن الستار الذي كان يواري السوءة هو النور الإِلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عمَّى على الأشياء فأخفاها فلا تراها ؛ لأن أي أمر إذا زاد على حدّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإِلهي الذي كان يغشاهما ويواري السوءة ، وقد سميت "سوءة" و"عورة" ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة ؟ .

(278/265)

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا – كما قلنا – في حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطي كُلاًّ منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية ؟

نعم ؛ لأن كل شيء يُخَالَف فيه منهج الله لابد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أي عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل . وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة : ﴿ وقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [الأعراف : 20]

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير مَلَكاً ، أو خالداً . ولم يمحص أي منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكاً أو خالداً ؟ وفي هذا درس يبين لنا أن مَن يُزيّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أي غواية يسير ، وأن يدقق في نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : 14] فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهي المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(279/265)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [20] قال : الوسوسة ذكر الطبع ، ثم النفس ، ثم الهم والتدبير ، ووسواس العدو على ثلاث مقامات : فالأول يدعوه ويوسوس له ، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل ، والثالث ليس له إلاَّ الانتظار والطمع ، وهو للصديقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 65 ﴾

(280/265)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) ﴾

أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال : نهى الله آدم وحوّاء أن يأكلا من شجرة واحدة في الجنة ، فجاء الشيطان فدخل في جوف الحية (1) ، فكلم حوّاء ووسوس إلى آدم فقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني

لكما لمن الناصحين ، فقطعت حوّاء الشجرة فدميت الشجرة وسقط عنهما رياشهما الذي كان عليهما ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين ﴾ ، لم أكلتها وقد نهيتك عنها ؟ قال : يا رب أطعمتني حواء . قال لحوّاء : لم أطعمتيه ؟ قالت : أمرتني الحية . قال للحية : لم أمرتها ؟ قالت : أمرني إبليس . قال : ملعون مدحور ، أما أنت يا حوّاء كما أدميت الشجرة تدمين في كل هلال ، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين جراً على وجهك ، وسيشدخ رأسك من لقيك بالحجر ، اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ .

---

(1) تقدم الرد على هذه الإسرائيليات (المنكرة) فى سورة البقرة .

(281/265)

وأخرج ابن المنذر عن أبي غنيم سعيد بن حدين الحضرمي قال : لما أسكن الله آدم وحوّاء الجنة خرج آدم يطوف في الجنة ، فاغتنم إبليس غيبته فأقبل حتى بلغ المكان الذي فيه حوّاء ، فصفر بقصبة معه صفيراً سمعته حواء ، وبينها وبينه سبعون قبة بعضها في جوف بعض ، فأشرفت حواء عليه فجعل يصفر صفيراً لم يسمع السامعون بمثله من اللذة والشهوة والسماع حتى ما بقي من حواء عضو مع آخر إلا تخلج ، فقالت : أنشدك بالله العظيم لما

أقصرت عني فإنك قد أهلكتني ، فنزع القصبة ثم قلبها فصفر صفيراً آخر ، فجاش البكاء والنوح والحزن بشيء لم يسمع السامعون بمثله حتى قطع فؤادها بالحزن والبكاء ، فقالت : أنشدك بالله العظيم لما أقصرت عني ، ففعل فقالت له : ما هذا الذي جئت به ؟ أخذتني بأمر الفرح وأخذتني بأمر الحزن . قال : ذكرت منزلتكما من الجنة وكرامة الله إياكما ففرحت لكما بمكانكما ، وذكرت إنكما تخرجان منها فبكيت لكما وحزنت عليكما ، ألم يقل لكما ربكما متى تأكلان من هذه الشجرة تموتان وتخرجان منها ؟ أنظري إليّ يا حواء ، فإذا أنا أكلتها فإن أنا مت أو تغير من خلقي شيء فلا تأكلا منها ، أقسم لكما بالله إني لكما من الناصحين . فانطلق إبليس حتى تناول من تلك الشجرة فأكل منها ، وجعل يقول : يا حواء انظري هل تغير من خلقي شيء أم هل مت قد أخبرتك ما أخبرتك . ثم أدبر منطلقاً .

(282/265)

وأقبل آدم من مكانه الذي كان يطوف به من الجنة فوجدها منكبة على وجهها حزينة ، فقال لها آدم : ما شأنك . . . ؟ ! قالت أتاني الناصح المشفق قال : ويحك . . . ! لعله إبليس الذي حذرناه الله ؟ قالت : يا آدم والله لقد مضى إلى الشجرة فأكل منها وأنا أنظر

فما مات ولا تغير من جسده شيء ، فلم تزل به تدليه بالغرور حتى مضى آدم وحواء إلى الشجرة ، فأهوى آدم بيده إلى الثمرة ليأخذها ، فناداه جميع شجر الجنة : يا آدم لا تأكلها فإنك إن أكلتها تخرج منها ، فعزم آدم على المعصية فأخذ ليتناول الشجرة ، فجعلت الشجرة تتطاول ثم جعل يمدّ يده ليأخذها ، فلما وضع يده على الثمرة اشتدت ، فلما رأى الله منه العزم على المعصية أخذها وأكل منها ، وناول حواء فأكلت ، فسقط منها لباس الجمال الذي كان عليها في الجنة ، وبدت لهما سوءاتهما ، وابتدرا يستكنان بورق الجنة يخصفان عليهما من ورق الجنة ويعلم الله يُنظر أيهما .

فأقبل الرب في الجنة فقال : يا آدم أين أنت أخرج ؟ قال : يا رب أنا ذا أستحي أخرج إليك . قال : فلعلك أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها ؟ قال : يا رب هذه التي جعلتها معي أغوتني . قال : فمتى تختبىء يا آدم ؟ أو لم تعلم أن كل شيء لم يا آدم ، وأنه لا يخفى عليّ شيء في ظلمة ولا في نهار ؟ قال : فبعث إليهما ملائكة يدفعان في رقابهما حتى أخرجوهما من الجنة ، فأوقفا عريانين وإبليس معهما بين يدي الله ، فعند ذلك قضى عليهما وعلى إبليس ما قضى ، وعند ذلك أهبط إبليس معهما ، وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وأهبطوا جميعاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن وهب بن منبه في قوله ﴿ ليبدي لهما ما وُورِيَ عنهما من سوءاتهما ﴾ قال :

كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما عورة صاحبه ، فلما أصابا الخطيئة نزع منهما .

(283/265)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : ليهتك لباسهما وكان قد علم أن لهما سوءة لما كان يقرأ من كتب الملائكة ، ولم يكن آدم يعلم ذلك ، وكان لباسهما الظفر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتاهما إبليس قال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين تكونا مثله يعني مثل الله عز وجل فلم يصدقاه حتى دخل في جوف الحية فكلمهما .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ إلا أن تكونا ملكين ﴾ بكسر اللام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه كان يقرأ ﴿ الا أن تكونا ملكين ﴾ بنصب اللام من الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ إلا أن تكونا ملكين ﴾ قال : ذكر تفضيل الملائكة فضلوا بالصور ، وفضلوا بالأجنحة ، وفضلوا بالكرامة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : إن في الجنة شجرة لها

غصنان أحدهما تطوف به الملائكة ، والآخر قوله ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ يعني الملائكة الذين يطوفون بذلك الغصن .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس . أنه كان يقرأ هذه الآية ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ فإن أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين ، فلا تموتان فيها أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(284/265)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فوَسْوَسَ لَهُمَا " أي : فَعَلَ الوَسْوَسَةَ لأجلهما .

والفَرْقُ بين وسْوَسَ له ووَسْوَسَ إليه أنَّ وَسْوَسَ له بمعنى لأجله كما تقدَّم ، ووَسْوَسَ إليه أَلْقَى إلَيْه الوَسْوَسَةَ .

والوَسْوَسَةُ : الكلام الخفيُّ المكرر ، ومثله الوسْواسُ وهو صوتُ الحليِّ ، والوسوسَةُ أيضاً الخَطْرَةُ الرَّديئَةُ ، ووَسْوَسَ لا يتعدَّى إلى مَفْعُولٍ ، بل هو لازِمٌ كقولنا : وَلْوَلَتِ المَرأةُ ، ووعْوَعَ الذِّئبُ ويقالُ : رجلٌ مُوَسْوِسٌ بِكَسْرِ الوَاوِ ، ولا يُقَالُ بفتحها ، قالهُ ابْنُ الأعْرَابِيِّ .

وقال غيره : يقال : مُوَسْوَس له ، ومُوَسْوَس إليه .

وقال اللَّيْثُ : " الوَسْوَسَةُ حديثُ النَّفْس ، والصَّوْتُ الخَفِيُّ من ريحٍ تَهُزُّ قصباً ونحوه كالهمْسِ " .

قال تعالى ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] .

وقال رُؤبَةُ بْنُ العَجَّاج يَصِفُ صَيَّاداً : [الرجز]

2429 - وَسْوَسَ يَدْعُوا مُخْلِصاً رَبَّ الفَلَقْ . . .

لَمَّا دَنَا الصَّيْدُ دَنَا مِنَ الوَهَقْ

أي : لما أراد الصَّيدَ وسوس في نَفْسِهِ : أيُخْطىء أم يُصِيبُ ؟ وقال الأزْهَرِيُّ : " وسْوَسَ ووَزْوَزَ بمعنىً واحد " .

قوله : " لِيُبْدِيَ لَهُمَا " في لام " لِيُبْدِي " قولان :

أظهرهما : أنها لامُ العِلَّةِ على أصلها ؛ لأنَّ قَصْدَ الشَّيْطانِ ذلك .

وقال بعضهم : " اللاَّمُ " لِلصَّيْرُورةِ والعاقِبَةِ ، وذلك أنَّ الشَّيْطَانَ لم يكن يعلم أنَّهُمَا يعاقبان بهذه العُقُوبَةَ الخَاصَّاةِ ، فالمعنى : أن أمْرَهُمَا آل إلى ذلك .

الجوابُ : أنهُ يجوز أنْ يُعْلم ذلك بطريق من الطُّرُق المتقدّمةِ في قوله ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : 17] .

ومعنى قوله : " لِيُبْدِيَ لَهُمَا " ليظهر لهما ما غُطِّي وسُتِرَ عنهما من عوراتهما .

قوله : " مَا وُوْرِي " " مَا " موصولة بمعنى الذي ، وهي مفعول لـ " لِيُبْدِي " أي : لِيُظْهِر الذي سُتِرَ .

(285/265)

وقرأ الجمهور : " وُوْرِي " بواوين صريحَتَيْنِ وهو ماضٍ مبني للمفعول ، أصله " وَارَى " كضارَبَ فلمَّا بُني للمفعول أُبْدِلَت الألف واواً كضُورِبَ ، فالواو الأولى فاء ، والثَّانية زائِدَةٌ .

وقرا عبد الله : " أُوْرِيَ " بإبدال الأولى همزة ، وهو بدلٌ جَائِزٌ لا واجب .

وهذه قَاعِدَةٌ كلِّيَّةٌ وهي : أنَّه إذا اجتمع في أوَّلِ الكلمةِ واوان ، وتحرَّكتِ الثَّانيةُ ، أو كان لها نَظِيرٌ مُتَحَرِّكٌ وجب إبدال الأولى همزة تخفيفاً ، فمثال النَّوْعِ الأوَّلِ " أوَيْصِلٌ " ، وَ " أوَاصِلُ " تصغير واصلٍ وتكسيره ، فإنَّ الأصل : وُوَيْصِل ، وواصل ؛ فاجتمع واوان في المثالين ثانيتهما متحركة فوجب إبدالُ الأولى همزة .

ومثالُ النَّوْعِ الثَّانِي أوْلى فإنَّ أصلها وُوْلَى ، فالثَّانيةُ ؛ لكنها قد تتحرَّكُ في الجَمْعِ في قولك : أُوَل ؛ كفُضْلَى وفُضَل ، فإن لم تتحرَّك ولم تحمل على متحرّك ، جَازَ الإبدَالُ كهذه الآيَةِ الكريمةِ .

ومثله وُوْطِىءَ وأوْطِىءَ .

وقرأ يحيى بن وثاب " وَرِيَ " بواو واحدة مضمومة وراء مكسورة ، وكَأَنَّهُ من الثُّلاثيِّ المتعدِّي ، وتحتاج إلى نَقْلِ أنَّ وَرَيْتُ كذا بمعنى وارَيْتُه .

والمُوَارَاةُ : السَّتْرُ ، ومنه قوله – عليه الصلاة والسلام – لَمَّا بلغه موت أبي طالب لعليٍّ : " اذْهَبْ فوارِه " .

ومنه قول الآخر : [مخلع السبيط]

2430 – عَلَى صَدىً أسْوَدَ المُوَارِي . . .

فِي التُّرْبِ أمْسَى وفِي الصَّفِيحِ

وقد تقدَّم تحقيق هذه المادَّةِ

والجمهور على قراءة " سَوْءَاتِهما " بالجمع من غير نقل ، ولا إدغام .

وقرأ مُجاهدٌ والحسن " سَوَّتَهما " بالإفراد وإبدال الهمز [واواً] وإدغام الواو فيها .

وقرأ الحسنُ أيضاً ، وأبو جعفر وشَيْبَةُ بن نصاح " سَوَّاتهما " بالجمع وتشديد الواو بالعمل المتقدم .

(286/265)

وقرأ أيضاً " سَوَاتِهما " بالجمع أيضاً ، إلا أنَّهُ نقل حركة الهمزة إلى الواو من غير عملٍ آخَرَ ، وكلُّ ذلك ظَاهِرٌ .

فمن قرأ بالجمع فيحتمل وجهين :

أظهرهما : أنَّهُ من باب وَضْعِ الجمع موضع التَّثْنِيَةِ كراهية اجتماع تثنيتين ، والجمع أخُوا التَّثْنِيَةِ فلذلك ناب منابها كقوله : ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَآ ﴾ [التحريم : 4] وقد تقدَّم تَحْقِيقُ هذه القاعدة .

ويحتمل أنْ يكون الجَمْعُ هنا على حقيقته ؛ لأنَّ لكل واحد منهما قُبُلاً ، ودُبُراً ، والسوءات كنايةٌ عن ذلك فهي أربع ؛ فلذلك جِيءَ بالجَمْعِ ، ويؤيِّدُ الأوَّل قراءةُ الإفراد فإنَّه لا تكون [كذلك] إلاَّ والموضع موضع تثنية نحو : " مَسَحَ أُذُنَيْهِ ظَاهِرهُمَا وبَاطِنَهُمَا " .

قوله : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ .

هذا استثناء مُفَرَّغٌ وهو مفعول من أجله فقدَّرَهُ البَصْرِيُّونَ إلاَّ كراهة أنْ تكونا ، وقدَّرَهُ الكوفِيُّون إلاّ أن لا تكونا ، وقد تقدَّم مراراً أنَّ قول البَصْرِيِّين أوْلى ؛ لأنَّ إضْمَارَ الاسْمِ أحسنُ من إضمار الحَرْفِ .

وقرأ الجمهور " مَلَكَيْنِ " بفتح اللاَّم .

وقرأ عَلِيٌّ ، وابن عباس والحسنُ ، والضَّحَّاكُ ، ويحيى بْنُ أبي كَثِير والزُّهْرِيُّ وابن حكيم عن ابن كثير " مَلِكين " بكسرها قالوا : ويُؤيِّدُ هذه القراءة قوله في موضع آخر : ﴿ هَلْ

أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه : 120] والمُلك يناسِبُ المَلِك بالكسر . وأتى بقوله " مِنَ الخَالِدِينَ " ولم يقل " أو تَكُونَا خَالِدَيْن " مبالغةٌ في ذلك ؛ لأنَّ الوصف بالخُلُودِ أهمُّ من المَلْكية أو المُلْك ، فإنَّ قولك : " فُلانٌ من الصَّالحينَ " بلغُ من قولك صالحٌ ، وعليه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ [التحريم : 12] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 56.53 ﴾ . باختصار .

(287/265)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ .

نِسْبَتُه ما حَصَلَ منهما إلى الشيطان من أمارات العناية ، كانت الخطيئةُ منهما لكنَّه تعالى قال : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ .

ويقال التقى آدمُ بإبليس بعد ذلك فقال : يا شَقِيُّ ! وسوستَ إليَّ وفعلتُ ! ، فقال إبليس لآدم . يا آدم ! هَبْ أنِّي إبليسُك فَمَنْ كان إبليسي ! ؟ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ .

وفي ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ فلم يطلع على سوأتهما غيرهما .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ ﴾ .

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكين – لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام – ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما .

ويقال لمَّا طمعا في الخلود وقعا في الخمود ، ووقعا في البلا والخوف ؛ وأصل كُلَّ محنةٍ الطمعُ .

ويقال إذا كان الطمع في الجنة – وهي دار الخلود – أَوْجَبَ كُلَّ تلك المحن فالطمع في الدنيا – التي هي دار الفناء – متى يسلم صاحبه من ذلك ؟ ويقال إن يكونا إنما ركنا إلى الخلود فلا لنصيبِ أنفسهما ، ولكن لأجل البقاء مع الله تعالى ، وهذا أَوْلى لأنه يوجب تنزيه محلِّ النبوة . وقيل ساعاتُ الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة ، فما لبثا في دار الوصلة إلاَّ بعضاً من النهار ؛ دَخَلاَ ضحوةَ النهار وخَرَجَا نِصْفَ النهار ! ويقال إن الفراقَ عينٌ تصيب أهلَ الوصلة ، وفي معناه قال قائلهم :

إنْ تكُنْ عينٌ أصابتك فما . . . إلا لأنَّ العين تصيب الحَسَنَا

ويقال حين تمَّتْ لهما أسباب الوصلة ، ووَطَّأَ نفوسهما على دوام البرية بدا الفراق من مكامنه فأباد من شملهما ما انتظم ، كما قيل :

حين تمَّ الهوى وقلنا سُرِرْنا . . . وحَسِبْنا مِنْ الفراق أَمنَّا

بَعَثَ البَيْنُ رُسْلَه في خفاءٍ . . . فأبادوا من شملنا ما جمعنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 523.525 ﴾

(288/265)

ومن فوائد البيضاوى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾

أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ثم صورناه . نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره ، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه . ﴿ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ ﴾ وقيل ثم لتأخير الإخبار . ﴿ فَسَجَدُواْ إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مّنَ الساجدين ﴾ ممن سجد لآدم .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾

أي أن تسجد ولا صلة مثلها في لئلا يعلم ، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ، ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود . وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل :

ما اضطرك إلى ألا تسجد . ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور . ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ جواب من حيث المعنى استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال : المانع أني خير منه ، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول ، فكيف يحسن أن يؤمر به . فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً . ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ تعليل لفضله عليه ، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي بغير واسطة ، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ وباعتبار الغاية وهو ملاكه ولذلك أمر الملائكة بسجوده لما بين لهم أنه أعلم منهم ، وأن له خواص ليست لغيره ، والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة ، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب .

(289/265)

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ من السماء أو الجنة . ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ فما يصح . ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ وتعصي فإنها مكان الخاشع والمطيع . وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق

بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عِصيانه . ﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ ممن أهانه الله لتكبره ، قال عليه الصلاة والسلام " من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله "

﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

أمهلني إلى يوم القيامة فلا تمتني ، أو لا تعجل عقوبتي .

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى : ﴿ إِلَى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وهو النفخة الأولى ، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه ، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي بعد أن أمهلتني لاجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسمية ، أو حملاً على الغي ، أو تكليفاً بما غويت لأجله والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأقعدن فإن اللام تصد عنه فإن القسم : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة .

﴿ صراطك المستقيم ﴾ طريق الإسلام ونصبه على الظرف كقوله :

لدنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه . . . فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم : ضرب زيد الظهر والبطن .

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾

أي من جميع الجهات الأربع . مثل قصده إياهم بالتسويل والإِضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع ، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم . وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإِتيان منه يوحش الناس . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : من بين أيديهم من قبل الآخرة ، ومن خلفهم من قبل الدنيا ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم . ويحتمل أن يقال من أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه ، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم . وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما موجه إليهم وإلى الأخيرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم ، ونظيره قولهم جلست عن يمينه . ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ مطيعين ، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً ، وقيل سمعه من الملائكة .

﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا ﴾ مذموماً من ذأمه إذا ذمه . وقرىء "مذموماً" كمسول في مسؤول أو

كمكول في مكيل ، من ذامه يذيمه ذيماً . ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً . ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم وجوابه : ﴿ لأَمْلانَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط . وقرىء ﴿ لِمَنْ ﴾ بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى : لمن تبعك هذا الوعيد ، أو علة لأخرج ولأملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم ومنهم فغلب المخاطب .

(291/265)

﴿ ويَا ءادَمَ ﴾ أي وقلنا يا آدم .

﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ وقرىء هذي وهو الأصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء . ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم ، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما ، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلي . وقد سئل في سورة "البقرة" كيفية وسوسته .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ ليظهر لهما ، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ، ولذلك عبر عنهما بالسوأة . وفيه دليل على أن كشف

العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع . ﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ﴾ ما غطي عنهما من عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهور كما قلبت في أويصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرىء ﴿ سوآتهما ﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو وسوأتهما بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها .

﴿ وَقَالَ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلا أَن تَكُونَا ﴾ إِلاَّ كراهة أن تكونا . ﴿ مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة ، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجوابه : أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً للملائكة من الكمالات الفطرية ، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة ، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 12.7 ﴾

(292/265)

قوله تعالى ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أوصل إليهما هذا المعنى ، أخبر أنه أكده تأكيداً عظيماً كما يؤكد الحالف ما يحلف عليه فقال : ﴿ وقاسمهما ﴾ أي أقسم لهما ، لكن ذكر المفاعلة ليدل على أنه حصلت بينهما في ذلك مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد ، وأكد لمعرفته أنهما طبعا على النفرة من المعصية – ما أقسم عليه أنواعاً من التأكيد في قوله : ﴿ إني لكما ﴾ فأفاد تقديم الجار المفهم للاختصاص أنه يقول : إني خصصتكما بجميع نصيحتي ﴿ لمن الناصحين ﴾ وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف ، وأن الأغلب أن كل حلاف كذاب ، فإنه لا يحلف إلا عند ظنه أن سامعه لا يصدقه ، ولا يظن ذلك إلا هو معتاد للكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 17 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾

أي وأقسم لهما إني لكما لمن الناصحين .

فإن قيل : المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك .

تقول : قاسمت فلاناً أي حالفته ، وتقاسما تحالفاً ومنه قوله تعالى : ﴿ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [النمل : 49] .

قلنا : فيه وجوه : الأول : التقدير أنه قال : أقسم لكما إني لكما لمن الناصحين .

وقالا له : أتقسم بالله إنك لمن الناصحين ؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم .

والثاني : أقسم لهما بالنصيحة ، وأقسما له بقبولها .

الثالث : أنه أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة ، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم .

إذا عرفت هذا فنقول : قال قتادة : حلف لهما بالله حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله ، وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ أي قال إبليس : إني خلقت قبلكما ، وأنا أعلم أحوالاً كثيرة من المصالح والمفاسد لا تعرفانها فامتثلا قولي أرشدكما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 41 ﴾

(293/265)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي حلف لهما ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ بأنها شجرة الخلد من أكل منها لم يمت .

وكان آدم لم يعلم أن أحداً يحلف بالله كاذباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي أقسم وحلف لهما ، وقاسم من المفاعلة أي يختصّ الواحد مثل المعافاة المعاقبة والمناولة .

قال خالد بن زهير :

وقاسمهما بالله جهداً لأنتم . . . ألذ من السلوى إذا ما نشورها

قال قتادة : حلف لهما بالله عزّ وجلّ حتّى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال : إني خُلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما ، وكان بعض أهل العلم يقول : من خادعنا بالله خدعنا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن غر كريم ، والفاجر خبٌّ لئيم " .

[وحدّثنا] أبو القاسم الحبيبي في بعضها . قال : أنشدنا أبو الحسن المظفّر بن محمد بن غالب قال : أنشدنا نفطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعته . . . وترى اللئيم مجرباً لا يخدع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي حلف لهما على صدقه في خبره ونصحه في مشورته ، فقبلا قوله وتصورا صدقه لأنهما لم يعلما أن أحداً يجترىء على الحلف بالله كاذباً .

ويحتمل وجهاً آخر : أن يكون معنى قوله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي قال لهما : إن كان ما قلته خيراً فهو لكما دوني وإن كان شراً فهو عليّ دونكما ومن فعل ذلك معكما فهو من الناصحين لكما ، فكانت هذه مقاسمتهما أن قسم الخير لهما والشر له على وجه الغرور لتنتفي عنه التهمة ويسرع إليه القبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهما باله وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقسم وتقريره وإن كان بادي الرأي يعطي أنها من واحد ، ومثله قول الهذلي :

وقاسمها بالله جهداً لأنتم . . . ألذ من السلوى إذا ما نشورها

(294/265)

وروي في القصص أن آدم قال في جملة اعتذاره : ما ظننت يا رب أن أحداً يحلف حانثاً ، فقال بعض العلماء خدع الشيطان آدم بالله عز وجل فانخدع ، ونحن من خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له ، وروي نحوه عن قتادة ، واللام في قوله ﴿ لكما ﴾ متعلقة بالناصحين ، فقال بعض الناس مكي وغيره : ذلك على أن تكون الألف واللام لتعريف الجنس لا بمعنى الذي ، لأنها إذا كانت بمعنى الذي كان قوله ﴿ لكما ﴾ داخلاً في الصلة فلا يجوز تقديمه ،

وأظن أن أبا علي الفارسي خرج جواز تقديمه وهي بمعنى الذي ، والظاهر أنه إن جعلت بمعنى الذي كانت اللام في قوله ﴿ لكما ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره إني ناصح لكما من الناصحين ، وقال أبو العالية في بعض القراءة " وقاسمهما بالله " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي حلف لهما .

يقال : أقسم إقساماً ؛ أي حَلف .

قال الشاعر :

وقاسمها بالله جَهْداً لأنتم . . .

أَلَذّ من السلوى إذا ما نَشُورها

وجاء "فاعلت" من واحد .

وهو يردّ على من قال : إن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين .

وقد تقدّم في "المائدة" .

﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ ليس "لكما" داخلاً في الصلة .

والتقدير : إني ناصح لكما لمن الناصحين ؛ قاله هشام النحويّ .

وقد تقدّم مثله في "البقرة" .

ومعنى الكلام : اتبعاني أرشدكما ؛ ذكره قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقاسمهما ﴾ أي وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد ﴿ إني لكما لَمن الناصحين ﴾ قال قتادة : حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يُخدع المؤمن بالله فقال إني خُلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وقال بعض العلماء : من خادعنا بالله خدعنا له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(295/265)

وقال أبو حيان :

﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾

لم يكتف إبليس بالوسوسة وهو الإلقاء في خفية سرًّا ولا بالقول حتى أقسم على أنه ناصح لهما والمقاسمة مفاعلة تقتضي المشاركة في الفعل فتقسم لصاحبك ويقسم لك تقول قاسمت فلاناً خالفته وتقاسما تحالفاً وأما هنا فمعنى وقاسمهما أقسم لهما لأنّ اليمين لم

يشاركاه فيها .

وهو كقول الشاعر :

وقاسمهما بالله جهداً لأنتم . . .

ألذّ من السّلوى إذا ما نشورها

وفاعل قد يأتي بمعنى أفعل نحو باعدت الشيء وأبعدته ، وقال ابن عطية وقاسمهما أي حلف لهما وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقسم وتقريره وإن كان بادي الرأي يعني أنها من واحد ، وقال الزمخشري : كأنه قال لهما أقسم لكما أني لمن الناصحين وقالا له أتقسم بالله إنك لمن الناصحين ، فجعل ذلك مقاسمة بينهم أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها أو أخرج قسم إبليس على وزن المفاعلة لأنه اجتهد فيها اجتهاد المقاسم انتهى ، وقرىء وقاسمهما بالله و ﴿ لكما ﴾ متعلّق بمحذوف تقديره ناصح لكما أو أعني أو بالناصحين على أنّ أل موصولة وتسومح في الظرف والمجرور ما لا يتسامح في غيرهما أو على أنّ أل لتعريف الجنس لا موصولة أوجه مقولة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(296/265)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) ﴾

أقسم لهما ، وإنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعل يجد فيه فاستعمل في لازمه ، وقيل : المفاعلة على بابها ، والقسم وقع من الجانبين لكنه اختلف متعلقه فهو أقسم لهما على النصح وهما أقسما له على القبول .

وتعقب بأن هذا إنما يتم لو جرد المقاسمة عن ذكر المقسم عليه وهو النصيحة ، أما حيث ذكر فلا يتم إلا أن يقال : سمى قبول النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ﴾ [الأعراف : 142] أنه سمى التزام موسى عليه السلام الوفاء والحضور للميعاد ميعاداً فأسند التعبير بالمفاعلة ، وقيل : قالا له أتقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين ؟ وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة .

وعلى هذا فيكون كما قال ابن المنير "في الكلام لف لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان (له) بلفظ التكلم بل بلفظ الخطاب" ، وقيل : إنه إلى التغليب أقرب ، وقيل : إنه لا حاجة إليه بأن يكون المعنى حلفا عليه بأن يقول لهما : إني لكما لمن الناصحين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(297/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهما بما يوهم صدقه ، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف ، حذفت منه الهمزة عند صوغ المفاعلة ، كما حذفت في المكارمة ، والمفاعلةُ هنا للمبالغة في الفعل ، وليست لحصول الفعل من الجانبين ، ونظيرها : عافاه الله ، وجعله في "الكشاف" : كأنّهما قالا له تُقسم بالله إنّك لمن النّاصحين فَأَقْسم فجُعل طلبُهما القسمَ بمنزلة القسم ، أي فتكون المفاعلة مجازاً ، قال أو أقسم لهما بالنّصيحة وأقسما له بقبولها ، فتكون المفاعلة على بابها ، وتأكيد إخباره عن نفسه بالنّصح لهما بثلاث مؤكدَات دليل على مبلغ شكّ آدم وزوجه في نصحه لهما ، وما رأى عليهما من مخائل التّردّد في صدقه ، وإنّما شكّا في نصحه لأنّهما وَجدا ما يأمرهما مخالفاً لما أمرهما الله الذي يعلمان إرادتَه بهما الخير علماً حاصلاً بالفطرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(298/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) ﴾

" قاسم " مادة فاعل ، تأتي للمشاركة ، أي أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل في ناحية ومفعول في ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهي تعني أيضاً أن عمراً شارك زيداً ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفي المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولا ، إذن " قاسم " تحتاج إلى عمليتين اثنتين . . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتي مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تتضح في قوله الحق : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ . . . ﴾ [الأعراف : 142]

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذي واعد ؟ . إنه الله الذي وعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى في الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .

إذن " قاسمهما " أي قبلا القسم ودخلا فيه . ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ [الأعراف : 21]

و" قاسم " ، أي أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه : أنا قلت إنه عدو لك ولزوجك ، ولسوف يخرجنكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال آدم : يا ربي ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأتي على البال أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة في الخلق . ولذلك نجد قتادة – رضي الله عنه – يقول : " المؤمن بالله يُخدع " .

(299/265)

" والنبي عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء وهن زوجات للنبي صلى الله عليه وسلم وقد خفن أن يشغف بها حُبًّا ، فقلن لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فقوليها ! ، قولي : " أعوذ بالله منك " ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له : " أعوذ بالله منك " . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول " ، وهذا ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبد الله بن عمر كان يعتق من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها في مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ، وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذي يجلس فيه وكانوا يؤدونها بخشوع ، وكان رضي الله عنه يعتقهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر الحق سبحانه الذي قال له ولزوجه : لا تقربا . لكنه لم يفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(300/265)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وقَاسَمَهُما " المفاعلةُ هنا يحتمل أن تكُونَ على بابها فقال الزَّمَخْشَرِيُّ : " كأَنَّهُ قال لهما : أقْسِمُ لكُمَا أنِّي لمن النَّاصِحِينَ ، وقالا له : أتقسُم باللَّهِ أنت إنَّكَ لمن الناصحين لنا فجعل ذلك مُقَاسَمَةً بَيْنَهُم ، أو أقسم لهما بالنَّصِيحَةِ ، وأقسما له بقبُولِهَا ، أو أخرج قسم إبليس على وزن المُفَاعَلَةِ ؛ لأَنَّهُ اجْتَهَد فيها اجتهاد المُقَاسِمِ " .

وقال ابْنُ عطيَّة : " وقَاسَمَهُمَا " أي : حَلَفَ لهما ، وهي مفاعلة إذْ قَبُولُ المحلوف له ، وإقباله على معنى اليمينِ كالقسم وتقريره : وإنْ كان بَادِىء الرَّأي يعطي أنَّها من واحد ويحتمل أنَّ " فاعل " بمعنى " أفعل " كبَاعَدْته ، وأبْعَدْتُهُ ، وذلك أنَّ قوله الحَلْف إنَّما كان من إبليس دونهما ، وعليه قول خالدِ بْن زُهير : [الطويل]

2431 - وَقَاسَمَهَا باللَّهِ جَهْداً لأَنْتُمُ . . .

أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إذَا مَا نَشُورُها

قال قتادةُ : حلف لهما بالله حتى خَدَعَهُمَا ، وقد يُخْدَعُ المُؤمِنُ بالله .

﴿ إنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ أي : قال إبليس : إنِّي حلفت قبلكما ، وأنا أعلم أحْوالاً كثيرةً من المصالحِ والمفاسد ، لا تَعْرِفَانها ، فامْتَثِلا قولي أرشِدكُمَا ، وإبليسُ أوَّلُ من حَلَفَ

باللَّهِ كاذباً ، فلمَّا حلف ظن آدم أنَّ أحداً لا يحلف بالله إلاَّ صَادِقاً فاغبر به .

قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ يجوز في " لَكُمَا " أن تتعلق بما بعده على أن " أل " معرفة لا موصولة ، وهذا مذهبُ أبي عُثْمان ، أو على أنَّها موصولةٌ ، ولكن تُسُومح في الظَّرْفِ وعدليه ما لا يتسامح في غيرهما اتِّسَاعاً فيهما لدورانهما في الكلام ، وهو رَأيُ بعض البَصْرِيِّين ، وأُنْشَدَ : [الرجز]

2432 - رَبَّيْتُهُ حَتَّى إذا تَمَعْدَدَا . . .

كَانَ جَزَائِي بالعَصَا أنْ أُجْلَدَا

(301/265)

ف " بِالعَصَا " متعلِّقٌ بأُجلَدا وهو صلة أنْ ، أو أن ذلك جائزٌ مطلقاً ، ولو في المفعول به الصَّرِيح ، وهو رأي الكوفيين وأنشدوا : [الكامل]

2433 - . . . . . .

وَشِفَاءُ غَيِّكِ خَابِراً أنْ تَسْأَلِي

أي : أن تسألي خابراً ، أو أنَّهُ متعلِّقٌ بمحذوف على البيانِ أي : أعني لَكُمَا كقولهم : سُقْياً لك ، ورَعْياً ، أو تعلَّقَ بمحذوف مدلول عليه بصِلَةِ أل أي : إنِّي نَاصِحٌ لَكُمَا ، ومثل هذه

الآية الكريمة : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ﴾ [الشعراء : 168] ، ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ [يوسف : 68] .

وجعل ابن مالك ذلك مطَّرداً في مَسْألةِ أل الموصولة إذا كانت مجرورة بـ " من " .

ونَصَحَ يتعدَّى لواحدٍ تارةً بنفسه ، وتارةً بحرف الجرِّ ، ومثله شَكَرَ ، وقد تقدَّمَ ، وكال ، ووزن .

وهل الأصلُ التعدِّي بحرف الجر والتَّعدِّي بنفسه ، أو كل منهما أصْلٌ ؟ الرَّاجحُ الثَّالِثُ .

وزعم بعضُهم أنَّ المفعول في هذه الأفْعَالِ محذوفٌ ، وأنَّ المجرور باللاَّم هي الثَّاني ، فإذا قُلْتَ : نَصَحْتُ لِزَيْدٍ فالتقديرُ : نصحتُ لزيدٍ الرَّأيَ ، وكذلك شكَرَ له صنيعه وكِلْتُ له طعامه وَوَزَنْتُ له متاعه فهذا مَذْهَبٌ رابع .

وقال الفرَّاءُ : " العربُ لا تكَادُ تقول : نَصَحْتُكَ ، إنَّمَا يَقُولُونَ نَصَحْتُ لك وأُنْصَحُ لك " ، وقد يجوز نصحتك .

قال النابغة : [الطويل]

2434 - نَصَحْتُ بَنِي عَوْفٍ فَلَمْ يَتَقَبَّلُوا . . .

رَسُولِي وَلَمْ تَنْجَحْ لَدَيْهِمْ رَسَائِلِي

وهذا يقوِّي أنَّ اللاَّم أصلٌ .

والنُّصْحُ : بَذْلُ الجُهْدِ في طلب الخَيْرِ خاصَّةً ، وضدُّهُ الغشُّ .

وأمَّا "نَصَحْتُ لِزَيْدٍ ثوبه" فمتعدٍّ لاثنين، لأحدهما بنفسه وللثاني بحرف الجرّ بأتّفاقٍ، وكأنَّ النُّصْحَ الذي هو بَذْلُ الجهد في الخير مأخُوذٌ من أحد معنيين: أمَّا من نَصَحَ أي أخْلَصَ ومنه: نَاصِحُ العسل أي خَالِصُهُ، فمعنى نَصَحَهُ: أخلص له الوُدَّ، وإمَّا من نَصَحْتُ الجِلْدَ والثَّوْبَ إذا أحكمت خياطتهما، ومنه النَّاسِحُ للخيَّاطِ والنَّصَاحُ للخيط، فمعنى نَصَحه أي: أحكم رأيه منه.

ويقال: نَصَحه نُصُوحاً ونَصَاحَةً قال تعالى: ﴿ توبوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ [التحريم: 8] بضمِّ النُّونِ في قراءة أبي بَكْرٍ، وقال الشَّاعر في "نَصَاحَةٍ": [الطويل]

2435 - أَحْبَبْتُ حُبّاً خَالَطَتْهُ نَصَاحَةٌ . . . . . .

وذلك كذُهُوبٍ، وذهابٍ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 58. 60 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر ببعض وسوسته لهما ، سبب عنها ترجمتها بأنها إهباط من أوج شرف إلى حضيض أذى وسرف فقال : ﴿ فدلاَّهما ﴾ أي أنزلهما عما كانا فيه من علو الطاعة مثل ما فعل بنفسه بالمعصية التي أوجبت له الهبوط من دار الكرامة ﴿ بغرور ﴾ أي بخداع وحيلة حتى نسى آدم عهد ربه ، وقوله ﴿ فلما ذاقا ﴾ مشير إلى الإسراع في الجزاء بالفاء والذوق الذي هو مبدأ الأكل ﴿ الشجرة ﴾ أي وجدا طعمها ﴿ بدت ﴾ أي ظهرت ﴿ لهما سوءاتهما ﴾ أي عوراتهما اللاتي يسوءهما ظهورها ، وتهافت عنهما لباسهما فأبصر كل واحد ما كان مستوراً عنه من عورة الآخر ، وذلك قصد الحسود فاستحييا عند ذلك ﴿ وطفقا ﴾ أي شرعا وأقبلا ﴿ يخصفان عليهما ﴾ أي يصلان بالخياطة ﴿ من ورق الجنة ﴾ ورقة إلى أخرى ﴿ وناداهما ربهما ﴾ أي المحسن إليهما بأمرهما ونهيهما ، ولم يفعلا شيئاً من ذلك إلا بمرأى منه ، فقال منكراً عليهما ما فعلا ومعاتباً : يا عبديَّ ﴿ ألم أنهكما ﴾ أي أجعل لكما نهاية فيما أذن لكما فيه متجاوزة ﴿ عن تلكما

الشجرة ﴾ أي التي كان حقها البعد منها ، الموجبة للقربة من هذا الموضع الشريف إحساناً إليكما ﴿ وأقل لكما إن الشيطان ﴾ أي الذي تكبر عن السجود حسداً لك يا آدم ونفاسه عليك ، فاحترق بغضبي فطرد وأبعد عن رحمتي ﴿ لكما ﴾ أي لك ولزوجك ولكل من تفرغ منكما ونسب إليكما ﴿ عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة يأتيكم من كل موضع يمكنه الإتيان منه مجاهرة ومساترة ومماكرة فهو مع ظهور عداوته دقيق المكر بما أقدرته عليه من إقامة الأسباب ، فإني أعطيته قوة على الكيد ، وأعطيتكم قوة على الكيد وأعطيتكم قوة على الخلاص وقلت لكم : تغالبوا فإن غلبتموه فأنتم من حزبي ، وإن غلبكم فأنتم من حزبه مع ما له إليكم من العداوة ، فالآيه منبهة على أن من غوى فإنما هو تابع لأعدى أعدائه تارك لأولى أوليائه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 17 . 18 ﴾

قوله تعالى ﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر أبو منصور الأزهري لهذه الكلمة أصلين :

أحدهما : أصل الرجل العطشان يدلي رجليه في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء ، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه .

فيقال : دلاه إذا أطمعه .

الثاني : ﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾ أي أجرأهما إبليس على أكل الشجرة بغرور ، والأصل فيه دللهما من الدل ، والدالة وهي الجرأة .

إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس : ﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾ أي غرهما باليمين ، وكان آدم يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً .

وعن ابن عمر رضي الله عنه : أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق .

فقيل له : إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ ﴾ وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير قصداً إلى معرفة طعمه ، ولولا أنه تعالى ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها ، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل ، لأن الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل .

ثم قال تعالى : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا ﴾ أي ظهرت عوراتهما ، وزال النور عنهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ قال الزجاج : معنى طفق : أخذ في الفعل ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ أي يجعلان ورقة على ورقة .

ومنه قيل للذي يرقع النعل خصاف ، وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم ، ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ قال عطاء : بلغني أن الله ناداهما أفراراً مني يا آدم قال بل حياء منك يا رب ما ظننت أن أحداً يقسم باسمك كاذباً ، ثم ناداه ربه أما خلقتك بيدي ، أما نفخت فيك من روحي ، أما أسجدت لك ملائكتي ، أما أسكنتك في جنتي في جواري !

ثم قال : ﴿ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن عباس : بين العداوة حيث أبى السجود وقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 41.42 ﴾

(305/265)

وقال السمرقندى :

﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾ أي : غرّهما بباطل ويقال : زَيَّنَ لهما .

وأصله في اللغة من التقريب يعني : قربهما إلى الشجرة ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة ﴾ يقول : فلما أكلا من الشجرة ووصل إلى بطونهما تهافت لباسهما عنهما ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا ﴾ أي ظهرت عوراتهما ، وإنما سميت العورة سوأة لأن كشف العورة قبيح .

قال الفقيه : حدّثنا أبو جعفر .

قال : حدّثنا أبو القاسم أحمد بن حم قد ذكر بإسناده عن أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنَّ آدَمَ كَانَ رَجُلاً طَوِيلاً كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ ، فَلَمَّا وَقَعَ فِي الخَطِيئَةِ بَدَتْ لَهُ سَوْأَتُهُ ، وَكَانَ لاَ يَرَاها قَبْلَ ذلك ، فَانْطَلَقَ هَارِباً فِي الجَنَّةِ فَتَعَلَّقَتْ بِهِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الجَنَّةِ ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ : يَا آدَمُ أَتَفِرُّ مِنِّي ؟ قَالَ : يَا رَبِّ إِنِّي أَسْتَحِي " وفيه دليل أن ستر العورة كان واجباً من وقت آدم لأنه لما كشف عنهما سترا عوراتهما بالأوراق فذلك قوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ أي أقبلا وعمدا يلصقان عليهما من ورق الجنة يعني : من ورق التين يطبقان على أبدانهما ورقة ورقة منه .

يقال : خصف نعله وهو إطباق طاق على طاق وأصل الخصف الضم والجمع .

والخصف إنما هو إلصاق الشيء بالشيء ولهذا قيل : خصاف .

وقرأ بعضهم وطفَقَا بالنصب وهما لغتان طَفِقَ يَطْفَقُ وطَفَقَ يَطْفِقُ ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ أي قال : لهما ربهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة ﴾ أي عن أكل تلك الشجرة ﴿ وَأَقُل لَّكُمَا ﴾ يعني : ألم أقل لكما ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾

(306/265)

يعني فخدعهما يقال : ما زال فلان يدلي لفلان يعرّفُه ، يعني ما زال يخطّئه ويكلّمه بزخرف القول الباطل ، وقال مقاتل : فزين لهما الباطل .

وقال الحسن بن الفضل : يعني تعلقهما بغرور ، يقال : تدلي بنفسه ودلى غيره . ولا يكون التدلّي إلاّ من علو إلى أسفل ، وقيل أصله دللهما فأبدل من إحدى اللامات ياء ، كقوله : [تمطّى] و[دسّاها] ، وقال أبو عبيدة : دلّيهما أخذ لهما وكلاهما من تدلين الدلو إذا أرسلتها في البئر لتملأها ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة ﴾ أكلا منها ووصل إلى بطنيهما ﴿ بَدَتْ ﴾ ظهرت ﴿ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ عوراتهما وتهافت عنهما لباسهما حتّى أبصر كل واحد منهما ما ورى عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك .

قال قتادة : كان لباس آدم وحوّاء في الجنّة ظفر أكله فلما واقعا الذنب كشط عنهما وبدت سوءاتهما فأستحيا ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ [يوقعان] ويشدان [ويمزّقان ويصلاّن] ﴿ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ وهو ورق التين حتّى صار بهيئة الثوب ومنه خصف النعل .

(307/265)

وقال ابن عباس وقتادة : قال الله عزّ وجلّ لآدم : ألم يكن لك فيما أبحته ومنحته لك من الجنّة [مندوحة] من الشجرة ، قال : على عهدي ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً ، قال : فبعزّتي لأُهبطنّك إلى الأرض ثمّ لا تنال العيش [إلاّ نكداً] فاهبطا من الجنّة ، فكانا يأكلان رغداً إلى غير رغد من طعام وشراب ، تعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثمّ سقى حتّى إذا بلغ حصد ثمّ طحنه ثمّ عجنه ثمّ خبزه ثمّ أكل ثمّ بلعه حتّى بلغ منه ما شاء الله أن بلغ ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ الآية ، قال محمد بن قيس : ناداه ربّه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال : يارب أطعمتني حواء ، قال لحواء : لم أطعمتيه قالت : أخبرتني الحيّة ، قال للحيّة : لِمَ أمرتيها ؟ قالت : أمرني [إبليس] فقال الله عزّ وجلّ : أمّا إنّكِ ياحوّاء فكما أدميت الشجرة [فسأُدميكِ] ، وأمّا أنتِ ياحيّة فاقطع قوائمك فتمشين جهتيّ الماء على وجهك وسيدفع رأسك من لقيك ، وأمّا أنتَ يا إبليس فملعون مدحور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾ . باختصار يسير

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾

معناه فحطهما بغرور من منزلة الطاعة إلى حال المعصية .

فإن قيل : فهل علما عند أكلهما أنها معصية ؟

قيل : لا ، لأن إقدامهما عليها مع العلم بأنها معصية يجعلها كبيرة ، والأنبياء معصومون من

الكبائر ، وإنما أقدما عليها لشبهة دخلت عليهما بالغرور .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ فإن قيل :

فلم بدت لهما سوآتهما ولم تكن بادية لهما من قبل ؟

ففي ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنهما كانا مستورين بالطاعة فانكشف الستر عنهما بالمعصية .

والثاني : أنهما كانا مستورين بنور الكرامة فزال عنهما بذلك المهانة .

والثالث : أنهما خرجا بالمعصية من أن يكونا من ساكني الجنة ، فزال عنهما ما كانا فيه من الصيانة .

(308/265)

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ في ﴿ وَطَفِقَا ﴾ وجهان :

أحدهما : قاما يخصفان ، قاله ابن بحر .

والثاني : جعلا يخصفان ، أي قطعان .

﴿ مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : ورق الموز .

والثاني : ورق التين ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فدلاهما بغرور ﴾

يريد فغرهما بقوله وخدعهما بمكره .

قال القاضي أبو محمد : ويشبه عندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أرم أو بسبب ضعيف يغتر به فإذا تدلى به وتورك عليه انقطع به فهلك ، فيشبه الذي يغر بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يدلى في هوة بسبب ضعيف ، وعلق حكم العقوبة بالذوق إذ هو أول الأكل وبه يرتكب النهي ، وفي آية أخرى ﴿ فأكلا منها ﴾ [طه : 121] .

وقوله تعالى :

﴿ بدت ﴾ قيل تخرقت عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تبرياً منهما ، وقال وهب بن منبه كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالمعصية ذلك النور ، وقال ابن عباس وقتادة : كان عليهما ظفر كاسٍ فلما عصيا تقلص عنهما فبدت سوءاتهما وبقي منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المعصية فيجددان الندم ، ﴿ وطفقا ﴾ معناه أخذا وجعلا وهو فعل لا يختص بوقت كبات وظل .

و ﴿ يخصفان ﴾ معناه يلصقانها ويضمان بعضها إلى بعض ، والمخصف الإشفى ، وضم الورق بعضه إلى بعض أشبه بالخرز منه بالخياطة ، وقرأ جمهور الناس "يَخصفان" من خصف وقرأ عبد الله بن بريدة "يخصّفان" من خصف بشد الصاد وقرأ الزهري "يُخصفان" من أخصف ، وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب : "يَخَصّفِان" بفتح الياء والخاء وكسر الصاد وشدها ، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب ، وأصلها يختصفان كما تقول سمعت الحديث واستمتعته فأدغمت التاء في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاء ، وكذلك الأصل في القراءة بكسر الخاء بعد هذه ، لكن لما سكنت التاء وأدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاء على عرف التقاء ساكنين ، وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد "يَخِصّفِان" بفتح الياء وكسر الخاء وكسر الصاد وشدها وقد تقدم تعليلها ، قال ابن عباس : إن الورق الذي خصف منه ورق التين ، وروى أبيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأنه نخلة سحوق ، فلما واقع المعصية وبدت له حاله فرّ على وجهه فأخذت شجرة بشعر رأسه يقال إنها الزيتونة فقال لها : أرسليني فقالت ما أنا بمرسلتك ، فناداه ربه أمني تفر يا آدم ؟ قال لا يا رب ، ولكن أستحييك ، قال أما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عما حرمت عليك ؟ قال بلى يا رب ، ولكن وعزتك ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً ، قال فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال

العيش إلا كدّاً .

قوله تعالى :

﴿ وناداهما ﴾ الآية ، قال الجمهور إن هذا النداء نداء وحي بواسطة ، ويؤيد ذلك أنّا نتلقى من الشرع ان موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام ، وأيضاً ففي حديث الشفاعة أن بني آدم المؤمنين ، يقولون لموسى يوم القيامة أنت خصك الله بكلامه واصطفاك برسالته اذهب فاشفع للناس ، وهذا ظاهره أنه مخصص ، وقالت فرقة بل هو نداء تكليم .

(310/265)

قال القاضي أبو محمد : وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم فقال نبي مكلم ، وأيضاً فإن موسى خصص بين البشر الساكنين في الأرض وأما آدم إذ كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأرض ، فليس في تكليمه ما يفسد تخصيص موسى عليه السلام ، ويؤيد أنه نداء وحي اشتراك حواء فيه ، ولم يرو قط أن الله عز وجل كلم حواء ، ويتأول قوله عليه السلام " نبي مكلَّم " أنه بمعنى موصل إليه كلام الله تعالى ، وقوله عز وجل ﴿ الم أنهكما ﴾ سؤال تقرير

يتضمن التوبيخ ، وقوله ﴿ تلكما ﴾ يؤيد بحسب ظاهر اللفظ أنه إنما أشار إلى شخص شجرة ، ﴿ وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة طه في قوله ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه ، وقرأ أبيّ بن كعب " ألم تنهيا عن تلكما الشجرة وقيل لكما " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

فدلاَّهما في المعصية بأن غرَّهما .

قال ابن عباس : غرَّهما باليمين ، وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً .

قوله تعالى : ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ أي : فلما ذاقا ثمر الشجرة .

قال الزجاج : وهذا يدل على أنهما إنما ذاقاها ذواقاً ، ولم يبالغا في الأكل .

والسوأة : كناية عن الفرج ، لا أصل له في تسميته .

ومعنى : ﴿ طفقا ﴾ أخذا في الفعل ؛ والأكثر : طفِق يَطْفَقُ ، وقد رويت : طفقَ يَطْفِقُ ، بكسر الفاء ومعنى ﴿ يخصفان ﴾ يجعلان ورقة على ورقة ، ومنه قيل للذي يرقع النعل : خصاف .

وفي الآية دليل على أن إظهار السوأة قبيح من لدن آدم ؛ ألا ترى إلى قوله : ﴿ ليبدي لهما ما

ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ فإنهما بادرا يستتران لقبح التكشف .

وقيل : إنما سميت السوأةُ سوأةً لأن كشفها يسوء صاحبها .

(311/265)

قال وهب بن منبه : كان لباسهما نوراً على فروجهما ، لا يرى أحدهما عورة الآخر ؛ فلما أصابا الخطيئة ، بدت لهما سوءاتهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾

أوقعهما في الهلاك .

قال ابن عباس : غَرّهما باليمين .

وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً ، فغرّهما بوسَوسته وقَسمِه لهما .

وقال قتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما .

وقد يخدع المؤمن بالله .

كان بعض العلماء يقول : من خادعنا بالله خَدَعنا .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : " المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خِبٌّ لَئيم " وأنشد

نفطويه :

إنّ الكريم إذا تَشاءُ خَدَعتَه . . .

وترى اللئيم مُجرِّباً لا يُخْدَعُ

﴿ فَدَلاَّهُمَا ﴾ يقال : أدلى دَلْوَه : أرسلها .

ودَلاّها : أخرجها .

وقيل : "دَلاَّهُمَا" أي دلّلهما ؛ من الدالة وهي الجُرْأَة .

أي جرّأهما على المعصية فخرجا من الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة ﴾ أي أكلا منها .

وقد مضى في "البقرة" الخلاف في هذه الشجرة ، وكيف أكل آدم منها .

﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أكلت حوّاء أوّلاً فلم يصبها شيء ؛ فلما أكل آدم حلّت العقوبة ؛ لأن النهي ورد عليهما كما تقدّم في "البقرة" .

قال ابن عباس : تقلّص النورُ الذي كان لباسهما فصار أظفاراً في الأيدي والأرجل .

الثانية ﴿ وَطَفِقَا ﴾ ويجوز إسكان الفاء .

وحكى الأخفش طَفَق يَطْفِق ؛ مثل ضرب يضرب .

يقال : طفِق ، أي أخذ في الفعل .

﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ وقرأ الحسن بكسر الخاء وشدّ الصاد .

والأصل "يَخْتَصِفَانِ" فأدغم ، وكسر الخاء لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء ، ألقيا حركة التاء عليها .

ويجوز "يُخصِّفانِ" بضم الياء ، من خَصَّف يخصِّف .

(312/265)

وقرأ الزهِريّ "يُخصِفَانِ" من أخْصَف .

وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف والمعنى : يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به ، ومنه خَصَف النعل .

والخصّاف الذي يرقِّعها .

والمِخْصف المِثْقب .

قال ابن عباس : هو ورق التين .

ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يَسُلّ منها ورقة يغطي بها عورته ؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التِّين فأعطته

ورقة .

ف "طَفِقَا" يعني آدم وحواء "يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ" فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة ، وأعطاه ثمرتين في عام واحد مرتين .

الثالثة وفي الآية دليل على قبح كشف العورة ، وأنّ الله أوجب عليهما الستر ؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها ، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة ؛ كما قيل لهما "وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَجَرَةَ" .

وقد حكى صاحب البيان عن الشافعيّ أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك ؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها ؛ كما فعل آدم في الجنة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ أي قال لهما : ألم أنهكما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فدلاهما بغرور ﴾

يعني فخدعهما بغرور يقال من زال فلان يدلي فلاناً بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل .

قال الأزهري وأصله ان الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش وهو أن إبليس حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية لأن التدلي لا يكون إلا من علو إلى أسفل .

(313/265)

ومعنى الآية أن إبليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً وإبليس أول من حلف بالله كاذباً فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ يعني : طعما من ثمرة الشجرة وفيها دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصد إلى معرفة طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير ﴿ بدت لهما سوءاتهما ﴾ يعني : ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضي الله عنهما : قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت وبدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لبسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك . وقال وهب : كان لباسهما من النور لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة : كان لباس آدم في الجنة ظفراً كله فلما وقع في الذنب

قشط عنه وبدت سوأته ﴿ وطفقا ﴾ يعني وأقبلا وجعلا ﴿ يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ يعني أنهما لما بدت لهما سوآتهما جعلا يرقعان ويلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب .

وقال الزجاج : جعلا ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وفي الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح ألا ترى أنهما بادرا إلى ستر العورة لما تقرر في عقلهما من قبيح كشفها .

روى أبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " كان آدم صلى الله عليه وسلم رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت ل سوأته وكان لا يراها في الجنة فانطلق فارّاً فعرضت له شجرة من شجرة الجنة فحبسته بشعره فقال لها أرسليني قالت لست بمرسلتك فناداه ربه يا آدم أمنّي تفر قال لا يا رب ولكني استحييتك " ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري من طريقين موقوفاً ومرفوعاً .

(314/265)

قوله تعالى : ﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ﴾ يعني أن الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما فقال : ألم أنهكما عن أكل ثمرة هذه الشجرة ﴿ وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ يعني أعلمكما أن الشيطان قد بانت عداوته لكما بترك السجود

حسداً وبغياً .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أكل آدم من الشجرة قيل له : لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها ؟ قال : حواء أمرتني .

قال فأني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً قال فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس : ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتني حواء فقال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتني الحية فقال للحية لم أمرتها قالت أمرني إبليس قال الله تعالى : أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر وأما أنت يا حية فأنطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فملعون مطرود مدحور يعني عن الرحمة .

وقيل ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدي أما نفخت فيك من روحي أما أسجدت لك ملائكتي أما أسكنتك جنتي في جواري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(315/265)

وقال أبو حيان :

﴿ فدلاّهما بغرور ﴾ أي استنزلهما إلى الأكل من الشجرة بغروره أي بخداعه إياهما

وإظهار النّصح وإبطان الغش وإطماعهما أن يكونا ملكين أو خالدين وبإقسامه أنه ناصح لهما جعل من يغترّ بالكلام حتى يصدق فيقع في مصيبة بالذي يدلي من علو إلى أسفل بحبل ضعيف فينقطع به فيهلك ، وقال الأزهري : لهذه الكلمة أصلان أحدهما أنّ الرجل يدلي دلوه في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء ، وضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه فيقال : دلاّه أي أطمعه الثاني جرأهما على أكل الشجرة والأصل فيه دللهما من الدّال والدّلالة وهما الجراءة انتهى ، فأبدل من المضاعف الأخير حرف علة ، كما قالوا : تظنيت وأصله تظننت ومن كلام بعض العلماء : خدع الشيطان آدم فانخدع ونحن من خدعنا بالله عزّ وجل انخدعنا له وروى نحوه عن قتادة وعن ابن عمر .

﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما ﴾ أي وجدا طعمها آكلين منها كما قال تعالى ﴿ فأكلا منها ﴾ وتطايرت عنهما ملابس الجنة فظهرت لهما عوراتهما وتقدّم أنهما كانا قبل ذلك لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ، وقال ابن عباس وقتادة وابن جبير : كان عليهما ظفر كاسٍ فلما أكلا تبلس عنهما فبدت سوآتهما وبقي منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المخالفة فيجددان النّدم ، وقال وهب بن منبه : كان عليهما نور يستر عورة كلّ واحد منهما فانقشع بالأكل ذلك النور وقيل كان عليهما نور فنقص وتجسّد منه شيء في أظفار اليدين والرجلين تذكرة لهما ليستغفروا في كلّ وقت وأبناؤهما بعدهما كما جرى لأويس القرني حين أذهب الله عنه البرص إلا لمعة أبقاها ليتذكر نعمه فيشكر .

وقال قوم : لم يقصد بالسوأة العورة والمعنى انكشف لهما معايشهما وما يسوؤهما وهذا القول ينبو عنه دلالة اللفظ ويخالف قول الجمهور ، وقيل : أكلت حواء أوّل فلم يصبها شيء ثم آدم فكان البدو .

(316/265)

﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ أي جعلا يلصقان ورقة على ورقة ويلصقانهما بعدما كانت كساهما حلل الجنة ظلا يستتران بالورق كما قيل :

لله درّهم من فتية بكروا . . .

مثل الملوك وراحوا كالمساكين

والأولى أن يعود الضمير في ﴿ عليهما ﴾ على عورتيهما كأنه قيل ﴿ يخصفان ﴾ على سوآتهما من ورق الجنة ، وعاد بضمير الاثنين لأن الجمع يراد به اثنان ولا يجوز أن يعود الضمير على آدم وحواء لأنه تقرر في علم العربية أنه لا يتعدى فعل الظاهر والمضمر المتصل إلى المضمر المتصل المنصوب لفظاً أو محلاًّ في غير باب ظنّ وفقد وعلم ووجد لا يجوز زيد ضربه ولا ضربه زيد ولا زيد مر به زيد فلو جعلنا الضمير في ﴿ عليهما ﴾ عائداً على آدم وحواء للزم من ذلك تعدّي يخصف إلى الضمير المنصوب محلاً وقد رفع الضمير المتصل وهو

الألف في يخصفان فإن أخذ ذلك على حذف مضاف مراد جاز ذلك وتقديره يخصفان على بدنيهما ، قال ابن عباس : الورق الذي خصفا منه ورق الزيتون ، وقيل : ورق شجر التين ، وقيل : ورق الموز ولم يثبت تعيينها لا في القرآن ولا في حديث صحيح ، وقرأ أبو السّمال ﴿ وطفقا ﴾ بفتح الفاء ، وقرأ الزهري ﴿ يخصفان ﴾ من أخصف فيحتمل أن يكون أفعل بمعنى فعل ويحتمل أن تكون الهمزة للتعدية من خصف أي يخصفان أنفسهما ، وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وابن وثاب ﴿ يخصفان ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء والصاد وشدّها ، وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب كذلك إلا أنه فتح الخاء ، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب ، وقرىء ﴿ يخصفان ﴾ بالتشديد من خصف على وزن فعل ، وقرأ عبد الله بن يزيد ﴿ يخصفان ﴾ بضمّ الياء والخاء وتشديد الصاد وكسرها وتقرير هذه القراءات في علم العربية .

(317/265)

﴿ وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطَان لكما عدوّ مبين ﴾ لما كان وقت الهناء شرّف بالتصريح باسمه في النداء فقيل ويا آدم اسكن وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرّح باسمه والظاهر أنه تعالى كلمهما بلا واسطة ويدلّ على

أن الله كلم آدم ما في تاريخ ابن أبي خيثمة أنه عليه السلام سئل عن آدم فقال : نبيّ مكلم ، وقال الجمهور : إنّ النداء كان بواسطة الوحي ويؤيده أنّ موسى عليه السلام هو الذي خصّ من بين العالم بالكلام وفي حديث الشفاعة أنهم يقولون له أنت الذي خصّك الله بكلامه وقد يقال : إنه خصه بكلامه وهو في الأرض وأما آدم فكان ذلك له في الجنة وقد تقدّم لنا في قوله منهم من كلم الله إنّ منهم محمداً كلّمه الله ليلة الإسراء ولم يكلمه في الأرض فيكون موسى مختصّاً بكلامه في الأرض ، وقيل : النداء لآدم على الحقيقة ولم يرو قط أنّ الله كلم حواء والنداء هو دعاء الشّخص باسمه العلم أو بنوعه أو بوصفه ولم يصرّح هنا بشيء من ذلك والجملة معمولة لقول محذوف أي قائلاً : ألم أنهكما وهو استفهام معناه العتاب على ما صدر منهما والتنبيه على موضع الغفلة في قوله ﴿ تلكما الشجرة ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ إشارة لطيفة حيث كان مباحاً له الأكل قاراً ساكناً أشير إلى الشجرة باللفظ الدّال على القرب والتمكّن من الأشجار فقيل : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وحيث كان تعاطى مخالفة النهي وقرب إخراجه من الجنة واضطراب حاله فيها وفرّ على وجهه فيها قيل : ألم أنهكما عن تلكما فأشير إلى الشجرة باللفظ الدّال على البعد والإنذار بالخروج منها ﴿ وأقلّ لكما ﴾ إشارة إلى قوله تعالى :

﴿ فقلنا يا آدم أنّ لا هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يحمل النسيان على بابه .

(318/265)

قال ابن عباس بين العداوة حيث أبي السّجود وقال ﴿ لاقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى وعزّتك ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف كاذباً قال فوعزّتي لأهبطنّك إلى الأرض ثم لا تنال إلا كدّاً فاهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرّى وعجن وخبز ، وقرأ أبيّ ألم تنهيا عن تلكما الشجرة وقيل لكما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(319/265)

وقال أبو السعود :

﴿ فدلاهما ﴾ فنزّلهما على الأكل من الشجرة ، وفيه تنبيهٌ على أنه أهبطهما بذلك من درجة عاليةٍ فإن التدليةَ والإدلاَء إرسالُ الشيء من الأعلى إلى الأسفل ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ بما غرّهما به من القسم ، فإنهما ظنا أن أحداً لا يُقسِم بالله كاذباً أو ملتبسين الغرور ﴿ فَلَمَّا

ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتهمَا ﴾ أي فلما وجدا طعمَها آخِذَين في الأكل منها أخذتْهما العقوبةُ وشؤمُ المعصية فتهافت عنهما لباسُهما وظهرت لهما عوراتُهما ، واختلف في أن الشجرة كانت السنبلةَ أو الكرْمَ أو غيرَهما وأن اللباسَ كان نوراً أو ظفراً ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ طفِق من أفعال الشروعِ والتلبس كأخذ وجعل وأنشأ وعلِق وهَبْ وانبرى أي أخذا يَرْقعَان ويُلزِقان ورقةً فوق ورقة ﴿ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ قيل : كان ذلك ورقَ التينِ وقرىء يُخصِفان من أخصف أي يخصفان أنفسَهما ويُخَصّفان من التخصيف ويَخِصّفان أصله يختصفان .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ مالكُ أمرِهما بطريق العتاب والتوبيخِ ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ وهو تفسيرٌ للنداء فلا محل له من الإعراب أو معمولٌ لقول محذوفٍ أي وقال أو قائلاً : ألم أنهَكُما ؟ ﴿ عَن تِلْكُمَا الشجرة ﴾ ما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد لما أنه إشارةٌ إلى الشجرة التي نُهي عن قُربانها ﴿ وَأَقُل لَّكُمَا ﴾ عطفٌ على أنهَكما أي ألم أقل لكما : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وهذا عتابٌ وتوبيخٌ على الاغترار بقول العدوِّ كما أن الأولَ عتابٌ على مخالفة النهي ، قيل : فيه دليلٌ على أن مطلقَ النهي للتحريم ، ولكما متعلقٌ بعدو ولما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حالٌ من عدوٌّ ، ولم يُحك هذا القولُ ها هنا ، وقد حُكي في سورة طه بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ الآية . روي أنه تعالى قال لآدمَ : ألم يكنْ فيما منحتُك من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى ، وعزتك ولكن ما ظننتُ أن أحداً من خلقك يحلِفُ بك كاذباً ، قال : فبعزتي لأُهبِطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيشَ إلا كدّاً فأُهبط وعُلّم صنعةَ الحديد وأُمر بالحَرْثِ فحرَثَ وسقَى وحصَد وداس وذرَى وعجَن وخَبَز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(321/265)

وقال الآلوسى :

﴿ فدلاهما ﴾ أي حطهما عن درجتهما وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية فهو من دلى الدلو في البئر كما قاله أبو عبيدة وغيره .

وعن الأزهري أن معناه أطمعهما .

وأصله من تدلية العطشان شيئاً في البئر فلا يجد ما يشفي غليله .

وقيل : هو من الدالة وهي الجرأة في فجرأهما كما قال

: أظن الحلم دل على قومي . . .

وقد يستجهل الرجل الحليم

فأبدل أحد حرفي التضعيف ياء ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ أي بما غرهما به من القسم أو متلبسين به ، فالباء للمصاحبة أو الملابسة .

والجار والمجرور حال من الفاعل أو المفعول .

وجعل بعضهم الغرور مجازاً عن القسم لأنه سبب له ولا حاجة إليه ، وسبب غرورهما على ما قاله غير واحد أنهما ظنا أن أحداً لا يقسم بالله تعالى كاذباً ورووا في ذلك خبراً .

وظاهر هذا أنهما صدقا ما قاله فأقدما على ما نهيا عنه .

وذهب كثير من المحققين أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعا ولا ظناً ، وإنما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال .

ولعل كلام اللعين على هذا من قبيل المقدمات الشعرية أثار الشهوة حتى غلبت ونسي معها النهي فوقع الإقدام من غير روية ، وقال القطب : يمكن أن يقال إن اللعين لما وسوس لهما بقوله : ﴿ مَا نهاكما ﴾ [الأعراف : 20] الخ فلم يقبلا منه عدل إلى اليمين على ما قال سبحانه : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ [الأعراف : 21] فلم يصدقاه أيضاً فعدل بعد ذلك إلى شيء آخر وكانه أشار إليه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾ وهو أنه شغلهما باستيفاء اللذات حتى صارا مستغرقين بها فنسي النهي كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿

فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] وجعل العتاب الآتي على ترك التحفظ فتدبر .

(322/265)

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة ﴾ أي أكلا منها أكلاً يسيراً ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا ﴾ قال الكلبي : تهافت عنهما لباسهما فأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿ وَطَفِقَا ﴾ أخذا وجعلا فهو من أفعال الشروع وكسر الفاء فيه أفصح من فتحها وبه قرأ أبو السمال ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أي يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ، وأصل معنى الخصف الخرز في طاقات النعال ونحوها بإلصاق بعضها ببعض .

وقيل أصله الضم والجمع ﴿ عَلَيْهِمَا ﴾ أي على سوآتهما أو على بدنهما ففي الكلام مضاف مقدر .

وقيل : الضمير عائد على ﴿ سَوْءَتِهِمَا ﴾ .

﴿ مِن وَرَقِ الجنة ﴾ وكان ذلك بعض ورق التين على ما روي عن قتادة .

وقيل : الموز .

وقرأ الزهري ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ من أخصف ، وأصله خصف إلا أنه كما قال الجاربردي

نقل إلى أخصف للتعدية ، وضمن الفعل لذلك معنى التصيير فصار الفاعل في المعنى مفعولاً للتصيير (على أصل) الفعل فيكون التقدير يخصفان أنفسهما أي يجعلان أنفسهما خاصفين عليهما من ورق الجنة فحذف مفعول التصير .

وجوز بعضهم كون خصف وأخصف بمعنى .

وقرأ الحسن ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد من ازفتعال ، وأصله يختصفان سكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

وقرأ يعقوب بفتحها .

وقرىء ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ من خصف المشدد بفتح الخاء وقد ضمت اتباعاً للياء وهي قراءة عسرة النطق .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ تفسير للنداء فلا محل له من الإعراب أو معمول لقول محذوف أي وقال أو قائلاً : ألم أنهكما ﴿ عَن تِلْكُمَا الشجرة ﴾ إشارة إلى الشجرة التي نهيا عن قربانها .

والتثنية لتثنية المخاطب .

﴿ وَأَقُل لَّكُمَا ﴾ عطف على ﴿ أَنْهَكُمَا ﴾ أي ألم أقل لكما ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة ، وهذا على ما قيل : عتاب وتوبيخ على الإغترار بقول العدو كما أن الأول عتاب على مخالفة النهي .

(323/265)

ولم يحك هذا القول ههنا ، وقد حكي في سورة طه (117) بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ الآية و ﴿ لَّكُمَا ﴾ متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف وقع حالا منه .

واستدل بعضهم بالآية على أن مطلق النهي للتحريم لما فيها من اللوم الشديد مع الندم والاستغفار المفهوم مما يأتي .

والأكثرون على أن النهي هنا للتنزيه وندمهما واستغفارهما على ترك الأولى وهو في نظرهما عظيم وقد يلام عليه أشد اللوم إذا كان فاعله من المقربين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(324/265)

وقال ابن عاشور :

﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سوءاتهما وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن

وَرَقِ الجنة ﴾ .

تفريع على جملة : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ﴾ [الأعراف : 20] وما عطف عليها .

ومعنى ﴿ فدلاّهما ﴾ أقدمهما ففَعلا فِعلاً يطمعان به في نفع فخابَا فيه ، وأصل دلَّى ، تمثيل حال من يطلب شيئاً من مظنّته فلا يجده بحال من يُدلِّي دَلوه أو رجليه في البئر ليسْتقي من مائها فلا يجد فيها ماء فيقال : دَلَّى فلانٌ ، يقال دلّى كما يقال أدلى .

والباء للملابسة أي دلاهما ملابِساً للغُرور أي لاستيلاء الغرور عليه إذ الغرور هو اعتقاد الشيء نافعاً بحسب ظاهر حاله ولا نفع فيه عند تجربته ، وعلى هذا القياس يقال دَلاّه بغرور إذا أوقعه في الطّمع فيما لا نفع فيه ، كما في هذه الآية وقول أبي جُندب الهُذلي (هو ابن مُرّة ولم أقف على تعريفه فإن كان إسلامياً كان قد أخذ قوله كمن يدلّى بالغرور من القرآن ، وإلاّ كان مثلاً مستعملاً من قبل) :

أحُصّ فلا أجيرُ ومَنْ أجِرْه . . .

فليس كمَنْ يدلّى بالغرور

وعلى هذا الاستعمال ففعل دلّى يستعمل قاصراً ، ويستعمل متعدّياً إذا جعل غيره مدلِّياً ، هذا ما يؤخذ من كلام أهل اللّغة في هذا اللّفظ ، وفيه تفسيرات أخرى لا جدوى في ذكرها .

ودلّ قوله : ﴿ فدلهما بغرور ﴾ على أنّهما فعلا ما وسوس لهما الشّيطان ، فأكلا من

الشّجرة ، فقوله : ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ ترتيب على دَلاَهما بغرور فحذفت الجملة واستُغني عنها بإيراد الاسم الظّاهر في جملة شرط لَمَّا ، والتّقدير : فأكلا منها ، كما ورد مصرّحاً به في سورة البقرة ، فلمّا ذاقاها بدت لهما سوآتهما .

(325/265)

والذّوق إدراك طعم المأكول أو المشروب باللّسان ، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشّرب ، ودلت هذه الآية على أن بُدُوّ سوآتهما حصل عند أوّل إدراك طعم الشّجرة ، دلالة على سرعة ترتّب الأمر المحذور عند أوّل المخالفة ، فزادت هذه الآية على آية البقرة . وهذه أوّلُ وسوسة صدرت عن الشّيطان .

وأوّل تضليل منه للإنسان .

وقد أفادت (لما) توقيت بدوّ سوآتهما بوقت ذوقهما الشّجرة ، لأنّ (لما) حرف يدل على وجود شيء عند وجود غيره ، فهي لمجرّد توقيت مضمون جوابها بزمان وجود شرطها ، وهذا مَعنى قولهم : حرف وُجودٍ لِوُجُودٍ (فاللاّم في قولهم لوجود بمعنى (عند) ولذلك قال بعضهم هي ظرف بمعنى حين ، يريد باعتبار أصلها ، وإذ قد التزموا فيها تقديم ما يدل على الوقت لا على الموقت ، شابهت أدوات الشّرط فقالوا حرف وجود لوجود كما قالوا في (لو

) حرف امتناعٍ لامْتناعٍ ، وفي (لَولا) حرف امتناع لوجود ، ولكن اللاّم في عبارة النّحاة في تفسير معنى لو ولولا ، هي لام التّعليل ، بخلافها في عبارتهم في (لما) لأنّ (لما) لا دلالة لها على سَبَب ، ألا ترى قوله تعالى:

(326/265)

﴿ فلما نَجّاكم إلى البر أعرضتم ﴾ [الإسراء : 67] إذ ليس الإنجاء بسبب للإعراض ، ولكن لَمَّا كان بين السّبب والمسبّب تقارن كثر في شرط (لما) وجوابها معنى السَّببية دون اطراد ، فقوله تعالى : ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ﴾ لا يدلّ على أكثر من حصول ظهور السوْآت عند ذوق الشّجرة ، أي أنّ الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت ، ولكن هذا التّقارن هو لكون الأمرين مسبّبين عن سبب واحد ، وهو خاطر السوء الذي نفثه الشّيطان فيهما ، فسبب الإقدام على المخالفة للتّعاليم الصّالحة ، والشّعورَ بالنقيصة : فقد كان آدم وزوجه في طور سذاجة العلم ، وسلامة الفطرة ، شبيهين بالملائكة لا يُقدمان على مفسدة ولا مَضرة ، ولا يُعرضان عن نصح ناصح عَلِمَا صدقَه ، إلى خبر مخبر يشكّان في صدقه ، ويتوقّعان غروره ، ولا يشعران بالسوء في الأفعال ، ولا في ذَرائِعها ومقارناتها . لأنّ الله خلقهما في عالم ملَكي .

ثمّ تطوّرت عقليّتهما إلى طور التّصرّف في تغيير الوجدان .

فتكّون فيهما فعل ما نُهيا عنه .

ونشأ من ذلك التّطوّر الشّعورُ بالسّوء للغير ، وبالسوء للنّفس ، والشّعور بالأشياء التي تؤدي إلى السوء .

وتقارن السوء وتلازمه .

(327/265)

ثمّ إن كان "السَّوآت" بمعنى ما يسوء من النّقائص ، أو كان بمعنى العَورات كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما ﴾ [الأعراف : 20] فبُدوّ ذلك لهما مقارن ذوق الشّجرة الذي هو أثر الإقدام على المعصية ونبذِ النّصيحة إلى الاقتداء بالغَرور والاغترار بقَسَمه ، فإنَّهما لما نشأت فيهما فكرة السوء في العمل ، وإرادة الإقدام عليه ، قارنت تلك الكيفيةَ الباعثةَ على الفعل نَشْأةُ الانفعال بالأشياء السيّئة ، وهي الأشياء التي تظهر بها الأفعال السيّئة ، أو تكون ذريعة إليها ، كما تنشأ معرفة آلة القطع عند العزم على القتل ، ومن فكرة السّرقة معرفةُ المكان الذي يختفَى فيه ، وكذلك تنشأ معرفة الأشياء التي تلازم السوء وتقارنه ، وإن لم تكن سيّئة في ذاتها ، كما تنشأ معرفة اللّيل من

فكرة السّرقة أو الفرارِ ، فتنشأ في نفوسِ النّاسِ كراهيته ونسبته إلى إصدار الشّرور ، فالسوآت إن كان معناه مطلق ما يسوء منهما ونقائصِهما فهي من قبيل القسمين ، وإن كان معناه العورة فهي من قبيل القسم الثّاني ، أعني الشّيء المقارن لما يسوء ، لأنّ العورة تقارن فعلا سيّئاً من النّقائص المحسوسة ، والله أوجدها سببَ مصالح ، فلم يَشعر آدمُ وزوجه بشيء ممّا خلقت لأجله ، وإنّما شعرا بمقارنة شيء مكروه لذلك وكلّ ذلك نشأ بإلْهام من الله تعالى ، وهذا التّطوّر ، الذي أشارت إليه الآية ، قد جعله الله تطوّراً فطرياً في ذرّية آدم ، فالطّفل في أوّل عمره يكون بريئاً من خواطر السّوء فلا يستاء من تلقاء نفسه إلاّ إذا لحق به مؤلم خارجي ، ثمّ إذا ترعرع أخذت خواطر السوء تنتابه في باطن نفسه فيفرضها ويولِّدها ، وينفعل بها أو يفعل بما تشير به عليه .

(328/265)

وقوله : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ حكاية لابتداء عمل الإنسان لستر نقائصه ، وتحيُّله على تجنّب ما يكرهه ، وعلى تحسين حاله بحسب ما يُخيّل إليه خيالُه ، وهذا أوّل مظهر من مظاهر الحَضارة أنشأه الله في عقلي أصلَي البشر ، فإنّهما لما شعرا بسَوآتهما بكلا المعنيين ، عَرفا بعض جزئياتها ، وهي العورة وحدث في نفوسهما الشّعور

بقبح بروزها ، فشرعا يخفيانها عن أنظارهما استبشاعاً وكراهيةً ، وإذ قد شعرا بذلك بالإلهام الفطري ، حيث لا ملقّن يلقنّهما ذلك ، ولا تعليم يعلمهما ، تَقرّر في نفوس النّاس أنّ كشف العورة قبيح في الفطرة ، وأنّ سترها متعيّن ، وهذا من حكم القوّة الواهمة الذي قارَن البشر في نشأته ، فدلّ على أنّه وَهْم فطري متأصّل ، فلذلك جاء دين الفطرة بتقرير ستر العورة ، مشايعة لما استقرّ في نفوس البشر ، وقد جعل الله للقوّة الواهمة سلطاناً على نفوس البشر في عصور طويلة ، لأنّ في اتّباعها عونا على تهذيب طباعه ، ونزْعِ الجلافة الحيوانية من النّوع ، لأنّ الواهمة لا توجد في الحيوان ، ثمّ أخذت الشّرائع ، ووصايا الحكماء ، وآداب المربِّينَ ، تزيل من عقول البشر متابعة الأوهام تدريجاً مع الزّمان ، ولا يُبقون منها إلاّ ما لا بد منه لاستبقاء الفضيلة في العادة بين البشر ، حتّى جاء الإسلام وهو الشّريعة الخاتمة فكان نوط الأحكام في دين الإسلام بالأمور الوهْميّة ملغى في غالب الأحكام ، كما فصّلتُه في كتاب "مقاصد الشّريعة" وكتاب "أصول نظام الاجتماع في الإسلام" .

والخصف حقيقته تقوية الطّبقة من النّعل بطبقة أخرى لتشتدّ ، ويستعمل مجازاً مرسلاً في مطلق التّقوية للخِرقة والثّوب ، ومنه ثوب خَصيف أي مخصوف أي غليظ النّسج لا يَشف عمّا تحته ، فمعنى يخصفان يضعان على عوراتهما الورَق بعضه على بعض كفعل الخاصف ، وضعا مُلزقاً متمكّناً ، وهذا هو الظّاهر هنا إذ لم يقل يخصفان وَرَق الجنّة .

و (من) في قوله : ﴿ من ورق الجنة ﴾ يجوز كونها اسماً بمعنى بعضَ في موضع مفعول ﴿ يخصفان ﴾ أي يخصفان بعض ورق الجنة ، كما في قوله : ﴿ من الذين هادوا يحرفون ﴾ ، ويجوز كونها بيانيّة لمفعول محذوف يقتضيه : " ﴿ يخصفان ﴾ والتقدير : يخصفان خِصْفاً من ورق الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(330/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أي فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما وخدعهما من القسم . و" دلاّ " مأخوذة من دلّى رجليه في البئر كي يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دلَّى جبل الدلو لينزله في البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشيء مرة فمرة ، و" بغرور " أي بإغراء لكي يوقعهما في المخالفة ، فأظهر لهما النصح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل في النفس ، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذاه فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر . ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا

الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ [الأعراف : 22]

و" الخصف " أي تأتي بشيء وتلزقه على شيء لتداري شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإِسكافي يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه .

وهكذا فعل آدم وحواء ؛ أخذا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة ليداريا السوءة .

وقوله الحق : ﴿ وَطَفِقَا ﴾ يعني وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق : ﴿ . . . وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 22]

لقد كان التكليف هنا في أمر واحد ، والإِباحة في أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتولى عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سينفعنا هذا الموقف في الفهم في لقطة للقصة في سورة غير هذه وهو قوله الحق : ﴿ . . . وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121]

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما : ﴿ . . . أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 22]

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾

وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة في أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إنْ آخذهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو العادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما . وكان لابد أن يكون الجواب : نعم يا رب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتي بالإخبار ، وقد يأتي بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لو جاء بالاستفهام بالنفي . ﴿ . . . إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 22]

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذي يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك ، و" مبين " أي محيط ، وهذا دليل يظهر عداوة الشيطان وإحاطتها ؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتي من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . أو بيَّن العداوة وشديد الخصومة .

ويأتي الإقرار بالذنب من آدم وحواء : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنْفُسَنَا . . . ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى الآيتين

قال عليه الرحمة عن كيد الشيطان للإنسان :

وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما ، وأنه إنما يريد خلودهما فى الجنة ، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: 20 - 22] .

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفى ، وبه سمى صوت الحلى وسواسا ، ورجل موسوس بكسر الواو ، ولا يفتح فإنه لحن ، وإنما قيل له: موسوس ؛ لأن نفسه توسوس إليه ، قال تعالى: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16] .

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما ، فإنها معصية ، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد ، فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما فالمعصية تبدى السوأة الباطنة والظاهرة ، ولهذا رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى رؤياه الزناة والزوانى عراة بادية سوآتهم ، وهكذا إذا رؤى الرجل أو المرأة فى منامه

مكشوف السوأة يدل على فساد فى دينه ، قال الشاعر :

إِنِّى كَأَنِّى أَرَى مَنْ لا حَيَاءَ لَهُ وَلا أَمَانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُرْيَانَا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين : لباسا ظاهرا يوارى العورة ويسترها ، ولباسا باطنا من التقوى ، يُجَمِّل العبد ويستره ، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة ، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها .

ثم قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف : 20] .

(333/265)

أى : إلا كراهة أن تكونا ملكين ، وكراهة أن تخلدا فى الجنة ، ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها ، وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مصدود .

فشام عدو الله الأبوين ، فأحسَّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام ، ويقول: لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك ، ويدل على هذه القراءة قوله فى الآية الأخرى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ [طه: 120] .

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة ، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب ؟ وكان آدم عليه السلام أعلم بالله

وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه ؟

،

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا فى ذلك أصلاً ، وإنما كذبهما عدو الله وغرَّهما ، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهذا أول المكر والكيد ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التى تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر: أم الأفراح،

وسموا أخاها بلقيمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر ، وهو جحد صفات الرب ، تنزيها ، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة . فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا فى الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون ، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد ، واشتهى الخلود فى الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه ، أنه ناصح لهما ، فاجتمعت الشبهة والشهوة ، وساعده القدر ، ولما فرغ الله سبحانه من تقديره فأخذتهما سنة الغَفْلة ، واستيقظ لهما العدو ، كما قيل:

وَاسْتَيْقَظُوا وَأَرَادَ اللهُ غَفْلَتَهُمْ لِيَنْفُذَ الْقَدَرُ الْمَحْتُومُ فى الأَزَلِ

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ [الأعراف: 20] .

فيقال: الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده ، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله ، والاعتذار عنه ، وإنما يعتذر عن الأب فى كون ذلك راج عليه وولج سمعه ، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين ، وإنما ردد الأمر بين أمرين: أحدهما ممتنع ، والآخر: ممكن ، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ، ولهذا لما أطمعه فى الأمر الممكن جزم له به ولم يردده .

فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ [طه: 120].

فلم يدخل أداة الشك ها هنا كما أدخلها فى قوله: ﴿إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20] فتأمله، ثم قال: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21].

فتضمن هذا الخبر أنواعا من التأكيد:

أحدها: تأكيده بالقسم.

الثانى: تأكيده بإنّ.

(335/265)

الثالث: تقديم المعمول على العامل، إيذانا بالاختصاص. أى نصيحتى مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إلى.

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد: أى النصح صفتى وسجيتى، ليس أمرا عارضا لى.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد فى جواب القسم.

السادس: أنه صور نفسه لهما ناصحا من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون

لكما فى ذلك كثير ، وأنا واحد منهم ، كما تقول لمن تأمره بشىء : كل أحد معى على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به .

سَعَى نَحْوَهَا حَتَّى تجَاوَزَ حَدَّهُ وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ ، وَلَوْ شَاءَ قَلَّلا

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا جاءوه: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ [المنافقون: 1] . فأكدوا خبرهم بالشهادة وبإن وبلام التأكيد ، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ [التوبة: 56] .

ثم قال تعالى: ﴿ فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: 22] .

قال أبو عبيدة: "خذلهما وخلاهما ، من تدلية الدلو ، وهو إرسالها فى البئر" .

وذكر الأزهرى لهذه اللفظة أصلين: أحدهما قال: "أصله الرجل العطشان يتدلى فى البئر ليروى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تدلى فيها بالغرور . فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدى نفعا ، فيقال: دلاه ، إذا أطمعه" ، ومنه قول أبى جندب الهذلى:

أَحُصُّ ، فَلاَ أُجِيرُ وَمَنْ أُجِرْهُ فَلَيْسَ كَمَنْ تَدَلَّى بِالْغُرُورِ

أحص: أى أقطع .

الثانى: "فدلاهما بغرور ، أى جرأهما على أكل الشجرة ، وأصله: دللهما من الدلال والدالة

وهى الجراءة" ، قال شمر: "يقال: ما دَلَّكَ على أى ما جرأك على" ، وأنشد لقيس بن زهير:

أَظَنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

(336/265)

قلت: أصل التدلية فى اللغة الإرسال والتعليق . يقال: دلى الشىء فى مهواة ، إذا أرسله بتعليق . وتدلى الشىء بنفسه . ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ [يوسف: 19] .

قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها فى البئر . ودلاها بالتخفيف إذا نزعها من البئر ، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها ، ودلاها يدلوها دلوا ، إذا نزعها وأخرجها ، ومنه الإدلاء ، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه ، ويشاركه فى الاشتقاق الأكبر الدلالة وهى التوصل إلى الشىء بإبانته وكشفه ، ومنه الدل وهو ما يدل على العبد من أفعاله ، وكان عبد الله بن مسعود يتشبه برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هديه ودله وسمته ، فالهدى الطريقة التى عليها العبد ، من أخلاقه وأقواله وأعماله ، والدل ما يدل من ظاهره على باطنه ، والسمت هيأته ووقاره ورزانته .

والمقصود: ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين .

قال مطرف بن عبد الله: "قال لهما إنى خلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما ، فاتبعانى أرشدكما وحلف لهما ، وإنما يخدع المؤمن بالله" ، قال قتادة: "وكان بعض أهل العلم يقول من خادعنا بالله خدعنا" ، فالمؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم ، وفى الصحيح: "أن عيسى بن مريم عليه السلام رأى رجلا يسرق ، فقال: سرقت ؟ فقال: لا والله الذى لا إله إلا هو ، فقال المسيح: آمنت بالله وكذبت بصرى" .

وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز أن يكون قد أخذ من ماله ، فظنه المسيح سرقة ، وهذا تكلف ، وإنما كان الله سبحانه وتعالى فى قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبا ، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره ، فرد التهمة إلى بصره لما اجتهد له فى اليمين بالله ، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل ، وقال: ما ظننت أحدا يحلف بالله تعالى كاذبا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ إغاثة اللهفان صـ 111.115 ﴾

(337/265)

فصل

قال صاحب الأمثل :

(وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين) .

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة ، ولم يكن قد وقع في حبائل الشيطان وخدعه بعد ، ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا ، كما أنّه لم يكن في مقدوره أن يصدّق بأن يأتي بمثل هذه الأيمان المغلَّظة كذباً ، وينشر مثل هذا الحبائل والشباك على طريقه .

ولهذا وقع في حبال الشيطان ، وانخدع بوسوسته في المآل ، ونزل بحبل خداعه المهترىء في بئر الوساوس الشيطانية للحصول على ماء الحياة الخالدة والملك الذي لا يبلى ، ولكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياة كما ظنّ ، بل سقط في ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهية ، كما يعبّر القرآن عن ذلك ويلخصه في عبارة موجزة إذ يقول: (فدلاّهما بغرور) .

ومع أن آدم ـ نظراً لسابقة عداء الشيطان له ، ومع علمه بحكمة الله ورحمته الواسعة ، ومحبته ولطفه ـ كان من اللازم أن يبدّد كل الوساوس ويقاومها ، ولا يسلّم للشيطان ، إلاّ أنه قد وقع ما وقع على كل حال .

وبمجرّد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما (فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) .

ويستفاد من العبارة أعلاه أنّهما بمجرّد أن ذاقا من ثمرة الشجرة الممنوعة أُصيبا بهذه العاقبة المشؤومة ، وفي الحقيقة جُرِّدا من لباس الجنّة الذي هو لباس الكرامة الإلهية لهما .

ويستفاد من هذه الآية جيداً أنّهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفة لم يكونا عاريين ، بل كانا

مستورين بلباس لم يرد في القرآن ذكر عن حقيقة ذلك اللباس وكيفيته ، ولكنّه على ايّ حال كان يعدّ علامة لشخصية آدم وحواء ومكانتهما واحترامهما ، وقد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر الله ، وتجاهلهما لنهيه .

(338/265)

على حين تقول التّوراة المحرفة: إنّ آدم وحواء كانا في ذلك الوقت عاريين بالكامل ، ولكنّهما لم يكونا يدركان قبح العري ، وعندما ذاقا وأكلا من الشجرة الممنوعة التي كانت شجرة العلم والمعرفة ، انفتحت أبصار عقولهما ، فرأيا عريهما ، وعرفا بقبح هذه الحالة .

إنّ آدم الذي تصفه التّوراة لم يكن في الواقع إنساناً ، بل كان بعيداً من العلم والمعرفة جداً ، إلى درجة أنّه لم يكن يعرف حتى عريه .

ولكن آدم الذي يصفه القرآن الكريم ، لم يكن عارفاً بوضعه فحسب ، بل كان واقفاً على أسرار الخلقة أيضاً (عِلم الأسماء) ، وكان يُعَدّ معلّم الملائكة ، وإذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإنّ ذلك لم يكن بسبب جهله ، بل استغلّ الشيطان صفاء نيّته ، وطيب نفسه .

ويشهد بهذا القول الآية (27) من نفس هذه السورة ، والتي تقول: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أُخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما) .

وما كتبه بعض الكتّاب المسلمين من أن آدم كان عارياً منذ البداية ، فهو خطأ بيّن نشأ ممّا ورد في التّوراة المحرفة .

وعلى كل حال فإنّ القرآن يقول: إن آدم وحواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنّة: (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة) .

وفي هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من الله يقول: ألم أُحذّركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما : إنّ الشيطان عدوٌّ لكما ؟ فلماذا تناسيتم أمري ووقعتم في مثل هذه الأزمة: (وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوّ مبين) .

(339/265)

من المقايسة بين تعبير هذه الآية والآية الأُولى التي أجاز الله فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنّة ، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهي إلى درجة أنّ أشجار الجنّة أيضاً اضحت بعيدة عنهما . لأنّه في الآية السابقة تمت الإشارة إلى الشجرة بأداة الإشارة القريبة (هذه الشجرة) وأمّا في هذه الآية فقد استعملت مضافاً إلى كلمة (نادى) التي هي للخطاب من بعيد ، استعملت (تلكما) التي هي للإشارة إلى البعيد .

بحوث

إنّ في هذه الآية نقاطاً لابدّ من التوقف عندها :

1 . كيفية وسوسة الشيطان

يستفاد من عبارة (وسوس له) نظراً إلى حرف اللام (التي تأتي في العادة للفائدة والنفع) أنّ الشيطان كان يتخذ صفة الناصح ، والمحبّ لآدم ، في حين أن (وسوس إليه) لا ينطوي على هذا المعنى ، بل يعني فقط مجرّد النفوذ والتسلّل الخفيّ إلى قلب أحد .

وعلى كل حال يجب أن لا يتصور أن الوساوس الشيطانية مهما بلغت من القوة تسلب الإرادة والاختيار من الإنسان ، بل يمكن للإنسان ـ رغم ذلك ـ وبقوّة العقل والإيمان أن يقف في وجه تلك الوساوس ويقاومها .

وبعبارة أُخرى: إن الوساوس الشيطانية لا تجبر الإنسان على المعصية ، بل قوّة الإرادة وحالة الإختيار باقية حتى مع الوساوس ، وإنّ مقاومتها تحتاج إلى الاستقامة والصمود الأكثر وربّما إلى تحمّل الألم والعذاب وكذلك فإنّ الوساوس الشيطانية لا تسلب المسؤولية عن أحد ولا تجرّده عنها ، كما نلاحظ ذلك في آدم . ولهذا نرى أنه رغم جميع العوامل التي حفت بآدم ، ودعته إلى مخالفة أمر الله ونهيه ، وشجعته عليها ، والتي أقامها الشيطان في طريقه ، فإنّ الله سبحانه اعتبره مسؤولا عن عمله ، ولهذا عاقبه على النحو الذي سيأتي

بيانه .

2 ـ ماذا كانت الشّجرة الممنوعة ؟

(340/265)

جاءت الإِشارة إِلى الشجرة الممنوعة في ست مواضع من القرآن الكريم ، من دون أن يجري حديث عن طبيعة أو كيفية أو اسم هذه الشجرة ، وأنها ماذا كانت ؟ وماذا كان ثمرها ؟ بيد أنّه ورد في المصادر الإِسلامية تفسيران لها ، أحدهما "ماديّ" وهو أنّها كانت "الحنطة" كما هو المعروف في الرّوايات .

ويجب الإِنتباه إِلى نقطة ، وهي أن العرب تطلق لفظة "الشجرة" حتى على النبتة ، ولهذا أطلقت ـ في القرآن الكريم ـ لفظة الشجرة على نبتة اليقطين ، إِذ قال سبحانه: (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) .

والتّفسير الآخر "معنوي" وهو أنّ المقصود من تلك الشجرة ـ كما في الرّوايات ـ هو ما عبّر عنها بـ "شجرة الحسد" لأنّ آدم طبقاً لهذه الرّوايات ـ بعد ملاحظة مكانته ومقامه ـ تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام ، ولا فوق مكانته مكانة ، ولكن الله تعالى أطلعه على مقام ثلة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الإِسلام وأهل بيته) ، فحصل عنده ما يشبه الحسد

(1) ، وكانت هذه هي الشجرة الممنوعة التي أُمر آدم بأن لا يقربها .

---

(1) هذا هراء ومحض افتراء فآدم ـ عليه السلام ـ نبى بنص حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكيف يصح القول بتفضيل آل البيت عليه ـ عليه السلام ـ والأمر الآخر كيف يجوز وقوع الحسد من آدم (وهو نبى) وهل يعقل أن يحسد الأب بنيه ؟ ؟ ! ! ! إن هذا لشىء عجاب . اللهم ارزقنا حسن الفهم وجنبنا الزلل فى القول والفعل . والله أعلم .

(341/265)

وفي الحقيقة تناول آدم ـ طبقاً لهذه الرّوايات ـ من شجرتين ، كانت إِحداهما أقلّ منه مرتبةً وأدنى منه منزلة ، وقد قادته إِلى العالم المادي ، وكانت هي "الحنطة" . والأُخرى هي الشجرة المعنوية التي كانت تمثل مقام ثلة من أولياء الله ، والذي كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته ، وحيث أنه تعدّى حدّه في كلا الصعيدين ابتلي بذلك المصير المؤلم .

ولكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام منه ، بل كان مجرّد إِحساس نفساني من دون أن تتبعه أية خطوة عملية على طبقه .

وحيث إنّ للآيات القرآنية ـ كما أسلفنا مراراً ـ معان متعدّدة ، فلا مانع من أن يكون كلا المعنيين مرادين من الآية .

ومن حسن الاتفاق أنّ كلمة "الشجرة" قد استعملت في القرآن الكريم في كلا المعنيين ، فحيناً استعملت في المعنى المادي التعارف للشجرة مثل: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن) التي هي إشارة إلى شجرة الزيتون ، وتارة استعملت في الشجرة المعنوية مثل (والشجرة الملعونة في القرآن) التي يكون المراد منها إمّا طائفة من المشركين ، أو اليهود ، أو الأقوام الطاغية الأخرى مثل بني أُمية . (1)

على أنّ المفسّرين أبدوا احتمالات متعددة أُخرى حول الشجرة الممنوعة ، ولكن ما قلناه هو الأبين والأظهر من الجميع .

ولكن النقطة التي يجب أن نذكّر بها هنا ، هي أنه وصفت الشجرة الممنوعة في التّوراة المختلفة ـ المعترف بها اليوم من قِبَل جميع مسيحيي العالم ويهوديه ـ بشجرة العلم والمعرفة وشجرة الحياة تقول التّوراة: إن آدم لم يكن عالماً ولا عارفاً قبل أكله من شجرة العلم والمعرفة ، حتى أنّه لا يعرف ولم يميّز عريه ، وعندما أكل من تلك الشجرة ، وصار إنساناً بمعنى الكلمة طرد من الجنّة خشية أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيخلد كما الآلهة .

وهذا من أوضح القرائن الشاهدة على أنّ التّوراة الرائجة ليست كتاباً سماوياً ، بل هي من نسيج العقل البشري القاصر المحدود ، الذي يعتبر العلم والمعرفة عيباً وشيناً للإنسان ، ويعتبر آدم بسبب ارتكابه معصية تحصيل العلم والمعرفة مستحقاً للطرد من جنة الله ، وكأنّ الجنّة لم تكن مكان العقلاء الفاهمين ومنزل العلماء العارفين ! !

(1) هذا تحامل منه على بنى أمية تبعا لتشيعه .

(342/265)

والملفت للنظر أنّ الدّكتور "ويليم ميلر" الذي يُعَدّ من مفسري الإنجيل القديرين والبارزين بل من مفسّري العهدين (التّوراة والإنجيل معاً) يقول في كتابه المسمى "ما هي المسيحية": "إنّ الشيطان تسلّل إلى الجنّة في صورة حيّة ، وأقنع حواء بأن تأكل من ثمرة تلك الشجرة ، ثمّ أعطت حواء من تلك الثمرة إلى آدم ، فأكل منها آدم أيضاً ، ولم يكن فعل أبوينا الأوليين مجرّد خطأ عادي ، أو غلطة ناشئة من عدم التفكير ، بل كان معصية متعمّدة ضدّ الخالق ، وبعبارة أُخرى: إنّ آدم وحواء كانا يريدان بهذا الصنيع أن يصيرا آلهة ، إنّهما لم يرغبا في أن يطيعا الله ، بل كانا يريدان أن يعملا وفق رغباتهما وميولهما الشخصية ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد وبّخهما الله تعالى بشدّة ، وأخرجهما من الجنّة ، ليعيشا في عالم مليء بالعذاب والألم والمحنة" .

لقد أراد مفسّر التّوراة والإنجيل هذا أن يبرر شجرة التّوراة الممنوعة ، ولكنّه نسب أعظم الذنوب وهو مضادة الله ومحاربته - إلى آدم . . . أمّا كان من الأفضل أن يعترف - بدل إعطاء

مثل هذه التّفسيرات ـ بتطرّق التحريف والتلاعب إلى هذه الكتب المسماة بالكتب المقدّسة ؟ !

(343/265)

---

3 ـ هل ارتكب آدم معصية ؟

يستفاد ممّا نقلناه من الكتب المقدّسة ـ لدى اليهود والنصارى ـ أنّهم يعتقدون بأن آدم ارتكب معصية ، بل ترى كتبهم أن معصيته لم تكن معصية عادية ، وإنما كانت معصية كبيرة وإثماً عظيماً ، بل إن الذي صَدَرَ عن آدم هو مضادة الله والطموح في الألوهية والربوبيّة ، ولكن المصادر الإسلامية ـ عقلا ونقلا ـ تقول لنا : إنّ الانبياء لا يرتكبون إثماً ، وإنّ منصب إمامة الناس وهدايتهم لا يُعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية . ونحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلهيين ، وعلى هذا الأساس فإنّ كل ما ورد في هذه الآيات مثل غيرها من التعابير التي جاءت في القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان ، جميعها تعني "العصيان النسبي" و"ترك الأَولى" لا العصيان المطلق .

وتوضيح ذلك : أن المعصية على نوعين : "المعصية المطلقة" و"المعصية النسبية" ، والمعصية المطلقة هي مخالفة النهي التحريمي ، وتجاهل الأمر الإلهيّ القطعيّ ، وهي تشمل

كلَّ نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام .

ولكن المعصية النسبية هي أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه ، وربّما يكون إتيان عمل مباح ـ بل ومستحب ـ لا يليق بشأن الشخصيات الكبيرة ، وفي هذه الصورة يُعدّ إتيان ذلك العمل "معصية نسبية" ، كما لو ساعد مؤمنٌ واسع الثراء فقيراً لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه ، فإنه ليس من شك في أنّ هذه المعونة المالية مهما كانت صغيرة وحقيرة لا تكون فعلا حراماً ، بل هي أمر مستحب ، ولكن كل من يسمع بها يذمُ ذلك الغني حتى كأنّه ارتكب معصية واقترف ذنباً ، وذلك لأنّه يتوقّع من مثل هذا الغني المؤمن أن يقوم بمساعدة أكبر .

وانطلاقاً من هذه القاعدة وعلى هذا الأساس تقاس الأعمال التي تصدر من الشخصيات الكبيرة بمكانتهم وشأنهم الممتاز ، وربّما يطلق على ذلك العمل ـ مع مقايسته بذلك ـ لفظ (العصيان" و"الذنب" .

(344/265)

فالصّلاة التي يقوم بها فرد عادي قد تعتبر صلاة ممتازة ، ولكنّها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء الله ، لأن لحظة واحدة من الغفلة في حال العبادة لا تناسب مقامهم ولا تليق

بشأنهم . بل نظراً لعلمهم وتقواهم ومنزلتهم القريبة يجب أن يكونوا حال عبادة الله تعالى مستغرقين في صفات الله الجمالية والجلالية ، وغارقين في التوجه إلى عظمته وحضرته . وهكذا الحال في سائر أعمالهم ، فإنّها على غرار عباداتهم ، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم ، ولهذا إذا صدر منهم "ترك الأولى" عوتبوا من جانب الله ، والمراد من ترك الأَولى ، هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل ، ويعمد إلى عمل جيد أو مُستحبّ أدنى منه في الفضل .

فإنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أن ما أُصيب به يعقوب من محنةِ فراقِ ولده يوسف ، كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم وقف على باب بيته عند غروب الشمس يطلب طعاماً ، فغفل يعقوب عن اطعامه ، فعاد ذلك الفقير جائعاً منكسراً خائباً .

فلو أنّ هذا الصنيع صدر من إنسان عادي من عامّة الناس لما حظي بمثل هذه الأهمية والخطورة ، ولكن يُعدّ صدوره من نبيّ إلهيٍّ كبير ، ومن قائد أُمّة أمراً مُهمّاً وخطيراً استتبع عقوبةً شديدةً من جانب الله تعالى .

إنّ نهي آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً ، بل كان ترك أَوْلى ، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عُدَّ صدورُه أمراً مهماً وخطيراً ، واستوجب مخالفة هذا النهي (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذة من جانب الله تعالى .

هذا وقد احتمل بعض المفسّرين ـ أيضاً ـ أنّ نهي آدم عن الشجرة الممنوعة كان "نهياً

إرشادياً" لا نهياً مولوياً ، وتوضيح ذلك: أنه قد ينهى الله تعالى عن شيء من منطلق كونه مالك الإنسان وصاحب أمره ومولاه ، وطاعة هذا النوع من النهي واجبة على كل أحد من الناس ، وهذا النوع من النهي يسمى نهياً مولوياً .

(345/265)

ولكنّه قد ينهي عن شيء لمجرّد أن ينبه الإنسان على أن ارتكاب هذا النهي ينطوي على أثر غير محمود تماماً ، مثل نهي الطبيب عن الأطعمة المضّرة ، ولا شك في أنّ المريض لو خالَفَ الطبيب لا يكون قد أهان الطبيب ، ولا أنّه خالف شخصه ، بل يكون بتجاهله نهيَ الطبيب قد تجاهَلَ إرشاده ، وجرّ إلى نفسه التَعَب والنَصَب .

وفي قصة آدم أيضاً قال الله تعالى له: إنّ نتيجة الأكل من الشجرة الممنوعة هي الخروج من الجنّة ، والوقوع في التعب والنصب ، وكان هذا مجرّد إرشاد وليس أمراً ، وبهذا فإنّ آدم خالفَ نهياً إرشادياً فقط ، لا أنّه أتى عصياناً وذنباً واقعياً .

ولكنَ التّفسير الأوّل أصحّ ، لأنَّ النهي الإرشاديّ لا يحتاج إلى مغفرة ، في حين أنَّ آدم ـ ما سنقرأ في الآية اللاحقة ـ يطلب من الله تعالى الغفران ، هذا مضافاً إلى أنّ فترة الجنّة كانت تعدّ فترةً تدريبية وتعليمية بالنسبة لآدم . . . ، فترة الوقوف على التكاليف والأوامر

والنواهي الإِلهية . . . فترة معرفة الصّديق والعدو . . . فترة الوقوف على نتائج العصيان وثمرة مخالفة الأمر الإِلهي واتباع الشيطان وقبول وساوسه ، ونحن نعلم أنّ النهي الإِرشادي ليس في حقيقته تكليفاً ، ولا ينطوي على تعهّد ، ولا يورث مسؤولية .

وفي خاتمة هذا البحث نذكّر القارىء بأنّ كلمة "النهي" و"العصيان" و"الغفران" و"الظلم" تبدو في بادىء النظر وكأنها تعطي معنى المعصية المطلقة والذنب الحقيقي وآثاره ، ولكن نظراً لمسألة عصمة الأنبياء الثابتة بالدليل العقلي والنقلي تُحمل جميع هذه التعابير على "العصيان النسبيّ" وهذا الأمر لا يبدو بعيداً عن ظاهر اللفظ بالنظر إِلى منزلة آدم وسائر الأنبياء العظيمة وسموّ مقامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 4 صـ 592 . 601 ﴾

(346/265)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾

" الباء " للحال أي : مصاحبين للغرور ، أو مصاحباً للغرور فهي حال : إمَّا من الفاعل ، أو

من المفعول ويجوز أن تكون الباءُ سببيَّةً أي : دَلاَّهُمَا بسببِ أنْ غرَّهُمَا .

والغُرُورُ : مصدرٌ حُذف فَاعِلُهُ ومفعوله ، والتقديرُ : بِغُروره إيَّاهُمَا وقوله : " فَدَلاَّهَمَا " يحتملُ أن يكون من التَدْلِيَةِ من معنى دَلاَ دَلْوَه في البِئْرِ ، والمعنى أطمعهما .

قال أبو منصور الزْهَرِيُّ : لهذه الكلمة أصلان :

أحدهما : أن يكون أصْلُهُ أن الرَّجُلَ العَطْشَانَ يُدلِي رِجْلَهُ في البئر ليأخذ الماء ، فلا يجدُ فيها ماء فوضعت التَّدْلية موضع الطَّمعِ فيما لا فائدة فيه ، يقالُ : دَلاَّهُ : إذا أطْمَعَهُ .

قال أبو جنْدَبٍ : [الوافر]

2436 - أحُصُّ فَلاَ أُجِيرُ ومَنْ أُجِرْهُ . . .

فَلَيْسَ كَمَنْ تَدَلَّى بالغُرُورِ

وأن تكون من الدَّالِ ، والدَّالَّةَ ، وهي الجُرْأة [أي] : فَجَرَّأهما قال : [الوافر]

2437 - أظُنُّ الحِلْمُ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي . . .

وقدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ

وعلى الثاني [يكون] الأصل دَلَّلُهُمَا ، فاستثقل توالي ثلاثةِ أمثال فأبدلت الثَّالث حرف لين كقولهم : تَظَنَّيْتُ في تظَّننْت ، وقَصَّيْتُ أظْفَاري في قَصَصْتُ .

وقال : [الرجز]

2438 - تَقَضِّيَ البَازِي إذا البَازِي كَسَرْ . . .

قوله : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة ﴾

" الذَّوْقُ " وجود الطَّعْمِ بالفَم ، ويعبر به عن الأكل وقيل : الذَّوْقُ مَسُّ الشَّيْءِ باللِّسانِ ، أو بالفَمِ يُقَالُ فيه : ذاق يَذُوقُ ذُوْقاً مثل صَامَ ، يَصُومُ صَوْماً ، ونَامَ يَنَامُ نَوْماً .

وهذه الآية تدل على أنهما تناولا البُرَّ قَصْداً إلى معرفة طعمه ، ولولا أَنَّهُ تعالى ذكر في آية أخرى أَنَّهُمَا أكلا منها لكان ما في هذه الآية لا يدُلُّ على الأكل ؛ لأنَّ الذَّائِقَ قد يكونُ ذَائِقاً من دون أكل .

(347/265)

قوله : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أي ظهرت عَوْرَتُهُمَا وزال اللِّبَاسُ عنهما .

قوله " وطَفِقَا " طَفِقَ من أفعال الشُّرُوعِ كأَخَذَ وجعل ، وأَنْشَأَ وعلَّق وهبَّ وانبرى ، فهذه تَدُلُّ على التَّلَبُّسِ بأوَّلِ الفِعْلِ ، وحكمها حكم أَفْعَالِ المُقَارَبَةِ من كون خبرها لا يكون غلاَّ مُضَارِعاً ، ولا يجوز أن يقترن بـ " أن " لمنافاتها لها ؛ لأنها للشُّروع وهو حال و " أَنْ " للاستقبال ، وقد يقعُ الخبرُ جملة اسمية كقوله : [الوافر]

2439 - وَقَدْ جَعَلَتْ قُلُوصُ بَنِي سُهَيْلٍ . . .

مِنَ الأَكْوَارِ مَرْتَعُهَا قَرِيبُ

وشرطيَّة كـ" إذا "كقوله عمر : " فَجَعلَ الرَّجُلُ إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً " .

ويقال طَفِقَ بفتح الفاء وكسرها ، وطَبِقَ بالباء الموحدة أيضاً ، والألف اسمها ، و" يَخْصَفَان " خَبَرُهَا .

وقرأ أبُوا السمالِ : " وطَفَقَا " بفتح الفاء .

وقرأ الزُّهْرِيُّ : "يُخْصِفَانِ " بضم حرف المضارعة من أخْصَفَ وهي تحتمل وجهين :

أحدهما : ان يكون أفْعَلَ بمعنى فَعَلَ .

والثاني : أن تكون الهَمْزَةُ للتَّعْدِيَة ، والمَفْعُولُ على هذا مَحْذُوفُ ، أي : يُخْصِفَانِ أنفسهما ، أي : يَجْعلانِ أنفسَهُمَا خاصِفَيْنِ .

وقرأ الحسنُ ، والأعرجُ ومُجاهِدٌ وابْنُ وثَّاب "يَخِصّفانِ " بفتح الياء وكسر الخاء ، والصَّاد مشدودةٌ ، والأصْلُ يَخْصِفَانِ ، فأدغمت التَّاءُ في الصَّادِ ، ثم اتْبعت الخَاءُ للصَّادِ في حركتها ، وسيأتي نظيرُ هذه القراءة في "يُونس " و" يس " نحو ﴿ يهدي ﴾ [يونس : 35] و﴿ يَخِصّمُونَ ﴾ [يس : 49] .

وروى مَحْبُوبٌ عن الحسنِ كذلك إلاَّ أنَّهُ فتح الخاء ، فلم يُتْبِعْها للصَّادِ وهي قراءةُ يعقوب وابْنِ بُرَيْدَةَ .

(348/265)

وقرأ عبد الله "يُخصِّفان" بضمِّ الياءِ والخَاءِ وكسر الصَّادِ مشدودة وهي من "خَصَّفَ" بالتَّشديد ، إلاَّ أَنَّهُ أتبع الخاء للياء قبلها في الحركةِ ، وهي قراءة عَسِرةُ النُّطْقِ .

ويَدُلُّ على أنَّ أصْلها مِنْ خَصَّفَ بالتَّشديدِ قِراءةُ بعضهم "يُخَصِّفان" كذلك ، إلاَّ أَنَّهُ بفتح الخاء على أصلها .

و"الخصفُ" : الخَرْزُ في النِّعالِ ، وهو وَعٌ طريقة على أخرى وخرْزهما ، والمِخْصَفُ : ما يُخْصَفُ به ، وهو الإشفَى .

قال رُؤبَةُ : [الكامل]

2440 - . . . . . .

أَنْفِهَا كالمِخْصَفِ

والخَصْفَةُ أيضاً : الحُلَّةُ للتَّمْر ، والخَصَفُ : الثِّيابُ الغَلِيظَةُ ، وخَصَفْتُ الخَصْفَةَ : نَسَجْتُهَا ، والأخْصَف : الخَصِيفُ طعام يبرق ، وأصْلُهُ أن يُوضعَ لَبَنٌ ونحوه في الخَصْفَةِ فيتلوَّنُ بلونها .

وقال العبَّاسُ يمدحُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم : [المنسرح]

2441 - . . . طِبْتَ فِي الظِّلالِ وَفِي . . .

مُسْتَودَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

يشير إلى الجَنَّةِ أي حَيْثُ يخرز ، ويطابق بعضها فوق بعض .

قوله : " عليهما "

قال أبو حيَّان : الأَوْلى أن يعود الضَّمِيرُ في " عليهما " على عَوْرَتَيْهِمَا ، كَأَنَّهُ قيل : يَخْصِفَانِ على سَوءأتيهما ، وعاد بضمير الاثنين ؛ لأنَّ الجمع يُرَادُ بن اثنان .

(349/265)

ولا يَجُوزُ أن يعود الضَّميرُ على آدَمَ وحوَّاءَ ؛ لأَنَّهُ تَقرَّرَ في علم العربيَّةِ أَنَّهُ لا يتعدَّى من فعل الظَّاهِر والمُضْمَرِ المتَّصل إلى الضمير المتصل إلى الضمير المتصل المنصوب لفظاً أو مَحَلاًّ في غير باب " ظَنّ " ، و" قَعَدَ " و" عَدمَ " ، و" وَجَد " لا يجُوزُ زيد ضربه ، ولا ضَرَبَهُ زيد ، ولا زَيْدٌ مَرَّ به ، ولا مَرَّ به زيدٌ ، فلو جعلنا الضَّمِيرَس في " عَلَيْهِمَا " عائداً على آدم وحوَّاءَ لَلَزِمَ من ذلك تعدّي يَخْصِفُ إلى الضَّمِيرِ المنصوب مَحَلاًّ ، وقد رفع الضَّمير المتَّصِل ، وهو الألف في " يَخْصِفَانِ " ، فإن أخِذَ ذلك على حَذْفِ مُضافٍ مراد ؛ جَازَ ذلك ، تقديره : يَخْصِفانِ على بَدَنَيْهِمَا .

قال شهابُ الدّين : ومثل ذلك فيما ذكر ﴿ وهزى إِلَيْكِ ﴾ [مريم : 25] .

﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص : 32] .

وقول الشاعر : [المتقارب]

2442 - هَوِّنْ عليْكَ فإنَّ الأُمورَ . . .

بِكَفِّ الإلهِ مَقَادِيرُهَا

وقوله : [الطويل]

2443 - دَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ في حَجَرَاتِهِ . . .

ولكِنَ حَدِيثاً ما حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

قوله : " مِنْ وَرَقِ " يحتملُ وَجْهَيْنِ :

أن تكون " مِن " لابتداء الغايةِ وأن تكون للتَّبعيضِ .

؟

و " نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا " لم يصرِّحْ هنا باسم المنادى للعلم به .

وقوله : " أَلَمْ أَنْهَكُمَا " يجوزُ أن تكون هذه الجُمْلَةُ التقديريَّةُ مفسِّدة للنداء لا محلّ لها ويحتمل أن يكُونَ ثَمَّ قول مَحْذُوفٌ ، هي مَعْمُولَةٌ له أي : فقال : لم أَنْهَكُمَا .

وقال بعضُهم : هذه الجُمْلَةُ في مَحَلِّ نَصْبٍ بقولٍ مُقدَّرٍ ذلك القَوْلُ حال تقديره : وناداهما قَائِلاً ذلك .

(350/265)

و" لَكُمَا " متعلِّقٌ بـ " عَدُوّ " لما فيه من معنى الفِعْل ، ويجوز أن تكون متعلِّقة بمَحْذُوفٍ على أنها حالٌ من " عَدُوٌّ " ؛ لأنَّهَا تأخّرَتْ لجاز أن تكون وصفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 60. 65 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ .

حُسْنُ ظنِّ آدم – عليه السلام – حَملَه على سكون قلبه إلى يمين العدو لأنه لم يخطر بباله أن يكذب في يمينه بالله ، ثم لمَّا بان له أنه دلاَّهما بغرورٍ تاب إلى الله بصدق الندم ، واعترف بأنه أساء وأجرم ، فَعَلِمَ – سبحانه – صِدْقَه فيما ندم ، فتداركه بجميل العفو والكرم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوءاتُهُمَا ﴾ .

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشيرُ العقاب ؛ وتَنَغُّصِ الحال ، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق – سبحانه – شيئاً يبقيه عنه ، فلا يكون له بما آثر استمتاع . وكذلك مَنْ ادَّخَر عن الله – سبحانه – نَفْسَه أو مالَه أو شيئاً بوجهٍ من الوجوه – لا يبارك اللهُ فِيه ، قال تعالى في صفة الأعداء : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ [الحج : 11] .

ويقال مَّا بَدَتْ سوأتهما احتالا في السَّتْرِ ، وطَفِقَا يخصفان عليهما من ورق الجنة فبعد ما

كانت كسوتهما حُلَلَ الجنة ظلّا يستتران بورق الجنة ، كما قيل :

لله دَرُّهمُ مِنْ فِتْيَةٍ بكروا . . . مثل الملوك ، وراحوا كالمساكين

وأنشدوا :

لا تعجبوا لمذلتي فأنا الذي . . . عَبَثَ الزمان بمهجتي فأذلَّها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان في الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلُّها تتطاول وتأبى أن يأخذ آدم – عليه السلام – شيئاً من أوراقها . وقيل ذلك كان لا يلاحِظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال :

(351/265)

وكانت – على الأيام – نفسي عزيزة . . . فلمَّا رأت صبري على الذلِّ ذلَّتِ

ولمّا أُخْرِجَ آدمُ من الجنة وأُسْكِن الأرض كلّف العملَ والسعيَ والزرع والغرس ، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدّد بكاؤه ، وجبريل – عليه السلام – يأتيه ويقول : أهذا الذي قيل لك : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ [طه : 118] .

فَلَمْ تعرِف قدره . " فَذُقْ جزايا خِلافِك " فكان يسكن عن الجزع . ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل :

وجاشَتْ إليَّ النفسُ أوّلَ مرةٍ . . . وزيدت على مكروهها فاستقرتِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

كانت لا تصل يدُه إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه ، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة – التي هي ضجرة المحنة – لكان ذلك عنايةً بشأنه ، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة ، تتمةً للبلاء والفتنة ، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر – إبلاغاً في القهر – لَمَا خالف الأمر ، ولَمَا حَصَلَ ما حَصَلَ .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ : فكان ما دَاخَلَهما من الخجل أشدَّ من كل عقوبة ؛ لأنهما لو كانا من الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة ، فلما ناداهما بالعتاب حَلَّ بهما من الخجل ما حلّ ، وفي معناه أنشدوا :

واخجلتا من وقوفي وَسْطَ دَارِهِمُ . . . إذ قال لي مغضبا : من أنت يا رجل ؟ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 525.526 ﴾

(352/265)

قوله تعالى ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ، تشوف السامع إلى جوابهما ، فأجيب بقوله : ﴿ قالا ﴾ أي آدم وحواء – عليهما السلام وأزكى التحية والإكرام – قول الخواص بإسراعهما في التوبة ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا والمنعم علينا ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾ أي ضررناها بأن أخرجناها من نور الطاعة إلى ظلام المعصية ، فإن لم ترجع بنا وتتب علينا لنستمر عاصيين ﴿ وإن لم تغفر لنا ﴾ أي تمحو ما عملناه عيناً واثراً ﴿ وترحمنا ﴾ فتعلي درجاتنا ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ فأعربت الآية عن أنهما فزعا إلى الانتصاب بالاعتراف ، وسيما ذنبهما – وإن كان إنما هو خلاف الأولى لأنه بطريق النسيان كما في طه – ظلماً كما هي عادة الأكابر في استعظام الصغير منهم ، ولم يجادلا كما فعل إبليس ، وفي ذلك إشارة إلى أن المبادرة إلى الإقرار بالذنب من فعال الأشراف لكونه من معالي الأخلاق ، وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر وأن الجدال من فعال الأرذال ومن مساوي الأخلاق وموجبات الغضب المقتضى للطرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 18 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

اعلم أن هذه الآية مفسرة في سورة البقرة ، وقد ذكرنا هناك أن هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم من آدم عليه السلام ، إلا أنا نقول : هذا الذنب إنما صدر عنه قبل النبوة . وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 42 ﴾

(353/265)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾

بأكلنا الشجرة فاغفر لنا وتجاوز عن معصيتنا ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ﴾ يعني : إن لم تتجاوز عن ذنوبنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ بالعقوبة فهذه لام القسم كأنهما قالا : والله لنكونن من الخاسرين إن لم تغفر لنا وترحمنا .

وقد ذكر الله تعالى قبول توبتهما في سورة البقرة .

وهو قوله تعالى : ﴿ فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ [البقرة : 37] أي قبل توبته .

وفي الآية دليل أنّ الله تعالى يعذب عباده إذا أصروا على الذنوب ويتجاوز عنهم إذا تابوا ، لأن إبليس لم يتب ، وسأل النظرة ، فجعل مأواه جهنم .

وتاب آدم ورجع عن ذنبه فقبل توبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقولهما ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾

اعتراف من آدم وحواء عليهما السلام وطلب للتوبة والستر والتغمد بالرحمة ، فطلب آدم هذا وطلب إبليس النظرة ولم يطلب التوبة فوكل إلى رأيه ، قال الضحاك هذه الآية هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾

وهذا خبر من الله عز وجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على أنفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى : قالا يا ربنا إنا فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك ما لم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿ وإن لم تغفر لنا ﴾ يعني وأنت يا ربنا إن لم تستر علينا ذنبنا ﴿ وترحمنا ﴾ يعني وتتفضل علينا برحمتك ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ يعني من الهالكين .

قال قتادة : قال آدم يا رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك ، قال : إذاً أدخلك الجنة .

وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد مهما ما سأل وقال الضحاك في قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ قال : هي الكلمات التي تلقّاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل .

(فصل)

وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الرقعة والعلو والمعرفة بالله عز وجل مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخَذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجِلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم ، مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عز وجل ، ذنوباً وهي حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

يعني أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهي حسنات لغيرهم .

وقد تقدم في سورة البقرة أن أكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها ؟ والخلاف فيه فأغنى عن الإعادة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(355/265)

وقال أبو حيان :

﴿ قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾

قال الزمخشري وسمّيا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلماً وقالا ﴿ لنكوننّ من الخاسرين ﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات ، وقال ابن عطية اعتراف من آدم وحوّاء عليهما السلام وطلب للتوبة والسّتر والتغمّد بالرّحمة فطلب آدم هذا وطلب إبليس النظرة ولم يطلب التوبة فوكل إلى رأيه ، قال الضحاك : هذه الآية هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه ، وقيل : سعد آدم بخمسة أشياء اعترف بالمخالفة وندم عليها ، ولام نفسه وسارع إلى التوبة ولم يقنط من الرحمة ، وشقي إبليس بخمسة أشياء لم يقرّ بالذنب ، ولم يندم ، ولم يسلم نفسه بل أضاف إلى ربّه الغواية ، وقنط من الرحمة ، و ﴿ لنكوننّ ﴾ جواب قسم محذوف قبل ﴿ إن ﴾ كقوله ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ

﴿ التقدير والله إن لم يغفر لنا وأكثر ما تأتي إنّ هذه ولام التوطئة قبلها كقوله ﴿ لئن لم ينته ﴾ ثم قال : لنغرينّك بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(356/265)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ أي ضرّرناها بالمعصية والتعريضِ للإخراج من الجنة ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ ذلك ﴿ وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ وهو دليلٌ على أن الصغائرَ يُعاقب عليها إن لم تُغفرْ ، وقالت المعتزلةُ : لا يجوز المعاقبةُ عليها مع اجتناب الكبائرِ ، ولذلك حملوا قولَهما ذلك على عادات المقربين في استعظام الصغيرِ من السيئات واستصغارِ العظيمِ من الحسنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(357/265)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) ﴾

﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾

أي ضررناها بالمعصية ، وقيل : نقصناها حظها بالتعرض للإخراج من الجنة ، وحذفا حرف النداء مبالغة في التعظيم لما أن فيه طرفاً من معنى الأمر .

﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ ذلك بعدم العقاب عليه ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ بالرضا علينا ، وقيل : المراد وإن لم تستر علينا بالحفظ عما يتسبب نقصان الحظ وترحمنا بالتفضل علينا بما يكون عوضاً عما فاتنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ جواب قسم مقدر دل على جواب الشرط السابق على ما قيل .

واستدل بالآية على أن الصغائر يعاقب عليها مع اجتناب الكبائر إن لم يغفر الله تعالى .

وذهبت المعتزلة إلى أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يتب العبد منها ، وجعلوا لذلك ما ذكر هنا جاريا على عادة الأولياء والصالحين في تعظيمهم الصغير من السيآت وتصغيرهم العظيم من الحسنات فلا ينافي كونهما مغفوراً لهما ، والكثير من أهل السنة جعلوه من باب هضم النفس بناء على أن ما وقع كان عن نسيان ولا كبيرة ولا صغيرة معه .

وادعى الإمام أن ذلك الإقدام كان صغيرة ، وكان قبل نبوة آدم عليه السلام إذ لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام بعد النبوة كبيرة ولا صغيرة ، والكلام في هذه المسئلة مشهور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) ﴾

عطف على جواب (لَمَّا) ، فهو ممّا حصل عند ذَوق الشّجرة ، وقد رتب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشّجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود .

فإنّهما بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان .

وأعقب ذلك نداءُ الله إيّاهما .

وهذا أصل في ترتيب الجمل في صناعة الإنشاء ، إلاّ إذا اقتضى المقام العدول عن ذلك ، ونظير هذا الترتيب ما في قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴾ [هود : 77] وقد بيّنته في كتاب "أصول الإنشاء والخطابة" ولم أعلم أنّي سُبقت إلى الاهتداء إليه .

وقد تأخّر نداء الربّ إياهما إلى أن بدت لهما سوآتهما ، وتحيّلا لستر عوراتهما ليكون للتّوبيخ وقْعٌ مكين من نفوسهما ، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما ، فيعلما أنّ الخير في طاعة الله ، وأنّ في عصيانه ضرّاً .

والنّداء حقيقته ارتفاع الصّوت وهو مشتق من النَّدى بفتح النّون والقصر وهو بُعد الصّوت ، قال مدثار بن شيبان النمري:

فَقُلتُ ادعِي وأدْعُوا إنّ أندى . . .

لِصَوْتٍ أن يُنادِيَ داعيان

وهو مجاز مشهور في الكلام الذي يراد به طلب إقبال أحد إليك ، وله حروف معروفة في العربيّة : تدلّ على طلب الإقبال ، وقد شاع إطلاق النّداء على هذا حتّى صار من الحقيقة ، وتفرّع عنه طلب الإصغاء وإقبال الذّهن من القريب منك ، وهو إقبال مجازي . ﴿ وناداهما ربهما ﴾ مستعملٌ في المعنى المشهور : وهو طلب الإقبال ، على أنّ الإقبال مجازي لا محالة فيكون كقوله تعالى : ﴿ وزكرياء إذا نادى ربه ﴾ [الأنبياء : 89] وهو كثير في الكلام .

(359/265)

ويجوز أن يكون مستعملاً في الكلام بصوت مرتفع كقوله تعالى : ﴿ كمَثَل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ﴾ [البقرة : 171] وقوله : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها ﴾ [الأعراف : 43] وقول بشّار :

نَادَيْت إنّ الحبّ أشْعَرني . . .

قَتْلاً وما أحدثتُ من ذَنْب

ورفع الصّوت يكون لأغراض ، ومحمله هنا على أنّه صوت غضب وتوبيخ .

وظاهر إسناد النّداء إلى الله أنّ الله ناداهما بكلام بدون واسطة مَلك مرسل ، مثلِ الكلام الذي كلّم الله به موسى ، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض ، فلا ينافي ما ورد من أن موسى هو أوّل نبيء كلّمه الله تعالى بلا واسطة ، ويجوز أن يكون نداءُ آدم بواسطة أحد الملائكة .

وجملة : ﴿ ألم أنهاكما ﴾ في موضع البيان لجملة (ناداهما) ، ولهذا فصلت الجملة عن التي قبلها .

والاستفهام في ﴿ ألم أنهاكما ﴾ للتّقرير والتّوبيخ ، وأُولِيَ حرفَ النّفي زيادة في التّقرير ، لأنّ نهي الله إياهما واقع فانتفاؤه منتفا ، فإذا أدخلت أداة التّقرير وأقرّ المقرَّر بضد النّفي كان إقرارُه أقوى في المؤاخذة بموجَبه ، لأنّه قد هُيِيء له سبيل الإنكار ، لو كان يستطيع إنكاراً ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ الآية في سورة الأنعام (130) ، ولذلك اعترفا بأنّهما ظلما أنفسهما .

وعطف جملة : وأقل لكما ﴾ على جملة : ﴿ أنهكما ﴾ للمبالغة في التّوبيخ ، لأنّ النّهي كان مشفوعاً بالتّحذير من الشّيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشّجرة ، فهما قد أضاعا وصيتين .

والمقصود من حكاية هذا القول هنا تذكير الأمّة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر ، فيعلموا أنّها عداوة بين النّوعين ، فيحذروا من كلّ ما هو منسوب إلى الشّيطان ومعدود من وسوسته ، فإنّه لما جُبل على الخبث والخزي كان يدعو إلى ذلك بطبعه وكان لا يهنأ له بال ما دام عدوّهُ ومحسودُه في حالة حسنة .

(360/265)

والمُبين أصله المظهر ، أي للعداوة بحيث لا تخفى على من يتتبّع آثار وسوسته وتغريره ، وما عامل به آدمَ من حين خلقه إلى حين غروره به ففي ذلك كلّه إبَانة عن عداوته ، ووجه تلك العداوة أن طبعه ينافي ما في الإنسان من الكمال الفطري المؤيَّد بالتّوفيق والإرشاد الإلهي ، فلا يحب أن يكون الإنسانُ إلاّ في حالة الضّلال والفساد .

ويجوز أن يكون المبين مستعملاً مجازاً في القويّ الشّديد لأنّ شأن الوصف الشّديد أن يظهر للعيان .

وقد قالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ اعترافاً بالعصيان ، وبأنّهما علما أن ضر المعصية عاد عليهما ، فكانا ظالمين لأنفسهما إذ جرّا على أنفسهما الدّخولَ في طور ظهور السوآت ، ومشقّة اتّخاذ ما يستر عوراتهما ، وبأنّهما جَرّا على أنفسهما غضب الله تعالى ، فهما في

توقع حقوق العذاب ، وقد جزما بأنّهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما ، إمّا بطريق الإلهام أو نوع من الوحي ، وإمّا بالاستدلال على العَواقب بالمبادىء ، فإنّهما رأيا من العصيان بوادِىء الضر والشّر ، فعلما أنّه من غضب الله ومن مخالفة وصايته ، وقد أكدا جملة جواب الشّرط بلام القسم ونون التّوكيد إظهاراً لتحقيق الخسران استرحاما واستغفاراً من الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(361/265)

وقال القاسمى :

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [23] .

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ أي : أضررناها بالمعصية : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ أي : ما سلف : ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ أي : بالتوبة وقبولها ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي : لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكمالات .

قال الضحاك بن مُزَاحم في قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا ﴾ الآية : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

لطيفة :

قال الجشمي : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : إعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة ، وشقي إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 28 . 29 ﴾

(362/265)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) ﴾

وتلك هي الكلمات التي قال الله عنها في سياق آخر : ﴿ فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ [البقرة : 37]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قدَّر غفلة خلقه عن المنهج ؛ فشرّع لهم وسائل التوبة إليه ، ووسائل التوبة ثلاث مراحل : تشريعها رحمة ، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافا وإنابة ، وقبولها منه سبحانه رحمة ، فالتشريع يطلب منك أن تفعل ، وحين تتوب يتوب الله عليك . تشريع التوبة – إذن رحمة ، لا بالمذنب فقط ، بل وبغيره أيضاً ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة ، كان الذي يعمل معصية ، ولا يجد مغفرة ، يستشري في المعاصي ، وإذا استشرى في المعاصي

تعب المجتمع كله . ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23]

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته ، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب ؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة : ﴿ . . . قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء : 61]

فماذا قال آدم وحواء ؟ : ﴿ . . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23]

(363/265)

ولذلك كان جزاء إبليس – وهو المتأبي على أوامر الله وحكمه – أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : " هذه هي ظروفي " ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصي ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : " ما أفعله ، حرام ، لكن لا أقدر على نفسي " وبذلك لا يكون قد ردّ الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلاً للتوبة .

وهنا نسأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . نقول : إبليس عصى وجاء بحيثية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ معاً وفي نَفَس واحد ، ونغمة حزينة نادمة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماها ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلفا في أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا . ﴿ فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ . . ﴾ [البقرة : 37]

وهما قد قالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ ، وأنفسنا جمع نَفْس ، ولم يقولا " نفسينا " ، بل قالا ﴿ أَنفُسَنَا ﴾ أي أن قلبيهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل في نفوس ذريتهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(364/265)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ : ضررناها بالمَعْصِيَةِ ، وتقدَّمَ تفسِيرُهَا في سُورةِ

البقَرةِ ، وأنَّها تَدُلُّ على صدور الذَّنبِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إلاَّ أنَّا نقُولُ : هذا الذَّنبُ إنَّمَا صَدَرَ عنه قَبْلَ النُّبُوَّةِ .

وفي قوله : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾

فائدةٌ : حَذْف حرف النداء هنا تعظيم المُنَادَى ، وتَنْزِيهُهُ .

قال مَكِّي : كَثُرَ نِدَاءُ الرَّبِّ بحذف "يَا " من القرآن ، وعلّةُ ذلك أن في حذف " يا " من نداء الرَّب معنى التَّعْظِيم والتنزيه ؛ وذلك أنَّ النداءَ فيه طَرَف من معنى الأمر ؛ لأنَّكَ إذا قُلْتَ : يا يزيدُ فمعناه : تعالا يا زَيْدُ أدعوك يا زَيْدُ ، فحُذِفَتْ " يا " من نداء الرَّبِّ ليزول معنى الأمر وينقص ، لأنَّ " يا " تُؤكِّده ، وتُظهرُ معناهُ ، فكان في حذف " يا " الإجلال ، والتعظيم ، والتنزيه .

قوله : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ هذا شرط حُذِفَ جوابه لدلالة جواب القسم المقدَّر عليه ، فإن قيل : حرف الشَّرْطِ لام التَّوْطِئَةِ للقسم مقدرة كقوله : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ﴾ [المائدة : 73] ويَدُلُّ على ذلك كثرةُ ورُودِ لامِ التَّوْطِئَةِ قبل أداة الشَّرطِ في كلامهم .

وتقدَّم إعرابُ ما بعد ذلك في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 65 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) ﴾

اعترفا بالظلم جهراً ، وعرفا الحكم في ذلك سِرّاً ؛ فقولهما : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ اعتراف بالظلم من حيث الشريعة ، وعرفان بأن المدارَ على الحكم من حيث الحقيقة ، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخَلْق طوى الشريعة ، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فَقَدْ جَحَدَ الحقيقة ، فلمَّا أقرّا بالظلم قالا : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولا بظلمنا خَسِرْنا ، بل قالا : فَعَلْنَا فإنْ لم تغفر لنا خسرنا ، فبِتَرْكِ غفرانك تخسر لارتكاب ظلمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 527.526 ﴾

(365/265)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/266)

الجزء السادس والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 24 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 26 ﴾ من نفس السورة

(4/266)

قوله تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تشوفت النفس إلى جواب العلي الكبير سبحانه ، أجيبت بقوله ﴿ قال اهبطوا ﴾ أي إلى دار المجاهدة والمقارعة والمناكدة حال كونكم ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ أي أنتما ومن ولدتماه أعداء إبليس ومن ولد ، وبعض أولادكم أعداء لبعض ، ولا خلاص إلا باتباع ما منحتكم من هدى العقل وما أنزلت إليكم من تأييده بالنقل ، وفي ذلك تهديد صادع لمن له أدنى مسكة بالإشارة إلى قبح مغبة المخالفة ولو مع التوبة ، وحث على دوام المراقبة خوفاً من سوء المعاقبة ﴿ ولكم في الأرض ﴾ أي جنسها ﴿ مستقر ﴾ أي موضع استقرار كالسهول وما شابهها ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ أي انقضاء آجالكم ثم انقضاء أجل الدنيا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 18 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا الذي تقدم ذكره هو آدم ، وحواء ، وإبليس ، وإذا كان كذلك فقوله :

﴿ اهبطوا ﴾ يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يعني العداوة ثابتة بين الجن والإنس لا تزول ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 42 ﴾

(5/266)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ قَالَ اهبطوا ﴾ يعني : آدم وحواء عليهما السلام وإبليس لعنه الله ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يعني : إبليس عدوّ لآدم وحواء ﴿ وَلَكُمْ فِى الأرض مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي : منزل وموضع القرار ﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ أي : معاش إلى وقت الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

فإن قيل : فالمأمور بالهبوط آدم وحواء لأن إبليس قد كان أهبط من قبل حين امتنع عن السجود لآدم ، فكيف عبر عنهما بلفظ الجمع ؟

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه خبر عن هبوطهم مع تفرقهم وإن خرج مخرج الأمر ، قاله السدي .

والثاني : أنهم آدم وحواء والحية ، فكانوا جماعة ، قاله أبو صالح .

والثالث : أنهم آدم وحواء والوسوسة ، قاله الحسن .

فهبط آدم بأرض الهند على جبل يقال له واسم ، وهبطت حواء بجدة ، وهبطت الحية بأصفهان .

وفي مهبط إبليس قولان . أحدهما بالأبلة .

والثاني : بالمدار .

وقيل أسكنهما الجنة لثلاث ساعات خلت من يوم الجمعة ، وأخرجهما لتسع ساعات خلت من ذلك اليوم .

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أما المستقر ففيه وجهان :

أحدهما : أنه فعل الاستقرار . والثاني : أنه موضع الاستقرار ، قاله أبو صالح .

وأما المتاع فهو المنتفع به من عروض الدنيا التي يستمتع بها .

وقوله : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ يعني إلى انقضاء الدنيا ، والحين وقت مجهول القدر ينطلق على طويل الزمان وقصيره وإن كان موضوعاً في الأغلب للتكثير .

قال الشاعر :

وما مزاحك بعد الحلم والدين . . . وقد علاك مشيب حين لا حين

أي وقت لا وقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

المخاطبة بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ قال أبو صالح والسدي والطبري وغيرهم : هي لآدم وحواء وإبليس والحية ، وقالت فرقة : هي مخاطبة لآدم وذريته وإبليس وذريته .

(6/266)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لعدمهم في ذلك الوقت ، فإن قيل خاطبهم وأمرهم بشرط الوجود فذلك يبعد في هذه النازلة لأن الأمر بشرط الوجود إنما يصح إذا ترتب على المأمور بعد وجوده وصح معناه عليه كالصلاة والصوم ونحو ذلك ، وأما هنا فإن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم ولا يتعلق بهم من الأمر به شيء ، وأما قوله في آية أخرى ﴿ اهبطا ﴾ [طه : 123] فهي مخاطبة لآدم وإبليس بدليل بيانه العداوة بينهما ، وعدو فرد بمعنى الجمع ، تقول قوم عدو وقوم صديق ، ومنه قول الشاعر :

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى . . . بكم مثل ما بي إنكم لصديق

وعداوة الحياة معروفة ، وروى قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما سالمناهن منذ حاربناهن " ، وقال عبد الله بن عمر : " من تركهن فليس منا " ، وقالت عائشة " من ترك

حية خشية من ثأرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " .

قال القاضي أبو محمد : وإنما يعرض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق ، وقول النبي عليه السلام : إن جناً بالمدينة قد أسلموا فمن رأى من هذه الحيات شيئاً في بيته فليحرج عليه ثلاثاً فإن رآه بعد ذلك فليقتله فإنما هو كافر .

وقوله تعالى : ﴿ مستقر ﴾ لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور ، وبزمن الحياة فسر أبو العالية وقال : هي كقوله ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ [البقرة : 22] وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس واللفظ يعمهما فهي كقوله : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً ﴾ [المرسلات : 25] وأما " المتاع " فهو بحسب شخص شخص ، في زمن الحياة اللهم إلا أن يقدر سكنى القبر متاعاً بوجه ما ، و" المتاع " التمتع والنيل من الفوائد ، و﴿ إلى حين ﴾ هو بحسب الجملة قيام الساعة ، وبحسب مفرد بلوغ الأجل والموت ، والحين في كلام العرب الوقت غير معين .

(7/266)

وروي أن آدم عليه السلام أهبط بالهند وحواء بجدة ، وتمناها بمنى ، وعرف حقيقة أمرها بعرفة ، ولقيها بجمع وأهبط إبليس بميسان وقيل بالبصرة وقيل بمصر فباض فيها وفرخ ، قال

ابن عمر وبسط إبليس فيها عبقرية ، وذكر صالح مولى التؤمة قال في بعض الكتب لما أهبط إبليس قال رب أين مسكني ؟ قال مسكنك الحمام ومجلسك الأسواق ولهوك المزامير وطعامك مالم يذكر عليه اسمي وشرابك المسكر ، ورسلك الشهوات وحبائلك النساء . وأهبطت الحية بأصبهان .

وروي أنها كانت ذات قوائم كالبعير فعوقبت بأن ردت تنساب على بطنها ، وروي أن آدم لما أهبط إلى شقاء الدنيا علم صنعة الحديد ثم علم الحرث فحرث وسقى وحصد وذرا وطحن وعجن وخبز وطبخ وأكل فلم يبلغ إلى ذلك حتى بلغ من الجهد ما شاء الله ، وروي أن حواء قيل لها يا حواء كما دميت الشجرة فأنت تدمين في كل شهر وأنت لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً ، قال فرنت عند ذلك فقيل لها الرنة عليك وعلى ولدك .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذه القصة من الأنباء كثير اختصرتها إذ لا يقتضيها اللفظ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قال اهبطوا ﴾

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله : إن الذي تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة .

وقال الطبري : قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس والحية اهبطوا يعني من السماء إلى الأرض

قال السدي رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ اهبطوا ﴾ يعني إلى الأرض آدم وحواء وإبليس والحية ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ يعني أن العداوة ثابتة بين آدم وإبليس والحية وذرية كل واحد من آدم وإبليس ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ يعني موضع قرار تستقرون فيه ،

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ يعني القبور ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ يعني ولكم فيها متاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا أو إلى انقضاء آجلكم ومعنى الآية أن الله عز وجل أخبر آدم وحواء وإبليس والحية أنه إذا أهبطهم إلى الأرض فإن بعضهم لبعض عدو وأن لهم في الأرض موضع قرار يستقرون فيه إلى انقضاء آجالهم ثم يستقرون في قبورهم إلى انقطاع الدنيا .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى : ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ يعني إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(9/266)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر مراراً ﴿ اهبطوا ﴾ خطابٌ لآدمَ وحواءَ وذريتهما ، أو لهما ولإبليسَ ، كُرر الأمرُ تبعاً لهما ليعلمَ أنهم قرناءُ أبداً ، أو أُخبر عما قال لهم مفرّقاً كما في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ ولمْ يُذكر هاهنا قَبولُ توبتِهما ثقةً بما ذكر في سائر المواضع ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ جملةٌ حالية من فاعل اهبطوا أي مُتعادِين ﴿ وَلَكُمْ فِى الأرض مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي استقرارٌ أو موضعُ استقرارٍ ﴿ ومتاع ﴾ أي تمتعٌ وانتفاع ﴿ إلى حِينٍ ﴾ هو حينُ انقضاءِ آجالِكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(10/266)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر مراراً ﴿ اهبطوا ﴾ المأثور عن كثير من السلف أنه خطاب لآدم وحواء عليهما السلام وإبليس عليه اللعنة ، وكرر الأمر له تبعاً لهما إشارة إلى عدم انفكاكه عن جنسهما في الدنيا أو أن الأمر وقع مفرقاً وهذا نقل له بالمعنى وإجمال له كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَعِينٍ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] وقيل : إن

الأمر بالنسبة إلى اللعين غير ما تقدم فإنه أمر له بالهبوط من حيث وسوس .

واختار الفراء كونه خطاباً لهما ولذريتهما وفيه خطاب المعدوم ، وقيل : إنه لهما فقط لقوله سبحانه : ﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ [طه : 123] والقصة واحدة ، وضمير الجمع لكونهما أصل البشر فكأنهم هم .

ومن الناس من قال : إن مختار الفراء هو هذا ، وقيل : إنه لهما ولابليس والحية .

واعترض وأجيب بما مر في سورة البقرة ، والظاهر من النظم الكريم أن آدم عليه السلام عاجله ربه سبحانه بالعتاب والتوبيخ على فعله ولم يتخلل هناك شيء ، ونقل الأجهوري عن حجة الإسلام الغزالي أنه عليه السلام لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الفضلة ولم يكن ذلك مجعولاً في الجنة في شيء من أطعمتها إلا في تلك الشجرة فلذلك نهي عن أكلها فجعل يدور في الجنة فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له : أي شيء تريد يا آدم ؟ قال : أريد أن أضع ما في بطني من الأذى فقال له : في أي مكان تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم في الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك ؟ ثم أمره بالهبوط وأنا لا أرى لهذا الخبر صحة ، ومثله ما روي عن محمد بن قيس قال : إنه عليه السلام لما أكل من الشجرة ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك ؟ قال : أطعمتني حواء فقال سبحانه : يا حواء لم أطعمتيه ؟ قالت أمرتني الحية فقال للحية : لم أمرتها ؟ قالت : أمرني إبليس فقال الله تعالى : أما أنت يا حواء فلأُدْمِينَّك كل شهر كما أدميت الشجرة .

وأما أنت يا حية فأقطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ وجهك كل من لقيك .

وأما أنت يا إبليس فملعون .

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ اهبطوا ﴾ وهي حال مقارنة أو مقدرة ، واختار بعض المعربين كون الجملة استئنافية كأنهم لما أمروا بالهبوط سألوا كيف يكون حالنا ؟ فأجيبوا بأن بعضكم لبعض عدو ، وأمر العداوة على تقدير دخول الشيطان في الخطاب ظاهر ، وأما على تقدير التخصيص بآدم وحواء عليهما السلام فقد قيل : إنه باعتبار أن يراد بهما ذريتهما إما بالتجوز كإطلاق تميم على أولاده كلهم أو يكتفي بذكرهما عنهم ، واختار بعضهم كون العداوة هنا بمعنى الظلم أي : يظلم بعضكم بعضاً بسبب تضليل الشيطان فليفهم .

﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي استقرار أو موضع استقرار فهو إما مصدر ميمي أو اسم مكان .

وجوز أن يكون اسم مفعول بمعنى ما استقر ملككم عليه وجاز تصرفكم فيه .

ولا يخفى أنه خلاف الظاهر ومحتاج إلى الحذف والإيصال ، واللفظ في نفسه يحتمل أن يكون

اسم زمان إلا أنه غير محتمل هنا لأنه يتكرر مع قوله سبحانه : ﴿ ومتاع ﴾ أي بلغة ﴿ إلى حِينٍ ﴾ يريد به وقت الموت ، وقيل : القيامة وتجعل السكنى في القبر تمتعاً في الأرض أو يقال : معنى ﴿ لَكُمْ ﴾ لجنسكم ولمجموعكم ، والظرف قيل : متعلق بمتاع أو به وبمستقر على التنازع إن كان مصدراً .

وقيل : إنه متعلق بمحذوف وقع صفة لمتاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(12/266)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) ﴾

طوَى القرآن هنا ذكر التّوبة على آدم : لأنّ المقصود من القصّة في هذه السّورة التّذكير بعداوة الشّيطان وتحذير النّاس من اتّباع وسوسته ، وإظهار ما يُعقبه اتّباعه من الخسران والفساد ، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التّوبة للاقتصار على أسباب الخسارة ، وقد ذكرت التّوبة في آية البقرة المقصودِ منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربّه ، ولكلّ مقامٍ مَقال .

والخطابُ لآدم وزوجه وإبليسَ .

والأمر تكويني ، وبه صار آدم وزوجه وإبليسُ من سكّان الأرض .

وجملة : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ في موضع الحال من ضمير : ﴿ اهبطوا ﴾ المرفوعِ بالأمر التّكويني فهذه الحال أيضاً تفيد معنى تكوينياً وهو مقارنة العداوة بينهم لوجودهما في الأرض ، وهذا التّكوين تأكّدت به العداوة الجبلية السّابقة فرسخت وزادت ، والمراد بالبعض البعض المخالف في الجنس ، فأحد البعضين هو آدم وزوجه ، والبعض الآخر هو إبليس ، وإذ قد كانت هذه العداوة تكوينيّة بين أصلي الجنسين ، كانت موروثة في نسليهما ، والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشّيطان لهم ولأصلهم ليتّهموا كلّ وسوسة تأتيهم من قِبله ، وقد نشأت هذه العداوة عن حَسد إبليس ، ثمّ سَرت وتشجرت فصارت عداوة تامة في سائر نواحي الوجود ، فهي منبثّة في التّفكير والجسد ، ومقتضية تمام التّنافر بين النّوعين . وإذ قد كانت نفوس الشّياطين داعية إلى الشرّ بالجبلة تعين أن عقل الإنسان منصرف بجبلته إلى الخير ، ولكنّه معرّض لوسوسة الشّياطين فيقع في شذوذ عن أصل فطرته ، وفي هذا ما يكون مفتاحاً لمعنى كون النّاس يولدون على الفطرة ، وكون الإسلام دين الفطرة ، وكون الأصل في النّاس الخير .

أمّا كون الأصل في النّاس العدالة أو الجرح فذلك منظور فيه إلى خشية الوقوع في الشّذوذ ، من حيث لا يدري الحاكم ولا الراوي ، لأنّ أحوال الوقوع في ذلك الشّذوذ مبهمة فوجب التّبصّر في جميع الأحوال .

وعطفت جملة : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ على جملة : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ .

والمستقرّ مصدر ميمي والاستقرار هو المكث وقد تقدّم القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ لكل نبإ مستقر ﴾ [الأنعام : 67] وقوله ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ في سورة الأنعام (98) .

والمراد به الوجود أي وجود نوع الإنسان وبخصائصه وليس المراد به الدفن كما فسر به بعض المفسرين لأنّ قوله ومتاع يُصد عن ذلك ولأنّ الشّياطين والجنّ لا يُدفنون في الأرض .

والمتاع والتّمتّع : نيل الملذّات والمرغوبات غير الدّائمة ، ويطلق المتاع على ما يُتمتّع به وينتفع به من الأشياء ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ﴾ في سورة النّساء (102) .

والحِين المدّة من الزّمن ، طويلة أو قصيرة ، وقد نكر هنا ولم يحدّد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد ، والمراد به زمن الحياة التي تخول صاحبها إدراك اللّذّات ،

وفيه يحصل بقاء الذّات غير متفرّقة ولا متلاشية ولا معدومة ، وهذا الزّمن المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمّى بالأجل ، أي المدّة التي يبلغ إليها الحيّ بحياته في علم الله تعالى وتكوينه ، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقَر والمتاع ، وهذا إعلام من الله بما قدّره للنّوعين ، وليس فيه امتنان ولا تنكيل بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(14/266)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) ﴾

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد يسبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبالله لو كانت جنة الخلود هي محل إقامتهما ، وآدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التي جعله خليفة فيها ، ليباشر مهمة الخلافة في إطار التجربة التي وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله في كل تكليف ، وأن يحترم نهي الله في كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فلينزل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قَالَ اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ؛ ولم يقل لهما اهبطا . وفي آية ثانية قال : ﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً . . ﴾ [طه : 123]

وذلك لنعرف أن ورود القصة في أماكن متعددة جاء لتعطي لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة ؛ آدم وحواء ، وإبليس . . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان في طرف هما آدم وحواء ، وواحد في طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إله ، إنّ كل حرف عنده بميزان ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول لنا : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن . . . ﴾ [النساء : 82]

أي إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث في خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الألفاظ . ﴿ قَالَ اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ [الأعراف : 24]

(15/266)

وكلمة " عدو " تعني وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ .

أي أن لكم استقراراً في الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق في الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع في الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(16/266)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) ﴾

﴿ وقاسمهما ﴾ قال: حلف لهما ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ .

وأخرج بن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ يقول: لا تموتون أبداً .

وفي قوله ﴿ وقاسمهما ﴾ قال: حلف لهما بالله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ قال: حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله . قال لهما: إني خلقت قبلكما وأعلم منكما فاتبعاني أرشدكما قال قتادة: وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال: في بعض القراءة ﴿ وقاسمهما بالله إني لكما لمن الناصحين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب في قوله ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ قال: مناهما بغرور .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ﴾ وكانا قبل ذلك لا يريانها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال: لباس كل دابة منها ولباس الإِنسان الظفر، فأدركت آدم التوبة عند ظفره .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس قال : كان لباس آدم وحواء كالظفر ، فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ قال : ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان لباس آدم الظفر بمنزلة الريش على الطير ، فلما عصى سقط عنه لباسه وتركت الأظفار زينة ومنافع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال : كان لباس آدم في الجنة الياقوت فلما عصى تقلص فصار الظفر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان آدم طوله ستون ذراعاً ، فكساه الله هذا الجلد وأعانه بالظفر يحتك به .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في

قوله ﴿ وطفقا يخصفان ﴾ قال : يرقعان كهيئة الثوب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وطفقا يخصفان عليهما ﴾ قال : أقبلا يغطيان عليهما .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ قال : يوصلان عليهما من ورق الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ قال : يأخذان ما يواريان به عورتهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ﴾ قال : آدم : رب انه حلف لي بك ، ولم أكن أظن أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صادقاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قالا ﴾ قال : آدم وحواء ﴿ رَبنا ظلمنا أنفسنا ﴾ يعني ذنباً أذنبناه فغفره لهما .

(18/266)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . . . ﴾ الآية . قال : هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك . مثله .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو الشيخ عن قتادة قال : إن المؤمن ليستحي ربه من الذنب إذا وقع به ، ثم يعلم بحمد الله أين المخرج يعلم أن المخرج في الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل ، فلا يحتشمن رجل من التوبة ، فإنه لولا التوبة لم يخلص أحد من عباد الله ، وبالتوبة أدرك الله أباكم الرئيس في الخير من الذنب حين وقع به .

وأخرج أبو الشيخ عن كريب قال : دعاني ابن عباس فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله إلى فلان حبر تيما حدثني عن قوله ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فقال : هو مستقره فوق الأرض ، ومستقره في الرحم ، ومستقره تحت الأرض ، ومستقره حيث يصير إلى الجنة أو النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(19/266)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

أَهْبَطَهم ، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقع في اللعنة ، وأهبط آدم عن بقعته فتداركْه

الرحمة .

ويقال لم يُخرَجْ آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإنْ أُخرِجَ عن دار الكرامة ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ [طه : 122] وأما إبليس – لعنةُ الله عليه – فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة ؛ فلم ينتعش قط عن تلك السَّقْطة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ .

﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ هذا عامٌّ ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ : أراد به إبليسَ على الخصوص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 527 ﴾

(20/266)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما علم بهذا أن للكون في الأرض آخراً ، وكان من الفلاسفة التناسخية وغيرهم ممن يقر بالوحدانية من يقول : إن النفوس مجردة عن الجسمية وعلائقها وإنه إذا هلك الجسد اتصلت بالعلويات إما بكوكب أو غيره أو انحطت في سلك الملائكة وبطل تعلقها بالبدن من

كل وجه فلا تتصل به لا بتدبير ولا غيره ولا بالبعث – عند من قال منهم بالبعث ، كان كأنه قيل : فماذا يكون بعد ذلك ؟ فأجيب بقوله ﴿ قال ﴾ أي الله راداً عليهم ما يعتقدون من بطلان التعلق بالبدن معبراً بالخطاب بالضمير الذي يعبر عن هذا الهيكل المخصوص روحاً وجسداً ﴿ فيها ﴾ أي الأرض لا في غيرها ﴿ تحيون ﴾ أي أولاً وثانياً على ما أنتم عليه بظواهركم وبواطنكم أبداناً وأرواحاً ﴿ وفيها ﴾ أي كذلك ، لا في غيرها كما أنتم لذلك مشاهدون ﴿ تموتون ﴾ أي من الحياة الأولى بجملتكم ، فيكون للأرواح تعلق بالأبدان بوجه ما حتى يقعد الميت في القبر ويجيب سؤال الملكين عليهما السلام ، وتلتذ الأجساد بلذتها وتتألم بتألمها ، فأشير إلى الحشر مع تفصيل حال الكون في الأرض ، وختمت القصة بما ابتدئت به من الإعلام بالبعث بقوله : ﴿ ومنها ﴾ أي لا من غيرها بإخبار الصادق ﴿ تخرجون ﴾ أي روحاً وبدناً بعد موتكم فيها وعودكم إلى ما كنتم عليه أولاً تراباً ، للجزاء وإظهار ثمرة الملك بإنصاف بعضكم من بعض والتحلي بصفة العدل فما كان بعضكم يفعل مع بعض من العسف والجور الذي لا يرضي أقل رؤسائكم أن يقر عليه عبيده ، وعلم بهذا أن الدلالة على الحشر فذلكة القصة ، وهذا أبين من ذكره فيما مضى في قوله ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ﴾ [الأعراف : 6] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 19 ﴾

فصل

قال الفخر :

وله : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ ﴾ الكناية عائدة إلى الأرض في قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِى الارض ﴾ والمراد في الأرض تعيشون وفيها تموتون ومنها تخرجون إلى البعث والقيامة .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بفتح التاء وضم الراء ، وكذلك في الروم والزخرف والجاثية ، وقرأ ابن عامر ههنا ، وفي الزخرف بفتح التاء ، وفي الروم والجاثية بضم التاء ، والباقون جميع ذلك بضم التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 42 ﴾

(22/266)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ ﴾

أي : في الأرض تعيشون ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ من الأرض من قبوركم يوم القيامة .

قرأ الكسائي وابن عامر يَخْرُجُونَ بنصب الياء وضم الراء وقرأ الباقون بضم الياء ونصب

الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فيها تحيون ﴾ الآية ،

حكم من الله عز وجل أمضاه وجعله حتماً في رقاب العباد يحيون في الأرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياء كما أنشأ أول خلق يعيده ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو " تُخرَجون " بضم التاء وفتح الراء هنا ، وفي الروم و ﴿ كذلك تُخرَجون ومن آياته ﴾ [الآية : 19] وكذلك حيث تكرر إلا في الروم ﴿ إذا أنتم تَخرُجون ﴾ [الآية : 25] وفي سأل سائل ﴿ يوم يخرجون ﴾ [الآية : 43] فإن هذين بفتح التاء والياء وضم الراء ، ولم يختلف الناس فيهما ، وقرأ حمزة والكسائي في الأعراف ﴿ ومنها تَخرُجون ﴾ [الآية : 25] بفتح التاء وضم الراء وفتح ابن عامر التاء في الأعراف وضمها في الباقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال فيها تحيون ﴾

يعني : قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده فيها تحيون يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم ﴿ وفيها تموتون ﴾ يعني : وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم ﴿ ومنها

تخرجون ﴾ يعني : ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(23/266)

وقال أبو حيان :

﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ .

هذا كالتفسير لقوله ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي بالحياة إلى حين الموت ولذلك جاء قال بغير واو العطف إذ الأكثر في لسان العرب إذا لم تكن الجملة تفسيرية أو كالتفسيرية أن تعطف على الجملة قبلها فتقول قال فلان كذا ، وقال كذا وتقول زيد قائم وعمرو قاعد ويقل في كلامهم قال فلان كذا قال كذا وكذلك يقل زيد قائم عمرو قاعد وهنا جاء ﴿ قال اهبطوا ﴾ الآية ﴿ قال فيها تحيون ﴾ لما كانت كالتفسير لما قبلها وتم هنا المقصود بالتنبيه علي البعث والنشور بقوله ﴿ ومنها تخرجون ﴾ أي إلى المجازاة بالثواب والعقاب وهذا كقوله ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وقرأ الأخوان وابن ذكوان ﴿ تخرجون ﴾ مبنياً للفاعل هنا وعن ابن ذكوان في أوّل الروم خلاف ، وقرأ باقي السّبعة مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ أُعيد الاستئنافُ إما للإيذان بعدم اتصالِ ما بعده بما قبله كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ إثرَ قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَءَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ وإما لإظهار الاعتناءِ بمضمون ما بعده من قوله تعالى : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ أي للجزاءِ كقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أعيد للاستئناف إما للإيذان بعدم اتصال ما بعده بما قبله ، وإما لإظهار العناية بما بعده وهو قوله سبحانه : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ عند البعث يوم القيامة .

وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بفتح التاء وضم الراء على البناء للفاعل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾

أعيد فعل القول في هذه الجملة مستأنفاً غير مقترن بعاطف ، ولا مستغنى عن فعل القول بواو عطف ، مع كون القائل واحداً ، والغرضِ متّحداً ، خروجاً عن مقتضى الظّاهر لأنّ مقتضى الظاهر في مثله هو العطف ، وقد أهمل توجيهَ

(25/266)

ترك العطف جمهورُ الحذّاق من المفسّرين : الزمخشري وغيره ، ولعلّه رأى ذلك أسلوباً من أساليب الحكاية ، وأوّل من رأيتُه حاول توجيه ترك العطف هو الشّيخ محمّد بن عرفة التّونسي في "املاءات التّفسير" المروية عنه ، فإنّه قال في قوله تعالى الآتي في هذه السّورة (140) : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً بعد قوله : قال إنكم قوم تجهلون ﴾ [الأعراف : 138] إذ جعل وجه إعادة لفظ قال هو ما بين المقالين من البَوْن ، فالأوّل راجع إلى مجرد الإخبار ببطلان عبادة الأصنام في ذاته ، والثاني إلى الاستدلال على بطلانه ، وقد ذكر معناه الخفاجي عند الكلام على الآية الآتِيَة بعد هذه ، ولم ينسبه إلى ابن عرفة فلعلّه من

توارد الخواطر ؛ وقال أبو السّعود : إعادة القول إمّا لإظهار الاعتناء بمضمون ما بعده ، وهو قوله : ﴿ فيها تحيون ﴾ [الأعراف : 25] وإما للإيذان بكلام محذوف بين القولين كما في قوله تعالى : ﴿ قال فما خطبكم ﴾ [الحجر : 57] إثر قوله ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه ﴾ [الحجر : 56] فإن الخليل خاطب الملائكة أوّلاً بغير عنوان كونهم مرسلين ، ثمّ خاطبهم بعنوان كونهم مرسلين عند تبين أنّ مجيئهم ليس لمجرّد البشارة ، فلذلك قال : ﴿ فما خطبكم ﴾ ، وكما في قوله تعالى : ﴿ أرايتك هذا الذي كرمت علي ﴾ [الإسراء : 62] بعد قوله ﴿ قال أأسجد لِمَنْ خلقت طيناً ﴾ [الإسراء : 61] فإنّه قال قوله الثّاني بعد الإنظار المترتّب على استنظاره الذي لم يصرّح به اكتفاء بما ذكر في مواضع أخرى ، هذا حاصل كلامه في مواضع ، والتّوجيه الثّاني مردود إذ لا يلزم في حكاية الأقوال الإحاطة ولا الاتّصال .

(26/266)

والذي أراه أنّ هذا ليس أسلوباً في حكاية القول يتخيّر فيه البليغ ، وأنّه مساو للعطف بثمّ ، وللجمع بين حرف العطف وإعادة فعل القول ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ [الأعراف : 39] بعد قوله ﴿ قالت أخراهم

لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ [الأعراف : 38] ، فإذا لم يكن كذلك كان توجيه إعادة فعل القول ، وكونه مستأنفاً : أنّه استئناف ابتدائي للاهتمام بالخَبر ، إيذاناً بتغيّر الخطاب بأن يكون بين الخطابين تخالُفٌ مّا ، فالمخاطب بالأوّل آدم وزوجه والشّيطان ، والمخاطب بالثّاني آدم وزوجه وأبناؤهما ، فإن كان هذا الخطاب قبل حدوث الذرّية لهما كما هو ظاهر السّياق فهو خطاب لهما بإشعارهما أنّهما أبوا خلق كثير : كلّهم هذا حالهم ، وهو من تغليب الموجود على من لم يوجد ، وإن كان قد وقع بعدَ وجود الذرّية لهما فوجه الفصل أظهر وأجدر ، والقرينةُ على أنّ إبليس غير داخل في الخطاب هو قوله : ﴿ ومنها تخرجون ﴾ لأنّ الإخراج من الأرض يقتضي سبق الدّخول في باطنها ، وذلك هو الدّفن بعد الموت ، والشّياطين لا يُدفنون .

وقد أمهل الله إبليس بالحياة إلى يوم البعث فهو يحشر حينئذٍ أو يموت ويبعث ، ولا يَعلم ذلك إلاّ الله تعالى .

وقد جُعل تغيير الأسلوب وسيلة للتّخلّص إلى توجيه الخطاب إلى بني آدم عقب هذا .

وقد دلّ جمع الضّمير على كلام مطوي بطريقة الإيجاز : وهو أنّ آدم وزوجه استقرا في الأرض ، وتَظهرُ لهما ذرّية ، وأنّ الله أعلمهم بطريق من طرق الإعلام الإلهي بأنّ الأرض قرارهم ، ومنها مبعثهم ، يشمَل هذا الحكم الموجودين منهم يوم الخطاب والذين سيوجدون من بعد .

وقد يجعل سبب تغيير الأسلوب تخالف القولين بأنّ القول السابق قول مخاطبة ، والقول الذي بعده قول تقدير وقضاء أي قدّر الله تحيون فيها وتموتون فيها وتخرجون منها .

(27/266)

وتقديم المجرورات الثّلاثة على متعلّقاتها للاهتمام بالأرض التي جعل فيها قرارهم ومتاعهم ، إذ كانت هي مقرّ جميع أحوالهم .

وقد جعل هذا التّقديم وسيلة إلى مراعاة النّظير ، إذ جعلت الأرض جامعة لهاته الأحوال ، فالأرض واحدة وقد تداولت فيها أحوال سكّانها المتخالفة تخالفاً بعيداً .

وقرأ الجمهور : تُخْرجون بضمّ الفوقية وفتح الرّاء على البناء للمفعول ، وقرأه حمزة ، والكسائي ، وابن ذكوان عن ابن عامر ، ويعقوبُ ، وخلف : بالبناء للفاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(28/266)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

هَذِهِ الْآيَاتُ تَتِمَّةُ السِّيَاقِ الْوَارِدِ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى لِلْبَشَرِ وَشَيَاطِينِ الْجِنِّ ، أُنْزِلَتْ تَمْهِيدًا لِهِدَايَةِ النَّاسِ بِمَا يَتْلُوهَا مِنَ الْآيَاتِ فِي وَعْظِ بَنِي آدَمَ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا تَكْمُلُ بِهِ فِطْرَتُهُمْ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي بَحْثِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ .

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) أَيْ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ - كَمَا هُوَ نَصُّ التَّعْبِيرِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ - فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السِّيَاقِ : (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) وَهَذَا أَظْهَرُ مِنْ جَعْلِهِ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ : (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا) فَإِنَّ إِخْرَاجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ - عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ - كَانَ بَعْدَ الْوَسْوَسَةِ لِآدَمَ كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ . وَالنِّدَاءُ يُفِيدُ الِاهْتِمَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ ، وَالْأَمْرُ بِالسُّكْنَى قِيلَ : لِلْإِبَاحَةِ ، وَقِيلَ : لِلْوُجُوبِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ أَمْرُ تَكْلِيفٍ ، يُقَابِلُهُ جَعْلُهُ أَمْرًا تَكْوِينِيًّا قَسْرِيًّا كَمَا تَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي أَمْرِ إِبْلِيسَ ، وَاللَّامُ فِي الْجَنَّةِ لِلْعَهْدِ الْخَارِجِيِّ وَهِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا أَوْ لَدَيْهَا آدَمُ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ

(ن) : (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) (68 : 17) ؛ لِأَنَّ آدَمَ خُلِقَ مِنَ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ ، وَلَمْ يَرِدْ فِي شَيْءٍ مِنْ آيَاتِ قِصَّتِهِ الْمُكَرَّرَةِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ أَنَّ اللهَ رَفَعَهُ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ الْخِلَافِ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهَا جَنَّةُ الْآخِرَةِ .

(30/266)

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ آدَمَ كَانَ لَهُ زَوْجٌ ؛ أَيِ امْرَأَةٌ . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مِثْلُ مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَلْقَى عَلَى آدَمَ سُبَاتًا انْتَزَعَ فِي أَثْنَائِهِ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَخَلَقَ لَهُ مِنْهُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ ، وَأَنَّهَا سُمِّيَتِ امْرَأَةً " لِأَنَّهَا مِنِ امْرِئٍ أُخِذَتْ " وَمَا رُوِيَ فِي هَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ " فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ " عَلَى حَدِّ (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) (21 : 37) بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : " فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ " أَيْ لَا تُحَاوِلُوا تَقْوِيمَ النِّسَاءِ بِالشِّدَّةِ ، وَوَثَنِيُّوا الْهِنْدِ يَزْعُمُونَ أَنَّ لِآدَمَ أُمًّا وَلَهَا فِي مَدِينَتِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ (بنارس) قَبْرٌ عَلَيْهِ قُبَّةٌ بِجَانِبِ قُبَّةِ قَبْرِهِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِأُمِّهِ عِنْدَهُمُ الرَّمْزُ إِلَى الطَّبِيعَةِ . وَالْآيَةُ تُرْشِدُ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تَابِعَةٌ لِلرَّجُلِ

فِي السُّكْنَى وَالْمَعِيشَةِ بِاقْتِضَاءِ الْفِطْرَةِ ، وَهُوَ الْحَقُّ الْوَاقِعُ الَّذِي يُعَدُّ مَا خَالَفَهُ شُذُوذًا .

(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) أَيْ فَكُلَا مِنْ ثِمَارِهَا حَيْثُ شِئْتُمَا - وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) (2 : 35) - وَمِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ أَنْ يَتَضَمَّنَ التِّكْرَارُ لِلْقَصَصِ فَوَائِدَ فِي كُلٍّ مِنْهَا لَا تُوجَدُ فِي الْأُخْرَى مِنْ غَيْرِ تَعَارُضٍ فِي الْمَجْمُوعِ .

(31/266)

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) النَّهْيُ عَنْ قُرْبِ الشَّيْءِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا) (2 : 187) فَهُوَ يَقْتَضِي الْبُعْدَ عَنْ مَوَارِدِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تُغْرِي بِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ وَرَعًا وَاحْتِيَاطًا ، " وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ " كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، وَتَعْرِيفُ الشَّجَرَةِ كَتَعْرِيفِ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ مُشَارٌ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ بِمَا يُعَيِّنُ شَخْصَهَا ، وَلَمْ يُبَيَّنْ فِي الْقُرْآنِ نَوْعُهَا وَلَا وَصْفُهَا ، إِلَّا مَا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ عَنْ إِبْلِيسَ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ طه . وَفِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ أَوَّلِ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ مَا نَصُّهُ " 8 وَغَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهُ جَنَّةً مِنْ عَدْنٍ شَرْقًا وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ 9 وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ

وَجَيِّدَةٍ لِلْأَكْلِ وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ " ثُمَّ قَالَ " 15 وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا 16 وَأَوْصَى

(32/266)

الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ قَائِلًا مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا 17 وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ " اهـ . وَقَدْ أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَلَمْ يَمُتْ يَوْمَ أَكَلَهَا وَالْقُرْآنُ قَدْ عَلَّلَ النَّهْيَ بِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ أَنْ يَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمَا ، أَيْ بِفِعْلِهِمَا مَا يُعَاقَبَانِ عَلَيْهِ وَلَوْ بِالْحِرْمَانِ مِنْ ذَلِكَ الرَّغَدِ مِنَ الْعَيْشِ وَمَا يَعْقُبُهُ مِنْ تَعَبٍ فِي الْمَعِيشَةِ . (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا) قَالَ الرَّاغِبُ : الْوَسْوَسَةُ الْخَطِرَةُ الرَّدِيئَةُ وَأَصْلُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ وَهُوَ صَوْتُ الْحُلِيِّ ، وَالْهَمْسُ الْخَفِيُّ قَالَ : (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) (20 : 120) وَقَالَ : (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ) (114 : 4) وَيُقَالُ لِهَمْسِ الصَّائِدِ وَسْوَاسٌ اهـ . فَوَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ لِلْبَشَرِ هِيَ مَا يَجِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيئَةِ الَّتِي تُزَيِّنُ لَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ أَوْ أَرْوَاحِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِرَارًا . وَالظَّاهِرُ هُنَا أَنَّ الشَّيْطَانَ تَمَثَّلَ لِآدَمَ وَزَوْجِهِ وَكَلَّمَهُمَا وَأَقْسَمَ لَهُمَا ، وَلَا مَانِعَ مِنْهُ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ .

(33/266)

وَمَنْ جَعَلَ الْقِصَّةَ تَمْثِيلًا لِبَيَانِ حَالِ النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ مِنَ الْأَطْوَارِ الَّتِي تُنْقَلُ فِيهَا يُفَسِّرُ الْوَسْوَسَةَ بِمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَنْتَقِلُ مِنْ طَوْرِ الطُّفُولَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ فِيهِ هَمًّا وَلَا نَصَبًا إِلَى طَوْرِ التَّمْيِيزِ النَّاقِصِ يَكُونُ كَثِيرَ التَّعَرُّضِ لِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ وَاتِّبَاعِهَا . وَقَدْ عَلَّلْتُ هَذِهِ الْوَسْوَسَةَ بِأَنَّ غَايَتَهَا أَوْ غَرَضَهُ مِنْهَا أَنْ يُظْهِرَ لَهُمَا مَا غُطِّيَ وَسُتِرَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا يُقَالُ : وَارَى الشَّيْءَ إِذَا غَطَّاهُ وَسَتَرَهُ ، وُورِيَ الشَّيْءُ غُطِّيَ وَسُتِرَ ، وَالسَّوْءَةُ مَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَمْرٍ شَائِنٍ وَعَمَلٍ قَبِيحٍ . وَالسَّوْءَةُ السَّوْآءُ الْخَلَّةُ الْقَبِيحَةُ وَالْمَرْأَةُ الْمُخَالِفَةُ . قَالَ فِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ : وَسَوْءَةٌ لَكَ ، وَوَقَعَتْ فِي السَّوْءَةِ السَّوْآءِ ، قَالَ أَبُو زُبَيْدٍ :

لَمْ يَهَبْ حُرْمَةَ النَّدِيمِ وَحُقَّتْ . . . يَا لِقَوْمِي لِلسَّوْءَةِ السَّوْآءِ

(34/266)

ثُمَّ قَالَ : وَمِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ بَدَتْ سَوْءَتُهُ وَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا اهـ . وَإِذَا أُضِيفَتِ السَّوْءَةُ إِلَى الْإِنْسَانِ أُرِيدَ بِهَا عَوْرَتُهُ الْفَاحِشَةُ ؛ لِأَنَّهُ يَسُوءُهُ ظُهُورُهَا بِمُقْتَضَى الْحَيَاءِ الْفِطْرِيِّ مَا لَمْ

يُفْسِدُهُ بِتَعَوُّدِ إِظْهَارِهَا مَعَ آخَرِينَ فَيَرْتَفِعُ الْحَيَاءُ بَيْنَهُمْ ، وَجُمِعَتْ هُنَا عَلَى الْقَاعِدَةِ فِي إِضَافَةِ الْمُثَنَّى إِلَى ضَمِيرِهِ إِذْ يَسْتَثْقِلُونَ الْجَمْعَ بَيْنَ تَثْنِيَتَيْنِ فِيمَا هُوَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ فَيَجْمَعُونَ الْمُضَافَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) (66 : 4) .

وَسَنَذْكُرُ مَعْنَى مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْإِخْفَاءِ أَوِ الْمُوَارَاةِ لِسَوْآتِهِمَا عَنْهُمَا

فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) (20 : 121) وَمَا هُوَ بِبَعِيدٍ .

(وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) أَيْ وَقَالَ فِيمَا وَسْوَسَ بِهِ لَهُمَا : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَنْ تَأْكُلَا مِنْهَا إِلَّا لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ : اتِّقَاءِ

(35/266)

أَنْ تَكُونَا بِالْأَكْلِ مِنْهَا مَلَكَيْنِ ، أَيْ كَالْمَلَكَيْنِ فِيمَا أُوتِيَ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْخَصَائِصِ كَالْقُوَّةِ وَطُولِ الْبَقَاءِ وَعَدَمِ التَّأَثُّرِ بِفَوَاعِلِ الْكَوْنِ الْمُؤْلِمَةِ وَالْمُتْعِبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ كَثِيرٍ " مَلِكَيْنِ " بِكَسْرِ اللَّامِ وَاسْتَشْهَدَ لَهُ الزَّجَّاجُ بِمَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنِ الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ طَهَ بِقَوْلِهِ : (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) (20 : 120) وَهُوَ ضَعِيفٌ وَالْقِرَاءَةُ شَاذَّةٌ - أَوِ اتِّقَاءِ أَنْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي الْجَنَّةِ ، أَوِ الَّذِينَ لَا يَمُوتُونَ أَلْبَتَّةَ .

وَأَوْهَمَهُمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ يُعْطِي الْآكِلَ صِفَةَ الْمَلَائِكَةِ وَغَرَائِزَهُمْ وَيَقْتَضِي الْخُلُودَ فِي الْحَيَاةِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى آدَمَ ، وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ وَالْكُرْسِيِّ وَالْعَرْشِ مِنَ الْعَالِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ دُونَ مَلَائِكَةِ الْأَرْضِ الْمُسَخَّرِينَ لِتَدْبِيرِ أُمُورِهَا الَّذِينَ كَانَ مَعْنَى سُجُودِهِمْ لَهُ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لِنَوْعِهِ جَمِيعَ قُوَى الْأَرْضِ وَعَوَالِمِهَا - وَذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّهَا أَحَدُ الدَّلَائِلِ عَلَى كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ سَجَدُوا لِآدَمَ هُمْ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ فَقَطْ ، وَاسْتَدَلَّ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ الْعَرَبِيِّ عَلَى عَدَمِ سُجُودِ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ : (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) (38 : 75) بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَالِينَ خَوَاصُّ الْمَلَائِكَةِ .

(36/266)

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) ادَّعَى اللَّعِينُ أَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمَا فِيمَا رَغَّبَهُمَا فِيهِ مِنَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ . وَلَمَّا كَانَ مَحَلَّ الظِّنَّةِ فِي نُصْحِهِ عِنْدَهُمَا ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَهُمَا بِأَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُمَا . أَكَّدَ دَعْوَاهُ بِأَشَدِّ الْمُؤَكِّدَاتِ وَأَغْلَظِهَا ، وَهِيَ الْقَسَمُ وَإِنَّ وَاللَّامُ وَتَقْدِيمُ (لَكُمَا) عَلَى مُتَعَلَّقِهِ الدَّالُّ عَلَى الْحَصْرِ . وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ : وَأَقْسَمَ لَهُمَا ؛ فَإِنَّ الْمُقَاسَمَةَ تَدُلُّ عَلَى الْمُشَارَكَةِ كَقَاسَمَهُ الْمَالَ ، أَيْ أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمَا قِسْمًا ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي الصِّيغَةِ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا أَنَّ صِيغَةَ فَاعَلَ وَرَدَتْ لِلْمُفْرَدِ كَثِيرًا وَهَذَا مِنْهَا فَمَعْنَاهُ : وَحَلَفَ لَهُمَا ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِقَوْلِ خَالِدِ بْنِ زُهَيْرٍ :

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلَذُّ . . . مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهَا عَلَى أَصْلِهَا وَوَجَّهُوهُ بِوُجُوهٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِمْ : إِنَّهُمَا أَقْسَمَا لَهُ أَنَّهُمَا يَقْبَلَانِ نَصِيحَتَهُ إِذَا أَقْسَمَ أَنَّهُ نَاصِحٌ : وَقَوْلُهُمْ : إِنَّهُمَا طَلَبَا مِنْهُ الْقَسَمَ فَجَعَلَ طَلَبَهُمَا الْقَسَمَ كَالْقَسَمِ ، وَإِنَّمَا يُعْلَمُ مِثْلُ هَذَا بِالنَّقْلِ عَنِ الْمَعْصُومِ ، وَلَوْ قِيلَ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي عَرَضَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُقْسِمَ لَهُمَا وَطَلَبَ مِنْهُمَا أَنْ يُقْسِمَا لَهُ وَبَنَى قَسَمَهُ عَلَى ذَلِكَ لَكَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْمَأْلُوفِ .

(37/266)

(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) دَلَّى الشَّيْءَ تَدْلِيَةً - أَرْسَلَهُ إِلَى الْأَسْفَلِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِأَنَّ فِي الصِّيغَةِ مَعْنَى التَّدْرِيجِ أَوِ التَّكْثِيرِ - أَيْ فَمَا زَالَ يَخْدَعُهُمَا بِالتَّرْغِيبِ فِي الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَالْقَسَمِ عَلَى أَنَّهُ نَاصِحٌ بِذَلِكَ لَهُمَا بِهِ حَتَّى أَسْقَطَهُمَا وَحَطَّهُمَا عَمَّا كَانَا عَلَيْهِ مِنْ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ وَطَاعَةِ الْفَاطِرِ بِمَا غَرَّهُمَا بِهِ ، وَالْغُرُورُ الْخِدَاعُ بِالْبَاطِلِ ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْغِرَّةِ (بِالْكَسْرِ) وَالْغَرَارَةِ (بِالْفَتْحِ) وَهُمْ بِمَعْنَى الْغَفْلَةِ وَعَدَمِ التَّجْرِبَةِ كَمَا حَقَّقْنَاهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي تَفْسِيرِ

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) (6 : 112) وَاسْتَشْهَدْنَا عَلَيْهِ بِخِدَاعِ الشَّيْطَانِ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ فِي مَسْأَلَتِنَا وَقِيلَ : دَلَّاهُمَا حَالَ كَوْنِهِمَا مُتَلَبِّسِينَ بِغُرُورٍ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمَا اغْتَرَّا وَانْخَدَعَا بِقَسَمِهِ وَصَدَّقَا قَوْلَهُ لِاعْتِقَادِهِمَا أَنَّ أَحَدًا لَا يَحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا ، وَاسْتَنْكَرَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَا صَدَّقَاهُ وَاسْتَكْبَرَ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُمَا ، وَزَعَمَ أَنَّ تَصْدِيقَهُ كُفْرٌ ، وَرَجَّحَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَكُونَ الْغُرُورُ بِتَزْيِينِ الشَّهْوَةِ ، فَإِنَّ مِنْ غَرَائِزِ الْبَشَرِ حُبَّ التَّجْرِبَةِ وَاسْتِكْشَافَ الْمَجْهُولِ ، وَالرَّغْبَةُ فِي الْمَمْنُوعِ ، فَجَاءَ الْوَسْوَاسُ نَافِخًا فِي نَارِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْغَرِيزِيَّةِ مُذَكِّيًا لَهَا ، مُثِيرًا لِلنَّفْسِ بِهَا إِلَى مُخَالَفَةِ النَّهْيِ ، حَتَّى نَسِيَ آدَمُ عَهْدَ رَبِّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَزْمِ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ مُتَابَعَةِ امْرَأَتِهِ ، وَيَعْتَصِمُ بِهِ مِنْ تَأْثِيرِ شَيْطَانِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طَهَ : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (20 : 115) وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحِ " وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا " بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا هِيَ الَّتِي زَيَّنَتْ لَهُ الْأَكْلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْمَرْأَةَ فُطِرَتْ عَلَى تَزْيِينِ مَا تَشْتَهِيهِ لِلرَّجُلِ وَلَوْ بِالْخِيَانَةِ لَهُ ، وَقِيلَ : إِنَّ ذَلِكَ بِنَزْعِ الْعِرْقِ أَيِ الْوِرَاثَةِ .

(فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) أَيْ فَلَمَّا ذَاقَا ثَمَرَةَ الشَّجَرَةِ ظَهَرَتْ لِكُلٍّ مِنْهُمَا سَوْءَتُهُ وَسَوْءَةُ صَاحِبِهِ وَكَانَتْ مُوَارَاةً عَنْهُمَا ، قِيلَ : بِلِبَاسٍ مِنَ الظُّفْرِ كَانَ يَسْتُرُهُمَا فَسَقَطَ عَنْهُمَا ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فِي رُءُوسِ أَصَابِعِهِمَا ، قِيلَ : بِلِبَاسٍ مَجْهُولٍ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَلْبَسَهُمَا إِيَّاهُ ، وَقِيلَ : بِنُورٍ كَانَ يَحْجُبُهُمَا ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَصِحَّ بِهِ أَثَرٌ عَنِ

الْمَعْصُومِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَقْرَبُ عِنْدِي أَنَّ مَعْنَى ظُهُورِهَا لَهُمَا أَنَّ شَهْوَةَ التَّنَاسُلِ دَبَّتْ فِيهِمَا بِتَأْثِيرِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، فَنَبَّهَتْهُمَا إِلَى مَا كَانَ خَفِيًّا عَنْهُمَا مِنْ أَمْرِهَا ، فَخَجِلَا مِنْ ظُهُورِهَا ، وَشَعَرَا بِالْحَاجَةِ إِلَى سِتْرِهَا ، وَشَرَعَا يَخْصِفَانِ أَيْ يَلْزَقَانِ أَوْ يَضَعَانِ وَيَرْبِطَانِ عَلَى أَبْدَانِهِمَا مِنْ وَرَقِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ الْعَرِيضِ مَا يَسْتُرُهَا - مِنْ خَصْفِ الْإِسْكَافِيِّ النَّعْلَ إِذَا وَضَعَ عَلَيْهَا مِثْلَهَا - فَالْمُوَارَاةُ كَانَتْ مَعْنَوِيَّةً ، فَإِنْ كَانَتْ حِسِّيَّةً فَمَا ثَمَّ إِلَّا الشَّعْرُ سَاتِرٌ خِلْقِيٌّ ، وَقَدْ تُظْهِرُ الشَّهْوَةُ مَا أَخْفَاهُ الشَّعْرُ ، وَإِنْ لَمْ يَسْقُطْ بِتَأْثِيرِ ذَلِكَ الْأَكْلِ . وَيَدُلُّ عَلَى كُلٍّ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ فِطْرَةُ الْإِنْسَانِ الَّتِي نَزَلَتِ الْآيَاتُ فِي شَرْحِ حَقِيقَتِهَا وَغَرَائِزِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ ، وَخَلْقِهِ وَقَدَرِهِ أَصْدَقُ شَاهِدٍ لِكِتَابِهِ .

(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

الِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْعِتَابِ وَالتَّوْبِيخِ ، أَيْ وَقَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا الَّذِي يُرَبِّيهِمَا فِي طَوْرِ الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ ، كَمَا يُرَبِّيهِمَا فِي حَالِ الطَّاعَةِ وَالْإِذْعَانِ : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ أَنْ تَقْرَبَاهَا ، وَأَقُلْ لَكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَكُمَا دُونَ غَيْرِكُمَا مِنَ الْخَلْقِ ، بَيِّنُ الْعَدَاوَةِ ظَاهِرُهَا فَلَا تُطِيعَاهُ يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ الْعَيْشُ الرَّغْدُ إِلَى حَيْثُ الشَّقَاءُ فِي الْمَعِيشَةِ وَالتَّعَبُ فِي جِهَادِ الْحَيَاةِ ! وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ طه : (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) (20 : 117) وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا سَوَاءً مَا تَقَدَّمَ نُزُولُهُ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ .

(41/266)

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا بَعْدَ أَنْ تَذَكَّرَا نَهْيَ الرَّبِّ لَهُمَا عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ ظُلْمِهِمَا لِأَنْفُسِهِمَا بِهِ ، وَهُوَ أَنَّهُمَا قَالَا : يَا رَبَّنَا ، إِنَّا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا بِطَاعَتِنَا لِلشَّيْطَانِ وَعِصْيَانِنَا لَكَ كَمَا أَنْذَرْتَنَا ، وَقَدْ عَرَفْنَا ضَعْفَنَا وَعَجَزْنَا عَنِ الْتِزَامِ عَزَائِمِ الطَّاعَاتِ ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا مَا

نَظْلِمُ بِهِ أَنْفُسَنَا ، وَتَرْحَمْنَا بِهِدَايَتِكَ لَنَا وَتَوْفِيقِكَ إِيَّانَا إِلَى تَرْكِ الظُّلْمِ ، وَالِاعْتِصَامِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْجَهَالَةِ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ ، وَبِقَبُولِنَا إِذَا نَحْنُ تُبْنَا إِلَيْكَ ، وَبِإِعْطَائِكَ إِيَّانَا مِنْ فَضْلِكَ ، فَوْقَ مَا نَسْتَحِقُّ بِعَدْلِكَ ، فَوَحَقِّكَ لَنَكُونَنَّ إِذًا مِنَ الْخَاسِرِينَ لِأَنْفُسِنَا وَلِلسَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ بِتَزْكِيَتِهَا ، وَإِنَّمَا يَنَالُ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ بِمَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ مَنْ يَتُوبُ إِلَيْكَ وَيَتَّبِعُ سَبِيلَكَ ، دُونَ مَنْ يُصِرُّ عَلَى ذَنْبِهِ وَيَحْتَجُّ عَلَى رَبِّهِ كَالشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . الَّذِي أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ، وَاحْتَجَّ لِنَفْسِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَأَصَرَّ .

(42/266)

هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ وَتَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ مَعْنَى كَلِمَاتِ آدَمَ الَّتِي تَلَقَّاهَا مِنْ رَبِّهِ ، وَهِيَ الَّتِي أُشِيرُ إِلَيْهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (2 : 37) قَالَهَا خَاشِعًا مُتَضَرِّعًا وَتَبِعَتْهُ زَوْجُهُ بِهَا ، فَحَذْفُهُمَا لِمَفْعُولِ (تَغْفِرْ) – إِذْ لَمْ يَقُولَا : وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا ذَنْبَنَا هَذَا أَوْ ظُلْمَنَا – يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا قَدْ عَلَّقَا النَّجَاةَ مِنَ الْخُسْرَانِ عَلَى الْمَغْفِرَةِ الْعَامَّةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَشْمَلُ هَذَا الذَّنْبَ وَغَيْرَهُ ، مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يَتُوبُ الْإِنْسَانُ عَنْهُ وَيَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مَقَامُ بَيَانِ حَالِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُبَيَّنُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَآيَةِ الْأَحْزَابِ فِي حَمْلِ الْإِنْسَانِ لِلْأَمَانَةِ ، وَكَوْنِهِ كَانَ بِذَلِكَ ظَلُومًا جَهُولًا ، وَآيَةُ

الْمَعَارِجِ : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ) (70 : 19 - 22) إِلَخْ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ هَذَا الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ قَدْ عُوقِبَا عَلَيْهِ بِالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ وَبِالتَّشْهِيرِ الدَّائِمِ بِإِعْلَامِهِ تَعَالَى ذُرِّيَّتَهُمَا بِهِ ، وَهَاكَ مَا أَجَابَهُمَا الرَّبُّ تَعَالَى بِهِ ، إِذِ الْمَقَامُ مَقَامُ السُّؤَالِ عَنْهُ :

(43/266)

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) الْخِطَابُ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَلِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ وَالْمَلَامُ ، أَيِ اهْبِطُوا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ هَذِهِ الْمَكَانَةِ - عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي قِصَّةِ إِبْلِيسَ - بَعْضُكُمْ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، عَدُوٌّ لِبَعْضٍ وَهُوَ الْإِنْسَانُ ، وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَلَيْسَ عَدُوًّا لِلشَّيْطَانِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مُنْدَفِعًا إِلَى إِغْوَائِهِ وَإِيذَائِهِ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَهُ عَدُوًّا بِأَلَّا يَغْفَلَ عَنْ عَدَاوَتِهِ لَهُ وَلَا يَأْمَنَ وَسْوَسَتَهُ وَإِغْوَاءَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (35 : 6) وَقِيلَ : إِنَّ الْخِطَابَ لَهُمَا

(44/266)

بِالذَّاتِ وَلِذُرِّيَّتِهِمَا بِالتَّبَعِ وَفِيهِ خِطَابُ الْمَعْدُومِ - وَقِيلَ : هُوَ خِطَابٌ لَهُمَا فَقَطْ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ طه : (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا) (20 : 123) إِلَخْ . وَفِي هَذِهِ التَّثْنِيَةِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا لِآدَمَ وَحَوَّاءَ . وَالثَّانِي أَنَّهَا لِآدَمَ وَإِبْلِيسَ ، وَحَوَّاءُ تَبَعٌ لِآدَمَ ، وَهَذَا أَقْوَى لِأَنَّهُ جَعَلَ بَعْضَ الْمُخَاطَبِينَ عَدُوًّا لِبَعْضٍ ، وَإِنَّمَا الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ ، لَا بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ الَّتِي خُلِقَتْ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا وَتَكُونَ بَيْنَهُمَا الْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ ، فَعَجَبًا لِمَنْ غَفَلَ عَنْ هَذَا ! وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ التَّثْنِيَةُ لِلْفَرِيقَيْنِ ، فَرِيقَيِ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ . وَالْمُتَبَادَرُ أَنَّ هَذَا الْإِخْرَاجَ مِنْ ذَلِكَ النَّعِيمِ عِقَابٌ عَلَى تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ ، وَتَأْوِيلٌ لِكَوْنِهَا ظُلْمًا مِنْهُمَا لِأَنْفُسِهِمَا ، وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْعِقَابِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي طَبِيعَةِ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ أَثَرًا طَبِيعِيًّا لِلْعَمَلِ السَّيِّئِ ، مُتَرَتِّبًا عَلَيْهِ تَرَتُّبَ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ . وَأَمَّا النَّوْعُ الْآخَرُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِصْيَانٌ لِلرَّبِّ تَعَالَى

الَّذِي يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَدْ غَفَرَهُ تَعَالَى لَهُمَا بِالتَّوْبَةِ الَّتِي ذَهَبَتْ بِأَثَرِهِ مِنَ النَّفْسِ وَجَعَلَتْهَا مَحَلًّا لِاصْطِفَائِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه : (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (20 : 121 ، 122) .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) أَيْ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ اسْتِقْرَارٌ أَوْ مَكَانٌ تَسْتَقِرُّونَ فِيهِ ، وَمَتَاعٌ تَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي مَعِيشَتِكُمْ إِلَى حِينٍ ، أَيْ زَمَنٍ مُقَدَّرٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الْأَجَلُ الَّذِي تَنْتَهِي فِيهِ أَعْمَارُكُمْ وَتَقُومُ بِهِ قِيَامَتُكُمْ ، وَالْمُسْتَقَرُّ يُطْلَقُ مَصْدَرًا بِمَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ وَاسْمُ مَكَانٍ مِنْهُ ، وَالْمَتَاعُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَهَذَا الْمُسْتَقَرُّ وَالْمَتَاعُ هُنَا بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ هَذَا السِّيَاقِ : (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) فَهُوَ تَعَالَى يُذَكِّرُنَا فِيمَا خَاطَبَ بِهِ آخِرَنَا عَلَى لِسَانِ آخِرِ رُسُلِهِ وَخَاتَمِهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَهُ لِأَوَّلِنَا .

(46/266)

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى هَذَا الْقَوْلَ الْمُجْمَلَ بِمَا هُوَ جَدِيرٌ أَنْ يُفَكِّرَ فِيهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ فَاسْتَأْنَفَهُ كَسَابِقِهِ وَهُوَ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) أَيْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي خُلِقْتُمْ مِنْهَا تَحْيَوْنَ مُدَّةَ الْعُمْرِ الْمُقَدَّرِ لِكُلٍّ مِنْكُمْ وَلِمَجْمُوعِ نَوْعِكُمْ - أَوْ نَوْعَيْكُمْ عَلَى أَنَّ إِبْلِيسَ دَاخِلٌ فِي الْخِطَابِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْقَى إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، وَفِيهَا تَمُوتُونَ عِنْدَ انْتِهَائِهِ ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ بَعْدَ مَوْتِ الْجَمِيعِ وَعِنْدَمَا يُرِيدُ الْخَالِقُ أَنْ يَبْعَثَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلنَّشْأَةِ الْآخِرَةِ ، كَمَا

قَالَ فِي سُورَةِ طَهَ : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (20 : 55) وَهِيَ تُشْبِهُ النَّشْأَةَ الْأُولَى إِذْ قَالَ : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (7 : 29) وَقَالَ مُذَكِّرًا بِهَا : (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) (56 : 60 - 62) .

مَغْزَى الْقِصَّةِ وَالْعِبْرَةُ فِيهَا

(47/266)

قَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ أَنَّ اللَّهَ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ نَشْأَتِنَا الْأُولَى ، بِمَا يُبَيِّنُ لَنَا سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي فِطْرَتِنَا وَمَا يَجِبُ عَلَيْنَا مِنْ شُكْرِهِ وَطَاعَتِهِ فِي تَزْكِيَتِهَا وَتَهْذِيبِ غَرَائِزِهَا ، وَمُلَخَّصُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا مَعَ مَا يُفَسِّرُهَا وَيُوَضِّحُهَا مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ لِيَكُونَ خَلِيفَةً لَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَهُ مُسْتَعِدًّا لِعِلْمِ كُلِّ شَيْءٍ فِيهَا ، وَلِتَسْخِيرِ جَمِيعِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَادَّةِ لِمَنَافِعِهِ لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ مُظْهِرًا لِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، وَصِفَاتِهِ الْعُلَى ، وَتَعَلُّقِهَا بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى وَأَنَّهُ كَانَ فِي نَشْأَتِهِ الْأُولَى فِي جَنَّةٍ مِنَ النَّعِيمِ وَرَاحَةِ الْبَالِ ، وَأَنَّهُ لِاسْتِعْدَادِهِ لِلْأُمُورِ الْمُتَضَادَّةِ ، الَّتِي يَكُونُ بِهَا مُظْهِرًا لِلصِّفَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ ، كَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ ، وَالْمُنْتَقِمِ وَالْغَافِرِ ، كَانَتْ نَفْسُهُ مُسْتَعِدَّةً لِلتَّأْثِيرِ بِالْأَرْوَاحِ الْمَلَكِيَّةِ الَّتِي تَجْذِبُهَا

إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَبِالْأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي تَجْذِبُهَا إِلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ التَّأَثُّرِ الْأَوَّلِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ بِمَا تَقْبَلُهُ طَبِيعَةُ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَعَاقِبَةُ الثَّانِي شَقَاءُ الدَّارَيْنِ بِقَدْرِ مَا يُوجَدُ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ فِيهِمَا ، وَيَحْتَاجُ الْبَشَرُ فِي ذَلِكَ إِلَى هِدَايَةِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْهَادِيَةِ إِلَى اتِّقَاءِ الْأَوَّلِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْآخَرِ ، وَهُوَ مَا بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طَهَ بِقَوْلِهِ : (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (20 : 123 - 126) وَنَحْوِهِ مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَهَذَا أَثَرُ الدِّينِ فِي الْحِفْظِ مِنْ شَقَاءِ الدُّنْيَا وَهَلَاكِ الْآخِرَةِ ، وَكِتَابُ اللَّهِ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَا يُصَدِّقُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي حَالِهِمْ ، وَمَنْ يُفَسِّرُونَهُ بِمَا يُخَالِفُ ذَلِكَ بِأَقْوَالِهِمْ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْقِصَّةِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ جَعَلَهَا تَمْثِيلًا لِبَيَانِ هَذِهِ السُّنَنِ وَالنَّوَامِيسِ فِي فِطْرَةِ الْبَشَرِ وَالشَّيَاطِينِ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِآدَمَ نَوْعَ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ أَصْلُهُ ، كَمَا تُسَمِّي الْعَرَبُ الْقَبِيلَةَ بِاسْمِ أَصْلِهَا وَجَدِّهَا الْأَشْهَرِ فَنَقُولُ فَعَلَتْ قُرَيْشٌ كَذَا وَكَذَا ، وَقَالَتْ تَمِيمٌ : كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَتَكُونُ الْجَنَّةُ عِبَارَةً عَنْ نِعْمَةِ الْحَيَاةِ ، وَالشَّجَرَةُ عِبَارَةً عَنِ الْغَرِيزَةِ الَّتِي تُثْمِرُ الْمَعْصِيَةَ وَالْمُخَالَفَةَ ، كَمَا مَثَّلَ كَلِمَتَيِ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ بِالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ وَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ أَمْرَ قَدَرٍ وَتَكْوِينٍ ، لَا أَمْرَ تَشْرِيعٍ وَتَكْلِيفٍ ، وَقَدْ شَرَحَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذَا التَّأْوِيلَ شَرْحًا بَلِيغًا يُرَاجَعُ هُنَالِكَ ، وَالْغَرَضُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى أَذْهَانِ مَنْ يَعْسُرُ إِقْنَاعُهُمْ بِظَوَاهِرِ النُّصُوصِ وَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْبَيَانِ .

(50/266)

هَذَا مُلَخَّصُ مَضْمُونِ الْقِصَّةِ أَوْ مُلَخَّصُ بَقِيَّتِهَا ، وَأَمَّا مُلَخَّصُ مَا فِيهَا مِنَ الْعِبْرَةِ فَهُوَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنْفُسَنَا بِغَرَائِزِهَا وَاسْتِعْدَادِهَا لِلْكَمَالِ ، وَمَا يَعْرِضُ لَهَا دُونَهُ مِنَ الْمَوَانِعِ فَيَصْرِفُهَا عَنْهُ إِلَى النَّقَائِصِ ، وَأَنَّ أَنْفَعَ مَا يُعِينُنَا عَلَى تَرْبِيَّتِهَا عَهْدُ اللهِ إِلَيْنَا بِأَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ ، وَأَلَّا نَعْبُدَ مَعَهُ الشَّيْطَانَ وَلَا غَيْرَهُ ، وَأَنْ نَذْكُرَهُ وَلَا نَنْسَاهُ فَنَنْسَى أَنْفُسَنَا ، وَنَغْفُلُ عَنْ تَزْكِيَتِهَا

، وَصَقْلِهَا بِصِقَالِ التَّوْبَةِ كُلَّمَا عَرَضَ لَهَا مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ مَا يُلَوِّثُهَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُتْرَكْ صَارَ صَدَأً وَطَبْعًا مُفْسِدًا لَهَا ، وَمَا أَفْسَدَ أَنْفُسَ الْبَشَرِ وَدَسَّاهَا إِلَّا غَفْلَةُ عُقُولِهِمْ

(51/266)

وَبَصَائِرِهِمْ عَنْهَا ، وَتَرْكُهَا كَالرِّيشَةِ فِي مَهَابِّ أَهْوَاءِ الشَّهَوَاتِ ، وَوَسَاوِسِ شَيَاطِينِ الضَّلَالَاتِ ، فَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ قِيمَتَهَا ، وَيَحْرِصَ عَلَيْهَا أَشَدَّ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى مَا عَسَاهُ يَمْلِكُ مِنْ نَفَائِسِ الْجَوَاهِرِ ، وَأَعْلَاقِ الذَّخَائِرِ ، فَإِنَّ حِرْصَهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ لِأَجْلِهَا ، وَهُوَ يَبْذُلُهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ فِي أَحْقَرِ مَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ . وَذَلِكَ بِأَنْ يَطْلُبَ لَهَا أَقْصَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ الْكَمَالِ ، وَيُحَاسِبُهَا كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً أَوْ أَكْثَرَ عَلَى مَا بَذَلَتْ مِنَ السَّعْيِ لِذَلِكَ ، وَعَلَى مُكَافَحَةِ مَا يَصُدُّهَا عَنْهُ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْوَسَاوِسِ ، وَيَنْصِبُ الْمِيزَانَ الْقِسْطَ لِمَا يُشْتَبَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْآرَاءِ وَالْخَوَاطِرِ ، لِيَعْرِفَ كُنْهَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ فَيَلْتَزِمَهُمَا ، وَأَضْدَادِهِمَا مِنَ الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ فَيَجْتَنِبَهُمَا . وَلْيَتَدَبَّرْ مَا قَفَّى بِهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ عَلَى الْقِصَّةِ مِنَ الْوَصَايَا فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ .

الْإِشْكَالَاتُ فِي الْقِصَّةِ :

(52/266)

قَدْ أَكْثَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ اسْتِخْرَاجِ الْإِشْكَالَاتِ ، وَالْجَوَابِ عَنْهَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ التَّمَحُّلَاتِ ، وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَا جَرَوْا عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ آدَمَ كَانَ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، وَأَنَّ الرُّسُلَ مَعْصُومُونَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ تَعَالَى ، فَكَيْفَ وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَأَغْوَاهُ ؟ وَكَيْفَ أَقْسَمَ لَهُ فَصَدَّقَهُ فِيمَا يُخَالِفُ خَبَرَ اللهِ ؟ وَكَيْفَ أَطْمَعَهُ فِي أَنْ يَكُونَ مَلَكًا أَوْ خَالِدًا فَطَمِعَ وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ إِنْكَارَ الْبَعْثِ ؟ وَإِذَا كَانَ لَمْ يُصَدِّقْهُ فَكَيْفَ أَطَاعَهُ ؟ وَهَلِ الْأَمْرُ لَهُ بِالْأَكْلِ مِنَ الْجَنَّةِ أَمْرُ وُجُوبٍ أَمْ إِبَاحَةٍ ؟ وَهَلِ النَّهْيُ عَنِ الشَّجَرَةِ لِلتَّحْرِيمِ أَوِ الْكَرَاهَةِ - إِلَخْ . مَا هُنَالِكَ حَتَّى زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ مَعْصِيَتَهُ كَانَتْ صُورِيَّةً . وَزَعَمَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالْكَشْفِ أَوْ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ . وَلَا يَرِدُ عَلَى مَا أَوْرَدْنَاهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ - فَأَمَّا عَلَى جَعْلِ التَّأْوِيلِ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ ، وَجَعْلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِلتَّكْوِينِ لَا لِلتَّكْلِيفِ ، فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ . وَأَمَّا عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ فَمَا جَلَّيْنَاهُ فِيهِ يُقَرِّبُهُ مِنَ الْوَجْهِ الْآخَرِ . وَآدَمُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا رَسُولًا عِنْدَ بَدْءِ خَلْقِهِ اتِّفَاقًا ، وَلَا مَوْضِعَ لِلرِّسَالَةِ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الرُّسُلِ وَمِنْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَسُولًا مُطْلَقًا ، وَأَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ

وَعِصْمَةُ

الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ لَمْ يُنْقَلْ إلَّا عَنْ بَعْضِ الرَّوَافِضِ . وَلَا يَظْهَرُ دَلِيلُ الْعِصْمَةِ وَلَا حِكْمَتُهَا فِيهِ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ أَحَدٌ يُخَافُ مِنْ سُوءِ الْأُسْوَةِ عَلَيْهِ .

هَذَا مَا أَلْهَمَهُ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ مَعَانِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْأُسْلُوبُ الْعَرَبِيُّ مَعَ مُرَاعَاةِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلِيقَةِ ، وَمَا تُرْشِدُ إلَيْهِ الْآيَاتُ الْأُخْرَى فِي الْقِصَّةِ وَمَا يُنَاسِبُهَا . وَلَمْ نُدْخِلْ فِيهِ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الْمَأْثُورَةِ ، وَالْآرَاءِ الْمَشْهُورَةِ ، الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ وَلَا قَوْلِ رَسُولِهِ ، وَلَا مِنْ سُنَنِهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ؛ إذْ كُلُّ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَوْ جُلُّهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا يُوثَقُ بِهَا ، وَقَدْ فُتِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِنَقْلِهَا ، كَقِصَّةِ الْحَيَّةِ وَدُخُولِ إبْلِيسَ فِيهَا وَمَا جَرَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَوَّاءَ مِنَ الْحِوَارِ .

كَلِمَةٌ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَغَيْرِهَا

(54/266)

وَمَنْ أَرَادَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَلْيَرْجِعْ إلَى الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ لِيَعْلَمَ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا عِنْدَنَا وَمَا عِنْدَهُمْ - بِأَنْ يُرَاجِعَ هُنَا سَائِرَ مَا وَرَدَ فِي الْقِصَّةِ بَعْدَ الَّذِي نَشَرْنَاهُ مِنْهَا - فِي

سِفْرِ التَّكْوِينِ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ عِنْدَهُمْ وَهُوَ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْهُ .

وَمُلَخَّصُهُ : أَنَّ الْحَيَّةَ كَانَتْ أَحْيَلَ حَيَوَانِ الْبَرِّيَّةِ ، وَأَنَّهَا قَالَتْ لِحَوَّاءَ إِنَّهَا هِيَ وَزَوْجَهَا لَا يَمُوتَانِ إِذَا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ كَمَا قَالَ لَهُمَا الرَّبُّ ، بَلْ يَصِيرَانِ كَآلِهَةٍ يَعْرِفَانِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَأَنَّ حَوَّاءَ رَأَتْ أَنَّ الشَّجَرَةَ طَيِّبَةُ الْأَكْلِ بَهْجَةُ الْمَنْظَرِ مُنْيَةٌ لِلنَّفْسِ ، فَأَكَلَتْ مِنْهَا وَأَطْعَمَتْ زَوْجَهَا فَأَكَلَ ، فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا ، وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ فَخَاطَا لِأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ وَرَقِ التِّينِ " فَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ وَهُوَ مُتَمَشٍّ فِي الْجَنَّةِ " فَاخْتَبَآ مِنْ وَجْهِهِ بَيْنَ الشَّجَرِ . فَنَادَى الرَّبُّ آدَمَ ، فَاعْتَذَرَ بِتَوَارِيهِ عَنْهُ لِأَنَّهُ عُرْيَانٌ ، فَسَأَلَهُ مَنْ أَعْلَمَهُ أَنَّهُ عُرْيَانٌ وَهَلْ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ؟ فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ امْرَأَتَهُ أَطْعَمَتْهُ . وَسَأَلَ الرَّبُّ الْمَرْأَةَ فَاعْتَذَرَتْ بِإِغْوَاءِ الْحَيَّةِ لَهَا " 14 فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْحَيَّةِ : إِذْ صَنَعْتِ هَذَا فَأَنْتِ مَلْعُونَةٌ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَجَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ ، عَلَى صَدْرِكِ تَمْشِينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ طُولَ أَيَّامِ حَيَاتِكِ 15 وَأَجْعَلُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ

(55/266)

الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا فَهُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَرْصُدِينَ عَقِبَهُ " وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ إِنَّهُ يَكْثُرُ مَشَقَّاتُ حَمْلِهَا وَآلَامُ وِلَادَتِهَا وَأَنَّهَا تَنْقَادُ إِلَى بَعْلِهَا وَهُوَ يَسُودُهَا . وَقَالَ لِآدَمَ إِنَّ الْأَرْضَ

مَلْعُونَةٌ بِسَبَبِهِ ، وَأَنَّهُ بِمَشَقَّةٍ يَأْكُلُ طُولَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ وَيَعْرَقُ وَجْهُهُ يَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى يَعُودَ إِلَى التُّرَابِ الَّذِي أُخِذَ مِنْهُ . ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ " 22 هُوَذَا آدَمُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا يَعْرِفُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ فَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ فَيَحْيَا إِلَى الدَّهْرِ 3 فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَحْرُثَ الْأَرْضَ الَّتِي

أُخِذَ مِنْهَا " اهـ . وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ مَا تَرَى وَلَيْسَ فِيمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ مُشْكِلٌ فِيهَا . وَقَدْ صَرَّحَ النَّصَارَى مِنْهُمْ بِأَنَّ إِبْلِيسَ دَخَلَ فِي الْحَيَّةِ وَتَوَسَّلَ بِهَا إِلَى إِغْوَاءِ حَوَّاءَ ، وَنَقَلَ عَنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ ، وَنَحْنُ لَا نَعْتَدُّ بِمَا يُخَالِفُ مَا فِي الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ مَا فِي السُّنَّةِ مِنْ ذَلِكَ .

(56/266)

إِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَلَا يَغُرَّنَّكَ شَيْءٌ مِمَّا رُوِيَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فِي تَفْصِيلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ فَأَكْثَرُهُ لَا يَصِحُّ ، وَهُوَ أَيْضًا مَأْخُوذٌ مِنْ تِلْكَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ زَنَادِقَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ لِلْكَيْدِ لَهُ ، وَكَذَا الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهِ . كَانَ الرُّوَاةُ يَنْقُلُونَ عَنِ الصَّحَابِيِّ أَوِ التَّابِعِيِّ مَا مَصْدَرُهُ عِنْدَهُ هَذِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ ، فَيَغْتَرُّ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَصْلٌ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ .

فَيَعُدُّونَهُ مِنَ الْمَوْقُوفِ الَّذِي لَهُ حُكْمُ الْمَرْفُوعِ . حَتَّى رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى بَعْضِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ لِيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِيهِ . وَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يُصَدِّقُونَهُمْ فِيمَا لَا يُخَالِفُ كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَيَنْقُلُونَ رِوَايَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ . فَصَارَ يَعْسُرُ تَمْيِيزُ الْمُخَالِفِ مِنَ الْمُوَافِقِ إِلَّا عَلَى أَسَاطِينِ الْعُلَمَاءِ الْوَاسِعِي الِاطِّلَاعِ عَلَى السُّنَّةِ ، الَّذِينَ يَفْهَمُونَهَا وَيَفْهَمُونَ الْقُرْآنَ حَقَّ الْفَهْمِ . وَكُلَّمَا قَلَّ هَؤُلَاءِ فِي الْأُمَّةِ كَثُرَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ كُلَّ مَا ذُكِرَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ وَالْمَوَاعِظِ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ بِالتَّسْلِيمِ ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ " ذَلِكَ

(57/266)

بِأَنَّهُمْ قَدْ حَرَّفُوا . وَزَادُوا وَنَقَصُوا . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ إِنَّهُمْ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَلَا نُصَدِّقُ رِوَايَاتِهِمْ لِئَلَّا تَكُونَ مِمَّا حَرَّفُوهُ أَوْ زَادُوهُ ، وَلَا نُكَذِّبُهَا لِئَلَّا تَكُونَ مِمَّا أُوتُوهُ فَحَفِظُوهُ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُخَالِفَةً لِمَا صَحَّ عِنْدَنَا ، وَقَدْ أَكْثَرَ الرُّوَاةُ مِنَ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الرِّوَايَةِ عَنْ زَنَادِقَتِهِمْ ، وَيَقِلُّ فِي صَحِيحِ الْمَأْثُورِ عَنِ الصَّحَابَةِ مَا هُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَإِنْ رَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ كَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي تُرْوَى أَكْثَرُ أَحَادِيثِهِ عَنْعَنَةً وَأَقَلُّهَا مَا يُصَرِّحُ فِيهِ بِالسَّمَاعِ وَكَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ كِتَابٌ فِي فَنِّ التَّفْسِيرِ نَقَلَ عَنْهُ السُّيُوطِيُّ فِي الْإِتْقَانِ بَحْثًا طَوِيلًا فِي الْمُفَسِّرِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ ، وَقَالَ إنَّهُ نَفِيسٌ جِدًّا . وَمِنْهُ فَصْلٌ فِيمَا لَا يُعْلَمُ إلَّا مِنْ طَرِيقِ النَّقْلِ وَهُوَ قِسْمَانِ : مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ فِيهِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَمَا لَا يُمْكِنُ - وَهُوَ الَّذِي تَدْخُلُ فِيهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ - وَقَدْ قَالَ فِيهِ مَا نَصُّهُ : -

" فَمَا كَانَ مِنْهُ مَنْقُولًا نَقْلًا صَحِيحًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبِلَ ، وَمَا لَا بِأَنْ نُقِلَ

(58/266)

عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَكَعْبٍ وَوَهْبٍ (أَيْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَهُمَا مِنْ خِيَارِهِمْ عِنْدَ الرُّوَاةِ وَمُعْظَمُ الْخُرَافَاتِ وَالْأَكَاذِيبِ نُقِلَتْ عَنْهُمَا) وُقِفَ عَنْ تَصْدِيقِهِ وَتَكْذِيبِهِ ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ " وَكَذَا مَا نُقِلَ

عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَمَتَى اخْتَلَفَ التَّابِعُونَ لَمْ يَكُنْ بَعْضُ أَقْوَالِهِمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا نُقِلَ مِنْ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ نَقْلًا صَحِيحًا فَالنَّفْسُ إلَيْهِ أَسْكَنُ مِمَّا يُنْقَلُ عَنِ التَّابِعِينَ ؛ لِأَنَّ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ مِنْهُ أَقْوَى ؛ وَلِأَنَّ نَقْلَ الصَّحَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَقَلُّ مِنْ نَقْلِ التَّابِعِينَ ،

وَمَعَ جَزْمِ الصَّحَابِيِّ بِمَا يَقُولُهُ كَيْفَ يُقَالُ إِنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَدْ نُهُوا عَنْ تَصْدِيقِهِمْ ؟ وَأَمَّا الْقَسَمُ الَّذِي يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ فَهَذَا مَوْجُودٌ كَثِيرٌ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ . وَإِنْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ ، التَّفْسِيرُ وَالْمَلَاحِمُ وَالْمَغَازِي ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا الْمَرَاسِيلُ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 307 . 318 ﴾

(59/266)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾

كأنه قال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التي قال فيها : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً . . . ﴾ [البقرة : 30]

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم نموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهي تكفته وتضمه وتأخذه في حضنها فهي الحانية عليه وبخاصة في وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان في حالته الطيبة ، وله أخ

حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هي التي تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتداري رائحته ، أمّا أحبابه في الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تفادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنْسىَ هو اسمه ؛ فيقولون : " أين الجثة " ، ولا يقولون : " أين فلان " .

وبعد الكفن يوضع الجثمان في النعش ، ليوارى في التراب ويدمدم اللحاد عليه برجليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(60/266)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ في الدنيا ، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار ، فَمِنْ عُسْرٍ ومن يُسْر ، ومن خير ومن شر ، ومن حياةٍ ومن موت ، ومن ظَفَرٍ ومِنْ فَوْت . . . إلى غير ذلك من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 527 ﴾

(61/266)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾

التفسير : من جملة نعم الله تعالى علينا أن خلق أبانا آدم فجعله مسجوداً للملائكة فلذلك ذكر تلك القصة عقيب تذكير النعم ، ونظير هذه الآيات ما سبق في سورة البقرة ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] منع من المعصية بقوله : ﴿ كيف تكفرون ﴾ ثم علل ذلك المنع بكثرة نعمه على المكلفين وهو أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم خلق لهم ما في الأرض جميعاً من المنافع ، ثم ختم ذلك بقصة جعل آدم خليفة في الأرض مسجوداً للملائكة ،

والغرض من الكل أن التمرد والجحود لا يليق بإزاء هذه النعم الجسام . وقصة آدم وما جرى له مع إبليس ذكرها الله في سبعة مواضع : في " البقرة " وههنا وفي " الحجر " وفي " سبحان " وفي " الكهف " وفي " طه " وفي " ص " وسنبين بعض حكمة اختلاف العبارات بقدر الفهم إن شاء الله تعالى . وههنا سؤال وهو أن قوله : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا ﴾ يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلقنا وتصويرنا والأمر في الواقع بالعكس . وأجاب المفسرون بوجوه منها : أن المضاف محذوف أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر ثم صورنا أباكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا . وإنما حسن هذه الكناية لأن آدم عليه السلام أصل البشر نظير قوله لبني إسرائيل المعاصرين ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ﴾ [البقرة : 63] أي ميثاق أسلافكم . وقال صلى الله عليه وسلم : ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل . وإنما قتله أحدهم . ومنها أن المراد من خلقناكم آدم ثم صورناكم أي صورنا ذرية آدم في ظهره في صورة الذر ثم قلنا للملائكة وهذا قول مجاهد . ومنها خلقناكم ثم صورناكم ثم نخبركم أنا قلنا للملائكة . ومنها أن الخلق في اللغة التقدير وتقدير الله تعالى عبارة عن علمه بالأشياء ومشيئته بتخصيص كل شيء بمقداره المعين له .

فقوله : ﴿ خلقناكم ﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر في هذا العالم . وقوله : ﴿ صورناكم ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورهم كما أنه أثبت صور كل كائن كما جاء في الخبر " اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة " . ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له . قال الإمام فخر الدين رضي الله عنه . وهذا التأويل عندي أقرب الوجوه في تأويل هذه الآية . وأما أن إبليس هل هو من الملائكة أم لا فقد تقدم في أوائل سورة البقرة فلا وجه لإعادته . أما قوله سبحانه . ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ فظاهره يقتضي أنه تعالى طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود وليس الأمر كذلك فإن المقصود طلب ما منعه من السجود كما قال في سورة ص ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ [ص : 75] فلهذا الإشكال حصل للمفسرين رضي الله عنهم أقوال أوّلها وهو الأشهر : أن " لا صلة " زائدة كما في ﴿ لا أقسم ﴾ [القيامة : 1] وكما في قوله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : 29] أي ليعلم وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين . قال في الكشاف : وفائدة زيادتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل في ﴿ لئلا يعلم ﴾ ليتحقق علم أهل الكتاب ، وفي ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك . قلت : لعله أراد أن زيادة " لا " إشارة إلى نفي ما عدا المذكور ليلزم منه تحقق المذكور . وثانيها أن إثبات الزيادة

في كلام الله تعالى خارج عن الأدب وأن الاستفهام للإنكار أي لم يمنعك من ترك السجود شيء كقول القائل لمن ضربه ظلماً : ما الذي منعك من ضربي أدينك أم عقلك أم حياؤك ؟ والمعنى أنه لم يوجد أحد هذه فما امتنعت من ضربي . وثالثها قال القاضي : ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعي فكأنه قال : ما دعاك إلى أن لا تسجد لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها . وقيل : الممنوع من الشيء مضطر إلى خلاف ما

(64/266)

منع منه . وقيل : معناه ما الذي جعلك في منعة من عذابي ؟ وقيل : معناه من قال لك لا تسجد . وأقول : يمكن أن لا يعلق قوله : ﴿ أن لا تسجد ﴾ بقوله : ﴿ ما منعك ﴾ وإنما يكون متعلقه محذوفاً التقدير : ما منعك من السجود أن لا تسجد أي لئلا تسجد توجه عليك هذا السؤال . والحاصل أن عدم سجودك ما سببه ؟ ﴿ إذ أمرتك ﴾ أمر إيجاب . وفائدة هذا السؤال من علام الغيوب توبيخه وإفشاء معاندته وجحوده . واستدل العلماء بالآية على أن مجرد الأمر يقتضي الوجوب وإلا لم يترتب الذم عليه ، وأن الأمر يقتضي الفور وإلا لم يستوجب الذم بترك السجود في الحال .

(65/266)

ثم استأنف اللعين قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم زعماً منه أن مثله مستبعد أن يؤمر بما أمر به وتلك الخيرية هي التي منعته عن السجود فقال : ﴿ أنا خير منه ﴾ ثم بين هذه المقدمة بقوله ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ والنار أفضل من الطين لأن النار جوهر مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السموات ملاصق لها ، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن الأجرام اللطيفة كلها ، وأيضاً النار قوية التأثير والفعل ، والأرض ليس فيها إلا القبول والانفعال والفعل أشرف من الانفعال . وأيضاً النار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة والنضج وأما الأرضية فللبرد واليبس تناسب الموت والحياة أشرف من الموت . وأيضاً فما بين التمييز والشباب لما كان وقت كمال الحرارة كانت أفضل أوقات عمر الحيوان بخلاف وقت الشيخوخة لغلبة البرد واليبس المناسب للأرضية والمخلوق من الأفضل أفضل لأن شرف الأصل يوجب شرف الفرع . وأما أن الأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون فما قد تقرر في العقول فهذه شبهة إبليس والمقدمات بأسرها ممنوعة ، أما أن النار أفضل من الأرض فممنوع لأن كل عنصر من العناصر الأربعة يختص بفوائد ليست لغيره ، وكل منها ضروري في الوجود وفي التركيب فلكل فضيلة في مقامه وحاله فترجيح بعضها على البعض تطويل بلا طائل . ومن تأمل ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ [البقرة : 22

] وقف على بعض منافعها وعلم أن طعن اللعين مردود جداً . ولو لم يكن في النار إلا الخفة المقتضية للطيش والاستكبار والترفع وفي الأرض إلا الرزانة الموجبة للحلم والوقار والتواضع لكفى به رداً لكلامه ، وأما أن المخلوق من الأفضل أفضل فهو محل البحث والنزاع لأن الفضيلة عطية من الله تعالى ابتداء ولا يلزم من فضيلة المادة فضيلة الصورة ، فقد يخرج الكافر من المؤمن ويحصل الدخان من النار والتكليف يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال

(66/266)

العقل . فالاعتبار بما انتهى إليه لا بما خلق منه وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ائتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم " ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] وفي قوله : ﴿ أنا خير منه ﴾ باطلة . ولئن سلم فلم لا يجوز خدمة الفاضل للمفضول تواضعاً وإسقاطاً لحق النفس ؟ ولم لا يجوز الأمر بذلك لغرض الطاعة والامتثال أو لتشريف المفضول والرفع من مقداره ؟ قالت العلماء ههنا : إن قوله تعالى للملائكة ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ خطاب عام يتناول جميع الملائكة : ثم إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس فاستوجب الذم والتعنيف والدخول في جملة المتكبرين على الله فدل ذلك على أنه

لا يجوز تخصيص عموم النص بالقياس ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس أنه كانت الطاعة بإبليس أولى من القياس فعصى ربه وقاس .

(67/266)

وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه ، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله تعالى مع إبليس . ويمكن أن يجاب بأنه إنما استحق الذم لأن قياسه كان مبطلاً للنص بالكلية لا مخصصاً . وتقريره أنه لو قبح أمر من كان مخلوقاً من النار بسجوده لمن كان مخلوقاً من الأرض لكان قبح أمر من كان مخلوقاً من النور المحض بسجوده لما هو مخلوق من الأرض أولى . ويحتمل أن يزيد هذا الجواب بأن الشريف إذا رضي بتلك الخدمة فلا اعتراض عليه وحينئذٍ لا يقبح أمره بذلك . ثم إن الملائكة رضوا بذلك فلا بأس ، وأما إبليس فإنه لم يرض بإسقاط هذا الحق فقبح أمره بالسجود ، فقياسه يوجب تخصيص النص لا رفعه بالكلية فعلمنا أن استحقاق الذم إنما كان لتخصيص النص بالقياس كما ادعينا . ﴿ قال ﴾ أي الله تعالى كلام تعنيف وتعذيب لا إكرام وتشريف أو قال على لسان بعض ملائكته ﴿ فاهبط ﴾ يعني إذ لم تمتثل أمري فاهبط ﴿ منها ﴾ . قال ابن عباس : يريد من الجنة وكانوا في جنة عدن وفيها خلق آدم . وقال بعض المعتزلة : أمر بالهبوط من السماء التي هي مكان

المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين ﴿ فما يكون ﴾ فما يصح ﴿ لك أن تتكبر فيها ﴾ وتعصي ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ من أهل الصغار والهوان . يقال للرجل قم صاغراً إذا أهين . وفي ضده قم راشداً ، قال الزجاج : إن إبليس طلب التكبر فابتلاه الله بالذلة والصغار كما قال النبي صلى الله عليه وآله : " من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله " ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ طلب الإنظار من الله تعالى إلى وقت البعث وهو وقت النفخة الثانية حين يقوم الناس لرب العالمين ، ومقصوده أنه لا يذوق الموت فلم يعطه الله تعالى ذلك بل ﴿ قال ﴾ مطلقاً ﴿ إنك من المنظرين ﴾ قيل : إن هذا المطلق مقيد بقوله في موضع آخر ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ [ص : 81] أي اليوم الذي يموت الأحياء كلهم فيه وهو وقت النفخة الأولى ، وقال

(68/266)

آخرون : لم يوقت الله تعالى له أجلاً . والمراد الوقت المعلوم في علم الله تعالى والدليل على ذلك أن إبليس كان مكلفاً والمكلف لا يجوز أن يعلم أجله لأنه يقدم على المعصية بقلب فارغ حتى إذا قرب أجله تاب فيقبل توبته وهذا كالإغراء على المعاصي فيكون قبيحاً . أجاب

الأولون بأن من علم الله تعالى من حاله أنه يموت على الطهارة والعصمة كالأنبياء أو على الكفر والمعاصي كإبليس فإن إعلامه بوقت أجله لا يكون إغراء على المعصية لأنه لا يتفاوت حاله بسبب ذلك التعريف والإعلام ﴿ قال فبما أغويتني ﴾ الإغواء ضد الإرشاد وأصل الغي الفساد ومنه غوى الفصيل إذا بشم والبشم فساد يعرض في جوفه من كثرة شرب اللبن .

(69/266)

ولا يمكن أن يتعلق الباء بقوله : ﴿ لأقعدن ﴾ لأن لام القسم تأبى ذلك . لا يقال : والله يريد لأمرنّ . لأن حكم القسم وما يتلوه حكم همزة الاستفهام وحرف النفي الذي هو ما وهي تعمل من حيث المعنى لا من حيث اللفظ فكأنها عوامل ضعيفة فلم يتقدم عليها شيء من معمولاتها لضعفها . وإنما يتعلق بفعل القسم المحذوف و" ما " مصدرية تقديره : فبما أغويتني أي فبسبب إغوائك إياي أقسم . ويجوز أن تكون الباء للقسم أي فأقسم بإغوائك لأقعدن . ومعنى القسم بالإغواء أنه من جلمة آثار القدرة أي بقدرتك عليّ ونفاذ سلطانك في لأقعدن . وقال في الكشاف : إن الأمر بالسجود كان سبب إغوائه وهو تكليف والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضاً لسعادة الأبد فكان جديراً بأن يقسم به

وهذا يناسب أصول الاعتزال . قال مشايخ العراق : الحلف بصفات الذات كالقدرة والعظمة والجلال والعزة يمين ، والحلف بصفات الفعل كالرحمة والغضب لا يكون يميناً . ويعني بصفات الفعل ما يجوز أن يوصف بضده فيقال : رحم فلاناً ولم يرحم فلاناً وغضب ولم يغضب . وقال بعضهم : ما للاستفهام كأنه قيل : بأي شيء أغويتني ثم ابتدأ فقال : ﴿ لأقعدن ﴾ ويرد على هذا القول أن إثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على " ما " الاستفهامية قليل . قيل : إن إبليس أضاف الإغواء ههنا إلى الله وفي قوله : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ [ص : 82] أضاف الإغواء إلى نفسه والأول يدل على الجبر والثاني على القدر ، وهذا دليل على أنه كان متحيراً في هذه المسألة . أجابت المعتزلة عن قوله : ﴿ فبما إغويتني ﴾ بأن قول إبليس واعتقاده ليس بحجة أو المراد أنه تعالى لما أمره بالسجود لآدم فعند ذلك ظهر منه كفر فلهذا المعنى أضاف الغي إلى الله . وقد يقال : لا تحملني على ضربك أي لا تفعل ما أضربك عنده ، أو المراد بالإغواء الإهلاك واللعن . وقالت الأشاعرة : نحن لا نبالغ في أن المراد بالإغواء ههنا هو الإضلال لأن حاصله كيفما كان يرجع إلى حكاية قول إبليس

وهو ليس بحجة إلا أنا نقطع بأن الغاوي لا بد له من مغوٍ وليس ذلك نفسه لأن العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية والدور أو التسلسل محال فلا بد أن ينتهي إلى خالق الكل وهو المقصود . أما قوله : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ فانتصابه على الظرف كقوله :

لدن بهز الكف يعسل متنه . . . فيه كما عسل الطريق الثعلب

قال الزجاج : هو كقولهم ضرب زيداً الظهر والبطن أي على الظهر والبطن . والمراد لأعترضن لهم أي لبني آدم المذكورين في قوله : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ﴾ على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة ، والحاصل أنه يواظب على الإفساد بالوسوسة مواظبة لا يفتر عنه ولهذا ذكر العقود لأن من أراد المبالغة في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود .

(71/266)

والعم أن العلماء اختلفوا في أن كفر إبليس كفر عناد أو كفر جهل . فمن قائل بالأول لقوله : ﴿ صراطك المستقيم ﴾ وصراط الله المستقيم هو دينه الحق . ومن قائل بالثاني لقوله : ﴿ فبما أغويتني ﴾ فدل ذلك على أنه اعتقد أن الذي هو عليه محض الغواية ، وإنما وصف الصراط بالمستقيم بناء على زعم الخصم واعتقاده ورد بأنه متى علم أن مذهبه

ضلال وغوايه فقد علم أن ضدّه هو الحق فكان إنكاره إنكار اللسان لا القلب وهو المعنى بكفر العناد ، ويمكن أن يجاب بأنه أراد بالإغواء أيضاً الإغواء بزعم الخصم ، قالت الأشاعرة : في الآية دلالة على أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دنيه ولا في دنياه وإلا لم يمهل إبليس حين استمهله مع علمه بالمفاسد والغوائل المترتبة على ذلك ، ومما يؤيد ذلك أنه بعث الأنبياء دعاة للخلق إلى الحق وعلم من حال إبليس أنه لا يدعو إلا إلى الكفر والضلال ، ثم إنه أمات الأنبياء وأبقى إبليس ومن كان يريد مصالح العباد امتنع منه أن يفعل ذلك . قال الجبائي في دفع هذا الاعتراض . إنه لا يختلف الحال بسبب وجوده وعدمه ولا يضل بقوله أحد بل إنما يضل من لو فرضنا عدم إبليس لكان يضل أيضاً بدليل قوله تعالى : ﴿ فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم ﴾ [الصافات : 162] ولأنه لو ضل به أحد لكان بقاؤه مفسدة . وقال أبو هاشم : يجوز أن يضل به قوم ويكون خلقه جارياً مجرى زيادة الشهوة فإن هذه الزيادة من المشقة توجب الزيادة في الثواب .

وضعف قول الجبائي بأنا نعلم بالضرورة أن الإنسان إذا جلس عنده جلساء السوء وحسنوا في عينه أمراً من الأمور مرة بعد أخرى فإنه لا يكون حاله في الإقدام على ذلك الفعل كحاله إذا لم يوجد هذا التحسين فكذا الشيطان المزين للقبائح في قلوب الكفار والفساق . وزيف قول أبي هاشم بأن خلق الزيادة في الشهوة حجة أخرى لنا في أنه تعالى لا يراعي المصلحة ، وتقرير الحجة أن خلق تلك الزيادة يوقع في الكفر

وعقاب الأب ولو احترز عن تلك الشهوة فغايته أن يزداد ثوابه وحصول هذه الزيادة شيء لا حاجة إليه والأهم رفع العقاب لا تحصيل زيادة الثواب . فلو كان إله العالم مراعياً لمصالح العباد لم يهمل الأهم لطلب الزيادة التي لا ضرورة إليها . أما ذكر الجهات الأربع ففيه وجوه أحدها ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي أشككهم في صحة البعث والقيامة ﴿ ومن خلفهم ﴾ ألقي إليهم أن الدنيا قديمة أزلية . وثانيها من بين أيديهم أنفرهم عن الرغبة في سعادات الآخرة ، ومن خلفهم أقوي رغبتهم في لذات الدنيا وطيباتها ؛ فالآخرة بين أيديهم لأنهم يردون عليها ويصلون إليها ، والدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها ، وثالثها قول الحكم والسدي ﴿ من بين أيديهم ﴾ يعني الدنيا لأنهم بين يدي الإنسان وإنه يشاهدها ﴿ ومن خلفهم ﴾ الآخرة لأنها تأتي بعد ذلك .

وأما قوله : ﴿ وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ فقيل : ﴿ عن أيمانهم ﴾ في الكفر والبدعة ﴿ وعن شمائلهم ﴾ في أنواع المعاصي . وقيل : ﴿ عن أيمانهم ﴾ في الصرف عن الحق ﴿ وعن شمائلهم ﴾ في الترغيب في الباطل . وقيل : ﴿ عن أيمانهم ﴾ افترهم عن الحسنات ﴿ وعن شمائلهم ﴾ أقوي دواعيهم إلى السيئات قال ابن الأنباري : وهذا قول حسن لأن العرب تقول اجعلني عن يمينك أي من المقدمين ولا تجعلني عن شمالك أي من المؤخرين . وعن الأصمعي هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة وبالشمال للعكس . وقال حكماء الإسلام : إن في البدن قوى أربعاً هي الموجبة لفوات السعادات الروحانية : إحداها القوة الخيالية التي يجتمع فيها مثل المحسوسات وموضعها البطن المقدم من الدماغ وإليها الإشارة بقوله : ﴿ من بين أيديهم ﴾ وثانيتها القوّة الوهمية التي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات ومحلها البطن المؤخر من الدماغ وهو قوله : ﴿ ومن خلفهم ﴾ وثالثتها الشهوة ومحلها الكبد التي عن يمين البدن . ورابعتها الغضب ومنشؤه القلب الذي هو في الشق الأيسر . فالشياطين الخارجة ما لم تستعن بشيء من هذه القوى الأربع لم تقدر على إلقاء الوسوسة . وقيل : ﴿ من بين أيديهم ﴾ الشبهات المبنية على التشبيه إما في الذات أو في الصفات كشبه المجسمة وإما في الأفعال كشبه المعتزلة في التعديل والتجويز والتحسين والتقبيح لأن الإنسان يشاهد هذه الجسمانيات فهي بين يديه ويحضر منه فيعتقد أن الغائب مثل الشاهد ﴿ ومن خلفهم ﴾ شبهات أهل التعطيل لأن

هذه بإزاء الأولى ، ﴿ وعن إيمانهم ﴾ الترغيب في ترك المأمورات ﴿ وعن شمائلهم ﴾ الترغيب في فعل المنهيات . وعن شقيق رضي الله عنه ما من صباح إلاّ ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع إما من بين يدي فيقول لا تخف إن الله غفور رحيم فأقرأ ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ [طه : 82] وإما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر فأقرأ ﴿ وما من دابة في الأرض

(74/266)

إلا على الله رزقها ﴾ [هود : 6] وإما من يميني فيأتيني من قبل النساء فأقرأ ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : 128] وإما من شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ [سبأ : 54] وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه قعد له بطريق الإسلام . فقال له : تدع دين آبائك فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له تدع ديارك وتتغرب فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك فعصاه فقاتل " وعلى هذا فالقعود في الطريق والرصد من الجهات مثل الوسوسة إليهم وتسويله بكل ما يمكنه ويتيسر له كقوله :

(75/266)

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ [الإسراء : 64] وبقي ههنا بحث وهو أنه تعالى كيف قال : ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ بحرف الابتداء ﴿ وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ بحرف المجاورة ؟ قال في الكشاف : وقد تختلف حروف الظروف كما تختلف حروف التعدية على حسب السماع . يقال : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، فمعنى " على " أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه ، ومعنى " عن " أنه جليس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له ، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره ونظيره في المفعول به " رميت السهم عن القوس وعلى القوس ومن القوس " لأن السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدىء الرمي منها ، وكذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه بمعنى في لأنهما ظرفان للفعل ، ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول : جئته من الليل تريد بعض الليل ، وقال بعض المفسرين : خص اليمين والشمال بكلمة " عن " لأنها تفيد البعد والمباينة وعلى جهتي اليمين والشمال ملكان لقوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ [ق : 17] والشيطان لا بد أن يتباعد عن الملك ولا كذلك حال القدام والخلف . وقالت الحكماء ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ هما الوهم والخيال كما مر والناشىء منهما العقائد الباطلة والكفر ﴿ وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ الشهوة

والغضب والناشىء منهما الأفعال الشهوية والغضبية . وضرر الكفر لازم لأن عقابه دائم وضرر المعاصي مفارق لأن عذابها منقطع فلهذا السبب خص هذين القسمين بكلمة " عن " تنبيهاً على أنهما في اللزوم والاتصال دون القسم الأول . وإنما اقتصر على الجهات الأربع ولم يذكر الفوق والتحت لأن القوى التي منها يتولد ما يوجب تفويت السعادات الروحانية هي هذه الموضوعة في الجوانب الأربعة من البدن ، وأما في الظاهر فقد روي أن الشيطان لما قال هذا الكلام رقت قلوب الملائكة على البشر فقالوا :

(76/266)

يا إلهنا كيف يتخلص الإنسان من الشيطان مع استيلائه عليه من الجهات ؟ فأوحى الله تعالى إليهم أنه قد بقي للإنسان جهتا الفوق والتحت فإذا رفع يديه إلى فوق بالدعاء على سبيل الخضوع أو وضع جبهته على الأرض بطريقة الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة . قال القاضي : هذا القول من إبليس كالدلالة على أن لا يمكنه أن يدخل في بدن ابن آدم ويخالطه لأنه لو أمكنه ذلك لكان بأن يذكره في باب المغالبة أحق . قلت : هذا منافٍ لما في الحديث " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " أما قوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين

﴿ فسئل أنه من باب الغيب فكيف عرف ؟ وأجاب بعضهم بأنه كان قد رآه في اللوح المحفوظ فقال على سبيل القطع واليقين .

(77/266)

وقال آخرون : إنه قال على سبيل الظن لأنه كان عازماً على المبالغة في تزيين الشهوات وتحسين الطيبات فغلب على ظنه أنهم يقبلون قوله : ولقد صدقه الله تعالى في ذلك الظن حيث قال : ﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه ﴾ [سبأ : 20] ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] . وقيل : إن للنفس تسع عشرة قوة : الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب والقوى السبع الكامنة وهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، وهي بأسرها تدعو النفس إلى عالم الجسم . وأما التي تدعوها إلى عالم الأرواح فقوة واحدة وهي العقل ، ولا شك أن استيلاء تسع عشرة قوة أكثر من استيلاء واحدة لا سيما وهي في أول الخلقة تكون قوية ، والعقل يكون ضعيفاً وهي بعد قوتها يعسر جعلها ضعيفة مرجوحة فلذلك قطع بقوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ ﴿ قال ﴾ الله تعالى في جوابه إذا كان هذا عزمك ﴿ اخرج منها مذؤماً مدحوراً ﴾ الذام العيب والذأم يهمز ولا يهمز ، والدحر الطرد والإبعاد وفي المثل : لا تعدم الحسناء

ذاماً . واللام في ﴿ لمن تبعك ﴾ موطئة للقسم و ﴿ لأملأن ﴾ جوابه وهو ساد مسد جواب الشرط . وعن عصام ﴿ لمن تبعك ﴾ بكسر اللام بمعنى لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله : ﴿ لأملأن جهنم ﴾ فغلب ضمير المخاطب كما في قوله : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ [الأعراف : 138] أي إنكم وإنهم على هذا . فقوله : ﴿ لأملأن ﴾ في محل الابتداء ﴿ ولمن تبعك ﴾ خبره . قال القاضي : كما أن الكافر يتبعه كذلك الفاسق يتبعه فلذلك يجب القطع بدخول الفاسق النار . وأجيب بشرط عدم العفو . قوله : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ الآية . فيها من المسائل أن قوله : ﴿ اسكن ﴾ أمر تعبد أو أمر إباحة من حيث إنه لا مشقة فيه فلا يتعلق به التكليف . وأن زوج آدم هي حواء وأن تلك الجنة كانت جنة الخلد أو جنة من جنان السماء أو جنة من جنان الأرض . وأن قوله ﴿ وكلا ﴾ أمر إباحة لا أمر تكليف . وأن قوله : ﴿ ولا تقربا

(78/266)

﴾ نهي تنزيه أو نهي تحريم وأن الشجرة المشار إليها شجرة واحدة بالشخص أو بالنوع وإنها أيّ شجرة كانت . وأن ذلك الذنب كان صغيراً أو كبيراً . وأن الظلم في قوله : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ بأي معنى هو ؟ وأن هذه الواقعة وقعت قبل نبوة آدم أو بعدها ؟

ونحن قد قضينا الوطر عن جميعها في سورة البقرة فلا حاجة إلى الإعادة ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ الوسوسة حديث النفس وهو فعل غير متعد كولولت المرأة ووعوع الذئب والمصدر الوسواس أيضاً بكسر الواو والوسواس بالفتح الاسم كالزلزال . ويوصل إلى المفعول باللام وبإلى . فمعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ومعنى وسوس إليه ألقاها إليه أي تكلم معه كلاماً خفياً يكرره ﴿ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ﴾ قيل : اللام لام العاقبة لأن الشيطان لم يقصد بالوسوسة ظهر عورتهما وإنما آل أمرهما إلى ذلك ، وقيل : لام الغرض وبدو العورة كناية عن زوال الحرمة وسقوط الجاه الذي كان غرضه ، أو لعله رأى في اللوح المحفوظ أو سمع من الملائكة أنه إذا أكل من الشجرة بدت عورته وفي ذلك سقوط حشمته .

(79/266)

وقوله : ﴿ ووري ﴾ مجهول وارى أي ستر والسوءة فرج الرجل والمرأة . ثم بيّن وسوسة إبليس بأنه ﴿ قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ أي إلا كراهة أن تكونا ملكين إلى قوله : ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ . سؤال : كيف يطمع إبليس آدم في أن يكون ملكاً عند الأكل من الشجرة مع أنه شاهد الملائكة ساجدين معترفين بفضله ؟

والجواب بعد تسليم أن هذه الواقعة كانت بعد النبوة وبعد سجود الملائكة له ، أن هذا أحد ما يدل على أن الملائكة الذين سجدوا لآدم هم ملائكة الأرض أما ملائكة السموات وملائكة العرش والكرسي والملائكة المقربون فما سجدوا ألبته لآدم وإلا كان هذا التطميع فاسداً . وربما يجاب بأنه أراد أنه يصير مثل الملك في البقاء والدوام وزيف بلزوم التكرار من قوله : ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ . قال الواحدي : كان ابن عباس يقرأ ﴿ ملكين ﴾ بكسر اللام كأن الملعون أتاهما من جهة الملك كقوله : ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ [طه : 120] واعترض بأنه لا نزاع في هذه القراءة الشاذة وإنما النزاع في القراءة المشهورة . ويمكن أن يجاب بأن آدم لعله رغب في أن يصير من الملائكة في القدرة والقوة والبطش والخلقة بأن يصير جوهراً نورانياً مقره العرش والكرسي . نقل أن عمرو بن عبيد قال للحسن : إن آدم وحواء هل صدّقاه في قوله ؟ فقال الحسن : معاذ الله لو صدّقاه لكانا من الكافرين . أراد الحسن أن تصديق الخلود يوجب إنكار البعث والقيامة وإنه كفر . ويمكن أن يقال : لو أراد بالخلود طول المكث لم يلزم التكفير ، ولو سلم أن الخلود مفسر بالدوام فلا نسلم أن اعتقاد الدوام من آدم يوجب الكفر لأن العلم بالموت ثم البعث يتوقف على السمع ولعل ذلك الدليل السمعي لم يصل إلى آدم وقتئذٍ . ثم إن المحققين اتفقوا على أن التصديق لم يوجد من آدم لا قطعاً ولا ظناً وإنما أقدما على الأكل لغلبة الشهوة كما نجد من أنفسنا عند الشهوة أن نقدم على الفعل إذا زين لنا

(80/266)

الغير ما نشتهيه وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال . ثم إن بعضهم زعم أن الترغيب كان في مجموع الأمرين كونهما ملكين وكونهما خالدين والظاهر أنه على طريقة التخيير . سؤال : المقاسمة من الجانبين فكيف يتصور التقاسم بين آدم وإبليس ؟ والجواب كأنه قال لهما : أقسم بالله إني لكما ناصح وقالا له : نقسم بالله إنك إن صدقت ناصح . أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها ، أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة لأنه اجتهد فيها اجتهاد المقاسم ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أي أوقعهما فيما أراد من تغرير ، وأصله أن الرجل العطشان يدلي رجليه في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه .

(81/266)

وقيل : أي جرأهما على أكل الشجرة من قولهم : فلان يدل على أقرانه في الحرب كالبازي يدل على صيده . قال ابن عباس : غرهما باليمين . وكان آدم يظن أن لا يحلف أحد بالله

كاذباً . وعن ابن عمر أنه كان إذا رأى من بعض عبيده طاعة وحسن صلاة أعتقه فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له . ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ فيه دلالة على أنهما تناولا اليسير قصداً إلى معرفة طعمه ولولا أنه ذكر في آية أخرى ﴿ فأكلا منها ﴾ [طه : 121] لم يدل على الأكل لأن الذوق قد يكون من غير أكل . ﴿ بدت لهما سوآتهما ﴾ ظهرت عوراتهما أي عورتاهما مثل ﴿ صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] مكان قلباكما ﴿ وطفقا يخصفان ﴾ أخذا في الفعل وهو الخصف ، ويستعمل طفق بمعنى كاد . قال الزجاج : أي يجعلان ورقة على ورقة ليستترا بهما كما تخصف النعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور . والورق التين وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة ؟ ﴿ ألم أنهكما ﴾ عتاب من الله وتوبيخ وباقي الآيات مفسر في سورة البقرة . عن ثابت البناني : لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها : خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك . فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وتراً وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له ولحدوا ودفنوه بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنيه : هذه سنتكم بعده .

وقد بقي علينا من التفسير أسرار المتشابهات الواقعة في هذه القصة فلنفرغ لها . قوله : ﴿ ما منعك ﴾ وفي ص ﴿ يا إبليس ما منعك ﴾ [الآية : 75] وفي الحجر ﴿ يا إبليس ما

لك ﴾ [الآية : 32] حذف المنادى في هذه السورة لأن مضي ذكره هنا أقرب فلم يحتج إلى إعادة اسم اللعين بالنداء .

(82/266)

قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ وفي ص ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ [الآية : 75] جمع بين لفظ المنع ولفظ " لا " في هذه السورة لأنه لما حذف النداء زاد لفظة " لا " زيادة في النفي وإعلاماً بأن المخاطب به إبليس . وإن شئت قلت : جمع في السورة بين ما في " ص " وما في " الحجر " فقال : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ و ﴿ مالك أن لا تسجد ﴾ وحذف ﴿ أن تسجد ﴾ وحذف ﴿ مالك ﴾ لدلالة الحال ودلالة السورتين عليه فبقي ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ .

قوله : ﴿ أنا خير منه ﴾ الآية في ص مثله كلاهما في جواب ﴿ ما منعك ﴾ ظاهر إلا أنه زاد في الحجر لفظ الكون فقال :

﴿ لم أكن لأسجد ﴾ [الآية : 33] ليكون مطابقاً للسؤال حيث قيل : ما لك أن لا تكون مع الساجدين .

قوله : ﴿ أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ وفي ص وفي الحجر ﴿ رب فانظرني ﴾ [الآية : 36]

لأنه لما اقتصر في السؤال على الخطاب دون صريح الاسم اقتصر ههنا أيضاً على الخطاب دون ذكر المنادى بخلاف السورتين . وأما زيادة الفاء في السورتين دون هذه السورة فلأن داعية الفاء ما تضمنه النداء من أدعو وأنادي نحو قوله : ﴿ ربنا فاغفر ﴾ [آل عمران : 193] أي أدعوك فاغفر . فلما حذف النداء في هذه السورة تركت الفاء . وكذلك من قوله : ﴿ إنك من المنظرين ﴾ ليطابق الجواب السؤال .

قوله : ﴿ فبما أغويتني ﴾ وفي الحجر ﴿ رب بما أغويتني ﴾ [الآية : 39] بزيادة النداء ليوافق ما قبله . وزاد في هذه السورة الفاء وكذا في " ص " ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ [الآية : 82] لزيادة الربط . ولم يمكن دخول الفاء في " رب " لامتناع النداء منه لأن ذلك يقع مع السؤال والطلب .

﴿ قال اخرج منها مذؤماً ﴾ ليس في القرآن غيره وإنما اختص هذا الموضع بذلك لأن اللعين بالغ في العزم على الإغواء فقال : ﴿ لأقعدن لهم ﴾ إلى آخره فبالغ الله جل وعلا في ذمه إذ الذام أشد الذم .

(83/266)

قوله : ﴿ فكلا ﴾ بالفاء وفي البقرة ﴿ وكلا ﴾ [الآية : 35] لأن اسكن ههنا من السكنى التي معناها اتخاذ الموضع مسكناً وهذا لا يستدعى زماناً ممتداً يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه بل يقع الأكل عقيبه ، وفي البقرة من السكون الذي يراد به الإقامة فلم يصلح إلا بالواو فإن المعنى أجمعا بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها ولو كان بالفاء لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة . وإنما زاد في البقرة ﴿ رغداً ﴾ لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله : ﴿ وقلنا ﴾ قال بعض الأفاضل في الجواب عن هذه المسائل : إن اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها كان اختلافها واتفاقها سواء إذا أدى المعنى المقصود . وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤنة السهر إلى السحر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 206. 217 ﴾

(84/266)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾

أي حلف لهما فقال : أقسم قساماً أي حلف ، ومنه قول الشاعر :

وقاسمهما بالله جهداً لأنتما . . . ألذّ من السلوى إذا ما نشورها

وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدلّ على المشاركة ، فقد جاءت كثيراً لغير ذلك .

وقد قدّمنا تحقيق هذا في المائدة ، والمراد بها هنا المبالغة في صدور الأقسام لهما من إبليس .

وقيل : إنهما أقسما له بالقبول ، كما أقسم لهما على المناصحة ، قوله : ﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾ التدلية والإدلاء : إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ، يقال أدلى دلوه : أرسلها ، والمعنى : أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة .

وقيل معناه : أوقعهما في الهلاك .

وقيل : خدعهما ، وأنشد نفطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعته . . . وترى اللئيم مجرباً لا يخدع

وقيل معنى : ﴿ دلاهما ﴾ دللهما من الدالة ، وهي الجرأة ، أي جرأهما على المعصية ، فخرجا من الجنة .

قوله : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سوآتِهما ﴾ أي لما طعماها ظهرت لهما عوراتهما ، بسبب زوال ما كان ساتراً لهما ، وهو تقلص النور الذي كان عليها .

وقد تقدّم في البقرة ، قوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ طفق يفعل كذا ، بمعنى شرع يفعل كذا .

وحكى الأخفش : طفق يطفق مثل ضرب يضرب أي شرعا أو جعلا يخصفان عليهما .

قرأ الحسن "يخصفان" بكسر الخاء وتشديد الصاد ، والأصل يختصفان ، فأدغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء .

وقرأ الزهري "يخصفان" من أخصف .

وقرأ الجمهور ﴿ يخصفان ﴾ من خصف .

(85/266)

والمعنى : أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها ، من خصف النعل : إذا جعله طبقة فوق طبقة ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ قائلاً لهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة ﴾ التي نهيتكما عن أكلها ، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ ، حيث لم يحذرا ما حذرهما منه ﴿ وَأَقُل لَّكُمَا ﴾ معطوف على ﴿ أنهكما ﴾ ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي مظهر للعداوة .

قوله : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قالا ؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب ، وأنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة

، ثم قالا : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ .

وجملة ﴿ قَالَ اهبطوا ﴾ استئناف كالتي قبلها ، والخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو لهما ولإبليس ، وجملة ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ في محل نصب على الحال ﴿ وَلَكُمْ فِى الأرض مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي موضع استقرار ولكم ﴿ متاع ﴾ تتمتعون به في الدنيا ، وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما ﴿ إلى حِينٍ ﴾ أي إلى وقت ، وهو وقت موتكم .

وجملة ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ استئنافية كالتي قبلها ، أي في الأرض تحيون ، وفيها يأتيكم الموت ، ومنها تخرجون إلى دار الآخرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ [طه : 55] واعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع إليه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب ، في قوله : ﴿ فدلاهما بِغُرُورٍ ﴾ قال : مناهما بغرور .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي شيبة ، عن عكرمة قال : لباس كل دابة منها ، ولباس الإنسان الظفر ، فأدركت آدم التوبة عند ظفره .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر ، عن ابن عباس ، قال : كان لباس آدم وحواء كالظفر ، فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ قال : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سوآتهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال ، فبقي في أطراف أصابعه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، نحوه من طريق أخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أنس بن مالك ، قال : كان لباس آدم في الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ قال : يرقعان كهيئة الثوب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة ﴾ قال آدم : ربّ إنه حلف لي بك ، ولم أكن أعلم أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صادقاً ،

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ الآية قال : هي الكلمات

التي تلقى آدم من ربه .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(87/266)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾

من هنا تبدأ الرحلة الكبرى . . تبدأ بتمهيد عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض ، كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً .

﴿ ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلاً ما تشكرون ﴾ :

إن خالق الأرض وخالق الناس ، هو الذي مكن لهذا الجنس البشري في الأرض . هو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته وتعوله ، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش . .

هو الذي جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ، ودورتها حول الشمس ، وميلها على محورها ، وسرعة دورتها . . إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس عليها ، وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته ، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً . . وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض ، قادراً على تطويعها واستخدامها ؛ بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته .

ولولا تمكين الله للإنسان في الأرض بهذا وذلك ، ما استطاع هذا المخلوق الضعيف القوة أن " يقهر الطبيعة " كما يعبر أهل الجاهلية قديماً وحديثاً ! ولا كان بقوته الذاتية قادراً على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة !

(88/266)

إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هي التي تطبع تصورات الجاهلية الحديثة . . هي التي تصور الكون عدواً للإنسان وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته ؛ وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى – بجهده وحده – وتصور كل تعرف إلى النواميس

الكونية ، وكل تسخير لها " قهراً للطبيعة " في المعركة بينها وبين الجنس الإنساني !

إنها تصورات سخيفة ، فوق أنها تصورات خبيثة !

لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان ، عدوة له ، تتربص به ، وتعاكس اتجاهه ، وليس وراءها إرادة مدبرة – كما يزعمون – ما نشأ هذا الإنسان أصلاً ! وإلا فكيف كان ينشأ ؟ كيف ينشأ في كون معاد بلا إرادة وراءه ؟ ولما استطاع المضي في الحياة على فرض أنه وجد ! وإلا فكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ؟ وهي – بزعمهم – التي تصرف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها ؟

إن التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق . . إن الله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي خلق الإنسان . وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان ، وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته . . . وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه . ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة !

وفي ظل هذا التصور يعيش " الإنسان " في كون مأنوس صديق ؛ وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة .

. يعيش مطمئن القلب ، مستروح النفس ، ثابت الخطو ، ينهض بالخلافة عن الله في الأرض

في اطمئنان الواثق بأنه معانٌ على الخلافة ؛ ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ؛ ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود ؛ وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته ؛ وتيسر له قدراً جديداً من الرقي والراحة والمتاع .

(89/266)

إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه . . على العكس ، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة . . إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل عليه بأسراره ، ولا يمنع عنه مدده وعونه . . وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله !

إن مأساة " الوجودية " الكبرى هي هذا التصور النكد الخبيث . . تصور الوجود الكوني – بل الوجود الجماعي للبشرية ذاتها – معاكساً في طبيعته للوجود الفردي الإنساني ، متجهاً بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنساني ! إنه تصور بائس لا بد أن ينشئ حالة من الانزواء والانكماش والعدمية ! أو ينشئ حالة من الاستهتار والتمرد والفردية ! وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضني ! والبؤس النفسي والعقلي ، والشرود في التيه : تيه التمرد ، أو تيه العدم . . وهما سواء . .

وهي ليست مأساة " الوجودية " وحدها من مذاهب الفكر الأوربي . إنها مأساة الفكر الأوربي كله – بكل مذاهبه واتجاهاته – بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها ، المأساة التي يضع الإسلام حداً لها بعقيدته الشاملة ، التي تنشئ في الإدراك البشري تصوراً صحيحاً لهذا الوجود ، وما وراءه من قوة مدبرة .

إن " الإنسان " هو ابن هذه الأرض ؛ وهو ابن هذا الكون . لقد أنشأه الله من هذه الأرض ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش ، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها ؛ وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان ، تساعده – حين يتعرف إليها على بصيرة – وتيسر حياته . .

ولكن الناس قليلاً ما يشكرون . . ذلك أنهم في جاهليتهم لا يعلمون . . وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر ، وأنى لهم الوفاء ؟ لولا أن الله يقبل منهم ما يطيقون : وهؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ .

(90/266)

بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة . . تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب ، في رحاب الملأ الأعلى . . يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم ؛ زيادة في الحفاوة والتكريم . وتحتشد له الملائكة – وفي زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس – وتشهده السماوات والأرض ؛ وما خلق الله من شيء . . إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود :

﴿ ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

قال : ما منعك ألَّا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين .

قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين . قال : أنظرني إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ . .

هذا هو المشهد الأول . . وهو مشهد مثير . . ومشهد خطير . . ونحن نؤثر استعراض مشاهد هذه القصة ابتداء ؛ ونرجئ التعليق عليها ، واستلهام إيحاءاتها إلى أن نفرغ من استعراضها . .

﴿ ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

(91/266)

إن الخلق قد يكون معناه : الإنشاء . والتصوير قد يكون معناه : إعطاء الصورة والخصائص . . وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان . . فإن ﴿ ثم ﴾ قد لا تكون للترتيب الزمني ، ولكن للترقي المعنوي . والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود . فالوجود يكون للمادة الخامة ؛ ولكن التصوير – بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص – يكون درجة أرقى من درجات الوجود . فكأنه قال : إننا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية . وذلك كقوله تعالى : ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فإن كل شيء أعطي خصائصه ووظائفه وهُدِي إلى أدائها عند خلقه . ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها . والمعنى لا يختلف إذا كان معنى " هَدى " : هداه إلى ربه . فإنه هُدي إلى ربه عند خلقه . وكذلك آدم صور وأعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه . . " وثم " . . للترقي في الرتبة ، لا للتراخي في الزمن . كما نرجح .

وعلى أية حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام ، وفي نشأة الجنس البشري ، ترجح أَن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحباً لخلقه . وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترقياً في " وجود " الإنسان . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان – كما تقول الداروينية .

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً – بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء – هو مجرد نظرية " ظنية " وليست " يقينية " لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظناً ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها !

(92/266)

على أنه – على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور – ليس هناك ما يمنع من وجود " أنواع " من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض ؛ بفعل الظروف السائدة في الأرض ، ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها ، ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة .

ولكن هذا لا " يحتم " أن يكون بعضها " متطوراً " من بعض . . وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا . . لا تستطيع أن تثبت – في يقين مقطوع به – أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية – وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها – ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً . . وهذا يمكن تعليله كما قلنا . . بأن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع . فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ . ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض .

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة ، في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع ، وهذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية .

وتفرد " الإنسان " من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية . هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون – وفيهم الملحدون بالله كلية – للاعتراف به ، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية ، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي ! على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنساني ؛ في حفل حافل من الملأ الأعلى :

﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا . إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ . .

والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم ؛ لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم – وقد أجملنا ما علمنا الله من أمرهم في موضع سابق من هذه الظلال – وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائكة . لقوله تعالى : ﴿ إن إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ والجن خلق غير الملائكة ، لا نعلم عنه كذلك إلا ما نبأنا الله من أمره – وقد أجملنا ما أنبأنا الله به من أمرهم في موضع من هذا الجزء أيضاً – وسيأتي في هذه السورة أن إبليس خلق من نار . فهو من غير الملائكة قطعاً . وإن كان قد أمر بالسجود لآدم في زمرة الملائكة . في ذلك الحفل العظيم الذي أعلن فيه الملك الجليل ، ميلاد هذا الكائن الفريد . .

فأما الملائكة – وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله ، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي تفكير . . هذه طبيعتهم ، وهذه خصائصهم : وهذه وظيفتهم . . وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله .

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله – سبحانه – وعصاه . وسنعلم : ما الذي حاك في

صدره ، وما التصور الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه . وهو يعرف أنه ربه وخالقه ، ومالك أمره وأمر الوجود كله ؛ لا يشك في شيء من هذا كله !

وكذلك نجد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق . ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت . . وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشرية . وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجيء . فأما الطبيعة الأولى فهي خالصة لله ، وقد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق . وأما الطبيعتان الأخريان ، فسنعرف كيف تتجهان .

﴿ قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ﴾ .

(94/266)

لقد جعل إبليس له رأياً مع النص . وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر . . وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر ؛ وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ . . وهذا إبليس – لعنه الله – لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا

بإذنه وقدره . . ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه . . بمنطق من عند نفسه :

﴿ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ . .

فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه :

﴿ قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ . .

إن علمه بالله لم ينفعه ، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه . . وكذلك كل من يتلقى أمر الله ؛ ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه ؛ وحاكمية في قضية قضى الله فيها من قبل ؛ يرد بها قضاء الله في هذه القضية . . إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد . فإبليس لم يكن ينقصه العلم ، ولم يكن ينقصه الاعتقاد !

لقد طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وحقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الصغار . ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم . ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمحضت فيه :

﴿ قال : أنظرني إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . .

فهو الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المطلق على الغواية . . وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى . . شر ليس عارضاً ولا وقتياً . إنما هو الشر الأصيل

العامد القاصد العنيد . .

ثم هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية ، في مشاهد شاخصة حية :

لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث .

(95/266)

وهو يعلم أن هذا الذي يطلبه لا يقع إلاّ بإرادة الله وقدره . ولقد أجابه الله إلى طلبه في الإنظار ، ولكن إلى ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ كما جاء في السورة الأخرى . وقد وردت الروايات : أنه يوم النفخة الأولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض – إلا من شاء الله – لا يوم يبعثون . .

وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث – وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل – أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبجحه ؛ بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه الله ، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده ! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه :

﴿ . . . لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ . .

إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه – والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً ، فالله سبحانه جل عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدي إلى رضى الله – وإنه سيأتي البشر من كل جهة : ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة . . وهو مشهد حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه ، اللهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب :

﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . .

ويجيء ذكر الشكر ، تنسيقاً مع ما سبق في مطلع السورة : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ . . لبيان السبب في قلة الشكر ، وكشف الدافع الحقيقي الخفي ، من حيلولة إبليس دونه ، وقعوده على الطريق إليه ! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدى ؛ وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين !

(96/266)

لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه . لأن مشيئة الله – سبحانه – اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه ؛ بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر ؛ وبما وهبه من عقل

مرجح ؛ وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدي الرسل ؛ ومن الضبط والتقويم بهذا الدين . كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ؛ وأن يصطرع في كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهي إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله – سبحانه – لإبليس – عليه اللعنة – في إبعاده هذا الأخير ، كما صرح بإجابته في إنظاره . إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه . طرده مذموماً مقهوراً ، وإبعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر ويضل معه :

﴿ قال : اخرج منها مذؤوماً مدحوراً .

لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ . .

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته ، ثم في رفض حاكمية الله وقضائه ، وادعاء أن له الحق في إعادة النظر في أوامر الله ، وفي تحكيم منطقه هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها . . كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلاً . . وهذا وذلك كلاهما اتباع للشيطان ؛ جزاؤه جهنم مع الشيطان !

لقد جعل الله – سبحانه – لإبليس وقبيله فرصة الإغواء . وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء ، الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن ؛ وتجعله به خلقاً

متفرداً في خصائصه ، لا هو ملك ولا هو شيطان . لأن له دوراً آخر في هذا الكون ، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان .

وينتهي هذا المشهد ، ليتلوه مشهد آخر في السياق :

(97/266)

ينظر الله – سبحانه – بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة – إلى آدم وزوجه . . وهنا فقط نعرف أن له زوجاً من جنسه ، لا ندري كيف جاءت . فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء . وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها ، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه ، فصارا زوجين اثنين ؛ والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة . وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء يمكث طويلاً بعد خلق آدم ، وأنه تم على نفس الطريقة التي تم بها خلق آدم . .

على أية حال يتجه الخطاب إلى آدم وزوجه ، ليعهد إليهما ربهما بأمره في حياتهما ؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسي ، الذي خلق الله له هذا الكائن . وهو دور

الخلافة في الأرض - كما صرح بذلك في آية البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين ﴾ . .

ويسكت القرآن عن تحديد ﴿ هذه الشجرة ﴾ . لأن تحديد جنسها لا يريد شيئاً في حكمة حظرها . مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود . . لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ؛ وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته ؛ ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هي خاصية " الإنسان " التي يفترق بها عن الحيوان ، ويتحقق بها فيه معنى " الإنسان " .

والآن يبدأ إبليس يؤدي دوره الذي تمحض له . .

(98/266)

إن هذا الكائن المتفرد ؛ الذي كرمه الله كل هذا التكريم ؛ والذي أعلن ميلاده في الملأ الأعلى في ذلك الحفل المهيب ؛ والذي أسجد له الملائكة فسجدوا ؛ والذي أخرج بسببه إبليس من الجنة وطرده من الملأ الأعلى . . إن هذا الكائن مزدوج الطبيعة ؛ مستعد

للاتجاهين على السواء . وفيه نقط ضعف معينة يقاد منها – ما لم يلتزم بأمر الله فيها – ومن هذه النقطة تمكن إصابته ، ويمكن الدخول إليه . . إن له شهوات معينة . . ومن شهواته يمكن أن يقاد !

وراح إبليس يداعب هذه الشهوات :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ؛ وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ . .

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم ؛ لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله ، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه . ولكننا نعلم – بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب – أن إغواء على الشر يقع في صورة من الصور ؛ وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات . وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان . وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر ؛ حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر ؛ وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير . .

وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما . . فهذا كان هدفه . . لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها – وسنعلم من

السياق أنها سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية ، فكأنها عوراتهما – ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال ! إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة :

﴿ وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ . .

(99/266)

بذلك داعب رغائب " الإنسان " الكامنة . . إنه يحب أن يكون خالداً لا يموت أو معمراً أجلاً طويلاً . كالخلود ! ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد . .

وفي قراءة : ﴿ ملكين ﴾ بكسر اللام . وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه : ﴿ هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال : إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل – وعلى قراءة ﴿ ملكين ﴾ بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود . . ولكن القراءة الأولى – وإن لم تكن هي المشهورة – أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر ، ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصيلة .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ؛ وأن هذا النهي له ثقله في نفوسهما وقوته ؛ فقد استعان على زعزعته – إلى جانب مداعبة شهواتهما – بتأمينهما من هذه الناحية ؛ فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح ، وفي نصحه صادق :

﴿ وقاسمهما : إني لكما لمن الناصحين ﴾ .

. !

ونسي آدم وزوجه – تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر – أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير ! وأن الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذي لا يبلى فلن ينالاه !

نسيا هذا كله ، واندفعا يستجيبان للإغراء !

﴿ فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ﴾ . .

لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة . لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته ، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا :

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ !

ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت ، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما . فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه في بعض ﴿ يخصفان ﴾ ويضعان هذا الورق المشبك على سوآتهما - مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعريها ، ولا يتعرى ويتكشف إلا بفساد في هذه الفطرة من صنع الجاهلية !

﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ﴾ . .

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة . . أما كيف كان النداء وكيف سمعاه ، فهو كما خاطبهما أول مرة . وكما خاطب الملائكة . وكما خاطب إبليس . كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع . وأن الله يفعل ما يشاء .

وأمام النداء العلوي يتكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد . . إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً . . ولكنه يدرك خطأه ؛ ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة . . إنه يثوب ويتوب ؛ ولا يلح كالشيطان في المعصية ، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية !

﴿ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ . .

إنها خصيصة " الإنسان " التي تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه . . الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف ، والاستعانة به ، وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته . . وإلا كان من الخاسرين . .

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت . وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى . وعرفها هو وذاقها . واستعد – بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة – لمزاولة اختصاصه في الخلافة ؛ وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه . .

﴿ قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ﴾ . .

(101/266)

وهبطوا جميعاً . . هبطوا إلى هذه الأرض . . ولكن أين كانوا ؟ أين هي الجنة ؟ . . هذا من الغيب الذي ليس عندنا من نبأ عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتح الغيب وحده . . وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة . وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و" علمهم " الظني هو تبجح ، فهذا " العلم " يتجاوز مجاله

حين يحاول الخوض في هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة . ويتبجح حين ينفي الغيب كله ، والغيب محيط به في كل جانب ، والمجهول في " المادة " التي هي مجاله أكثر كثيراً من المعلومات !

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض . . آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً . وليعادي بعضهم بعضاً ؛ ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين : إحداهما ممحضة للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ؛ وليتم الابتلاء ، ويجري قدر الله بما شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض ؛ ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين . وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ؛ ثم يخرجوا منها فيبعثوا . . ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره ، في نهاية الرحلة الكبرى . .

وانتهت الجولة الأولى لتتبعها جولات وجولات ، ينتصر فيها الإنسان ما عاذ بربه . وينهزم فيها ما تولى عدوه .

وبعد فإنها ليست قصة ! إنما هو عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته ، والعوالم المحيطة به ، والقدر الذي يصرف حياته ، والمنهج الذي يرضاه الله له ، والابتلاء الذي يصادفه ، والمصير الذي ينتظره . . وكلها حقائق تشارك في تقرير " مقومات التصور الإسلامي " . .

وسنحاول أن نلم بها بقدر ما يسمح منهج الظلال ، ونبقي تفصيلاتها للبحث المتخصص عن " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " . .

(102/266)

---

* إن الحقيقة الأولى التي نستلهمها من قصة النشأة الإنسانية ، هي – كما قلنا من قبل – التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنساني . والتقدير الإلهي المحيط بالكون والإنسان ؛ والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لا فلتة عارضة ، كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة .

والذين لا يعرفون الله سبحانه ، ولا يقدرونه حق قدره ، يقيسون أقداره وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة . فإذا نظروا فوجدوا الكائن الإنساني مخلوقاً من مخلوقات هذه الأرض . ووجدوا هذه الأرض ذرة صغيرة كالهباءة في خضم الكون . قالوا : إنه ليس من " المعقول " ! أن يكون وراء نشأة هذا الإنسان قصد ؛ فوق أن يكون لهذا الإنسان شأن في نظام الكون ! وزعم بعضهم أن وجوده كان فلتة ، وأن الكون من حوله معادٍ لنشأته ونشأة الحياة جملة ! . . وإن هي إلا تخرصات منشؤها قياس أقدار الله وأفعاله بمقاييس البشر الصغيرة !

وحقاً لو كان الإنسان هو الذي له هذا الملك الهائل ما عني بهذه الأرض ، ولا بمثل هذا الكائن يدب عليها ! لأن اهتمام الإنسان لا يتسع للعناية بكل شيء في مثل هذا الملك الهائل ؛ ولا بتقدير كل شيء فيه وتدبيره ، والتنسيق بين جميع الأشياء فيه .

. غير أن الله – سبحانه – هو الله ! هو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . هو صاحب هذا الملك الكبير الذي لا يقوم شيء منه إلا برعايته ؛ كما أنه لم يوجد منه شيء إلا بمشيئته . . إنما آفة هذا الإنسان ، حين ينحرف عن هدى الله ويستقل بهواه – ولو كان يسميه علماً ! – أن ينسى أنه الله . ويتصوره – سبحانه – على هواه ! ويقيس أقداره وأفعاله بمقاييس الإنسان الصغيرة ! ثم يتبجح فيملي هواه هذا على الحقيقة !

(103/266)

يقول سير جيمس جينز – كمثل على التصورات البشرية الضالة الكثيرة – في كتاب : " الكون الغامض " : " ونحن إذ نقف على أرضنا – تلك الحبيبة الرملية المتناهية في الصغر – نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن ، وعن الغرض من وجوده ، نحس في أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع . وكيف لا يكون الكون مخيفاً مرعباً ، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها ؟ وقد مرت عليه أحقاب طويلة لا

يمكن تصورها ؟ ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان حتى يبدو وكأنه لمح البصر ؟ . . وهو مخيف مرعب لما نشعر به من وحدة مرهوبة ، وما نعلمه من ضآلة موطننا في الفضاء . ذلك الموطن الذي لا يزيد على جزء من مليون جزء من إحدى حبيبات الرمال التي في بحار العالم ؟ . . ولكن أخوف ما يُخاف العالم من أجله : أنه لا يُعنى – كما يلوح – بحياة مثل حياتنا . وكأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته . وقد يكون من الحق أن نقول : إن بينه وبين حياة كحياتنا عداء قوياً . ذلك بأن الفضاء في أكثر أجزائه بارد إلى حد تتجمد فيه كل أنواع الحياة . . كما أن أكثر المادة التي في الفضاء تبلغ من الحرارة حداً يجعل الحياة فيه مستحيلة ؛ وأن الفضاء تذرعه إشعاعات مختلفة الأنواع ، لا تنفك تصدم ما فيه من أجرام فلكية ؛ وقد يكون كثير من هذه الإشعاعات معادياً للحياة أو مبيداً لها .

" هذا هو الكون الذي ألقت بنا فيه الظروف . وإذا لم يكن حقاً أن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه . فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بحق أنه مصادفة ! " .

(104/266)

وقد بينا من قبل أن افتراض عداء الكون لنشأة الحياة مع افتراض عدم وجود تقدير وتدبير من قوة مهيمنة . . ثم وجود الحياة بعد ذلك فعلاً . . أمور لا يتصورها عقل عاقل ! فضلاً على أن يكون عقل عالم ! وإلا فكيف أمكن ظهور الحياة في الكون المعادي لها مع افتراض عدم وجود قوة مهيمنة مقدّرة ! هل الحياة أقوى من الكون بحيث تظهر رغم أنفه ؟ ! ورغم عدائه لها بطبيعة تكوينه ؟ ! هل هذا الكائن الإنساني مثلاً – قبل أن ينشأ – أقوى من هذا الكون الموجود فعلاً ، ومن ثم طلع هكذا في الكون ، وأنف الكون راغم ؟ !

إنها تصورات لا تستحق عناء النظر ! ولو أن هؤلاء " العلماء " يكتفون بأن يقولوا لنا فقط ما تصل إليه وسائلهم من وصف الموجودات ، دون أن يدخلوا في أمثال هذه التخرصات " الميتافيزيقية " التي لا تستند على أساس ، لأدوا دورهم – ولو ناقصاً – في تعريف الناس بالكون من حولهم ! ولكنهم يتجاوزون دائرة المعرفة المأمونة إلى تيه الفروض والظنون ، بلا دليل إلا الهوى الإنساني الصغير !

ونحن – بحمد الله وبهداه – ننظر إلى هذا الكون الهائل فلا نشعر بالذعر والهلع الذي يقول عنه سير جيمس جينز ! إنما نشعر بالرهبة والإجلال لبارئ هذا الكون ؛ ونشعر بالعظمة والجمال المتجليين في خلقه ؛ ونشعر بالطمأنينة والأنس ، لهذا الكون الصديق ، الذي أنشأه الله وأنشأنا فيه عن توافق وتنسيق .

. وتروعنا ضخامته كما تروعنا دقته ؛ ولكننا لا نفزع ولا نجزع ، ولا نشعر بالضياع ، ولا

نتوقع الهلاك . . فإن ربنا وربه الله . . ونتعامل معه في يسر ومودة وأنس وثقة ؛ ونتوقع أن نجد فيه أرزاقنا وأقواتنا ومعايشنا ومتاعنا . . ونرجو أن نكون من الشاكرين :

﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش . قليلاً ما تشكرون ﴾ . .

(105/266)

---

* والحقيقة الثانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية : هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية ؛ وضخامة دوره المنوط به ؛ وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ؛ وتنوع العوالم التي يتعامل معها – في حدود عبوديته لله وحده – مما يتناقض تماماً مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون ، حيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية . ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان ولا يكاد يحفل خصائصه الإنسانية المتميزة ؛ أو مذهب التحليل النفسي الفرويدي الذي يصوره غارقاً في وحل الجنس حتى ما يتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه ! . . إلا أن هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد ، لا تجعل من الإنسان " إلهاً " كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول . إنما هو الحق والاعتدال في التصور الإسلامي السليم .

لقد أُعلن ميلاد هذا الكائن المتفرد ، الذي نرجح من مجموعة النصوص القرآنية – ولا نجزم

- أن نشأته كانت مستقلة - أعلن هذا الميلاد في حفل كوني كان شهوده الملأ الأعلى .

وأعلن ميلاده الجليل العظيم في هذا الملأ وفي الوجود كله . . وفي الآية الأخرى في سورة البقرة أنه أعلن كذلك خلافته في الأرض منذ خلقه ؛ وكان الابتلاء الأول له في الجنة تمهيداً وإعداداً لهذه الخلافة .

كما تعلن الآيات القرآنية في سور متعددة ، أن الله جعل هذا الكون - لا الأرض وحدها - عوناً له في هذه الخلافة . وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . .

وكذلك تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئه له . فإن عمارة كوكب وسيادته بخلافة الله فيه - أياً كان حجم هذا الكوكب - إنها لأمر عظيم !

(106/266)

والذي يتضح من القصة ومن مجموعة النصوص القرآنية أنه كذلك خلق متفرد لا في الأرض وحدها ، ولكن في الكون كله . فالعوالم الأخرى من ملائكة وجن وما لا يعلمه إلا الله من الخلق ؛ لها وظائف أخرى ، كما أنها خلقت من طبائع أخرى تناسب هذه الوظائف .

وتفرد الإنسان وحده بخصائصه هذه ووظائفه . يدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها

الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ وإذن فهو متفرد في الكون كله بخصائص . . ومنها الظلم والجهل ! إلى جانب الاختيار النسبي والاستعداد للمعرفة المترقية ، والإرادة الذاتية . والمقدرة على العدل والعلم ، بقدر المقدرة على الظلم والجهل ! . . فهذا الازدواج ذاته هو ميزته التي تفرده .

كل أولئك يلغي تلك النظرة للإنسان القائمة على صغر حجم الكوكب الذي يعيش عليه ؛ بالقياس إلى أحجام الكون الهائلة . فالحجم ليس هو كل شيء . وخصيصة العقل القابل للمعرفة ، والإرادة القابلة للاستقلال – في حدود العبودية لله – والاختيار والترجيح الذاتي . . كل أولئك يفوق في قيمته ، الحجم الذي يقيم عليه سير جيمس جينز وأمثاله نظرتهم إلى قيمة الإنسان ودوره .

هذه الأهمية التي تخلعها القصة ومجموع النصوص القرآنية على هذا الكائن الإنساني لا تقتصر على دوره في خلافة الأرض ، بهذه الخصائص المتفردة ؛ ولكن صورتها تكمل بتأمل الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ، والعوالم التي يتعامل معها .

إنه يتعامل تعاملاً مباشراً مع ربه الجليل سبحانه ! هو الذي أنشأه بيده ، وأعلن ميلاده في الملأ الأعلى وفي الوجود كله بنطقه ، وخوله الجنة يأكل منها حيث يشاء – إلا الشجرة المحظورة – ثم خوله خلافة الأرض بعد ذلك بأمره ؛ وعلمه أساس المعرفة – كما في آية البقرة ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ وهو ما نرجح أنه القدرة على الرمز باللفظ والاسم للمدلول والمسمى ، وهو القاعدة التي يقوم عليها إمكان تبادل المعرفة وتعميمها في الجنس كله – كما قلنا في سورة البقرة – وأوصاه وصيته في الجنة وبعدها ، وأودعه الاستعدادات الخاصة التي تفرد جنسه بخصائصه ، وأرسل له الرسل – منه – بهداه ؛ وكتب على نفسه الرحمة أن يقيل عثرته ويقبل توبته . . إلى آخر نعمة الله على هذا الكائن المتفرد في الكون كله .

ثم هو يتعامل مع الملأ الأعلى . . أسجد الله له الملائكة ، وجعل منهم حفظة عليه ، كما جعل منهم من يبلغ الرسل وحيه ، وأنزلهم على الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا يثبتونهم ويبشرونهم ، وعلى المجاهدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشرونهم كذلك ، وسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم ويستلون أرواحهم منهم في تأنيب وتعذيب .

. إلى آخر ما بين الملائكة والإنسان من تعامل . في الدنيا وفي الآخرة كذلك .

ويتعامل مع الجن : صالحيهم وشياطينهم . . وقد شهدنا منذ لحظات تشخيص المعركة الأولى بينه وبين الشيطان . وهي معركة ممتدة إلى يوم الوقت المعلوم . كما أن تعامله مع

صالحي الجن مذكور في نصوص قرآنية أخرى . وتسخير الجن أحياناً له ثابت كما في قصة سليمان عليه السلام .

(108/266)

كذلك هو يتعامل مع هذا الكون المادي – وبخاصة الأرض والكواكب والنجوم القريبة منها – وهو الخليفة في هذه الأرض عن الله ؛ المسخرة له قواها وطاقاتها وأرزاقها ومدخراتها ، وعنده الاستعداد اللدني لفتح بعض مغاليق أسرارها ، والتعرف إلى بعض نواميسها التي تعينه معرفتها على أداء دوره العظيم . . ومن ثم يتعامل كذلك مع جميع الأحياء فيها . .

وأخيراً فإنه بازدواج طبيعته واستعداداته يتحرك في مجال بعيد الآماد من نفسه ذاتها ! إنه يعرج إلى السماوات العلى ويتجاوز مراتب الملائكة ، حين يخلص عبوديته لله ويترقى فيها إلى منتهاها . كما أنه يهبط إلى ما دون مستوى البهيمة حين يتخذ إلهه هواه ويتخلى عن خصائص " إنسانيته " ويتمرغ في الوحل الحيواني . . وبين هذين المجالين أبعاد أضخم مما بين السماوات والأرض في عالم الحس وأبعد مدى !

وليس هذا كله لغير الإنسان كما تلهمه هذه القصة وبقية النصوص الأخرى . .

* والحقيقة الثالثة : أن هذا الكائن – على كل تفرده هذا أو بسبب تفرده هذا – ضعيف

في بعض جوانب تكوينه ، حتى ليمكن قيادته إلى الشر والارتكاس إلى الدرك الأسفل ، من خطام شهواته . . وفي أولها ضعفه تجاه حبِّ البقاء ، وضعفه تجاه حب الملك . . وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله ، ويستسلم لهواه ، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه ، في جهد ناصب ، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل !

وقد اقتضت رحمة الله به – من ثم – ألا يتركه لفطرته وحدها ، ولا لعقله وحده ، وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير – كما سيجيء في آية تالية في معرض التعقيب على القصة – وهذه هي صخرة النجاة بالنسبة له . . . النجاة من شهواته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله . والنجاة من عدوه الذي يخنس ويتوارى عند ذكره لربه ، وتذكر رحمته وغضبه ، وثوابه وعقابه . .

(109/266)

وهذه كلها مقويات لإرادته ، حتى يستعلي على ضعفه وشهواته . . وقد كان أول تدريب له في الجنة هو فرض " المحظور " عليه ؛ لتقوية هذه الإرادة ، وإبرازها في مواجهة الإغراء والضعف . وإذا كان قد فشل في التجربة الأولى ، فقد كانت هذه التجربة رصيداً له فيما

سيأتي !

ومن رحمة الله به كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحاً له في كل لحظة .

فإذا نسي ثم تذكر ؛ وإذا عثر ثم نهض ؛ وإذا غوى ثم تاب . . وجد الباب مفتوحاً له ، وقبل الله توبته ، وأقال عثرته . فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات ، وضاعف له ما شاء . ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته . فليست هنالك خطيئة أبدية . وليست هنالك خطيئة موروثة – ولا تزر وازرة وزر أخرى .

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية ؛ والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من الأساطير والخرافات . . خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب ! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان (المسيح) ويصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة ؛ ومن ثم يكتب (الغفران) لمن يتحد بالمسيح الذي كفر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشرية !

إن الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير . لقد نسي آدم وأخطأ . . ولقد تاب واستغفر . . ولقد قبل الله توبته وغفر له . . وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى . ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري في صراعه الطويل المدى . .

أية بساطة ! وأي وضوح ! وأي يسر في هذه العقيدة !

* والحقيقة الرابعة : هي جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها ، واستمرارها وضراوتها . .

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان في كل حالة ، وعلى إتيانه من كل صوب وجهة ، على اتباعه في كل ساعة ولحظة :

(110/266)

﴿ قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . .

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد ، وأن يُنظر لمزاولته على المدى الطويل . . اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته في معصيته عيانا وقد سمع أمره مواجهة ! ثم بين أنه سيقعد لهم على طريق الله لا يمكنهم من سلوكه ؛ وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه .

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة . ولا عاصم لهم منه إلا بالتقوِي بالإيمان والذكر والتقوِي على إغوائه ووسوسته ، والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى الله .

والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية . إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى . والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة . والمعركة مع الشر والفساد في الأرض الذي يقود الشيطان أولياءه إليه باتباع شريعة الله المصلحة للأرض . . والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان . فالشيطان وراءهما جميعاً !

والطواغيت التي تقوم في الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها وموازينها ، وتستبعد حاكمية الله وشرعه والقيم والموازين المنبثقة من دينه .

. إنما هي شياطين الإنس التي توحي لها شياطين الجن . والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه . وليست بعيدة عنها .

وهكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضارية في المعركة مع الشيطان ذاته . ومع أوليائه . ويشعر المسلم وهو يخوض المعركة مع هواه وشهواته ؛ وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأذنابهم ؛ وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئونه في الأرض من حولهم . . يشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها ، أنه إنما يخوض معركة واحدة جدية صارمة ضارية ، لأن عدوه فيها مصرٌّ ماض في طريقه . . وأن الجهاد – من ثم – ماض إلى يوم القيامة . في كل صوره ومجالاته .

* وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها – كما سيجيء – تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته . وهو الحياء من التعري وانكشاف سوأته :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ، ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ﴾ . .

﴿ فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ . .

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ، وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله ﴾ . . ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ وكلها توحي بأهمية هذه المسألة ، وعمقها في الفطرة البشرية . فاللباس ، وستر العورة ، زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية . كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية .

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية ، وتحرص على سترها ومواراتها . . والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس ، وتعرية النفس من التقوى ، ومن الحياء من الله ومن الناس ، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة – في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة – هم الذين يريدون سلب " الإنسان " خصائص فطرته ، وخصائص " إنسانيته " التي بها صار إنساناً . وهم

الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته !

وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة . وقد فقدت مقوماتها الإنسانية !

(112/266)

إن العري فطرة حيوانية . ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان . وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً . والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة . والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحاضرة اكتساء العراة ! فأما في الجاهلية الحديثة " التقدمية " فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها ، وينقلهم إلى مستوى " الحضارة " بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها .

والعري النفسي من الحياء والتقوى – وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام – هو النكسة والردة إلى الجاهلية . وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة الموجهة أن توسوس !

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحي بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبينها خير بيان .

والحمد لله الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية ! ! ! . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1262 . 1276 ﴾

(113/266)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولقد خلقنا ﴾ أرواحكم ﴿ ثم صورناكم ﴾ أي خلقنا لأرواحكم أجساداً كما جاء في الحديث " إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام " ولتصوير الأجساد بداية وهي قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ [الأعراف : 172] فإن لفظ الذرية يقع على المصورين ووسط ﴿ يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ [آل عمران : 6] ونهاية هي حالة الكهولية في الأغلب ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وأنتم في صلبه وهذا من التمكين أيضاً ﴿ فسجدوا ﴾ لاستعدادهم الفطري للسجود ولائتمارهم لأمر الله ﴿ إلا إبليس لم يكن ﴾ من المستعدين للسجود لما فيه من الاستكبار الناري ﴿ قال ما منعك ﴾ خطاب الامتحان لجرم إبليس ليظهر به استحقاقه اللعن فإنه لو كان ذا بصيرة لقال في الجواب منعني تقديرك وقضاؤك ولكنه كان

أعور العين اليمنى بصيراً بالعين التي رأى بها أنانيته فقال : ﴿ أنا خير منه ﴾ أي منعني خيريتي من أن أسجد لمن هو دوني ، واستدل على خيريته بأنه خلق من نار وهي علوية نورانية لطيفة وآدم خلق من طين وهو سفلي ظلماني كثيف .

(114/266)

وهذا القياس معارض بأن النار من خاصيتها الإحراق والفناء والطين من خواصه النشوء والإنماء والاستمساك الذي بقوته يصير الإنسان مستمسكاً للفيض الإلهي ونفخ الروح فيه فاستحق سجود الملائكة لأنه صار كعبة حقيقية . فلما ابتلي إبليس بالصغار وطرد من الجوار أخذ في النوح وأيس من الروح ورضي بالبعاد واطمأن بالحياة فقال : ﴿ أنظرني ﴾ فأجيب إلى ما سأل ليكون وبالاً عليه ويزي في شقوته ، ولكن لم يجبه بأن لا يذيقه ألم الموت لقوله في موضع آخر ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ [ص : 81] ﴿ قال فبما أغويتني ﴾ لم تكن حوالته الإغواء إلى الله منه نظر التوحيد وإنما كان للمعارضة والمعاندة لقوله : ﴿ لأغوينهم ﴾ [الحجر : 39] ﴿ لأقعدن ﴾ ﴿ ثم لآتينهم ﴾ من الجهات التي فيها حظوظ النفس ﴿ من بين أيديهم ﴾ من قبل الحسد على الأكابر من المشايخ والعلماء المعاصرين ﴿ ومن خلفهم ﴾ من قبل الطعن في الأكابر الأقدمين والسلف الصالحين . ﴿

وعن أيمانهم ﴾ من قبل إفساد ذات البين وإلقاء العداوة والبغضاء بين الإخوان ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من جهة ترك النصيحة مع أهاليهم وأقاربهم وترك الأمر بالمعروف مع عامة المسلمين . أو المراد ﴿ من بين أيديهم ﴾ من قبل الرياء والعجب ﴿ ومن خلفهم ﴾ من قبل الصلف والفخر ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل الادعاء وإظهار المواعيد والمواجيد ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قبل الافتراء على أنفسهم ما ليس فيها من الكشوف والأحوال . أو ﴿ من بين أيديهم ﴾ من قبل الاعتراض على الشيخ ﴿ ومن خلفهم ﴾ من قبل التفريق والإخراج عن صحبة الشيخ ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قبل ترك حشمة المشايخ ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قبل مخالفة الشيخ والرد بعد القبول . أو ﴿ من بين أيديهم ﴾ أثوّر عليهم أهاليهم وأولادهم ليمنعوهم عن طلب الحق ﴿ ومن خلفهم ﴾ أثور عليهم آباءهم وأمهاتهم ﴿ وعن أيمانهم ﴾ أثور عليهم أحباءهم ﴿ وعن شمائلهم ﴾ أثور عليهم أعداءهم وحسادهم . ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ يعني شجرة المحبة فإن

(115/266)

المحبة مطية المحنة ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ على أنفسكما لأن للمحبة ناراً ونوراً فمن لم يرد نارها لم يجد نورها ومن يرد نارها احترقت أنانيته فيبقى بلا هوية نفسه مع هوية ربه فههنا

يجد نور المحبة ويتنور به كقوله : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] فشجرة المحبة شجرة غرسها الرحمن بيده لأجل آدم كما خمر طينة آدم بيده لأجل هذه الشجرة ، وإنّ منعه منها كان تحريضاً له على تناولها فإن الإنسان حريص على ما منع . ولم تكن الشجرة طعمة لغير آدم وأولاده ﴿ إلا أن تكونا ملكين ﴾ أي من أهل السلو كملكين في زوايا الجنة ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ في الجنة كالحور والرضوان فسقاهما إبليس في كأس القسم شراب ذكر الحبيب ﴿ وقاسمهما ﴾ فلما غرقا في لجّة المحنة وذاقا شجرة المحبة ﴿ بدت لهما سوآتهما ﴾ أي سوآت نار المحبة قبل نورها وهي نار فرقة الأحبة في البداية ﴿ وطفقا ﴾ لاشتعال نائرة المحبة يجعلان كل نعيم الجنة على نارهما ، فلما التهبت احترقت بلظى نارها حبة الوصلة ونعب غراب البين بالفرقة .

فبينما نحن في لهو وفي طرب . . . بدا سحاب فراق صوبه هطل

وإن من كنت مشغوفاً بطلعته . . . مضى وأقفر منه الرسم والطلل

فالصبر مرتحل والوجد متصل . . . والدمع منهمل والقلب مشتعل

﴿ وناداهما ربهما ﴾ نداء العزة والكبرياء ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ﴾ فإنها تذل العزيز وتزيل النعيم وتذهب الطرب وتورث التعب والنصب ﴿ إن الشيطان لكما عدوّ مبين ﴾ ولكن في عداوته صداقة مخفية تظهر ولو بعد حين :

واخجلتا من وقوفي باب دارهم . . . لو قيل لي مغضباً من أنت يا رجل

فانغسل بماء الخجل منهما رعونات البشرية ولوث العجب والأنانية فرجعا عما طمعا فيه ووقفا لديه وعلما أن لا منجا ولا ملجأ منه إلا إليه فقالا ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ بأن أوقعناها في شبكة المحبة لا المحبة تبقينا بالوصال ولا المحنة تفنينا بالزوال ﴿ وإن لم تغفر لنا ﴾ بنوال الوصال ﴿ وترحمنا ﴾ بتجلي الجمال ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ الذين خسروا الدنيا والعقبى ولم يظفروا بالمولى . فأمرا بالصبر على الهجر وقيل : ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ النفس عدو القلب والروح ، والقلب عدو لما سوى الله ﴿ ولكم ﴾ للنفس والقلب والرفع في أرض البدن مقام وتمتع في الشريعة باستعمال الطريقة للوصول إلى الحقيقة إلى حين تصير النفس مطمئنة تستحق الخطاب ، ارجعي من الهبوط وارفعي بعد السقوط .

إن الأمور إذا انسدت مسالكها . . . فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة . . . إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته . . . ومدمن القرع للأبواب أن يلجا .

﴿ قال فيها ﴾ أي في المحبة ﴿ تحيون ﴾ بصدق الهمة وقرع باب العزيمة ﴿ وفيها تموتون

﴿ بطلب الحق على جادة الشريعة بإقدام الطريقة ﴾ ومنها تخرجون ﴾ إلى عالم الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 217 . 220 ﴾

(117/266)

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين فيما مضى أن موجب الإخراج من الجنة هو ما أوجب كشف السوءة من المخالفة وفرغ مما استتبعه حتى أخبره بأنه حكم بإسكاننا هذه الدار بعد تلك الدار ، شرع يحذرنا من عدونا كما حذر أبانا عليه السلام ، وبدأ بقوله بياناً لأنه أنعم علينا فيها بكل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا وإيذاناً بما في كشف العورة من الفضيحة والإبعاد عن كل خير وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى ﴿ يا بني آدم ﴾ .

ولما كان الكلام في كشف العورة ، وأن آدم عليه السلام أعوزه الساتر حتى فزع إلى الورق ، كان موضع أن يتوقع ما يكون في ذلك فقال مفتتحاً بحرف التوقع : ﴿ قد أنزلنا ﴾ أي

بعظمتنا ﴿ عليكم ﴾ من آثار بركات السماء ، إما ابتداء بخلقه وإما بإنزال أسبابه لمطر ونحوه ﴿ لباساً ﴾ أي لم يقدر عليه أبوكم في الجنة ﴿ يواري سوءاتكم ﴾ إرشاداً إلى دواء ذلك الداء وإعلاماً بأن نفس الكشف نقص لا يصلح لحضرات الكمال ، وقال :

﴿ وريشاً ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه زادنا على الساتر ما به الزينة والجمال استعارة من ريش الطائر ، محبباً فيما يبعد من الذنب ويقرب إلى حضرة الرب .

(118/266)

ولما ذكر اللباس الحسي ، وقسمه على ساتر ومزين ، أتبعه المعنوي فقال مشيراً - بقطعه في قراءة الجمهور عما قبله - إلى كمال تعظيمه حثاً عليه وندباً إليه : ﴿ ولباس التقوى ﴾ فعلم أن ساتر العورات حسي ومعنوي ، فالحسي لباس الثياب ، والمعنوي التحلي بما يبعث على المناب ؛ ثم زاد في تعظيم المنوي بقوله : ﴿ ذلك خير ﴾ أي ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب ، ولكنه فصل باسم الإشارة المقترن بإداة البعد إيماء إلى علو رتبته وحسن عاقبته لكونه أهم اللباسين لأن نزعه يكون بكشف العورة الحسية والمعنوية ، فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس وهو غير متق كان كله سوءات ، ولو كان متقياً وليس عليه إلا خريقة تواري عورته كان في غاية الجمال والستر والكمال ، بل ولو كان مكشوف العورة في

بعض الأحوال كما قال صلى الله عليه وسلم " ستر ما بين عوراتكم وأعين الجن أن يقول أحدكم إذا دخل الخلاء : بسم الله اللهم ! إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " رواه الترمذي وابن ماجه عن علي رضى الله عنه ، والذي يكاد يقطع به أن المعاصي سبب إحلال السوءة الذي منه ضعف البدن وقصر العمر حساً أو معنى بمحق البركة منه لما يفهمه ما تقدم في البقرة في بدء الخلق عن التوراة أن الله تعالى قال لآدم عليه السلام : كل من جميع أشجار الفردوس ، فأما شجرة علم الخير والشر فلا تأكل منها لأنك في اليوم الذي تأكل منها تموت موتاً تتهيأ للموت حساً ، ويقضى عليك بالاشتغال بأسباب المعيشة فيقصر عمرك معنى بذهاب بركته – والله أعلم .

ولما كان في شرع اللباس تمييز الإنسان عن بقية الحيوان وتهيئة أسبابه التي لم يجدها آدم عليه السلام في الجنة من الفضل والنعمة والدلالة على عظمة المنعم ورحمته وقدرته واختياره ما هو معلوم ، قال : ﴿ ذلك ﴾ أي إنزال اللباس ﴿ من آيات الله ﴾ أي الذي حاز صفات الكمال الدالة على فضله ورحمته لعباده ، ولعل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ – لو على أدنى وجوه التذكر بما يشير إليه الإدغام – لئلا يقول المتعنت : إن الحث على التذكر خاص بالمخاطب ويدعي أنه المسلمون فقط ، أي أنزلنا ذلك ليكون حالهم حال من يتذكر فيعرف أنه يستقبح منه ما يستقبح من غيره . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 19 . 20 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ورياشا ﴾ أبو زيد عن المفضل . الباقون ﴿ ريشاً ﴾ ﴿ ولباس ﴾ بالنصب : أبو جعفر ونافع وابن عامر وعليّ . الباقون بالرفع . ﴿ خالصة ﴾ بالرفع : نافع . الآخرون بالنصب ﴿ ربي الفواحش ﴾ مرسلة الباء : حمزة .

الوقوف : ﴿ وريشاً ﴾ ط لمن قرأ ﴿ ولباس ﴾ مرفوعاً ومن قرأ بالنصب وقف على ﴿ التقوى ﴾ ﴿ خير ﴾ ط ﴿ يذكرون ﴾ ه ﴿ سوآتهما ﴾ ط ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿ أمرنا بها ﴾ ط ﴿ بالفحشاء ﴾ ط ﴿ ما لا تعلمون ﴾ ه ﴿ الدين ﴾ ط ﴿ تعودون ﴾ ه على جواز الوصل لرد النهاية إلى البداية ﴿ الضلالة ﴾ ج ﴿ مهتدون ﴾ ه ﴿ ولا تسرفوا ﴾ ج لاحتمال الفاء أو اللام . ﴿ المسرفين ﴾ ه ﴿ من الرزق ﴾ ط ﴿ يوم القيامة ﴾ ط ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ ما لا تعلمون ﴾ ه ﴿ أجل ﴾ ج لأن جواب " إذا " منتظر مع دخول الفاء فيها ﴿ ولا يستقدمون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 221 ﴾

فصل

قال الفخر :

في نظم الآية وجهان :

الوجه الأول : أنه تعالى لما بين أنه أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض ، وجعل الأرض لهما مستقراً بين بعده أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في الدين والدنيا ، ومن جملتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا .

الوجه الثاني : أنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها ، أتبعه بأن بين أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عورتهم ، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر .

فإن قيل : ما معنى إنزال اللباس ؟

قلنا : إنه تعالى أنزل المطر ، وبالمطر تتكون الأشياء التي منها يحصل اللباس ، فصار كأنه تعالى أنزل اللباس ، وتحقيق القول أن الأشياء التي تحدث في الأرض لما كانت معلقة بالأمور النازلة من السماء صار كأنه تعالى أنزلها من السماء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الإِنعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : 25] وأما قوله : ﴿ وَرِيشًا ﴾ ففيه بحثان :

(121/266)

البحث الأول : الريش لباس الزينة ، استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته ، أي أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يواري سوآتكم ، ولباساً يزينكم ، لأن الزينة غرض صحيح كما قال : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] وقال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ [النحل : 6] .

البحث الثاني : روي عن عاصم رواية غير مشهورة ﴿ ***ورياشاً ﴾ وهو مروي أيضاً عن عثمان رضي الله عنه ، والباقون ﴿ سَوْءِتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ واختلفوا في الفرق بين الريش والرياش فقيل : رياش جمع ريش ، وكذياب وذيب ، وقداح وقدح ، وشعاب وشعب ، وقيل : هما واحد ، كلباس ولبس وجلال وجل ، روى ثعلب عن ابن الأعرابي قال : كل شيء يعيش به الإنسان من متاع أو مال أو مأكول فهو ريش ورياش ، وقال ابن السكيت : الرياش مختص بالثياب والأثاث ، والريش قد يطلق على سائر الأموال وقوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ وَلِبَاسُ ﴾ بالنصب عطفاً على قوله :

﴿لِبَاساً﴾ والعامل فيه أنزلنا وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ذلك﴾ مبتدأ وقوله : ﴿خَيْرٌ﴾ خبره والباقون بالرفع وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿وَلِبَاسُ التقوى﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ذلك﴾ صفة أو بدل أو عطف بيان وقوله خير خبر لقوله : ﴿وَلِبَاسُ التقوى﴾ ومعنى قولنا صفة أن قوله : ﴿ذلك﴾ أشير به إلى اللباس كأنه قيل ولباس التقوى المشار إليه خير .

البحث الثاني : اختلفوا في تفسير قوله : ﴿وَلِبَاسُ التقوى﴾ والضابط فيه أن منهم من حمله على نفس الملبوس ومنهم من حمله على غيره .

(122/266)

أما القول الأول : ففيه وجوه : أحدها : أن المراد أن اللباس الذي أنزله الله تعالى ليواري سوآتكم هو لباس التقوى وعلى هذا التقدير فلباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده الله لأجل أن يخبر عنه بأنه خير لأن جماعة من أهل الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت فجرى هذا في التكرير مجرى قول القائل : قد عرفتك الصدق في أبواب البر ، والصدق خير لك من غيره .

فيعيد ذكر الصدق ليخبر عنه بهذا المعنى .

وثانيها : أن المراد من لباس التقوى ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقي به في الحروب .

وثالثها : المراد من لباس التقوى الملبوسات المعدة لأجل إقامة الصلوات .

والقول الثاني : أن يحمل قوله : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ على المجازات ثم اختلفوا فقال قتادة والسدي وابن جريج : لباس التقوى الإيمان .

وقال ابن عباس : لباس التقوى العمل الصالح ، وقيل هو السمت الحسن ، وقيل هو العفاف والتوحيد ، لأن المؤمن لا تبدو عورته وإن كان عارياً من الثياب .

والفاجر لا تزال عورته مكشوفة وإن كان كاسياً ، وقال معبد هو الحياء .

وقيل هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخبات والعمل الصالح ، وإنما حملنا لفظ اللباس على هذه المجازات لأن اللباس الذي يفيد التقوى ، ليس إلا هذه الأشياء أما قوله : ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ قال أبو علي الفارسي : معنى الآية ﴿ وَلِبَاسُ التقوى . . . خَيْرٌ ﴾ لصاحبه إذا أخذ به ، وأقرب له إلى الله تعالى مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به .

قال : وأضيف اللباس إلى التقوى كما أضيف إلى الجوع في قوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ [النحل : 112] وقوله : ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ معناه من آيات الله الدالة

على فضله ورحمته على عباده يعني إنزال اللباس عليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون عظيم النعمة فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 42.44 ﴾

(123/266)

وقال السمرقندى :

﴿ يا بنى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾

يقول خلقنا لكم الثياب ﴿ يوارى سَوْءِتكُمْ ﴾ يعني يستر عوراتكم ، ويقال معناه أنزلنا عليكم المطر ينبت لكم القطن والكتَّان لباساً لكم ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ الحسن البصري ورياشاً بالألف .

وقرأ غيره وريشاً بغير ألف وقال القتبي : الريش والرياش ما ظهر من اللباس ، وريش الطائر ما ستره الله به .

ويقال : الرياش : المال والمعاش .

قال الفقيه : حدّثنا محمد بن الفضل .

قال : حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا إبراهيم بن يوسف عن أبي أمامة عن عوف بن أبي جميلة عن معبد الجهني في قوله : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ قال : هو ما تلبسون ورياشاً

قال المعاش ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ هو الحياء ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ أي لباس التقوى وهو الحياء خير من الثياب ، لأن الفاجر إنْ كان حسن الثياب فإنه بادي العورة ألا ترى إلى قول الشاعر حيث يقول :

إني كأني أرى من لا حياء له .

. . ولا أمانة وسط القوم عريانا

وقال القتبي : ﴿ لِبَاسَ التقوى ﴾ أي ما ظهر عليه من السكينة والوقار والعمل الصالح كما قال : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] أي ما ظهر عليهم من سوء آثارهم وتغيُّر حالهم .

ويقال : ﴿ لِبَاسَ التقوى ﴾ الإيمان .

ويقال : العفة .

قرأ نافع والكسائي وابن عامر ﴿ لِبَاسَ التقوى ﴾ بالنصب يعني : أنزل لباس التقوى ومعناه : ستر العورة .

وقرأ الباقون بالضم لِبَاسُ على معنى الابتداء .

ويقال : فيه مضموم يعني : هو ﴿ لِبَاسَ التقوى ﴾ ومعناه : ستر العورة أي لباسُ المتقين .

وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ خير .

وقال مجاهد : كان أناس من العرب يطوفون حول البيت عراة فنزل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يوارى سَوْءِتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ يعني : من المال .

ويقال : معنى قوله : ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ يعني : اللباس خير من تركه لأنهم كانوا يطوفون عراة .

قوله : ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ أي من نعم الله على الناس ، ويقال : من عجائب الله ودلائله .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : يتّعظون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا بني ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ أي خلقنا لكم ، وقيل : نزّلنا أسبابه وآلاته لأنه [المثبّت] بما يقول .

وقيل : [على الحكم] كبقيّة صنعته وذلك أن قريشاً كانوا يطوفون بالبيت عراة وقوله ﴿ لِبَاساً ﴾ وهو ما يُلبس من الثياب ﴿ يُوَارِي ﴾ يستر ﴿ سَوْءَاتِكُمْ ﴾ عوراتكم واحدها سوءة ، وهي فعلة من السوء سمّيت سوأة لأنّه يسوء صاحبها إنكشافها من

جسده ﴿ وَرِيشاً ﴾ يعني مالاً في قول ابن عباس والضحاك والسدي ، فقال : الريش : الرجل إذا [تموك] وقال ابن زيد : الريش الجمال .

وقيل : هو اللباس . وحكي أبو عمرو أنّ العرب تقول : أعطاني فلان ريشة أي كسوة وجهازة .

وقرأ عثمان بن عفان والحسن وأبو عبد الرحمن وأبو رجاء وقتادة : ورياشاً بالألف وهو جمع ريش مثل ذئب وذياب وبير وبيار وقَدِحَ وقداح .

قال قطرب : الريش والرياش واحد ، كقولك دبغ ودباغ ولبس ولباس وحل وحلال وحرم وحرام ، ويجوز أن يكون مصدراً من قول القائل : راشه إليه بريشه رياشاً .

والرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفراش وغيرها . وقال ابن عباس : الرياش اللباس والعيش والنعيم . وقال الأخفش : الرياش الخصبة والمعايش .

﴿ وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ قرأ أهل المدينة والشام . والكسائي ولباس التقوى بالنصب عطفاً على الريش . وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء وخبره (خير) .

(125/266)

وجعلوا ذلك صلة في الكلام ، وكذلك قرأ ابن مسعود وأُبي بن كعب : ولباس التقوى خير .

واختلفوا في لباس التقوى ما هو [هل] يدلّ على لباس التقوى [الدرع] والساعدان .

والساقان . والآلات التي يتّقى بها في الحرب مع العدو .

وقال قتادة والسدي وابن جريج : لباس التقوى هو الإيمان .

وقال معبد الجهني : هو الحياة . وأنشدني أبو القاسم [السدوسي] قال : أنشدني أبو عرابة الدوسي في معناه

إني كأني أرى من لا حيالة . . . ولا أمانة وسط الناس عُرياناً .

عطيّة عن ابن عباس : هو العمل الصالح وروى الذبال بن عمرو عن ابن عباس قال : هو السمت الحسن في الوجه .

وقال الحسن : رأيت عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قميص قوهي محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ، ثمّ قال : أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والذي نفس محمد بيده ما عمل أحدٌ قط سراً إلاّ ألبسه الله رداءه علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر " ثمّ تلا هذه الآية ﴿ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ قال : السمت الحسن .

وقال عروة بن الزبير : لباس التقوى خشية الله ، ابن زيد : ستر للعورة يتقي الله فيواري

عورته ﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ قال وهب بن منبه : الإيمان عريان لباسه التقوى وزينته الحياء وفاله [الفقه] وجماله العفّة ، وثمره العمل الصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا بَنِيَ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾

نزلت هذه الآية في قوم من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويرون أن ذلك أبلغ في الطاعة وأعظم في القربة .

وفي دخول الشبهة عليهم في ذلك وجهان :

أحدهما : أن الثياب قد دنستها المعاصي فخرجوا عنها .

والثاني : تفاؤلاً بالتعري من الذنوب فقال الله تعالى :

(126/266)

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ أي ما تلبسون من الثياب .

فإن قيل : فليس ذلك بمنزل من السماء .

فعنه جوابان :

أحدهما : أنه لما كان ينبت من المطر الذي نزل من السماء صار كالمنزل من السماء ، قاله الحسن .

والثاني : أن هذا من بركات الله ، والبركة تنسب إلى أنها تنزل من السماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ [الحديد : 25] .

ثم قال : ﴿ يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ أي يستر عوراتكم ، وسميت العورة سوأة لأنه يسوء صاحبها انكشافها .

ثم قال : ﴿ وَرِيشاً ﴾ وهذه قراءة أهل الأمصار وكان الحسن يقرأ : ﴿ وَرِيَاشاً ﴾ وفيه أربعة تأويلات :

أحدهما : أنه المعاش ، قاله معبد الجهني .

والثاني : أنه اللباس والعيش والنعيم ، قاله ابن عباس .

والثالث : أنه الجمال والزينة ، قاله ابن زيد ، ومنه قوله رؤبة :

إليك أشكو شدة المعيش . . . وجهد أعوام تنفن ريشي

يريد أذهبن جمالي وزينتي .

والرابع : أنه المال : قاله ابن الزبير ومجاهد ، قال الشاعر :

فريشي منكم وهواي معكم . . . وإن كانت زيارتكم لماما

وفي الريش والرياش وجهان :

أحدهما : أن معناهما واحد وإن اختلف لفظهما .

والوجه الثاني : أن معناهما مختلف ، فالريش ما بطن ، والرياش ما ظهر .

ثم قال : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ وفي لباس التقوى سبعة تأويلات :

أحدها : أنه الإيمان ، قاله قتادة والسدي .

الثاني : الحياة ، قاله معبد الجهني .

والثالث : أنه العمل الصالح ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنه السمت الحسن ، قاله عثمان بن عفان .

والخامس : خشية الله ، قاله عروة بن الزبير .

السادس : ستر العورة للصلاة التي هي التقوى ، قاله ابن زيد . والسابع : لبس ما يُتَّقَى به الحر والبرد ، قاله ابن بحر .

وفي قوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه راجع إلى لباس التقوى ومعنى الكلام أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس ، قاله قتادة والسدي .

(127/266)

والثاني : أنه راجع إلى جميع ما تقدم من ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عليكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءَاتِكُم وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوى ﴾ ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرته هو ﴿ خَيْرٌ ﴾ كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم ﴾ الآية ،

هذا خطاب لجميع الأمم وقت النبي عليه السلام والسبب والمراد قريش ومن كان من العرب يتعرى في طوافه بالبيت ، ذكر النقاش ثقيفاً وخزاعة وبني عامر بن صعصعة وبني مدلج وعامراً والحارث ابني عبد مناف فإنها كانت عادتهم رجالاً ونساءً ، وذلك غاية العار والعصيان ، قال مجاهد ففيهم نزلت هذه الأربع الآيات ، وقوله : ﴿ أنزلنا ﴾ يحتمل أن التدريج أي لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يلبس ، قال عن اللباس أنزلنا ، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً .

أقبل في المستن من سحابه . . . اسنمة الآبال في ربابه

(128/266)

أي بالمال ويحتمل أن يريد خلقنا فجاءت العبارة ب ﴿ أنزلنا ﴾ كقوله ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس ﴾ [الحديد : 25] وقوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] وأيضاً فخلق الله عز وجل وأفعاله إنما هي من علو في القدر والمنزلة ، و ﴿ لباساً ﴾ عام في جميع ما يلبس ، و ﴿ يوراي ﴾ يستر ، وفي حرف أبيّ " سوءاتكم وزينة ولبس التقوى " وفي مصحف ابن مسعود " ولباس التقوى خير ذلكم " ، ويروى عنه ذلك ، وسقطت " ذلك " الأولى ، وقرأ سكن النحوي " ولبوسُ التقوى " بالواو مرفوعة السين ، وقرأ الجمهور من الناس " وريشاً " وقرأ الحسن وزر بن حبيش وعاصم فيما روى عنه أبو عمرو أيضاً ، وابن عباس وأبو عبد الرحمن ومجاهد وأبو رجاء وزيد بن علي وعلي بن الحسين وقتادة " ورياشاً " ، قال أبو الفتح : وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال أبو حاتم : رواها عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهية العيش ووجود الملبس والتمتع ، وفسره قوم بالأثاث ، وفسره ابن عباس بالمال ، وكذلك قال السدي والضحاك ، وقال ابن زيد " الريش " الجمال ، وقيل " الرياش " جمع ريش كبير وبئار وذيب وذياب ولصب ولصاب وشعب وشعاب وقيل الرياش مصدر من أراشه الله يريشه إذا أنعم عليه ، والريش مصدر أيضاً من ذلك وفي الحديث " رجل راشه الله مالاً " .

قال القاضي أبو محمد : ويشبه أن هذا كله من معنى ريش الطائر وريش السهم إذ هو لباسه وسترته وعونه على النفوذ ، وراش الله مأخوذ من ذلك ، ألا ترى أنها تقرن ببرى ومن ذلك

قول الشاعر : [لعمير بن حباب]

فرشني بخير طال ما قد بريتني . . . وخير الموالي من يريش ولا يبري

(129/266)

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي " ولباسَ " بالنصب عطفاً على ما تقدم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة " ولباسُ " بالرفع فقيل هو خبر ابتداء مضمر تقديره وهو لباس ، وقيل هو مبتدأ و ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ آخر و ﴿ خير ﴾ خبر ﴿ ذلك ﴾ ، والجملة خبر الأول ، وقيل هو مبتدأ و ﴿ خير ﴾ خبره و ﴿ ذلك ﴾ بدل أو عطف بيان أو صفة ، وهذا أنبل الأقوال ذكره أبو علي في الحجة .

وقوله : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ إشارة إلى جميع ما أنزل من اللباس والريش ، وحكى النقاش أن الإشارة إلى لباس التقوى أي هو في العبد آية علامة وأمارة من الله أنه قد رضي عنه ورحمه ، و ﴿ لعلهم ﴾ ترج بحسبهم ومبلغهم من المعرفة وقال ابن جريج ﴿ لباس التقوى ﴾ الإيمان ، وقال معبد الجهني : هو الحياء ، وقال ابن عباس هو العمل الصالح ، وقال أيضاً ، هو السمت الحسن في الوجه ، وقاله عثمان بن عفان على المنبر ، وقال عروة بن الزبير هو خشية الله ، وقال ابن زيد هو سترة العورة ، وقيل ﴿ لباس التقوى ﴾ الصوف

وكل ما فيه تواضع لله عز وجل ، وقال الحسن : هو الورع والسمت والحسن في الدنيا ، وقال ابن عباس ﴿ لباس التقوى ﴾ العفة ، وقال زيد بن علي ﴿ لباس التقوى ﴾ السلاح وآلة الجهاد .

قال القاضي أبو محمد : وهذه كلها مثل وهي من ﴿ لباس التقوى ﴾ .

(130/266)

قال القاضي أبو محمد : وتتصور الصفة التي حكاها أبو علي في قوله : ﴿ ذلك ﴾ لأن الأسماء توصف بمعنى الإشارة كما تقول جاءني زيد هذا كأنك قلت جاءني زيد المشار إليه فعلى هذه الحد توصف الأسماء بالمبهمات ، وأما قوله فيه عطف بيان وبدل فهما واحد في اللفظ إنما الفرق بينهما في المعنى والمقصد وذلك أنك تريد في البدل كأنك أزلت الأول وأعملت العامل في الثاني على نية تكرار العامل ، وتريد في عطف البيان كأنك أبقيت الأول وأعملت العامل في الثاني وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف البيان في مسألة النداء إذا قلت يا عبد الله زيد فالبدل في هذه المسألة هو على هذا الحد برفع زيد لأنك تقدر إزالة عبد الله وإضافة " يا " إلى زيد ولو عطفت عطف البيان لقلت يا عبد الله زيد لأنك اردت بيانه ولم تقدر إزالة الأول وينشد هذا البيت : [الرجز]

اني وأسطار سطرن سطرا . . . لقائل يا نصر نصراً نصراً

ويا نصر الأول على عطف البيان والثاني على البدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾

سبب نزولها : أن ناساً من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

وقيل : إنه لما ذكر عري آدم ، منّ علينا باللباس .

وفي معنى : ﴿ أنزلنا عليكم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : خلقنا لكم .

والثاني : ألهمناكم كيفية صنعه .

والثالث : أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يتخذ لباساً .

وأكثر القراء قرؤوا : "وريشاً" .

وقرأ ابن عباس ، والحسن وزرّ بن حبيش ، وقتادة ، والمفضل ، وأبان عن عاصم : "ورياشاً" بألف .

قال الفراء : يجوز أن تكون الرياش جمع الريش ، ويجوز أن تكون بمعنى الريش كما قالوا :

لِبس ، ولباس .

قال الشاعر :

فلما كَشَفْنَ اللِّبْس عنه مَسَحْنَهُ . . .

بأطراف طَفْل زانَ غَيْلاً مُوَشَّماً

قال ابن عباس ، ومجاهد : "الرياش" : المال ؛ وقال عطاء : المال والنعيم .

(131/266)

وقال ابن زيد الريش : الجَمال ؛ وقال معبد الجهني : الريش : الرزق ؛ وقال ابن قتيبة : الريش والرياش : ما ظهر من اللباس .

وقال الزجاج : الريش : اللباس وكل ما ستر الإِنسان في جسمه ومعيشته .

يقال : تريَّش فلان ، أي : صار له ما يعيش به .

أنشد سيبويه :

رياشي منكُم وهوايَ مَعْكُمْ . . .

وإن كَانَتْ زيارتُكم لِماما

وعلى قول الأكثرين : الريش والرياش بمعنى .

قال قطرب : الريش والرياش واحد .

وقال سفيان الثوري : الريش : المال ، والرياش : الثياب .

قوله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة : "ولباسُ التقوى" بالرفع .

وقرأ ابن عامر ، ونافع ، والكسائي : بنصب اللباس .

قال الزجاج : من نصب اللباس ، عطف به على الريش ؛ ومن رفعه ، فيجوز أن يكون مبتدأً ، ويجوز أن يكون مرفوعاً باضمار : هو ؛ المعنى : وهو لباس التقوى ، أي : وستر العورة لباس المتقين .

وللمفسرين في لباس التقوى عشرة أقوال .

أحدها : أنه السمت الحسن ، قاله عثمان بن عفان ؛ ورواه الذيَّال بن عمرو عن ابن عباس .

والثاني : العمل الصالح ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : الإيمان ، قاله قتادة ، وابن جريج ، والسدي ؛ فعلى هذا ، سمي لباس التقوى ، لأنه يقي العذاب .

والرابع : خشية الله تعالى ، قاله عروة بن الزبير .

والخامس : الحياء ، قاله معبد الجهني ، وابن الانباري .

والسادس : ستر العورة للصلاة ، قاله ابن زيد .

والسابع : انه الدرع ، وسائر آلات الحرب ، قاله زيد بن علي .

والثامن : العفاف ، قاله ابن السائب .

والتاسع : أنه ما يُتَّقى به الحر والبرد ، قاله ابن بحر .

والعاشر : أن المعنى : ما يَلْبَسه المتقون في الآخرة ، خير مما يلبسه أهل الدنيا ، رواه عثمان ابن عطاء عن أبيه .

قوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ قال ابن قتيبة : المعنى ولباس التقوى خير من الثياب ، لأن الفاجر ، وإن كان حسن الثوب ، فهو بادي العورة ؛ و ﴿ ذلك ﴾ زائدة .

قال الشاعر في هذا المعنى :

(132/266)

إنّي كأنّي أرَى مَنْ لا حَياءَ لَه . . .

وَلاَ أمَانَةَ وَسْطَ القَوْمِ عُريانا

قال ابن الأنباري : ويقال لباس التقوى ، هو اللباس الأول ، وإنما أعاده لِما أخبر عنه بأنه خير من التعرّي ، إذ كانوا يتعبدون في الجاهلية بالتعرّي في الطواف .

قوله تعالى : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ قال مقاتل : يعني : الثيابُ والمالُ من آيات الله وصنعه ، لكي يذّكروا ، فيعتبروا في صنعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ قال كثير من العلماء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال : ﴿ يوارى سَوْءَاتِكُمْ ﴾ .

وقال قوم : إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه ، بل فيها دلالة على الإنعام فقط .

قلت : القول الأوّل أصح .

ومن جملة الإنعام ستر العورة ؛ فبين أنه (سبحانه وتعالى) جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم ، ودل على الأمر بالتستر .

ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعْيُن الناس .

واختلفوا في العورة ما هي ؟ فقال ابن أبي ذئب : هي من الرجل الفرج نفسه ، القبل والدبر دون غيرهما .

وهو قول داود وأهل الظاهر وابن أبي عَبْلة والطبري ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ ، ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ ، ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ .

وفي البخاريّ " عن أنس : "فأجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في زُقاق خيبر وفيه ثم حَسَرَ الإزار عن فخذه حتى أني أنظر إلى بياض فخذ نبيّ الله صلى الله عليه وسلم " "

وقال مالك : السرة ليست بعورة ، وأكره للرجل أن يكشف فخذه بحضرة زوجته .

وقال أبو حنيفة : الركبة عورة .

وهو قول عطاء .

وقال الشافعيّ : ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح .

(133/266)

وحكى أبو حامد الترمذي أن للشافعيّ في السرة قولين .

وحجة مالك " قوله عليه السلام لجَرْهَدٍ : "غطِّ فخذك فإن الفخذ عورة" " خرجه البخاريّ تعليقاً وقال : حديث أنس أَسْنَدُ ، وحديث جرهدٍ أحوط حتى يخرج من اختلافهم .

وحديث جَرْهَدٍ هذا يدل على خلاف ما قال أبو حنيفة .

وروي أن أبا هريرة قبَّل سُرة الحسن بن عليّ وقال : أقبل منك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل منك .

فلو كانت السرة عورة ما قبّلها أبو هريرة ، ولا مكّنه الحسن منها .

وأما المرأة الحرة فعورة كلها إلا الوجه والكفين .

على هذا أكثر أهل العلم .

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيها "

ولأن ذلك واجب كشفه في الإحرام .

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : كل شيء من المرأة عورة حتى ظفرها .

وروي عن أحمد بن حنبل نحوه .

وأما أمُّ الولد فقال الأثْرَم : سمعته يعني أحمد بن حنبل يسأل عن أم الولد كيف تصلِّي ؟ فقال : تغطِّي رأسها وقدميها ؛ لأنها لا تباع ، وتصلي كما تصلي الحرة .

وأما الأَمَة فالعورة منها ما تحت ثديها .

ولها أن تبدي رأسها ومِعصميها .

وقيل : حكمها حكم الرجل .

وقيل : يكره لها كشف رأسها وصدرها .

وكان عمر رضي الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رؤوسهن ويقول : لا تَشبَّهن بالحرائر .

وقال أصبغ : إن انكشف فخذها أعادت الصلاة في الوقت .

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : كل شيء من الأمة عورة حتى ظفرها .

وهذا خارج عن أقوال الفقهاء ؛ لإجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلي المكتوبة ويداها ووجهها مكشوف ذلك كله ، تباشر الأرض به .

فالأمة أولى ، وأمُّ الولد أغلظ حالاً من الأمة .

والصبيُّ الصغير لا حرمة لعورته .

فإذا بلغت الجارية إلى حَدّ تأخذها العين وتُشْتَهَى سترت عورتها .

(134/266)

وحجة أبي بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : 59] .

وحديث أم سلمة أنها سئلت : ماذا تصلي فيه المرأة من الثياب ؟ فقالت : تصلي في الدرع والخمار السابغ الذي يُغَيِّب ظهور قدميها .

وقد رُوِي مرفوعاً .

والذين أوقفوه على أمِّ سَلَمة أكثر وأحفظ ؛ منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما .

قال أبو داود : ورفعه عبد الرحمن بن عبد الله بن دِينار عن محمد بن زيد عن أمّه عن أم

سلمة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عمر : عبد الرحمن هذا ضعيف عندهم ؛ إلا أنه قد خرّج البخاري بعض حديثه .

والإجماع في هذا الباب أقوى من الخبر .

الثانية قوله تعالى : ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ يعني المطر الذي ينبت القطن والكتان ، ويُقيم البهائم الذي منها الأصواف والأوبَار والأشعار ؛ فهو مجاز مثل ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] على ما يأتي .

وقيل : هذا الإنزال إنزال شيء من اللباس مع آدم وحوّاء ، ليكون مثالاً لغيره .

وقال سعيد بن جبير : "أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ" (أي) خلقنا لكم ؛ كقوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي خلق .

على ما يأتي .

وقيل : ألهمناكم كيفية صنعته .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَرِيشاً ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضّل الضبيّ ، وأبو عمرو من رواية الحسين بن علي الجُعْفِيّ "ورياشا" .

ولم يحكه أبو عبيدة إلا عن الحسن ، ولم يفسر معناه .

وهو جمع ريشٍ .

وهو ما كان من المال واللباس .

وقال الفرّاء : رِيشٌ ورياش ، كما يقال : لِبس ولِباس .

وريش الطائر ما ستره الله به .

وقيل : هو الخِصب ورفاهية العيش .

والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة .

وأنشد سيبويه :

فرِيشِي منكم وهَوايَ مَعْكم . . .

(135/266)

وإنْ كانت زيارتُكم لِمَاما

وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة : وهبتُ له دابّة بريشها أي بكسوتها وما عليها من اللباس .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ بين أن التقوى خير لباس ؛ كما قال :

إذا المرءُ لم يلبسْ ثياباً من التقى . . .

تقلّب عرياناً وإن كان كاسياً

وخيرُ لباسِ المرء طاعةُ ربه . . .

ولا خيرَ فيمن كان لله عاصياً

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن مَعْبَد الجُهَنِيّ قال : "لِبَاسُ التقوى" الحيَاء .

وقال ابن عباس : "لِبَاسُ التقوى" هو العمل الصالح .

وعنه أيضاً : السَّمْت الحسَن في الوجه .

وقيل : ما علّمه عز وجل وهدى به .

وقيل : "لِبَاسُ التقوى" لبس الصوف والخشن من الثياب ، ممّا يُتواضع به لله تعالى ويتعبَّد له خيرٌ من غيره .

وقال زيد بن علي : "لِبَاسُ التقوى" الدّرع والمِغْفَر ؛ والساعدان ، والساقان ، يُتْقى بهما في الحرب .

وقال عروة بن الزبير : هو الخشية لله .

وقيل : هو استشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه .

قلت : وهو الصحيح ، وإليه يرجع قول ابن عباس وعروة .

وقول زيد بن عليّ حَسَنٌ ، فإنه حَضّ على الجهاد .

وقال ابن زيد : هو ستر العورة .

وهذا فيه تكرار ؛ إذ قال أولاً : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ .

ومن قال : إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدَعْوَى ؛ فقد

كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى ، على ما يأتي مبيناً إن شاء الله تعالى .

وقرأ أهل المدينة والكسائيّ "لِبَاسَ" بالنصب عطفاً على "لِبَاساً" الأول .

وقيل : انتصب بفعل مضمر ؛ أي وأنزلنا لباس التقوى .

والباقون بالرفع على الابتداء .

و"ذَلِكَ" نعته و"خَيْرٌ" خبر الابتداء .

والمعنى : ولباس التقوى المشار إليه ، الذي علمتموه ، خير لكم من لبس الثياب التي تُوارِي سوءاتكم ، ومن الرّياش الذي أنزلنا إليكم ؛ فالبسوه .

(136/266)

وقيل : ارتفع بإضمار هو ؛ أي وهو لباس التقوى ؛ أي هو ستر العورة .

وعليه يخرج قول ابن زيد .

وقيل : المعنى ولباس التقوى هو خير ؛ ف "ذلك" بمعنى هو .

والإعراب الأوّل أحسنُ ما قيل فيه .

وقرأ الأعمش "ولباسُ التقوى خيرٌ" ولم يقرأ "ذَلِكَ" .

وهو خلاف المصحف .

﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ أي مما يدل على أن له خالقاً .

و"ذلك" رفع على الصفة ، أو على البدل ، أو عطف بيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم ﴾

اعلم أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعلها مستقراً لهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما أنزل عليهم اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا فأما منفعته في الدين فإنه يستر العورة وسترها شرط في صحة الصلاة وأما منفعته في الدنيا فإنه يمنع الحر والبرد فامتنّ الله على عباده بأن أنزل عليهم لباساً يواري سوءاتهم فقال تعالى : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم ﴾ يعني لباساً تسترون به عوراتكم .

فإن قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباساً .

قلت ذكر العلماء فيه وجوهاً أحدهما : أنه بمعنى خلق أي خلقنا لكم لباساً أو بمعنى رزقناكم لباساً .

الوجه الثاني : أن الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه أنزله عليهم .

(137/266)

الوجه الثالث : أن جميع بركات الأرض تنسب إلى السماء وإلى الإنزال كما قال تعالى : وأنزلنا الحديد ﴿ وريشاً ﴾ الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوءاتكم ولباساً لزينتكم لأن التزيين غرض صحيح كما قال تعالى ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ وقال ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله جميل يحب الجمال " واختلفوا في معنى الريش المذكور في الآية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وريشاً يعني مالاً ، وهو قول مجاهد والضحاك والسدي لأن المال مما يتزين به ، ويقال : تريش الرجل إذا تمّول . وقال ابن زيد : الريش الجمال وهو يرجع إلى الزينة أيضاً ، وقيل : إن الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يبلس أو يفرش والريش أيضاً المتاع والأموال عندهم وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال يقال إنه لحسن الريش أو لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضاً في الخصب ورفاهية العيش ﴿ ولباس التقوى ﴾

اختلف العلماء في معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته ، ومنهم من حمله على المجاز أما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضاً في معناه ، فقال ابن الأنباري : لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أنّ ستر العورة من التقوى وذلك خير .

وقيل : إنما أعاده لأجل أن يخبر عنه بأنه خير لأن العرب في الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواب بالبيت فأخبر أن ستر العورة في الطواف هو لباس التقوى وذلك خير .

وقال زيد بن علي رحمه الله تعالى : لباس التقوى آلآت الحرب التي يتقى بها في الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك .

وقيل لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التي يبلسها أهل الزهد والورع .

وقيل : هو ستر العورة في الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا في معناه .

(138/266)

فقال قتادة والسدي : لباس التقوى هو الإيمان لأن صاحبه يتقي به من النار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لباس التقوى هو العمل الصالح ، وقال الحسن رضي الله عنه : هو الحياء لأنه يحث على التقوى .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : لباس التقوى هو السمت الحسن ، وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه : لباس التقوى خشية الله ، وقال الكلبي : هو العفاف فعلى هذه الأقوال : إن بلاس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ يعني لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا في المعنى :

إذا أنت لم تلبس ثياباً من التقى . . .

عريت وإن واري القميصَ قميصُ

وقوله تعالى : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ يعني أنزل اللباس عليكم يا بني آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يعني لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(139/266)

وقال أبو حيان :

﴿ يا بني آدم قَد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلّهم يذكرون ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر قصة آدم وفيها ستر السوءات وجعل له في الأرض مستقرّاً ومتاعاً ذكر ما امتنّ به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللّباس الذي يواري السوءات والرّياش الذي يمكن به استقرارهم في الأرض واستمتاعهم بما خولهم ، وقال مجاهد : نزلت هذه الآية والثلاث بعدها فيمن كان من العرب يتعرى في طوافه بالبيت وذكر النقاش أنها كانت عادة ثقيف وخزاعة وبني عامر بن صعصعة وبني مدلج والحرث وعامر ابني عبد مناة نسائهم ورجالهم وأنزلنا قيل على حقيقته من الانحطاط من علو إلى سفل فأنزل مع آدم وحواء شيئاً من اللباس مثالاً لغيره ثم توسع بنوهما في الصّنعة استنباطاً من ذلك المثال أو أنزل من السماء أصل كل شيء عند إهباطهما أو أنزل معه الحديد فاتخذ منه آلات الصنائع أو أنزل الملك فعلم آدم النسج أربعة أقوال ، وقيل : الإنزال مجاز من إطلاق السّبب على مسببه فأنزل المطر وهو سبب ما يتهيأ منه اللباس أو بمعنى خلق كقوله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أو بمعنى الهم ، وقال الزمخشري جعل ما في الأرض منزلاً من السماء لأنه قضى ثم وكتب ومنه ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ، وقال ابن عطية : أنزلنا يحتمل أن يريد بالتدريج أي لما أنزل المطر فكان عنه جميع ما يلبس قال عن اللباس ﴿ أنزلنا ﴾ وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً :

أقبل في المسلمين من سحابة . . .

أسنمة الآبال في ربابه

أي بالمال ويحتمل أن يريد خلقنا فجاءت العبارة بأنزلنا كقوله ﴿ وأَنزلنا الحديد ﴾ وقوله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ وأيضاً فخلق الله وأفعاله إنما هي من علو في القدر والمنزلة انتهى واللباس يعم جميع ما يلبس ويستر والرّيش عبارة عن سعة الرزق ورفاهية العيش ووجود اللبس والتمتع وأكثر أهل اللغة على أنّ الريش ما يستر من لباس أو معيشة ، وقال قوم : الإناث ، وقال ابن عباس والسدّي ومجاهد : المال ، وقال ابن زيد : الجمال ، وقال الزمخشري : لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته أي أنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزّينكم لأنّ الزينة غرض صحيح كما قال تعالى : ﴿ لتركبوها وزينة ولكم فيها جمال ﴾ انتهى .

وعطف ﴿ الريش ﴾ على ﴿ لباساً ﴾ يقتضي المغايرة وأنه قسيم للباس لا قسم منه ، وقرأ عثمان وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسلمي وعلي بن الحسين وابنه زيد وأبو رجاء وزر بن حبيش وعاصم في رواية وأبو عمرو في رواية ورياشا ، فقيل : هما مصدران بمعنى واحد راشه الله يريشه ريشاً ورياشاً أنعم عليه ، وقال الزمخشري : جمع ريش كشعب وشعاب ، وقال الزّجاج : هما اللباس ، وقال الفرّاء : هما ما يستر من ثياب ومال

كما يقال لبس ولباس ، وقال معبد الجهني : الرياش المعاش ، وقال ابن الأعرابي : الريش الأكل والشرب والرياش المال المستفاد ، وقيل : الريش ما بطن والرياش ما ظهر .

(141/266)

وقرأ الصاحبان والكسائي : ﴿ ولباس التقوى ﴾ بالنصب عطفاً على المنصوب قبله ، وقرأ باقي السّبعة بالرفع ، فقيل هو على إضمار مبتدأ محذوف أي وهو لباس التقوى قاله الزّجاج ﴿ وذلك خير ﴾ على هذا مبتدأ وخبر وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿ ولباس ﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره ولباس التّقوى ساتر عوراتكم ، وهذا ليس بشيء والظاهر أنه مبتدأ ثانٍ ﴿ وخير ﴾ خبره والجملة خبر عن ﴿ ولباس التقوى ﴾ والرابط اسم الإشارة وهو أحد الروابط الخمس المتفق عليها في ربط الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ إذا لم يكن إياه ، وقيل : ذلك بدل من لباس ، وقيل : عطف بيان ، وقيل : صفة وخبر ﴿ ولباس ﴾ هو ﴿ خير ﴾ ، وقال الحوفي : وأنا أرى أن لا يكون ذلك نعتاً للباس التقوى لأنّ الأسماء المبهمة أعرف مما فيه الألف واللام وما أضيف إلى الألف واللام وسبيل النعت أن يكون مساوياً للمنعوت أو أقلّ منه تعريفاً فإن كان قد تقدّم قول أحدٍ به فهو سهو وأجاز الحوفي أن يكون ذلك فصلاً لا موضع له من الإعراب ويكون ﴿ خير ﴾ خبراً لقوله ﴿ ولباس التقوى

﴿ فجعل اسم الإشارة فصلاً كالمضمر ولا أعلم أحداً قال بهذا وأما قوله فإن كان قد تقدّم قول أحد به فهو سهو فقد ذكره ابن عطية وقال : هو أنبل الأقوال ذكره أبو علي في الحجة انتهى ؛ وأجازه أيضاً أبو البقاء وما ذكره الحوفي هو الصواب على أشهر الأقوال في ترتيب المعارف ، وقرأ عبد الله وأبيّ ولباس التقوى خير بإسقاط ذلك فهو مبتدأ وخبر والظاهر حمله على اللباس حقيقة ، فقال ابن زيد هو ستر العورة وهذا فيه تكرار لأنه قد قال ﴿ لباساً يواري سوءاتكم ﴾ ، وقال زيد بن علي : الدّرع والمغفر والساعدان لأنه يتقي بها في الحرب .

(142/266)

وقيل : الصّوف ولبس الخشن ، وروي اخشوشنوا وكلوا الطعام الخشن ، وقيل ما يقي من الحرّ والبرد ، وقال عثمان بن عطاء : لباس المتقين في الآخرة ، وقيل لباس التقوى مجاز ، وقال ابن عباس : العمل الصالح ، وقال أيضاً : العفة ، وقال عثمان بن عفّان وابن عباس أيضاً : السّمت الحسن في الوجه ، وقال معبد الجهني : الحياء ، وقال الحسن : الورع والسّمت الحسن ، وقال عروة بن الزبير : خشية الله ، وقال ابن جريج : الإيمان ، وقيل ما يظهر من السكينة والإخبات ، وقال يحيى بن يحيى : الخشوع والأحسن أن يجعل عاماً

فكلّ ما يحصل به الاتقاء المشروع فهو من لباس التقوى والإشارة بقوله ذلك من آيات الله إلى ما تقدّم من إنزال اللباس والرّياش ولباس التقوى والمعنى من آيات الله الدالّة على فضله ورحمته على عباده ، وقيل : من موجب آيات الله ، وقيل : الإشارة إلى ﴿ لباس التقوى ﴾ أي هو في العبر آية أي علامة وأمارة من الله أنه قد رضي عنه ورحمه لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(143/266)

وقال أبو السعود :

﴿ يا بني آدم ﴾ خطابٌ للناس كافةً ، وإيرادُهم بهذا العنوان مما لا يخفى سرُّه ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماويةٍ وأسبابٍ نازلةٍ منها ، ونظيرُه ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ ﴾ الخ ، وقوله تعالى : ﴿ بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد ﴾ ﴿ يوارى سَوْآتِكم ﴾ التي قصد إبليسُ إبداءَها من أبويكم حتى اضطُروا إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك . وروي أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون : لا نطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت . ولعل ذكر قصةِ آدمَ عليه السلام حينئذ للإيذان بأن انكشافَ العورة أولُ سوءٍ أصاب الإنسان من قِبَل الشيطان ، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم ﴿ وَرِيشًا

﴿ ولباساً تتجملون به ، والريشُ الجمالُ وقيل : مالاً ، ومنه تريّش الرجل أي تموّل وقرىء رياشاً وهو جمعُ ريشٍ كشِعْب وشِعاب ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ أي خشيةُ الله تعالى ، وقيل : الإيمانُ ، وقيل : السمتُ الحسَنُ ، وقيل : لباسُ الحرب ، ورفعُه بالابتداء خبرُه جملةُ ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ أو خبرٌ وذلك صفتُه كأنه قيل : ولباسُ التقوى المشارُ إليه خيرٌ وقرىء ولباسَ التقوى بالنصب عطفاً على لباساً ﴿ ذلك ﴾ أي إنزالُ اللباس ﴿ مِنْ آيات الله ﴾ دالةٌ على عظيم فضلِه وعميمِ رحمتِه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرِفون نعمتَه أو يتّعظون فيتورّعون عن القبائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(144/266)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ خطاب للناس كافة .

واستدل به على دخول أولاد الأولاد في الوقف على الأولاد .

ولا يخفى سر هذا العنوان في هذا المقام .

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي خلقنا لكم ذلك بأسباب نازلة من السماء كالمطر الذي ينبت به القطن الذي يجعل لباساً قاله الحسن ، وعن أبي مسلم أن المعنى أعطيناكم ذلك ووهبناه لكم وكل ما أعطاه الله تعالى لعبده فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو أو سفل بل هو جار مجرى التعظيم كما تقول : رفعت حاجتي إلى فلان وقصتي إلى الأمير وليس هناك نقل من سفل إلى علو ، وقيل : المراد قضينا لكم ذلك وقسمناه ، وقضاياه تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتب في اللوح المحفوظ .

وعلى كل فالكلام لا يخلو عن مجاز .

ويحتمل أن يكون في المسند وهو الظاهر .

ويحتمل أن يكون في اللباس أو الإسناد .

وقوله سبحانه : ﴿ يوارى ﴾ أي يستر ترشيح على بعض الاحتمالات .

وعن الجبائي أن الكلام على حقيقته مدعياً نزول ذلك مع آدم وحواء من الجنة حين أمرا بالهبوط إلى الأرض ولم نقف في ذلك على خبر كسته الصحة لباساً ، نعم أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أهبط آدم وحواء عليهما السلام عريانين جميعاً عليهما ورق الجنة فأصاب آدم الحر حتى قعد يبكي ويقول لها : يا حواء قد آذاني الحر فجاءه جبريل عليه السلام بقطن وأمرها أن تغزله وعلمها وعلم آدم

وأمره بالحياكة وعلمه " وجاء في خبر آخر أنه عليه السلام أهبط ومعه البذور فوضع إبليس عليها يده فما أصاب يده ذهب منفعته .

(145/266)

وفي آخر رواه ابن المنذر عن ابن جريج أنه عليه السلام أهبط معه ثمانية أزواج من الإبل والبقر والضأن والمعز وباسنة والعلاة والكلبتان وغريسة عنب وريحان .

وكل ذلك على ما فيه لا يدل على المدعى وإن صلح بعض ما فيه لأن يكون مبدأ لما يوارى .

﴿ سَوْءِتكُمْ ﴾ أي التي قصد إبليس عليه اللعنة إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك .

روى غير واحد أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون : لا نطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت هذه الآية ، وقيل : إنهم كانوا يطوفون كذلك تفاؤلاً بالتعري عن الذنوب والآثام ، ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذٍ للإيذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من قبل الشيطان وأنه أغواهم في ذلك كما فعل بأبويهم .

وفي "الكشاف" "أن هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدّو السوءات وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من

المهانة والفضيحة وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

﴿ وَرِيشًا ﴾ أي زينة أخذا من ريش الطير لأنه زينة له .

وعطفه على هذا من عطف الصفات فيكون اللباس موصوفاً بشيئين مواراة السوأة والزينة .

ويحتمل أن يكون من عطف الشيء على غيره أي أنزلنا لباسين لباس مواراة ولباس زينة فيكون مما حذف فيه الموصوف أي لباساً ريشاً أي ذا ريش .

وتفسير الريش بالزينة مروي عن ابن زيد .

وذكر بعض المحققين أنه مشترك بين الاسم والمصدر ، وعن ابن عباس ومجاهد والسدي أن المراد به المال ومنه تريش الرجل أي تمول ، وعن الأخفش أنه الخصب والمعاش ، وقال الطبرسي : إنه جمع ما يحتاج إليه .

وقرأ عثمان رضي الله تعالى عنه ﴿ ورياشاً ﴾ وهو إما مصدر كاللباس أو جمع ريش كشعب وشعاب .

(146/266)

﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التقوى ﴾ أي العمل الصالح كما روي عن ابن عباس أو خشية الله تعالى كما روي عن عروة بن الزبير أو الحياء كما روي عن الحسن أو الإيمان كما روي عن قتادة والسدي أو ما يستر العورة وهو اللباس الأول كما روي عن ابن زيد أو لباس الحرب الدرع والمغفر والآلات التي يتقى بها من العدو كما روي عن زيد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم ، واختاره أبو مسلم أو ثياب النسك والتواضع كلباس الصوف والخشن من الثياب كما اختاره الجبائي ، فاللفظ إما مشاكلة وإما مجاز وإما حقيقة ، ورفعه بالابتداء وخبره جملة ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ والرابط اسم الإشارة لأنه يكون رابطاً كالضمير .

وجوز أن يكون الخبر ﴿ خَيْرٌ ﴾ و ﴿ ذلك ﴾ صفة لباس ، وإليه ذهب الزجاج وابن الأنباري وغيرهما .

واعترض بأن الأسماء المبهمة أعرف من المعرف باللام ومما أضيف إليه والنعت لا بد أن يساوي المنعوت في رتبة التعريف أو يكون أقل منه .

ولا يجوز أن يكون أعرف منه فلذا قيل .

إن ﴿ ذلك ﴾ بدل أو بيان لا نعت .

وأجيب بأن ذلك غير متفق عليه فإن تعريف اسم الإشارة لكونه بالإشارة الحسية الخارجة عن الوضع قيل : إنه أنقص من ذي اللام ، وقيل : إنهما في مرتبة واحدة ، وعن أبي علي وهو غريب أن ذلك لا محل له من الإعراب وهو فصل كالضمير .

وقرىء ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ لِبَاساً ﴾ قال بعض المحققين : وحينئذٍ يكون اللباس المنزل ثلاثة أو يفسر ﴿ لِبَاسَ التقوى ﴾ بلباس الحرب أو يجعل الإنزال مشاكلة ، وذكر على القراءة المشهورة أن ﴿ ذلك ﴾ إن كان إشارة للباس المواري فلباس التقوى حقيقة والإضافة لأدنى ملابسة ، وإن كان للباس التقوى فهو استعارة مكنية تخييلية أو من قبيل لجين الماء وعلى كل تكون الإشارة بالبعيد للتعظيم بتنزيل البعد الرتبي منزلة البعد الحسي فتأمل ولا تغفل .

(147/266)

﴿ ذلك ﴾ أي إنزال اللباس المتقدم كله أو الأخير ﴿ مِنْ آيات الله ﴾ الدالة على عظيم فضله وعميم رحمته ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(148/266)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) ﴾

إذا جرينا على ظاهر التّفاسير كان قوله : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ الآية استئنافاً ابتدائياً ، عاد به الخطاب إلى سائر النّاس الذين خوطبوا في أوّل السّورة بقوله : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الأعراف : 3] الآيات ، وهم أمّة الدّعوة ، لأنّ الغرض من السّورة إبطال ما كان عليه مشركو العرب من الشّرك وتوابعه من أحوال دينهم الجاهلي ، وكان قوله : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ [الأعراف : 11] استطراداً بذكر منّة الله عليهم وهم يكفرون به كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ﴾ فخاطبتْ هذه الآية جميع بني آدم بشيء من الأمور المقصودة من السّورة فهذه الآية كالمقدّمة للغرض الذي يأتي في قوله : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 31] ووقوعها في أثناء آيات التّحذير من كيد الشّيطان جعلها بمنزلة الاستطراد بين تلك الآيات وإن كانت هي من الغرض الأصلي .

(149/266)

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ وما أشبهه ممّا افتتح بقوله : ﴿ يا بني آدم ﴾ أربعَ مرّات ، من جملة المقول المحكي بقوله : ﴿ قال فيها تحيون ﴾ [الأعراف : 25] فيكون ممّا خاطب الله به بني آدم في ابتداء عهدهم بعمران الأرض على لسان أبيهم آدمَ ، أو بطريق من طرق الإعلام الإلهي ، ولو بالإلهام ، لما تَنشأ به في نفوسهم هذه الحقائق ، فابتدأ فأعلمهم بمنّته عليهم أن أنزل لهم لباساً يواري سَوْآتهم ، ويتجمّلون به بمناسبة ما قصّ الله عليهم من تعري أبويهم حين بدت لهما سَوءاتُهما ، ثمّ بتحذيرهم من كيد الشّيطان وفتنته بقوله : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ﴾ [الأعراف : 27] ثمّ بأن أمرهم بأخذ اللّباس وهو زينة الإنسان عند مواقع العبادة لله تعالى بقوله : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 31] ، ثمّ بأن أخذ عليهم العهد بأن يُصدّقوا الرّسل وينتفعوا بهديهم بقوله : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم ﴾ [الأعراف : 35] الآية ، واستطرد بين ذلك كلّه بمواعظ تنفع الذين قُصدوا من هذا القَصص ، وهم المشركون المكذّبون محمّداً صلى الله عليه وسلم فهم المقصود من هذا الكلام كيفما تفنّنت أساليبه وتناسقَ نظمُه ، وأيًّا ما كان فالمقصود الأوّل من هذه الخطابات أو من حكايتها هم مشركُو العرب ومكذّبو محمّد صلى الله عليه وسلم ولذلك تخللتْ هذه الخطاباتِ مُستطرَدَاتٌ وتعريضاتٌ مناسبة لما وضعه المشركون من التّكاذيب في نقض أمر الفطرة .

والجُمل الثّلاث من قوله : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ وقوله ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ﴾ [الأعراف : 27] وقوله ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 31] متّصلة تمام الاتّصال بقصّة فتنة الشّيطان لآدم وزوجه ، أو متّصلة بالقول المحكي بجملة : ﴿ قال فيها تحيون ﴾ [الأعراف : 25] على طريقة تعداد المقول تعداداً يشبه التّكرير .

وهذا الخطاب يشمل المؤمنين والمشركين ، ولكن الحظّ الأوفر منه للمشركين : لأنّ حظّ المؤمنين منه هو الشّكر على يَقينهم بأنّهم موافقون في شؤونهم لمرضاة ربّهم ، وأمّا حظّ المشركين فهو الإنذار بأنّهم كافرون بنعمة ربّهم ، معرّضون لسخطه وعقابه .

وابتُدِىء الخطاب بالنّداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم ، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرّتين وقْع عجيب ، بعد الفراغ من ذكر قصّة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشّيطان : وذلك أنّ شأن الذرّية أن تثأر لآبائها ، وتعادي عدوّهم ، وتحترس من الوقوع في شَرَكه .

ولمّا كان إلهام الله آدمَ أن يَستر نفسه بورَق الجنّة مِنَّةٌ عليه ، وقد تقلّدها بنوه ، خوطب النّاس بشمول هذه المنّة لهم بعنوان يدلّ على أنّها منّةٌ موروثة ، وهي أوقع وأدعى للشّكر ، ولذلك سمّى تيسير اللّباس لهم وإلهامهم إياه إنزالاً ، لقصد تشريف هذا المظهر ، وهو أوّل مظاهر الحَضارة ، بأنّه منزّل على النّاس من عند الله ، أو لأنّ الذي كان مِنْهُ على آدم نزل به من الجنّة إلى الأرض التي هو فيها ، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص ، على أنّ مجرّد الإلهام إلى استعماله بتسخير إلهي ، مع ما فيه من عظيم الجدوى على النّاس والنّفع لهم ، يحسّن استعارة فعل الإنزال إليه ، تشريفاً لشأنه ، وشاركه في هذا المعنى ما يكون من الملهمات عظيم النّفع ، كما في قوله : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للنّاس ﴾ [الحديد : 25] أي أنزلنا الإلهام إلى استعماله والدّفاع به ، وكذلك قوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] أي : خلَقها لكم في الأرض بتدبيره ، وعلَّمكم استخدامها والانتفاعَ بما فيها ، ولا يطرد في جميع ما أُلهم إليه البشر ممّا هو دون هذه في الجدوى ، وقد كان ذلك اللّباس الذي نزل به آدم هو أصل اللّباس الذي يستعمله البشر .

وهذا تنبيه إلى أنّ اللّباس من أصل الفطرة الإنسانيّة ، والفطرة أوّل أصول الإسْلام ، وأنّه ممّا كرم الله به النّوع منذ ظهوره في الأرض ، وفي هذا تعريض بالمشركين إذ جعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجّوا عُراة كما سيأتي عند قوله : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ [الأعراف : 32] فخالفوا الفطرة ، وقد كان الأمم يحْتفلون في أعياد أديانهم بأحسن

اللّباس ، كما حكى الله عن موسى عليه السّلام وأهل مصر : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ [طه : 59] .

(152/266)

واللّباس اسم لما يلبَسه الإنسان أي يستُر به جزءاً من جسده ، فالقميص لباس ، والإزار لباس ، والعمامة لباس ، ويقال لبس التّاج ولبس الخاتم قال تعالى : ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ [فاطر : 12] ومصدر لبس اللّبس بضمّ اللاّم .

وجملة : ﴿ يواري سوآتكم ﴾ صفة (للباساً) وهو صنف اللّباس اللاّزم ، وهذه الصّفة صفة مَدح اللّباس أي من شأنه ذلك وإن كان كثير من اللّباس ليس لمواراة السوآت مثل العمامة والبرد والقباء وفي الآيه إشارة إلى وجوب ستر العورة المغلظة ، وهي السوأة ، وأمّا ستر ما عداها من الرّجل والمرأة فلا تدلّ الآية عليه ، وقد ثبت بعضه بالسنّة ، وبعضه بالقياس والخوض في تفاصيلها وعللها من مسائل الفقه .

والرّيش لباس الزّينة الزائد على ما يستر العورة ، وهو مستعار من ريش الطّير لأنّه زينته ، ويقال للباس الزّينة رِياش .

وعطف (ريشاً) على : ﴿ لباساً يزاري سوآتكم ﴾ عطفَ صنف على صنف ،

والمعنى يَسَّرنا لكم لباساً يستركم ولباساً تتزيّنون به .

وقوله : ﴿ ولباس التقوى ﴾ قرأه نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو جعفر : بالنّصب ، عطفاً على ﴿ لباساً ﴾ فيكون من اللّباس المُنْزَل أي الملهَم ، فيتعيّن أنّه لباس حقيقة أي شيء يلبس .

والتّقوى ، على هذه القراءة ، مصدر بمعنى الوقاية ، فالمراد : لَبوس الحرب ، من الدّروع والجواشن والمغافر .

فيكون كقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ [النحل : 81] .

والإشارة باسم الإشارة المفرد بتأويل المذكور ، وهو اللّباس بأصنافه الثّلاثة ، أي خير أعطاه الله بني آدم .

فالجملة مستأنفة أو حال من ﴿ لباساً ﴾ وما عطف عليه .

(153/266)

وقرأه ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، وخَلف : برفع ﴿ لباس التقوى ﴾ على أنّ الجملة معطوفة على جملة ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ ، فيجوز أن يكون

المراد بلباس التّقوى مثل ما يرد به في قراءة النّصب ، ويجوز أن يكون المراد بالتّقوى تقوى الله وخشيته ، وأطلق عليها اللّباس إمّا بتخييل التّقوى بلباس يُلبس ، وإمّا بتشبيه ملازمة تقوى الله بملازمة اللاّبس لباسه ، كقوله تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ [البقرة : 187] مع ما يحسِّن هذا الإطلاق من المشاكلة .

وهذا المعنى الرّفعُ أليقُ به .

ويكون استطراداً للتّحريض على تقوى الله ، فإنّها خير للنّاس من منافع الزّينة ، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه .

وجملة : ﴿ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ استئناف ثان على قراءة : ﴿ ولباس التقوى ﴾ بالنّصب بأن استأنف .

بعد الامتنان بأصناف اللّباس ، استئنافين يؤذنان بعظيم النّعمة : الأوّل بأنّ اللّباس خير للنّاس ، والثّاني بأنّ اللّباس آية من آيات الله تدلّ على علمه ولطفه ، وتدلّ على وجوده ، وفيها آية أخرى وهي الدّلالة على علم الله تعالى بأن ستكون أمّة يَغلب عليها الضّلال فيكونون في حجّهم عُراةً ، فلذلك أكّد الوصاية به .

والمشار إليه ، بالإشارة التي في الجملة الثّانية ، عين المشار إليه بالإشارة التي في الجملة الأولى وللاهتمام بكلتا الجملتين جعلت الثّانية مستقلّة غير معطوفة .

وعلى قراءة رفع : ﴿ ولباس للتقوى ﴾ تكون جملة : ذلك من آيات الله استئناف واحداً

والإشارة التي في الجملة الثّانية عائدة إلى المذكور قبلُ من أصناف اللّباس حتّى المجازي على تفسير لباس التّقوى بالمجازي .

(154/266)

وضمير الغيبة في : ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ التفات أي جعل الله ذلك آية لعلّكم تتذكّرون عظيم قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتّقدير واللّطف ، وفي هذا الإلتفات تعريض بمن لم يتذكر من بني آدم فكأنّه غائب عن حضرة الخطاب ، على أنّ ضمائر الغيبة ، في مثل هذا المقام في القرآن ، كثيراً ما يقصد بها مشركو العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(155/266)

وقال القاسمى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [26] .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ يعني ما يلبس من الثياب وغيره .

قال الزمخشري : جعل ما في الأرض منزلاً من السماء ، لأنه قضى ثمة وكتب ، أي : قضى وقسم لكم ، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح المحفوظ .

وقال أبو البقاء : لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر ، والمطر ينزل ، جعل ما هو المسبب بمنزلة السبب . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتوى له في معنى النزول : لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، في اللباس والأثاث ، وهذا – والله أعلم – معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام ، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم في اللباس والرياش ، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهي لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان .

﴿ يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾ أي : يستر عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق ، وأنتم مستغنون عن ذلك .

﴿ وَرِيشاً ﴾ عطفه إما من عطف الصفات ، فوصف اللباس بشيئين : مواراة السوأة والزينة ، فالريش بمعنى الزينة ، لأنه زينة الطير فاستعير منه ، وأما من عطف الشيء على غيره ، أي : أنزلنا لباسين :

لباس مواراة ، ولباس زينة ، فيكون مما حذف فيه الموصوف ، أي : لباساً ريشاً ، أي : ذا ريش ، والريش مشترك بين الاسم والمصدر .

(156/266)

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وحكاه البخاري عنه : الريش المال ، وحكاه غير واحد من السلف ، قال الإمام ابن تيمية : وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص ، قال ابن زيد : جمالا ، قال ابن السكيت : الرياش هو الأثاث من المتاع والأموال ، وقد يكون في الثياب دون الأموال ، وإنه لحسن الريش ، أي : الثياب . انتهى . ويقال : راش فلان ، أي : جمع الريش ، وهو المال والأثاث . وراش الصديق أطعمه وسقاه وكساه ، وأصله من الريش كأن الفقير المملق لا نهوض له ، كالمقصوص منه الجناح وكل من أوليته خيراً ، فقد رشته ، كذا في تاج العروس .

فائدة :

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة عن عُمَر بن الخطاب قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : < من استجد ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في ذمه الله

تعالى وفي جوار الله ، وفي كنف الله حياً وميتاً > . ورواه الترمذي وابن ماجة ، وروى الإمام أحمد عن أبي مطر أنه رأى علياً رضي الله عنه أتى

غلاماً حدثاً ، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين ، ويقول ولبسه : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري به عورتي . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله صلى الله عليه وسلم عند الكسوة : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي .

ولما بين تعالى ساتر الظاهر وزينته ، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ أي : خشية الله ، أو الإيمان ، أو السمت الحسن ، والكل متقارب ، ورفعة بالابتداء خبره جملة : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أو خيرٌ ، وذلك صفته ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير .

(157/266)

قال المهايمي : لأن الظاهر محل نظر الخلق ، والباطن محل نظر الحق ، والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة .

وقال القاشاني : لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس ، ذلك خير لأنه من جملة

أركان الشرائع ، لأنه أصل الدين وأساسه ، كالحمية في العلاج . انتهى .

قال أبو علي الفارسي : معنى الآية : ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به ، وأقرب له إلى الله تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به ، قال : وأضيف اللباس إلى التقوى ، كما أضيف إلى الجوع في قوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ . انتهى .

أي : فهو استعارة مكنية وتخييلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس ، تشتمل على جميع بدنه ، بحسب الورع والخشية من الله ، اشتمال اللباس على اللابس ، أو من قبيل لجين الماء . وقرأ نافع وابن عامر والكسائي (ولباس التقوى) بالنصب ، عطفاً على (لباساً) .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : إنزال اللباس : ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها .

قال الزمخشري : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت ، وخصف الأوراق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما في العري ، وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التي عدها ، وذهب علي بن موسى القمي إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة ، وقال آخرون : لا تدل ، وليس في

الظاهر إلا الإنعام به من حيث نفي الحر والبرد وستر العورة والتجمل به ، فأما أنه واجب ، فبعيد ، ولو ثبت وجوبه عليه ، احتجنا إلى وجوبه في شريعتنا إلى دليل مستأنف ، وقد ثبت في هذه الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع ، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى .

(158/266)

وتدل على أنه تعالى كما أنعم بنعم الدنيا ، أنعم بنعم الدين ، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل الصالح ، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التي بها يحصل الفوز بالثواب ، فتحصل نعمة الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 30 . 33 ﴾

(159/266)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا ﴾

وكلمة ﴿ يا بني ءَادَمَ ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضي أبيكم مع عدوكم المبين ، إبليس ، أنتم

أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباسا يواري سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة ، والإنزال يقتضي جهة علو لنفهم أن كل خير في الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذي أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التي غزلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطا من السماء . ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . . ﴾ [الزمر : 6]

نعم هو الذي أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية في النبات من مرحلة أولى ، والسببية في الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذي جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ . . . ﴾ [الحديد : 25]

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التي خلقها الله ، وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمي بها كل منهج . ﴿ يا بني ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 26]

(160/266)

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس يواري سوءات الحس وسوءات المادة ، كذلك أنزلنا اللباس الذي يواري سوءات القيم . فكلما أنكم تحسّون وتدركون أن اللباس المادي يداري ويواري السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس الذي ينزله الله من القيم إنما يواري ويستر به سواءتكم المعنوية . ولباس الحياة المادية لم يقف عند موارة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً . لذلك قال الحق : ﴿ . . . قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ذلك مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 26]

والريش كساء الطير ، وقديماً كانوا يأخذون ريش الطير ليزينوا به الملابس . وكانوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان مريش أي لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكأن هذا القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك في حل . وقيل أن يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال في الحياة ، فقال سبحانه : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . . . ﴾ [النحل : 8]

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجَمَال .

وكذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق . . . ﴾ [الأعراف : 32]

بل سبحانه طلب زينتنا في اللقاء له في بيته فيقول : ﴿ يا بني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾ [الأعراف : 31]

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : ﴿ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ . . . ﴾ [الأعراف : 26]

(161/266)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادي يستر العورة المادية ، وقصاراه أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يواري عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذي تتقون به أهوال الحروب ؛ إنّه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس – لباس التقوى – خير من اللباس المادي وهو من آيات الله ، أي من عجائبه ، وهو من الأشياء اللافتة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمية لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به في السلم

والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(162/266)

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

قوله في الحديث "إن الله جميل يحب الجمال" الترمذي باب ما جاء في النظافة يتناول جمال الثياب المسؤول عنه في نفس الحديث . ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء كما في الحديث الآخر : " إن الله نظيف يحب النظافة" وفي الصحيح: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا" وفي السنن: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" وفيها عن أبي الأحوص الجشمي, قال: "رآني النبي صلى الله عليه وسلم وعليّ أطمار, فقال: " هل لك من مال ؟" قلت نعم قال: من أي مال ؟ قلت: من كل مل أتى الله من الإبل والشاء قال: " فلتر نعمته وكرامته عليك" . فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده, فإنه من الجمال الذي يحبه وذلك من شكره على نعمه وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسا وزينة

تجمّل ظواهرهم وتقوى تجمّل بواطنهم فقال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ وقال في أهل الجنة: ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ فجمّل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير . وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله . ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا كل ما خلقه جميل, فهو يحب كل ما خلقه ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئا , قالوا :ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوي الوجود مليح

(163/266)

واحتجوا بقول الله تعال: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ وقوله: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وقوله: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال ولا يرى في الوجود قبيحا . وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم والبغض في الله, والمعاداة فيه وإنكار المنكر والجهاد في سبيله, وإقامة حدوده ويرى

جمال الصور من الذكور والإناث من الجمال الذي يحبه الله فيتعبدون بفسقهم وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها وإن كان اتحاديا (ومعناه من يقول أن الخالق هو عين المخلوق) قال:هي مظهر من مظاهر الحق, ويسميها المظاهر الجمالية .

فصل:

وقابلهم الفريق الثاني فقالوا :قد ذم الله سبحانه وتعالى جمال الصور وتمام القامة والخلقة فقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ أي أموالا ومناظر . قال الحسن: هو الصور تفسير ابن كثير 3\134 وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" كتاب البر والصلة 4\1986 . قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك وإنما نفى نظر المحبة قالوا :وقد حرّم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة, وذلك من أعظم جمال الدنيا , وقال:[ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ﴾ طه 131, وفي الحديث "البذاذة من الإيمان" وقد ذم الله المسرفين . والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس .

وفصل النزاع أن يقال:الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع:منه ما يحمد ومنه ما يذم ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم فالمحمود منه ما كان

لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمّل للوفود وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه فإن ذلك محمود إذا تضمّن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوّه والمذموم منه ما كان للدنيا والرئاسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات, وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه فإن كثيرا من النفوس ليس لها همّة في سوى ذلك وأما ما لا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين, وتجرّد عن الوصفين .

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة وآخره سلوك فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل وجوارحه بالطاعة وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظافر فيعرفه بصفات الجمال الذي هو وصفه ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفوائد صـ 184.186 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : "يُوَارِي " : في محلِّ نصبٍ صفة لـ " لِبَاساً " .

وقوله : " وَرِيشاً " يحتملُ أن يكون من باب عَطْفِ الصِّفاتِ ، والمعنى : وصف اللِّبَاسِ بشيئين : مواراة السَّوْءَةِ ، وعبَّر عنها بالرِّيشِ لأنَّ الرِّيشَ زينة للطَّائِر ، كما أنَّ اللِّباسَ زينة للآدميِّين ، ولذلك قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " والرِّيشُ لباسُ الزِّنة ، استعير من ريش الطَّيْرِ ؛ لأَنَّهُ لباسه وزينته " .

ويحتمل أن يكون من باب عطف الشَّيءِ على غيره أي : أَنْزَلْنَا عليكم لباسين ، لباساً موصوفاً بالمُواراةِ ، ولِبَاساً موصوفاً بالزِّينةِ ، وهذا اختيارُ الزَّمَخْشَرِيِّ ، فإنَّهُ قال بعد ما حَكَيْتُه عنه آنفاً : " أي : أنزلنا عليكم لباسَيْن ، لباساً يُواري سَوْءاتكم ، ولباساً يُزَيِّنُكم ؛ لأنَّ الزِّينةَ غرضٌ صحيحٌ كما قال تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ [النحل : 6] وعلى هذا ، فالكلامُ في قوة حذف موصوف ، وإقامةِ صفته مُقامه ، والتَّقْديرُ : ولباساً ريشاً أي : ذا ريش " .

و" الرِّيْشُ " فيه قولان :

أحدهما : أنه اسم لهذا الشَّيءِ المعروف .

والثاني : أَنَّهُ مصدرٌ يقال : راشه يريشه رِيشاً إذا جعل فيه الرِّيشَ ، فينبغي أنْ يكون الريش مُشْتَرَكاً بين المصدر والعينِ ، وهذا هو التَّحقيق .

وقرأ عثمانُ وابن عبَّاسٍ والحسنُ ومجاهدٌ وقتادةُ والسُّلميُّ وعليُّ بْنُ الحسيْنِ وابنه زيْدٌ ، وأبو رجَاء ، وزرُّ بْنُ حبيشٍ وعاصمٌ ، وأبو عَمْروا – في رواية عنهما – : " وَرِيَاشاً " ، وفيها تأويلان :

أحدهما – وبه قال الزَّمَخْشَرِيُّ – : أَنَّهُ جمعُ رِيْش ، فيكون كشِعْب وشِعابٍ ، وذِئْبٍ وذِئَابٍ ، وقِدْحٍ وقِدَاحٍ .

والثاني : أَنَّه مصدر أيضاً ، فيكون رِيشٌ ورِيَاشٌ مصدرين لـ " رَاشَهُ اللَّهُ ريشاً ورِيَاشاً " أي : أَنْعَمَ عليه .

(166/266)

وقال الزجاجُ : " هما اللِّبَاسُ ، فعلى هذا هما اسمان للشَّيْءِ المَلْبُوسِ ، كما قالوا : لِبْسٌ ولباسٌ " .

وجوّز الفراء أن يكون " رِيَاش " جمع " رِيش " ، وأن يكون مصدراً فأخذ الزَّمَخْشَرِيُّ بأحد القولين ، وغيرُه بالآخر ، وأنشدوا قول الشاعر : [الوافر]

2445 - وَرِيشِي مِنْكُمُ وَهَوَايَ مَعْكُمْ . . .

وَإِنْ كَانَتْ زِيَارتُكُمْ لِمَامَا

روى ثَعْلَبٌ عن ابن الأعرابي قال : "كُلُّ شيءٍ يعيشُ به الإنسانُ ، من متاع ، أو مال ، أو مأكول ، فهو ريشٌ ورِيَاشٌ " وقال ابن السكّيتِ : " الرِّيَاشُ مختص بالثِّيابِ ، والأثاثِ ، والرِّيش قد يُطلق على سَائِرِ الأمْوالِ " .

قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ والضَّحاكُ والسُّدِّيُّ : " وريشاً يعني مالاً ، يقال تريش الرَّجُل إذا تَمَوَّلَ " .

وقيل : الرِّيشُ : الجمالُ كام تقدَّم أي : ما يتجملون به من الثِّيابِ .

وقوله : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ .

قرأ نافعٌ وابن عامرٍ والكسائيُّ : " لباسَ " بالنَّصْبِ ، والباقون بالرَّفْعِ .

فالنَّصْبُ نَسَقاً على " لِبَاساً " أي : أنزلنا لِبَاساً مُوارِياً وزينة ، وأنزلنا أيضاً لِبَاس التَّقْوَى ، وهذا يُقَوِّي كَوْنَ " رِيشاً " صفة ثانية لـ " لِبَاساً " الولى إذْ لو أراد أنَّهُ صفة لِبَاسٍ ثانٍ لأبرز موصوفه ، كما أبْرَزَ هذا اللِّبَاسَ المضاف للتَّقْوَى .

وأما الرَّفْعُ فمن خَمْسَةِ أوْجُهٍ :

أحدها : أن يكون "لِبَاس" مبتدأ ، و" ذلك" مبتدأ ثان و" خير" خبر الثاني ، والثاني وخبره خبر الأوّلِ ، والرَّابِطُ هنا اسم الإشارة ، وهو أحد الرَّوابِطِ الخَمْسَةِ المتفق عليها ، ولنا رابط سَادِسٌ ، فيه خلاف تقدَّم التنبيه عليه .

وهذا الوَجْهُ هو أوْجَهُ الأعَارِيبِ في هذه الآية الكريمة .

(167/266)

الثاني : أن يكون "لِبَاس" خبر مبتدأ محذوف أي : وهو لِبَاسُ ، وهذا قول أبي إسحاق ، وكأنَّ المعنى بهذه الجملة التَّفسيرُ للبَاس المتُقدم ، وعلى هذا ، فيكونُ قوله "ذِلَكَ" جملة أخرى من مبتدأ وخبر .

وقدَّره مكي بأحسن من تَقْدير الزَّجَّاجِ فقال : "وسَتْر العورة لباس التَّقْوَى" .

الثالث : أن يكون "ذلك" فَصْلاً بين المبتدأ وخبره ، وهذا قَوْلُ الحوفيّ ، ولا نعلم أنَّ أحداً من النُّحَاةِ أجَازَ ذلك ، إلاَّ أنَّ الواحِدِيَّ قال : [ومن قال] إن ذلك لَغْوٌ لم يكن على قوله دلالة ؛ لأنَّهُ يجوز أن يكون على أحد ما ذكرنا .

قال شهابُ الدِّين : "فقوله "لَغْوٌ" هو قريب من القول بالفَصْلِ لأنَّ الفَصْلَ لا محلَّ له من الإعرابِ على قول جمهور النَّحويين من البصريين والكوفيين .

الرابع : أن يكون "لِبَاس" مبتدأ و" ذلك "بَدَلٌ منه ، أو عطف بيان له ، أو نعت ، و" خيرٌ" خبره ، وهو معنى قول الزَّجَّاجِ وأبِي عليٍّ ، وأبِي بَكْرِ بْنِ الأَنْبَارِيِّ ، إلا أنَّ الحُوفِي قال : وأنا أرى ألاَّ يكون " ذلك " نعتاً لـ "لِبَاسُ التَّقْوَى " ؛ لأنَّ الأسْمَاء المبهمة أعرف ما فيه الألف واللاَّم ، وما أضيف إلى الألف واللاَّمِ ، وسبيل النَّعْتِ أن يكون مُسَاوِياً للمنعوت ، أو أقَلَّ منه تَعْرِيفاً ، فإنْ كان قد تقدَّم قول أحدٍ به فهو سهوٌ .

قال شهابُ الدِّين : أمّا القَوْلُ به فقد قيل كما ذَكَرْتُه عن الزَّجَّاج والفارسي وابنالأَنْبَارِيّ ، ونصَّ عليه أبو عليٍّ في " الحُجَّةِ " ، أيضاً وذكره الوَاحِدِيُّ .

وقال ابن عطيَّة : " هو أنبل الأقوال " .

(168/266)

وذكر مكيٌّ الاحتمالات الثلاثة : أعني كَوْنَهُ بَدَلاً ، أو بياناً ، أو نعتاً ، ولكن ما بحثه الحُوفِيُّ صحيحٌ من حيث الصِّناعةِ ، ومن حيثُ إنَّ الصَّحيحَ في ترتيب المعارف ما ذكر من كون الإشارات أعرف من ذي الأداة ؛ ولكن قد يُقَالُ : القائلُ بكونه نَعْتاً لا يجعله أعرف من ذِي الأَلِفِ واللام .

الخامس : جوَّز أبو البقاءِ أن يكون "لِبَاسُ " مبتدأ ، وخبره محذوف أي : ولباسُ التَّقْوى

ساتر عوراتكم وهذا تَقْدِيرٌ لا حاجَةَ إلَيْهِ .

وإسنادُ الإنزالِ إلى اللّبَاسِ : إمَّا لأنَّ " أنْزَلَ " بمعنى " خَلَقَ " كقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد ﴾ [الحديد : 25] ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] ، وإمَّا على ما يسمّيه أهل العلم التدريج ، وذلك أنَّهُ ينزِّلُ أسْبَابَهُ ، وهي الماء الذي هو سَبَبٌ في نبات القُطْنِ والكتَّانِ ، والمَرْعى الذي تَأْكُلُه البَهَائِمُ ذوات الصُّوف والشَّعَرِ ، والوَبَرِ التي يُتَّخَذُ منها الملابِسُ ؛ ونحوه قول الشاعر : [الرجز]

2446 - أقْبَلَ في المُسْتَنِّ مِنْ سَحَابَهْ . . .

أسْنِمَةُ الآبالِ فِي رَبَابَهْ

فجعله جَائِياً للأسنمة التي للإبل مجازاً لمَّا كان سبباً في تربيتها ، وقريب منه قول الآخر : [الوافر]

2447 - إذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بأرْضِ قَوْمٍ . . .

رَعَيْنَاهُ وإنْ كَانُوا غِضَابَا

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : جَعَلَ ما في الأرض منزَّلاً من السماء ؛ لأنَّهُ قضي ثَمَّ وكتب ، ومنه ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] .

وقال ابن عطيَّة : " وأيضاً فَخَلْقُ اللَّه وأفعاله ، إنَّما هي من علوٍ في القَدْر والمنزلة " ، وقد تقدَّمَ الكلامُ عليه أول الآية .

وفي قراءة عبد الله وأُبَيّ " ولِبَاسُ التَّقْوى خَيْرٌ " بإسقاط " ذلك " وهي مقوّية للقول بالفصل والبدلِ وعَطْفِ البَيَانِ .

(169/266)

وقرأ النَّحْوِيُّ : " ولبُوسُ " بالواو ورفع السِّين .

فأمَّا الرَّفع فعلى ما تقدَّم في " لباس " ، وأمَّا " لُبُوسُ " فلم يعينوها : هل هي بفتح اللام فيكون مثل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 80] ؟ أو بضمِّ اللاَّم على أنَّهُ جمع ؟ وهو مشكل ، وأكثر ما يُتَخَيَّل له أن يكون جمع لِبْسٍ بكسر اللام بمعنى مَلْبُوسٍ .

قوله : ﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ مبتدأ وخبر ، والإشارةُ به إلى جميع ما تقدَّم من إنزال اللِّبَاسِ والرِّيش ولباس التَّقْوَى .

وقيل : بل هو إشارة لأقرب مذكور ، وهو لباسِ التقوى فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 67. 71 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) ﴾

سترناكم عن الأسباب الظاهرة ، ويَسَّرنا لكم ما تدفعون به صنوفَ المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع .

ثم قال : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ فإن اللباس الظاهر يقي آفاتِ الدنيا ، ولباس التقوى يصون عن الآفات التي توجب سخط المولى ، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه . وللنَّفْس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب ، لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . وللسرِّ لباسٌ من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاون من الملاحظات .

ويقال تقوى العُبَّاد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفي مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص للباس التقوى عن شهود التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 527.528 ﴾

(170/266)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 27 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 30 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المقصود من ذكر القصص لا سيما قصص الأنبياء الاعتبار بها ، فكان بيان ما وقع بين آدم عليه السلام وبين الشيطان من شديد العداوة مقتضياً للتحذير من الشيطان ، وكان المقام خطراً والتخلص عسراً ، أشار إلى ذلك بالتأكيد وبيان ما سلط الشيطان به من المكايد الخفية والأسباب الدقيقة ليعلم الناجي أنه إنما نجا بمحض التوفيق ومجرد اللطف فيقبل على الشكر متبرئاً من الحول والقوة ، فقال منادياً لهم بما يفهم الاستعطاف والتراؤف والتحنن والترفق والاستضعاف : ﴿ يا بني آدم ﴾ أي الذي خلقته بيدي وأسكنته جنتي ثم أنزلته إلى دار محبتي إرادة الإعلاء لكم إلى الذروة من عبادتي والإسفال إلى الحضيض من معصيتي ﴿ لا يفتننكم ﴾ أي لا يخالطنكم بما يميلكم عن الاعتدال ﴿ الشيطان ﴾ أي البعيد المحترق بالذنوب ، يصدكم عما يكون سبباً لردكم إلى وطنكم بتزيين ما ينزع عنكم من لباس التقوى المفضي إلى هتك العورات الموجب لخزي الدنيا ، فيمنعكم بذلك من

دخول الجنة ويدخلكم النار ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ بما فتنهما به بعد أن كانا سكناها وتمكنا فيها وتوطناها ، وقد علمتم أن الدفع أسهل من الرفع فإياكم ثم إياكم ! فالآية من الاحتباك : ذكر الفتنة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً ، والإخراج ثانياً دليلاً على حذف ضده أو نظيره أولاً .

(5/267)

ولما كان قد بذل الجهد في إخراجهما ، فسر الإخراج – مشيراً إلى ذلك – بإطالة الوسواس وإدامة المكر والخديعة بالتعبير بالفعل المضارع فقال في موضع الحال من ضمير " الشيطان " : ﴿ينزع عنهما﴾ أي بالتسبيب بإدامة التزيين والأخذ من المأمن ﴿لباسهما﴾ أي الذي كان الله سبحانه قد سترهما به ما داما حافظين لأنفسهما من مواقعة ما نهيا عنه ، ودل على منافاة الكشف للجنة بالتعليل بقوله : ﴿ليريهما سوءاتهما﴾ فإن ذلك مبدأ ترك الحياة و" الحياء والإيمان في قرن " – كما أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما ، و" الحياء لا يأتي إلا بخير " – كما رواه الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

ولما كان نهي الشيطان عن فتنتنا إنما هو في الحقيقة نهي لنا عن الافتتان به ، فهو في قوة

ليشتد حذركم من فتنته فإنه دقيق الكيد بعيد الغور بديع المخاتله ؛ علل ذلك بقوله :

﴿ إنه يراكم ﴾ أي الشيطان ﴿ هو وقبيله ﴾ أي جنوده ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ عن مالك بن دينار أن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله .

(6/267)

ولما كان كأنه قيل : لم سلطوا علينا هذا التسليط العظيم الذي لا يكاد يسلم معه أحد ، قال مخففاً لأمرهم موهياً في الحقيقة لكيدهم : ﴿ إنا ﴾ أي فعلنا ذلك لأنا بما لنا من العظمة ﴿ جعلنا الشياطين ﴾ أي المحترقين بالغضب البعيدين من الرحمة ﴿ أولياء ﴾ أي قرباء وقرناء ﴿ للذين لا يؤمنون ﴾ أي يجددون الإيمان ، لأن بينهم تناسباً في الطباع يوجب الاتباع ، وأما أولياؤنا الذين منعناهم بقوتنا منه أو فتناهم يسيراً بهم ، ثم خلصناهم بلطفنا منهم فليسوا لهم بأولياء ، بل هم لهم أعداء وآيتهم أنهم يؤمنون ، والمعنى أنا مكناهم من مخاتلتكم بسترهم عنكم وإظهاركم لهم ، فسلطناهم بذلك على من حكمنا بأنه لا يؤمن بتزيينهم لهم وتسويلهم واستخفافهم بأن ينصروهم في بعض المواطن ويوصلوهم إلى شيء من المطالب ، فعلنا ذلك ليتبين الرجل الكامل – الذي يستحق الدرجات العلى ويتردد إليه الملائكة بالسلام والجنى – من غير فخذوا حذركم فإن الأمر خطر والخلاص عسر ،

وبعبارة أخرى : إنا سلكناكم طريقاً وجعلنا بجنبتيها أعداء يرونكم ولا ترونهم ، وأقدرناهم على بعضكم ، فمن سلك سواء السبيل نجا ومن شذ أسره العدو ، ومن دنا من الحافات بمرافقة الشبهات قارب العدو ومن قاربه استغواه ، فكلما دنا منه تمكن من أسره ، وكل من تمكن من أسره بعد الخلاص فاحذروا ، وعدم رؤيتنا لهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم على أنه قد صح تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذي رآه أبو هريره رضى الله عنه حين أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ الصدقة ، وكذا أبي بن كعب رضي الله عنه ، وحديث خالد بن الوليد رضي الله عنه في شيطان العزي معروف في السير ، وكذا حديث سواد بن قارب رضى الله عنه في إرشاد رئيه من الجن له ، وكذا خطر ابن مالك رضي الله عنه في مثل ذلك وغيرهما ، وفي شرحي لنظمي للسيرة كثير من ذلك ، وكذا حديث العفريت الذي تفلت على رسول الله صلى الله

(7/267)

عليه وسلم بشعلة من نار ليقطع عليه صلاته فأخزاه الله وأمكن منه رسول الله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم " لولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح مربوطاً بسارية

المسجد يتلعب به ولدان أهل المدينة " قال أبو حيان : إلا أن رؤيتهم في الصور نادرة كما أن الملائكة عليهم السلام تبدو في صور كحديث جبريل عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 20 . 23 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده أتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان فقال : ﴿ يَذَّكَّرُونَ يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة ﴾ وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ولطف وسوسته وشدة اهتمامه إلى أن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى .

فبهذا الطريق حذر تعالى بني آدم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان فقال : ﴿ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾ فيترتب عليه أن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم ، فترتب عليه خروجهما منها وأصل الفتون عرض الذهب على النار وتخليصه من الغش .

ثم أتى في القرآن بمعنى المحنة وههنا بحثان :

البحث الأول : قال الكعبي : هذه الآية حجة على من نسب خروج آدم وحواء وسائر

وجوه المعاصي إلى الشيطان وذلك يدل على أنه تعالى بريء منها .

فيقال له لم قلتم أن كون هذا العمل منسوباً إلى الشيطان يمنع من كونه منسوباً إلى الله تعالى ؟ ولم لا يجوز أن يقال إنه تعالى لما خلق القدرة والداعية الموجبتين لذلك العمل ، كان منسوباً إلى الله تعالى ؟ ولما أجرى عادته بأنه يخلق تلك الداعية بعد تزيين الشيطان ، وتحسينه تلك الأعمال عند ذلك الكافر ، كان منسوباً إلى الشيطان .

(8/267)

البحث الثاني : ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما أخرج آدم وحواء من الجنة ، عقوبة لهما على تلك الزلة ، وظاهر قوله : ﴿ إِنِّى جاعل فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] يدل على أنه تعالى خلقهما لخلافة الأرض وأنزلهما من الجنة إلى الأرض لهذا المقصود .

فكيف الجمع بين الوجهين ؟

وجواب : أنه ربما قيل حصل لمجموع الأمري ، والله أعلم .

ثم قال : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : ﴿ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ حال ، أي أخرجهما نازعاً لباسهما وأضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يتول ذلك لأن كان بسبب منه ، فأسند إليه كما

تقول أنت فعلت هذا ؟ لمن حصل منه ذلك الفعل بسبب .

وإن لم يباشره ، وكذلك لما كان نزع لباسهما بوسوسة الشيطان وغروره أسند إليه .

البحث الثاني : اللام في قوله : ﴿ لِيُرِيَهُمَا ﴾ لام العاقبة كما ذكرنا في قوله : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ [الأعراف : 20] قال ابن عباس رضي الله عنهما : يرى آدم سوأة حواء وترى حواء سوأة آدم .

البحث الثالث : اختلفوا في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم إنه النور ، وبعضهم التقى ، وبعضهم اللباس الذي هو ثياب الجنة وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس يقتضيه

والمقصود من هذا الكلام ، تأكيد التحذير لبني آدم ، لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره إلى هذا الحد فكيف يكون حال آحاد الخلق ؟ ثم أكد تعالى هذا التحذير بقوله : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ ﴾ يعني إبليس ﴿ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ أعاد الكناية ليحسن العطف كقوله : ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [الأعراف : 19] .

البحث الثاني : قال أبو عبيدة عن أبي زيد : "القبيل" الجماعة يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتي ، وجمعه قبل .

والقبيلة : بنو أب واحد .

وقال ابن قتيبة ، قبيله أصحابه وجنده ، وقال الليث : ﴿ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ أي هو ومن كان من نسله .

البحث الثالث : قال أصحابنا : إنهم يرون الأنس لأنه تعالى خلق في عيونهم إدراكاً والإنس لا يرونهم لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس ، وقالت المعتزلة : الوجه في أن الإنس لا يرون الجن ، رقة أجسام الجن ولطافتها .

والوجه في رؤية الجن للإنس ، كثافة أجسام الإنس ، والوجه في أن يرى بعض الجن بعضاً ، أن الله تعالى يقوي شعاع أبصار الجن ويزيد فيه ، ولو زاد الله في قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضاً ، ولو أنه تعالى كثف أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة لرأيناهم ، فعلى هذا كون الإنس مبصراً للجن موقوف عند المعتزلة إما على زيادة كثافة أجسام الجن ، أو على زيادة قوة أبصار الإنس .

البحث الرابع : قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ يدل على أن الإنس لا يرون الجن لأن قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص ، قال بعض العلماء ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأي صورة شاؤا وأرادوا ، لوجب أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس ، فلعل هذا الذي أشاهده وأحكم عليه بأنه ولدي أو زوجتي جنى صور نفسه بصورة ولدي أو زوجتي وعلى هذا التقدير فيرتفع الوثوق عن معرفة الأشخاص

، وأيضاً فلو كانوا قادرين على تخبيط الناس وإزالة العقل عنهم مع أنه تعالى بين العداوة الشديدة بينهم وبين الإنس ، فلم لا يفعلون ذلك في حق أكثر البشر ؟ وفي حق العلماء والأفاضل والزهاد ، لأن هذه العداوة بينهم وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى ، ولما لم يوجد شيء من ذلك ثبت أنه لا قدرة لهم على البشر بوجه من الوجوه .

(10/267)

ويتأكد هذا بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22] قال مجاهد : قال إبليس اعطينا أربع خصال : نرى ولا نرى ، ونخرج من تحت الثرى ، ويعود شيخنا فتى .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد احتج أصحابنا بهذا النص على أنه تعالى هو الذي سلط الشيطان الرجيم عليهم حتى أضلهم وأغواهم ، قال الزجاج : ويتأكد هذا النص بقوله تعالى : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ [مريم : 83] قال القاضي : معنى قوله : ﴿ جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ هو أنا حكمنا بأن الشيطان ولي لمن لا يؤمن ، قال ومعنى قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ هو أنا خلينا بينهم وبينهم ، كما يقال فيمن يربط الكلب في داره ولا يمنعه من

التوثب على الداخل ؛ إنه أرسل عليه كلبه .

والجواب : أن القائل إذا قال : إن فلاناً جعل هذا الثوب أبيض أو أسود ، لم يفهم منه أنه حكم به ، بل يفهم منه أنه حصل السواد أو البياض فيه ، فكذلك ههنا وجب حمل الجعل على التأثير والتحصيل ، لا على مجرد الحكم ، وأيضاً فهب أنه تعالى حكم بذلك ، لكن مخالفة حكم الله تعالى توجب كونه كاذباً وهو محال ، فالمفضي إلى المحال محال ، فكون العبد قادراً على خلاف ذلك ، وجب أن يكون محالاً .

وأما قوله أن قوله تعالى : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ أي خلينا بينهم وبين الكافرين فهو ضعيف أيضاً ، ألا ترى أن أهل السوق يؤذي بعضهم بعضاً ، ويشتم بعضهم بعضاً ، ثم إن زيداً وعمراً إذا لم يمنع بعضهم عن البعض .

لا يقال أنه أرسل بعضهم على البعض ، بل لفظ الإرسال إنما يصدق إذا كان تسليط بعضهم على البعض بسبب من جهته ، فكذا ههنا . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 44ـ46 ﴾

(11/267)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾

يقول : لا يضلّنكم الشيطان عن طاعتي فيمنعكم من الجنة ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة ﴾ حين تركا طاعتي وعصيا أمري

﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ يعني : لا يفتّننكم الشيطان عن دينكم في أمر الثياب فينزعها عنكم ، فتبدو عوراتكم ، كما فعل بأبويكم ، نزع عنهما لباسهما وأظهر عورتهما .

وقال بعض الحكماء : إنّ المعصية شؤم تضر بصاحبها فتجعله عرياناً كما فعلت بآدم

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ يعني : كونوا بالحذار منه ، فإنه يراكم هو أي إبليس وجنوده من الشياطين من حيث لا ترونهم .

يعني : كونوا على حذر لأنه يجري من بني آدم مجرى الدم وذكر أن إبليس لما لعن قال رب : إنّك باعث إلى بني آدم رسلاً وكتباً ، فما رسلي ؟ قال : الكهنة .

قال : فما كتابي ؟ قال : الوشم .

قال : فما قراءتي قال : الشعر قال : فما مسجدي ؟ قال : السوق .

قال : فما مؤذني ؟ قال : المزامير .

قال : فما بيتي ؟ قال : الحمام .

قال : فما مصائدي ؟ قال النساء .

قال : فما طعامي ؟ قال : كل ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال : فما شرابي ؟ قال : كل سكر .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَاء ﴾ يعني : قرناء ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي لا يصدقون بالآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا بني ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾

لا يعلّمنّكم ولا يستزلّنكم فتبدي برأيكم للناس في الطواف بطاعتكم . ﴿ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني الشيطان ﴿ يَرَاكُمْ ﴾ يا بني آدم ﴿ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ خيله وجنوده وهم الجن والشياطين .

(12/267)

قال ابن زيد : نسله ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ قال مجاهد : قال إبليس : جعل لنا أربعاً : نرى ولا يُرى ونخرج من تحت الثرى . ويعود شيخنا فتى .

قال مالك بن دينار : إن عدواً [يراك] ولا تراه لشديد [المؤنة] إلاّ مَنْ عصم الله .

وسمعت أبا القاسم [الحبيبي] قال : سمعت أبي قال : سمعت عليّ بن محمد الورّاق يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان ليّن وأنت ناعم الناحية والشيطان يراك وأنت لا تراه والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه ومن نفسك له عون وليس لك منه عون .

وقيل : صدر ابن آدم مسكن له ويجري من ابن آدم مجرى الدم ، وأنه لا يقاومه إلاّ بعون الله .

ومنه يقول : ولا أراه من حيث يراني . وعندما أنساه لا ينساني فسيدي إن لم [تغث] يسبيني كما سبا آدم من جنانك .

قال ذو النون المصري : إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإنّ الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه فإنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ ﴾ أعواناً وقرناء ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾

وهذا خطاب توجه إلى من كان من العرب يطوف بالبيت عرياناً ، فقيل لهم لا يفتننكم الشيطان بغروره كما فتن أبويكم من قبل حتى أخرجهما من الجنة ، ليكون إشعارهم بذلك أبلغ في الزجر من مجرد النهي .

﴿ ينزعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن لباسهما كان أظفاراً تستر البدن فنزعت عنهما وتركت زينة وتبصرة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن لباسهما كان نوراً ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : أن نزع عنهما لباسهما من تقوى الله وطاعته ، قاله مجاهد . ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ فيه قولان :

(13/267)

أحدهما : أجسادهما من العورة حين خرجا من لباسهما ، وهو مقتضى قول ابن عباس .

والثاني : سوأة معصيتهما حتى خرجا من تقوى الله وطاعته ، وهو معنى قول مجاهد .

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنَ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : قومه ، وهو قول الجمهور .

والثاني : جيلُهُ ، قاله السدي .

﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من حيث لا تبصرون أجسادهم .

والثاني : من حيث لا تعلمون مكرهم وفتنتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾

هذه المخاطبة لجميع العالم والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عراة ، فقيل كان ذلك من عادة قريش ، وقال قتادة والضحاك : كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن ، وقيل كانت العرب تطوف عراة إلا الحمس وهم قريش ومن والاها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الصحيح لأن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سنناً عظموا بها حرمتهم كانت هذه من ذلك ، فكان العربي إما أن يعيره أحد من الحمس ثوباً فيطوف فيه ، وإما أن يطوف في ثيابه ثم يلقيها ، وتمادى الأمر حتى صار عند العرب قربة فكانت العرب تقول نطوف عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا ولا نطوف في ثياب قد تدنسنا فيها بالذنوب ، ومن طاف في ثيابه فكانت سنتهم كما ذكرنا أن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها وتسمى تلك الثياب اللقى ، ومنه قول الشاعر :

كفى حزناً كرّي عليه كأنه . . . لقى بين أيدي الطائفين حريم

وكانت المرأة تطوف عريانة حتى كانت إحداهن تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . فما بدا منه فلا أحله

(14/267)

فنهى الله عز وجل عن جميع ذلك ونودي بمكة في سنة تسع لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، و" الفتنة " في هذه الآية الاستهواء والغلبة على النفس ، وظاهر قوله : ﴿ لا يفتننكم ﴾ نهي الشيطان ، والمعنى نهيهم أنفسهم عن الاستماع له والطاعة لأمره كما قالوا لا أرينك ها هنا ، فظاهر اللفظ نهي المتكلم نفسه ، ومعناه نهي الآخر عن الإقامة بحيث يراه ، وأضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس وذلك تجوز بسبب أنه كان ساعياً في ذلك ومسبباً له ، ويقال أب وللأم أبة ، وعلى هذا قيل أبوان ، و ﴿ ينزع ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿ أخرج ﴾ ، وتقدم الخلاف في " اللباس " من قول من قال الأظفار ومن قال النور ومن قال ثياب الجنة ، وقال مجاهد هي استعارة إنما أراد لبسة التقى المنزلة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقوله : ﴿ إنه يراكم ﴾ الآية ، زيادة في التحذير وإعلام أن الله عز وجل قد مكن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر وبحسب ذلك يجب أن يكون التحذر بطاعة الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد : والشيطان موجود قد قررته الشريعة وهو جسم ، ﴿ وقبيلة ﴾ يريد نوعه وصنفة وذريته .

و ﴿ حيثُ ﴾ مبنية على الضم ، ومن العرب من يبينها على الفتح ، وذلك لأنها تدل على موضع بعينه ، قال الزجاج : ما بعدها صلة لها وليست مضافة إليه ، قال أبو علي : هذا غير مستقيم وليست ﴿ حيث ﴾ بموصولة إذ ليس ثم عائد كما في الموصولات ، وهي مضافة إلى ما بعدها .

ثم أخبر عز وجل أنه صير " الشياطين أولياء " أي صحابة ومداخلين إلى الكفرة الذين لا إيمان لهم ، وذكر الزهراوي أن جعل هنا بمعنى وصف .

قال القاضي أبو محمد : وهي نزعة اعتزالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان ﴾

(15/267)

قال المفسرون : هذا الخطاب للذين كانوا يطوفون عراةً ، والمعنى : لا يخدعنّكم ولا يضلنّكم بغروره ، فيزِّين لكم كشف عوراتِكم ، كما أخرج أبويكم من الجنة بغروره .

وأضيف الإخراج ونزع اللباس إليه ، لأنه السبب .

وفي "لباسهما" أربعة أقوال .

أحدها : أنه النور ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وقد ذكرناه عن ابن منبه .

والثاني : أنه كان كالظُفُر ؛ فلما أكلا ، لم يبق عليهما منه إلا الظُفر ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ وبه قال عكرمة ، وابن زيد .

والثالث : أنه التقوى ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه كان من ثياب الجنة ، ذكره القاضي أبو يعلى .

قوله تعالى : ﴿ ليريَهما سوءاتهما ﴾ أي : ليري كل واحد منهما سوأة صاحبه .

﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ قال مجاهد : قبيله : الجن والشياطين .

قال ابن عباس : جعلهم الله يَجرون من بني آدم مجرى الدم ، وصدور بني آدم مساكن لهم ، فهم يرون بني آدم ، وبنو آدم لا يرونهم .

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ قال الزجاج : سلَّطناهم عليهم ، يزيدون في غيّهم .

وقال أبو سليمان : جعلناهم موالين لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾

فيه مسألتان :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ﴾ أي لا يصرفنّكم الشيطان عن الدِّين ؛ كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة .

"أَبٌ" للمذكر ، و"أبة" للمؤنث .

فعلى هذا قيل : أبوان .

﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ في موضع نصب على الحال .

ويكون مستأنفًا فيوقف على "مِنَ الْجَنَّةِ" .

﴿ لِيُرِيَهُمَا ﴾ نصب بلام كيّ .

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ الأصل "يرءاكم" ثم خفّفت الهمزة .

"وَقَبِيلُهُ" عطف على المضمر وهو توكيد ليحسن العطف ؛ كقوله : ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ .

وهذا يدل على أنه يقبح رأيتك وعمرو ، وأن المضمر كالمظهر .

(16/267)

وفي هذا أيضاً دليل على وجوب ستر العورة؛ لقوله: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾.

قال الآخرون: إنما فيه التحذير من زوال النعمة؛ كما نزل بآدم صلى الله عليه وسلم.

هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك.

الثانية قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ "قَبِيلُهُ" جنوده.

قال مجاهد: يعني الجن والشياطين.

ابن زيد: "قبيله" نسله.

وقيل: جيله.

﴿ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجنّ لا يُرَوْن؛ لقوله: "مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ".

وقيل: جائز أن يُرَوْا؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يُريهم كشف أجسامهم حتى تُرى.

قال النحاس: "مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ" يدل على أن الجن لا يُرَون إلا في وقت نبيّ؛ ليكون ذلك دلالة على نبوّته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يُرَون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم.

وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قال القشيرِيّ: أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم.

وفي الخبر : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " وقال تعالى : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس ﴾ [الناس : 5] .

وقال عليه السلام : " إن للمَلك لمة وللشيطان لَمَّة أي بالقلب فأما لمة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق " وقد تقدم في "البقرة" .

وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة .

وقد خرّج البخاريّ " عن أبي هريرة قال : وكّلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ، ذكر فيها أنه أخذ الجِنّي الذي كان يأخذ التمر ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "ما فعل أسِيرك البارحة" " وقد تقدّم في "البقرة" .

(17/267)

وفي صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح مُوثَقاً يلعب به وِلدان أهلِ المدينة" في العِفريت الذي تَفَلَّت عليه .

وسيأتي في "صا " إن شاء الله تعالى .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي زيادة في عقوبتهم وسوّينا بينهم في الذهاب عن الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾

قيل : هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى : لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وإنما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة إبليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ يعني آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى أن من قدر على إخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الأولى فحذر الله عز وجل بني آدم وأمرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الأفعال الرديئة في قلوب بني آدم فهذه فتنته التي نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها .

قوله تعالى : ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ إنما أضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك لأن نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند إليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الأظفار تذكرة وزينة ومنافع ، وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى : كان لباس آدم وحواء نوراً ، وقال مجاهد : كان لباسهما التقى .

وفي رواية عنه التقوى وقيل إن لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس ينصرف إليه ولأن النزع لا يكون إلا بعد اللبس ﴿ ليريهما سوءاتهما ﴾ يعني : ليرى آدم عورة حواء وترى عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوءة بعض ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ يعني أن إبليس يراكم يا بني آدم هو وقبيله إنما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضاً ، وقال الليث : كل جيل من جن أو إنس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أي من هو من نسله ، وحكى أبو عبيدة عن أبي يزيد القبيل : ثلاثة فصاعداً من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد .

وقال الطبري : قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن .

وقال مجاهد : الجن والشياطين وقال ابن يزيد : قبيله نسله .

وقال ابن عباس رضي عنهما : هو ولده وقوله ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ يعني أنتم يا بني آدم ، قال العلماء رحمهم الله : إن الله تعالى خلق في عيون الجن إدراكاً يرون بذلك الإدراك الإنس ولم يخلق في عيون الإنس هذا الإدراك فلم يروا الجن .

وقالت المعتزلة الوجه في أن الإنس لا يرون الجن ورقة أجسام الجن ولطافتها والوجه في رؤية

الجن للإنس كثافة أجسام الإنس والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضاً أن الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضاً ولو جعل في أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها .

وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى " كما قال تعالى : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم ، وقال مجاهد : قال إبليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى .

(19/267)

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء ﴾ يعني أعواناً وقرباء ﴿ للذين لا يؤمنون ﴾ قال الزجاج يعني سلَّطانهم عليهم يزيدون في غيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(20/267)

وقال أبو حيان :

﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ .

أي لا يستهوينّكم ويغلب عليكم وهو نهي للشيطان والمعنى نهيهم أنفسهم عن الإصغاء إليه والطواعية لأمره كما قالوا لا أرينك هنا ومعناه النهي عن الإقامة بحيث يراه ، وكما في موضع نصب أي فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم ويجوز أن يكون المعنى لا يخرجنّكم عن الدين بفتنته إخراجاً مثل إخراجه أبويكم ، وقرأ يحيى وإبراهيم : ﴿ لا يفتننكم ﴾ بضمّ الياء من أفتن ، وقرأ زيد بن علي : لا يفتنكم بغير نون توكيد والظاهر أنّ لباسهما هو الذي كان عليهما في الجنة ، وقال مجاهد هو لباس التقوى ﴿ سوءاتهما ﴾ هو ما يسوءهما من المعصية وينزع حال من الضمير في ﴿ أخرج ﴾ أو من ﴿ أبويكم ﴾ لأنّ الجملة فيها ضمير الشيطان وضمير الأبوين فلو كان بدل ينزع نازعاً تعين الأول لأنه إذ ذاك لوجوز الثاني لكان وصفاً جرى على غير من هوله فكان يجب إبراز الضمير وذلك على مذهب البصريين وينزع حكاية أمر قد وقع لأنّ نزع اللباس عنهما كان قبل الإخراج ونسب النزع إلى الشيطان لما كان متسبباً فيه .

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ أي إنّ الشيطان وهو إبليس يبصركم هو وجنوده ونوعه وذريته من الجهة التي لا تبصرونه منها وهم أجسام لطيفة معلوم من هذه الشريعة وجودهم ، كما أنّ الملائكة أيضاً معلوم وجودهم من هذه الشريعة ولا يستنكر وجود أجسام لطيفة جدّاً لا نراها نحن ألا ترى أنّ الهواء جسم لطيف لا ندركه نحن وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده وقد صحّ تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذي رآه أبو هريرة حين جعل يحفظ تمرّ الصدقة والعفريت الذي رآه الرسول وقال فيه : " لولا دعوة أخي سليمان لربطته إلى سارية من سواري المسجد " ، وكحديث خالد بن الوليد حين سير لكسر ذي الخلصة ، وكحديث سواد بن قارب مع رئية من الجنّ إلا أنّ رؤيتهم في الصور نادرة كما أنّ الملائكة تبدو في صور كحديث جبريل وحديث الملك الذي أتى الأعمى والأقرع والأبرص وهذا أمر قد استفاض في الشريعة فلا يمكن ردّه أعني تصورهم في بعض الأحيان في الصّور الكثيفة ، وقال الزمخشري : وفيه دليل بيّن على أنّ الجن لا يُرون ولا يظهرون للإنس وأنّ إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم وأنّ زعم من يدّعي رؤيتهم زور ومخرفة انتهى ، ولا دليل في الآية على

ما ذكر لأنه تعالى أثبت أنهم يروننا من جهة لا نراهم نحن فيها وهي الجهة التي يكونون فيها على أصل خلقتهم من الأجسام اللطيفة ولو أراد نفي رؤيتنا على العموم لم يتقيّد بهذه الحيثية وكان يكون التركيب أنه يراكم هو وقبيله وأنتم لا ترونهم وأيضاً فلو فرضنا أنّ في الآية دلالة لكان من العام المخصوص بالحديث النبوي المستفيض فيكونون مرئيين في بعض الصور لبعض الناس في بعض الأحيان وفي كتب التحرير أنكر جماعة من الحكماء تكرّر الجن والشياطين وتصوّرهم على أي جهة شاؤوا وقوله ﴿ إنه يراكم ﴾ تعليل للنهي وتحذير من فتنته فإنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون وفي الحديث

(22/267)

أنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم إشارة إلى أنه لا يفارقه وأنه يرصد غفلاته فيتسلط عليه والظاهر أن الضمير في ﴿ أنه ﴾ عائد على الشيطان ، وقال الزمخشري : والضمير في ﴿ أنه ﴾ ضمير الشأن والحديث انتهى ، ولا ضرورة تدعو إلى هذا ﴿ وقبيله ﴾ معطوف على الضمير المستكن في ﴿ يراكم ﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر أو معطوفاً على موضع اسم إن على مذهب من يجيز ذلك ، وقرأ اليزيدي ﴿ وقبيله ﴾ بنصب اللام عطفاً على اسم إنّ إن كان الضمير يعود على الشيطان ﴿ وقبيله ﴾ مفعول

معه أي مع قبيله ، وقرىء شاذاً من حيث لا ترونه بإفراد الضمير فيحتمل أن يكون عائداً على الشيطان ﴿ وقبيله ﴾ إجراء له مجرى اسم الإشارة فيكون كقوله :

فيها خطوط من سواد وبلق . . .

كأنه في الجلد توليع البهق

أي كان ذلك ويحتمل أن يكون عاد الضمير على الشيطان وحده لكونه رأسهم وكبيرهم وهم له تبع وهو المفرد بالنّهي أولاً .

﴿ إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ أي صيّرنا الشياطين ناصريهم وعاضديهم في الباطل ، وقال الزجاج : سلطناهم عليهم يزيدن في غيّهم فيتابعونهم على ذلك فصاروا أولياءهم ، وقيل : جعلناهم قرناء لهم ، وحكى الزهراوي أنّ جعل هنا بمعنى وصف وهي نزغة اعتزالية ، وقال الزمخشري : خلّينا بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى نولوهم وأطاعوهم فيما سولوا لهم من الكفر والمعاصي وهذا تحذير آخر أبلغ من الأوّل ، انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(23/267)

وقال أبو السعود :

﴿ يا بني آدم ﴾ تكريرُ النداءِ للإيذان بكمال الاعتناءِ بمضمون ما صدر به ، وإيرادُهم بهذا العنوان مما لا يخفى سببُه ﴿ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾ أي لا يوقِعنّكم في الفتنة والمحنة بأن يمنعَكم من دخول الجنة ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الجنة ﴾ نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي لا يفتِننّكم فتنةً مثلَ إخراجِ أبويكم ، وقد جُوّز أن يكون التقديرُ لا يُخرِجَنكم بفتنته إخراجاً مثلَ إخراجِه لأبويكم ، والنهيُ وإن كان متوجهاً إلى الشيطان لكنه في الحقيقة متوجّهٌ إلى المخاطبين كما في قولك : لا أُرَيّنك ها هنا ، وقد مر تحقيقُه مراراً ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتهما ﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج ، وإسنادُ النزعِ إليه للتسبيب ، وصيغةُ المضارعِ لاستحضار الصورة ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ أي جنودُه وذريتُه استئنافٌ لتعليل النهي وتأكيدِ التحذيرِ لا منه ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ (من) لابتداء غايةِ الرؤيةِ ، وحيث ظرفٌ لمكان انتفاءِ الرؤية ولا ترَوْنهم في محل الجرّ بإضافة الظرفِ إليه ، ورؤيتُهم لنا من حيث لا نراهم لا تقتضي امتناعَ رؤيتِنا لهم مطلقاً واستحالةَ تمثّلِهم لنا .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين ﴾ جُعل قبيلُه من جملته فجُمع ﴿ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بإرسالهم عليهم وتمكينِهم من إغوائهم وحمِلهم

على ما سوّلوا لهم أولياءَ أي قُرناءَ مسلّطين عليهم ، والجملة تعليلٌ آخرُ للنهي وتأكيدٌ للتحذير إثرَ تحذير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(24/267)

وقال الآلوسى :

﴿ يا بنى آدَمَ ﴾ تكرير النداء للإيذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صدر به ﴿ لاَيَفْتِنَنّكُمُ الشيطان ﴾ أي لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم بما يمنعكم به عن دخول الجنة فتطيعوه وقرىء ﴿ يَفْتِنَنّكُمُ ﴾ بضم حرف المضارعة من أفتنه حمله على الفتنة ، وقرىء ﴿ يَفْتِنَكُمُ ﴾ بغير توكيد ، وهذا نهي للشيطان في الصورة والمراد نهي المخاطبين عن متابعته وفعل ما يقود إلى الفتنة ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الجنة ﴾ أي كما فتن أبويكم ومحنهما بأن أخرجهما منها فوضع السبب موضع المسبب ، وجوز أن يكون التقدير لا يفتننكم فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم أو لا يخرجنكم بفتنته إخراجاً مثل إخراجه أبويكم ، ونسبة الإخراج إليه لأنه كان بسبب إغوائه ، وكذا نسبة النزع إليه في قوله سبحانه : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ والجملة حال من ﴿ أَبَوَيْكُم ﴾ أو من فاعل ﴿ أَخْرَجَ ﴾ ولفظ المضارع على ما قاله القطب لحكاية الحال الماضية لأن النزع السلب وهو

ماض بالنسبة إلى الإخراج وإن كان العري باقياً .

وقوله جل شأنه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ تعليل للنهي كما هو معروف في الجملة المصدرة بإن في أمثاله وتأكيد للتحذير لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف ، والضمير في ﴿ أَنَّهُ ﴾ للشيطان .

وجوز أن يكون للشأن وهو تأكيد للضمير المستتر في ﴿ يَرَاكُمْ ﴾ وقبيله عطف عليه لا على البارز لأنه لا يصلح للتأكيد .

وجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية و ﴿ حَيْثُ ﴾ ظرف لمكان انتفاء الرؤية وجملة ﴿ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ في محل جر بالإضافة ، وعن أبي إسحاق أن ﴿ حَيْثُ ﴾ موصولة وما بعد صلة لها .

ولعل مراده أن ذلك كالموصول وإلا فلا قائل به غيره كما قال أبو علي الفارسي .

والقبيل الجماعة فإن كانوا من أب واحد فهم قبيلة .

(25/267)

والمراد بهم هنا جنوده من الجن .

وقرأ اليزيدي ﴿ وَقَبِيلَهُ ﴾ بالنصب وهو عطف على اسم إن .

ويتعين كون الضمير للشيطان ولا يصح كونه للشأن خلافاً لمن وهم فيه لأنه لا يصلح العطف عليه ولا يتبع بتابع .

والقضية مطلقة لا دائمة فلا تدل على ما ذهب إليه المعتزلة من أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ولا يتمثلون .

ويشهد لما قلنا ما صح من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لمقدمهم حين رام أن يشغله عليه الصلاة والسلام عن صلاته فأمكنه الله تعالى منه وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد يلعب به صبيان المدينة فذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه .

ورؤية ابن مسعود لجن نصيبين .

وما نقل عن الشافعي رضي الله تعالى عنه من أن من زعم أنه رآهم ردت شهادته وعزر لمخالفته القرآن محمول كما قال البعض على زاعم رؤية صورهم التي خلقوا عليها إذ رؤيتهم بعد التشكل الذي أقدرهم الله تعالى عليه مذهب أهل السنة وهو رضي الله تعالى عنه من ساداتهم .

وما نوزع به القول بقدرتهم على التشكل من استلزامه رفع الثقة بشيء فإن من رأى ولو ولده يحتمل أنه رأى جنياً تشكل به مردود بأن الله تعالى تكفل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدي لمثل ذلك المترتب عليه الريبة في الدين ورفع الثقة بعالم وغيره فاستحال شرعاً الاستلزام المذكور .

وقول العلامة البيضاوي بعد تعريف الجن في سورتهم بما عرف .

وفيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله تعالى بذلك ناشىء من عدم الاطلاع على الأحاديث الصحيحة الكثيرة المصرحة برؤيته صلى الله عليه وسلم لهم وقراءته عليهم وسؤالهم منه الزاد لهم ولدوابهم على كيفيات مختلفة .

وعندي أنه لا مانع من رؤيته صلى الله عليه وسلم للجن على صورهم التي خلقوا عليها فقد رأى جبريل عليه السلام بصورته الأصلية مرتين وليست رؤيتهم بأبعد من رؤيته .

(26/267)

ورؤية كل موجود عندنا في حيز الإمكان واللطافة المانعة من رؤيتهم عند المعتزلة لا توجب الاستحالة ولا تمنع الوقوع خرقاً للعادة .

وكذا تعليل الأشاعرة عدم الرؤية بأن الله تعالى لم يخلق في عيون الإنس قوة الإدراك لا يقتضي الاستحالة أيضاً لجواز أن يخلق الله تعالى في عين رسوله عليه الصلاة والسلام الرائي له جل شأنه بعيني رأسه على الأصح ليلة المعراج تلك القوة فيراهم .

بل لا يبعد القول برؤية الأولياء رضي الله تعالى عنهم لهم كذلك لكن لم أجد صريحاً ما يدل

على وقوع هذه الرؤية .

وأما رؤية الأولياء بل سائر الناس لهم متشكلين فكتب القوم مشحونة بها ودفاتر المؤرخين والقصاص ملأى منها .

وعلى هذا لا يفسق مدعي رؤيتهم في صورهم الأصلية إذا كان مظنة للكرامة ، وليس في الآية أكثر من نفي رؤيتهم كذلك بحسب العادة .

على أنه يمكن أن تكون الآية خارجة مخرج التمثيل لدقيق مكرهم وخفي حيلهم وليس المقصود منها نفي الرؤية حقيقة .

ومن هذا يعلم أن القول بكفر مدعي تلك الرؤية خارج عن الإنصاف فتدبر .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي قرناء لهم مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم منهم ، والجملة إما تعليل آخر للنهي وتأكيد للتحذير إثر تأكيد وإما فذلكة لحكاية السابقة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(27/267)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾

أعيد خطاب بني آدم ، فهذا النّداء تكملة للآي قبله ، بُني على التّحذير من متابعة الشّيطان إلى إظهار كيده للنّاس من ابتداء خلقهم ، إذ كاد لأصلهم .

والنّداء بعنوان بني آدم : للوجه الذي ذكرتُه في الآية قبلها ، مع زيادة التّنويه بمنّة اللّباس توكيداً للتّعريض بحماقة الذين يحجّون عُراة .

وقد نهوا عن أن يفتنهم الشّيطان ، وفتون الشّيطان حصول آثار وسوسته ، أي لا تمكّنوا الشّيطان من أن يفتنكم ، والمعنى النّهي عن طاعته ، وهذا من مبالغة النّهي ، ومنه قول العرب لا أَعْرِفَنَّك تفعل كذا : أي لا تَفْعَلَن فأعْرِفَ فعلك ، لا أرَيَنَّكَ هنا : أي لا تحضرن هنا فأراك ، فالمعنى لا تطيعوا الشّيطان في فتْنِهِ فيفتنَكم ومثل هذا كناية عن النّهي عن فعل والنّهي عن التّعرّض لأسبابه .

وشُبّه الفتون الصّادر من الشّيطان للنّاس بِفَتنِهِ آدمَ وزوجَه إذْ أقدمهما على الأكل من الشجّرة المنهي عنه ، فأخرجهما من نعيم كانا فيه ، تذكيراً للبشر بأعظم فتنة فتن الشّيطان بها نوعهم ، وشملتْ كلّ أحد من النّوع ، إذ حُرم من النّعيم الذي كان يتحقق له لو بقي أبواه في الجنّة وتناسلا فيها ، وفي ذلك أيضاً تذكير بأنّ عداوة البشر للشّيطان موروثة ، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده .

و(ما) في قوله : ﴿ كما أخرج ﴾ مصدريّة ، والجار والمجرور في موضع الصّفة لمصدر محذوف هو مفعول مطلق ليفتننّكم ، والتّقدير : فُتوناً كإخراجه أبويكم من الجنّة ، فإنّ إخراجه إياهما من الجنّة فتون عظيم يشبه به فتون الشّيطان حين يراد تقريب معناه للبشر وتخويفهم منه .

والأبوان تثنية الأب ، والمراد بهما الأبُ والأمّ على التّغليب ، وهو تغليب شائع في الكلام وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولأبويه ﴾ في سورة النّساء (11) .

(28/267)

وأطلق الأب هنا عن الجدّ لأنّه أب أعلى ، كما في قول النبي : أنا ابن عبدِ المطّلب .

وجملة : ينزع عنهما لباسهما ﴾ في موضع الحال المقارنة من الضّمير المستتر في : ﴿ أخرج ﴾ أو من : ﴿ أبويكم ﴾ والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سَوْآتهما لأنّ انكشاف السوءة من أعظم الفظائع في متعارف النّاس .

والتّعبير عمّا مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصّورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين .

واللّباسُ تقدّم قريباً ، ويجوز هنا أن يكون حقيقة وهو لباسٌ جلَّلهما الله به في تلك الجنّة

يحجب سوآتهما ، كما روي أنّه حِجاب من نور ، وروي أنّه كقشر الأظفار وهي روايات غير صحيحة .

والأظهر أنّ نزع اللّباس تمثيل لحال التّسبّب في ظهور السوءة .

وكرّر التّنويه باللّباس تمكيناً للتّمهيد لقوله تعالى بعده : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 31] .

وإسناد الإخراج والنّزع والإراءة إلى الشّيطان مجاز عقلي ، مبني على التّسامح في الإسناد بتنزيل السّبب منزلة الفاعل ، سواء اعتبر النّزع حقيقة أم تمثيلاً ، فإنّ أطراف الإسناد المجازي العقلي تكون حقائق ، وتكون مجازات ، وتكون مختلفة ، كما تقرّر في علم المعاني .

(29/267)

واللاّم في قوله : ﴿ ليريهما سوآتهما ﴾ لام التّعليل الادّعائي ، تبعاً للمجاز العقلي ، لأنّه لمّا أسند الإخراج والنّزع والإراءة إليه على وجه المجاز العقلي ، فجعل كأنّه فاعل الإخراجِ ونزعِ لباسهما وإراءتِهما سوآتِهما ، ناسب أن يجعل له غرض من تلك الأفعال وهو أن يُريهما سَوآتهما ليَتم ادّعاء كونه فاعلَ تلك الأفعال المضرّة ، وكونِه قاصداً من ذلك الشّناعة والفظاعة ، كشأن الفاعلين أن تكون لهم علل غائية من أفعالهم إتماماً للكيد ، وإنّما

الشّيطان في الواقع سبب لرؤيتهما سوآتهما ، فانتظم الإسناد الادّعائي مع التّعليل الادّعائي ، فكانت لام العلّة تقوية للإسناد المجازي ، وترشيحاً له ، ولأجل هذه النّكتة لم نجعل اللاّم هنا للعاقبة كما جعلناها في قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووُري عنهما من سوآتهما ﴾ [الأعراف : 20] إذ لم تقارن اللاّم هنالك إسناداً مجازياً .

وفي الآية إشارة إلى أنّ الشّيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدم لأنّه يسرّه أن يراه في حالة سوء وفظاعة .

وجملة : ﴿ إنه يريكم هو وقبيله ﴾ واقعة موقع التّعليل للنّهي عن الافتتان بفتنة الشّيطان ، والتّحذير من كيده ، لأنّ شأن الحَذِر أن يَرصد الشّيء المخوف بنظره ليحترس منه إذا رأى بَوادره ، فأخبر الله النّاس بأنّ الشّياطين تَرى البشر ، وأنّ البشر لا يرونها ، إظهاراً للتّفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النّاس منهم ، فإنّ جانب كيدهم قويّ متمكّن وجانب حذر النّاس منهم ضعيف ، لأنّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري .

فليس المقصود من قوله : ﴿ إنه يركم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ تعليم حقيقة من حقائق الأجسام الخفيّة عن الحواس وهي المسمّاة بالمجرّدات في اصطلاح الحكماء ويسمّيها علماؤنا الأرواح السفليّة إذ ليس من أغراض القرآن التّصدّي لتعليم مثل هذا إلاّ ما له أثر في التّزكية النّفسية والموعظة .

والضّمير الذي اتّصلت به (إنّ) عائد إلى الشّيطان وعُطف : ﴿ وقبيله ﴾ على الضّمير المستتر في قوله : ﴿ يريكم ﴾ ولذلك فصل بالضّمير المنفصل .

وذُكر القبيل ، وهو بمعنى القبيلة ، للدّلالة على أنّ له أنصاراً ينصرونه على حين غفلة من النّاس ، وفي هذا المعنى تقريب حال عداوةِ الشّياطين بما يعهده العرب من شدّة أخذِ العدوّ عدوّه على غرّة من المأخوذ ، تقول العرب : أتَاهم العَدوّ وهم غَارّون .

وتأكيد الخبر بحرف التّوكيد لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشّيطان وفتنته منزلة من يتردّدون في أنّ الشيطان يراهم وفي أنّهم لا يرونه .

و﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ ابتداء مكان مبهم تنتفي فيه رؤية البشر ، أي من كلّ مكان لا ترونهم فيه ، فيفيد : إنّه يراكم وقبيلهُ وأنتم لا ترونه قريباً كانوا أو بعيداً ، فكانت الشّياطين محجوبين عن أبصار البشر ، فكان ذلك هو المعتاد من الجنسين ، فرؤية ذوات الشّياطين منتفية لا محالة ، وقد يخول الله رؤية الشّياطين أو الجنّ متشكّلة في أشكال الجسمانيات ، معجزةً للأنبياء كما ورد في الصّحيح:

" إنّ عفريتاً من الجنّ تَفَلَّت عليّ اللّيلةَ في صلاتي فَهَمَمْت أن أوثقه في سارِية من المسجد " الحديث ، أو كرامةً للصّالحين من الأمم كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة ، وقول النّبيء صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة : " ذلك شيطان " كما في

"الصّحيحين" ، ولا يكون ذلك إلاّ على تشكل الشّيطانِ أو الجنّ في صورة غير صورته الحقيقيّة ، بتسخير الله لتتمكّن منه الرّؤية البشريّة ، فالمرئيّ في الحقيقة الشّكل الذي ماهيةُ الشّيطان من ورائه ، وذلك بمنزلة رؤية مكانٍ يُعلم أنّ فيه شيطاناً ، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصّادق ، فلولا الخبر لما عُلم ذلك .

(31/267)

وجملة : ﴿ إنا جعلنا الشيطان أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً قصد منه الانتقال إلى أحوال المشركين في ائتمارهم بأمر الشّيطان ، تحذيراً للمؤمنين من الانتظام في سلكهم ، وتنفيراً من أحوالهم ، والمناسبة هي التّحذير وليس لهذه الجملة تعلّق بجملةِ : ﴿ إنه يريكم هو وقبيله ﴾ .

وتأكيد الخبر بحرف التّأكيد للاهتمام بالخبر بالنّسبة لمن يسمعه من المؤمنين .

والجعل هنا جعل التّكوين ، كما يعلم من قوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ [الأعراف : 24] بمعنى خلقنا الشّياطين .

(32/267)

و ﴿ أولياءَ ﴾ حال من ﴿ الشياطين ﴾ وهي حال مقدرة أي خلقناهم مُقدرة ولَايتُهم للّذين لا يؤمنون ، وذلك أنّ الله جبل أنواع المخلوقات وأجناسَها على طبائِع لا تنتقل عنها ، ولا تقدر على التّصرّف بتغييرها : كالافتراس في الأسد ، واللّسع في العقرب ، وخلق للإنسان العقلَ والفكر فجعله قادراً على اكتساب ما يختار ، ولما كان من جبلة الشّياطين حبّ ما هو فساد ، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنّه قد يتطلّب الأمر العائد بالفساد ، إذا كان له فيه عاجلُ شهوة أو كان يشبه الأشياء الصّالحة في بادىء النّظرة الحمقاء ، كان الإنسان في هذه الحالة موافقاً لطبع الشّياطين ، ومؤتمراً بما تسوله إليه ، ثمّ يغلِب كسب الفساد والشرّ على الذين توغّلوا فيه وتدرّجوا إليه ، حتّى صار المالكَ لإراداتهم ، وتلك مَرتبَة المشركين ، وتتفاوت مراتب هذه الولاية ، فلا جرم نشأت بينهم وبين الشّياطين ولاية ووفاق لتقارب الدّواعي ، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة التي أثبتها قوله : ﴿ إنّ الشيطان لكما عدو مبين ﴾ [الأعراف : 22] وقوله ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ [الأعراف : 24] فصارت ولاية ومحبّة عند بلوغ ابن آدم آخرَ دركات الفساد ، وهو الشّرك وما فيه ، فصار هذا جعلا جديداً ناسخاً للجعل الذي في قوله : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ كما تقدّمت الإشارة إليه هنالك ، فما في هذه الآية مقيّد للإطلاق الذي في الآية الأخرى تنبيها على أن من حقّ المؤمن أن لا يوالي الشّيطان .

والمراد بالذين لا يؤمنون المشركون ، لأنّهم المضادون للمؤمنين في مكّة ، وستجيء زيادة بيان لهذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم ﴾ في هذه السورة (35) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(33/267)

وقال القاسمي :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي : لا يخدعنكم عن دخول الجنة ، بنزع لباس الشريعة والتقوى عنكم ، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم : ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ نعت لمصدر محذوف ، أي : لا يفتننكم فتنةً مثل إخراج أبيكم .

﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ أي : الظاهر بسبب نزع لباس التقوى ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ أي : الظاهرة الدالة على السوأة الباطنة . وجملة : ﴿ يَنْزِعُ ﴾ حال من : ﴿ أَبَوَيْكُمْ ﴾ أو من فاعل : ﴿ أَخْرَجَ ﴾

أي : أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

تنبيهان :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة ، واستدل بالآيتين من قال : إن العورة هي السوأتان خاصة . انتهى .

الثاني : قال الإمام الرازي : أعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان ، فقال : ﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ الآية ، وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ، ولطف وسوسته ، وشدة اهتمامه ، إلى أن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة ، فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى .

فبهذا الطريق حذر تعالى بني آدم بالإحتراز عن وسوسته .

(34/267)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ أي : جنوده من الشياطين : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ أي : من مكان لا ترونهم فيه .

والجملة استئناف لتعليل النهي ، وتأكيد التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجي ، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون .

عن مالك بن دينار : إن عدواً يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله .

تنبيه :

قال السيوطي في " الاكليل " : قال ابن الفرس : استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُرون فهو كافر . انتهى .

ومراده بالبعض ، المعتزلة ، ولذا قال الزمخشري : فيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة . انتهى .

وقال الجشمي : تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه ، ثم قال : ومتى قيل : أليس يُرون زمن الأنبياء ، ويرى المعاين الملَك ؟ فجوابنا : أنه يزداد قوة الشعاع أو تتكاثف أبدانهم ، فيكون معجزة للنبي . انتهى .

وأجاب أهل السنة كما في " العناية " : بأنه قد ثبتت رؤيتهم ، بالأحاديث الصحيحة المشهورة ، وهي لا تعارض ما في الآية لأن المنفي فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا .

وقال في فتح البيان : وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة ، وليس في الآية ما يدل على ذلك ، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه وليس فيها أنا لا نراه أبداً ، فإن انتفاء الرؤية منّا له ، وفي وقت رؤيته لنا ، لا يستلزم انتفاءها مطلقاً

.

والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ، وتكون الآية مخصوصة بها ، فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض . انتهى .

وقد أوضح الغزالي رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة حيث قال في الركن الثاني : الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها . مختلفة

(35/267)

بالحقائق إختلافاً يكون بين الأنواع ، ثم قال : ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر – أعني جواهر الملائكة – وإن كانت غير محسوسة ، وهذه المشاهدة على ضربين :

إما على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ .

وكما كان النبي عليه الصلاة والسلام ، يرى جبريل في صورة دَحْيَة الكلبي .

والقسم الثاني : أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة ، كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس ، وكذا في الجن والشياطين . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال الزجاج : يعني

سلطناهم عليهم ، يزيدون في غيهم . انتهى .

والجملة تعليل آخر للنهي ، وفيه تحذير أبلغ من الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 33.35 ﴾

(36/267)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواءه له .

والفتنة في الأصل هي الاختبار ، وتُطلق – أحياناً – على الأثر السيء حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان في كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هي الاختبار ، وفي الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإمّا أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شرًّا .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة في الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقي الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة في الأرض ؛ فلله

منهج يحكمه في كل حركاته ، وما دام له منهج يحكمه في كل حركاته فرحمة به لم ينزل الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعي على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف في الأرض ، وحذره من الشيطان الذي أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة في التكليف . وكل تكليف محصور في " افعل كذا " و" لا تفعل كذا " ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له في الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشراً مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : أَنْ كُلْ مِنْ كُلِّ ما في الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و" كُلْ " أَمْرٌ ، و" ولا تقرب " نَهْيٌ . وكل تكليف شرعي هو بين " لا تفعل " وبين " افعل " .

(37/267)

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذي يضع ويجعل له العقبات في تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله في ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابد أن ينشأ عنها عورة تظهر في الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه في قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله في شيء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًّا ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى في تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآني :

﴿ . . . وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121]

إنّ هذه طبيعة البشر أن يعصي ثم يتوب إذا أراد التوبة ، ولابد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعيًّا لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًّا ورسولاً ، ومادام قد صار نبيًّا ورسولاً فالعصمة تأتي له : ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ [طه : 122]

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصي آدم وهو نبي ؟ ! نقول : تنبه إلى أن النبوة لم تأته إلا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله في البشرية أنه عصى ، وله في النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه . والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . إنها كانت تدريباً على المهمة التي سيقوم بها في الأرض ، والا فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، إلا أن الله قد قبل منه توبته ، وما دام قبل توبته فكان يجب أن يبقيه في الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألا نقع في الفتنة كما وقع آدم . ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا . . . ﴾ [الأعراف : 27]

(39/267)

وهذا نهي لبني آدم وليس نهيا للشيطان ، وهذا في مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته ، بل ينهاه عما في مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة ﴾ ؟ . ونقول هذا هو السمو والافتنان الراقي في الأداء البياني للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ، وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر قصد الاختصار . وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى بمنتهى الإيجاز ؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله .

فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء ، وعدم الفضول في الأساليب . ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة . . . ﴾ [الأعراف : 27]

(40/267)

والفتنة- كما علمنا - هي في الأصل الاختبار حتى ننقي الشيء من الشوائب التي تختلط به ، فإذا كانت الشوائب في ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر ، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به .

كذلك الفتنة بالنسبة للناس ، إنها تأتي اختباراً للإنسان لينقي نفسه من شوائب هذه المسألة ، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء . فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن ؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن الحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء . والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن ، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر . فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ . . . ﴾ [الجن : 11]

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ . . . ﴾ [الكهف : 50]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 27]

و " قبيله " هم جنوده وذريته الذين ينشرهم في الكون ليحقق قَسَمَه : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82]

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان في قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أَدَّته وأوصلته

إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف في عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 27]

(41/267)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفي بنفسه ولن يكتفي بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً . . . ﴾ [الأنعام : 112]

وكلمة ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ﴾ تعني الاستمالة التي تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية في الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التي تصرفه عن منهج الله ،

ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإِيمان في البشر ، فإذا ما جاء موسم الإِيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة في نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكثلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا غرضهم في العداوة للإِسلام .

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ .

(42/267)

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : " إنهم جنوده وذريته " . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ فلا بد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفي قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه ؛ لأن العدو الذي تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذي يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهي شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر في الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر في الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإِنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت في الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئي وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفي مستور ، وقد تشكل المَلك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : " هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم " .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكيّته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة . " وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : " إن عفريتا من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة ، وإن الله أمكنني منه فَذَعَتّهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون " .

(43/267)

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أرادك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجني فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجني لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذي نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضروري لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك إلا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق في صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك .

ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيشككك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذي يتمثل في صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذي يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق في علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو لصورة مادية لحكمته الصورة التي انتقل إليها ، وإذا حكمته الصورة التي انتقل إليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، إنه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كومضة ، ثم يختفي ، والإنسان إذا تأمل الجني المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل – مثلا – في هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفي ؛ أنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التي يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ . . . إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 27]

والشياطين من جَعْل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم والا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . . إذن فكل شيء في الوجود ، أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداع لفعل الفعل . فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة

للفعل ، والداعي إلى الفعل ، فإبراز الفعل في الصورة النهائية نستمدها من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش في غاية الدقة ، ونقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذي صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها الا بالعالم الذي ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذي صنعها في المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذي ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفي مادة خلقها الله .

(45/267)

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذي نسج صح قولك .

إذن فالمسألة كلها مردها في الفعل إلى الله ، وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله في فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين ﴾ أي خلّينا بينهم وبينهم المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا الا يفتنوا أحداً لما فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس

. ﴿ . . . لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82-83]

إذن من يريده الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغويه ، وتعلم الشياطين أن الله خلّى بينهم في الاختيار ، هذه اسمها تخلية ؛ ولذلك لا معركة بين العلماء . فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله ، ونسب كل فعل إلى الله ، ومنهم من رأى أنَّ موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر ، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله في أنه الفاعل لكل شيء ، ومنهم من قال : إن الإنسان هو الذي فعل المعصية . . أي أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له ، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً . ﴿ . . . إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 27]

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن ، ولكن الذي آمن لا يتخذه الشيطان وليًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(46/267)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) ﴾

عبّر سبحانه بالإنزال عن الخلق ، أي خلقنا لكم لباساً يواري سوآتكم التي أظهرها إبليس من أبويكم ، والسوأة العورة كما سلف ، والكلام في قدرها وما يجب ستره منها مبين في كتب الفروع .

قوله : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ الحسن وعاصم ، من رواية المفضل الضبي ، وأبو عمرو ، من رواية الحسن بن عليّ الجعفي "ورياشاً" وقرأ الباقون ﴿ وريشاً ﴾ والرياش جمع ريش : وهو اللباس .

قال الفراء : ريش ورياش كما يقال لبس ولباس ، وريش الطائر ما ستره الله به .

وقيل المراد بالريش هنا : الخصب ورفاهية العيش .

قال القرطبي : والذي عليه أكثر أهل اللغة : أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة .

وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة : وهبت له دابة وريشها ، أي وما عليها من اللباس .

وقيل : المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله : ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ وعطفه عليه .

قوله : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب لباس .

وقرأ الباقون بالرفع ؛ فالنصب على أنه معطوف على لباس الأوّل ، والرفع على أنه مبتدأ ، وجملة ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ خبره ، والمراد بلباس التقوى : لباس الورع ، واتقاء معاصي الله ، وهو الورع نفسه والخشية من الله ، فذلك خير لباس وأجمل زينة .

وقيل : لباس التقوى الحياء .

(47/267)

وقيل : العمل الصالح ، وقيل : هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله .

وقيل : هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله ، والأوّل أولى .

وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال ، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب ، ومنه :

إذ المرء لم يلبس ثياباً من التقى . . . تقلب عرياناً وإن كان كاسيا

ومثله :

تغطّ بأثواب السخاء فإنني . . . أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى لباس التقوى ، أي هو خير لباس ، وقرأ الأعمش : " وَلِبَاسُ التقوى خَيْرٌ " والإشارة بقوله ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ إلى الإنزال المدلول عليه

بأنزلنا ، أي ذلك الإنزال من آيات الله الدالة على أن له خالقاً .

ثم كرّر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان ، فقال : ﴿ يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾ أي لا يوقعنكم في الفتنة ، فالنهي وإن كان للشيطان ، فهو في الحقيقة لبني آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك ، والكاف في ﴿ كَمَا أَخْرَجَ ﴾ نعت مصدر محذوف ، أي لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة ، وجملة : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ في محل نصب على الحال ، وقد تقدّم تفسيره ، واللام في ﴿ لِيُرِيَهُمَا سوآتِهما ﴾ لام كي ، أي لكي يريهما ، وقد تقدّم تفسيره أيضاً .

قوله : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه ، لأن من كان بهذه المثابة يرى بني آدم من حيث لا يرونه ، كان عظيم الكيد ، وكان حقيقاً بأن يحترس منه أبلغ احتراس ﴿ وَقَبِيلُهُ ﴾ أعوانه من الشياطين وجنوده .

(48/267)

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة ، وليس في الآية ما يدل على ذلك ، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه ، وليس فيها أنا لا نراه أبداً ،

فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً ، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ﴾ قال : كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة ، وفي قوله : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قال : المال .

وأخرج ابن جرير ، عن عروة بن الزبير ، في قوله : ﴿ لِبَاسًا يوارى سوآتكم ﴾ قال : الثياب ﴿ وَرِيشًا ﴾ قال : المال ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ قال : خشية الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زيد بن عليّ ، في قوله : ﴿ لِبَاسًا يوارى سوآتكم ﴾ قال : لباس العامة ﴿ وَرِيشًا ﴾ قال : لباس الزينة ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ قال : الإسلام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، من طرق عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قال : المال واللباس والعيش والنعيم ، وفي قوله : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ قال : الإيمان والعمل الصالح ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ قال : الإيمان والعمل خير من الريش واللباس ، وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : " ورياشاً ﴾ يقول : المال .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ قال : التقوى ، وفي قوله : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ قال : الجن والشياطين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم ﴾ قال : كان أناس من العرب يطوفون بالبيت عراة فلا يلبس أحدهم ثوباً طاف فيه ﴿ ورياشاً ﴾ قال : المال .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم ﴾ قال : نزلت في الحمس من قريش ، ومن كان يأخذ مأخذها من قبائل العرب الأنصار : الأوس ، والخزرج ، وخزاعة ، وثقيف ، وبني عامر بن صعصعة ، وبطون كنانة بن بكر كانوا لا يأكلون اللحم ، ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها ، ولا يضطربون وبراً ولا شعراً ، إنما

يضطربون الادم ويلبسون صبيانهم الرهاط ، وكانوا يطوفون عراة إلا قريشاً ، فإذا قدموا طرحوا ثيابهم التي قدموا فيها ، وقالوا : هذه ثيابنا التي تطهرنا إلى ربنا فيها من الذنوب والخطايا ، ثم قالوا لقريش : من يعيرنا مئزراً ؟ فإن لم يجدوا طافوا عراة ، فإذا فرغوا من طوافهم أخذوا ثيابهم التي كانوا وضعوا .

وأخرج ابن جرير عن عروة بن الزبير في قوله ﴿ لباساً يواري سوءاتكم ﴾ قال : الثياب ﴿ ورياشاً ﴾ قال : المال ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : خشية الله .

(50/267)

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن علي في قوله ﴿ لباساً يواري سوءاتكم ﴾ قال : لباس العامة ﴿ وريشاً ﴾ قال : لباس الزينة ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : الإِسلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ وريشاً ﴾ قال : المال واللباس والعيش والنعيم . وفي قوله ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : الإِيمان والعمل الصالح ﴿ ذلك خير ﴾ قال : الإِيمان والعمل خير من الريش واللباس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ورياشاً ﴾ يقول : مالا .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال : كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم إذا لبس ثوباً جديداً قال " الحمد لله الذي كساني من الرياش ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الرياش : الجمال .

وأخرج الطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ وريشاً ﴾ قال : الرياش : المال قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الشاعر وهو يقول :

فرشني بخير طال ما قد ربيتني . . . وخير الموالي من يريش ولا يبري

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ﴾ قال : هو اللباس ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : هو الإِيمان ، وقد أنزل الله اللباس ، ثم قال : خير اللباس التقوى .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد .

أنه قرأها ﴿ وريشاً ولباس التقوى ﴾ بالرفع .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وريشاً ﴾ بغير ألف ﴿ ولباس التقوى ﴾ بالرفع .

وأخرج ابن مردويه عن عثمان " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ ورياشاً

﴿ ولم يقل : وريشاً .

وأخرج ابن جرير عن زر بن حبيش . إنه قرأها " ورياشاً " .

(51/267)

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن معبد الجهني في قوله ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : هو الحياء ، ألم تر أن الله قال ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ﴾ فاللباس الذي يواري سوءاتكم : هو لبوسكم ، والرياش المعاش ، ولباس التقوى : الحياء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : يتقي الله فيواري عورته ، ذلك لباس التقوى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : ما يلبس المتقون يوم القيامة ﴿ ذلك خير ﴾ من لباس أهل الدنيا .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في قوله ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ قال : ما يلبس المتقون يوم القيامة خير مما يلبس أهل الدنيا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : السمت الحسن في

الوجه .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من عبد عمل خيراً أو شراً إلا كسى رداه عمله حتى يعرفوه ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ولباس التقوى ذلك خير . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : رأيت عثمان على المنبر قال : يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " والذي نفس محمد بيده ما عمل أحد عملاً قط سراً إلا ألبسه الله رداه علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر " ثم تلا هذه الآية ﴿ ورياشاً ﴾ ولم يقل وريشاً ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ قال : السمت الحسن .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ لباساً يواري سوءاتكم ﴾ قال : هي الثياب ﴿ ورياشاً ﴾ قال : المال ﴿ ولباس التقوى ﴾ قال : الإيمان ﴿ ذلك خير ﴾ يقول : ذلك خير من الرياش واللباس يواري سوءاتكم .

(52/267)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ قال : التقوى . وفي قوله ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ قال : الجن والشياطين .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن منبه ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ قال : النور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وقبيله ﴾ قال : نسله .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ قال : والله ان عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : سأل أن يرى ولا يرى ، وأن يخرج من تحت الثرى ، وإنه متى شاب عاد فتى فأجيب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مطرف . أنه كان يقول : لو أن رجلاً رأى صيداً والصيد لا يراه فختله ألم يوشك أن يأخذه ؟ قالوا : بلى . قال : فإن الشيطان يرانا ونحن لا نراه ، وهو يصيب منا .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : أيما رجل منكم تخيل له الشيطان حتى يراه فلا يَصُدَّنَّ عنه ، وليمضِ قدماً فإنهم منكم أشد فرقاً منكم منهم ، فإنه إن صد عنه ركبه وإن مضى هرب منه . قال مجاهد : فانا ابتليت به حتى رأيته ، فذكرت قول ابن عباس ، فمضيت قدماً فهرب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن نعيم بن عمر قال : الجن لا يرون الشياطين بمنزلة الإِنس .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(53/267)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ ابن وثَّابٍ وإبْرَاهِيمُ : " لا يُفْتِنَنَّكُمْ " [بضمّ] حرف المضارعة من أفْتَنَهُ بمعنى حَمَلَهُ على الفِتْنَةِ .

وقرأ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ : " لا يَفْتِنْكُم " بغير نون توكيدٍ .

قوله : " كَمَا أخْرَجَ " : نعت لمصدر محذوف أي : لا يَفْتننكم فتنةً مثل فتنة إخْرَاجِ أبويكُم .

ويجوز أن يكُون التَّقْدِيرُ : لا يُخرِجنّكم بفتنته إخراجاً مثل إخْرَاجِ أبويكم .

و " أبَوْيْكُم " واحد أبٌ للمذكَّر ، وأبة للمُؤنَّثِ ، فعلى هذا قيل " أبَوَانِ " .

قوله : " يَنْزِعُ " جملة في محل نَصْبٍ على الحالِ ، وفي صاحبها احتمالان :

أحدهما : أنَّه الضَّميرُ في " أخْرَجَ " العائدُ على الشَّيْطَانِ ، وأضاف نزع اللِّبَاسِ إلى الشَّيْطَانِ ، وإن لم يباشر ذلك ؛ لأنَّهُ كان بسبب منه ، فأُسند إليه كما تقول : " أنْتَ فعلت هذا " لمن

حصل ذلك الفعل بسبب منه .

والثاني : أَنَّهُ حال من أَبَوَيْكُم ، وجاز الوجْهَان ؛ لأنَّ المعنى يَصِحُّ على كلٍّ من التَّقديرَيْنِ ، والصِّناعَةُ مساعدة لذلك ، فإنَّ الجملة مشتملةٌ على ضمير الأَبوَيْنِ ، وعلى ضَميرِ الشَّيْطَانِ .

قال أَبو حَيَّان : فلو كان بدل "يَنْزِعُ" نازعاً تعيَّن الأوَّلُ ؛ لأنه إذ ذاك لو جُوِّز الثَّاني لكان وصفاً جرى على غير مَنْ هو له ، فكان يجب إبراز الضَّمير ، وذلك على مذهب البَصْرِيِّينَ .

قال شهابُ الدِّين : يعني أَنَّهُ يفرِّق بين الاسم والفعل ، إذا جَرَيَا على غير ما هُمَا لضهُ في المَعْنَى ، فإن كَانَ اسْمَاً كان مذهب البَصْرِيِّينَ ما ذكر ، وإنْ كان فعلاً لم يَحْتَجْ إلى ذلك ، وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المَسْأَلةِ ، وأنَّ ابن مالكٍ سَوَّى بينهما ، وأنَّ مكيّاً له فيها كلامٌ مُشْكلٌ .

وجيء بِلَفْظِ "يَنْزِعُ" مضارعاً على أَنَّهُ حكاية حال كأَنَّها قد وقعت وانقضت .

(54/267)

والنَّزْعُ : الجَذْبُ للشَّيءِ بقوَّة عن مقرِّه ، ومنه : ﴿ تَنزِعُ الناس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] .

ومنه نَزْع القوس وتستعمل في الأعراض ، ومنه نَزْعُ العداوةِ والمحبَّةِ من القَلْب ، ونُزِع فلان كذا سُلبَه ، ومنه ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ [النازعات : 1] لأنَّها تَقْلَعُ أرواح الكَفَرَة بشِدَّةِ ، ومنه المُنَازَعَةُ وهي المخاصمة .

والنَّزْعُ عن الشَّيْء كفٌّ عنه ، والنَّزْعُ : الاشتياقُ الشَّدِيدُ ، ومنه نَزَعَ إلى وَطَنِهِ ونَزَعَ إلى مذهب كذا نَزْعَةً ، وأَنْزَعَ القَوْمُ : نَزعَتْ إبلهم إلى مواطنها ، ورجل أَنْزَعُ أي : ال شعرُه ، والنَّزْعَتَانِ بياض يكتنف النَّاصِيَة ، والنَّزْعة أيضاً الموضع من رأس الأَنْزَع ، ولا يُقَالُ : امرأةٌ نَزْعَاءُ إذا كان بها ذلك ، بل يُقَالُ لها : زَعْرَاءُ ، وبئر نَزُوع : أي قَرِيبَةُ القَعْرِ لأَنَّهَا يُنزع منها باليدِ .

قوله : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾

وهو تأكيد للضَّميرِ المتَّصل ليسوِّغَ العطف عليه ، كذا عبارة بعضهم .

قال الوَاحِدِيُّ : أعاد الكِنايَةَ ليحسن العَطْفَ كقوله : [﴿ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [البقرة : 35] .

قال شهابُ الدِّين : ولا حاجةَ إلى التَّأكِيدِ في مثل هذه الصُّورَةِ] لِصِحَّةِ العَطْفِ إذ الفَاصِلُ هنا موجود ، وهو كاف في صحة العطف ، فليس نظير ﴿ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾

وقد تقدَّم بحثٌ في ﴿ سْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ ، وهو أَنَّهُ ليس من بابِ العَطْفِ على الضَّمير لمانع ذُكِرَ ثَمَّ .

و" قبيلُه " المشهور قراءته بالرَّفْعِ نسقاً على الضَّميرِ المُسْتَتِر ، ويجوز أن يكون نَسَقاً على اسم " إنَّ " على الموضع عند مَنْ يجيز ذلك ، ولا سِيَّمَا عند مَنْ يَقُولُ : يجوزُ ذلك بعد الخَبَر بإجْمَاع .

ويجوز أنْ يكون مُبْتَدأ محذوفَ الخبر فتحصَّل في رفعه ثلاثةُ أوجهٍ .

(55/267)

وقرأ اليزِيدِيُّ " وقبيلَه " نصباً ، وفيها تخريجان .

أحدهما : أَنَّهُ منصوبٌ نَسَقاً على اسم " إنّ " لفظاً إن قلنا : إنَّ الضَّميرَ عائد على " الشّيْطَان " ، وهو الظَّاهِرُ .

والثاني : أَنَّهُ مفعولٌ معه أي : يَرَاكم مُصَاحباً لقبيله .

والضَّميرُ في " إنَّهُ " فيه وجهان :

الظَّاهر منهما كما تقدَّم أنه للشَّيطان .

والثاني : إن يكون ضمير الشَّأن ، وبه قال الزَّمَخْشَرِيُّ ، ولا حاجة تدعو إلى ذلك .

والقَبِيلُ : الجَمَاعَةُ يكونُونَ من ثلاثةٍ فصاعداً من جماعة شتَّى ، قاله أبو عبيد وجمعه قبل ، والقبيلةُ : الجماعة من أبٍ واحد ، فليست القبيلة تُأَنِيثُ القَبِيلِ لهذه المُغَايَرَة .

وقال ابْنُ قُتَيْبة : قبيله : أصحابه وجنده ، وقال : " وهو وقَبِيلُهُ " أي هو ومن خلق من قبله .

قال القُرْطُبِيُّ : قبيله : جُنُودُهُ .

وقال مُجَاهِدٌ : يعني الجنَّ والشَّيَاطِينَ .

وقال ابْنُ زَيْد : نسله ، وقيل : خيله .

قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ " مِنْ " لابتداء غاية الرؤية و " حَيْثُ " ظرف لمكان انتفاء الرُّؤيَةِ ، و " لا تَرَوْنَهُم " في محلِّ خفض بإضافة الظَّرْفِ إليه ، هذا هو الظَّاهِرُ في أعراب هذه الآية .

ونقل عن أبي إسْحَاق كلام مُشْكل ، نذكره لِئلاَّ يتوهّم صِحَّتَهُ من رآه .

قال أبو إسحاق : ما بعد " حَيْثُ " صلة لها ؛ وليست بمضافة إليه .

قال الفَارِسيُّ : هذا غير مستقيم ، ولا يصحُّ أن يكون ما بعد " حيث " صلة لها ؛ لأَنَّهُ إذا كان صلة لها ؛ وجب أن يكون للموصولة فيه ذكرن كما أن سائر صلاة الموصُول ذِكْراً للموصول ، فَخُلُوُّ الجملة التي بعد " حَيْثُ " من ضمير يَعُودُ على حيثُ دليل على أَنَّهَا ليست صلة لـ " حيث " ، وإذا لم تكن صلة ؛ كانت مضافَةً .

فإن قيل : نقدّر العائد في هذا كما نُقَدّرُ [العائد] في المَوْصُولات ، فإذا قلت : " رأيتك حيث زيدٌ قائمٌ " كان التَّقْدِيرُ : حيث ائمه ولو قلت : " رأيتُكَ حيثُ قَامَ زَيْدٌ " كان التقدير : حيث قام زيد فيه ، ثم استعَ في الحرف فحذف ، واتَّصل الضَّمِيرُ فحذف ، كما يحذف في قولك : زيدٌ الذي ضربت أي الذي ضربته .

فالجواب : لو أُريد ذلك لجاز استعمال هذا الأصل فتركهم لهذا الاستعمال دليل على أَنَّهُ ليس أصلاً له .

قال شهابُ الدّين : أما أبو إسحاق لم يعتقد كونها موصولة بمعنى " الَّذِي " ، لا يقول بذلك أحَدٌ ، وإنَّمَا يَزْعُمُ أَنَّهَا ليست مضافة للجملة بعدها ، فصارت كالصِّلَةِ لها أي : كالزِّيَادَةِ ، وهو كلام مُتَهَافِتٌ ، فالرَّدُ عليه من هذه الحَيْثِيَّةِ لا من حيْثية اعتقاده لكونها مَوْصُولةً .

ويحتمل أن يكون مراده أنَّ الجملةَ لَمَّا كانت من تَمَامِ معناها بمعنى أَنَّهَا مفتقرةٌ إليها كافْتِقَار الموصولِ لِصِلَتِهِ أطلق عليها هذه العبارة .

ويَدُلُّ على ذلك أنّ مكّياً ذكر في علة بنائها فقال : " ولأنَّ ما بعدها من تَمَامِهَا كالصِّلَةَ والموصول " إلا أَنَّهُ يرى أَنَّهَا مضافة لما بعدها .

وقرىء " مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُ " بالإفراد ، وذلك يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون الضَّمِيرُ عَائِداً على الشَّيْطَانِ وَحْدُهُ دون قبيله لأنه هو رأسهم ، وهم تَبَعٌ له ، ولأَنَّهُ المَنْهِيُّ عند أوَّلَ الكلامِ .

والثاني : أن يَعُودَ عليه وعلى قبيله ، ووحَّد الضَّمير إجراءً له مجرى اسم الإشارة في قوله تعالى : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] .

ونظير هذه القراءة قول رُؤْبَةَ : [الرجز]

2448 - فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وبَلَقْ . . .

كأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

وقد تقدَّم هذا البَيْتُ بحكايته معه في البقرة .

قوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(57/267)

يحتمل أنْ يكون " جعل " بمعنى " صَيَّر " ، أي : صيَّرنَا الشَّياطين أولياء .

وقال الزَّهْرَاويُّ " جعل " هنا بمعنى " وصف " وهذا لا يعرف في جعل وكأنه فراراً من إسناد جَعْلِ الشياطين أولياء لغير المؤمنين إلى اللَّهِ تعالى وكأَنَّها نزعة اعتزاليَّة .

و" للَّذِينَ " متعلِّقةٌ بـ " أولياء " ؛ لأنه في معنى الفعل ، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ ؛ لأنَّه صفة لـ " أولياء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 72 . 78 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا بَنِى ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ .

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشكَّ بين وسواس الشيطان وهاجس النَّفْس ، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطرُ وزواجرُ العلم مغمورةً مقهورةً – فعن قريبٍ تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها ، وينخرط في سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة ، فإذا لم يحصل تداركٌ بوشيك التوبة صارت الحالةُ قسوةً في القلب ، وإذا قسا القلبُ فارقته الحياة وتمَّ له البلاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق – سبحانه – بقلبه ، فيستغيث إليه من كيده ، فيُدْخِلُه – سبحانه – في كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 528 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما جعل أمارتهم في ولاية الشيطان عدم الإيمان ، عطف على ذلك أمارة أخرى فقال : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ أي أمراً بالغاً في القبح كالشرك وكشف العورة في الطواف ﴿ قالوا ﴾ معللين لارتكابهم إياها ﴿ وجدنا عليها ﴾ أي فاحشة ﴿ آباءنا ﴾ ولما كانت هذه العلة ظاهراً عارها بيناً عوارها ، ضموا إليها افتراء ما يصلح للعلية ، فقالوا معبرين بالاسم الأعظم غير محتشمين من جلاله وعظمته وكماله : ﴿ والله أمرنا بها ﴾ .

ولما كانت العلة الأولى ملغاة ، وكان العلم ببطلانها بديهياً ، لأن من المعلوم أنهم لو وجدوهم على سفه في تحصيل المال ما تابعوهم ؛ أعرض عنها إشارة إلى ذلك ، وأمر بالجواب عن الثانية التي هي افتراء على الملك الأعلى مع ادعائهم أنهم أبعد الناس عن مطلق الكذب وأشدهم تحرياً بقوله : ﴿ قل إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي

بشيء من هذا الجنس .

ولما كان الكذب قبيحاً في نفسه وهو عندهم أقبح القبيح مطلقاً ، فكيف به على كبير منهم فكيف إذا كان على أعظم العظماء ! قال منكراً عليهم موبخاً لهم مهدداً : ﴿ أتقولون على الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ ما لا تعلمون ﴾ لأنكم لم تسمعوا ذلك عن الله بلا واسطة ولا نقل إليكم بطريق صحيح عن نبي من الأنبياء عليهم السلام ، وفيه تهديد شديد على الجهل والقول على الله بالظن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 23 .

﴿ 24

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في الناس من حمل الفحشاء على ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة وغيرهما ، وفيهم من حمله على أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، والأولى أن يحكم بالتعميم ، والفحشاء عبارة عن كل معصية كبيرة ، فيدخل فيه جميع الكبائر ، واعلم أنه ليس المراد منه أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش .

ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها ، فإن ذلك لا يقوله عاقل .

بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش ، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات ، وإن الله أمرهم بها ، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين .

أحدهما : أنا وجدنا عليها آباءنا .

والثاني : أن الله أمرنا بها .

أما الحجة الأولى : فما ذكر الله عنها جواباً ، لأنها إشارة إلى محض التقليد ، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة ، فلو كان التقليد طريقاً حقاً للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقاً ومعلوم أنه باطل ، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهراً جلياً لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه .

وأما الحجة الثانية : وهي قولهم : ﴿ والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقد أجاب عنه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ والمعنى أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة ، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها ؟ وأقول للمعتزلة أن يحتجوا بهذه الآية على أن الشيء إنما يقبح لوجه عائد إليه ، ثم إنه تعالى نهى عنه لكونه مشتملاً على ذلك الوجه ، لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ إشارة إلى أنه لما كان ذلك موصوفاً في نفسه بكونه من الفحشاء امتنع أن يأمر الله به ، وهذا يقتضي أن يكون كونه في

نفسه من الفحشاء مغايراً لتعلق الأمر والنهب به ، وذلك يفيد المطلوب .

وجوابه : يحتمل أنه لما ثبت بالاستقراء أنه تعالى لا يأمر إلا بما يكون مصلحة للعباد ، ولا ينهي إلا عما يكون مفسده لهم ، فقد صح هذا التعليل لهذا المعنى .

والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : المراد منه أن يقال : إنكم تقولون إن الله أمركم بهذه الأفعال المخصوصة فعلمكم بأن الله أمركم بها حصل لأنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ، أو عرفتم ذلك بطريق الوحي إلى الأنبياء ؟

(60/267)

أما الأول : فمعلوم الفساد بالضرورة .

وأما الثاني : فباطل على قولكم ، لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء على الإطلاق ، لأن هذه المناظرة وقعت مع كفار قريش ، وهم كانوا ينكرون أصل النبوة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا طريق لهم إلى تحصيل العلم بأحكام الله تعالى ، فكان قولهم أن الله أمرنا بها قولاً على الله تعالى بما لا يكون معلوماً .

وإنه باطل .

البحث الثاني : نفاة القياس قالوا : الحكم المثبت بالقياس مظنون وغير معلوم ، وما لا يكون معلوماً لم يجز القول به لقوله تعالى في معرض الذم والسخرية : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وجواب مثبتي القياس عن أمثال هذه الدلالة قد ذكرناه مراراً . والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 46. 47 ﴾

(61/267)

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾

يعني : المشركين حرموا على أنفسهم أشياء قد أحل الله لهم ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة ، قالوا : لا نطوف في ثياب قد أذنبنا فيها وكان رجالهم يطوفون بالنهار ونساؤهم بالليل وإذا طافت المرأة بالنهار اتخذت إزاراً من سير وكانت تبدو عورتها إذا مشت وكانت تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله .

. . فما بدا منه فلا أحله

وإذا قيل لهم لم فعلتم هكذا

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ يعني : بتحريم هذه الأشياء وبالطواف عراة قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفحشاء ﴾ أي المعاصي ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتكذبون على الله وتقولون بغير علم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً ﴾

وفاحشتهم أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عُراة الرجال [بالنهار والنساء بالليل] . ويقولون : نطوف كما ولدتنا أُمهاتنا ولا نطوف في الثياب التي اقترفنا فيها الذنوب .

وكانت المرأة تضع على قُبُلها النسعة أو الشيء وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كلّه . . . وما بدى منه فلا أُحلّه

وفي الآية إضمار ومعناه ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً ﴾ ونُهوا عنها ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ قيل : من أين أخذوا آباؤكم قالوا : ﴿ وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفحشآء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا ﴾

في هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها وردت في العرب الذين كانوا يطوفون عراة ، والفاحشة التي فعلوها كشف العورة ، وهذا قول أكثر المفسرين .

والثاني أنها في عبدة الأوثان ، والفاحشة التي فعلوها الشرك ، قاله الحسن .

(62/267)

والثالث أنها اتخاذ البَحِيْرَةِ والسائبة والوصيلة والحام ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإذا فعلوا ﴾ وما بعده داخل في صفة الذين لا يؤمنون ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثالاً للموبخين إذا أشبه فعلهم فعل الممثل بهم ، ويصح أن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداء إخبار عن كفار العرب ، و" الفاحشة " في هذه الآية وإن كان اللفظ عاماً هي كشفت العورة عند الطواف فقد روي عن الزهري أنه قال : إن في ذلك نزلت هذه الآية ، وقاله ابن عباس ومجاهد ، وكان قول بعض الكفار إن الله أمر بهذه السنن التي لنا وشرعها ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ ثم وبخهم على كذبهم ووقفهم على قولهم ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه بل هو دعوى واختلاق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾

فيمن عني بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة .

والفاحشة : كشف العورة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، والسدي .

والثاني : أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنهم المشركون ؛ والفاحشة : الشرك ، قاله الحسن ، وعطاء .

قال الزجاج : فأعلمهم عز وجل أنه لا يأمر بالفحشاء ، لأن حكمته تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن .

والقسط : العدل .

والعدل : ما استقر في النفوس أنه مستقيم لا ينكره مميِّز ، فكيف يأمر بالفحشاء ، وهي ما عظم قبحه ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾

الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عُراةً .

وقال الحسن : هي الشرك والكفر .

واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم ، وبأن الله أمرهم بها .

(63/267)

وقال الحسن : وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا" قالوا : لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه .

﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفحشآء ﴾ بيّن أنهم متحكّمون ، ولا دليل على أن الله أمرهم بما ادعوا .

وقد مضى ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم .

وهذا منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : هي طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء .

وقال عطاء : هي الشرك والفاحشة اسم لكل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصي والكبائر

فيمكن حملها على الإطلاق وإن كان السبب مخصوصاً بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الأفعال التي كانت أهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون أنها طاعات وهي في نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الأفعال بما أخبر الله عنهم وهو قوله تعالى : ﴿ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ فذكروا لأنفسهم عذرين أحدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد باطل لأنه لا أصل له ، والعذر الثاني قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضاً باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ والمعنى أن هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى رداً عليهم ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ يعني انكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لأنكم تنكرون نبوّة الأنبياء فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(64/267)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾

أي إذا فعلوا ما تفاحش من الذموب اعتذروا والتقدير وطلبوا بحجة على ارتكابها قالوا : آباؤنا كانوا يفعلونها فنحن نقتدي بهم والله أمرنا بها ، كانوا يقولون لو كره الله منّا ما نفعله لنقلنا عنه والإخبار الأوّل يتضمّن التقليد لآبائهم والتقليد باطل إذ ليس طريقاً للعلم ، والإخبار الثاني افتراء على الله تعالى ، قال ابن عطية والفاحشة وإن كان اللفظ عاماً هي كشف العورة في الطواف ، فقد رُوي عن الزهري أنه قال : في ذلك نزلت هذه الآيات ، وقاله ابن عباس ومجاهد انتهى ، وبه قال زيد بن أسلم والسّدي ، وقال الحسن وعطاء والزجاج : الفاحشة هنا الشرك ، وقيل : البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، وقيل : الكبائر والظاهر من قوله ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ أنه إخبار مستأنف عن هؤلاء الكفار بما كانوا يقولون إذا ارتكبوا الفواحش ، وقال ابن عطية : وإذا فعلوا وما بعده داخل في صلة ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ ليقع التوبيخ بصفة قوم قد جعلوا أمثالاً للمؤمنين إذا شبّه فعلهم فعل الممثل بهم ، وقال الزمخشري : وعن الحسن أنّ الله تعالى بعث محمد صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله تعالى وتصديقه قول الله عز وجل ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ ، انتهت حكايته عن الحسن ولعلها لا تصحّ عن الحسن وانظر إلى دسيسة الزمخشري في قوله وهم قدرية فإنّ أهل السنة يجعلون المعتزلة

هم القدرية فعكس هو عليهم وجعلهم هم القدرية حتى أن ما جاء من الذّم للقدرية يكون لهم وهذه النسبة من حيث العربية هي أليق بمن أثبت القدر لا بمن نفاه ، وقول أهل السنة في المعتزلة أنهم قدرية معناه أنهم ينفون القدر ويزعمون أنّ الأمر آنف وذلك شبيه بما يقول بعضهم في داود الظاهري أنه القياسي ومعناه نافي القياس .

(65/267)

﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي بفعل الفحشاء وإنما لم يرد التقليد لظهور بطلانه لكلّ أحد للزومه الأخذ بالمتناقضات وأبطل تعالى دعواهم أنّ الله أمر بها إذ مدرك ذلك إنما هو الوحي على لسان الرسل والأبياء ولم يقع ذلك ، وقال الزمخشري : لأن فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي ووجود الصارف فكيف يأمر بفعله .

﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أنّ مبني أمرهم على الجهل المفرط انتهى ، وهو على طريقة المعتزلة ، وقال ابن عطية : وبّخهم على كذبهم ووقفهم على ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه بل هي دعوى واختلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(66/267)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾

جملةٌ مبتدأة لا محل لها من الإعراب ، وقد جُوّز عطفُها على الصلة ، والفاحشةُ الفَعلةُ المتناهيةُ في القبح ، والتاء لأنها مُجراةٌ على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية إلى الاسمية ، والمرادُ بها عبادةُ الأصنامِ وكشفُ العورة في الطواف ونحوُهما .

﴿ قَالُواْ ﴾ جواباً للناهين عنها ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءابَاءنَا والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ محتجين بأمرين : تقليدِ الآباءِ والافتراءِ على الله سبحانه ، ولعل تقديمَ المقدم للإيذان منهم بأن آباءَهم إنما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها على أن ضمير (أمرنا) لهم ولآبائهم ، فحينئذ يظهر وجهُ الإعراض عن الأول في رد مقالتِهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ فإن عادتَه تعالى جاريةٌ على الأمر بمحاسن الأعمالِ والحثِّ على مراضي الخِصال ، ولا دِلالةَ فيه على أن قبحَ الفعلِ بمعنى ترتبِ الذم عليه عاجلاً والعقابِ آجلاً عقلي فإن المرادَ بالفاحشة ما ينفِر عنه الطبعُ السليم ويستنقِصُه العقلُ المستقيم ، وقيل : هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لما فعلوها : لم فعلتم ؟ فقالوا : وجدنا عليها آباءَنا ، فقيل : لم فعلها آباؤكم ؟ فقالوا : الله أمرنا بها ، وعلى الوجهين يُمنع التقليدُ إذا قام الدليلُ بخلافه لا مطلقاً ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من تمام القولِ المأمورِ به ، والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه

وتوجيهُ الإنكارِ والتوبيخِ إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون صدورَه عنه تعالى مع أن بعضَهم يعلمون عدمَ صدورِه عنه تعالى مبالغةٌ في إنكار تلك الصورةِ فإن إسنادَ ما لم يُعلم عنه تعالى إليه تعالى إذا كان مُنكراً فإسنادُ ما عُلم عدمُ صدورِه عنه إليه عز وجل أشدُّ قبحاً وأحقُّ بالإنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(67/267)

وقال الآلوسى :

قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾

جملة مبتدأة لا محل لها من الإعراب وجوز عطفها على الصلة .

والفاحشة الفعلة القبيحة المتناهية في القبح والتاء إما لأنها مجراة على الموصوف المؤنث أي فعلة فاحشة وإما للنقل من الوصفية إلى الإسمية والمراد بها هنا عبادة الأصنام وكشف العورة في الطواف ونحو ذلك .

وعن الفراء تخصيصها بكشف العورة .

"وفي الآية على ما قاله الطبرسي حذف ، أي وإذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها .

﴿ قَالُواْ ﴾ جواب للناهين ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءابَاءنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ محتجين بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه .

(68/267)

وتقديم المقدم للإيذان بأنه المعول عليه عندهم أو للإشارة منهم إلى أن آباءهم إنما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى على أن ضمير ﴿ أَمَرُنَا ﴾ كما قيل لهم ولآبائهم ، وحينئذٍ يظهر وجه الإعراض عن الأول في رد مقالتهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ فإن عادته تعالى جرت على الأمر بمحاسن الأعمال والحث على (مكارم) الخصال وهو اللائق بالحكمة المقتضية أن لا يتخلف ، وقال الإمام : "لم يذكر سبحانه جواباً عن حجتهم الأولى لأنها إشارة إلى محض التقليد وقد تقرر في العقول أنه طريقة فاسدة لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة فلو كان التقليد حقاً لزم القول بحقية الأديان المتناقضة وأنه محال فلما كان فساد هذا الطريق ظاهراً لم يذكر الله تعالى الجواب عنه" ، وذكر بعض المحققين أن الإعراض إنما هو عن التصريح برده وإلا فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ الخ متضمن للرد لأنه سبحانه إذا أمر بمحاسن الأعمال كيف يترك أمره لمجرد اتباع الآباء فيما هو قبيح عقلاً والمراد بالقبح العقلي هنا نفرة الطبع السليم واستنقاص العقل المستقيم لا

كون الشيء متعلق الذم قبل ورود النهي عنه وهو المتنازع فيه بيننا وبين المعتزلة دون الأول كما حقق في الأصول فلا دلالة في الآية على ما زعموه ، وقيل : إن المذكور جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لما فعلوها لما فعلتم ؟ قالوا : وجدنا آباءنا فقيل : ومن أين أخذا آباؤكم ؟ فقالوا : الله أمرنا بها ، والكلام حينئذٍ على تقدير مضاف أي أمر آباءنا ؛ وقيل : لا تقدير والعدول عن أمرهم الظاهر حينئذٍ للإشارة إلى ادعاء أن أمر آبائهم أمر لهم .

وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه فلا دلالة في الآية على المنع من التقليد مطلقاً .

(69/267)

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من تمام القول المأمور به ، والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون ، وتوجيه الإنكار إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون صدوره منه عز شأنه مع أن منهم من يقول عليه سبحانه ما يعلم عدم صدوره مبالغة في إنكار تلك الصورة ، ولا دليل في الآية لمن نفى القياس بناءً على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم لأن ذلك مخصوص من عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتد به أو بدليل آخر ، وقيل : المراد بالعلم ما يشمل الظن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ معطوف على ﴿ للذين لا يؤمنون ﴾ [الأعراف : 27] فهو من جملة الصّلة ، وفيه إدماج لكشف باطلهم في تعلّلاتهم ومعاذيرهم الفاسدة ، أي للذين لا يقبلون الإيمان ويفعلون الفواحش ويعتذرون عن فعلها بأنّهم اتّبعوا آباءهم وأنّ الله أمرهم بذلك ، وهذا خاص بأحوال المشركين المكذّبين ، بقرينة قوله : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ والمقصود من جملتي الصّلة : تفظيع حال دينهم بأنّه ارتكاب فواحش ، وتفظيع حال استدلالهم لها بما لا ينتهض عند أهل العقول .

وجاء الشّرط بحرف ﴿ إذا ﴾ الذي من شأنه إفادة اليقين بوقوع الشّرط ليشير إلى أنّ هذا حاصل منهم لا محالة .

والفاحشة في الأصل صفة لموصوف محذوف أي : فَعْلَة فاحشة ثمّ نزل الوصف منزلة الاسم لكثرة دورانه ، فصارت الفاحشة اسماً للعمل الذّميم ، وهي مشتقّة من الفُحْش بضمّ الفاء وهو الكثرة والقوّة في الشّيء المذموم والمكروه ، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشّديدة القبح وهي التي تنفر منها الفطرة السّليمة ، أو ينشأ عنها ضرّ وفساد بحيث يأباها

أهل العقول الرّاجحة ، وينكرها أولو الأحلام ، ويستحيي فاعلها من النّاس ، ويتستر من فعلها مثل البغاء والزّنى والوأد والسّرقة ، ثمّ تنهى عنها الشّرائع الحقّة ، فالفعل يوصف بأنّه فاحشة قبل ورود الشّرع ، كأفعال أهل الجاهليّة ، مثل السّجود للتّماثيل والحجارة وطلب الشّفاعة منها وهي جماد ، ومثل العراء في الحجّ ، وترك تسمية الله على الذّبائح ، وهي من خَلق الله وتسخيره ، والبغاء ، واستحلال أموال اليتامى والضّعفاء ، وحرمان الأقارب من الميراث ، واستشارة الأزلام في الإقدام على العمل أو تركه ، وقتل غير القاتل لأنّه من قبيلة القاتل ، وتحريمهم على أنفسهم كثيراً من الطّيبات التي أحلّها الله وتحليلهم الخبائث مثل الميتة والدّم .

(71/267)

وقد روي عن ابن عبّاس أنّ المراد بالفاحشة في الآية التّعري في الحجّ ، وإنّما محمل كلامه على أنّ التّعرّي في الحجّ من أوّل ما أريد بالفاحشة لاقصرها عليه فكأن أئمّة الشّرك قد أعدوا لأتباعهم معاذير عن تلك الأعمال ولقنوها إياهم ، وجِماعها أن ينسبوها إلى آبائهم السالِفين الذين هم قدوة لخلفهم ، واعتقدوا أنّ آباءهم أعلم بما في طي تلك الأعمال من مصالح لو اطّلع عليها المنكرون لعرفوا ما أنكروا ، ثمّ عطفوا على ذلك أنّ الله أمر بذلك

يعنون أنّ آباءهم ما رسموها من تلقاء أنفسهم ، ولكنّهم رسموها بأمر من الله تعالى ، ففهم منه أنّهم اعتذروا لأنفسهم واعتذروا لآبائهم ، فمعنى قولهم : ﴿ والله أمرنا بها ﴾ ليسَ ادّعاءَ بلوغ أمر من الله إليهم ولكنّهم أرادوا أنّ الله أمر آباءهم الذين رسموا تلك الرّسوم وسنّوها فكان أمرُ الله آباءَهم أمراً لهم ، لأنّه أراد بقاء ذلك في ذريّاتهم ، فهذا معنى استدلالهم ، وقد أجمله إيجاز القرآن اعتماداً على فطنة المخاطبين .

وأسند الفعل والقول إلى ضمير الذين لا يؤمنون في قوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا ﴾ : على معنى الإسناد إلى ضمير المجموع ، وقد يكون القائل غير الفاعل ، والفاعل غير قائل ، اعتداداً بأنّهم لما صَدّق بعضهم بعضاً في ذلك فكأنّهم فعلوه كلّهم واعتذروا عنه كلّهم .

(72/267)

وأفاد الشّرط رَبْطاً بين فعلهم الفاحشة وقولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ باعتبار إيجاز في الكلام يدلّ عليه السّياق ، إذ المفهوم أنّهم إذا فعلوا فاحشة فأنكِرَتْ عليهم أو نُهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا ، وليس المراد بالإنكار والنّهي خصوص نهي الإسلام إياهم عن ضلالهم ، ولكن المراد نهيُ أيّ ناه وإنكارُ أيّ منكر ، فقد كان ينكر عليهم الفواحش من لا يوافقونهم عليها من القبائل ، فإنّ دين المشركين كان أشتاتاً مختلفاً ، وكان ينكر عليهم ذلك

من خلعوا الشّرك من العرب مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، وأمّيةَ ابن أبي الصَّلْت ، وقد قال لهم زيد بن عمرو : "إنّ الله خلق الشّاة وأنزل لها الماء من السّماء وأنبت لها العشب ثمّ أنتم تذبحونها لغيره" وكان ينكر عليهم من يتحَرج من أفعالهم ثمّ لا يسعه إلاّ اتّباعهم فيها إكراهاً .

وكان ينكر عليهم من لا توافق أعمالُهم هواه : كما وقع لامرىء القيس ، حيث عزم على قتال بني أسد بعد قتلهم أباه حُجْراً ، فقصد ذا الخَلَصة صنمَ خَثْعَمَ واستقسم عنده بالأزلام فخرج له النّاهي فكسر الأزلام وقال:

لو كنتَ يا ذا الخَلَص الموتورا . . .

مِثْلي وكان شيخُك المقبورا

لَمْ تنهَ عن قتل العُداة زُوراً . . .

ثمّ جاء الإسلام فنعى عليهم أعمالهم الفاسدة ، وأسمعهم قوارع القرآن فحينئذ تصدّوا للاعتذار .

وقد علم من السّياق تشنيع معذرتهم وفساد حجّتهم .

ودلّت الآية على إنكار ما كان مماثلاً لهذا الاستدلال وهو كلّ دليل توكأ على اتّباع الآباء في الأمور الظّاهر فسادها وفحشها ، وكلّ دليل استند إلى ما لا قبل للمستدل بعلمه ، فإنّ

قولهم : ﴿ والله أمرنا بها ﴾ دعوى باطلة إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطة مبلّغ ، فإنّهم كانوا ينكرون النّبوءة ، فمن أين لهم تلقي مراد الله تعالى .

(73/267)

وقد ردّ الله ذلك عليهم بقوله لرسوله : ﴿ قل إن الله لا يأمرنا بالفحشاء ﴾ فَأَعْرَضَ عن ردّ قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ لأنّه إن كان يراد ردّه من جهة التّكذيب فهم غير كاذبين في قولهم ، لأنّ آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش ، وإن كان يراد ردّه من جهة عدم صلاحيته للحجّة فإنّ ذلك ظاهر ، لأنّ الإنكار والنّهي ظاهر انتقالهما إلى آبائهم ، إذ ما جاز على المثل يجوز على المماثل ، فصار ردّ هذه المقدّمة من دليلهم بديهياً وكان أهمّ منه ردّ المقدّمة الكبرى ، وهي مناط الاستدلال ، أعني قولهم : ﴿ والله أمرنا بها ﴾ .

فقوله : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ نقض لدعواهم أنّ الله أمَرهم بها أي بتلك الفواحش ، وهو ردّ عليهم ، وتعليم لهم ، وإفاقة لهم من غرورهم ، لأنّ الله متّصف بالكمَال فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه ، فكون الفعل فاحشة كاف في الدّلالة على أنّ الله لا يأمر به لأنّ الله له الكمال الأعلى ، وما كان اعتذارهم بأنّ الله أمر بذلك إلاّ عن جهل ، ولذلك وبّخهم الله بالاستفهام التّوبيخي بقوله : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون

﴿ أي ما لا تعلمون أنّ اللهأمر به ، فحُذف المفعول لدلالة ما تقدّم عليه ، لأنّهم لم يعلموا أنّ الله أمرهم بذلك إذ لا مستند لهم فيه ، وإنّما قالوه عن مجرّد التّوهّم ، ولأنّهم لم يعلموا أنّ الله لا يليق بجلاله وكماله أن يأمر بمثل تلك الرّذائل .

وضمن : ﴿ تقولون ﴾ معنى تكذبون أو معنى تتقوّلون ، فلذلك عُدّي بعَلى ، وكان حقّه أن يعدى بعَنْ لو كان قولاً صحيح النّسبة ، وإذ كان التّوبيخ وارداً على أن يقولوا على الله ما لا يعلمون كان القول على الله بما يُتحقّق عدمُ وروده من الله أحرى .

(74/267)

وبهذا الرد تمحض عملهم تلك الفواحش للضّلال والغرور واتّباع وحي الشّياطين إلى أوليائهم أئمّة الكفر ، وقادة الشّرك : مثل عَمْرو بن لُحَي ، الذي وَضَعَ عبادة الأصنام ، ومثل أبي كَبشة ، الذي سنّ عبادة الشّعري من الكواكب ، ومثل ظالم بن أسْعد ، الذي وضع عبادة العُزى ، ومثل القلَمَّسسِ ، الذي سنّ النَّسيء إلى ما اتّصل بذلك من موضوعات سدنة الأصنام وبيوتتِ الشّرك .

واعلم أن ليس في الآية مستند لإبطال التّقليد في الأمور الفرعيّة أو الأصول الدّينيّة لأنّ التّقليد الذي نعاه الله على المشركين هو تقليدهم مَن ليسوا أهلاً لأنّ يقلّدوا ، لأنّهم لا

يرتفعون عن رتبة مقلّديهم ، إلاّ بأنّهم أقدم جيلاً ، وأنّهم آباؤهم ، فإنّ المشركين لم يعتذروا بأنّهم وجدوا عليه الصّالحين وهداة الأمّة ، ولا بأنّه ممّا كان عليه إبراهيم وأبناؤه ، ولأنّ التّقليد الذي نعاه الله عليهم تقليد في أعمال بديهيّة الفساد ، والتّقليد في الفساد يستوي ، هو وتسنينه ، في الذّم ، على أنّ تسنين الفساد أشدّ مذمّة من التّقليد فيه كما أنبأ عنه الحديث الصّحيح : " مَا من نفس تُقتل ظُلماً إلاّ كان على ابنِ آدم الأولِ كِفْل من دمها ذلك لأنّه أوّلُ من سَنّ القتل " وحديث : " مَن سَنّ سُنّة سَيّئة فعليه وزرها ووزر من عَمِل بها إلى يوم القيامة " .

فما فرضه الذين ينزعون إلى علم الكلام من المفسّرين في هذه الآية من القول في ذمّ التّقليد ناظر إلى اعتبار الإشراك داخلاً في فعل الفواحش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(75/267)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً ﴾ أي : ما تناهى قبحه من الذنوب ، كالشرك وكشف العورة في الطواف ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ أي : إذا فعلوها إعتذروا بأن

آباءهم كانوا يفعلونها ، فاقتدوا بهم ، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها ، حيث أقرنا عليها إذ لو كرهها لنقلنا عنها ، وهما باطلان ، لأن أحدهما تقليد للجهال ، والتقليد ليس بطريق للعلم ، والثاني افتراء على ذي الجلال .

قال الشهاب : في قوله تعالى : ﴿ وَاللّهُ أَمَرَنَا ﴾ : مضاف مقدر أي : أمر آباءنا ، فلا يقال الظاهر أمرهم بها ، والعدول عن الظاهر إشارة إلى إدعاء أن أمر آباءهم أمر لهم .

﴿ قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء ﴾ أي : هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ، لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه ، يتضمن النهي عن الإفتراء عليه تعالى ، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط .

قال الشهاب : ولا دليل في الآية لمن نفى القياس ، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم ، لأنه مخصوص في عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتد به ، أو بدليل آخر .

تنبيه :

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قُبُلها النّسعة أو الشيء وتقول :

~اليومَ يبدو بعضهُ أو كلُّهُ وما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً ﴾ الآية ، قال ابن كثير : كانت العرب ، ما عدا قريشاً ، لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها .

وكانت قريش – وهم الحمس – يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه ، فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ، ولا أعاره أحمسي ثوباً ، طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة ، فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعد الستر ، فتقول : اليوم يبدو . . . – البيت – وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر تعالى عليهم ذلك .

وذكر السيوطي في " الإكليل " عن ابن عباس أيضاً ، أنه نزلت في طوافهم بالبيت عراة ، رواه أبو الشيخ وغيره ، قال : ففيها وجوب ستر العورة في الطواف .

تنبيهان :

الأول : ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر ، ولازمة له ، والفحشاء – أعني الشرور

والمعاصي – غير مأمور بها بنص الآية ، فلا تكون مرادة له تعالى .

وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد ينفك عن الإرادة ، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة ، فلا تكون الإرادة تابعة له وجوداً ، ومما يوضح أن الشيء قد يؤمر به ولا يكون مراداً ، أن السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده ، يأمره بالشيء ولا يريده منه .

ومنها أن الأمر أمران :

أمر تكويني : يحصل به وجود الأشياء ، وهو خطاب كن وهو تابع للإرادة ، يعم جميع الكائنات . فالطاعات والمعاصي كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر ، ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعة والعصيان والثواب والعقاب ، لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم .

(77/267)

وأمر تشريعي تدويني : أي : شرعه الله لعباده ، وكلفهم به ، مما دون في كتب الشريعة ويُبين ، وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط ، والكفر والمعاصي ليست مأمورة بهذا الأمر .

والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين ، وقالوا : إن الكفر والمعاصي لو كانت مراده تعالى ، لكانت مأموراً بها ، وإتيان المأمور به طاعة ، فيكون الكافر والفاسق مطيعين ، فإنهما مأمور بهما

بالأمر الأول ، وليس مأموراً بهما بالأمر الثاني ، حتى يكون إتيانهما طاعة .

قال السيلكوتي : ولا يخفى عليك تقسيم الأمر إلى أمرين ، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ على ظاهره ، كما ذهب إليه البعض . وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب ، كما ذهب إليه الأشعري ومن تبعه ، فلا . انتهى .

والمسألة مبسوطة في محالها المعروفة .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ جواب عن شبهتهم الثانية .

ولم يذكر جواباً عن الأولى ، قال الإمام : لأنها إشارة إلى محض التقليد ، وقد تقرر في المعقول أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة ، فلو كان التقليد حقاً ، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة ، فلما كان فساده ظاهراً ، لم يذكره تعالى .

الثالث : قال في " فتح البيان " : في هذه الآية الشريفة أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر ، لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ والقائلون : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ . والمقلد ، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه .

وهذه الخصلة هي التي بقى بها اليهودي على يهوديته ، والنصراني على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية والبدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن الله كما ينبغي ، وهذا هو التقليد البحت القصور الخالص .

ثم قال : وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء الرجال ، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم ، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم ، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 35 . 37 ﴾

(79/267)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أي التزايد في القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون

خاص من الذنوب ، وهو الزنا ، لأن هذا تزيد في القبح ، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهي بأثرها ، لكن الزنا يخلف آثاراً . . فإمّا أن يوأد المولود ، وإما أن تجهض المرأة ، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً ، ويعيش طريداً في المجتمع لا يجد مسئولاً عنه ، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أي معصية أخرى . وتصنع هذه المعصية الشك في المجتمع . ولنا أن نتصور إن إنساناً يشك في أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه ، وهذه بلوى كبيرة للغاية . والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32]

أو الفاحشة هي ما فيه حد ، أو الفاحشة هي الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزيد في القبح على أي لون من الألوان .

فما هي الفاحشة المقصودة هنا ؟ . إنها الفواحش التي تقدمت في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ . . . ﴾ [المائدة : 103]

وكذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 137]

وكذلك في قوله الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا . . . ﴾ [الأنعام : 136]

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا ؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله في ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ تقليد ، والتقليد لا يعطي حكماً تكليفياً ، وإن أعطى علماً تدريبيا ، بأن ندرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . ومما يدل على أن التقليد لا يعطي حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين – الشيوعية والرأسمالية مثلاً – مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم – كما يقولون – الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلي في إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ في أسلوب الأداء القرآني أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذي يتكلم إله . ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28]

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت في مسألة التقليد بردّ لأنه بداهة لا يؤدي إلى حقيقة ، بل قال : ﴿ . . . قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفحشآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 28]

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ ؟ .

(81/267)

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطري ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلانه عند العقل الفطري ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أهو أمر مباشر . . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنتبهوا إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً . . . ﴾ [الشورى : 51] أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبي فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجيء الرسول ؟ .

وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم : ﴿ . . . أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 28]

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : " لا " فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : " نعم " ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(82/267)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ﴾ قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة فنهوا عن ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ قال : فاحشتهم أنهم كانوا يطوفون حول البيت عراة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وإذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ الآية .

قال : كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة ، فإذا قيل لهم لم تفعلون ذلك ؟ قالوا : وجدنا عليها آباءنا وأمرنا الله بها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : كان المشركون الرجال يطوفون بالبيت بالنهار عراة والنساء بالليل عراة ، ويقولون : إنا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، فلما جاء الإسلام وأخلاقه الكريمة نهوا عن ذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : والله ما أكرم الله عبداً قط على معصيته ولا رضيها له ولا أمر بها ، ولكن رضي لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(83/267)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ هذه الآية الكريمة يتوهم خلاف ما دلت عليه من ظاهر آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ الآية ، الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: وهو أظهرها أن معنى قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي بطاعة الله وتصديق الرسل ففسقوا أي بتكذيب الرسل ومعصية الله تعالى فلا إشكال في الآية أصلا .

الوجه الثاني: أن الأمر في قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أمر كوني قدري لا أمر شرعي ، أي قدرنا عليهم الفسق بمشيئتنا ، والأمر الكوني القدري كقوله: ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، والأمر في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أمر شرعي ديني فظهر أن الأمر المنفي غير الأمر المثبت .

الوجه الثالث: أن معنى ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ : أي كثرناهم حتى بطروا النعمة ففسقوا ، ويدل لهذا المعنى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد مرفوعا من حديث سويد بن هبيرة رضي الله عنه: "خير مال امرئ مهرة مأمورة أو سكة مأبورة" فقوله مأمورة أي كثيرة النسل وهي محل الشاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 133 ﴾

(84/267)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾

هذه الجملة الشَّرْطيَّة لا محلَّ لها من الإعراب ؛ لأنَّها استئنافيَّة وهو الظَّاهِرُ وجوَّزَ ابْنُ عَطِيَّة أن تكون داخِلَةً في حيِّز الصِّلَةِ لعطفها عليها .

قال ابْنُ عطيَّة ليقع التوبيخ بصفة قَوْمٍ قد فعلوا أمثالاً للمؤمنين إذا شبه فعلهم فعل الممثل بهم .

قوله : " وَجَدْنَا " يحتمل أنْ يكون العلمية أي علمنا طريقهم أنها هذه ، ويحتمل أن يكون بمعنى : لَقِينَا ، فيكون مفعولاً ثانياً على الأول وحالاً على الثاني .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بالفحشآء ﴾

حذف المفعول الأوَّل للعلم به أي لا يأمر أحداً أو لا يأمركم يا مُدَّعين ذلك .

قوله : ﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ مفعول به ، وهذا مفرد في قوة الجملة ؛ لأنَّ ما لا يعلمون ممَّا يتقولونه على الله – تعالى – كلام كَثِيرٌ من قولهم : ﴿ واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ كتبحير البحائر وتسبيب السَّوائب ، وطوافهم بالبيت عُراةً إلى غير ذلك حذف المفعول من قوله : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ [الأعراف : 29] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 78 . 80 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) ﴾

استروحوا في التعلل إلى سلوكهم نهجَ أسلافِهم ، فاستمسكوا بحبلٍ واهٍ فزلَّت بهم أقدامُ الغرور ، وقعوا في وهدة المحنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 529 ﴾

(85/267)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

لما كان تعليلهم بأمر الله مقتضياً لأنه إذا أمر بشيء أتبع ، أمره أن يبلغهم أمره الذي جاء به دليل العقل مؤيداً بحازم النقل فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين نابذوا الشرع والعرف ﴿ أمر ربي ﴾ المحسن إليّ بالتكليف بمحاسن الأعمال ، التي تدعو إليها الهمم العوال ﴿ بالقسط ﴾ وهو الأمر الوسط بين ما فحش في الإفراط صاعداً عن الحد ، وفي التفريط هابطاً منه ؛ ولما كان التقدير : فأقسطوا اتباعاً لما أمر به ، أو كان القسط مصدراً ينحل إلى : أن أقسطوا ، عطف عليه ﴿ وأقيموا وجوهكم ﴾ مخلصين غير مرتكبين لشيء من

الجور ﴿ عند كل مسجد ﴾ أي مكان ووقت وحال يصلح السجود فيه ، ولا يتقيدن أحد بمكان ولا زمان بأن يقول وقد أدركته الصلاة : أذهب فأصلي في مسجدي ﴿ وادعوه ﴾ عند ذلك كله دعاء عبادة ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي لا تشركوا به شيئاً . ولما كان المعنى : فإن من لم يفعل ذلك عذبه بعد إعادته له بعد الموت ، ترجمه مستدلاً عليه بقوله معللاً : ﴿ كما بدأكم ﴾ أي في النشأة الأولى فأنتم تبتدئون نعيدكم بعد الموت فأنتم ﴿ تعودون ﴾ حال كونكم فريقين : ﴿ فريقاً هدى ﴾ أي خلق الهداية في قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية ﴿ وفريقاً ﴾ أضل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 24 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ يدل على أن الشيء يكون في نفسه قسطاً لوجوه عائدة إليه في ذاته ، ثم إنه تعالى يأمر به لكونه كذلك في نفسه ، وذلك يدل أيضاً على أن الحسن إنما يحسن لوجوه عائدة إليه ، وجوابه ما سبق ذكره .

فائدة :

قال عَطاء ، والسُّدّي ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وبما ظهر في المعقول كونه حسناً صواباً . وقال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله والدليل عليه قوله : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَائِمَاً بالقسط ﴾ [آل عمران : 18] وذلك القسط ليس إلا شهادة

أن لا إله إلا الله .

فثبت أن القسط ليس إلا قول لا إله إلا الله .

(86/267)

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى أمر في هذه الآية بثلاثة أشياء .

أولها : أنه أمر بالقسط ، وهو قول : لا إله إلا الله .

وهو يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وأفعاله وأحكامه ، ثم على معرفة أنه واحد لا شريك له .

وثانيها : أنه أمر بالصلاة وهو قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : أنه لقائل أن يقول : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ خبر وقوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز .

وجوابه التقدير : قل أمر ربي بالقسط .

وقل : أقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين .

البحث الثاني : في الآية قولان : أحدهما : المُراد بقوله : ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ هو استقبال القبلة .

والثاني : أن المراد هو الإخلاص ، والسبب في ذكر هذين القولين ، أن إقامة الوجه في العبادة قد تكون باستقبال القبلة ، وقد تكون بالإخلاص في تلك العبادة ، والأقرب هو الأول ، لأن الإخلاص مذكور من بعد ، ولو حملناه على معنى الإخلاص ، صار كأنه قال : وأخلصوا عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ، وذلك لا يستقيم .

فإن قيل : يستقيم ذلك ، إذا علقت الإخلاص بالدعاء فقط .

قلنا : لما أمكن رجوعه إليهما جميعاً ، لم يجز قصره على أحدهما ، خصوصاً مع قوله : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ فإنه يعم كل ما يسمى ديناً .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ اختلفوا في أن المراد منه زمان الصلاة أو مكانه والأقرب هو الأول ، لأنه الموضع الذي يمكن فيه إقامة الوجه للقبلة ، فكأنه تعالى بين لنا أن لا نعتبر الأماكن ، بل نعتبر القبلة ، فكان المعنى : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة وقال ابن عباس : المراد إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ، ولا يقولن أحدكم ، لا أصلي إلا في مسجد قومي .

ولقائل أن يقول : حمل لفظ الآية على هذا بعيد ، لأن لفظ الآية يدل على وجوب إقامة الوجه في كل مسجد ، ولا يدل على أنه لا يجوز له العدول من مسجد إلى مسجد .

وأما قوله : ﴿ وادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر في الآية الأولى بالتوجه إلى القبلة ، أمر بعده بالدعاء ، والأظهر عندي أن المراد به أعمال الصلاة ، وسماها دعاء ، لأن الصلاة في أصل اللغة عبارة عن الدعاء ، ولأن أشرف أجزاء الصلاة هو الدعاء والذكر ، وبين أنه يجب أن يؤتى بذلك الدعاء مع الإخلاص ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] ثم قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : قال ابن عباس : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ خلقكم مؤمناً أو كافراً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ فبعث المؤمن مؤمناً ، والكافر كافراً ، فإن من خلقه الله في أول الأمر للشقاوة ، أعمله بعمل أهل الشقاوة ، وكانت عاقبته الشقاوة ، وان خلقه للسعادة أعمله بعمل أهل السعادة ، وكانت عاقبته السعادة .

والقول الثاني : قال الحسن ومجاهد : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً ، كذلك تعودون أحياء ، فالقائلون بالقول الأول : احتجوا على صحته بأنه تعالى ذكر عقيبه قوله : ﴿ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ وهذا يجري مجرى التفسير لقوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وذلك يوجب ما قلناه .

قال القاضي : هذا القول باطل ، لأن أحداً لا يقول إنه تعالى بدأنا مؤمنين أو كافرين ، لأنه لا بد في الإيمان والكفر أن يكون طارئاً وهذا السؤال ضعيف ، لأن جوابه أن يقال : كما بدأكم بالإيمان ، والكفر ، والسعادة ، والشقاوة ، فكذلك يكون الحال عليه يوم القيامة .

واعلم أنه تعالى أمر في الآية أولاً بكلمة "القسط" وهي كلمة لا إله إلا الله ، ثم أمر بالصلاة ثانياً ، ثم بين أن الفائدة في الإتيان بهذه الأعمال ، إنما تظهر في الدار الآخرة ، ونظيره قوله تعالى في "طه" لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَاْ فاعبدنى وَأَقِمِ الصلاة لِذِكْرِى إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 14 ، 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 48 . 49 ﴾ . بتصرف يسير .

(88/267)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ أي بالعدل والصواب .

وكلمة التوحيد وهي شهادة ألاّ إله إلاّ الله ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ وقل : أقيموا وجوهكم ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي حوّلوا وجوهكم إلى الكعبة عند كل صلاة .

وقال الكلبي : يعني إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد فصلوا فيه ، فلا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي .

وإذا لم يكن في مسجد فليأت أي مسجد شاء .

قال مقاتل : يعني : حوّلوا وجوهكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم ﴿ وادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ يقول : وحدوه واعبْدُوه بالإخلاص .

ويقال : إنّ أهل الجاهلية كانوا يشركون في تلبيتهم ، ويقولون : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، فأمرهم الله أن يوحّدوه في التلبية مخلصين له الدين .

ثم قال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ أي ليس كما تشركون .

فاحتج عليهم بالبعث متصلاً بقوله : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ أي ليس بعثكم بأشد من ابتدائكم .

وقال الحسن : كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً فأحياكم كذلك يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة .

ويقال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ يوم الميثاق من التصديق والتكذيب ﴿ تَعُودُونَ ﴾ إلى ذلك .

حيث قال : "هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي" .

ويقال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ فخلقكم من التراب ﴿ تَعُودُونَ ﴾ تراباً بعد الموت .

وقال ابن عباس : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً كذلك تموتون عليه وتبعثون عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾

(89/267)

قال ابن عباس : بلا إله إلاّ الله ، وقال الضحاك : التوحيد ، وقال مجاهد والسدي : بالعدل ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ قال مجاهد والسدي وابن زيد : يعني وجهوا وجوهكم حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة .

وقال الضحاك : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه ولا تقولن : أحب أن أُصلي في مسجدي ، وإذا لم يكن عند مسجد [فليأت] أيّ مسجد فليصلِّ فيه .

وقال الربيع : معناه واجعلوا سجودكم لله سبحانه وتعالى خالصاً دون ما سواه من الآلهة والأنداد ﴿ وادعوه ﴾ واعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ الطاعة والعبادة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تبعث كل نفس على ما كانت عليه " .

قال ابن عباس : إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] ثمّ يعيده يوم القيامة كما بدأ خلقهم

كافراً ومؤمناً ، فيبعث المؤمن مؤمناً والكافر كافراً .

وقال جابر : يبعثون على ما ماتوا عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه . وقال أبو العالية : عادوا إلى علمه فيهم .

قال محمد بن كعب : من ابتدأ خلقه على الشقوة صار إلى ما ابتدأ عليه خلقه وإن عمل بإعمال أهل السعادة ، كما أنّ إبليس عمل أعمال أهل السعادة صار إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدأ عليه خلقه وإن عمل أهل الشقاوة ، كما أنّ السحرة عملت أعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدأ عليه خلقهم .

وقال سعيد بن جبير : معناه كما كتب عليكم يكونون نضير قوله ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : 104] .

قال قتادة : خلقكم من التراب وإلى التراب تعودون نضير قوله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ [طه : 55] .

(90/267)

وقال الربيع ابن أنس : كما بدأكم عرياناً تعودون لهم عرياناً . نضيره قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] .

وقال السدي : كما خلقكم فريق مهتدون وفريق ضلال ، كذلك تعودون تخرجون من بطون أُمهاتكم ، قال الحسن ومجاهد : كما بدأكم فخلقكم فريق مهتدون وفريق ضلال . كذلك تعودون يوم القيامة ، نضيره قوله ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : 104] .

روي سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يُحشر الناس حُفاة عُراة وأوّل من يُكسى إبراهيم عليه السلام " ثمّ قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : 104] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : بالصدق .

والثاني : بالعدل .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد .

والثاني : معناه اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون ما سواه من الأوثان والأصنام ، قاله الربيع بن أنس .

والثالث : معناه اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة ، أمراً بالجماعة لها ، ندباً عند

الأكثرين ، وحتماً عن الأقلين .

والرابع : أن أي موضع أدركت فيه وقت الصلاة فصل فيه فإنه مسجد ولا تؤخرها إلى حضور المسجد .

﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني أقروا له بالوحدانية وإخلاص الطاعة .

والثاني : ارغبوا إليه في الدعاء بعد إخلاصكم له الدين .

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : كما بدأكم شقياً وسعيداً ، كذلك تبعثون يوم القيامة ، قاله ابن عباس .

(91/267)

الثاني : كما بدأكم فآمن بعضكم وكفر بعضكم ، كذلك تبعثون يوم القيامة . روى أبو سفيان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ " .

والثالث : كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، كذلك تعودون بعد الفناء أحياء ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والرابع : كما بدأكم لا تملكون شيئاً ، كذلك تبعثون يوم القيامة .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرلاً وَأَوَّلُ مَنْ يُكسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيهِ السَّلاَمُ " ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾

تضمن قوله ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ أقسطوا ولذلك عطف عليه قوله ﴿ وأقيموا ﴾ حملاً على المعنى ، و" القسط " العدل والحقن واختلف المتأولون في قوله ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ فقيل أراد إلى الكعبة قاله مجاهد والسدي والمقصد على هذا شرع القبلة والأمر بالتزامها ، وقيل أراد الأمر بإحضار النية لله في كل صلاة والقصد نحوه كما تقول وجهت وجهي لله قاله الربيع .

قال القاضي أبو محمد : فلا يؤخذ الوجه على أنه الجارحة بل هو المقصد والمنزع ، وقيل : المراد بهذا اللفظ إباحة الصلاة في كل موضع من الأرض ، أي حيث ما كنتم فهو مسجد لكم تلزمكم عند الصلاة إقامة وجهوكم فيه الله عز وجل ، قال قوم : سببها أن قوماً كانوا لا يصلون إلا في مساجدهم في قبلتهم ، فإذا حضر الصلاة في غير ذلك من المساجد لم يصلّوا

فيها ، وقوله ﴿ مخلصين ﴾ حال من الضمير في ﴿ وادعوه ﴾ ، و ﴿ الدين ﴾ مفعول ب ﴿ مخلصين ﴾ .

(92/267)

قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة وابن عباس ومجاهد : المراد بقوله : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ الإعلام بالبعث أي كما أوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت فالوقف على هذا التأويل ﴿ تعودون ﴾ ، و ﴿ فريقاً ﴾ نصب ب ﴿ هدى ﴾ ، والثاني منصوب بفعل تقديره : وعذب فريقاً أو أضل " فريقاً حق عليهم " ، وقال ابن عباس أيضاً وأبو العالية ومحمد بن كعب ومجاهد أيضاً وسعيد بن جبير والسدي وجابر بن عبد الله وروي معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم : المراد بقوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ الإعلام بأن أهل الشقاء والكفر في الدنيا الذين كتب عليهم هم أهل الشقاء في الآخرة وأهل السعادة والإيمان الذين كتب لهم في الدنيا هم أهلها في الآخرة لا يتبدل من الأمور التي أحكمها ودبرها وأنفذها شيء ، فالوقف في هذا التأويل في قوله ﴿ تعودون ﴾ غير حسن ، و ﴿ فريقاً ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال والثاني عطف على الأول ، وفي قراءة أبي بن كعب " تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد ، فصلُّوا فيه ، ولا يقولنَّ أحدكم : أُصلي في مسجدي ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، واختاره ابن قتيبة .

والثاني : توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة ، أمراً بالجماعة لها ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : ﴿ وادعوه ﴾ قولان .

أحدهما : أنه العبادة .

والثاني : الدعاء .

وفي قوله : ﴿ مخلصين له الدين ﴾ قولان .

أحدهما : مُفْردين له العبادة .

والثاني : موحِّدين غير مشركين .

وفي قوله : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : كما بدأكم سعداء وأشقياء كذلك تبعثون ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والقرظي ، والسدي ، ومقاتل ، والفراء .

والثاني : كما خُلقتم بقدرته ، كذلك يعيدكم ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وابن زيد ، والزجاج ، وقال : هذا الكلام متصل بقوله : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ﴾ [الأعراف : 25] .

والثالث : كما بدأكم لا تملكون شيئا ، كذلك تعودون ، ذكره الماوردي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾

قال ابن عباس : لا إله إلا الله .

وقيل : القسط العدل ؛ أي أمر بالعدل فأطيعوه .

ففي الكلام حذف .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي توجهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة .

﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي في أي مسجد كنتم .

﴿ وادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي وحّدوه ولا تشركوا به .

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ نظيره ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] وقد تقدم .

والكاف في موضع نصب ؛ أي تعودون كما بدأكم ؛ أي كما خلقكم أوّل مرة يعيدكم .

وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله .

أي ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾

أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون أمر ربي بالقسط يعني بالعدل ، وهذا قول مجاهد والسدي .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بلا إله إلا الله فالأمر بالقسط في هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وأنه واحد لا شريك له ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ فإن قلت قل أمر ربي بالقسط خبر وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز فما معناه .

قلت : فيه إضمار وحذف تقديره قل أمر ربي بالقسط وقال ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ فحذف فقال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية قول مجاهد والسدي : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، وقال الضحاك : معناه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي أو في مسجد قومي . وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً ﴿ وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله عز وجل بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً وحجة هذا القول قوله في سياق الآية ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فإنه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يُبعث كل عبد على ما مات عليه" أخرجه مسلم زاد البغوي في روايته : المؤمن على إيمانه والكافر على كفره .

وقال محمد بن كعب : من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة .

ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بأعمال أهل الشقاوة كما أن السحرة كان يعملون بعمل أهل الشقاوة ثم صاروا إلى السعادة ويصح هذا القول ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة " أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد في معنى الآية كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة ويشهد لمصلحة هذا القول ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال " أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين " أخرجه البخاري ومسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل أمر ربي بِالقسط ﴾ .

قال ابن عباس القسط هنا لا إله إلا الله لأن أسباب الخير كلها تنشأ عنها ، وقال عطاء والسدّي : العدل وما يظهر في القول كونه حسناً صواباً ، وقيل الصدق والحق .

﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ .

وأقيموا معطوف على ما ينحل إليه المصدر الذي هو القسط أي بأن أقسطوا وأقيموا وكما ينحل المصدر لأن والفعل الماضي نحو عجبت من قيام زيد وخرج أي من أن قام وخرج وأن والمضارع نحو :

للبس عباءة وتقرّ عيني . . .

أي لأن ألبس عباءة وتقر عيني كذلك ينحل لأن وفعل الأمر ألا ترى أنّ أن توصل بفعل الأمر نحو كتبت إليه بأن قم كما توصل بالماضي والمضارع بخلاف ما المصدرية فإنها لا توصل بفعل الأمر وبخلاف كي إذا لم تكن حرفاً وكانت مصدرية فإنها توصل بالمضارع فقط ولما أشكل هذا التخريج جعل الزمخشري ﴿ وأقيموا ﴾ على تقدير وقل فقال : أقيموا فيحتمل قوله وقل أقيموا أن يكون ﴿ أقيموا ﴾ معمولاً لهذا الفعل الملفوظ به ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ وأقيموا ﴾ معطوفاً على ﴿ أمر ربي بالقسط ﴾ فيكون معمولاً لقل الملفوظ بها أولاً وقدّرها ليبيّن أنها معطوفة عليها وعلى ما خرّجناه نحن يكون في خبر

معمول أمر ، وقيل : ﴿ وأقيموا ﴾ معطوف على أمر محذوف تقديره فأقبلوا وأقيموا ، وقال ابن عباس والضحّاك واختاره ابن قتيبة : المعنى إذا حضرت الصلاة فصلوا في كل مسجد ولا يقل أحدكم أصلي في مسجدي ، وقال مجاهد والسدّي وابن زيد : معناه توجّهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، وقال الرّبيع : اجعلوا سجودكم خالصاً لله دون غيره ، وقيل : معناه اقصدوا المسجد في وقت كلّ صلاة أمراً بالجماعة ذكره الماوردي ، وقيل : معناه إذا كان في جواركم مسجد فأقيموا الجماعة فيه ولا تتجاوزوا إلى غيره ذكره التبريزي ، وقيل هو أمر بإحضار النيّة لله في كل صلاة والقصد نحوه كما تقول

(97/267)

﴿ وجّهت وجهي ﴾ الآية قاله الربيع أيضاً ، وقيل معناه إباحة الصّلاة في كل موضع من الأرض أي حيثما كنتم فهو مسجد لكم يلزمكم عنده الصّلاة وإقامة وجوهكم فيه لله وفي الحديث : " جعلت لي الأرض مسجداً فأيّما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث كان " وقال الزمخشري : أي اقصدوا عبادته مستقيمين إليه غير عادلين إلى غيرها عند كل مسجد في وقت كل سجود وفي كل مكان سجود وهو الصلاة وادعوه مخلصين له الدين . قيل : الدعاء على بابه أمر به مقروناً بالإخلاص لأنّ دعاء من لا يخلص الدين لله لا يجاب ،

وقيل : معناه اعبدوا ، وقيل : قولوا لا إله إلا الله .

﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة هو إعلام بالبعث أي كما أوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت ولم يذكر الزمخشري غير هذا القول .

قال : كما أنشأكم ابتداء يعيدكم احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة انتهى ، وهذا قول الزّجاج قال : كما أحياكم في الدّنيا يحييكم في الآخرة وليس بعثكم بأشد من ابتداء إنشائكم وهذا احتجاج عليهم في إنكارهم البعث انتهى .

(98/267)

وقال ابن عباس أيضاً وجابر بن عبد الله وأبو العالية ومحمد بن كعب وابن جبير والسدّي ومجاهد أيضاً والفرّاء ، وروى معناه عن الرّسول أنه إعلام بأنّ من كتب عليه أنه من أهل الشقاوة والكفر في الدّنيا هم أهل ذلك في الآخرة وكذلك من كتب له السعادة والإيمان في الدنيا هم أهل ذلك في الآخرة لا يتبدّل شيء مما أحكمه ودبّره تعالى ويؤيد هذا المعنى قراءة أبيّ ﴿ تعودون ﴾ فريقين ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة ﴾ وعلى هذا

المعنى يكون الوقف على ﴿ تعودون ﴾ غير حسن لأنّ ﴿ فريقاً ﴾ نصب على الحال وفريقاً عطف عليه والجملة من ﴿ هدى ﴾ ومن ﴿ حقّ ﴾ في موضع الصفة لما قبله وقد حذف الضمير من جملة الصفة أي هداهم ، وجوّز أبو البقاء أن يكون ﴿ فريقاً ﴾ مفعول ﴿ هدى ﴾ ﴿ وفريقاً ﴾ مفعول أضل مضمرة والجملتان الفعليتان حال ، وهدى على إضمار قد أي تعودون قد هدى فريقاً وأضلّ فريقاً ، وعلى المعنى الأوّل يحسن الوقف على ﴿ تعودون ﴾ ويكون ﴿ فريقاً ﴾ مفعولاً بهدى ويكون ﴿ وفريقاً ﴾ منصوباً بإضمار فعل يفسّر قوله ﴿ حقّ عليهم الضلالة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(99/267)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾

بيانٌ للمأمور به إثرَ نفي ما أُسند أمرُه إليه تعالى من الأمور المنهيِّ عنها ، والقسطُ العدلُ وهو الوسَطُ من كل شيء ، المتجافي عن طرفي الإفراطِ والتفريط .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غيرَ عادلين إلى غيرها ، أو أقيموا

وجوهَكم نحو القِبلة ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ في كل وقت سجودٍ أو مكانِ سجودٍ وهو الصلاةُ أو في أي مسجدٍ حضَرتْكم الصلاةُ وعنده ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿ وادعوه ﴾ واعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعةَ فإن مصيركم إليه بالآخرة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ أي أنشأكم ابتداءً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم وإنما شُبه الإعادةُ بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرةِ عليها ، وقيل : كما بدأكم من التراب تعودون إليه ، وقيل : حفاةً عراة غُرْلاً تعودون إليه وقيل : كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(100/267)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾

بيان للمأمور به إثر نفي ما أسند أمره إليه تعالى من الأمور المنهي عنها ؛ والقسط على ما قال غير واحد العدل ، وهو الوسط من كل شيء المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط .

وقال الراغب : "هو النصيب بالعدل كالنَّصَفِ والنَّصَفة .

ويقال : القسط لأخذ قسط غيره وذلك جور والإقساط لإعطاء قسط غيره وذلك

إنصاف ولذلك يقال : قسط الرجل إذا جار وأقسط إذا عدل" .

وهذا أولى مما قاله الطبرسي من "أن أصله (الميل) فإن كان إلى جهة الحق فعدل ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ [المائدة : 42] وإن كان إلى جهة الباطل فجور ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15] والمراد به هنا على ما نقل عن أبي مسلم جميع الطاعات والقرب .

وروي عن ابن عباس والضحاك أنه التوحيد وقول لا إله إلا الله ومجاهد والسدي وأكثر المفسرين على أنه الاستقامة والعدل في الأمور .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي توجهوا إلى عبادته تعالى مستقيمين غير عادلين إلى غيرها ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي في وقت كل سجود كما قال الجبائي أو مكانه كما قال غيره فعند بمعنى في والمسجد اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغوي ، وكان حقه فتح العين لضمها في المضارع إلا أنه مما شذ عن القاعدة ، وزعم بعضهم أنه مصدر ميمي والوقت مقدر قبله ، والسجود مجاز عن الصلاة .

وقال غير واحد : المعنى توجهوا إلى الجهة التي أمركم الله تعالى بالتوجه إليها في صلاتكم وهي جهة الكعبة .

والأمر على القولين للوجوب .

واختار المغربي أن المعنى إذا أدركتم الصلاة في أي مسجد فصلوا ولا تؤخروها حتى

تعودوا إلى مساجدكم ، والأمر على هذا للندب والمسجد بالمعنى المصطلح ولا يخفى ما فيه من البعد .

ومثله ما قيل : إن المعنى اقصد المسجد في وقت كل صلاة على أنه أمر بالجماعة ندباً عند بعض ووجوباً عند آخرين .

(101/267)

والواو للعطف وما بعده قيل : معطوف على الأمر الذي ينحل إليه المصدر مع أن أي أن أقسطوا .

والمصدر ينحل إلى الماضي والمضارع والأمر ، وقال الجرجاني : إنه عطف على الخبر السابق المقول لقل وهو إنشاء معنى ، وإن أبيت فالكلام من باب الحكاية .

وجوز أن يكون هناك قل مقداراً معطوفاً على نظيره .

و ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ مقول له .

وأن يكون معطوفاً على محذوف تقديره قل أقبلوا وأقيموا .

﴿ وادعوه ﴾ أي اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعة فالدعاء بمعنى العبادة لتضمنها له والدين بالمعنى اللغوي .

وقيل : إن هذا أمر بالدعاء والتضرع إليه سبحانه على وجه الإخلاص أي ارغبوا إليه في الدعاء بعد إخلاصكم له في الدين ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ أي أنشأكم ابتداءً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ إليه سبحانه فيجازيكم على أعمالكم فامتثلوا أوامره أو فأخلصوا له العبادة فهو متصل بالأمر قبله .

وقال الزجاج : إنه متصل بقوله تعالى : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : 25] ولا يخفى بعده .

ولم يقل سبحانه : يعيدكم كما هو الملائم لما قبله إشارة إلى أن الإعادة دون البدء من غير مادة بحيث لو تصور الاستغناء عن الفاعل لكان فيها دونه فهو كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] سواء كانت الإعادة الإيجاد بعد الإعدام بالكلية أو جمع متفرق الأجزاء .

وإنما شبهها سبحانه بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها .

وقال قتادة : المعنى كما بدأكم من التراب تعودون إليه كما قال سبحانه : ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه : 55] وقيل : المعنى كما بدأكم لا تملكون شيئاً كذلك تبعثون يوم القيامة .

وعن محمد بن كعب أن المراد أن من ابتدأ الله تعالى خلقه على الشقوة صار إليها وإن عمل

بأعمال أهل السعادة ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بعمل أهل الشقاوة .

(102/267)

ويؤيد ذلك ما رواه الترمذي عن عمرو بن العاص قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا : لا يا رسول الله فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ثم قال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ثم قال أي أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه فنبذهما ثم قال : فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير " .

وقريب من هذا ما روي عن ابن جبير من أن المعنى : كما كتب عليكم تكونون .

وروي عن الحبر أن المعنى كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم يوم القيامة فهو كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(103/267)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) ﴾

بعد أن أبطل زعمهم أنّ الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش إبطالاً عاماً بقوله : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ [الأعراف : 28] استأنف استئنافاً استطرادياً بما فيه جماع مقوّمات الدّين الحق الذي يجمعه معنى القِسْط أي العدل تعليماً لهم بنقيض جهلهم ، وتنويهاً بجلال الله تعالى ، بأنّ يعلموا ما شأنه أن يأمر الله به .

ولأهميّة هذا الغرض ، ولمضادته لمدّعاهم المنفي في جملة : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ [الأعراف : 28] فُصلت هذه الجملة عن التي قبلها ، ولم يُعطف القولُ على القول ولا المقول على المقول : لأنّ في إعادة فعل القَول وفي ترك عطفه على نظيره لَفْتاً للأذهان إليه .

والقسط : العَدل وهو هنا العدل بمعناه الأعمّ ، أي الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتّفريط في الأشياء ، وهو الفضيلة من كلّ فعل ، فالله أمر بالفضائل وبما تشهد العقول السّليمة أنّه صلاح محض وأنّه حسن مستقيم ، نظير قوله : ﴿ وكان بين ذلك قَواماً ﴾ [الفرقان : 67] فالتّوحيد عدل بين الإشراك والتّعطيل ، والقصاص من القاتل عدل بين إطلال الدّماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يُقدَر عليه .

(104/267)

وأمَر الله بالإحسان ، وهو عدل بين الشحّ والإسراف ، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائماً للصّلاح عاجلاً وآجلاً ، أي سالماً من عواقب الفساد ، وقد نقل عن ابن عبّاس أنّ القسط قول لا إله إلاّ هو ، وإنّما يعني بذلك أنّ التّوحيد من أعظم القسط ، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أنّ الله أمرهم بها لأنّ شيئاً من تلك الفواحش ليس بقسط ، وكذلك اللّباس فإنّ التّعري تفريط ، والمبالغة في وضع اللباس إفراطٌ ، والعدل هو اللّباس الذي يستر العورة ويدفع أذى القرّ أو الحَرّ ، وكذلك الطّعام فتحريم بعضه غلو ، والاسترسال فيه نهامة ، والوسط هو الاعتدال ، فقوله : ﴿ أمر ربي بالقسط ﴾ كلام

جامع لإبطال كلّ ما يزعمون أنّ الله أمرهم به ممّا ليس من قبيل القسط .

ثمّ أعقبه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم عن الله : ﴿ أقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ فجملة : ﴿ وأقيموا ﴾ عطف على جملة : ﴿ أمر ربي بالقسط ﴾ أي قُلْ لأولئك المخاطبين أقيموا وجوهكم .

والقصد الأوّل منه إبطال بعض ممّا زعموا أنّ الله أمرهم به بطريق أمرهم بضدّ ما زعموه ليحصل أمرهم بما يرضي الله بالتّصريح .

وإبطالُ شيء زعموا أنّ الله أمرهم به بالالتزام ، لأنّ الأمر بالشّيء نهي عن ضدّه ، وإن شئت قلت لأنّ من يريد النّهي عن شيءٍ وفعلَ ضدّه يأمر بضدّه فيحصل الغرضان من أمره .

وإقامة الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى ، في مواضع عبادته ، بحال المتهيّىء لمشاهدة أمر مهم حين يُوجه وجهه إلى صَوْبه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فذلك التّوجّه المحض يطلق عليه إقامة لأنّه جعل الوَجه قائماً ، أي غير متغاضضٍ ولا متوان في التّوجّه ، وهو في إطلاق القيام على القوّة في الفعل كما يقال : قامت السّوق ، وقامت الصّلاة ، وقد تقدّم في أوّل سورة البقرة (3) عند قوله:

﴿ ويقيمون الصلاة ومنه قوله تعالى : فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ [الروم : 30] فالمعنى أنّ الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد ، لأنّ ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة ، ولم يأمر بتعظيمه ولا تعظيم مساجده بما سوى ذلك مثل التّعرّي ، وإشراك الله بغيره في العبادة مناف لها أيضاً ، وهذا كما ورد في الحديث : " المصلّي يناجي ربّه فلا يَبْصُقَنّ قِبل وجهه " فالنّهي عن التّعرّي مقصود هنا لشمول اللّفظ إياه ، ولدلالة السّياق عليه بتكرير الامتنان والأمرِ باللّباس : ابتداء من قوله : ﴿ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ﴾ [الأعراف : 20] إلى هنا .

ومعنى : ﴿ عند كل مسجد ﴾ عند كلّ مكان متخَذ لعبادة الله تعالى ، واسم المسجد منقول في الإسلام للمكان المعيَّن المحدود المتّخذ للصّلاة وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ﴾ في سورة العقود (2) ، فالشّعائر التي يوقعون فيها أعمالاً من الحجّ كلّها مساجد ، ولم يكن لهم مساجد غير شعائر الحجّ ، فذِكر المساجد في الآية يعيّن أنّ المراد إقامة الوجوه عند التّوجّه إلى الله في الحجّ بأن لا يشركوا مع الله في ذلك غيرَه من أصنامهم بالنّية ، كما كانوا وضعوا (هُبَلَ) على سطح الكعبة ليكون الطّواف بالكعبة لله ولهُبل ، ووضعوا (إسافاً ونائلة) على الصّفا والمروة ليكون السّعي لله ولهما .

وكان فريق منهم يهلّون إلى (منَاة) عند (المشلل) ، فالأمر بإقامة الوجوه عند المساجد كلّها أمر بالتزام التّوحيد وكمال الحال في شعائر الحجّ كلّها ، فهذه مناسبة عطف قوله : وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ عقب إنكار أن يأمر الله بالفحشاء من أحوالهم ، وإثبات أنّه أمر بالقسط ممّا يضادها .

وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين لأنّهم المتّصفون بضدّه ، فللمؤمنين منه حظّ الدّوام عليه ، كما كان للمشركين حظّ الإعراض عنه والتّفريط فيه .

(106/267)

والدّعاء في قوله : ﴿ وادعوه مخلصين له الدين ﴾ بمعنى العبادة أي اعبدوه كقوله : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ [الأعراف : 194] .

والإخلاص تمحيض الشّيء من مخالطة غيره .

والدّين بمعنى الطّاعة من قولهم دنت لفلان أي أطعته .

ومنه سمّي الله تعالى : الديّان ، أي القهّار المذلّل المطوع لسائر الموجودات ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ [البينة : 5] ، والمقصد منها إبطال الشّرك في عبادة الله تعالى ، وفي إبطاله تحقيق لمعنى القِسط الذي في قوله : ﴿

قل أمر ربي بالقسط ﴾ كما قدمناه هنالك ، و﴿ مخلصين ﴾ حال من الضّمير في ادعوه .

وجملة : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ في موضع الحال من الضّمير المستتر في قوله : ﴿ مخلصين ﴾ وهي حال مقدرة أي : مقدّرين عَودكم إليه وأنّ عودكم كبدئكم ، وهذا إنذار بأنّهم مُؤاخدون على عدم الإخلاص في العبادة ، فالمقصود منه هو قوله : ﴿ تعودون ﴾ أي إليه ، وأدمج فيه قوله : ﴿ كما بدأكم ﴾ تذكيراً بإمكان البعث الذي أحالوه ؛ فكان هذا إنذاراً لهم بأنّهم عائدون إليه فمُجَازَوْن عن إشراكهم في عبادته ، وهو أيضاً احْتجاج عليهم على عدم جدوى عبادتهم غيرَ الله ، وإثبات للبعث الذي أنكروه بدَفع موجب استبعادهم إياه ، حين يقولون:

﴿ أإذا مِتنَا وكنّا تراباً وعظاماً ءإنّا لمبعوثون ﴾ [الواقعة : 47] ويقولون ﴿ أينا لمردودون في الحافرة أإذا كنّا عظاماً نَخِرة ﴾ [النازعات : 10 ، 11] ونحو ذلك ، بأنّ ذلك الخلق ليس بأعجبَ من خلقهم الأوّل كما قال تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] وكما قال : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] أي بنقيض تقدير استبعادهم الخلق الثّاني ، وتذكير لهم بأنّ الله منفرد بخلقهم الثّاني ، كما انفرد بخلقهم الأوّل ، فهو منفرد بالجزاء فلا يغني عنهم آلهتهم شيئاً .

فالكاف في قوله : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ لتشبيه عود خلقهم ببدئه و(ما) مصدريّة والتّقدير : تعودون عوداً جديداً كبدئه إيّاكم ، فقدم المتعلّق ، الدّال على التّشبيه ، على فعِله ، وهو تعودون ، للاهتمام به ، وقد فسّرت الآية في بعض الأقوال بمعان هي بعِيدة عن سياقها ونظمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(108/267)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

والقسط هو العدل من قسط قِسطاً ، وأمّا قاسط فهي اسم فاعل من قسط قَسْطاً وقَسُوطاً أي جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائلون عن الحق والظالمون ، كلمة العدل هي التسوية ، فإن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أكره مكروه ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ .

وهذه جملة خبرية . ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 29]

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن إن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن لنلتفت

أن الحق يعطفها على " قل " ، فكأن المقصود هو أن يقول : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا أن كان له لباس مميز لا يرتديه الا هو . والوجه أشرف شيء في التكوين الجسمي ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه في الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب . . . ﴾ [الحج : 18]

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهي من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهي أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . . ﴾ [الحج : 18]

(109/267)

لأن الإنسان له خاصية الاختيار ، وبقية الكائنات ليس له اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذي وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائعة وكلها تسبح ربنا ، فإذا كان السيد الذي تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد . ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾ [الأعراف : 29]

والإقامة أن تضع الشيء فيما هيىء له وخُلق وطُلب منه ، وإن وجهته لناحية ثانية تكون قد ثنيته وأملته وحنيته ، وعَوّجته . إذن فإقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذي سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك في الأرض من أجله ، وإن لم تفعل فأنت تختار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التي تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة في العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً . والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيري الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أما في الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة في حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾ [الأعراف : 29]

والمسجد مكان السجود ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون " .

(110/267)

إذن فكل موضع في الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلي فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصح أن تسجد وتصلي فيها . وتزاول فيها عملك أيضا ، ففي المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتي وقت الصلاة تصلي ، وكذلك الحقل تصلي فيه ، لكن المسجد الاصطلاحي هو المكان الذي حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شيء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ في جميع أنحاء الأرض . وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة في المكان المخصوص ، وله متجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلي في أي مكان . والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبني مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع

بيوت الله .

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ، أي على الوجه الذي تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم في صلاتكم إلى الكعبة فهي بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل في أي مسجد ، أو ﴿ أَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة في المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء الصلاة وإقامتها في المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة في المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسِ بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم " .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة في المساجد عند أي أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . . ﴾ [الأعراف : 29]

والدعاء : طلب من عاجز يتجه به لقادر في فعل يحبه الداعي . وحين تدعو ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لا يكون في بالك الأسباب ؛ لأن الأسباب إن كانت في بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإِخلاص هو تصفية أي شيء من الشوائب التي فيه ، والشوائب في العقائد وفي الأعمال تفسد الإِتقان والإِخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتي له هذه المسألة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" أَنِّي لَيُغَانُ على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة " .

إذن فالإِخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعوا الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فذهبت للمسبب ، وما دمت مضطراً سيجيب ربنا دعوتك ؛ لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإِنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقني ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء لله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : ﴿ . . . كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29]

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه ب " افعل كذا " و" لا تفعل كذا " .
وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه – جل وعلا – شاء أن يجعل الإنسان سيدا وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد ، وأثبت لنفسه – سبحانه – صفة القدرة ، ولا شيء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصي ولكنك تطيع ، وهذه هي عظمة الإيمان إنّها تثبت صفة المحبوبية لله ، فإذا ما غُر الإنسان بالأسباب وبخدمة الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجد الحق يلفته : لاحظ أنك لن تنفلت مني : أنا أعطيت لك الاختيار في الدنيا ، لكنك ترجع لي في الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ : ﴿ . . . لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16]
كأن المُلْكَ – قبل ذلك – أي في الدنيا – كان للبشر فيه شيء لمباشرتهم الأسباب هذا يملك ، وذلك يملك ، وآخر يوظف ، لكن في الآخرة لا مالك ، ولا مَلِكٌ إلا الله ، فإياكم أن تغتروا بالأسباب ، وأنها دانت لكم ، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها ؛ لأن مرجعكم إلى الله .
انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وأَقِيمُوا " فيه وجْهَانِ :

أظهرهما : أَنَّهُ مَعْطُوفٌ على الأمْرِ المقدر أي الذي ينحل إليه المصدر ، وهو " بالقِسْطِ " وذلك أنَّ القِسْط مصدر فهو ينحل لحرف مصدري ، وفعل ، فالتَّقديرُ : قل : أمر ربي بأن أقسطوا وأقيموا ، وكما أنَّ المصدر ينحلُّ إلى " أنَّ والفعل الماضي " نحو : عَجِبْتُ من قِيَام زَيْدٍ وخرج ، أي : من أن قام ، وخَرَجَ ول " أن " وللفعل المضارع كقولها : [الوافر]

2449 - لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقرَّ عَيْنِي . . . . . .

أي : لأن ألبس عباءة وتقر ، كذلك ينحل لـ " أنَّ " وفعل أمر ؛ لأنَّهَا توصل بالثَّلاث الصِّيغ : الماضي والمُضارع والأمر بشرط التَّصرُّف ، وقد تقدَّم تحقيقُ هذه المسألة وإشكالها وجوابُهُ .

وهذا بخلاف " ما " فإنَّهَا لا تُوصَلُ بالأمْرِ ، وبخلاف " كي " فإنَّهَا لا توصل إلا بالمُضَارِعِ ، فلذلك لا ينحلُّ المصدر إلى " ما " وفعل أمر ، ولا إلى " كي " وفعل ماضي أو مضارع .

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : ﴿ أقيموا وجوهكم ﴾ أي : اقصدوا عبادته ، وهذا من الزَّمَخْشَرِيُّ يحتمل تأويلين :

أحدهما : أن يكون قوله " قل " أراد أنه مقدر غير هذا الملفوظ به فيكون " وأقيموا " معمولاً لقول أمر مقدر ، وأن يكون معطوفاً على قوله : " أمر ربِّي " فإنه معمول لـ " قل " وإنما أظهر الزَّمَخْشرِيُّ " قُلْ " مع أَقِيمُوا لتحْقيق عطفيته على " أمر ربِّي " .

(114/267)

ويجوز أن يكُون قوله " وأَقِيمُوا " معطوفاً على أمْرٍ محذوف تقديره قل : أقبلوا وأقيموا .

وقال الجُرْجانِيُّ صاحب " النَّظْم " : نسق الأمر على الجر وجاز ذلك ؛ لأنَّ قوله ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي ﴾ قول لأن الأمْرَ لا يكُونُ إلا كلاماً ، والكلام قول ، وكأنه قال : قل : يقول ربي : اقسطوا وأقيموا ، يعني أَنَّهُ عطف على المعنى .

و " مسجد " هنا يحتمل أن يكون مَكَاناً وزماناً .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : في وقت كلِّ سُجُودٍ ، وفي مكان كلِّ سُجُودٍ ، وكان من حَقّ " مسجد " بفتح العين لضمها في المضارع ، وله في هذا الشذوذ أخوات كثيرة مذكورة في التَّصريفِ .

قوله : " مُخْلِصِينَ "

حال من فاعل " ادْعُوه " ، " الدِّين " مفعولٌ به باسْمِ الفاعل وله متعلق بـ " مخْلِصِينَ " حال من فاعل " ادْعُوه " ، و" الدِّين " مفعولٌ به باسْمِ الفاعل وله متعلق بـ " مخْلِصين " ويجوز أن يتعلَّق بمحذوف على أنَّهُ حالٌ من " الدين " ، والمراد اعبدوه مخلصين له الطَّاعة .

" والعِبَادَة " قال ابن الخطيب : المرادُ به أعمالُ الصَّلاةِ ، وسمَّاها دعاءً لأنَّ الصلاة في اللُغة عبارة عن الدُّعاء ، ونظيره قوله ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] .

قوله : " كَمَا بَدَأَكُمْ " " الكاف " في محل نَصْبِ نَعْتاً لمصدر محذوف تقديرُهُ : تعُودُون عَوْداً مثل ما بدأكم .

وقيل : تقديره : تُخْرَجُونَ خُرُوجاً مثل ما بَدَأَكُم ذكرهما مَكي ، والأوَّل أليق بلفظ الآية الكريمة .

وقال ابن الأنْبَارِيِّ : موضع " الكاف " في " كما " نصب بـ " تَعُودُونَ " وهو على مذهب العرب في تقديم مفعول الفعل عليه أي : تعودون كما ابتدأ خلقكم .

(115/267)

قال الفارسي : كما بَدَأَكُم تعودُون ليس على ظَاهِرِه إذ ظاهره تعودون على البَدْءِ ، وليس المَعْنَى تشبيههم بالبَدْءِ ، إنَّمَا المعنى على إعادة الخلق كما ابتدئ ، فتقدير "كما بَدأَكُمْ تعُودُون " : كما بدأ خلقكم أي : يُحيي خلقكم عوداً كبدئه ، وكما أَنَّه لم يَعْنِ بالبدء ظاهره من غير حذف المضاف إليه ، كذلك لم يَعْنِ بالعود من غير حذف المُضافِ الذي هو [" الخلق " فلما حذف قام المضاف إليه مَقَامَ الفاعِلِ ، فصار الفَاعِلُونَ مخاطبين .

كما انه لما حذف المضاف] من قوله : ﴿ كما بدأ خلقكم ﴾ صار المخاطبون مفعولين في اللفظ قال شهاب الدين : يعني أنَّ الأصل كما بَدَأ خلقكم يعودُ خلقكم ، فحذف " الخلق " في الموضعين وصار المخاطبون في الأوَّلِ مفعولين بعد أن كَانُوا مجرورين بالإضافة أيضاً وفي الثاني صاروا فَاعِلينَ بعد أنْ كانوا مجرورين بالإضافة .

و" بدأ " بالهمز أنشأ واخترع ، ويستعمل بهذا المعنى ثلاثياً ورباعياً على " أَفْعَلَ " فالثلاثيُّ كهذه الآية ، وقد جمع بين الاستعمالين في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيءُ اللهُ الخلق ﴾ [العنكبوت : 20] فهذا من " أبدأ " ثم قال : كيف بدأ الخلق ، هذا فيما يتعدى بنفسه .

وأما ما يتعدَّى بالباءِ نحو : بَدَأتُ بكذا بمعنى قدَّمته وجعلتهُ أوَّل الأشياء ، يقال منه : بَدَأتُ به وابتدأت به .

وحكى الرَّاغِب أيضاً أَنَّهُ يقال من هذا : ابْدأتُ به على " أَفْعَلَ " وهو غريب .

وقولهم : أبْدأت من أرض كذا أي : ابتدأت منها بالخُرُوجِ والبَدْء السيد سمي بذلك ؛ قيل : لأنه يبدأ به في العد إذا عُدَّ السَّادَات وذكروا عليه قوله : [الوافر]

2450 - فَجِئْتُ قُبُورَهُمْ بَدْءاً ولَمَّا . . .

فَنَادَيءتُ القُبُورَ فَلَمْ تُجِبْنَهْ

أي جئت قُبُورَ قومي سيّداً ولم أكن سَيّداً ، لكن بموتهم صيّرت سيّداً ، وهذا ينظر لقول الآخر : [الكامل]

(116/267)

2451 - خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّرِ . . .

وَمِنَ العَنَاءِ تَفَرُّدِي بالسُّؤْدُدِ

و" ما " مصدريَّةٌ ، أي : كبدئكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 81. 83 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالقِسْطِ ﴾ .

القِسط العدل ، ويقع ذلك في حق الله تعالى ، وفي حق الخَلْق ، وفي حق نفسك ؛ فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بِهِ أو إقدامٍ على المنهيِّ عنه ، ثم ألا تدخِّر عنه شيئاً مما خوَّلك ، ثم لا تُؤثِرَ عليه شيئاً فيما أحلَّ لك . وأمَّا العدل مع الخَلْق – فعلى لسان العلم – بذلُ الإنصاف ، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف . وأمَّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها ، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها ، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

الإشارة منه إلى استدامة شهوده في كل حالة ، وألا تنساه لحظةً في كلِّ ما تأتيه وتذره وتقدمه وتؤخره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 529 ﴾

(117/267)

قوله تعالى ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ فريقاً هدى ﴾ أي خلق الهداية في قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية ﴿ وفريقاً ﴾ أضل ، ثم فسر أضل – لأنه واجب التقدير بالنصب – بقوله : ﴿ حق ﴾ أي ثبت ووجب ﴿ عليهم الضلالة ﴾ أي لأنه أضلهم فيحشرون على ما كانو عليه في الدنيا من الأديان ، والأبدان ، وقد تبين أن ههنا احتباكين : أثبت في أولهما بدا دليلاً على حذف يعيد وذكر تعودون دليلاً على حذف تبتدئون ، وأثبت في الثاني هدى دليلاً على حذف أضل وذكر حقوق الضلالة دليلاً على حذف حقوق الهدى .

ولما كرر سبحانه ذكر البعث كما تدعو إليه الحكمة في تقرير ما ينكره المخاطب تأنيساً له به وكسراً لشوكته وإيهاناً لقوته وقمعاً لسورته إلى أن ختم بما هو أدل عليه مما قبل من قوله ومنها تخرجون ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ﴾ [الأعراف : 6] علل ما ختم به هذا الدليل من حقوق الضلالة أي وجوبها أي وجوب وبالها عليهم بقوله : ﴿ إنهم اتخذوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم ضد ما دعتهم إليه الفطرة الأولى بأن أخذوا ﴿ الشياطين أولياء ﴾ أي أقرباء وأنصاراً ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا مثل له ﴿ ويحسبون ﴾ أي والحال أنهم يظنون بقلة عقولهم ﴿ أنهم مهتدون ﴾ فأشار بذلك إلى أنهم استحقوا النكال لأنهم قنعوا في الأصول – التي يجب فيها الابتهال إلى القطع – بالظنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 24 . 25 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾

فيه بحثان :

البحث الأول : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهدى والضلال من الله تعالى .

قالت المعتزلة : المراد فريقاً هدى إلى الجنة والثواب ، وفريقاً حق عليهم الضلالة ، أي العذاب والصرف عن طريق الثواب .

قال القاضي : لأن هذا هو الذي يحق عليهم دون غيرهم ، إذ العبد لا يستحق ، لأن يضل عن الدين ، إذ لو استحق ذلك لجاز أن يأمر أنبياءه بإضلالهم عن الدين ، كما أمرهم بإقامة الحدود المستحقة ، وفي ذلك زوال الثقة بالنبوات .

واعلم أن هذا الجواب ضعيف من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ فَرِيقًا هدى ﴾ إشارة إلى الماضي وعلى التأويل الذي يذكرونه يصير المعنى إلى أنه تعالى سيهديهم في المستقبل ، ولو كان المراد أنه تعالى حكم في الماضي بأنه سيهديهم إلى الجنة ، كان هذا عدولاً عن الظاهر من غير حاجة ، لأنا بينا بالدلائل العقلية القاطعة أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى .

والثاني : نقول هب أن المراد من الهداية والضلال حكم الله تعالى بذلك ، إلا أنه لما حصل هذا الحكم امتنع من العبد صدور غيره ، وإلا لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً ، والكذب على الله محال ، والمفضي إلى المحال محال ، فكان صدور غير ذلك الفعل من العبد محالاً ، وذلك يوجب فساد مذهب المعتزلة من هذا الوجه . والله أعلم .

البحث الثاني : انتصاب قوله : ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ بفعل يفسره ما بعده ، كأنه قيل : وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة ، ثم بين تعالى أن الذي لأجله حقت على هذه الفرقة الضلالة ، هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله فقبلوا ما دعوهم إليه ، ولم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل .

فإن قيل : كيف يستقيم هذا التفصيل مع قولكم ، بأن الهدى والضلال إنما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء .

فنقول : عندنا مجموع القدرة ، والداعي يوجب الفعل ، والداعية التي دعتهم إلى ذلك الفعل ، هي : أنهم اتخذوا الشيطان أولياء من دون الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : يريد ما بين لهم عمرو بن لحي ، وهذا بعيد ، بل هو محمول على عمومه ، فكل من شرع في باطل ، فهو يستحق الذم والعذاب سواء حسب كونه حقاً ، أو لم يحسب ذلك ، وهذا الآية تدل على أن مجرد الظن

والحسبان لا يكفي في صحة الدين ، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين ، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين ، ولولا أن هذا الحسبان مذموم ، وإلا لما ذمهم بذلك ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 49.50 ﴾

(119/267)

وقال السمرقندى :

﴿ فَرِيقًا هدى ﴾ وهم المؤمنون فعلم الله تعالى منهم الطاعة ويكرمهم بالمعرفة ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ أي وجب عليهم الضلالة ، فخذلهم ولم يكرمهم بالتوحيد حيث علم منهم المعصية والكفر ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين ﴾ يعني : لأنهم اتخذوا الشياطين ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله ﴾ يعني : اتخذوهم أولياء وأطاعوهم بالمعصية ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي يظنون أنهم على الهدى .

قال الزجاج : فيه دليل أن من لا يعلم أنه كافر وهو كافر يكون كافراً لأن بعضهم قال : لا يكون كافراً وهو لا يعلم .

وذلك القول باطل لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27] وقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم

مُّهْتَدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

الضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد على الفريق الذين حق عليهم الضلالة ، و ﴿ أولياء ﴾ معناه : أنصاراً وأصحاباً وإخواناً ، ﴿ ويحسبون ﴾ معناه يظنون يقال : حسبت أحسب حسباناً وحسباً ومحسبة ، قال الطبري : وهذه الآية دليل على خطأ قول من زعم أن الله تعالى لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها على علم منه بموضع الصواب ، وقرأ العباس بن الفضل وسهل بن شعيب وعيسى بن عمر " أنهم اتخذوا " بفتح الألف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فريقاً هدى ﴾

قال الفراء : نصب الفريق بـ ﴿ تعودون ﴾ .

وقال ابن الأنباري : نصب ﴿ فريقاً ﴾ و ﴿ فريقاً ﴾ على الحال من الضمير الذي في ﴿ تعودون ﴾ ، يريد : تعودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين ، بعضكم سعداء ، وبعضكم أشقياء .

قوله تعالى : ﴿ حق عليهم الضلالة ﴾ أي بالكلمة القديمة ، والإرادة السابقة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

(120/267)

﴿ فَرِيقاً هدى ﴾ "فريقاً" نصب على الحال من المضمر في "تَعُودُونَ" أي تعودون فريقين : سعداء ، وأشقياء .

يقوّي هذا قراءة أُبَيّ "تعودون فريقينِ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهِم الضلالة" ؛ عن الكسائي .

وقال (محمد بن) كعب القرظِيّ في قوله تعالى : ﴿ فَرِيقاً هدى وَفَرِيقاً حَقّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة ، وإن عمِل بأعمال أهل الهدى .

ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى ، وإن عمِل بأعمال الضلالة .

ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة ، وعمِل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه .

قال : "وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" .

وفي هذا رد واضح على القدرية ومن تابعهم .

وقيل : "فَرِيقاً" نصب ب "هَدَى" ، "وفَرِيقاً" الثاني نصب بإضمار فعل ؛ أي وأضل فريقاً .

وأنشد سيبويه :

أصبحتُ لا أحمل السّلاحَ ولا . . .

أملِك رأسَ البعير إن نَفَرا

والذِّئبُ أخشاه إن مررتُ به . . .

وَحْدِي وأخشَى الرياحَ والمطرا

قال الفرّاء : ولو كان مرفوعاً لجاز .

﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله ﴾ وقرأ عيسى بن عمر : "أنهم" بفتح الهمزة ، يعني لأنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فريقاً هدى ﴾ يعني هداهم إلى الإيمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته ﴿ وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ يعني وخذل فريقاً حتى وجبت عليهم الضلالة للسابقة التي سبقت لهم في الأزل بأنهم أشقياء وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله عز وجل ، ولما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص روى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل " أخرجه الترمذي .

(121/267)

وقوله تعالى : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ يعني أن الفريق الذي حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعواناً أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي والمعنى أن الداعي الذي دعاهم إلى الكفر والمعاصي هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لأن الشياطين لا يقدرون على إضلال أحد .

وقوله ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ يعني أنهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون أنهم على هداية وحق وفيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(122/267)

وقال أبو حيان :

قال الزمخشري : ﴿ فريقاً هدى ﴾ وهم الذين أسلموا أي وفّقهم للإيمان ﴿ وفريقاً حقّ عليهم الضلالة ﴾ أي كلمة الضلالة وعلم الله تعالى أنهم يضلون ولا يهتدون وانتصاب قوله

تعالى ﴿ وفريقاً ﴾ بفعل يفسره ما بعده كأنه قيل وخذل فريقاً حقّ عليهم الضلالة انتهى ؛ وهي تقادير على مذهب الاعتزال ، وقيل المعنى تعودون لا ناصر لكم ولا معين لقوله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ ، وقال الحسن : كما بدأكم من التراب يعيدكم إلى التراب ، وقيل : معناه كما خلقكم عراة تبعثون عراة ومعنى ﴿ حقّ عليهم الضلالة ﴾ أي حقّ عليهم من الله أو حقّ عليهم عقوبة الضّلالة هكذا قدّره بعضهم ، وجاء إسناد الهدى إلى الله ولم يجيء مقابله وفريقاً أضلّ لأنّ المساق مساق من نهي عن أن يفتنه الشيطان وإخبار أنّ الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وأنّ الله لا يأمر بالفشحاء وأمر بالقسط وإقامة الصلاة فناسب هذا المساق أن لا يسند إليه تعالى الضّلال ، وإن كان تعالى هو الهادي وفاعل الضلالة فكذلك عدل إلى قوله ﴿ حقّ عليهم الضلالة ﴾ .

(123/267)

﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ أي إنّ الفريق الضالّ ﴿ اتخذوا الشياطين أولياء ﴾ أنصاراً وأعواناً يتولونهم وينتصرون بهم كقول بعضهم أعل هبل أعل هبل والظاهر أن المراد حقيقة الشياطين فهم يعينونهم على كفرهم والضالّون يتولونهم بانقيادهم إلى وسوستهم ، وقيل : الشياطين أحبارهم وكبراؤهم ، قال

الطبري : وهذه الآية دليل على خطأ قول من زعم أنّ الله تعالى لا يعذّب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلاّ أن يأتيها على علم منه بموضع الصّواب انتهى ، ووجه الدلالة قوله ﴿ ويحسبون ﴾ والمحسبة الظنّ لا العلم ، وقرأ العباس بن الفضل وسهل بن شعيب وعيسى بن عمر ﴿ إنهم اتّخذوا ﴾ بفتح الهمزة وهو تعليل لحقّ الضلالة عليهم والكسر يحتمل التعليل من حيث المعنى ، وقال الزمخشري : أي تولّوهم بالطاعة فيما أمروهم به وهذا دليل على أنّ علم الله تعالى لا أثر له في ضلالهم وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله تعالى انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَرِيقًا هدى ﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ بمقتضى القضاءِ السابقِ التابعِ للمشيئة المبنيةِ على الحِكَم البالغةِ ، وانتصابُه بفعل مُضمرٍ يفسّره ما بعده أي وخذل فريقاً ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله ﴾ تعليلٌ لخِذلانه أو تحقيقٌ لضلالتهم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيه دِلالةٌ على أن الكافرَ المُخطِىءَ والمعانِدَ سواءٌ في استحقاق الذمّ وللفارق أن يحمِلَه على المقصّرِ في النظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) ﴾

وروي عن الحبر أن المعنى كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم يوم القيامة فهو كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] .

وعليه يكون قوله سبحانه : ﴿ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ بياناً وتفصيلاً لذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ بعد قوله عز شأنه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ ﴾ [آل عمران : 59] قيل : وهو الأنسب بالسياق .

وذكر الطيبي أن ههنا نكتة سرية وهي أن يقال : إنه تعالى قدم في قوله سبحانه : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] المشبه به على المشبه لينبه العاقل على أن قضاء الشؤون لا يخالف القدر والعلم الأزلي ألبتة وكما روعي هذه الدقيقة في المفسر روعيت في التفسير وزيد أخرى عليها وهي أنه سبحانه قدم مفعول ﴿ هُدًى ﴾ للدلالة على الاختصاص وأن فريقاً آخر ما أراد هدايتهم وقرر ذلك بأن عطف عليه ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ وأبرزه في صورة الإضمار على شريطة التفسير أي أضل فريقاً حق

عليهم الضلالة وفيه مع الاختصاص التوكيد كما قرره صاحب "المفتاح" لتنقطع ريبة المخالف ولا يقول : إن علم الله تعالى لا أثر له في ضلالتهم انتهى .

وكأنه يشير بذلك إلى رد قول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله ﴾ "أي تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به ، وهذا دليل على أن علم الله تعالى لا أثر له في ضلالهم وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليتهم الشياطين دون الله تعالى" فجملة ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا ﴾ على هذا تعليل لقوله سبحانه : ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ ويؤيد ذلك أنه قرىء ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بالفتح .

(125/267)

ويحتمل أن تكون تأكيداً لضلالهم وتحقيقاً له وأنا والحق أحق بالاتباع مع القائل : إن علم الله تعالى لا يؤثر في المعلوم وأن من علل الجبر به مبطل كيف والمتكلمون عن آخرهم قائلون : إن العلم يتعلق بالشيء على ما هو عليه إنما الكلام في أن قدرة الله تعالى لا أثر لها على زعم الضلال أصحاب الزمخشري ونحن مانعون لذلك أشد المنع .

ولا منع من التعليل بالاتخاذ عند الأشاعرة لثبوت الكسب والاختيار ويكفي هذه المدخلية في التعليل .

والزمخشري قدر الفعل في قوله سبحانه : ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ ﴾ خذل ووافقه بعض الناس وما فعله الطيبي هو المختار عند بعض المحققين لظهور الملاءمة فيه وخلوه عن شبهة الاعتزال .

واختير تقديره مؤخراً لتتناسق الجملتان ، وهما عند الكثير في موضع الحال من ضمير ﴿ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] بتقدير قد أو مستأنفتان ، وجوز نصب ﴿ فَرِيقاً ﴾ الأول و ﴿ فَرِيقاً ﴾ الثاني على الحال والجملتان بعدهما صفتان لهما ، ويؤيد ذلك قراءة أبي ﴿ تَعُودُونَ تَعُودُونَ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا ﴾ الخ ، والمنصوب على هذه القراءة إما بدل أو مفعول به لأعني مقدراً .

ولم تلحق تاء التأنيث لحق للفصل أو لأن التأنيث غير حقيقي ، والكلام على تقدير مضاف عند بعض أي حق عليهم كلمة الضلالة وهي قوله سبحانه : ﴿ ضَلُّواْ ﴾ .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ عطف على ما قبله داخل معه في حيز التعليل أو التأكيد .

ولعل الكلام من قبيل بنو فلان قتلوا فلاناً والأول لكونه في مقابلة من هداه الله تعالى شامل للمعاند والمخطىء والثاني مختص بالثاني وهو صادق على المقصر في النظر والباذل غاية الوسع فيه ، واختلف في توجه الذم على الأخير وخلوده في النار .

ومذهب البعض أنه معذور ولم يفرقوا بين من لا عقل له أصلاً ومن له عقل لم يدرك به الحق بعد أن لم يدع في القوس منزعاً في طلبه فحيث يعذر الأول لعدم قيام الحجة عليه يعذر الثاني لذلك ، ولا يرون مجرد المالكية وإطلاق التصرف حجة ولله تعالى الحجة البالغة ، والتزام أن كل كافر معاند بعد البعثة وظهور أمر الحق كنار على علم وإنه ليس في مشارق الأرض ومغاربها اليوم كافر مستدل مما لا يقدم عليه إلا مسلم معاند أو مسلم مستدل بما هو أوهن من بيت العنكبوت وأنه لأوهن البيوت .

وادعى بعضهم أن المراد من المعطوف عليه المعاند ومن المعطوف المخطىء والظاهر ما قلنا ، وجعل الجملة حالية على معنى اتخذوا الشياطين أولياء وهم يحسبون أنهم مهتدون في ذلك الاتخاذ لا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(127/267)

وقال ابن عاشور :

و﴿ فريقاً ﴾ الأوّلُ والثّاني منصوبان على الحال : إمَّا من الضّمير المرفوع في ﴿ تعودون ﴾ ، أي ترجعون إلى الله فريقين ، فاكتُفي عن إجمال الفريقين ثم تفصيلِهما بالتّفصيل الدّال على الإجمال تعجيلاً بذكر التّفصيل لأنّ المقام مقام ترغيب وترهيب ، ومعنى ﴿ فريقاً

هدى ﴾ : أنّ فريقاً هداهم الله في الدّنيا وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة ، أي في الدّنيا ، كما دلّ عليه التّعليل بقوله : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ ، وإمّا من الضّمير المستتر في قوله : ﴿ مخلصين ﴾ أي ادْعُوه مخلصين حال كونكم فريقين : فريقاً هداه الله للإخلاص ونبذِ الشّرك ، وفريقاً دام على الضّلال ولازم الشّرك .

وجملة : ﴿ هدى ﴾ في موضع الصّفة لفريقاً الأوّل ، وقد حذف الرّابط المنصوب : أي هداكم الله ، وجملة : ﴿ حق عليهم الضلالة ﴾ صفة ﴿ فريقاً ﴾ الثّاني .

وهذا كلّه إنذار من الوقوع في الضّلالة ، وتحذير من اتّباع الشّيطان ، وتحريض على توخي الاهتداء الذي هو من الله تعالى ، كما دلّ عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله : ﴿ هدى ﴾ فيعلم السّامعون أنّهم إذا رجعوا إليه فريقين كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى كما قال : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة : 22] وأنّ الفريق الخاسر هم الذين حَقّت عليه الضّلالة واتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله كما قال : ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ [المجادلة : 19] .

وتقديم ﴿ فريقاً الأوّل والثّاني على عامليهما للاهتمام بالتّفصيل .

ومعنى : حق عليهم الضلالة ﴾ ثبتت لهم الضّلالة ولزموها .

ولم يقلعوا عنها ، وذلك أنّ المخاطبين كانوا مشركين كلّهم ، فلمّا أمروا بأن يعبدوا الله

مخلصين افترقوا فريقين : فريقاً هداه الله إلى التّوحيد ، وفريقاً لازم الشّرك والضّلالة ، فلم يطرأ عليهم حال جديد .

(128/267)

وبذلك يظهر حسن موقع لفظ : ﴿ حق ﴾ هنا دون أن يقال أضلّه الله ، لأنّ ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم ، كما قال تعالى في نظيره : ﴿ فمنهم من هدى اللَّه ومنهم من حقت عيله الضلالة ﴾ [النحل : 36] ثمّ قال ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ [النحل : 37] ، فليس تغيير الأسلوب بين : ﴿ فريقاً هدى ﴾ وبين ﴿ وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ تحاشيا عن إسناد الإضلال إلى الله ، كما توهمه صاحب "الكشاف" ، لأنّه قد أسند الإضلال إلى الله في نظير هذه الآية كما علمت وفي آيات كثيرة ، ولكنّ اختلاف الأسلوب لاختلاف الأحوال .

وجُرد فعل حقّ عن علامة التّأنيث لأنّ فاعله غير حقيقي التّأنيث ، وقد أظهرت علامة التّأنيث في نظيره في قوله تعالى : ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ [النحل : 36] .

وقوله : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ استئناف مراد به التّعليل لجملة ﴿ حقت عليه الضلالة ﴾ [النحل : 36] ، وهذا شأن (إنّ) إذا وقعت في صدر

جملة عقب جملة أخرى أن تكون للرّبط والتّعليل وتغني غَنَاء الفاء ، كما تقدّم غيرَ مرّة .

والمعنى أنّ هذا الفريق ، الذي حَقت عليهم الضّلالة ، لمّا سمعوا الدّعوة إلى التّوحيد والإسلام ، لم يطلبوا النّجاة ولم يتفكّروا في ضلال الشّرك البيّن ، ولكنّهم استوحوا شياطينهم ، وطابت نفوسهم بوسوستهم ، وائتمروا بأمرهم ، واتّخذوهم أولياء ، فلا جرم أن يدوموا على ضلالهم لأجل اتّخاذهم الشّياطين أولياء من دون الله .

(129/267)

وعطف جملة : ﴿ ويحسبون ﴾ على جملة : ﴿ اتخذوا ﴾ فكان ضلالهم ضلالاً مركباً ، إذ هم قد ضلّوا في الائتمار بأمر أئمّة الكفر وأولياء الشّياطين ، ولمّا سمعوا داعي الهُدى لم يتفكّروا ، وأهملوا النّظر ، لأنّهم يحسبون أنّهم مهتدون لا يتطرق إليهم شكّ في أنّهم مهتدون ، فلذلك لم تخطر ببَالهم الحاجة إلى النّظر في صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم والحسبان الظنّ ، وهو هنا ظن مجرّد عن دليل ، وذلك أغلب ما يراد بالظنّ وما يرادفه في القرآن .

وعطف هذه الجملة على التي قبلها ، واعتبارهما سواء في الإخبار عن الفريق الذين حقّت عليهم الضّلالة ، لقصد الدّلالة على أنّ ضلالهم حاصل في كلّ واحد من الخبرين ، فولاية الشّياطين ضلالة ، وحسبانهم ضلالهم هدى ضلالة أيضاً ، سواء كان ذلك كلّه عن خطأ

أو عن عناد ، إذ لا عذر للضّال في ضلاله بالخطأ ، لأنّ الله نصب الأدلّة على الحقّ وعلى التّمييز بين الحقّ والباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(130/267)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

بَعْدَ أَنْ قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ قِصَّةَ نَشْأَتِهِمُ الْأُولَى وَمَا خُلِقُوا مُسْتَعِدِّينَ لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَنَعِيمِ الْجَنَّةِ ، وَمَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ وَإِغْوَائِهِ ، رَتَّبَ عَلَيْهَا هَذِهِ النَّصَائِحَ الْهَادِيَةَ لَهُمْ إِلَى أَقْوَمِ طُرُقِ تَرْبِيَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ – كَمَا قُلْنَا فِي بَيَانِ تَنَاسُبِ الْآيَاتِ فِي أَوَّلِ ذَلِكَ السِّيَاقِ – فَقَالَ :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا) الرِّيشُ : لِبَاسُ الْحَاجَةِ وَالزِّينَةِ مُسْتَعَارٌ مِنْ رِيشِ الطَّائِرِ ، وَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْحَيَوَانِ كَالطَّيْرِ فِي كَثْرَةِ أَنْوَاعِ رِيشِهَا وَبَهْجَةِ مَنَاظِرِهَا وَتَعَدُّدِ أَلْوَانِهَا . فَهِيَ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ الْمَنَافِعِ ، وَالزِّينَةِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الطَّبِيعَةِ ، وَقَرَأَ أَبُو زَيْدٍ عَنِ الْمُفَضَّلِ (وَرِيَاشًا) وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ

وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَفِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ . قِيلَ : الرِّيَاشُ جَمْعُ رِيشٍ ، فَهُوَ كَشِعْبٍ

(131/267)

وَشِعَابٍ وَذِئْبٍ وَذِئَابٍ ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ الرِّيشُ وَالرِّيَاشُ بِمَعْنًى كَاللِّبْسِ وَاللِّبَاسِ ، وَهُوَ اللِّبَاسُ الْفَاخِرُ . وَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ الرِّيَاشُ مُخْتَصٌّ بِالثِّيَابِ وَالْأَثَاثِ ، وَالرِّيشُ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى سَائِرِ الْأَمْوَالِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ مَصْدَرًا مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ رَاشَهُ اللَّهُ يَرِيشُهُ رِيَاشًا وَرِيشًا . كَمَا يُقَالُ لَبِسَهُ يَلْبَسُهُ لِبَاسًا وَلِبْسًا (بِكَسْرِ اللَّامِ) (ثُمَّ قَالَ) وَالرِّيَاشُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْأَثَاثُ وَمَا ظَهَرَ مِنَ الثِّيَابِ مِنَ الْمَتَاعِ مِمَّا يُلْبَسُ أَوْ يُحْشَى مِنْ فِرَاشٍ أَوْ دِثَارٍ وَالرِّيشُ إِنَّمَا هُوَ الْمَتَاعُ وَالْأَمْوَالُ عِنْدَهُمْ . وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلُوهُ فِي الثِّيَابِ وَالْكُسْوَةِ دُونَ سَائِرِ الْمَالِ ، يَقُولُونَ : أَعْطَاهُ سَرْجًا بِرِيشِهِ - أَيْ بِكُسْوَتِهِ وَجِهَازِهِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَحَسَنُ رِيشِ الثِّيَابِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الرِّيَاشُ فِي الْخِصْبِ وَرَفَاهَةِ الْعَيْشِ . ثُمَّ نُقِلَ عَنْ بَعْضِ مُفَسِّرِي السَّلَفِ مَا يُؤَيِّدُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ الرِّيشَ الْمَالُ ، وَعَنْ آخَرِينَ أَنَّهُ الْمَعَاشُ أَوِ الْجَمَالُ ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا مِنْ هَذِهِ

الْأَقْوَالِ أَنَّهُ لِبَاسُ الْحَاجَةِ وَالزِّينَةِ مَعًا ، بِدَلِيلِ اقْتِرَانِهِ بِلِبَاسِ السَّتْرِ الَّذِي يُوَارِي الْعَوْرَاتِ وَلِبَاسِ التَّقْوَى .

(132/267)

خَاطِبَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا بِالنِّدَاءِ الَّذِي يُخَاطَبُ بِهِ الْبَعِيدُ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ عَرَبُهُمْ وَعَجَمُهُمْ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي مَكَّةَ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، وَالشِّرْعَةِ الْقَوِيمَةِ ، تَنْبِيهًا لِلْأَذْهَانِ ، بِمَا يَقْرَعُ الْآذَانَ ، فَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ - بَعْدَ أَنْ أَنْبَأَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ عُرْيِ سَلَفِهِمُ الْأَوَّلِ - بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِ وَأَنْوَاعِهِ ، مِنَ الْأَدْنَى الَّذِي يَسْتُرُ السَّوْءَةَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ إِلَى أَنْوَاعِ الْحُلَلِ الَّتِي تُشْبِهُ رِيشَ الطَّيْرِ فِي وِقَايَةِ الْبَدَنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِسَتْرِ جَمِيعِ الْبَدَنِ ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَالْجَمَالِ اللَّائِقَةِ بِجَمِيعِ ذُكْرَانِ الْبَشَرِ وَإِنَاثِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَسْنَانِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، فَهُوَ يَقُولُ : يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا بِمَا لَنَا مِنَ الْقُدْرَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالرَّحْمَةِ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ عُلُوِّ سَمَائِنَا بِتَدْبِيرِنَا لِأُمُورِكُمْ مِنْ فَوْقِ عَرْشِنَا ،

لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَهُوَ أَدْنَى اللِّبَاسِ وَأَقَلُّهُ الَّذِي يُعَدُّ فَاقِدُهُ ذَلِيلًا مَهِينًا - وَرِيشًا تَتَزَيَّنُونَ بِهِ فِي مَسَاجِدِكُمْ وَمَجَالِسِكُمْ وَمَجَامِعِكُمْ ، وَهُوَ أَعْلَاهُ وَأَكْمَلُهُ ، وَبَيْنَهُمَا لِبَاسُ الْحَاجَةِ

وَهُوَ مَا يَقِي الْحَرَّ وَالْبَرْدَ . وَالِامْتِنَانُ بِهِ يُؤْخَذُ مِنَ الِامْتِنَانِ بِمَا فَوْقَهُ بِطَرِيقِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْأُسْلُوبِ ، أَوْ هُوَ دَاخِلٌ فِيهِ بِطَرِيقِ الْمَنْطُوقِ عَلَى مَا اخْتَرْنَا آنِفًا .

(133/267)

وَالْمُرَادُ بِإِنْزَالِ مَا ذُكِرَ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِبَنِي آدَمَ مَادَّتَهُ مِنَ الْقُطْنِ وَالصُّوفِ وَالْوَبَرِ وَرِيشِ الطَّيْرِ وَالْحَرِيرِ وَغَيْرِهَا ، وَعَلَّمَهُمْ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْغَرَائِزِ وَالْقُوَى وَالْأَعْضَاءِ وَسَائِلَ صُنْعِ اللِّبَاسِ مِنْهَا كَالزِّرَاعَةِ وَالْغَزْلِ وَالنَّسْجِ وَالْخِيَاطَةِ .

وَإِنَّ مِنَنَهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الصِّنَاعَاتِ عَلَى أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ أَضْعَافُ مِنَنِهِ عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ شُعُوبِ بَنِي آدَمَ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُمْ لَهُ أَعْظَمَ ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِتْقَانِ صِنَاعَاتِ اللِّبَاسِ أَنَّ عَاهِلَ أَلْمَانِيَّةَ الْأَخِيرَ (قَيْصَرَهَا) دَخَلَ مَرَّةً أَحَدَ مَعَامِلِ الثِّيَابِ لِيُشَاهِدَ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِتْقَانِ فَجَزُّوا أَمَامَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ صُوفَ بَعْضِ أَكْبَاشِ الْغَنَمِ – وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ التَّجْوَالِ فِي الْمَعْمَلِ وَمُشَاهَدَةِ أَنْوَاعِ الْعَمَلِ فِيهِ وَأَرَادَ الْخُرُوجَ قَدَّمُوا لَهُ مِعْطَفًا لِيَلْبَسَهُ تِذْكَارًا لِهَذِهِ الزِّيَارَةِ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ صُنِعَ مِنَ الصُّوفِ الَّذِي جَزُّوهُ أَمَامَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ – فَهُمْ قَدْ نَظَّفُوهُ فِي الْآلَاتِ الْمُنَظِّفَةِ فَغَزَلُوهُ بِآلَاتِ الْغَزْلِ فَنَسَجُوهُ بِآلَاتِ النَّسْجِ فَفَصَلُوهُ فَخَاطُوهُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْقَصِيرَةِ فَانْتَقَلَ فِي سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ مِنْ ظَهْرِ الْخَرُوفِ إِلَى ظَهْرِ الْإِمْبِرَاطُورِ .

وَامْتِنَانُهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ بِلِبَاسِ الزِّينَةِ يَدُلُّ عَلَى اسْتِحْبَابِهَا ، وَلَا يُعَارِضُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْكَهْفِ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (18 : 7) وَإِنْ فَسَّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِحْسَانَ الْعَمَلِ بِتَرْكِ الدُّنْيَا ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيّ بِالزُّهْدِ فِيهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يُخَالِفُ مُقْتَضَاهَا وَيُنَاقِضُ غَرَائِزَهَا ، بَلْ هُوَ مُهَذِّبٌ وَمُكَمِّلٌ لَهَا . وَحُبُّ الزِّينَةِ مِنْ أَقْوَى غَرَائِزِ الْبَشَرِ الدَّافِعَةِ لَهُمْ إِلَى إِظْهَارِ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْخَلِيقَةِ وَأَنْوَاعِ نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ كَمَا سَنُفَصِّلُهُ فِي تَفْسِيرِ : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ) (7 : 32) فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَتَحْقِيقُ مَعْنَى كَوْنِهَا ابْتِلَاءً أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْتَبِرُ بِهَا طَالِبَهَا مَا يَقْصِدُ مِنْهَا ؟ وَوَاجِدَهَا أَيَشْكُرُ الْمُنْعِمَ عَلَيْهِ بِهَا إِذَا اسْتَعْمَلَهَا ، وَيَقِفُ عِنْدَ الْحَدِّ الْمَشْرُوعِ فِيهَا ، وَمَاذَا يَقْصِدُ وَيَنْوِي بِتَرْكِ مَا يَتْرُكُهُ مِنْهَا . وَفَاقِدُهَا أَيَصْبِرُ عَلَى فَقْدِهَا أَمْ يَكُونُ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ وَحَاسِدًا لِأَهْلِهَا ؟

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فَجُمْهُورُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ اللِّبَاسُ الْمَعْنَوِيُّ الْمَجَازِيُّ . فَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ عَيَّنَ التَّقْوَى - أَيِ اللِّبَاسُ الَّذِي هُوَ التَّقْوَى - وَذَكَرَ مِنْ مَعْنَاهُ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ فَقَالَ : يَتَّقِي اللَّهَ فَيُوَارِي عَوْرَتَهُ - وَعَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ تَفْسِيرُهُ بِالْإِسْلَامِ .

(136/267)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ . قَالَ : الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ خَيْرٌ مِنَ الرِّيشِ وَاللِّبَاسِ وَعَنْ مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ الْحَيَاءُ . وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ السَّمْتُ الْحَسَنُ فِي الْوَجْهِ . وَمُرَادُهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا عَلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ طِيبِ السَّرِيرَةِ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ بِمَعْنَى مَا سَبَقَهُ . وَرَوَوْا مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ مَا يُؤَيِّدُهُ ، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ : رَأَيْتُ عُثْمَانَ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ السَّرَائِرِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَمِلَ أَحَدٌ قَطُّ عَمَلًا سِرًّا إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهُ عَلَانِيَةً إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ " ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ . وَفِي أَنَّهُ قَالَ رِيَاشًا وَلَمْ يَقُلْ رِيشًا ، وَفَسَّرَهُ عِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ بِمَا يَلْبَسُ الْمُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَا : هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَلْبَسُ أَهْلُ الدُّنْيَا ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللِّبَاسَ الَّذِي يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءً عَلَى

التَّقْوَى ، ذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ لِبَاسِ أَهْلِ الدُّنْيَا . هَذِهِ أَقْوَالُهُمْ مُلَخَّصَةٌ مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ مِنَ اللِّبَاسِ الْحِسِّيِّ الْحَقِيقِيِّ ، فَفِي بَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّهُ لِبَاسُ الْحَرْبِ : الدِّرْعُ وَالْمِغْفَرُ وَالْآلَاتُ الَّتِي يُتَّقَى

(137/267)

بِهَا الْعَدُوُّ . وَاخْتَارَهُ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ . وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) (16 : 81) وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي دَاوُدَ مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) (21 : 80) وَلَا مَانِعَ عِنْدَنَا مِنِ اسْتِعْمَالِ التَّقْوَى هُنَا فِيمَا يَعُمُّ هَذَا وَذَاكَ . أَيْ تَقْوَى اللهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ وَتَقْوَى فَتْكِ الْعَدُوِّ بِلَبْسِ الدِّرْعِ وَالْمِغْفَرِ وَنَحْوِهِمَا ، عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي لَا تَتَعَارَضُ مَدْلُولَاتُهَا فِي الِاشْتِرَاكِ وَفِي الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، وَالْأَمْرُ أَوْسَعُ فِيمَا يُسَمُّونَهُ عُمُومَ الْمَجَازِ . وَأَضْعَفُ الْأَقْوَالِ فِي لِبَاسِ التَّقْوَى أَنَّهُ لِبَاسُ النُّسُكِ وَالتَّوَاضُعِ كَدُرُوعِ الصُّوفِ وَمُرَقَّعَاتِهِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا بَعْضُ الْعُبَّادِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ شَرٌّ لَا خَيْرٌ لِأَنَّهَا لِبَاسُ شَهْوَةٍ وَشُهْرَةٍ مَذْمُومَةٍ . وَكَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ الْحَسَنُ مِنَ الثِّيَابِ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الرِّيشُ .

(138/267)

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ بِإِنْزَالِ أَنْوَاعِ الْمَلَابِسِ الصُّورِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَدَلَائِلِ إِحْسَانِهِ إِلَى بَنِي آدَمَ وَكَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعِدَّهُمْ وَتُؤَهِّلَهُمْ لِتَذَكُّرِ فَضْلِهِ وَمِنَنِهِ وَالْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِهَا ، وَاتِّقَاءِ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ بِإِبْدَاءِ الْعَوْرَاتِ تَارَةً وَبِالْإِسْرَافِ فِي الزِّينَةِ تَارَةً أُخْرَى ، وَسَيَأْتِي مَا ذَكَرَ مُفَسِّرُو السَّلَفِ فِي هَذَا السِّيَاقِ مِنْ طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ عُرَاةً وَمَا لَهُمْ مِنَ الشُّبْهَةِ فِي ذَلِكَ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) اسْتُعْمِلَ مَكَانَ الضَّمِيرِ فِي الرَّبْطِ . وَجَعَلَ جُمْلَةَ (ذَلِكَ خَيْرٌ) خَبَرًا لِقَوْلِهِ : (وَلِبَاسُ التَّقْوَى) يَدُلُّ عَلَى تَأْكِيدِ مَضْمُونِهَا بِتَكْرَارِ الْإِسْنَادِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى جَعْلِ (ذَلِكَ) صِفَةَ لِبَاسٍ وَمِنْهُمُ الزَّجَّاجُ ، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ بَدَلًا أَوْ بَيَانًا لَهُ .

(139/267)

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) يُقَالُ فِي هَذَا النِّدَاءِ مَا قِيلَ فِيمَا قَبْلَهُ . وَتَكْرَارُ النِّدَاءِ فِي مَقَامِ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ مِنْ أَقْوَى أَسَالِيبِ التَّنْبِيهِ وَالتَّأْثِيرِ ، يَعْرِفُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَشْعُرُ بِهِ فِي قَلْبِهِ . وَنَظِيرُهُ فِي التَّنْزِيلِ قِصَّةُ الْجِنِّ مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ ، إِذْ جَاءَ فِيهَا الْوَعْظُ وَالْإِنْذَارُ بِتَكْرَارِ النِّدَاءِ : يَا قَوْمَنَا . . . . يَا قَوْمَنَا . . . . وَوَعْظُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ فِي سُورَةِ غَافِرٍ : يَا قَوْمِ . . . . . يَا قَوْمِ . . . . . وَقَدْ فَاتَنَا أَنْ نَذْكُرَ فِي تَفْسِيرِ النِّدَاءِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ فِي نِسْبَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى أَحَدِ أَجْدَادِهِ أَنَّهُ خَاصٌّ بِالْجَدِّ الَّذِي صَارَ رَئِيسَ الْقَبِيلَةِ أَوِ الْعَشِيرَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي انْحَصَرَ نَسَبُهَا فِيهِ كَقُرَيْشٍ ، وَعَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ ، وَعُثْمَانَ مُؤَسِّسِ السَّلْطَنَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، وَمُحَمَّدِ عَلِيٍّ الْكَبِيرِ مُؤَسِّسِ دَوْلَةِ مِصْرَ الْجَدِيدَةِ . أَوِ الَّذِي لَهُ صِفَةٌ مُمْتَازَةٌ يَقْتَضِي الْمَقَامُ تَذْكِيرَ مَنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ بِهَا لِمُشَارَكَتِهِ لَهُ فِيهَا أَوْ لِلتَّعْرِيضِ بِتَجَرُّدِهِ مِنْهَا مَثَلًا . كَأَنْ تَقُولَ لِبَعْضِ أَحْفَادِ الْخِدِيوِي تَوْفِيقٍ يَا ابْنَ إِسْمَاعِيلَ ، أَوْ هَذَا ابْنُ إِسْمَاعِيلَ فِي مَقَامِ السَّخَاءِ وَسَعَةِ الْعَطَاءِ إِثْبَاتًا أَوْ نَفْيًا . وَلَوْ قُلْتَ لَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ يَا ابْنَ تَوْفِيقٍ كَانَ خَطَأً ؛ فَإِنَّ تَوْفِيقًا لَمْ يَشْتَهِرْ بِصِفَةِ السَّخَاءِ

(140/267)

وَكَثْرَةِ الْهِبَاتِ . وَتَسْمِيَةُ النَّاسِ أَبْنَاءَ آدَمَ مِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ . وَفِي كُلٍّ مِنْهَا تَدُلُّ الْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّ الْمَنْسُوبَ إِلَيْهِ أَحَدُ الْأَجْدَادِ وَلَيْسَ هُوَ الْأَبُ . فَمَنِ اسْتَدَلَّ بِالنِّدَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ أَوْلَادَ الْأَوْلَادِ يَدْخُلُونَ فِي الْوَقْفِ عَلَى الْأَوْلَادِ بِدَلَالَةِ اللُّغَةِ فَقَدْ أَخْطَأَ .

وَالْفِتْنَةُ : الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ إِذَا عَرَضَهُمَا عَلَى النَّارِ لِيَعْرِفَ الزَّيْفَ مِنَ النُّضَارِ . وَحَجَرُ الصَّائِغِ الَّذِي يَخْتَبِرُهُمَا بِهِ يُسَمَّى الْفَتَّانَةَ ، وَالْفِتْنَةُ تَكُونُ بِالْمِحَنِ وَالشَّدَائِدِ غَالِبًا ، وَقَدْ تَكُونُ بِالِاسْتِمَالَةِ بِالشَّهَوَاتِ فَإِنَّ الصَّبْرَ عَنِ الشَّهَوَاتِ قَدْ يَكُونُ أَعْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ .

(141/267)

وَمَعْنَى (لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) : لَا تَغْفُلُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَوَسْوَسَتِهِ لَكُمْ فَتُمَكِّنُوهُ بِذَلِكَ مِنْ خِدَاعِكُمْ بِهَا وَإِيقَاعِكُمْ فِي الْمَعَاصِي ، كَمَا وَسْوَسَ لِأَبَوَيْكُمْ آدَمَ وَحَوَّاءَ فَزَيَّنَ لَهُمَا مَعْصِيَةَ رَبِّهِمَا . فَفَتَنَهُمَا حَتَّى عَصَيَاهُ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُمَا عَنْهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِخُرُوجِهِمَا مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي كَانَا يَتَمَتَّعَانِ بِنَعِيمِهَا ، وَدَخَلَا فِي طَوْرٍ آخَرَ مِنَ الْحَيَاةِ يُكَابِدُونَ فِيهَا شَقَاءَ الْمَعِيشَةِ وَهُمُومَهَا وَأَنَّ الْفِتْنَةَ الَّتِي تَحْرِمُ الْمَفْتُونَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ أَسْهَلُ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي تُخْرِجُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَفَاوَتَ نَعِيمُ الْجَنَّتَيْنِ وَمُدَّةُ اللُّبْثِ فِيهِمَا .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا) أَيْ أَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ حَالَ كَوْنِهِ نَازِعًا عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا - أَيْ سَبَبًا لِنَزْعِ مَا اتَّخَذَاهُ لِبَاسًا لَهُمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ لِأَجْلِ أَنْ يُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا أَوْ لِتَكُونَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ إِرَاءَتَهُمَا سَوْآتِهِمَا دَائِمًا . وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا مَا هُوَ الْمَعْقُولُ مِنْ أَنَّهُمَا كَانَا يَعِيشَانِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْهَا عُرْيَانَيْنِ إِذْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ ثِيَابٌ تُصْنَعُ وَمَا ثَمَّ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَيْثُ يُوجَدُ .

(142/267)

وَلَا نَعْلَمُ أَكَانَ يُوجَدُ فِي الْأَرْضِ شَجَرٌ ذُو وَرَقٍ عَرِيضٍ فِي غَيْرِ الْجَنَّةِ الَّتِي أُخْرِجَا مِنْهَا ؟ وَجَمِيعُ الْبَاحِثِينَ فِي طَبَائِعِ الِاجْتِمَاعِ وَعَادِيَّاتِ الْبَشَرِ وَآثَارِهِمْ يَجْزِمُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ الِاهْتِدَاءِ إِلَى الصِّنَاعَاتِ يَعِيشُونَ عُرَاةً ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَا اكْتَسَوْا بِهِ وَرَقُ الشَّجَرِ وَجُلُودُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَصْطَادُونَهَا ، وَلَا يَزَالُ فِي الْمُتَوَحِّشِينَ مِنْهُمْ مَنْ يَعِيشُ كَذَلِكَ ، وَهَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ جَعْلُهُمْ (يَنْزِعُ) حَالًا مِنْ فَاعِلِ يُخْرِجُ ، وَمِثْلُهُ جَعَلَهُ حَالًا (مِنْ أَبَوَيْكُمْ) الَّذِي هُوَ مَفْعُولُ يُخْرِجُ ، وَلَكِنَّ جَمِيعَ مَا اطَّلَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ يَجْعَلُ مَا هَنَا عَيْنَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ظُهُورِ سَوْآتِهِمَا لَهُمَا عَقِبَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ قَبْلَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ ، الَّذِي كَانَ بَعْدَ سَتْرِهِمَا سَوْآتِهِمَا بِمَا خَصَفَا عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِهَا ، وَالْمُتَبَادَرُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ ذَلِكَ وَهُنَالِكَ

لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمَا لِبَاسٌ فَنُزِعَ ، وَإِنَّمَا كَانَ شَيْءٌ مُوَارًى فَظَهَرَ ، فَصَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَرَى مِنْ نَفْسِهِ وَمِنَ الْآخَرِ مَا لَمْ يَكُنْ يَرَى .

(143/267)

وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُهُمْ هَذَا اللِّبَاسُ حِسِّيًّا ، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ مَعْنَوِيًّا ، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ أَنَّ لِبَاسَهُمَا كَانَ الظُّفْرُ ، وَأَنَّهُ نُزِعَ عَنْهُمَا بِسَبَبِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَتُرِكَتِ الْأَظْفَارُ فِي رُءُوسِ الْأَصَابِعِ تَذْكِرَةً وَزِينَةً ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمَا نُورٌ يَمْنَعُ رُؤْيَةَ السَّوْءَتَيْنِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِلِبَاسِهِمَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا

هُنَالِكَ أَنَّ هَذَا وَذَاكَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا . وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : (يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا) قَالَ : التَّقْوَى . وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَلَمْ يَعْتَدَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، بَلْ جَوَّزَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اللِّبَاسُ غَيْرَهَا ، وَعَلَّلَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ خَبَرٌ تَثْبُتُ بِهِ الْحُجَّةُ .

وَاخْتَارَ التَّفْوِيضُ وَتَرْكُ تَعْيِينِ ذَلِكَ اللِّبَاسِ .

وَهَذَا مَا اعْتَمَدْنَا عَلَيْهِ هُنَالِكَ فِي رَدِّ الرِّوَايَاتِ ؛ فَإِنَّ التَّعْيِينَ فِي مِثْلِهَا لَا يُقْبَلُ إِلَّا بِخَبَرٍ صَحِيحٍ مِنَ الْمَعْصُومِ . وَأَمَّا مَا رَجَّحْنَاهُ مِنْ غَيْرِ جَزْمٍ ، فَأَخَذْنَاهُ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّكْوِينِ وَبَدْءِ الْخَلْقِ .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى كَرَاهَةِ رُؤْيَةِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ سَوْءَةَ الْآخَرِ حَتَّى فِي خَلْوَةِ الْمُبَاعَلَةِ الزَّوْجِيَّةِ . وَإِنَّمَا الْقِصَّةُ مُبَيِّنَةٌ لِحَالِ الْفِطْرَةِ وَلَيْسَ فِيهَا حُكْمُ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . هَلْ هُوَ الْكَرَاهَةُ أَوِ الْإِبَاحَةُ ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى أَنَّ الْقَوْلَ بِكَرَاهَةِ مَا ذُكِرَ حَرَجٌ شَدِيدٌ وَتَحَكُّمٌ فِي الْفِطْرَةِ ، وَحَجْرٌ عَلَيْهَا فِي صِفَةِ التَّمَتُّعِ الْحَلَالِ الْمَطْلُوبِ شَرْعًا بِمَا لَا تَظْهَرُ لَهُ حِكْمَةٌ ، وَالْمُخْتَارُ : أَنَّ هَذَا مِنَ الْمُبَاحِ وَلَا حَجْرَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ . وَمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ السُّنَّةِ فَآدَابٌ إِرْشَادِيَّةٌ لِلْخَوَاصِّ يَسْتَفِيدُ كُلٌّ مِنْهَا بِقَدْرِ سَلَامَةِ فِطْرَتِهِ ، وَدَرَجَةِ أَدَبِهِ وَفَضِيلَتِهِ كَحَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَى مِنْهَا وَلَا رَأَتْ مِنْهُ . وَلَكِنْ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ جَعْلَ رُؤْيَةِ السَّوْءَةِ وَلَا سِيَّمَا بَاطِنُهَا مَكْرُوهًا تَنْزِيهًا فَلَا يَحْسُنُ التَّمَادِي فِيهَا - مِمَّا لَا تَظْهَرُ لَهُ حِكْمَةٌ تَلِيقُ بِدِينِ الْفِطْرَةِ ؛ فَإِنَّ إِطْلَاقَ الْعِنَانِ فِي الْمُبَاحَاتِ كُلِّهَا قَدْ يُفْضِي إِلَى الْإِسْرَافِ الضَّارِّ الَّذِي يَقْصِدُ بِهِ صَاحِبُهُ زِيَادَةَ اللَّذَّةِ فَيَصْدُقُ قَوْلُ الْأَمْثَالِ : مَنْ طَلَبَ الزِّيَادَةَ وَقَعَ فِي النُّقْصَانِ . وَرُبَّ أَكْلَةٍ هَاضَتِ الْآكِلَ وَحَرَمَتْهُ مَآكِلَ ، وَمَا جَاوَزَ حَدَّهُ جَاوَرَ ضِدَّهُ . وَلَكِنَّ هَذِهِ حِكْمَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَفْقَهُهَا إِلَّا حَكِيمٌ خَبِيرٌ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ مُنْتَهَى مَا يَقْدِرُ

(145/267)

عَلَيْهِ مِنَ اللَّذَّةِ – وَإِنْ مُبَاحَةً – فَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ حَدِّ أَدَبٍ شَرْعِيٍّ وَلَا فِطْرِيٍّ وَلَا طِبِّيٍّ آلَ أَمْرُهُ فِي الْإِسْرَافِ إِلَى إِضْعَافِ هَذِهِ اللَّذَّةِ ، حَتَّى يَحْتَاجَ فِي إِثَارَتِهَا إِلَى الْمُعَالَجَةِ وَالْأَدْوِيَةِ ثُمَّ لَا تَكُونُ إِلَّا نَاقِصَةً وَيُكَرِّرُ إِضْعَافَهَا بَعْدَ إِثَارَتِهَا بِسُنَّةِ رَدِّ الْفِعْلِ حَتَّى تَكُونَ مَرَضًا . وَيَكُونُ صَاحِبُهَا حَرَضًا أَوْ يَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَلِهَذَا تَرَى أَكْثَرَ الْمُتْرَفِينَ سَيِّئِي الْهَضْمِ شَدِيدِي الْإِقْهَاءِ وَالطَّسِّيِّ يُكْثِرُونَ حَتَّى فِي سِنِّ الشَّبَابِ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْمُحَرِّضَاتِ عَلَى الطَّعَامِ ، وَالْمَعَاجِينِ وَالْحُبُوبِ السَّامَّةِ

الَّتِي تُقَوِّي الْبَاهَ فَتَنْتَابُهُمُ الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ ، وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَرَمُ إِذَا لَمْ يُسْرِعِ الْحِمَامُ .

(146/267)

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنْ تَمْكِينِ الشَّيْطَانِ مِمَّا يَبْغِي مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَتَأْكِيدٌ لِلتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالتَّذْكِيرِ بِعَدَاوَتِهِ وَضَرَرِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَرَانَا هُوَ وَقَبِيلُهُ أَيْ جُنُودُهُ وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَلَا نَرَاهُمْ (وَأَصْلُ الْقَبِيلِ : الْجَمَاعَةُ كَالْقَبِيلَةِ وَخَصَّ

بَعْضُهُمُ الْقَبِيلَةَ بِمَنْ كَانَ لَهُمْ أَبٌ وَاحِدٌ وَالْقَبِيلُ أَعَمُّ) وَ (حَيْثُ) ظَرْفُ مَكَانٍ ، أَيْ يَرَوْنَكُمْ مِنْ حَيْثُ يَكُونُونَ غَيْرَ مَرْئِيِّينَ مِنْكُمْ ، وَالضَّرَرُ إِذَا جَاءَ مِنْ حَيْثُ لَا يُرَى كَانَ خَطَرُهُ أَكْبَرَ ، وَوُجُوبُ الْعِنَايَةِ بِاتِّقَائِهِ أَشَدَّ ، كَاتِّقَاءِ أَسْبَابِ بَعْضِ الْأَدْوَاءِ وَالْأَوْبِئَةِ الَّتِي تَثْبُتُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِرُؤْيَةِ الْعَيْنَيْنِ بِالْمِجْهَرِ - أَيِ الْمِرْآةِ أَوِ النَّظَّارَةِ الْمُكَبِّرَةِ لِلْمَرْئِيَّاتِ - وَهُوَ أَنَّ لِكُلِّ دَاءٍ مِنْهَا جِنَّةً مِنَ الدِّيدَانِ أَوِ الْهَوَامِّ الْخَفِيَّةِ تَنْفُذُ إِلَى الْبَدَنِ بِنَقْلِ الذُّبَابِ أَوِ الْبَعُوضِ أَوِ الْقَمْلِ أَوِ الْبَرَاغِيثِ ، أَوْ مَعَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ أَوِ الْهَوَاءِ ، فَتَتَوَالَدُ وَتَنْمَى بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى تُفْسِدَ عَلَى الْمَرْءِ رِئَتَهُ فِي دَاءِ السُّلِّ ، وَأَمْعَاءَهُ فِي الْهَيْضَةِ الْوَبَائِيَّةِ ، وَدَمَهُ فِي الطَّاعُونِ وَالْحُمَّيَاتِ الْخَبِيثَةِ ، وَقَدْ أُشِيرَ فِي الْحَدِيثِ إِلَى سَبَبِ الطَّاعُونِ فِيمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ مِنْ وَخْزِ الْجِنِّ ، وَإِلَى دَاءِ السُّلِّ فِيمَا وَرَدَ مِنْ تَحَوُّلِ الْغُبَارِ فِي الصَّدْرِ إِلَى نَسَمَةٍ .

(147/267)

وَفِعْلُ جِنَّةِ الشَّيَاطِينِ فِي أَنْفُسِ الْبَشَرِ كَفِعْلِ هَذِهِ الْجِنَّةِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْأَطِبَّاءُ الْمِيكْرُوبَاتِ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَفِي غَيْرِهَا مِنْ أَجْسَامِ الْأَحْيَاءِ : تُؤَثِّرُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُرَى فَتُتَّقَى .

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلْعُقَلَاءِ أَنْ يَأْخُذُوا فِي اتِّقَاءِ ضَرَرِهَا بِنَصَائِحِ أَطِبَّاءِ الْأَبْدَانِ - وَلَا سِيَّمَا فِي أَوْقَاتِ الْأَوْبِئَةِ - كَاسْتِعْمَالِ الْمُطَهِّرَاتِ الطِّبِّيَّةِ وَالتَّوَقِّي مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ الْمُلَوَّثِ بِوُصُولِ

شَيْءٍ إِلَيْهِ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْمُصَابِينَ بِالْهَيْضَةِ أَوِ الْحُمَّى التَّيْفُوئِيدِيَّةِ ، إِلَّا أَنْ يُغْلَى ثُمَّ يُحْفَظَ فِي آنِيَةٍ نَظِيفَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَوْ كَانُوا يَرَوْنَ تِلْكَ الْجِنَّةَ بِأَعْيُنِهِمْ كَمَا يَرَاهَا الْأَطِبَّاءُ بِمُجَاهَرِهِمْ لَاتَّقَوْهَا مِنْ غَيْرِ تَوْصِيَةٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ . وَالْوِقَايَةُ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا اتِّخَاذُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَمْنَعُ طُرُوءَهَا مِنَ الْخَارِجِ ، كَالَّذِي تَفْعَلُهُ الْحُكُومَاتُ فِي الْمَحَاجِرِ الصِّحِّيَّةِ فِي ثُغُورِ الْبِلَادِ وَمَدَاخِلِهَا ، أَوْ فِي أَمْكِنَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهَا كَجَزَائِرِ الْبِحَارِ لِلْوِقَايَةِ الْعَامَّةِ لِلْبِلَادِ كُلِّهَا . أَوْ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ دُونَ بَعْضٍ ، وَمِثْلُهُ مَا يَتَّخِذُهُ أَهْلُ الْبُيُوتِ لِوِقَايَةِ بُيُوتِهِمْ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : تَقْوِيَةُ الْأَبْدَانِ بِالْأَغْذِيَةِ الْجَيِّدَةِ وَالنَّظَافَةِ التَّامَّةِ لِتَقْوَى عَلَى مَنْعِ فَتْكِ هَذِهِ الْجِنَّةِ فِيهَا إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهَا ، كَمَا يُتَّقَى تَوَلُّدُ السُّوسِ فِي حَبِّ الْحَصِيدِ بِتَجْفِيفِهِ وَوَضْعِ بَعْضِ الْمَوَادِّ

(148/267)

الْوَاقِيَةِ فِيهِ ، وَكَمَا يُتَّقَى وُصُولُ الْعُثِّ إِلَى الثِّيَابِ الصُّوفِيَّةِ بِمَنْعِ وُصُولِ الْغُبَارِ إِلَيْهَا ، أَوْ بِوَضْعِ الدَّوَاءِ الْمُسَمَّى بِالنَّفْتَالِينِ بَيْنَهَا ، وَهُوَ يَقْتُلُ الْعُثَّ بِرَائِحَتِهِ .

كَذَلِكَ يَجِبُ الْأَخْذُ بِإِرْشَادِ طِبِّ الْأَنْفُسِ وَالْأَرْوَاحِ فِي وِقَايَتِهَا مِنْ فَتْكِ جِنَّةِ الشَّيَاطِينِ فِيهَا بِالْوَسْوَسَةِ الَّتِي تُزَيِّنُ لِلنَّاسِ الْأَبَاطِيلَ وَالشُّرُورَ الْمُحَرَّمَةَ فِي هَذَا الطِّبِّ لِشِدَّةِ ضَرَرِهَا –

وَلَمْ يُحَرِّمِ الدِّينُ شَيْئًا عَلَى النَّاسِ إلَّا لِضَرَرِهِ وَإِفْسَادِهِ - فَإِنَّ مَدَاخِلَهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَتَأْثِيرَهَا فِي

قُلُوبِهِمْ وَخَوَاطِرِهِمْ ، كَدُخُولِ تِلْكَ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَأْثِيرِهَا فِي أَعْضَائِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا تُرَى وَاتِّقَاؤُهَا كَاتِّقَائِهَا نَوْعَانِ :

(149/267)

أَحَدُهُمَا : تَقْوِيَةُ الْأَرْوَاحِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالْفَضَائِلِ ، وَتَرْكِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمِ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ حَقٍّ ؛ حَتَّى تَرْسُخَ فِيهِ مَلَكَاتُ الْخَيْرِ ، وَحُبُّ الْحَقِّ ، وَكَرَاهَةُ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ - فَحِينَئِذٍ تَبْعُدُ الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي تَدْعُو إلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ فَتَبْعُدُ عَنْهَا ، وَلَا تُطِيقُ الدُّنُوَّ مِنْهَا ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْغُثِّ مَعَ الثَّوْبِ الْمُشَبَّعِ بِرَائِحَةِ التَّفْتَالِينِ ، بَلِ الْجُعَلِ مَعَ عِطْرِ الْوَرْدِ أَوِ الْيَاسَمِينِ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُتَّقُونَ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ ، الَّذِينَ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ كَمَا بَيَّنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْفِطْرِيَّةِ الْوَارِدَةِ بِأُسْلُوبِ الْخِطَابِ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَبَيْنَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْحِجْرِ : (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا

صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (15 : 39 - 42) وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا وَأَمْثَالُهُ فِي تَفْسِيرِ الْقِصَّةِ ، وَهَذَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فِي الْآيَةِ هُوَ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي الْخِلْقَةِ الرُّوحِيَّةِ بِأَنَّ الرُّوحَ الْكَامِلَ الْمُهَذَّبَ بِالتَّقْوَى وَالْإِخْلَاصِ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ

(150/267)

الْوَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ وَلَا تَتَمَكَّنُ مِنْهُ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى نَفْيِ سُلْطَانِ الشَّيْطَانِ عَنْهُ ، كَمَا أَنَّ الْمَيْكْرُوبَاتِ وَالْهَوَامَّ لَا تَجِدُ لَهَا مَأْوًى فِي الْأَجْسَادِ النَّظِيفَةِ الطَّاهِرَةِ الْقَوِيَّةِ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي - مِنْ هَذِهِ التَّقْوَى - مَا يُعَالَجُ بِهِ الْوَسْوَاسُ بَعْدَ طُرُوئِهِ ، كَمَا يُعَالَجُ الْمَرَضُ بَعْدَ حُدُوثِهِ بِتَأْثِيرِ تِلْكَ الْهَوَامِّ الْخَفِيَّةِ فِيهِ ، بِالْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَقْتُلُهَا وَتَمْنَعُ امْتِدَادَ ضَرَرِهَا . وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذَكُّرِ لِمَا حَصَلَ بِسَبَبِ الْوَسْوَسَةِ مِنْ فِعْلِ مَعْصِيَةٍ أَوْ تَرْكِ وَاجِبٍ ، أَنْ تُتْرَكَ الْمَعْصِيَةُ وَيُؤَدَّى الْوَاجِبُ وَيَتُوبُ الْعَاصِي كَمَا تَابَ أَبُونَا آدَمُ وَزَوْجُهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَأَنْ يُسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى بِالْقَلْبِ وَالتَّضَرُّعِ

(151/267)

إِلَيْهِ بِاللِّسَانِ كَمَا فَعَلَ أَبَوَانَا بِقَوْلِهِمَا : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) (23) الْآيَةَ . وَفَاقًا لِمَا ذَكَرْنَا فِي مُعَالَجَةِ الْأَمْرَاضِ الْبَدَنِيَّةِ ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي تَأْثِيرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُعَالَجَةِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيئَةِ وَالْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تُحْدِثُهَا هَذِهِ الْوَسْوَسَةُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ السُّورَةِ : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (200 ، 201) وَمِنْهُ مَا وَرَدَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي فَضْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ فِرَارِ الشَّيْطَانِ ، وَكَوْنِهِ مَا سَلَكَ فَجًّا إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَهُ .

(152/267)

قَدْ سَبَقَ لَنَا بَيَانُ مِثْلِ هَذَا التَّشَابُهِ بَيْنَ تَأْثِيرِ الْأَحْيَاءِ الْخَفِيَّةِ الْمُجْتَنَّةِ فِي الْأَجْسَادِ وَفِي الْأَنْفُسِ وَقَدْ أَعَدْنَاهُ هُنَا مُفَصَّلًا لِقُوَّةِ الْمُنَاسَبَةِ ، وَلِتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَقْوَى مَا يَرُدُّونَ بِهِ شُبَهَاتِ بَعْضِ الْمَادِّيِّينَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْجِنَّةِ وَالشَّيَاطِينِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَهُمْ ؛ أَوْ لِأَنَّ وُجُودَهُمْ بَعِيدٌ عَنِ النَّظَرِيَّاتِ وَالْمَأْلُوفَاتِ عِنْدَهُمْ ، عَلَى أَنَّ أَرْوَاحَهُمُ الْخَبِيثَةَ الَّتِي يُنْكِرُونَ وُجُودَهَا أَيْضًا هِيَ أَوْسَعُ الْأَوْطَانِ لَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ الِاسْتِدْلَالُ بِعَدَمِ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ عَلَى عَدَمِ وُجُودِهِ صَحِيحًا وَأَصْلًا يَنْبَغِي لِلْعُقَلَاءِ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ لَمَّا بَحَثَ عَاقِلٌ فِي الدُّنْيَا عَمَّا فِي الْوُجُودِ مِنَ

الْمَوَادّ وَالْقُوَى الْمَجْهُولَةِ ، وَلَمَا كُشِفَتْ هَذِهِ الْمِيكْرُوبَاتُ الَّتِي ارْتَقَتْ بِهَا عُلُومُ الطِّبّ وَالْجِرَاحَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا ، وَلَا تَزَالُ قَابِلَةً لِلارْتِقَاءِ بِكَشْفِ أَمْثَالِهَا ، وَلَمَّا عُرِفَتِ الْكَهْرَبَاءُ الَّتِي أَحْدَثَ كَشْفُهَا هَذَا التَّأْثِيرَ الْعَظِيمَ فِي الْحَضَارَةِ ، وَلَوْ لَمْ تُكْشَفْ هَذِهِ الْمِيكْرُوبَاتُ وَأَخْبَرَ أَمْثَالُهُمْ بِهَا مُخْبِرٌ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ لَعَدُّوهُ مَجْنُونًا ، وَجَزَمُوا بِاسْتِحَالَةِ وُجُودِ أَحْيَاءٍ لَا تُرَى يُوجَدُ فِي نُقْطَةِ الْمَاءِ الصَّغِيرَةِ أُلُوفٌ الْأُلُوفِ مِنْهَا ، وَأَنَّهَا تَدْخُلُ فِي الْأَبْدَانِ مِنْ خُرْطُومِ الْبَعُوضَةِ أَوِ الْبُرْغُوثِ إِلَخْ . كَمَا أَنَّ مَا يَجْزِمُ بِهِ عُلَمَاءُ الْكَهْرَبَاءِ مِنْ تَأْثِيرِهَا فِي تَكْوِينِ

(153/267)

الْعَالَمِ ، وَمَا تَعْرِفُهُ الشُّعُوبُ الْكَثِيرَةُ الْآنَ مِنْ تَخَاطُبِ النَّاسِ بِهَا مِنَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ بِالْآلَاتِ التِّلِغْرَافِ وَالتِّلِيفُونِ اللَّاسِلْكِيَّةِ – كُلُّهُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُهُ عَقْلٌ وَقَدْ وَقَعَ بِالْفِعْلِ .

فَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ مُقْتَضَى الْعَقْلِ أَلَّا يَقْبَلَ أَحَدٌ قَوْلَ الْأَطِبَّاءِ فِي اتِّقَاءِ مِيكْرُوبَاتِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْبِئَةِ وَفِي الْمُعَالَجَةِ وَالتَّدَاوِي مِنْهَا إِلَّا إِذَا رَآهَا كَمَا يَرَوْنَهَا وَثَبَتَ عِنْدَهُ ضَرَرُهَا كَمَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ – فَإِنَّنَا نَعْذُرُهُمْ حِينَئِذٍ فِي قَوْلِهِمْ : إِنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْعَقْلِ أَلَّا يَقْبَلَ أَحَدٌ قَوْلَ أَطِبَّاءِ الْأَرْوَاحِ وَهُمُ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَوَرَثَتُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْهَادِينَ الْمُرْشِدِينَ فِي اتِّقَاءِ تَأْثِيرِ

وَسْوَسَةِ الشَّيَاطِينِ ، وَفِي التَّوْبَةِ مِنْ سُوءِ

تَأْثِيرِهَا بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالشُّرُورِ – وَحِينَئِذٍ يَكُونُ هَذَا الْعَقْلُ الْمَادِّيُّ الْمَأْلُوفُ قَاضِيًا عَلَى أَصْحَابِهِ الْمَسَاكِينِ بِفَسَادِ أَبْدَانِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ جَمِيعًا .

(154/267)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ الْأَطِبَّاءَ قَدْ ثَبَتَتْ فَائِدَةُ طِبِّهِمْ وَأَدْوِيَتِهِمْ بِالتَّجْرِبَةِ فَوَجَبَتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ وَالتَّسْلِيمُ لَهُمْ بِمَا يَقُولُونَ – قُلْنَا : إِنَّ فَائِدَةَ طِبِّ الْأَنْبِيَاءِ وَوَرَثَتِهِمْ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ وَصَلَاحِ أَعْمَالِهِمْ أَشَدُّ ثُبُوتًا ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَادِّيِّينَ عَلَى ضَعْفِ عُقُولِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا يَقُولُهُ الْأَطِبَّاءُ . وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُمْ بِالرُّؤْيَةِ ، وَلَا بِنَظَرِيَّاتِ الْفِكْرِ ، فَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي حِفْظِ أَبْدَانِهِمْ مِنَ الْجِهَةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْهَلُونَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِمْ كُفْرُهُمْ بِالطِّبِّ الرُّوحِيِّ الدِّينِيِّ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ جَمِيعًا ، فَإِنَّ هَذَا الْكُفْرَ يَحْصُرُ هَمَّهُمْ فِي التَّمَتُّعِ بِاللَّذَّاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَيُسْرِفُونَ فِيهَا بِمَا يُضْعِفُ أَبْدَانَهُمْ مَهْمَا تَكُنِ الْعِنَايَةُ بِهَا عَظِيمَةً ، دَعْ إِفْسَادَ أَخْلَاقِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ وَمَا يَجْنِيهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أُمَّتِهِمْ وَعَلَى الْبَشَرِ جَمِيعًا ، وَنَاهِيكَ بِمَضَارِّ مَا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ السُّكْرِ وَالزِّنَا وَالْقِمَارِ وَمَا يَسْتَبِيحُونَهُ مِنَ الْخِيَانَةِ لِلْأُمَّةِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ ، فَلَوْ كَانَ الْخَوَنَةُ الَّذِينَ يَتَّخِذُهُمُ الْأَجَانِبُ

أَعْوَانًا لَهُمْ عَلَى اسْتِعْبَادِ أُمَّتِهِمْ مُؤْمِنِينَ ، مُعْتَصِمِينَ بِتَقْوَى اللهِ وَهَدْيِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ مِنَ الطَّمَعِ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ بِالْبَاطِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى ، لَمَا خَانُوا اللهَ وَخَانُوا أَمَانَةَ أُمَّتِهِمْ وَأَوْطَانِهِمُ اتِّبَاعًا لِشَهَوَاتِهِمْ ، وَطَمَعًا فِي تَأَثُّلِ الْأَمْوَالِ وَالِادِّخَارِ لِأَوْلَادِهِمْ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (8 : 27 ، 28) .

بَلْ قَالَ أَعْظَمُ فَيْلَسُوفٍ يَحْتَرِمُونَ عَقْلَهُ وَعِلْمَهُ : إِنَّ هَذِهِ الْأَفْكَارَ الْمَادِّيَّةَ الَّتِي تَغَلَّبَتْ فِي أُورُبَّةَ عَلَى الْفَضَائِلِ قَدْ مَحَتِ الْحَقَّ مِنْ عُقُولِ أَهْلِهَا ، فَلَا يَعْقِلُونَ مِنْهُ إِلَّا تَحْكِيمَ الْقُوَّةِ ، وَسَتَتَخَبَّطُ بِهِ الْأُمَمُ وَيَتَخَبَّطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لِيَتَبَيَّنَ مَنْ هُوَ الْأَقْوَى فَيَكُونُ سُلْطَانَ الْعَالَمِ . هَذَا مَا سَمِعَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنَ الْفَيْلَسُوفِ هِرْبِرْتِ سِبِنْسَرْ (فِي 10 أَغُسْطُسَ سَنَةَ 1903) وَكَتَبَهُ عَنْهُ ، وَقَدْ زَادَنَا فِي رِوَايَتِهِ اللَّفْظِيَّةِ لَهُ عَنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَتَوَقَّعُ هَذِهِ الْحَرْبَ الْعَامَّةَ الْوَحْشِيَّةَ ، وَيُعِدُّهَا مِنْ سَيِّئَاتِ الْأَفْكَارِ الْمَادِّيَّةِ وَضَعْفِ الْفَضِيلَةِ . وَقَدْ رَوَيْنَا ذَلِكَ عَنْهُ بِالْمَعْنَى مِنْ فَوَائِدَ أُخْرَى فِي رِحْلَتِنَا الْأُورُبِّيَّةِ (ج 3 م 23 مِنَ الْمَنَارِ) .

وَمِنَ الْمَصَائِبِ عَلَى الْبَشَرِ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِطِبِّ الدِّينِ الرُّوحِيِّ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ لَا يَقِفُونَ فِيهَا عِنْدَ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَمَا فَهِمَهُ مِنْهُ حَمَلَتُهُ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، بَلْ زَادُوا وَمَا زَالُوا يَزِيدُونَ فِيهِ مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ ، مَا جَعَلَهُمْ حُجَّةً عَلَى دِينِهِمْ وَفِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَفِّرُونَهُمْ مِنْهُ – فَتَرَاهُمْ لَا يَتَّقُونَ الْوَسْوَاسَ الضَّارَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِي خَوَاطِرِهِمْ كَمَا يَجِبُ ،

(157/267)

وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ تَضْلِيلَ الدَّجَّالِينَ وَالدَّجَّالَاتِ ، كَزَعْمِهِمْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يُمْرِضُونَ الْأَجْسَادَ وَيَخْطِفُونَ الْأَطْفَالَ . وَأَنَّ لِهَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ صِلَةً بِهِمْ وَتَأْثِيرًا فِي حَمْلِهِمْ عَلَى تَرْكِ الضَّرَرِ وَالْمُسَاعَدَةِ عَلَى النَّفْعِ بِشِفَاءِ الْمَرْضَى وَرَدِّ الْمَفْقُودِينَ ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعُشَّاقِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الزَّارُ الَّذِي يُخْرِجُونَ بِهِ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْأَجْسَادِ بِزَعْمِهِمْ ، وَلِهَذِهِ الْخُرَافَاتِ مَضَارُّ وَرَزَايَا كَثِيرَةٌ فِي الْأَبْدَانِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ . فَهِيَ بِذَلِكَ شُبْهَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْمَادِّيِّينَ عَلَى الْمُتَدَيِّنِينَ الْمُقَلِّدِينَ لِلْجُهَّالِ وَالدَّجَّالِينَ . وَالدِّينُ لَمْ يُثْبِتْ لِلشَّيَاطِينِ مَا يَزْعُمُهُ الدَّجَّالُونَ ، وَلَمْ يُثْبِتْ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُثْبِتُ

كِتَابُ اللهِ تَعَالَى لِلشَّيَاطِينِ وَسْوَسَةً هِيَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ لِلتَّأْثِيرِ فِي الْقُلُوبِ الْمُسْتَعِدَّةِ لَهَا كَتَأْثِيرِ جِنَّةِ الْهَوَامِّ فِي الْأَجْسَادِ الْمُسْتَعِدَّةِ . وَأَنَّ مُقَاوَمَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي اسْتِطَاعَةِ الْإِنْسَانِ ، وَقَدْ أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَصَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ الشَّيَاطِينَ يَرَوْنَ النَّاسَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُمُ النَّاسُ ، وَهَؤُلَاءِ الدَّجَّالُونَ يَنْفُونَ مَا أَثْبَتَ كِتَابُ اللهِ وَيُثْبِتُونَ مَا نَفَاهُ . وَيَقُولُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

(158/267)

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَى الْجِنَّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) (72 : 1) وَلَكِنْ

رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ رَآهُمْ ، وَفِي أَحَادِيثَ أُخْرَى أَنَّهُ كَانَ يَرَى الشَّيَاطِينَ ، وَكَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَرَى أَنَّ رُؤْيَتَهُمْ مِنَ الْخَوَارِقِ الْخَاصَّةِ بِالْأَنْبِيَاءِ ، فَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي مَنَاقِبِهِ عَنْ صَاحِبِهِ الرَّبِيعِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ : مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَرَى الْجِنَّ رَدَدْنَا شَهَادَتَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا .

(159/267)

وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِرُؤْيَتِهِمْ عَلَى صُورَتِهِمُ الَّتِي خُلِقُوا عَلَيْهَا ، وَاخْتَلَفَتْ فِرَقُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَشَكُّلِهِمْ بِالصُّوَرِ ، فَالْجُمْهُورُ يُثْبِتُونَهُ وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إنَّهُ تَخْيِيلٌ لَا حَقِيقَةٌ ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ قَالَ مَا مَعْنَاهُ : إنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَلَكِنْ تَخْيِيلٌ كَتَخْيِيلِ سَحَرَةِ الْإِنْسِ – وَتَقَدَّمَ نَصُّ الرِّوَايَةِ فِي بَحْثِ اسْتِهْوَاءِ الشَّيَاطِينِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَمَا فِيهَا – وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ فِي الْعَظَمَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " أَيُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ تَخَيَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَلَا يَصُدَّنَّ عَنْهُ وَلْيَمْضِ قُدُمًا فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ أَشَدُّ فَرَقًا مِنْكُمْ مِنْهُمْ " إلَخْ . وَهُوَ صَحِيحٌ فِي كَوْنِ الشَّيَاطِينِ وَسَائِرِ الْجِنِّ الْعَاقِلَةِ تَخَافُ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَرْقَى مِنْهُمْ ، كَجِنِّ الْحَشَرَاتِ الَّذِينَ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ مِنْهَا مَا يَطِيرُ وَمِنْهَا حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِيمَا وَرَدَ فِي الْجِنِّ وَمَا قِيلَ فِيهِمْ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ وَمِنَ

الْمَنَارِ وَلَا حُجَّةَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لِهَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ جَهَلَةِ الْعَوَامِّ بِالْبَاطِلِ ، بِوِلَايَتِهِمْ لِلشَّيَاطِينِ وَوِلَايَةِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ ، وَقَدْ خَوَّفُوا النَّاسَ مِنْهُمْ حَتَّى أَوْقَعُوا الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَوْقَعُوهُمْ فِي ضَلَالَاتٍ كَثِيرَةٍ .

إِنَّ مَفَاسِدَ (الزَّارِ) كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَقَدْ وَصَفْنَاهَا مِنْ قَبْلُ فِي الْمَنَارِ . وَسَبَبُهَا اعْتِقَادُ الْكَثِيرَاتِ مِنَ النِّسَاءِ الْمَرِيضَاتِ بِأَمْرَاضٍ عَادِيَّةٍ - وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ عَصَبِيَّةً - أَنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ دَخَلَتْ فِي أَجْسَادِهِنَّ . وَأَنَّ صَانِعَاتِ الزَّارِ يُخْرِجْنَهُمْ مِنْهَا بِإِرْضَائِهِمْ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ بِالْقَرَابِينِ وَغَيْرِهَا . وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ عِبَادَةِ الْجِنِّ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَزَالَهَا الْإِسْلَامُ بِإِصْلَاحِهِ ، وَلَمَّا جُهِلَ الْإِسْلَامُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ وَقَبَائِلِ الْبَدْوِ عَادَتْ إِلَى أَهْلِهَا . وَقَدْ كَانَ مِنْ حَسَنَاتِ تَأْثِيرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمُجَدِّدِ لِلْإِسْلَامِ فِي نَجْدٍ إِبْطَالُ عِبَادَةِ الْجِنِّ وَغَيْرِ الْجِنِّ مِنْهَا ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا إِلَّا أَهْلُ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ ، وَلَكِنَّ عُلَمَاءَ الْأَزْهَرِ هُنَا لَا يُعْنَوْنَ أَقَلَّ عِنَايَةٍ بِمُقَاوَمَةِ هَذِهِ الْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ وَأَمْثَالِهَا ، وَلَا الْمَعَاصِي الْفَاشِيَةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ .

(161/267)

وَنَحْنُ نَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ وَاقِعَةً وَقَفْنَا عَلَيْهَا مِنِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْتِينَا بِاللَّبَنِ كُلَّ صَبَاحٍ مِنْ رِيفِ الْجِيزَةِ . وَهِيَ أَنَّ وَلَدَهَا غَرِقَ فِي النِّيلِ فَسَأَلَتْ عَنْهُ بَعْضَ الدَّجَّالِينَ فَأَخْبَرَهَا بِأَنَّ أَحَدَ الْأَسْيَادِ (أَيْ عَفَارِيتِ الْجِنِّ) أَنْقَذَهُ وَوَضَعَهُ عِنْدَهُ ، فَهُوَ يَعِيشُ فِي ضِيقٍ وَشَظَفٍ ، وَأَنَّهُ

هُوَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُوَصِّلَ إِلَيْهِ مَا تَجُودُ بِهِ وَالِدَتُهُ عَلَيْهِ ، فَكَانَتْ تُعْطِيهِ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالدَّجَاجِ وَالْحَمَامِ الْمَقْلِيِّ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ أُجْرَةً لِنَقْلِهِ ، وَتَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَصِلُ إِلَى وَلَدِهَا عِنْدَ الْعِفْرِيتِ الَّذِي أَخَذَهُ ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ لَهُ ، وَرُبَّمَا يُطْلِقُهُ بَعْدُ ، وَمَا زَالَ أَهْلُ بَيْتِنَا يَنْصَحْنَ

لَهَا بِتَرْكِ ذَلِكَ الدَّجَّالِ الْمُفْتَرِي الْمُحْتَالِ حَتَّى أَقْنَعْنَهَا بِكَذِبِهِ بَعْدَ أَنْ خَسِرَتْ كُلَّ مَا كَانَتْ تَرْبَحُهُ مِنْ بَيْعِ اللَّبَنِ فِي سَبِيلِهِ .

(162/267)

فَإِنْ قِيلَ إِنَّ الْأَنَاجِيلَ أَثْبَتَتْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَدْخُلُ فِي أَجْسَادِ النَّاسِ وَتَصْرَعُهُمْ ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُخْرِجُ هَذِهِ الشَّيَاطِينَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى مِنْهُمْ ، وَفِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مَا يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (2 : 275) وَإِنْ قَالُوا إِنَّهُ تَمْثِيلٌ حَكَى بِهِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا عِنْدَ الْعَرَبِ . وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ دُونَ الْخُرَافِيِّينَ وَقَائِعُ فِيهِ كَوَقَائِعِ الْإِنْجِيلِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ عَنْ أُسْتَاذِهِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ ، فَهَلْ تُنْكِرُ كُلَّ ذَلِكَ أَمْ مَاذَا تَقُولُ فِيهِ ؟

(163/267)

فَالْجَوَابُ : إِنَّنَا وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُ لِهَذِهِ الْأَنَاجِيلِ أَسَانِيدَ صَحِيحَةً مُتَّصِلَةً ، وَقَدْ أُمِرْنَا أَلَّا نُصَدِّقَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا نُكَذِّبَهُمْ فِيمَا لَا حُجَّةَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ فِي كِتَابِنَا – وَإِنْ كَانَ شَيْخَا الْإِسْلَامِ مِنْ أَجَلِّ الثِّقَاتِ عِنْدَنَا فِيمَا يَرْوِيَانِ عَنْ أَنْفُسِهِمَا وَعَنْ غَيْرِهِمَا بِالْجَزْمِ – فَإِنَّنَا نَقُولُ : إِنَّ وَقَائِعَ الْأَحْوَالِ فِي هَذَا الْمَقَامِ فِيهَا إِجْمَالٌ ، هِيَ بِهِ قَابِلَةٌ لِأَنْوَاعٍ شَتَّى مِنَ الِاحْتِمَالِ . عَلَى أَنَّ مَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَلَى ظَاهِرِهِ لَا حُجَّةَ فِيهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الدَّجَّالِينَ الَّتِي يُنْكِرُهَا الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ ، وَأَيْنَ دَجَلُ هَؤُلَاءِ الْفُسَّاقِ الْمُحْتَالِينَ مِنْ مُعْجِزَةٍ أَوْ كَرَامَةٍ يُكْرِمُ اللهُ بِهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا أَوْ وَلِيًّا صَالِحًا ، فَيَشْفِي عَلَى يَدَيْهِ مَصْرُوعًا أَلَمَّ بِهِ الشَّيْطَانُ أَمْ لَمْ يُلِمَّ ، وَمَا إِلْمَامُ الشَّيْطَانِ بِبَعْضِ النَّاسِ بِالْمُحَالِ عَقْلًا حَتَّى نَحَارَ فِي فَهْمِ أَمْثَالِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ النَّادِرَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعِنْدَنَا بَلْ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَأَنَّ بَعْضَ الْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يُصْرَعُ أَصْحَابُهَا لَابَسَهُمُ الشَّيْطَانُ فِيهَا أَمْ لَا تُشْفَى بِتَأْثِيرِ الِاعْتِقَادِ وَبِتَأْثِيرِ إِرَادَةِ الْأَرْوَاحِ الْقَوِيَّةِ إِذَا تَوَجَّهَتْ إِلَى اللهِ تَعَالَى سَائِلَةً شِفَاءَهَا ، وَمَا نَحْنُ بِالَّذِينَ يُدَارُونَ الْمَادِّيِّينَ أَوْ يُبَالُونَ بِإِنْكَارِهِمْ لِكُلِّ مَا لَا يُثْبِتُهُ الْحِسُّ لَهُمْ ، بَلْ نَرَى أَنَّ جُمْلَةَ مَا رُوِيَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَمَا اشْتَهَرَ

عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ يُفِيدُ فِي مَجْمُوعِهِ التَّوَاتُرَ الْمَعْنَوِيَّ فِي إِثْبَاتِ أَصْلٍ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

وَمَا لَنَا لَا نَذْكُرُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يُعِدُّهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَمْرًا عَظِيمًا وَيَسْتَبْعِدُونَ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَلَتَاتِ الِاتِّفَاقِ وَنَوَادِرِ الْمُصَادَفَاتِ . مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي بَلَدِنَا (القلمون) فِي سُورِيَّةَ رَجُلٌ صَيَّادٌ اسْمُهُ (عُمَرُ كَسِنْ) رَمَى شَبَكَتَهُ لَيْلَةً فِي الْبَحْرِ فَسَمِعَ صَوْتًا غَيْرَ مَأْلُوفٍ فَمَا لَبِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ صَارَ يُصْرَعُ ، وَيُخَيَّلُ هُجُومُ فِئَةٍ مِنَ الْجِنِّ عَلَيْهِ يَضْرِبُونَهُ مُتَّهِمِينَ إِيَّاهُ بِإِصَابَةِ فَتَاةٍ مِنْهُمْ ، وَرَآنِي وَهُوَ غَائِبٌ عَنِ الْحِسِّ بِالْهَيْئَةِ الَّتِي كُنْتُ أَخْلُو فِيهَا لِلْعِبَادَةِ وَذِكْرِ اللهِ فِي حُجْرَةٍ خَاصَّةٍ ، وَبِيَدِي مِخْصَرَةٌ قَصِيرَةٌ مِنَ الْأَبَنُوسِ كُنْتُ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا – وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ذَلِكَ قَطُّ – رَآنِي أَطْرُدُ الْجِنَّ عَنْهُ بِهَذِهِ الْمِخْصَرَةِ ، وَكَانَ أَهْلُهُ قَدْ ذَكَرُوا لِي أَمْرَهُ ، ثُمَّ دَعَوْنِي إِلَى رُؤْيَتِهِ وَرُقْيَتِهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ ، فَذَهَبْتُ فَأَلْفَيْتُهُ مُغْمًى عَلَيْهِ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعُ مِمَّنْ

حَوْلَهُ شَيْئًا ، وَلَكِنْ كَانَ يَقُولُ : جَاءَ سَيِّدُنَا الشَّيْخُ رَشِيدٌ . . . . وَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ تَوَجَّهْتُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِإِخْلَاصٍ وَخُشُوعٍ وَوَضَعْتُ يَدَيَّ عَلَى رَأْسِهِ وَقُلْتُ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقَامَ كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ

عِقَال ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ هَذَا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ لَا أَذْكُرُهُ وَشَفَاهُ تَعَالَى وَأَذْهَبَ عَنْهُ الرَّوْعَ ثَانِيَةً بِنَحْوِ مِمَّا أَذْهَبَهُ عَنْهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، وَلَكِنَّنِي

لَمْ أَرَ أُولَئِكَ الْجِنَّ الَّذِينَ كَانَ يَرَانِي أُجَادِلُهُمْ وَأَذُودُهُمْ عَنْهُ ، وَالْوَاقِعَةُ تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ عِنْدِي ، وَلَا أُعِدُّهَا دَلِيلًا قَطْعِيًّا عَلَى كَوْنِ صَرْعِهِ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ، كَمَا أَنَّهُ لَا مَانِعَ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ لِشُهْرَتِهَا عِنْدَنَا فِي الْبَلَدِ وَكَثْرَةِ مَنْ شَهِدَهَا .

(166/267)

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ غَرِيبِ الِاتِّفَاقِ أَنِّي كُنْتُ أُعَاشِرُ بَعْضَ أَصْحَابِ هَذَا الصَّرَعِ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَحْدُثُ لَهُمْ وَأَنَا مَعَهُمْ قَطُّ ، وَمِنْهُمْ حَمُّودَهْ بِكْ أَخُو شَيْخِنَا الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ ، كُنْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ مُعَاشَرَةً لَهُمْ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ كَانَ يُكْثِرُ زِيَارَتَهُمْ إِلَّا وَرَأَى حَمُّودَهْ يُصْرَعُ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ اشْتِدَادِ النَّوْبَاتِ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ مَرَضِ الشَّيْخِ وَبَعْدِهِ ، حَتَّى كَانَتْ رُبَّمَا تَتَعَدَّدُ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَمْكُثُ عِنْدَهُمْ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ ، وَلَمْ يَقَعْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَمَامِي . وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ صَدِيقُنَا مُحَمَّد شَرِيف الْفَارُوقِيُّ – رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى – وَلَا أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ لِبَعْضِ الْأَرْوَاحِ تَأْثِيرٌ فِي بَعْضٍ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا لَا أَنْفِي عَلَى سَبِيلِ

الْقَطْعِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ نَوَادِرِ الِاتِّفَاقِ ، وَكَانَ شُيُوخُ بَلَدِنَا يَنْقُلُونَ عَنْ جَدِّي الثَّالِثِ غَرَائِبَ فِي هَذَا الْبَابِ .

(167/267)

وَإِنِّي لَمْ أَذْكُرْ هَذَا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَلَّا يَظُنَّ ظَانٌّ أَنِّي أَمِيلُ فِي تَشَدُّدِي فِي كَشْفِ غِشِّ الدَّجَّالِينَ إِلَى آرَاءِ الْمَادِّيِّينَ وَثَانِيهِمَا : أَلَّا يَجْعَلَ أَحَدٌ مَا نُقِلَ عَنْ مِثْلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مِنْ إِرْسَالِهِ رَسُولًا إِلَى الْمَصْرُوعِ يُخْرِجُ مِنْهُ الشَّيْطَانَ حُجَّةً عَلَى مَنْ يُنْكِرُ دَجَلَ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ مِنْ عِبَادِ الشَّيَاطِينِ أَوِ الدُّعَاةِ إِلَى عِبَادَتِهِمْ ، بِتَخْوِيفِ النَّاسِ مِمَّا لَا يُخِيفُ مِنْهُمْ ، أَوِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ بِمَا يُعَدُّ عِبَادَةً لَهُمْ ، كَمَا يَعْبُدُ الْيَزِيدِيَّةُ إِبْلِيسَ جَهْرًا بِدَعْوَى أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَتَّقُونَ شَرَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى . فَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ : (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) أَيْ قَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي التَّنَاسُبِ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَجَانِسَةِ وَالْمُتَشَاكِلَةِ ، أَنْ يَكُونَ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ هُمْ شِرَارُ الْجِنِّ أَوْلِيَاءَ لِشِرَارِ الْإِنْسِ ،

(168/267)

وَهُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ إِيمَانَ إِذْعَانٍ بِحَيْثُ يَهْتَدُونَ بِوَحْيِهِ وَيُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِعِبَادَتِهِ وَآدَابِهِ حَتَّى يَبْعُدَ التَّنَاسُبُ وَالتَّجَانُسُ بَيْنَهُمَا . فَهَذَا الْجَعْلُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا يَدَّعِيهِ الْجَبْرِيَّةُ ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ جَعَلَهُ خَارِجًا عَنْ نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَنَتَائِجِ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي تُسْنَدُ إِلَى مُكْتَسِبِيهَا بِاعْتِبَارِ صُدُورِهَا عَنْهُمْ ، وَإِلَى الْخَالِقِ تَعَالَى بِاعْتِبَارِ خَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِذَلِكَ فِي نِظَامِ الْكَوْنِ وَسُنَنِهِ ، وَقَدْ أَسْنَدَ هَذِهِ الْوِلَايَةَ إِلَى مُكْتَسِبِيهَا بِمُزَاوَلَةِ أَسْبَابِهَا فِي قَوْلِهِ الْآتِي قَرِيبًا :

(169/267)

(إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) (30) فَاكْتِسَابُ الْكُفَّارِ لِوِلَايَةِ الشَّيَاطِينِ بِاسْتِعْدَادِهِمْ لِقَبُولِ وَسْوَسَتِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ ، وَعَدَمِ احْتِرَاسِهِمْ مِنَ الْخَوَاطِرِ الْبَاطِلَةِ أَوِ الشِّرِّيرَةِ مِنْ لَمَمِهِمْ ، كَاكْتِسَابِ ضُعَفَاءِ الْبِنْيَةِ لِلْأَمْرَاضِ بِاسْتِعْدَادِهِمْ لَهَا ، وَعَدَمِ احْتِرَاسِهِمْ مِنْ أَسْبَابِهَا ، كَالْقَذَارَةِ وَتَنَاوُلِ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ الْفَاسِدَةِ أَوِ الْقَابِلَةِ لِلْفَسَادِ بِمَا فِيهَا مِنْ جَرَاثِيمِ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ – كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ آنِفًا – فَأَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ هُمْ أَصْحَابُ الْوَسَاوِسِ وَالْأَوْهَامِ وَالْخُرَافَاتِ وَالطُّغْيَانِ ، وَالْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ،

وَالْمُتَوَلُّونَ لِقُرَنَائِهِ مِنْ أَهْلِ الطَّاغُوتِ وَالدَّجَلِ وَالنِّفَاقِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ عِدَّةِ آيَاتٍ . وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ ، لَا بِطَاعَتِهِمْ فِي وَسْوَسَتِهِمْ فَقَطْ ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِيذُ بِهِمْ كَمَا يَسْتَعِيذُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (72 : 6) وَكَانُوا يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُعْطِفُهُمْ عَلَيْهِمْ فَيَمْنَعُ ضَرَرَهُمْ أَوْ يَحْمِلُهُمْ عَلَى نَفْعِهِمْ ، كَمَا يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمُ الدَّجَّالُونَ بِمَا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُعْطِفُهُمْ عَلَيْهِمْ فَيَمْنَعُ ضَرَرَهُمْ أَوْ يَحْمِلُهُمْ عَلَى نَفْعِهِمْ ، كَمَا يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمُ الدَّجَّالُونَ الْيَوْمَ بِالْبَخُورِ وَالْعَزَائِمِ

(170/267)

وَالِاسْتِغَاثَةِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِبَادَةٌ تَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (36 : 60 ، 61) وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ بَعْضَ الدَّجَّالِينَ يَتَقَرَّبُ إِلَى الشَّيَاطِينِ بِكِتَابَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَشَدِّهِ عَلَى عَوْرَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَأَسْفَلِهَا ، فَهَلْ يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ فِي مَصَالِحِهِ يَرْجُو مِنْهُ نَفْعًا أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَ الْإِنْسَ عَلَى الْجِنِّ وَجَعَلَهُمْ أَرْقَى مِنْهُمْ ، وَلَوْ كَانُوا يَرَوْنَ

الْمُكَلَّفِينَ مِنْهُمْ كَالشَّيَاطِينِ لِتَصَرَّفُوا فِيهِمْ كَمَا يَتَصَرَّفُونَ بِجِنَّةِ الْهَوَامِّ وَمَيْكُرُوبَاتِ الْأَمْرَاضِ – وِفَاقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ خَوْفَهُمْ مِنَّا أَشَدُّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْهُمْ – وَالْوَسْوَسَةُ مِنْهُمْ تَكُونُ عَلَى قَدْرِ اسْتِعْدَادِنَا لِقَبُولِهَا فَذَنْبُهَا عَلَيْنَا . وَمَا يَذْكُرُهُ النَّاسُ مِنْ ضَرَرِهِمْ وَصَرْعِهِمْ فَأَكْثَرُهُ كَذِبٌ وَدَجَلٌ وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

(171/267)

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) هَذَا بَيَانٌ لِبَعْضِ آثَارِ وِلَايَةِ الشَّيَاطِينِ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ، أَيْ إِنَّهُمْ يُطِيعُونَهُمْ فِي إِغْوَائِهِمْ فِي أَقْبَحِ الْأَشْيَاءِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِقُبْحِهَا .

(172/267)

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ : وَإِذَا فَعَلَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ ، قَبِيحًا مِنَ الْفِعْلِ وَهُوَ الْفَاحِشَةُ ، وَذَلِكَ تَعَرِّيهِمْ لِلطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَتَجَرُّدُهُمْ لَهُ فَعُذِلُوا عَلَى مَا أَتَوْا مِنْ قَبِيحِ فِعْلِهِمْ وَعُوتِبُوا عَلَيْهِ قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَى مِثْلِ مَا نَفْعَلُ آبَاءَنَا فَنَحْنُ نَفْعَلُ مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَنَقْتَدِي بِهِمْ وَنَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِمْ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهِ فَنَحْنُ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ فِيهِ اهـ .

وَالْفَاحِشَةُ : كُلُّ مَا عَظُمَ قُبْحُهُ ، وَفَسَّرَهَا هُوَ وَغَيْرُهُ هُنَا بِطَوَافِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا كَانُوا يَعْذِلُونَهُمْ وَيُقَبِّحُونَ فِعْلَتَهُمْ هَذِهِ كَانُوا يُجِيبُونَ بِهَذَا الْجَوَابِ ، وَمِمَّا رَوَاهُ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ : كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً يَقُولُونَ : نَطُوفُ كَمَا وَلَدَتْنَا أُمَّهَاتُنَا ، فَتَضَعُ الْمَرْأَةُ عَلَى قُبُلِهَا النِّسْعَةَ (أَيِ الْقِطْعَةَ مِنْ سُيُورِ الْجِلْدِ) أَوِ الشَّيْءَ فَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ . . . وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذِهِ الْفِعْلَةِ الْفَاحِشَةِ وَمَا رُوِيَ مِنْ شُبْهَتِهِمُ الشَّيْطَانِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ بِبَيْتِ رَبِّهِمْ فِي ثِيَابٍ عَصَوْهُ بِهَا وَبَيَّنَّا فَسَادَ هَذَا الْقَوْلِ .

(173/267)

فَأَمَّا اعْتِذَارُهُمْ بِالتَّقْلِيدِ فَقَدْ رَدَّهُ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ فِي مَوَاضِعَ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالْمَائِدَةِ . وَقَالَ مُفَسِّرُو الْمُتَكَلِّمِينَ كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَالْبَيْضَاوِيِّ وَالرَّازِيِّ : إنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُجِبْ عَنْ هَذِهِ الْحُجَّةِ وَهِيَ مَحْضُ التَّقْلِيدِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي الْعُقُولِ مِنْ أَنَّهُ طَرِيقَةٌ فَاسِدَةٌ لِأَنَّ التَّقْلِيدَ حَاصِلٌ فِي الْأَدْيَانِ الْمُتَنَاقِضَةِ ، فَلَوْ كَانَ حَقًّا لَزِمَ الْقَوْلُ بِحَقِّيَّةِ الْأَدْيَانِ الْمُتَنَاقِضَةِ ، وَهُوَ مُحَالٌ . فَلَمَّا كَانَ

فَسَادُ هَذَا الطَّرِيقِ ظَاهِرًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى الْجَوَابَ عَنْهُ ، هَذَا تَقْرِيرُ الرَّازِيِّ ، وَقَوْلُهُ بِفَسَادِ التَّقْلِيدِ وَكَوْنُهُ حُجَّةً دَاحِضَةً فِي نَظَرِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ صَحِيحٌ . وَلَكِنَّ زَعْمَهُ أَنَّ هَذَا سَبَبٌ

(174/267)

لِعَدَمِ الرَّدِّ غَيْرُ صَحِيحٍ ؛ فَقَدْ رَدَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (2 : 170) وَالصَّوَابُ أَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنِ الرَّدِّ الصَّحِيحِ هُنَا بِرَدِّ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْمُتَضَمِّنُ لِلرَّدِّ عَلَيْهِ وَبَيَانِ بُطْلَانِهِ وَهُوَ زَعْمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِتِلْكَ الْفَحْشَاءِ الَّتِي وَجَدُوا عَلَيْهَا آبَاءَهُمْ ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَدْحَضَهُ بِقَوْلِهِ لَهُمْ : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فَهَذَا الْقَوْلُ تَكْذِيبٌ لَهُمْ مِنْ

طَرِيقَيِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَتَقْرِيرُهُ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَا خِلَافَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَنَا فِي أَنَّهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ أَيْ أَقْبَحِ الْقَبَائِحِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ بِكَمَالِهِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا شَائِبَةَ لِلنَّقْصِ فِيهِ أَنْ يَأْمُرَ بِالْفَحْشَاءِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَأْمُرُ بِهَا هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي هُوَ مَجْمَعُ النَّقَائِصِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) (2 : 268) وَهَذَا حُجَّةٌ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلِيَّ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَجْلِ مُخَالَفَةِ مَنْ تَوَسَّعُوا فِي تَحْكِيمِ الْعَقْلِ فِي ذَلِكَ ، وَأَمَّا طَرِيقُ النَّقْلِ فَهُوَ أَنَّ مَا يُسْنَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ لَا يَثْبُتُ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ بِوَحْيٍ مِنْهُ تَعَالَى إِلَى رَسُولٍ مِنْ عِنْدِهِ ثَبَتَتْ رِسَالَتُهُ

(175/267)

بِتَأْيِيدِهِ تَعَالَى لَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فَالِاسْتِفَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) لِلْإِنْكَارِ الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّوْبِيخِ ، وَلِلرَّدِّ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ فَإِنَّهُمْ بِاتِّبَاعِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ وَشُيُوخِهِمْ فِي آرَائِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ غَيْرِ الْمُسْنَدَةِ إِلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ .

(176/267)

وَبَعْدَ أَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ النَّقْلِيِّ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ السَّلْبِ وَالنَّفْيِ ، تَوَجَّهَتِ الْأَنْفُسُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَأْمُرُ بِهِ تَعَالَى مِنْ مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالْخِصَالِ فَبَيَّنَهُ بِطَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ . قَائِلًا لِرَسُولِهِ : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) أَيِ الْعَدْلِ وَالِاعْتِدَالِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، وَهُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ فِيهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ لَفْظًا وَمَعْنًى فِي سُورَتَيِ النِّسَاءِ وَالْمَائِدَةِ ، وَالْوَسَطُ فِي اللِّبَاسِ الَّذِي يُعْبَدُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنْ يَكُونَ حَلَالًا نَظِيفًا لَائِقًا بِحَالِ لَابِسِهِ فِي النَّاسِ ، لَا ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي تَفْرِيطِ التَّبَذُّلِ ، وَلَا فِي إِفْرَاطِ التَّطَرُّسِ . وَسَيَأْتِي الْأَمْرُ بِأَخْذِ الزِّينَةِ عِنْدَ الْمَسَاجِدِ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ وَقُدِّمَ عَلَيْهِ هُنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِفِقْهِ الْعِبَادَةِ وَلُبَابِهَا ، الدَّالُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِهَا . وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ

فَأَقْسِطُوا وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ - أَوْ وَقُلْ لَهُمْ : أَقِيمُوا إِلَخْ .

إِقَامَةُ الشَّيْءِ : إِعْطَاؤُهُ حَقَّهُ وَتَوْفِيَتُهُ شُرُوطَهُ كَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِقَامَةِ الْوَزْنِ بِالْقِسْطِ .

وَالْوَجْهُ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ – فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) مِنَ الْأَوَّلِ ، وَقَوْلُهُ : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا 30 : 30) مِنَ الثَّانِي . وَالْمُرَادُ بِهِ تَوَجُّهُ الْقَلْبِ وَصِحَّةُ الْقَصْدِ ؛ فَإِنَّ الْوَجْهَ يُطْلَقُ عَلَى الذَّاتِ ، وَمَا هُنَا مِنَ الثَّانِي وَإِنْ وَرَدَ عَنْ بَعْضِهِمْ تَفْسِيرُهُ بِالْأَوَّلِ أَيْضًا ، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ بِمَعْنَى التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ أَيْنَمَا كَانَ . وَالْمَعْنَى أَعْطُوا تَوَجُّهَكُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ تَعْبُدُونَهُ فِيهِ حَقَّهُ مِنْ صِحَّةِ النِّيَّةِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ وَصَرْفِ الشَّوَاغِلِ ، سَوَاءٌ كَانَتِ الْعِبَادَةُ طَوَافًا أَوْ صَلَاةً أَوْ ذِكْرًا أَوْ فِكْرًا – وَادْعُوهُ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، بِأَلَّا تَشُوبُوا دُعَاءَكُمْ وَلَا غَيْرَهُ مِنْ عِبَادَتِكُمْ لَهُ بِأَدْنَى شَائِبَةٍ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ التَّوَجُّهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُكَرَّمِينَ ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالصَّالِحِينَ ، وَلَا إِلَى مَا وُضِعَ لِلتَّذْكِيرِ بِهِمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْقُبُورِ وَغَيْرِهَا – وَلَا مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ وَهُوَ الرِّيَاءُ وَحُبُّ إِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَى عِبَادَتِكُمْ وَالثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ بِهَا وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِكُمْ فِيهَا . وَكَانُوا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ مَعَهُ زَاعِمِينَ أَنَّ الْمُذْنِبَ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ وَيُقِيمَ وَجْهَهُ لَهُ حَنِيفًا ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ الطَّاهِرِينَ الْمُكَرَّمِينَ لِيَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَهُ

(178/267)

وَيُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَهَذَا مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ ، وَشُبْهَتُهُمْ فِيهِ كَشُبْهَتِهِمْ فِي عَدَمِ الطَّوَافِ فِي ثِيَابٍ عَصَوْهُ فِيهَا ، وَجَعْلُهُمْ هَذَا وَذَاكَ مِنَ الدِّينِ وَنِسْبَتُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ وَقَوْلٌ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِمَّا أَوْحَاهُ إِلَى رُسُلِهِ ، وَإِنَّمَا أَوْحَى إِلَيْهِمْ مَا نَطَقَتْ بِهِ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِالْأَمْرِ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ ، وَالْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ - كَمَا أَمَرَ بِأَخْذِ الزِّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَجَعَلَ الظَّاهِرَ عُنْوَانًا لِلْبَاطِنِ فِي طَهَارَتِهِ وَحُسْنِهِ مِنْ غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا تَكَلُّفٍ ، وَهُوَ مُقْتَضَى تَحَرِّي الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ فِي كُلِّ أَمْرٍ .

(كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) هَذَا تَذْكِيرٌ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَدَعْوَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ فِي إِثْرِ بَيَانِ أَصْلِ الدِّينِ وَمَنَاطِ الْأَمْرِ فِيهِ وَالنَّهْيِ الْوَارِدِ فِي سِيَاقِ أَصْلِ تَكْوِينِ الْبَشَرِ ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَمَا لِلشَّيْطَانِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِغْوَاءِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَعَدَمِ سُلْطَانِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ . وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ أَبْلَغِ الْكَلَامِ الْمُعْجِزِ ، فَإِنَّهَا دَعْوَى مُتَضَمِّنَةٌ لِلدَّلِيلِ بِتَشْبِيهِ الْإِعَادَةِ بِالْبَدْءِ فَهُوَ يَقُولُ :

كَمَا بَدَأَكُمْ رَبُّكُمْ خَلْقًا وَتَكْوِينًا بِقُدْرَتِهِ تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - حَالَةَ كَوْنِكُمْ فَرِيقَيْنِ - فَرِيقًا هَدَاهُمْ فِي الدُّنْيَا بِبَعْثِهِ الرُّسُلَ ، فَاهْتَدَوْا بِإِيمَانِهِمْ بِهِ وَإِقَامَةِ وُجُوهِهِمْ لَهُ وَحْدَهُ فِي الْعِبَادَةِ ، وَدُعَائِهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ أَحَدًا وَلَا شَيْئًا - وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ لِاتِّبَاعِهِمْ إِغْوَاءَ الشَّيْطَانِ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَكُلُّ فَرِيقٍ يَمُوتُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وَمَعْنَى حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ : ثَبَتَتْ بِثُبُوتِ أَسْبَابِهَا الْكَسْبِيَّةِ ، لَا أَنَّهَا جُعِلَتْ غَرِيزَةً لَهُمْ فَكَانُوا مَجْبُورِينَ عَلَيْهَا ، يَدُلُّ عَلَى هَذَا تَعْلِيلُهَا عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(180/267)

(إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) عَادَ هُنَا إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِضَمِيرِ الْغَائِبِينَ بَعْدَ انْتِهَاءِ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولَ مِنْ خِطَابِ الْمُحْتَجِّينَ مِنْهُمْ بِمَا يُبْطِلُ حُجَّتَهُمُ الَّتِي حَكَاهَا عَنْهُمْ - وَمَعْنَى اتِّخَاذِهِمُ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا يُزَيِّنُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، كَأَنَّهُمْ وَلَّوْهُمْ أُمُورَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فِيمَا تُلَقِّنُهُمُ الشَّيَاطِينُ مِنَ الشُّبُهَاتِ ، كَجَعْلِ التَّوَجُّهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَالتَّوَسُّلِ بِهِ إِلَيْهِ فِي

الدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ تَعَالَى زُلْفَى ، وَجَعْلِ الرَّبِّ تَعَالَى كَالْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ الظَّالِمِينَ ، لَا يَقْبَلُ عِبَادَةَ عَبْدِهِ الْمُذْنِبِ إِلَّا بِوَاسِطَةِ بَعْضِ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ . كَالْمَلِكِ الْجَاهِلِ مَعَ وُزَرَائِهِ وَحُجَّابِهِ وَأَعْوَانِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذُكِرَ آنِفًا مِنْ شُبُهَاتِهِمْ عَلَى طَوَافِهِمْ عُرَاةً ، وَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ .

(181/267)

وَأَكْثَرُ مَنْ ضَلَّ مِنَ الْبَشَرِ فِي الِاعْتِقَادِيَّاتِ وَالْعَمَلِيَّاتِ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَأَقَلُّ الْكُفَّارِ الْجَاحِدُونَ لِلْحَقِّ كِبْرًا وَعِنَادًا كَأَعْدَاءِ الرُّسُلِ فِي عُصُورِهِمْ ، وَحَاسِدِيهِمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَكَرَّمَهُمْ بِهِ عَلَيْهِمْ ، كَمَا حَسَدَ إِبْلِيسُ آدَمَ وَاسْتَكْبَرَ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ فِرْعَوْنُ وَالْمَلَأُ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27 : 14) وَمِنْهُمْ كُبَرَاءُ طَوَاغِيتِ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَالنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَالْأَخْنَسِ بْنِ شُرَيْقٍ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (6 : 33) وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ فَضَالُّونَ بِالتَّقْلِيدِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، أَوْ بِالنَّظَرِيَّاتِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(18 : 103 ، 104) وَلَوْ كَانَ التَّقْلِيدُ عُذْرًا مَقْبُولًا لَكَانَ أَكْثَرُ كُفَّارِ الْأَرْضِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ مَعْذُورِينَ نَاجِينَ كَالْمُؤْمِنِينَ .

(182/267)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ التَّقْلِيدَ قَدْ أَضَلَّ الْأُلُوفَ الَّتِي لَا تُحْصَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ صَدَقَ عَلَيْهِمُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ " لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ " فَتَرَكُوا هِدَايَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسِيرَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَاتَّبَعُوا الْبِدَعَ الْمُسْتَحْدَثَةَ ، فَإِذَا دَعَوْا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ قَالُوا : قَالَ الشَّيْخُ فُلَانٌ ، وَفَعَلَ الْوَلِيُّ الصَّالِحُ فُلَانٌ ، وَهَؤُلَاءِ أَعْلَمُ وَأَهْدَى مِنَّا بِالسُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ . وَإِنَّمَا

أَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ وَنَهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَمَا أَضْيَعَ الْبُرْهَانُ عِنْدَ الْمُقَلِّدِ

وَأَمَّا أَهْلُ النَّظَرِ فَمِنْهُمْ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ الرَّسُولِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ ، وَفِي كُلٍّ مِنْهُمْ مَنْ يَبْحَثُ عَنِ الْحَقِّ لِيَتَّبِعَهُ وَمَنْ لَمْ يَبْحَثْ .

ذَهَبَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى أَنَّ مَنْ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي النَّظَرِ وَالْبَحْثِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْحَقِّ فَاتَّبَعَ مَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ بِحَسَبِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ طَاقَتُهُ وَكَانَ مُخَالِفًا فِي شَيْءٍ مِنْهُ لِمَا

جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ لَا يَدْخُلُ فِي مَدْلُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا ، بَلْ يَكُونُ مَعْذُورًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْلِهِ : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا) (2 : 286) . وَقَدِ اشْتَرَطُوا

(183/267)

فِي حُجِّيَّةِ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ كَوْنَهَا عَلَى وَجْهٍ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْحُجَّةِ يُحَرِّكُ إلَى النَّظَرِ فِيهَا ، وَإِلَّا فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ كُلِّ مَا يَبْلُغُهُ مِنْ أَمْرِ الْأَدْيَانِ وَلَا سِيَّمَا إذَا بَلَغَهُ بِصُورَةٍ مُشَوَّهَةٍ تَدْعُو إلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَاتِّقَاءِ إضَاعَةِ الْوَقْتِ فِي النَّظَرِ فِيهَا ، وَيَزْعُمُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ قَدْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ عَلَى وَجْهِهَا ، وَمَا أَجْهَلَهُمْ بِحَالِ الْعَصْرِ وَأَهْلِهِ وَبِالدَّعْوَةِ وَأَدِلَّتِهَا ، عَلَى أَنَّهُمْ تَرَكُوهَا مُنْذُ قُرُونٍ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا جَهِلُوهَا .

(184/267)

قَالَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِ : (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ دَاخِلٌ مَعَهُ فِي حَيِّزِ التَّعْلِيلِ أَوِ التَّأْكِيدِ ، وَلَعَلَّ الْكَلَامَ مِنْ قَبِيلِ "بَنُو فُلَانٍ قَتَلُوا فُلَانًا " وَالْأَوَّلُ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ

هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى ، شَامِلٌ لِلْمُعَانِدِ وَالْمُخْطِئِ ، وَالثَّانِي مُخْتَصٌّ بِالثَّانِي ، وَهُوَ صَادِقٌ عَلَى الْمُقَصِّرِ فِي النَّظَرِ وَالْبَاذِلِ غَايَةَ الْوُسْعِ فِيهِ . وَاخْتُلِفَ فِي تَوَجُّهِ الذَّمِّ عَلَى الْأَخِيرِ وَخُلُودِهِ فِي النَّارِ ، وَمَذْهَبُ الْبَعْضِ أَنَّهُ مَعْذُورٌ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ أَصْلًا وَمَنْ لَهُ عَقْلٌ لَمْ يُدْرِكْ بِهِ الْحَقَّ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَدَعْ فِي الْقَوْسِ مَنْزَعًا فِي طَلَبِهِ ، فَحَيْثُ يُعْذَرُ الْأَوَّلُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، يُعْذَرُ الثَّانِي لِذَلِكَ . وَلَا يَرَوْنَ مُجَرَّدَ الْمَالِكِيَّةِ وَإِطْلَاقَ التَّصَرُّفِ حُجَّةً . وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْتِزَامُ أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ مُعَانِدٍ بَعْدَ الْبَعْثَةِ وَظُهُورِ أَمْرِ الْحَقِّ كَنَارٍ عَلَى عَلَمٍ – وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا الْيَوْمَ كَافِرٌ مُسْتَدِلٌّ – مِمَّا لَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ إِلَّا مُسْلِمٌ مُعَانِدٌ ، أَوْ مُسْتَدِلٌّ بِمَا هُوَ أَوْهَى مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ . وَإِنَّهُ لَأَوْهَنُ الْبُيُوتِ . وَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ الْمُعَانِدُ وَمِنَ الْمَعْطُوفِ الْمُخْطِئُ ، وَالظَّاهِرُ مَا قُلْنَا اهـ .

(185/267)

هَذَا وَإِنَّ الْمَعْذُورَ فِي الْخَطَأِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللهِ كَالْمُصِيبِ ، وَإِنَّ الَّذِي يَتَحَرَّى الْحَقَّ الْمَرْضِيَّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى الْمُنَجِّي فِي الْآخِرَةِ ، لَا بُدَّ أَنْ يُعْرَفَ بِإِخْلَاصِهِ فِي النَّظَرِ وَاجْتِهَادِهِ فِي الطَّلَبِ كَثِيرًا مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَمَعْرِفَتُهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ كَانَ أَجْدَرَ النَّاسِ بِقَبُولِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ إِذْ بَلَغَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا ؛ لِأَنَّهُ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا كَانَ فِي

نَظَرِهِ عَلَى هَوًى . وَيَتَفَاوَتُ هَؤُلَاءِ الْمُجْتَهِدُونَ الْمُخْطِئُونَ بِتَفَاوُتِ حُظُوظِهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ ، وَمَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَاجْتِنَابِ ضِدِّهِ ، إذْ بِذَلِكَ تَتَزَكَّى الْأَنْفُسُ ، وَالْمَدَارُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى تَزْكِيَتِهَا وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ التَّفْسِيرِ بِمَا هُوَ أَوْسَعُ مِمَّا هُنَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 337.318 ﴾

(186/267)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلَّغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فَرِيقاً هدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة . وقوله الحق ﴿ فَرِيقاً هدى ﴾ أي هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغّضه في المعصية ، وأعانه على مهمته . أما الذي تأبّى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه في غيّه ويخلي بينه وبين

الضلالة ، ولو أراده مهديًا لما استطاع أحد أن يغير من ذلك . وسبحانه منزه عن التجني على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ . . . إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30]

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أمّا من يقول إنها هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصي أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصي حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله . ﴿ . . . وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30]

(187/267)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية في الفعل . وهذا الأمر يشيع في معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسي ، فتدخل في زمرة المعصية ، ولا تدخل في زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ،

ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال ! ! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع في الكفر ، ارباً بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدَّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(188/267)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ قال : بالعدل ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل

مسجد ﴾ قال : إلى الكعبة حيث صليتم في كنيسة أو غيرها ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : شقي أو سعيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ يقول : اخلصوا له الدين كما بدأكم في زمان آدم حيث فطرهم على الإِسلام يقول : فادعوه كذلك لا تدعوا لها غيره وأمرهم أن يخلصوا له الدين والدعوة والعمل ، ثم يوجهوا وجوههم إلى البيت الحرام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون . . . ﴾ الآية . قال : إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ، كما قال ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً .

وأخرج ابن جرير عن جابر في الآية قال : يبعثون على ما كانوا عليه ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : من ابتدأ الله خلقه على الهدى والسعاده صيره إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، كما فعل بالسحرة ابتدأ خلقهم على الهدى والسعادة حتى توفاهم مسلمين ، وكما فعل بإبليس ابتدأ خلقه على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله إلى ما ابتدأ خلقه عليه من الكفر . قال الله تعالى ﴿ وكان من الكافرين ﴾ [البقرة : 34] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ يقول : كما خلقناكم أول مرة كذلك تعودون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : كما بدأكم ولم تكونوا شيئاً فأحياكم ، كذلك يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : خلقهم من التراب وإلى التراب يعودون . قال : وقيل في الحكمة : ما فخر من خلق من التراب وإلى التراب يعود ، وما تكبر من هو اليوم حي وغداً يموت ، وأن الله وعد المتكبرين أن يضعهم ويرفع المستضعفين . فقال ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه : 55] ثم قال ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : إن تموتوا يحسب المهتدي أنه على هدى ويحسب الغني أنه على هدى ، حتى يتبين له عند الموت وكذلك تبعثون يوم القيامة .

وذلك قوله ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : كما كتب عليكم تكونون ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن عمر بن أبي معروف قال : حدثني رجل ثقة في قوله ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : قلفاً بظرا .

(190/267)

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن وهب العبدي . أن تأويل هذه الآية ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ تكون في آخر هذه الأمة .

وأخرج البخاري في الضعفاء عن عبد الغفور بن عبد العزيز بن سعيد الأنصاري عن أبيه عن جده " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى يمسخ خلقاً كثيراً ، وإن الإنسان يخلو بمعصيته فيقول الله تعالى استهانة بي ، فيمسخه ثم يبعثه يوم القيامة إنساناً

يقول ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ ثم يدخله النار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(191/267)

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

2 - ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإِضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر .

3 - ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بين ﴿ ثَقُلَتْ ﴾ و ﴿ خَفَّتْ ﴾ طباقٌ وكذلك بين ﴿ بَيَاتاً ﴾ و ﴿ قَآئِلُونَ ﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿ قَآئِلُونَ ﴾ معناه نهاراً وقت الظهيرة .

4 - ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم .

5 - ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية

الموصلإلى جنان النعيم .

6 - ﴿ وَيَآءَادَمُ ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم .

7 - ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ عبَّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها .

8 - ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا ﴾ أكد الخبر بالقسم وبإِنَّ واللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب الذي يسمى " إنكارياً " لأن السامع متردّد .

9 - ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾ بين الجملتين طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 442 ﴾

(192/267)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في نصب " فريقاً " وجهان :

أحدهما : أَنَّهُ مَنْصُوبٌ بـ " هَدَى " بعده ، و " فريقاً " الثَّانِي منصوب بإضمار فعل يفسِّرهُ قوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ من حيثُ المعنى والتَّقديرُ : وأضلَّ فريقاً حقّ عليهم .

[قال القُرْطُبِيُّ : وأنشد سيبويه : [المنسرح]

2452 - أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاحَ وَلاَ . . .

أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

والذِّئْبُ أَخْشَاهُ إِذْ مَرَرْتُ بِهِ . . .

وَحْدِي وأَخْشَى الرِّيَاحَ والمَطَرَا

قال الفرَّاءُ : ولو كان مرفوعاً لجاز] ، وقدَّره الزمخشريُّ : " وخذل فريقاً " لأجل مَذْهَبِهِ .

والجملتان الفعليتان في محلِّ نصب على الحال من فاعل " بَدَأَكُمْ " أي : بَدَأَكُم حال كَوْنِهِ هادياً فريقاً ومُضِلاًّ آخر .

و " قد " مضمرة عند بعضهم ، ويجوزُ على هذا الوجه أيضاً أن تكون الجملتان الفعليَّتان مستأنفتَيْنِ ، فالوقف على " يعودون " على هذا الإعراب تام ، بخلاف ما إذا جعلتهما حالين ، فالوقف على قوله : " الضَّلالة " .

الوجه الثاني : أن ينتصب " فريقاً " على الحال من فاعل " تَعُودُونَ " [أي : تعودون] فريقاً مَهْدِيّاً ، وفريقاً حاقّاً عليه الضلاة ، وتكون الجملتان الفعليَّتان على هذا في محل نصب على النَّعت لـ " فريقاً " و " فريقاً " ، ولا بدَّ حينئذٍ من حذف عائدٍ على الموصوف من " هدى " أي : فريقاً هداهم ، ولو قدَّرته " هَدَاهُ " بلفظ الإفراد لجاز ، اعتباراً بلفظ " فَرِيق " ، إلاَّ أنَّ الأوَّل أحسن لمناسبة قوله : ﴿ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ﴾ ، والوقف حينئذ على قوله ، " الضَّلالَةُ " ، ويؤيِّد إعرابه حالاً قراءة أبي بن كعب : " تعُودُون فريقين : فريقاً هدى ، وفريقاً

حقَّ عليهم الضَّلالة " فـ " فريقين " نُصب على الحَالِ ، و" فريقاً " وفريقاً بدل ، أو منصوب بإضمار أعني على القطع ، ويجوز أن ينتصب " فريقاً " الأول على الحال من فاعل " تعودون " و" فريقاً " الثاني نصب بإضمار فعل يفسره ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ كما تقدَّم تحقيقه في كل منهما .

وهذه الأوجه كلها ذكرها ابن الأنباري ، فإنَّهُ قال كلاماً حسناً ،

(193/267)

قال - رحمه الله - : " انتصب فريقاً وفريقاً على الحال من الضَّميرِ الذي في " تعودون " ، يريدُ : تعودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين ، بعضكم أشْقِيَاء وبعضكم سعداء ، فاتصل " فريقٌ " وهو نكرة بالضَّمِير الذي في " تَعُودُونَ " وهو معرفة فقُطِع عن لَفْظِهِ ، وعُطف الثاني عليه " .

قال : " ويجوز أن يكون الأوَّل منصوباً على الحال من الضَّمير ، والثاني منصوبٌ بـ ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ ؛ لأنَّهُ بمعنى أضلَّهم ، كما يقول القائل " عبد الله أكرمته ، وَزَيْداً أحسنت إليه " فينتصب زيداً بـ " أحْسَنْتُ إلَيْه " بمعنى نَفَعْتَه ؛ وأنشد : [الوافر]

2453 - أثَعْلَبَةَ الفَوَارِسِ أمْ رِيَاحاً . . .

عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابَا

نصب ثعلبة بـ " عدلت بهم طهية " ؛ لأنه بمعنى أهَنْتَهم أي : عدلت بهم من هو دُونَهُم ،

وأنشد أيضاً قوله : [الكامل]

2454 - يَا لَيْتَ ضَيْفَكُمُ الزُّبَيْرَ وَجَارَكُمْ . . .

إيَّايَ لَبَّسَ حَبْلَهُ بِحِبَالِي

فنصب " إيَّاي " بقوله : لَبَّس حبله بحبالي ، إذ كان معناه خالطني وقصدني .

قال شهابُ الدِّين : يريدُ بذلك أنَّهُ منصوبٌ بفعلٍ مقدر من معنى الثاني لا من لفظه ، هذا وجه التَّنْظِير .

وإلى كون " فَرِيقاً " منصوباً بـ " هَدَى " و " فريقاً " منصوباً بـ " حقَّ " ذهب الفراء ، وجعله نظير قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الإنسان : 31] .

(194/267)

قوله : " إنَّهُمُ اتَّخَذُوا " جار مجرى التَّعليل ، وإنْ كان استئنافاً لفظاً ، ويدلُّ على ذلك قراءة عيسى بن عمر ، والعبّاس بن الفضل ، وسهل بن شعيب " أَنَّهُمُ " بفتح الهمزة ، وهي نص في

العِلّيّة أي : حَقَّتْ عليهم الضلالة لاتّخاذهم الشياطين أولياء ، ولم يُسند الإضلال إلى ذَاتِهِ المقدَّسَةِ ، وإن كان هو الفاعل لها تَحْسِيناً للفظ وتعليماً لعباده الأدَبِ ، وعليه : ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ [النحل : 9] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 85.86 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

من كانت قِسمتُه – سبحانه – له بالسعادة كانت فطرته على السعادة ، وكانت حالته بنعت السعادة ، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة ، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان بحالةٍ لقي الله بها " .

وجملة العلم بالقضاءِ والقَدَرِ أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون ، وأراد أن يكون كما علم . وما علم ألا يكون – مما جاز أن يكون أراده ألا يكون – أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذي أخبر ، وقضى على العبد وقدَّر أجرى عليه ما سبق به الحكم ، وعلى ما

قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 529.530 ﴾

(195/267)

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾

أي أقسم لهما على ذلك ، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة . وقيل أقسما له بالقبول . وقيل أقسما عليه بالله أنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة .

﴿ فدلاهما ﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ، نبه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة ، فإن التدلية والإِدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظناً أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً ، أو ملتبسين بغرور .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُما ﴾ أي فلما وجدا طعمهما آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية ، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما .

واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما ، وأن اللباس كان نوراً أو حلة أو

ظفراً . ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة . ﴿ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ قيل كان ورق التين ، وقرىء ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويخصفان وأصله يختصفان . ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ عتاب على مخالفة النهي ، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو . وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم .

﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة . ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر . وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك قالوا : إنما قالا ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات .

(196/267)

﴿ قَالَ اهبطوا ﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو لهما ولإبليس . كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ في موضع الحال أي متعادين . ﴿ وَلَكُمْ فِى الأرض مُسْتَقَرٌّ ﴾ استقرار أي موضع استقرار . ﴿ ومتاع ﴾ وتمتع . ﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى أن تقضى آجالكم .

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ للجزاء وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ﴿ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ ، وفي "الزخرف" كذلك ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بفتح التاء وضم الراء .

﴿ يا بنى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الانعام ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد ﴾ ﴿ يوارى سَوْآتِكُمْ ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها ، ويغنيكم عن خصف الورق . روي : أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فنزلت . ولعله ذكر قصة آدم مقدمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان ، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم . ﴿ وَرِيشًا ﴾ ولباساً تتجملون به ، والريش الجمال . وقيل مالاً ومنه تريش الرجل إذا تمول . وقرىء "رياشاً" وهو جمع ريش كشعب وشعاب . ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ خشية الله . وقيل الإيمان . وقيل السمت الحسن . وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء وخبره : ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ أو خبر وذلك صفته كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير . وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ لِبَاساً ﴾ . ﴿ ذلك ﴾ أي إنزال اللباس . ﴿ مِنْ آيات الله ﴾ الدالة على فضله ورحمته . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح .

﴿ يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾ لا يمتحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم . ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها ، والنهي في اللفظ للشيطان ، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به . ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوآتِهما ﴾ حال من ﴿ أَبَوَيْكُم ﴾ أو من فاعل ﴿ أَخْرَجَ ﴾ وإسناد النزع إليه للتسبب . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ تعليل للنهي وتأكيد للتحذير من فتنته ، وقبيله جنوده ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب ، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سولوا لهم . والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف . ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءابَاءنَا والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه وتعالى ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ورد الثاني بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر

بمحاسن الأفعال ، أو الحث على مكارم الخصال . ولا دلالة عليه على أن أقبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه آجلاً عقلي ، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم . وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لما فعلوها : لم فعلتم ؟ فقالوا : وجدنا عليها آباءنا . فقيل ومن أين أخذ آباؤكم ؟ فقالوا : الله أمرنا بها . وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى .

(198/267)

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ بالعدل وهو الوسط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط . ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها ، أو أقيموها نحو القبلة . ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة ، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم . ﴿ وادعوه ﴾ واعبدوه . ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم . ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ كما أنشأكم ابتداء . ﴿ تَعُودُونَ ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة ، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها . وقيل كما

بدأكم من التراب تعودون إليه . وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون . وقيل كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم .

﴿ فَرِيقًا هدى ﴾ بأن وفقهم للإيمان . ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ بمقتضى القضاء السابق . وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً . ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله ﴾ تعليل لخذلانهم أو تحقيق لضلالهم . ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يدل على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء في استحقاق الذم ، وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 12.16 ﴾

(199/267)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) ﴾

الفاحشة : ما تبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب .

قال أكثر المفسرين : هي طواف المشركين بالبيت عراة .

وقيل هي الشرك ، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً ، والمعنى : أنهم إذا فعلوا ذنباً قبيحاً متبالغاً في القبح ، اعتذروا عن ذلك بعذرين : الأوّل : أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة ، والثاني : أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه .

وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد ، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوّغ لهم فعله ، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء ، بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتهما ، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش ، ولهذا ردّ الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفحشاء ﴾ فكيف تدّعون ذلك عليه سبحانه ، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه ، فقال : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وهو من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ، وفيه من التقريع والتوبيخ أمر عظيم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كل شيء ، فكيف إذا كان في التقوّل على الله ؟

(200/267)

وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] والقائلون ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءابَاءنَا والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه ، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية ، والنصراني على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية ، والنصرانية ، أو البدعية ، وأحسنوا الظنّ بهم ، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب ، وبحثوا عن دين الله كما ينبغي ، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص ، فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير ، من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشرّ بالخير ، والصحيح بالسقيم ، وفاسد الرأي بصحيح الرواية ، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه ونهى عن مخالفته فقال : ﴿ وَمَا آتَاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعدّدون بعدد أهل الرأي المكلفين للناس بما لم

يكلفهم الله به .

وإن من أعجب الغفلة ، وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ، ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذونهما عنه ، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم .

(201/267)

قوله : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ القسط : العدل ، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل ، لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء .

وقيل القسط هنا هو : لا إله إلا الله ، وفي الكلام حذف ، أي قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه .

قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ معطوف على المحذوف المقدّر ، أي توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم ، أو في كل وقت سجود ، أو في كل مكان سجود ، على أن المراد بالسجود : الصلاة ﴿ وادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء ، أو العبادة له .

وقيل : وحدوه ولا تشركوا به .

قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الكاف : نعت مصدر محذوف .

وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله .

والمعنى : كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم ، فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وقيل : كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء ، فيكون مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] .

وقيل : كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب ﴿ فَرِيقًا هدى ﴾ منتصب بفعل يفسره ما بعده .

وقيل : منتصب على الحال من المضمر في تعودون ، أي تعودون فريقين : سعداء وأشقياء ، ويقويه قراءة أبيّ "فريقين فريقا هدى" ، والفريق الذي هداه الله هم : المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذي حقت عليه الضلالة : هم الكفار .

قوله : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله ﴾ تعليل لقوله : ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ أي ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله ، ومع هذا فإنهم ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة ، وهذا أشدّ في تمرّدهم وعنادهم .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾ قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فنهوا عن ذلك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السدي مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة في الآية قال : والله ما أكرم الله عبداً قط على معصيته ، ولا رضيها له ولا أمر بها ، ولكن رضي لكم بطاعته ، ونهاكم عن معصيته ، وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد ، في قوله : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ قال : بالعدل ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ قال : إلى الكعبة حيثت صليتم في كنيسة أو غيرها ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ قال : شقي وسعيد .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الآية قال : إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِن ﴾ [التغابن : 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً .

وأخرج ابن جرير ، عن جابر في الآية قال : يبعثون على ما كانوا عليه المؤمن على إيمانه

والمنافق على نفاقه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، عنه أنه ذكر القدرية فقال : قاتلهم الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، أيضاً في الآية : يقول كما خلقناكم أوّل مرّة كذلك تعودون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(203/267)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

سورة الأعراف

مكية ، غير ثمان آيات : واسئلهم عن القرية ، إلى : وإذ نتقنا الجبل وهي مائتان وست آيات

[نزلت بعد ص] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعراف (7) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

كِتابٌ خبر مبتدأ محذوف ، أى هو كتاب . وأُنْزِلَ إِلَيْكَ صفة له . والمراد بالكتاب السورة فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ أى شك منه « 1 » ، كقوله فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ

---

(1) . قال محمود : «الحرج : الشك . . . الخ» قال أحمد : ويشهد له قوله تعالى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح ، بأن «العقد» ربط الفكر بمعتقد . و«الاعتقاد» افتعال منه ، والعلم يشعر بانحلال العقود وهو الانشراح والتبلج والثقة . وما أحسن تنبيه بقوله : والاعتقاد افتعال منه .

يريد : إذا كان العقد مبايناً للعلم ، فما ظنك بالاعتقاد ، لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى . ومنه الاعتماد والاحتمال .

ومن ثم ورد في الخبر «كسب» وفي نقيضه «اكتسب» لأن النفوس في الشهوات والمخالفات واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات وقمع الأغراض ، وعلى ذلك جاء لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ وإن كان «العلم» من «الأعلم» المأخوذ من «العلمة» بالتحريك ، وهي انشراح الشفة وانشقاقها ، فالذي ذكره الامام حينئذ نهاية في نوعه ، والله الموفق .

(204/267)

وسمى الشك حرجاً ، لأن الشاك ضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه . أى لا تشك في أنه منزل من اللّه ، ولا تحرج من تبليغه «1» لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم ، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمّنه اللّه ونهاه عن المبالاة بهم . فإن قلت : بم تعلق قوله لِتُنْذِرَ ؟ قلت : بأنزل ، أى أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهى ، لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم ، وكذلك إذا أيقن أنه من عند اللّه شجعه اليقين على الإنذار ، لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه ، متكل على عصمته . فإن قلت : فما محل ذكرى ؟ قلت : يحتمل الحركات الثلاث . والنصب بإضمار فعلها . كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيرا لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفاً على كتاب ، أو بأنه خبر مبتدإ محذوف . والجر للعطف على محل أن تنذر ، أى للإنذار وللذكر . فإن قلت : النهى في قوله فَلا يَكُنْ متوجه «2» إلى الحرج فما وجهه ؟ قلت : هو من قولهم : لا أرينك ها هنا .

[سورة الأعراف (7) : آية 3]

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3)

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من القرآن والسنة وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ من دون اللّه أَوْلِياءَ أى ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين اللّه وما أنزل إليكم ، وأمركم باتباعه . وعن الحسن : يا ابن آدم ، أمرت باتباع كتاب

اللّه وسنة محمد صلى اللّه عليه وسلم . واللّه ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت وما معناها . وقرأ مالك بن دينار : ولا تبتغوا ، من الابتغاء وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً . ويجوز أن يكون الضمير في مِنْ دُونِهِ لما أنزل ، على : ولا تتبعوا من دون دين اللّه دين أولياء قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ حيث تتركون دين اللّه وتتبعون غيره . وقرى : تذكرون ، بحذف التاء . ويتذكرون ، بالياء . وقَلِيلًا : نصب يتذكرون ، أى تذكرون تذكرا قليلا . وما مزيدة لتوكيد القلة .

[سورة الأعراف (7) : آية 4]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4)

---

(1) . عاد كلامه . قال : «أو ولا تحرج من تبليغه ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له . . . الخ» قال أحمد : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ الآية .

(2) . عاد كلامه . قال : «فان قلت النهي في قوله فلا يكن متوجه إلى الحرج ، فما وجهه ؟ قلت : هو من قولهم لا أرينك ها هنا» قال أحمد : يريد أن الحرج منهى في الآية ظاهراً والمراد النهى عنه ، واللّه أعلم .

فَجاءَها فجاء أهلها بَياتاً مصدر واقع موقع الحال ، بمعنى بائتين . يقال : بات بياتاً حسناً ، وبيتة حسنة . وقوله هُمْ قائِلُونَ حال معطوفة «1» على بياتا ، كأنه قيل : فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين . فإن قلت : هل يقدر حذف المضاف الذي هو الأهل قبل قَرْيَةٍ أو قبل الضمير في أَهْلَكْناها ؟ قلت : إنما يقدّر المضاف للحاجة ولا حاجة ، فإنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها . وإنما قدّرناه قبل الضمير في فَجاءَها لقوله أَوْ هُمْ قائِلُونَ فإن قلت : لا يقال : جاءني زيد هو فارس ، بغير واو ، فما بال قوله هُمْ قائِلُونَ ؟ قلت : قدّر بعض النحويين الواو محذوفة ، ورده الزجاج وقال : لو قلت جاءني زيد راجلا ، أو هو فارس . أو جاءني زيد هو فارس ، لم يحتج فيه إلى واو ، لأن الذكر قد عاد إلى الأول . والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالا . لاجتماع حرفى عطف ، لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل ، فقولك : جاءني زيد راجلا أو هو فارس ، كلام فصيح وارد على حدّه .

وأمّا جاءني زيد هو فارس ، فخبيث . فإن قلت : فما معنى قوله أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس ؟ قلت : معناه أردنا إهلاكها كقوله إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة ، لأنهما وقت الغفلة والدعة ، فيكون نزول

(1) . عاد كلامه . قال : «و قوله هُمْ قائِلُونَ حال معطوفة على بيا تا كأنه قيل ، لجاءهم . . . الخ» قال : أحمد :

الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالا ضعيف . والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري . وأما الزجاج وغيره فيجعلون أحد الأمرين كافيا في الاسمية ، إما الواو وإما الضمير . وأما قول الزمخشري : إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها واو الحال كراهية لاجتماعها وهي واو عطف أيضا مع مثلها ، ففيه نظر . وذلك أن واو الحال لا بد أن تمتاز عن واو العطف بمزية . ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد وهو راكب ، ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغايرين وإن لم يكن قبيحا ، فالأصح خلافه ، فلما رأينها تتوسط بينهما والكلام حينئذ هو الأفصح أو المتعين ، علمت أنها ممتازة بمعنى وخاصية عن واو العطف ، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة ، فلا غرو في اجتماعها معها ، وإن كان فيها معنى العطف مضافا إلى تلك الخاصية ، فاما أن تسلبه حينئذ لاغناء العاطف عنها ، أو تستمر عليه ، كما تجتمع الواو . ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف بلا كراهية ، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت : سبح اللّه وأنت راكع ، أو وأنت ساجد ، لكان فصيحا لا خبث فيه ولا كراهة فالتحقيق – واللّه أعلم – في الجملة المعطوفة على الحال : أن المصحح لوقوعها حالا من غير واو ، هو العاطف ، إذ

يقتضى مشاركة الجملة الثانية لما عطفت عليه في الحال ، فيستغنى عن واو الحال ، كما أنك تعطف على المقسم به فتدخله في حكم القسم من غير واو موقعة في مثل وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى وفي مثل فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ ولو قلت في غير التلاوة : وبالليل إذا عسعس ، لجاز ، ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم لنيابة العاطف منابه .

فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال عن الواو المصححة للحالية ، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف ، لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستثقال ، بل أمدت تأكيداً . وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار ، والله الموفق للصواب .

(206/267)

العذاب فيهما أشد وأفظع ، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر ، وقوم شعيب وقت القيلولة .

[سورة الأعراف (7) : آية 5]

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5)

فَما كانَ دَعْواهُمْ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده. وقولهم إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فيما كنا عليه. ويجوز: فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا، لأنه لا مستغاث من اللّه بغيره، ومن قولهم دعواهم: يا لكعب. ويجوز، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم، وأن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذمّ أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، دَعْواهُمْ نصب خبر لكان، وأَنْ قالُوا رفع اسم له، ويجوز العكس

[سورة الأعراف (7): الآيات 6 إلى 7]

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (7)

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أُرْسِلَ مسند إلى الجار والمجرور وهو إِلَيْهِمْ ومعناه: فلنسألنّ المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم بِعِلْمٍ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم وعما وجد منهم، فإن قلت: فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟ قلت معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

[سورة الأعراف (7): الآيات 8 إلى 9]

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ يعنى وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها . ورفعه على الابتداء . وخبره يَوْمَئِذٍ . والْحَقُّ صفته أى : والوزن يوم يسأل اللّه الأمم «1» ورسلهم

---

(1) . قوله «أى والوزن يوم يسأل اللّه الأمم» هذا إنما ينبنى على أن يومئذ متعلق بالوزن ، والحق خبر . أما على ما قاله ، فالتقدير : ويوم يسأل الخ ، ويمكن أن مراده : والوزن كائن يوم يسأل اللّه الأمم ورسلهم ، أى الوزن الحق ، وكان الأقرب : أى والوزن الحق يوم يسأل . . . الخ (ع)

الوزن الحق ، أى العدل . وقرئ : القسط . واختلف في كيفية الوزن فقيل : توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان ، تنظر إليه الخلائق ، تأكيداً للحجة ، وإظهاراً للنصفة ، وقطعاً للمعارة ، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم ، وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم ، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وكما تثبت في صحائفهم فيقرءونها في موقف الحساب . وقيل : هي عبارة عن القضاء السوىّ والحكم

العادل فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ جمع ميزان أو موزون ، أى فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات . أو ما توزن به حسناتهم . وعن الحسن : وحقّ لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل . وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف . بِآياتِنا يَظْلِمُونَ يكذبون بها ظلماً : كقوله فَظَلَمُوا بِها .

[سورة الأعراف (7) : آية 10]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10)

مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . وما يتوصل به إلى ذلك . والوجه تصريح الياء . وعن ابن عامر : أنه همز ، على التشبيه بصحائف .

[سورة الأعراف (7) : آية 11]

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11)

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ يعنى خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر ، ثم صورناه بعد ذلك . ألا ترى إلى قوله ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ الآية مِنَ السَّاجِدِينَ ، ممن سجد لآدم .

[سورة الأعراف (7) : آية 12]

قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)

أَلَّا تَسْجُدَ «لا» في أَلَّا تَسْجُدَ صلة بدليل قوله : ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي .

ومثلها لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ بمعنى ليعلم : فإن قلت : ما فائدة زيادتها ؟ قلت : توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب . وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ؟ إِذْ أَمَرْتُكَ لان أمرى لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتما لا بدّ لك منه فإن قلت : لم سأله عن المانع من السجود ، وقد علم ما منعه ؟ قلت :

(208/267)

للتوبيخ ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم ، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه ، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب . فإن قلت : كيف يكون قوله أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ جواباً لما منعك ، وإنما الجواب أن يقول : منعني كذا ؟ قلت : قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ، وبعلة فضله عليه ، وهو أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين ، فعلم منه الجواب وزيادة عليه ، وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله ، كأنه يقول : من كان على هذه

الصفة كان مستبعداً أن يؤمر بما أُمر به .

[سورة الأعراف (7) : آية 13]

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)

فَاهْبِطْ مِنْها من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة ، إلى الأرض التي هي مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين فَما يَكُونُ لَكَ فما يصح لك أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها وتعصى فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ من أهل الصغار والهوان على اللّه وعلى أوليائه لتكبرك ، كما تقول للرجل : قم صاغراً ، إذا أهنته . وفي ضدّه : قم راشداً . وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار . وعن عمر رضى اللّه عنه : من تواضع للّه رفع اللّه حكمته «1» وقال : انتعش أنعشك اللّه . ومن تكبر وعدا طوره وهصه «2» اللّه إلى الأرض «3» .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 14 إلى 15]

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15)

---

(1) . قوله «رفع اللّه حكمته» في الصحاح : حكمة اللجام ما أحاط بالحنك . (ع)

(2) . قوله : «و هصه اللّه إلى الأرض» وهصه : أى غمزه إلى الأرض والوهص : كسر الشيء الرخو وشدة الوطء على الأرض ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه . حدثنا أبو خالد الأحمر وعبد اللّه بن إدريس

وسفيان بن عتبة عن ابن عجلان عن بكير بن الأشج عن معمر بن أبى حية عن عبيد اللّه بن عبيد اللّه بن عدى بن الخيار قال : قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : «إن العبد إذا تواضع للّه رفع اللّه حكمته وقال : انتعش أنعشك اللّه ، فهو في نفسه صغير ، وفي أنفس الناس كبير . وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره وهصه اللّه إلى الأرض . وقال : اخسأ خسأك اللّه ، فهو في نفسه كبير وفي أنفس الناس صغير ، لهو أحقر عندهم من خنزير ، وأخرجه البيهقي في الشعب من طريق على بن المديني عن سفيان .

وقد روى بعضهم رفوعا ، أخرج الدارقطني في العلل من حديث ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «ما من آدمى إلا وملك آخذ بحكمته . فإذا رفع نفسه قيل للملك : ضع حكمتك – وإذا وضع نفسه قيل للملك : ارفع حكمتك» قال : لا يثبت . فيه على بن زيد وهو ضعيف .

(209/267)

فإن قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم «1» قلت : لما في ذلك من ابتلاء العباد ، وفي مخالفته من أعظم الثواب ، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي ، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها

عباده.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 16 إلى 17]

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17)

فَبِما أَغْوَيْتَنِي فبسبب إغوائك إياى لأقعدنّ لهم. وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغى ولم يثبت كما ثبتت الملائكة، مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفسا ومناصب «2». وعن الأصم:

أمرتنى بالسجود فحملني الأنف على معصيتك. والمعنى: فبسبب وقوعى في الغىّ لأجتهدن في إغوائهم «3» حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم. فإن قلت: بم تعلقت الباء، فإن تعلقها

---

(1). قال محمود: «فان قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ... الخ» قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على اللّه تعالى رعاية المصالح في أفعاله. وأما أهل السنة فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده، واللّه الموفق. [.....]

(2). قوله «و من آدم أنفسا ومناصب» هذا عند المعتزلة، أما عند أهل السنه فآدم

أفضل منهم . (ع)

(3) . قال محمود : «والمعنى : فبسبب وقوعي في الغى لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي . . . الخ» قال أحمد : تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان :

إحداهما : تحريفه الإغواء إلى التكليف ، لأنه يعتقد أن اللّه تعالى لم يغوه ، أى لم يخلق له الغى بناء على قاعدة التحسين . والتقبيح والصلاح والأصلح ، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود ، لأنه كان سبباً في غيه . وكثيراً ما يؤول أفعال اللّه تعالى إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب ، ويجعل ذلك من مجاز السببية ، لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب ، فاسناده إلى الفاعل حقيقة ، وإسناده إلى بقيتها مجاز ويجعل الفعل مسندا إلى اللّه تعالى لأنه مسببه لا أنه فاعله . وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً محبوسا في مال عليه ، هذه وضعت القيود في رجليك ، وأشار إلى سلة فيها أخبصة وألوان مختلفة رآها عند المسجون ، أى اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سببا في تبذير المال الذي آل بك إلى وضع القيود في رجليك .

فعلى هذا يروم حمل هذه الآية ، يعنى بما كلفتنى من التكليف الذي كان سببا في خلقي الغى لنفسي لأقعدن ، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة . وأما إسناد الفعل إلى اللّه تعالى

فمجاز . هذه إحدى النزغتين .

والأخرى : جعله التكليف من جملة الأفعال ، لأنه يزعم أن كلام اللّه تعالى محدث من جملة أفعاله ، لا صفة من صفاته ، والتكليف من الكلام ، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما .

وإبليس لعنه اللّه لم يرض واحدة منهما ، لأنه نسب الإغواء إلى اللّه تعالى ، إذ هو خالق كل شيء ، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفى الشرك ما لم يسبق به إبليس ؟ نعوذ باللّه من التعرض لسخط اللّه .

(210/267)

بلأقعدنّ يصدّ عنه لام القسم ، لا تقول : واللّه بزيد لأمرّنّ ؟ قلت : تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره : فبما أغويتنى أقسم باللّه لأقعدنّ ، أى فبسبب إغوائك أقسم . ويجوز أن تكون الباء للقسم ، أى : فأقسم بإغوائك لأقعدنّ ، وإنما أقسم بالإغواء ، لأنه كان تكليفا ، والتكليف من أحسن أفعال اللّه ، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد ، فكان جديراً بأن يقسم به .

ومن تكاذيب المجبرة « 1 » ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام ، فقام الرجل ، فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتنى ، وهذا يقول : أنا

أغوى نفسي ، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى اللّه سبحانه ، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين «2» . وقيل «ما» للاستفهام ، كأنه قيل : بأى شيء أغويتنى ، ثم ابتدأ لأقعدنّ . وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية ، قليل شاذ . وأصل الغىّ الفساد . ومنه : غوى الفصيل ، إذا بشم . والبشم : فساد في المعدة لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدوّ على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف ، كقوله :

. . . كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ «3»

---

(1) . قوله «و من تكاذيب المجبرة ما حكوه» يعنى أهل السنة ، وسماهم المعتزلة بذلك ، لقولهم : إن خالق أفعال العباد ولو قبيحة هو اللّه تعالى ، فيكون العبد مجبوراً فيها . فكيف يصح تكليفه ، ولكنهم أثبتوا للعبد الكسب في أفعاله ، ولذلك صح تكليفه . أما الجبر المنافى للتكليف ، فهو أن لا يكون للعبد دخل في فعله أصلا ، بحيث يكون كالريشة المعلقة في الهواء . وبه قالت المجبرة الحقيقية ، كما هو مذكور في أواخر المواقف . (ع)

(2) . عاد كلامه . قال : «و من تكاذيب المجبرة : ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه فقال له طاوس تقوم أو تقام ؟ فقام الرجل . فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتنى . وهذا يقول : أنا أغوى نفسي . انتهي كلام طاوس على زعمهم . وما ظنك

بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى اللّه سبحانه وتعالى أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين» انتهى كلامه . قال أحمد : وإنما أوردت مثل هذا من كلامه وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيده عن العقائد الصحيحة لتبلج الحجة في وجوب الرد عليه وتعينه على مر هداه اللّه إليه . ولقد صدق طاوس رضى اللّه عنه .

وأما قول الزمخشري في أهل السنة الذين سماهم مجبرة أنهم يتهالكون في نسبة القبائح إلى اللّه تعالى ، فحاصله : أنهم يخلصون التوحيد حتى لا يؤمنون بخالق غير اللّه ، ولكي يصدقوا قوله تعالى متمدحا اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا كالقدرية الذين هم يتهالكون حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فيؤولون الفاعل بالمسبب .

فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، واللّه الموفق للصواب .

(3) لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

لساعدة بن جؤية ، يصف رمحاً بأنه لين يضطرب صلبه في الكف بسبب هزه ، فلا يلبس فيه ، كما عسل أى اضطرب الثعلب في الطريق ، فحذف الجار من الثاني الضرورة ، واغتفر لذكره في الأولى ، وفي عسل معنى الدخول بسرعة .

(211/267)

وشبهه الزجاج بقولهم : ضرب زيد الظهر والبطن ، أى على الظهر والبطن . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة : قعد له بطريق الإسلام فقال له :

تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك وتتغرب ، فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل « 1 »» ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ من الجهات الأربع التي يأتى منها العدوّ في الغالب . وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . فإن قلت : كيف قيل مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ بحرف الابتداء وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ بحرف المجاوزة ؟ قلت : المفعول فيه عدّى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا ، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس . وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط ، فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، وعن شماله وعلى شماله ، قلنا : معنى «على يمينه» أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلى من المستعلى عليه . ومعنى «عن يمينه» أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحرفا عنه غير ملاصق له . ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره ، كما ذكرنا في «تعالى» . ونحوه من المفعول به قولهم رميت عن القوس ، وعلى القوس ، ومن القول ، لأنّ السهم يبعد عنها ، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ، ويبتدئ الرمي

منها . كذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه ، لأنهما ظرفان للفعل .

ومن بين يديه ومن خلفه : لأن الفعل يقع في بعض الجهتين ، كما تقول : جئته من الليل ، تريد بعض الليل ، وعن شقيق : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يدىّ ، ومن خلفي ، وعن يمينى ، وعن شمالي : أمّا من بين يدي فيقول : لا تخف ، فإن اللّه غفور رحيم ، فأقرأ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وأمّا من خلفي ، فيخوّفنى الضيعة على مخلفي فأقرأ وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وأمّا من قبل يمينى ، فيأتينى من قبل الثناء فأقرأ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وأمّا من قبل شمالي فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ . وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ قاله تظنيناً ، بدليل قوله وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وقيل : سمعه من الملائكة بإخبار اللّه تعالى لهم .

[سورة الأعراف (7) : آية 18]

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

---

(1) . أخرجه النسائي وأحمد وابن حبان وأبو يعلى والطبراني من حديث سمرة ابن الفاكه وابن أبى الفاكه به وأتم منه . «تنبيهان» أحدهما : قوله «بأطرقه» ضبطه ثابت في الدلائل بكسر الراء ، بمثناة وبضم الراء . وبهاء .

ثانيهما : قوله «بأطرقه» : وقع عند الطيبي ، رواه النسائي من حديث سيرة بن معبد . وهو وهم .

مَذْؤُماً من ذأمه إذا ذمّه. وقرأ الزهري: مذوما بالتخفيف، مثل مسول في مسؤل.

واللام في لَمَنْ تَبِعَكَ موطئة للقسم. ولَأَمْلَأَنَّ جوابه، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط مِنْكُمْ منك ومنهم، تغلب ضمير المخاطب، كما في قوله إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. وروى عصمة عن عاصم: لمن تبعك، بكسر اللام، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد، وهو قوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ، على أن لَأَمْلَأَنَّ في محل الابتداء، ولَمَنْ تَبِعَكَ خبره.

[سورة الأعراف (7): الآيات 19 إلى 22]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

وَيا آدَمُ وقلنا يا آدم. وقرئ: هذى الشجرة، والأصل الياء، والهاء بدل منها. ويقال:

وسوس ، إذا تكلم كلاماً خفيا يكرره . ومنه وسوس الحليّ ، وهو فعل غير متعدّ ، كولولت المرأة ووعوع الذئب ، ورجل موسوس – بكسر الواو – ولا يقال موسوس بالفتح ، ولكن موسوس له ، وموسوس إليه ، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة . ومعنى وسوس له : فعل الوسوسة لأجله ، ووسوس إليه : ألقاها إليه لِيُبْدِيَ جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً . وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور «1» وأنه

---

(1) . قال محمود : «فيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور . . . الخ» قال أحمد : وفي هذه الكلمات أيضا جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين ، أحدهما : قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبحا في العقول ، فانه ينشأ عن اعتقاده أن القبح والتحسين بالعقل وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة ، إلا أنه لا يريد به ظاهره ، إذ التحسين والتقبيح إنما يدركان بالشرع والسمع لا بالعقل . ومعنى هذا الإطلاق ولو صدر من سنى : أن العقل يدرك المعنى الذي لأجله حسن الشرع الستر وقبح الكشف . الأمر الثاني : استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس ذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم اللّه تعالى . ألا ترى إبليس لعنه اللّه قد أخبر أن اللّه تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخالدا أو لا يكونا ملكين ؟ وهو في

ذلك كاذب مبطل ، فلا دليل فيه ، إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير اللّه تعالى لا بليس على ذلك ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما ، إذ قال اللّه تعالى عنه فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فلعل تفضيله الملكية على النبوة من جملة غروره ، واللّه أعلم .

(213/267)

لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول . فإن قلت : ما للواو المضمومة في «و روى» لم تقلب همزة كما قلت في أو يصل ؟ قلت : لأن الثانية مدّة كألف وارى . وقد جاء في قراءة عبد اللّه أورى ، بالقلب إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ إلا كراهة أن تكونا ملكين . وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى ، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا . وقرئ : ملكين ، بكسر اللام ، كقوله وَمُلْكٍ لا يَبْلى . مِنَ الْخالِدِينَ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين . وقرئ : من سوأتهما ، بالتوحيد . وسوّاتهما ، بالواو المشدّدة وَقاسَمَهُما وأقسم لهما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فإن قلت : المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك «1» تقول : قاسمت فلاناً حالفته ، وتقاسما تحالفا . ومنه قوله تعالى تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ . قلت : كأنه قال لهما : أقسم لكما إنى لمن الناصحين ، وقالا له : أتقسم باللّه إنك لمن الناصحين ، فجعل ذلك مقاسمة بينهم . أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها «2» . أو أخرج قسم إبليس

على زنة المفاعلة ، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم فَدَلَّاهُما فنزّلهما إلى الأكل من الشجرة بِغُرُورٍ بما غرهما به من القسم باللّه . وعن قتادة :

وإنما يخدع المؤمن باللّه . وعن ابن عمر رضى اللّه عنه : أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا باللّه انخدعنا له «3» فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها . وقيل :

الشجرة هي السنبلة . وقيل : شجرة الكرم بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما أى تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر . وعن عائشة رضى اللّه عنها : ما رأيت منه ولا رأى منى «4» . وعن سعيد بن جبير : كان لباسهما من جنس الأظفار .

---

(1) . عاد كلامه . قال : «فان قلت المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك . . . الخ» قال أحمد : ويكون في الكلام حينئذ لف ، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم ، ولكن بالخطاب ، فجعل القسم من الجانبين كلاما واحداً مضافا لا بليس .

(2) . عاد كلامه . قال : «أو أقسم لهما على النصيحة وأقسما له على قبولها» قال أحمد ، وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه . وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير ، فيبعد التأويل المذكور ، إلا أن يحمل الأمر على أنه سمى قبول

النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة ، كما قيل في قوله تعالى وَواعَدْنا مُوسى أنه سمى التزام موسى للوفاء والحضور للميعاد ، ميعادا ، فأسند التعبير بالمفاعلة ، واللّه أعلم .

(3) . أخرجه ابن سعد من رواية نافع قال «كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه – وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه . فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد . فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه . فيقول له أصحابه : – فذكره . وأخرجه أبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

(4) . أخرجه أبو يعلى من رواية كامل أبى العلاء عن أبى صالح – رواه عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال :

قالت عائشة «ما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحدا من نسائه إلا متقنعا مرخى الثوب على رأسه ، وما رأيته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا رآه منى – تعنى الفرج» إسناده ضعيف . وروى الترمذي وابن ماجة وأحمد وابن أبى شيبة من رواية عبد اللّه بن بزيد عن مولى عائشة قالت «ما رأيت فرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قط» وروى الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري ورواه الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة مثله – وزاد «ولا نظر إلى فرجي قط» وفي إسناده زيد بن الحسن عن مالك . وهو ضعيف ، وقال لا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري . وروى الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة نحوه . وفي إسناده بركة بن محمد الحلبي ، وهو متروك .

وعن وهب : كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر . ويقال : طفق بفعل كذا ، بمعنى جعل يفعل كذا . وقرأ أبو السمال : وطفقا بالفتح يَخْصِفانِ ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها ، كما يخصف النعل ، بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور . وقرأ الحسن :

يخصفان ، بكسر الخاء وتشديد الصاد ، وأصله يختصفان . وقرأ الزهري : يخصفان ، من أخصف ، وهو منقول من خصف أي يخصفان أنفسهما وقرئ : يخصفان ، من خصف بالتشديد مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ قيل : كان ورق التين أَلَمْ أَنْهَكُما عتاب من اللّه تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما اللّه من عداوة إبليس وروى : أنه قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً . قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدّا . فأهبط وعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز .

[سورة الأعراف (7) : آية 23]

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلما لأنفسهما «1» وقالا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 24 إلى 25]

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (24) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25)

---

(1). قال محمود: «سميا ذنبهما ظلما وإن كان صغيراً مغفوراً . . . الخ» قال أحمد: وهذا أيضا اعتزال خفى، لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يتب العبد منها. فهذا معنى قول الزمخشري: وإن كان صغيرا مغفوراً. وإنما وسمت هذا الاعتزال بالخفاء، لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً: أن اللّه تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لآخذ به وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما بزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، واللّه الموفق.

اهْبِطُوا الخطاب لآدم وحواء وإبليس . وبَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ في موضع الحال ، أى متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه مُسْتَقَرٌّ استقرار ، أو موضع استقرار وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم . وعن ثابت البناني : لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة ، فجعلت حواء تدور حولهم ، فقال لها : خلى ملائكة ربى فإنما أصابنى الذي أصابنى فيك ، فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترا ، وحنطته وكفنته في وتر من الثياب ، وحفروا له ولحدوا ، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند ، وقالوا لبنيه : هذه سنتكم بعده .

[سورة الأعراف (7) : آية 26]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)

جعل ما في الأرض منزلا من السماء ، لأنه قضى ثم وكتب . ومنه وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ والريش لباس الزينة ، استعير من ريش الطير ، لأنه لباسه وزينته ، أى أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يوارى سوءاتكم ، ولباسا يزينكم ، لأن الزينة غرض صحيح ، كما قال لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً . وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ وقرأ عثمان رضى اللّه عنه . ورياشاً ، جمع ريش ، كشعب وشعاب وَلِباسُ التَّقْوى ولباس الورع والخشية من اللّه تعالى ، وارتفاعه على الابتداء وخبره إمّا الجملة التي هي ذلِكَ خَيْرٌ كأنه قيل : ولباس التقوى هو خير ، لأن أسماء

الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر . وأمّا المفرد الذي هو خير وذلك صفة للمبتدإ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير . ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى ، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة ، لأنّ مواراة السوأة من التقوى ، تفضيلا له على لباس الزينة . وقيل : لباس التقوى خبر مبتدإ محذوف ، أى وهو لباس التقوى ، ثم قيل : ذلك خير . وفي قراءة عبد اللّه وأبىّ : ولباس التقوى خير . وقيل : المراد بلباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر «1» وغيرها مما يتقى به في الحروب وقرئ : ولباس التقوى ، بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً ذِلكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ الدالة على فضله ورحمته على عباده . يعنى إنزال اللباس لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

---

(1) . قوله «الجواشن والمغافر» الجواشن : هي ما ينسج من الدروع على قدر الصدر . والمغافر : ما ينسج منها على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة . (ع)

[سورة الأعراف (7) : آية 27]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)

لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة ، كما محن أبويكم بأنّ أخرجهما منها يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما حال ، أى أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأنه كان سبباً في أن نزع عنهما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ تعليل للنهى وتحذير من فتنته ، بأنه بمنزلة العدوّ المداجى «1» يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . وعن مالك بن دينار . إنّ عدواً يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة إلا من عصم اللّه وَقَبِيلُهُ وجنوده من الشياطين ، وفيه دليل بين أن الجنّ لا يرون»

ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدّعى رؤيتهم زور ومخرقة إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ أى خلينا بينهم وبينهم «3» لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سئلوا لهم من الكفر والمعاصي ، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول . فإن قلت : علام عطف وقبيله ؟ قلت : على الضمير في يراكم المؤكد بهو ، والضمير في أنه للشأن والحديث ، وقرأ اليزيدي وَقَبِيلَهُ بالنصب وفيه وجهان : أن يعطفه على اسم إن ، وأن تكون الواو بمعنى مع ، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير في أنه ، كان راجعاً إلى إبليس .

[سورة الأعراف (7) : آية 28]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28)

---

(1) . قوله «العدو المداجى» في الصحاح «المداجاة» المداراة. يقال: داجيته، إذا، داريته، كأنك ساترته العداوة. (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود: «و فيه دليل بين أنهم لا يرون . . . الخ» قال أحمد: أين يذهب به هما ورد في الحديث الصحيح، من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم للنبي صلى اللّه عليه وسلم يروم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه اللّه منه فأخذه عليه الصلاة والسلام فدغنه وأراد أن يربطه إلى سارية من سوارى المسجد يلعب به الصبيان، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه. وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام كان جائزا لأولياء اللّه والمتبعين لسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كرامة، لكن الزمخشري يصده عن ذلك جحده لكرامة الأولياء، لأنه عقيدة إخوانه، إذ الكرامة إنما يؤتاها الولي الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر من جحدها والتكذيب بها.

رزقنا اللّه الايمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلا، واللّه الموفق.

(3) . قوله «أى خلينا بينهم وبينهم» فسر الجعل بذلك، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. وعند أهل السنة يخلقه كالخير. (ع)

الفاحشة : ما تبالغ في قبحه من الذنوب ، أى : إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم وبأنّ اللّه تعالى أمرهم بأن يفعلوها . وكلاهما باطل من العذر «1» لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق العلم . والثاني افتراء على اللّه وإلحاد في صفاته ، كانوا يقولون : لو كره اللّه منا ما نفعله لنقلنا عنه . وعن الحسن : إن اللّه تعالى بعث محمداً صلى اللّه عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة «2» يحملون ذنوبهم على اللّه .

وتصديقه قول اللّه تعالى وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ لأنّ فعل القبيح مستحيل عليه «3» لعدم الداعي ووجود الصارف ، فكيف يأمر بفعله أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط .

وقيل : المراد بالفاحشة : طوافهم بالبيت عراة .

[سورة الأعراف (7) : آية 29]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)

بِالْقِسْطِ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز . وقيل : بالتوحيد

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ وقل : أقيموا وجوهكم أى اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين

إلى غيرها عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ في كل وقت سجود ، أو في كل مكان سجود وهو الصلاة

وَادْعُوهُ واعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى الطاعة ، مبتغين بها وجه اللّه خالصاً كَما بَدَأَكُمْ

تَعُودُونَ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم ، احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق ،

والمعنى :

أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة .

[سورة الأعراف (7) : آية 30]

فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

---

(1) . قال محمود : «وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من الاعتزال الخفي ، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتقبيح ، ومراعاة الصلاح والأصلح ، واستحالة مخالفة ذلك على اللّه تعالى «ولا يتم من ذلك غرض ، لأن المنكر عليهم : دعواهم أن اللّه تعالى أمرهم بالفحشاء ، وهم كاذبون في هذه الدعوى ، ولا يلزم من سلب الأمر الارادة ، لأن اللّه تعالى يأمر بما لا يريد ، ويريد ما لا يأمر به .

(2) . قوله «وهم قدرية مجبرة» أى كالمجبرة يعنى أهل السنة ، لقولهم : إن اللّه يريد الشر

كالخير ، والارادة هي الأمر عند المعتزلة ، لكنها غيره عند أهل السنة ، فالفحشاء بإرادته تعالى ، لكنه لا يأمر بها . وتحقيقه في التوحيد .

(3) . قوله «فعل القبيح مستحيل عليه» يريد أن اللّه لا يريد فعل القبيح وهي عقيدة المعتزلة . أما عند أهل السنة فاللّه يريد القبيح والحسن «ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن» (ع)

(218/267)

فَرِيقاً هَدى وهم الذين أسلموا ، أى وفقهم للإيمان وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ أى كلمة الضلالة ، وعلم اللّه أنهم يضلون ولا يهتدون . وانتصاب قوله وَفَرِيقاً بفعل مضمر يفسره ما بعده ، كأنه قيل : وخذل فريقا حق عليهم الضلالة إِنَّهُمُ إنّ الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِياءَ أى تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به ، وهذا دليل على أن علم اللّه لا أثر له في ضلالهم ، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون اللّه . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 85. 100﴾

(219/267)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 31 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 36 ﴾ من نفس السورة

(4/268)

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمر سبحانه بالقسط وبإقامة الوجه عند كل مسجد ، أمرهم بما ينبغي عند تلك الإقامة من ستر العورة الذي تقدم الحث عليه وبيان فحش الهتك وسوء أثره معبراً عنه بلفظ الزينة ترغيباً فيه وإذناً في الزينة وبياناً لأنها ليس مما يتورع عنه لقوله صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب إذا بسط على عبد رزقه أن يرى أثر نعمته عليه " رواه أحمد والترمذي وابن منيع عن أبي هريرة رضى الله عنه ، وأتبع ذلك أعظم ما ينبغي لابن آدم أن يعتبر فيه القسط من المأكل والمشرب فقال مكرراً النداء استعطافاً وإظهاراً لعظيم

الإشفاق وتذكيراً بقصة أبيهم آدم عليه السلام التي أخرجته من الجنة مع كونه صفي الله ليشتد الحذر : ﴿ يا بني آدم ﴾ أي الذي زيناه فغره الشيطان ثم وقيناه شره بما أنعمنا عليه به من حسن التوبة وعظيم الرغبة ﴿ خذوا زينتكم ﴾ أي التي تقدم التعبير عنها بالريش لستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة ﴿ عند كل مسجد ﴾ وأكد ذلك كونُهم كانوا قد شرعوا أن غير الحمس يطوفون عراة .

ولما امر بكسوة الظاهر بالثياب لن صحة الصلاة متوقفة عليها ، أمر بكسوة الباطن بالطعام والشراب لتوقف القدرة عادة عليها فقال : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ وحسَّن ذلك أن بعضهم كان يتدين في الحج بالتضييق في ذلك .

(5/268)

ولما أمر بالملبس والمطعم ، نهى عن الاعتداء فيهما فقال : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ بوضع شيء من ذلك فيما لا يكون أحق مواضعه ولو بالزيادة على المعاء ، ومن ذلك أن يتبع السنة في الشرب فيسير لأن العكر يرسب في الإناء فربما أذى من شربه ، ولذلك نهى عن النفس في الإناء لأنه ربما أنتن فعافته النفس ، وأما الطعام فليحسن إناءه والأصابع لنيل البركة وهو أنظف ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ أي لا يكرمهم ، ولا شك أن من لا

يحبه لا يحصل له شيء من الخير فيحيط به كل شر ، ومن جملة السرف الأكل في جميع البطن ، والاقتصاد الاقتصار على الثلث كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

" حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبة فإن كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس " و" وما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن " و" الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد " أخرجه البخاري عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال الأطباء ، الأمعاء سبعة ، فالمعنى حينئذ أن الكافر يأكل شعباً فيملأ الأمعاء السبعة ، والمؤمن يأكل تقوتاً فيأكل في معى واحد ، وذلك سبع بطنه ، وإليه الإشارة بلقيمات ، فإن لم يكن ففي معاءين وشيء وهو الثلث – والله أعلم – وسبب الاية أنهم كانوا يطرحون ثيابهم إذا أرادوا الطواف ، يقولون : لا نطوف في ثياب إذ بتنا فيها ، ونتعرى منها لنتعرى من الذنوب إلا الحمس وهم قريش ومن ولده ، وكانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً ، فقال المسلمون : يا رسول الله ! فنحن أحق أن نفعل ذلك – فأنزلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 25 . 26 ﴾

(6/268)

فصل فيما ذكره بعض المفسرين في تأييد رأي أو بيان معنى المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

ما ذكره بعض المفسرين في تأييد رأي أو بيان معنى : "المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء"

فمن ذلك ما ذكره الزمخشري في كشافه ، وتابعه النسفي في تفسيره ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ 1 .

ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني ، حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ، فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه ، فقال : وما هي ؟ قال ، قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ، فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب ؟ فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة ، فقال : وما هي ؟ قال : في قوله : "المعدة بيت الداء ، والحمية2 رأس الدواء ، واعط

الأعراف : 31 .

2 الامتناع أو التقليل من الطعام .

كل بدن ما عودته" فقال النصراني : ما ترك كتابكم ، ولا نبيكم لجالينوس طبا أقول : ولئن أصاب في الآية ، فقد أخطأ في ذكره الحديث ؛ فإنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو من "كلام الحارث بن كلدة" "طبيب العرب 1 ، فنسبته إلى النبي كذب واختلاق عليه ، نعم هناك من قول النبي صلى الله عليه وسلم ما أهو أدق وأوفى من هذا ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "ما ملأ ابن آدم وعاء شراء من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات –أي لقيمات– يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه" ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وقد كان الإمام البيضاوي على حق حينما ذكر القصة التي ذكرها الزمخشري ، ولكنه اكتفى بالآية ، ولم يذكر الحديث ، فقد علمت أنه ليس من كلامه صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 330 . 331 ﴾

---

1 كشف الخفاء ومزيل الإلباس ج 2 ص 214 .

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الله تعالى لما أمر بالقسط في الآية الأولى ، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر المأكول والمشروب ، لا جرم أتبعه بذكرهما ، وأيضاً لما أمر بإقامة الصلاة في قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 29] وكان ستر العورة شرطاً لصحة الصلاة لا جرم أتبعه بذكر اللباس ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس : إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عُراة الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى ، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عُراة . وقالوا : لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب ، ومنهم من يقول : نفعل ذلك تفاؤلاً حتى نتعرى عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب ، وكانت المرأة منهم تتخذ ستراً تعلقه على حقويها ، لتستتر به عن الحمس ، وهم قريش ، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك ، وكانوا يصلون في ثيابهم ، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، فقال المسلمون : يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أي : "البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم

واشربوا ولا تسرفوا" .

المسألة الثانية :

(9/268)

المراد من الزينة لبس الثياب ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [النور : 31] يعني الثياب ، وأيضاً فالزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات ، ولذلك صار التزين بأجود الثياب في الجمع والأعياد سنة ، وأيضاً أنه تعالى قال في الآية المتقدمة : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يوارى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ [الأعراف : 26] فبين أن اللباس الذي يواري السوأة من قبيل الرياش والزينة ، ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية ، فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذي تقدم ذكره في تلك الآية فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة ، وأيضاً فقد أجمع المفسرون على أن المراد بالزينة ههنا لبس الثوب الذي يستر العورة ، وأيضاً فقوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ أمر والأمر للوجوب ، فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ أمر ، وظاهر الأمر للوجوب ، فهذا

يدل على وجوب ستر العورة عنه إقامة كل صلاة ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : إنه تعالى عطف عليه قوله : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ ولا شك أن ذلك أمر إباحة فوجب أن يكون قوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ أمر إباحة أيضاً .

وجوابه : أنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف تركه في المعطوف عليه ، وأيضاً فالأكل والشرب قد يكونان واجبين أيضاً في الحكم .

السؤال الثاني : أن هذه الآية نزلت في المنع من الطواف حال العري .

والجواب : أنا بينا في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ يقتضي وجوب اللبس التام عند كل صلاة لأن اللبس التام هو الزينة .

(10/268)

ترك العمل به في القدر الذي لا يجب ستره من الأعضاء ، إجماعاً ، فبقي الباقي داخلاً تحت اللفظ ، وإذا ثبت أن ستر العورة واجب في الصلاة ، وجب أن تفسد الصلاة عند تركه ، لأن تركه يوجب ترك المأمور به ، وترك المأمور به معصية ، والمعصية توجب العقاب على ما شرحنا هذه الطريقة في الأصول .

المسألة الثالثة :

تمسك أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية في مسألة إزالة النجاسة بماء الورد .

فقالوا : أمرنا بالصلاة في قوله : ﴿ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [الأنعام : 72] والصلاة عبارة عن الدعاء ، وقد أتى بها ، والإتيان بالمأمور به يوجب الخروج عن العهدة ، فمقتضى هذا الدليل أن لا تتوقف صحة الصلاة على ستر العورة ، إلا أنا أوجبنا هذا المعنى عملاً بقوله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ولبس الثوب المغسول بماء الورد على أقصى وجوه النظافة أخذ الزينة ، فوجب أن يكون كافياً في صحة الصلاة .

وجوابنا : أن الألف واللام في قوله : ﴿ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾ ينصرفان إلى المعهود السابق ، وذلك هو عمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم قلتم أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى في الثوب المغسول بماء الورد ؟ والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ واشربوا ﴾ فاعلم أنا ذكرنا أن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من الطعام في أيام حجهم إلا القليل ، وكانوا لا يأكلون الدسم ، يعظمون بذلك حجهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية لبيان فساد تلك الطريقة .

والقول الثاني : أنهم كانوا يقولون أن الله تعالى حرم عليهم شيئاً مما في بطون الأنعام فحرم عليهم البحيرة والسائبة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية بياناً لفساد قولهم في هذا الباب .

واعلم أن قوله : ﴿ وَكُلُواْ واشربوا ﴾ مطلق يتناول الأوقات والأحوال ، ويتناول جميع المطعومات والمشروبات ، فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحل في كل الأوقات ، وفي كل المطعومات والمشروبات إلا ما خصه الدليل المنفصل ، والعقل أيضاً مؤكد له ، لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : أن يأكل ويشرب بحيث لا يتعدى إلى الحرام ، ولا يكثر الإنفاق المستقبح ولا يتناول مقداراً كثيراً يضره ولا يحتاج إليه .

والقول الثاني : وهو قول أبي بكر الأصم : أن المراد من الإسراف ، قولهم بتحريم البحيرة والسائبة ، فإنهم أخرجوها عن ملكهم ، وتركوا الانتفاع بها ، وأيضاً أنهم حرموا على أنفسهم في وقت الحج أيضاً أشياء أحلها الله تعالى لهم ، وذلك إسراف .

واعلم أن حمل لفظ الإسراف على الاستكثار ، مما لا ينبغي أولى من حمله على المنع من لا يجوز وينبغي .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ وهذا نهاية التهديد ، لأن كل ما لا يحبه الله تعالى بقي محروماً عن الثواب ، لأن معنى محبة الله تعالى العبد إيصاله الثواب إليه ، فعدم هذه المحبة عبارة عن عدم حصول الثواب ، ومتى لم يحصل الثواب ، فقد حصل العقاب ، لانعقاد

الإجماع على أنه ليس في الوجود مكلف ، لا يثاب ولا يعاقب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 52.50 ﴾

(12/268)

وقال السمرقندى :

﴿ يا بنى ءادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ ﴾

أي البسوا ثيابكم واستروا عوراتكم عند كل صلاة .

قال السدي : كان هؤلاء والذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون الودك .

فقال الله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ في التحريم .

ويقال : الإسراف أن يأكل ما لا يحل أكله أو يأكل مما يحل له أكله فوق القصد ومقدار الحاجة .

وقيل لبعض الأطباء : هل وجدت الطب في كتاب الله تعالى ؟ قال : نعم قد جمع الله الطب كله في هذه الآية ﴿ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ أي لا تحرموا ما أحل الله لكم ، فإنَّ المحرم ما أحل الله كالمحل ما حرم الله تعالى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا بني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

قال المفسّرون : كانت بنو عامر في الجاهلية يطوفون في البيت عُراة الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانوا إذا قدموا مسجد منى طرح أحدهم ثيابه في رحله وإن طاف وهي عليه ضُرب [وانبزعت] منه فأنزل الله تعالى : ﴿ يا بني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ يعني الثياب .

وقال مجاهد : ما تواري به عورتك [للصلاة والطواف] وقال عطيّة وأبو روق وأبو رزين : المشط . وسمعت أبو القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا الهيثم [الجهني] يحكي عن السنوخي القاضي : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ يعني : رفع الأيدي في مواقيت الصلاة .

وروى علي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الخبر ، قول جبرائيل (عليه السلام) للنبي صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة برفع الأيدي فيها في ثلاث مواضع إذا تحرمت (للصلاة) : إذا كبرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع " .

﴿ وكُلُواْ واشربوا ﴾ قال الكلبي : كانت بنو عامر لا يأكلون من الطعام إلاّ قوتاً ولا يأكلون دسماً في أيام حجّهم يعظّمون بذلك حجّهم فقال المسلمون : يا رسول الله نحن أحق أن نفعل ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وكُلُواْ ﴾ يعني اللحم والدسم ﴿ واشربوا وَلاَ تسرفوا ﴾ يعني الحرام .

قال ابن عباس : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك سرف ومخيلة ، وقال مجاهد : الإسراف ما قصرت به عن حق الله . وقال : لو أنفقت مثل أُحُد في طاعة الله لم يكن سرفاً ولو أنفقت درهماً أو مداً في معصية الله كان إسرافاً .

وقال الكلبي : ولا تُسرفوا يعني لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ المتجاوزين من فعل الحرام في الطعام والشراب ، وبلغني أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان ، قال عليّ : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ فقال النصراني : ولا يؤثر [عن رسولكم] شيء في الطب ؟

فقال عليّ : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب فيّ [ألفاظ يسيرة]

قال : وما هي ؟ قال : قوله : " المعدة بيت الداء (1) والحمية رأس كلّ دواء وأعطِ كل بدن ما عودته " .

فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(1) قال الإمام السخاوى :

حديث : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء ، لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره نعم عند ابن أبي الدنيا في الصمت من جهة وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت ، وللخلال من حديث عائشة: الأزم دواء والمعدة داء وعودوا بدناً ما اعتاده ، وأورد الغزالي في الإحياء من المرفوع: البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد ، وقال مخرجه: لم أجد له أصلاً وللطبراني في الأوسط من حديث يحيى بن عبيد الله البابلتي عن إبراهيم بن جريج الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : المعدة حوض البدن

والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم ، وقال: لم يروه عن الزهري إلا زيد بن أبي أنيسة تفرد به الرهاوي وقد ذكره الدارقطني في معلل من هذا الوجه وقال: اختلف فيه على الزهري فرواه أبو قرة الرهاوي عنه فقال عن عائشة ، قال: وكلاهما لا يصح ، قال ولا يعرف هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن أبجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المقاصد الحسنة صـ 612 ﴾

(15/268)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن ذلك وارد في ستر العورة في الطواف على ما تقدم ذكره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم .

والثاني : أنه وارد في ستر العورة في الصلاة ، قاله مجاهد ، والزجاج .

والثالث : أنه وارد في التزين بأجمل اللباس في الجمع والأعياد .

والرابع : أنه أراد به المشط لتسريح اللحية .

﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ يعني ما أحله الله لكم .

ويحتمل أن يكون هذا أمر بالتوسع في الأعياد .

﴿ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لا تسرفوا في التحريم ، قاله السدي .

والثاني : معناه لا تأكلوا حراماً فإنه إسراف ، قاله ابن زيد .

والثالث : لا تسرفوا في أكل ما زاد على الشبع فإنه مضر ، وقد جاء في الحديث : " أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ البردة " ، يعني التخمة .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : لا تسرفوا في الإنفاق .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يحب أفعالهم في السرف .

والثاني : لا يحبهم في أنفسهم لأجل السرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(16/268)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) ﴾

هذا خطاب عام لجميع العالم وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها ، والزينة ها هنا الثياب الساترة قاله مجاهد والسدي ، وقال طاوس : الشملة من الزينة .

قال القاضي أبو محمد : ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يقصد به مستعملة الخيلاء ، و﴿ عند كل مسجد ﴾ عند كل موضع سجود فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها هذا هو مهم الأمر ، ويدخل مع الصلاة مواطن الخير كلها ، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك ، وذكر مكي حديثاً أن معنى ﴿ خذوا زينتكم ﴾ صلوا في النعال ، وما أحسبه يصح .

وقوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ نهي عما كانوا التزموه من تحريم اللحم والودك في أيام الموسم ، قال السدي وابن زيد ، وتدخل مع ذلك أيضاً البحيرة والسائبة ونحو ذلك ، وقد نص على ذلك قتادة وقال إن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله تعالى : ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ معناه ولا تفرطوا ، قال أهل التأويل : يريد ولا

تسرفوا بأن تحرموا على أنفسكم ما لم يحرم الله عز وجل ، قال ابن عباس : ليس في الحلال سرف إنما السرف في ارتكاب المعاصي .

(17/268)

قال القاضي أبو محمد : يريد في الحلال القصد ، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً فمن تلبس بفعل حرام فتأول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجه النهي عليه ، ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن ، وإن أفرط حتى دخل الضرر حصل أيضاً من المسرفين وتوجه النهي عليه ، مثل ذلك أن يفرط الإنسان في شراء ثياب ونحوها ويستنفد في ذلك جل ماله أو يعطي ماله أجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك ونحوه ، فالله عز وجل لا يحب شيئاً من هذا ، وقد نهت الشريعة عنه ، ولذلك وقف النبي عليه السلام بالموصي عند الثلث ، وقال بعض العلماء : لو حط الناس إلى الربع لقول النبي عليه السلام " والثلث كثير " ، وقد قال ابن عباس في هذه الآية ، أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(18/268)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم ﴾

سبب نزولها : أن ناساً من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تعلّق على فرجها سيوراً ، وتقول :

اليومَ يَبْدُو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ . . .

وَمَا بَدا مِنْهُ فَلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : كانوا إذا حجوا ، فأفاضوا من منى ، لا يصلح لأحد منهم في دينه الذي اشترعوا أن يطوف في ثوبيه ، فيلقيهما حتى يقضي طوافه ، فنزلت هذه الآية .

وقال الزهري : كانت العرب تطوف بالبيت عراةً ، إلا الحمس ، قريشٌ وأحلافها ، فمن جاء من غيرهم ، وضع ثيابه وطاف في ثوبي أحمس ، فإن لم يجد من يُعيره من الحمس ، ألقى ثيابه وطاف عرياناً ، فإن طاف في ثياب نفسه ، جعلها حراماً عليه إذا قضى الطواف ، فلذلك جاءت هذه الآية .

وفي هذه الزينة قولان .

أحدهما : أنها الثياب .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ورد في ستر العورة في الطواف ، قاله ابن عباس ، والحسن في جماعة .

والثاني : أنه ورد في ستر العورة في الصلاة ، قاله مجاهد ، والزجاج .

والثالث : أنه ورد في التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد ، ذكره الماوردي .

والثاني : أن المراد بالزينة : المشط ، قاله أبو رزين .

قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ قال ابن السائب : كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حَجِّهم دَسَماً ، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً ، تعظيما لحجِّهم فنزل قوله : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ وفي قوله : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أربعة اقوال .

أحدها : لا تسرفوا بتحريم ما أحل لكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تأكلوا حراماً ، فذلك الإِسراف ، قاله ابن زيد .

والثالث : لا تشركوا ، فمعنى الإسراف هاهنا : الإشراك ، قاله مقاتل .

والرابع : لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة ، قاله الزجاج .

(19/268)

ونُقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، فقال .

علي : قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا .

قال : ما هي ؟ قال قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ قال النصراني ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب ، فقال : قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة قال : وما هي ؟ قال : " المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد " فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

قال المصنف : هكذا نقلتُ هذه الحكاية ، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يثبت .

وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب "لقط المنافع في الطب" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(20/268)

وقال الإمام الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى فَرْضِ سَتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ وَالْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ : ﴿ هِيَ فَرْضٌ فِي الصَّلَاةِ إنْ تَرَكَهُ مَعَ الْإِمْكَانِ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ ﴾ ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ : " الصَّلَاةُ مُجْزِيَةٌ مَعَ كَشْفِ الْعَوْرَةِ وَيُوجِبَانِ الْإِعَادَةَ فِي الْوَقْتِ وَالْإِعَادَةُ فِي الْوَقْتِ عِنْدَهُمَا اسْتِحْبَابٌ .

وَدَلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى فَرْضِ سِتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَمَّا قَالَ : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ فَعَلَّقَ الْأَمْرَ بِالْمَسْجِدِ ، عَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ السَّتْرُ لِلصَّلَاةِ لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِذِكْرِ الْمَسْجِدِ فَائِدَةٌ ، فَصَارَ تَقْدِيرُهَا : خُذُوا زِينَتَكُمْ فِي الصَّلَاةِ ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ سَتْرَهَا عَنْ النَّاسِ لَمَا خَصَّ الْمَسْجِدَ بِالذِّكْرِ ؛ إذْ كَانَ النَّاسُ فِي الْأَسْوَاقِ أَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ ، فَأَفَادَ بِذِكْرِ الْمَسْجِدِ وُجُوبَهُ فِي الصَّلَاةِ إذْ كَانَتْ الْمَسَاجِدُ مَخْصُوصَةً بِالصَّلَاةِ .

وَأَيْضًا لَمَّا أَوْجَبَهُ فِي الْمَسْجِدِ وَجَبَ بِظَاهِرِ الْآيَةِ فَرْضُ السَّتْرِ فِي الصَّلَاةِ إذَا فَعَلَهَا فِي الْمَسْجِدِ ، وَإِذَا وَجَبَ فِي الصَّلَاةِ الْمَفْعُولَةِ فِي الْمَسْجِدِ وَجَبَ فِي غَيْرِهَا مِنْ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ فُعِلَتْ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَسْجِدَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْ السُّجُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ وَالْمُرَادُ السُّجُودُ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ اقْتَضَتْ الْآيَةُ لُزُومَ السَّتْرِ عِنْدَ السُّجُودِ ، وَإِذَا لَزِمَ ذَلِكَ فِي السُّجُودِ لَزِمَ فِي سَائِرِ أَفْعَالِ الصَّلَاةِ ؛ إذْ لَمْ يُفَرِّقْ أَحَدٌ بَيْنَهُمَا ؛ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ وَالزُّهْرِيِّ : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقِيلَ إنَّهُمْ إنَّمَا كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً لِأَنَّ الثِّيَابَ قَدْ دَنَّسَتْهَا الْمَعَاصِي فِي زَعْمِهِمْ فَيَتَجَرَّدُونَ مِنْهَا .

وَقِيلَ إنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ تَفَاؤُلًا بِالتَّعَرِّي مِنْ الذُّنُوبِ .

وَقَالَ بَعْضُ مَنْ يَحْتَجُّ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ : إنَّ هَؤُلَاءِ السَّلَفَ لَمَّا ذَكَرُوا سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ وَهُوَ طَوَافُ الْعُرْيَانِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ حُكْمُهَا مَقْصُورًا عَلَيْهِ .

وَلَيْسَ هَذَا عِنْدَنَا كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ نُزُولَ الْآيَةِ عِنْدَنَا عَلَى سَبَبٍ لَا يُوجِبُ الِاقْتِصَارَ بِحُكْمِهَا عَلَيْهِ لِأَنَّ الْحُكْمَ عِنْدَنَا لِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا لِلسَّبَبِ .

وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا ذُكِرَ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ وُجُوبَهُ فِي الصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا وَجَبَ السَّتْرُ فِي الطَّوَافِ فَهُوَ فِي الصَّلَاةِ أَوْجَبُ ؛ إذْ لَمْ يُفَرِّقْ أَحَدٌ بَيْنَهُمَا .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَمْنَعَ تَرْكُ السَّتْرِ صِحَّةَ الصَّلَاةِ كَمَا لَمْ يَمْنَعْ صِحَّةَ الطَّوَافِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ الْآيَةُ وَإِنْ وَقَعَ نَاقِصًا .

قِيلَ لَهُ : ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي بُطْلَانَ الْجَمِيعِ عِنْدَ عَدَمِ السَّتْرِ ، وَلَكِنَّ الدَّلَالَةَ قَدْ قَامَتْ عَلَى جَوَازِ الطَّوَافِ مَعَ النَّهْيِ كَمَا يَجُوزُ الْإِحْرَامُ مَعَ السَّتْرِ وَإِنْ كَانَ مَنْهِيًّا عَنْهُ ، وَلَمْ تَقُمْ الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ الصَّلَاةِ عُرْيَانًا ؛ وَلِأَنَّ تَرْكَ بَعْضِ فُرُوضِ الصَّلَاةِ يُفْسِدُهَا مِثْلُ الطَّهَارَةِ وَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ ، وَتَرْكُ بَعْضِ فُرُوضِ الْإِحْرَامِ لَا يُفْسِدُهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الْإِحْرَامَ فِي الْوَقْتِ ثُمَّ أَحْرَمَ صَحَّ إحْرَامُهُ ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَحْرَمَ وَهُوَ مُجَامِعٌ لِامْرَأَتِهِ وَقَعَ إحْرَامُهُ ، فَصَارَ الْإِحْرَامُ آكَدًا فِي بَقَائِهِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِحْرَامِ فَوَجَبَ أَنْ لَا يُفْسِدَهُ تَرْكُ السَّتْرِ وَلَا يَمْنَعُ وُقُوعَهُ .

وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ

حُكْمَ الْآيَةِ غَيْرُ مَقْصُورٍ عَلَى الطَّوَافِ وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الصَّلَاةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ وَالطَّوَافُ مَخْصُوصٌ بِمَسْجِدٍ وَاحِدٍ وَلَا يُفْعَلُ فِي غَيْرِهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُ الصَّلَاةُ الَّتِي تَصِحُّ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ حَدِيثُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يُصَلِّ أَحَدُكُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ لَيْسَ عَلَى فَرْجِهِ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ .

(23/268)

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ حَائِضٍ إلَّا بِخِمَارٍ ﴾ فَنَفَى قَبُولَهَا لِمَنْ بَلَغَتْ الْحَيْضَ فَصَلَّتْهَا مَكْشُوفَةَ الرَّأْسِ ، كَمَا نَفَى قَبُولَهَا مَعَ عَدَمِ الطَّهَارَةِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ﴾ فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ مِنْ فُرُوضِهَا .

وَأَيْضًا قَدْ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِسَتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ ؛ وَلِذَلِكَ يَأْمُرُهُ مُخَالِفُنَا بِإِعَادَتِهَا فِي الْوَقْتِ ، فَإِذَا كَانَ مَأْمُورًا بِالسَّتْرِ وَمَنْهِيًّا عَنْ تَرْكِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ فُرُوضِ الصَّلَاةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ مَأْخُوذٌ عَنْ الْآيَةِ وَأَنَّ الْآيَةَ قَدْ أُرِيدَ بِهَا السَّتْرُ فِي الصَّلَاةِ ، وَالثَّانِي : أَنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي فَسَادَ الْفِعْلِ إلَّا أَنْ تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى الْجَوَازِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَوْ كَانَ السَّتْرُ مِنْ فُرُوضِ الصَّلَاةِ لَمَا جَازَتْ الصَّلَاةُ مَعَ عَدَمِهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ إلَّا بِبَدَلٍ يَقُومُ مَقَامَهُ مِثْلُ الطَّهَارَةِ ، فَلَمَّا جَازَتْ صَلَاةُ الْعُرْيَانِ إذَا لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ عَلَى

السَّتْرِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرْضِهِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا سُؤَالٌ سَاقِطٌ لِاتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى جَوَازِ صَلَاةِ الْأُمِّيِّ وَالْأَخْرَسِ مَعَ عَدَمِ الْقِرَاءَةِ مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ عَنْهَا ، وَلَمْ يُخْرِجْهَا ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فَرْضًا .

(24/268)

وَزَعَمَ بَعْضُ مَنْ يَحْتَجُّ لِمَالِكٍ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الثَّوْبُ مِنْ عَمَلِ الصَّلَاةِ وَمِنْ فَرْضِهَا لَوَجَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْوِيَ بِلُبْسِ الثَّوْبِ أَنَّهُ لِلصَّلَاةِ كَمَا يَنْوِي بِالِافْتِتَاحِ أَنَّهُ لِتِلْكَ الصَّلَاةِ .

وَهَذَا كَلَامٌ وَاهٍ جِدًّا فَاسِدُ الْعِبَارَةِ مَعَ ضَعْفِ الْمَعْنَى وَذَلِكَ لِأَنَّ الثَّوْبَ لَا يَكُونُ مِنْ عَمَلِ الصَّلَاةِ وَلَا مِنْ فُرُوضِهَا وَلَكِنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ مِنْ شُرُوطِهَا الَّتِي لَا تَصِحُّ إلَّا بِهِ كَالطَّهَارَةِ ، كَمَا أَنَّ اسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ مِنْ شُرُوطِهَا ، وَلَا يَحْتَاجُ الِاسْتِقْبَالُ إلَى نِيَّةٍ ، وَالطَّهَارَةُ مِنْ شُرُوطِهَا وَلَا تَحْتَاجُ عِنْدَنَا إلَى نِيَّةٍ ، وَالْقِيَامُ فِي حَالِ الِافْتِتَاحِ مِنْ فُرُوضِهَا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا يَحْتَاجُ إلَى نِيَّةٍ ، وَالْقِيَامُ وَالْقِرَاءَةُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ بَعْدَ الِافْتِتَاحِ مِنْ فُرُوضِهَا وَلَا يَحْتَاجُ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إلَى نِيَّةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : لِأَنَّ نِيَّةَ الصَّلَاةِ قَدْ أَغْنَتْ عَنْ تَجْدِيدِ النِّيَّةِ لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ .

قِيلَ لَهُ : وَكَذَلِكَ نِيَّةُ الصَّلَاةِ قَدْ أَغْنَتْ عَنْ تَجْدِيدِ نِيَّةٍ لِلسَّتْرِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَنْدُوبٌ فِي حُضُورِ الْمَسْجِدِ إلَى أَخْذِ ثَوْبٍ نَظِيفٍ مِمَّا يَتَزَيَّنُ بِهِ ؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ نُدِبَ إلَى ذَلِكَ فِي الْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ ﴾ ، كَمَا ﴿ أَمَرَ بِالِاغْتِسَالِ لِلْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ ﴾ .

(25/268)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الْآيَةُ ظَاهِرُهُ يُوجِبُ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مِنْ غَيْرِ إسْرَافٍ ؛ وَقَدْ أُرِيدَ بِهِ الْإِبَاحَةُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالْإِيجَابُ فِي بَعْضِهَا ، فَالْحَالُ الَّتِي يَجِبُ فِيهَا الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ هِيَ الْحَالُ الَّتِي يَخَافُ أَنْ يَلْحَقَهُ ضَرَرٌ يَكُونُ تَرْكُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ يُتْلِفُ نَفْسَهُ أَوْ بَعْضَ أَعْضَائِهِ أَوْ يُضْعِفُهُ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يَأْكُلَ مَا يَزُولُ مَعَهُ خَوْفُ الضَّرَرِ ؛ وَالْحَالُ الَّتِي هُمَا مُبَاحَانِ فِيهَا هِيَ الْحَالُ الَّتِي لَا يَخَافُ فِيهَا ضَرَرًا بِتَرْكِهَا .

وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي جَوَازَ أَكْلِ سَائِرِ الْمَأْكُولَاتِ وَشُرْبِ سَائِرِ الْأَشْرِبَةِ مِمَّا لَا يَحْظُرُهُ دَلِيلٌ بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونَ مُسْرِفًا فِيمَا يَأْتِيهِ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ أَطْلَقَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ عَلَى شَرِيطَةِ أَنْ لَا يَكُونَ مُسْرِفًا فِيهِمَا .

(26/268)

وَالْإِسْرَافُ هُوَ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الِاسْتِوَاءِ ، فَتَارَةً يَكُونُ بِمُجَاوَزَةِ الْحَلَالِ إلَى الْحَرَامِ وَتَارَةً يَكُونُ بِمُجَاوَزَةِ الْحَدِّ فِي الْإِنْفَاقِ فَيَكُونُ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ وَالْإِسْرَافُ وَضِدُّهُ مِنْ الْإِقْتَارِ مَذْمُومَانِ ، وَالِاسْتِوَاءُ هُوَ التَّوَسُّطُ ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ دَيْنُ اللَّهِ بَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْغَالِي ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وَقَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ وَقَدْ يَكُونُ الْإِسْرَافُ فِي الْأَكْلِ أَنْ يَأْكُلَ فَوْقَ الشِّبَعِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إلَى الضَّرَرِ ، فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ أَيْضًا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(27/268)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا

يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

فِيهَا إحْدَى عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي نُزُولِهَا : قِيلَ : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، أُمِرُوا بِاللِّبَاسِ وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالزَّجَّاجُ : نَزَلَتْ فِي سَتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ ، وَهَذَا لَيْسَ يُدَافِعُ الْأَوَّلَ ؛ لِأَنَّ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ صَلَاةٌ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانَةً فَتَقُولُ : مَنْ تُعِيرُنِي تِطْوَافًا ؟ فَتَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وَتَقُولُ : الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ جَهْمٌ مِنْ الْجَهْمِ عَظِيمٌ ظِلُّهُ كَمْ مِنْ لَبِيبٍ عَقْلُهُ يُضِلُّهُ وَنَاظِرٍ يَنْظُرُ مَا يَمَلُّهُ فَنَزَلَتْ : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ ضُبَاعَةُ بِنْتُ عَامِرِ بْنُ قُرْطٍ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، إلَّا الْحُمْسَ : قُرَيْشٌ وَأَحْلَافُهُمْ ، فَمَنْ جَاءَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَضَعَ ثِيَابَهُ وَطَافَ فِي ثَوْبٍ أَحْمَسِيٍّ ، فَيَحِلُّ أَنْ يَلْبَسَ ثِيَابَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِيرُهُ مَا يَلْبَسُ مِنْ الْحُمْسِ فَإِنَّهُ يُلْقِي ثَوْبَهُ وَيَطُوفُ عُرْيَانًا ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَ أَلَّا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ﴾ .

فَنُودِيَ بِهَا فِي الْمَوْسِمِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي سَبَبِ فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لِذَلِكَ : إنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ رَأَتْ رَأْيًا تَكِيدُ بِهِ الْعَرَبَ ، فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ لَا تُعَظِّمُوا شَيْئًا مِنْ الْبُلْدَانِ كَتَعْظِيمِ حَرَمِكُمْ ، فَتَزْهَدَ الْعَرَبُ ؛ فِي حَرَمِكُمْ إذَا رَأَوْكُمْ قَدْ

(29/268)

عَظَّمْتُمْ مِنْ الْبُلْدَانِ غَيْرَهُ كَتَعْظِيمِهِ ، فَعَظِّمُوا أَمْرَكُمْ فِي الْعَرَبِ ؛ فَإِنَّكُمْ وُلَاةُ الْبَيْتِ وَأَهْلُهُ دُونَ النَّاسِ ؛ فَوَضَعُوا لِذَلِكَ الْأَمْرِ أَنْ قَالُوا : نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ ، فَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُعَظِّمَ غَيْرَهُ ، وَلَا نَخْرُجَ مِنْهُ ؛ فَكَانُوا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ دُونَ عَرَفَةَ ؛ لِأَنَّهَا خَارِجٌ مِنْ الْحَرَمِ ، وَكَانَتْ سُنَّةَ إبْرَاهِيمَ وَعَهْدًا مِنْ عَهْدِهِ ، ثُمَّ قَالُوا : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إلَّا فِي ثِيَابِنَا ، وَلَا يَأْكُلَ إذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إلَّا مِنْ طَعَامِنَا ، وَلَا يَأْكُلَ الْأَقِطَ ، وَلَا يَسْتَظِلَّ بِالْأَدَمِ إلَّا الْحُمْسُ ، وَهُمْ قُرَيْشٌ ، وَمَا وَلَدَتْ مِنْ الْعَرَبِ وَمَنْ كَانَ يَلِيهَا مِنْ حُلَفَائِهَا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ؛ فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ

الْعَرَبِ أَوْ الْمَرْأَةُ يَأْتِيَانِ حَاجَّيْنِ ، حَتَّى إذَا أَتَيَا الْحَرَمَ وَضَعَا ثِيَابَهُمَا وَزَادَهُمَا ، وَحَرُمَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَدْخُلَا مَكَّةَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ : فَإِنْ كَانَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ صَدِيقٌ مِنْ الْحُمْسِ اسْتَعَارَ مِنْ ثِيَابِهِ وَطَافَ بِهَا ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ صَدِيقٌ مِنْهُمْ ، وَكَانَ لَهُ يَسَارٌ اسْتَأْجَرَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ الْحُمْسِ ثِيَابَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ صَدِيقٌ وَلَا يَسَارٌ يَسْتَأْجِرُ بِهِ كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا ، وَإِمَّا أَنْ يَتَكَرَّمَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا فَيَطُوفَ فِي ثِيَابِهِ ؛ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَلْقَى ثَوْبَهُ عَنْهُ ، فَلَمْ يَمَسَّهُ ، وَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّى اللَّقَى قَالَ قَائِلٌ

(30/268)

مِنْ الْعَرَبِ : كَفَى حَزَنًا كَرِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقًى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيمُ وَإِنْ كَانَتْ امْرَأَةٌ وَلَمْ تَجِدْ مَنْ يُعِيرُهَا وَلَا كَانَ لَهَا يَسَارٌ تَسْتَأْجِرُ بِهِ [خَلَعَتْ] ثِيَابَهَا كُلَّهَا إلَّا دِرْعًا مُفْرَدًا ، ثُمَّ طَافَتْ فِيهِ ؛ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْعَرَبِ كَانَتْ جَمِيلَةً تَامَّةً ذَاتَ هَيْئَةٍ وَهِيَ تَطُوفُ : الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْزَلَ فِيمَنْ كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَوَضَعَ اللَّهُ مَا كَانَتْ قُرَيْشٌ ابْتَدَعَتْ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي تَرْكِهِمْ الْوُقُوفَ بِعَرَفَةَ : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ قُرَيْشًا وَمَنْ كَانَ عَلَى دِينِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي سَتْرِ الْعَوْرَةِ ، هَلْ هِيَ فَرْضٌ فِي الصَّلَاةِ أَمْ مُسْتَحَبَّةٌ ؟ فَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ فَقَالُوا : إنَّهَا فَرْضٌ فِيهَا .

وَأَمَّا مَالِكٌ فَالْمَشْهُورُ مِنْ قَوْلِهِ أَنَّهَا فَرْضٌ إسْلَامِيٌّ لَا تَخْتَصُّ بِالصَّلَاةِ ؛ وَهُوَ أَشْهَرُ أَقْوَالِنَا .

وَالْقَوْلُ الْآخَرُ مِثْلُ قَوْلِ مَنْ تَقَدَّمَ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِمَا ثَبَتَ مِنْ ﴿ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ ﴾ ، وَالْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فَرْضًا إسْلَامِيًّا فَإِنَّهُ يَتَأَكَّدُ فِي الصَّلَاةِ .

(31/268)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْعَوْرَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : الْأَوَّلُ : جَمِيعُ الْبَدَنِ ؛ فَيَجِبُ سَتْرُهُ فِي الصَّلَاةِ ؛ قَالَهُ أَبُو الْفَرَجِ عَنْهُ .

الثَّانِي : أَنَّهَا مِنْ السُّرَّةِ إلَى الرُّكْبَةِ وَلَا خِلَافَ فِيهِ ؛ إنَّمَا الْخِلَافُ وَهُوَ الْقِسْمُ الثَّالِثُ فِي أَنَّ مَا زَادَ عَلَى الْقُبُلِ وَالدُّبُرِ هَلْ هُوَ عَوْرَةٌ مُثَقَّلَةٌ أَوْ مُخَفَّفَةٌ ؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا وَأَبُو حَنِيفَةَ : إنَّ الْقُبُلَ وَالدُّبُرَ عَوْرَةٌ مُثَقَّلَةٌ ، وَالْفَخِذَ عَوْرَةٌ مُخَفَّفَةٌ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْفَخِذَ لَيْسَ بِعَوْرَةٍ ؛ ﴿ لِأَنَّهَا ظَهَرَتْ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ جَرَى فِي زُقَاقِ خَيْبَرَ ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصِلُهَا بِأَفْخَاذِ أَصْحَابِهِ ، وَلَوْ كَانَتْ عَوْرَةً مَا وَصَلَهَا بِهَا ﴾ .

قَالَ زَيْدٌ : ﴿ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي ﴾ ، أَمَّا إنَّهُ يُكْرَهُ كَشْفُهَا فَإِنَّ مَالِكًا وَغَيْرَهُ قَدْ رَوَى حَدِيثَ جَرْهَدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : ﴿ غَطِّ فَخِذَك ؛ فَإِنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ ﴾ ؛ وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ " قَوْله تَعَالَى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ وَإِنْ كَانَ وَارِدًا عَلَى طَوَافِ الْعُرْيَانِ ، فَإِنَّهُ عِنْدَنَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ لِلصَّلَاةِ ؛ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الطَّوَافَ ؛ لِأَنَّ الطَّوَافَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ .

(32/268)

وَالَّذِي يَعُمُّ كُلَّ مَسْجِدٍ هُوَ الصَّلَاةُ ، وَهَذَا قَوْلُ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ مَقَاصِدُ اللُّغَةِ وَالشَّرِيعَةِ .

وَبَيَانُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً فِي الْمَسْجِدِ فَنَزَلَتْ : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، لِيَكُونَ الْعُمُومُ شَامِلًا لِكُلِّ مَسْجِدٍ ، وَالسَّبَبُ الَّذِي أَثَارَ ذَلِكَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي أَفْضَلِ

الْمَسَاجِدِ ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ هُمْ أَرْبَابُ اللُّغَةِ وَالشَّرِيعَةِ أَخْبَرُوا بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِمْ نِظَامُ الْكَلَامِ ، وَلَا كَيْفَ كَانَ وُرُودُهُ ، اجتزءوا بِوُرُودِ الْآيَةِ وَمَنْحَاهَا ، فَلَا مَطْمَعَ لِعَالِمٍ فِي أَنْ يَسْبِقَ شَأْوَهُمْ فِي تَفْسِيرٍ أَوْ تَقْدِيرٍ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : ظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ الْوُرُودُ بِأَخْذِ الزِّينَةِ لِلْفِعْلِ الْوَاقِعِ فِي الْمَسْجِدِ ، تَعْظِيمًا لِلْمَسْجِدِ ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُوبِ السَّتْرِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ ، فَزَادَ النَّاسُ ، فَقَالُوا : " هَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْفِعْلِ لِلْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالسَّتْرِ فِي الْمَسْجِدِ لِبَيْنِ الْمَسْجِدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلْفِعْلِ الْوَاقِعِ فِي الْمَسْجِدِ .

وَالْفِعْلُ الْوَاقِعُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : طَوَافٍ ، وَلَا يَعُمُّ كُلَّ مَسْجِدٍ وَاعْتِكَافٍ ، وَلَمْ يَشْرُفْ لِأَجْلِهِ ؛ فَلَمْ يَبْقَ إلَّا الصَّلَاةُ ؛ وَقَدْ أُلْزِمَ السَّتْرَ لَهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ شَرْطًا فِيهَا .

(33/268)

وَقَدْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى سُقُوطِ مَا زَادَ عَلَى الْعَوْرَةِ ، وَبَقِيَ مَا قَابَلَ الْعَوْرَةَ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ هَذَا مِنْ قَبْلُ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالزِّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِأَجْلِ مَا فِيهِ مِنْ اجْتِمَاعِ النَّاسِ .

فَإِنْ قِيلَ : وَيَجْتَمِعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .

قُلْنَا : لَيْسَ ذَلِكَ اجْتِمَاعًا مَشْرُوعًا ؛ بَلْ يَجُوزُ تَفَرُّقُهُمْ .

وَهَا هُنَا إنْ تَفَرَّقُوا فِي الْمَسَاجِدِ كَانَ ذَلِكَ قَطْعًا لِلْجَمَاعَةِ ، وَخَرْقًا لِلصُّفُوفِ ؛ إذْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ ، وَلَا الْمَرْأَةُ إلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ ﴾ .

خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إنَّ الطَّوَافَ لَا يَعُمُّ كُلَّ مَسْجِدٍ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْجَوَابُ عَنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إذَا قُلْنَا : إنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ فَرْضٌ فِي الصَّلَاةِ فَسَقَطَ ثَوْبُ إمَامٍ فَانْكَشَفَ دُبُرُهُ ، وَهُوَ رَاكِعٌ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَغَطَّاهُ أَجْزَأَهُ ؛ قَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ .

وَقَالَ سَحْنُونٌ : وَكُلُّ مَنْ نَظَرَ إلَيْهِ مِنْ الْمَأْمُومِينَ أَعَادَ .

وَقَدْ رَوَى سَحْنُونٌ أَنَّهُ يُعِيدُ ، وَيُعِيدُونَ ؛ لِأَنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ ، فَإِذَا بَطَلَ بَطَلَتْ الصَّلَاةُ أَصْلُهُ الطَّهَارَةُ .

فَهَذَا طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ النَّظَرِ .

وَأَمَّا أَنْ يُقَالَ : إنَّ صَلَاتَهُمْ لَا تَبْطُلُ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْقِدُوا شَرْطًا .

(34/268)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنْ أَخَذَهُ مَكَانَهُ صَحَّتْ صَلَاتُهُ وَتَبْطُلُ صَلَاةُ مَنْ نَظَرَ إلَيْهِ ، فَصَحِيفَةٌ يَجِبُ مَحْوُهَا ، وَلَا يَجُوزُ الِاشْتِغَالُ بِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إذَا صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ أَوْ كَانَ إمَامًا فَلَا يُصَلِّي إلَّا بِرِدَائِهِ أَوْ شَيْءٍ يَجْعَلُهُ عَلَى مَنْكِبِهِ ، وَلَوْ طَرَفَ عِمَامَةٍ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ الزِّينَةِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكَذَلِكَ قَالَتْ طَائِفَةٌ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : إنَّهُ يُصَلِّي فِي نَعْلَيْهِ ؛ وَقَدْ رَوَى أَنَسٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ قَالُوا : ﴿ صَلُّوا فِي النِّعَالِ ﴾ ، وَلَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : هَذَا خِطَابٌ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، إلَّا أَنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي الْعَوْرَةِ ، فَعَوْرَةُ الرَّجُلِ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، وَعَوْرَةُ الْمَرْأَةِ جَمِيعُ بَدَنِهَا إلَّا وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا ، وَفِي الْمُصَنِّفِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا تُقْبَلُ صَلَاةُ حَائِضٍ إلَّا بِخِمَارٍ ﴾ .

وَهَذَا فِي الْحُرَّةِ ؛ ثَبَتَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﴿ أَنَّهَا سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَتُصَلِّي الْمَرْأَةُ فِي دِرْعٍ وَخِمَارٍ لَيْسَ عَلَيْهَا إزَارٌ ؟ قَالَ : إذَا كَانَ الدِّرْعُ سَابِغًا يُغَطِّي ظُهُورَ قَدَمَيْهَا ﴾ ، فَأَمَّا الْأَمَةُ فَإِنَّهَا تُصَلِّي كَمَا تَمْشِي حَاسِرَةَ الرَّأْسِ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : تَسْتُرُ فِي الصَّلَاةِ مَا يَسْتُرُ الرَّجُلُ ، حَتَّى لَوْ انْكَشَفَ بَطْنُهَا لَمْ يَضُرَّهَا .

وَقَالَ أَصْبَغُ : إنْ انْكَشَفَتْ فَخِذُهَا أَعَادَتْ فِي الْوَقْتِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الْإِسْرَافُ : تَعَدِّي الْحَدِّ ؛ فَنَهَاهُمْ عَنْ تَعَدِّي الْحَلَالِ إلَى الْحَرَامِ .

وَقِيلَ : أَلَّا يَزِيدُوا عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَقِيلَ : هُوَ حَرَامٌ .

وَقِيلَ : هُوَ مَكْرُوهٌ ؛ وَهُوَ الْأَصَحُّ ؛ فَإِنَّ قَدْرَ الشِّبَعِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبُلْدَانِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَسْنَانِ وَالطِّعْمَانِ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ لِرَجُلٍ كَافِرٍ بِحِلَابِ سَبْعِ شِيَاهٍ ، فَشَرِبَهَا ثُمَّ آمَنَ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ حَلْبِ شَاةٍ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ ﴾ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ لَمَّا تَنَوَّرَ بِالتَّوْحِيدِ نَظَرَ إلَى الطَّعَامِ بِعَيْنِ التَّقْوَى عَلَى الطَّاعَةِ ، فَأَخَذَ مِنْهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ ، وَحِينَ كَانَ مُظْلِمًا بِالْكُفْرِ كَانَ أَكْلُهُ كَالْبَهِيمَةِ تَرْتَعُ حَتَّى تَثْلِطَ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ : إنَّ الْأَمْعَاءَ السَّبْعَةَ كِنَايَةٌ عَنْ أَسْبَابٍ سَبْعَةٍ يَأْكُلُ بِهَا النَّهِمُ : يَأْكُلُ لِلْحَاجَةِ ، وَالْخَبَرِ ، وَالنَّظَرِ ، وَالشَّمِّ ، وَاللَّمْسِ ، وَالذَّوْقِ ، وَيَزِيدُ اسْتِغْنَامًا .

وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي شَرْحِ الصَّحِيحِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(36/268)

وقال القرطبى :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ ﴾ هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً ؛ فإنه عامٌّ في كل مسجد للصلاة .

لأن العبرة للعُموم لا للسّبب .

ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف ؛ لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد ، والذي يعم كل مسجد هو الصلاة .

وهذا قول مَن خفي عليه مقاصد الشريعة .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول : من يُعِيرُني تِطْوَافاً ؟ تجعله على فرجها .

وتقول :

اليومَ يَبْدُو بعضُه أو كلّه . . .

وما بَدَا منه فلا أُحِلّه

فنزلت هذه الآية : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

التِّطْواف (بكسر التاء) .

وهذه المرأة هي ضُباعة بنت عامر بن قُرْط ؛ قاله القاضي عياض .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس ، والحُمْسُ قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تعطيهم الحُمْسُ ثياباً فيعطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ .

وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدَلِفة ، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات .

في غير مسلم : ويقولون نحن أهل الحَرَم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا .

فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوباً ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين :

إما أن يطوف بالبيت عُرياناً ، وإما أن يطوف في ثيابه ؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد .

وكان ذلك الثوب يسمى اللَّقَى ؛ قال قائل من العرب :

كَفَى حَزَنا كَرِيّ عليه كأنّه . . .

لَقًى بين أيدي الطائفين حَرِيمُ

(37/268)

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ الآية .

وأذَّن مؤذِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا لا يطوف بالبيت عُرْيَان " .

قلت : ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال ؛ لما رواه كُرْز بن وَبْرَة عن عطاء عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : " "خذوا زينة الصلاة" قيل : وما زينة الصلاة ؟ قال : "البسوا نعالكم فَصلّوا فيها" " .

الثانية دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدّم .

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة .

وقال الأبهرِيّ هي فرض في الجملة ، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها .

وهو الصحيح ؛ ل " قوله عليه السلام لِلْمِسْوَر بن مَخْرَمَة : "ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عُراة" "

أخرجه مسلم .

وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ستر العورة من سُنَن الصلاة ، واحتج بأنه لو كان فرضاً في الصلاة لكان العُريان لا يجوز له أن يصلي ؛ لأن كل شيء من فروض الصلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه ، أو بدله مع عدمه ، أو تسقط الصلاة جملة ، وليس كذلك .

قال ابن العربيّ : وإذا قلنا أن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوب إمامٍ فانكشف دُبُره وهو راكع فرفع رأسه فغطّاه أجزأه ؛ قاله ابن القاسم .

وقال سُحْنون : وكل من نظر إليه من المأمومِين أعاد .

وروى عن سحنون أيضاً : أنه يعيد ويعيدون ؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة ، فإذا ظهرت بطلت الصلاة أصله الطهارة قال القاضي ابن العربيّ : أما من قال إن صلاتهم لا تبطل فإنهم لم يفقدوا شرطاً ، وأما من قال إنْ أخذه مكانه صَحّت صلاته وتبطل صلاة من نظر إليه فصحيفة يجب محوها ولا يجوز الاشتغال بها .

وفي البخارِيّ والنسائِيّ عن عمرو بن سلمة قال : لما رجع قومي من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا قال : " ليؤمكم أكثركم قراءة للقرآن " قال : فدعوني فعلَّموني الركوع والسجود ؛ فكنت أُصلِّي بهم وكانت عليَّ بردة مفتوقة ، وكانوا يقولون لأبي : ألا تُغَطِّي عنا است ابنك .

لفظ النسائيّ .

وثبت عن سهل بن سعد قال : لقد كانت الرجال عاقدي أَزُرِهم في أعناقهم من ضيق الأُزُر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة كأمثال الصبيان ؛ فقال قائل : يا معشر النساء ، لا ترفعن رؤوسكن حتى ترفع الرجال .

أخرجه البخارِيّ والنسائِي وأبو داود .

الثالثة واختلفوا إذا رأى عورة نفسه ؛ فقال الشافعيّ : إذا كان الثوب ضيقاً يُزرّه أو يخلِّله بشيء لئلا يتجافى القميص فتُرى من الجيب العورة ، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة .

وهو قول أحمد .

ورخّص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار ، ليس عليه سراويل .

وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور .

وكان سالِم يُصلي محلول الأزرار .

وقال داود الطائي : إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به .

وحكى معناه الأَثْرم عن أحمد .

فإن كان إماماً فلا يصلي إلا بردائه ؛ لأنه من الزينة .

وقيل : من الزينة الصلاة في النعلين ؛ رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصحّ .

وقيل : زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه .

قال أبو عمر : لكل شيء زينة وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي .

وقال عمر رضي الله عنه : إذا وَسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم ، جمع رجل عليه ثيابه ، صلَّى في إزار ورِداء ، في إزار وقميص ، في إزار وقَبَاء ، في سراويل ورداء ، في سراويل وقميص ، في سراويل وقَباء وأحسبه قال : في تُبَّان وقميص في تُبَّان ورداء ، في تُبَّان وقَباء .

رواه البخارِيّ والدارقطنِيّ .

(39/268)

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا ﴾ قال ابن عباس : أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مَخِيلة .

فأمّا ما تدعو الحاجة إليه ، وهو ما سدّ الجَوْعة وسكَّن الظّمأ ، فمندوب إليه عقلاً وشرعاً ، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ؛ ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال ؛ لأنه يُضعف الجسد ويُميت النفس ، ويُضعف عن العبادة ، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل .

وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظٌّ من بِرٍّ ولا نصيب من زهد ؛ لأن ما حرِمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجراً .

وقد اختلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين : فقيل حرام ، وقيل مكروه .

قال ابن العربيّ : وهو الصحيح ؛ فإن قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطّعمان .

ثم قيل : في قِلّة الأكل منافع كثيرة ؛ منها أن يكون الرجل أصح جسماً وأجود حِفظاً وأزكى فهما وأقل نوماً وأخف نفساً .

وفي كثرة الأكل كَظّ المعدة ونتن التُّخْمة ، ويتولّد منه الأمراض المختلفة ، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل .

وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء .

وقد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بياناً شافياً يُغنِي عن كلام الأطباء فقال : " ما ملأ آدميٌّ وعاء شراً من بطن بحسْب ابن آدم لُقيمات يقمن صُلْبَه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلث لنفسَه " خرّجه الترمذيّ من حديث المِقْدام بن مَعْدِي كرِب .

قال علماؤنا : لو سمع بُقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة .

ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانيّ حاذق فقال لعليّ بن الحسين : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان .

فقال له عليّ : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا .

فقال له : ما هي ؟ قال قوله عز وجل : ﴿ وكُلُواْ واشربوا ولَا تسرفوا ﴾ .

(40/268)

فقال النصرانيّ : ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب .

فقال عليّ : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة .

قال : ما هي ؟ قال : " المِعدة بيت الأدواء والحِمْيَةُ رأسُ كلّ دواء وأعط كل جسد ما عوّدته " فقال النصرانيّ : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبّاً .

قلت : ويقال إن معالجة المريض نصفان : نصفٌ دواءٌ ونصف حِمْية .

فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصَحّ ، وإلاّ فالحِمية به أولى ؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية .

ولقد تنفع الحِمية مع ترك الدواء .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أصل كل دواء الحِمية " والمعنيّ بها والله أعلم أنها تغني عن كلّ دواء ؛ ولذلك يقال : إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية ، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدّةَ أيام فيبرأ ويصح .

الخامسة روى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في مِعًى واحد " وهذا منه صلى الله عليه وسلم حضٌّ على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغَة .

وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته .

كما قال قائلهم :

تكفيه فِلْذةِ كبْد إن أَلَمّ بها . . .

من الشّواء ويُرْوي شُرْبُهُ الغُمَرُ

وقالت أُمّ زَرْع في ابن أبي زرع : ويُشبعه ذراعُ الجفْرَة .

وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل :

فإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤْلَه . . .

وفرجَك نالا مُنتهى الذَّمّ أجمعا

وقال الخَطّابيّ : معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " المؤمنُ يأكل في مِعًى واحد " أنه يتناول دون شبعه ، ويؤثِر على نفسه ويُبقي من زاده لغيره ؛ فيقنعه ما أكل .

والتأويل الأوّل أولى والله أعلم .

وقيل في قوله عليه السلام : " والكافر يأكل في سبعة أمعاء " ليس على عمومه ؛ لأن المشاهدة تدفعه ، فإنه قد يوجد كافر أقلّ أكلاً من مؤمن ، ويُسلم الكافرُ فلا يَقِلّ أكله ولا يزيد .

وقيل : هو إشارة إلى معيَّن .

(41/268)

ضاف النبيّ صلى الله عليه وسلم ضيفٌ كافر يقال : إنه الجَهْجَاه الغِفارِيّ .

وقيل : ثُمَامة بن أثَال .

وقيل : نَضْلة بن عمرو الغِفَاريّ .

وقيل : بَصْرة بن أبي بصرة الغِفاريّ .

فشرب حِلاَب سبع شياهٍ ، ثم إنه أصبح فأسلم فشرِب حلاب شاةٍ فلم يَستتمّه ؛ فقال

النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك .

فكأنه قال هذا الكافر .

والله أعلم .

وقيل : إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوِّي على الطاعة ، فأخذ منه قدر الحاجة ، وحين كان مُظلِماً بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تَثْلِط .

واختلف في هذه الأمعاء ، هل هي حقيقة أم لا ؟ فقيل : حقيقة ، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح .

وقيل : هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النَّهِم : يأكل للحاجة والخبر والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغناماً .

وقيل : المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء .

والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا مِعًى واحد ؛ فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله ، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله .

والمِعَى في هذا الحديث هو المعدة .

السادسة : وإذا تقرّر هذا فاعلم أنه يستحب للإنسان غسلُ اليد قبل الطعام وبعده ؛ لقوله عليه السلام : " الوضوء قبل الطعام وبعده بركة " وكذا في التوراة .

رواه زَاذَان عن سَلْمان .

وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة .

والاقتداء بالحديث أوْلى .

ولا يأكل طعاماً حتى يعرف أحارًّا هو أم بارداً ؟ فإنه إن كان حارًّا فقد يتأذّى .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَبْرِدُوا بالطعام فإن الحارّ غيرُ ذي بركة " حديث صحيح .

وقد تقدّم في "البقرة" .

ولا يشمّه فإن ذلك من عمل البهائم ، بل إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه ، ويصغّر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يُعَدّ شَرِها .

ويُسمّي الله تعالى في أوّله ويحمده في آخره .

ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل ؛ لأن في رفع الصوت منْعاً لهم من الأكل .

(42/268)

وآداب الأكل كثيرة ، هذه جملة منها .

وسيأتي بعضها في سورة "هود" إن شاء الله تعالى .

وللشراب أيضاً آداب معروفة ، تركنا ذكرها لشهرتها .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله " .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تسرفوا ﴾ أي في كثرة الأكل ، وعنه يكون كثرة الشُّرب ، وذلك يثقل المعدة ، ويثبّط المعدة ، ويثبّط الإنسان عن خدمة ربّه ، والأخذِ بحظه من نوافل الخير .

فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حُرم عليه ، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه .

روى أسد بن موسى من حديث عون بن أبي جُحَيْفَة عن أبيه قال : أكلت ثريداً بلحم سمين ، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أَتجشّى ؛ فقال : " اكفف عليك من جُشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شِبَعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة " فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا ، وكان إذا تغدّى لا يتعشى ، وإذا تعشّى لا يتغدّى .

قلت : وقد يكون هذا معنى قولِه عليه السلام : " المؤمن يأكل في مِعًى واحد " أي التام الإيمان ؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه كأبي جحيفة تفكر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده ؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته .

والله أعلم .

وقال ابن زيد : معنى "وَلاَ تَسْرِفُوا" لا تأكلوا حراماً .

وقيل : "مِن السرف أن تأكل كل ما اشتهيت" رواه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خرّجه ابن ماجه في سننه .

وقيل : من الإسراف الأكل بعد الشبع .

وكل ذلك محظور .

وقال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تأكل شبعاً فوق شبع ، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله .

وسأل سَمُرة بن جُنْدُب عن ابنه ما فعل ؟ قالوا : بشِم البارحة .

قال : بشما فقالوا : نعم .

قال : أما إنه لو مات ما صليت عليه .

(43/268)

وقيل : إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسِماً في أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عراة .

فقيل لهم : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا ﴾ أي لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرّم عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال " كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافاً تجعله على فرجها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . .

وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل " وذكر الحديث زاد في رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا .

وقال مجاهد : كان حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجاً أو معتمراً يقول لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرني مئزراً فإن قدر عليه وإلا طاف عرياناً فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد .

وقال الزهري : إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس وهم قريش وأحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف في ثوب أحمسي ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه ويطوف عرياناً وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه وحرمها أي جعلها حراماً عليه فلذلك قال الله تعالى : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة .

قال مجاهد : ما يواري عوراتكم ولو عباءة .

وقال الكلبي : الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة وقوله تعالى : خذوا زينتكم ، أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على أن ستر العورة واجب في الصلاة والطاواف وفي كل حال .

(45/268)

وقوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ قال الكلبي كانت بنوا عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعني الدسم واللحم ﴿ ولا تسرفوا ﴾ يعني بتحريم ما لم يحرمه الله من أكل اللحم والدسم ، قال ابن عباس رضي الله

عنهما : "كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأ بك خصلتان سرف ومخيلة" وقال علي بن الحسين بن واقد : قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وفي الآية دليل على أن جميع المطعومات والمشروبات حلال إلا ما خصه الشرع دليل في التحريم لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ يعني أن الله تعالى لا يحب من إسراف المأكول والمشروب والملبوس وفي هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء لأن محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وأيضاً .

وإيصال الثواب إليه وإلا لم يحبه علم أنه تعالى ليس هو راض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الإسراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(46/268)

وقال أبو حيان :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل ﴾

كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة وكانوا لا يأكلون في أيام حجهم دسماً ولا ينالون من

الطعام إلاّ قوتاً تعظيماً لحجهم فنزلت ، وقيل : كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه لأنهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها ، وقيل : تفاؤلاً ليتعرُّوا من الذنوب كما تعروا من الثياب .

والزينة فعلة من التزين وهو اسم ما يُتجمل به من ثياب وغيرها كقوله ﴿ وازّينت ﴾ أي بالنبات والزينة هنا المأمور بأخذها هو ما يستر العورة في الصلاة قاله مجاهد والسدّي والزجاج ، وقال طاووس الشملة من الزّينة ، وقال مجاهد : ما وارى عورتك ولو عباءة فهو زينة .

وقيل ما يستر العورة في الطّواف ، وفي صحيح مسلم عن عروة أنّ العرب كانت تطوف عراة إلا الخمس وهم قريش إلاّ أن تعطيهم الخمس ثياباً فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء وفي غير مسلم : من لم يكن له صديق بمكة يعيره ثوباً طاف عرياناً أو في ثيابه وألقاها بعد فلا يمسّها أحد ويسمّى اللقاء .

وقال بعضهم :

كفى حزناً كرى عليه كأنه . . .

لقي بين أيدي الطائفين حريم

وكانت المرأة تنشد وهي تطوف عريانة :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . .

وما بدا منه فلا أحلّه

(47/268)

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا ﴾ أذّن مؤذّن الرسول ألّا لا يحجّ البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وكان النداء بمكة سنة تسع ، وقال عطاء وأبو روق : تسريح اللحى وتنويرها بالمشط والترجيل ، وقيل : التزين بأجمل اللباس في الجمع والأعياد ذكره الماوردي ، وقيل : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام والرّكوع والرفع منه ، وقيل إقامة الصلاة في الجماعة بالمساجد وكان ذلك زينة لهم لما في الصلاة من حسن الهيئة ومشابهة صفوف الملائكة ولما فيها من إظهار الإلفة وإقامة شعائر الدين ، وقيل : ليس النّعال في الصلاة وفيه حديث عن أبي هريرة ، وقال ابن عطيّة : وما أحسبه يصحّ ، وقال أيضاً : الزّينة هنا الثّياب الساترة ويدخل فيها ما كان من الطّيب للجمعة والسّواك وبدل الثياب وكل ما أوجد استحسانه في الشّريعة ولم يقصد به الخيلاء ﴿ وعند كل مسجد ﴾ يريد عند كل موضع سجود ، فهو إشارة إلى الصّلوات وستر العورة فيها هو مهم الأمر ويدخل في الصّلاة مواطن الخير كلها ومع ستر العورة

ما ذكرنا من الطيب للجمعة انتهى .

وقال الزمخشري : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ أي ريشكم ولباس زينتكم ﴿ عند كل مسجد ﴾ كلما صلّيتم وكانوا يطوفون عراة انتهى ، والذي يظهر أنّ الزّينة هو ما يتجمل به ويتزين عند الصلاة ولا يدخل فيه ما يستر العورة لأنّ ذلك مأمور به مطلقاً ولا يختصّ بأن يكون ذلك عند كلّ مسجد ، ولفظة ﴿ كلّ مسجد ﴾ تأتي أن يكون أيضاً ما يستر العورة في الطّواف لعمومه والطّواف إنما هو الخاص وهو المسجد الحرام وليس بظاهر حمل العموم على كل بقعة منه وأيضاً فيا بني آدم عام وتقييد الأمر بما يستر العورة في الطّواف مفض إلى تخصيصه بمن يطوف بالبيت .

(48/268)

وقال أبو بكر الرازي في الآية دليل على فرض ستر العورة في الصلاة وهو قول أبي يوسف وزفر ومحمد والحسن بن زياد والشافعي لقوله : ﴿ عند كل مسجد ﴾ علق الأمر بد فدل على أنه الستر للصلاة ، وقال : مالك والليث : كشف العورة حرام ويوجبان الإعادة في الوقت استحباباً إن صلّى مكشوفها ، وقال الأبهري : هي فرض في الجملة وعلى الإنسان أن يسترها في الصلاة وغيرها وهو الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم للمسور ابن مخرمة :

" ارجع إلى قومك ولا تمشوا عراة " ، أخرجه مسلم ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ ، قال الكلبي : معناه كلوا من اللحم والدّسم واشربوا من الألبان وكانوا يحرمون جميع ذلك في الإحرام ، وقال السدّي : كلوا من البحيرة وأخواتها والظاهر أنه أمر بإباحة الأكل والشرب من كل ما يمكن أن يؤكل أو يشرب مما يحظر أكله وشربه في الشريعة وإن كان النزول على سبب خاص كما ذكروا من امتناع المشركين من أكل اللحم والدّسم أيام إحرامهم أو بني عامر دون سائر العرب من ذلك وقول المسلمين بذلك والنهي عن الإسراف يدلّ على التحريم لقوله ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

(49/268)

قال ابن عباس : الإسراف الخروج عن حد الاستواء ، وقال أيضاً ﴿ لا تسرفوا ﴾ في تحريم ما أحل لكم ، وقال أيضاً : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، وقال ابن زيد : الإسراف أكل الحرام ، وقال الزجاج الإسراف الأكل من الحلال فوق الحاجة ، وقال مقاتل : الإسراف الإشراك ، وقيل : الإسراف مخالفة أمر الله في طوافهم عراة يصفقون ويصفرون ، وقال ابن عباس أيضاً : ليس في الحلال سرف إنما السّرف في ارتكاب المعاصي ، قال ابن عطية : يريد في الحلال القصد واللفظة تقتضي

النهي عن السّرف مطلقاً فيمن تلبس بفعل حرام فتأوّل تلبسه به حصل من المسرفين وتوجه النهي عليه ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن وإن أفرط حتى دخل الضرر حصل أيضاً من المسرفين وتوجه النهي عليه ، مثال ذلك أن يفرط في شراء ثياب أو نحوها ويستنفد في ذلك حلّ ماله أو يعطي ماله أجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك أو نحوه فالله عزّ وجل لا يحبّ شيئاً من هذا وقد نهت الشريعة عنه انتهى ، وحكى المفسّرون هنا أن نصرانياً طبيباً للرشيد أنكر أن يكون في القرآن أو في حديث الرسول شيء من الطبّ فأجيب بقوله ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ بقوله " المعدة بيت الداء والحميّة رأس كل دواء " و" أعطِ كلّ بدن ما عودته " فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(50/268)

وقال أبو السعود :

﴿ يا بنى ءادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾

أي ثيابَكم لمواراة عورتِكم ﴿ عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ ﴾ أي طوافٍ أو صلاةٍ ، ومن السنة أن يأخذ الرجل أُحسنَ هيئتِه للصلاة وفيه دليل على وجوب سترِ العورة في الصلاة ﴿ وَكُلُواْ

واشربوا ﴾ مما طاب لكم . روي أن بني عامرٍ كانوا في أيام حجّهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظّمون بذلك حجهم فهمّ المسلمون بمثله فنزلت ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ بتحريم الحلالِ أو بالتعدّي إلى الحرام أو بالإفراط في الطعامِ والشّرَه عليه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كُلْ ما شئت والبَسْ ما شئت ما أخطأتْك خصلتانِ : سَرَفٌ ومَخِيلة . وقال علي بن الحسين بن واقد : (جمع الله الطبَّ في نصف آية) فقال : ﴿ كُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ أي لا يرتضي فعلَهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(51/268)

وقال الآلوسى :

﴿ يا بنى ءادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ ﴾

أي ثيابكم لمواراة عوراتكم لأن المستفاد من الأمر الوجوب والواجب إنما هو ستر العورة ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي طواف أو صلاة ، وإلى ذلك ذهب مجاهد وأبو الشيخ وغيرهما ، وسبب النزول على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على

سفلها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . .

وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وحمل بعضهم الزينة على لباس التجمل لأنه المتبادر منه ونسب للباقر رضي الله تعالى عنه ، وروي عن الحسن السبط رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له : يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تلبس أجود ثيابك ؟ فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال فأتجمل لربي وهو يقول : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ فأحب أن ألبس أجمل ثيابي ، ولا يخفى أن الأمر حينئذٍ لا يحمل على الوجوب لظهور أن هذا التزين مسنون لا واجب ، وقيل : إن الآية على الاحتمال الأول تشير إلى سنية التجمل لأنها لما دلت على وجوب أخذ الزينة لستر العورة عند ذلك فهم منه في الجملة حسن التزين بلبس ما فيه حسن وجمال عنده ، ونسب بيت الكذب إلى الصادق رضي الله عنه تعالى أن أخذ الزينة التمشط كأنه قيل تمشطوا عند كل صلاة ، ولعل ذلك من باب الاقتصار على بعض أنواع الزينة وليس المقصود حصرها فيما ذكر .

ومثل ذلك ما أخرجه ابن عدي وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا زينة الصلاة قالوا : وما زينة الصلاة ؟ .

قال : البسوا نعالكم فصلوا فيها " .

وأخرج ابن عساكر وغيره عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله سبحانه : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ الخ " صلوا في نعالكم "

﴿ وَكُلُواْ واشربوا ﴾ مما طاب لكم .

قال الكلبي : كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً في أيام حجهم يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : يا رسول الله نحن أحق بذلك فأنزل الله تعالى الآية ، ومنه يظهر وجه ذكر الأكل والشرب هنا ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ بتحريم الحلال كما هو المناسب لسبب النزول أو بالتعدي إلى الحرام كما روي عن ابن زيد أو بالإفراط في الطعام والشره كما ذهب إليه كثير ، وأخرج أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : "إياكم والبطنة من الطعام والشراب فإنها مفسدة للجسد مورثة للسقم مكسلة عن الصلاة وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد وأبعد من السرف وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

وقيل : المراد الإسراف ومجاوزة الحد بما هو أعم مما ذكر وعد منه أكل الشخص كلما اشتهى وأكله في اليوم مرتين ، فقد أخرج ابن ماجه والبيهقي عن أنس قال : "قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " إن من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت " وأخرج الثاني وضعفه عن عائشة قالت : " رآني النبي صلى الله عليه وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين فقال يا عائشة أما تحبين أن يكون لك شغل إلا في جوفك الأكل في اليوم مرتين من الإسراف " .

وعندي أن هذا مما يختلف باختلاف الأشخاص ، ولا يبعد أن يكون ما ذكر من الإفراط في الطعام وعد منه طبخ الطعام بماء الورد وطرح نحو المسك فيه مثلاً من غير داع إليه سوى الشهوة ، وذهب بعضهم إلى أن الإسراف المنهي عنه يعم ما كان في اللباس أيضاً ، وروي ذلك عن عكرمة ، وأخرج ابن أبي شيبة وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة .

(53/268)

ورواه البخاري عنه تعليقاً وهو لا ينافي ما ذكره الثعالبي وغيره من الأدباء أنه ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي ويلبس ما يشتهيه الناس كما قيل :

نصحته نصيحة . . .

قالت بها الأكياس

كل ما اشتهيت والبسن . . .

ما تشتهيه الناس

فإنه لترك ما لم يعتد بين الناس وهذا لإباحة كل ما اعتادوه .

وفي "العجائب" للكرماني قال طبيب نصراني لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان فقال له : قد جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية من كتابه قال : وما هي ؟ قال : ﴿ كُلُواْ واشربوا وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾ فقال النصراني : ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة قال : وما هي ؟ قال : قوله صلى الله عليه وسلم : " المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته " فقال : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً انتهى .

وما نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو من كلام الحرث بن كلدة طبيب العرب ولا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي "الإحياء" مرفوعاً " البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسد ما اعتاد "

وتعقبه العراقي قائلاً : لم أجد له أصلاً .

وفي "شعب الإيمان" للبيهقي و"لقط المنافع" لابن الجوزي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً : " المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة (صارت) العروق بالصحة

وإذا فسدت المعدة صارت (4) العروق بالسقم " وتعقبه الدارقطني قائلاً : لا نعرف هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن (أبجر) .

(54/268)

وفي "الدر المنثور" أخرج محمد الخلال عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهي تشتكي فقال لها : " يا عائشة الأزم دواء والمعدة بيت الأدواء وعودوا البدن ما اعتاد " ولم أر من تعقبه ، نعم رأيت في "النهاية" لابن الأثير "سأل عمرو الحرث بن كلدة ما الدواء ؟ قال : الأزم يعني الحمية وإمساك الأسنان بعضها على بعض" ، نعم الأحاديث الصحيحة متظافرة في ذم الشبع وكثرة الأكل ، وفي ذلك إرشاد للأمة إلى كل الحكمة .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ بل يبغضهم ولا يرضى أفعالهم .

والجملة في موضع التعليل للنهي ، وقد جمعت هذه الآية كما قيل أصول الأحكام الأمر والإباحة والنهي والخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(55/268)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) ﴾

إعادة النّداء في صدر هذه الجملة للاهتمام ، وتعريف المنادَى بطريق الإضافة بوصف كونهم بني آدم متابعة للخطاب المتقدّم في قوله : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ [الأعراف : 26] .

وهذه الجملة تتنزّل ، من التي بَعدها ، وهي قوله : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ [الأعراف : 32] منزلة النّتيجة من الجدل ، فقدمت على الجدل فصارت غرضاً بمنزلة دعوى وجعل الجدل حجّة على الدّعوى ، وذلك طريق من طرق الإنشاء في ترتيب المعاني ونتائجها .

فالمقصد من قوله : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ إبطال ما زعمه المشركون من لزوم التّعرّي في الحجّ في أحوال خاصّة ، وعند مساجد معيّنة ، فقد أخرج مسلم عن ابن عبّاس ، قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول من يُعيرني تِطْوافاً تجعله على فرجها وتقول:

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه . . .

وما بَدا منه فلا أُحِلُّه

وأخرج مسلم عن عروة بن الزبير ، قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلاّ الحُمْس ،

والحُمْس قريشٌ وما ولدتْ فكان غيرهم يطوفون عراة إلاّ أن يعطيهم الحُمْس ثياباً فيعطِي الرّجالُ الرّجالَ والنّساءُ النّساءَ ، وعنه : أنّهم كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عُراة .

وروي أنّ الحُمْس كانوا يقولون نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلاّ في ثيابنا ولا يأكل إذا دَخل أرضنا إلاّ من طعامنا .

فمن لم يكن له من العرب صديق بمكّة يعيره ثوباً ولا يجد من يستأجر به كان بين أحد أمرين إمّا أن يطوف بالبيت عُرياناً ، وإمّا أن يطوف في ثيابه فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسّه أحد وكان ذلك الثّوب يسمّى : اللَّقَى بفتح اللام قال شاعرهم:

كفى حزناً كَرِي عليه كأنّه . . .

لقى بين أيدي الطائفين حَرامُ

(56/268)

وفي "الكشاف" ، عن طاووس : كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد وإن طاف وهي عليه ضُرِب وانتُزِعَت منه لأنّهم قالوا : لا نعبد الله في ثيابٍ أذنَبْنا فيها ، وقد أبطله النبي صلى الله عليه وسلم إذ أمر أبا بكر رضي الله عنه ، عام حجّته سنة تسع ، أن

ينادي في الموسم : " أنْ لا يحج بعد العام مُشرك ولا يطوفَ بالبيت عُريان " .

وعن السدي وابن عبّاس كان أهل الجاهليّة التزموا تحريمَ اللّم والودك في أيام الموسم ، ولا يأكلون من الطّعام إلاّ قُوتاً ، ولا يأكلون دَسماً ، ونسب في "الكشاف" ذلك إلى بني عامر ، وكان الحُمْس يقولون : لا ينبغي لأحد إذا دخل أرضَنا أن يأكل إلاّ من طعامنا ، وفي "تفسير الطبري" عن جابر بن زيد كانوا إذا حجوا حرّموا الشاة ولبنها وسمْنها .

وفيه عن قتادة : أنّ الآية أرادت ما حرّموه على أنفسهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي .

فالأمر في قوله : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ للوجوب ، وفي قوله : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ للإباحه لبني آدم الماضين والحاضرين .

والمقصود من توجيه الأمر أو من حكايته إبطالُ التّحريم الذي جعله أهل الجاهليّة بأنهم نقضوا به ما تقرّر في أصل الفطرة ممّا أمر الله به بني آدم كلّهم ، وامتن به عليهم ، إذ خلق لهم ما في الأرض جميعاً .

وهو شبيه بالأمر الوارد بعد الحَظر .

فإنّ أصله إبطال التّحريم وهو الإباحة كقوله تعالى : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] بعد قوله : ﴿ غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 1] وقد يعرض لما أبطل به التّحريم أن يكون واجباً .

فقد ظهر من السّياق والسّباق في هذه الآيات أن كشف العورة من الفواحش ، فلا جرم يكون اللّباس في الحجّ منه واجبٌ ، وهو ما يستْر العورة ، وما زاد على ذلك مباح مأذون فيه إبطالاً لتحريمه ، وأمّا الأمر بالأكل والشّرب فهو للإباحة إبطالاً للتّحريم ، وليس يجب على أحد أكل اللّحم والدّسم .

(57/268)

وقوله : ﴿ عند كل مسجد ﴾ تعميم أي لا تخصّوا بعض المساجد بالتّعري مثل المسجد الحرام ومسجد مِنَى ، وقد تقدّم نظيره في قوله : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 29] .

وقد ظهرت مناسبة عطف الأمر بالأكل والشّرب على الأمر بأخذ الزّينة ممّا مضى آنفاً .

والإسراف تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً ﴾ في سورة النّساء (6) ، وهو تجاوز الحدّ المتعارف في الشّيء أي : ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللّحوم والدّسم لأنّ ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة .

وقد قيل إنّ هذه الآية جمعت أصول حفظ الصّحة من جانب الغذاء فالنّهي عن السرف نهيُ إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاّحقة في قوله : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ إلى

قوله ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف : 32] ، ولأنّ مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلّق به التّكليف ، ولكن يوكل إلى تدبير النّاس مصالحهم ، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقاً : ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ [الأعراف : 29] فإن ترك السّرف من معنى العدل .

وقوله : ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ تذييل ، وتقدّم القول في نظيره في سورة الأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(58/268)

وقال القاسمى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ أي : من اللباس : ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي : بيت بُني للعبادة ، على أنه اسم مكان ، أو مصدر بمعنى السجود ، مراداً به الصلاة والعبادة ، فإن العبادة أولى أوقات التزين : ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ أيام الحج تقوياً على العبادة : ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ أي : إسرافاً يوجب الإنهماك في الشهوات ويشغل عن العبادة ، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المعتدين .

تنبيهات :

الأول : كما أسلفنا في مقدمة هذا التفسير ، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال ، وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا ، لأنها نزلت في ذلك .

فقد روى مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة ، فتقول : من يعيرني تِطْوافاً ؟ تجعله على فرجها وتقول :

~اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أُحله

فنزلت هذه الآية : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ الآية . ونزلت : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه ﴾ الآية .

وعند ابن جرير عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

~اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أُحله

فنزلت : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ . قال في " اللباب " : وفي رواية أخرى عنه : فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا . وروى العوفي عن ابن عباس أيضاً في الآية قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يواري السوأة ، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد .

وأخرج أبو الشيخ عن طاوس قال : أُمروا بلبس الثياب ، وأخرج من وجه آخر عنه قال : الشملة من الزينة ، وقال مجاهد : كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجاً أو معتمراً يقول : لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه فيقول : من يعيرني مئزراً ؟ فإن قدر عليه وإلا طاف عرياناً . فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ الآية .

وقال الزهري : إن العرب كانت [في المطبوع : كنت] تطوف بالبيت عراة إلا الحمس – وهم قريش وأحلافهم – فمن جاء من غير الحمس ، وضع ثيابه ، وطاف في ثوب أحمسي ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه ، فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه ، ويطوف عرياناً ، وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها ، وإذا قضى طوافه وحرمها ، أي : جعلها حراماً عليه ، فلذلك قال تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

والمراد من الزينة الثياب التي تستر العورة . قال مجاهد : ما يواري عوراتكم ، ولو عباءة – انتهى –

قال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النَّخَعِي ، وسعيد بن جبير وقتادة والسدي ، والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها : أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة . انتهى .

فظهر أن المراد بالزينة ما يستر العورة لأنه اللازم المأمور به الذي بينه سبب النزول ، دون

لباس التجمل المتبادر منه ، لأن المستفاد من : ﴿ خُذُواْ ﴾ هو وجوب الأخذ ، ولباس التجمل مسنون – قاله الشهاب – وأقول دلت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص لغة بالجيد من اللباس كما توهم ، وبين ذلك العوفي عن ابن عباس فيما نقلناه .

وفي " التهذيب " : الزينة إسم جامع لكل شيء يتزين به . ومثله في " الصحاح " و " القاموس " وعبارته : الزينة ما يتزين به .

وقال الحراني : الزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة .

(60/268)

وقال الراغب : الزينة الحقيقية ما لا يشين الْإِنسَان في شيء من أحواله ، ولا في الدنيا ولا في الآخرة . انتهى .

وقد نقل الرازي إجماع المفسرين على أن المراد بالزينة لبس الثياب التي تستر العورة .

قال : والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات ، قال : وأيضاً إنه تعالى قال في الآية المتقدمة : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشا ﴾ فبين أن اللباس الذي يواري السوأة من قبيل الرياش والزينة .

ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية ، فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذي

تقدم ذكره في تلك الآية .

وأيضاً فقوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ أمر ، والأمر للوجوب ، فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان ، ولا يقال : إن قوله : ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ أمر إباحة ، فيكون المعطوف عليه كذلك ، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف ، تركه في المعطوف عليه .

هذا ، وقد روى الحافظ ابن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتادة عن أنس مرفوعاً : أنها نزلت في الصلاة في النعال ، وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه ، وعن أبي هريرة مثله ، قال ابن كثير : وفي صحته نظر – والله أعلم –

قلت : لا نظر ، لأن ذلك مما تشمله الزينة ، وقد أسلفنا في المقدمة أن قولهم : نزلت في كذا ، لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به ، بل مخصوص بنوعه ، فتعم ما أشبهه ، فتذكر .

والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً ، منها : عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد ، قال : سألت أنساً : أكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في نعليه ؟ قال : نعم . متفق عليه .

قال العراقي في " شرح الترمذي " : وممن كان يفعل ذلك – يعني لبس النعل في الصلاة – عُمَر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفي ، ومن التابعين :

سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء بن يسار ، وعطاء بن أبي رَبَاح ومجاهد ة وطاوس وشريح القاضي ، وأبو مجلز وأبو عمر الشيباني والأسود بن يزيد وإبراهيم النَّخَعِي وإبراهيم التَّيمي وعلي بن الحسين وإبنه أبو جعفر . انتهى .

وقد أخرج أبو داود من حديث أبي سعيد أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : < إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما > .

وحديث عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حافياً ومنتعلاً . أخرجه أبو داود وابن ماجة .

الثاني : دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف ، لأنه سبب النزول ، قالوا : واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة في المسجد .

الثالث : حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال : لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة في الصلاة ، فُهِم منها في الجملة ، حسن التزين بلبس ما فيه حسن وجمال فيها .

قال الكيا الهراسي : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، للفضل الذي يتعلق به

تعظيماً للمسجد و الفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف .

وقال ابن الفرس : استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة في مساجد القبائل بغير أردية ، واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلي بغير قلادة أو قرطين ، كذا في " الإكليل " ، والأخير من الغلو في النزع .

(62/268)

وقال ابن كثير : ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة ، يستحب التجمل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطيب لأنه من الزينة ، والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إلبسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم ، وإن من خير أكحالكم الإثمد ، يجلو البصر وينبت الشعر > ولأحمد وأهل السنن ، عن سَمُرة بن جُنْدب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم > .

وروى الطبراني بسند صحيح ، عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تميماً الداري اشترى رداءً بألف ، وكان يصلي فيه .

الرابع : وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة ، بالأمر بالأكل والشرب في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ ما رواه الكلبي أن بني عامر كانوا لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم .

فقال المسلمون : نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ .

وقال السدي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم . فقال الله تعالى لهم : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ الآية .

الخامس : فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحل ، وذلك بتحريمه ، وقال الجشمي اليمني في تفسيره " التهذيب " : تدل الآية على المنع من الإسراف . وذلك على وجهين :

أولهما : إنفاق في معصية كالفخَار واللعب والزنى والخمر ونحوها .

وثانيهما : أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار ، لأن من له قدر يسير ، لو أنفقه في ضيافة أو طيب أو ثياب خز ، وهو وعياله يحتاجون إليه ، فهو سرف محرم . ومثله في الموسرين لا يقبح ولا يكون سرفاً ، وتدل على أن الأشياء على الإباحة .

(63/268)

والعقل يدل على ذلك ، لأنه تعالى خلقه لمنافعهم ، والسمع ورد مؤكداً ، ولذلك قال : ﴿ مَنْ حَرَّمَ ﴾ مطالباً بدليل سمعي .

وقد روى الإمام أحمد عن عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده > .

وأخرج النسائي وابن ماجة نحوه .

وقال البخاري : قال ابن عباس : كلْ ما شئت ، ما أخطأتك اثنتان : سرف أو مخيلة .

ورواه ابن جرير عنه أيضاً بلفظ : أحل الله الأكل والشرب ، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة .

قال الشهاب : هذا ـ أي : ما قاله ابن عباس ـ لا ينافي ما ذكره الثعالبي وغيره من الأدباء ، أن ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي ، ويلبس ما يشتهيه الناس ، كما قيل :

~نصيحة نصيحة قالت بها الأكياس

~كل ما اشتهيت والبس نَّما اشتهته الناس

فإنهِ لترك ما لم يعتد بين الناس ، وهذا لإباحة كل ما اعتادوه . و المخيلة : الكبر . و ما دوامية زمانية . و أخطأتك ، من قولهم أخطأ فلان كذا ، إذا عدمه .

وفي الأساس : من المجاز لن يخطئك ما كُتب لك و وأخطأ المطر الأرض : لم يصبها ،

وتخاطأته النبل : تجاوزته وتخطأته . انتهى .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وعيد تهديد لمن أسرف في هذه الأشياء ، لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه .

السادس : تناقل المفسرون وغيرهم ما قيل إن قوله تعالى : ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ الآية ، جمع الطب كله . وأصله ما حكاه الزمخشري والكرماني في عجائبه ، أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان .

(64/268)

فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه ، قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ ، فقال النصراني : ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب ! فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة ، قال : وما هي ؟ قال قوله : < المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وأعط كل بدن ما عودته > فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

قال في " العناية " : وترك بعضهم تمام القصة ، لأن في ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين .

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم > . انتهى .

أقول : إن صحت هذه الحكاية ، فصواب جواب النصراني في سؤاله الثاني بالتفنيد والفرية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُثر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم يؤثر عن نبي قط ، وللمحدثين في عهد السلف منه قسم كبير في جوامعهم ومسانيدهم . وأما أعلام المتأخرين فقد اضطرهم وفرة ما روي في ذلك إلى تدوينه في أسفار مطولة ومختصرة بعنوان " الطب النبوي " .

وقد بين الإمام ابن القيم : عليه الرحمة ، اشتمال التنزيل العزيز على أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه ، في كتابه " زاد المعاد " ، بياناً يدهش الألباب ، وفوق كل ذي علم عليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 39 . 45 ﴾

(65/268)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31]

هذا يعني أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود ب ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون في مهمات حياتهم ، وكل مهمة في الحياة لها زيها ولها هندامها ؛ فالذي يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل في " الحِدَادَة " له زي خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً في لقاء الله أيأتي كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضَايق غيره ، فإن كانت ملابس العمل في مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَي أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله في بيت الله ، فلابد أن تحتفي بهذا اللقاء . ﴿ . . وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [الأعراف : 31]

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذي أُحلِّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهي حلال لك بشرط ألا تُسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك في الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف في حل ، إنما السرف يكون في الشيء المحرم ، ولذلك جاء في الأثر :

" لو أنفقت مثل أحد ذهباً في حِلِّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً في محرم لاعتبرت مسرفاً " . " ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطي كل نعمة حقها بشرط ألا يؤدي بك ذلك إلى البطر ، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون ، وقد أراد أن يترهب ، ويتنسك ، ويسيح في الكون ، وقال لرسول الله : يا رسول الله ، إنني أردت أن اختصي ؛ أي يقطع خصيتيه ؛ كي لا تبقى له غريزة جنسية ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان خصاء أمتي الصوم "

لذلك قال صلى الله عليه وسلم في شأن من لم يستطع الزواج : " " يا معشر الشباب من

استطاع منك الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " .

(67/268)

" وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد وسليمان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن في بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم " . فكان التوجيه النبوي أن حمد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه وأثنى عليه وقال : " ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(68/268)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ وكُلُواْ واشربوا ولاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ المسرفين ﴾ [31] قال : الأكل على خمسة : الضرورة والقوام والقوت والمعلوم والفقد ، والسادس لا خير فيه وهو التخليط ، فإن الله تعالى خلق الدنيا فجعل العلم والحكمة في الجوع ، وجعل الجهل والمعصية في الشبع ، فإذا جعتم فاطلبوا الشبع ممن ابتلاكم بالجوع ، وإذا شبعتم فاطلبوا الجوع ممن ابتلاكم بالشبع ، وإلا تماديتم وطغيتم ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] وقال : إن الجوع سر من أسرار الله تعالى في الأرض لا يودعه عند من يذيعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 65 ﴾

(69/268)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس : أن النساء كن يطفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة ، وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . وما بدا منه فلا أحله

وأخرج عبد حميد عن سعيد بن جبير قال : كان الناس يطوفون بالبيت عراة يقولون : لا نطوف في ثياب اذنبنا فيها ، فجاءت امرأة فألقت ثيابها وطافت ، ووضعت يدها على قلبها وقالت :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ إلى قوله ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يواري السوءة وما سوى ذلك من جيّد البز والمتاع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ قال : ما وارى العورة ولو عباءة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد

﴾ قال : الثياب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن طاوس قال : الشملة من الزينة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، يأتون البيوت من ظهورها فيدخلونها من ظهورها ، وهم حي من قريش يقال لهم الحمس ، فأنزل الله ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة حتى ان كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة ، فأنزل الله ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

(70/268)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ قال : كانوا يطوفون عراة بالليل ، فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت العرب إذا حجوا فنزلوا أدنى الحرم ، نزعوا

ثيابهم ووضعوا رداءهم ودخلوا مكة بغير رداء ، إلا أن يكون للرجل منهم صديق من الحمس فيعيره ثوبه ويطعمه من طعامه ، فأنزل الله ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وأخرج ابن حميد وأبو الشيخ عن عطاء قال : كان المشركون في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ، فأنزل الله ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : كان حي من أهل اليمن يطوفون بالبيت وهم عراة ، إلا أن يستعير أحدهم مئزراً من ميازر أهل مكة فيطوف فيه ، فأنزل الله ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن طاوس في الآية قال : لم يأمرهم بلبس الحرير والديباج ، ولكنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وكانوا إذا قدموا يضعون ثيابهم خارجاً من المسجد ثم يدخلون ، وكان إذا دخل رجل وعليه ثيابه يضرب وتنزع منه ثيابه ، فنزلت هذه الآية ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وأخرج ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خذوا زينة الصلاة قالوا : وما زينة الصلاة ؟ قال : البسوا نعالكم فصلوا فيها " .

وأخرج العقيلي وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبي صلى الله عليه

وسلم في قول الله ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ قال " صلوا في نعالكم " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مما أكرم الله به هذه الأمة لبس نعالهم في صلاتهم " .

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا نعالهم " .

(71/268)

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا صلى أحدكم فخلع نعليه فلا يؤذ بهما أحداً ، ليجعلهما بين رجليه أو لِيُصَلِّ فيهما " .

وأخرج أبو يعلى بسند ضعيف عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " زين الصلاة الحذاء " .

وأخرج البزار بسند ضعيف عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خالفوا اليهود وصلوا في نعالكم ، فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا في نعالهم " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من تمام الصلاة الصلاة في النعلين " .

وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشيخة من الأنصار بيض لحاهم ، فقال : يا معشر الأنصار حمِّرُوا وصفِّروا وخالفوا أهل الكتاب . قيل يا رسول الله إن أهل الكتاب . يتسرولون ولا يأتزرون ؟ فقال رسول الله : تسرولوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب . قلنا : يا رسول الله إن أهل الكتاب يتخففون ولا ينتعلون ؟ فقال : تخففوا وانتعلوا وخالفوا أهل الكتاب ، قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال : قصوا سبالكم ووفِّرُوا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس " أنه سئل أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في نعليه ؟ قال : نعم " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : وجهني على بن أبي طالب إلى ابن الكواء وأصحابه وعليَّ قميص رقيب وحلة ، فقالوا لي : أنت ابن عباس وتلبس مثل هذه الثياب ؟ ! فقلت : أول ما أخاصمكم به قال الله ﴿ قل من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ [الأعراف : 32] و ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس في العيدين بردي حبرة .

(72/268)

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : لما خرجت الحرورية أتيت علياً فقال : ائت هؤلاء القوم . فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن ، فأتيتهم فقالوا : مرحباً بك يا ابن عباس ما هذه الحلة ؟ ! قلت : ما تعيبون عليّ ؟ لقد رأيت على رسول الله صلى عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل .

وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه ، فإن الله عز وجل أحق من تزين له ، فإن لم يكن ثوبان فليتزر إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود " .

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء " .

وأخرج أبو داود والبيهقي عن بريدة قال " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به ، ونهى أن يصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء " .

وأخرج ابن ماجة عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أحسن ما زرتم الله به في قبوركم ومساجدكم البياض " .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم " .

وأخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألبسوا ثياب البياض فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم " .

وأخرج أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال : " أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوب دون ، فقال : ألك مال ؟ قال : نعم . قال : من أي المال ؟ قال : قد آتاني الله من الإِبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته " .

(73/268)

وأخرج الترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب أن يرى نعمته على عبده " .

وأخرج أحمد ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . قال رجل : يا رسول الله انه يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ، ورأسي دهيناً ، وشراك نعلي جديداً ، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه فمن الكبر ذاك يا رسول الله ؟ قال : لا ، ذاك الجمال ، إن الله عز وجل جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى الناس " .

وأخرج ابن سعد عن جندب بن مكيث قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر عليه أصحابه بذلك" .

وأخرج أحمد عن سهل بن الحنظلية قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " إنكم قادمون على إخوانكم ، فأصلحوا رحالكم واصلحوا لباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش " .

أما قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ الآية .

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : احل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً ومخيلة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ قال : في الطعام والشراب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ولا تسرفوا ﴾ قال : في الثياب والطعام والشراب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ولا تسرفوا ﴾ قال : لا تأكلوا حراماً ، ذلك إسراف .

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن عائشة قالت " رآني النبي صلى الله عليه وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين ، فقال : يا عائشة أما تحبين أن يكون لك شغل إلا في جوفك ؟ الأكل في اليوم مرتين من الإِسراف ، والله لا يحب المسرفين " .

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن من الإِسراف أن تأكل كل ما اشتهيت " .

وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن قال : دخل عمر على ابنه عبد الله بن عمر إذا عندهم لحم ، فقال : ما هذا اللحم ؟ قال : اشتهيته : قال وكلما اشتهيت شيئاً أكلته ؟ ! كفى بالمرء : إسرافاً أن يأكل كلما اشتهى .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس قال : كل ما شئت ، واشرب ما شئت

، والبس ما شئت ، إذا أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : من السرف أن يكتسي الإِنسان ويأكل ويشرب ما ليس عنده .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير . أنه سئل ما الإِسراف في المال ؟ قال : أن يرزقك الله مالاً حلالاً فتنفقه في حرام حرمه عليك .

وأخرج ابن ماجة عن سلمان . أنه أكره على طعام يأكله فقال : حسبي أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة " .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجة عن ابن عمر قال : تجشى رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال " كف جشاك عنا ، فإن أطولكم جوعاً يوم القيامة أكثركم شبعاً في دار الدنيا " .

(75/268)

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه النسائي وابن حبان وابن السني في الطب والحاكم وصححه وأبن نعيم في الطب والبيهقي في شعب الإِيمان عن المقدام بن معدي كرب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، حسب

ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ".

وأخرج ابن السني وأبو نعيم في الطب النبوي عن عبد الرحمن بن المرقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لم يخلق وعاء إذا ملىء شراً من بطن ، فإن كان لا بد فاجعلوا ثلثاً للطعام وثلثاً للشراب ، وثلثاً للريح " .

وأخرج ابن السني وأبو نعيم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أصل كل داء البردة " .

وأخرج ابن السني وأبو نعيم من حديث أبي سعيد الخدري . مثله .

وأخرج أبو نعيم عن عمر بن الخطاب قال : إياكم والبطنة في الطعام والشراب فإنها مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد ، وأبعد من السرف ، وأن الله تعالى ليبغض الحبر السمين ، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أرطاة قال : اجتمع رجال من أهل الطب عند ملك من الملوك ، فسألهم ما رأس دواء المعدة ؟ فقال كل رجل منهم قولاً وفيهم رجل ساكت ، فلما فرغوا قال : ما تقول أنت ؟ قال : ذكروا أشياء وكلها تنفع بعض النفع ولكن ملاك ذلك

ثلاثة أشياء : لا تأكل طعاماً أبداً إلا وأنت تشتهيه ، ولا تأكل لحماً يُطْبَخُ لك حتى تنعم إنضاجه ، ولا تبتلع لقمة أبداً حتى تمضغها مضغاً شديداً لا يكون على المعدة فيها مؤونة .

(76/268)

وأخرج البيهقي عن إبراهيم بن علي الموصلي قال : أخرج من جميع الكلام أربعة الآف كلمة ، وأخرج منها أربعمائة كلمة ، وأخرج منها أربعون كلمة ، وأخرج منها أربع كلمات ، أولها لا تثقن بالنساء ، والثانية لا تحمل معدتك ما لا تطيق ، والثالثة لا يغرنك المال ، والرابعة يكفيك من العلم ما تنتفع به .

وأخرج أبو محمد الخلال عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهي تشتكي ، فقال لها : يا عائشة الازم دواء والمعدة بيت الادواء ، وعودوا بدنا ما اعتاد " .

وأخرج البيهقي عن ابن محب عن أبيه قال : المعدة حوض الجسد والعروق تشرع فيه ، فما ورد فيها بصحة صدر بصحة ، وما ورد فيها بسقم صدر بسقم .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم معافى الطب النبوي والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المعدة حوض

البدن والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروف بالصحة ، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(77/268)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا بَنِى ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

على لسان العلم : يجب سَتْرُ العَوْرة في الصلاة ، وعلى موجِب الإشارة : زينة العبد بحضور الحضرة ، ولزوم السُّدَّة ، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود ؛ فالعبد على الباب بنعت العبودية ، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتَّان بين عبدٍ وعبد ! .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

الإسراف ما تناولته لَكَ ولو بقدر سمسمة .

ويقال الإسراف هو التعدي عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظّاً بأي وجهٍ كان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 530 ﴾

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى الطّبّ النّبَوِيّ

قال عليه الرحمة :

قد أتينا على جمل من هديه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الْمُغَازِي وَالسّيَرِ وَالْبُعُوثِ وَالسّرَايَا وَالرّسَائِلِ وَالْكُتُبِ الّتِي كَتَبَ بِهَا إلَى الْمُلُوكِ وَنُوّابِهِمْ .

وَنَحْنُ نُتْبِعُ ذَلِكَ بِذِكْرِ فُصُولٍ نَافِعَةٍ فِي هَدْيِهِ فِي الطّبّ الّذِي تَطَبّبَ بِهِ وَوَصَفَهُ لِغَيْرِهِ وَنُبَيّنُ مَا فِيهِ مِنْ الْحِكْمَةِ الّتِي تَعْجِزُ عُقُولُ أَكْثَرِ الْأَطِبّاءِ عَنْ الْوُصُولِ إلَيْهَا وَأَنّ نِسْبَةَ طِبّهِمْ إلَيْهَا كَنِسْبَةِ طِبّ الْعَجَائِزِ إلَى طِبّهِمْ فَنَقُولُ وَبِاللّهِ الْمُسْتَعَانُ وَمِنْهُ نَسْتَمِدّ الْحَوْلَ وَالْقُوّةَ .

[الْمَرَضُ نَوْعَانِ]

الْمَرَضُ نَوْعَانِ مَرَضُ الْقُلُوبِ وَمَرَضُ الْأَبْدَانِ وَهُمَا مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ .

[نَوْعَا مَرَضِ الْقَلْبِ]

وَمَرَضُ الْقُلُوبِ نَوْعَانِ مَرَضُ شُبْهَةٍ وَشَكٍّ وَمَرَضُ شَهْوَةٍ وَغَيٍّ وَكِلَاهُمَا فِي الْقُرْآنِ . قَالَ تَعَالَى فِي مَرَضِ الشُّبْهَةِ ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [الْبَقَرَةُ 10] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [الْمُدَّثِّرُ 31] وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مَنْ دُعِيَ إلَى تَحْكِيمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَأَبَى وَأَعْرَضَ ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النُّورُ 48 و49] فَهَذَا مَرَضُ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الْأَحْزَابُ 32] . فَهَذَا مَرَضُ شَهْوَةِ الزِّنَى وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ [مَرَضُ الْأَبْدَانِ]

(80/268)

وَأَمَّا مَرَضُ الْأَبْدَانِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النُّورُ 61] وَذَكَرَ مَرَضَ الْبَدَنِ فِي الْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالْوُضُوءِ لِسِرٍّ بَدِيعٍ يُبَيِّنُ لَك عَظَمَةَ الْقُرْآنِ وَالِاسْتِغْنَاءَ بِهِ لِمَنْ فَهِمَهُ وَعَقَلَهُ عَنْ سِوَاهُ وَذَلِكَ أَنَّ قَوَاعِدَ طِبِّ

الْأَبْدَانِ ثَلَاثَةٌ حِفْظُ الصِّحَّةِ وَالْحِمْيَةُ عَنْ الْمُؤْذِي وَاسْتِفْرَاغُ الْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْأُصُولَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ . فَقَالَ فِي آيَةِ الصَّوْمِ ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [الْبَقَرَةُ 184] فَأَبَاحَ الْفِطْرَ لِلْمَرِيضِ لِعُذْرِ الْمَرَضِ وَلِلْمُسَافِرِ طَلَبًا لِحِفْظِ صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ لِئَلَّا يُذْهِبَهَا الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ لِاجْتِمَاعِ شِدَّةِ الْحَرَكَةِ وَمَا يُوجِبُهُ مِنْ التَّحْلِيلِ وَعَدَمِ الْغِذَاءِ الَّذِي يُخْلِفُ مَا تَحَلَّلَ فَتَخُورُ الْقُوَّةُ وَتَضْعُفُ فَأَبَاحَ لِلْمُسَافِرِ الْفِطْرَ حِفْظًا لِصِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ عَمَّا يُضْعِفُهَا . وَقَالَ فِي آيَةِ الْحَجِّ ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [الْبَقَرَةُ 196] فَأَبَاحَ لِلْمَرِيضِ وَمَنْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ مِنْ قَمْلٍ أَوْ حِكَّةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ فِي الْإِحْرَامِ اسْتِفْرَاغًا لِمَادَّةِ الْأَبْخِرَةِ الرَّدِيئَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهُ الْأَذَى فِي رَأْسِهِ بِاحْتِقَانِهَا تَحْتَ الشَّعَرِ فَإِذَا حَلَقَ رَأْسَهُ تَفَتَّحَتْ الْمَسَامُّ فَخَرَجَتْ تِلْكَ الْأَبْخِرَةُ مِنْهَا فَهَذَا الِاسْتِفْرَاغُ

(81/268)

يُقَاسُ عَلَيْهِ كُلُّ اسْتِفْرَاغٍ يُؤْذِي انْحِبَاسُهُ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي يُؤْذِي انْحِبَاسُهَا وَمُدَافَعَتُهَا عَشَرَةٌ الدَّمُ إذَا هَاجَ وَالْمَنِيُّ إذَا تَبَيَّغَ وَالْبَوْلُ وَالْغَائِطُ وَالرِّيحُ وَالْقَيْءُ وَالْعُطَاسُ وَالنَّوْمُ وَالْجُوعُ أَدْنَاهَا وَهُوَ الْبُخَارُ الْمُحْتَقَنُ فِي الرَّأْسِ عَلَى اسْتِفْرَاغِ مَا هُوَ أَصْعَبُ مِنْهُ كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ

التّنْبيهُ بالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى .

[الْحِمْيَةُ]

وَأَمّا الْحِمْيَةُ : فَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ الْوُضُوءِ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمّمُوا صَعِيدًا طَيّبًا ﴾ [النّسَاءُ 43] فَأَبَاحَ لِلْمَرِيضِ الْعُدُولَ عَنْ الْمَاءِ إلَى التّرَابِ حِمْيَةً لَهُ أَنْ يُصِيبَ جَسَدَهُ مَا يُؤْذِيهِ وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى الْحِمْيَةِ عَنْ كُلّ مُؤْذٍ لَهُ مِنْ دَاخِلٍ أَوْ خَارِجٍ فَقَدْ أَرْشَدَ - سُبْحَانَهُ - عِبَادَهُ إلَى أُصُولِ الطّبّ وَمَجَامِعِ قَوَاعِدِهِ وَنَحْنُ نَذْكُرُ هَدْيَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي ذَلِكَ وَنُبَيّنُ أَنّ هَدْيَهُ فِيهِ أَكْمَلُ هَدْيٍ .

[طِبّ الْقُلُوبِ]

(82/268)

فَأَمّا طِبّ الْقُلُوبِ فَمُسَلّمٌ إلَى الرّسُلِ صَلَوَاتُ اللّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَلَا سَبِيلَ إلَى حُصُولِهِ إلّا مِنْ جِهَتِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ فَإِنّ صَلَاحَ الْقُلُوبِ أَنْ تَكُونَ عَارِفَةً بِرَبّهَا وَفَاطِرِهَا وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَنْ تَكُونَ مُؤْثِرَةً لِمَرْضَاتِهِ وَمُحَابّهِ مُتَجَنّبَةً لِمَنَاهِيهِ وَمَسَاخِطِهِ وَلَا صِحّةَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ الْبَتّةَ إلّا بِذَلِكَ وَلَا سَبِيلَ إلَى تَلَقّيهِ إلّا مِنْ جِهَةِ الرّسُلِ وَمَا يُظَنّ مِنْ

حُصُولِ صِحّةِ الْقَلْبِ بِدُونِ اتّبَاعِهِمْ فَغَلَطٌ مِمّنْ يَظُنّ ذَلِكَ وَإِنّمَا ذَلِكَ حَيَاةُ نَفْسِهِ الْبَهِيمِيّةِ الشّهْوَانِيّةِ وَصِحّتُهَا وَقُوّتُهَا وَحَيَاةُ قَلْبِهِ وَصِحّتُهُ وَقُوّتُهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَعْزِلٍ وَمَنْ لَمْ يُمَيّزْ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فَلْيَبْكِ عَلَى حَيَاةِ قَلْبِهِ فَإِنّهُ مِنْ الْأَمْوَاتِ وَعَلَى نُورِهِ فَإِنّهُ مُنْغَمِسٌ فِي بِحَارِ الظّلُمَاتِ .

فَصْلٌ

[طِبّ الْأَبْدَانِ]

وَأَمّا طِبّ الْأَبْدَانِ فَإِنّهُ نَوْعَانِ

نَوْعٌ قَدْ فَطَرَ اللّهُ عَلَيْهِ الْحَيَوَانَ نَاطِقَهُ وَبَهِيمَهُ فَهَذَا لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إلَى مُعَالَجَةِ طَبِيبٍ كَطِبّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْبَرْدِ وَالتّعَبِ بِأَضْدَادِهَا وَمَا يُزِيلُهَا .

(83/268)

وَالثّانِي : مَا يَحْتَاجُ إلَى فِكْرٍ وَتَأَمّلٍ كَدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْمُتَشَابِهَةِ الْحَادِثَةِ فِي الْمِزَاجِ بِحَيْثُ يَخْرُجُ بِهَا عَنْ الِاعْتِدَالِ إمّا إلَى حَرَارَةٍ أَوْ بُرُودَةٍ أَوْ يُبُوسَةٍ أَوْ رُطُوبَةٍ أَوْ مَا يَتَرَكّبُ مِنْ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَهِيَ نَوْعَانِ إمّا مَادّيّةٌ وَإِمّا كَيْفِيّةٌ أَعْنِي إمّا أَنْ يَكُونَ بِانْصِبَابِ مَادّةٍ أَوْ بِحُدُوثِ كَيْفِيّةٍ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنّ أَمْرَاضَ الْكَيْفِيّةِ تَكُونُ بَعْدَ زَوَالِ الْمَوَادّ الّتِي أَوْجَبَتْهَا فَتَزُولُ مَوَادّهَا وَيَبْقَى أَثَرُهَا كَيْفِيّةً فِي الْمِزَاجِ . وَأَمْرَاضُ الْمَادّةِ أَسْبَابُهَا مَعَهَا تَمُدّهَا وَإِذَا كَانَ سَبَبُ الْمَرَضِ مَعَهُ

فَالنّظَرُ فِي السّبَبِ يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ أَوّلًا ثُمّ فِي الْمَرَضِ ثَانِيًا ثُمّ فِي الدّوَاءِ ثَالِثًا . أَوْ الْأَمْرَاضُ الْآلِيّةُ وَهِيَ الّتِي تُخْرِجُ الْعُضْوَ عَنْ هَيْئَتِهِ إمّا فِي شَكْلٍ أَوْ تَجْوِيفٍ أَوْ مَجْرًى أَوْ خُشُونَةٍ أَوْ مَلَاسَةٍ أَوْ عَدَدٍ أَوْ عَظْمٍ أَوْ وَضْعٍ فَإِنّ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ إذَا تَأَلّفَتْ وَكَانَ مِنْهَا الْبَدَنُ سُمّيَ تَأَلّفُهَا اتّصَالًا وَالْخُرُوجُ عَنْ الِاعْتِدَالِ فِيهِ يُسَمّى تَفَرّقَ الِاتّصَالِ أَوْ الْأَمْرَاضُ الْعَامّةُ الّتِي تَعُمّ الْمُتَشَابِهَةَ وَالْآلِيّةَ . وَالْأَمْرَاضُ الْمُتَشَابِهَةُ هِيَ الّتِي يَخْرُجُ بِهَا الْمِزَاجُ عَنْ الِاعْتِدَالِ وَهَذَا الْخُرُوجُ يُسَمّى مَرَضًا بَعْدَ أَنْ يَضُرّ بِالْفِعْلِ إضْرَارًا مَحْسُوسًا . وَهِيَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَضْرُبٍ أَرْبَعَةٌ بَسِيطَةٌ وَأَرْبَعَةٌ مُرَكّبَةٌ

فَالْبَسِيطَةُ الْبَارِدُ وَالْحَارّ وَالرّطْبُ وَالْيَابِسُ .

(84/268)

وَالْمُرَكّبَةُ الْحَارّ الرّطْبُ وَالْحَارّ الْيَابِسُ وَالْبَارِدُ الرّطْبُ وَالْبَارِدُ الْيَابِسُ .

وَهِيَ إمّا أَنْ تَكُونَ بِانْصِبَابِ مَادّةٍ أَوْ بِغَيْرِ انْصِبَابِ مَادّةٍ وَإِنْ لَمْ يَضُرّ الْمَرَضُ بِالْفِعْلِ يُسَمّى خُرُوجًا عَنْ الِاعْتِدَالِ صِحّةً .

[أَحْوَالُ الْبَدَنِ]

وَلِلْبَدَنِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ حَالٌ طَبِيعِيّةٌ وَحَالٌ خَارِجَةٌ عَنْ الطّبِيعِيّةِ وَحَالٌ مُتَوَسّطَةٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ

. فَالْأُولَى : بِهَا يَكُونُ الْبَدَنُ صَحِيحًا وَالثَّانِيَةُ بِهَا يَكُونُ مَرِيضًا . وَالْحَالُ الثَّالِثَةُ هِيَ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فَإِنَّ الضِّدَّ لَا يَنْتَقِلُ إلَى ضِدِّهِ إلَّا بِمُتَوَسِّطٍ وَسَبَبُ خُرُوجِ الْبَدَنِ عَنْ طَبِيعَتِهِ إمَّا مِنْ دَاخِلِهِ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْحَارِّ وَالْبَارِدِ وَالرَّطْبِ وَالْيَابِسِ وَإِمَّا مِنْ خَارِجٍ فَلِأَنَّ مَا يَلْقَاهُ قَدْ يَكُونُ مُوَافِقًا فَسَادٍ فِي الْعُضْوِ وَقَدْ يَكُونُ مِنْ ضَعْفٍ فِي الْقُوَى أَوْ الْأَرْوَاحِ الْحَامِلَةِ لَهَا وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إلَى زِيَادَةِ مَا الِاعْتِدَالُ فِي عَدَمِ زِيَادَتِهِ أَوْ نُقْصَانُ مَا الِاعْتِدَالُ فِي عَدَمِ نُقْصَانِهِ أَوْ تَفَرُّقِ مَا الِاعْتِدَالُ فِي اتِّصَالِهِ أَوْ اتِّصَالُ مَا الِاعْتِدَالُ فِي تَفَرُّقِهِ أَوْ امْتِدَادُ مَا الِاعْتِدَالُ فِي انْقِبَاضِهِ أَوْ خُرُوجُ ذِي وَضْعٍ وَشَكْلٍ عَنْ وَضْعِهِ وَشَكْلِهِ بِحَيْثُ يُخْرِجُهُ عَنْ اعْتِدَالِهِ .

[وَظِيفَةُ الطَّبِيبِ]

(85/268)

فَالطَّبِيبُ هُوَ الَّذِي يُفَرِّقُ مَا يَضُرُّ بِالْإِنْسَانِ جَمْعُهُ أَوْ يَجْمَعُ فِيهِ مَا يَضُرُّهُ تَفَرُّقُهُ أَوْ يَنْقُصُ مِنْهُ مَا يَضُرُّهُ زِيَادَتُهُ أَوْ يَزِيدُ فِيهِ مَا يَضُرُّهُ نَقْصُهُ فَيَجْلِبُ الصِّحَّةَ الْمَفْقُودَةَ أَوْ يَحْفَظُهَا بِالشَّكْلِ وَالشَّبَهِ وَيَدْفَعُ الْعِلَّةَ الْمَوْجُودَةَ بِالضِّدِّ وَالنَّقِيضِ وَيُخْرِجُهَا أَوْ يَدْفَعُهَا بِمَا يَمْنَعُ مِنْ حُصُولِهَا بِالْحِمْيَةِ وَسَتَرَى هَذَا كُلَّهُ فِي هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَافِيًا كَافِيًا بِحَوْلِ اللَّهِ

وَقُوّتِهِ وَفَضْلِهِ وَمَعُونَتِهِ .

فَصْلٌ [التّدَاوِي]

فَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِعْلُ التّدَاوِي فِي نَفْسِهِ وَالْأَمْرُ بِهِ لِمَنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِهِ وَلَا هَدْيِ أَصْحَابِهِ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ الْمُرَكّبَةِ الّتِي تُسَمّى أقرباذين بَلْ كَانَ غَالِبُ أَدْوِيَتِهِمْ بِالْمُفْرَدَاتِ وَرُبّمَا أَضَافُوا إلَى الْمُفْرَدِ مَا يُعَاوِنُهُ أَوْ يَكْسِرُ سَوْرَتَهُ وَهَذَا غَالِبُ طِبّ الْأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا مِنْ الْعَرَبِ وَالتّرْكِ وَأَهْلِ الْبَوَادِي قَاطِبَةً وَإِنّمَا عَنِيَ بِالْمُرَكّبَاتِ الرّومُ وَالْيُونَانِيّونَ وَأَكْثَرُ طِبّ الْهِنْدِ بِالْمُفْرَدَاتِ . وَقَدْ اتّفَقَ الْأَطِبّاءُ عَلَى أَنّهُ مَتَى أَمْكَنَ التّدَاوِي بِالْغِذَاءِ لَا يُعْدَلُ عَنْهُ إلَى الدّوَاءِ وَمَتَى أَمْكَنَ بِالْبَسِيطِ لَا يُعْدَلُ عَنْهُ إلَى الْمُرَكّبِ .

قَالُوا : وَكُلّ دَاءٍ قُدِرَ عَلَى دَفْعِهِ بِالْأَغْذِيَةِ وَالْحِمْيَةِ لَمْ يُحَاوَلْ دَفْعُهُ بِالْأَدْوِيَةِ .

(86/268)

قَالُوا : وَلَا يَنْبَغِي لِلطّبِيبِ أَنْ يَوْلَعَ بِسَقْيِ الْأَدْوِيَةِ فَإِنّ الدّوَاءَ إذَا لَمْ يَجِدْ فِي فَزَادَتْ كَمّيّتُهُ عَلَيْهِ أَوْ كَيْفِيّتُهُ تَشَبّثَ بِالصّحّةِ وَعَبَثَ بِهَا . وَأَرْبَابُ التّجَارِبِ مِنْ الْأَطِبّاءِ طِبّهُمْ بِالْمُفْرَدَاتِ غَالِبًا وَهُمْ أَحَدُ فِرَقِ الطّبّ الثّلَاثِ . وَالتّحْقِيقُ فِي ذَلِكَ أَنّ الْأَدْوِيَةَ مِنْ جِنْسِ

الْأَغْذِيَةِ فَالْأُمَّةُ وَالطَّائِفَةُ الَّتِي غَالِبُ أَغْذِيَتِهَا الْمُفْرَدَاتُ أَمْرَاضُهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا وَطِبُّهَا بِالْمُفْرَدَاتِ وَأَهْلُ الْمُدُنِ الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ الْأَغْذِيَةُ الْمُرَكَّبَةُ يَحْتَاجُونَ إلَى الْأَدْوِيَةِ الْمُرَكَّبَةِ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَمْرَاضَهُمْ فِي الْغَالِبِ مُرَكَّبَةٌ فَالْأَدْوِيَةُ الْمُرَكَّبَةُ أَنْفَعُ لَهَا وَأَمْرَاضُ أَهْلِ الْبَوَادِي وَالصَّحَارِي مُفْرَدَةٌ فَيَكْفِي فِي مُدَاوَاتِهَا الْأَدْوِيَةُ الْمُفْرَدَةُ فَهَذَا بُرْهَانٌ بِحَسْبِ الصِّنَاعَةِ الطِّبِّيَّةِ .

[فَضْلُ طِبِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طِبِّ الْأَطِبَّاءِ]

(87/268)

وَنَحْنُ نَقُولُ إنَّ هَا هُنَا أَمْرًا آخَرَ نِسْبَةُ طِبِّ الْأَطِبَّاءِ إلَيْهِ كَنِسْبَةِ طِبِّ الطَّرْقِيَّةِ وَالْعَجَائِزِ إلَى طِبِّهِمْ وَقَدْ اعْتَرَفَ بِهِ حُذَّاقُهُمْ وَأَئِمَّتُهُمْ فَإِنَّ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ بِالطِّبِّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ قِيَاسٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ تَجْرِبَةٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ إلْهَامَاتٌ وَمَنَامَاتٌ وَحَدْسٌ صَائِبٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُخِذَ كَثِيرٌ مِنْهُ مِنْ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمِيَّةِ كَمَا نُشَاهِدُ السِّنَانِيرَ إذَا أَكَلَتْ ذَوَاتَ السُّمُومِ تَعْمِدُ إلَى السِّرَاجِ فَتَلَغُ فِي الزَّيْتِ تَتَدَاوَى بِهِ وَكَمَا رُئِيَتْ الْحَيَّاتُ إذَا خَرَجَتْ مِنْ بُطُونِ الْأَرْضِ وَقَدْ عَشِيَتْ أَبْصَارُهَا تَأْتِي إلَى وَرَقِ الرازيانج فَتُمِرُّ عُيُونَهَا عَلَيْهَا . وَكَمَا عُهِدَ مِنْ الطَّيْرِ الَّذِي يَحْتَقِنُ بِمَاءِ الْبَحْرِ عِنْدَ انْحِبَاسِ طَبْعِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا ذُكِرَ فِي مَبَادِئِ

الطّبّ . وَأَيْنَ يَقَعُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ الْوَحْيِ الّذِي يُوحِيهِ اللّهُ إلَى رَسُولِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ فَنِسْبَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ الطّبّ إلَى هَذَا الْوَحْيِ كَنِسْبَةِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعُلُومِ إلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ بَلْ هَا هُنَا مِنْ الْأَدْوِيَةِ الّتِي تَشْفِي مِنْ الْأَمْرَاضِ مَا لَمْ يَهْتَدِ إلَيْهَا عُقُولُ أَكَابِرِ الْأَطِبّاءِ وَلَمْ تَصِلْ إلَيْهَا عُلُومُهُمْ وَتَجَارِبُهُمْ وَأَقْيِسَتُهُمْ مِنْ الْأَدْوِيَةِ الْقَلْبِيّةِ وَالرّوحَانِيّةِ وَقُوّةِ الْقَلْبِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَى اللّهِ وَالتّوَكّلِ عَلَيْهِ وَالِالْتِجَاءِ إلَيْهِ وَالِانْطِرَاحِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالتّذَلّلِ لَهُ وَالصّدَقَةِ وَالدّعَاءِ وَالتّوْبَةِ

(88/268)

وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْإِحْسَانِ إلَى الْخَلْقِ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَالتّفْرِيجِ عَنْ الْمَكْرُوبِ فَإِنّ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ قَدْ جَرّبَتْهَا الْأُمَمُ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهَا وَمِلَلِهَا فَوَجَدُوا لَهَا مِنْ التّأْثِيرِ فِي الشّفَاءِ مَا لَا يَصِلُ إلَيْهِ عِلْمُ أَعْلَمِ الْأَطِبّاءِ وَلَا تَجْرِبَتُهُ وَلَا قِيَاسُهُ . وَقَدْ جَرّبْنَا نَحْنُ وَغَيْرُنَا مِنْ هَذَا أُمُورًا كَثِيرَةً وَرَأَيْنَاهَا تَفْعَلُ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَدْوِيَةُ الْحِسّيّةُ بَلْ تَصِيرُ الْأَدْوِيَةُ الْحِسّيّةُ عِنْدَهَا بِمَنْزِلَةِ أَدْوِيَةِ الطّرْقِيّةِ عِنْدَ الْأَطِبّاءِ وَهَذَا جَارٍ عَلَى قَانُونِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيّةِ لَيْسَ خَارِجًا عَنْهَا وَلَكِنّ الْأَسْبَابَ مُتَنَوّعَةٌ فَإِنّ الْقَلْبَ مَتَى اتّصَلَ بِرَبّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ الدّاءِ وَالدّوَاءِ وَمُدَبّرِ الطّبِيعَةِ وَمُصَرّفِهَا عَلَى مَا يَشَاءُ كَانَتْ لَهُ أَدْوِيَةٌ أُخْرَى غَيْرَ الْأَدْوِيَةِ الّتِي يُعَانِيهَا الْقَلْبُ الْبَعِيدُ مِنْهُ

الْمُعْرِضُ عَنْهُ وَقَدْ عُلِمَ أَنّ الْأَرْوَاحَ مَتَى قَوِيَتْ وَقَوِيَتْ النّفْسُ وَالطّبِيعَةُ تَعَاوُنًا عَلَى دَفْعِ الدّاءِ وَقَهْرِهِ فَكَيْفَ يُنْكِرُ لِمَنْ قَوِيَتْ طَبِيعَتُهُ وَنَفْسُهُ وَفَرِحَتْ بِقُرْبِهَا مِنْ بَارِئِهَا وَأُنْسِهَا بِهِ وَحُبّهَا لَهُ وَتَنَعّمِهَا بِذِكْرِهِ وَانْصِرَافِ قُوَاهَا كُلّهَا إلَيْهِ وَجَمْعِهَا عَلَيْهِ وَاسْتِعَانَتِهَا بِهِ وَتَوَكّلِهَا عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدْوِيَةِ وَأَنْ تُوجِبَ لَهَا هَذِهِ الْقُوّةُ دَفْعَ الْأَلَمِ بِالْكُلّيّةِ وَلَا يُنْكِرُ هَذَا إلّا أَجْهَلُ النّاسِ وَأَغْلَظُهُمْ حِجَابًا وَأَكْثَفُهُمْ نَفْسًا وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ اللّهِ وَعَنْ حَقِيقَةِ

(89/268)

الْإِنْسَانِيّةِ وَسَنَذْكُرُ إنْ شَاءَ اللّهُ السّبَبَ الّذِي بِهِ أَزَالَتْ قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ دَاءَ اللّدْغَةِ عَنْ اللّدِيغِ الّتِي رُقِيَ بِهَا فَقَامَ حَتّى كَأَنّ مَا بِهِ قَلَبَةٌ . فَهَذَانِ نَوْعَانِ مِنْ الطّبّ النّبَوِيّ نَحْنُ بِحَوْلِ اللّهِ نَتَكَلّمُ عَلَيْهِمَا بِحَسْبِ الْجَهْدِ وَالطّاقَةِ وَمَبْلَغِ عُلُومِنَا الْقَاصِرَةِ وَمَعَارِفِنَا الْمُتَلَاشِيَةِ جِدّا وَبِضَاعَتِنَا الْمُزْجَاةِ وَلَكِنّا نَسْتَوْهِبُ مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلّهُ وَنَسْتَمِدّ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنّهُ الْعَزِيزُ الْوَهّابُ .

فَصْلٌ [الْحَثّ عَلَى التّدَاوِي وَرَبْطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبّبَاتِ]

رَوَى مُسْلِمٌ فِي " صَحِيحِهِ " : مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزّبَيْرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ لِكُلّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " : عَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ دَاءٍ إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً وَفِي " مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ " : مِنْ حَدِيثِ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَاءَتْ الْأَعْرَابُ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَتَدَاوَى ؟ فَقَالَ " نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ " قَالُوا : مَا هُوَ ؟ قَالَ " الْهَرَمُ وَفِي لَفْظٍ إنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَه

(90/268)

وَفِي " الْمُسْنَدِ " : مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ يَرْفَعُهُ إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ عَنْ أَبِي خُزَامَةَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟ فَقَالَ " هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ [مَعْنَى لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ]

(91/268)

فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ إثْبَاتَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَإِبْطَالَ قَوْلِ مَنْ أَنْكَرَهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ عَلَى عُمُومِهِ حَتَّى يَتَنَاوَلَ الْأَدْوَاءَ الْقَاتِلَةَ وَالْأَدْوَاءَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِطَبِيبٍ أَنْ يُبْرِئَهَا وَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَهَا أَدْوِيَةً تُبْرِئُهَا وَلَكِنْ طَوَى عِلْمَهَا عَنْ الْبَشَرِ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ إلَيْهِ سَبِيلًا لِأَنَّهُ لَا عِلْمَ لِلْخَلْقِ إلَّا مَا عَلَّمَهُمْ اللَّهُ وَلِهَذَا عَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشِّفَاءَ عَلَى مُصَادَفَةِ الدَّوَاءِ لِلدَّاءِ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ إلَّا لَهُ ضِدٌّ وَكُلُّ دَاءٍ لَهُ ضِدٌّ مِنْ الدَّوَاءِ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ فَعَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبُرْءَ بِمُوَافَقَةِ الدَّاءِ لِلدَّوَاءِ وَهَذَا قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ وُجُودِهِ فَإِنَّ الدَّوَاءَ مَتَى جَاوَزَ دَرَجَةَ الدَّاءِ فِي الْكَيْفِيَّةِ أَوْ زَادَ فِي الْكَمِّيَّةِ عَلَى مَا يَنْبَغِي نَقَلَهُ إلَى دَاءٍ آخَرَ وَمَتَى قَصَرَ عَنْهَا لَمْ يَفِ بِمُقَاوَمَتِهِ وَكَانَ الْعِلَاجُ قَاصِرًا وَمَتَى لَمْ يَقَعْ الْمُدَاوِي عَلَى الدَّوَاءِ أَوْ لَمْ يَقَعْ الدَّوَاءُ عَلَى الدَّاءِ لَمْ يَحْصُلْ الشِّفَاءُ وَمَتَى لَمْ يَكُنْ الزَّمَانُ صَالِحًا لِذَلِكَ الدَّوَاءِ لَمْ يَنْفَعْ وَمَتَى كَانَ الْبَدَنُ غَيْرَ قَابِلٍ لَهُ أَوْ الْقُوَّةُ عَاجِزَةً عَنْ حَمْلِهِ أَوْ ثَمَّ مَانِعٌ يَمْنَعُ مِنْ تَأْثِيرِهِ لَمْ يَحْصُلْ الْبُرْءُ لِعَدَمِ الْمُصَادَفَةِ وَمَتَى تَمَّتْ الْمُصَادَفَةُ حَصَلَ الْبُرْءُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَا بُدَّ وَهَذَا أَحْسَنُ الْمَحْمِلَيْنِ فِي الْحَدِيثِ . وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ مِنْ الْعَامِّ

(92/268)

الْمُرَادِ بِهِ الْخَاصّ لَا سِيّمَا وَالدّاخِلُ فِي اللّفْظِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ الْخَارِجِ مِنْهُ وَهَذَا يُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ لِسَانٍ وَيَكُونُ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْأَدْوَاءُ الّتِي لَا تَقْبَلُ الدّوَاءَ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الرّيحِ الّتِي سَلّطَهَا عَلَى قَوْمِ عَادٍ : ﴿ تُدَمّرُ كُلّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبّهَا ﴾ [الْأَحْقَافُ 25] أَيْ كُلّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التّدْمِيرَ وَمِنْ شَأْنِ الرّيحِ أَنْ تُدَمّرَهُ وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ . وَمَنْ تَأَمّلَ خَلْقَ الْأَضْدَادِ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَمُقَاوَمَةَ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَدَفْعَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَتَسْلِيطَ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ تَبَيّنَ لَهُ كَمَالُ قُدْرَةِ الرّبّ تَعَالَى وَحِكْمَتُهُ وَإِتْقَانُهُ مَا صَنَعَهُ وَتَفَرّدُهُ بِالرّبُوبِيّةِ وَالْوَحْدَانِيّةِ وَالْقَهْرِ وَأَنّ كُلّ مَا سِوَاهُ فَلَهُ مَا يُضَادّهُ وَيُمَانِعُهُ كَمَا أَنّهُ الْغَنِيّ بِذَاتِهِ وَكُلّ مَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ بِذَاتِهِ .

[الْأَمْرُ بِالتّدَاوِي وَبِأَنّهُ لَا يُنَافِي التّوَكّلَ]

(93/268)

وَفِي الْأَحَادِيثِ الصّحِيحَةِ الْأَمْرُ بِالتّدَاوِي وَأَنّهُ لَا يُنَافِي التّوَكّلَ كَمَا لَا يُنَافِيهِ دَفْعُ دَاءِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْحَرّ وَالْبَرْدِ بِأَضْدَادِهَا بَلْ لَا تَتِمّ حَقِيقَةُ التّوْحِيدِ إلّا بِمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الّتِي نَصَبَهَا اللّهُ مُقْتَضَيَاتٍ لِمُسَبّبَاتِهَا قَدَرًا وَشَرْعًا وَأَنّ تَعْطِيلَهَا يَقْدَحُ فِي نَفْسِ التّوَكّلِ كَمَا يَقْدَحُ

فِي الْأَمْرِ وَالْحِكْمَةِ وَيُضْعِفُهُ مِنْ حَيْثُ يَظُنّ مُعَطِّلُهَا أَنّ تَرْكَهَا أَقْوَى فِي التّوَكّلِ فَإِنّ تَرْكَهَا عَجْزًا يُنَافِي التّوَكّلَ الّذِي حَقِيقَتُهُ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللّهِ فِي حُصُولِ مَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرّهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَلَا بُدّ مَعَ هَذَا الِاعْتِمَادِ مِنْ مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ وَإِلّا كَانَ مُعَطّلًا لِلْحِكْمَةِ وَالشّرْعِ فَلَا يَجْعَلُ الْعَبْدَ عَجْزَهُ تَوَكّلًا وَلَا تَوَكّلَهُ عَجْزًا .

[التّدَاوِي وَالشّفَاءُ مُقَدّرٌ وَالرّدّ عَلَى الْجَبْرِيّةِ]

(94/268)

وَفِيهَا رَدّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ التّدَاوِي وَقَالَ إنْ كَانَ الشّفَاءُ قَدْ قُدّرَ فَالتّدَاوِي لَا يُفِيدُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قُدّرَ فَكَذَلِكَ . وَأَيْضًا فَإِنّ الْمَرَضَ حَصَلَ بِقَدَرِ اللّهِ وَقَدَرُ اللّهِ لَا يُدْفَعُ وَلَا يُرَدّ وَهَذَا السّؤَالُ هُوَ الّذِي أَوْرَدَهُ الْأَعْرَابُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَأَمّا أَفَاضِلُ الصّحَابَةِ فَأَعْلَمُ بِاللّهِ وَحِكْمَتِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ أَنْ يُورِدُوا مِثْلَ هَذَا وَقَدْ أَجَابَهُمْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِمَا شَفَى وَكَفَى فَقَالَ هَذِهِ الْأَدْوِيَةُ وَالرّقَى وَالتّقَى هِيَ مِنْ قَدَرِ اللّهِ فَمَا خَرَجَ شَيْءٌ عَنْ قَدَرِهِ بَلْ يَرُدّ قَدَرَهُ بِقَدَرِهِ وَهَذَا الرّدّ مِنْ قَدَرِهِ وَيُقَالُ لِمُورِدِ هَذَا السّؤَالِ هَذَا يُوجِبُ عَلَيْك أَنْ لَا تُبَاشِرَ سَبَبًا مِنْ الْأَسْبَابِ الّتِي تَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَةً أَوْ تَدْفَعُ بِهَا مَضَرّةً لِأَنّ الْمَنْفَعَةَ وَالْمَضَرّةَ إنْ قُدّرَتَا لَمْ يَكُنْ بُدّ مِنْ وُقُوعِهِمَا وَإِنْ لَمْ تُقَدّرَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلٌ إلَى وُقُوعِهِمَا

وَفِي ذَلِكَ خَرَابُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَفَسَادُ الْعَالَمِ وَهَذَا لَا يَقُولُهُ إلَّا دَافِعٌ لِلْحَقِّ مُعَانِدٌ لَهُ فَيَذْكُرُ الْقَدَرَ لِيَدْفَعَ حُجَّةَ الْمُحِقِّ عَلَيْهِ كَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ [الْأَنْعَامُ 148] و ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ [النَّحْلُ 35] فَهَذَا قَالُوهُ دَفْعًا لِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ . وَجَوَابُ هَذَا السَّائِلِ أَنْ يُقَالَ بَقِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ لَمْ تَذْكُرْهُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ كَذَا

(95/268)

وَكَذَا بِهَذَا السَّبَبِ فَإِنْ أَتَيْتَ بِالسَّبَبِ حَصَلَ الْمُسَبَّبُ وَإِلَّا فَلَا فَإِنْ قَالَ إنْ كَانَ قَدَّرَ لِي السَّبَبَ فَعَلْته وَإِنْ لَمْ يُقَدِّرْهُ لِي لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ فِعْلِهِ . قِيلَ فَهَلْ تَقْبَلُ هَذَا الِاحْتِجَاجَ مِنْ عَبْدِك وَوَلَدِك وَأَجِيرِك إذَا احْتَجَّ بِهِ عَلَيْك فِيمَا أَمَرْتَهُ بِهِ وَنَهَيْتَهُ عَنْهُ فَخَالَفَك ؟ فَإِنْ قَبِلْته فَلَا تَلُمْ مَنْ عَصَاك وَأَخَذَ مَالَك وَقَذَفَ عِرْضَك وَضَيَّعَ حُقُوقَك وَإِنْ لَمْ تَقْبَلْهُ فَكَيْفَ يَكُونُ مَقْبُولًا مِنْك فِي دَفْعِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَيْك . وَقَدْ رُوِيَ فِي أَثَرٍ إسْرَائِيلِيٍّ أَنَّ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ قَالَ يَا رَبِّ مِمَّنْ الدَّاءُ ؟ قَالَ " مِنِّي " . قَالَ فَمِمَّنْ الدَّوَاءُ " ؟ قَالَ " مِنِّي " . قَالَ فَمَا بَالُ الطَّبِيبِ ؟ . قَالَ " رَجُلٌ أُرْسِلَ الدَّوَاءُ عَلَى يَدَيْهِ " .

(96/268)

وَفِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ تَقْوِيَةٌ لِنَفْسِ الْمَرِيضِ وَالطَّبِيبِ وَحَثٌّ عَلَى طَلَبِ ذَلِكَ الدَّوَاءِ وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْمَرِيضَ إذَا اسْتَشْعَرَتْ نَفْسُهُ أَنَّ لِدَائِهِ دَوَاءً يُزِيلُهُ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِرُوحِ الرَّجَاءِ وَبَرُدَتْ عِنْدَهُ حَرَارَةُ الْيَأْسِ وَانْفَتَحَ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِقُوَّةِ الْأَرْوَاحِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالنَّفْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَمَتَى قَوِيَتْ هَذِهِ الْأَرْوَاحُ قَوِيَتْ الْقُوَى الَّتِي هِيَ حَامِلَةٌ لَهَا فَقَهَرَتْ الْمَرَضَ وَدَفَعَتْهُ . وَكَذَلِكَ الطَّبِيبُ إذَا عَلِمَ أَنَّ لِهَذَا الدَّاءِ دَوَاءً أَمْكَنَهُ طَلَبُهُ وَالتَّفْتِيشُ عَلَيْهِ . وَأَمْرَاضُ الْأَبْدَانِ عَلَى وِزَانِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْقَلْبِ مَرَضًا إلَّا جَعَلَ لَهُ شِفَاءً بِضِدِّهِ فَإِنْ عَلِمَهُ صَاحِبُ الدَّاءِ وَاسْتَعْمَلَهُ وَصَادَفَ دَاءَ قَلْبِهِ أَبْرَأَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المعاد حـ 4 صـ 16.5 ﴾

(97/268)

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من المعلوم أن ما كانوا ألفوه واتخذوه ديناً يستعظمون تركه ، لأن الشيطان يوسوس لهم بأنه توسع الدنيا ، والتوسع فيها مما ينبغي الزهد فيه كما دعا إليه كثير من الآيات ، أكد سبحانه الإذن في ذلك بالإنكار على من حرمه ، فقال منكراً عليهم إعلاماً بأن الزهد الممدوح ما كان مع صحة الاعتقاد في الحلال والحرام ، وأما ما كان مع تبديل شيء من الدين بتحليل حرام أو عكسه فهو مذموم : ﴿ قل ﴾ منكراً موبخاً ﴿ من حرم زينة الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه ﴿ التي أخرج لعباده ﴾ أي ليتمتعوا بها من الثياب والمعادن وغيرها .

ولما ذكر الملابس التي هي شرط في صحة العبادة على وجه عم غيرها من المراكب وغيرها ، أتبعها المآكل والمشارب فقال : ﴿ والطيبات ﴾ أي من الحلال المستلذ ﴿ من الرزق ﴾ كالبحائر والسوائب ونحوها ؛ ولما كان معنى الإنكار : لم يحرمها من يعتبر تحريمه بل أحلها ، وكان ربما غلا في الدين غال تمسكاً بالآيات المنفرة عن الدينا المهونة لشأنها مطلقاً فضلاً عن زينة وطيبات الرزق ، قال مستأنفاً لجواب من يقول : لمن ؟ : ﴿ قل هي ﴾ أي الزينة والطيبات ﴿ للذين آمنوا ﴾ وعبر بهذه العبارة ولم يقل : ولغيرهم ، تنبيهاً على أنها لهم بالاصالة ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ وأما الكفار فهم تابعون لهم في التمتع بها وإن كانت لهم أكثر ، فهي غير خالصة لهم وهي للذين آمنوا ﴿ خالصة ﴾ أي لا يشاركهم فيها أحد ، هذا على قراءة نافع بالرفع ، والتقدير على قراءة غيره : حال كونها خالصة ﴿ يوم

القيامة ﴾ وفي هذا تأكيد لما مضى من إحلالها بعد تأكيد ومحو الشكوك ، وداعية للتأمل في الفصل بين المقامين لبيان أن الزهد المأمور به إنما هو بالقلب بمعنى أنه لا يكون للدنيا عنده قدر ولا له إليها التفات ولا هي أكبر همه ، وأما كونها ينتفع بها فيما أذن الله فيه وهي محقورة غير مهتم بها فذلك من المحاسن .

ولما كان هذا المعنى من دقائق المعاني ونفائس المباني ، أتبعه تعالى قوله جواباً لمن يقول : إن هذا التفصيل فائق فهل يفصل غيره هكذا ؟ ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا التفصيل البديع ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي نبين أحكامها ونميز بعض المشبهات من بعض ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي لهم ملكة وقابلية للعلم ليتوصلوا به إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 27 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطيبات مِنَ الرزق ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

إن هذه الآية ظاهرها استفهام ، إلا أن المراد منه تقرير الإنكار ، والمبالغة في تقرير ذلك الإنكار ، وفي الآية قولان :

القول الأول : أن المراد من الزينة في هذه الآية اللباس الذي تُسْتَر به العورة ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وكثير من المفسرين .

والقول الثاني : أنه يتناول جميع أنواع الزينة ، فيدخل تحت الزينة جميع أنواع التزيين ، ويدخل تحتها تنظيف البدن من جميع الوجوه ، ويدخل تحتها المركوب ، ويدخل تحتها أيضاً أنواع الحلي ، لأن كل ذلك زينة ، ولولا النص الوارد في تحريم الذهب والفضة والإبريسم على الرجال لكان ذلك داخلاً تحت هذا العموم ، ويدخل تحت الطيبات من الرزق ، كل ما يستلذ ويشتهيى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل أيضاً تحته التمتع بالنساء وبالطيب .

وروي عن عثمان بن مظعون : أنه أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : غلبني حديث النفس ، عزمت على أن أختصي ، فقال : " مهلاً يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام " قال : فإن نفسي تحدثني بالترهب .

قال : " إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة فقال : تحدثني نفسي بالسياحة " فقال : " سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة " فقال : إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك ،

فقال : " الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك " فقال : إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة فقال : " إن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله " قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها .

قال : " إن المسلم إذا غشى أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيف في الجنة وإذا كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح يوم القيامة وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعاً ورحمة يوم القيامة " قال : فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم قال : " مهلاً إني آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله " قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب .

(99/268)

قال : " مهلاً فإن جبريل أمرني بالطيب غباً وقال لا تتركه يوم الجمعة " ثم قال : " يا عثمان لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي " واعلم أن هذا الحديث يدل على أن هذه الشريعة الكاملة تدل على أن جميع أنواع الزينة مباح مأذون فيه ، إلا ما خصه الدليل ، فلهذا السبب أدخلنا الكل تحت قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ .

المسألة الثانية :

مقتضى هذه الآية أن كل ما تزين الإنسان به ، وجب أن يكون حلالاً ، وكذلك كل ما يستطاب وجب أن يكون حلالاً ، فهذه الآية تقتضي حل كل المنافع ، وهذا أصل معتبر في كل الشريعة ، لأن كل واقعة تقع ، فإما أن يكون النفع فيها خالصاً ، أو راجحاً أو الضرر يكون خالصاً أو راجحاً ، أو يتساوى الضرر والنفع ، أو يرتفعا .

أما القسمان الأخيران ، وهو أن يتعادل الضرر والنفع ، أو لم يوجدا قط ففي هاتين الصورتين ، وجب الحكم ببقاء ما كان على ما كان ، وإن كان النفع خالصاً ، وجب الإطلاق بمقتضى هذه الآية ، وإن كان النفع راجحاً والضرر مرجوحاً يقابل المثل بالمثل ، ويبقى القدر الزائد نفعاً خالصاً ، فيلتحق بالقسم الذي يكون النفع فيه خالصاً ، وإن كان الضرر خالصاً ، كان تركه خالص النفع ، فيلتحق بالقسم المتقدم ، وإن كان الضرر راجحاً بقي القدر الزائد ضرراً خالصاً ، فكان تركه نفعاً خالصاً ، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والحرمة ، ثم إن وجدنا نصاً خالصاً في الواقعة ، قضينا في النفع بالحل ، وفي الضرر بالحرمة ، وبهذا الطريق صار جميع الأحكام التي لا نهاية لها داخلاً تحت النص ثم قال نفاة القياس .

فلو تعبدنا الله تعالى بالقياس ، لكان حكم ذلك القياس .

إما أن يكون موافقاً لحكم هذا النص العام ، وحينئذ يكون ضائعاً ، لأن هذا النص مستقل به .

(100/268)

وإن كان مخالفاً كان ذلك القياس مخصصاً لعموم هذا النص ، فيكون مردوداً لأن العمل بالنص أولى من العمل بالقياس .

قالوا : وبهذا الطريق يكون القرآن وحده وافياً ببيان كل أحكام الشريعة ، ولا حاجة معه إلى طريق آخر ، فهذا تقرير قول من يقول : القرآن واف ببيان جميع الوقائع .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 52.53 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾

فصل

قال الفخر :

تفسير الآية هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة لهم ، لأن المشركين شركاؤهم فيها خالصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد .

فإن قيل : هلا قيل للذين آمنوا ولغيرهم ؟

قلنا : فهم منه التنبيه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة ، وأن الكفرة تبع لهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ [البقرة : 126] والحاصل : أن ذلك تنبيه على أن هذه النعم إنما تصفوا عن شوائب الرحمة يوم القيامة أما في الدنيا فإنها تكون مكدرة مشوبة .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ومعنى تفصيل الآيات قد سبق وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لقوم يمكنهم النظر به والاستدلال حتى يتوصلوا به إلى تحصيل العلوم النظرية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 53.54 ﴾ .

باختصار يسير .

(101/268)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾

وهو أنه لما نزل قوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ لبسوا الثياب وطافوا بالبيت مع الثياب فعيرهم المشركون ، فنزل ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ يعني : لبس الثياب ﴿ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ أي خلقها لهم لعباده أي أوجد .

وقيل : أظهر وقيل على حقيقته كان في السماء أو في الأرض فأخرجه .

﴿ والطيبات مِنَ الرزق ﴾ يعني : الحلال وهو اللحم والشحم والدسم ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ﴾ قال مقاتل : في الآية تقديم .

ومعناه : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التى ﴾ قرأ نافع : ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ بضم التاء وقرأ الباقون بالنصب خَالِصَةً فمن قرأ بالضم فهو خبر بعد خبر يعني : هي ثابتة لهم خالصة أي ثابتة .

معناه : قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا يشترك فيها المؤمن والكافر وهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة وقال القتبي : هذا من الاختصار ومعناه : قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة ، وفي الآخرة خالصة ثم قال : ﴿ كذلك نُفَصِّلُ الآيات ﴾ يعني : العلامات ويقال : نبيّن الآيات من أمره ونهيه وما يكون في الدنيا والآخرة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يفهمون أمر الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾

يعني الثياب ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ قال ابن زيد : كان قوم إذا حجّوا أو اعتمروا حرموا الشاة عليهم وما يخرج منها لبنها وسمنها ولحمها وشحمها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ الآية .

(102/268)

قال ابن عباس وقتادة : يعني بالطيبات من الرزق ما حرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصايا والحوامي . ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ قال ابن عباس : إنّ المؤمنين يشاركون المشركين في الطّيّبات من الدنيا فأكلوا من طيّبات طعامهم وأُلبسوا من جياد ثيابهم وانكحن الزوج الخ . . . كما هم ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء ومجاز الآية : قل هي للذين آمنوا مشتركة في الحياة الدنيا وخاصة في يوم القيامة .

وقراءة ابن عباس وقتادة ونافع : خالصة بالرفع يعنون قل هي خالصة .

وقرأ الباقون : بالنصب على القطع لأن الكلام قد تمّ دونه ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(103/268)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ يعني ستر العورة ردا على تركها من العرب في الطواف .

ويحتمل ثانياً : أن يريد زينتها في اللباس .

ثم قال : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يحرمون في الإحرام أكل السمن واللبن ، قاله ابن زيد ، والسدي .

والثاني : أنها البحَيْرَةُ والسائبة التي حرموها على أنفسهم ، قاله الحسن ، وقتادة .

وفي طيبات الرزق قولان :

أحدهما : أنه المستلذ .

والثاني : أنه الحلال .

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعني أن الذين آمنوا في الحياة الدنيا له الطيبات من الرزق يوم القيامة لأنهم في القيامة يختصون بها وفي الدنيا قد يشركهم الكفار فيها .

وفي قوله : ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وجهان :

أحدهما : خالصة لهم من دون الكفار .

والثاني : خالصة من مضرة أو مأثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ ﴾ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ : ﴿ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُحَرِّمُ السَّوَائِبَ وَالْبَحَائِرَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ ﴾ .

وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ كَانُوا يُحَرِّمُونَ فِي الْإِحْرَامِ أَكْلَ السَّمْنِ وَالْأَدْهَانِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا لِقَوْلِهِمْ ﴾ ، وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِمَا قَدَّمَ إبَاحَتَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الْآيَةُ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا اسْتَطَابَهُ الْإِنْسَانُ وَاسْتَلَذَّهُ مِنْ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي إبَاحَةَ سَائِرِ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ إلَّا مَا قَامَتْ دَلَالَةُ تَحْرِيمِهِ وَالثَّانِي : الْحَلَالُ مِنْ الرِّزْقِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَاحَهَا وَهِيَ خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ مِنْ شَوَائِبِ التَّنْغِيصِ وَالتَّكْدِيرِ وَقِيلَ : هِيَ خَالِصَةٌ لَهُمْ دُونَ الْمُشْرِكِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : سَتْرُ الْعَوْرَةِ ؛ إذْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَطُوفُ عُرَاةً ؛ إذْ كَانَتْ لَا تَجِدُ مَنْ يُعِيرُهَا مِنْ الْحُمْسِ .

الثَّانِي : جَمَالُ الدُّنْيَا فِي ثِيَابِهَا وَحُسْنُ النَّظْرَةِ فِي مَلَابِسِهَا وَلَذَّاتِهَا .

الثَّالِثُ : جَمْعُ الثِّيَابِ عِنْدَ السِّعَةِ فِي الْحَالِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ : إذَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَوْسِعُوا .

جَمَعَ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ ، وَصَلَّى رَجُلٌ فِي إزَارٍ أَوْ رِدَاءٍ ، فِي إزَارٍ وَقَمِيصٍ ، فِي إزَارٍ وَقَبَاءٍ ، فِي سَرَاوِيلَ وَرِدَاءٍ ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَمِيصٍ ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَبَاءٍ ، فِي تُبَّانٍ وَقَبَاءٍ ، فِي تُبَّانٍ وَقَمِيصٍ .

وَأَحْسِبُهُ قَالَ فِي تُبَّانٍ وَرِدَاءٍ .

وَالتُّبَّانُ : ثَوْبٌ يُشْبِهُ السَّرَاوِيلَ فَسَّرَهُ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي كَذَلِكَ ، وَعَلَيْهِ نُقِلَ الْحَدِيثُ ؛ فَلَعَلَّهُ أَخَذَهُ مِنْهُ ، فَكَثِيرًا مَا يُفَسِّرُ الْأَعْرَابِيُّونَ مِنْ لَحْنِ الْحَدِيثِ مَا لَمْ يَجِدُوهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي امْتَنَّ بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ وَهِيَ : الْآيَةُ الْخَامِسَةُ وَلَوْلَا وُجُوبُ سَتْرِهَا مَا وَقَعَ الِامْتِنَانُ بِاللِّبَاسِ الَّذِي يُوَارِيهَا .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا وَقَعَ الِامْتِنَانُ فِي سَتْرِهَا لِقُبْحِ ظُهُورِهَا .

قُلْنَا : مَاذَا يُرِيدُونَ بِهَذَا الْقُبْحِ ؟ أَيُرِيدُونَ بِهِ قُبْحًا عَقْلًا ، فَنَحْنُ لَا نُقَبِّحُ بِالْعَقْلِ ، وَلَا نُحَسِّنُ ؛ وَإِنَّمَا الْقَبِيحُ عِنْدَنَا مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ ، وَالْحَسَنُ ، مَا حَسَّنَهُ الشَّرْعُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ مِنْ الرِّزْقِ ﴾ قِيلَ : هِيَ الْحَلَالُ .

وَقِيلَ : هِيَ اللَّذَّاتُ ، وَكُلُّ لَذَّةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُحَرَّمَةً فَإِنْ اسْتِدَامَتَهَا وَالِاسْتِرْسَالَ عَلَيْهَا مَكْرُوهٌ ، وَيَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ : يَعْنِي بِحَقِّهَا مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالتَّصْدِيقِ لَهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْعِمُ وَيَرْزُقُ ؛ فَإِنْ وَحَّدَهُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ وَصَدَّقَهُ فَقَدْ قَامَ بِحَقِّ النِّعْمَةِ ، وَإِنْ كَفَرَ فَقَدْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ نَفْسِهِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَا أَحَدَ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى مِنْ اللَّهِ ، يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَهُمْ يَدَّعُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى " ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْرَكُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي اسْتِعْمَالِ الطَّيِّبَاتِ فِي الدُّنْيَا .

فَإِذَا كَانَ فِي الْقِيَامَةِ خَلَصَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي النَّعِيمِ ، وَكَانَ لِلْكُفَّارِ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(107/268)

وقال ابن عطية :

وأمر الله عز وجل نبيه عليه السلام أن يسألهم عمن حرم ما أحل الله على جهة التوبيخ والتقرير وليس يقتضي هذا السؤال جواباً ، وإنما المراد منه التوقيف على سوء الفعل ، وذكر بعض الناس أن السؤال والجواب جاء في هذه الآية من جهة واحدة وتخيل قوله : ﴿ قل هي للذين آمنوا ﴾ جواباً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا نظر فاسد ليس ذلك بجواب السؤال ولا يقتضي هذا النوع من الأسئلة جواباً ، و﴿ زينة الله ﴾ هي ما حسنته الشريعة وقررته .

وزينة الدنيا هي كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلو في الأرض كالمال والبنين وهي الزينة التي فضل الشرع عليها ، وقوله : ﴿ والطيبات ﴾ قال الجمهور يريد المحللات ، وقال الشافعي وغيره يريد المستلذات .

قال القاضي أبو محمد : إلا أن ذلك ولا بد يشترط فيه أن يكون من الحلال ، وإنما قاد

الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها فإنه يقول هي من الخبائث محرمة .

وقوله تعالى : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ .

(108/268)

قرأ نافع وحده " خالصةٌ " بالرفع والباقون " خالصةً " بالنصب ، والآية تتأول على معنيين أحدهما أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا ، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون ، فقوله ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ متعلق ب ﴿ آمنوا ﴾ . وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير ، فإنه قال ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها ، وقوله " خالصةٌ " بالرفع خبر هي ، و ﴿ للذين ﴾ تبيين للخلوص ، ويصح أن يكون خالصة خبراً بعد خبر ، و ﴿ يوم القيامة ﴾ يريد به وقت الحساب ، وقرأ قتادة والكسائي " قل هي لمن آمن في الحياة الدنيا " ، والمعنى الثاني هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم وهي يوم القيامة خالصة لهم أي لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة ، وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد ، فقوله : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ على هذا التأويل متعلق بالمحذوف المقدر في قوله ﴿ للذين

آمنوا ﴾ كأنه قال هي خالصة أو ثابتة في الحياة الدنيا للذين آمنوا ، و" خالصةٌ " بالرفع خبر بعد خبر ، أو خبر ابتداء مقدر تقديره : وهي خالصة يوم القيامة ، و﴿ يوم القيامة ﴾ يراد به استمرار الكون في الجنة ، وأما من نصب " خالصةً " فعلى الحال من الذكر الذي في قوله ﴿ للذين آمنوا ﴾ ، التقدير هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال خلوص لهم ، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله ﴿ للذين ﴾ . وقال أبو علي في الحجة : ويصح أن يتعلق قوله : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بقوله ﴿ حرم ﴾ ولا يصح أن يتعلق ب ﴿ زينة ﴾ لأنها مصدر قد وصف ، ويصح أني يتعلق بقوله ﴿ أخرج لعباده ﴾ ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله : ﴿ قل هي للذين آمنوا ﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جداً كما جاء في قوله : ﴿

(109/268)

والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ﴾ [يونس : 27] فقوله ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ معطوف على ﴿ كسبوا ﴾ داخل في الصلة ، والتعلق ب ﴿ أخرج ﴾ هو قول الأخفش ويصح أن يتعلق بقوله : ﴿ والطيبات ﴾ . ويصح أن يتعلق بقوله : ﴿ من الرزق ﴾ ويصح أن يتعلق بقوله ﴿ آمنوا ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الأخير هو أصح الأقوال على هذا التأويل الأول فيما رتبناه هنا ، وأما على التأويل الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقات التي ذكر أبو علي وإنما يظهر أن يتعلق المحذوف المقدر في قوله ﴿ للذين آمنوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ تقدير الكلام أي كما فصلنا هذه الأشياء المتقدمة الذكر فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات أي نبين الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به ، و ﴿ نفصل ﴾ معناه نقسم ونبين لأن بيان الأمور المشبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(110/268)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل من حرَّم زينة الله ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المشركين عيَّروا المسلمين ، إذ لبسوا الثياب في الطواف ، وأكلوا الطيبات ، فنزلت ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم كانوا يُحرِّمون أشياء أحلَّها الله ، من الزروع وغيرها ، فنزلت هذه الآية .

رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : نزلت في طوافهم بالبيت عراةً ، قاله طاووس ، وعطاء .

وفي زينة الله قولان .

أحدهما : أنها ستر العورة ؛ فالمعنى : من حرم أن تلبسوا في طوافكم ما يستركم ؟ .

والثاني : أنها زينة اللباس .

وفي الطيبات قولان .

أحدهما : أنها الحلال .

والثاني : المستلذ .

ثم في ما عني بها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها البحائر ، والسوائب ، والوصائل ، والحوامي التي حرَّموها ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : أنها السَّمْنْ ، والألبان ، واللحم ، وكانوا حرَّموه في الإحرام ، قاله ابن زيد .

والثالث : الحرث ، والأنعام ، والألبان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة ﴾ قال ابن الأنباري : "خالصة" نصب على الحال من لام مضمرة ، تقديرها : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة ، وهي لهم في الآخرة خالصة ، فحذفت اللام لوضوح معناها ، كما تحذف العرب أشياء لا يُلبِس

سقوطها .

قال الشاعر :

تَقُوْلُ ابْنَتِي لَمّا رَأَتْنِيَ شَاحِبَاً . . .

كأَنَّكَ يَحْمِيْكَ الطَّعَامَ طبيبُ

تتابُعُ أحداثٍ تخرَّ مْنَ أخوتي . . .

فشيَّبن رَأْسي ، والخُطُوبُ تُشِيْبُ

أراد : فقلت لها : الذي اكسبني ما ترين ، تتابع أحداث ، فحذف لانكشاف المعنى .

قال المفسرون : إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات ، فأكلوا ولبسوا ونكحوا ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين ، وليس للمشركين فيها شيء .

وقيل : خالصة لهم من ضرر أو إِثم .

وقرأ نافع : "خالصةٌ" بالرفع .

(111/268)

قال الزجاج : ورفعُها على أنه خبر بعد خبر ، كما تقول : زيد عاقل لبيب ؛ والمعنى : قل هي ثابتة للذين آمنوا في الدنيا ، خالصةٌ يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نفصِّل الآيات ﴾ أي : هكذا نبيِّنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(112/268)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ بيّن أنهم حرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يحرّمه الله عليهم .

والزينة هنا الملبس الحسن ، إذا قدر عليه صاحبه .

وقيل : جميع الثياب ؛ كما روي عن عمر : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا .

وقد تقدّم .

وروي عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب شيخِ مالك رضي الله عنهم أنه كان يلبس كساء خَزٍّ بخمسين ديناراً ، يلبسه في الشتاء ، فإذا كان في الصيف تصدّق به ، أو باعه

فتصدّق بثمنه ، وكان يلبَس في الصيف ثوبين من مَتاعِ مِصر مُمَشَّقَيْن ويقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ .

الثانية : وإذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب ، والتجمُّل بها في الجُمَع والأعياد ، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان .

قال أبو العالِية : كان المسلمون إذا تزاوَروا تجمّلوا .

وفي صحيح مسلم " من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلَّةَ سِيَرَاءَ تباع عند باب المسجد ، فقال : يا رسول الله ، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدِموا عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة" " فما أنكر عليه ذكر التجمّل ، وإنما أنكر عليه كونها سِيَرَاءَ .

وقد اشترى تميم الدّارِي حُلَّة بألف درهم كان يصلي فيها .

وكان مالك بن دِينار يلبس الثياب العدَنية الجياد .

وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار .

أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتّان والصوف من الثياب .

(113/268)

ويقول : "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ" هيها تا أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى ، لا واللها بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهَى ، وغيرهم أهل دَعْوَى ، وقلوبهم خالية من التقوى .

قال خالد بن شَوْذَب : شهدت الحسن وأتاه فَرْقَد ، فأخذه الحسن بكسائه فمدّه إليه وقال : يا فُرَيْقَد ، يا بن أمّ فريقد ، إن البِرّ ليس في هذا الكساء ، إنما البِرّ ما وَقَرَ في الصدر وصدّقه العمل .

ودخل أبو محمد ابن أخي معروف الكرخِيّ على أبي الحسن بن يَسَار وعليه جبة صوف ، فقال له أبو الحسن : يا أبا محمد ، صوّفت قلبك أو جسمك ؟ صوّف قلبك والبس القُوهِيّ على القُوهِيّ وقال رجل للشّبْليّ : قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع ، فمضى فرأى عليهم المرقّعات والفُوَط ، فأنشأ يقول :

أمّا الخيام فإنها كخيامهم . . .

وأرى نساء الحيّ غير نسائه

قال أبو الفرج بن الجوزِي رحمه الله : وأنا أكره لبس الفُوَط والمرقّعات لأربعة أوجه : أحدها : أنه ليس من لبس السلف ، وإنما كانوا يرقعون ضرورة .

والثاني : أنه يتضمن ادعاء الفقر ، وقد أمِر الإنسان أن يظهر أثر نعَم الله عليه .

والثالث : إظهار التزهد ؛ وقد أمرنا بستره .

والرابع : أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة .

ومن تشبه بقوم فهو منهم .

وقال الطبريّ : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حلّه .

ومَن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البر .

ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض شهوة النساء .

وسئل بِشْر بن الحارث عن لبس الصوف ، فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه ثم قال : لبس الخَزّ والمعَصْفَر أحب إليّ من لبس الصوف في الأمصار .

وقال أبو الفرج : وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة ، لا المترفعة ولا الدّون ، ويتخيّرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان ، ولم يكن تخيّر الأجود عندهم قبيحاً .

(114/268)

وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر ، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى ، ويوجب احتقار اللابس ؛ وكل ذلك مكروه مَنْهِيّ عنه .

فإن قال قائل : تجويد اللباس هَوَى النفس وقد أمِرنا بمجاهدتها ، وتزيّن للخلق وقد أمِرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق .

فالجواب ليس كل ما تهواه النفس يُذَمّ ، وليس كل ما يُتَزَيّن به للناس يُكره ، وإنما يُنْهَى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدِّين .

فإن الإنسان يجب أن يُرى جميلاً .

وذلك حظ للنفس لا يُلام فيه .

ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوّي عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج .

وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يُذَم .

وقد روى مَكْحول " عن عائشة قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب ، فخرج يريدهم ، وفي الدار رَكْوة فيها ماء ؛ فجعل ينظر في الماء ويسوّي لحيته وشعره .

فقلت : يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : "نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيُهَيِّيء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال" " وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذُرَّة من كِبر" .

فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة .

قال : "إن الله جميل يحب الجمال الكِبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس" " والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة .

وقد روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل بن دُكَيْن قال حدّثنا مَنْدل عن ثور عن خالد بن معدان قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسافر بالمشط والمرآة والدّهن والسواك والكحل " وعن ابن جريج : مشط عاج يتمشط به .

(115/268)

قال ابن سعد : وأخبرنا قَبيصة بن عقبة قال : حدّثنا سفيان عن ربيع بن صَبيح عن يزيد الرّقاشيّ عن أنس بن مالك قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ويسرّح لحيته بالماء "

أخبرنا يزيد بن هارون حدّثنا عبّاد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : "كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْحُلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً في كل عين " .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ الطيبات اسم عامٌّ لما طاب كَسْباً وطَعْماً .

قال ابن عباس وقتادة : يعني بالطيبات من الرزق ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي .

وقيل : هي كل مستلَذّ من الطعام .

وقد اختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات ؛ فقال قوم : ليس ذلك من القُربات ، والفعل والترك يستوي في المباحات .

وقال آخرون : ليس قُرْبة في ذاته ، وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا ، وقِصر الأمل فيها ، وترك التكلف لأجلها ؛ وذلك مندوب إليه ، والمندوب قُربة .

وقال آخرون : ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : لو شئنا لاتخذنا صِلاءً وصَلائقَ وصِنَاباً ، ولكني سمعت الله تعالى يذمّ أقواماً فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا ﴾ [الأحقاف : 20] .

ويروى "صَرائق" بالراء ، وهما جميعاً الجرادق .

والصَّلائق (باللام) : ما يلصق من اللحوم والبقول .

والصِّلاء (بكسر الصاد والمد) : الشّواء .

والصِّناب : الخردل بالزبيب .

وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكُلْفَة وبغير كلفة .

قال أبو الحسن علي بن الفضل المقدسي شيخ أشياخنا : وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل ؛ فإنه لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه امتنع من طعام لأجل طِيبه قطُّ ، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبِطِّيخ والرطّب ، وإنما يكره التكلّف لما فيه من التشاغل

بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة .

والله تعالى أعلم .

(116/268)

قلت : وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات ؛ واحتج بقول عمر رضي الله عنه : إياكم واللحم فإن له ضَرَاوَة كضَرَاوَة الخمر .

والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا ، والمداومة على الشهوات ، وشفاء النفس من اللذات ، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا ، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله : إياكم والتنعمَ وزِيّ أهل العجم ، واخشوشنوا .

ولم يرد رضي الله عنه تحريم شيءٍ أحله الله ، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه .

وقول الله عز وجل أولى ما امتثل واعتمد عليه .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ .

وقال عليه السلام : " سيِّد إدامِ الدنيا والآخرة اللحم " وقد روى هِشام بن عروة عن أبيه عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطِّبِّيخ بالرطب ويقول : "يكسر حر هذا برد هذا وبرد هذا حر هذا" " والطِّبِّيخ لغة في البِطِّيخ ، وهو من المقلوب .

وقد مضى في "المائدة" الردُّ على من آثر أكل الخشن من الطعام .

وهذه الآية تردّ عليه وغيرها : والحمد لله .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ يعني بحقها من توحيد الله تعالى والتصديق له ؛ فإن الله ينعم ويرزق ، فإن وحّده المنعَمُ عليه وصدّقه فقد قام بحق النعمة ، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه .

وفي صحيح الحديث : " لا أحد أصبر على أذى من الله يعافيهم ويرزقهم وهم يدعون له الصاحبة والولد " وتَمَّ الكلام على "الحياة الدنيا" .

ثم قال "خَالِصَةٌ" بالرفع وهي قراءة ابن عباس ونافع .

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ أي يُخلِص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا ، وليس للمشركين فيها شيء كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها .

ومجاز الآية : قل هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا مع غيرهم ، وهي للمؤمنين خالصةٌ يوم القيامة .

فخالصةٌ مستأنف على خبر مبتدأ مضمر .

(117/268)

وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة والسدّي وابن جريج وابن زيد .

وقيل : المعنى أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصةٌ يوم القيامة ، للمؤمنين في الدنيا ؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون فقوله : "فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" متعلق "بِآمَنُوا" .

وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير .

وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع ؛ لأن الكلام قد تمّ دونه .

ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على "الدُّنْيَا" ؛ لأن ما بعده متعلق بقوله : "لِلَّذِينَ آمَنُوا" حالاً منه ؛ بتقدير قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة ؛ قاله أبو عليّ .

وخبر الابتداء "لِلَّذِينَ آمَنُوا" .

والعامل في الحال ما في اللام من معنى الفعل في قوله : "لِلَّذِينَ" واختار سيبويه النصب لتقدم الظرف .

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ أي كالذي فصّلت لكم الحلال والحرام أفصِّل لكم ما تحتاجون إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(118/268)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾

يعني قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره ثم في تفسير الزينة قولان :

أحدهما : وهو قول جمهور المفسرين أن المراد من الزينة هنا اللباس الذي يستر العورة .

والقول الثاني : ذكر الإمام فخر الدين الرازي أنه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلي ، ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ يعني ومن حرم الطيبات من الرزق التي أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا في معنى الطيبات في هذه الآية أقوالاً : أحدها أن المراد بالطيبات اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله تعالى بقوله : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ .

القول الثاني : وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة : أن المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب .

قال ابن عباس رضي الله عنهما إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من

الرزق وغيرها وهو قول الله تعالى : قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً وهو هذا وأنزل الله قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

(119/268)

والقول الثالث : إن الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما نهى عنه وورد نص بتحريمه ﴿ قل هي للذين آمنوا ﴾ يعني قل يا محمد إن الطيبات التي أخرج من رزقه للذين آمنوا ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ غير خالصة لهم لأنه يشركهم فيها المشركون ﴿ خالصة ﴾ لهم ﴿ يوم القيامة ﴾ يعني لا يشركهم فيها أحد لأنه لا حظ للمشركين يوم القيامة في الطيبات من الرزق ، وقيل : خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم لأنه قد يقع لهم في الحياة الدنيا في تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم أنها خالصة لهم في الآخرة من ذلك كله ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ يعني كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا إني أنا الله وحدي لا شريك في فأحلّوا حلالي وحرّموا حرامي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(120/268)

وقال أبو حيان :

﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾

﴿ زينة الله ﴾ ما حسنته الشريعة وقررته مما يتجمل به من الثياب وغيرها وأضيفت إلى الله لأنه هو الذي أباحها والطّيبات هي المستلذات من المأكول والمشروب بطريقة وهو الحل ، وقيل : الطيبات المحلّلات ومعنى الاستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء وتوبيخ محرميها وقد كانوا يحرمون أشياء من لحوم الطّيبات وألبانها والاستفهام إذا تضمّن الإنكار لا جواب له وتوهم مكي هنا أن له جواباً هنا وهو قوله ﴿ قل هي ﴾ توهم فاسد ومعنى ﴿ أخرج ﴾ أبرزها وأظهرها ، وقيل فصل حلالها من حرامها .

﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ قرأ قتادة ﴿ قل هي ﴾ لمن آمن ، وقرأ نافع ﴿ خالصة ﴾ بالرفع ، وقرأ باقي السبعة بالنصب فأما النصب فعلى الحال والتقدير ﴿ قل هى ﴾ مستقرّة ﴿ للذين ءامنوا ﴾ في حال خلوصها لهم يوم القيامة وهي حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً لهي ﴿ وفي الحياة ﴾ متعلق بآمنوا ويصير المعنى قل هي خالصة يوم القيامة لمن آمن في الدّنيا ولا يعني بيوم القيامة وقت الحساب وخلوصها كونهم لا يعاقبون عليها وإلى هذا المعنى يشير تفسير ابن جبير ، وجوّزوا فيه أن يكون خبراً بعد خبر والخبر الأوّل هو ﴿ للذين آمنوا ﴾ ﴿ في الحياة الدنيا

﴿ متعلق بما تعلق به للذين وهو الكون المطلق أي قل هي كائنة في الحياة الدنيا للمؤمنين وإن كان يشركهم فيها في الحياة الدّنيا الكفّار ﴿ خالصة لهم يوم القيامة ﴾ ويراد بيوم القيامة استمرار الكون في الجنة وهذا المعنى من أنها لهم ولغيرهم في الدّنيا خالصة لهم يوم القيامة هو قول ابن عباس والضحّاك وقتادة والحسن وابن جريج وابن زيد وعلى هذا المعنى فسر الزمخشري .

(121/268)

(فإن قلت) : إذا كان معنى الآية أنها لهم في الدنيا على الشركة بينهم وبين الكفار فكيف جاء ﴿ قل من حرم زينة ﴾ ، (فالجواب) : من وجوه ، أحدها : إنّ في الكلام حذفاً تقديره قل هي للمؤمنين والكافرين في الدنيا خالصة للمؤمنين في القيامة لا يشاركون فيها قاله الكرماني ، الثاني : إنّ ما تعلق به ﴿ للذين آمنوا ﴾ ليس كوناً مطلقاً بل كوناه مقيّداً يدلّ على حذفه مقابله وهو ﴿ خالصة ﴾ تقديره قل هي غير خالصة للذين آمنوا قاله الزمخشري قال : قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة لهم لأنّ المشركين شركاؤهم فيها خالصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد ثم قال الزمخشري : (فإن قلت) : هلا قيل للذين آمنوا ولغيرهم ، (قلت) : النية على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق

الأصالة وأنّ الكفرة تبع لهم كقوله تعالى ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره ﴾ انتهى

وجواب الزمخشري هو للتبريزي رحمه الله .

قال التبريزي معنى الآية أنها للمؤمنين خالصة في الآخرة لا يشركهم الكفّار فيها هذا وإن كان مفهومه الشركة بين الذين آمنوا والذين أشركوا وهو كذلك لأنّ الدّنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر إلا أنه أضاف إلى المؤمنين ولم يذكر الشّركة بينهم وبين الذين أشركوا في الدنيا تنبيهاً على أنه إنما خلقها للذين آمنوا بطريق الأصالة والكفّار تبع لهم فيها في الدنيا ولذلك خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ انتهى ، وقال أبو عليّ في الحجة ويصح أن يعلق قوله ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بقوله ﴿ حرم ﴾ ولا يصح أن يتعلق بقوله ﴿ أخرج لعباده ﴾ ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله ﴿ هي للذين آمنوا ﴾ لأنّ ذلك كلام يشدّ القصة وليس بأجنبي منها جدّاً كما جاز ذلك في قوله

(122/268)

﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلّة ﴾ فقوله : ﴿ وترهقهم ذلّة ﴾ معطوف على ﴿ كسبوا ﴾ داخل في الصلاة والتعلّق بأخرج هو قول الأخفش ،

ويصحّ أن يتعلق بقوله ﴿ والطّيبات ﴾ ويصح أن يتعلق بقوله ﴿ منَ الرزق ﴾ انتهى .

وتقادير أبي عليّ والأخفش فيها تفكيك للكلام وسلوك به غير ما تقتضيه الفصاحة ، وهي تقادير أعجمية بعيدة عن البلاغة لا تناسب في كتاب الله بل لو قدّرت في شعر الشنفري ما ناسب والنحاة الصّرف غير الأدباء بمعزل عن إدراك الفصاحة وأما تشبيه ذلك بقوله ﴿ والذين كسبوا ﴾ فليس ما قاله بمتعيّن فيه بل ولا ظاهر بل قوله ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ هو خبر عن النهي أي جزاء سيئة منهم بمثلها وحذف منهم لدلالة المعنى عليه كما حذف من قولهم السّمن منوان درهم أي منوان منه وقوله ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ معطوف على ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ وسيأتي توضيح هذا بأكثر في موضعه إن شاء الله تعالى .

﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي مثل تفصيلنا وتقسيمنا السابق ﴿ نقسم ﴾ في المستقبل ﴿ لقوم ﴾ لهم علم وإدراك لأنه لا ينتفع بذلك إلا من علم لقوله : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(123/268)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ﴾

من الثياب وما يُتجمَّل به ﴿ التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ من النبات كالقُطن والكتّان ، والحيوانِ كالحرير والصوفِ ، والمعادن كالدروع ﴿ والطيبات مِنَ الرزق ﴾ أي المستلذاتِ من المآكل والمشارب ، وفيه دليلٌ على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواعِ التجمُّلات الإباحةُ ، لأن الاستفهامَ في مَنْ إنكاريٌّ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ ﴾ بالأصالة ، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فبالتَّبع ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ لا يشاركهم فيها غيرُهم وانتصابُه على الحالية ، وقرىء بالرفع على أنه خبرٌ بعد خبر ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي مثلَ هذا التفصيلِ نفصّلُ سائرَ الأحكامِ لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(124/268)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ﴾

من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿ التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ أي خلقها لنفعهم من النبات كالقطن

والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالخواتم والدروع ﴿ والطيبات مِنَ الرزق ﴾ أي المستلذات ، وقيل : المحللات من المآكل والمشارب كلحم الشاة وشحمها ولبنها .

واستدل بالآية على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة لأن الاستفهام في ﴿ مِنْ ﴾ لانكار تحريمها على أبلغ وجه .

ونقل عن ابن الفرس أنه قال : استدل بها من أجاز لبس الحرير والخز للرجال .

وروي عن زين العابدين رضي الله تعالى عنه أنه كان يشتري كساء الخز بخمسين ديناراً فإذا أصاف تصدق به لا يرى بذلك بأساً ويقول ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ .

وروي أن الحسين رضي الله تعالى عنه أصيب وعليه جبة خز وأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما بعثه علي كرم الله تعالى وجهه إلى الخوارج لبس أفضل ثيابه وتطيب بأطيب طيبه وركب أحسن مراكبه فخرج إليهم فوافقهم فقالوا : يا ابن عباس بينا أنت خير الناس إذ أتيتنا في لباس الجبابرة ومراكبهم فتلا هذه الآية لكن روي عن طاوس أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم سبحانه بالحرير ولا الديباج ولكنه كان إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت منه فأنكر عليهم ذلك ، والحق أن كل ما لم يقم الدليل على حرمته داخل في هذه الزينة لا توقف في استعماله ما لم يكن فيه نحو مخيلة كما أشير إليه فيما تقدم .

وقد روي أنه صلى الله عليه وسلم خرج وعليه رداء قيمته ألف درهم ، وكان أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يرتدي برداء قيمته أربعمائة دينار وكان يأمر أصحابه بذلك ، وكان

محمد يلبس الثياب النفيسة ويقول : إن لي نساء وجواري فأزين نفسي كي لا ينظرن إلى غيري .

(125/268)

وقد نص الفقهاء على أنه يستحب التجمل لقوله عليه الصلاة والسلام : " إن لله تعالى إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه " وقيل لبعضهم : أليس عمر رضي الله تعالى عنه كان يلبس قميصاً عليه كذا رقعة فقال : فعل ذلك لحكمة هي أنه كان أمير المؤمنين وعماله يقتدون به وربما لا يكون لهم مال فيأخذون من المسلمين .

نعم كره بعض الأئمة لبس المعصفر والمزعفر وكرهوا أيضاً أشياء أخر تطلب من محالها .

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي هي لهم بالأصالة لمزيد كرامتهم على الله تعالى ، والكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع فلا إشكال في الاختصاص المستفاد من اللام

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم .

وعن الجبائي أن المعنى هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة من الهموم والأحزان والمشقة وهي خالصة يوم القيامة من ذلك وانتصاب ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور والعامل فيه متعلقة .

وقرأ نافع بالرفع على أنه خبر بعد خبر أو هو الخبر و ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ متعلق به قدم لتأكيد الخلوص والاختصاص ﴿ كذلك نُفَصّلُ الآيات ﴾ أي مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة .

وجوز أن يكون هذا التشبيه على حد قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] ونظائره مما تقدم تحقيقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(126/268)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

استئناف معترَض بين الخطابات المحكيّة والموجّهة ، وهو موضع إبطال مزاعم أهل الجاهليّة فيما حرّموه من اللّباس والطّعام وهي زيادة تأكيد لإباحة التستر في المساجد ، فابتدىء الكلام السابق بأنّ اللباس نعمة من لله .

وثني بالأمر بإيجاب التستر عند كل مسجد ، وثلث بانكار ان يوجد تحريم اللباس وافتتاح الجملة بـ ﴿ قل ﴾ دلالة على أنّه كلام مسوق للردّ والإنكار والمحاورة .

والاستفهام إنكاري قصد به التّهكّم إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يطلب منهم البيان والإفادة

نظير قوله : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ [الأنعام : 148] وقوله ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ [الأنعام : 143] وقرينة التّهكّم : إضافة الزّينة إلى اسم الله ، وتعريفها بأنّها أخرجها الله لعباده ، ووصفُ الرّزق بالطّيبات ، وذلك يقتضي عدم التّحريم ، فالاستفهام يؤول أيضاً إلى إنكار تحريمها .

ولوضوح انتفاء تحريمها ، وأنّه لا يقوله عاقل ، وأنّ السؤال سؤال عالم لا سؤال طالب علم ، أُمر السّائل بأن يجيب بنفسه سؤَالَ نفسِه ، فعُقب ما هو في صورة السؤال بقوله : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ على طريقة قوله : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ﴾ في سورة الأنعام (12) ، وقوله ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] فآل السؤال وجوابه إلى خبرين .

وضمير : ﴿ هي ﴾ عائد إلى الزينة والطّيبات بقطع النّظر عن وصْف تحريم من حرّمها ، أي : الزّينةُ والطّيبات من حيث هي هي حلال للذين آمنوا فمن حرّمها على أنفسهم فقد حَرَمُوا أنفسهم .

(127/268)

واللاّم في : ﴿ للذين آمنوا ﴾ لام الاختصاص وهو يدلّ على الإباحة ، فالمعنى : ما هي بحرام ولكنّها مباحة للذين آمنوا ، وإنّما حَرَم المشركون أنفسهم من أصناف منها في الحياة الدّنيا كلّها مثل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وما في بطونها ، وحَرَم بعض المشركين أنفسهم من أشياء في أوقات من الحياة الدّنيا ممّا حرّموه على أنفسهم من اللّباس في الطّواف وفي منى ، ومن أكل اللّحوم والودَك والسّمن واللّبن ، فكان الفوز للمؤمنين إذ اتّبعوا أمر الله بتحليل ذلك كلّه في جميع أوقات الحياة الدّنيا .

وقوله : ﴿ خالصة يوم القيامة ﴾ قرأه نافع ، وحده : برفع خالصة على أنّه خبر ثان عن قوله : ﴿ هي ﴾ أي : هي لهم في الدّنيا وهي لهم خالصة يوم القيامة ، وقرأه باقي العشرة : بالنّصب على الحال من المبتدأ أي هي لهم الآن حال كونها خالصة في الآخرة ومعنى القراءتين واحد ، وهو أنّ الزّينة والطّيّبات تكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة .

والأظهر أنّ الضّمير المستتر في ﴿ خالصة ﴾ عائد إلى الزّينة والطّيبات الحاصلة في الحياة الدّنيا بعينها ، أي هي خالصة لهم في الآخرة ، ولا شكّ أنّ تلك الزّينة والطّيّبات قد انقرضت في الدّنيا ، فمعنى خلاصها صفاؤها ، وكونه في يوم القيامة : هو أنّ يوم القيامة مظهر صفائِها أي خلوصها من التّبعات المنجرّة منها ، وهي تبعات تحريمها ، وتبعات تناول بعضها مع الكفر بالمنعِم بها ، فالمؤمنون لمّا تناولوها في الدّنيا تناولوها بإذن ربّهم ، بخلاف

المشركين فإنّهم يسألون عنها فيعاقبون على ما تناولوه منها في الدّنيا ، لأنّهم كفروا نعمة المنعِم بها ، فأشركوا به غيره كما قال تعالى فيهم:

(128/268)

﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] وإلى هذا المعنى يشير تفسير سعيد بن جبير ، والأمر فيه على قراءة رفع : ﴿ خالصة ﴾ أنّه إخبار عن هذه الزّينة والطّيبات بأنّها لا تعقب المتمتّعين بها تبعات ولا أضراراً ، وعلى قراءة النّصب فهو نصب على الحال المقدرة .

ويحتمل أن يكون الضّمير في ﴿ خالصة ﴾ عائداً إلى الزّينة والطّيبات ، باعتبار أنواعها لا باعتبار أعيانها ، فيكون المعنى : ولهم أمثالها يوم القيامة خالصة .

ومعنى الخلاص التّمحض وهو هنا التّمحض عن مشاركة غيرهم من أهل يوم القيامة ، والمقصود أنّ المشركين وغيرهم من الكافرين لا زينة لهم ولا طيّبات من الرّزق يوم القيامة ، أي أنّها في الدّنيا كانت لهم مع مشاركة المشركين إياهم فيها ، وهذا المعنى مروي عن ابن عبّاس وأصحابه .

ومعنى : ﴿ كذلك نفصّل الآيات ﴾ كهذا التّفصيل المتبَدِيء من قوله : ﴿ يا بني آدم قد

أنزلنا عليكم لباساً ﴾ [الأعراف : 26] الآيات أو من قوله : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الأعراف : 3] .

وتقدّم نظير هذا التّركيب في سورة الأنعام .

(129/268)

والمراد بالآيات الدّلائل الدّالة على عظيم قدرة الله تعالى ، وانفراده بالإلهيّة ، والدّالة على صدق رسوله محمّد صلى الله عليه وسلم إذ بيَّن فساد دين أهل الجاهليّة ، وعلَّم أهل الإسلام علماً كاملاً لا يختلط معه الصّالح والفاسد من الأعمال ، إذ قال : خُذوا زينتكم ، وقال : ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ [الأعراف : 31] ، ثمّ قال : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ [الأعراف : 31] ، وإذ عاقب المشركين على شركهم وعنادهم وتكذيبهم بعقاب في الدّنيا ، فخذلهم حتّى وضعوا لأنفسهم شرعاً حَرَمَهم من طيّبات كثيرة وشوّه بهم بين الملإ في الحجّ بالعراء فكانوا مثَل سوءٍ ثمّ عاقبهم على ذلك في الآخرة ، وإذ وفق المؤمنين لَمَّا استعدّوا لقبول دعوة رسوله فاتّبعوه ، فمتّعهم بجميع الطّيبات في الدّنيا غير محرومين من شيء إلاّ أشياء فيها ضُر عَلِمه الله فحرّمها عليهم ، وسلَّمهم من العقاب عليها في الآخرة .

واللاّم في قوله : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ لام العلّة ، وهو متعلّق بفعل ﴿ نفصل ﴾ ، أي تفصيل

الآيات لا يفهمه إلاّ قوم يعلمون ، فإنّ الله لمّا فصّل الآيات يَعلم أنّ تفصيلها لقوم يعلمون ، ويجوز أن يكون الجارُّ والمجرور ظرفاً مستقراً في موضع الحال من الآيات ، أي حال كونها دلائل لقوم يعلمون ، فإنّ غير الذين لا يعلمون لا تكون آيات لهم إذ لا يفقهونها كقوله تعالى : ﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ في سورة الأنعام (99) ، أي كذلك التّفصيل الذي فَصلتُه لكم هنا نفصّل الآيات ويتجدّد تفصلينا إياها حرصا على نفع قوم يعلمون .

والمراد بقوم يعلمون ﴾ الثّناءُ على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها ، والتّعريضُ بجهل وضلال عقول المشركين الذين استمرّوا على عنادهم وضلالهم ، رغم ما فصّل لهم من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(130/268)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [32] .

﴿ قُلْ ﴾ أي : لهؤلاء المشركين الذي يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ﴾ أي : من الثياب وسائر ما يتجمل به : ﴿ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ من

النبات كالقطن والكتان ، والحيوان كالحرير والصوف ، والمعادن كالدروع ، هكذا عمم المفسرون هنا ، وجهه أن تخصيصه يغني عنه ما مر : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ أي : المستلذات من المآكل والمشارب .

قال المهايمي : يعني إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذي هو العبادة ، فيحرمان معها ، فأعلمهم أن قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة ، فعل عبيد الملوك إذا حضروا خدمتهم ، ولا ينافي ذلك تذللهم لهم ، وكذلك الطيبات التي خلقها التي خلقها لتطييب قلوب عباده ليشكروه ، والشكر عبادة ، فلا ينافي التلذذ العبادة ، بل قد يكون داعية إليها . انتهى .

تنبيهات :

الأول : فسرت الطيبات بالحلال ، وفسرت باللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه أيام الحج كما تقدم ، وفسرت بالبحائر والسوائب كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً ﴾ . وظاهر أن لفظ الآية أعم من ذلك ، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ، لأنها إنما وردت نعياً عليهم فيه ، والعبرة بعموم اللفظ .

(131/268)

قال الرازي : لفظ الزينة يتناول جميع أنواع التزين ، ومنه تنظيف البدن ، ومنه المركوب ، ومنه أنواع الحي يعني للنساء . ثم قال : ويدخل تحت الطيبات ، كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب ، وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون ، ما هم به من الإختصاء والتبتل .

الثاني : دلت الآية على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة ، لأن الاستفهام في : ﴿ مَنْ ﴾ لإنكار تحريمها على وجه بليغ ، لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه .

الثالث : في الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات وليس الملابس الرقيقة ، لأنه لا زهد في ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه ، أو حرمه على غيره ، وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري : لقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف ، على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة . انتهى .

الرابع : قال ابن الفرس : واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخز للرجال .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخز ، فقال له الناس مثلك يلبس هذا ؟ فقال لهم : من ذا الذي يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ؟ ولكن أخرج عن طاوس

أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم بالحرير ولا الديباج ، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت عنه . كذا في " الإكليل " .

أقول : عدم شمول الآية للحرير غني عن البيان ، لأنه ما خصه الدليل لا يتناوله العام ، والأحاديث في تحريم الحرير لا تحصى كثرة ، فاستنباط حله منها مردود على زاعمه .

(132/268)

﴿ قُلْ هِيَ ﴾ أي : زينة الله والطيبات ، مخلوقة : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالأصالة ، والكفرة وإن شاركوهم فيها فتبع : ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : لا يشاركهم فيها غيرهم ، لأن الله حرم الجنة على الكافرين وانتصابها على الحالية ، وقرئ بالرفع ، أي : على أنه خبر بعد خبر .

لطيفة :

قال المهايمي : إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة ، فيرغبوا فيها مزيد رغبة ، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان .

فإذا ذهب هذا المعنى ، تصير خالصة لهم يوم القيامة ، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين ، وهو خلاف مقتضى الإيمان ، وهو العبادة والتقوى ، ولكن من غير

انهماك في الشهوات .

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : الحكمة في خلق الأشياء ، واستعمال الأشياء على نهج ينفع ولا يضر .

فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع في الكبر ، والإنهماك في الشهوات ، فيحرمان على أهل العبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 48.50 ﴾

(133/268)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

وما دام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم ، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنة للإناث ، وما يصح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلحظ دقة الأسلوب هنا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحياة الدنيا . . . ﴾ [الأعراف : 32]

ثم يتابع سبحانه : ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة . . . ﴾ [الأعراف : 32]

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة في الدنيا ، وأخرى في يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة في الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهي من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظًّا في الدنيا من المؤمن ، ولكن في الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطي اليقظة الإيمانية في المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان في الدنيا ؛ فهي دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك . إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك للفتك الله إلى حكمته . ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة . . . ﴾ [الأعراف : 32]

(134/268)

ويمكن أن نقرأ كلمة " خالصة " منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها في قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين في الدنيا لمشاركة

الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها وفي الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتي لهم فيها الأغيار .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ . . . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 32] معنى ﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أي لا نأتي بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتي فيها بكل ما تتطلبه أقضية الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(135/268)

فائدة

قال التسترى :

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [33] قال : يعني الحسد بقلبه والفعل بجوارحه ، ولو أن يترك التدبير فيهما كان من أوتاد الأرض ، ولكن العبد بين حالين ، إما أن يدبر بقلبه ما لا يعنيه ، أو يعمل بجوارحه ما لا يعنيه ، ليس ينجو من أحدهما إلاَّ بعصمة الله تعالى ، فعيش القلوب اليقين وظلمتها التدبير .

قال : وكنا مع سهل عند غروب الشمس فقال لأحمد بن سالم : اترك الحيل حتى نصلي

العشاء بمكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [33] قال : من تكلم عن الله من غير إذن ، وعلى سبيل الحرمة وحفظ الأدب ، فقد هتك الستر ، وقد منع الله تعالى أن يقول عليه أحد ما لم يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 66 ﴾

(136/268)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون ، فأنزل الله ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ فأمروا بالثياب أن يلبسوها ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ قال : ينتفعون بها في الدنيا لا يتبعهم فيها إثم يوم القيامة .

وأخرج وكيع في الغرر عن عائشة . أنها سئلت عن مقانع القز ؟ فقالت : ما حرم الله شيئاً

من الزينة .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ قال : المشركون يشاركون المؤمنين في زهرة الدنيا وهي خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس والطيبات من الرزق قال : الودك واللحم والسمن .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : كان قوم يحرمون من الشاة لبنها ولحمها وسمنها ، فأنزل الله ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ قال : والزينة الثياب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ قال : هو ما حرم أهل الجاهلية عليهم في أموالهم البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي .

(137/268)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها ، وهو قول الله ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق

فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ [يونس : 59] وهو هذا ، فأنزل الله ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا ، فأكلوا من طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها ، ونكحوا من صالح نسائها ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا ، وليس للمشركين فيها شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الزينة تخلص يوم القيامة لمن آمن في الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم قال : سمعت الحجاج بن يوسف يقرأ ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة ﴾ بالرفع . قال عاصم : ولم يبصر الحجاج اعرابها ، وقرأها عاصم بالنصب ﴿ خالصة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(138/268)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " خَالِصَةً " قرأها نافعٌ رفعاً ، والباقون نصباً فالرفع من وجهين :

أحدهما : أن تكون مرفوعة على خبر المبتدأ وهو " هِيَ " ، و " لِلَّذِين آمَنُوا " متعلق بـ "

خَالِصَةً" ، وكذلك "يَوْمَ القيامةِ" .

وقال مكيٌّ : "ويكون قوله : "للَّذين" بيينا ً ، فعلى هذا يتعلق بمحذوف كقولهم : سَقْياً لك وجَدْعاً لك .

و﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ متعلَّق بـ "آمَنُوا" ، والمعنى : قل الطيبات خالصة للمؤمنين في الدُّنيا يَوْمَ القيامةِ ، أي : تَخْلصُ يوم القيامة لمن آمَنَ في الدُّنْيَا ، وإنْ كانت مشتركة فيها بينهم وبين الكفَّار في الدُّنيا ، وهو معنى حسن .

وقيل : المرادُ بخلوصها لهم يَوْمَ القيامةِ أنَّهُم لا يعاقبون عليها ، وإلى تفسير هذا نَحَا سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

الثاني : أنْ يكون خبراً بعد خبر ، والخبر الأوَّل قوله : "لِلَّذينَ آمَنُوا" قاله الزجاج : واستحسنه أبو علي ، و﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ على هذا متعلِّق بما تعلَّقَ به الجارُّ من الاستقرار المقدَّرِ ، و"يَوْمَ القيامةِ" معمول لـ" خالصة "كما مرَّ الوجه قبله ، والتقديرُ : قل الطيبات مستقرة أو كائنة للذين آمنوا في الحياة الدُّنيا ، وهي خالصة لهم يوم القيامةِ ، وإنْ كانوا في الدُّنيا يشاركهم الكفَّارُ فيها .

ولمّا ذكر أبو حيَّان هذا الوجه لم يعلَّقُ "فِي الحياةِ" إلا بالاستقرار ، ولو علق بـ "آمنوا "كما تقدم في الوَجْهِ قَبلَهُ لكان حسناً .

وأمَّا النصب فمن وجه واحد ، وهو الحال [من الضَّمير المستتر في الجارِّ والمجرور قبله] ،

والمعنى : أنَّها ثابة للَّذين آمنوا في حال كونها خالصة لهم يَوْمَ القيامةِ ، و" للَّذينَ آمَنُوا " خبر " هِيَ " فتتعلق بالاستقرار المقدَّرِ ، وسيأتي أنَّهُ متعلق باستقرار خاص في بعض التقادير عند بعضهم .

و﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ على ما تقدَّم من تعلُّقه بـ " آمنوا " وبالاستقرار المتعلق به للذين ، و" يَوْمَ القيامةِ " متعلِّق أيضاً بخالصة ، والتقديرُ : قل الطّيبات كائنة أو مستقرة للمؤمنين في الحياة حال كونهم مقدَّراً خلوصها لهم يَوْمَ القيامةِ .

وسمى الفراء نصبها على القطع ، فقال : " خَالِصَةً " نصب على القَطْعِ ، وجعل خبر " هِيَ " في " اللاَّم " التي في قوله : " للَّذين " ، ويعنى بالقطع الحال .

(139/268)

وجوَّز أبو علي أنْ يتعلَّق ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ بمحذوفٍ على أنَّهُ حال ، والعاملُ فيها ما يعمل في " الَّذينَ آمَنُوا " .

وجوَّز الفارسيُّ ، وتبعه مكيٌّ أن تتعلَّق " فِي الحياةِ " بـ " حرم " والتقديرُ : من حرم زينة الله في الحياة الدُّنْيَا ؟ وجوَّز أيضاً أن تتعلق بالطّيبات .

وجوَّز الفارسي وحدهُ أن تتعلَّق بالرزق ومنع مكيٌّ ذلك قال : لأنَّكَ قد فرَّقْتَ بينهما بقوله

: ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ يعني أن الرِّزْقَ مصدر ، فالمتعلّق به من تمامه كما هو من تمام الموصول ، وقد فصلت بينه وبين معموله بجملة أجنبية ، وسيأتي عن هذا جواب عن اعتراض اعتراض به على الأَخْفَشِ .

وجوَّز الأَخْفَشُ أن تتعلَّق "في الحياة" بـ "أخرج" أي : أخرجها في الحياةِ الدُّنْيَا ، وهذا قد ردهُ عليه النَّاس بأنه يلزم الفَصْلُ بين أبعاض الصلة بأجنبي ، وهو قوله ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ، وذلك أَنَّهُ لا يُعطَفُ على الموصول إلاَّ بعد تمام صلته ، وهنا قد عطفت على موصوف الموصول قبل تمامِ صلته ؛ لأنَّ "الَّتِي أَخْرَجَ" صفة لـ "زينة" ، و "الطيِّبَات" عطف على "زِينَة" وقوله ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ جملة أخرى قد فصلت على هذا التقدير بشيئين .

قال الفَارِسِيُّ - كالمجيب عن الأخفش - : "ويجوزُ ذلك ، وإن فُصِلَ بين الصلة والموصولة بقوله : ﴿ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ لأنَّ ذلك كلام يشدُّ الصِّلة ، وليس بأجنبي منها جداً كما جاء ذلك في قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 27] .

فقوله : ﴿ وتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ معطوف على "كَسَبُوا" داخل في الصلة .

قال شهابُ الدّين : هذا وإن أفاد في ما ذكر ، فلا يفيد في الاعتراض الأوّلِ ، وهو العطفُ على موصوف قبل تمام صلته ؛ إذْ هو أجنبي منه ، وأيضاً فلا نسلّم أنَّ هذه الآية نظير آية " يونس " فإنَّ الظاهِرَ في آية يونس أنَّهُ ليس فيها فصل بين أبعاض الصّلة .

وقوله " لأن جزاء سيّسةٍ بمِثلِهَا " معترض ، و " تَرْهَقُهُمْ " عطف على " كَسَبُوا " .

قلنا : ممنوع ، بل ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ [الشورى : 40] هو خبر الموصول ، فيعترض بعدم الرَّابط بين المبتدأ والخبر ، فيجابُ بأنَّهُ محذوف ، وهو من أحسن الحذوف ؛ لأنَّهُ مجرور بـ " من " التَّبْعيضية ، وقد نصَّ النُّحَاةُ على أنَّ ما كان كذلك كثر حذفه وحَسُنَ والتقديرُ : والَّذينَ كَسَبُوا السيِّئَاتِ جَزَاءُ سيِّئةٍ منهم بمثلها ف " جَزَاءُ سَيِّئةٍ " مبتدأ ، و " مِنْهُم " صفتها ، و " بمثلها " خبره ، والجملة خَبَر الموصول ، وهو نظير قولهم : السَّمن منوانِ بدرْهَمٍ أي : منوان منه ، وسيأتي لهذه الآية مزيد بيان .

ومنع مكي أن يتعلق ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ بـ " زينة " قال : لأنَّها قد نُعتت ، والمصر واسم الفاعل متى نعتا لا يعملان لبعدهما عن شبه الفعل .

قال : " ولأنَّهُ يُفرِّق بين الصَّلة والموصول ؛ لأنَّ نَعْتَ الموصول ليس من صلته " .

قال شهابُ الدّين : لأن زينة مصدر فهي في قوة حرف موصول وصلته ، وقد تقرَّر أنَّهُ لا يتبع الموصول إلا بعد تما صلته ، فقد تحصل في تعلق " الَّذينَ آمَنُوا " ثلاثة أوْجُهٍ :

إمَّا أنْ يتعلَّق بـ " خالصة " ، أب بمحذوف على أ ، ها خبر ، أو بمحذوف على أنَّها للبيان

وفي تعلق ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ سبعة أُوْجُهٍ .

أحدها : أن يتعلق بـ " آمنوا " .

الثاني : أن تتعلَّق بمحذوف على أنَّها حال .

الثالث : ان يتعلق بما تعلَّق به " لِلَّذِينَ آمَنُوا " .

الرابع : أن يتلعَّق بـ " حَرَّمَ " .

الخامس : أن يتعلَّق بـ " أخْرَجَ " .

(141/268)

السادس : أن يتعلق بقوله : " الطِّيِّبات " .

والسابع : أن يتعلَّق بالرزق .

و " يَوْمَ القيامةِ " له متعلق واحد وهو " خَالِصَةٌ " ، والمعنى : أنَّها وإن اشتركت فيها

الطائفتان دنيا فهي خالصة للمؤمنين فقط أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ

9 صـ 92.95 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) ﴾

الإشارة منها إلى زينة السرائر ؛ فزينة العابدين آثار التوفيق ، وزينة الواجدين أنوار التحقيق ، وزينة القاصدين ترك العادة ، وزينة العابدين حسن العبادة .

ويقال زينةُ النفوس صدارُ الخدمة ، وزينة القلوب حفظ الحرمة ، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة .

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر .

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود .

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات ، وزينة القلوب دوام المواصلة من حيث المشاهدات .

ومعنى قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى ﴾ يعني إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها ، فمن تصدى لطلبها فهي مباحة له من غير تأخير قصود .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ .

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه ، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى .

ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله ، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 530. 531 ﴾

(142/268)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين أن ما حرموه ليس بحرام فتقرر ذلك تقرراً نزع من النفوس ما كانت ألفته من خلافه ، ومحا من القلوب ما كانت أشربته من ضده ؛ كان كأنه قيل : فماذا حرم الله الذي ليس التحريم إلا إليه ؟ فأمره تعالى بأن يجيبهم عن ذلك ويزيدهم بأنه لم يحرم غيره فقال : ﴿ قل إنما حرم ربي ﴾ أي المحسن إليّ بجعل ديني أحسن الأديان ﴿ الفواحش ﴾ أي كل فرد منها وهي ما زاد قبحه ؛ ولما كانت الفاحشة ما يتزايد قبحه فكان ربما ظن أن الإسرار بها غير مراد بالنهي قال : ﴿ ما ظهر منها ﴾ بين الناس ﴿ وما بطن ﴾ .

(143/268)

ولما كان هذا خاصاً بما عظمت شناعته قال : ﴿ والإثم ﴾ أي مطلق الذنب الذي يوجب الجزاء ، فإن الإثم الذنب والجزاء ؛ ولما كان البغي زائد القبح مخصوصاً بأنه من أسرع الذنوب عقوبة ، خصة بالذكر فقال : ﴿ والبغي ﴾ وهو الاستعلاء على الغير ظلماً ، ولكنه لما كان قد يطلق على مطلق الطلب ، حقق معناه العرفي الشرعي فقال : ﴿ بغير الحق ﴾ أي الكامل الذي ليس فيه شائبة باطل ، فمتى كان فيه شائة باطل كان بغياً ، ولعله يخرج العلو بالحق بالانتصار من الباغي فإنه حق كامل الحقية ، وتكون تسميته بغياً على طريق المشاكلة تنفيراً – بإدخاله تحت اسم البغي – من تعاطيه وندباً إلى العفو كما تقدم مثله في ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾ [النساء : 148] ويمكن أن يكون تقييده تأكيداً لمنعه بأنه لا يتصور إلا موصوفاً بأنه بغير الحق كما قال تخصيصاً وتنصيصاً تنبيهاً على شدة الشناعة : ﴿ وأن تشركوا بالله ﴾ أي الذي اختص بصفات الكمال ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ فإنه لا يوجد ما يسميه أحد شريكاً إلا وهو مما لم ينزل به الله سلطاناً بل ولا حجة به في الواقع ولا برهان ، ولعله إنما قيده بذلك إرشاداً إلى أن أصول الدين لا يجوز اعتمادها إلا بقاطع فكيف بأعظمها وهو التوحيد ! ولذلك عقبه بقوله : ﴿ وأن ﴾ أي وحرم أن ﴿ تقولوا على الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه ولا كفوء له و ﴿ ما لا

تعلمون ﴾ أي ما ليس لكم به علم بخصوصه ولا هو مستند إلى علم أعم من أن يكون من الأصول أو لا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 27 . 28 ﴾

(144/268)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذي حرموه ليس بحرام بين في هذه الآية أنواع المحرمات ، فحرم أولاً الفواحش ، وثانياً الإثم ، واختلفوا في الفرق بينهما على وجوه : الأول : أن الفواحش عبارة عن الكبائر ، لأنه قد تفاحش قبحها أي تزايد والإثم عبارة عن الصغائر فكان معنى الآية : أنه حرم الكبائر والصغائر ، وطعن القاضي فيه ، فقال هذا يقتضي أن يقال : الزنا ، والسرقة ، والكفر ليس بإثم وهو بعيد .

القول الثاني : أن الفاحشة اسم لا يجب فيه الحَدّ ، والإثم اسم لما يجب فيه الحَدّ ، وهذا وإن كان مغايراً للأول إلا أنه قريب منه ، والسؤال فيه ما تقدم .

والقول الثالث : أن الفاحشة اسم للكبيرة ، والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيراً أو صغيراً .

والفائدة فيه : أنه تعالى لما حرم الكبيرة أردفها بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم أن التحريم مقصور على الكبيرة وعلى هذا القول اختيار القاضي .

والقول الرابع : أن الفاحشة وإن كانت بحسب أصل اللغة اسماً لكل ما تفاحش وتزايد في أمر من الأمور ، إلا أنه في العرف مخصوص بالزيادة .

والدليل عليه أنه تعالى قال في الزنا : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] ولأن لفظ الفاحشة إذا أطلق لم يفهم منه إلا ذلك ، وإذا قيل فلان فَحّاش : فهم أنه يشتم الناس بألفاظ الوقاع ، فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا فقط .

إذا ثبت هذا فنقول : في قوله : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ على هذا التفسير وجهان :

الأول : يريد سر الزنا ، وهو الذي يقع على سبيل العشق والمحبة ، وما ظهر منها بأن يقع علانية .

والثاني : أن يراد بما ظهر من الزنا الملامسة والمعانقة ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ الدخول .

وأما الإثم فيجب تخصيصه بالخمر ، لأنه تعالى قال في صفة الخمر : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : 219] وبهذا التقدير : فإنه يظهر الفرق بين اللفظين .

النوع الثالث : من المحرمات قوله : ﴿ والبغى بِغَيْرِ الحق ﴾ فنقول : أما الذين قالوا : المراد بالفواحش جميع الكبائر ، وبالإثم جميع الذنوب .

قالوا : إن البغي والشرك لا بد وأن يكونا داخلين تحت الفواحش وتحت الإثم ، إلا أن الله تعالى خصهما بالذكر تنبيهاً على أنهما أقبح أنواع الذنوب ، كما في قوله : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] وفي قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] ، وأما الذين قالوا الفاحشة مخصوصة بالزنا والإثم بالخمر ، قالوا : البغي والشرك على هذا التقرير غير داخلين تحت الفواحش والإثم فنقول : البغي لا يستعمل إلا في الإقدام على الغير نفساً ، أو مالاً ، أو عرضاً ، وأيضاً قد يراد بالبغي الخروج على سُلطان الوقت .

فإن قيل : البغي لا يكون إلا بغير الحق ، فما الفائدة في ذكر هذا الشرط .

قلنا أنه مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ [الإسراء : 33] والمعنى : لا تقدموا على إيذاء الناس بالقتل والقهر ، إلا أن يكون لكم فيه حق ، فحينئذ يخرج من أن يكون بغياً .

والنوع الرابع : من المحرمات قوله تعالى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ وفيه سؤال : وهو أن هذا يوهم أن في الشرك بالله ما قد أنزل به سلطاناً ، وجوابه : المراد منه أن الإقرار بالشيء الذي ليس على ثبوته حجة ، ولا سلطان ممتنع ، فلما امتنع حصول الحجة

والتنبيه على صحة القول بالشرك ، فوجب أن يكون القول به باطلاً على الإطلاق ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل .

(146/268)

والنوع الخامس : من المحرمات المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقد سبق تفسير هذه الآية في هذه السورة عند قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفحشاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 28] وبقي في الآية سؤالان :

السؤال الأول : كلمة "إنما" تفيد الحصر ، فقوله : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ﴾ كذا وكذا يفيد الحصر ، والمحرمات غير محصورة في هذه الأشياء .

والجواب : إن قلنا الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر ، والإثم على مطلق الذنب دخل كل الذنوب فيه ، وإن حملنا الفاحشة على الزنا ، والإثم على الخمر قلنا : الجنايات محصورة في خمسة أنواع : أحدها : الجنايات على الأنساب ، وهي إنما تحصل بالزنا ، وهي المراد بقوله : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ﴾ وثانيها : الجنايات على العقول ، وهي شرب الخمر ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ الإثم ﴾ وثالثها : الجنايات على الأعراض .

ورابعها : الجنايات على النفوس وعلى الأموال ، وإليهما الإشارة بقوله : ﴿ والبغى بِغَيْرِ

الحق ﴾ وخامسها : الجنايات على الأديان وهي من وجهين : أحدها : الطعن في توحيد الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ ﴾ وثانيها : القول في دين الله من غير معرفة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فلما كانت أصول الجنايات هي هذه الأشياء ، وكانت البواقي كالفروع والتوابع ، لا جرم جعل تعالى ذكرها جارياً مجرى ذكر الكل ، فأدخل فيها كلمة "إنما" المفيدة للحصر .

السؤال الثاني : الفاحشة والإثم هو الذي نهى الله عنه ، فصار تقدير الآية : إنما حرم ربي المحرمات ، وهو كلام خال عن الفائدة ؟

والجواب : كون الفعل فاحشة هو عبارة عن اشتماله في ذاته على أمور باعتبارها يجب النهي عنه ، وعلى هذا التقدير : فيسقط السؤال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 54.56 ﴾

(147/268)

وقال السمرقندى :

ثم أخبرهم بما حرّم عليهم فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم ﴾ يعني : المعاصي .

ويقال الإثم يعني : الخمر كما قال القائل :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي .

. . كذاك الإثم يذهب بالعقول

﴿ والبغى ﴾ يعني : حرم الاستطالة وظلم الناس ﴿ بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله ﴾ يقول : وحرّم أن تشركوا بالله ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ يقول : ما لم ينزل به كتاباً فيه عذركم وحجة لكم ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله ﴾ أي وحرم عليكم أن تقولوا على الله ﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حرم عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ﴾

يعني الطواف عُراة ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ طواف الرجال بالنهار ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ طواف النساء بالليل .

وقيل : هي الزنا و[المخالة] .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ليس أحد أحب إليه من المدح من الله سبحانه من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، وليس أحد أحب إليه العذر من الله عزّ وجلّ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل " .

﴿ والإثم ﴾ يعني الذنب والمعصية . وقال الحسن : الإثم الخمر . وقال الشاعر :

شربت الإثم ظل عقلي كذلك . . . الأثمّ يذهب بالعقول

وقال الآخر :

نشرب الإثم بالصواع جهاراً . . . ونرى السكر بيننا مستعارا

﴿ والبغي ﴾ وهو الظلم ﴿ بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ حجة وبرهاناً ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ تحريم الملابس والمأكل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(148/268)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن الفواحش : الزنى خاصة ، وما ظهر منها : المناكح الفاسدة ، وما بطن : الزنى الصريح .

والثاني : أن الفواحش : جميع المعاصي ، وما ظهر منها : أفعال الجوارح ، وما بطن :

اعتقاد القلوب .

﴿ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الإثم الخيانة في الأمور ، والبغي : التعدي في النفوس .

والثاني : الإثم : الخمر ، والبغي : السكر ، قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضَلَّ عقلي . . . كذاك الإثم تذهب بالعقول

وسمي الخمر بالإثم ، والسكر بالبغي لحدوثه عنهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(149/268)

وقال ابن العربى :

قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَ الْفَوَاحِشِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، وَأَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَإِنَّ كُلَّ فَاحِشَةٍ ظَاهِرَةٍ لِلْأَعْيُنِ ، أَوْ ظَاهِرَةٍ بِالْأَدِلَّةِ ، كَمَا وَرَدَ النَّصُّ فِيهِ أَوْ

وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَامَ الدَّلِيلُ الْجَلِيُّ بِهِ ، فَيَنْطَلِقُ عَلَيْهَا اسْمُ الظَّاهِرَةِ .

وَالْبَاطِنَةُ كُلُّ مَا خَفِيَ عَنْ الْأَعْيُنِ ، وَيُقْصَدُ بِهِ الِاسْتِتَارُ عَنْ الْخَلْقِ ؛ أَوْ خَفِيَ بِالدَّلِيلِ ؛ كَتَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ وَالنَّبِيذِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فِي الصِّنْفَيْنِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيذَ وَإِنْ كَانَ مُخْتَلَفًا فِيهِ فَإِنَّ تَحْرِيمَهُ جَلِيٌّ فِي الدَّلِيلِ ، قَوِيٌّ فِي التَّأْوِيلِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَا أَحَدَ أَغْيَرَ مِنْ اللَّهِ ﴾ .

وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ الْإِثْمَ ﴾ : وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ الذَّمِّ الْوَارِدِ فِي الْفِعْلِ ، أَوْ الْوَعِيدِ الْمُتَنَاوِلِ لَهُ ؛ فَكُلُّ مَذْمُومٍ شَرْعًا أَوْ فِعْلٍ وَارِدٍ عَلَى الْوَعِيدِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ وَهُوَ حَدُّ الْمُحَرَّمِ وَحَقِيقَتُهُ .

وَأَمَّا الْبَغْيُ ، وَهُوَ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ .

(150/268)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ الْبَغْيُ : فَهُوَ تَجَاوُزُ الْحَدِّ .

وَوَجْهُ ذِكْرِهِمَا بَعْدَ دُخُولِهِمَا فِي جُمْلَةِ الْفَوَاحِشِ لِلتَّأْكِيدِ لِأَمْرِهِمَا بِالِاسْمِ الْخَاصِّ بَعْدَ دُخُولِهِمَا فِي الِاسْمِ الْعَامِّ قَصْدَ الزَّجْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾

فَذَكَرَ النَّخْلَ وَالرُّمَّانَ بِالِاسْمِ الْخَاصِّ بَعْدَ دُخُولِهِمَا فِي الِاسْمِ الْعَامِّ عَلَى مَعْنَى الْحَثِّ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ قَالَ قَوْمٌ : إنَّ الْإِثْمَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ ، وَإِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ ﴾ الْخَمْرَ ، حَتَّى قَالَ الشَّاعِرُ : شَرِبْت الْإِثْمَ حَتَّى زَالَ عَقْلِي كَذَاكَ الْإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ : شَرِبْت الذَّنْبَ ، أَوْ شَرِبْت الْوِزْرَ ، لَكَانَ كَذَلِكَ ، وَلَمْ يُوجِبْ قَوْلُهُ أَنْ يَكُونَ الْوِزْرُ وَالذَّنْبُ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ ، كَذَلِكَ هَذَا .

وَالَّذِي أَوْجَبَ التَّكَلُّمَ بِمِثْلِ هَذَا الْجَهْلِ بِاللُّغَةِ وَبِطَرِيقِ الْأَدِلَّةِ فِي الْمَعَانِي . وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(151/268)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

لما تقدم إنكار ما حرمه الكفار بآرائهم ، أتبعه ذكر ما حرم الله عز وجل وتقديره ، و ﴿ الفواحش ﴾ ما فحش وشنع وأصله من القبح في المنظر ، ومنه قول امرىء القيس : [

الطويل]

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش . . . إذا هي نصته ولا بمعطل

ثم استعمل فيما ساء من الخلق وألفاظ الحرج والرفث ، ومنه الحديث ليس بفاحش في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله لسلمة بن سلامة بن وقش " أفحشت على الرجل " في حديث السير ، ومنه قوله الحزين في كثير عزة : [الطويل]

قصير القميص فاحش عند بيته . . . وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس .

والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع ، والفاحش كذلك ، فقوله هنا ﴿ الفواحش ﴾ إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع أخر ، فكل ما حرمه الشرع فهو فاحش وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه ، وقوله : ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ يجمع النوع كله لأنه تقسيم لا يخرج عنه شيء ، وهو لفظ عام في جميع الفواحش وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأن قال ﴿ ما ظهر ﴾ الطواف عرياناً ، والبواطن الزنى ، وقيل غير هذا مما يأتي على طريق المثال ، و ﴿ ما ﴾ بدل من الفواحش وهو بدل بعض من كل ، ومجموع القسمين يأتي بدل الشيء من الشيء وهو هو ، ﴿ والإثم ﴾ أيضاً : لفظه عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض الناس : هي الخمر واحتج على ذلك بقوله الشاعر : [الوافر]

شربت الإثم حتى طار عقلي . . . قال القاضي وأبو محمد : وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة لتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد لأن جماعة من الصحابة اصطحبوها يوم أحد وماتوا شهداء ، وهي في أجوافهم ، وأيضاً فبيت الشعر يقال إنه مصنوع مختلق ، وإن صح فهو على حذف مضاف ، وكأن ظاهر القرآن على هذا القول أن تحريم الخمر من قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ [البقرة : 219] وهو في هذه الآية قد حرم ، فيأتي من هذا الخمر والإثم محرم فالخمر محرمة .

قال القاضي أبو محمد : ولكن لا يصح هذا لأن قوله ﴿ فيهما إثم ﴾ لفظ محتمل أن يراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراء وقتل النفس وغير ذلك آثام فكأنه قال في الخمر هذه الآثام أي هي بسببها ومعها وهذه الأشياء محرمة لا محالة ، وخرجت الخمر من التحريم على هذا ولم يترتب القياس الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه ، ويعضد هذا أنّا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله ﴿ قل فيهما إثم ﴾ وفي بعض الأحاديث فتركها قوم للإثم الذي فيها وشربها قوم للمنافع ، وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن ونصوص الأحاديث وإجماع الأمة .

﴿ والبغي ﴾ : التعدي وتجاوز الحد ، كان الإنسان مبتدياً بذلك أو منتصراً فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ ، وقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ زيادة بيان وليس يتصور بغي بحق لأن

ما كان بحق فلا يسمى بغياً ، ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ المراد بها الأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله ، و" السلطان " البرهان والحجة ، ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ من أنه حرم البحيرة والسائبة ونحوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(153/268)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل إنما حرَّم ربي الفواحش ﴾

قرأ حمزة : "ربيْ الفواحشَ" باسكان الياء .

(ما ظهر منها وما بطن) .

فيه ستة أقوال .

أحدها : أن المراد بها الزنا ، ما ظهر منه : علانيته ، وما بطن : سرُّه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والثاني : أن ما ظهر : نكاح الأمهات ، وما بطن : الزنا ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال علي بن الحسين .

والثالث : أن ما ظهر : نكاح الأبناء نساء الآباء ، والجمع بين الأختين ، وأن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، وما بطن : الزنا ، روي عن ابن عباس أيضا .

والرابع : أن ما ظهر : الزنا ، وما بطن : العزل ، قاله شريح .

والخامس : أن ما ظهر : طواف الجاهلية عراة ، وما بطن : الزنا ، قاله مجاهد .

والسادس : أنه عامٌّ في جميع المعاصي .

ثم في ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ قولان .

أحدهما : أن الظاهر : العلانية ، والباطن : السر ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والثاني : أن ما ظهر : أفعال الجوارح ، والباطن : اعتقاد القلوب ، قاله الماوردي .

وفي الإثم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذنب الذي لا يوجب الحدَّ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والفرَّاء .

والثاني : المعاصي كلها ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الخمر ، قاله الحسن ، وعطاء .

قال ابن الأنباري : أنشدنا رجل في مجلس ثعلب بحضرته ، وزعم أن أبا عبيدة أنشده :

نَشْرَبُ الإِثْمَ بالصُّواعِ جِهَاراً . . .
وَنَرى المُتْكَ بيننا مُسْتَعَاراً

فقال أبو العباس : لا أعرفه ، ولا أعرف الإثم : الخمر ، في كلام العرب .

وأنشدنا رجل آخر :

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي . . .

كَذَاكَ الإِثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ

قال أبو بكر : وما هذا البيت معروفاً أيضا في شعر من يحتج بشعره ، وما رأيت أحدا من أصحاب الغريب أدخل الإثم في أسماء الخمر ، ولا سمَّتها العرب بذلك في جاهلية ولا إسلام .

(154/268)

فإن قيل : إن الخمر تدخل تحت الإثم ، فصواب ، لا لأنه اسم لها .

فإن قيل : كيف فصل الإثم عن الفواحش ، وفي كل الفواحش إثم ؟ فالجواب : أن كل فاحشة إثم ، وليس كل إثم فاحشة ، فكان الإثم كل فعل مذموم ؛ والفاحشة : العظيمة .

فأما البغي : فقال الفراء : هو الاستطالة على الناس .

قوله تعالى : ﴿ وأن تشركوا ﴾ قال الزجاج : موضع "أن" نصب ؛ فالمعنى : حرَّم الفواحش ، وحرَّم الشرك ، والسلطان : الحجة .

قوله تعالى : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ عام في تحريم القول في الدِّين من غير يقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(155/268)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

فيه مسألة واحدة :

قال الكلبي : لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون ؛ فنزلت هذه الآية .

والفواحش : الأعمال المُفْرِطة في القبح ، ما ظهر منها وما بطن .

وروى رَوح بن عُبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : "مَا ظَهَرَ مِنْهَا" نكاح الأمهات في الجاهلية "وَمَا بَطَنَ" الزنى .

وقال قتادة : سرّها وعلانيتها .

وهذا فيه نظر ؛ فإنه ذكر الإثم والبغي فدلّ أن المراد بالفواحش بعضها ، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى . والله أعلم .

﴿ والإثم ﴾ قال الحسن : الخمر .

قال الشاعر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلي . . .

كذاك الإثمُ تذهبُ بالعقول

وقال آخر :

نشرب الإثم بالصِوَاع جِهارا . . .

وترى المسك بيننا مُستعارا

﴿ والبغي ﴾ الظلم وتجاوز الحدّ فيه .

وقد تقدّم .

وقال ثعلب : البغي أن يقع الرجل في الرجل فيتكلم فيه ، ويبغِي عليه بغير الحق ؛ إلا أن ينتصر منه بحق .

وأخرج الإثم والبغي من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما ؛ فنصّ على ذكرهما تأكيداً لأمرهما وقصداً للزجر عنهما .

وكذا ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ ﴾ ﴿ وَأَن تَقُولُواْ ﴾ وهما في موضع نصب عطفاً على ما قبْلُ .

وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر .

قال الفرّاء الإثم ما دون الحدّ والاستطالة على الناس .

قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصي ؛ كما قال الشاعر :

إني وجدتُ الأمرَ أرشَدُه . . .

تقوَى الإله وشرُّه الإثْمُ

قلت : وأنكره ابن العربيّ أيضاً وقال : "ولا حجة في البيت ؛ لأنه لو قال : شربت الذنب أو شربت الوِزر لكان كذلك ، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر اسما من أسماء الخمر كذلك الإثم .

(156/268)

والذي أوجب التكلم بمثل هذا الجهلُ باللغة وبطريق الأدلة في المعاني" .

قلت : وقد ذكرناه عن الحسن .

وقال الجوهريّ في الصحاح : وقد يسمى الخمر إثماً ، وأنشد :

شربت الإثم . . . . . البيت

وأنشده الهرويّ في غريبيه ، على أن الخمر الإثم .

فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصي وعلى الخمر أيضاً لغةً ، فلا تناقض .

والبغي : التجاوز في الظلم ، وقيل : الفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(157/268)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ﴾

جمع فاحشة وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل ، والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم إن الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وإنما حرم ربي الفواحش من الأفعال والأقوال ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ يعني علانتيه وسره (ق) .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا أحد أغير من الله " من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه .

أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان ومنه غيرة أحد الزوجين على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى أن

يشاركه أحد فيه فلذلك يذب عنه ويمنعه من غيره وأما الغيرة في وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله : ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ والإثم ﴾ يعني وحرم الإثم واختلفوا في الفرق بين الفاحشة والإثم فقيل الفواحش الكبائر لأنه قد تفاحش قبحها وتزايدَ والإثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية : قل إنما حرم ربي الكبائر والصغائر .

(158/268)

وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والإثم اسم لما لا يجب فيه الحد ، وهذا القول قريب من الأول واعترض على هذين القولين بأن الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر ، وقيل : إن الفاحشة اسم للكبيرة والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيراً أو صغيراً والفائدة فيه أن يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ﴾ أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل أن الفاحشة وإن كانت بحسب اللغة اسماً لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار في العرف مخصوصاً بالزنا لأنه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه إلا ذاك نوجب

حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الإثم فقد قيل إنه اسم من أسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء .

قال الجوهري وقد تسمى الخمر إثماً واستدل عليه بقول الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضل عقلي . . .

كذاك الإثم يذهب بالعقول

وقال ابن سيده صاحب المحكم : وعندي أن تسمية الخمر بالإثم صحيح لأن شربها إثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وأنكر أبو بكر بن الأنباري تسمية الخمر بالإثم قال لإن العرب ما سمته إثماً قط في جاهلية ولا في إسلام ولكن قد يكون الخمر داخلاً تحت الإثم لقوله : قل فيهما إثم كبير .

(159/268)

وقوله تعالى : ﴿ والبغي ﴾ أي وحرم البغي ﴿ بغير الحق ﴾ والبغي هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد في ذلك كله ومعنى البغي بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له بحق فإذا طلب ما له بحق خرج من أن يكون بغياً ﴿ وأن تشركوا ﴾ أي وحرم أن تشركوا ﴿ بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لأنه لا يجوز أن

ينزل حجة وبرهاناً بأن يشرك به غيره لأن الإقرار بشيء ليس على ثبوته حجة ولا برهاناً ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلاً على الإطلاق فإن قلت البغي والإشراك داخلان تحت الفاحشة والإثم لأن الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الإثم وكذا البغي أيضاً من الفواحش والإثم .

قلت : إنما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما أنه قال من الفواحش المحرمة البغي والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله وقوله ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ تقدم تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(160/268)

وقال أبو حيان :

﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم تعلمون ﴾

قال الكلبي لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون بذلك وقالوا استحلوا الحرم فنزلت ، وتقدّم تفسير ﴿ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ في أواخر الأنعام وزيد هنا أقوال ، أحدها : ﴿ ما ظهر منها ﴾ طواف الرّجل بالنهار عرياناً ﴿ وما

بطن ﴾ طوافها بالليل عارية قاله التبريزي ، وقال مجاهد : ﴿ ما ظهر ﴾ طواف الجاهلية عراة ﴿ وما بطن ﴾ الزنا ، وقيل : ﴿ ما ظهر ﴾ الظلم ﴿ وما بطن ﴾ السّرقة ، وقال ابن عباس ومجاهد في رواية : ﴿ ما ظهر ﴾ ما كانت تفعله الجاهلية من نكاح الأباء نساء الآباء والجمع بين الأختين وأن ينكح المرأة على عمتها وخالتها ﴿ وما بطن ﴾ الزنا ﴿ والإثم ﴾ عام يشمل الأقوال والأفعال التي يترتب عليها الإثم ، هذا قول الجمهور ، وقيل هو صغار الذنوب ، وقيل : الخمر ، وهذا قول لا يصح هنا لأن السّورة مكية ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد وجماعة من الصحابة اصطبحوها يوم أحد وماتوا شهداء وهي في أجوافهم وأما تسمية الخمر إثماً فقيل هو من قول الشاعر :

شربت الإثم حتى زلّ عقلي . . .

وهو بيت مصنوع مختلَق وإن صحّ فهو على حذف مضاف أي موجب الإثم ولا يذلّ قول ابن عباس والحسن ﴿ الإثم ﴾ الخمر على أنه من أسمائها إذ يكون ذلك من إطلاق المسبب على السبب وأنكر أبو العباس أن يكون ﴿ الإثم ﴾ من أسماء الخمر وقال الفضل : ﴿ الإثم ﴾ الخمر ، وأنشد :

نهانا رسول الله أن نقرب الخنا . . .

وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

وأنشد الأصمعي أيضاً :

ورحت حزيناً ذاهل العقل بعدهم . . .

كأني شربت الإثم أو مسّني خبل

قال : وقد تسمّى الخمر إثماً وأنشد :

شربت الإثم حتى زلّ عقلي . . .

(161/268)

وقال ابن عباس والفراء : ﴿ البغي ﴾ الاستطالة ، وقال الحسن : السّكر من كل شراب ، وقال ثعلب : تكلم الرّجل في الرجل بغير الحقّ إلا أن ينتصر منه بحق ، وقيل : الظّلم والكبر ، قاله الزمخشري ، وقال وأفردوه بالذكر كما قال تعالى : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ وقال ابن عطية : ﴿ البغى ﴾ التعدّي وتجاوز الحدّ مبتدئاً كان أو منتصراً وقوله ﴿ بغير الحق ﴾ زيادة بيان وليس يتصور بغي بحق لأن ما كان بحقّ لا يسمى بغياً وتقدّم تفسير ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ في الأنعام ، وقال الزمخشري فيه تهكّم لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره ما لا تعلمون من تحريم البحائر وغيرها ، وقال ابن عباس أراد بذلك أنّ الملائكة بنات الله ، وقيل قولهم أنه حرّم عليهم مآكل وملابس ومشارب في الإحرام من قبل أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(162/268)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ﴾

أي ما تفاحش قبحُه من الذنوب ، وقيل : ما يتعلق منها بالفروج ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ بدلٌ من الفواحش أي جهرَها وسرَّها ﴿ والإثم ﴾ أي ما يوجب الإثمَ وهو تعميمٌ بعد تخصيص ، وقيل : هو شربُ الخمر ﴿ والبغى ﴾ أي الظلم أو الكِبْر أُفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ متعلق بالبغي مؤكدٌ له معنى ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ تهكّمٌ بالمشركين وتنبيهٌ على تحريم اتباعِ ما لا يدل عليه برهان ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه كقولهم : ﴿ والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ وتوجيهُ التحريم إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعَه لا ما يعلمون عدمَ وقوعِه قد مر سرُّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(163/268)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ﴾

أي ما تزايد قبحه من المعاصي .

وقيل : ما يتعلق بالفروج ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ بدل من ﴿ الفواحش ﴾ أي جهرها وسرها .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما ظهر الزنا علانية وما بطن الزنا سراً وقد كانوا يكرهون الأول ويفعلون الثاني فنهوا عن ذلك مطلقاً .

وعن مجاهد ما ظهر التعري في الطواف وما بطن الزنا .

وقيل : الأول : طواف الرجال بالنساء .

والثاني : طواف النساء بالليل عاريات .

﴿ والإثم ﴾ أي ما يوجب الإثم ، وأصله الذم فأطلق على ما يوجبه من مطلق الذنب ، وذكر للتعميم بعد التخصيص بناء على ما تقدم من معنى الفواحش .

وقيل : إن الإثم هو الخمر كما نقل عن ابن عباس والحسن البصري وذكره أهل اللغة كالأصمعي وغيره وأنشدوا له قول الشاعر

: نهانا رسول الله أن نقرب الزنا . . .

وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

وقول الآخر

: شربت الإثم حتى ضل عقلي . . .

كذاك الإثم يذهب بالعقول

وزعم ابن الأنباري أن العرب لا تسمي الخمر اثماً في جاهلية ولا إسلام وأن الشعر موضوع .

والمشهور أن ذلك من باب المجاز لأن الخمر سبب الإثم .

وقال أبو حيان وغيره : (إن هذا التفسير غير صحيح هنا لأن السورة مكية ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد) .

وأيضاً يحتاج حينئذ إلى دعوى أن الحصر إضافي فتدبر .

﴿ والبغى ﴾ الظلم والاستطالة على الناس .

وأفرد بالذكر بناء على التعميم فيما قبله أو دخوله في الفواحش للمبالغة في الزجر عنه ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ متعلق بالبغي لأن البغي لا يكون إلا كذلك .

وجوز أن يكون حالاً مؤكدة .

وقيل : جيء به ليخرج البغي على الغير في مقابلة بغيه فإنه يسمى بغياً في الجملة لكنه بحق وهو كما ترى ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ أي حجة وبرهاناً ، والمعنى على نفي الإنزال والسلطان معاً على أبلغ وجه كقوله

: لا ترى الضب بها ينجحر . . .

(164/268)

وفيه من التهكم بالمشركين ما لا يخفى ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ بالإلحاد في صفاته والإفتراء عليه كقولهم : ﴿ واللّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28] ولا يخفى ما في توجيه التحريم إلى قولهم عليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعه دون ما يعلمون عدم وقوعه من السر الجليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(165/268)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) ﴾

لَمَّا أنبأ قوله : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ [الأعراف : 32] إلى آخره ، بأنّ أهل الجاهليّة حُرِموا من الزّينة والطّيبات من الرّزق ، وأنبأ قوله تعالى قبل ذلك ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ [الأعراف : 28] بأنّ أهل

الجاهليّة يَعْزُون ضلالهم في الدّين إلى الله ، فأنتج ذلك أنّهم ادّعوا أنّ ما حَرّموه من الزّينة والطّيبات قد حرّمه الله عليهم ، أعقب مجادلتهم ببيان ما حرّمه الله حقّاً وهم ملتبسون به وعاكفون على فعله .

فالقصر المفاد من ﴿ إنَّما ﴾ قصر إضافي مُفَادُهُ أنّ الله حرّم الفَواحش وما ذُكر معها لاَ ما حرّمتموه من الزّينة والطّيّبات ، فأفاد إبطال اعتقادهم ، ثمّ هو يفيد بطريق التّعريض أنّ ما عدّه الله من المحرّمات الثّابت تحريمها قد تلبّسوا بها ، لأنّه لمّا عدّ أشياء ، وقد علم النّاس أنّ المحرّمات ليست محصورة فيها ، عَلم السّامع أنّ ما عيّنه مقصود به تعيين ما تلبّسوا به فحصل بصيغة القصر ردّ عليهم من جانبي ما في صيغة (إنّما) من إثبات ونفي : إذ هي بمعنى (مَا وإلاّ) ، فأفاد تحليل ما زعموه حراماً وتحريم ما استبَاحوه من الفواحش وما معها .

والفواحش جمع فاحشة وقد تقدّم ذكر معنى الفاحشة عند قوله تعالى : ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً ﴾ في سورة النّساء (22) وتقدّم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ [الأعراف : 28] .

و ﴿ ما ظهر منها ﴾ هو ما يظهره النّاس بين قرنائهم وخاصتهم مثل البغاء والمخادنة ، وما بطن هو ما لا يظهره النّاس مثل الوأد والسّرقة ، وقد تقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ في سورة الأنعام (151) .

وقد كانوا في الجاهليّة يستحلّون هذه الفواحش وهي مفاسد قبيحة لا يشكّ أولو الألباب ، لو سئلوا ، أنّ الله لا يرضى بها ، وقيل المراد بالفواحش : الزّنا ، وما ظهر منه وما بطن حالان من أحوال الزّناة ، وعلى هذا يتعيّن أن يكون الإتيان بصيغة الجمع لاعتبار تعدّد أفعاله وأحواله وهو بعيد .

وأمّا الإثم فهو كلّ ذنب ، فهو أعمّ من الفواحش ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ في سورة البقرة (219) .

وقوله : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ في سورة الأنعام (120) ، فيكون ذكر الفواحش قبلَه للاهتمام بالتّحذير منها قبل التّحذير من عموم الذّنوب ، فهو من ذكر الخاص قبل العام للاهتمام ، كذكر الخاص بعد العام ، إلاّ أنّ الاهتمام الحاصل بالتّخصيص مع التّقديم أقوى لأنّ فيه اهتماماً من جهتين .

وأمّا البغي فهو الاعتداء على حقّ الغير بسلب أموالِهم أو بأذاهم ، والكبرُ على النّاس من البغي ، فما كان بوجه حقّ فلا يسمّى بَغياً ولكنّه أذىً ، قال الله تعالى : ﴿ واللّذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ [النساء : 16] وقد كان البغي شائعاً في الجاهليّة فكان القوي يأكل

الضّعيف ، وذو البأس يغير على أنعام النّاس ويقتل أعداءه منهم ، ومن البغي أن يضربوا من يطوف بالبيت بثيابه إذا كان من غير الحُمْس ، وأن يُلزموه بأن لا يأكل غير طعام الحُمْس ، ولا يطوف إلاّ في ثيابهم .

وقوله : ﴿ بغير حق ﴾ صفة كاشفة للبغي مثل العشاء الآخرة لأنّ البغي لا يكون إلاّ بغير حقّ .

وعطف ﴿ البغي ﴾ على ﴿ الإثم ﴾ من عطف الخاص على العام للاهتمام به ، لأنّ البغي كان دأبهم في الجاهليّة ، قال سوار بن المضرِّب السّعدي:

(167/268)

وأَنِّي لاَ أَزَالُ أُخَا حُروب . . .

إذا لم أجْنِ كنت مِجَنَّ جان

والإشراك معروف وقد حرّمَه الله تعالى على لسان جميع الأنبياء منذ خلَق البشر .

و﴿ ما لم ينزّل به سلطانا ﴾ موصول وصلته ، و(مَا) مفعول ﴿ تشركوا بالله ﴾ ، والسّلطان البرهان والحجّة ، والمجرور في قوله : ﴿ به ﴾ صفة ل ﴿ سلطانا ﴾ ، والباء للمصاحبة بمعنى معه أي لم ينزّل حجّة مصاحبة له ، وهي مصاحبة الحجّة للمدّعي وهي

مصاحبة مجازية ويجوز أن يكون الباء بمعنى على للاستعلاء المجازي على حدّ قوله تعالى :

﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ [آل عمران : 75] أي سلطاناً عليه ، أي دليلاً .

وضمير (به) عائد إلى (ما) وهو الرابط للصّلة .

فمعنى نفي تنزيل الحجّة على الشّركاء : نفي الحجّة الدّالة على إثبات صفة الشّركة مع الله في الإلهيّة ، فهو من تعليق الحكم بالذّات والمرادُ وصفُها ، مثلُ حرّمت عليكم الميتة أي أكلها .

وهذه الصّلة مؤذنة بتخطئة المشركين ، ونفيِ معذرتهم في الإشراك ، بأنّه لا دليل يشتبه على النّاس في عدم استحقاق الأصنام العبادة ، فَعَرّف الشّركاء المزعومين تعريفاً لطريق الرسم بأنّ خاصّتهم : أنّ لا سُلطان على شركتهم لله في الإلهية ، فكلّ صنم من أصنامهم واضحة فيه هذه الخاصّة ، فإنّ الموصول وصلته من طرق التّعريف ، وليس ذلك كالوصف ، وليس للموصول وصلته مفهوم مخالفة ، ولا الموصولاتُ معدودة في صِيَغ المفاهيم ، فلا يتّجه ما أورده الفخر من أن يقول قائل : هذا يوهم أن مِن بين الشّرك ما أنزل الله به سلطاناً واحتياجِه إلى دفع هذا الإيهام ، ولا ما قفاه عليه صاحب "الانتصاف" من تنظير نفي السّلطان في هذه الآية بنحو قول امرىء القيس:

على لاحبٍ لا يُهتدَى بمناره

ولا يتّجه ما نحاه صاحبُ "الكشاف" من إجراء هذه الصّلة على طريقة التّهكّم .

(168/268)

وقولُه : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ تقدّم نظيره آنفاً عند قوله تعالى ، في هذه السّورة : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [الأعراف : 28] .

وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهليّة فيما تلبسوا به من الفواحش والآثام ، وهم يزعمون أنّهم يتورّعون عن الطّواف في الثّياب ، وعن أكل بعض الطّيّبات في الحجّ .

وهذا من ناحية قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ [البقرة : 217] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(169/268)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا

بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [33] .

﴿ قُلْ ﴾ إنهما من المنافع الخاصة في أنفسهما . والإفضاء احتمال غير محقق ، فإذا أفضى ، فالحرام هو المفضى إليه بالذات لأنه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ أي : ما تفاحش قبحه من الذنوب ، أي : تزايد وهي الكبائر ، وهي ما يتعلق بالفروج .

﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي : ما جاهر به بعضهم بعضاً ، وما ستره بعضهم عن بعض ، وما ظهر من أفعال الجوارح ، وما بطن من أفعال القلوب .

﴿ وَالإِثْمَ ﴾ أي : ما يوجب الإثم ، وهو عام لكل ذنب وذكره للتعميم بعد التخصيص ، ويقال إن الإثم هو الخمر ، قال الشاعر :

~نهانا رسول الله نقرب الزنى وأن نشرب الإثم الذي يُوجب الوزرا

وأنشد الأخفش :

~شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

وهو منقول عن ابن عباس والحسن .

وذكره أهل اللغة كالأصمعي وغيره ، قال الحسن : ويصدقه قوله تعالى : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ .

وقال ابن الأنباري : لم تسم العرب الخمر إثماً في جاهلية ولا إسلام ، والشعر المذكور موضوع ، ورد بأنه مجاز لأنه سببه . وقال أبو حيان : هذا التفسير غير صحيح هنا

لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحد وقد سبقه إلى هذا غيره .

وأيضاً ، الحصر يحتاج إلى دليل ، كذا في " العناية " .

﴿ وَالْبَغْيَ ﴾ أي : الاستطالة على الناس وظلمهم ، إنما أفرده بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، للمبالغة في الزجر عنه .

وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضي أنه تميز من بينها حتى عد نوعاً مستقلاً .

(170/268)

﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ متعلق بالبغي ، مؤكد له معنى ، وقيل : البغي قد يخرج عن كونه ظلماً إذا كان بسبب جائز في الشرع كالقصاص ، إلا أنه مثله لا يسمى بغياً حقيقة ، بل مشاكلة : ﴿ وَ ﴾ قد حرم : ﴿ أَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أي : برهاناً أي : ما لم يقم عليه حجة .

قال الزمخشري : فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره .

وفي " العناية " : إنما جاء التهكم من حيث إنه يوهم أنه لو كان عليه سلطان لم يكن محرماً ، دلالة على تقليدهم في الغي ، والمعنى على نفي الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ . انتهى .

قال الرازي : وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل .

وتبعه القاضي فقال : في الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان : ﴿ وَ ﴾ قد حرم عليكم : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : تتقولوا عليه ، وتفتروا الكذب في التحليل والتحريم ، أو في الشرك .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على تحريم جميع الذنوب ، لأن قوله الفواحش والإثم ، يشتمل على الصغير والكبير ، والأفعال القبيحة ، والعقود المخالفة للشرع ، والأقاويل الفاسدة ، والاعتقادات الباطلة .

ودخل في قوله : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب والخيانات ، والمكر ، والخديعة ، ودخل تحت قوله : ﴿ وَالْبَغْيَ ﴾ كل ظلم يتعدى على الغير ، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج ، والأمراء إذا انتصروا بغير حق . ودخل تحت قوله ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ ﴾ تحريم كل شرك وعبادة لغير الله . ودخل تحت قوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ ﴾ كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق ، وشهادة زور ونحوه .

(171/268)

فالآية جامعة في المحرمات ، كما أن ما قبلها جامعة في المباحات ، وفيه تعليم للآداب ، ديناً ودنيا ، وتدل على بطلان التقليد ، لأنه أوجب اتباع الحجة ، لقوله : ﴿ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ ، والسلطان الحجة .

وتدل على أن لكل أحد وقت حياة ، ووقت موت ، لا يجوز فيه التقديم والتأخير ، فيبطل قول من يقول : المقتول مات قبل أجله . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 52.50 ﴾

(172/268)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالنَّسَائِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِمَا وَمُخْرِجُو التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يَطُفْنَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ الْمَرْأَةُ عَلَى فَرْجِهَا خِرْقَةً وَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ . . . كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً يَقُولُونَ :

لَا نَطُوفُ فِي ثِيَابٍ أَذْنَبْنَا فِيهَا ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَأَلْقَتْ ثِيَابَهَا فَطَافَتْ وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى قُبُلِهَا وَقَالَتْ : (الْبَيْتَ) فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

(173/268)

إِلَى قَوْلِهِ (وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) وَالرِّوَايَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَتَلَامِيذِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ ، وَفِي بَعْضِهَا عَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَطُوفُونَ بِاللَّيْلِ عُرَاةً وَأَكْثَرُهَا مُطْلَقَةٌ . وَفِي بَعْضِهَا عَنْهُ : كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا حَجُّوا فَنَزَلُوا فِي أَدْنَى الْحِلِّ نَزَعُوا ثِيَابَهُمْ وَوَضَعُوا رِدَاءَهُمْ وَدَخَلُوا مَكَّةَ بِغَيْرِ رِدَاءٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ صَدِيقٌ مِنَ الْحُمْسِ فَيُعِيرُهُ ثَوْبَهُ وَيُطْعِمَهُ مِنْ طَعَامِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ طَاوُسٍ أَنَّهُمْ كَانُوا يَضَعُونَ ثِيَابَهُمْ خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ وَيَدْخُلُونَ ، فَإِذَا دَخَلَ رَجُلٌ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ يُضْرَبُ وَتُنْزَعُ عَنْهُ ثِيَابُهُ فَنَزَلَتْ . وَعَنْ قَتَادَةَ حِكَايَةُ ذَلِكَ عَنْ حَيٍّ مِنَ الْيَمَنِ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ عَامٌّ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَلْبَسُ ثِيَابَهُ فِي

(174/268)

الطَّوَافِ إِلَّا الْحُمْسِ مِنْ قُرَيْشٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُمَيِّزُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ : يَطُوفُونَ بِثِيَابِهِمْ - وَهَذَا حَسَنٌ فِي نَفْسِهِ دُونَ الِانْفِرَادِ بِهِ - وَيَأْتُونَ الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ لَا مِنْ بَابِهِ إِذَا كَانُوا مُحْرِمِينَ ، وَقَدْ أَبْطَلَ هَذَا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (2 : 189) وَيَقِفُونَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ (جَبَلُ قُزَحٍ) بِمُزْدَلِفَةَ لَا فِي عَرَفَاتٍ وَيُعَلِّلُونَ هَذَا بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ ، وَعَرَفَةُ خَارِجُ حَدِّ الْحَرَمِ الْمَعْرُوفِ بِالْعَلَمَيْنِ الْمَنْصُوبَيْنِ اللَّذَيْنِ يَنْفِرُ الْحَجَّاجُ مِنْ بَيْنِهِمَا عِنْدَ الدَّفْعِ مِنْهَا إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ إِلَى الْمَوْقِفِ كَانَتْ قُرَيْشٌ لَا تَشُكُّ فِي أَنَّهُ يَقِفُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِأَنْ يَذْهَبُوا إِلَى عَرَفَةَ فَيَقِفُونَ فِيهَا فَخَابَ ظَنُّهُمْ ، وَأَبْطَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْتِيَازَهُمْ وَسَنَّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمُ الْمُسَاوَاةَ . وَبَدَأَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ حَتَّى إِنَّهُ أَبَى أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَكَانًا فِي " مِنًى " يَسْتَظِلُّ فِيهِ مِنَ الشَّمْسِ لَمَّا أَرَادُوا عَمَلَهُ لَهُ . وَقَالَ " مِنًى مُنَاخُ مَنْ سَبَقَ " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَالْحَاكِمُ ، عَنْ

عَائِشَةَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الرِّوَايَاتِ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ قَدْ رُوِيَ مِثْلُهَا فِي نُزُولِ مَا قَبْلَهَا مِنْ آيَاتِ اللِّبَاسِ كَمَا تَقَدَّمَ مُخْتَصَرًا . وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا نَزَلَتْ مُبْطِلَةً لِتِلْكَ الضَّلَالَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الْفَاحِشَةِ ، وَمُقَرِّرَةً لِوُجُوبِ اتِّخَاذِ الْمَلَابِسِ لِلسَّتْرِ وَلِزِينَةِ التَّجَمُّلِ وَإِظْهَارِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) يُقَالُ فِي هَذَا النِّدَاءِ مَا قُلْنَا فِي مِثْلِهِ قَبْلَهُ وَنَزِيدُ أَنَّهُ يَشْمَلُ النِّسَاءَ بِالتَّبَعِ لِلرِّجَالِ شَرْعًا لَا لُغَةً ، وَيَدُلُّ عَلَى بِعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْوَصَايَا مِمَّا أَوْصَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الرُّسُلِ وَسَنَعُودُ إِلَى

(176/268)

هَذَا فِي تَفْسِيرِ آخِرِهَا ، وَالزِّينَةُ : مَا يُزَيِّنُ الشَّيْءَ أَوِ الشَّخْصَ ، فَهِيَ اسْمٌ مِنْ زَانَهُ يَزِينُهُ زَيْنًا ، ضِدُّ شَانَهُ - أَيْ عَابَهُ - يَشِينُهُ شَيْنًا . وَأَخْذُهَا عِبَارَةٌ عَنِ التَّزَيُّنِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِأَخْذِ مَا يُزَيِّنُ وَاسْتِعْمَالِهِ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا : الثِّيَابُ الْحَسَنَةُ الْمُعْتَادَةُ ، بِدَلِيلِ الْقَرِينَةِ وَالْإِضَافَةِ وَسَبَبِ نُزُولِ الْآيَاتِ - وَإِلَّا فَأَنْوَاعُ الزِّينَةِ فِي الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ - وَمِنْهَا الْمَالُ وَالْبَنُونَ - فَلَا يَدْخُلُ

فِيهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِالنِّسَاءِ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ الَّتِي يَتَحَبَّبْنَ بِهَا إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَقَدْ تَكُونُ شَاغِلَةً عَنِ الْعِبَادَةِ ، وَأَقَلُّ هَذِهِ الزِّينَةِ مَا يَدْفَعُ عَنِ الْمَرْءِ أَقْبَحَ مَا يَشِينُهُ بَيْنَ النَّاسِ وَهُوَ مَا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ، وَقَدِ اقْتَصَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى هَذَا لِأَجْلِ جَعْلِ الْأَمْرِ لِلْوُجُوبِ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ لِصِحَّةِ الصَّلَاةِ

(177/268)

وَالطَّوَافِ سَتْرُ الْعَوْرَةِ فَقَطْ عَلَى مَا جَرَى عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي تَحْدِيدِ الْعَوْرَةِ وَقَالُوا : إِنَّ مَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ التَّجَمُّلِ بِزِينَةِ اللِّبَاسِ اللَّائِقِ عِنْدَ الصَّلَاةِ – وَلَا سِيَّمَا صَلَاةُ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ – وَفِي الْعِيدَيْنِ سُنَّةٌ لَا وَاجِبٌ ، وَلَكِنَّ إِطْلَاقَ الْأَمْرِ يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الزِّينَةِ لِلْعِبَادَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ بِحَسَبِ عُرْفِ النَّاسِ فِي تَزَيُّنِهِمُ الْمُعْتَدِلِ فِي الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ ، لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى مَعَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَجْمَلِ حَالَةٍ لَائِقَةٍ بِهِ لَا تَكَلُّفَ فِيهَا وَلَا إِسْرَافَ ، فَمَنْ قَدَرَ بِلَا تَكَلُّفٍ عَلَى عِمَامَةٍ وَإِزَارٍ وَرِدَاءٍ ، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ قَلَنْسُوَةٍ وَجُبَّةٍ وَقَبَاءٍ ، لَا يَكُونُ مُتَمَثِّلًا لِلْأَمْرِ بِالزِّينَةِ إِذَا اقْتَصَرَ عَلَى إِزَارٍ يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ فَقَطْ (وَهِيَ عِنْدُ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ السَّوْءَتَانِ فَقَطْ وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ)

لِلرَّجُلِ وَمَا عَدَا الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ لِلْمَرْأَةِ وَإِنْ صَحَّتْ صَلَاتُهُ ، فَإِنَّ الْمَقَامَ لَيْسَ مَقَامَ بَيَانِ شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ بَلْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبٌ لَا شَرْطٌ لِصِحَّتِهَا . وَإِنَّ فِيمَا وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ فِي الْمَسْأَلَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَا ، حَتَّى جُعِلَتِ النِّعَالُ مِنَ الزِّينَةِ وَهِيَ كَذَلِكَ وَإِنْ تَرَكَهَا جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاجِدِ ، لِأَنَّهُمْ يَفْرِشُونَهَا كَمَا

(178/268)

يَفْرِشُونَ بُيُوتَهُمْ بِالْحُصُرِ أَوْ بِالْبُسُطِ وَالطَّنَافِسِ .

أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ (أَيْ أَرَادَ الصَّلَاةَ) فَلْيَلْبَسْ ثَوْبَيْهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَقُّ مَنْ تُزُيِّنَ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيَتَّزِرْ إِذَا صَلَّى ، وَلَا يَشْتَمِلْ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ اشْتِمَالَ الْيَهُودِ " وَأَخْرَجَ الشَّافِعِيُّ ، وَأَحْمَدُ ، وَالْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَالْبَيْهَقِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَى عَاتِقِهِ مِنْهُ شَيْءٌ " وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ فِي لِحَافٍ (ثَوْبٌ يُلْتَحَفُ بِهِ) وَاحِدٍ لَا يَتَوَشَّحُ بِهِ : وَنَهَى أَنْ يُصَلِّيَ

الرَّجُلُ فِي سَرَاوِيلَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ رِدَاءٌ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ عُدَيٍّ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " خُذُوا زِينَةَ الصَّلَاةِ - قَالُوا : وَمَا زِينَةُ الصَّلَاةِ ؟ قَالَ : الْبَسُوا نِعَالَكُمْ فَصَلُّوا فِيهَا " وَأَخْرَجَ

(179/268)

الْعُقَيْلِيُّ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِ اللهِ : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) قَالَ : " صَلُّوا فِي نِعَالِكُمْ " وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ بِضْعَةُ أَحَادِيثَ أُخْرَى ضَعِيفَةٍ يُؤَيِّدُهَا مَا أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ سُئِلَ : أَكَانَ رَسُولُ

(180/268)

اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي نَعْلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَغَيْرُ التِّرْمِذِيِّ مِنْ أَصْحَابِ السُّنَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ فَقَالَ : " أَوَلِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ ؟ زَادَ الْبُخَارِيُّ فِي رِوَايَةٍ . ثُمَّ سَأَلَ رَجُلٌ

عُمَرَ فَقَالَ : إِذَا وَسَّعَ اللهُ فَأَوْسِعُوا . جَمَعَ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ ، صَلَّى رَجُلٌ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ ، فِي إِزَارٍ وَقَمِيصٍ ، فِي إِزَارٍ وَقَبَاءٍ ، فِي سَرَاوِيلَ وَرِدَاءٍ ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَمِيصٍ ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَبَاءٍ ، فِي تُبَّانٍ وَقَبَاءٍ ، فِي تُبَّانٍ وَقَمِيصٍ . قَالَ وَأَحْسَبُهُ قَالَ : فِي تُبَّانٍ وَرِدَاءٍ ، وَذَكَرُوا فِي هَذَا السُّؤَالِ أَنَّ سَبَبَهُ مَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَّ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ اخْتَلَفَا فَقَالَ أُبَيٌّ : الصَّلَاةُ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ غَيْرُ مَكْرُوهَةٍ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ . إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ وَفِي الثِّيَابِ قِلَّةٌ – فَقَامَ عُمَرُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : الْقَوْلُ مَا قَالَ أُبَيٌّ وَلَمْ يَأْلُ ابْنُ مَسْعُودٍ – أَيْ لَمْ يُقَصِّرْ – وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ السِّبْطِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ لِلصَّلَاةِ لَبِسَ أَجْوَدَ ثِيَابِهِ ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ فَأَتَجَمَّلُ لِرَبِّي وَهُوَ يَقُولُ : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) .

(181/268)

وَالْمَأْخُوذُ مِنْ جُمْلَةِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَغَيْرِهَا مَا حَقَّقَهُ وَفَصَّلَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَهُوَ أَنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْإِنْسَانِ فِي السَّعَةِ وَالضِّيقِ كَالنَّفَقَةِ ، قَالَ تَعَالَى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) (65 : 7) فَمَنْ عِنْدَهُ ثَوْبٌ وَاحِدٌ يَسْتُرُ جَمِيعَ بَدَنِهِ فَلْيَسْتُرْ بِهِ جَمِيعَ بَدَنِهِ وَيُصَلِّ بِهِ – فَإِنْ

لَمْ يَسْتُرْ إِلَّا الْعَوْرَةَ كُلَّهَا أَوِ الْعَوْرَةَ الْمُغَلَّظَةَ – وَهِيَ السَّوْءَتَانِ – فَلْيَسْتُرْ بِهِ مَا يَسْتُرُهُ ، وَمَنْ وَجَدَ ثَوْبَيْنِ مَهْمَا يَكُنْ نَوْعُهُمَا أَوْ أَكْثَرَ فَلْيُصَلِّ بِهِمَا ، وَالْخُلَاصَةُ أَنَّهُ يُطْلَبُ أَنْ يَكُونَ فِي أَوْسَطِ حَالٍ حَسَنَةٍ يَقْدِرُ عَلَيْهَا ، وَقَدْ عَدَّ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَعْذَارِ تَرْكِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ فَقْدُ الرَّجُلِ لِلثِّيَابِ اللَّائِقَةِ بِهِ بَيْنَ أَمْثَالِهِ حَتَّى الْعِمَامَةِ لِلْعَالِمِ .

هَذَا الْأَمْرُ بِالزِّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ – لَا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحْدَهُ – أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ يُعْرَفُ بَعْضُ قِيمَتِهِ مِمَّا رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ مَنْ قَرَأَ تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ ، وَعَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُتَوَحِّشِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الْحَرَجَاتِ وَالْغَابَاتِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ يَأْوُونَ إِلَى الْكُهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ ، وَالْقَبَائِلِ الْكَثِيرَةِ الْوَثَنِيَّةِ

(182/268)

فِي بَعْضِ جَزَائِرِ الْبِحَارِ وَجِبَالِ إِفْرِيقِيَّةَ ، كُلُّهُمْ يَعِيشُونَ عُرَاةَ الْأَجْسَامِ نِسَاءً وَرِجَالًا ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ مَا وَصَلَ إِلَى قَوْمٍ مِنْهُمْ إِلَّا وَعَلَّمَهُمْ لُبْسَ الثِّيَابِ بِإِيجَابِهِ لِلسَّتْرِ وَلِلزِّينَةِ إِيجَابًا شَرْعِيًّا ، وَلَمَّا أَسْرَفَ بَعْضُ دُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ الْأُورُبِّيِّينَ فِي الطَّعْنِ فِي الْإِسْلَامِ لِتَنْفِيرِ أَهْلِهِ مِنْهُ وَتَحْوِيلِهِمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ ، وَلِتَحْرِيضِ أُورُبَّةَ عَلَيْهِمْ ، رَدَّ عَلَيْهِمْ بَعْضُ الْمُنْصِفِينَ مِنْهُمْ ، فَذَكَرَ فِي رَدِّهِ أَنَّ

لِانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي إِفْرِيقِيَّةَ مِنْهُ عَلَى أُورُبَّةَ بِنَشْرِهِ لِلْمَدَنِيَّةِ فِي أَهْلِهَا بِحَمْلِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْعُرْيِ وَإِيجَابِهِ لُبْسَ الثِّيَابِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا لِرَوَاجِ تِجَارَةِ النَّسِيجِ الْأُورُبِّيَّةِ فِيهِمْ . بَلْ أَقُولُ : إِنَّ بَعْضَ الْأُمَمِ الْوَثَنِيَّةِ ذَاتِ الْحَضَارَةِ وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ كَانَ يَغْلِبُ فِيهَا مَعِيشَةُ الْعُرْيِ ، حَتَّى إِذَا مَا اهْتَدَى بَعْضُهُمْ بِالْإِسْلَامِ صَارُوا يَلْبَسُونَ وَيَتَجَمَّلُونَ ثُمَّ صَارُوا يَصْنَعُونَ الثِّيَابَ ، وَقَلَّدَهُمْ جِيرَانُهُمْ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ بَعْضَ التَّقْلِيدِ ، وَهَذِهِ بِلَادُ الْهِنْدِ عَلَى ارْتِقَاءِ حَضَارَةِ الْوَثَنِيِّينَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا لَا يَزَالُ أُلُوفُ الْأُلُوفِ مِنْ نِسَائِهِمْ وَرِجَالِهِمْ عُرَاةً أَوْ أَنْصَافَ أَوْ أَرْبَاعَ عُرَاةٍ ، فَتَرَى بَعْضَ رِجَالِهِمْ فِي مَعَاهِدِ تِجَارَتِهِمْ وَصِنَاعَتِهِمْ بَيْنَ عَارٍ لَا يَسْتُرُ إِلَّا السَّوْءَتَيْنِ – وَيُسَمُّونَهُمَا " سَبِيلَيْنِ " وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا الْفُقَهَاءُ فِي بَابِ

(183/268)

نَوَاقِضِ الْوُضُوءِ – أَوْ سَاتِرٍ لِنِصْفِهِ الْأَسْفَلِ فَقَطْ ، وَامْرَأَةٍ مَكْشُوفَةِ الْبَطْنِ وَالْفَخِذَيْنِ أَوِ النِّصْفِ الْأَعْلَى مِنَ الْجِسْمِ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ . وَقَدِ اعْتَرَفَ بَعْضُ عُلَمَائِهِمُ الْمُنْصِفِينَ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ هُمُ الَّذِينَ عَلَّمُوهُمْ لُبْسَ الثِّيَابِ وَالْأَكْلَ فِي الْأَوَانِي . وَلَا يَزَالُ أَكْثَرُ فُقَرَائِهِمْ يَضَعُونَ طَعَامَهُمْ عَلَى وَرَقِ الشَّجَرِ وَيَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَلَكِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ سَائِرِ الْوَثَنِيِّينَ سَتْرًا وَزِينَةً لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا حُكَّامَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا وَلَا يَزَالُونَ مِنْ أَرْقَى مُسْلِمِي الْأَرْضِ عِلْمًا وَعَمَلًا

وَتَأْثِيرًا فِي وَثَنِيِّ بِلَادِهِمْ . وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِ الشَّرْقِ الَّتِي يَغْلِبُ عَلَيْهَا الْجَهْلُ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْوَثَنِيَّةِ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي اللِّبَاسِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ ، وَمِنْهُمْ نِسَاءُ مُسْلِمِي (سيام) اللَّاتِي لَا يَرَيْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ عَوْرَةً سِوَى السَّوْءَتَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا فَحَيْثُ يَقْوَى الْإِسْلَامُ يَكُونُ السَّتْرُ وَالزِّينَةُ اللَّائِقَةُ بِكَرَامَةِ الْبَشَرِ وَرُقِيِّهِمْ .

(184/268)

فَمَنْ عَرَفَ مِثْلَ هَذَا عَرَفَ قِيمَةَ هَذَا الْأَصْلِ الْإِصْلَاحِيِّ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَوْلَا أَنْ جَعَلَ هَذَا الدِّينُ الْمَدَنِيُّ الْأَعْلَى أَخْذَ الزِّينَةِ مِنْ شَرْعِ اللهِ – يَعْنِي أَوْجَبَهُ عَلَى عِبَادِهِ – لَمَا نَقَلَ أُمَمًا وَشُعُوبًا كَثِيرَةً مِنَ الْوَحْشِيَّةِ الْفَاحِشَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ الرَّاقِيَةِ ، وَإِنَّمَا يَجْهَلُ هَذَا الْفَضْلَ لَهُ مَنْ يَجْهَلُ التَّارِيخَ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ ، بَلْ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُوجَدَ فِي مُتَحَذْلِقَةِ الْمُتَفَرْنِجِينَ مِنْهُمْ مَنْ يَجْلِسُ فِي مَلْهًى أَوْ مَقْهًى أَوْ حَانَةٍ مُتَّكِئًا مُمِيلًا طَرْبُوشَهُ عَلَى رَأْسِهِ

يَقُولُ : مَا مَعْنَى جَعْلِ أَخْذِ زِينَةِ النَّاسِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ، وَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْبَشَرِ لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى وَحْيٍ إِلَهِيٍّ وَلَا شَرْعٍ دِينِيٍّ ؟ وَقَدْ يَقُولُ مِثْلَ هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) وَهَذَا الْأَمْرُ الْمُقَيَّدُ بِمَا عُطِفَ عَلَيْهِ مِنَ النَّهْيِ إِرْشَادٌ عَالٍ أَيْضًا فِيهِ صَلَاحٌ لِلْبَشَرِ فِي دِينِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَلَا عَصْرٍ مِنْ

الْأَعْصَارِ ، وَكُلُّ مَا بَلَغُوهُ مِنْ سِعَةِ الْعِلْمِ فِي الطِّبِّ وَغَيْرِهِ لَمْ يُغْنِهِمْ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ يُغْنِي الْمُهْتَدِي بِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَنْ مُعْظَمِ وَصَايَا الطِّبِّ لِحِفْظِ الصِّحَّةِ - وَالْمَعْنَى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ الْمَسَاجِدِ وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ ، وَكُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاشْرَبُوا الْمَاءَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْأَشْرِبَةِ النَّافِعَةِ الْمُسْتَلَذَّاتِ (وَلَا تُسْرِفُوا) فِيهَا وَلَا تَعْتَدُوا بَلِ الْزَمُوا الِاعْتِدَالَ (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) أَيْ إِنَّ رَبَّكُمُ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ لِمَنْفَعَتِكُمْ ، لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ فِي أَمْرِهِمْ ، بَلْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَى الْإِسْرَافِ بِقَدْرِ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْمَفَاسِدِ وَالْمَضَارِّ ، فَالنَّهْيُ رَاجِعٌ إِلَى الثَّلَاثَةِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ ، بَلْ حَذْفُ الْمَعْمُولِ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ ، أَيْ لَا تُسْرِفُوا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهَا ، وَيُؤَيِّدُهُ تَعْلِيلُ النَّهْيِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ جِنْسَ الْمُسْرِفِينَ - أَيْ لِأَنَّهُمْ يُخَالِفُونَ سُنَنَهُ فِي فِطْرَتِهِمْ ، وَشَرِيعَتَهُ فِي هِدَايَتِهِمْ ، بِجِنَايَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي ضَرَرِ أَبْدَانِهِمْ ، وَضَيَاعِ أَمْوَالِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَضَارِّ الْإِسْرَافِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَنْزِلِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ .

أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " كُلُوا وَاشْرَبُوا

وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ "

وَفِي مَعْنَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : كُلْ مَا شِئْتَ وَاشْرَبْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ إذَا أَخْطَأَتْك اثْنَتَانِ : سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ . وَالْمَخِيلَةُ (بِفَتْحِ الْمِيمِ بِوَزْنِ سَفِينَةٍ) الْخُيَلَاءُ وَالْإِعْجَابُ وَالْكِبْرُ ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ " وَلَا تُسْرِفُوا " قَالَ : فِي الثِّيَابِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ : مِنَ السَّرَفِ أَنْ يَكْتَسِيَ الْإِنْسَانُ وَيَأْكُلَ وَيَشْرَبَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) قَالَ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَفِي أُخْرَى قَالَ : أَحَلَّ اللَّهُ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً . . وَلَمْ يَذْكُرِ اللِّبَاسَ وَالْمَخِيلَةَ تَظْهَرُ فِيهِ وَلَا تَظْهَرُ فِي نَفْسِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَإِنَّمَا قَدْ تَظْهَرُ فِي أَوَانِيهَا كَمَا سَيَأْتِي .

وَالْأَصْلُ فِي الْإِسْرَافِ تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ ، وَالْحُدُودُ مِنْهَا طَبِيعِيٌّ كَالْجُوعِ وَالشِّبَعِ وَالظَّمَأِ وَالرِّيِّ ، فَلَوْ لَمْ يَأْكُلِ الْإِنْسَانُ إلَّا إذَا أَحَسَّ بِالْجُوعِ وَمَتَى

شَعَرَ بِالشِّبَعِ كَفَّ وَإِنْ كَانَ يَسْتَلِذُّ الِاسْتِزَادَةَ ، وَلَوْ لَمْ يَشْرَبْ إِلَّا إِذَا شَعَرَ بِالظَّمَأِ وَاكْتَفَى بِمَا يُزِيلُهُ رِيًّا فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ لِاسْتِلْذَاذِ بَرْدِ الشَّرَابِ أَوْ حَلَاوَتِهِ ، لَمْ يَكُنْ مُسْرِفًا فِي أَكْلِهِ وَشَرَابِهِ ، وَكَانَ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ نَافِعًا لَهُ – وَمِنْهَا اقْتِصَادِيٌّ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةُ الثَّلَاثَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ دَخْلِ الْإِنْسَانِ لَا تَسْتَغْرِقُ كَسْبَهُ ، فَمَنْ نَفَيْنَا عَنْهُ الْإِسْرَافَ الطَّبِيعِيَّ فِي أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ ، قَدْ يَكُونُ مُسْرِفًا فِي مَالِهِ إِذَا كَانَ نَوْعُ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَلِبَاسِهِ مِمَّا لَا يَفِي دَخْلُهُ بِمِثْلِهِ – وَمِنْهَا عَقْلِيٌّ أَوْ عِلْمِيٌّ ، وَمِنْهَا عُرْفِيٌّ وَشَرْعِيٌّ ، وَمِنْ حُدُودِ الشَّرْعِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ أَنَّهُ حَرَّمَ مِنَ الطَّعَامِ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْخَمْرَ وَهِيَ كُلُّ مُسْكِرٍ ، كَمَا حَرَّمَ كُلَّ ضَارٍّ مِنْهُمَا كَالسُّمُومِ ، وَمِنَ اللِّبَاسِ الْحَرِيرَ الْمُصْمَتَ أَيِ الْخَالِصَ وَكَذَا الْغَالِبَ – عَلَى

(188/268)

الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ – فَهَذِهِ أَشْيَاءُ مُحَرَّمَةٌ بِأَعْيَانِهَا ، فَلَا تُبَاحُ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا . وَحَرَّمَ مِمَّا يُلَابِسُهَا الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ فِي أَوَانِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ ثَابِتٌ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّهُ مِنَ السَّرَفِ الَّذِي

يَدْخُلُ فِي عُمُومِ النَّهْيِ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الثَّلَاثَةِ ، وَنَهَى أَيْضًا عَنْ لِبَاسِ الشُّهْرَةِ وَعَنْ تَشَبُّهِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِهِمْ .

(189/268)

وَاعْتَبَرَ عُلَمَاءُ الشَّرْعِ عُرْفَ النَّاسِ فِيمَا يَجِبُ مِنْ نَفَقَةِ الْأَقَارِبِ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ) (65 : 7) الْآيَةَ ، فَيَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ الْغَنِيِّ لِزَوْجَتِهِ الْغَنِيَّةِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى الْفَقِيرِ مِنْ غِذَاءٍ وَلِبَاسٍ ، وَلَكِنَّ دَرَجَاتِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ مُتَفَاوِتَةٌ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُهَا وَتَحْدِيدُهَا ، وَالْمُعْتَبَرُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ النَّاسِ عُرْفُ الْمُعْتَدِلِينَ مِنْهُمُ الَّذِي يَدْخُلُ فِي طَاقَتِهِمْ - وَمَنْ تَجَاوَزَ طَاقَتَهُ مُبَارَاةً لِمَنْ هُمْ فِي الثَّرْوَةِ مِثْلُهُ مِنَ الْمُسْرِفِينَ أَوْ لِمَنْ هُمْ أَغْنَى مِنْهُ وَأَقْدَرُ كَانَ مُسْرِفًا ، وَكَمْ خَرَّبَتْ هَذِهِ الْمُبَارَاةُ وَالْمُنَافَسَةُ مِنْ بُيُوتٍ كَانَتْ عَامِرَةً ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا اتُّبِعَتْ فِيهَا أَهْوَاءُ النِّسَاءِ فِي التَّنَافُسِ فِي الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ ، وَالْمُهُورِ وَتَجْهِيزِ الْعَرَائِسِ وَاحْتِفَالَاتِ الْأَعْرَاسِ وَالْمَآتِمِ وَمَا يَتْبَعُهُمَا مِنَ الْوَلَائِمِ وَالْوَضَائِمِ وَإِنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَرَى مِنَ الْعَارِ أَنْ تَلْبَسَ الْغِلَالَةَ أَوِ الْحُلَّةَ فِي زِيَارَتِهَا لِأَمْثَالِهَا مَرَّتَيْنِ بَلْ لَا بُدَّ لِكُلِّ زِيَارَةٍ مِنْ حُلَّةٍ جَدِيدَةٍ . وَهَذَا سَرَفٌ كَبِيرٌ وَضَرَرُهُ عَلَى الْأُمَّةِ أَكْبَرُ مِنْ ضَرَرِهِ عَلَى الْأَفْرَادِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، الَّتِي تَأْتِي بِكُلِّ أَنْوَاعِ الزِّينَةِ

مِنَ الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، فَتَذْهَبُ ثَرْوَتُهَا إِلَى مَنْ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى اسْتِذْلَالِهِمْ وَسَلْبِ اسْتِقْلَالِهِمْ .

(190/268)

وَلَا يُعَارِضُ مَا تَقَدَّمَ هَذَا مَا وَرَدَ مِنَ الْآثَارِ وَسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ فِي التَّقَشُّفِ : فَإِنَّ هَذَا الْهَدْيَ الْقُرْآنِيَّ هُوَ أَصْلُ الشَّرْعِ ، وَكُلُّ مَا خَالَفَهُ فَلَهُ سَبَبٌ يَعْرِفُهُ الْوَاقِفُ عَلَى جُمْلَةِ سِيرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ وَالضِّيقِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمَا خَافُوا عَلَى الْأُمَّةِ مِنَ الْفَسَادِ بِالتَّرَفِ وَالسَّرَفِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ ذَلِكَ الضِّيقِ إِلَى تِلْكَ السَّعَةِ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا بِالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مُلْكِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَغَيْرِهِمَا .

عَلَى أَنَّ الْمَيْلَ إِلَى التَّقَشُّفِ وَالتَّقْتِيرِ وَالْغُلُوَّ فِي ذَلِكَ تَدَيُّنًا مَعْهُودٌ مِنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ كَضِدِّهِ ، وَالِاعْتِدَالُ وَالْقَصْدُ هُوَ الَّذِي خَاطَبَ بِهِ الشَّرْعُ النَّاسَ كُلَّهُمْ ، وَهُوَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ . وَمَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عِنْدَ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيِّ مِنْ أَنَّ الْأَكْلَ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ مِنَ الْإِسْرَافِ ضَعِيفٌ وَمُعَارَضٌ بِالصِّحَاحِ وَحَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ ابْنِ مَاجَهْ " إِنَّ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ مَا اشْتَهَيْتَ " ضَعِيفٌ أَيْضًا وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ وَحِكْمَةٌ

مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَلَمْ يَكْبَحْ جُمُوحَهَا بِقُوَّةِ الْإِرَادَةِ عَنْ بَعْضِ شَهَوَاتِهَا ، فَإِنَّهَا

(191/268)

تَقُودُهُ إِلَى الْإِسْرَافِ وَإِلَى شُرُورٍ أُخْرَى ؛ وَلِهَذَا شَرَعَ اللَّهُ الصِّيَامَ عَلَيْنَا وَعَلَى مَنْ قَبْلَنَا . وَقَدْ مَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ إلَى الْغُلُوِّ وَشَرَعُوا فِيهِ بِتَرْكِ أَكْلِ اللَّحْمِ وَغَشَيَانِ النِّسَاءِ حَتَّى اسْتَأْذَنَ بَعْضُهُمْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخِصَاءِ فَأَدَّبَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِمَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ فِي ذَلِكَ وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِيهِ تَفْصِيلًا عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) (5 : 87) إلَخِ الْآيَتَيْنِ وَبَيَّنَّا فِيهِ أَنَّ مَا عَنَى بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ بِنَقْلِهِ مِنْ أَخْبَارِ الزُّهْدِ فِي الطَّعَامِ كَالْغَزَالِيِّ فِي كِتَابِ كَسْرِ الشَّهْوَتَيْنِ فَأَكْثَرُهُ لَا أَصْلَ لَهُ ، وَمِنْهُ الْمَوْضُوعُ وَالضَّعِيفُ وَأَقَلُّهُ الصَّحِيحُ ، وَأَنَّ جُمْلَةَ سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الطَّعَامِ أَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ مَا وَجَدَ مِنْ خَشِنٍ وَمُسْتَلَذٍّ ، لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُعْسِرِينَ وَهُمْ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ وَلِلْمُوسِرِينَ وَهُمُ الْأَقَلُّونَ مِنْهُمْ فِي عَهْدِهِ ، وَقَدْ أُيسِرُوا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى أَنَّهُ وَرَدَ أَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ إلَيْهِ اللَّحْمُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِالطَّعَامِ ،

وَإِنَّمَا كَانَ يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمَاءِ وَالشَّرَابِ ، فَلَا يَشْرَبُ إِلَّا النَّظِيفَ الْعَذْبَ ، وَيُحِبُّ الْبَارِدَ الْحُلْوَ ، حَتَّى كَانَ يُسْتَعْذَبُ لَهُ الْمَاءُ مِنْ مَسَافَةِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، وَأَمَّا اللِّبَاسُ فَكَانَ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِ

(192/268)

يَلْبَسُ مَا كَانَ يَلْبَسُ قَوْمُهُ . وَلَبِسَ مِنْ خَشِنِ اللِّبَاسِ وَمَنْ أَجْوَدِ أَنْوَاعِهِ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ .

(193/268)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ضَرُورَةٌ بَشَرِيَّةٌ حَيَوَانِيَّةٌ ، وَلَكِنْ ضَلَّ فِيهَا فَرِيقَانِ مِنَ الْبَشَرِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ – فَرِيقُ الْبُخَلَاءِ وَالْغُلَاةِ فِي الدِّينِ ، الَّذِينَ يَتْرُكُونَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الْمُسْتَلَذَّةِ النَّافِعَةِ بُخْلًا وَشُحًّا أَوْ يُحَرِّمُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَحْرِيمًا دَائِمًا أَوْ فِي أَيَّامٍ أَوْ أَشْهُرٍ مَخْصُوصَةٍ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ تَعَالَى بِتَعْذِيبِ النَّفْسِ وَإِضْعَافِ الْجِسْمِ – وَفَرِيقُ الْمُتْرَفِينَ الْمُسْرِفِينَ فِي اللَّذَّاتِ الْبَدَنِيَّةِ ، الَّذِينَ جَعَلُوا جُلَّ هَمِّهِمْ مِنْ حَيَاتِهِمُ التَّمَتُّعَ بِاللَّذَّاتِ ، فَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنْهَا فِي تَمَتُّعِهِمْ ؛ لِأَنَّهَا تَقِفُ عِنْدَ حَاجَةِ

فِطْرَتِهَا دُونَهُمْ فَلَا تَعْدُوا فِيهَا دَاعِيَةَ غَرِيزَتِهَا الَّتِي تَحْفَظُ بِهَا حَيَاتَهَا الْفَرْدِيَّةَ وَالنَّوْعِيَّةَ ، وَأَمَّا الْمُتْرَفُونَ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُمْ يُسْرِفُونَ فِي ذَلِكَ فَيَأْكُلُونَ قَبْلَ تَحَقُّقِ الْجُوعِ وَيَشْرَبُونَ عَلَى غَيْرِ ظَمَأٍ ، وَيَتَجَاوَزُونَ قَدْرَ الْحَاجَةِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ كَمَا يَتَجَاوَزُونَهُ فِي غَيْرِهِمَا وَيَسْتَعِينُونَ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّوَابِلِ وَالْمُحَرِّضَاتِ لِلشَّهْوَةِ فَيُصَابُونَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ بِتَمَدُّدِ الْمَعِدَةِ ، وَسُوءِ الْهَضْمِ وَفَسَادِ الْأَمْعَاءِ مِنَ التُّخْمَةِ ، وَكَثْرَةِ الْفَضَلَاتِ فِي الْجِسْمِ الَّتِي تُحْدِثُ تَصَلُّبَ الشَّرَايِينِ الْمُعَجِّلَ بِالْهَرَمِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ فِي شَهْوَةِ دَاعِيَةِ النَّسْلِ

(194/268)

الَّتِي بَيَّنَّا ضَرَرَ الِانْهِمَاكِ وَالْإِسْرَافِ فِيهَا قَرِيبًا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى مَسْأَلَةِ سَتْرِ السَّوْءَتَيْنِ حَتَّى فِيمَا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ؛ لِأَجْلِ هَذَا قَيَّدَ الْأَمْرَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِسْرَافِ كَمَا قَيَّدَهُ فِي زِينَةِ اللِّبَاسِ .

هَذَا وَإِنَّ الِاقْتِصَادَ فِي الْمَعِيشَةِ قَدْ وُضِعَتْ لَهُ قَوَاعِدُ وَأُصُولٌ ، فُرِّعَتْ مِنْهَا مَسَائِلُ وَفُرُوعٌ فَيَحْسُنُ الِاسْتِنَارَةُ بِهَا وَبِعِلْمِ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ عَلَى اجْتِنَابِ مَا حَظَرَهُ الشَّرْعُ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ وَالْبُخْلِ وَالتَّقْتِيرِ : وَاتِّبَاعِ مَا حَثَّ عَلَيْهِ وَرَغَّبَ فِيهِ مِنَ الْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ فِي النَّفَقَاتِ وَالصَّدَقَاتِ وَقَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ فِي ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى أَوَّلَ

سُورَةِ النِّسَاءِ : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) (4 : 5) .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) : حَرَّمَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا زِينَةَ اللِّبَاسِ فِي الطَّوَافِ تَعَبُّدًا وَقُرْبَةً ، وَحَرَّمَ بَعْضُهُمْ أَكْلَ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَدْهَانِ وَغَيْرِهَا فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ كَذَلِكَ ، وَحَرَّمُوا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ مَا بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ . وَحَرَّمَ غَيْرُهُمْ

(195/268)

مِنَ الْوَثَنِيِّينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَثِيرًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالزِّينَةِ كَذَلِكَ . فَجَاءَ دِينُ الْفِطْرَةِ الْجَامِعُ بَيْنَ مَصَالِحِ الْبَشَرِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ . الْمُطَهِّرُ الْمُرَبِّي لِأَرْوَاحِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ - يُنْكِرُ هَذَا التَّحَكُّمَ وَالظُّلْمَ لِلنَّفْسِ . فَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ) إِنْكَارِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ . لَا مِمَّا أَوْحَاهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ سَبَقَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، أَيْ لَمْ يُحَرِّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَجْعَلْ سُبْحَانَهُ حَقَّ التَّبْلِيغِ عَنْهُ لِغَيْرِهِمْ ، وَإِضَافَةُ الزِّينَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يُؤْذِنُ بِاسْتِحْسَانِهَا وَالْمِنَّةِ بِهَا . وَإِخْرَاجُهَا لِلنَّاسِ عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ مَوَادِّهَا لَهُمْ وَتَعْلِيمِهِمْ طَرَائِقَ صُنْعِهَا ، بِمَا أَوْدَعَ فِي فِطْرِهِمْ مِنْ حُبِّهَا . وَفِي عُقُولِهِمْ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِلْإِبْدَاعِ فِيهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَأَكْثَرُ لِلْمُنْعِمِ شُكْرًا ، وَأَوْسَعُهُمْ بِسُنَنِهِ وَآيَاتِهِ عِلْمًا

(وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) هِيَ الْمُسْتَلَذَّاتُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ . وَاشْتِرَاطُ كَوْنِهَا حَلَالًا يُؤْخَذُ هُنَا مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْإِسْرَافِ فِيهَا ، وَصَرَّحَ بِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ (2 : 168) وَالْمَائِدَةِ (5 : 90 - 91) .

(196/268)

خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرَ مُسْتَعِدِّينَ لِإِظْهَارِ آيَاتِهِ وَسُنَنِهِ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَهُ لَهُمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَوْدَعَ فِي غَرَائِزِهِمْ مَيْلًا إِلَى الْعِلْمِ وَالْبَحْثِ وَكَشْفِ الْمَجْهُولَاتِ ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَى الْخَفِيَّاتِ ، لَا حَدَّ لَهُ يَقِفُ عِنْدَهُ . وَحُبًّا لِلشَّهَوَاتِ الْحِسِّيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، وَالزِّينَةِ الصُّورِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ، لَا حَدَّ لَهُ أَيْضًا . فَانْدَفَعُوا بِهَذِهِ الْغَرَائِزِ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُشَارِكُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الْجَسَدِيَّةِ كَأَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَلَا فِي حَيَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَانِّ ، فَلَمْ يَدَعُوا شَيْئًا عَرَفُوهُ بِحَوَاسِّهِمْ إِلَّا عَنَوْا بِالْبَحْثِ فِيهِ ، وَلَا شَيْئًا عَرَفُوهُ بِعُقُولِهِمْ إِلَّا بَحَثُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ بَحْثُهُمْ مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَلَا لِغَرَضٍ وَاحِدٍ ، بَلْ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى لَمْ تَنْتَهِ وَلَنْ تَنْتَهِيَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُقْضَى عَلَيْهَا بِالنِّهَايَةِ وَكَأَنَّمَا هُمْ مَخْلُوقُونَ لِحَيَاةٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَا حَدَّ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ غَرَائِزُهُمْ وَاسْتِعْدَادُهُمُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَدٌّ .

(197/268)

وَلَقَدْ كَانَتْ غَرِيزَةُ حُبِّ الزِّينَةِ وَغَرِيزَةُ حُبِّ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ سَبَبًا لِتَوَسُّعِ الْبَشَرِ فِي أَعْمَالِ الْفِلَاحَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَمَا يُرَقِّيهَا مِنْ فُنُونِ الصِّنَاعَةِ وَسَائِرِ وَسَائِلِ الْعُمْرَانِ وَإِظْهَارِ عَجَائِبِ عِلْمِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ فِي الْعَالَمِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ بِالْخَلْقِ . وَلَوْ وَقَفَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ حَدِّ مَا تَنْبُتُ لَهُ الْأَرْضُ مِنَ الْغِذَاءِ لِحِفْظِ حَيَاةِ أَفْرَادِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَبَقَاءِ حَيَاتِهِ النَّوْعِيَّةِ كَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، لَمَا وُجِدَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْأَعْمَالِ . وَهَلْ كَانَ مَا ذُكِرَ فِي بَيَانِ خَلْقِهِ الْأَوَّلِ مِنْ أَكْلِ آدَمَ وَحَوَّاءَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَا عَنْهَا إِلَّا بِدَافِعِ غَرِيزَةِ كَشْفِ الْمَجْهُولِ ، وَالْحِرْصِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْمَمْنُوعِ ؟ وَهَلْ كَانَ مَا ذُكِرَ مِنْ حِرْمَانِهِمَا مِنَ الرَّاحَةِ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ الَّتِي يَعِيشَانِ فِيهَا رَغَدًا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، إِلَّا لِبَيَانِ سُنَّةِ اللهِ فِي جَعْلِ هَذَا النَّوْعِ عَالِمًا صِنَاعِيًّا تَدْفَعُهُ الْحَاجَةُ إِلَى الْعَمَلِ وَيَدْفَعُهُ الْعَمَلُ إِلَى الْعِلْمِ ، وَيَدْفَعُهُ حُبُّ الرَّاحَةِ إِلَى التَّعَبِ ، وَيُثْمِرُ لَهُ التَّعَبُ الرَّاحَةَ ؟

(198/268)

وَقَدْ عُرِفَ مِنِ اخْتِبَارِ قَبَائِلِ هَذَا النَّوْعِ وَشُعُوبِهِ فِي حَالَيْ بَدَاوَتِهِ وَحَضَارَتِهِ ، أَنَّهُ يَتْعَبُ وَيَبْذُلُ فِي سَبِيلِ الزِّينَةِ فَوْقَ مَا يَتْعَبُ وَيَبْذُلُ فِي سَبِيلِ ضَرُورِيَّاتِ الْمَعِيشَةِ ، وَكَثِيرًا مَا

يُفَضِّلُهَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّعَارُضِ ، فَالْمَرْءُ قَدْ يُضَيِّقُ عَلَى نَفْسِهِ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ لِيُوَفِّرَ لِنَفْسِهِ ثَمَنًا لِثَوْبٍ فَاخِرٍ يَتَزَيَّنُ بِهِ فِي الْأَعْيَادِ وَالْمَجَامِعِ ، وَمَاذَا تَقُولُ فِي الْمَرْأَةِ وَهِيَ أَشَدُّ حُبًّا لِلزِّينَةِ مِنَ الرَّجُلِ ، وَقَدْ تُؤْثِرُهَا عَلَى جَمِيعِ اللَّذَّاتِ الْأُخْرَى ؟ وَإِنَّ تَوَسُّعَ الْأَغْنِيَاءِ فِي أَنْوَاعِ الزِّينَةِ الَّتِي يُنَفِّسُونَ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ ، هُوَ الَّذِي وَسَّعَ الطُّرُقَ لِاسْتِفَادَةِ هَؤُلَاءِ مِنْ فَضْلِ أَمْوَالِ أُولَئِكَ ، فَإِنَّ الْغَوَّاصِينَ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ اللُّؤْلُؤَ مِنْ أَعْمَالِ الْبِحَارِ ، وَعُمَّالَ الصِّيَاغَةِ وَالْحِيَاكَةِ وَالتَّطْرِيزِ وَالْبِنَاءِ وَالنَّقْشِ وَالتَّصْوِيرِ وَسَائِرِ الزِّينَاتِ ، كُلُّهُمْ أَوْ جُلُّهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ يَتَزَيَّنُ الْأَغْنِيَاءُ بِمَا يَعْمَلُونَ لَهُمْ وَهُمْ مِنْهُ مَحْرُومُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَى مَا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ مِنْ مَعِيشَةٍ وَزِينَةٍ تَلِيقُ بِهِمْ إِلَّا بِسَبَبِ تَنَافُسِ الْأَغْنِيَاءِ فِيهِ .

(199/268)

فَحُبُّ الزِّينَةِ أَعْظَمُ أَسْبَابِ الْعُمْرَانِ ، وَإِظْهَارُ اسْتِعْدَادِ الْإِنْسَانِ لِمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ وَآيَاتِهِ فِي الْأَكْوَانِ ، فَهِيَ غَيْرُ مَذْمُومَةٍ فِي نَفْسِهَا ، إِنَّمَا يُذَمُّ الْإِسْرَافُ فِيهَا وَالْغَفْلَةُ عَنْ شُكْرِ الْمُنْعِمِ بِهَا . وَمِنَ الْإِسْرَافِ فِيهَا جَعْلُهَا شَاغِلَةً عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَعَنْ سَائِرِ مَعَالِي الْأُمُورِ وَالْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، مِنْ عِلْمِيَّةٍ أَوْ عَمَلِيَّةٍ أَوِ اجْتِمَاعِيَّةٍ ، دُنْيَوِيَّةً كَانَتْ أَوْ أُخْرَوِيَّةً ، وَمِنْهُ إِضَاعَةُ الْوَقْتِ الطَّوِيلِ فِي التَّطَرُّزِ وَالتَّطَرُّسِ وَالتَّوَرُّنِ كَمَا يَفْعَلُ النِّسَاءُ وَبَعْضُ الشُّبَّانِ ،

وَكَذَلِكَ الطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ الْمَذْمُومَةُ لَيْسَتْ لَوَازِمَ لِلزِّينَةِ ، وَالطَّيِّبَاتُ تَحْصُلُ بِحُصُولِهَا وَتَزُولُ بِزَوَالِهَا ، وَلَيْسَ الْحِرْمَانُ مِنَ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ عِلَّةً سَبَبِيَّةً وَلَا غَائِيَّةً لِلْقِيَامِ بِمَعَالِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَلَا لِشُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالرِّضَا عَنْهُ ، وَلَا هُوَ أَعْوَنُ عَلَى ذَلِكَ . وَإِنَّمَا الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ يَقَعُ بِكُلٍّ مِنْ حُصُولِهِمَا وَالْحِرْمَانِ مِنْهُمَا ، وَإِنَّ الْمَالِكَ لَهُمَا أَقْدَرُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَشُكْرِهِ وَتَزْكِيَةِ

(200/268)

نَفْسِهِ وَنَفْعِ غَيْرِهِ مِنَ الْفَاقِدِ لَهُمَا . فَلَا وَجْهَ إِذًا لِتَحْرِيمِ الدِّينِ لَهُمَا ، وَلَا لِجَعْلِهِ إِيَّاهُمَا عَائِقَيْنِ عَنِ الْكَمَالِ بِحَيْثُ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِتَرْكِهِمَا ، كَمَا جَرَى عَلَيْهِ وَثَنِيُّوا الْبَرَاهِمَةِ وَغَيْرِهِمْ وَسَرَتْ عَدْوَاهُ التَّقْلِيدِيَّةُ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ غُلُوًّا فِي الدِّينِ ، وَسَرَتْ عَدْوَى هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ إِلَى كَثِيرٍ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَصَارُوا يَبُثُّونَ فِي الْأُمَّةِ أَنَّ أَصْلَ الدِّينِ وَرُوحَهُ وَسِرَّهُ فِي تَعْذِيبِ النَّفْسِ وَحِرْمَانِهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالزِّينَةِ . وَقَدْ كَذَّبَ اللهُ الْجَمِيعَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(201/268)

(قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِأُمَّتِكَ : هِيَ - أَيِ الزِّينَةُ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ - ثَابِتَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْأَصَالَةِ وَالِاسْتِحْقَاقِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ يُشَارِكُهُمْ غَيْرُهُمْ فِيهَا بِالتَّبَعِ لَهُمْ . وَإِنْ لَمْ يَسْتَحِقَّهَا مِثْلُهُمْ . وَهِيَ خَالِصَةٌ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ حَالَ كَوْنِهَا خَالِصَةً لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . (فَقَدْ قَرَأَ نَافِعٌ " خَالِصَةٌ " بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ وَالْبَاقُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِيَّةِ) - وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَيْرُ خَالِصَةٍ مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ وَلَكِنَّهَا تَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَالِصَةً مِنْهَا . وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ وَلَكِنَّ الْمُتَبَادَرَ هُوَ الْأَوَّلُ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ النَّاطِقَةُ بِأَنَّ دِينَ اللَّهِ الْحَقَّ يُورِثُ أَهْلَهُ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (2 : 123 ، 124) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) (72 : 16) وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الْمَعْنَى مِرَارًا .

(202/268)

وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا كَانُوا أَحَقَّ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهَذِهِ النِّعَمِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَجْدَرُ بِمَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فِي تَرَقِّيهَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ بِمَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، وَمَا أَوْدَعَهُ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَنَافِعِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فِيمَا أَحْكَمَ مِنْ صُنْعِهَا ، وَعَلَى رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ بِتَسْخِيرِهَا لَهُمْ ؛ وَلِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِشُكْرِهِ عَلَيْهَا بِلِسَانِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، فَالْمُؤْمِنُ يَزْدَادُ عِلْمًا وَإِيمَانًا بِرَبِّهِ وَإِلَهِهِ كُلَّمَا عَرَفَ شَيْئًا مِنْ سُنَنِهِ وَآيَاتِهِ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ، وَيَزْدَادُ شُكْرًا لَهُ كُلَّمَا زَادَتْ نِعَمُهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَثَمَرَاتِ الْعِلْمِ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ ذَكَّرَنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي أَوَّلِ هَذَا السِّيَاقِ بِمِنَّتِهِ عَلَيْنَا بِتَمْكِينِنَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا جَعَلَ لَنَا فِيهَا مِنَ الْمَعَايِشِ ، وَبِمَا يَجِبُ مِنْ شُكْرِهِ عَلَيْهَا . وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ مِنْ أُصُولِ الشُّكْرِ قَبُولَ النِّعْمَةِ وَاسْتِعْمَالَهَا فِيمَا وَهَبَهَا الْمُنْعِمُ لِأَجْلِهِ وَهُوَ شُكْرُ الْجَوَارِحِ وَلَا يَكْمُلُ شُكْرُ الِاعْتِقَادِ بِأَنَّهَا مِنْ فَضْلِهِ وَشُكْرُ اللِّسَانِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ إِلَّا بِشُكْرِ الْأَعْضَاءِ الْعَمَلِيِّ وَهُوَ الِاسْتِعْمَالُ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَالْحَاكِمِ " الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ

(203/268)

بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ " وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

وَالَّذِي يَظْهَرُ لَنَا مِنْ جَعْلِ التَّنْظِيرِ فِيهِ بَيْنَ الطَّاعِمِ الشَّاكِرِ وَالصَّائِمِ الصَّابِرِ دُونَ الْجَائِعِ الصَّابِرِ ، أَنَّ الْجُوعَ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ ، وَلَكِنَّ الصِّيَامَ عَمَلٌ نَفْسِيٌّ يُشْتَرَطُ فِيهِ النِّيَّةُ ، فَهُوَ طَاعَةٌ كَالْأَكْلِ بِالنِّيَّةِ مَعَ الشُّكْرِ .

(204/268)

وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بِدُونِ إِسْرَافٍ هُمَا قِوَامُ الْحَيَاةِ وَالصِّحَّةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْقِيَامُ بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ عَقْلِيَّةٍ وَبَدَنِيَّةٍ ، وَلَهُمَا التَّأْثِيرُ الْعَظِيمُ فِي جَوْدَةِ النَّسْلِ الَّذِي تَكْثُرُ بِهِ الْأُمَّةُ ، وَالْأَطِبَّاءُ يُحْظِرُونَ الزَّوَاجَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَرْضَى وَيُعَدُّونَ زَوَاجَهُمْ خَطَرًا عَلَى صِحَّتِهِمْ ، وَجِنَايَةً عَلَى نَسْلِهِمْ وَعَلَى أُمَّتِهِمْ بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِسُوءِ حَالِ نَسْلِهَا وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَلَّا يَعْمَلَ عَمَلًا إِلَّا بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ ، يَقْصِدُ بِحُسْنِ تَغْذِيَةِ بَدَنِهِ بِالطَّيِّبَاتِ كُلَّ مَا يَعْقِلُهُ مِنْ فَوَائِدِهَا ، وَيَتَجَنَّبُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْإِسْرَافِ فِيهَا وَمِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ ، فَيَكُونُ عَابِدًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فَتَكْثُرُ حَسَنَاتُهُ فِيهِ ، فَلَا غَرْوَ إِذْ عُدَّ فِي أَكْلِهِ كَالصَّائِمِ فِيمَا يَنَالُهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : " وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ " أَيْ فِي الْمُلَامَسَةِ الزَّوْجِيَّةِ أَجْرٌ وَثَوَابٌ كَثَوَابِ الصَّدَقَةِ – قَالُوا : يَا

رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : " أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ " - رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ - وَالْكَافِرُ لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ هَمٌّ فِي الْغَالِبِ إِلَّا التَّمَتُّعَ بِالشَّهْوَةِ غَيْرُ مُتَحَرٍّ

(205/268)

لِلْحَلَالِ وَلَا لِحُسْنِ النِّيَّةِ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ " الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ " .

وَاللِّبَاسُ الْجَيِّدُ النَّظِيفُ لَهُ فَوَائِدُ فِي حِفْظِ الصِّحَّةِ مَعْرُوفَةٌ ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ فِي حِفْظِ كَرَامَةِ الْمُتَجَمِّلِ بِهِ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مِنْ وَرَاءِ الْأَعْيُنِ ، وَفِيهِ إِظْهَارٌ لِنِعْمَةِ اللهِ بِهِ وَبِالسَّعَةِ فِي الرِّزْقِ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ فِي الْقُلُوبِ غَيْرُ شَأْنِ التَّجَمُّلِ فِي نَفْسِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ يُثَابُ بِنِيَّتِهِ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَحْمُودٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَبِالشُّكْرِ عَلَيْهَا . رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبٍ دُونٍ فَقَالَ : " أَلَكَ مَالٌ ؟ " قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : " مِنْ أَيِّ الْمَالِ " قَالَ : قَدْ آتَانِي اللهُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ . قَالَ : " فَإِذَا آتَاكَ اللهُ فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتُهُ " وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

: " إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ " وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ أُتِيتُ عَلِيًّا فَقَالَ :

(206/268)

ائْتِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، فَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ ، فَأَتَيْتُهُمْ ، فَقَالُوا : مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، مَا هَذِهِ الْحُلَّةِ ؟ قُلْتُ مَا تَعِيبُونَ عَلَيَّ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ قَالَ : وَجَّهَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى ابْنِ الْكَوَّاءِ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَيَّ قَمِيصٌ رَقِيقٌ وَحُلَّةٌ ، فَقَالُوا لِي : أَنْتَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَلْبَسُ مِثْلَ هَذِهِ الثِّيَابِ ؟ قُلْتُ : أَوَّلُ مَا أُخَاصِمُكُمْ

بِهِ قَالَ اللهُ : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ) وَ (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ فِي الْعِيدَيْنِ بُرْدَيْ حِبَرَةٍ .

(207/268)

وَحَكَى الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنَ الْإِحْيَاءِ أَنَّ يَحْيَى بْنَ يَزِيدَ النَّوْفَلِيَّ كَتَبَ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ : مِنْ يَحْيَى بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَلْبَسُ الدُّقَاقَ ، وَتَأْكُلُ الرُّقَاقَ وَتَجْلِسُ عَلَى الْوَطِئِ ، وَتَجْعَلُ عَلَى بَابِكَ حَاجِبًا ، وَقَدْ جَلَسْتَ مَجْلِسَ الْعِلْمِ وَقَدْ ضُرِبَتْ إِلَيْكَ الْمَطِيُّ ، وَارْتَحَلَ إِلَيْكَ النَّاسُ وَاتَّخَذُوكَ إِمَامًا وَرَضُوا بِقَوْلِكَ ، فَاتَّقِ اللهَ تَعَالَى يَا مَالِكُ ، وَعَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ ، كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِالنَّصِيحَةِ مِنِّي كِتَابًا مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالسَّلَامُ .

(208/268)

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَزِيدَ ، سَلَامُ اللهِ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ فَوَقَعَ مِنِّي مَوْقِعَ النَّصِيحَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْأَدَبِ ، أَمْتَعَكَ اللهُ بِالتَّقْوَى وَجَزَاكَ بِالنَّصِيحَةِ خَيْرًا . وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى التَّوْفِيقَ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ لِي أَنِّي آكُلُ الرُّقَاقَ وَأَلْبَسُ الدُّقَاقَ ، وَأَحْتَجِبُ وَأَجْلِسُ عَلَى الْوَطِئِ ، فَنَحْنُ نَفْعَلُ ذَلِكَ وَنَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى . فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ وَلَا تَدَعُنَا مِنْ كِتَابِكَ فَلَسْنَا نَدَعُكَ مِنْ كِتَابِنَا وَالسَّلَامُ اهـ .

إذَا صَحَّتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ فَمُرَادُ الْإِمَامِ مَالِكٍ : أَنَّ تَرْكَ مَجْمُوعِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِمَنْ صَارَ يَقْتَدِي بِهِ مِثْلُهُ ، أَوْ قَالَهُ تَوَاضُعًا ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْهُ . وَلَمْ يَكُنِ النَّوْفَلِيُّ مِنْ طَبَقَةِ مَالِكٍ فِي عِلْمٍ وَلَا عَمَلٍ ، بَلْ ضَعَّفَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ فِي الْحَدِيثِ . وَقَدْ كَانَ

(209/268)

قَشَفُ بَعْضِ السَّلَفِ عَنْ قِلَّةٍ ، وَتَقَشَّفَ بَعْضُهُمْ لِأَجْلِ الْقُدْوَةِ . وَإِنَّمَا الزُّهْدُ فِي الْقَلْبِ ، فَلَا يُنَافِيهِ الِاعْتِدَالُ فِي الزِّينَةِ وَطَيِّبَاتِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمَالِ إذَا أُنْفِقَ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَتَرْبِيَةِ الْعِيَالِ . وَقَدْ جَهِلَ ذَلِكَ أَكْثَرُ الصُّوفِيَّةِ وَبَيَّنَهُ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّحْقِيقِ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ كَالسَّيِّدِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلِيِّ . فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ مُرِيدِيهِ شَكَوْا إلَيْهِ إقْبَالَ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ : أَخْرِجُوهَا مِنْ قُلُوبِكُمْ إلَى أَيْدِيكُمْ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّكُمْ .

فَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ الزِّينَةَ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ هِيَ حَقُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهَا لَهُمْ بِالذَّاتِ وَالِاسْتِحْقَاقِ . وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ أَعْلَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ الْمُوَصِّلَةِ إلَيْهَا . وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ

عَلَيْهَا ، ذَلِكَ الشُّكْرُ الَّذِي يَحْفَظُهَا لَهُمْ وَيَكُونُ سَبَبًا لِلْمَزِيدِ فِيهَا بِحَسَبِ وَعْدِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ وَمِنْهُ تُفْهَمُ حِكْمَةُ تَذْيِيلِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أَيْ مِنْ شَأْنِهِمُ الْعِلْمُ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَحِكَمِهَا وَلَوْ بَعْدَ خِطَابِهِمْ بِهَا ، وَقَدْ سَبَقَ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَذَا التَّفْصِيلَ لِحُكْمِ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ أَفْرَادٌ وَأُمَمٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْبَشَرِ إِفْرَاطًا وَتَفْرِيطًا ، لَا يَعْقِلُهُ إِلَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ سُنَنَ الِاجْتِمَاعِ وَطَبَائِعَ الْبَشَرِ وَمَصَالِحَهُمْ وَطُرُقَ الْحَضَارَةِ الشَّرِيفَةِ فِيهِمْ ، وَقَدْ فَصَّلَهَا تَعَالَى لَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُوَافِقِ هَدْيُهَا لِفِطْرَةِ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ تَارِيخِ الْبَشَرِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ وَإِفْرَاطِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ فِيهِمَا ، قَبْلَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَعَادَتِهِمْ ، فَكَانَ هَذَا التَّفْصِيلُ مِنَ الْآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ خُلَاصَةُ عُلُومٍ كَثِيرَةٍ فَاصِلَةٍ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ ، مَا كَانَ لِمِثْلِهِ أَنْ يَعْلَمَهَا بِذَكَائِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ وَحْيُ اللهِ لَهُ . وَقَدْ قَصَّرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْمُحَقِّقِينَ قَدْ ذَكَرُوا مَا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ

وَإِنْ لَمْ يُحْتَجْ إِلَى تَأْيِيدِهِمْ لِوُضُوحِهِ فِي نَفْسِهِ . فَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الْكَافِرِينَ بِكُلِّ الْعُلُومِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْهُمْ أَعْلَمُ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ بِذَلِكَ .

نَعَمْ هَكَذَا كَانَ ، فَلَوْلَا الْقُرْآنُ لَمَا خَرَجَتِ الْعَرَبُ مِنْ ظُلُمَاتِ جَاهِلِيَّتِهَا وَبَدَاوَتِهَا وَوَثَنِيَّتِهَا إِلَى ذَلِكَ النُّورِ ، الَّذِي صَلُحَتْ بِهِ وَأَصْلَحَتْ أُمَمًا كَثِيرَةً بِالدِّينِ وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْآدَابِ بِمَا أَحْيَتْ مِنْ عُلُومِ الْأَوَائِلِ وَفُنُونِهَا ، وَأَصْلَحَتْ مِنْ فَاسِدِهَا ، فَصَدَقَ عَلَيْهِمْ تَعْرِيفُ الدِّينِ الْمَشْهُورِ بِأَنَّهُ : وَضْعٌ إِلَهِيٌّ سَائِقٌ لِذَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

(212/268)

بِاخْتِيَارِهِمْ إِلَى مَا فِيهِ نَجَاحُهُمْ فِي الْحَالِ ، وَفَلَاحُهُمْ فِي الْمَآلِ . أَوْ إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ .

وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَغْفُلَ الْكَثِيرُونَ عَنْ سَبَبِ هَذِهِ الْحَضَارَةِ أَوْ يَجْهَلُوا أَنَّهُ الْقُرْآنُ .

حَتَّى كَانَ الْجَهْلُ لِسَبَبِهَا سَبَبًا لِإِضَاعَتِهِ وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَمْسَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَجْهَلِ الشُّعُوبِ وَأَفْقَرِهِمْ وَأَضْعَفِهِمْ ، وَأَقَلِّهِمْ خِدْمَةً لِدِينِهِمْ – فَغَايَةُ دِينِهِمْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتُهَا وَسِيَادَتُهَا وَمُلْكُهَا ، وَأَنْ يَكُونُوا فِيهَا شَاكِرِينَ لِلَّهِ عَلَيْهَا ، قَائِمِينَ بِمَا يُرْضِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ

وَالْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَكُلِّ مَا تَقْتَضِيهِ خِلَافَتُهُ فِي الْأَرْضِ وَبِذَلِكَ يَكُونُونَ أَهْلًا لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ أَحَدُ حُكَمَاءِ دِينِهِمْ ، ثُمَّ انْتَهَى هَذَا الْجَهْلُ بِالْكَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ أَنْ صَارُوا يَظُنُّونَ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ سَبَبُ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَجَهْلِهِمْ وَذَهَابِ مُلْكِهِمْ ! وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ بُطْلَانَ هَذَا الْجَهْلِ الَّذِي قَلَبَ الْحَقِيقَةَ قَلْبًا وَحُجَّتُنَا كِتَابُ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَارِيخُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَكِنَّ الْقَارِئِينَ قَلِيلُونَ ، وَالَّذِينَ يَفْهَمُونَ مِنْهُمْ أَقَلُّ وَالَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ بِمَا يَفْهَمُونَ أَنْدَرُ ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .

(213/268)

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

بَعْدَ أَنْ أَنْكَرَ التَّنْزِيلُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ تَحْرِيمَ زِينَةِ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ – قَفَّى عَلَيْهِ بِبَيَانِ أُصُولِ الْمُحَرَّمَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا لِضَرَرٍ ثَابِتٍ لَازِمٍ لَهَا لَا لِعِلَّةٍ عَارِضَةٍ ، وَكُلُّهَا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْكَسْبِيَّةِ لَا مِنْ مَوَاهِبِهِ وَنِعَمِهِ الْخَلْقِيَّةِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى النَّاسِ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ بِهِمْ دُونَ مَا هُوَ نَافِعٌ

لَهُمْ فَقَالَ :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) هَذَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ لِبَيَانِ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِنْكَارِ أَنْ يَكُونَ حَرَّمَ الزِّينَةَ وَالطَّيِّبَاتِ ؛ لِأَنَّ الْحَالَ تَقْتَضِي أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ وَالْمَعْنَى : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ

(214/268)

الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَكَذَبُوا عَلَى اللَّهِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ مَا أَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ نِعَمِ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ وَكَذَا لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي فِي كُتُبِهِ ، عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ الْخَمْسَةَ أَوِ السِّتَّةَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الضَّارَّةِ الَّتِي يَجْنُونَ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَجَعَلَ تَحْرِيمَهَا هُوَ الدَّائِمَ الَّذِي لَا يُبَاحُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْحَصْرُ بِـ (إِنَّمَا) وَهِيَ :

1 ، 2 : الْفَوَاحِشُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ - فَالْفَوَاحِشُ جَمْعُ فَاحِشَةٍ ، وَهِيَ الْفَعْلَةُ أَوِ الْخَصْلَةُ الَّتِي فَحُشَ قُبْحُهَا فِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ وَالْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الَّتِي تُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ وَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَهَا عَلَى الزِّنَا وَاللِّوَاطِ وَالْبُخْلِ الشَّدِيدِ وَعَلَى الْقَذْفِ

بِالْفَحْشَاءِ وَالْبَذَاءِ الْمُتَنَاهِي فِي الْقُبْحِ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فِي تَفْسِيرِ (6 : 151) وَهِيَ مِنْ آيَاتِ الْوَصَايَا الْعَشْرِ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَفِيهِ إِحَالَةٌ فِي تَفْسِيرِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ عَلَى تَفْسِيرِ (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) (6 : 120) مِنْ تِلْكَ السُّورَةِ .

(215/268)

---

3 و4 : الْإِثْمُ وَالْبَغْيُ – تَقَدَّمَ أَنَّ الْإِثْمَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْقَبِيحُ الضَّارُّ فَهُوَ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَعَاصِي : الْكَبَائِرِ مِنْهَا كَالْفَوَاحِشِ وَالْخَمْرِ . وَالصَّغَائِرِ كَالنَّظَرِ وَاللَّمْسِ بِشَهْوَةٍ لِغَيْرِ الْحَلِيلَةِ

(216/268)

وَهُوَ اللَّمَمُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) (53 : 32) فَعَطَفَ الْفَوَاحِشَ عَلَى كَبَائِرِ الْإِثْمِ لَا عَلَى الْإِثْمِ ، فَعَطَفَ الْفَوَاحِشَ عَلَى كَبَائِرِ الْإِثْمِ لَا عَلَى الْإِثْمِ ، وَهُوَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَكَذَلِكَ عَطْفُ الْبَغْيِ عَلَى الْإِثْمِ هُنَا مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ . وَمَعْنَاهُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ : طَلَبٌ لِمَا لَيْسَ بِحَقٍّ أَوْ بِسَهْلٍ أَوْ مَا

تَجَاوَزَ الْحَدَّ ، وَقَالُوا : بَغَى الْجُرْحُ - إذَا تَرَامَى إلَى الْفَسَادِ ، أَوْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي فَسَادِهِ . وَمِنْهُ الْبَغْيُ فِي الْأَرْضِ الْوَارِدُ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ كَقَوْلِهِ : (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (10 : 23) وَقَدْ صَرَّحَ فِي بَعْضِهَا بِالْفَسَادِ : (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) (28 : 77) وَإِذَا عُدِّيَ الْبَغْيُ بِـ " عَلَى " كَانَ بِمَعْنَى التَّجَاوُزِ وَالتَّعَدِّي عَلَى النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَعْرَاضِهِمْ وَمِنْهُ : (إنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ) (28 : 76) (خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) (38 : 22) (فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي) (49 : 9) بَلْ ذَهَبَ الرَّاغِبُ إلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الْبَغْيِ طَلَبُ تَجَاوُزِ الِاقْتِصَادِ فِي الْقَدْرِ أَوِ الْوَصْفِ سَوَاءٌ تَجَاوَزَهُ بِالْفِعْلِ أَوْ لَمْ يَتَجَاوَزْهُ . وَذُكِرَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا ، وَهُوَ تَجَاوُزُ الْعَدْلِ إلَى الْإِحْسَانِ وَالْفَرْضِ إلَى التَّطَوُّعِ . وَاسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ لَهُ فِي الْمَعْنَيَيْنِ

(217/268)

اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا آنِفًا وَفِي غَيْرِهِمَا يُؤَيِّدُ تَعْرِيفَنَا وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ . كَقَوْلِهِ فِي الْبَحْرَيْنِ : (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) (55 : 20) وَقَوْلِهِ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ : (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) (18 : 108) وَقَوْلِهِ : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) (3 : 83) (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ

يَبْغُونَ) (5 : 50) (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا) (6 : 164) (يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) (9 : 47) (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) (7 : 45) . وَمِنْهُ الْبِغَاءُ : وَهُوَ طَلَبُ النِّسَاءِ الْفَاحِشَةَ . وَقَدْ يَتَعَدَّى إلَى مَفْعُولَيْنِ وَمِنْهُ : (أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إلَهًا) (7 : 140) (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا) وَقَالَ فِي الْأَسَاسِ : وَابْغِنِي ضَالَّتِي - اطْلُبْهَا لِي ، وَأَبْغِي ضَالَّتِي - أَعِنِّي عَلَى طَلَبِهَا . قَالَ رُؤْبَةُ : " فَاذْكُرْ بِخَيْرٍ وَأَبْغِنِي مَا يُبْتَغَى

" أَيِ اصْنَعْ بِي مَا يَجِبُ أَنْ يُصْنَعَ ، وَخَرَجُوا بُغْيَانًا لِضَوَالِّهِمْ اهـ . وَكُلُّهُ يَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِنَا . فَإِنَّ طَلَبَ الضَّالَّةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ حِيَازَةِ الْمَالِكِ طَلَبٌ لِمَا يَعْسُرُ ، بَلْ نَاشِدُهَا يَطْلُبُ مَا لَيْسَ لَهُ بِالْفِعْلِ ، وَرُؤْبَةُ يَطْلُبُ إحْسَانًا وَكَرَامَةً لَيْسَتْ حَقًّا لَهُ .

(218/268)

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْبَغْيَ الْمُحَرَّمَ هُوَ الْإِثْمُ الَّذِي فِيهِ تَجَاوُزٌ لِحُدُودِ الْحَقِّ ، أَوِ اعْتِدَاءٌ عَلَى حُقُوقِ أَفْرَادِ النَّاسِ أَوْ جَمَاعَاتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ؛ وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَ الْإِثْمُ بِالْعُدْوَانِ كَقَوْلِهِ : (تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (2 : 85) (وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (5 : 2) (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (5 : 62) وَمِنْهُ : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ) (2 : 173) أَيْ فَمَنِ اضْطُرَّ إلَى شَيْءٍ مِنْ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ غَيْرَ طَالِبٍ لَهَا

لِذَاتِهَا فَإِنَّهُ غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ لِلْحَقِّ وَلَا عَادٍ حَدَّ الضَّرُورَةِ فِيمَا يَتَنَاوَلُهُ مِنْهَا (فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) .

وَقَدْ قَيَّدَ الْبَغْيَ بِكَوْنِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ لِاسْتِعْمَالِهِ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ الَّذِي يَشْمَلُ تَجَاوُزَ الْحُدُودِ الْمَعْرُوفَةِ أَوِ الْمَأْلُوفَةِ فِيمَا لَا ظُلْمَ فِيهِ وَلَا فَسَادَ ، وَلَا هَضْمَ لِحُقُوقِ الْجَمَاعَاتِ وَلَا الْأَفْرَادِ ، كَالْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا حُقُوقٌ ، أَوِ الَّتِي تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ فِيهَا عَنْ بَعْضِ حُقُوقِهِمْ فَيَبْذُلُونَهَا عَنْ رِضًى وَارْتِيَاحٍ لِمَنْفَعَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ لَهُمْ يَرْجُونَهَا بِبَذْلِهَا . وَقِيلَ : إِنَّ الْقَيْدَ لِلتَّأْكِيدِ .

(219/268)

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : إِنَّ الْإِثْمَ مَا كَانَ مُحَرَّمَ الْجِنْسِ ، وَالْعُدْوَانُ مَا كَانَ مُحَرَّمَ الْقَدْرِ وَالزِّيَادَةِ ، فَهُوَ تَعَدِّي مَا أُبِيحَ إِلَى الْقَدْرِ الْمُحَرَّمِ ، كَالِاعْتِدَاءِ فِي أَخْذِ الْحَقِّ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ بِأَخْذِ زِيَادَةٍ عَمَّا لَهُ ، وَبِإِتْلَافِ أَضْعَافِ مَا أُتْلِفَ عَلَيْهِ ، أَوْ قَوْلِ أَضْعَافِ مَا قِيلَ فِيهِ . فَهَذَا كُلُّهُ تَعَدٍّ لِلْعَدْلِ .

قَالَ : وَكَذَلِكَ مَا أُبِيحَ لَهُ قَدْرٌ مُعَيَّنٌ مِنْهُ فَتَعَدَّاهُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْهُ ، كَمَنْ أُبِيحَ لَهُ إِسَاغَةُ الْغُصَّةِ بِجُرْعَةٍ مِنْ خَمْرٍ فَتَنَاوَلَ الْكَأْسَ كُلَّهَا ، أَوْ أُبِيحَ لَهُ نَظْرَةُ الْخِطْبَةِ وَالسَّوْمِ وَالْمُعَامَلَةِ وَالْمُدَاوَاةِ ، فَأَطْلَقَ عِنَانَ طَرْفِهِ فِي مَيَادِينِ مَحَاسِنِ الْمَنْظُورِ ، وَأَسَامَ طَرْفَ نَاظِرِهِ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ وَالزُّهُورِ ، فَتَعَدَّى

الْمُبَاحَ إِلَى الْقَدْرِ الْمَحْظُورِ ، إِلَخْ مَا أَطَالَ بِهِ فِي وَصْفِ نَظَرِ الشَّهْوَةِ وَمَفَاسِدِهِ .

(220/268)

ثُمَّ قَالَ : إنَّ الْغَالِبَ فِي اسْتِعْمَالِ الْبَغْيِ أَنْ يَكُونَ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ إذَا قُرِنَ بِالْعُدْوَانِ كَانَ الْبَغْيُ ظُلْمَهُمْ بِمُحَرَّمِ الْجِنْسِ كَالسَّرِقَةِ وَالْكَذِبِ وَالْبُهْتِ وَالِابْتِدَاءِ بِالْأَذَى وَالْعُدْوَانُ تَعَدِّي الْحَقِّ فِي اسْتِيفَائِهِ إلَى أَكْبَرَ مِنْهُ ، فَيَكُونُ الْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ فِي حَقِّهِمْ كَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فِي حُدُودِ اللَّهِ (قَالَ) فَهَهُنَا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : حَقٌّ لِلَّهِ وَلَهُ حَدٌّ ، وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ وَلَهُ حَدٌّ ، فَالْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ وَالظُّلْمُ تَجَاوُزُ الْحَدَّيْنِ إلَى مَا وَرَاءَهُمَا ، أَوِ التَّقْصِيرُ عَنْهُمَا فَلَا يَصِلُ إلَيْهِمَا اهـ .

(221/268)

---

(5) : الشِّرْكُ بِاللَّهِ – وَهُوَ مَعْرُوفٌ – وَقَدْ بَيَّنَّا أَنْوَاعَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ أَبْطَلُ الْبَاطِلِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا سُلْطَانٌ مِنَ الْوَحْيِ ، وَالسُّلْطَانُ : الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ ؛ لِأَنَّ لَهَا سُلْطَةً عَلَى الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ مِنْ شِرْكِهِمْ ، وَتَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي مَضْمُونِ

قَوْلِهِمْ : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) (6 : 148) الْآيَةَ وَنَصٌّ عَلَى أَنَّ أُصُولَ الْإِيمَانِ ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ مُؤَيَّدٍ بِالْبُرْهَانِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) (23 : 117) الْآيَةَ ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الدَّاعِي إِلَّا كَذَلِكَ . وَلَكِنَّهُ تَعَالَى عَظَّمَ شَأْنَ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ فِي دِينِهِ وَنَاطَ بِهِ تَصْدِيقَ دَعْوَى الْمُدَّعِي وَرَدَّهَا ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ مَوْضُوعِهَا ، حَتَّى كَأَنَّ مَنْ جَاءَ بِالْبُرْهَانِ عَلَى الشِّرْكِ يُصَدَّقُ بِهِ ، وَهُوَ مِنْ فَرْضِ الْمُحَالِ ، لِلْمُبَالَغَةِ فِي فَضْلِ الِاسْتِدْلَالِ ، وَقَدْ قَالَ فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ عَلَى تَوْحِيدِهِ : (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (27 : 64) عَلَى أَنَّهُ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِمْ بُرْهَانٌ فِيمَا أَقَامَ عَلَى كَذِبِهِمْ فِيهِ الْبُرْهَانَ ، وَكَيْفَ يَكُونُ لَدَيْهِمْ مَا هُوَ فِي نَفْسِهِ مُحَالٌ ، كَقَوْلِهِ : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ

(222/268)

الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (10 : 68) "إِنْ" هُنَا نَافِيَةٌ ، أَيْ مَا عِنْدَكُمْ أَدْنَى دَلِيلٍ بِهَذَا الْقَوْلِ الْفَظِيعِ الَّذِي تَقُولُونَهُ مَعَ أَنَّ مَا تُبْطِلُ الْبَرَاهِينُ وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَةُ مِثْلَهُ يَحْتَاجُ مُدَّعِيهِ إِلَى أَقْوَى الْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ وَأَعْظَمِهَا سُلْطَانًا عَلَى الْعُقُولِ ، وَلَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ قَوْلٌ لَا تَقُومُ عَلَيْهِ

حُجَّةٌ مِنَ الْعَقْلِ ، بَلْ لَا يَتَصَوَّرُ الْعَقْلُ وُجُودَهُ ، وَلَكِنَّهُ يَدَّعِي أَنَّهُ وَرَدَ بِهِ النَّقْلُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ ادَّعَاهُ لِنَفْسِهِ قَالَ : (أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وَهَذِهِ الْآيَةُ تُنَاسِبُ الْآيَةَ الَّتِي نُفَسِّرُهَا .

(223/268)

---

6 : الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ - وَهُوَ أَعْظَمُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنْ أُصُولِ الْمُحَرَّمَاتِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ تَعَالَى فِي دِينِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ ، فَإِنَّهُ أَصْلُ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ وَمَنْشَأُ تَحْرِيفِ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ ، وَشُبْهَةُ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ الْحَقِّ ، النَّاسِخِ كِتَابُهُ الْمَعْصُومُ لِلْأَدْيَانِ الْمُبَدَّلَةِ ، وَالْمُهَيْمِنِ عَلَى الْكُتُبِ الْمُحَرَّفَةِ ، الْمُحَرَّرَةِ سُنَّةُ رَسُولِهِ بِالْأَسَانِيدِ الْمُتَّصِلَةِ ، وَالْمُحْصَاةِ تَرَاجُمُ رُوَاتِهَا فِي الْكُتُبِ الْمُدَوَّنَةِ ، فَمِنَ الْعَجَائِبِ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَنْتَشِرَ فِي أَهْلِهِ الِابْتِدَاعُ ، وَتَتَعَارَضَ فِيهِ الْمَذَاهِبُ وَتَتَعَادَى الْأَشْيَاعُ ، مَعَ نَهْيِ كِتَابِهِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ ، وَوَعِيدِهِ الْمُتَفَرِّقِينَ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ النَّارِ ، وَمَعَ بَيَانِهِ لِلْمَخْرَجِ مِنْ فِتْنَةِ التَّنَازُعِ ، وَمُعَالَجَتِهِ لِأَدْوَاءِ التَّدَابُرِ وَالتَّقَاطُعِ . وَلَكِنَّهُمْ حَكَّمُوا الْأَهْوَاءَ حَتَّى فِي الْعِلَاجِ وَالدَّوَاءِ ، فَاتَّبَعُوا كَمَا أَنْبَأَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ حَتَّى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) (2 : 213) .

وَمِنْ غُمَّةِ الْجَهْلِ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَشْعُرُونَ بِهَذَا ، حَتَّى عُلَمَاؤُهُمُ الَّذِينَ يَرْوُونَ حَدِيثَ : " لَتَتْبَعُنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ " قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : " مَنْ ؟ " . رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا . وَفِي رِوَايَةٍ : " شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا ذِرَاعًا " . فَهُمْ يَقُولُونَ : صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا يَبْحَثُونَ فِي أَسْبَابِ هَذَا الِابْتِدَاعِ وَلَا يَتَأَمَّلُونَ فِي أَقْوَالِ مَنْ بَحَثَ فِيهَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ . فَقَدْ نَقَلَ الْحَافِظُ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْحَافِظِ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ : أَنَّ رَأْسَ الْبَلِيَّةِ فِي هَذَا الِابْتِدَاعِ الْقَوْلُ فِي الدِّينِ بِالرَّأْيِ . وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَبْتَدِعُ أَوْ يَتَّبِعُ مُبْتَدِعًا فِي أُصُولِ الدِّينِ أَوْ فُرُوعِهِ إلَّا وَهُوَ يَسْتَدِلُّ عَلَى بِدْعَتِهِ بِالرَّأْيِ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ مَبَادِئُ هَذِهِ الْبِدَعِ وَالْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى ، قُرُونِ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا كُلُّهُ بِمَانِعٍ لَهَا إذْ كَانَ مِنَ الْأَفْرَادِ ، لَا مِنْ مَصْدَرِ الْقُوَّةِ وَالنِّظَامِ – الَّذِي هُوَ مَقَامُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ – فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ زَالَ الْعِلْمُ أَوْ كَادَ ؛ إذْ لَا عِلْمَ إلَّا عِلْمُ الِاسْتِقْلَالِ وَالِاجْتِهَادِ ، وَقَدْ صَارَ مَحْصُورًا فِي أَفْرَادٍ لَا

يَعْرِفُ قَدْرَهُمُ الْعَوَامُّ وَلَا يَتْبَعُهُمُ الْحُكَّامُ ، ثُمَّ فَشَا النِّفَاقُ وَالدِّهَانُ . وَصَارَ طَلَبُ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ حِرْفَةً لِلْكَسَالَى وَالرُّذَّالِ .

رَوَى ابْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى يُتْرَكُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : " إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ –

إِذَا ظَهَرَ الْإِدْهَانُ فِي خِيَارِكُمْ ، وَالْفُحْشُ فِي شِرَارِكُمْ ، وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ ، وَالْفِقَهُ فِي رُذَّالِكُمْ " أَوْرَدَهُ الْحَافِظُ وَأَقَرَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَفِي مُصَنَّفِ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُمَرَ : فَسَادُ الدِّينِ إِذَا جَاءَ الْعِلْمُ مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ ، اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ ، وَصَلَاحُ النَّاسِ إِذَا جَاءَ الْعِلْمُ مِنْ قِبَلِ الْكَبِيرِ ، تَابَعَهُ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ (قَالَ) وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصِّغَرِ فِي هَذَا صِغَرُ الْقَدْرِ لَا السِّنِّ اهـ .

وَصَغِيرُ الْقَدْرِ هُوَ الْمَهِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْفَضِيلَةِ وَعِزَّةِ النَّفْسِ مَا يُحْتَرَمُ بِهِ وَيُتَّخَذُ قُدْوَةً ، كَمَا هُوَ شَأْنُ أَكْثَرِ الْمُسْتَرْزِقَةِ بِطَلَبِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَمِنْهُ يُعْلَمُ أَنَّ الْكَبِيرَ هُوَ الْكَبِيرُ بِعَقْلِهِ وَفَضْلِهِ ، لَا بِنَسَبِهِ وَمَالِهِ .

حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِ شَيْئًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَالرَّأْيُ وَالظَّنُّ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ قَالَ تَعَالَى فِي غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ : (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) (53 : 28) وَمَا شُرِعَ مِنَ اجْتِهَادِ الرَّأْيِ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ وَغَيْرِهِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالْقَضَاءِ لِأَنَّهُ نَصٌّ فِيهِ وَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَمِثْلُهُ سَائِرُ الْأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، مِنْ سِيَاسِيَّةٍ وَإِدَارِيَّةٍ ، لَا فِي أُصُولِ دِينِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَا حُرِّمَ عَلَى عِبَادِهِ تَحْرِيمًا دِينِيًّا ، فَإِنَّ اللهَ أَكْمَلَ دِينَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ فِيهِ نَقْصًا يُكْمِلُهُ غَيْرُهُ بِظَنِّهِ وَرَأْيِهِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِهِ ، وَلَيْسَ لِحَاكِمٍ وَلَا مُفْتٍ أَنْ يُسْنِدَ رَأْيَهُ الِاجْتِهَادِيَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ : هَذَا حُكْمُ اللهِ وَهَذَا دِينُهُ ، بَلْ يَقُولُ : هَذَا مَبْلَغُ اجْتِهَادِي فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنْ تَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَى وَإِلْهَامِهِ وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَئِمَّةِ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ .

(227/268)

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَقَّ التَّأَمُّلِ فَإِنَّهُ يَجْتَنِبُ أَنْ يُحَرِّمَ عَلَى عِبَادِ اللهِ شَيْئًا ، أَوْ يُوجِبَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فِي دِينِهِمْ بِغَيْرِ نَصٍّ صَرِيحٍ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، بَلْ يَجْتَنِبُ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ هَذَا مَنْدُوبٌ أَوْ مَكْرُوهٌ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَاضِحٍ مِنَ النُّصُوصِ ، وَمَا أَكْثَرَ الْغَافِلِينَ عَنْ هَذَا الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى

التَّشْرِيعِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِرَارًا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ أَنَّ هَذَا حَقُّ اللهِ وَحْدَهُ ، وَمَنْ تَهَجَّمَ عَلَيْهِ فَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ شَرِيكًا لَهُ ، وَمَنْ تَبِعَهُ فِيهِ فَقَدِ اتَّخَذَهُ رَبًّا لَهُ ، وَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ يَتَحَامَوْنَ الْقَوْلَ فِي الدِّينِ بِالرَّأْيِ ، وَيَتَدَافَعُونَ الْفَتْوَى حَتَّى فِي مَوْضِعِ الِاجْتِهَادِ وَإِنَّمَا كَانَ أَئِمَّةُ الْأَمْصَارِ يَقْصِدُونَ بِالتَّوَسُّعِ فِي الِاسْتِنْبَاطِ فَتْحَ أَبْوَابِ الْفَهْمِ لَا التَّشْرِيعِ الَّذِي أُلْصِقَ بِهِمْ ، حَتَّى إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ أَكْرَهُ كَذَا – مِنْ بَابِ

الْوَرَعِ وَالِاحْتِيَاطِ – جَعَلَ أَتْبَاعُهُ

مِنْ بَعْدِهِ قَوْلَهُ مِنَ الْكَرَاهَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَعَلُوا بَعْضَهَا لِلتَّحْرِيمِ ، وَفَسَّرُوهَا بِأَنَّهَا خِطَابُ اللهِ الْمُقْتَضِي لِلتَّرْكِ اقْتِضَاءً جَازِمًا وَبَعْضَهَا لِلتَّنْزِيهِ ، وَجَعَلُوا الِاقْتِضَاءَ فِيهَا غَيْرَ جَازِمٍ وَعَلَى ذَلِكَ فَقِسْ . وَلِلْمُحَقِّقِ ابْنِ الْقَيِّمِ تَفْصِيلٌ حَسَنٌ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَتَفْسِيرٌ لِلْآيَةِ فِي كِتَابِهِ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ هَذَا نَصُّهُ :

(228/268)

" وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ فَهُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا ، وَلِهَذَا ذُكِرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَدْيَانُ ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً ، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، فَإِنَّ

الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ : مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ ، وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمُهُ عَارِضٌ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ : (وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ : (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ : (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَشَدُّهَا إثْمًا ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَنِسْبَتَهُ إلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَتَغْيِيرَ دِينِهِ وَتَبْدِيلَهُ ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ وَإِبْطَالَ مَا أَحَقَّهُ ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالَاهُ وَمُوَالَاةَ مَنْ عَادَاهُ . وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ . وَوَصْفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُ وَلَا أَشَدُّ إثْمًا ، وَهُوَ

(229/268)

أَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ . فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ أَسَاسُهَا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ .

" وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَهَا ، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَحَذَّرُوا فِتْنَتَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالِغُوا فِي مِثْلِهِ فِي إنْكَارِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ

، إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدَعِ وَهَدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ . وَقَدْ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى دِينِهِ تَحْلِيلَ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمَهُ مِنْ عِنْدِهِ بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ فَقَالَ : (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) (16 : 116) الْآيَةَ . فَكَيْفَ بِمَنْ نَسَبَ إِلَى أَوْصَافِهِ مَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ ؟ أَوْ نَفَى عَنْهُ مِنْهَا مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ؟ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لِيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ أَحَلَّ اللهُ كَذَا وَحَرَّمَ اللهُ كَذَا ، فَيَقُولُ اللهُ : كَذَبْتَ لَمْ أُحِلَّ هَذَا وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا . يَعْنِي : التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ .

" وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ هُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ يَزْعُمُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللهِ ، يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ بِوَاسِطَتِهِ ، كَمَا تَكُونُ الْوَسَائِطُ عِنْدَ الْمُلُوكِ . فَكُلُّ مُشْرِكٍ قَائِلٌ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ ، دُونَ الْعَكْسِ ، إِذِ الْقَوْلُ عَلَى اللهِ

(230/268)

بِلَا عِلْمٍ قَدْ يَتَضَمَّنُ التَّعْطِيلَ وَالِابْتِدَاعَ فِي دِينِ اللهِ فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالشِّرْكُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوجِبًا لِدُخُولِ النَّارِ ،

وَاتِّخَاذِ مَنْزِلَةٍ مِنْهَا مُبَوَّأَةٍ ، وَهُوَ الْمَنْزِلُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ ؛ لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ كَصَرِيحِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ مَا انْضَافَ إِلَى الرَّسُولِ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَى الْمُرْسِلِ ، وَالْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ صَرِيحٍ : افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَيْهِ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدَعِ ، وَأَنَّى بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا ، وَيَحُضُّ عَلَيْهَا ؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا ، إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ وَكَثْرَةِ إِطْلَاعِهِ عَلَيْهَا وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا ، وَلَا تَرَى صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا ، فَإِنَّ السُّنَّةَ بِالذَّاتِ تَمْحَقُ الْبِدْعَةَ وَلَا تَقُومُ لَهَا ، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابَ كُلِّ بِدْعَةٍ ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ ، إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ . وَلَا يَرَى الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ ، وَيُعِينُهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَتِهَا إِلَى نُورِ

(231/268)

السُّنَّةِ ، إِلَّا تَجْرِيدُ الْمُتَابَعَةِ ، وَالْهِجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى اللهِ ، بِالِاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَصِدْقِ اللَّجْإِ إِلَى اللهِ ، وَالْهِجْرَةِ إِلَى رَسُولِهِ بِالْحِرْصِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ

وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ " وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 337. 357 ﴾

(232/268)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

والحق سبحانه – قد بدأ الآية ب " إنما " التي هي للحصر : أي ما حرم ربي إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغي بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل في هذه ، وقول الله في الآية السابقة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ﴾ هو على صيغة استفهام لكي يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله لأن الحق قد وضح وبيّن ما حرم فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33]

وتأمل الخمسة المحرمات التي جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة في

الأرض ليبقى الإِنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شيء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أي الإِنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإِنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك في هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

(233/268)

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طرأ على الأب في أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالي إن رآه أم لم يره ، ولا يبالي أهو في البيت أم شرد ، لا يبالي أكل أم جاع ، لا يبالي تعرى أم لا .

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍّ يقوم على شأن وصغير مرَّبى ، المربي قادر على أن يعمل ، والمرَّبى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش . والفحش – كما قلنا – ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا

يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملاً لا راعي له .

والإِثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإِثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . . ﴾ [البقرة : 219]

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة في الإِنسان وهو العقل وأن الخمر تغيب العقل ، والإِنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإِنسان فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل ، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة .

والذين يأتون ويشربون ويقولون : نريد أن ننسى همومنا نقول لهم : ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه ؛ لأنه إن نسي كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التي تضمن السلامة .

(234/268)

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التي تعاني منها مضاعف لتزيلها . أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة ، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك . فإن كانت المشكلة ، قد نشأت من أنك أهملت في واجب سببي أي له أسباب وقد قصرت في الأخذ بها فأنت الملوم . وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس في قدرتك ، أي هبطت عليك قضاء وقدراً ؛ فاعلم أن مجريها عليك له فيها حكمة .

وقد يكون البلاء ليحيمك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها ، لأن كل ذي نعمة محسود ، وحتى لا تتم النعمة عليك ؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها ، وأنت ابن الأغيار وفي دنيا الأغيار ، وإن تمت لك فقد تتغير النعمة بالنقصان .

إذن فالتفكير في ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتي بالعقل الكامل ، والتفكير في الأشياء التي ليس لها سبب يأتي من الإيمان ، والإيمان يطلب منك أن ترد كل شيء إلى حكمة الحكيم . إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر ؛ لأن العقل يدير حركة الحياة .

البغي نعرف انه مجاوزة الحد ظلماً أو أكبر ، أو بخلاً . والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد في العمل ؛ لذلك يحرم الحق أن يبغي أحد على أحد . لا في عرضه ، ولا في نفسه ، ولا في ماله . ويجب أن نصون العرض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام . وإن لم تأت فهي تهدر العرض ، والمطلوب صيانته ، كذلك لا يبغى أحد على محارم أحد ، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل .

ويصمون الحق المال فيمنع عنه البغي فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً ، ومظاهر البغي كثيرة . ومن البغي أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق ، فإن كنت – على سبيل المثال – تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع ، وأنت أمهر في قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها ، إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس ، وهذا بغي بحق ، وهو يختلف عن البغي بغير الحق . وحتى تفرق بين البغي البغي بحق والبغي بغير الحق نقول . إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا من صاحبه رعاية لهذا الحق ، فهو وإن كان في ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغي بحق أو أنه سمي بغيا ؛ لأنه جاء على ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير ، ونقرأ أيضاً قول الله :

﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . ﴾ [الشورى : 40]

فهل جزاء السيئة يكون سيئة ؟ لا . وإنما هي سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه ؛ لأنه لما عمل

سيئة واختلس مالا – مثلا – وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126]

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه ، أن يتوقع أن يناله بغي ممن هو أكثر قدرة منه .

وينبهنا الحق إلى العمل الذي لا غفران له : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ .

(236/268)

ومحال أن ينزل الحق الذي نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة على أنه شريك له – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفي هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا في هذه الآية : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33]

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، في إطار إيجازي ومع المقابل أيضاً ، يقول

الحق : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي . . . ﴾ [النحل : 90]

(237/268)

لقد جاء بالفحشاء في هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغي ، وزاد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الإِثم فقط . وكأن الإثم في آية الأمر بالعدل والإِحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، مطمور في " المنكر " ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصي تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة . لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلا إنّه يرى في ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدّاً يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذي تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصري من أن يتمتع

بجسم يسير أمامي ، إنه- سبحانه- كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفي هذا صيانة لك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(238/268)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها فدل على أنه حرمها لكونها فواحش وحرم الخبيث لكونه خبيثا وأمر بالمعروف لكونه معروفا والعلة يجب أن تغاير المعلول فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيا عنه وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما كانت العلة عين المعلول وهذا محال فتأمله وكذا تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم ومن هذا قوله تعالى ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا فعلل النهي في الموضعين

بكون المنهي عنه فاحشة ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه ولكان بمنزلة أن يقال لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم لا تقربوه أو فإنه منهي عنه وهذا محال من وجهين أحدهما أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة والثاني أنه تعليل للنهي بالنهي ومن ذلك قوله تعالى ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصيبوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب

(239/268)

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابية كليهما فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعهما بين هذين الأمرين فاستطالت

الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي وأحسنوا في رد ذلك عليهم واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح واستواء الأفعال في أنفسها وأحسنوا في رد هذا عليهم فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ولا الظفر عليه أصلا فانه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له مخالف في باطلها منكر له وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين وإن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالأمر والنهي وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل وأدلتهم على ذلك كلها باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى ومما يدل على ذلك أيضا أنه سبحانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول ويجعل ما ركبه في العقول من حسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره لما احتج عليهم بذلك أصلا وإنما كانت

الحجة في مجرد الأمر وطريقة القرآن صريحة في هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 7 . 8 ﴾

(240/268)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ قال : ما ظهر العرية وما بطن الزنا ، كانوا يطوفون بالبيت عراة .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا أحد أغير من الله ، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن المغيرة بن شعبة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال " أتعجبون من غيرة سعد فوالله لأنا أَغْيَرُ مِنْ سعد ، والله أغْيَرُ مني ، ومن أجله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا شخص أغير من الله " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله أما تغار ؟ قال " والله إني لأغار ، والله أغْيَرُ مني ، ومن غيرته نهى عن الفواحش " .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ قال : ما ظهر منها الاغتسال بغير سترة .

وأخرج عبد الرزاق عن يحيى بن أبي كثير " أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليَّ . فجلده ثم صعد المنبر والغضب يعرف في وجهه ، فقال : أيها الناس إن الله حرم عليكم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فمن أصاب منها شيئاً فليستتر بستر الله ، فإنه من يرفع إلينا من ذلك شيئاً نقمة عليه " .

(241/268)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني غيور ، وإن إبراهيم كان غيوراً ، وما من امرىء لا يغار إلا منكوس القلب " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ والإِثم ﴾ قال : المعصية والبغي .

قال : إن تبغى على الناس بغير حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وقوله : " وأنْ تُشْرِكُوا " منصوب المحلِّ نسقاً على مفعول " حرَّم " أي : وحرّم إشراككم عليكم ، ومفعول الإشراك ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ وقد تقدَّم بيانه في " الأنعام " ، تهكَّم بهم ؛ لأنَّهُ لا يجوز أن ينزل برهاناً أن يُشْرَكَ به غيره .

قوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ ﴾ نسق على ما قبله أي : وحرّم قولكم عليه من غير علم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 98 ﴾

(242/268)

فصل فى منزلة الغيرة

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الغيرة قال .

الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم " ما أحد أغير من الله ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله ومن أجل ذلك أثنى على نفسه وما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين " /ح/ .

(243/268)

وفي الصحيح أيضا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه" /ح/ وفي الصحيح أيضا أن النبي صلى اله عليه وسلم قال " أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني "/ح/ ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ قال السري لأصحابه أتدرون ما هذا الحجاب حجاب الغيرة ولا أحد أغير من الله إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلا لفهم كلامه ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابا مستورا عن العيون غيرة عليه أن يناله من ليس أهلا له والغيرة منزلة شريفة عظيمة جدا جليلة المقدار ولكن الصوفية المتأخرين منهم من قلب موضوعها وذهب بها مذهبا آخر باطلا سماه غيرة فوضعها في غير موضعها ولبس عليه أعظم تلبيس كما ستراه والغيرة

نوعان غيرة من الشيء وغيرة على الشيء والغيرة من الشيء هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك والغيرة على الشيء هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به والغيرة أيضا نوعان غيرة العبد من نفسه على نفسه كغيرته من نفسه على قلبه ومن تفرقته على جمعيته ومن إعراضه على إقباله ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية وما .

(244/268)

للنفس الدنية المهينة فيها نصيب وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة ثم الغيرة أيضا نوعان غيرة الحق تعالى على عبده وغيرة العبد لربه لا عليه فأما غيرة الرب على عبده فهي أن لا يجعله للخلق عبدا بل يتخذه لنفسه عبدا فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين بل يفرده لنفسه ويضن به على غيره وهذه أعلى الغيرتين وغيرة العبد لربه نوعان أيضا غيرة من نفسه وغيرة من غيره فالتي من نفسه أن لا يجعل شيئا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه والتي من غيره أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون وأما الغيرة على الله فأعظم الجهل وأبطل الباطل وصاحبها من أعظم الناس جهلا وربما أدت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر وإلى

انسلاخه من أصل الدين والإسلام وربما كان صاحبها شرا على السالكين إلى الله من قطاع الطريق بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة وأخرج قطع الطريق في قالب الغيرة وأين هذا من الغيرة لله التي توجب تعظيم حقوقه وتصفية أعماله وأحواله لله فالعارف يغار لله والجاهل يغار على الله فلا يقال أنا أغار على الله ولكن أنا أغار لله وغيرة العبد من نفسه أهم من غيرته من غيره فإنك إذا غرت من نفسك صحت لك غيرتك لله من غيرك وإذا غرت له من غيرك ولم تغر من نفسك فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد فتأملها وحقق النظر فيها فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات في هذا المقام الذي زلت فيه أقدام كثير من السالكين والله الهادي والموفق المثبت .

(245/268)

كما حكى عن واحد من مشهوري الصوفية أنه قال لا أستريح حتى لا أرى من يذكر الله يعني غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم والعجب أن هذا يعد من مناقبه ومحاسنه وغاية هذا أن يعذر فيه لكونه مغلوبا على عقله وهو من أقبح الشطحات وذكر الله على الغفلة وعلى كل حال خير من نسيانه بالكلية والألسن متى تركت ذكر الله الذي هو محبوبها اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه فأي راحة للعارف في هذا وهل هو إلا أشق عليه

وأكره إليه وقول آخر لا أحب أن أرى الله ولا أنظر إليه فقيل له كيف قال غيرة عليه من نظر مثلي فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة الدالة على جهل صاحبها مع أنه في خفارة ذله وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه ومن هذا ما يحكى عن الشبلي أنه لما مات ابنه دخل الحمام ونور لحيته حتى أذهب شعرها كله فكل من أتاه معزيا قال إيش هذا يا أبا بكر قال وافقت أهلي في قطع شعورهم فقال له بعض أصحابه أخبرني لم فعلت هذا فقال علمت أنهم يعزونني على الغفلة ويقولون آجرك الله ففديت ذكرهم لله على الغفلة بلحيتي فانظر إلى هذه الغيرة المحرمة القبيحة التي تضمنت أنواعا من المحرمات حلق الشعر عند المصيبة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس منا من .

(246/268)

حلق وسلق وخرق أي حلق شعره ورفع صوته بالندب والنياحة وخرق ثيابه" ومنها حلق اللحية وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعفائها وتوفيرها ومنها منع إخوانه من تعزيته ونيل ثوابها ومنها كراهته لجريان ذكر الله على ألسنتهم بالغفلة وذلك خير بلا شك من ترك ذكره فغاية صاحب هذا أن تغفر له هذه الذنوب ويعفى عنه وأما أن يعد ذلك في مناقبه وفي الغيرة المحمودة فسبحانك هذا بهتان عظيم ومن هذا ما ذكر عن أبي الحسين النوري أنه

سمع رجلا يؤذن فقال طعنه وسم الموت وسمع كلبا ينبح فقال لبيك وسعديك فقالوا له هذا ترك للدين وصدقوا والله يقول للمؤذن في تشهده طعنه وسم الموت ويلبي نباح الكلب فقال أما ذاك فكان يذكر الله عن رأس الغفلة وأما الكلب فقد قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ فيا لله ماذا ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك أو عمر بن الخطاب أو من عد ذلك في المناقب والمحاسن وسمع الشبلي رجلا يقول جل الله فقال أحب أن تجله عن هذا .

وأذن مرة فلما بلغ الشهادتين قال لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك وقال بعض الجهال من القوم لا إله إلا الله من أصل القلب ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرط ونحن نقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تمام قول لا إله إلا الله فالكلمتان يخرجان من أصل القلب من مشكاة واحدة لا تتم إحداهما إلا بالأخرى .

فصل قال صاحب المنازل .

(247/268)

باب الغيرة قال الله تعالى حاكيا عن نبيه سليمان عليه السلام ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ووجه استشهاده بالآية أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل

فشغله استحسانها والنظر إليها لما عرضت عليه عن صلاة النهار حتى توارت الشمس بالحجاب فلحقته الغيرة لله من الخيل إذ استغرقه استحسانها والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه فقال ردوها علي فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله قال الغيرة سقوط الاحتمال ضنا والضيق عن الصبر نفاسة أي عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ويحجبه عنه ضنا به أي بخلا به أن يعتاض عنه بغيره وهذا البخل هو محض الكرم عند المحبين الصادقين وأما الضيق عن الصبر نفاسة فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه وهذا هو الصبر الذي لا يذم من أنواع الصبر سواه أو ما كان من وسيلته والحامل له على هذا الضيق مغالاته بمحبوبه وهي النفاسة فإنه لمنافسته ورغبته لا يسامح نفسه بالصبر عنه والمنافسة هي كمال الرغبة في الشيء .

ومنع الغير منه إن لم يمدح فيه المشاركة والمسابقة إليه إن محدت فيه المشاركة قال تعالى ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ وبين المنافسة والغبطة جمع وفرق وبينهما وبين الحسد أيضا جمع وفرق فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادا وحرصا والحسد يدل على مهانة الحاسد وعجزه وإلا فنافس من حسدته فذلك أنفع لك من حسده كما قيل

إذا أعجبتك خلال امرىء . . . فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على الجود والمكرما . . . ت إذا جئتها حاجب يحجبك

والغبطة تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط واستحسان لحاله .

فصل قال وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى غيرة العابد على ضائع .

(248/268)

يستر ضياعه ويستدرك فواته ويتدارك قواه العابد هو العامل بمقتضى العلم النافع للعمل الصالح فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح فهو يسترد ضياعه بأمثاله ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها من جنسها وغير جنسها فيقضى ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العوض ويجبر ما يمكن جبره وقوله ويستدرك فواته الفرق بين استرداد ضائعه واستدراك فائته أن الأول يمكن أن يسترد بعينه كما إذا فاته الحج في عام تمكن منه فأضاعه في ذلك العام استدركه في العام المقبل وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها ونحو ذلك وأما الفائت فإنما يستدرك بنظيره كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته أو يكون مراده باسترداد الضائع واستدراك الفائت نوعي التفريط في الأمر والنهي فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله ويستدرك فائت هذا أي سالفه بالتوبة والندم .

وأما تدارك قواه فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف فهو يغار عليها

أن تذهب في غير طاعة الله ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفتور عنه بأن يكسوه قوة ونشاطا غيرة له وعليه فهذه غيرة العباد على الأعمال والله أعلم .

فصل قال الدرجة الثانية غيرة المريد وهي غيرة على وقت فات وهي غيرة .

(249/268)

قاتلة فإن الوقت وحي التقضي أبي الجانب بطي الرجوع والمريدون هم أرباب الأحوال والعباد أرباب الأوراد والعبادات وكل مريد عابد وكل عابد مريد لكن القوم خصوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم المريد وخصوا أصحاب العمل المجرد باسم العابد وكل مريد لا يكون عابدا فزنديق وكل عابد لا يكون مريدا فمراء والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد وعند المريد هو وقت الإقبال على الله والجمعية عليه والعكوف عليه بالقلب كله والوقت أعز شيء عليه يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة لأن الوقت الثاني فقد استحق واجبه الخاص فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه كما في المسند مرفوعا من أفطر يوما من رمضان متعمدا من غير عذر لم يقضه عنه صيام الدهر وإن صامه وقوله وهي غيرة قاتلة يعني مضرة ضررا شديدا بينا يشبه القتل لأن حسرة الفوت قاتلة ولا سيما إذا علم المتحسر أنه لا سبيل له إلى الاستدراك

وأيضا فالغيرة على التفويت تفويت آخر كما يقال الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر ولذلك يقال الوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك .

ثم بين الشيخ السبب في كون هذه الغيرة قاتلة فقال فإن الوقت وحي التقضي أي سريع الانقضاء كما تقول العرب الوحا الوحا العجل العجل والوحي الإعلام في خفاء وسرعة ويقال جاء فلان وحيا أي مجيئًا سريعا فالوقت منقض بذاته منصرم بنفسه فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته وعظم فواته واشتدت حسراته فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع وطلب تناول الفائت وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ومنع مما يحبه ويرتضيه وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه وحيل بينه وبين ما يشتهيه فيا حسرات ما إلى رد مثلها . . . سبيل ولو ردت لها ن التحسر

(250/268)

هي الشهوات اللاء كانت تحولت . . . إلى حسرات حين عز التصبر

فلو انها ردت بصبر وقوة . . . تحولن لذات وذو اللب يبصر

ويقال إن أصعب الأحوال المنقطعة انقطاع الأنفاس فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد

صعدوه إلى نحو محبوبهم صاعدا إليه متلبسا بمحبته والشوق إليه فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتى يتبعوه نفسا آخر مثله فكل أنفاسهم بالله وإلى الله متلبسة بمحبته والشوق إليه والأنس به فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم وكثير منهم يرى في نومه أنه كذلك لالتباس روحه وقلبه فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ولا تستنكر هذه الحال فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة والمقصود أن الواردات سريعة الزوال تمر أسرع من السحاب وينقضي الوقت بما فيه فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك فإنه عائد عليك لا محالة لهذا يقال للسعداء ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ويقال للأشقياء ذلك بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون .

فصل قال الدرجة الثالثة غيرة العارف على عين غطاها غين وسر غشيه .

(251/268)

رين ونفس علق برجاء أو التفت إلى عطاء أي يغار على بصيرة غطاها ستر أو حجاب فإن الغين بمنزلة الغطاء والحجاب وهو غطاء رقيق جدا وفوقه الغيم وهو لعموم المؤمنين وفوقه الرين والران وهو للكفار وقوله وسر غشيه رين أي حجاب أغلظ من الغيم الأول

والسر ههنا إما اللطفية المدركة من الروح وإما الحال التي بين العبد وبين الله عز وجل فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه كما يستغيث المعذب في عذابه غيرة على سره من ذلك الرين وقوله ونفس علق برجاء والتفت إلى عطاء يعني أن صاحب النفس يغار على نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ولم يتعلق بإرادة الله ومحبته فإن بين النفسين كما بين متعلقهما وكذلك قوله أو التفت إلى عطاء يعني أنه يلتفت إلى عطاء من دون الله فيرضى به ولا ينبغي أن يتعلق إلا بالله ولا يلتفت إلا إلى المعطي الغني الحميد وهو الله وحده والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 42. 51 ﴾

(252/268)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) ﴾

ما ظهر منها الزَّلَّة ، وما بطن منها الغفلة .

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة ، وما بطن بإشارة الحقيقة .

ويقال لقومٍ تركُ الرخص يكون علة ، والأوْلى بهم والأفضل لهم الأخذ به . وقومٌ لو ركنوا إلى الرُّخص لقامت عليهم القيامة .

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة ولو بذرة أو سِنَّة .

ويقال فاحشة الأحبابِ الصبر على المحبوب .

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حيَّاً وقد منيت بالفراق ، قال قائلهم :

لا عيش بعد فراقهم . . . هذا هو الخطب الأَجَلُّ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق ، قال قائلهم :

يا قُرَّةَ العين سَلْ عيني هل اكتحلت . . . بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عيني ؟

ويقال فاحشة قوم أن تبقى لهم قطرةُ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة ، أو يبقى لهم نَفَسٌ لم يَتَنَفَّسوا به في حسرة ، وفي معناه أنشدوا :

لئن بِقِيَتْ في العين منّي دمعةٌ . . . فإني إذاً في العاشقين دخيلُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 531.532 ﴾

(253/268)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) ﴾

هذا خطاب لجميع بني آدم ، وإن كان وارداً على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس ، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف .

وقد استدلّ بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة ، وإليه ذهب جمهور أهل العلم ، بل سترها واجب في كل حال من الأحوال ، وإن كان الرجل خالياً كما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة ، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل في كتب الفروع .

(254/268)

قوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا * وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الإسراف ، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرّة قاتل لنفسه ، وهو من أهل النار ، كما صح في الأحاديث الصحيحة ، والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه ، وعلى من يعول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه ، والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني ؛ وهكذا من حرّم حلالاً أو حلل حراماً ، فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين .

ومن الإسراف الأكل لا لحاجة ، وفي وقت شبع .

قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ الزينة : ما يتزين به الإنسان ، من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة ، كالمعادن التي لم يرد نهي عن التزين بها ، والجواهر ونحوها ؛ وقيل الملبوس خاصة ، ولا وجه له ، بل هو من جملة ما تشمله الآية ، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرّمه الله ، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة ، ولم يمنع منها مانع شرعي ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيناً .

وقد قدّمنا في هذا ما يكفي ، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما ، مما يأكله الناس ، فإنه لا زهد في ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام

المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه ، أو حرّمه على غيره .

وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة .

وقد قدّمنا نقل مثل هذا عنه مطوّلاً .

(255/268)

والطيبات المستلذات من الطعام ؛ وقيل هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعماً .

قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ ﴾ أي : أنها لهم بالأصالة ، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ أي : مختصة بهم يوم القيامة ، لا يشاركهم فيها الكفار .

وقرأ نافع "خالصة" بالرفع ، وهي قراءة ابن عباس ، على أنها خبر بعد خبر .

وقرأ الباقون بالنصب على الحال .

قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز الوقف على الدنيا ؛ لأن ما بعدها متعلق بقوله : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ حال منه بتقدير : قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم

يوم القيامة ، قوله : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم .

قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ﴾ جمع فاحشة .

وقد تقدّم تفسيرها ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي : ما أعلن منها وما أسرّ ، وقيل : هي خاصة بفواحش الزنا ، ولا وجه لذلك ؛ والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم ؛

وقيل : هو الخمر خاصة ؛ ومنه قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي . . . كذاك الإثم تذهب بالعقول

ومثله قول الآخر :

يشرب الإثم بالصواع جهارا . . . وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر .

قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقته أنه جميع المعاصي ، كما قال الشاعر :

إني وجدت الأمر أرشده . . . تقوى الإله وشرّه الإثم

قال الفراء : الإثم ما دون الحق والاستطالة على الناس انتهى .

وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به ، فهو أحد المعاصي التي يصدق عليها .

قال في الصحاح: وقد يسمى الخمر إثماً ، وأنشد :

شربت الإثم . . . البيت ، وكذا أنشده الهروي قبله في غريبته .

(256/268)

قوله : ﴿ والبغى بِغَيْرِ الحق ﴾ أي : الظلم المجاوز للحد ، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنباً عظيماً كقوله : ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النحل : 90] ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ أي : وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة .

والمراد التهكم بالمشركين ، لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ بحقيقته وأن الله قاله ، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأذن بها .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، ومسلم ، والنسائي ، وغيرهم ، عن ابن عباس ، أن النساء كنّ يطفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . وما بدا منه فلا أحله

فنزلت : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عنه ، في الآية قال : كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة .

والزينة : اللباس وما يواري السوءة ، وما سوى ذلك من جيد البرّ والمتاع .

وأخرج ابن عدي ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" خذوا زينة الصلاة ، قالوا : وما زينة الصلاة ؟ قال : البسوا نعالكم فصلوا فيها " وأخرج العقيلي ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أنس ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ قال : صلوا في نعالكم .

والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً ، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روي في هذين الحديثين فلا أدري كيف إسنادهما .

وقد ورد النهي عن أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء ، وهو في الصحيحين وغيرهما ، من حديث أبي هريرة .

(257/268)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس ، قال : أحلّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ قال : في الطعام والشراب .

وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، من طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : كانت قريش تطوف بالبيت ، وهم عراة يصفرون ويصفقون ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله ﴾ فأمروا بالثياب أن يلبسوها .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطيبات مِنَ ﴾ قال : ينتفعون بها في الدنيا لا يتبعهم فيها مأثم يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التى أَخْرَجَ ﴾ قال : المشركون يشاركون المؤمنين في زهرة الدنيا ، وهي خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ والطيبات مِنَ الرزق ﴾ قال : الودك ، واللحم ، والسمن .

(258/268)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، قال : كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها ، وهو قول الله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً ﴾ [يونس : 59] وهذا هذا ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطيبات مِنَ الرزق قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الحياة الدنيا ﴾ يعني : شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا ، فأكلوا من طيبات طعامها ، ولبسوا من جياد ثيابها ونكحوا من صالحي نسائها ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا ، وليس للمشركين فيها شيء .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : ما ظهر منها العرية ، وما بطن الزنا ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد ، في الآية قال : ما ظهر منها طواف الجاهلية عراة ، وما بطن الزنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ والإثم ﴾ قال المعصية ﴿ والبغى ﴾ قال : أن يبغي على الناس بغير حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(259/268)

قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدم أن الناس فريقان : مهتد وضال ، وتكرر ذم الضال باجترائه على الله بفعل ما منعه منه وترك ما أمره به ، وكانت العادة المستمرة للملوك أنهم لا يمهلون من تتكرر مخالفته لهم ؛ كان كأنه قيل : فلم يهلك من يخالفه ؟ فقيل وعظاً وتحذيراً : إنهم لا يضرون بذلك إلا أنفسهم ، ولا يفعلون شيئاً منه إلا بإرادته ، فسواء عندهم بقاؤهم وهلاكهم ، إنما يستعجل من يخاف الفوت أو يخشى الضرر ، ولهم أجل لا بد من استيفائه ، وليس ذلك خاصاً بهم بل ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ وهو عطف على ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ﴾ [الأعراف : 25]

﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ .

ولما كان نظرهم إلى الفسحة في الأجل ، وكان قطع رجائهم من من جملة عذابهم ، قدمه فقال : ﴿ لا يستأخرون ﴾ أي عن الأجل ﴿ ساعة ﴾ عبر بها والمراد أقل ما يمكن لأنها أقل الأوقات في الاستعمال في العرف ، ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها لا على جزائها قوله : ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أي على الأجل المحتوم ، لأن الذي ضربه لهم ما ضربه إلا وهو عالم بكل ما يكون من أمرهم ، لم يتجدد له علم ، لم يكن يتجدد شيء من أحوالهم ، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [الأعراف : 24] وتكون الآية معلمة بأنهم سيتناسلون فيكثرون حتى يكونوا أمماً ، ولا يتعرضون جملة بل يكون لكل أمة وقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 28 . 29 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما بين الحلال والحرام وأحوال التكليف ، بين أن لكل أحد أجلاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، وإذا جاء ذلك الأجل مات لا محالة ، والغرض منه التخويف ليتشدد المرء في القيام بالتكاليف كما ينبغي .

المسألة الثانية :

اعلم أن الأجل ، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المُهْلَة ، وفي هذه الآية قولان :

القول الأول : وهو قول ابن عباس ، والحسن ومقاتل أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين ، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال ، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة .

والقول الثاني : أن المراد بهذا الأجل العمر ، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه ، والقول الأول : أولى ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ولم يقل ولكل أحد أجل وعلى القول الثاني : إنما قال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ولم يقل لكل أحد لأن الأمة هي الجماعة في كل زمان ، ومعلوم من حالها التقارب في الأجل ، لأن ذكر الأمة فيما يجري مجرى الوعيد أفحم ، وأيضاً فالقول الأول : يقتضي أن يكون لكل أمة من الأمم وقت معين في نزول عذاب الاستئصال عليهم وليس الأمر كذلك لأن أمتنا ليست كذلك .

المسألة الثالثة :

إذا حملنا الآية على القول الثاني : لزم أن يكون لكل أحد أجل ، لا يقع فيه التقديم والتأخير فيكون المقتول ميتاً بأجله ، وليس المراد منه أنه تعالى لا يقدر على تبقيته أزيد من ذلك ، ولا أنقص ، ولا يقدر على أن يميته في ذلك الوقت لأن هذا يقتضي خروجه تعالى عن كونه قادراً مختاراً ، وصيرورته كالموجب لذاته ، وذلك في حق الله تعالى ممتنع بل المراد أنه تعالى أخبر أن الأمر يقع على هذا الوجه .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ المراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات .

فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فإن عند حضور الأجل امتنع عقلاً وقوع ذلك الأجل في الوقت المتقدم عليه .

قلنا : يحمل قوله : ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ على قرب حضور الأجل .

تقول العرب : جاء الشتاء ، إذا قارب وقته ، ومع مقاربة الأجل يصح التقدم على ذلك تارة ، والتأخر عنه أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 56 . 57 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم خوفهم فقال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ يعني : لكل أهل دين مُهلة للعذاب ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ بعد الأجل ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ساعة قبل الأجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ مدّة وأجل ، وقيل : وقت حلول العقاب وأوّل العذاب . ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ وإذا أنقطع أجلهم ، وقرأ ابن سيرين آجالهم ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ لا يتأخّرون ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ لا يتقدّمون انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(262/268)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ولكل أمة كتاب فيما قضاه الله عليهم من سعادة أو شقاوة ، من عذاب أو رحمة ، قاله جويبر .

الثاني : ولكلٍ نبي يدعوهم إلى طاعته وينهاهم عن معصيته ، قاله معاذ بن جبل .

والثالث : لكل أمة أجل فيما قدره الله من حياة ، وقضاه عليهم من وفاة .

ويحتمل رابعاً : ولكل أمة مدة يبقون فيها على دينهم أن يحدثوا فيه الاختلاف .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أجل موتهم .

الثاني : أجل عذابهم ، قاله جويبر .

﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يزيد أجل حياتهم ولا ينقص .

والثاني : لا يتقدم عذابهم ولا يتأخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(263/268)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ الآية ،

يتضمن الوعيد والتهديد ، والمعنى ولكل أمة أي فرقة وجماعة ، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس ، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم ، فأنتم أيتها الأمة كذلك قاله الطبري وغيره ، وقرأ الحسن " فإذا جاء آجالهم " بالجمع . وهي قراءة ابن سيرين ، قال أبو الفتح هذا هو الأظهر لأن لكل إنسان أجلاً فأما الإفراد فلأنه جنس وإضافته إلى الجماعة حسنت الإفراد ، ومثله قول الشاعر : [الرجز]

في حلقكم عظم وقد شجينا . . . وقوله : ﴿ ساعة ﴾ لفظ عين به الجزء القليل من الزمن ، والمراد جميع أجزائه أي لا يستأخرون ساعة ولا أقل منها ولا أكثر ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء : 40] فإنما هي عبارة يقام الجزء فيها مقام الكل .

قال القاضي أبو محمد : وكأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ [إبراهيم : 10 ، نوح : 4] تعارض لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا والوعيد بمعاجلة إن كفروا .

قال القاضي أبو محمد : والحق مذهب أهل السنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد لا يتأخر عنه ولا يتقدم . وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل ، وذلك هو أجله المحتوم ، ومنه من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها ، فكأنه يقول : فإن

آمنتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجل المؤخر ، وإن كفرتم علمنا أنكم ممن قضي له بالأجل المعجل والكفر .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا الحد هو دعاء محمد عليه السلام العالم إلى طريق الجنة ، وقد علم أن منهم من يكفر فيدخل النار ، وكذلك هو أمر الأسير يقال له إما أن تؤمن فتترك وإلا قتلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(264/268)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولكل أُمة أجل ﴾

سبب نزولها : أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم العذاب ، فأُنزلت ، قاله مقاتل .

وفي الأجل قولان .

أحدهما : أنه أجل العذاب .

والثاني : أجل الحياة .

قال الزجاج : الأجل : الوقت المؤقت .

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ﴾ المعنى : ولا أقل من ساعة .

وإنما ذكر الساعة ، لأنها أقل أسماء الأوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ

﴾

(265/268)

وقال القرطبى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي وقت مؤقت .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي الوقت المعلوم عند الله عز وجل .

وقرأ ابن سيرين "جاء آجالهم" بالجمع ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ساعة ولا أقل من ساعة ؛ إلا أن الساعة خصت بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات ، وهي ظرف زمان .

﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فدل بهذا على أن المقتول إنما يقتل بأجله .

وأجل الموت هو وقت الموت ؛ كما أن أجل الدَّين هو وقت حلوله .

وكل شيء وُقِّت به شيء فهو أجل له .

وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحيّ فيه لا محالة .

وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه ، لا من حيث إنه ليس مقدوراً تأخيرُه .

وقال كثير من المعتزلة إلا من شذّ منهم : إن المقتول مات بغير أجله الذي ضُرب له ، وأنه لو لم يقتل لحييَ .

وهذا غلط ، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له ، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له .

فإن قيل : فإن مات بأجله فِلم تقتلون ضاربه وتقتصون منه ؟ .

قيل له : نقتله لتعدّيه وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه ، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله .

ولو ترك الناس والتعدّي من غير قصاص لأدّى ذلك إلى الفساد ودَمار العباد . وهذا واضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(266/268)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾

الأجل : الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ثم في هذا الأجل المذكور في الآية قولان :

أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى أن لكل أمة كذبت رسله وقتاً معيناً وأجلاً مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ يعنيك إذا حلَّ وقت عذابهم ﴿ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ يعني فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الوقت في العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتاً إذا جاء ذلك الوقت هو وقت إهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

والقول الثاني : إن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر ، فإذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وإنما قال تعالى : لكل أمة تقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد في مقدار العمر : وعلى هذا القول أيضاً يكون المقتول ميتاً بأجله خلافاً لمن يقول القاتل قطع عليه أجله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(267/268)

وقال أبو حيان :

﴿ ولكلّ أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

هذا وعيد لأهل مكّة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم أي أجل مؤثت لمجيء العذاب إذا خالفوا أمر ربهم فأنتم أيتها الأمّة كذلك ، وقيل : الأجل هنا أجل الدّنيا التقدير : للأمم كلّها أجل أي يقدّمون فيه على ما قدموا من عمل ، وقيل : الأجل مدّة العمر والتقدير ولكل واحد من الأمة عمر ينتهي إليه بقاؤه في الدّنيا وإذا مات علم ما كان عليه من حقّ أو باطل ، وقال ابن عطية : أي فرقة وجماعة وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس ، وقال غيره : والأمة الجماعة قلّوا أو كثروا وقد يطلق على الواحد كقوله في قس بن ساعدة " يبعث يوم القيامة أمّة وحده " وأفرد الأجل لأنه اسم جنس أو لتقارب أعمال أهل كل عصر أو لكون التقدير لكل واحد من أمة ، وقرأ الحسن وابن سيرين فإذا جاء آجالهم بالجمع وقال ساعة لأنها أقلّ الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه في ساعة يريد في أقصر وقت وأقربه قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية لفظ عنى به الجزء القليل من الزمان والمراد جمع أجزائه انتهى ، والمضارع المنفي بلا إذا وقع في الظاهر جواباً لإذا يجوز أن يتلقى بفاء الجزاء ويجوز أن لا يتلقى بها وينبغي أن يعتقد أنّ بين الفاء والفعل مبتدأ محذوفاً وتكون الجملة إذ ذاك إسميّة والجملة الإسمية إذا وقعت جواباً لإذا فلا بد فيها من الفاء أو إذا الفجائية ، قال بعضهم : ودخلت الفاء على إذا حيث وقع إلا في يونس لأنها عطفت جملة على جملة بينهما اتصال وتعقيب فكان الموضع موضع الفاء وما في يونس يأتي في موضعه إن شاء الله انتهى ، وقال الحوفي ﴿ ولا يستقدمون ﴾ معطوف على ﴿ لا

يستأخرون ﴾ انتهى ، وهذا لا يمكن لأنّ إذا شرطيّة فالذي يترتب عليها إنما هو مستقبل ولا يترتب على مجيء الأجل في المستقبل إلا مستقبل وذلك يتصور في انتفاء الاستئخار لا في انتفاء الاستقدام لأنّ الاستقدام سابق على مجيء الأجل في الاستقبال فيصير نظير قولك إذا قمت في المستقبل لم

(268/268)

يتقدّم قيامك في الماضي ومعلوم أنه إذا قام في المستقبل لم يتقدّم قيامه هذا في الماضي وهذا شبيه بقول زهير :

بدا لي أني لست مدرك ما مضى . . .

ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا

ومعلوم أن الشيء اذا كان جاثيا إليه لا يسبقه والذي تخرج عليه الآية أن قوله ﴿ ولا يستقدمون ﴾ منقطع من الجواب على سبيل استئناف إخبار أي لا يستقدمون الأجل أي لا يسبقونه وصار معنى الأية

أنهم لا يسبقون الأجل ولا يتأخرون عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(269/268)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المُهلَكة ﴿ أَجَلٌ ﴾ حدٌّ معينٌ من الزمان مضروبٌ لِمَهلكهم ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ إن جعل الضميرُ للأمم المدلولِ عليها بكل أمة فإظهارُ الأجل مضافاً إليه لإفادة المعنى المقصودِ الذي هو بلوغُ كلِّ أمةٍ أجلَها الخاصَّ بها ومجيئه إياها بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموماً يفيده معنى الجمعية كأنه قيل : إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيء كلَّ واحدة من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها ، وإن جُعل لكل أمةٍ خاصةً كما هو الظاهرُ فالإظهارُ في موقع الإضمارِ لزيادة التقريرِ ، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة أكملِ التمييزِ أي إذا جاءها أجلُها الخاصُّ بها .

(270/268)

﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن ذلك الأجلِ ﴿ سَاعَةً ﴾ أي شيئاً قليلاً من الزمان فإنها مَثَلٌ في غاية القلة منه لا يتأخرون أصلاً ، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم وحِرمانهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي ولا يتقدمون عليه وهو عطفٌ على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاءِ التقدمِ مع إمكانه في نفسه كالتأخر ، بل للمبالغة في انتفاء التأخّرِ بنظمه في

سلك المستحيلِ عقلاً كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّى تُبْتُ الان وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبةَ له رأساً قد نُظم في عدم القبولِ في سلك مَنْ سوّفها إلى حضور الموتِ إيذاناً بتساوي وجودِ التوبة حينئذ وعدمِها بالمرة . وقيل : المرادُ بالمجيء الدنوُّ بحيث يمكن التقدمُ في الجملة كمجيء اليومِ الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ فيه وليس بذاك . وتقديمُ بيانِ انتفاءِ الاستئخار لما أن المقصودَ بالذات بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب ، وأما ما في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ من سبْق السبْقِ في الذكر فلِما أن المرادَ هناك بيانُ تأخيرِ إهلاكِهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه قولُه تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الامل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السبْق .

(271/268)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المُهلَكة ﴿ أَجَلٌ ﴾ حدٌّ معينٌ من الزمان مضروبٌ لِمَهلكهم ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ إن جعل الضميرُ للأمم المدلولِ عليها بكل أمة فإظهارُ الأجل مضافاً إليه لإفادة المعنى المقصودِ الذي هو بلوغُ كلِّ أمةٍ أجلَها الخاصَّ بها ومجيئه إياها بواسطة اكتسابِ الأجل بالإضافة عموماً يفيده معنى الجمعية كأنه قيل : إذا جاءهم آجالُهم بأن

يجيء كلَّ واحدة من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها ، وإن جُعل لكل أمةٍ خاصةً كما هو الظاهرُ فالإظهارُ في موقع الإضمارِ لزيادة التقريرِ ، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة أكملِ التمييزِ أي إذا جاءها أجلُها الخاصُّ بها .

﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن ذلك الأجلِ ﴿ سَاعَةً ﴾ أي شيئاً قليلاً من الزمان فإنها مَثَلٌ في غاية القلة منه لا يتأخرون أصلاً ، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم وحِرمانهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي ولا يتقدمون عليه وهو عطفٌ على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاءِ التقدمِ مع إمكانه في نفسه كالتأخر ، بل للمبالغة في انتفاء التأخّرِ بنظمه في سلك المستحيلِ عقلاً كما في قوله سبحانه :

(272/268)

﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّى تُبْتُ الان وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبةَ له رأساً قد نُظم في عدم القبولِ في سلك مَنْ سوّفها إلى حضور الموتِ إيذاناً بتساوي وجودِ التوبة حينئذ وعدمِها بالمرة . وقيل : المرادُ بالمجيء الدنوُّ بحيث يمكن التقدمُ في الجملة كمجيء اليومِ الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ فيه وليس بذاك . وتقديمُ بيانِ انتفاءِ الاستئخار لما أن المقصودَ

بالذات بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب ، وأما ما في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ من سبْق السبْقِ في الذكر فِلما أن المرادَ هناك بيانُ تأخيرِ إهلاكِهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه قولُه تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الامل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السبْق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(273/268)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المهلكة ﴿ أَجَلٌ ﴾ أي وقت معين مضروب لاستئصالهم كما قال الحسن .

وروي ذلك عن ابن عباس ومقاتل .

وهذا كما قيل وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله تعالى كما نزل بالأمم قبلهم ورجوع إلى الحث على الاتباع بعد الاستطراد الذي قاله البعض .

وقد روعي نكتة في تعقيبه تحريم الفواحش حيث ناسبه أيضاً .

وفسر بعضهم الأجل هنا بالمدة المعينة التي أمهلوها لنزول العذاب ، وفسره آخرون بوقت

الموت وقالوا : التقدير ولكل أحد من أمة ، وعلى الأول لا حاجة إلى التقدير .

﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ الضمير كما قال بعض المحققين إما للأمم المدلول عليها بكل أمة وإما لكل أمة ، وعلى الأول فإظهار الأجل مضافاً إلى ذلك الضمير لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيؤه إياها بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموماً يفيده معنى الجمعية كأنه قيل : إذا جاء آجالهم بأن يجيء كل واحد من تلك الأمم أجلها الخاص بها .

وعلى الثاني وهو الظاهر فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإضافة لإفادة أكمل التمييز .

وقرأ ابن سيرين ﴿ آجالهم ﴾ بصيغة الجمع واستظهرها ابن جني وجعل الإفراد لقصد الجنسية والجنس من قبيل المصدر وحسنه الإضافة إلى الجماعة .

والفاء قيل : فصيحة وسقطت في آية يونس (94) لما سنذكره إن شاء الله تعالى هناك .

والمراد من مجيء الأجل قربه أو تمامه أي إذا حان وقرب أو انقطع وتم .

﴿ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةِ ﴾ قطعة من الزمان في غاية القلة .

وليس المراد بها الساعة في مصطلح المنجمين المنقسمة إلى ساعة مستوية وتسمى فلكية هي زمان مقدار خمس عشرة درجة أبداً ، ومعوجة وتسمى زمانية هي زمان مقدار

نصف سدس النهار أو الليل أبدا ، ويستعمل الأولى أهل الحساب غالباً والثانية الفقهاء وأهل الطلاسم ونحوهم .

(274/268)

وجملة الليل والنهار عندهم أربع وعشرون ساعة أبداً سواء كانت الساعة مستوية أو معوجة إلا أن كلاً من الليل والنهار لا يزيد على اثنتي عشرة ساعة معوجة أبداً .

ولهذا تطول وتقصر ، وقد تساوي الساعة المستوية وذلك عند استواء الليل والنهار والمراد لا يتأخرون أصلا .

وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له .

﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي ولا يتقدمون عليه .

والظاهر أنه عطف على ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ كما أعربه الحوفي وغيره .

واعترض بأنه لا يتصور الاستقدام عند مجيئه فلا فائدة في نفيه بل هو من باب الإخبار بالضروري كقولك : إذا قمت فيما يأتي لم يتقدم قيامك فيما مضى ، وقيل : إنه معطوف على الجملة الشرطية لا الجزائية فلا يتقيد بالشرط .

فمعنى الآية لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ولكل أمة أجل لا يستقدمون

عليه .

وتعقبه مولانا العلامة السالكوتي بأنه لا يخفى أن فائدة تقييد قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ فقط بالشرط غير ظاهرة وإن صح بل المتبادر إلى الفهم السليم ما تقدم .

وفيه تنبيه على أن الأجل كما يمتنع التقدم عليه بأقصر مدة هي الساعة كذلك يمتنع التأخر عنه وإن كان ممكناً عقلاً فإن خلاف ما قدره الله تعالى وعلمه محال والجمع بين الأمرين فيما ذكر كالجمع بين من سوف التوبة إلى حضور الموت ومن مات على الكفر في نفي التوبة عنه في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ﴾ [النساء : 18] الآية .

(275/268)

ولعل هذا مراد من قال : إنه عطف على الجزاء بناء على أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ لا يستطيعون تغييره على نمط قوله تعالى : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ [الأنعام : 59] وقولهم : كلمته فما رد على سوداء ولا بيضاء فلا يرد ما قيل ، وأنت خبير بأن هذا المعنى حاصل بذكر الجزاء بدون ذكر ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ والحق العطف على الجملة الشرطية ، وفي "شرح المفتاح" القيد إذا جعل جزأ من المعطوف عليه لم يشاركه المعطوف فيه ومثل بالآية ، وعليه لا محذور في العطف على ﴿ لاَ

يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ لعدم المشاركة في القيد ؛ وأنت تعلم أنهم ذكروا في هذا الباب أنه إذا عطف شيء على شيء وسبقه قيد يشارك المعطوف المعطوف عليه في ذلك القيد لا محالة ، وأما إذا عطف على ما لحقه قيد فالشركة محتملة فالعطف على المقيد له اعتباران .

الأول : أن يكون القيد سابقاً في الاعتبار والعطف لاحقاً فيه .

والثاني : أن يكون العطف سابقاً والقيد لاحقاً ، فعلى الأول لا يلزم اشتراك المعطوفين في القيد المذكور إذ القيد جزء من أجزاء المعطوف عليه ، وعلى الثاني يجب الاشتراك إذ هو حكم من أحكام الأول يجب فيه الاشتراك .

(276/268)

وبعضهم بنى العطف هنا على أن المراد بالمجيء الدنو بحيث يمكن التقدم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذاك ، وتقديم بيان انتفاء الاستئخار كما قيل لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب ، وأما في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ [الحجر : 5 والمؤمنون : 43] من سبق السبق في الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه قوله

سبحانه : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الامل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : 3] فالأهم هناك بيان انتفاء السبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(277/268)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

اعتراض بين جملة : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم ﴾ [الأعراف : 31] وبين جملة : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم ﴾ [الأعراف : 35] لمّا نعى الله على المشركين ضلالهم وتمرّدهم .

بعد أن دعاهم إلى الإيمان ، وإعراضَهم عنه ، بالمجادلة والتّوبيخ وإظهارِ نقائصهم بالحجّة البيّنة ، وكان حالهم حال من لا يقلع عمّا هم فيه ، أعقَب ذلك بإنذارهم ووعيدهم إقامةً للحجّة عليهم وإعذاراً لهم قبل حلول العذاب بهم .

وهذه الجملة تؤكّد الغرض من جملة : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4]

وتحتمل معنيين:

أحدهما : أن يكون المقصود بهذا الخبر المشركين ، بأن أقبل الله على خطابهم أو أمر نبيئه

بأن يخاطبهم ، لأنّ هذا الخطاب خطاب وعيد وإنذار .

والمعنى الثّاني : أن يكون المقصود بالخبر النبي صلى الله عليه وسلم فيكون وعداً له بالنّصر على مكذّبيه ، وإعلاماً له بأنّ سنّته سنّةُ غيره من الرّسل بطريقة جعل سنّة أمّته كسنّة غيرها من الأمم .

وذكْرُ عموم الأمم في هذا الوعيد ، مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا ، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم على طريقة الاستشهاد بشواهد التّاريخ في قياس الحاضر على الماضي فيكون الوعيد خبراً معضوداً بالدّليل والحجّة ، كما قال تعالى في آيات كثيرة منها : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [آل عمران : 137] أي : ما أنتم إلاّ أمة من الأمم المكذّبين ولكلّ أمّة أجل فأنتم لكم أجل سيحين حينه .

(278/268)

وذِكر الأجل هنا ، دون أن يقول لكلّ أمّة عذاب أو استئصال ، إيقاظاً لعقولهم من أن يغرّهم الإمهال فيحسبوا أنّ الله غيرُ مؤاخذهم على تكذيبهم ، كما قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32

] ، وطمأنةً للرسول عليه الصّلاة والسلام بأنّ تأخير العذاب عنهم إنّما هو جري على عادة الله تعالى في إمهال الظّالمين على حدّ قوله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذّبوا جاءهم نصرنا ﴾ [يوسف : 110] وقوله ﴿ لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [آل عمران : 196 ، 197] .

ومعنى : ﴿ لكل أمة أجل ﴾ لكلّ أمّة مكذّبة إمهال فحذف وصف أمّة أي : مكذّبة .

وجعل لذلك الزّمان نهاية وهي الوقت المضروب لانقضاء الإمهال ، فالأجل يطلق على مدّة الإمهال ، ويُطلق على الوقت المحدّد به انتهاء الإمهال ، ولا شكّ أنّه وُضع لأحد الأمرين ثمّ استعمل في الآخرة على تأويل منتهى المدّة أو تأخير المنتهى وشاع الاستعمالان .

فعلى الأوّل يقال قَضى الأجلَ أي المدّة كما قال تعالى : ﴿ أيّما الأجلين قضيت ﴾ [القصص : 28] وعلى الثّاني يقال : "دنا أجل فلان" وقوله تعالى : ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ [الأنعام : 128] والواقع في هذه الآية يصحّ للاستعمالين بأن يكون المراد بالأجل الأوّل المدّة ، وبالثّاني الوقت المحدّد لفعلٍ مّا .

(279/268)

والمراد بالأمّة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرّسل ، كما يدلّ عليه السّياق من قوله تعالى : ﴿ وأن تشركوا بالله ﴾ [الأعراف : 33] إلخ وليس المراد بالأمّة ، الجماعةَ التي يجمعها نسب أو لغة إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها ، ولم يقع في التّاريخ انقراض إحداها ، وإنّما وقع في بعض الأمم أن انقرض غالب رجالها بحوادث عظيمة مثل (طَسْمٍ) و(جَدِيس) و(عَدْوَان) فتندمج بقاياها في أمم أخرى مجاورة لها فلا يقال لأمّة إنّ لها أجلا تنقرض فيه ، إلاّ بمعنى جماعة يجمعها أنّها مُرسل إليها رسول فكذّبته ، وكذلك كان ما صُدَق هذه الآية ، فإنّ العرب لمّا أرسل محمّد صلى الله عليه وسلم ابتدأ دعوته فيهم ولهم ، فآمن به من آمن ، وتَلاحق المؤمنون أفواجاً ، وكذّب به أهل مكّة وتبعهم مَن حولهم ، وأمهل الله العربَ بحكمته وبرحمة نبيّه صلى الله عليه وسلم إذ قال : " لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده " فلطف الله بهم إذ جعلهم مختلطين مؤمنهم ومشركهم ، ثمّ هاجر المؤمنون فبقيت مكّة دار شرك وتمحّض مَنْ عَلِم الله أنّهم لا يؤمنون فأرسل الله عليهم عبادَهُ المؤمنين فاستأصلوهم فوْجاً بعد فوج ، في يوم بدر وما بعده من أيّام الإسلام ، إلى أن تَم استئصال أهل الشّرك بقتل بقيّة من قتل منهم في غزوة الفتح ، مثل عبد الله بن خَطَل ومن قُتل معه ، فلمّا فتحت مكّة دان العرب للإسلام وانقرض أهل الشّرك ، ولم تقم للشّرك قائمة بعد ذلك ، وأظهر الله عنايته بالأمّة العربيّة إذ كانت من أوّلِ دعوة الرّسول غير متمحّضة للشّرك ، بل كان فيها مسلمون من أوّل يوم الدّعوة ، وما زالوا يتزايدون .

وليس المراد في الآية ، بأجل الأمّة ، أجلَ أفرادها ، وهو مدّة حياة كلّ واحد منها ، لأنّه لا علاقة له بالسّياق ، ولأنّ إسناده إلى الأمّة يعيّن أنّه أجل مجموعها لا أفرادها ، ولو أريد آجال الأفراد لقال لكلّ أحد أو لكلّ حَيّ أجل .

(280/268)

و ﴿ إذا ﴾ ظرف زمان للمستقبل في الغالب ، وتتضمّن معنى الشّرط غالباً ، لأنّ معاني الظّروف قريبَة من معاني الشّرط لما فيها من التّعليق ، وقد استُغني بفاء تفريع عامل الظّرف هنا عن الإتيان بالفاء في جواب (إذا) لظهور معنى الرّبط والتّعليق بمجموع الظّرفية والتّفريع ، والمفرعُ هو : ﴿ جاء أجلهم ﴾ وإنّما قدم الظّرف على عامله للاهتمام به ليتأكّد بذلك التّقديمِ معنى التّعليق .

والمجيء مجاز في الحلول المقدّر له كقولهم جاء الشّتاء .

وإفراد الأجل في قوله : ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ مراعى فيه الجنس ، الصّادق بالكثير ، بقرينة إضافته إلى ضمير الجمع .

وأُظهر لفظ أجل في قوله : ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ ولم يُكتف بضميره لزيادة تقرير الحكم عليه ، ولتكون هذه الجملة مستقلّة بنفسها غير متوقّفة عن سماع غيرها لأنّها بحيث تَجْري

مَجرى المثل ، وإرسالُ الكلام الصّالح لأن يكون مَثلا طريق مِن طُرق البلاغة .

و﴿ يستأخرون ﴾ : و﴿ يستقدمون ﴾ بمعنى : يتأخّرون ويتقدّمون ، فالسّين والتّاء فيهما للتّأكيد مثل استجاب .

والمعنى : إنّهم لا يتجاوزونه بتأخير ولا يتعجّلونه بتقديم .

والمقصود أنّهم لا يؤخّرون عنه ، فَعَطْفُ ﴿ ولا يستقدمون ﴾ لبيان أن ما علمه الله وقدّره على وفق علمه لا يَقْدِر أحد على تغييره وصَرفه ، فكان قوله : ﴿ ولا يستقدمون ﴾ لا تعلّق له بغرض التّهديد .

وقريب من هذا قول أبي الشيص:

وقف الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي . . .

مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلاَ مُتَقَدَّمَ

وكلّ ذلك مبني على تمثيل حالة الذي لا يستطيع التّخلّص من وعيد أو نحوه بهيئة من احتُبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(281/268)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾

نحن هنا أمام نص قرآني تثبته قضايا الوجود الواقعي ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم في طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجري الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، ففي أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34]

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعي ، وعلى ذلك فالمسائل التي تحدث في الكون وهذه الأمم التي تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطغيان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً

وإلى مساجده عمارًا وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلابد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كأن سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

(282/268)

إن في واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلي ولا يصوم ولا يذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائذاً به ملتجئًا إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبة ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتي به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعته أنت ، إنّ لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت في عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتي السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل .

إن الحق يعمي بصائرهم في تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف

يغلبهم ويسيطر عليهم . وإذا جاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت في يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلحظ هنا وجود كلمة " ساعة " ، والساعة لها اصطلاح عصري الآن من حيث إنها معيار زمني لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدري فقد يخترع البشر آلاتٍ لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على قيام القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(283/268)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب في تالي التلخيص وابن النجار في تاريخه عن أبي الدرداء قال : " تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : من وصل رحمه أنسىء في أجله . فقال " إنه ليس بزائدة في عمره ، قال

الله ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون الله له من بعده فيبلغه ذلك ، فذلك الذي ينسأ في أبده ، وفي لفظ : فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي عروبة قال : كان الحسن يقول : ما أحمق هؤلاء القوم . . . ! يقولون . اللهم أطل عمره ، والله يقول ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر من طريق الزهري عن ابن المسيب قال : لما طعن عمر قال كعب : لو دعا الله عمر لأَخَّر في أجله . فقيل له : أليس قد قال الله ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ؟ فقال كعب : وقد قال الله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ [فاطر : 11] قال الزهري : وليس أحد إلا له عمر مكتوب ، فرأى أنه ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما شاء وينقص ﴿ فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

(284/268)

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن كعب قال : كان في بني إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر وإذا ذكرنا عمر ذكرناه ، وكان إلى جنبه يوحى إليه ، فأوحى الله إلى النبي أن يقول له : أعهد عهدك واكتب إلى وصيتك فإنك ميت إلى ثلاثة أيام ، فأخبره النبي بذلك ، فلما كان في اليوم الثالث وقع بين الجدر وبين السرير ، ثم جار إلى ربه فقال : اللهم إن كنت تعلم أني كنت أعدل في الحكم ، وإذا اختلفت الأمور ابتعت هداك ، وكنت فزدني في عمري حتى يكبر طفلي وتربوا أمتي . فأوحى الله إلى النبي : أنه قد قال كذا وكذا وقد صدق : وقد زدته في عمره خمس عشرة سنة ، ففي ذلك ما يكبر طفله وتربو أمته ، فلما طعن عمر قال كعب : لئن سأل عمر ليبقينه ، فأخبر بذلك عمر فقال : اللهم اقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم .

وأخرج ابن سعد عن ابن أبي مليكة قال : لما طعن عمر جاء كعب ، فجعل يبكي بالباب ويقول قال : والله لو أن أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخره لأخَّرَهُ ، فدخل ابن عباس عليه فقال : يا أمير المؤمنين هذا كعب يقول كذا وكذا ؟ قال : إذاً والله لا أسأله .

وأخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن لبيبة عن أبيه عن جده قال : جاء سعد بن أبي وقاص فقال : يا رب إن لي بنين صغاراً فأخِّر عني الموت حتى يبلغوا ، فأخر عنه الموت عشرين سنة .

وأخرج أحمد عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من سره النسأ في الأجل والزياده في الرزق فليصل رحمه " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " من ولي من أمر أمتي شيئاً فحسنت سريرته رزق الهيبة من قلوبهم ، وإذا بسط يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم ، وإذا وفر عليهم أموالهم وفر الله عليه ماله ، وإذا أنصف الضعيف من القوي قوّى الله سلطانه ، وإذا عدل مدَّ في عمره " .

(285/268)

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : من اتقى ربه ، ووصل رحمه ، نسىء له في عمره ، وربا ماله ، وأحبه أهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(286/268)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله عز وجل : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾

خبر مقدَّمٌ ، ولا حاجة إلى حذف مضاف كما زعم بعضهم أنَّ التقدير : ولكلِّ أحد من أمةٍ

أجل أي : عُمْرٌ ، كأنَّه توهم أنّ كل أحد له عمر مستقل ، وأنَّ هذا مراد الآية الكريمة ، ومراد الآية أعم من ذلك .

قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ .

قال بعضهم : كُلُّ موضع في القرآن العظيم من شبه هذا التَّركيب ، فإن " الفاء " داخلة على " إذَا " إلا في " يونس " فيأتي حكمها ، وأما سائر المواضع فقال : " لأنَّها عطفت جملة على أخرى بينهما اتصال وتعقيب ، فكان الموضع موضع الفاء " .

وقرأ الحسنُ وابْنُ سيرينَ : " آجَالُهُم " جمعاً .

قوله : " لا يَسْتَأْخِرُونَ " جواب " إذَا " ، والمضارعُ المنفي بـ " لا " إذا وقع جواباً لـ " إذَا " جاز أن يُتلقى بـ " الفاء " ، وألا يُتلقى بها .

قال أبو حيَّان : وينبغي أن يعتقد أن بين الفاء والفعل بعدها اسماً مبتدأ ، فتصير الجملة اسميّة ، ومتى كانت كذلك وجب أن تلتقى " بالفاء " أو " إذا " الفجائية .

و " ساعة " نصب على الظرف ، وهي مثل في قلة الزمان .

(287/268)

قوله : " وَلاَ يَسْتَقْدِمُون " هذا مستأنف ، معناه الإخبار بأَنَّهم لا يسبقون أجلهم المضروب لهم ، بل لا بدَّ من استيفائهم إيَّاه ، كما أنهم لا يتأخرون عنه أقلّ زمان .

وقال الحُوفِيُّ – رحمه الله – وغيره : إنَّهُ معطوف على " لا يستأخرون " ولهذا لا يجوز ؛ لأن " إذا " إنَّما يترتب عليها وعلى ما بعدها الأمور المستقبلة لا الماضية ، والاستقدام بالنّسبة إلى مجيء الأجل مُتقدم عليه ، فكيف يترتب عليه ما تقدَّمَهُ ؟ ويصيرُ هذا من باب الإخبار بالضَّروريات التي لا يجهل أحد معناها ، فيصير نظير قولك : " إذا قمت فيما يأتي لم يتقدَّم قيامك فيما مضى " ومعلومٌ أنَّ قيامك في المستقبل لم يتقدّم قيامك هذا .

وقال الواحديُّ : إن قيل : ما معنى هذا مع استحالة التَّقديم على الأجل وقت حضوره ؟ وكيف يحسن التقديم مع هذا الأجل ؟

قيل : هذا على المُقاربَةِ ؛ لأنَّ العرب تقول : " جاء الشّتَاءُ " إذا قرب وقته ، ومع مقاربة الأجل يتصور الاستقدام ، وإن كان لا يتصور مع الانْقِضَاءِ ، والمعنى : لا يستأخرونَ عن آجالهم إذا انقضت ، ولا يستقدمون عليها إذا قاربت الانقضاء ، وهذا بناءً منه على أَنَّهُ معطوف على " لا يَسْتَأْخرُون " ، وهو ظاهر أقوال المفسرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 99 . 100 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

لكلِّ قوم مدةٌ مضروبةٌ ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة ؛ فلنعمةِ المُتْرَفِين مُدَّةٌ ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشِّدّة ، ولمحنةِ المستضعفين مدةٌ فإذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة .

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة ، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 532 ﴾

(288/268)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

(289/268)

التفسير : لما ذكر أن الأرض لبني آدم ذكر أنه أنزل كل ما يحتاجون إليه في الدين والدنيا فقال : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا ﴾ وأيضاً لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة وأنه كان يخصف عليها أتبعه ذكر اللباس الساتر للعورة إظهاراً للمنّة وإشعاراً بأن التستر باب من أبواب التقوى . ومعنى إنزال اللباس أنه قضى ثمة وكتب أو أنه حاصل بالمطر المنزل من أبواب التقوى . ومعنى إنزال اللباس أنه قضى ثمة وكتب أو أنه حاصل بالمطر المنزل من السماء ومثله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ [الحديد : 25] والريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته أي أنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوآتكم ولباساً لزينتكم لأن الزينة غرض صحيح كما قال : ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ [النحل : 6] ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ [النحل : 6] ومن قرأ ﴿ رياشاً ﴾ فقد قيل : إنه جمع ريش كشعب وشعاب . وقال الجوهري : الريش والرياش بمعنى كاللبس واللباس وهو لباس الفاخر . ويقال : الريش والرياش المال والخصب

والمعاش . وبالجملة كل شيء يعيش به الإنسان ومنه قولهم رشت فلاناً أصلحت حاله ، وقال ابن السكيت : الرياش مختص بالثياب والأثاث ، والريش قد يطلق على سائر الأموال . أما قوله : ﴿ ولباس التقوى ﴾ فمن قرأ بالنصب فعلى المنصوب قبله عطف ، ومن رفع فعلى الابتداء وخبره إما الجملة التي هي ﴿ ذلك خير ﴾ كأنه قيل : ولباس التقوى وهو خير لأن أسماء الإشارة كالضمائر في صلاح العود بسببها ، وإما المفرد الذي هو ﴿ خير ﴾ و ﴿ ذلك ﴾ بدل أو عطف بيان أو صفة بتأويل ولباس التقوى المشار إليه خير . والعدول إلى الإشارة إما لتعظيم لباس التقوى وإما أن يكون المراد بلباس التقوى هو اللباس المواري للسوأة لأن مواراة السوأة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة . ثم من المفسرين من حمل لباس التقوى على نفس الملبوس أي اللباس الذي أنزله الله تعالى ليواري به السوأة هو

(290/268)

لباس التقوى لأن قوماً من أهل الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب ويطوفون بالبيت عراة فيكون كقول القائل : قد عرفتك الصدق في أبواب البر والصدق خير لك من غيره فيعيده .

أو المراد به ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها في الحروب . أو يراد الملبوسات المعدة لأجل إقامة الصلاة ومنهم من حمله على لباس التقوى مجازاً فقال قتادة والسدي وابن جريج : إنه الإيمان . وقال ابن عباس : هو العمل الصالح . وقيل : هو السمت الحسن . وقيل : هو العفاف والتوحيد لأن المؤمن لا تبدو عورته وإن كان عارياً عن الثياب ، والفاجر لا تزال عورته مكشوفة وإن كان كاسياً . وقال معبد : هو الحياء . وقيل : هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخباث والأعمال الصالحات . وعلى هذا فمعنى الآية إن لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به وأقرب إلى الله تعالى مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به فأضاف اللباس إلى التقوى كما أضيف إلى الجوع والخوف في قوله : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ [النحل : 112] ﴿ وذلك من آيات الله ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ فيعرفون عظيم النعمة فيه . ثم حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان لأن المقصود من قصص الأنبياء عليهم السلام أن تكون عبرة لمن يسمعها فقال : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ﴾ الفتنة الامتحان ، تقول : فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته . وقال الخليل : الفتن الإحراق . وورق فتين أي

فضة محرقة ، قال الله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ [الذاريات : 13] من قدر على إخراج الأب من الجنة مع كمال قوته وقرب عهده من فيضان ربه فهو على منع أولاده عن أن يدخلوا الجنة أقدر . ومحل ﴿ كما أخرج ﴾ نصب على المصدر أي فتنة مثل إخراج أبويكم لأن هذا الإخراج نوع من الفتنة . ومحل ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ حال أي أخرجهما نازعا لباسهما بأن كان سبباً في أن نزع عنهما . واللام في ﴿ ليريهما سوآتهما ﴾ لام العاقبة أو لام الغرض كما تقدم في قوله : ﴿ ليبدي لهما ﴾ [الأعراف : 20] قال ابن عباس : يرى آدم سوأة حواء ويرى حواء سوأة آدم وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا

(292/268)

أحدهما من الآخر . وعن عائشة رضي الله عنها ما رأيت منه ولا رأى مني . وحمله العلماء على الكراهية لا على التحريم . واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما فقيل : الثوب الحائل بينهما وبين النظر . وعن سعيد بن جبير : كان لباسهما من جنس الأظفار . وقيل : اللباس الذي هو ثياب الجنة ، قال الكعبي : في الآية دلالة على أن المعاصي والفتن كلها منسوبة إلى الشيطان . وأجيب بأنه لا بد من الانتهاء إلى خالق الكل وموجد القدر

والدواعي . ثم علل النهي وأكد التحذير بقوله : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ أي جماعته من الثلاثة فصاعداً . والقبيل بنو أب واحد .

(293/268)

وقال ابن قتيبة : أي أصحابه وجنده . وقال الليث : هو وقبيله أي وجماعته . ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ أي يكيدون ويغتالون من حيث لا تشعرون . قال بعض المتكلمين ومنهم المعتزلة : الوجه في أن الإنس لا يرون الجن رقة أجسام الجن ولطافتها ، والوجه في رؤية الجن الإنس كثافة أجسام الإنس ، والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضاً أن الله تعالى يقوي شعاع أبصار الجن ويزيد فيه ولو زاد الله في قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضاً ، ولو أنه تعالى كثف أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة لرأيناهم . وقال أهل السنة : إنهم يرون الإنسان لأنه تعالى خلق في عيونهم إدراكاً ، والإنس لا يرونهم لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس . قال بعض العلماء : ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص ففيه دليل على أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعي رؤيتهم فزور ومخرقة . ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأي صورة شاؤا لارتفع الوثوق عن الناس حتى الزوجة

والولد ، ولو كانوا قادرين على تخبيط الناس ، وإزالة العقل عنهم لكان أولى الناس بذلك العلماء والمشايخ لأن العداوة بينهم وبين خواص الإنس أشد . وعن مجاهد قال إبليس : أعطينا أربع خصال : نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى . وعن مالك بن دينار أن عدوّاً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله . والضمير في ﴿ إنه ﴾ للشأن وهو تأكيد ليصح العطف على المرفوع المتصل ، ثم قال ﴿ إنا جعلنا الشياطين ﴾ الآية . واحتج أهل السنة على أنه تعالى هو الذي سلط الشيطان عليهم حتى أضلهم وأغواهم ويتأكد هذا النص بقوله : ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ [مريم : 83] اعتذر القاضي بأن المراد من الجعل الحكم بأن الشيطان ولي لمن لا يؤمن أو المراد التخلية بينهم وبينهم كمن يربط الكلب في داره ولا يمنعه من التوثب على الداخل

(294/268)

وأجيب بأن حمل الجعل على الحكم خلاف الظاهر ، وهب أنه حكم بذلك فهل يمكن مخالفة حكم الله ؟ وبأن الإرسال إنما يصدق على التسليط لا على التخلية المجردة قوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ قال بعضهم : نزلت في اتخاذهم البحائر والسوائب . وقيل : في الطواف بالبيت عراة والأولى التعميم والفحشاء الخصلة المتزايدة في القبح أعني الكبيرة

والمراد أنهم كانوا يفعلون أشياء هي في أنفسها فواحش ويعتقدون أنها طاعات فوبخوا على ذلك لينتهوا عنها . ثم إنه حكى عنهم حجتين : الأولى التقليد ولم يذكر جوابها لظهور بطلانها عند كل عاقل ، والثانية أن الله أمرهم بذلك فأجاب عنها بقوله : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ فللمعتزلة أن يحتجوا به على أن الشيء إنما يقبح لوجه عائد إليه وأن كونه في نفسه من الفحشاء مغاير لتعلق الأمر والنهي ولهذا أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ؟ والجواب أن عدم الأمر بالفحشاء لا ينافي إرادة الفحشاء ومشيئتها ونحن لا ندعي إلا أنه تعالى مريد لجميع الكائنات وأن شيئاً منها لا يخرج عن حكمه وأرادته وتقديره مع أنه لا يأمر إلا بالعدل والصواب كما قال : ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ قال عطاء والسدي : أي بالعدل وبما ظهر في العقول كونه حسناً .

(295/268)

وعن ابن عباس هو قول لا إله إلا الله ويندرج فيه معرفة الله تعالى بذاته وأفعاله وأحكامه .

أما قوله : ﴿ وأقيموا ﴾ فليس من باب عطف الطلب على الخبر وإنما التقدير : وقل أقيموا ﴿ وجوهكم ﴾ أي استقبلوا القبلة واستقيموا وأخلصوا ﴿ عند كل مسجد ﴾ في كل وقت سجود أو في مكان سجود كأن المعنى وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة

إلى الكعبة . وقال ابن عباس : المراد أنه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحد إني لا أصلي إلا في مسجد قومي . ثم لما أمر بالتوجه إلى القبلة أمر بعده بالدعاء والأظهر أن المراد به أعمال الصلاة سميت دعاء لأن أشرف أجزاء الصلاة هو الدعاء والذكر ، ويمكن أن يقال : الدعاء بمعنى العبادة فيكون كقوله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ [البينة : 5] ثم برهن على المعاد ليتحقق الجزاء فقال : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال الحسن ومجاهد : كما بدأ خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً كذلك تعودون أحياء . وعن ابن عباس : المراد كما بدأ خلقكم مؤمناً أو كافراً تعودون فيبعث المؤمن مؤمناً والكافر كافراً ، فإن من خلقه الله تعالى في أول الأمر للشقاوة يعمل بعمل أهل الشقاوة وكانت عاقبته ذلك ، ومن خلقه للسعادة فإنه يعمل عمل أهل السعادة وكانت عاقبته السعادة . ويؤيد هذا التفسير قوله عقيب ذلك ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ وانتصاب ﴿ فريقاً ﴾ الثاني بفعل مضمر يفسره ما بعده أي وخذل أو أضل فريقاً حق عليهم الضلالة كقولك زيداً مررت به . قال القاضي : المعنى فريقاً هدى إلى الجنة والثواب وفريقاً حق عليهم الضلالة أي العذاب والصرف عن طريق الثواب لأن هذا هو الذي يحق عليهم دون غيره إذ العبد لا يستحق أن يضل عن الدين إذ لو استحق ذلك لجاز أن يأمر أنبياءه بإضلالهم عن الدين كما أمرهم بإقامة الحدود المستحقة .

وأجيب بأن قوله : ﴿ هدى ﴾ و﴿ حق ﴾ ماض وحمله على المستقبل خلاف الظاهر ، وبأن الهدى إلى

(296/268)

الجنة أو الضلال عنها لا بد أن يكون محكوماً به في الأزل وخلاف حكمه محال . ثم بيّن ما لأجله حقت على هذه الفرقة الضلالة أعني السبب القريب وإلا فانتهاء الكل إلى مسبب الأسباب فقال : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ فقبلوا دعوتهم دون دعوته ولم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل .

ثم بين أن جهلهم مركب لا بسيط فقال : ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ وفيه أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في أصول الدين بل لا بد فيه من القطع واليقين .

ثم لما أمر بالقسط وكان من جملته أمر اللباس والمأكول والمشروب وأيضاً أمر بإقامة الصلاة وكان ستر العورة شرطاً لصحتها فلا جرم قال : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم ﴾ عن ابن عباس قال : كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على سفليها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر

تقيها من الذباب وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . وما بدا منه فلا أحله

(297/268)

وعن طاوس : لم يأمرهم بالحرير والديباج وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد . وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه لأنهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها : وقيل : كانوا يفعلون ذلك تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب . وقال الكلبي : كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً في أيام حجهم يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : يا رسول الله نحن أحق بذلك فأنزل الله الآية . قال أكثر المفسرين : المراد من الزينة لبس الثياب لقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ [النور : 31] يعني الثياب . وأيضاً الزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات ولأنه يناسب ما تقدم من ذكر اللباس والرياش ، ولأن ظاهر الأمر الوجوب وكل ما سوى اللبس غير واجب فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان . والسنة فيه أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة . وقيل : الزينة المشط . وقيل : الطيب . ثم إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية تقتضي وجوب اللبس التام عند كل صلاة ترك العمل به في القدر الذي لا

يجب ستره من الأعضاء إجماعاً بقي الباقي داخلاً تحت اللفظ . فإذن ستر العورة واجب في الصلاة وإلا فسدت صلاته . قال أصحاب أبي حنيفة : لبس الثوب المغسول بماء الورد على أقصى وجوه النظافة أخذ للزينة فيكفي في صحة الصلاة . وأجيب بأن اللام في قوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ [البينة : 5] تنصرف إلى المعهود السابق وهو صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم قلتم إنه يصلي في الثوب المغسول بماء الورد ؟ أما قوله : ﴿ وكلوا ﴾ أي اللحم والدسم . ﴿ واشربوا ﴾ فقد قيل إنهما أمر إباحة بالاتفاق فوجب أن يكون أخذ الزينة أيضاً على الإباحة . وأجيب بأنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف تركه في المعطوف عليه مع أن الأكل والشرب قد يكونان واجبين . أيضاً في الجملة وهما يشملان جميع المطعومات والمشربات ويتناولان الأحوال والأوقات إلا ما

(298/268)

خصه الدليل المنفصل . والعقل أيضاً مؤكد لهذا المعنى لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة .

(299/268)

وفي قوله : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ وجهان : الأول أنه يأكل ويشرب بحيث لا يتعدى إلى الحرام ولا يكثر الإنفاق المستقبح ولا يتناول مقداراً كثيراً يضره ولا يحتاج إليه . الثاني – وهو قول أبي بكر الأصم – أن المراد من الإسراف قولهم بتحريم البحيرة والسائبة فإنهم أخرجوها عن ملكهم وتكروا الانتفاع بها . وأيضاً إنهم حرموا على أنفسهم في وقت الحج ما أحله الله تعالى لهم . قال بعض العلماء : إن حمل الإسراف على الاستكثار مما لا ينبغي أولى من حمله على المنع مما يجوز وينبغي . وعن ابن عباس : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد صاحب المغازي : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم أبدان وعلم أديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال : قوله ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال : قوله : " المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته " فقال : النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً . قيل : كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها فأنكر ذلك عليهم بقوله : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : هي اللباس الساتر للعورة . وقال آخرون

: إنها تتناول جميع أنواع الزينة من الملابس والمراكب والحلي وكذا كل ما يستطاب ويستلذ من المآكل والمشارب والنساء والطيب . عن عثمان بن مظعون أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : غلبني حديث النّفس عزمت على أن اختصي فقال : مهلاً يا عثمان فإن خصاء أمتي الصيام . قال : فإن نفسي تحدثني بالترهب فقال : إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلوات . فقال : تحدثني نفسي بالسياحة قال : سياحة أمتي

(300/268)

الغزو والحج والعمرة . فقال : أن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك . فقال : الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم المسكين واليتيم وتعطيه ما فضل من ذلك . فقال : نفسي تحدثني أن أطلق خولة . فقال : أن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله تعالى . قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها فقال : إن المسلم إذا غشى أهله وما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيف في الجنة وإن كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح يوم القيامة ، وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كانله شفيعاً ورحمة يوم القيامة . قال : فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم .

(301/268)

قال : مهلاً إني آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله . قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب . قال : مهلاً فإن جبريل يأمرني بالطيب غباً وقال : لا تتركه يوم الجمعة . ثم قال : يا عثمان لا ترغب عن سنتي فإنه من رغب عن سنتي ومات فليس مني ، ولو مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي . واعلم أن كل واقعة تقع فإما أن لا يكون فيها نفع ولا ضر أو يتساوى ضرها ونفعها فوجب الحكم في القسمين ببقاء ما كان على ما كان ، وإن كان النفع خالصاً وجب لإطلاق الآية ، وإن كان الضرر خالصاً وكان تركه خالص النفع فيلتحق بالقسم المتقدم ، وإن كان النفع راجحاً والضرر مرجوحاً تقابل المثل بالمثل وبقي القدر الزائد نفعاً خالصاً ، وإن كان الضرر راجحاً بقي القدر الزائد ضرراً خالصاً وكان تركه نفعاً خالصاً ، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والحرمة إلا أن نجد نصاً خاصاً في الواقعة فنقضي به تقديماً للخاص على العام . قال نفاة القياس : لو تعبدنا الله تعالى بالقياس لكان حكم ذلك القياس إما أن يكون موافقاً لحكم هذا النص العام وحينئذٍ يكون ضائعاً لأن هذا النص مستقبل به ، وإن كان مخالفاً كان ذلك القياس تخصيصاً لعموم هذا النص فيكون مردوداً لأن العمل بالنص أولى من العمل بالقياس ، فإذن القرن وافٍ بجميع الأحكام الشرعية والله تعالى أعلم . ثم بيّن أن الزينة والطيبات خلقت في الحياة الدنيا لأجل المؤمنين

بالأصالة وللكفرة بالتبعية كقوله : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ﴾ [البقرة : 126] وأما في الآخرة فإنها خالصة لهم فقال : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة ﴾ من قرأ بالرفع فلأنه خبر بعد خبر . قال أبو علي : أبو على الخبر ﴿ والذين آمنوا ﴾ متعلق به والتقدير : هي خالصة للذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿ يوم القيامة ﴾ وعلى هذا يكون ﴿ في الحياة ﴾ ظرفاً ل ﴿ آمنوا ﴾ و ﴿ يوم القيامة ﴾

(302/268)

ظرفاً ل ﴿ خالصة ﴾ فيفهم من ذلك أنها في غير يوم القيامة غير خالصة لهم بل تكون مشوبة برحمة الكفار . وعلى الأول يكون ﴿ في الحياة ﴾ ظرفاً لمحذوف أي هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا وهي لهم خالصة يوم القيامة . ومن قرأ بالنصب فعلى الحال وباقي التقدير كما ذكرنا آنفاً ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي لقوم يمكنهم النظر والاستدلال حتى يتوصلوا به إلى تحصيل العلوم النظرية . ثم بين أصول الأفعال المحرمة وحصرها في ستة أنواع لأن الجناية إما على الفروج وأشار إليها بقوله : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ وإما أن تكون على العقول وهي شرب الخمر وإليها الإشارة بقوله : ﴿ والإثم ﴾ وقيل : الفواحش الكبائر والإثم الصغائر .

وقيل : الفواحش كل ما تزايد قبحه وتبالغ ، والإثم عام لكل ذنب كأنه خصص أوّلاً ثم عمم . وإما أن تكون الجناية على النفوس والأموال والأعراض وإليهن الإشارة بقوله : ﴿ والبغي بغير الحق ﴾ ومعنى بغير الحق أن لا يقدموا على إيذاء الناس بالقتل والقهر إلا أن يكون لهم فيه حق فحينئذٍ يخرج عن أن يكون بغياً ، وإما أن تكون الجناية على الأديان إما بالطعن في التوحيد وإليه أشارة بقوله : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي لا سلطان حتى ينزل وإما بالافتراء على الله وذلك قوله : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ فإن قيل : الفاحشة وغيرها هي التي نهى الله تعالى عنها فيصير تقدير الآية إنما حرم ربي المحرمات وهذا كلام خالٍ عن الفائدة . فالجواب أن كون الفعل فاحشة عبارة عن اشتماله في ذاته على أمور باعتبارها يجب النهي عنه فيزول الإشكال . ثم شدد أمر التكاليف بالآجال المحدودة والأنفاس المعدودة فقال : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ عن ابن عباس والحسن ومقاتل : معناه أنه تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين لا يعذبهم قبل ذلك ولا يؤخرهم عنه والمقصود وعيد أهل مكة . وقيل : معناه أن أجل العمر لا يتقدم ولا يتأخر سواء الهالك والمقتول . وأورد على القول الأول أنه ليس لكل أمة من

الأمم وقت معين في نزول عذاب الاستئصال . وعلى الثاني أنه كان ينبغي أن يقال : ولكل إنسان أو أحد أجل . ويمكن أن يقال : الأمة هي الجماعة في كل زمان والمعلوم من حالها التفاوت في الآجال فزال السؤال . وليس المراد أنه تعالى لا يقدر على تبقيته أزيد من ذلك ولا أنقص ولا يقدر على أن يميته إلا في ذلك الوقت لأن هذا يقتضي خروجه سبحانه وتعالى عن كونه قادراً مختاراً أو صيرورته كالموجب لذاته ، بل المراد أنه تعالى اختار أن الأمر يقع على هذا الوجه وإنما ذكر الساعة لأن هذا الجزء من الزمان أقل ما يستعمل في تقليل الأوقات عرفاً . والساعة في اصطلاح أهل النجوم جزء من أربعة

(304/268)

وعشرين جزءاً من يوم بليلته . قيل : إن عند حضور الأجل يمتنع عقلاً وقوع ذلك الأجل في الوقت المتقدم فما معنى قوله : ﴿ ولا يستقدمون ﴾ ؟ وأجيب بأن مجيء الأجل محمول على قرب حضور الأجل كقوله العرب : جاء الشتاء إذا قارب وقته ومع مقاربة الأجل يصح التقدم على ذلك الوقت تارة والتأخر عنه أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 221 . 228 ﴾

(305/268)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

هذه وقفة من وقفات التعقيب في سياق السورة . وهي وقفة طويلة بعد المشهد الأول في قصة البشرية الكبرى . وفي سياق السورة وقفات كهذه عند كل مرحلة . كأنما ليقال : قفوا هنا نتدبر ما في هذه المرحلة من عبرة قبل أن نمضي قدماً في الرحلة الكبرى !

وهي وقفة في مواجهة المعركة التي بانت طلائعها بين الشيطان والبشرية . وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله ؛ ولكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلاً في صور وأشكال شتى . .

ولكن المنهج القرآني لا يعرض توجيهاً إلا لمواجهة حالة قائمة ؛ ولا يقص قصصاً إلا لأن له موقعاً في واقع الحركة الإسلامية . . إنه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفني ! ولا يقرر

حقيقة لمجرد عرضها النظري . . إن واقعية الإسلام وجديته تجعلان توجيهاته وتقريراته ، لمواجهة حالات واقعة بالفعل في مواجهة الحركة الإسلامية .

(306/268)

وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذي يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأولى من قصة البشرية الكبرى . . كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركي العرب الذين يفدون لحج بيت الله – الذي جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها ! – وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنها من دين الله ؛ وصاغتها في شرائع ، زعمت أنها من شرع الله ! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين ؛ كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء في كل جاهلية على وجه التقريب . . وكانت قريش سمت نفسها اسماً خاصاً وهو " الحُمس " وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب . ومن هذه الحقوق – فيما يختص بالطواف بالبيت – أنهم هم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم . فأما بقية العرب فلا تطوف في ثياب لبستها من قبل . فلا بد أن تستعير من ثياب الحمس للطواف أو تستجد ثياباً لم تلبسها من قبل وإلا طافوا عرايا وفيهم النساء !

قال ابن كثير في التفسير : (كانت العرب – ما عدا قريشاً – لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي

لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ! وكانت قريش – وهم الحمس – يطوفون في ثيابهم . ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ؛ ومن معه ثوب جديد طاف فيه . ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ! ومن لم يجد ثوباً جديداً ، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً ! وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر . . . وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ؛ فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ .

(307/268)

. فقال تعالى رداً عليهم : ﴿ قل ﴾ . أي يا محمد لمن ادعى ذلك . ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك . ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ . . أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته . وقوله تعالى : ﴿ قل : أمر ربي بالقسط ﴾ . . أي بالعدل . والاستقامة : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ﴾ . . أي أمركم بالاستقامة في عبادته في

محالها ، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله ، وما جاءوا به من الشرائع ، وبالإخلاص له في عبادته . فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : (أي أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك) .

ففي مواجهة هذا الواقع الجاهلي في شؤون التشريع للعبادة والطواف واللباس – مضافاً إليه ما يختص بتقاليد كهذه في الطعام يزعمون أنها من شرع الله وليست من شرع الله – في مواجهة هذا الواقع جاءت تلك التعقيبات على قصة البشرية الأولى . وجاء ذكر الأكل من ثمر الجنة – إلا ما حرم الله – وجاء ذكر اللباس خاصة ، ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه بإغوائه لهما بتناول المحظور ؛ وجاء ذكر حيائهما الفطري من كشف السوآت ، وخصفهما على سوآتهما من ورق الجنة . .

فما ذكر من أحداث القصة ، وما جاء في التعقيب الأول عليها ، هو مواجهة واقعية لواقع معين في الجاهلية . .

والقصة تذكر في مواضع أخرى من القرآن ، في سور أخرى ، لمواجهة حالات أخرى ، فتذكر منها مواقف ومشاهد ، وتذكر بعدها تقريرات وتعقيبات تواجه هذه الحالات الأخرى . . وكله حق . . ولكن تفصيل القرآن لمواجهة الواقع البشري هو الذي يقتضي هذا الاختيار والتناسق . بين حلقات القصص المعروض في كل معرض ، وطبيعة الجو والموضوع في كل معرض .

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً . ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ . .

(308/268)

هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة . . مشهد العري وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنة . . لقد كان هذا ثمرة للخطيئة . . والخطيئة كانت في معصية أمر الله ، وتناول المحظور الذي نهى عنه الله . . وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس !) والتي تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات " فرويد " المسمومة . . لم تكن هي الأكل من " شجرة المعرفة " – كما تقول أساطير العهد القديم . وغيرة الله – سبحانه وتعالى – من " الإنسان " وخوفه – تعالى عن وصفهم علواً كبيراً – من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة ! كما تزعم تلك الأساطير . ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربي دائماً حول مستنقع الوحل الجنسي ، لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودي ! .

.

وفي مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسر لهم ، وشرع لهم كذلك ، اللباس الذي يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة – بهذا الستر – وجمالاً ، بدل قبح العري وشناعته – ولذلك يقول : ﴿ أنزلنا ﴾ أي : شرعنا لكم في التنزيل .

واللباس قد يطلق على ما يواري السوأة وهو اللباس الداخلي . والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب . كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال . . وهي كلها معان متداخلة ومتلازمة :

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ﴾ . .

كذلك يذكر هنا ﴿ لباس التقوى ﴾ ويصفه بأنه ﴿ خير ﴾ :

﴿ ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله . ﴾ . .

قال عبد الرحمن بن أسلم : (يتقي الله فيواري عورته ، فذاك لباس التقوى) . .

(309/268)

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى . . كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب ويزينه . وذاك يستر عورات الجسم ويزينه . وهما متلازمان . فعن

شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري . . العري من الحياء والتقوى ، والعري من اللباس وكشف السوأة !

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر ؛ وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق .

والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل :

﴿ لعلهم يذَّكرون ﴾ . .

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ؛ والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي - باسم الزينة والحضارة والمودة ! - وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم ، والتعجيل بانحلالهم ، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق ، بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العري النفسي والبدني الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في

كل مكان ! والزينة " الإنسانية " هي زينة الستر ، بينما الزينة " الحيوانية " هي زينة العري . . ولكن " الآدميين " في هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة .

فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها ! ! !

(310/268)

﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل : أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون . . ﴾

إنه النداء الثاني لبني آدم ، في وقفة التعقيب على قصة أبويهم ، وما جرى لهما مع الشيطان ؛ وعلى مشهد العري الذي أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع

إلى وسوسة عدوهما .

وهذا النداء يصبح مفهوماً بما قدمناه من الحديث عن تقاليد الجاهلية العربية في حكاية العري عند الطواف بالبيت ؛ وزعمهم أن ما وجدوا عليه آباءهم هو من أمر الله وشرعه ! لقد كان النداء الأول تذكيراً لبني آدم بذلك المشهد الذي عاناه أبواهم ؛ وبنعمة الله في إنزال اللباس الذي يستر العورة والرياش الذي يتجمل به . . أما هذا النداء الثاني فهو التحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة . أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة – كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما – فالعري والتكشف الذي يزاولونه – والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً – هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه ؛ وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ؛ وأن ينتصر في هذه المعركة ، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف !

(311/268)

﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ .

وزيادة في التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم . وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ؛ وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كي لا يأخذهم على غرة :

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ . .

ثم الإيقاع المؤثر الموحي بالتوقي . . إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . . ويا ويل من كان عدوه وليه ! إنه إذن يسيطر عليه ويستهويه ويقوده حيث شاء ، بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله :

﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ . .

وإنها لحقيقة . . أن الشيطان ولي الذين لا يؤمنون ؛ كما أن الله هو ولي المؤمنين . . وهي حقيقة رهيبة ، ولها نتائجها الخطيرة .

. وهي تذكر هكذا مطلقة ؛ ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة ؛ فنرى كيف تكون ولاية الشيطان ؛ وكيف تفعل في تصورات الناس وحياتهم . . وهذا نموذج منها :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ . .

وذلك ما كان يفعله ويقول به مشركو العرب ؛ وهم يزاولون فاحشة التعري في الطواف ببيت

الله الحرام – وفيهم النساء ! – ثم يزعمون أن الله أمرهم بها . فقد كان أمر آباءهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها !

(312/268)

وهم – على شركهم – لم يكونوا يتبجحون تبجح الجاهليات الحديثة التي تقول : ما للدين وشؤون الحياة ؟ وتزعم أنها هي صاحبة الحق في اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد من دون الله ! إنما كانوا يفترون الفرية ، ويشرعون الشريعة ، ثم يقولون : الله أمرنا بها ! وقد تكون هذه خطة ألأم وأخبث ، لأنها تخدع الذين في قلوبهم بقية من عاطفة دينية ؛ فتوهمهم أن هذه الشريعة من عند الله . . ولكنها على كل حال أقل تبجحاً ممن يزعم أن له الحق في التشريع للناس بما يراه أصلح لأحوالهم من دون الله !

والله – سبحانه – يأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ؛ وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفحشاء . فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها :

﴿ قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ :

إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً – والفاحشة : كل ما يفحش أي يتجاوز الحد – والعري

من هذه الفاحشة ، فالله لا يأمر به . وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده ؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذي أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء . إن أوامره وشرائعه واردة في كتبه على رسله . وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه . وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنه من شريعة الله ، إلا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسول الله . فالعلم المستيقن بكلام الله هو الذي يستند إليه من يقول في دين الله . . وإلا فأي فوضى يمكن أن تكون إذا قدم كل إنسان هواه ، وهو يزعم أنه دين الله ! !

(313/268)

إن الجاهلية هي الجاهلية . وهي دائماً تحتفظ بخصائصها الأصيلة . وفي كل مرة يرتد الناس إلى الجاهلية يقولون كلاماً متشابهاً ؛ وتسود فيهم تصورات متشابهة ، على تباعد الزمان والمكان . . وفي هذه الجاهلية التي نعيش فيها اليوم لا يفتأ يطلع علينا كاذب مفتر يقول ما يمليه عليه هواه ثم يقول : شريعة الله ! ولا يفتأ يطلع علينا متبجح وقح ينكر أوامر الدين ونواهيه المنصوص عليها ، وهو يقول : إن الدين لا يمكن أن يكون كذلك ! إن الدين لا يمكن أن يأمر بهذا ! إن الدين لا يمكن أن ينهى عن ذاك ، .

. وحجته هي هواه ! ! !

﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ . .

وبعد أن ينكر عليهم دعواهم في أن الله أمرهم بهذه الفاحشة ، يبين لهم أن أمر الله يجري في اتجاه مضاد . . لقد أمر الله بالعدل والاعتدال في الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز . وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء في كتابه على رسوله – صلى الله عليه وسلم – ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول فيها كل إنسان بهواه ، ثم يزعم أنه من الله . وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له ، والعبودية كاملة ؛ فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته :

﴿ قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ﴾ . .

هذا ما أمر الله به ، وهو يضاد ما هم عليه . . يضاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد مثلهم ، مع دعواهم أن الله أمرهم بها . . ويضاد العري والتكشف وقد امتن الله على بني آدم بأنه أنزل عليهم لباساً يواري سوآتهم وريشاً يتجملون به كذلك . . ويضاد هذا الشرك الذي يزاولونه ، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم . .

وعند هذا المقطع من البيان يجيء التذكير والإنذار ؛ ويلوّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما

هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ؛ وبمشهدهم في العودة وهم فريقان : الفريق الذي اتبع أمر الله ، والفريق الذي اتبع أمر الشيطان :

(314/268)

﴿ كما بدأكم تعودون : فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ . .

إنها لقطة واحدة عجيبة تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى ونقطة النهاية . نقطة الانطلاق في البدء ونقطة المآب في الانتهاء :

﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ . .

وقد بدأوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه . والشيطان وقبيله . . وكذلك سيعودون . . الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتبعين لأمر الله . . والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله ، يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون .

لقد هدى الله من جعل ولايته لله . وأضل من جعل ولايته للشيطان . . وها هم أولاء عائدين فريقين : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء

من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

ها هم أولاء عائدين . في لمحة تضم طرفي الرحلة ! على طريقة القرآن ، التي يتعذر أن تتحقق في غير أسلوب القرآن !

ثم يتكرر النداء إلى ﴿ بني آدم ﴾ في هذه الوقفة كذلك ؛ قبل أن يتابع السياق الرحلة المديدة ؛ في الطريق المرسوم :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .

قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؛ والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . .

إنه التوكيد بعد التوكيد على الحقائق الأساسية للعقيدة ، في مواجهة ما عليه المشركون العرب في الجاهلية ؛ وذلك في سياق النداء إلى بني آدم كافة ، وفي مواجهة قصة البشرية الكبرى . .

(315/268)

وأظهر هذه الحقائق هو الربط بين ما يحرمونه من الطيبات التي أخرجها الله لعباده دون إذن منه ولا شرع ؛ وبين الشرك الذي هو الوصف المباشر لمن يزاول هذا التحريم ، ويقول على الله ما لا يعلم ، ويزعم من ذلك ما يزعم .

إنه يناديهم أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذي أنزله الله عليهم . وهو الرياش . عند كل عبادة ؛ ومنها الطواف الذي يزاولونه عرايا ، ويحرمون اللباس الذي لم يحرمه الله ، بل أنعم به على العباد . فأولى أن يعبدوه بطاعته فيما أنزل لهم ، لا بخلعه ولا بالفحش الذي يزاولونه :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ . .

ويناديهم كذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف :

﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

وقد ورد أنه كان هناك تحريم في الطعام كالتحريم في الثياب . وكان هذا من مبتدعات قريش كذلك !

وفي صحيح مسلم عن هشام عن عروة عن أبيه قال : "كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ، والحمس قريش وما ولدت . كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال ، والنساء النساء . وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة ؛ وكان الناس يبلغون عرفات . ويقولون : نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب

صديق بمكة يعيره ثوباً ، ولا يسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عرياناً وإما أن يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى " . .

(316/268)

وجاء في تفسير القرطبي المسمى " أحكام القرآن " : " وقيل إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسماً في أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عراة . فقيل لهم : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ﴾ أي لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرم عليكم " . . والإسراف يكون بتجاوز الحد ، كما قد يكون بتحريم الحلال . كلاهما تجاوز للحد . هذا باعتبار ، وذاك باعتبار .

ولا يكتفي السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب . بل يستنكر تحريم هذه الزينة التي أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق . فمن المستنكر أن يحرم أحد – برأيه – ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطيبات .

فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله :

﴿ قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ ؟

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هي حق للذين آمنوا – بحكم إيمانهم بربهم الذي أخرجها لهم – ولئن كان سواهم يشاركهم فيها في هذه الدنيا ، فهي خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الذين كفروا :

﴿ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴾ . .

ولن يكون الشأن كذلك ، ثم تكون محرمة عليهم ؛ فما يخصهم الله في الآخرة بشيء هو حرام !

﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

والذين ﴿ يعلمون ﴾ حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان .

فأما الذي حرمه الله حقاً ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب – في غير سرف ولا مخيلة – إنما الذي حرمه الله حقاً هو الذي يزاولونه فعلاً !

﴿ قل : إنما حرم ربي الفواحش – ما ظهر منها وما بطن – والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . .

(317/268)

هذا هو الذي حرمه الله . الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . ظاهرة للناس أو خافية . والإثم . وهو كل معصية لله على وجه الإجمال . والبغي بغير الحق . وهو الظلم الذي يخالف الحق والعدل – كما بينهما الله أيضاً – وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطاناً مع الله – سبحانه – في خصائصه . ومنه هذا الذي كان واقعاً في الجاهلية ، وهو الواقع في كل جاهلية . من إشراك غير الله ليشرع للناس ؛ ويزاول خصائص الألوهية . وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . كالذي كانوا يقولونه من التحليل والتحريم . ومن نسبتهم هذا إلى أمر الله بغير علم ولا يقين . .

ومن عجيب ما روي من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ؛ ووجه إليهم هذا الاستنكار الوارد في قوله تعالى : ﴿ قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . . ﴾ ما رواه الكلبي قال :

" لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها . . فنزلت الآية . . "

فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التي يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء في الجنة : ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، في زينة الله التي أنعم بها على البشر ؛ لإرادته بهم

الكرامة والستر ؛ ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية في سلامتها وجمالها الفطري ، وليتميزوا عن العري الحيواني . . الجسمي والنفسي . . إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله في زينة الله وفق فطرة الله " عيروهم " !

إنه هكذا تصنع الجاهلية بالناس .

. هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين في كل زمان وكل مكان ؟ !

(318/268)

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رقياً وحضارة وتجديداً ؛ ثم تعير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن " رجعيات " .

" تقليديات " . " ريفيات " !

المسخ هو المسخ . والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس . وانقلاب الموازين هو انقلاب

الموازين . والتبجح بعد ذلك هو التبجح . . ﴿ أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! ﴾ وما الفرق كذلك في علاقة هذا العري ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية ، وهذا التبجح ، بالشرك ، وبالأرباب التي تشرع للناس من دون الله ؟

لئن كان مشركو العرب قد تلقوا في شأن ذلك التعري من الأرباب الأرضية التي كانت تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم ، لضمان السيادة لها في الجزيرة . . ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التي تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء . . فإن مشركي اليوم ومشركاته يتلقون في هذا عن الأرباب الأرضية كذلك . . ولا يملكون لأمرهم رداً . .

إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها ، لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية ! وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح ، فهي تطيع صاغرة . . تطيع تلك الأرباب . وإلا " عيرت " من بقية البهائم المغلوبة على أمرها !

ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ؟ ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العري والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص ، والمجلات والصحف ، التي تقود هذه الحملة المسعورة . . وبعضها يبلغ في هذا إلى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخوراً

متنقلاً للدعارة ؟ !

من الذي يقبع وراء هذا كله ؟

الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلها ، في العالم كله . . يهود . .

(319/268)

يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ! ويبلغون أهدافهم كلها من إطلاق هذه الموجات المسعورة في كل مكان . . أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ؛ وإشاعة الانحلال النفسي والخلقي من ورائه ، وإفساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل ! ثم تحقيق الأهداف الاقتصادية من وراء الإسراف في استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التي تقوم على هذا السعار وتغذيه !

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة . . ومن ثم ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك في السياق .

إنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى :

إنها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية ، وتحديد الجهة التي تشرع للناس في هذه الأمور ، ذات

التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة .

كذلك تتعلق بإبراز خصائص " الإنسان " في الجنس البشري ، وتغليب الطابع " الإنساني " في هذا الجنس على الطابع الحيواني .

والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق . وتجعل العري – الحيواني – تقدماً ورقياً . والستر – الإنساني – تأخراً ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : ما للدين والزي ؟ ما للدين وملابس النساء . ؟ ما للدين والتجميل ؟ . . إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان ! ! !

ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الإسلام ، لارتباطها أولاً بقضية التوحيد والشرك ؛ ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الإنسان وخلقه ومجتمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله . . فإن السياق يعقب عليها بإيقاع قوي مؤثر ؛ يوقع به عادة في مواقف العقيدة الكبيرة . . إنه يعقب بتنبيه بني آدم ، إلى أن بقاءهم في هذه الأرض محدود مرسوم ؛ وأنه إذا جاء الأجل فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون :

(320/268)

﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة ، يوقع بها السياق على أوتار القلوب الغافلة – غير الذاكرة ولا الشاكرة – لتستيقظ ، فلا يغرها امتداد الحياة !

والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذي يقطع الحياة . وإما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها . . وسواء هذا الأجل أو ذاك فإنه مرسوم لا يتقدمون عنه ولا يستأخرون .

وقبل أن نترك هذه الجولة نسجل ما لاحظناه من التشابه العجيب في مواجهة المنهج القرآني للجاهلية في شأن الذبائح والنذور والتحليل فيها والتحريم – في سورة الأنعام – ومواجهته للجاهلية – هنا في شأن اللباس والطعام . .

ففي شأن الذبائح والنذور في الأنعام والثمار ، بدأ أولاً بالحديث عما تزاوله الجاهلية فعلاً من هذه التقاليد ؛ وعما تزعمه – افتراء على الله – من أن هذا الذي تزاوله هو من شرع الله . ثم طلب إليهم الدليل الذي يستندون إليه في أن الله حرم هذا الذي يحرمونه ، وأحل هذا الذي يحلونه : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ثم واجه هروبهم من هذه المواجهة بإحالة الأمر إلى قدر الله وإلى أمره لهم بهذا الشرك الممثل في مزاولة الحاكمية وهي

من خصائص الألوهية : ﴿ سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ! كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون : قل : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾

(321/268)

حتى إذا انتهى من تفنيد هذا الباطل الذي يدعونه ويفترونه ، قال لهم : تعالوا لأبين لكم حقيقة ما حرم الله عليكم وحقيقة ما أمركم به : عن المصدر الصحيح الوحيد المعتمد في هذا الشأن ؛ والذي لا يجوز الأخذ عن غيره : ﴿ قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً . . الخ ﴾ وهنا كذلك سار على نفس النسق ، وعلى ذات الخطوات . . ذكر ما هم عليه من فاحشة العري ومن الشرك في مزاولة الحاكمية في التحريم والتحليل في اللباس والطعام . وحذرهم ما هم عليه من الفاحشة والشرك ، وذكرهم مأساة العري التي واجهها أبواهما في الجنة بفعل الشيطان وكيده ؛ ونعمة الله عليهم في إنزال اللباس

والرياش . . ثم استنكر دعواهم أن ما يزاولونه من التحريم والتحليل هو من شرع الله وأمره : ﴿ قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا . خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ . مشيراً هنا إلى العلم اليقيني لا الظن والخرص الذي يبنون عليه دينهم وشعائرهم وعباداتهم وشرائعهم . . حتى إذا أبطل دعواهم فيما يزاولون عاد ليقرر لهم ما حرمه ربهم عليهم فعلاً : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش – ما ظهر منها وما بطن – والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . . كما أنه قد بين لهم من قبل حقيقة ما أمر الله به في شأن اللباس والطعام – لا ما يدعونه هم وينسبونه إلى الله – : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ . . ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين ﴾ . .

وفي كلتا المواجهتين علق القضية كلها بقضية الإيمان والشرك . لأنها في صميمها هي قضية الحاكمية ، ومن الذي يزاولها في حياة البشر . وقضية عبودية الناس ولمن تكون !

(322/268)

ذات القضية ، وذات المنهج في مواجهتها . وذات الخطوات . . وصدق الله العظيم : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وهذه الوحدة في المنهج تبدو أهميتها ويزداد بروزها حين نذكر طبيعة سورة الأنعام وطبيعة سورة الأعراف والمجالين المختلفين اللذين تعالجان فيهما قضية العقيدة . . فإن اختلاف المجال لم يمنع وحدة المنهج في مواجهة الجاهلية في القضايا الأساسية . . وسبحان منزل هذا القرآن ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1276 . 1286 ﴾

(323/268)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾

هو لباس الشريعة ﴿ يواري ﴾ سوآت الأفعال القبيحة في الظاهر وسوآت الصفات الذميمة النفسانية والحيوانية بآداب الطريقة في الباطن ﴿ وريشاً ﴾ زينةً وجمالاً في الظاهر والباطن ﴿ ولباس التقوى ﴾ وهو لباس القلب والروح والسر والخفي . فلباس القلب من التقوى هو الصدق في طلب المولى فيواري به سوآت الطمع في الدنيا وما فيها ،

ولباس الروح من التقوى هو محبة المولى فيواري به سوآت التعلق بغير المولى ، ولباس السر من التقوى هو رؤية المولى فيواري بها رؤية غير المولى ، ولباس الخفي من التقوى بقاؤه بهوية المولى فيواري بها هوية غير المولى ﴿ ذلك خير ﴾ لأن لباس البدن بالفتوى هو الشريعة ولباس القلب بالتقوى هو الحقيقة ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ أي إنزال الشريعة والحقيقة مما يدل على المولى .

(324/268)

﴿ لا يفتننكم الشيطان ﴾ بالدنيا وما فيها ومتابعة الهوى فيخرجكم عن جنة الصدق في طلب الحق ﴿ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ وجوار الحق ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ من الشرع وذلك نهيهما عن شجرة المحبة ﴿ ليريهما سوآتها ﴾ من مخالفة الحق وما علما أن فيها هذه الصفة ، ومن جملة سوآتهما كل كمال ونقصان كان مستوراً فيهما فأراهما بعد تناول الشجرة ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ يعني من الروحانيين الذين لا صورة لهم في الظاهر فإنهم يرون بنظر الملكوت الروحاني من الإنساني بعض الأفعال التي تتولد عن الأوصاف البشرية كما رأوا في آدم ﴿ وقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ أي إنما يرونكم من حيث البشرية التي منشؤها الصفات الحيوانية فإنكم

محجوبون بهذه الصفات عن رؤيتهم لا من حيث الروحانية التي هي منشأ علوم الأسماء والمعرفة لإنهم لا يرونكم في هذا المقام ، وأنتم ترونهم بالنظر الروحاني بل بالنور الرباني . ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء ﴾ خلقناهم مستعدين لتولية أمور أهل الغفلة والطبيعة . ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ هي طلب الدنيا وحبها ﴿ قالوا إنا وجدنا آباءنا ﴾ على محبة الدنيا وشهواتها ﴿ والله أمرنا ﴾ بطلب الكسب الحلال ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ وإنما يأمر بالكسب الحلال بقدر الحاجة الضرورية لقوام القالب بالقوت واللباس ليقوم بأداء حق العبودية وذلك قوله : ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ ﴿ كما بدأكم ﴾ لطفاً أو قهراً ﴿ تعودون ﴾ إليه . فأهل اللطف يعودون إليه بالإخلاص والطاعة وأهل القهر الذين حقت عليهم الضلالة يعودون إليه جبراً واضطراراً فيسحبون في النار على وجوههم ﴿ خذوا زينتكم ﴾ فزينة الظاهر التواضع والخضوع ، وزينة الباطن الانكسار والخشوع ، وزينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود فالعابد على الباب بنعت العبودية والعارف على البساط بحكم الحرية ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ في مقام العندية كما قال :

(325/268)

" أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " ﴿ ولا تسرفوا ﴾ بالإفراط فوق الحاجة الضرورية والتفريط في حفظ القوة بحيث تضيع حقوق العبودية . ﴿ زينة الله ﴾ فزين الأبدان بالشرائع وآثارها ، وزين النفوس بالآداب وأقدارها ، وزين القلوب بالشواهد وأنوارها ، وزين الأرواح بالمعارف وأسرارها ، وزين الأسرار بالطوالع وآثارها ، فمن تصدّى لطلب هذه المقامات فهي مباحة له من غير تأخير وقصور وحظر ومنع ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ ما لم يكن مشوباً بحظوظ النفس ، فهذه الكرامات والمقامات لهؤلاء السادة في الدنيا مشوبة بشواهد الآفات النفسانية وكدورات الصفات الحيوانية ﴿ خالصة يوم القيامة ﴾ من هذه الآفات والكدورات كما قال :

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ [الحجر : 47] ﴿ الفواحش ﴾ ما يقطع على العبد طريق السلوك إلى الرب ؛ ففاحشة العوام ﴿ ما ظهر منها ﴾ ارتكاب المناهي ﴿ وما بطن ﴾ خطورها بالبال ، وفاحشة الخواص ﴿ ما ظهر منها ﴾ تتبع ما لأنفسهم نصيب منه ولو بذرة ﴿ وما بطن ﴾ الصبر على المحبوب ولو بلحظة ، وفاحشة الأخص ﴿ ما ظهر منها ﴾ ترك أدب من الآداب أو التعلق بسبب من الأسباب ﴿ وما بطن ﴾ الركون إلى شيء في الدارين والالتفات إلى غير الله من العالمين . ﴿ والإثم ﴾ الإعراض عن الله ولو طرفة عين ﴿ والبغي ﴾ وهو حب غير الله فإنه وضع في غيره موضعه . وأن يستغيثوا بغير الله ما لم يكن فيه رخصة وحجة من الشريعة ﴿ وأن تقولوا ﴾ بفتوى النفس

وهواها أو بنظر العقل ﴿ على الله ما لا تعلمون ﴾ حقيقتها أو تقولوا في معرفة الله وبيان أحوال السائرين ما لمستم به عارفين ﴿ وكل أمة ﴾ من السائرين إلى الله أو إلى الجنة مدة مضروبة في الأزل ، وفيه وعد للأولياء واستمالة لقلوبهم ووعيد للأعداء وسياسة لنفوسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 228.230 ﴾

(326/268)

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان استشراف النفس إلى السؤال عما يكون بعد حين المستقر والمتاع أشد من استشرافها إلى هذا لكونه أخفى منه ، فهو أبعد من خطوره في البال ؛ قدم قوله : ﴿ قال فيها تحيون ﴾ [الأعراف : 25] ولما كان ذكر الدواء لداء هتك السوءة أهم قدم ﴿ أنزلنا عليكم لباساً ﴾ [الأعراف : 26] ثم ما بعده حتى كان الأنسب بهذه الاية هذا الموضع فنظمت فيه .

ولما تقدمت الإشارة إلى الحث على اتباع الرسل بآيات المقصد الأول من مقاصد هذه السورة كقوله تعالى ﴿كتاب أنزل إليك﴾ [الأعراف: 2] و﴿لتنذر﴾ [الأعراف: 2] و﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ [الأعراف: 3] وقوله ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم﴾ [الأعراف: 6] وقوله ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ [الأعراف: 29]، ﴿إنما حرم ربي الفواحش﴾ [الأعراف: 33] والتحذير من الشياطين بقوله ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ [الأعراف: 3] وبقوله ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: 16]، ﴿لا يفتننكم الشيطان﴾ [الأعراف: 27] وغيره، فتحرر أنه لا سبيل إلى النجاة إلا بالرسل، وختم ذلك بالأحل حثاً على العمل في أيام المهلة؛ أتبع ذلك قوله حاثاً على التعلق بأسباب النجاة باتباع الدعاة الهداة قبل الفوت بحادث الموت ببيان الجزاء لمن احسن الاتباع في الدارين ﴿يا بني آدم﴾.

(327/268)

ولما كان له سبحانه أن يعذب من خالف داعي العقل من غير إرسال رسول، وكان إرسال الرسل جائزاً له وفضلاً منه سبحانه إذ لا يوجب عليه، أشار إلى ذلك بحرف الشك فقال: ﴿إما﴾ هي إن، الشرطية وصلت بها ما تأكيداً ﴿يأتينكم رسل﴾ ولما كانت زيادة

الخبرة بالرسول أقطع للعذر وأقوى في الحجة قال : ﴿ منكم ﴾ أي من نوعكم من عند ربكم .

ولما كان الأغلب على مقصد هذه السورة العلم كما تقدم في ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [الأعراف : 7] ويأتي في ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ [الأعراف : 52] وغيرها ، كان التعبير بالقص - الذي هو تتبع الأثر كما تقدم في الأنعام - أليق فقال : ﴿ يقصون عليكم آياتي ﴾ أي يتابعون ذكرها لكم على وجه مقطوع به ، ويتبع بعضهم بها أثر بعض لا يتخالفون في أصل واحد من الأصول .

ولما كان لقاء الرسل حتماً والهجرة إليهم واجبة لأن العمل لا يقبل إلا بالاستناد إليهم مهما وجد إلى ذلك سبيل ، ربط الجزاء بالفاء فقال : ﴿ فمن اتقى ﴾ أي خاف مقامي وخاف وعيدي بسبب التصدق بالرسل والتلقي عنهم ﴿ وأصلح ﴾ أي عمل صالحاً باقتفاء آثارهم ﴿ فلا خوف ﴾ أي غالب ﴿ عليهم ﴾ أي بسبب ذلك من شيء يتوقعونه ﴿ ولا هم ﴾ أي بضمائرهم ﴿ يحزنون ﴾ أي يتجدد لهم في وقت ما حزن على شيء فاتهم ، لأن الله يعطيهم ما يقر به أعينهم ، وكأنه غاية في التعبير لأن إجلالهم لله تعالى وهيبتهم له يمكن أن يطلق عليهما خوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 29 . 30 ﴾

(328/268)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ حتى إذا ادّاركوا ﴾ كان يعقوب : إذا وقف على " إذا " يبتدىء ﴿ تداركوا ﴾ بالتاء . سهل : مخير ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ قلتم ﴾ ﴿ وقالوا إنا طيرنا ﴾ وافق الكسائي في ﴿ تثاقلتم ﴾ ﴿ أخراهم لأولاهم ﴾ بالإمالة الشديدة : إبراهيم بن حماد وحمزة وعلي وخلف . وقرأ أبو عمر وغير إبراهيم بن حماد ﴿ أولاهم ﴾ بالإمالة اللطيفة ﴿ أخراهم ﴾ بالإمالة الشديدة ، وافق ورش من طريق النجاري والخزاز عن هبيرة في ﴿ أخراهم ﴾ بالإمالة الشديدة ﴿ فآتهم ﴾ بضم الهاء : رويس وكذلك كل كلمة سقطت الياء لعلة . إلا قوله : ﴿ ومن يولهم ﴾ [الأنفال : 6] ﴿ لا يعلمون ﴾ بياء الغيبة : أبو بكر وحماد ﴿ لا تفتح لهم ﴾ بتاء التأنيث والتخفيف : أبو عمرو . وقرأ حمزة وعلي وخلف بفتح ياء تحتانية وبالتخفيف . الباقون بتاء التأنيث والتشديد . ﴿ غواشي ﴾ بالياء في الوقف : يعقوب وكذلك كل كلمة سقطت الياء لأجل التنوين أو لاجتماع الساكنين وهو مذهب سهل من طريق ابن دريد ، ﴿ ما كنا ﴾ بغير واو العطف : ابن عامر . الآخرون بالواو . ﴿ أورثتموها ﴾ وبابه بإدغام الثاء : أبو عمرو وحمزة وعلي وهشام .

(329/268)

الوقوف : ﴿ آياتي ﴾ لا لأن الفاء بعده لجواب الشرط ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ ه ﴿ النار ﴾ ط ﴿ خالدون ﴾ ه ﴿ بآياته ﴾ ط ﴿ من الكتاب ﴾ ط ﴿ يتوفونهم ﴾ لا لأن ما بعده جواب "إذا" . ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ كافرين ﴾ ه ﴿ في النار ﴾ ط ﴿ أختها ﴾ ط ﴿ جميعاً ﴾ لا لما قلنا . ﴿ من النار ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ الخياط ﴾ ط ﴿ المجرمين ﴾ ه ﴿ غواش ﴾ ج ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ وسعها ﴾ ط وجعل ﴿ أولئك ﴾ خبراً للموصول أوجه بناء على أن قوله : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ معترضة ﴿ الجنة ﴾ ط ﴿ خالدون ﴾ ه ﴿ الأنهار ﴾ ط للعطف مع العارض . ﴿ اهدنا الله ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتفاق المعنى ﴿ بالحق ﴾ ط لابتداء النداء بأنها جزاء بعد انتهاء الحمد والثناء على أنها عطاء ﴿ تعملون ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 230 . 231 ﴾

(330/268)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين أحوال التكليف وبين أن لكل أحد أجلاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر بين أنهم بعد الموت كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن وإن كانوا متمردين وقعوا في أشد العذاب وقوله : ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء ، وهو قوله : ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ وإنما قال رسل وإن كان خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليه وعليهم السلام لأنه تعالى أجرى الكلام على ما يقتضيه سنته في الأمم وإنما قال : ﴿ مّنكُمْ ﴾ لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم وأبين للحجة عليهم من جهات : أحدها : أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة .

وثانيها : أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شك وشبهة في أنها حصلت بقدرة الله تعالى لا بقدرته فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] .

وثالثها : ما يحصل من الألفة وسكون القلب إلى أبناء الجنس ، بخلاف ما لا يكون من الجنس ، فإنه لا يحصل معه الألفة .

وأما قوله : ﴿ يَقُصُّونَ عَلِيمٌ ءاياتي ﴾ فقيل تلك الآيات هي القرآن وقيل الدلائل ، وقيل

الأحكام والشرائع والأولى دخول الكل فيه ، لأن جميع هذه الأشياء آيات الله تعالى لأن الرسل إذا جاؤا فلا بد وأن يذكروا جميع هذه الأقسام ، ثم قسم تعالى حال الأمة فقال : ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ وجمع هاتين الحالتين مما يوجب الثواب لأن الملتقي هو الذي يتقي كل ما نهى الله تعالى عنه ، ودخل في قوله : ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أنه أتى بكل ما أمر به .

(331/268)

ثم قال تعالى في صفته : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بسبب الأحوال المستقبلة ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي بسبب الأحوال الماضية لأن الإنسان إذا جوز وصول المضرة إليه في الزمان المستقبل خاف وإذا تفكر فعلم أنه وصل إليه بعض ما لا ينبغي في الزمان الماضي ، حصل الحزن في قلبه ، لهذا السبب والأولى في نفي الحزن أن يكون المراد أن لا يحزن على ما فاته في الدنيا ، لأن حزنه على عقاب الآخرة يجب أن يرتفع بما حصل له من زوال الخوف ، فيكون كالمعاد وحمله على الفائدة الزائدة أولى فبين تعالى أن حاله في الآخرة تفارق حاله في الدنيا ، فإنه في الآخرة لا يحصل في قلبه خوف ولا حزن ألبتة ، واختلف العلماء في أن المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف ، وحزن عند أهوال يوم القيامة فذهب بعضهم إلا أنه لا يلحقهم ذلك ، والدليل عليه هذه الآية ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [

الأنبياء : 103] وذهب بعضهم إلى أن يلحقهم ذلك الفزع لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ [الحج : 2] أي من شدة الخوف .

وأجاب هؤلاء عن هذه الآية : بأن معناه أن أمرهم يؤل إلى الأمن والسرور ، كقول الطبيب للمريض : لا بأس عليك ، أي أمرك يؤل إلى العافية والسلامة ، وإن كان في الوقت في بأس من علته ، ثم بين تعالى أن الذين كذبوا بهذه الآيات التي يجيء بها الرسل ﴿ واستكبروا ﴾ أن أنفوا من قبولها وتمردوا عن التزامها ﴿ فأولئك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ وقد تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن الفاسق من أهل الصلاة ، لا يبقى مخلداً في النار ، لأنه تعالى بين أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن قبولها ، هم الذين يبقون مخلدين في النار ، وكلمة ﴿ هُمْ ﴾ تفيد الحصر ، فذلك يقتضي أن من لا يكون موصوفاً بذلك التكذيب والاستكبار ، لا يبقى مخلداً في النار ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 57.58 ﴾

(332/268)

وقال السمرقندى :

﴿ يا بنى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾

وأصله إنْ ما ومعناه متى ما يأتيكم ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : من جنسكم ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءاياتى ﴾ أي يقرؤون عليكم ، ويعرضون عليكم كتابي ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ أي : اتقى الشرك وأطاع الرسول وأصلح العمل ، يعني : فمن اتقى عما نهى الله عنه وأصلح أي : عمل بما أمر الله تعالى به ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني : لا خوف عليهم من العذاب ولا هم يحزنون من فوات الثواب .

ويقال : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلهم ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا من الدنيا ويقال معناه إمَّا يأتينّكم رسل منكم وأيقنتم فَلاَ خَوْف عَلَيْكُمْ فيما يستقبلكم ، فذكر الله ثواب من اتقى وأصلح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا بني ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾

شرط معناه : إن أتاكم [عجزاً به] فمن بقى ، وقيل فأطيعوه وقال : مقاتل : أراد بقوله يا بني آدم لا تشركوا بالرب ، وبالرسل محمد صلى الله عليه وسلم وحده . ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ عمله ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم ﴾ الآية ،

الخطاب في هذه الآية لجميع العالم . و" إن " الشرطية دخلت عليها " ما " مؤكدة . ولذلك جاز دخول النون الثقيلة على الفعل ، وإذا لم تكن " ما " لم يجز دخول النون الثقيلة . وقرأ أبي كعب والأعرج " تأتينكم " على لفظ الرسل . " وجاء يقصون " على المعنى .

وكأنه هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها هو متمكن لهم ومتحصل منه لحاضري محمد عليه السلام أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه . و ﴿ يأتينكم ﴾ مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوى الإشارة بصحة النبوة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية ، وأسند الطبري إلى أبي سيار السلمي قال إن الله تعالى جعل آدم وذريته في كفه فقال ﴿ يا بني آدم أما يأتينكم رسل منكم ﴾ الآية ، قال ثم نظر إلى الرسل فقال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [المؤمنون : 52] ثم بثهم .

قال القاضي أبو محمد : ولا محالة أن هذه المخاطبة في الأزل وقيل المراد بالرسل محمد عليه السلام .

(334/268)

قال القاضي أبو محمد : من حيث لا نبي بعده ، فكأن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير ، إذ غيرهم لم ينله الخطاب ، ذكره النقاش . و﴿ يقصون ﴾ معناه يسردون ويوردون . و" الآيات " لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة وللعلامات التي تقترن بالأنبياء ، وقوله : ﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ يصح أن تكون " من " شرطية وجوابه ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ وهذه الجملة هي في جواب الشرط الأول الذي هو ﴿ إما يأتينكم ﴾ ويصح أن تكون " من " في قوله ﴿ فمن اتقى ﴾ موصولة ، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس فجعل القسم الأول ﴿ فمن اتقى ﴾ والقسم الثاني ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ . وجاء هذا التقسيم بجملته جواباً للشرط في قوله ﴿ إما يأتينكم ﴾ فكأنه قال إن أتتكم رسل فالمتقون لا خوف عليهم ، والمكذبون أصحاب النار ، أي هذا هو الثمرة وفائدة الرسالة : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [الأنعام : 144 ، الأعراف : 37 ، يونس : 17 ، الكهف : 15] أي ليس ثم نفع للمفتري ولا غرض دنياوي . فالآية تبرية للنبي صلى الله عليه وسلم ، من

الافتراء وتوبيخ للمفترين من الكفار . و﴿ لا ﴾ في قوله ﴿ لا خوف ﴾ بمعنى ليس ، وقرأ ابن محيصن " لا خوف " دون تنوين ، ووجهه إما أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال وإما حملاً على حذفه مع " لا " وهي تبرية ناصبة تشبه حالة الرفع في البناء بحالة النصب ، وقيل : إن المراد فلا الخوف ، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاء على حالها لتدل على المحذوف ، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكادها ، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور والحزن لما مضى منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(335/268)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾

شرط .

ودخلت النون توكيداً لدخول "ما" .

وقيل : ما صلة ، أي إن يأتكم .

أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب .

والقصص إتباع الحديث بعضه بعضاً .

﴿ آيَاتِي ﴾ أي فرائضي وأحكامي .

﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ شرط ، وما بعده جوابه ، وهو جواب الأوّل .

أي وأصلح منكم ما بيني وبينه .

﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رعب ولا فزع .

وقيل : قد يلحقهم أهوال يوم القيامة ، ولكن مآلهم الأمن .

وقيل : جواب ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ما دلّ عليه الكلام ، أي فأطيعوهم ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ والقول الأوّل قول الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(336/268)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم ﴾

هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء ، وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعني منكم وإنما قال رسل بلفظ

الجمع وإن كان المراد به واحد وهو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الأنبياء وهو مرسل إلى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب في قوله يا بني آجم لأهل مكة ومن يلحق بهم .

وقيل : أراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب في قوله يا بني آدم عام في كل بني آدم وإنما قال منكم يعني من جنسكم ومثلكم من بني آدم لأن الرسول إذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله فإذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذي أتى به معجزة له وحجة على من خالفه ﴿ يقصون عليكم آياتي ﴾ يعني يقرؤون عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي ﴿ فمن اتقى ﴾ يعني فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلي ﴿ وأصلح ﴾ يعني العمل الذي أمرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي وما نهيته عنه ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ يعني حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يعني على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(337/268)

وقال أبو حيان :

﴿ يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هو يحزنون ﴾

هذا الخطاب لبني آدم .

قيل : هو في الأول ، وقيل : هو مراعى به وقت الإنزال وجاء بصورة الاستقبال لتقوى الإشارة بصحّة النبوة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما في ﴿ إمّا ﴾ تأكيد ، قال ابن عطية وإذا لم يكن ما لم يجز دخول النون الثقيلة انتهى ، وبعض النحويين يجيز ذلك وجواب الشرط ﴿ فمن اتقى ﴾ فيحتمل أن تكون من شرطيّة وجوابه ﴿ فلا خوف ﴾ وتكون هذه الجملة الشرطية مستقلة بجواب الشرط الأوّل من جهة اللفظ ويحتمل أن تكون من موصولة فتكون هذه الجملة والتي بعدها من قوله ﴿ والذين كذّبوا ﴾ مجموعهما هو جواب الشرط وكأنه قصد بالكلام التقسيم وجعل القسمان جواباً للشّرط أي ﴿ إما يأتينكم ﴾ فالمتّقون لا خوف عليهم والمكذبون أصحاب النار فثمرة إتيان الرّسل وفائدته هذا وتضمن قوله ﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ سبق الإيمان إذ التقوى والإصلاح هما ناشئان عنه وجاء في قسمه ﴿ والذين كذبوا ﴾ والتكذيب هو بدوّ الشقاوة إذ لا ينشأ عنه إلا الانهماك والإفساد وقال بل الإصلاح بالاستكبار لأنّ إصلاح العمل من نتيجة التقوى والاستكبار من نتيجة التكذيب وهو التعاظم فلم يكونوا ليتّبعوا الرسل فيما جاؤوا به ولا

يقتدوا بما أمروا به لأنّ من كذب بالشيء نأي بنفسه عن اتباعه ، وقال ابن عطية : هاتان حالتان تعمّ جميع من يصدّ عن رسالة الرسول إما أن يكذب بحسب اعتقاده أنه كذب وإما أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمّم في اعتقاده على التكذيب وهذا نحو الكفر عناد انتهى ، وتضمّنت الجملتان حذف رابط وتقديره ﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ منكم ، ﴿ والذينَ كذبوا ﴾ منكم وتقدّم تفسير ﴿ فلا خوف ﴾ و ﴿ أولئك أصحاب النار ﴾ الجملتان ، وقرأ أبيّ والأعرج إما تأتينكم بالتاء على تأنيث الجماعة ﴿ ويقصّون ﴾ محمول على المعنى إذ ذاك إذ لو حمل على اللفظ لكان تقصّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(338/268)

وقال أبو السعود :

﴿ يا بني آدم ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى كافة الناس اهتماماً بشأن ما في حيّزه ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ هي إنْ الشرطيةُ ضُمَّت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرطِ ، ولذلك لزِمت فعلَها النونُ الثقيلةُ أو الخفيفةُ ، وفيه تنبيه على أن إرسالَ الرسلِ أمرٌ جائزٌ لا واجبٌ عقلاً ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ الجارُّ متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ لرسلٌ أي كائنون من جنسكم ، وقولُه

تعالى : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءاياتى ﴾ صفةٌ أخرى لرسلٌ أي يبيّنون لكم أحكامي وشرائعي ، وقولُه تعالى : ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جملةٌ شرطيةٌ وقعت جواباً للشرط أي فمن اتقى منكم التكذيبَ وأصلح عملَه فلا خوف الخ ، وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(339/268)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ خطاب لكافة الناس .

ولا يخفى ما فيه من الاهتمام بشأن ما في حيزه .

وقد أخرج ابن جرير عن أبي يسار السلمي قال : (إن الله تبارك وتعالى جعل آدم وذريته في كفه فقال : ﴿ يا بنى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ فاتقون ﴾ ثم بثهم) .

والذي ذهب إليه بعض المحققين أن هذا حكاية لما وقع مع كل قوم .

وقيل : المراد ببني آدم أمة نبينا صلى الله عليه وسلم وهو خلاف الظاهر .

ويبعده جمع الرسل في قوله سبحانه : ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم .

والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل .

و﴿ أَمَّا ﴾ هي إن الشرطية ضمت إليها ما لتأكيد معنى الشرط فهي مزيدة للتأكيد فقط ، وقيل : إنها تفيد العموم أيضاً فمعنى إما تفعلن مثلاً إن اتفق منك فعل بوجه من الوجوه .

ولزمت الفعل بعد هذا الضم نون التأكيد فلا تحذف على ما ذهب إليه المبرد والزجاج ومن تبعهما إلا ضرورة ومن ذلك قوله :

فإما تريني ولي لمة . . .

فإن الحوادث أودي بها

ورد بأن كثرة سماع الحذف تبعد القول بالضرورة .

ووجه هذا اللزوم عند بعض حذار انحطاط رتبة فعل الشرط عن حرفه ، وقيل : إن نون التوكيد لا تدخل الفعل المستقبل المحض إلا بعد أن يدخل على أول الفعل ما يدل على التأكيد كلام القسم أو ما المزيدة ليكون ذلك توطئة لدخول التأكيد وعليه فأمر الاستتباع بعكس ما تقدم .

وفي الإتيان بإن تنبيه على أن إرسال الرسل أمر جائز لا واجب وهو الذي ذهب إليه أهل السنة .

وقالت المعتزلة : إنه واجب على الله تعالى لأنه سبحانه بزعمهم يجب عليه فعل الأصلح .

وقوله سبحانه : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءاياتي ﴾ صفة أخرى لرسل .

وجوز أن يكون في موضع الحال منه أو من الضمير في الظرف أي يعرضون عليكم أحكامي وشرائعي ويخبرونكم بها ويبينونها لكم .

(340/268)

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جواب الشرط و(من) إما شرطية أو موصولة و(منكم) مقدر في نظم الكلام ليرتبط الجواب بالشرط .

والمراد فمن اتقى منكم التكذيب وأصلح عمله فلا خوف الخ .

وتوحيد الضمير وجمعه لمراعاة لفظ من ومعناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(341/268)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) ﴾

يجيء في موقع هذه الجملة : من التّأويل ، ما تقدّم في القولِ في نظيرتها وهي قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم ﴾ [الأعراف : 26] .

والتّأويل الذي استظهرنا به هنالك يبدو في هذه النظيرة الرّابعة أوضحَ .

وصيغة الجمع في قوله : ﴿ رسل ﴾ وقوله ﴿ يقصون ﴾ تقتضي توقّع مجيءِ عدّةِ رسل ، وذلك منتف بعد بعثة الرّسول الخاتم للرّسل الحاشر العاقب عليه الصّلاة والسّلام ، فذلك يتأكّد أن يكون هذا الخطاب لبني آدم الحاضرين وقت نزول القرآن ، ويرجح أن تكون هذه النّدا آت الأربعة حكاية لقولٍ موجّه إلى بني آدم الأوّلين الذي أوّلُه : ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [الأعراف : 25] .

قال ابن عطيّة : "وكأنّ هذا خطاب لجميع الأمم ، قديمها وحديثها ، هو متمكّن لهم ، ومتحصّل منه لحاضري محمّد صلى الله عليه وسلم أنّ هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه" يريد أنّ الله أبلغ النّاس هذا الخطابَ على لسان كلّ نبيء ، من آدم إلى هلم جرّا ، فما من نبيء أو رسول إلاّ وبلّغه أمّته ، وأمَرَهم بأن يبلغ الشّاهد منهم الغائبَ ، حتّى نزل في القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فعلمت أمّته أنّها مشمولة في عموم بني آدم .

وإذا كان ذلك متعيّناً في هذه الآية أو كالمتعيّن تعيّن اعتبار مثله في نظائرها الثّلاث الماضية ، فشد به يدك .

ولا تعبأْ بمن حَرَدك .

فأمَا إذا جعل الخطاب في هذه الآية موجّهاً إلى المشركين في زمن النّزول ، بعنوان كونهم من بني آدم ، فهنالك يتعيّن صرف معنى الشّرط إلى ما يأتي من الزّمان بعد نزول الآية لأنّ الشّرط يقتضي الاستقبال غالباً .

(342/268)

كأنّه قيل إنْ فاتكم اتّباع ما أنزل إليكم فيما مضى لا يَفْتُكم فيما بقي ، ويتعيّن تأويل يأتينّكم بمعنى يَدْعُونَّكم ، ويتعيَّن جعل جمع الرّسل على إرادة رسول واحد ، تعظيماً له ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ [الفرقان : 37] أي كذّبوا رسوله نُوحا ، وقوله : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] وله نظائر كثيرة في القرآن .

وهذه الآية ، والتي بعدها متّصلتا المعنى بمضمون قوله تعالى في أوّل السّورة : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] الآية اتّصال التّفصيل بإجماله .

أكد به تحذيرهم من كيد الشّيطان وفتونه ، وأراهم به مناهج الرّشد التي تُعين على تجنّب كيده ، بدعوة الرّسل إياهم إلى التّقوى والإصلاح ، كما أشار إليه بقوله ، في الخطاب السّابق : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف : 27]

وأنبأهم بأنّ الشّيطان توعّد نوع الإنسان فيما حكى الله في قوله : ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] الآية فلذلك حذرّ الله بني آدم من كيد الشّيطان ، وأشعرهم بقوّة الشّيطان بقوله : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾

[الأعراف : 27] عسى أن يتّخذوا العُدّة للنّجاة من مخالب فتنته ، وأردف ذلك بالتّحذير من حزبه ودعاته الذين يفتنون المؤمنين ، ثمّ عزّز ذلك بإعلامه إياهم أنّه أعانهم على الاحتراز من الشّيطان ، بأن يبعث إليهم قوماً من حزب الله يبلّغونهم عن الله ما فيه منجاة لهم من كيد الشّياطين ، بقوله : ﴿ يا بني آدم إما يأتيكم رسل منكم ﴾ الآية فأوصاهم بتصديقهم والامتثال لهم .

(343/268)

و ﴿ إمَّا ﴾ مركّبة من (إن) الشّرطيّة و(ما) الزائدة المؤكّدة لمعنى الشّرطية ، واصطلح أئمّة رسم الخطّ على كتابتها في صورة كلمة واحدَة ، رعْياً لحالة النّطق بها بإدغام النّون في الميم ، والأظهر أنّها تفيد مع التّأكيد عموم الشّرط مثل أخواتها (مهما) و(أينما) ، فإذا اقترنت بإن الشّرطية اقترنت نون التّوكيد بفعل الشّرط كقوله تعالى : ﴿ فإما ترين من البشر

أحداً فقولي ﴾ سورة مريم (26) لأنّ التّوكيد الشّرطي يشبه القسم ، وهذا الاقتران بالنّون غالب ، ولأنّها لما وقعت توكيداً للشّرط تنزّلت من أداة الشّرط منزلة جزء الكلمة .

وقوله : ﴿ منكم ﴾ أي من بني آدم ، وهذا تنبيه لبَني آدم بأنّهم لا يترقّبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة لأنّ المرسَل يكون من جنس من أرسل إليهم ، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرّسل لأنّهم من جنسهم ، مثل قوم نوح ، إذ قالوا : ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ [هود : 27] ومثل المشركين من أهل مكّة إذ كذّبوا رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم بأنّه بَشر قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أَبعثَ الله بشراً رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94 ، 95] .

ومعنى ﴿ يقصون عليكم آياتي ﴾ يتلونها ويحكونها ويجوز أن يكون بمعنى يُتبعون الآية بأخرى ويجوز أن يكون بمعنى يظهرون وكلّها معان مجازيّة للقص لأنّ حقيقة القص هي أنّ أصل القصص إتْباع الحديث من اقتصاص أثر الأرجل واتّباعه لتعرف جهة الماشي ، فعلى المعنى الأوّل فهو كقوله في الآية الأخرى : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ [الزمر : 71] وأيّاً مّا كان فهو محتمل للحمل على جميعها من استعمال اللّفظ في مجازيْه .

الآية أصلها العلامة الدّالة على شيء ، من قول أو فعل ، وآيات الله الدّلائل التي جعلها دالة على وجوده ، أو على صفاته ، أو على صدق رسله ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ في سورة البقرة (39) ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ في سورة الأنعام (37) ، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للنّاس ، للتّعريض بالمشركين من العرب ، الذين أنكروا رسالة محمّد .

ووجه دلالة الآيات على ذلك إمّا لأنّها جاءت على نظم يَعجز البشر عن تأليف مثله ، وذلك من خصائص القرآن ، وإمّا لأنّها تشتمل على أحكام ومعان لا قِبَل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها ، أو لأنّها تدعو إلى صلاح لم يعهَدْه النّاس .

فيَدل ما اشتملت عليه على أنّه ممّا أراده الله للنّاس ، مثل بقيّة الكتب التي جاءت بها الرّسل ، وإمّا لأنّها قارنتها أمور خارقة للعادة تحدّى بها الرّسولُ المرسلُ بتلك الأقوال أمّتَه ، فهذا معنى تسميتها آيات ، ومعنَى إضافتها إلى الله تعالى ، ويجوز أن يكون المراد بالآيات ما يشمل المعجزاتِ غيرَ القولية ، مثل نبع الماء من بين أصابع محمّد ومثل قلب العصا حيّة لموسى عليه السلام .

وابراء الأكمه لعيسى عليه السّلام ، ومعنى التّكذيب بها العناد بإنكارها وجحدها .

وجملة : فمن اتقى وأصلح ﴾ جواب الشّرط وبينها وبين جملة : ﴿ إما يأتينكم ﴾

محذوف تقديره : فاتقى منكم فريق وكذب فريق ﴿ فمن اتقى ﴾ إلخ ، وهذه الجملة شرطيّة أيضاً ، وجوابها ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ ، أي فمن اتّبع رسلي فاتّقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولمّا كان إتيان الرّسل فائدته لإصلاح النّاس ، لا لنفع الرّسل ، عُدل عن جعل الجواب اتّباعَ الرّسل إلى جعله التّقوى والصّلاح .

(345/268)

إيماء إلى حكمة إرسال الرّسل ، وتحريضا على اتّباعهم بأن فائدتُه للأمم لا للرّسل ، كما قال شعيب : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾ [هود : 88] ، أي لا خوف عليهم من عقوبة الله في الدّنيا والآخرة ولا هم يحزنون من شيء من ذلك ، فالخوف والحزن المنفيان هما ما يوجبه العقاب ، وقد ينتفي عنهم الخوف والحزن مطلقاً بمقدار قوّة التّقوى والصّلاح ، وهذا من الأسرار التي بين الله وعباده الصّالحين ، ومثلُه قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [يونس : 62 64] .

وقد نُفي الخوف نفي الجنس بلا النّافية له ، وجيء باسمها مرفوعاً لأنّ الرّفع يساوي البناء على الفتح في مثل هذا ، لأنّ الخوف من الأجناس المعنوية التي لا يتوهّم في نفيها أن يكون

المراد نفي الفرد الواحدِ ، ولو فتح مثله لصحّ ، ومنه قول الرابّعة من نساء حديث أمّ زرع :

"زوجي كَلَيْلِ تِهامَه ، لا حَرّ ولا قَرّ ولا مخافة ولا سآمَه" فقد روي بالرّفع وبالفتح .

و(على) في قوله : ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ للاستعلاء المجازي ، وهو المقارنة والملازمة ، أي لا خوف ينالهم .

وقوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ جملة عطفت على جملة : ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ ، وعُدل عن عطف المفرد ، بأن يقال ولا حَزَنٌ ، إلى الجملة : ليتأتى بذلك بناء المسند الفعلي على ضميرهم ، فيدلّ على أنّ الحَزَن واقع بغيرهم ، وهم الذين كفروا .

فإنّ بناء الخبر الفعلي على المسند إليه المتقدّم عليه يفيد تخصيص المسند إليه بذلك الخبر ، نحو : ما أنا قُلْتُ هذا ، فإنّه نفيُ صدور القول من المتكلّم مع كون القول واقعاً من غيره ، وعليه بيت "دلائل الإعجاز" ، (وهو للمتنبّي) :

وما أنا أسقمت جسمي به . . .

ولا أنا أضرَمْتُ في القلب ناراً

فيفيد أنّ الذين كفروا يَحزنون إفادة بطريق المفهوم ، ليكون كالمقدّمة للخبر عنهم بعد ذلك بأنّهم أصحاب النّار هم فيها خالدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(346/268)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي ﴾

هنا ينادي الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغي والإثم والشرك ، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع ، وطمأنهم بأنه منتقم من أي أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً . فعليكم يا بني آدم أن تأخذوا أمور حياتكم في إطار هذه المقدمات . ﴿ يا بني ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي . . . ﴾ [الأعراف : 35]

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرق المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه ؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملاذها ، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتي الرسول نجد المجتمع يحرص على ملازمته وعلى تلقي البلاغ منه ، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كي يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدي إلى الصراط المستقيم ، وأنت إذا ما أصبت في عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه ، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليبلغنا منهج الله في إدارة حركة الحياة أن

تتشوق إليه وتتطلع ، لا أن نعاديه ، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : أنه رسول ومعه آية صدقه . ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128]

(347/268)

فلم يأت لكم إنسان لا تعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلي ، لذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن ، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه ، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة – رضوان الله عليها – بنبأ رسالته وأسرّ لها بخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ، أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم " .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك – يا رسول الله – في حفظ الله ورعايته ؛ لأنك كنت

مستقيم السلوك قبل أن تُنَبَّأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن مَن يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟ ! وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هي فائدة ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشري حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بي ، كنا سنرد عليه الرد المقنع السهل اليسير : وهل نقدر أن نفعل مثلك وأنت ملَكٌ مفطور على الخير ؟ . لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشري ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ، وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94]

(348/268)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل كانوا يريدون مَلَكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع البشر ؟ . ولذلك

يرد الحق الرد المنطقي : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95]

وذلك حتى تتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفي ، ولم يُدخلكم في أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر . ﴿ يا بني ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي . . . ﴾ [الأعراف : 35]

وانظر قوله : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ ، لقد جاء بكلمة " يقصّون " لأن القصص مأخوذة من مادة " القاف " و " الصاد المضعَّفة " ؛ وهذا مأخوذ من " قصّ الأثر " ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ أي أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثِّر في الأثر . ﴿ . . . فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : 35]

(349/268)

و " التقوى " هو أن تجعل بينك وبين شيء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق : ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهي . والأمر بالتقوى هنا يعني ألا ننكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

و " أصلح " تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقَّى صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدي مهمتها لا نردمها ، ولا نلقي فيها قاذورات ، وبذلك نبقي الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبني حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت .

وبذلك نزيد الصالح صلاحاً ، والآفة في الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103-104]

إذن فحين تقدم على أي عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك

المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبق الصالح في الكون على صلاحه أو زده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شيء فاتك ليتحقق قول الحق : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ . . . ﴾ [الحديد : 23]

(350/268)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أي هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتي في قوله الحق : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(351/268)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) ﴾

أخرج ابن جرير عن أبي سيار السلمي فقال : إن الله تبارك وتعالى جعل آدم وذريته في كفه فقال ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ثم نظر إلى الرسل فقال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ [المؤمنون : 51] ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [المؤمنون : 53] ثم بثهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(352/268)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي ﴾

وقد تقدَّم إعراب نظيره في البقرة ، وهي أن الشَّرْطِيَّة ضمت إليها مؤكدة لمعنى الشّرط ، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة ، وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط ، والجزاء وهو قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ .

و " مِنْكُم " صفة لرسل " ، وكذلك " يَقُصُّون " وقُدِّمَ الجار على الجملة لأنه أقرب إلى المفرد

منها .

قوله : " فَمَنْ " يحتمل أن يكون شرطية ، وأنْ تكون موصولة ، فإن كان الأوَّلُ ؛ كانت هي وجوابها جواباً للشّرط الأوّل كما تقدَّم ، وهي مستقلة بالجوابِ دون التي تُفِيدُ جوابها وهي " والَّذِينَ كَذَّبُوا " ، وإن كان الثاني كانت هي وجوابها ، والجملة المشار غليها كلاهما جواباً للشَّرط ، كأنَّهُ قسم جواب قوله : " إمَّا يأتينكُمْ " إلى متَّقٍ ومكذب ، وجر كلاًّ منهما ، وقد تقدَّم تحقيق هذا في البقرة .

(353/268)

وحذف مفعولي " اتَّقَى وأصْلَحَ " اختصاراً للعلم بهما أي : اتَّقَى ربه وأصلحِ عمله ، أو اقتصاراً أي : فَمَنْ كان من أهل التَّقْوى والصَّلاح من غير نظر إلى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ [النجم : 48] ولكن لا بدَّ من تقدير رابط بين هذه الجملة ، وبين الجملة الشرطية ، والتقدير : فمن منكم والذين كذَّبوا منكم .

وقرأ أبيٌّ والأعرج " تَأتينكُمْ " بتاء مثناة من فوق نظراً إلى معنى جماعة الرسل فيكون قوله تعالى " يَقُصُّون " بالياء من تحت حملاً على المعنى إذ لو حمل على اللفظ لقال : " تقُصُّ " بالتَّأنيث أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 100 . 101 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) ﴾

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون ، واحملوا الأمرَ على الجِدّ فإنَّا – مع استغنائنا عن الأغيار ، وتَقَدُّسِنا عن المنافع والمضار – نُطَالِبُ بالقليل والكثير ، ونحاسِبُ على النقير والقطمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 532 ﴾

(354/268)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر المصدق ، أتبعه المكذب فقال ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا ؛ ولما كان التكذيب قد يكون عن شبهة أو نوع من العذر ، نفى ذلك بقوله : ﴿ واستكبروا عنها ﴾ أي أوجدوا الكبر إيجاد من هو طالب له عظيم الرغبة فيه ، متجاوزين عنها إلى أضداد ما دعت إليه .

ولما ذلك ليس سبباً حقيقياً للتعذيب ، وإنما هو كاشف عمن ذرأه الله لجهنم لإقامة الحجة عليه ، أعري عن الفاء قوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ أصحاب النار ﴾ ولما كان صاحب الشيء هو الملازم له المعروف به ، قال مصرحاً بذلك : ﴿ هم ﴾ أي خاصة ليخرج العاصي من غير تكذيب ولا استكبار ﴿ فيها ﴾ أي النار خاصة ، وهي تصدق بكل طبقة من طبقاتها ﴿ خالدون ﴾ فقد تبين أن إثبات الفاء أولاً للترغيب في الاتباع ، وتركها ثانياً للترهيب من شكاسة الطباع ، فالمقام في الموضعين خطر ، ولعل من فوائده الإشارة إلى أنه إذا بعث رسول وجب على كل من سمع به أن يقصده لتحرير أمره ، فإذا بان له صدقه تبعه ، وإن تخلف عن ذلك كان مكذباً – الله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 30 ﴾

(355/268)

وقال السمرقندى :

ثم بيّن عقوبة من لم يتقِ فقال عز وجلّ : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا واستكبروا عَنْهَا ﴾ أي تعظموا عن الإيمان ، فلم يؤمنوا بالرسل وتكبروا عن الإيمان ﴿ أُولَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ أي : دائمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا ﴾

هذه حالتان تعم جميع من يصد عن رسالة الرسول إما أن يكذب بحسب اعتقاده وإما أن يستكبر فكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا نحو الكفر عناداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾

يعني ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا ﴿ واستكبروا عنها ﴾ يعني واستكبروا عن الإيمان بها وما جاءت به رسلنا ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ يعني لا يخرجون منها أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(356/268)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا واستكبروا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾

أي والذين كذبوا منكم بآياتنا ، وإيرادُ الاتقاءِ في الأول للإيذان بأن مدارَ الفلاحِ ليس مجردَ عدمِ التكذيبِ بل هو الاتقاءُ والاجتنابُ عنه ، وإدخالُ الفاءِ في الجزء الأولِ دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحةِ في الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(357/268)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين كَذَّبُواْ ﴾ منكم ﴿ بآياتنا ﴾ التي تقص ﴿ واستكبروا عَنْهَا ﴾ ولم يقبلوها ﴿ أُولَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لتكذيبهم واستكبارهم .

وهذه الجملة عطف على الجملة السابقة .

وإيراد الاتقاء فيها للإيذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه .

وإدخال الفاء في الوعد دون الوعيد للمبالغة في الأول والمسامحة في الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(358/268)

وقال القاسمى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ ﴾ أي : تكبروا : ﴿ عَنْهَا ﴾ فلم يؤمنوا بها : ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

تنبيه : على وجوب اتباع الرسل

قال الجشمي : تدل الآية ، وقبول ما يؤدون ، وتدل على أن الصلاح في الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم ، لأنهم يكونون بطريقته أعرف ، ومن النفار عنه أبعد ، وإلى السكون إليه أقرب ، وتدل على أن الغرض بالرسول ما يؤدي من الأدلة ، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولاً إلا ومعه ما يؤديه : وتدل على أن الجنة تنال بشيئين : بالأعمال الصالحة ، واتقاء المعاصي ، فبطل قول المرجئة .

وتدل على أن المؤمن في الآخرة لا يخاف ولا يحزن ، خلاف ما يقوله الأحسدية كذا ، والحشوية هكذا ، قاله أكثر أصحابنا .

وقال أبو بكر أحمد بن علي : قوله : ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ كقول الطبيب للمريض لا بأس عليك ، يعني أن أمره يؤول إلى العافية .

وليس هذا بالوجه لأنه نفى الخوف والحزن مطلقاً ، وتدل على الوعيد للمكذبين ، كما تدل على الوعيد للمطيعين ، ترغيباً وترهيباً ، وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد فبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة . انتهى كلامه رحمه الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 54.53 ﴾

(359/268)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فمن اتَّقى وأصلح ﴾ .

والرَابط محذوف تقديره : والذين كفروا منكم وكذّبوا .

والاستكبار مبالغة في التّكبّر ، فالسين والتّاء للمبالغة .

وهو أن يعُد المرء نفسه كبيراً أي عظيماً وما هو به ، فالسّين والتاء لعد والحسبان ، وكلا الأمرين يؤذن بإفراطهم في ذلك وأنّهم عَدَوْا قدرهم .

وضمن الاستكبار معنى الإعراض .

فعلّق به ضمير الآيات .

والمعنى : واستكبروا فأعرضوا عنها .

وأفاد تحقيق أنّهم صائرون إلى النّار بطريق قصر ملازمة النّار عليهم في قوله : ﴿ أولئك أصحاب النار ﴾ لأنّ لفظ أصحاب مؤذن بالملازمة .

وبما تدلّ عليه الجملة الاسميّة من الدّوام والثّبات في قوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(360/268)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا في حسابهم أن يكون لهم نصيب في الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ

حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20]

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ في الدنيا ، فلماذا نسي أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن في الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك في هذه الدنيا ، خليفة في الأرض ، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هي لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية في الكون هي الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذي يستكبر عن آيات الله هو من دخل في صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان في الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان في الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله . ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : 36]

وأصحاب النار . يعني أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهي التي تتساءل : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ؟ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(361/268)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) ﴾

مَنْ قَابَلَ ربوبيتَنا بالجُحْدِ ، وحكمنا بالرد ، لقِيَ الهوانَ ، وقاسى الآلام الأحزان ، ثم العَجْزُ يلجئه إلى الخنوع ، ولكن بعد ألا ينفع ولا يسمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 533 ﴾

(362/268)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والستون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/269)

الجزء التاسع والستون بعد المائتين

من الآية ﴿ 37 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 43 ﴾ من نفس السورة

(4/269)

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان تكذيب الرسل تارة يكون بشرع شيء لم يشرعوه ، وتارة برد ما شرعوه قولاً وفعلاً ، وأخبر أن المكذبين أهل النار ، علل ذلك بقوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ أي أشنع ظلماً ﴿ ممن افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ كذباً ﴾ أي كمن شرع في المطاعم والملابس غير ما شرع ، أو ادعى أنه يوحي إليه فحكم بوجود ما لم يوجد ﴿ أو كذب بآياته ﴾ أي برد ما أخبر به الرسل فحكم بإنكار ما وجد .

ولما كان الجواب : لا أحد أظلم من هذا ، بل هو أظلم الناس ، وكان مما علم أن الظالم مستحق للعقوبة فكيف بالأظلم قال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من الحضرات الربانية ﴿ ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ أي الذي كتب حين نفخ الروح أو من الآجال التي ضربها سبحانه لهم والأرزاق التي قسمها ، تأكيداً لرد اعتراض من قال : إن كنا خالفنا فما له لا يهلكنا ؟ ثم غيَّي نيل النصيب بقوله : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ أي الذين قسمنا لهم من عظمتنا ما شئنا حال كونهم ﴿ يتوفونهم ﴾ أي يقبضون أرواحهم كاملة من جميع

أبدانهم ﴿ قالوا أين ما كنتم ﴾ عناداً كمن هو في جبلته ﴿ تدعون ﴾ أي دعاء عبادة ﴿ من دون الله ﴾ أي تزعمون أنهم واسطة لكم عند الملك الأعظم وتدعونهم حال كونكم معرضين عن الله ، ادعوهم الآن ليمنعوكم من عذاب الهوان الذي نذيقكم ﴿ قالوا ضلوا ﴾ أي غابوا ﴿ عنا ﴾ فلا ناصر لنا .

ولما كان الإله لا يغيب فعلموا ضلالهم بغيبتهم عنهم ، قال مترجماً عن ذلك : ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي بالغوا في الاعتراف ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ أي ساترين عناداً لما كشف لهم عنه نور العقل فلا مانع منه إلا حظوظ النفوس ولزوم البؤس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 30 . 31 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بئاياته ﴾ يرجع إلى قوله ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ [الأعراف : 36] وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي فمن أعظم ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله .

والأول : هو الحكم بوجود ما لم يوجد .

والثاني : هو الحكم بإنكار ما وجد والأول دخل فيه قول من أثبت الشريك لله سواء كان ذلك الشريك عبارة عن الأصنام أو عن الكواكب أو عن مذهب القائلين بيزدان وأهرمن . ويدخل فيه قول من أثبت البنات والبنين لله تعالى ، ويدخل فيه قول من أضاف الأحكام الباطلة إلى الله تعالى .

والثاني : يدخل فيه قول من أنكر كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله تعالى وقول من أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ واختلفوا في المراد بذلك النصيب على قولين : أحدهما : أن المراد منه العذاب ، والمعنى ينالهم ذلك العذاب المعين الذي جعله نصيباً لهم في الكتاب ، ثم اختلفوا في ذلك العذاب المعين .

فقال بعضهم هو سواد الوجه وزرقة العين ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ [الزمر : 60] وقال الزجاج : هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ [الليل : 14] وفي قوله : ﴿ يسلكه عذاباً صعداً ﴾ [الجن : 17] وفي قوله : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71] فهذه الأشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم .

والقول الثاني : أن المراد من هذا النصيب شيء سوى العذاب ، واختلفوا فيه فقيل : هم اليهود والنصارى يجب لهم علينا إذا كانوا أهل ذمة لنا أن لا تتعدى عليهم وأن ننصفهم وأن نذب عنهم فذلك هو معنى النصيب من الكتاب وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب أي ما سبق لهم في حكم الله وفي مشيئته من الشقاوة والسعادة ، فإن قضى الله لهم بالختم على الشقاوة ، أبقاهم على كفرهم ، وإن قضى لهم بالختم على السعادة نقلهم إلى الإيمان والتوحيد ، وقال الربيع وابن زيد يعني : ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار ، فإذا فنيت وانقرضت وفرغوا منها ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ واعلم أن هذا الاختلاف إنما حصل ، لأنه تعالى قال : ﴿ أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الكتاب ﴾ ولفظ "النصيب" مجمل محتمل لكل الوجوه المذكورة وقال بعض المحققين : حمله على العمر والرزق أولى ، لأنه تعالى بين أنهم وإن بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم ، إلا أن ذلك ليس بمانع من أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلاً من الله تعالى ، لكي يصلحوا ويتوبوا ، وأيضاً فقوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يدل على أن مجيء الرسل للتوفي ، كالغاية لحصول ذلك النصيب ، فوجب أن يكون حصول ذلك النصيب متقدماً على حصول الوفاة ، والمتقدم على حصول الوفاة ، ليس إلا العمر والرزق .

أما قوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الخليل وسيبويه : لا يجوز إمالة "حتى" و"ألا" و"أما" وهذه ألفات ألزمت الفتح ، لأنها أواخر حروف جاءت لمعان يفصل بينها وبين أواخر الأسماء التي فيها الألف ، نحو : حبلى وهدى إلا أن ﴿ حتى ﴾ كتبت بالياء لأنها على أربعة أحرف فأشبهت سكرى .

(7/269)

وقال بعض النحويين : لا يجوز إمالة ﴿ حتى ﴾ لأنها حرف لا يتصرف ، والإمالة ضرب من التصرف .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ فيه قولان :

القول الأول : المراد هو قبض الأرواح ، لأن لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى .

قال ابن عباس الموت قيامة الكافر ، فالملائكة يطالبونهم بهذه الأشياء عند الموت على سبيل الزجر والتوبيخ والتهديد ، وهؤلاء الرسل هم ملك الموت وأعوانه .

والقول الثاني : وهو قول الحسن ، وأحد قولي الزجاج أن هذا لا يكون في الآخرة ومعنى قوله

: ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ أي : ملائكة العذاب ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي يتوفون مدتهم عند حشرهم إلى النار على معنى أنهم يستكملون عدتهم ، حتى لا ينفلت منهم أحد .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ معناه أين الشركاء الذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم من دون الله .

ولفظة "ما" وقعت موصولة بأين في خط المصحف .

قال صاحب "الكشاف" : وكان حقها أن تفصل ، لأنها موصولة بمعنى : أين الآلهة الذين تدعون .

ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي : بطلوا وذهبوا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين عند معاينة الموت .

واعلم أن على جميع الوجوه ، فالمقصود من الآية زجر الكفار عن الكفر ، لأن التهويل بذكر هذه الأحوال مما يحمل العاقل على المبالغة في النظر والاستدلال والتسدد في الاحتراز عن التقليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 58. 60 ﴾

(8/269)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ قال الكلبي : فمن أكفر .

وقال بعضهم : هذا التفسير خطأ لأنه لا يصح أن يقال هذا أكفر من هذا .

ولكن معناه : ومن أشد في كفره .

ويقال : فلا أحد أظلم .

ويقال : أي ظلم أشنع وأقبح ﴿ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ يعني : من اختلق على الله كذباً أي : شركاً ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ﴾ جحد بالقرآن ﴿ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب ﴾ أي : حظهم من العذاب .

ويقال ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ حظهم مما أوعدهم اللَّه في الكتاب الإهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

وقال ابن عباس : هو ما ذكر في موضع آخر ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ .

ويقال : ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي ما قضي وقدر عليهم في اللوح المحفوظ من السعادة والشقاوة .

ويقال : ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ رزقهم وأجلهم في الدنيا ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يعني : أمهلهم حتى يأتيهم ملك الموت وأعوانه عند قبض أرواحهم .

ويقال : يقول لهم خزنة جهنم قبل دخولها ﴿ قَالُوا أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ ﴾ يعني : أن الملائكة

يقولون ذلك عند قبض أرواحهم ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يمنعونكم من النار ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي اشتغلوا عنا بأنفسهم ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كافرين ﴾ في الدنيا ، وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب ﴾ حظّهم بما كتبوا لهم في اللوح المحفوظ . وقال الحسن والسدي وأبو صلاح : ما كسب لهم من العذاب .

(9/269)

وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطيّة : ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة . وروى بكر الطويل عن مجاهد في هذه الآية قال : قوم يعملون أعمالا لابد من أن يعملوها ولم يعملوها بعد . قال ابن عباس وقتادة والضحاك : يعني أعمالهم وما كتب عليهم من خير أو شر ، فمن عمل خيراً أُجزي به ومن عمل شراً أُجزي به . مجاهد عن ابن عباس قال : هو ما وعدو من خير وشر . عطيّة عن ابن عباس أنّه قال : ينالهم ما كتب لهم وقد كتب لمن يفتري على الله أن وجهه مسود ، يدل عليه [قوله تعالى] ، ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] .

قال الربيع والقرظي وابن زيد : يعني ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار فإذا فنيت و[تم خرابها] ﴿ حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يقبضون أرواحهم يعني ملك الموت وأعوانه ﴿ قالوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون من دون الله ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أنشغلوا بأنفسهم ﴿ وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ ﴾ أقروا ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ قالوا : [شهدنا] على أنفسنا [بتبليغ الرسل] وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(10/269)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : هو عذاب الله الذي أعده لمن أشرك ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : ما سبق لهم من الشقاء والسعادة ، قاله ابن عباس .

والثالث : نصيب من كتابهم الذي كتبنا لهم أو عليهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير أو شر ، قاله قتادة .

والرابع : نصيبهم مما كتب لهم من العمر والرزق والعمل ، قاله الربيع بن أنس ، وابن زيد .

والخامس : نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر ، قاله الضحاك .

﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ في توفي الرسل هنا قولان :

أحدهما : أنها وفاة الموت في الدنيا التي توفيهم عندها الملائكة .

والثاني : أنها وفاة الحشر إلى النار يوم القيامة ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(11/269)

وقال ابن عطية :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ هذه آية وعيد واستفهام على جهة التقرير ، أي لا أحد أظلم منه ، و ﴿ افترى ﴾ معناه اختلق ، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها أي كيف يجعلون الرسل مفترين ولا أحد أظلم ممن افترى ولا حظ للرسل إلا أن يرحم من اهتدى ويعذب من كفر ، فهي أيضاً مشيرة بالمعنى إلى كل مفترق إلى من تقدم ذكره من الذين قالوا ﴿ والله أمرنا بها ﴾ وقوله : ﴿ أو كذب بآياته ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة ، وقوله : ﴿ من الكتاب ﴾ قال الحسن والسدي وأبو صالح معناه من المقرر في اللوح المحفوظ ، فالكتاب عبارة عن اللوح المحفوظ ، وقد تقرر في

الشرع أن حظهم فيه العذاب والسخط ، وقال ابن عباس وابن جبير ومجاهد : قوله : ﴿ من الكتاب ﴾ يريد من الشقاء والسعادة التي كتبت له وعليه .

(12/269)

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد هذا القول الحديث المشهور الذي يتضمن أن الملك يأتي إذا خلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة والضحاك ﴿ الكتاب ﴾ يراد به الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليقة من خير وشر فينال هؤلاء نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد والضحاك ﴿ من الكتاب ﴾ يراد به من القرآن ، وحظهم فيه أن وجوههم تسود القيامة ، وقال الربيع بن أنس ومحمد بن كعب وابن زيد المعنى بالنصيب ما سبق لهم في أم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا ، ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله بعد ذلك ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ أي عند انقضاء ذلك فكان معنى الآية على هذا التأويل أولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رسلنا لموتهم ، وهذا تأويل جماعة من مجيء الرسل للتوفي ، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم ، وقالت فرقة ﴿ رسلنا ﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة ، و ﴿

يتوفونهم ﴾ معناه يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم .

قال القاضي أبو محمد : ويترتب هذا التأويل مع التأويلات المتقدمة في قوله : ﴿ نصيبهم من الكتاب ﴾ لأن " النصيب " على تلك التأويلات إنما ينالهم في الآخرة ، وقد قضى مجيء رسل الموت ، وقوله حكاية عن الرسل ﴿ أين ما كنتم تدعون ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتوقيف على خزي وهو إشارة إلى الأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله و ﴿ تدعون ﴾ معناه تعبدون وتؤملون ، وقولهم ﴿ ضلوا ﴾ معناه هلكوا وتلفوا وفقدوا . ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 123] واجتماعهما إما أن يكون في طوائف مختلفة أو في أوقات مختلفة يقولون في حال كذا وحال كذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(13/269)

وقال ابن الجوزى :

قوله : ﴿ ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾

في معناه سبعة أقوال .

أحدها : ما قُدّر لهم من خير وشر ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثاني : نصيبهم من الأعمال ، فيُجزَون عليها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ما كُتِبَ عليهم من الضلالة والهدى ، قاله الحسن .

وقال مجاهد ، وابن جبير ، من السعادة والشقاوة .

والرابع : ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والأعمال ، قاله الربيع ، والقرظي ، وابن زيد .

والخامس : ما كتب لهم من العذاب ، قاله عكرمة ، وأبو صالح ، والسدي .

والسادس : ما أخبر الله تعالى في الكتب كلِّها : أنه من افترى على الله كذباً ، اسودَّ وجهه ، قاله مقاتل .

والسابع : ما أخبر في الكتاب من جزائهم ، نحو قوله : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظَّى ﴾ [الليل : 14] قاله الزجاج ، فاذن في الكتاب خمسة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ .

والثاني : كُتُبُ الله كلُّها .

والثالث : القرآن .

والرابع : كتاب أعمالهم .

والخامس : القضاء .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أعوان مَلَكِ الموت ، قاله النخعي .

والثاني : ملك الموت وحده ، قاله مقاتل .

والثالث : ملائكة العذاب يوم القيامة .

وفي قوله ﴿ يتوفَّونهم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : يتوفَّونهم بالموت ، قاله الأكثرون .

والثاني : يتوفَّونهم بالحشر إلى النار يوم القيامة ، قاله الحسن .

والثالث : يتوفَّونهم عذاباً ، كما تقول : قتلت فلاناً بالعذاب ، وإن لم يمت ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ أين ما كنتم تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ ، وهذا سؤال تبكيت وتقريع .

قال مقاتل : المعنى : فليمنعوكم من النار .

قال الزجاج : ومعنى : ﴿ ضلُّوا عنا ﴾ : بطلوا وذهبوا ، فيعترفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين .

وقال غيره : ذلك الاعتراف يكون يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾

المعنى أيّ ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته .

ثم قال : ﴿ أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب ﴾ أي ما كتب لهم من رزق وعمر وعمل ؛

عن ابن زيد .

ابن جُبَيْر : من شقاء وسعادة .

ابن عباس : من خير وشر .

الحسن وأبو صالح : من العذاب بقدر كفرهم .

واختيار الطبري أن يكون المعنى : ما كتب لهم ، أي ما قدر لهم من خير وشر ورزق وعمل

وأجل ؛ على ما تقدّم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير .

قال : ألا ترى أنه أتبع ذلك بقوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يعني رسل ملك

الموت .

وقيل : "الْكِتَاب" هنا القرآن ؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه .

وقيل : "الكتاب" اللوح المحفوظ .

ذكر الحسن بن عليّ الحُلْوَانيّ قال : أمْلَى عليّ عِلِيُّ بن المدِينِي قال : سألت عبد الرحمن بن

مَهْدِيّ عن القَدَر فقال لي : كل شيء بقدر ، والطاعة والمعصية بقدر ، وقد أعظم الفِرية من قال : إن المعاصي ليست بقدر .

قال عليّ وقال لي عبد الرحمن بن مهدي : العلم والقدر والكتاب سواء .

ثم عرضت كلام عبد الرحمن بن مَهدِيّ على يحيى ابن سعيد فقال : لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير .

وروى يحيى بن مَعِين حدّثنا مَرْوَان الفزارِيّ حدّثنا إسماعيل بن سميع عن بُكير الطويل عن مجاهد عن ابن عباس "أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ" قال : قوم يعملون أعمالاً لا بدّ لهم من أن يعملوها .

و"حَتّى" ليست غاية ، بل هي ابتداء خبر عنهم .

قال الخليل وسيبويه : حتى وإمّا وألاَ لا يُمَلْنَ لأنهن حروف ففَرْقٌ بينها وبين الأسماء نحو حُبْلى وسَكْرَى .

قال الزجاج : تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى ، ولو كتبت ألاَ بالياء لأشبهت إِلَى .

ولم تكتب إمّا بالياء لأنها "إنْ" ضُمت إِليها ما .

(15/269)

﴿ قالوا أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ سؤال توبيخ .

ومعنى "تَدْعُونَ" تعبدون .

﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي بطلوا وذهبوا .

قيل : يكون هذا في الآخرة .

﴿ وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ أي أقرّوا بالكفر على أنفسهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(16/269)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾

يعني فمن أعظم ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكاً من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد ﴿ أو كذب بآياته ﴾ يعني أو كذب بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ يعني ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب في اللوح المحفوظ واختلفوا في ذلك النصيب على قولين أحدهما : أن المراد

به هو العذاب المعين لهم في الكتاب ثم اختلفوا فيه ، فقال الحسن والسدي : ما كتب لهم من العذاب وقضي عليهم من سواد الوجوه ورزقه العيون ، وقال ابن عباس : في رواية عنه كتب لمن يفتري على الله كذباً أن وجهه أسود ، وقال الزجاج : هو المذكور في قوله فأنذرتكم ناراً تلظى وفي قوله إذ الأغلال في أعناقهم فهذه الأشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم .

والقول الثاني : إن المراد بالنصيب المذكور في الكتاب هو شيء سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية ، في قوله : ينالهم نصيبهم من الكتاب ، قالوا : هو السعادة والشقاوة ، وقال ابن عباس : ما كتب عليهم من الأعمال ، وقال في رواية أخرى عنه : من عمل خيراً جوزي به ومن عمل شراً جوزي به .

وقال قتادة : جزاء أعمالهم التي عملوها .

وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر قاله مجاهد والضحاك ، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وقال الربيع بن أنس : ينالهم ما كتب لهم في الكتاب من الرزق ، وقال محمد بن كعب القرظي : عمله ورزقه وعمره .

وقال ابن زيد : ينالهم نصيبهم من الكتاب من الأعمال والأرزاق والأعمار فإذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، وصحح الطبري هذا القول الآخر وقال : لأن الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فأبان أن الذي ينالهم هو ما قدر لهم في الدنيا فإذا فرغ توفتهم رسل ربهم .

قال الإمام فخر الدين رحمه الله تعالى : إنما حصل الاختلاف لأن لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه .

وقال بعض المحققين : حمله على العمر والرزق أولى لأنه تعالى بيَّن أنهم وإن بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم فإنه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلاً من الله سبحانه وتعالى لكي يصلحوا ويتوبوا .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ يعني حتى إذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا يعني ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لأن لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى ﴿ قالوا ﴾ يعني : قال الرسل وهم الملائكة للكفار ﴿ أين ما كنتم تدعون من دون الله ﴾ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لا سؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم .

وقيل إن هذا يكون في الآخرة والمعنى حتى إذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني يستوفون عددهم عند حشرهم إلى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعني شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من أمر الله ﴿ قالوا ﴾ يعني الكفار مجيبين للرسل ﴿ ضلوا عنا ﴾ يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(18/269)

وقال أبو حيان :

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ لما ذكر المكذّبين ذكر أسوأ حالاً منهم وهو من يفتري الكذب على الله وذكر أيضاً من كذّب بآياته ، قال ابن عباس وابن جبير ومجاهد : ما كتب لهم من السعادة والشقاوة ولا يناسب هذا التفسير الجملة التي بعد هذا ، وقال الحسن : ما كتب لهم من العذاب ، وقال الربيع ومحمد بن كعب وابن زيد : ما سبق لهم في أمّ الكتاب ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد أيضاً

وقتادة : ما كتب الحفظة في صحائف الناس من الخير والشرّ فيقال : هذا نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي وقال الحكم وأبو صالح ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والخير والشر في الدنيا .

وقال الضحاك : ما كتب لهم من الثّواب والعقاب ، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك أيضاً ومجاهد ما كتب لهم من الكفر والمعاصي ، وقال الحسن أيضاً : ما كتب لهم من الضلالة والهدى ، وقال ابن عباس أيضاً : ما كتب لهم من الأعمال .

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك : ﴿ من الكتاب ﴾ يراد به من القرآن وحظّهم فيه سواد وجوههم يوم القيامة ، وقيل : ما أوجب من حفظ عهودهم إذا أعطوا الجزية .

وقال الحسن والسدّي وأبو صالح : من المقرّر في اللوح المحفوظ وقد تقرر في الشّرع أنّ حظّهم فيه العذاب والسّخط والذي يظهر أن الذي كتب لهم في الدنيا من رزق وأجل وغيرهما ينالهم فيها ولذلك جاءت التغيية بعد هذا بحتى وإلى هذا المعنى نحا الزمخشري ، قال : أي ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال .

﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفّونهم قَالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا انهم كانوا كافرين ﴾ .

(19/269)

تقدّم الكلام على ﴿ حتى إذا ﴾ في الأوائل الأنعام ، ووقع في التحرير ﴿ حتى ﴾ هنا ليس بغاية بل هي ابتداء وجر والجملة بعدها في موضع جرّ وهذا وهم بل معناها هنا الغاية والخلاف فيها إذا كانت حرف ابتداء أهي حرف جر والجملة بعدها في موضع جرّ وتتعلق بما قبلها كما تتعلق حروف الجرّ أم ليست حرف جر ولا تتعلق بما قبلها تعلّق حروف الجر من حيث المعنى لا من حيث الإعراب قولان : الأوّل لابن درستويه والزّجاج ، والثاني للجمهور وإذا كانت حرف ابتداء فهي للغاية ألا تراها في قول الشاعر :

سريت بهم حتى تكلّ مطيهم . . .

وحتى الجياد ما يقدن بارسان

وقول الآخر :

فما زالت القتلى تمجّ دماءها . . .

بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

تفيد الغاية لأن المعنى أنه مد همهم في السير إلى كلال المطي والجياد ومجت الدماء إلى تغيير ماء دجلة .

(20/269)

قال الزمخشري : وهي حتى التي يبتدأ بعدها الكلام انتهى ، وقال الحوفي وحتى غاية متعلقة بيناً لهم فيحتمل قوله أن يريد التعلق الصّناعي وأن يريد التعلق المعنوي والمعنى أنهم ينالهم حظهم مما كتب لهم إلى أن يأتيهم رسل الموت يقبضون أرواحهم فيسألونهم سؤال توبيخ وتقرير أين معبوداتكم من دون الله ؟ فيجيبون بأنهم حادوا عنا وأخذوا طريقاً غير طريقنا أو ضلوا عنا هلكوا واضمحلّوا والرّسل ملك الموت وأعوانه ، و ﴿ يتوفونهم ﴾ في موضع الحال وكتبت ﴿ أينما ﴾ متّصلة وكان قياسه كتابتها بالانفصال لأن ما موصولة كهي في ﴿ إن ما توعدون لآت ﴾ إذ التقدير أين الآلهة التي كنتم تعبدون ؟ وقيل : معنى ﴿ تدعون ﴾ أي تستغيثونهم لقضاء حوائجكم وما ذكرناه من أنّ هذه المحاورة بين الملائكة وهؤلاء تكون وقت الموت وأنّ التوفي هو بقبض الأرواح هو قول المفسرين ، وقالت فرقة منهم الحسن : ﴿ الرسل ﴾ ملائكة العذاب يوم القيامة والمحاورة في ذلك اليوم ومعنى ﴿ يتوفّونهم ﴾ يستوفونهم عدداً في السّوق إلى جهنم ونيل النصيب على هذا إنما هو في الآخرة إذ لو كان في الدّنيا لما تحققت الغاية لانقطاع النّيل قبلها بمدد كثيرة ويحتمل ﴿ وشهدوا ﴾ أن يكون مقطوعاً على ﴿ قَالوا ﴾ فيكون من جملة جواب السؤال ويحتمل أن يكون استئناف إخبار من الله تعالى بإقرارهم على أنفسهم بالكفر ولا تعارض بين هذا وبين قوله ﴿ والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ لاحتمال ذلك من طوائف مختلفة أو في أوقات

وجواب سؤالهم ليس مطابقاً من جهة اللفظ لأنه سؤال عن مكان ، وأجيب بفعل وهو مطابق من جهة المعنى إذ تقدير السؤال ما فعل معبودوكم من دون الله معكم ﴿ قَالوا ضلوا عنا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(21/269)

وقال أبو السعود :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بئاياته ﴾ أي تقوّل عليه تعالى ما لم يقُلْه أو كذّب ما قاله ، أي هو أظلمُ من كل ظالمٍ وقد مر تحقيقه مراراً ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصول ، والجمعُ باعتبار معناه كما أن إفرادَ الفعلين باعتبار لفظِه ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بتماديهم في سوء الحالِ ، أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من الافتراء والتكذيب ﴿ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الكتاب ﴾ أي مما كُتب لهم من الأرزاق والأعمارِ ، وقيل : الكتابُ اللوحُ ، أي ما أُثبت لهم فيه وأياً ما كان فمِن الابتدائيةُ متعلقةٌ بمحذوف وقع حالاً من نصيبهم ، أي ينالُهم نصيبُهم كائناً من الكتاب وقيل : نصيبُهم من العذاب وسوادِ الوجه وزُرقةِ العيون ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كُتب لمن يفتري على الله سوادُ الوجهِ قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا

جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ أي ملكُ الموتِ وأعوانُه ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي حال كونِهم مُتوفِّين لأرواحهم يؤيد الأول ، فإن حتى وإن كانت هي التي يُبتدأ بها الكلامُ لكنها غايةٌ لما قبلها فلا بد أن يكون نصيبُهم مما يتمتعون بها إلى حين وفاتِهم أي ينالهم نصيبُهم من الكتاب إلى أن يأتيَهم ملائكةُ الموتِ فإذا جاءتهم ﴿ قَالُواْ ﴾ لهم ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي أين الآلهةُ التي كنتم تعبُدونها في الدنيا ؟ و(ما) وقعت موصولةً بأين في خط المصحف وحقُّها الفصلُ لأنها موصولة ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية سؤالِ الرسل ، كأنه قيل : فماذا قالوا عند ذلك ؟ فقيل : قالوا : ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي غابوا عنا أي لا ندري مكانَهم

﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ عطفٌ على قالوا أي اعترفوا على أنفسهم ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ أي في الدنيا

﴿ كافرين ﴾

(22/269)

عابدين لما لا يَستحِق العبادةَ أصلاً حيث شاهدوا حالَه وضلالَه ولعله أريد بوقت مجيءِ الرسل وحالِ التوفي الزمانُ الممتدُّ من ابتداء المجيءِ والتوفي إلى انتهائه يوم الجزاءِ بناءً على

تحقق المجيءِ والتوفي في كل ذلك الزمان بقاءً وإن كان حدوثُهما في أوله فقط ، أو قُصد بيانُ غاية سرعةِ وقوعِ البعثِ والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداءِ التوفي كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام : " من مات فقد قامت قيامتُه " وإلا فهذا السؤال والجوابُ وما ترتب عليهما من الأمر بدخول النارِ وما جرى بين أهلها من التلاعُن والتقاولِ إنما يكون بعد البعثِ لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(23/269)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾

أي تعمد الكذب عليه سبحانه ونسب إليه ما لم يقل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ﴾ أو كذب ما قاله جل شأنه .

والاستفهام للانكار وقد مر تحقيق ذلك ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول .

والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد في الضمير المستكن في الفعلين باعتبار اللفظ .

وما فيه من معنى البعد للايذان بتماديهم في سوء الحال أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ﴿ يَنَالُهُمْ ﴾ أي يصيبهم ﴿ نَصِيبُهُم مّنَ الكتاب ﴾ أي مما كتب لهم

وقدر من الأرزاق والآجال مع ظلمهم وافترائهم لا يحرمون ما قدر لهم من ذلك إلى انقضاء أجلهم فالكتاب بمعنى المكتوب .

وتخصيصه بما ذكر مروي عن جماعة من المفسرين .

وعن ابن عباس أن المراد ما قدر لهم من خير أو شر .

ومثله عن مجاهد .

وعن أبي صالح ما قدر من العذاب .

وعن الحسن مثله .

وبعضهم فسر الكتاب بالمكتوب فيه وهو اللوح المحفوظ .

و(من) لابتداء الغاية ، وجوز فيها التبيين والتبعيض والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالا من ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي كائناً من الكتاب .

﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ أي ملك الموت وأعوانه ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي حال كونهم متوفين لأرواحهم وحتى غاية نيلهم وهي حرف ابتداء غير جارة بل داخلة على الجمل كما في قوله :

وحتى الجياد ما يقدن بأرسان . . .

وقيل : إنها جارة .

وقيل : لا دلالة لها على الغاية وليس بشيء .

وعن الحسن أن المراد حتى إذا جاءتهم الملائكة يحشرونهم إلى النار يوم القيامة وهو خلاف الظاهر .

(24/269)

وكان الذي دعاه إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الرسل لهم ﴿ أَيْنَ مَا الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا وتستعينون بها في المهمات ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ ﴾ أي غابوا ﴿ عَنَّا ﴾ لا ندري أين مكانهم فإن هذا السؤال والجواب وكذا ما يترتب عليهما مما سيأتي إنما يكون يوم القيامة لا محالة ولعله على الظاهر أريد بوقت مجيء الرسل وحال التوفي الزمان الممتد من ابتداء المجيء والتوفي إلى نهاية يوم الجزاء بناء على تحقق المجيء والتوفي في ذلك الزمان بقاء وإن كان حدوثهما في أوله فقط أو قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفي .

و ﴿ مَا ﴾ وصلت بأين في المصحف العثماني وحقها الفصل لأنها موصولة ولو كانت صلة لا تصلت .

﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي اعترفوا على أنفسهم .

وليس في النظم ما يدل على أن اعترافهم كان بلفظ الشهادة فالشهادة مجاز عن الاعتراف

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ كافرين ﴾ عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا حيث اتضح لهم حاله ، والجملة يحتمل أن تكون استئناف إخبار من الله تعالى باعترافهم على أنفسهم بالكفر .

ويحتمل أن تكون عطفاً على ﴿ قَالُواْ ﴾ وعطفها على المقول لا يخفى ما فيه .

والاستفهام على ما ذهب إليه غير واحد غير حقيقي بل للتوبيخ والتقريع وعليه فلا جواب .

وما ذكر إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ولا تعارض بين ما في هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ والله ربّنا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] لأن الطوائف مختلفة أو المواقف عديدة أو الأحوال شتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(25/269)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بآياته أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب ﴾ .

الفاء للتّفريع على جملة الكلام السّابق ، وهذه كالفذلكة لما تقدّم لتُبيِّن أنّ صفات الضّلال ، التي أُبهم أصحابُها ، هي جافة بالمشركين المكذّبين برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام فإنّ الله ذكر أولياء الشّياطين وبعض صفاتهم بقوله : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ [الأعراف : 27] وذكر أنّ الله عهد لبني آدم منذ القدم بأن يتّبعوا من يجيئهم من الرّسل عن الله تعالى بآياته ليتّقوا ويصلحوا ، ووعدهم على اتباع ما جاءهم بيني الخوف والحزن وأوعدهم على التّكذيب والاستكبار بأن يكونوا أصحاب النّار ، فقد أعذر إليهم وبصّرهم بالعواقب ، فتفرّع على ذلك : أن من كَذَب على الله فزعم أنّ الله أمره بالفواحش ، أوْ كَذب بآيات الله التي جاء بها رسوله ، فقد ظلم نفسه ظُلماً عظيماً حتّى يُسْأل عمن هو أظلم منه .

ولك أن تجعل جملة : ﴿ فمن أظلم ممن افترى ﴾ [الأنعام : 144] إلخ معترضة بين جملة : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 36] وجملة : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ كما سيأتي في موقع هذه الأخيرة ، وقد تقدّم الكلام على تركيب : ﴿ من أظلم ممن ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه في سورة البقرة (114) ، وأنّ الاستفهام للإنكار ، أي لا أحد أظلم .

والافتراء والكذب تقدّم القول فيهما عند قوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة العقود (103) .

ولهذه الآية اتّصال بآية : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] من حيث ما فيها من التّهديد بوعيد عذاب الآخرة وتفظيع أهواله .

و(من) استفهام إنكاري مستعمل في تهويل ظلم هذا الفريق ، المعبّر عنه بمَن افترى على الله كذباً .

(26/269)

و (مَنْ) الثّانية موصولة ، وهي عامة لكلّ من تتحقّق فيه الصّلة ، وإنّما كانوا أظلم النّاس ولم يكن أظلمُ منهم ، لأنّ الظلم اعتداء على حقّ ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى ، وأعظم الاعتداء على حقّ الله الاعتداءُ عليه بالاستخفاف بصاحبه العظيم ، وذلك بأن يكذّب بما جاءه من قِبله ، أو بأن يَكْذِب عليه فيبلّغ عنه ما لم يأمر به فإنْ جَمَع بين الأمرين فقد عطّل مراد الله تعالى من جهتين : جهة إبطال ما يدلّ على مراده ، وجهة إيهام النّاس بأنّ الله أراد منهم ما لا يريده الله .

والمراد بهذا الفريق : هم المشركون من العرب ، فإنّهم كذّبوا بآيات الله التي جاء بها محمّد صلى الله عليه وسلم وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أنّ الله أمرهم به من الفواحش ،

كما تقدّم آنفاً عند قوله تعالى:

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ﴾ [الأعراف: 28].

(27/269)

و (أو) ظاهرها التّقسيم فيكون الأظلمُ وهم المشركون فريقين: فريق افتروا على الله الكذب، وهم سادة أهل الشّرك وكبراؤهم، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله وهم يعلمون، مثل عَمْرو بن لُحَيّ، وأبي كَبْشة، ومن جاء بعدهما، وأكثر هذا الفريق قد انقرضوا في وقت نزول الآية، وفريق كذّبوا بآياتٍ ولم يفتروا على الله وهم عامة المشركين، من أهل مكّة وما حولها، وعلى هذا فكلّ واحد من الفريقين لا أظلمَ منه، لأنّ الفريق الآخر مساوٍ له في الظلم وليس أظلَم منه، فأمّا من جمع بين الأمرين ممّن لعلّهم أن يكونوا قد شرعوا للمشركين أموراً من الضّلالات، وكذّبوا محمّداً صلى الله عليه وسلم فهم أشدّ ظلماً، ولكنّهم لمّا كانوا لا يخلون عن الانتساب إلى كلا الفريقين وجامعين للخصلتين لم يخرجوا من كونهم من الفريق الذين هم أظلم النّاس، وهذا كقوله: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله ﴾ [الأنعام: 93]، فلا شكّ أنّ الجامع بين الخصال الثّلاث هو أظلم من كلّ من انفرد بخصلة

منها ، وذلك يوجب له زيادة في الأظلميّة ، لأنّ كلّ شدّة وصف قابلة للزّيادة .

ولك أن تجعل (أو) بمعنى الواو ، فيكون الموصوف بأنّه أظلم النّاس هو من اتّصف بالأمرين الكذب والتّكذيب ، ويكون صادقاً على المشركين لأنّ جماعتهم لا تخلو عن ذلك .

شيء باسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ ليدلّ على أنّ المشار إليهم أحرياء بأن يصيبهم العذاب بناءً على ما دلّ عليه التّفريع بالفاء .

(28/269)

وجملة ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الاستفهام في قوله : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ الآية ، لأنّ التّهويل المستفاد من الاستفهام يسترعي السّامع أن يَسأل عمّا سيلاقُونه من الله الذي افتروا عليه وكذّبوا بآياته .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم ﴾ عطف بيان لجملة : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 36] أي خالدون الخلود الذي هو نصيبهم من الكتاب .

وتكملة هذه الجملة هي جملة : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ الآية كما

سيأتي .

ومادة النّيل والنّوال وردت واوية العين ويائية العين مختلطتين في دواوين اللّغة ، غير مفصحةً عن توزيع مواقع استعمالها بين الواوي واليائيّ ، ويظهر أن أكثر معاني المادتين مترادفة وأنّ ذلك نشأ من القلب في بعض التّصاريف أو من تداخل اللّغات ، وتقول نُلْتُ بضمّ النّون من نال يُنول ، وتقول نِلْت بكسر النّون من نال يَنِيل ، وأصل النّيْل إصابة الإنسان شيئاً لنفسه بيَده ، ونوّله أعطاهُ فنال ، فالأصل أن تقول نَال فلان كسباً ، وقد جاء هنا بعكس ذلك لأنّ النّصيب من الكتاب هو أمر معنوي ، فمقتضى الظّاهر أن يكون النّصيب مَنُولا لا نَائلاً ، لأنّ النّصيب لا يُحصِّل الذين افتروا على الله كذباً ، بل بالعكس : الذين افتروا يحصلونه ، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى:

(29/269)

﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ [الحج : 37] وقوله ﴿ سينالهم غضب من ربهم ﴾ [الأعراف : 152] ، فتعيّن أن يكون هذا إمّا مجازاً مرسلاً في معنى مطلق الإصابة ، وإمّا أن يكون استعارة مبنيّة على عكس التّشبيه بأن شبّه النّصيب بشخص طالب طِلبة فنالها ، وإنّما يصار إلى هذا للتّنبيه على أنّ الذي ينالهم شيءٌ يكرهونه ، وهو يطلبهم وهم

يفرّون منه ، كما يطلب العدوّ عدوّه ، فقد صار النّصيب من الكتاب كأنَّه يطلب أن يحصِّل الفريق الذين حقّ عليهم ويصادِفهم ، وهو قريب من القلب المبني على عكس التّشبيه في قول رؤبة:

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرّةٍ أرجاؤُه . . .

كأنّ لَوْنَ أرْضِهِ سَمَاؤُه

وقولهم : "عرضتُ النّاقة على الحوض" .

والنّصيب الحظّ الصّائر لأحد المتقاسمين من الشّيء المقسوم ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ في سورة البقرة (202) ، وقوله : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ في سورة النساء (7) .

والمراد بالكتاب ما تضمَّنه الكتاب ، فإن كان الكتاب مستعملاً حقيقة فهو القرآن ، ونصيبهم منه هو نصيبهم من وعيده ، مثل قوله تعالى آنفاً : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 36] ، وإن كان الكتاب مجازاً في الأمر الذي قضَاه الله وقدّره ، على حدّ قوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : 38] أي الكتاب الثّابت في عِلم الله من إحقاق كلمة العذاب عليهم ، فنصيبهم منه هو ما أخبر الله بأنّه قدّره لهم من الخلود في العذاب ، وأنّه لا يغفر لهم ، ويَشْمل ذلك ما سبق تقديره لهم من الإمهال وذلك هو تأجيلهم إلى أجل أراده ثمّ استئصالهم بعده

كما أخبر عن ذلك آنفاً بقوله : ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [الأعراف : 34] .

(30/269)

وحمل كثير من المفسّرين النّصيب على ما ينالهم من الرّزق والإمهال في الدّنيا قبل نزول العذاب بهم وهو بعيد من معنى الفاء في قوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ ولا أحسب الحادي لهم على ذلك إلاّ ليكون نوال النّصيب حاصلاً في مدّةٍ ممتدّة ليَكون مجيء الملائكة لتَوَفِّيهم غاية لانتهاء ذلك النّصيب ، استبقاء لمعنى الغاية الحقيقيّة في (حتّى) .

وذلك غير ملتزَم ، فإنّ حتّى الابتدائيّة لا تفيد من الغاية ما تفيده العاطفة كما سنذكره .

والمعنى : إمّا أنّ كل واحد من المشركين سيصيبه ما توعدهم الله به من الوعيد على قدر عتوه في تكذيبه وإعراضه ، فنصيبه هو ما يناسب حاله عند الله من مقدار عذابه ، وإمّا أن مجموع المشركين سيصيبهم ما قُدر لأمثالهم من الأمم المكذّبين للرّسل المعرضين عن الآيات من عذاب الدّنيا ، فلا يغرنّهم تأخير ذلك لأنّه مُصيبهم لا محالة عند حلول أجله ، فنصيبهم هو صفة عذابهم من بين صفات العذاب التي عذّبت بها الأمم .

وجملة : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ تفصيل لمضمون جملة ﴿ ينالهم نصيبهم من

الكتاب ﴾ فالوقت الذي أفاده قوله : ﴿ إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ هو مبدأ وصف نصيبهم من الكتاب حين ينقطع عنهم الإمهال الذي لَقُوه في الدّنيا .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائيّة لأنّ الواقع بعدها جملة فتفيد السّببيّة ، فالمعنى : ف ﴿ إذا جاءتهم رسلنا ﴾ إلخ ، و(حَتّى) الابتدائيه لها صدر الكلام فالغاية التي تدلّ عليها هي غاية مَا يُخبر به المخبر ، وليست غايةَ ما يبلغ إليه المعطوف عليه بحتّى ، لأنّ ذلك إنّما يُلتزم إذا كانت حتّى عاطفة ، ولا تفيد إلاّ السّببيّة كما قال ابن الحاجب فهي لا تفيد أكثر من تسبّب ما قبلها فيما بعدها ، قال الرضي ؛ قال المصنف : وإنّما وجب مع الرّفع السّببيّة لأنّ الاتّصال اللّفظي لمَّا زال بسبب الاستئناف شُرِط السّببيّة التي هي موجبة للاتّصال المعنوي ، جبراً لما فات من الاتّصال اللّفظي ، قال عَمرو بن شَأس:

(31/269)

نذود الملوك عنكُمُ وتذودُنا . . .

ولا صُلْحَ حتّى تَضبَعُونَ ونَضْبَعا

وقد تقدّم بعض هذا عند قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة ﴾ في سورة الأنعام (31) و(حتّى) الابتدائيّة تدلّ على أنّ مضمون

الكلام الّذي بعدها أهمّ بالاعتناء للإلقاء عند المتكلّم لأنّه أجدى في الغرض المسوق له الكلام ، وهذا الكلام الواقع هنا بعد (حتّى) فيه تهويلُ ما يصيبهم عند قبض أرواحهم ، وهو أدخل في تهديدهم وترويعهم وموعظتهم ، من الوعيد المتعارف ، وقد هدّد القرآن المشركين بشدائد الموْت عليهم في آيات كثيرة لأنهم كانوا يرهبونه .

والرّسُل هم الملائكة قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ [السجدة : 11] وقال ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : 50] .

وجملة : ﴿ يتوفونهم ﴾ في موضع الحال من ﴿ رُسلنا ﴾ وهي حال معلِّلة لعاملها ، كقوله : ﴿ ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ﴾ [الأعراف : 61 ، 62] أي رسول لأبلّغكم ولأُنْصحَ لكم .

والتّوفي نزع الرّوح من الجسد ، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ﴾ في سورة آل عمران (55) وهو المراد هنا ، ولا جدوى في حمْلِه على غير هذا المعنى ، ممّا تردّد فيه المفسّرون ، إلاّ أن المحافظة على معنى الغاية لحرف (حتى) فتوفي الرسل يجوز أن يكون المراد منه وقت أن يتوفوهم جميعاً ، إن كان المراد بالنّصيب من الكتاب الاستئصال ، أي حين تبعث طوائف الملائكة لإهلاك جميع أمّة الشّرك .

ويجوز أن يكون المراد حتى يتوفَّون آحادهم في أوقات متفرّقه إن كان المراد بالنّصيب من

الكتاب وعيد العذاب ، وعلى الوجهين فالقول محكي على وجه الجمعِ والمراد منه التّوزيع أي قال كلّ ملَك لمن وُكِّل بتوفّيهِ ، على طريقة : رَكِبَ القومُ دَوَابَّهم .

(32/269)

وقد حكي كلام الرّسل معهم وجوابهم إياهم بصيغة الماضي على طريقة المحاورة ، لأنّ وجود ظرف المستقبل قرينة على المراد .

والاستفهام في قوله : أين ما كنتم تدعون من دون الله ﴾ مستعمل في التّهكّم والتّأييس .

و(مَا) الواقعة بعد أين موصولة ، يعني : أين آلهتكم التي كنتم تزعمون أنّهم ينفعونكم عند الشّدائد ويردّون عنكم العذاب فإنّهم لم يَحْضُروكم ، وذلك حين يشهدون العذاب عند قبض أوراحهم ، فقد جاء في حديث "الموطّأ" : أنّ الميّت يرى مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنّة فمِنْ أهل الجنّة وإن كان من أهل النّار يقال له هذا مقعدك حتّى يبعثك الله .

وهذا خطاب للأرواح التي بها الإدراك وهو قبل فتنة القبر .

وقولهم : ﴿ ضلّوا عنّا ﴾ أي أتلفوا مواقعنا وأضاعونا فلم يحضروا ، وهذا يقتضي أنّهم لَمَّا يعلمُوا أنّهم لا يُغنون عنهم شيئاً من النّفع ، فظنّوا أنّهم أذهبهم ما أذهبهم وأبعدهم عنهم

ما أبعدهم ، ولم يعلموا سببه ، لأنّ ذلك إنّما يتبيّن لهم يوم الحشر حين يرون إهانة أصنامهم وتعذيب كبرائهم ، ولذلك لم ينكروا في جوابهم أنّهم كانوا يدعونهم من دون الله بخلاف ما حُكي عنهم في يوم الحشر من قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] ولذلك قال هنا : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ، وقال في الآخرى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ [الأنعام : 24] .

والشّهادة هنا شهادة ضِمنية لأنّهم لما لم ينفُوا أن يكونوا يدْعُون من دون الله وأجابوا بأنّهم ضلّوا عنهم قد اعترفوا بأنّهم عبدوهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(33/269)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾

تأتي على صيغة السؤال الذي لن تكون إجابته إلا الإِقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضي حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ .

أي قوّل الله ما لم يقله ، أو كذّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية- كما نعلم- هي الأمر العجيب ، والآيات أُطلقت في القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ . . . ﴾ [فصلت : 3]

وكذلك أطلقت على المعجزات التي يرسلها الله تأييداً لرسله . ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ﴾ [الإسراء : 59]

فالآيات هنا هي المعجزات أي الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر . . . ﴾ [فصلت : 37]

فالآية إذن هي الشيء العجيب وهي تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ؛ لأن الذي جاءت على لسانه هذه الآيات نبي أمي ، ما عرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً أو له رياضة في كلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التي أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهب بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجيء الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلص في نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح في أدراة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التي نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل في فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب في الآيات هي آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون . وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكويني لا تضارب فيه ؟ وهي آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب .

وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات يكذبونها . إذن هم لم ينظروا في آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التي جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنت ؟ . وحينما قالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ﴾ [النحل : 103]

قال الحق : ﴿ . . . لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103]

وقالوا : ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5]

(35/269)

فيعلم الحق رسله أن يقول : ﴿ . . . فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16]

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشيء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ أنهم خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما في خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل

المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلابد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصي ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذي قَدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق : ﴿ أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب . . . ﴾ [الأعراف : 37]

أو ينالهم ، أي يصيبهم عذاب مما هو مبين في الكتاب الذي أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصي له العقاب ، فيقول الحق هنا : ﴿ . . . حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : 37]

(36/269)

وساعة تسمع ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ تفهم أن الحياة تنتهي ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو " التوفي " ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلَك ، ومرة يراد منه أتباع المَلَك أي جنوده يقول – سبحانه – : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا

وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقي من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل .

و" التوفي " على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو ترفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التي بين القبر والحساب . إلى أن يجيء ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفي أجلهم الثاني ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهي هذه الحياة ، والأجل الذي يأخذه في البرزخ إلى أن يجيء الحساب . وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتي بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود في الجنة أو في النار .

وحين تسألهم الملائكة : ﴿ . . . أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : 37]

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [السجدة : 10]

(37/269)

وهم – إذن – يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدي لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن في دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففي دار التكليف كان الإنسان حرًّا أن يفعل أو ألاّ يفعل ، ولكن في الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذي يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق : ﴿ قَالَ ادخلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(38/269)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

أخرج الفريابي وابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : ما قدر لهم من خير وشر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من

الكتاب ﴾ قال : من الأعمال ، من عمل خيراً جزى به ومن عمر شراً جزى به .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله و ﴿ نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : ما كتب عليهم من الشقاء والسعادة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : قوم يعملون أعمالاً لا بد لهم أن يعملوها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : ما سبق من الكتاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : ما وعدوا فيه من خير أو شر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : رزقه وأجله وعمله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في قوله ﴿ نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : من العذاب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن . مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال مما كتب لهم من الرزق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى " مِنَ الكِتَابِ " في محلّ الحال من نَصِيبُهُم أي : حال كونه مستقراً من الكتاب و " مِنْ " لابتداء الغاية .

قوله : " حَتَّى " هنا غاية ، و " إذَا " وما في حيزها تقدَّم الكلام عليها هل هي جارة ، أو حرف ابتداء ؟ وتقدَّم عبارة الزَّمخشريِّ .

واختلفوا فيها إذا كانت حرف ابتداء أيضاً .

فقال ابْنُ درستويه هي حينئذٍ جارَّة ، وتتعلَّق بما قبلها تعلّق حروف الجرِّ من حيثُ المعنى لا مِنْ حيثُ اللفظ ، والجملة بعدها في محل جرٍّ .

وقال الجمهورُ : إذا كانت حرف ابتداء فَلَيْسَتْ جارّةً ، بل حرف ابتداء فقط .

وإن كان مَعْنَاهَا الغاية كقول القائل في ذلك : [الطويل]

2459 - سَرَيْتُ بِهِمْ تَكِلَّ مَطِيُّهُمْ . . .

وحَتَّى الجِيَادُ مَا يُقَدْنَ بأرْسَانِ

وقل الآخر في ذلك : [الطويل]

2460 - فَمَا زَالَتِ القَتْلَى تَمُجُّ دِمَاءَهَا . . .

بِدِجلَةَ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ

وقال صاحب " التَّحْرِيرِ " : " حتَّى " هنا ليست للغاية : بل هي ابتداء وخبر وهذا وَهْمٌ إذ الغايةُ معنى لا يفارقها .

وقوله " بَلْ هي ابتداء وخبر " تسامح في العبارة يريدُ بل الجملة بعدها ثُمَّ الجملة التي في هذا المكان ليست ابتداء وخبر ، بل هي جملة فعليّة ، وهي قالوا و" إذَا " معموله لها .

وممن ذهب إلى أنَّها ليست للغاية الواحديُّ فإنَّه حكى في معنى الآية الكريمة أقوالاً ، ثم قال : فعلى هذا القَوْلِ معنى " حتَّى " للانتهاء والغاية وعلى القولين الأوَّلين ليست " حتى " في هذه الآية الكريمة للغاية بل هي التي يقع بعدها الجمل وينصرف الكلام بعدها إلى الابتداء كـ " أما " و" إذا " ولا تعلق لقوله : " حتّى إذا " بما قبله ، بل هذا ابتداء خبر أخبر عنهم كقوله في ذلك : [الطويل]

2461 - فَيضا عَجَباً حَتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّنِي . . .

كَأَنَّ أَبَاهَا نَهْشَلٌ أَوْ مُجَاشِعُ

وهذا غير مرضي منه لمخالفته الجُمْهُور .

وقوله " لا تعَلُّقَ لها بما قبلها " ممنوع على جميع الأقوال التي ذكرها .

والظَّاهِرُ أنِّما تتعلّق بقوله " ينَالُهُمْ نصيبهم " .

فصل في إمالة " حتى "

(40/269)

قال الخليلُ وسيبويه : لا يجوزُ إمالة " حتى " و " ألاّ " و " أمَّا " وهذه ألفات أُلْزِمَتِ الفتح لأنَّها أواخر حروفٍ جاءت لمعاني يفصل بينها وبين أواخر الأسماء التي فيها الألف نحو : حبلى وهُدَى إلا أن " حتَّى " كتبت بالياء لأنَّها على أربعة أحرف فأشبهت سَكْرَى ، قال بعض النحويين : لا يجوز إمالة " حتَّى " لأنَّها حرف لا يتصرف والإمالة ضرب من التصرف .

قوله : " يَتَوَفَّوْنَهُمْ " في محلّ نصب على الحال ، وفي المراد بقوله : ﴿ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ قولان :

المراد بالرُّسل ملك الموت وبقوله : " يَتَوَفَّوْنَهُم " يقبضون أرواحهم ؛ لأنَّ لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى .

قال ابنُ عبَّاسٍ : إنَّ الملائكة يطالبون بهذه الأشياء عند الموت على سبيل الزّجر والتّوبيخ .

الثاني : قال الحسن والزَّجَّاجُ في أحد قوليه : إنّ هذا لا يكون في الآخر ومعنى قوله : ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي يتوفون مدتهم عند حشرهم إلى النار بمعنى يستكملون

عدتهم حتَّى لا ينفلت منهم أحد .

قوله " أَينمَا كُنْتُمْ " أي أين الشّركاء الذين كنتم تَعْبدُونَهُمْ من دون اللَّهِ وكتبت " أينَمَا " متصلة وحقُّها الانفصال ، لأنَّ " ما " موصولة لا صلة إذ التقدير : أين الذين تدعونهم ولذلك كتبت ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ [الأنعام : 134] منفصلاً و﴿ إِنَّمَا الله ﴾ [النساء : 171] متصلاً .

قوله " ضَلُّوا " جواب من حيث المعنى لا من حيث اللَّفْظ ، وذلك أنَّ السُّؤال إنَّما وقع عن مكان الذين كانوا يدعونهم من دون اللَّه ، فلو جاء الجوابُ على نسق السُّؤال لقيل : هم في المكان الفلانيّ ، وإنَّما المعنى : ما فعل معبودكم ومن كنتم تدعونهم ، فأجَابُوا بأَنَّهُمْ ضلُّوا عنهم وغابوا .

قوله : " وشَهِدُوا " يحتمل أن يكون نَسَقاً على " قالوا " الذي وقع جواباً لسؤال الرسل ، فيكون داخلاً في الجواب أيضاً .

(41/269)

ويحتمل أن يكون مستأنفاً منقطعاً عما قَبْلَهُ ليس داخلاً في حيِّز الجواب كذا قال أبو حيَّان وفيه نظرٌ ؛ من حيث إنَّهُ جعل هذه الجملة جواباً لعطفها على " قَالُوا " ، و" قالوا " في

الحقيقة ليس هو الجواب ، إنَّما الجوابُ هو مقولُ هذا القول ، وهو " ضَلُّوا عَنا " ف " ضلُّوا عنَّا " هو الجواب الحقيقي الذي يُسْتَفَادُ منه الكلام .

ونظيره أن يقول : سألت زَيْداً ما فعل ؟ فقال : أطعمتُ وكسوتُ فنفسُ أطعمتُ ، وكسوتُ هو الجواب .

وإذا تقرَّرَ هذا فكان ينبغي أن يقول : " فيكون " معطوفاً على " ضَلُّوا عنَّا " ، ثمَّ لو قال كذلك لكان مُشْكلاً من جهة أخرى ، وهو أنَّهُ كان يكون التركيب الكلامي : " ضلُّوا عَنَّا وشهدنا على أنفسنا أنَّا كنَّا " ، إلا أن يقال : حكى الجواب الثَّاني على المعنى ، فهو محتمل على بُعْد بعيدٍ .

ومعنى الآية أنَّهُم اعترفوا عند معاينة الموت أنَّهُم كانوا كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 103 . 105 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم ، فمن جرى بسعادته الحكمُ وقع عليه رقم السعادة ، ومن سبق بشقاوته الحكمُ حُقَّ عليه عَلَمُ الشقاوة .

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع في قَعْرِ اللَّظَى تداركْته العنايةُ وأخرجتْه الرحمةُ ،

ومَنْ سَبَقَتْ له قسمةُ الشقاوةِ . . فلو نزل الفراديس تداركته السخطة وأخرجته اللعنة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 533 ﴾

(42/269)

قوله تعالى ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : لقد اعترفوا ، والاعتراف - كما قيل - إنصاف ، فهل ينفعهم ؟ قيل : هيهات ! فات محله بفوات دار العمل لا جرم ! ﴿ قال ﴾ أي الذي جعل الله إليه أمرهم ﴿ ادخلوا ﴾ كائنين ﴿ في أمم ﴾ أي في جملة جماعات وفرق أم بعضها بعضاً ؛ ثم وصفهم دالاً بتاء التأنيث على ضعف عقولهم فقال : ﴿ قد خلت ﴾ ولما كان في الزمن الماضي من آمن ، أدخل الجار فقال ﴿ من قبلكم ﴾ ولما كان الجن الأصل في الإغواء قدمهم فقال : ﴿ من الجن والإنس ﴾ ثم ذكر محل الدخول فقال : ﴿ في النار ﴾ .

ولما جرت عادة الرفاق بأنهم يتكالمون وحين الاجتماع يتسالمون تشوف السامع إلى حالهم في ذلك فقال مجيباً له : ﴿ كلما دخلت أمة ﴾ أي منهم في النار ﴿ لعنت أختها ﴾ أي القريبة منها في الدين والملة التي قضيت آثارها واتبعت منارها ، يلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى - وهكذا ، واستمر ذلك منهم ﴿ حتى إذا اداركوا ﴾ اي تداركوا وتلاحقوا ، يركب بعضهم بعضاً - بما يشير إليه الإدغام ﴿ فيها جميعاً ﴾ لم يبق منهم أمة ولا واحد من أمة ﴿ قالت أخراهم ﴾ أي في الزمن والمنزلة ، وهم الأتباع والسفل ﴿ لأولاهم ﴾ أي لأجلهم مخاطبين لله خطاب المخلصين ﴿ ربنا ﴾ أي الذي ما قطع إحسانه في الدنيا عنا على ما كان منا من مقابلة إحسانه بالإساءة ﴿ هؤلاء ﴾ أي الأولون ﴿ أضلونا ﴾ أي لكونهم أول من سن الضلال ﴿ فآتهم ﴾ أي أذقهم بسبب ذلك ﴿ عذاباً ضعفاً ﴾ أي يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين لأنهم ضلوا وأضلوا لأنهم سنوا الضلال ، " ومن سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " ومنه " لا تقتل نفس ظلماً إلا على ابن آدم الأول كفل من دمها " لأنه أول من سن القتل ، ثم أكدوا شدة العذاب بقولهم : ﴿ من النار ﴾ .

ولما كان كأنه قيل : لقد قالوا ما له وجه ، فبم أجيبوا ؟ قيل : ﴿ قال ﴾ أي جواباً لهم ﴿ لكل ﴾ أي من السابق واللاحق والمتبوع والتابع ﴿ ضعف ﴾ وإن لم يكن الضعفاء متساويين لأن المتبوع وإن كان سبباً لضلال التابع فالتابع أيضاً كان سبباً لتمادي المتبوع في ضلاله وشدة شكيمته فيه بتقويته بالاتباع وتأييده بالمناضلة عنه والدفاع ؛ ولما كانوا جاهلين باستحقاقهم الضعف لسبب هذه الدقيقة قال : ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ أي بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 31 . 32 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية من بقية شرح أحوال الكفار وهو أنه تعالى يدخلهم النار .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ ادخلوا ﴾ ففيه قولان :

الأول : إن الله تعالى يقول ذلك .

(44/269)

والثاني : قال مقاتل : هو من كلام خازن النار ، وهذا الاختلاف بناء على أنه تعالى هل يتكلم مع الكفار أم لا ؟ وقد ذكرنا هذه المسألة بالاستقصاء .

أما قوله تعالى : ﴿ ادخلوا فِى أُمَمٍ ﴾ ففيه وجهان :

الوجه الأول : التقدير : ادخلوا في النار مع أمم ، وعلى هذا القول ففي الآية إضمار ومجاز أما الإضمار فلأنا أضمرنا فيها قولنا : في النار .

وأما المجاز ، فلأنا حملنا كلمة "في" على "مع" لأنا قلنا معنى قوله : ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ أي مع أمم .

والوجه الثاني : أن لا يلتزم الإضمار ولا يلتزم المجاز ، والتقدير : ادخلوا في أمم في النار ، ومعنى الدخول في الأمم ، الدخول فيما بينهم وقوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مّن الجن والإنس ﴾ أي تقدم زمانهم زمانكم ، وهذا يشعر بأنه تعالى لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة ، بل يدخل الفوج بعد الفوج ، فيكون فيهم سابق ومسبوق ، ليصح هذا القول ، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقها وقوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ والمقصود أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً فيتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] والمراد بقوله : ﴿ أُخْتَهَا ﴾ أي في الدين ، والمعنى : أن المشركين يلعنون المشركين ، وكذلك اليهود ، تلعن اليهود ، والنصارى النصارى ، وكذا القول في المجوس ، والصابئة وسائر أديان الضلالة .

وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أي تداركوا ، بمعنى تلاحقوا ، واجتمعوا في النار ، وأدرك بعضهم بعضاً ، واستقر معه ﴿ قَالَتْ أولاهم لأُخْرَاهُمْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في تفسير الأولى والأخرى قولان : الأول : قال مقاتل أخراهم يعني آخرهم دخولاً في النار ، لأولاهم دخولاً فيها .

والثاني : أخراهم منزلة ، وهم الأتباع والسفلة ، لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء .

المسألة الثانية :

(45/269)

"اللام" في قوله : ﴿ لِإِخْرَاهُمْ ﴾ لام أجل ، والمعنى : لأجلهم ولإضلالهم إياهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلآء أَضَلُّونَا ﴾ وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم ، لأنهم ما خاطبوا أولاهم ، وإنما خاطبوا الله تعالى بهذا الكلام .

أما قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ فالمعنى : أن الأتباع يقولون إن المتقدمين أضلونا ، واعلم أن هذا الإضلال يقع من المتقدمين للمتأخرين على وجهين : أحدهما : بالدعوة إلى الباطل ، وتزيينه في أعينهم ، والسعي في إخفاء الدلائل المبطلة لتلك الأباطيل .

والوجه الثاني : بأن يكون المتأخرون معظمين لأولئك المتقدمين ، فيقلدونهم في تلك الأباطيل والأضاليل التي لفقوها ويتأسون بهم ، فيصير ذلك تشبيهاً بإقدام أولئك المتقدمين

على الإضلال .

ثم حكى الله تعالى عن هؤلاء المتأخرين أنهم يدعون على أولئك المتقدمين بمزيد العذاب وهو قوله : ﴿ فَآتِهِم عذاباً ضِعفاً من النار ﴾ وفي الضعف ، قولان :

القول الأول : قال أبو عبيدة "الضعف" هو مثل الشيء مرة واحدة .

وقال الشافعي رحمه الله : ما يقارب هذا ، فقال في رجل أوصى فقال اعطوا فلاناً ضعف نصيب ولدي قال : يعطي مثله مرتين .

والقول الثاني : قال الأزهري : "الضعف" في كلام العرب المثل إلى ما زاد وليس بمقصور على المثلين ، وجائز في كلام العرب أن تقول : هذا ضعفه ، أي مثلاه وثلاثة أمثاله ، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة ، والدليل عليه : قوله تعالى : ﴿ فأولئك لَهُمْ جَزَاء الضعف بِمَا عَمِلُواْ ﴾ [سبأ : 37] ولم يرد به مثلاً ولا مثلين ، بل أولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله ، لقوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] فثبت أن أقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور إلى ما لا نهاية له .

(46/269)

وأما مسألة الشافعي رحمه الله : فاعلم أن التركة متعلقة بحقوق الورثة ، إلا أنا لأجل الوصية صرفنا طائفة منها إلى الموصى له ، والقدر المتيقن في الوصية هو المثل ، والباقي مشكوك ، فلا جرم أخذنا المتيقن وطرحنا المشكوك ، فلهذا السبب حملنا الضعف في تلك المسألة على المثلين .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياء على الكناية عن الغائب ، والمعنى : ولكن لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر ، فيحمل الكلام على كل ، لأنه وإن كان للمخاطبين فهو اسم ظاهر موضوع للغيبة ، فحمل على اللفظ دون المعنى ، وأما الباقون فقرؤوا بالتاء على الخطاب والمعنى : ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ، ما لكل فريق منكم من العذاب ، ويجوز ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا ما مقدار ذلك .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : إن كان المراد من قوله : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أي حصل لكل أحد من العذاب ضعف ما يستحقه ، فذلك غير جائز لأنه ظلم ، وإن لم يكن المراد ذلك ، فما معنى كونه ضعفاً ؟

والجواب : أن عذاب الكفار يزيد ، فكل ألم يحصل فإنه يعقبه حصول ألم آخر إلى غير نهاية فكانت تلك الآلام متضاعفة متزايدة لا إلى آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 62.60 ﴾

(47/269)

وقال السمرقندى :

ثم قال : ﴿ قَالَ ادخلوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾

أي : قالت لهم خزنة النار : ادخلوا النار مع أمم قد مضت على مذهبكم ﴿ مّن الجن والإنس فِى النار كُلَّمَا دَخَلَتْ ﴾ يعني : النار ﴿ أُمَّةٍ ﴾ جماعة ﴿ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أي : على الأمة التي دخلت قبلها في النار .

قال مقاتل : يعني لعنوا أهل ملتهم يلعن المشركون المشركين والنصارى النصارى .

وقال الكلبي : تدعو على الأمم التي قبلهم في النار يبدأ بالأمم الأولى فالأولى ، ويبدأ أولاً بقابيل وولده .

ويقال : يبدأ بالأكابر فالأكابر مثل فرعون كما قال في آية آخرى ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ [مريم : 69] .

﴿ حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ يعني : اجتمعوا في النار وأصله تداركوا فيها يعني : اجتمع القادة والأتباع في النار وقرأ بعضهم حَتَّى إذَا أَدْرَكُوا فيه أي دخلوا في إدراكها ، كما يقال أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء وهي قراءة شاذة ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لاولاهم ﴾ أي : قال أواخر الأمم لأولّهم .

ويقال : قالت الأتباع للقادة والرؤساء ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ عن الهدى ﴿ قَالَ ادخلوا فِى أُمَمٍ قَدْ ﴾ أي : أعظم زيادة من العذاب ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى : ﴿ لِكُلّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : على القادة زيادة من العذاب ولكن لا تعلمون ما عليهم . قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ ولكن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياء أي : لا يعلم فريق منهم عذاب فريق آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ ادخلوا ﴾ يقول الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة ادخلوا ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ يعني مع جماعات

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّن الجن والإنس فِي النار ﴾ يعني كفار الأُمم الماضية ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ في الدين والملة ولم يقل أخاها لأنّه عنى بها الأُمّة فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود ، وكذلك النصارى النصارى والمجوس المجوس ويلعن الأتباع القادة يقولون : لعنكم الله أنتم غررتمونا يقول الله عزّ وجلّ ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا ﴾ أي تلاحقوا ﴿ جَمِيعاً ﴾ قرأ الأعمش : حتّى إذا تداركوا ، على الأصل ، وقرأ النخعي : حتّى إذا أدركوا ، مثقلة الدال من غير ألف أراد فنقلوا من الدرك .

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ قال مقاتل : يعني أُخراهم دخولاً للنار وهم الأتباع ، ﴿ لأُولاَهُمْ ﴾ دخولاً وهم القادة .

قال ابن عباس : (أُخراهم) يعني آخر الأُمم ، (لأولاهم) يعني أوّل الأُمم ، وقال السدي : أُخراهم يعني الذين كانوا في آخر الزمان . (لأولاهم) يعني الذين شرعوا لهم ذلك الدين ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا ﴾ عن الهدى . يعني الفساد ﴿ فَآتِهِمْ ﴾ أي فأعطاهم ﴿ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ أي مضعفاً من النار ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ من العذاب ﴿ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ حتّى يحل بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جِمِيعاً ﴾ يعني في النار أدرك بعضهم بعضاً حتى استكملوا فيها .

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ ﴾ يعني الأتباع للقادة لأنهم بالاتباع لهم متأخرون عنهم ، وكذلك في دخول النار تقدم القادة على الأتباع .

﴿ رَبَّنَا هَؤُلآءِ أَضَلُّونَا فَئَاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ يريد بأحد الضعفين عذابهم على الكفر ، وبالآخر عذابهم على الإغواء .

ويحتمل هذا القول من الأتباع وجهين :

أحدهما : تخفيف العذاب عنهم .

والثاني : الانتقام من القادة بمضاعفة العذاب عليهم .

فأجابهم الله قال : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ يعني أنه وإن كان للقادة ضعف العذاب ، لأن أحدهما بالكفر ، والآخر بالإغواء ، فلكم أيها الأتباع ضعف العذاب ، وهذا قول الجمهور ، وإن ضعف الشيء زيادة مثله .

وفيه وجه ثان : قاله مجاهد : أن الضعف من أسماء العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب وعبر عن يقول . ب ﴿ قال ﴾ لتحقق وقوع ذلك وصدق القصة ، وهذا كثير ، وقوله : ﴿ في أمم ﴾ متعلق ب ﴿ ادخلوا ﴾ ، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره كائنين أو ثابتين في أمم ، فيكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ ادخلوا ﴾ وقيل ﴿ في ﴾ بمعنى مع ، وقيل هي على بابها وهو أصوب ، وقوله ﴿ قد خلت ﴾ صفة ل ﴿ أمم ﴾ وقوله : ﴿ في النار ﴾ يصح تعلقه ب ﴿ ادخلوا ﴾ يصح أن يتعلق ب ﴿ أمم ﴾ أي في أمم ثابتة أو مستقرة ، ويصح تعلقه بالذكر الذي في ﴿ خلت ﴾ ومعنى ﴿ قد خلت ﴾ على هذا التعلق أي قد تقدمت ومضى عليها الزمن وعرفها فيما تطاول من الآباد ، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت إذ أصلها فيمن مات من الناس أي صاروا إلى خلاء من الأرض ، وعلى التعليقين الأولين لقوله ﴿ في النار ﴾ فإنما ﴿ خلت ﴾ حكاية عن حال الدنيا أي ادخلوا في النار في جملة الأمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة ، وقد ذكر الجن لأنهم أعرق في الكفر ، وإبليس أصل الضلال والإغواء ، وهذه الآية نص في أن كفرة الجن في النار ، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنيهم في الجنة لأنهم عقلاء مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا ، وقد بوب البخاري رحمه الله –

باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم – وذكر عبد الجليل أن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم ، وذكر في ذلك حديث مجهولاً وما أراه يصح ، والله أعلم .

(51/269)

والأخوة في هذه الآية أخوة الملة والشريعة . قال السدي : يتلاعن آخرها وأولها ، و ﴿ اداركوا ﴾ معناه تلاحقوا ووزنه تفاعلوا أصله تداركوا أدغم فجلبت ألف الوصل ، وقرأ أبوعمرو " إداركوا " بقطع ألف الوصل ، قال أبو الفتح : هذا مشكل ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيء شاذاً في ضرورة الشعر في الاسم أيضاً لكنه وقف مثل وقفة المستذكر ثم ابتدأ فقطع ، وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدال " ادْركوا " بفتح الراء وبحذف الألف بعد الدال بمعنى أدرك بعضهم بعضاً ، وقرأ حميد " أُدرِكوا " بضم الهمزة وكسر الراء أي أدخلوا في إدراكها ، وقال مكي في قراءة مجاهد إنها " ادَّاركوا " بشد الدال المفتوحة وفتح الراء ، قال : وأصله إذ تركوا وزنها افتعلوا ، وقرأ ابن مسعود والأعمش " تداركوا " ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ الجمهور " حتى إذا اداركوا " بحذف ألف " إذا " لالتقاء الساكنين .

وقوله تعالى : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ معناه قالت الأمة الأخيرة التي وجدت

ضلالات مقررة وسنناً كاذبة مستعملة للأولى التي شرعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلال ابتداء ، ربنا هؤلاء طرقوا طرق الضلال وسببوا ضلالنا فآتهم عذاباً مضاعفاً أي ثانياً زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومسببون كفرنا وتقول ضاعفت كذا إذا جعلته مثل الأول ، واللام في قوله ﴿ لأولادهم ﴾ كأنها لام سبب إذ القول إنما هو للرب ، ثم قال عز وجل مخبراً لهم ﴿ لكل ضعف ﴾ أي العذاب مشدد على الأول والآخر ولكن لا تعلمون أي المقادير وصور التضعيف ، وهذا رد لكلام هؤلاء ، إذ ليس لهم كرامة فيظهر إسعافهم .

(52/269)

وأما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه حاصل وأن كل من سن كفراً أو معصية فعليه كفل من جهة كل من عمل بذلك بعده ، ومنه حديث أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " ما من داع دعا إلى ضلالة إلا كان عليه وزره ووزر من اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً " الحديث ، ذكره الليث بن سعد من آخر الجزء الرابع من حديثه ، وذكره مالك في الموطأ غير مسند موصل ، ومنه قوله " ما تقتل نسمة ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها " ، أما أن هؤلاء عينوا في جميع السبعة غير

عاصم في رواية أبي بكر " ولكن لا تعلمون " بالتاء ويحتمل ذلك أن يكون مخاطبة لمحمد وأمته ، وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر " ولكن لا يعلمون " ، وروى حفص عن عاصم مثل قراءة الجماعة ، وهذه مخاطبة لأمة محمد وإخبار عن الأمة الأخيرة التي طلبت أن يشدد العذاب على أولاها ، ويحتمل أن يكون خبراً عن الطائفتين حملاً على لفظة "كل" ، أي لا يعلم أحد منهم قدر ما أعد لهم من عذاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(53/269)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا ﴾

إن الله تعالى يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة ، لأن الله تعالى لا يكلِّم الكفار يوم القيامة .

قال ابن قتيبة : و"في" بمعنى "مع" .

وفي قوله : ﴿ قد خلت من قبلكم ﴾ قولان .

أحدهما : مضت إلى العذاب .

والثاني : مضت في الزمان ، يعني : كفار الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿ كلما دخلت أُمة لعنت أُختها ﴾ وهذه أُخُوَّةُ الدِّين والملَّة ، لا أُخُوَّةُ النسب .

قال ابن عباس : يلعنون من كان قبلهم .

قال مقاتل : كلما دخل أهل ملّة ، لعنوا أهل ملَّتهم ، فيلعن اليهودُ اليهودَ ، والنصارى النصارى ، والمشركون المشركين ، والأتباع القادة ، ويقولون : أنتم ألقيتمونا هذا الملقى حين أطعناكم .

وقال الزجاج : إنما تلاعنوا ، لأن بعضهم ضل باتباع بعض .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا ادَّاركوا ﴾ قال ابن قتيبة : أي : تداركوا ، فأدغمت التاء في الدال ، وأُدخلت الألف ليَسْلَم السكونِ لما بعدها ، يريد : تتابعوا فيها واجتمعوا .

قوله تعالى : ﴿ قالت أُخراهم لأولاهم ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : آخرِ أُمّة لأول أُمّة ، قاله ابن عباس .

والثاني : آخر أهل الزمان لأوّلِيهم الذين شرعوا له ذلك الدِّين ، قاله السدي .

والثالث : آخرهم دخولاً إلى النار ، وهم الأتباع ، لأوّلِهم دخولاً ، وهم القادة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ قال ابن عباس : شرعوا لنا أن نتخذ من دونك إلها .

قوله تعالى : ﴿ فآتهم عذاباً ضعفاً ﴾ قال الزجاج : أي : عذاباً مضاعفاً .

قوله تعالى : ﴿ قال لكلٍّ ضعف ﴾ أي عذاب مضاعف ولكن لا تعلمون .

قرأ أبو بكر ، والمفضل عن عاصم : "يعلمون" بالياء .

قال الزجاج : والمعنى : لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر .

وقرأ الباقون : "تعلمون" بالتاء ، وفيها وجهان ذكرهما الزجاج.

أحدهما : لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب .

(54/269)

والثاني : لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك ، وقيل : إنما طلب الأتباع مضاعفة عذاب القادة ، ليكون أحد العذابين على الكفر ، والثاني على إغرائهم به ، فأجيبوا : ﴿ لكلٍّ ضعف ﴾ أي : كما كان للقادة ذلك ، فلكم عذاب بالكفر ، وعذاب بالاِتّباع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(55/269)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ادخلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّن الجن والإنس فِي النار ﴾

أي مع أُممٍ ؛ ف "فِي" بمعنى مع .

وهذا لا يمتنع ؛ لأن قولك : زيد في القوم ، أي مع القوم وقيل : هي على بابها .

أي ادخلوا في جملتهم .

والقائل قيل : هو الله عز وجل ، أي قال الله ادخلوا .

وقيل : هو مالك خازن النار .

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أي التي سبقتها إلى النار ، وهي أختها في الدين والملة .

﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ أي اجتمعوا .

وقرأ الأعمش "تداركوا" وهو الأصل ، ثم وقع الإدغام فاحْتِيج إلى ألف الوصل .

وحكاها المهدوي عن ابن مسعود .

النحاس : وقرأ ابن مسعود "حتى إذا ادركوا" أي أدرك بعضهم بعضاً .

وعِصْمَةُ عن أبي عمرو "حتى إذا اداركوا" بإثبات الألف على الجمع بين الساكنين .

وحكى : هذان عبدا الله .

وله ثلثا المال .

وعن أبي عمرو أيضاً : "إذا إداركوا" بقطع ألف الوصل ؛ فكأنّه سكت على "إذا" للتذكُّر ، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدىء بها .

وقد جاء في الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله :

يا نفسُ صبراً كلُّ حيّ لاقى . . .

وكل إثنين إلى افتراق

وعن مجاهد وحُميد بن قيس "حتى إذ ادركوا" بحذف ألف "إذا" لالتقاء الساكنين ،

وحذف الألف التي بعد الدال .

"جَمِيعاً" نصب على الحال .

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ ﴾ أي آخرهم دخولاً وهم الاتباع لأولاهم وهم القادة .

﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ فاللام في "لأولاهم" لام أجل ؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا في حق أولاهم ربنا هؤلاء أضلونا .

والضِّعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات .

وعن ابن مسعود أن الضِّعف ها هنا الأفاعي والحيات .

ونظير هذه الآية ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 68] .

(56/269)

وهناك يأتي ذكر الضِّعف بأشبع من هذا وما يترتب عليه من الأحكام ، إن شاء الله تعالى .

﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أي للتابع والمتبوع .

﴿ ولكن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ على قراءة من قرأ بالياء ؛ أي لا يعلم كل فريق ما بالفريق الآخر ، إذ لو علم بعض من في النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوع سلوة له .

وقيل : المعنى "ولَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ" بالتاء ، أي ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب .

ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(57/269)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ﴾

يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكاً من خلقه : ادخلوا في أمم يعني في جملة أمم قد خلت يعني قد مضت وسلفت وإنما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لأنه أطلق الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم يعني من الجن

والإنس ﴿ في النار ﴾ أي ادخلوا جميعاً في النار التي هي مستقركم ومأواكم وإنما عنى بالأمم والجماعات والأحزاب وأهل الملل الكافرة من الجن والإنس ﴿ كلما دخلت أمة ﴾ يعني كلما دخلت جماعة النار ﴿ لعنت أختها ﴾ يعني كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين لا في النسب .

(58/269)

قال السدي : دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الأولى ﴿ حتى إذا اداركوا ﴾ يعني تداركوا وتلاحقوا ﴿ فيها جميعاً ﴾ يعني تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعاً وأدرك بعضهم بعضاً واستقروا في النار ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني قال آخر كل أمة لأولها ، وقال السدي : قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين ، وقال مقاتل : يعني قال أخراهم دخولاً النار وهم الأتباع لأولاهم دخولاً وهم القادة لأن القادة يدخلون النار أولاً ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ يعني : تقول الأتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى وزينوا لنا طاعة الشيطان ، وقيل : إنما قال المتأخرون ذلك

لأنهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من أسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لأنا اتبعنا سبيلهم ﴿ فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ أي أضعف عليهم العذاب ، قال أبو عبيدة : الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة ، قال الأزهري والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره إلى موضع كلام العرب والضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور وقال الزجاج في تفسير هذه الآية : فآتهم عذاباً ضعفاً أي مضاعفاً لأن الضعف في كلام العرب على ضربين أحدهما المثل والآخر أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته ﴿ قال ﴾ يعني قال الله تعالى : ﴿ لكل ضعف ﴾ يعني لأولاكم ضعف

(59/269)

ولآخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لأنهم قد دخلوا في الكفر جميعاً ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ يعني ما أعد الله لك فريق من العذاب وقرئ بالياء ومعناه ولكن لا يعلم كل فريق ما أعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(60/269)

وقال أبو حيان :

﴿ قَال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ .

أي يقول الله لهم أي لكفار العرب وهم المفترون الكذب والمكذبون بالآيات وذلك يوم القيامة وعبر بالماضي لتحقّق وقوعه وقوله ذلك على لسان الملائكة ويتعلق ﴿ في أمم ﴾ في الظاهر بادخلوا والمعنى في جملة أمم ويحتمل أن يتعلق بمحذوف فيكون في موضع الحال و ﴿ قَد خلت من قبلكم ﴾ أي تقدّمتكم في الحياة الدنيا أو تقدّمتكم أي تقدّم دخولها في النار وقدّم الجنّ لأنهم الأصل في الإغواء والإضلال ودلّ ذلك على أنّ عصاة الجنّ يدخلون النار ، وفي النار متعلق بخلت على أنّ المعنى تقدّم دخولها أو بمحذوف وهو صفة لأمم أي في أمم سابقة في الزمان كائنة من الجنّ والإنس كائنة في النار أو بادخلوا على تقدير أن تكون

في بمعنى مع وقد قاله بعض المفسرين فاختلف مدلول في إذ الأولى تفيد الصحبة والثانية تفيد الظّرفية وإذا اختلف مدلول الحرف جاز أن يتعلق اللفظان بفعل واحد ويكون إذ ذاك ﴿ أدخلوا ﴾ قد تعدّى إلى الظرف المختص بفي وهو الأصل وإن كان قد تعدّى في موضع آخر بنفسه لا بوساطة في كقوله

﴿ وقيل ادخلا النار ﴾ ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ ويجوز أن تكون في باقية على مدلولها من الظرفية و﴿ في النار ﴾ كذلك ويتعلّقان بلفظ ﴿ أدخلوا ﴾ وذلك على أن يكون ﴿ في النار ﴾ بدل اشتمال كقوله ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ﴾ ويجوز أن يتعدّى الفعل إلى حرفي جرّ بمعنى واحد على طريقة البدل .

﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ ﴿ كلما ﴾ للتّكرار ولا يستوي ذلك في الأمة الأولى فاللاحقة تلعن السابقة أو يلعن بعض الأمة الدّاخلة بعضها ومعنى ﴿ أختها ﴾ أي في الدين والمعنى ﴿ كلما دخلت أمة ﴾ من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وغيرهم من الكفار ، وقال الزمخشري : ﴿ أختها ﴾ التي ضلّت بالاقتداء بها انتهى ، والمعنى أنّ أهل النار يلعن بعضهم بعضاً ويعادي بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض ، كما جاء في آيات أخر .

﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قَالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ ﴿ حتى ﴾ غاية لما قبلها والمعنى أنهم يدخلون فوجاً ففوجاً لاعناً بعضهم بعضاً إلى انتهاء تداركهم وتلاحقهم في النار واجتماعهم فيها وأصل ﴿ ادّاركوا ﴾ تداركوا أدغمت التاء في الدّال فاجتلبت همزة الوصل ، قال ابن عطية ، وقرأ أبو عمرو ﴿ ادّاركوا ﴾ بقطع ألف الوصل ، قال أبو الفتح : هذا مشكل ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيء شاذّاً في ضرورة الشّعر في الاسم أيضاً لكنّه وقف مثل وقفة المستنكر ثم ابتدأ فقطع ، وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدّال وفتح الراء بمعنى أدرك بعضهم بعضاً ، وقرأ حميد أدركوا بضمّ الهمزة وكسر الرّاء أي ادخلوا في إدْراكها ، وقال مكي في قراءة مجاهد : إنها ادّركوا بشدّ الدال المفتوحة وفتح الرّاء قال وأصلها ادتركوا وزنها افتعلوا ، وقرأ ابن مسعود والأعمش تداركوا ورويت عن أبي عمر انتهى ، وقال أبو البقاء ، وقرىء إذا ﴿ ادّاركوا ﴾ بألف واحدة ساكنة والدّال بعدها مشدّدة وهو جمع بين ساكنين وجاز في المنفصل كما جاز في المتصل ، وقد قال : بعضهم اثنا عشر بإثبات الألف وسكون العين انتهى ويعني بقوله كما جاز في المتصل نحو الضالين وجان و ﴿ أخراهم ﴾ الأمّة الأخيرة في الزمان التي وجدت ضلالات مقررة مستعملة ﴿ لأولاهم ﴾ التي شرعت ذلك وافترت وسلكت سبيل الضّلال ابتداء أو ﴿ أخراهم ﴾ منزلة ورتبة وهم الأتباع والسفلة ﴿

لأولاهم ﴾ منزلة ورتبة وهم القادة المتبوعون ، أو ﴿ أخراهم ﴾ في الدّخول إلى النار وهم ﴿ الأتباع ﴾ لأولاهم دخولاً وهم القادة أقوال آخرها لمقاتل ، وقال ابن عباس : آخر أمة لأول أمة وأخرى هنا بمعنى آخرة مؤنّث آخر فمقابل أوّل لا مؤنث له آخر بمعنى غير لقوله ﴿ وزر أخرى ﴾ واللام في ﴿ لأولاهم ﴾ لام السبب أي لأجل أولاهم لأنّ خطابهم مع الله لا معهم ﴿ أضلّونا ﴾ شرعوا لنا الضلال أو جعلونا نضلّ

(62/269)

وحملونا عليه ضعفاً زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومسببو كفرنا .

﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي لكلّ من الأخرى والأولى عذاب وللأولى عذاب متضاعف زائد إلى غير نهاية وذلك أنّ العذاب مؤبّد فكل ألم يعقبه آخر ، وقرأ الجمهور بالتاء على الخطاب للسائلين أي ﴿ لا تعلمون ﴾ ما لكلّ فريق من العذاب أو لا تعلمون ما لكلّ فريق من العذاب أو لا تعلمون المقادير وصور العذاب قيل أو خطاب لأهل الدّنيا أي ولكن يا أهل الدّنيا لا تعلمون مقدار ذلك ، وقرأ أبو بكر والمفضّل عن عاصم بالياء فيحتمل أن يكون إخباراً عن الأمة ويكون الضمير في ﴿ لا يعلمون ﴾ عائداً على الأمة الأخيرة التي طلبت أن يضعف العذاب على أولاها ويحتمل أن يكون خبراً عن

الطائفتين أي لا يعلم كل فريق قدر ما أعدّ له من العذاب أو قدر ما أعدّ للفريق الآخر من العذاب وروي عن ابن مسعود أن الضّعف هنا الأفاعي والحيّات وهذه الجملة ردّ على أولئك السّائلين وعدم إسعاف لما طلبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(63/269)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ أي الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ ادخلوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾ أي كائنين من جملة أممٍ مصاحبين لهم ﴿ مّنَ الجن والإنس ﴾ يعني كفارَ الأمم الماضيةِ من النوعين ﴿ فِى النار ﴾ متعلقٌ بقوله : ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ من الأمم السابقةِ واللاحقةِ فيها ﴿ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ التي ضللت بالاقتداء بها ﴿ حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أي تداركوا وتلاحقوا في النار ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ دخولاً أو منزلةً وهو الأتباعُ ﴿ لاولاهم ﴾ أي لأجلهم إذِ الخطابُ مع الله تعالى لا معهم ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ سنّوا لنا الضلالَ فاقتدَيْنا بهم ﴿ فَآتِهِم عَذَاباً ضِعْفاً ﴾ أي مضاعفاً ﴿ مِنَ النار ﴾ لأنهم ضلّوا وأضلوا ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أما القادةُ فلِما ذُكر من الضلال والإضلالِ ، وأما الأتباعُ فلكفرهم وتقليدِهم ﴿ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ أي مالَكم

وما لِكُلٍّ فريقٍ من العذاب وقرىء بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(64/269)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أي الله عز وجل لأولئك الكاذبين المكذبين يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ ادخلوا فِى أُمَمٍ ﴾ أي مع أمم ، والجار والمجرور في موضع الحال أي مصاحبين لامم ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِن قَبْلِكُم مّن الجن والإنس ﴾ يعني كفار الأمم من النوعين ، وقدم الجن لمزيد شرهم ﴿ فِى النار ﴾ متعلق بأدخلوا ، وجوز أن يتعلق ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ به ويحمل ﴿ فِى النار ﴾ على البدلية أو على أنه صفة ﴿ أُمَمٌ ﴾ ؛ وجوز بعض المفسرين أن يكون هذا إخباراً عن جعله سبحانه إياهم في جملة أولئك من غير أن يكون هناك قول مطلقاً أي إنه تعالى جعلهم كذلك وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ من الأمم تابعة أو متبوعة في النار ﴿ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أي دعت على نظيرها في الدين فتلعن التابعة المتبوعة التي أضلتها وتلعن المتبوعة التابة التي زادت في ضلالها ، وعن أبي مسلم يلعن الأتباع القادة يقولون أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله

تعالى .

﴿ حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ غاية لما قبله أي يدخلون فوجاً فوجاً لاعنا بعضهم بعضاً إلى انتهاء تلاحقهم باجتماعهم في النار .

وأصل ﴿ اداركوا ﴾ تداركوا فادغمت التاء في الدال بعد قلبها دالاً وتسكينها ثم اجتلبت همزة الوصل .

(65/269)

وعن أبي عمرو أنه قرأ : ﴿ اداركوا ﴾ بقطع ألف الوصل وهو كما قيل مبني على أنه وقف مثل وقفة المستذكر ثم ابتدأ فقطع وإلا فلا مساغ لذلك في كلام الله تعالى الجليل ، وقرأ ﴿ إِذَا ﴾ بألف واحدة ساكنة ودال بعدها مشددة وفيه جمع بين ساكنين وجاز لما كان الثاني مدغماً ولا فرق بين المتصل والمنفصل ﴿ جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ منزلة وهم الأتباع والسفلة ﴿ لأولاهم ﴾ منزلة وهم القادة والرؤساء أو قالت أخراهم دخولاً لأولاهم كذلك ، وتقدم أحد الفريقين على الآخر في الدخول مروي عن مقاتل ، واللام في ﴿ لأولاهم ﴾ للتعليل لا للتبليغ كما في قولك : قلت لزيد افعل كذا لأن خطابهم مع الله تعالى لا معهم كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ أي دعونا إلى

الضلال وأمرونا به حيث سنوه فاقتدينا بهم ﴿ قَالَ ادخلوا فِى ﴾ أي مضاعفا كما روي عن مجاهد ﴿ مِنَ النار ﴾ .

والضعف على ما قال أبو عبيد ونص عليه الشافعي في الوصايا مثل الشيء مرة واحدة ، وعن الأزهري أن هذا معنى عرفي والضعف في كلام العرب وإليه يرد كلام الله تعالى المثل إلى ما زاد ولا يقتصر على مثلين بل هو غير محصور واختاره هنا غير واحد .

وقال الراغب : (الضعف بالفتح مصدر وبالكسر اسم كالشَّيء والشِّيء وضعف الشيء هو الذي يثنيه ومتى أضيف إلى عدد اقتضى ذلك العدد (و) مثله نحو أن يقال ضعف عشرة وضعف مائة فذلك عشرون ومائتان بلا خلاف ؛ وعلى ذلك قول الشاعر

: جزيتك ضعف الود لما اشتكيته . . .

وما إن جزاك الضعف من أحد قبلي

وإذا قيل : أعطه ضِعْفَيْ واحد اقتضى ذلك الواحد ومثليه وذلك ثلاثة لأن معناه الواحد واللذان يزاوجانه ، (وذلك ثلاثة) (2) هذا إذا كان الضعف مضافاً فإذا لم يكن مضافاً فقلتَ : الضعفين فقد قيل : يجري مجرى الزوجين في أن كل واحد منهما يزاوج الآخر فيقتضي ذلك اثنين لأن كل واحد (منهما)) يضاعف الآخر فلا يخرجان منهما اه .

ونصب ﴿ ضعافا ﴾ على أنه صفة لعذاب ، وجوز أن يكون بدلاً منه و ﴿ مِنَ النار ﴾ صفة العذاب أو الضعف .

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلٍّ ﴾ منكم ومنهم عذاب ﴿ ضِعْفَ ﴾ من النار ، أما القادة فلضلالهم وإضلالهم وذلك سبب الدعاء السابق ، وأما الأتباع فلذلك أيضاً عند بعض ، وكونهم ضالين ظاهر وأما كونهم مضلين فلان اتخاذهم إياهم رؤساء يصدرون عن أمرهم يزيد في طغيانهم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن : 6] ، واعترض بعدم اطراده فإن اتباع كثير من الأتباع غير معلوم للقادة إلا أن يقال : إنه مخصوص ببعضهم ؛ وقيل : الأحسن أن يقال : إن ضعف الأتباع لإعراضهم عن الحق الواضح وتولي الرؤساء لينالوا عرض الدنيا اتباعاً للهوى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا أَنَحْنُ صددناكم عَنِ الهدى بَعْدَ إِذْ جَاءكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ : 32] وفيه ما فيه .

والأولى أن يقال : إن ذلك في الأتباع لكفرهم وتقليدهم ولا شك أن التقليد في الهدى ضلال يستحق فاعله العذاب ، ونقل الراغب عن بعضهم في الآية أن المعنى "لكل منكم ومنهم ضعف ما يرى الآخر فإن من العذاب ظاهراً وباطناً وكل يدرك من الآخر الظاهر دون

الباطن فيقدر أن ليس له العذاب الباطن" ، واختار أن المعنى "لكل منهم ضعف ما لكم من العذاب" والظاهر ما عولنا عليه .

﴿ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق فلذا تكلمتم بما يشعر باعتقادكم استحقاق الرؤساء الضعف دونكم فالخطاب على التقديرين للأتباع كما هو الظاهر .

وقيل : إنه على الأول للأتباع ، وعلى الثاني للفريقين بتغليب المخاطبين الذين هم الأتباع على الغيب الذين هم القادة .

(67/269)

وقرأ عاصم ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياء التحتية على انفصال هذا الكلام عما قبله بأن يكون تذييلاً لم يقصد به إدراجه في الجواب ، ومن ادعى أن الخطاب للفريقين على سبيل التغليب قال : إن هذه القراءة على انفصال القادة من الأتباع إذ عليها لا يمكن القول بالتغليب إذ لا يغلب الغائب على المخاطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(68/269)

وقال ابن عاشور :

فأمّا قوله : ﴿ قال ادخلوا في أمم ﴾ فهذا قول آخر ، ليس هو من المحاورة السّابقة ، لأنّه جاء بصيغة الإفراد ، والأقوالُ قبله مسندة إلى ضمائر الجمع ، فتعيّن أنّ ضمير (قال) عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام ، لأنّ مثل هذا القول لا يصدر من أحد غير الله تعالى ، فهو استيناف كلام نشأ بمناسبة حكاية حال المشركين حينَ أوّل قدومهم على الحياة الآخرة ، وهي حالة وفاة الواحد منهم فيَكون خطاباً صدر من الله إليهم بواسطة أحد ملائكته ، أو بكلام سمعوه وعلموا أنّه من قِبَل الله تعالى بحيث يوقنون منه أنّهم داخلون إلى النار ، فيكون هذا من أشدّ ما يرون فيه مقعدهم من النّار عقوبة خاصّة بهم .

والأمر مستعمل للوعيد فيتأخّر تنجيزه إلى يوم القيامة .

ويجوز أن يكون المحكي به ما يصدر من الله تعالى يوم القيامة من حكم عليهم بدخول النّار مع الأمم السّابقة ، فذُكر عقب حكاية حال قبض أرواحهم إكمالاً لذكر حال مصيرهم ، وتخلّصاً إلى وصف ما ينتظرهم من العذاب ولذكر أحوال غيرهم .

وأيّاً مّا كان فالإتيان بفعل القول ، بصيغه الماضي : للتنبيه على تحقيق وقوعه على خلاف مقتضى الظاهر .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ قال ادخلوا في أمم ﴾ في موضع عطف البيان لجملة ﴿ ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ أي : قال الله فيما كتبه لهم ﴿ ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم

﴾

[الأعراف : 34] أي أمثالكم ، والتّعبير بفعل المضي جرَى على مقتضى الظّاهر .

والأمم جمع الأمّة بالمعنى الذي تقدّم في قوله : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ .

و(في) من قوله : ﴿ في أمم ﴾ للظّرفية المجازيّة ، وهي كونهم في حالة واحدة وحكمٍ واحد ، سواء دخلوا النّار في وسطهم أم دخلوا قبلهم أو بَعدهم ، وهي بمعنى (مع) في تفسير المعنى ، ونقل عن صاحب "الكشاف" أنه نظَّر (في) التي في هذه الآية بفي التي في قول عروة بن أذينة:

إنْ تَكُنْ عن حسن الصّنيعة مأفُو . . .

كاً ففي آخرينَ قد أُفِكُوا

(69/269)

ومعنى : ﴿ قد خلت ﴾ قد مضت وانقرضت قبلكم ، كما في قوله تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ في سورة البقرة (134) ، يعني : أنّ حالهم كحال الأمم المكذّبين قبلَهم ، وهذا تذكير لهم بما حاق بأولئك الأمم من عذاب الدّنيا كقوله : ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ [إبراهيم : 45] وتعريض بالوعيد بأن يحل بهم مثل ذلك ، وتصريح بأنّهم في

عذاب النّار سواء .

جملة : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، لوصف أحوالهم في النّار ، وتفظيعها للسّامع ، ليتّعظ أمثالهم ويستبشر المؤمنين بالسّلامة ممّا أصابهم فتكون جملة ﴿ حتى إذا اداركوا ﴾ داخلة في حيز الاستيناف .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ كلما دخلت أمة ﴾ معترضة بين جملة : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ وبين جملة : ﴿ حتى إذا أداركوا فيها ﴾ إلخ .

على أن تكون جملة ﴿ حتى إذا اداركوا ﴾ مرتبطة بجملة ﴿ ادخلوا في أمم ﴾ بتقدير محذوف تقديره : فيدخلون حتّى إذا اداركوا .

و(ما) في قوله : ﴿ كلّما ﴾ ظرفية مصدريّة ، أي كلّ وقت دخول أمّة لعنت أختها .

والتّقدير : لعنت كلّ أمّة منهم أختها في كلّ أوقات دخول الأمّة منهم ، فتفيد عموم الأزمنة .

و ﴿ أمّة ﴾ نكرة وقعت في حيز عموم الأزمنة ، فتفيد العموم ، أي كلّ أمة دخلت ،

وكذلك : ﴿ أختَها ﴾ نكرة لأنّه مضاف إلى ضمير نكرة فلا يتعرّف فتفيد العموم أيضاً ، أي كل أمة تدخل تلعن كل أخت لها ، والمراد بأختها المماثِلة لها في الدّين الذي أوجب لها الدّخول في النّار ، كما يقال : هذه الأمّة أخت تلك الأمّة إذا اشتركتا في النّسب ، فيقال : بَكْر وأختها تغلب ، ومنه قول أبي الطيّب:

وكطَسْم وأُخْتِها في البعاد . . .

يريد : كَطَسم وجَدِيس .

(70/269)

والمقام يعيّن جهة الأخوّة ، وسبَبُ اللّعن أنّ كل أمّة إنّما تدخل النّار بعد مناقشة الحساب ، والأمر بإدخالهم النّار ، وإنّما يقع ذلك بعد أن يتبيّن لهم أنّ ما كانوا عليه من الدّين هو ضلال وباطل ، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية ما كانوا عليه ، لأنّ النّفوس تكره الضّلال والباطل بعد تبيُّنه ، ولأنّهم رأوا أن عاقبة ذلك كانت مجلبة العقاب لهم فيزدادون بذلك كراهيّة لدينهم ، فإذا دخلوا النّار فرأوا الأمم التي أدخلت النّار قبلهم علموا ، بوجه من وجوه العلم ، أنّهم أُدخلوا النّار بذلك السّبب فلعنوهم لكراهيّة دينهم ومن اتّبعوه .

وقيل : المراد بأختها أسلافها الذين أضلّوها .

وأفادت ﴿ كلّما ﴾ لما فيها من معنى التّوقيت : أنّ ذلك اللّعن يقع عند دخول الأمّة النّار ، فيتعيّن إذن أن يكون التّقدير : لعنت أختها السّابقة إياها في الدّخول في النّار ، فالأمّة التي تدخل النّار أوّل مرّة قبل غيرها من الأمم لا تَلْعن أختها ، ويعلم أنّها تلعن من يدخل بعدَها الثّانيةَ ، ومن بعدها بطريق الأوْلى ، أو ترُدّ اللّعن على كلّ أخت لاعنة .

والمعنى : كلّما دخلت أمّة منهم بقرينة قوله : ﴿ لعنت أختها ﴾ .

و(حتّى) في قوله : ﴿ حتى إذا اداركوا ﴾ ابتدائيّة ، فهي جملة مستأنفة وقد تقدّم في الآية قبل هذه أن (حتّى) الابتدائيّة تفيد معنى التّسبّب ، أي تسبّب مضمون ما قبلها في مضمون ما بعدها ، فيجوز أن تكون مترتِبَة في المعنى على مضمون قوله : ﴿ قال أدخلوا في أمم قد خلت ﴾ إلخ ، ويجوز أن تكون مترتّبة على مضمون قوله : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ .

(71/269)

و ﴿ اداركوا ﴾ أصله تَداركوا فقلبت التّاء دَالا ليتأتى إدغامها في الدّال للتّخفيف ، وسُكنت ليتحقّق معنى الإدغام المتحركين ، لثقل واجتلبت همزة الوصل لأجل الابتداء بالسّاكن ، وهذا قلْب ليس بمتعيّن ، وإنّما هو مستحسن ، وليس هو مثل قلب التّاء في ادّان وازْداد وادّكر : ومعناه : أدرك بعضهم بعضاً ، فصيغ من الإدراك وزن التّفاعل ، والمعنى : تلاحقوا واجتمعوا في النّار .

وقوله : ﴿ جميعاً ﴾ حال من ضمير ﴾ اداركوا ﴾ لتحقيق استيعاب الاجتماع ، أي حتى إذا اجتمعت أمم الضّلال كلّها .

والمراد : بـ ﴿ أخراهم ﴾ : الآخِرة في الرّتبة ، وهم الأتباع والرّعيّة من كلّ أمّة من تلك الأمم ، لأنّ كلّ أمّة في عصر لا تخلو من قادة ورَعاع ، والمراد بالأولى : الأولى في المرتبة والاعتبار ، وهم القادة والمتبوعون من كلّ أمّة أيضاً ، فالأخرى والأولى هنا صفتان جرتا على موصوفَين محذوفين ، أي أخرى الطّوائف لأولاهم ، وقيل : أريد بالأخرى المتأخّرة في الزّمان ، وبالأولى أسلافهم ، لأنّهم يقولون : ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : 23] .

وهذا لا يلائم ما يأتي بعده .

واللاّم في : ﴿ لأولاَهم ﴾ لام العلّة ، وليست اللاّم التي يتعدّى بها فعل القَول ، لأنّ قول الطائفة الأخيرة موجّه إلى الله تعالى ، بصريح قولهم : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ إلخ ، لا إلى الطّائفة الأولى ، فهي كاللاّم في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : 11] .

(72/269)

والضعف بكسر الضّاد المِثْل لمقدار الشّيء ، وهو من الألفاظ الدّالة على معنى نسبي يقتضي وجودَ معنى آخر ، كالزّوج والنِّصف ، ويختص بالمقدار والعدد ، هذا قول أبي

عبيدة والزّجاج وأيّمة اللّغة ، وقد يستعمل فعله في مطلق التّكثير وذلك إذا أسند إلى ما لا يدخل تحت المقدار ، مثل العذاب في قوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ له العذاب يوم القيامة ﴾ [الفرقان : 69] وقوله ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : 30] أراد الكثرة القويّة فقولهم هنا ﴿ فآتهم عذاباً ضعفا ﴾ أي أعطهم عذاباً هو ضِعف عذابٍ آخر ، فعُلم أنّه ، آتاهم عذاباً ، وهم سألوا زيادة قوّة فيه تبلغ ما يعادل قوّته ، ولذلك لما وصف بضعف علم أنّه مِثْلٌ لعذابٍ حصل قبله إذ لا تقول : أكرمت فلان ضِعفاً ، إلاّ إذا كان إكرامك في مقابلة إكرامٍ آخر ، فأنت تزيده ، فهم سألوا لهم مضاعفة العذاب لأنّهم علموا أنّ الضّلال سبب العذاب ، فعلموا أنّ الذين شرعوا الضّلال هم أولى بعقوبة أشدّ من عقوبة الذين تقلّدوه واتبعوهم ، كما قال تعالى في الآية الآخرى:

﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ [سبأ : 31] .

وفعل : ﴿ قال ﴾ حكاية لجواب الله إياهم عن سُؤالهم مضاعفةَ العذاب لقادتهم ، فلذلك فصل ولم يعطف جريا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات ، والتّنوينُ في قوله : ﴿ لكلّ ﴾ عوض عن المضاف إليه المحذوف ، والتّقدير : لكلّ أمّة ، أو لكلّ طائفة ضعف ، أي زيادة عذاب مثل العذاب الذي هي معذّبه أولَ الأمر ، فأمّا مضاعفة العذاب للقادة فلأنّهم سنّوا الضّلال أو أيّدوه ونصروه وذبّوا عنه بالتّمويه والمغالطات فأضلوا ، وأمّا مضاعفته للأتباع فلأنَهم ضلّوا بإضلال قادتهم ، ولأنّهم بطاعتهم العمياء لقادتهم ، وشكرهم إياهم

على ما يرسمون لهم ، وإعطائِهم إياهم الأموال والرّشى ، يزيدونهم طغياناً وجراءة على الإضلال ويغرّونهم بالازدياد منه .

(73/269)

والاستدراك في قوله : ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ لرفع ما تُوهِمه التّسوية بين القادة والأتباع في مضاعفة العذاب : أنّ التّغليظ على الأتباع بلا موجب ، لأنّهم لولا القادة لما ضلّوا ، والمعنى : أنّكم لا تعلمون الحقائق ولا تشعرون بخفايا المعاني ، فلذلك ظننتم أنّ موجب مضاعفة العذاب لهم دونكم هو أنّهم علّموكم الضّلال ، ولو علمتم حقّ العلم لاطّلعتم على ما كان لطاعتكم إياهم من الأثر في إغرائهم بالازدياد من الإضلال .

ومفعول ﴿ تعلمون ﴾ محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ لكلٍ ضِعف ﴾ ، والتّقدير : لا تعلمون سبب تضعيف العذاب لكلّ من الطّائفتين ، يعني لا تعلمون سبب تضعيفه لكم لظهور أنّهم علموا سبب تضعيفه للذين أضلّوهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا تَعلمون ﴾ بتاء الخطاب على أنّه من تمام ما خاطب الله به الأمّة الأخرى ، وقرأه أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة فيكون بمنزلة التّذييل خطاباً لسامعي القرآن ، أي قال الله لهم ذلك وهم لا يَعلمون أنّ لكلّ ضعفاً فلذلك سألوا التّغليظ على القادة

فأجيبوا بأنّ التّغليظ قد سُلّط على الفريقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(74/269)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر "كن" سيدخلون كما دخلتها أمم قد خلت من قلبهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذي يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقي كله في الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التي سبقت هو الذي قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التي سبقت كانت أسوة في الضلال للأمة التي لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان يغربه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان في السجن ألا يلعن الأول الثاني ؟

﴿ . . . كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ

﴾ [الأعراف : 38]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب : ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار . . . ﴾ [الأعراف : 38]

فإن قلت الأخرى أي التي دخلت النار متأخرة كانت الأولى هي القدوة في الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ ﴾ ، أي أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا ﴾ .

(75/269)

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ لأن الموقف كله في يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هؤلاء أَضَلُّونَا ﴾ فهؤلاء ، هذه رشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق : ﴿ فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار .

. . ﴾ [الأعراف : 38]

فقال لهم جميعاً : ﴿ . . . لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضّعْف معناه " شيء مساوٍ لمثله " ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق في الحساب ، ويعطي كل إنسان حقه تماماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/269)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فِي أمَمٍ " يجوزُ أنْ يتعلَّق قوله : " في أمَمٍ " وقوله " في النَّارِ " كلاهما بـ " ادْخُلُوا " ، فيجيء الاعتراضُ المشهور وهو كيف يتّلق حرفا جرٍّ متحدا اللفظ والمعنى بعامل واحد ؟ ، فيجاب بأحد وجهين :

إمَّا أنَّ " في " الأولى ليست للظَّرفية ، بل للمعيّة ، كأنَّهُ قيل : ادخلوا مع أممٍ أي : مصاحبين لهم في الدُّخول ، وقد تأتي " في " بمعنى " مع " كقوله تعالى : ﴿ وَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجنة ﴾ [الأحقاف : 61] .

وقول الشاعر : [الطويل]

2462 - شَمُوسٌ ودُودٌ فِي حَيَاءٍ وعِفَّةٍ . . .

رخِيمَةُ رَجْعِ الصَّوْتِ طَيِّبَةُ النَّشْرِ

وإمَّا بأن " في النَّار " بدل من قول " فِي أَمَمٍ " وهو بدل اشتمال كقوله : ﴿ أَصْحَابُ الأخدود النار ﴾ [البروج : 4 ، 5] .

فإنَّ النَّار بدل من الأخدود ، كذلك " في النَّارِ " بدل من " أَمَمٍ " بإعاد العامل بدل اشتمال ، وتكونُ الظرفية في [" في "] مجازاً ؛ لأنَّ الأمم ليسوا ظروفاً لهم حقيقة ، وإنَّما المعنى : ادخلوا في جملة أَمَمٍ وغمارهم .

ويجوز أن تتعلّق " فِي أَمَم " بمحذوف على أنَّهُ حال أي : كائنين في جملة أمم .

و " فِي النَّارِ " متعلّق بـ " خلت " أي : تسبقكم في النَّارِ .

ويجوز أنْ تتعلَّق بمحذوف على أنَّهُ صفة لـ " أَمَمٍ " فتكون " أمم " قد وصفت بثلاثة أوصاف :

الأولى : الجملة الفعليّة ، وهي قوله " قَدْ خَلَتْ " .

والثاني : الجارّ والمجرور ، وهو قوله : ﴿ مِن الجن والإنس ﴾ .

الثالث : قوله : " فِي النَّارِ " ، والتقدير : في أممٍ خالية من قبلكم كائنة من الجنِّ والإنس ، ومستقرَّة في النَّارِ .

ويجوز أن تتعلَّق " فِي النَّار " بمحذوفٍ أيضاً ، لا على الوَجْهِ المذكور ، بل على كونه حالاً من " أمَمٍ " ، وجاز ذلك وَإنْ كانت نكرة لتخصُّصها بالوصفين المُشَار إليهما .

ويجوز أن يكون حالاً من الضَّميرِ في " خَلَتْ " ؛ إذ هو ضمير الأمَمِ ، وقُدِّمت الجنُّ على الإنس ؛ لأنَّهم الأصل في الإغواء .

قوله : " كُلَّما دَخَلَتْ " تقدَّم نظيرها ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون صفة لـ " أمم " أيضاً ، والعائد محذوفٌ أي : كلما دخلت أمة منهم أي : من الأمَمِ المتقدِّمَةِ لعنت أمتها ، والمعنى : أن أهل النّار يلعنُ بعضهم بَعْضاً ، ويتبرَّأ بعضهم مِنْ بَعْضٍ كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

والمرادُ بقوله أختها أي : في الدّين .

(77/269)

قوله : " حتَّى " هذه غاية لما قبلها ، والمعنى : أنَّهم يدخلون فضوْجاً فَوْجاً ، لاعناً بعضهم لبعض إلى انتها تداركهم فيها .

وقرأ الجمهور : " إذَا ادَّارَكُوا " بوصل الألف وتشديد الدَّال ، والأصلُ : تداركوا ، فلما أريد إدغامُهُ فُعل به ما فُعل بـ " ادَّارَأْتُمْ " ، وقد تقدَّم تصريفه في البقرة [72] .

قال مكيٌّ : ولا يستطاع اللفظ بوزنها مع ألف الوصل ؛ لأنَّك تردُّ الزائد أصلياً فتقول : افاعلوا ، فتصير تاء " تفاعل " فاء الفعل لإدغامها في فاء الفِعْلِ ؛ وذلك لا يجوزُ ، فإنْ وزنتها على الأصل فقلت : تَفَاعَلُوا جاز .

وهذا الذي ذكر من كونه لا يمكن وزنه إلا بالأصْلِ ، وهو " فاعلوا " ممنوع .

قوله : " لأنَّكَ تردّ الزَّائد أصليّاً " .

قلنا : لا يلزم ذلك : لأنَّا نزنه بلفظه مع همزة الوَصْلِ ، وتأتي بناء التفاعل بلفظها ، فتقولُ : وزن ادَّارَكوا : اتفاعلوا ، فيلفظ بالتاء اعتباراً بأصلها ، لا بما صارتء إليه حال الإدغام .

وهذه المسألةُ نصُّوا على نظيرها ، وهو أنَّ تاء الافتعال إذا أُبْدِلت إلى حرف مُجَانِسٍ لما قبلها كما تبدل تاء طاء ، أو دالاً في نحو : اصْطَبَر ، واضْطَرَبَ ، وازْدَجَرَ ، وادَّكَرَ ، إذا وُزِن ما هي فيه قالوا : يُلفظ في الوزن بأصل تَاءِ الافتعال ، ولا يُلفظ بما صارت إليه من طاء أو دال ، فتقولُ : وزن اصطبر افتعل لا افطعل ، ووزن ازدجر افتعل لا افدعل ، فكذلك تقولُ هنا : وزن ادَّاركوا اتفاعلوا لا افَّاعلوا ، فلا فرق بين تاء الافتعال والتَّفعال في ذلك .

وقرأ ابْنُ مسعودٍ والأعْمَشُ ، ورويت عن أبي عمرو : تَدَارَكُوا وهي أصل قراءة العامة .

وقرأ أبو عمرو " إذا إِدَّارَكوا " بقطع همزة الوصل .

قال ابن جني : " هذا مشكل ، ومثلُ ذلك لا ينقله ارتجالاً ، وكأَنَّهُ وقف وقفة مستنكرٍ ، ثم ابتدأ فقطع " .

(78/269)

وهذا الذي يُعتقد من أبي عمرو ، وإلا فكيف يقرأ بما لا يثبت إلا في ضرورة الشِّعْرِ في الأسماء ؟ كذا قال ابنُ جنيٍّ ، يعني أن قطع الف الوَصْل في الضَّرورة إنَّمَا جاء في الأسماء .

وقرأ حميد " أُدْرِكوا " بضم همزة القطع ، وسكون الدَّال وكسر الراء ، مثل " أخْرِجُوا " جعله مبنياً للمفعول بمعنى : أُدْخِلوا في دركاتها أو أدراكها .

ونقل عن مُجَاهدِ بْنِ جَبْرٍ قراءتان : فروى عنه مكي " ادَّرَكوا " بوصل الألف وفتح الدال مشدّدة وفتح الراء ، وأصلها " ادْتَرَكوا " على افتعلوا مبنياً للفاعل ، ثم أدغم ، كما أدغم " ادَّان " من الدَّين .

وروى عنه غيره " أدْرَكوا " بفتح الهمزة مقطوعة ، وسكون الدَّال وفتح الرّاء ، أي : أدرك بعضُهم بعضاً .

وقال أبو البقاءِ : وقرئ : " إذَا ادَّاركوا " بألف واحد ساكنة بعدها دال مشدَّدة ، وهو جمع بين ساكنين ، وجاز في المفنصل كما جاز في المتَّصل ، وقد قال بعضهم : " اثْنَا عَشَر " بإثبات الألف وسكون العَيْنِ ، يعني بالمتصل نحو : " الضَّالين " وجانّ ، ومعنى المنفصل أنَّ ألف " إذَا " من كلمة ، والسَّاكن الثاني من كلمة أخرى .

وَ" ادّاركوا " بمعنى تَلاحَقُوا ، وتقدَّمَ تفسير هذه المادة [النساء : 78] .

و" جميعاً " حال من فاعل " ادَّاركوا " .

قوله : ﴿ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ ﴾ يحتمل أن تكون فُعْلى أنثى أفعل الذي للمفاضلة ، والمعنى على هذا كما قال الزمخشريُّ : " أخْرَاهم منزلة ، وهم الأتباع [والسَّفلة] ، لأوْلاهم منزلة وهم القادة والرؤساء " .

ويحتمل أن تكون " أخرى " بمعنى آخرة تأنيث آخر مقابل الأوَّل ، لا تأنيث " آخر " الذي للمفاضلة كقوله : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [فاطر : 18] .

(79/269)

والفرقُ بين أخرى بمعنى آخرة ، وبين أخرى تَأنيث آخر بزنة أفعل للتفضيل ، أن التي للتفضيل لا تدلُّ على الانتهاء ، كما لا يدلُّ عليه مذكَّرها ، ولذلك يُعطف أمثالُها عليها في نوع واحد

تَقُولُ : مررت بأمراة وأخرى وأخرى كما تقول : مررت برجل وآخر وآخر ، وهذه تدلُّ على الانتهاء ، كما يدلُّ مذكَّرها ، ولذلك لا يُعطف أمثالُها عليها ، ولأنَّ الأولى تفيد إفادة " غير " ، وهذه لا تفيدُ إفادة " غير " .

والظَّاهِرُ في هذه الآية الكريمة أنَّهُمَا ليستا للتَّفضيل ، بل لما ذكرنا .

قال ابن عباس ومقاتل : " أخراهم دخولاً في النار لأولاهم دخولاً فيها " .

واللام في " لأولاهم " للتّعليل أي : لأجل ، ولا يجوز أن تكون التي للتّبليغ كهي في قولك : قلتُ لزيد افعل .

قال الزمخشريُّ : " لأنَّ خطابهم مع اللَّه لا معهم " ، وقد بسط القول قبله في ذلك الزَّجَّاج فقال : " والمعنى : وقالت أخراهم : يا ربَّنا هؤلاء أضلُّونا ، لأولاهم " فذكر نحوه .

قال شهابُ الدِّينِ : وعلى هذا فاللاَّمُ الثَّانية في قوله : " أولاهم لأخْرَاهُمْ " يجوز أن تكون للتَّبليغ ، لأنَّ خطابهم معهم بدليل قوله : ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 39]

قوله : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا ﴾ يعني : أنَّ أتباع يقولون : إنَّ المتقدّمين أضلّونا ، يعني : أنَّ القادة أضلونا عن الهدى والدين فأتِهِمْ عذاباً ضعفاً من النَّارِ .

قال أبو عبيدة " الضِّعفُ : مثل الشَّيء مرةً واحدة " .

قال الأزْهَريُّ : ما قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله النَّاسُ في مجاز كلامهم ، وقد قال الشَّافِعِيُّ

قريباً منه فقال في رجل أوصى : " أعطوه ضِعْفَ ما يُصيبُ وَلَدِي " قال : "يَعطَى مثله مرتين " .

(80/269)

قال الأزْهَرِيُّ : " الوصايَا يستعمل فيها العرف ، وما يتفاهمه النَّاس ، وأما كتاب اللَّهِ فهو عربيٌّ مبينٌ ، ويُرَدُّ تفسيره إلى لغةِ العربِ ، وموضوع كلامها الذي هو صنعه أَلْسِنَتِهَا .

والضِّعف في كلام العرب المِثْل إلى ما زاد ، ولا يقتصر به على مثلين ، بل تقول : هذا ضِعْفه أي مِثْلاه ، وثلاثة أمثاله ، لأنَّ الضِّعْفَ في الأصل زيادة غير محصورة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف ﴾ [سبأ : 37] لم يُرِدْ به مِثْلاً ولا مِثْلَيْن ، وأوْلَى الأشياء به أن يُجْعل عشرةَ أمثاله كقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] فأقلُّ الضِّعف محصور وهو المِثْلُ وأكثره غير محصور " .

ومثل هذه المقالة قال الزَّجَّاجُ أيضاً فإنَّهُ قال : أي عذاباً مضاعفاً ؛ لأنَّ الضعف في كلام العرب على ضربين :

أحدهما : المِثْلُ ، والآخر : أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته إلى ما لا يتناهى ، وقد تقدَّم طرف من هذا في البقرة .

وأما قول الشَّافعيِّ في "الوصيَّة" : إنَّهُ المثل ، فلأن التركة متعلقة بحقوق الورثة ، إلا أنَّا لأجل الوصيّة صرفنا طائفة منها إلى الموصى له ، والقدر المتيقن في الوصيّة هو المثل ، والباقي مشكوك فيه فيأخذ المتيقّن ويطرح المشكوك فيه فلهذا السّبب حملنا الضِّعْفَ في الوصيَّة على المثلين .

قوله : "ضعْفاً" صفة لـ "عذاباً ، و"من النَّارِ" يجوز أن يكون صفة لـ "عذاباً" ، وأن يكون صفة لـ "ضعْفاً" ، ويجوز أن يكون "ضعفاً" بدلاً من "عذاباً" .

قوله : "لِكُلٍّ" أي : لكلّ فريق من الأخرى ، والأولى أو القادة والأتباع .

قوله : ﴿ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ قراءة العامّة بتَاءِ الخطاب : إمَّا خطاباً للسَّائلين ، وإمَّا خطاباً لأهل الدُّنيا أي : ولكن لا تعلمون ما أعدَّ من العذاب لكل فريق .

وقرأ أبو بَكْرٍ عن عاصمٍ بالغيبة ، وهي تحتمل أن يكون الضَّمير عائداً على الطائفة السّائلة تضعيف العذاب ، أو على الطّائفتين ، أي : لا يعلمون قَدْر ما أعدَّ لهم من العذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 105.110 ﴾

(81/269)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ملام الآخرين على الأولين ، عطف عليه جواب الأولين فقال : ﴿ وقالت أولاهم ﴾ أي أولى الفرق والأمم ﴿ لأخراهم ﴾ مسببين عن تأسيسهم لهم الضلال ودعائهم إليه ﴿ فما كان لكم علينا ﴾ أي بسبب انقيادكم لنا واتباعكم في الضلال ﴿ من فضل ﴾ أي لنحمل عنكم بسببه شيئاً من العذاب لأنه لم يعد علينا من ضلالكم نفع وقد شاركتمونا في الكفر ﴿ فذوقوا ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ العذاب ﴾ في سجين ﴿ بما ﴾ اي بسبب ما ﴿ كنتم تكسبون ﴾ لا بسبب اتباعكم لنا في الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 32 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أن أخراهم كما خاطبت أولاهم ، فكذلك تجيب أولاهم أخراهم ، فقال : ﴿ وَقَالَتْ أولاهم لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي في ترك الكفر والضلال ، وإنا متشاركون في استحقاق العذاب .

ولقائل أن يقول : هذا منهم كذب ، لأنهم لكونهم رؤساء وسادة وقادة ، قد دعوا إلى الكفر وبالغوا في الترغيب فيه ، فكانوا ضالين ومضلين ، وأما الأتباع والسفلة ، فهم وإن كانوا ضالين ، إلا أنهم ما كانوا مضلين ، فبطل قولهم أنه لا فضل للأتباع على الرؤساء في ترك الضلال والكفر .

وجوابه : أن أقصى ما في الباب أن الكفار كذبوا في هذا القول يوم القيامة ، وعندنا أن ذلك جائز ، وقد قررناه في سورة الأنعام في قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

أما قوله : ﴿ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فهذا يحتمل أن يكون من كلام القادة ، وإن يكون من قول الله تعالى لهم جميعاً .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام التخويف والزجر ، لأنه تعالى لما أخبر عن الرؤساء والأتباع أن بعضهم يتبرأ عن بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، كان ذلك سبباً لوقوع الخوف الشديد في القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 62 ﴾

(82/269)

وقال السمرقندى :

﴿ وَقَالَتْ أولاهم لأُخْرَاهُمْ ﴾

أي : أولهم دخولاً لآخرهم دخولاً .

ويقال : القادة للأتباع ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ في شيء كفرتم كما كفرنا ، فنحن وأنتم سواء في الكفر ضللتم كما ضللنا .

قال الله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ ويقال : يقول الخزنة فذوقوا العذاب .

ويقال : هذا قول بعضهم لبعض فذوقوا العذاب ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي : تكفرون في الدنيا بترككم الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ لأنّكم كفرتم كما كفر به ونحن وأنتم في الكفر شرع سواء وفي العذاب أيضاً ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ الآية ،

المعنى وقالت الأمة الأولى المبتدعة للأمة الأخيرة المتبعة أنتم لا فضل لكم علينا ولم تزدجروا حين جاءتكم النذر والرسل ، بل دمتم في كفركم وتركتم النظر واستوت حالنا وحالكم فذوقوا العذاب باجترامكم ، هذا قول السدي وأبي مجلز وغيرهما ، فقوله فذوقوا على هذا من كلام الأمة المتقدمة للأمة المتأخرة ، وقيل قوله ﴿ فذوقوا ﴾ هو من كلام الله عز وجل لجميعهم ، وقال مجاهد ومعنى قوله ﴿ من فضل ﴾ أي " من " التخفيف .

قال القاضي أبو محمد : معناه أنه لما قال الله ﴿ لكل ضعف ﴾ قال الأولون للآخرين لم تبلغوا أملاً في أن يكون عذابكم أخف من عذابنا ولا فضلتم بالإسعاف والنص عليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله : ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾

فيه قولان .

أحدهما : في الكفر ، نحن وأنتم فيه سواء ، قاله ابن عباس .

والثاني : في تخفيف العذاب ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وقالت أولاهم ﴾ يعني في الكفر وهم القادة ﴿ لأخراهم ﴾ يعني الأتباع ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل أمة سلفت في الدنيا لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا إياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للاتباع والأمة الأولى للأخرى التي بعدها ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعني يقول الله للجميع فذوقوا العذاب ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ يعني بسب ما كنتم تكسبون من الكفر والأعمال الخبيثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(84/269)

وقال أبو حيان :

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

أي قالت الطائفة المتبوعة للطائفة المتبعة واللام في ﴿ لأخراهم ﴾ لام التبليغ نحو قلت لك

اصنع كذا لأن الخطاب هو مع أخراهم بخلاف اللام أي في ﴿ لأولاهم ﴾ فإنها كما وقال مجاهد : معنى ﴿ من فضل ﴾ من التخفيف لما قال الله ﴿ لكل ضعف ﴾ قالت الأولى للأخرى لم تبلغوا أملاً بأنّ عذابكم أخفّ من عذابنا ولا فضلتم بالإسعاف انتهى ، والفاء في ﴿ فما ﴾ قال الزمخشري : عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسّلفة ﴿ لكلّ ضعف ﴾ والذي يظهر أنّ المعنى انتفاء كون فضل عليهم من السّفلة في الدّنيا بسبب اتباعهم إياهم وموافقتهم لهم في الكفر أي اتباعكم إيانا وعدم اتباعكم سواء لأنكم كنتم في الدّنيا أقل عندنا من أن يكون لكم علينا فضل باتباعكم بل كفرتم اختياراً لا إنّا حملناكم على ذلك إجباراً وأنّ قوله ﴿ فما ﴾ معطوف على جملة محذوفة بعد القول دلّ عليها ما سبق من الكلام والتقدير ﴿ قالت أولاهم لأخراهم ﴾ ما دعاؤكم الله بأنّا أضللناكم وسؤالكم ما سألتم فما كان لكم علينا من فضل بضلالكم وأن قوله ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ من كلام الأولى خطاباً للأخرى على سبيل التشفي منهم وأنّ ذوق العذاب هو بما كسبت من الآثام لا بسبب دعواكم أنا أضللناكم ، وقيل : ﴿ فذوقوا ﴾ من خطاب الله لجميعهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(85/269)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَتْ أولاهم ﴾ أي مخاطِبين ﴿ لأُخْرَاهُمْ ﴾ حين سمعوا جوابَ الله تعالى لهم ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاقِ العذاب ﴿ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ أي العذابَ المعهودَ المضاعفَ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من قول القادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(86/269)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَتْ أولاهم لأُخْرَاهُمْ ﴾

حين سمعوا جواب الله تعالى لهم ، واللام هنا يجوز أن تكون للتبليغ لأن خطابهم لهم بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي إنا وإياكم متساوون في استحقاق العذاب وسببه ، وهذا مرتب على كلام الله تعالى على وجه التسبب لأن ءخباره سبحانه بقوله جل وعلا : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ [الأعراف : 38] سبب لعلمهم بالمساواة فالفاء جوابية لشرط مقدر أي إذا كان كذلك فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا .

وقيل : إنها عاطفة على مقدر أي دعوتم الله تعالى فسوى بيننا وبينكم فما كان الخ وليس

بشيء .

وأياً ما كان فقد عنوا بالفضل تخفيف العذاب ووحدة السبب ، وأما ما قيل من أن المعنى ما كان لكم علينا من فضل في الرأي والعقل وقد بلغكم ما نزل بنا من العذاب فلم اتبعتمونا فكما ترى .

وقيل : المعنى ما كان لكم علينا في الدنيا فضل بسبب اتباعكم إيانا بل اتباعكم وعدم اتباعكم سواء عندنا فاتباعكم إيانا كان باختياركم دون حملنا لكم عليه ، وعليه فليس مرتباً على كلام الله تعالى وجوابه كما في الوجه الأولى ﴿ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ المضاعف ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي بسبب كسبكم أو الذي تكسبونه .

والظاهر أن هذا من كلام القادة قالوه لهم على سبيل التشفي .

وترتبه على ما قبله على القول الأخير في معنى الآية في غاية الظهور .

وجوز أن يكون من كلام الله تعالى للفريقين على سبيل التوبيخ والوقف على ﴿ فَضَّلَ ﴾ .

وقيل : هو من مقول الفريقين أي قالت كل فرقة للأخرى ذوقوا الخ وهو خلاف الظاهر جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(87/269)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾

وعُطفتْ جملة : ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ على جملة : ﴿ قالت آخراهم لأولاهم ﴾ لأنّهم لم يَدخلوا في المحاورة ابتداء فلذلك لم تفصل الجملة .

والفاء في قولهم : ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ فاء فصيحة ، مرتبة على قول الله تعالى ﴿ لكل ضعف ﴾ حيث سوّى بين الطّائفتين في مضاعفة العذاب .

و(مَا) نافية .

و(مِنْ) زائدة لتأكيد نفي الفضل ، لأنّ إخبار الله تعالى بقوله : ﴿ لكل ضعف ﴾ لا

وقوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ يجوز أن يكون من كلام أولاهم : عَطَفوا قولهم : ﴿ ذوقوا العذاب ﴾ على قولهم : ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ بفاء العطف الدّالة على التّرتب .

فالتشفي منهم فيما نالهم من عذاب الضّعف ترتَّب على تحقّق انتفاء الفضل بينهم في تضعيف العذاب الذي أفصح عنه إخبار الله بأنّ لهم عذاباً ضعفاً .

وصيغة الأمر في قولهم : ﴿ فذوقوا ﴾ مستعملة في الإهانة والتشفّي .

والذّوق استُعمل مجازاً مرسلاً في الإحساس بحاسّة اللّمس ، وقد تقدّم نظائره غير مرّة .

والباء سببيّة ، أي بسبب ما كنتم تكسبون ممّا أوجب لكم مضاعفة العذاب ، وعبّر

بالكسب دون الكفر لأنّه أشمل لأحوالهم ، لأنّ إضلالهم لأعقابهم كان بالكفر وبحبّ الفخر والاغرَاب بما علّموهم ومَا سَنُوا لهم ، فشمل ذلك كلَّه أنّه كسب .

يجوز أن يكون قوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ من كلام الله تعالى ، مخاطباً به كلا الفريقين ، فيكون عطفاً على قوله : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ ويكون قوله : ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين ، وعلى اعتباره يكون الأمر في قوله : ﴿ فذوقوا ﴾ للتكوين والإهانة .

(88/269)

وفيما قصّ الله من محاورة قادة الأمم وأتباعهم ما فيه موعظة وتحذير لقادة المسلمين من الإيقاع بأتباعهم فيما يَزِجّ بهم في الضّلالة ، ويحسِّن لهم هواهم ، وموعظة لعامتهم من الاسترسال في تأييد من يشايع هواهم ، ولا يبلغهم النّصيحة ، وفي الحديث : "كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(89/269)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

هَذِهِ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ مِمَّا قَفَّى بِهِ عَلَى النِّدَاءِ الثَّالِثِ لِبَنِي آدَمَ ، وَوَجْهُ وَصْلِهَا بِمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ فِي الثَّانِيَةِ مَجَامِعَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى بَنِي آدَمَ ، وَهِيَ أُصُولُ الْمَفَاسِدِ وَالْمَضَارِّ الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فِي إِثْرِ إِبَاحَةِ أُصُولِ الْمَنَافِعِ مِنَ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ النَّافِعَةِ لَهُمْ ، أَوْ إِيجَابِهَا بِشَرْطِ عَدَمِ الْإِسْرَافِ فِيهَا - وَسَبَقَ هَذِهِ وَتِلْكَ مَا قَفَّى بِهِ عَلَى النِّدَاءِ الثَّانِي مِنْ بَيَانِ أَصْلِ الْأُصُولِ لِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عِبَادَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْعَدْلُ فِي الْآدَابِ وَالْأَعْمَالِ ، وَعِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الدِّينِ وَعَقِيدَةِ الْبَعْثِ - وَلَمَّا وَصَلَ مَا هُنَالِكَ بِقَسْمِ النَّاسِ إِلَى فَرِيقَيْنِ مُهْتَدِينَ وَضَالِّينَ - وَصَلَ مَا هُنَا بِبَيَانِ عَاقِبَةِ الْأُمَمِ فِي قَبُولِ هَذِهِ الْأُصُولِ أَوْ رَدِّهَا ، وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَى طَرِيقَتِهَا بَعْدَ الْقَبُولِ أَوِ الزَّيْغِ عَنْهَا ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(90/269)

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى مَقُولِ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : (إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ) إِلَخْ دُونَ مَا حَرَّمْتُمْ مِنَ النِّعَمِ وَالْمَنَافِعِ بِأَهْوَائِكُمْ وَجَهَالَاتِكُمْ - وَقُلْ : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) أَيْ أَمَدٌ مَضْرُوبٌ لِحَيَاتِهَا ، مُقَدَّرٌ فِيمَا وَضَعَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ مِنَ السُّنَنِ لِوُجُودِهَا ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَجَلُ مَنْ يَبْعَثُ اللَّهُ فِيهِمْ رُسُلًا لِهِدَايَتِهِمْ فَيَرُدُّونَ دَعْوَتَهُمْ كِبْرًا وَعِنَادًا فِي الْجُحُودِ ، وَيَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ فَيُعْطَوْنَهَا مَعَ إِنْذَارِهِمْ بِالْهَلَاكِ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا فَيُكَذِّبُونَ فَيَهْلَكُونَ ، وَبِهَذَا هَلَكَ أَقْوَامُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَغَيْرُهُمْ . وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْهَلَاكِ كَانَ خَاصًّا بِأَقْوَامِ الرُّسُلِ أُولِي الدَّعْوَةِ الْخَاصَّةِ لِأَقْوَامِهِمْ ، وَقَدِ انْتَهَى بِبِعْثَةِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) لَكِنَّ انْتِهَاءَهُ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَمْنَعُ جَعْلَهُ إِنْذَارًا لِقَوْمِهِ خَاصَّةً بِهَلَاكِهِمْ إِنْ أُعْطَوْا مَا اقْتَرَحُوهُ مِنَ الْآيَاتِ إِرْضَاءً لِعِنَادِهِمْ ، لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ مَنْعَهُمْ إِيَّاهُ إِنَّمَا كَانَ رَحْمَةً بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ .

(91/269)

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ فِي الْأُمَمِ أَنَّ الْجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَقْتَرِحُونَ الْآيَاتِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَلِأَجْلِ هَذَا لَمْ يُعْطِ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يَقْتَرِحُونَهُ عَلَيْهِ مِنْهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَتَفْسِيرِهَا ، وَهَذَا الْأَجَلُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَهُ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ لِحَيَاةِ الْأُمَمِ سَعِيدَةً عَزِيزَةً بِالِاسْتِقْلَالِ ، الَّتِي تَنْتَهِي بِالشَّقَاءِ وَالْمَهَانَةِ أَوِ الِاسْتِعْبَادِ وَالِاسْتِذْلَالِ ، إِنْ لَمْ تَنْتَهِ بِالْفَنَاءِ وَالزَّوَالِ ، وَهَذَا النَّوْعُ مَنُوطٌ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ وَالْعُمْرَانِ ، وَأَسْبَابُهُ مَحْصُورَةٌ فِي مُخَالَفَةِ هَدْيِ الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ ، بِالْإِسْرَافِ فِي الزِّينَةِ وَالتَّمَتُّعِ بِالطَّيِّبَاتِ ، وَبِاقْتِرَافِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ وَالْبَغْيِ عَلَى النَّاسِ ، وَبِخُرَافَاتِ

الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، وَبِالْكَذِبِ عَلَى اللهِ بِإِرْهَاقِ الْأُمَّةِ بِمَا لَمْ يُشَرِّعْهُ لَهَا مِنَ الْأَحْكَامِ ، تَحَكُّمًا مِنْ رُؤَسَاءِ الدِّينِ عَنْ تَقْلِيدٍ أَوِ اجْتِهَادٍ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (13 : 11) .

فَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْعَزِيزَةِ السَّعِيدَةِ ، ارْتَكَبَتْ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ وَالْمَفَاسِدَ الْمُبِيدَةَ ، إلَّا سَلَبَهَا اللَّهُ سَعَادَتَهَا وَعِزَّهَا ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا مَنِ اسْتَذَلَّهَا وَسَلَبَ مُلْكَهَا (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (11 : 102) .

وَأَمَامُنَا تَارِيخُ الْيَهُودِ وَالرُّومَانِ وَالْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ سُلِبَ مُلْكُهُ كُلُّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سُلِبَ بَعْضُهُ أَوْ أَكْثَرُهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ إلَى رُشْدِهِ ، فَإِنَّهُ يُسْلَبُ مَا بَقِيَ لَهُ مِنْهُ .

(93/269)

وَهَذَا النَّوْعُ مِنْ آجَالِ الْأُمَمِ - وَإِنْ عُرِفَتْ أَسْبَابُهُ وَسُنَنُهُ - لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَدِّدَهُ بِالسِّنِينَ وَالْأَيَّامِ ، وَهُوَ مُحَدَّدٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالسَّاعَاتِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) السَّاعَةُ : فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنْ أَقَلِّ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، وَالسَّاعَةُ الْفَلَكِيَّةُ اصْطِلَاحٌ ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ 24 جُزْءٍ مِنْ مَجْمُوعِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أَيْ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُ كُلِّ أُمَّةٍ كَانَ عِقَابُهُمْ فِيهِ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ أَقَلَّ تَأَخُّرٍ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْهُ إذَا لَمْ يَجِيءْ ، أَوْ لَا يَمْلِكُونَ طَلَبَ تَأْخِيرِهِ كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ طَلَبَ تَقْدِيمِهِ ، وَقَدْ قَالُوا : إنَّ " اسْتَقْدَمَ " وَرَدَ بِمَعْنَى قَدِمَ وَأَقْدَمَ وَتَقَدَّمَ كَمَا وَرَدَ " اسْتَجَابَ " بِمَعْنَى أَجَابَ ، وَمِثْلُهُ " اسْتَأْخَرَ " ، وَلَا يَمْنَعُ هَذَا كَوْنَ الْأَصْلِ فِي السِّينِ وَالتَّاءِ لِلطَّلَبِ أَوْ مَظِنَّةِ الطَّلَبِ ، وَالطَّلَبُ

قَدْ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَقَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ ، فَمَنْ أَتَى سَبَبَ الشَّيْءِ كَانَ طَالِبًا لَهُ بِالْفِعْلِ ، وَإِنْ كَانَ غَافِلًا عَنِ اسْتِتْبَاعِهِ لَهُ ، فَالْأُمَّةُ الَّتِي تَرْتَكِبُ أَسْبَابَ الْهَلَاكِ تَكُونُ طَالِبَةً لَهُ بِلِسَانِ حَالِهَا وَاسْتِعْدَادِهَا وَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهَا ؛ لِأَنَّ هَذَا الطَّلَبَ هُوَ الَّذِي لَا يُرَدُّ . وَمَفْهُومُ الشَّرْطِ هُنَا أَنَّ الْأُمَّةَ قَدْ تَمْلِكُ طَلَبَ تَأْخِيرِ الْهَلَاكِ قَبْلَ مَجِيءِ أَجَلِهِ ، أَيْ قَبْلَ أَنْ تَغْلِبَهَا عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى إِرَادَتِهَا أَسْبَابُ الْهَلَاكِ ،

(94/269)

ذَلِكَ بِأَنْ تَتْرُكَ الْفَوَاحِشَ وَالْآثَامَ ، وَالظُّلْمَ وَالْبَغْيَ ، وَالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْإِسْرَافَ فِي التَّرَفِ الْمُفْسِدِ لِلْأَخْلَاقِ ، وَخُرَافَاتِ الشِّرْكِ الْمَفْسَدَةِ لِلْعُقُولِ وَالْأَعْمَالِ ، وَكَذَا التَّكَالِيفَ التَّقْلِيدِيَّةَ بِتَكْثِيرِ مَا ابْتُدِعَ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ ، الَّتِي لَمْ يُخَاطِبِ الرَّبُّ بِهَا الْعِبَادَ . وَالْمُرَادُ : أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَى الْأُمَّةِ الصَّلَاحَ لِإِصْلَاحِ جَمِيعِ الْأَفْرَادِ .

(95/269)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهُ قَدْ جَاءَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ بِالْجَزْمِ ، وَغَيْرَ مَشْرُوطٍ بِهَذَا الشَّرْطِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْحِجْرِ : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) (15 : 4 ، 5) قُلْنَا : إِنَّ امْتِنَاعَ السَّبْقِ وَالتَّأَخُّرِ أَوْ طَلَبَهُ وَالسَّعْيَ لَهُ هُنَا إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا عَلِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَثْبَتَهُ فِي كِتَابِ مَقَادِيرِ الْعَالَمِ ، فَإِنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى لَا يَتَغَيَّرُ ، وَسُنَنَهُ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وَلِذَلِكَ يَمْتَنِعُ التَّأْخِيرُ أَوْ طَلَبُهُ مِنْ طَرِيقِ أَسْبَابِهِ إِذَا جَاءَ الْأَجَلُ بِالْفِعْلِ ، وَلِهَذَا أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ فِي الْحُسْنِ ، مِنْهَا مَا يُمْكِنُ ضَبْطُهُ بِالتَّحْدِيدِ ، وَمِنْهَا مَا يُعْلَمُ بِالتَّقْرِيبِ . كَقُوَّةِ الْحَرَارَةِ وَتَأْثِيرِهَا فِي الْأَجْسَامِ . وَقُوَّةِ الْمَوَادِّ الضَّاغِطَةِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الِانْفِجَارِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا يُضْبَطُ بِحِسَابٍ مَعْلُومٍ . وَمِنْهَا مِقْدَارُ الْمَاءِ الَّذِي يُمْسَكُ وَرَاءَ السُّدُودِ كَخَزَّانِ أَسْوَانَ . فَقُوَّةُ السَّدِّ وَمَقَادِيرُ الْمَاءِ وَقُوَّةُ ضَغْطِهِ مُقَدَّرَةٌ بِحِسَابٍ . وَكَذَا الْمَاءُ وَالْوَقُودُ الَّذِي تَسِيرُ بِهِ مَرَاكِبُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . وَالْغَازُ الْمُحَرِّكُ لِلطَّيَّارَاتِ وَالْمَنَاطِيدِ فِي الْجَوِّ ، يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ مَسَافَةٍ مِنْهُ ، وَالْجَزْمُ بِوُقُوفِ هَذِهِ الْمَرَاكِبِ بَعْدَ نَفَادِهِ فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهُ ، وَكُلُّ عَمَلٍ مُنَظَّمٍ بِعِلْمٍ صَحِيحٍ ، يَأْتِي فِيهِ مِثْلُ هَذَا التَّقْدِيرِ ،

وَيَكُونُ ضَبْطُهُ وَتَحْدِيدُهُ بِقَدْرِ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ بِهِ ، مِثْلِ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ وَالرُّطُوبَةِ وَسُنَنِ الضَّغْطِ وَالْجَذْبِ ، كَكَوْنِ جَاذِبِيَّةِ الثِّقْلِ عَلَى نِسْبَةِ مُرَبَّعِ الْبُعْدِ . وَمِمَّا يَكُونُ التَّقْدِيرُ فِيهِ بِالتَّقْرِيبِ ، فَيُخْطِئُ فِيهِ الْمُقَدِّرُ وَيُصِيبُ ، تَقْدِيرُ سَيْرِ الْأَمْرَاضِ الْمَعْرُوفَةِ كَالسُّلِّ الرِّئَوِيِّ ، فَإِنَّ لَهُ دَرَجَاتٍ يُسْرِعُ قَطْعُ الْمَسْلُولِ لَهَا وَيُبْطِئُ بِقَدْرِ قُوَّةِ الْمَنَاعَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ فِي جِسْمِهِ وَطُرُقِ الْمُعَالَجَةِ وَالتَّغْذِيَةِ وَالرِّيَاضَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ جَوْدَةِ الْهَوَاءِ وَأَشِعَّةِ الشَّمْسِ . وَكَمْ مِنْ مَرَضٍ اتَّفَقَ الْأَطِبَّاءُ عَلَى إِمْكَانِ الشِّفَاءِ مِنْهُ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ مَعَهَا الْمُعَالَجَةُ وَهُمْ مُصِيبُونَ فِي ذَلِكَ ، كَالسَّرَطَانِ الَّذِي يُمْكِنُ اسْتِئْصَالُهُ بِعَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ وَيَتَعَذَّرُ فِي آخَرَ .

وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْأُمَمِ ، قَدْ يَبْلُغُ فِيهَا الْفَسَادُ دَرَجَةً تَسْتَعْصِي فِيهَا مُعَالَجَتُهُ عَلَى أَطِبَّاءِ الِاجْتِمَاعِ ، وَلَكِنَّهَا إِذَا تَنَبَّهَتْ قَبْلَ انْتِشَارِ الْفَسَادِ فِيهَا ، وَتَبْرِيحِهِ بِزُعَمَائِهَا وَدَهْمَائِهَا ، فَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ فِيهَا مِنْ أَفْرَادِ الْمُصْلِحِينَ أَوْ جَمَاعَاتِهِمْ مَنْ يُنْقِذُهَا فَيُرْشِدُهَا إِلَى تَغْيِيرِ مَا بِأَنْفُسِهَا مِنَ الْفَسَادِ فَيُغَيِّرُ اللهُ مَا بِهَا ، وَهُوَ مِنِ اسْتِئْخَارِ الْهَلَاكِ أَوْ مَنْعِهِ عَنْهَا قَبْلَ مَجِيءِ أَجَلِهَا .

وَقَدْ سَبَقَ حَكِيمُنَا الْعَرَبِيُّ ابْنُ خَلْدُونَ إِلَى الْكَلَامِ فِي آجَالِ الْأُمَمِ وَأَعْمَالِ

الدُّوَلِ ، وَبَيَانِ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْهَرَمِ ، وَكَوْنِهِ إِذَا وَقَعَ لَا يَرْتَفِعُ ، فَأَصَابَ فِي بَعْضِ قَوْلِهِ وَأَخْطَأَ فِي بَعْضٍ ، وَمِمَّا أَخْطَأَ فِيهِ جَعْلُهُ عُمْرَ الدَّوْلَةِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ أَيْ 120 سَنَةً كَالْأَجَلِ الطَّبِيعِيِّ لِلْأَفْرَادِ عَلَى تَقْدِيرِ بَعْضِ مُتَقَدِّمِي الْأَطِبَّاءِ . وَلَوْ قَالَ : عُمْرُ الدَّوْلَةِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ اللهِ . طُفُولِيَّةٌ ، وَبُلُوغٌ أَشُدّ وَرُشْدٍ ، وَشَيْخُوخَةٍ وَهَرَمٍ . وَلَمْ يُقَدِّرْهَا بِالسِّنِينَ لَسَدَّدَ وَقَارَبَ . فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأُمَمِ بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالِانْغِمَاسِ فِي حَمْأَةِ الرَّذَائِلِ وَالْفِسْقِ قَدْ بَلَغَ مِنْ أُمَمٍ أُورُبَّةَ مَبْلَغًا عَظِيمًا ، فَمَا بَالُهَا تَزْدَادُ قُوَّةً وَعِزَّةً وَعَظَمَةً . حَتَّى صَارَتِ الْأُمَمُ الْمَغْلُوبَةُ عَلَى أَمْرِهَا ، وَلَا سِيَّمَا الْمُسْتَذِلَّةُ لَهَا ، تَعْتَقِدُ أَنَّ تَقْلِيدَهَا فِي مَدَنِيَّتِهَا الْمَادِّيَّةِ وَحُرِّيَّةِ الْفِسْقِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ – إِلَّا تَعَدِّي الْفَرْدِ عَلَى حُرِّيَّةِ غَيْرِهِ – هُوَ الَّذِي يَجْعَلُهَا عَزِيزَةً سَعِيدَةً مِثْلَهَا .

(98/269)

قُلْنَا : إِنَّ تَأْثِيرَ الْفِسْقِ وَالْفَسَادِ فِي الْأُمَمِ يُشْبِهُ تَأْثِيرَهُ فِي الْأَفْرَادِ ، وَمِثْلُهُ مَا ذَكَرْنَا آنِفًا مِنِ اخْتِلَافِ الْأَبْدَانِ وَالْأَمْزِجَةِ فِي احْتِمَالِ الْأَمْرَاضِ ، وَاخْتِلَافِ وَسَائِلِ الْمَعِيشَةِ وَالْعِلَاجِ ، فَأَطِبَّاءُ الْأَبْدَانِ مُجْمِعُونَ عَلَى مَضَارِّ السُّكَّرِ الْكَثِيرَةِ وَكَوْنِهَا سَبَبًا لِلْأَمْرَاضِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ

الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمَوْتِ ، وَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ تَأْثِيرَهَا فِي الْبَدَنِ الْقَوِيِّ دُونَ تَأْثِيرِهَا فِي الْبَدَنِ الضَّعِيفِ ، فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنْهَا يُبْطِئُ تَأْثِيرَ ضَرَرِهِ عَنْ تَأْثِيرِ الْكَثِيرِ ، وَأَنَّ بَعْضَهَا أَضَرُّ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَطِبَّاءُ الِاجْتِمَاعِ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْفِسْقِ وَالتَّرَفِ مُفْسِدٌ لِلْأُمَمِ ، وَأَنَّ الظُّلْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَالْغُلُوَّ فِي الْمَطَامِعِ وَالْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ ، وَالتَّنَازُعَ عَلَى الِاسْتِعْمَالِ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ ، وَلَكِنْ لَدَى هَذِهِ الدُّوَلِ كَثِيرًا مِنَ الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَادِّيَّةِ الَّتِي تُقَاوِمُ بِهَا سُرْعَةَ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَدْوَاءِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، كَالْأَدْوِيَةِ وَطُرُقِ الْوِقَايَةِ الَّتِي تُقَاوِمُ بِهَا سُرْعَةَ تَأْثِيرِ هَذِهِ

(99/269)

الْأَمْرَاضِ الْجَسَدِيَّةِ ، وَالرِّيَاضَةُ الشَّاقَّةُ الَّتِي يُتَّقَى بِهَا إِضْعَافُ التَّرَفِ لِلْأَبْدَانِ . وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْقُوَى الْوَاقِيَةِ لِلْأُمَمِ النِّظَامُ وَمُرَاعَاةُ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ حَتَّى فِي نَفْسِ الظُّلْمِ ، وَفِي إِخْفَائِهِ عَمَّنْ يَضُرُّ الظَّالِمِينَ عِلْمُهُمْ بِهِ وَلَوْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ ، وَإِتْقَانُ الْوَسَائِلِ وَالْأَسْبَابِ فِي إِلْبَاسِ ظُلْمِهِمْ لِبَاسَ الْعَدْلِ ، وَجَعْلِ بَاطِلِهِمْ عَيْنَ الْحَقِّ ، وَإِبْرَازِ إِفْسَادِهِمْ فِي صُورَةِ الْإِصْلَاحِ ، وَإِيجَادِ أَنْصَارٍ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَظْلُومِينَ ، بَلْ إِقْنَاعِ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ ، بِأَنَّ سِيَادَتَهُمْ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ سِيَادَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا مَحَلَّ لِشَرْحِهِ هُنَا ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الشَّاعِرِ الْمِصْرِيِّ فِي تَفْرِيقِهِ

بَيْنَ مَا كَانَ مِنَ

الظُّلْمِ الْوَطَنِيِّ وَمَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الظُّلْمِ الْأَجْنَبِيِّ فِي مِصْرَ وَأَمْثَالِهَا .

لَقَدْ كَانَ هَذَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهُذِّبَتْ . . . حَوَاشِيهِ حَتَّى صَارَ ظُلْمًا مُنَظَّمَا

وَقَدْ قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ مَرَّةً : مَا بَالُ بَاطِلِ هَؤُلَاءِ الْإِفْرِنْجِ فِي شُئُونِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ثَابِتًا نَامِيًا لَا يَدْمَغُهُ الْحَقُّ ؟ – أَوْ مَا هَذَا مَعْنَاهُ – فَقَالَ : إِنَّهُ ثَابِتٌ بِالتَّبَعِ لِلنِّظَامِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْحَقِّ ، أَيْ فَهُوَ يَزُولُ إِذَا قُذِفَ عَلَيْهِ بِحَقٍّ مُؤَيَّدٍ بِنِظَامٍ مِثْلِهِ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ ، فَهَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ لَهُ الْمُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ فِي الشَّرْقِ ، مَعَ مُبَارَاتِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ دُونَ التَّرَفِ وَالْفِسْقِ

.

(100/269)

بِيدَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ لَا يَمْنَعُ انْتِقَامَ اللهِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي تَأْخِيرِهِ عَنْهُمْ ، فَهُوَ مَثَلٌ مِنْ أَمْثَالِ اسْتِئْخَارِ الْعَذَابِ بِأَسْبَابِ تَأْخِيرِ الْأَجَلِ ، وَلَيْسَ مِنْ أَسْبَابِ مَنْعِهِ . فَإِنَّمَا مَنْعُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالِاعْتِدَالِ ، وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ . وَإِنَّ حُكَمَاءَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَقَدْ نَقَلْنَا بَعْضَ أَقْوَالِهِمْ فِي الْمَنَارِ ، وَمِنْهَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ لَنَا فِي مَدِينَةِ (جِنِيفَ – سِوِيسْرَةَ) إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُقَلَاءِ يَتَوَقَّعُونَ قُرْبَ هَلَاكِ أُورُبَّةَ فِي حَرْبٍ عَاجِلَةٍ شَرٍّ

مِنَ الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي فَقَدَتْ بِهَا أُلُوفَ الْأُلُوفِ مِنْ قَتْلَى الْمَعَارِكِ ، وَمِثْلُهُمْ مَا بَيْنَ قَتِيلِ مَرَضٍ أَوْ مَخْمَصَةٍ ، وَمُشَوَّهٍ أَضْحَى عَالَةً عَلَى الْوَطَنِ . وَإِنَّهُمْ يُرَجِّحُونَ أَلَّا يَعْدُوَ هَلَاكُهَا هَذَا الْجِيلَ . وَمِنْهَا مَا قَالَهُ أَحَدُ ضُبَّاطِ الْإِنْكِلِيزِ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ مِنْ حَدِيثٍ دَارَ بَيْنَهُمْ فِي عُمْرِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ دَبَّ إِلَيْهَا الْفَسَادُ الَّذِي ذَهَبَ بِإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِ ، وَأَنَّهُمْ يُقَدِّرُونَ أَنَّهَا قَدْ تَعِيشُ ثَمَانِينَ عَامًا . وَقَدْ كُنْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ أَتَحَدَّثُ مَعَ بَعْضِ أَذْكِيَاءِ الْيَهُودِ فِي مَفَاسِدِ الْفَرَنْسِيسِ وَقِلَّةِ نَسْلِهِمْ . فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي أَظُنُّ أَنَّ أَجَلَهُمْ لَا يَتَجَاوَزُ هَذَا الْجِيلَ . فَقَالَ : إِنَّهُمْ يُقَدِّرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ جِيلَيْنِ اثْنَيْنِ . كُلُّ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ مِنَ الرَّجْمِ بِالْغَيْبِ .

(101/269)

وَإِنَّمَا الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، أَوِ الْإِلْمَامِ بِعِلْمِ الِاجْتِمَاعِ وَسُنَنِ الْعُمْرَانِ لَا فِي الْغَرْبِ وَلَا فِي الشَّرْقِ ، هُوَ أَنَّ إِسْرَافَ شُعُوبٍ أُورُبَّةَ فِي الْفِسْقِ ، وَإِصْرَارَ حُكُومَاتِهَا عَلَى سِيَاسَةِ الْإِفْرَاطِ فِي الطَّمَعِ وَالْمَكْرِ ، وَالتَّلْبِيسِ وَالتَّنَازُعِ عَلَى الِاسْتِعْمَارِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ ، وَتَأْيِيدِ الْأَفْرَادِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَالِ ، عَلَى الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُمَّالِ – كُلُّ ذَلِكَ مِنْ دُودِ الْفَسَادِ الْمُفْضِي إِلَى

الْهَلَاكِ . وَلْيُرَاجِعْ مَنْ شَاءَ مَا دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ السِّيَاسِيِّ السُّوِيسِيِّ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ رِحْلَتِي الْأُورُبِّيَّةِ فِي الْمَنَارِ (ج 8 م 23) .

عَلَى أَنَّ الْحَرْبَ الْأَخِيرَةَ قَدْ ثَلَّتْ عَرْشَ قَيَاصِرَةِ الرُّوسِ وَالنَّمِسَةِ ، وَمَزَّقَتْ مَمَالِكَهُمَا كُلَّ مُمَزَّقٍ ، كَمَا مَزَّقَتْ سَلْطَنَةَ آلِ عُثْمَانَ فَجَعَلَتْهَا فِي خَبَرِ كَانَ . وَأَسْقَطَتْ عَرْشَ عَاهِلِ الْأَلْمَانِ ، وَصَارَتْ دَوْلَتُهُمْ جُمْهُورِيَّةً ، وَثَلَّتْ عُرُوشَ مُلُوكٍ آخَرِينَ ، وَمَا بَقِيَ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ فِي أُورُبَّةَ لَمْ يَتَّعِظُوا وَلَمْ يَزْدَجِرُوا ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .

فَإِنْ قِيلَ : إِذَا كَانَ عُلَمَاءُ الِاجْتِمَاعِ وَالْأَخْلَاقِ وَفَلَاسِفَةُ التَّارِيخِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَدْ دَبَّ إِلَيْهِمْ دَاءُ الْأُمَمِ الَّذِي هَلَكَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيُنْذِرُونَهُمْ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ لَا يَتَّعِظُونَ وَلَا يَتُوبُونَ مِنْ ذَنْبِهِمْ ، وَلَا يَثُوبُونَ إِلَى رُشْدِهِمْ ؟ .

(102/269)

قُلْنَا : إِنَّ أَمْرَنَا فِي ذَلِكَ أَعْجَبُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَدْ أَنْذَرَنَا رَبُّنَا فِي كِتَابِهِ مِثْلَ هَذَا فِي أَمْرِ دُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا جَمِيعًا ، وَلِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا لَيْسَ لِكَلَامِ الْعُلَمَاءِ عِنْدَ الْمَادِّيِّينَ ، فَمِنَّا وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَسْمَعُ النُّذُرَ ، وَمَنْ لَا يَعْقِلُهَا إِذَا سَمِعَهَا (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) (8 : 23) وَمَنْ يَتَمَارَوْنَ بِهَا أَوْ يَتَأَوَّلُونَهَا ، وَمَنْ تَغْرِهِمْ أَنْفُسُهُمْ بِأَنَّهُمْ

يَتَّقُونَهَا ، فَتَعْدُوهُمْ أَوْ يَعْدُونَهَا ، وَمَنْ يَجْهَلُونَ عِلَاجَ الْعِلَّةِ أَوْ يَعْجَزُونَ عَنْهُ ، وَمَتَى أَزْمَنَ الدَّاءُ بَطُلَ فِعْلُ الدَّوَاءِ ، وَإِذَا تَمَكَّنَتِ الْأَهْوَاءُ فِي الْأَنْفُسِ وَصَارَتْ مَلَكَاتٍ لَهَا ، مَلَكَتْ عَلَيْهَا أَمْرَهَا ، وَغَلَبَتْهَا عَلَى اخْتِيَارِهَا ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ أَوْلَى بِهِ مِنْهَا . فَإِنَّكَ تَرَى بَعْضَ الْأَطِبَّاءِ يَسْكَرُونَ وَهُمْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ضَرَرِ السُّكْرِ ، وَلَكِنَّ دَاعِيَتَهُ أَرْجَحُ فِي النَّفْسِ مِنْ وَازِعِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ . عَذَرْتُ طَبِيبًا عَلَى الشُّرْبِ مُذَكِّرًا لَهُ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ضُرِّهِ – فَقَالَ لِأَنْ أَعِيشَ عَشْرًا بِلَذَّةٍ آثَرُ عِنْدِي مِنْ أَنْ أَعِيشَ عِشْرِينَ مَحْرُومًا مِنْهَا . فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ هَذَا مَضْمُونًا لَكَ ، لَجَازَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْكَ ، وَلَكِنَّ عِلْمَكُمْ يَقْتَضِي خِلَافَهُ . فَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الْخَمْرَ تُحْدِثُ لَكَ مِنَ الْأَسْقَامِ مَا تَعِيشُ بِهِ الْعِشْرِينَ فِي أَشَدِّ الْآلَامِ ؟ فَسَكَتَ . وَقَدِ ابْتُلِيَ بِالصَّرَعِ وَغَيْرِهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ

(103/269)

يَتُبْ .

وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ قَدْ كُنَّا بِهِدَايَةِ دِينِنَا أُمَّةً عَزِيزَةً قَوِيَّةً مُتَّحِدَةً ، فَمَزَّقَتْنَا الْأَهْوَاءُ فَضَعُفْنَا ثُمَّ سَاعَدَ الزَّمَانُ بَعْضَ شُعُوبِنَا فَاعْتَزَّتْ وَعَلَتْ ثُمَّ انْخَفَضَتْ وَضَعُفَتْ ، وَقَدْ قَامَ مِنَّا مَنْ يُنْذِرُنَا وَيُذَكِّرُنَا بِآيَاتِ رَبِّنَا وَيَدْعُونَا بِهَا إِلَى مَا يُحْيِينَا فَأَعْرَضَ أُمَرَاؤُنَا وَعُلَمَاؤُنَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ

دَهْمَاؤُنَا (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (54 : 4 ، 5) (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (10 : 101) .

هَذَا – وَقَدْ بَحَثَ الْمُفَسِّرُونَ هُنَا فِي آجَالِ الْأَفْرَادِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ لِكُلِّ فَرْدٍ أَجَلًا فِي عِلْمِ اللهِ وَفِي تَقْدِيرِهِ (ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) (6 : 2) فَأَمَّا الَّذِي فِي عِلْمِهِ تَعَالَى فَلَا يَتَغَيَّرُ ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا نَفْيَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ ، وَلَا كَوْنَ النَّاسِ مَجْبُورِينَ لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ هَذَيْنِ حَقٌّ ثَابِتٌ بِالْحِسِّ وَالضَّرُورَةِ وَبِالْوَحْيِ جَمِيعًا وَالْحَقُّ الْوَاقِعُ مِثَالٌ وَمِصْدَاقٌ لِمَا فِي الْعِلْمِ وَلَيْسَ الْعِلْمُ فَاعِلًا فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ كَاشِفٌ لَهُ .

(104/269)

وَأَمَّا الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ بِمُقْتَضَى نِظَامِ الْخَلْقِ فَهُوَ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْهُ عُلَمَاءُ الدُّنْيَا بِالْعُمْرِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ مِائَةُ سَنَةٍ فِي مُتَوَسِّطِ تَقْدِيرِ أَطِبَّاءِ عَصْرِنَا . وَهُمْ يُقَدِّرُونَ لِكُلِّ فَرْدٍ عُمْرًا بَعْدَ الْفَحْصِ عَنْ قُوَّةِ جِسْمِهِ وَأَعْضَائِهِ الرَّئِيسَةِ وَوَظَائِفِهَا ، وَيُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ التَّقْدِيرِ أَنْ يَعِيشَ بِنِظَامٍ وَاعْتِدَالٍ وَتَقْوَى ، فَإِذَا أَخَلَّ بِذَلِكَ اخْتَلَّ التَّقْدِيرُ وَبَعُدَ عَنِ الْحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِلَّا كَانَ قَرِيبًا مِنْهَا بِحَسَبِ مَا عُلِمَ مِنْ سُنَنِهِ تَعَالَى . وَمَنْ قُتِلَ أَوْ غَرِقَ مَثَلًا

قَبْلَ انْتِهَاءِ الْعُمْرِ الْمُقَدَّرِ لَهُ يُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ قَبْلَ انْتِهَاءِ عُمْرِهِ الطَّبِيعِيِّ أَوِ التَّقْدِيرِيِّ . وَلَكِنْ بِأَجَلِهِ الْحَقِيقِيِّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى . وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي نَقْصِ الْعُمْرِ وَإِطَالَتِهِ وَالْإِنْسَاءِ فِيهِ بِالْأَسْبَابِ الْعَمَلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ كَصِلَةِ الرَّحِمِ وَالدُّعَاءِ فَإِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَجَلِ التَّقْدِيرِيِّ أَوِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَظْهَرِ سُنَنِ اللهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ هَنَاءِ الْمَعِيشَةِ ، وَهَنَاءُ الْمَعِيشَةِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ طُولِ الْعُمْرِ . وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي مَنْشَؤُهُ قُوَّةُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالرَّجَاءُ فِي مَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَضْعُفُ عَنْهُ أَوْ يَعْجِزُ عَنْ أَسْبَابِهِ ، وَمِنَ الْأُمُورِ الثَّابِتَةِ بِالتَّجَارِبِ الْمُطَّرِدَةِ أَنَّ الْهُمُومَ وَالْأَكْدَارَ وَلَا سِيَّمَا الدَّاخِلِيُّ

(105/269)

مِنْهَا كَقَطِيعَةِ الْأَرْحَامِ ، وَالْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَ تَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ ، يُضْعِفَانِ قُوَى النَّفْسِ الْحَيَوِيَّةِ وَيُهْرِمَانِ الْجِسْمَ قَبْلَ إِبَّانِ الْهَرَمِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً . . . وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

وَلِلْهُمُومِ أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ تَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَمِثْلُهَا فِي تَقْصِيرِ الْعُمْرِ الطَّبِيعِيِّ قِلَّةُ الْغِذَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَدَنُ وَالْإِسْرَافُ فِيهِ وَفِي كُلِّ لَذَّةٍ . وَكَذَا فِي الرَّاحَةِ وَالتَّعَبِ وَكَثْرَةِ

التَّعَرُّضِ لِلنَّجَاسَةِ وَالسُّكْنَى فِي الْأَمْكِنَةِ الْقَذِرَةِ الَّتِي لَا تُصِيبُهَا الشَّمْسُ وَلَا يَتَخَلَّلُهَا الْهَوَاءُ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَكْفِي لِامْتِصَاصِ الرُّطُوبَاتِ وَقَتْلِ جَرَاثِيمِ الْفَسَادِ فِيهَا ، وَالْأُمَمُ الْعَلِيمَةُ بِالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ تُحْصِي دَائِمًا عَدَدَ الْمَرْضَى وَالْمَوْتَى فِيهَا ، وَتَضَعُ لَهَا نِسَبًا حِسَابِيَّةً تَعْرِفُ بِهَا مُتَوَسِّطَ الْآجَالِ فِي كُلٍّ مِنْهَا ، وَقَدْ ثَبَتَ بِهَا ثُبُوتًا قَطْعِيًّا أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ قِلَّةِ الْوَفَيَّاتِ تَحْسِينُ وَسَائِلِ الْمَعِيشَةِ وَالِاعْتِدَالُ فِيهَا ، وَالتَّوَقِّي مِنَ الْأَمْرَاضِ بِاجْتِنَابِ أَسْبَابِهَا الْمَعْرُوفَةِ قَبْلَ وُقُوعِهَا بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ وَمُعَالَجَتُهَا بَعْدَ طُرُوئِهَا كَذَلِكَ . وَكُلُّ مَا ثَبَتَ وَوَقَعَ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ

(106/269)

الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ قَدْ سَبَقَ بِهِ ، وَلَا شَيْءَ مِمَّا ثَبَتَ فِي الْوَاقِعِ بِنَاقِضٍ لِشَيْءٍ مِمَّا وَرَدَ فِي نَصِّ كِتَابِ رَبِّنَا تَعَالَى وَمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ هُوَ مُوَافِقٌ لَهُ ، وَهَذَا مِنْ حُجَجِ كَوْنِ هَذَا الدِّينِ مِنْ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ لِبَشَرٍ أَنْ يُقَرِّرَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْكَثِيرَةَ فِي الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ الَّذِي لَا يَزِيدُهُ تَرَقِّي عُلُومِ الْبَشَرِ وَتَجَارُبِهَا إِلَّا تَأْكِيدًا ، وَنَاهِيكَ بِمَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ أُمِّيٍّ نَشَأَ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ ، وَسَنَعُودُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْبَحْثِ فِي مُنَاسَبَةٍ أُخْرَى إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْعَطْفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) مُسْتَأْنَفٌ لِبَيَانِ مَا تَتِمُّ بِهِ الْفَائِدَةُ وَإِلَّا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ لَا الْجَزَائِيَّةِ فَيَكُونُ حَاصِلُ الْمَعْنَى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ إذَا جَاءَ ، وَهُمْ لَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهِ أَيْضًا بِأَنْ يَهْلَكُوا قَبْلَ مَجِيئِهِ . وَلَا يَظْهَرُ مَعْنًى لِعَطْفِهِ عَلَى (لَا يَسْتَأْخِرُونَ) الَّذِي هُوَ جَزَاءُ قَوْلِهِ : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ) إلَّا بِتَكَلُّفٍ ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) (23 : 43) وَأَمَّا حِكْمَةُ الْعُدُولِ عَنِ التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ هُنَا فَهِيَ إفَادَةُ أَنَّ تَأْخِيرَ الْأَجَلِ أَوْ تَأْخِيرَ الْهَلَاكِ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ مُمْكِنٌ لِلْأُمَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ أَسْبَابَهُ وَتَمْلِكُ الْعَمَلَ بِهَا ، كَتَرْكِ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفُجُورِ إلَى أَضْدَادِهَا وَهُوَ يَتَّضِحُ بِمَا ضَرَبْنَا لَهَا مِنَ الْأَمْثَالِ آنِفًا .

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

هَذَا النِّدَاءُ هُوَ الرَّابِعُ لِبَنِي آدَمَ كَافَّةً مُنْذُ بَعَثَ اللَّهُ إلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ

يُؤْذِنُ بِأَنَّهُ هُوَ وَمَا قَبْلَهُ حِكَايَةٌ لِمَا خَاطَبَ اللهُ بِهِ كُلَّ أُمَّةٍ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهَا وَبَيَّنَهُ لَهُمْ مِنْ أُصُولِ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِهِدَايَتِهِمْ بِهِ إلَى مَا لَا غِنَى لَهُمْ عَنْهُ فِي تَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ . وَقَدْ تَخَلَّلَ النِّدَاءُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ بَعْضَ مَا يُنَاسِبُ أُمَّةَ خَاتَمِ الرُّسُلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ لَمْ يَكُنْ فِي آيَاتِهِمَا مَا يَدُلُّ عَلَى مُشَارَكَةِ غَيْرِهَا لَهَا فِي الْخِطَابِ - وَأَمَّا هَذَا النِّدَاءُ فَقَدْ صَرَّحَ فِيهِ بِذِكْرِ جُمْلَةِ الرُّسُلِ ، وَذَكَرَهُ بَعْدَ بَيَانِ آجَالِ الْأُمَمِ ؛ وَلِهَذَا فَرَّعَ عَلَيْهِ بَيَانَ جَزَاءِ مَنِ اتَّبَعَ الرُّسُلَ وَمَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْوَامِ - فَهَذَا وَجْهُ مُنَاسَبَتِهِ لِمَا قَبْلَهُ فِيمَا ظَهَرَ لَنَا وَاللهُ أَعْلَمُ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(109/269)

(يَا بَنِي آدَمَ إمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) "إمَّا" مُرَكَّبَةٌ مِنْ "إنْ" الشَّرْطِيَّةِ وَ "مَا" الَّتِي تُفِيدُ تَأْكِيدَ الشَّرْطِ وَكَذَا الْعُمُومَ فِي قَوْلٍ . وَالْمَعْنَى : إنْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمُ الْبَشَرِ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي الَّتِي أُنْزِلُهَا عَلَيْهِمْ فِي بَيَانِ مَا أَفْرِضُهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُصْلِحَةِ وَمَا أُحَرِّمُهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالرَّذَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الْمُفْسِدَةِ - فَمَنِ اتَّقَى مَا نَهَيْتُ عَنْهُ وَأَصْلَحَ نَفْسَهُ بِمَا

أَوْجَبْتُ عَلَيْهِ ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عِنْدَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فِي الدُّنْيَا كَحُزْنِ غَيْرِهِمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي مَوَاضِعَ أَشْبَهَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا (2 : 38 : 6 : 48 فَيُرَاجَعُ .

(110/269)

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) الِاسْتِكْبَارُ عَنِ الْآيَاتِ هُوَ رَفْضُ قَبُولِهَا كِبْرًا وَعِنَادًا لِمَنْ جَاءَ بِهَا أَنْ يَكُونَ إِمَامًا مَتْبُوعًا لِلْمُسْتَكْبِرِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فَوْقَهُ ، أَوْ أَقْوَامَهُمْ فَوْقَ قَوْمِهِ ، أَوْ يُحِبُّونَ أَنْ يُرُوا النَّاسَ وَيُوهِمُوهُمْ ذَلِكَ ، فَرُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَرَى مِنَ الضَّعَةِ وَالْمَهَانَةِ أَنْ يَكُونَ مَرْءُوسًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا أَوْ أَكْبَرُ سِنًّا ، فَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالرِّيَاسَةِ – وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ بَعْضُ عَشِيرَتِهِ بَنِي هَاشِمٍ – وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَتْبَعَ رَجُلًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَبِي سُفْيَانَ وَآخَرِينَ ، مَاتَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَدَانَ بَعْضُهُمْ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ ظُهُورِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي غَيْرِ قُرَيْشٍ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَتْبَعَ رَجُلًا مِنْهُمْ إِلَّا بِالتَّبَعِ لِعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ هُمْ لَهُ ، وَلَكِنَّ أَحْبَارَ الْيَهُودِ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِ لِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ ،

وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ النُّبُوَّةَ يَجِبُ حَصْرُهَا فِيهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ . وَكَذَلِكَ أُمَرَاءُ الْمَجُوسِ

(111/269)

وَرُؤَسَاءُ دِينِهِمْ إذْ كَانُوا يَحْتَقِرُونَ الْعَرَبَ كَافَّةً إلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا يَزَالُ بَعْضُ الشُّعُوبِ يَأْبَى الِاهْتِدَاءَ بِالْإِسْلَامِ اسْتِكْبَارًا عَنِ اتِّبَاعِ أَهْلِهِ ، بَلْ نَرَى بَعْضَ غُلَاةِ الْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ الْمُرْتَدِّينَ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنَ التُّرْكِ كَذَلِكَ ، حَتَّى نَقَلَتْ صُحُفُ الْأَخْبَارِ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ إنَّ قَوْمَهُ يَسْتَنْكِفُونَ أَنْ يَتَسَفَّلُوا لِاتِّبَاعِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، بَلْ قَالَ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ إثْمًا (! !) .

وَالْمَعْنَى : أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَةِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ رُسُلِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ مَنْ جَاءَ بِهَا حَسَدًا لَهُ عَلَى الرِّيَاسَةِ ، وَتَفْضِيلًا لِأَنْفُسِهِمْ عَلَيْهِ أَوْ لِقَوْمِهِمْ عَلَى قَوْمِهِ ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ الَّذِينَ يُخَلَّدُونَ فِيهَا ، لَا كَالَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِيهَا زَمَنًا مُعَيَّنًا عَلَى ذُنُوبٍ اقْتَرَفُوهَا .

(112/269)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : أَنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَدْ بَلَّغُوا أُمَمَهُمْ أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ فِي اتِّقَاءِ مَا يُفْسِدُ فِطْرَتَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَخُرَافَاتِهِ وَالرَّذَائِلِ وَالْمَعَاصِي ، وَفِي إِصْلَاحِ أَعْمَالِهِمْ بِالطَّاعَاتِ - يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْأَمْنُ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ وَالْحُزْنُ عَلَى كُلِّ مَا يَقَعُ إِمَّا مُطْلَقًا وَإِمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ، وَأَنَّ تَكْذِيبَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالِاسْتِكْبَارَ عَنِ اتِّبَاعِهَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْخُلُودُ فِي النَّارِ فَوْقَ مَا بَيَّنَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ سُوءِ الْحَالِ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ سَكَتَ عَنِ الْجَزَاءِ الدُّنْيَوِيِّ هُنَا لِأَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَلِأَنَّهُ لَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ وَقْتٍ .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ)

هَذَا بَدْءُ سِيَاقٍ طَوِيلٍ فِي وَصْفِ جَزَاءِ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ وَجَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، مُفَصَّلًا تَفْصِيلًا مَبْنِيًّا عَلَى السِّيَاقِ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَلَا سِيَّمَا خَاتِمَتُهُ وَهِيَ خِطَابُ بَنِي آدَمَ بِالْجَزَاءِ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَعَدَمِهِ مُجْمَلًا . قَالَ تَعَالَى :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) أَيْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ فِي

الْآيَاتِ السَّابِقَةِ - وَهُوَ كَذَلِكَ - فَلَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا مَا بِأَنْ أَوْجَبَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا لَمْ يُوجِبْهُ ، أَوْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ ، أَوْ عَزَا إِلَى دِينِهِ أَيَّ حُكْمٍ لَمْ يُنَزِّلْهُ عَلَى رُسُلِهِ ، أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ أَوْ بِمَا هُوَ أَدَلُّ مِنْهُ وَهُوَ الِاسْتِكْبَارُ عَنِ اتِّبَاعِهَا ، أَوِ الِاسْتِهْزَاءُ بِهَا ، أَوْ تَفْضِيلُ غَيْرِهَا عَلَيْهَا بِالْعَمَلِ .

(114/269)

(أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ) فِي الْكِتَابِ وَجْهَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ كِتَابُ الْوَحْيِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الرُّسُلِ (وَاللَّامُ لِلْجِنْسِ) وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ نَصِيبِهِمْ مِنْهُ : " مَا وُعِدُوا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ " فَإِنَّ الْكِتَابَ الْإِلَهِيَّ هُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْوَعْدَ عَلَى الْأَعْمَالِ أَيْ وَالْوَعِيدَ بِدَلِيلِ بَيَانِهِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَهُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ جَزَاءَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . (وَثَانِيهِمَا) أَنَّهُ كِتَابُ الْمَقَادِيرِ الَّذِي كَتَبَ اللهُ فِيهِ نِظَامَ الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَمِنْهَا أَعْمَالُ الْأَحْيَاءِ الِاخْتِيَارِيَّةُ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَسْبَابِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمُسَبَّبَاتِ كَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ وَالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ إِلَخْ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ الْمُفَصَّلُ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) (6 : 59) مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَعَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ إِذْ قَالَ فِي تَفْسِيرِ النَّصِيبِ مِنَ الْآيَةِ : مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ : مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ ، وَفَسَّرَ

مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ النَّصِيبَ بِالرِّزْقِ وَالْأَجَلِ وَالْعَمَلِ ، وَرُوِيَ أَيْضًا عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَفَسَّرَهُ أَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ بِالْعَذَابِ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْوَجْهَيْنِ فَمَا وُعِدُوا بِهِ فِي كِتَابِ الدِّينِ هُوَ الَّذِي أُثْبِتَ فِي كِتَابِ الْمَقَادِيرِ ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي نَفْسِ النَّصِيبِ الَّذِي يَنَالُهُمْ هَلْ هُوَ خَاصٌّ

(115/269)

بِالدُّنْيَا أَمْ بِالْآخِرَةِ أَمْ عَامٌّ فِيهِمَا ؟ وَرُجِّحَ الْأَوَّلُ بِمُوَافَقَتِهِ لِمِثْلِ قَوْلِهِ : (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ) (17 : 20) وَقَوْلِهِ : (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) (31 : 24) وَبِمُوَافَقَتِهِ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ حَتَّى مِنَ الْغَايَةِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :

(حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) أَيْ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمُ الَّذِي كُتِبَ لَهُمْ مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَى بِانْتِهَاءِ آجَالِهِمْ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَتَوَفَّوْنَهُمْ - وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِالتَّوَفِّي أَيْ قَبْضِ الْأَرْوَاحِ مِنَ الْأَجْسَادِ - (قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أَيْ يَسْأَلُهُمْ رُسُلُ الْمَوْتِ حَالَ كَوْنِهِمْ يَتَوَفَّوْنَهُمْ : أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَدْعُونَهُمْ غَيْرَ اللَّهِ فِي حَالِ الْحَيَاةِ لِقَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَدَفْعِ الْمُضِرَّاتِ ؟ ادْعُوهُمْ لِيُنْجُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ الْآنَ (قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) أَيْ قَالُوا : غَابُوا عَنَّا فَلَا نَرْجُو مِنْهُمْ مَنْفَعَةً . وَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ

كَانُوا كَافِرِينَ بِدُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ وَزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ عِنْدَهُ تَعَالَى كَأَعْوَانِ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ وَوُزَرَائِهِمْ وَحُجَّابِهِمْ ، جَاهِلِينَ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ ذَلِكَ بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ ، وَأَنَّ الْمُلُوكَ وَالْأُمَرَاءَ

(116/269)

لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ الْأَعْوَانِ وَالْمُسَاعِدِينَ لِجَهْلِهِمْ بِأُمُورِ النَّاسِ وَعَجْزِهِمْ عَنْ مَعْرِفَتِهَا وَقَضَائِهَا بِأَنْفُسِهِمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 21 - 24 ، 93 ، 94) وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُبْتَدَأٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) فَيُرَاجَعَانِ فَفِي تَفْسِيرِ كُلٍّ مِنْهُمَا مَا لَيْسَ فِي الْآخَرِ وَلَا هُنَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ فِي آخِرِ آيَةِ (144) مِنَ الْأَنْعَامِ أَيْضًا وَفَسَّرْنَا الِافْتِرَاءَ عَلَى اللهِ فِيهَا بِمِثْلِ مَا فَسَّرْنَاهُ هُنَا لِمُنَاسَبَةِ السِّيَاقِ وَتَقَدَّمَ أَيْضًا مِثْلُ هَذِهِ الشَّهَادَةِ مِنَ الْكُفَّارِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي آخِرِ آيَةِ (130) مِنْهَا .

(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ)

أَيْ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَوْ أَحَدُ مَلَائِكَتِهِ بِأَمْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ : ادْخُلُوا مَعَ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ وَمَضَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ . أَوِ ادْخُلُوا فِي ضِمْنِ أُمَمٍ مِثْلِكُمْ قَدْ

سَبَقَتْكُمْ كَائِنَةٍ فِي دَارِ الْعَذَابِ . وَقُدِّمَ الْجِنُّ لِأَنَّ شَيَاطِينَهُمْ مُبْتَدِئُو الْإِضْلَالِ وَالْإِغْوَاءِ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ وَلِلْإِنْسِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(117/269)

(كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) هَذَا بَيَانٌ لِشَيْءٍ مِنْ حَالَتِهِمْ فِي دُخُولِ النَّارِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ تَخَلُّفُهُ بَعْدَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ . أَيْ كُلَّمَا دَخَلَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ فِي النَّارِ وَاسْتَقْبَلَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، لَعَنَتْ أُخْتَهَا فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ الَّتِي ضَلَّتْ هِيَ بِاتِّبَاعِهَا وَالِاقْتِدَاءِ بِهَا فِي كُفْرِهَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ خَلِيلِهِ :

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) (29 : 25) إِلَخْ .

(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ) أَيْ حَتَّى إِذَا تَتَابَعُوا وَأَدْرَكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَاجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ فِيهَا قَالَتْ أُخْرَى كُلٍّ مِنْهُمْ لِأُولَاهَا وَمُقَدَّمِيهَا فِي الرُّتْبَةِ وَالرِّيَاسَةِ أَوْ فِي الزَّمَنِ أَيْ لِأَجْلِهَا وَفِي شَأْنِهَا - وَإِنَّمَا الْخِطَابُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا عَنِ الْحَقِّ بِاتِّبَاعِنَا لَهُمْ وَتَقْلِيدِنَا إِيَّاهُمْ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ ، فَأَعْطِهِمْ ضِعْفًا مِنْ عَذَابِ النَّارِ لِإِضْلَالِهِمْ إِيَّانَا فَوْقَ الْعَذَابِ عَلَى ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَكُونَ عَذَابُهُمْ ضِعْفَيْنِ ، ضِعْفًا لِلضَّلَالِ وَضِعْفًا

لِلْإِضْلَالِ .

(قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) أَيْ يَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَى لَهُمْ : لِكُلٍّ مِنْهُمْ ضِعْفٌ مِنَ الْعَذَابِ بِإِضْلَالِهِ فَوْقَ عَذَابِهِ عَلَى ضَلَالِهِ . كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى :

(118/269)

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) (16 : 25) وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ كُنْهَ عَذَابِهِمْ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَذَابَ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ أَوْ جَسَدِيٌّ وَنَفْسِيٌّ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ النَّارَ فِي سُورَةِ الْهُمَزَةِ بِأَنَّهَا تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ أَيِ الْقُلُوبِ ، فَإِذَا رَأَى الْأَتْبَاعُ الْمَتْبُوعِينَ مَعَهُمْ فِي دَارِ الْعِقَابِ ظَنُّوا أَنَّ عَذَابَهُمْ كَعَذَابِهِمْ فِيمَا يَأْكُلُونَ مِنَ الزَّقُّومِ وَالضَّرِيعِ وَيَشْرَبُونَ مِنَ الْمَاءِ الْحَمِيمِ ، وَفِيمَا تَلْفَحُهُمُ النَّارُ بِرِيحِهَا السَّمُومِ ، وَفِيمَا يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ مِنْ ظِلِّهَا الْيَحْمُومِ ، فَمَثَلُهُمْ مَعَهُمْ كَمَثَلِ الْمَسْجُونِينَ فِي الدُّنْيَا ، مِنْهُمُ الْمُجْرِمُ الْعَرِيقُ فِي إِجْرَامِهِ مِنْ تُحُوتِ النَّاسِ وَأَشْقِيَائِهِمْ ، وَالرَّئِيسُ الزَّعِيمُ فِي قَوْمِهِ ، الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ فِي وَطَنِهِ ، لَا يَشْعُرُ الْأَوَّلُ بِمَا يُقَاسِيهِ الْآخَرُ مِنْ عَذَابِ النَّفْسِ وَقَهْرِ الذُّلِّ . بَلْ يَظُنُّ أَنَّ عُقُوبَتَهُمَا وَاحِدَةٌ فِي أَلَمِهَا كَمَا هِيَ صُورَتُهَا .

(119/269)

وَحَمْلُ الْأُولَى عَلَى الرُّؤَسَاءِ الْمَتْبُوعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ ، وَالْأُخْرَى عَلَى أَتْبَاعِهِمُ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى مِنْ حَمْلِهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِي الزَّمَنِ أَوْ فِي دُخُولِ النَّارِ ، عَلَى أَنَّ شَأْنَ مُبْتَدِعِ الضَّلَالَةِ أَنْ يَكُونَ مُتَقَدِّمًا فِي الزَّمَنِ تَقَدُّمًا عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ فِيهَا وَلَوْ فِي عَصْرِهِ ، وَهَذَا هُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) (34 : 31) إِلَى آخِرِ الْحِوَارِ ، وَمِثْلِهِ مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي سِيَاقِ مُتَّخِذِي الْأَنْدَادِ مِنْ دُونِ اللهِ وَجَعْلِهِمْ وُسَطَاءَ عِنْدَ اللهِ ، أَوْ طَاعَتِهِمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ بِغَيْرِ وَحْيٍ مِنَ اللهِ ، وَتَبَرُّؤِ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ (2 : 165 – 167) وَقَدِ اسْتَشْهَدْنَا فِي

(120/269)

تَفْسِيرِهِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فَيُرَاجَعُ ، وَيُعْلَمُ مِنْهُ بِالتَّفْصِيلِ أَنَّ كُلَّ دُعَاةِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُضِلِّينَ الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ . وَأَنَّ أَئِمَّةَ الْهُدَى مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ لَيْسُوا مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَنْبِطُونَ الْأَحْكَامَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِيَفْتَحُوا لِلنَّاسِ أَبْوَابَ الْفَهْمِ وَالْفِقْهِ فِيهِمَا ، مَعَ نَهْيِهِمْ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَأَمْرِهِمْ بِعَرْضِ كَلَامِهِمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَخْذِ مَا وَافَقَهُمَا وَرَدِّ مَا

عَدَاهُ . وَمِنْهُمُ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ الَّذِينَ تَنْتَمِي إِلَيْهِمْ طَوَائِفُ السُّنَّةِ ، وَأَئِمَّةُ الْعِتْرَةِ الَّذِينَ تَنْتَمِي إِلَيْهِمُ الشِّيعَةُ كَالْإِمَامَيْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ ، وَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . لَمْ يُبِحْ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ التَّقْلِيدَ - وَقَدْ حَرَّمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ - فَهُمْ بُرَآءُ مِنْ جَمِيعِ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ فِي دِينِ اللهِ ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَاتِ وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى . وَوَرَدَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ آيَاتٌ أُخْرَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ وَالْقَصَصِ وَالْأَحْزَابِ وَالصَّافَّاتِ وَص وَغَيْرِهِنَّ .

(121/269)

وَأَمَّا حَمْلُ الْأُولَى وَالْأُخْرَى عَلَى الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الزَّمَانِ وَالْمُتَأَخِّرَةِ فِيهِ ، فَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ السُّدِّيِّ وَتَبِعَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . وَقِيلَ عَلَيْهِ : لَكِنْ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ضَعْفٌ ، وَهَذَا - وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا مِنَ اللَّفْظِ - لَا يَظْهَرُ فِيهِ الْمَعْنَى الْمُوَافِقُ لِسَائِرِ الْآيَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، وَلِلْقَاعِدَةِ الْقَطْعِيَّةِ فِي جَزَاءِ السَّيِّئَاتِ ، وَهُوَ كَوْنُهُ عَلَى الْعَمَلِ بِقَدْرِهِ مَثَلًا . نَعَمْ إِنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ يُقَلِّدُونَ مَنْ قَبْلَهُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ ، وَإِنَّمَا الْمُضِلُّ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ مَنِ ابْتَدَعَ الضَّلَالَ أَوْ دَعَا إِلَيْهِ أَوْ كَانَ قُدْوَةً فِيهِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ مِثْلَ وِزْرِ مَنْ أَضَلَّهُ سَوَاءً كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ أَمْ لَا ، وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ : " مَنْ

سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ . وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ "كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ . وَالَّذِي جَرَى عَلَيْهِ أَكْثَرُ أَصْحَابِ التَّفَاسِيرِ الْمَعْرُوفَةِ أَنَّ الضِّعْفَ الْآخَرَ عَلَى الْأَتْبَاعِ عِقَابٌ عَلَى التَّقْلِيدِ وَعَزَاهُ بَعْضُهُمْ إلَى الْكَرْخِيِّ .

(122/269)

قَالَ الْآلُوسِيُّ بَعْدَ ذِكْرِهِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِالْأُولَى : وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّقْلِيدَ فِي الْهُدَى ضَلَالٌ وَيَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ الْعَذَابَ . أَيْ فَكَيْفَ بِالتَّقْلِيدِ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ الَّذِي قِيلَ فِي أَهْلِهِ : عُمْيُ الْقُلُوبِ عَمُوا عَنْ كُلِّ فَائِدَةٍ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَقْلِيدًا

وَلَكِنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ هُنَا ، فَلَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ التَّقْلِيدَ يَقْتَضِي مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ عَلَى الْعَمَلِ الْمُقَلَّدِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَنْبٌ فِي نَفْسِهِ لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ ، وَمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ بِالْكِتَابِ . وَالْفِطْرَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِالنَّظَرِ وَالْبَحْثِ ، وَالِاجْتِهَادِ فِي اسْتِبَانَةِ الْحَقِّ ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ جَزَاءَ الضِّعْفِ عَلَى الْأَتْبَاعِ بِأَنَّ اتِّخَاذَهُمُ الرُّؤَسَاءَ مَتْبُوعِينَ مِمَّا يَزِيدُ فِي طُغْيَانِهِمْ ، أَوْ بِأَنَّهُ طَلَبٌ

لِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْعِصْيَانِ - يُقَالُ فِيهِ مَا قِيلَ فِيمَا قَبْلَهُ مِنْ أَنَّ هَذِهِ ذُنُوبٌ مُسْتَقِلَّةٌ لَا يُعَبَّرُ عَنْ عِقَابِهَا بِأَنَّهُ ضِعْفٌ إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ .

(123/269)

ذَلِكَ بِأَنَّ الضِّعْفَ هُنَا هُوَ الزَّائِدُ عَلَى عِقَابِ الذَّنْبِ نَفْسِهِ بِسَبَبِ يُلَابِسُهُ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَتْبَاعِ الْمُقَلِّدِينَ لِلْمَتْبُوعِينَ مِنْ سُورَةِ ص : (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) (38 : 61) فَقَدْ صَرَّحَ فِيهِ بِالزِّيَادَةِ وَقَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ حِكَايَةً عَنِ التَّابِعِينَ الْمَرْءُوسِينَ فِي النَّارِ : (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) (33 : 67 ، 68) .

(124/269)

وَقَدْ كَانَ مِنْ سَبْقِ رَحْمَةِ اللهِ لِغَضَبِهِ وَانْتِقَامِهِ ، وَغَلَبَةِ فَضْلِهِ عَلَى عَدْلِهِ ، أَنْ وَعَدَ بِمُضَاعَفَةِ جَزَاءِ الْحَسَنَاتِ لِذَاتِهَا دُونَ السَّيِّئَاتِ . كَمَا قَالَ : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا) (6 : 160) وَكَمَا قَالَ : (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (4 : 40) وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِهِ فِي مُضَاعَفَةِ الْعَذَابِ فَهُوَ عَلَى الْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَسُوءِ الْقُدْوَةِ ، إلَّا آيَةَ الْفُرْقَانِ فَقَدْ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الشِّرْكِ وَأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ مِنَ الْمَعَاصِي : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) (25 : 68 ، 69) وَلَوْ انْفَرَدَتْ دُونَ سَائِرِ آيَاتِ الْمُضَاعَفَةِ بِحُكْمٍ جَدِيدٍ لَا يَتَعَارَضُ مَعَهَا لَمْ تَكُنْ مُشْكِلَةً ، وَلَكِنَّهَا مُعَارَضَةٌ بِهَا وَبِقَاعِدَةِ الْجَزَاءِ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا ، إلَّا مَنْ أَغْوَى غَيْرَهُ وَأَضَلَّهُ بِقَوْلِهِ أَوْ عَمَلِهِ فَكَانَ قُدْوَةً سَيِّئَةً لَهُ فَوَجَبَ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ الْمُقَرِّرَةِ لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ ، كَأَنْ يُقَالَ : إنَّ الْعِقَابَ فِيهَا عَلَى مَجْمُوعِ الشِّرْكِ وَكَبَائِرِ الْفَوَاحِشِ ، وَهُوَ مُقَسَّمٌ عَلَيْهِمَا لِكُلٍّ مِنْهُمَا جُزْءٌ أَوْ نَوْعٌ مِنْهُ ، فَكَانَ مُضَاعَفًا بِالنِّسْبَةِ إلَى عِقَابِ الْمُشْرِكِ الَّذِي لَمْ يَقْتَرِفْ تِلْكَ الْكَبَائِرَ ، أَوْ عِقَابِ مُقْتَرِفِهَا كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا مِنْ غَيْرِ الْمُشْرِكِينَ ،

(125/269)

وَإِنَّمَا الْمَمْنُوعُ بِمُقْتَضَى الْقَاعِدَةِ أَنْ يُضَاعَفَ الْعَذَابُ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا مَعَ انْتِفَاءِ الْإِضْلَالِ وَسُوءِ الْقُدْوَةِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ فَاعِلَ تِلْكَ الْمَعَاصِي مِنَ الْكُفَّارِ لَا يَكُونُ إلَّا مُجَاهِرًا بِضَلَالِهِ فَيَلْزَمُهُ الْإِضْلَالُ بِسُوءِ الْقُدْوَةِ ، وَقَدْ قِيلَ بِمِثْلِهِ فِي كُلِّ

مُجَاهَرَةٍ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الْمَعْنَى بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَآيَةِ : (آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) (33 : 68) فَإِنَّ لَفْظَ الضِّعْفِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُتَضَايِفَةِ الَّتِي يَقْتَضِي وُجُودُ أَحَدِهَا وُجُودَ الْآخَرِ كَالزَّوْجِ وَهُوَ تَرَكُّبُ قَدْرَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ ، وَيَخْتَصُّ بِالْعَدَدِ فَضِعْفُ الشَّيْءِ هُوَ الَّذِي يُثَنِّيهِ ، وَإِذَا أُضِيفَ إلَى عَدَدٍ اقْتَضَى ذَلِكَ الْعَدَدَ وَمِثْلَهُ ، فَضِعْفُ الْوَاحِدِ اثْنَانِ وَضِعْفُ الْعَشْرَةِ عِشْرُونَ ، فَإِذَا قِيلَ أَعْطِهِ ضِعْفَيْنِ مِنْ كَذَا كَانَ مَعْنَاهُ أَعْطِهِ اثْنَيْنِ أَوْ سَهْمَيْنِ مِنْهُ . وَأَمَّا إذَا قِيلَ أَعْطِهِ ضِعْفَيْ وَاحِدٍ بِالْإِضَافَةِ كَانَ مَعْنَاهُ أَعْطِهِ وَاحِدًا وَضِعْفَيْهِ أَيْ ثَلَاثَةً وَعَلَى ذَلِكَ فَقِسْ . انْتَهَى مُلَخَّصًا مِنْ مُفْرَدَاتِ الرَّاغِبِ .

(126/269)

(وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) هَذَا الْجَوَابُ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِ أُخْرَاهُمْ أَوْ مِنْ جَوَابِ الرَّبِّ تَعَالَى لَهُمْ - وَالْمَعْنَى عَلَى الْأَوَّلِ : إذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَنَّنَا نَحْنُ أَضْلَلْنَاكُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهَذَا أَدْنَى فَضْلٍ تَطْلُبُونَ بِهِ أَنْ يَكُونَ عَذَابُكُمْ دُونَ عَذَابِنَا وَالذَّنْبُ وَاحِدٌ ، وَقَدِ اعْتَرَفْتُمْ بِتَلَبُّسِكُمْ بِالضَّلَالِ الْمُقْتَضِي لَهُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِكَسْبِكُمْ لَهُ مَهْمَا يَكُنْ سَبَبُهُ . وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) (37 : 27 – 33) .

(127/269)

وَأَمَّا الْمَعْنَى عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي فَأَنْ يُقَالَ : إذَا كَانَ الرَّبُّ قَدْ جَعَلَ لِكُلٍّ مِنَّا أَوْ مِنَّا وَمِنْكُمْ ضِعْفًا مِنَ الْعَذَابِ ، فَلَيْسَ لَكُمْ عَلَيْنَا فَضْلٌ يُخَفَّفُ بِهِ عَنْكُمْ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي مِثْلَنَا ، فَنَحْنُ لَمْ نَكُنْ بِمُكْرِهِينَ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ بَلْ فَعَلْتُمُوهُ بِاخْتِيَارِكُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ لَكُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا لَوِ اهْتَدَيْتُمْ بِاتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَتَرَكْتُمُونَا فِي ضَلَالِنَا وَغِوَايَتِنَا ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ مُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ لَنَا إذَا لَمْ يُخَفَّفْ عَنْكُمْ عَذَابُكُمْ ، فَإِنَّ كِلَانَا لَا يَشْعُرُ إلَّا بِعَذَابِ نَفْسِهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ : (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 357. 371 ﴾

(128/269)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) ﴾

أي مادمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كأن المجرم نفسه ساعة يلتقي ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق في الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، والحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو في الجسم حساسية الذوق كالتي في اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112]

وهذه هي الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تاثيراً ، واللباس أشمل للجسد . ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعي في التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وفي السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعي ، وهذا هو الخطر الذي يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(129/269)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله جل وتعالى : " وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) " وفى سورة الأنفال : " وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35) " فورد فى الأولى : أن عذابهم بكسبهم وورد فى الأنفال أن عذابهم بكفرهم فللسائل أن يقول ما الفرق الموجب بين للاختلاف ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم : أن المذكورين قبل آية الأعراف المقول لهم فذوقوا العذاب قد خالفت حالهم حال المذكورين فى آية الأنفال وذلك أن آية الأنفال فى قوم بأعيانهم وهم كفار قريش من أهل مكة وحالهم معلومة إنما كانوا عبدة أوثان ولم تتكرر فيهم الرسل ولا كفروا بغير التكذيب به صلى الله عليه وسلم وبتصميمهم على عبادة آلهتهم أما آية الأعراف ففى أخلاط من الأمم وأصناف من المكذبين تنوع كفرهم وتكذيبهم ضروبا من المخالفات وافتروا على الله سبحانه قال تعالى : "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته . . . "الآية

وفيها : "قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا " ثم قال : "وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون " .

فلشتى مجترحات هؤلاء واتساع مرتكباتهم وأنهم ضلوا وأضلوا ناسب ما وقع جزاؤهم عليه ذكر الاكتساب لا سيما على القول بأن الكفار مخاطبون بالفروع وهو قول حذاق الأصوليين وقول مالك رحمه الله ، ولما انحصر مرتكب الأخرين فيما ذكر وكان مدار أمرهم على الكفر بما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم ناسب ما وقع جزاؤهم عليه تخصيص

اسم الكفر فكل من الإطلاقين جار على ما يجب ويناسب والله سبحانه أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 180 . 181 ﴾

(130/269)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ قد خلت ﴾ قال : قد مضت ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ قال : كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك الدين ، يلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والصابئون الصابئين ، والمجوس المجوس ، تلعن الآخرة الأولى ﴿ حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم ﴾ الذين كانوا في آخر الزمان ﴿ لأولاهم ﴾ الذين شرعوا لهم ذلك الدين ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا . . . قال لكل ضعف ﴾ للأولى والآخرة ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ وقد ضللتم كما ضللنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله

﴿ عذاباً ضعفاً ﴾ قال : مضاعفاً ﴿ قال لكل ضعف ﴾ قال : مضاعف وفي قوله ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ قال : تخفيف من العذاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مجلز في قوله ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ يقول : بيَّن لكم ما صنع بنا من العذاب حين عصينا ، وحذرتم فما فضلكم علينا .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : قال الحسن : الجن لا يموتون . فقلت له : ألم يقل الله ﴿ في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإِنس ﴾ وإنما يكون ما خلا ما قد ذهب . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(131/269)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فما " : هذه الفاء عاطفة هذه الجملة المنفيّة على قول الله تعالى للسَّفلة : " لِكُلٍّ ضِعْفٌ " أي : فقد ثَبَتَ أنَّ لا فضل لكم علينا ، وأنا متشاوون في استحقاق الضِّعف فذوقوا .

قال أبو حَيَّان – بعد أنْ حكى بعض كلام الزَّمخشري – : والذي يظهر أنَّ المعنى انتفاء كون فضل عليهم من السَّفلة في الدُّنيا بسبب اتباعهم إيَّاهم ، وموافقتهم لهم في الكُفْرِ أي : اتّباعُكم إيّانا ، وعدم اتّباعكم سواء ؛ لأنَّكُم كنتم في الدُّنيا عندنا أقلَّ من أن يكون لكم علينا فضلٌ بأتّباعكم ، بل كفرتم اختياراً ، لا أنَّا حملْنَاكم على الكُفْرِ إجباراً ، وأنَّ قوله : " فَمَا كَانَ " جملة معطوفة على جُمْلَةٍ محذُوفَةٍ بعد القَوْلِ دَلَّ عليها ما سبق من الكلام ، والتَّقديرُ ، قالت أولاهم لأخراهم : ما دعاؤكم اللَّه أنَّا أضللناكم وسؤالكم ما سألتم ، فما كان لكم علينا من فضلٍ بضلالكم ، وأنَّ قوله : " فَذُوقُوا " من كلام الأولى خِطَاباً للأخرى على سبيل التشفِّي ، وأن ذَوْقَ العذاب هو بسبب ما كَسَبْتُمْ لا بأنَّا أضْلَلْنَاكُمْ .

وقيل : فذوقوا من خطاب الله لهم .

و " بِمَا " " الباء " سببية ، و " مَا " مصدرية ، أو بمعنى " الَّذي " ، والعائد محذوف أي : تكسبونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 110 . 111 ﴾

(132/269)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) ﴾

آثار إعراض الحق عنهم أورثَتْ لهم وحشةَ الوقت ؛ تبرَّم بعضُهم ببعض ، وضاق كلُّ واحدٍ منهم عن كل شيء حتى عن نفسه ، فدعا بعضهم على بعض ، وتبرَّأ بعضهم من بعض ، وكذلك صفة المطرودين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 534 ﴾

(133/269)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) ﴾

قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أو يميتهم فيه ، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً .

والضمير في ﴿ أَجَلُهُمْ ﴾ لكل أمة أي إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدّره عليهم واقعاً في ذلك الأجل ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة .

قال أبو السعود ما معناه : إن قوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عطف على ﴿ يستأخرون ﴾ لكن " لا " لبيان انتفاء التقدّم ، مع إمكانه في نفسه كالتأخر ، بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً .

وقيل المراد بالمجيء الدنوّ بحيث يمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذاك .

وقرأ ابن سيرين " آجالهم " بالجمع ، وخصّ الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات .

وقد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله ، وإن كان موته بالقتل أو التردي أو نحو ذلك ، والبحث في ذلك طويل جدّاً ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ [الحجر : 5 ، المؤمنون : 43] .

قوله : ﴿ يا بنى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية : " إن " هي الشرطية ، و " ما " زائدة للتوكيد ، ولهذا لزمت الفعل النون المؤكدة .

والقصص قد تقدّم معناه ، والمعنى : إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامي ويبينونها لكم ، ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ ﴾ أي اتقى معاصي الله ، وأصلح حال نفسه باتباع الرسل وإجابتهم ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وهذه الجملة الشرطية هي الجواب للشرط الأوّل .

وقيل جوابه ما دلّ عليه الكلام ، أي إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فأطيعوهم .

والأوّل أولى ، وبه قال الزجاج .

﴿ والذين كَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ التي يقصها عليهم رسلنا ﴿ واستكبروا ﴾ عن إجابتها ، والعمل بما فيها ﴿ فأولئك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا يخرجون منها ، بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بئاياته ﴾ أي لا أحد أظلم منه .

وقد تقدّم تحقيقه .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المكذبين المستكبرين ﴿ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الكتاب ﴾ أي مما كتب الله لهم من خير وشرّ .

وقيل : ينالهم من العذاب بقدر كفرهم .

وقيل : الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه .

وقيل هو اللوح المحفوظ .

قوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ أي إلى غاية هي هذه .

وجملة ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ في محل نصب على الحال .

والمراد بالرسل هنا : ملك الموت وأعوانه .

وقيل : ﴿ حتى ﴾ هنا هي التي للابتداء .

ولكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها .

والاستفهام في قوله ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ للتقريع والتوبيخ ، أي أين الآلهة التي كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ؟ وجملة ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جواباً عنه ، أي ذهبوا عنا وغابوا فلا ندري أي هم ؟ ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كافرين ﴾ أي أقرّوا بالكفر على أنفسهم .

(135/269)

قوله : ﴿ قَالَ ادخلوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾ القائل : هو الله عزّ وجلّ ، "وفي" بمعنى "مع" ، أي مع أمم .

وقيل : هي على بابها .

والمعنى : ادخلوا في جملتهم .

وقيل : هو قول مالك خازن النار .

والمراد بالأمم التي قد خلت من قبلهم من الجن والإنس : هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ من الأمم الماضية ﴿ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أي الأمة الأخرى التي سبقتها إلى النار ، وجعلت أختاً لها باعتبار الدين ، أو الضلالة ، أو الكون في النار ﴿ حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا ﴾ أي تداركوا .

والتدارك : التلاحق والتتابع ، والاجتماع في النار .

وقرأ الأعمش "تداركوا" على الأصل من دون إدغام .

وقرأ ابن مسعود " حتى إِذَا ادركوا " أي : أدرك بعضهم بعضاً .

وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل ، فكأنه سكت على " إذا " للتذكر ، فلما طال سكوته ، قطع ألف الوصل كالمبتدىء بها .

وهو مثل قول الشاعر :

يا نفس صبراً كل حيّ لاقى . . . وكل اثنين إلى افتراق

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأولاهم ﴾ أي أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً .

وقيل ﴿ أخراهم ﴾ : أي سفلتهم وأتباعهم ﴿ لأولاهم ﴾ لرؤسائهم وكبارهم .

وهذا أولى كما يدل عليه ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ فإن المضلين هم الرؤساء .

ويجوز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم تبعوهم واقتدوا بدينهم من بعدهم ، فيصح الوجه الأوّل ، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم .

قوله : ﴿ فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ الضعف الزائد على مثله مرة أو مرات .

(136/269)

ومثله قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كبيرا ﴾ [الأحزاب : 68] وقيل : الضعف هنا الأفاعي والحيات ، وجملة ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ استئنافية جواباً لسؤال مقدّر ، والمعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب ، أي الطائفة الأولى والطائفة الأخرى ﴿ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ بما لكل نوع من العذاب ﴿ وَقَالَتْ أولاهم لأُخْرَاهُمْ ﴾ أي قال السابقون للاحقين ، أو المَّتبعُونَ للتابعين ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه .

﴿ فَذُوقُواْ ﴾ عذاب النار ، كما ذقناه ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من معاصي الله والكفر به .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن النجار

، عن أبي الدرداء قال : تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا من وصل رحمه أنسىء في أجله فقال : " إنه ليس بزائد في عمره ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة ، فيدعون الله من بعده ، فيبلغه ذلك ، فذلك الذي ينسأ في أجله "

وفي لفظ : " فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر " وهذا الحديث ينبغي أن يكشف عن إسناده ، ففيه نكارة ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما بخلافه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن أبي عروبة ، قال : كان الحسن يقول : ما أحمق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره ، والله يقول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

(137/269)

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق الزهري ، عن ابن المسيب قال : لما طعن عمر قال كعب : لو دعا الله لأخر في أجله ، فقيل له : أليس قد قال الله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فقال كعب : وقد

قال الله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 11] .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ قال : ما قدر لهم من خير وشرّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، في الآية قال : من الأعمال ، من عمل خيراً جزى به ، ومن عمل شرّاً جزى به .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عنه ، أيضاً قال : نصيبهم من الشقاوة والسعادة .

وأخرج عبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في الآية قال : ما سبق من الكتاب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية قال : رزقه وأجله وعمله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي صالح ، في الآية قال : من العذاب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ قال : قد مضت ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ قال : كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك ، يلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والصابئون الصابئين ، والمجوس المجوس ، تلعن الآخرة الأولى ﴿ حَتَّى إِذَا ادارَكوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ الذين كانوا في آخر الزمان ﴿ لأولاهم ﴾ الذين شرعوا لهم ذلك الدين ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ الأولى والآخرة ﴿ وَقَالَتْ أولاهم لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ وقد ضللتم كما ضللنا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾ قال : مضاعفاً ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ قال : مضاعف ، وفي قوله : ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ قال : تخفيف من العذاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(139/269)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما جرت العادة بأن أهل الشدائد يتوقعون الخلاص ، أخبر أن هؤلاء ليسوا كذلك ، لأنهم أنجاس فليسوا أهلاً لمواطن الأقداس ، فقال مستأنفاً لجواب من كأنه قال : أما لهؤلاء خلاص ؟ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي وهي المعروفة بالعظمة بالنسبة إلينا ﴿ واستكبروا عنها ﴾ أي وأوجدوا الكبر متجاوزين عن اتباعها ﴿ لا تفتح لهم ﴾ أي لصعود أعمالهم ولا دعائهم ولا أرواحهم ولا لنزول البركات عليهم ﴿ أبواب السماء ﴾ لأنها طاهرة عن الأرجاس الحسية والمعنوية فإذا صعدت أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الأبواب دونها ثم ألقيت من هناك إلى سجين ﴿ ولا يدخلون الجنة ﴾ أي التي هي أطهر المنازل وأشرفها ﴿ حتى ﴾ يكون ما لا يكون بأن ﴿ يلج ﴾ أي يدخل ويجوز ﴿ الجمل ﴾ على كبره ﴿ في سم ﴾ أي في خرق ﴿ الخياط ﴾ أي الإبرة اي حتى يكون ما لا يكون ، إذاً فهو تعليق على محال ، فإن الجمل مثل في عظم الجرم عند العرب ، وسم الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خرق الإبرة ، ومنه الماهر الخريت للدليل الذي يهتدي في المضايق المشبهة

بأخراق الإبر ؛ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الجمل فقال : زوج الناقة – استجهالاً للسائل وإشارة إلى طلب معنى آخر غير هذا الظاهر تكلف .

ولما كان هذا للمكذبين المستكبرين أخبر أنه لمطلق القاطعين أيضاً فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب وهو أن دخولهم الجنة محال عادة ﴿ نجزي المجرمين ﴾ أي القاطعين لما أمر الله به أن يوصل وإن كانوا أذناباً مقلدين للمستكبرين المكذبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 33 ﴾

فصل

قال الفخر :

(140/269)

اعلم أن المقصود منه إتمام الكلام في وعيد الكفار ، وذلك لأنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا واستكبروا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [الأعراف : 36] ثم شرح تعالى في هذه الآية كيفية ذلك الخلود في حق أولئك المكذبين المستكبرين بقوله : ﴿ كَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ أي بالدلائل الدالة على المسائل التي هى أصول الدين ، فالدهرية ينكرون دلائل إثبات الذات والصفات ، والمشركون ينكرون دلائل

التوحيد ، ومنكرو النبوات يكذبون الدلائل الدالة على صحة النبوات ومنكرو نبوة محمد ينكرون الدلائل الدالة على نبوته ، ومنكرو المعاد ينكرون الدلائل الدالة على صحة المعاد ، فقوله : ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ يتناول الكل ، ومعنى الاستكبار طلب الترفع بالباطل وهذا اللفظ في حق البشر يدل على الذم قال تعالى في صفة فرعون : ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ [القصص : 39] .

أما قوله تعالى : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو ﴿ لاَ تُفَتَّحُ ﴾ بالتاء خفيفة ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء خفيفة والباقون بالتاء مشددة .

أما القراءة بالتشديد فوجهها قوله تعالى : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ [القمر : 11] وأما قراءة حمزة والكسائي فوجهها أن الفعل متقدم .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ أقوال .

قال ابن عباس : يريد لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله ، وهذا التأويل مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : 10] ومن قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ [المطففين : 18] وقال السدي وغيره : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، وتفتح لأرواح المؤمنين ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي في حديث طويل : أن روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ، ويقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة ، ويستفتح لروح الكافر فيقال لها ارجعي ذميمة ، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء .

والقول الثالث : أن الجنة في السماء فالمعنى : لا يؤذن لهم في الصعود إلى السماء ولا تطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة .

والقول الرابع : لا تنزل عليهم البركة والخير ، وهو مأخوذ من قوله : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ [القمر : 11] وأقول هذه الآية تدل على أن الأرواح إنما تكون سعيدة إما بأن ينزل عليها من السماء أنواع الخيرات ، وإما بأن يصعد أعمال تلك الأرواح إلى السموات وذلك يدل على أن السموات موضع بهجة الأرواح ، وأماكن سعادتها ، ومنها تنزل الخيرات والبركات ، وإليها تصعد الأرواح حال فوزها بكمال السعادات ، ولما كان الأمر كذلك كان

قوله : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ من أعظم أنواع الوعيد والتهديد .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمّ الخياط ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

"الولوج" الدخول .

والجمل مشهور ، و"السم" بفتح السين وضمها ثقب الإبرة قرأ ابن سيرين ﴿ سَمّ ﴾ بالضم ، وقال صاحب "الكشاف" : يروي ﴿ سَمّ ﴾ بالحركات الثلاث ، وكل ثقب في البدن لطيف فهو "سم" وجمعه سموم ، ومنه قيل : السم القاتل .

(142/269)

لأنه ينفذ بلطفه في مسام البدن حتى يصل إلى القلب ، و ﴿ الخياط ﴾ ما يخاط به .

قال الفراء : ويقال خياط ومخيط ، كما يقال إزار ومئزر ولحاف وملحف ، وقناع ومقنع ، وإنما خص الجمل من بين سائر الحيوانات ، لأنه أكبر الحيوانات جسماً عند العرب .

قال الشاعر :

جسم الجمال وأحلام العصافير . . فجسم الجمل أعظم الأجسام ، وثقب الإبرة أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالاً ، فلما وقف الله تعالى دخولهم الجنة

على حصول هذا الشرط ، وكان هذا شرطاً محالاً ، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال ، وجب أن يكون دخولهم الجنة مأيوساً منه قطعاً .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : قرأ ابن عباس ﴿ الجمل ﴾ بوزن القمل ، وسعيد بن جبير ﴿ الجمل ﴾ بوزن النغر .

وقرىء ﴿ الجمل ﴾ بوزن القفل ، و ﴿ الجمل ﴾ بوزن النصب ، و ﴿ الجمل ﴾ بوزن الحبل ، ومعناها : القلس الغليظ ، لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل .

يعني : أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه .

إلا أنا ذكرنا الفائدة فيه .

المسألة الثالثة :

القائلون بالتناسخ احتجوا بهذه الآية ، فقالوا : إن الأرواح التي كانت في أجساد البشر لما عصت وأذنبت ، فإنها بعد موت الأبدان ترد من بدن إلى بدن ، ولا تزال تبقى في التعذيب حتى أنها تنتقل من بدن الجمل إلى بدن الدودة التي تنفذ في سم الخياط ، فحينئذ تصير مطهرة عن تلك الذنوب والمعاصي ، وحينئذ تدخل الجنة وتصل إلى السعادة واعلم أن القول بالتناسخ باطل وهذا الاستدلال ضعيف ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِى المجرمين ﴾ أي ومثل هذا الذي وصفنا نجزي المجرمين ، والمجرمون والله أعلم ههنا هم الكافرون ، لأن الذي تقدم ذكره من صفتهم هو التكذيب بآيات الله ، والاستكبار عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 62.

64 ﴾

(143/269)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾

أي بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ واستكبروا عَنْهَا ﴾ يعني : استكبروا عن قبولها .

ويقال : عن النظر فيها ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ لأعمال الكفار أي : ليس لهم عمل صالح يفتح لهم أبواب السماء ويقال : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا .

وقال بعضهم : أبواب السماء أي أبواب الجنة ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمّ الخياط ﴾ أي لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الجمل .

فقال : زوج الناقة .

وقال الضحاك : الجمل الذي له أربع قوائم .

وقال بعض الناس : الجمل هو أشتر بالفارسية وقال الحسن : هو ولد الناقة وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة الغليظ .

وسئل عكرمة عن قوله : ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ قيل : وما الجمل ؟ قال : الحبل الذي يصعد به النخل .

قال سعيد بن جبير هو حبل السفينة الغليظ .

قرأ أبو عمرو لا تُفْتَحْ بالياء بلفظ التذكير بالتخفيف .

وقرأ الباقون بالتاء المشددة .

فمن قرأ بالتأنيث فلأنها من جماعة الأبواب .

ومن قرأ بالتذكير فلأن الفعل مقدم .

ومن قرأ بالتشديد أراد به تكثير الفتح .

ومن قرأ بالتخفيف فتفتح مرة واحدة وقرأ بعضهم في سُمِّ بضم السين وهي قراءة شاذة وهما لغتان قال أبو عبيدة : كل ثقب فهو سم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وكذلك نَجْزِي المجرمين ﴾ أي هكذا نعاقب المشركين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا واستكبروا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ ﴾

قرئ بالياء والياء والتشديد والتخفيف جميعاً ﴿ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء ﴾ يعني لأرواحهم وأعمالهم لأنّها خبيثة فلا يصعد بل تهوى بها إلى [سجن] تحت الصخرة التي تحت الأرضين .

(144/269)

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الميت ليحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة ، وأبشري بروح من الله وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتّى تخرج ثمّ تعرج بها إلى السماء فينفتح لها فيقال : من هذا [فيقال : فلان] فيقولون : مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان ، فيقال : ذلك لها حتّى يعرج بها إلى السماء السابعة .

وإذ كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث اخرجي

ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج ، فيقولون ذلك حتّى يخرج ، ثمّ يعرج بها إلى السماء فتفتح لها فيقال : من هذا فيقولون فلان ، فيقولون : لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث أرجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء فيُرسل من السماء والأرض فيصير إلى القبر " .

﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ يعني يدخل البعير في ثقب الإبرة [وهذا مثل والسمّ] وهو الإبرة .

وقرأ عكرمة وسعيد بن جبير : الجمل بضم الجيم وبتشديد الميم . وهو حبل السفينة ويقال لها الفلس قال عكرمة : هو الحبل الذي يصعد به إلى النخل ﴿ وكذلك نَجْزِي المجرمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(145/269)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أي لا تفتح لأرواحهم لأنها تفتح لروح الكافر وتفتح لروح المؤمن ، قاله ابن عباس ،

والسدي .

والثاني : لا تفتح لدعائهم ، قاله الحسن .

والثالث : لا تفتح لأعمالهم ، قاله مجاهد ، وإبراهيم .

والرابع : لا تفتح لهم أبواب السماء لدخول الجنة لأن الجنة في السماء ، وهذا قول بعض المتاخرين .

والخامس : لا تفتح لهم أبواب السماء لنزول الرحمة عليهم ، قاله ابن بحر .

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : سم الخياط : ثقب الإبرة ، قاله ابن عباس ، الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدي .

والثاني : أن سم الخياط هو السم القاتل الداخل في مسام الجسد أي ثقبه .

وفي ﴿ الْجَمَلِ ﴾ قراءتان :

إحداهما : وعليها الجمهور ، الجَمَل بفتح الجيم وتخفيف الميم وهو ذو القوائم الأربع .

والثانية الجُمَّل بضم الجيم وتشديد الميم وهو القلس الغليظ ، وهذه قراءة سعيد بن جبير ، وإحدى قراءتي ابن عباس ، وكان ابن عباس يتأول أنه حبل السفينة .

ومعنى الكلام أنهم لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في سم الخياط أبداً ، وضرب المثل بهذا أبلغ في إياسهم من إرسال الكلام وإطلاقه في النفي ، والعرب تضرب هذا للمبالغة

، قال الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي . . . وعاد القار كاللبن الحليب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(146/269)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾

هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم ، وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر " لا تُفَتَّح " بضم التاء الأولى وتشديد الثانية ، وقرأ أبو عمرو " تُفْتَح " بضم التاء وسكون الفاء وتخفيف الثانية ، وقرأ حمزة والكسائي " يفتح " بالياء من أسفل وتخفيف التاء ، وقرأ أبو حيوة وأبو إبراهيم " يفَتّح " بالياء وفتح الفاء وشد التاء ، ومعنى الآية لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاء ، فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالى ، قاله ابن عباس وغيره ، وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً اختصرتها إذ ليست بلازمة في الآية ، وللين أسانيدها أيضاً ، ثم نفى الله عز وجل عنهم دخول الجنة وعلق كونه بكون محال لا

يكون ، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرى حيث يدخل الخيط ، و﴿ الجمل ﴾ كما عهد وال ﴿ سم ﴾ كما عهد ، وقرأ جمهور المسلمين : " الجمل " ، واحد الجمال ، وقال الحسن هو الجمل الذي يقوم بالمديد ومرة لما أكثروا عليه قال هو الأشتر وهو الجمل بالفارسية ، ومرة قال هو الجمل ولد الناقة وقاله ابن مسعود .

(147/269)

قال القاضي أبو محمد : وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتياب السائلين لا شك باللفظة من أجل القراءات المختلفة ، وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : " حتى يلج الجمل الأصفر " ، وقرأ أبو السمال " الجمْل " بسكون الميم وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وابن جبير الشعبي ومالك بن الشخير وأبو رجاء : " الجُمّل " بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة ، وقرأ سالم الأفطس وابن خير وابن عامر أيضاً : " الجُمْل " بتخفيف الميم من الجمل وقالوا هو حبل السفن ، وروى الكسائي أن الذي روى تثقيل الميم عن ابن عباس كان أعجمياً فشدد الميم لعجمته .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن عباس على القراءة المذكورة وقرأ سعيد بن جبير فيما روى عنه : " الجُمْل " بضم الجيم وسكون الميم ، وقرأ ابن عباس

أيضاً : " الجُمُل " بضم الجيم والميم ، و" السم " : الثقب من الإبرة وغيرها يقال سَم وسِم بفتح السين وكسرها وضمها ، وقرأ الجمهور بفتح السين ، وقرأ ابن سيرين بضمها ، وقرأ أبو حيوة بضمها وبكسرها ، وروي عنه الوجهان ، و﴿ الخياط ﴾ والمخيط الإبرة ، وقرأ ابن مسعود : " في سم المِخْيَط " بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء ، وقرأ طلحة " في سم المَخيط " بفتح الميم ، وكذلك أبى على هذه الصفة وبمثل هذا الحتم وغيره يجزى الكفرة وأهل الجرائم على الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(148/269)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا ﴾

أي : بحججنا وأعلامنا التي تدل على توحيد الله ونبوّة الأنبياء ، وتكبّروا عن الإيمان بها ﴿ لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ﴾ .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : "تُفَتَّح" ؛ بالتاء ، وشددوا التاء الثانية .

وقرأ أبو عمرو "لا تُفْتَح" بالتاء خفيفة ، ساكنة الفاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "لا يُفْتَح" بالياء مضمومة خفيفة .

وقرأ اليزيدي عن اختياره : "لا تَفتح" بتاء مفتوحة ﴿ أبوابَ السماء ﴾ بنصب الباء ، فكأنه أشار إلى أفعالهم .

وقرأ الحسن : بياء مفتوحة ، مع نصب الأبواب ، كأنه يشير إلى الله عز وجل .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول أبي موسى الأشعري ، والسدي في آخرين ، والأحاديث تشهد به .

والثاني : لا تفتح لأعمالهم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والرابع : لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم ، قاله ابن جريج ، ومقاتل .

وفي السماء قولان .

أحدهما : أنها السماء المعروفة ، وهو المشهور .

والثاني : أن لمعنى : لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها ، لأن الجنة في السماء ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط ﴾ الجمل : هو الحيوان المعروف .

فإن قال قائل : كيف خص الجمل دون سائر الدواب ، وفيها ما هو أعظم منه ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن ضرب المثل بالجمل يحصّل المقصود ؛ والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة ، كما لا يدخل الجمل في ثقَب الإبرة ، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه ، جاز ، والناس يقولون : فلان لا يساوي درهماً ، وهذا لا يغني عنك فتيلاً ، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل .

(149/269)

والثاني : أن الجمل أكبر شأناً عند العرب من سائر الدواب ، فانهم يقدّمونه في القوّةِ على غيره ، لأنه يوقَر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب ، ولهذا عجَّبهم من خلق الإبل ، فقال : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ [الغاشية : 17] فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى .

ذكر الجوابين ابن الانباري .

قال : وقد روى شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قرأ : "حتى يلج الجُمَّلُ" بضم الجيم وتشديد الميم ، وقال : هو القَلْس الغليظ .

قال المصنف : وهي قراءة أبي رزين ، ومجاهد ، وابن محيصن ، وأبي مجلز ، وابن يعمر ، وأبان عن عاصم .

قال : وروى مجاهد عن ابن عباس : "حتى يلج الجُمَلُ" بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها .

قلت : وهي قراءة قتادة ، وقد رويت عن سعيد بن جبير ، وأنه قرأ : "حتى يلج الجُمْل" بضم الجيم وتسكين الميم .

قلت : وهي قراءة عكرمة .

قال ابن الأنباري : فالجُمَل يحتمل أمرين : يجوز أن يكون بمعنى الجُمَّل ، ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الجِمال ، قيل في جمعها : جُمَلٌ ، كما قال : حُجْرة ، وحُجَر ، وظُلْمة وظُلَم .

وكذلك من قرأ : "الجُمْلَ" يسوغ له أن يقول : الجُمْلُ ، بمعنى الجُمَّل ، وأن يقول : الجُمْل جمع جُمْلة ، مثل : بُسْرة وبُسْر .

وأصحاب هذه القراءات يقولون : الحبل والحبال ، أشبه بالإبرة والخيوط من الجمال ،

وروى عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قرأ : "الجُمْل" بضم الجيم والميم ، وبالتخفيف ، وهي قراءة الضحاك ، والجحدري .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : "الجَمْل" بفتح الجيم ، وبسكون الميم خفيفة .

قوله تعالى : ﴿ في سَمِّ الخياط ﴾ السم : في اللغة : الثَّقب .

وفيها ثلاث لغات .

فتح السين ، وبها قرأ الأكثرون ، وضمها ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وقتادة ، وابن محيصن ، وطلحة بن مصرف ، وكسرها ، وبه قرأ أبو عمران الجوني ، وأبو نهيك ، والأصمعي عن نافع .

(150/269)

قال ابن القاسم : والخياط : المِخْيَط ، بمنزلة اللحاف والملحف ، والقِرام والمقرم .

وقد قرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وأبو مجلز : في "سم المِخْيَطِ" وقال الزجاج : الخياط : الإبرة ، وسَمُّها : ثقبها .

والمعنى : أنهم لا يدخلون الجنة أبداً .

قال ابن قتيبة : هذا كما يقال : لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب ، ويبيضّ القار .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ أي : مثل ذلك نجزي الكافرين أنهم لا يدخلون الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(151/269)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا واستكبروا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء ﴾

أي لأرواحهم .

جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها في كتاب (التذكرة) .

منها حديث البراء بن عازِب ، وفيه في قبض روح الكافر قال : ويخرج منها ريح كأنتن جِيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة .

فيقولون فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحِون فلا يفتح لهم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء ﴾ الآية .

وقيل : لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا ؛ قاله مجاهد والنخعي .

وقيل : المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة لأن الجنة في السماء .

ودل على ذلك قوله : ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ والجمل لا يلج فلا يدخلونها أَلْبَتَّة .

وهذا دليل قطعيّ لا يجوز العفو عنهم .

وعلى هذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهم .

قال القاضي أبو بكر بن الطيب : فإن قال قائل كيف يكون هذا إجماعاً من الأمة ؟ وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مقلِّدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا في النار .

قيل له : هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلِّد كافراً لشبهة دخلت عليهم ، ولم يزعموا أن المقلد كافر وأنه مع ذلك ليس في النار ، والعلم بأن المقلد كافر أو غير كافر طريقه النظر دون التوقيف والخبر .

وقرأ حمزة والكسائي "لاَ يُفَتَّحُ" بالياء مضمومة على تذكير الجمع .

وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ [ص : 50] فأنث .

ولما كان التأنيث في الأبواب غير حقيقي جاز تذكير الجمع .

وهي قراءة ابن عباس بالياء .

(152/269)

وخفف أبو عمرو وحمزة والكسائي ، على معنى أن التخفيف يكون للقليل والكثير ، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعد مرة لا غير ، والتشديد هنا أولى لأنه على الكثير أدل .

والجَمَلُ من الإبل .

قال الفرّاء : الجمل زوج الناقة .

وكذا قال عبد الله بن مسعود لما سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة ؛ كأنه استجهل من

سأله عما يعرفه الناس جميعاً .

والجمع جِمَالٌ وأجمال وجمالات وجمائل .

وإنما يسمى جملاً إذا أرْبَعَ .

وفي قراءة عبد الله : "حتى يلج الجمل الأصفر في سم الخياط" .

ذكره أبو بكر الأنباري حدّثنا أبي حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا حجاج عن ابن جريج عن ابن كثير عن مجاهد قال في قراءة عبد الله . . .

؛ فذكره .

وقرأ ابن عباس "الجمل" بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها .

وهو حبل السفينة الذي يقال له القلْس ، وهو حبال مجموعة ، جمع جملة ؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب .

وقيل : الحبل الغليظ من القنب .

وقيل : الحبل الذي يصعد به في النخل .

وروى عنه أيضاً وعن سعيد بن جبير : "الجمل" بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلْس أيضاً والحبل ، على ما ذكرنا آنفا .

وروى عنه أيضاً "الجُمُل" بضمتين جمع جمل ؛ كأسد وأُسُد ، والجُمْل مثل أسد وأُسْد .

وعن أبي السمال "الجَمْل" بفتح الجيم وسكون الميم ، تخفيف "جمل" .

وسَمُّ الخياط : ثقب الإبرة ؛ عن ابن عباس وغيره .

وكل ثقب لطيف في البدن يسمى سَمّاً وسُمّاً وجمعه سُموم .

وجمع السُّم القاتل سِمَام .

وقرأ ابن سِيرين "في سُمِّ" بضم السين .

والخياط : ما يخاط به ؛ يقال : خِياط ومخيط ؛ مثل إزارٍ ومئزر وقناع ومقنع . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(153/269)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا ﴾

يعني كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا ﴿ واستكبروا عنها ﴾ أي وتكبروا عن الإيمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبراً ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ يعني لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم ولا يصعد لهم إلى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل لأن أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وإنما يصعد إلى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، قال ابن

عباس رضي الله عنهما : لا تفتح أبواب السماء لأرواح الكفار وتفتح لأرواح المؤمنين .

وفي رواية عن ابن عباس أيضاً قال : لا يصعد لهم قول ولا عمل ، وقال ابن جريج : لا تفتح أبواب السماء لأعمالهم ولا لأرواحهم .

وروى الطبري بسنده عن البراء بن عازب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى به في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " وقيل في معنى الآية : لا تنزل عليهم البركة والخير لأن ذلك لا ينزل إلا من السماء فإذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شيء .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ والولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الإبل وسم الخياط ثقب الإبرة قال الفراء : الخياط والمخيط ما يخاط به والمراد به الإبرة في هذه الآية وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبر من سائر الحيوانات جسماً عند العرب قال الشاعر :

جسم الجِمال وأحلام العصافير . . .

وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل فجسم الجمل من أعظم الأجسام وثقب الإبرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالاً فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع الشرط محالاً ثبت أن الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعاً .

وقال بعض أهل المعاني : لما علق الله تعالى دخولهم الجنة بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الإبرة كان ذلك نفياً لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لأن العرب إذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك : لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ومنه قول الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي . . .

وصار القار كاللبن الحليب

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ أي ومثل الذي وصفنا نجزي المجرمين يعني : الكافرين لأنه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ

﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾

قال ابن عباس ﴿ لا تفتح ﴾ لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لما يريدون به طاعة الله تعالى أي لا يصعد لهم صالح فتفتح أبواب السماء له وهذا منتزع من قوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ومن قوله ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ ، وقال السدي وغيره : ﴿ لا تفتح ﴾ لأرواحهم وذكروا في صعود الرّوحين إلى السماء الإذن لروح المؤمن وردّ روح الكافر أحاديث وذلك عند موتهما ، وقيل : المعنى ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ في القيامة ليدخلوا منها إلى الجنة أي لا يؤذن لهم في الصعود إلى السماء ، وقيل : لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ، وقرأ أبو عمرو ﴿ لا تفتح ﴾ بتاء التأنيث والتخفيف ، وقرأ الأخوان بالياء والتخفيف ، وقرأ باقي السّبعة بالتاء من أعلى والتشديد .

وقرأ أبو حيوة وأبو البرهثيم بالثاء من أعلى مفتوحة والتشديد .

﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ هذا نفي مغيا بمستحيل والولوج التقحّم في الشيء وذكر الجمل لأنه أعظم الحيوان المزاول للإنسان جثة فلا يلج إلا في باب واسع كما قال ، لقد عظم البعير بغير لبّ ، وقال : جسم الجمال وأحلام العصافير ، وذكر ﴿ سم الخياط ﴾ لأنه يضرب به المثل في ضيق المسلك يقال : أضيق من خرت الإبرة ، وقيل : للدليل خريت لاهتدائه في المضايق تشبيهاً بإخرات الإبرة والمعنى أنّهم لا يدخلون الجنة أبداً ، وقرأ ابن عباس فيما روى عنه شهره بن حوشب ومجاهد وابن يعمر وأبو مجلز والشعبي ومالك بن الشخير وأبو رجاء وأبو رزين وابن محيصن وإبان عن عاصم الجمل بضم الجيم وفتح الميم مشدّدة وفسّر بالفلس الغليظ وهو حبل السفينة تجمع حبال وتفتل وتصير حبلاً واحداً ، وقيل : هو الحبل الغليظ من القنب ، وقيل : الحبل الذي يصعد به في النخل ، وروي عن ابن عباس ولعله لا يصحّ أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل يعني أنه لا يناسب والحبل يناسب الخيط الذي يسلك به في خرم الإبرة .

(157/269)

وعن الكسائي أن الذي روى ﴿ الجمل ﴾ عن ابن عباس كان أعجمياً فشدّد الجيم لعجمته ، قال ابن عطية : وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن عباس على القراءة المذكورة

انتهى ، ولكثرة القرّاء بها غير ابن عباس ، وقرأ ابن عباس أيضاً في رواية مجاهد وابن جبير وقتادة وسالم الأفطس بضمّ الجيم وفتح الميم مخففة ، وقرأ ابن عباس في رواية عطاء والضحّاك والجحدري بضمّ الجيم والميم مخففة ، وقرأ عكرمة وابن جبير في رواية بضم الجيم وسكون الميم الجمل ، وقرأ المتوكِّل وأبو الجوزاء بفتح الجيم وسكون الميم ومعناه في هذه القراءات الفلس الغليظ وهو حبل السفينة وقراءة الجمهور ﴿ الجمل ﴾ بفتح الجيم والميم أوقع لأنّ سم الإبرة يضرب بها المثل في الضّيق والجمل وهو هذا الحيوان المعروف يضرب به المثل في عظم الجثة كما ذكرنا ، وسئل ابن مسعود عن الحمل فقال روح الناقة وذلك منه استجهال للسائل ومنع منه أن يتكلف له معنى آخر ، وقرأ عبد الله وقتادة وأبو رزين وابن مصرف وطلحة بضم سين ﴿ سم ﴾ ، وقرأ أبو عمران الحوفي وأبو نهيك والأصمعي عن نافع بكسر السين ، وقرأ عبد الله وأبور رزين وأبو مجلز المخيط بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء ، وقرأ طلحة بفتح الميم .

﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي ﴾ أهل الجرائم ، وقال الزمخشري ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل وأن كل من أجرم عوقب ثم كرره تعالى فقال ﴿ وكذلك نجزى الظالمين ﴾ لأن كل مجرم ظالم لنفسه انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) ﴾

قوله : ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ قيل : المراد : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء .

قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير . ورواه العَوْفي وعلي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وكذا رواه الثوري ، عن ليْث ، عن عطاء ، عن ابن عباس .

وقيل : المراد : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء .

رواه الضحاك ، عن ابن عباس . وقاله السُّدِّي وغير واحد ، ويؤيده ما قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن المِنْهَال – هو ابن عمرو – عن زاذان ، عن البراء ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قَبْض روح الفاجر ، وأنه يُصْعَد بها إلى السماء ، قال : "فيصعدون بها ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له" . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ [وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ

] ﴿ الآية.

هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به (1) وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال:

---

(1) تفسير الطبري (424/12)، وسنن أبي داود برقم (4753)، وسنن النسائي (78/4)، وسنن ابن ماجة برقم (1548).

(159/269)

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب [رضي الله عنه] قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: "استعيذوا بالله من عذاب القبر". مرتين أو ثلاثًا ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ بصره. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة

اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان" .

قال : "فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله ، عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عِلّيِين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى" .

(160/269)

قال : "فتعاد روحه ، فيأتيه مَلَكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت . فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من

الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة" . "فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مَدّ بصره" .

قال : "ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسُرك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي" .

(161/269)

قال : "وإن العبد الكافر ، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مَدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط الله وغضب" . قال : "فَتُفَرّق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها

في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ فيقول الله ، عز وجل : اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى . فتطرح روحه طرحا" . ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : 31]

(162/269)

"فتعاد روحه في جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ! لا أدري . فيقولان ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه ! لا أدري فيقولان ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ! لا أدري . فينادي مناد من السماء : أن كذب ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار . فيأتيه من حَرّها وسمومها ، ويُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ؛ هذا يومك الذي كنت توعد فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة" (1)

وقال أحمد أيضا : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن يونس بن خَبَّاب ، عن المِنْهال بن

عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة ، فذكر نحوه .

وفيه : "حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك من السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ، عز وجل ، أن يعرج بروحه من قبلهم" .

وفي آخره : "ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، في يده مَرْزَبَّة لو ضرب بها جبل كان ترابًا ، فيضربه ضربة فيصير ترابًا ، ثم يعيده الله ، عز وجل ، كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين" . قال البراء :

---

(1) المسند (287/4) .

(163/269)

"ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد له فرش من النار" (1)

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - من حديث محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح

قالوا : اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حَمِيدة ، وأبشري برَوْح وريحان ، ورب غير غضبان ، فيقولون ذلك حتى يُعْرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقولون : من هذا ؟ فيقولون : فلان . فيقال : مرحبًا بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري برَوْح وريحان ، ورب غير غضبان ، فيقال لها ذلك حتى ينتهى به إلى السماء التي فيها الله ، عز وجل . وإذا كان الرجل السَّوْء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغَسّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان . فيقولون : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء ، فترسل بين السماء والأرض ، فتصير إلى القبر" (2)

وقد قال ابن جُرَيج في قوله : ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ قال : لا تفتح لأعمالهم ، ولا لأرواحهم .

وهذا فيه جمع بين القولين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ هكذا قرأه الجمهور ، وفسروه بأنه البعير . قال ابن مسعود : هو الجمل ابن الناقة . وفي رواية : زوج الناقة . وقال الحسن البصري : حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة . وكذا قال أبو العالية ، والضحاك .

وكذا روى علي بن أبي طلحة ، والعَوْفي عن ابن عباس .

---

(1) المسند (295/4) .

(2) المسند (364/2) وسنن النسائي الكبرى برقم (11442) وسنن ابن ماجة برقم (4262) وتفسير الطبري (424/12) .

(164/269)

وقال مجاهد ، وعكرمة ، عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها : "[حتى] يلج الجُمَّل في سم الخياط" بضم الجيم ، وتشديد الميم ، يعني : الحبل الغليظ في خرم الإبرة .

وهذا اختيار سعيد بن جبير . وفي رواية أنه قرأ : "حتى يلج الجُمَّل" يعني : قُلُوس السفن ، وهي الحبال الغلاظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 411.415 ﴾

(165/269)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾

مع وضوحها ﴿ واستكبروا عَنْهَا ﴾ أي عن الإيمان بها والعملِ بمقتضاها ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ أي لا تُقبل أدعيتُهم ولا أعمالُهم أو لا تعْرُجِ إليها أرواحُهم كما هو شأنُ أدعيةِ المؤمنين وأعمالِهم وأرواحِهم والتاء في (تُفتّح) لتأنيث الأبواب على أن الفعلَ للآيات ، وبالياء على أنه لله تعالى ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمّ الخياط ﴾ أي حتى يدخُلَ ما هو مثلُه في عِظَم الجِرْم فيما هو عَلَمٌ في ضيق المسلَك وهو ثُقبةُ الإبرة ، وفي كون الجملِ مما ليس من شأنه الولوجُ في سمِّ الإبرة مبالغةٌ في الاستبعاد . وقرىء الجُمّل كالقمّل والجُمَل كالنُغَر والجُمل كالقُفل والجَمَل كالنصَب والجَمْل كالحبل وهي الحبلُ الغليظ من القنب وقيل : حبلُ السفينة ، وسُمّ بالضم والكسر وقرىء في سَمّ المَخيط وهو الخِياط أي ما يُخاط به كالحِزام والمحزم ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثلَ ذلك الجزاءِ الفظيع ﴿ نَجْزِى المجرمين ﴾ أي جنسَ المجرمين وهم داخلون في زُمرتهم دخولاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(166/269)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾

الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة الدالة على وجود الصانع ووحدته والدالة على النبوة والمعاد ونحو ذلك ﴿ واستكبروا عَنْهَا ﴾ أي بالغوا في احتقارها وعدم الاعتناء بها ولم يلتفتوا إليها وضموا أعينهم عنها ونبذوها وراء ظهورهم ولم يكتسوا بحلل مقتضاها ولم يعملوا به ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ ﴾ أي لأرواحهم إذا ماتوا ﴿ أبواب السماء ﴾ كما تفتح لأرواح المؤمنين .

أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قال : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب راض غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقولون : فلان بن فلان فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أدخلي حميدة وأبشري روح وريحان ورب راض غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة وإذا كان الرجل سوأ قال : أخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان بن فلان فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر "

والأخبار في ذلك كثيرة .

وقيل : لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم أبواب السماء .

وروي ذلك عن الحسن ومجاهد .

وقيل : لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم .

وروي ذلك عن ابن جريج .

وقيل : المراد لا يصعد لهم عمل ولا تنزل عليهم البركة .

(167/269)

وكون السماء لها أبواب تفتح للأعمال الصالحة والأرواح الطيبة قد تفتحت له أبواب القبول للنصوص الواردة فيه وهو أمر ممكن أخبر به الصادق فلا حاجة إلى تأويله .

وكون السماء كروية لا تقبل الخرق والالتئام مما لا يتم له دليل عندنا .

وظاهر كلام أهل الهيئة الجديدة جواز الخرق والالتئام على الأفلاك .

وزعم بعضهم أن القول بالأبواب لا ينافي القول بامتناع الخرق والالتئام وفيه نظر كما لا يخفى .

والتاء في ﴿ تُفَتَّحُ ﴾ لتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها لا لكثرة الفعل لعدم مناسبة المقام .

وقرأ أبو عمرو بالتخفيف وحمزة والكسائي به وبالياء التحتية وروي ذلك عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم مع وجود الفاصل .

وقرىء على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالتاء الفوقية على أن الفعل مسند إلى الآيات مجازاً لأنها سبب لذلك .

وبالياء على أنه مسند إلى الله تعالى .

﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ يوم القيامة ﴿ حتى يَلِجَ ﴾ أي يدخل ﴿ الجمل ﴾ "هو البعير إذا بزل وجمعه جمال وأجمال وجمالة ويجمع الأخير على جمالات" .

وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة .

وعن الحسن أنه قال : ابن الناقة الذي يقوم في المربد على أربع قوائم وفي ذلك استجهال للسائل وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف .

والعرب تضرب به المثل في عظم الخلقة فكأنه قيل : حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم ﴿ فِى سَمّ الخياط ﴾ أي ثقبة الابرة وهو مثل عندهم أيضاً في ضيق المسلك وذلك مما لا يكون فكذا ما توقف عليه بل لا تتعلق به القدرة لعدم إمكانه ما دام العظيم على عظمه والضيق على ضيقه .

وهي إنما تتعلق بالممكنات الصرفة .

والممكن الولوج بتصغير العظيم أو توسيع الضيق .

(168/269)

وقد كثر في كلامهم مثل هذه الغاية فيقولون : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يبيض القار وحتى يؤوب القارظان ومرادهم لا أفعل كذا أبداً ، وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعكرمة .

والشعبي ﴿ الجمل ﴾ بضم الجيم وفتح الميم المشددة كالقمل .

وقرأ عبد الكريم وحنظلة وابن عباس وابن جبير في رواية أخرى ﴿ الجمل ﴾ بالضم والفتح مع التخفيف كنغر .

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قرأ ﴿ الجمل ﴾ بضم الجيم وسكون الميم كالقفل و﴿ الجمل ﴾ بضمتين كالنصب ، وقرأ أبو السمال ﴿ الجمل ﴾ بفتح الجيم وسكون الميم كالحبل ، وفسر في جميع ذلك بالحبل الغليظ من القنب .

وقيل : هو حبل السفينة ، وقرىء ﴿ فِى سَمّ ﴾ بضم السين وكسرها وهما لغتان فيه والفتح أشهر ، ومعناه الثقب الصغير مطلقاً .

وقيل : أصله ما كان في عضو كأنف وأذن ، وقرأ عبد الله ﴿ فِى سَمّ ﴾ بكسر الميم وفتحها وهو والخياط ما يخاط به كالحزام والمحزم والقناع والمقنع .

﴿ تَثْبِيبٍ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نَجْزِى المجرمين ﴾ أي جنسهم وأولئك داخلون فيه دخولاً أولياً ، وأصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة .

ويقال : أجرم صار ذا جرم كأثمر وأثمر ، ويستعمل في كلامهم لاكتساب المكروه ، ولا يكاد يقال للكسب المحمود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(169/269)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء ﴾ أي : لا تفتح لأعمالهم ، ولا لدعائهم ، ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله ، أي : لا يقبل ذلك منهم لأنه ليس صالحاً ولا طيباً ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾ ، قال ابن عباس : أي : لا يرفع لهم منها عمل صالح ، ولا دعاء . رواه جماعة عنه وقاله مجاهد وابن جبير .

أو المعنى : لا تنزل عليهم البركة والرحمة ، ولا يغاثون ، لأنه أجرى العادة بإنزال الرحمة من

السماء ، كما في قوله : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ ، أو المعنى : لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة ، على ما روي أن الجنة في السماء .

أو المعنى لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا ، أبواب السماء ، كما تفتح لأرواح المؤمنين . رواه الضحاك عن ابن عباس .

ورواه ابن جرير عن البراء : < أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ! بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ الآية > .

قال ابن كثير : هكذا رواه .

وهو قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد مطولاً وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق .

تنبيهات :

(170/269)

الأول : قال الشهاب كون السماء لها أبواب ، وأنها تفتح للدعاء الصالح ، وللأعمال الصاعدة أ وللأرواح ، وارد في النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فلا حاجة إلى تأويل . انتهى .

وهذا على قاعدة أهل الظاهر في مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة ، والتنزيل الكريم إنما ورد على مناحٍ للعرب معروفة في لسانهم . والله أعلم .

الثاني : التضعيف في تفتح ، لتكثير المفعول ، لا الفعل لعدم مناسبة المقام .

الثالث : قرئ بالتخفيف في تفتح ، وبالتخفيف ، والياء ، وقرئ على البناء للفاعل ، ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات مجازاً ، وبالياء على أنه لله تعالى .

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ﴾ أي : يدخل : ﴿ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ أي : ثقب الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم .

لطائف :

الأول : قرأ الجمهور الجَمَل ، بفتح الجيم والميم ، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير . قال الفراء : الجمل زوج الناقة ، وقال شمر : البكر والبكر بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل والناقة منزلة الرجل والمرأة .

وقرئ في الشواذ الجُمّل ، كسكَّر وصُرد وقُفل ، وعُنق وجبْل بمعنى حبل السفينة الغليظ الذي يقال له القَلْس .

وقال أبو البقاء : يقرأ في الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة ، لأن تخفيف المفتوح ضعيف ، ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الحبل الغليظ ، وهو جمع مثل صُوَّم وقُوَّم ، ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أسَد وأُسُد ، ويقرأ كذلك إلا أن الميم ساكنة ، وذلك على تخفيف المضموم . انتهى .

وذكر الكواشي أن القراءات المذكورة كلها لغات في البعير ، ما عدا جُمَّلاً كسُكَّر وقفل ، ونوقش في ذلك . انتهى .

وقراءته كسُكَّر على معنى الحبل المذكور ، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ، واختارها سعيد بن جبير .

(171/269)

قال الزمخشري : وعن ابن عباس رضي الله عنه ، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه ، إلا أن قراءة العامة أوقع ، لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خَرْتِ الإبرة . وقالوا للدليل الماهر خُرِّيت للإبتداء به في المضايق المشبهة بأخْرات الإبر ، والجمل مثل في عظم الجرم ، قال : جسم الجمال وأحلام العصافير .

إن الرجال ليسوا بجَزَر تراد منهم الأجسام ، فقيل : لايدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع ، وفي ثقب الإبرة .

وعن ابن مسعود : أنه سئل عن الجمل ؟ فقال : زوج الناقة ، استجهالاً للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف . انتهى .

وحاصله أن الجمل لما كان مثلاً في عظم الجسم ، لأنه أكثر الحيوانات جسماً عند العرب ، وخرق الإبرة مثلاً في الضيق ، ظهر التناسب .

على أن في إيثار الجمل ، وهو مما ليس من شأنه الولوج في سم الإبرة مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة .

الثانية : السَّم : الثقب الضيق . قال أبو البقاء : بفتح السين وضمها ، لغتان . انتهى .

وصح بالتثليث فيه ، وفي القاتل المعروف ، صاحب القاموس وغيره ، إلا أنهم قالوا : المشهور في الثقب الفتح كما في التنزيل ، والأفصح في القاتل الضم .

قال العلامة الفاسي : قال الزبيديّ : لم أر من تعرض لكسرهما ، وكأنها عامية .

قلت : قال الزمخشري : وقرئ : ﴿ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ بالحركات الثلاث ، وكفى به مرجعاً .

الثالثة : الخِياط ككِتاب ومِنبر ، ما خيط به الثوب ، والإبرة ، كذا في القاموس .

قال الزمخشري : وقرأ عبد الله (في سم المخيط) . قال الشهاب : بكسر الميم وفتحها ، كما ذكره المُعرب ، وهي قراءة شاذة .

(172/269)

الرابعة : قال السيوطي في " الإكليل " : في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ ﴾ الخ ، جواز فرض المحال ، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء . انتهى .

والتعليق على المحال معروف في كلام العرب ، كقوله :

~إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القارُ كاللبن الحليب

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع

﴿ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 56.60 ﴾

(173/269)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) ﴾

استئناف ابتدائي مسوق لتحقيق خلود الفريقين في النّار ، الواقعِ في قوله : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 36]

فأخبر الله بأنّه حرمهم أسباب النّجاة ، فَسَدّ عليهم أبواب الخير والصّلاح ، وبأنّه حرّمهم من دخول الجنّة .

وأكّد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ لتأييسهم من دخول الجنّة ، لدفع توهّم أن يكون المراد من الخلود المتقدّم ذكرُه الكنايةَ عن طول مدّة البقاء في النّار فإنّه ورد في مواضع كثيرة مراداً به هذا المعنى .

ووقع الإظهار في مقام الإضمار لدفع احتمال أن يكون الضّمير عائداً إلى إحدى الطّائفتين المتحاورتين في النّار ، واختير من طرق الإظهار طريق التّعريف بالموصول إيذاناً بما تومىء إليه الصّلة من وجه بناءِ الخبر ، أي : إنّ ذلك لأجل تكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها ، كما تقدّم في نظيرها السّابق آنفاً .

والسّماءُ أطلقت في القرآن على معانٍ ، والأكثر أن يراد بها العوالم العليا غير الأرضيّة ، فالسّماء مجموع العوالم العليا وهي مَراتب وفيها عوالم القُدس الإلهيّةُ من الملائكة والرّوحانيات الصّالحة النّافعة ، ومصدرُ إفاضة الخيرات الرّوحيّة والجثمانيّة على العالم

الأرضي ، ومصدَرُ المقادير المقدّرة قال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ [الذاريات : 22] ، فالسّماء هنا مراد بها عالم القدس .

(174/269)

وأبوابُ السّماء أسبابُ أمور عظيمة أطلق عليها اسم الأبواب لتقريب حقائقها إلى الأذهان فمنها قبول الأعمال ، ومسالكُ وصول الأمور الخيّريّة الصّادرة من أهل الأرض ، وطرق قبولها ، وهو تمثيل لأسباب التّزكية ، قال تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : 10] ، وما يعلم حقائقها بالتّفصيل إلاّ الله تعالى ، لأنّها محجوبة عنّا ، فكما أنّ العفاة والشّفعاء إذا وَرَدُوا المكان قد يُقبلون ويُرضى عنهم فتُفْتَح لهم أبواب القصور والقباب ويُدخلون مُكرّمين ، وقد يردّون ويُسخطون فتوصد في وجوههم الأبوابُ ، مُثّل إقصاء المكذّبين المستكبرين وعدمُ الرّضا عنهم في سائر الأحوال ، بحال من لا تفتَح له أبواب المنازل ، وأضيفت الأبواب إلى السّماء ليظهر أنّ هذا تمثيل لحرمانهم من وسائل الخيرات الإلهيّة الروحية ، فيشمل ذلك عدم استجابة الدّعاء ، وعدم قبول الأعمال والعبادات ، وحرمان أرواحهم بعد الموت مشاهدة مناظر الجنّة ومقاعد المؤمنين منها ، فقوله : ﴿ لا نفتح لهم أبواب السماء ﴾ كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الخيرات الإلهيّة المحضة ، وإن

كانوا ينالون من نِعم الله الجثمانية ما يناله غيرهم ، فيغاثون بالمَطَر ، ويأتيهم الرّزق من الله ، وهذا بيان لحال خذلانهم في الدّنيا الحائل بينهم وبين وسائل دخول الجنّة .

كما قال النّبي صلى الله عليه وسلم "كلّ ميسَّر لمّا خُلِق له" وقال تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : 105] .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوبُ : ﴿ لا تُفَتَّح ﴾ بضمّ التّاء الأولى وفتح الفاء والتّاءِ الثّانية مشدّدة وهو مبالغة في فَتح ، فيفيد تحقيق نفي الفتح لهم ، أو أشير بتلك المبالغة إلى أن المنفي فتح مخصوص وهو الفتح الذي يفتح للمؤمنين ، وهو فتح قوي ، فتكون تلك الإشارة زيادة في نكايتهم .

(175/269)

وقرأ أبو عَمرو بضمّ التّاء الأولى وسكون الفاء وفتح التّاء الثّانية مخفّفة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلَف ﴿ لا يُفتَحُ ﴾ بمثنّاة تحتيّة في أوّله مع تخفيف المثنّاة الفوقيه مفتوحة على اعتبار تذكير الفعل لأجل كون الفاعل جمعاً لمذكّر .

وقوله : ﴿ ولا يدخلون الجنّة ﴾ اخبار عن حالهم في الآخرة وتحقيق لخلودهم في النّار .

وبعد أن حُقّق ذلك بتأكيد الخبر كلّه بحرف التّوكيد ، زيد تأكيداً بطريق تأكيد الشّيء بما يشبه ضدّه ، المشتهرِ عند أهل البيان بتأكيد المدح بما يُشْبه الذّم ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنّة امتداداً مستمراً ، إذْ جعل غايته شيئاً مستحيلاً ، وهو أن يَلج الجمل في سَمّ الخياط ، أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنّة غايةٌ لكانت غايتُه ولوجَ الجْمل وهو البعير في سَمّ الخِياط ، وهو أمر لا يكون أبداً .

والجَمَل : البعير المعروف للعرب ، ضُرب به المثل لأنّه أشهر الأجسام في الضّخامة في عرف العرب .

والخِياط هو المِخْيَط بكسر الميم وهو آلة الخياطة المسمّى بالإبْرَة ، والفِعال وَرَدَ اسماً مرادفاً للمِفعَل في الدّلالة على آلةِ الشّيء كقولهم حِزَام ومِحْزم ، وإزار ومِئْزر ، ولِحاف ومِلحَف ، وقِناع ومِقنع .

والسَمّ : الخَرْت الذي في الإبرة يُدخل فيه خيط الخائط ، وهو ثقب ضيّق ، وهو بفتح السّين في الآية بلغة قريش وتضمّ السّين في لغة أهل العالية .

وهي ما بين نجد وبين حدود أرض مكّة .

والقرآن أحال على ما هو معروف عند النّاس من حقيقة الجَمل وحقيقة الخِياط ، ليعلم أنّ دخول الجمل في خَرْت الإبرة محال متعذّر ما داما على حاليهما المتعارفين .

والإشارة في قوله : ﴿ وكذلك ﴾ إشارة إلى عدم تفتّح أبواب السّماء الذي تضمّنه قوله : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة ﴾ أي ، ومثل ذلك الانتفاء ، أي الحرمان نجزي المجرمين لأنّهم بإجرامهم ، الذي هو التّكذيب والإعراض ، جعلوا أنفسهم غير مكترثين بوسائل الخير والنّجاة ، فلم يتوخّوها ولا تطلبوها ، فلذلك جزاهم الله عن استكبارهم أن أعرض عنهم ، وسدّ عليهم أبواب الخيرات .

وجملة ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ تذييل يؤذن بأنّ الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك الجزاء ، فهم قد دخلوا في عموم المجرمين الذين يجْزون بمثل ذلك الجزاء ، وهم المقصود الأوّل منهم ، لأنّ عقاب المجرمين قد شُبّه بعقاب هؤلاء ، فعلم أنّهم مجرمون ، وأنّهم في الرّعيل الأوّل من المجرمين ، حتّى شُبِّه عقاب عموم المجرمين بعقاب هؤلاء وكانوا مثَلا لذلك العموم .

والإجرام : فعل الجُرْم بضمّ الجيم وهو الذنْب ، وأصل : أجرم صار ذا جُرم ، كما يقال : ألْبَنَ وأتمر وأخْصَب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾

والحق يريد أن يعطي حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليعرف بجريمته ، وهي جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا واستكبروا عَنْهَا ﴾ .

وقد عرفنا من قبل معنى الايات . وأنها ايات القرآن المعجزة أو الايات الكونية ، وأي إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، وهذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الجاه ولا سلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الايات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء . ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا واستكبروا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط وكذلك نَجْزِي المجرمين ﴾ [الأعراف : 40]

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً :

﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ .

و﴿ سَمِّ الخياط ﴾ هو ثقب الإبرة ، أي الذي تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط في الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهي لا تدخل في الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها في ثقب الإبرة .

وحين نأتي بالجمل ونقول له : ادخل في سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل بسم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولو أن ما بي من جوى . . . وصبابة على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصبابة التي يعاني منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل في سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل الجمل في سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة . ﴿ . . . حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط وكذلك نَجْزِي المجرمين ﴾ [الأعراف : 40]

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(179/269)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ يعني

لا يصعد إلى الله من عملهم شيء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال : لا تفتح لهم لعمل ولا دعاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال : عَيَّرَتها الكفار ، إن السماء لا تفتح لأرواحهم وهي تفتح لأرواح المؤمنين .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يفتح لهم " بالياء " .

وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحاً قال : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب راض غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة ، فإذا كان الرجل السوء قال : أخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، أخرجي ذميمة وابشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟

فيقال فلان . . . فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء . فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر " .

(180/269)

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة في المصنف واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث عن أبي موسى الأشعري قال : تخرج نفس المؤمن وهي أطيب ريحاً من المسك ، فيصعد بها الملائكة الذين يتوفونها ، فتلقاهم ملائكة دون السماء فيقولون : من هذا معكم ؟ فيقولون فلان ، ويذكرونه بأحسن عمله ، فيقولون : حياكم الله وحيا من معكم ، فيفتح له أبواب السماء فيصعد به من الباب الذي كان يصعد عمله منه . فيشرق وجهه فيأتي الرب ولوجهه برهان مثل الشمس . قال : وأما الكافر فتخرج نفسه وهي أنتن من الجيفة ، فيصعد بها الملائكة الذين يتوفونها ، فتلقاهم ملائكة دون السماء فيقولون : من هذا ؟ ! فيقولون فلان ، ويذكرونه باسوأ عمله ، فيقولون : ردوه فما ظلمه الله شيئاً . فيرد إلى أسفل الأرضين إلى الثرى ، وقرأ أبو موسى ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ .

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد وهناد بن السري وعبد بن حميد وأبو داود في

سننه وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن البراء بن عازب قال

(181/269)

" خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، وكان على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكث به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأنَّ وجوههم الشمس ، معهم أكفان من كفن الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء وإن كنتم ترون غير ذلك ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ ! فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي

كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعه ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عليين واعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتعاد روحه في جسده .

(182/269)

فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإِسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان له : وما عملك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت . فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : ابشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت ، فوجهك الوجه يجيء بالخير ؟ ! فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى ارجع إلى أهلي ومالي .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزل إليه من السماء

ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده فينتزعها كما يتنزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ ! فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ [الحج : 31] .

(183/269)

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه . . . ! فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . . . ! فيقولان له : ما هذا

الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري . . . ! فينادي مناد من السماء : إن كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف في أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح ، فيقول : ابشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه ، يجيء بالشر ؟ ! فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال : لا يصعد لهم كلام ولا عمل .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال : لا يرفع لهم عمل ولا دعاء .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال : لأرواحهم ولا أعمالهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال : الكافر إذا أخذ روحه ضربته ملائكة الأرض حتى يرتفع إلى السماء ، فإذا بلغ السماء الدنيا ضربته ملائكة السماء فهبط ، فضربته ملائكة الأرض فارتفع ، فضربته ملائكة السماء الدنيا فهبط إلى أسفل الأرضين ، وإذا كان مؤمناً روّح روحه ، وفتحت له أبواب السماء ، فلا يمر بملك إلا حياه وسلم عليه حتى ينتهي إلى الله ، فيعطيه حاجته ثم يقول الله

: ردوا روح عبدي فيه إلى الأرض فإني قضيت من التراب خلقه وإلى التراب يعود ومنه يخرج.

قوله تعالى ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ حتى يلج الجمل ﴾ قال : ذو القوائم ﴿ في سم الخياط ﴾ قال : خرق الإِبرة .

(184/269)

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والطبراني في الكبير عن ابن مسعود في قوله ﴿ حتى يلج الجمل ﴾ قال : زوج الناقة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ حتى يلج الجمل ﴾ قال : ابن الناقة الذي يقوم في المربد على أربع قوائم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس . أنه كان يقرأ ﴿ الجمل ﴾ يعني بضم الجيم وتشديد الميم ، وقال : الجمل الحبل الغليظ ، وهو من حبال السفن .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن مجاهد قال : قراءة ابن مسعود " حتى يلج الجمل الأصفر في سم الخياط " .

وأخرج ابن المنذر عن مصعب قال : إن قرئت الجمل فإنا نعرف طيراً يقال له الجمل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد حتى ﴿ يلج الجمل في سم الخياط ﴾ قال : الجمل حبل السفينة ، وسم الخياط ثقبة .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال : الجمل الحبل الذي يصعد به إلى النخل ، الميم مرفوعة مشددة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : حتى يدخل البعير في خرق الإِبرة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر . أنه سئل عن سم الخياط ؟ قال : الجمل في ثقب الإِبرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(185/269)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " لا تُفَتَّحُ " .

قرأ أبو عمر : " لا تُفْتَح " بضمِّ التَّاء من فوق والتَّخفيف والأخوان بالياء من تحت والتخفيف أيضاً ، والباقون : بالتَّأنيث والتشديد .

فالتَّأْنِيثُ والتَّذكير باعتبار الجمع والجماعة ، والتَّخفيف والتضعيف باعتبار التكثير وعدمه ، والتضعيف هنا أوْضَحُ لكثرة المتعلق ، وهو في هذه القراءات مبني للمفعول .

وقرأ أبو حَيْوَةَ ، وأبو البرهسم [" تَفَتَّح "] بفتح التَّاء مِنْ فوق والتضعيف ، والأصل : لا تتفتح بتاءَيْن فحُذِفت إحداهما ، وقد تقدَّم في " ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] . ونحوه ، فى " أبواب " على قراءة أبي حيوة فاعل ، وعلى ما تقدَّم مفعول لم يُسمَّ فاعله .

وقرئ : " لا تفتح " بالتاء ، ونصب " الأبواب " على أن الفعل للآيات وبالياء على أن الفعل للَّه ذكره الزمخشري .

قوله : ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ .

الولوج : الدُّخُول بشدّة ، ولذلك يقالك هو الدُّخول في مضيق ، فهو أخصُّ من الدُّخول ، والوليجة : كلُّ ما يعتمده الإنسان ، والوليجة الدَّاخِلُ في قوم ليس منهم .

و " الجَمَلُ " قراءة العامة ، وهو الحيوانُ المعروف ، ولا يقال للبعير جملاً إلا إذا بَزَل ، ولا يقال له ذلك إلا إذا بَلَغَ أربع سنين وأول ما يخرج ولد النَّاقة ، ولم تعرف ذُكُورِيَّتُهُ وأنوثته يقال لَهُ : " سَلِيلٌ " ، فإن كان ذكراً فهو " سَقْبٌ " ، وإن كان أنثى " حَائِلٌ " ، ثم هو " حُوار " إلى الفطام ، وبعده " فَصِيل " إلى سنة ، وفي الثانية : " ابْن مَخَاض " و " بِنْت مَخَاض " ، وفي الثالثة : "

ابْن لَبون " و" بنت لبون " ، وفي الرابعة : " حِقٌّ " و" حِقَّة " ، وفي الخامسة : جَذَع وجَذَعة ، وفي السَّادسة : " ثَنِيٌّ " و" ثَنِيَّة " ، وفي السَّابعة : رَباع ورَباعية مخففة ، وفي الثامنة : " سِديسٌ " لهما .

(186/269)

وقيل : " سَديسةٌ " للأنثى ، وفي التَّاسعة : " بَازِلٌ " ، و" بَازِلَةٌ " ، وفي العاشرة : " مُخْلِفٌ " و" مُخْلِفةٌ " ، وليس بعد البُزُول والإخلاف سنٌّ بل يقال : بازل عام ، أو عامين ، ومُخْلِف عام ، أو عامين حتى يهرم ، فيقال له : فَوْد .

ورد التَّشبيه في الآية الكريمة في غاية الحسن ، وذلك أنَّ الجمل أعظم حيوانٍ عند العربِ ، وأكبره جثَّة حتى قال : [البسيط]

2463 - . . . . . .

جِسْمُ الجِمَالِ وأحْلاَمُ العَصَافِيرِ

[وقوله] : [الوافر]

2464 - لَقَدْ كَبُرَ البَعِيرُ بغَيْرِ لُبٍّ . . . . . .

وسم الإبرة في غايةِ الضِّيقِ ، فلما كان المثل يُضْرَبُ بعظم هذا وكبره ، وبضيق ذلك حتَّى

قيل : أضْيقُ من خُرْت إبرة ، ومنه الخِرِّيتُ وهو البصير بمضايق الطُّرُقِ قيل : لا يدخلون [الجنة حتى يتقحّم أعظم الأشياء وأكبرها عند العرب في أضيق الأِياء وأصغرها فكأنه لا يدخلون] حتى يُوجدَ هذا المستَحِيلُ ، ومثله في المعنى قول الشاعر : [الوافر]

2465 - إذا شَابَ الغُرَابُ أتَيْتُ أهْلِي . . .

وَصَارَ القَارُ كاللَّبَنِ الحَلِيبِ

وقرا ابن عبَّاسٍ في رواية ابْنِ حَوْشَبٍ ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وأبو مجلزٍ والشعبيُّ ، ومالك بن الشّخِّير ، وابن محيصنٍ ، وأبُو رجاءَ ، وأبو رزين ، وأبان عن عاصمٍ : " الجُمَّل " بضمِّ الجيمِ وفتح الميم مشددة وهو القَلْسُ ، والقَلْس : حبلٌ غليظ ، يجمع من حبال كثيرة فيفتل ، وهو حَبْلُ السَّفِينة .

وقيل : الحَبْلُ الذي يُصعد به [إلى] النّخل .

ويروى عن ابن عباس أنه قال : " إن الله أحسن تشبيهاً أن يشبه بالحبل من أن يشبه بالجَمَلِ " كأنَّهُ رأى - إن صحَّ عنه - أن المناسب لسم الإبرة شيءٌ يناسب الخيط المسلوك فيها .

وقال الكِسَائي : الرَّاوي ذلك عن ابن عباس أعجمي فَشَدَّ الميم " .

وضعَّف ابن عطية قول الكسائي بكثرة رواتها عن ابن عباس قراءة .

قال شهابُ الدِّين : " ولذلك هي قراءةٌ مشهورة بين النَّاس " .

وروى مجاهدٌ عن ابن عباس ضمّ الجيم وفتح الميمِ خفيفة ، وهي قراءة ابن جبير ، وقتادة ، وسالم الأفطس .

وقرأ ابْنُ عبَّاسٍ أيضاً في رواية عطاء : " الجُمُل " بضم الجيم والميم مخففة ، وبها قرأ الضحاكُ الجحدري .

وقرأ عِكْرِمة ، وابن جبير بضمِّ الجيم ، وسكون الميم .

[وقرأ المتوكل ، وأبو الجوزاء بالفتح والسُّكون ، وكلُّها لغات في القَلْس المذكور .

وسئل ابن مسعود عن الجمل في الآية فقال : " زَوْج النَّاقَةِ " ، كأنه فهم ما أراد السّائل واستغباه] .

قوله : ﴿ فِي سَمِّ الخياط ﴾ متعلق بـ " يلج " ، و " سمّ الخِيَاطِ " ثقب الإبرة ، وهو الخُرْتُ ، وسينه مثلثة ، وكلّ ثُقب ضيق فهو سَمٌّ ، وكلُّ ثقب في البدن ؛ وقيل : كلُّ ثُقْبٍ في أنف أو أذن فهو سَمٌّ وجمعه سموم .

قال الفَرَزْدَقُ : [الطويل]

2466 - فَنَفَّسْتُ عَنْ سَمَّيْهِ حَتَّى تَنَفَّسَا . . .

وقُلْتُ لَهُ لا تَخْشَ شَيْئاً وَرَائِيَا

والسُّمُّ : القاتل ، وسمي بذلك للطفه وتأثيره في مسامّ البدنِ حتى يصل إلى القلب ، وهو في الأصل مصدرٌ ثم أُريد به معنى الفاعل لدخوله باطن البدن ، وقد سمَّه إذا أدخله فيه ، ومنه " السَّمَّة " للخاصة الذين يدخلون بَوَاطِنَ الأمور ومَسَامَّها ، ولذلك يقال لهم : الدّخلُل .

والسموم الريح الحادة ؛ لأنَّها تؤثر تأثير السّم القاتل .

والخياط والمخيط الآلة التي خاطُ بها فِعال ومِفْعَل ، كإزار ومئزر ، ولحافٍ ومِلْحَفٍ ، وقناعٍ ومِقْنَعٍ .

وقرأ عبد الله ، وقتادة ، وأبو رزين ، وطلحةُ " سُمِّ " بضمِّ السِّين ، وأبو عمران الجوني ، وأبو نهيكٍ ، والأصمعيُّ عن نافع " سِمّ " بالكسر ، وقد تقدَّم أنَّها لغات .

وقرأ عَبْدُ الله ، وأبو رزين ، وأبو مجلزٍ : " المِخْيَط " بكسر الميم وسكون الخاء ، وفتح الياء .

وطلحةُ بفتح الميم ، وهذه مخالفة للسَّوادِ .

(188/269)

قوله : " وَكَذَلِكَ " أي : ومثل ذلك الجزاء نجزي المجرمين ، فالكاف نعت لمصدر محذوف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 111.114 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِى سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المُجْرِمِينَ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ .

فلا دعاؤهم يُسمَع ، ولا بكاؤهم ينفع ، ولا بلاؤهم يكشف ، ولا عناؤهم يُرْفَع . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 534 ﴾

(189/269)

فائدة

قال القرطبى :

باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى يبشر وأنه يصعد بها

ابن المبارك قال : أخبرنا حيوة قال : أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا

استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرئك السلام ثم نزع بهذه الآية الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم .

وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام .

وعن البراء بن عازب في قوله : تحيتهم يوم يلقونه سلام فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه .

وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه .

ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب . أخرجي حميدة وأبشري روح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان بن فلان فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب . ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى . فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث . أخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق لآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث . ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك

أبواب السماء . فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر . خرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة

.

(190/269)

قال : حدثنا شبابة بن يسار ، سوار عن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة وهذا إسناد صحيح ثابت اتفق على رجاله البخاري ومسلم ما عدا

ابن أبي شيبة فإنه لمسلم وحده خرجه عبد بن حميد أيضاً عن ابن أبي ذئب قال محمد بن عمر ، فحدثني سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت تحضرة الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة فذكره مسلم عن أبي هريرة قال : إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها .

قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك : قال ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض . صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه . فينطلق بها إلى ربه ثم يقول : انطلقوا بها إلى آخر الأجل ، وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد : وذكر من نتنها وذكر لعناً . ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض قال : فيقال :

انطلقوا بها إلى آخر الآجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ريطة كانت عليه على أنفه هكذا .

البخاري . عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالت عائشة ـ أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت فقال : ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان من الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه ، أخرجه مسلم وابن ماجه من حديث عائشة وابن المبارك من حديث أنس رضي الله عنه .

(191/269)

فصل : هذا الحديث . وإن كان مفسراً مبيناً . فقد روي عن عائشة رضي الله عنها في تفسير هذا الحديث أنها قالت لشريح بن هاني وقد سألها عما سمعه من أبي هريرة وليس بالذي تذهب إليه ، ولكن إذا شخص البصر وحشرج الصدر واقشعر الجلد تشنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه .

خرجه مسلم .

وروي عنها أيضاً في

تفسيره أنها قالت إذا أراد الله بعبد خيراً قيض به قبل موته بعام ملكاً فسدده ووقفه حتى يقول الناس : مات فلان خير ما كان ، فإذا أحضر ورأى ثوابه تهوع نفسه أو قال تهوعت نفسه ، فذلك حين أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإذا أراد الله بعبده شراً قيض له قبل موته بعام شيطاناً فأضله وفتنه حتى يقول الناس مات فلان شر ما كان فإذا أحضر ورأى ما ينزل به من العذاب تبلغ نفسه فذلك حين يكره لقاء الله وكره الله لقاءه .

وخرج الترمذي في أبواب القدر عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله . فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت . قال أبو عيسى هذا حديث صحيح .

قال الشيخ المؤلف رحمه الله ومنه الحديث الآخر : إذا أراد الله بعبده خيراً عسله . قالوا يا رسول الله وما عسله ؟ قال : يفتح الله له عملاً صالحاً بين يدي موته متى يرضى عنه من حوله .

وعن قتادة في تفسير قوله تعالى : فروح وريحان قال : الروح : الرحمة ، والريحان : تتلقاه به الملائكة عند الموت .

وروى ابن جريج عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : في تفسير قوله تعالى : حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا : نرجعك إلى الدنيا ؟ فيقول إلى دار الهموم والأحزان ؟ ويقول قدماً إلى الله عز وجل ، وأما الكافر فيقولون : نرجعك إلى الدنيا ؟ فيقول : ارجعون * لعلي أعمل صالحاً الآية وأما قوله في الحديث حتى ينتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى فالمعنى أمر الله وحكمه وهي السماء السابعة التي عندها سدرة المنتهى التي إليها يصعد ما يعرج به من الأرض ومنها يهبط ما ينزل به منها . كذا في صحيح مسلم من حديث الإسراء .

وفي حديث البارء أنه ينتهي به إلى السماء وسيأتي إن شاء الله تعالى .

قد كنت تكلمت مع بعض أصحابنا القضاة ممن له علم ونظر ، ومعنا جماعة من أهل النظر فيما ذكر أبو عمر بن عبد البر من قوله : الرحمن على العرش استوى فذكرت له هذا الحديث فما كان منه إلا أن بادر إلى عدم صحته ولعن رواته وبين أيدينا رطب نأكله ، فقلت له : الحديث صحيح خرجه ابن ماجه في السنن ولا ترد الأخبار بمثل هذا القول ، بل تتأول وتحمل على ما يليق من التأويل والذين رووا لنا الصلوات الخمس وأحكامها ، فإن صدقوا هنا صدقوا هناك وإن كذبوا هناك ولا تحصل الثقة بأحد منهم فيما يرويه .

وقد خرج البزار في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر ريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضياً عنك إلى روح الله وكرامته ، فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطيت عليها الحريرة وذهب بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضرا أتته الملائكة بمسح فيه جمرة ، فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه ، فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة ، ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين .

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : فقوله في روح المؤمن : يذهب بها إلى عليين هو معنى ما جاء في حديث أبي هريرة المتقدم إلى السماء التي فيها الله . والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ولا إشكال .

وذكرته عند بعض من يتسم بالعلم والفقه والقضاء فلم يكن منه إلا أن بادر بلعن من رواه ونقله . فظن منه التجسيم . فقلت له : الحديث صحيح والذين رووه هم الذين جاءوا

بالصلوات الخمس وغيرها من أمور الدين ، فإن كذبوا هنا كذبوا هنالك ، وإن صدقوا هنا صدقوا هنالك . والتأويل مزيل ما توهمته . وكان في ذلك كلام . وحضره جماعة من أهل الفقه والنظر فذكرت له ما ذكرناه ، وذكرت له حديث التنزيل

وقوله تعالى : الرحمن على العرش استوى وما تأوله العلماء في ذلك ، وسيأتي من ذلك في هذا الكتاب ما فيه كفاية لمن اهتدى والحمد لله .

وأما قوله ، في حديث محمد بن كعب أول الباب ، إذا استنقعت نفس المؤمن ، فقال شمر لا أعرفه وسمعت الزهري يقول : يعني إذا اجتمعت في فيه حين تريد أن تخرج كما يستنقع الماء في قراره ، والنفس : الروح ها هنا حكاه الهروي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التذكرة فى أحوال الموتى حـ 1 صـ 57 . 61﴾

(194/269)

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

كثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه وضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب

فهو كالمعاند .

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق .

وقال بعض العلماء: من قطع عضوا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا .

وقيل: للحسن: نراك طويل البكاء فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي وكان يقول: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل . وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال: والله لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تدرك أمنا خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه فيطوف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه"

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: "مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال: أف لك أف لك فظننت أنه يريدني فقال: لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيا إلى آل

فلان فغل نمرة فدُرِّع الآن مثلها من نار" .

وفي مسنده أيضا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: من هؤلاء قالوا:

خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم"

(195/269)

وفيه أيضا من حديثه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما عرج بي مررت بقوم

لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال:

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم"

وفيه أيضا عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب

والأبصار ثبت قلبي على دينك فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا

قال: نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء"

وفيه أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: "مالي لم أر ميكائيل

ضاحكا قط قال: ما ضحك منذ خلقت النار"

وفي صحيح مسلم عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا

من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مربك نعيم قط فيقول: لا والله يا رب ويؤتي بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول: لا والله يا رب ما مربي بؤس قط ولا رأيت شدة قط"

(196/269)

وفي المسند من حديث البراء بن عازب قال: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان أهل الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أخرجي أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك

الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفخة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فتعاد روحه إلى الأرض فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك فيقول: ربي الله عز وجل فيقولان له: ما دينك فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول: هو محمد رسول الله فيقولان له: وما علمك فيقول: قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره

(197/269)

مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: له فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك

الصالح فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين وفي الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول: هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها

وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الرجل قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي

(198/269)

كنت توعد فيقول: من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة"

وفي لفظ لأحمد أيضا : "ثم يقبض له أعمي أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبلا كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخري فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين" قال البراء : "ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار"

وفي المسند أيضا عنه قال: "بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بصر بجماعة فقال: على ما اجتمع هؤلاء ؟ قيل: على قبر يحفرونه ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعا حتى انتهي إلى القبر فجثا على ركبتيه فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع فبكى حتى بل الثرى من دموعه ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني لمثل هذا اليوم فأعدوا"

وفي المسند من حديث بريدة قال: "خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فنادى ثلاث مرات يا أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم قالوا: الله ورسوله أعلم فقال: إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فأبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه أيها الناس أُتيتم أيها الناس أُتيتم ثلاث مرات"

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل ما أسكر حرام وإن على الله عز وجل عهدا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قيل: وما طينة الخبال قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار"

وفي المسند أيضا من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحق لها أن تئط

(199/269)

ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك يسبح الله ساجدا لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى" قال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد

وفي المسند أيضا من حديث حذيفة قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال: يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملأ على الكافر نارا" والحمائل: عروق الأنثيين.

وفي المسند أيضا من حديث جابر قال: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ حين توفى فلما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع في قبره وسوى عليه سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحنا طويلا ثم كبر فكبرنا فقيل: يا رسول الله لما سبحت؟ ثم كبرت فقال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه"

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت قدموني قدموني وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق"

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تدنوا الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور يغرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ إلى كعبه ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ومنهم من يبلغ إلى وسطه ومنهم من يلجمه العرق"

وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: "قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا"

(200/269)

وفي المسند أيضا عن ابن عمر يرفعه: "من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان"

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: احيوا ما خلقتم"

وفيه أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة"

وفيهما أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار

حزنا إلى حزنهم"

وفي المسند عنه قال: "من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة مادام عليه" ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال: صمتا إن لم أكن سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقوله

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ترك الصلاة سكرا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ومن ترك الصلاة سكرا أربع مرات كان حقا على الله أن يسقيه طينة الخبال قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله: قال: عصارة أهل جهنم"

وفيه أيضا عنه مرفوعا: "من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحا فإن تاب تاب الله عليه فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة"

وفي المسند أيضا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مات مدمنا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن"

(201/269)

وفيه أيضا عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان: فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله"

وفي المسند أيضا من حديث بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وضرب لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا فأنضجوا ما قذفوا فيها"

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز ودعوى الرسول يومئذ اللهم سلم سلم وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموثق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجوا حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونه بعلامة آثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود فيخرجونهم وقد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له: ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في حميل المسيل"

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمة فعرفها فقال: ما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى قتلت قال: كذبت ولكن قاتلت ليقال: هو جريء فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فقال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم فقد قيل: وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه رزقه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار وفي لفظ فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة"

وسمعت شيخ الإسلام يقول: كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون وشر

الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم"

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار"

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن صلى الله عليه وسلم قال: "من أخذ شبرا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين"

(203/269)

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ناركم هذه التي يوقد بنوا آدم جزء واحد من سبعين جزءا من نار جهنم قالوا: والله إن كانت لكافية قال: فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها"

وفي المسند عن معاذ قال: "أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت أو حرقت ولا تعقنَّ والديك وان أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ولا تشربن

خمرا فإنه رأس كل فاحشة وإياك والمعصية فإن المعصية تحل سخط الله" والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا فلا ينبغي لمن تصح نفسه أن يتعامى عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن .

قال أبو الوفاء بن عقيل احذره ولا تغتر به فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر وقد دخلت المرأة النار في هرّة واشتعلت الشملة نارا على من غلها وقد قتل شهيدا"

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: "دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئًا فقالوا لأحدهما : قرب قال: ليس عندي شيء قالوا : قرّب ولو ذبابا فقرب ذبابا فخلو سبيله فدخل النار وقالوا للآخر :

قرب قال: ما كنت لأقرب شيئًا من دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة" وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب .

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير به ويظن أن ذلك من محبة الله له وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك وهذا من الغرور .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحي بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران النحبيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج "ثم تلى قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمة وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فإنما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ ﴾ أي ليس كل من نعَّمتَه ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته بل أبتلى هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء .

وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب"

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواب الكافي صـ 27.38 ﴾

(205/269)

قوله تعالى ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم فسر جزاء الكل فقال : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أي فرش من تحتهم ، جمع مهد ، ولعله لم يذكره لأن المهاد كالصريح فيه ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ أي أغطية - جمع غاشية - تغشيهم من جهنم ؛ وصرح في هذا بالفوقية لأن الغاشية ربما كانت عن يمين أو شمال ، أو كانت بمعنى مجرد الوصول والإدراك ، ولعله إنما حذف الأول لأن الآية من الاحتباك ، فذكر جهنم أولاً دليلاً على إرادتها ثانياً ، وذكر الفوق ثانياً دليلاً على إرادة التحت أولاً .

ولما كان بعضهم ربما لا تكون له أهلية قطع ولا وصل ، قال عاماً لجميع أنواع الضلال :

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي الظالمين ﴾ ليعرف أن المدار على الوصف ،

والمجرم : المذنب ومادته ترجع إلى القطع ، والظالم : الواضع للشيء في غير موضعه كفعل من يمشي في الظلام ، يجوز أن يكون نبه سبحانه بتغاير الأوصاف على تلازمها ، فمن كان ظالماً لزمه الإجرام والتكذيب والاستكبار وبالعكس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 33.34 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين من حالهم أنهم لا يدخلون الجنة ألبتة بين أيضاً أنهم يدخلون النار ، فقال ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

"المهاد" جمع مهد ، وهو الفراش .

قال الأزهري : أصل المهد في اللغة الفرش ، يقال للفراش مهاد لمواتاته ، والغواشي جمع غاشية ، وهي كل ما يغشاك ، أي يجللك ، وجهنم لا تنصرف لاجتماع التأنيث فيها والتعريف ، وقيل اشتقاقها من الجهمة ، وهي الغلظ ، يقال : رجل جهم الوجه غليظه ، وسميت بهذا لغلظ أمرها في العذاب قال المفسرون : المراد من هذه الآية الأخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب ، فلهم منها غطاء ووطاء ، وفراش ولحاف .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : إن غواش ، على وزن فواعل ، فيكون غير منصرف ، فكيف دخله التنوين ؟ وجوابه على مذهب الخليل وسيبويه إن هذا جمع ، والجمع أثقل من الواحد ، وهو أيضاً الجمع الأكبر الذي تتناهى الجموع إليه ، فزاده ذلك ثقلاً ، ثم وقعت الياء في آخره وهي ثقيلة ، فلما اجتمعت فيه هذه الأشياء خففوها بحذف يائه ، فلما حذفت الياء نقص عن مثال فواعل ، وصار غواش بوزن جناح ، فدخله التنوين لنقصانه عن هذا المثال .

أما قوله : ﴿ وكذلك نَجْزِى الظالمين ﴾

قال ابن عباس : يريد الذين أشركوا بالله واتخذوا من دونه إلهاً وعلى هذا التقدير : فالظالمون ههنا هم الكافرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 64 .

65 ﴾

(206/269)

وقال السمرقندى :

ثم ذكر ما أوعدهم في النار فقال عز وجل : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ أي : فراش من النار ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أي مُغشاهم النار من فوق رؤوسهم ومعناه : أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً .

كقوله : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ يا عباد فاتقون ﴾ [الزمر : 16] ويقال : لهم من جهنم مهاد أي حظهم من جهنم كالمهاد ، فأخبر عن ضيق مكانهم في النار ﴿ وكذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ نعاقب الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ فراش من نار ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ وهي جمع غاشية وذلك ما غشاهم وغطاهم وقال القرظي ومجاهد : هي اللحف ﴿ وكذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ قال البراء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكسي الكافر لوحين من نار في قبره " ، فذلك قوله ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(207/269)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾

قال الحسن : فراش من نار ، والمهاد : الوِطَاء ، ومنه أخذ مهد الصبي .

﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها اللحف .

والثاني : اللباس .

والثالث : الظلل ، قاله الحسن .

والمراد بذلك أن النار من فوقهم ومن تحتهم ، فعبر عما تحتهم بالمهاد ، وعما فوقهم بالغواش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(208/269)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ الآية ،

المعنى أن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه وهي لهم غواش جمع غاشية وهي ما يغشى الإنسان أي يغطيه ويستره من جهة فوق ، قال الضحاك " المهاد " الفراش ، و" الغواشي " اللحف ودخل التنوين في ﴿ غواش ﴾ عند سيبويه لنقصانه عن بناء مفاعل فلما زال البناء المانع من الصرف بأن حذفت الياء حذفاً لا للالتقاء بل كما حذفت من قوله ﴿ والليل إذا يسر ﴾ [الفجر : 4] و ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ [الكهف : 64] ومن قول

الشاعر : [زهير]

ولأنت تفري ما خلقت وبع . . . ض القوم يخلق ثم لا يفر

زال الامتناع ، وهذا كقولهم ذلذل بالتنوين وهم يريدون : الذلاذل لما زال البناء ، قال الزجاج : والتنوين في ﴿ غواش ﴾ عند سيبويه عوض من الياء المنقوصة ورد أبو علي ان يكون هذا هو مذهب سيبويه ، ويجوز الوقوف ب " يا " وبغير " يا " والاختيار بغير " يا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(209/269)

وقال الخازن :

ولما بين الله عز وجل أن الكفار لا يدخلون الجنة أبداً بين أنهم من أهل النار ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ يعني لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد التمهيد الذي يقعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ جمع غاشية وهي الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية أن الناس محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم ، قال محمد بن كعب القرظي والضحاك والسدي : المهاد الفراش والغواشي اللحف ﴿

وكذلك نجزي الظالمين ﴾ يعني وكذلك نكافئ ونجازي المشركين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(210/269)

وقال أبو حيان :

﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾

هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كما قال لهم ﴿ من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ والغواشي جميع غاشية ، قال ابن عباس والقرظي وابن زيد : هي اللحف ، وقال عكرمة : يغشاهم الدّخان من فوقهم ، وقال الزّجاج : غاشية من النار ، وقال الضحاك : المهاد الفرش والغواشي اللحف والتنوين في ﴿ غواش ﴾ تنوين صرف أو تنوين عوض قولان وتنوين عوض من الياء أو من الحركة قولان كل ذلك مقرّر في علم النحو ، وقرىء ﴿ غواش ﴾ بالرفع كقراءة عبد الله ﴿ وله الجوار المُنشئات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(211/269)

وقال أبو السعود :

﴿ لَهُم مّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾

أي فراشٌ من تحتهم ، والتنوينُ للتفخيم ومن تجريدية ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أي أغطيةٌ والتنوينُ للبدل عن الإعلال عند سيبويهِ وللصرْفِ عند غيره ، وقرىء غواشِ على إلغاء المحذوف كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾ ﴿ وكذلك ﴾ ومثلَ ذلك الجزاءِ الشديد ﴿ نَجْزِى الظالمين ﴾ عبّر عنهم بالمجرمين تارةً وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآياتِ اتّصفوا بكل واحدٍ من ذيْنِك الوصفين القبيحين ، وذكرُ الجُرم مع الحِرمان من دخول الجنةِ والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظمُ الجرائمِ والجرائرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(212/269)

وقال الآلوسى :

﴿ لَهُم مّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾

أي فراش من تحتهم ، وتنوينه للتفخيم وهو فاعل الظرف أو مبتدأ ، والجملة إما مستأنفة أو

حالية ، و(من) تجريدية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ مِهَادٌ ﴾ لتقدمه ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أي أغطية جمع غاشية ، وعن ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي أنها اللحف .

والآية على ما قيل مثل قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] والمراد أن النار محيطة بهم من جميع الجوانب وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قال : " هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته لا يدري ما فوقه أكثر أو ما تحته غير أنه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا ويضيق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزج في القدح " وتنوين ﴿ غَوَاشٍ ﴾ عوض عن الحرف المحذوف أو حركته ، والكسرة ليست للإعراب وهو غير منصرف لأنه على صيغة منتهى الجموع ، وبعض العرب يعربه بالحركات الظاهرة على ما قبل الياء لجعلها محذوفة نسياً منسياً ، ولذا قرىء ﴿ غَوَاشٍ ﴾ بالرفع كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾ [الرحمن : 24] في قراءة عبد الله .

﴿ تَتْبِيبٍ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الجزء الشديد ﴿ نَجْزِى الظالمين ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى للتنبيه على أنهم بتكذيبهم بالآيات واستكبارهم عنها جمعوا الصفتين .

وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الأجرام ،

ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم ما في إعداد المهاد والغواشي لهؤلاء المستكبرين عن الآيات ومنعهم من العروج إلى الملكوت وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة فليتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(213/269)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) ﴾

والمِهاد بكسر الميم ما يُمْهَد أي يفرش ، و"غواش" جمع غاشية وهي مَا يغشى الإنسانَ ، أي يغطّيه كاللّحاف ، شبّه ما هو تحتهم من النّار بالمِهاد ، وما هو فوقهم منها بالغواشي ، وذلك كناية عن انتفاء الرّاحة لهم في جهنّم ، فإنّ المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للرّاحة ، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم النّار .

فقد انتفت راحتهم ، وهذا ذِكر لعذابهم السّوء بعد أن ذكر حِرمانهم من الخير .

وقوله : ﴿ غَواش ﴾ وصف لمقدّر دلّ عليه قوله : ﴿ من جهنّم ﴾ ، أي ومن فوقهم نيران كالغواشي .

وذيّله بقوله : ﴿ وكذلك نَجزي الظالمين ﴾ ليدلّ على أن سبب ذلك الجزاء بالعقاب : هو

الظلمُ .

وهو الشّرك .

ولمّا كان جزاء الظّالمين قد شبّه بجزاء الذين كذّبوا بالآيات واستكبروا عنها ، علم أنّ هؤلاء المكذّبين من جملة الظّالمين .

وهم المقصود الأوّل من هذا التّشبيه ، بحيث صاروا مثلاً لعموم الظالمين ، وبهذين العمومين كان الجملتان تذييلين .

وليس في هذه الجملة الثّانية وضع الظّاهر موضع المضمر : لأنّ الوصفين ، وإن كانا صادقين معاً على المكذّبين المشبَّهِ عقابُ أصحاب الوصفين بعقابهم .

فوصف المجرمين أعمّ مفهوماً من وصف الظّالمين ، لأنّ الإجرام يشمل التّعطيل والمجوسيّة بخلاف الإشراك .

وحقيقة وضع المظهر موقع المضمر إنّما تتقوّم حيث لا يكون للاسم الظّاهر المذكور معنى زائد على معنى الضّمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(214/269)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هي الغطاء ، أي أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ . . . ﴾ [الزمر : 16]

إذن الظلل والغواشي تغطي جهتين في التكوين البعدي للإنسان ، والأبعاد ستة وهي : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشي تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . . ﴾ [الكهف : 29]

وهذا يعني شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهي الشيء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتي بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ قال : الفرش ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ قال : اللحف .

وأخرج هناد وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي . مثله .

وأخرج أبو الحسن القطان في الطوالات وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " يكسى الكافر لوحين من نار في قبره ، فذلك قوله ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية لهم في جهنم مهاد ومن فوقهم غواش قال : هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته لا يدري ما فوقه أكثر أو ما تحته ، غير أنه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا ويضيق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزج في القدح " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾

هذه الجملة محتملة للحاليّة والاستئناف ، ويجوزُ حينئذ في " مهاد " أن تكون فاعلاً بـ " لهم " فتكون الحال من قبيل المفرات ، وأن تكون متبدأ ، فتكون من قبيل الجمل .

و " مِنْ جَهَنَّمَ " حال من " مِهَاد " ؛ لأَنَّهُ لو تأخر عنه لكان صفة ، أو متعلق بما تعلَّق به الجار قبله .

و " جَهَنَّم " لا تنصرف لاجتماع التَّأنيث والتعريف .

وقيل : اشتقاقه من الجهومة ، وهي الغلظ يقال : رجل جهم الوجْهِ أي غَلِيظه ، فسميت بهذا الغلظ أمرها في العذاب .

و " المِهَاد " جمع : مَهْدٍ ، وهو الفراشُ .

قال الأزهريُّ : " المَهْدُ في اللُّغة الفرش ، يقال للفراش : مِهَادٌ " .

قوله : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ غواشٍ : جمع غاشية ، وللنُّحاة في الجمع الذي على فواعل إذا كان منقوصاً بقياس خلاف : هل هو مُنْصَرِفٌ ؟ .

فبعضهم قال : هو مَنْصرفٌ ؛ لأنه قد زال [منه] صيغة منتهى الجموع ، فصار وزنُهُ وَزْنَ

جَنَاحٍ وَقَذَالٍ فانصرف .

وقال الجَمْهُورُ : هو ممنوعٌ من الصَّرف ، والتنوين تنوين عوضٍ .

واختلف في المعوّض عَنْهُ ماذا ؟ فالجمهور على أَنَّهُ عوض من الياء المَحْذُوفَةِ .

وذهب المُبردِ إلى أَنَّهُ عوض من حركتها ، والكسرُ ليس كسر إعراب ، وهكذا : حَوَارٍ وموالٍ وبعضهم يجرُّه بالفتحة ، قال : [الطويل]

2467 - وَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَىً هَجَوْتُهُ . . .

ولَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

وقال آخر : [الرجز]

2468 - قَدْ عَجِبَتْ مِنّي وَمِنْ يُعَيْلِيَا . . .

لَمَّا رَأَتْنِي خَلَقاً مُقْلَوْلِيَا

وهذا الحكمُ ليس مختصاً بصيغة مفاعل ، بل كلُّ غير منصرف إذا كان منقوصاً ، فحكمهُ ما تقدَّم نحو : يُعيْل تصغير يَعْلَى ويَرْم اسم رجل ، وعيله قوله : " وَمِنْ يَعَيْلِيَا " وبعض العرب يعرب " غواش " ونحوه بالحركاتِ على الحرف الذي قبل الياء المحذوفة ، فيقول : هؤلاء جوارٍ .

وقرئ : " ومِنْ فَوْقِهِم غَوَاشٌ ﴾ برفع الشين ، وهي كقراءة عبد الله : ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾ [

الرحمن : 24] برفع الراء .

فإن قيل : " غَوَاش " على وزن فواعل ؛ فيكون غير منصرف فكيف دخله التنوين ؟ .

(217/269)

فالجوابُ : على مذهب الخَلِيلِ وسيبويهِ أنَّ هذا جمع ، والجمع أثقل من الواحد ، وهو أيضاً الجمع الأكبر الذي تتناهى الجموع إليه ، فزاده ذلك ثقلاً ، ثم وقعت الياء في آخره وهي ثقيلة ، فلمَّا اجتمعت فيه هذه الأشياء خفَّفوه بحذف الياء ، فلَّما حذفوا الياء نقص عن مثال " فوَاعل " فصار غواش بوزن جناح ، فدخلهُ التَّنوين لنقصانه عن هذا المثال .

قال المفسِّرون : معنى الآية : الإخبارُ عن إحاطة النَّار بهم من كل جانب قوله : " وكذلِكَ " تقدم مثله [الأعراف : 40] .

وقوله : " والظَّالِمِيْنَ " يحتمل أن يكون من باب وقوع الظَّاهر موقع المضمر ، والمراد بـ " الظَّالِمِينَ " المجرمون ، ويحتمل أن يكونوا غيرهم ، وأنَّهُم يُجزون كجزائهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 114.116 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا فتدنَّس بالغفلة باطنُهم ، وتلوّثَ بالزّلة ظاهرهم ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ؛ فَمِنْ فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم في القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 534 ﴾

(218/269)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن أحوالهم ترهيباً ، أتبعه الإخبار عن أحوال المؤمنين ترغيباً فقال ﴿ والذين آمنوا ﴾ في مقابلة ﴿ الذين كذبوا ﴾ .

ولما قال : ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم في مقابلة ﴿ الذين استكبروا ﴾

﴿ الصالحات ﴾ وكان ذلك مظنة لتوهم أن عمل جميع الصالحات - لأنه جمع محلى بالألف

واللام – شرط في دخول الجنة ؛ خلل ذلك بجملة اعتراضية تدل على التخفيف فقال : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ وترغيباً في اكتساب مالا يوصف من النعيم بما هو في الوسع ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ولما كانت الصحبة تدل على الدوام ، صرح به فقال : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 34 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما استوفى الكلام في الوعيد أتبعه بالوعد في هذه الآية ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن أكثر أصحاب المعاني على أن قوله تعالى : ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر ، لأنه من جنس هذا الكلام ، لأنه لما ذكر عملهم الصالح ، ذكر أن ذلك العمل في وسعهم غير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب .

وقال قوم : موضعه خبر عن ذلك المبتدأ والعائد محذوف ، كأنه قيل : لا نكلف نفساً منهم

إلا وسعها ، وإنما حذف العائد للعلم به .

المسألة الثانية :

معنى الوسع ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة لا في حال الضيق والشدة ،

والدليل عليه : أن معاذ بن جبل قال في هذه الآية إلا يسرها لا عسرها .

وأما أقصى الطاقة يسمى جهداً لا وسعاً ، وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود .

المسألة الثالثة :

قال الجبائي : هذا يدل على بطلان مذهب المجبرة في أن الله تعالى كلف العبد بما لا يقدر عليه ، لأن الله تعالى كذبهم في ذلك ، وإذا ثبت هذا الأصل بطل قولهم في خلق الأعمال ، لأنه لو كان خالق أعمال العباد هو الله تعالى ، لكان ذلك تكليف ما لا يطاق ، لأنه تعالى أن كلفه بذلك الفعل حال ما خلقه فيه ، فذلك تكليفه بما لا يطاق ، لأنه أمر بتحصيل الحاصل ، وذلك غير مقدور ، وإن كلفه به حال ما لم يخلق من ذلك الفعل فيه كان ذلك أيضاً تكليف ما لا يطاق ، لأن على هذا التقدير : لا قدرة للعبد على تكوين ذلك الفعل وتحصيله ، قالوا : وأيضاً إذا ثبت هذا الأصل ظهر أن الاستطاعة قبل الفعل إذ لو كانت حاصلة مع الفعل ،

والكافر لا قدرة له على الإيمان مع أنه مأمور به فكان هذا تكليف ما لا يطاق ، ولما دلت هذه الآية على نفي التكليف بما لا يطاق ، ثبت فساد هذين الأصلين .

والجواب : أنا نقول وهذا الإشكال أيضاً وارد عليكم ، لأنه تعالى يكلف العبد بإيجاد الفعل ، حال استواء الدواعي إلى الفعل والترك ، أو حال رجحان أحد الداعيين على الآخر والأول باطل ، لأن الإيجاد ترجيح لجانب الفعل ، وحصول الترجيح حال حصول الاستواء محال ، والثاني باطل ، لأن حال حصول الرجحان كان الحصول واجباً ، فإن وقع الأمر بالطرف الراجح كان أمراً بتحصيل الحاصل ، وإن وقع بالطرف المرجوح كان أمراً بتحصيل المرجوح حال كونه مرجوحاً ، فيكون أمراً بالجمع بين النقيضين وهو محال ، فكل ما تجعلونه جواباً عن هذا السؤال ، فهو جوابنا عن كلامكم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 14 صـ 65.66 ﴾

(220/269)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

وذلك أن الله تعالى لما أخبر عن حال الذين كذبوا بآياته واستكبروا عن قبولها أخبر عن

حال الذين آمنوا بآياته .

فقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي : صدقوا وعملوا الصالحات أي الطاعات والأعمال الصالحة ﴿ لاَ نُكَلّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي : لا نكلف نفساً بعد الإيمان من العمل إلا بقدر طاقتها ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ يعني : دائمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لاَ نُكَلّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

أي طاقتها وما يسعها ويحلّ لها فلا تخرج منه ولا تضيق عليه ﴿ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية ،

هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها ، ثم اعترض أثناء القول بعقب الصفة ، التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف الشرط ويرجى في رحمة الله ويعلم أن دينه يسر وهذه الآية نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق ، وقد تقدم القول في جواز تكليف ما لا يطاق وفي وقوعه بمغن عن الإعادة ، و" الوسع " معناه

الطاقة وهو القدر الذي يتسع له قدر البشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(221/269)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

كلام معترض .

أي والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

ومعنى ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي أنه لم يكلف أحداً من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه ، دون ما لا تناله يده ، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل ؛ قاله ابن الطيب .

نظيره ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(222/269)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾

لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم في الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني والذين والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحي الله إليه وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه لا نكلف نفساً إلا وسعها يعني لا نكلف نفساً إلا ما يسعها من الأعمال وما يسهل عليها ويدخل في طوقها وقدرتها وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق .

قال الزجاج : الوسع ما يُقدر عليه ، وقال مجاهد : معناه إلا ما افترض عليها يعني الذي افترض عليها من وسعها الذي تقدر عليه ولا تعجز عنه وقد غلط من قال إن الوسع بذل المجهود قال أكثر أصحاب المعاني إن قوله تعالى لا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ لا نكلف نفساً إلا وسعها وإنما يحسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لأنه جنس هذا الكلام لأنه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ومحلها يُتَوصل

إليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة .

وقال قوم من أصحاب المعاني هو من تمام الخبر موضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لا نكلف نفساً منهم إلا وسعها فحذف العائد للعلم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(223/269)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

لما أخبر بوعيد الكفار أخبر بوعد المؤمنين وخبر و﴿ الذين ﴾ الجملة من ﴿ لا نكلف نفساً ﴾ منهم أو الجملة من ﴿ أولئك ﴾ وما بعده وتكون جملة ﴿ لا نكلف ﴾ اعتراضاً بين المبتدأ والخبر ، وفائدته أنه لما ذكر قوله و﴿ عملوا الصالحات ﴾ نبه على أن ذلك العمل وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أنّ الجنة مع عظم محالها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ، وقال القاضي أبو بكر بن الطّيب : لم يكلف أحداً في نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه دون ما لا تناله يده ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل

الفعل ، ونظيره ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ انتهى ، وليس السياق يقتضي ما ذكر ، وقال الزمخشري : جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع العظيم بما هو من الواسع وهو الإمكان الواسع غير الضّيق من الإيمان والعمل الصالح انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال ، وقرأ الأعمش لا تكلف نفس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(224/269)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ أي بآياتنا أو بكل ما يجب أن يُؤمَنَ به فيدخُل فيه الآياتُ دخولاً أولياً وقوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي الأعمالَ الصالحةَ التي شُرعت بالآيات ، وهذا بمقابلة الاستكبارِ عنها ﴿ لاَ نُكَلّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ اعتراضٌ وُسّط بين المبتدإِ الذي هو الموصولُ والخبرِ الذي هو الجملةُ ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ للترغيب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولةِ منالِه وتيسُّر تحصيلِه ، وقرىء لا تُكَلَّف نفسٌ ، واسمُ الإشارةِ مبتدأٌ ، وأصحابُ الجنةِ خبرُه والجملةُ خبرٌ للمبتدإِ الأولِ ، أو اسمُ الإشارةِ بدلٌ من المبتدأ الأولِ الذي هو الموصولُ والخبرُ أصحابُ الجنة . وما فيه من معنى البُعد للإيذان

ببعد منزلتهم في الفضل والشرف ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ حالٌ من أصحاب الجنة وقد جوز كونُه حالاً من الجنة لاشتماله على ضميرها والعاملُ معنى الإضافةِ أو اللام المقدرةِ أو خبرٌ ثانٍ لأولئك على رأي من جوّزه وفيها متعلق بخالدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(225/269)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ أي بآياتنا ولم يكذبوا بها ﴿ وَعَمِلُواْ ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ ولم يستكبروا عنها ﴿ لاَ نُكَلّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي ما تقدر عليه بسهولة دون ما تضيق به ذرعاً ، والجملة اعتراض وسط بين المبتدأ وهو الموصول والخبر الذي هو جملة ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ للترغيب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر تحصيله .

وقيل : المعنى لا نكلف نفساً إلا ما يثمر لها السعة أي جنة عرضها السموات والأرض وهو خلاف الظاهر وإن كانت الآية عليه لا تخلو عن ترغيب أيضاً .

وجوز أن يكون اسم الإشارة بدلاً من الموصول وما بعده خبر المبتدأ ، وما فيه من معنى

البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف .

وجوز أيضاً أن تكون جملة ﴿ لاَ نُكَلِّفُ ﴾ الخ خبر المبتدأ بتقدير العائد أي منهم .

وقوله سبحانه : ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ حال من ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ، وجوز كونه حالاً من ﴿ الجنة ﴾ لاشتماله على ضميرها أيضاً والعامل فيها معنى الإضافة أو اللام المقدرة .

وقيل : خبر لأولئك على رأي من جوزه .

و ﴿ فِيهَا ﴾ متعلق بخالدون قدم عليه رعاية للفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(226/269)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) ﴾

أُعقب الإنذار والوعيد للمكذّبين ، بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدّقين على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر .

وعُطف على : ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 40] أي : وإنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات إلخ ، لأنّ بين مضمون الجملتين مناسبة متوسّطة بين كمال الاتّصال وكمال الانقطاع ، وهو التّضاد بين وصف المسندِ إليهما في الجملتين ، وهو التّكذيب بالآيات والإيمانُ بها ، وبين حكم المسنَدَيْن وهو العذابُ والنّعيم ، وهذا من قبيل الجامع الوهمي المذكور في أحكام الفصل والوصل من عِلم المعاني .

ولم يذكر متعلِّقٌ ل ﴿ آمنوا ﴾ لأنّ الإيمان صار كاللّقب للإيمان الخاص الذي جاء به دين الإسلام وهو الإيمان بالله وحده .

واسم الإشارة مبتدأ ثان ، و ﴿ أصحاب الجنّة ﴾ خبره والجملة خبر عن ﴿ الذين آمنوا ﴾ .

وجملة ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج .

وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين ، لأنّه لمّا بشّرهم بالجنّة على فعل الصّالحات أطْمن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصّالحة بما يخرج عن الطّاقة ، حتّى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنّة ، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم ، فإنّ ذلك يرضي ربّهم .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أنّه قال ، في هذه الآية ، إلاّ يُسرها لا عُسْرها أي قاله على وجه التّفسير لا أنّه قراءة .

والوُسْع تقدّم في قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ في سورة البقرة (286) .

(227/269)

ودلّ قوله : أولئك أصحاب الجنة ﴾ على قصر ملازمة الجنّة عليهم ، دون غيرهم ، ففيه تأييس آخر للمشركين بحيث قويت نصيّة حرمانهم من الجنّة ونعيمها ، وجملة : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ حال من اسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(228/269)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ،

ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو في مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف ب " افعل ولا تفعل " وذلك في حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال في أهل النار : ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا واستكبروا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط وكذلك نَجْزِي المجرمين ﴾ [الأعراف : 40]

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق : ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وكذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ [الأعراف : 41]

في الأولى قال : – سبحانه – ﴿ وكذلك نَجْزِي المجرمين ﴾ .

وفي الثانية قال : ﴿ وكذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ .

فكأن الإجرام كان سبباً في ألا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً في أن يكون من فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد ، وهم في النار يحيطهم سرداقها .

(229/269)

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التي تكرهنا في أصحاب النار وفي سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وسبب بشاعة جزائهم ثانياً ؛ أن تتلهف على المقابل . فقال سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : 42]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ جاء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضي ؛ لأن أسلوب يقتضي إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود في الجنة ، وجاءت ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ فهذا عمل قلبي ، ونسمع بعده ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أي بعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو يسهل دائما السلوك الإيماني ويجعل مشاق التكاليف في الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أني قد كلفتكم فوق

طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما في الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولي : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ هو رغبة في إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك في قدرتكم لأنني المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف في وسع المكلَّف .

ونحن في حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذي يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدرتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد .

وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أيكلف الذي خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

(230/269)

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم لأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل

هذه المحرمات هو المذنب لا لصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم ب " افعل " و" لا تفعل " وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، لذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذي يضع في موضع الشطط .

فقال : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ . . . ﴾ [الطلاق : 7]

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أي ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا . . . ﴾ [الطلاق : 7]

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد أليك وعش في حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوي دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل في حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق . ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتاني الله ، لا ، عليك ألاَ تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت في نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التي تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك – على سبيل المثال – وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا في حدود ما في طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما في طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا في حدود ذلك .

ولذلك قال الحق : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : 42]

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت في الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفي ذلك لفت لقضايا الله في كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغني قد صار فقيراً ، فلا شيء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتي إلى الحالة الاقتصادية

ويوزعها على الخلق ، ونجد الذي لا يتأبى على قدر الله في رزقه وفي عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفي الجنة يُخلي الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(232/269)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " والَّذينَ آمَنُوا " مبتدأ ، وفي خبره وجهان :

أحدهما : أنه الجملة من قوله : ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً ﴾ ، وعلى هذا فلا بدّ من عائد وهو مقدَّرٌ ، وتقديرُهُ ، نفساً منهم .

والثاني : هو الجملة من قوله : " أولَئِكَ أصْحَابُ " ، وتكون هذه الجملة المنفيَّة معترضة بينهما ، وهذا الوجه أعرب ، وإنَّمَا حسن وقوع هذا الاعتراض بين المبتدأ والخبر ؛ لأنَّهُ من جنس هذا الكلام ؛ لأنَّهُ لمَّا ذكر عملهم الصالح ذكر أنَّ ذلك العمل في وسعهم ، وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تَنْبِيهٌ لكفار على أنَّ الجنَّة مع عظم محلِّها يوصل إليها بالعَمَل السَّهْلِ من

غير تحمل الصعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 116.117 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) ﴾

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فيسَّرنا عليهم الطاعاتِ بحسن التوفيق ، وخَفَّفْنَا عنهم العباداتِ بتقليل التكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 535 ﴾

(233/269)

قوله تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الدار لا تطيب إلا بحسن الجوار قال : ﴿ ونزعنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ﴿ ما ﴾ كان في الدنيا ﴿ في صدورهم من غل ﴾ أي ضغينة وحقد وغش من بعضهم على بعض يغل ، أي يدخل بلطف إلى صميم القلب ، ومن الغلول ، وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة ، ويقال : غل في الشيء وتغلغل فيه – إذا دخل فيه بلطافة كالحب يدخل في صميم الفؤاد ، حتى أن صاحب الدرجة السافلة لا يحسد صاحب العالية .

(234/269)

ولما كان حسن الجوار لا يلذ إلاّ بطيب القرار باحكام الدار ، وكان الماء سبب العمارة وطيب المنازل ، وكان الجاري منه أعم نفعاً وأشد استجلاباً للسرور قال تعالى ﴿ تجري من ﴾ وأشار إلى علوهم بقوله : ﴿ تحتهم الأنهار ﴾ فلما تمت لهم النعمة بالماء الذي به حياة كل حياة كل شيء فعرف أنه يكون عنه الرياض والأشجار وكل ما به حسن الدار ، أخبر عن تعاطيهم الشكر لله ولرسوله المستجلب للزيادة بقوله : ﴿ وقالوا الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة لذاته لا لشيء آخر ؛ ثم وصفوه بما يقتضي ذلك له لأوصافه أيضاً ، فقالوا معلمين أنه لا سبب لهم في

الوصول إلى النعيم غير النعيم غير فضله في الأولى والأخرى : ﴿ الذي هدانا ﴾ أي بالبيان والتوفيق ، وأوقعوا الهداية على ما وصلوا إليه إطلاقاً للمسبب على السبب ﴿ لهذا ﴾ أي للعمل الذي أوصلنا إليه ﴿ وما ﴾ أي والحال أنا ما ﴿ كنا لنهتدي ﴾ أصلاً لبناء جبلاتنا على خلاف ذلك ﴿ لولا أن هدانا الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، وقراءة ابن عامر بغير واو على أن الجملة موضحة لما قلبها ، والقراءتان دامغتان للقدرية .

ولما كان تصديقهم للرسل في الدنيا إيماناً بالغيب من باب علم اليقين ، أخبروا في الآخرة بما وصلوا إليه من عين اليقين سروراً وتبجحاً لا تعبداً ، وثناء على الرسل ومن أرسلهم بقولهم مفتتحين بحرف التوقع لأنه محله : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا ﴾ أي المحسن إلينا ﴿ بالحق ﴾ أي الثابت الذي يطابقه الواقع الذي لا زوال له .

(235/269)

ولما غبطوا أنفسهم وحقروها وأثبتوا الفضل لأهله ، عطف على قولهم قوله مانّاً عليهم بقبول أعمالهم ، ولما كان السار الإخبار عن الإيراث لا كونه من معين ، بني للمفعول قوله : ﴿ ونودوا ﴾ أي إتماماً لنعيمهم ﴿ أن ﴾ هي المخففة من الثقيلة أو هي المفسرة ﴿ تلكم الجنة ﴾ العالية ﴿ أورثتموها ﴾ أي صارت إليكم من غير تعب ولا منازع ﴿ بما ﴾ أي

بسبب ما ﴿كنتم تعملون﴾ لأنه سبحانه جعله سبباً ظاهرياً بكرمه ، والسبب الحقيقي هو ما ذكروه هم من توفيقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 34 . 35﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن نزع الشيء قلعه عن مكانه ، والغل العقد .

قال أهل اللغة : وهو الذي يغل بلطفه إلى صميم القلب ، أي يدخل ، ومنه الغلول وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة ، ويقال : انغل في الشيء ، وتغلغل فيه إذا دخل فيه بلطافة ، كالحب يدخل في صميم الفؤاد .

إذا عرفت هذا فنقول : لهذه الآية تأويلان :

القول الأول : أن يكون المراد أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا ، ومعنى نزع الغل : تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ومنعها من أن ترد على القلوب ، فإن الشيطان لما كان في العذاب لم يتفرغ لإلقاء الوساوس في القلوب ، وإلى هذا المعنى أشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ .

والقول الثاني : إن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان ، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب

الدرجة الكاملة .

قال صاحب "الكشاف" : هذا التأويل أولى من الوجه الأول ، حتى يكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبري بعض أهل النار من بعض ، ولعن بعضهم بعضاً ، ليعلم أن حال أهل الجنة في هذا المعنى أيضاً مفارقة لحال أهل النار .

(236/269)

فإن قالوا : كيف يعقل أن يشاهد الإنسان النعم العظيمة ، والدرجات العالية ، ويرى نفسه محروماً عنها عاجزاً عن تحصيلها ، ثم إنه لا يميل طبعه إليها ، ولا يغتم بسبب الحرمان عنها ، فإن عقل ذلك ، فلم لا يعقل أيضاً أن يعيدهم الله تعالى ، ولا يخلق فيهم شهوة الأكل ، والشرب والوقاع ، ويغنيهم عنها ؟

قلنا : الكل ممكن ، والله تعالى قادر عليه ، إلا أنه تعالى وعد بإزالة الحقد والحسد عن القلوب ، وما وعد بإزالة شهوة الأكل والشرب عن النفوس ، فظهر الفرق بين البابين .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنهار ﴾ والمعنى : أنه تعالى كما خلصهم من ربقة الحقد والحسد والحرص على طلب الزيادة فقد أنعم عليهم باللَّذات العظيمة ، وقوله : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنهار ﴾ من رحمة الله وفضله وإحسانه ، وأنواع المكاشفات

والسعادات الروحانية .

ثم حكى تعالى عن أهل الجنة أنهم قالوا : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ وقال أصحابنا : معنى ﴿ هَدَانَا الله ﴾ أنه أعطى القدرة ، وضم إليها الداعية الجازمة ، وصير مجموع القدرة وتلك الداعية موجباً لحصول تلك الفضيلة فإنه لو أعطى القدرة ، وما خلق تلك الداعية لم يحصل الأثر ، ولو خلق الله الداعية المعارضة أيضاً لسائر الدواعي الصارفة ، لم يحصل الفعل أيضاً .

أما لما خلق القدرة ، وخلق الداعية الجازمة ، وكان مجموع القدرة مع الداعية المعينة موجباً للفعل كانت الهداية حاصلة في الحقيقة بتقدير الله تعالى ، وتخليقه وتكوينه .

وقالت المعتزلة : التحميد إنما وقع على أنه تعالى أعطى العقل ووضع الدلائل ، وأزال الموانع ، وعند هذا يرجع إلى مباحث الجبر والقدر على سبيل التمام والكمال .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر "ما كنا" بغير واو وكذلك هو في مصاحف أهل الشام ، والباقون بالواو ، والوجه في قراءة ابن عامر أن قوله : ﴿ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ جار مجرى التفسير لقوله : ﴿ هَدَانَا لهذا ﴾ فلما كان أحدهما عين الآخر ، وجب حذف الحرف العاطف .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ دليل على أن المهتدي من هداه الله ، وإن لم يهده الله لم يهتد ، بل نقول : مذهب المعتزلة أن كل ما فعله الله تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام ، والأولياء من أنواع الهداية والإرشاد ، فقد فعله في حق جميع الكفار والفساق وإنما حصل الامتياز بين المؤمن والكافر ، والمحق والمبطل بسعي نفسه ، واختيار نفسه فكان يجب عليه أن يحمد نفسه ، لأنه هو الذي حصل لنفسه الإيمان ، وهو الذي أوصل نفسه إلى درجات الجنان ، وخلصها من دركات النيران ، فلما لم يحمد نفسه ألبتة ، وإنما حمد الله فقط .

علمنا أن الهادي ليس إلا الله سبحانه .

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ وهذا من قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً ، وقالوا : لقد جاءت رسل ربنا بالحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذلك النداء إما أن يكون من الله تعالى ، أو أن يكون من الملائكة ، والأولى أن يكون المنادي هو الله سبحانه .

المسألة الثانية :

ذكر الزجاج في كلمة "أن" ههنا وجهين : الأول : أنها مخففة من الثقيلة ، والتقدير : أنه والضمير للشأن ، والمعنى : نودوا بأنه تلكم الجنة أي نودوا بهذا القول .

والثاني : قال : وهو الأجود عندي أن تكون "أن" في معنى تفسير النداء ، والمعنى : ونودوا .

أي تلكم الجنة ، والمعنى : قيل لهم تلكم الجنة كقوله : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاْصْبِرُواْ ﴾ [ص : 6] يعني أي امشوا .

(238/269)

قال : إنما قال : "تلكم" لأنهم وعدوا بها في الدنيا .

فكأنه قيل : لهم هذه تلكم التي وعدتم بها وقوله : ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ فيه قولان :

القول الأول : وهو قول أهل المعاني أن معناه : صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله ،

والإرث قد يستعمل في اللغة ، ولا يراد به زوال الملك عن الميت إلى الحي كما يقال : هذا العمل يورثك الشرف ، ويورثك العار أي يصيرك إليه ، ومنهم من يقول : إنهم أعطوا تلك المنازل من غير تعب في الحال فصار شبيهاً بالميراث .

والقول الثاني : أن أهل الجنة يورثون منازل أهل النار .

قال صلى الله عليه وسلم : " ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزل فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ثم يقال يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون فيقسم بين أهل الجنة منازلهم " وقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

تعلق من قال العمل يوجب هذا الجزاء بهذه الآية فإن الباء في قوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تدل على العلية ، وذلك يدل على أن العمل يوجب هذا الجزاء ، وجوابنا : أنه علة للجزاء لكن بسبب أن الشرع جعله علة له ، لا لأجل أنه لذاته موجب لذلك الجزاء ، والدليل عليه أن نعم الله على العبد لا نهاية لها ، فإذا أتى العبد بشيء من الطاعات وقعت هذه الطاعات في مقابلة تلك النعم السالفة فيمتنع أن تصير موجبة للثواب المتأخر .

المسألة الثانية :

طعن بعضهم فقال : هذه الآية تدل على أن العبد إنما يدخل الجنة بعمله ، وقوله عليه السلام : " لن يدخل أحد الجنة بعمله وإنما يدخلها برحمة الله تعالى " وبينهما تناقض ، وجواب ما ذكرنا : أن العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته ، وإنما يوجه لأجل أن الله تعالى بفضله جعله علامة عليه ومعرفة له ، وأيضاً لما كان الموفى للعمل الصالح هو الله تعالى كان دخول الجنة في الحقيقة ليس إلا بفضل الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : قوله تعالى : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ خطاب عام في حق جميع المؤمنين ، وذلك يدل على أن كل من دخل الجنة فإنما يدخلها بعمله ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع قول من يقول : إن الفساق يدخلون الجنة تفضلاً من الله تعالى .

إذا ثبت هذا فنقول : وجب أن لا يخرج الفاسق من النار لأنه لو خرج لكان إما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها .

والثاني : باطل بالإجماع ، والأول : لا يخلو إما أن يدخل الجنة على سبيل التفضل أو على سبيل الاستحقاق ، والأول باطل ، لأنا بينا أن هذه الآية تدل على أن أحداً لا يدخل الجنة بالتفضل ، والثاني : أيضاً باطل لأنه لما دخل النار وجب أن يقال : إنه كان مستحقاً للعقاب فلو أدخل الجنة على سبيل الاستحقاق لزم كونه مستحقاً للثواب ، وحينئذ يلزم حصول

الجمع بين استحقاق الثواب واستحقاق العقاب وهو محال لأن الثواب منفعة دائمة خالصة عن شوائب الضرر والعقاب مضرة دائمة خالصة عن شوائب المنفعة والجمع بينهما محال .

وإذا كان كذلك كان الجمع بين حصول استحقاقهما محالاً .

والجواب : هذا بناء على أن استحقاق الثواب والعقاب لا يجتمعان .

وقد بالغنا في إبطال هذا الكلام في سورة البقرة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 66. 68 ﴾

(240/269)

وقال السمرقندى :

قوله عزّ وجل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قال بعضهم : أي في الدنيا أخرج الله تعالى الغل والحسد من قلوبهم ، وألف بين قلوبهم كما قال الله تعالى :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : 63] ويقال : هذا في الجنة يخرج الغل والحسد من قلوبهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعمر وعثمان

وعليّ ونحوهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تابعهم على سنتهم ومنهاجهم إلى يوم القيامة .

وقال عليّ بن أبي طالب لعمران بن طلحة بن عبيد الله : أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ فأنكر عليه بعضهم .

فقال عليّ : إن لم نكن نحن فمن هم ؟ يعني : إن الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في قلوبهم من الغل حتى ينزع عنهم ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم وقصورهم وأشجارهم الأنهار ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ أي أكرمنا بهذه الكرامة .

ويقال : إن الذي وفقنا للأمر الذي أوجب لنا هذا الثواب وهو الإسلام .

ويقال : هدانا لهاتين العينين .

(241/269)

وذلك أن أهل الجنة لما انتهوا إلى باب الجنة ، فإذا هم بشجرة تنبع من ساقها عينان ، فيعمدون إلى إحداهما ، فيشربون منها ، فيخرج الله تعالى ما كان في أجوافهم من غل وقذر

فذلك قوله تعالى : ﴿ عاليهم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] ثم يعمدون إلى الأخرى فيغتسلون فيها فيطيب الله تعالى أجسادهم من كل درن وحسد وجرت عليهم نضرة ولا تشعث رؤوسهم ، ولا تغبر وجوههم ، ولا تشحب أجسادهم أبداً ، تتلقاهم خزنة الجنة فينادون في التقديم أي : قبل أن يدخلوها ﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فقالوا بعد ما اغتسلوا من العينين ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ أي : وفقنا حتى اغتسلنا من هاتين العينين .

ويقال : لما دخلوا الجنة ونظروا إلى كراماتها قَالُوا : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا ﴾ يعني : لهذا الثواب ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ أي : ما كنا لولا أن وفقنا الله .

ذلك أنهم علموا أن الله تعالى له عليهم المن والفضل فيما أعطاهم .

قرأ ابن عامر ﴿ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ ﴾ بغير واو على الاستئناف .

وقرأ الباقون والواو وعلى معنى العطف .

﴿ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ يعني : جاءت رسل ربنا بالحق فصدقناهم ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ قال بعضهم : قبل أن يدخلوها قال لهم خزنة الجنة تلكم الجنة التي وعدتم .

ويقال بعد ما دخلوا بها يقال لهم : تلك الجنة أي : هذه الجنة التي ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ يعني :

أنزلتموها بإيمانكم واقتبستموها ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في دار الدنيا .

وهذا كما روي في الخبر أنه يقال لهم يوم القيامة : " جُوزُوا الصِّراطَ بِعَفْوِي وَادْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَاقْتَسِمُوها بِأَعْمَالِكُمْ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(242/269)

وقال الثعلبي :

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ وأخرجنا وأذهبنا ﴿ مَا فِي صُدُورِهِم ﴾ قلوبهم ﴿ مِّنْ غِلٍّ ﴾ وحقد وعداوة كان من بعضهم على بعض في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سرر متقابلين لا [يحسد] بعضهم بعض على شيء خص الله به بعضهم وفضلهم به ، روى الحسن بن عليّ (رضي الله عنه) قال : فينا والله أهل البيت نزلت ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : 47] .

وقال عليّ كرّم الله وجهه أيضاً : " إنّي لارجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم ﴾ الآية .

وقال السدي : في هذه الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما ، فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب

الطهور واغتسلوا من الأُخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يتسخوا بعدها أبداً .

(243/269)

وروى الجزائري عن أبي نضرة قال : تحتبس أهل الجنّة حتّى تقتص بعضهم من بعض حتى يدخلوا الجنّة حين يدخلونها ، ولا يطلب أحد منهم أحداً علاقة ظفر ظلمها إياه وتحبس أهل النار دون النار حتّى تقتص لبعضهم من بعض يدخلون النار حين يدخلونها ، ولا يطلب أحد منهم أحداً بعلاقة ظفر ظلمها أياه ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا ﴾ وفقنا وأرشدنا إلى هذا يعني طريق الجنّة وقال سفيان الثوري : معناه الحمد لله الذي هدانا لعمل هذا ثوابه ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أهل النار يرى منزلة مَنْ بالجنّة فيقولون : لو هدانا الله نكون [من المؤمنين] وكل أهل الجنّة ترى منزلة من بالنار ويقولون : لولا أنّه هدانا الله فهذا شكرهم قال : وليس [هناك] من كافر ولا مؤمن إلاّ وله في الجنّة أو النار منزل [فإذا] دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار فدخلوا منازلهم رفعت الجنّة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل لهم هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ، ثمّ يقال : يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون

فيقسم بين أهل الجنّة منازلهم ، ونودوا أن صحوا ولا تسقموا وأخلدوا فلا تموتوا وأنعموا ولا تيأسوا وشبّوا فلا تهرموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(244/269)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ . . . ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : الأهواء والبدع ، قاله سهل بن عبد الله .

والثاني : التباغض والتحاسد .

والثالث : الحقد .

والرابع : نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم . وفي نزعه وجهان :

أحدهما : أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه .

والثاني : ان ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزعه من صدورهم .

وفي هذا الغل قولان :

أحدهما : أنه غل الجاهلية ، قاله الحسن .

والثاني : أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان ، وقد روي عن علي بن أبي طالب كرم

الله وجهه أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

وقيل : إنها نزلت في أهل بدر .

ويحتمل قوله : ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذا ﴾ وجهين :

أحدهما : هدانا لنزع من صدورنا .

والثاني : هدانا لثبوت الإيمان في قلوبنا حتى نزع الغل من صدورنا .

وفيه وجه ثالث : قال جويبر : هدانا لمجاوزة الصراط ودخول الجنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(245/269)

وقال ابن عطية :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد ، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة ، وورد في الحديث " الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين " .

قال القاضي أبو محمد : ومعنى هذا الحديث إذا حمل على حقيقته ، أن الله عز وجل يخلق جوهراً يجعله حيث يرى كمبارك الإبل ، لأن الغل عرض لا يقول بنفسه ، وإن قيل إن هذه استعارة وعبر عن سقوطه عن نفوسهم فهذه الألفاظ على جهة التمثيل كما تقول فلان إذا دخل على الأمير ترك نخوته بالباب ملقاة فله وجه ، والأول أصوب وأجرى مع الشرع في أشياء كثيرة ، مثل قوله يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش فيذبح وغير ذلك ، وروى الحسن عن علي بن أبي طالب قال : فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ [الحجر : 47] وروي عنه أيضاً أنه قال : فينا والله نزلت ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ ، وذكر قتادة : أن علياً قال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو المعنى الصحيح ، فإن الآية عامة في أهل الجنة ، و" الغل " الحقد والإحنة الخفية في النفس وجمعه غلال ومنه الغلول أخذ في خفاء ومنه الانغلال في الشيء ، ومنه المغل بالأمانة ، ومنه قول علقمة بن عبدة :

سلاءة كعصا الهندي غل لها . . . ذو فيئة من نوى قران معجوم

وقوله : ﴿ من تحتهم الأنهار ﴾ بين لأن ما كان لاطئاً بالأرض فهو تحت ما كان منتصباً آخذاً في سماء ، و﴿ هدانا ﴾ بمعنى أرشدنا ، والإشاره بهذا تتجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى القرآن ، وقرأ ابن عامر وحده " ما كنا لنهتدي " بسقوط الواو من قوله : ﴿ وما كنا ﴾ ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام ، قال أبو علي : وجه سقوط الواو أن الكلام متصل مرتبط بما قبله ، ولما رأوا تصديق ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى وعاينوا إنجاز المواعيد قالوا : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فقضوا بأن ذلك حق قضاه من يحس وكانوا في الدنيا يقضون بأن ذلك حق قضاه من يستدل ﴿ ونودوا ﴾ أي قيل لهم بصياح ، وهذا النداء ، من قبل الله عز وجل ، و﴿ أن ﴾ يحتمل أن تكون مفسرة لمعنى النداء بمعنى أي ، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير مستتر تقديره أنه تلكم الجنة ، ونحو هذا قول الأعشى : [البسيط]

في فتية كسيوف الهند قد علموا . . . أن هالك كل من يحفى وينتعل

تقديره أنه هالك ، ومنه قول الآخر : [الوافر]

أكاشره ويعلم أنْ كلانا . . . على ما ساء صاحبه حريصُ

و﴿ تلكم الجنة ﴾ ابتداء وصفة و﴿ أورثتموها ﴾ الخبر و﴿ تلكم ﴾ إشارة فيها غيبة فإما لأنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إلى تلك ، أي تلكم هذه الجنة ، وحذفت هذه ، وإما قبل أن يدخلوها وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها ،

فكل غائب عن منزله ، وقوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله ، لكن بقرينة رحمته وتغمده ، والأعمال أمارة من الله وطريق إلى قوة الرجاء ، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله تعالى ، والقسم فيها على قدر العمل ، و" أورثتم " مشيرة إلى الأقسام ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر " أورثتموها " وكذلك الزخرف ، وقرأ أبو عمر وحمزة والكسائي " أورثموها " بإدغام الثاء في التاء وكذلك في الزخرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(247/269)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ ﴾

فيمن عني بهذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أهل بدر .

روى الحسن عن علي رضي الله عنه أنه قال : فينا والله أهل بدر نزلت : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ .

وروى عمرو بن الشريد عن عليٍّ أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا ، وعثمان ، وطلحة ،

والزبير ، من الذين قال الله : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ .

والثاني : أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا .

روى كثير النَّوَّاء عن أبي جعفر قال : نزلت هذه الآية في علي ، وأبي بكر ، وعمر ، قلت لأبي جعفر : فأي غل هو ؟ قال : غل الجاهلية ، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في الجاهلية شيء ، فلما أسلم هؤلاء ، تحابوا ، فأخذتْ أبا بكر الخاصرةُ ، فجعل عليٌّ يسخِّن يده ويكمِّد بها خاصرة أبي بكر ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أنهم عشرة من الصحابة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود ، قاله أبو صالح .

والرابع : أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها .

روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه تعالى وسلم أنه قال : " يخلُصُ المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا " وقال ابن عباس : أول ما يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين ، فيُذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ وغيره مما كان في الدنيا ، ثم يدخلون إلى العين الأخرى ، فيغتسلون منها فتُشرق ألوانهم ، وتصفو وجوههم ، وتجري عليهم نضرة النعيم .

فأما النزع : فهو قلع الشيء من مكانه .

والغل : الحقد الكامن في الصدر .

وقال ابن قتيبة : الغل : الحسد والعداوة .

(248/269)

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ قال الزجاج : معناه : هدانا لِما صيّرنا إلى هذا .

قال ابن عباس : يعنون ما وصلوا إليه من رضوان الله وكرامته .

وروى عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه قال : تستقبلهم الولدان كأنهم لؤلؤ منثور ، فيطوفون بهم كاطافتهم بالحميم جاء من الغيبة ، ويبشرونهم بما أعدَّ الله لهم ، ويذهبون إلى أزواجهم فيبشّرونهنَّ ، فيستخفهنَّ الفرح ، فيقمن على أُسْكُفَّةِ الباب ، فيقلن : أنت رأيته ، أنت رأيته ؟ قال : فيجيء إلى منزله فينظر في أساسه ، فإذا صخر من لؤلؤ ، ثم يرفع بصره ، فلولا أن الله ذلَّله لذهب بصره ، ثم ينظر أسفل من ذلك ، فإذا هو بالسُّرر الموضونة ، والفرش المرفوعة ، والزرابي المبثوثة ، فعند ذلك قالوا : ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ كلهم قرأ "وما كنَّا" باثبات الواو ، غير ابن عامر ، فانه قرأ :

"ما كنا لنهتديَ" بغير واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام .

قال أبو علي : وجه الاستغناء عن الواو ، أن القصة ملتبسة بما قبلها ، فأغنى التباسها به عن حرف العطف ، ومثله : ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] .

قوله تعالى : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانا .

﴿ ونودوا أن تلك الجنة ﴾ قال الزجاج : إنما قال "تلكم" لأنهم وعدوا بها في الدنيا ، فكأنه قيل لهم : هذه تلكم التي وُعدتم بها .

وجائز أن يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ أورثْتُموها ﴾ غير مدغمة .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ أورثتُّموها ﴾ مدغمة ، وكذلك قرؤوا في [الزخرف : 72] قال أبو علي : من ترك الادغام ، فلتباين مخرج الحرفين ، ومن أدغم ، فلأن التاء والثاء مهموستان متقاربتان ، وفي معنى ﴿ أورثتموها ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : ما روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فأما الكافر فانه يرث المؤمنَ منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة " فذلك قوله : ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ وقال بعضهم لما سمي الكفار أمواتاً بقوله : ﴿ أمواتٌ غير أحياء ﴾ [النحل : 21] .

وسمى المؤمنين أحياءً بقوله : ﴿ لتنذر من كان حياً ﴾ [يس : 70] أورث الأحياء الموتى .

والثاني : أنهم أورثوها عن الأعمال ، لأنها جُعلت جزاءً لأعمالهم ، وثواباً عليها ، إذ هي عواقبها ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : أن دخول الجنة برحمة الله ، واقتسامَ الدرجات بالأعمال ، فلما كان يفسَّر نيلها لا عن عوض ، سميت ميراثاً .

والميراث : ما أخذته عن غير عوض .

والرابع : أن معنى الميراث ها هنا : أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(250/269)

وقال القرطبى :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

ذكر الله عز وجل فيما ينعم به على أهل الجنة نزع الغِلِّ من صدورهم .

والنزع : الاستخراج .

والغِل : الحقد الكامن في الصدر .

والجمع غِلال .

أي أذهبنا في الجنة ما كان في قلوبهم من الغِل في الدنيا .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الغل على باب الجنة كمَبَارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين " وروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

وقيل : نزع الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل منازلهم .

وقد قيل أن ذلك يكون عن شراب الجنة ، ولهذا قال : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] أي يطهر الأوضَار من الصدور ؛ على ما يأتي بيانه في سورة "الإِنْسَانِ" و"الزُّمَر" إن شاء الله تعالى .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا ﴾ أي لهذا الثواب ؛ بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية .

وهذا ردّ على القدرية .

﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ قراءة ابن عامر بإسقاط الواو .

والباقون بإثباتها .

﴿ لِنَهْتَدِيَ ﴾ لام كي .

﴿ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ في موضع رفع .

﴿ ونودوا ﴾ أصله .

نودِيوا ﴿ أَن ﴾ في موضع نصب مخففة من الثقيلة ؛ أي بأنه ﴿ تِلْكُمُ الجنة ﴾ .

وقد تكون تفسيراً لما نودوا به ؛ لأن النداء قول ؛ فلا يكون لها موضع .

أي قيل لهم : "تِلْكُمُ الْجَنَّةُ" لأنهم وعدوا بها في الدنيا ، أي قيل لهم : هذه تلكم الجنة التي وعدتم بها ، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بعد .

وقيل : "تِلْكُمُ" بمعنى هذه .

ومعنى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله .

كما قال ﴿ ذلك الفضل مِنَ الله ﴾ [النساء : 70] وقال : وقال : ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ [النساء : 175] .

وفي صحيح مسلم : " "لن يُدخل أحداً منكم عَمَلُه الجنة" قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" " وفي غير الصحيح : ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزل ؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهلُ النار النارَ رُفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها ، فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله .

ثم يقال : يا أهل الجنة رِثُوهم بما كنتم تعملون ؛ فتقسم بين أهل الجنة منازلهم .

قلت : وفي صحيح مسلم : " لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً " فهذا أيضاً ميراث ؛ نعَم بفضله من شاء وعذب بعدله من شاء .

وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته ؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ، إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم .

وقِرىء "أُورِثْتُمُوهَا" من غير إدغام .

وقرىء بإدغام التاء في الثاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(252/269)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ يعني وقلعنا وأخرجنا ما في صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ودفعها عن أن ترد على القلب روي عن علي رضي الله عنه قال : فينا والله أهل بدر نزلت

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ وروي عنه أيضاً أنه قال إني لأرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ وقيل إن الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يخلص المؤمنون من النار يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا " وقال السدي في هذه الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحدهما

فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبداً .

(253/269)

وقيل إن درجات أهل الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض وأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية ، وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الإنسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل إليها ولا يميل بطبعه إليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وإن كان في لذة ونعيم وأجيب عن هذا بأن الله تعالى قد وعد بإزالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى إن أحدهم لا يرى نفسه إلا في كمال وزيادة في النعيم الذي هو فيه فيرضى بما هو فيه ولا يحسد أحداً أبداً وبهذا تم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته .

وقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ لما أخر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من إزالة الغل والحسد والحقد من صدورم أخبرنا بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ يعني أن المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا

الحمد لله الذي وفقنا وأرشدنا للعمل الذي هذا ثوابه وتفضل علينا رحمة منه وإحساناً وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ يعني وما كنا لنرشد لذلك العمل الذي هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله إليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفي الآية دليل على أن المهتدي من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ يعني أن أهل النعيم إذا دخلوها ورأوا ما أعد الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعني أنهم رأوا ما وعدهم به الرسل عياناً ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة ﴾ يعني : ونادى منادي أهل الجنة إن هذه الجنة التي كانت الرسل وعدتكم بها في الدنيا واختلفوا في المنادى فقيل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بأمر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون في الجنة (م) .

(254/269)

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون "

وقوله تعالى : ﴿ أورثتموها بما كنتم تعلمون ﴾ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة " زاد في رواية فذلك قوله تعالى : ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتاً بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حياً بقوله : لينذر من كان حياً وفي الشرع أن الأحياء يرثون الأموات فقال أورثتموها يعني أن المؤمن حي وهو يرث الكافر منزله من الجنة لأنه في حكم الميت .

وقيل معناه أن أمرهم يؤول إلى الجنة كما أن الميراث يؤول إلى الوارث ، وقيل : أورثتموها عن الأعمال الصالحة التي عملتموها لأن الجنة جعلت لهم جزاء وثواباً على الأعمال ويعارض هذا القول ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " لن يدخل الجنة أحد بعمله وإنما يدخلها برحمة الله " فإن دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال .

وقيل إن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله تعالى وتوفيقه وإذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثواباً وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي أذهبنا في الجنة ما انطوت عليه صدورهم من الحقود .

وقيل نزع الغل في الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل منازلهم ، وقال الحسن : غلّ الجاهلية ، وقال سهل بن عبد الله الأهواء والبدع ، وروي عن عليّ كرم الله وجهه فينا والله أهل بدر نزلت وعنه إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قيل فيهم ﴿ ونزعنا ﴾ الآية ، والذي يظهر أنّ النزع للغل كناية عن خلقهم في الآخرة سالمي القلوب طاهريها متوادّين متعاطفين ، كما قال ﴿ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ و ﴿ تجري ﴾ حال قاله الحوفي قال : والعامل فيه ﴿ نزعنا ﴾ ، وقال أبو البقاء : حال والعامل فيها معنى الإضافة وكلا القولين لا يصح لأن ﴿ تجري ﴾ ليس من صفات الفاعل الذي هو ضمير ﴿ نزعنا ﴾ ولا صفات المفعول الذي هو ﴿ ما في صدورهم ﴾ ولأن معنى الإضافة لا يعمل إلا إذا كانت إضافة يمكن للمضاف أن يعمل إذا جرّد من الإضافة رفعاً أو نصباً فيما بعده والظاهر أنه خبر مستأنف عن صفة حالهم .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ أي وفّقنا لتحصيل هذا النعيم الذي صرنا إليه بالإيمان والعمل الصالح إذ هو نعمة عظيمة يجب عليهم بها حمده والثناء عليه تعالى ، وقيل : الهداية هنا هو الإرشاد إلى طريق الجنة ومنازلهم فيها وفي الحديث " أنّ أحدهم أهدى إلى منزله في الجنة من منزله في الدنيا " ، وقيل : الإشارة بهذا إلى العمل الصالح الذي هذا جزاؤه ، وقيل إلى الإيمان الذي تأهّلوا به لهذا النعيم المقيم ، وقال الزمخشري : أي وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح انتهى ، وفي لفظه واجب والعمل الصالح دسيسة الاعتزال ، وقال أبو عبد الله الرازي معنى ﴿ هدانا ﴾ الله أعطانا القدرة وضمّ إليها الدّاعية الجازمة ، وصير مجموعهما لحصول تلك الفضيلة وقالت المعتزلة التّحميد إنما وقع على أنه تعالى خلق العقل ووضع الدلائل وأزال الموانع انتهى ، وفي صحيح مسلم " إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ أنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وأنّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وأنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً وأنّ لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً " فلذلك ﴿ قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ .

﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ أي وما كانت توجد منا أنفسنا وجدها الهداية لولا أن الله هدانا وهذه الجملة توضح أن الله خالق الهداية فيهم وأنهم لو خلوا وأنفسهم لم

تكن منهم هداية ، وقال الزمخشري : وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله تعالى وتوفيقه ، وقال أبو البقاء : والواو للحال ويجوز أن تكون مستأنفة انتهى ، والثاني : أظهر .

(257/269)

وقرأ ابن عامر ﴿ ما كنا ﴾ بغير واو وكذا هي في مصاحف أهل الشام وهي على هذا جملة موضحة للأولى ومن أجاز فيها الحال مع الواو ينبغي أن يجيزها دونها ، والذي تقتضيه أصول العربية أنّ جواب ﴿ لولا ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أي ﴿ لولا أن هدانا الله ﴾ ما كنا لنهتدي أو لضللنا لأنّ ﴿ لولا ﴾ للتعليق فهي في ذلك كأدوات الشرط على أنّ بعض الناس خرج قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربّه ﴾ على أنه جواب تقدم وهو قوله ﴿ وهم بها ﴾ وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى ، وهذا على مذهب جمهور البصريين في منع تقديم جواب الشرط .

﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحقّ ﴾ أي بالموعود الذي وعدنا في الدنيا قضوا بأنّ ذلك حقّ قضاء مشاهدة بالحسّ وكانوا في الدنيا يقضون بذلك بالاستدلال ، وقال الكرماني : وقع الموعود به على ما سبق به الوعد ، وقال الزمخشري فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون : ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا وتلذّذا بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً كما ترى

من رزق خيراً في الدنيا يتكلّم بنحو ذلك ولا يتمالك أن يقوله للفرح لا للقربة .

﴿ ونودوا أنّ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ يحتمل أن يكون النداء من الله وهو أسرّ لقلوبهم وأرفع لقدرهم ويحتمل أن يكون من الملائكة وأن يحتمل أن تكون المخففة من الثقيلة أي ﴿ ونودوا ﴾ بأنه ﴿ تلكم الجنة ﴾ واسمها ضمير الشأن يحذف إذا خفّفت ويحتمل أن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة لوجود شرطها وهما أن يكون قبلها جملة في معنى القول وبعدها جملة وكأنه قيل : ﴿ تلكم الجنة ﴾ .

(258/269)

قال ابن عطية ﴿ تلكم ﴾ إشارة إلى غائبة فإما لأنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إلى تلك أي ﴿ تلكم ﴾ هذه ﴿ الجنة ﴾ وحذفت هذه وإما قبل أن يدخلوها وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها فكل غائب عن منزله انتهى ، وفي كتاب التحرير و ﴿ تلكم ﴾ إشارة إلى غائب وإنما قال هنا ﴿ تلكم ﴾ لأنهم وعدوا بها في الدنيا فلأجل الوعد جرى الخطاب بكلمة العهد قوله صلى الله عليه وسلم للصديق في الاستخبار عن عائشة "كيف تيكم للعهد السابق " انتهى ، ﴿ والجنة ﴾ جوّزوا فيها أن تكون خبراً لتلكم و ﴿ أورثتموها ﴾ حال كقوله ﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ قال أبو البقاء : حال من

﴿ الجنة ﴾ والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ولا يجوز أن تكون حالاً من تلك للفصل بينهما بالخبر ولكون المبتدأ لا يعمل في الحال انتهى ، وفي العامل في الحال في مثل هذا زيد قائماً خلاف في النحو وأن يكون نعتاً وبدلاً و ﴿ أورثتموها ﴾ الخبر أدغم النحويان وحمزة وهشام الثاء في التاء وأظهرها باقي السبعة ومعنى ﴿ أورثتموها ﴾ صيرت لكم كالإرث وأبعد من ذهب إلى أنّ المعنى أورثتموها عن آبائكم لأنها كانت منازلهم لو آمنوا فحرموها بكفرهم وبعده إنّ ذلك عامّ في جميع المؤمنين ولم تكن آباؤهم كلهم كفاراً والباء في ﴿ بما ﴾ للسبب المجازي والأعمال أمارة من الله ودليل على قوة الرجاء ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله والقسم فيها على قدر العمل ولفظ ﴿ أورثتموها ﴾ مشير إلى الأقسام وليس ذلك واجباً على الله تعالى ، وقال الزمخشري : ﴿ أورثتموها ﴾ بما كنتم تعملون بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة انتهى ، وهذا مذهب المعتزلة ، وفي صحيح مسلم " لن يدخل الجنة أحد بعمله " قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : " ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

أي نخرج من قلوبهم أسبابَ الغل أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التوادُّ . وصيغةُ الماضي للإيذان بتحققه وتقررِه ، وعن علي رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ زيادةٌ في لذتهم وسرورهم ، والجملةُ حالٌ من الضمير في صدورهم والعاملُ إما معنى الإضافة وإما العاملُ في المضاف أو حال من فاعل نزعنا والعاملُ نزعنا وقيل : هي مستأنفةٌ للإخبار عن صفة أحوالِهم ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ أي لما جزاؤُه هذا ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ ﴾ أي لهذا المطلبِ الأعلى أو لمطلب من المطالب التي هذا من جملتها ﴿ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ ووفقنا له ، واللام لتأكيد النفي وجوابُ لولا محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله عليه ، ومفعولُ نهتدي وهدانا الثاني محذوفٌ لظهور المرادِ أو لإرادة التعميمِ كما أشير إليه ، والجملةُ مستأنَفةٌ أو حالية وقرىء ما كنا لنهتديَ الخ ، بغير واو على أنها مبيّنة ومفسرةٌ للأولى .

(260/269)

﴿ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا ﴾ جوابُ قسمٍ مقدر قالوه تبجّحاً واغتباطاً بما نالوه وابتهاجاً بإيمانهم بما جاءتهم الرسلُ عليهم السلام والباء في قوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ إما للتعدية فهي متعلقةٌ بجاءت أو للملابسة فهي متعلقةٌ بمقدرٍ وقع حالاً من الرسل أي والله لقد جاءوا بالحق أو لقد جاءوا ملتبسين بالحق ﴿ وَنُودُواْ ﴾ أي نادتهم الملائكةُ عليهم السلام ﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ أنْ مفسرةٌ لما في النداء من معنى القولِ أو مخففةٌ من أنّ وضمير الشأنِ محذوفٌ ، ومعنى البُعدِ في اسم الإشارةِ إما لأنهم نُودوا عند رؤيتهم إياها من مكان بعيد ، وإما رفع منزلتِها وبُعدِ رتبتِها ، وإما للإشعار بأنها تلك الجنةَ التي وُعدوها في الدنيا ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحةِ أي أُعطيتموها بسبب أعمالِكم أو بمقابلة أعمالِكم والجملةُ حال من الجنة والعاملُ معنى الإشارةِ على أن (تلكم الجنةُ) مبتدأٌ وخبرٌ ، أو الجنةُ صفةٌ والخبرُ أورثتموها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(261/269)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

أي قلعنا ما في قلوبهم من حقد مخفي فيها وعداوة كانت بمقتضى الطبيعة لأمور جرت بينهم في الدنيا .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال : "إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة (فبلغوها) وجدوا عند بابها شجرة ، في أصل ساقها عينان (فيشربون) من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور (ويغتسلون) من الأخرى (فتجري) عليهم نضرة النعيم (فلن) يشعثوا (ولن) (5) (يشحبوا) بعدها أبداً" .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعض على بعض غل " .

وقيل : المراد طهرنا قلوبهم وحفظناها من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب بحيث لا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة الرفيعة .

وهذا في مقابلة ما ذكره سبحانه من لعن أهل النار بعضهم بعضاً .

وأياً ما كان فالمراد ننزع لأنه في الآخرة إلا أن صيغة الماضي للإيذان بتحققه .

وقيل : إن هذا النزع إنما كان في الدنيا ، والمراد عدم اتصافهم بذلك من أول الأمر إلا أنه عبر عن عدم الاتصاف به مع وجود ما يقتضيه حسب البشرية أحياناً بالنزع مجازاً ، ولعل هذا بالنظر إلى كمل المؤمنين كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم رحماء بينهم

يحب بعضهم بعضاً كمحبته لنفسه أو المراد إزالته بتوفيق الله تعالى قبل الموت بعد أن كان بمقتضى الطباع البشرية .

ويحتمل أن يخرج على الوجهين ما أخرجه غير واحد عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في هذه الآية : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، ويقال على الثاني فيما وقع مما ينبىء بظاهره عن الغل .

إنه لم يكن إلا عن اجتهاد إعلاءاً لكلمة الله تعالى .

ولا يخفى بعد هذا المعنى وإن ساعده ظاهر الصيغة .

(262/269)

و ﴿ مِّنْ غِلٍّ ﴾ على سائر الاحتمالات حال من (ما) .

وقوله سبحانه : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ حال أيضاً إما من الضمير في ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ لأن المضاف جزء من المضاف إليه والعامل معنى الإضافة أو العامل في المضاف ، وإما من ضمير ﴿ نزعنا ﴾ على ما قيل والعامل الفعل .

واختار بعضهم أن الجملة مستأنفة للإخبار عن صفة أحوالهم .

والمراد تجري من تحت غرفها مياه الأنهار زيادة في لذتهم وسرورهم .

﴿ الأنهار وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ الفوز العظيم والنعيم المقيم .

والمراد الهداية لما أدى إليه من الأعمال القلبية والقالبية مجازاً وذلك بالتوفيق لها وصرف الموانع عن الاتصاف بها .

وقيل : المراد من الهداية لما هم فيه من النعيم مجاوزة الصراط إلى أن وصلوا إليه .

ومن الناس من جعل الإشارة إلى نزع الغل من الصدور ولا أراه شيئاً ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ ﴾ أي لهذا أو لمطلب من المطالب التي هذا من جملتها ﴿ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ وفقنا له ، واللام لتأكيد النفي وهي المسماة بلام الجحود وجواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وليس إياه لامتناع تقدم الجواب على الصحيح ومفعول ﴿ نهتدي ﴾ .

﴿ وهدانا ﴾ الثاني محذوف لظهور المراد أو لإرادة التعميم كما أشير إليه ، والجملة حالية أو استئنافية ، وفي مصاحف أهل الشام ﴿ نَعْقِلُ مَا كُنَّا ﴾ بدون واو وهي قراءة ابن عامر فالجملة كالتفسير للأولى ، وهذا القول من أهل الجنة لإظهار السرور بما نالوا والتلذذ بالتكلم به لا للتقرب والتعبد فإن الدار ليست لذلك ؛ وهذا كما ترى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو هذا ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة .

وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ جملة قسمية لم يقصد بها التقرب أيضاً وهي بيان لصدق وعد الرسل عليهم السلام إياهم بالجنة على ما نص عليه بعض الفضلاء ، وقيل : تعليل لهدايتهم .

والباء إما للتعدية فهي متعلقة بجاءت أو للملابسة فهي متعلقة بمقدر وقع حالاً من الرسل ، ولا يخفى ما في هذه الآية من الرد الواضح على القدرية الزاعمين أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى ولم يخلق الله تعالى له ذلك ، ودونك فاعرض قول المعتزلة في الدنيا المهتدي من اهتدى بنفسه على قول الله تعالى حكاية عن قول الموحدين في مقعد صدق ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به ولا أراك أيها العاقل تعدل بما نوه الله تعالى به قول ضال يتذبذب مع هواه وتعصبه .

ولما رأى الزمخشري هذه الآية كافحة في وجوه قومه فسر الهدى باللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه ، وهو لعمري كلام من حرم اللطف نسأل الله تعالى العفو والعافية .

﴿ وَنُودُواْ ﴾ أي نادتهم الملائكة ، وجوز بعضهم احتمال أن المنادي هو الله ، والآثار تؤيد الأول .

﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ أي أي تلكم على أن ﴿ إن ﴾ مفسرة لما في النداء من معنى القول ، ويجوز أن تكون مخففة من أن وحرف الجر مقدر واسمها ضمير شأن محذوف أي بأنها أو بأنه تلكم ، وأوجب البعض الثاني بناءً على أنه يجب أن يؤنث ضمير الشأن إذا كان المسند

إليه في الجملة المفسرة مؤنثاً ، والصحيح عدم الوجوب على ما صرح به ابن الحاجب وابن مالك ، ومعنى البعد في اسم الإشارة إما لرفع منزلتها وبعد مرتبتها ، وإما لأنهم نودوا عند رؤيتهم إياها من مكان بعيد ، وإما للإشعار بأنها تلك الجنة التي وعدوها في الدنيا وإليه يشير كلام الزجاج.

(264/269)

والظاهر أن ﴿ تِلْكُمُ الجنة ﴾ مبتدأ وخبر وقوله سبحانه : ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة ويجوز أن تكون الجنة نعتاً لتلكم أو بدلاً و ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ الخبر ، ولا يجوز أن يكون حالاً من المبتدأ ولا من كم كما قاله أبو البقاء وهو ظاهر ، والتزم بعضهم في توجيه البعد أن ﴿ تِلْكُمُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذه تلكم الجنة الموعودة لكم قبل أو مبتدأ حذف خبره أي تلك الجنة التي أخبرتم عنها أو وعدتم بها في الدنيا هي هذه ولا حاجة إليه .

والمنادى له أولاً وبالذات كونها موروثة لهم وما قبله توطئة له ، والميراث مجاز عن الإعطاء أي أعطيتموها .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة ، والباء للسببية وتجوز بذلك عن

الإعطاء إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً وإن كان سبباً بحسب الظاهر كما أن الإرث ملك بدون كسب وإن كان النسب مثلاً سبباً له ، والباء في قوله صلى الله عليه وسلم على ما في بعض الكتب : " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " وكذا في قوله عليه الصلاة والسلام على ما في "الصحيحين" من حديث أبي هريرة وجابر " لن ينجو أحد منكم بعمله " للسبب التام فلا تعارض ، وجوز أن تكون الباء فيما نحن فيه للعوض أي بمقابلة أعمالكم ، وقيل : تلك الإشارة إلى منازل في الجنة هي لأهل النار لو كانوا أطاعوا جعلها الله تعالى إرثاً للمؤمنين ، فقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال : "ما من مؤمن ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل (مبين) فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل (لهم) هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله تعالى ثم يقال : يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون (فيقتسم) أهل الجنة منازلهم" ، وأنت تعلم أن القول بهذا الإرث الغريب لا يدفع الحاجة إلى المجاز .

(265/269)

وزعم المعتزلة أن دخول الجنة بسبب الأعمال لا بالتفضل لهذه الآية ، ولا يخفى أنه لا محيص لمؤمن عن فضل الله تعالى لأن اقتضاء الأعمال لذاتها دخول الجنة أو إدخال الله تعالى ذويها

فيها مما لا يكاد يعقل ، وقصارى ما يعقل أن الله تعالى تفضل فرتب عليها دخول الجنة فلولا فضله لم يكن ذلك ، وأنا لا أرى أكثر جرأة من المعتزلة في هذا الباب ككثير من الأبواب فإن مآل كلامهم فيه أن الجنة ونعيمها الذي لا يتناهى إقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى الذي لا ينتفع بشيء ولا يتضرر بشيء لا تفضل له عليهم في ذلك بل هو بمثابة دين أدى إلى صاحبه سبحانك هذا بهتان عظيم وتكذيب لغير ما خبر صحيح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(266/269)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

انتساق النّظم يقتضي أن تكون جملة : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ حالاً من الضّمير في قوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 42] ، وتكونَ جملة : ﴿ ونزعنا ﴾ مُعترضة بين جملة : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 42] ، وجملة : ﴿ وقالوا الحمد لله ﴾ إلخ ، اعترضاً بُيِّنَ به حال نفوسهم في المعاملة في الجنّة ، ليقابِل الاعتراض الذي أُدمِج في أثناءِ وصف عذاب أهل النّار ، والمبيّن به حال نفوسهم في

المعاملة بقوله : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ [الأعراف : 38] .

والتّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتّنبيه على تحقّق وقوعه ، أي : وننزع ما في صدورهم من غِل ، وهو تعبير معروف في القرآن كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] .

والنّزْع حقيقته قلع الشّيء من موضعه وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ في آل عمران (26) ، ونَزْع الغِل من قلوب أهل الجنّة : هو إزالة ما كان في قلوبهم في الدّنيا من الغِلّ عند تلقي ما يسوء من الغَيْر ، بحيث طَهّر الله نفوسهم في حياتها الثّانية عن الانفعال بالخواطر الشرّية التي منها الغِلّ ، فزال ما كان في قلوبهم من غِلّ بعضهم من بعض في الدّنيا ، أي أزال ما كان حاصلاً من غلّ وأزال طباع الغلّ التي في النّفوس البشرّية بحيث لا يخطر في نفوسهم .

والغِلّ : الحقد والإحْنَة والضِغْن ، التي تحصل في النّفس عند إدراك ما يسوؤها من عمل غيرها ، وليس الحسد من الغِلّ بل هو إحساس باطني آخر .

وجملة : تجري من تحتهم الأنهار ﴾ في موضع الحال ، أي هم في أمكنة عالية تشرف على أنهار الجنّة .

وجملة : ﴿ وقالوا الحمد لله ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : 42] .

والتّعبير بالماضي مراد به المستقبل أيضاً كما في قوله : ﴿ ونزعنا ﴾ وهذا القول يحتمل أن يكونوا يقولونه في خاصتهم ونفوسهم ، على معنى التّقرب إلى الله بحمده ، ويحتمل أن يكونوا يقولونه بينهم في مجامعهم .

والإشارة في قولهم : ﴿ لهذا ﴾ إلى جميع ما هو حاضر من النّعيم في وقت ذلك الحمد ، والهداية له هي الإرشاد إلى أسبابه ، وهي الإيمان والعمل الصّالح ، كما دلّ عليه قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [الأعراف : 42] ، وقال تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ [يونس : 9] الآية ، وجعل الهداية لنفس النّعيم لأنّ الدّلالة على ما يوصل إلى الشّيء إنّما هي هداية لأجل ذلك الشّيء ، وتقدّم الكلام على فعل الهداية وتعديته في سورة الفاتحة (6) .

والمراد بهَدْي الله تعالى إياهم إرساله محمّداً صلى الله عليه وسلم إليهم فأيقظهم من غفلتهم فاتَّبعوه ، ولم يعاندوا ، ولم يستكبروا ، ودلّ عليه قولهم : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ مع ما يسّر الله لهم من قبولهم الدّعوة وامتثالهم الأمر ، فإنّه من تمام المنّة المحمود عليها ، وهذا التّيسير هو الذي حُرِمه المكذّبون المستكبرون لأجل ابتدائهم بالتّكذيب والاستكبار ، دون النّر والاعتبار .

وجملة ﴿ وما كنا لنهتدي ﴾ في موضع الحال من الضّمير المنصوب ، أي هدانا في هذه

الحال حال بعدنا عن الاهتداء ، وذلك ممّا يؤذن بكبر منّة الله تعالى عليهم ، وبتعظيم حمدهم وتجزيله ، ولذلك جاءوا بجملة الحمد مشتملة على أقصى ما تشتمل عليه من الخصائص التي تقدّم بيانها في سورة الفاتحة (6) .

(268/269)

ودلّ قوله : ﴿ وما كنا لنهتدي ﴾ على بعد حالهم السّالفة عن الاهتداء ، كما أفاده نفي الكَون مع لام الجحود ، حسبما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوءة ﴾ الآية في سورة آل عمران (79) ، فإنّهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة قد رسخت في أنفسهم ، فأمّا قادتهم فقد زيّنها الشّيطان لهم حتى اعتقدوها وسنّوها لمن بعدهم ، وأمّا دَهْمَاؤُهم وأخلافهم فقد رأوا قدوتهم على تلك الضّلالات . وتأصّلت فيهم ، فما كان من السّهل اهتداؤُهم ، لولا أنْ هداهم الله ببعثة الرّسل وسياستهم في دعوتهم ، وأن قذف في قلوبهم قبول الدّعوة .

ولذلك عقبوا تحميدهم وثناءهم على الله بقولهم : لقد جاءت رسل ربنا بالحقّ ﴾ فتلك جملة مستأنفة ، استئنافاً ابتدائياً ، لصدورها عن ابتهاج نفوسهم واغتباطهم بما جاءتهم به الرّسل ، فجعلوا يتذكّرون أسباب هدايتهم ويعتبرون بذلك ويغتبطون .

تلذذاً بالتّكلّم به ، لأن تذكّر الأمر المحبوب والحديثَ عنه ممّا تلذّ به النّفوس ، مع قصد الثّناء على الرّسل .

وتأكيد الفعل بلام القسم وبقَدْ ، مع أنهم غير منكرين لمجيء الرسل : إما لأنّه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرّسل من النّعيم لما وجدوه مثل قوله تعالى : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] وقول النّبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : " أعددت " .

وإمّا لأنّهم أرادوا بقولهم هذا الثّناء على الرّسل والشّهادة بصدقهم جمعاً مع الثّناء على الله ، فأتَوا بالخبر في صورة الشّهادة المؤكّدة التي لا تردّد فيها .

وقرأ ابن عامر : ﴿ ما كنّا لنهتدي ﴾ بدون واو قبل (ما) وكذلك كتبت في المصحف الإمام الموجّه إلى الشّام ، وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة مفصولة عن التي قبلها ، على اعتبار كونها كالتّعليل للحمد ، والتّنويه بأنّه حمد عظيم على نعمة عظيمة ، كما تقدّم بيانه .

(269/269)

وجملة : ﴿ ونودوا ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ وقالوا ﴾ فتكون حالاً أيضاً ، لأنّ هذا النّداء جواب لثنائهم ، يدلّ على قبول ما أثْنَوا به ، وعلى رضى الله عنهم ، والنّداء من قبل

الله ، ولذلك بُني فعله إلى المجهول لظهور المقصود .

والنّداء إعلان الخطاب ، وهو أصل حقيقته في اللّغة ، ويطلق النّداء غالباً على دعاء أحد ليقبل بذاته أو بفهمه لسماع كلام ، ولو لم يكن برفع صوت : ﴿ إذ نادى ربَّه نداء خفياً ﴾ [مريم : 3] ولهذا المعنى حروف خاصة تدلّ عليه في العربيّه ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وناداهما ربهما ﴾ في هذه السّورة (22) .

و(أنْ) تفسير ﴿ لنودوا ﴾ ، لأنّ النّداء فيه معنى القول .

والإشارة إلى الجنّة بـ ﴿ تلكم ﴾ ، الذي حقّه أن يستعمل في المشار إليه البعيد ، مع أنّ الجنّة حاضرة بين يديهم ، لقصد رفعة شأنها وتعظيم المنّة بها .

والإرث حقيقته مصير مال الميت إلى أقرب النّاس إليه ، ويقال : أورثَ الميّت أقرباءه ماله ، بمعنى جعلهم يرثونه عنه ، لأنّه لما لم يصرفه عنهم بالوصيّة لغيره فقد تركه لهم ، ويطلق مجازاً على مصير شيء إلى حد بدون عوض ولا غصب تشبيهاً بإرث الميّت ، فمعنى قوله : ﴿ أورثتموها ﴾ أعطيتموها عطيّة هنيئة لا تعب فيها ولا منازعة .

والباء في قوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ سببيّة أي بسبب أعمالكم ، وهي الإيمان والعمل الصّالح ، وهذا الكلام ثناء عليهم بأنّ الله شكر لهم أعمالهم ، فأعطاهم هذا النّعيم الخالد لأجل أعمالهم ، وأنّهم لما عملوا ما عملوه من العمل ما كانوا ينوون بعملهم إلا السّلامة من غضب ربّهم وتطلبَ مرضاته شكراً له على نعمائه ، وما كانوا يُمَنّون بأن توصلهم أعمالهم

إلى ما نالوه ، وذلك لا ينافي الطّمع في ثوابه والنّجاة من عقابه ، وقد دلّ على ذلك الجمعُ بين ﴿ أورثتموها ﴾ وبين باء السّببيّة .

(270/269)

فالإيراث دلّ على أنّها عطيّة بدون قصد تعاوُضٍ ولا تعاقُد ، وأنّها فضلٌ محض من الله تعالى ، لأنّ إيمان العبد بربّه وطاعته إياه لا يوجب عقلاً ولا عدْلاً إلاّ نجاتَه من العقاب الذي من شأنه أن يترتّب على الكفران والعصيان ، وإلاّ حُصولَ رضى ربّه عنه ، ولا يوجب جزاء ولا عطاء ، لأنّ شكر المنعم واجب ، فهذا الجزاء وعظمته مجرّد فضل من الرّب على عبده شكراً لإيمانه به وطاعته ، ولكن لما كان سبب هذا الشّكر عند الرّب الشّاكر هو عمل عبده بما أمره به ، وقد تفضّل الله به فوعد به من قبلِ حصوله .

فمن العجب قول المعتزلة بوجوب الثّواب عقلاً ، ولعلّهم أوقعهم فيه اشتباه حصول الثّواب بالسّلامة من العقاب ، مع أنّ الواسطة بين الحالين بيّنة لأولي الألباب .

وهذا أحسن ممّا يطيل به أصحابنا معهم في الجواب .

وباء السّببيّة اقتضت الذي أعطاهم منازل الجنّة أراد به شكر أعمالهم وثوابها من غير

قصد تعاوض ولا تقابل فجعلها كالشيء الذي استحقّه العامل عوضاً عن عمله فاستعار لها باء السّببيّة. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير جـ 8 صـ ﴾

(271/269)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ)

هَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنْ جَزَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ، الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ، بِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْبَيَانِ، قَالَ:

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ) لِمُفَسِّرِي السَّلَفِ فِي تَفَتُّحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ قَوْلَانِ لَا يَتَنَافَيَانِ. (أَحَدُهُمَا) أَنَّ مَعْنَاهُ لَا تُقْبَلُ أَعْمَالُهُمْ وَلَا تُرْفَعُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تُرْفَعُ أَعْمَالُ الصَّالِحِينَ. كَمَا قَالَ: (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (35 : 10) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لَا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ - وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ لِعَمَلٍ وَلَا دُعَاءٍ. وَمِثْلُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. (وَالثَّانِي) أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ لَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ السَّمَاءَ لَا

تُفْتَحُ لِأَرْوَاحِهِمْ وَتُفْتَحُ لِأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَرُوِيَ فِي هَذَا الْقَوْلِ أَخْبَارٌ مَرْفُوعَةٌ فِي قَبُولِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَرَدِّ رُوحِ الْكَافِرِ ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ الْجَمْعَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ قَالَ : لَا لِأَرْوَاحِهِمْ وَلَا لِأَعْمَالِهِمْ .

(272/269)

(وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) قَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ (الْجَمَلُ) بِالتَّحْرِيكِ وَهُوَ الْبَعِيرُ الْبَازِلُ أَيِ الَّذِي طَلَعَ نَابُهُ ، وَالْمَعْنَى : لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَدْخُلَ مَا هُوَ مَثَلٌ فِي عِظَمِ الْجِرْمِ وَهُوَ الْجَمَلُ الْكَبِيرُ فِيمَا هُوَ مَثَلٌ فِي الضِّيقِ وَهُوَ ثُقْبُ الْإِبْرَةِ – وَتُسَمَّى الْخِيَاطَ بِالْكَسْرِ وَالْمِخْيَطِ بِوَزْنِ الْمِنْبَرِ – وَذَلِكَ لَا يَكُونُ فَالْمُرَادُ تَأْكِيدُ النَّفْيِ أَوْ تَأْبِيدُهُ . وَكَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ لَمْ يَفْطَنُوا لِنُكْتَةِ هَذَا التَّعْلِيقِ لِعَدَمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْجَمَلِ وَسَمِّ الْخِيَاطِ فَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْهُ فَيُجَابُونَ بِمَا يُؤَكِّدُ الْمُرَادَ . سُئِلَ عَنْهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَقَالَ : هُوَ زَوْجُ النَّاقَةِ – وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فَقَالَ : ابْنُ النَّاقَةِ الَّذِي يَقُومُ فِي الْمِرْبَدِ عَلَى أَرْبَعِ قَوَائِمَ .

وَالْمِرْبَدُ (كَمِنْبَرٍ) مَحْبَسُ الْإِبِلِ وَكَذَا الْغَنَمِ ، وَمَكَانٌ بِالْبَصْرَةِ مَشْهُورٌ كَانَتْ تُحْبَسُ بِهِ أَوْ كَانَ سُوقًا لَهَا .

وَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ السَّائِلِينَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْمُنَاسِبَ تَفْسِيرُ الْجَمَلِ هُنَا بِالْحَبْلِ الْغَلِيظِ ، وَهُوَ الْقَلْسُ الَّذِي يَكُونُ فِي السُّفُنِ لِشَبَهِهِ بِالْخَيْطِ ، وَفِيهِ لُغَاتٌ أُخْرَى ضَبَطَهَا صَاحِبُ الْقَامُوسِ بِأَوْزَانِ سُكْرٍ وَصُرَدٍ وَقُفْلٍ وَعُنُقٍ وَحَبْلٍ وَذَكَرَ أَنَّهُ قُرِئَ بِهِنَّ .

(273/269)

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) أَيْ مِثْلَ هَذَا الْجَزَاءِ نَجْزِي جِنْسَ الْمُجْرِمِينَ ، أَيِ الَّذِينَ صَارَ الْإِجْرَامُ وَصْفًا لَازِمًا لَهُمْ . وَأَصْلُ مَعْنَاهُ قَطْعُ الثَّمَرَةِ قَبْلَ بُدُوِّ صَلَاحِهَا ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهِ فَأُطْلِقَ عَلَى كُلِّ إِفْسَادٍ ، وَلَا سِيَّمَا إِفْسَادُ الْفِطْرَةِ بِالْكُفْرِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْمَعَاصِي وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَجْرَمَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَجْرَمَ جُرْمًا بِثَوْرَةِ غَضَبٍ أَوْ نَزْوَةِ شَهْوَةٍ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْدَمَ وَيَتُوبَ . كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ : (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) (4 : 17) وَقَالَ : (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (3 : 135) وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُمَا فِي سُورَتَيِ النِّسَاءِ وَآلِ عِمْرَانَ فَهَؤُلَاءِ لَا يُسَمَّوْنَ مُجْرِمِينَ .

(لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) جَهَنَّمُ اسْمٌ لِدَارِ الْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ ، قِيلَ : أَعْجَمِيٌّ . وَقِيلَ : مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : رَكْبَةٌ جَهَنَّامٌ (بِتَثْلِيثِ الْجِيمِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ) أَيْ بَعِيدَةُ الْقَعْرِ . فَهُوَ بِمَعْنَى الْهَاوِيَةِ ، وَمَنْ قَالَ إِنَّهَا عَرَبِيَّةٌ جَعَلَ مَنْعَ صَرْفِهَا لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ . وَالْمِهَادُ

الْفِرَاشُ وَالْغَوَاشِي جَمْعُ غَاشِيَةٍ وَهِيَ مَا يُغْشِي الشَّيْءَ أَيْ يُغَطِّيهِ وَيَسْتُرُهُ ، وَيُنَاسِبُ الْمِهَادُ مِنْهَا اللِّحَافَ ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

(274/269)

هُنَا ، فَالْغِشَاءُ : الْغِطَاءُ ، وَمِنْهُ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ، وَالْفَرَسُ الْأَغْشَى مَا تَسْتُرُ غُرَّتُهُ جَبْهَتَهُ .

وَالْمُرَادُ : أَنَّ جَهَنَّمَ مُطْبِقَةٌ عَلَيْهِمْ وَمُحِيطَةٌ بِهِمْ كَمَا فَعَلَ : (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ) (104 : 8) وَكَمَا قَالَ : (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (29 : 54) (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) أَيْ وَمِثْلَ هَذَا الْجَزَاءِ نَجْزِي جِنْسَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ بِشَرْطِهِ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْمُجْرِمِينَ آنِفًا . وَأَفَادَتِ الْآيَتَانِ أَنَّ الْمُجْرِمِينَ وَالظَّالِمِينَ الرَّاسِخِينَ فِي صِفَتَيِ الْإِجْرَامِ وَالظُّلْمِ هُمُ الْكَافِرُونَ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (2 : 254) وَهَذَا تَحْقِيقُ الْقُرْآنِ وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ وَلِذَلِكَ خَالَفُوهُ فِي عُرْفِهِ .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ الْجَمْعُ بَيْنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، يَبْدَأُ بِأَحَدِهِمَا لِمُنَاسَبَةِ

السِّيَاقِ قَبْلَهُ وَيُقَفِّي عَلَيْهِ بِالْآخَرِ ؛ وَلِهَذَا عَطَفَ بَيَانَ جَزَاءِ السُّعَدَاءِ عَلَى بَيَانِ جَزَاءِ الْأَشْقِيَاءِ فَقَالَ :

(275/269)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أَيْ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي دَعَتْهُمْ إلَيْهِ الرُّسُلُ ، وَهِيَ لَا عُسْرَ فِيهَا وَلَا حَرَجَ إذْ (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا) أَيْ لَا نَفْرِضُ عَلَى الْمُكَلَّفِ إلَّا مَا يَكُونُ فِي وُسْعِهِ ، وَهُوَ مَا لَا يَضِيقُ بِهِ ذَرْعُهُ ، وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ ، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ هُنَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهَا فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (مَعَ إسْنَادِ الْفِعْلِ الْمَنْفِيِّ إلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ) وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ إرَادَةِ الْيُسْرِ دُونَ الْعُسْرِ فِي آيَاتِ الصِّيَامِ مِنْهَا ، وَمِنْ عَدَمِ إرَادَةِ الْحَرَجِ فِي آيَةِ الْوُضُوءِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ . فَهَذِهِ الْآيَاتُ نُصُوصٌ قَطْعِيَّةٌ فِي يُسْرِ الدِّينِ

وَسُهُولَتِهِ ، وَهِيَ حُجَّةٌ قَطْعِيَّةٌ عَلَى مَا أَحْدَثَهُ الْمُتَوَسِّعُونَ فِي الِاسْتِنْبَاطِ وَالِاجْتِهَادِ فِي أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي جَعَلُوهَا حِمْلًا ثَقِيلًا يَعْسُرُ تَعَلُّمُهُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي وُسْعِ أَحَدٍ عَمَلُهُ (إلَّا الْمُتَنَطِّعِينَ مِنَ الْعِبَادِ) حَتَّى إنَّ أَحْكَامَ الطَّهَارَةِ وَحْدَهَا لَا يُمْكِنُ تَلَقِّي مَا كَتَبُوهُ فِيهَا إلَّا فِي عِدَّةِ أَشْهُرٍ .

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أَيْ أُولَئِكَ الْجَامِعُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي تَصْلُحُ بِهَا نَفْسُ الْإِنْسَانِ ، وَتَزْكُو فَتَكُونُ أَهْلًا لِلنَّعِيمِ وَالرِّضْوَانِ ، هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ يُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَدًا . وَقَدْ تَكَرَّرَ نَظِيرُهُ .

(276/269)

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) أَيْ وَنَزَعْنَا مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حِقْدٍ وَضِغْنٍ مِمَّا يَكُونُ مِنْ عَدَاوَةٍ أَوْ حَسَدٍ فِي الدُّنْيَا ، فَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَفِي قُلُوبِهِمْ أَدْنَى لَوْثَةٍ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِتِلْكَ الدَّارِ وَأَهْلِهَا ، وَيَكُونُ مِنْ أَسْبَابِ تَنْغِيصِ النَّعِيمِ فِيهَا ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فَيَرَوْنَهَا وَهُمْ فِي غُرُفَاتِ قُصُورِهِمْ تَتَدَفَّقُ فِي جَنَّاتِهَا وَبَسَاتِينِهَا فَيَزْدَادُونَ حُبُورًا لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةُ كَدَرٍ . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "يُحْبَسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْدَ مَا يَجُوزُونَ الصِّرَاطَ حَتَّى يُؤْخَذَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ظُلَامَاتُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ غِلٌّ" وَرَوَى هُوَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سِيقُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَهُوَ الشَّرَابُ الطَّهُورُ ، وَاغْتَسَلُوا مِنَ الْأُخْرَى فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ

فَلَنْ يُشْعَثُوا وَلَنْ يُشْحَبُوا بَعْدَهَا أَبَدًا . وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ) . وَعَنْهُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ ،

(277/269)

أَيْ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا عَامًّا مُطْلَقًا .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ " مَا كُنَّا " بِغَيْرِ وَاوٍ عَلَى أَنَّهُ بَيَانٌ لِمَا قَبْلَهُ ، وَهَذَا مِنَ الْمُخَالِفِ لِرَسْمِ الْمَصَاحِفِ . أَيْ وَيَقُولُونَ شَاكِرِينَ لِلَّهِ بِأَلْسِنَتِهِمُ الْمُعَبِّرَةِ عَنْ غِبْطَتِهِمْ وَبَهْجَتِهِمْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا فِي الدُّنْيَا لِلْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ هَذَا

النَّعِيمُ جَزَاءَهُ – فَأَدْخَلَ اللَّامَ عَلَى الْمُسَبَّبِ لِلْعِلْمِ بِالسَّبَبِ – وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ ، أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِنَا وَلَا مُقْتَضَى بَدِيهَتِنَا أَوْ فِكْرَتِنَا أَنْ نَهْتَدِيَ إِلَيْهِ بِأَنْفُسِنَا لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ إِلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ إِيَّانَا لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَمَعُونَتِهِ لَنَا عَلَيْهَا وَرَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ .

(278/269)

عِلَاوَةً عَلَى هِدَايَةِ فِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَنَا عَلَيْهَا ، وَهِدَايَةِ مَا خَلَقَ لَنَا مِنَ الْمَشَاعِرِ وَالْعَقْلِ ، تَاللَّهِ (لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) فَهَذَا مِصْدَاقُ مَا وَعَدَنَا مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أَيْ وَنُودُوا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنْ قِيلَ لَهُمْ : تِلْكُمْ هِيَ الْجَنَّةُ الْبَعِيدَةُ الْمَنَالِ – لَوْلَا فَضْلُ ذِي الْجَلَالِ ، وَالْإِكْرَامِ – الَّتِي وَعَدَ بِوِرَاثَتِهَا الْأَتْقِيَاءَ ، أُورِثْتُمُوهَا بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الصَّالِحَاتِ ، فَعَلَامَةُ الْبُعْدِ فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ لِلْبُعْدِ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي بَيَّنَّاهُ ، إِذِ السِّيَاقُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ هَذَا النِّدَاءَ يَكُونُ بَعْدَ دُخُولِهَا ، وَالتَّبَوُّءِ مِنْ غُرَفِ قُصُورِهَا ، وَجَعَلَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ حِسِّيًّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ النِّدَاءَ يَكُونُ عِنْدَ مَا يَرَوْنَهَا مُنْصَرِفِينَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَوْقِفِ ، وَبَعْضُهُمْ زَمَنِيًّا مُرَادًا بِهِ الْجَنَّةُ الْمَوْصُوفَةُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ بَعُدَ عَهْدُ ذِكْرِهَا ، وَالْوَعْدُ بِهَا ، وَهُوَ وَجِيهٌ .

(279/269)

تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ التَّعْبِيرُ عَنْ نَيْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْجَنَّةِ بِالْإِرْثِ ، وَالْأَصْلُ فِي الْإِرْثِ أَنْ يَكُونَ انْتِقَالًا لِلشَّيْءِ مِنْ حَائِزٍ إِلَى آخَرَ ، كَانْتِقَالِ مَالِ الْمَيِّتِ إِلَى وَارِثِهِ وَانْتِقَالِ الْمَمَالِكِ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى

أُخْرَى ، وَكَذَا إِرْثٌ لِلْعِلْمِ وَالْكِتَابِ قَالَ تَعَالَى : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) (27 : 16) وَقَالَ : (وَرِثُوا الْكِتَابَ) (7 : 169) وَقَالَ : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) (35 : 32)

وَلَا يَظْهَرُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ إِيرَاثُهَا هُنَا وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَإِرْثُهَا فِي قَوْلِهِ : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) (11 ، 10 :23) عَلَى وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُمْ يُعَبِّرُونَ بِالْإِرْثِ عَنِ الْمِلْكِ الَّذِي لَا مُنَازِعَ فِيهِ . (وَثَانِيهِمَا) مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ فِي الْجَنَّةِ هُوَ حَقُّهُ إِذَا طَلَبَهُ بِسَبَبِهِ وَسَعَى إِلَيْهِ فِي صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَهُوَ مَا وَعَدَ بِهِ جَمِيعَ أَفْرَادِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَرَثَتُهُمُ النَّاشِرِينَ لِدَعْوَتِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، فَمَنْ كَفَرَ خَسِرَ مَكَانَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأُعْطِيهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا وَلَهُ حَظٌّ مِنَ الْإِرْثِ . وَالِاسْتِعْمَالَانِ مَجَازِيَّانِ ، وَهُمَا مُتَّفِقَانِ لَا مُتَبَايِنَانِ .

(280/269)

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ السُّدِّيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَالَ : لَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ إِلَّا وَلَهُ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلٌ مُبِينٌ ، فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ

وَدَخَلُوا مَنَازِلَهُمْ ، رُفِعَتِ الْجَنَّةُ لِأَهْلِ النَّارِ فَنَظَرُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِيهَا فَقِيلَ : هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ لَوْ عَمِلْتُمْ بِطَاعَةِ اللهِ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ رِثُوهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، فَيَقْتَسِمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ . وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ شَوْذَبَ فِي تَفْسِيرِ : (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) (19 : 63) وَرُوِيَ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا فِي تَفْسِيرِ : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَرُوَاةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ الْأَرْبَعَةُ - أَبْنَاءُ جَرِيرٍ وَالْمُنْذِرِ وَأَبِي حَاتِمٍ وَمَرْدَوَيْهِ - وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْبَعْثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ " فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) .

(281/269)

وَالْآيَاتُ صَرِيحَةٌ فِي كَوْنِ الْجَنَّةِ تُنَالُ بِالْعَمَلِ ، وَفِي مَعْنَاهَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ بِبَاءِ السَّبَبِيَّةِ ، بَعْضُهَا بِلَفْظِ الْإِرْثِ وَبَعْضُهَا بِلَفْظِ الدُّخُولِ . وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ " لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ - قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ - وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ " : وَلَهُ تَتِمَّةٌ ، وَرُوِيَ بِلَفْظٍ آخَرَ - فَمَعْنَاهُ : أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ مَهْمَا يَكُنْ عَظِيمًا لَا يُسْتَحَقُّ بِهِ الْجَنَّةُ لِذَاتِهِ لَوْلَا رَحْمَةُ اللهِ وَفَضْلُهُ ، إِذْ جَعَلَ هَذَا الْجَزَاءَ الْعَظِيمَ عَلَى هَذَا

الْعَمَلِ الْقَلِيلِ فَدُخُولُ الْجَنَّةِ بِالْعَمَلِ دُخُولٌ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ : " فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا " أَيْ لَا تُبَالِغُوا وَلَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَتَكَلَّفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا تُطِيقُونَ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ يَدْخُلُونَهَا بِفَضْلِهِ وَيَقْتَسِمُونَهَا بِأَعْمَالِهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 372.376 ﴾

(282/269)

وقال الشيخ الشعراوى :

وقوله الحق : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

ينطبق – أيضا – على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم في الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس في صدر أحدهم غل ولا حقد . لذلك تجد سيدنا الإمام عليًّا – كرم الله وجهه – حين يقرأ هذه الآية يقول : " اللهم اجعلني أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء " . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف في مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابي ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم في دار الجزاء في الآخرة ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك في أغيار الدنيا شيء من عمل القلب ، فأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم في الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفي الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله في الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غني ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغني شيئاً من ماله فيقول : غشني وزوجني ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقى فيها خصال قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

(283/269)

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح في الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها في الأبناء أو في البنات ، بل في الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبيّن للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التي أغاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة

ستصاحبها في الآخرة ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ . . . ﴾ [آل عمران : 15]

وأزواج مطهرة من الأشياء التي كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها . ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار . . . ﴾ [الأعراف : 43] ونجد الحق يقول مرة : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ ومرة يقول : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ ، ونجد " مِن " فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر في قصر ونجد الماء منساباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء في الدنيا سنسر به أضعاف ذلك في الآخرة . وقد تجري المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجري من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شيء ممسوك لا بالأسباب كما في الدنيا ، ولكن ب "كن" التي هي لله . ولذلك يقول العباد في جنة الآخرة : ﴿ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله . . . ﴾ [الأعراف : 43]

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هي عبادة يقولها المؤمنون في الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله في تكاليفه في الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون في الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما في الجنة ؛ لأن الشيء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ ﴾ .

وهذا الحمد لله كان في الدنيا عبادة تكليف ، أمّا في الآخرة فهو " عبادة غبطة وسرور وتلذذ . ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ . يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره ويخوفه من المعاصي لما وصل إلى الجنة . والهداية – كما قلنا – هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

وما دامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتي الحق في الآية نفسها يقوله

الحكيم : ﴿ . . . لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43]

(285/269)

أنت في الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشي إلى المكان الفلاني واذهب إليه عن الطريق الفلاني ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ لأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم . ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن في دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق .

ووقف العلماء هنا – جزاهم الله خيراً – وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية : ﴿ ونودوا أَن

تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لأعراف : 43]

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

" لن يُدخل أحداً عمله الجنة

قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة " .

(286/269)

وأقول : ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذي بلغ عن الله سبحانه ، بل بينهما تأييد ؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة ، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه ، بل هو الذي يعطيه لنا فضلا منه ؛ فليس لأحد حق على الله ؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله ، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير ، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله . وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثي ونص قرآني . يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58]

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنه يأخذ مكافأته على فعله ، فإن كانت المكأفاة أكبر من جزاء الفعل فهي من الفضل ؛ لأن الحق هو القائل : ﴿ . . . كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21]

وسبحانه أيضاً هو القائل : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39]

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضجة نقول : هذه " اللام " للملك . وتفيد أنه لاحق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله ، وأن هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل . ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . . ﴾ [يونس : 58]

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئاً زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن صلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهي صلاة على ميت مسلم ، وأسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ . . . ﴾ [الطور : 21]

(287/269)

أي أن الآباء والأبناء يشتركون معاً في الإيمان وفي العمل ، قوله تعالى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . . ﴾ [الطور : 21]

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم ما دام الكل قد اشتركوا في الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال في إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة . ﴿ . . . ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لأعراف : 43]

و ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ من " الإرث " وتدل على أن هناك شيئاً آل إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم أزلاً كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه في الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل واحد من خلقه مكاناً في النار على أساس أنه سيكفر .

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن في الجحيم بعددهم ، فليست

هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و- والعياذ بالله - إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

(288/269)

وبعد الكلام في الجنة والجزاء وفي حمد التلذذ والسرور والغبطة وفي عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(289/269)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

اعلم : أن الغل ظلمة الصفات البشرية وكدورتها وطهارة القلوب بنور الإيمان والأرواح بماء لعرفان والأسرار بشراب طهور تجلى صفات الجمال ، وليس في صدور أهل الحقيقة من غل وغش أصلاً لا في الدنيا ولا في العقبى .

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا ﴾ جواب قسم مقدر أي والله لقد جاؤوا ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ فالباء للتعدية ، أو لقد جاؤوا ملتبسين بالحق فهي للملابسة يقوله : أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً واستقروا فيه إظهاراً لكمال نشاطهم وسرورهم .

قال الحدادي : شهادة منهم بتبليغ الرسل للحق إليهم ، أي جاؤوا بالصدق فصدقناهم

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴾ يعني : أن الملائكة ينادونهم حين رأى المؤمنون الجنة من بعيد بأن يقولوا لهم : إن تلك التي رأيتموها هي الجنة التي وعدتهم بها في الدنيا فإن مفسرة أو مخففة وتلك مبتدأ أشير به إلى ما رأوه من بعيد والجنة خبره واللام فيها للعهد

﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ أي : أعطيتموها والجملة حال من الجنة .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة أي بسبب أعمالكم .

فإن قيل : هذه الآية تدل على أن العبد يدخل الجنة بعمله ، وقد قال عليه السلام : "لن

يدخل الجنة أحدكم بعمله وإنما تدخلونها برحمة الله تعالى وفضله" فما وجه التوفيق بينهما .

(290/269)

أجيب : بأن العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته وإنما يوجبه من حيث أنه تعالى وعد للعاملين أن يتفضل بها بمحض رحمته وكمال فضله وإحسانه ولمّا كان الوعد بالتفضل في حق العاملين بمقابلة عملهم كان العمل بمنزلة السبب المؤدي إليها فلذلك قيل أورثتموها بأعمالكم كذا في "حواشي ابن الشيخ" وفي الخبر إنه يقال لهم يوم القيامة "جوزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم" ، وهي جنة الأعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر سواء كان الفاضل بهذه الحالة دون المفضول ، أو لم يكن فما من عمل إلا وله جنة يقع التفاضل فيها بين أصحابها ورد في الحديث

الصحيح عن النبي عليه السلام أنه قال لبلال يا بلال : "بِمَ سبقتني إلى الجنة ؟ فما وطئت منها موضعاً إلا سمعت خشخشتك" فقال يا رسول الله : ما أحدثت قط إلا توضأت وما توضأت إلا صليت ركعتين فقال عليه السلام : "بهما" فعلمنا أنها كانت مخصوصة بهذا

العمل فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها .

(291/269)

والتفاضل على مراتب : فمنها بالسنّ : ولكن في الطاعة والإسلام فيفضل الكبير السنّ على الصغير السنّ إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل ، ومنها بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الزمان ، ومنها بالمكان : فالصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في مسجد المدينة وهي من الصلاة في المسجد الأقصى وهي منها في سائر المساجد ، ومنهما بالأحوال : فإن الصلاة بالجماعة أفضل من صلاة الشخص وحده ، ومنها بنفس الأعمال : فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ومنها في العمل الواحد فالمتصدق على رحمه صاحب صلة رحم وصدقة ، وكذا من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل ممن أهدى لغيره أو أحسن إليه ، ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالاً كثيرة فيصرف سمعه وبصره ويده فيما يبتغي في زمان صومه وصدقته بل في زمان صلاته في زمان ذكره في زمان نيته من فعل وترك فيؤجر في الزمن الواحد من وجوه كثيرة فيفضل غيره ممن ليس له ذلك .

ومن الجنات جنة اختصاص إلهي : وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل وحدّه من أول ما يولد ، أي : يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء ، ومن أهلها المجانين الذين ما عقلوا ، ومن أهلها أهل التوحيد العلمي ، ومن أهلها أهل الفترات ومن لم يصل إليهم دعوة رسول .

ومن الجنات جنة ميراث : ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ومن المؤمنين وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها وفي الحديث : "كل من أهل النار يرى منزله في الجنة ، فيقولون لو هدانا الله ، فيكون عليهم حسرة ، وكل من أهل الجنة يرى منزله في النار ، فيقولون لولا أن الله هدانا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 210.212 ﴾

(292/269)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم ﴾ فالنزع هو بمعنى ينزع فهو على حد ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] ، والنزع : قلع الشَّيء عن مكانه .

وقوله : " مِنْ غِلٍّ " يجوز أن تكون " مِنْ " لبيان جنس " مَا " ويجوز أن تكون حالاً متعلّقاً

بمحذوف أي : كائناً من غلٍّ .

الغل : الحِقْد والإحْنَةُ والبُغْض ، وكذلك الغُلُولُ .

قال أهل اللُّغَةِ : وهو الذي يغل بلطفه إلى صَميمِ القَلْب أي : يدخلُ ، ومنه الغلول ، وهو الوصول بالحيلَةِ إلى لاذُنُوبِ الدقيقة .

ويقال : انغل في الشَّيء ، وتغلغل فيه إذا دخل فيه بلطافته كما يدخل في صميم الفؤادِ وجمع الغل غلال ، والغُلُولُ : الأخذ في خُفْيَةٍ ، وأحسن ما قيل إنَّ ذلك من لفظ الغلالة كأنَّه تدرع ولبس الحِقْدَ والخيانة حتَّى صار إليه كالغلالةِ الملبوسة .

قوله : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ .

في هذه الجملة ثلاثةُ أوجه :

أحدها : أنَّها حال من الضَّميرِ في " صُدُورِهِم " ، قاله أبو البقاء وجعل العَامِلَ في هذه الحال معنى الإضافة .

والثاني : أنَّها حال أيضاً ، والعامل فيها " نَزَعْنَا " ، قاله الحوفيُّ .

الثالث : أنَّها استئناف إخبار عن صِفَةِ أحوالهم .

وردَّ أبو حيَّان الوجهين الأوَّلين ؛ أمَّا الأوَّلُ فلأنَّ معنى الإضافة لا يعمل إلاَّ إذا أمكن تجريدُ المضاف ، وإعماله فيما بعده رفعاً أو نصباً .

وأما الثاني فلأن ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ ليس من صفة فاعل " نَزَعْنَا " ، ولا

مفعوله وهما "نَا" و"مَا" فكيف ينتصب حالاً عنهما ؟ وهذا واضح .

قال شهابُ الدّين : " قد تقدَّم غيره مرة أنَّ الحال تأتي من المضاف إليه إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه لمدرك آخر ، لا لما ذكره أبو البقاءِ من أنَّ العامل هو معنى الإضافة ، بل العامل في الحال هو العامل في المضاف ، وإنْ كانت الحال ليست منه ؛ لأنَّهما لمَّا كانا متضايفين ، وكانا مع ذلك شيئاً واحداً ساغ ذلك " .

(293/269)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ ﴾

قرأ الجماعة : " ومَا كُنَّا " بواو ، وكذلك هي في مصاحف الأمصار غير " الشَّامِ " وفيها وجهان :

أظهرهما : أنَّها " واو " الاستئناف ، والجملة بعدها مستأنفة .

والثاني : أنَّها حاليّة .

وقرأ ابن عامر " ما كنا " بدون واو ، [و] الجملة على ما تقدَّم من احتمال الاستئناف والحال ، وهي في مصحف الشَّاميين كذا ، فقد قرأ كلٌّ بما في مصحفه .

ووجه قراءة ابن عامر أنَّ قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ جار مجرى

التَّفْسِيرِ لقوله : " هَدَانَا لِهَذَا " ، فلما كان أحدهما غير الآخر ؛ وجب حذف الحرف العاطف .

قوله : ﴿ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ " أن " وما في حيزها في محلِّ رفع بالابتداء ، والخبر محذوف على ما تقرَّر ، وجواب " لَوْلاَ " مدلولٌ عليه بقوله : " ومَا كُنَّا " تقديره : لولا هدايته لنا موجودة لشقينا ، أو ما كنا مهتدين .

قوله : " لَقَدْ جَاءَتْ " جواب قسم مقدَّر ، و " بالحَقِّ " يجوز أن تكون الباء للتعدية ، ف " بالحق " مفعول معنى ، ويجوز أن تكون للحال [أي :] جَاءُوا ملتبسين بالحقِّ ، وهذا من قول أهلِ الجنَّةِ حين رَأَوْا ما وعدهم الرُّسُلُ عياناً ، " ونُودُوا " هذا النداء يحتمل أن يكون من الله – تعالى – ، وأن يكون من الملائكة .

قوله : " لَقَدْ جَاءَتْ " يجوز أنْ تكونَ المفسِّرة ، فسَّرت النداء – وهو الظَّاهِرُ – بما بعدها ، ويجوز أن تكون المخففة واسمها ضمير الأمر محذوفاً ، فهي وما بعدها في محلِّ نصب أوْ جرِّ ؛ لأنَّ الأصل : " بِأنْ تِلْكُمُ " ، وأُشير إليها بإشارة البعيد ؛ لأنَّهُم وُعِدُوا في الدُّنْيَا .

وعبارة بعضهم " هي إشَارَةٌ لغائب " مسامحة ؛ لأنَّ الإشارة لا تكونُ إلا لحاضِرٍ ، ولكنَّ العلماء تُطلق على البعيد غائاً مجازاً .

قوله : " أُورِثْتُمُوها " يجوز أن تكون هذه الجملة حاليّة كقوله : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [النمل : 52] .

ويجوز أن تكُون خبراً عن " تِلْكُم " ، ويجوز أن تكون " الجنّة " بدلاً أو عطف بيان و " أُرِثْتُمُوها " الخبر .

ومنع أبو البقاءِ أن تكون حالاً من تلكم للفصل بالخبر ، ولأنَّ المبتدأ لا يعمل في الحال .

وأدغم أبو عَمْرو والأخوان الثّاء في التاء ، وأظهرها الباقون .

و﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تقدَّم [المائدة : 105] .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 117 . 120 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾ .

طهرنا قلوبهم من كل غش ، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة . وطَهَّرَ قلوب العارفين من كل حظ وعلاقة ، كما طهَّر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومُنْية ، وطهَّر قلوب العابدين عن كل تهمة وشهوة ، وطهَّر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر – كل واحد على قدر رتبته .

ويقال لمَّا خَلَق الجنة وَكَلَ ترتيبها إلى رضوان ، والعرش ولي حفظه إلى الجملة ، والكعبة سلَم مفتاحها إلى بني شيبة ، وأمَّا تطهير صدور المؤمنين فتولاّه بنفسه .

وقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

ويقال إذا نزع الغل من الصدور مِنْ قِبَله فلا محلّ للغرم الذي لزمهم بسبب الخصوم حيث كان منه سبحانه وجه آدائه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ﴾ .

في قولهم اعترافٌ منهم وإقرارٌ بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات ، وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم ، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

تسكينٌ لقلوبهم ، وتطييبٌ لهم ، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة

بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 536.535 ﴾

(296/269)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) ﴾

التفسير : لما بيّن أحوال التكليف وأن لكل أحد أجلاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر بيّن أنهم بعد الموت إن كانوا قد قبلوا الشرائع الحقة فلا خوف عليهم ولا حزن ، وإن كانوا متمردين وقعوا في أشد العذاب فقال : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم ﴾ وإعرابه مثل ما مر في سورة البقرة ﴿

فإما يأتينكم مني هدى ﴾ [الآية : 38] والراجع محذوف أي فمن اتقى وأصلح منكم والذين كذبوا منكم . وإنما قال : ﴿ رسل منكم ﴾ لأن ذلك يكون أقطع لعذرهم وأقرب إلى الفهم والآنس . ومعنى أياتي أحكامي وشرائعي الدالة على صحة المبدأ والمعاد . ثم قطع شأن الجاحدين بقوله : ﴿ فمن أظلم من افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ والأول الحكم بوجود ما لم يوجد كأقوال أصناف المشركين وطوائف المبتدعة . والثاني إنكار حكم وجد من نبي أو كتاب . ثم أخبر عن عاقبة أمرهم فقال ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قيل : أي العذاب المعين من سواد الوجه وزرقة العين .

(297/269)

وقال الزجاج : أي أنواع البلايا المعدة لكل صنف منهم من السلاسل والأغلال وغيرها على مقدار ذنوبهم ، وقيل : هم اليهود والنصارى يجب علينا إذا كانوا في ذمتنا أن ننصفهم ولا نتعدى عليهم وأن نذب عنهم فذلك معنى النصيب . وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير أن النصيب هو ما سبق لهم في حكم الله تعالى ومشيئته من الشقاوة والسعادة والختم على الكفر والشرك ، أو على الإيمان والتوحيد . وقال الربيع وابن زيد : يعني ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار كأنه سبحانه بيّن من رزق وعمر تفضلاً من الله تعالى لكي

يصلحوا ويتوبوا ويؤكد هذا التفسير قوله عقيب ذلك ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ وذلك أن " حتى " هي التي يبتدأ بعدها الكلام وأنه ههنا جملة شرطية فدل على أن مجيء الرسل المتوفين كالغاية ، فحصول ذلك النصيب يكون مقدماً على حصول الوفاة وليس ذلك إلا العمر والرزق . ومحل ﴿ يتوفونهم ﴾ نصب على الحال من الرسل . قال ابن عباس : هم ملك الموت وأعوانه وإنهم يطالبون الكفار بهذه الأشياء عند الموت على سبيل الزجر والتوبيخ . وقال الحسن والزجاج : إن هذا يكون في الآخرة والرسل ملائكة العذاب يتوفون عدّتهم عند حشرهم إلى النار أي يستكملون عدّتهم حتى لا ينفلت منهم أحد . قال في الكشاف : " ما " وقعت موصولة بأين في خط المصحف قلت : وإني رأيت النقل على العكس كما ذكرته في المقدمة السابقة من مقدمات الكتاب ، ومعنى الآية أي الآلهة التي تدعون أي تعبدونهم وتدعونهم في الشدائد ﴿ قالوا ﴾ على سبيل الاعتراف والعود إلى الإنصاف ﴿ ضلوا عنا ﴾ أي غابوا وذهبوا ولم ننتفع بهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ بالاعتراف أو بشهادة الجوارح عند معاينة الموت ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ ثم شرح بقية أحوال الكفار وذلك قوله : ﴿ قال ﴾ أي الله . وعن مقاتل هو من كلام خازن النار . وهذا مبني على أنه سبحانه لا يجوز أن يكلم الكفار وإن كان كلام سخط ﴿ ادخلوا في أمم ﴾ قيل : أي ادخلوا في

النار مع أمم والأولى أن لا يلتزم الإضمار والمجاز . والمعنى ادخلوا كائنين في جملة أمم تقدم زمانهم زمانكم في النار . وفيه دليل على أن أصحاب النار لا يدخلون النار دفعة واحدة ولكن فيهم سابق ومسبوق ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ في الدين والعقيدة .

فالمشرك يلعن المشرك ، واليهودي يلعن اليهودي ، والنصراني يلعن النصراني ، وكذا المجوس وسائر أديان الضلالة وإذا لعنت نظيرها فلأن تلعن غيرها أولى ﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها ﴾ أي تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار وأدرك بعضهم بعضاً واستقر معه ﴿ قالت أخراهم ﴾ أي آخرتهم دخولاً في النار ﴿ لأولاهم ﴾ دخولاً فيها أو أتباعهم وسفلتهم لرؤسائهم وقادتهم والمعنيان متلازمان عندي لأن المضل لا بد وأن يكون مقدماً على الضال في دخول النار .

(299/269)

واللام بمعنى التعليل أي لأجل أولاهم وذلك لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم ﴾ الفاء للجزاء ﴿ عذاباً ضعفاً ﴾ أي مضاعفاً وذلك عذاب الضلال وعذاب الإضلال بالدعوة إلى الباطل وتزيينه في أعينهم والسعي في إخفاء الدلائل . قال أبو

عبيدة : الضعف مثل الشيء مرة واحدة وهو قول الشافعي في رجل أوصى فقال : أعطوا فلاناً ضعف نصيب ولدي يعطى مثل نصيبه مرتين . وقال الأزهري : العرب تريد بالضعف المثل إلى ما زاد وليس بمقصور على المثلين بدليل قوله عز من قائل : ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ [سبأ : 37] وأقل ذلك عشرة لقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] وإنما قال الشافعي ما قال لأن ذلك متقن وما فوقه مشكوك ﴿ قال ﴾ أي الله أو خازن النار ﴿ لكل ﴾ من القادة والأتباع ﴿ ضعف ﴾ أما للقادة فلما قلنا ، وأما للأتباع فلأنهم عظموهم وقلدوهم وروّجوا أمرهم . سئل ههنا إن تضعيف العذاب للشخص الذي يستحق العذاب ظلم وأجيب في التفسير الكبير بأن عذاب الكفار مؤبد فكل ألم يحصل فإنه يعقبه حصول ألم آخر إلى غير النهاية . قلت : وهذا لا يختص بصنف من الكفار دون صنف ولا بشخص دون شخص فلا يصلح للجواب والصواب أن يقال : معنى تضعيف عذاب التابع والمتبوع أن ذلك العذاب زائد على مقدار ما تستحقه تلك العقيدة لو حصلت لا من حيثية التابعية والمتبوعية والله أعلم ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ من قرأه على الغيبة فمعناه لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر لأن الاسم الظاهر يعود الضمير إليه على الغيبة ، ومن قرأ على الخطاب فالمعنى لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل منكم من العذاب أو لا تعلمون يا أهل الدنيا ما مقدار ذلك . ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ إذ قد حكم الله بأن لكل منا ضعفاً ﴿ فما كان ﴾ أي فما ثبت ﴿

لكم علينا من فضل ﴾ لأنكم مؤاخذون بالاتباع كما نحن مؤاخذون بالاستتباع ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ يحتمل أن يكون من

(300/269)

قول القادة وأن يكون من قول الله تعالى فيهم . قال في التفسير الكبير : قول القادة ليس لكم علينا فضل كذب لأن الرؤساء لهم عذاب الضلال والكذب عليهم جائز عندنا كقولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] قلت : إن سلمنا أن الكذب يجوز أن يصدر عنهم يوم القيامة إلا أن هذا الكلام لا يجوز أن يكون كاذباً لأنهم بنو كلامهم على حكم الله سبحانه بأن لكل ضعفاً .

ثم ذكر ما يدل على خلودهم في النار فقال : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وهي الدلائل الدالة على الذات والصفات والنبوات والمعاد ﴿ واستكبروا عنها ﴾ أي ترفعوا عن قبولها ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قال ابن عباس : أي لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله تعالى من قوله :

(301/269)

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : 10] ومن قوله : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ [المطففين : 18] وقال السدي وغيره : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء التي هي موضع بهجة الأرواح وأماكن سعاداتها كما جاء في الحديث " إن روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ويقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة . ويستفتح لروح الكافر فيقال لها ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء " وقيل : بناء على أن الجنة في السماء معناه ولا يؤذن لهم في الصعود إلى السماء ولا تطرّق لهم إليها حتى يدخلوا الجنة . وقيل : أي لا تنزل عليهم البركة والخير من قوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ [القمر : 11] ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ الولوج الدخول . وسئل ابن مسعود عن الجمل فقال : زوج الناقة استجهالاً للسائل وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف . والسم بالحركات الثلاثة وقد قرىء بها ثقب الإبراة وكل ثقب في البدن لطيف ومنه السم القاتل لنفوذه بلطفه في مسام البدن حتى يصل إلى القلب . والخياط ما يخاط به قال الفراء : خياط ومخيط كإزار ومئزر ولحاف وملحف وقناع ومقنع . ولما كان جسم الجمل من أعظم الأجسام المشهورة عند العرب كما قال :

لا عيب بالقوم من طول ومن عظم . . . جسم الجمال وأحلام العصافير

وكان سم الإبراة مثلاً في ضيق المسلك حتى قيل : أضيق من خرت الإبرة . وقالوا للدليل الماهر خريت لاهتدائه في المضايق المشبهة بأخرات الإبر ، وقف الله تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط المحال ليلزم يأسهم من دخول الجنة قطعاً فإن الموقوف على المحال محال ومثله قول العرب : " لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ويبيض القار " . وقرىء الجمل بوزن القمل وكذا الجمل بوزن الحبل وبمعناه لأنه حبل ضخم من ليف أو خوص من آلات السفن . واختار ابن عباس هذا التفسير قائلاً : إن الله تعالى أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه . وأهل التناسخ أوّلوا الآية بأن الأرواح التي كانت في الأبدان البشرية لمّا عصت وأذنبت فإنها بعد موت الأبدان ترد من بدن إلى بدن ولا تزال تبقى في التعذيب حتى تنتقل من بدن الجمل إلى بدن الذرة فتنفذ في سم الخياط ، وحينئذٍ تصير مطهرة عن تلك الذنوب فتدخل الجنة وتصل إلى السعادة ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزي المجرمين ﴾ قيل : هم الكافرون المكذبون المستكبرون المار ذكرهم ، وقيل : يدخل فيه الفساق بشرط عند التوبة عند المعتزلة ، وبشرط عدم العفو عند الأشاعرة . ثم لما بين أنهم لا يدخلون الجنة

ذكر أنهم يدخلون النار فقال : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أي فراش ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ هي جمع غاشية وهي كل ما يغشاك أي يجللك ، والمراد الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب فلهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف .

(303/269)

والتنوين في ﴿ غواش ﴾ مثله في " جوار " أعني أنه للتمكن عند بعض لأنه بعد حذف يائه لم يبق على زنة مساجد ، وللعوض عند بعض ، إما عن الياء أو عن إسكان الياء ﴿ وكذلك نجزي الظالمين ﴾ هم المشركون أو الفسقة الذين ظلموا أنفسهم . ثم عقب الوعيد بالوعد فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية . وقوله ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ وقد مر تفسيره في آخر سورة البقرة اعتراض بين المبتدأ وخبره وليس بأجنبي وإلا لم يحسن . وفيه تنبيه للمقصرين على أن الجنة مع عظم قدرها تحصل بالعمل السهل من غير ما حرج وصعوبة فبعداً لمن فاتته وسحقاً لمن فارقته . ومن جعله خبراً فالعائد محذوف أي لا نكلف نفساً منهم . ثم وصف أخلاق أهل الجنة فقال : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ نزع الشيء قلعه من مكانه ، والغل الحقد والتركيب يدور على الإخفاء ومنه الغلول كما مر في تفسير قوله : ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ [آل عمران :

161] وللآية تفسيران : الأول أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا بتصفية الطباع وإسقاط الوسواس ومنعه من أن يرد على القلوب فإن الشيطان مشغول بالعذاب فلا يتفرغ لإلقاء الوسواس فلم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف . عن علي كرم الله وجهه أني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم . الثاني : أن درجات أهل الجنة متفاوته بحسب الكمال والنقص ، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة الناقصة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة فيكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبريء بعض أهل النار من بعض ولعن بعضهم بعضاً وليس هذا ببديع ولا بعيد من حال أهل الجنة ، فإن أولياء الله تعالى في دار الدنيا أيضاً بهذه المثابة بحسن توفيق الله تعالى ونور عنايته وهدايته كل منهم قد قنع بما حصل له من نعيم الدنيا وطيباتها لا يميل طبعه إلى زوجة لغيره أحسن من زوجته ولا إلى لا مشتهى ألذ مما رزقه الله ، وكل هذا نتيجة ملكه الرضا بالقضاء

(304/269)

والتسليم لأمر رب الأرض والسماء ، فيموتون كذلك ويحشرون على ذلك وفقنا الله لنيل هذا المقام ببركة أولئك الكرام ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ وهذه من جملة أسباب التنزه

والترفه أن أجرى على ظاهره ، ومن جملة السعادات الروحانية أن أريد بها أنواع المكاشفات وأصناف التجليات ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ النعيم المقيم والفوز العظيم بأن يسر الأسباب وخلق الدواعي ومنع الصوارف ، أو بأن أعطى العقل ونصب الأدلة وأزاح العلة ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ من قرأ بواو العطف فظاهر ، ومن حذف الواو فلأنها جملة يقرب معناها من معنى الأولى وكأنها تفسرها فلا حاجة إلى العطف المؤذن بالتغاير .

(305/269)

ثم حكى عنهم سبب الاهتداء وذلك قوله : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فجعله واسطة لهدايتنا أو لطفاً وتنبيهاً يقولون ذلك فيما بينهم سروراً واغتباطاً بما نالوا وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً فإن الجنة ليست دار التكليف ﴿ ونودوا أن تلكم ﴾ بأنه تلكم ﴿ الجنة ﴾ والضمير للشأن والحديث ويجوز كونه بمعنى أي لأن النداء في معنى القول . وإنما قيل : ﴿ تلكم ﴾ لأنهم وعدوا بها في الدنيا وكأنه قيل لهم هذه تلكم التي وعدتم بها ، ويجوز أن يكون التبعيد للتعظيم . ومعنى ﴿ أورثتموها ﴾ صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله . قد يستعمل الإرث ولا يراد به زوال الملك عن الميت إلى الحي كما يقال

هذا الفعل يورثك الشرف أو العار . وقيل : أعطوا تلك المنازل من غير تعب في الحال فصار شبيهاً بالميراث . وقيل : إن أهل الجنة يرثون منازل أهل النار لما روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : " ليس من مؤمن ولا كافر إلا له في الجنة والنار منزل فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل لهم هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ثم يقال يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون فيقسم بين أهل الجنة منازلهم " قالت المعتزلة قوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يدل على أن الموجب للجزاء هو العمل لا التفضل . وقال غيرهم : لما كان الموفق للعمل الصالح هو الله تعالى كان دخول الجنة بفضله . وجعل العمل أمارة على ذلك والمنادي هو الله جل وعلا أو الملك الموكل بذلك والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 231.236 ﴾

(306/269)

فصل

قال الشوكاني :

قوله : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ قرأ ابن عباس ، وحمزة ، والكسائي بفتح التحتية ، لكون تأنيث الجمع غير حقيقي فجاز تذكيره .

وقرأ الباقون بالفوقية على التأنيث .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، " تفتح " بالتخفيف .

وقرأ الباقون بالتشديد ، والمعنى : أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا .

وقد دلّ على هذا المعنى ، وأنه المراد من الآية ما جاء في الأحاديث الصحيحة ، أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء .

وقيل : لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا ، قاله مجاهد والنخعي .

وقيل لأعمالهم ، أي لا تقبل ، بل تردّ عليهم فيضرب بها في وجوههم .

وقيل المعنى : أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها ، لأن الجنة في السماء ، فيكون على هذا القول العطف لجملة ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ من عطف التفسير ، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال ، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه ، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره ، مما يدخل تحت عموم الآية .

قوله : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمِّ الخياط ﴾ أي أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين ، لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال : ﴿ حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمِّ الخياط ﴾ وهو لا يلج أبداً ، وخص الجمل بالذكر ، لكونه يضرب به المثل في كبر الذات ، وخص سمّ الخياط ، وهو ثقب الإبرة بالذكر ، لكونه غاية في الضيق .

والجمل : الذكر من الإبل ، والجمع جمال وأجمال وجمالات .

وإنما يسمى جملاً إذا أربع .

وقرأ ابن عباس "الجُمَّل" بضم الجيم وفتح الميم مشدّدة .

وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس .

وهو حبال مجموعة قاله ثعلب .

وقيل الحبل الغليظ من القنب .

وقيل الحبل الذي يصعد به في النخل .

(307/269)

وقرأ سعيد بن جبير "الجُمَل" بضم الجيم وتخفيف الميم : وهو القلس أيضاً .

وقرأ أبو السماك "الجُمْل" بضم الجيم وسكون الميم .

وقرىء أيضاً بضمهما .

وقرأ عبد الله بن مسعود "حتى يلج الجمل الأصغر في سم الخياط" وقرىء "فِى سَمّ" بالحركات الثلاث .

والسم : كل ثقب لطيف ، ومنه ثقب الإبرة .

والخياط ما يخاط به يقال خياط ومخيط .

﴿ وكذلك نَجْزِى المجرمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي المجرمين ، أي جنس من أجرم وقد تقدّم تحقيقه .

والمهاد : الفراش ، والغواش جمع غاشية ، أي نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية ﴿ وكذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من اتصف بصفة الظلم .

قوله : ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أي لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه .

ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم .

وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر .

ومثله : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا ﴾ [الطلاق : 7] وقرأ الأعمش " تكلف " بالفوقية ورفع " نفس " ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول ، وخبره ﴿ أصحاب الجنة ﴾ والجملة خبر الموصول .

وجملة ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ في محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة ، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضاً ، حتى تصفو قلوبهم ويودّ بعضهم بعضاً ، فإن الغلّ لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا ، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة ،

لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر .

والغلّ : الحقد الكامن في الصدور .

(308/269)

وقيل : نزع الغلّ في الجنة ، أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ أي لهذا الجزاء العظيم ، وهو الخلود في الجنة ، ونزع الغلّ من صدورهم ، والهداية هذه ﴿ لهذا ﴾ هي الهداية لسببه من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ ﴾ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو ، وقرأ الباقون بإثباتها ، وما كنا نطيق أن نهتدي بهذا الأمر لولا هداية الله لنا ، والجملة مستأنفة أو حالية ، وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف يدل عليه ما قبله ، أي لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدي .

قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبّنَا بالحق ﴾ اللام لام القسم ، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم ، اغتباطاً بما صاروا فيه بسبب ما تقدّم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه .

قوله : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي وقع النداء لهؤلاء الذين

آمنوا وعملوا الصالحات ، فقيل لهم تلكم الجنة أورثتموها ، أي ورثتم منازلها بعملكم .

قال في الكشاف : بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقوله المبطلة انتهى .

أقول : يا مسكين هذا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه " سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله " ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر .

ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل باقداره على العمل ، لم يكن عمل أصلاً ، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار ، لكان القائلون به محقة لا مبطلة ، وفي التنزيل : ﴿ ذلك الفضل مِنَ الله ﴾ [النساء : 70] وفيه : ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ [النساء : 175] .

(309/269)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ يعني : لا يصعد إلى الله من عملهم شيء .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، قال : لا تفتح لهم لعمل ولا لدعاء .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، أيضاً في الآية قال : لا تفتح لأرواحهم ، وهي تفتح لأرواح المؤمنين .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عنه أيضاً ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ قال : ذو القوائم ﴿ فِى سَمّ الخياط ﴾ قال : في خرت الإبرة .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني في الكبير ، وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود ، في قوله : ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ قال : زوج الناقة .

وأخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، من طرق عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ " الجُمّل " بضم الجيم وتشديد الميم .

وقال : هو الحبل الغليظ أو هو من حبال السفن .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عمر ، أنه سئل عن سم الخياط فقال : الجمل في ثقب الإبرة .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس قال : المهاد الفراش ، والغواش اللحف .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن علي بن أبي طالب ، قال : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ

﴾ .

وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله .

فيكون حسرة عليهم ، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار ، فيقول لولا أن هدانا الله .

(310/269)

فهذا شكرهم " وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد وعبد بن حميد ، والدارمي ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال : " نودوا أن صحوا فلا تسقموا ، وانعموا فلا تبأسوا ، وشبوا فلا تهرموا ، واخلدوا فلا تموتوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(311/269)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) ﴾

الآن بعد تلك الوقفة الطويلة للتعقيب على قصة النشأة الأولى ؛ ومواجهة واقع الجاهلية العربية – وواقع الجاهلية البشرية كلها من ورائها – في شأن ستر الجسم باللباس وستر الروح بالتقوى ؛ وعلاقة القضية كلها بقضية العقيدة الكبرى . .

الآن يبدأ نداء جديد لبني آدم . . نداء بشأن القضية الكلية التي ربطت بها قضية اللباس في الوقفة السابقة . . قضية التلقي والاتباع في شعائر الدين وفي شرائعه ، وفي أمر الحياة كلها وأوضاعها . وذلك لتحديد الجهة التي يتلقون منها . . إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم . وعلى أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة للرسل يكون الحساب والجزاء ، في نهاية الرحلة التي يعرضها السياق في هذه الجولة :

﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي : فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(312/269)

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه ، وهذا هو شرطه في الخلافة عنه – سبحانه – في أرضه التي خلقها وقدر فيها أقواتها ، واستخلف فيها هذا الجنس ، ومكنه فيها ، ليؤدي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد ؛ وإلا فإن عمله ردٌّ في الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله ؛ وهو في الآخرة وزر جزاؤه جهنم لا يقبل الله من أصحابه صرفاً ولا عدلاً .

﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

لأن التقوى تنأى بهم عن الآثام والفواحش – وأفحش الفواحش الشرك بالله واغتصاب سلطانه وادعاء خصائص ألوهيته – وتقودهم إلى الطيبات والطاعات ؛ وتنتهي بهم إلى الأمن من الخوف والرضى عن المصير .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . .

لأن التكذيب والاستكبار عن الاستسلام لعهد الله وشرطه يلحق المستكبرين بوليهم

إبليس في النار ؛ حيث يحق وعد الله : ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ . .

ومن هنا يأخذ السياق في عرض مشهد الاحتضار – عند نهاية الأجل المشار إليه في نهاية الجولة الماضية : ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ . . ثم مشهد الحشر والحساب . ومشهد الفصل والجزاء . . كأنها تفصيل لذلك الإجمال عن شأن المتقين المستكبرين ؛ وتصوير لحال المتقين وحال المستكبرين ؛ بعد الأجل المعلوم . تصوير على طريقة القرآن الفريدة التي تستحضر المشهد حياً متحركاً يراه قارئ القرآن وسامعه ؛ ويشهده ، بكل كينونته .

(313/269)

لقد عني المنهج القرآني بمشاهد القيامة . . البعث والحساب ، والنعيم والعذاب . . عناية واضحة . فلم يعد ذلك العالم الذي وعده الله الناس ، بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحياً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً . . وعاش المسلمون في ذلك العالم عيشة كاملة . رأوا مشاهده وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى في نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ،

ولاح لهم من بعيد لفح النار ، ورفت إليهم من الجنة أنسام ! ومن ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود .

والذي يراجع كلماتهم ومشاعرهم عن ذلك العالم يحس أنهم كانوا يعيشون فيه عيشة أعمق وأصدق من حياتهم في هذه الدار الدنيا ؛ وكانوا ينتقلون بجسهم كله إليه ، كما ينتقل الإنسان من دار إلى دار ، ومن أرض إلى أرض ، في هذه الحياة المشهودة المحسوسة . . ولم يكن ذلك العالم مستقبلاً موعوداً في حسهم ، وإنما كان واقعاً مشهوداً . .

وربما كانت هذه المشاهد – المعروضة هنا – أطول مشاهد القيامة في القرآن ، وأحفلها بالحركة ، وبالمناظر المتتابعة ، وبالحوار المتنوع ، في حيوية فائضة يعجب الإنسان كيف تنقلها الألفاظ ، حيث لا ينقلها للحس هكذا إلا المشاهدة !

(314/269)

وهي تجيء في السورة – كما أسلفنا – تعقيباً على قصة آدم ، وخروجه من الجنة هو وزوجه بإغواء الشيطان لهما ، وتحذير الله لبني آدم أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، وتحذيرهم من اتباع عدوهم القديم فيما يوحي به إليهم ويوسوس ، وتهديدهم بتولية الشيطان لهم إن هم اختاروا اتباعه على اتباع ما سيرسل به الرسل إليهم من الهدى

والشريعة . . ثم يأخذ في عرض مشهد الاحتضار ، ومشاهد القيامة – وكأنها تالية له بلا فاصل من الزمان ! – فإذا الذي يقع فيها مصداق ما ينبئ به هؤلاء الرسل ، وإذا الذين يطيعون الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج أبويهم منها . وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا الله ، قد ردوا إلى الجنة ، ونودوا من الملأ الأعلى : ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ . . فكأنما هي أوبة المهاجرين ، وعودة المغتربين ، إلى دار النعيم !

وفي هذا التناسق بين القصة السابقة والتعقيبات عليها ، ومشاهد القيامة اللاحقة من مبدئها إلى منتهاها من الجمال ما فيه . فهي قصة تبدأ في الملأ الأعلى ، على مشهد من الملائكة – يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما الجنة ، فدلاهما الشيطان عن مرتبة الطاعة والعبودية الكاملة الخالصة ، وأخرجهما من الجنة – وتنتهي كذلك في الملأ الأعلى على مشهد من الملائكة . . فيتصل البدء بالنهاية . ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا ومشهد الاحتضار في نهايتها . وهو يتسق في الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

والآن نأخذ في استعراض هذه المشاهد العجيبة .

(315/269)

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار . احتضار الذين افتروا على الله الكذب ، فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام ، أمرهم به الله ، والذين كذبوا بآيات الله التي جاءهم بها الرسل – وهي شرع الله المستيقن – وآثروا الظن والخرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذي كتب لهم ، ومن فترة الابتلاء التي قدرها الله ، كما نالوا نصيبهم من آيات الله التي أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب :

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياتنا ؟ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ .

ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً أو كذبوا بآياته ؛ وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار :

﴿ قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ ﴾ . .

أين دعاويكم التي افتريتم على الله ؟ وأين آلهتكم التي توليتم في الدنيا ، وفتنتم بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة ؛ فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذي أجله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذي لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه :

﴿ قالوا : ضلوا عنا ﴾ !

غابوا عنا وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً ! . . فما أضيع عباداً لا تهتدي إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم في مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدي إلى عبادها . في مثل هذا الأوان !

﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ . .

(316/269)

وكذلك شهدناهم من قبل في سياق السورة عندما جاءهم بأس الله في الدنيا : ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ﴾ فإذا انتهى مشهد الاحتضار ، فنحن أمام المشهد التالي ، وهؤلاء المحتضرون في النار ! . . ويسكت السياق عما بينهما ، ويسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار !

﴿ قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم

فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

﴿ ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ .

انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس . . هنا في النار . . أليس إبليس هو الذي عصى ربه ؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذي أغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟ . . فادخلوا إذن جميعاً . . ادخلوا سابقين ولاحقين . . فكلكم أولياء . . وكلكم سواء !

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ؛ ويملي متبوعها لتابعها . . فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها :

﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ !

فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ؛ ويتنكر فيها الولي لمولاه !

﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعاً ﴾ .

وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال :

﴿ قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ . .

وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم ! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ؛ يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويطلب له من ﴿ ربنا ﴾ شر الجزاء . . من ﴿ ربنا ﴾ الذين كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته ؛ وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ؟ !

﴿ قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون ﴾ .

لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب !

وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة . . كلنا سواء . . في هذا الجزاء :

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل . فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ !

وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل – وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين في دار النعيم – :

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم

غواش ، وكذلك نجزي الظالمين ﴾ . .

ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . . مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ – وحينئذ فقط – أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم – وقد فات الأوان – وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط ، فهم هنا في النار ، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ؛ وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء ، ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء !

﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ . .

ثم إليك هيئتهم في النار :

﴿ لهم من جهنم مهادٌ ، ومن فوقهم غواشٍ ﴾ . .

(318/269)

فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش ، يدعوه – للسخرية – مهاداً ، وما هو مهد ولا لين ولا مريح ! – ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم !

﴿ وكذلك نجزي الظالمين ﴾ . .

والظالمون هم المجرمون . والظالمون هم المشركون المكذبون بآيات الله ، المفترون الكذب على الله . . كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن .

والآن فلننظر إلى المشهد المقابل :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات – لا نكلف نفساً إلا وسعها – أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا – وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله – لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ونودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ . .

هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، لا يكلفون إلا طاقتهم .

هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم ! إنهم أصحابها – بإذن الله وفضله – ورثها لهم – برحمته – بعملهم الصالح مع الإيمان . . جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان . وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم – في حدود طاقتهم – وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن ، وقول رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهو لا ينطق عن الهوى . . وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين ،

إنما ثار عن الهوى ! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة . ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة ؛ وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلاً منه ورحمة ، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة . .

(319/269)

وبعد ، فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون في النار ويتخاصمون ، وتغلي صدورهم بالسخائم والأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء . . فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون ، يرف عليهم السلام والولاء :

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ . .

فهم بشر . وهم عاشوا بشراً . وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه ، وغل يغالبونه ويغلبونه . . ولكن تبقى في القلب منه آثار .

قال القرطبي في تفسيره المسمى أحكام القرآن : (قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : " الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين " . . وروي عن علي

- رضي الله عنه - أنه قال : أرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ . .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار ؛ فترف على الجو كله أنسام :

﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ . .

وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام ، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف :

﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ . .

وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب : ﴿ ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ . . فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم :

﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ . .

إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1292.1287 ﴾

(320/269)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ يا بني آدم أما يأتينكم رسل ﴾ الهامات من أنفسكم من طريق قلوبكم وأسراركم وفيه أن بين آدم كلهم مستعدون لإشارات الحق وإلهاماته . ﴿ افترى على الله كذباً ﴾ بأن يقول أكرمني الله بالكرامات والمقامات ولم يعط ﴿ أو كذب ﴾ بمقامات أعطاها بعض أوليائه ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم ﴾ من الشقاء الذي كتب لهم ﴿ حتى إذا جاءتهم ﴾ رسل الإلهامات الإلهية والواردات الربانية بعد أن كان هائماً في تيه البشرية ﴿ يتوفونهم ﴾ بجذبات الألطاف الإلهية عن الأوصاف البشرية ﴿ قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله ﴾ من الدنيا وشهواتها ﴿ وشهدوا ﴾ هؤلاء المجرمون المحرومون ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ ساترين الحق بالباطل فهداهم الله تعالى . ثم قال لأهل الخذلان ﴿ ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ وقدم الجن لأن الله تعالى خلق أولاً بني الجان منهم مؤمن ومنهم كافر ، فلما استولى أهل الكفر منهم بعث إليهم جنداً من الملائكة – وقيل رئيسهم إبليس – فاستأصلوهم ثم خلق آدم وذريته منهم مؤمن ومنهم كافر .

(321/269)

﴿ كلما دخلت أمة ﴾ في أعمال أهل النار ﴿ لعنت أختها ﴾ المتقدمة في تلك الأعمال لأنهم سنوها ﴿ حتى إذا ﴾ تدارك الكل في الأعمال الموجبة للنار . ﴿ عذاباً ﴾ ﴿ ضعفاً ﴾ لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ﴿ لكل ضعف ﴾ لأن المتأخر أيضاً متقدم الذي يتلوه ويستن بسنته ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ أنكم متقدمون لمتأخريكم فما كان لكم علينا من فضل لأنكم سننتم لمتأخريكم كما سننا لكم ﴿ لا تفتح لهم أبواب ﴾ سماء القلوب إلى الحضرة ﴿ ولا يدخلون ﴾ جنة القربة والوصلة حتى يدخل جمل النفس المتكبرة في سم خياط أحكام الشريعة وآداب الطريقة ، وحتى تصير بالتربية في إزالة الصفات الذميمة وقطع تعلقات ما سوى الله أدق من الشعرة بألف مرة فيلج في سم خياط الفناء فيدخل جنة البقاء ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ الذين صارت أنفسهم في حمل الأوزار كالجمل ﴿ لهم من جهنم ﴾ المجاهدة والرياضة فراش ومن فوقهم من مخالفات النفس قمع الهوى لحاف فتذهبهم وتحرق أنانيتهم . ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ فيرفع عن ظاهرهم وباطنهم كلفة الإيمان والعمل حتى تسير عليهم العبودية بحسن التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 236 . 237 ﴾

(322/269)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 44 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 53 ﴾ من نفس السورة

(4/270)

قوله تعالى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما استقرت بهم الدار ، ونودوا بدوام الاستقرار ، أخبر سبحانه أنهم أقبلوا متبججين على أهل النار شامتين بهم في إحلالهم دار البوار تلذيذاً لأنفسهم بالنعيم وتكديراً على الأشقياء في قوله : ﴿ ونادى أصحاب الجنة ﴾ أي بعد دخول كل من الفريقين إلى داره ﴿ أصحاب النار ﴾ يخبرونهم بما أسبغ عليهم من النعم ، ويقررونهم بما كانوا يتوعدونهم به من حلول النقم ؛ ثم فسر ما وقع له النداء بقوله : ﴿ أن ﴾ أو هي مخففة من الثقيلة ، وذكر حرف التوقع لأنه محله فقال : ﴿ قد وجدنا ﴾ أي بالعيان كما كنا واجدين له بالإيمان

﴿ ما وعدنا ربنا ﴾ أي المحسن إلينا في الدارين من الثواب ﴿ حقاً ﴾ أي وجدنا جميع ما وعدنا ربنا لنا ولغيرنا حقاً كما كنا نعتقد ﴿ فهل وجدتم ﴾ أي كذلك ﴿ ما وعد ﴾ وأثبت المفعول الأول تلذيذاً ، وحذفه هنا احتقاراً للمخاطبين ، وليشمل ما للفريقين فيكون وجد بمعنى العلم وبمعنى اللقى ، وفي التعبير بالوعد دون الوعيد مع ذلك تهكم بهم ﴿ ربكم ﴾ أي الذي أحسن إليكم فقابلتم إحسانه بالكفران من العقاب ﴿ حقاً ﴾ لكونكم وجدتم ما توعدكم به ربكم حقاً ﴿ قالوا نعم ﴾ أي قد وجدنا ذلك كله حقاً ؛ قال سيبويه : نعم عِدَة ، أي في جواب : أتعطيني كذا ، وتصديق في مثل قد كان كذا ، والآية من الاحتباك : أثبت المفعول الثاني أولاً دليلاً على حذف مثله ثانياً ، وحذفه ثانياً دليلاً على إثبات مثله أولاً – والله أعلم .

ولما حبوا من النعم بما تقدم ، وكان منه الجار الحسن ، وكان العيش مع ذلك لا يهنأ إلا بإبعاد جار السوء ، أخبروا ببعده وزيدوا سروراً بإهانته في قوله : ﴿ فأذن ﴾ أي بسبب ما أقر به أهل النار على انفسهم ﴿ مؤذن بينهم ﴾ أي بين الفريقين ﴿ أن ﴾ مخففه أو مفسرة في قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم ، وشددها الباقون ونصبوا ﴿ لعنة الله ﴾ أي طرد الملك الأعظم وإبعاده على وجه الغضب ﴿ على الظالمين ﴾ أي الذين كانوا مع البيان الواضح يضعون الأشياء في غير مواضعها كحال من لم ير نوراً أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 35 . 36 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ نعم ﴾ بكسر العين حيث كان : علي . الباقون بالفتح ﴿ مؤذن ﴾ بغير همز : النجاري عن روش ويزيد والشموني وحمزة في الوقف . ﴿ أن ﴾ مخففة ﴿ لعنة الله ﴾ بالرفع : عاصم وأبو عمرو وأبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب وابن مجاهد وأبو عون عن قنبل . الباقون : مشددة وبالنصب .

الوقوف : ﴿ حقاً ﴾ ج لانتهاء الاستفهام . ﴿ نعم ﴾ ج للعطف مع الابتداء بالتأذين . ﴿ على الظالمين ﴾ ه لا لأن " الذين " صفتهم ﴿ عوجاً ﴾ ج لاحتمال الواو الاستئناف أو الحال ﴿ كافرون ﴾ ه لأن ما بعده لم يدخل في التأذين ولم يجز أن يكون حالاً ﴿ حجاب ﴾ ج لتناهي حال الفئتين واتفاق الجملتين ﴿ بسيماهم ﴾ ط ﴿ يطمعون ﴾ ه ﴿ أصحاب النار ﴾ لا لأن ما بعده جواب " إذاً " ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ تستكبرون ﴾ ه ﴿ برحمة ﴾ ط لتناهي الاستفهام والأقسام ﴿ تحزنون ﴾ ه ﴿ رزقكم الله ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ ه ﴿ الحياة الدنيا ﴾ ج للابتداء مع فاء التعقيب ﴿ هذا ﴾ لا " وما "

مصدرية كما في ﴿ كما نسوا ﴾ والتقدير ننساهم كنسيانهم وجحودهم ﴿ يجحدون ﴾ ه ﴿ يؤمنون ﴾ ه ﴿ إلا تأويله ﴾ ط ﴿ بالحق ﴾ ج لابتداء الاستفهام مع الفاء للتعقيب ﴿ كنا نعمل ﴾ ط ﴿ يفترون ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 237.238 ﴾

(6/270)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما شرح وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان والطاعات أتبعه بذكر المناظرات التي تدور بين الفريقين وهي الأحوال التي ذكرها في هذه الآية.

واعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا ﴾ [الأعراف : 43] دل ذلك على أنهم استقروا في الجنة في وقت هذا النداء فلما قال بعده : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ دل ذلك على أن هذا النداء إنما حصل بعد الاستقرار ، قال ابن عباس : وجدنا ما وعدنا ربنا في الدنيا من الثواب حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العقاب حقاً ؟ والغرض من هذا السؤال إظهار أنه وصل إلى السعادات

الكاملة وإيقاع الحزن في قلب العدو وههنا سؤالات :

السؤال الأول : إذا كانت الجنة في أعلى السموات والنار في أسفل الأرضين فمع هذا البعد الشديد كيف يصح هذا النداء ؟ (1)

والجواب : هذا يصح على قولنا : لأنا عندنا البعد الشديد والقرب الشديد ليس من موانع الإدراك ، والتزم القاضي ذلك وقال : إن في العلماء من يقول في الصوت خاصية إن البعد فيه وحده لا يكون مانعاً من السماع .

---

(1) أمور الآخرة ونواميسها لا تقاس على أمور الدنيا فلكل دار خصائص خصها الله بها ، ومن ثم فلا يصح قياس عالم الغيب على عالم الشهادة ، وأيضا فى عصرنا هذا استطاع الإنسان الاتصال بغيره جوا وبرا وبحرا حتى فوق السحاب وى أعماق البحار ، فهذا صنع الخلق فكيف بصنع الخالق ؟ ؟ ! ! ! . والله أعلم .

(7/270)

السؤال الثاني : هذا النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض ؟

والجواب : أن قوله : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ يفيد العموم والجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، وكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار

في الدنيا .

السؤال الثالث : ما معنى ﴿ أَن ﴾ في قوله : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا ﴾ .

والجواب : إنه يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة ، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت في قوله : ﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ [الأعراف : 43] وكذلك في قوله : ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ .

السؤال الرابع : هلا قيل : (مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّا) كما قيل : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ .

والجواب : قوله : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّا ﴾ يدل على أنه تعالى خاطبهم بهذا الوعد ، وكونهم مخاطبين من قبل الله تعالى بهذا الوعد يوجب مزيد التشريف .

ومزيد التشريف لائق بحال المؤمنين ، أما الكافر فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله تعالى ، فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى أنه خاطبهم بهذا الخطاب بل ذكر تعالى أنه بين هذا الحكم .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ نَعَمْ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

الآية تدل على أن الكفار يعترفون يوم القيامة بأن وعد الله ووعيده حق وصدق ولا يمكن ذلك إلا إذا كانوا عارفين يوم القيامة بذات الله وصفاته .

فإن قيل : لما كانوا عارفين بذاته وصفاته ، وثبت أن من صفاته أنه يقبل التوبة عن عباده ، وعلموا بالضرورة أن عند قبول التوبة يتخلصون من العذاب ، فلم لا يتوبون ليخلصوا أنفسهم

من العذاب ؟ وليس لقائل أن يقول إنه تعالى إنما يقبل التوبة في الدنيا لأن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ [الشورى : 25] عام في الأحوال كلها ، وأيضاً فالتوبة اعتراف بالذنب وإقرار بالذلة والمسكنة واللائق بالرحيم الحكيم التجاوز عن هذه الحالة سواء كان في الدنيا أو في الآخرة .

(8/270)

أجاب المتكلمون : بأن شدة اشتغالهم بتلك الآلام الشديدة يمنعهم عن الإقدام على التوبة ولقائل أن يقول : إذا كانت تلك الآلام لا تمنعهم عن هذه المناظرات ، فكيف تمنعهم عن التوبة التي بها يتخلصون عن تلك الآلام الشديدة ؟

واعلم أن المعتزلة الذين يقولون يجب على الله قبول التوبة لا خلاص لهم عن هذا السؤال .

أما أصحابنا لما قالوا إن ذلك غير واجب عقلاً قالوا لله تعالى أن يقبل التوبة في الدنيا ، وأن لا يقبلها في الآخرة ، فزال السؤال . والله أعلم .

المسألة الثانية :

قال سيبويه : ﴿ نَعَمْ ﴾ عدة وتصديق ، وقال الذين شرحوا كلامه معناه : إنه يستعمل تارة عدة ، وتارة تصديقاً ، وليس معناه : أنه عدة وتصديق معاً ألا ترى أنه إذا قال : أتعطيني ؟

وقال نعم كان عدة ولا تصديق فيه ، وإذا قال : قد كان كذا وكذا .

فقلت : نعم فقد صدقت ولا عدة فيه ، وأيضاً إذا استفهمت عن موجب كما يقال : أيقوم زيد ؟ قلت : نعم ولو كان مكان الإيجاب نفياً لقلت : بلى ولم تقل نعم فلفظة نعم مختصة بالجواب عن الإيجاب ، ولفظة بلى مختصة بالنفي كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] .

المسألة الثالثة :

قرأ الكسائي ﴿ نِعْمَ ﴾ بكسر العين في كل القرآن .

قال أبو الحسن : هما لغتان قال أبو حاتم : الكسر ليس بمعروف ، واحتج الكسائي بأنه روى عن عمر أنه سأل قوماً عن شيء فقالوا : نعم .

فقال عمر : أما النعم فالإبل .

قال أبو عبيدة : هذه الرواية عن عمر غير مشهورة .

أما قوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

معنى التأذين في اللغة النداء والتصويت بالإعلام ، والأذان للصلاة إعلام بها وبوقتها ، وقالوا في : ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى مناد أسمع الفريقين .

قال ابن عباس : وذلك المؤذن من الملائكة وهو صاحب الصور .

المسألة الثانية :

(9/270)

قوله : ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله : (أذّن) والتقدير : أن المؤذن أوقع ذلك الأذان بينهم ، وفي وسطهم ، ويحتمل أن يكون صفة لقوله : ﴿ مُؤَذِّنٌ ﴾ والتقدير : أن مؤذناً من بينهم أذن بذلك الأذان ، والأول أولى والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم ﴿ أَن ﴾ مخففة ﴿ لَّعْنَةُ ﴾ بالرفع والباقون مشددة ﴿ لَّعْنَةَ ﴾ بالنصب .

قال الواحدي رحمه الله : من شدد فهو الأصل ، ومن خفف ﴿ أَن ﴾ فهي مخففة من الشديدة على إرادة إضمار القصة والحديث تقديره أنه لعنه الله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الحمد للهِ رَبِ العالمينَ ﴾ [يونس : 10] التقدير : أنه ، ولا تخفف أن إلا ويكون معها إضمار الحديث والشأن .

ويجوز أيضاً أن تكون المخففة هي التي للتفسير كأنها تفسير لما أذنوا به كما ذكرناه في قوله : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا ﴾ وروى صاحب "الكشاف" أن الأعمش قرأ ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله ﴾ بكسر ﴿ إِن ﴾ على إرادة القول ، أو على إجراء ﴿ أَذَّنَ ﴾ مجرى "قال" .

المسألة الثانية :

اعلم أن هذه الآية تدل على أن ذلك المؤذن ، أوقع لعنة الله على من كان موصوفاً بصفات أربعة .

الصفة الأولى : كونهم ظالمين .

لأنه قال : ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ قال أصحابنا المراد منه المشركون ، وذلك لأن المناظرة المتقدمة إنما وقعت بين أهل الجنة وبين الكفار ، بدليل أن قول أهل الجنة هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ لا يليق ذكره إلا مع الكفار .

وإذا ثبت هذا فقول المؤذن بعده ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ يجب أن يكون منصرفاً إليهم ، فثبت أن المراد بالظالمين ههنا ، المشركون ، وأيضاً أنه وصف هؤلاء الظالمين بصفات ثلاثة .

هي مختصة بالكفار وذلك يقوي ما ذكرناه ، وقال القاضي المراد منه ، كل من كان ظالماً سواء كان كافراً أو كان فاسقاً تمسكاً بعموم اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 69.71 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّا ﴾

أي : ما وعدنا يعني : في الدنيا من الثواب وجدناه صدقاً ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ من العذاب ﴿ حَقّاً ﴾ أي صدقاً ﴿ قَالُواْ نَعَمْ ﴾ فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الاعتراف .

قرأ الكسائي قالوا : نَعِمْ بكسر العين في جميع القرآن .

وقرأ الباقون بالنصب .

وروي عن عمر أنه سمع رجلاً يقول : نَعَمْ بالنصب فقال له عمر : النَّعَم المال ، وقل : نَعِمْ يعني : بكسر العين وروى الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال : ما كانت أشياخ قريش إلا يقولون : نَعِمْ فما تت يعني : اللغة ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ وذلك أنه ينادي منادٍ بين الجنة والنار تسمعه الخلائق كلهم إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ المحسنين ولعنة الله على الظالمين أي : كرامة الله وفضله وإحسانه على المؤمنين وعذاب الله مع عقابه على الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(11/270)

وقال الثعلبى :

﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾

من الثواب ﴿ حَقّاً ﴾ صدقاً ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ من العذاب ﴿ حَقّاً ﴾

[هذا قول محمد بن جرير] ﴿ قَالُواْ نَعَمْ ﴾ قال الكسائي " نعم " بكسر العين وتجوز

بإسكانها وهما لغتان ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ فنادى مناد منهم ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى

الظالمين ﴾ الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(12/270)

وقال ابن عطية :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا

وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عما يكون منهم ، وعبر عن معان مستقبلة بصيغة ماضية

وهذا حسن فيما يحقق وقوعه ، وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب وهو بأن يشرفوا عليهم ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار ، وقرأ جمهور الناس " نعَم " بفتح العين ، وقرأ الكسائي " نعِم " بكسر العين ورويت عن عمر بن الخطاب وعن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأها ابن وثاب والأعمش قال الأخفش هما لغتان ، ولم يحك سيبويه الكسر ، وقال : " نعم " عدة وتصديق أي مرة هذا ومرة هذا ، وفي كتاب أبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال : ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون : إلا " نعِم " بكسر العين ثم فقدتها بعده ، وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أنت تزعم أنك نبي : ؟ قال : " نعِم " بكسر العين ، وفيه عن أبي عثمان النهدي قال : سأل عمر عن شيء فقالوا نعم ، فقال عمر : النعم الإبل والشاء ، وقولوا " نعِم " بكسر العين . قال أبو حاتم : وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحرمين ، وقوله ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ الآية ؛ قال أبو علي الفارسي والطبري وغيرهما : " أذن مؤذن " بمعنى أعلم معلم ، قال سيبويه : أذنت إعلام بتصويت ، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل ونافع وأبو عمر وعاصم " أنْ لعنةُ الله " بتخفيف " أنْ " من الثقيلة ورفع اللعنة .

(13/270)

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وابن كثير في رواية البزي وشبل " أنّ لعنةَ " بتثقيل " أنّ " ونصب اللعنة ، وكلهم قرأ التي في النور ﴿ أنّ لعنة الله ﴾ [النور : 7] و ﴿ أنّ غضب الله ﴾ [النور : 9] بتشديد النون غير نافع فإنه قرأهما " أنْ لعنة الله وأنْ غضب " مخففتين ، وروى عصمة عن الأعمش " مؤذن بينهم إن " بكسر الألف على إضمار قال .

قال القاضي أبو محمد : لما كان الأذان قولاً ، و" الظالمون " في هذه الآية : الكافرون ، ثم ابتدأ صفتهم بأفعالهم في الدنيا ليكون علامة أن أهل هذه الصفة هم المراد يوم القيامة بقوله ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(14/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾

أي : من العذاب ؟ وهذا سؤال تقرير وتعيير .

(قالوا نعم) .

قرأ الجمهور بفتح العين في سائر القرآن ، وكان الكسائي يكسرها .

قال الأخفش : هما لغتان .

قوله تعالى : ﴿ فأذَّن مؤذِّن بينهم ﴾ أي نادى منادٍ .

﴿ ان لعنةُ الله ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قنبل ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : ﴿ أنْ لعنةُ الله ﴾ خفيفة النون ساكنة .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "أنّ" بالتشديد "لعنةَ الله" بالنصب .

قال الأخفش : و"أنْ" في قوله : ﴿ أن تلكم الجنة ﴾ [الأعراف : 43] وقوله : ﴿ أن لعنةُ الله ﴾ ، وقوله : ﴿ أن الحمد لله ﴾ [يونس : 10] و﴿ أن قد وجدنا ﴾ هي "أنّ" الثقيلة خففت .

قال الشاعر :

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَد عَلِمُوا . . .

أنْ هَالِكٌ كلُّ من يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ

وأنشد أيضاً :

أُكَاشِرُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلاَنَا . . .

عَلَى ما سَاءَ صَاحِبَه حَرِيْصُ

ومعناه : أنه كلانا ؛ وتكون "أن قد وجدنا" في معنى : أي .

قال ابن عباس : والظالمون هاهنا : الكافرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ

﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة ﴾

هذا سؤال تقريع وتعيير .

﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا ﴾ مثل "أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ" أي أنه قد وجدنا .

وقيل : هو نفس النداء .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي نادى وصوّت ؛ يعني من الملائكة .

"بَيْنَهُمْ" ظرف ؛ كما تقول : أعْلَم وسطهم .

وقرأ الأعمش والكِسائي "نَعِم" بكسر العين .

وتجوز على هذه اللغة بإسكان العين .

قال مكيّ : من قال "نِعِم" بكسر العين أراد أن يفرق بين "نَعَم" التي هي جواب وبين "نعم" التي هي اسم للإبل والبقر والغنم .

وقد روي عن عمر إنكار "نَعَم" بفتح العين في الجواب ، وقال : قل نَعِم .

ونَعَم ونَعِم ، لغتان بمعنى العِدَة والتصديق .

فالعدة إذا استفهمت عن موجب نحو قولك : أيقوم زيد ؟ فيقول نعم .

والتصديق إذا أخبرت عما وقع ، تقول : قد كان كذا وكذا ، فيقول نعم .

فإذا استفهمت عن منفيّ فالجواب بلى نحو قولك ألم أكرمك ، فيقول بلى .

فنعم ، لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما في هذه الآية .

وبلى ، لجواب الاستفهام الداخل على النفي ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] .

وقرأ البَزِّي وابن عامر وحمزة والكِسائيّ "أنّ لعنة الله" وهو الأصل .

وقرأ الباقون بتخفيف "أن" ورفع اللعنة على الابتداء .

ف "أن" في موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض .

ويجوز في المخففة ألا يكون لها موضع من الإعراب .

وتكون مفسرة كما تقدّم .

وحكي عن الأعمش أنه قرأ "إن لعنة الله" بكسر الهمزة ؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون "فَنَادَاهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمحرَابِ إنَّ الله" ويُروى أن طاووساً دخل على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله واحذر يوم الأذان .

فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾

فصعِق هشام .

فقال طاووس : هذا ذُلُّ الصِّفة فكيف ذل المعاينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(16/270)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾

يعني ونادى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تقول أهل الجنة يا أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴾ يعني ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته حقاً ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ يعني من العذاب على الكفر ﴿ قالوا نعم ﴾ يعني قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقاً .

فإن قلت : هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض ؟

قلت : ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا .

فإن قلت : إذا كانت الجنة في السماء والنار في الأرض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء أو كيف يصح أن يقع .

قلت : إن الله تعالى قادر على أن يقوي الأصوات والأسماء فيصير البعيد كالقريب .

وقوله تعالى : ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ يعني نادى مناد وأعلم لأن أصل الأذان في اللغة الإعلام .

والمعنى نادى مناد أسمع الفريقين وهذا المنادي من الملائكة وقيل إنه إسرافيل صاحب الصور ذكره للواحدي ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ يعني يقول المؤذن إن لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(17/270)

وقال أبو حيان :

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم ﴾ .

عبر بالماضي عن المستقبل لتحقّق وقوعه وهذا النداء فيه تقريع وتوبيخ وتوقيف على مآل الفريقين وزيادة في كرب أهل النار بأن شرفوا عليهم وبخلق إدراك أهل النار لذلك النداء في

أسماعهم ، قال الزمخشري : وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم وشماتة بأهل النار وزيادة في غمّهم وليكون حكايته لطفاً لمن سمعها وكذلك قول المؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين وهو ملك يأمره الله تعالى فينادي بينهم يسمع أهل الجنة وأهل النار وأتى في إخبار أهل الجنة ﴿ ما وعدنا ﴾ بذكر المفعول وفي قصة أهل النار ما وعد ولم يذكر مفعول ﴿ وعد ﴾ لأنّ أهل الجنة مستبشرون بحصول موعودهم فذكروا ما وعدهم الله مضافاً إليهم ولم يذكروا حين سألوا أهل الجنة متعلق ﴿ وعد ﴾ باسم الخطاب فيقولوا : ﴿ ما وعدكم ﴾ ليشمل كل موعود من عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة وتكون إجابتهم بنعم تصديقاً لجميع ما وعد الله بوقوعه في الآخرة للصفين ويكون ذلك اعترافاً منهم بحصول موعود المؤمنين ليتحسّروا على ما فاتهم من نعيمهم إذ نعيم أهل الجنة مما يخزيهم ويزيد في عذابهم ويحتمل أن يكون حذف المفعول الذي للخطاب لدلالة ما قبله عليه وتقديره ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم ﴾ ، وقرأ ابن وثاب والأعمش والكسائي ﴿ نعم ﴾ بكسر العين ، ويحتمل أن تكون تفسيريّة وأن تكون مصدرية مخففة من أن الثقيلة وإذا ولى المخففة فعل متصرف غير دعاء فصل بينهما بقد في الأجود كقوله : ﴿ أن قَد وجدنا ﴾ .

(18/270)

﴿ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾ أي فأعلم معلم ، قيل : هو إسرافيل صاحب الصور ، وقيل : جبريل يسمع الفريقين تفريحاً وتبريحاً ، وقيل : ملك غيره معين ودخل طاووس على هشام بن عبد الملك فقال له : إحذر يوم الأذان فقال : وما يوم الأذان قال : يوم ﴿ فأذن مؤذن ﴾ الآية فصعق هشام فقال طاووس هذا ذلّ الصفة فكيف ذلّ المعاينة وبينهم يحتمل أن يكون معمولاً لأذّن ويحتمل أن يكون صفة لمؤذن فالعامل فيه محذوف ، وقرأ الأخوان وابن عامر والبزي ﴿ أن لعنة الله ﴾ بتثقيل ﴿ أنّ ﴾ ونصب ﴿ لعنة ﴾ وعصمة عن الأعمش إنّ بكسر الهمزة والتثقيل ونصب ﴿ لعنة ﴾ على إضمار القول أو إجراء أذن مجرى قال ، وقرأ باقي السبعة أن بفتح الهمزة خفيفة النون ورفع ﴿ لعنة ﴾ على الابتداء وأن مخففة من الثقيلة أو مفسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(19/270)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾

بعد الاستقرار فيها كما هو الظاهر ، وصيغة الماضي لتحقق الوقوع ، والمعنى ينادي ولا بد

كل فريق من أهل الجنة ﴿ أصحاب النار ﴾ أي من كان يعرفه في الدنيا من أهلها تبجحاً بحالهم وشماتة بأعدائهم وتحسيراً لهم لا لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ على ألسنة رسله عليهم السلام من النعيم والكرامة ﴿ حَقّاً ﴾ حيث نلنا ذلك ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ أي ما وعدكم من الخزي والهوان والعذاب ﴿ حَقّاً ﴾ وحذف المفعول تخفيفاً وإيجازاً واستغناء بالأول ، وقيل : لأن ما ساءهم من الوعود لم يكن بأسره مخصوصاً بهم وعده كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فإنهم قد وجدوا جميع ذلك حقاً وإن لم يكن وعده مخصوصاً بهم .

وتعقب بأنه لا خفاء في كون أصحاب الجنة مصدقين بالكل والكل مما يسرهم فكان ينبغي أن يطلق وعدهم أيضاً ؛ فالوجه الحمل على ما تقدم ، ونصب ﴿ حَقّاً ﴾ في الموضعين على الحالية ، وجوز أن يكون على أنه مفعول ثان ويكون وجد بمعنى علم ، والتعبير بالوعد قيل : للمشاكلة ، وقيل : للتهكم .

ومن الناس من جوز أن يكون مفعول وعد المحذوف ن وحينئذٍ فلا مشاكلة ولا تهكم .

وأياً ما كان لا يستبعد هذا النداء هناك وأن بعد ما بين الجنة والنار من المسافة كما لا يخفى .

﴿ قَالُواْ ﴾ في جواب أصحاب الجنة ﴿ نِعْمَ ﴾ قد وجدنا ذلك حقاً .

وقرأ الكسائي ﴿ نِعْمَ ﴾ بكسر العين وهي لغة فيه نسبت إلى كنانة وهذيل ولا عبرة بمن

أنكره مع القراءة به وإثبات أهل اللغة له بالنقل الصحيح .

نعم ما روي من أن عمر رضي الله تعالى عنه "سأل قوماً عن شيء فقالوا : نعم فقال عمر : أما النعم فالإبل قولوا : نعم" لا أراه صحيحاً لما فيه من المخالفة لأصح الفصيح ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ هو على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه صاحب الصور عليه السلام ، وقيل : مالك خازن النار .

(20/270)

وقيل : ملك من الملائكة غيرهما يأمره الله تعالى بذلك .

ورواية الإمامية عن الرضا وابن عباس أنه علي كرم الله تعالى وجهه مما لم يثبت من طريق أهل السنة وبعيد عن هذا الإمام أن يكون مؤذناً وهو إذ ذاك في حظائر القدس ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي الفريقين لا بين القائلين نعم كما قيل ، ولا يرد أن الظاهر أن يقال : بينهما لأنه غير متعين ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ بأن المخففة أو المفسرة ، والمراد الإعلام بلعنة الله تعالى لهم زيادة لسرور أصحاب الجنة وحزن أصحاب النار أو ابتداء لعن .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة .

والكسائي ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله ﴾ بالتشديد والنصب : وقرأ الأعمش بكسر الهمزة على

إرادة القول بالتضمين أو التقدير أو على الحكاية بإذن لأنه في معنى القول فيجري مجراه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(21/270)

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ ونادى أصحاب الجنّة ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : 43] إلخ ، عطفَ القول على القول ، إذْ حكي قولهم المنبيءُ عن بهجتهم بما هم فيه من النّعيم ، ثمّ حكي ما يقولونه لأهل النّار حينما يشاهدونهم .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها ﴾ [الأعراف : 43] عطف القصّة على القصّة بمناسبة الانتقال من ذكر نداء من قبل الله إلى ذكر مناداة أهل الآخرة بعضِهم بعضاً ، فعلى الوجهين يكون التعبير عنهم بأصحاب الجنّة دون ضميرهم توطئة لذكر نداء أصحاب الأعراف ونداء أصحاب النّار ، ليعبَّر عن كلّ فريق بعنوانه وليكون منه محسن الطباق في مقابلته بقوله : ﴿ أصحاب النار ﴾ .

وهذا النّداء خطاب من أصحاب الجنّة ، عبّر عنه بالنّداء كناية عن بلوغه إلى أسماع

أصحاب النّار من مسافة سحيقة البُعد ، فإن سعة الجنّة وسعة النّار تقتضيان ذلك لا سيما قوله : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ [الأعراف : 46] ، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنّة إلى أصحاب النّار وسيلة عجيبة غير متعارفة .

وعلم الله وقدرتُه لا حدّ لمتعلّقاتهما .

و(أنّ) في قوله : ﴿ أن قد وجدنا ﴾ تفسيرية للنّداء .

والخبر الذي هو قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ﴾ مستعمل في لازم معناه وهو الاغتباط بحالهم ، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهيّة حالهم ، والتورك على الأعداء إذ كانوا يحسبونهم قد ضلّوا حين فارقوا دين آبائهم ، وأنّهم حَرموا أنفسهم طيّبات الدّنيا بالانكفاف عن المعاصي ، وهذه معانٍ متعدّدة كلّها من لوازم الإخبار ، والمعاني الكنائيّة لا يمتنع تعدّدها لأنّها تبع للّوازمِ العقليّة ، وهذه الكناية جمع فيها بين المعنى الصّريح والمعاني الكنائيّة ، ولكنّ المعاني الكنائيّة هي المقصودة إذ ليس القصد أن يَعلم أهل النّار بما حصل لأهل الجنّة ولكن القصد ما يلزم عن ذلك .

(22/270)

وأمّا المعاني الصّريحة فمدلولة بالأصالة عند عدم القرينة المانعة .

والاستفهام في جملة : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ مستعمل مجازاً مرسلاً بعلاقة اللّزوم في توقيف المخاطبين على غلطهم ، واثارة ندامتهم وغمّهم على ما فرط منهم ، والشّماتة بهم في عواقب عنادهم .

والمعاني المجازيّة التي علاقتها اللّزوم يجوز تعدّدها مثل الكناية ، وقرينة المجاز هي : ظهور أنّ أصحاب الجنّة يعلمون أنّ أصحاب النّار وجدوا وعده حقاً .

والوجدان : إلفاء الشّيء ولقيّه ، قال تعالى : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ [القصص : 15] وفِعله يتعدّى إلى مفعول واحد ، قال تعالى : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ [النور : 39] ويغلب أن يذكر مع المفعول حالُه ، فقوله : ﴿ وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ﴾ معناه ألفيناه حال كَونه حقاً لا تخلّف في شيء منه ، فلا يدلّ قوله : ﴿ وجدنا ﴾ على سبق بحث أو تطلب للمطابقة كما قد يتوهّم ، وقد يستعمل الوجدان في الإدراك والظنّ مجازاً ، وهو مجاز شائع .

و(ما) موصولة في قوله : ﴿ مَا وعدنا ربّنا ﴾ و ﴿ مَا وعد ربّكم ﴾ ودَلت على أنّ الصّلة معلومة عند المخاطبين ، على تفاوت في الإجمال والتّفصيل ، فقد كانوا يعلمون أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وعد المؤمنين بنعيم عظيم ، وتوعّد الكافرين بعذاب أليم ، سمع بعضهم تفاصيل ذلك كلَّها أو بعضها ، وسمع بعضهم إجمالها : مباشرة أو بالتّناقل عن

إخوانهم ، فكان للموصولية في قوله : ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ إيجازٌ بديع ، والجواب بنَعَم تحقيق للمسؤول عنه بهل : لأنّ السؤال بهَل يتضمّن ترجيح السّائل وقوع المسؤول عنه ، فهو جوابُ المقرّ المتحسّر المعترف ، وقد جاء الجواب صالحاً لظاهر السّؤال وخفيّه ، فالمقصود من الجواب بها تحقيق ما أريد بالسؤال من المعاني حقيقة أو مجازاً ، إذ ليست نعَم خاصة بتحقيق المعاني الحقيقيّة .

(23/270)

وحذف مفعول (وعَدَ) الثّاني في قوله : ﴿ ما وعد ربكم ﴾ لمجرّد الإيجاز لدلالة مقابله عليه في قوله : ﴿ ما وعدنا ربنا ﴾ لأنّ المقصود من السّؤال سؤالهم عمّا يخصّهم .

فالتّقدير : فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم ، أي من العذاب لأنّ الوعد يستعمل في الخير والشرّ .

ودلّت الفاء في قوله : ﴿ فأذّن مؤذن ﴾ على أنّ التّأذين مسبّب على المحاورة تحقيقاً لمقصد أهل الجنّة من سؤال أهل النّار من إظهار غلطهم وفساد معتقدهم .

والتّأذينُ : رفع الصّوت بالكلام رفعاً يُسمع البعيد بقدر الإمكان وهو مشتقّ من الأذن بضمّ الهمزة جارحةِ السمع المعروفة ، وهذا التّأذين إخبار باللّعن وهو الإبعاد عن الخير ، أي

إعلام بأنّ أهل النّار مبعدون عن رحمة الله ، زيادة في التّأييس لهم ، أو دعاء عليهم بِزيادة البعد عن الرّحمة ، بتضعيف العذاب أو تحقيق الخلود ، ووقُوع هذا التّأذين عقب المحاورة يعلَم منه أنّ المراد بالظّالمين ، وما تبعه من الصّفات والأفعال ، هم أصحاب النّار ، والمقصود من تلك الصّفات تفظيع حالهم ، والنّداء على خبْثِ نفوسهم ، وفساد معتقدهم .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وقُنبل عن ابن كثير : ﴿ أنْ لعنة الله ﴾ بتخفيف نون (أن) على أنّها تفسيريّة لفعل (أذّنَ) ورفعِ (لعنة) على الابتداء والجملة تفسيرية ، وقرأه الباقون بتشديد النّون وبنصب (لعنة) على (أنّ) الجملة مفعول (أذّن) لتضمنه معنى القَول ، والتّقدير : قائلاً أنّ لعنة الله على الظّالمين .

(24/270)

والتّعبير عنهم بالظّالمين تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللّقب تعرف به جماعتهم ، كما يقال : المؤمنين ، لأهل الإسلام ، فلا ينافي أنّهم حين وُصِفوا به لم يكونوا ظالمين ، لأنّهم قد علّموا بطلان الشّرك حقّ العلم وشأن اسم الفاعل أن يكون حقيقة في الحال مجازاً في الاستقبال ، ولا يكون للماضي ، وأمّا إجراء الصّلة عليهم بالفعلين المضارعين في قوله : ﴿ يَصدّون ﴾

وقوله : ﴿ ويَبغونها ﴾ وشأنُ المضارع الدّلالة على حدث حاصل في زمن الحال ، وهم في زمن التّأذين لم يكونوا متّصفين بالصدّ عن سبيل الله ، ولا يبغي عوج السّبيل ، فذلك لقصد ما يفيده المضارع من تكرّر حصول الفعل تبعاً لمعنى التّجدّد ، والمعنى وصفهم بتكرّر ذلك منهم في الزّمن الماضي ، وهو معنى قول علماء المعاني استحضار الحالة ، كقوله تعالى في الحكاية عن نوح:

﴿ ويصنع الفلك ﴾ [هود : 38] مع أنّ زمن صنع الفلك مضى ، وإنّما قصد استحضار حالة التّجدّد ، وكذلك وصفهم باسم الفاعل في قوله : ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ فإن حقه الدلالة على زمن الحال ، وقد استعمل هنا في الماضي : أي كافرون بالآخرة فيما مضى من حياتهم الدّنيا ، وكلّ ذلك اعتماد على قرينة حال السّامعين المانعة من إرادة المعنى الحقيقي من صيغة المضارع وصيغة اسم الفاعل ، إذ قد عَلِم كلّ سامع أنّ المقصودين صاروا غير متلبّسين بتلك الأحداث في وقت التّأذين ، بل تلبّسوا بنقائضها ، فإنّهم حينئذ قد علموا الحقّ وشاهدوه كما دلّ عليه قولهم : ﴿ نَعَم ﴾ .

وإنَّما عُرّفوا بتلك الأحوال الماضية لأنّ النّفوس البشريّة تعرّف بالأحوال التي كانت متلبسة بها في مدّة الحياة الأولى .

فبالموت تنتهي أحوال الإنسان فيستقر اتّصاف نفسه بما عاشت عليه ، وفي الحديث : "

يبعث كلّ عبد على ما مات عليه " رواه مسلم ، ويجوز أن تكون هذه اللّعنة كانت الملائكة يَلعنونهم بها في الدّنيا .

(25/270)

فجهروا بها في الآخرة ، لأنّها صارت كالشّعار للكفرة ينادَون بها ، وهذا كما جاء في الحديث : " يؤتى بالمؤذّنين يوم القيامة يصرخون بالأذان " مع أنّ في ألفاظ الأذان ما لا يقصد معناه يومئذ وهو : "حيّ على الصّلاة حيّ على الفلاح" .

وفي حكاية ذلك هنا إعلام لأصحاب هذه الصّفات في الدّنيا بأنّهم محقوقون بلعنة الله تعالى .

والمراد بالظّالمين : المشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(26/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا الترائي من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو في النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه في الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة .

فهل – يا أهل النار – وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقي واحد ؛ فأهل الجنة يقولون : " قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً " ، ولم يأت بالكاف في كلمة ما وعد (الثانية) بل قال : " فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً " ؟

إنه قال سبحانه : " ما وعد " فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضاً الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم في الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله .

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع الذي عاشوه واقعاً بعد أن ، كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين في غير مشهد ، وهم في الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا

يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم في النار . ﴿ . . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44]

أي فينادي مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(27/270)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون " وفى سورة هود : "ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون " فزيد فى هذه الآية ضمير الفصل ولم يزد فى الأولى فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟

وجوابه والله أعلم : أن ابتداء الإخبار فى الأعراف بحال هؤلاء الملعونين فى الآيتين هو قوله تعالى فى الأولى : "فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين " وابتداء الاخبار عنهم فى

سورة هود قوله تعالى : "أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين " ففى هذا اطناب وتأمل ورود الظاهر فى موضع المضمر من قوله "على الظالمين " ولم يقل عليهم ، فناسب زيادة ضمير الفصل وفى آية الأعراف إيجاز ناسبه سقوطه ولو لم يكن ما بين "أن " و "ألا " فإن ذلك مراعى فيما قصدناه فـ "أن "أوجز من "ألا " و "أن " هنا حرف عبارة وتفسير وهى كالواردة فى قوله : "ونودوا أن تلكم الجنة " وفى قوله "وانطلق الملأ منهم أن امشوا " ، وتقع بعد ما يراد به القول وليس بلفظه وتفسر بـ "أى " وأما "ألا " فاستفتاح وكل من الموضعين على ما يجب ويناسب ولو فرض العكس لما ناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 181 . 182 ﴾

(28/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا ﴾

" أن " يحتمل أن تكون تفسيرية للنِّدَاءِ ، وأن تكون مخففة من الثَّقِيلَةِ ، واسمها ضمير الأمر

والشَّأنِ ، والجملة بعدها خبرها ، وإذا كان الفعل مُتَصَرّفاً غير دعاء ، فالأجود الفصل بـ " قَدْ " كهذه الآية أو بغيرها .

وقد تقدَّم تحقيقه في المائدة .

قال الزَّمخشريُّ : فإن قلت : هلا قيل : ما وعدكم ربكم ، كما قيل : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ .

قلت : حُذف ذلك تخفيفاً لدلالة " وَعَدَنَا " عليه .

ولقائل أن يقول : أطْلِقَ ليتناول كلَّ ما وعد الله من البعث والحساب والعقاب والثواب ، وسائر أحوال القيامة ، لأنَّهم كانوا مكذِّبين بذلك أجمع ، ولأنَّ الموعود كله ممَّا ساءهم ، وما نعيم أهل الجنَّة إلاَّ عذاب لهم فأطلق لذلك .

قال شِهَابُ الدِّين : قوله : " ولقائل . . .

إلى آخره .

هذا الجواب لا يطابق سؤاله ؛ لأنَّ المدعي حذف المفعول الأوَّل ، وهو ضمير المخاطبين . والجوابُ وقع بالمفعول الثَّاني الذي هو الحِسَابُ والعقاب ، وسائر الأحوال ، [فهذا] إنَّما يناسب لو سئل عن حذف المفعول الثاني ، لا المفعول الأول " .

وأجاب ابْنُ الخطيبِ عن السُّؤالِ بأن قوله : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ يدلُّ على أنَّهُ تعالى خاطبهم بهذا الوَعْدِ وكونهم مخاطبين من قبل الله – تعالى – بهذا الوعد يوجب مزيد

التّشريف ومزيد التشريف لائق بحال المؤمنين .

أمّا الكَافِرُ فليس أهلاً لأن يخاطبه الله – تعالى – فلهذا السّبب لم يذكر الله تعالى أَنَّهُ خاطبهم بهذا الخطاب بل ذكر الله – تعالى – أَنَّهُ بيَّن هذا الحكم .

و " نعم " حرف جواب كـ " أجل " و " إي " و " جير " و " بلى " ، ونقيضتها " لا " .

(29/270)

و " نَعَمْ " تكون لتصديق الإخبار ، أو إعلام استخبار ، أو وَعْدِ طالب ، وقد يُجَابُ بها النَّفي المقرون باستفهام وهو قليل جدّاً كقول جحْدَرٍ : [الوافر]

2469 – أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو . . .

وإِيَّانَا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي

نَعَمْ ، وتَرَى الهِلالَ كَمَا أَرَاهُ . . .

ويَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلاَنِي

فأجاب قوله : " أَلَيْسَ " بـ " نعم " ، وكان من حقه أن يقول : بلى ، ولذلك يُرْوَى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] : لو قالوا : نعم لكفروا ، وفيه بحثٌ يأتي إنْ شَاءَ اللَّهُ – تعالى – قريباً .

وقرأ الكسائِيُّ والأعمشُ ويحيى بن وثَّابٍ بكسر عينها ، وهي لغة "كَنَانَة" ، وطعن أبُو حَاتِمٍ عليها وقال : "ليس الكسر بمعروف" .

واحتج الكِسَائِيُّ لقراءته بما يُحكى عن عمر بن الخطاب أنَّه سأل قوماً فقالوا : نعم بالفتح ، فقال : "أمَّا النَّعَم فالإبل فقولوا : نَعِم" أي بالكَسْرِ .

قال أبو عبيد : "ولم نَرَ العرب يعرفون ما رَوَوْه عن عمر ونراه مُوَلَّداً" .

قال شهاب الدين : وهذا طَعْنٌ في المُتَواتِر فلا يُقبل ، وتبدل عينها حاءً ، وهي لغة فاشية ، كما تبدل حاء "حتى" عيناً .

قوله : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ .

التأذين في اللُّغَةِ النداء والتّصويت الإعلام ، والأذان للصّلاة إعلام بها وبوقتها .

وقالوا في "أذَن مؤذّن" : نادى مناد أسمع الفريقين .

قال ابن عباس : "وذلك المؤذن من الملائكة وهو صاحبُ الصُّورِ" .

قوله : "بينهم" يجوز أن يكون منصوباً بـ "أذَّن" أو بـ "مؤذن" فعلى الأول التقدير : أنَّ المؤذن أوقع ذلك الأذان بينهم أي في وسطهم .

وعلى الثَّاني التَّقديرُ : أنَّ مؤذِّناً من بينهم أذَّن بذلك الأذان ، والأول أوْلَى .

(30/270)

وأن يكون مُتَعَلّقاً بمحذوف على أنَّهُ صفة لـ " مؤذّن " قال مكيّ – عند إجازته هذا الوَجْهِ – : " ولكن لا يعمل في " أنْ " مؤذّن " إذ قد نعته " يعني أنَّ قوله : ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللهِ ﴾ لا يجوز أنْ يكون معمولاً لـ " مؤذّن " ؛ لأنَّهُ موصوف واسم الفاعل متى وصف لم يعمل .

قال شهابُ الدّين : " وهذا يوهم أنَّا إذا لم نجعل " بَيْنَهُمْ " نعتاً لـ " مؤذّن " جاز أن يعمل في " أنْ " ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنَّكَ لو قلت : ضرب ضَارِبٌ [زيداً تنصب زيداً بـ " ضرب " لا بـ " ضارب "] .

لكني قد رأيت الواحِدِي أجاز ما أجاز مكيّ من كون " مؤذّن " عاملاً في " أن " ، وإذا وصفته امتنع ذلك ، وفيه ما تقدّم وهو حسن .

قوله : ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين ﴾ " أنْ " يجوز أن تكون المفسّرة ، وأن تكون المخففة ، والجملة الاسميَّة بعدها الخبر ، فلا حاجة هنا لفاصل .

وقرأ الأَخوان ، وابن عامر ، والبزّي : " أنَّ " بفتح الهمزة وتشديد النون ، ونصب " اللَّعنة " على أنَّهَا اسمها ، و" على الظالمين " خبرها ، وكذلك في [النور 7] ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ خفَّف " أنْ " ورفع اللّعنة نافع وحده ، والباقون بالتشديد والنَّصب .

[قال الواحِديُّ : مَنْ شدّد فهو الأصلُ ، ومن خفَّف فهو مخففة من التشديد على إرادة إضمار القصّة والحديث تقديره : أنه لعنة الله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ

الحمد للَّهِ ﴾ [يونس : 10] التقدير : أَنَّهُ ، ولا يخفف " أنْ " هذه إلا وتكون بعد إضمار الحديث والشأن] .

وقرأ عصمةُ عن الأعمشِ : " إنَّ " بالكسر والتشديد ، وذلك : إمَّا على إضمار القول عند البصريين ، وإمَّا على إجراء النِّداء مُجْرى القول عند الكوفِيِّين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 121 . 123 ﴾

(31/270)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نعم)

نَعَمْ ونِعِمْ ونَعامِ ، ونَحَمْ ونَحِمْ لغاتٌ ، وهى حروف تصْديقٍ ووَعْدٍ وإعْلامٍ ، فالأَوّل بعد الخَبَر كقامَ زيدٌ وما قام زيدٌ ، والثانى بعد افْعَل أَوْ لا تفعل أَو ما فى معناهما ، نحو هلاَّ تَفْعَلُ ، وهلاَّ لم تَفْعَل ، وبعد الاسْتِفْهام نحو هَلْ تُعْطِينى ، والثالث بَعْدَ الاسْتفهام فى نحو هَلْ جاءَكَ زيدٌ ، ونحو : ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ .

قيل : وتأْتى للتوكيد إذا وقعت صَدْراً نحو : نَعَمْ هذه أَطلالُهم ، والحقُّ أَنها فى ذلك حرْفُ

إِعْلام وأَنها جوابٌ لسؤالٍ مقدّر .

وقرأ الكِسائىّ : نَعِم بكسر العَيْن ، وهى لغة كِنانة والباقون نَعَم بفتح العين .

وقرأَ ابنُ مسعود نحم بإِبْدال العَيْن حاءً .

قال سيبويه : أَمّا نَعَمْ فعِدةٌ وتصديق ، وأَمّا بَلىَ فيوجب بها بعد النّفْى ، فكأَنّه رأَى أَنّه إِذا قيل : قامَ زيدٌ فتصديقُه نَعَمْ ، وتكذيبُه لا ، ويمتنع دخول بَلى لعدم النّفى ، وإِذا قيل : ما قامَ فتصديقُه نَعَمْ ، وتكذيبهُ بَلىَ ، ومنه : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَى ﴾ .

وأَمّا نَعَم فى بيت جَحْدَر :

*أَلَيْسَ اللَّيْلُ يجمعُ أُمَّ عَمْرو * وإِيّانا فذاكَ بنا تَدانى*

*نَعَمْ وأَرَى الهِلالَ كما تراهُ * ويَعْلُوها النّهارُ كما عَلانِى .

*

فجوابٌ لغير مذكورٍ ، وهو ما قدّره فى اعتقاده من أَنَّ اللَّيل يجمعُه وأُمَّ عمرو ، أَو هو جوابٌ لقوله : وأَرَى الهِلالَ .

البيت ، وقدّمه عليه ، أَو لقوله : فذاك بنا تدانِى ، وهو أَحسن .

والله أَعلم .

ونِعْمَ : كلمةٌ مستوفِيَة لجميع المَدْح ، كما أَنَّ "بِئْسَ" كلمةٌ مستوفية لجميع الذمّ ، فإِذا وَلِيَهُما

اسم جنسٍ [ليس] فيه أَلف ولام انتصبَ ، تقول بئس رَجُلاً زيدٌ ونِعْمَ صديقاً أَنتَ على التمييز .

(32/270)

وهما فِعْلان ماضِيان / لا يَتَصَرَّفان لأَنَّهما أُزيلاً عن موضعهما ، فنِعْمَ منقولٌ من قولك : نَعِمَ فلانٌ : إذا أَصابَ نِعْمَةً ، وبئس منقولٌ من قولك [بَئِسَ] فلانٌ : إذا أَصاب بُؤساً ، فنُقِلا إلى المدح والذمّ فشابَها الحروف فلم يَتَصَرَّفا .

وفي نِعْمَ لُغاتٌ : نَعِمَ كعَلِمَ ، ونِعِمَ بكسرتين ، ونِعْمَ بكسر النون وسكون العين ، ونَعْمَ بفتح النون وسكون العين .

ويقال : إنْ فَعَلْتَ كذا فبها ونِعْمَتْ ، بتاءٍ ساكنة وقفاً ووصلاً أَي نِعْمَت الخَصْلَةُ .

وتدخُلُ عليه ما فيُكْتَفَى بهما عن صِلَته ، نحو : دَقَقْتُه دَقّاً نِعِمَّا ونِعْمّا بفتح العين أَي نِعْم ما دَقَقْتَه .

والنِّعْمَة والنَّعِيم والنُّعْمَى : الخَفْضُ والدَّعَةُ ، والمالُ .

وجمعُ النِّعمة : نِعَمٌ ، وأَنْعُمٌ .

والتَنَعُّم : التَّرَفُّه .

والاسم النَّعْمَة ، وقد نَعِمَ بالكسر يَنْعَمُ ويَنْعُمُ ويَنْعِمُ .

وهذا منزلٌ يَنْعَمُهُم مُثَلَّثا ، ويُنْعِمُهم عن الفَرّاءِ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ الإنعام : الإِحسان إلى الغير ولا يُقال إلاَّ إذا كان المُحْسَن إليه من النَّاطِقين ، فلا يقال أَنْعَمَ على فَرَسِه .

ونَعَّمَهُ تنعيماً : جعله في نِعْمَةٍ ولِينِ عَيْش .

وطعامٌ ناعِمٌ ، وجارِيةٌ ناعِمةٌ ومُناعِمَة ومُناعَمَة ومُنَعَّمة : حَسَنَةُ العَيْش والغذاءِ .

وقيل : النِّعْمَة ، والنُّعْمَى بالضمّ ، والنَّعْماءُ بالفتح والمدّ : اليَدُ البَيْضاءُ الصَّالحةُ ، والجمع : أَنْعُمٌ ونِعَمٌ ونِعِمَاتٌ .

وأَنْعَمَها اللهُ عَلَيْه ، وأَنْعَمَ بها .

ونَعِيمُ الله : عَطِيَّته ، ومنه ﴿ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ ونَعِمَ اللهُ ، بك ونَعِمَكَ ، وأَنْعَمَ بك عَيْناً : أَقَرَّ بك عَيْنٌ مَنْ تُحِبُّه ، أَو أَقَرَّ عينَك بِمَن تُحبُّه .

(33/270)

ونَعْمُ عَيْن ونُعْمُ عَيْنٍ ، ونَعْمَةُ ، ونُعْمَةُ ، ونُعْمَى ، ونَعامُ ، ونُعامُ ، ونِعامُ ، ونَعِيمُ ، ونَعامَى عَيْنٍ ، يُنْصَبُ الكُلُّ بإِضمار الفِعْل ، أَى أَفعل ذلك إنْعاماً لعينك وإِكراماً .

والنَّعَمُ مختصٌّ بالإبل ، وقيل : بها وبالشاءِ ، قيل :

وبالبَقَرِ ، والجمع أَنْعامٌ ، وأَناعيمُ جمع الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾

قيل : ولا يقال الأَنْعام حتى يكونَ فى جملتها الإبل ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ : وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ ﴾ والأَنْعام هاهُنا عامّ فى الإبل وغيرِها .

والنُّعامَى بالضمّ : ريحُ الجَنُوب ، وقيل : ريحٌ بين الجَنُوب والصَّبا .

والنَّعام والنَّعائِم : من مَنازِل القمر .

وتَنَعَّمه بالمكان : طَلَبَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 88 . 91 ﴾

(34/270)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) ﴾

اعترف أهل النار بحقيقة الدِّين ، وأقروا بسوء ما عملوا ، ولكن حين لم ينفعهم إقرارٌ بحالٍ من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 536 ﴾

(35/270)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ الذين يصدون ﴾ أي لهم فعل الصد لمن أراد الإيمان ولمن آمن ولغيرهما بالإضلال بالإرغاب والإرهاب والمكر والخداع ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي طريق دين الملك الذي لا كفوء له الواضح الواسع ﴿ ويبغونها ﴾ أي يطلبون لها ﴿ عوجاً ﴾ بإلقاء الشكوك والشبهات ، وقد تقدم ما فيه في آل عمران ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ أي ساترون ما ظهر لعقولهم من دلائلها ؛ فمتى وجدت هذه الصفات الأربع حقت اللعنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 36 ﴾

فصل

قال الفخر :

الصفة الثانية : قوله : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ ومعناه : أنهم يمنعون الناس من قبول الدين الحق ، تارة بالزجر والقهر ، وأخرى بسائر الحيل .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ والمراد منه إلقاء الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق .

والصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَهُم بالآخرة كافرون ﴾ واعلم أنه تعالى لما بين أن تلك اللعنة إنما أوقعها ذلك المؤذن على الظالمين الموصوفين بهذه الصفات الثلاثة ، كان ذلك تصريحاً بأن تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين ، وذلك يدل على فساد ما ذكره القاضي من أن ذلك اللعن يعم الفاسق والكافر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 71 ﴾

(36/270)

وقال السمرقندى :

﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي الناس عن دين الله ، وهو الإسلام وهم الرؤساء منهم منعوا أتباعهم عن الإيمان ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يقول يريدون بملة الإسلام غيراً وزيفاً ﴿ وَهُم بالآخرة كافرون ﴾ يعني : أنهم كانوا جاحدون بالبعث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يصدُّون عن سبيل الله ﴾

أي : أذن المؤذن ان لعنة الله على الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وهو الإسلام .

﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ مفسَّر في [آل عمران : 99] .

﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي : وهم بِكَوْن الآخرة كافرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(37/270)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

في موضع خفض ل "الظالمين" على النعت .

ويجوز الرفع والنصب على إضمارِهُمْ أو أعني .

أي الذين كانوا يصدون في الدنيا الناس عن الإسلام .

فهو من الصدّ الذي هو المنع .

أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أي يعرضون .

وهذا من الصدود .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ يطلبون اعوجاجها ويذمونها فلا يؤمنون بها .

وقد مضى هذا المعنى .

﴿ وَهُمْ بالآخرة كَافِرُونَ ﴾ أي وكانوا بها كافرين .

فحذف وهو كثير في الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾

يعني الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ يعني ويحاولون أن يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها ، وقيل معناه أنهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك أنهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فأخطؤوا الطريق وضلوا عن السبيل ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(38/270)

وقال الآلوسى :

﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

أي يصدون بأنفسهم عن دينه سبحانه ويعرضون عنه ، فالموصول صفة مقررة للظالمين لأن هذا الإعراض لازم لكل ظالم ، وجوز القطع بالرفع أو النصب وكلاهما على الذم وأمر الوقف ظاهر ، وفسر الإمام النسفي الصد هنا بمنع الغير وعليه فلا تقرير ، والمعنى يمنعون الناس عن دين الله تعالى بالنهي عنه وإدخال الشبه في دلائله ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يطلبون اعوجاجها ويذمونها فلا يؤمنون بها أو يطلبون لها تأويلاً وإمالة إلى الباطل ، فالعوج إما على أصله وهو الميل وإما بمعنى التعويج والإمالة .

ونصبه قيل : على الحالية .

وقيل : على المفعولية .

وجوز الطبرسي "أن يكون نصباً على المصدر كرجع القهقرى واشتمل الصماء ، وذكر أن العوج بالكسر يكون في الدين والطريق وبالفتح في الخلقة فيقال في ساقه عوج بالفتح وفي دينه عوج بالكسر" ، وقال الراغب : "العَوَج يقال فيما يدرك بالبصر (سهلاً) كالخشب المنتصب ونحوه ، والعِوَج يقال فيما يدرك بفكر وبصيرة كما يكون في أرض بسيط . . . وكالدِّين والمعاش" ، وسيأتي لذلك تتمة إن شاء الله تعالى .

﴿ وَهُم بالآخرة كافرون ﴾ أي غير معترفين بالقيامة وما فيها ، والجار متعلق بما بعده .

والتقديم لرعاية الفواصل ، والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية للدلالة على الدوام والثبات إشارة إلى رسوخ الكفر فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(39/270)

وقال ابن عاشور :

المراد بالصدّ عن سبيل الله : إمّا تعرّض المشركين للراغبين في الإسلام بالأذى والصّرف عن الدّخول في الدّين بوجوه مختلفة ، وسبيل الله ما به الوصول إلى مرضاته وهو الإسلام ، فيكون الصدّ مراداً به المتعدي إلى المفعول .

وإما إعراضهم عن سماع دعوة الإسلام وسماع القرآن ، فيكون الصدّ مراداً به القاصر ، الذي قيل : إنّ مضارعه بكسر الصّاد ، أو إن حق مضارعه كسر الصّاد ، إذ قيل لم يسمع مكسور الصّاد ، وإن كان القياس كَسْر الصّاد في اللاّزم وضمَها في المتعدي .

والضّمير المؤنّث في قوله : ﴿ ويبغونها ﴾ عائد إلى ﴿ سبيل الله ﴾ .

لأنّ السّبيل يذكّر ويؤنّث قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ [يوسف : 108] وقال : ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ [الأعراف : 146] .

والعِوَج : ضدّ الاستقامة ، وهو بفتح العين في الأجسام : وبكسر العين في المعاني .

وأصله أن يجوز فيه الفتح والكسر .

ولكن الاستعمال خصّص الحقيقة بأحد الوجهين والمجازَ بالوجه الآخر ، وذلك من محاسن الاستعمال ، فالإخبار عن السبيل (عِوج) إخبار بالمصدر للمبالغة ، أي ويرومون ويحاولون إظهار هذه السّبيل عوجاء ، أي يختلقون لها نقائص يموّهونها على النّاس تنفيراً عن الإسلام كقولهم : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل مُمَزّق إنّكم لفي خَلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ [سبأ : 7 ، 8] ، وتقدّم تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً ﴾ في سورة آل عمران (99) .

(40/270)

وورد وصفهم بالكفر بطريق الجملة الاسميّة في قوله : وهم بالآخرة كافرون ﴾ للدّلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكّنه منهم ، لأنّ الكفر من الاعتقادات العقليّة التي لا يناسبها التّكرّر ، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم بالصدّ عن سبيل الله وبغي إظهار العِوَج فيها ، لأنّ ذَيْنك من الأفعال القابلة للتّكرير ، بخلاف الكفر فإنّه ليس من الأفعال ، ولكنّه من الانفعالات ،

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾ [الشورى : 19] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(41/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) ﴾

والذي يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أي ضلّ في ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(42/270)

ومن فوائد أبى السعود فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾

تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم لا لمجرد الإخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ حذف المفعول من الفعل الثاني إسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد ، وقيل : لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث والحساب ونعيم الجنة ، فإنهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وإن لم يكن وعده مخصوصا بهم ﴿ قالوا نعم ﴾ أي وجدناه حقا ، وقرىء بكسر العين وهي لغة فيه ﴿ فأذن مؤذن ﴾ قيل : هو صاحب الصور ﴿ بينهم ﴾ أي بين الفريقين ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ بأن المخففة أو المفسرة ، وقرىء بأن المشددة ونصب (لعنة) وقرى إن بكسر الهمزة على إرادة القول أو إجراء أذن مجرى قال ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ صفة مقررة للظالمين ، أو رفع على الذم أو نصب عليه ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أي يبغون لها عوجا بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق وهو أبعد شيء منهما والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصبا وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح والحائط

﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ غير معترفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(43/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " الَّذينَ " يجوز أن يكون مرفوع المحل ومنصوبه على القطع فيهما ، ومجروره على النَّعت ، أو البدل ، أو عطف البيانِ .

ومفعول " يَصُدُّونَ " محذوف أي : يَصُدُّون النَّاسَ ، ويجوز ألاَّ يُقدر له مفعول .

والمعنى : الَّذين من شأنهم الصَّدُّ كقولهم : " هو يعطي ويمنع " .

ومعنى " يَصُدُّونَ " أي : يمنعون النَّاس من قبول الدين الحقِّ ، إمَّا بالقهر ، وإمّا بسائر الحِيَلِ .

ويجوز أن يكون " يَصُدُّونَ " بمعنى يعرضون من : صدَّ صُدُوداً ، فيكون لازماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 123 . 124 ﴾

(44/270)

قوله تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ وبينهما ﴾ أي وحال الفريقين عند هذه المناداة أنه بينهما أو بين الدارين ﴿ حجاب ﴾ أي سور لئلا يجد أهل النعيم في دارهم ما يكدر نعيمها ﴿ وعلى الأعراف ﴾ جمع عرف وهو كل عال مرتفع لأنه يكون أعرف مما انخفض ، وهي المشرفات من ذلك الحجاب ﴿ رجال ﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا هنالك حتى يقضي الله فيهم ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته كما جاء مفسراً في مسند ابن أبي خثيمة من حديث جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يعرفون كلاً ﴾ أي من أصحاب الجنة وأصحاب النار قبل دخول كل منهم داره ﴿ بسيماهم ﴾ أي علامتهم ﴿ ونادوا ﴾ أي أصحاب الأعراف ﴿ أصحاب الجنة ﴾ أي بعد دخولهم إليها واستقرارهم فيها ﴿ أن سلام عليكم ﴾ أي سلامة وأمن من كل ضار .

ولما كان هذا السلام ربما أشعر أنه بعد دخول أهل الأعراف الجنة ، فكأنه قيل أكان نداؤهم بعد مفارقتهم الأعراف ودخولها ؟ فقيل لا ، ﴿ لم يدخلوها ﴾ أي الجنة بعد ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ يطمعون ﴾ في دخولها ، وعبر بالطمع لأنه لا سبب للعباد إلى الله من أنفسهم وإن كانت لهم أعمال فضلاً عن هؤلاء الذين لا أعمال لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 36 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ يعني : بين الجنة والنار ، أو بين الفريقين ، وهذا الحجاب هو المشهور المذكور في قوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ ﴾ [الحديد : 13] .

فإن قيل : وأي حاجة إلى ضرب هذا السور بين الجنة والنار ؟ وقد ثبت أن الجنة فوق السموات وأن الجحيم في أسفل السافلين .

قلنا : بعد إحداهما عن الأخرى لا يمنع أن يحصل بينهما سور وحِجاب ، وأما الأعراف فهو جمع عرف وهو كل مكان عال مرتفع ، ومنه عرف الفرس وعرف الديك ، وكل مرتفع من الأرض عرف ، وذلك لأنه بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض منه .

إذا عرفت هذا فنقول : في تفسير لفظ الأعراف قولان :

القول الأول : وهو الذي عليه الأكثرون أن المراد من الأعراف أعالي ذلك السور المضروب بين الجنة والنار ، وهذا قول ابن عباس .

وروي عنه أيضاً أنه قال : الأعراف شرف الصراط .

والقول الثاني : وهو قول الحسن وقول الزجاج : في أحد قوليه أن قوله : ﴿ وَعَلَى الأعراف ﴾ أي وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يعرفون كل أحد من أهل الجنة والنار بسيماهم .

(46/270)

فقيل للحسن : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فضرب على فخذيه ثم قال : هم قوم جعلهم الله تعالى على تعرف أهل الجنة وأهل النار يميزون البعض من البعض ، والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا ! أما القائلون بالقول الأول فقد اختلفوا في أن الذين هم على الأعراف من هم ؟ ولقد كثرت الأقوال فيهم وهي محصورة في قولين : أحدهما : أن يقال إنهم الأشراف من أهل الطاعة وأهل الثواب ، الثاني : أن يقال إنهم أقوام يكونون في الدرجة السافلة من أهل الثواب أما على التقدير الأول ففيه وجوه : أحدها : قال أبو مجلز : هم

ملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار ، فقيل له : يقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ ﴾ وتزعم أنهم ملائكة ؟ فقال الملائكة ذكور لا إناث .

ولقائل أن يقول : الوصف بالرجولية إنما يحسن في الموضع الذي يحصل في مقابلة الرجل من يكون أنثى ولما امتنع كون الملك أنثى امتنع وصفهم بالرجولية .

وثانيها : قالوا إنهم الأنبياء عليهم السلام أجلسهم الله تعالى على أعالي ذلك السور تمييزاً لهم عن سائر أهل القيامة ، وإظهاراً لشرفهم ، وعلو مرتبتهم وأجلسهم على ذلك المكان العالي ليكونوا مشرفين على أهل الجنة ، وأهل النار مطلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم .

(47/270)

وثالثها : قالوا : إنهم هم الشهداء ، لأنه تعالى وصف أصحاب الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار ، ثم قال قوم : إنهم يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة ، وأهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ، وهذا الوجه باطل ، لأنه تعالى خص أهل الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم ، ولو كان المراد ما ذكروه لما بقي لأهل الأعراف اختصاص بهذه المعرفة ، لأن كل أحد من أهل

الجنة ومن أهل النار يعرفون هذه الأحوال من أهل الجنة ومن أهل النار ، ولما بطل هذا الوجه ثبت أن المراد بقوله : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بسيماهم ﴾ هو أنهم كانوا يعرفون في الدنيا أهل الخير والإيمان والصلاح ، وأهل الشر والكفر والفساد وهم كانوا في الدنيا شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة وعلى أهل الكفر والمعصية ، فهو تعالى يجلسهم على الأعراف ، وهي الأمكنة العالية الرفيعة ليكونوا مطلعين على الكل يشهدون على كل أحد بما يليق به ، ويعرفون أن أهل الثواب وصلوا إلى الدرجات ، وأهل العقاب إلى الدركات .

فإن قيل : هذه الوجوه الثلاثة باطلة ، لأنه تعالى قال في صفة أصحاب الأعراف أنهم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أي لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء ، والملائكة والشهداء .

أجاب الذاهبون إلى هذا الوجه بأن قالوا : لا يبعد أن يقال : إنه تعالى يبين من صفات أصحاب الأعراف أن دخولهم الجنة يتأخر ، والسبب فيه أنه تعالى ميزهم عن أهل الجنة وأهل النار ، وأجلسهم على تلك الشرفات العالية والأمكنة المرتفعة ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار فيلحقهم السرور العظيم بمشاهدة تلك الأحوال ، ثم إذا استقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فحينئذ ينقلهم الله تعالى إلى أمكنتهم العالية في الجنة ، فثبت أن كونهم غير داخلين في الجنة لا يمنع من كمال شرفهم وعلو درجتهم .

وأما قوله : ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فالمراد من هذا الطمع اليقين ألا ترى أنه تعالى قال حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] وذلك الطمع كان طمع يقين ، فكذا ههنا .

فهذا تقرير قول من يقول أن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل الجنة .

والقول الثاني : وهو قول من يقول أصحاب الأعراف أقوام يكونون في الدرجة النازلة من أهل الثواب والقائلون بهذا القول ذكروا وجوهاً : أحدها : أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا جرم ما كانوا من أهل الجنة ولا من أهل النار فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة وبين النار ثم يدخلهم الله تعالى الجنة بفضله ورحمته وهم آخر قوم يدخلون الجنة ، وهذا قول حذيفة وابن مسعود رضي الله عنهما واختيار الفراء ، وطعن الجبائي والقاضي في هذا القول واحتجوا على فسادّه بوجهين :

الأول : أن قالوا إن قوله تعالى : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] يدل على أن كل من دخل الجنة فإنه لا بد وأن يكون مستحقاً لدخولها ، وذلك يمنع من القول بوجود أقوام لا يستحقون الجنة ولا النار ، ثم إنهم يدخلون الجنة بمحض التفضل لا بسبب الاستحقاق .

وثانيهما : إن كونهم من أصحاب الأعراف يدل على أنه تعالى ميزهم من جميع أهل القيامة

بأن أجلسهم على الأماكن العالية المشرفة على أهل الجنة ، وأهل النار ، وذلك تشريف عظيم ، ومثل هذا التشريف لا يليق إلا بالأشراف ولا شك أن الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم فدرجتهم قاصرة ، فلا يليق بهم ذلك التشريف .

والجواب عن الأول : أنه يحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا ﴾ خطاب مع قوم معينين ، فلم يلزم أن يكون لكل أهل الجنة كذلك .

(49/270)

والجواب عن الثاني : أنا لا نسلم أنه تعالى أجلسهم على تلك المواضع على سبيل التخصيص بمزيد التشريف والإكرام ، وإنما أجلسهم عليها لأنها كالمرتبة المتوسطة بين الجنة والنار ، وهل النزاع إلا في ذلك ؟ فثبت أن الحجة التي عولوا عليها في إبطال هذا الوجه ضعيفة .

الوجه الثاني : من الوجوه المذكورة في تفسير أصحاب الأعراف قالوا : المراد من أصحاب الأعراف أقوام خرجوا إلى الغزو بغير إذن آبائهم فاستشهدوا فحبسوا بين الجنة والنار .

واعلم أن هذا القول داخل في القول الأول لأن هؤلاء ، إنما صاروا من أصحاب الأعراف لأن معصيتهم ساوت طاعتهم بإجهاد ، فهذا أحد الأمور الداخلة تحت الوجه الأول

وبتقدير أن يصح ذلك الوجه فلا معنى لتخصيص هذه الصورة وقصر لفظ الآية عليها .

والوجه الثالث : قال عبد الله بن الحرث : إنهم مساكين أهل الجنة .

والوجه الرابع : قال قوم إنهم الفساق من أهل الصلاة يعفو الله عنهم ويسكنهم في الأعراف فهذا كله شرح قول من يقول : الأعراف عبارة عن الأمكنة العالية على السور المضروب بين الجنة وبين النار .

وأما الذين يقولون الأعراف عبارة عن الرجال الذين يعرفون أهل الجنة وأهل النار ؛ فهذا القول أيضاً غير بعيد إلا أن هؤلاء الأقوام لا بد لهم من مكان عال يشرفون منه على أهل الجنة ، وأهل النار وحينئذ يعود هذا القول إلى القول الأول ، فهذه تفاصيل أقوال الناس في هذا الباب .

والله أعلم ، ثم إنه تعالى أخبر أن أصحاب الأعراف يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم واختلفوا في المراد بقوله : ﴿ بسيماهم ﴾ على وجوه .

(50/270)

فالقول الأول : وهو قول ابن عباس : أن سيما الرجل المسلم من أهل الجنة بياض وجهه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] وكون وجوههم

مسفرة ضاحكة مستبشرة ، وكون كل واحد منهم أغر محجلاً من آثار الوضوء ، وعلامة الكفار سواد وجوههم ، وكون وجوههم عليها غبرة ترهقها قترة ، وكون عيونهم زرقاً .

ولقائل أن يقول : إنهم لما شاهدوا أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فأي حاجة إلى أن يستدل على كونهم من أهل الجنة بهذه العلامات ؟ لأن هذا يجري مجرى الاستدلال على ما علم وجوده بالحس ، وذلك باطل .

وأيضاً فهذه الآية تدل على أن أصحاب الأعراف مختصون بهذه المعرفة ، ولو حملناه على هذا الوجه لم يبق هذا الاختصاص ، لأن هذه الأحوال أمور محسوسة ، فلا يختص بمعرفتها شخص دون شخص .

والقول الثاني : في تفسير هذه الآية أن أصحاب الأعراف كانوا يعرفون المؤمنين في الدنيا بظهور علامات الإيمان والطاعات عليهم ويعرفون الكافرين في الدنيا أيضاً بظهور علامات الكفر والفسق عليهم ، فإذا شاهدوا أولئك الأقوام في محفل القيامة ميزوا البعض عن البعض بتلك العلامات التي شاهدوها عليهم في الدنيا ، وهذا الوجه هو المختار .

أما قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ أصحاب الجنة أَن سلام عَلَيْكُمْ ﴾ فالمعنى إنهم إذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا على أهلها ، وعند هذا تم كلام أهل الأعراف .

ثم قال : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ والمعنى أنه تعالى أخبر أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة ، ومع ذلك فهم يطمعون في دخولها ، ثم إن قلنا إن أصحاب الأعراف هم الأشراف من أهل الجنة فقد ذكرنا أنه تعالى إنما أجلسهم على الأعراف وأخر إدخالهم الجنة ليطلعوا على أحوال أهل الجنة والنار ، ثم إنه تعالى ينقلهم إلى الدرجات العالية في الجنة كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء ، وأن أبا بكر وعمر منهم " وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل القيامة ، فعند وقوف أهل القيامة في الموقف يجلس الله أهل الأعراف في الاعراف ، وهي المواضع العالية الشريفة فإذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نقلهم إلى الدرجات العالية في الجنة ، فهم أبداً لا يجلسون إلا في الدرجات العالية .

وأما إن فسرنا أصحاب الأعراف بأنهم الذين يكونون في الدرجة النازلة من أهل النجاة قلنا إنه تعالى يجلسهم في الأعراف وهم يطعمون من فضل الله وإحسانه أن ينقلهم من تلك المواضع إلى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 72 . 75 ﴾

(52/270)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾

أي بين أهل الجنة وأهل النار سور ﴿ وَعَلَى الاعراف رِجَالٌ ﴾ .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : الأعراف سور كعرف الديك .

وقال القتبي : الأعراف سور بين الجنة والنار ، وسمي بذلك لارتفاعه ، وكل مرتفع عند العرب أعراف .

وقال السدي : إنما سمّي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس .

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : " هُمْ قَوْمٌ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فِي مَعْصِيةِ آبَائِهِمْ فَمَنَعَهُمْ مِنَ النَّارِ قَتْلُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنَعَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ مَعْصِيَتُهُمْ آبَاءَهُمْ " وعن حذيفة بن اليمان أنه قال : قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يكن لهم حسنات فاضلة يدخلون بها الجنة ولا سيئات فاضلة يدخلون بها النار .

وهذا القول أيضاً روي عن ابن عباس مثل هذا .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : هم أولاد الزنى .

وروي عن أبي مجلز أنه قال : هم الملائكة .

فبلغ ذلك مجاهداً فقال : كذب أبو مجلز يقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الاعراف رِجَالٌ ﴾

فقال أبو مجلز : لأن الملائكة ليسوا بإناث ولكنهم عباد الرحمن .

قال الله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شهادتهم ويُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 19] .

﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بسيماهم ﴾ يعني : أن أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة إذا مروا بهم ببياض وجوههم ، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم والسيما هي العلامة ﴿ وَنَادَوْاْ أصحاب الجنة أَن سلام عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : فإذا مرّ بهم زمرة من أهل الجنة قالوا : ﴿ أَن سلام عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : إنّ أهل الأعراف يسلّمون على أهل الجنة ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ يعني : إنّ أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أنْ يَدخلوها .

وقال الحسن : والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدهم بها .

(53/270)

ويقال : لم يدخلوها يعني : أهل الجنة لم يدخلوها حتى يسلم عليهم أهل الأعراف وهم يطمعون في دخولها .

ويقال : أهل النار لم يدخلوها أبداً وهم يطمعون وطمعهم أن أفيضوا علينا من الماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ يعني بين الجنّة والنار حجاب حاجز وهو السور الذي ذكر الله عزّ وجلّ في قوله ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ [الحديد : 13] .

﴿ وَعَلَى الأعراف ﴾ يعني على ذلك الحجاب . والأعراف سور بين الجنّة والنار وهي جمع عرف وهو كلّ تل مرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده .

وقال الشماخ :

وظلت بأعراف تعالى كأنها . . . رماح نحاها وجهة الريح راكز

ويروى : بأعراف قفالاً ، أي قفالى أي قفلى بعضهم بعضاً ، بمشغرة نصف حمير ، وشبّه [قوامها] بالرماح نحاها قصد بها وجهة الريح ، أي جهة الريح ، وقوله : بأعراف أي نشوز من الأرض .

وقال آخر :

كل كناز لحمها نياف . . . كالعلم الموفي على الأعراف

يعني كل كناز نياف لحمها والكناز الصلب .

قال السدي : سمي أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس . وقال الحسين بن الفضل : هو الصراط ، واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف من هم وما السبب الذي من أجله صاروا هناك ؟ فقال حذيفة وابن عباس : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم في سيّئاتهم وقصرت بهم سيّئاتهم عن الجنّة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هناك حتّى يقضي الله فيهم ما يشاء ثمّ يدخلهم الجنّة بفضل رحمته وهم آخر مَنْ يدخل الجنّة قد عرفوا أهل الجنّة وأهل النار ، فإذا أراد الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه من الذهب مكلّلا باللؤلؤ ترابه المسك فالقوا فيه حتّى يصلح ألوانهم ويبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بهم فأتى بهم فقال الله لهم : تمنوا ما شئتم فيتمنون متى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم : لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً فيدخلون الجنّة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنّة .

(55/270)

قال ابن مسعود : يحاسب الله عزّ وجلّ الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيّئاته بواحدة دخل الجنّة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثمّ قرأ : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين

خسروا أَنفُسَهُم ﴾ ، ثمّ قال : الميزان يخفف بمثقال حبّة [فيرجح] .

ومَنْ استوت حسناته وسيّئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ولم ينزع منهم النور الذي كان في أيديهم . " وروى يحيى بن [شبل] أنّ رجلا من بني النضير أخبره عن رجل من بني هلال أن أباه أخبره أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : هم رجال غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم فقتلوا فاعفوا من النار لقتلهم في سبيل الله وحبسوا عن الجنّة بمعصية أبائهم فهم آخر من [يدخل] الجنّة " .

قال شرحبيل بن سعيد : هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم ، وقال مجاهد : هم قوم صالحون فقهاء علماء ، وقال [التميمي] وأبو مجلن : هم ملائكة يعرفون أهل الجنّة وأهل النار فقيل لأبي مجلن يقول الله : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ ﴾ وتزعم أنت أنهم ملائكة ، فقال : إنهم ذكور ليسوا بإناث ، قال ابن عباس : هم رجال كانت لهم ذنوب كثيرة ، وكان حبسهم أمر الله يقومون على الأعراف ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

وروى [صالح مولى الكوفة] أنّ ابن عباس قال : أصحاب الأعراف أولاد الزنا . وقال أبو العالية : هم قوم يطمعون أن يدخلوا الجنّة وما جعل [الله] ذلك الطمع فيهم إلاّ كرامة يريدها بهم .

وقال عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه قال : هم قوم رضي عنهم آبائهم دون أُمهاتهم أو أُمهاتهم دون آبائهم فلم يدخلهم الله الجنّة ، لأن آباءهم وأُمهاتهم غير راضين عنهم ولم يدخلهم النار لرضا آبائهم أو أمهاتهم عنهم فيحبسون على الأعراف إلى أن يقضي الله عزّ وجلّ بين الخلق ثمّ يدخلهم الجنّة ، وقال عبد العزيز بن يحيى [الكناني] : هم الذين ماتوا [بالفقر] ولم يبدلوا دينهم ، وفي تفسير المنجوني : إنهم أولاد المشركين .

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت محمد بن محمد بن الأشعب يحكي عن بعضهم أنهم أُناس عملوا لله عزّ وجلّ ولكنهم راؤوا في أعمالهم فلا يدخلون النار لأنّهم عملوا أعمالهم لله ولا يدخلون الجنّة لأنّهم طلبوا الثواب من غير الله فيوقفون على الأعراف إلى أن يقضي الله بين الخلق قوله : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

وروى جويبر بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس في قوله عزّ وجلّ ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال : " الأعراف موضع عال (من) الصراط عليه العباس وحمزة ، وعليّ بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين يَعرفون محبيهم بياض الوجوه ومبغضيهم سواد الوجوه " .

وقوله : (يعرفون كلا بسيماهم) يعني يعرفون أهل الجنّة ببياض وجوههم ونظرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وزرقة عيونهم .

﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ يعني أهل الأعراف .

قال سعيد بن جبير : والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم لأن الله تعالى [. . . . .] ، ويود المنافقون وهم على الصراط لو بقي أحدهم ولم [. . . . .] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(57/270)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمُ ﴾ أما الأعراف فسور بين الجنة والنار ، قاله مجاهد ، والسدي ، وهو جَمْعٌ وَاحِدُهُ عُرْف وهو ما ارتفع عن غيره ، ومنه عرف الديك وعرف الفرس ، قال الراجز :

كل كتاب لجمعه موافي . . . كالعلم الموفي على الأعراف .

وفي الذين على الأعراف خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم فضلاء المؤمنين وعلماؤهم ، قاله الحسن ، ومجاهد ، قال أمية بن أبي الصلت :

وآخرون على الأعراف قد طمعوا . . . بجنة حفها الرمان والخضر .

وهذا وإن كان شعراً جاهلياً وحال الأعراف منقول عن خبر يروى فيحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون أمية قد وصل إلى علمه من الصحف الشرعية .

والثاني : أن يكون الله قد انطق به أمية إلهاماً لتصديق ما جاء به القرآن .

والثاني : أنهم ملائكة يُرَون في صور الرجال ، قاله أبو مجلز .

والثالث : أنهم قوم بطأت بهم صغائرهم إلى آخر الناس ، قاله حذيفة .

والرابع : أنه قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فجعلوا هنالك حتى يقضى الله من أمرهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة ، قاله ابن مسعود .

والخامس : أنهم قوم قتلوا في سبيل الله وكانوا عصاة لآبائهم ، قيل إنهم غزوا بغير إذنهم ، وقد روى محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال :

سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : " هُمْ قَوْمٌ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَعْصِيَةِ آبَائِهِمْ ، فَمَنَعَهُمْ قَتْلُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ النَّارِ ومنعهم مَعْصِيَةُ آبَائِهِم أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ

" ومعنى قوله : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ يعني يعرفون أهل النار وأهل الجنة بعلامتهم التي يتميزون بها ، وعلامتهم في وجوههم وأعينهم ، قال الحسن البصري : علامة أهل النار سواد الوجوه وزرقة العيون ، وعلامة أهل الجنة بياض الوجوه وحسن العيون .

فإن قيل في أصحاب الأعراف : إنهم فضلاء المؤمنين كان ذلك زيادة في ثوابهم ومبالغة في كرامتهم لأنهم يرون منازلهم في الجنة فيستمتعون بها ، ويرون عذاب النار فيفرحون بالخلاص منها .

وإن قيل : إنهم المفضلون وأصحاب الصغائر من المؤمنين كان ذلك لنقص ثوابهم عن استحقاق الدخول للجنة .

وإن قيل : إنهم الملائكة ، احتمل أمرهم ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يؤمروا بذلك حمداً لأهل الجنة وذماً لأهل النار وزيادة في الثواب والعقاب .

والثاني : أن يكونوا حفظة الأعمال في الدنيا الشاهدين بها عند الله في الآخرة أمروا بذلك ، ما أدوه من الشهادة تبشيراً لأهل الجنة وتوبيخاً لأهل النار .

والثالث : أن يكونوا خزنه الجنة والنار ، فإن من الملائكة من أفرد لخزنة الجنة ، ومنهم من أفرد لخزنة النار ، ويكون هؤلاء قد جمع لهم بين الأمرين ، والله أعلم بغيب ذلك .

وحكى ابن الأنباري أن قوله : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ معناه على معرفة أهل الجنة والنار رجال ، وأن قوله : ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوفٌ عَلَيكُم ﴾ الآية من قول أصحاب

الأعراف ، وهو مخالف لقول جميع المفسرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(59/270)

وقال ابن عطية :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾

الضمير في قوله ﴿ وبينهما ﴾ عائد على الجنة والنار ، ويحتمل على الجمعين إذا يتضمنهما قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 44] ، و" الحجاب " : هو السور الذي ذكره عز وجل في قوله : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ [الحديد : 13] قاله ابن عباس ، وقاله مجاهد : ﴿ الأعراف ﴾ حجاب بين الجنة والنار ، وقال ابن عباس أيضاً هو تل بين الجنة والنار ، وذكر الزهراوي حديثاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحداً جبل يحبنا ونحبه ، وإنه يقوم يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار يحتبس عليه أقوام يعرفون كلاً بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة " ، وذكر حديثاً آخر عن صفوان بن سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحداً على ركن من أركان الجنة " و ﴿ الأعراف ﴾ جمع عرف وهو المرتفع من الأرض .

ومنه قول الشاعر : [الرجز]

كل كناز لحمه نياف . . . كالجمل الموفي على الأعراف

ومنه قول الشماخ : [الطويل]

فظلت بأعراف تعالى كأنها . . . رماح نحاها وجهة الريح راكز

ومنه عرف الفرس وعرف الديك لعلوهما ، وقال السدي سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس .

قال القاضي أبو محمد : وهذه عجمة وإنما المراد على أعراف ذلك الحجاب أعاليه ، وقوله : ﴿ رجال ﴾ قال أبو مجلز لاحق بن حميد : هم الملائكة ، ولفظة ﴿ رجال ﴾ مستعارة لهم لما كانوا في تماثيل رجال قال : وهم ذكور ليسوا بإناث .

(60/270)

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وقد سمى الله رجالاً في الجن ، وقال الجمهور : هم رجال من البشر ، ثم اختلفوا فقال مجاهد : هم قوم صالحون فقهاء علماء ، وحكى الزهراوي أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم كل أمة ، وقاله الزجاج وقال قوم : هم أنبياء ، وقال المهدوي : هم الشهداء ، وقال شرحبيل بن

سعد : هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم ، وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه تعادل عقوقهم واستشهادهم وقال ابن مسعود والشعبي وحذيفة بن اليمان وابن عباس وابن جبير والضحاك : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

قال القاضي أبو محمد : وقع في مسند خيثمة بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار ، قيل يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون " ، وقال حذيفة بن اليمان أيضاً : هم قوم أبطأت بهم صغارهم إلى آخر الناس .

قال القاضي أبو محمد : واللازم من الآية أن على أعراف ذلك السور أو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله تعالى رجالاً من أهل الجنة ، يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين .

(61/270)

و ﴿ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ أي بعلامتهم وهي بياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة ، وسوادها وقبحها في أهل النار إلى غير ذلك في حيز هؤلاء وحيز هؤلاء ، والسيما العلامة وهو من وسم ، وفيه قلب ، يقال سيما مقصور وسيما ممدود وسيمياء بكسر الميم وزيادة ياء فوزنها فعلاً مع كونها من وسم ، وقيل هي من سوم إذا علم فوزنها على هذا فعلاً ، ونداؤهم أصحاب الجنة يحتمل أن يكون وأصحاب الجنة لم يدخلوها بعد فيكون أيضاً قوله ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ محتملاً أن يعنى به أهل الجنة وهو تأويل أبي مجلز إذ جعل أصحاب الأعراف ملائكة ، ومحتملاً أن يعنى به أهل الأعراف ، ويحتمل أن يكون نداؤهم أهل الجنة بالسلام وهم قد دخلوها ، فلا يحتمل حينئذ قوله : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ إلا أهل الأعراف فقط ، وهو تأويل السدي وقتادة وابن مسعود والحسن ، وقال : والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لخير أراده بهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الأظهر الأليق ولا نظر لأحد مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ وهم يطمعون ﴾ هي جملة مقطوعة ، أخبر أنهم لم يدخلوها وهم طامعون بدخولها فكأن الجملة حال من الضمير في ﴿ نادوا ﴾ ، وقرأ أبو رقيش النحوي " لم يدخلوها وهم طامعون " وقرأ إياد بن لقيط " وهم ساخطون " ، وذكر بعض الناس قولاً وهو أن يقدر قوله ﴿ وهم يطمعون ﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿ يدخلوها ﴾ ، ويكون المعنى لم يدخلوها في حال طمع بها بل كانوا في حال يأس وخوف لكنهم عمهم

عفو الله عز وجل ، وقال ابن مسعود : إنما طمع أصحاب الأعراف لأن النور الذي كان في أيديهم لم يطفأ جين يطفأ كل ما بأيدي المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(62/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾

أي : بين الجنة والنار حاجز ، وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ [الحديد : 13] ، فسمي هذا السور بالأعراف لارتفاعه .

قال ابن عباس : الأعراف : هو السور الذي بين الجنة والنار ، له عرف كعرف الديك .

وقال أبو هريرة : الأعراف : جبال بين الجنة والنار ، فهم على أعرافها ، يعني : على ذراها ، خِلقتها كخِلقة عرف الديك .

قال اللغويون : الأعراف عند العرب : كل ما ارتفع من الأرض وعلا ؛ يقال لكل عال : عُرف ، وجمعه : أعراف .

قال الشاعر :

كلُّ كنازٍ لَحُمُه نِيَافِ . . .

كالعَلَم المُوفي على الأَعْرافِ

وقال الآخر :

وَرِثت بِنَاءَ آبَاءٍ كِرَامٍ . . .

عَلَوْا بالمَجْدِ أعْرَافَ البِنَاءِ

وفي "أصحاب الأعراف" قولان .

أحدهما : أنهم من بني آدم ، قاله الجمهور .

وزعم مقاتل : أنهم من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة .

وفي أعمالهم تسعة أقوال .

أحدها : أنهم قوم قُتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم ، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ، ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله ، وهذا مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تبلغ حسناتهم دخول الجنة ، ولا سيئاتهم دخول النار ، قاله ابن مسعود ، وحذيفة ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، والشعبي ، وقتادة .

والثالث : أنهم أولاد الزنا ، رواه صالح مولى التوأمة عن ابن عباس .

والرابع : أنهم قوم صالحون فقهاء علماء ، قاله الحسن ، ومجاهد ؛ فعلى هذا ، يكون لبثهم

على الأعراف على سبيل النزهة .

والخامس : أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أُمهاتهم ، أو أُمهاتهم دون أبائهم ، رواه عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم .

والسادس : أنهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدّلوا دينهم ، قاله عبد العزيز بن يحيى .

والسابع : أنهم أنبياء ، حكاه ابن الانباري .

(63/270)

والثامن : أنهم أولاد المشركين ، ذكره المنجوفي في تفسيرة .

والتاسع : أنهم قوم عملوا لله ، لكنّهم راؤَوا في عملهم ، ذكره بعض العلماء .

والقول الثاني : أنهم ملائكة ، قاله أبو مجلز ، واعتُرض عليه ، فقيل : إنهم رجال فكيف تقول : ملائكة ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا باناث .

وقيل معنى قوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ أي : على معرفة أهل الجنة من أهل النار ، ذكره الزجاج ، وابن الانباري .

وفيه بُعد وخلاف للمفسرين .

قوله تعالى : ﴿ يعرفون كلاًّ بسيماهم ﴾ أي : يعرف أصحابُ الأعراف أهل الجنة وأهل

النار ، وسيما أهل الجنة : بياض الوجوه ، وسيما أهل النار : سواد الوجوه ، وزرقة العيون .

والسيما : العلامة .

وإنما عرفوا الناس ، لأنهم على مكانٍ عالٍ يشرفون فيه على أهل الجنة والنار .

﴿ ونادَوا ﴾ يعني : أصحاب الأعراف ﴿ أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ وفي قوله : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ قولان .

أحدهما : أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يُذهَب بها إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها ، هذا قول السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(64/270)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾

أي بين النار والجنة لأنه جرى ذكرهما حاجز ؛ أي سُورٌ .

وهو السور الذي ذكره الله في قوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ [الحديد : 13] .

﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ ﴾ أي على أعراف السور ؛ وهي شُرَفُه .

ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك .

روى عبد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس أنه قال : الأعراف الشيء المُشْرِف .

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : الأعراف سور له عُرف كُعْرف الديك .

والأعراف في اللغة : المكان المُشْرف ؛ جمع عُرْف .

قال يحيى بن آدم : سألت الكسائيّ عن واحد الأعراف فسكت ، فقلت : حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال : الأعراف سور له عرف كعرف الدّيك .

فقال : نعم والله ، واحده يعني ، وجماعته أعراف ، يا غلام ، هات القرطاس ؛ فكتبه .

وهذا الكلام خرج مخرج المدح ؛ كما قال فيه : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [النور : 37] وقد تكلم العلماء في أصحاب الأعراف على عشرة أقوال : فقال عبد الله بن مسعود وحُذيفة ابن اليمان وابن عباس والشعبيّ والضحاك وابن جُبير : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

قال ابن عطية : وفي مسند خيثمة بن سليمان (في آخر الجزء الخامس عشر) حديث عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "تُوضع الموازين يوم القيامة

فتُوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صُؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار" .

قيل : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : "أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون" " وقال مجاهد : هم قوم صالحون فقهاء علماء .

وقيل : هم الشهداء ؛ ذكره المَهْدويّ .

(65/270)

وقال القشيريّ : وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء ، فرغوا من شغل أنفسهم ، وتفرغوا لمطالعة حال الناس ؛ فإذا رأوا أصحاب النار تعوّذوا بالله أن يُرَدّوا إلى النار ، فإن في قدرة الله كل شيء ، وخلاف المعلوم مقدور .

فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولها .

وقال شَرَحْبيل بن سعد : هم المستشهِدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم .

وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : وأنه تعادل عُقوقهم واستشهادهم .

وذكر الثعلبيّ بإسناده عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ ﴾ قال

: الأعراف موضع عالٍ على الصراط ، عليه العباس وحمزة وعليّ بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين ، رضي الله عنهم ، يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه ومُبْغضيهم بسواد الوجوه .

وحكى الزَّهرَاوِي أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم في كل أمة .

واختار هذا القول النحاس ، وقال : وهو من أحسن ما قيل فيه ؛ فهم على السور بين الجنة والنار ، وقال الزجاج : هم قوم أنبياء .

وقيل : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غَمٌّ فيقع في مقابلة صغائرهم .

وتمنىَّ سالم مولى أبي حُذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف ؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون .

وقيل : هم أولاد الزنى ؛ ذكره القُشَيريّ عن ابن عباس .

وقيل : هم ملائكة موكَّلون بهذا السور ، يميِّزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ؛ ذكره أبو مجلز .

فقيل له : لا يقال للملائكة رجال ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث ، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ؛ كما أوقع على الجنّ في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ [الجن : 6] .

فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم ؛ فيبشِّرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ فيطمعون فيها .

وإذا رأوا أهل النار دَعَوْا لأنفسهم بالسلامة من العذاب .

قال ابن عطية : واللازم من الآية أن على الأعراف رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وُصف من الاعتبار في الفريقين .

و﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بعلاماتهم ، وهي بياض الوجوه وحسنُها في أهل الجنة ، وسوادُها وقبحها في أهل النار ، إلى غير ذلك من معرفة حَيِّز هؤلاء وحيز هؤلاء .

قلت : فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل ، والله بحقائق الأمور عليم .

ثم قيل : الأعراف جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع ؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض .

قال ابن عباس : الأعراف شُرَف الصراط .

وقيل : هو جبل أُحُد يوضع هناك .

قال ابن عطية : وذكر الزَّهْرَاوِيّ حديثاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أُحُداً جبل يُحبُّنا ونُحبّه وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنار يُحبس عليه أقوام يعرفون كلاًّ بسيماهم هُمُ إن شاء الله من أهل الجنة " وذكر حديثاً آخر عن صَفْوان بن سُلَيم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أُحُداً على ركن من أركان الجنة " .

قلت : وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أُحد جبل يحبنا ونحبه وإنه لعلى تُرْعة من تُرع الجنة " .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة ﴾ أي نادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة .

﴿ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قالوا لهم سلام عليكم .

وقيل : المعنى سلمتم من العقوبة .

﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، أي لم يدخلوها بعدُ .

"وَهُمْ يَطْمَعون" على هذا التأويل بمعنى وهم يعلمون أنهم يدخلونها .

(67/270)

وذلك معروف في اللغة أن يكون طَمِع بمعنى عَلِم ؛ ذكره النحاس : وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما ، أن المراد أصحاب الأعراف .

وقال أبو مجلز : هم أهل الجنة ، أي قال لهم أصحاب الأعراف سلام عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعدُ وهم يطمعون في دخولها للمؤمنين المارّين على أصحاب الأعراف .

والوقف على قوله : "سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ" .

وعلى قوله : "لَمْ يَدْخُلُوهَا" .

ثم يبتدىء "وَهُمْ يَطْمَعُونَ" على معنى وهم يطمعون في دخولها .

ويجوز ان يكون "وَهُمْ يَطْمَعُونَ" حالاً ، ويكون المعنى : لم يدخلها المؤمنون المارّون على أصحاب الأعراف طامعين ، وإنما دخلوها غير طامعين في دخولها ؛ فلا يوقف على "لم يدخلوها" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(68/270)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وبينهما حجاب ﴾

يعني بين الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ قال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار .

وقال السدي وبينها حجاب هو السور وهو الأعراف وقوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ الأعراف : جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض ، وقال

السدي : إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الأعراف الشيء المشرف وعنه قال الأعراف سور كعرف الديك وعنه أن الأعراف جبل بين الجنة والنار .

يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صلة الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله تعالى فيهم ، قال بعضهم : إنما جعلوا على الأعراف لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لأنه ليس في الآخرة دار إلا الجنة أو النار .

(69/270)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة من كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار وإن الميزان يخف ويثقل بمثال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على

الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ فكان الطمع دخولاً قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : إذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب له إلا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الأعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئآتهم فهم بذلك المكان حتى إذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ما شئتم فيتمونون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير في تفسيره .

وقال شرحبيل بن سعد : أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو من غير إذن آبائهم .

ورواه الطبري بسنده إلى يحيى بن غيل مولى لبني هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال " هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة " زاد في رواية " فهُم آخر من يدخل الجنة " وذكر ابن الجوزي : إنهم قوم رضي آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم .

ورواه عن إبراهيم وذكر عن أبي صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إنهم أولاد الزنا ، وقيل : إنهم الذين ماتوا في الفترة وفيه بعد لأن آخر أمر أصحاب الأعراف إلى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا في الفترة والله أعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل إنهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالاً وهذا القول يرجع معناه إلى القول الذي قبله لأنه داخل في حكمه فهذه الأقوال تدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة في الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى .

وقال مجاهد : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول إنما يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة أو ليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل إنهم أنبياء حكاه ابن الأنباري وإنما أجلسهم الله على ذلك المكان العالي تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة وإظهاراً لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار .

وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعني يعرفون أهل الجنة وأهل النار ، فقيل لأبي مجلز : إن الله تعالى يقول وعلى الأعراف رجال وأنت تقول إنهم

ملائكة فقال إن الملائكة ذكور ليسوا بإناث وضعّف الطبري قول أبي مجلز قال : لأن لفظ الرجال في لسان العرب لا يطلق إلا على الذكور من بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الأقوال أن أصحاب الأعراف أفضل من أهل الجنة لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل .

وقيل : إنما أجلسهم الله في ذلك المكان العالي ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده وأسراره كتابه .

قوله عز وجل : ﴿ يعرفون كلاًّ بسيماهم ﴾ يعني : أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على الشيء وأصله من السمة .

(71/270)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أصحاب الأعراف إذا رأوا أصحاب الجنة عرفوا ببياض الوجوه وإذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه .

فإن قلنا إن أصحاب الأعراف من استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم دون أهل الجنة في الدرجة كان وقوفهم على الأعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فإذا رأوا أهل

الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم ونادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ يعني : نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم يعني سلمتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة وإذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ وإن قلنا : إن أصحاب الأعراف هم الأشراف والأفاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الأعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم لينقلهم الله عز وجل إلى الدرجات العلية في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ يعني في دخول الجنة .

قال الحسن : ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(72/270)

وقال أبو حيان :

﴿ وبينهما حجاب ﴾

أي بين الفريقين لأنهم المحدّث عنهم وهو الظاهر ، وقيل : بين الجنة والنار وبهذا بدأ الزمخشري وابن عطية وفسر الحجاب بأنه المعنى بقوله فضرب بينهم بسور وقاله ابن عباس

: ويقوي أنه بين الفريقين لفظ بينهم إذ هو ضمير العقلاء ولا يحيل ضرب السّور بعد ما بين الجنة والنار وإن كانت تلك في السماء والنار أسفل السافلين .

(73/270)

﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم ﴾ أي وعلى أعراف الحجاب وهو السّور المضروب ﴿ رجال يعرفون كلاًّ ﴾ من فريقي الجنة والنار بعلامتهم التي ميّزهم الله بها من ابيضاض وجوه واسوداد وجوه أو بغير ذلك من العلامات أو بعلامتهم التي يلهمهم الله معرفتها و ﴿ الأعراف ﴾ تل بين الجنة والنار ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد : حجاب بين الجنة والنار ، وقيل : هو أحد ممثل بين الجنة والنار روي هذا في حديث وفي آخر " أنّ أحداً على ركن من أركان الجنة " ، وقيل : أعالي السّور الذي ضرب بين الجنة والنار قاله الزمخشري ، والرجال قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم وقفوا هنالك ما شاء الله ، لم تبلغ حسناتهم بهم دخول الجنة ولا سيئاتهم دخول النار ، وروي في مسند ابن أبي خيثمة عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث فيه قيل يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته قال : " أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون " ، وقاله ابن مسعود وابن عباس وحذيفة وأبو هريرة ، قال حذيفة بن اليمان أيضاً هم قوم أبطأت بهم

صغائرهم إلى آخر الناس ، وقيل غزاة جاهدوا من غير إذن والديهم فقتلوا في المعركة وهذا مرويّ عن الرسول أنهم حبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم وأعتقهم الله من النار لأنهم قتلوا في سبيله ، وقيل : قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم أو بالعكس ، وقيل : هم أولاد الزنا ، وقيل : أولاد المشركين ، وقيل : الذين كانوا في الأسر ولم يبدّلوا دينهم ، وقيل : علماء شكوا في أرزاقهم ، وقال الزمخشري : رجال من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم كأنهم المرجئون لأمر الله يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة ، وقال ابن عطية : واللازم من الآية أنّ على أعراف ذلك السور أو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين ﴿ يعرفون كلا ﴾ بعلامتهم وهي بياض

(74/270)

الوجوه وحسنها في أهل الجنة وسوادها وقبحها في أهل النار انتهى ، والأقوال السابقة تحتاج إلى دليل واضح في التخصيص والجيّد منها هو الأوّل لحديث جابر ولتفسير جماعة من الصحابة وهذه الأقوال هي على قول من قال إنّ ﴿ الأعراف ﴾ هو بين الجنة والنار ، وفي شعر أمية بن الصّلت :

وآخرون على الأعراف قد طمعوا . . .

في جنّة حفّها الرمّان والخضر

وقال قوم : إنه الصراط ، وقيل : موضع على الصراط ، وقال قوم : هو جبل في وسط الجنة أو أعلاها واختلف هؤلاء في تفسير رجال ، وقال أبو مجلز : ملائكة في صور رجال ذكور وسمّوا رجالاً لقوله :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ وقال مجاهد والحسن هم فضلاء المؤمنين وعلماؤهم ، وقيل : هم الشهداء وقاله الكرماني : واختاره النحّاس ، وقال هو أحسن ما قيل فيه ، وقيل : حمزة والعبّاس وعلي وجعفر الطيّار ، وروي هذا عن ابن عباس ، وقيل : هم الأنبياء .

﴿ ونادى أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون .

وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ .

الظاهر أن الضمير في ونادوا إلى آخر الآية عائد على الرّجال الذين على الأعراف وعلى هذا لا يمكن أن تكون تلك الضمائر للأنبياء ولا لشيء مما فسر به أنهم على جبل في وسط الجنة أو أعلى الجنة وفي غاية البعد ما تؤول من ذلك ليصح شيء من تلك الأقوال أنهم أجلسوا على تلك الأماكن المرتفعة ليشاهدوا أحوال الفريقين فيلحقهم السرّور بتلك الأحوال ثم إذا استقر الفريقان نقلوا إلى أمكنتم التي أعدّت لهم في الجنة فمعنى ﴿ لم

يدخلوها ﴾ لم يدخلوا منازلهم المعدّة لهم فيها ومعنى ﴿ وهم يطمعون ﴾ يتيقّنون ما أعدّ الله لهم من الزلفى وقد جاء الطمع بمعنى اليقين قال ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ وطمع ابراهيم عليه السلام يقين .

وقال الشاعر :

وإني لأطمع أنّ الإله . . .

قدير بحسن يقيني يقيني

(75/270)

وأما قول من قال : إنّ الأعراف جبل بين الجنة والنار فقد طعن فيه القاضي والجبائي وقالا : هو فاسد لأنّ قوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يدلّ على أنّ كل من دخل الجنة لا بد أن يكون مستحقاً لدخولها وذلك يمنع من القول بوجود أقوام لا يستحقّون الجنة ولا النار ثم يدخلون الجنة بمحض الفضل لا بسبب الاستحقاق ولأن كونهم من أهل الأعراف يدّل على ميزهم من جميع أهل القيامة فإنّ إجلاسهم على الأماكن المرتفعة العالية على أهل الجنة والنار تشريف عظيم لا يليق إلا بالأشراف ومن تساوت حسناته وسيئاته درجته قاصرة لا يليق بهم ذلك التشريف ، وأجيب بأنه يحتمل أن يكون ونودوا خطاب مع أقوام معينين فلا يلزم أن

تكون أهل الجنة والنار و﴿ أنّ سلام ﴾ يحتمل أن ﴿ أن ﴾ تكون تفسرية ومخففة من الثقيلة ولم يدخلوها حال من المفعول أي ناداهم وهم في هذه الحال يعني أهل الجنة وهم يطمعون جملة خبريّة لا موضع لها من الإعراب أي نادوا أهل الجنة غير داخليها ثم أخبر أنهم طامعون في دخولها قال معناه أبو البقاء ، وقيل : المعنى ونادى أصحاب الأعراب أصحاب الجنة بالسلام وهم قد دخلوا الجنة وأهل الأعراف لم يدخلوها فيكون قوله ﴿ لم يدخلوها ﴾ حالاً من ضمير ونادوا العائد على أهل الأعراف فقط وهذا تأويل ابن مسعود وقتادة والسدّي وغيرهم ، وقال ابن مسعود : والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لخير أراده بهم وهذا هو الأظهر والأليق بمساق الآية ، وقال ابن مسعود أيضاً : إنما طمع أصحاب الأعراف لأنّ النور الذي كان في أيديهم لم يطفأ حين طفىء نور ما بأيدي المنافقين ، وقيل : ﴿ وهم يطمعون ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿ يدخلوها ﴾ والمعنى لم يدخلوها في حال طمع لها بل كانوا في حال يأس وخوف لكن عمّهم عفو الله .

(76/270)

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما محل قوله ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ ؟ (قلت) : لا محلّ له لأنه استئناف كأنّ سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف فقيل له ﴿ لم يدخلوها

وهم يطمعون ﴾ يعني أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا ويجوز أن يكون له محل بأن يقع صفة انتهى ، وهذا توجيه ضعيف للفصل بين الموصوف وصفته بجملة ونادوا وليست جملة اعتراض وقرأ ابن النحوي وهم طامعون ، وقرأ إياد بن لقيط وهم ساخطون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(77/270)

وقال أبو السعود :

﴿ وبينهما حجاب ﴾

أي بين الفريقين كقوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى ﴿ وعلى الاعراف ﴾ أي على أعراف الحجاب وأعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل : العرف ما ارتفع من الشيء فإنه بظهوره أعرف من غيره ﴿ رجال ﴾ طائفة من الموحدين قصروا في العمل فيجلسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله تعالى فيهم ما يشاء ، وقيل : قوم علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء من المؤمنين ، أو ملائكة يرون في صور الرجال ﴿

يعرفون كلا ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده ، فعلى من سام إبله إذا أرسلها في المرعى معلمة ، أو من وسم ، بالقلب ، كالجاه من الوجه ، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو بتعليم الملائكة ﴿ ونادوا ﴾ أي رجال الأعراف ﴿ أصحاب الجنة ﴾ حين رأوهم ﴿ أن سلام عليكم ﴾ بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكارة ﴿ لم يدخلوها ﴾ حال من فاعل نادوا أو من مفعوله وقوله تعالى : ﴿ وهم يطمعون ﴾ حال من فاعل يدخلوها أي نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين في دخولها مترقبين له ، أي لم يدخلوها وهم في وقت عدم الدخول طامعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(78/270)

وقال الآلوسى :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾

أي بين الفريقين كقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ [الحديد : 13] أو بين الجنة والنار حجاب عظيم ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى وإن لم يمنع وصول النداء أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا .

﴿ وَعَلَى الاعراف ﴾ أي أعراف الحجاب أي أعاليه ، وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الدابة والديك .

وقيل : العرف ما ارتفع من الشيء أي أعلى موضع منه لأنه أشرف وأعرف مما انخفض منه .

وقيل : ذاك جبل أحد .

فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم : " أحد يحبنا ونحبه وإنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار يحبس عليه أقوام يعرفون كلاً بسيماهم وهم إن شاء الله تعالى من أهل الجنة " .

وقيل : هو الصراط وروي ذلك عن الحسن بن المفضل .

وحكي عن بعضهم أنه لم يفسر الأعراف بمكان وأنه قال : المعنى وعلى معرفة أهل الجنة والنار ﴿ رِجَالٌ ﴾ والحق أنه مكان والرجال طائفة من الموحدين قصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربهم فقال لهم : قوموا ادخلوا الجنة فإني غفرت لكم أخرجه أبو الشيخ والبيهقي وغيرهما عن حذيفة .

وفي رواية أخرى عنه " يجمع الله تعالى الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا : ننتظر أمرك فيقال : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتي ورحمتي " .

وإلى هذا ذهب جمع من الصحابة والتابعين .

وقيل : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجلسهم الله تعالى على أعالي ذلك السور تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة وإظهاراً لشرفهم وعلو مرتبهم .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنهم العباس وحمزة وعلي وجعفر ذو الجناحين رضي الله تعالى عنهم يجلسون على موضع من الصراط يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها .

(79/270)

وقيل : إنهم عدول القيامة الشاهدون على الناس بأعمالهم وهم من كل أمة حكاه الزهري .

وأخرج البيهقي وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو الشيخ والطبراني وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أصحاب الأعراف فقال : " هم أناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله " .

وقيل : هم أناس رضي عنهم أحد أبويهم دون الآخر .

وقال الحسن البصري : إنهم قوم كان فيهم عجب .

وقال مسلم بن يسار : هم قوم كان عليهم دين ، وقيل : هم أهل الفترة ، وقيل : أولاد المشركين ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم أولاد الزنا ، وعنه أيضاً أنهم مساكين أهل الجنة .

وعن أبي مسلم أنهم ملائكة يرون في صورة الرجال لا أنهم رجال حقيقة لأن الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة .

وقيل وقيل وأرجح الأقوال كما قال القرطبي الأول وجمع بعضهم بينها بأنه يجوز أن يجلس الجميع ممن ورد فيهم أنهم أصحاب الأعراف هناك مع تفاوت مراتبهم على أن من هذه الأقوال ما لا يخفى تداخله .

ومن الناس من استظهر القول بأن أصحاب الأعراف قوم علت درجاتهم لأن المقالات الآتية وما تتفرع هي عليه لا تليق بغيرهم .

﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجوه بالنسبة إلى أهل الجنة وسوادها بالنسبة إلى أهل النار .

ووزنه فعلى من سام إبله إذا أرسلها في المرعى معلمة أو من وسم على القلب كالجاه من الوجه فوزنه عفلى ، ويقال : سيماء بالمد وسيمياء ككبرياء .

قال الشاعر

: له سيمياء ما تشق على البصر . . .

ومعرفتهم أن كذا علامة الجنة وكذا علامة النار تكون بالإلهام أو بتعليم الملائكة .

وهذا كما روي عن أبي مجلز رضي الله تعالى عنه قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

واستظهره بعضهم إذ لا حاجة بعد الدخول للعلامة .

ويشعر كلام آخرين أنه بعده والباء للملابسة .

(80/270)

﴿ وَنَادَوْاْ ﴾ أي رجال الأعراف ﴿ أصحاب الجنة ﴾ حين رأوهم وعرفوهم ﴿ أَن سلام عَلَيْكُمْ ﴾ بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ حال من فاعل ﴿ نَادُواْ ﴾ أو من مفعوله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ حال من فاعل ﴿ يَدْخُلُوهَا ﴾ أي نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين في دخولها مترقبين له أي لم يدخلوها وهم في وقت عدم الدخول طامعون قاله بعضهم .

وفسر الطمع باليقين الحسن وأبو علي وبه فسر في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه

السلام.

﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَلِى خَطِيئَتِى ﴾ [الشعراء : 82].

وفي "الكشاف" "أن جملة ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ الخ لا محل لها لأنها استئناف كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ وجوز أن يكون في محل الرفع صفة لرجال" وضعف بالفصل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(81/270)

وقال القاسمى :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي : بين الفريقين سور وستر ، أو بين الجنة والنار ، ليمنع وصول [في المطبوع : ووصل] أثر إحداهما إلى الأخرى .

وقد سمي هذا الحجاب سوراً في آية : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أي : على أعراف الحجاب وشرفاته وأعاليه ، وهو السور المضروب بينهما ، جمع عرف ، مستعار من عرف الفرس ، وعرف الديك ، وكل ما ارتفع من الأرض عرف ، فإنه بظهوره أعرف مما

انخفض .

وقد حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في رجال الأعراف ، عن التابعين وغيرهم ، أنهم فضلاء المؤمنين ، أو هم الشهداء ، أو الأنبياء ، أو قوم أوذوا في سبيل الله ، فاطّلعوا على أعدائهم ليشمتوا بهم ، فعرفوهم بسيماهم ، وسلموا على أهل الجنة .

واللفظ ، لإبهامه ، يحتمل ذلك ؛ لأن السياق يدل على سمو قدرهم ، لا سيما بجعل منازلهم الأعراف ، وهي الأعالي ، والشرف ، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك . والله أعلم .

﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ ﴾ أي : من أهل الجنة والنار ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي : بعلامتهم التي أعلمهم الله بها ، كبياض الوجه وسواده .

فائدة :

السيما مقصورة وممدودة ، والسيمة والسيمياء بكسرهن العلامة .

قال القاضي : السيمى فعلى من سام إبله ، إذا أرسلها في المرعى معلمة ، أو من وسم على القلب كالجاه من الوجه . انتهى .

وعلى الثاني اقتصر ابن دريد : ﴿ وَنَادَوْاْ ﴾ أي : رجال الأعراف : ﴿ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أي : حين رأوهم من أعرافهم ، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة

﴿ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ بطريق الدعاء والتحية ، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره .

والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه فيما رواه عنه العوفي .

قال رضي الله عنه : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، يتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم

في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف ، والأولى حال من الواو ، والثانية حال من فاعل

﴿ يَدْخُلوها ﴾ ، أي : نادوهم وهم لم يدخلوا الجنة بعد ، حال كونهم طامعين في دخولها ، مترقبين .

قال الجشمي رحمه الله : قيل : إذا كان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين ، فلم تأخر دخولهم ؟ قلنا : هم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعداء وإن تأخر دخولهم ، لظهور فضلهم ، وجلالة طريقهم إلى منازلهم .

ولا يبعد عندي أن تكون [في المطبوع : يكون] جملة : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ حالاً من : ﴿ أصحاب الجنة ﴾ أي : نادوهم بالسلام وهم في الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب ، إشارة إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم في دخول الجنة ، وعلو منازلهم على سواهم – والله أعلم – .

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة ، أي : نادى أهل الأعراف أصحاب الجنة بالسلام ، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها ، وهو وجه جيد ، فالجملة الأولى حال من المفعول وهو أصحاب الجنة ، والثانية حال من فاعل يدخلوها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 63.65 ﴾

(83/270)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾

تقديم ﴿ وبينهما ﴾ وهو خبر على المبتدأ للاهتمام بالمكان المتوسّط بين الجنّة والنّار وما ذكر من شأنه .

وبهذا التّقديم صحّ تصحيح الابتداء بالنّكرة ، والتّنكير للتّعظيم .

وضمير ﴿ بينهما ﴾ يعود إلى لفظي الجنّة والنّار الواقعين في قوله ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 44] وهما اسما مكان ، فيصلح اعتبار التّوسّط بينهما .

وجُعل الحجاب فصلاً بينهما .

وتثنية الضّمير تُعيِّن هذا المعنى ، ولو أريد من الضّمير فريقَا أهلِ الجنّة وأهل النّار ، لقال : بينهم ، كما قال في سورة الحديد (13) ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ الآية .

والحجاب : سور ضُرب فاصلاً بين مكان الجنّة ومكان جهنّم ، وقد سمّاه القرآن سوراً في قوله : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ في سورة الحديد (13) ، وسمّي السور حجاباً لأنّه يقصد منه الحجب والمنع كما سمّي سوراً باعتبار الإحاطة .

والأعراف : جمع عُرْف بِضّم العين وسكون الرّاء ، وقد تضمّ الرّاء أيضاً وهو أعلى الشّيء ومنه سمّي عُرف الفرس ، الشّعر الذي في أعلى رقبته ، وسمّي عُرف الدّيك .

الرّيش الذي في أعلى رأسه .

و(أل) في الأعراف ﴾ للعهد .

وهي الأعراف المعهودة التي تكون بارزة في أعالي السّور .

ليرقب منها النظّارة حركات العد وليشعروا به إذا داهمهم .

ولم يسبق ذكر للأعراف هنا حتّى تعرّف بلام العهد ، فتعيّن أنّها ما يعهده النّاس في الأسوار .

أو يجعل (أل) عوضاً عن المضاف إليه : أي وعلى أعراف السّور .

وهما وجهان في نظائر هذا التّعريف كقوله تعالى : ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : 41] وأيّاً مّا كان فنظم الآية يأبى أن يكون المراد من الأعراف مكاناً مخصوصاً يتعرّف منه أهل الجنّة وأهل النّار ، إذ لا وجه حينئذٍ لتعريفه مع عدم سبق الحديث عنه .

وتقديم الجار والمجرور لتصحيح الابتداء بالنّكرة ، إذ اقتضى المقام الحديث عن رجال مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب ، قبل أن يدخلوا الجنّة ، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنّة وأحوال أهل النّار ، ويعرِفون رجالاً من أهل النّار كانوا من أهل العزّة والكبرياء في الدّنيا ، وكانوا يكذّبون وعد الله المؤمنين بالجنّة ، وليس تخصيص الرّجال بالذّكر بمقتض أن ليس في أهل الأعراف نساء ، ولا اختصاص هؤلاء الرّجال المتحدّث عنهم بذلك المكان دون سواهم من الرّجال ، ولكن هؤلاء رجال يقع لهم هذا الخبر ، فذكروا هنا للاعتبار على وجه المصادفة ، لا لقصد تقسيم أهل الآخرة وأمكنتهم ، ولعلّ توهّم أنّ تخصيص الرّجال بالذّكر لقصد التّقسيم قد أوقع بعض المفسّرين في حيرة لتطلّب المعنى لأنّ ذلك يقتضي أن يكون أهل الأعراف قد استحقّوا ذلك المكان لأجل حالة لاحظّ للنّساء فيها ، فبعضهم حمل الرّجال على الحقيقة فتطلب عملاً يعمله الرّجال لاحظ للنّساء فيه في الإسلام ، وليس إلاّ الجهاد ، فقال بعض المفسرين : هؤلاء قوم جاهدوا وكانوا عاصين لآبائهم ، وبعض المفسّرين حمل الرّجال على المجاز بمعنى الأشخاص من الملائكة ، أطلق عليهم الرّجال لأنّهم ليسوا إناثاً كما أطلق على أشخاص الجنّ في قوله تعالى:

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ [الجن : 6] فيظهر وجه لتخصيص الرّجال بالذّكر تبعاً لما في بعض تلك الأحاديث التي أشرنا إليها .

(85/270)

وأمّا ما نقل عن بعض السّلف أنّ أهل الأعراف هم قوم استْوت موازين حسناتهم مع موازين سيّئاتهم ، ويكون إطلاق الرّجال عليهم تغليباً ، لأنّه لا بدّ أن يكون فيهم نساء ، ويروى فيه أخبار مسندة إلى النّبيء صلى الله عليه وسلم لم تبلغ مبلغ الصّحيح ولم تنزل إلى رتبة الضّعيف : روى بعضَها ابنُ ماجة ، وبعضَها ابنُ مردويه ، وبعضَها الطّبري ، فإذا صحت فإنّ المراد منها أن من كانت تلك حالتهم يكونون من جملة أهل الأعراف المخبر عنهم في القرآن بأنّهم لم يدخلوا الجنّة وهم يطمعون .

وليس المراد منها أنّهم المقصودُ من هذه الآية كما لا يخفى على المتأمّل فيها .

والذي ينبغي تفسير الآية به : أنّ هذه الأعراف جعلها الله مكاناً يوقف به من جعله الله من أهل الجنّة قبل دخوله إياها ، وذلك ضرب من العقاب خفيف ، فجعل الدّاخلين إلى الجنّة متفاوتين في السبق تفاوتاً يعلم الله أسبابه ومقاديره ، وقد قال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعد

الله الحسنى ﴾ [الحديد : 10] وخصّ الله بالحديث في هذه الآيات رجالاً من أصحاب الأعراف .

ثمّ يحتمل أن يكون أصحاب الأعراف من الأمّة الإسلاميّة خاصّة .

ويحتمل أن يكونوا من سائر الأمم المؤمنين برسلهم ، وأيّاما كان فالمقصود من هذه الآيات هم من كان من الأمّة المحمّديّة .

وتنوين ﴿ كلاً ﴾ عوضٌ عن المضاف إليه المعروف من الكلام المتقدّم .

أي كلّ أهل الجنّة وأهل النّار .

والسيما بالقصر السمة أي العلامة ، أي بعلامة ميَّز الله بها أهل الجنّة وأهل النّار ، وقد تقدّم بيانها واشتقاقها عند قوله تعالى : ﴿ تعرفهم بسيماهُم ﴾ في سورة البقرة (273) .

ونداؤهم أهلَ الجنّة بالسّلام يؤذن بأنّهم في اتّصال بعيد من أهل الجنّة ، فجعل الله ذلك أمارة لهم بحسن عاقبتهم ترتاح لها نفوسهم .

(86/270)

ويعلمون أنّهم صائرون إلى الجنّة ، فلذلك حكى الله حالهم هذه للنّاس إيذاناً بذلك وبأن طمعهم في قوله : لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ هو طمع مستند إلى علامات وقوع المطموع

فيه ، فهو من صنف الرّجاء كقوله : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ (الشعراء 82) .

و﴿ أن ﴾ تفسير للنّداء ، وهو القول ﴿ سلام عليكم ﴾ .

و﴿ سلام عليكم ﴾ دعاءُ تحيّة وإكرام .

وجملة : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ مستأنفة للبيان ، لأنّ قوله ﴿ ونادوا أصحاب الجنّة ﴾ يثير سؤالاً يبحث عن كونهم صائرين إلى الجنّة أو إلى غيرها .

وجملة : ﴿ وهم يطمعون ﴾ حال من ضمير ﴿ يدخلوها ﴾ والجملتان معاً معترضتان بين جملة : ﴿ ونادوا أصحاب الجنة ﴾ وجملة ﴿ وإذا صرفت أبصارهم ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(87/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه الحق سبحانه فقال : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقاتِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ

ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ [الحديد : 13]

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النار فيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى في غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله . ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 46]

و﴿ كُلاًّ ﴾ المعنيّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛ أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و" الأعراف " جمع " عُرف " مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلا لاستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل في منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة- أصحاب الأعراف- يقول للأعلى - أصحاب الجنة- سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة . ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-9]

ويا رب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريق ثقلت موازينه ، وفريقاً خفت موازينه ، ومنتهى المنطق في القياس الموازيني أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على " لجنة الرحمة "

فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوا ، لكنهم يطمعون في أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه . ﴿ . . . وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 46]

وبطبيعة الحال ليس في هذا المكان غش ولا خداع .

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(89/270)

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة :

1 - ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة والطواف ، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه .

2 - ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء ﴾ كناية عن عدم قبول العمل ، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل .

3 - ﴿ حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيلٌ للاستحالة .

4 - ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ قال صاحب البحر : هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] .

5 - ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ بين « ظهر » و« بطن » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 448.449 ﴾

(90/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَعَلى الأَعْرَافِ " : قال الزَّمَخْشَرِيُّ : أي : وعلى أعراف الحجاب .

قال القرطبيُّ : أعراف السّور وهي شُرَفُه ، ومنه عُرْفُ الفَرَسِ وعرف الدّيكِ ، كأَنَّهُ جعل " أل " عوضاً من الإضافة وهو مذهب كوفي ، وتقدَّم تحقيقه .

وجعل بعضهم نفس الأَعْرَافِ هي نفس الحِجابِ المتقدم ذكره ، عبر عنه تارةً بالحجاب ،

وتارةً بالأعراف .

قال الوَاحِديُّ – ولم يذكر غيره – : " ولذلك عُرِّفَت الأعراف ؛ لأَنَّهُ عني بها الحِجَاب " قال ابن عباس .

والأعراف : جمع عُرْف بضمِّ العَيْنِ ، وهو كلُّ مرتفع من أرض وغيرها استعارةً من عُرْف الدّيك ، وعُرْف الفرس .

قال يَحْيَى بْنُ آدَمَ : سألت الكِسَائِيَّ عن واحد الأعراف فسكت ، فقلت : حدثتنا امرأتك عن جَابِرٍ عن مُجَاهِدٍ عن ابن عباس قال : " الأعراف سُورٌ له عرف مثل عرف الدّيك " فقال : نعم ، وإن واحده عُرْفُ بعيرٍ ، وإن جماعته أعْرَاف ، يا غُلام هات القرطاس كأَنَّهُ عرف بارتفاعه دون الأشياء المنخفضة ، فإِنَّهَا مجهولة غالباً .

قال أمية بن أبي الصلت : [البسيط]

2470 – وَآخَرُونَ عَلَى الأَعْرَافِ قَدْ طَمِعُوا . . .

فِي جَنَّةٍ حَفَّهَا الرُّمَّانُ والخَضِرُ

ومثله أيضاً قوله : [الرجز]

2471 – كُلُّ كِنَازٍ لَحْمِهِ نِيَافِ . . .

كالجَبَلِ المُوفِي عَلَى الأَعْرَافِ

وقال الشَّمَّاخ : [الطويل]

2472 - فَظَلَّتْ بأعْرَافٍ تَعَادَى كأنَّهَا . . .

رَمَاحٌ نَحَاهَا وِجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزُ

وقال الزَّجَّاجُ ، والحسنُ في أحد قوليه : إن قوله : " وَعَلى الأعْرَافِ " وعلى معرفة أهْل الجَنَّة والنَّار ، كَتَبَةٌ رجال يعرفون كل من أهل الجنة والنَّار بسيماهم ، للحسن : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فضرب على فَخِذِهِ ثم قال : هم قومٌ جعلهم الله على تعرف أهل الجنّة وأهل النّار ، يميزون البعض من البعض والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا .

قال المهدويُّ : " إنَّهم عدول القِيَامَةِ الذين يَشْهَدُونَ على النَّاس بأعمالهم ، وهم في كُلِّ أمَّةٍ " ، واختار هذا القول النَّحَّاسُ وقال : " هو من أحسن ما قيل فيه ، فهم على السور بين الجنَّةِ والنَّارِ " .

فأمَّا القائلون بالقول الأوَّلِ فقد اختلفوا في الذين هم على الأعراف على قولين :

فقيل : هم الأشْرَافُ من أهل الطَّاعَةِ ، وقال أبو مجلز : " هم ملائكة يعرفون أهل الجنَّة وأهل النَّار " ، فقيل له : يقول الله - عز وجل - ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ ﴾ ، وتزعم أنَّهُمْ ملائكة ، فقال : " الملائكة ذكور لا إناث " .

(91/270)

وقيل : هم الأَنْبِيَاءُ – عليهم الصَّلاة والسَّلام – أجلسهم الله على أعلى ذلك السُّور إظهاراً لشرفهم وعلوّ مرتبتهم .

وقيل : هم الشُّهَدَاءُ .

وأمّا قوله : " وهمْ يَطْمَعُونَ " والطمع هنا يحتمل أن يكون على بابه أو يكون بمعنى اليقين قال تعالى حِكَايَةً عن إبراهيم – عليه الصَّلاة والسَّلام – : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] .

وذلك الطمع طمع يقين ، وقال الشَّاعرُ : [المتقارب]

2473 – وإِنِّي لأَطْمَعُ أَنَّ الإِلَه . . .

قَدِيرٌ بِحُسْنِ يَقِينِي يَقِينِي

قوله : "يَعْرِفُونَ " في محلِّ رفع نعتاً لـ " رِجَال " ، و "كلاًّ " أي : كل فريق من أَصْحَابِ الجَنَّةِ ، وأصحاب النَّارِ .

قوله : " بِسِيمَاهُمْ " قال ابْنُ عبَّاس : " إنَّ سيما الرجل المسلم من أهل الجَنَّة بياض وجهه .

قوله : ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ .

والمعنى : أَنَّهُم إذا نظروا إلى أهل الجَنَّةِ سلّموا على أهلها والضمير في " نَادُوا " وما بعده لرجال .

وقوله : ﴿ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ كقوله : ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44

] إلا أنَّهُ لم يقرأ هنا إلاّ بـ " أن " الخفيفة فقط .

وقوله : " وهُمْ يَطْمَعُون " يحتمل أن يكون حالاً من فاعل "يَدْخُلُوهَا " ، ثم لك اعتباران بعد ذَلِكَ .

الأول : أن يكون المَعْنَى لم يَدخُلُوها طامِعِينَ في دخولها بل دخلوها على يأس من دخولها .

والثاني : المعنى لم يدخلوها حَالَ كونهم طامعين ، أي : لم يدخلوها بعد ، وهم في وقت عَدَمِ الدُّخُولِ طامعون ، ويحتمل أن يكون مستأنفاً خبر عنهم بأَنَّهُم طامعون في الدُّخُول .

الوجه الثاني : أن تكون حالاً من مفعول " نَادوا " أي : نادوهم حال كونهم غير داخلين ، وقوله : " وَهُمْ يَطْمَعُون " على ما تقدم آنفاً .

(92/270)

والوجه الثالث : أن تكون في محل رفع صفة لـ " رِجَالٍ " ، قاله الزمخشريُّ وفيه ضعف من حيث إنَّهُ فصل فيه بين الموصوف وصفته بجملة قوله : " ونَادَوْا " ، وليست جملة اعتراض .

والوجه الرابع : أنها لا مَحلَّ لها من الإعراب ؛ لأَنَّهَا جواب سائل سأل عن أصحاب الأَعْرَافِ ، فقال : ما صنع بهم ؟ فقالك لم يدخلوها ، وهم يَطْمَعُون في دخولها .

وقال مكي كلاماً عجيباً ، وهو أن قال : " إن حملت المعنى على أَنَّهُمْ دخلوها كان " وهم يَطْمَعُونَ " ابتداءً وخبراً في موضع الحال من الضَّمير المرفوع في "يَدْخُلُوهَا " ، معناه : أَنَّهم يَئِسُوا من الدُّخُول ، فلم يكن لهم طَمَعٌ في الدُّخول ، لكن دخلوا وهم على يأس من ذلك ، فإن حملت معناه أَنَّهُم لم يدخلوا بعد ، ولكنهم يطمعون في الدُّخُول برحمة الله كان ابتداءً وخبراً مستأنفاً " .

وقال بعضهم : جملة قوله : " لَمْ يَدْخُلُوهَا " من كلام أصحاب الجَنَّةِ ، وجملة قوله : " وهُمْ يَطْمَعُونَ " من كلام الملائكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 124 . 129 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ .

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق ؛ لَمَّا حُجِبُوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبوا في الانتهاء عما خَصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال حجاب وأي حجاب ! لا يُرفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة .

حجابٌ سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرْم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلْق بأسرارهم ، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم .

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم ؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب ، وآخرون موسومون بأنوار الرد والحجب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ .

سَلِمُوا اليومَ عن النكرة والجحودِ ، وأُكرِمُوا بالعرفان والتوحيد .

وسلموا غداً من فنون الوعيد ، وسَعِدُوا بلطائف المزيد . وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب ما لم يَسْمُ إليه طرْفُ تأميلهم ، ولم يُحِطْ بتفصيله كُنْهُ عقولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 536 . 537 ﴾

(93/270)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ (31) ﴾

خُذُوا زِينَتَكُمْ أى ريشكم ولباس زينتكم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ كلما صليتم أو طفتم ، وكانوا يطوفون عراة . وعن طاوس ، لم يأمرهم بالحرير والديباج ، وإنما كان أحدكم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه ، لأنهم قالوا : لا نعبد اللّه في ثياب أذنبنا فيها : وقيل : تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب . وقيل : الزينة المشط . وقيل : الطيب . والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة ، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : فإنا أحق أن نفعل ، فقيل لهم : كلوا واشربوا ولا تسرفوا . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة «1» ويحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني «2» حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء . والعلم علمان ، علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال له : قد جمع اللّه الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا فقال النصراني : ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب ؟ فقال : قد جمع رسولنا صلى اللّه عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال قوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء «3» وأعط

---

(1) . أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا سفيان عن إبراهيم بن ميسرة عن عطاء وطاوس

عنه بهذا ، لكن قال «خلتان» . وروى النسائي وابن ماجة وأحمد والحاكم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخالطوا إسرافا ولا مخيلة» .

(2) . لم أجد لها - أي حكاية الرشيد - إسنادا .

(3) . لم أجده ، وروى العقيلي في الضعفاء من رواية إبراهيم بن جريج الرهاوي عن زيد ابن أبي أنيسة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رفعه «المعدة حوض البدن . والعروق إليها واردة : فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم» وقال : حديث باطل لا أصل له . وقال الدارقطني لا يصح ولا يعرف من كلام النبي صلى اللّه عليه وسلم لسند إبراهيم بن جريج غير هذا وكان طبيبا ، فجعل له إسنادا .

(94/270)

كل بدن ما عوّدته» فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

[سورة الأعراف (7) : آية 32]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ

الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

زِينَةَ اللَّهِ من الثياب وكل ما يتجمل به وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ المستلذات من المآكل والمشارب. ومعنى الاستفهام في من: إنكار تحريم هذه الأشياء. قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا غير خالصة لهم، لأنّ المشركين شركاؤهم فيها خالِصَةً لهم يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يشركهم فيها أحد. فإن قلت: هلا قيل: هي للذين آمنوا ولغيرهم. قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأن الكفرة تبع لهم، كقوله تعالى وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وقرئ: خالصة بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

[سورة الأعراف (7): آية 33]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

الْفَواحِشَ ما تفاحش قبحه أى تزايد. وقيل هي ما يتعلق بالفروج وَالْإِثْمَ عام لكل ذنب. وقيل: شرب الخمر وَالْبَغْيَ الظلم والكبر، أفرده بالذكر كما قال وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ. ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فيه تهكم، لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره «1» وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ وأن تتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

[سورة الأعراف (7) : آية 34]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند اللّه كما نزل بالأمم وقرئ: فإذا جاء آجالهم. وقال ساعَةً لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه.

---

(1). قال محمود: «في هذا تهكم لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره» قال أحمد: وإنما يعنى التهكم منه لأن الكلام جرى مجرى ماله سلطان، إلا أنه لم ينزل، لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به ولم ينف أن يكون له سلطان، وكان أصل الكلام: وأن تشركوا باللّه ما لا سلطان به فينزل فيكون على طريقة:

على لاحب لا يهتدى بمناره

(95/270)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 35 إلى 36]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها

خالِدُونَ (36)

إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ هي «إن» الشرطية ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط. ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط؟ قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء. والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، والذين كذبوا منكم. وقرئ: تأتينكم، بالتاء.

[سورة الأعراف (7): آية 37]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37)

فَمَنْ أَظْلَمُ فمن أشنع ظلماً ممن تقوّل على اللّه ما لم يقله، أو كذب ما قاله أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، أى إلى وقت وفاتهم، وهي «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام ها هنا الجملة الشرطية، وهي إذا جاءتهم رسلنا قالوا. وَيَتَوَفَّوْنَهُمْ حال من الرسل، أى متوفيهم. والرسل ملك الموت وأعوانه. «و ما» وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل، لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون ضَلُّوا عَنَّا غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم، اعترافا منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا

عليه ، وأنهم لم يحمدوه في العاقبة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 38 إلى 39]

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

قالَ ادْخُلُوا أى يقول اللّه تعالى يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم

(96/270)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ وهم كفار العرب فِي أُمَمٍ في موضع الحال ، أى كائنين في جملة أمم ، وفي غمارهم مصاحبين لهم ، أى ادخلوا في النار مع أمم قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ وتقدّم زمانهم زمانكم لَعَنَتْ أُخْتَها التي ضلت بالاقتداء بما حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها أى تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار قالَتْ أُخْراهُمْ منزلة وهي الأتباع والسفلة لِأُولاهُمْ منزلة وهي القادة والرؤوس . ومعنى لأولاهم : لأجل أولاهم ، لأن خطابهم مع اللّه لا معهم عَذاباً ضِعْفاً مضاعفا لِكُلٍّ ضِعْفٌ لأنّ كلا من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين

وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ قرئ بالياء والتاء فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ عطفوا هذا الكلام على قول اللّه تعالى للسفلة لِكُلٍّ ضِعْفٌ أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا ، وأنا متساوون في استحقاق الضعف فَذُوقُوا الْعَذابَ من قول القادة ، أو من قول اللّه لهم جميعاً .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 40 إلى 41]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ لا يصعد لهم عمل صالح إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وقيل : إنّ الجنة في السماء ، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرّق لهم إليها ليدخلوا الجنة . وقيل : لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين .

وقيل : لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ، ففتحنا أبواب السماء . وقرئ : لا تفتح ، بالتشديد .

ولا يفتح بالياء . ولا تفتح ، بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب ، على أنّ الفعل للآيات . وبالياء على أن الفعل للّه عز وجل . وقرأ ابن عباس : الجمل ، بوزن القمل . وسعيد بن جبير : الجمل ، بوزن النغر . وقرئ : الجمل «بوزن القفل . والجمل ، بوزن النصب .

والجمل . بوزن الحبل . ومعناها القلس الغليظ «لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : إنّ اللّه أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، يعنى أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه ، إلا أن قراءة العامّة أوقع لأن سم الابرة مثل في ضيق المسلك . يقال : أضيق من خرت الابرة . وقالوا للدليل الماهر : خرّيت ، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر .

والجمل : مثل في عظم الجرم . قال :

(97/270)

جسم الجمال وأحلام العصافير «1»

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام ، فقيل : لا يدخلون الجنة ، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع ، في ثقب الإبرة . وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل ، فقال : زوج الناقة ، استجهالا للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف . وقرئ فِي سَمِّ بالحركات الثلاث : وقرأ عبد اللّه : في سم المخيط ، والخياط ، والمخيط كالحزام والمحزم : ما يخاط به وهو الإبرة وكَذلِكَ ومثل ذلك الجزاء الفظيع نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ليؤذن أن الاجرام هو السبب الموصل إلى العقاب ، وأن كلّ من أجرم

عوقب ، وقد كرره فقال وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ لأن كلّ مجرم ظالم لنفسه مِهادٌ فراش غَواشٍ أغطية . وقرئ : غواش . بالرفع ، كقوله تعالى : «وله الجوار المنشآت» في قراءة عبد اللّه .

[سورة الأعراف (7) : آية 42]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42)

لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها جملة معترضة بين المبتدإ والخبر ، للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح . وقرأ الأعمش : لا تكلف نفس .

[سورة الأعراف (7) : آية 43]

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

---

(1) حار بن عمرو ألا أحلام تزجركم عنا وأنتم من الجوف الجماخير

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم الجمال وأحلام العصافير

كأنهم قصب جوف أسافله مثقب نفخت فيه الأعاصير

لحسان . و«حار» مرخم حارث ، مبنى على الضم لأنه منادى حذف قبله ياء النداء .

و«الأحلام» جمع حلم بالضم :

العقول . و«الجوف» بالضم : جمع أجوف ، أى واسع الجوف . و«الجماخير» جمع جمخور ، أى عظيم الجسم .

يقول : كيف لا يكون لكم أحلام وأنتم عظام الأجرام ، ثم بين ذلك بقوله : لا بأس ولا ضرر يعترى هؤلاء من جهة الطول والغلظ ، يعنى : لا نقص بهم من ذلك . وفيه تهكم بهم . أو لا يستنكفون من ذلك فهم أحقاء به ، أو لا بأس يعتريك بسبب القوم من أجل طولهم وغلظهم فأجسامهم كأجسام الجمال ، وعقولهم كعقول العصافير إن كان لها عقول ، يعنى أنه لا عقل لهم . ويروى «جسم البغال» وشبههم في فراغ أجوافهم من العقل والشجاعة بالقصب : إذا انشقت أجواف أسافله فأعاليه أكثر . وشبه منافذ حواسهم بثقوبه الخالية عن الحسن . و«الأعاصير» جمع إعصار ، وهي ريح تهب مستديرة ذاهبة نحو السماء . واستعار النفخ لا دخالها الهواء فيه بقوة كالنفخ . وفي القافية الاقواء ، لاختلاف حركة الروى بالكسر والضم .

(98/270)

من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه ، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادّ والتعاطف . وعن عليّ رضى اللّه عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم «1» هَدانا لِهذا أى وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ اللام لتوكيد النفي «2» ويعنون : وما كان يستقيم أن تكون مهتدين لولا هداية اللّه وتوفيقه . وفي مصاحف أهل الشام : ما كنا لنهتدي بغير واو ، على أنها جملة موضحة للأولى لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا ، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً ، كما نرى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أن مخففة من الثقيلة تقديره : ونودوا بأنه تلكم الجنة أُورِثْتُمُوها والضمير ضمير الشأن والحديث أو تكون بمعنى أى ، لأنّ المناداة من القول ، كأنه قيل : وقيل لهم أى تلكم الجنة أورثتموها «3»

---

(1) . أخرجه ابن سعد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه . والطبري من رواية معمر عن قتادة عن على وكلاما منقطع . وفي ابن أبى شيبة من رواية ربحى عن على . وهو متصل .

(2) . قال محمود : اللام لتوكيد النفي يعنون وما كان يستقيم . . . الخ» قال أحمد : وهذه تكفح وجوه القدرية بالرد ، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدى من خلق اللّه له الهدى ، وأن غير ذلك محال أن يكون ، فلا يهتدى إلا من هدى اللّه ، ولو لم يهده

لم يهتد ، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى ، فهو إذاً مهتد وإن لم يهده الله ، إذ هدى الله العبد خلق الهدى له – وفي زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى ، ولا يتوقف ذلك على خلقه – تعالى الله عما يقولون – ولما فطن الزمخشري لذلك ، جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه ، فأنصف من نفسك واعرض قول القائل : المهتدى من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله – أي يخلق له الهدى ، على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ وانظر تباين هذين القولين ، أعنى قول المعتزلي في الدنيا ، وقول الموحد في الآخرة في مقعد صدق . واختر لنفسك أي الفريقين تقتدى به ، وما أراك – والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا القول المحكي عن أوليا الله في دار السلام منوها به في الكتاب العزيز ، قول قدرى ضال تذبذب مع هواء وتعصبه في دار الغرور والزوال ، نسأل الله حسن المآب والمآل .

(3) . عاد كلامه . قال : «و قوله تعالى وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ المراد بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل كما تقول المبطلة» قال أحمد : يعنى بالمبطلة قوما سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله وبرحمته . قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «و لا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فقالوا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء هم أهل السنة . قيل لهم

: فما معنى قوله تعالى وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ قالوا : اللّه تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل ، فضلا منه ورحمة ، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب العباد وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، جمعا بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل ، الدال على أن اللّه تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء ، فانظر أيها المنصف ، هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة ؟ وحاكم نفسك إليها ، ثم إذا وضح لك أنهم برآء في هذا البر ، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على اللّه تعالى حقا بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها - تعالى وتقدس عن ذلك - ويطلقون القول بلسان الجرأة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على اللّه تعالى لا تفضل له عليهم فيه . بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه . وانظر أى الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة ، والسلام .

(99/270)

بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بسبب أعمالكم لا بالتفضل ، كما تقول المبطلة «1»

[سورة الأعراف (7) : الآيات 44 إلى 45]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما

وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45)

«أن» في أَنْ قَدْ وَجَدْنا يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً ، وكذلك أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتة بأصحاب النار ، وزيادة في غمهم ، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها ، وكذلك قول المؤذن بينهم : لعنة اللّه على الظالمين . وهو ملك يأمره اللّه فينادى بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار .

وقرئ :

أنّ لعنة اللّه ، بالتشديد والنصب . وقرأ الأعمش : إن لعنة اللّه ، بكسر إن على إرادة القول ، أو على إجراء فَأَذَّنَ مجرى قال . فإن قلت : هلا قيل : ما وعدكم ربكم ، كما قيل : ما وعدنا «2» ربنا ؟

قلت : حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه . ولقائل أن يقول : أطلق ليتناول كل ما وعد اللّه من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة ، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع ، ولأن الموعود كله مما ساءهم ، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك .

[سورة الأعراف (7) : آية 46]

وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ

سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)

وَبَيْنَهُما حِجابٌ يعنى بين الجنة والنار . أو بين الفريقين ، وهو السور المذكور في قوله تعالى فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ . وَعَلَى الْأَعْرافِ وعلى أعراف الحجاب وهو السور المضروب

---

(1) . قوله «كما تقول المبطلة» يريد أهل السنة القائلين : دخولها بالفضل ، واقتسامها بالأعمال ، كما في الحديث . (ع) [. . . . .]

(2) . عاد كلامه : قال : فان قلت هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا . . . الخ»

قال أحمد : ولقائل أن يقول :

ولو ذكر المفعول حسب ذكره في الأول فقيل : فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، لكان الفعل مطلقا أيضا باعتبار الموعود به ، لأنه لم يذكر ، فكان يتناول كل موجود من البعث والحساب والعقاب ، الذي هو أنواع من جملتها التحسر على نعيم أهل الجنة ، فليس ذلك خاصا بحذف المفعول الواقع على الموعودين ، فالوجه أن حذفه إيجاز وتخفيف واستغناء عنه بالأول . والله أعلم .

(100/270)

بين الجنة والنار وهي أعاليه ، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك رِجالٌ من المسلمين من آخرهم دخولا في الجنة لقصور أعمالهم ، كأنهم المرجون لأمر اللّه ، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن اللّه لهم في دخول الجنة يَعْرِفُونَ كُلًّا من زمر السعداء والأشقياء بِسِيماهُمْ بعلامتهم التي أعلمهم اللّه تعالى بها ، يلهمهم اللّه ذلك : أو تعرّفهم الملائكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 100. 107 ﴾

(101/270)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل ما تقدم على أنهم مقبلون على الجنة وأهلها ، قال مرغباً مرهباً : ﴿ وإذا صرفت ﴾ بناه للمفعول لأن المخيف لهم الصرف لا كونه من معين ﴿ أبصارهم ﴾ أي صرفها صارف من قبل الله بغير اختيار منهم ﴿ تلقاء ﴾ أي وجاه ﴿ أصحاب النار ﴾ أي بعد استقرارهم فيها فرأوا ما فيها من العذاب ﴿ قالوا ﴾ أي أصحاب الأعراف حال

كونهم لم يدخلوها وهم يخافون مستعيذين منها ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا في الدنيا بكل إحسان وفي الآخرة بكونك لم تدخلنا إلى هذا الوقت إلى النار ﴿ لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ بأن تدخلنا مدخلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 37 ﴾

اللغة : ﴿ تَأْوِيلَهُ ﴾ عاقبة أمره وما يئول إليه من آل يئول إذا صار إليه ﴿ استوى ﴾ الاستواء : العلوّ والاستقرار قال الجوهري : استوى على ظهر الدابة استقرّ : واستوى إلى السماء قصد ، واستوى الشيءُ إذا اعتدل ﴿ يُغْشِي ﴾ يغطيّ ﴿ حَثِيثاً ﴾ سريعاً والحثُّ : الإِعجال والسرعة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري : تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿ تَضَرُّعاً ﴾ تذللاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ سراً ﴿ بُشْراً ﴾ مبشرة بالمطر ﴿ أَقَلَّتْ ﴾ حملت ﴿ نَكِداً ﴾ العِسر القليل ﴿ آلاء ﴾ [النجم : 55] الآلاء النِّعَم واحدها « لَى » كمِعَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 449 ﴾

(102/270)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار ﴾ فقال الواحدي رحمه الله التلقاء جهة اللقاء ، وهي جهة المقابلة ، ولذلك كان ظرفاً من ظروف المكان يقال فلان تلقاءك كما يقال هو حذاءك ، وهو في الأصل مصدر استعمل ظرفاً ، ثم نقل الواحدي رحمه الله بإسناده عن ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين أنهما قالا : لم يأت من المصادر على تفعال "إلا" حرفان تبيان وتلقاء ، فإذا تركت هذين استوى ذلك القياس ، فقلت في كل مصدر تفعال بفتح التاء ، مثل تسيار وترسال .

وقلت في كل اسم تفعال بكسر التاء ، مثل تمثال وتقصار ، ومعنى الآية : أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم .

والمقصود من جميع هذه الآيات التخويف ، حتى يقدم المرء على النظر والاستدلال ، ولا يرضى بالتقليد ليفوز بالدين الحق ، فيصل بسببه إلى الثواب المذكور في هذه الآيات ، ويتخلص عن العقاب المذكور فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 75 ﴾

(103/270)

وقال ابن عطية :

والضمير في قوله ﴿ أبصارهم ﴾ عائد على أصحاب الأعراف ، فهم يسلمون على أصحاب الجنة وإذا نظروا إلى النار وأهلها دعوا الله في التخليص منها ، قاله ابن عباس وجماعة من العلماء وقال أبو مجلز الضمير لأهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد ، وقوله : ﴿ صرفت ﴾ معطية ما هنالك من هول المطلع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النار ﴾

أي جهة اللقاء وهي جهة المقابلة .

ولم يأت مصدر على تِفْعال غيرُ حرفين : تِلقاء وتِبيان .

والباقي بالفتح ؛ مثل تَسْيار وتَهمام وتَذكار .

وأما الاسم بالكسر فيه فكثير ؛ مثل تِقصار وتِمثال .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال أصحاب الأعراف .

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين ﴾ سألوا الله ألاّ يجعلهم معهم ، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم .

فهذا على سبيل التذلّل ؛ كما يقول أهل الجنة : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم : 8]

ويقولون : الحمد لله .

على سبيل الشكر لله عز وجل .

ولهم في ذلك لَذّةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(104/270)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾

يعني وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار يعني وجاههم وحيالهم فنظروا إليهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ يعني الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا لأهل النار وعرفوهم قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وما هم فيه من العذاب تضرعوا إلى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(105/270)

وقال أبو حيان :

قرأ الأعمش وإذا قلبت ﴿ أبصارهم ﴾ والضمير في أبصارهم عائد على رجال الأعراف يسلّمون على أهل الجنّة وإذا نظروا إلى أهل النّار دعوا الله في التخلّص منها قاله ابن عباس وجماعة ، وقال أبو مجلز : الضمير لأهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد وفي قوله ﴿ صرفت ﴾ دليل أنّ أكثر أحوالهم النظر إلى تلقاء أصحاب الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار هو بكونهم صرفت أبصارهم تلقاءهم فليس الصّرف من قبلهم بل هم محمولون عليه مفعول بهم ذلك لأنّ ذلك المطلع مخوف من سماعه فضلاً عن رؤيته فضلاً عن التلبيس به والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما هم عليه من العذاب استغاثوا بربّهم من أن يجعلهم معهم ولفظه ﴿ ربنا ﴾ مشعرة بوصفه تعالى بأنه مصلحهم وسيدهم وهم عبيد فبالدعاء به طلب رحمته واستعطاف كرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(106/270)

وقال أبو السعود :

﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾

أي إلى جهتهم ، وفي عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثاني بخلافه ﴿ قالوا ﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ أي في النار ، وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي إليه من الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(107/270)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار ﴾

أي إلى جهتهم وهو في الأصل مصدر وليس في المصادر وما هو على وزن تفعال بكسر التاء غيره وغير تبيان وزلزال ثم استعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة ويجوز عند السبعة إثبات همزته وهمزة ﴿ أصحاب ﴾ وحذف الأولى وإثبات الثانية .

وفي عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار كما قال غير واحد بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل والثاني بخلافه ، فمن زعم أن في الكلام الأول شرطاً محذوفاً لم يأت بشيء ﴿ قَالُواْ ﴾ متعوذين بالله سبحانه من سوء ما رأوا من حالهم ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي لا تجمعنا وإياهم في النار .

وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذٍ من العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط بل ما يؤدي إليه من الظلم .

وفي الآية على ما قيل إشارة إلى أنه سبحانه لا يجب عليه شيء .

وزعم بعضهم أنه ليس المقصود فيها الدعاء بل مجرد استعظام حال الظالمين .

وقرأ الأعمش ﴿ وَإِذَا وأعمى أبصارهم ﴾ .

وعن ابن مسعود وسالم مثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(108/270)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ ونادوا أصحاب الجنة

﴾ .

والصّرف : أمر الحالّ بمغادرة المكان .

والصّرف هنا مجاز في الإلتفات أو استعارةٌ .

وإسناده إلى المجهول هنا جار على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يُتطلّب لها فاعل ، وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة وهي الإشارة إلى أنّهم لا ينظرون إلى أهل النّار إلاّ نظراً شبيهاً بفعل من يحمله على الفعل حَامِل ، وذلك أنّ النّفس وإن كانت تكره المناظر السيّئة فإنّ حبّ الاطّلاع يحملها على أن توجّه النّظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها .

والتلقاء : مكان وجود الشّيء ، وهو منقول من المصدر الذي هو بمعنى اللّقاء ، لأنّ محلّ الوجود مُلاق للموجود فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(109/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) ﴾

انظر إلى التعبير القرآني ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن في ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ لونا من التوبيخ لأهل النارُ .

وقوله الحق : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ ﴾ أي جهة أصحاب النار يقولون : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين ﴾ .

هنا يدعو أهل الأعراف : يا رب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألا يدخلهم معهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(110/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ معناه : كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النَّارِ تضرَّعُوا إلى اللَّهِ في ألاّ يجعلهم من زمرتهم .

وقرأ الأعمش : " وإذَا قلبت " وهي مخالفة للسواد كقراءة " لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ أهل النَّارِ

تضرَّعُوا إلى اللَّهِ في ألاّ يجعلهم من زمرتهم .

أو وهم طامعون على أن هذه أقرب .

قوله : " تِلْقَاءَ " منصوب على ظرف المكان .

قال مكيٌّ : " وجمعه تلاقِيّ " .

قال شهابُ الدّين : " لأن " تِلْقَاء " وزنه " تِفْعَال " كـ " تمثال " وتمثال وبابه يجمع على " تَفَاعِيلُ " ، فالتقت الياء الزَّائدةُ مع الياء التي هي لام الكلمة ، فأدغمت فصارت " تَلاَقِيّ " .

والتلقاء في الأصل ، مصدر ثم جُعِلَ دالاًّ على المكان أي : على جهة اللّقَاءِ والمقابلة .

قال الوَاحِدِيُّ : " التّلقاء جهة اللّقَاءِ ، وهي في الأصل مصدر استعمل ظَرْفاً " ، ونقل المصادر على " تِفعال " بكسر التَّاء إلاَّ لفظتان : التّلقاء ، والمبرد عن البصريّين أَنَّهُمَا قالا : لم يأت من المصادر على " تِفعال " بكسر التَّاء إلاَّ لفظتان : التّلقاء ، والتّبيان ، وما عدا ذلك من المصادر فمفتوح نحو : التَّرْداد والتكرار ، ومن الأسماء مكسور نحو : تِمثال وتِمْساح وتِقْصار .

(111/270)

وفي قوله : " صُرِفَتْ أَبْصَارُهُم " فائدة جليلة ، وهو أَنَّهُم لم يَلْتَفِتُوا إلى جهة النَّار [إلا] مجبورين على ذلك لا باختيارهم ؛ لأن مكان الشرِّ محذور ، وقد تقدَّم خلاف القُرَّاء في نحو : " تِلْقَاءَ أَصْحَابِ " بالنِّسبة إلى إسقاط إحْدَى الهمزتين ، أو إثباتها ، أو تسهيلها في أوائل البقرة [6 ، 13] .

و" قالوا " هو جواب " إذا " والعامل فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 130 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) ﴾

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديراً عليهم عظيم المِنّة التي بها نجاتُهم ، فيزيدون في الاستغاثة وصدق الابتهاء ، فتكمل بهم العارفة بإدامة ما لاطفهم به من الإيواء والحفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 537 ﴾

(112/270)

قوله تعالى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم كلامهم لأهل الجنة بالسلام ، أخبر أنهم يكلمون أهل النار بالتوبيخ والملام فقال : ﴿ ونادى ﴾ وأظهر الفاعل لئلا يلبس بأهل الجنة فقال ﴿ أصحاب الأعراف ﴾ أي الحال صرف وجوهم إلى جهة أهل النار ﴿ رجالاً ﴾ أي من أهل النار ﴿ يعرفونهم ﴾ أي بأعيانهم ، وأما معرفتهم إجمالاً فتقدم ، وإنما قال هنا : ﴿ بسيماهم ﴾ لأن النار قد أكلتهم وغيرت معالمهم مع تغيرهم بالسمن وسواد الوجوه وعظم الجثث ونحوه ﴿ قالوا ﴾ نفياً أو استفهاماً توبيخاً وتقريعاً ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ أي للمال والرجال ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ أي تجددون بهما هذه الصفة وتوجدونها دائماً في الدنيا زاعمين أنه لا غالب لكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 37 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين بقوله : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار قَالُواْ رَبَّنَا ﴾ [الأعراف : 47] أتبعه أيضاً بأن أصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أهل النار ،

واستغنى عن ذكر أهل النار لأجل أن الكلام المذكور لا يليق إلا بهم ، وهو قولهم : ﴿ مَا أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ ، ولا يليق أيضاً إلا بأكابرهم ، والمراد بالجمع ، إما جمع المال ، وإما الاجتماع والكثرة ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَستَكبِرُون ﴾ والمراد : استكبارهم عن قبول الحق ، واستكبارهم على الناس المحقين . وقرىء ﴿ تستكثرون ﴾ من الكثرة ، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب ، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 75 ﴾

(113/270)

وقال السمرقندى :

﴿ ونادى أصحاب الاعراف رِجَالاً ﴾

يعني : في النار ﴿ يَعْرِفُونَهُمْ بسيماهم قَالُواْ مَا أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي ما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون عن الإيمان .

وقرأ بعضهم وما كنتم تستكثرون .

يعني تجمعون المال الكثير .

وهي قراءة شاذة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(114/270)

وقال ابن عطية :

وقوله : ﴿ رجالاً ﴾ يريد من أهل النار ، ويحتمل أن يكون هذا النداء وأهل النار في النار ، فتكون معرفتهم بعلامات معرفة بأنهم أولئك الذين عرفوا الدنيا ، ويحتمل أن يكون هذا النداء وهم يحملون إلى النار ، فتكون السيما التي عرفوا بها أنهم أهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق ، وقال أبو مجلز الملائكة تنادي رجالاً في النار ، وقال غيره بل الآدميون ينادون أهل النار ، وقيل : إن ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما أغنى ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ ، وقيل ﴿ ما ﴾ نافية والأول أصوب ، و ﴿ جمعكم ﴾ لفظ يعم جموع الأجناد والخول وجمع المال لأن المراد بالرجال أنهم جبارون ملوك يقررون يوم القيامة على معنى الإهانة والخزي ، و ﴿ ما ﴾ الثانية : مصدرية ، وقرأت فرقة " تستكثرون " بالثاء مثلثة من الكثرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(115/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ﴾

روى أبو صالح عن ابن عباس قال : ينادون : يا وليد بن المغيرة ، يا أبا جهل بن هشام ، يا عاص بن وائل ، يا أمية بن خلف ، يا أُبَيّ بن خلف ، يا سائر رؤساء الكفار ، ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا المال والولد .

﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ أي : تتعظَّمون عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً ﴾

يعني ونادى أصحاب الأعراف رجالاً كانوا عظماء في الدنيا وهم من أهل النار ﴿ يعرفونهم بسيماهم ﴾ يعني سيما أهل النار ﴿ قالوا ﴾ يعني أصحاب الأعراف لهؤلاء الذين عرفوهم في النار ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ يعني ما كنتم تجمعون من الأموال والعدد في الدنيا ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ يعني وما أغنى عنكم تكبركم عن الإيمان شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قَالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾

يحتمل أن يكون هذا النداء وأولئك الرجال في النار ومعرفتهم إياهم في الدنيا بعلامات ويحتمل أن يكون وهم يحملون إلى النار وسيماهم تسويد الوجه وتشويه الخلق ، وقال أبو مجلز : الملائكة تنادي رجالاً في النار وهذا على تفسيره أنّ الأعراف هم ملائكة والجمهور على أنهم آدميون ولفظ ﴿ رجالاً ﴾ يدل على أنهم غير معينين ، وقال ابن القشيري : ينادي أصحاب الأعراف رؤساء المشركين قبل امتحاء صورهم بالنار يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا عاصي بن وائل يا عتبة بن أبي معيط يا أمية بن خلف يا أبي بن خلف يا سائر رؤساء الكفّار ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ في الدنيا المال والولد والأجناد والحجاب والجيوش ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ عن الإيمان انتهى ، ﴿ وما أغنى ﴾ استفهام توبيخ وتقريع ، وقيل : نافية و﴿ ما ﴾ في و﴿ ما كنتم ﴾ مصدريّة أي وكونكم

تستكبرون وقرأت فرقة تستكثرون بالثاء مثلثة من الكثرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(117/270)

وقال أبو السعود :

﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾

كرر ذكرهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير ﴿ رجالا ﴾ من رؤساء الكفار حين رأوهم فيما بين أصحاب النار ﴿ يعرفونهم بسيماهم ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا ﴿ قالوا ﴾ بدل من نادى ﴿ ما أغنى عنكم ﴾ (ما) استفهامية للتوبيخ والتقريع أو نافية ﴿ جمعكم ﴾ أي أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم للمال ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ ما مصدرية أي ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق ، أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده ، وقرىء تستكثرون من الكثرة أي من الأموال والجنود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(118/270)

وقال الآلوسى :

﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾

كرر ذكرهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير .

وقيل : لم يكتف بالإضمار للفرق بين المراد منهم هنا .

والمراد منهم فيما تقدم فإن المنادي هناك الكل وهنا البعض .

وفي إطلاق أصحاب الأعراف على أولئك الرجال بناءً على أن مآلهم إلى الجنة دليل على أن عنوان الصحبة للشيء لا يستدعي الملازمة له كما زعمه البعض ﴿ رِجَالاً ﴾ من رؤساء الكفرة كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل حين رأوهم فيما بين أصحاب النار ﴿ يَعْرِفُونَهُمْ بسيماهم ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها من سواد الوجه وتشويه الخلق وزرقة العين كما قال الجبائي أو بصورهم التي كانوا يعرفونهم بها في الدنيا كما قال أبو مسلم أو بعلامتهم الدالة على سوء حالهم يومئذٍ وعلى رياستهم في الدنيا كما قيل ولعله الأولى .

وأياً ما كان فالجار والمجرور متعلق بما عنده ويفهم من كلام بعضهم وفيه بعد أنه متعلق بنادى والمعنى نادوا رجالاً يعرفونهم في الدنيا بأسمائهم وكناهم وما يدعون به من الصفات .

﴿ قَالُواْ ﴾ بيان لنادى أو بدل منه ﴿ مَا أغنى عَنكُمْ ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ ويجوز

أن يراد النفي أي ما كفاكم ما أنتم فيه ﴿ جَمْعُكُمْ ﴾ أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم المال فهو مصدر مفعوله مقدر ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي واستكباركم المستمر عن قبول الحق أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده .

وقرىء ﴿ تستكثرون ﴾ من الكثرة .

و ﴿ فِى مَا ﴾ على هذه القراءة تحتمل أن تكون اسم موصول على معنى ما أغنى عنكم أتباعكم والذي كنتم تستكثرونه من الأموال .

ويحتمل عندي أن تكون في القراءة السبعية كذلك والمراد بها حينئذٍ الأصنام .

ومعنى استكبارهم إياها اعتقادهم عظمها وكبرها أي ما أغنى عنكم جمعكم وأصنامكم التي كنتم تعتقدون كبرها وعظمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(119/270)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

التّعريف في قوله : ﴿ أصحاب الأعراف ﴾ للعهد بقرينة تقدّم ذكره في قوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ [الأعراف : 46] وبقرينة قوله هنا ﴿ رجالاً يعرفونهم ﴾ إذ لا يستقيم أن يكون أولئك الرّجال يناديهم جميع من كان على الأعراف ، ولا أن يَعرفهم بسيماهم جميع الذين كانوا على الأعراف ، مع اختلاف العصور والأمم ، فالمقصود بأصحاب الأعراف هم الرّجال الذين ذكروا في الآية السابقة بقوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ [الأعراف : 46] كأنّه قيل : ونادى أولئك الرّجالُ الذين على الأعراف رجالاً .

والتّعبير عنهم هنا بأصحاب الأعراف إظهار في مقام الإضمار ، إذ كان مقتضى الظّاهر أن يقال .

ونادوا رجالاً ، إلاّ أنّه لما تعدّد في الآية السّابقة ما يصلح لعود الضّمائر إليه وقع الإظهار في مقام الإضمار دفعاً للالتباس .

والنّداء يؤذن ببعد المخاطب فيظهر أنّ أهل الأعراف لما تطلّعوا بأبصارهم إلى النّار عرفوا رجالاً ، أو قَبْلَ ذلك لمّا مُرّ عليهم بأهل النّار عرفوا رجالاً كانوا جبارين في الدّنيا .

والسيما هنا يتعيّن أن يكون المراد بها المشخّصات الذاتية التي تتميّز بها الأشخاص ، وليست السيما التي يتميّز بها أهل النّار كلّهم كما هو في الآية السّابقة .

فالمقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة ، فيه نذارة وموعظة لجبابرة المشركين من

العرب الذين كانوا يحقرون المستضعفين من المؤمنين ، وفيهم عبيد وفقراء فإذا سمعوا بشارات القرآن للمؤمنين بالجنّة سكتوا عمن كان من أحرار المسلمين وسادتهم .

(120/270)

وأنكروا أن يكون أولئك الضّعاف والعبيد من أهل الجنّة ، وذلك على سبيل الفرض ، أي لو فرضوا صدق وجود جنّة ، فليس هؤلاء بأهل لسكنى الجنّة لأنّهم ما كانوا يؤمنون بالجنّة ، وقصدهم من هذا تكذيب النّبيء صلى الله عليه وسلم وإظهار ما يحسبونه خَطلا من أقواله ، وذلك مثل قولهم : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ [سبأ : 7] فجعلوا تمزّق الأجساد وفناءها دليلا على إبطال الحشر ، وسكتوا عن حشر الأجساد التي لم تمزّق .

وكلّ ذلك من سوء الفهم وضعف الإدراك والتّخليط بين العاديات والعقليات .

قال ابن الكلبي : "ينادي أهل الأعراف وهم على السور يَا وليدُ بنَ المغيرة يا أَبَا جهل بنَ هشام يا فلان ويا فلان" فهؤلاء من الرّجال الذين يعرفونهم بسيماهم وكانوا من أهل العزّة والكبرياء .

ومعنى ﴿ جمعكم ﴾ يحتمل أن يكون جَمْع النّاس ، أي ما أغنت عنكم كثرتكم التي

تعتزّون بها ، ويحتمل أن يراد من الجمع المصدر بمعنى اسم المفعول .

أي ما جمعتموه من المال والثّروة كقوله تعالى : ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ [الحاقة : 28] .

و(مَا) الأولى نافية ، ومعنى ﴿ ما أَغْنَى ﴾ ما أَجْزَى مصدره الغَناء بفتح الغين وبالمدّ .

والخبر مستعمل في الشّماتة والتّوقيف على الخطأ .

و(ما) الثّانية مصدريّة ، أي واستكباركم الذي مضى في الدّنيا ، ووجه صوغه بصيغة الفعل دون المصدر إذ لم يقل استكباركم ليتوسّل بالفعل إلى كونه مضارِعا فيفيد أنّ الاستكبار كان دأبهم لا يفترون عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(121/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾

وكأن أصحاب الأعراف قد صرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق مع الحق ،

فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : ﴿ مَآ أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وكأنهم يقولون لهم : إن اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء . . شياطينكم ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(122/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مَا أغْنَى " يجوز أن تكون استفهامية للتوبيخ والتقريع ، وهو الظاهر ، ويجوز أن تكون نافية .

وقوله : " وما كنتم " " ما " مصدرية لِيُنْسَق مصدرٌ على مثله أي : ما أغنى عنكم جمعكم المال والاجتماع والكثرة وكونكم مستكبرين عن قَبُولِ الحقّ ، أو استكباركم على الناس .

وقرئ " تَسْتَكْثِرُون " بثاء مُثلثة من الكثرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 131 ﴾

(123/270)

قوله تعالى ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم زادوا في توبيخهم وتقريعهم وتحزينهم وتأسيفهم والإنكار عليهم بقولهم مشيرين إلى ناس كانوا يستضعفونهم من أهل الجنة ويحقرونهم : ﴿ أهؤلاء ﴾ وكأنه يكشف لهم عنهم حتى يروهم زيادة في عذابهم ﴿ الذين أقسمتم ﴾ أي في الدنيا ﴿ لا ينالهم الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ برحمة ﴾ فكيف بكمال الرحمة .

ولما كان التصريح بأمرهم بدخول الجنة إنكاء لأهل النار لأنه أنفى لما أقسموا عليه ، قالوا : ﴿ ادخلوا ﴾ أي قال الله لهم أو قائل من قبله ادخلوا ﴿ الجنة لا خوف عليكم ﴾ أي من شيء يمكن توقع أذاه ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ أي يتجدد لكم حزن في وقت من الأوقات على شيء فات لما عندكم من الخيرات التي لا تدخل تحت الوصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 37 . 38 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم زادوا على هذا التبكيت ، وهو قولهم : ﴿ أَهَؤُلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ﴾ فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة ، كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم ، وربما هزؤوا بهم ، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم ، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية ، لمن كان مستضعفاً عنده قلق لذلك ، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه .

وأما قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ فقد اختلفوا فيه .

فقيل هم أصحاب الأعراف ، والله تعالى يقول لهم ذلك أو بعض الملائكة الذين يأمرهم الله تعالى بهذا القول .

وقيل : بل يقول بعضهم لبعض والمراد أنه تعالى يحث أصحاب الأعراف بالدخول في الجنة ، واللحوق بالمنزلة التي أعدها الله تعالى لهم ، وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ أَهَؤُلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ﴾ من كلام أصحاب الأعراف .

وقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ من كلام الله تعالى ، ولا بد ههنا من إضمار ، والتقدير : فقال الله لهم هذا كما قال : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [الأعراف : 110] وانقطع ههنا كلام الملأ .

ثم قال فرعون : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف : 110] فاتصل كلامه بكلامهم من غير إظهار فارق ، فكذا ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 75 . 76 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ﴾

يعني : أنّ أهل الأعراف يقولون : يا وليد ويا أبا جهل : أهؤلاء ؟ يعني : صهيباً وبلالاً والضعفة من المسلمين الذين كنتم تحلفون لا ينالهم الله برحمة .

يعني : إنَّهم لا يدخلون الجنة .

ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف : ﴿ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

وعن أبي مجلز أنه قال : وعلى الأعراف رجال من الملائكة ، نادوا أصحاب الجنة قبل أن يدخلوها سلام عليكم لم يدخلوها .

وهم يطمعون دخولها يعني : في الجنة .

وإذا نظروا إلى أصحاب النار حين مروا بهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين ونادى أصحاب الأعراف رِجَالاً ﴾ من المشركين ﴿ يَعْرِفُونَهُمْ بسيماهم قَالُواْ مَا أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادخلوا الجنة ﴾

يعني : لأهل الجنة .

قال مقاتل : فأقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار معهم .

فقالت الملائكة لأهل النار : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ .

ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف : ادخلوا الجنة .

ويقال : إن أهل النار يقولون لأهل الأعراف : ما أغنى عنكم جمعكم وعملكم وأنتم والله تكونون معنا في النار ولا تدخلون الجنة ؟ .

فيقول الملائكة لأهل النار : أهؤلاء الذين أقسمتم يعني ، أصحاب الأعراف لا ينالهم الله برحمته .

ثم يقال : لأصحاب الأعراف : ﴿ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(125/270)

وقال ابن عطية :

﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) ﴾

قال أبو مجلز : أهل الأعراف هم الملائكة وهم القائلون ﴿ أهؤلاء ﴾ إشارة إلى أهل الجنة .

قال القاضي أبو محمد : وكذلك يجيء قول من قال أهل الأعراف أنبياء وشهداء ، وقال غيره : أهل الأعراف بشر مذنبون ، وقوله : ﴿ أهؤلاء ﴾ من كلام ملك بأمر الله عز وجل إشارة إلى أهل الأعراف ومخاطبة لأهل النار ، وهذا قول ابن عباس ، وقال النقاش : لما وبخوهم بقولهم ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ [الأعراف : 48] ، أقسم أهل النار أن أهل الأعراف داخلون النار معهم فنادتهم الملائكة ﴿ أهؤلاء ﴾ ، ثم نادت أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ ، وقال بعض المتأولين : الإشارة بهؤلاء إلى أهل الجنة ، والمخاطبون هم أهل الأعراف والذين خوطبوا هم أهل النار ، والمعنى أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم قيل لهم ادخلوا الجنة ، وقد تقدم ما قال النقاش من أن القسم هو في الآخرة على أهل الأعراف ، وقرأ الحسن وابن هرمز " أدخِلوا الجنة " بفتح الألف وكسر الخاء معنى أدخلوا أنفسكم ، أو على أن تكون مخاطبة للملائكة ثم ترجع المخاطبة بعد إلى البشر في ﴿ عليكم ﴾ ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس " دخلوا الجنة " على الإخبار بفعل ماض ، وقرأ طلحة بن مصرف وابن وثاب والنخعي " أُدخلوا الجنة " خبر مبني للمفعول .

(126/270)

قال القاضي أبو محمد : وترتيب كل قراءة من هذه على الأقوال في المخاطب والمخاطب بقوله تعالى : ﴿ أهؤلاء ﴾ ممكن بأيسر تناول فاختصرته إيجازاً ، وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إلى مخاطبة غيره ، وقوله تعالى : ﴿ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ معناه : لا تخافون ما يأتي ولا تحزنون على ما فات ، وذكر الطبري من طريق حذيفة أن أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة فيأتون آدم فيدفعهم إلى نوح ثم يتدافعهم الأنبياء عليهم السلام حتى يأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمون مساكين الجنة ، قال سالم مولى أبي حذيفة : ليت أني من أهل الأعراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(127/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معنا ، وأن الله لن يدخلهم الجنة ، فيقول الله لأهل النار : ﴿ أهؤلاء ﴾ يعني : أهل الأعراف ﴿ الذين اقسمتم لا

ينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة ﴾ رواه وهب بن منبه عن ابن عباس .

قال حذيفة : بينا أصحاب الأعراف هنالك ، اطَّلع عليهم ربهم فقال لهم : "ادخلوا الجنة فاني قد غفرت لكم" .

والثاني : أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفار يستهزؤون بهم ، كسلمان ، وصهيب ، وخبَّاب ، فينادون الكفار : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم ﴾ وأنتم في الدنيا ﴿ لا ينالهم الله برحمة ﴾ قاله ابن السائب .

فعلى هذا ، ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله : ﴿ برحمة ﴾ ، ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة .

وقد ذكر المفسرون في قوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف ، وقد ذكرناه .

والثاني : أن يكون خطاباً من الله لأهل الجنة .

والثالث : أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة ، ذكرهما الزجاج .

فعلى هذا الوجه الأخير ، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ : اعلوا إلى القصور المشرفة ، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة ، لأنهم قد رأوهم في الجنة .

وروى مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال : يؤتى بأصحاب الأعراف إلى نهر يقال له : الحياة ، عليه قضبان الذهب مكلَّلة باللؤلؤ ، فيُغمسون فيه ، فيخرجون ، فتبدو في نحورهم

شامة بيضاء يعرفون بها ، ويقال لهم : تمنَّوا ما شئتم ، ولكم سبعون ضعفاً ، فهم مساكين أهل الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(128/270)

وقال القرطبى :

﴿ أهؤلاء الذين ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء ؛ كبِلاَل وسَلْمَان وخَبَّاب وغيرهم .

﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ في الدنيا .

﴿ لاَيَنَالُهُمُ الله ﴾ في الآخرة .

﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ يوبخونهم بذلك .

وزيدوا غمًّا وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ وقرأ عكرمة "دخلوا الجنة" بغير ألف والدال مفتوحة .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "أدْخِلوا الجنة" بكسر الخاء على أنه فعل ماض .

ودلّت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكة أو أنبياء ؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، ويكون "أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ" إلى آخر الآية من قول الله تعالى لأهل النار توبيخاً

لهم على ما كان من قولهم في الدنيا .

وروي عن ابن عباس ، والأوّل عن الحسن .

وقيل : هو من كلام الملائكة الموكلين بأصحاب الأعراف ؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف : ﴿ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(129/270)

وقال الخازن :

قال الكلبي : ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار ﴿ أهؤلاء ﴾ لفظ استفهام يعني أهؤلاء الضعفاء ﴿ الذين أقسمتم ﴾ بالله ﴿ لا ينالهم الله برحمة ﴾ يعني أنكم حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ بفضلي ورحمتي ﴿ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾

وقيل إن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأصحاب النار ما أخبر الله عنهم قال لهم أهل النار إن أولئك دخلوا الجنة وأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون إنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لأهل النار أهؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف : ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(130/270)

وقال أبو حيان :

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾

الظاهر أنّ هذا من جملة مقول أهل الأعراف وتكون الإشارة إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحقّرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم في الدنيا وكانوا يقسمون بالله تعالى لا يدخلهم الجنة قاله الزمخشري ، وذكره ابن عطية عن بعض المتأوّلين ، قال : الإشارة بهؤلاء إلى أهل الجنة والمخاطبون هم أهل الأعراف والذين خوطبوا أهل النار والمعنى ﴿ أهؤلاء ﴾ الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم قبل لهم ادخلوا الجنة ، وقال

ابن عباس : ﴿ أهؤلاء ﴾ من كلام ملك بأمر الله إشارة إلى أهل الأعراف ومخاطبة لأهل النار ، قال النقاش لما وبخوهم بقولهم ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ أقسم أهل النار أنّ أهل الأعراف داخلون النار معهم فنادتهم الملائكة ﴿ أهؤلاء ﴾ ثم نادى أهل الأعراف ادخلوا الجنة ، وقيل : الإشارة بهؤلاء إلى أهل الأعراف والقائلون هم أصحاب الأعراف ثم يرجعون إلى مخاطبة أنفسهم فيقول بعضهم لبعض ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ قاله الحسن ، وقيل : الإشارة إلى المؤمنين الذين كان الكفار يحلفون أنهم لا يدخلون الجنة والقائل إما الله وإما الملائكة ، وقيل : المشار بهؤلاء أصحاب الأعراف والقائل مالك خازن النار بأمر الله تعالى ، وقال أبو مجلز : أهل الأعراف هم الملائكة وهم القائلون ﴿ أهؤلاء ﴾ إشارة إلى أهل الجنة ، وكذلك مجيء قول من قال أهل الأعراف أنبياء وشهداء ، وقرأ الحسن وابن هرمز : أدخلوا من أدخل أي أدخلوا أنفسكم أو يكون خطاباً للملائكة ثم خاطب بعد البشر .

(131/270)

وقرأ عكرمة دخلوا إخباراً بفعل ماض ، وقرأ طلحة وابن وثاب والنخعي ﴿ أدخلوا ﴾ خيراً مبنيّاً للمفعول وعلى هاتين القراءتين يكون قوله ﴿ لا خوف عليكم ﴾ على تقدير مقولاً لهم لا خوف عليكم ، قال الزمخشري : يقال لأهل الأعراف ادخلوا الجنة بعد أن

يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون وفائدة ذلك بيان أنّ الجزاء على قدر الأعمال وأنّ التقدّم والتأخر على حسبها وأنّ أحداً لا يسبق عند الله تعالى إلا بسبقه من العمل ولا يتخلّفه إلا بتخلّفه وليرغب السامعون في حال السابقين ويحصروا على إحراز قصبهم وأنّ كلاًّ يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشرّ فيرتدع المسيء عن إساءته ويزيد المحسن في إحسانه وليعلم أن العصاة يوبخهم كلّ أحد حتى أقصر الناس عملاً انتهى ، وهو تكثير من باب الخطابة لا طائل تحته وفيه دسيسة الاعتزال ، وعن حذيفة أنّ أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة فيأتون آدم فيدفعهم إلى نوح ثم يتدافعهم الأنبياء حتى يأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمون مساكين الجنة ، قال سالم مولى أبي حذيفة : ليت أني من أهل الأعراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(132/270)

وقال أبو السعود :

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾

من تتمة قولهم للرجال ، والإشارة إلى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون صريحا أنهم لا يدخلون الجنة أو يفعلون ما ينبىء عن ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك المذكورين أي ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿ لا خوف عليكم ﴾ بعد هذا ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ أو قيل لأصحاب الأعراف : ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا . والأظهر أن لا يكون المراد بأصحاب الأعراف المقصرين في العمل لأن هذه المقالات وما تتفرع هي عليه من المعرفة لا يليق بمن لم يتعين حاله بعد ، وقيل : لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أو الملائكة ردا عليهم : ﴿ أهؤلاء ﴾ الخ ، وقرىء ادخلوا ودخلوا على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا في حقهم لا خوف عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(133/270)

وقال الآلوسى :

﴿ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ﴾

من تتمة قولهم للرجال فهو في محل نصب مفعول القول أيضاً أي قالوا : ما أغنى وقالوا : أهؤلاء ، والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كان الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أنهم لا يصيبهم الله تعالى برحمة وخير ولا يدخلهم الجنة كسلمان وصهيب وبلال رضي الله تعالى عنهم أو يفعلون ما ينبىء عن ذلك كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : 44] .

﴿ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ من كلام أصحاب الأعراف أيضاً أي فالتفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم : دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

وقيل : هو أمر بأصل الدخول بناءً على أن يكون كونهم على الأعراف وقولهم هذا قبل دخول بعض أهل الجنة الجنة .

(134/270)

وقال غير واحد : إن قوله سبحانه : ﴿ أهؤلاء ﴾ الخ استئناف وليس من تتمة قول أصحاب الأعراف ، والمشار إليهم أهل الجنة والقائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة والمقول له أهل النار في قول ، وقيل : المشار إليهم هم أهل الأعراف وهم القائلون أيضاً والمقول لهم أهل النار ، و﴿ ادخلوا الجنة ﴾ من قول أهل الأعراف أيضاً أي يرجعون فيخاطب بعضهم بعضاً ويقول : ادخلوا الجنة ، ولا يخفى بعده ، وقيل : لما عير أصحاب الأعراف أصحاب النار أقسم أصحاب النار أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أو بعض الملائكة خطاباً لأهل النار : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة اليوم مشيراً إلى أصحاب الأعراف ثم وجه الخطاب إليهم فقيل : ادخلوا الجنة الخ ؛ وقرىء ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ ﴿ ودخلوا ﴾ بالمزيد المجهول وبالمجرد المعلوم ، وعليهما فلا بد أن يكون ﴿ ياعباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ﴾ الخ مقولاً لقول محذوف وقع حالاً ليتجه الخطاب ويرتبط الكلام أي ادخلوا أو دخلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف الخ .

وقرىء أيضاً ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ بأمر المزيد للملائكة .

والظاهر أنها تحتاج إلى زيادة تقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(135/270)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾

من كلام أصحاب الأعراف .

والاستفهام في قوله ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم ﴾ مستعمل في التّقرير .

والإشارة بـ ﴿ أهؤلاء ﴾ إلى قوم من أهل الجنّة كانوا مستضعفين في الدّنيا ومحقرين عند المشركين بقرينة قوله : ﴿ الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ وقوله ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ قال المفسّرون هؤلاء مثل سلمانَ ، وبلال ، وخبَّاب ، وصُهَيب من ضعفاء المؤمنين ، فإما أن يكونوا حينئذ قد استقرّوا في الجنّة فَجَلاَهم الله لأهل الأعراف وللرّجال الذين خاطبوهم ، وإمّا أن يكون ذلك الحِوار قد وقع قبل إدخالهم الجنّة .

وقسمُهم عليهم لإظهار تصلّبهم في اعتقادهم وأنّهم لا يخامرهم شكّ في ذلك كقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [النحل : 38] .

وقوله : ﴿ لا ينالهم الله برحمة ﴾ هو المقسم عليه ، وقد سلّطوا النّفي في كلامهم على مراعاة نفي كلام يقوله الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أو المؤْمنون ، وذلك أنّ بشارات القرآن أولئك الضّعفاءَ ، ووعدَه إياهم بالجنّة ، وثناءَه عليهم نُزل منزلة كلام يقول : إنّ الله ينالهم برحمة ، أي بأن جُعل إيواء الله إياهم بدار رحمته ، أي الجنّة ، بمنزلة النَّيْل وهو حصول الأمر المحبوب المبحُوث عنه كما تقدّم في قوله : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ [

الأعراف : 37] آنفاً ، فأطلق على ذلك الإيواءِ فعل (يَنال) على سبيل الاستعارة .

وجعلت الرّحمة بمنزلة الآلة للنّيل كما يقال : نال الثّمرة بمحجن .

فالباء للآلة .

أو جعلت الرّحمة ملابسة للنّيل فالباء للملابسة .

والنّيل هنا استعارة ، وقد عمدوا إلى هذا الكلام المقدّر فنفوه فقالوا : ﴿ لا ينالهم الله برحمة ﴾ .

وهذا النّظم الذين حكي به قسمهم يؤذن بتهكّمهم بضعفاء المُؤمنين في الدّنيا ، وقد أغفل المفسّرون تفسير هذه الآية بحسب نظمها .

(136/270)

وجملة : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ قيل مقول قول محذوف اختصاراً لدلالة السّياق عليه ، وحذفُ القول في مثله كثير ولا سيما إذا كان المقول جملة إنشائيّة ، والتّقدير : قال لهم الله ادخلوا الجنّة فكذّب اللَّهُ قسمَكُم وخيّب ظنّكم ، وهذا كلّه من كلام أصحاب الأعراف ، والأظهر أن يكون الأمر في قوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ للدّعاء لأنّ المشار إليهم بهؤلاء هم أناس من أهل الجنّة ، لأنّ ذلك الحين قد استقرّ فيه أهل الجنّة في الجنّة وأهلُ النّار في النّار ،

كما تقتضيه الآيات السّابقة من قوله : ﴿ ونادوا أصحابَ الجنّة أنْ سلام عليكم إلى قوله القومِ الظالمين ﴾ [الأعراف : 46 ، 47] فلذلك يتعيّن جعل الأمر للدّعاء كما في قول المعرّي:

ابْقَ في نعمة بقاءَ الدّهور . . .

نافِذاً لحُكْم في جميع الأمور

وإذ قد كان الدّخول حاصلاً فالدّعاء به لإرادة الدّوام كما يقول الدّاعي على الخارج : أخرج غير مأْسوفٍ عليك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

ورفعُ ﴿ خوف ﴾ مع (لا) لأنّ أسماء أجناس المعاني التي ليست لها أفراد في الخارج يستوي في نفيها بلا الرّفعُ والفتحُ ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [الأعراف : 35] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(137/270)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا)

(138/270)

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ النَّارَ وَأَهْلَهَا ، وَالْجَنَّةَ وَأَهْلَهَا ، بَيَّنَ لَنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا بَعْضَ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ – فَرِيقِ الْجَنَّةِ وَفَرِيقِ السَّعِيرِ – مِنَ الْحِوَارِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي دَارِهِ ، وَتَمَكُّنِهِ فِي قَرَارِهِ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدَّارَيْنِ فِي عَالَمٍ وَاحِدٍ ، أَوْ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ ، يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ هُوَ سُورٌ وَاحِدٌ لَا يَمْنَعُ مِنْ إِشْرَافِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ فِي عِلِّيِّينَ ؛ عَلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِي سِجِّينٍ مِنْ هَاوِيَةِ الْجَحِيمِ ، فَيُخَاطِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا يَزِيدُ أَهْلَ الْجَنَّةِ عِرْفَانًا بِقِيمَةِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَزِيدُ أَهْلَ النَّارِ حَسْرَةً عَلَى تَفْرِيطِهِمْ وَشَقَاءً عَلَى شَقَائِهِمْ ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا النَّوْعُ مِنَ الِاتِّصَالِ الْقُرْبَ الْمَعْهُودَ عِنْدَنَا فِي الدُّنْيَا بَيْنَ الْمُتَخَاطِبِينَ ، وَهُوَ كَوْنُ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا تُقَاسُ بِالذِّرَاعِ أَوِ الْبَاعِ ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بِحَيْثُ تُحَدَّدُ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ الْأَشْهُرِ أَوِ الْأَيَّامِ ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْآخِرَةِ أَنْ تَغْلِبَ فِيهِ الرُّوحَانِيَّةُ عَلَى الْمَادَّةِ الْجَسَدِيَّةِ ، فَيُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْمَعَ مَنْ هُوَ عَلَى بُعْدٍ شَاسِعٍ مِنْهُ وَيَرَاهُ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَعْنَى غَرِيبًا بَعِيدًا عَنِ

الْمَأْلُوفِ عِنْدَ أَجْدَادِنَا الْأَوَّلِينَ ، وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ الْآنَ فِي الْعَالَمِ الْمَدَنِيِّ مَنْ يَسْتَبْعِدُهُ بَعْدَ اخْتِرَاعِ الْبَشَرِ لِلْآلَاتِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا مِنْ أَبْعَادٍ أُلُوفِ الْأَمْيَالِ ، إِمَّا بِالْإِشَارَاتِ الْكَاتِبَةِ

(139/270)

كَالتِّلِغْرَافِ السِّلْكِيِّ وَاللَّاسِلْكِيِّ ، أَوْ بِالْكَلَامِ اللِّسَانِيِّ كَالتِّلِيفُونِ السِّلْكِيِّ وَاللَّاسِلْكِيِّ ، وَقَدْ نَبَّأَتْنَا أَخْبَارُ الِاخْتِرَاعَاتِ فِي الشَّمَالِ بِصُنْعِ آلَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الرُّؤْيَةِ وَالْخِطَابِ ، إِنْ كَانَ لَمَّا يَتِمَّ صُنْعُهَا فَقَدْ كَادَ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) التَّعْبِيرُ بِالْمَاضِي عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مَعْهُودٌ فِي الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الْبَلِيغَةِ ، وَأَشْهَرُ نُكَتِهِ جَعْلُ الْمُسْتَقْبَلِ فِي تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ كَالَّذِي وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ سَوْفَ يُنَادُونَ أَصْحَابَ النَّارِ حَتَّى إِذَا مَا وَجَّهُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَيْهِمْ سَأَلُوهُمْ سُؤَالَ تَبَجُّحٍ وَافْتِخَارٍ بِحُسْنِ حَالِهِمْ ، وَتَهَكُّمٍ وَتَذْكِيرٍ بِمَا كَانَ مِنْ جِنَايَةِ أَهْلِ النَّارِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ ، وَتَقْرِيرٍ لَهُمْ بِصِدْقِ مَا بَلَّغُوهُمْ مِنْ وَعْدِ رَبِّهِمْ لِمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ قَائِلِينَ . قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ فِيهِ ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ حَقًّا ؟ .

قَالُوا : (وَعدنَا رَبُّنَا) وَلَمْ يَقُولُوا لِأَهْلِ النَّارِ : (وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ) بَلْ حَذَفُوا الْمَفْعُولَ - لِأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ حِينَئِذٍ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَحَلٌّ لِذَلِكَ الْوَعْدِ بِالْجَنَّةِ ، وَأَنَّ

(140/270)

أَهْلَ النَّارِ لَيْسُوا مَحَلًّا لَهُ ، فَسَأَلُوهُمْ عَنِ الْوَعْدِ الْمُطْلَقِ كَمَا وُجِّهَ إلَى النَّاسِ كَافَّةً فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعَلَّقًا عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) (13 : 35) إلَخْ . وَقَوْلِهِ : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) (47 : 15) إلَخْ . وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي حِكَايَةِ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ : (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) (40 : 8) وَقَوْلِهِ : (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ) (19 : 61) وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْوَعْدَ خَاصٌّ بِمَا كَانَ فِي الْخَيْرِ ، وَكَذَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ يَشْمَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَهُوَ الصَّحِيحُ . وَلَكِنَّ الْوَعِيدَ خَاصٌّ بِالشَّرِّ أَوِ السُّوءِ ، وَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ : فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ ، وَمَا وَعَدَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَصَاهُ حَقًّا بِدُخُولِنَا الْجَنَّةَ وَدُخُولِكُمُ النَّارَ ؟ وَهَذَا يُوَافِقُ قَاعِدَةَ حَذْفِ الْمَعْمُولِ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكَادُ يُطْلَقُ الْوَعْدُ فِي الشَّرِّ غَيْرَ مُتَعَلِّقٍ

بِالْمَوْعُودِ بِهِ صَرَاحَةً وَلَا ضِمْنًا ؛ لِأَنَّهُ إذَا أُطْلِقَ يَنْصَرِفُ إلَى الْخَيْرِ ، وَأَمَّا إذَا قُيِّدَ بِتَعَلُّقِهِ بِالشَّرِّ فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ

(141/270)

تَسْمِيَتُهُ تَوَعُّدًا لِلتَّهَكُّمِ أَوْ لِلْمُشَاكَلَةِ إذَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ وَعْدِ الْخَيْرِ أَوْ لِلتَّغْلِيبِ ، فَالْأَوَّلُ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (22 : 72) وَالثَّانِي : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) (2 : 268) عَلَى أَنَّ لِوَعْدِ الشَّيْطَانِ هُنَا نُكْتَةً أُخْرَى ، وَهُوَ أَنَّهُ شَرٌّ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ عَلَى سَبِيلِ الْخِدَاعِ ، فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْوَسْوَسَةِ لِلْمَرْءِ بِتَرْكِ الصَّدَقَةِ وَعَمَلِ الْبِرِّ اتِّقَاءً لِلْفَقْرِ بِذَهَابِ مَالِهِ ، وَتَظْهَرُ مُقَابَلَةُ الْمُشَاكَلَةِ فِي وَعْدِ اللَّهِ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ (9 : 68 و72) وَالثَّالِثُ : (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ) (36 : 52) أَشَارَ إلَى الْبَعْثِ . وَلَكِنْ فِي التَّنْزِيلِ مَا لَا يَظْهَرُ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ ، كَقَوْلِهِ فِي وَعِيدِ قَوْمِ صَالِحٍ : (ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) (11 : 65) وَلَهُ نَظَائِرُ ، عَلَى أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ

(142/270)

قَدْ صَرَّحُوا بِجَوَازِ تَخَلُّفِ الْوَعِيدِ وَعَدَمِ جَوَازِ تَخَلُّفِ الْوَعْدِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ تَتَمَدَّحُ بِذَلِكَ ، وَالْعُقَلَاءَ يَعُدُّونَهُ فَضْلًا ، وَكَيْفَ يُقْبَلُ هَذَا مَعَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْوَعِيدِ : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) (22 : 47) وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْآيَاتِ .

نَعَمْ قَدْ يَصِحُّ قَوْلُهُمْ فِي الْوَعِيدِ الْمُقَيَّدِ وَلَوْ فِي نُصُوصٍ أُخْرَى بِجَوَازِ الْعَفْوِ عَنْهُ كَبَعْضِ الْمَعَاصِي ، دُونَ الْمُؤَكَّدِ أَوِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا يُقَيِّدُهُ شَيْءٌ .

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إلَى أَنَّ الْوَعْدَ هُنَا بِمَعْنَى الْوَعِيدِ وَلَوْ لِلْمُشَاكَلَةِ ، وَأَنَّ الْمَفْعُولَ حُذِفَ تَخْفِيفًا لِلْإِيجَازِ أَوْ لِلْعِلْمِ بِهِ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَالْمَعْنَى : فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا أَوْعَدَكُمْ رَبُّكُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ وَالْعَذَابِ حَقًّا ؟ وَقِيلَ : بَلِ الْمَعْنَى فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ؟

وَهَذَا ضَعِيفٌ جِدًّا ، وَمَا قَبْلَهُ قَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

وَ(أَنْ) فِي قَوْلِهِ : (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا) هِيَ الْمُفَسِّرَةُ .

(143/270)

(قَالُوا نَعَمْ) أَيْ قَالَ أَهْلُ النَّارِ : نَعَمْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَ رَبُّنَا حَقًّا . قَرَأَ الْكِسَائِيُّ نَعِمْ بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، وَهِيَ لُغَةٌ فَصِيحَةٌ نُسِبَتْ إلَى كِنَانَةَ وَهُذَيْلٍ (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ) التَّأْذِينُ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْإِعْلَامِ بِالشَّيْءِ ، وَاللَّعْنَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ مَعَ الْخِزْيِ وَالْإِهَانَةِ . أَيْ فَكَانَ عَقِبَ هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ أَنْ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ قَائِلًا : لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ ، الْجَانِينَ عَلَيْهَا بِمَا أَوْجَبَ حِرْمَانَهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَارْتِكَاسَهَا فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ ، وَالظَّالِمِينَ لِلنَّاسِ بِمَا يَصِفُهُمْ بِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، وَنُكِّرَ الْمُؤَذِّنُ لِأَنَّ مَعْرِفَتَهُ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ ، بَلِ الْمَقْصُودُ الْإِعْلَامُ بِمَا يَقُولُهُ هُنَالِكَ لِلتَّخْوِيفِ مِنْهُ هُنَا ، وَلَمْ يُرْوَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا تُعْلَمُ عِلْمًا صَحِيحًا إِلَّا بِالتَّوْقِيفِ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْوَحْيِ . وَلَكِنَّ الْمَعْهُودَ فِي أُمُورِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَلَا سِيَّمَا الْآخِرَةُ أَنْ يَتَوَلَّى مِثْلَ ذَلِكَ فِيهَا مَلَائِكَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(144/270)

قَالَ الْآلُوسِيُّ : هُوَ عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَاحِبُ الصُّورِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقِيلَ : مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ ، وَقِيلَ : مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ غَيْرُهُمَا يَأْمُرُهُ اللَّهُ بِذَلِكَ . وَرِوَايَةُ الْإِمَامِيَّةِ عَنِ الرِّضَا وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ مِمَّا لَمْ يَثْبُتْ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَبَعِيدٌ عَنْ هَذَا الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مُؤَذِّنًا وَهُوَ إِذْ ذَاكَ فِي حَظَائِرِ الْقُدْسِ اهـ . وَأَقُولُ : إِنَّ وَاضِعِي كُتُبِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ لِرُوَاةِ الْآثَارِ لَمْ يَضَعُوهَا عَلَى قَوَاعِدِ الْمَذَاهِبِ وَقَدْ كَانَ فِي

أَئِمَّتِهِمْ مَنْ يُعَدُّ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ وَآلِهِ كَعَبْدِ الرَّزَّاقِ وَالْحَاكِمِ ، وَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ عَدَّلَ كَثِيرًا مِنَ الشِّيعَةِ فِي رِوَايَتِهِمْ ، فَإِذَا ثَبَتَتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ قَبِلْنَاهَا ، وَلَا نَرَى كَوْنَهُ فِي حَظَائِرِ الْقُدْسِ مَانِعًا مِنْهَا ، وَلَوْ كُنَّا نَعْقِلُ لِإِسْنَادِ هَذَا التَّأْذِينِ إِلَيْهِ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ مَعْنًى يُعَدُّ بِهِ فَضِيلَةً أَوْ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى لَقَبِلْنَا الرِّوَايَةَ بِمَا دُونَ السَّنَدِ الصَّحِيحِ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَوْضُوعًا

(145/270)

أَوْ مُعَارَضًا بِرِوَايَةٍ أَقْوَى سَنَدًا أَوْ أَصَحَّ مَتْنًا . قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ وَنَصْبِ لَعْنَةٍ ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ ، وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ النُّونِ عَلَى أَنَّهَا الْمُفَسِّرَةُ ، أَوِ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَرَفْعِ لَعْنَةٍ .

ثُمَّ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ بِقَوْلِهِ : (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا

(146/270)

عِوَجًا) تَقَدَّمَ أَنَّ صَدَّ يَصُدُّ يَجِيءُ لَازِمًا بِمَعْنَى يُعْرِضُ وَيَمْتَنِعُ عَنِ الشَّيْءِ ، وَمُتَعَدِّيًا بِمَعْنَى يَصُدُّ غَيْرَهُ وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ ، وَأَنَّ الْإِيجَازَ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ يَقْتَضِي الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا - أَيِ الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ اللَّهِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى مَرْضَاتِهِ وَكَرَامَتِهِ وَثَوَابِهِ وَيُضِلُّونَ النَّاسَ عَنْهَا ، وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ سُلُوكِهَا ، وَيَبْغُونَهَا مُعْوَجَّةً أَوْ ذَاتَ عِوَجٍ ، أَيْ غَيْرَ مُسْتَوِيَةٍ وَلَا مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَسْلُكَهَا أَحَدٌ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَالْعَوَجُ بِالتَّحْرِيكِ مَصْدَرُ قَوْلِكَ عَوِجَ الشَّيْءُ بِالْكَسْرِ فَهُوَ أَعْوَجُ ، وَالِاسْمُ الْعِوَجُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، وَعَاجَ يَعُوجُ إِذَا عَطَفَ ، وَالْعِوَجُ فِي الْأَرْضِ أَلَّا تَسْتَوِيَ ، وَفِي التَّنْزِيلِ : (لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) (20 : 107) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : قَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْعِوَجِ فِي الْحَدِيثِ اسْمًا وَفِعْلًا وَمَصْدَرًا وَفَاعِلًا وَمَفْعُولًا ، وَهُوَ بِفَتْحِ الْعَيْنِ مُخْتَصٌّ بِكُلِّ شَكْلٍ مَرْئِيٍّ كَالْأَجْسَامِ ، وَبِالْكَسْرِ بِمَا لَيْسَ بِمَرْئِيٍّ كَالرَّأْيِ وَالْقَوْلِ ، وَقِيلَ : الْكَسْرُ يُقَالُ فِيهِمَا مَعًا ، وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ . (ثُمَّ قَالَ) وَعَوِجَ الطَّرِيقُ وَعِوَجُهُ زَيْغُهُ ، وَعِوَجُ الدِّينِ وَالْخُلُقِ فَسَادُهُ وَمَيْلُهُ عَلَى الْمُثُلِ اهـ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : إِنَّ الْعَوَجَ (بِالتَّحْرِيكِ) يُقَالُ فِيمَا يُدْرَكُ بِالْبَصَرِ ، وَالْعِوَجَ (بِكَسْرٍ فَفَتْحٍ) يُقَالُ فِيمَا يُدْرَكُ بِالْفِكْرِ وَالْبَصِيرَةِ كَالدِّينِ وَالْمَعَاشِ .

وَأَمَّا بَغْيُ الظَّالِمِينَ - أَيْ طَلَبُهُمْ - أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللهِ عِوَجًا ، أَيْ غَيْرَ مُسْتَوِيَةٍ وَلَا مُسْتَقِيمَةٍ فَيَكُونُ عَلَى صُوَرٍ شَتَّى ، فَأَصْحَابُ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ - وَهُوَ الشِّرْكُ - يَشُوبُونَ التَّوْحِيدَ بِشَوَائِبَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْوَثَنِيَّةِ ، أَعَمُّهَا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ وَمُخُّهَا الدُّعَاءُ ، فَلَا يَتَوَجَّهُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ بَلْ يُشْرِكُونَ مَعَهُ فِي التَّوَجُّهِ وَالدُّعَاءِ غَيْرَهُ عَلَى أَنَّهُ شَفِيعٌ عِنْدَهُ وَوَاسِطَةٌ لَدَيْهِ أَوْ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) (98 : 5) (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) (22 : 31) (دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) (6 : 161) (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (6 : 79) بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ تَوَّا وَيَدْعُونَهُ مِنْ دُونِهِ وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الضِّيقِ وَالشِّدَّةِ ، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ رَبُّهُمْ وَلَا يَذْكُرُونَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا أُنْكِرَ عَلَيْهِمْ مُنْكَرٌ يَتَأَوَّلُونَ فَيَقُولُ الْعَامِّيُّ : الْمَحْسُوبُ كَالْمَنْسُوبِ ، الْوَاسِطَةُ لَا تُنْكَرُ . وَيَقُولُ الْمُعَمَّمُ دَعِيُّ الْعِلْمِ : هَذَا تَوَسُّلٌ وَاسْتِشْفَاعٌ ، لَا عِبَادَةٌ وَلَا دُعَاءٌ ، وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ حَتَّى خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَوْلِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ كَالشُّهَدَاءِ . وَقَدْ فَنَّدْنَا دَعْوَاهُمْ مِرَارًا .

وَالظَّالِمُونَ بِالِابْتِدَاعِ يَبْغُونَهَا عِوَجًا بِمَا يَزِيدُونَ فِي الدِّينِ مِنَ الْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ ، الَّتِي لَمْ تَرِدْ

فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَلَا سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَجُمْهُورِ الصَّحَابَةِ ، وَمُسْتَنَدُهُمْ فِي هَذِهِ الْبِدَعِ النَّظَرِيَّاتُ الْفِكْرِيَّةُ ، وَالتَّأْوِيلَاتُ الْجَدَلِيَّةُ ، وَمُحَاوَلَةُ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدِّينِ وَالْفَلْسَفَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، هَذَا إِذَا كَانَ الِابْتِدَاعُ فِي الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ ، وَأَمَّا الِابْتِدَاعُ بِالزِّيَادَةِ فِي الْعِبَادَاتِ الْوَارِدَةِ وَالشَّعَائِرِ الْمَشْرُوعَةِ ، فَمِنْهُ مَا كَانَ كَاحْتِفَالَاتِ الْمَوَالِدِ وَتَرْتِيلَاتِ الْجَنَائِزِ وَأَذْكَارِ الْمَآذِنِ – كَالزِّيَادَةِ فِي الْأَذَانِ – وَمَا كَانَ فِي تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ مِنَ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ أَوْ فِي إِحْلَالِ مَا حَرَّمَهُ ، كَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِهَا أَعْيَادًا وَتَشْرِيفِهَا وَإِيقَادِ الْمَصَابِيحِ وَالسُّرُجِ مِنَ الشُّمُوعِ وَغَيْرِهَا عَلَيْهَا ، فَإِنَّ خَوَاصَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِآرَاءٍ سَقِيمَةٍ ، وَأَقْيِسَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ عَقِيمَةٍ ، وَاسْتِحْسَانَاتٍ يُنْكِرُونَ أُصُولَهَا وَيَأْخُذُونَ بِفُرُوعِهَا . وَعَوَامُّهُمْ يَقُولُونَ : قَالَ فُلَانٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ ، وَفَعَلَ فُلَانٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الصَّالِحِينَ ، وَنَحْنُ لَا نَفْهَمُ كَلَامَ اللهِ وَلَا كَلَامَ الرَّسُولِ ، وَإِنَّمَا نَفْهَمُ كَلَامَ هَؤُلَاءِ الْفُحُولِ ، بَلْ وُجِدَ وَلَا يَزَالُ يُوجَدُ مِنَ الْمُعَمَّمِينَ الْمُدَرِّسِينَ مَنْ يُصَرِّحُونَ فِي دُرُوسِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ فِي زَمَانِهِمْ أَنْ يَعْمَلَ بِكِتَابِ اللهِ وَلَا بِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا بِمَا نَقَلَهُ الْمُحَدِّثُونَ عَنْ سَلَفِ

(149/270)

الْأُمَّةِ الصَّالِحِ ، بَلْ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَأْخُذَ بِمَا يُلَقِّنُهُ إِيَّاهُ أَيُّ عَالِمٍ يَنْتَمِي إِلَى مَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَرْوِ مَا يُلَقِّنُهُ عَنْ إِمَامِ الْمَذْهَبِ وَلَمْ يَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ بِدَلِيلٍ مَبْنِيٍّ عَلَى أُصُولِ الْمَذْهَبِ الَّتِي كَانَ بِهَا مَذْهَبًا كَعَمَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عِنْدَ مَالِكٍ بِشَرْطِهِ ، وَكَوْنُ الْإِجْمَاعِ الَّذِي يَحْتَجُّ بِهِ هُوَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ دُونَ مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَهُوَ مَذْهَبُ دَاوُدَ وَالْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَكَالْخِلَافِ فِي الِاحْتِجَاجِ بِالْحَدِيثِ الْمُرْسَلِ .

وَالظَّالِمُونَ بِالزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ يَبْغُونَهَا عِوَجًا بِالتَّشْكِيكِ فِيهَا بِضُرُوبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ يَقْصِدُ بِهَا بُطْلَانَ الثِّقَةِ بِهَا وَالصَّدَّ عَنْهَا ، وَمَذَاهِبُ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي أُدْخِلَتْ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ مَنَافِذِ التَّشَيُّعِ وَالتَّصَوُّفِ مَعْرُوفَةٌ ، وَقَدْ كَانَ لِوَاضِعِي تِلْكَ التَّأْوِيلَاتِ مِنَ الْفُرْسِ غَرَضٌ سِيَاسِيٌّ مِنْ إِفْسَادِ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِهِ وَإِحْدَاثِ الشِّقَاقِ بَيْنَهُمْ فِيهِ ، وَهُوَ إِضْعَافُ الْعَرَبِ وَإِزَالَةُ مُلْكِهِمْ لِلتَّمَكُّنِ مِنْ إِعَادَةِ مُلْكِ فَارِسٍ وَسُلْطَانِ الْمِلَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ ، ثُمَّ رَسَخَ بِالتَّقْلِيدِ فِي طَوَائِفَ مِنْ أَجْنَاسٍ أُخْرَى حَتَّى الْعَرَبِ جَهِلُوا أَصْلَهُ ، وَمِنَ

(150/270)

الْأَفْرَادِ مَنْ يُحَاوِلُ إِفْسَادَ دِينِ قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا مِثْلَهُ ، فَلَا يَكُونُ مُحْتَقَرًا بَيْنَهُمْ ، وَمِنْ زَنَادِقَةِ عَصْرِنَا مَنْ يُحَاوِلُونَ هَذَا لِظَنِّهِمْ أَنَّ قَوْمَهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا كَالْإِفْرِنْجِ فِي حَضَارَتِهِمُ

الْمَادِّيَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ إِلَّا إِذَا تَرَكُوا دِينَهُمْ ، وَهُمْ يَرَوْنَ الْإِفْرِنْجَ يَتَعَصَّبُونَ لِدِينِهِمْ وَيُنْفِقُونَ الْمَلَايِينَ فِي سَبِيلِ نَشْرِهِ .

وَالظَّالِمُونَ فِي الْأَحْكَامِ يَبْغُونَهَا عِوَجًا بِتَرْكِ تَحَرِّي مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنِ الْتِزَامِ الْحَقِّ وَإِقَامَةِ مِيزَانِ الْعَدْلِ ، وَالْمُسَاوَاةِ فِيهِمَا بَيْنَ النَّاسِ بِالْقِسْطِ ، بِأَلَّا يُحَابِيَ أَحَدٌ لِعَقِيدَتِهِ أَوْ مَذْهَبِهِ ، وَلَا لِغِنَاهُ أَوْ قُوَّتِهِ ، وَلَا يَهْضِمُ حَقَّ أَحَدٍ لِضَعْفِهِ أَوْ فَقْرِهِ ، وَلَا لِفِسْقِهِ أَوْ كُفْرِهِ

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (5 : 8) بَلْ مِنْهُمْ مَنْ بَغَى هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْعَادِلَةَ الْمُعْتَدِلَةَ عِوَجًا فِي أَسَاسِ نِظَامِهَا وَأُصُولِ أَحْكَامِهَا ، فَجَعَلَ حُكُومَتَهَا مِنْ قَبِيلِ الْحُكُومَاتِ الشَّخْصِيَّةِ ، ذَاتِ السُّلْطَةِ الِاسْتِبْدَادِيَّةِ .

(151/270)

وَالظَّالِمُونَ بَالَغُوا فِيهَا جَعَلُوا يُسْرَهَا عُسْرًا ، وَسَعَتَهَا ضِيقًا وَحَرَجًا ، وَزَادُوا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ ، وَالْمَحْظُورَاتِ وَالْمُبَاحَاتِ ، أَضْعَافَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ، مِمَّا ضَاقَتْ بِهِ مُطَوَّلَاتُ الْأَسْفَارِ ، الَّتِي تَنْقَضِي دُونَ تَحْصِيلِهَا الْأَعْمَارُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ غَايَةَ الِاهْتِدَاءِ بِهَا الْفَقْرَ وَالْمَهَانَةَ ، وَالذِّلَّةَ وَالِاسْتِكَانَةَ ،

خِلَافًا لِمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ مِنْ عِزَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَوْنِهِمْ أَوْلَى بِزِينَةِ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا مِنَ الْكَافِرِينَ .

(152/270)

فَهَذِهِ أَمْثِلَةٌ لِمَنْ يَبْغُونَهَا عِوَجًا مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهَا وَالْمُدَّعِينَ لِهِدَايَتِهَا ، وَأَمَّا أَعْدَاؤُهَا الصُّرَحَاءُ فَهُمْ يَطْعَنُونَ فِي كِتَابِ اللهِ وَفِي خَاتَمِ رُسُلِهِ جَهْرًا بِمَا يَخْلُقُونَ مِنَ الْإِفْكِ ، وَمَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلِمِ ، وَمَا يَخْتَرِعُونَ مِنَ الشُّبُهَاتِ ، وَمَا يُنَمِّقُونَ مِنَ الْمُشَكِّكَاتِ وَأَمْرُهُمْ مَعْرُوفٌ ، وَأَجْرَؤُهُمْ عَلَى الْبُهْتَانِ وَالزُّورِ وَتَعَمُّدِ قَلْبِ الْحَقَائِقِ فَرِيقَانِ – دُعَاةُ النَّصْرَانِيَّةِ الطَّامِعُونَ فِي تَنْصِيرِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ حِرْفَةً عَلَيْهَا مَدَارُ رِزْقِهِمْ ، وَرِجَالُ السِّيَاسَةِ الِاسْتِعْمَارِيُّونَ الطَّامِعُونَ فِي اسْتِعْبَادِ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِعْمَارِ بِلَادِهِمْ ، وَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ظَهِيرٌ لِلْآخَرِ ، فَالْحُكُومَةُ السُّودَانِيَّةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ حَرَّمَتْ مَجَلَّةَ الْمَنَارِ عَلَى مُسْلِمِي السُّودَانِ بِسَعْيِ دُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَسَعَايَتِهِمْ لِأَنَّ دَعْوَتَهُمْ لَا تَرُوجُ فِي قَوْمٍ يَقْرَءُونَ الْمَنَارَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) فَهُوَ خَاصٌّ بِمُنْكِرِي الْبَعْثِ مِنْ أُولَئِكَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَهُمْ شَرُّ تِلْكَ الْفِرَقِ كُلِّهَا – أَيْ وَهُمْ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ كَافِرُونَ بِالْآخِرَةِ كُفْرًا رَاسِخًا

(153/270)

قَدْ صَارَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِمْ فَلَا يَخَافُونَ عِقَابًا عَلَى إجْرَامِهِمْ فَيَتُوبُوا مِنْهُ ، وَتَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ (بِالْآخِرَةِ) عَلَى مُتَعَلِّقِهِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ فَإِنَّ أَصْلَ كُفْرِهِمْ قَدْ عُلِمَ مِمَّا قَبْلَهُ وَهَذَا النَّوْعُ مِنْهُ لَهُ تَأْثِيرٌ خَاصٌّ فِي إصْرَارِهِمْ عَلَى مَا أُسْنِدَ إلَيْهِمْ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا مَنْ قَالَ إنَّ التَّقْدِيمَ لِأَجْلِ رِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ .

(154/270)

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُؤَذِّنَ بِلَعْنِ هَؤُلَاءِ فِي الْآخِرَةِ يَصِفُهُمْ بِالظُّلْمِ ، وَيُسْنِدُ إلَيْهِمُ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَبَغْيَهَا عِوَجًا بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ ، وَيَصِفُهُمْ بِالْكُفْرِ بِالْآخِرَةِ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ أَنْ زَالَ الْكُفْرُ بِهَا ، بِعَيْنِ الْيَقِينِ فِيهَا ، وَفَاتَ زَمَنُ الصَّدِّ عَنْهَا ، وَبَغْيَهَا عِوَجًا وَالنُّكْتَةُ فِي هَذَا تَصْوِيرُ حَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا ، وَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا مَا صَارُوا إلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، لِيَتَذَكَّرُوهَا هُمْ وَكُلُّ مَنْ سَمِعَ التَّأْذِينَ بِهَا ، وَيَعْلَمُوا عَدْلَ اللَّهِ بِعِقَابِهِمْ عَلَيْهَا . وَلِيَعْتَبِرَ بِهَا فِي الدُّنْيَا مَنْ يَتَصَوَّرُ حَالَهُمْ هَذِهِ فَكَانَتِ الْبَلَاغَةُ أَنْ يَعْدِلَ هُنَا عَنْ صِيغَةِ الْمَاضِي إلَى صِيغَةِ الْحَالِ حَتَّى يُخَيَّلَ

أَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ عِنْدَ إِطْلَاقِ الْكَلَامِ . كَمَا كَانَتِ الْبَلَاغَةُ فِي الْعُدُولِ عَنْ صِيغَةِ الِاسْتِقْبَالِ فِي تَحَاوُرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ إِلَى صِيغَةِ الْمَاضِي لِإِثْبَاتِ الْقَطْعِ بِهِ وَتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفُهُمْ بِمَا ذُكِرَ مُسْتَأْنَفٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤَذِّنِ .

(155/270)

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ) أَيْ وَبَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ حِجَابٌ يَفْصِلُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ وَيَمْنَعُهُ مِنَ الِاسْتِطْرَاقِ إِلَيْهِ . وَالْحِجَابُ مِنَ الْحَجْبِ بِمَعْنَى الْمَنْعِ - كَالْكِفَافِ مِنَ الْكَفِّ وَالصِّوَانِ مِنَ الصَّوْنِ - وَهُوَ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ . وَالْحِسِّيُّ مِنْهُ مَا يَمْنَعُ الِاسْتِطْرَاقَ دُونَ الرُّؤْيَةِ كَالزُّجَاجِ وَمَا يَمْنَعُ الرُّؤْيَةَ وَحْدَهَا كَالسُّتُورِ ، وَمَا يَمْنَعُهُمَا جَمِيعًا كَالْأَسْوَارِ وَالْحِيطَانِ . وَمِنَ الْحَجْبِ الْمَعْنَوِيِّ مَنْعُ الْإِرْثِ حِرْمَانًا أَوْ نُقْصَانًا ، وَهُوَ الْحِجَابُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ هُوَ السُّورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (57 : 13) الْآيَةَ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ فِي بَاطِنِهِ وَالنَّارَ مِنْ قِبَلِ ظَاهِرِهِ ، أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَكُونُ النَّاسُ عَلَيْهِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ . رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنْ مُقَاتِلٍ فِي قَوْلِهِ : (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ) قَالَ : يَعْنِي بِالسُّورِ

حَائِطًا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ - يَعْنِي بَاطِنَ السُّورِ - فِيهِ الرَّحْمَةُ مِمَّا يَلِي الْجَنَّةَ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يَعْنِي جَهَنَّمَ ، وَهُوَ الْحِجَابُ الَّذِي ضُرِبَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ . وَرَوَى هُوَ وَرَوَاهُ التَّفْسِيرُ الْمَأْثُورُ قَبْلَهُ عَنْ مُجَاهِدٍ

(156/270)

فِي آيَةِ الْحَدِيدِ قَالَ : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءً فِي الدُّنْيَا يُنَاكِحُونَهُمْ وَيُعَاشِرُونَهُمْ وَكَانُوا مَعَهُمْ أَمْوَاتًا ، وَيُعْطَوْنَ النُّورَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ إِذَا بَلَغُوا السُّورَ يُمَازُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَالسُّورُ كَالْحِجَابِ فِي الْأَعْرَافِ فَيَقُولُونَ : (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) .

(157/270)

(وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ) الْأَعْرَافُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ ضَرْبٌ مِنَ النَّخْلِ ، وَجَمْعٌ لِكَلِمَتَيِ الْأَعْرَفِ وَالْعُرْفِ (بِوَزْنِ قُفْلٍ) وَيُطْلَقُ عَلَى أَعَالِي الْأَشْيَاءِ وَأَوَائِلِهَا وَكُلِّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهُ عُرْفُ الدِّيكِ وَعُرْفُ الْفَرَسِ وَهُوَ الشَّعْرُ عَلَى أَعْلَى الرَّقَبَةِ

، وَعُرْفُ السَّحَابِ ، رُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : الْأَعْرَافُ سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رِوَايَاتٌ : (1) الْأَعْرَافُ هُوَ الشَّيْءُ الْمُشْرِفُ : (2) سُورٌ لَهُ عُرْفٌ كَعُرْفِ الدِّيكِ : (3) تَلٌّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ جَلَسَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . (4) السُّورُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْأَعْرَافَ هُوَ ذَلِكَ السُّورُ وَالْحِجَابُ بَيْنَ الدَّارَيْنِ وَأَهْلِهِمَا ، أَوْ أَعَالِيهِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا أُولَئِكَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ جَمِيعًا قَبْلَ الدُّخُولِ فِيهِمَا - فِيمَا يَظْهَرُ - فَيَعْرِفُونَ كُلًّا مِنْهُمَا بِسِيمَاهُمُ الَّتِي وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ

(158/270)

: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) (80 : 38 - 41) وَأَمَّا بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهَا فَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ وَذِكْرُهُ عَبَثٌ يُنَزَّهُ عَنْهُ التَّنْزِيلُ ، إِلَّا إِذَا أُرِيدَ مَعْرِفَةُ أَشْخَاصٍ مُعَيَّنِينَ وَهُوَ لَا يَظْهَرُ هُنَا وَإِنَّمَا يَظْهَرُ فِي قَوْلِهِ : (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) (7 : 48) فَهَذِهِ سِيمَا خَاصَّةٌ لِأَنَّهَا لِأَفْرَادٍ مَخْصُوصِينَ ، وَتِلْكَ سِيمَا عَامَّةٌ لِأَنَّهَا لِفَرِيقَيْنِ أَفْرَادُهُمَا غَيْرُ مَحْصُورِينَ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِمْ عَلَى أَقْوَالٍ عَدَّهَا الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ اثْنَيْ عَشَرَ قَوْلًا . وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ : (الْأُولَى) أَنَّهُمْ بَعْضُ أَشْرَافِ الْخَلْقِ الْمُمْتَازِينَ . (وَالثَّانِيَةُ) أَنَّهُمُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُمْ فَاسْتَحَقُّوا الْجَنَّةَ وَلَا مِنَ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ فَاسْتَحَقُّوا النَّارَ ، بَلْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ . وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِدُونِ إِذْنِ آبَائِهِمْ وَاسْتُشْهِدُوا ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ النَّارِ قَتْلُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مَعْصِيَةُ آبَائِهِمْ – وَهَذَا خَاصٌّ يَدْخُلُ فِي الْعَامِّ الَّذِي قَبْلَهُ . (وَالثَّالِثَةُ) أَنَّهُمْ

(159/270)

أَصْحَابُ صِفَةٍ خَاصَّةٍ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ بَلْ مَنْزِلَةٍ بَيْنَهُمَا هِيَ الْأَعْرَافُ ، وَفِي هَؤُلَاءِ أَقْوَالٌ : (1) أَهْلُ الْفَتْرَةِ : (2) مُؤْمِنُو الْجِنِّ ، وَرَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ فِيهِ حَدِيثًا مَرْفُوعًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مِنْ طَرِيقِ الْوَلِيدِ بْنِ مُوسَى الدِّمَشْقِيِّ وَهُوَ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ فِي أَعْدَلِ الْأَقْوَالِ ، وَرَمَاهُ بَعْضُهُمْ بِالْوَضْعِ : (3) أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ، أَيِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ سِنِّ التَّكْلِيفِ : (4) أَوْلَادُ الزِّنَا : (5) أَهْلُ الْعَجَبِ بِأَنْفُسِهِمْ وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ لَا وَجْهَ لَهُمَا الْبَتَّةَ . (6) آخِرُ مَنْ يَفْصِلُ اللهُ بَيْنَهُمْ وَهُمْ عُتَقَاؤُهُ مِنَ النَّارِ ، وَفِيهِ حَدِيثٌ مُرْسَلٌ حَسَنٌ

الْإِسْنَادِ ، وَيَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ وَلَكِنْ وَرَدَ فِي الصِّحَاحِ أَنَّ آخِرَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ " أَقْوَامٌ كَانُوا قَدِ امْتَحَشُوا فِي النَّارِ لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، فَيُخْرِجُهُمُ اللهُ مِنْهَا وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ فِيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ : هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ " وَذَلِكَ بَعْدَ إِخْرَاجِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ مِنَ النَّارِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

(160/270)

وَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِالْمَرْتَبَةِ الْأُولَى فَلَهُمْ أَقْوَالٌ : (1) أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ يَعْرِفُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ إِيرَادِ الرِّوَايَةِ عَنْهُ : وَهَذَا صَحِيحٌ إِلَى أَبِي مِجْلَزٍ لَاحِقِ بْنِ حُمَيْدٍ أَحَدِ التَّابِعِينَ وَهُوَ غَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ وَخِلَافُ الظَّاهِرِ مِنَ السِّيَاقِ اهـ . وَإِنَّمَا عَدَّهُ غَرِيبًا عَنْهُ لِمُخَالَفَتِهِ لِقَوْلِ الْجُمْهُورِ وَلِتَسْمِيَتِهِ الْمَلَائِكَةَ رِجَالًا وَهُمْ لَا يُوصَفُونَ بِذُكُورَةٍ وَلَا أُنُوثَةٍ ، وَأَوَّلُوهُ بِأَنَّهُمْ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ ، وَقَدِ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ .

(2) أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، يَجْعَلُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَعَالِي ذَلِكَ السُّورِ تَمْيِيزًا لَهُمْ عَلَى النَّاسِ ، وَلِأَنَّهُمْ شُهَدَاؤُهُ عَلَى الْأُمَمِ ، وَرَجَّحَ هَذَا الْقَوْلَ الرَّازِيُّ .

(3) أَنَّهُمْ عُدُولُ الْأُمَمِ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ حَكَاهُ الزُّهْرِيُّ ، فَكَمَا ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ وَثَبَتَ أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُهَدَاءُ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْأُمَمِ بَعْدَهُ – ثَبَتَ أَيْضًا أَنَّ فِي الْأُمَمِ شُهَدَاءَ غَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (4 : 41) وَقَالَ فِي خِطَابِ هَذِهِ الْأُمَّةِ : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (2 : 143) وَقَالَ فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ

وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (39 : 69) إِلَخْ . وَهَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءُ هُمْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ بِفَضَائِلِهِمْ وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَالْتِزَامِهِمْ لِلْخَيْرِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَلَوْلَاهُمْ لَفُقِدَتِ الْقُدْوَةُ الصَّالِحَةُ .

(4) أَنَّهُمُ الْعَبَّاسُ وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ ذُو الْجَنَاحَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَجْلِسُونَ عَلَى مَوْضِعٍ مِنَ الصِّرَاطِ يُعْرَفُونَ بِبَيَاضِ الْوُجُوهِ وَمُبْغِضِيهِمْ بِسَوَادِهَا . وَهَذَا الْقَوْلُ ذَكَرَ الْآلُوسِيُّ أَنَّ الضَّحَّاكَ رَوَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَمْ نَرَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ نَقَلَهُ عَنْ تَفَاسِيرِ الشِّيعَةِ ، وَفِيهِ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ يَعْرِفُونَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيمَاهُمْ ، أَيْ فَيُمَيِّزُونَ بَيْنَهُمْ أَوْ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ ، وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي تَمْيِيزِ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ عَلَى الصِّرَاطِ لِمَنْ كَانَ يُبْغِضُهُمْ مِنَ الْأُمَوِيِّينَ ، وَمَنْ يُبْغِضُونَ عَلِيًّا خَاصَّةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالنَّوَاصِبِ وَأَيْنَ الْأَعْرَافُ مِنَ الصِّرَاطِ ؟ هَذَا بَعِيدٌ عَنْ نَظْمِ الْكَلَامِ وَسِيَاقِهِ جِدًّا .

(5) قَوْلُ مُجَاهِدٍ : إِنَّهُمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ فُقَهَاءُ عُلَمَاءُ . وَهَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا تُعْقَلُ حِكْمَتُهُ إِذَا رُدَّ إِلَى الْقَوْلِ الثَّالِثِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : إِنَّ فِيهِ غَرَابَةً .

(163/270)

وَرَجَّحَ الْجُمْهُورُ - بِكَثْرَةِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ ، وَفِيهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنَ الرِّجَالِ وَحْدَهُمْ ، وَالتَّعْبِيرُ بِرِجَالٍ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ نِسَاءٌ وَالتَّغْلِيبُ لَا يَظْهَرُ هُنَا ، كَمَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِلَافًا لِأَبِي مِجْلَزٍ إِذْ لَوْ أُرِيدَ هَذَا أَوْ ذَاكَ لَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظٍ يَقْبَلُهُ كَأَنْ يَقُولَ : " عِبَادٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ " وَيُنَافِي كَوْنَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَيْضًا آخِرُ هَذِهِ

الْآيَةِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الضَّمِيرَ فِيهِ لِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ ، كَمَا يُنَافِي كَوْنَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ أَوِ الشُّهَدَاءَ وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا . فَقَدْ قَالَ تَعَالَى :

(وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) أَيْ نَادَوْهُمْ بِقَوْلِهِمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ قِيلَ : إِنَّ هَذَا السَّلَامَ يُرَادُ بِهِ الْإِخْبَارُ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْبِشَارَةُ بِالنَّجَاةِ إِنْ كَانَ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ تَمْيِيزِهِمْ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيمَاهُمْ فَإِنَّ هَذَا التَّمْيِيزَ بِالسِّيمَا إِنَّمَا يَكُونُ قَبْلَ دُخُولِ كُلٍّ فِي دَارِهِ ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ ، وَحِينَئِذٍ يَتَرَجَّحُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْأَعْرَافِ الْأَنْبِيَاءَ أَوِ الشُّهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ فَهُوَ تَحِيَّةٌ مَحْضَةٌ دَاخِلَةٌ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)

(56 : 25 ، 26)

(164/270)

وَلَا يَمْنَعُ هَذَا الْوَجْهُ وَلَا ذَاكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، بَلْ وَرَدَ التَّنْزِيلُ وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ بِتَسْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (13 : 23 ، 24)

وَقَوْلُهُ : (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) فِيهِ وَجْهَانِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ وَسَيَأْتِي مَا رُوِيَ فِيهِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ عَلَى الْوَجْهَيْنِ ، أَيْ نَادَوْهُمْ مُسَلِّمِينَ عَلَيْهِمْ حَالَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا مَعَهُمْ وَهُمْ طَامِعُونَ فِي ذَلِكَ ، أَوْ حَالَ كَوْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بَعْدُ وَهُمْ يَطْمَعُونَ فِي دُخُولِهَا لِمَا بَدَا لَهُمْ مِنْ يُسْرِ الْحِسَابِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْمُرُورِ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْآثَارِ أَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ فِي الْمَوْقِفِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، لَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَدْخُلُوهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ نَادَى مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ ادْخُلُوا النَّارَ إلَّا رَجُلًا وَاحِدًا لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَلَوْ نَادَى : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ إلَّا رَجُلًا وَاحِدًا لَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ انْتَهَى بِالْمَعْنَى لَا أَذْكُرُ أَيَّ الْمَكَانَيْنِ قَدَّمَ . وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ نَظْمِ الْكَلَامِ .

(165/270)

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أَفَادَ هَذَا التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ أَنَّهُمْ يُوَجِّهُونَ أَبْصَارَهُمْ إلَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ بِالْقَصْدِ وَالرَّغْبَةِ وَيُلْقُونَ إلَيْهِمُ السَّلَامَ ، وَأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ رُؤْيَةَ أَصْحَابِ النَّارِ . فَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ

تِلْقَاءَهُمْ ، أَيْ حُوِّلَتْ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي تَلْقَاهُمْ وَتُبْصِرُهُمْ فِيهَا - وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِ تَوَخٍّ وَلَا رَغْبَةٍ ، بَلْ بِصَارِفٍ يَصْرِفُهُمْ إِلَيْهَا أَوْ بِمُقْتَضَى سُرْعَةِ تَحَوُّلِهَا مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ - قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ حَيْثُ هُمْ وَلَا حَيْثُ يَكُونُونَ . وَهَذَا الدُّعَاءُ لَا يَظْهَرُ صُدُورُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا بِتَأْوِيلِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ اسْتِعْظَامُ حَالِ الظَّالِمِينَ وَاسْتِفْظَاعُ مَآلِهِمْ ، لَا حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ ، وَيُجَابُ بِهَذَا الْأَخِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ الْأَنْبِيَاءُ هُمْ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ . وَالْإِنْصَافُ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ أَلْيَقُ بِحَالِ مَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ وَكَانُوا مَوْقُوفِينَ مَجْهُولًا مَصِيرُهُمْ . رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ شُعْبَةَ أَنَّ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرَ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ فَقَالَ : هُمْ قَوْمٌ تَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمُ النَّارَ وَقَعَدَتْ بِهِمْ

(166/270)

سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ فَقَالَ لَهُمْ : فَاذْهَبُوا فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ يُحَاسِبُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَسَنَاتِهِ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ النَّارَ ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) الْآيَتَيْنِ

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الْمِيزَانَ يَخِفُّ بِمِثْقَالِ حَبَّةٍ وَيَرْجَحُ . قَالَ : وَمَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ فَوَقَفُوا عَلَى الصِّرَاطِ ، ثُمَّ عُرِضَ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فَإِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَى يَسَارِهِمْ رَأَوْا أَهْلَ النَّارِ فَقَالُوا : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ (قَالَ) : فَأَمَّا أَصْحَابُ الْحَسَنَاتِ فَإِنَّهُمْ يُعْطَوْنَ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، وَيُعْطَى كُلُّ عَبْدٍ يَوْمَئِذٍ نُورًا ، وَكُلُّ أَمَةٍ نُورًا ، فَإِذَا أَتَوْا عَلَى الصِّرَاطِ سَلَبَ اللَّهُ نُورَ كُلِّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ . فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ الْجَنَّةِ مَا لَقِيَ الْمُنَافِقُونَ (يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا) (66 : 8) وَأَمَّا أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ فَإِنَّ النُّورَ

(167/270)

كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يُنْزَعْ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَهُنَالِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) فَكَانَ الطَّمَعُ دُخُولًا (قَالَ سَعِيدٌ) فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كُتِبَ لَهُ بِهَا عَشْرٌ ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً لَمْ تُكْتَبْ إِلَّا وَاحِدَةً . ثُمَّ يَقُولُ : هَلَكَ مَنْ غَلَبَ وَحْدَانُهُ أَعْشَارَهُ اهـ .

فَهَذَا أَوْضَحُ بَيَانٍ مُفَصَّلٍ لِلْقَوْلِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الْجُمْهُورُ ، وَلِلْأَثَرَيْنِ الْمَوْقُوفَيْنِ فِيهِ قُوَّةُ الْحَدِيثِ

الْمَرْفُوعِ ، وَظَاهِرُهُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَقَعُ بَعْدَ الْمَوْقِفِ وَقِيلَ أَنْ يَجْعَلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ عَلَى الْأَعْرَافِ ، فَإِنَّ السُّورَ الَّذِي فُسِّرَتِ الْأَعْرَافُ بِهِ أَوْ بِأَعْيَالِهِ يُضْرَبُ بَعْدَ ذَهَابِهِمْ مِنَ الْمَوْقِفِ يَسِيرُونَ بِنُورِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ آيَةِ سُورَةِ الْحَدِيدِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهَا عِنْدَ تَفْسِيرِ كَلِمَةِ الْأَعْرَافِ ، وَفِيهِ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ مَعْرِفَتَهُمْ لِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ بِسِيمَاهُمْ وَنِدَاءَهُمْ بِالسَّلَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ بِعُنْوَانِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ، وَلَا يَصِحُّ هَذَا الْعُنْوَانُ قَبْلَ وُجُودِهِمْ عَلَيْهَا إِلَّا إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُمْ يُسَمَّوْنَ أَصْحَابَهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، أَوْ عَلَى التَّأْوِيلِ بِجَعْلِهِ مِنْ مَجَازِ الْأَوَّلِ كَقَوْلِهِ : (أَعْصِرُ خَمْرًا) (12 : 36) وَيُجَابُ عَنْ تَخْصِيصِ الرِّجَالِ بِالذِّكْرِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُخَاطِبُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ دُونَ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ .

(168/270)

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

(169/270)

هَذَا النِّدَاءُ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ مِنَ النَّبِيِّينَ أَوْ مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الشُّهَدَاءِ ، وَلَا مَانِعَ مِنْ صُدُورِهِ عَمَّنْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ عَلَى مَا نَذْكُرُ فِي تَفْسِيرِهِ (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) كَرَّرَ ذِكْرَهُمْ مَعَ قُرْبِ الْعَهْدِ بِهِ فَلَمْ يَقُلْ : (وَنَادَوْا) لِزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ ، وَكَوْنِ هَذَا النِّدَاءِ خَاصًّا فِي مَوْضُوعٍ خَاصٍّ ، فَكَانَ مُسْتَقِلًّا دُونَ مَا قَبْلَهُ الْمُوَجَّهِ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي جُمْلَتِهِمْ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا النِّدَاءَ يَكُونُ فِي بَعْضِهِمْ لِمَنْ كَانُوا يَعْرِفُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِغِنَاهُمْ وَقُوَّتِهِمْ الْمُحْتَقِرِينَ لِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لِفَقْرِهِمْ وَضَعْفِ عَصَبِيَّتِهِمْ ، أَوْ لِحِرْمَانِهِمْ مِنْ عُصْبَةٍ تَمْنَعُهُمْ وَتَذُودُ عَنْهُمْ ، الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ أَغْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَعَلَهُ قَوِيًّا فِي الدُّنْيَا هُوَ الَّذِي يُعْطِيهِ نَعِيمَ الْآخِرَةِ إِنْ كَانَ هُنَالِكَ آخِرَةٌ (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (34 : 34 ، 35) وَمِنْهُمْ طُغَاةُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ قَاوَمُوا الْإِسْلَامَ فِي مَكَّةَ وَاضْطَهَدُوا أَهْلَهُ كَأَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَالْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ . وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَا أَهْلِ النَّارِ الْعَامَّةِ كَسَوَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ وَالَّذِي

يَظْهَرُ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَا هُمُ الْخَاصَّةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ بِسِيمَا الْمُسْتَكْبِرِينَ إِذْ وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ مَنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِمْ رَذِيلَةٌ خَاصَّةٌ صِفَةٌ وَعَلَامَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ . وَفِي الصَّحِيحِ "يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ" فَيَعْرِفُهُ فَيَشْفَعُ لَهُ فَلَا تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ ثُمَّ يَمْسَخُهُ اللَّهُ ذِيخًا مُنْتِنًا لِيَزُولَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ خِزْيُهُ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ مَسْخَهُ ضَبْعًا مُنَاسِبٌ لِحَمَاقَتِهِ وَتَنْنِ الشِّرْكِ [رَاجِعْ ص449 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ] وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ . أَيْ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ لِلْمَالِ وَكَذَا لِلرِّجَالِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْفُقَرَاءِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ لَمْ يَمْنَعْ عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَلَا أَفَادَكُمْ شَيْئًا مِنَ الثَّوَابِ ؟ .

(أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) أَيْ يُشِيرُونَ إِلَى أُولَئِكَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَضْطَهِدُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا كَآلِ يَاسِرٍ وَصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ وَبِلَالٍ الْحَبَشِيِّ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ مُتَهَكِّمِينَ بِخِزْيِهِمْ وَفَوْزِ مَنْ كَانُوا يَحْتَقِرُونَهُمْ : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَالُهُمْ بِرَحْمَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِهِمْ

مِنَ الدُّنْيَا مَا أَعْطَاكُمْ (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) أَيْ قِيلَ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ مِمَّا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِكُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ مِنْ جَرَّاءِ شَيْءٍ يُنَغِّصُ عَلَيْكُمْ حَاضِرَكُمْ ، وَحَذْفُ الْقَوْلِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ قَرَائِنِ الْكَلَامِ كَثِيرٌ فِي التَّنْزِيلِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ ، وَلَكِنَّهُ قَلَّ فِي كَلَامِ الْمُوَلَّدِينَ ، حَتَّى لَا تَرَاهُ إِلَّا فِي كَلَامِ بَعْضِ بُلَغَاءِ الْمُنْشِئِينَ ، وَقِيلَ : إِنَّ أَهْلَ الْأَعْرَافِ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِهَؤُلَاءِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ إِلَخْ . وَهُوَ بَعِيدٌ بَلْ لَا يَصِحُّ مُطْلَقًا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ ؛ إِذْ لَا يَلِيقُ بِحَالِهِمْ أَنْ يُخَاطِبُوا مَنْ هُمْ فَوْقَهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ لَا قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَلَا بَعْدَهُ . وَهُوَ وَإِنْ كَانَ يَلِيقُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَالْمُتَبَادَرُ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ الْحِكَايَةُ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ . وَقِيلَ إِنَّ الْأَمْرَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ لِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ . رُوِيَ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَالَ : كَانَ رِجَالٌ فِي النَّارِ قَدْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ لَا يَنَالُ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ فَكَانُوا آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا فِيمَا سَمِعْنَاهُ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ مُعَارَضٌ بِمَا فِي الصِّحَاحِ فِي آخِرِ أَهْلِ

الْجَنَّةِ دُخُولًا وَتَقَدَّمَ آنِفًا .

(173/270)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ : أَنَّ مَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ - إنْ صَحَّ وُجُودُ الْأَعْرَافِ حِينَئِذٍ - بَعْدَ الْمُرُورِ عَلَى الصِّرَاطِ وَقَبْلَ دُخُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلِ النَّارِ النَّارَ وَأَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَالْأَوَّلُ - لَوْلَا مَا يُنَافِيهِ مِمَّا تَقَدَّمَ - يُرَجِّحُ أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَحْدَهُمْ أَوْ مَعَ غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّهَدَاءِ عَلَى الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّ وُجُودَهُمْ هُنَالِكَ تَمْيِيزٌ وَتَفْضِيلٌ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ ، وَلَا يَصِحُّ هَذَا لِغَيْرِهِمْ إلَّا أَنْ يَكُونَ لِلْمَلَائِكَةِ وَهُوَ مَا يَمْنَعُ مِنْهُ التَّعْبِيرُ بِرِجَالٍ وَإِنْ أَوَّلَهُ ، أَوْ مُسَلَّمٌ بِكَوْنِهِمْ فِي صُورَتِهِمْ . وَالثَّانِي وَالثَّالِثُ يُرَجِّحَانِ أَنَّهُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ بِمَعُونَةِ كَثْرَةِ الرِّوَايَاتِ فِيهِ ، يُوقَفُونَ عَلَى الْأَعْرَافِ طَائِفَةً مِنَ الزَّمَنِ يَظْهَرُ فِيهَا عَدْلُ اللَّهِ تَعَالَى بِعَدَمِ مُسَاوَاتِهِمْ بِأَصْحَابِ الْحَسَنَاتِ الرَّاجِحَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ مَعَهُمْ ، وَلَا بِأَصْحَابِ السَّيِّئَاتِ الرَّاجِحَةِ بِدُخُولِ النَّارِ مَعَهُمْ وَلَوْ بَقَوْا فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَكَانَ عَدْلًا وَلَكِنْ وَرَدَ أَنَّهُ تَعَالَى يُعَامِلُهُمْ بَعْدَ هَذَا الْعَدْلِ بِالْفَضْلِ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ إخْرَاجِ مَنْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ رَجَحَتْ

سَيِّئَاتُهُمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى عَدَمِ بَقَاءِ أَحَدٍ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ

(174/270)

فِي الْقِسْمَةِ الثُّنَائِيَّةِ (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)

(42 : 7) .

وَكُلٌّ مِنْ تِلْكَ الِاحْتِمَالَاتِ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا التَّرْجِيحُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ لَهُ مُرَجِّحَاتٌ وَمُعَارَضَاتٌ مِنَ الْآيَاتِ كَمَا عُلِمَ مِنْ تَفْسِيرِنَا لَهَا ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ مُرَجِّحَاتِ الثَّانِي أَوِ الثَّالِثِ وَضْعُ هَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ نِدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ : (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا) (44) الْآيَةَ . وَنِدَاءِ أَهْلِ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَنْ يُفِيضُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ وَالطَّعَامِ الَّذِي يَتَمَتَّعُونَ بِهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 377. 390 ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن – أهل الأعراف – قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا حالهم أن يقفوا في انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل في هذه المسألة ، وهنا يدخل الحق سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم : ﴿ . . ادخلوا الجنة لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : 49]

وهؤلاء – كما قلنا – هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ هي الطائفة التي جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، لم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾

يجوز في هذه الجملة وجهان :

أحدهما : أنَّها في محلِّ نصب بالقَوْلِ المتقدّم أي : قالوا : ما أغنى ، وقالوا : أهؤلاء الذين أقسمتم زيادة تبكيت .

والثاني : أن تكون جملة مستقلّة غير داخلة في حيّزِ القول ، والمشار إليهم على القَوْلِ الأوَّلِ هم أهل الجَنَّة ، والقائلون ذلك هم أهل الأعراف ، والمقول لهم هم أهْلُ النَّارِ .

[والمعنى : وقال أهل الأعْاَفِ لأهل النَّارِ] : أهؤلاء الذين في الجنَّةِ اليوم هم الذين كنتم تحلفون أنَّهُم لا يدخلون الجنة برحمة الله وفضله ، ادخلوا الجنَّة أي : قالوا لهم ، أو قيل لهم : ادخلوا الجنة .

وأمّا على القَوْلِ الثَّاني وهو الاستئناف ، فاختلف في المشار إليه ، فقيل : هم أهل الأعرافِ ، والقائل ذلك ملك يأمره الله بهذا القَوْلِ ، والمقول له هم أهْلُ النَّارِ .

وقيل : المُشَارُ إليهم هم هل الجنَّةِ ، والقائل هم الملائكة ، والمقول لهم أهل النار .

وقيل : المُشَارُ إليهم هم أهل الجنَّةِ ، والقائل هم الملائكة ، والمقول لهم هم أهل النار .

ووقوله : " ادخُلُوا الجَنَّةَ " من قول أهل الأعراف أيضاً] أي : يرجعون فيخاطب بعضهم بعضاً ، [فيقولون : ادْخُلُوا الجَنَّةَ] .

قال ابن الأَنْبَارِي : إن قوله : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة] من كلام أصحاب الأَعْرَافِ ، وقوله : " ادخُلُوا " من كلام الله تعالى ، وذلك على إضْمَارِ قول أي : فقال لهم الله : ادخلوه ونظيره قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ [الشعراء : 35] فهذا من كلام الملأ ، " فماذا تأمرون " ؟ فهذا من فرعون أي : فقال : فَمَاذَا تأمرون ؟ أي فيقولون : ادخلوا الجنة .

وقرأ الحسن ، وابن سيرين : " أَدْخِلُوا الجَنَّةَ " أمراً من " أدخل " وفيها تأويلان :

(177/270)

أحدهما : أنَّ المأمور بالإدخال الملائكة ، أي : أدخلوا يا ملائكة هؤلاء ، ثمَّ خاطب البَشَر بعد خطاب الملائكة ، فقال : لا خَوفٌ عليكم ، وتكون الجملة من قوله : " لاَ خَوْفٌ " لا محلَّ لها من الإعراب لاستئنافها .

والثاني : أنَّ المأمور بذلك هم أهل الأعراف ، والتقدير : أدخلوا أنفسكم ، فحذف المفعول في الوجهين .

ومثل هذه القراءة هنا قوله تعالى : ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ [غافر : 46] وستأتي إن شاء الله تعالى ، إلاَّ أنَّ المفعول هناك مُصَرَّحٌ به في إحدى القراءتين .

والجملة من قوله : " لا خَوْفٌ " على هذا في محلّ نصب على الحال أي : أدخلوا أنفسكم غير خائفين .

وقرأ عكرمة " دَخَلوا " ماضياً مبنيّاً للفاعل .

وطلحة وابن وثاب والنَّخَعِيُّ : " أدْخِلوا " مِنْ أدْخِل ماضياً مبنياً للمفعلو على الإخبار ، وعلى هَاتَيْنِ ، فالجملةُ المنفيَّةُ في محل نصب بقول مُقَدَّر ، وذلك القول منصوب على الحَالِ ، أي : مقولاً لهم : لا خوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 131 .

132 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) ﴾

ذلك ما يرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد ، وهي مما لا يخفى على ذي عينين ، فيقولون لهم : هل يُغْنِي عنكم ما ركنتم إليه من أباطيلكم ، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم

، وباطل تأويلكم ؟ فشاهِدوا – اليومَ – تخصيص الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم ، وانظروا هل يغني عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 538 ﴾

(178/270)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين (44) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون (49) ﴾

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به ، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم ، و﴿ أن قد وجدنا ﴾ هو نفس النداء ، أي إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم ، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب

الأليم ؟ والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ .

وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم ، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب .

وقيل حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد : ﴿ قالوا نعم ﴾ أي وجدنا ما وعدنا ربنا حقا .

وقرأ الأعمش والكسائي "نعم" بكسر العين .

قال مكي : من قال " نعم " بكسر العين فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التي جواب وبين نعم التي هي اسم للبقر والغنم والإبل .

والمؤذن : المنادي ، أي فنادي مناد بينهم أي بين الفريقين ؛ قيل : هو من الملائكة ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والبزي ، بتشديد " أن " وهو الأصل .

وقرأ الباقون بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة .

وقرأ الأعمش بكسر همزة " إن " على إضمار القول ، وجملة : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ صفة للظالمين ، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم ، أو أعني .

والصد : المنع ، أي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أي يطلبون اعوجاجها ، أي ينفرون الناس عنها ويقدحون في استقامتها ، بقولهم إنها غير حق وإن الحق ما هم فيه ، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ، ما لم يكن منتصبا ، وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح ، وجملة : ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ في محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ أي بين الفريقين ، أو بين الجنة والنار .

والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ [الحديد : 13] .

قوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ الأعراف : جمع عرف ، وهي شرفات السور المضروب بينهم ، ومنه عرف الفرس وعرف الديك والأعراف في اللغة : المكان المرتفع ، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : 37] .

وقد اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم ؟ فقيل هم الشهداء ، ذكره القشيري وشرحبيل بن سعد .

وقيل : هم فضلاء المؤمنين ، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره مجاهد .

وقيل : هم قوم أنبياء ، ذكره الزجاج .

وقيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وابن عباس والشعبي ، والضحاك وسعيد بن جبير .

وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار ، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ، ومبغضيهم بسوادها ، حكي ذلك عن ابن عباس ؛ وقيل : هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة ، واختار هذا القول النحاس .

وقيل هم أولاد الزنا ، روي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : هم ملائكة موكلون بهذا السور ، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ، ذكره أبو مجلز .

(180/270)

وجملة : ﴿ يعرفون كلا بسيماهم ﴾ صفة لرجال والسيما العلامة ، أي يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها ، أو مواضع الوضوء من المؤمنين ، أو علامة يجعلها الله لكل فريق في ذلك الموقف ، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء .

﴿ ونادوا أصحاب الجنة ﴾ أي نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم ﴿ أن

سلام عليكم ﴾ أي نادوهم بقولهم سلام عليكم ، تحية لهم وإكراما وتبشيرا ، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب .

قوله : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، والحال أنهم يطمعون في دخولها .

وقيل معنى : ﴿ يطمعون ﴾ يعلمون أنهم يدخلونها ، وذلك معروف عند أهل اللغة ، أي طمع بمعنى علم .

ذكره النحاس .

وهذا القول أعني كونهم أهل الأعراف مروي عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود .

وقال أبو مجلز : هم أهل الجنة ، أي أن أهل الأعراف قالوا لهم ﴿ سلام عليكم ﴾ ، حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها .

قوله : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ أي إذا صرفت أبصار أهل الأعراف تلقاء أصحاب النار أي جهة أصحاب ، وأصل معنى ﴿ تلقاء ﴾ جهة اللقاء ، وهي جهة المقابلة ، ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أوله غير مصدرين ، أحدهما هذا ، والآخر تبيان .

وما عداهما بالفتح ﴿ قالوا ﴾ أي قال أهل الأعراف ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ سألوا الله أن لا يجعلهم منهم ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالا ﴾ من الكفار ﴿

يعرفونهم بسيماهم ﴾ أي بعلاماتهم ﴾ قالوا ﴾ بدل من نادى ﴾ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ الذي كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

قوله : ﴾ وما كنتم تستكبرون ﴾ .

"ما" مصدرية ، أي وما أغنى عنكم استكباركم ﴾ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ هذا من كلام أصحاب الأعراف ، أي قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة .

(181/270)

وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم .

وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم .

قوله : ﴾ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ هذا تمام كلام أصحاب الأعراف ، أي قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة ، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول .

وقرأ طلحة بن مصرف "أدخلوا" بكسر الخاء .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴾ أن قد وجدنا ما

وعدنا ربنا حقا ﴾ قال : من النعيم والكرامة ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ قال : من الخزي والهوان والعذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن السدي ، في قوله : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ قال : هو السور ، وهو الأعراف ، وإنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، عن حذيفة قال : الأعراف سور بين الجنة والنار .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في البعث والنشور ، عن ابن عباس قال : الأعراف هو الشيء المشرف .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عنه ، قال : الأعراف سور له عرف كعرف الديك .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير ، قال : الأعراف جبال بين الجنة والنار ، فهم على أعرافها ، يقول على ذراها .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، أنها تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن جرير ، قال : زعموا أنه الصراط .

وأخرج ابن جرير ، عن حذيفة قال : أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار ، وهم آخر من يدخل الجنة ، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار .

(182/270)

وأخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود : أنهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم يقفون على الصراط .

وأخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه .

وكذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف ؟ فقال : " هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي ، فارعوا من الجنة حيث شئتم " قال ابن كثير : وهذا مرسل حسن .

وأخرج البيهقي في البعث عن حذيفة أراه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الناس يوم القيامة ، فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ، ويؤمر بأهل النار إلى النار ، ثم يقال لأصحاب الأعراف ما تنتظرون ؟ قالوا : ننتظر أمرك ، فيقال لهم : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم ، فادخلوا بمغفرتي ورحمتي "

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن عبد الرحمن المزني قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف ؟ فقال :

" هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم ، فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ، ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم " وأخرج الطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة مرفوعا نحوه أيضا .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن مالك الهلالي ، عن أبيه مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس مرفوعا نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن رجل من مزينة مرفوعا نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار ، أنه سئل عن قوله : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ قال : سلمت عليهم الملائكة وهم لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن السدي قال : أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، أهل النار بسواد وجوههم ، وأهل الجنة ببياض وجوههم ، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة ، قالوا سلام عليكم ، وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالا ﴾ قال : في النار ﴿ يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾ قال الله لأهل التكبر ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ ؟ يعني أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم نداء أصحاب الجنة عندما حصل لهم السرور بدخولها لأصحاب النار بما يؤلم وينكي ، وختم بهذه الرحمة التي تطمع المحروم فيما يسر ويزكي ، أخبر أن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة عندما حصل لهم من الغم بدخولها ، لكن بما شأنه أن يرقق ويبكي ، فقال ما يدل على أن عندهم كل ما نفي عن أهل الجنة في ختام الأية السالفة من الخوف والحزن : ﴿ ونادى أصحاب النار ﴾ أي بعد الاستقرار ﴿ أصحاب الجنة ﴾ بعد أن عرفهم إياهم وأمر الجنة فتزخرفت فكان ذلك زيادة في عذابهم ؛ ثم فسر المنادى به فقال ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ أي لأنكم أعلى منا ، فإذا أفضتموه وصل إلينا ، وهذا من فرط ما هم فيه من البلاء ، فإن بين النار والجنة أهوية لا قرار لها ولا يمكن وصول شيء من الدارين إلى الأخرى معها .

ولما كانت الإفاضة تتضمن الإنزال قالوا : ﴿ أو ﴾ أي أو أنزلوا علينا ﴿ مما رزقكم الله ﴾ أي الذي له الغنى المطلق ، من أيّ شيء هان عليكم إنزاله ﴿ قالوا ﴾ أي أصحاب الجنة

﴿ إن الله ﴾ أي الذي حاز جميع العظمة ﴿ حرمهما ﴾ أي منعهما بتلك الأهوية وغيرها من الموانع ﴿ على الكافرين ﴾ أي الساترين لما دلهم عليه قويم العقل وصريح النقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 38 ﴾

(185/270)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين ما يقوله أصحاب الأعراف لأهل النار ، أتبعه بذكر ما يقوله أهل النار لأهل الجنة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار بفرج بعد اليأس فقالوا : يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فأمر الله الجنة فتزحزحت ، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم ، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم ، وقد اسودت وجوههم وصاروا خلقاً آخر ، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق

واللهيب بسبب شدة حر جهنم .

وقوله : ﴿ أَفِيضُواْ ﴾ كالدلالة على أن أهل الجنة أعلى مكاناً من أهل النار .

فإن قيل : أسألوا مع الرجاء ، والجواز ، ومع اليأس ؟

قلنا : ما حكيناه عن ابن عباس يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول .

وقال القاضي : بل مع اليأس ، لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم ، ولكن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل : الغريق يتعلق بالزبد ، وإن علم أنه لا يغيثه .

وقوله : ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ قيل إنه الثمار ، وقيل إنه الطعام ، وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد ، والجوع الشديد لهم ، عن أبي الدرداء أن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم ، فيستغيثون فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع .

(186/270)

ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة ، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلاليب الحديد فيقطع ما في بطونهم ، ويستغيثون إلى أهل الجنة كما في هذه الآية فيقول أهل الجنة : ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ ، ويقولون لمالك : ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] فيجيبهم على ما قيل بعد ألف عام ، ويقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ [المؤمنون : 107] فيجيبهم ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون في الزفير والشهيق .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه ذكر في صفة أهل الجنة أنهم يرون الله عز وجل كل جمعة ، ولمنزل كل واحد منهم ألف باب ، فإذا رأوا الله تعالى ، دخل من كل باب ملك معه الهدايا الشريفة وقال : إن نخل الجنة خشبها الزمرد ، وترابها الذهب الأحمر ، وسعفها حلل وكسوة لأهل الجنة ، وثمرها أمثال القلال أو الدلاء ، أشد بياضاً من الفضة وألين من الزبد وأحلى من العسل ، لا عجم له ، فهذا صفة أهل الجنة ، وصفة أهل النار ، ورأيت في بعض الكتب : أن قارئاً قرأ قوله تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ في تذكرة الأستاذ أبي علي الدقاق ، فقال الأستاذ : هؤلاء كانت رغبتهم وشهوتهم في الدنيا في الشرب والأكل ، وفي الآخرة بقوا على هذه الحالة ، وذلك يدل على أن الرجل يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه ، ثم بين تعالى أن هؤلاء الكفار لما طلبوا الماء والطعام من أهل الجنة قال أهل الجنة ﴿ إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ ولا شك أن ذلك يفيد الخيبة التامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 76 .

﴿ 77 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾

أي اسقونا من الماء أو شيئاً من الفواكه وثمار الجنة فإنّ فينا من معارفكم .

فعلم الله تعالى أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب .

فأجابهم أهل الجنة : ﴿ قَالُواْ إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ يعني : الماء والثمار .

وروي في الخبر أنَّ أبا جهل بن هشام بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستهزىء به :

أطعمني من عنب جنتك أو شيئاً من الفواكه .

فقال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه :

" قُلْ لَهُ : إِنَّ الله حَرَّمَهُما عَلَى الكَافِرِينَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(188/270)

وقال الثعلبى :

﴿ ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ ﴾ [[صبّوا] وأوسعوا ﴿ عَلَيْنَا مِنَ

المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ من طعام الجنّة ﴿ قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا ﴾ يعني الماء والطعام ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ قال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس : أي الصدقة أفضل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصدقة الماء ألا رأيت أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنّة قالوا أفيضوا علينا من الماء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من ماء الرحمة ومما رزقكم الله من القربة .

والثاني : من ماء الحياة ومما رزقكم الله من النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(189/270)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ الآية ،

لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم ، وجائز أن

يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بعد السفل من العلو ، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر ، وروي أن ذلك النداء هو عند إطلاع أهل الجنة عليهم ، و﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أن أفيضوا ﴾ مفسرة بمعنى أي ، وفاض الماء إذا سال وإنماع وأفاضه غيره ، وقوله : ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ إشارة إلى الطعام قاله السدي ، فيقول لهم أهل الجنة إن الله حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين .

قال القاضي أبو محمد : والأشنع على الكافرين في هذه المقالة أن يكون بعضهم يرى بعضاً فإنه أخزة وأنكى للنفس ، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى ، وذكر الزهراوي : أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الصدقة بالماء " ، يعني عند الحاجة إليه إذ هو ألذ مشروب وأنعشها للنفس ، واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له أي الأشربة تحب ؟ فقال أهونها موجوداً وأعزها مفقوداً ، فقال له مصعب : يا غلام هات الماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(190/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾

قال ابن عباس : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة ، طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس ، فقالوا : يا رب ، إن لنا قرابات من أهل الجنة ، فائذن لنا حتى نراهم ونكلِّمهم ، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم .

ونظر أهل الجنة إلى قرابتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم ، قد اسودَّت وجوههم وصاروا خلقاً آخر ، فنادى أصحابُ النار أصحاب الجنة بأسمائهم ، وأخبروهم بقراباتهم ، فينادي الرجل أخاه : يا أخي قد احترقتُ فأغثني ؛ فيقول : ﴿ إن الله حرَّمهما على الكافرين ﴾ قال السدي : عنى بقوله : ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ : الطعام .

قال الزجاج : أعلمَ الله عز وجل أن ابن آدمَ غيرُ مستغنٍ عن الطعام والشراب ، وإن كان معذَّباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(191/270)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ونادى ﴾ قيل : إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا : يا ربَّنَا إن لنا قرابات في الجنة فأْذن لنا حتى نراهم ونكلمهم .

وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم ، فيقولون : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ فبيّن أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب .

﴿ قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها .

والإفاضة التوسعة ؛ يقال : أفاض عليه نِعمه .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال .

وقد سئل ابن عباس : أي الصدقة أفضل ؟ فقال : الماء ، ألم تَرَوْا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة "ان أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ" ؟ .

وروى أبو داود " أن سعداً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أيّ الصدقة أعجب إليك ؟ قال : "الماء" .

وفي رواية : فحفر بئراً فقال "هذه لأمّ سعد" .

وعن أنس قال : قال سعد : يا رسول الله ، إن أمّ سعد كانت تحب الصدقة ، أفينفعها أن أتصدّق عنها ؟ قال : "نعم وعليك بالماء" " وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن عُبادة أن يسقي عنها الماء .

فدلّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى وقد قال بعض التابعين : من

كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء .

وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب ، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه .

(192/270)

روى البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "بينا رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثَّرَى من العطش فقال لقد بلغ هذا الكلبَ مثلُ الذي بلغ بي فملأ خفّه ثم أمسكه بِفِيه ثم رَقِيَ فسقى الكلب فشكر اللَّهُ له فغفر له" .

قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : "في كل ذات كبد رَطْبة أجر" "

وعكس هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عُذّبت امرأة في هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض " وفي حديث عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ومن سَقَى مسلماً شَربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها "

خرّجه ابن ماجه في السُّنَن .

الثالثة : وقد استدل بهذه الآية من قال : إن صاحب الحوض والقِربة أحق بمائه ، وأن له منعه ممن أراده ؛ لأن معنى قول أهل الجنة : "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ" لا حقّ لكم فيها .

وقد بوّب البخاريّ رحمه الله على هذا المعنى : (باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه) وأدخل في الباب عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده لأذودنّ رجالاً عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض " قال المهلّب : لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه ؛ لقوله عليه السلام : " لأذودنّ رجالاً عن حوضي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(193/270)

وقال الخازن :

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج فقالوا : يا ربنا إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم

فينظرون إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة إلى قرابتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون أي أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم فينادي الرجل أباه وأخاه فيقول قد احترقت أفضْ عليّ من الماء فيقال لهم : أجيبوهم فيقولون إن الله حرمهما على الكافرين .

ومعنى الآية أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة إذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء بأهل النار وما يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم في الدنيا من الكفر والمعاصي .

يقول أهل النار لأهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعني صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعني أو أطعمونا مما رزقكم الله ووسعوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ وهذا الجواب يفيد الحرمان ، وقال بعضهم : لما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه في الدنيا في طلب الأكل والشرب فأجيبوا بأن الله حرمهما على الكافرين يعني طعام الجنة وشرابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(195/270)

وهذا يقتضي سماع كل من الفريقين كلام الآخر وهذا جائز عقلاً على بعد المسافة بينهما من العلو والسّفل وجائز أن يكون ذلك مع رؤية واطّلاع من الله وذلك أخزى وأنكى للكفّار ، وجائز أن يكون ذلك وبينهم الحجاب والسّور ، وعن ابن عباس أنه لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا : يا ربّ لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فينظرون إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم قد اسودت وجوههم وصاروا خلقاً آخر فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وأخبروهم بقراباتهم فينادي الرجل أخوه فيقول يا أخي قد احترقت فأغثني فيقول : إنّ الله حرّمهما على الكافرين ويحتمل أن تكون مصدرية ومفسّرة ، وكلام ابن عباس يدل على أنّ هذه النداء كان عن رجاء وطمع حصول

ذلك ، وقال القاضي هو مع اليأس لأنهم قد علموا دوام عقابهم وأنهم لا يفتر عنهم ولكن اليائس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل الغريق يتعلق بالزّبد وإن علم أنه لا يغنيه انتهى ، و﴿ أفيضوا ﴾ أمكن من اسقونا لأنها تقتضي التوسعة كما يقال أفاض الله عليه نعمه أي وسعها وسؤالهم الماء لشدّة التهابهم واحتراقهم ولأنّ من عادته إطفاء النار أو مما رزقكم الله لأنّ البنية البشرية لا تستغني عن الطعام إذ هو مقوّيها أو لرجائهم الرّحمة بأكل طعام و﴿ أَو ﴾ على بابها من كونهم سألوا أحد الشيئين وأتى ﴿ أو مما رزقَكم الله ﴾ عاماً والعطف بأو يدل على أنّ الأول لا يندرج في العموم ، وقيل : أو بمعنى الواو لقولهم إنّ الله حرمهما ، وقيل المعنى حرم كلاًّ منهما فأو على بابها وما رزقكم الله عام فيدخل فيه الطعام والفاكهة والأشربة غير الماء وتخصيصه بالثمرة أو بالطعام أو غير الماء من الأشربة أقوال ثانيها للسدّي وثالثها للزمخشري قال : ﴿ أو مما رزقَكم الله ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة فقال :

(196/270)

ويجوز أن يراد وألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله :

علفتها تبناً وماء باردا . . .

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعله المضطر الممتحن انتهى

وقوله وإنما يطلبون إلى آخره هو كلام القاضي وقد قدّمناه ويجوز أن يراد وألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون ﴿ أفيضوا ﴾ ضمن معنى ألقوا ﴿ علينا من الماء أو مما رزقَكم الله ﴾ فيصحّ العطف ويحتمل وهو الظاهر من كلامه أن يكون أضمر فعلاً بعد ﴿ أو ﴾ يصل إلى ﴿ مما رزقَكم ﴾ وهو ألقوا وهما مذهبان للنحاة فيما عطف على شيء بحرف عطف والفعل لا يصل إليه والصحيح منهما التضمين لا الإضمار على ما قرّرناه في علم العربية ومعنى التحريم هنا المنع كما قال :

حرام على عينيّ أن تطعما الكرى . . .

وإخبارهم بذلك هو عن أمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(197/270)

وقال أبو السعود :

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾

بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ أي صبوه ، وفي دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ من سائر الأشربة

ليلائم الإفاضة ، أو من الأطعمة على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا قالوا ؟ فقيل : قالوا : ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ أي منعهما منهم منعا كليا فلا سبيل إلى ذلك قطعا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(198/270)

وقال الآلوسى :

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾

بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ ﴾ أي صبوا ﴿ عَلَيْنَا ﴾ شيئاً ﴿ مِنَ الماء ﴾ نستعين به على ما نحن فيه ، وظاهر الآية يدل على أن الجنة فوق النار ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ أي أو من الذي رزقكموه الله تعالى من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة أو من الأطعمة كما روي عن السدي وابن زيد ، ويقدر في المعطوف عامل يناسبه أو يؤول العامل الأول بما يلائم المتعاطفين أو يضمن ما يعمل في الثاني أو يجعل ذلك من المشاكلة ويكون في الآية دليل على نهاية عطشهم وشدة جوعهم وأن ما هم فيه من العذاب لا يمنعهم عن طلب أكل وشرب .

وبهذا رد موسى الكاظم رضي الله تعالى عنه فيما يروى على هارون الرشيد إنكاره أكل أهل المحشر محتجاً بأن ما هم فيه أقوى مانع لهم عن ذلك .

واختلف العلماء في أن هذا السؤال هل كان مع رجاء الحصول أو مع اليأس منه حيث عرفوا دوام ما هم فيه وإلى كل ذهب بعض ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا قالوا ؟ فقيل قالوا : في جوابهم : ﴿ إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ أي منع كلاً منهما أو منعهما منع المحرم عن المكلف فلا سبيل إلى ذلك قطعاً ، ولا يحمل التحريم على معناه الشائع لأن الدار ليست بدار تكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(199/270)

وقال ابن عاشور :

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ .

القول في ﴿ نادى ﴾ وفي ﴿ أنْ ﴾ التّفسيريّة كالقول في : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ﴾ [الأعراف : 44] الآية .

وأصحاب النّار مراد بهم من كان من مشركي أمّة الدّعوة لأنّهم المقصود كما تقدّم ، وليوافق قوله بعدُ ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه ﴾ [الأعراف : 52] .

فعل الفيض حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوّة ويستعمل مجازاً في الكثرة ، ومنه ما في الحديث : " ويَفيض المالُ حتّى لا يقبَله أحد " .

ويجيء منه مجاز في السّخاء ووفرة العطاء ، ومنه ما في الحديث أنّه قال لطلحة : "أنت الفيَّاض" .

فالفيض في الآية إذا حمل على حقيقته كان أصحاب النّار طالبين من أصحاب الجنّة أن يصبّوا عليهم ماء ليشربوا منه ، وعلى هذا المعنى حمله المفسّرون ، ولأجل ذلك جعل الزمخشري عطف ﴿ ما رزقكم الله ﴾ عطفاً على الجملة لا على المفرد .

فيقدّر عامل بعد حرف العطف يناسب ما عدَا الماءَ تقديره : أو أعطونا ، ونظّره بقول الشّاعر (أنشده الفراء) :

عَلَفْتُها تِبْنا وماءً بارداً . . .

حتّى شَبَتْ هَمَّالَةً عيناها

تقديره : علفتها وسَقيتها ماء بارداً ، وعلى هذا الوجه تكون (مِن) بمعنى بعض ، أو صفة لموصوف محذوف تقديره : شيئاً من الماء ، لأنّ : ﴿ أفيضوا ﴾ يتعدّى بنفسه .

ويجوز عندي أن يحمل الفيض على المعنى المجازي ، وهو سعة العطاء والسّخاء ، من الماء

والرزق ، إذ ليس معنى الصبّ بمناسب بل المقصود الإرسال والتّفضل ، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد وهو أصل العطف .

(200/270)

ويكون سُؤلهم من الطّعام مماثلاً لسؤْلهم من الماء في الكثرة ، فيكون في هذا الحمل تعريض بأن أصحاب الجنّة أهل سخاء ، وتكون (مِن) على هذا الوجه بيانية لمعنى الإفاضة ، ويكون فعل ﴿ أفيضوا ﴾ مُنزلاً منزلة اللاّزم ، فتتعلّق مِنْ بفعل ﴿ أفيضوا ﴾ .

والرّزق مراد به الطّعام كما في قوله تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة ﴾ [البقرة : 25] الآية .

وضمير ﴿ قالوا ﴾ لأصحاب الجنّة ، وهو جوابهم عن سؤال أصحاب النّار ، ولذلك فصل على طريقة المحاورة .

والتّحريم في قوله : ﴿ حرمهما على الكافرين ﴾ مستعمل في معناه اللّغوي وهو المنع كقول عنترة:

حَرُمَتْ عليّ وليتَها لَمْ تَحْرُم . . .

وقولِه : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] .

والمراد بالكافرين المشركون ، لأنّهم قد عُرفوا في القرآن بأنّهم اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وعُرفوا بإنكار لقاءِ يوم الحشر .

وقد تقدّم القول في معنى اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدّنيا عند قوله تعالى : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ في سورة الأنعام (70) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(201/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾

وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم في الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن ب "كن " ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أي شيء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، في نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة : ﴿ الذين اتخذوا

دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(202/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أنْ أفِيْضُوا " كأحوالها من احتمال التفسير والمصدرية ، و " مِنَ المَاءِ " متعلق بـ " أفيضَوا " على أحد وجهين :

إمَّا على حذف مفعول أي : شيئاً من الماء ، فهي تبعيضية طلبوا منهم البعض اليسير ، وإمّا على تضمين " أفِيضُوا " معنى ما يتعدّى بـ " من " أي : أنعموا منه بالفيض .

وقوله : ﴿ أوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ ﴾ " أو " هنا على بابها من اقتضائها لأحد الشيئين ؛ إمَّا تخييراً ، أو إباحة ، أو غير ذلك مما يليق بهما ، وعلى هذا يقال : كيف قيل : حرَّمهما فأعيد الضَّميرُ مثنى وكان من حق من يقول : إنَّها لأحد الشيئين أن يعود مفرداً على ما تقرَّر غير مّرة ؟

وقد أجابوا بأن المعنى : حرّم كلاًّ منهما .

وقيل : إن " أو " بمعنى الواو فعود الضمير واضح عليه .

و" مِمَّا " " ما " يجوز أن تكون موصولة اسميّة ، وهو الظَّاهِرُ ، والعائد محذوف أي : أو من الذي رزقكموه الله ، ويجوز أن تكون مصدرية ، وفيه مجازان .

أحدهما : أنَّهم طلبوا منهم إفَاضَةَ نفس الرزق مبالغة في ذلك .

والثاني : أن يراد بالمصدر اسم المفعول ، كقوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْقِ الله ﴾ [البقرة : 60] في أحد وجهيه .

وقال الزمخشريُّ : أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من غيره من الأَشْرِبَةِ لدخوله في حكم الإفاضة " .

ويجوز أن يُراد : أن أَلْقوا علينا من ما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله : [الرجز] .

2474 - عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً . . . . . .

قال أبو حيَّان : وقوله : " وأَلْقوا علَيْنَا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ منَ الطَّعامِ والفاكهة " يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون قوله : " أفيضُوا " ضُمِّن معنى قوله : " ألقوا علينا من الماء ، أو مما رزقكم الله " فيصحُّ العطف .

ويحتمل - وهو الظاهر من كلامه - أن يكون أضمر فعلاً بعد " أو " يصل إلى مما رزقكم اللَّهُ ، وهو " ألقوا " ، وهما مذهبان للنحاة فيما عُطفَ على شيء بحرف عطف ، والفعل لا يصل إليه ، والصَّحيحُ منهما التّضميل لا الإضمار .

قال شهابُ الدِّين : " يعني الزمخشري : أن الإفاضة أصل استعمالها في الماء ، وما جرى مجراه في المائعات ، فقوله : " أو من غيره من الأَشْرِبَةِ " تصحيح ليسلّط الإفاضة عليه ؛ لأَنَّهُ لو حُمِلَ مما رزقكم اللَّه على الطعام والفاكهة لم يَحْسُن نسبة الإفاضة إليهما إلاَّ بتجوز ، فذكر وجه التجوز بقوله : " ألقوا " ، ثم فسَّره الشيخ بما ذكر ، وهو كما قال ، فإن العلف لا يُسند إلى الماء فيؤولان بالتضمين أي : فعلفتها ، ومثله : [الوافر]

2475 - . . . . . .

وَزَجَّجْنُ الحَوَاجِبَ والعُيُونَا

وقوله : [مجزوء الكامل]

2476 - يَا لَيْتَ زَوْجَكِ قَدْ غَدَا . . .

مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحا

وقوله تعالى : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] وقد مَضَى من هذا جملة صالحة " .

وزعم بعضهم أن قوله : ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ عام يندرج فيه الماء المتقدِّم ، وهو بعيد أو متعذّر لِلْعَطْفِ بـ " أو " .

والتَّحريم هنا المنع كقوله : [الطويل]

2477 - حَرَامٌ عَلَى عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَا الكَرَى . . . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 133.134 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) ﴾

دلَّت الآية على أن من أواخر ما يبقى على الإنسان الأكل والشربَ ؛ فإنهم في تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوعُ والعطش حتى يتضرعون كلَّ ذلك التضرع ؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام ، والعادة - اليومَ - أن من كان في ألم شديد لا يأكل ولا يشرب ، وهذا شديد .

(204/270)

ثم أَبْصِرْ كيف لا يسقيهم قطرةً - مع استغنائه عن تعذيبهم ، وقدرتِه على أن يعطيه ما يريدون ! ولكنه قهر الربوبية وعِزُّ الأحدية ، وأنه فَعَّالٌ لما يريد . فكما لم يرزقهم - اليومَ - من عرفانه ذرة ، لا يسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة ، وفي معناه أنشدوا :

وأَقْسَمْنَ لا يسقيننا – الدهرَ – قطرةً . . . ولو فُجِّرت من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعد ما نفدت دموعهم ، وفي هذا المعنى قيل :

يا نازحاً نَزَفَتْ دمعي قطيعتُه . . . هَبْ لي من الدمعِ ما أبكي عليكَ به

وفي هذا المعنى أنشدوا .

جرف البكاءُ دموعَ عينك فاستعِرْ . . . عيناً لغيرك دمعها مدرار

مَنْ ذا يُعيرك عينَه تبكي بها . . . أرأيتَ عيناً للبكاء تُعار ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 538.539 ﴾

(205/270)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ الذين اتخذوا ﴾ أي تكلفوا غير ما دلهم عليه العقل الفطري حين نبه بالعقل الشرعي بأن أخذوا ﴿ دينهم ﴾ بعد ما محقوا صورته وحقيقته كما يمحق الطين إذا اتخذته خزفاً فصار

الدين ﴿ لهواً ﴾ أي اشتغالاً بما من شأنه أن يغفل وينسى عن كل ما ينفع من الأمور المعجبة للنفس من غير نظر في عاقبة ، فجوزوا من جنس عملهم بأن لم ينظر لهم في إصلاح العاقبة .

ولما قدم ما هو أدعى إلى الاجتماع على الباطل الذي هو ضد مقصود السورة من الاجتماع على الجد وأدعى إلى الغفلة ، وكان من شأن الغفلة عن الخير أن تجر إلى استجلاب الأفراح والانهماك في الهوى ، حقق ذلك بقوله : ﴿ ولعباً ﴾ أي إقبالاً على ما يجلب السرور ويقطع الوقت الحاضر بالغرور ، ولذلك أتبعه قوله : ﴿ وغرتهم ﴾ أي في فعل ذلك ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي بما فيها من الأعراض الزائلة من تأميل طول العمر والبسط في الرزق ورغد العيش حتى صاروا بذلك محجوبين عن نظر معانيها وعما دعا إليه تعالى من الإعراض عنها فلم يحسبوا حساب ما وراءها .

ولما كان تركهم من رحمته سبحانه مؤبداً ، أسقط الجار ﴿ فاليوم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن في هذا اليوم ﴿ ننساهم ﴾ أي نتركهم ترك المنسي ﴿ كما ﴾ فعلوا هم بأنفسهم بأن ﴿ نسوا ﴾ أي تركوا ﴿ لقاء يومهم هذا ﴾ فلم يعدوا له عدته ﴿ وما ﴾ أي وكما ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ بآياتنا ﴾ على ما لها من العظمة بنسبها إلينا ﴿ يجحدون ﴾ أي ينكرون وهم يعرفون حقيقتها لأنها في غاية الظهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 38 . 39 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى وصف هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ،

وفيه وجهان :

الوجه الأول : أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم ، تلاعبوا به ، وما كانوا فيه مجدين .

والوجه الثاني : أنهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد المستهزئين المقتسمين .

ثم قال : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ وهو مجاز لأن الحياة الدنيا لا تغر في الحقيقة بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا ، لأن الإنسان يطمع في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال ، وقوة الجاه فلشدة رغبته في هذه الأشياء يصير محجوباً عن طلب الدين . غرقاً في طلب الدنيا ، ثم لما وصف الله تعالى أولئك الكفار بهذه الصفات قال : ﴿ فاليوم ننساهم كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا ﴾ وفي تفسير هذا النسيان قولان :

القول الأول : أن النسيان هو الترك .

والمعنى : نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ، وهذا قول الحسن ومجاهد

والسدي والأكثرين .

والقول الثاني : أن معنى ننساهم كما نسوا أي نعاملهم معاملة من نسي نتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا ، وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان كما في قوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم ، ثم بين تعالى أن كل هذه التشديدات إنما كان لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون وهذه الآية لطيفة عجيبة وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين ثم بين من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهواً أولاً ، ثم لعباً ثانياً ، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثاً ، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله ، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة كما قال عليه الصلاة والسلام : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 77 ﴾

(207/270)

وقال السمرقندى :

ثم وصفهم عز وجل فقال : ﴿ الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾

أي : اتخذوا الإسلام باطلاً ودخلوا في غير دين الإسلام .

ويقال : اتخذوا عبداً لهواً وفرحاً .

﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ أي : غرّهم ما أصابهم من زينة الدنيا ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ أي نتركهم في النار ﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا ﴾ أي : كما تركوا العمل ليومهم هذا . ويقال : كما تركوا الإيمان ليومهم هذا يعني : أنكروا البعث ﴿ وَمَا كَانُواْ بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴾ يعني : بجحدهم بآياتنا بأنها ليست من عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(208/270)

وقال الثعلبى :

﴿ الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً ﴾

وهو ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الرديئة الدنيئة التي كانوا يفعلونها في جاهليتهم ، والدين كل ما أطيع به والتزم من حق أو باطل ، وقال أبو روق : دينهم أو عقيدتهم ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا فاليوم نَنسَاهُمْ ﴾ نتركهم في النار ﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ الآية ،

أضيف " الدين " إليهم من حيث قولهم أن يلتزموه إذ هو دين الله من حيث أمر به ، ودين جميع الناس من حيث أمروا به ، ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة ، ويكون ابتداء كلام الله من قوله : ﴿ فاليوم ﴾ ، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عز وجل ، ومعنى قوله : ﴿ اتخذوا دينهم لهواً ﴾ أي بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام ، ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى ، ويحتمل أن يكون اللفظ من الغر وهو ملء الفم أي أشبعتهم وأبطرتهم ، وأما قوله ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ فهو من إخبار الله عز وجل عما يفعل بهم ، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك ، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ، قاله ابن عباس وجماعة من المفسرين ، قال قتادة نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر ، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب ، وقوله : ﴿ وما كانوا ﴾ عطف على " ما " من قوله : ﴿ كما نسوا ﴾ ويحتمل أن تقدر ﴿ ما ﴾ الثانية

زائدة ويكون قوله : " وكانوا " عطفاً على قوله ﴿ نسوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(210/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾

قال ابن عباس : هم المستهزئون .

والمعنى : أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم .

وقال أبو رَوْق : دينهم : عيدهم .

وقال قتادة : ﴿ لهواً ولعباً ﴾ أي : أكلاً وشرباً .

وقال غيره : هو ما زيَّنه الشيطان لهم من تحريم البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، والمكاء ، والتصدية ، ونحو ذلك من خصال الجاهلية .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قال الزجاج : أي : نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا .

و "ما" نسق على "كما" في موضع جر .

والمعنى : وكجحدهم .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون المعنى : فاليوم نتركهم في النار على علم منا ترك ناسٍ غافلٍ كما استعملوا في الإعراض عن آياتنا وهم ذاكرون ما يستعمله من نسي وغَفَل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين ﴾ في موضع خفض نعت للكافرين .

وقد يكون رفعاً ونصباً بإضمار .

قيل : هو من قول أهل الجنة .

﴿ فاليوم نَنسَاهُمْ ﴾ أي نتركهم في النار .

﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا ﴾ أي تركوا العمل به وكذبوا به .

و"ما" مصدرية ، أي كنسيهم .

﴿ وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ عطف عليه ، أي وجحدهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

ثم وصف الكافرين فقال تعالى : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه .

وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

ويقال لهوت بكذا ولهيبت عن كذا أي اشتغلت عنه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم المستهزؤون وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعام إليه وهزؤوا به استهزاء بالله عز وجل ، وقيل : هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية : وقيل : معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهواً ولعباً لا يذكرون الله فيه ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ يعني وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسوله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك .

والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فإذا حصل ذلك صار محجوباً عن الدين وطلبِ الخلاص لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال ﴿ فاليوم ﴾

يوم القيامة ﴿ ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ يعني فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعاً عطاشاً كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا .

وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر .

وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسي فنتركهم في النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الإيمان إعراض الناسي .

(212/270)

سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لأن الله تعالى لا ينسى شيئاً فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان أن الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا رحم ضعفهم وزلتهم بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل ﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ يعني ونتركهم في النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(213/270)

وقال أبو حيان :

﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾

تقدّم تفسير مثل هذا في الأنعام .

﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ هذا إخبار من الله عما يفعل بهم ، قال ابن عباس وجماعة يتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ، وقال قتادة : ﴿ نسوا ﴾ من الخير ولم ينسوا من الشر ، وقال الزمخشري : يفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به ﴿ كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ كما فعلوا بلقائه فعل الناسين فلم يخطروه ببالهم ولم يهتمّوا به ، وقال الحسن والسدّي أيضاً والأكثرون نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم انتهى ، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة الله بتسمية العقوبة باسم الذنب ﴿ وما كانوا ﴾ معطوف على ما نسوا وما فيهما مصدرية ويظهر أنّ الكاف في ﴿ كما ﴾ للتعليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(214/270)

وقال أبو السعود :

﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ﴾

كتحريم البحيرة والسائبة ونحوهما والتصدية حول البيت ، واللهو صرف الهم إلى ما لا يحسن أن يصرف إليه ، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ بزخارفها العاجلة ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتداد بهم وتركهم في النار تركا كليا ، والفاء في فاليوم فصيحة وقوله تعالى : ﴿ كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يعتدوا له ، وقوله تعالى : ﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ عطف على ما نسوا أي وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى إنكارا مستمرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(215/270)

وقال الآلوسى :

﴿ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ ﴾

الذي أمرهم الله تعالى به أو الذي يلزمهم التدين بن ﴿ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ فلم يتدينوا به أو

فحرموا ما شاؤوا واستحلوا ما شاؤوا ، واللهو كما قيل صرف الهم إلى ما لا يحسن أن يصرف إليه ، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب ، وقد تقدم تفصيل الكلام فيهما فتذكر ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ شغلتهم بزخارفها العاجلة ومواعيدها الباطلة وهذا شأنها مع أهلها قاتلها الله تعالى تغر وتضر وتمر ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ نفعل بهم فعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتداد بهم وتركهم في النار تركاً كلياً فالكلام خارج مخرج التمثيل ، وقد جاء النسيان بمعنى الترك كثيراً ويصح أن يفسر به هنا فيكون استعارة أو مجازاً مرسلاً ، وعن مجاهد أنه قال : المعنى نؤخرهم في النار ، وعليه فالظاهر أن ننساهم من النسء لا من النسيان .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاليوم ﴾ فصيحة .

وقوله عز وعلا .

﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا ﴾ قيل : في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي ننساهم نسياناً مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي لا ينبغي أن ينسى .

وليس الكلام على حقيقته أيضاً لأنهم لم يكونوا ذاكري ذلك حتى ينسوه بل شبه عدم إخطارهم يوم القيامة ببالهم وعدم استعدادهم له بحال من عرف شيئاً ثم نسيه .

وعن ابن عباس ومجاهد والحسن أن المعنى كما نسوا العمل للقاء يومهم هذا وليس هذا التقدير ضرورياً كما لا يخفى ، وذهب غير واحد إلى أن الكاف للتعليل متعلق بما عنده لا

للتشبيه إذ يمنع منه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ لأنه عطف على ﴿ مَا نَسُواْ ﴾ وهو يستدعي أن يكون مشبهاً به النسيان مثله .

وتشبيه النسيان بالجحود غير ظاهر ، ومن ادعاه قال : المراد نتركهم في النار تركاً مستمراً كما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله تعالى إنكاراً مستمراً .

(216/270)

وقال القطب : الجحود في معنى النسيان ، وظاهر كلام كثير من المفسرين أن كلام أهل الجنة إلى ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ لا ﴿ إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ [الأعراف : 50] فقط .

وقال بعضهم : إنه ذلك لا غير ، وعليه فيجوز أن يكون ﴿ الذين ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ اليوم ننساهم ﴾ خبره ، والفاء فيه مثلها في قولك : الذي يأتيني فله درهم كما قيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(217/270)

وقال القاسمي :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً ﴾ أي : مما زينه لهم الشيطان . واللهو : كل ما صد عن الحق ، واللعب : كل أمر باطل ، أي : ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم وديدنهم : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزخارفها العاجلة ، فلم يعملوا : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ ﴾ أي : نتركهم ترك المنسي ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة .

﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أي : كما فعلو بلقائه ، فعل الناسين ، فلم يُخطروه ببالهم ، ولم يهتموا به .

لطيفة :

قال الشهاب : ﴿ نَنْسَاهُمْ ﴾ تمثيل ، شبّه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتد به ، ويلتفت لغيه ، فينسى ، لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أي : لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، كما قال : ﴿ فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ ، والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثير في لسان العرب .

ويصح هنا أيضاً ، فيكون استعارة تحقيقية ، أو مجازاً مرسلاً ، وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً ، لأنهم لم يكونوا ذاكري الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم بحال من عرف شيئاً ، ثم نسيه ، وليست الكاف للتشبيه ، بل للتعليل ، ولا مانع من التشبيه أيضاً . انتهى .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي : وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى .

(218/270)

روى الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ قال فيقول : لا ! فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني > .

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم : < فيلقى العبد ربه ، فيقول : أي : قل ! ألم أكرمك وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ! فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : إني أنساك كما نسيتني ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 67.68 ﴾

(219/270)

وقال ابن عاشور :

وظاهر النّظم أنّ قوله : ﴿ الذين اتخذوا دينهم ﴾ إلى قوله الحياة الدنيا هو من حكاية كلام أهل الجنّة ، فيكون : ﴿ اتخذوا دينهم لهواً ﴾ إلخ صفة للكافرين .

وجُوز أن يكون : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ﴾ مبتدأً على أنّه من كلام الله تعالى ، وهو يفضي إلى جعل الفاء في قوله : ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ داخلة على خبر المبتدأ لتشبيه اسم الموصول بأسماء الشّرط ، كقوله تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ [النساء : 16] وقد جُعلَ قوله : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ إلى قوله وما كانوا بآياتنا يجحدون آية واحدة في ترقيم أعداد آي المصاحف وليس بمتعيّن .

﴿ فاليوم ننساهم كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

اعتراض حكي به كلام يُعْلَن به ، من جانب الله تعالى ، يَسمعه الفريقان .

وتغيير أسلوب الكلام هو القرينة على اختلاف المتكلّم ، وهذا الأليق بما رجحناه من جعل قوله : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ إلى آخره حكاية لكلام أصحاب الجنّة .

والفاء للتّفريع على قول أصحاب الجنّة : ﴿ إنّ الله حرّمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ الآية ، وهذا العطف بالفاء من قبيل ما يسمّى بعطف التّلقين الممثَّل له غالباً بمعطوف بالواو فهو عطف كلام .

متكلّم على كلام متكلّم آخَر ، وتقدير الكلام : قال الله ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ ، فحذف

فعل القول ، وهذا تصديق لأصحاب الجنّة ، ومَن جعلوا قوله : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ كلاماً مستأنفاً من قِبل الله تعالى تكون الفاء عندهم تفريعاً في كلام واحد .

والنّسيان في الموضعين مستعمل مجازاً في الإهمال والتّرك لأنّه من لوازم النّسيان ، فإنّهم لم يكونوا في الدّنيا ناسين لقاء يوم القيامة ، فقد كانوا يذكرونه ويتحدّثون عنه حديثَ من لا يصدّق بوقوعه .

(220/270)

وتعليق الظّرف بفعل : ﴿ ننساهم ﴾ لإظهار أنّ حرمانهم من الرّحمة كان في أشدّ أوقات احتياجهم إليها .

فكان لذكر اليوم أثرٌ في إثارة تحسّرهم وندامتهم ، وذلك عذاب نفساني .

ودلّ معنى كاف التّشبيه في قوله : ﴿ كما نسوا ﴾ على أنّ حرمانهم من رحمة الله كان مماثلاً لإهمالهم التّصديق باللّقاء ، وهي مماثلَة جزاءِ العملِ للعمل ، وهي مماثلة اعتباريّة ، فلذلك يقال : إنّ الكاف في مثله للتّعليل ، كما في قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : 198] وإنّما التّعليل معنى يتولّد من استعمال الكاف في التّشبيه الاعتباري ، وليس هذا التّشبيه بمجاز ، ولكنّه حقيقة خفيّة لخفاء وجه الشّبه .

وقوله : ﴿ كما نسوا ﴾ ظرف مستقرّ في موضع الصّفة لموصوف محذوف دلّ عليه ﴿ ننساهُم ﴾ أي نسياناً كمَا نَسُوا .

و(مَا) في : ﴿ كما نسوا ﴾ وفي ﴿ وما كانوا ﴾ مصدريّة أي كنسيانهم اللّقاء وكجَحْدهم بآيات الله .

ومعنى جحد الآيات تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ في سورة الأنعام (33) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(221/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51) ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هي اللعب ثم تأتي له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تُوَجَّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تُوجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كي يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن

يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضرًّا . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب

.

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ . لا ؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبَهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوَجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئًا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذي يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا

.

ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقَب ؛ لأن الحَكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإِنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهي طاولة ويترك الشغل الذي ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهي ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذي كان يجب أن يُستغل في طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتي من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير إذن فاللهو طاقة معطلة . ﴿ اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذي يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه : ﴿ . . . فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : 51]

فهل يعني قوله عز وجل : ﴿ نَنسَاهُمْ ﴾ أنه يتركهم لما يفعلون ؟ .

لا ، بل تأخذهم جهنم لتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه – سبحانه – لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هي المكان الذي يعد فيه الإنسان مكانه في الآخرة ، فإن أراد مكاناً في عليين فعليه أن يؤدي التكليف الذي يعطيه مكانه في عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدي العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذي يحدد مكانه في الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازي الخلق استبدادا بهم وافتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجازي الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذي يُنزله لنا الحق قرآناً ينذرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا في الآخرة مواقع مشرفة . ﴿ الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : 51]

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فالآيات إما آيات كونية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر . . . ﴾ [فصلت : 37]

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ﴾ [الإسراء : 59]

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التي شاهدوها قبل أن يأتي التكليف ، فهم عاشوا الليل والنهار . وتنفسوا الهواء ، واستمتعوا بدفء الشمس ، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطي الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة ، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى . وحين جاء لهم الموكب الرسالي جحدوا آيات المعجزات التي تدل على صدق الرسل . وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التي تحمل المنهج . إذن فلا عذر لهم في شيء من ذلك أن الحق يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " الَّذِينَ " يجوز أن تكون في محل جر ، وهو الظاهر ، نعتاً أو بدلاً من " الكافرين " ، ويجوز أن تكُون رفعاً أو نصباً على القَطْعِ .

قوله : ﴿ اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً ﴾

فيه وجهان :

الأول : أَنَّهُم اعتَقَدُوا فيه أن يلاعبوا فيه ، وما كانوا فيه مجدين .

والثاني : أَنَّهُم اتخذوا اللّهو واللّعب ديناً لأنفسهم ، وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة ، وأخواتها ، والمكاء والتصدية حول البَيْتِ ، وسائر الخصالِ الذّميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهليّة .

قال ابن عباس : "يُريدُ المستهزئين المقتسمين " .

(226/270)

قوله : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ عطف على الصّلة ، وهو مجاز ؛ لأنَّ الحياة لا تغرّ في الحقيقةِ ، بل المرادُ أَنَّهُ حصل الغرور عند هذه الحياة الدُّنيا ؛ لأنَّ الإنسان يطمع في طول العُمْرِ ، وحسن العيش ، وكَثْرةِ المَالِ ، وقوَّة الجاهِ ، فتشتدُّ رغبته في هذه الأشياء ، ويصير محجوباً عن طلب الدين غَارِقاً في طلب الدنيا .

قوله : " فالْيَوْم " منصوب بما بعده .

وقوله " كَمَا " نعت لمصدر محذوف ، أي : ينساهم نسياناً كنسيانهم لقاءه أي بر تكهم .

و " ما " مصدرية ويجوز أن تكون الكاف للتَّعليل ، أي : تركناهم لأجل نسيانهم لقاء يومهم .

و " يَوْمِهِمْ " يجوز أن يكون المفعول متّسعاً فيه ، فأضيف المصدر إليه كما يُضَافُ إلى المفعول به ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً ، والإضافة إلى ظرف الحدثِ أي : لقاء العذاب في يومهم .

قوله : " وَمَا كَانُوا " " ما " مصدرية نسقاً على أختها المجرورة بالكاف أي : وكانوا بآياتنا يجحدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 135.136 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

كما تركوا أمره وضيَّعوه تركهم في العقوبة ، ولا (. . .) فيما يشكون ، فتأتي عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب .

ذلك جزاءٌ لِمَنْ يعرف قَدْرَ الوصلة في أوقات المهلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 539 ﴾

(227/270)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر نسيانهم وجحودهم ، ذكر حالهم عند ذلك فقال : ﴿ ولقد ﴾ أي فعلوا ذلك والحال أنا وعزتنا قد ﴿ جئناهم ﴾ أي على عظمتنا بإتيان رسولنا إليهم عنا ﴿ بكتاب ﴾ ليس هو موضعاً للجحد أصلاً ؛ ثم بين ذلك في سياق مرغب للمؤالف مرهب للمخالف فقال : ﴿ فصلناه ﴾ أي بينا معاينة لم ندع فيها لبساً ، وجعلنا لآياته فواصل حال كون ذلك التفصيل ﴿ على علم ﴾ أي عظيم ، فجاء معجزاً في نظمه ومعناه وسائر علمه ومغزاه ، وحال كونه ﴿ هدى ﴾ أي بياناً ﴿ ورحمة ﴾ أي إكراماً ، ثم خص المنتفعين به لأن من لا ينتفع بالشيء فهو كالمعدوم في حقه فقال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي فيهم

قابلية ذلك ، وفيه رجوع إلى وصف الكتاب الذي هو أحد مقاصد السورة على أبداع وجه في أحسن أسلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 39 ﴾

(228/270)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف ، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصير سماع تلك المناظرات حاملاً للمكلف على الحذر والاحتراز وداعياً له إلى النظر والاستدلال ، بين شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته فقال : ﴿ وَلَقَدْ جئناهم بكتاب ﴾ وهو القرآن ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أي ميزنا بعضه عن بعض ، تمييزاً يهدي إلى الرشد ويؤمن عن الغلط والخبط ، فأما قوله : ﴿ على عِلْمٍ ﴾ فالمراد أن ذلك التفصيل والتمييز إنما حصل مع العلم التام بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد المتكاثرة ، والمنافع المتزايدة ، وقوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قال الزجاج : ﴿ هُدًى ﴾ في موضع نصب أي فصلناه هادياً وذا رحمة وقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يدل على أن القرآن جعل هدى لقوم مخصوصين ، والمراد أنهم هم الذين اهتدوا به دون غيرهم

فهو كقوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] واحتج أصحابنا بقوله : ﴿ فصلناه على عِلْمٍ ﴾ على أنه تعالى عالم بالعلم ، خلافاً لما يقوله المعتزلة من أنه ليس لله علم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 78 ﴾

(229/270)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جئناهم بكتاب ﴾

أي : أكرمناهم بالقرآن ﴿ فصلناه على عِلْمٍ ﴾ يعني : بيّنا فيه الآيات ، الحلال والحرام ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أي : بعلم منا ﴿ هُدًى ﴾ يعني : بياناً من الضلالة .

ويقال : جعلناه هادياً .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : نعمة ونجاة من العذاب ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لمن آمن وصدق به .

يعني : أكرمناهم بهذا الكتاب فلم يؤمنوا ولم يصدقوا .

وإنما أضاف إلى المؤمنين لأنهم هم الذين يهتدون به ويستوجبون به الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(230/270)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ ﴾ يعني القرآن .

﴿ فصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بيَّنَّا ما فيه من الحلال والحرام على علم بالمصلحة .

والثاني : ميزنا به الهدى من الضلالة على علم بالثواب والعقاب .

﴿ هُدىً وَرَحْمَةً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الهدى البرهان .

والثاني : أن الهدى الإرشاد ، والرحمة : اللطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب ﴾ الآية ،

ذكر الإعذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم واللام في قوله : ﴿ لقد ﴾ لام قسم والضمير في ﴿ جئناهم ﴾ لمن تقدم ذكره ، وقال يحيى بن سلام تم الكلام في ﴿ يجحدون ﴾ وهذا الضمير لمكذبي محمد صلى الله عليه وسلم ابتداء كلام آخر ، والمراد بالكتاب القرآن العزيز .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنزلة على تأويل من يرى الضمير في ﴿ جئناهم ﴾ لمن تقدم ذكره ، وقرأ جمهور الناس " فصلناه " من تفصيل الآيات وتبيينها ، وقرأ ابن محيصن " فضلناه " بضاد منقوطة ، و ﴿ على علم ﴾ معناه : عن بصيرة واستحقاق لذلك ، وقوله ﴿ هدى ورحمة ﴾ مصدران في موضع الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(231/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب ﴾

يعني : القرآن .

﴿ فصَّلناه ﴾ أي : بينَّاه بإيضاح الحق من الباطل .

وقيل : فصَّلناه فصولاً : مرة بتعريف الحلال ، ومرة بتعريف الحرام ، ومرة بالوعد ، ومرة بالوعيد ، ومرة بحديث الأمم .

وفي قوله : ﴿ على علم ﴾ قولان .

أحدهما : على علم منا بما فصَّلناه .

والثاني : على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه .

وقرأ ابن السميفع ، وابن محيصن ، وعاصم ، والجحدري ، ومعاذ القارىء : "فضَّلناه" بضاد معجمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾

يعني القرآن .

﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أي بيناه حتى يعرفه من تدبره .

وقيل : "فَصَّلْنَاهُ" أنزلناه متفرّقاً .

﴿ على عِلْمٍ ﴾ مِنا به ، لم يقع فيه سهو ولا غلط .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قال الزجاج : أي هاديا وذا رحمة ، فجعله حالاً من الهاء التي في "فصلناه" .

قال الزجاج : ويجوز هدًى ورحمةٌ ، بمعنى هو هدى ورحمة .

وقيل : يجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على البدل من كتاب .

وقال الكسائي والفرّاء : ويجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على النعت لكتاب .

قال الفرّاء : مثل ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : 92 و155] .

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(232/270)

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾

الضمير في ﴿ ولقد جئناهم ﴾ عائد على من تقدم ذكره ويكون الكتاب على هذا جنساً أي ﴿ بكتاب ﴾ إلهي إذ الضمير عام في الكفار ، وقال يحيى بن سلام الضمير لمكذبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابتداء كلام وتمّ الكلام عند قوله ﴿ يجحدون ﴾ والكتاب هو القرآن و ﴿ فصلناه ﴾ عالمين كيفية تفصيله من أحكام ومواعظ وقصص وسائر معانيه ، وقيل : ﴿ فصّلناه ﴾ بإيضاح الحق من الباطل ، وقيل : نزلناه في فصول مختلفة .

وقرأ ابن محيصن والجحدري فضلناه بالضاد المنقوطة والمعنى فضلناه على جميع الكتب عالمين بأنه أهل للتفضيل عليها وفي التحرير أنه فضل على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلة لم تكن في غيره و ﴿ فصّلناه ﴾ صفة لكتاب وعلى علم الظاهر أنه حال من فاعل ﴿

فَصَّلْنَاهُ ﴾ وقيل التقدير مشتملاً على علم فيكون حالاً من المفعول وانتصب ﴿ هدى ورحمة ﴾ على الحال ، وقيل مفعول من أجله ، وقرىء بالرفع أي هو ﴿ هدى ورحمة ﴾ ، وقرأ زيد بن عليّ هدى ورحمة بالخفض على البدل من كتاب أو النعت وعلى النعت لكتاب خرّجه الكسائي والفرّاء رحمهما الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(233/270)

وقال ابن كثير :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ، كما قال تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ [مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] ﴾ (1) الآية [هود : 1] .

وقوله : ﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (2) أي : على علم منا بما فصلناه به ، كما قال تعالى : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : 166]

قال ابن جرير : وهذه الآية مردودة على قوله : ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ

حَرَجٌ مِنْهُ [لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (3)] ﴾ [الأعراف : 2] ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ [فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ] ﴾ (4) الآية .

وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ، ولا دليل على ذلك ، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة ، ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدار الدنيا ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [الإسراء : 15] ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ ﴾ أي : ما وُعِدَ من العذاب والنكال والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 425 ﴾

(234/270)

وقال أبو السعود :

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه ﴾

أي بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ ، والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أو للمعاصرين منهم والكتاب هو القرآن ﴿ على علم ﴾ حال من فاعل فصلناه أي عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيما أو من مفعوله أي مشتملا على علم كثير ، وقرىء

فضلناه أي على سائر الكتب عالمين بفضله ﴿ هدى ورحمة ﴾ حال من المفعول ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم المغتنمون لآثاره المقتبسون من أنواره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(235/270)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ جئناهم بكتاب فَصَّلْنَاهُ ﴾

بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة ، والضمير للكفرة قاطبة ، وقيل : لهم وللمؤمنين ، والمراد بالكتاب الجنس ، وقيل : للمعاصرين من الكفرة أو منهم ومن المؤمنين . والكتاب هو القرآن وتنوينه للتفخيم .

وقد نظم بعضهم ما اشتمل عليه من الأنواع بقوله

: حلال حرام محكم متشابه . . .

بشير نذير قصة عظة مثل

والمراد منع الخلو كما لا يخفى ﴿ على عِلْمٍ ﴾ منا بوجه تفصيله وهو في موضع الحال من فاعل ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ وتنكيره للتعظيم أي عالمين على أكمل وجه بذلك حتى جاء حكيماً

متقناً ، وفي هذا كما قيل دليل على أنه سبحانه يعلم بصفة زائدة على الذات وهي صفة العلم وليس علمه سبحانه عين ذاته كما يقوله الفلاسفة ومن ضاهاهم وللمناقشة فيه مجال ، ويجوز أن يكون في موضع الحال من المفعول أي مشتملاً على علم كثير .

وقرأ ابن محيصن ﴿ فضلناه ﴾ بالضاد المعجمة ، وظاهر كلام البعض أن الجار والمجرور على هذه القراءة في موضع الحال من الفاعل ولا يجعل حالاً من المفعول أي فضلناه على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك ، وجوز بعضهم أن يجعل حالاً من المفعول على نحو ما مر ؛ وقيل : إن ﴿ نَّفْسَكَ على ﴾ للتعليل كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : 185] وهي متعلقة بفضلناه أي فضلناه على سائر الكتب لأجل علم فيه أي لاشتماله على علم لم يشتمل عليه غيره منها ، وقيل : إن ﴿ على ﴾ في القراءتين متعلقة بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿ جئناهم ﴾ أي جئناهم بذلك حال كونهم من ذوي العلم القابلين لفهم ما جئناهم به فتأمل .

(236/270)

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ حال من مفعول ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ وجوز أن يكون مفعولاً لأجله وأن يكون حالاً من الكتاب لتخصيصه بالوصف ، والكلام في وقوع مثل ذلك حالاً مشهور ،

وقرىء بالجر على البدلية من ﴿ عِلْمٍ ﴾ وبالرفع على إضمار المبتدأ أي هو هدى عظيم ورحمة كذلك ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون (بنواره) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(237/270)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

الواو في ﴿ ولقد جئناهم ﴾ عاطفة هذه الجملة على جملة ﴿ ونادى أصحاب النّار أصحابَ الجنّة ﴾ [الأعراف : 50] ، عطف القصّة على القصّة ، والغرضِ على الغرض ، فهو كلام أنف انتقل به من غرض الخبر عن حال المشركين في الآخرة إلى غرض وصف أحوالهم في الدّنيا ، المستوجبين بها لما سيلاقونه في الآخرة ، وليس هو من الكلام الذي عقب الله به كلام أصحاب الجنّة في قوله : ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ [الأعراف : 51] لأنّ قوله هنا ﴿ هل ينظرون إلاّ تأويله ﴾ [الأعراف : 53] إلخ ، يقتضي أنّه حديث عن إعراضهم عن القرآن في الدّنيا ، فضمير الغائبين في قوله : ﴿ جئناهم ﴾ عائد إلى الذين كذّبوا في قوله : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا

تفتح لهم أبواب السماء ﴾ [الأعراف : 40] الآية .

والمراد بالكتاب القرآن .

والباء في قوله : ﴿ بكتاب ﴾ لتعدية فعل ﴿ جئناهم ﴾ ، مثل الباء في قوله : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة : 17] فمعناه : أجأناهم كتاباً ، أي جعلناه جاء يا إياهم ، فيؤول إلى معنى أبلغناهم إياه وأرسلناه إليهم .

وتأكيد هذا الفعل بلام القسم و(قَدْ) إمّا باعتبار صفة (كتاب) ، وهي جملة ﴿ فصّلناه على علم هدى ورحمة ﴾ فيكون التّأكيد جارياً على مقتضى الظّاهر ، لأنّ المشركين ينكرون أن يكون القرآن موصوفاً بتلك الأوصاف ، وإمّا تأكيد لفعل ﴿ جئناهم بكتاب ﴾ وهو بلوغ الكتاب إليهم فيكون التّأكيد خارجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، بتنزيل المبلَّغ إليهم منزلة من ينكر بلوغ الكتاب إليهم ، لأنّهم في إعراضهم عن النّظر والتّدبر في شأنه بمنزلة من لم يبلغه الكتاب ، وقد يناسب هذا الاعتبار ظاهر قوله بعد : ﴿ يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ [الأعراف : 53] .

وتنكير (كتاب) ، وهو معروف ، قصد به تعظيم الكتاب ، أو قصد به النّوعيّة ، أي ما هو إلاّ كتاب كالكتب التي أنزلت من قبل ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ في طالع هذه السّورة (2) .

﴿ وفصلناه ﴾ أي بيّناه أي بيّنّا ما فيه ، والتّفصيل تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ في سورة الأنعام (55) .

وعلى عِلْمٍ ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال من فاعل ﴿ فصّلناه ﴾ أي حال كوننا على علم ، و(على) للاستعلاء المجازي ، تدلّ على التّمكّن من مجرورها ، كما في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] وقوله : ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ في سورة الأنعام (57) .

ومعنى هذا التّمكنِ أن علم الله تعالى ذاتي لا يعْزُب عنه شيء من المعلومات .

وتنكير ﴿ عِلْم ﴾ للتّعظيم ، أي عالمين أعظمَ العلم ، والعظمة هنا راجعة إلى كمال الجنس في حقيقته ، وأعظم العلم هو العلم الذي لا يحتمل الخطأ ولا الخفاء أي عالمين علماً ذاتياً لا يتخلّف عنّا ولا يخْتلف في ذَاته ، أي لا يحتمل الخطأ ولا التّردّد .

و﴿ هدى ورحمة ﴾ حال من ﴿ كتاب ﴾ .

أو من ضميره في قوله : ﴿ فصّلناه ﴾ .

ووصف الكتاب بالمصدرين ﴿ هدى ورحمة ﴾ إشارة إلى قوّة هديه النّاس وجلب

الرّحمة لهم .

وجملة ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ إشارة إلى أنّ المؤمنين هم الذين توصّلوا للاهتداء به والرحمة .

وأن من لم يؤمنوا قد حُرموا الاهتداء والرّحمة .

وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة (2) : ﴿ هدى للمتقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(239/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) ﴾

أي لا عذر لهم في شيء من هذا الجحود ؛ لأن الكتاب مفصل ، وقد يقولون : إن الكتاب الطارئ علينا ، وكذلك الرسول الذي جاء به . إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة ؟ لقد جحدوها أيضاً . ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ ﴾ .

و ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أي أنه سبحانه لم ينزل كلاما مجملاً أو مبهماً ، لا ، بل فيه تفصيل العليم الحكيم ، أنه فصل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقصصه حتى جاء قيما غير ذي عوج ،

وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان .

إنه حينما يأتي إلينا من يستفتينا في أي أمر ويحاول أن يلوي في الكلام لنأتي له بفتوى تبرر له ما يفعله ، فنحن نقول له : ليس لدينا فتوى مفصلة ؛ لأن الفتاوي التي عندنا كلها جاهزة ، ولك أن تدخل بمسألتك في أي فتوى . ﴿ . . . فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 52]

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا ، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء ؟

لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا في سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2]

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع . وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . ﴾ [محمد : 16]

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجد الحق يرد عيلهم بقوله سبحانه : ﴿ . . . أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 16]

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . ﴾ [فصلت : 44]

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل في بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت في الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد ، فتضم قبضتك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة من كل تدفئ يديك . وكذلك حين يأتي لك كوب من الشاي الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتي له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتي بحرارة ليديك ، وتأتي بالبرودة لكوب الشاي ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدي به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة غير طبيعي ، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبي وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ما ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(241/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الضَّميرُ في " جِئْنَاهُم " عائد على كل ما تقدم من الكَفَرةِ ، والمراد بـ " كتاب " الجنس .

وقيل : يعود على مَنْ عاصر النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالكتاب القرآن ، والباء في " بكتاب " للتعدية فقط .

قوله : " فَصَّلْنَاهُ " صفة لـ " كتاب " ، والمراد بتفصيلة إيضاحُ الحقِّ من الباطل ، أو تنزيله في فصول مختلفة كقوله : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء : 106] .

وقرأ الجحدري وابن محيصن بالضَّادِ المعجمة أي : فضَّلْناه على غيره من الكتب السماوية .

قوله : " على عِلْمٍ " حال إمَّا من الفاعل ، أي : فصَّلناه عالمين بتفصيله ، وإمَّا من المفعول أي : فَصّلناه مشتملاً على علم ونكَّر " عِلْم " تعظيماً .

قوله : " هُدىً ورَحْمَةً "

الجمهور على النصب وفيه وجهان :

أحدهما : أنَّهُ مفعول من أجله أي : فصَّلْناه لأجل الهداية والرحمة .

والثاني : أنَّهُ حال ، إمّا من "كتاب" وجاز ذلك لتخصصه بالوصف ، وإمّا من مفعول " فصَّلناه " .

وقرأ زَيْدُ بْنُ عَلِيّ : " هدىً ورحمةٍ " بالجر ، وخرَّجه الكسائي والفراء على النعت لـ " كتاب " ، وفيه المذاهب المشهور في نَحْوِ : [" مررت] برجل عَدْلٍ " ، وخرّجه غيرهما على البدل منه .

وقرئ : " هُدىً ورَحْمَةً " بالرفع على إضمار المبتدأ .

وقال مكي : " وأجَازَ الفرَّاءُ والكِسَائِيُّ " هُدىً ورَحْمَة " بالخفض ، ويجعلانه بَدَلاً من " علم " ، ويجوز " هُدىً ورحمةٌ " على تقدير : " هو هدىً ورحمةٌ " ، وكأنَّهُ لم يطَّلع على أنَّهُمَا قراءتان مَرْوِيَّتانِ حتّى نسبهما على طريق الجواز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 136 . 137 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) ﴾

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابلوه بالتصديق وصاحَبُوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد ، ونالوا لضياء بقرب الوداد ، ووصلوا في الدنيا والعقبى إلى جميل المراد ، ولكنه – سبحانه أَبَى القسمة في نصيبهم إلا الشِّقْوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 539 ﴾

(242/270)

قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصف الكتاب وذكر المنتفع به ، تشوفت النفس إلى السؤال عن حال من لا يؤمن به وهم الجاحدون ، فقال مشيراً إلى أن حالهم في وقوفهم عن المتابعه بعد العلم بصدقه بعجزهم عنه كحال من ينتظر أن يأتي مضمون وعيده : ﴿ هل ينظرون ﴾ أي ينتظرون ، ولكنه لما لم يكن لهم قصد في ذلك بغير ما يفهمه الحال ، جرد الفعل ولإفادة أنه بتحقيق إتيانه

في غاية القرب حتى كأنه مشاهد لهم ﴿ إلا تأويله ﴾ أي تصيير ما فيه من وعد ووعيد إلى مقاره وعواقب أمره التي أخبر أنه يصير إليها .

ولما كان كأنه قيل : ما يكون حالهم حينئذ ؟ قال : التحسر والإذغان حيث لا ينفع ، والتصديق والإيمان حين لا يقبل ، وعبر عن ذلك بقوله : ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ أي بلوغ وعيده إلى مبلغه في الدنيا أو في الآخرة ؛ ولما قدم اليوم اهتماماً به ، أتبعه العامل فيه فقال : ﴿ يقول الذين نسوه ﴾ أي تركوه ترك المنسي ، ويجوز أن يكون عد ذلك نسياناً لأنه ركز في الطباع أن كل ملك لا بد له من عرض جنده ومحاسبتهم ، فلما أعرضوا عن ذلك فيما هو من جانب الله عده نسياناً منهم لما ركز في طباعهم .

ولما كان نسيانهم في بعض الزمان السابق ، أدخل الجار فقال ﴿ من قبل ﴾ أي قبل كشف الغطاء محققين للتصديق ﴿ قد جاءت ﴾ أي فيما سبق من الدنيا ﴿ رسل ربنا ﴾ أي المحسن إلينا ﴿ بالحق ﴾ أي المطابق لهذا الواقع الذي نراه مما كانوا يتوعدوننا به ، فما صدقوا حتى رأوا فلم يؤمنوا بالغيب ولا أوقعوا الإيمان في دار العمل فلذا لم ينفعهم .

ولما وصفوه سبحانه بالإحسان لما كشف الحال عنه من حلمه وطول أناته ، سببوا عن ذلك قولهم : ﴿ فهل لنا من شفعاء ﴾ أي في هذا اليوم ، وكأنهم جمعوا الشفعاء لدخولهم في جملة الناس في الشفاعة العظمى لفصل القضاء ؛ ثم سببوا عن ذلك تحقيق كونهم لهم أي بالخصوص فقالوا ﴿ فيشفعوا لنا ﴾ أي سواء كانوا من شركائنا الذين كنا نتوهم فيهم النفع أو من غيرهم ليغفر لنا ما قدمنا من الجرائم ﴿ أو نرد ﴾ أي إن لم يغفر لنا إلى الدنيا التي هي دار العمل ، والمعنى أنه لا سبيل لنا إلى الخلاص إلا أحد هذين السببين ؛ ثم سببوا عن جواب هذا الاستفهام الثاني قولهم : ﴿ فنعمل ﴾ أي في الدنيا ﴿ غير الذي كنا ﴾ أي بجبلاتنا من غير نظر عقلي ﴿ نعمل ﴾ .

ولما كان من المعلوم عند من صدق القرآن وعلم مواقع ما فيه من الأخبار أنه لا يكون لهم شيء من ذلك ، كانت نتيجته قوله : ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ أي فلا احد أخسر منهم ﴿ وضل ﴾ أي غاب وبطل ﴿ عنهم ما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ، لا يمكنهم الرجوع عنه إلا عند عند رؤية البأس ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون في الدنيا من الكذب في أمره لقصد العناد للرسل من ادعاء أن الأصنام تشفع لهم ومن غير ذلك من أكاذيبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 39 . 40 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين إزاحة العلة بسبب إنزال هذا الكتاب المُفَصَّل الموجب للهداية والرحمة ، بين بعده حال من كذب فقال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ والنظر ههنا بمعنى الانتظار والتوقع .

فإن قيل : كيف يتوقعون وينتظرون مع جَحدِهم له وإنكارِهم ؟

قلنا : لعل فيهم أقواماً تشككوا وتوقفوا ، فلهذا السبب انتظروه وأيضاً إنهم وإن كانوا جاحدين إلا أنهم بمنزلة المنتظرين من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالةَ ، وقوله : ﴿ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ قال الفراء الضمير في قوله : ﴿ تَأْوِيلَهُ ﴾ للكتاب يريد عاقبة ما وعدوا به على ألسنة الرسل من الثواب والعقاب .

(244/270)

والتأويل مرجع الشيء ومصيره من قولهم آل الشيء يؤل وقد احتج بهذه الآية من ذهب إلى قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ [آل عمران : 7] أي ما يعلم عاقبة الأمر فيه إلا الله وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ يريد يوم القيامة ، قال الزجاج قوله : ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بقوله : ﴿ يقُولُ ﴾ وأما قوله : ﴿ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ معناه أنهم صاروا في الإعراض عنه بمنزلة من نسيه ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ نَسُوهُ ﴾ أي تركوا العمل به والإيمان به وهذا كما

ذكرنا في قوله : ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا ﴾ [الأعراف : 51] ثم بين تعالى أن هؤلاء الذين نسوا يوم القيامة يقولون : ﴿ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبّنَا بالحق ﴾ والمراد أنهم أقروا بأن الذي جاءت به الرسل من ثبوت الحشر ، والنشر ، والبعث ، والقيامة ، والثواب ، والعقاب ، كل ذلك كان حقاً ، وإنما أقروا بحقيقة هذه الأشياء لأنهم شاهدوها وعاينوها ، وبين الله تعالى أنهم لما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ والمعنى إنه لا طريق لنا إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الشديد إلا أحد هذين الأمرين .

وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب أو يردنا الله تعالى إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا نعمل يعني نوحد الله تعالى بدلاً عن الكفر ونطيعه بدلاً عن المعصية .

فإن قيل : أقالوا هذا الكلام مع الرجاء أو مع اليأس ؟ وجوابنا عنه مثل ما ذكرناه في قوله : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ [الأعراف : 50] ثم بين تعالى بقوله : ﴿ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أن الذين طلبوه ، لا يكون لأن ذلك المطلوب لو حصل لما حكم الله عليهم بأنهم قد خسروا أنفسهم .

ثم قال : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يريد أنهم لم ينتفعوا بالأصنام التي عبدوها في الدنيا ولم ينتفعوا بنصرة الأديان الباطلة التي بالغوا في نصرتها ، قال الجبائي : هذه الآية تدل على حكمين

الحكم الأول

قال : الآية تدل على أنهم كانوا في حال التكليف قادرين على الإيمان والتوبة فلذلك سألوا الرد ليؤمنوا ويتوبوا ولو كانوا في الدنيا غير قادرين كما يقوله المجبرة لم يكن لهم في الرد فائدة ولا جاز أن يسألوا ذلك .

الحكم الثاني

أن الآية تدل على بطلان قول المجبرة والذين يزعمون أن أهل الآخرة مكلفون لأنه لو كان كذلك لما سألوا الرد إلى حال وهم في الوقت على مثلها بل كانوا يتوبون ويؤمنون في الحال ، فبطل ما حكي عن النجار وطبقته من أن التكليف باق على أهل الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 78 . 79 ﴾

(246/270)

وقال السمرقندى :

ثم قال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾

عاقبة ما وعدهم الله .

وهو يوم القيامة .

﴿ يَقُولُ الذين نَسُوهُ ﴾ يقول : الذين تركوا العمل والإيمان ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : في الدنيا

﴿ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ وذلك أنهم حين عاينوا العذاب ، وذكروا قول الرسل ،

وندموا على تكذيبهم إياهم .

يقولون : ﴿ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ .

أي بأمر البعث فكذبناهم ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا ﴾ لأنهم يرون الشفعاء

يشفعون للمؤمنين ، فيقال لهم : ليس لكم شفيع .

فيقولون : ﴿ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : هل نرد إلى الدنيا فنصدق الرسل

ونعمل غير الشرك ﴿ فَنَعْمَلَ ﴾ صار نصباً لأنه جواب الاستفهام ، وجواب الاستفهام إذا

كان بالفاء فهو نصب .

وكذلك جواب الأمر والنهي .

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : قد غبنوا حظ أنفسهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا

كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يكذبون بأن الآلهة شفعاؤهم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(247/270)

وقال الثعلبى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ينتظرون ﴿ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ أي ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار .

قال قتادة : تأويله ثوابه . وقال مجاهد : جزاؤه . وقال السدي : عاقبة . وقال ابن زيد : حقيقته ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا ﴾ اليوم ﴿ مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ قال الله تعالى ﴿ قَدْ خسروا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ ﴾ زال وبطل ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(248/270)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾

أي هل ينظرون ، فعبر عن الانتظار بالنظر ، ﴿ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ أي تأويل القرآن ، وفيه وجهان :

أحدهما : عاقبته من الجزاء ، قاله الحسن .

والثاني : ما فيه من البعث والنشور والحساب .

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : القضاء به ، قاله الحسن .

الثاني : عاقبة ما وعدهم الله به في الدنيا والآخرة ، قال الكلبي .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معنى نسوه أعرضوا عنه فصار كالمنسي ، قاله أبو مجلز .

والثاني : تركوا العمل به ، قاله الزجاج .

﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنبياء الله في الدنيا بكتبه المنذرة .

والثاني : الملائكة عند المعاينة بما بشروهم به من الثواب العقاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾

﴿ ينظرون ﴾ معناه ينتظرون ، و" التأويل " في هذا الموضع بمعنى المآل والعاقبة ، قاله قتادة ومجاهد وغيرهما ، وقال ابن عباس : ﴿ تأويله ﴾ مآله يوم القيامة ، وقال السدي : ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضاً ، والمراد هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدروهم عنه وهم يعتقدون مآله جميلاً لهم ؟

فأخبر الله عز وجل أن مآله يوم يأتي يقع معه ندمهم ، ويقولون تأسفاً على ما فاتهم من الإيمان لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحقن فالتأويل على هذا مأخوذ من آل يؤول ، وقال الخطابي : أولت الشيء رددته إلى أوله فاللفظة مأخوذة من الأول ، حكاه النقاش .

قال القاضي أبو محمد : وقد قيل أولت معناه طلبت أول الوجوه والمعاني و﴿ نسوه ﴾ في الآية يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك ويقرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعتب لهم فيه ، وقرأت فرقة : " أو نردُّ " برفع الفعل على تقدير أو هل نرد وبنصب " فنعملَ " في جواب هذا الاستفهام الأخير ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن "

أو نردُّ فنعملُ " بالرفع فيهما على عطف " فنعمل " ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة " أو نردَّ فنعمل " ونصب نرد في هذه القراءة إما على العطف على قوله : ﴿ فيشفعوا ﴾ وإما بما حكاه الفراء من أن " أو تكون " بمعنى حتى كنحو قول امرىء القيس :

أو نموت فنعذرا . . . ويجيء المعنى ، أن الشفاعة تكون في أن يردوا ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(250/270)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾

قال ابن عباس : تصديق ما وُعدوا في القرآن ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه ﴾ أي : تركوه ﴿ من قبلُ ﴾ في الدنيا ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي : بالبعث بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ أو نُرَدُّ ﴾ قال الزجاج : المعنى : أو هل نُردُّ .

وقوله : ﴿ فنعملَ ﴾ منصوب على جواب الفاء للاستفهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(251/270)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ بالهمز ، من آل .

وأهل المدينة يخفّفون الهمزة .

والنظر : الانتظار ، أي هل ينتظرون إلا ما وعدوا به في القرآن من العقاب والحساب .

وقيل : "ينظرون" من النظر إلى يوم القيامة .

فالكناية في "تأويله" ترجع إلى الكتاب .

وعاقبة الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب .

وقال مجاهد : "تأويله" جزاؤه ، أي جزاء تكذيبهم بالكتاب .

قال قتادة : "تأويله" عاقبته .

والمعنى متقارب .

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أي تبدو عواقبه يوم القيامة .

و"يوم" منصوب بيقول ، أي يقول الذين نسوه من قبل يومَ يأتي تأويله .

﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ ﴾ استفهام فيه معنى التمني .

﴿ فَيَشْفَعُواْ ﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام .

﴿ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ﴾ قال الفرّاء : المعنى أو هل نردّ .

﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ قال الزجاج : نردّ عطف على المعنى ، أي هل يشفع لنا أحد أو نردّ .

وقرأ ابن إسحاق "أو نرد فنعمل" بالنصب فيهما .

والمعنى إلا أن نرد ؛ كما قال :

فقلتُ له لا تَبْكِ عينُك إنما . . .

نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرَا

وقرأ الحسن "أو نرد فنعمل" برفعهما جميعاً .

﴿ قَدْ خسروا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي فلم ينتفعوا بها ، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسِرها .

وقيل : خسروا النّعَم وحَظّ أنفسهم منها .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي بطل ما كانوا يقولون من أنّ مع الله إلهاً آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ هل ينظرون ﴾ يعني ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها ﴿ إلا تأويله ﴾ يعني هل ينظرون ويتوقعون إلا ما وعدوا به على ألسنة الرسل من العذاب وأن مصيرهم إلى النار والتأويل ما يؤول إليه الشيء ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء وما تؤول إليه أمورهم ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ يعني : يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والإقرار .

والمعنى أن الكفَّار أقرو بأن الذي جاءت به الرسل من الإيمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وإنما أقروا بهذه الأشياء لأنهم شاهدوها معاينة وذلك حين لا ينفعهم ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ يعني أنه ليس لنا طريق إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والإيمان والمعاصي بالطاعة والإنابة ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ يعني أن الذي طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم وإهلاكهم أنفسهم لأنهم كانوا في الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة

الله ولو رُدوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يعني وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون في الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم فلما أفضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعملوا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(253/270)

وقال أبو حيان :

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾

أي مآل أمره وعاقبته قاله قتادة ومجاهد وغيرهما ، قال ابن عباس مآله يوم القيامة .

وقال السدّي في الدنيا كوقعة بدر ويوم القيامة أيضاً ، وقال الزمخشري ما يؤول إليه من تبيين صدقه وظهور صحته ما نطق به من الوعد الوعيد والتأويل مادته همزة وواو ولام من آل يؤول ، وقال الخطابي : أوّلت الشيء رددته إلى أوّله فاللفظة مأخوذة من الأول انتهى وهو خطأ لاختلاف المادتين .

﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل إلينا ربّنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ أي يظهر عاقبة ما أخبر به من

الوعد والوعيد وذلك يوم القيامة يسأل تاركوا أتباع الرسول هل لنا من شفعاء سؤالاً عن وجه الخلاص في وقت أن لا خلاص وفي الكلام حذف أي لقد جاءت رسل ربّنا بالحق ولم نصدقهم أو ولم نتبعهم ﴿ فهل لنا من شفعاء ﴾ والرّسل هنا الأنبياء أخبروا يوم القيامة أنّ الذي جاءتهم به رسلهم هو الحق .

(254/270)

وقيل : ملائكة العذاب عند المعاينة ما أنذروا به ، وقرأ الجمهور ﴿ أو نرد ﴾ برفع الدّال فنعمل بنصب اللام عطف جملة فعلية على جملة اسمية وتقدّمهما استفهام فانتصب الجوابان أي هل شفعاء لنا فيشفعوا لنا في الخلاص من العذاب أو هل نرد إلى الدّنيا فنعمل عملاً صالحاً ، وقرأ الحسن : فيما نقل الزمخشري بنصب الدال ورفع اللام ، وقرأ الحسن فيما نقل ابن عطية وغيره برفعهما عطف ﴿ فنعمل ﴾ على ﴿ نرد ﴾ ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة بنصبهما فنصب ﴿ أو نرد ﴾ عطفاً على ﴿ فيشفعوا لنا ﴾ جواباً على جواب فيكون الشفعاء في أحد أمرين إما في الخلاص من العذاب وإما من الرّد إلى الدنيا لاستئناف العمل الصالح وتكون الشفاعة قد انسحبت على الردّ أو الخلاص و ﴿ فنعمل ﴾ عطف على فنرد ويحتمل أن يكون ﴿ أو نرد ﴾ من باب لألزمنك أو تقضيني

حقي على تقدير من قدّر ذلك حتى تقضيني حقي أو كي تقضيني حقي فجعل اللزوم مغياً بقضاء حقه أو معلولاً له لقضاء حقه وتكون الشفاعة إذ ذاك في الرد فقط وأما على تقدير سيبويه ألا إني لألزمنك إلا أن تقضيني فليس يظهر أنّ معنى ﴿ أو ﴾ معنى إلا هنا إذ يصير المعنى هل تشفع لنا شفعاء إلا أن نرد وهذا استثناء غير ظاهر وقولهم هذا هل هو مع الرّجاء أو مع اليأس فيه الخلاف الذي في ندائهم ﴿ أن أفيضوا ﴾ ، قال القاضي وهي تدل على حكمين على أنهم كانوا قادرين على الإيمان والتوبة ولذلك سألوا الردّ الثاني إن أهل الآخرة غير مكلفين خلافاً للمجبرة والنجار لأنها لو كانت كذلك ما سألوا الردّ بل كانوا يتوبون ويؤمنون .

﴿ قَد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا في تجارة أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدّنيا بالنفيس الباقي من الآخرة وبطل عنهم افتراؤهم على الله ما لم يقله ولا أمرهم به وكذّبهم في اتخاذ آلهة من دون الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(255/270)

وقال أبو السعود :

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾

أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم به إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿ يوم يأتى تأويله ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي تركوه ترك المنسي من قبل إتيان تأويله ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي قد تبين أنهم قد جاءوا بالحق ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب ﴿ أو نرد ﴾ أي هل نرد إلى الدنيا وقرىء بالنصب عطفا على فيشفعوا أو لأن أو بمعنى إلى أن ، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين ، إما الشفاعة الدفع للعذاب أو الرد إلى الدنيا وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد هو الرد ﴿ فنعمل ﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثاني وقرىء بالرفع أي فنحن نعمل ﴿ غير الذى كنا نعمل ﴾ أي في الدنيا ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم إلى الكفر والمعاصي ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم به شيئاً ﴿ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ أي عاقبته وما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ، والمراد أنهم بمنزلة المنتظرين وفي حكمهم من حيث إن ما ذكر يأتيهم لا محالة ، وحينئذٍ فلا يقال : كيف ينتظرونه وهم جاحدون غير متوقعين له ؟ .

وقيل : إن فيهم أقواماً يشكون ويتوقعون فالكلام من قبيل بنو فلان قتلوا زيداً ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ وهو يوم القيامة ، وقيل : هو ويوم بدر ﴿ يَقُولُ الذين نَسُوهُ ﴾ أي تركوه ترك المنسي فأعرضوا عنه ولم يعملوا به ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إتيان تأويله ﴿ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ أي قد تبين أنهم قد جاؤوا بالحق ، وإنما فسر بذلك لأنه الواقع هناك ولأنه الذي يترتب عليه طلب الشفاعة المفهوم من قوله سبحانه : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا ﴾ اليوم ويدفعوا عنا ما نحن فيه ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ عطف على الجملة قبله داخل معه في حكم الاستفهام .

و ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة في المبتدأ .

وجوز أن تكون مزيدة في الفاعل بالظرف كأنه قيل : هل لنا من شفعاء أو هل نرد إلى الدنيا ؟ ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم كما تقول ابتداء هل يضرب زيد ، ولا يطلب له

فعل آخر يعطف عليه فلا يقدر هل يشفع لنا شافع أو نرد قاله الزمخشري ، وأراد كما في "الكشف" لفظاً لأن الظرف مقدر بجملة ، و ﴿ هَلْ ﴾ مما له اختصاص بالفعل ، والعدول للدلالة على أن تمني الشفيع أصل وتمنى الرد فرع لأن ترك الفعل إلى الاسم مع استدعاء هل للفعل يفيد ذلك فلو قدر لفاتت نكتة العدول معنى مع الغنى عنه لفظاً ، وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ فَيَشْفَعُواْ لَنَا ﴾ المنصوب في جواب الاستفهام أو لأن ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى إلى أن أو حتى أن على ما اختاره الزمخشري إظهاراً لمعنى السببية ، قال القاضي : فعلى الرفع المسؤول أحد الأمرين الشفاعة والرد إلى الدنيا ، وعلى النصب المسؤول أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين من الشفاعة في العفو عنهم والرد إن كانت ﴿ أَوْ ﴾ عاطفة وإما لأمر واحد إذا كانت بمعنى إلى أن إذ معناه حينئذٍ يشفعون إلى الرد ، وكذا إذا كانت بمعنى حتى إن أي يشفعون حتى يحصل الرد .

﴿ فَنَعْمَلَ ﴾ بالنصب جواب الاستفهام الثاني أو معطوف على ﴿ نُرَدُّ ﴾ مسبب عنه على قراءة ابن أبي إسحاق .

وقرأ الحسن بنصب ﴿ نُرَدُّ ﴾ ورفع ﴿ نَعْمَلْ ﴾ أي فنحن نعمل ﴿ غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي في الدنيا من الشرك والمعصية ﴿ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم إلى الشرك والمعاصي ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ غاب وفقد ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ

﴿ أي الذي كانوا يفترونه من الأصنام شركاء لله سبحانه وشفعاءهم يوم القيامة ، والمراد أنه ظهر بطلانه ولم يفدهم شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(257/270)

وقال ابن عاشور :

جملة ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ مستأنفة استينافاً بيانياً ، لأنّ قوله : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ يثير سؤال من يسأل : فماذا يؤخّرهم عن التّصديق بهذا الكتاب الموصوف بتلك الصّفات ؟ وهل أعظم منه آية على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم فكان قوله : ﴿ هل ينظرون ﴾ كالجواب عن هذا السّؤال ، الذي يجيش في نفس السّامع .

والاستفهام إنكاري ولذلك جاء بعده الاستثناء .

ومعنى ﴿ ينظرون ﴾ ينتظرون من النّظرة بمعنى الانتظار ، والاستثناء من عموم الأشياء المنتظرات ، والمراد المنتَظرات من هذا النّوع وهو الآيات ، أي ما ينتظرون آية أعظم إلاّ تأويل الكتاب ، أي إلاّ ظهور ما تَوَعدَّهم به ، وإطلاق الانتظار هنا استعارة تهكميّة : شبه حال تمهّلهم إلى الوقت الذي سيحلّ عليهم فيه ما أوعدهم به القرآن بحال المنتظرين ، وهم

ليسوا بمنتظرين ذلك إذ هم جاحدون وقوعه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ [محمد : 18] وقوله ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ [يونس : 102] والاستثناء على حقيقته وليس من تأكيد الشّيء بما يشبه ضدّه لأنّ المجاز في فعل ﴿ ينظرون ﴾ فقط .

والقصر إضافي ، أي بالنّسبة إلى غير ذلك من أغراض نسيانهم وجحودهم بالآيات ، وقد مضى القول في نظير هذا التّركيب عند قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ في سورة الأنعام (158) .

والتّأويل توضيحُ وتفسير ما خفي ، من مقصد كلام أوْ فعل ، وتحقيقه ، قال تعالى : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ [الكهف : 78] وقال : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ [يوسف : 100] وقال : ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : 59] وقد تقدّم اشتقاقه ومعناه في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا التّفسير .

(258/270)

وضمير ﴿ تأويله ﴾ عائد إلى (كتابٍ) من قوله : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ [الأعراف : 52] .

وتأويله وضوح معنى ما عَدّوه محالا وكذباً ، من البعث والجزاء ورسالة رسول من الله تعالى ووحدانية الإله والعقاب ، فذلك تأويل ما جاء به الكتاب أي تحقيقه ووضوحه بالمشاهدة ، وما بعد العّيان بيان .

وقد بيّنتْه جملة ﴿ يوم يأتي تأويله يقول ﴾ إلخ ، فلذلك فصلت ، لأنّها تتنزل من التي قبلها منزّلة البيان للمراد من تأويله ، وهو التّأويل الذي سيظهر يوم القيامة ، فالمراد باليوم يوم القيامة ، بدليل تعلّقه بقوله : ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ الآية فإنّهم لا يعلمون ذلك ولا يقولونه إلاّ يوم القيامة .

وإتيان تأويله مجازٌ في ظهوره وتبيّنِه بعلاقة لزوم ذلك للإتيان .

والتّأويل مراد به ما به ظهور الأشياء الدّالة على صدق القرآن .

فيما أخبرهم وما توعّدهم .

و﴿ الذين نسوه ﴾ هم المشركون ، وهم معاد ضمير ﴿ ينظرون ﴾ فكان مقتضى الظّاهر أن يقال : يقُولون ، إلاّ أنّه أظهر بالموصولية لقصد التّسجيل عليهم بأنّهم نسُوه وأعرضوا عنه وأنكروه ، تسجيلاً مراداً به التّنبيه على خطئِهم والنّعي عليهم بأنّهم يجرّون بإعراضهم سوء العاقبه لأنفسهم .

والنّسيان مستعمل في الإعراض والصدّ ، كما تقدّم في قوله : ﴿ كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ [الأعراف : 51]

والمضاف إليه المقدّرُ المنبيء عنه بناءُ (قبلُ) على الضم : هو التّأويلُ ، أو اليوم ، أي من قبل تأويله ، أو من قبل ذلك اليوم ، أي في الدّنيا .

والقول هنا كناية عن العلم والاعتقاد ، لأنّ الأصل في الأخبار مطابقتها لاعتقاد المخبر ، أي يتبيّن لهم الحقّ ويصرّحون به .

(259/270)

وهذا القول يقوله بعضهم لبعض اعترافاً بخطئهم في تكذيبهم الرّسول صلى الله عليه وسلم وما أخبر به عن الرّسل من قبله ، ولذلك جمع الرّسل هنا ، مع أنّ الحديث عن المكذّبين محمّداً صلى الله عليه وسلم وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم الأمثال بالرّسل السابقين ، وهم لما كذّبوه جرّأهم تكذيبه على إنكار بعثة الرّسل إذ قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] أو لأنّهم مشاهدون يومئذ ما هو عقاب الأمم السّابقة على تكذيب رسلهم ، فيصدر عنهم ذلك القول عن تأثّر بجميع ما شاهدوه من التّهديد الشّامل لهم ولمن عداهم من الأمم .

وقولهم : ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ خبر مستعمل في الإقرار بخطَئهم في تكذيب الرّسل ، وإنشاء للحسرة على ذلك ، وإبداء الحيرة فيما ذا يَصْنعون .

ولذلك رتّبوا عليه وفرعوا بالفاء قولهم : ﴿ فهل لنا من شفعاء ﴾ إلى آخره .

والاستفهام يجوز أن يكون حقيقياً يقوله بعضهم لبعض ، لَعلّ أحدهم يرشدهم إلى مخلص لهم من تلك الورطة ، وهذا القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهدّدهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشّفعاء المحكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ [الشعراء : 100 ، 101] ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في التّمني ، ويجوز أن يكون مستعملاً في النّفي .

على معنى التّحسّر والتّندم .

و﴿ من ﴾ زائدة للتّوكيد .

على جميع التّقادير .

فتفيد توكيد العموم في المستفهم عنه ، ليفيد أنّهم لا يسألون عمن توهموهم شفعاء من أصنامهم ، إذ قد يئسوا منهم .

كما قال تعالى : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ [الأعراف : 94] بل هم يتساءلون عن أي شفيع يشفع لهم .

ولو يكون الرّسول عليه الصّلاة والسّلام الذي ناصبوه العَداء في الحياة الدّنيا .

ونظيره قوله تعالى في سورة المؤمن (11) ﴿ فهل إلى خروج من سبيل .

﴾ وانتصب ﴿ فيشفعوا ﴾ على جواب الاستفهام ، أو التّمنّي ، أو النّفي .

"والشفعاء" جمع شفيع وهو الذي يسعى بالشّفاعة ، وهم يُسمّون أصنامهم شفعاء قال تعالى : ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] .

وتقدّم معنى الشّفاعة عند قوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ في سورة البقرة (48) .

وعند قوله : ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ في سورة البقرة (254) وعند قوله : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة ﴾ في سورة النّساء (85) .

وعطف فعل نرد ﴾ بـ (أو) على مدخول الاستفهام ، فيكون الاستفهام عن أحد الأمرين ، لأنّ أحدهما لا يجتمع مع الآخر ، فإذا حصلت الشّفاعة فلا حاجة إلى الردّ ، وإذا حصل الردّ استغني عن الشّفاعة .

وإذ كانت جملة ﴿ لنا من شفعاء ﴾ واقعة في حيز الاستفهام ، فالتي عطفت عليها تكون واقعة في حيز الاستفهام ، فلذلك تعين رفع الفعل المضارع في القراءات المشهورة ، ورفعه بتجرّده عن عامل النّصب وعامل الجزم ، فوقع موقع الاسم كما قدّره الزمخشري تبعاً للفراء ، فهو مرفوع بنفسه من غير احتياج إلى تأويل الجملة التي قبله ، بردّها إلى جملة فعليّة ، بتقدير

: هل يشفع لنا شفعاء كما قدّره الزّجاج ، لعدم المُلجىء إلى ذلك ، ولذلك انتصب : ﴿ فنعمل ﴾ في جواب ﴿ نرد ﴾ كما انتصب ﴿ فيشفعوا ﴾ في جواب ﴿ فهل لنا من شفعاء ﴾ .

والمراد بالعمل في قولهم : ﴿ فنعمل ﴾ ما يشمل الاعتقاد ، وهو الأهم ، مثل اعتقاد الوحدانيّه والبعث وتصديق الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، لأنّ الاعتقاد عمل القلب ، ولأنّه تترتّب عليه آثار عمليّة ، من أقوال وأفعال وامتثال .

والمراد بالصّلة في قوله : ﴿ الذي كنا نعمل ﴾ ما كانوا يعملونه من أمور الدين بقرينة سياق قولهم : ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق أي فنعمل ما يغاير ما صممنا عليه بعد مجيء الرّسول عليه الصّلاة والسّلام .

(261/270)

وجملة : قد خسروا أنفسهم ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً تذييلاً وخلاصة لقصّتهم ، أي فكان حاصل أمرهم أنّهم خسروا أنفسهم من الآن وضلّ عنهم ما كانوا يفترون .

والخسارة مستعارة لعدم الانتفاع بما يرجى منه النّفع ، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ في سورة الأنعام ، (12) وقوله : ﴿ فأولئك

الذين خسروا أنفسهم ﴾ في أوّل هذه السّورة (9) .

والمعنى : أنّ ما أقحموا فيه نفوسهم من الشّرك والتّكذيب قد تبيّن أنّه مفض بهم إلى تحقّق الوعيد فيهم ، يوم يأتي تأويل ما توعّدهم به القرآن ، فبذلك تحقّق أنّهم خسروا أنفسهم من الآن ، وإن كانوا لا يشعرون .

وأما قوله : وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ فالضّلال مستعار للعدم طريقة التّهكّم شبه عدم شفعائهم المزعومين بضلال الإبل عن أربابها تهكّماً عليهم ، وهذا التّهكّم منظور فيه إلى محاكاة ظنّهم يوم القيامة المحكي عنهم في قوله قبل ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ [الأعراف : 37] .

و(مَا) من قوله : ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ موصولة ، ما صُدَقها الشّفعاء الذين كانوا يدعونهم من دون الله .

وحُذف عائد الصّلة المنصوب ، أي ما كانوا يفترونه ، أي يَكْذِبونه إذ يقولون ﴿ هؤلاء شفعاؤنا ﴾ [يونس : 18] ، وهم جماد لاحظَّ لهم في شؤون العقلاء حتى يشفعوا ، فهم قد ضلوا عنهم من الآن ولذلك عبّر بالمضي لأنّ الضّلال المستعار للعدم متحقّق من ماضي الأزمنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)

(263/270)

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَالَةَ الْآخِرَةِ تَقْتَضِي إِمْكَانَ إِفَاضَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْمَاءَ وَغَيْرَهُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ عَلَى مَا بَيْنَ الْمَكَانَيْنِ مِنَ الِارْتِفَاعِ وَالِانْخِفَاضِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَهُ الْمَعْقُولَ فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِ هَذَا السِّيَاقِ . وَإِفَاضَةُ الْمَاءِ صَبُّهُ وَمَادَّةُ الْفَيْضِ فِيهَا مَعْنَى الْكَثْرَةِ ، وَمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ يَشْمَلُ الطَّعَامَ وَغَيْرَ الْمَاءِ مِنْ أَشْرِبَةٍ وَ " أَوْ " فِي قَوْلِهِ : (أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) لِلتَّخْيِيرِ فَهِيَ لَا تَمْنَعُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطَّعَامِ وَيُقَدِّرُ بَعْضُهُمْ فِعْلًا مُنَاسِبًا لِلرِّزْقِ عَلَى حَدِّ " عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا " وَالصَّوَابُ أَنَّ الْفَيْضَ وَالْإِفَاضَةَ يُسْتَعْمَلَانِ فِي غَيْرِ الْمَاءِ وَالدَّمْعِ فَيُقَالُ فَاضَ الرِّزْقُ وَالْخَيْرُ وَأَفَاضَ عَلَيْهِ النِّعَمَ ، وَمِنَ الْأَمْثَالِ أَعْطَاهُ غَيْضًا مِنْ فَيْضٍ - أَيْ قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ . وَعَدَّ الزَّمَخْشَرِيُّ الْإِفَاضَةَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ الْحَقِيقَةِ خِلَافًا لِلرَّاغِبِ الَّذِي جَعَلَهَا وَعَدَّ

الزَّمَخْشَرِيُّ الْإِفَاضَةَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ الْحَقِيقَةِ خِلَافًا لِلرَّاغِبِ الَّذِي جَعَلَهَا اسْتِعَارَةً .

وَالْمَعْنَى أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَسْتَجْدُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَنْ يُفِيضُوا عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُونَ بِهَا مِنْ شَرَابٍ وَطَعَامٍ ، وَقَدَّمُوا طَلَبَ الْمَاءِ لِأَنَّ مَنْ كَانَ فِي " سُمُومٍ وَحَمِيمٍ " يَكُونُ شُعُورُهُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ أَشَدَّ مِنْ شُعُورِهِ بِالْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ الطَّيِّبِ .

(264/270)

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الِاسْتِجْدَاءِ : يُنَادِي الرَّجُلُ أَخَاهُ فَيَقُولُ : يَا أَخِي أَغِثْنِي فَإِنِّي قَدِ احْتَرَقْتُ فَأَفِضْ عَلَيَّ مِنَ الْمَاءِ ، فَيُقَالُ : أَجِبْهُ ، فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ . وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي الطَّلَبِ قَالَ : يَسْتَسْقُونَهُمْ وَيَسْتَطْعِمُونَهُمْ – وَفِي قَوْلِهِ : (حَرَّمَهُمَا) قَالَ : طَعَامَ الْجَنَّةِ وَشَرَابَهَا . وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الزُّهْدِ وَالْبَيْهَقِيُّ

فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَرِبَ مَاءً بَارِدًا فَبَكَى فَسُئِلَ مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ ذَكَرْتُ آيَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) (34 : 54) فَعَرَفْتُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَشْتَهُونَ إِلَّا الْمَاءَ الْبَارِدَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) اهـ . وَفِيهِ أَنَّ الْآيَةَ لَا حَصْرَ فِيهَا . وَفِي الشُّعَبِ وَالتَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ

عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ سُئِلَ : أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ سَقْيُ الْمَاءِ ؛ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا : (أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) " وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ أَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصَدَّقُ عَلَيْهَا ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ " سَقْيُ الْمَاءِ " .

(265/270)

(قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) الْحَرَامُ فِي اللُّغَةِ الْمَمْنُوعُ ، وَالتَّحْرِيمُ وَهُوَ الْمَنْعُ قِسْمَانِ : تَحْرِيمٌ بِالْحُكْمِ وَالتَّكْلِيفِ كَتَحْرِيمِ اللهِ الْفَوَاحِشَ وَالْمُنْكَرَاتِ وَأَرْضِ الْحَرَمِ أَنْ يُؤْخَذَ صَيْدُهَا أَوْ يُقْطَعَ شَجَرُهَا أَوْ يُخْتَلَى خَلَاهَا (أَيْ يُنْزَعَ حَشِيشُهَا الرَّطْبُ) . وَتَحْرِيمٌ بِالْفِعْلِ أَوِ الْقَهْرِ كَتَحْرِيمِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا عَلَى الْكَافِرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي قَوْلِهِ : (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) (5 : 72) أَيْ قَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ جَوَابًا عَنْ هَذَا الِاسْتِجْدَاءِ : إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ مَاءَ الْجَنَّةِ وَرِزْقَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ كَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ دُخُولَهَا ، فَلَا يُمْكِنُ إِفَاضَةُ شَيْءٍ مِنْهُمَا عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي النَّارِ ، فَإِنَّ لَهُمْ مَاءَهَا الْحَمِيمَ وَطَعَامَهَا مِنَ الضَّرِيعِ وَالزَّقُّومِ .

وَذَكَرُوا مِنْ وَصْفِ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا سَبَبَ هَذَا الْحِرْمَانِ ، وَهُوَ أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ أَعْمَالًا لَا تُزَكِّي الْأَنْفُسَ فَتَكُونُ أَهْلًا لِدَارِ الْكَرَامَةِ ، بَلْ هِيَ إِمَّا لَهْوٌ وَهُوَ مَا يُشْغِلُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْجِدِّ وَالْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ بِالتَّلَذُّذِ بِمَا تَهْوَى النَّفْسُ ، وَإِمَّا لَعِبٌ وَهُوَ مَا لَا تُقْصَدُ مِنْهُ فَائِدَةٌ صَحِيحَةٌ كَأَعْمَالِ الْأَطْفَالِ ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَكَانَ كُلُّ هَمِّهِمُ التَّمَتُّعَ بِشَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا – حَرَامًا كَانَتْ أَوْ حَلَالًا – لِأَنَّهَا مَطْلُوبَةٌ عِنْدَهُمْ لِذَاتِهَا ،

وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَهُمُ الَّذِينَ سَعَوْا لَهَا سَعْيَهَا بِأَعْمَالِ الْإِيمَانِ الَّتِي تُزَكِّي الْأَنْفُسَ وَتُرَقِّيهَا فَلَمْ يَغْتَرُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا . بَلْ كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ مَزْرَعَةَ الْآخِرَةِ لَا مَقْصُودَةً لِذَاتِهَا لِذَلِكَ كَانُوا يَقْصِدُونَ بِالتَّمَتُّعِ بِنِعَمِ اللَّهِ فِيهَا الِاسْتِعَانَةَ بِهَا عَلَى مَا يُرْضِيهِ مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ وَعَمَلِ الْخَيْرِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ .

وَمَنْ أَرَادَ التَّفْصِيلَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى تَفْسِيرِ (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (6 : 29) إِلَى قَوْلِهِ : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (32) وَفِيهِ بَحْثٌ طَوِيلٌ فِي اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَنُكْتَةِ تَقْدِيمِ اللَّعِبِ عَلَى اللَّهْوِ

فِيهَا وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ ، وَتَقْدِيمِ اللَّهْوِ عَلَى اللَّعِبِ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا . وَلْيُرَاجَعْ أَيْضًا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) (6 : 70) وَفِيهِ خَمْسَةُ أَوْجُهٍ فِي تَفْسِيرِ اتِّخَاذِ الدِّينِ لَعِبًا وَلَهْوًا .

(فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) هَذَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُرَتَّبٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ تَرَتُّبَ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ ، وَالْمُرَادُ بِالْيَوْمِ يَوْمُ الْجَزَاءِ وَهُوَ مَحْدُودٌ بِالْعَمَلِ الَّذِي هُوَ الْجَزَاءُ وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ لَهُ مِقْدَارٌ ، وَالْمُرَادُ : نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمَنْسِيِّ الَّذِي لَا يَفْتَقِدُهُ أَحَدُكُمَا كَمَا جَعَلُوا هَذَا الْيَوْمَ مَنْسِيًّا أَوْ كَالْمَنْسِيِّ بِعَدَمِ الِاسْتِعْدَادِ وَالتَّزَوُّدِ لَهُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْكَافَ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ كَقَوْلِهِ : (وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) (2 : 198) أَيْ لِهِدَايَتِهِ لَكُمْ - لَا لِلتَّشْبِيهِ - عَلَى أَنَّهُ يَصِحُّ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى حَدِّ الْمَثَلِ : الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ فِيمَا عُطِفَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ .

(وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) بَلْ يَتَعَيَّنُ فِيهِ التَّعْلِيلُ ، فَنِسْيَانُ اللهِ لَهُمُ الْمُرَادُ بِهِ حِرْمَانُهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ – مَعْلُولٌ بِنِسْيَانِهِمْ لِقَاءَ يَوْمِ الْجَزَاءِ ؛ إِذِ الْمُرَادُ بِهِ تَرْكُ الْعَمَلِ لَهُ وَبِجُحُودِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْكُفْرِ بِدِينِهِ وَرَفْضِ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَيَنْطَبِقُ عَلَى سَائِرِ الْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّ الْجَزَاءَ فِي الدَّارَيْنِ عَلَى الِاعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ جَمِيعًا .

)

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(269/270)

مَا تَقَدَّمَ مِنْ بَيَانِ الْجَزَاءِ وَحَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ إِنْذَارٌ عَامٌّ وَمَوْضُوعُهُ عَامٌّ ، إِلَّا أَنَّهُ أُلْقِيَ بَادِيَ بَدْءٍ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، فَلِهَذَا جَوَّزَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ضَمَائِرِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً تَشْمَلُ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ وَيَكُونُ الْكِتَابُ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا لِلْجِنْسِ ، وَأَنْ تَكُونَ خَاصَّةً بِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَمَوْقِعُهَا مِمَّا قَبْلَهَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَاحِدٌ ، وَهُوَ بَيَانُ حُجَّةِ اللهِ

عَلَى عَلَى الْبَشَرِ كَافَّةً ، وَإِزَاحَةُ عِلَلِ الْكُفَّارِ وَإِبْطَالُ مَعَاذِيرِهِمْ إِنْ لَمْ يَسْتَعِدُّوا لِذَلِكَ الْجَزَاءِ بَعْدَ إِنْزَالِ الْكُتُبِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا الثَّانِي . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(270/270)

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أَيْ وَلَقَدْ جِئْنَا هَؤُلَاءِ النَّاسَ بِكِتَابٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ ، كَامِلِ التِّبْيَانِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ . فَصَّلْنَا آيَاتِهِ تَفْصِيلًا عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ ، وَسَعَادَتِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، حَالَ كَوْنِهِ أَوْ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ بِذَلِكَ مَنَارَ هِدَايَةٍ عَامَّةٍ وَسَبَبَ رَحْمَةٍ خَاصَّةٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ إِيمَانَ إِذْعَانٍ يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ بِهَذَا التَّفْصِيلِ الْعِلْمِيِّ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ إِذَا لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، وَلَمْ يَرْضَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ تَكُونَ أَهْلًا لِرَحْمَتِهِ .

التَّفْصِيلُ عِبَارَةٌ عَنْ جَعْلِ الْحَقَائِقِ وَالْمَسَائِلِ الْمُرَادِ بَيَانُهَا مَفْصُولًا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ بِمَا يُزِيلُ الِاشْتِبَاهَ ، وَاخْتِلَاطَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ فِي الْأَفْهَامِ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ ذِكْرَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا عَلَى حِدَتِهِ وَلَا التَّطْوِيلَ بِبَيَانِ جَمِيعِ فُرُوعِهِ ، فَفِي الْقُرْآنِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِنَا : أَسْهَبَ حَيْثُ يَنْبَغِي الْإِسْهَابُ ، وَأَوْجَزَ حَيْثُ يَكْفِي الْإِيجَازُ .

مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْعَقَائِدِ أَنَّ الْبَشَرَ قَدْ فُتِنُوا بِالشِّرْكِ ، وَلَبِسَ عَلَى أَكْثَرِهِمُ الْأَمْرُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ ، إِذْ ظَنُّوا أَنَّ الْإِيمَانَ بِوَحْدَةِ الرَّبِّ خَالِقِ الْخَلْقِ وَمُدَبِّرِ أُمُورِهِ هُوَ الْوَاجِبُ لَهُ الْمُمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِيهِ ، دُونَ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّ التَّوَجُّهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ ، الْمُقَرَّبِينَ مَنْ يَتَوَسَّلُ بِهِمْ إِلَيْهِ كَمَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَطَلَبِ مَا يَعْجِزُ الْمَرْءُ عَنْ نَيْلِهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ ، وَهَذَا مُخُّ الْعِبَادَةِ وَمَحْضُهَا ، وَكُلُّ مَنْ يَدَّعِي مِثْلَ هَذَا الدُّعَاءِ فَقَدِ اتَّخَذَ مَعْبُودًا وَإِلَهًا . وَشُبْهَتُهُمْ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ أَنَّ اتِّخَاذَ وَلِيٍّ مَعَ اللهِ بِقَصْدِ التَّقَرُّبِ وَالتَّوَسُّلِ بِهِ إِلَيْهِ وَشَفَاعَتِهِ عِنْدَهُ مِمَّا يُرْضِيهِ . وَأَنَّ الْمَحْظُورَ هُوَ الِاسْتِغْنَاءُ بِهِ عَنْهُ ، مَأْخَذُ هَذَا مَا يَعْهَدُونَ مِنَ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمُ الرَّعَايَا الضُّعَفَاءُ الْمُسْتَذِلُّونَ بِوُزَرَائِهِمْ وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِمْ بِحَوَاشِيهِمْ وَحُجَّابِهِمْ ، فَلِأَجْلِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ قَرَّرَ الْقُرْآنُ إِبْطَالَ هَذَا الشِّرْكِ وَأَطْنَبَ فِي تَفْصِيلِهِ كُلَّ الْإِطْنَابِ .

وَمِثَالُهُ فِي الْعِبَادَاتِ الْعَمَلِيَّةِ أَنَّ صِفَةَ الصَّلَاةِ وَعَدَدَ رَكَعَاتِهَا مِمَّا يَكْفِي فِيهِ الْقُدْوَةُ وَالتَّأَسِّي بِالرَّسُولِ الْمَوْكُولِ إِلَيْهِ بَيَانُ التَّنْزِيلِ ، فَلِهَذَا لَمْ يُبَيِّنْهَا الْقُرْآنُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تُؤَدَّى بِهِ ، وَلَكِنَّهُ كَرَّرَ الْأَمْرَ بِإِقَامَتِهَا أَيِ الْإِتْيَانِ بِهَا عَلَى أَقْوَمِ وَجْهٍ وَأَكْمَلِهِ ، وَبَيْنَ حِكْمَتِهَا وَفَائِدَتِهَا فِي عِدَّةِ آيَاتٍ لِأَنَّ مَعْنَى الْإِقَامَةِ لَهَا وَالْحِكْمَةِ فِي وُجُوبِهَا مِمَّا يَغْفُلُ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ .

وَمِثَالُهُ فِي الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالِارْتِقَاءُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَنَّ أَكْثَرَ الْبَشَرِ كَانُوا قَدْ أَلِفُوا فِيهِ التَّقْلِيدَ وَالْأَخْذَ بِأَقْوَالِ مَنْ يَثِقُونَ بِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَرُؤَسَاءِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ؛ فَلِهَذَا

كَرَّرَ الْقَوْلَ بِبُطْلَانِ التَّقْلِيدِ وَضَلَالِ الْمُقَلِّدِينَ ، وَجَهْلِ الظَّانِّينَ وَالْمُرْتَابِينَ ، وَكَرَّرَ الْحَثَّ عَلَى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَى الْبُرْهَانِ ، وَالتَّشْنِيعِ عَلَى الْمُعْرِضِينَ عَنْ آيَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَمَادٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، وَعَنْ حِكَمِهِ الْخَاصَّةِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، فَبِمِثْلِ هَذَا التَّفْصِيلِ كَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَكَانَ الْقُرْآنُ يَنْبُوعَ الْهُدَى وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ فَيَا حَسْرَةً عَلَى الْمَحْرُومِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَا شَقَاءَ الطَّاعِنِينَ فِي هِدَايَتِهِ .

(273/270)

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) أَيْ لَيْسَ أَمَامَهُمْ شَيْءٌ يَنْتَظِرُونَهُ فِي أَمْرِهِ إِلَّا وُقُوعَ تَأْوِيلِهِ . وَهُوَ مَا يُؤَوَّلُ إِلَيْهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغَيْبِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ فِي الْآخِرَةِ . فَالنَّظَرُ هُنَا بِمَعْنَى الِانْتِظَارِ . وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ كَتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا هُوَ عَاقِبَتُهُمَا . وَالْمَآلُ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِهِ الْمُرَادُ مِنْهُمَا ، وَتَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ آلِ عِمْرَانَ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهِ . رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) قَالَ : عَاقِبَتَهُ ، وَعَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : عَوَاقِبَهُ ، مِثْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا وُعِدَ فِيهِ مِنْ مَوْعِدٍ ، وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ : لَا يَزَالُ يَقَعُ مِنْ تَأْوِيلِهِ أَمْرٌ حَتَّى يَتِمَّ تَأْوِيلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ فَيَتِمُّ تَأْوِيلُهُ يَوْمَئِذٍ إِلَخْ فَجَمَعَ كَلَامُهُ كُلَّ مَا لَهُ مَآلٌ يُنْتَظَرُ مِنْ أَخْبَارِ الْقُرْآنِ الصَّادِقَةِ الَّتِي وَعَدَ وَأَوْعَدَ بِهَا كُلًّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصْرٍ وَثَوَابٍ ، وَالْكَافِرِينَ مِنْ خِذْلَانٍ وَعِقَابٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ .

(274/270)

(يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ) أَيْ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ وَنِهَايَتُهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَزُولُ كُلُّ شُبْهَةٍ ، يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ فِي الدُّنْيَا أَيْ تَرَكُوهُ كَالْمَنْسِيِّ فَلَمْ يَهْتَدُوا بِهِ : (قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) أَيْ بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ الْمُتَحَقِّقِ فَتَمَارَيْنَا بِهِ وَأَعْرَضْنَا عَنْهُ ، حَتَّى جَاءَ وَقْتُ الْجَزَاءِ

عَلَيْهِ (فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) أَيْ يَتَمَنَّوْنَ أَحَدَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّمَنِّي ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَصْلِهِ فَيَقَعُ قَبْلَ دُخُولِ النَّارِ . وَبَعْدَ الْيَأْسِ فِيهَا مِنَ الشُّفَعَاءِ ، حَيْثُ يَقُولُونَ فِيهَا كَمَا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (26 : 100 - 102) وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ : (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ) (6 : 94) الْآيَةَ - وَإِنَّمَا يَتَمَنَّوْنَ الشُّفَعَاءَ أَوْ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهُمْ أَوَّلًا لِأَنَّ قَاعِدَةَ الشِّرْكِ الْأَسَاسِيَّةَ أَنَّ النَّجَاةَ عِنْدَ اللهِ وَكُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِوَاسِطَةِ الشُّفَعَاءِ عِنْدَهُ ، وَعِنْدَمَا يَتَبَيَّنُ لَهُمُ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَهُوَ أَنَّ النَّجَاةَ وَالسَّعَادَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَيَعْلَمُونَ هُنَالِكَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ

(275/270)

إِلَّا بِإِذْنِهِ (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) يَتَمَنَّوْنَ لَوْ يُرَدُّونَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَعْمَلُوا فِيهَا غَيْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي حَيَاتِهِمُ الْأُولَى ، لِأَجْلِ أَنْ يَكُونُوا أَهْلًا لِمَرْضَاتِهِ تَعَالَى بِأَنْ يَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي (آيَتَيْ 27 ، 28) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ تَمَنِّيهِمْ

لَوْ يُرَدُّونَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِحَالِهِمْ وَغَايَةِ تَمَنِّيهِمْ يَقُولُ : قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِتَدْسِيسِهَا وَتَدْنِيسِهَا بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي ، وَعَدَمِ تَزْكِيَتِهَا بِالتَّوْحِيدِ وَالْفَضَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ ، وَيَوْمَئِذٍ يَضِلُّ وَيَغِيبُ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مِنْ خَبَرِ الشُّفَعَاءِ كَقَوْلِهِمْ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ : (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) (10 : 18) فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ عِوَضٍ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ خُسْرَانِ النَّفْسِ فِي (س6 : 12 ، 20) وَتَفْسِيرُ : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) فِي (6 : 24) وَنَحْوِهَا : (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (6 : 94) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 390. 395 ﴾

(276/270)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشيء ، هو العاقبة التي يعدها الحق ،

فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويملك قوله لأن الكون كله بيده

.

وهنا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ .

أي هل ينتظرون إلا لمرجع الذي يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتي تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتي يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ . . سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : ﴿ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ .

أي أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا في دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك . ﴿ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ . . . ﴾ [الأعراف : 53]

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن في الدنيا نجد من يبحث لنفسه عمن يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيرا وعزيزا لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتي يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . . لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعلن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنهم

الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ ففي الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالاتهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإِرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإِرادة صاحبها ، بل هي خاضعة للحق الأعلى . وفي الآخرة لا مرادات لأحد .

(277/270)

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية في جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض في جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فسيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتي الجوارح في الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم .

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواه ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذي لن ينفعهم . ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق . . . ﴾ [الأعراف : 53]

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98]

وما ذنب المعبود ؟ . . إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفي نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه .

ولذلك نجد أن الأحجار التي عُبدت تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم في الأسحار من الأغيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن تعبده عنها وتعلن له غباءه .

والشاعر يقول :

قد تجنوا جهلا كما قد تجنوا . . . على ابن مريم والحواري

للمغالي جزاؤه والمغالي . . . فيه تنجيه رحمة الغفار

وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا في المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا ! .

والحق هو القائل : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ . . . ﴾ [الأنعام : 28]

وكأنهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله . ﴿ . . . قَدْ خسروا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف : 53]

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله في الدنيا ، إنهم رفضوا عبادته – سبحانه – وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التي سيصلونها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(279/270)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن الكفار ، إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق ، ويتمنون أحد أمرين : أن يشفع لهم شفعاء فينقذوهم ، أو يردوا إلى الدنيا

ليصدقوا الرسل ، ويعلملوا بما يرضي الله ، ولم يبين هنا هل يشفع لهم أحد ؟ وهل يردون ؟ وماذا يفعلون لو ردوا ؟ وهل اعترافهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم ؟ ولكنه تعالى بين ذلك كله في مواضع أخر ، فبين : أنهم لا يشفع لهم أحد بقوله : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ [الشعراء : 100] الآية ، وقوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ [المدثر : 48] ، وقوله : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] مع قوله : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ [الزمر : 7] ، وقوله : ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : 96] ، وبين أنهم لا يردون في مواضع متعددة ، كقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 12-13] .

فقوله : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [السجدة : 13] الآية .

دليل على أن النار وجبت لهم ، فلا يردون ، ولا يعذرون ، وقوله ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير ﴾ [فاطر : 37] .

فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا . بالإمهال مدة يتذكرون فيها . وإنذار الرسل ، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى ، وأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : 44] جواباً لقولهم : ﴿ أَخِّرْنَآ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ [إبراهيم : 44] ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ [غافر : 12] بعد قوله تعالى عنهم : ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر : 11] ، وقوله : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : 45] الآية ، بعد قوله : ﴿ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 44] ، وقوله هنا : ﴿ قَدْ خسروا أَنْفُسَهُمْ ﴾ الآية بعد قوله : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ﴾ [الأعراف : 53] الآية .

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا ، وعلى وجوب العذاب ، وأنه لا محيص لهم عنه .

وبين في موضع آخر أنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر والطغيان . وهو قوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] الآية ، وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد ، فهو تعلى

أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون كما صرح به في قوله :

(281/270)

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] ، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة كما بينه بقوله : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ [التوبة : 47] الآية ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون : 75] إلى غير ذلك من الآيات .

وبين في مواضع أخر أن اعترافهم هذا بقولهم : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ونودوا ﴾ [الأعراف : 43] لا ينفعهم كقوله تعالى : ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 11] ، وقوله : ﴿ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71] ، ونحو ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(282/270)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ قال : عاقبته .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ قال : جزاؤه ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أعرضوا عنه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ قال : عواقبه مثل وقعة بدر والقيامة وما وعد فيه من موعد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في الآية قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة ، حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم

تأويله يومئذ ، ففي ذلك أنزل ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ حيث أثاب الله أولياءه وأعداءه ثواب أعمالهم . يقول يومئذ ﴿ الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ قال : تحقيقه .

وقرأ ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ [يوسف : 100] قال : هذا تحقيقها ، وقرأ ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ [آل عمران : 7] قال : ما يعلم تحقيقه إلا الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ قال : ما كانوا يكذبون في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي يشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(283/270)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قد تقدَّم الكلام على " تأَويله " في [آل عمران 7] .

وقال الزَّمخشريُّ هاهنا : والتَّأويل مادته من همزة وواو ولام ، مِنْ " آل يؤول " .

وقال الخطابي : أوَّلْتُ الشيء رَدَدْتُهُ إلى أوله ، واللفظة مأخوذة من الأول ، وهو خطٌ ؛ لاختلاف المادتين والتأويل مرجع الشّيء ومصيره من قولهم : آل الشَّيءُ يئول .

واحتجَّ بهذه الآية من ذهب إلى أنَّ قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ [آل عمران : 7] أي : [و] ما يعلم عاقبة الأمر فيه إلا اللَّهُ .

قوله : " قَدْ جَاءَتْ " مَنْصُوبَة بالقول و " بالحَقِّ " يجوز أن تكون " الباء " للحالِ ، وأن تكون للتعدية أي : جاءوا ملتبسين بالحق ، أو جاءُوا الحقّ .

والمعنى : أقرُّوا بأنَّ الذي جاءت الرُّسُلُ به من ثُبُوتِ الحَشْرِ ، والنَّشْرِ ، والبَعْثِ والقيامة ، والثواب ، والعقاب ، كل ذلك كان حقاً ؛ لأنهم شاهدوها وعاينوها .

قوله : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ ﴾ " من " مزيدة في المبتدأ و " لنا " خبر مقدَّم ، ويجوز أن يكون " مِنْ شُفَعَاء " فاعلاً و " مِنْ " مزيدة أيضاً ، وهذا جائز عند كل أحد لاعتماد الجار على الاستفهام .

قوله : " فَيَشْفَعُوا " منصوب بإضمار " أنْ " في جواب الاستفهام فيكون قد عطف اسماً مؤولاً على اسم صريح ، أي : فهل لَنَا من شفعاء بشفاعة منهم لنا ؟

قوله : " أَوْ نُرَدُّ " الجمهور على رفع " نُرَدُّ " ونصب " فَنَعْمَلَ " ، فرفع " نردُّ " على أنَّه عطف جملة فعليّة ، وهي " نُردُّ " على جملة [اسميّة] وهي : هل لنا من شُفَعَاء فيشفَعُوا ؟

ونصب " فَنَعْملَ " على ما انتصب عليه " فَيَشْفَعُوا " ، وقرأ الحسنُ برفعهما على ما تقدَّم ، كذا روى عنه ابن عطية وغيره ، وروى عنه الزمخشري نصب " نُرَدَّ " ورفع " فنعملُ " .

وقرأ أُبوا حَيْوَةَ ، وابن أبي إسحاقَ بنصبهما فنصب " نردَّ " عطفاً على " فَيَشْفَعُوا " جواباً على جواب ، ويكون الشفعاء في أحد شيئين : إمَّا في خلاصهم من العذابِ ، وإمّا في رجوعهم للدُّنيا ليعملوا صالحاً ، والشَّفَاعَةُ حينئذ [مستحبة] على الخلاص أو الرَّدّ ، وانتصب " فَنَعْمَلَ " نسقاً على " فنُردَّ " .

(284/270)

ويجوز أن تكون " أَوْ نُرَدَّ " من باب " لألزمنَّك أو تقضيني حقّي " إذا قدرناه بمعنى : حتّى تقضيني ، أو كي تقضيني ، غيَّا اللزوم بقضاء الحق ، أو علله به فكذلك الآية الكريمة أي : حتى نُرَدَّ أو كي نرد ، والشفاعة حينئذٍ متعلِّقَةٌ بالرَّدِّ ليس إلاَّ .

وأمَّا عند من يُقدِّر و" أو " بمعنى " إلاّ " في المثال المتقدم وهو سيبويه ، فلا يظهر معنى الآية عليه ؛ إذ يصير التقدير : " هل يشفع لنا شفعاء إلا أن نردّا " ، وهذا استثناء غير ظاهر .

قوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

" ما كانوا " " ما " موصولة عائدها مَحْذُوفٌ ، و" مَا كَانُوا " فاعل " ضلَّ " ، والمعنى : أنَّهُم

لم ينتفعوا بالأَصْنَامِ التي عبدوها في الدُّنْيَا .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 137.140 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

إذا كُشِفَ جلالُ الغيب ، وانتفت عن قلوبهم أغطيةُ الرَّيب ، فلا بكاء لهم يَنْفَع ، ولا دعاء منهم يُسْمَع ، ولا شكوى عنهم ترْفَع ، ولا بلوى من دونهم تُقْطَع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 539 ﴾

(285/270)

ومن فوائد النسفى فى الآيات السابقة

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

حقد كان بينهم في الدنيا فلم يبق بينهم إلا التواد والتعاطف ، وعن علي رضي الله عنه :

إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ حال من "هم" في ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ والعامل فيها معنى الإضافة ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم وهو الإيمان ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ ﴿ مَا كُنَّا ﴾ بغير "واو" : شامي على أنها جملة موضحة للأولى ﴿ لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ اللام لتوكيد النفي أي وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله ، وجواب "لولا" محذوف دل عليه ما قبله ﴿ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ فكان لطفاً لنا وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا ، يقولون ذلك سروراً بما نالوا وإظهاراً لما اعتقدوا ﴿ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ "أن" مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ، والجملة بعدها خبرها تقديره ونودوا بأنه تلكم الجنة .

والهاء ضمير الشأن ، أو بمعنى أي كأنه قيل ، لهم تلكم الجنة ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ أعطيتموها وهو حال من ﴿ الجنة ﴾ والعامل فيها ما في ﴿ تِلْكَ ﴾ من معنى الإشارة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ سماها ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة خالصة .

(286/270)

وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله : إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحاً عليه السلام وأهل الجنة والنار وإبليس ، لأنه قال الله تعالى ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل : 93] وقال نوح عليه السلام : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : 34] وقال أهل الجنة : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ وقال أهل النار : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ [ابراهيم : 21] وقال إبليس ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾

﴿ ونادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار أن قد وجدنا ﴾ "أن" مخففة من الثقيلة أو مفسرة وكذلك ﴿ أن لعنة اللّه على الظالمين ﴾ ﴿ ما وعدنا ربّنا ﴾ من الثواب ﴿ حقًّا ﴾ حال ﴿ فهل وجدتّم مّا وعد ربّكم ﴾ من العذاب ﴿ حقًّا ﴾ وتقديره وعدكم ربكم فحذف "كم" لدلالة ﴿ وعدنا ربنا ﴾ عليه .

(287/270)

وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار واعترافاً بنعم الله تعالى ﴿ قالوا نعم ﴾ وبكسر العين حيث كان : عليٌّ ﴿ فأذّن مؤذّنٌ بينهم ﴾ نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار ﴿ أن لّعنة اللّه على الظّالمين ﴾ ﴿ أن لعنة ﴾ مكي وشامي وحمزة وعلي ﴿

الّذين يصدّون ﴾ يمنعون ﴿ عن سبيل اللّه ﴾ دينه ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ مفعول ثان ل "يبغون" أي ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض ﴿ وهم بالآخرة ﴾ بالدار الآخرة ﴿ كافرون وبينهما ﴾ وبين الجنة والنار أو بين الفريقين ﴿ حجابٌ ﴾ وهو السور المذكور في قوله : ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ [الحديد : 13] ﴿ وعلى الأعراف ﴾ على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه جمع عرف ، استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿ رجالٌ ﴾ من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولاً في الجنة لاستواء حسناتهم وسيآتهم ، أو من لم يرض عنه أحد أبويه أو أطفال المشركين ﴿ يعرفون كلاًّ ﴾ من زمرة السعداء والأشقياء ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم .

قيل : سيما المؤمنين بياض الوجوه ونضارتها ، وسيما الكافرين سواد الوجوه وزرقة العيون ﴿ ونادوا ﴾ أي أصحاب الأعراف ﴿ أصحاب الجنّة أن سلامٌ عليكم ﴾ أنه سلام أو أي سلام وهو تهنئة منهم لأهل الجنة ﴿ لم يدخلوها ﴾ أي أصحاب الأعراف ولا محل له لأنه استئناف كأن سائلاً سأل أصحاب الأعراف فقيل ﴿ لم يدخلوها ﴾ ﴿ وهم يطمعون ﴾ في دخولها أوله محل وهو صفة ل ﴿ رجال ﴾ .

(288/270)

﴿ وإذا صرفت أبصارهم ﴾ أبصار أصحاب الأعراف ، وفيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ﴿ تلقآء ﴾ ظرف أي ناحية ﴿ أصحاب النّار ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب ﴿ قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظّالمين ﴾ فاستعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً ﴾ من رءوس الكفرة ﴿ يعرفونهم بسيماهم قالوا ما آغنى عنكم جمعكم ﴾ المال أو كثرتكم واجتماعكم و"ما" نافية ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ واستكباركم على الحق وعلى الناس ثم يقولون لهم :

﴿ أهؤلاء ﴾ مبتدأ ﴿ الّذين ﴾ خبر مبتدأ مضمر تقديره أهؤلاء هم الذين ﴿ أقسمتم ﴾ حلفتم في الدنيا ، والمشار إليهم فقراء المؤمنين كصهيب وسليمان ونحوهما ﴿ لا ينالهم اللّه برحمةٍ ﴾ جواب ﴿ أقسمتم ﴾ وهو داخل في صلة ﴿ الذين ﴾ تقديره أقسمتم عليهم بأن لا ينالهم الله برحمة أي لا يدخلهم الجنة يحتقرونهم لفقرهم .

فيقال لأصحاب الأعراف : ﴿ ادخلوا الجنّة ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا ﴿ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون وناداى أصحاب النّار أصحاب الجنّة أن أفيضوا علينا من المآء ﴾ أن مفسرة .

وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿ أو ممّا رزقكم اللّه ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة ، أو أريد أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله :

علفتها تبناً وماءاً بارداً

أي وسقيتها وإنما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة لأن المتحير ينطق بما يفيد وما لا يفيد ﴿ قالوا آإنّ اللّه حرّمهما على الكافرين ﴾ هو تحريم منع كما في ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ [القصص : 12] وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذماً ، وإن جررته وصفاً للكافرين فلا .

(289/270)

﴿ الّذين اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ فحرموا وأحلوا ما شاءوا أو دينهم عيدهم ﴿ وغرّتهم الحياة الدّنيا ﴾ اغتروا بطول البقاء ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ نتركهم في العذاب ﴿ كما نسوا لقآء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي كنسيانهم وجحودهم .

﴿ ولقد جئناهم بكتابٍ فصّلناه ﴾ ميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه ﴿ على علمٍ ﴾ عالمين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿ هدًى ورحمةً ﴾ حال من منصوب ﴿ فصلناه ﴾ كما أن ﴿ على علم ﴾ حال من مرفوعة ﴿ لّقومٍ يؤمنون هل ينظرون ﴾ ينتظرون ﴿ إلاّ تأويله ﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الّذين نسوه من قبل ﴾ تركوه وأعرضوا عنه ﴿ قد جآءت

رسل ربّنا بالحقّ ﴾ أي تبين وصح أنهم جاءوا بالحق فأقروا حين لا ينفعهم ﴿ فهل لّنا من شفعآء فيشفعوا لنآ ﴾ جواب الاستفهام ﴿ أو نردّ ﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل : فهل لنا من شفعاء ، أو هل نرد ؟ ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم كقولك ابتداء "هل يضرب زيد" ، أو عطف على تقدير : هل يشفع لنا شافع أو هل نرد ﴿ فنعمل ﴾ جواب الاستفهام أيضاً ﴿ غير الّذي كنّا نعمل قد خسروآ أنفسهم وضلّ عنهم مّا كانوا يفترون ﴾ ما كانوا يعبدونه من الأصنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 53.56 ﴾

(290/270)

ومن فوائد ابن جزى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

أي من كان صدره غل لأخيه في الدنيا ننزعه منه في الجنة وصاروا إخواناً أحباباً ، وإنما قال : نزعنا بلفظ الماضي وهو مستقبل لتحقيق وقوعه في المستقبل ، حتى عبر عنه بما يعبر عن الواقع ، وكذلك كل ما جاء بعد هذا من الأفعال الماضية في اللفظ ، وهي تقع في الآخرة

كقوله : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة ﴾ ، ﴿ ونادى أَصْحَابُ الأعراف ﴾ ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار ﴾ ، وغير ذلك ﴿ هَدَانَا لهذا ﴾ إشارة إلى الجنة أو إلى ما أوجب من الإيمان والتقوى ﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة ﴾ و ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا ﴾ ، ﴿ أَن لَّعْنَةُ الله ﴾ و ﴿ أَن سلام ﴾ : يحتمل أن يكون أن في كل واحدة منها مخففة من الثقيلة ، فيكون فيها ضميراً أو حرف عبارة وتفسير لمعنى القول ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾ حُذف مفعول وعد استغناء عنه بمفعول وعدنا أو لإطلاق الوعد فيتناول الثواب والعقاب ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ [يوسف : 70] أي أعلم معلم وهو ملك ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي بين الجنة والنار أو بين أصحابهما وهو أرجح لقوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ ﴾ [الحديد : 13] ﴿ الأعراف ﴾ .

(291/270)

قال ابن عباس : هو تل بين الجنة والنار ، وقيل : سور الجنة ﴿ رِجَالٌ ﴾ هم أصحاب الأعراف ورد في الحديث : أنهم قوم من بني آدم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يدخلوا الجنة ولا النار ، وقيل : هم قوم خرجوا إلى الجهاد بغير إذن آبائهم ، فاستشهدوا ، فمنعوا من الجنة لعصيان آبائهم ، ونجوا من النار للشهادة ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بسيماهم ﴾ أي يعرفون

أهل الجنة بعلامتهم من بياض وجوههم ، ويعرفون أهل النار بعلامتهم من سواد وجوههم ، أو غير ذلك من العلامات ﴿ وَنَادَوْاْ أصحاب الجنة أَن سلام عَلَيْكُمْ ﴾ أي سلام أصحاب الأعراف على أهل الجنة ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أي أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها من بعد ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم ﴾ الضمير لأصحاب الأعراف أي إذا رأوا أصحاب النار دعوا الله أن لا يجعلهم معهم ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رِجَالاً ﴾ يعني من الكفار الذين في النار ، قالوا لهم ذلك على وجه التوبيخ ﴿ جَمْعُكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون أراد جمعهم للمال أو كثرتهم ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي استكبارهم على النار أو استكبارهم على الرجوع إلى الحق ، فما ها هنا مصدرية وما في قوله : ﴿ مَآ أغنى ﴾ استفهامية أو نافية ﴿ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ ﴾ من كلام أصحاب الأعراف خطاباً لأهل النار والإشارة بهؤلاء إلى أهل الجنة ، وذلك أن الكفار كانوا في الدنيا يقسمون أن الله لا يرحم المؤمنين ، ولا يعبأ بهم ؛ فظهر خلاف ما قالوا ، وقيل : هي من كلام الملائكة خطاباً لأهل النار ، والإشارة بهؤلاء إلى أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ خطاباً لأهل الجنة إن كان من كلام أصحاب الأعراف تقديره : قد قيل لهم ادخلوا الجنة ، أو خطاباً لأهل الأعراف إن كان من كلام الملائكة ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء ﴾ دليل على أن الجنة فوق النار ﴿ أَوْ مِمَّا رزقكم الله ﴾ من سائر الأطعمة والأشربة ﴿ فاليوم

(292/270)

ننساهم ﴾ أي نتركهم ﴿ كَمَا نَسُواْ ﴾ الكاف للتعليل ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ عطف على كما نسوا : أي لنسيانهم وجحودهم ﴿ جئناهم بكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ فصلناه على عِلْمٍ ﴾ أي علمنا كيف نفصله ﴿ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ أي هل ينتظرون إلا عاقبة أمره ، وما يؤول إليه أمره بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ أي قد تبين وظهر الآن أن الرسل جاؤوا بالحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 32.34 ﴾

(293/270)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53) ﴾

التفسير : ولما شرح وعيد الكفار وثواب الأبرار أتبعه المناظرات التي تدور بين الفريقين فقال : ﴿ ونادى ﴾ وإنما ذكره بلفظ الماضي لأن المستقبل الذي يخبر الله تعالى عنه من حيث تحقق وقوعه كالماضي . والظاهر أن هذا النداء إنما يكون بعد الاستقرار في الجنة لأنه ورد بعد قوله : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها ﴾

(294/270)

قيل : الجنة في أعلى السموات والنار في أسفل الأرض . ومع هذا البعد الشديد كيف يصح هذا النداء ؟ وأجيب بأن البعد الشديد والقرب عندنا ليس من موانع الإدراك ، ولو سلم المنع في الشاهد فلا يسلم في الغائب . وهذا النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار لأن أصحاب الجنة وأصحاب النار يفيد العموم لكن الجمع إذا قرن بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار . و" أن " في ﴿ إن قد وجدنا ﴾ مفسرة أو مخففة من الثقيلة كما مر في قوله : ﴿ أن تلكم الجنة ﴾ [الأعراف : 43]

وكذا قوله : ﴿ أن لعنة الله ﴾ لأن النداء والتأذين في معنى القول : قال ابن عباس : ﴿ وجدنا ما وعدنا ربنا ﴾ في الدنيا من الثواب ﴿ حقاً ﴾ صحيحاً مطابقاً للواقع ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم ﴾ من العقاب ﴿ حقاً ﴾ والغرض من هذا الاستفهام إظهار الشاشة والاغتباط وإيقاع الحزن في قلب العدو ، وفي هذه الحكاية لطف للمؤمنين وترغيب كما في سائر الأخبار . وإنما حذف المفعول في ﴿ وعد ربكم ﴾ لدلالة المفعول في ﴿ وعدنا ﴾ عليه ، ولأن كونهم مخاطبين من قبل الله تعالى بهذا الوعد يوجب مزيد التشريف وأنه لا يليق إلا بحال المؤمنين ويحتمل أن يكون الإطلاق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة ﴿ قالوا نعم ﴾ قال سيبويه : نعم عدة وتصديق أي تستعمل تارة عدة وتارة تصديقاً .

(295/270)

فإذا قال : أتعطيني ؟ قال : نعم ، فهو عدة . وإذا قال : قد كان كذا وكذا فقلت : نعم فقد صدقت . والحاصل أن نعم للتصديق في الخبر والتحقيق في الاستفهام مثبتين كانا أو منفيين . فلو قيل : قام زيد أو أقام زيد فتقول : نعم . كان معناه نعم قام زيد مصدقاً أو محققاً ولو قيل : ما قام زيد أو ألم يقم زيد فقلت : نعم . كان المعنى ما قام زيد مصدقاً أو محققاً ومن

ثم قال ابن عباس : لو قالوا في جواب ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] " نعم " لكان كفراً . هذا من حيث اللغة وقد يكون العرف على خلاف ذلك كقول الفقهاء . لو قيل أليس لي عليك دينار فقلت : نعم التزمت بالدينار بناء على العرف الطارىء بعد الوضع . وكنانة تكسر العين من نعم . وروي عن عمر أنه سأل قوماً عن شيء فقالوا : نعم فقال عمر : أما النعم فالإبل وقولوا نعم وأنكر هذه الرواية أبو عبيد ﴿ فأذن مؤذن ﴾ قال ابن عباس : هو الملك صاحب الصور يأمره الله فينادي نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار . ومعنى التأذين النداء والتصويت للإعلام ومنه الأذان لأنه إعلام بالصلاة وبوقتها . والظالمون في الآية قيل : عام للكافر والفاسق والظاهر أنهم الكفار لأن الصد عن سبيل الله أي المنع عن قبول الدين الحق بالقهر أو بالحيلة وإلقاء الشكوك والشبهات في الدلائل وهو المراد بقوله : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ وقد مر في آل عمران . والكفر بالآخرة كلها من أوصاف الكفرة وإنما قدم بالآخرة تصحيحاً لفواصل الآي ولم يزد لفظة هم هنا على القياس . وأما في سورة هود فلما تقدم ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ وقال : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ [الآية : 18] ولم يقل " عليهم " والقياس ذلك التبس أنهم هم أم غيرهم فكرر ليعلم أنهم هم المذكرون لا غيرهم . ثم وصف أهل الجنة والنار فقال : ﴿ وبينهما ﴾ يعني بين الجنة والنار أو بين الفريقين ﴿ حجاب ﴾ وهو السور المذكور في قوله سبحانه : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ [الحديد : 13] قيل : أي

(296/270)

حاجة إلى ضرب هذا السور والجنة فوق السموات والجحيم في أسفل سافلين . وأجيب بأن بعد أحدهما عن الآخر لا يمنع أن يكون بينهما سور وحجاب . والأعراف لغة جمع عرف بالضم وهو الرمل المرتفع ومنه عرف الفرس وعرف الديك ، وكل مرتفع من الأرض عرف لأنه بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض منه . الأعراف في الآية يفسر بالمكان تارة وبغيره أخرى . أما الذين فسروه بالمكان وهم الأكثرون فقال : إن الأعراف أعلى أعالي السور المضروب بين الجنة والنار ويروى عن ابن عباس .

(297/270)

وعنه أيضاً أن الأعراف شرف الصراط وعلى هذا التفسير فالذين هم على الأعراف من هم فيه قولان : أحدهما أنهم أقوام يكونون في الدرجة العليا من الثواب . وثانيهما : أنهم في الدرجة النازلة . وعلى الأول فيه وجوه : فقال أبو مجلز : هم ملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار . فقيل له : يقول الله تعالى : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ وأنت تقول : إنهم

ملائكة . فقال : الملائكة ذكور لا إناث . ويرد عليه أن الرجل لغة يطلق على من يصلح أن يكون من نوعه أنثى بل يطلق على الذكر من بني آدم . وقيل : إنهم الأنبياء عليهم السلام أجلسهم الله تعالى على ذلك المكان العالي إظهاراً لشرفهم وليكونوا مشرفين على الفريقين مطلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم . وقيل : إنهم الشهداء . وعلى القول الثاني قيل : إنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم أوقفهم الله على هذه الأعراف لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار . ثم تؤل عاقبة أمرهم إلى الجنة برحمة من الله وفضل قاله حذيفة وابن مسعود واختاره الفراء . وخصصه بعضهم فقال : هم قوم خرجوا إلى الغزو بغير إذن أمهاتهم فاستشهدوا فساوت معصيتهم طاعتهم وفي هذا التخصيص نظر . وقال عبد الله بن الحرث : إنهم مساكين أهل الجنة . وقال قوم : هم الفساق من أهل الصلاة يعفو الله عنهم ويسكنهم الأعراف . وأما الذين فسروه بغير المكان وهو قول الحسن والزجاج فقد قالوا : إن المعنى وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يميزون البعض من البعض إما بالإلهام أو بتعريف الملائكة . قال الحسن : والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا . وعلى جميع التفاسير فهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار . قال قوم : يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة مبيضة ، وأهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم . وزيف بأن هذا النوع من المعرفة عام لأهل المحشر فلا وجه لتخصيص أصحاب الأعراف بذلك . ويمكن أن يقال : إن معرفتهم لكونهم على الأمكنة المرتفعة آمنين . وقال المحققون : إنهم كانوا

(298/270)

يعرفون أهل الخير والإيمان والصلاة وأهل الشر والكفر والإفساد وهم كانوا في الدنيا شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة وعلى أهل الكفر والمعصية ، فهو تعالى يجلسهم على الأعراف ليكونوا مطلعين على الكل يشهدون على كل أحد بما يليق به . ثم قال : ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ أي إنهم إذا نظروا إلى الجنة سلموا على أهلها . ثم أخبر على سبيل الاستئناف أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿ وهم يطمعون ﴾ كأن سائلاً سأل عن حالهم أو على أنه صفة أخرى لرجال . فإن قلنا : إن أصحاب الأعراف هم الأشراف فيكون الله تعالى أخر إدخالهم الجنة ليطلعوا على أحوال أهل الجنة والنار ، ثم إنه تعالى ينقلهم إلى الدرجات العلا في الجنة كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : " ان أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدريّ في وسط السماء وإن أبا بكر وعمر منهم "

(299/270)

ومعنى يطمعون على هذا يتيقنون كقول إبراهيم : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [الشعراء : 82] ولا يخفى ما في هذه العبارة من حسن الأدب . وإن قلنا أصحاب الأعراف هم الأوساط فلا إشكال لأنهم يطمعون من فضل الله وإحسانه أن ينقلهم من ذلك الموضع إلى الجنة ﴿ وإذا صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ قال الواحدي : التلقاء جهة اللقاء وهي جهة المقابلة وهو في الأصل مصدر استعمل ظرفاً . ولم يأت من المصادر على " تفعال " بالكسر إلا حرفان " تبيان " و" تلقاء " وإنه في الاسم كثير كتمثال وتقصار ، والمعنى أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى أن لا يجعلهم من زمرتهم . وفي بناء الفعل للمفعول وإن لم يقل وإذا أبصروا فائدة هي أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا . ثم بين أن أصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أكابر أهل النار واستغنى عن التصريح بهم بوصفهم بما لا يليق إلا بهم فقال : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ المال أو كثرتكم واجتماعكم ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ عن الحق وعلى الناس ، وفيه تبكيت للمخاطبين وشماتة بهم ، ثم زادوا في التبكيت مشيرين إلى فريق من أهل الجنة كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم ، وربما استهزؤا بهم وأنفوا من مشاركتهم في دينهم لقلة حظوظهم من الدنيا فقالوا : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ أما قوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ إلى آخر الآية . فمن قول الله تعالى لأصحاب

الأعراف ، أو من قول الملائكة لهم بأمره ، أو من قول بعضهم لبعض وذلك بعد أن يحبسوا ويجلسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويقولوا . قال المفسرون : الرجال ههنا الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام والعاص بن وائل السهمي ونظراؤهم . وكانوا يقولون إن بلالاً وسلمان وعماراً وأمثالهم يدخلهم الله الجنة ويدخلنا النار كلاً والله إن الله لا يفضل علينا

(300/270)

خدمنا ورعاتنا ، أقسموا أن لا يخصهم بفضل دونهم فناداهم أصحاب الأعراف .

ثم ختم المناظرت بقوله : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ قال ابن عباس : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار بفرج بعد اليأس فقالوا : ربنا إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فأمر الله بالجنة فزخرفت ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم ، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم قد اسودت وجوههم وصاروا خلقاً آخر ، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا : ﴿ أفيضوا علينا من الماء ﴾ طلبوا الماء أوّلاً لما في بواطنهم من الاحتراق الشديد .

وفي الإفاضة نوع دلالة على أن أهل الجنة أعلى مكاناً من أهل النار . قال بعض العلماء :

إنهم سألوا ذلك مع جواز الحصول . وقال آخرون : بل مع اليأس لأنهم عرفوا دوام عقابهم ولكن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل : الغريق يتعلق بالزبد . وإن علم أنه لا يغنيه . قوله : ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ قيل : أي سائر الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة . وقيل : أي من الثمار أو الطعام . والمراد : وألقوا علينا من الطعام والفاكهة كقوله :

(301/270)

علفتها تبناً وماءً بارداً . . . فيكون في الآية دليل على نهاية عطشهم وشدّة جوعهم . ثم كأن سائلاً سأل فبماذا أجابهم أهل الجنة ؟ فقيل : ﴿ قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ أي منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه وهذه نهاية الحسرة والخيبة أعاذنا الله منها . ثم وصف هؤلاء الكافرين بأنهم ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة ﴾ وقد مر تفسير الوصفين في أوسط سورة الأنعام . وقال ابن عباس : يريد المستهزئين المقتسمين ، وجملة الأمر أن الإنسان يطمع في طول العمر وحسن العيش وكثرة الماء وقوة الجاه فلشدة رغبته في هذه الأشياء يصير محجوباً عن طلب الدين غريقاً في بحر الدنيا ومشتهياتها . ثم ذكر جزاءهم يوم القيامة على سبيل الحكاية فقال : ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ أي نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا قاله الحسن ومجاهد

والسدي والأكثرون ، وقيل : أي نعاملهم معاملة من نسي بتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض عن آياتنا ، فسمي جزاء النسيان نسياناً كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾ [الشورى : 40] والحاصل أنه لا يجيب دعائهم ولا يرحم ضعفهم وذلهم . عن أبي الدرداء أن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم فيستغيثون فيغاثون بالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة ، ثم يذكرون الشراب فيستغيثون إلى أهل الجنة كما في هذه الآية فتقول أهل الجنة ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ ، ويقولون لمالك ليقض علينا ربك فيجيبهم على ما قيل بعد ألف عام إنكم ماكثون ، ويقولون ربنا أخرجنا منها فيجيبهم اخسؤا فيها ولا تكلمون ، فعند ذلك ييأسون من كل خير ويأخذون في زفير وشهيق . وعن ابن عباس في صفة أهل الجنة : إنهم يرون الله عز وجل في كل جمعة ، ولمنزل كل واحد منهم ألف باب فإذا رأوا الله تعالى دخل من كل باب ملك معهم الهدايا الشريفة . وقال : إن نخل الجنة خشبها الزمرد

(302/270)

وقوائمها الذهب الأحمر وسعفها حلل وكسوة لأهل الجنة وثمرتها أمثال القلال أشد بياضاً من الفضة وألين من الزبد وأحلى من العسل لا عجم فيها . فهذه صفة الفريقين من القرآن

والحديث فتأهب لأيهما شئت والله الموفق . ولما شرح الله تعالى حال الطائفتين والمناظرات الجارية بينهم لتكون حاملاً للمكلف على الحذر من مواجب النار وعلى الرغبة في مستتبعات الجنة بيّن شرف هذا الكتاب الكريم وغاية منافعه الجليلة فقال : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه ﴾ ميزنا بعضه عن بعض تمييزاً يهدي إلى الرشاد ويؤمن من الغلط والتخليط .

(303/270)

وإنما فعلنا ذلك لا كيفما اتفق بل ﴿ على علم ﴾ بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد الكثيرة والمنافع الغزيرة حتى جاء بريئاً من كل خلل وقدح ومعجزاً باقياً على وجه الدهر . وقوله : ﴿ وهدى ورحمة ﴾ حالان من منصوب ﴿ فصلناه ﴾ كما أن ﴿ على علم ﴾ حالٍ من مرفوعه . ويحتمل أن يكونا مفعولاً لهما ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأن فائدته تعود إليهم ، ثم لما بيّن إزاحة العلة بسبب إنزال هذا الكتاب المفصل الموجب للهداية والرحمة بين بعده حال من كذب به فقال : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ والنظر ههنا بمعنى الانتظار والتوقع ، وكيف ينتظرون مع جحدهم وإنكارهم ؟ الجواب لعل فيهم أقواماً تشككوا وتوقفوا ولهذا السبب انتظروه . وأيضاً إنهم كانوا جاحدين إلا أنهم بمنزلة

المنتظرين من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالة . قال الفراء : الضمير في تأويله للكتاب أي إلا عاقبة أمره وما يؤل إليه من بيان صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ، أو عاقبة ما وعدوا به على ألسنة الرسل من الثواب والعقاب ، والتأويل مرجع الشيء ومصيره من قولهم آل الشيء يؤل ﴿ يوم يأتي ﴾ يريد يوم القيامة وانتصابه على أنه ظرف ﴿ يقول ﴾ ومعنى : ﴿ نسوه ﴾ تركوا العمل به والإيمان أو أنهم صاروا في الإعراض عنه بمنزلة من نسيه ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي متلبسين بما هو الحق ، أو الباء للتعدية والمراد اعترافهم بثبوت الحشر والنشر وأحوال القيامة وأهوالها إذا عاينوها ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ منصوب بإضمار " أن " بعد الفاء والتقدير : هل يثبت لنا شفيع فيشفع ﴿ أو ﴾ هل ﴿ نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ فنوحد الله تعالى بدلاً عن الشرك ونطيعه بدلاً عن المعصية . وفيه دليل على أن أهل الآخرة لا تكليف لهم خلافاً للنجار ومن تبعه وإلا لم يسألوا الرد إلى دار التكليف ولم يتمنوه بل كانوا يتوبون في الحال . ثم حكم بأن ذلك التمني لا يفيدهم شيئاً وأن مطلوبهم لا يكون ألبتة فقال : ﴿ قد خسروا

(304/270)

أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي لا ينتفعون بالأصنام التي عبدوها في الدنيا وليس تفيدهم نصرة الأوثان التي بالغوا في نصرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 238.243 ﴾

(305/270)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) ﴾

ثم يستمر العرض ، فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم ؛ واستيقن أصحاب النار من مصيرهم . وإذا الألولون ينادون الآخرين ، يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم :

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار : أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ! فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾ . .

وفي هذا السؤال من السخرية المرة ما فيه . . إن المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد الله كثقتهم من تحقق وعده . ولكنهم يسألون .

ويجيء الجواب في كلمة واحدة . . نعم . . !

وعندئذ ينتهي الجواب ، ويقطع الحوار :

﴿ فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة كافرون ﴾ . .

فيتحدد معنى ﴿ الظالمين ﴾ المقصود . وهو مرادف لمعنى ﴿ الكافرين ﴾ . فهم الذين يصدون عن سبيل الله ، ويريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون .

(306/270)

وفي هذا الوصف : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ . . إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدون عن سبيل الله . إنهم يريدون الطريق العوجاء ؛ ولا يريدون الطريق المستقيم . يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة : صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ما عداه فهو أعوج ؛ وهو إرادة للعوج . وهذه الإرادة تلتقي مع الكفر بالآخرة . فما يؤمن بالآخرة أحد ، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ؛ ثم يصد عن سبيل الله ،

ويحيد عن نهجه وشرعه . . وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعاً غير شرع الله . التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح .

ثم يتوجه النظر إلى المشهد من ظاهره . فإذا هنالك حاجز يفصل بين الجنة والنار ؛ عليها رجال يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلاماتهم . . فلننظر من هؤلاء ، وما شأنهم مع أصحاب الجنة وأصحاب النار ؟

﴿ وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة : أن سلام عليكم . . لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ . .

(307/270)

روي أن هؤلاء الرجال الذين يقفون على الأعراف – الحجاب الحاجز بين الجنة والنار – جماعة من البشر ، تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تصل بهم تلك إلى الجنة مع أصحاب

الجنة ، ولم تؤد بهم هذه إلى النار مع أصحاب النار . . وهم بين بين ، ينتظرون فضل الله ويرجون رحمته . . وهم يعرفون أهل الجنة بسيماهم – ربما ببياض الوجوه ونضرتها أو بالنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم – ويعرفون أهل النار بسيماهم – ربما بسواد الوجوه وقترتها ، أو بالوسم الذي على أنوفهم التي كانوا يشمخون بها في الدنيا ، كالذي جاء في سورة القلم :

﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ! وها هم أولاء يتوجهون إلى أهل الجنة بالسلام . . يقولونها وهم يطمعون أن يدخلهم الله الجنة معهم ! . . فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار – وكأنما يصرفون إليهم صرفاً لا عن إرادة منهم – استعاذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم !

﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة : أن سلام عليكم . . لم يدخلوها وهم يطمعون . . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ . .

ثم يبصرون برجال من كبار المجرمين معروفين لهم بسيماهم . فيتجهون إليهم بالتبكيت والتأنيب :

﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾ !

فها أنتم هؤلاء في النار ، لا جمعكم نفعكم ، ولا استكباركم أغنى عنكم !

ثم يذكرونهم بما كانوا يقولونه عن المؤمنين في الدنيا من أنهم ضالون ، لا ينالهم الله برحمة :

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ! ﴾ !

انظروا الآن أين هم ؟ وماذا قيل لهم :

﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ . .

وأخيراً . ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبل النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء :

﴿ ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾

!

(308/270)

وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب ملؤه التذكير الأليم المرير :

﴿ قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ . .

ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطق رب العزة والجلالة ، وصاحب الملك والحكم :

﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي

تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل . قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

وهكذا تتوالى صفحات المشهد جيئة وذهوباً . . لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا . لمحة مع المعذبين في النار ، المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله ، وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين . فصله الله – سبحانه – على علم – فتركوه واتبعوا الأهواء والأوهام والظنون . . ولمحة معهم – وهم بعد في الدنيا – ينتظرون مآل هذا الكتاب وعاقبة ما جاءهم فيه من النذير ؛ وهم يُحذّرون أن يجيئهم هذا المآل . فالمآل هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال !

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ؛ لا يجليها هكذا إلا هذا الكتاب العجيب !

وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير ؛ ويجيء التعقيب عليه متناسقاً مع الابتداء . تذكيراً بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

نعم . . هكذا ينتهي الاستعراض العجيب . فنفيق منه كما نفيق من مشهد أخاذ كنا

نراه .

ونعود منه إلى هذه الدنيا التي فيها نحن ! وقد قطعنا رحلة طويلة طويلة في الذهاب والمجيء ! إنها رحلة الحياة كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها . . ومن قبل كنا مع البشرية في نشأتها الأولى ، وفي هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها ! وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان . يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون . . كله في لمحات . . لعلها تتذكر ، ولعلها تسمع للنذير :

كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 3 صـ 1292 . 1294 ﴾

(309/270)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : نادى أهل المحبة أهل القطيعة ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴾ يعني قوله : " ألا من طلبني وجدني " ﴿ فهل وجدتم ما وعدكم ﴾ ﴿ ربكم ﴾ حقاً وهو قوله : "

ومن طلب غيري لم يجدني " ﴿ فأذن مؤذن ﴾ العزة والعظمة على الظالمين الذين وضعوا استعداد الطلب في غير موضع مطلوبه ، الذين يصدون القلب والروح عن سبيل الله وطلبه ، ويطلبون صرف وجوههم إلى الدنيا وما فيها ﴿ وبينهما حجاب ﴾ من الأوصاف البشرية والأخلاق الذميمة النفسانية فلا يرى أهل النار أهل الجنة وكذا بين أهل الجنة وأهل الله – وهم أصحاب الأعراف – حجاب من أوصاف الخلقية والأخلاق الحميدة الروحانية .

(310/270)

وسميت أعرافاً لأنها موطن أهل المعرفة ، وسموا رجالاً لأنهم بالرجولية يتصرفون فيما سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه ، فالأعراف مرتبة فوق الجنان في حظائر القدس عند الرحمن ﴿ يعرفون كلاً ﴾ من أهل الجنة وأهل النيران ﴿ بسيماهم ﴾ من آثار نور القلب وظلمته ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ يعني هنيئاً لكم ما أنتم فيه من النعيم والحور والقصور . ثم أخبر عن همة أهل الأعراف فقال : ﴿ لم يدخلوها ﴾ أي الجنة ونعيمها ولم يلتفتوا إلى غير المولى ﴿ وهم يطمعون ﴾ في الوصول إلى الحق سبحانه . ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ ابتلاء

ليعرفوا أنه تعالى من أي دركة خلصهم وبأي كرامة خصهم ومن هذا القبيل يكون ما يسنح لأرباب الكمالات من الخواطر النفسانية وما أتاهم الله بشيء من الدنيا والجاه والقبول والاشتغال بالخلق ليعرفوا قدر العزلة والتجريد والأنس مع الله في الخلوات ﴿ رجالاً يعرفونهم بسيماهم ﴾ يعني أهل الجنة وأهل النار ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ يا أهل الجنة وأهل الله من الطاعات ويا أهل النار من الدنيا والشهوات ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ عن السير في حقيقة لا إله إلا الله ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم ﴾ يعني أن من المؤمنين والعلماء بعلم الظاهر في بعض الأوقات من يقول لدناءة همته لأهل المحبة والمعرفة ﴿ لا ينالهم الله برحمة ﴾ الوصول ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يعني الجنة المضافة إليه في قوله : ﴿ ادخلي جنتي ﴾ [الفجر : 30] في حظائر القدس وعالم الجبروت ﴿ لا خوف عليكم ﴾ من الخروج ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ على ما فاتكم من نعيم الجنة إذ فزتم بشهود جمالنا . اعلم أن أهل الجنة وأهل النار يرون أهل الله وهم أصحاب الأعراف بالصورة ما داموا في مواطن الكونين ، فإذا دخلوا الجنة الحقيقية المضافة إلى الله في حظائر القدس وسرادق العزة انقطع عنهم نظرهم ونظر الملائكة المقرّبين فافهم . يحكى عن بابا جعفر الأبهري أنه دخل على بابا طاهر

(311/270)

الهمداني فقال : أين كنت فإني حضرت البارحة مع الخواص على باب الله فما رأيتك ثمة ؟ فقال بابا طاهر : صدقت كنت على الباب مع الخواص وكنت داخلاً مع الأخص فما رأيتني . ﴿ فيضوا علينا من الماء ﴾ كانوا في الدنيا عبيد البطون حراصاً على الطعام والشراب فماتوا على ما عاشوا وحشروا على ما ماتوا ، وإن أهل الجنة لما جوعوا بطونهم لوليمة الفردوس كان اشتغالهم في الجنة بشهوات النفس والمضايقة بها ﴿ فقالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ وفي الحقيقة إنما حرمهما عليهم في الأزل فلم يوفقوا لمعاملات تورث الجنة ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ما يؤل إليه عاقبته في شأنهم . فللمؤمنين كشف الغطاء وسبوغ العطاء ، ولأهل الجحود الفرقة الافتقار وعذاب النار أعاذنا الله تعالى منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 243.244 ﴾

(312/270)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَيَا ءادَمُ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ أي النفس وسميت حواء لملازمتها الجسم الظلماني إذ الحوة اللون الذي يغلب عليه السواد .

وبعضهم يجعل آدم إشارة إلى القلب لأنه من الأدمة وهي السمرة وهو لتعلقه بالجسم دون النفس سمي بذلك .

ولشرف آدم عليه السلام وجه النداء إله وزوجه تبع له في السكنى ﴿ الجنة ﴾ هي عندهم إشارة إلى سماء عالم الأرواح التي هي روضة القدس ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ لا حجر عليكما في تلقي المعاني والمعارف والحكم التي هي الأقوات القلبية والفواكه الروحانية ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ أي شجرة الطبيعة والهوى التي بحضرتكما ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [الأعراف : 19] الواضعين النور في محل الظلمة أو الناقصين من نور استعدادكما .

وأول بعضهم الشجرة بشجرة المحبة المورقة بأنواع المحنة أي لا تقرباها فتظلما أنفسكما لما فيها من احتراق أنانية المحب وفناء هويته في هوية المحبوب ثم قال : إن هذه الشجرة غرسها الرحمن بيده لآدم عليه السلام كما خمر طينته بيده لها

فلم تك تصلح إلا له . . .

ولم يك يصلح إلا لها

وأن المنع كان تحريضاً على تناولها فالمرء حريص على ما منع ، واختار هذا النيسابوري وتكلف في باقي الآية ما تكلف فإن أردته فارجع إليه ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن ﴾ أي ليظهر لهما بالميل إلى شجرة الطبيعة ما حجب عنهما عند

التجرد من الأمور الرذيلة التي هي عورات عند العقل ﴿ سَوْءِتِهِمَا وَقَالَ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [الأعراف : 20] أوهمهما أن في الاتصاف بالطبيعة الجسمانية لذاتاً ملكية وخلوداً فيها أو ملكاً ورياسة على القوى بغير زوال إن قرىء ﴿ مَلَكَيْنِ ﴾ بكسر اللام .

(313/270)

﴿ فدلاهما ﴾ فنزلهما من غرف القدس إلى التعلق بها والركون إليها ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ بما غرهما من كأس القسم المترعة من حميا ذكر الحبيب ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا ﴾ والقليل منها بالنسبة إليهما كثير ﴿ سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ أي يكتمان هاتيك السوآت والفواحش الطبيعية بالآداب الحسنة والعادات الجميلة التي هي من تفاريع الآراء العقلية ومستنبطات القوة العاقلة العلمية ويخفيانها بالحيل العملية ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ بما أودعت في عقولكما من الميل إلى التجرد وإدراك المعقولات ﴿ عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 22] وذلك القول بما ألهم العقل من منافاة أحكام الوهم ومضادة مدركاته والوقوف على مخالفاته ومكابراته إياه ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ بالميل إلى جهة الطبيعة وانطفاء

نورها وانكسار قوتها ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ بإلباسنا الأنوار الروحانية وإفاضتها علينا ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ بإفاضة المعارف الحقيقية

﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الأعراف : 23] الذين أتلفوا الاستعداد الذي هو مادة السعادة وحرموا عن الكمال التجردي بملازمة النقص الطبيعي ﴿ قَالَ اهبطوا ﴾ إلى الجهة السفلى التي هي العالم الجسماني ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [اوعراف : 24] لأن مطالب الجهة السفلية جزئية لا تحتمل الشركة فكلما حظي بها أحد حرم منها غيره فيقع بينهما العداوة والبغضاء بخلاف المطالب الكلية .

(314/270)

وجمع الخطاب لأنه في قوة خطاب النوع ﴿ تُخْرَجُونَ يا بنى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ وهو لباس الشريعة ﴿ يوارى ﴾ يستر قبائح أوصافكم وفواحش أفعالكم بشعاره ودثاره ﴿ سَوْءِتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ زينة وجمالاً في الظاهر والباطن تمتازون به عن سائر الحيوانات ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ﴾ أي صفة الورع والحذر من صفات النفس ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ من سائر أركان الشرائع والحمية رأس الدواء .

ويقال : لباس التقوى هو لباس القلب والروح والسر والخفي ولباس الأول : منها الصدق في

طلب المولى ويتوارى به سوأة الطمع في الدنيا وما فيها .

ولباس الثاني : محبة ذي المجد الأسنى ويتوارى به سوأة التعلق بالسوي .

ولباس الثالث : رؤية العلي الأعلى ويتوارى به سوأة رؤية غيره في الأولى والأخرى .

(315/270)

ولباس الرابع : البقاء بهوية ذي القدس الأسنى ويتوارى به سوأة هوية ما في السموات وما في الأرض وما تحت الثرى قيل : وهذا إشارة إلى الحقيقة ، وربما يقال : اللباس المواري للسوآت إشارة إلى الشريعة والريش إشارة إلى الطريقة لما أن مدارها على حسن الأخلاق وبذلك يتزين الإنسان ولباس التقوى إشارة إلى الحقيقة لما فيها من ترك السوي وهو أكمل أنواع التقوى ﴿ ذلك ﴾ أي لباس التقوى ﴿ مِنْ آيات الله ﴾ أي من أنوار صفاته سبحانه إذ التوقي من صفات النفس لا يتيسر إلا بظهور تجليات صفات الحق أو إنزال الشريعة والحقيقة مما يدل على الله سبحانه وتعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 26] عند ظهور تلك الأنوار لباسكم الأصلي النوري أو تذكرون معرفتكم له عند أخذ العهد فتتمسكون بأذيالها اليوم ﴿ يَذَّكَّرُونَ يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان ﴾ بنزع لباس الشريعة والتقوى فتحرموا من دخول الجنة ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾

الفطري النوري ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 27] وذلك بمقتضى البشرية وقد يرون بواسطة النور الرباني .

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ بالعدل وهو الصراط المستقيم ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي ذواتكم بمنعها عن الميل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي مقام سجود أو وقته ، والسجود عندهم كما قاله البعض أربعة أقسام سجود الانقياد والطاعة وإقامة الوجه عنده بالإخلاص وترك الالتفات إلى السوي ومراعاة موافقة الأمر وصدق النية والامتناع عن المخالفة في جميع الأمور ، وسجود الفناء في الأفعال وإقامة الوجه عنده بأن لا يرى مؤثراً غير الله تعالى أصلاً .

(316/270)

وسجود الفناء في الصفات وإقامة الوجه عنده بأن لا يكره شيئاً من غير أن يميل إلى الإفراط بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا التفريط بالتسخط على المخالف والتعيير له والاستخفاف به .

وسجود الفناء في الذات وإقامة الوجه عنده بالغيبة عن البقية والانطماس بالكلية والامتناع عن إثبات الآنية والاثنينية فلا يطغى بحجاب الآنية ولا يتزندق بالإباحة وترك

الإطاعة.

﴿ وادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ بتخصيص العمل لله سبحانه أو برؤية العمل منه أو به جل شأنه ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ أظهركم بإفاضة هذه التعينات عليكم ﴿ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] إليه أو كما بدأكم لطفاً أو قهراً تعودون إليه فيعاملكم حسبما بدأكم ﴿ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ كما ثبت ذلك في علمه ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين ﴾ من القوى النفسانية الوهمية والتخيلية ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله ﴾ للمناسبة التامة بين الفريقين ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30] لقوة سلطان الوهم ﴿ يا بنى ءادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ ﴾ فأخلصوا العمل لله تعالى وتوكلوا عليه وقوموا بحق الرضا وتمكنوا في التحقق بالحقيقة ومراعاة حقوق الاستقامة ولكل مقام مقال ﴿ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ [الأعراف : 31] بالإفراط والتفريط فإن العدالة صراط الله تعالى المستقيم.

(317/270)

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ أي منع عنها وقال : لا يمكن التزين بها ﴿ والطيبات مِنَ الرزق ﴾ كعلوم الإخلاص ومقام التوكل والرضا والتمكين ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ

زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطيبات مِنَ ﴾ [الأعراف : 32] الكبرى عن التلون وظهور شيء من بقايا الأفعال والصفات والذات ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ﴾ رذائل القوة البهيمية ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغى ﴾ رذائل القوة السبعية ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33] رذائل القوة النطقية وكل ذلك من موانع الزينة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ ينتهون عنده إلى مبدئهم ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] لأن وقوع ما يخالف العلم محال ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ يا بنى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من جنسكم ، وقيل : هي العقول ، وقال النيسابوري : التأويل إما يأتينكم إلهامات من طريق قلوبكم وأسراركم ، وفيه أن بني آدم كلهم مستعدون لإشارات الحق وإلهاماته ﴿ فَمَنِ اتقى ﴾ في الفناء ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ بالاستقامة عند البقاء ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : 35] لوصولهم إلى مقام الولاية ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أخفوا صفاتنا بصفات أنفسهم ﴿ واستكبروا عَنْهَا ﴾ بالاتصاف بالرذائل ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب النار ﴾ نار الحرمان ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [الأعراف : 36] لسوء ما طبعوا عليه ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ بأن قال : أكرمني الله تعالى بالكرامات وهو الذي بالكرى مات ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ﴾ بأن أنكر على أولياء الله سبحانه الفائزين من الله تعالى بالحظ الأوفى

﴿ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب ﴾ [الأعراف : 37] مما كتب لهم في لوح القضاء والقدر .

وقيل : الكتاب الإنسان الكامل ونصيبهم منه نصيب الغرض من السهم ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ الدالة علينا ﴿ واستكبروا عَنْهَا ﴾ ولم يلتفتوا إليها لوقوفهم مع أنفسهم ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء ﴾ فلا تعرج أرواحهم إلى الملكوت ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ أي جنة المعرفة والمشاهدة والقربة ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ أي جمل أنفسهم المستكبرة ﴿ فِى سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] أي خياط أحكام الشريعة الذي به يخاط ما شقته يد الشقاق ، وسمه آداب الطريقة لأنها دقيقة جداً ، وقد يقال : الخياط إشارة إلى خياط الشريعة ، والطريقة وسمه ما يلزمه العمل به من ذلك وولوج ذلك الجمل لا يمكن مع الاستكبار بل لا بد من الخضوع والانقياد وترك الحظوظ النفسانية وحينئذ يكون الجمل أقل من البعوضة بل أدق من الشعرة فحينئذ يلج في ذلك السم ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ ﴾ الحرمان ﴿ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] أي أن الحرمان أحاط بهم ، وقيل : لهم من

جهنم المجاهدة والرياضة فراش ومن فوقهم من مخالفات النفس وقطع الهوى لحاف فتذيبهم وتحرق أنانيتهم .

(319/270)

﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ المرحومون ﴿ أصحاب النار ﴾ المحرمون ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ من القرب حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم من البعد ﴿ حَقّاً ﴾ ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ وهو مؤذن العزة والعظمة ﴿ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44] الواضعين الشيء في غير موضعه ﴿ الذين يَصُدُّونَ ﴾ السالكين ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي الطريق الموصلة إليه سبحانه ، وقيل : يصدون القلب والروح عن ذلك ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ بأن يصفوها بما ينفر السالك عنها من الزيغ والميل عن الحق ، وقيل : يطلبون صرف وجوههم إلى الدنيا وما فيها ﴿ وَهُم بالآخرة ﴾ أي الفناء بالله تعالى أو بالقيامة الكبرى ﴿ كافرون ﴾ [الأعراف : 45] لمزيد احتجابهم بما هم فيه ﴿ وَبَيْنَهُمَا ﴾ أي بين أهل الجنة وهي جنة ثواب الأعمال من العباد والزهاد وبين أهل النار ﴿ حِجَابٍ ﴾ فكل منهم محجوب عن صاحبه ﴿ وَعَلَى الاعراف ﴾ أي أعالي ذلك الحجاب الذي هو حجاب القلب ﴿ رِجَالٌ ﴾ وأي رجال وهم العرفاء أهل الله سبحانه

وخاصته ، قيل : وإنما سموا رجالاً لأنهم يتصرفون بإذن الله تعالى فيما سواه عز وجل تصرف الرجال بالنساء ولا يتصرف فيهم شيء من ذلك ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بسيماهم ﴾ لما أعطوا من نور الفراسة ﴿ وَنَادَوْاْ أصحاب الجنة ﴾ أي جنة ثواب الأعمال ﴿ أَن سلام عَلَيْكُمْ ﴾ بما من الله تعالى عليكم به من الخلاص من النار ، وقيل : إن سلامهم على أهل الجنة بإمدادهم بأسباب التزكية والتخلية والأنوار القلبية وإفاضة الخيرات والبركات عليهم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ أي لم يدخل أولئك الرجال الجنة لعدم احتياجهم إليها

(320/270)

﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 46] في كل وقت بما هو أعلى وأغلى ، وقيل : هم أي أهل الجنة يطمعون في دخول أولئك الرجال ليقتبسوا من نورهم ويستضيئوا بأشعة وجوههم ويستأنسوا بحضورهم ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار ﴾ ليعتبروا ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأعراف : 47] بأن تحفظ قلوبنا من الزيغ ﴿ ونادى أصحاب الاعراف رِجَالاً ﴾ [الأعراف : 48] من رؤساء أهل النار ، وإطلاق الرجال عليهم وعلى أصحاب الأعراف كإطلاق المسيح على الدجال اللعين وعلى عيسى عليه السلام .

﴿ أهؤلاء ﴾ [الأعراف : 49] إشارة إلى أهل الجنة ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ أي الحياة التي أنتم فيها ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ أي النعيم الذي من الله تعالى به عليكم أو أفيضوا علينا من العلم أو العمل لننال به ما نلتم ﴿ قَالُواْ إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا ﴾ في الأزل ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ [الأعراف : 50] لسوء استعدادهم ، وقيل : إن الكفار لما كانوا عبيد البطون حراصاً على الطعام والشراب فماتوا على ما عاشوا وحشروا وأدخلوا النار على ما ماتوا طلبوا الماء أو الطعام ﴿ وَلَقَدْ جئناهم بكتاب ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم الجامع لكل شيء والمظهر الأعظم لنا ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أي أظهرنا منه ما أظهرنا ﴿ على هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 52] لأنهم المنتفعون منه وإن كان من جهة أخرى رحمة للعالمين ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف : 53] أي ما يؤول إليه عاقبة أمره ، وقيل : الكتاب الذي فصل على علم إشارة إلى البدن الإنساني المفصل إلى أعضاء وجوارح وآلات وحواس تصلح للاستكمال على ما يقتضيه العلم الإلهي وتأويله ما يؤول إليه أمره في العاقبة من الانقلاب إلا ما لا يصلح لذلك عند البعث من هيئات وصور وأشكال تناسب صفاتهم وعقائدهم على مقتضى

قوله سبحانه : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ [الأنعام : 139] وكما قال سبحانه : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء : 97] انتهى .

ويحتمل أن يكون الكتاب المذكور إشارة إلى الآفاق والأنفس وما يؤول إليه كل ظاهر والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(322/270)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/271)

الجزء الحادى والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 54 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 54 ﴾ نفس الآية

(4/271)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان مدار القرآن على تقرير الأصول الأربع : التوحيد والنبوة والمعاد والعلم ، وطال الكلام في إخباره سبحانه عن أوامره ونواهيه وأفعاله بأوليائه وأعدائه الدالة على تمام القدرة والعلم ، وختم بأن شركاءهم تغني عنهم ، علل ذلك بأنه الرب لا غيره ، في سياق دال على الوحدانية التي هي أعظم مقاصد السورة ، كفيل بإظهار الحجج عليها ، وعلى المقصد الثاني – وهو الإعادة التي فرغ من تقرير أحوالها بالإبداء الذي تقرر في العقول أنه أشد من الإعادة – بأدلة متكلفة بتمام القدرة والعلم فقال : ﴿ إن ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بالإيجاد من العدم وتدبير المصالح هو ﴿ الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له وحده لا صنم ولا غيره ؛ ثم وصفه بما حقق ذلك فقال : ﴿ الذي خلق السماوات والأرض ﴾ أي على اتساعهما وعظمتهما .

(5/271)

ولما كان ربما قال الكفار : ما له إذا كان قادراً وأنت محق في رسالتك لا يعجل لنا الإتيان بتأويله ، بين أن عادته الأناه وإن كان أمره وأخذه كلمح بالبصر إذا أراده ، فقال : ﴿ في ستة أيام ﴾ أي في مقدارها ؛ ولما كان تدبير هذا الخلق أمراً باهراً لا تسعه العقول ، ولهذا كانت قريش تقول : كيف يسع الخلق إله واحد ! أشار إلى عظمته وعلو رتبته بأداة البعد فقال :

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي أخذ في التدبير لما أوجده وأحدث خلقه أخذاً مستوفى مستقصى مستقلاً به لأن هذا شأن من يملك ملكاً ويأخذ في تدبيره وإظهار أنه لا منازع له في شيء منه وليكون خطاب الناس على ما ألفوه من ملوكهم لتستقر في عقولهم عظمته سبحانه ، وركز في فطرهم الأولى من نفي التشبيه منه ، ويقال : فلان جلس على سرير الملك ، وإن لم يكن هناك سرير ولا جلوس ، وكما يقال في ضد ذلك : فلان ثل عرشه ، أي ذهب عزه وانتقض ملكه وفسد أمره ، فيكون هذا كناية لا يلتفت فيه إلى أجراء التركيب ، والألفاظ على ظواهرها كقولهم للطويل : طويل النجاد ، وللكريم : عظيم الرماد .

(6/271)

ولما كان سبحانه لا يشغله شان عن شأن ، ابتدأ من التدبير هو آية ذلك بمشاهدته في تغطية الأرض بظلامه في آن واحد ، فقال دالاً على كمال قدرته المراد بالاستواء بأمر يشاهد كل يوم على كثرة منافعة التي جعل سبحانه بها انتظام هذا الوجود : ﴿ يغشي ﴾ أي استوى حال كونه يغشي ﴿ الليل النهار ﴾ وقال أبو حيان : وقرأ حميد بن قيس : يغشى الليل – بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضم اللام ، كذا قال عنه أبو عمرو الداني ، وقال أبو الفتح بن جني عن حميد بنصب الليل ورفع النهار ، وقال ابن عطية : وأبو

الفتح أثبت ، وهذا الذي قاله – من أن أبا الفتح أثبت – كلام لا يصح ، إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءة ومعرفتها وضبط رواياتها واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءة فضلاً عن النجاة الذين ليسوا مقرئين ولا رووا القراءة عن أحد ولا روى عنهم القراءة أحد ، هذا مع الديانة الزائدة والتثبت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظ من العربية ، فقد رأيت له كتاباً في كلا وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دلاً على اطلاعه على ما لا يكاد يطلع عليه أئمة النجاة ولا المقرئين إلى سائر تصانيفه ، والذي نقله أبو عمرو الداني عن حميد أمكن من حيث المعنى ، لأن ذلك موافق لقراءة الجماعة إذ ﴿ الليل ﴾ في قراءتهم – وإن كان منصوباً – هو الفاعل من حيث المعنى إذ همزة النقل أو التضعيف صيرة مفعولاً ، ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى ، لأن المنصوبين تعدى إليهما الفعل وأحدهما فاعل من حيث المعنى ، فيلزم أن يكون الأول منهما كما لزم ذلك في : ملكت زيداً عمراً ، إذ رتبة التقديم هي الموضحة أنه الفاعل من حيث المعنى كما لزم ذلك في ضرب موسى عيسى – انتهى .

(7/271)

ولما أخبر سبحانه أن الليل يغطي النهار ، دل على أن النهار كذلك بقوله مبيناً لحال الليل ﴿ يطلبه ﴾ أي الليل يجر ويطلب النهار دائماً طلباً ﴿ حثيثاً ﴾ أي سريعاً جداً لتغطية الليل ، وذلك لأن الشيء لا يكون مطلوباً إلا بعد وجوده ، وإذا وجد النهار كان مغطياً لليل ، لأنهما ضدان ، وجود أحدهما ماح لوجود الآخر ، وابتدأ سبحانه بذكر الليل لأن إغشاءه أول كائن بعد تكمل الخلق ، وحركتهما بواسطة حركة العرش ، ولذا ربطهما به ، وهي أشد الحركات سرعة وأكملها شدة ، وللشمس نوعان من الحركة : أحدهما بحسب ذاتها تتم بقطع الدرج كلها في جميع الفلك ، وبسببه تحصل السنة ، والثاني بحسب حركة الفلك الأعظم تتم في اليوم بليلته ، والليل والهنار إنما يحصلان بسبب حركة السماء الأقصى الذي يقال له العرش لا بسبب حركة النيرين ، وأجاز ابن جني أن يكون ﴿ يطلبه ﴾ حالاً من النهار في قراءة الجماعة وإن كان مفعولاً ، أي حال كون النهار يطلب الليل حثيثاً ليغطيه ، وأن يكون حالاً منهما معاً لأن كلاً منهما طالب للآخر ، وبهذا ينتظم ما قاله في قراءة حميد ، فإن كلاً منهما يكون غاشياً للآخر ، قال في كتابه المحتسب في القراءات الشواذ : ووجه صحة القراءتين والتقاء معنييهما أن الليل والنهار يتعاقبان ، وكل واحد منهما وإن أزال صاحبه فإن صاحبه أيضاً مزيل له ، وكل واحد منهما على هذا فاعل وإن كان مفعولاً ومفعول وإن كان فاعلاً ، على أن الظاهر في الاستحثاث هنا إنما هو النهار لأنه بسفورة وشروقه أظهر أثراً في الاستحثاث من الليل .

ولما ذكر الملوين ، أتبعهما آية كل فقال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ أي خلقها ، أو يغشى كل قبيل منهما ما الآخر آيته خال كون الكل ﴿ مسخرات ﴾ أي للسير وغيره ﴿ بأمره ﴾ وهو إرداته وكلامه ، تقودها الملائكة كما روي أن لله ملائكة يجرون الشمس والقمر .

(8/271)

ولما صح أن جميع ما نراه من الذوات خلقه ، وما نعلمه من المعاني أمره ، أنتج قطعاً قوله ﴿ ألا له ﴾ أي وحده ، وقدم المسبب على السبب ترقية - كما هو مقتضى الحكم - من المحسوس إلى المعقول فقال : ﴿ الخلق ﴾ وهو ما كان من الإيجاد بتسبيب وتنمية وتطوير قال الرازي : فكل ما كان جسماً او جسمانياً كان مخصوصاً بمقدار معين فكان من عالم الخلق ، فعالم الخلق بتسخيره ، وعالم الأمر بتدبيره ، واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقديره ﴿ والأمر ﴾ وهو ما كان من ذلك إخراجاً من العدم من غير تسبب كالروح ، وما كان حفظاً وتدبيراً بالكلام كالأديان وكل ما يلاحظ القيومية ؛ وقال الرازي : كل ما كان بريئاً من الحجم والمقدار كان من عالم الأمر ، وعد الملائكة من عالم الأمر ، فأنتج ذلك قطعاً قوله على سبيل المدح الذي ينقطع دونه الأعناق ويتقاصر دون عليائه ذري

الآفاق : ﴿ تبارك ﴾ أي ثبت ثبوتاً لا ثبوت في الحقيقة غيره اليمن والبركة وكثرة الآثار الفاضلة والنتائج الشريفة ﴿ الله ﴾ أي ذو الجلال والإكرام .

ولما دل على أنه يستحق هذا الثناء لذاته ، دل على أنه يستحقه لصفاته فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ أي مبدع ذلك كله ومربيه خلقاً وتصريفاً بأمره ، وفي الجزء السادس من فوائد المخلص عن سفيان بن عيينة أنه قال : ما يقول هذه الدويبة - يعني بشراً المريسي ؟ قالوا : يا أبا محمد ! يزعم أن القرآن مخلوق ، فقال : كذب ، قال الله عزّ وجلّ ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ فالخلق خلق الله ، والأمر القرآن - انتهى .

وهذا الذي فسر به مما تحتمله الآية بأن يكون الأمر هو المراد بقوله ﴿ بأمره ﴾ وهو الإرادة والكلام مع احتمال ما قدمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 40 . 43 ﴾

(9/271)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا بينا أن مدار أمر القرآن على تقدير هذه المسائل الأربع ، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر ، ولا شك أن مدار إثبات المعاد على إثبات التوحيد والقدرة

والعلم ، فلما بالغ الله تعالى في تقرير أمر المعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد ، وكمال القدرة ، والعلم ، لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد ، ومقررة أيضاً لإثبات المعاد وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

حكى الواحدي عن الليث أنه قال : الأصل في الست والستة سدس وسدسة أبدل السين تاء ، ولما كان مخرج الدال والتاء قريباً أدغم أحدهما في الآخر واكتفى بالتاء ، عليه أنك تقول في تصغير ستة سديسة ، وكذلك الأسداس وجميع تصرفاته يدل عليه .

والله أعلم .

المسألة الثانية :

﴿ الخلق ﴾ التقدير على ما قررناه فخلق السموات والأرض إشارة إلى تقدير حالة من أحوالهما ، وذلك التقدير يحتمل وجوهاً كثيرة : أولها : تقدير ذواتهما بمقدار معين مع أن العقل يقضي بأن الأزيد منه والأنقص منه جائز ، فاختصاص كل واحد منهما بمقداره المعين لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص ، وذلك يدل على افتقار خلق السموات والأرض إلى الفاعل المختار .

وثانيها : أن كون هذه الأجسام متحركة في الأزل محال ، لأن الحركة انتقال من حال إلى حال ، فالحركة يجب كونها مسبوقة بحالة أخرى ، والأزل ينافي المسبوقية فكان الجمع بين الحركة

وبين الأزل محالاً .

إذا ثبت هذا فنقول : هذه الأفلاك والكواكب إما أن يقال : أن ذواتها كانت معدومة في الأزل ثم وجدت ، أو يقال : إنها وإن كانت موجودة لكنها كانت واقفة ساكنة في الأزل ، ثم ابتدأت بالحركة ، وعلى التقديرين فتلك الحركات ابتدأت بالحدوث والوجود في وقت معين مع جواز حصولها قبل ذلك الوقت وبعده ، وإذا كان كذلك كان اختصاص ابتداء تلك الحركات بتلك الأوقات المعينة تقديراً وخلقاً ، ولا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر ومختار .

(10/271)

وثالثها : أن أجرام الأفلاك والكواكب والعناصر مركبة من أجزاء صغيرة ، ولا بد وأن يقال : إن بعض تلك الأجزاء حصلت في داخل تلك الأجرام وبعضها حصلت على سطوحها فاختصاص حصول كل واحدة من تلك الأجزاء بحيزه المعين ووضعه المعين لا بد وأن يكون لتخصيص المخصص القادر المختار .

ورابعها : أن بعض الأفلاك أعلى من بعض ، وبعض الكواكب حصل في المنطقة وبعضها في القطبين ، فاختصاص كل واحد منهما بموضعه المعين لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص

قادر مختار .

وخامسها : أن كل واحد من الأفلاك متحرك إلى جهة مخصوصة ، وحركة مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة ، وذلك أيضاً خلق وتقدير ويدل على وجود المخصص القادر .

وسادسها : أن كل واحد من الكواكب مختص بلون مخصوص مثل كمودة زحل ، ودرية المشتري ، وحمرة المريخ ، وضياء الشمس ، وإشراق الزهرة ، وصفرة عطارد ، وزهور القمر ، والأجسام متماثلة في تمام الماهية فكان اختصاص كل واحد منها بلونه المعين خلقاً وتقديراً ودليلاً على افتقارها إلى الفاعل المختار .

وسابعها : أن الأفلاك والعناصر مركبة من الأجزاء الصغيرة ، وواجب الوجود لا يكون أكثر من واحد فهي ممكنة الوجود في ذواتها ، فكل ما كان ممكناً لذاته فهو محتاج إلى المؤثر ، والحاجة إلى المؤثر لا تكون في حال البقاء ، وإلا لزم تكون الكائن فتلك الحاجة لا تحصل إلا في زمان الحدوث ، أو في زمان العدم وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الأجزاء محدثة ومتى كانت محدثة كان حدوثها مختصاً بوقت معين وذلك خلق وتقدير ويدل على الحاجة إلى الصانع القادر المختار .

وثامنها : أن هذه الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما محدثان ، وما لا يخلو عن

المحدث فهو محدث ، فهذه الأجسام محدثة ، وكل محدث فقد حصل حدوثه في وقت معين ، وذلك خلق وتقدير ولا بد له من الصانع القادر المختار .

(11/271)

وتاسعها : أن الأجسام متماثلة فاختصاص بعضها بالصفات التي لأجلها كانت سموات وكواكب ، والبعض الآخر بالصفات التي لأجلها كانت أرضاً أو ماء أو هواء أو ناراً لا بد وأن يكون أمراً جائزاً ، وذلك لا يحصل إلا بتقدير مقدر وتخصيص مخصص وهو المطلوب .

وعاشرها : أنه كما حصل الامتياز المذكور بين الأفلاك والعناصر فقد حصل أيضاً مثل هذا الامتياز بين الكواكب وبين الأفلاك وبين العناصر ، بل حصل مثل هذا الامتياز بين كل واحد من الكواكب ، وذلك يدل على الافتقار إلى الفاعل القادر المختار .

واعلم أن الخلق عبارة عن التقدير ، فإذا دللنا على أن الأجسام متماثلة وجب القطع بأن كل صفة حصلت لجسم معين ، فإن حصول تلك الصفة ممكن لسائر الأجسام ، وإذا كان الأمر كذلك كان اختصاص ذلك الجسم المعين بتلك الصفة المعينة خلقاً وتقديراً فكان داخلاً تحت قوله سبحانه ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

لسائل أن يسأل فيقول : كون هذه الأشياء مخلوقة في ستة أيام لا يمكن جعله دليلاً على إثبات الصانع ؟ وبيانه من وجوه : الأول : أن وجه دلالة هذه المحدثات على وجود الصانع هو حدوثها أو إمكانها أو مجموعهما فأما وقوع ذلك الحدوث في ستة أيام أو في يوم واحد فلا أثر له في ذلك ألبتة .

والثاني : أن العقل يدل على أن الحدوث على جميع الأحوال جائز ، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يمكن الجزم بأن هذا الحدوث وقع في ستة أيام إلا بأخبار مخبر صادق ، وذلك موقوف على العلم بوجود الإله الفاعل المختار ، فلو جعلنا هذه المقدمة مقدمة في إثبات الصانع لزم الدور .

والثالث : أن حدوث السموات والأرض دفعة واحدة أدل على كمال القدرة والعلم من حدوثها في ستة أيام .

(12/271)

إذا ثبت ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة فنقول : ما الفائدة في ذكر أنه تعالى إنما خلقها في ستة أيام في إثبات ذكر ما يدل على وجود الصانع ؟ والرابع : أنه ما السبب في أنه اقتصر ههنا على ذكر السموات والأرض ، ولم يذكر خلق سائر الأشياء ؟

السؤال الخامس : اليوم إنما يمتاز عن الليلة بسبب طلوع الشمس وغروبها فقبل خلق الشمس والقمر كيف يعقل حصول الأيام ؟

والسؤال السادس : أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة كَلَمْحٍ البصر ﴾ [القمر : 50] وهذا كالمناقض لقوله : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

والسؤال السابع : أنه تعالى خلق السموات والأرض في مدة متراخية ، فما الحكمة في تقييدها وضبطها بالأيام الستة ؟ فنقول : أما على مذهبنا فالأمر في الكل سهل واضح ، لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض عليه في أمر من الأمور ، وكل شيء صنعه ولا علة لصنعه .

ثم نقول :

أما السؤال الأول : فجوابه أنه سبحانه ذكر في أول التوراة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم فكأنه سبحانه يقول لا تشتغلوا بعبادة الأوثان والأصنام فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذي خلق السموات والأرض على غاية عظمتها ونهاية جلالتها في ستة أيام .

(13/271)

وأما السؤال الثالث : فجوابه أن المقصود منه أنه سبحانه وتعالى وإن كان قادراً على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شيء حداً محدوداً ووقتاً مقدراً ، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه ، فهو وإن كان قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين في الحال ، وعلى إيصال العقاب إلى المذنبين في الحال ، إلا أنه يؤخرهما إلى أجل معلوم مقدر ، فهذا التأخير ليس لأجل أنه تعالى أهمل العباد بل لما ذكرنا أنه خص كل شيء بوقت معين لسابق مشيئته فلا يفتر عنه ، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة ق : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق : 38 ، 39] بعد أن قال قبل هذا : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِى البلاد هَلْ مِن مَّحِيصٍ إِنَّ فِى ذلك لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : 36 ، 37] فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به والمكذبين لأنبيائه من كان أقوى بطشاً من مشركي العرب ، إلا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة ، كما خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام متصلة لا لأجل لغوب لحقه في الإمهال ، ولما بين بهذا الطريق أنه تعالى إنما خلق العالم لا دفعة لكن قليلاً قليلاً قال بعده : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك والتكذيب ولا تستعجل لهم العذاب بل توكل على الله تعالى وفوض الأمر إليه ، وهذا معنى ما يقوله المفسرون من أنه تعالى إنما خلق العالم في ستة أيام ليعلم عباده الرفق في الأمور والصبر فيها ولأجل أن لا يحمل المكلف تأخر الثواب والعقاب على الإهمال

والتعطيل .

ومن العلماء من ذكر فيه وجهين آخرين :

(14/271)

الوجه الأول : أن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الإحداث فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذاك إنما وقع على سبيل الاتفاق ، أما إذا حدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة ، كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث قديم حكيم ، وقادر عليم رحيم .

الوجه الثاني : أنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أولاً ثم يخلق السموات والأرض بعده ، ثم إن ذلك العاقل إذا شاهد في كل ساعة وحين حدوث شيء آخر على التعاقب والتوالي ، كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته ، لأنه يتكرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظة بعد لحظة ، فكان ذلك أقوى في إفادة اليقين .

وأما السؤال الرابع : فجوابه أن ذكر السموات والأرض في هذه الآية يشتمل أيضاً على ذكر ما بينهما ، والدليل عليه أنه تعالى ذكر سائر المخلوقات في سائر الآيات فقال : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن

وَلِيّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ وَسَبّحْ بِحَمْدِهِ وكفى بِهِ بذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الفرقان : 58 ، 59] وقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [ق : 38] .

وأما السؤال الخامس : فجوابه أن المراد أنه تعالى خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام وهو كقوله : ﴿ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] والمراد على مقدار البكرة والعشي في الدنيا لأنه لا ليل ثم ولا نهار .

(15/271)

وأما السؤال السادس : فجوابه أن قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ [القمر : 50] محمول على إيجاد كل واحد من الذوات وعلى إعدام كل واحد منها ، لأن إيجاد الذات الواحدة وإعدام الموجود الواحد لا يقبل التفاوت فلا يمكن تحصيله إلا دفعة واحدة ، وأما الإمهال والمدة فذاك لا يحصل إلا في المدة .

وأما السؤال السابع : وهو تقدير هذه المدة بستة أيام ، فهو غير وارد لأنه تعالى لو أحدثه في مقدار آخر من الزمان لعاد ذلك السؤال ، وأيضاً قال بعضهم لعدد السبعة شرف عظيم ، وهو مذكور في تقرير أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين ، وإذا ثبت هذا قالوا : فالأيام

الستة في تخليق العالم واليوم السابع في حصول كمال الملك والملكوت وبهذا الطريق حصل الكمال في الأيام السبعة انتهى .

المسألة الرابعة :

في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء لأنه قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والارض ﴾ والمعنى أن الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات ، ومن كان له مرب موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة ، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات أو يعول على غيره في تحصيل السعادات ؟ ثم في الآية دقيقة أخرى فإنه لم يقل أنتم عبيده بل قال هو ربكم ، ودقيقة أخرى وهي أنه تعالى لما نسب نفسه إلينا سمى نفسه في هذه الحالة بالرب ، وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والإحسان ، فكأنه يقول من كان له مرب مع كثرة هذه الرحمة والفضل ، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره ؟

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ فاعلم أنه لا يمكن أن يكون المراد منه كونه مستقراً على العرش ويدل على فساده وجوه عقلية ، ووجوه نقلية .

أما العقلية فأمور : أولها : أنه لو كان مستقراً على العرش لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهياً وإلا لزم كون العرش داخلاً في ذاته وهو محال ، وكل ما كان متناهياً فإن العقل يقضي بأنه لا يمنع أن يصير أزيد منه أو أنقص منه بذرة والعلم بهذا الجواز ضروري ، فلو كان الباري تعالى متناهياً من بعض الجوانب لكانت ذاته قابلة للزيادة والنقصان ، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بذلك المقدار المعين لتخصيص مخصص وتقدير مقدر ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، فثبت أنه تعالى لو كان على العرش لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهياً ، ولو كان كذلك لكان محدثاً وهذا محال فكونه على العرش يجب أن يكون محالاً .

وثانيها : لو كان في مكان وجهة لكان إما أن يكون غير متناه من كل الجهات ، وإما أن يكون متناهياً في كل الجهات .

وإما أن يكون متناهياً من بعض الجهات دون البعض والكل باطل فالقول بكونه في المكان والحيز باطل قطعاً .

بيان فساد القسم الأول : أنه يلزم أن تكون ذاته مخالطة لجميع الأجسام السفلية والعلوية ، وأن تكون مخالطة للقاذورات والنجاسات ، وتعالى الله عنه ، وأيضاً فعلى هذا التقدير : تكون السموات حالة في ذاته ، وتكون الأرض أيضاً حالة في ذاته .

إذا ثبت هذا فنقول : الشيء الذي هو محل السموات ، إما أن يكون هو عين الشيء الذي

هو محل الأرضين أو غيره ، فإن كان الأول لزم كون السموات والأرضين حالتين في محل واحد من غير امتياز بين محليهما أصلاً ، وكل حالين حلا في محل واحد ، لم يكن أحدهما ممتازاً عن الآخر ، فلزم أن يقال : السموات لا تمتاز عن الأرضين في الذات ، وذلك باطل ، وإن كان الثاني : لزم أن تكون ذات الله تعالى مركبة من الأجزاء والأبعاض وهو محال .

(17/271)

والثالث : وهو أن ذات الله تعالى إذا كانت حاصلة في جميع الأحياز والجهات ، فإما أن يقال : الشيء الذي حصل فوق هو عين الشيء الذي حصل تحت ، فحينئذ تكون الذات الواحدة قد حصلت دفعة واحدة في أحياز كثيرة ، وإن عقل ذلك فلم لا يعقل أيضاً حصول الجسم الواحد في أحياز كثيرة دفعة واحدة ؟ وهو محال في بديهة العقل .

وأما إن قيل : الشيء الذي حصل فوق غير الشيء الذي حصل تحت ، فحينئذ يلزم حصول التركيب والتبعيض في ذات الله تعالى وهو محال .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال : أنه تعالى متناه من كل الجهات .

فنقول : كل ما كان كذلك فهو قابل للزيادة والنقصان في بديهة العقل ، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعين ، لأجل تخصيص مخصص ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ،

وأيضاً فإن جاز أن يكون الشيء المحدود من كل الجوانب قديماً أزلياً فاعلاً للعالم ، فلم لا يعقل أن يقال : خالق العالم هو الشمس ، أو القمر ، أو كوكب آخر ، وذلك باطل باتفاق .

وأما القسم الثالث : وهو أن يقال : أنه متناه من بعض الجوانب ، وغير متناه من سائر الجوانب ، فهذا أيضاً باطل من وجوه : أحدها : أن الجانب الذي صدق عليه كونه متناهياً غير ما صدق عليه كونه غير متناه ، وإلا لصدق النقيضان معاً وهو محال .

(18/271)

وإذا حصل التغاير لزم كونه تعالى مركباً من الأجزاء والأبعاض ، وثانيها : أن الجانب الذي صدق حكم العقل عليه بكونه متناهياً ، إما أن يكون مساوياً للجانب الذي صدق حكم العقل عليه بكونه غير متناه ، وإما أن لا يكون كذلك ، والأول باطل ، لأن الأشياء المتساوية في تمام الماهية كل ما صح على واحد منها صح على الباقي ، وإذا كان كذلك : فالجانب للذي هو غير متناه يمكن أن يصير متناهياً ، والجانب الذي هو متناه يمكن أن يصير غير متناه ، ومتى كان الأمر كذلك كان النمو والذبول والزيادة والنقصان والتفرق والتمزق على ذاته ممكناً ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، وذلك على الإله القديم محال ، فثبت أنه تعالى لو كان حاصلاً في الحيز والجهة ، لكان إما أن يكون غير متناه من كل الجهات وإما أن يكون

متناهياً من كل الجهات ، أو كان متناهياً من بعض الجهات ، وغير متناه من سائر الجهات ، فثبت أن الأقسام الثلاثة باطلة ، فوجب أن نقول القول بكونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة محال .

والبرهان الثالث : لو كان الباري تعالى حاصلاً في المكان والجهة ، لكان الأمر المسمى بالجهة إما أن يكون موجوداً مشاراً إليه ، وإما أن لا يكون كذلك ، والقسمان باطلان ، فكان القول بكونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة باطلاً .

أما بيان فساد القسم الأول : فلأنه لو كان المسمى بالحيز والجهة موجوداً مشاراً إليه ، فحينئذ يكون المسمى بالحيز والجهة بعداً وامتداد ، والحاصل فيه أيضاً يجب أن يكون له في نفسه بُعْدُ وامتداد ، وإلا لامتنع حصوله فيه ، وحينئذ يلزم تداخل البعدين ، وذلك محال للدلائل الكثيرة ، المشهورة في هذا الباب ، وأيضاً فيلزم من كون الباري تعالى قديماً أزلياً كون الحيز والجهة أزليين ، وحينئذ يلزم أن يكون قد حصل في الأزل موجود قائم بنفسه سوى الله تعالى ، وذلك بإجماع أكثر العقلاء باطل .

(19/271)

وأما بيان فساد القسم الثاني : فهو من وجهين : أحدهما : أن العدم نفي محض ، وعدم صرف ، وما كان كذلك امتنع كونه ظرفاً لغيره وجهة لغيره .

وثانيهما : أن كل ما كان حاصلاً في جهة فجهته ممتازة في الحس عن جهة غيره ، فلو كانت تلك الجهة عدماً محضاً لزم كون العدم المحض مشاراً إليه بالحس ، وذلك باطل ، فثبت أنه تعالى لو كان حاصلاً في حيز وجهة لأفضى إلى أحد هذين القسمين الباطلين ، فوجب أن يكون القول به باطلاً .

فإن قيل : فهذا أيضاً وارد عليكم في قولكم : الجسم حاصل في الحيز والجهة .

فنقول : نحن على هذا الطريق لا نثبت للجسم حيزاً ولا جهة أصلاً ألبتة ، بحيث تكون ذات الجسم نافذة فيه وسارية فيه ، بل المكان عبارة عن السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي ، وهذا المعنى محال بالاتفاق في حق الله تعالى ، فسقط هذا السؤال .

البرهان الرابع : لو امتنع وجود الباري تعالى إلا بحيث يكون مختصاً بالحيز والجهة ، لكانت ذات الباري مفتقرة في تحققها ووجودها إلى الغير ، وكل ما كان كذلك فهو ممكن لذاته ينتج أنه لو امتنع وجود الباري إلا في الجهة والحيز ، لزم كونه ممكناً لذاته ، ولما كان هذا محالاً كان القول بوجوب حصوله في الحيز محالاً .

بيان المقام الأول : هو أنه لما امتنع حصول ذات الله تعالى ، إلا إذا كان مختصاً بالحيز والجهة .

فنقول : لا شك أن الحيز والجهة أمر مغاير لذات الله تعالى ، فحينئذ تكون ذات الله تعالى مفتقرة في تحققها إلى أمر يغايرها ، وكل ما افتقر تحققه إلى ما يغايره ، كان ممكناً لذاته .

والدليل عليه : أن الواجب لذاته هو الذي لا يلزم من عدم غيره عدمه ، والمفتقر إلى الغير هو الذي يلزم من عدم غيره عدمه ، فلو كان الواجب لذاته مفتقراً إلى الغير لزم أن يصدق عليه النقيضان ، وهو محال .

فثبت أنه تعالى لو وجب حصوله في الحيز لكان ممكناً لذاته ، لا واجباً لذاته ، وذلك محال .

(20/271)

والوجه الثاني : في تقرير هذه الحجة : هو أن الممكن محتاج إلى الحَيّز والجهة .

أما عند من يثبت الخلاء .

فلا شك أن الحيز والجِهة تتقرر مع عدم التمكن ، وأما عند من ينفي الخلاء فلا ، لأنه وإن كان معتقداً أنه لا بد من متمكن يحصل في الجهة ، إلا أنه لا يقول بأنه لابد لتلك الجهة من متمكن معين ، بل أي شيء كان فقد كفى في كونه شاغلاً لذلك الحيز .

إذا ثبت هذا فلو كان ذات الله تعالى مختصة بجهة وحيز لكانت ذاته مفتقرة إلى ذلك الحيز ، وكان ذلك الحيز غنياً تحققه عن ذات الله تعالى وحينئذ يلزم أن يقال : الحيز واجب لذاته

غني عن غيره وأن يقال ذات الله تعالى مفتقرة في ذاتها واجبة بغيرها وذلك يقدح في قولنا : الإله تعالى واجب الوجود لذاته .

فإن قيل : الحيز والجهة ليس بأمر موجود حتى يقال ذات الله تعالى مفتقرة إليه ومحتاجة إليه فنقول : هذا باطل قطعاً لأن بتقدير أن يقال إن ذات الله تعالى مختصة بجهة فوق فإنما نميز بحسب الحس بين تلك الجهة وبين سائر الجهات وما حصل فيه الامتياز بحسب الحس كيف يعقل أن يقال إنه عدم محض ونفي صرف ؟ ولو جاز ذلك لجاز مثله في كل المحسوسات وذلك يوجب حصول الشك في وجود كل المحسوسات ، وذلك لا يقوله عاقل .

البرهان الخامس : في تقرير أنه تعالى يمتنع كونه مختصاً بالحيز والجهة نقول : الحيز والجهة لا معنى له إلا الفراغ المحض ، والخلاء الصرف ، وصريح العقل يشهد أن هذا المفهوم مفهوم واحد لا اختلاف فيه ألبتة .

وإذا كان الأمر كذلك كانت الأحياز بأسرها متساوية في تمام الماهية .

وإذا ثبت هذا فنقول : لو كان الإله تعالى مختصاً بحيز ، لكان محدثاً ، وهذا محال ؛ فذاك محال .

(21/271)

وبيان الملازمة : أن الأحياز لما ثبت أنها بأسرها متساوية ، فلو اختص ذات الله تعالى بحيز معين لكان اختصاصه به ، لأجل أن مخصصاً خصصه بذلك الحيز وكل ما كان فعلاً لفاعل مختار ، فهو محدث فوجب أن يكون اختصاص ذات الله بالحيز المعين محدثاً ، فإذا كانت ذاته ممتنعة الخلو عن الحصول في الحيز ، وثبت أن الحصول في الحيز محدث ، وبديهة العقل شاهدة بأن ما لا يخلو عن المحدث فهو محدث ، لزم القطع بأنه لو كان حاصلاً في الحيز لكان محدثاً ، ولما كان هذا محالاً كان ذلك أيضاً محالاً .

فإن قالوا : الأحياز مختلفة بحسب أن بعضها علو وبعضها سفل ، فلم لا يجوز أن يقال ذات الله تعالى مختصة بجهة علو ؟ فنقول : هذا باطل ، لأن كون بعض تلك الجهات علو ، وبعضها سفلاً ، أحوال لا تحصل ، إلا بالنسبة إلى وجود هذا العالم ، فلما كان هذا العالم محدثاً كان قبل حدوثه لا علو ولا سفل ولا يمين ولا يسار ، بل ليس إلا الخلاء المحض ، وإذا كان الأمر كذلك ، فحينئذ يعود الإلزام المذكور بتمامه ، وأيضاً لو جاز القول بأن ذات الله تعالى مختصة ببعض الأحياز على سبيل الوجوب ؟ فلم لا يعقل أيضاً أن يقال : إن بعض الأجسام اختص ببعض الأحياز على سبيل الوجوب ؟ وعلى هذا التقدير ، فذلك اسم لا يكون قابلاً للحركة والسكون ، فلا يجري فيه دليل حدوث الأجسام ، والقائل بهذا القول ، لا يمكنه إقامة الدلالة على حدوث كل الأجسام بطريق الحركة والسكون ، والكرامية وافقونا على أن تجويز هذا يوجب الكفر والله أعلم .

البرهان السادس : لو كان الباري تعالى حاصلاً في الحيز والجهة لكان مشاراً إليه بحسب الحس وكل ما كان كذلك ، فإما أن لا يقبل القسمة بوجه من الوجوه وإما أن يقبل القسمة .

(22/271)

فإن قلنا : إنه تعالى يمكن أن يشار إليه بحسب الحس ، مع أنه لا يقبل القسمة المقدارية ألبتة ، كان ذلك نقطة لا تنقسم ، وجوهراً فرداً لا ينقسم ، فكان ذلك في غاية الصغر والحقارة ، وهذا باطل بإجماع جميع العقلاء ، وذلك لأن الذين ينكرون كونه تعالى في الجهة ينكرون كونه تعالى كذلك ، والذين يثبتون كونه تعالى في الجهة ينكرون كونه تعالى في الصغر والحقارة مثل الجزء الذي لا يتجزأ ، فثبت أن هذا بإجماع العقلاء باطل ، وأيضاً فلو جاز ذلك ، فلم لا يعقل أن يقال : إله العالم جزء من ألف جزء من رأس إبرة ، أو ذرة ملتصقة بذنب قملة ، أو نملة ؟ ومعلوم أن كل قول يفضي إلى مثل هذه الأشياء ، فإن صريح العقل يوجب تنزيه الله تعالى عنه .

وأما القسم الثاني : وهو أنه يقبل القسمة ، فنقول : كل ما كان كذلك ، فذاته مركبة وكل مركب فهو ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فهو مفتقر إلى الموجد والمؤثر ، وذلك على الإله الواجب لذاته محال .

البرهان السابع : أن نقول : كل ذات قائمة بنفسها مشاراً إليها بحسب الحس فهو منقسم وكل منقسم ممكن فكل ذات قائمة بنفسها مشار إليها بحسب الحس فهو ممكن .

فما لا يكون ممكناً لذاته بل كان واجباً لذاته امتنع كونه مشاراً إليه بحسب الحس .

أما المقدمة الأولى : فلأن كل ذات قائمة بالنفس مشار إليها بحسب الحس فلا بد وأن يكون جانب يمينه مغايراً لجانب يساره وكل ما هو كذلك فهو منقسم .

وأما المقدمة الثانية : وهي أن كل منقسم ممكن فإنه يفتقر إلى كل واحد من أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره ، وكل منقسم فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته .

واعلم أن المقدمة الأولى من مقدمات هذا الدليل إنما تتم بنفي الجوهر الفرد .

(23/271)

البرهان الثامن : لو ثبت كونه تعالى في حيز لكان إما أن يكون أعظم من العرش أو مساوياً له أو أصغر منه فإن كان الأول كان منقسماً لأن القدر الذي منه يساوي العرش يكون مغايراً للقدر الذي يفضل على العرش وإن كان الثاني كان منقسماً لأن العرش منقسم والمساوي للمنقسم منقسم وإن كان الثالث ، فحينئذ يلزم أن يكون العرش أعظم منه وذلك باطل

بإجماع الأمة أما عندنا فظاهر ، وأما عند الخصوم فلأنهم ينكرون كون غير الله تعالى أعظم من الله تعالى ، فثبت أن هذا المذهب باطل .

البرهان التاسع : لو كان الإله تعالى حاصلاً في الحيز والجهة لكان إما أن يكون متناهياً من كل الجوانب .

وإما أن لا يكون كذلك والقسمان باطلان ، فالقول بكونه حاصلاً في الحيز والجهة باطل أيضاً .

أما بيان أنه لا يجوز أن يكون متناهياً من كل الجهات ، فلأن على هذا التقدير يحصل فوقه أحياز خالية ، وهو تعالى قادر على خلق الجسم في ذلك الحيز الخالي ، وعلى هذا التقدير لو خلق هناك عالماً آخر لحصل هو تعالى تحت العالم وذلك عند الخصم محال وأيضاً فقد كان يمكن أن يخلق من الجوانب الستة لتلك الذات أجساماً أخرى ، وعلى هذا التقدير فتحصل ذاته في وسط تلك الأجسام محصورة فيها ويحصل بينه وبين الأجسام الاجتماع تارة والافتراق أخرى ، وكل ذلك على الله تعالى محال .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون غير متناه من بعض الجهات فهذا أيضاً محال ، لأنه ثبت بالبرهان أنه يمتنع وجود بعد لا نهاية له ، وأيضاً فعلى هذا التقدير لا يمكن إقامة الدلالة على أن العالم متناه لأن كل دليل يذكر في تناهي الأبعاد ، فإن ذلك الدليل ينتقض بذات الله تعالى

فإنه على مذهب الخصم بعد لا نهاية له ، وهو وإن كان لا يرضى بهذا اللفظ إلا أنه يساعد على المعنى ، والمباحث العقلية مبنية على المعاني ، لا على المشاحة في الألفاظ .

(24/271)

البرهان العاشر : لو كان الإله تعالى حاصلاً في الحيز والجهة لكان كونه تعالى هناك إما أن يمنع من حصول جسم آخر هناك أو لا يمنع ، والقسمان باطلان فبطل القول بكونه حاصلاً في الحيز .

أما فساد القسم الأول : فلأنه لما كان كونه هناك مانعاً من حصول جسم آخر هناك كان هو تعالى مساوياً لسائر الأجسام في كونه حجماً متحيزاً ممتداً في الحيز والجهة مانعاً من حصول غيره في الحيز الذي هو فيه ، وإذا ثبت حصول المساواة في ذلك المفهوم بينه وبين سائر الأجسام فإما أن يحصل بينه وبينها مخالفة من سائر الوجوه أو لا يحصل ، والأول باطل لوجهين : الأول : أنه إذا حصلت المشاركة بين ذاته تعالى وبين ذوات الأجسام من بعض الوجوه ، والمخالفة من سائر الوجوه كان ما به المشاركة مغايراً لما به المخالفة ، وحينئذ تكون ذات الباري تعالى مركبة من هذين الاعتبارين ، وقد دللنا على أن كل مركب ممكن فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف .

والثاني : وهو أن ما به المشاركة وهو طبيعة البعد والامتداد .

إما أن يكون محلاً لما به المخالفة .

وإما أن يكون حالاً فيه وإما أن يقال : إنه لا محل له ولا حالاً فيه .

أما الأول : وهو أن يكون محلاً لما به المخالفة ، فعلى هذا التقدير طبيعة البعد والامتداد هي الجوهر القائم بنفسه ، والأمور التي حصلت بها المخالفة أعراض وصفات ، وإذا كانت الذوات متساوية في تمام الماهية فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على البواقي ، فعلى هذا التقدير كل ما صح على جميع الأجسام ، وجب أن يصح على الباري تعالى وبالعكس ، ويلزم منه صحة التفرق والتمزق والنمو والذبول والعفونة والفساد على ذات الله تعالى وكل ذلك محال .

(25/271)

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال : ما به المخالفة محل وذات ، وما به المشاركة حال وصفة فهذا محال ، لأن على هذا التقدير تكون طبيعة البعد والامتداد صفة قائمة بمحل ، وذلك المحل إن كان له أيضاً اختصاص بحيز وجهة ، وجب افتقاره إلى محل آخر لا إلى نهاية ، وإن لم يكن كذلك فحينئذ يكون موجوداً مجرداً لا تعلق له بالحيز والجهة والإشارة الحسية ألبتة ،

وطبيعة البعد والامتداد واجبة الاختصاص بالحيز والجهة والإشارة الحسية ، وحلول ما هذا شأنه في ذلك المحل يوجب الجمع بين النقيضين وهو محال .

وأما القسم الثالث : وهو أن لا يكون أحدهما حالاً في الآخر ولا محلاً له فنقول : فعلى هذا التقدير يكون كل واحد منهما متبايناً عن الآخر ، وعلى هذا التقدير فتكون ذات الله تعالى مساوية لسائر الذوات الجسمانية في تمام الماهية ، لأن ما به المخالفة بين ذاته وبين سائر الذوات ليست حالة في هذه الذوات ، ولا محالاً لها بل أمور أجنبية عنها فتكون ذات الله تعالى مساوية لذوات الأجسام في تمام الماهية ، وحينئذ يعود الإلزام المذكور ، فثبت أن القول : بأن ذات الله تعالى مختصة بالحيز والجهة بحيث يمنع من حصول جسم آخر في ذلك الحيز يفضي إلى هذه الأقسام الثلاثة الباطلة فوجب كونه باطلاً .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال : إن ذات الله تعالى وإن كانت مختصة بالحيز والجهة ، إلا أنه لا يمنع من حصول جسم آخر في ذلك الحيز والجهة ، فهذا أيضاً محال لأنه يوجب كون ذاته مخالطة سارية في ذات ذلك الجسم الذي يحصل في ذلك الجنب والحيز وذلك بالإجماع محال ، ولأنه لو عقل ذلك فلم لا يعقل حصول الأجسام الكثيرة في الحيز الواحد ؟ فثبت أنه تعالى لو كان حاصلاً في حيز لكان إما أن يمنع حصول جسم آخر في ذلك الحيز أو لا يمنع ، وثبت فساد القسمين ، فكان القول بحصوله تعالى في الحيز والجهة محالاً باطلاً .

البرهان الحادي عشر : على أنه يمتنع حصول ذات الله تعالى في الحيز والجهة هو أن نقول : لو كان مختصاً بحيز وجهة لكان .

إما أن يكون بحيث يمكنه أن يتحرك عن تلك الجهة أو لا يمكنه ذلك ، والقسمان باطلان ، فبطل القول بكونه حاصلاً في الحيز .

أما القسم الأول : وهو أنه يمكنه أن يتحرك فنقول : هذه الذات لا تخلو عن الحركة والسكون وهما محدثان ، لأن على هذا التقدير السكون جائز عليه والحركة جائزة عليه ، ومتى كان كذلك لم يكن المؤثر في تلك الحركة ولا في ذلك السكون ذاته ، وإلا لامتنع طريان ضده والتقدير : هو تقدير أنه يمكنه أن يتحرك وأن يسكن ، وإذا كان كذلك ان المؤثر في حصول تلك الحركة ، وذلك السكون هو الفاعل المختار وكل ما كان فعلاً لفاعل مختار فهو محدث ، فالحركة والسكون محدثان وما لا يخلو عن المحدث فهو محدث فيلزم أن تكون ذاته تعالى محدثة وهو محال .

وأما القسم الثاني : وهو أنه يكون مختصاً بحيز وجهة مع أنه لا يقدر أن يتحرك عنه فهذا أيضاً محال لوجهين : الأول : أن على هذا التقدير يكون كالزمن المقعد العاجز ، وذلك نقص ، وهو على الله محال .

والثاني : أنه لو لم يمتنع فرض موجود حاصل في حيز معين بحيث يكون حصوله فيه واجب

التقرر ممتنع الزوال لم يبعد أيضاً فرض أجسام أخرى مختصة بأحياز معينة بحيث يمتنع خروجها عن تلك الأحياز ، وعلى هذا التقدير فلا يمكن إثبات حدوثها بدليل الحركة والسكون ، والكرامية يساعدون على أنه كفر .

والثالث : أنه تعالى لما كان حاصلاً في الحيز والجهة كان مساوياً للأجسام في كونه متحيزاً شاغلاً للأحياز ، ثم نقيم الدلالة المذكورة على أن المتحيزات لما كانت متساوية في صفة التحيز وجب كونها متساوية في تمام الماهية ، لأنه لو خالف بعضها بعضاً لكان ما به المخالفة إما أن يكون حالاً في المتحيز أو محلاً له أو لا حالاً ولا محلاً ، والأقسام الثلاثة باطلة على ما سبق .

(27/271)

وإذا كانت متساوية في تمام الماهية فكما أن الحركة صحيحة على هذه الأجسام وجب القول بصحتها على ذات الله تعالى وحينئذ يتم الدليل .

الحجة الثانية عشرة : لو كان تعالى مختصاً بحيز معين لكنا إذا فرضنا وصول إنسان إلى طرف ذلك الشيء وحاول الدخول فيه فإما أن يمكنه النفوذ والدخول فيه أو لا يمكنه ذلك ، فإن كان الأول كان كالهواء اللطيف ، والماء اللطيف ، وحينئذ يكون قابلاً للتفرق

والتمزق وإن كان الثاني كان صلباً كالحجر الصلد الذي لا يمكنه النفوذ فيه ، فثبت أنه تعالى لو كان مختصاً بمكان وحيز وجهة لكان إما أن يكون رقيقاً سهل التفرق والتمزق كالماء والهواء ، وإما أن يكون صلباً جاسئاً كالحجر الصلد ، وقد أجمع المسلمون على أن إثبات هاتين الصفتين في حق الإله كفر وإلحاد في صفته ، وأيضاً فبتقدير أن يكون مختصاً بمكان وجهة ، لكان إما أن يكون نورانياً وظلمانياً ، وجمهور المشبهة يعتقدون أنه نور محض ، لاعتقادهم أن النور شريف والظلمة خسيسة ، إلا أن الاستقراء العام دل على أن الأشياء النورانية رقيقة لا تمنع النافذ من النفوذ فيها ، والدخول فيما بين أجزائها ، وعلى هذا التقدير فإن ذلك الذي ينفذ فيه يمتزج به ويفرق بين أجزائه ويكون ذلك الشيء جارياً مجرى الهواء الذي يتصل تارة وينفصل أخرى .

(28/271)

ويجتمع تارة ويتمزق أخرى ، وذلك مما لا يليق بالمسلم أن يصف إله العالم به ، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال إن خالق العالم هو بعض هذه الرياح التي تهب ؟ أو يقال إنه بعض هذه الأنوار والأضواء التي تشرق على الجدران ؟ والذين يقولون إنه لا يقبل التفرق والتمزق ولا يتمكن النافذ من النفوذ فإنه يرجع حاصل كلامهم إلى أنه حصل فوق العالم جبل صلب

شديد وإله هذا العالم هو ذلك الجبل الصلب الواقف في الحيز العالي ، وأيضاً فإن كان له طرف وحد ونهاية فهل حصل لذلك الشيء عمق وثخن أو لم يحصل ؟ فإن كان الأول فحينئذ يكون ظاهره غير باطنه وباطنه غير ظاهره ، فكان مؤلفاً مركباً من الظاهر والباطن مع أن باطنه غير ظاهره وظاهره غير باطنه ، وإن كان الثاني فحينئذ يكون ذاته سطحاً رقيقاً في غاية الرقة مثل قشرة الثوم بل أرق منه ألف ألف مرة ، والعاقل لا يرضى أن يجعل مثل هذا الشيء إله العالم ، فثبت أن كونه تعالى في الحيز والجهة يفضي إلى فتح باب هذه الأقسام الباطلة الفاسدة .

الحجة الثالثة عشرة : العالم كرة ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن يكون إله العالم حاصلاً في جهة فوق .

أما المقام الأول : فهو مستقصي في علم الهيئة إلا إنا نقول أنا إذا اعتبرنا كسوفاً قمرياً حصل في أول الليل بالبلاد الغربية كان عين ذلك الكسوف حاصلاً في البلاد الشرقية في أول النهار ، فعلمنا أن أول الليل بالبلاد الغربية هو بعينه أول النهار بالبلاد الشرقية ، وذلك لا يمكن إلا إذا كانت الأرض مستديرة من المشرق إلى المغرب ، وأيضاً إذا توجهنا إلى الجانب الشمالي فكلما كان توغلنا أكثر ، كان ارتفاع القطب الشمالي أكثر وبمقدار ما يرتفع القطب الشمالي ينخفض القطب الجنوبي وذلك يدل على أن الأرض مستديرة من الشمال إلى الجنوب ، ومجموع هذين الاعتبارين يدل على أن الأرض كرة .

وإذا ثبت هذا فنقول : إذا فرضنا إنسانين وقف أحدهما على نقطة المشرق والأخر على نقطة المغرب صار أخمص قدميهما متقابلين ، والذي هو فوق بالنسبة إلى أحدهما يكون تحت بالنسبة إلى الثاني ، فلو فرضنا أن إله العالم حصل في الحيز الذي فوق بالنسبة إلى أحدهما ، فذلك الحيز بعينه هو تحت بالنسبة إلى الثاني ، وبالعكس فثبت أنه تعالى لو حصل في حيز معين لكان ذلك الحيز تحتاً بالنسبة إلى أقوام معينين ، وكونه تعالى تحت أهل الدنيا محال بالاتفاق ، فوجب أن لا يكون حاصلاً في حيز معين ، وأيضاً فعلى هذا التقدير أنه كلما كان فوق بالنسبة إلى أقوام كان تحت بالنسبة إلى أقوام آخرين ، وكان يميناً بالنسبة إلى ثالث ، وشمالاً بالنسبة إلى رابع ، وقدام الوجه بالنسبة إلى خامس ، وخلق الرأس بالنسبة إلى سادس ، فإن كون الأرض كرة يوجب ذلك إلا أن حصول هذه الأحوال بإجماع العقلاء محال في حق إله العالم إلا إذا قيل إنه محيط بالأرض من جميع الجوانب فيكون هذا فلكاً محيطاً بالأرض وحاصله يرجع إلى أن إله العالم هو بعض الأفلاك المحيطة بهذا العالم ، وذلك لا يقوله مسلم ، والله أعلم .

الحجة الرابعة عشرة : لو كان إله العالم فوق العرش لكان إما أن يكون مماساً للعرش ، أو مبايناً له ببعد متناه أو ببعد غير متناه ، والأقسام الثلاثة باطلة ، فالقول بكونه فوق العرش باطل .

(30/271)

أما بيان فساد القسم الأول : فهو أن بتقدير أن يصير مماساً للعرش كان الطرف الأسفل منه مماساً للعرش ، فهل يبقى فوق ذلك الطرف منه شيء غير مماس للعرش أو لم يبق ؟ فإن كان الأول فالشيء الذي منه صار مماساً لطرف العرش غير ما هو منه غير مماس لطرف العرش ، فيلزم أن يكون ذات الله تعالى مركباً من الأجزاء والأبعاض فتكون ذاته في الحقيقة مركبة من سطوح متلاقية موضوعة بعضها فوق بعض ، وذلك هو القول بكونه جسماً مركباً من الأجزاء والأبعاض وذلك محال ، وإن كان الثاني فحينئذ يكون ذات الله تعالى سطحاً رقيقاً لا ثخن له أصلاً ، ثم يعود التقسيم فيه ، وهو أنه إن حصل له تمدد في اليمين والشمال والقدام والخلف كان مركباً من الأجزاء والأبعاض ، وإن لم يكن له تمدد ولا ذهاب في الأحياز بحسب الجهات الستة كان ذرة من الذرات وجزءاً لا يتجزأ مخلوطاً بالهباآت ، وذلك لا يقوله عاقل .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال بينه وبين العالم بعد متناه ، فهذا أيضاً محال ، لأن على هذا

التقدير لا يمتنع أن يرتفع العالم من حيزه إلى الجهة التي فيها حصلت ذات الله تعالى إلى أن يصير العالم مماساً له ، وحينئذ يعود المحال المذكور في القسم الأول .

وأما القسم الثالث : وهو أن يقال أنه تعالى مباين للعالم ببينونة غير متناهية ، فهذا أظهر فساداً من كل الأقسام لأنه تعالى لما كان مبايناً للعالم كانت البينونة بينه تعالى وبين غيره محدودة بطرفين وهما ذات الله تعالى وذات العالم ، ومحصوراً بين هذين الحاصرين ، والبعد المحصور بين الحاصرين والمحدود بين الحدين والطرفين يمتنع كونه بعداً غير متناه .

(31/271)

فإن قيل : أليس أنه تعالى متقدم على العالم من الأزل إلى الأبد ، فتقدمه على العالم محصور بين حاصرين ومحدود بين حدين وطرفين أحدهما : الأزل ، والثاني : أول وجود العالم ولم يلزم من كون هذا التقدم محصوراً بين حاصرين أن يكون لهذا التقدم أول وبداية ، فكذا ههنا ، وهذا هو الذي عول عليه محمد بن الهيثم في دفع هذا الإشكال عن هذا القسم .

والجواب : أن هذا هو محض المغالطة ، لأنه ليس الأزل عبارة عن وقت معين وزمان معين حتى يقال إنه تعالى متقدم على العالم من ذلك الوقت إلى الوقت الذي هو أول العالم ، فإن كل وقت معين يفرض من ذلك الوقت إلى الوقت الآخر يكون محدوداً بين حدين ومحصوراً بين

حاصرين ، وذلك لا يعقل فيه أن يكون غير متناه بل الأزل عبارة عن نفي الأولية من غير أن يشار به إلى وقت معين ألبتة .

إذا عرفت هذا فنقول : إما أن نقول إنه تعالى مختص بجهة معينة ، وحاصل في حيز معين وإما أن لا نقول ذلك ، فإن قلنا بالأول كان البعد الحاصل بين ذينك الطرفين محدوداً بين ذينك الحدين والبعد المحصور بين الحاصرين لا يعقل كونه غير متناه ، لأن كونه غير متناه عبارة عن عدم الحد والقطع والطرف ، وكونه محصوراً بين الحاصرين معناه إثبات الحد والقطع والطرف والجمع بينهما يوجب الجمع بين النقيضين ، وهو محال .

ونظيره ما ذكرناه أنا متى عينا قبل العالم وقتاً معيناً كان البعد بينه وبين الوقت الذي حصل فيه أول العالم بعداً متناهياً لا محالة .

وأما إن قلنا بالقسم الثاني : وهو أنه تعالى غير مختص بحيز معين وغير حاصل في جهة معينة ، فهذا عبارة عن نفي كونه في الجهة .

لأن كون الذات المعينة حاصلة لا في جهة معينة في نفسها قول محال ، ونظير هذا قول من يقول الأزل ليس عبارة عن وقت معين بل إشارة إلى نفي الأولية والحدوث ، فظهر أن هذا الذي قاله ابن الهيثم تخييل خال عن التحصيل .

الحجة الخامسة عشرة : أنه ثبت في العلوم العقلية أن المكان : إما السطح الباطن من الجسم الحاوي وإما البعد المجرد والفضاء الممتد ، وليس يعقل في المكان قسم ثالث .

إذا عرفت هذا فنقول : إن كان المكان هو الأول فنقول : ثبت أن أجسام العالم متناهية ، فخارج العالم الجسماني لا خلاء ولا ملاء ولا مكان ولا جهة ، فيمتنع أن يحصل الإله في مكان خارج العالم ، وإن كان المكان هو الثاني ، فنقول طبيعة البعد طبيعة واحدة متشابهة في تمام الماهية ، فلو حصل الإله في حيز لكان ممكن الحصول في سائر الأحياز ، وحينئذ يصح عليه الحركة والسكون وكل ما كان كذلك كان محدثاً بالدلائل المشهورة المذكورة في علم الأصول ، وهي مقبولة عند جمهور المتكلمين ، فيلزم كون الإله محدثاً ، وهو محال .

فثبت أن القول بأنه تعالى حاصل في الحيز والجهة قول باطل على كل الاعتبارات .

الحجة السادسة عشرة : وهي حجة استقرائية اعتبارية لطيفة جداً ، وهي أنا رأينا أن الشيء كلما كان حصول معنى الجسمية فيه أقوى وأثبت ، كانت القوة الفاعلية فيه أضعف وأنقص ، وكلما كان حصول معنى الجسمية فيه أقل وأضعف ، كان حصول القوة الفاعلية أقوى وأكمل ، وتقريره أن نقول وجدنا الأرض أكثف الأجسام وأقواها حجمية ، فلا جرم لم يحصل فيها إلا خاصة قبول الأثر فقط ، فأما أن يكون للأرض الخالصة تأثير في غيره فقليل جداً .

وأما الماء فهو أقل كثافة وحجمية من الأرض ، فلا جرم حصلت فيه قوة مؤثرة ، فإن الماء الجاري بطبعه إذا اختلط بالأرض أثر فيها أنواعاً من التأثيرات .

وأما الهواء ، فإنه أقل حجمية وكثافة من الماء ، فلا جرم كان أقوى على التأثير من الماء ، فلذلك قال بعضهم أن الحياة لا تكمل إلا بالنفس ، وزعموا أنه لا معنى للروح إلا الهواء المستنشق .

(33/271)

وأما النار ، فإنها أقل كثافة من الهواء ، فلا جرم كانت أقوى الأجسام العنصرية على التأثير فبقوة الحرارة يحصل الطبخ والنضج ، وتكون المواليد الثلاثة أعني المعادن والنبات والحيوان .

وأما الأفلاك ، فإنها ألطف من الأجرام العنصرية ، فلا جرم كانت هي المستولية على مزاج الأجرام العنصرية بعضها البعض ، وتوليد الأنواع والأصناف المختلفة من تلك التمزيجات ، فهذا الاستقراء المطرد يدل على أن الشيء كلما كان أكثر حجمية وجرمية وجسمية كان أقل قوة وتأثيراً وكلما كان أقوى قوة وتأثيراً كان أقل حجمية وجرمية وجسمية ، وإذا كان الأمر كذلك أفاد هذا الاستقراء ظناً قوياً أنه حيث حصل كمال القوة والقدرة على

الإحداث والإبداع لم يحصل هناك ألبتة معنى الحجمية والجرمية والاختصاص بالحيز والجهة ، وهذا وإن كان بحثاً استقرائياً إلا أنه عند التأمل التام شديد المناسبة للقطع بكونه تعالى منزهاً عن الجسمية والموضع والحيز .

وبالله التوفيق .

فهذه جملة الوجوه العقلية في بيان كونه تعالى منزهاً عن الاختصاص بالحيز والجهة .

أما الدلائل السمعية فكثيرة : أولها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فوصفه بكونه أحداً والأحد مبالغة في كونه واحداً .

والذي يمتلىء منه العرش ويفضل عن العرش يكون مركباً من أجزاء كثيرة جداً فوق أجزاء العرش ، وذلك ينافي كونه أحداً ورأيت جماعة من الكرامية عند هذا الإلزام يقولون إنه تعالى ذات واحدة ، ومع كونها واحدة حصلت في كل هذه الأحياز دفعة واحدة .

قالوا : فلأجل أنه حصل دفعة واحدة في جميع الأحياز امتلأ العرش منه .

(34/271)

فقلت حاصل هذا الكلام يرجع إلى أنه يجوز حصول الذات الشاغلة للحيز والجهة في أحياز كثيرة دفعة واحدة والعقلاء اتفقوا على أن العلم بفساد ذلك من أجل العلوم لضرورية ،

وأيضاً فإن جوزتم ذلك فلم لا تجوزون أن يقال : إن جميع العالم من العرش إلى ما تحت الثرى جوهر واحد وموجود واحد إلا أن ذلك الجزء الذي لا يتجزأ حصل في جملة هذه الأحياز ، فيظن أنها أشياء كثيرة ، ومعلوم أن من جوزه ، فقد التزم منكراً من القول عظيماً .

فإن قالوا : إنما عرفنا ههنا حصول التغاير بين هذه الذوات لأن بعضها يفنى مع بقاء الباقي وذلك يوجب التغاير ، وأيضاً فنرى بعضها متحركاً ، وبعضها ساكناً والمتحرك غير الساكن ، فوجب القول بالتغاير ، وهذه المعاني غير حاصلة في ذات الله ، فظهر الفرق ، فنقول : أما قولك بأنا نشاهد أن هذا الجزء يبقى مع أنه يفنى ذلك الجزء الآخر ، وذلك يوجب التغاير .

فنقول : لا نسلم أنه فني شيء من الأجزاء بل نقول لم لا يجوز أن يقال أن جميع أجزاء العالم جزء واحد فقط ؟ ثم إنه حصل ههنا وهناك ، وأيضاً حصل موصوفاً بالسواد والبياض وجميع الألوان والطعوم ، فالذي يفنى إنما هو حصوله هناك ، فأما أن يقال إنه فني في نفسه ، فهذا غير مسلم ، وأما قوله : نرى بعض الأجسام متحركاً وبعضها ساكناً ، وذلك يوجب التغاير ، لأن الحركة والسكون لا يجتمعان .

فنقول : إذا حكمنا بأن الحركة والسكون لا يجتمعان لاعتقادنا أن الجسم الواحد لا يحصل دفعة واحدة في حيزين ، فإذا رأينا أن الساكن بقي هنا ، وأن المتحرك ليس هنا قضينا أن المتحرك غير الساكن .

وأما بتقدير أن يجوز كون الذات الواحدة حاصلة في حيزين دفعة واحدة ، يمتنع كون الذات الواحدة متحركة ساكنة معاً ، لأن أقصى ما في الباب أن بسبب السكون بقي هنا ، وبسبب الحركة حصل في الحيز الآخر ، إلا أنا لما جوزنا أن تحصل الذات الواحدة دفعة واحدة في حيزين معاً لم يبعد أن تكون الذات الساكنة هي عين الذات المتحركة ، فثبت أنه لو جاز أن يقال إنه تعالى في ذاته واحد لا يقبل القسمة ، ثم مع ذلك يمتلىء العرش منه ، لم يبعد أيضاً أن يقال : العرش في نفسه جوهر فرد وجزء لا يتجزأ ، ومع ذلك فقد حصل في كل تلك الأحياز ، وحصل منه كل العرش ومعلوم أن تجويزه يفضي إلى فتح باب الجهالات .

وثانيها : أنه تعالى قال :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] فلو كان إله العالم في العرش ، لكان حامل العرش حاملاً للإله ، فوجب أن يكون الإله محمولاً حاملاً ، ومحفوظاً حافظاً ، وذلك لا يقوله عاقل .

وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ والله الغنى ﴾ [محمد : 38] حكم بكونه غنياً على الإطلاق ، وذلك يوجب كونه تعالى غنياً عن المكان والجهة .

ورابعها : أن فرعون لما طلب حقيقة الإله تعالى من موسى عليه السلام ولم يزد موسى عليه السلام على ذكر صفة الخلاقية ثلاث مرات ، فإنه لما قال : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] ففي المرة الأولى قال : ﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان : 7] وفي الثانية قال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ [الشعراء : 26] وفي المرة الثالثة : ﴿ قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : 28] وكل ذلك إشارة إلى الخلاقية ، وأما فرعون لعنه الله فإنه قال : ﴿ ياهامان ابن لِى صَرْحاً لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب أسباب السموات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ [غافر : 36 ، 37] فطلب الإله في السماء ، فعلمنا أن وصف الإله بالخلاقية ، وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى ، وسائر جميع الأنبياء ، وجميع وصفه تعالى بكونه في السماء دين فرعون وإخوانه من الكفرة .

وخامسها : أنه تعالى قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والارض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ وكلمة "ثم" للتراخي وهذا يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد تخليق السموات والأرض ، فإن كان المراد من الاستواء الاستقرار ، لزم أن يقال : إنه ما كان مستقراً على العرش ، بل كان معوجاً مضطرباً ، ثم استوى عليه بعد ذلك ، وذلك يوجب وصفه بصفات سائر الأجسام من الاضطراب والحركة تارة ،

والسكون أخرى ، وذلك لا يقوله عاقل .

وسادسها : هو أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه إنما طعن في إلهية الكوكب والقمر والشمس بكونها آفلة غاربة فلو كان إله العالم جسماً ، لكان أبداً غارباً آفلاً .

(37/271)

وكان منتقلاً من الاضطراب والاعوجاج إلى الاستواء والسكون والاستقرار ، فكل ما جعله إبراهيم عليه السلام طعناً في إلهية الشمس والكوكب والقمر يكون حاصلاً في إله العالم ، فكيف يمكن الاعتراف بإلهيته .

وسابعها : أنه تعالى ذكر قبل قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ شيئاً وبعده شيئاً آخر . أما الذي ذكره قبل هذه الكلمة فهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والارض ﴾ وقد بينا أن خلق السموات والأرض يدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته من وجوه كثيرة .

وأما الذي ذكره بعد هذه الكلمة فأشياء : أولها : قوله : ﴿ يغشى الليل النهار يَطلُبُهُ حثيثاً ﴾ وذلك أحد الدلائل الدالة على وجود الله ، وعلى قدرته وحكمته .

وثانيها : قوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ وهو أيضاً من الدلائل

الدالة على الوجود والقدرة والعلم .

وثالثها : قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ وهو أيضاً إشارة إلى كمال قدرته وحكمته .

(38/271)

إذا ثبت هذا فنقول : أول الآية إشارة إلى ذكر ما يدل على الوجود والقدرة والعلم ، وآخرها يدل أيضاً على هذا المطلوب ، وإذ كان الأمر كذلك فقوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ وجب أن يكون أيضاً دليلاً على كمال القدرة والعلم ، لأنه لو لم يدل عليه بل كان المراد كونه مستقراً على العرش كان ذلك كلاماً أجنبياً عما قبله وعما بعده ، فإن كونه تعالى مستقراً على العرش لا يمكن جعله دليلاً على كماله في القدرة والحكمة وليس أيضاً من صفات المدح والثناء ، لأنه تعالى قادر على أن يجلس جميع أعداد البق والبعوض على العرش وعلى ما فوق العرش ، فثبت أن كونه جالساً على العرش ليس من دلائل إثبات الصفات والذات ولا من صفات المدح والثناء ، فلو كان المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ كونه جالساً على العرش لكان ذلك كلاماً أجنبياً عما قبله وعما بعده ، وهذا يوجب نهاية الركاكة ، فثبت أن المراد منه ليس ذلك ، بل المراد منه كمال قدرته في تدابير الملك والملكوت حتى تصير هذه الكلمة مناسبة لما قبلها ولما بعدها وهو المطلوب .

وثامنها : أن السماء عبارة عن كل ما ارتفع وسما وعلا ، والدليل عليه أنه تعالى سمى السحاب سماء حيث قال :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] وإذا كان الأمر كذلك ، فكل ماله ارتفاع وعلو وسمو كان سماء ، فلو كان إله العالم موجوداً فوق العرش ، لكان ذات الإله تعالى سماء لساكني العرش .

فثبت أنه تعالى لو كان فوق العرش لكان سماء والله تعالى حكم بكونه خالقاً لكل السموات في آيات كثيرة منها هذه الآية وهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ فلو كان فوق العرش سماء لسكان أهل العرش لكان خالقاً لنفسه وذلك محال .

(39/271)

وإذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ آية محكمة دالة على أن قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ من المتشابهات التي يجب تأويلها ، وهذه نكتة لطيفة ، ونظير هذا أنه تعالى قال في أول سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الله فى لسموات ﴾ [الأنعام : 3] ثم قال بعده بقليل : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فى لسموات والأرض قُل لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : 12] فدلت هذه الآية المتأخرة على أن كل ما في السموات ، فهو ملك لله فلو كان الله في السموات لزم

كونه ملكاً لنفسه ، وذلك محال فكذا ههنا ، فثبت بمجموع هذه الدلائل العقلية والنقلية أنه لا يمكن حمل قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز ، وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان : الأول : أن نقطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله ، وهو الذي قررناه في تفسير قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران : 7] وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه .

والقول الثاني : أن نخوض في تأويله على التفصيل ، وفيه قولان ملخصان : الأول : ما ذكره القفال رحمة الله عليه فقال : ﴿ العرش ﴾ في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك ، ثم جعل العرش كناية عن نفس الملك ، يقال : ثل عرشه أي انتقض ملكه وفسد .

وإذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا : استوى على عرشه ، واستقر على سرير ملكه ، هذا ما قاله القفال .

(40/271)

وأقول : إن الذي قاله حق وصدق وصواب ، ونظيره قولهم للرجل الطويل : فلان طويل النجاد وللرجل الذي يكثر الضيافة كثير الرماد ، وللرجل الشيخ فلان اشتعل رأسه شيباً ،

وليس المراد في شيء من هذه الألفاظ إجراؤها على ظواهرها ، إنما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية فكذا ههنا يذكر الاستواء على العرش ، والمراد نفاذ القدرة وجريان المشيئة ، ثم قال القفال رحمه الله تعالى : والله تعالى لما دل على ذاته وعلى صفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم ورؤسائهم استقر في قلوبهم عظمة الله وكمال جلاله ، إلا أن كل ذلك مشروط بنفي التشبيه ، فإذا قال : إنه عالم فهموا منه أنه لا يخفى عليه تعالى شيء ، ثم علموا بعقولهم أنه لم يحصل ذلك العلم بفكرة ولا روية ولا باستعمال حاسة ، وإذا قال : قادر علموا منه أنه متمكن من إيجاد الكائنات ، وتكوين الممكنات ، ثم علموا بعقولهم أنه غني في ذلك الإيجاد ، والتكوين عن الآلات والأدوات ، وسبق المادة والمدة والفكرة والروية ، وهكذا القول في كل صفاته ، وإذا أخبر أن له بيتاً يجب على عباده حجة فهموا منه أنه نصب لهم موضعاً يقصدونه لمسألة ربهم وطلب حوائجهم كما يقصدون بيوت الملوك والرؤساء لهذا المطلوب ، ثم علموا بعقولهم نفي التشبيه ، وأنه لم يجعل ذلك البيت مسكناً لنفسه ، ولم ينتفع به في دفع الحر والبرد بعينه عن نفسه ، فإذا أمرهم بتحميده وتمجيده فهموا منه أنه أمرهم بنهاية تعظيمه ، ثم علموا بعقولهم أنه لا يفرح بذلك التحميد والتعظيم ولا يغتم بتركه والإعراض عنه .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض كما أراد وشاء من غير منازع ولا مدافع ، ثم أخبر بعده أنه استوى على العرش ، أي حصل له تدبير

المخلوقات على ما شاء وأراد ، فكان قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي بعد أن خلقها استوى على عرش الملك والجلال .

(41/271)

ثم قال القفال : والدليل على أن هذا هو المراد قوله في سورة يونس : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ [يونس : 3] فقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ جرى مجرى التفسير لقوله : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وقال في هذه الآية التي نحن في تفسيرها : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ وهذا يدل على أن قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه .

فإن قيل : فإذا حملتم قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ على أن المراد : استوى على الملك ، وجب أن يقال : الله لم يكن مستوياً قبل خلق السموات والأرض .

قلنا : إنه تعالى إنما كان قبل خلق العوالم قادراً على تخليقها وتكوينها وما كان مكوناً ولا موجوداً لها بأعيانها بالفعل ، لأن إحياء زيد ، وإماتة عمرو ، وإطعام هذا وإرواء ذلك لا يحصل إلا عند هذه الأحوال ، فإذا فسرنا العرش بالملك والملك بهذه الأحوال ، صح أن

يقال : إنه تعالى إنما استوى على ملكه بعد خلق السموات والأرض بمعنى أنه إنما ظهر تصرفه في هذه الأشياء وتدبيره لها بعد خلق السموات والأرض ، وهذا جواب حق صحيح في هذا الموضع .

والوجه الثاني : في الجواب أن يقال : استوى بمعنى استولى ، وهذا الوجه قد أطلنا في شرحه في سورة طه فلا نعيده هنا .

والوجه الثالث : أن نفسر العرش بالملك ونفسر استوى بمعنى : علا واستعلى على الملك فيكون المعنى : أنه تعالى استعلى على الملك بمعنى أن قدرته نفذت في ترتيب الملك والملكوت ، واعلم أنه تعالى ذكر قوله : ﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ في سور سبع .

إحداها : ههنا .

وثانيها : في يونس .

وثالثها : في الرعد .

ورابعها : في طه .

وخامسها : في الفرقان .

وسادسها : في السجدة .

وسابعها : في الحديد ، وقد ذكرنا في كل موضع فوائد كثيرة ، فمن ضم تلك الفوائد بعضها إلى بعض كثرت وبلغت مبلغاً كثيراً وافياً بإزالة شبه التشبيه عن القلب والخاطر .

أما قوله : ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿ يُغْشِى ﴾ بتخفيف الغين وفي الرعد هكذا ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر بالتشديد ، وفي الرعد هكذا .

قال الواحدي رحمه الله : الإغشاء والتغشية إلباس الشيء بالشيء ، وقد جاء التنزيل بالتشديد والتخفيف ، فمن التشديد قوله تعالى : ﴿ فغشاها مَا غشى ﴾ [النجم : 54] ومن اللغة الثانية قوله : ﴿ فأغشيناهم فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9] والمفعول الثاني محذوف على معنى فأغشيناهم العمى وفقد الرؤية .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ يحتمل أن يكون المراد يلحق الليل بالنهار ، وأن يكون المراد النهار بالليل ، واللفظ يحتملهما معاً وليس فيه تغيير ، والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار

أي يدرك النهار الليل ويطلبه قال القفال رحمه الله : أنه سبحانه لما أخبر عباده باستوائه على العرش عن استمرار أصعب المخلوقات على وفق مشيئته ، أراهم ذلك عياناً فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر ، وتزول الشبه عن كل الجهات ، فقال : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ لأنه تعالى أخبر في هذا الكتاب الكريم بما في تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة ، والفوائد الجليلة ، فإن بتعاقبهما يتم أمر الحياة ، وتكمل المنفعة والمصلحة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ قال الليث : الحث : الإعجال ، يقال : حثثت فلاناً فأحتث ، فهو حثيث ومحثوث ، أي مجد سريع .

(43/271)

واعلم أنه سبحانه وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة ، وذلك هو الحق ، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى أن الباحثين عن أحوال الموجودات .

قالوا : الإنسان إذا كان في العدو الشديد الكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك كانت تلك الحركة في غاية الشدة والسرعة

، فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ ونظير هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] فشبه ذلك السير وتلك الحركة بالسباحة في الماء ، والمقصود : التنبيه على سرعتها وسهولتها وكمال إيصالها .

ثم قال تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات ﴾ بالرفع على معنى الابتداء والباقون بالنصب على معنى وجعل الشمس والقمر ، قال الواحدي والنصب هو الوجه لقوله تعالى : ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت : 37] فكما صرح في هذه الآية أنه سخر الشمس والقمر كذلك يجب أن يحمل على أنه خلقها في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ﴾ وهذا النصف على الحال أي خلق هذه الأشياء حال كونها موصوفة بهذه الصفات والآثار والأفعال وحجة ابن عامر قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الجاثية : 13] ومن جملة ما في السماء الشمس والقمر فلما أخبر أنه تعالى سخرها حسن الأخبار عنها بأنها مسخرة كما أنك إذا قلت ضربت زيداً استقام أن تقول زيد مضروب .

المسألة الثانية :

في هذه الآية لطائف : فالأولى : أن الشمس لها نوعان من الحركة :

(44/271)

أحد النوعين : حركتها بحسب ذاتها وهي إنما تتم في سنة كاملة وبسبب هذه الحركة تحصل السنة .

والنوع الثاني : حركتها بسبب حركة الفلك الأعظم وهذه الحركة تتم في اليوم بليلة .

إذا عرفت هذا فنقول : الليل والنهار لا يحصل بسبب حركة الشمس وإنما يحصل بسبب حركة السماء الأقصى التي يقال لها العرش فهذا السبب لما ذكر العرش بقوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ ربط به قوله : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ تنبيهاً على أن سبب حصول الليل والنهار هو حركة الفلك الأقصى لا حركة الشمس والقمر وهذه دقيقة عجيبة .

والثانية : أنه تعالى لما شرح كيفية تخليق السموات .

قال : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِى يَوْمَيْنِ وأوحى فِى كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ [فصلت : 12] فدلت تلك الآية على أنه سبحانه خص كل ذلك بلطيفة نورانية ربانية من عالم الأمر .

ثم قال بعده : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ وهو إشارة إلى أن كل ما سوى الله تعالى إما من عالم الخالق أو من عالم الأمر ، أما الذي هو من عالم الخلق ، فالخلق عبارة عن التقدير ، وكل ما كان جسماً أو جسمانياً كان مخصوصاً بمقدار معين ، فكان من عالم الخلق ، وكل ما كان بريئاً عن الحجمية والمقدار كان من عالم الأرواح ومن عالم الأمر ، فدل على أنه سبحانه خص كل واحد من أجرام الأفلاك والكواكب التي هي من عالم الخلق بملك من الملائكة ، وهم من عالم الأمر والأحاديث الصحيحة مطابقة لذلك ، وهي ما روي في الأخبار أن لله ملائكة يحركون الشمس والقمر عند الطلوع وعند الغروب ، وكذا القول في سائر الكواكب ، وأيضاً قوله سبحانه :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] إشارة إلى أن الملائكة الذين يقومون بحفظ العرش ثمانية ، ثم إذا دققت النظر علمت أن عالم الخلق في تسخير الله وعالم الأمر في تدبير الله واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقدير الله فلهذا المعنى قال : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ .

(45/271)

ثم قال بعده : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ والبركة لها تفسيران : أحدهما : البقاء والثبات والثاني : كثرة الآثار الفاضلة والنتائج الشريفة وكلا التفسيرين لا يليق إلا بالحق سبحانه ، فإن حملته على الثبات والدوام ، فالثابت والدائم هو الله تعالى لأنه الموجود الواجب لذاته العالم لذاته القائم بذاته الغني في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه ، فهو سبحانه مقطع الحاجات ومنهى الافتقارات وهو غني عن كل ما سواه في جميع الأمور وأيضاً إن فسرنا البركة بكثرة الآثار الفاضلة فالكل بهذا التفسير من الله تعالى ، لأن الموجود إما واجب لذاته وإما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس إلا هو ، وكل ما سواه ممكن ، وكل ممكن فلا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته وكل الخيرات منه وكل الكمالات فائضة من وجوده وإحسانه ، فلا خير إلا منه ولا إحسان إلا من فيضه ، ولا رحمة إلا وهي حاصلة منه ، فلما كان الخلق والأمر ليس إلا منه ، لا جرم كان الثناء المذكور بقوله : ﴿ فتبارك الله رَبُّ العالمين ﴾ [غافر : 64] لا يليق إلا بكبريائه وكمال فضله ونهاية جوده ورحمته .

المسألة الثالثة :

كون الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه يحتمل وجوهاً : أحدها : أنا قد دللنا في هذا الكتاب العالي الدرجة أن الأجسام متماثلة ومتى كان كذلك ، كان اختصاص جسم الشمس بذلك النور المخصوص والضوء الباهر والتسخير الشديد والتأثير القاهر والتدبيرات العجيبة في العالم العلوي والسفلي ، لا بد وأن يكون لأجل أن الفاعل الحكيم

والمقدر العليم خص ذلك الجسم بهذه الصفات وهذه الأحوال ، فجسم كل واحد من الكواكب والنيرات كالمسخر في قبول تلك القوى والخواص ، عن قدرة المدبر الحكيم ، الرحيم العليم .

(46/271)

وثانيها : أن يقال إن لكل واحد من أجرام الشمس والقمر والكواكب ، سيراً خاصاً بطيئاً من المغرب إلى المشرق وسيراً آخر سريعاً بسبب حركة الفلك الأعظم ، فالحق سبحانه خص جرم الفلك الأعظم بقوة سارية في أجرام سائر الأفلاك باعتبارها صارت مستولية عليها ، قادرة على تحريكها على سبيل القهر من المشرق إلى المغرب فأجرام الأفلاك والكواكب صارت كالمسخرة لهذا القهر والقسر ولفظ الآية مشعر بذلك لأنه لما ذكر العرش بقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ رتب عليه حكمين : أحدهما : قوله : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ تنبيهاً على أن حدوث الليل والنهار إنما يحصل بحركة العرش .

والثاني : قوله : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ تنبيهاً على أن الفلك الأعظم الذي هو العرش يحرك الأفلاك والكواكب على خلاف طبعها من المشرق إلى المغرب وأنه تعالى أودع في جرم العرش قوة قاهرة باعتبارها قوى على قهر جميع الأفلاك

والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها ، فهذه أبحاث معقولة ولفظ القرآن مشعر بها والعلم عند الله .

وثانيها : أن أجسام العالم على ثلاثة أقسام ، منها ما هي متحركة إلى الوسط وهي الثقال . ومنها ما هي متحركة عن الوسط ، وهي الخفاف ، ومنها ما هي متحركة عن الوسط ، وهي الأجرام الفلكية الكوكبية ، فإنها مستديرة حول الوسط فكون الأفلاك والكواكب مستديرة حول مركز الأرض لا عنه ولا إليه ، لا يكون إلا بتسخير الله وتدبيره ، حيث خص كل واحد من هذه الأجسام بخاصة معينة وصفة معينة وقوة مخصوصة فلهذا السبب قال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ ورابعها : أن الثوابت تتحرك في كل ستة وثلاثين ألف سنة دورة واحدة ، فهذه الحركة تكون في غاية البطء .

(47/271)

ثم ههنا دقيقة أخرى وهي أن كل كوكب من الكواكب الثابتة ، كان أقرب إلى المنطقة كانت حركته أسرع ، وكل ما كان أقرب إلى القطب كانت حركته أبطأ ، فالكواكب التي تكون في غاية القرب من القطب مثل كوكب الجدي وهو الذي تقول العوام إنه هو القطب ، يدور في دائرة في غاية الصغر ، وهو إنما يتمم تلك الدائرة الصغيرة جداً في مدة ستة وثلاثين ألف

سنة .

فإذا تأملت علمت أن تلك الحركة بلغت في البطء إلى حيث لا توجد حركة في العالم تشاركها في البطء ، فذلك الكوكب اختص بأبطأ حركات هذا العالم وجرم الفلك الأعظم اختص بأسرع حركات العالم ، وفيما بين هاتين الدرجتين درجات لا نهاية لها في البطء والسرعة ، وكل واحد من الكواكب والدوائر والحوامل والممثلات يختص بنوع من تلك الحركات ، وأيضاً فلكل واحد من تلك الكواكب مدارات مخصوصة ، فأسرعها هو المنطقة وكل ما كان أقرب إليه فهو أسرع حركة مما هو أبعد منه ، ثم إنه سبحانه رتب مجموع هذه الحركات على اختلاف درجاتها وتفاوت مراتبها سبباً لحصول المصالح في هذا العالم .

كما قال في أول سورة البقرة :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [البقرة : 29] أي سواهن على وفق مصالح هذا العالم ، وهو بكل شيء عليم ، أي هو عالم بجميع المعلومات .

(48/271)

فيعلم أنه كيف ينبغي ترتيبها وتسويتها حتى تحصل مصالح هذا العالم ، فهذا أيضاً نوع عجيب في تسخير الله تعالى هذه الأفلاك والكواكب ، فتكون داخلة تحت قوله :

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم ، وذلك على خلاف المعتاد ! فيقال لهذا المسكين : إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته ، وتقريره من وجوه : الأول : أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وكيفية أحوال الضياء والظلام ، وأحوال الشمس والقمر والنجوم ، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى ، فلو لم يكن البحث عنها ، والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها .

والثاني : أنه تعالى قال : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بنيناها وزيناها وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] فهو تعالى حث على التأمل في أنه كيف بناها ولا معنى لعلم الهيئة إلا التأمل في أنه كيف بناها وكيف خلق كل واحد منها .

والثالث : أنه تعالى قال : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : 57] فبين أن عجائب الخلقة وبدائع الفطرة في أجرام السموات أكثر وأعظم وأكمل مما في أبدان الناس ، ثم أنه تعالى رغب في التأمل في أبدان الناس بقوله : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] فما كان أعلى شأناً وأعظم برهاناً منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب .

والرابع : أنه تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض فقال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [آل عمران : 191] ولو كان ذلك ممنوعاً منه لما فعل .

(49/271)

والخامس : أن من صنف كتاباً شريفاً مشتملاً على دقائق العلوم العقلية والنقلية بحيث لا يساويه كتاب في تلك الدقائق ، فالمعتقدون في شرفه وفضيلته فريقان : منهم من يعتقد كونه كذلك على سبيل الجملة من غير أن يقف على ما فيه من الدقائق واللطائف على سبيل التفصيل والتعيين ، ومنهم من وقف على تلك الدقائق على سبيل التفصيل والتعيين ، واعتقاد الطائفة الأولى وإن بلغ إلى أقصى الدرجات في القوة والكمال إلا أن اعتقاد الطائفة الثانية يكون أكمل وأقوى وأوفى .

وأيضاً فكل من كان وقوفه على دقائق ذلك الكتاب ولطائفه أكثر كان اعتقاده في عظمة ذلك المصنف وجلالته أكمل .

إذا ثبت هذا فنقول : من الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل محدث فله محدث ، فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع تعالى وصار من زمرة المستدلين ، ومنهم من ضم إلى

تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي والعالم السفلي على سبيل التفصيل فيظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار عجيبة ، فيصير ذلك جارياً مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله ، فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان إلى برهان آخر ، ومن دليل إلى دليل آخر ، فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات .

فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة ، ونسأل الله العون والعِصمة .

المسألة الرابعة :

الأمر المذكور في قوله : ﴿ مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ قد فسرناه بما سبق ذكره ، وأما المفسرون فلهم فيه وجوه : أحدها : المراد نفاذ إرادته لأن الغرض من هذه الآية تبيين عظمته وقدرته ، وليس المراد من هذا الأمر الكلام ، ونظيره في قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] وقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] ومنهم من حمل هذا الأمر على الأمر الثاني الذي هو الكلام ، وقال : إنه تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة .

المسألة الخامسة :

أن الشمس والقمر من النجوم فذكرهما ثم عطف على ذكرهما ذكر النجوم والسبب في إفرادهما بالذكر أنه تعالى جعلهما سبباً لعمارة هذا العالم ، والاستقصاء في تقريره لا يليق بهذا الموضع ، فالشمس سلطان النهار ، والقمر سلطان الليل ، والشمس تأثيرها في التسخين والقمر تأثيره في الترطيب ، وتولد المواليد الثلاثة أعني المعادن والنبات والحيوان لا يتم ولا يكمل إلا بتأثير الحرارة في الرطوبة .

ثم إنه تعالى خص كل كوكب بخاصة عجيبة وتدبير غريب لا يعرفه بتمامه إلا الله تعالى ، وجعله معيناً لهما في تلك التأثيرات والمباحث المستقصاة في علم الهيئة تدل على أن الشمس كالسلطان ، والقمر كالنائب ، وسائر الكواكب كالخدم ، فلهذا السبب بدأ الله سبحانه بذكر الشمس وثنى القمر ثم أتبعه بذكر سائر النجوم .

أما قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا موجد ولا مؤثر إلا الله سبحانه والدليل عليه أن كل من أوجد شيئاً وأثر في حدوث شيء فقد قدر على تخصيص ذلك الفعل بذلك الوقت فكان خالقاً ، ثم الآية دلت على أنه لا خالق إلا الله لأنه قال : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ وهذا يفيد الحصر بمعنى أنه لا خالق إلا الله ، وذلك يدل على أن كل أمر يصدر عن فلك أو ملك أو جني أو إنسي ، فخالق ذلك الأمر في الحقيقة هو الله سبحانه لا غير .

(51/271)

وإذا ثبت هذا الأصل تفرعت عليه مسائل : إحداها : أنه لا إله إلا الله إذ لو حصل إلهان لكان الإله الثاني خالقاً ومدبراً ، وذلك يناقض مدلول هذه الآية في تخصص الخلق بهذا الواحد .

وثانيها : أنه لا تأثير للكواكب في أحوال هذا العالم ، وإلا لحصل خالق سوى الله ، وذلك ضد مدلول هذه الآية .

وثالثها : أن القول بإثبات الطبائع ، وإثبات العقول والنفوس على ما يقوله الفلاسفة وأصحاب الطلسمات باطل ، وإلا لحصل خالق غير الله .

ورابعها : خالق أعمال العباد هو الله ، وإلا لحصل خالق غير الله .

وخامسها : القول بأن العلم يوجب العالمية والقدرة توجب القادرية باطل وإلا لحصل مؤثر غير الله ، ومقدر غير الله ، وخالق غير الله ، وإنه باطل .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن كلام الله قديم .

قالوا : إنه تعالى ميز بين الخلق وبين الأمر ، ولو كان الأمر مخلوقاً لما صح هذا التمييز .

أجاب الجُبّائيّ : عنه بأنه لا يلزم من إفراد الأمر بالذكر عقيب الخلق أن لا يكون الأمر داخلاً في الخلق فإنه تعالى قال :

﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب وَقُرْءانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] وآيات الكتاب داخلة في القرآن وقال : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ [النحل : 90] مع أن الإحسان داخل في العدل وقال : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّا لِّلَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] وهما داخلان تحت الملائكة .

وقال الكعبي : إن مدار هذه الحجة على أن المعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه ، فإن صح هذا الكلام بطل مذهبكم لأنه تعالى قال : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ [الأعراف : 158] فعطف الكلمات على الله فوجب أن تكون الكلمات غير الله وكل ما كان غير الله فهو محدث مخلوق ، فوجب كون كلمات الله محدثة مخلوقة .

وقال القاضي : أطبق المفسرون على أنه ليس المراد بهذا الأمر كلام التنزيل ، بل المراد به نفاذ إرادة الله تعالى لأن الغرض بالآية تعظيم قدرته ، وقال آخرون : لا يبعد أن يقال : الأمر وإن كان داخلاً تحت الخلق إلا أن الأمر بخصوص كونه أمراً يدل على نوع آخر من الكمال والجلال فقوله : ﴿ لَهُ الخلق والامر ﴾ معناه : له الخلق والإيجاد في المرتبة الأولى ، ثم بعد الإيجاد والتكوين فله الأمر والتكليف في المرتبة الثانية ، ألا ترى أنه لو قال له الخلق وله التكليف وله الثواب والعقاب ، كان ذلك حسناً مفيداً مع أن الثواب والعقاب داخلان تحت الخلق فكذا ههنا .

وقال آخرون : معنى قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ هو أنه إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق فكذا قوله : ﴿ والأمر ﴾ يجب أن يكون معناه : أنه إن شاء أمر وإن شاء لم يأمر ، وإذا كان حصول الأمر متعلقاً بمشيئته لزم أن يكون ذلك الأمر مخلوقاً كما أنه لما كان حصول المخلوق متعلقاً بمشيئته كان مخلوقاً ، أما لو كان أمر الله قديماً لم يكن ذلك الأمر بحسب مشيئته ، بل كان من لوازم ذاته .

فحينئذ لا يصدق عليه أنه إن شاء أمر وإن شاء لم يأمر ، وذلك ينفي ظاهر الآية .

والجواب : أنه لو كان الأمر داخلاً تحت الخلق كان إفراد الأمر بالذكر تكريراً محضاً ، والأصل عدمه .

أقصى ما في الباب أنا تحملنا ذلك في صور لأجل الضرورة ، إلا أن الأصل عدم التكرير .

والله أعلم .

المسألة الثالثة :

هذه الآية تدل على أنه ليس لأحد أن يلزم غيره شيئاً إلا الله سبحانه .

وإذا ثبت هذا فنقول : فعل الطاعة لا يوجب الثواب ، وفعل المعصية لا يوجب العقاب ، وإيصال الألم لا يوجب العوض وبالجملة فلا يجب على الله لأحد من العبيد شيء ألبتة ، إذ لو كان فعل الطاعة يوجب الثواب لتوجه على الله من العبد مطالبة ملزمة وإلزام جازم ، وذلك ينافي قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ .

المسألة الرابعة :

(53/271)

دلت هذه الآية على أن القبيح لا يجوز أن يقبح لوجه عائد إليه ، وأن الحسن لا يجوز أن يحسن لوجه عائد إليه لأن قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ يفيد أنه تعالى له أن يأمر بما شاء

كيف شاء ، ولو كان القبيح يقبح لوجه عائد إليه لما صح من الله أن يأمر إلا بما حصل منه ذلك الوجه ، ولا أن ينهي إلا عما فيه وجه القبح فلم يكن متمكناً من الأمر والنهي كما شاء وأراد مع أن الآية تقتضي هذا المعنى .

المسألة الخامسة :

دلت هذه الآية على أنه سبحانه قادر على خلق عوالم سوى هذا العالم كيف شاء وأراد وتقريره : إنه قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ﴾ والخلق إذا أطلق أريد به الجسم المقدر أو ما يظهر تقديره في الجسم المقدر . ثم بين في آية أخرى أنه أوحي في كل سماء أمرها وبين في هذه الآية أنه تعالى خصص كل واحد من الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وذلك يدل على أن ما حدث بتأثير قدرة الله تعالى فتميز الأمر والخلق ، ثم قال بعد هذا التفصيل والبيان ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ يعني له القدرة على الخلق وعلى الأمر على الإطلاق ، فوجب أن يكون قادراً على إيجاد هذه الأشياء وعلى تكوينها كيف شاء وأراد ، فلو أراد خلق ألف عالم بما فيه من العرش والكرسي والشمس والقمر والنجوم في أقل من لحظة ولمحة لقدر عليه لأن هذه الماهيات ممكنة والحق قادر على كل الممكنات ولهذا قال المعري في قصيدة طويلة له :

يأيها الناس كم لله من فلك . . تجري النجوم به والشمس والقمر

ثم قال في أثناء هذه القصيدة :

هنا على الله ماضينا وغابرنا . . فما لنا في نواحي غيره خَطَرُ

المسألة السادسة :

قال قوم : ﴿ الخلق ﴾ صفة من صفات الله وهو غير المخلوق ، واحتجوا عليه بالآية والمعقول .

(54/271)

أما الآية فقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ قالوا : وعند أهل السنة ﴿ الامر ﴾ لله لا بمعنى كونه مخلوقاً له ، بل بمعنى كونه صفة له فكذلك يجب أن يكون ﴿ الخلق ﴾ لله لا بمعنى كونه مخلوقاً له بل بمعنى كونه صفة له ، وهذا يدل على أن الخلق صفة قائمة بذات الله تعالى .

وأما المعقول فهو أنا إذا قلنا : لم حدث هذا الشيء ولم وجد بعد أن لم يكن ؟ فنقول : في جوابه لأنه تعالى خلقه وأوجده فحينئذ يكون هذا التعليل صحيحاً ، فلو كان كونه تعالى خالقاً له نفس حصول ذلك المخلوق لكان قوله أنه إنما حدث لأنه تعالى خلقه وأوجده جارياً مجرى قوله : أنه إنما حدث لنفسه ولذاته لا لشيء آخر ، وذلك محال باطل ، لأن صدق هذا المعنى ينفي كونه مخلوقاً من قبل الله تعالى فثبت أن كونه تعالى خالقاً للمخلوق

مغايراً لذات ذلك المخلوق ، وذلك يدل على أن الخلق غير المخلوق وجوابه : لو كان الخلق غير المخلوق لكان أن كان قديماً لزم من قدمه قدم المخلوق ، وإن كان حادثاً افتقر إلى خلق آخر ولزم التسلسل وهو محال .

المسألة السابعة :

ظاهر الآية يقتضي أنه كما لا خلق إلا لله ، فكذلك لا أمر إلا لله ، وهذا يتأكد بقوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ [الأنعام : 57] وقوله : ﴿ فالحكم للَّهِ العلى الكبير ﴾ [غافر : 12] وقوله : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] إلا أنه مشكل بالآية والخبر . أما الآية فقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] وأما الخبر فقوله عليه السلام : " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم "

والجواب : أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على أن أمر الله قد حصل ، فيكون الموجب في الحقيقة هو أمر الله لا أمر غيره ، والله أعلم .

المسألة الثامنة :

قوله : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والامر ﴾ يدل على أن لله أمراً ونهياً على عباده ، وأن له تكليفاً على عباده ، والخلاف مع نفاة التكليف .

واحتجوا عليه بوجوه : أولها : أن المكلف به إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع . فكان الأمر به أمراً بتحصيل الحاصل وأنه محال ، وإن كان معلوم اللاوقوع كان ممتنع الوقوع ، فكان الأمر به أمراً بما يمتنع وقوعه وهو محال ، وثانيها : أنه تعالى إن خلق الداعي إلى فعله ، كان واجب الوقوع ، فلا فائدة في الأمر ، وإن لم يخلق الداعي إليه كان ممتنع الوقوع ، فلا فائدة في الأمر به .

وثالثها : أن أمر الكافر والفاسق لا يفيد إلا الضرر المحض ، لأنه لما علم الله أنه لا يؤمن ولا يطيع ، امتنع أن يصدر عنه الإيمان والطاعة ، إلا إذا صار علم الله جهلاً ، والعبد لا قدرة له على تجهيل الله ، وإذا تعذر اللازم تعذر الملزوم فوجب أن يقال : لا قدرة للكافر والفاسق على الإيمان والطاعة أصلاً ، وإذا كان كذلك لم يحصل من الأمر به إلا مجرد استحقاق العقاب ، فيكون هذا الأمر والتكليف إضراراً محضاً من غير فائدة ألبتة ، وهو لا يليق بالرحيم الحكيم ، ورابعها : أن الأمر والتكليف إن لم يكن لفائدة فهو عبث ، وإن كان لفائدة عائدة إلى المعبود فهو محتاج وليس بإله ، وإن كان لفائدة عائدة إلى العابد .

فجميع الفوائد منحصرة في تحصيل النفع ، ودفع الضرر ، والله تعالى قادر على تحصيلها بالتمام والكمال من غير واسطة التكليف ، فكان توسيط التكليف إضراراً محضاً من غير فائدة ، وأنه لا يجوز .

واعلم أنه تعالى بين في هذه الآية أنه يحسن منه أن يأمر عباده ، وأن يكلفهم بما شاء واحتج عليه بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ يعني لما كان الخلق منه ثبت أنه هو الخالق لكل العبيد ، وإذا كان خالقاً لهم كان مالكاً لهم ، وإذا كان مالكاً لهم حسن منه أن يأمرهم وينهاهم ، لأن ذلك تصرف من المالك في ملك نفسه ، وذلك مستحسن ، فقوله سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ يجري مجرى الدليل القاطع على أنه يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بما شاء كيف شاء .

المسألة التاسعة :

(56/271)

دلت الآية على أنه يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بما شاء بمجرد كونه خالقاً لهم لا كما يقوله المعتزلة من كون ذلك الفعل صلاحاً ، ولا كما يقولونه أيضاً من حيث العوض والثواب ، لأنه تعالى ذكر أن الخلق له أولاً ، ثم ذكر الأمر بعده ، وذلك يدل على أن حسن الأمر معلل بكونه خالقاً لهم موجداً لهم ، وإذا كانت العلة في حسن الأمر والتكليف ، هذا القدر سقط اعتبار الحسن ، والقبح ، والثواب ، والعقاب في اعتبار حسن الأمر والتكليف .

المسألة العاشرة :

دلت هذه الآية على أنه تعالى متكلم آمر ناه مخبر مستخبر ، وكان من حق هذه المسألة تقدمها على سائر المسائل ، إلا أنها إنما خطرت بالبال في هذا الوقت ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ فدل ذلك على أن له الأمر ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون له النهي ، والخبر ، والاستخبار ، ضرورة أنه لا قائل بالفرق .

المسألة الحادية عشرة :

أنه تعالى بين كونه تعالى خالقاً للسموات ، والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم .

ثم قال : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والامر ﴾ أي لا خالق إلا هو .

(57/271)

ولقائل أن يقول : لا يلزم من كونه تعالى خالقاً لهذه الأشياء أن يقال : لا خالق على الإطلاق إلا هو ، فلم رتب على إثبات كونه خالق لتلك الأشياء إثبات أنه لا خالق إلا هو على الإطلاق ؟ فنقول : الحق أنه متى ثبت كونه تعالى خالقاً لبعض الأشياء ، وجب كونه خالقاً لكل الممكنات ، وتقريره : أن افتقار المخلوق إلى الخالق لإمكانه ، والإمكان واحد في كل الممكنات ، وهذا الإمكان إما أن يكون علة للحاجة إلى مؤثر متعين ، أو إلى مؤثر غير متعين والثاني باطل ، لأن كل ما كان موجوداً في الخارج فهو متعين في نفسه ، فيلزم منه أن ما لا

يكون متعيناً في نفسه لم يكن موجوداً في الخارج وما لا وجود له في الخارج امتنع أن يكون علة لوجود غيره في الخارج ، فثبت أن الإمكان علة للحاجة إلى موجد ومعين ، فوجب أن يكون جميع الممكنات محتاجاً إلى ذلك المعين .

فثبت أن الذي يكون مؤثراً في وجود شيء واحد ، هو المؤثر في وجود كل الممكنات .

أما قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بين كونه خالقاً للسموات ، والأرض ، والعرش ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم وبين كون الكل مسخراً في قدرته وقهره ومشيئته ، وبين أن له الحكم والأمر والنهي والتكليف ، بين أنه يستحق الثناء والتقديس والتنزيه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ وقد تقدم تفسير ﴿ تبارك ﴾ فلا نعيده .

واعلم أنه تعالى بدأ في أول الآية : رب السموات والأَرَضين ، وسائر الأشياء المذكورة ، ثم ختم الآية بقوله : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ والعالم كل موجود سوى الله تعالى ، فبين كونه رباً وإلهاً وموجوداً ومحدثاً لكل ما سواه ، ومع كونه كذلك فهو رب ومرب ومحسن ومتفضل ، وهذا آخر الكلام في شرح هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 104.80 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عيّر المشركين بعبادة آلهتهم ، ونزل قوله : ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73]

وقوله : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 41] سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : من ربك الذي تدعونا إليه ؟ وأرادوا أن يجحدوا في اسمه طعناً أو في شيء من أفعاله فنزلت هذه الآية .

فتحيروا وعجزوا عن الجواب .

فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله ﴾ أي خالقكم ورزاقكم ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

قال ابن عباس أي من أيام الآخرة .

طول كل يوم ألف سنة .

وقال الحسن البصري : من أيام الدنيا .

ويقال : يعني في ست ساعات من ستة أيام من أطول أيام الدنيا ، ولو شاء أن يخلقها في ساعة واحدة لخلقها ، ولكن علَّم عباده التأني والرفق والتدبير في الأمور .

﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قال بعضهم : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله .

وذكر عن يزيد بن هارون أنه سئل عن تأويله فقال تأويله : الإيمان به .

وذكر أن رجلاً دخل على مالك بن أنس فسأله عن قوله ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] فقال : الاستواء غير مجهول والكيفية غير معقولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا ضالاً .

فأخرجوه .

وذكر عن محمد بن جعفر نحو هذا .

وقد تأوله بعضهم وقال ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى الواو فيكون على معنى الجمع والعطف ، لا على معنى التراخي والترتيب .

(59/271)

ومعنى قوله : ﴿ استوى ﴾ أي استولى ، كما يقال فلان استوى على بلد كذا يعني : استولى عليه فكذلك هذا .

معناه : خالق السموات والأرض ، ومالك العرش .

ويقال : ثم صعد أمره إلى العرش .

وهذا معنى قول ابن عباس .

قال صعد على العرش .

يعني : أمره ، ويقال قال له : كن فكان ، ويقال : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أي كان فوق العرش قبل أن يخلق السموات والأرض ، ويكون ﴿ على ﴾ بمعنى العلو والارتفاع ، ويقال استوى يعني استولى .

وذكر أن أول شيء خلقه الله تعالى القلم ثم اللوح .

فأمر القلم بأن يكتب في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة .

ثم خلق ما شاء .

ثم خلق العرش ثم حملة العرش ثم خلق السموات والأرض .

وإنما خلق العرش لا لحاجة نفسه ولكن لأجل عباده ليعلموا أين يتوجهون في دعائهم لكي لا يتحيّروا في دعائهم ، كما خلق الكعبة علماً لعبادتهم ، ليعلموا إلى أين يتوجهون في العبادة .

فكذلك خلق العرش علماً لدعائهم ليعلموا إلى أين يتوجهوا بدعائهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ ﴾ يعني : إن الليل يأتي على النهار فيغطيه ولم يقل يغشي النهار الليل لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقد بيّن في آية أخرى ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ [الزمر : 5] فكذلك ها هنا معناه يغشي النهار الليل ويغشي الليل النهار .

يعني : إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ يُغْشِى ﴾ بتشديد الشين ونصب الغين .

وقرأ الباقون بجزم الغين مع التخفيف ، وهما لغتان غَشَّى ويُغَشِّي وأَغْشَى يُغْشِي بقوله ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي : سريعاً في طلبه أبداً ما دامت الدنيا باقية .

ثم قال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ أي جاريات مذللات لبني آدم بأمره .

(60/271)

قرأ ابن عامر ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ كلها بالضم على معنى الابتداء .

وقرأ الباقون بالنصب .

ومعناه خلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره .

ثم قال : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ ألا كلمة التنبيه ، يعني : اعلموا أن الخلق لله تعالى ، وهو الذي خلق الأشياء كلها وأمره نافذ في خلقه .

قال سفيان بن عيينة : الخلق هو الخلق والأمر هو القرآن وهو كلام الله ، وليس بمخلوق ، ولا هو بائن منه ، وتصديقه قوله : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ [الطلاق : 5] ويقال : الأمر هو القضاء ، ثم قال ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني : تعالى الله عما يقول الظالمون ، ويقال تبارك الله تفاعل من البركة أي : ذو البركة يعني : أن البركة كلها من الله تعالى .

والبركة فيما يذكر عليه اسم الله رب العالمين .

أي : سيد الخلق أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(61/271)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

قال سعيد بن جبير : قدّر الله على مَنْ في السماوات والأرض في لمحة ولحظة وإنما خلقهن في ستة أيام تنظيماً لخلقه بالرفق والتثبيت في الاسم ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قال الكلبي

ومقاتل : يعني استقر وقال أبو عبيد [فصعد] وقال بعضهم : استولى وغلب .

وقيل : ملك وغلب ، وكلّها تأويلات مدخولة لا يخفى [بعدها] وأمّا الصحيح والصواب فهو ما قاله الفراء وجماعة من أهل المعاني [إن أول ما] خلق العرش وعهد إلى خلقه يدل عليه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء ﴾ [البقرة : 29] أي إلى خلق السماء .

وقال أهل الحق من المتكلمين : أحدث الله فعلا سماه استواء ، وهو كالإتيان والمجيء والنزول [وهي] صفات أفعاله .

روى الحسن عن أم سلمة في قوله تعالى ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والنزول به إيمان والجحود به كفر .

عن محمد بن شجاع البلخي قال : سئل مالك بن أنس عن قول الله تعالى ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] كيف استوى ؟ قال : الكيف مجهول والاستواء غير معقول والإيمان واجب فالسؤال عنه بدعة .

وروى محمد بن شعيب بن شابور عن أبيه أن رجلاً سأل [الأوزاعي] في قوله تعالى ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] فقال : هو على العرش كما وصف نفسه ، وإني لأراك رجلا ضالاً .

وبلغني أن رجلاً سأل إسحاق بن الهيثم الحنظلي فقال : كيف استوى على العرش أقائم هو أم قاعد ؟

فقال : يا هذا إنما يقعد من يمل القيام ويقوم من يمل القعود وغير هذا أولى لك ألاّ تسأل عنه .

والعرش في اللغة السرير .

وقال آخرون : هو ما علا وأظل ، ومنه عرش الكرم ، وقيل : العرش الملك .

قال زهير :

تداركتما الاحلاف قد ثل عرشها . . . وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

(62/271)

﴿ يُغْشِي ﴾ [يطمس] ﴿ الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ مسرعاً ﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ ﴾ أي مذلّلات ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ وقرأ أهل الشام بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ سمعت أبا القاسم [الحبيبي] يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن نافع التاجر بهرات الشجري يقول : سمعت أبا زيد حاتم بن محبوب السامي يقول : سمعت عبد الجبار ابن العلاء العطّار يقول : سألت سفيان بن عيينة عن قوله ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ فقال : فرق الله بين الخلق والأمر ومَنْ جمع بينهما فقد كفر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لم يحمد الله على [ما عمل من] عمل صالح وحمد نفسه فقد قلّ شكره وحبط عمله ، ومَنْ زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد

كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ " .

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبي قال : أنشدنا أبو الحسن عيسى بن زيد العقيلي ، أنشدنا أبو المثنّى معاذ بن المثنى العنبري عن أبيه محمود بن الحسن الورّاق قال : إن لله كل الأمر في كل خلقه ليس إلى المخلوق شي من الأمر ﴿ تَبَارَكَ الله ﴾ قال الضحاك : تبارك تعظم ، الخليل ابن أحمد : تبارك تمجد ، القتيبي : تفاعل من البركة ، الحسين بن الفضيل : تبارك في ذاته وبارك فيمن شاء من خلقه ﴿ رَبُّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(63/271)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وفي ترك تعجيل خلقها في أقل الزمان مع قدرته على ذلك أربعة أوجه :

أحدها : أن إنشاءها شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال أبلغ في الحكمة وأدل على صحة التدبير ليتوالى مع الأوقات بما ينشئه من المخلوقات تكرار المعلوم بأنه عالم قادر يصرف الأمور على اختياره ويجريها على مشيئته .

والثاني : أن ذلك لاعتبار الملائكة ، خلق شيئاً بعد شيء .

والثالث : أن ذلك ترتب على الأيام الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وهي ستة أيام فأخرج الخلق فيها ، قاله مجاهد .

والرابع : ليعلمنا بذلك ، الحساب كله من ستة ومنه يتفرع سائر العدد قاله ابن بحر .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه استوى أمره على العرش ، قاله الحسن .

والثاني : استولى على العرش ، كما قال الشاعر :

قد اسْتَوَى بِشْرٌ على العِرَاقِ . . . مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ

وفي ﴿ الْعَرْشِ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه المُلْك كني عنه بالعرش والسرير كعادة ملوك الأرض في الجلوس على الأسرة ، حكاه ابن بحر .

والثاني : أنه السموات كلها لأنها سقف ، وكل سقف عند العرب هو عرش ، قال الله تعالى : ﴿ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [الكهف : 42] [الحج : 45] أي على سقوفها .

والثالث : أنه موضع في السماء في أعلاها وأشرفها ، محجوب عن ملائكة السماء .

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي يغشي ظلمة الليل ضوء النهار .

﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ لأن سرعة تعاقب الليل والنهار تجعل كل واحد منهما كالطالب

لصاحبه .

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مذللات بقدرته .

والثاني : جاريات بحكمه .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه مالك الخلق وتدبيرهم .

والثاني : إليه إعادتهم وعليه مجازاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ

﴾

(64/271)

وقال البغوى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أراد به في مقدار ستة أيام لأن اليوم من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء ، قيل : ستة أيام كأيام الآخرة وكل يوم كألف سنة . وقيل : كأيام الدنيا ، قال سعيد بن جبير : كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة ،

فخلقهن في ستة أيام [تعليما] لخلقه التثبت والتأني في الأمور وقد جاء في الحديث : "التأني من الله والعجلة من الشيطان" (1) .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال الكلبي ومقاتل : استقر . وقال أبو عبيدة : صعد . وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء ، وأما أهل السنة فيقولون : الاستواء على العرش صفة لله تعالى ، بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل . وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله :(الرحمن على العرش استوى) [طه – 5] ، كيف استوى ؟ فأطرق رأسه مليًّا ، وعلاه

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد بن منيع والحارث بن أبي أسامة ، وأخرجه أيضا البيهقي في السنن عن أنس بن مالك : 10 / 104 ، وعزاه الهيثمي أيضا لأبي يعلى ، وقال : رجاله رجال الصحيح . انظر : المطالب العالية لابن حجر : 3 / 35 ، كشف الخفاء للعجلوني : 1 / 350 ، وأخرجه البغوي في شرح السنة : 13 / 176 . وله شاهد عند الترمذي في البر ، باب ما جاء في التأني والعجلة : 6 / 153 ، عن سهل بن سعد بلفظ : "الأناة من الله . . . " وقال : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيمن بن عباس ، وضعفه من قبل حفظه .

الرحضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج .

وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة : أمِرّوها كما جاءت بلا كيف .

والعرش في اللغة : هو السرير . وقيل : هو ما علا فأظل ، ومنه عرش الكروم . وقيل : العرش الملك .

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب : "يُغشّي" بالتشديد هاهنا وفي سورة الرعد ، والباقون بالتخفيف ، أي : يأتي الليل على النهار فيغطيه ، وفيه حذف أي : ويغشي النهار الليل ، ولم يذكره لدلالة الكلام عليه وذكر في آية أخرى فقال : "يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل" [الزمر – 5] ، ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي : سريعا ، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه ، فكأنه يطلبه . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ قرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر ، والباقون بالنصب ، وكذلك في سورة النحل عطفا على قوله : "خلق السموات والأرض" ، أي : خلق هذه الأشياء مسخرات ، أي : مذللات ﴿ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ له الخلق لأنه

[خلقهم] وله الأمر ، يأمر في خلقه بما يشاء . قال سفيان بن عيينة : فرق الله بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر .

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ أي : تعالى الله وتعظم . وقيل : ارتفع . والمبارك المرتفع . وقيل : تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة ، أي : البركة تكتسب وتنال بذكره .

(66/271)

وعن ابن عباس قال : جاء بكل بركة . وقال الحسن : تجيء البركة من قِبَله وقيل : تبارك : تقدس . والقدس : الطهارة . وقيل : تبارك الله أي : باسمه يتبرك في كل شيء . وقال المحققون : معنى هذه [الصفة] ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال . وأصل البركة الثبوت . ويقال : تبارك اللهُ ولا يقال : متبارك ولا مبارك ، لأنه لم يرد به التوقيف . ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 3 صـ 235 . 236 ﴾

(67/271)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ الآية ، خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة وعليه بدلائله ، والرب أصله في اللغة المصلح من رب يرب وهو يجمع في جهة ذكر الله تعالى المالك والسيد وغير ذلك من استعمالات العرب ، ولا يقال الرب معرفاً إلا لله ، وإنما يقال في البشر بإضافة ، وروى بكار بن الشقير " إن ربكم اللهَ " بنصب الهاء ، وقوله ﴿ في ستة أيام ﴾ حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة ، وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى ، وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع ، وما ذهب إليه من أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تخرص ، وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وكملت المخلوقات يوم الجمعة ، ثم بقي دون خلق يوم السبت ، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها ، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره ، ولليهود لعنهم الله تعالى في هذا كلام سوء تعالى الله عما يصفون .

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج في كتاب الدلائل لثابت السرقسطي ، أن الله تعالى خلق التربة يوم السبت وذكره مكي في الهداية ، وقوله تعالى : ﴿ استوى على العرش ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين بالملك والسلطان ، وخص العرش بالذكر تشريفاً له إذ هو أعظم المخلوقات ، وقال سفيان الثوري : فعل فعلاً في العرش سماه

استواء .

قال القاضي أبو محمد : و﴿ العرش ﴾ مخلوق معين جسم ما ، هذا الذي قررته الشريعة ، وبلغني عن أبي الفضيل بن النحوي أنه قال : العرش مصدر عرش يعرش عرشاً ، والمراد بقوله ﴿ استوى على العرش ﴾ هذا .

(68/271)

قال القاضي أبو محمد : وهذا خروج كثير عن ما فهم من العرش في غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر "يُغشي" من أغشى ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي "يغشّي" بالتشديد من غشّى ، وهما طريقان في تعدية "غشي" إلى مفعول ثان ، وقرأ حميد "يغَشَى" بفتح الياء والشين ونصب "الليلَ" ورفع "النهارُ" ، كذا قال أبو الفتح وقال أبو عمرو الداني برفع "الليلُ" .

قال القاضي أبو محمد : وأبو الفتح أثبت و﴿ حثيثاً ﴾ معناه سريعاً ، و﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ حال من الليل بحسب اللفظ على قراءة الجماعة ، ومن النهار بحسب المعنى ، وأما على قراءة حميد فمن النهار في الوجهين ، ويحتمل أن يكون حالاً منهما ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ [مريم : 27] فيصح أن يكون ﴿ تحمله ﴾ حالاً منها ، وأن

يكون حالاً منه وأن يكون حالاً منهما و ﴿ مسخرات ﴾ في موضع الحال ، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة و" الشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ " بالرفع في جميعها ، ونصب الباقون هذه الحروف كلها ، وقرأ أبان بن تغلب و" الشمسَ والقمرَ " بالنصب ، و" النجومُ مسخراتٌ " بالرفع .

و ﴿ ألا ﴾ استفتاح كلام فاستفتح بها في هذا الموضع هذا الخبر الصادق المرشد .

قال القاضي أبو محمد : وأخذ المفسرون ﴿ الخلق ﴾ بمعنى المخلوقات . أي هي له كلها وملكه واختراعه ، وأخذوا ﴿ الأمر ﴾ مصدراً من أمر يأمر ، وعلى هذا قال النقاش وغيره : إن الآية ترد على القائلين بخلق القرآن لأنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الكلام إذ الأمر كلامه عز وجل .

(69/271)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن تؤخذ لفظة ﴿ الخلق ﴾ على المصدر من خلق يخلق خلقاً أي له هذه الصفة إذ هو الموجد للأشياء بعد العدم ، ويؤخذ ﴿ الأمر ﴾ على أنه واحد من الأمور إلا أنه يدل على الجنس فيكون بمنزلة قوله ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ [هود : 123] وبمنزلة قوله ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [البقرة : 210] فإذا أخذت

اللفظتان هكذا خرجتا عن مسألة الكلام .

قال القاضي أبو محمد : ولما تقدم في الآية خلق وبأمره تأكد في آخره أن ﴿ له الخلق والأمر ﴾ المصدرين حسب تقدمهما ، وكيف ما تأولت الآية فالجميع لله ، وأسند الطبري إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من زعم أن الله تعالى جعل لأحد من العباد شيئاً من الأمر فقد كفر بما أنزل الله لقوله تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ " ، قال النقاش : ذكر الله الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً في جميعها أنه مخلوق ، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق ، وقال الشعبي ﴿ الخلق ﴾ عبارة عن الدنيا و ﴿ الأمر ﴾ عبارة عن الآخرة ، و ﴿ تبارك ﴾ معناه عظم وتعالى وكثرت بركاته ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى ، و ﴿ تبارك ﴾ لا يتصرف في كلام العرب ، لا يقال منه يتبارك ، وهذا منصوص عليه لأهل اللسان .

قال القاضي أبو محمد : وعلة ذلك أن ﴿ تبارك ﴾ لما لم يوصف بها غير الله تعالى لم تقتض مستقبلاً إذ الله قد تبارك في الأزل ، وقد غلط بها أبو علي القالي فقيل له كيف المستقبل من تبارك فقال يتبارك فوقف على أن العرب ، لم تقله ، و" الرب " السيد المصلح ، و ﴿ العالمين ﴾ جمع عالم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾

اختلفوا أي يوم بدأ بالخلق على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم السبت .

روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فقال : " خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الاربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر [من] يوم الجمعة [في] آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل " وهذا اختيار محمد بن إسحاق .

قال ابن الأنباري : وهذا إجماع أهل العلم .

والثاني : يوم الأحد ، قاله عبد الله بن سلام ، وكعب ، والضحاك ، ومجاهد ، واختاره ابن جرير الطبري ، وبه يقول أهل التوراة .

والثالث : يوم الاثنين ، قاله ابن إسحاق ، وبهذا يقول أهل الإنجيل .

ومعنى قوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ أي : في مقدار ذلك ، لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها ، ولم تكن الشمس حينئذ .

قال ابن عباس : مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة ، وبه قال كعب ، ومجاهد ، والضحاك ، ولا نعلم خلافاً في ذلك .

ولو قال قائل : إنها كأيام الدنيا ، كان قوله بعيداً من وجهين .

أحدهما : خلاف الآثار .

والثاني : أن الذي يتوهمه المتوهِّم من الإبطاء في ستة آلاف سنة ، يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] .

فإن قيل : فهلاَّ خلقها في لحظة ، فانه قادر ؟ فعنه خمسة أجوبة .

أحدها : أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده ، ذكره ابن الانباري .

والثاني : أن التثبُّت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده ، أبلغُ في تعظيمه عند الملائكة .

والثالث : أن التعجيل أبلغ في القدرة ، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ .

والرابع : انه علّم عباده التثبُّت ، فإذا تثبت من لا يزلُّ ، كان ذو الزَّلل أول بالتثبُّت .

والخامس : أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء ، أبعد من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق .

قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال الخليل بن أحمد : العرش : السرير ؛ وكل سرير لملك يسمى عرشاً ، وقلما يُجمع العرش إلا في اضطرار ، واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام .

قال أُمية بن أبي الصلت :

مجّدوا اللهَ فَهْوَ للمَجْدِ أهْلُ . . .

ربُّنا في السَّمَاءِ أمْسَى كَبِيْرا

بالبناء الأعلى الذي سبق النَّا . . .

س وسوَّى فوق السمَّاءِ سَرِيرَا

شَرْجَعَاً لا يَنَالُهُ نَاظِرُ العَيْ . . .

نِ تَرَى دُوْنَه المَلائِكَ صُوْرا

(72/271)

وقال كعب : إن السموات في العرش : كالقنديل معلَّق بين السماء والأرض .

وروى إسماعيل بن أبي خالد عن سعد الطائي قال : العرش ياقوتة حمراء .

وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية .

وقد شذَّ قوم فقالوا : العرش بمعنى الملك .

وهذا عدول عن الحقيقة الى التجوُّز ، مع مخالفة الأثر ؛ ألم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ [هود : 7] أتراه كان المُلك على الماء ؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء ؟ وبعضهم يقول : استوى بمعنى استولى ؛ ويحتج بقول الشاعر :

حتَّى اسْتَوى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ . . .

مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقٍ

ويقول الشاعر أيضاً :

هُمَا اسْتَوَيا بِفَضْلِهما جَمِيْعاً . . .

عَلى عَرْشِ المُلوكِ بغَيْرِ زُوْرِ

وهذا منكر عند اللغويين .

قال ابن الأعرابي : العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى ، ومن قال ذلك فقد أعظم .

قالوا : وإنما يقال استولى فلان على كذا ، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه ، ثم تمكن منه ؛ والله عز وجل لم يزل مستولياً على الأشياء ؛ والبيتان لا يعرف قائلهما ، كذا قال ابن

فارس اللغوي .

ولو صحّا ، فلا حجة فيهما لما بيّنّا من استيلاء من لم يكن مستولياً .

نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة .

قوله تعالى : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : «يُغْشي» ساكنة الغين خفيفة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : «يُغَشّي» مفتوحة الغين مشددة ؛ وكذلك قرؤوا في (الرعد) قال الزجاج : المعنى : أن الليل يأتي على النهار فيغطيّه ؛ وإنما لم يقل : ويغشي النهار الليل ، لأن في الكلام دليلاً عليه ؛ وقد قال في موضع آخر : ﴿ يكوّر الليل على النهار ويكوِّر النهار على الليل ﴾ [الزمر : 5] .

(73/271)

وقال أبو علي : إنما لم يقل : يغشي النهار الليل ، لأنه معلوم من فحوى الكلام ، كقوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] وانتصب الليل والنهار ، لأن كل واحد منهما مفعول به ، فأما الحثيث : فهو السريع .

قوله تعالى : ﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ ﴾ قرأ الأكثرون : بالنصب فيهنَّ ،

وهو على معنى : خلق السموات والشمس .

وقرأ ابن عامر : «والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ» بالرفع فيهن ها هنا وفي [النحل : 12] ، تابعه حفص في قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات ﴾ في [النحل : 12] فحسب .

والرفع على الاستئناف .

والمسخرات : المذلَّلات لما يراد منهنَّ من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبّر لهنَّ .

قوله تعالى : ﴿ ألا له الخلق ﴾ لأنه خلقهم ﴿ والأمر ﴾ فله أن يأمر بما يشاء .

وقيل : الأمر : القضاء .

قوله تعالى : ﴿ تبارك الله ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : تفاعل من البركة ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ وكذلك قال القتيبيُّ ، والزجاج .

وقال أبو مالك : افتعل من البركة .

وقال الحسن : تجيء البركة من قِبَله .

وقال الفراء : تبارك من البركة ؛ وهو في العربية كقولك : تقدس ربنا .

والثاني : أن تبارك بمعنى تعالى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وكذلك قال أبو العباس : تبارك ارتفع ؛ والمتبارِك : المرتفِع .

والثالث : أن المعنى : باسمه يُتبرَّك في كل شيء ، قاله ابن الانباري .

والرابع : أن معنى «تبارك» : تقدس ، أي : تطهر ، ذكره ابن الأنباري أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(74/271)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

بيّن أنه المنفرد بقدرة الإيجاد ، فهو الذي يجب أن يعبد .

وأصل "ستة" سدسة ، فأرادوا إدغام الدال في السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليهما .

وإن شئت قلت : أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم في الدال ؛ لأنك تقول في تصغيرها : سديسة ، وفي الجمع أسداس ، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها .

ويقولون : جاء فلان سادساً وسادتا وساتا ؛ فمن قال : سادتا أبدل من السين تاء .

واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبها .

فإن لم يكن شمس فلا يوم ؛ قاله القشيرِيّ .

وقال : ومعنى "فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ" أي من أيام الآخرة ، كل يوم ألف سنة ؛ لتفخيم خلق السموات والأرض .

وقيل : من أيام الدنيا .

قال مجاهد وغيره : أوّلها الأحد وآخرها الجمعة .

وذكر هذه المدّة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون .

ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور ، ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء .

وهذا عند من يقول : خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض .

وحكمة أخرى خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً .

وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب ؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً .

وهذا كقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق : 38 و39] .

بعد أن قال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ هذه مسألة الاستواء ؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء .

وقد بينا أقوال العلماء فيها في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولاً .

(75/271)

والأكثر من المتقدّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه الباري سبحانه عن الجهة والتحيّز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدّمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم ؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيز ، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للمتحيز ، والتغير والحدوث .

هذا قول المتكلمين .

وقد كان السلف الأوّل رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافّة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله .

ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة .

وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته .

قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم يعني في اللغة والكَيْف مجهول ، والسؤال عن هذا

بدعة .

وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها .

وهذا القدر كافٍ ، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء .

والاستواء في كلام العرب هو العلوّ والاستقرار .

قال الجوهريّ : واستوى من اعوجاج ، واستوى على ظهر دابته ؛ أي استقر .

واستوى إلى السماء أي قصد .

واستوى أي استولى وظهر .

قال :

قد استوى بِشرٌ على العِراق . . .

من غير سيف ودمٍ مهراق

واستوى الرجل أي انتهى شبابه .

واستوى الشيء إذا اعتدل .

وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] قال : علا .

وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفَيْفَاء قفْرَةٍ . . .

وقد حَلّق النجمُ اليمانِيّ فاستَوَى

أي علا وارتفع .

قلت : فعلوّ الله تعالى وارتفاعه عبارة عن علوّ مجده وصفاته وملكوته .

أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد ، ولا معه من يكون العلوّ مشتركاً بينه وبينه ؛ لكنه العليّ بالإطلاق سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى العرش ﴾ لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد .

(76/271)

قال الجوهري وغيره : العرش سرير المِلك .

وفي التنزيل ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ [النمل : 41] ، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ [يوسف : 100] .

والعرش : سقف البيت .

وعرش القدم : ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع .

وعرش السِّماك : أربعة كواكب صغار أسفل من العَوّاء ، يقال : إنها عَجُز الأسد .

وعرش البئر : طيُّها بالخشب ، بعد أن يُطْوَى أسفلها بالحجارة قدر قامة ؛ فذلك الخشب

هو العرش ، والجمع عروش .

والعرش اسم لمَكَّة .

والعرش الملك والسلطان .

يقال : ثُلّ عرش فلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعزّه .

قال زهير :

تداركتما عَبْساً وقد ثُلَّ عَرْشُهَا . . .

وذُبْيَانُ إذ ذلّتْ بأقدامها النّعْلُ

وقد يؤوّل العرش في الآية بمعنى المُلْك ، أي ما استوى المُلْك إلا له جل وعز .

وهو قول حَسَن وفيه نظر ، وقد بيّناه في جملة الأقوال في كتابنا . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ أي يجعله كالغِشاء ، أي يذهب نور النهار ليتم قوام الحياة في الدنيا بمجيء الليل .

فالليل للسكون ، والنهار للمعاش .

وقرىء "يغشى" بالتشديد ؛ ومثله في "الرعد" .

وهي قراءة أبي بكر عن عاصم وحمزة والكسائي .

وخفّف الباقون .

وهما لغتان أغْشَى وغَشَّى .

وقد أجمعوا على ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ [النجم : 54] مشدّداً .

وأجمعوا على ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ [يس : 9] فالقراءتان متساويتان .

وفي التشديد معنى التكرير والتكثير .

والتغشية والإغشاء : إلباس الشيء الشيء .

ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل ، فاكتفى بأحدهما عن الآخر ؛ مثل ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] .

﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ [آل عمران : 26] .

وقرأ حُميد بن قيس "يغشى الليلَ النهارُ" ومعناه أن النهار يغشى الليل ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ أي يطلبه دائماً من غير فتور .

و"يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ" في موضع نصب على الحال .

والتقدير : استوى على العرش مغشياً الليل النهار .

(77/271)

وكذا "يَطْلُبه حَثِيثاً" حال من الليل ؛ أي يغشي الليل النهار طالباً له .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال .

"حَثِيثاً" بدل من طالب المقدّر أو نعت له ، أو نعت لمصدر محذوف ؛ أي يطلبه طلباً سريعاً .

والحث : الإعجال والسرعة .

وولَّى حثِيثاً أي مسرعاً .

﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ قال الأخفش : هي معطوفة على السموات ؛ أي وخلق الشمس .

ورُوي عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : صدق الله في خبره ، فله الخلق وله الأمر ، خلقهم وأمرهم بما أحب .

وهذا الأمر يقتضي النهي .

قال ابن عيينة : فرق بين الخلق والأمر ؛ فمن جمع بينهما فقد كفر .

فالخلق المخلوق ، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق وهو قوله : "كُنْ" .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن ؛ إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقاً لكان قد قال : ألا له الخلق والخلق .

وذلك عِيٌّ من الكلام ومستهجَن ومسْتَغَثٌّ .

والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه .

ويدل عليه قوله سبحانه .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : 25] .

﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [النحل : 12] .

فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره ؛ فلو كان الأمر مخلوقاً لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له .

وذلك محال .

فثبت أن أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق ؛ ليصح قيام المخلوقات به .

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الحجر : 85] .

وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق ، يعني القول وهو قوله للمكوّنات : "كن" .

(78/271)

فلو كان الحق مخلوقاً لما صح أن يخلق به المخلوقات ؛ لأن الخلق لا يخلق بالمخلوق .

يدل عليه ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ [الصافات : 171] ﴿ إِنَّ الذين

سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي ﴾ [السجدة : 13] .

وهذا كله إشارة إلى السبق في القول في القِدم ، وذلك يوجب الأزل في الوجود .

وهذه النكتة كافية في الردّ عليهم .

ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم مثل قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء : 2] الآية .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ [الأحزاب : 38] .

و ﴿ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب : 37] وما كان مثله .

قال القاضي أبو بكر : معنى ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ ﴾ [الأنبياء : 2] أي من وعظ من النبي صلى الله عليه وسلم ووعدٍ وتخويف "إلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ" ؛ لأن وعظ الرسل صلوات الله عليهم وسلامه وتحذيرهم ذكر .

قال الله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : 21] .

ويقال : فلان في مجلس الذكر .

ومعنى "وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً" و"مفعولاً" أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للمؤمنين وما حكم به وقدّره من أفعاله .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود : 40] وقال عز وجل : ﴿ وَمَآ

أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] يعني به شأنه وأفعاله وطرائقه .

قال الشاعر :

لها أمرُها حتى إذا ما تبوّأت . . .

بأخفافها مَرْعًى تبوّأ مضجَعا

الثانية : وإذا تقرّر هذا فاعلم أن الأمر ليس من الإرادة في شيء .

والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة .

وليس بصحيح ، بل يأمر بما لا يريد وينهى عما يريد .

(79/271)

ألا ترى أنه أمر إبراهيمَ بذبح ولده ولم يُرده منه ، وأمر نبيه أن يُصلِّي مع أُمّته خمسين صلاة ، ولم يرد منه إلا خمس صلوات .

وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [آل عمران : 140] .

وقد نهى الكفار عن قتله ولم يأمرهم به .

وهذا صحيح نفيس في بابه ؛ فتأمله .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ "تبارك" تفاعل ، من البركة وهي الكثرة

والاتساع.

يقال: بورك الشيء وبورك فيه؛ قاله ابن عرفة.

وقال الأزهري: "تبارك" تعالى وتعاظم وارتفع.

وقيل: إن باسمه يُتَبَرَّكُ ويُتَيَمَّن.

وقد مضى في الفاتحة معنى "رَبِّ الْعَالَمِينَ". انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(80/271)

وقال ابن جزى:

﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ حيث وقع حمله قوم على ظاهره منهم ابن أبي زيد وغيره، وتأوّله قوم بمعنى: قصد كقوله: ثم استوى إلى السماء، ولو كان ذلك لقال: ثم استوى إلى العرش، وتأوّلها الأشعرية أنّ معنى استوى استولى بالملك والقدرة، والحق: الإيمان به من غير تكييف، فإنّ السلامة في التسليم، ولله در مالك بن أنس في قوله للذي سأله عن ذلك: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والسؤال عن هذا بدعة، وقد روي مثل قول مالك عن أبي حنيفة، وجعفر الصادق، والحسن: البصري، ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى

الاستواء ، بل أمسكوا عنه ولذلك قال مالك السؤال عن هذا بدعة ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ أي يلحق الليل بالنهار ، ويحتمل الوجهين ، هكذا قال الزمخشري ، وأصل اللفظة من الغشاء ، أي يجعل أحدهم غشاء للآخر يغطيه فتغطي ظلمة الليل ضوء النهار ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ أي سريعاً ، والجملة في موضع الحال من الليل أي طلب الليل النهار فيدركه ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ قيل : الخلق المخلوقات ، والأمر مصدر أمر يأمر ، وقيل : الخلق مصدر خلق ، والأمر واحد الأمور : كقوله : إلى الله تصير الأمور ، والكل صحيح ﴿ تَبَارَكَ ﴾ من البركة ، وهو فعل غير منصرف لم تنطق له العرب بمضارع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 2 صـ 34 ﴾

(81/271)

وقال النسفى :

﴿ إنّ ربّكم اللّه الّذي خلق السّماوت والأرض في ستّة أيّامٍ ﴾ أراد السموات والأرض وما بينهما وقد فصلها في «حم السجدة» أي من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئاً فشيئاً ، وللإعلام بالتأني في الأمور ، ولأن لكل عمل يوماً ، ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر مريد يصرّفه على اختياره ويجريه على مشيئته ﴿ ثمّ استوى ﴾ استولى

﴿ على العرش ﴾ أضاف الاستيلاء إلى العرش وإن كان سبحانه وتعالى مستولياً على جميع المخلوقات ، لأن العرش أعظمها وأعلاها .

وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل ، لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان ، لأن التغير من صفات الأكوان .

والمنقول عن الصادق والحسن وأبي حنيفة ومالك رضي الله عنهم ، أن الاستواء معلوم ، والتكييف فيه مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة .

﴿ يغشى الليل النّهار ﴾ ﴿ يغشى ﴾ حمزة وعلي وأبو بكر .

أي يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ حال من الليل أي سريعاً .

والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار ﴿ والشّمس والقمر والنّجوم ﴾ أي وخلق الشمس والقمر والنجوم ﴿ مسخّراتٍ ﴾ حال أي مذللات ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخراتٌ ﴾ شامي ﴿ والشمس ﴾ مبتدأ والبقية معطوفة عليها والخبر ﴿ مسخرات ﴾ ﴿ بأمره ﴾ هو أمر تكوين .

ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ أي هو الذي خلق الأشياء وله الأمر ﴿ تبارك اللّه ﴾ كثر خيره أو دام بره من البركة النماء أو من البروك الثبات ومنه البركة ﴿ ربّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 56 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في ستة أوقات كقوله : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ أو في مقدار ستة أيام ، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ ، وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إيجادها دفعة دليل للاختيار واعتبار للنظار وحث على التأني في الأمور . ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ استوى أمره أو استولى ، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف ، والمعنى : أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه ، أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأمور والتدابير تنزل منه وقيل الملك . ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ يغطيه به ولم يذكر عكسه للعلم به ، أو لأن اللفظ يحتملهما ولذلك قرىء ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ بنصب ﴿ اليل ﴾ ورفع ﴿ النهار ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي «الرعد» للدلالة على التكرير . ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء ، والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر

محذوف أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً ، أو المفعول بمعنى محثوثاً . ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ بقضائه وتصريفه ونصبها بالعطف على السموات ونصب مسخرات على الحال . وقرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر . ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ فإنه الموجد والمتصرف . ﴿ تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية . وتحقيق الآية ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه الذي له الخلق والأمر فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه

(83/271)

بقوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِى يَوْمَيْنِ ﴾ وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال وأشار إليه بقوله وخلق الأرض أي ما في جهة السفل في يومين ، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله : ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها فِى

أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة ﴿ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة ، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام ، ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 25. 27 ﴾

(84/271)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ إن ربكم الله ﴾

يعني إن سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم والذي يدفع عنكم المكاره وهو الله ﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ أصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في إيداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم .

فقوله : خلق السموات والأرض يعني أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما ﴿ في ستة أيام ﴾ فإن قلت : اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو

من طلوع الشمس إلى غروبها فكيف قال في ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه في مقدار ستة أيام فهو كقوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ يعني على مقادير البكر والعشي في الدنيا لأن الجنة لا ليل فيها ولا نهار .

واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله عز وجل بخلق الأشياء فيه فقيل في يوم السبت وهو قول محمد بن إسحاق وغيره ، ويدل على صحة هذا القول ما روى مسلم في إفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال " خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجرة يوم الأثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل " وهذا الحديث وإن كان في صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لأن الله تعالى يقول : خلق السموات والأرض في ستة أيام .

(85/271)

وقال في آخر آية أخرى : ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام فدل بهذين النصين على أن جميع الخلق تم وعمل في ستة أيام والذي في الحديث أن بعض الخلق وقع في

سبعة أيام وذلك مجموع أيام الأسبوع فلهذا السبب أنكره وأنكره من العلماء وقد ذكر الأزهري في كتابه تهذيب اللغة ما يقوي الحديث فقال : وقال ابن الأنباري السبت القطع وسمي يوم السبت لأن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والأرض وقيل : إن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري ، قال الطبري : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وروي بسنده عن مجاهد قال : بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وبدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم الستة الأيام كالألف سنة مما تعدون تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال : وسمي سابع الأسبوع سبتاً لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق .

(86/271)

قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ : إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما

الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقبل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة .

وقيل : أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولاً ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا .

فإن قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر ﴾ فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك ؟

قلت : إن الله سبحانه وتعالى ، وإن كان قادراً على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة ، إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حداً محدوداً ووقتاً معلوماً يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور .

(87/271)

وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادراً على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليماً لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث " التأني من الله والعجلة من الشيطان " وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الأتفاق فإذا أحدث شيئاً بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة .

وقيل : إن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمراً من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده .

وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون .

وقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ العرش في اللغة : السرير ، وقيل : هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه .

ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز .

يقال فلان فل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه .

قال الراغب في كتابه مفردات القرآن : وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب .

(88/271)

وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات برواية كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها ، وقال : أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك ، وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال : كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه ؟ قال : فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء

صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل .

وفي رواية يحيى بن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستهواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعاً أفمر به أن يخرج .

روى البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال : ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكون عنه .

قال البيهقي : والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وإليه ذهب أحمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلي ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي .

قال البغوي أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذي سأله عن الاستواء وقد تقدم .

وروى عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة اقرؤوها كما جاءت بلا كيف .

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية : أنه لا يمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الأول القطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله تعالى هو الذي قررنا في تفسير قوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثاني : أنا نخوض في تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان : الأول ، ما ذكره القفال فقال العرش في كلامهم هر السرير الذي يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه انتقض ملكه وإذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذي قاله القفال حق وصواب ثم قال الله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم تنبيهاً على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة .

قال ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس ﴿ ثم استوى على العرش يدبر ﴾ فقوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش وأورد على هذا القول أن الله تعالى لم يكن مستوياً على الملك قبل خلق السموات والأرض والله تعالى منزه عن ذلك وأجيب عنه بأن الله تعالى كان قبل خلق السموات والأرض مالكها لكن لا يصح أن يقال شبع زيد إلا بعد أكله الطعام فإذا فسر العرش بالملك صح أن يقال إنه تعالى إنما استوى على ملكه بعد خلق السموات والأرض والقول الثاني : أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقوله الشاعر :

قد استوى بشر على العراقِ . . .

من غير سيف ودم مهراقِ

(90/271)

وعلى هذا القول إنما خص العرش بالإخبار عنه بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بأن العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل ملكاً للأشياء كلها ومستولياً عليها ، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات .

ونقل البيهقي عن أبي الحسن الأشعري أن الله تعالى فعل في العرش فعلاً سماه استواء كما فعل في غيره فعلاً سماه رزقاً ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى : ثم استوى على العرش .

وثم للتراخي والتراخي إنما يكون في الأفعال وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة وحكى الاستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا أنه قال : استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علواً بالمسافة والتحيز والكون في المكان متمكناً فيه ولكن يريد معنى نفي التحيز عنه وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقة الخبر .

ولا يتعدى ما ورد به الخبر قال البيهقي رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوي عليه لا بالاستواء .

قال وقد أشار أبو الحسن الأشعري إلى هذه الطريقة حكاية فقال بعض أصحابنا إنه صفة ذات قال وجوابي هو الأول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها بمعنى أن لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علواً كبيراً وقد قال بعض أصحابنا : إن الاستواء صفة الله تعالى تنفي الاعوجاج عنه .

وروي أن ابن الأعرابي جاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ما معنى قوله تعالى الرحمن على

العرش استوى ؟ قال : إنه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل : إنما معنى قوله استوى أي استولى .

(91/271)

فقال له ابن الأعرابي : ما يدريك أن العرب لا تقول استولى فلان على الشيء حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار لدلالة الكلام عليه ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ يعني سريعاً ، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه ، حكى الإمام فخر الدين الرازي عن القفال أنه قال : إن الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان إلى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات .

قال الإمام .

واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة فإن الإنسان إذا

كان في أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها بتحرك الفلك الأعظم ثلاث آلاف ميل وهي ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثاً لسرعة حركته ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الأشياء جارية في مجاريها بأمره وقال المفسرون : يعني بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع إذ ليس هي قادرات بأنفسهن وإنما هن يتصرفن في متصرفاتهن على إرادة المدبر لهن الحكيم في تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن والمراد بالأمر في قوله بأمره نفاذ إرادته لأن الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من حمل الأمر على الأمر الذي هو الكلام وقال إنه تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم .

فإن قلت : إن الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم ؟

(92/271)

قلت : إنما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الإشراق والنور وسيرهما في المنازل لتعرف الأوقات فهو كقوله : من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل

وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وإن كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة وقوله تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ يعني : له الخلق لأنه خلقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الأمر هنا الذي هو نقيض النهي ، واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر يعني أن من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله .

وقيل : معناه أن جميع ما في العالم لله عز وجل والخلق له لأنه خلقهم وجميع الأمور تجري بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد هذا لأحد شيء ، وقيل : المراد بالأمر هنا الإرادة لأن الغرض من الآية تعظيم القدرة وفي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب وله الأمر المطلق وليس لأحد أمر غيره فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه ﴿ تبارك الله ﴾ يعني تمجد وتعظم وارتفع ، وقال الزجاج : تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله ﴿ رب العالمين ﴾ يعني أنه هو الذي يستحق التعظيم وذلك أن الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ وذكر أشياء من عظيم خلقه وأن له الخلق والأمر والنهي والقدرة

عليهم ختم الآية بالثناء عليه لأنه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما .

معناه جاء بكل بركة .

وقيل : تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة .

(93/271)

وقيل معناه باسمه يتبرك في كل شيء وقال المحققون : معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال ، وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لأنه لم يرد به التوقيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(94/271)

وقال أبو حيان :

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾

لما ذكر تعالى أشياء من مبدأ خلق الإنسان وأمر نبيّه وانقسام إلى مؤمن وكافر وذكر

معادهم وحشرهم إلى جنة ونار ذكر مبدأ العالم واختراعه والتنبيه على الدلائل الدالّة على التوحيد وكمال القدرة والعلم والقضاء ثم بعد إلى النبوة والرسالة إذ مدار القرآن على تقدير المسائل الأربع التوحيد والقدرة والمعاد والنبوة ، وربّكم خطاب عام للمؤمن والكافر ، وروى بكار بن ﴿ إنّ ربّكم الله ﴾ بنصب الهاء عطف بيان والظاهر أنه ﴿ خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ وعلى هذا الظاهر فسّر معظم الناس وبدأ بالخلق يوم الأحد وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بعد العصر إلى الليل " ، وقال عدي بن زيد العبادي : قضى لستة أيام خليقته ، وكان آخر يوم صوّر الرّجلا ، وهو اختيار محمد بن إسحاق ، قال ابن الأنباري هذا إجماع أهل العلم .

(95/271)

وقال عبد الله بن سلام وكعب والضحّاك ومجاهد واختاره الطبري بدأ بالخلق يوم الأحد وبه يقول أهل التوراة ، وقيل يوم الإثنين وبه يقول أهل الإنجيل ، قال ابن عباس وكعب ومجاهد والضحّاك مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة ولا فرق بين خلقه تعالى ذلك في لحظة واحدة أو في مدد متوالية بالنسبة إلى قدرته تعالى وإبداء معان لذلك كما زعمه بعض المفسرين قول بلا برهان فلا نسوّد كتابنا بذكره وهو تعالى المنفرد بعلم ذلك ، وذهب بعض المفسرين إلى أنّ التقدير في قوله ﴿ في ستة أيام ﴾ في مقدار ستة أيام فليست ستة الأيام أنفسها وقع فيها الخلق وهذا كقوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ والمراد مقدار البكرة والعشي في الدنيا لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار وإنما ذهب الذاهب إلى هذا لأنه إنما يمتاز اليوم عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها قبل خلق الشمس والقمر كيف يعقل خلق الأيام والذي أقول : إنه متى أمكن حمل الشيء على ظاهره أو على قريب من ظاهره كان أولى من حمله على ما لا يشمله العقل أو على ما يخالف الظاهر جملة وذلك بأن يجعل قوله ﴿ في ستة أيام ﴾ ظرفاً لخلق الأرض لا ظرفاً لخلق السموات والأرض فيكون ﴿ في ستة أيام ﴾ مدة لخلق الأرض بتربتها وجبالها وشجرها ومكروهها ونورها ودوابها وآدم عليه السلام وهذا يطابق الحديث الثابت في الصحيح وتبقى ستة أيام على ظاهرها من العددية ومن كونها أياماً باعتبار امتياز اليوم عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها وأما استواؤه على العرش فحمله على ظاهره من الاستقرار بذاته على العرش قوم والجمهور من السّلف

السفيانان ومالك والأوزاعي والليث وابن المبارك وغيرهم في أحاديث الصفات على الإيمان بها وإمرارها على ما أراد الله تعالى من غير تعيين مراد وقوم تأوّلوا ذلك على عدّة تأويلات .

(96/271)

وقال سفيان الثوري فعل فعلاً في العرش سماه استواء وعن أبي الفضل بن النحوي أنه قال ﴿ العرش ﴾ مصدر عرش يعرش عرشاً والمراد بالعرش في قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ هذا وهذا ينبو عنه ما تقرر في الشريعة من أنه جسم مخلوق معين ومسألة الاستواء مذكورة في علم أصول الدين وقد أمعن في تقرير ما يمكن تقريره فيها القفال وأبو عبد الله الرازي وذكر ذلك في التحرير فيطالع هناك ولفظة ﴿ العرش ﴾ مشتركة بين معان كثيرة فالعرش سرير الملك ومنه ورفع أبويه على العرش نكروا لها عرشها و ﴿ العرش ﴾ السّقف وكل ما علا وأظل فهو عرش و ﴿ العرش ﴾ الملك والسلطان والعزّ ، وقال زهير :

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها . . .

وذبيان إذ زلّت بأقدامها النعل

وقال آخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم . . .

بعتيبة بن الحارث بن شهاب

والعرش الخشب الذي يطوى به البئر بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة والعرش أربعة كواكب صغار أسفل من العواء يقال لها : عجز الأسد ويسمّى عرش السّماك والعرش ما يلاقي ظهر القدم وفيه الأصابع واستوى أيضاً يستعمل بمعنى استقرّ وبمعنى علا وبمعنى قصد وبمعنى ساوى وبمعنى تساوى وقيل بمعنى استولى وأنشدوا :

هما استويا بفضلهما جميعاً . . .

على عرش الملوك بغير زور

(97/271)

وقال ابن الأعرابي لا نعرف استوى بمعنى استولى والضمير في قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ يحتمل أن يعود على المصدر الذي دلّ عليه خلق ثم استوى خلقه على العرش وكذلك في قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ لا يتعين حمل الضمير في قوله استوى على الرحمن إذ يحتمل أن يكون الرحمن خبر مبتدأ محذوف والضمير في ﴿ استوى ﴾ عائد على الخلق المفهوم من قوله ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾ أي هو

الرحمن استوى خلقه على العرش لأنه تعالى لما ذكر خلق السموات والأرض ذكر خلق ما هو أكبر وأعظم وأوسع من السموات والأرض ومع الاحتمال في العرش وفي استوى وفي الضمير العائد لا يتعيّن حمل الآية على ظاهرها هذا مع الدلائل العقلية التي أقاموها على استحالة ذلك .

وقال الحسن استوى أمره وسأل مالك بن أنس رجل عن هذه الآية فقال : كيف استوى فأطرق رأسه مليّاً وعلّته الرخصاء ثم قال : الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا ضالاً ثم أمر به فأخرج .

(98/271)

﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ التغشية التغطية والمعنى أنه يذهب الليل نور النهار ليتم قوام الحياة في الدنيا بمجيء الليل والنهار فالليل للسكون والنهار للحركة وفحوى الكلام يدلّ على أنّ النهار يغشيه الله الليل وهما مفعولان لأنّ التضعيف والهمزة معدّيان ، وقرأ بالتضعيف الأخوان وأبو بكر وبإسكان الغين باقي السبعة وبفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضم اللام حميد بن قيس كذا قال عنه أبو عمرو الداني ، وقال أبو الفتح عثمان بن جني عن حميد بنصب ﴿ اليل ﴾ ورفع ﴿ النهار ﴾ ، قال ابن عطية وأبو الفتح أثبت

انتهى وهذا الذي قاله من أنّ أبا الفتح أثبت كلام لا يصح إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواياتها واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءات فضلاً عن النحاة الذين ليسوا مقرئي ولا رووا القرآن عن أحد ولا روي عنهم القرآن هذا مع الديانة الزائدة والتثبت في النّقل وعدم التجاسر ووفور الخط من العربية فقد رأيت له كتاباً في كلا وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دلاًّ على إطلاعه على ما لا يكاد يطلع عليه أئمة النحاة ولا المقرئين إلى سائر تصانيفه رحمه الله والذي نقله أبو عمرو الداني عن حميد أمكن من حيث المعنى لأنّ ذلك موافق لقراءة الجماعة إذ الليل في قراءتهم وإن كان منصوباً هو الفاعل من حيث المعنى إذ همزة النقل أو التضعيف صيره مفعولاً ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى لأن المنصوبين تعدّى إليهما الفعل وأحدهما فاعل من حيث المعنى فيلزم أن يكون الأول منهما كما لزم ذلك في ملكت زيداً عمراً إذ رتبة التقديم هي الموضّحة أنه الفاعل من حيث المعنى كما لزم ذلك في ضرب موسى عيسى والجملة من يطلبه حال من الفاعل من حيث المعنى وهو الليل إذ هو المحدث عنه قبل التعدية وتقديره حاثاً ويجوز أن يكون حالاً من النهار وتقديره محثوثاً ويجوز أن ينتصب نعتاً لمصدر محذوف أي طلباً حثيثاً أي

حثاً أو محثاً ونسبة الطلب إلى الليل مجازية وهو عبارة عن تعاقبه اللازم فكأنه طالب له لا يدركه بل هو في إثره بحيث يكاد يدركه وقدّم الليل هنا كما قدمه في

﴿ يولج الليل في النهار ﴾ وفي ﴿ ولا اليل سابق النهار ﴾ وفي

وجعل الظلمات والنور . . .

، وقال أبو عبد الله الرازي وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة لأنّ تعاقب الليل والنهار يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة وأكملها شدّة حتى إنّ الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الإنسان إذا كان في العدو الشديد الكامل قبل أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ولهذا قال : ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ ونظيره ﴿ لا الشمس ينبغى لها ﴾ الآية شبه ذلك المسير وتلك الحركة بالسباحة في الماء والمقصود التنبيه على السرعة والسهولة وكمال الاتصال انتهى وفيه بعض تلخيص .

(100/271)

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ﴾ انتصب ﴿ مسخرات ﴾ على الحال من المجموع أي وخلق الشمس ، وقرأ ابن عامر بالرفع في الأربعة على الابتداء والخبر ، وقرأ

أبلان بن ثعلب برفع ﴿ والنجوم مسخّرات ﴾ فقط على الابتداء والخبر ومعنى ﴿ بأمره ﴾ بمشيئته وتصريفه وهو متعلق بمسخرات أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرفها سمي ذلك أمراً على التشبيه كأنّهن مأمورات بذلك ، وقال أبو عبد الله الرازي الشمس لها نوعان من الحركة أحدهما بحسب ذاتها وذلك يتم في سنة كاملة وبسبب ذلك تحصل السّنة ، والثاني حركتها بحسب حركة الفلك الأعظم ويتم في اليوم بليلته فتقول الليل والنهار لا يحصلان بحركة الشمس وإنما يحصلان بحركة السماء الأقصى الذي يقال له العرش فلهذا السبب لما دل على العرش بقوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ وربط بقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ﴾ تنبيهاً على أنّ الفلك الأعظم وهو العرش يحرك الأفلاك والكواكب على خلاف طبعها من المشرق إلى المغرب وأنه تعالى أودع في جرم الشمس قوة قاهرة باعتبارها قويت على قهر جميع الأفلاك والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها فهذه أبحاث معقولة ولفظ القرآن مشعر بها والعلم عند الله ، انتهى .

وتكلم في قوله ﴿ مسخّرات بأمره ﴾ كلاماً كثيراً هو من علم الهيئة وهو علم لم ننظر فيه قال : أربا به وهو علم شريف يطلع فيه على جزئيات غريبة من صنعة الله تعالى يزداد بها إيمان المؤمن إذ المعرفة بجزئيات الأشياء وتفاصيلها ليست كالمعرفة بجمليتها ، وقيل ﴿

بأمره ﴾ أي بنفاذ إرادته إذ المقصود تبيين عظيم قدرته لقوله ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ وقوله ﴿ إنما قولنا لشيء ﴾ وقيل الأمر هو الكلام.

(101/271)

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ لما تقدّم ذكر خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم وأمره فيها قال ذلك أي له الإيجاد والاختراع وجرى ما خلق واخترع على ما يريده ويأمر به لا أحد يشركه في ذلك ولا في شيء منه، وقيل: الخلق بمعنى المخلوق والأمر مصدر من أمر أي المخلوقات كلها له وملكه واختراعه وعلى هذا قال النقاش وغيره: الآية ردّ على القائلين بخلق القرآن لأنه فرق بين المخلوقات وبين الكلام إذ الأمر كلامه انتهى، وهو استدلال ضعيف إذ لا يتعيّن حمل اللفظ على ما ذكر بل الأظهر خلافه، وقال الشعبي: الخلق عبارة عن الدنيا والأمر عبارة عن الآخرة.

﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ أي علا وعظم ولما تقدّم ﴿ إن ربكم الله ﴾ صدر الآية جاء آخرها فتبارك الله رب العالمين وجاء ﴿ العالمين ﴾ أعمّ من ربكم لأنه ذكر خلق تلك الأشياء البديعة وهي عوالم كثيرة فجاء العالمين جمعاً لجميع العوالم واندرج فيه المخاطبون بربكم وغيرهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم : سماواته وأرضه ، وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي : الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة – وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم ، عليه السلام . واختلفوا في هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ؟ أو كل يوم كألف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد ، والإمام أحمد بن حنبل ، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ؛ لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت ، وهو القطع .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا حجاج ، حدثنا ابن جُرَيْج ، أخبرني إسماعيل بن أُمَيَّة ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع – مولى أم

سلمة – عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : "خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل" .

(103/271)

فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه ، عن حجاج – وهو ابن محمد الأعور – عن ابن جريج به (1) وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال في ستة أيام ؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة ، عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعا ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك ، والأوزاعي ، والثوري ،

---

(1) المسند (327/1) وصحيح مسلم برقم (2789) وسنن النسائي الكبرى برقم (11010) .

(104/271)

والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : 11] بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري - : "من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر" . وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى .

(105/271)

وقوله تعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ، أي : سريعًا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب هذا ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 37 – 40] فقوله : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أي : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره لا واسطة بينهما ؛ ولهذا قال : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ – منهم من نصب ، ومنهم من رفع ، وكلاهما قريب المعنى ، أي : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ؛ ولهذا قال منبّها : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ ؟ أي : له الملك والتصرف ، ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ كما قال [تعالى] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا] ﴾ [الفرقان : 61] .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن ، حدثنا بَقِيّة بن الوليد ، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري ، عن عبد العزيز الشامي ، عن أبيه – وكانت له صحبة – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح ، وحمد نفسه ، فقد كفر وحبط عمله . ومن زعم أن الله جعل

للعباد من الأمر شيئا ، فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه ؛ لقوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

وفي الدعاء المأثور ، عن أبي الدرداء – وروي مرفوعا – : "اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 436 . 437 ﴾

(106/271)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ شروعٌ في بيان مبدأ الفطرةِ إثرَ بيانِ معادِ الكفَرة أي إن خالقَكم ومالكَكم الذي خلق الأجرامَ العلوية والسفليةَ في ستة أوقات كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ أو في مقدار ستةِ أيامٍ فإن المتعارفَ أن اليومَ زمانُ طلوعِ الشمسِ إلى غروبها ، ولم تكن هي حينئذ وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعةً دليلٍ على الاختيار واعتبارٌ للنُظّار وحثٌّ على التأني في الأمور ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أي استوى أمرُه واستولى وعن أصحابنا أن الاستواءَ على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي

عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن ، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير المِلك فإن الأمورَ والتدابير تنزِل منه وقيل : الملك .

﴿ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي يغطّيه به ولم يُذكر العكسُ للعلم به أو لأن اللفظَ يحتملهما ولذلك قرىء بنصب الليلَ ورفع النهار وقرىء بالتشديد للدلالة على التكرار ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي يعقُبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء ، والحثيثُ فعيل من الحث وهو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ ، أو حال من الفاعل أو من المفعول بمعنى حاثاً أو محثوثاً ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ أي خلقهن حال كونهن مسخراتٍ بقضائه وتصريفِه ، وقرىء كلُّها بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ فإنه الموجدَ للكل والمتصرّفَ فيه على الإطلاق ﴿ تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ أي تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظّم بالتفرد في الربوبية .

(107/271)

وتحقيقُ الآية الكريمةِ والله تعالى أعلم أن الكفرةَ كانوا كانوا متخذين أرباباً فبيّن لهم أن المستحِقَّ للربوبية واحدٌ هو الله تعالى لأنه الذي له الخلقُ والأمرُ فإنه تعالى خلق العالَمَ على ترتيب قويمٍ وتدبيرٍ حكيم فأبدع الأفلاكَ ثم زينها بالشمس والقمر والنجومِ كما أشار إليه

بقوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِى يَوْمَيْنِ ﴾ وعمَد إلى الأجرام السفليةِ فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدّلةِ والهيئاتِ المختلفة ثم قسمها لصور نوعيةٍ متباينةِ الآثار والأفعالِ وأشار إليه بقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي ما في جهة السُّفلِ في يومين ثم أنشأ أنواعَ المواليدِ الثلاثةِ بتركيب موادّها أولاً وتصويرِها ثانياً كما قال بعد قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي مع اليومين الأولينِ لما فُصّل في سورة السجدة ثم لمّا تم له عالمُ المُلك عمَد إلى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الأمرَ من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاكِ وتسيير الكواكبِ وتكويرِ الليالي والأيامِ ، ثم صرّح بما هو فذلكةُ التقريرِ ونتيجتُه فقال تعالى : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(108/271)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

شروع في بيان مبدأ الفطرة إثر بيان معاد الكفرة ، ويحتمل أنه سبحانه لما ذكر حال الكفار

وأشار إلى عبادتهم غيره سبحانه احتج عليهم بمقدوراته ومصنوعاته جل شأنه ودلهم بذلك على أنه لا معبود سواه فقال مخاطباً بالخطاب العام ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ﴾ أي خالقكم ومالككم ﴿ الذى خَلَقَ السموات ﴾ السبع ﴿ والأرض ﴾ بما فيها كما يدل عليه ما في سورة السجدة (4) على ما يأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه في ستة أوقات كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ [الأنفال : 16] أو في مقدار ستة أيام كقوله سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] .

فإن المتعارف أن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ولم تكن هي حينئذ ، نعم العرش وهو المحدد على المشهور موجود إذ ذاك على ما يدل عليه بعض الآيات ، وليس بقديم كما يقوله من ضل عن الصراط المستقيم لكن ذاك ليس نافعاً في تحقق اليوم العرفي ، وإلى حمل اليوم على المتعارف وتقدير المضاف ذهب جمع من العلماء وادعوا وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد ولم يكن في السبت خلق أخذاً له من السبت بمعنى القطع لقط الخلق فيه ولتمام الخلق في يوم الجمعة واجتماعه فيه سمي بذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس أنه سمى تلك الأيام بابوجاد وهواز وحطي وكلمون وسعفص وقريشات .

وقال محمد بن اسحق وغيره : إن ابتداء الخلق في يوم السبت ، وسمي سبتاً لقطع بعض خلق الأرض فيه على ما قال ابن الأنباري أو لما أن الأمر كأنه قطع وشرع فيه على ما قيل ، واستدل لهذا القول بما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة قال : " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل " .

ولا يخفى أن هذا الخبر مخالف للآية الكريمة فهو إما غير صحيح وإن رواه مسلم وإما مؤول ، وأنا أرى أن أول يوم وقع فيه الخلق يقال له الأحد وثاني يوم الاثنين وهكذا ويوم جمع فيه الخلق الجمعة فافهم .

وإلى حمله على اللغوي وعدم التقدير ذهب آخرون وقالوا : كان مقدار كل يوم ألف سنة وروي ذلك عن زيد بن أرقم ، وفي خلقه سبحانه الأشياء مدرجاً على ما روي عن ابن جبير تعليم للخق التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث

" التأني من الله تعالى والعجلة من الشيطان " وقال غير واحد : إن في خلقها مدرجاً مع قدرته سبحانه على إبداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار .

واعترض عليه بأنه يجوز أن يكون الفاعل موجباً ويكون وجود المعلول مشروطاً بشرائط توجد وقتاً فوقتاً ، وبأن ذلك يتوقف على ثبوت تقدم خلق الملائكة على خلق السماوات والأرض وليس ذلك بالمحقق .

(110/271)

وأجيب بأن الأول مبني على الغفلة عن قوله مع القدرة على إبداعها دفعة ، وبيانه أن الفاعل إذا كان مختاراً كما يقوله أهل الحق يتوقف وجود المعلول على تعلق الإرادة به فهو جزء العلة التامة حينئذٍ فيجوز أن يتخلف المعلول عن الفاعل لانتفاء تعلق الإرادة فلا يلزم من قدمه قدم المعلول ، وأما إذا كان الفاعل موجباً مقتضياً لذاته فيضان الوجود على ما تم استعداده فإن كان المعلول تام الاستعداد في ذاته كالكبريت بالنسبة إلى النار يجب وجوده ويمتنع تخلفه وإلا لزم التخلف عن العلة التامة فيلزم من قدم الفاعل حينئذٍ قدمه ، والأجرام الفلكية من هذا القبيل عند الفلاسفة وإن توقف تمام استعداده على أمر متجدد فما لم يحصل يمتنع إيجاده كالحطب الرطب فإنه ما لم ييبس لم تحرقه النار والحوادث اليومية من هذا القبيل عندهم ، ولهذا أثبتوا برزخاً بين عالمي القدم والحدوث ليتأتى ربط الحوادث بالمبادىء القديمة ؛ ففي صورة كون الفاعل موجباً مشروطاً وجود معلوله بشرائط متعاقبة

يمتنع الإبداع دفعة فإمكان وجود هذه الأشياء المنبىء عن عدم التوقف على شيء آخر أصلاً دفعة مع الخلق التدريجي المستلزم لتأخر وجود المعلول عن وجود الفاعل لا يجامع الوجوب المستلزم لامتناع التأخر حينئذٍ ويستلزم الاختيار المصحح لذلك التأخر كما علمت ، وبأن الإبداع التدريجي للأشياء عبارة عن إيجادات يتعلق كل منها بشيء فيدل على تعلق العلم والإرادة والقدرة بكل منها تفصيلاً بخلاف الإيجاد الدفعي لها فإنه إيجاد واحد متعلق بالمجموع فيدل على تعلق ما ذكر بالمجموع من حيث هو مجموع إجمالاً ، واستوضح ذلك من الفرق بين ضرب الخاتم على نحو القرطاس وبين أن تكتب تلك الكلمات فإنك في الصورة الثانية تتخيلها كلمة فكلمة بل حرفاً فحرفاً وتريدها كذلك فتوقعها في الصحيفة بخلاف الصورة الأولى وهو ظاهر ، فالنظار يعتبرون من الخلق التدريجي ويفهمون شمول علمه سبحانه وإرادته وقدرته للأشياء تفصيلاً

(111/271)

قائلين : سبحان من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأيضاً قالوا : إنا إذا فعلنا شيئاً تصورناه أولاً ثم اعتقدنا له فائدة ثم تحصل لنا حال شوقية ثم ميلان نفساني هي الإرادة ثم تنبعث القوة الباعثة للقوة المحركة للأعضاء نحو إيجاده فيحصل لنا ذلك

الشيء فلكل واحد من تلك الأمور دخل في وجود ذلك الشيء ، ثم قالوا : فكما لا بد في صدور الأفعال الاختيارية فينا من هذه الأمور كذلك لا بد في صدور الأفعال الاختيارية للواجب من نحو ذلك مما لا يمتنع عليه سبحانه فأثبتوا له تعالى علماً وإرادة وقدرة وفائدة لأفعاله ، واستدلوا على ذلك من كونه سبحانه مختاراً فالخلق التدريجي لما كان دالاً على الاختيار الدال على ما ذكر صدق أن فيه اعتباراً للنظار .

وحاصل هذا أن المراد من النظار أصحاب النظر والبصيرة من العقلاء فلا يتوقف ما ذكر على تقدم خلق الملائكة على أن من قال بتقدم خلق العرش والكرسي على خلق الأرض والسموات قائل بتقدم خلق الملائكة بل قيل : إن من الناس من قال بتقدم خلق نوع من الملائكة قبل العرش والكرسي وسماهم المهيمين .

وأنت تعلم أن هذا لا يفيدنا لأن المهيمين عند هذا القائل لا يشعرون بسماء ولا أرض بل هم مستغرقون فيه سبحانه على أن ذلك ليس بالمحقق كما يقوله المعترض أيضاً ، وقيل : إن الشيء إذا حدث دفعة واحدة فلعله يخطر بالبال أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فإذا أحدث شيئاً فشيئاً على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة ، وقيل : إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن .

﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ وهو في المشهور الجسم المحيط بسائر الأجسام وهو فلك الأفلاك سمي به إما لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فإنه يقال له عرش ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ [يوسف : 100] لأن الأمور والتدبيرات تنزل منه ، ويكنى به عن العز والسلطان والملك فيقال : فلان ثل عرشه أي ذهب عزه وملكه وأنشدوا قوله :

إذا ما بنو مروان ثلت عروشهم . . .

وأودت كما أودت إياد وحمير

وقوله :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم . . .

بعيينة بن الحرث بن شهاب

وذكر الراغب "أن العرش مما لا يعلمه البشر (على الحقيقة) إلا بالاسم ، وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى عن ذلك (لا محمولاً) (1) ، و(ليس كما) قال قوم : إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب" وفيه نظر ، والناس في الكلام على هذه الآية ونحوها مختلفون ، فمنهم من فسر العرش بالمعنى المشهور ، وفسر الاستواء بالاستقرار وروي ذلك عن الكلبي ومقاتل ورواه البيهقي في كتابه "الأسماء

والصفات" بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها .

وما روي عن مالك رضي الله تعالى عنه "أنه سئل كيف استوى ؟ فأطرق رأسه ملياً حتى علته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم قال للسائل : وما أظنك إلا ضالاً ثم أمر به فأخرج" ليس نصاً في هذا المذهب لاحتمال أن يكون المراد من قوله : غير مجهول أنه ثابت معلوم الثبوت لا أن معناه وهو الاستقرار غير مجهول .

ومن قوله : والكيف غير معقول أن كل ما هو من صفة الله تعالى لا يدرك العقل له كيفية لتعاليه عن ذلك فكف الكيف عنه مشلولة .

(113/271)

ويدل على هذا ما جاء في رواية أخرى عن عبد الله بن وهب أن مالكاً سئل عن الاستواء فأطرق وأخذته الرحضاء ثم قال : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ كما وصف نفسه ولا يقال له : كيف وكيف عنه مرفوع إلى آخر ما قال ، ثم إن هذا القول إن كان مع نفي اللوازم فالأمر فيه هين ، وإن كان مع القول بها والعياذ بالله تعالى فهو ضلال وأي ضلال وجهل وأي جهل بالملك المتعال ، وما أعرف ما قاله بعض العارفين الذين كانوا من تيار المعارف غارفين

على لسان حال العرش موجهاً الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج حين أشرقت شمسه عليه الصلاة والسلام في الملأ الأعلى فتضاءل معها كل نور وسراج كما نقله الإمام القسطلاني معرضاً بضلال مثل أهل هذا المذهب الثاني ولفظه مع حذف ، ولما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى العرش تمسك بأذياله وناداه بلسان حاله يا محمد أنت في صفاء وقتك آمنا من مقتك إلى أن قال : يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة ونصيبي يا حبيبي أن تشهد بالبراءة مما نسبه أهل الزور إليَّ وتقوّله أهل الغرور عليَّ ، زعموا أني أسع من لا مثل له وأحيط بمن لا كيفية له يا محمد من لا حد لذاته ولا عد لصفاته كيف يكون مفتقراً إليَّ ومحمولاً عليَّ إذا كان الرحمن اسمه والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته كيف يتصل بي أو ينفصل عني ؟ يا محمد وعزته لست بالقريب منه وصلاً ولا بالبعيد عنه فصلاً ولا بالمطيق له حملاً أوجدني منه رحمة وفضلاً ولو محقني لكان حقاً منه وعدلاً يا محمد أنا محمول قدرته ومعمول حكمته اه .

وذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين إلى أن العرش على معناه ، واستوى بمعنى استولى واحتجوا عليه بقوله :

قد استوى بشرى على العراق . . .

من غير سيف ودم مهراق

وخص العرش بالإخبار عنه بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات ، ورد هذا المذهب بأن العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكاً للأشياء كلها ومستولياً عليها ونسب ذلك للأشعرية .

وبالغ ابن القيم في ردهم ثم قال : إن لام الأشعرية كنون اليهودية وهو ليس من الدين القيم عندي .

وذهب الفراء واختاره القاضي إلى أن المعنى ثم قصد إلى خلق العرش ، ويبعده تعدي الاستواء بعلي ، وفيه قول بأن خلق العرش بعد خلق السموات والأرض وهو كما ترى ، وذهب القفال إلى أن المراد نفاذ القدرة وجريان المشيئة واستقامة الملك لكنه أخرج ذلك على الوجه الذي ألفه الناس من ملوكهم واستقر في قلوبهم ، قيل : ويدل على صحة ذلك قوله سبحانه في سورة يونس (3) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ فإن ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ جرى مجرى التفسير لوقله : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى ، وذكر أن القفال يفسر العرش بالملك ويقول ما يقول ، واعترض بأن الله تعالى لم يزل مستقيم الملك مستوياً عليه قبل خلق السموات والأرض وهذا يقتضي أنه سبحانه لم يكن كذلك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وأجيب بأن الله تعالى كان قبل خلق السموات والأرض مالكها لكن لا يصح أن يقال : شبع زيد إلا بعد أكله الطعام فإذا فسر العرش بالملك صح أن يقال : إنه تعالى إنما استوى ملكه بعد خلق السموات والأرض ، ومنهم من يجعل الإسناد مجازياً ويقدر فاعلاً في الكلام أي استوى أمره ولا يضر حذف الفاعل إذا قام ما أضيف إليه مقامه ، وعلى هذا لا يكون الاستواء صفة له تعالى وليس بشيء .

ومن فسره بالاستيلاء أرجعه إلى صفة القدرة .

(115/271)

ونقل البيهقي عن أبي الحسن الأشعري أن الله تعالى فعل في العرش فعلاً سماه استواء كما فعل في غيره فعلاً سماه رزقاً ونعمة وغيرهما من أفعاله سبحانه لأن ثم للتراخي وهو إنما يكون في الأفعال ، وحكى الأستاذ أبو بكر بن فورك عن بعضهم أن استوى بمعنى علا ولا يراد بذلك العلو بالمسافة والتحيز والكون في المكان متمكناً فيه ولكن يراد معنى يصح نسبته إليه سبحانه ، وهو على هذا من صفات الذات .

وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ تعلقت بالمستوى عليه لا بالاستواء أو أنها للتفاوت في الرتبة وهو قول متين .

وأنت تعلم أن المشهور من مذهب السلف في مثل ذلك تفويض المراد منه إلى الله تعالى فهم يقولون : استوى على العرش على الوجه الذي عناه سبحانه منزها عن الاستقرار والتمكن ، وأن تفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير مرذول إذ القائل به لا يسعه أن يقول كاستيلائنا بل لا بد أن يقول : هو استيلاء لائق به عز وجل فليقل من أول الأمر هو استواء لائق به جل وعلا .

وقد اختار ذلك السادة الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم وهو أعلم وأسلم وأحكم خلافاً لبعضهم .

ولعل لنا عودة إلى هذا البحث إن شاء الله تعالى .

﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ ﴾ أي يغطي سبحانه النهار بالليل ، ولما كان المغطى يجتمع مع المغطى وجوداً وذلك لا يتصور هنا قالوا : المعنى يلبسه مكانه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً فيكون التجوز في الإسناد بإسناد ما لمكان الشيء إليه ومكانه هو الجو على معنى أنه مكان للضوء الذي هو لازمه لا أنه مكان لنفس النهار لأن الزمان لا مكان له ؛ وجوز أن يكون هناك استعارة بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه فكأنه لف عليه لف الغشاء أو يشبه تغييبه له بطريانه عليه بستر اللباس للملابسة .

وجوز أن يكون المعنى يغطي سبحانه الليل بالنهار ، ورجح الوجه الأول بأن التغشية بمعنى الستر وهي أنسب بالليل من النهار .

وبأنه يلزم على الثاني أن يكون الليل مفعولاً ثانياً والنهار مفعولاً أولاً ، وقد ذكر أبو حيان أن المفعولين إذا تعدى إليهما فعل وأحدهما فاعل من حيث المعنى يلزم أن يكون هو الأول منهما عندهم كما لزم ذلك في ملكت زيداً عمراً ، ورتبة التقديم هي الموضحة لأنه الفاعل معنى كما لزم ذلك في ضرب موسى عيسى بخلاف أعطيت زيداً درهماً فإن تعين المفعول الأول لا يتوقف على التقديم .

ورجح الثاني بأن حميد بن قيس قرأ ﴿ يغشى وَهُوَ الذى ﴾ بفتح الياء ونصب ﴿ الليل ﴾ ورفع ﴿ النهار ﴾ ، ويلزم عليها أن يكون الطالب النهار والليل ملحق به .

وتوافق القراءتين أولى من تخالفهما .

وبأن قوله تعالى : ﴿ ءايَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [يس : 37] يعلم منه على ما قال المرزوقي أن الليل قبل النهار لأن المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ فالنهار بالإدراك أولى ،

وبأن قوله سبحانه : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي محمولاً على السرعة ففعيل بمعنى مفعول أوفق بهذا الوجه فإن هذا الطلب من النهار أظهر ، وقد قالوا : إن ضوء النهار هو الهاجم على ظلمة الليل .

وأنشد بعضهم :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى . . .

نطير غراباً ذا قوادم جون

ولبعض المتأخرين من أبيات :

وكأن الشرق باب للدجى . . .

ماله خوف هجوم الصبح فتح

وحديث إن التغشية أنسب بالليل قيل : مسلم لو كان المراد بالتغشية حقيقتها لكان ليس المراد ذلك بل المراد اللحوق والإدراك وهذا أنسب بالنهار كما علمت .

والقاعدة المذكورة لا تخلو عن كلام .

على أنه لا يبعد على ما تقرر أن يكون الكلام من قبيل أعطيت زيداً درهماً .

(117/271)

والقول بأن معنى الآية أنه سبحانه يجعل الليل أغشى بالنهار أي مبيضاً بنور الفجر بناء على ما في "الصحاح" من أن الأغشى من الخيل وغيره ما ابيض رأسه كله من بين جسده كالأرخم مما لا يكاد يقدم عليه ، وذكر سبحانه أحد الأمرين ولم يذكرهما معاً كما في قوله

تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ويُولِجُ النهار فِى الليل ﴾

[فاطر : 13] للعلم بالآخر من المذكور لأنه يشير إليه أو لأن اللفظ يحتمله على ما قيل ، وقال بعض المحققين : إن الليل والنهار بمعنى كل ليل ونهار وهو بتعاقب الأمثال مستمر الاستبدال فيدل على تغيير كل منهما بالآخر بأخصر عبارة من غير تكلف ومخالفة لما اشتهر من قواعد العربية .

وجملة ﴿ يُغْشِى ﴾ على ما قاله ابن جنى على قراءة حميد حال من الضمير في قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ استوى ﴾ والعائد محذوف أي : يغشي الليل النهار بأمره أو باذنه ، وقوله جل وعلا : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ بدل من ﴿ يُغْشِى ﴾ الخ للتوكيد .

وعلى قراءة الجماعة حال من ﴿ الليل ﴾ أي يغشي الليل النهار طالباً له حثيثاً ، و ﴿ حَثِيثًا ﴾ حال من الضمير في ﴿ يَطْلُبُهُ ﴾ وجوز غيره أن تكون الجملة حالا من ﴿ النهار ﴾ على تقدير قراءة حميد أيضاً .

وجوز أبو البقاء الاستئناف في الجملة الأولى .

وقال بعضهم : يجوز في ﴿ حَثِيثًا ﴾ أن يكون حالاً من الفاعل بمعنى حاثاً أو من المفعول أي محثوثاً ، وأن يكون صفة مصدر محذوف أي طلباً حثيثاً ، وإنما وصف الطلب بذلك لأن تعاقب الليل والنهار على ما قال الإمام وغيره إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وهى

أشد الحركات سرعة فإن الإنسان إذا كان في أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك ثلاثة آلاف ميل وهي ألف فرسخ .

(118/271)

واعترض بأن الفلك الأعظم إن كان هو العرش كما قالوا فحركته غير مسلمة عند جمهور المحدثين بل هم لا يسلمون حركة شيء من سائر الأفلاك أيضاً وهو الكرسي والسموات السبع بل ادعوا أن النجوم بأيدي ملائكة تسير بها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره : إنها تجري في ثخن الأفلاك جري السمك في الماء كل في فلك يسبحون ، وفسر فيما نقل عنه قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ ﴾ بيجعله غاشياً له غشيان الرجل المرأة وقال : ذكر سبحانه الغشيان هنا والإيلاج في آية أخرى وهذا هو التناكح المعنوي وجعله سارياً في جميع الموجودات ، وإن صح هذا فما أصح قولهم : الليل حبلى وما ألطفه ، وأمر الحث عليه ظاهر لمن ذاق عسيلة النكاح .

والحاصل من هذا الغشيان عند من يقول به ما في هذا العالم من معدن ونبات وحيوان وهي المواليد الثلاث أو من الحوادث مطلقاً ، ويقرب من هذا قوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير . . .

كر الغداة ومر العشي

(119/271)

وأنت تعلم أن لا مؤثر في الوجود على الحقيقة إلا الله تعالى ، ووجه ذكره سبحانه هذا بعد ذكره الاستواء على ما نقل عن القفال أنه جل شأنه لما أخبر العباد باستوائه أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه لينضم العيان إلى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات ، ولا يخفى أن هذا قد يحسن وجهاً لذكر ذلك وما بعده بعد ذكر الاستواء وأما لذكره بخصوصه هناك دون تسخير الشمس والقمر فلا ، وذكر صاحب "الكشف" في توجيه اختيار صاحب "الكشاف" هنا أن الغاشي هو النهار وفي الرعد (3) هو الليل ، وتفسيره التغشية هناك بالإلباس وهنا بالإلحاق نظراً إلى الخلاصة ما يفهم منه وجه تقديم التغشية على التسخير الآتي في هذه الآية وعكسه في آية الرعد حيث قال : والنكتة في ذلك أن تسخر الشمس والقمر ذكر هنالك من قبل في تعديد الآيات فلما فرغ ذكر إدخال الليل على النهار ليطابقه ولأنه أظهر في الآية وأن الشمس مسخرة مأمورة وههنا جاء به على أسلوب آخر تمهيداً لقوله سبحانه :

﴿ ادعوا ربّكُمْ ﴾ [الأعراف : 55] أي من هذه ألطافه وآياته في شأنكم فرجح جانب اللفظ على الأصل ، وللجمع بين القراءتين أيضاً اه فتدبر ولا تغفل .

وقرىء ﴿ يُغْشِى ﴾ بالتشديد للدلالة على التكرار .

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ أي خلقهن حال كونهن مذللات تابعات لتصرفه سبحانه فيهن بما يشاء غير ممتنعات عليه جل شأنه كأنهن مميزات أمرن فانقدن فتسمية ذلك أمراً على سبيل التشبيه والاستعارة ، ويصح حمل الأمر على الإرادة كما قيل أي هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لإرادته .

ومنهم من حمل الأمر على الأمر الكلامي وقال : إنه سبحانه أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء .

(120/271)

ولا مانع من أن يعطيها الله تعالى إدراكاً وفهماً لذلك بل ادعى بعضهم أنها مدركة مطلقاً ، وفي بعض الأخبار ما يدل على أن لبعضها إدراكاً لغير ما ذكر ، وإفراد الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في النجوم لإظهار شرفهما عليها لما فيهما من مزيد الإشراق والنور وبسيرهما في المنازل تعرف الأوقات .

وقدم الشمس على القمر رعاية للمطابقة مع ما تقدم وهي من البديع ولأنها أسنى من القمر وأسمى مكانة ومكاناً بناء على ما قيل من أنها في السماء الرابعة وأنه في السماء الأولى ، وليس بمسلم عند المحدثين كالقول بأن نوره مستفاد من نورها لاختلاف تشكلاته على انحاء متفاوتة بحسب وضعه من الشمس في القرب والبعد عنها مع ما يلحقه من الخسوف لا لاختلاف التشكلات وحده فإنه لا يوجب الحكم بأن نور القمر مستفاد من الشمس قطعاً لجواز أن يكون نصفه مضيئاً من ذاته ونصفه مظلماً ويدور على نفسه بحركة مساوية لحركة فلكه فإذا تحرك بعد المحاق يسيرا رأيناه هلالا ويزداد فنراه بدراً ثم يميل نصفه المظلم شيئاً فشيئاً إلى أن يؤول إلى المحاق .

وفي كونها مسخرات دلالة على أنها لا تأثير لها بنفسها في شيء أصلاً .

وقرأ جميعها ابن عامر بالرفع على الابتداء والخبر .

والنصب بالعطف على ﴿ السموات ﴾ والحالية كما أشرنا إليه ، وجوز تقدير جعل وجعل الشمس مفعولاً أولاً و ﴿ مسخرات ﴾ مفعولاً ثانياً .

﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ كالتذييل للكلام السابق أي أنه تعالى هو الذي خلق الأشياء ويدخل في ذلك السموات والأرض دخولاً أولياً وهو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته ويدخل في ذلك ما أشير إليه بقوله سبحانه : ﴿ مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : 54] لا أحد غيره كما يؤذن به تقديم الظرف .

وفسر بعضهم الأمر هنا بالإرادة أيضاً ، وفسر آخرون الأمر بما هو مقابل النهي والخلق بالمخلوق أي له تعالى المخلوقون لأنه خلقهم وله أن يأمرهم بما أراد ، واستخرج سفيان بن عيينة من هذا أن كلام الله تعالى شأنه ليس بمخلوق فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر يعني من جعل الأمر الذي هو كلامه سبحانه من جملة ما خلقه فقد كفر لأن المخلوق لا يقوم إلا بمخلوق مثله كذا في "تفسير الخازن" وليس بشيء كما لا يخفى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أن الخلق ما دون العرش والأمر ما فوق ذلك ، وشاع عند بعضهم إطلاق عالم الأمر على عالم المجردات .

﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ أي تقدس وتنزه عن كل نقص ويدخل في ذلك تنزهه تعالى عن نقص في الخلق أو في الأمر دخولاً أولياً .

ففي ذلك إشارة إلى أنهما طبق الحكمة وفي غاية الكمال ولا يقال ذلك في غيره تعالى بل هو صفة خاصة به سبحانه كما في "القاموس" .

وقال الإمام : "إن البركة لها تفسيران أحدهما البقاء والثبات والثاني كثرة الآثار الفاضلة

فإن حملته على الأول فالثابت الدائم هو الله تعالى ، وإن حملته على الثاني فكل الخيرات والكمالات من الله تعالى فهذا الثناء لا يليق إلا بحضرته جل وعلا" .

واختار الزجاج أنه من البركة بمعنى الكثرة من كل خير ولم يجيء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل مثلا ، وقال البيضاوي : المعنى : تعالى بالوحدانية والألوهية وتعظم بالتفرد بالربوبية ، وعلى هذا فهو ختام لوحظ فيه مطلعه ثم حقق الآية بما لا يخلو عن دغدغة ومخالفة لما عليه سلف الأمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(122/271)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : إن سيدكم ومالككم ومدبركم الذي يجب أن تعبدوه أيها الناس ، الذي أنشأ أعيان السموات والأرض في مقدار ستة أيام .

وفي هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الشهاب : اليوم في اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا ، فالمعنى في ستة أوقات ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه ﴾ .

وإن أريد المتعارف ، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ، فالمعنى في مقدار ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات ، فيقدر فيه مضاف . انتهى .

وفي شرح القاموس : إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وإن الثاني تعريف شرعي عند الأكثر .

ونقل عن الفاسي شارحه : أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع ، أو من الغروب إلى الغروب .

ثم قال الزبيدي : ويستعمل بمعنى مطلق الزمان ، نقله عن ابن هشام ، وحكاه عن سيبويه في قولهم : أنا ، اليوم ، أفعل كذا ، فإنهم لا يريدون يوماً بعينه ، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر .

قال : وبه فسروا قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

ثم قال : وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ، ومنه والحديث : تلك أيام الهرج ، أي : وقته ولا يختص بالنهار دون الليل . انتهى .

وإرادة الوقت مطلقاً منه ، عين إرادة مطلق الزمان قبله ، كما يتبادر .

(123/271)

والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقاً ، لغوي فيهما – كما نقلهما شارح القاموس – خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق ، فتثبتْ هذا .

الثانية : قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه خلق العالم ، سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام .

واختلفوا في هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس .

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت ، وهو القطع ، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال : < أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجلال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل > فقد رواه مسلم بن الحجاج في " صحيحه " والنسائي ، من غير وجه ، وفيه استيعاب الأيام

السبعة ، والله تعالى قد قال : في ستة أيام ، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في

هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ,

ليس مرفوعاً – والله أعلم – انتهى .

وقد بسطت الكلام فيه في شرحي على " الأربعين العجلونية " .

الثالثة : قال القاضي : في خلق الأشياء مدرجاً ، مع القدرة على إيجادها دفعة دليل للإختيار ، أي : لأنه لو كان بالإيجاب ، لصدر دفعة واحدة ، وفيه حث على التأني في الأمور .

(124/271)

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ اعلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الإستقرار ومنه : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي ﴾ ، وبمعنى القصد ومنه :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ، وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له ، وإليه قال الفراء : تقول العرب : استوى إليّ يخاصمني ، أي : أقبل عليّ ، ويأتي بمعنى الاستيلاء ، قال الشاعر :

~قد استوى بشر على العراق

وقال آخر :

~فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

ويأتي بمعنى العلو ، ومنه آية : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ ومنه هذه الآية .

قال البخاري في آخر " صحيحه " ، في كتاب الرد على الجهمية ، في باب قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ قال مجاهد : استوى ، علا على العرش . انتهى .

وفي كتاب " العلو " للحافظ الذهبي قال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أي : ارتفع .

ونقل ابن جرير عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع ، وقال : إنه في كل مواضعه بمعنى علا وارتفع ، وأقول : لا حجة إلى الإستكثار من ذلك ، فإن الاستواء غير مجهول ، وإن كان الكيف مجهولاً .

روى الإمام أحمد بن حنبل في كتابه " الرد على الجهمية " عن شريح بن النعمان ، عن عبد الله بن نافع قال : قال مالك بن أنس : الله في السماء ، وعلمه في كل مكان ، لا يخلو منه شيء .

وروى البيهقي عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ! : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالك ، وأخذته

الرُّحَضَاء ، ثم رفع رأسه فقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة .

(125/271)

وفي رواية قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الحافظ الذهبي في كتاب " العلو " – بعد ما ساق هذا – ما نصه :

وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها ، وأن استواءه معلوم ، كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحذلق ، لا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف ، كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل ، لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمراره ، والسكوت عنه ، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله ، لا مثل له في صفاته ، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم قال الذهبي : قال الإمام العلَم ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صاحب التصانيف الشهيرة ، في كتابه

" مختلف الحديث " : نحن نقول في قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم ﴾ ، أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ، كما تقول للرجل وجهته إلى بلد شاسع : احذر التقصير فإني معك ، يريد أنه لا يخفى علي تقصيرك .

وكيف يسوغ لأحد أن يقول : إن الله سبحانه بكل مكان ، على الحلول فيه ، مع قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ومع قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّب ﴾ ، كيف يصعد إليه شيء هو معه ؟ وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه ؟ قال : ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم ، وما ركبت عليه ذواتهم من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله عز وجل هو العلي وهو الأعلى ، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه ، والأمم كلها عجميُّها وعربيها يقول : إن الله في السماء ، ما تُركت على فِطَرِها . انتهى .

(126/271)

ثم قال الذهبي أيضاً : عن يزيد بن هارون شيخ الإسلام ، أنه قيل له : من الجهمية ؟ قال : من زعم أن : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ على خلاف ما يقر في قلوب العامة ، فهو جهمي .

قال الذهبي والعامة ، مراده بهم ، جمهور الأمة وأهل العلم ، والذي وقر في قلوبهم من الآية ،

وهو ما دل عليه الخطاب ، مع يقينهم بأن المستوي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، هذا هو الذي وقر في فطرهم السليمة ، وأذهانهم الصحيحة ، ولو كان له معنى وراء ذلك ، لتفوهوا به ، ولما أهملوه ، ولو تأول أحد منهم الاستواء

لتوفرت الهمم على نقله ، ولو نقل لاشتهر . فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من الإستواء ما يوجب نقصا أو قياساً للشاهد على الغائب ، وللمخلوق على الخالق ، فهذا نادر . فمن نطق بذلك زُجر وعُلم ، وما أظن أحداً من العامة يقر في نفسه ذلك – والله أعلم – انتهى .

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين ، الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله روحه في كتابه " تحفة المتقين وسبيل العارفين " في باب اختلاف المذاهب في صفات الله عز وجل ، وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّه ﴾ قال إسحاق : في العلم ، إلى أن قال : والله تعالى بذاته على العرش ، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله : ﴿ إِلاَّ اللّهُ ﴾ .

وقد روي ذلك عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش ، ويعلم ما في السموات والأرض ، إلى أن قال : ووقف جماعة من منكري استواء الرب عز وجل على قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وابتدؤوا بقوله : ﴿ استوى له ما في السموات وما في الأرض ﴾ يريدون بذلك نفي

الاستواء الذي وصف به نفسه ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته .

(127/271)

وقال في كتابه " الغنية " : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الإختصار ، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد .

إلى أن قال : لا يخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال إنه في السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، والنبي صلى الله عليه وسلم حكم بإسلام الأَمَة لما قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : < لما خلق الله الخلق ، كتب كتاباً على نفسه ، وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي > .

وفي لفظ آخر : < لما قضى الله سبحانه الخلق ، كتب على نفسه في كتاب ، فهو عنده فوق

العرش : إن رحمتي سبقت غضبي > .

وينبغي إطلاق صفة الإستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، لا على معنى القعود والمَاسّة ، كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلو والرفعة ، كما قالت الأشعرية ، ولا على الإستيلاء والغلبة ، كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ، ذلك ، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق .

وقد روي عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ : < الكيف غير معقول ، والإستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر > .

وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم في " صحيحه " ، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(128/271)

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تُمر كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل ، وقال أيضاً في رواية بعضهم : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في

شيء من هذه الأماكن ، وفي كتاب الله عز وجل ، أو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه رضي الله عنهم ، أو عن التابعين ، فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال في صفات الرب عز وجل كيف ؟ ولِمَ ؟ لا يقول ذلك إلا شكاك .

وقال أحمد رضي الله عنه في رواية عنه ، في موضع آخر : نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد ، لما روي عن سعيد بن المسيب ، عن كعب الأحبار ، قال ، قال الله تعالى في " التوراة " : أنا الله فوق عبادي ، وعرشي فوق جميع خلقي ، وأنا على عرشي ، عليه أدبر عبادي ، ولا يخفى عليّ شيء من عبادي .

وكونه عز وجل على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ، بلا كيف ، ولأن الله تعالى – فيما لم يزل – موصوف بالعلو والقدرة والإستيلاء والغلبة على جميع خلقه ، من العرش وغيره .

فلا يحمل الإستواء على ذلك ، فالإستواء من صفات الذات ، بعد ما أخبرنا به ، ونص عليه وأكده في سبع آيات من كتابه ، والسنة المأثورة به ، وهو صفة لازمة له ، ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر ، والحياة والقدرة ، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً ، موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة ، نقرأ الآية والخبر ، ونؤمن بما فيهما ، ونَكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل ، كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله ، كما

وصف الله تعالى نفسه في كتابه ، فتفسيره قراءته .

لا تفسير له غيرها ، ولم تتكلف غير ذلك ، فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه ، ونسأل الله تعالى العفو والعافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام . انتهى كلام الكيلاني قدس سره .

(129/271)

وروى أبو إسماعيل الأنصاري في " ذم الكلام وأهله " عن أبي زرعة الرازي ، أنه سئل عن تفسير : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فغضب وقال : تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه ، وعلمه في كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله .

وأسند عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء في جميع الأمصار ، حجازاً وعراقاً ، ومصراً وشاماً ويمناً ، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائن من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شيء علماً .

تنبيهات :

الأول : في بطلان تأويل استوى باستَوْلَى :

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى الكِنَانِي ، صاحب الشافعي رحمهما الله تعالى ، في كتاب " الرد على الجهمية " :

زعمت الجهمية أن معنى استوى استولى من قول العرب : استوى فلان على مصر ، يريدون استولى عليها . قال : فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه ؟ فإذا قال لا ، قيل له : فمن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض ، ثم استولى عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول : المدة التي كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس بمستول عليه فيها ، ثم ذكر كلاماً طويلاً في تقرير العلو والاحتجاج عليه .

وقال ابن عرفة في كتاب " الرد على الجهمية " : حدثنا داود بن علي قال : كنا عند ابن الأعرابي ، فأتاه رجل فقال : ما معنى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ؟ قال : هو على عرشه كما أخبر ، فقال : يا أبا عبد الله ! إنما معناه استولى .

فقال : اسكت ، لا يقال استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب

قيل : استولى ، والله تعالى لا مضاد له ، وهو على عرشه كما أخبر . ثم قال الاستيلاء بعد المغالبة ، كما قال النابغة :

~إلا لمثلك أو من أنت سابقه سَبْق الجواد إذا استولى على الأمد

وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن أحمد بن النضر قال : كان ابن الأعرابي جارنا ، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبي دؤاد سأله : أتعرف في اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال لا أعرفه !

وفي رواية : أرادني ابن أبي دؤاد أن أطلب له في بعض لغات العرب ومعانيها : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ، ولا وجدته . وابن الأعرابي أبو عبد الله كان لغوي زمانه – كما قال الذهبي – .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه " الإبانة في أصول الديانة " ، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون في الذبّ عنه ، عند من يطعن عليه ، فقال :

فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون .

قيل له : قولنا نقول به التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما روي عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أَبَان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين .

(131/271)

ثم قال في باب الاستواء على العرش : إن قال قائل : ما تقولون في الإستواء ؟ قيل له : نقول : إن الله مستو على عرشه كما قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ وقد قال الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، وقال : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْه ﴾ ، وقال : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ، وقال حكاية عن فرعون : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾

كذّب موسى في قوله : إن الله فوق السموات ، وقال : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ ، فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال : ﴿ أَأَمِنْتُمْ

مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ ، لأنه مستو على العرش الذي هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ ، يعني جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات .

ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ ، فلم يرد أن القمر يملؤهن ، وأنه فيهن جميعاً .

ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم ، إذا دعوا ، نحو السماء لأن الله على العرش الذي هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطونها ، إذا دعوا ، إلى الأرض .

ثم قال :

(132/271)

فصل : وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل في كل مكان ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه ، كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة ، فلو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله قادر على كل شيء ، فالله

قادر على الأرض ، وعلى الحشوش ، وعلى كل ما في العالم .

فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الإستيلاء ، وهو

عز وجل مستول على الأشياء كلها ، لكان مستوياً على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على كل الأشياء ، مستول عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستو على الحشوش والأخلية ، لم يجز أن يكون الإستواء على العرش الإستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها ، وجب أن يكون معنى الإستواء يختص العرش دون الأشياء كلها .

وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل . انتهى .

قلت : وكلام أبي الحسن الأشعري الأخير مأخوذ من كتاب رد الإمام أحمد على الجهمية ، حيث قال في كتابه المذكور :

ومما أنكرت الجهمية الضُّلال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا لِمَ

أنكرتم ذلك ؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، وقال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ ، قالوا : هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش ، فهو على العرش ، وفي السموات ، وفي الأرض ، وفي كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان

.

وتلوا آيات من القرآن : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾

(133/271)

فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ، وليس فيها من عظمة الله شيء فقالوا : أي : مكان ؟ فقلنا : أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ، وقد أخبرنا أنه في السماء ، فقال سبحانه : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ وقال : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ، وقال : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ فهذا أخبر الله أنه في السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ، وقلنا لهم : أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه ، والشياطين مكانهم ؟ فلم يكن الله ليجتمع هو

وإبليس ، ولكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ يقول : هو إله من في السموات ، وإله من في الأرض ، وهو على العرش ! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، وذلك قوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ .

(134/271)

قال : ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صاف ، وفيه شيء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح ، فالله سبحانه – وله المثل الأعلى – قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه . وخصلة أخرى : لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً في داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار . فالله سبحانه – وله المثل الأعلى – قد أحاط

بجميع ما خلق ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق .

قال أحمد رضي الله عنه : ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُم ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

﴿ قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا . فقلنا : لم قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعني أن الله بعلمه رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم ، يفتح الخبر بعلمه ، ويختمه بعلمه . انتهى .

ثم قال الإمام أحمد في آخر كتابه المذكور : وقلنا للجهمية : زعمتم أن الله في كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم : أخبرونا عن قوله الله جل ثناؤه : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ .

لِمَ تجلى ، إذا كان فيه بزعمكم ؟ ولو كان فيه كما تزعمون ، لم يكن يتجلى لشيء ، لكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه ، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك .

(135/271)

وقلنا للجهمية : الله نور ؟ فقالوا : نور كله . فقلنا : قال الله عز وجل : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ .

فقد أخبر جل ثناؤه أن له نوراً ، قلنا : أخبرونا ، حين زعمتم أن الله في كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه إذا زعمتم أن الله في كل مكان ؟ وما بال

السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء ؟ فعند ذلك تبين كذبهم على الله .

فرحم الله من عقل عن الله ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وترك دين الشيطان ، ودين جهم وشيعته . انتهى

.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر في كتاب " التمهيد " في شرح حديث : < ينزل ربنا كل ليلة > الحديث ، ما نصه : هذا الحديث ثابت من جهة النقل ، صحيح الإسناد ، لا يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى

في السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة ، وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم : إن الله في كل مكان ، وليس على العرش .

والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ثم ساق عدة آيات في ذلك ، وقال : هذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة .

وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء ، وقولهم في تأويل : ﴿ اسْتَوَى ﴾ استولى ، فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر في اللغة . ومعنى الإستيلاء في اللغة المغالبة ، والله تعالى لا يغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد .

ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى

اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عز وجل على الأشهر والأظهر من وجوه ، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم .

(136/271)

ولو ساغ ادّعاء المجاز لكل مدع ، ما ثبت شيء من العبادات . وجل الله أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب ، من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين ، والإستواء معلوم في اللغة مفهوم ، وهو العلو والإرتفاع على الشيء ، والإستقرار والتمكن فيه .

قال أبو عبيدة في قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ قال : علا ، قال : تقول العرب : استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت .

وقال غيره : استوى أي : استقر ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن في شبابه مزيد .

قال ابن عبد البر : الاستواء : الإستقرار في العلو ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ وقال الشاعر :

~فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى ، لأن النجم لا يستولي .

وقد ذكر النضر بن شميل – وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة – قال : حدثني الخليل – وحسبك بالخليل – قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم ما رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال : استووا ، فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابي إلى جانبه : إنه أمركم أن ترفعوا ، فقال الخليل : هو من قول الله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ، فصعدنا إليه ، قال : وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي ، عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ قال : استولى على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان .

(137/271)

فالجواب : أن هذا حديث منكر على ابن عباس رضي الله عنهما ، ونقلَتُه مجهولة وضعفاء ، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان .

وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يُعرف ، وهم لا يقبلون بأخبار الآحاد ، فكيف يسوغ لهم

الإحتجاج بمثل هذا الحديث ، لو عقلوا وأنصفوا ؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ ؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول : إلهي في السماء وفرعون يظنه كاذباً . قال الشاعر :

~فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد مُوحد

~مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت . وفيه يقول في وصف الملائكة :

~وساجدهم لا يرفع الدهر رأسه يعظم رباً فوقه ويُمجد

قال : فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ، وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته – تبارك وتعالى جده – قيل : لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء ، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير .

وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فالإختلاف في ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر ، وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ فالإجماع والإتفاق قد بين أن المراد أنه معبود من أهل الأرض . فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضاً في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع ، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم ، إذا كربهم أمر ، أو نزلت بهم شدة ، رفعوا

وجوههم إلى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء ، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة ، من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته .

لأنه اضطراري لم يخالفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم للأمة التي أراد مولاها عتقها ، إن كانت مؤمنة ، فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها : < أين الله ؟ > فأشارت إلى السماء . ثم قال لها : < من أنا ؟ > قالت أنت رسول الله . قال : < أعتقها فإنها مؤمنة > . فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله : تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان وما خالفهم في ذلك

أحد يحتج بقوله .

وذكر سُنَيْد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مُزَاحم في قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ قال : هو على عرشه ، وعلمه معهم أينما كانوا .

قال : وبلغني عن سفيان الثوري مثله . قال سُنَيْد : حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بَهْدَلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الله فوق العرش ، وعلمه في كل مكان ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم .

(139/271)

ثم ساق من طريق يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة عن عاصم بن بَهْدَلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما بين السماء و الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم . وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب " الإستذكار " .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في " الرسالة المدنية " : إذا وصف الله بصفة أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو وصفه بها المؤمنون

الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وحقيقتها المفهومة منها إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لا بد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي ، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربي ، لا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب ، أو خلاف الألسنة كلها ، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يراد به اللفظ ، وإلا فيمكن كل مُبطل أن يفسر أي : لفظ بأي معنى ناسخ له ، وإن لم يكن له أصل في اللغة .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازي بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء ، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة ، فلا بد من دليل مرجح للحمل على المجاز .

الثالث : أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض ، وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة ، امتنع تركها .

ثم إن كان هذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلا بد من الترجيح .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا تكلم وأراد به خلاف ظاهره ، وضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عينه أو لم يعينه ، لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الإعتقاد والعلم ، دون عمل الجوارح ، فإنه سبحانه جعل القرآن نوراً وهدىً وبياناً للناس وشفاء لما في الصدور ، وأرسل الرسول ليبين للناس ما نُزّل إليهم ، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، و : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

ثم هذا الرسول الأمي العربي بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة والعبارات .

ثم الأمة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنة ، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره ، إما بأن يكون عقلياً ظاهراً مثل قوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها .

وكذلك قوله : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل في هذا العموم ، أو سمعياً ظاهراً مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعضها الظواهر .

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفي لا يستنبطه إلا أفراد الناس ، سواء كان سمعياً أو عقلياً ، لأنه إذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى ، وأعاده مرات كثيرة ، وخاطب به الخلق كلهم ، وفيهم الذكي والبليد ، والفقيه وغير الفقيه ، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب شيئاً من ظاهره ، لأن هناك دليلاً خفياً يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره كان تدليساً أو تلبيساً ، وكان نقيض البيان ، وضد الهدى ، وهو بالألغاز والأحاجي أشبه منه بالهدى والبيان ، فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره ، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفي على أن الظاهر غير مراد ، كيف إذا كان ذلك الخفي شبهة ليس لها حقيقة ؟ انتهى .

الثاني : يتوهم كثير أن القول بالعلو والإستواء يلزم منهما القول بالتجسيم ، وقد رمى بذلك كثيرة من المحدثين ، وممن رماهم بذلك الجلال الدواني في " شرح العقائد العضدية " حيث قال ـ عفا الله عنه ـ : وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة ، وأكثرهم المحدثون ، ولابن تيمية أبي العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة ، ومبالغة في القدح في نفيها .

ورأيت في بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال : هو معدوم ، أو يقال : طلبته في جميع الأمكنة فلم أجده ، ونسب النافين إلى التعطيل ، هذا مع علو كعبه في العلوم

العقلية والنقلية ، كما يشهد به من تتبع تصانيفه .

ومحصل كلام بعضهم في بعض المواضع ، أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة الفوق ، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى ، ولذلك يتوجه إليها في الدعاء .

ولا يخفى أنه ليس في هذا القدر غائلة أصلاً ، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول ، وأنكر كون الفوق قبلة الدعاء ، بل قال : قبلة الدعاء هو نفسه ، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة ، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوز . انتهى كلام الدواني .

(142/271)

وتعقبه غير واحد :

منهم : الشيخ إبراهيم الكوراني في حاشيته عليه المسماة " مجلى المعاني " قال : إن ابن تيمية ليس قائلاً بالتجسيم ، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسماً ، في رسالة تكلم فيها على حديث النزول .

وقال في رسالة أخرى : من قال إن الله تعالى مثل بدن الْإِنْسَانْ ، أو إن الله يماثل شيئاً من المخلوقات فهو مفتر على الله سبحانه

بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة ، مع نفي اللوازم ، ونقل عليه إجماع السلف ، صرح به في الرسالة القدرية . انتهى .

ومنهم : ولي الله الدهلوي قدس سره ، قال في كتابه " حجة الله البالغة " : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث ، وسموهم مجسمة ومشبهة ، وقالوا : هم المتسترون بالبلكفة ، وقد وضح علي وضوحاً بيناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء ، وأنهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية ، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى . انتهى .

ومنهم : الشهاب الألوسي المفسر ، فإنه كتب على كلام الدواني ما نصه : حاشا لله تعالى أن يكون – يعني ابن تيمية – من المجسمة ، بل هو أبرأ الناس منهم .

نعم يقول بالفوقية ، وذلك مذهب السلف ، وهو بمعزل عن التجسيم .

وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث ، وكلام السلف الصالح ، كما لا يخفى على العارف المنصف ، نقله عنه ابنه في " محاكمة الأحمدين " .

وأقول . إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افترى وما درى ، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن غرر كلامه ، في فتاويه التي أوضح فيها الحق وأنار بها مذهب السلف قاطبة .

وهاك شذرة من درره . قال رحمه الله في بعض فتاويه :

والأصل في هذا الباب أن كل ما ثبت في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وجب التصديق به ، مثل علو الرب ، واستوائه على عرشه ، ونحو ذلك ، وأما الألفاظ المبتدعة في النفي والإثبات ، مثل قول القائل : هو جهة أو ليس في جهة ، وهو متحيز أو ليس بمتحيز ، ونحو ذلك من الألفاظ التي تنازع فيها الناس ، وليس مع أحدهم نص ، لا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة المسلمين ، هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى في جهة ، ولا قال ليس هو في جهة ، ولا قال هو متحيز ، ولا قال ليس بمتحيز ، بل ولا قال هو جسم أو جوهر ، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر . فهذه الألفاظ ليست منصوصة في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحاً .

فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولاً منهم ، وإن أرادوا معنى فاسداً يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم .

فإذا قال القائل : إن الله تعالى في جهة ، قيل : ما تريد بذلك ؟ أتريد بذلك أنه سبحانه في جهة موجودة تحصره وتحيط به ، مثل أن يكون في جوف السموات ، أم تريد بالجهة أمراً عدمياً ، وهو

ما فوق العالم شيء من المخلوقات .

فإن أردت الجهة الوجودية ، وجعلت الله تعالى محصوراً في المخلوقات ، فهذا باطل ، وإن أردت بالجهة العدمية وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات بائن عنها ، فهذا حق ، وليس في ذلك أن شيئاً من المخلوقات حصره ، ولا أحاط به ، ولا علا عليه ، بل هو العالي عليها ، المحيط بها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه ﴾ الآية .

(144/271)

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : < أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة ، ويطوي السموات بيمينه ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض > ؟

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، وما بينهن ، في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم .

وفي حديث آخر أنه يرميها كما يرمي الصبيان الكرة .

فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى ، وإلى هذا الحقر والصغار ، كيف تحيط به وتحصره ؟

ومن قال إن الله تعالى ليس في جهة ، قيل له : ما تريد بذلك ؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق

السموات رب يعبد ، ولا على عرش إله ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم يعرج به إلى الله تعالى ، والأيدي لا ترفع إلى الله تعالى في الدعاء ، ولا تتوجه القلوب إليه فهذا فرعوني معطل ، جاحد لرب العالمين . وإن كان يعتقد أنه مقر به فهو جاهل متناقض في كلامه .

ومن هنا دخل أهل الحلول والإتحاد وقالوا : إن الله تعالى بذاته في كل مكان ، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق .

وإن قال : مرادي بقولي ليس في جهة ، أن لا تحيط بها

المخلوقات فقد أصاب في هذا المعنى .

وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز : إن أرد بقوله متحيز أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ وإن أراد به منحاز عن المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب ، وإن أراد ليس ببائن عنها ، بل هو لا داخل فيها ، ولا خارج عنها ، فقد أخطأ .

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : أهل الحلول والاتحاد ، وأهل النفي والجحود ، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة .

فأهل الحلول يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، وقد يقولون بالإتحاد والوحدة ، فيقولون : وجود المخلوقات وجود الخالق .

وأما أهل النفي والجحود فيقولون : لا هو داخل العالم ، ولا خارج ، ولا مباين له ، وهذا قول متكلمة الجهمية المعطلة ، كما أن الأول عَبَّاد الجهمية . فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود ، الذي هو قول فرعون .

وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلقها ، فإما أن يكون دخل فيهما ، وهذا حلول باطل ، وإما أن يكونا دخلا فيه ، وهو أبطل وأبطل ، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما ، لم يدخل فيهما ، ولم يدخل فيه ، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة .

ولأهل الجحود والتعطيل في هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، وما فطر الله تعالى عليه عباده ، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة ، فإن هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته ، عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان في الكتاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :

< كل مولود يولد على الفطرة ، فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة

بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ > ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : إقرؤوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ وهذا معنى قول عُمَر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عليه ، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها .

وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم ، فيريدون أن يغيروا فطرة الله تعالى ، ودينه عز وجل ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات ، لا

(146/271)

يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم . وقد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع ، وأصل ضلالهم تكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها في كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين .

كلفظ : المتحيز والجسم والجهة ونحو ذلك ، فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بينها ، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

ومن تكلم في الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة ، فهو من الخائضين في آيات الله تعالى بالباطل ، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين ما لم يقولوه .

وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الكلام ، فيها شبهات أضلتهم ، ولم يهتدوا لجوابهم ، فإنهم يجدون في تلك الكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة ، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ ، ولا ما أراد بها أصحابها ، فإن ذكر لفظ الجسم في أسماء الله تعالى وصفاته ، بدعة لم ينطق كتاب ولا سنة ، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولم يقل أحد منهم : إن الله تعالى جسم ولا أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا أن الله تعالى جوهر ، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر .

ولفظ الجسم لفظ مجمل ، فمعناه في اللغة هو البدن ، ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الْإِنْسَانْ فهو مفتر على الله عز وجل ، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال ، ومن قال إن تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يُرى في الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربي ، بل القرآن العربي مخلوق أو هو تصنيف جبريل عليه السلام ، أو نحو ذلك ، فهو مفتر على الله تعالى فيما نفاه عنه .

(147/271)

وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ، ومن وافقهم على مذهبهم ، فإنهم يظهرون للناس التنزيه ، وحقيقة كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نجسم ، بل نقول : الله ليس بجسم ، ومرادهم بذلك نفي حقيقة أسمائه وصفاته .

إلى أن قال : فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزه عن كل نقص وعيب ، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل . قال عز شأنه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

فقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ رد على الممثلة ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة . انتهى ملخصاً .

قال رضي الله عنه في جواب على سؤال رفع إليه نصه : الإستواء هل هو حقيقة أو مجاز ؟ : ما نصه ملخصاً :

القول في الإستواء والنزول كالقول في سائر الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى سمى نفسه بأسماء ، ووصف بصفات ، فالقول في بعض هذه الصفات ، كالقول في بعض ، ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن نصف

الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين .

(148/271)

ومعلوم بالإضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز نفي صفات الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات ، بل هذه جحد للخالق ، وتمثيل له بالمعدومات . وقد قال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، لأنهم لا ينفون شيئاً من ذلك ، ولا يجدون فيه صفة محصورة ، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقر بها مشبه ، وهم عند من أقرَّ بها ، نافون للمعبود ، لا مثبتون ، والحق فيما قاله القائلون ، مما نطق به الكتاب والسنة ، وهم أئمة الجماعة . هذا الذي حكاه ابن عبد البر .

ومن أنكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة ، فإنما أنكر لجهله لمسمى الحقيقة ، أو لكفره وتعطيله لما يستحقه رب العالمين ، وذلك أنه قد نظن أن إطلاق ذلك

يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق ، فيقال له : هذا باطل ، فإن الله موجود حقيقة ، والعبد موجود حقيقة ، وله تعالى ذات حقيقة ، والعبد له ذات حقيقة ، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات ، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة ، وللعبد سمع وبصر ، وعلم حقيقة ، وليس علمه وسمعه وبصره مثل علم العبد وسمعه وبصره .

ولله كلام حقيقة ، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين .

والله استوى على عرشه حقيقة ، وللعبد استواء على الفلك حقيقة ، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق ، فإن الله لا يفتقر إلى شيء ، ولا يحتاج إلى شيء ، بل هو الغني عن كل شيء ، والله تعالى يحمل العرش وحملته ، بقدرته و

﴿ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ﴾ .

(149/271)

فمن ظن أن معنى قول الأئمة : الله مستو على عرشه حقيقة ، يقتضي أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام ، لزمه أن يكون قولهم : إن الله له علم حقيقة ، وسمع وبصر حقيقة ، وكلام حقيقة ، يقتضي أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم .

فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق ، كان في غاية الجهل ، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى ، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب ، كما لا نسبة بين ذاته وذاته .

فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة ، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازاً ؟

ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى ، فله المثل الأعلى .

فكل كمال حصل للمخلوق ، فالخالق أحق به ، وكل نقص ينزه عنه مخلوق ، فالحق أحق أن ينزه عنه ولهذا كان لله المثل الأعلى ، فإنه لا يقاس بخلقه ولا يمثل بهم ولا تضرب به الأمثال ، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا في قياس .

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات لله تبارك وتعالى ، بل صفات الكمال لازمة لذاته ، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له ، بل يمتنع تحقق ذات من الذات عريّةً عن جميع الصفات ، وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع .

فإذا قال : وجود الله ، وذات الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، وسمع الله ، وبصر الله ، وكلام الله ، ورحمة الله ، وغضب الله ، واستواء الله ، ونزول الله ، ومحبة الله ، ونحو ذلك ، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شيء من المخلوقات ، ومن غير أن يماثله فيها شيء من المخلوقات .

وإذا قال : وجود العبد وذاته ، وماهيته وعلمه ، وقدرته وسمعه وبصره ، وكلامه

واستواؤه ونزوله ، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به ، من غير أن تماثل صفاته صفات الله تعالى .

(150/271)

بل أبلغ من ذلك ، أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب ، والملابس والمناكح والمساكن ، ما ذكره في كتابه ، كما ذكر أن فيها لبناً وعسلاً وخمراً ولحماً وحريراً وذهباً وفضة وحوراً وقصوراً وغير ذلك .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء .

فتلك الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا ، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه ، والإسم يتناولهما حقيقة ، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق ، والمخلوق عن مشابهة الخالق ، فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلاً لمخلوقاته ، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة ! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض ، مع أن

مباينتهما للمخلوقات أعظم مباينة كل مخلوق لكل مخلوق ؟ والجاهل يضل بأن يقول : العرب إنما وضعوا لفظ الإستواء لاستواء الْإِنْسَانْ على السرير أو الفلك ، أو استواء السفينة على

الجودي ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات ، فهو كما يقول القائل : إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفاناً ، وأصمخة وآذاناً ، وشفتين ولساناً ، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاء ، وهذا كله جهل منه . فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه ، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه ، وعلمه وإرادته ورحمته ، مما يختص به ، يتناول ذلك خصائص العبد .

وإذا قيل سمع الله وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته ، كان هذا متناولاً لما يختص به الرب ، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين ، وكذلك إذا قيل استواء الرب ، فهذا الإستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع و البصر ، المضاف إلى الله لا يجوز أن يتناول ذلك شيئاً من خصائص المخلوقين .

(151/271)

وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويعطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته ، وخرجوا عن القياس العقلي والنص الشرعي ، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح ، ولا

منقول صحيح .

ثم لا بد لهم من إثبات بعض ما يثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات : فإذا أثبتوا البعض ونفوا البعض ، قيل لهم ما الفرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه ؟ ولم كان هذا حقيقة ، ولم يكن هذا حقيقة ؟ لم يكن لهم جواب أصلاً ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعاً وعقلاً .

ونظائر هذا كثيرة ، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته ، وإذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلاً للمخلوقين ، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم ، كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سفسطة ، وآخره زندقة لأنه يقتضي نفي جميع أسماء الله وصفاته وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد .

وإن فرق بين صفة وصفة ، مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز ، كان متناقضاً في قوله ، متهافتاً في مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض .

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور ، تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطراد ، وأنه مقتضى المعقول الصريح ، والمنقول الصحيح ، وأن من خالفه ، كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والشرع ، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة . انتهى .

فائدة : في منشأ هذا التعطيل

وبين رضي الله عنه ، في فتوى أخرى له في الصفات ، مورد هذا التعطيل .

حيث قال رضي الله عنه :

(152/271)

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخود عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة – أعني أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما ﴿ استوى ﴾ استولى ونحو ذلك – أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفون وأظهرها ، فتنسب مقالة الجهمية إليه ، والجعد أخذ مقالته عن أَبَان بن سمعان ، وأخذها أَبَان من طالوت ابن أخت لَبِيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لَبِيد بن أصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان الجعد هذا – فيما قيل – من أهل حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة ، والفلاسفة ، بقايا أهل دين النمرود الكنعانيين ، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ، وكانوا يعبدون الكواكب ، ويبنون لها الهياكل ، ومذهبهم في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما ، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً – فيما ذكره

الإمام أحمد وغيره – من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشركين .

والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين ، وإما من المشركين . ثم لما عربت الكتب الرومية في حدود المئة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ، ابتداء من جنس ما ألقاه في قولب أشباههم .

ولما كان في حدود المئة الثانية ، انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية ، بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته ، وكلام الأئمة – مثل مالك رضي الله عنه وسفيان بن عيينة ، وأبي يوسف والشافعي ، وأحمد وإسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم – في بشر المريسي هذا كثير في ذمة وتضليله .

(153/271)

وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس ، مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب " التأويلات " ، وذكرها أبو عبد الله محمد بن عُمَر الرازي في كتابه الذي سماه " تأسيس التقديس " ويوجد كثير منها في كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبي علي الجبائي وعبد الجبار بن أحمد الهمداني ، وأبي الحسين البصري وابن عقيل وأبي حامد

الغزالي وغيرهم ، وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي في كتابه ، وإن كان قد يوجد في كلام هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن في أشياء ، فإنما بيَّنت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي . وعلمنا ذلك بكتاب " الرد " الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في زمن البخاري ، صنف كتاباً سماه " نقض عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله في التوحيد " حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي ، بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذي اتصلت إليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكيّ ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم .

ثم إذا رأى الأئمة – أئمة الهدى – قد أجمعوا على ذم المريسية ، وأكثرهم كفّروهم ، أو ضللوهم ، وعلم أن هذا القول الساري في هؤلاء المتأخرين ، هو مذهب المريسي تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رضي الله عنه :

مذهب السلف بين التعطيل وبين يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله وآياته .

وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل ، أما المعطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات ، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولاً ، وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، تعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى .

فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً ، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان ، على أي : جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به ، فلا يلزمه شيء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام . وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، إذا لا يعقل موجود إلا هذان ، أو قوله : إذا كان مستوياً على العرش ، فهو مماثل لاستواء الإِنْسَانْ على السرير أو الفُلك ، إذا لا يعلم الاستواء إلا هكذا ، فإن كليهما مثّل ، كلاهما عطّل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للإستواء الحقيقي ،

وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين ، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقُدرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

(155/271)

واعلم أنه ليس في العقل الصحيح ، ولا في النقل الصريح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها ، فذلك سهل يسير . انتهى كلامه .

ومن أحاط عقله بهذه الغرر ، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم .

وفي هذه النفائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله .

الثالث : يطلق العرش على معان : السرير ، ومنه آية : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ والملك ، يقال : ثل عرشهم . وسقف البيت ، ومنه آية : ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ ، وحديث <كالقنديل المعلق بالعرش> أو البناء ، ومنه : ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ أي :

يبنون ومنه : العريش ، وهو ما يستظل به . والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحد .

قال في القاموس : العرش ، عرش الله تعالى ، ولا يحدّ . انتهى .

وقال الراغب : عرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالإسم على الحقيقة ، ولذا لم يصح في صفته حديث ، وكل ما روي في ذلك فليس من مرويات الصحاح .

قال البيهقي في كتاب " الأسماء والصفات " : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم ، خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق في الأرض بيتاً ، وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة ، وفي أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه ، وفي الأخبار والآثار الواردة في معناه دليل على صحة ذلك . انتهى .

وقال الحافظ الذهبي في كتاب " العلو " : اعلم أن الله عز وجل ، قد أخبرنا ، وهو أصدق القائلين ، بأن عرش بلقيس عرش عظيم : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم ختم الآية بقوله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ، فكان عرشها عظيماً بالنسبة إليها ، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته .

(156/271)

ثم قال : فما الظن بما أعد الله تعالى من السُّرر والقصور في الجنة لعباده ، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته ، وقوائمه وماهيته وحملته الحافين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته ؟ اسمع وتعقل ما يقال ، والجأ إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة ، فالقرآن مشحون بذكر العرش ، وكذلك الآثار ، بما يمتنع أن يكون المراد به الملك . فدع المكابرة والمراء ، فإن المراء في القرآن كفر .

آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم ، الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الذهبي ـ رحمه الله تعالى – .

الرابع : سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان ، عن العرش : هل هو كري أم لا ، فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة ، فيقصد العلو دون غيره ، إذا لا فرق حينئذ بين الجهات التي تحيط بالداعي ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة .

فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها .

فأجاب رحمه الله بقوله :

إن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرّية ، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة ، فرأوا أن الأفلاك تسعة ، وأن

التاسع ، وهو الأطلس ، محيط بها ، وهو الذي يحركها الحركة الشرقية ، وإن كان لكل فلك حركة تخصه ، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيه والسموات السبع ، فقالوا بطريق الظن : إن العرش هو الفلك التاسع ، لاعتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق .

(157/271)

ثم إن منهم من رأى أنه هو الذي يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس . وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف ، وذلك غير صحيح ، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة ، كما فعل أصحاب " رسائل إخوان الصفاء " .

والأخبار تدل أن العرش مباين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السموات والأرض . فقد ثبت في صحيح

البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال : < كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، وأن له قوائم > كما في حديث أبي سعيد : < فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش > .

وقد استدل من قال إنه مقبب ، بما رواه أبو داود من قوله عليه الصلاة والسلام < وإن الله تعالى على عرشه ، وإن عرشه على سمواته ، وسمواته فوق أرضه هكذا ، وقال بأصابعه مثل القبة > .

وهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو ، لا من جميع الجوانب ، إلا بدليل منفصل ، ولفظ الفلك يستدل به على الإستدارة مطلقاً ، كما قال ابن عباس في : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ : في فلكة مثل فلكة المغزل ، وأما لفظ القبة فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الإستدارة من العلو .

واعلم أن العرش ، وسواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً به أو كان فوقه من جهة وجه الأرض ، محيط به ، أو قيل فيه غير ذلك ، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < يقبض الله تبارك وتعالى الأرض

يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ > ، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عُمَر ، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال :

< يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ > .

وفي لفظ : ويتميل رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء .

وفي رواية أخرى قال : قرأ على المنبر : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية ، قال : مطويّة في كفه ، يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ، ففي هذه الأحاديث وغيرها ، المتفق على صحتها ، ما يبين أن السماوات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل ، أصغر من أن تكون مع قبضه لها ، إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا ، حتى يدحوها كما تدحى الكرة .

ثم قال في الجواب : فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميناه كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، فلا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف

معرفة ما لم يصف ، وإذا كان كذلك ، فهو قادر على أن يقضها ويدحوها كالكرة ، في ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل .

(159/271)

وبكل حال فهو مباين لها ، ليس بمجانب لها ، ومن المعلوم أن الواحد منا – ولله المثل الأعلى – إذا كان عنده خردلة ، إن شاء قبضها ، فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها ، بل جعلها تحته ، فهو في الحالين مباين لها ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات ، كإحاطة الكرة بما فيها ، أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذي نحن عليها بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها ، أو غير ذلك ، فعلى التقدير يكون العرش فوق المخلوقات ، والخالق سبحانه فوقه ، والعبد في توجهه إليه عز وجل ، يقصد العلو ، دون التحت .

وتمام هذا البحث بأن يقال : لا يخلو إما أن يكون العرش كرياً كالأفلاك ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها ، وليس بكري .

فإن كان الأول ، فمن المعلوم – باتفاق من يعلم هذا – أن الأفلاك مستديرة كرية ، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط ، وهو المحدود ، وأن الجهة السفلى هي المركز ، وليس للأفلاك إلا

جهتان : العلو والسفل فقط ، وأما الجهات الست فهي للحيوان ، فإن له ست جوانب : يؤم جهة فتكون أمامه ، ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذي شماله ، وجهة تحاذي يمينه ، وجهة تحاذي رأسه ، وجهة تحاذي رجليه . وليس لهذه الجهات في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو للعلو ، والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله تعالى للأنام ، وأرساها بالجبال ، هو الذي عليه الناس والبهائم وغيرهما .

(160/271)

فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم ، ولو قدر أن هناك أحداً ، لكان على ظهر الأرض ، ولم يكن مَن في هذه الجهة تحت مَن في هذه الجهة ، ولا مَن في هذه تحت مَن في هذه . كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي ، ولا بالعكس ، وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الإستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً ، كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة ، وهو الذي يسمى

عرض البلد ، فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها ، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا جبال يتخيله الْإِنْسَانْ ، وهو تحت إضافي .

كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف ، فالسقف فوقها ، وإن كانت رجلاه تلي السماء ، وكذلك قد يتوهم الْإِنْسَانْ إذا كان في أحد جانبي الأرض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته ، وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة ، وهذا كما أنه قول أهل الهيئة والحساب ، فهو الذي عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسن المناوي وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم ، وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره .

ومن ظن أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم .

فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها ، وسقفها وهو فوقها مطلقاً ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الْإِنْسَانْ إلا من العلو .

ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلاً من غير جهة العلوّ

كان جاهلاً باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ! وغاية ما يقدر أن يكون كريّ الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله ، فإن السماوات السبع والأرض في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا .

وأما قول القائل : إذا كان كريّاً ، الله من ورائه محيط بائن عنه ، فما الفائدة في التوجه إلى العلو دون التحت ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصد العلو ؟ فيقال : هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ، وتحت ما على وجه الأرض ، من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط .

فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة ، لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ، وأهل الهيئة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا ، وألقي في الخرق شيء ثقيل كالحجر ونحوه ، لكان ينتهي إلى المركز ، حتى لو ألقي من تلك الناحية حجر آخر ، لالتقيا جمعياً في المركز ، الذي هو النقطة المتوسطة في كرة الأرض ، ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر ، لالتقت رجلاهما ، ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك .

وإذا كان مطلوب أحد ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب ، لأنه لو قدر أن رجلاً أو ملكاً يصعد إلى السماء ، كان صعوده مما يلي رأسه ، ولا

يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، أو يذهب يميناً أو شمالاً ثم يصعد

.

ولو أن رجلاً أراد مخاطبة القمر ، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنه قد يشرق ويغرب ، فكيف بما هو فوق كل شيء لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى .

وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق ، وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد ، كيف يعدل عن الصراط المستقيم ؟ مطلب في حديث الإدلاء

إلى أن قال :

(162/271)

وحدث الإدلاء ، الذي رواه أبو هريرة وأبو ذر ، قد رواه الترمذي وغيره من حديث الحسن عن أبي هريرة ، وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ولكن يقويه حديث أبي ذر المرفوع . فإن كان ثابتاً ، فمعناه موافق لهذا ، فإن قوله صلى الله عليه وسلم : < لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله > ، إنما هو تقدير مفروض ، أي : لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكن لا يمكن أن يدلي أحد على الله عز وجل شيئاً ، لأنه عال بالذات ،

وإذا أُهبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز ، والمقصود بيان إحاطة الخالق سبحانه ، كما بين أنه يقبض السموات ، ويطوي الأرض ، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى ، ولهذا قرأ في تمام الحديث :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهذا كله على تقدير صحته ، فإن الترمذي لما رواه قال : وفسره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله .

وبعض الحلولية والإتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حال بذاته في كل مكان ، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك .

وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم ، بل على تقدير ثبوته ، فالمراد به الإحاطة ، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه ، وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه في الدعاء إلى جهة العلو ، وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة .

وقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال : < إذ قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبل وجهه ، فإن الله تعالى قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن يمينه ملكاً ، وليبصق عن يساره أو تحت رجله > .

وفي رواية : إنه أذن أن يبصق في ثوبه ، وفي حديث أبي رَزين المشهور : لما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه ، فقال له أبو رَزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع ؟ فقال : < سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله تعالى : هذا القمر آية من آيات الله تعالى كلكم يراه مخلياً به ، فالله أكبر > .

وفي الصحيحين : < لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم > .

واتفق العلماء على أن رفع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه ، وروى محمد بن سيرين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء ، حتى نزل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده .

فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلاً للفطرة ، لأن الداعي المأمور بالذل ، لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ، خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر ، وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ الآية ، ثم بين تأويل : الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه ، وقال : قد ظنوا أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا وهم ، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه صريح في أن الحجر ليس هو من صفاته تعالى ، وتقييده بالأرض يدل

على أنه ليس هو يده على الإطلاق ، فلا تكون اليد حقيقة . وقوله : فكأنما صافح الله تعالى . . . الخ ، صريح في أن المصافح ليس مصافحاً له تعالى ، لأن المشبه ليس هو المشبه به .

(164/271)

إلى أن قال : فهذا كله بتقدير كرّية العرش ، وأما إذا قدر لأنه ليس بكري الشكل ، بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه الأرض ، وأنه فوق الأفلاك الكرية ، كما أن وجه الأرض الموضع للأنام ، فوق نصف الأرض الكريّ ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه ، فعلى كل تقدير لا يتوجه إلى الله تعالى إلا

إلى العلو ، مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه .

وعلى ما ذكرناه لا يلزم شيء من المحذور والتناقض ، وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من اعتقاد فاسد ، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كرّياً ، والله تعالى فوقه كما تقتضيه ذاته ـ سبحانه عن مشابهة المخلوقين – وجب فيما عند الزاعم أن يكون سبحانه كرياً ، ثم يعتقد أنه إذا كان كرّياً فيصح التوجه إلى ما هو كري كالفلك التاسع من جميع الجهات ، وهذا خطأ ، فإن القول بأن العرش كري لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها وأقدارها أو في

صفاتها ، بل قد تبين أن سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحمصة في يد أحدنا ، فإذا كانت الحمصة مثلاً في يد الْإِنْسَانْ أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل ، إذا استشعر علو الْإِنْسَانْ على ذلك وإحاطته ، بأن يكون الْإِنْسَانْ كالفلك ؟ فالله تعالى – وله المثل الأعلى – أعظم من أن يظن به ذلك .

وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وإذا لم يكن كريّاً ، فالأمر ظاهر مما تقدم ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله تعالى أعلم .

(165/271)

وإنما أشبعنا الكلام في هذا المقام ، لأنه من أصول العقائد الدينية ، ومهمات المسائل التوحيدية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء ، بل اجتهدوا في إيراد التمحلات التي تأتي تأباها فطرة الله أشد الغباء ، فبقيت نفوس أنصار السنة المحققين ، مائلة إلى مذهب السلف الصالحين ، فإن الأئمة منهم ، كان عقدهم ما بيناه فلا تكن من الممترين ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي : يغطيه به ، يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار ، فيغطيه ويلبسه ، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً .

قال الشهاب : وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الإستعارة ، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه ، فكأنه لف عليه لف الغشاة ، أو شبه تغييب كل منهما ، بطريانه عليه ، بستر اللباس للابسه . انتهى .

ولم يذكر العكس للعلم به ، أو لأن اللفظ يحتملها ، ولذلك قرئ : ﴿ يَغْشى اللَّيْلَ النَّهارُ ﴾ بنصب الليل ، ورفع النهار : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ أي : يعقبه سريعاً ، كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء .

قال الرازي : وإنما وصف سبحانه هذه الحركة السرعة,

لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الْإِنْسَانْ إذا كان في العدو الشديد الكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك ، كانت تلك الحركة في غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : مذللات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه .

قال الشهاب : وسماه أمرا على التشبيه ، إذ جعل هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهم مأمورات منقادة لأمره ، ويصح حمله على ظاهره . انتهى .

أي : وهو الكلام ، فيكون تعالى أمره هذه الأجرام بالسير الدائم ، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا ، وخراب هذا العالم . وقد قرئ : ﴿ وَالشَّمْسَ ﴾ وما بعده بالنصب ، عطفاً على

﴿ السَّمَوَاتِ ﴾ ونصب : ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ على الحال . وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الإبتداء ، والخبر : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ أي : هو الذي خلق الأشياء كلها ، وهو الذي صرفها على حسن إرادته ، وفسر الأمر بالقضاء والحكم .

تنبيهان :

الأول : استخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى ، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق ، فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر ، يعني أن من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى ، من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله . كذا في " اللباب " .

قال في " الإكليل " : استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق ، أخرجه ابن أبي حاتم . لأن الأمر هو الكلام ، وقد عطفه على الخلق ، فاقتضى أن يكون غيره ، لأن العطف

يقتضي المغايرة ، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظي . انتهى .

الثاني : قال في " اللباب " : في الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ، أي : للحصر المستفاد من تقديم الظرف ، ففيه رد على من يقول : إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم .

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم . قال في " التاج " : سئل أبو العباس عن تفسير : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ فقال : ارتفع . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 104.69 ﴾

(167/271)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ جاءت أغراض هذه السّورة متناسبة متماسكة ، فإنّها ابتدئت بذكر القرآن والأمر باتّباعه ونبذِ ما يصدّ عنه وهو اتّباع الشّرك ؛ ثمّ التّذكيرِ بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله ، ثمّ الاستدلال على وحدانية الله ، والامتنانِ بخلق الأرض والتّمكين منها ، وبخلق أصل البشر وخَلقهم ، وخُلَل ذلك بالتّذكير بعداوة الشّيطان لأصل البشر وللبشر في قوله : ﴿

لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] .

وانتُقل من ذلك إلى التّنديد على المشركين فيما اتّبعوا فيه تسويل الشّيطان من قوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ [الأعراف : 28] ، ثمّ بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله : ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم ﴾ [الأعراف : 35] الآية .

وبأن المشركين ظَلموا بنكث العهد بقوله : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ [الأعراف : 37] وتوعدهم وذكّرهم أحوال أهل الآخرة ، وعَقِب ذلك عاد إلى ذكر القرآن بقوله : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ [الأعراف : 52] وأنهاه بالتّذييل بقوله : ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [الأعراف : 53] .

فلا جرم تهيأت الأسماع والقلوب لتلقي الحجّة على أنّ الله إله واحد ، وأنّ آلهة المشركين ضلال وباطل ، ثمّ لبيان عظيم قدرته ومجده فلذلك استؤنف بجملة ﴿ إن ربكم الله ﴾ الآية ، استئنافاً ابتدائياً عاد به التّذكير إلى صدر السّورة في قوله : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ [الأعراف : 3] ، فكان ما في صدر السّورة بمنزلة المطلوب المنطقي ، وكان ما بعده بمنزله البرهان ، وكان قوله : ﴿ إن ربكم الله ﴾ بمنزلة النّتيجة للبرهان ، والنتيجة مساوية للمطلوب إلاّ أنّها تؤخَذُ أوضحَ وأشد تفصيلاً .

فالخطاب موجّه إلى المشركين ابتداء ، ولذلك كان للتّأكيد بحرف (إنّ) موقعه لرد إنكار المشركين انفراد الله بالرّبوبيه .

وإذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعظم مجد الله وسعة ملكه ، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته ، كان الخطاب صالحاً لتناول المسلمين ، لصلاحية ضمير الخطاب لذلك ، ولا يكون حرف (إن) بالنّسبة إليهم سدى ، لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر ، لأنّ فيه حظاً للفريقين ، ولأنّ بعض ما اشتمل عليه (ما) هو بالمؤمنين أعلق مثل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ [الأعراف : 55] وقوله : ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] وبعضه بالكافرين أنسب مثل قوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ [الأعراف : 57] .

وقد جعل المخبرُ عنه الرب ، والخبرُ اسمَ الجلالة : لأن المعنى أنّ الرب لكم المعلومَ عندكم هو الذي اسمه الدال على ذاته : اللَّهُ ، لا غيره ممَن ليس له هذا الاسم ، على ما هو الشّأن ، فهي تعريف المسند في نحو : أنا أخوك ، يقال لمن يعرف المتكلّم ويعرف أنّ له أخاً ولا يعرف أنّ المتكلم هو أخوه .

فالمقصود من تعريف المسند إفادة ما يسمّى في المنطق بحمل المواطاة ، وهو حمل (هُو هُو) ولذلك يخيّر المتكلّم في جعل أحد الجزأين مسند إليه ، وجعل الآخر مسنداً ، لأنّ كليهما

معروف عند المخاطب ، وإنّما الشّأن أن يجعل أقواهما معرفة عند المخاطب هو المسندَ إليه .

ليكون الحمل أجدى إفادة ، ومن هذا القبيل قول المعرّي يصف فارساً في غارة:

يخُوض بَحْراً نَقْعه ماؤُه . . .

يحُمله السّابح في لِبْدِهِ

إذ قد عَلِم السامع أنّ للفارس عند الغارة نقعاً .

(169/271)

وعلم أنّ الشّاعر أثبت للفارس بَحراً وأنّ للبحر ماء ، فقد صار النّقع والبحر معلومين للسّامع ، فأفاده أنّ نقع الفارس هو ماء البحر المزعوم ، لأنّه أجدى لمناسبة استعارة البحر للنّقع ، وإلاّ فما كان يعوز المعرّي أن يقول : ماؤه نقعه فمن انتقد البيت فإنّه لم ينصفه .

وأُكِّد هذا الخبر بحرف التّوكيد ، وإن كان المشركون يثبتون الربوبيّة لله ، والمسلمون لا يمترون في ذلك ، لتنزيل المشركين مِن المخاطبين منزلة من يتردّد في كون الله ربّاً لهم لكثرة إعراضهم عنه في عباداتهم وتوجهاتهم .

وقولُه : ﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ صفة لاسم الجلالة ، والصّلة مؤذنة بالإيماء

إلى وجه بناء الخبر المتقدّم ، وهو ﴿ إن ربكم الله ﴾ لأنّ خلق السّماوات والأرض يكفيهم دليلاً على انفراده بالإلهية ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ بسورة الأنعام (1) .

وقوله : في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ تعليم بعظيم قدرته ، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية ، فلا يدلّ قوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ على أنّ أهل مكّة كانوا يعلمون ذلك ، وفيه تحَدّ لأهل الكتاب كما في قوله تعالى : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : 197] وليس القصد من قوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ الاستدلال على الواحدانية ، إذ لا دلالة فيه على ذلك .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السّماوات والأرض مدّرجاً ، وأن لا يكون دفعة ، لأنّه جعل العوالم متولّداً بعضُها من بعض ، لتكون أتقن صنعاً ممّا لو خُلقت دَفعة ، وليكون هذا الخلق مَظْهَراً لصفتي علمِ الله تعالى وقدرتِه ، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة ، لكنّ العلم والحكمة اقتضيا هذا التّدرج ، وكانت تلك المدّة أقل زمن يحصل فيه المراد من التّولّد بعظيم القدرة .

ولعلّ تكرّر ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التّنبيه إلى هذه النّكتة البديعة ، من كونها مظهر سعة العلم وسعة القدرة .

وظاهر الآيات أنّ الأيام هي المعروفة للنّاس ، التي هي جمعُ اليوم الذي هو مدّة تقدّر من مبدأ ظهور الشّمس في المشرق إلى ظهُورها في ذلك المكان ثانية ، وعلى هذا التّفسير فالتّقدير في ما يماثل تلك المدّة ستّ مرّات ، لأنّ حقيقة اليوم بهذا المعنى لم تتحقّق إلاّ بعد تمام خلق السّماء والأرض ، ليمكن ظهور نور الشّمس على نصف الكرة الأرضية وظهور الظلمة على ذلك النّصف إلى ظهور الشّمس مرّة ثانية ، وقد قيل : إنّ الأيام هنا جمع اليوم من أيّام الله تعالى الذي هو مدّة ألف سنة ، فستّة أيام عبارة عن ستّة آلاف من السّنين نظراً لقوله تعالى:

﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : 47] وقوله : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ [السجدة : 5] ، ونقل ذلك عن زيد بن أرقم واختاره النّقاش ، وما هو ببعيد ، وإن كان مخالفاً لما في التّوراة ، وقيل المراد : في ستّة أوقات ، فإنّ اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ [الأنفال : 16] أي حين إذ يلقاهم زَحْفاً ، ومقصود هذا القائل أنّ السماوات والأرض خُلقت عالَماً بعد عالم ولم يشترك جميعُها في أوقات تكوينها ، وأيّاً مّا كان فالأيام مراد بها مقادير لا الأيام التي واحدها يوم الذي هو من طلوع الشّمس إلى غروبها

إذ لم تكن شمس في بعض تلك المدّة ، والتّعمّق في البحث في هذا خروج عن غرض القرآن .

والاستواء حقيقتهُ الاعتدال ، والذي يؤخذ من كلام المحقّقين من علماء اللّغة والمفسّرين أنّه حقيقة في الارتفاع والاعتلاء ، كما في قوله تعالى في صفة جبريل ﴿ فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ﴾ [النجم : 86] .

(171/271)

والاستواء له معان متفرّعة عن حقيقته ، أشهرها القصد والاعتلاء ، وقد التُزم هذا اللّفظ في القرآن مسنداً إلى ضمير الجلالة عند الإخبار عن أحوال سماوية ، كما في هذا الآية .

ونظائرُها سبعُ آيات من القرآن : هنا .

وفي يونس ، والرّعد ، وطه ، والفرقان ، وألم السجدة ، والحديد ، وفُصّلت .

فظهر لي أنّ لهذا الفعل خصوصيّة في كلام العرب كان بِسببها أجدرَ بالدّلالة على المعنى المرادِ تبليغهُ مجملاً ممّا يليق بصفات الله ويقرّب إلى الأفهام من معنى عظمته ، ولذلك اختِير في هذه الآيات دون غيره من الأفعال التي فسّره بها المفسّرون .

فالاستواء يعبّر عن شأن عظيم من شؤون عظمة الخالق تعالى ، اختير التّعبير به على طريق الاستعارة والتّمثيلِ : لأنّ معناه أقرب معاني المواد العربيّة إلى المعنى المعبّر عنه من شؤونه

تعالى ، فإنّ الله لمّا أراد تعليم معانٍ من عالم الغيب لم يكن يتأتى ذلك في اللّغة إلاّ بأمثلة معلومة من عالم الشّهادة ، فلم يكن بد من التّعبير عن المعاني المغيّبة بعبارات تقرّبها ممّا يعبر به عن عالم الشّهادة ، ولذلك يكثر في القرآن ذكر الاستعارات التّمثيليّة والتّخييليّة في مثل هذا .

وقد كان السّلف يتلقّون أمثالها بلا بحثٍ ولا سؤال لأنّهم علموا المقصود الإجمالي منها فاقتنعوا بالمعنى مجملاً ، ويسمّون أمثالَها بالمتشابهات ، ثمّ لمّا ظهر عصر ابتداء البحث كانوا إذا سئلوا عن هذه الآية يقولون : استوى الله على العرش ولا نعرف لذلك كيفاً ، وقد بيّنتُ أنّ مثل هذا من القسم الثّاني من المتشابه عند قوله تعالى : ﴿ وأخر متشابهات ﴾ في سورة آل عمران (7) ، فكانوا يأبون تأويلها .

وقد حكى عياض في المدارك ﴾ عن سفيان بن عيينة أنّه قال : سأل رجل مالكاً فقال : الرّحمنُ على العرش استوى .

(172/271)

كيفَ استوى يا أبا عبد الله ؛ فسكت مالكٌ مليّاً حتّى علاه الرّحَضاء ثمّ سُرّيَ عنه ، فقال : "الاستواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عن هذا بدعة والإيمان به واجب وإنّي لأظنّك ضالاً" واشتهر هذا عن مالك في روايات كثيرة ، وفي بعضها أنّه قال لمن سأله :

"وأظنّك رجُلَ سوء أخْرِجُوه عنّي" وأنّه قال : "والسؤالُ عنه بدعة" .

وعن سفيان الثّوري أنّه سئل عنها : "فقال : فَعَلَ اللهُ فعلا في العرش سمّاه استواء" .

قد تأوّله المتأخّرون من الأشاعرة تأويلات ، أحسنها : ما جنح إليه إمام الحرمين أنّ المراد بالاستواء الاستيلاء بقرينة تعديته بحرف على ، وأنشدوا على وجه الاستيناس لذلك قولَ الأخطل:

قد استوى بِشْرٌ على العراق . . .

بغيرِ سيف ودم مُهْرَاق

وأُراه بعيداً ، لأنّ العرش ما هو إلاّ من مخلوقاته فلا وجه للإخبار باستيلائه عليه ، مع احتمال أن يكون الأخطل قد انتزعه من هذه الآية ، وقد قال أهل اللّغة : إنّ معانيه تختلف باختلاف تعديته بعَلى أو بإلى ، قال البخاري ، عن مجاهد : استوى عَلا على العرش ، وعن أبي العالية : استوى إلى السّماء ارتفع فسَوى خلقهن .

وأحسب أنّ استعارته تختلف بقرينة الحَرف الذي يُعدّى به فعله ، فإن عُدّي بحرف (على) كما في هذه الآية ونظائرها فهو مستعار من معنى الاعتلاء ، مستعمل في اعتلاء مجازي يدلّ على معنى التّمكّن ، فيحتمل أنّه أريد منه التّمثيل ، وهو تمثيل شأنِ تصرّفه تعالى بتدبير العوالم ، ولذلك نجده بهذا التّركيب في الآيات السّبع واقعاً عقب ذكر خلق السّماوات والأرض ، فالمعنى حينئذ : خلقَها ثمّ هو يدبّر أمورها تدبير المَلِك أمور مملكته

مستوياً على عَرشه .

وممّا يقرب هذا المعنى قول النّبيء صلى الله عليه وسلم "يَقْبِض الله الأرضَ ويطوي السّماوات يومَ القيامة ثمّ يقول : أنا المَلِك أينَ ملوك الأرض " .

(173/271)

ولذلكَ أيضاً عُقب هذا التّركيب في مواقعه كلّها بما فيه معنى التّصرف كقوله هنا ﴿ يغشى الليل النهار الخ ، وقوله في سورة يونس (3) : ﴿ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وقوله في سورة الرّعد (2) : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات ﴾ وقوله في سورة ألم السجدة (4 ، 5) : ﴿ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ وكمال هذا التّمثيل يقتضي أن يكون كلّ جزءٍ من أجزاء الهيئة الممثّلة مشبهاً بجزء من أجزاء الهيئة الممثَّل بها ، فيقتضي أن يكون ثمة موجود من أجزاء الهيئة الممثّلة مشابهاً لعرش المَلك في العظمة ، وكونه مصدر التّدبير والتّصرف الإلهي يفيض على العوالم قوى تدبيرها .

وقد دلّت الآثار الصّحيحة من أقوال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام على وجود هذا المخلوق العظيم المسمّى بالعرش كما سنبيّنه .

فأمّا إذا عُدّي فعل الاستواء بحرف اللاّم فهو مستعار من معنى القصد والتّوجّه إلى معنى تعلّق الإرادة ، كما في قوله:

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [البقرة : 29] .

وقد نحا صاحب "الكشاف" نحواً من هذا المعنى ، إلاّ أنّه سلك به طريقة الكناية عن المُلك : يقولون استوى فلان على العرش يريدون مُلك .

والعرش حقيقته الكرسي المرتفع الذي يجلس عليْه المَلِك ، قال تعالى : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ [النما : 23] وقال : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ [يوسف : 100] ، وهو في هذه الآية ونظائرها مستعمل جزءا من التّشبيه المركّب ، ومن بداعة هذا التّشبيه أن كان كلّ جزء من أجزاءِ الهيئة المشبهة مماثلاً لجزءٍ من أجزاء الهيئة المشبَّه بها ، وذلك أكمل التّمثيل في البلاغة العربيّة ، كما قدّمتُه آنفاً .

(174/271)

وإذ قد كان هذا التّمثيل مقصوداً لتقريب شأن من شؤون عظمة مُلك الله بحال هيئةٍ من الهيئات المتعارفة ، ناسب أن يشتمل على ما هو شعار أعظم المدبّرين للأمور المتعارفة أعني الملوك ، وذلك شعارُ العرش الذي من حَوْله تصدر تصرّفات الملك ، فإنّ تدبير الله

لمخلوقاته بأمر التّكوين يكون صدوره بواسطة الملائكة ، وقد بيّن القرآن عَمَل بعضهم مثل جبريل عليه السّلام وملَكِ الموت ، وبيَّنت السنة بعضها : فذكرت ملك الجبال ، وملك الرّياح ، والملك الذي يباشر تكوين الجنين ، ويكتُب رزقَه وأجلَه وعاقبتَه ، وكذلك أشار القرآن إلى أن من الموجودات العلويّة موجوداً منوّها به سمّاه العرش ذكره القرآن في آيات كثيرة .

ولمّا ذكر خلق السّماوات والأرض وذكر العرش ذكره بما يشعر بأنّه موجود قبل هذا الخلق . وبيّنت السنّة أنّ العرش أعظم من السماوات وما فيهن ، من ذلك حديث عمران بن حصين أنّ النّبيء صلى الله عليه وسلم قال : "كان الله ولم يكن شيء قبلَه وكان عرشه على الماء ثمّ خلق السّماوات والأرض " وحديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال في حديث طويل : " فإذا سألتم الله فاسألُوه الفِردوس فإنّه أوسط الجنّة ، وأعلَى الجنّة وفوقَه عرش الرّحمن ومنه تفجّر أنهار الجنّة " وقد قيل إنّ العرشِ هو الكرسي وأنّه المراد في قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ كما تقدّم الكلام عليه في سورة البقرة (255) .

(175/271)

وقد دلّت (ثُمّ) في قوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ على التّراخي الرّتبي أي وأعظم من خلق السّماوات والأرض استواءه على العرش ، تنبيهاً على أنّ خلق السّماوات والأرض لم يحدث تغييراً في تصرّفات الله بزيادة ولا نقصان ، ولذلك ذكر الاستواء على العرش عقب ذكر خلق السّماوات والأرض في آيات كثيرة ، ولعلّ المقصد من ذلك إبطال ما يقوله اليهود : إنّ الله استراح في اليوم السّابع فهو كالمقصد من قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق : 38] .

وجملة ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة ، ذكر به شيء من عموم تدبيره تعالى وتصرّفه المضمّن في الاستواء على العرش ، وتنبيه على المقصود من الاستواء ، ولذلك جاء به في صورة الحال لا في صورة الخبر ، كما ذكر بوجه العموم في آية سورة يونس (3) وسورة الرّعد (2) بقوله:

﴿ يدبر الأمر ﴾ وخصّ هذا التّصرف بالذّكر لما يدلّ عليه من عظيم المقدرة ، وما فيه من عبرة التّغيّر ودليلِ الحدوث ، ولكونه متكرّراً حدوثه في مشاهدة النّاس كلّهم .

والإغشاء والتّغشية : جعل الشّيء غاشياً ، والغَشْي والغشيان حقيقته التّغطيّة والغمّ .

فمعنى : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ أنّ الله يجعل أحدهما غاشياً الآخر .

والغشي مستعار للإخفاء ، لأنّ النّهار يزيل أثر اللّيل واللّيل يزيل أثر النّهار ، ومن بديع الإيجاز ورشاقة التّركيب : جعل الليل والنّهار مفعولين لفعل فاعل الإغشاء ، فهما مفعولان كلاهما

صالح لأن يكون فاعل الغشي ، ولهذا استغنى بقوله : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ عن ذكر عكسه ولم يقل : والنّهار اللّيل ، كما في آية ﴿ يكور الليل على النهار ﴾ [الزمر : 5] لكن الأصل في ترتيب المفاعيل في هذا الباب أن يكون الأوّلُ هو الفاعل في المعنى ، ويجوز العكس إذا أمِن اللّبس ، وبالأحرى إذا استوى الاحتمالان .

(176/271)

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية حفص ﴿ يُغْشِي ﴾ بضمّ الياء وسكون الغين وتخفيف الشّين .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر ، ويعقوب ، وخلَف بضمّ الياء وفتح الغين وتشديد الشّين وهما بمعنى واحد في التّعدية .

وجملة : ﴿ يطلبه ﴾ إن جعلت استينافاً أو بدلَ اشتمال من جملة (يغشي) فأمرها واضح ، واحتمل الضّمير المنصوب في (يطلبه) أن يعود إلى اللّيل وإلى النّهار ، وإن جعلت حالا تعين أن تعتبر حالاً من أحد المفعولين على السَّواء فإنّ كلاًّ اللّيل والنّهار يعتبر طالباً ومطلوباً ، تبعاً لاعتبار أحدهما مفعولاً أوّل أو ثانياً .

وشُبّه ظهور ظلام اللّيل في الأفق ممتداً من المشرق إلى المغرب عند الغروب واختفاء نور

النّهار في الأفق ساقطاً من المشرق إلى المغرب حتّى يعمّ الظّلامُ الأفقَ بطلب اللّيل النّهارَ ، على طريقة التّمثيل ، وكذلك يفهم تشبيه امتداد ضوء الفجر في الأفق من المشرق إلى المغرب واختفاءُ ظلام اللّيل في الأفق ساقطاً في المغرب حتّى يعمّ الضياء الأفقَ : بطلب النّهار اللّيلَ على وجه التّمثيل ، ولا مانع من اعتبار التّنازع للمفعولين في جملة الحال كما في قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ [مريم : 27] وقوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ .

والحثيث : المسرع ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، من حثَه إذا أعجله وكَرّر إعجاله ليبادر بالعجلة ، وقريب من هذا قول سلامة من جَنْدَل يذكر انتهاء شبابه وابتداء عصر شيْبه:

أوْدَى الشّبابُ الذي مَجْدٌ عواقِبه . . .

فيهِ نَلَذَّ ولا لَذّاتِ للشّيب

ولَّى حثيثاً وهذا الشّيبُ يَتْبَعُه . . .

لو كان يُدْرِكه ركْضُ اليَعاقيبِ

فالمعنى يطلبه سريعاً مُجدّاً في السّرعة لأنّه لا يلبث أن يعفى أثره .

(177/271)

﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ بالنّصب في قراءة الجمهور معطوفات على السّماوات والأرض ، أي وخلق الشّمسَ والقمر والنّجوم ، وهي من أعظم المخلوقات التي اشتملت عليها السّماوات .

و﴿ مسخرات ﴾ حال من المذكورات .

وقرأ ابن عامر برفع ﴿ الشمس ﴾ وما عطف عليه ورفْعِ ﴿ مسخرات ﴾ ، فتكون الجملة حالا من ضمير اسم الجلاله كقوله : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ .

وتقدّم الكلام على اللّيل والنّهار عند قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ في سورة البقرة (164) ويأتي في سورة الشّمس .

والتّسخير حقيقته تذلِيل ذي عمل شاقٍ أو شاغلٍ بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض ، فمنه تسخير العبيد والأسرى ، ومنه تسخير الأفراس والرّواحل ، ومنه تسخير البقر للحلب ، والغنم للجزّ .

ويستعمل مجازاً في تصريف الشّيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه ، بحيلة أو إلهام تصريفاً يصيّره من خصائصه وشؤونه ، كتسخير الفُلك للمخر في البحر بالرّيح أو بالجذف ، وتسخير السّحاب للأمطار ، وتسخير النّهار للعمل ، واللّيل للسّكون ، وتسخير اللّيل للسّير في الصّيف ، والشّمس للدّفء في الشّتاء ، والظلّ للتبرد في الصّيف ، وتسخير الشّجر للأكل من ثماره حيث خلق مجرّداً عن موانع تمنع

من اجتنائه مثل الشّوك الشّديد ، فالأسد غير مسخّر بهذا المعنى ولكنّه بحيث يسخر إذا شاء الإنسان الانتفاع بلحمه أو جلده بحيلة لصيده بزُبية أو نحوها ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [الجاثية : 13] باعتبار هذا المجاز على تفاوت في قوّة العلاقة .

فقوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أطلق التّسخير فيه مجازاً على جعلها خاضعة للنّظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير ، مع أنّ شأن عظمها أن لا يستطيعَ غيره تعالى وضعها على نظام محدود منضبط .

(178/271)

ولفظ الأمر في قوله : ﴿ بأمره ﴾ مستعمل مجازاً في التّصريف بحسب القدرة الجارية على وفق الإرادة .

ومنه أمر التّكوين المعبّر عنه في القرآن بقوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] لأن (كن) تقريب لنفاذ القدرة المسمّى بالتّعلّق التّسخيري عند تعلّق الإرادة التّنجيزي أيضاً فالأمر هنا من ذلك ، وهو تصريف نظام الموجودات كلّها .

وجملة : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ مستأنفة استئناف التّذييل للكلام السّابق من قوله : ﴿

الذي خلق السموات والأرض ﴾ لإفادة تعميم الخَلْق .

والتّقدير : لما ذُكر آنفاً ولِغيره .

فالخلق : إيجاد الموجودات ، والأمر تسخيرها للعمل الذي خلقت لأجله .

وافتتحت الجملة بحرف التّنبيه لتَعِي نفوسُ السّامعين هذا الكلام الجامع .

واللام الجارة لضمير الجلالة لام المِلك .

وتقديم المسند هنا لتخصيصه بالمسند إليه .

والتّعريف في الخلق والأمر تعريف الجنس ، فتفيد الجملة قصر جنس الخلق وجنس الأمر على الكون في مِلك الله تعالى ، فليس لغيره شيء من هدا الجنس ، وهو قصر إضافي معناه : ليس لآلهتهم شيء من الخلق ولا من الأمر ، وأمّا قصر الجنس في الواقع على الكون في مِلك الله تعالى فذلك يرجع فيه إلى القرائن ، فالخلق مقصور حقيقة على الكون في ملكه تعالى ، وأمّا الأمر فهو مقصور على الكون في ملك الله قصراً ادعائياً لأنّ لكثيرٍ من الموجودات تدبيرَ أمور كثيرة ، ولكن لما كان المدبِّر مخلوقاً لله تعالى كان تدبيره راجعاً إلى تدبير الله كما قيل في قصر جنس الحمْد في قوله:

﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] .

وجملة ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ تذييل معترضة بين جملة ﴿ إن ربكم الله ﴾ وجملة ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ [الأعراف : 55] إذ قد تهيّأ المقام للتّذكير بفضل الله

على النّاس ، وبنافع تصرّفاته ، عقب ما أجرى من إخبار عن عظيم قدرته وسعة علمه وإتقانِ صنعه .

(179/271)

وفعل ﴿ تبارك ﴾ في صورة اشتقاقه يؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتّصف به مثل : تثاقل ، أظهر الثّقل في العمل ، وتعالل ، أي أظهر العلّة ، وتعاظم : أظهر العظمة ، وقد يستعمل بمعنى ظهور الفعل على المتّصف به ظهوراً بيّناً حتى كأنّ صاحبه يُظهره ، ومنه : ﴿ تعالى الله ﴾ [النمل : 63] أي ظَهر علوّه ، أي شرفه على الموجودات كلّها ، ومنه ﴿ تبارك ﴾ أي ظَهرت بركته .

والبركة : شدّة الخير ، وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ في سورة آل عمران (96) ، وقوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ في سورة الأنعام (92) .

فبركة الله الموصوفُ بها هي مجده ونزاهته وقدسه ، وذلك جامع صفات الكمال ، ومن ذلك أنّ له الخلق والأمر .

وإتْباع اسم الجلالة بالوصف وهو رب العالمين في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد ،

لأنّه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد ، ومدبّر أحوال الموجودات ، بوصف كونه ربّ أنواع المخلوقات ، ومضى الكلام على ﴿ العالمين ﴾ في سورة الفاتحة (2) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(180/271)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : ﴿ رَبَّكُمُ الله ﴾ ولا أحد يختلف في مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [الزمر : 38] وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدّع أحد نفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو : " افعل ولا تفعل " ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم ، فلا شيء في التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيء لن يعطي لله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أوجدكم . وإن كنتم أنتم في شك في هذه الربوبية فربكم هو الله – ولله المثل الأعلى – منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لا تسهر خارج

المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتنبه الأم ولدها : إن أباك هو الذي يأتي لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد . . إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المكلف هو الرازق ولا أحد سواه يرزق ، لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأن سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

(181/271)

ومن قبل فصل الحق سبحانه خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتي له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي اليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ

الخلق والأمر تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ [الأعراف : 54]

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض – كما أوضحت – وهو الظرف الوجودي للإنسان الخليفة وطرأ الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلَق الخليفة ليجيء الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ؛ ولا يستطيع أي كائن منه أن يخرج عن مراد الله في شيء ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ ﴾ . ومعنى " الخلق " أي أوجد شيئاً كان معدوماً وبرأه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شيء بنظام غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة " الخلق " مادتها الفاعلة هي : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿ . . . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14]

(182/271)

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضاً أشرك خالقاً غيره معه فقال جل وعلا : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ . كيف ؟ ؛ لأن الخلق إيجاد شيء معدوم ، والذي صنع الميكروفون يقال خلقه ، والذي صنع الكوب يقال خلقه ، والذي صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من

البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتي بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة في الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئاً معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شيء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أي صنعة تظل جامدة على هيئة صناعتها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع – كما سبق أن قلت قديماً – أن نأتي بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً في مكان ونقول لهما : أنجبا لنا أكواباً صغيرة . لكن ما يخلقه ربنا يعطي له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال في آية أخرى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ . . . ﴾ [الطلاق : 12]

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض

مفرداً ؟ . . لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة " أراضين " ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

(183/271)

والسماء هي كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء في اللغة . لكن هل السماء التي يريدها الله هي كل ما علاك ؟ . . إن النجم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا السموات هي الكواكب إنها ليست دائما ما علانا ؛ فالشمس تعلو وقتا وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أي منهما بأنه سماء دائما . وشيء آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التي كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا : إن هذه السماء ، إنهم بقولهم هذا قد وقعوا في خطأ . وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هي السماء ، وبقيت السماء هي ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [الصافات : 6]

هذه – إذن – زينة للسماء الدنيا ، والسماء التي يقصدها ربنا ليست هي التي يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ . وحدث هذا بعد بعثته صلى الله عليه وسلم والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أي أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التي فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين . وأين هي هذه الأراضين ؟ . . أهي أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التي هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن في هذا العالم العالي توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً .

(184/271)

والحق هو القائل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ . ﴾ [الشورى : 29]

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هي كل ما علاك والأرض كل ما أقلك . ومادامت سبع سموات والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتي بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى .

ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التي نحن عليها مخلوقة لله .

والحق يقول : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ [الأعراف : 54]

وقوله : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى : ﴿ . . . سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاما آمِنِينَ ﴾ [سبأ : 18]

أي هناك ليل وهناك يوم ، إذن فاليوم عند الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم في العرف الفلكي : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاما آمِنِينَ ﴾ .

يعني أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد

أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هي التي تحدد اليوم فكيف عرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم .

ألم تقرأ قول الله سبحانه : ﴿ . . . وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62]

(185/271)

وليس في الآخرة بكرة ولا عشى ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر العشي ، وكذلك ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وتلك هي الآيات المحكمات في القرآن بالنسبة لزمن الخلق ؛ ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت في ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام .

اقرأ معي : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . . ﴾ [فصلت : 9-12]

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها أيام ، ومن النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحالوا أن يجعلوها

ضجة عالية . ونقول : إنه – سبحانه – خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم في تتمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات في يومين فيكون عدد الأيام التي تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجمل ، فحين يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ [الأعراف : 54]

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . . إن ربنا يخلق ب "كن" ، ونحن البشر على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة "كن" فالأمر بالنسبة له هين جداً – سبحانه وتعالى – لكن لماذا جاء الخلق في ستة أيام ؟

(186/271)

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقا – ولله المثل الأعلى – بصانع الزبادي ، الذي يأتي بأكواب اللبن الدافئ ، ثم يضع في كل منها جزءا من خميرة الزبادي ، ويضع تلك الأكواب في الجو المناسب . فهل يؤدي هذا الرجل عملاً لمدة أثنتي عشرة ساعة في كل كوب ، وهي المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ . . طبعاً لا

، فقد اكتفى بأن في كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولنظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوي . ويأخذ الأمر تسعة شهور

وسبحانه جل جلاله لا يعمل في خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض في ستة أيام لا يعني أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : "كن " وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفي القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

[ق : 38]

أي خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر "كن " فكانت السموات والأرض . والآية التي بعدها فوراً تقول : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب في أن نأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً

، فهو قد خلق السموات والأرض في ستة أيام . ونحن في حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدي إن ربنا خلق السماء والأرض في ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

(187/271)

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض في لحظة ، لكنه أمر " بكن " وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليعلمنا التأني ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض في لحظة ، خلقها في ستة أيام ، لذلك قال سبحانه : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ . . . ﴾ [ق : 39]

أي لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وسيأتي لهؤلاء الجاحدين يومهم الذي يؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتي حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسي والكائنات ؟ . . ونقول : إن الإنجاز الذي أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع بقدرة الله ، في كل جزيئة من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العرش . . . ﴾ [الأعراف : 54]

ولابد أن نعرف العرش ما هو . وسبحانه يقول في ملكة سبأ : ﴿ . . . وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23]

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور . فكأن قوله : ﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا في ﴿ استوى ﴾ ، اختلفوا في فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان في ذلك تحييز لله ووضعه وضمه في جرم ما . وسبحانه منزه عن أن يحيزه شيء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معاني لكلمة ﴿ استوى ﴾ منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : " صعد " أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ . . . ﴾ [فصلت : 11]

(188/271)

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا : المقصود ب " استوى " أنه استوى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل في متاهات التشبيهات ، أو متاهات

التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شيء منسوب إلى الله في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11]

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [الفتح : 10]

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول إن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شيء منسوب إلى الله مما يوجد مثله في البشر ، في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : " الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة " وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا في متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الاستواء ؟ . . لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شيء من معناها في أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنهم فهموها بفطرتهم التي فطرهم الله عليها في إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ . . إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم

يخبرنا فقد أراد أن يكتمها . وإن لم يكن قد علم الأمر . . فهل تطلب لنفسك أن نعلم ما لم يعلمه صلى الله عليه وسلم ؟

(189/271)

أو أنّه صلى الله عليه وسلم ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ والذين يمنعون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ . لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لابد أن ندخل على كل صفة لله فننفي عنها التعطيل وننفي عنها التشبيه . ثم إن من يمنعون التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88]

ومادام ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فكل ما يطلق عليه شيء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنت قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدره يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك . وتكون قد دخلت في متاهة ما لها من آخر . لذلك نقول : لنأخذ النص وندخله في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . وآية الاستواء على

العرش هذه ، مذكورة في سور كثيرة ، وهي تحديداً في " سبعة مواضع " ؛ في سورة الأعراف التي نحن بصددها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : ﴿ يُغْشِي اليل النهار ﴾ .

الله – سبحانه – قد خلق السماء والأرض للخليفة في الأرض وهيأ له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ .

. لا بد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضي راحة . ومن يشتغل ساعة لا بد أن يرتاح ساعة . وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غُلب على نفسه .

(190/271)

ونحن نرى في الالة التي تعمل ثلاث ورديات يومياً أي التي تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تُستهلك أكثر من الآلة التي تعمل ورديتين ، والآلة التي تعمل وردية واحدة لمدة ثماني ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ

جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [القصص : 73]

أي لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا الفضل في النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة في الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل .

لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً إلى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا : ﴿ يُغْشِي اليل النهار . . . ﴾ [الأعراف : 54]

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشي الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة . ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62]

(191/271)

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفي مصر نكون في نهار مثلا ، ويكون هذا الوقت في بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذي كان خلفه للثاني ؟ فلن تجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتي أولاً ثم تطلع الشمس

على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخرة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتي النهار خلفة لليل ، ويكون الليل خلفه للنهار . ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62]

﴿ يُغْشِي اليل النهار ﴾ ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التي منها قوله الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ اليل سَابِقُ النهار . . . ﴾ [يس : 40]

أي أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خُلقاً دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر . . ﴾

(192/271)

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجد النواميس الكونية التي لا دخل للإنسان فيها ولاختياراته دخل في أمورها تسير بنظام دقيق ، ففي الوقت الفلاني ستأتي الأرض بين الشمس والقمر ، وفي الوقت الفلاني سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغْشِي اليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر . . . ﴾ [الأعراف : 54]

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد ان خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل – سبحانه – له الأمر بعد ذلك . وقيوميته ؛ لأنه لم يزاول سلطانه في ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ .

وإذا نظرت إلى كلمة " الأمر " تجد الحق يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ للَّهِ . . . ﴾ [آل عمران : 154]

والمقصود هو الأمر الكوني ، أما الأمور الاختيارية فلله فيها أمر يتمثل في المنهج ، وأنت لك فيها أمر إما أن تطيع وإما أن تعصي ، وأنت حر . ﴿ . . . أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [الأعراف : 54]

وحين يقول سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ ﴾ وقال من قبل : ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ ، فكل لفظ له معنى ، ففي خلقه من البشر مواهب تَخْلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .

وفي قول آخر يصف الحق نفسه : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾ [الأنعام : 62]

(193/271)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهي آلات تتم " برمجتها " وإعدادها وتهيئتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ؛ لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل عليّ كرم الله وجهه :

- أيحاسب الله خلقه في وقت واحد ؟

قال : وما العجب في ذلك ألم يرزقهم في وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق ﴿ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾ و ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ ، و ﴿ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ و ﴿ خَيْرُ الوارثين ﴾ . وهذه هي الألفاظ التي وردت ، ولله فيها مع خلقه

صفة ، لكن صفة الله دائما في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ .

و﴿ تَبَارَكَ اللهُ ﴾ أي أنه – تعالى – تنزّه ؛ لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة – وهي قدرة الله – والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة وب "كن" وهذا هو الانفعال والانقياد وللإرادة والأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(194/271)

وقال الشيخ الصابونى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال القرطبي : لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلِّم العبادَ التثبت في الأمور ﴿ ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرش ﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبارُ الصفات تُمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال

: كيف ؟ ولِمَ ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء ، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف أو يحدها حادٌّ ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل وقال القرطبي : لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الساتواء فإنه لا تُعلم حقيقته ﴿ يُغْشِي اليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه ﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ ﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره ﴿ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿ تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ أي تعظّم وتمجّد الخالق المبدع رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 450 . 451 ﴾

(195/271)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ

اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن سميط قال : دلنا ربنا تبارك وتعالى على نفسه في هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه عن الحسن بن علي قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عاد : آية الكرسي ، وثلاث آيات من الأعراف ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ وعشراً من أول الصافات ، وثلاث آيات من الرحمن ﴿ يا معشر الجن ﴾ [الرحمن : 33] وخاتمة سورة الحشر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة قال : نزلت هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ [آل عمران : 7] لقي ركب عظيم لا يرون أنهم من العرب ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجنة ، خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن عبيد بن أبي مرزوق قال : من قرأ عند نومه ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض . . . ﴾ الآية . بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح ، وعوفي من السرق .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال : مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعوذونه ، فقرأ رجل منهم ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض . . . ﴾ الآية كلها . وقد أصمت الرجل ، فتحرك ثم استوى جالساً ، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التي سجد فيها قال له أهله : الحمد لله الذي عافاك . قال : بعث إلى نفسي ملك يتوفاها ، فلما قرأ صاحبكم الآية التي قرأ ، سجد الملك وسجدت بسجوده فهذا حين رفع رأسه ، ثم مال فقضى .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ لكل يوم منها اسم : أبي جاد ، هواز ، حطى ، كلمون ، صعفص ، قرشات .

وأخرج سمويه في فوائده عن زيد بن أرقم قال : إن الله عزَّ وجلَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قال : كل يوم مقداره ألف سنة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد قال : بدء الخلق العرش والماء والهواء ، وخلقت الأرض من الماء ، وكان بدء الخلق يوم الأحد ويوم الإِثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجميع الخلق في يوم الجمعة ، وتهودت اليهود يوم السبت ، ويوم من الستة أيام كألف سنة مما تعدون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : إن الله بدأ خلق السموات والأرض وما بينهما يوم الأحد ، ثم استوى على العرش يوم الجمعة في ثلاث ساعات ، فخلق في ساعة منها الشموس كي يرغب الناس إلى ربهم في الدعاء والمسألة ، وخلق في ساعة النتن الذي يقع على ابن آدم إذا مات لكي يقبر .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن حيان الأعرج قال : كتب يزيد بن أبي سلم إلى جابر بن زيد يسأله عن بدء الخلق ؟ قال : العرش والماء والقلم ، والله أعلم أي ذلك بدأ قبل .

(197/271)

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : بدأ الله بخلق السموات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وجعل كل يوم ألف سنة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : " يا أبا هريرة إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، وآدم يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة ، في اخر ساعة من النهار " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال : يوم السابع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار قال : إن الله حين خلق الخلق استوى على العرش فسبَّحه العرش .

وأخرج ابن مردويه واللالكائي في السنة عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها في قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به ايمان ، والجحود به كفر .

وأخرج اللالكائي عن ابن عيينة قال : سئل ربيعة عن قوله ﴿ استوى على العرش ﴾ كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق . وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عبد الله بن صالح بن مسلم قال : سئل ربيعة . . . فذكره .

وأخرج اللالكائي عن جعفر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال له : يا أبا عبد الله استوى على العرش كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته وعلاه الرُّحَضاء يعني العرق وأطرق القوم قام : فسرى عن مالك فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالاً وأمر به فأخرج .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن وهب قال : كنا عند مالك بن أنس ، فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استواؤه ؟ فاطرق مالك وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه .

قال : فأخرج الرجل .

وأخرج البيهقي عن أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت سفيان بن عيينه يقول : كلما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه .

وأخرج البيهقي عن إسحق بن موسى قال : سمعت ابن عيينه يقول : ما وصف الله به نفسه فتفسيره قراءته ، ليس إلا لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسله صلوات الله عليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عيسى قال : لما استوى على العرش خر ملك ساجداً ، فهو ساجد إلى أن تقوم الساعة ، فإذا كان يوم القيامة رفع رأسه فقال : سبحانك ما عبدتك حق عبادتك إلا اني لم أشرك بك شيئاً ، ولم اتخذ من دونك ولياً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ قال : يغشي الليل النهار فيذهب بضوئه ، ويطلبه سريعاً حتى يدركه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ حثيثاً ﴾ قال : سريعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ قال : يلبس الليل النهار .

أما قوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ .

أخرج الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشمس والقمر والنجوم خلقن من نور العرش " .

أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينه في قوله ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ قال : الخلق : ما دون العرش ، والأمر : ما فوق ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن سفيان بن عيينه قال : الخلق : هو الخلق ، والأمر ، هو الكلام .

(199/271)

وأخرج ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط ما عمل : ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

لم يفصل هنا ذلك ، ولكنه فصله في سورة " فصلت " بقوله : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت : 9-12] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي الليل النهار ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] ونحو ذلك . أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة ، فصار قوم إلى تعطيل وقوم إلى التشبيه – سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله – والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح ، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال ، وحاصل تحرير

ذلك أنه جل وعلا بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين :

أحدهما : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(201/271)

والثاني : الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم . لأنه لا يصف الله اعلم بالله من الله ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ﴾ [البقرة : 140] ، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 3-4] فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز ، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا ، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا . ﴿ سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 16] .

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق ، فهو مشبه ملحد ضال ، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة الخلق ، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال ، والتنزيه عن مشابهة الخلق ، سالم من

ورطة التشبيه والتعطيل ، والآية التي أوضح الله بها هذا . هي قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] فنفى عن نفسه جل وعلا مماثلة الحوادث بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله : ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال .

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله : ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ دون أن يقول مثلاً : وهو العلي العظيم أو نحو ذلك من الصفات الجامعة .

(202/271)

أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات . فبين أن الله متصف بهما ، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى ، وبين صفات خلقه . ولذا جاء بقوله : ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ بعد قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة ، وسنوضح إن شاء الله هذه المسألة إيضاحاً تاماً بحسب طاقتنا ، وبالله جل وعلا التوفيق .

اعلم أولاً : أن المتكلمين قسموا صفاته جل وعلا إلى ستة أقسام :

صفة نفسية ، وصفة سلبية ، وصفة معنى ، وصفة معنوية ، وصفة فعلية ، وصفة جامعة ، والصفة الإضافية تتداخل مع الفعلية . لأن كل صفى فعلية من مادة متعدية إلى المفعول كالخلق والإحياء وافماتة ، فهي صفة إضافية ، وليست كل صفة إضافية فعلية فبينهما عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة ، وتتفرد الفعلية في نحو الاستواء ، وتتفرد الإضافية في نحو كونه تعالى كان موجوداً قبل كل شيء ، وأنه فوق كل شيء ، لأن القبلية والفوقية من الصفات الإضافية ، وليستا من صفات الأفعال ، ولا يخفى على عالم بالقوانين الكلامية والمنطقية أن إطلاق النفسية على شيء من صفاته جل وعلا أنه لا يجوز ، وأن فيه من الجراءة على الله جل وعلا ما الله عالم به ، وإن كان قصدهم بالنفسية في حق الله الوجود فقط وهو صحيح ، لأن الإطلاق الموهم للمحذور في حقه تعالى لا يجوز ، وإن كان المقصود به صحيحاً . لأن الصفة النفسية في الإصطلاح لا تكون إلا جنساً أو فصلاً ، فالجنس كالحيوان بالنسبة إلى الإنسان ، والفصل كالنطق بالنسبة إلى الإنسان والفرس والحمار ، وأن الفصل صفة نفسية لبعض أفراد الجنس ينفصل بها عن غيره من الأفراد المشاركة له في الجنس كالنطق بالنسبة إلى الإنسان ، فإنه صفته النفسية

التي تفصله عن الفرس مثلاً : المشارك له في الجوهرية والجسمية والنمائية والحساسية ، ووصف الله جل وعلا بشيء يراد به اصطلاحاً ما بينا لك . من أعظم الجراءة على الله تعالى كما ترى . لأنه جل وعلا واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، فليس بينه وبين غيره اشتراك في شيء من ذاته ، ولا من صفاته ، حتى يطلق عليه ما يطلق على الجنس والفصل – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – لأن الجنس قدر مشترك بين حقائق مختلفة . والفصل : هو الذي يفصل بعض تلك الحقائق المشتركة في الجنس عن بعض سبحان رب السماوات والأرض وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(204/271)

وسنبين لك أن جميع الصفات على تقسيمهم لها جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها ، وهم في بعض ذلك يقرون بأن الخالق موصوف بها ، وأنها جاء في القرآن أيضاً وصف المخلوق بها ، ولكن وصف الخالق مناف لوصف المخلوق ، كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق ، ويلزمهم ضرورة فيما أنكروا مثل ما أقروا به لأن الكل من باب واحد ، لأن جميع صفات الله جل وعلا من باب واحد ، لأن المتصف بها لا يشبهه شيء من الحوادث . فمن ذلك : الصفات السبع . المعروفة عندهم بصفات المعاني وهي : القدرة ، والإرادة ،

والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

فقد قال تعالى في وصف نفسه بالقدرة : ﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 284] .

وقال في وصف الحادث بها : ﴿ إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : 34] فأثبت لنفسه قدرة حقيقية لائقة بجلاله وكماله ، وأثبت لبعض الحوادث قدرة مناسبة لحالهم من الضعف والافتقار والحدوث والفناء ، وبين قدرته ، وقدرة مخلوقه من المنافاة ما بين ذاته وذات مخلوقه .

وقال في وصف نفسه بالإرادة : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] ، ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ﴾ [البقرة : 185] ، ونحو ذلك من الآيات .

وقال في وصف المخلوق بها : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ [الأنفال : 67] الآية ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾ [الأحزاب : 13] ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ ﴾ [الصف : 8] ، ونحو ذلك من الآيات .

فله جل وعلا إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله ، وللمخلوق إرادة أيضاً مناسبة لحاله ، وبين إرادة الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق .

وقال في وصف نفسه بالعلم : ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 282] ، ﴿ لكن اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : 166] الآية ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف : 7] . وقال في وصف الحادث به : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : 28] ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : 68] ونحو ذلك من الآيات .

فله جل وعلا علم حقيقي لائق بكماله وجلاله ، وللمخلوق علم مناسب لحاله ، وبين علم الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق .

وقال في وصف نفسه بالحياة : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [غافر : 65] الآية . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : 58] ، ونحو ذلك من الآيات .

وقال في وصف المخلوق بها : ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ [مريم : 15] ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] ، ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ [يونس : 31] .

فله جل وعلا حياة حقيقية تليق بجلاله وكماله ، وللمخلوق أيضاً حياة مناسبة لحاله . وبين حياة الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق .

وقال في وصف نفسه بالسمع والبصر : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [

الشورى : 11] ، ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 61] ونحو ذلك من الآيات .

وقال في وصف الحادث بهما : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] ، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] الآية ونحو ذلك من الآيات .

(206/271)

فله جل وعلا سمع وبصر حقيقيان يليقان بكماله وجلاله ، وللمخلوق سمع وبصر مناسبان لحاله . وبين سمع الخالق وبصره ، وسمع المخلوق وبصره من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق .

وقال في وصف نفسه بالكلام

﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] ، ﴿ إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ [الأعراف : 144] ، ﴿ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ﴾ [التوبة : 6] ونحو ذلك من الآيات .

وقال في وصف المخلوق به : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] . ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس : 65] ﴿ قَالُواْ كَيْفَ

نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] ، ونحو ذلك من الآيات .

فله جل وعلا كلام حقيقي يليق بكماله وجلاله . وللمخلوق كلام أيضاً مناسب لحاله . وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق .

وهذه الصفات السبع المذكورة يثبتها كثير ممن يقول بنفي غيرها من صفات المعاني .

والمعتزلة ينفونها ويثبتون أحكامها فيقولون : هو تعالى حي قادر ، مريد عليم ، سميع بصير ، متكلم بذاته لا بقدرة قائمة بذاته ، ولا إرادة قائمة بذاته هكذا فراراً منهم من تعدد القديم .

ومذهبهم الباطل لا يخفى بطلانه وتناقضه على أدنى عاقل . لأن من المعلوم أن الوصف الذي منه الاشتقاق إذا عدم فالاشتقاق منه مستحيل فإذا عدم السواد عن جرم مثلاً استحال أن تقول هو أسود ، إذ لا يمكن أن يكون أسود ولم يقم به سواد ، وكذلك إذا لم يقم العلم والقدرة بذات ، استحال أن تقول : هي عالمة قادرة لاستحالة اتصافها بذلك ، ولم يقم بها علم ولا قدرة . قال في " مراقي السعود " :

وعند فقد الوصف لا يشتق . . . وأعوز المعتزلي الحق

(207/271)

وأما الصفات المعنوية عندهم : فهي الأوصاف المشتقة من صفات المعاني السبع المذكورة ، وهي كونه تعالى : قادراً ، مريداً عالماً حياً ، سميعاً بصيراً ، متكلماً .

والتحقيق أنها عبارة عن كيفية الإتصاف بالمعاني ، وعد المتكلمين لها صفات زائدة على صفات المعاني ، مبني على ما يسمونه الحال المعنوية . زاعمين أنها أمر ثبوتي ليس بموجود ، ولا معدوم . والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذا الذي يسمونه الحال المعنوية . زاعمين أنها أمر ثبوتي ليس بموجود ، ولا معدوم . والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذا الذي يسمونه الحال المعنوية لا أصل له ، وإنما هو مطلق تخييلات يتخيلونها . لأن العقل الصحيح حاكم حكماً لا يتطرقه شك بأنه لا واسطة بين النقيضين البتة . فالعقلاء كافة مطبقون على أن النقيضين لا يجتمعان ، ولا يرتفعان ، ولا واسطة بينهما البتة ، فكل ما هو غير موجود ، فإنه معدوم قطعاً ، وكل ما هو غير معدوم ، فإنه موجود قطعاً ، وهذا مما لا شك فيه كما ترى .

وقد بينا في اتصاف الخالق والمخلوق بالمعاني المذكورة منافاة صفة الخالق للمخلوق ، وبه تعلم مثله في الاتصاف بالمعنوية المذكورة لو فرضنا أنها صفات زائدة على صفات المعاني . مع أن التحقيق أنها عبارة عن كيفية الاتصاف بها .

وأما الصفات السلبية عندهم : فهي خمس ، وهي عندهم : القدم ، والبقاء ، والوحدانية ، والمخالفة للخلق ، والغنى المطلق ، المعروف عندهم بالقيام بالنفس .

وضابط الصفة السلبية عندهم : هي التي لا تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي أصلاً

، إنما تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله .

أما الصفة التي تدل على معنى وجودي : فهي المعروفة عندهم بصفة المعنى ، فالقدم مثلاً عندهم لا معنى له بالمطابقة ، إلا سلب العدم السابق ، فإن قيل : القدرة مثلاً تدل على سلب العجز ، والعلم يدل على سلب الجهل ، والحياة تدل على سلب الموت ، فلم لا يسمون هذه المعاني سلبية أيضاً ؟

(208/271)

فالجواب : أن القدرة مثلاً تدل بالمطابقة على معنى وجودي قائم بالذات ، وهو الصفة التي يتأتى بها إيجاد الممكنات وإعدامها على وفق الإرادة ، وإنما سلبت العجز بواسطة مقدمة عقلية ، وهي أن العقل يحكم بأن قيام المعنى الوودي بالذات يلزمه نفي ضده عنها لاستحالة اجتماع الضدين عقلاً ، وهكذا في باقي المعاني .

(209/271)

أما القدم عندهم مثلا : فإنه لا يدل على شيء زائد على ما دل عليه الوجود ، إلا سلب العدم السابق ، وهكذا في باقي السلبيات ، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن القدم . والبقاء اللذين يصف المتكلمون بهما الله تعالى زاعمين ، أنه وصف بهما نفسه في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأول والآخر ﴾ [الحديد : 3] الآية ، جاء في القرآن الكريم وصف الحادث بهما أيضاً ، قال في وصف الحادث بالقدم : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ [يس : 39] ، وقال : ﴿ قَالُواْ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] ، وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ [الشعراء : 75-76] ، وقال في وصف الحادث بالبقاء : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] ، وقال : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] ، وكذلك وصف الحادث بالأولية والآخرية المذكورتين في الآية . قال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ [المرسلات : 16-17] ، ووصف نفسه بأنه واحد ، قال : ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : 163] ، وقال في وصف الحادث بذلك . ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ﴾ [الرعد : 4] وقال في وصف نفسه بالغنى ، ﴿ والله هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] ، ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] ، وقال في وصف الحادث بالغنى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء : 6] الآية ، ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ الله ﴾ [النور : 32] الآية ، فهو جل وعلا

موصوف بتلك الصفات حقيقة على الوجه اللائق بكماله وجلاله ، والحادث موصوف بها أيضاً على الوجه المناسب لحدوثه وفنائه ، وعجزه وافتقاره ، وبين صفات الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق ، كما

(210/271)

بيناه في صفات المعاني .

وأما الصفة النفسية عندهم : فهي واحدة ، وهي الوجود ، وقد علمت ما في إطلاقها على الله ، ومنهم من جعل الوجود عين الذات فلم يعده صفة ، كأبي الحسن الأشعري ، وعلى كل حال ، فلا يخفى أن الخالق موجود ، والمخلوق موجود ، ووجود الخالق ينافي وجود المخلوق ، كما بيناز

ومنهم من زعم أن القدم والبقاء صفتان نفسيتان ، زاعما أنهما طرفا الوجود الذي هو صفة نفسية في زعمهم .

وأما الصفات الفعلية ، فإن وصف الخالق والمخلوق بها كثير في القرآن ، ومعلوم أن فعل الخالق مناف لفعل المخلوق كمنافاة ذاته لذاته ، فمن ذلك وصفه جل وعلا نفسه بأنه يرزق خلقه ، قال :

﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ [الذاريات : 58] الآية ، ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [سبأ 39] ، وقال : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] الآية . وقال في وصف الحادث بذلك : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] الآية ، وقال : ﴿ وَعلَى المولود لَهُ رِزْقُهُنَّ ﴾ [البقرة : 233] الآية ، ووصف نفسه بالعمل ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً ﴾ [يس : 71] الآية ، وقال في وصف الحادث به : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] ووصف نفسه بتعليم خلقه فقال : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 1-4] .

وقال في وصف الحادث به : ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ [الجمعة : 2] الآية .

(211/271)

وجمع المثالين في قوله تعالى : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ الله ﴾ [المائدة : 4] ، ووصف نفسه بأنه ينبئ ، ووصف المخلوق بذلك ، وجمع المثالين في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا

نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ [التحريم : 3] . ووصف نفسه بالإيتاء ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك ﴾ [البقرة : 258] ، وقال : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 269] ، وقال : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : 3] ، وقال : ﴿ ذلك فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة : 54] .

وقال في وصف الحادث بذلك ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ﴾ [النساء : 20] ، ﴿ وَآتُواْ اليتامى أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : 2] ، ﴿ وَآتُواْ النسآء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : 4] . وأمثال هذا كثيرة جداً في القرآن العظيم .

ومعلوم أن ما وصف به الله من هذه الأفعال فهو ثابت له حقيقة على الوجه اللائق بكماله وجلاله . وما وصف به المخلوق منها فهو ثابت له أيضاً ، على الوجه المناسب لحاله ، وبين وصف الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق .

وأما الصفات الجامعة ، كالعظم والكبر والعلو ، والملك والتكبر والجبروت ، ونحو ذلك . فإنها أيضاً يكثر جداً وصف الخالق والمخلوق بها في القرآن الكريم .

(212/271)

ومعلوم أن ما وصف به الخالق منها مناف ملا وصف به المخلوق، كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق. قال في وصف نفسه جلا وعلا بالعلو والعظم والكبر: ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلي العظيم ﴾ [البقرة: 255]، ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ [النساء: 34]، ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ [الرعد: 9].

وقال في وصف الحادث بالعظم: ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء: 63] ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء: 40]، ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: 23]، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة: 129] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف الحادث بالكبر: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [فاطر: 7]، وقال: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 31]، وقال: ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: 73]، وقال: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الذين هَدَى الله ﴾ [البقرة: 143]، وقال: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة: 45].

وقال في وصف الحادث بالعلو: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ [مريم: 57]، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم: 50] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف نفسه بالملك: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك

القدوس ﴾ [الجمعة: 1] الآية ﴿ هُوَ الله الذي لاَ إله إلاَّ هُوَ الملك القدوس ﴾ [الحشر: 23] الآية.

وقال: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 55].

(213/271)

وقال في وصف الحادث به: ﴿ وَقَالَ الملك إني أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف: 43] الآية، ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ [يوسف: 50]، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف: 79]، ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالملك مِنْهُ ﴾ [البقرة: 247]، ﴿ تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: 26] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف نفسه بالعزة: ﴿ فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ البينات فاعلموا أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 209]، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة: 1]، ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾ [ص: 9].

وقال في وصف الحادث بالعزة ﴿ قَالَتِ امرأة العزيز ﴾ [يوسف: 51] الآية، ﴿ فَقَالَ

أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ [ص : 23] .

وقال في وصف نفسه جل وعلا بأنه جبار متكبر ﴿ هُوَ الله الذي لاَ إله إلاَّ هُوَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ [الحشر : 23] .

وقال في وصف الحادث بهما : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : 35] ، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : 60] ، ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 130] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال في وصف نفسه بالقوة : ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 58] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40] .

(214/271)

وقال في وصف الحادث بها : ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15] الآية ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : 52] الآية ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص : 26] . ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [الروم : 54] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وأمثال هذا من الصفات الجامعة كثيرة في القرآن ، ومعلوم أنه جل وعلا متصف بهذه

الصفات المذكورة حقيقة على الوجه اللائق بكماله ، وجلاله . وإنما وصف به المخلوق منها مخالف لما وصف به الخالق ، كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذوات الحوادث ، ولا إشكال في شيء من ذلك ، وكذلك الصفات التي اختلف فيها المتكلمون . هل هي من صفات المعاني أو من صفات الأفعال ، وإن كان الحق الذي لا يخفى على من أنار الله بصيرته . أنها صفات معان أثبتها الله ، جل وعلا ، لنفسه ، كالرأفة والرحمة .

قال في وصفه جل وعلا بهما : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 7] وقال في وصف نبينا صلى الله عليه وسلم بهما : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] وقال في وصف نفسه بالحلم : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج : 59] .

وقال في وصف الحادث به : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 101] . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] .

وقال في وصف نفسه بالمغفرة : ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : 3] ونحو ذلك من الآيات .

وقال في وصف الحادث بها : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمور ﴾ [الشورى : 43] . ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ [الجاثية : 14] الآية . ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة : 263] ونحو ذلك من الآيات .

ووصف نفسه جل وعلا بالرضى ووصف الحادث به أيضاً فقال : ﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : 119] ووصف نفسه جل وعلا بالمحبة ، ووصف الحادث بها ، فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم ﴾ [المائدة : 54] ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] الآية .

ووصف نفسه بأنه يغضب إن انتهكت حرماته فقال ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] الآية ، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ ﴾ [النساء : 93] الآية .

وقال في وصف الحادث بالغضب ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ [الأعراف : 150] وأمثال هذا كثير جداً .

والمقصود عندنا ذكر أمثلة كثيرة من ذلك ، مع إيضاح أن كل ما اتصف به جل وعلا من تلك

الصفات بالغ من غايات الكمال والعلو والشرف ما يقطع علائق جميع أوهام المشابهة بين صافته جل وعلا ، وبين صفات خلقه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(216/271)

فإذا حققت كل ذلك علمت أنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش ، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات ، فتمدح جل وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه ، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال ، والجلال . القاضية بعظمته وجلاله جل وعلا ، وأنه الرب وحده ، المستحق لأن يعبد وحده .

الموضع الأول : بحسب ترتيب المصحف الكريم . قوله هنا في سورة الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ [الأعراف : 54] .

الموضع الثاني : قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُدَبِّرُ الأمر مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذلكم اللهُ رَبُّكُمْ

فاعبدوه أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 3-4] الآية .

(217/271)

الموضع الثالث : قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين يُغْشِي الليل النهار إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : 3-4] .

الموضع الرابع : قوله تعالى في سورة طه : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى الرحمن عَلَى العرش استوى لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ [طه : 2-6] .

الموضع الخامس : قوله في سورة الفرقان ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ

وكفى بِهِ بذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 58-59] .

الموضع السادس : قوله تعالى في سورة السجدة ﴿ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ﴾ [السجدة : 4-5] . الآية .

(218/271)

الموضع السابع : قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] .

وقال جل وعلا في وصف الحادث بالاستواء على بعض المخلوقات : ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف : 13] ، ﴿ فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك ﴾ [المؤمنون : 28] ، الآية ، ﴿ واستوت عَلَى الجودي ﴾ [هود : 44] الآية ونحو ذلك من الآيات .

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك ، وأن للخالق جل وعلا استواء لائقاً بكماله

وجلاله ، وللمخلوق أيضاً استواء مناسب لحاله ، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق . على نحو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] كما تقدم إيضاحه .

وينبغي للناظر في هذه المسالة التأمل في أمور :

الأمر الأول : أن جميع الصفات من باب واحد ، لأن الموصوف بها واحد ، ولا يجوز في حقه مشابهة الحوادث في شيء من صفاتهم ، فمن أثبت مثلاً أنه : سميع بصير ، وسمعه ، وبصره مخالفان لأسماع الحوادث وأبصارهم ، لزمه مثل ذلك في جميع الصفات . كالاستواء ، واليد ، ونحو ذلك من صفاته جل وعلا ، ولا يمكن الفرق بين ذلك بحال .

الأمر الثاني : أن الذات والصفات من باب واحد أيضاً ، فكما أنه جل وعلا ، له ذات مخالفة لجميع ذوات الخلق ، فله تعالى صفات مخالفة لجميع صفات الخلق .

الأمر الثالث : في تحقيق المقام في الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من آيات الصفات . كالاستواء واليد مثلاً .

(219/271)

اعلم أولاً : أنه غلط في خلق لا يحصى كثرة من المتأخرين ، فزعموا أن الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من معنى الاستواء واليد مثلا : في الآيات القرآنية .

هو مشابهة صفات الحوادث . وقالوا : يجب علينا أن نصرفه عن ظاهره إجماعاً ، لأن اعتقاد ظاهره كفر . لأن من شبه الخالق بالمخلوق فهو كافر ، ولا يخفى على أدنى عاقل أن حقيقة معنى هذا القول . أن الله وصف نفسه في كتابه بما ظاهره المتبادر منه السابق إلى الفهم الكفر بالله والقول فيه بما لا يليق به جل وعلا .

والنَّبي صلى الله عليه وسلم قيل له ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] لم يبين حرفاً واحداً من ذلك مع إجماع من يعتد به من العلماء ، على أنه صلى الله عليه وسلم : لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه ، وأحرى في العقائد ولا سيما ما ظاهره المتبادر منه الكفر والضلال المبين . حتى جاء هؤلاء الجهلة من المتأخرين ، فزعموا أن الله أطلق على نفسه الوصف بما ظاهره المتبادر منه لا يليق ، والنَّبي صلى الله عليه وسلم كتم أن ذلك الظاهر المتبادر كفر وضلال يجب صرف اللفظ عنه ، وكل هذا من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنة ، ﴿ سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 16] .

ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال ومن أعظم الافتراء على الله جل وعلا ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصف وصف الله به

نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم .

فظاهره المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان . هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث .

(220/271)

فبمجرد إضافة الصفة إليه ، جل وعلا ، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق ، وبين شيء من صفات المخلوقين ، وهل ينكر عاقل ، أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل : هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته ، وجميع صفاته ، لا والله لا ينكر ذلك إلا مكابر .

والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات ، لا يليق بالله . لأنه كفر وتشبيه ، إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه ، بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق ، فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله جل وعلا ، وعدم الإيمان بها . مع أنه جل وعلا ، هو الذي وصف بها نفسه ، فكان هذا الجاهل مشبهاص أولا ، ومعطلا ثانياً . فارتكب ما لا يليق بالله ابتداء وانتهاء ، ولو كان قلبه عارفاً بالله كما ينبغي ، معظماً لله كما ينبغي ، طاهراً من أقذار التشبيه .

لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه : أن وصف الله جلا وعلا ، بالغ من الكمال ، والجلال

الثابتة لله في القرآن والسنة الصحيحة ، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] ، ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1-4] ، ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ [النحل : 74] .

فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد ، وأن الحق فيها متركب من أمرين :

الأول : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق .

والثاني : الإيمان بكل ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً ، أو نفياً . وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] ، والسلف الصالح ، رضي الله عنهم ما كانوا يشكون في شيء من ذلك ، ولا كان يشكل عليهم . الا ترى إلى قول الفرزدق وهو شاعر فقط ، وأما من جهة العلم ، فهو عامي :

وكيف أخاف الناس والله قابض . . . على الناس والسبعين في راحة اليد

ومراده بالسبعين : سبع سماوات ، وسبع أرضين . فمن علم مثل هذا من كون السماوات والأرضين في يده جل وعلا أصغر من حبة خردل ، فإنه عالم بعظمة الله وجلاله لا يسبق إلى ذهنه مشابهة صفاته لصفات الخلق ، ومن كان كذلك زال عنه كثير من الإشكالات التي أشكلت على كثير من المتأخرين ، وهذا الذي ذكرنا من تنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، والإيمان بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم . هو معنى قول الإمام مالك – رحمه الله – : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة .

ويروى نحو قول مالك هذا عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وأم سلمة رضي الله عنها – والعلم عند الله تعالى – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(222/271)

فصل

قال ابن جماعة

قوله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾

ورد في خمس آيات وفي سادس في طه الرحمن على العرش استوى

فنقول قد تقدم أن القرآن نزل بلغة العرب ومعاني كلامهم وما كانوا يتعقلونه في خطابهم أما

العرش لغة فهو سرير الملك وسقف البيت ومنه قولهم ثل عرش فلان أي زال سلطانه

وجاهه ويقال لسقف البيت عرشه ومنه قوله تعالى معروشات وغير معروشات

والعرش سقف العالم بأسره والله أعلم

وسنبين فيما يأتي أن إرادة حقيقة السرير في الآيات محال

وأما الاستواء فله في اللغة معان

الأول تمام الشيء ومنه فإذا سويته ثم سواه ونفخ فيه ومنه بلغ أشده واستوى

الثاني القصد ومنه ثم استوى إلى السماء أي قصد خلقها

الثالث الاعتدال ومنه هل يستويان مثلا هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون لا يستوي

منكم من أنفق الآية

الرابع القهر والاستيلاء ومنه قد استوى بشر على العراق

وقول الآخر وأضحى على ما ملكوه قد استوى

واتفق السلف وأهل التأويل على أن ما لا يليق من ذلك بجلال الرب تعالى غير مراد كالقعود

والاعتدال واختلفوا في تعيين ما يليق بجلاله من المعاني المحتملة كالقصد والاستيلاء

فسكت السلف عنه وأوله المؤولون على الاستيلاء والقهر لتعالي الرب عن سمات الأجسام

من الحاجة إلى الحيز والمكان وكذلك لا يوصف بحركة أو سكون أو اجتماع وافتراق لأن ذلك كله من سمات المحدثات وعروض الأعراض والرب تعالى مقدس عنه

فقوله تعالى استوى بتعين فيه معنى الاستيلاء والقهر لا القعود والاستقرار إذ لو كان وجوده تعالى مكانيا أو زمانيا للزم قدم الزمان والمكان أو تقدمهما عليه وكلاهما باطل فقد صح في الحديث كان الله ولا شيء معه وللزم حاجته إلى المكان وهو تعالى الغني المطلق المستغني عما سواه كان الله ولا زمان

(223/271)

ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان وللزم كونه محدودا مقدرا وكل محدود ومقدر جسم وكل جسم مركب محتاج إلى أجزائه ويتقدس من له الغنى المطلق عن الحاجة ولأن مكان الاستقرار لو قدر حادث مخلوق فكيف يحتاج إليه من أوجده بعد عدمه وهو القديم الأزلى قبله

فإن قيل نفي الجهة عن الموجود يوجب نفيه لاستحالة موجود في غير جهة

قلنا الموجود قسمان موجود لا يتصرف فيه الوهم والحس والخيال والانفصال وموجود يتصرف ذلك فيه ويقبله فالأول ممنوع لاستحالته والرب لا يتصرف فيه ذلك إذ ليس بجسم

ولا عرض ولا جوهر فصح وجوده عقلا من غير جهة ولا حيز كما دل الدليل العقلي فيه فوجب تصديقه عقلا وكما دل الدليل العقلي على وجوده مع نفي الجسمية والعرضية مع بعد الفهم الحسي له فكذلك دل على نفي الجهة والحيز مع بعد فهم الحس له

وقد اتفق أكثر العقلاء على وجوه ما ليس في حيز كالمعقول والنفوس والهيولي وعلى وجود ما لا يتصوره الذهن كحقيقة نفس الحرارة والبرودة فإنها موجودة قطعا ولا يتصور الذهن حقيقتها ولم يقل أحد إنهم ادعوا مستحيلا أو مخالفا للضرورة

فإن قيل قصة المعراج تدل على الجهة والحيز

قلنا قصة المعراج أريد بها والله أعلم أن يريه الله تعالى أنواع مخلوقاته وعجائب مصنوعاته في العالم العلوي والسفلي تكميلا لصفاته وتحقيقا لمشاهداته لآياته ولذلك قال تعالى لنريه من آياتنا وسيأتي البسط في هذا في جواب الحديث إن شاء الله تعالى

فإن قيل إليه يصعد الكلم الطيب وهذا ظاهر في الجهة وكذلك قوله تعالى تعرج الملائكة والروح إليه وقوله ثم يعرج إليه الآية

قلنا ليس المراد بالغاية هنا غاية المكان بل غاية انتهاء الأمور إليه كقوله تعالى ألا إلى الله تصير الأمور وإليه يرجع الأمر كله وقول إبراهيم الخليل عليه السلام إني ذاهب إلى ربي سيهدين وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له توبوا إليه وهو كثير

فالمراد الانتهاء إلى ما أعده لعباده والملائكة من الثواب والكرامة والمنزلة

فإن قيل قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده يخافون ربهم من فوقهم

قلنا يأتي ذلك في مكانه من آيات القرآن

فإن قيل إنما يقال استولى لمن لم يكن مستوليا قبل أو لمن كان له منازع فيما استولى عليه أو عاجز ثم قدر

قلنا المراد بهذا الاستيلاء القدرة التامة الخالية من معارض وليس لفظة ثم هنا لترتيب ذلك بل هي من باب ترتيب الأخبار وعطف بعضها على بعض

فإن قيل فالاستيلاء حاصل بالنسبة إلى جميع المخلوقات فما فائدة تخصيصه بالعرش

قلنا خص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات إجماعا كما خصه بقوله رب العرش العظيم وهو رب كل شيء فإذا استولى على العرش المحيط بكل شيء استولى على الكل قطعا

إذا ثبت ذلك فمن جعل الاستواء في حقه ما يفهم من صفات المحدثين وقال استوى بذاته أو قال استوى حقيقة فقد ابتدع بهذه الزيادة التي لم تثبت في السنة ولا عن أحد من الأئمة المقتدى بهم وزاد بعض الحنابلة المتأخرين فقال الاستواء مماسة الذات وأنه على عرشه ما ملأه وأنه لا بد لذاته من نهاية يعلمها وقال آخر يختص بمكان دون مكان ومكانه وجود ذاته

على عرشه قال والأشبه أنه مماس للعرش والكرسي موضع قدميه

وهذا منهم افتراء عظيم تعالى الله عنه وجهل بعلم هيئة العالم فإن المماسة توجب الجسمية والقدمين يوجب التشبيه والإمام أحمد بريء من ذلك فإن المنقول عنه أنه كان لا يقول بالجهة للباري تعالى وكان يقول الاستواء صفة مسلمة وهو قول بعض السلف رضي الله عنهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل صـ 101.108 ﴾

(225/271)

فصل

قال الحافظ الذهبى :

ذكر ما قاله الأئمة عند ظهور الجهم ومقالته

قول أبي حنيفة عالم العراق رحمه الله تعالى

362 أخبرنا جماعة إذنا عن أبي الفتح المبدائي أخبرنا عبيد الله بن محمد الإمام أبي بكر البيهقي أنبأنا جدي في كتاب الصفات له أنبأنا أبو بكر بن الحارث أنبأنا ابن حيان أنبأنا أحمد بن جعفر بن نصر حدثنا يحيى بن يعلى سمعت نعيم بن حماد يقول سمعت نوحا الجامع يقول كنت عند أبي حنيفة أول ما ظهر إذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما فدخلت

الكوفة فأظنني أقل ما رأيت عليها عشرة آلاف نفس

فقيل لها إن ههنا رجلا قد نظر في المعقول يقال له أبو حنيفة فأتيه فأتته فقالت أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك أين إلهك الذي تعبده فسكت عنها ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها ثم خرج إلينا وقد وضع كتابا إن الله عز وجل في السماء دون الأرض فقال له رجل أرأيت قول الله عزوجل ﴿ وهو معكم ﴾ قال هو كما تكتب إلى الرجل إني معك وأنت غائب عنه

قال ثم قال البيهقي لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله فيما نفى عن الله عزوجل من الكون في الأرض وأصاب فيما ذكر من تأويل الآية وتبع مطلق السمع بأن الله تعالى في السماء

363 وبلغنا عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي صاحب الفقه الأكبر قال سألت أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربي في السماء أو

في الأرض

فقال قد كفر لأن الله تعالى يقول ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سمواته فقلت إنه يقول أقول على العرش استوى ولكن قال لا يدري العرش في السماء أو في الأرض قال إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر (1)

364 وسمعت القاضي الإمام تاج الدين عبد الخالق بن علوان قال سمعت الإمام أبا محمد عبد الله أحمد المقدسي مؤلف المقنع رحم الله ثراه وجعل الجنة مثواه يقول بلغني عن أبي

حنيفة رحمه الله أنه قال من أنكر أن الله عزوجل في السماء فقد كفر ابن جريج شيخ الحرم ومفتي الحجاز

(226/271)

---

365 روى أبو حاتم الرازي عن الأنصاري عن ابن جريج رحمه الله قال كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الخلق الأوزاعي أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو عالم أهل الشام في زمانه

366 قال أبو عبد الله الحاكم أخبرني محمد بن علي الجوهري ببغداد قال حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي قال حدثنا محمد بن كثير المصيصي قال سمعت الأوزاعي يقول كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله عزوجل فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته

1 - رواها صاحب الفاروق بإسناد عن أبي بكر بن نصير بن يحيى عن الحكم

(1)

367 وروى أبو إسحاق الثعلبي المفسر قال سئل الأوزاعي عن قوله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال هو على عرشه كما وصف نفسه

368 وقد سأل الوليد بن مسلم الإمام أبا عمرو الأوزاعي من أحاديث الصفات فقال أمرها كما جاءت ومن كلام هذا الإمام عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس وإياك

وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول مقاتل بن حيان عالم خراسان

369 روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة له عن أبيه عن نوح بن ميمون عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان في قوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ قال هو على عرشه وعلمه معهم

370 وروى البيهقي بإسناده عن مقاتل بن حيان قال بلغنا والله أعلم في قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر ﴾ هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه + مقاتل هذا ثقة إمام معاصر للأوزاعي ما هو بإبن سليمان ذاك مبتدع ليس بثقة + سفيان الثوري عالم زمانه

371 روى غير واحد عن معدان الذي يقول فيه ابن المبارك هو أحد الأبدال قال سألت سفيان الثوري عن قوله عزوجل ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾

1 - أخرجه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات

) قال علمه

372 ونقل عنه الوليد أنه قال في أحاديث الصفات أمرها كما جاءت

373 وقد روى الليث بن يحيى البخاري عن مؤمل بن إسماعيل عن سفيان الثوري قال من قال القرآن مخلوق فهو كافر (1)

374 قال شعيب بن حرب قلت لسفيان حدثني بشيء من السنة فقال القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود من قال غير هذا فهو كافر والإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وذكر فصلا طويلا مالك إمام دار الهجرة

375 قال إسحاق بن عيسى الطباع قال مالك كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبرائيل على محمد صلى الله عليه وسلم لجدله

376 وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل في الرد على الجهمية حدثني أبي حدثنا شريح بن النعمان عن عبد الله بن نافع قال قال مالك بن أنس الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء

377 وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرشديني عن ابن وهب قال كنت عند مالك فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما

1 – وقد بث هذا الإمام الذي لا نظير له في عصره شيئا كثيرا من أحاديث الصفات ومذهبه فيها الإقرار والإمرار والكف عن تأويلها

رحمه الله تعالى

وصف نفسه ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوع وأنت صاحب بدعة

أخرجوه

378 وروى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبد الله وطائفة قالوا جاء رجل إلى مالك فقال يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى قال فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته وعلاه الرحضاء يعني العرق وأطرق القوم فسري عن مالك وقال الكيف غير معقول والإستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وإني أخاف أن تكون ضالا

وأمر به فأخرج(1)

379 نعم وقال الفقيه أبو ثور الكلبي سمعت الشافعي يقول كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال أما إني على بينة من ديني وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه

380 وقال الوليد بن مسلم

سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان

1 – هذا ثابت عن مالك وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك وهو قول أهل السنة قاطبة أن كيفية الاستواء لا نعقلها

بل نجهلها وأن إستواءه معلوم كما أخبر في كتابه وأنه كما يليق به لا نعمق ولا نتحذلق ولا نخوض في لوازم ذلك نفيا ولا إثباتا بل نسكت ونقف كما وقف السلف ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه ونعلم يقينا مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته ولا في استوائه ولا في نزوله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ العلو للعلي الغفار صـ 139.133 ﴾

(229/271)

فصل

قال الحافظ ابن عبد البر ما نصه :

حديث ثامن لابن شهاب عن أبي سلمة يشارك فيه أبا سلمة أبو عبد الله الأغر واسمه سلمان ثقة رضي .

مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وأبي عبد الله الأغر جميعا عن أبي

هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له" هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الإسناد لا يختلف أهل الحديث في صحته رواه أكثر الرواة عن مالك هكذا كما رواه يحيى ومن رواة الموطأ من يرويه عن مالك عن ابن شهاب عن أبي عبد الله الأغر لا يذكر أبا سلمة وهو حديث منقول من طرق متواترة ووجوه كثيرة من أخبار العدول عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى عن الحنيني عن مالك عن الزهري عن أبي عبيد مولى ابن عوف عن أبي هريرة ولا يصح هذا الإسناد عن مالك وهو عندي وهم وإنما هو عن الأعرج عن أبي هريرة وكذلك لا يصح فيه رواية عبد الله بن صالح عن مالك

(230/271)

عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وصوابه عن الزهري عن الأعرج وأبي سلمة جميعا عن أبي هريرة ورواه زيد بن يحيى بن عبيد الله الدمشقي وروح بن عبادة وإسحاق بن عيسى الطباع عن مالك عن الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة وفيه دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة وهو

من حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم إن الله عز وجل في كل مكان وليس على العرش والدليل على صحة ما قالوه أهل الحق في ذلك قول الله عز وجل ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5] وقوله عز وجل ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة:4] وقوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:11] وقوله ﴿ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:42] وقوله تبارك اسمه ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:10] وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ الأعراف: 143] وقال ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ [الملك: 16] وقال جل ذكره ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:1] وهذا من العلو

(231/271)

وكذلك قوله ﴿ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ و ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ و ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [غافر:15] ﴿ وَيَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:50] والجهمي يزعم أنه أسفل وقال جل ذكره ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة: من الآية5] وقوله ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:4] وقال لعيسى ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:55] وقال ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:158] وقال ﴿ فَالَّذِينَ

عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [فصلت:38] وقال ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء:19] وقال ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج:2-3] والعروج هو الصعود وأما قوله تعالى ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ﴾ [الملك:16] فمعناه من على السماء يعني على العرش وقد يكون في بمعنى على ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة:2] أي على الأرض وكذلك قوله ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه:71]] وهذا كله يعضده قوله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:4] وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا الباب

(232/271)

وهذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى استولى فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد وهو الواحد الصمد ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك وإنما يوجه كلام الله عز وجل إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب

له التسليم ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات وجل الله عز وجل عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ اسْتَوَى ﴾ قال علا قال وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت وقال غيره استوى أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد قال أبو عمر:

الاستواء الاستقرار في العلو وبهذا خاطبنا الله عز وجل وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهَا ﴾ [الزخرف:13] وقال: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [هود:44] وقال ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ [المؤمنون:28] وقال الشاعر

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة . . . وقد حلق النجم اليماني فاستوى

(233/271)

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى لأن النجم لا يستولي وقد ذكر النضر بن شميل وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة قال حدثني الخليل وحسبك بالخليل قال أتيت أبا

ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت فإذا هو على سطح فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال قال فقال لنا أعرابي إلى جنبه أنه أمركم أن ترتفعوا قال الخليل هو من قول الله عز وجل ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: 11] فصعدنا إليه فقال هل لكم في خبز فطير ولبن هجير وماء نمير فقلنا الساعة فارقناه فقال سلاما فلم ندر ما قال فقال الأعرابي أنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر قال الخليل هو من قول الله عز وجل ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ [الفرقان: 63] وأما نزع من نزع منهم بحديث يرويه عبد الله بن واقد الواسطي عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: 5] على جميع بريته فلا يخلو منه مكان فالجواب عن هذا أن هذا حديث منكر عن ابن عباس ونقلته مجهولون ضعفاء فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا من الحديث لو عقلوا أو أنصفوا أما سمعوا الله عز وجل حيث يقول ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ [سورة غافر: الآية 36-37] فدل على أن موسى عليه السلام كان يقول الهي في السماء وفرعون يظنه كاذبا

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره . . . ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن . . . لعزته تعنو الوجوه وتسجد

(234/271)

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت وفيه يقول في وصف الملائكة:

فمن حامل إحدى قوائم عرشه . . . ولولا إله الخلق كلوا وأبلدوا

قيام على الأقدام عانون تحته . . . فرائصهم من شدة الخوف ترعد

قال أبو عمر:

فإن احتجوا بقول الله عز وجل ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف:84] وبقوله ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:3] وبقوله ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة:7]

(235/271)

الآية وزعموا أن الله تبارك وتعالى في كل مكان بنفسه وذاته تبارك وتعالى قيل لهم لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجتمع عليه وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض وكذلك قال أهل العلم بالتفسير فظاهر التنزيل يشهد أنه على العرش والاختلاف في ذلك بيننا فقط وأسعد الناس به من ساعده الظاهر وأما قوله في الآية الأخرى ﴿ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف:84)] فالإجماع والاتفاق قد بين المراد بأنه معبود من أهل الأرض فتدبر هذا فإنه قاطع إن شاء الله ومن الحجة أيضا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالى وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم للأمة التي أراد مولاها عتقها إن كانت مؤمنة فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قال لها أين الله فأشارت إلى السماء ثم قال لها من أنا قالت رسول الله قال "أعتقها فإنها مؤمنة" فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفعها رأسها إلى السماء واستغنى بذلك عما سواه أخبرنا عبيد بن محمد قال حدثنا عبد الله بن مسرور قال حدثنا عيسى بن مسكين قال

حدثنا محمد بن سنجر قال حدثنا أبو المغيرة قال حدثنا الأوزاعي قال حدثنا يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم قال

(236/271)

أطلقت غنيمة لي ترعاها جارية لي في ناحية أحد فوجدت الذئب قد أصاب شاة منها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون فصككتها صكة ثم انصرفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فعظم علي قال فقلت يا رسول الله فهلا أعتقها قال "فأتني بها" قال فجئت بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها أين الله فقالت في السماء فقال من أنا قالت أنت رسول الله قال "إنها مؤمنة فأعتقها" مختصر أنا اختصرته من حديثه الطويل من رواية الأوزاعي وهو من حديث مالك أيضا وسيأتي في موضعه من كتابنا إن شاء الله وأما احتجاجهم لو كان في مكان لأشبه المخلوقات لأن ما أحاطت به الأمكنة واحتوته مخلوق فشيء لا يلزم ولا معنى له لأنه عز وجل ليس كمثله شيء من خلقه ولا يقاس بشيء من بريته لا يدرك بقياس ولا يقاس بالناس لا إله إلا هو كان قبل كل شيء ثم خلق الأمكنة والسموات والأرض وما بينهما وهو الباقي بعد كل شيء وخالق كل شيء لا شريك له

وقد قال المسلمون وكل ذي عقل أنه لا يعقل كائن لا في مكان منا وما ليس في مكان فهو عدم وقد صح في

(237/271)

المعقول وثبت بالواضح من الدليل أنه كان في الأزل لا في مكان وليس بمعدوم فكيف يقاس على شيء من خلقه أو يجري بينه وبينهم تمثيل أو تشبيه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا الذي لا يبلغ من وصفه إلا إلى ما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه ورسوله أو اجتمعت عليه الأمة الحنيفية عنه فإن قال قائل منهم إنا وصفنا ربنا أنه كان لا في مكان ثم خلق الأماكن فصار في مكان وفي ذلك إقرار منا بالتغيير والانتقال إذ زال عن صفته في الأزل وصار في مكان دون مكان قيل له وكذلك زعمت أنت أنه كان لا في مكان وانتقل إلى صفة هي الكون في كل مكان فقد تغير عندك معبودك وانتقل من لا مكان إلى كل مكان وهذا لا ينفك منه لأنه إن زعم أنه في الأزل في كل مكان كما هو الآن فقد أوجب الأماكن والأشياء موجودة معه في أزله وهذا فاسد فإن قيل فهل يجوز عندك أن ينتقل من لا مكان في الأزل إلى مكان قيل له أما الانتقال وتغير الحال فلا سبيل إلى إطلاق ذلك عليه لأن كونه في الأزل لا يوجب مكانا وكذلك نقله لا يوجب مكانا وليس في ذلك كالخلق لأن كون ما كونه يوجب

مكانا من الخلق ونقلته توجب مكانا ويصير منتقلا من مكان إلى مكان والله عز وجل ليس كذلك لأنه في الأزل غير كائن في مكان وكذلك نقلته لا توجب مكانا وهذا ما لا تقدر العقول على دفعه ولكنا نقول استوى من لا مكان إلى مكان ولا نقول انتقل وإن كان المعنى في ذلك واحدا ألا ترى أنا نقول له عرش ولا نقول له سرير ومعناهما واحد ونقول هو الحكيم ولا نقول هو العاقل ونقول خليل إبراهيم ولا

(238/271)

نقول صديق إبراهيم وإن كان المعنى في ذلك كله واحدا لا نسميه ولا نصفه ولا نطلق عليه إلا ما سمى به نفسه على ما تقدم ذكرنا له من وصفه لنفسه لا شريك له ولا ندفع ما وصف به نفسه لأنه دفع للقرآن وقد قال الله عز وجل ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر:22] وليس مجيئه حركة ولا زوالا ولا انتقالا لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائي جسما أو جوهرا فلما ثبت أنه ليس بجسم ولا جوهر لم يجب أن يكون مجيئه حركة ولا نقلة ولو اعتبرت ذلك بقولهم جاءت فلانا قيامته وجاءه الموت وجاءه المرض وشبه ذلك مما هو موجود نازل به ولا مجيء لبان لك وبالله العصمة والتوفيق فإن قال إنه لا يكون مستويا على مكان إلا مقرونا بالتكييف قيل قد يكون الاستواء واجبا والتكييف مرتفع وليس رفع

التكييف يوجب رفع الاستواء ولو لزم هذا لزم التكييف في الأزل لأنه لا يكون كائن في لا مكان إلا مقرونا بالتكييف وقد عقلنا وأدركنا بحواسنا أن لنا أرواحا في أبداننا ولا نعلم كيفية ذلك وليس جهلنا بكيفية الأرواح يوجب أن ليس لنا أرواح وكذلك ليس جهلنا بكيفية على عرشه يوجب أنه ليس على عرشه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد حـ 7 صـ 128 . 137﴾

(239/271)

كلام جامع فى هذا الموضع وما شابهه لشيخ الإسلام ابن تيمية نذكره مع طول نفسه العالى نظرا لنفاسته

قال عليه سحائب الرحمة والرضوان :

إذَا وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِصِفَةٍ أَوْ وَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ - الَّذِينَ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ - فَصَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا اللَّائِقِ بِجَلَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحَقِيقَتِهَا الْمَفْهُومَةِ مِنْهَا : إلَى بَاطِنٍ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَمَجَازٍ يُنَافِي الْحَقِيقَةَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ :

أَحَدُهَا : أَنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ مُسْتَعْمَلٌ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَكَلَامَ السَّلَفِ

جَاءَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِشَيْءٍ مِنْهُ خِلَافُ لِسَانِ الْعَرَبِ أَوْ خِلَافُ الْأَلْسِنَةِ كُلِّهَا ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمَجَازِيُّ مَا يُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ وَإِلَّا فَيُمْكِنُ كُلُّ مُبْطِلٍ أَنْ يُفَسِّرَ أَيَّ لَفْظٍ بِأَيِّ مَعْنًى سَنَحَ لَهُ ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ فِي اللُّغَةِ .

الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ مَعَهُ دَلِيلٌ يُوجِبُ صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ حَقِيقَتِهِ إلَى مَجَازِهِ وَإِلَّا فَإِذَا كَانَ يُسْتَعْمَلُ فِي مَعْنًى بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ وَفِي مَعْنًى بِطَرِيقِ الْمَجَازِ لَمْ يَجُزْ حَمْلُهُ عَلَى الْمَجَازِيِّ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُوجِبُ الصَّرْفَ بِإِجْمَاعِ الْعُقَلَاءِ ثُمَّ إنْ ادَّعَى وُجُوبَ صَرْفِهِ عَنْ الْحَقِيقَةِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ قَاطِعٍ عَقْلِيٍّ أَوْ سَمْعِيٍّ يُوجِبُ الصَّرْفَ . وَإِنْ ادَّعَى ظُهُورَ صَرْفِهِ عَنْ الْحَقِيقَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ مُرَجِّحٍ لِلْحَمْلِ عَلَى الْمَجَازِ .

(240/271)

الثَّالِثُ : أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْلَمَ ذَلِكَ الدَّلِيلُ – الصَّارِفُ – عَنْ مُعَارِضٍ ؛ وَإِلَّا فَإِذَا قَامَ دَلِيلٌ قُرْآنِيٌّ أَوْ إيمَانِيٌّ يُبَيِّنُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ مُرَادَةٌ امْتَنَعَ تَرْكُهَا ثُمَّ إنْ كَانَ هَذَا الدَّلِيلُ نَصًّا قَاطِعًا لَمْ يُلْتَفَتْ إلَى نَقِيضِهِ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا فَلَا بُدَّ مِنْ التَّرْجِيحِ . (الرَّابِعُ : أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ وَأَرَادَ بِهِ خِلَافَ ظَاهِرِهِ وَضِدَّ حَقِيقَتِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْأُمَّةِ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ حَقِيقَتَهُ وَأَنَّهُ أَرَادَ مَجَازَهُ سَوَاءٌ عَيَّنَهُ أَوْ لَمْ يُعَيِّنْهُ لَا سِيَّمَا فِي الْخِطَابِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي أُرِيدَ

مِنْهُمْ فِيهِ الِاعْتِقَادُ وَالْعِلْمُ ؛ دُونَ عَمَلِ الْجَوَارِحِ ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الْقُرْآنَ نُورًا وَهُدًى وَبَيَانًا لِلنَّاسِ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ وَلِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . ثُمَّ هَذَا " الرَّسُولُ " الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ بُعِثَ بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنِ الْأَلْسِنَةِ وَالْعِبَارَاتِ ثُمَّ الْأُمَّةُ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُ كَانُوا أَعْمَقَ النَّاسِ عِلْمًا وَأَنْصَحَهُمْ لِلْأُمَّةِ وَأَبْيَنَهُمْ لِلسُّنَّةِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ هُوَ وَهَؤُلَاءِ بِكَلَامٍ يُرِيدُونَ بِهِ خِلَافَ ظَاهِرِهِ إلَّا وَقَدْ نُصِبَ دَلِيلًا يَمْنَعُ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ ؛ إمَّا أَنْ يَكُونَ عَقْلِيًّا ظَاهِرًا مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ

(241/271)

يَعْلَمُ بِعَقْلِهِ أَنَّ الْمُرَادَ أُوتِيَتْ مِنْ جِنْسِ مَا يُؤْتَاهُ مِثْلُهَا وَكَذَلِكَ : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يَعْلَمُ الْمُسْتَمِعُ أَنَّ الْخَالِقَ لَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ . أَوْ سَمْعِيًّا ظَاهِرًا مِثْلُ الدَّلَالَاتِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي تَصْرِفُ بَعْضَ الظَّوَاهِرِ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحِيلَهُمْ عَلَى دَلِيلٍ خَفِيٍّ لَا يَسْتَنْبِطُهُ إلَّا أَفْرَادُ النَّاسِ سَوَاءٌ كَانَ سَمْعِيًّا أَوْ عَقْلِيًّا ؛ لِأَنَّهُ إذَا تَكَلَّمَ بِالْكَلَامِ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًى وَأَعَادَهُ مَرَّاتٍ

كَثِيرَةً ؛ وَخَاطَبَ بِهِ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ وَفِيهِمْ الذَّكِيُّ وَالْبَلِيدُ وَالْفَقِيهُ وَغَيْرُ الْفَقِيهِ وَقَدْ أَوْجَبَ

عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَدَبَّرُوا ذَلِكَ الْخِطَابَ وَيَعْقِلُوهُ وَيَتَفَكَّرُوا فِيهِ وَيَعْتَقِدُوا مُوجَبَهُ ثُمَّ أَوْجَبَ أَنْ لَا يَعْتَقِدُوا بِهَذَا الْخِطَابِ شَيْئًا مِنْ ظَاهِرِهِ ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ دَلِيلًا خَفِيًّا يَسْتَنْبِطُهُ أَفْرَادُ النَّاسِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ظَاهِرَهُ كَانَ هَذَا تَدْلِيسًا وَتَلْبِيسًا وَكَانَ نَقِيضَ الْبَيَانِ وَضِدَّ الْهُدَى وَهُوَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِيِّ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْهُدَى وَالْبَيَانِ . فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ دَلَالَةُ ذَلِكَ الْخِطَابِ عَلَى ظَاهِرِهِ أَقْوَى بِدَرَجَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ دَلَالَةِ ذَلِكَ الدَّلِيلِ الْخَفِيِّ عَلَى أَنَّ الظَّاهِرَ غَيْرُ مُرَادٍ أَمْ كَيْفَ إذَا كَانَ ذَلِكَ الْخَفِيُّ شُبْهَةً لَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 6 صـ 362.360 ﴾

(242/271)

وسُئِلَ رحمه الله عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ﴾ هَلْ الِاسْتِوَاءُ وَالنُّزُولُ حَقِيقَةً أَمْ لَا ؟ وَمَا مَعْنَى كَوْنِهِ حَقِيقَةً ؟ وَهَلْ الْحَقِيقَةُ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِيمَا وُضِعَ لَهُ كَمَا يَقُولُهُ الْأُصُولِيُّونَ أَمْ لَا ؟ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ آيَاتِ الصِّفَاتِ حَقِيقَةً ؟ .

فَأَجَابَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الْقَوْلُ فِي الِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ كَالْقَوْلِ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

" سَمَّى نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَاتٍ " سَمَّا نَفْسَهُ : حَيًّا عَلِيمًا حَكِيمًا قَدِيرًا سَمِيعًا بَصِيرًا غَفُورًا رَحِيمًا إلَى سَائِرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

(243/271)

وَقَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أَيْ بِقُوَّةٍ وَقَالَ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . وَقَالَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ

وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ ؛ فَالْقَوْلُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ .
وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ؛ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ . فَلَا يَجُوزُ نَفْيُ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ ؛ وَلَا يَجُوزُ تَمْثِيلُهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

(244/271)

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ .

(245/271)

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِي : مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَرَسُولُهُ تَشْبِيهًا . وَمَذْهَبُ السَّلَفِ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ : إثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ رَدٌّ عَلَى أَهْلِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

- رَدٌّ عَلَى أَهْلِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ فَالْمُمَثِّلُ أَعْشَى وَالْمُعَطِّلُ أَعْمَى : الْمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنَمًا وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا . وَقَدْ اتَّفَقَ جَمِيعُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ حَقِيقَةً عَلِيمٌ حَقِيقَةً قَدِيرٌ حَقِيقَةً سَمِيعٌ حَقِيقَةً بَصِيرٌ حَقِيقَةً مُرِيدٌ حَقِيقَةً مُتَكَلِّمٌ حَقِيقَةً ؛ حَتَّى الْمُعْتَزِلَةُ النُّفَاةِ لِلصِّفَاتِ قَالُوا : إنَّ اللَّهَ مُتَكَلِّمٌ حَقِيقَةً ؛ كَمَا قَالُوا - مَعَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ - إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَقِيقَةً قَدِيرٌ حَقِيقَةً ؛ بَلْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ كَأَبِي الْعَبَّاسِ النَّاشِي إلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ حَقِيقَةٌ لِلَّهِ مَجَازٌ لِلْخَلْقِ . وَأَمَّا جُمْهُورُ الْمُعْتَزِلَةِ مَعَ الْمُتَكَلِّمَةِ الصِّفَاتِيَّةِ - مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ الْكُلَّابِيَّةِ وَالكَرَّامِيَةِ وَالسالمية وَأَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالصُّوفِيَّةِ - فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ حَقِيقَةٌ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى خَلْقِهِ حَقِيقَةً أَيْضًا .

(246/271)

وَيَقُولُونَ : إنَّ لَهُ عِلْمًا حَقِيقَةً وَقُدْرَةً حَقِيقَةً وَسَمْعًا حَقِيقَةً وَبَصَرًا حَقِيقَةً .

(247/271)

وَإِنَّمَا يُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ حَقِيقَةً النُّفَاةِ مِنْ الْقَرَامِطَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ الَّذِينَ يَنْفُونَ عَنْ اللَّهِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى وَيَقُولُونَ : لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا عَالِمٍ وَلَا جَاهِلٍ وَلَا قَادِرٍ وَلَا عَاجِزٍ وَلَا مَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ ؛ فَهَؤُلَاءِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ يَنْفُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ حَقِيقَةً ثُمَّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ : إنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَمِّيهِمْ الْمُسْلِمُونَ الْمَلَاحِدَةَ ؛ لِأَنَّهُمْ أَلْحَدُوا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ وَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ . فَإِنَّ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ إنَّمَا أَنْكَرُوا اسْمَ الرَّحْمَنِ فَقَطْ وَهُمْ لَا يُنْكِرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانُوا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَكْفَرَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

(248/271)

وَلَوْ كَانَتْ أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ مَجَازًا يَصِحُّ نَفْيُهَا عِنْدَ الْإِطْلَاقِ ؛ لَكَانَ يَجُوزُ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا عَلِيمٍ وَلَا قَدِيرٍ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ وَلَا يُحِبُّهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُ وَلَا اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَمَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إطْلَاقُ النَّفْيِ عَلَى مَا أَثْبَتَهُ

(249/271)

اللَّهُ تَعَالَى مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ ؛ بَلْ هَذَا جَحْدٌ لِلْخَالِقِ وَتَمْثِيلٌ لَهُ بِالْمَعْدُومَاتِ وَقَدْ قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ كُلِّهَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا وَحَمْلِهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ ؛ إلَّا أَنَّهُمْ لَا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ . وَلَا يَحُدُّونَ فِيهِ صِفَةً مَحْصُورَةً وَأَمَّا " أَهْلُ الْبِدَعِ " مَنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْخَوَارِجِ فَيُنْكِرُونَهَا وَلَا يَحْمِلُونَهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِهَا مُشَبِّهٌ وَهُمْ عِنْدَ مَنْ أَقَرَّ بِهَا نَافُونَ لِلْمَعْبُودِ لَا مُثْبِتُونَ . وَالْحَقُّ فِيمَا قَالَهُ الْقَائِلُونَ بِمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُمْ وَأَئِمَّةُ الْجَمَاعَةِ . وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ هُوَ فِي بَعْضِ مَا يَنْفُونَهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَأَمَّا فِيمَا يُثْبِتُونَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ كَالْحَيِّ وَالْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ وَالْمُتَكَلِّمِ فَهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ وَمَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ حَقِيقَةً إنَّمَا أَنْكَرَهُ لِجَهْلِهِ مُسَمَّى الْحَقِيقَةِ أَوْ لِكُفْرِهِ وَتَعْطِيلِهِ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ

يَظُنُّ أَنَّ إطْلَاقَ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ مُمَاثِلًا لِلْخَالِقِ فَيُقَالُ لَهُ : هَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ حَقِيقَةً وَالْعَبْدَ مَوْجُودٌ حَقِيقَةً ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِثْلَ هَذَا وَاَللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذَاتٌ

(250/271)

حَقِيقَةً وَالْعَبْدُ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقَةً وَلَيْسَ ذَاتُهُ كَذَوَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَكَذَلِكَ لَهُ عِلْمٌ وَسَمْعٌ وَبَصَرٌ حَقِيقَةً وَلِلْعَبْدِ عِلْمٌ وَسَمْعٌ وَبَصَرٌ حَقِيقَةً ؛ وَلَيْسَ عِلْمُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ مِثْلَ عِلْمِ اللَّهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَلِلَّهِ كَلَامٌ حَقِيقَةً وَلِلْعَبْدِ كَلَامٌ حَقِيقَةً ؛ وَلَيْسَ كَلَامُ الْخَالِقِ مِثْلَ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ . وَلِلَّهِ تَعَالَى اسْتِوَاءٌ عَلَى عَرْشِهِ حَقِيقَةً وَلِلْعَبْدِ اسْتِوَاءٌ عَلَى الْفُلْكِ حَقِيقَةً ؛ وَلَيْسَ اسْتِوَاءُ الْخَالِقِ كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِينَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَفْتَقِرُ إلَى شَيْءٍ وَلَا يَحْتَاجُ إلَى شَيْءٍ بَلْ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَاَللَّهُ تَعَالَى يَحْمِلُ الْعَرْشَ وَحَمَلَتُهُ بِقُدْرَتِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا . فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قَوْلَ الْأَئِمَّةِ : إنَّ اللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ حَقِيقَةً يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ اسْتِوَاؤُهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ الْعَبْدِ عَلَى الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ لَزِمَهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ : إنَّ اللَّهَ لَهُ عِلْمٌ حَقِيقَةً وَسَمْعٌ حَقِيقَةً وَبَصَرٌ حَقِيقَةً وَكَلَامٌ حَقِيقَةً يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ مِثْلَ الْمَخْلُوقِينَ وَسَمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَكَلَامِهِمْ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ : مَا مَعْنَى كَوْنِ ذَلِكَ حَقِيقَةً ؟ " فَالْحَقِيقَةُ " هُوَ اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِيمَا وُضِعَ لَهُ وَقَدْ يُرَادُ بِهَا الْمَعْنَى الْمَوْضُوعُ لِلَّفْظِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ اللَّفْظُ فِيهِ . فَالْحَقِيقَةُ أَوْ الْمَجَازُ هِيَ مِنْ عَوَارِضِ الْأَلْفَاظِ فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ الْأُصُولِ وَقَدْ يَجْعَلُونَهُ مِنْ عَوَارِضِ الْمَعَانِي لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَشْهَرُ وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ لَمْ تُوضَعْ لِخَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَلَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَكِنْ عِنْدَ الْإِضَافَةِ إلَيْهِمْ . فَاسْمُ الْعِلْمِ يُسْتَعْمَلُ مُطْلَقًا وَيُسْتَعْمَلُ مُضَافًا إلَى الْعَبْدِ كَقَوْلِهِ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ وَيُسْتَعْمَلُ مُضَافًا إلَى اللَّهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ فَإِذَا أُضِيفَ الْعِلْمُ إلَى الْمَخْلُوقِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ عِلْمُ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُ الْمَخْلُوقِ كَعِلْمِ الْخَالِقِ وَإِذَا أُضِيفَ إلَى الْخَالِقِ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ عِلْمُ الْمَخْلُوقِينَ وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ كَعِلْمِهِمْ . وَإِذَا قِيلَ : الْعِلْمُ مُطْلَقًا أَمْكَنَ تَقْسِيمُهُ فَيُقَالُ : الْعِلْمُ يَنْقَسِمُ إلَى الْعِلْمِ الْقَدِيمِ وَالْعِلْمِ الْمُحْدَثِ ؛ فَلَفْظُ الْعِلْمِ عَامٌّ فِيهِمَا مُتَنَاوِلٌ لَهُمَا بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ وَكَذَلِكَ إذَا

قِيلَ : الْوُجُودُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَوَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ ؛ وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ فِي الِاسْتِوَاءِ : يَنْقَسِمُ إلَى اسْتِوَاءِ الْخَالِقِ وَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ ؛ وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْإِرَادَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْهِبَةُ تَنْقَسِمُ إلَى إرَادَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِرَادَةِ الْعَبْدِ وَمَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ . فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ " الْحَقِيقَةَ " إنَّمَا تَتَنَاوَلُ صِفَةَ الْعَبْدِ الْمَخْلُوقَةَ الْمُحْدَثَةَ دُونَ صِفَةِ الْخَالِقِ كَانَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ ؛ فَإِنَّ صِفَةَ اللَّهِ أَكْمَلُ وَأَتَمُّ وَأَحَقُّ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ صِفَةِ الْعَبْدِ وَصِفَةِ الرَّبِّ كَمَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَ ذَاتِهِ وَذَاتِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ الْعَبْدُ مُسْتَحِقًّا لِلْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى حَقِيقَةً : فَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهُ : عَالِمٌ قَادِرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ؛ وَالرَّبُّ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ إلَّا مَجَازًا وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ حَصَلَ لِلْمَخْلُوقِ فَهُوَ مِنْ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ؛ فَكُلُّ كَمَالٍ حَصَلَ لِلْمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ بِهِ ؛ وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ أَنْ يُنَزَّهَ عَنْهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ اللَّهُ " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " فَإِنَّهُ لَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِمْ وَلَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ . فَلَا يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْمَخْلُوقُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ بِمَثَلٍ ؛ وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ بَلْ ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذِهِ الْأَسْمَاءَ " الْمُشَكِّكَةَ " لِكَوْنِ الْمَعْنَى فِي

أَحَدِ الْمَحَلَّيْنِ أَكْمَلَ مِنْهُ فِي الْآخَرِ فَإِنَّ الْوُجُودَ بِالْوَاجِبِ أَحَقُّ مِنْهُ بِالْمُمْكِنِ وَالْبَيَاضَ بِالثَّلْجِ أَحَقُّ مِنْهُ بِالْعَاجِ وَأَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوصَفُ بِهَا عَلَى

(254/271)

وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُ أَحَدًا مِنْ الْمَخْلُوقِينَ وَإِنْ كَانَ بَيْنَ كُلِّ قِسْمَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ هُوَ مُسَمَّى اللَّفْظِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ فَإِذَا قُيِّدَ بِأَحَدِ الْمَحَلَّيْنِ تَقَيَّدَ بِهِ . فَإِذَا قِيلَ : وُجُودٌ وَمَاهِيَّةٌ وَذَاتٌ كَانَ هَذَا الِاسْمُ مُتَنَاوِلًا لِلْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ وَإِنْ كَانَ الْخَالِقُ أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا . فَإِذَا قِيلَ : وُجُودُ اللَّهِ وَمَاهِيَّتُهُ وَذَاتُهُ اخْتَصَّ هَذَا بِاللَّهِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ لِلْمَخْلُوقِ دُخُولٌ فِي هَذَا الْمُسَمَّى وَكَانَ حَقِيقَةً لِلَّهِ وَحْدَهُ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ وُجُودُ الْمَخْلُوقِ وَذَاتُهُ اخْتَصَّ ذَلِكَ بِالْمَخْلُوقِ وَكَانَ حَقِيقَةً لِلْمَخْلُوقِ . فَإِذَا قِيلَ : وُجُودُ الْعَبْدِ وَمَاهِيَّتُهُ وَحَقِيقَتُهُ لَمْ يَدْخُلْ الْخَالِقُ فِي هَذَا الْمُسَمَّى وَكَانَ حَقِيقَةً لِلْمَخْلُوقِ وَحْدَهُ . وَالْجَاهِلُ يَظُنُّ أَنَّ اسْمَ الْحَقِيقَةِ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَ وَحْدَهُ وَهَذَا ضَلَالٌ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ فِي " الْعُقُولِ " وَ " الشَّرَائِعِ " وَ " اللُّغَاتِ " فَإِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ مَوْجُودَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَقَدْرًا مُمَيَّزًا وَالدَّالُّ عَلَى مَا بِهِ الِاشْتِرَاكُ وَحْدَهُ لَا يَسْتَلْزِمُ مَا بِهِ

الِامْتِيَازَ وَمَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللَّهَ مُسْتَحِقٌّ لِلْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَقَدْ سَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِبَعْضِ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ كَمَا سَمَّى الْعَبْدَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَحَيًّا وَعَلِيمًا وَحَكِيمًا وَرَءُوفًا رَحِيمًا وَمَلِكًا وَعَزِيزًا وَمُؤْمِنًا وَكَرِيمًا وَغَيْرَ ذَلِكَ .

(255/271)

مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الِاتِّفَاقَ فِي الِاسْمِ لَا يُوجِبُ مُمَاثَلَةَ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ وَإِنَّمَا يُوجِبُ الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا فَقَطْ ؛ مَعَ أَنَّ الْمُمَيِّزَ الْفَارِقَ أَعْظَمُ مِنْ الْمُشْتَرَكِ الْجَامِعِ .

وَأَمَّا " اللُّغَاتُ " فَإِنَّ جَمِيعَ أَهْلِ اللُّغَاتِ - مِنْ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَالْفُرْسِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ - يَقَعُ مِثْلُ هَذَا فِي لُغَاتِهِمْ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي لُغَاتِ جَمِيعِ الْأُمَمِ ؛ بَلْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ قَادِرًا فَاعِلًا مِنْ الْعَبْدِ ؛ وَأَنَّ اسْتِحْقَاقَ اسْمِ الرَّبِّ الْقَادِرِ لَهُ حَقِيقَةٌ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْعَبْدِ لِذَلِكَ وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى .

(256/271)

وَقَوْلُ النَّاسِ : إنَّ بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا لَا يُرِيدُونَ بِأَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ أَمْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ مَخْلُوقٍ وَمَخْلُوقٍ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمَا فَكَيْفَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ ؛ وَإِنَّمَا تَوَهَّمَ هَذَا مَنْ تَوَهَّمَهُ مِنْ أَهْلِ " الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ " وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ فِي الْخَارِجِ مَاهِيَّاتٍ مُطْلَقَةً مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْأَعْيَانِ الْمَحْسُوسَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يُجَرِّدُهَا عَنْ الْأَعْيَانِ كَأَفْلَاطُونَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَا تَنْفَكُّ عَنْ الْأَعْيَانِ : كَأَرِسْطُو وَابْنِ سِينَا وَأَشْبَاهِهِمَا . وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا مَا دَخَلَ عَلَى مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ الضَّلَالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فِي " الْمَنْطِقِ وَالْإِلَهِيَّاتِ " حَتَّى إنَّ طَوَائِفَ مِنْ النُّظَّارِ قَالُوا : إنَّا إذَا قُلْنَا : إنَّ وُجُودَ الرَّبِّ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ - كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ وَمُتَكَلِّمَةِ أَهْلِ الصِّفَاتِ : كَابْنِ كُلَّابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا - يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ " الْوُجُودِ " مَقُولًا عَلَيْهِمَا بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي عَنْ الْأَشْعَرِيِّ وَأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِمْ ؛ وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَهُمْ ؛

(257/271)

بَلْ مَذْهَبُهُمْ : أَنَّ لَفْظَ " الْوُجُودِ " مَقُولٌ بِالتَّوَاطُؤِ وَأَنَّهُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ مَعَ قَوْلِهِمْ : إنَّ وُجُودَ الرَّبِّ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ ؛ فَإِنَّ لَفْظَ الْوُجُودِ عِنْدَهُمْ كَلَفْظِ الْمَاهِيَّةِ . وَكَمَا أَنَّ الْمَاهِيَّةَ

وَالذَّاتَ تَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمَةٍ وَمُحْدَثَةٍ وَمَاهِيَّةُ الرَّبِّ عَيْنُ ذَاتِهِ فَكَذَلِكَ الْوُجُودُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَوُجُودُ الرَّبِّ عَيْنُ ذَاتِهِ وَوُجُودُ الْعَبْدِ عَيْنُ ذَاتِهِ وَذَاتُ الشَّيْءِ هِيَ مَاهِيَّتُهُ . فَاللَّفْظُ مِنْ الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ وَلَكِنْ بِالْإِضَافَةِ يَخُصُّ أَحَدَ الْمُسَمَّيَيْنِ وَالْمُسَمَّيَانِ إذَا اشْتَرَكَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالذَّاتِ وَالْمَاهِيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ أَمْرٌ مُشْتَرَكٌ يَكُونُ زَائِدًا عَلَى خُصُوصِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ كَمَا يَظُنُّهُ أَرِسْطُو وَابْنُ سِينَا وَالرَّازِي وَأَمْثَالُهُمْ ؛ بَلْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ وُجُودٌ مُطْلَقٌ وَلَا مَاهِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ وَلَا ذَاتٌ مُطْلَقَةٌ . أَمَّا الْمُطْلَقُ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ فَقَدْ اتَّفَقَ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ وَأَنَّ عَلَى تَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ عَنْ أَفْلَاطُونَ وَأَتْبَاعِهِ هُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ ضَرُورَةً . وَأَمَّا الْمُطْلَقُ لَا بِشَرْطِ فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ فِي الْخَارِجِ وَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ الْمُعَيَّنِ وَهَذَا غَلَطٌ ؛ بَلْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ إلَّا الْمُعَيَّنَاتِ وَلَيْسَ فِي الْخَارِجِ مُطْلَقٌ يَكُونُ جُزْءُ مُعَيَّنٍ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ بِالْجُزْءِ مَا هُوَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْمَوْصُوفِ ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ

(258/271)

الْمَوْصُوفَ مُرَكَّبٌ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْأَجْزَاءَ الذَّاتِيَّةَ . كَمَا يَقُولُونَ : الْإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْحَيَوَانِ وَالنَّاطِقِ ؛ أَوْ مِنْ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالناطقية ؛ وَهَذَا التَّرْكِيبُ تَرْكِيبٌ ذِهْنِيٌّ ؛

فَالْمَاهِيَّةُ الْمُرَكَّبَةُ فِي الذِّهْنِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَهِيَ أَجْزَاءُ تِلْكَ الْمَاهِيَّةِ . وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ فَهِيَ مَوْصُوفَةٌ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ؛ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْوُجُودُ الذِّهْنِيِّ بِالْخَارِجِيِّ وَهَذَا الْغَلَطُ وَقَعَ كَثِيرًا فِي أَقْوَالِ الْمُتَفَلْسِفَةِ ؛ فَأَوَائِلُهُمْ كَأَصْحَابِ فيثاغورس كَانُوا يَقُولُونَ بِوُجُودِ أَعْدَادٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ الْمَعْدُودَاتِ فِي الْخَارِجِ ؛ وَأَصْحَابُ أَفْلَاطُونَ يَقُولُونَ : بِوُجُودِ الْمُثُلِ الأفلاطونية وَهِيَ الْحَقَائِقُ الْمُطْلَقَةُ عَنْ الْمُعَيَّنَاتِ فِي الْخَارِجِ . وَهَذِهِ الْحَقَائِقُ مُقَارِنَةٌ لِلْمُعَيَّنَاتِ فِي الْخَارِجِ كَمَا أَثْبَتُوا جَوَاهِرَ عَقْلِيَّةً ؛ وَهِيَ الْمُجَرَّدَاتُ : كَالْمَادَّةِ وَالْهُيُولَى ؛ وَالْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَفْرِيقُهُمْ بَيْنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِلْمَاهِيَّةِ الَّتِي تَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْأَنْوَاعُ وَيُسَمُّونَهَا الْأَجْنَاسَ وَالْفُصُولَ ؛ وَبَيْنَ الصِّفَاتِ الْعَارِضَةِ اللَّازِمَةِ لِلْمَاهِيَّةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا خَوَاصًّا وَأَعْرَاضًا عَامَّةً ؛ وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ هِيَ الْكُلِّيَّاتُ وَهِيَ الْجِنْسُ وَالْفَصْلُ وَالنَّوْعُ وَالْعَرَضُ الْعَامُّ وَالْخَاصَّةُ وَقَدْ وَقَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ الْغَلَطِ فِي " مَنْطِقِهِمْ " وَفِي

(259/271)

" الْإِلَهِيَّاتِ " مَا ضَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ الْخَلْقِ ؛ وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ لَفْظُ الْمُرَكَّبِ

عِنْدَهُمْ يُقَالُ عَلَى خَمْسَةِ مَعَانٍ : عَلَى الْمُرَكَّبِ مِنْ الْوُجُودِ وَالْمَاهِيَّةِ وَالْمُرَكَّبِ مِنْ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْمُرَكَّبِ مِنْ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَالْمُرَكَّبِ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَالْقَائِلُونَ بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ يُثْبِتُونَ التَّرْكِيبَ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ . وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ أَنَّ تَسْمِيَةَ مِثْلِ هَذِهِ الْمَعَانِي تَرْكِيبًا أَمْرٌ اصْطِلَاحِيٌّ وَهُوَ إمَّا أَمْرٌ ذِهْنِيٌّ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْخَارِجِ وَإِمَّا أَنْ يَعُودَ إلَى صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ قَائِمَةٍ بِالْمَوْصُوفِ وَهَذَا حَقٌّ . فَإِنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ : إثْبَاتُ الصِّفَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ بَلْ صِفَاتُ الْكَمَالِ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ يَمْتَنِعُ ثُبُوتُ ذَاتِهِ بِدُونِ صِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّازِمَةِ لَهُ ؛ بَلْ يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُ ذَاتٍ مِنْ الذَّوَاتِ عَرِيَّةً عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَهَذَا كُلُّهُ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّهُ إذَا قِيلَ هَذَا إنْسَانٌ فَالْمُشَارُ إلَيْهِ بِهَذَا الْمُسَمَّى بِإِنْسَانٍ ؛ وَلَيْسَ الْإِنْسَانُ الْمُطْلَقُ جُزْءًا مِنْ هَذَا وَلَيْسَ الْإِنْسَانُ هُنَا إلَّا مُقَيَّدًا وَإِنَّمَا يُوجَدُ مُطْلَقًا فِي الذِّهْنِ ؛ لَا فِي الْخَارِجِ . وَإِذَا قِيلَ هَذَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ فَالْمَعْنَى أَنَّ بَيْنَهُمَا تَشَابُهًا فِيهَا ؛ لَا أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مَوْجُودًا فِي الْأَعْيَانِ يَشْتَرِكَانِ فِيهِ . فَلْيَتَدَبَّرْ اللَّبِيبُ هَذَا فَإِنَّهُ يَحُلُّ شُبُهَاتٍ كَثِيرَةً وَمَنْ فَهِمَ هَذَا الْمَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ غَلَطُ مَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ مَقُولَةً بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ لَا

(261/271)

الْمَعْنَوِيِّ وَغَلَطُ مَنْ جَعَلَ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَامًا مَحْضَةً لَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي الْخَارِجِ

(262/271)

حَقَائِقَ مُطْلَقَةً يَشْتَرِكُ فِيهَا الْأَعْيَانُ وَعَلِمَ أَنَّ مَا يَسْتَحِقُّ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ الصِّفَاتِ . وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ فَقَدْ يُمَاثِلُهُ غَيْرُهُ فِي صِفَاتِهِ لَكِنْ لَا يُشْرِكُهُ فِي غَيْرِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْهَا وَالْأَسْمَاءُ الْمُتَوَاطِئَةُ الْمَقُولَةُ عَلَى هَذَا وَهَذَا حَقِيقَةٌ فِي هَذَا وَهَذَا . فَإِذَا كَانَتْ عَامَّةً لَهُمَا تَنَاوَلَتْهُمَا وَإِنْ كَانَتْ مُطْلَقَةً لَمْ يَمْنَعْ تَصَوُّرُهُمَا مِنْ اشْتِرَاكِهِمَا فِيهَا وَإِنْ كَانَتْ مُقَيَّدَةً اخْتَصَّتْ بِمَحَلِّهَا . فَإِذَا قَالَ : وُجُودُ اللَّهِ وَذَاتُ اللَّهِ وَعِلْمُ اللَّهِ وَقُدْرَةُ اللَّهِ وَسَمْعُ اللَّهِ وَبَصَرُ اللَّهِ وَإِرَادَةُ اللَّهِ . وَكَلَامُ اللَّهِ ؛ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَغَضَبُ اللَّهِ وَاسْتِوَاءُ اللَّهِ وَنُزُولُ اللَّهِ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ ؛ وَإِرَادَةُ اللَّهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا حَقِيقَةً لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْ غَيْرِ

أَنْ يُمَاثِلَهُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ . وَإِذَا قَالَ : وُجُودُ الْعَبْدِ وَذَاتُهُ وَمَاهِيَّتُهُ وَعِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ ؛ وَنُزُولُهُ : كَانَ هَذَا حَقِيقَةً لِلْعَبْدِ مُخْتَصَّةً بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُمَاثِلَ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى . بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْمَطَاعِمِ وَالْمُشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ والمناكح مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِيهَا لَبَنًا ؛ وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَلَحْمًا ؛

(263/271)

وَحَرِيرًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً وَحُورًا وَقُصُورًا وَنَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إلَّا الْأَسْمَاءُ .

(264/271)

فَتِلْكَ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِي الْآخِرَةِ لَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ الَّتِي فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَتْ مُشَابِهَةً لَهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَالِاسْمِ يَتَنَاوَلُهَا حَقِيقَةً . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخَالِقَ أَبْعَدُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ فِيمَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مُمَاثِلًا

لِمَخْلُوقَاتِهِ ؟ وَأَنْ يُقَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ بِحَقِيقَةٍ وَهَلْ يَكُونُ أَحَقُّ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ أَنَّ مُبَايَنَتَهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْ مُبَايَنَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ . وَالْجَاهِلُ يَضِلُّ بِقَوْلِ الْمُتَكَلِّمِينَ : إنَّ الْعَرَبَ وَضَعُوا لَفْظَ الِاسْتِوَاءِ لِاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْمَنْزِلِ أَوْ الْفُلْكِ أَوْ اسْتِوَاءِ السَّفِينَةِ عَلَى الْجُودِيِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ اسْتِوَاءِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ فَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : إنَّمَا وَضَعُوا لَفْظَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لِمَا يَكُونُ مَحَلُّهُ حَدَقَةً وَأَجْفَانًا وَأَصْمِخَةً وَأُذُنًا وَشَفَتَيْنِ وَهَذَا ضَلَالٌ فِي الشَّرْعِ وَكَذِبٌ وَإِنَّمَا وَضَعُوا لَفْظَ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ لِمَا يَكُونُ مَحَلُّهُ مُضْغَةً لَحْمٍ وَفُؤَادٍ وَهَذَا كُلُّهُ جَهْلٌ مِنْهُ . فَإِنَّ الْعَرَبَ إنَّمَا وَضَعَتْ لِلْإِنْسَانِ مَا أَضَافَتْهُ إلَيْهِ فَإِذَا قَالَتْ : سَمْعُ الْعَبْدِ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ وَعِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ وَرَحْمَتُهُ فَمَا يَخُصُّ بِهِ يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ خَصَائِصَ الْعَبْدِ . وَإِذَا قِيلَ : سَمْعُ اللَّهِ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ وَعِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ وَرَحْمَتُهُ كَانَ هَذَا

(265/271)

مُتَنَاوِلًا لِمَا يُخَصُّ بِهِ الرَّبُّ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ هَذَا الِاسْتِوَاءَ إذَا كَانَ حَقِيقَةً يَتَنَاوَلُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ مَعَ كَوْنِ النَّصِّ قَدْ خَصَّهُ بِاللَّهِ كَانَ جَاهِلًا جِدًّا بِدَلَالَاتِ اللُّغَاتِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ .

وَهَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ يُمَثِّلُونَ فِي ابْتِدَاءِ فَهْمِهِمْ صِفَاتِ الْخَالِقِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِ : ثُمَّ يَنْفُونَ ذَلِكَ وَيُعَطِّلُونَهُ فَلَا يَفْهَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إلَّا مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِ وَيَنْفُونَ مَضْمُونَ ذَلِكَ وَيَكُونُونَ قَدْ جَحَدُوا مَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ مِنْ خَصَائِصِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَلْحَدُوا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَخَرَجُوا عَنْ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ وَالنَّصِّ الشَّرْعِيِّ فَلَا يَبْقَى بِأَيْدِيهِمْ لَا مَعْقُولٌ صَرِيحٌ وَلَا مَنْقُولٌ صَحِيحٌ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إثْبَاتِ بَعْضِ مَا يُثْبِتُهُ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَإِذَا أَثْبَتُوا الْبَعْضَ وَنَفَوْا الْبَعْضَ قِيلَ لَهُمْ : مَا الْفَرْقُ بَيْنَ مِمَّا أَثْبَتُّمُوهُ وَنَفَيْتُمُوهُ ؟ وَلِمَ كَانَ هَذَا حَقِيقَةً وَلَمْ يَكُنْ هَذَا حَقِيقَةً ؟ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ أَصْلًا وَظَهَرَ بِذَلِكَ جَهْلُهُمْ وَضَلَالُهُمْ شَرْعًا وَقَدْرًا . وَقَدْ تَدَبَّرْت كَلَامَ عَامَّةِ مَنْ يَنْفِي شَيْئًا مِمَّا أَثْبَتَهُ الرُّسُلُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَوَجَدْتهمْ كُلُّهُمْ مُتَنَاقِضِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ لِمَا نَفَوْهُ بِنَظِيرِ مَا يَحْتَجُّ بِهِ النَّافِي لِمَا أَثْبَتُوهُ ؛ فَيَلْزَمُهُمْ إمَّا إثْبَاتُ الْأَمْرَيْنِ وَإِمَّا نَفْيُهُمَا ؛ فَإِذَا نَفَوْهُمَا فَلَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا بِالْوَاجِبِ الْوُجُودِ وَعَدَمِهِ جَمِيعًا وَهَذَا نِهَايَةُ هَؤُلَاءِ النُّفَاةِ الْمَلَاحِدَةِ الْغُلَاةِ مِنْ الْقَرَامِطَةِ وَغُلَاةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ إذَا أَخَذُوا يَنْفُونَ النَّقِيضَيْنِ جَمِيعًا ؛ فَالنَّقِيضَانِ كَمَا أَنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ ؛ فَلَا يَرْتَفِعَانِ . وَمِنْ جِهَةٍ إنَّ مَا

يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَصَوَّرُوهُ وَأَنْ يُعَبِّرُوا عَنْهُ ؛ فَإِنَّ التَّصْدِيقَ مَسْبُوقٌ بِالتَّصَوُّرِ وَمَتَى تَصَوَّرُوهُ وَعَبَّرُوا عَنْهُ كَقَوْلِهِمْ الثَّابِتِ وَالْوَاجِبِ أَوْ أَيُّ شَيْءٍ قَالُوهُ لَزِمَهُمْ فِيهِ مِنْ إثْبَاتِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ نَظِيرُ مَا يَلْزَمُهُمْ فِيمَا نَفَوْهُ

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قَوْلِهِمْ : أَسْمَاءُ اللَّهِ مَقُولَةٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَقَطْ . فَإِنَّ الْمُشْتَرِكِينَ اشْتِرَاكًا لَفْظِيًّا لَا مَعْنَوِيًّا كَلَفْظِ الْمُشْتَرَى الْمَقُولِ عَلَى الْكَوْكَبِ وَالْمُبْتَاعِ وَسُهَيْلٍ الْمَقُولِ عَلَى الْكَوْكَبِ وَعَلَى ابْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ إذَا سَمِعَ الْمُسْتَمِعُ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ : جَاءَنِي سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَذَا هُوَ الْمُشْتَرِي لِهَذِهِ السِّلْعَةِ لَمْ يَفْهَمْ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ كَوْكَبًا أَصْلًا إلَّا أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ اللَّفْظَ مَوْضُوعٌ لَهُ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ أَسْمَاؤُهُ مُتَوَاطِئَةً لَمْ يَفْهَمْ الْعِبَادُ مِنْ أَسْمَائِهِ شَيْئًا أَصْلًا إلَّا أَنْ يَعْرِفُوا مَا يَخُصُّ ذَاتَهُ وَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا يَخُصُّ ذَاتَهُ فَلَمْ يَعْرِفُوا شَيْئًا .

(268/271)

ثُمَّ إنَّ الْعِلْمَ بِانْقِسَامِ الْوُجُودِ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ فَالْقَادِحُ سوفسطائي . وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِأَنَّ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ . وَإِذَا قِيلَ : إنَّ اللَّفْظَ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا لَمْ يَحْتَجْ ذَلِكَ إلَى أَنْ يَكُونَ أَهْلُ اللُّغَةِ قَدْ تَكَلَّمُوا بِاللَّفْظِ مُطْلَقًا فَعَبَّرُوا

عَنْ الْمَعْنَى الْمُطْلَقِ الْمُشْتَرَكِ ؛ فَإِنَّ الْمَعَانِيَ الَّتِي لَا تَكُونُ إلَّا مُضَافَةً إلَى غَيْرِهَا : كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالِاسْتِوَاءِ ؛ بَلْ وَالْيَدُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ إلَّا صِفَةً قَائِمَةً بِغَيْرِهِ أَوْ جِسْمًا قَائِمًا بِغَيْرِهِ بِحَيْثُ لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُجَرَّدًا عَنْ مَحَلِّهِ . وَلَكِنَّ أَهْلَ النَّظَرِ لَمَّا أَرَادُوا تَجْرِيدَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ عَبَّرُوا عَنْهَا بِالْأَلْفَاظِ الْكُلِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ وَأَهْلُ اللُّغَةِ فِي ابْتِدَاءِ خِطَابِهِمْ يَقُولُونَ – مَثَلًا – : جَاءَ زَيْدٌ وَهَذَا وَجْهُ زَيْدٍ ؛ وَيُشِيرُونَ إلَى مَا قَامَ بِهِ مِنْ الْمَجِيءِ وَالْوَجْهِ فَيَفْهَمُ الْمُخَاطَبُ ذَلِكَ .

(269/271)

ثُمَّ يَقُولُونَ تَارَةً أُخْرَى : جَاءَ عَمْرٌو وَرَأَيْت وَجْهَ عَمْرٍو وَجَاءَ الْفَرَسُ وَرَأَيْت وَجْهَ الْفَرَسِ فَيَفْهَمُ الْمُسْتَمِعُ أَنَّ بَيْنَ هَذِهِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَقَدْرًا مُمَيَّزًا وَأَنَّ لِعَمْرٍو مَجِيئًا وَوَجْهًا نِسْبَتُهُ إلَيْهِ كَنِسْبَةِ مَجِيءِ زَيْدٍ وَوَجْهِهِ إلَيْهِ فَإِذَا عُلِمَ أَنَّ عَمْرًا مِثْلُ زَيْدٍ عُلِمَ أَنَّ مَجِيئَهُ مِثْلُ مَجِيئِهِ وَوَجْهَهُ مِثْلُ وَجْهِهِ وَإِنْ عُلِمَ أَنَّ الْفَرَسَ لَيْسَتْ مِثْلُ زَيْدٍ بَلْ تُشَابِهُهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عُلِمَ أَنَّ مَجِيئَهَا وَوَجْهَهَا لَيْسَ مَجِيءَ زَيْدٍ وَوَجْهَهُ بَلْ تُشْبِهُهُ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : جَاءَتْ الْمَلَائِكَةُ وَرَأَتْ الْأَنْبِيَاءُ وُجُوهَ الْمَلَائِكَةِ عُلِمَ أَنَّ لِلْمَلَائِكَةِ مَجِيئًا وَوُجُوهًا نِسْبَتُهَا إلَيْهَا كَنِسْبَةِ مَجِيءِ الْإِنْسَانِ وَوَجْهِهِ إلَيْهِ ثُمَّ مَعْرِفَتُهُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ تَبَعُ مَعْرِفَتِهِ بِحَقِيقَةِ الْمَلَائِكَةِ ؛

فَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ الْمَلَائِكَةَ : إلَّا مِنْ جِهَةِ الْجُمْلَةِ وَلَا يُتَصَوَّرُ كَيْفِيَّتَهُمْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَجِيئِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا إلَّا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ وَلَا يُتَصَوَّرُ كَيْفِيَّتُهَا . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : جَاءَتْ الْجِنُّ فَاللَّفْظُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ يَدُلُّ عَلَى مَعَانِيهَا بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ بَلْ إذَا قِيلَ : حَقِيقَةُ الْمَلَكِ وَمَاهِيَّتُهُ لَيْسَتْ مِثْلَ حَقِيقَةِ الْجِنِّيِّ وَمَاهِيَّتِهِ كَانَ لَفْظُ الْحَقِيقَةِ وَالْمَاهِيَّةِ مُسْتَعْمَلًا فِيهِمَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ وَكَانَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمُتَوَاطِئَةِ مَعَ أَنَّ الْمُسَمَّيَاتِ قَدْ صَرَّحَ فِيهَا بِنَفْيِ التَّمَاثُلِ .

(270/271)

وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ خَمْرُ الدُّنْيَا لَيْسَ كَمِثْلِ خَمْرِ الْآخِرَةِ وَلَا ذَهَبُهَا مِثْلُ ذَهَبِهَا وَلَا لَبَنُهَا مِثْلُ لَبَنِهَا وَلَا

عَسَلُهَا مِثْلُ عَسَلِهَا كَانَ قَدْ صَرَّحَ فِي ذَلِكَ بِنَفْيِ التَّمَاثُلِ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ مُسْتَعْمَلٌ فِيهَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ . وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ الْقَائِلُ : هَذَا الْمَخْلُوقُ مَا هُوَ مِثْلُ هَذَا الْمَخْلُوقِ وَهَذَا الْحَيَوَانُ الَّذِي هُوَ النَّاطِقُ لَيْسَ مِثْلَ الْحَيَوَانِ الَّذِي هُوَ الصَّامِتُ أَوْ هَذَا اللَّوْنُ الَّذِي هُوَ الْأَبْيَضُ لَيْسَ مِثْلَ الْأَسْوَدِ أَوْ الْمَوْجُودُ الَّذِي هُوَ الْخَالِقُ لَيْسَ هُوَ مِثْلَ الْمَوْجُودِ الَّذِي هُوَ الْمَخْلُوقُ وَنَحْوُ ذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مُسْتَعْمَلَةً عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ فِي

الْمُسَمَّيَيْنِ الَّذِينَ صَرَّحَ بِنَفْيِ التَّمَاثُلِ بَيْنَهُمَا فَالْأَسْمَاءُ الْمُتَوَاطِئَةُ إنَّمَا تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَإِنْ كَانَ الْمُسَمَّيَانِ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ مُتَضَادَّيْنِ .

(271/271)

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ إذَا كَانَتْ حَقِيقَةً لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِلْمَخْلُوقِينَ وَأَنَّ صِفَاتِهِ مُمَاثِلَةٌ لِصِفَاتِهِمْ كَانَ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ وَكَانَ أَوَّلُ كَلَامِهِ سَفْسَطَةً وَآخِرُهُ زَنْدَقَةً لِأَنَّهُ يَقْتَضِي نَفْيَ جَمِيعِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ . وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ صِفَةٍ وَصِفَةٍ مَعَ تَسَاوِيهِمَا فِي أَسْبَابِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ : كَانَ مُتَنَاقِضًا فِي قَوْلِهِ مُتَهَافِتًا فِي مَذْهَبِهِ مُشَابِهًا لِمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ . وَإِذَا تَأَمَّلَ اللَّبِيبُ الْفَاضِلُ هَذِهِ الْأُمُورَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ

(272/271)

فِي غَايَةِ الِاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ وَالصِّحَّةِ وَالِاطِّرَادِ وَأَنَّهُ مُقْتَضَى الْمَعْقُولِ الصَّرِيحِ وَالْمَنْقُولِ الصَّحِيحِ وَأَنَّ مَنْ خَالَفَهُ كَانَ مَعَ تَنَاقُضِ قَوْلِهِ الْمُخْتَلِفِ الَّذِي يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ خَارِجًا عَنْ

مُوجَبِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ مُخَالِفًا لِلْفِطْرَةِ وَالسَّمْعِ وَاللَّهُ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْنَا وَعَلَى سَائِرِ إخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَجْمَعُ لَنَا وَلَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَهَذَا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ بَعْضُهُمْ : قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ مَنْ اتَّخَذَ إلَهًا جَسَدًا ؛ وَ " الْجَسَدُ " هُوَ الْجِسْمُ ؛ فَيَكُونُ اللَّهُ قَدْ ذَمَّ مَنْ اتَّخَذَ إلَهًا هُوَ جِسْمٌ . وَإِثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَهَذَا مُنْتَفٍ بِهَذَا الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ . فَهَذَا خُلَاصَةُ مَا يَقُولُهُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ عَلَى الشَّرْعِ فَيُقَالُ لَهُ : هَذَا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ : (أَحَدُهَا أَنَّ هَذَا إذَا دَلَّ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ أَنْ يَكُونَ جَسَدًا ؛ لَا عَلَى نَفْيِ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَالْجِسْمُ فِي اصْطِلَاحِ هَؤُلَاءِ – نفاة الصِّفَاتِ – أَعَمُّ مِنْ الْجَسَدِ . فَإِنَّ الْجِسْمَ يَنْقَسِمُ عِنْدَهُمْ إلَى كَثِيفٍ وَلَطِيفٍ ؛ بِخِلَافِ الْجَسَدِ . فَإِنْ أَرَدْت بِقَوْلِك الْجِسْمَ اللُّغَوِيَّ – وَهُوَ الَّذِي قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ إنَّهُ هُوَ

(273/271)

الْجَسَدُ – قِيلَ لَك : لَا يَلْزَمُ مِنْ إثْبَاتِ الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ أَنْ يَكُونَ جَسَدًا وَهُوَ الْجِسْمُ اللُّغَوِيُّ . فَإِنَّا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْهَوَاءَ يَعْلُو عَلَى الْأَرْضِ وَلَيْسَ هُوَ بِجَسَدٍ ؛ وَالْجَسَدُ هُوَ الْجِسْمُ اللُّغَوِيُّ . فَقَوْلُ الْقَائِلِ : لَوْ كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ لَكَانَ جِسْمًا . وَالْجِسْمُ هُوَ

الْجَسَدُ وَالْجَسَدُ مُنْتَفٍ بِالشَّرْعِ : كَلَامٌ مُلَبِّسٌ . فَإِنَّهُ إنْ عَنَى بِالْجِسْمِ الْجَسَدَ : كَانَتْ الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى مَمْنُوعَةً ؛ فَإِنَّ عَاقِلًا لَا يَقُولُ إنَّهُ لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكَانَ جَسَدًا ؛ وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ إنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ : لَكَانَ جَسَدًا وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ : إنَّهُ لَوْ كَانَ يَرَى وَيَتَكَلَّمُ لَكَانَ جَسَدًا وَبَدَنًا . فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَهُمْ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ وَتَرَى وَتَتَكَلَّمُ وَكَذَلِكَ الْجِنُّ وَكَذَلِكَ الْهَوَاءُ يَعْلُو عَلَى غَيْرِهِ وَلَيْسَ بِجَسَدِ . وَإِنْ عَنَى بِالْجِسْمِ مَا يَعْنِيهِ أَهْلُ الْكَلَامِ ؛ مِنْ أَنَّهُ الَّذِي يُشَارُ إلَيْهِ وَجَعَلُوا كُلَّ مَا يُشَارُ إلَيْهِ جِسْمًا وَكُلَّ مَا يُرَى جِسْمًا أَوْ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى أَوْ يُوصَفُ بِالصِّفَاتِ فَهُوَ جِسْمٌ أَوْ كُلَّ مَا يَعْلُو عَلَى غَيْرِهِ وَيَكُونُ فَوْقَهُ فَهُوَ جِسْمٌ . فَيُقَالُ لَهُ : فَالْجَسَدُ وَالْجِسْمُ بِهَذَا التَّفْسِيرِ الْكَلَامِيِّ لَيْسَ هُوَ جَسَدًا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؛ بَلْ هُوَ مُنْقَسِمٌ إلَى غَلِيظٍ وَرَقِيقٍ إلَى مَا هُوَ جَسَدٌ وَإِلَى مَا لَيْسَ بِجَسَدِ .

(274/271)

وَلِذَا يَقُولُ الْفُقَهَاءُ : النَّجَاسَةُ إنْ كَانَتْ مُتَجَسِّدَةً كَالْمَيْتَةِ فَحُكْمُهَا كَذَا وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُتَجَسِّدَةٍ كَالْبَوْلِ فَحُكْمُهَا كَذَا . وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِجَسَدِ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ لَا يَكُونَ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ ؛ لِأَنَّ الْجِسْمَ أَعَمُّ عِنْدَهُمْ مِنْ الْجَسَدِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْخَاصِّ نَفْيُ الْعَامِّ ؛ كَمَا إذَا قُلْت لَيْسَ هُوَ بِإِنْسَانٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَيَوَانٍ . فَلَفْظُ الْجِسْمِ فِيهِ اشْتِرَاكٌ

بَيْنَ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ وَمَعْنَاهُ فِي عُرْفِ أَهْلِ الْكَلَامِ ؛ فَإِذَا كَانَ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ هُوَ مَعْنَى الْجَسَدِ - وَهَذَا مُنْتَفٍ بِمَا ذَكَرَ مِنْ الدَّلِيلِ - بَطَلَ قَوْلُ مَنْ نَفَى الِاسْتِوَاءَ بِالذَّاتِ ؛ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ الصِّفَاتِ . بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا بِذَلِكَ : لَكَانَ جِسْمًا فَإِنَّ التَّلَازُمَ حِينَئِذٍ مُنْتَفٍ فَإِحْدَى الْمُقَدِّمَتَيْنِ بَاطِلَةٌ ؛ إمَّا الْأُولَى وَإِمَّا الثَّانِيَةُ . وَنَظِيرُ هَذَا أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ لَكَانَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ وَمَا كَانَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ فَهُوَ مَحَلُّ الْآفَاتِ وَالْعُيُوبِ فَلَا يَكُونُ قُدُّوسًا وَلَا سَلَامًا لِأَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ قَالُوا : الْعَرَضُ بِالتَّحْرِيكِ مَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ فَلَوْ جَازَ أَنْ تَقُومَ بِهِ هَذِهِ لَكَانَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ مَعِيبًا نَاقِصًا وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ ؛ إذْ هُوَ السَّلَامُ الْقُدُّوسُ . فَيُقَالُ : لَفْظُ الْعَرَضِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ مَا ذَكَرَ مِنْ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ وَبَيْنَ مَعْنَاهُ فِي عُرْفِ أَهْلِ الْكَلَامِ فَإِنَّ

(275/271)

مَعْنَاهُ - عِنْدَ مَنْ يُسَمِّي الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ

مُطْلَقًا عَرَضًا - مَا قَامَ بِغَيْرِهِ كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحَرَكَةِ . وَالسُّكُونِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَآخَرُونَ يَقُولُونَ : هُوَ مَا لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ . وَيَقُولُونَ : إنَّ صِفَاتِ الْخَالِقِ بَاقِيَةٌ بِخِلَافِ مَا يَقُومُ بِالْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الصِّفَاتِ ؛ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى زَمَانَيْنِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّهُ إذَا قَالَ لَوْ قَامَ بِهِ الْعِلْمُ

وَالْقُدْرَةُ لَكَانَ عَرَضًا وَمَا قَامَ بِهِ الْعَرَضُ قَامَتْ بِهِ الْآفَاتُ كَلَامٌ فِيهِ تَلْبِيسٌ ؛ فَإِنَّ إحْدَى الْمُقَدِّمَتَيْنِ بَاطِلَةٌ . فَإِنَّ لَفْظَ الْعَرَضِ إنْ فُسِّرَ بِالصِّفَةِ فَالْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ بَاطِلَةٌ ؛ وَإِنْ فُسِّرَ بِمَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ الْمَرَضِ وَنَحْوِهِ فَالْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى بَاطِلَةٌ . وَنَظِيرُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ قَدْ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ لَكَانَ قَدْ أَحْدَثَ حَدَثًا وَقَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ ؛ لِأَنَّ الِاسْتِوَاءَ فِعْلٌ حَادِثٌ - كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ - فَلَوْ قَامَ بِهِ الِاسْتِوَاءُ لَقَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ وَمَنْ قَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ فَقَدْ أَحْدَثَ حَدَثًا وَاَللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا ﴾ وَلِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ﴾ . فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ : الْحَادِثُ فِي اللُّغَةِ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَاَللَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ؛ فَمَا مِنْ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ إلَّا وَقَدْ حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ .

(276/271)

وَأَمَّا الْمُحْدَثَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِيَ الْمُحْدَثَاتُ فِي الدِّينِ وَهُوَ أَنْ يُحْدِثَ الرَّجُلُ بِدْعَةً فِي الدِّينِ لَمْ يَشْرَعْهَا اللَّهُ وَالْإِحْدَاثُ فِي الدِّينِ مَذْمُومٌ مِنْ الْعِبَادِ وَاَللَّهُ يُحْدِثُ مَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . فَاللَّفْظُ الْمُشْتَبِهُ الْمُجْمَلُ إذَا خُصَّ فِي الِاسْتِدْلَالِ وَقَعَ فِيهِ الضَّلَالُ وَالْإِضْلَالُ . وَقَدْ قِيلَ إنَّ أَكْثَرَ اخْتِلَافِ الْعُقَلَاءِ مِنْ جِهَةِ اشْتِرَاكِ الْأَسْمَاءِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : فِي بَيَانِ بُطْلَانِ مَا ذَكَرَ مِنْ الِاسْتِدْلَالِ أَنْ يُقَالَ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ : لَا أَجْسَادَ الْآدَمِيِّينَ وَلَا أَرْوَاحَهُمْ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مَنْ جِنْسِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِحَيْثُ تَكُونُ حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَجُوزَ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْآخَرِ وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْقَدِيمُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ ؛ غَيْرَ قَدِيمٍ وَاجِبِ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ وَأَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ الَّذِي يَمْتَنِعُ غِنَاهُ غَنِيًّا يَمْتَنِعُ افْتِقَارُهُ إلَى الْخَالِقِ ؛ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الْمُتَنَاقِضَةِ وَاَللَّهُ تَعَالَى نَزَّهَ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُؤٌ أَوْ مِثْلٌ أَوْ سَمِيٌّ أَوْ نِدٌّ .

(277/271)

فَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ يُعْلَمُ بِهَا تَنَزُّهُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ أَجْسَادِ الْآدَمِيِّينَ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ لَكِنَّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ اسْتَدَلَّ بِحُجَّةٍ ضَعِيفَةٍ فَإِنَّ " الْجَسَدَ " وَإِنْ كَانَ قَدْ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ : إنَّ الْجَسَدَ هُوَ الْبَدَنُ يُقَالُ مِنْهُ تَجَسَّدَ كَمَا يُقَالُ : مِنْ الْجِسْمِ تَجَسَّمَ وَالْجَسَدُ أَيْضًا الزَّعْفَرَانُ وَنَحْوُهُ مِنْ الصِّبْغِ وَهُوَ الدَّمُ أَيْضًا . كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ :

وَمَا أُرِيقَ عَلَى الْأَصْنَامِ مِنْ جَسَدٍ

فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْجَسَدِ فِي الْقُرْآنِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ الْعِجْلِ أَنَّ لَهُ بَدَنًا مِثْلَ بَدَنِ الْآدَمِيِّينَ وَلَا بَدَنًا كَأَبْدَانِ الْبَقَرِ فَإِنَّ الْعِجْلَ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَالْعَرَبُ تَقُولُ جَسِدَ بِهِ الدَّمُ يَجْسَدُ جَسَدًا إذَا لَصِقَ بِهِ فَهُوَ جَاسِدٌ وَجَسِدٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :

سَاعِدٌ بِهِ جَسِدٌ مُوَرَّسُ * * * مِنْ الدِّمَاءِ مَائِعٌ وَيَبِسُ

(278/271)

وَالْجَسَدُ الْأَحْمَرُ وَالْجَسَدُ مَا أُشْبِعَ صَبْغُهُ مِنْ الثِّيَابِ ؛ لِكَمَالِ مَا لَصِقَ بِهِ مِنْ الصَّبْغِ فَاللَّفْظُ فِيهِ مَعْنَى التَّكَاثُفِ وَالتَّلَاصُقِ ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ الْفُقَهَاءُ نَجَاسَةٌ مُتَجَسِّدَةٌ وَغَيْرُ مُتَجَسِّدَةٍ وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهِ الْجَسَدُ الْمُصْمَتُ الْمُتَلَاصِقُ الْمُتَكَاثِفُ أَوْ الَّذِي لَا حَيَاةَ فِيهِ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَفْظَةَ الْجَسَدِ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى :

(279/271)

﴿ وَأُلْقِيَنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ كَأَنَّهُ عِجْلٌ مُصْمَتٌ لَا جَوْفَ لَهُ . وَقَدْ يُقَالُ : إنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ خَارَ خورة . وَلَمْ يَقُلْ عِجْلًا لَهُ جَسَدٌ لَهُ بَدَنٌ لَهُ جِسْمٌ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ عِجْلٍ لَهُ جَسَدٌ هُوَ بَدَنُهُ وَهُوَ جِسْمُهُ وَالْعِجْلُ الْمَعْرُوفُ جَسَدٌ فِيهِ رُوحٌ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ مَا أَخْرَجَهُ كَانَ جَسَدًا مُصْمَتًا لَا رُوحَ فِيهِ حَتَّى تَبَيَّنَ نَقْصُهُ وَأَنَّهُ كَانَ مَسْلُوبَ الْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ . وَقَدْ رُوِيَ : أَنَّهُ إنَّمَا خَارَ خورة وَاحِدَةً وَقَدْ يُقَالُ : إنْ أُرِيدَ بِالْجَسَدِ الْمُصْمَتُ أَوْ الْغَلِيظُ وَنَحْوُهُ فَلِمَ قِيلَ إنَّ ذَلِكَ ذَكَرَ لِبَيَانِ نَقْصِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ؛ بَلْ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ضَلُّوا بِهِ وَإِنَّمَا كَانَ النَّقْصُ مِنْ جِهَةِ ﴿ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ وَقَدْ يُقَالُ : إذَا كَانَ لَا حَيَاةَ فِيهِ فَالنَّقْصُ كَانَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الْحَيَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ ؛ لَا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ لَهُ بَدَنٌ أَوْ لَيْسَ لَهُ بَدَنٌ ؛ فَالْآدَمِيُّ لَهُ بَدَنٌ . وَلَوْ أَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا كَسَائِرِ الْعُجُولِ أَوْ آدَمِيًّا كَامِلًا أَوْ فَرَسًا حَيًّا أَوْ جَمَلًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْحَيَوَانِ : لَكَانَ أَيْضًا لَهُ بَدَنٌ وَلَكِنَّ ذَلِكَ أُعْجُوبَةٌ عَظِيمَةٌ وَكَانَتْ الْفِتْنَةُ بِهِ أَشَدَّ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ أَنَّ الْمُخْرَجَ كَانَ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ النَّقْصِ يُحَقِّقُ

ذَلِكَ .

(281/271)

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ فَلَمْ يَذْكُرْ فِيمَا عَابَهُ بِهِ كَوْنَهُ ذَا جَسَدٍ ؛ وَلَكِنْ ذَكَرَ فِيمَا عَابَهُ بِهِ ﴿ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ وَلَوْ كَانَ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ ذَا بَدَنٍ عَيْبًا وَنَقْصًا لَذَكَرَ ذَلِكَ . فَعُلِمَ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى نَقْصِ حُجَّةِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ ذَا بَدَنٍ عَيْبًا وَنَقْصًا وَهَذِهِ الْحُجَّةُ نَظِيرُ احْتِجَاجِهِمْ بِالْأُفُولِ فَإِنَّهُمْ غَيَّرُوا مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ وَجَعَلُوهُ الْحَرَكَةَ فَظَنُّوا أَنَّ إبْرَاهِيمَ احْتَجَّ بِذَلِكَ عَلَى كَوْنِهِ لَيْسَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ كَانَ كَمَا ذَكَرُوهُ : لَكَانَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ . (الْوَجْهُ الرَّابِعُ) : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُ بِكَوْنِهِ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ وَقَالَ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى : ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فَلَمْ يَقْتَصِرْ فِي وَصْفِهِ عَلَى مُجَرَّدِ كَوْنِهِ جَسَدًا . بَلْ وَصَفَهُ بِأَنَّ لَهُ خُوَارًا وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . فَالْمُوجِبُ لِنَقْصِهِ إمَّا أَنْ يَكُونَ

مَجْمُوعَ الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضَهَا أَوْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا ؛ فَإِنْ كَانَ الْمَجْمُوعُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّ نَقْصَهَا وَاحِدَةً نَقْصٌ

(282/271)

وَإِنْ كَانَ بَعْضَهَا فَلَيْسَ كَوْنُهُ جَسَدًا بِأَوْلَى مِنْ كَوْنِهِ لَهُ خُوَارٌ . وَلَيْسَ هَذَا وَهَذَا بِأَوْلَى مِنْ كَوْنِهِ مَسْلُوبَ

(283/271)

التَّكَلُّمِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى النَّفْعِ وَالضُّرِّ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا ؛ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ إنَّمَا ضَلُّوا بِخُوَارِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَاَللَّهُ تَعَالَى إنَّمَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِعَدَمِ التَّكَلُّمِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى النَّفْعِ وَالضُّرِّ . (الْوَجْهُ الْخَامِسُ) : أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ كَوْنَهُ جَسَدًا وَكَوْنَهُ لَهُ خُوَارٌ صِفَةُ نَقْصٍ ؛ وَإِنَّمَا الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَنَّ كَوْنَهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعِهِمْ وَضَرِّهِمْ نَقْصٌ يُبَيِّنُ ذَلِكَ : أَنَّ الْخُوَارَ هُوَ الصَّوْتُ وَالْإِنْسَانُ الَّذِي يُصَوِّتُ ؛ وَيُقَالُ : خَارَ يَخُورُ الثَّوْرُ وَهُوَ يُكَلِّمُ غَيْرَهُ وَقَدْ يَهْدِيهِ السَّبِيلَ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ أَنَّ صِفَاتِ الْعِجْلِ نَاقِصَةٌ عَنْ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يُكَلِّمُ

غَيْرَهُ وَيَهْدِيه ؛ فَالْعَابِدُ أَكْمَلُ مِنْ الْمَعْبُودِ يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ كَلَّمَهُمْ لَكَانَ أَيْضًا مُصَوِّتًا فَلَوْ كَانَ ذِكْرُ الصَّوْتِ لِبَيَانِ نَقْصِهِ لَبَطَلَ الِاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ فَإِنَّ تَكْلِيمَهُ لَهُمْ لَوْ كَلَّمَهُمْ إنَّمَا كَانَ يَكُونُ بِصَوْتٍ يَسْمَعُونَهُ مِنْهُ . فَعُلِمَ أَنَّ ذِكْرَ التَّصْوِيتِ لَمْ يَكُنْ لِكَوْنِهِ صِفَةَ نَقْصٍ فَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْجَسَدِ . وَبِالْجُمْلَةِ : مَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى هَذَا وَهَذَا هُوَ الْعَيْبُ الَّذِي عَابَهُ بِهِ وَجَعَلَهُ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ إلَهِيَّتِهِ ؛ فَقَدْ قَالَ عَلَى الْقُرْآنِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ؛ بَلْ هُوَ عَلَى نَقِيضِهِ أَدَلُّ .

(284/271)

الْوَجْهُ السَّادِسُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ عَنْ الْخَلِيلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ ﴾ ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فَاحْتَجَّ عَلَى نَفْيِ إلَهِيَّتِهَا بِكَوْنِهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ؛ مَعَ كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا لَهُ بَدَنٌ وَجِسْمٌ سَوَاءٌ كَانَ حَجَرًا أَوْ غَيْرَهُ . فَلَوْ كَانَ مُجَرَّدُ هَذَا الِاحْتِجَاجِ كَافِيًا لَذَكَرَهُ إبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ؛ بَلْ إنَّمَا احْتَجُّوا بِمِثْلِ مَا احْتَجَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ نَفْيِ صِفَاتِ الْكَمَالِ عَنْهَا : كَالتَّكَلُّمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحَرَكَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

الْوَجْهُ السَّابِعُ : أَنْ يُقَالَ : مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى إمَّا أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِبَعْضِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؛ وَإِمَّا أَنْ لَا يَدُلَّ . فَإِنْ لَمْ يَدُلَّ بَطَلَ مَا ذَكَرُوهُ ؛ وَإِنْ دَلَّ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ التَّكْلِيمُ لِلْعِبَادِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْقُدْرَةُ وَالنَّفْعُ وَالضُّرُّ . وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْآيَاتُ دَلِيلًا عَلَى إثْبَاتِ الصِّفَاتِ ؛ لَا عَلَى نَفْيِهَا ، ونفاة الصِّفَاتِ إنَّمَا نَفَوْهَا لِزَعْمِهِمْ أَنَّ إثْبَاتَهَا يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ وَالتَّجْسِيدَ . فَالْآيَاتُ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا هِيَ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ . وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ وَجَدْنَاهُ مُطَّرِدًا فِي عَامَّةِ مَا يَحْتَجُّ بِهِ نفاة الصِّفَاتِ مِنْ الْآيَاتِ فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ مَطْلُوبِهِمْ لَا عَلَى مَطْلُوبِهِمْ .

الْوَجْهُ الثَّامِنُ : أَنَّهُ إذَا كَانَ كُلُّ جِسْمٍ جَسَدًا وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَوْثَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ : أَجْسَامًا وَهِيَ أَجْسَادٌ فَإِنْ كَانَ اللَّهُ ذَكَرَ هَذَا فِي الْعِجْلِ لِيَنْفِيَ بِهِ عَنْهُ الْإِلَهِيَّةَ : لَزِمَ أَنْ يَطَّرِدَ هَذَا الدَّلِيلُ فِي جَمِيعِ الْمَعْبُودَاتِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَذْكُرْ هَذَا فِي غَيْرِ الْعِجْلِ : أَنَّهُ ذَكَرَ كَوْنَهُ جَسَدًا لِبَيَانِ سَبَبِ افْتِتَانِهِمْ بِهِ لَا أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ ؛ بَلْ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِكَوْنِهِ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا .

الْوَجْهُ التَّاسِعُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي الْأَعْرَافِ : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ وَلِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْعَابِدَ أَكْمَلُ مِنْ الْمَعْبُودِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَعْبُودَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِنَقِيضِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنْ قِيلَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَمْكَنَ أَنْ يُقَالَ بِمِثْلِهِ فِي آيَةِ الْعِجْلِ . فَلَا يَكُونُ فِيهِ تَعَرُّضٌ لِصِفَاتِ الْإِلَهِ ؛ وَإِنْ قِيلَ بِالثَّانِي : وَجَبَ أَنْ يَتَّصِفَ الرَّبُّ تَعَالَى بِمَا نَفَاهُ عَنْ الْأَصْنَامِ . وَحِينَئِذٍ : فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ أَجْسَامًا كَانَتْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ مُعَارِضَةٌ

(287/271)

لِمَا ذَكَرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَجْسَامًا بَطَلَ نَفْيُهُمْ لَهَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَوَجَبَ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ الْأَيْدِي وَغَيْرِهَا وَلَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْسَامًا وَلَا يَكُونُ تَجْسِيمًا وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا تَجْسِيمًا فَإِثْبَاتُ الْعُلُوِّ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ تَجْسِيمًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ تَجْسِيمًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الشَّرْعَ مُنَاقِضٌ لِمَا ذَكَرُوهُ . (الْوَجْهُ الْعَاشِرُ) : أَنْ يُقَالَ : دَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَأَنَّهُ نَفْسُهُ فَوْقَ الْعَرْشِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ

تُحْصَرَ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . وَقَدْ قِيلَ : إنَّ ذَلِكَ يَبْلُغُ ثَلَاثَمِائَةِ آيَةٍ وَهِيَ دَلَائِلُ جَلِيَّةٌ بَيِّنَةٌ مَفْهُومَةٌ : مِنْ الْقُرْآنِ مَعْقُولَةٌ : مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى . فَإِنْ كَانَ إِثْبَاتُ هَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جِسْمًا وَجَسَدًا : لَمْ يُمْكِنْ دَفْعُ مُوجَبِ هَذِهِ النُّصُوصِ بِمَا ذُكِرَ فِي قِصَّةِ الْعِجْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا أَنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ جَسَدًا هُوَ النَّقْصُ - الَّذِي عَابَهُ اللَّهُ وَجَعَلَهُ مَانِعًا مِنْ إلَهِيَّتِهِ - وَإِنْ كَانَ إِثْبَاتُ الْعُلُوِّ وَالصِّفَاتِ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَجَسَدًا بَطَلَ أَصْلُ كَلَامِهِمْ ؛ فِي - أَنَّ عُمْدَتَهُمْ - أَنَّ إِثْبَاتَ الْعُلُوِّ يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ وَالتَّجَسُّدَ ؛ فَإِذَا سَلَّمُوا أَنَّهُ لَا

(288/271)

يَسْتَلْزِمُ التَّجْسِيمَ وَالتَّجَسُّدَ ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ .

وَحِينَئِذٍ فَإِذَا دَلَّتْ قِصَّةُ الْعِجْلِ أَوْ غَيْرُهَا عَلَى امْتِنَاعِ كَوْنِ الرَّبِّ تَعَالَى جَسَدًا أَوْ جِسْمًا ؛ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النُّصُوصِ مُنَافَاةٌ ؛ بَلْ يُوصَفُ بِأَنَّهُ نَفْسُهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ الشَّرْعَ لَيْسَ فِيهِ مَا يُوَافِقُ النُّفَاةَ لِلْعُلُوِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الصِّفَاتِ ؛ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

فَصْلٌ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ " عُلُوِّ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَ قُرْبِهِ " : مِنْ دَاعِيهِ وَعَابِدِيهِ .

(289/271)

فَنَقُولُ : قَدْ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ بِالْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالْفَوْقِيَّةِ فِي كِتَابِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى قَالَ بَعْضُ كِبَارِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ : فِي الْقُرْآنِ أَلْفُ دَلِيلٍ أَوْ أَزْيَدُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَالٍ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : فِيهِ ثَلَاثُمِائَةِ دَلِيلٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِأَنَّ مَعْنَى " عِنْدَهُ " فِي قُدْرَتِهِ كَمَا يَقُولُ الْجَهْمِيَّةُ لَكَانَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فِي قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ؛ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ؛ كَمَا أَنَّ الِاسْتِوَاءَ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الِاسْتِيلَاءَ لَكَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ وَلَكَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ دَائِمًا . وَالِاسْتِوَاءُ مُخْتَصٌّ بِالْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي

(290/271)

كِتَابِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ تَارَةً كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ وَتَارَةً لَمْ يَكُنْ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْعُلُوُّ مِنْ الصِّفَاتِ الْمَعْلُومَةِ بِالسَّمْعِ مَعَ الْعَقْلِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْمُثْبِتَةِ وَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ فَمِنْ الصِّفَاتِ الْمَعْلُومَةِ بِالسَّمْعِ لَا بِالْعَقْلِ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ نَفْسَهُ أَيْضًا بِالْمَعِيَّةِ وَالْقُرْبِ . وَالْمَعِيَّةُ مَعِيَّتَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . فَالْأُولَى كَقَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ وَالثَّانِيَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ . وَأَمَّا " الْقُرْبُ " فَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ وَقَدْ افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ " أَرْبَعُ فِرَقٍ " . " فَالْجَهْمِيَّةُ النُّفَاةُ " الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَ الْعَالَمِ وَلَا فَوْقَ وَلَا تَحْتَ لَا يَقُولُونَ بِعُلُوِّهِ وَلَا بِفَوْقِيَّتِهِ بَلْ الْجَمِيعُ عِنْدَهُمْ مُتَأَوَّلٌ أَوْ مُفَوَّضٌ . وَجَمِيعُ أَهْلِ الْبِدَعِ قَدْ يَتَمَسَّكُونَ بِنُصُوصٍ : كَالْخَوَارِجِ وَالشِّيعَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ وَالْمُرْجِئَةِ وَغَيْرِهِمْ ؛ إلَّا الْجَهْمِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ مَعَهُمْ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تُوَافِقُ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ النَّفْيِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ :

(291/271)

إنَّ الْجَهْمِيَّة خَارِجُونَ عَنْ الثَّلَاثِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً وَهَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ لِأَصْحَابِ أَحْمَد ذَكَرَهُمَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَامِدٍ وَغَيْرُهُ . " وَقِسْمٌ ثَانٍ " يَقُولُونَ : إنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ كَمَا يَقُولُ النجارية وَكَثِيرٌ مِنْ الْجَهْمِيَّة - عُبَّادُهُمْ وَصُوفِيَّتُهُمْ وَعَوَامُّهُمْ - يَقُولُونَ : إنَّهُ عَيْنُ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا يَقُولُهُ " أَهْلُ الْوَحْدَةِ " الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ وَمَنْ يَكُونُ قَوْلُهُ مُرَكَّبًا مِنْ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ ؛ وَهُمْ يَحْتَجُّونَ بِنُصُوصِ " الْمَعِيَّةِ وَالْقُرْبِ " ؛ وَيَتَأَوَّلُونَ نُصُوصَ " الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ " . وَكُلُّ نَصٍّ يَحْتَجُّونَ بِهِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ أَكْثَرُهَا خَاصَّةٌ بِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ . وَفِي النُّصُوصِ مَا يُبَيِّنُ نَقِيضَ قَوْلِهِمْ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُسَبِّحُ وَالْمُسَبِّحُ غَيْرُ الْمُسَبَّحِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ؛ ﴾ فَإِذَا كَانَ هُوَ الْأَوَّلَ كَانَ هُنَاكَ مَا يَكُونُ بَعْدَهُ وَإِذَا كَانَ آخِرًا كَانَ هُنَاكَ مَا الرَّبُّ بَعْدَهُ وَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا لَيْسَ

(292/271)

فَوْقَهُ شَيْءٌ كَانَ هُنَاكَ مَا الرَّبُّ ظَاهِرٌ عَلَيْهِ وَإِذَا كَانَ بَاطِنًا لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ كَانَ هُنَاكَ أَشْيَاءُ نُفِيَ عَنْهَا أَنْ تَكُونَ دُونَهُ .

وَلِهَذَا قَالَ " ابْنُ عَرَبِيٍّ " : مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى " الْعَلِيُّ " عَلَى مَنْ يَكُونُ عَلِيًّا وَمَا ثَمَّ إلَّا هُوَ وَعَلَى مَاذَا يَكُونُ عَلِيًّا وَمَا يَكُونُ إلَّا هُوَ ؛ فَعُلُوُّهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودُ عَيْنُ الْمَوْجُودَاتِ فَالْمُسَمَّى مُحْدَثَاتٌ هِيَ الْعَلِيَّةُ لِذَاتِهَا وَلَيْسَتْ إلَّا هُوَ . ثُمَّ قَالَ : قَالَ الْخَرَّازُ : وَهُوَ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الْحَقِّ وَلِسَانٌ مِنْ أَلْسِنَتِهِ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّ اللَّهَ يُعْرَفُ بِجَمْعِهِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ ؛ فَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ وَهُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ فِي حَالِ ظُهُورِهِ وَمَا ثَمَّ مَنْ تَرَاهُ غَيْرُهُ وَمَا ثَمَّ مَنْ بَطَنَ عَنْهُ سِوَاهُ ؛ فَهُوَ ظَاهِرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ بَاطِنٌ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الْمُسَمَّى " أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ " .

(293/271)

" وَالْمَعِيَّةُ " لَا تَدُلُّ عَلَى الْمُمَازَجَةِ وَالْمُخَالَطَةِ وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْقُرْبِ ؛ فَإِنَّ عِنْدَ الْحُلُولِيَّةِ أَنَّهُ فِي حَبْلِ الْوَرِيدِ كَمَا هُوَ عِنْدَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَعْيَانِ وَكُلُّ هَذَا كُفْرٌ وَجَهْلٌ بِالْقُرْآنِ . " وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ " مَنْ يَقُولُ : هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ . وَيَقُولُ : أَنَا أُقِرُّ بِهَذِهِ النُّصُوصِ وَهَذِهِ لَا أَصْرِفُ وَاحِدًا مِنْهَا عَنْ ظَاهِرِهِ . وَهَذَا قَوْلُ طَوَائِفَ ذَكَرَهُمْ الْأَشْعَرِيُّ فِي " الْمَقَالَاتِ

الْإِسْلَامِيَّةِ " وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ طَائِفَةٍ مِنْ السالمية وَالصُّوفِيَّةِ . وَيُشْبِهُ هَذَا مَا فِي كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ الْمَكِّيِّ وَابْنِ برجان وَغَيْرِهِمَا مَعَ مَا فِي كَلَامِ أَكْثَرِهِمَا مِنْ التَّنَاقُضِ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ أَبُو عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيُّ - الَّذِي صَنَّفَ " مَثَالِبَ ابْنِ أَبِي بِشْرٍ " وَرَدَّ عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ عَسَاكِرَ - هُوَ مِنْ السالمية وَكَذَلِكَ ذَكَرَ " الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ " : أَنَّ جَمَاعَةً أَنْكَرُوا عَلَى أَبِي طَالِبٍ كَلَامَهُ فِي الصِّفَاتِ .

(294/271)

وَهَذَا الصِّنْفُ الثَّالِثُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ إلَى التَّمَسُّكِ بِالنُّصُوصِ وَأَبْعَدَ عَنْ مُخَالَفَتِهَا مِنْ الصِّنْفَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ . فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَتَّبِعْ شَيْئًا مِنْ النُّصُوصِ ؛ بَلْ خَالَفَهَا كُلَّهَا . وَالثَّانِي تَرَكَ النُّصُوصَ الْكَثِيرَةَ الْمُحْكَمَةَ الْمُبَيِّنَةَ وَتَعَلَّقَ بِنُصُوصٍ قَلِيلَةٍ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ مَعَانِيهَا . وَأَمَّا هَذَا الصِّنْفُ فَيَقُولُ : أَنَا اتَّبَعْتُ النُّصُوصَ كُلَّهَا لَكِنَّهُ غالط أَيْضًا . فَكُلُّ مَنْ قَالَ : إنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ وَلِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَلِلْأَدِلَّةِ الْكَثِيرَةِ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ أَقْوَالًا مُتَنَاقِضَةً يَقُولُونَ : إنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ . وَيَقُولُونَ : نَصِيبُ الْعَرْشِ مِنْهُ كَنَصِيبِ قَلْبِ الْعَارِفِ كَمَا يَذْكُرُ مِثْلَ ذَلِكَ أَبُو طَالِبٍ وَغَيْرُهُ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَلْبَ الْعَارِفِ نَصِيبُهُ مِنْهُ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِيمَانُ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ فَإِنْ قَالُوا :

إنَّ الْعَرْشَ كَذَلِكَ نَقَضُوا قَوْلَهُمْ : إنَّهُ نَفْسُهُ فَوْقَ الْعَرْشِ . وَإِنْ قَالُوا بِحُلُولِهِ بِذَاتِهِ فِي قُلُوبِ الْعَارِفِينَ كَانَ هَذَا قَوْلًا بِالْحُلُولِ الْخَالِصِ . وَقَدْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ " الصُّوفِيَّةِ " حَتَّى صَاحِبُ " مَنَازِلِ السَّائِرِينَ " فِي تَوْحِيدِهِ الْمَذْكُورِ فِي آخِرِ الْمَنَازِلِ فِي مِثْلِ هَذَا الْحُلُولِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّةُ الْقَوْمِ يُحَذِّرُونَ مِنْ مِثْلِ هَذَا . سُئِلَ " الْجُنَيْد " عَنْ التَّوْحِيدِ فَقَالَ : هُوَ إفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ .

(295/271)

فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُوَحِّدِ مِنْ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْقَدِيمِ الْخَالِقِ وَالْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ

(296/271)

فَلَا يَخْتَلِطُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ فِي أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ مَا قَالَتْهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَالشِّيعَةِ فِي أَئِمَّتِهَا ؛ وَكَثِيرٌ مِنْ الْحُلُولِيَّةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ يُنْكِرُ عَلَى الْجُنَيْد وَأَمْثَالِهِ مِنْ شُيُوخِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا قَالُوهُ مِنْ نَفْيِ الْحُلُولِ وَمَا قَالُوهُ فِي إثْبَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَيَرَى أَنَّهُمْ لَمْ يُكْمِلُوا مَعْرِفَةَ الْحَقِيقَةِ كَمَا كَمَّلَهَا هُوَ وَأَمْثَالُهُ مِنْ الْحُلُولِيَّةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ . وَأَمَّا "

الْقِسْمُ الرَّابِعُ " فَهُمْ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا : أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مِنْ شُيُوخِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فَإِنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَآمَنُوا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ لِلْكَلِمِ أَثْبَتُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ سَمَوَاتِهِ وَأَنَّهُ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمْ مِنْهُ بَائِنُونَ وَهُوَ أَيْضًا مَعَ الْعِبَادِ عُمُومًا بِعِلْمِهِ وَمَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْكِفَايَةِ وَهُوَ أَيْضًا قَرِيبٌ مُجِيبٌ ؛ فَفِي آيَةِ النَّجْوَى دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِمْ . وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ الْمُسَافِرِ فِي سَفَرِهِ وَمَعَ أَهْلِهِ فِي وَطَنِهِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مُخْتَلِطَةً بِذَوَاتِهِمْ كَمَا قَالَ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أَيْ (مَعَهُ عَلَى الْإِيمَانِ) لَا أَنَّ ذَاتَهُمْ فِي ذَاتِهِ بَلْ هُمْ

(297/271)

مُصَاحِبُونَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَمُوَالَاتِهِمْ فَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِعِبَادِهِ وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا وَعِلْمُهُ بِهِمْ مِنْ لَوَازِمِ الْمَعِيَّةِ ؛ كَمَا قَالَتْ الْمَرْأَةُ : زَوْجِي طَوِيلُ النِّجَادِ عَظِيمُ الرَّمَادِ قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ : فَهَذَا كُلُّهُ

(298/271)

حَقِيقَةٌ وَمَقْصُودُهَا : أَنْ تُعَرِّفَ لَوَازِمَ ذَلِكَ وَهُوَ طُولُ الْقَامَةِ وَالْكَرَمُ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَقُرْبُ الْبَيْتِ مِنْ مَوْضِعِ الْأَضْيَافِ . وَفِي الْقُرْآنِ : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ الْآيَةَ فَإِنَّهُ يُرَادُ بِرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ إثْبَاتُ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ؛ وَأَنَّهُ يَعْلَمُ هَلْ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ شَرٌّ فَيُثِيبُ عَلَى الْحَسَنَاتِ وَيُعَاقِبُ عَلَى السَّيِّئَاتِ . وَكَذَلِكَ إثْبَاتُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخَلْقِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وَالْمُرَادُ التَّخْوِيفُ بِتَوَابِعِ السَّيِّئَاتِ وَلَوَازِمِهَا مِنْ الْعُقُوبَةِ وَالِانْتِقَامِ . وَهَكَذَا كَثِيرًا مَا يَصِفُ الرَّبُّ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ وَبِالْأَعْمَالِ : تَحْذِيرًا وَتَخْوِيفًا وَتَرْغِيبًا لِلنُّفُوسِ فِي الْخَيْرِ . وَيَصِفُ نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالرُّؤْيَةِ وَالْكِتَابِ فَمَدْلُولُ اللَّفْظِ مُرَادٌ مِنْهُ وَقَدْ أُرِيدُ أَيْضًا لَازِمُ ذَلِكَ الْمَعْنَى ؛ فَقَدْ أُرِيدُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ بِالْمُطَابَقَةِ وَبِالِالْتِزَامِ ؛ فَلَيْسَ اللَّفْظُ مُسْتَعْمَلًا فِي اللَّازِمِ فَقَطْ بَلْ أُرِيدَ بِهِ مَدْلُولُهُ الْمَلْزُومُ وَذَلِكَ حَقِيقَةٌ .

وَأَمَّا لَفْظُ " الْقُرْبِ " فَقَدْ ذَكَرَهُ تَارَةً بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْجَمْعِ ؛

فَالْأَوَّلُ إنَّمَا جَاءَ فِي إجَابَةِ الدَّاعِي : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ﴾ وَكَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ﴾ وَجَاءَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ ﴾ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ وَ ﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ و ﴿ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فَالْقُرْآنُ هُنَا حِينَ يَسْمَعُهُ مِنْ جِبْرِيلَ وَالْبَيَانُ هُنَا بَيَانُهُ لِمَنْ يَبْلُغُهُ الْقُرْآنُ . وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَخَلَفِهَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَأَمَّا قَوْلُهُ . ﴿ نَتْلُوا ﴾ و ﴿ نَقُصُّ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ فَهَذِهِ الصِّيغَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِلْوَاحِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَهُ أَعْوَانٌ يُطِيعُونَهُ فَإِذَا فَعَلَ أَعْوَانُهُ فِعْلًا بِأَمْرِهِ قَالَ : نَحْنُ فَعَلْنَا : كَمَا يَقُولُ الْمَلِكُ : نَحْنُ فَتَحْنَا هَذَا الْبَلَدَ وَهَزَمْنَا هَذَا الْجَيْشَ وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يَفْعَلُ بِأَعْوَانِهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وَلَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ وَهُوَ مَعَ هَذَا خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ أَفْعَالِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ ؛ وَلَيْسَ هُوَ

(300/271)

كَالْمَلِكِ الَّذِي يَفْعَلُ أَعْوَانُهُ بِقُدْرَةِ وَحَرَكَةٍ يَسْتَغْنُونَ بِهَا عَنْهُ فَكَانَ قَوْلُهُ لِمَا فَعَلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ : نَحْنُ فَعَلْنَا أَحَقُّ وَأَوْلَى مِنْ قَوْلِ بَعْضِ الْمُلُوكِ .

(301/271)

وَهَذَا اللَّفْظُ هُوَ مِنْ " الْمُتَشَابِهِ " الَّذِي ذَكَرَ أَنَّ النَّصَارَى احْتَجُّوا بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّثْلِيثِ لَمَّا وَجَدُوا فِي الْقُرْآنِ ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ فَذَمَّهُمْ اللَّهُ حَيْثُ تَرَكُوا الْمُحْكَمَ مِنْ الْقُرْآنِ : أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ وَتَمَسَّكُوا بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يَحْتَمِلُ الْوَاحِدَ الَّذِي مَعَهُ نَظِيرُهُ : وَالَّذِي مَعَهُ أَعْوَانُهُ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدُهُ وَخَلْقُهُ وَاتَّبَعُوا الْمُتَشَابِهَ يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ الْفِتْنَةَ وَهِيَ فِتْنَةُ الْقُلُوبِ بِتَوَهُّمِ آلِهَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَابْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فَإِنَّهُمَا قَوْلَانِ لِلسَّلَفِ وَكِلَاهُمَا حَقٌّ . فَمَنْ قَالَ : إنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ قَالَ : - إنَّ تَأْوِيلَهُ مَا يُؤَوَّلُ إلَيْهِ وَهُوَ مَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ إنَّا وَنَحْنُ - هُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يُدَبِّرُ بِهِمْ أَمْرَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَأُولَئِكَ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ صِفَتَهُمْ غَيْرُهُ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَأْتِي أَمْرُهُمْ يَفْعَلُونَ إلَّا هُوَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ ﴾ وَكُلٌّ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَإِنْ عَلِمَ حَالَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ؛ فَلَا يَعْلَمُ جَمِيعَ

الْمَلَائِكَةِ وَلَا جَمِيعَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ قَالَ : " التَّأْوِيلُ " هُوَ التَّفْسِيرُ وَهُوَ إعْلَامُ النَّاسِ بِالْخِطَابِ . فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

(302/271)

يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ كُلِّهِ وَمَا بَيَّنَ اللَّهُ مِنْ مَعَانِيهِ كَمَا اسْتَفَاضَتْ بِذَلِكَ الْآثَارُ عَنْ السَّلَفِ . فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ أَنَّ قَوْلَهُ :

(303/271)

(نَحْنُ) إنَّ اللَّهَ فَعَلَ ذَلِكَ بِمَلَائِكَتِهِ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ عَدَدَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا أَسْمَاءَهُمْ وَلَا صِفَاتِهِمْ وَحَقَائِقَ ذَوَاتِهِمْ ؛ لَيْسَ الرَّاسِخُونَ كَالْجُهَّالِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ (إنَّا) و(نَحْنُ) ؛ بَلْ يَقُولُونَ : أَلْفَاظًا لَا يَعْرِفُونَ مَعَانِيَهَا أَوْ يُجَوِّزُونَ أَنْ تَكُونَ الْآلِهَةُ ثَلَاثَةً مُتَعَدِّدَةً أَوْ وَاحِدًا لَا أَعْوَانَ لَهُ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَتَوَفَّاهَا بِرُسُلِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ فَإِنَّهُ يَتَوَفَّاهَا بِرُسُلِهِ الَّذِينَ مُقَدَّمُهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ هُوَ قِرَاءَةُ جِبْرِيلَ لَهُ عَلَيْهِ وَاَللَّهُ قَرَأَهُ

بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ كَمَا قَالَ : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ فَهُوَ مُكَلِّمٌ لِمُحَمَّدٍ بِلِسَانِ جِبْرِيلَ وَإِرْسَالِهِ إِلَيْهِ وَهَذَا ثَابِتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ وَإِنْبَاءُ اللَّهِ لَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بِوَاسِطَةِ مُحَمَّدٍ إِلَيْهِمْ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ فَهُوَ أُنْزِلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِوَاسِطَةِ مُحَمَّدٍ . وَكَذَلِكَ ذَوَاتُ الْمَلَائِكَةِ تَقْرُبُ مِنْ ذَاتِ الْمُحْتَضِرِ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ يَعْلَمُونَ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُ الْعَبْدِ كَمَا ثَبَتَ فِي

(304/271)

الصَّحِيحَيْنِ : ﴿ إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ : اكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا قَالَ : اكْتُبُوهَا لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ﴾

(305/271)

إلى آخر الحديث . فالملائكة يعلمون ما يهم به من حسنة وسيئة و " الهم " إنما يكون في النفس قبل العمل . وأبلغ من ذلك أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وهو يوسوس له بما يهواه فيعلم ما تهواه نفسه . فقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله منه وهو رب الملائكة والروح وهم لا يعلمون شيئا إلا بأمره ؛ فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إليه من بعض ؛ ولهذا قال في تمام الآية : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وهذا كقوله : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ فقوله إذ ظرف فأخبر أنهم ﴿ أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ حين يتلقى المتلقيان ما يقول ﴿ عن اليمين ﴾ قعيد ﴿ وعن الشمال قعيد ﴾ ثم قال ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أي شاهد لا يغيب . فهذا كله خبر عن الملائكة فقوله : ﴿ فإني قريب ﴾ و ﴿ هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ﴾ فهذا إنما جاء في الدعاء لم يذكر أنه قريب من العباد في كل حال وإنما ذكر ذلك في بعض الأحوال وقد قال في الحديث : ﴿ أقرب ما

(306/271)

يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ وَالْمُرَادُ الْقُرْبُ مِنْ الدَّاعِي فِي سُجُودِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ فَأَمَرَ

(307/271)

بِالِاجْتِهَادِ فِي الدُّعَاءِ فِي السُّجُودِ مَعَ قُرْبِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ . وَقَدْ أُمِرَ الْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ فِي سُجُودِهِ : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ﴾ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ . وَكَذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ : ﴿ إذَا سَجَدَ الْعَبْدُ فَقَالَ فِي سُجُودِهِ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ثَلَاثًا فَقَدْ تَمَّ سُجُودُهُ وَذَلِكَ أَدْنَاهُ ﴾ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد . وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ : ﴿ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِاللَّيْلِ صَلَاةً قَرَأَ فِيهَا بِالْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ وَآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ نَحْوَ قِرَاءَتِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَفِي سُجُودِهِ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ السُّجُودَ غَايَةُ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ مِنْ الْعَبْدِ وَغَايَةُ تَسْفِيلِهِ وَتَوَاضُعِهِ : بِأَشْرَفِ شَيْءٍ فِيهِ لِلَّهِ - وَهُوَ وَجْهُهُ - بِأَنْ يَضَعَهُ عَلَى التُّرَابِ فَنَاسَبَ فِي غَايَةِ سُفُولِهِ أَنْ يَصِفَ رَبَّهُ بِأَنَّهُ الْأَعْلَى ، وَالْأَعْلَى أَبْلَغُ مِنْ الْعَلِيِّ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ ؛ هُوَ بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ عَدَمٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ نَصِيبٌ . وَكَذَلِكَ فِي " الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ " لَيْسَ لِلْعَبْدِ

فِيهِ حَقٌّ ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ ذَمَّ مَنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ : كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَحْصُلُ لَهُ الْعُلُوُّ بِالْإِيمَانِ ؛ لَا بِإِرَادَتِهِ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . فَلَمَّا كَانَ السُّجُودُ غَايَةَ سُفُولِ

(308/271)

الْعَبْدِ وَخُضُوعِهِ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّهِ الْأَعْلَى فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَعْلَى وَالْعَبْدُ الْأَسْفَلُ كَمَا أَنَّهُ الرَّبُّ وَالْعَبْدُ الْعَبْدُ وَهُوَ الْغَنِيُّ وَالْعَبْدُ

(309/271)

الْفَقِيرُ وَلَيْسَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ إلَّا مَحْضُ الْعُبُودِيَّةِ فَكُلَّمَا كَمَّلَهَا قَرُبَ الْعَبْدُ إلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَرٌّ جَوَادٌ مُحْسِنٌ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُنَاسِبُهُ فَكُلَّمَا عَظُمَ فَقْرُهُ إلَيْهِ كَانَ أَغْنَى ؛ وَكُلَّمَا عَظُمَ ذُلُّهُ لَهُ كَانَ أَعَزَّ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ - لِمَا فِيهَا مِنْ أَهْوَائِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ وَتَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لَهَا - تَبْعُدُ عَنْ اللَّهِ حَتَّى تَصِيرَ مَلْعُونَةً بَعِيدَةً مِنْ الرَّحْمَةِ . " وَاللَّعْنَةُ " هِيَ الْبُعْدُ ؛ وَمِنْ أَعْظَمِ ذُنُوبِهَا إرَادَةُ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ ؛ وَالسُّجُودُ فِيهِ غَايَةُ سُفُولِهَا ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وَقَالَ لِإبليس ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ فَهَذَا وَصْفٌ لَهَا ثَابِتٌ . لَكِنْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُعْلِيَ غَيْرَهَا جُوهِدَ وَقَالَ : ﴿ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . و"كَلِمَةُ اللَّهِ" هِيَ خَبَرُهُ وَأَمْرُهُ : فَيَكُونُ أَمْرُهُ مُطَاعًا مُقَدَّمًا عَلَى أَمْرِ غَيْرِهِ وَخَبَرُهُ مُطَاعًا مُقَدَّمًا عَلَى خَبَرِ غَيْرِهِ وَقَالَ : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ "وَالدِّينُ" هُوَ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالذُّلُّ وَنَحْوُ ذَلِكَ يُقَالُ : دِنْته فَدَانَ : أَيْ ذَلَّلْتُهُ فَذَلَّ . كَمَا قِيلَ :

هُوَ دَانَ أَذْكَرَ هو الدِّيـ * * * ـنَ دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ

(310/271)

ثُمَّ دَانَتْ بَعْدُ الرِّبَابُ وَكَانَتْ * * * كَعَذَابِ عُقُوبَةُ الْأَقْوَالِ

(311/271)

فَإِذَا كَانَتْ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالذُّلُّ لَهُ تُحَقِّقُ أَنَّهُ أَعْلَى فِي نُفُوسِ الْعِبَادِ عِنْدَهُمْ كَمَا هُوَ الْأَعْلَى فِي ذَاتِهِ كَمَا تَصِيرُ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا فِي نُفُوسِهِمْ كَمَا هِيَ الْعُلْيَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَلِكَ التَّكْبِيرُ يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْعَبْدِ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : ﴿ يَا عَدِيُّ مَا يَفِرُّكَ ؟ أَيفرك أَنْ يُقَالَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إلَهٍ إلَّا اللَّهَ ؟ يَا عَدِيُّ مَا يفرك ؟ أيفرك أَنْ يُقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنْ اللَّهِ ؟ ﴾ وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ جَعَلَ أَكْبَرَ بِمَعْنَى كَبِيرٍ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَهُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ ؛ لَا لِغَيْرِهِ بِأَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ لَهُ وَالذُّلُّ وَهُوَ حَقِيقَةُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا سِوَى هَذَا لَا يُقْبَلُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُطَاعُ فِي كُلِّ زَمَانٍ بِمَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ؛ فَلَا إسْلَامَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا فِيمَا جَاءَ بِهِ وَطَاعَتِهِ وَهِيَ مِلَّةُ إبْرَاهِيمَ الَّتِي لَا يَرْغَبُ عَنْهَا إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَهُوَ " الْأُمَّةُ " الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ كَمَا أَنَّ " الْقُدْوَةَ " هُوَ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ وَهُوَ " الْإِمَامُ " كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا ﴾ وَهُوَ " الْقَانِتُ " وَالْقُنُوتُ دَوَامُ الطَّاعَةِ وَهُوَ الَّذِي يُطِيعُ اللَّهَ دَائِمًا وَالْحَنِيفُ

(312/271)

الْمُسْتَقِيمُ إلَى رَبِّهِ دُونَ مَا سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت إلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا

(313/271)

تَقَرَّبْت إلَيْهِ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً ﴾ فَقُرْبُ الشَّيْءِ مِنْ الشَّيْءِ مُسْتَلْزِمٌ لِقُرْبِ الْآخَرِ مِنْهُ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ قُرْبُ الثَّانِي هُوَ اللَّازِمَ مِنْ قُرْبِ الْأَوَّلِ وَيَكُونُ مِنْهُ أَيْضًا قُرْبٌ بِنَفْسِهِ فَالْأَوَّلُ كَمَنْ تَقَرَّبَ إلَى مَكَّةَ أَوْ حَائِطِ الْكَعْبَةِ فَكُلَّمَا قَرُبَ مِنْهُ قَرُبَ الْآخَرُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ فِعْلٌ وَالثَّانِي كَقُرْبِ الْإِنْسَانِ إلَى مَنْ يَتَقَرَّبُ هُوَ إلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ فَتَقَرُّبُ الْعَبْدِ إلَى اللَّهِ وَتَقْرِيبُهُ لَهُ نَطَقَتْ بِهِ نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ﴿ فَأَمَّا إنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ﴾ الْحَدِيثَ . وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ ﴾ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَمَقَالَاتِ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَعْنَى فِي " جَوَابِ الْأَسْئِلَةِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى الْفُتْيَا الحموية " فَهَذَا قُرْبُ الرَّبِّ نَفْسِهِ إلَى عَبْدِهِ وَهُوَ مِثْلُ نُزُولِهِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ

يَدْنُو عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ﴾ الْحَدِيثَ فَهَذَا الْقُرْبُ كُلُّهُ خَاصٌّ وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَطُّ قُرْبُ ذَاتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي كُلِّ حَالٍ ؛ فَعُلِمَ بِذَلِكَ بُطْلَانُ

(314/271)

قَوْلِ الْحُلُولِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُمْ عَمَدُوا إلَى الْخَاصِّ الْمُقَيَّدِ فَجَعَلُوهُ عَامًّا مُطْلَقًا كَمَا جَعَلَ إخْوَانُهُمْ " الِاتِّحَادِيَّةُ " ذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ كُنْت سَمْعَهُ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَيَأْتِيهِمْ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ : ﴿ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ﴾ .

(315/271)

وَكُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِذَا فَصَلَ تَبَيَّنَ ذَلِكَ ؛ فَالدَّاعِي وَالسَّاجِدُ يُوَجِّهُ رُوحَهُ إلَى اللَّهِ وَالرُّوحُ لَهَا عُرُوجٌ يُنَاسِبُهَا فَتَقْرُبُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِلَا رَيْبٍ بِحَسَبِ تَخَلُّصِهَا مِنْ الشَّوَائِبِ فَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا قَرِيبًا قُرْبًا يَلْزَمُ مَنْ قُرْبِهَا وَيَكُونُ مِنْهُ قُرْبٌ آخَرُ كَقُرْبِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَفِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَإِلَى مَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ شِبْرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا وَفِي الزُّهْدِ لِأَحْمَدَ عَنْ عِمْرَانَ الْقَصِيرِ ﴿ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : يَا رَبِّ أَيْنَ أَبْغِيكَ ؟ قَالَ : ابْغِنِي

عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ إنِّي أَدْنُو مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ بَاعًا لَوْلَا ذَلِكَ لَانْهَدَمُوا ﴾ فَقَدْ يُشْبِهُ هَذَا قَوْلَهُ : ﴿ قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ﴾ إلَى آخِرِهِ . وَظَاهِرُ قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْبَ نَعْتُهُ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ مَا يَلْزَمُ مِنْ قُرْبِ الدَّاعِي وَالسَّاجِدِ وَدُنُوِّهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ هُوَ لِمَا يَفْعَلُهُ الْحَاجُّ لَيْلَتَئِذٍ مِنْ الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالتَّوْبَةِ ؛ وَإِلَّا فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَقِفْ بِعَرَفَةَ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الدُّنُوُّ إلَيْهِمْ . فَإِنَّهُ يُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِأَهْلِ عَرَفَةَ فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ لَمْ يَحْصُلْ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُرْبِهِ مِنْهُمْ بِسَبَبِ تَقَرُّبِهِمْ إلَيْهِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الْآخَرُ . وَالنَّاسُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ التَّوَجُّهِ وَالتَّقَرُّبِ وَالرِّقَّةِ مَا لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ

(316/271)

الْوَقْتِ وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِنُزُولِهِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَقَوْلِهِ : ﴿ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ﴾ . ثُمَّ إنَّ هَذَا النُّزُولَ هَلْ هُوَ كَدُنُوِّهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ مُعَلَّقٌ بِأَفْعَالٍ ؟ فَإِنَّ فِي بِلَادِ

(317/271)

الْكُفْرِ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا النُّزُولُ كَمَا أَنَّ دُنُوَّهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ لَا يَحْصُلُ لِغَيْرِ الْحُجَّاجِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ ؛ إذْ لَيْسَ لَهَا وُقُوفٌ مَشْرُوعٌ وَلَا مُبَاهَاةُ الْمَلَائِكَةِ وَكَمَا أَنَّ تَفْتِيحَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَتَغْلِيقَ أَبْوَابِ النَّارِ وَتَصْفِيدَ الشَّيَاطِينِ إذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ - إنَّمَا هُوَ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَصُومُونَهُ لَا الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ لَهُ حُرْمَةً . وَكَذَلِكَ اطِّلَاعُهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَوْلُهُ لَهُمْ : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ كَانَ مُخْتَصًّا بِأُولَئِكَ أَمْ هُوَ عَامٌّ ؟ فِيهِ كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ . وَالْكَلَامُ فِي هَذَا " الْقُرْبِ " مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ فِي نُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ وَدُنُوِّهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَتَكْلِيمِهِ لِمُوسَى مِنْ الشَّجَرَةِ وَقَوْلِهِ ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَذَكَرْنَا مَا قَالَهُ السَّلَفُ فِي ذَلِكَ : كَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَإِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَبَيَّنَّا أَنَّ هَذَا هُوَ الصَّوَابُ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِمَّنْ يَدَّعِي السُّنَّةَ يَظُنُّ خُلُوَّ الْعَرْشِ مِنْهُ وَقَدْ صَنَّفَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَنْدَه فِي ذَلِكَ مُصَنَّفًا وَزَيَّفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَضَعَّفَ مَا نُقِلَ فِي ذَلِكَ عَنْ أَحْمَدَ فِي رِسَالَةِ مُسَدَّدٍ وَقَالَ : إنَّهَا مَكْذُوبَةٌ عَلَى أَحْمَدَ وَتَكَلَّمَ عَلَى رَاوِيهَا الْبردعي أَحْمَدَ بْنُ مُحَمَّدٍ وَقَالَ :

(318/271)

إنَّهُ مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ فِي أَصْحَابِ أَحْمَد . "وَطَائِفَةٌ" تَقِفُ لَا تَقُولُ : يَخْلُو وَلَا : لَا يَخْلُو وَتُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ

(319/271)

مِنْهُمْ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ المقدسي . وَأَمَّا مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ السَّمَوَاتِ تَنْفَرِجُ ثُمَّ تَلْتَحِمُ فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ ؛ وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ طَائِفَةٌ مِنْ الرِّجَالِ . وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ نُزُولَهُ : لَا بِخُلُوِّ وَلَا بِغَيْرِ خُلُوٍّ وَقَالَ بَعْضُ أَكَابِرِهِمْ لِبَعْضِ الْمُثْبِتِينَ : يَنْزِلُ أَمْرُهُ . فَقَالَ : مِنْ عِنْدِ مَنْ يَنْزِلُ ؟ أَنْتَ لَيْسَ عِنْدَكَ هُنَاكَ أَحَدٌ ؛ أَثْبَتَ أَنَّهُ هُنَاكَ ثُمَّ قُلْ : يَنْزِلُ أَمْرُهُ . وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ إسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ بِحَضْرَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ . وَالصَّوَابُ قَوْلُ السَّلَفِ : أَنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَرُوحُ الْعَبْدِ فِي بَدَنِهِ لَا تَزَالُ لَيْلًا وَنَهَارًا إلَى أَنْ يَمُوتَ وَوَقْتُ النَّوْمِ تَعْرُجُ وَقَدْ تَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهِيَ لَمْ تُفَارِقْ جَسَدَهُ وَكَذَلِكَ ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ﴾ وَرُوحُهُ فِي بَدَنِهِ وَأَحْكَامُ الْأَرْوَاحِ مُخَالِفٌ لِأَحْكَامِ الْأَبْدَانِ ؛ فَكَيْفَ بِالْمَلَائِكَةِ ؟ فَكَيْفَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ . وَاللَّيْلُ يَخْتَلِفُ فَيَكُونُ - ثُلُثُهُ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ثُلُثُهُ بِالْمَغْرِبِ وَنُزُولُهُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُهُ إلَى سَمَاءِ هَؤُلَاءِ فِي ثُلُثِ لَيْلِهِمْ وَإِلَى سَمَاءِ هَؤُلَاءِ فِي ثُلُثِ لَيْلِهِمْ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ وَكَذَلِكَ قُرْبُهُ مِنْ الدَّاعِي الْمُتَقَرِّبِ إلَيْهِ

وَالسَّاجِدُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِهِ حَيْثُ كَانَ وَأَيْنَ كَانَ وَالرَّجُلَانِ يَسْجُدَانِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ قُرْبٌ يَخُصُّهُ لَا

(320/271)

يُشْرِكُهُ فِيهِ الْآخَرُ .

(321/271)

وَالنُّصُوصُ الْوَارِدَةُ فِيهَا الْهُدَى وَالشِّفَاءُ وَالَّذِي بَلَّغَهَا بَلَاغًا مُبِينًا هُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ وَأَنْصَحُهُمْ لِخَلْقِهِ وَأَحْسَنُهُمْ بَيَانًا ؛ وَأَعْظَمُهُمْ بَلَاغًا ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَعْلَمَ وَيَقُولَ : مِثْلَ مَا عَلِمَهُ الرَّسُولُ ، وَقَالَهُ . وَكُلُّ مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِبَصِيرَةٍ فِي قَلْبِهِ تَكُونُ مَعَهُ مَعْرِفَةٌ بِهَذَا ؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ وَقَالَ فِي ضِدِّهِمْ : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ الظَّاهِرُ ﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى الْعَالِي كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ وَيُقَالُ : ظَهَرَ الْخَطِيبُ عَلَى

الْمِنْبَرِ وَظَاهِرُ الثَّوْبِ أَعْلَاهُ بِخِلَافِ بِطَانَتِهِ . وَكَذَلِكَ ظَاهِرُ الْبَيْتِ أَعْلَاهُ وَظَاهِرُ الْقَوْلِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَبَانَ وَظَاهِرُ الْإِنْسَانِ خِلَافُ بَاطِنِهِ فَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ ظَهَرَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ﴾ فَأَثْبَتَ الظُّهُورَ وَجَعَلَ مُوجِبَ الظُّهُورِ أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ وَلَمْ يَقُلْ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ مِنْكَ وَلَا أَعْرَفَ . وَبِهَذَا تَبَيَّنَ خَطَأُ مَنْ فَسَّرَ (الظَّاهِرَ) بِأَنَّهُ الْمَعْرُوفُ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ الظَّاهِرُ بِالدَّلِيلِ الْبَاطِنِ بِالْحِجَابِ كَمَا فِي كَلَامِ أَبِي الْفَرَجِ وَغَيْرِهِ فَلَمْ يَذْكُرْ مُرَادَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ كَانَ الَّذِي ذَكَرَهُ لَهُ مَعْنًى

(322/271)

صَحِيحٌ وَقَالَ : ﴿ أَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ﴾ فِيهِمَا مَعْنَى الْإِضَافَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْبُطُونُ وَالظُّهُورُ لِمَنْ

يَظْهَرُ وَيُبْطِنُ وَإِنْ كَانَ فِيهِمَا مَعْنَى التَّجَلِّي وَالْخَفَاءِ وَمَعْنًى آخَرُ كَالْعُلُوِّ فِي الظُّهُورِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُوصَفُ بِالسُّفُولِ . وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي الْإِحَاطَةِ لَكِنْ إنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ الْجِهَةِ الْعَالِيَةِ عَلَيْنَا فَهُوَ يُظْهِرُ عِلْمًا بِالْقُلُوبِ وَقَصْدًا لَهُ وَمُعَايَنَةً إذَا رُئِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ بَادٍ عَالٍ لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَبْطُنُ فَلَا يُقْصَدُ مِنْهَا وَلَا يُشْهَدُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَدْنَى

مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ سُبْحَانَهُ .

فَصْلٌ : فِي تَمَامِ الْكَلَامِ فِي الْقُرْبِ

(323/271)

وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ وَلَا تُغْلِطُهُ الْمَسَائِلُ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يُكَلِّمُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُحَاسِبُهُمْ لَا يَشْغَلُهُ هَذَا عَنْ هَذَا . قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ : كَيْفَ يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ قَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا سَيَخْلُو بِهِ رَبُّهُ كَمَا يَخْلُو أَحَدُكُمْ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ﴾ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الدُّنْيَا يَسْمَعُ دُعَاءَ الدَّاعِينَ وَيُجِيبُ السَّائِلِينَ ؛ مَعَ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَفُنُونِ الْحَاجَاتِ . وَالْوَاحِدُ مِنَّا قَدْ يَكُونُ لَهُ قُوَّةُ سَمْعٍ يَسْمَعُ كَلَامَ عَدَدٍ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْمُقْرِئِينَ يَسْمَعُ قِرَاءَةَ عِدَّةٍ ؛ لَكِنْ لَا يَكُونُ إلَّا عَدَدًا قَلِيلًا قَرِيبًا مِنْهُ وَالْوَاحِدُ مِنَّا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ قُرْبًا وَدُنُوًّا وَمَيْلًا إلَى بَعْضِ النَّاسِ الْحَاضِرِينَ وَالْغَائِبِينَ ؛ دُونَ بَعْضٍ وَيَجِدُ تَفَاوُتَ ذَلِكَ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ . وَالرَّبُّ تَعَالَى وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ كُلَّهَا وَعَطَاؤُهُ الْحَاجَاتِ كُلَّهَا .

(324/271)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ غَلِطَ فَظَنَّ أَنَّ قُرْبَهُ مِنْ جِنْسِ حَرَكَةِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ إذَا مَالَ إلَى جِهَةٍ انْصَرَفَ عَنْ الْأُخْرَى وَهُوَ يَجِدُ عَمَلَ رُوحِهِ يُخَالِفُ عَمَلَ بَدَنِهِ فَيَجِدُ نَفْسَهُ تَقْرُبُ مِنْ نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْصَرِفَ قُرْبُهَا إلَى هَذَا عَنْ قُرْبِهَا إلَى هَذَا . وَكَذَلِكَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ خُضُوعًا لِبَعْضِ النَّاسِ وَمَحَبَّةً وَيَجِدُ فِيهَا نَأْيًا وَبُعْدًا عَنْ آخَرِينَ وَارْتِفَاعًا وَإِقْبَالًا عَلَى قَوْمٍ وَإِعْرَاضًا عَنْ قَوْمٍ غَيْرَ مَا هُوَ قَائِمٌ بِالْبَدَنِ . فَفِي الْجُمْلَةِ : مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ قُرْبِ الرَّبِّ مِنْ عَابِدِيهِ وَدَاعِيهِ هُوَ مُقَيَّدٌ مَخْصُوصٌ ؛ لَا مُطْلَقٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ فَبَطَلَ قَوْلُ الْحُلُولِيَّةِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فَهَذَا قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ . وَأَمَّا قُرْبُهُ مِنْ عَابِدِيهِ فَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْته عَلَيْهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت إلَيْهِ ذِرَاعًا ﴾ فَهَذَا قُرْبُهُ إلَى عَبْدِهِ وَقُرْبُ عَبْدِهِ إلَيْهِ ؛ وَدُنُوُّهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لَا يَخْرُجُ عَنْ الْقِسْمَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ﴾ فَدُنُوُّهُ لِدُعَائِهِمْ . وَأَمَّا نُزُولُهُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَدْعُوهُ وَيَسْأَلُهُ وَيَسْتَغْفِرُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ الْوَقْتَ

يَحْصُلُ فِيهِ مَنْ قُرْبِ الرَّبِّ إلَى عَابِدِيهِ مَا لَا يَحْصُلُ فِي غَيْرِهِ

(326/271)

فَهُوَ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ مُطْلَقًا فَيَكُونُ بِسَبَبِ الزَّمَانِ كَوْنُهُ يَصْلُحُ لِهَذَا وَإِنْ لَمْ يَقَعْ فِيهِ . وَنَظِيرُهُ " سَاعَةُ الْإِجَابَةِ " يَوْمَ الْجُمُعَةِ رُوِيَ أَنَّهَا مُقَيَّدَةٌ بِفِعْلِ الْجُمُعَةِ وَهِيَ مِنْ حِينِ يَصْعَدُ الْإِمَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ إلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الصَّلَاةُ ؛ وَلِهَذَا تَكُونُ مُقَيَّدَةً بِفِعْلِ الْجُمُعَةِ فَمَنْ لَمْ يُصَلِّ الْجُمْعَةَ لِغَيْرِ عُذْرٍ وَيَعْتَقِدْ وُجُوبَهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ الْجُمُعَةَ ثُمَّ مَرِضَ أَوْ سَافَرَ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ صَحِيحٌ مُقِيمٌ وَكَذَلِكَ الْمَحْبُوسُ وَنَحْوُهُ فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ شَهِدَ الْجُمُعَةَ فَيَكُونُ دُعَاؤُهُمْ كَدُعَاءِ مَنْ شَهِدَهَا . وَقَدْ تَكُونُ الرَّحْمَةُ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَى الْحُجَّاجِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَعَلَى مَنْ شَهِدَ الْجُمُعَةَ تَنْتَشِرُ بَرَكَاتُهَا إلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَعْذَارِ فَيَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ إجَابَةِ الدُّعَاءِ وَحَظٌّ مَعَ مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ كَمَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَهَذَا مَوْجُودٌ لِمَنْ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْعِبَادَةِ فَيَحْصُلُ لِقَلْبِهِ تَقَرُّبٌ إلَى اللَّهِ وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ مَعَهُمْ . وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ الَّذِي لَا يَرَى الْحَجَّ بِرًّا وَلَا الْجُمُعَةَ فَرْضًا وَبِرًّا بَلْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْ مَحَبَّةِ ذَلِكَ وَإِرَادَتِهِ فَهَذَا قَلْبُهُ بَعِيدٌ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ

وَهَذَا لَيْسَ مِنْهُمْ . وَرُوِيَ فِي سَاعَةِ الْجُمُعَةِ أَنَّهَا آخِرُ النَّهَارِ فَيَكُونُ سَبَبُهَا الْوَقْتَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿

(327/271)

أَنَّ فِي اللَّيْلِ سَاعَةً يُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فِيهَا كَمَا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ ﴾ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا قُرْبُ الرَّبِّ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَقُرْبُ قُلُوبِهِمْ مِنْهُ : فَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ لَا يُجْهَلُ ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَصْعَدُ إلَيْهِ عَلَى قَدْرِ مَا فِيهَا مِنْ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالذِّكْرِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ؛ بِخِلَافِ الْقُرْبِ الَّذِي قَبْلَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا يُنْكِرُهُ الجهمي الَّذِي يَقُولُ : لَيْسَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ رَبٌّ يُعْبَدُ وَلَا إلَهٌ يُصَلَّى لَهُ وَيُسْجَدُ وَهَذَا كُفْرٌ وَفَنَدٌ . وَالْأَوَّلُ تُنْكِرُهُ الْكُلَّابِيَة وَمَنْ يَقُولُ : لَا تَقُومُ الْأُمُورُ الِاخْتِيَارِيَّةُ بِهِ . وَمِنْ أَتْبَاعِ " الْأَشْعَرِيِّ " مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ مَنْ يَجْعَلُ الرِّضَا وَالْغَضَبَ وَالْفَرَحَ وَالْمَحَبَّةَ : هِيَ الْإِرَادَةُ . وَتَارَةً يَجْعَلُونَهَا صِفَاتٍ أُخْرَى قَدِيمَةً غَيْرَ الْإِرَادَةِ وَهَذَا الْقُرْبُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ هُوَ قُرْبُ الْمِثَالِ الْعِلْمِيِّ فِي الْحَقِيقَةِ وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِمَحَبَّتِهِ ؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَخْصًا تَمَثَّلَ فِي قَلْبِهِ وَوَجَدَهُ

قَرِيبًا إلَى قَلْبِهِ وَإِذَا ذَكَرَهُ حَضَرَ فِي قَلْبِهِ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ بِمَحْبُوبِهِ الْمَخْلُوقِ فَنَاءٌ عَنْ نَفْسِهِ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ : غِبْت بِك عَنِّي فَظَنَنْت أَنَّك أَنِّي

وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ : حَاضِرٌ فِي الْقَلْبِ أُبْصِرُهُ * * * لَسْت أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ

(328/271)

وَقَوْلُ الْآخَرِ : مِثَالُك فِي عَيْنِي وَذِكْرُك فِي فَمِي * * * وَمَثْوَاك فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

وَهَذَا هُوَ " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إلَهٌ ﴾ ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ وَهُوَ " الْمَثَلُ " فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ أَصْلًا فَنَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ وَصِفَاتُهَا لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ مِنْ الصِّفَاتِ وَمَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ الْمَعَارِفِ وَمَحَبَّتُهُ لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ فَلَهُ " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " كَمَا أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ الْأَعْلَى . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ .

(329/271)

وَيُشَبَّهُ مَثَلُ هَذَا بِمَثَلِ هَذَا وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَ ذَاتِ هَذَا بِذَاتِ هَذَا ؛ فَإِنَّ الْخَبَرَ عَنْ الْأَشْيَاءِ إنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَوَّلًا عَنْ " الْمَثَلِ الْعِلْمِيِّ " الَّذِي يُسَمَّى الصُّورَةَ الذِّهْنِيَّةَ ثُمَّ إذَا كَانَ الْخَبَرُ صَادِقًا فَإِنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ مُطَابِقَةٌ لِمَا تَصَوَّرَهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ إنَّمَا يُعَبِّرُونَ عَنْ الشَّيْءِ وَيَصِفُونَهُ بِمَا يَعْرِفُونَهُ وَتَتَنَوَّعُ أَسْمَاؤُهُ عِنْدَهُمْ لِتَنَوُّعِ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ صِفَاتِهِ . وَمَنْ رَأَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْمَنَامِ فَإِنَّهُ يَرَاهُ فِي صُورَةٍ مِنْ الصُّوَرِ بِحَسَبِ حَالِ الرَّائِي إنْ كَانَ صَالِحًا رَآهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ ؛ وَلِهَذَا رَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ . وَ " الْمُشَاهَدَاتُ " الَّتِي قَدْ تَحْصُلُ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ فِي الْيَقَظَةِ كَقَوْلِ ابْنِ عُمَرَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ لَمَّا خَطَبَ إلَيْهِ ابْنَتَهُ فِي الطَّوَافِ : أَتُحَدِّثُنِي فِي النِّسَاءِ وَنَحْنُ نَتَرَاءَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي طَوَافِنَا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ إنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمِثَالِ الْعِلْمِيِّ الْمَشْهُودِ لَكِنَّ رُؤْيَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَبِّهِ فِيهَا كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ ؛ فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ : رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ . فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخْصُوصٌ بِمَا لَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَهَذَا الْمِثَالُ الْعِلْمِيُّ يَتَنَوَّعُ فِي الْقُلُوبِ بِحَسَبِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ تَنَوُّعًا لَا يَنْحَصِرُ ؛ بَلْ الْخَلْقُ

فِي إِيمَانِهِمْ " بِاللَّهِ " وَ " كِتَابِهِ " و " رَسُولِهِ " مُتَنَوِّعُونَ ؛

(331/271)

فَلِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ لِلْكِتَابِ وَالرَّسُولِ مِثَالٌ عِلْمِيٌّ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ مَعَ اشْتِرَاكِهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِرَسُولِهِ - فَهُمْ مُتَنَوِّعُونَ فِي ذَلِكَ مُتَفَاضِلُونَ . وَكَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ وَكَذَلِكَ مَا يُخْبِرُ بِهِ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ هُوَ كَذَلِكَ بَلْ يُشَاهِدُونَ الْأُمُورَ وَيَسْمَعُونَ الْأَصْوَاتَ وَهُمْ مُتَنَوِّعُونَ فِي الرُّؤْيَةِ وَالسَّمَاعِ فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَبَيَّنُ لَهُ مَنْ حَالِ الْمَشْهُودِ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لِلْآخَرِ حَتَّى قَدْ يَخْتَلِفُونَ فَيُثْبِتُ هَذَا مَا لَا يُثْبِتُ الْآخَرُ فَكَيْفَ فِيمَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ الْغَيْبِ . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَهُمْ عَنْ الْغَيْبِ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ كُلُّهُمْ سَمِعَهَا مُفَصَّلَةً وَالَّذِينَ سَمِعُوا مَا سَمِعُوا لَيْسَ كُلُّهُمْ فَهِمَ مُرَادَهُ بَلْ هُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي السَّمْعِ وَالْفَهْمِ كَتَفَاضُلِ مَعْرِفَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ بِحَسَبِ ذَلِكَ حَتَّى يُثْبِتَ أَحَدُهُمْ أُمُورًا كَثِيرَةً وَالْآخَرُ لَا يُثْبِتُهَا لَا سِيَّمَا مَنْ عَلِقَ بِقَلْبِهِ شُبَهُ النُّفَاةِ ؛ فَهُوَ يَنْفِي مَا أَثْبَتَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ . وَهَذَا يُبَيِّنُ لَك أَنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ - وَإِنْ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْإِيمَانِ - إلَّا مَنْ شَاقَّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ هُمْ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ

(332/271)

فَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ أَكْثَرَ مَحَبَّةً لِلَّهِ وَذِكْرًا وَعِبَادَةً كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَهُ أَقْوَى وَأَرْسَخَ مِنْ حَيْثُ الْمَحَبَّةُ وَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِهِ مِنْ الْعِلْمِ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَا لَيْسَ لَهُ .

(333/271)

فَصَاحِبُ الْمَحَبَّةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّأَلُّهِ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ حُضُورِ الرَّبِّ فِي قَلْبِهِ وَأُنْسِهِ بِهِ مَا لَا يَحْصُلُ لِمَنْ لَيْسَ مِثْلَهُ . وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ قَدْ يَكُونُ أَحَدُ الشَّخْصَيْنِ أَعْلَمَ بِصِفَاتِهِ وَالْآخَرُ أَكْثَرَ مَحَبَّةً لَهُ وَكَذَلِكَ الْأَشْخَاصُ - الْمَشْهُورُونَ - قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ أَعْلَمَ بِمَا رَأَى وَالْآخَرُ أَكْثَرَ مَحَبَّةً لَهُ وَ ﴿ الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ ﴾ وَتَعَارُفُهَا تَنَاسُبُهَا وَتَشَابُهُهَا فِيمَا تَعْلَمُهُ وَتُحِبُّهُ وَتَكْرَهُهُ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِبَادِ الَّذِي يَشْهَدُ قَلْبُهُ الصُّورَةَ الْمِثَالِيَّةَ وَيَفْنَى فِيمَا شَهِدَهُ يَظُنُّ أَنَّهُ رَأَى اللَّهَ بِعَيْنِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا اسْتَوْلَى عَلَى قَلْبِهِ سُلْطَانُ الشُّهُودِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ عَقْلٌ يُمَيِّزُ بِهِ وَالْمُشَاهِدُ لِلْأُمُورِ هُوَ الْقَلْبُ لَكِنْ تَارَةً شَاهَدَهَا بِوَاسِطَةِ الْحِسِّ الظَّاهِرِ وَتَارَةً بِنَفْسِهِ فَلَا يَبْقَى أَيْضًا يُمَيِّزُ بَيْنَ الشهودين فَإِنْ غَابَ عَنْ الْفَرْقِ

بَيْنَ الشهودين ظَنَّ أَنَّهُ رَآهُ بعَيْنِهِ ؛ وَإِنْ غَابَ عَنْ الْفَرْقِ بَيْنَ الشَّاهِدِ وَالْمَشْهُودِ ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ كَمَا يُحْكَى عَنْ أَبِي يَزِيدَ أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ فِي الْجُبَّةِ إلَّا اللَّهُ . وَكَمَا قَالَ الْآخَرُ : غِبْت بِك عَنِّي ؛ فَظَنَنْت أَنَّك أَنِّي وَكَانَ الْمَحْبُوبُ قَدْ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ فَأَلْقَى الْمُحِبُّ نَفْسَهُ خَلْفَهُ . وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قُوَّةِ شُهُودِ الْقَلْبِ وَضَعْفِ الْعَقْلِ بِمَنْزِلَةِ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ ؛ فَإِنَّهُ لِغَيْبَةِ عَقْلِهِ بِالنَّوْمِ يَظُنُّ أَنَّ

(334/271)

مَا يَرَاهُ هُوَ بِعَيْنِهِ الظَّاهِرَةِ وَمَا يَسْمَعُهُ يَسْمَعُهُ

(335/271)

بِأُذُنِهِ الظَّاهِرَةِ وَمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ يَتَكَلَّمُ بِهِ بِلِسَانِهِ بِالْحِسِّ الظَّاهِرِ ؛ وَعَيْنُهُ مُغْمَضَةٌ وَلِسَانُهُ سَاكِتٌ . وَقَدْ يَقْوَى تَصَوُّرُهُ الْخَيَالِيُّ فِي النَّوْمِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِالْحِسِّ الظَّاهِرِ فَيَبْقَى النَّائِمُ يَقْرَأُ بِلِسَانِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِ تَبَعًا لِخَيَالِهِ وَمَعَ هَذَا فَعَقْلُهُ غَائِبٌ لَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ كَمَا يَحْصُلُ مِثْلُ ذَلِكَ لِلسَّكْرَانِ وَالْمَجْنُونِ وَغَيْرِهِمَا . وَلِهَذَا جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ بِأَنَّ الْقَلَمَ مَرْفُوعٌ عَنْ النَّائِمِ وَالْمَجْنُونِ

وَالْمُغْمَى عَلَيْهِ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا إلَّا فِيمَنْ زَالَ عَقْلُهُ بِسَبَبٍ مُحَرَّمٍ . وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَقَرَّ بِاللَّهِ فَعِنْدَهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِحَسَبِ ذَلِكَ ثُمَّ مَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ لَمْ يَكْفُرْ بِجَحْدِهِ وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ الصَّلَاةِ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - وَإِنْ اخْتَلَفَتْ اعْتِقَادَاتُهُمْ فِي مَعْبُودِهِمْ وَصِفَاتِهِ - إلَّا مَنْ كَانَ مُنَافِقًا - يُظْهِرُ الْإِيمَانَ بِلِسَانِهِ وَيُبْطِنُ الْكُفْرَ بِالرَّسُولِ - فَهَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ؛ وَكُلُّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يَكُنْ مُنَافِقًا فَهُوَ مُؤْمِنٌ لَهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِحَسَبِ مَا أُوتِيهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مِمَّنْ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ وَلَوْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ الْإِيمَانِ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا جَمِيعُ الْمُتَنَازِعِينَ فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ عَلَى اخْتِلَافِ عَقَائِدِهِمْ . وَلَوْ كَانَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ يَعْرِفُ اللَّهَ كَمَا يَعْرِفُهُ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَدْخُلْ أُمَّتُهُ

(336/271)

الْجَنَّةَ ؛ فَإِنَّهُمْ - أَوْ أَكْثَرُهُمْ - لَا يَسْتَطِيعُونَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ ؛ بَلْ يَدْخُلُونَهَا وَتَكُونُ مَنَازِلُهُمْ مُتَفَاضِلَةً بِحَسَبِ إيمَانِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ قَدْ حَصَلَ لَهُ إيمَانٌ يَعْرِفُ اللَّهَ بِهِ وَأَتَى آخَرُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ عَجَزَ عَنْهُ لَمْ يُحَمَّلْ مَا لَا يُطِيقُ وَإِنْ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ فِتْنَةٌ لَمْ يُحَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَكُونُ لَهُ فِيهِ فِتْنَةٌ . فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ وَمُخَاطَبَتِهِمْ بِالْخِطَابِ الْعَامِّ بِالنُّصُوصِ الَّتِي اشْتَرَكُوا فِي سَمَاعِهَا : كَالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ

الْمَشْهُورِ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ تَيْمِيَّة - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

عَنْ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي الِاعْتِقَادِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : مَنْ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ فَهُوَ ضَالٌّ . وَقَالَ الْآخَرُ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَنْحَصِرُ فِي مَكَانٍ وَهُمَا شَافِعِيَّانِ فَبَيِّنُوا لَنَا مَا نَتَّبِعُ مِنْ عَقِيدَةِ " الشَّافِعِيِّ " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَا الصَّوَابُ فِي ذَلِكَ ؟

الْجَوَابُ :

(337/271)

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، اعْتِقَادُ الشَّافِعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَاعْتِقَادُ " سَلَفِ الْإِسْلَامِ " (*) كَمَالِكِ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِي وَابْنِ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاق بْنِ رَاهَوَيْه ؛ وَهُوَ اعْتِقَادُ الْمَشَايِخِ الْمُقْتَدَى بِهِمْ كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التستري وَغَيْرِهِمْ . فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ نِزَاعٌ فِي أُصُولِ الدِّينِ . وَكَذَلِكَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَإِنَّ الِاعْتِقَادَ الثَّابِتَ عَنْهُ فِي التَّوْحِيدِ وَالْقَدَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

مُوَافِقٌ لِاعْتِقَادِ هَؤُلَاءِ وَاعْتِقَادُ هَؤُلَاءِ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَهُوَ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ .

(338/271)

قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَوَّلِ خُطْبَةِ " الرِّسَالَةِ " : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ كَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَفَوْقَ مَا يَصِفُهُ بِهِ خَلْقُهُ . فَبَيَّنَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ اللَّهَ مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : لَا يُوصَفُ اللَّهُ إلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ بَلْ يُثْبِتُونَ لَهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ لَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . إلَى أَنْ قَالَ : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؛ وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا ؛ وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكًّا ؛ وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَلَيْسَ كَعِلْمِهِ عِلْمُ أَحَدٍ وَلَا كَقُدْرَتِهِ قُدْرَةُ أَحَدٍ وَلَا كَرَحْمَتِهِ رَحْمَةُ أَحَدٍ وَلَا كَاسْتِوَائِهِ اسْتِوَاءُ أَحَدٍ وَلَا كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ سَمْعُ أَحَدٍ وَلَا بَصَرُهُ وَلَا كَتَكْلِيمِهِ تَكْلِيمُ أَحَدٍ وَلَا كَتَجَلِّيهِ تَجَلِّي أَحَدٍ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا

وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَمَاءً وَحَرِيرًا وَذَهَبًا . وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إلَّا الْأَسْمَاءُ .

(339/271)

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الْغَائِبَةُ لَيْسَتْ مِثْلَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُشَاهَدَةِ - مَعَ اتِّفَاقِهَا فِي الْأَسْمَاءِ - فَالْخَالِقُ أَعْظَمُ عُلُوًّا وَمُبَايَنَةً لِخَلْقِهِ مِنْ مُبَايَنَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ وَإِنْ اتَّفَقَتْ الْأَسْمَاءُ . وَقَدْ سَمَّى نَفْسَهُ حَيًّا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا وَبَعْضُهَا رَءُوفًا رَحِيمًا ؛ وَلَيْسَ الْحَيُّ كَالْحَيِّ وَلَا الْعَلِيمُ كَالْعَلِيمِ وَلَا السَّمِيعُ كَالسَّمِيعِ وَلَا الْبَصِيرُ كَالْبَصِيرِ وَلَا الرَّءُوفُ كَالرَّءُوفِ وَلَا الرَّحِيمُ كَالرَّحِيمِ . وَقَالَ فِي سِيَاقِ حَدِيثِ الْجَارِيَةِ الْمَعْرُوفِ : ﴿ أَيْنَ اللَّهُ ؟ قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ ﴾ لَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ وَأَنَّ السَّمَوَاتِ تَحْصُرُهُ وَتَحْوِيهِ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا ؛ بَلْ هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ ؛ لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ . وَقَدْ قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : إنَّ اللَّهَ فَوْقَ السَّمَاءِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ - إلَى أَنْ قَالَ - : فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ مَحْصُورٌ مُحَاطٌ بِهِ وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إلَى الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِ الْعَرْشِ - مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ - أَوْ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ عَلَى كُرْسِيِّهِ : فَهُوَ ضَالٌّ

مُبْتَدِعٌ جَاهِلٌ وَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ إلَهٌ يُعْبَدُ وَلَا عَلَى الْعَرْشِ رَبٌّ يُصَلَّى لَهُ وَيُسْجَدُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُعْرَجْ بِهِ إلَى رَبِّهِ ؛ وَلَا

(340/271)

نَزَلَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِهِ : فَهُوَ مُعَطِّلٌ فِرْعَوْنِيٌّ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ - وَقَالَ - بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ - وَالْقَائِلُ الَّذِي قَالَ : مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ فَهُوَ ضَالٌّ :

(341/271)

إنْ أَرَادَ بِذَلِكَ مَنْ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ بِحَيْثُ تَحْصُرُهُ وَتُحِيطُ بِهِ : فَقَدْ أَخْطَأَ . وَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مِنْ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ : فَقَدْ أَصَابَ فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ يَكُونُ مُكَذِّبًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّبِعًا لِغَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ بَلْ يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ مُعَطِّلًا لِرَبِّهِ نَافِيًا لَهُ ؛ فَلَا يَكُونُ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ إلَهٌ يَعْبُدُهُ وَلَا رَبٌّ يَسْأَلُهُ وَيَقْصِدُهُ . وَهَذَا قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ فِرْعَوْنَ الْمُعَطِّلِ . وَاَللَّهُ قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ - عَرَبَهُمْ

وَعَجَمَهُمْ - عَلَى أَنَّهُمْ إذَا دَعَوْا اللَّهَ تَوَجَّهَتْ قُلُوبُهُمْ إلَى الْعُلُوِّ وَلَا يَقْصِدُونَهُ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ : يَا اللَّهُ إلَّا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ - قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ لِسَانُهُ - مَعْنًى يَطْلُبُ الْعُلُوَّ لَا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً . وَذَكَرَ مِنْ بَعْدِ كَلَامٍ طَوِيلٍ - الْحَدِيثَ : ﴿ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ﴾ . وَلِأَهْلِ الْحُلُولِ وَالتَّعْطِيلِ فِي هَذَا الْبَابِ شُبُهَاتٌ يُعَارِضُونَ بِهَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَا أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا ؛ وَمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ الصَّحِيحَةُ . فَإِنَّ هَذِهِ الْأَدِلَّةَ كُلَّهَا مُتَّفِقَةٌ

(342/271)

عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ مَخْلُوقَاتِهِ عَالٍ عَلَيْهَا قَدْ فَطَرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْعَجَائِزَ وَالصِّبْيَانَ وَالْأَعْرَابَ فِي الْكُتَّابِ ؛ كَمَا فَطَرَهُمْ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالْخَالِقِ تَعَالَى . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ ﴾ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : عَلَيْك بِدِينِ الْأَعْرَابِ وَالصِّبْيَانِ فِي الْكُتَّابِ وَعَلَيْك بِمَا فَطَرَهُمْ

اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِّ وَالرُّسُلُ بُعِثُوا بِتَكْمِيلِ الْفِطْرَةِ وَتَقْرِيرِهَا لَا بِتَحْوِيلِ الْفِطْرَةِ وَتَغْيِيرِهَا . وَأَمَّا أَعْدَاءُ الرُّسُلِ كَالْجَهْمِيَّةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ : فَيُرِيدُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا فِطْرَةَ اللَّهِ وَيُورِدُونَ عَلَى النَّاسِ شُبُهَاتٍ بِكَلِمَاتٍ مُشْتَبِهَاتٍ لَا يَفْهَمُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ مَقْصُودَهُمْ بِهَا ؛ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُجِيبَهُمْ . وَأَصْلُ ضَلَالَتِهِمْ تَكَلُّمُهُمْ بِكَلِمَاتٍ مُجْمَلَةٍ ؛ لَا أَصْلَ لَهَا فِي كِتَابِهِ ؛ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ ؛ وَلَا قَالَهَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ كَلَفْظِ التَّحَيُّزِ وَالْجِسْمِ وَالْجِهَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَمَنْ كَانَ عَارِفًا بِحَلِّ شُبُهَاتِهِمْ بَيَّنَهَا وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِذَلِكَ فَلْيُعْرِضْ عَنْ كَلَامِهِمْ وَلَا يَقْبَلْ

(343/271)

إلَّا مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ . وَمَنْ يَتَكَلَّمُ فِي اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ بِمَا يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَهُوَ مِنْ الْخَائِضِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالْبَاطِلِ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَنْسُبُ إلَى أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَمْ يَقُولُوهُ ؛ فَيَنْسِبُونَ إلَى الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ : مِنْ الِاعْتِقَادَاتِ مَا لَمْ يَقُولُوا . وَيَقُولُونَ لِمَنْ اتَّبَعَهُمْ : هَذَا اعْتِقَادُ الْإِمَامِ الْفُلَانِيِّ ؛ فَإِذَا طُولِبُوا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ عَنْ الْأَئِمَّةِ تَبَيَّنَ كَذِبُهُمْ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ :

حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ : أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ وَيُقَالَ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ . قَالَ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي : مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ . قَالَ أَحْمَد : مَا ارْتَدَى أَحَدٌ بِالْكَلَامِ فَأَفْلَحَ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا وَالْمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنَمًا . الْمُعَطِّلُ أَعْمَى وَالْمُمَثِّلُ أَعْشَى ؛ وَدِينُ اللَّهِ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وَالسُّنَّةُ فِي الْإِسْلَامِ كَالْإِسْلَامِ فِي الْمِلَلِ . انْتَهَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

عَمَّنْ يَعْتَقِدُ " الْجِهَةَ " هَلْ هُوَ مُبْتَدِعٌ أَوْ كَافِرٌ أَوْ لَا ؟

فَأَجَابَ :

(344/271)

أَمَّا مَنْ اعْتَقَدَ الْجِهَةَ ؛ فَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ فِي دَاخِلِ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْوِيهِ الْمَصْنُوعَاتُ وَتَحْصُرُهُ السَّمَوَاتُ وَيَكُونُ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ فَوْقَهُ وَبَعْضُهَا تَحْتَهُ فَهَذَا مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ . وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَقِرُ إِلَى شَيْءٍ يَحْمِلُهُ - إِلَى الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِهِ - فَهُوَ أَيْضًا مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ . وَكَذَلِكَ إِنْ جَعَلَ صِفَاتِ اللَّهِ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَيَقُولُ : اسْتِوَاءُ اللَّهِ

كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ أَوْ نُزُولُهُ كَنُزُولِ الْمَخْلُوقِ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَهَذَا مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مَعَ الْعَقْلِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا تُمَاثِلُهُ الْمَخْلُوقَاتُ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مُبَايِنٌ الْمَخْلُوقَاتِ عَالٍ عَلَيْهَا . وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْخَالِقَ تَعَالَى بَائِنٌ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَنَّهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَرْشِ وَعَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ لَا يَفْتَقِرُ إلَى شَيْءٍ مِنْ

(345/271)

الْمَخْلُوقَاتِ ؛ بَلْ هُوَ مَعَ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ بِقُدْرَتِهِ وَلَا يُمَثَّلُ اسْتِوَاءُ اللَّهِ بِاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِينَ ؛ بَلْ يُثْبِتُ اللَّهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَيُنْفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةُ الْمَخْلُوقَاتِ وَيُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ : لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا أَفْعَالِهِ . فَهَذَا مُصِيبٌ فِي اعْتِقَادِهِ مُوَافِقٌ لِسَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا . فَإِنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَأَنَّهُ كَلَّمَ مُوسَى

تَكْلِيمًا وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكًّا هَشِيمًا . وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ؛ وَيُنَزِّهُونَ اللَّهَ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ وَيُثْبِتُونَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ كُفُؤٌ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِي : مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهًا . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ

حِكَايَةُ مُنَاظِرَةٍ فِي الْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ

(346/271)

صُورَةُ مَا طُلِبَ مِنْ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ - حِينَ جِيءَ بِهِ مِنْ دِمَشْقَ عَلَى الْبَرِيدِ وَاعْتُقِلَ بِالْجُبِّ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ بَعْدَ عَقْدِ الْمَجْلِسِ بِدَارِ النِّيَابَةِ وَكَانَ وُصُولُهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ وَعُقِدَ الْمَجْلِسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَفِيهِ اعْتُقِلَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ . وَصُورَةُ مَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَعْتَقِدَ نَفْيَ الْجِهَةِ عَنْ اللَّهِ وَالتَّحَيُّزِ ؛ وَأَنْ لَا يَقُولَ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ حَرْفٌ وَصَوْتٌ قَائِمٌ بِهِ ؛ بَلْ هُوَ مَعْنًى قَائِمٌ بِذَاتِهِ ؛ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُشَارُ إلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ إشَارَةً حِسِّيَّةً وَيُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَآيَاتِهَا عِنْدَ الْعَوَامِّ وَلَا يَكْتُبُ بِهَا إلَى الْبِلَادِ وَلَا فِي الْفَتَاوَى

الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا .

فَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ :

أَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يَعْتَقِدَ نَفْيَ الْجِهَةِ عَنْ اللَّهِ وَالتَّحَيُّزِ : فَلَيْسَ فِي كَلَامِي إثْبَاتُ هَذَا اللَّفْظِ لِأَنَّ إطْلَاقَ هَذَا اللَّفْظِ نَفْيًا بِدْعَةٌ وَأَنَا لَمْ أَقُلْ إلَّا مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ . فَإِنْ أَرَادَ قَائِلُ هَذَا الْقَوْلِ : أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ رَبٌّ وَلَا فَوْقَ الْعَرْشِ

(347/271)

إلَهٌ وَأَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُعْرَجْ بِهِ إلَى رَبِّهِ وَمَا فَوْقَ الْعَالَمِ إلَّا الْعَدَمُ الْمَحْضُ ؛ فَهَذَا بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ . وَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَا تُحِيطُ بِهِ مَخْلُوقَاتُهُ وَلَا يَكُونُ فِي جَوْفِ الْمَوْجُودَاتِ فَهَذَا مَذْكُورٌ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي كَلَامِي ؛ فَإِنِّي قَائِلُهُ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي تَجْدِيدِهِ ؟ . وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : لَا يَقُولُ إنَّ كَلَامَ اللَّهِ حَرْفٌ وَصَوْتٌ قَائِمٌ بِهِ ؛ بَلْ هُوَ مَعْنًى قَائِمٌ بِذَاتِهِ : فَلَيْسَ فِي كَلَامِي هَذَا أَيْضًا وَلَا قُلْته قَطُّ ؛ بَلْ قَوْلُ الْقَائِلِ : إنَّ الْقُرْآنَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ قَائِمٌ بِهِ بِدْعَةٌ وَقَوْلُهُ مَعْنًى قَائِمٌ بِذَاتِهِ : بِدْعَةٌ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا وَأَنَا لَيْسَ فِي كَلَامِي شَيْءٌ مِنْ الْبِدَعِ ؛ بَلْ فِي كَلَامِي مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ . وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : لَا يُشَارُ إلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ إشَارَةً حِسِّيَّةً فَلَيْسَ هَذَا اللَّفْظُ فِي كَلَامِي ؛ بَلْ فِي كَلَامِي

إنْكَارُ مَا ابْتَدَعَهُ الْمُبْتَدِعُونَ مِنْ الْأَلْفَاظِ النَّافِيَةِ مِثْلُ قَوْلِهِ إنَّهُ لَا يُشَارُ إلَيْهِ فَإِنَّ هَذَا النَّفْيَ أَيْضًا بِدْعَةٌ . فَإِنْ أَرَادَ الْقَائِلُ أَنَّهُ لَا يُشَارُ إلَيْهِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ مَحْصُورًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الصَّحِيحَةِ : فَهَذَا حَقٌّ ؛ وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ مَنْ دَعَا اللَّهَ لَا يَرْفَعُ إلَيْهِ يَدَيْهِ ؛ فَهَذَا خِلَافُ مَا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَنُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ

(348/271)

رَفْعِ الْأَيْدِي إلَى اللَّهِ فِي الدُّعَاءِ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ اللَّهَ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إذَا رَفَعَ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا ﴾ .

وَإِذَا سَمَّى الْمُسَمِّي ذَلِكَ إشَارَةً حِسِّيَّةً وَقَالَ : إنَّهُ لَا يَجُوزُ . لَمْ يُقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ . وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : لَا يَتَعَرَّضُ لِأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَآيَاتِهَا عِنْدَ الْعَوَامِّ : فَأَنَا مَا فَاتَحْت عَامِّيًّا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَطُّ . وَأَمَّا الْجَوَابُ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لِلْمُسْتَرْشِدِ الْمُسْتَهْدِي ؛ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ . وَلَا يُؤْمَرُ الْعَالِمُ بِمَا يُوجِبُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – عَنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

يَا سَادَةَ الْعُلَمَاءِ أَفْتُونَا بِمَا * * * يَشْفِي الْغَلِيلَ فَمَاءُ صَبْرِي آسِنُ

عَنْ قَوْلِ نَاظِمِ عِقْدِ أَصْلِ عَقِيدَةٍ * * * فِي حَقِّ حَقِّ الْحَقِّ لَيْسَ يُدَاهِنُ

يَا مُنْكِرًا أَنَّ الْإِلَهَ مُبَايِنٌ * * * لِلْخَلْقِ يَا مَفْتُونُ بَلْ يَا فَاتِنُ

هَبْ قَدْ ضَلَلْتَ فَأَيْنَ أَنْتَ فَإِنْ تَكُنْ * * * أَنْتَ الْمُبَايِنُ فَهُوَ أَيْضًا بَائِنُ

أَوْ قُلْتَ لَسْتَ مُبَايِنًا قُلْنَا إِذَنْ * * * فَبِالِاتِّحَادِ أَوْ الْحُلُولِ تُشَاحِنُ

(349/271)

أَوْ قُلْتَ يَلْزَمُ مِنْهُ شَيْءٌ دَاخِلًا * * * قُلْنَا نَعَمْ مَا الرَّبُّ فِينَا سَاكِنُ

إِنْ قُلْتَ يَلْزَمُ أَنَّهُ فِي حَيِّزٍ * * * أَوْ صَارَ فِي جِهَةٍ فَعَقْلُكَ وَاهِنُ

فَلَقَدْ كَذَبْتَ فَإِنَّهُ لَا حَيِّزٌ * * * إِلَّا مَكَانٌ وَهُوَ مِنْهُ بَائِنُ

وَكَذَا الْجِهَاتُ فَإِنَّهَا عَدَمِيَّةٌ * * * فِي حَقِّهِ وَالْحَقُّ فِي ذَا بَائِنُ

إِذْ لَيْسَ فَوْقَ الْحَقِّ ذَاتٌ غَيْرُهُ * * * حَتَّى تُقَدِّرَ وَهُوَ فِيهَا قَاطِنُ

أَوْ قُلْتَ مَا هُوَ دَاخِلٌ أَوْ خَارِجٌ * * * هَذَا يَدُلُّ بِأَنَّ مَا هُوَ كَائِنُ

إذْ قَدْ جَمَعْت نَقَائِضًا وَوَصَفْته * * * عَدَمًا بِهَا هَلْ أَنْتَ عَنْهَا ظَاعِنُ

مَا قَالَ مَا هُوَ ظَاهِرٌ أَوْ بَاطِنٌ * * * لَكِنَّهُ هُوَ ظَاهِرٌ هُوَ بَاطِنُ

فَارْجِعْ وَتُبْ مَنْ قَالَ مِثْلُك إنَّهُ * * * لَمُعَطِّلٌ وَالْكُفْرُ فِيهِ كَامِنُ

وَتَفَضَّلُوا بِجَوَابِهِ مَنْ نَظْمِكُمْ * * * هَلْ صَادَقَ فِيمَا ادَّعَى أَوْ مَاين

فَصْلًا بِفَصْلِ ظَاهِرٍ فَاللَّهُ لَك * * * مُفْتِي الْمُصِيبِ بِخَيْرِ آخِرٍ ضَامِنُ

فَأَجَابَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، جَوَابُ الْمُنَازِعِينَ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : الِاسْتِدْلَالُ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ خَارِجٌ عَنْهُ .

(350/271)

وَالثَّانِي : الْجَوَابُ عَنْ حُجَّةِ مَنْ نَفَى ذَلِكَ وَاسْتَدَلَّ بِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْقَوْلَ بِالتَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ وَهُمَا بَاطِلَانِ وَبُطْلَانُ اللَّازِمِ يَقْتَضِي بُطْلَانَ الْمَلْزُومِ . فَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُ فَإِنَّ مَضْمُونَهُ أَنَّك إمَّا أَنْ تَكُونَ مُبَايِنًا لِلْخَالِقِ وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ مُبَايِنًا فَإِنْ قُلْت : إنَّك مُبَايِنٌ لَزِمَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لَك ؛ لِأَنَّ

الْمُبَايَنَةَ مِنْ بَابِ الْمُفَاعَلَةِ الَّتِي يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِهَا مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ ثُبُوتُهَا فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ عَقْلًا ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي اللُّغَةِ إلَّا فِي مَوَاضِعَ قِيلَ إنَّهَا مُسْتَثْنَاةٌ بَلْ مُتَأَوَّلَةٌ : مِثْلُ قَوْلِهِمْ : عَاقَبْت اللِّصَّ وَدَاقَقْت النَّعْلَ وَعَافَاك اللَّهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَإِنْ قُلْت : لَسْت مُبَايِنًا لَهُ لَزِمَك الْقَوْلُ بِالْحُلُولِ أَوْ الِاتِّحَادِ ؛ فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ مُبَايِنًا لِغَيْرِهِ مُتَمَيِّزًا عَنْهُ كَانَ مُجَامِعًا لَهُ مُدَاخِلًا لَهُ بِحَيْثُ هُوَ يُحَايِثُهُ وَيُجَامِعُهُ وَيُدَاخِلُهُ كَمَا تُحَايِثُ الصِّفَةُ مَحَلَّهَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ وَالصِّفَةُ الْمُشَارَكَةُ لَهَا بِالْقِيَامِ بِهِ ؛ فَإِنَّ التُّفَّاحَةَ مَثَلًا طَعْمُهَا وَلَوْنُهَا لَيْسَ هُوَ بِمُبَايِنٍ لَهَا بَلْ هُوَ مُحَايِثٌ لَهَا وَمُجَامِعٌ لَهَا وَذَلِكَ الطَّعْمُ مُحَايِثُ اللَّوْنِ ، وَالْمُبَايَنَةُ هِيَ الْمُفَارَقَةُ وَهِيَ ضِدُّ الْمُجَامَعَةِ فَلَمَّا كَانَتْ الصِّفَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْعَرَضَ تُحَايِثُ مَحَلَّهَا - الَّذِي يُسَمَّى الْجِسْمُ - وَتُحَايِثُ عَرَضًا آخَرَ كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا مُنْتَفٍ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِعَرَضٍ وَلَا صِفَةٍ مِنْ الصِّفَاتِ ؛ بَلْ هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُسْتَغْنٍ عَنْ مَحَلٍّ يَقُومُ بِهِ فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مُحَايَثَةُ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْحُلُولُ ؛ إذْ الْقَوْلُ بِنَفْيِ الْجِسْمِ مَعَ إثْبَاتِ هَذَا التَّقْسِيمِ تَنَاقُضٌ بَيِّنٌ . وَإِذَا كَانَ هَذَا الْقَوْلُ مُسْتَلْزِمًا لِلتَّجْسِيمِ لَزِمَهُ مَا يَلْزَمُ الْقَائِلِينَ بِالتَّجْسِيمِ وَقَدْ خَاطَبَ نُفَاةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ مَفْتُونُونَ وَفَاتِنُونَ وَادَّعَى أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ

(352/271)

فَإِنَّهُ مُعَطِّلٌ وَأَنَّ " الْكُفْرَ فِي قَوْلِهِ كَامِنٌ " . وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ تَكْفِيرَ مَنْ نَفَى التَّجْسِيمَ وَقَدْ عُلِمَ مَا فِي الْقَوْلِ مِنْ الْوَبَالِ الْعَظِيمِ . قَالَتْ الْمُثْبِتَةُ نَحْنُ نُجِيبُكُمْ بِجَوَابَيْنِ : إجْمَالِيٌّ وَتَفْصِيلِيٌّ .

(353/271)

أَمَّا الْجَوَابُ الْإِجْمَالِيُّ فَإِنَّا نَقُولُ قَوْلَكُمْ : " لَا نُسَلِّمُ أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ ضَرُورِيَّةٌ " مَنْعٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ ؛ فَإِنَّ الْمُقَدِّمَاتِ الضَّرُورِيَّةَ لَا يَجُوزُ مَنْعُهَا وَلَوْ جَازَ مَنْعُ الضَّرُورِيَّاتِ لَمْ يُمْكِنْ الِاسْتِدْلَالُ وَلَا إقَامَةُ حُجَّةٍ عَلَى مُنْكِرٍ ؛ فَإِنَّ الْمُسْتَدِلَّ غَايَتُهُ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِدَلِيلٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ ؛ فَلَوْ جَازَ مَنْعُ الضَّرُورِيَّةِ لَمْ يَصِحَّ الِاسْتِدْلَالُ ؛ وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِضَرُورِيَّةٍ أَوْ لَيْسَتْ بِصَحِيحَةٍ لَا يُقْبَلُ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ الضَّرُورِيَّاتِ هِيَ الْأَصْلُ لِلنَّظَرِيَّاتِ ؛ فَلَوْ جَازَ الْقَدْحُ فِي الضَّرُورِيَّاتِ بِالنَّظَرِيَّاتِ لَكَانَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي الْأَصْلِ بِفَرْعِهِ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ بُطْلَانَ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ جَمِيعًا ؛ فَإِنَّ الْفَرْعَ إذَا كَانَ فَاسِدًا لَمْ تَجُزْ الْمُعَارَضَةُ بِهِ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ صَحِيحًا ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَادِحًا فِي الْأَصْلِ . فَثَبَتَ

أَنَّهُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ لَا يَجُوزُ مُعَارَضَةُ الضَّرُورِيَّاتِ بِالنَّظَرِيَّاتِ . فَإِنْ قِيلَ : فَهَبْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي الْمُقَدِّمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ أَنْ تُمَانَعَ وَلَا أَنْ تُعَارَضَ بِالنَّظَرِيَّاتِ ؛ فَإِذَا ادَّعَى الْمُسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ الْمُقَدِّمَةَ ضَرُورِيَّةٌ فَهَلْ يَكُونُ قَوْلُهُ حُجَّةً عَلَى مُنَاظِرِهِ . قِيلَ : لَيْسَ مُجَرَّدُ دَعْوَاهُ الضَّرُورِيَّةَ حُجَّةً عَلَى خَصْمِهِ لَكِنْ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ ضَرُورِيَّةٌ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ وَهُوَ لَا يُكَابِرُ نَفْسَهُ ؛ وَسَوَاءٌ

(354/271)

عَلِمَهَا غَيْرُهُ أَوْ لَمْ يَعْلَمْهَا ؛ وَسَوَاءٌ سَلَّمَهَا لَهُ أَوْ نَازَعَهُ فِيهَا . فَمَا عَلِمَهُ هُوَ ضَرُورَةً لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَشُكَّ فِيهِ .

(355/271)

وَأَمَّا طَرِيقُ إلْزَامِهِ لِمُنَازِعِهِ فَإِنَّهُ يَسْتَشْهِدُ عَلَى ذَلِكَ بِتَسْلِيمِ أَرْبَابِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الَّتِي لَمْ يُعَارِضْهَا عَقْدٌ وَلَا قَصْدٌ يُخَالِفُ فِطْرَتَهَا فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الَّتِي لَا هَوَى لَهَا وَلَا اعْتِقَادٌ يُخَالِفُ ذَلِكَ تُقِرُّ بِأَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ مَعْلُومَةٌ عِنْدَهُمْ بِالضَّرُورَةِ عَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ وَأَنَّ

الْمُنَازِعِ فِيهَا قَدْ تَغَيَّرَتْ فِطْرَتُهُ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا لِاعْتِقَادٍ أَوْ هَوًى فَإِنَّ الْحِسَّ كَمَا قَدْ يَعْرِضُ لَهُ مَا يُوجِبُ غَلَطَهُ فَكَذَلِكَ الْعَقْلُ يَعْرِضُ لَهُ مَا يُوجِبُ غَلَطَهُ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ حَقٌّ أَنَّ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جَاءُوا بِمَا يُوَافِقُهَا لَا بِمَا يُخَالِفُهَا وَكَذَلِكَ " سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ " مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ يُوَافِقُونَ مُقْتَضَاهَا ؛ لَا يُخَالِفُونَهَا . وَلَمْ يُخَالِفْ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الضَّرُورِيَّةَ مَنْ لَهُ فِي الْأُمَّةِ لِسَانُ صِدْقٍ ؛ بَلْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ يَقُولُونَ بِمُوجِبِهَا وَإِنَّمَا خَالَفَهَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَطَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ : كَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ ؛ وَالَّذِينَ خَالَفُوهَا - عُقَلَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ - تَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ وَادَّعَوْا الضَّرُورَةَ فِي قَضَايَا مَنْ جِنْسِهَا وَهِيَ أَبْيَنُ مِنْهَا وَمَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ ذَلِكَ أَدَّى بِهِ الْأَمْرُ إلَى جَحْدِ عَامَّةِ الضَّرُورِيَّاتِ وَالْحِسِّيَّاتِ فَالْمُنْكِرُ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ هُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ

(356/271)

يَسْتَلْزِمَ جَحْدَ عَامَّةِ الضَّرُورِيَّاتِ وَإِمَّا أَنْ يُقِرَّ بِقَضَايَا - مِنْ جِنْسِهَا ضَرُورِيَّةً - دُونَ هَذِهِ فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلَاءِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا : إنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ هُوَ جِسْمٌ وَلَا مُتَحَيِّزٌ تَنَازَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ : هَلْ هُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ أَمْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ ؟ فَقَالَ طَوَائِفُ

(357/271)

كَثِيرَةٌ : هُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ بَلْ هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ مَعَ هَذَا لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ . وَهَذَا يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ الْكُلَّابِيَةِ وَالكَرَّامِيَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَطَوَائِفَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ مِنْ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالصُّوفِيَّةِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَكَاهُ الْأَشْعَرِيُّ عَنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ . وَقَالَ طَوَائِفُ مِنْهُمْ : لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا فَوْقَ الْعَالَمِ شَيْءٌ أَصْلًا وَلَا فَوْقَ الْعَرْشِ شَيْءٌ . وَهَذَا قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَطَوَائِفَ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ النُّفَاةِ ؛ وَالْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ أَوْ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِذَاتِهِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ عُبَّادِهِمْ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ وَصُوفِيَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَيْسَ هُوَ دَاخِلًا فِيهِ وَلَا خَارِجًا عَنْهُ وَلَا حَالًّا فِيهِ وَلَيْسَ فِي مَكَانٍ مِنْ الْأَمْكِنَةِ ؛ فَهَؤُلَاءِ يَنْفُونَ عَنْهُ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ جَمِيعًا وَهَذَا قَوْلُ طَوَائِفَ مِنْ مُتَكَلِّمِيهِمْ وَنُظَّارِهِمْ . وَ (الْأَوَّلُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى عَامَّتِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ مِنْهُمْ وَ (الثَّانِي هُوَ الْغَالِبُ عَلَى نُظَّارِهِمْ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ وَأَهْلِ الْبَحْثِ مِنْهُمْ وَالْقِيَاسِ فِيهِمْ . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْمَعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ؛ فَفِي حَالِ نَظَرِهِ وَبَحْثِهِ يَقُولُ بِسَلْبِ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ كِلَيْهِمَا فَيَقُولُ : لَا هُوَ دَاخِلُ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجُهُ . وَفِي حَالِ تَعَبُّدِهِ وَتَأَلُّهِهِ

(358/271)

يَقُولُ بِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى يُصَرِّحُونَ

(359/271)

بِالْحُلُولِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ - مِنْ الْبَهَائِمِ وَغَيْرِهَا - بَلْ " بِالِاتِّحَادِ " بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ بَلْ يَقُولُونَ " بِالْوَحْدَةِ " الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّهُ عَيْنُ وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ . وَسَبَبُ ذَلِكَ : أَنَّ الدُّعَاءَ وَالْعِبَادَةَ وَالْقَصْدَ وَالْإِرَادَةَ وَالتَّوَجُّهَ يَطْلُبُ مَوْجُودًا ؛ بِخِلَافِ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ وَالْكَلَامِ ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْكَلَامَ وَالْبَحْثَ وَالْقِيَاسَ وَالنَّظَرَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْقَلْبُ فِي عِبَادَةٍ وَتَوَجُّهٍ وَدُعَاءٍ سَهُلَ عَلَيْهِ النَّفْيُ وَالسَّلْبُ وَأَعْرَضَ عَنْ الْإِثْبَاتِ بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَ فِي حَالِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مَوْجُودًا يَقْصِدُهُ وَيَسْأَلُهُ وَيَعْبُدُهُ وَالسَّلْبُ لَا يَقْتَضِي إلَّا النَّفْيَ وَالْعَدَمَ فَلَا يَنْفِي فِي السَّلْبِ مَا يَكُونُ مَقْصُودًا أَوْ مَعْبُودًا . فَالْمُخَالِفُ لِهَذَا النَّظْمِ إذَا كَانَ مِنْ الْنُّفَاةِ لِلْمُتَقَابِلِينَ يَقُولُ : أَنَا أَقُولُ : لَا هُوَ مُبَايِنٌ وَلَا أَقُولُ بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ فَلِمَ قُلْت : إنِّي إذَا لَمْ أَقُلْ بِالْمُبَايَنَةِ يَلْزَمُنِي الْقَوْلُ بِالْحُلُولِ أَوْ الِاتِّحَادِ ؟ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُهُ أَئِمَّةُ الْنُّفَاةِ لِمِثْلِ هَذَا النَّاظِمِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَيَقُولُ الْمُثْبِتَةُ الْقَائِلُونَ بِالْمُبَايَنَةِ وَالْخُرُوجِ - وَمَنْ قَالَ مِنْ الْنُّفَاةِ إنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ - وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِمْ وَقَوْلِ مُحَقِّقِيهِمْ وَعَارِفِيهِمْ - نَحْنُ نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْمَوْجُودَ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِغَيْرِهِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَايِثًا وَنَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ مَنْ أَثْبَتَ

(360/271)

مَوْجُودَيْنِ لَيْسَ أَحَدُهُمَا دَاخِلًا فِي الْآخَرِ - مُحَايِثًا لَهُ - وَلَا خَارِجًا عَنْهُ - مُبَايِنًا لَهُ - فَقَدْ خَالَفَ ضَرُورَةَ الْعَقْلِ ؛ وَهَذَا الْعِلْمُ مَرْكُوزٌ فِي فِطَرِ جَمِيعِ النَّاسِ إلَّا مَنْ يُقَلِّدُ قَوْلَ النُّفَاةِ .

(361/271)

وَنَفْيُ هَذَيْنِ جَمِيعًا هُوَ مِنْ أَقْوَالِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ الْجَهْمِيَّةِ ؛ فَإِنَّ جَهْمًا مَعَ الْقَرَامِطَةِ وَغُلَاةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ يَقُولُونَ : لَا نَقُولُ : هُوَ شَيْءٌ وَلَا لَيْسَ بِشَيْءِ كَمَا يَقُولُونَ : لَا نَقُولُ : هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا مَعْدُومٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ وَلَا عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْمَقَالَاتُ فَسَادُهَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَوَاطَأَ عَلَيْهَا جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ؛ فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ مَذْهَبًا تَلَقَّاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ - يَجُوزُ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى جَحْدِ الضَّرُورِيَّاتِ كَمَا يَجُوزُ الِاتِّفَاقُ عَلَى الْكَذِبِ مَعَ الْمُوَاطَئَةِ وَالِاتِّفَاقِ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ كَالنَّصَارَى وَالرَّافِضَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ مَنْ يُصِرُّ عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِالضَّرُورَةِ . وَإِنَّمَا الْمُمْتَنِعُ مَا يَمْتَنِعُ عَلَى " أَهْلِ التَّوَاتُرِ " وَهُوَ اتِّفَاقُ الْجَمَاعَةِ الْعَظِيمَةِ

عَلَى الْكَذِبِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ وَلَا اتِّفَاقٍ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ جَحْدُ مَا يُعْلَمُ ثُبُوتُهُ بِالِاضْطِرَارِ وَإِثْبَاتُ مَا يُعْلَمُ نَفْيُهُ بِالِاضْطِرَارِ ؛ لِأَنَّ هَذَا اتِّفَاقٌ عَلَى الْكَذِبِ . وَأَهْلُ التَّوَاتُرِ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُمْ الْكَذِبُ ؛ فَأَمَّا إذَا لُقِّنُوا قَوْلًا بِشُبْهَةِ وَحُجَجٍ وَاعْتَقَدُوا صِحَّتَهُ جَازَ أَنْ يُصِرُّوا عَلَى اعْتِقَادِهِ وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَإِنْ كَانُوا جَمَاعَةً عَظِيمَةً ؛ وَلِهَذَا يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكُفَّارِ فَلَا يَعْرِفُونَ

(362/271)

الْحَقَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

وَإِنَّمَا تُؤْخَذُ الضَّرُورِيَّاتُ مِنْ الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ وَالْعُقُولِ الْمُسْتَقِيمَةِ : الَّتِي لَمْ تَمْرَضْ بِمَا تَقَلَّدَتْهُ مِنْ الْعَقَائِدِ وَتَعَوَّدَتْهُ مِنْ الْمَقَاصِدِ .

(363/271)

وَالْمُثْبِتَةُ يَقُولُونَ : مَنْ ذُكِرَ لَهُ قَوْلُ النُّفَاةِ - مِنْ أَجْنَاسِ بَنِي آدَمَ السَّلِيمَةِ الْفِطَرِ - عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ فَسَادُهُ ؛ وَكُلَّمَا كَانَ أَذْكَى وَاحِدٍ ذِهْنًا كَانَ عِلْمُهُ بِفَسَادِهِ أَشَدَّ ؛ بَلْ هُمْ يَقُولُونَ : إنَّ الْعِلْمَ بِالْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ الْمَطْلُوبِ إثْبَاتُهَا " وَهُوَ عُلُوُّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعَالَمِ " مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ وَالضَّرُورَةِ وَيَعْلَمُونَ بُطْلَانَ نَقِيضِهَا بِالْفِطْرَةِ وَالضَّرُورَةِ ؛ فَيَعْلَمُونَ بِالضَّرُورَةِ الْقَضِيَّةَ الْعَامَّةَ وَالْقَضِيَّةَ الْخَاصَّةَ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْخَالِقَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَيَعْلَمُونَ امْتِنَاعَ وُجُودِ مَوْجُودَيْنِ لَيْسَ أَحَدُهُمَا مُبَايِنًا لِلْآخَرِ وَلَا مُدَاخِلًا لَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ مُبَايِنًا كَانَ مُدَاخِلًا محايثا فَيُلْزَمُ الْحُلُولُ وَالِاتِّحَادُ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْأُمَمِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَمَّا مَنْ يُثْبِتُ الْعُلُوَّ وَالْمُبَايَنَةَ فَقَوْلُهُ ظَاهِرٌ وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِالْعُلُوِّ وَالْمُبَايَنَةِ فَجُمْهُورُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ضِدَّ ذَلِكَ إلَّا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَوْ عُرِضَ عَلَيْهِمْ نَفْيُ هَذَا وَهَذَا لَمْ يَتَصَوَّرُوهُ وَلَمْ يَعْقِلُوهُ وَبِهَذَا احْتَجَّ أَهْلُ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ - مِنْ مُحَقِّقِيهِمْ - كَالصَّدْرِ القونوي وَأَمْثَالِهِ عَلَى نفاة ذَلِكَ مِنْهُمْ فَقَالَ : قَدْ سَلَّمْتُمْ لَنَا أَنَّهُ لَيْسَ خَارِجَ الْعَالَمِ وَلَا مُبَايِنًا لَهُ ؛ وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يُعْقَلْ إلَّا أَنْ يَكُونَ وُجُودُ الْمُمْكِنَاتِ أَوْ فِي وُجُودِ الْمُمْكِنَاتِ ؛ إذْ لَا يُعْقَلُ إلَّا هَذَا ؛ أَوْ هَذَا .

(364/271)

ثُمَّ هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَقُولُونَ : هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ وَإِنَّ فَرْقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَشْيَاءِ فَرْقُ مَا بَيْنَ

الْمُطْلَقِ وَالْمُعَيَّنِ وَهَذَا يُشْبِهُ الْفَرْقَ بَيْنَ جِنْسِ الْإِنْسَانِ وَأَعْيَانِ النَّاسِ وَجِنْسِ الْحَيَوَانِ وَأَعْيَانِ الْحَيَوَانِ فَيَكُونُ الرَّبُّ مِثْلَ الْجِنْسِ أَوْ الْعَرَضِ الْعَامِّ لِسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ لَهُ وُجُودٌ مُتَمَيِّزٌ بِنَفْسِهِ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ ؛ إذْ الْكُلِّيَّاتُ - كَالْجِنْسِ وَالنَّوْعِ وَالْفَصْلِ وَالْخَاصَّةِ وَالْعَرَضِ الْعَامِّ - لَا تُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُنْفَصِلَةً عَنْ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ . وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ وَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ وَإِنَّمَا يُحْكَى الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ عَنْ شِيعَةِ أَفْلَاطُونَ " وَنَحْوِهِ : الَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ " الْمُثُلِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ " وَهِيَ الْكُلِّيَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ عَنْ الْأَعْيَانِ خَارِجَ الذِّهْنِ وَعَنْ شِيعَةِ " فيثاغورس " فِي إثْبَاتِ الْعَدَدِ الْمُطْلَقِ خَارِجَ الذِّهْنِ . وَالْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ " أَرِسْطُو " وَأَتْبَاعُهُ مُتَّفِقُونَ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فَلَوْ ظَنُّوا أَنَّ الْبَارِيَ تَعَالَى هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ لَوَقَعُوا فِيمَا فَرُّوا مِنْهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ مُبَايَنَتَهُ لِوُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ وَانْفِصَالِهِ عَنْهَا ؛ مَعَ أَنَّ عَاقِلًا لَا يَقُولُ : إنَّ صِفَةً تَكُونُ مُبْدِعَةً لِلْمَوْصُوفِ وَلَا إنَّ " الْكُلِّيَّاتِ " هِيَ الْمُبْدِعَةُ لِمُعَيَّنَاتِهَا . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ جَمَاهِيرَ الْخَلَائِقِ مِنْ مُثْبِتَةِ عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَمِنْ نُفَاةِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ هَذَا التَّقْسِيمِ وَالْحَصْرِ وَهُوَ أَنَّ الشَّيْءَ إمَّا أَنْ يَكُونَ

(366/271)

مُبَايِنًا لِغَيْرِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ محايثا مُدَاخِلًا ؛ فَإِذَا انْتَفَى أَحَدُهُمَا ثَبَتَ الْآخَرُ . وَيَقُولُونَ : إنَّ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ قَالَ النُّفَاةِ : لَا نُسَلِّمُ أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ

(367/271)

ضَرُورِيَّةٌ ؛ بِدَلِيلِ أَنَّا نَعْقِلُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ الْأَنَاسِيِّ وَغَيْرِهَا مِنْ الْكُلِّيَّاتِ الْمَعْقُولَةِ وَغَيْرِهَا وَلَيْسَتْ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ أَرِسْطُو وَأَتْبَاعَهُ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ . وَطَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَثْبَتُوا أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ كَذَلِكَ وَالْعُقُولَ وَالنُّفُوسَ وَلَمْ يَكُونُوا قَائِلِينَ بِمَا يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِالضَّرُورَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ يَعْلَمُ تَقْسِيمَ الشَّيْءِ إلَى مُبَايِنٍ وَمحايث وَمَا لَيْسَ بِمُبَايِنٍ وَلَا محايث وَتَقْسِيمَهُ إلَى دَاخِلٍ وَخَارِجٍ وَمَا لَيْسَ بِدَاخِلٍ وَلَا خَارِجٍ وَتَقْسِيمِهِ إلَى مُتَحَيِّزٍ وَقَائِمٍ بِالْمُتَحَيِّزِ وَمَا لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ وَلَا قَائِمٍ بِمُتَحَيِّزٍ . وَلَا يُعْلَمُ فَسَادُ هَذَا التَّقْسِيمِ بِالِاضْطِرَارِ كَمَا يُعْلَمُ أَنَّ الْوَاحِدَ نِصْفُ الِاثْنَيْنِ . وَأَيْضًا فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ مِنْ لُزُومِ الْمُبَايَنَةِ وَالمحايثة وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ إنَّمَا يُعْقَلُ فِيمَا هُوَ جِسْمٌ مُتَحَيِّزٌ فَإِذَا قَدَّرْنَا مُتَحَيِّزَيْنِ لَزِمَ أَنْ

يَكُونَ أَحَدُهُمَا إمَّا دَاخِلًا فِي الْآخَرِ أَوْ خَارِجًا مِنْهُ فَأَمَّا إذَا قَدَّرْنَا مَوْجُودًا لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ لَمْ يَمْنَعْ أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِغَيْرِهِ وَلَا محايثا لَهُ وَلَا دَاخِلًا فِيهِ وَلَا خَارِجًا عَنْهُ بَلْ يُنْفَى عَنْ الْقِسْمَيْنِ وَحِينَئِذٍ فَهَذَا التَّقْسِيمُ وَالْحَصْرُ يَسْتَلْزِمُ كَوْنَ الْبَارِي جِسْمًا مُتَحَيِّزًا فِي جِهَةٍ وَذَلِكَ بَاطِلٌ . وَلَا نُرِيدُ بِالتَّحَيُّزِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ " حَيِّزٌ " وُجُودِيٌّ كَمَا أَجَابَ عَنْهُ النَّاظِمُ وَلَا

(368/271)

بِالْجِهَةِ أَنْ يَكُونَ فِي " أَيْنَ " مَوْجُودٌ كَمَا أَجَابَ النَّاظِمُ أَيْضًا بَلْ نُرِيدُ بِالتَّحَيُّزِ الَّذِي فِي الْجِهَةِ أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يُشَارُ إلَيْهِ بِالْحِسِّ أَنَّهُ هَاهُنَا أَوْ هُنَاكَ

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا كَانَ فَوْقَ الْعَالَمِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُشَارَ إلَيْهِ بِأَنَّهُ هُنَاكَ وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ بِالتَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ عِنْدَنَا . وَإِذَا كَانَ هَذَا التَّقْسِيمُ مُسْتَلْزِمًا لِإِثْبَاتِ الْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّقْسِيمُ صَحِيحًا إلَّا أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ بِالْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ صَحِيحًا وَالنَّاظِمُ لَمْ يَذْكُرْ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالتَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ وَالْجِسْمِ .

(369/271)

ثُمَّ نَقُولُ الْأَدِلَّةُ النَّظَرِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ وَالْجِسْمِ تَنْفِي صِحَّةَ هَذَا التَّقْسِيمِ وَالْحَصْرِ ؛ فَإِنَّهُ إذَا قُدِّرَ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ وَلَا فِي جِهَةٍ أَمْكَنَ أَنْ يُعْقَلَ أَنَّهُ لَيْسَ مُبَايِنًا لِغَيْرِهِ وَلَا مُحَايِثًا لَهُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلَّمَا يُنْفَى الْقَوْلُ بِالتَّجْسِيمِ يَبْطُلُ هَذَا الِاسْتِدْلَالُ .

وَكَذَلِكَ " الِاتِّحَادُ " فَإِنَّ الِاتِّحَادَ إذَا كَانَ مَعَ بَقَاءِ الِاثْنَيْنِ عَلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ فَلَا اتِّحَادَ بَلْ هُمَا اثْنَانِ بَاقِيَانِ عَلَى صِفَاتِهِمَا كَمَا كَانَا وَإِنْ عَنَى بِهِ اسْتِحَالَةَ إلَى نَوْعٍ ثَالِثٍ كَمَا يَتَّحِدُ الْمَاءُ وَاللَّبَنُ وَالْمَاءُ وَالْخَمْرُ فَيَصِيرَانِ نَوْعًا ثَالِثًا لَا هُوَ مَاءٌ مَحْضٌ وَلَا لَبَنٌ مَحْضٌ فَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ اسْتِحَالَةِ أَحَدِهِمَا وَفَسَادٍ يَعْرِضُ لِذَاتِهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ قَدِيمٌ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ عَدَمُ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَيَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِ الِاسْتِحَالَةُ وَالْفَسَادُ بِمَضْمُونِ الدَّلِيلِ أَنَّ الْمَخْلُوقَ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِلْخَالِقِ وَالْخَالِقَ مُبَايِنٌ وَإِمَّا أَنْ يَلْزَمَ الْحُلُولُ وَالِاتِّحَادُ وَهُمَا بَاطِلَانِ فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ .

وَاعْتِرَاضُ الْمُنَازِعِ عَلَى هَذَا يَكُونُ بَعْدَ بَيَانِ مَعْنَى الْمُبَايَنَةِ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ يُطْلِقُونَ الْمُبَايَنَةَ بِإِزَاءِ " ثَلَاثَةِ " مَعَانٍ ؛ بَلْ " أَرْبَعَةٌ " .

أَحَدُهَا الْمُبَايَنَةُ الْمُقَابِلَةُ لِلْمُمَاثَلَةِ وَالْمُشَابَهَةِ وَالْمُقَارَبَةِ

وَالثَّانِي : الْمُبَايَنَةُ الْمُقَابَلَةُ للمحايثة وَالْمُجَامَعَةِ وَالْمُدَاخَلَةِ وَالْمُخَارَجَةِ وَالْمُخَالَطَةِ .

وَالثَّالِثُ الْمُبَايَنَةُ الْمُقَابَلَةِ لِلْمُمَاسَّةِ وَالْمُلَاصَقَةِ ؛ فَهَذِهِ الْمُبَايَنَةُ أَخَصُّ مِنْ الَّتِي قَبْلَهَا ؛ فَإِنَّ مَا بَايَنَ الشَّيْءَ فَلَمْ يُدَاخِلْهُ قَدْ يَكُونُ مُمَاسًّا لَهُ مُتَّصِلًا بِهِ وَقَدْ يَكُونُ مُنْفَصِلًا عَنْهُ غَيْرَ مُجَاوِرٍ لَهُ هَذِهِ الْمُبَايَنَةُ الثَّالِثَةُ وَمُقَابِلُهَا تُسْتَعْمَلُ فِيمَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ خَاصَّةً : كَالْأَجْسَامِ فَيُقَالُ : هَذِهِ الْعَيْنُ إمَّا أَنْ تَكُونَ مُمَاسَّةً لِهَذِهِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُبَايِنَةً . وَأَمَّا الْمُبَايَنَةُ الَّتِي قَبْلَهَا وَمَا يُقَابِلُهَا فَإِنَّهَا تَعُمُّ مَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَمَا يَقُومُ بِغَيْرِهِ وَالْعَرَضُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ لَيْسَ مُبَايِنًا لَهُ . وَلَا يُقَالُ : إنَّهُ مُمَاسٌّ لَهُ فَيُقَالُ : هَذَا اللَّوْنُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِهَذِهِ الْعَيْنِ أَوْ لِهَذَا الطَّعْمِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ محايثا لَهُ مُجَامِعًا مُدَاخِلًا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَارَاتِ ؛ وَإِنْ اسْتَعْمَلَ مُسْتَعْمِلٌ لَفْظَ الْمُمَاسَّةِ وَالْمُلَاصَقَةِ فِي قِيَامِ الصِّفَةِ بِمَوْصُوفِهَا كَانَ ذَلِكَ نِزَاعًا لَفْظِيًّا .

(371/271)

وَأَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ فَكَمَا يُرْوَى عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْنَاهُمْ مُتَقَارِبِينَ فِي الْعَافِيَةِ فَإِذَا جَاءَ الْبَلَاءُ تَبَايَنُوا تَبَايُنًا عَظِيمًا أَيْ تَفَاضَلُوا وَتَفَاوَتُوا . وَيُقَالُ : هَذَا قَدْ بَانَ عَنْ نُظَرَائِهِ أَيْ

خَرَجَ عَنْ مُمَاثَلَتِهِمْ وَمُشَابَهَتِهِمْ وَمُقَارَبَتِهِمْ بِمَا امْتَازَ بِهِ مِنْ الْفَضَائِلِ . وَيُقَالُ : بَيْنَ هَذَا وَهَذَا بَوْنٌ بَعِيدٌ وَبَيْنٌ بَعِيدٌ .

(372/271)

وَالنَّوْعُ الثَّانِي كَقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ لَمَّا قِيلَ لَهُ : بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا قَالَ : بِأَنَّهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا نَقُولُ كَمَا تَقُولُ الْجَهْمِيَّةُ : إنَّهُ هَاهُنَا . وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَعُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ وَخَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ خِلَافُ ذَلِكَ . وَحَبَسَ هِشَامُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الرَّازِي - صَاحِبُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ - رَجُلًا حَتَّى يَقُولَ : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ثُمَّ أَخْرَجَهُ وَقَدْ أَقَرَّ بِذَلِكَ فَقَالَ : أَتَقُولُ إنَّهُ مُبَايِنٌ ؟ فَقَالَ : لَا . فَقَالَ : رُدُّوهُ فَإِنَّهُ جَهْمِي فَالْمُبَايَنَةُ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهَا عَدَمَ الْمُمَاثَلَةِ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يُنَازِعْ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا أَلْزَمُوا النَّاسَ بِأَنْ يُقِرُّوا بِالْمُبَايَنَةِ الْخَاصَّةِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَلَمْ يَقُولُوا : بَائِنٌ مِنْ الْعَرْشِ وَحْدَهُ فَجَعَلُوا الْمُبَايَنَةَ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ عُمُومًا وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الْعَرْشُ وَغَيْرُهُ فَإِنَّهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَرَّضُوا فِي هَذِهِ الْمُبَايَنَةِ لِإِثْبَاتِ مُلَاصَقَةٍ وَلَا نَفْيِهَا . وَلَكِنْ

قَدْ يَقُولُ بَعْضُ النُّفَاةِ : أَنَا أُرِيدُ بِالْمُبَايَنَةِ عَدَمُ المحايثة وَالْمُدَاخَلَةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُدْخِلَ فِي ذَلِكَ مَعْنَى الْخُرُوجِ . وَقَدْ يُوصَفُ الْمَعْدُومُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُبَايَنَةِ فَيَقُولُ : إنَّ الْمَعْدُومَ

(373/271)

مُبَايِنٌ لِلْمَوْجُودِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَهَذَا مَعْنًى " رَابِعٌ " مِنْ مَعَانِي الْمُبَايَنَةِ . وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ " الْمُبَايَنَةَ " قَدْ يُرِيدُ بِهَا النَّاسُ هَذَا وَهَذَا فَلَا رَيْبَ أَنْ

(374/271)

" الْمَعْنَى الْأَوَّلَ " ثَابِتٌ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ ؛ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّ مُبَايَنَتَهُ لِلْمَخْلُوقِينَ فِي صِفَاتِهِمْ أَعْظَمُ مِنْ مُبَايَنَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ لِمَخْلُوقٍ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِشَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ مُقَارِبًا لَهُ فِي صِفَاتِهِ ؛ لَكِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَيْسَ هُوَ الَّذِي قَصَدَهُ النَّاظِمُ وَلَا قَصَدَ أَيْضًا " الْمَعْنَى الثَّالِثَ " لِأَنَّهُ جَعَلَ نَفْيَ الْمُبَايَنَةِ يَسْتَلْزِمُ الْحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ وَهَذَا إنَّمَا هُوَ " الْمَعْنَى الثَّانِي " وَإِلَّا " فَالْمَعْنَى الثَّالِثُ " نَفْيُهُ يَسْتَلْزِمُ الْمُلَاصَقَةَ وَالْمُمَاسَّةَ وَالنَّاظِمُ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ . وَهَذَا الْمَعْنَى " الثَّالِثُ " يَسْتَلْزِمُ

الثَّانِيَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ؛ فَإِنَّ الْمُبَايَنَةَ الْخَاصَّةَ الْمُقَابِلَةَ لِلْمُلَاصَقَةِ صِفَةٌ تَسْتَلْزِمُ الْمُبَايَنَةَ الْعَامَّةَ الْمُقَابِلَةَ لِلْمُدَاخَلَةِ وَالْمُحَايَثَةِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ . وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّاظِمَ أَرَادَ هَذِهِ الْمُبَايَنَةَ الْعَامَّةَ وَهِيَ الْمُبَايَنَةُ الْمَشْهُورَةُ فِي اللُّغَةِ وَكَلَامِ النَّاسِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّ الْمُنَازِعِينَ لَهُ يَقُولُونَ : لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ مُبَايِنًا لَزِمَ الْحُلُولُ أَوْ الِاتِّحَادُ ؛ فَإِنَّ هَذَا مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ : إذَا لَمْ يَكُنْ خَارِجًا عَنْ الْعَالَمِ كَانَ دَاخِلًا فِيهِ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْمُخَالِفَ لَهُ يَقُولُ : لَا هُوَ دَاخِلُ الْعَالَمِ وَلَا هُوَ خَارِجُهُ فَكَذَلِكَ يَقُولُ : لَا مُبَايِنَ وَلَا مُحَايِثَ وَلَا مُجَامِعَ وَلَا مُفَارِقَ وَيَقُولُ

(375/271)

: إنَّمَا نَفَيْت الْمُبَايَنَةَ وَالْمُحَايَثَةَ جَمِيعًا وَالْحُلُولُ وَالِاتِّحَادُ يَدْخُلَانِ فِي الْمُحَايَثَةِ فَلَا أُسَلِّمُ إذَا لَمْ أَكُنْ مُبَايِنًا لِلْخَالِقِ أَنْ يَكُونَ حَالًّا فِيَّ أَوْ مُتَّحِدًا بِي . وَهَذَا مَعْلُومٌ مِنْ قَوْلِ النُّفَاةِ ؛ فَإِنَّ " النُّفَاةَ " الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّ الْخَالِقَ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجًا عَنْهُ مُبَايِنًا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ حَالٌّ فِيهِ أَوْ مُتَّحِدٌ بِهِ

(376/271)

وَقَدْ وَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَمُتَأَخِّرِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالصُّوفِيَّةِ . ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفُونَ عُلُوَّهُ بِنَفْسِهِ عَلَى الْعَالَمِ هُمْ فِي رُؤْيَتِهِ عَلَى قَوْلَيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ تَجُوزُ رُؤْيَتُهُ وَذَلِكَ وَاقِعٌ فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا قَوْلُ كُلِّ مَنْ انْتَسَبَ إلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ كَالْكُلَّابِيَةِ وَالكَرَّامِيَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَقَوْلُ أَهْلِ الْحَدِيثِ قَاطِبَةً وَشُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَعَامَّةُ هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ ؛ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ يُثْبِتُونَ الرُّؤْيَةَ : كَابْنِ حَزْمٍ وَأَبِي حَامِدٍ فِي بَعْضِ أَقْوَالِهِ . و(الْقَوْلُ الثَّانِي قَوْلُ مَنْ يُنْكِرُ الرُّؤْيَةَ كَالْمُعْتَزِلَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ الْمَحْضَةِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَغَيْرِهِمْ وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ وَيَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ ذَاتٍ بِلَا صِفَاتٍ وَهَلْ يُوصَفُ بِالْأَحْوَالِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ . أَوْ يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ وُجُودٍ مُطْلَقٍ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ الْأُمُورِ الثُّبُوتِيَّةِ كَمَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ مَعَ قَوْلِهِمْ فِي أُصُولِهِمْ الْمَنْطِقِيَّةِ : إنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ لَكِنَّهُ هَلْ هُوَ نَفْسُ الْمُعَيَّنِ أَوْ كُلِّيٌّ مُقَارِبٌ لِلْمُعَيَّنِ .

(377/271)

فَالصَّوَابُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْأَوَّلُ وَلَكِنَّ الثَّانِيَ هُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْطِقِ مَعَ تَنَاقُضِ أَقْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ وَبَنَوْا عَلَى هَذَا مِنْ الْجَهَالَاتِ مَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى ؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَعَلَى هَذَا فَإِذَا جُعِلَ هُوَ الْمَوْجُودُ الْمُطْلَقُ لَا بِشَرْطِ . وَقِيلَ : إنَّ الْمُطْلَقَ جُزْءٌ مِنْ الْمُعَيَّنِ مُلَازِمٌ لَهُ كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ جُزْءًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ الْمُمْكِنَةِ وَإِذَا قِيلَ : لَيْسَ فِي الْخَارِجِ مُطْلَقٌ مُغَايِرٌ لِلْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ وَهُوَ الصَّوَابُ . إذْ لَيْسَ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ جَوَاهِرُ بِعَدَدِ مَا يُوصَفُ فَإِذَا قِيلَ هُوَ جِسْمٌ حَسَّاسٌ قَائِمٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ نَاطِقٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِنْسَانِ الْمُعَيَّنِ جَوَاهِرُ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا غَيْرَ ذَلِكَ الْمُعَيَّنِ وَهَذَا الْمَعْلُومُ بِالضَّرُورَةِ . وَعَلَى هَذَا فَإِذَا قِيلَ إنَّ الْحَقَّ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ لَا بِشَرْطِ كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ هُوَ عَيْنَ وُجُودِ الْمُمْكِنَاتِ فَلَا يَكُونُ هُنَاكَ مَوْجُودَانِ أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ وَالْآخَرُ مُمْكِنٌ وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْوَحْدَةِ وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِنَفْيِ وَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُبْدِعِ لِلْمَوْجُودَاتِ الْمُمْكِنَةِ وَتَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْوُجُودَ الْوَاجِبَ يَقْبَلُ الْعَدَمَ وَالْحُدُوثَ كَمَا نُشَاهِدُهُ مِنْ حُدُوثِ الْحَوَادِثِ وَعَدَمِهَا وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ كُفْرٌ صَرِيحٌ فَهُوَ مَنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ الْقَبِيحِ وَكُلُّ مَنْ قَالَ : إنَّ الرَّبَّ وُجُودٌ مُطْلَقٌ لَزِمَتْهُ هَذِهِ الْأَقْوَالُ وَنَحْوُهَا الَّتِي مَضْمُونُهَا نَفْيُ وُجُودِهِ ؛ وَكَذَلِكَ إثْبَاتُ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ

(378/271)

عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ أَمْرٌ يُقَدِّرُهُ الذِّهْنُ وَإِلَّا فَوُجُودُهُ فِي الْخَارِجِ مُمْتَنِعٌ وَلَفْظُ ذَاتٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ ذَاتَ هِيَ فِي الْأَصْلِ تَأْنِيثُ ذُو وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ ذَاتُ الصِّفَاتِ أَيْ : النَّفْسُ ذَاتُ الصِّفَاتِ فَلَفْظُ الذَّاتِ مَعْنَاهُ الصَّاحِبَةُ وَالْمُسْتَلْزِمَةُ لِلصِّفَاتِ هَذَا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ .

(379/271)

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فَلِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ يَخْتَصُّ بِهَا يَتَمَيَّزُ بِهَا عَمَّا سِوَاهُ وَكُلٌّ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ يُقَالُ لَهُ : ذَاتٌ فَكُلُّهَا مُشْتَرِكَةٌ فِي مُسَمَّى الذَّاتِ كَمَا هِيَ مُشْتَرِكَةٌ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلٍّ مِنْ الذَّاتَيْنِ مَا تَخْتَصُّ بِهِ عَنْ الْأُخْرَى كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مِنْ الْمَوْجُودَيْنِ مَا يُمَيِّزُهُ عَنْ الْآخَرِ فَإِذَا قُدِّرَ ذَاتٌ مُطْلَقَةٌ لَا اخْتِصَاصَ لَهَا كَانَ ذَلِكَ مُمْتَنِعًا كَوُجُودٍ مُطْلَقٍ لَا اخْتِصَاصَ لَهُ . فَلَا بُدَّ أَنْ تَخْتَصَّ كُلُّ ذَاتٍ بِمَا يَخُصُّهَا وَذَلِكَ الَّذِي يَخُصُّهَا مَا تُوصَفُ بِهِ مِنْ الْخَصَائِصِ فَذَاتٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا تُوصَفُ بِهَا مُحَالٌ . وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ : التَّنْبِيهُ عَلَى مَجَامِعِ مَقَالَاتِ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَلْزَمُهُمْ الْقَوْلُ بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْإِثْبَاتِ وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَوْجُودَيْنِ لَيْسَ أَحَدُهُمَا دَاخِلًا فِي الْآخَرِ وَلَا خَارِجًا عَنْهُ وَلَا مُبَايِنًا لَهُ وَلَا مُحَايِثًا لَهُ وَامْتِنَاعُ وُجُودِ مَوْجُودٍ لَا يُشَارُ إلَيْهِ وَلَا إلَى مَحَلِّهِ وَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ لَزِمَهُ

أَحَدُ أَمْرَيْنِ : إمَّا الْإِقْرَارُ بِقَضَايَا ضَرُورِيَّةٍ هَذِهِ أَبْيَنُ مِنْهَا . وَإِمَّا جَحْدُ عَامَّةِ الْقَضَايَا الضَّرُورِيَّةِ الْحِسِّيَّةِ . وَذَكَرْت مَقَالَاتِ النَّاسِ لِيَتَبَيَّنَ مُنَاظَرَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ . فَيَقُولُ الْمُثْبِتُونَ لِمُبَايَنَةِ اللَّهِ : مُسْتَوٍ عَلَى

(380/271)

عَرْشِهِ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ فَاسْتِوَاؤُهُ عَلَى عَرْشِهِ ثَابِتٌ بِالسَّمْعِ وَعُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ مَعَ السَّمْعِ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَحَيِّزًا بَطَلَتْ دَلَائِلُ النُّفَاةِ لِكَوْنِهِ عَلَى الْعَرْشِ : كَقَوْلِهِمْ ؛ إمَّا أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ مِنْ الْعَرْشِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَصْغَرَ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لِلْعَرْشِ . وَكَقَوْلِهِمْ : إذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ لَهُ مِقْدَارٌ مَخْصُوصٌ فَيَسْتَدْعِي مُخَصِّصًا وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْمُثْبِتَةَ تَقُولُ لَهُمْ : هَذَا إنَّمَا يَلْزَمُ إذَا كَانَ جِسْمًا مُتَحَيِّزًا ؛ فَأَمَّا إذَا كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَمْ يَكُنْ جِسْمًا مُتَحَيِّزًا لَمْ يَلْزَمْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ اللَّوَازِمِ .

(381/271)

وَحِينَئِذٍ فنفاة الْعُلُوّ هُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إنْ سَلَّمُوا أَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمِ وَلَا مُتَحَيِّزٍ بَطَلَ كُلُّ دَلِيلٍ لَهُمْ عَلَى نَفْيِ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ إنَّمَا بَنَوْا ذَلِكَ عَلَى أَنَّ عُلُوَّهُ عَلَى الْعَرْشِ مُسْتَلْزِمٌ لِكَوْنِهِ جِسْمًا مُتَحَيِّزًا وَاللَّازِمُ مُنْتَفٍ فَيَنْتَفِي الْمَلْزُومُ ؛ فَإِذَا لَمْ تَثْبُتْ الْمُلَازَمَةُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى النَّفْيِ وَلَا يَبْقَى لِلنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - بِإِثْبَاتِ عُلُوِّهِ عَلَى الْعَالَمِ مَا يُعَارِضُهَا وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ . وَإِنْ قَالُوا : مَتَى قُلْتُمْ : عَلَى الْعَرْشِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُتَحَيِّزًا أَوْ جَوْهَرًا مُنْفَرِدًا وَإِثْبَاتُ الْعُلُوِّ عَلَى الْعَرْشِ مَعَ نَفْيِ التَّحَيُّزِ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ . قِيلَ لَهُمْ : لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَقْرَبُ إلَى الْمَعْقُولِ مِنْ إثْبَاتِ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ؛ فَإِنَّا إذَا عَرَضْنَا عَلَى عُقُولِ الْعُقَلَاءِ قَوْلَ قَائِلَيْنِ : أَحَدُهُمَا يَقُولُ بِوُجُودِ مَوْجُودٍ خَارِجٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَآخَرُ يَقُولُ بِوُجُودِ مَوْجُودٍ خَارِجَ الْعَالَمِ وَلَيْسَ بِجِسْمِ كَانَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَبْعَدَ عَنْ الْمَعْقُولِ

(382/271)

وَكَانَتْ الْفِطْرَةُ وَالضَّرُورَةُ لِلْأَوَّلِ أَعْظَمَ إنْكَارًا فَإِنْ كَانَ حُكْمُ هَذِهِ الْفِطْرَةِ وَالضَّرُورَةِ مَقْبُولًا لَزِمَ بُطْلَانُ الْأَوَّلِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا لَمْ يَجُزْ إنْكَارُهُمْ لِلْقَوْلِ الثَّانِي وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ لَا يَبْقَى لَهُمْ حُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِخَارِجِ الْعَالَمِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ . وَهَذَا تَقْرِيرٌ لَا حِيلَةَ لَهُمْ فِيهِ يَبِينُ بِهِ تَنَاقُضُ

أُصُولِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ حُكْمَ الْفِطْرَةِ وَيَرُدُّونَهُ بِالتَّشَهِّي وَالتَّحَكُّمِ ؛ بَلْ يَرُدُّونَ مِنْ أَحْكَامِ الْفِطْرَةِ وَالضَّرُورَةِ مَا هُوَ أَقْوَى وَأَبْيَنُ وَأَبْدَهُ لِلْعُقُولِ مِمَّا يَقْبَلُونَهُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا بَيَانُ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ خَارِجٌ عَنْهُ وَهُمْ إنَّمَا يَنْفُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مُتَحَيِّزًا : إمَّا جِسْمًا وَإِمَّا جَوْهَرًا مُنْفَرِدًا وَذَلِكَ أَنَّهُ إنْ كَانَ مَا يُحَاذِي هَذَا الْجَانِبَ مِنْ الْعَرْشِ غَيْرَ مَا يُحَاذِي هَذَا الْجَانِبَ كَانَ مُنْقَسِمًا وَكَانَ جِسْمًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرَهُ كَانَ فِي الصِّغَرِ بِمَنْزِلَةِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَهَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . فَإِذَا قَالَ لَهُمْ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ : يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَا يَقْبَلُ إثْبَاتَ هَذِهِ الْمُحَاذَاةِ وَلَا نَفْيَهَا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ أَنْ لَوْ كَانَ مُتَحَيِّزًا ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَحَيِّزًا أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا يُوصَفُ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ وَلَا بِنَفْيِهِ وَقَالُوا : إثْبَاتُ الْعُلُوِّ مَعَ عَدَمِ الْمُحَاذَاةِ وَالْمُسَامَتَةِ غَيْرُ مَعْقُولٍ أَوْ مَعْلُومُ الْفَسَادِ .

(383/271)

فَيُقَالُ لَهُمْ : إثْبَاتُ الْوُجُودِ مَعَ عَدَمِ الْمُبَايَنَةِ وَالْمحايثة وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ أَبْعَدُ عَنْ الْعَقْلِ وَأَبْيَنُ فَسَادًا فِي الْمَعْقُولِ ، وَكُلُّ عَاقِلٍ سَلِيمِ الْفِطْرَةِ إذَا عَرَضْت عَلَيْهِ وُجُودَ مَوْجُودٍ خَارِجَ الْعَالَمِ غَيْرَ محايث لِلْعَالَمِ وَوُجُودَ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ تَكُونُ نَفْرَةُ فِطْرَتِهِ عَنْ الثَّانِي أَعْظَمَ وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ فِطْرَتَهُ تَقْبَلُ الثَّانِيَ فَقَبُولُهَا لِلْأَوَّلِ أَعْظَمُ . وَحِينَئِذٍ فَمَا يَذْكُرُهُ النُّفَاةُ مِنْ

إمْكَانِ وُجُودِ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ : إمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا بَطَلَ أَصْلُ قَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مَقْبُولًا فَكُلَّمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ كَانَتْ دَلَالَتُهُ عَلَى إمْكَانِ وُجُودِ مَوْجُودٍ خَارِجَ الْعَالَمِ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزِ أَقْوَى وَأَظْهَرَ ؛ فَإِنَّهُ إذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا مُمْكِنٌ فِي الْعَقْلِ فَذَاكَ أَوْلَى بِالْإِمْكَانِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مُمْكِنًا لَمْ يَكُنْ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ عَلَى نَفْيِ التَّحَيُّزِ نَافِيًا لِعُلُوِّهِ عَلَى الْعَالَمِ وَارْتِفَاعِهِ عَلَى عَرْشِهِ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ . فَإِذَا بَطَلَ مَا يَنْفُونَ بِهِ ذَلِكَ – فَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعِيَّاتِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إمَّا دَلَالَةً قَطْعِيَّةً وَإِمَّا ظَاهِرَةً وَالظَّوَاهِرُ الَّتِي لَا مُعَارِضَ لَهَا لَا يَجُوزُ صَرْفُهَا عَنْ ظَوَاهِرِهَا ؛ فَكَيْفَ إذَا قِيلَ : إنَّ الْعُلُوَّ وَالْمُبَايَنَةَ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ وَالضَّرُورَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ كَمَا هُوَ

(384/271)

مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ . وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ النُّفَاةَ إذَا أَثْبَتُوا مَوْجُودًا لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَهُ بِضَرُورَةِ – لَا وُجُودَهُ وَلَا إمْكَانَ وُجُودِهِ – بَلْ كِلَاهُمَا يُثْبِتُونَهُ

(385/271)

بالنَّظَرِ ؛ بِخِلَافِ الْمُثْبِتَةِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : امْتِنَاعُ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ . وَقَدْ يَقُولُونَ : عُلُوُّ الْخَالِقِ مَعْلُومٌ أَيْضًا بِالْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهَا الَّتِي هِيَ مِنْ أَقْوَى الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ ؛ فَإِنَّ مَا فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ الْمَعَارِفِ أَقْوَى مِنْ كَوْنِهِمْ مُضْطَرِّينَ إلَيْهِ مِنْ الْمَعَارِفِ الَّتِي لَا يَضْطَرُّونَ إلَيْهَا إلَّا بَعْدَ تَصَوُّرِ طَرَفَيْهَا ؛ أَوْ بَعْدَ نَوْعٍ مِنْ التَّأَمُّلِ . وَالضَّرُورِيُّ قَدْ يُفَسَّرُ بِمَا يَلْزَمُ نَفْسَ الْمَخْلُوقِ لُزُومًا لَا يُمْكِنُهُ الِانْفِكَاكُ عَنْهُ وَقَدْ يُفَسَّرُ بِمَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بِدُونِ كَسْبِهِ وَاخْتِيَارِهِ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْقَوْلَ بِوُجُودِ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الْعُقَلَاءِ إنَّهُ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ وَكَذَلِكَ سَائِرُ لَوَازِمِ هَذَا الْقَوْلِ : مِثْلُ كَوْنِهِ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الْعُقَلَاءِ : إنَّ هَذَا النَّفْيَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ ؛ بَلْ عَامَّةُ مَا يُدَّعَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إلَى مُقَدِّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ ؛ وَإِلَّا لَزِمَ " الدَّوْرُ القبلي " و " التَّسَلْسُلُ " فِيمَا لَهُ مَبْدَأٌ حَادِثٌ وَكُلُّ هَذَيْنِ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ مُتَّفَقٌ عَلَى فَسَادِهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ؛ فَمَا مِنْ مُقَدِّمَةٍ ضَرُورِيَّةٍ يُبْنَى عَلَيْهَا الْإِمْكَانُ أَوْ الْإِثْبَاتُ : كَوُجُودِ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ؛ إلَّا وَانْتِفَاءُ هَذِهِ

(386/271)

النَّتِيجَةِ أَقْوَى فِي الْعَقْلِ مِنْ تِلْكَ الْمُقَدِّمَةِ وَالْجَزْمُ بِكَوْنِهَا ضَرُورِيَّةً أَقْوَى مِنْ الْجَزْمِ بِكَوْنِ مُقَدِّمَةِ الدَّلِيلِ الْمُعَارِضِ ضَرُورِيَّةً

(387/271)

يُوَضِّحُ ذَلِكَ : أَنَّ الْمُعَارِضَ غَايَتُهُ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ خَارِجَ الْعَالَمِ لَكَانَ جِسْمًا أَوْ لَكَانَ مُتَحَيِّزًا وَذَلِكَ مُنْتَفٍ فَلَا يَكُونُ خَارِجَ الْعَالَمِ ؛ وَالدَّلِيلُ الَّذِي يَنْفُونَ بِهِ ذَلِكَ : مُقَدِّمَاتُهُ فِيهَا مِنْ الْخَفَاءِ وَالِاشْتِبَاهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ نَظَرَ فِي ذَلِكَ . وَبِسَبَبِ مَا فِيهَا مِنْ الْخَفَاءِ وَالِاشْتِبَاهِ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَحُسْنُ ظَنِّهِمْ بِهَا مُسْتَنِدٌ إلَى تَقْلِيدِ مَنْ قَالَهَا ؛ لَا إلَى جَزْمِ عُقُولِهِمْ بِهَا ؛ فَهُمْ يَنْهَوْنَ الْعَامَّةَ عَنْ تَقْلِيدِ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرَتْ بِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارَضَهَا ؛ مَعَ الْجَزْمِ بِأَنَّ الرُّسُلَ لَا تَقُولُ إلَّا حَقًّا . وَهُمْ يُقَلِّدُونَ رُءُوسَهُمْ فِي مُعَارَضَةِ ذَلِكَ بِمُقَدِّمَاتٍ يَزْعُمُونَهَا عَقْلِيَّاتٍ وَأَتْبَاعُهُمْ لَمْ تَجْزِمْ بِهَا عُقُولُهُمْ لَكِنَّهُمْ يُقَلِّدُونَ رُءُوسَهُمْ فِيهَا . وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ إذَا حَقَّقُوا الْأَمْرَ فِيهَا وَنُوزِعُوا فِيهَا وَبُيِّنَ لَهُمْ مُسْتَنَدُ الْمَنْعِ فِيهَا لَجَئُوا إلَى الْجَهْلِ الصَّرِيحِ فَإِمَّا أَنْ يُحِيلُوا بِالْجَوَابِ عَلَى مَنْ مَاتَ وَغَابَ - وَهُوَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ أَوْغَلُ مِنْهُمْ فِي الِارْتِيَابِ وَالِاضْطِرَابِ - وَإِمَّا أَنْ يَخْرُجُوا عَمَّا يَجِبُ فِي الْمُنَاظَرَةِ وَالْجِدَالِ إلَى حَالِ أَهْلِ الظُّلْمِ وَسُفَهَاءِ الرِّجَالِ . وَإِمَّا أَنْ يَتَوَهَّمُوا أَنَّ هَذَا كُفْرٌ

يُخَالِفُ الدِّينَ . وَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ قَدْ خَالَفُوا الْكِتَابَ وَالرَّسُولَ وَاتَّبَعُوا غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالُوا مَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَا

(388/271)

غَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ . وَمِمَّا يُوَضِّحُ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ أَنَّ النُّفَاةَ لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ وَاحِدٌ اتَّفَقُوا عَلَى

(389/271)

مُقَدِّمَاتِهِ ؛ بَلْ كُلُّ طَائِفَةٍ تَقْدَحُ فِي دَلِيلِ الْأُخْرَى ؛ فَالْفَلَاسِفَةُ تَقْدَحُ فِي دَلِيلِ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ ؛ بَلْ عَلَى نَفْيِ الْجِسْمِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ دَلِيلَ الْمُعْتَزِلَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَكُونُ مَحَلًّا لِلصِّفَاتِ وَالْحَرَكَاتِ فَلَا يَكُونُ جِسْمًا وَلَا مُتَحَيِّزًا ؛ لِأَنَّ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ وَهُمْ يَسْتَدِلُّونَ عَلَى حُدُوثِ الْجِسْمِ بِحُدُوثِ الْأَعْرَاضِ وَالْحَرَكَاتِ وَأَنَّ الْجِسْمَ لَا يَخْلُو مِنْهَا وَمَا لَمْ يَخْلُ مِنْ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ . بَلْ الْأَشْعَرِيُّ نَفْسُهُ ذَكَرَ فِي رِسَالَتِهِ إلَى أَهْلِ الثَّغْرِ : أَنَّ هَذَا الدَّلِيلَ الَّذِي اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى حُدُوثِ الْعَالَمِ - وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى

حُدُوثِ الْأَجْسَامِ بِحُدُوثِ أَعْرَاضِهَا - هُوَ دَلِيلٌ مُحَرَّمٌ فِي شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَسْتَدِلَّ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَذَكَرَ فِي مُصَنَّفٍ لَهُ آخِرَ بَيَانَ عَجْزِ الْمُعْتَزِلَةِ عَنْ إقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى نَفْيِ أَنَّهُ جِسْمٌ وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّظَرِ بَيَّنُوا فَسَادَ طَرِيقِ الْفَلَاسِفَةِ الَّتِي نَفَوْا بِهَا الصِّفَاتِ وَبَيَّنُوا عَجْزَهُمْ عَنْ إقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَى نَفْيِ أَنَّهُ جِسْمٌ ؛ بَلْ وَعَجْزُهُمْ عَنْ إقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَى التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ نَفْيُ الْجِسْمِ إلَّا بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ طَرِيقُ الْمُعْتَزِلَةِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْأَشْعَرِيُّ مَا ذَكَرَ . فَإِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْ أَذْكِيَاءِ النُّظَّارِ وَفُضَلَائِهِمْ يَقْدَحُ فِي مُقَدِّمَاتِ دَلِيلِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ الَّذِي يَزْعُمُ

(390/271)

أَنَّهُ بُنِيَ عَلَيْهِ النَّفْيُ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ لَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً ؛ إذْ الضَّرُورِيَّاتُ لَا يُمْكِنُ الْقَدْحُ فِيهَا وَإِنْ قِيلَ : إنَّ هَؤُلَاءِ

(391/271)

قَدَحُوا فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ . قِيلَ : فَإِذَا جَوَّزْتُمْ عَلَى أَئِمَّةِ النُّفَاةِ أَنْ يَقْدَحُوا بِالْبَاطِلِ فِي الْمُقَدِّمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ فَالَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا أَهْلُ الْإِثْبَاتِ أَوْلَى وَأَحْرَى . وَقَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ الْكَلَامُ عَلَى أَدِلَّةِ النُّفَاةِ وَمُقَدِّمَاتِ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ بِحَيْثُ يَبِينُ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ خُرُوجُ أَصْحَابِهَا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ سَفْسَطُوا فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَقَرْمَطُوا فِي السَّمْعِيَّاتِ لَيْسَ مَعَهُمْ عَلَى نَفْيِهِمْ لَا عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ وَلَا رَأْيٌ سَدِيدٌ وَلَا شَرْعٌ ؛ بَلْ مَعَهُمْ شُبُهَاتٌ يَظُنُّهَا مَنْ يَتَأَمَّلُهَا بَيِّنَاتٍ ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وَلِهَذَا تَغْلِبُ عَلَيْهِمْ الْحَيْرَةُ وَالِارْتِيَابُ وَالشَّكُّ وَالِاضْطِرَابُ . وَقَدْ صَارَتْ تِلْكَ الشُّبُهَاتُ عِنْدَهُمْ مُقَدِّمَاتٍ مُسَلَّمَةً يَظُنُّونَهَا عَقْلِيَّاتٍ أَوْ بُرْهَانِيَّاتٍ وَإِنَّمَا هِيَ مُسَلَّمَاتٌ لِمَا فِيهَا مِنْ الِاشْتِرَاكِ وَالِاشْتِبَاهِ فَلَا تَجِدُ لَهُمْ مُقَدِّمَةً إِلَّا وَفِيهَا أَلْفَاظٌ مُشْتَبِهَةٌ فِيهَا مِنْ الْإِجْمَالِ وَالِالْتِبَاسِ مَا يَضِلُّ بِهَا مَنْ يَضِلُّ مِنْ النَّاسِ وَكَيْفَ تَكُونُ النَّتِيجَةُ الْمُثْبَتَةُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ دَافِعَةً لِتِلْكَ الْقَضَايَا الضَّرُورِيَّاتِ ؟ وَهَذَا الَّذِي قَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ : كُلَّمَا أَمْعَنَ النَّاظِرُ فِيهِ وَفِيمَا تَكَلَّمَ أَهْلُ النَّفْيِ فِيهِ : ازْدَادَ بَصِيرَةً

(392/271)

وَمَعْرِفَةً بِمَا فِيهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُبْنَى النَّفْيُ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ تُسَاوِي فِي جَزْمِ الْعَقْلِ بِهَا مُقَدِّمَاتِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ الْجَازِمَةِ

لِفَسَادِ نَتِيجَتِهِمْ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : إنَّهُ مَوْجُودٌ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ جَزْمًا لَا يُسَاوِيهِ فِيهِ جَزْمُ الْعَقْلِ بِالْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تُبْنَى عَلَيْهَا هَذِهِ النَّتِيجَةُ الثَّابِتَةُ ؛ امْتَنَعَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ الْجَزْمُ الْعَقْلِيُّ الضَّرُورِيُّ بِنَتِيجَةِ مُقَدِّمَاتٍ لَيْسَتْ مِثْلَهُ فِي الْجَزْمِ . وَهَذَا الْكَلَامُ قَبْلَ النَّظَرِ فِي تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ الْمُعَارِضَةِ لِهَذَا الْجَزْمِ هَلْ هِيَ صَحِيحَةٌ أَوْ فَاسِدَةٌ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلْمُنَاظَرَةِ وَلَا يُقْبَلُ فِي الْمُنَاظَرَةِ أَنْ يُعَارَضَ هَذَا الْجَزْمُ الْمُسْتَقِرُّ فِي الْفِطْرَةِ بِمَا يَزْعُمُهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ وَهَذَا الْمَقَامُ كَافٍ فِي دَفْعِهِ ؛ وَإِنْ لَمْ تَحُلَّ شُبُهَاتِهِ كَمَا يَكْفِي فِي دَفْعِ السُّوفِسْطَائِيِّ أَنْ يُقَالَ : إنَّمَا تَنْفِيهِ قَضَايَا ضَرُورِيَّةٌ فَلَا يَقْبَلُ نَفْيَهَا بِمَا يَذْكُرُ مِنْ الشُّبَهِ النَّظَرِيَّةِ .

(393/271)

وَأَمَّا الْجَوَابُ الثَّانِي التَّفْصِيلِيُّ : فَهُوَ بَيَانُ فَسَادِ حُجَجِ النُّفَاةِ عَلَى إمْكَانِ مَا ادَّعَوْهُ . قَالَتْ الْمُثْبِتَةُ : مَا ذَكَرْتُمُوهُ مِنْ الْحُجَجِ عَلَى إثْبَاتِ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ حُجَجُ سوفسطائي . أَمَّا الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْأَنَاسِيِّ وَنَحْوِهَا مِنْ " الْكُلِّيَّاتِ " فَهَذِهِ لَا يُقَالُ

إنَّهَا مَوْجُودَةٌ خَارِجَ الذِّهْنِ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ؛ فَإِنَّهَا أُمُورٌ ثَابِتَةٌ فِي الذِّهْنِ وَالتَّصَوُّرِ وَإِذَا قِيلَ إنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْخَارِجِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا أَوْ صِفَةً قَائِمَةً بِالْعَيْنِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا لَا تُوجَدُ فِي الْخَارِجِ كُلِّيَّةً مُطْلَقَةً بِشَرْطِ مَا هُوَ مَعْقُولٌ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُعَيَّنَةً مُشَخَّصَةً .

(394/271)

فَقَوْلُ الْقَائِلِ : إنَّ التَّفْتِيشَ يُخْرِجُ مِنْ الْمَحْسُوسِ مَا هُوَ مَعْقُولٌ : إنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ مَعْقُولٌ ثَابِتٌ فِي الْعَقْلِ فَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي الْعَقْلِ لَيْسَ هُوَ الْمَوْجُودَ فِي الْخَارِجِ بِعَيْنِهِ . وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ فِي الْمَحْسُوسِ الْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ أَمْرًا مَعْقُولًا لَيْسَ هُوَ فِي الذِّهْنِ فَهَذَا بَاطِلٌ ؛ فَلَيْسَ فِي الْإِنْسَانِ الْمُعَيَّنِ إلَّا مَا هُوَ مُعَيَّنٌ وَهُوَ هَذَا الْإِنْسَانُ الْمُعَيَّنُ - بَدَنُهُ وَرُوحُهُ وَصِفَاتُهُ - وَهَذَا كُلُّهُ أَمْرٌ مُعَيَّنٌ ؛ مُقَيَّدٌ مُشَخَّصٌ لَيْسَ هُوَ كُلِّيًّا وَلَا مُطْلَقًا . وَمَا ذَكَرَهُ مَعَ إثْبَاتِ الْمُتَبَايِنِينَ - عُقُولًا وَنُفُوسًا - لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ لَيْسَ بِحُجَّةِ بَلْ هُمْ مخصومون بِهَذِهِ الْحُجَّةِ وَغَيْرِهَا كَمَا يُخْصَمُ بِهَا نُظَرَاؤُهُمْ ؛ لَا سِيَّمَا وَقَوْلُهُمْ بِذَلِكَ أَبْيَنُ فَسَادًا وَأَدْحَضُ حُجَّةً مِنْ أَقْوَالِ نفاة الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ فَكَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْقَوْلِ بِمَا هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُ وَأَبْعَدُ عَنْ الْحَقِّ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ عَامَّةَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَغَيْرِهِمْ يَرُدُّونَ هَذَا عَلَيْهِمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : إنَّهُمْ لَمْ

يَكُونُوا بِذَلِكَ قَائِلِينَ مَا يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِالضَّرُورَةِ ؛ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ الْمُثْبِتَةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّ الْمَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَا مُتَبَايِنَيْنِ أَوْ متحايثين يَقُولُونَ : إنَّ مَا ادَّعَاهُ هَؤُلَاءِ مِمَّا يُخَالِفُ هَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ . بَلْ أَئِمَّةُ " أَهْلِ الْكَلَامِ " النَّافُونَ لِلْعُلُوِّ يَدَّعُونَ الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ : بِأَنَّ الْمُمْكِنَ إمَّا

(395/271)

جِسْمٌ أَوْ قَائِمٌ بِجِسْمٍ وَإِنَّمَا أَثْبَتَهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ مِنْ مَوْجُودَاتٍ

(396/271)

مُمْكِنَةٍ لَيْسَتْ أَجْسَامًا وَلَا أَعْرَاضًا قَائِمَةً بِالْأَجْسَامِ : كَالْعَقْلِ وَالنَّفْسِ وَالْهُيُولَى وَالصُّورَةُ الَّتِي يَدَّعُونَ أَنَّهَا جَوَاهِرُ عَقْلِيَّةٌ مَوْجُودَةٌ خَارِجَ الذِّهْنِ لَيْسَتْ أَجْسَامًا وَلَا أَعْرَاضًا لِأَجْسَامِ . فَإِنَّ أَئِمَّةَ " أَهْلِ النَّظَرِ " يَقُولُونَ : إنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ . كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ . وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ لِهَذَا كَالشَّهْرَسْتَانِي وَالرَّازِي وَالآمدي وَنَحْوِهِمْ فَهُمْ نَاظَرُوا الْفَلَاسِفَةَ مُنَاظَرَةً ضَعِيفَةً وَلَمْ يُثْبِتُوا فَسَادَ أُصُولِهِمْ كَمَا بَيَّنَ

ذَلِكَ أَئِمَّةُ النَّظَرِ الَّذِينَ هُمْ أَجَلُّ مِنْهُمْ وَسَلَّمَ هَؤُلَاءِ لِلْفَلَاسِفَةِ مُنَاظَرَةً ضَعِيفَةً وَلَمْ يُبَيِّنُوا فَسَادَ أُصُولِهِمْ ؛ إلَى مُقَدِّمَاتٍ بَاطِلَةٍ اسْتَزَلُّوهُمْ بِهَا عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ الْحَقِّ بِخِلَافِ أَئِمَّةِ أَهْلِ النَّظَرِ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي وَأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ وَأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْهَيْصَمِ الكرامي وَأَبِي الْوَفَاءِ عَلِيِّ بْنِ عَقِيلٍ . وَمِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ : مِثْلُ أَبِي عَلِيٍّ الجبائي وَابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ وَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ يَحْيَى النوبختي . وَمِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ : كَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ كَرَّامٍ وَابْنِ كُلَّابٍ وَجَعْفَرِ بْنِ مُبَشِّرٍ وَجَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ وَأَبِي إسْحَاقَ النَّظَّامِ وَأَبِي الهذيل الْعَلَّافِ وَعَمْرِو بْنِ بَحْرٍ الْجَاحِظِ ؛ وَهِشَامٍ الجواليقي وَهِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ وَحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ النَّجَّارِ وَضِرَارِ بْنِ

(397/271)

عَمْرٍو الْكُوفِيِّ وَأَبِي عِيسَى مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى

(398/271)

بُرْغُوثٍ وَحَفْصِ الْفَرْدِ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَا يُحْصِيهِمْ إلَّا اللَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ ؛ فَإِنَّ مُنَاظَرَةَ هَؤُلَاءِ لِلْمُتَفَلْسِفَةِ خَيْرٌ مِنْ مُنَاظَرَةِ أُولَئِكَ . وَهَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ لَا يُسَلِّمُونَ لِلْفَلَاسِفَةِ إمْكَانَ وُجُودِ مُمْكِنٍ لَا هُوَ جِسْمٌ وَلَا قَائِمٌ بِجِسْمٍ . بَلْ قَدْ صَرَّحَ أَئِمَّتُهُمْ بِأَنَّ بُطْلَانَ هَذَا " الْقَسَمِ الثَّالِثِ " مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ بَلْ قَدْ بَيَّنَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ إمَامُ الصفاتية : كَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ انْحِصَارِ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْمُبَايِنِ والمحايث وَأَنَّ قَوْلَ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا غَيْرَ مُبَايِنٍ وَلَا محايث مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ مِثْلُ مَا بَيْنَ أُولَئِكَ انْحِصَارُ الْمُمْكِنَاتِ فِي الْأَجْسَامِ وَأَعْرَاضِهَا وَأَبْلَغُ . وَطَوَائِفُ مِنْ النُّظَّارِ قَالُوا ؛ مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ إلَّا جِسْمٌ أَوْ قَائِمٌ بِجِسْمٍ - إذَا فُسِّرَ الْجِسْمُ بِالْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ ؛ لَا اللُّغَوِيِّ كَمَا هُوَ مُسْتَقِرٌّ فِي فِطَرِ الْعَامَّةِ . وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْأَئِمَّةُ الْكِبَارُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَعَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَكِّيِّ فِي رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا بَيَّنُوا أَنَّ مَا ادَّعَاهُ النُّفَاةِ مِنْ إثْبَاتِ قِسْمٍ ثَالِثٍ لَيْسَ بِمُبَايِنٍ وَلَا محايث مَعْلُومِ الْفَسَادِ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ وَأَنَّ هَذِهِ مِنْ الْقَضَايَا الْبَيِّنَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا الْعُقَلَاءُ بِعُقُولِهِمْ

(399/271)

وَإِثْبَاتُ لَفْظِ الْجِسْمِ وَنَفْيُهُ بِدْعَةٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ ؛ كَمَا لَمْ يُثْبِتُوا لَفْظَ التَّحَيُّزِ وَلَا نَفَوْهُ وَلَا لَفْظَ الْجِهَةِ وَلَا نَفَوْهُ وَلَكِنْ أَثْبَتُوا الصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَنَفَوْا مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ . وَمَنْ نَظَرَ فِي كَلَامِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ وَجَدَ عَامَّةَ الْمَشْهُورِينَ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ إثْبَاتَ وُجُودِ مَوْجُودٍ لَا محايث لِلْآخَرِ وَلَا مُبَايِنَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مَعْلُومُ [الْفَسَادِ أَوِ الْبُطْلَانِ] (*) بِصَرِيحِ الْعَقْلِ وَضَرُورَتِهِ .

(400/271)

وَأَمَّا الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ فَقَوْلُهُ : إنَّ الْعَقْلَ يُقَسِّمُ الْمَعْلُومَ إلَى مُبَايِنٍ وَمحايث وَمَا لَيْسَ بِمُبَايِنٍ وَلَا محايث وَنَظَائِرِهِ . فَيُقَالُ لَهُ : التَّقْسِيمُ الْمَعْلُومُ إلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ وَمَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْكِنٍ وَإِلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَمَا لَيْسَ بِقَدِيمٍ وَلَا مُحْدَثٍ وَإِلَى قَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَقَائِمٍ بِغَيْرِهِ وَمَا لَيْسَ بِقَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ تَقْدِيرَاتِ الذِّهْنِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا يَدُلُّ عَلَى إمْكَانِ ذَلِكَ فِي الْخَارِجِ فَلَيْسَ كُلُّ مَا فَرَضَهُ الذِّهْنُ مِنْ الْأَقْسَامِ وَالتَّقْدِيرَاتِ فِي الْأَذْهَانِ يَكُونُ مُمْكِنًا أَوْ مَوْجُودًا فِي الْأَعْيَانِ بَلْ الذِّهْنُ يُقَسِّمُ مَا يَخْطِرُ لَهُ إلَى وَاجِبٍ وَمُمْتَنِعٍ وَمُمْكِنٍ وَإِلَى مَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ ؛ فَالذِّهْنُ يُقَدِّرُ كُلَّ مَا يَخْطِرُ بِالْبَالِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ الْمُمْتَنِعَاتِ مَا لَا يَجُوزُ وُجُودُهُ خَارِجَ الذِّهْنِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : إنَّ التَّقْسِيمَ إلَى مُبَايِنٍ وَمحايث

لَا يُعْلَمُ فَسَادُهُ كَمَا لَا يُعْلَمُ فَسَادُ أَنَّ الْوَاحِدَ نِصْفُ الِاثْنَيْنِ . فَنَقُولُ : إنَّ الْقَضَايَا الضَّرُورِيَّةَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهَا أَنْ

(401/271)

تَكُونَ مُفْرَدَاتُهَا بَيِّنَةً لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ بَلْ شَرْطُهَا أَنْ تَكُونَ مُفْرَدَاتُهَا إذَا تُصُوِّرَتْ جَزَمَ الْعَقْلُ بِهَا وَتَصَوُّرُ الْوَاحِدِ نِصْفُ الِاثْنَيْنِ بَيِّنٌ لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ فَلِهَذَا كَانَ التَّصْدِيقُ التَّابِعُ لَهُ أَبْيَنَ مِنْ غَيْرِهِ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الْعَقْلِ كَبَيَانِ أَنَّ خَمْسَةً وَخَمْسِينَ وَرُبْعًا وَثُمُنًا : نِصْفُ مِائَةٍ وَعَشَرَةٍ وَنِصْفٌ وَرُبْعٌ وَكِلَاهُمَا ضَرُورِيٌّ . وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ وَمَعْنَى الْمُبَايِنِ وَالْمُحَايِثِ لَيْسَ بَيِّنًا ابْتِدَاءً إذْ اللَّفْظُ فِيهِ إجْمَالٌ كَمَا تَقَدَّمَ وَلَكِنْ إذَا بُيِّنَ مَعْنَاهُ لِأَهْلِ الْعَقْلِ جَزَمُوا بِانْتِفَاءِ " قِسْمٍ ثَالِثٍ " كَمَا أَنَّ مَعْنَى الْقَدِيمِ وَالْمُحْدَثِ وَالْوَاجِبِ وَالْمُمْكِنِ وَالْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ لَمَّا لَمْ يَكُنْ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ لِعَامَّةِ الْعُقَلَاءِ لَمْ يَجْزِمُوا بِانْحِصَارِ الْمَوْجُودِ فِي هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ ؛ فَإِذَا بُيِّنَ لَهُمْ الْمَعْنَى جَزَمُوا بِذَلِكَ . فَإِذَا قِيلَ لِلْعُقَلَاءِ : مَوْجُودَانِ قَائِمَانِ بِأَنْفُسِهِمَا لَا يَكُونُ هَذَا خَارِجًا عَنْ الْآخَرِ مُبَايِنًا لَهُ وَلَا دَاخِلًا فِيهِ وَلَا بَعِيدًا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَلَا بَعِيدًا عَنْهُ وَلَا فَوْقَهُ وَلَا تَحْتَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَا عَنْ يَسَارِهِ وَلَا أَمَامَهُ وَلَا وَرَاءَهُ وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُشِيرَ أَحَدُهُمَا إلَى الْآخَرِ

وَلَا يَذْهَبَ إلَيْهِ وَلَا يَقْرُبَ مِنْهُ وَلَا يَبْعُدَ عَنْهُ وَلَا يَتَحَرَّكَ إلَيْهِ وَلَا عَنْهُ وَلَا يُقْبِلُ إلَيْهِ وَلَا يُعْرِضُ عَنْهُ وَلَا يَحْتَجِبُ عَنْهُ وَلَا يَتَجَلَّى لَهُ وَلَا يَظْهَرُ لِعَيْنِهِ وَلَا يَسْتَتِرُ عَنْهُ . وَأَمْثَالُ

(402/271)

هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَقُولُهَا النُّفَاةِ عَلِمَ الْعُقَلَاءُ بِالِاضْطِرَارِ امْتِنَاعَ وُجُودِ مِثْلِ هَذَيْنِ .

(403/271)

وَأَمَّا قَوْلُ الْمُعَارِضِ : إنَّ هَذَا إنَّمَا يُعْقَلُ فِيمَا هُوَ جِسْمٌ مُتَحَيِّزٌ فَإِذَا قُدِّرَ مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ خَلَا عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ وَلَمْ تَنْحَصِرْ الْقِسْمَةُ حِينَئِذٍ فِي أَحَدِهِمَا . فَيُقَالُ : أَوَّلًا لَفْظُ " الْجِسْمِ " و " الْحَيِّزِ " و " الْجِهَةِ " أَلْفَاظٌ فِيهَا إجْمَالٌ وَإِيهَامٌ وَهِيَ أَلْفَاظٌ " اصْطِلَاحِيَّةٌ " وَقَدْ يُرَادُ بِهَا مَعَانٍ مُتَنَوِّعَةٌ وَلَمْ يَرِدْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ لَا بِنَفْيٍ وَلَا إثْبَاتٍ وَلَا جَاءَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا فِيهَا نَفْيٌ وَلَا إثْبَاتٌ أَصْلًا ؛ فَالْمُعَارَضَةُ بِهَا لَيْسَتْ مُعَارَضَةً بِدَلَالَةٍ شَرْعِيَّةٍ ؛ لَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا مِنْ سُنَّةٍ وَلَا إجْمَاعٍ ؛ بَلْ وَلَا أَثَرٍ لَا عَنْ صَاحِبٍ أَوْ تَابِعٍ وَلَا إمَامٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بَلْ الْأَئِمَّةُ الْكِبَارُ أَنْكَرُوا عَلَى الْمُتَكَلِّمِينَ بِهَا وَجَعَلُوهَا مِنْ أَهْلِ

الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْمُبْتَدَعِ ؛ وَقَالُوا فِيهِمْ أَقْوَالًا غَلِيظَةً مَعْرُوفَةً عَنْ الْأَئِمَّةِ ؛ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ : أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ؛ وَيُقَالُ هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَلْفَاظَ " نَوْعَانِ " : لَفْظٌ وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ الْإِجْمَاعِ ؛ فَهَذَا اللَّفْظُ يَجِبُ الْقَوْلُ بِمُوجَبِهِ سَوَاءٌ فَهِمْنَا مَعْنَاهُ أَوْ لَمْ نَفْهَمْهُ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقُولُ إلَّا حَقًّا وَالْأُمَّةُ لَا

(404/271)

تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ .

وَالثَّانِي : لَفْظٌ لَمْ يَرِدْ بِهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ كَهَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَنَازَعَ فِيهَا أَهْلُ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ هَذَا يَقُولُ : هُوَ مُتَحَيِّزٌ . وَهَذَا يَقُولُ . لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ وَهَذَا يَقُولُ : هُوَ فِي جِهَةٍ . وَهَذَا يَقُولُ : لَيْسَ هُوَ فِي جِهَةٍ . وَهَذَا يَقُولُ : هُوَ جِسْمٌ أَوْ جَوْهَرٌ . وَهَذَا يَقُولُ : لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ . فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يَقُولَ فِيهَا بِنَفْيٍ وَلَا إثْبَاتٍ حَتَّى يَسْتَفْسِرَ الْمُتَكَلِّمُ بِذَلِكَ فَإِنْ بَيَّنَ أَنَّهُ أَثْبَتَ حَقًّا أَثْبَتَهُ وَإِنْ أَثْبَتَ بَاطِلًا رَدَّهُ وَإِنْ نَفَى بَاطِلًا نَفَاهُ وَإِنْ نَفَى حَقًّا لَمْ يَنْفِهِ وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يُجْمِعُونَ فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ : فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ . فَمَنْ قَالَ : إنَّهُ فِي جِهَةٍ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ دَاخِلٌ مَحْصُورٌ فِي شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ - كَائِنًا مَنْ كَانَ - لَمْ

يُسَلَّمْ إلَيْهِ هَذَا الْإِثْبَاتُ وَهَذَا قَوْلُ الْحُلُولِيَّةِ . وَإِنْ قَالَ : إنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ فَوْقَهَا لَمْ يُمَانِعْ فِي هَذَا الْإِثْبَاتِ ؛ بَلْ هَذَا ضِدُّ قَوْلِ الْحُلُولِيَّةِ . وَمَنْ قَالَ : لَيْسَ فِي جِهَةٍ فَإِنْ أَرَادَ أَنَّهُ لَيْسَ مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ وَلَا فَوْقَهُ لَمْ يُسَلَّمْ لَهُ هَذَا النَّفْيُ . وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْمُتَحَيِّزِ يُرَادُ بِهِ مَا أَحَاطَ بِهِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إلَى فِئَةٍ ﴾ وَيُرَادُ بِهِ مَا انْحَازَ عَنْ غَيْرِهِ وَبَايَنَهُ . فَمَنْ قَالَ : إنَّ اللَّهَ مُتَحَيِّزٌ

(405/271)

بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ لَمْ يُسَلَّمْ لَهُ وَمَنْ أَرَادَ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ سُلِّمَ لَهُ الْمَعْنَى وَإِنْ لَمْ يُطْلِقْ اللَّفْظَ . إذَا تَبَيَّنَ هَذَا : فَإِذَا قَالَ هَذَا قَائِلٌ : هَذَا التَّقْسِيمُ مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ فَقِيلَ لَهُ : هَذَا إنَّمَا يُعْقَلُ فِي مُتَحَيِّزٍ أَوْ ذِي جِهَةٍ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا قَادِحًا فِيمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ بَلْ يَقُولُ : إمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا لَازِمًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَازِمًا بَطَلَ السُّؤَالُ وَإِنْ كَانَ لَازِمًا فَلَازِمُ الضَّرُورِيِّ حَقٌّ ؛ فَإِنَّ الْقَضَايَا الضَّرُورِيَّةَ إذَا كَانَتْ مُسْتَلْزِمَةً لِأُمُورٍ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ تِلْكَ اللَّوَازِمِ وَلَمْ يَكُنْ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى بُطْلَانِهَا بِنَفْيِ تِلْكَ اللَّوَازِمِ ؛ لِأَنَّ نَفْيَهَا نَظَرِيٌّ وَالنَّظَرِيُّ لَا يَقْدَحُ فِي الضَّرُورِيِّ . وَقَوْلُهُ : إذَا قُدِّرَ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ وَلَا فِي جِهَةٍ يَصِحُّ فِيهِ هَذَا التَّقْسِيمُ فَيُقَالُ لَهُ : ثُبُوتُهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يَقْتَضِي ثُبُوتَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إلَّا أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ ثَابِتًا فِي نَفْسِ

الْأَمْرِ وَهَذَا التَّقْسِيمُ يَنْفِي ثُبُوتَ هَذَا التَّقْدِيرِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِذَا كَانَ التَّقْسِيمُ مَعْلُومًا بِالِاضْطِرَارِ كَانَ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ انْتِفَاءُ هَذَا التَّقْدِيرِ فَلَا يُقْبَلُ إثْبَاتُ هَذَا التَّقْدِيرِ بِالنَّظَرِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْقَدْحَ فِي الضَّرُورِيِّ بِالنَّظَرِيِّ . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ إلَى إثْبَاتِ هَذَا التَّقْدِيرِ سَبِيلٌ لَمْ يَضُرَّ فَسَادُ التَّقْسِيمِ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فَسَادَ التَّقْسِيمِ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِ

(406/271)

مَا لَمْ يَثْبُتْ وَلَا يُمْكِنُ إثْبَاتُهُ

(407/271)

وَأَيْضًا فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ إثْبَاتَ هَذَا التَّقْدِيرِ مُمْكِنٌ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُعَارَضَةِ ؛ لَا مِنْ بَابِ مَنْعِ شَيْءٍ مِنْ الْمُقَدِّمَاتِ وَالْمُعَارَضَةُ تَحْتَاجُ إلَى إقَامَةِ الدَّلِيلِ ابْتِدَاءً وَسَوْفَ نَتَكَلَّمُ عَلَى ذَلِكَ . وَلَوْ قَالَ الْمُعْتَرِضُ : أَنَا أَمْنَعُ صِحَّةَ التَّقْسِيمِ وَأَجْعَلُ هَذَا سَنَدَ مَنْعِي لَمْ يَصِحَّ ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ : الْمَنْعُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُقَدِّمَةً لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا وَالْمُسْتَدِلُّ قَدْ بَيَّنَ صِحَّةَ التَّقْسِيمِ بِالضَّرُورَةِ فَلَا يَصِحُّ مَنْعُهُ لَكِنْ إذَا أَثْبَتَ إمْكَانَ وُجُودِ مَوْجُودٍ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ كَانَ هَذَا

اسْتِدْلَالًا عَلَى نَقِيضِ قَوْلِ الْمُنَازِعِ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ غَاصِبًا لِمَنْصِبِ الِاسْتِدْلَالِ ؛ فَإِنَّ الْغَصْبَ هُوَ مَنْعُ الْمُقَدِّمَةِ بِإِثْبَاتِ نَقِيضِ الْمَطْلُوبِ . وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ يَقُولُ : لَوْ صَحَّ دَلِيلُ الْمُسْتَدِلِّ لَفَسَدَ مَذْهَبِي وَمَذْهَبِي لَمْ يَفْسُدْ لِكَيْت وَكَيْت ؛ فَهَذَا غَصْبٌ لِمَنْصِبِ الِاسْتِدْلَالِ فَلَا يُقْبَلُ . وَهَكَذَا هَذَا : إذَا مَنَعَ التَّقْسِيمَ بِإِثْبَاتِ هَذَا التَّقْدِيرِ ؛ فَهَذَا التَّقْدِيرُ هُوَ مَذْهَبُهُ . إذْ يَدَّعِي وُجُودَ مَوْجُودٍ لَا يَقْبَلُ هَذَا التَّقْسِيمَ وَهَذَا مَحَلُّ النِّزَاعِ . فَإِذَا اسْتَدَلَّ عَلَى إمْكَانِهِ كَانَ غَاصِبًا فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الدَّلَالَةَ تَامَّةٌ . وَصَارَ هَذَا الِاعْتِرَاضُ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ : إذَا قُدِّرَ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِقَدِيمٍ وَلَا مُحْدَثٍ لَمْ يَصِحَّ تَقْسِيمُ الْمَوْجُودِ إلَى مُحْدَثٍ وَقَدِيمٍ ؛ وَإِذَا قُدِّرَ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْكِنٍ وَلَا قَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَلَا

(408/271)

قَائِمٍ بِغَيْرِهِ لَمْ يَصِحَّ تَقْسِيمُ الْمَوْجُودِ إلَى الْوَاجِبِ وَالْمُمْكِنِ وَالْقَائِمِ بِنَفْسِهِ وَالْقَائِمِ بِغَيْرِهِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّقْسِيمَ الْمَعْلُومَ

بِالِاضْطِرَارِ لَا يَفْسُدُ بِتَقْدِيرِ نَقِيضِهِ أَوْ مَا يَسْتَلْزِمُ نَقِيضَهُ وَإِنَّمَا يَفْسُدُ التَّقْسِيمُ بِثُبُوتِ مَا يُنَاقِضُهُ فَإِذَا كَانَ الْمُنَاقِضُ لَا يُعْلَمُ إلَّا بِالنَّظَرِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَكُونَ مُنَاقِضًا فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ مُعَارَضَةِ الضَّرُورِيِّ بِالنَّظَرِيِّ فَلَا يَكُونُ مَقْبُولًا وَلَا يَكُونُ حَقًّا .

ثُمَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَرْبَعَةُ أَجْوِبَةٍ : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : هَذَا التَّقْسِيمُ مَعْقُولٌ مُطْلَقًا – وَهَذَا التَّقْدِيرُ لَا أَتَكَلَّمُ فِي ثُبُوتِهِ وَلَا نَفْيِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَقْدَحُ فِي الضَّرُورِيَّاتِ بِالنَّظَرِيَّاتِ وَذَلِكَ غَيْرُ مَقْبُولٍ بِمَنْزِلَةِ حُجَجِ السوفسطائية . فَإِنَّ مَا عَلِمْنَاهُ بِالِاضْطِرَارِ وَقَدَحَ فِيهِ بَعْضُ النَّاسِ بِالنَّظَرِ وَالْجَدَلِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ عَنْ الْمُعَارِضِ جَوَابًا مُفَصَّلًا يُبَيِّنُ حِلَّهُ بَلْ يَكْفِينَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ عَارَضَ الضَّرُورِيَّ وَمَا عَارَضَهُ فَهُوَ فَاسِدٌ – وَهَذَا جَوَابُ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ عَنْ مِثْلِ هَذَا . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ : لَا أَقُولُ : إنَّهُ مُتَحَيِّزٌ وَلَا غَيْرُ مُتَحَيِّزٍ ؛ وَلَا فِي جِهَةٍ وَلَا فِي غَيْرِ جِهَةٍ بَلْ أَعْلَمُ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَأَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لَا مُبَايِنًا وَلَا مُدَاخِلًا . وَهَذَا كَمَا قَالَ القرمطي الْبَاطِنِيُّ : لَا أَقُولُ : هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا مَعْدُومٌ وَلَا عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ وَلَا قَادِرٌ وَلَا عَاجِزٌ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ . فَإِنَّ الْجِسْمَ يَنْقَسِمُ إلَى حَيٍّ وَمَيِّتٍ وَعَالِمٍ وَجَاهِلٍ وَقَادِرٍ وَعَاجِزٍ وَمَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ فَإِذَا

قَدَّرْنَا مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا وَلَا جَاهِلًا وَلَا قَادِرًا وَلَا عَاجِزًا وَلَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا كَانَ كَلَامُ الْقَرْمَطِي هَذَا بِمَنْزِلَةِ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةِ ؛ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ . وَقَوْلُ جَهْمٍ وَالْقَرَامِطَةِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ ؛ كَمَا نَقَلَهُ عَنْ الْفَرِيقَيْنِ أَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ وَقَالُوا : إنَّهُ لَا يُقَالُ : هُوَ شَيْءٌ وَلَا لَيْسَ بِشَيْءٍ . فَمَنْ نَفَى عَنْهُ هَذِهِ الْمُتَقَابِلَاتِ الَّتِي لَا بُدَّ لِلْمَوْجُودِ مِنْ أَحَدِهِمَا لِمَنْ يُمْكِنُهُ قَطْعُ الْقَرَامِطَةِ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ مُنَاظَرَةُ هَؤُلَاءِ لِلْقَرَامِطَةِ مُنَاظَرَةً ضَعِيفَةً كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ . (الْجَوَابُ الثَّانِي : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ ؛ بَلْ أَقُولُ : إنَّهُ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ وَلَا فِي جِهَةٍ وَأَقُولُ مَعَ ذَلِكَ : إنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ . وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ ؛ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْكُلَّابِيَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ ، وَالْكَرَّامِيَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ الْفُقَهَاءِ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالصُّوفِيَّةِ . فَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ : إثْبَاتُ مُبَايِنٍ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ قَالُوا : إثْبَاتُ مَوْجُودٍ لَا محايث وَلَا مُبَايِنٍ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ مِنْ هَذَا ؛ فَإِنْ كَانَ قَضَاءُ الْعَقْلِ مَقْبُولًا كَانَ قَوْلُكُمْ فَاسِدًا وَحِينَئِذٍ حَصَلَ الْمَطْلُوبُ مِنْ كَوْنِهِ مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ . وَإِنْ كَانَ قَضَاءُ الْعَقْلِ مَرْدُودًا بَطَلَتْ حُجَّتُكُمْ عَلَى إبْطَالِ قَوْلِنَا : إنَّهُ

(411/271)

فَوْقَ الْعَالَمِ مُبَايِنٌ لَهُ وَلَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ حُجَّةٌ عَلَى بُطْلَانِ

(412/271)

كَوْنِهِ فَوْقَ الْعَالَمِ لَمْ يَجُزْ نَفْيُ ذَلِكَ ؛ وَحِينَئِذٍ فَالسَّمْعِيَّاتُ قَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ مَعَ الْفِطْرَةِ فَلَزِمَ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ . فَهَذَا " تَحْقِيقٌ جَيِّدٌ " قَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ النُّفَاةِ يَجْعَلُونَ الْعَقْلَ حُجَّةً لَهُمْ وَلَا يَجْعَلُونَهُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَيَحْتَجُّونَ عَلَى خُصُومِهِمْ بِقَضَايَا ضَرُورِيَّةٍ وَيُخَالِفُونَهُمْ فِي الْقَضَايَا الضَّرُورِيَّةِ فِيمَا هُوَ أَبْيَنُ مِنْهَا وَكُلُّ مَا يَطْعَنُونَ بِهِ حُجَّةٌ عَلَى مُخَالِفِيهِمْ : مِثْلُ قَوْلِهِمْ : هَذَا مِنْ قَضَايَا الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ ؛ لَا مِنْ قَضَايَا الْعَقْلِ فَيَطْعَنُ بِهِ فِي حُجَّتِهِمْ هَذِهِ . فَيُقَالُ : نَفْيُكُمْ لِوُجُودِ مَوْجُودٍ مُبَايِنٍ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ هُوَ مِنْ قَضَايَا الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ ؛ لَا مِنْ قَضَايَا الْعَقْلِ فَلْيَتَدَبَّرْ الْفَاضِلُ هَذَا الْمَقَامَ . (الْجَوَابُ الثَّالِثُ : قَوْلُ مَنْ يَلْتَزِمُ أَنَّهُ مُتَحَيِّزٌ أَوْ فِي جِهَةٍ أَوْ أَنَّهُ جِسْمٌ وَيَقُولُ : لَا دَلَالَةَ عَلَى نَفْيِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَأَدِلَّةُ النُّفَاةِ لِذَلِكَ أَدِلَّةٌ فَاسِدَةٌ . فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ نَفْيَ ذَلِكَ لَيْسَ مَعْلُومًا بِالضَّرُورَةِ وَإِنَّمَا يَدَّعُونَ النَّظَرَ ونفاة ذَلِكَ لَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى دَلِيلٍ وَاحِدٍ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَطْعَنُ فِي دَلِيلِ الْآخَرِ – فَالْفَلَاسِفَةُ الَّذِينَ يَنْفُونَ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ يَطْعَنُ النُّفَاةِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مَعَ غَيْرِهِمْ – مِنْ الْعُقَلَاءِ وَأَهْلِ الْإِثْبَاتِ – فِي أَدِلَّتِهِمْ بِالطعون الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي تُبَيِّنُ

(413/271)

فَسَادَ أَدِلَّتِهِمْ ، والمتكلمون الَّذِينَ يَنْفُونَ ذَلِكَ يَطْعَنُونَ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ النُّفَاةِ – مَعَ غَيْرِهِمْ مِنْ الْعُقَلَاءِ وَأَهْلِ الْإِثْبَاتِ – فِي أَدِلَّتِهِمْ وَهُوَ الدَّلِيلُ الْمَبْنِيُّ عَلَى حُدُوثِ مَا قَامَتْ بِهِ الْأَعْرَاضُ وَالْأَفْعَالُ .

(414/271)

وَالْكَلَامُ عَلَى أَقْوَالِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ الْمُثْبِتَةِ لِفَسَادِ أَدِلَّةِ النُّفَاةِ وَمَا فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُشْتَبِهَةِ وَالْكَلَامِ الدَّقِيقِ وَالْبُحُوثِ الْعَقْلِيَّةِ : مَبْسُوطٌ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . (الْجَوَابُ الرَّابِعُ : جَوَابُ أَهْلِ الاستفصال وَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَفْظُ " التَّحَيُّزِ " و " الْجِهَةِ " و " الْجَوْهَرُ " وَنَحْوُ ذَلِكَ أَلْفَاظٌ مُجْمَلَةٌ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا قَالَهَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا : فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لَا نَفْيًا وَلَا إثْبَاتًا . وَحِينَئِذٍ فَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِنَفْيِهَا أَوْ إثْبَاتِهَا لَيْسَ مِنْ مَذْهَبِ " أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ " بِلَا رَيْبٍ وَلَا عَلَيْهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ ؛ بَلْ الْإِطْلَاقُ مِنْ الطَّرَفَيْنِ مِمَّا ابْتَدَعَهُ " أَهْلُ الْكَلَامِ " الْخَائِضُونَ فِي ذَلِكَ فَإِذَا

تَكَلَّمْنَا مَعَهُمْ بِالْبَحْثِ الْعَقْلِيِّ استفصلناهم عَمَّا أَرَادُوهُ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ . فَإِنْ قَالَ الْمُثْبِتُ : الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ مُتَحَيِّزًا وَجِسْمًا وَفِي جِهَةٍ : إنَّهُ فِي جَوْفِ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ أَوْ إنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تَحُوزُهُ أَوْ إنَّهُ يُمَاثِلُهَا أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهَا وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَهَذَا بَاطِلٌ . وَمُبَايَنَتُهُ لِلْعَالَمِ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ مُتَحَيِّزًا وَلَا فِي جِهَةٍ وَلَا جِسْمًا . وَإِنْ قَالَ النَّافِي لِذَلِكَ : إنَّ مَا كَانَ فَوْقَ الْعَالَمِ فَهُوَ فِي جِهَةٍ وَهُوَ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ جِسْمٌ وَذَلِكَ مُحَالٌ .

(415/271)

قِيلَ لَهُ : نَفْيُ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ بَاطِلٌ وَمَلْزُومُ الْبَاطِلِ بَاطِلٌ فَإِذَا كَانَ نَفْيُ مُسَمَّيَاتِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ مَلْزُومًا لِنَفْيِ الْمُبَايَنَةِ كَانَ نَفْيُهَا بَاطِلًا ؛ وَالْأَدِلَّةُ الْمَذْكُورَةُ عَلَى نَفْيِ مُسَمَّاهَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ بَاطِلَةٌ . وَيَقُولُ الْمُثْبِتُ نَفْيُ مُبَايَنَتِهِ لِلْعَالَمِ وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ بَاطِلٌ ؛ بَلْ هَذِهِ الْأُمُورُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ فِيمَا أَثْبَتَهُ لِرَبِّهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ وَهُوَ كُفْرٌ أَيْضًا لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْكُفْرِ يَكْفُرُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الْمُثْبِتَةُ لِكُفْرِهِ فَإِذَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ كَفَرَ حِينَئِذٍ ؛ بَلْ نَفْيُ هَذِهِ الْأُمُورِ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّكْفِيرِ لِلرَّسُولِ فِيمَا أَثْبَتَهُ لِرَبِّهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ ؛ بَلْ نَفْيٌ لِلصَّانِعِ وَتَعْطِيلٌ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ . وَإِذَا كَانَ نَفْيُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مُسْتَلْزِمًا لِلْكُفْرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَقَدْ نَفَاهَا طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَلَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ ؛ إلَّا أَنْ يَسْتَلْزِمَهُ صَاحِبُ الْمَذْهَبِ

فَخَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَنْفُونَ أَلْفَاظًا أَوْ يُثْبِتُونَهَا بَلْ يَنْفُونَ مَعَانِيَ أَوْ يُثْبِتُونَهَا وَيَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمًا لِأُمُورٍ هِيَ كُفْرٌ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِالْمُلَازَمَةِ بَلْ يَتَنَاقَضُونَ وَمَا أَكْثَرَ تَنَاقُضَ النَّاسِ لَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ التَّنَاقُضُ كُفْرًا . وَيَقُولُ النَّاظِمُ : أَنَا أُخْبِرْت أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ : هُوَ مَفْتُونٌ وَفَاتِنٌ وَهَذَا حَقٌّ ؛ لِأَنَّهُ فَتَنَ غَيْرَهُ بِقَوْلِهِ وَفَتَنَهُ غَيْرُهُ ؛

(416/271)

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ فَتَنَ يَكُونُ كَافِرًا وَادَّعَيْت أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ مُسْتَلْزِمًا لِلتَّعْطِيلِ ؛ فَيَكُونُ الْكُفْرُ كَامِنًا

فِي قَوْلِهِ . وَالْكَامِنُ فِي الشَّيْءِ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرًا فِيهِ وَلَوْ كَانَ الْكُفْرُ ظَاهِرًا فِي قَوْلِهِ لَلَزِمَ تَكْفِيرُ الْقَائِلِ . أَمَّا إذَا كَانَ كَامِنًا وَهُوَ خَفِيٌّ لَمْ يَكْفُرْ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ حَقِيقَةَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ الْكُفْرِ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِلْكُفْرِ وَمُسْتَلْزِمًا لَهُ .

(417/271)

وَأَمَّا لَفْظُ " التَّجْسِيمِ " فَهَذَا لَفْظٌ مُجْمَلٌ لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرْعِ ؛ فَنَفْيُهُ وَإِثْبَاتُهُ يَفْتَقِرُ إلَى تَفْصِيلٍ وَدَلِيلٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَأَمَّا إنْ قَالَ الْمُثْبِتُ لِذَلِكَ : الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ وَمُبَايِنٌ لَهُ . قِيلَ لَهُ : هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ وَإِنْ قَالَ النَّافِي لِذَلِكَ : الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا تَحُوزُهُ الْمَخْلُوقَاتُ وَلَا تُمَاثِلُهُ . قِيلَ لَهُ : هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ . وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ قَوْلَيْكُمَا ؛ فَإِنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ مُبَايِنٌ لَهُ وَالْمَخْلُوقَاتُ لَا تَحْصُرُهُ وَلَا تَحُوزُهُ وَلَا يَفْتَقِرُ إلَى الْعَرْشِ وَلَا غَيْرِهِ ؛ مَعَ أَنَّهُ عَالٍ عَلَيْهَا مُبَايِنٌ لَهَا وَلَيْسَ مُمَاثِلًا لَهَا وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهَا . فَهَذِهِ الْمَعَانِي صَحِيحَةٌ مِنْ النَّافِي وَالْمُثْبِتِ مَقْبُولَةٌ ؛ وَتِلْكَ الْمَعَانِي مِنْهُمَا مَرْدُودَةٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلِأَنَّ هَذَا الَّذِي يُجِيبُ بِهِ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلدَّهْرِيَّةِ : مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ تَقُومُ بِهِ الْأَفْعَالُ الَّتِي يَشَاؤُهَا وَيَقْدِرُ عَلَيْهَا وَبِذَلِكَ يَخْلُقُ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُنْفَصِلَةَ عَنْهُ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ الْمَأْثُورَةُ عَنْ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ . وَقَبْلَ : اسْتِوَائِهِ

(418/271)

عَلَى الْعَرْشِ : ﴿ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا جَاءَ فِي مَبْدَأِ الْخَلْقِ . وَأَمَّا الْإِعَادَةُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ؛ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ؛ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ عَلَى الْمِنْبَرِ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ : يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ وَيَقْبِضُ الْأَرْضَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْقُدُّوسُ أَنَا السَّلَامُ أَنَا الْمُؤْمِنُ ؛ أَنَا الْمُهَيْمِنُ ؛ أَنَا الْعَزِيزُ أَنَا الْجَبَّارُ ؛ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ ؛ أَنَا الَّذِي بَدَأْت الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا أَنَا الَّذِي أُعِيدُهَا وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبِضُ بِيَدَيْهِ وَيَبْسُطُهُمَا . وَالْمِنْبَرُ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِهِ حَتَّى إنِّي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ﴾ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : " مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ " وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ : " يَرْمِي بِهَا كَمَا

(419/271)

يَرْمِي الصَّبِيُّ بِالْكُرَةِ " . فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَفْلَاكَ لَا نِسْبَةَ لَهَا إلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَطْوِي السَّمَاءَ وَيَقْبِضُ الْأَرْضَ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْيَهُودِ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّ اللَّهَ إذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ يُمْسِكُ السَّمَاءَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضَ عَلَى إصْبَعٍ وَالشَّجَرَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ وَالْجِبَالَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْخَلَائِقَ عَلَى إصْبَعٍ . قَالَ : فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجُّبًا وَتَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ؛ ثُمَّ قَرَأَ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الْآيَةَ . ﴾ فَهَذَا بَيِّنٌ مِنْ عَمَلِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَدْفَعُ شُبَهَ الْمُتَفَلْسِفَةِ .

فَصْلٌ : (*)

(420/271)

وَهَذَا " التَّقْسِيمُ " الَّذِي ذَكَرَهُ السَّائِلُ هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ النُّفَاةِ : كَمُبَايَنَتِهِ لِخَلْقِهِ وَعُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ قَالَ (الْإِمَامُ أَحْمَد فِي كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ فِي " الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالزَّنَادِقَةِ " . (بَيَانُ مَا أَنْكَرَتْ الْجَهْمِيَّةُ الضُّلَّالُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فَقَالُوا هُوَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ كَمَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَفِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ وَلَا يَكُونُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ وَيَتْلُونَ آيَاتٍ مِنْ الْقُرْآنِ : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي

الْأَرْضِ ﴾ . قُلْنَا : قَدْ عَرَفَ الْمُسْلِمُونَ أَمَاكِنَ كَثِيرَةً لَيْسَ فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الرَّبِّ شَيْءٌ فَقَالُوا : أَيُّ شَيْءٍ ؟ قُلْنَا : أَحْشَاؤُكُمْ وَأَجْوَافُكُمْ وَأَجْوَافُ الْخَنَازِيرِ وَالْحُشُوشِ وَالْأَمَاكِنُ الْقَذِرَةُ لَيْسَ فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الرَّبِّ شَيْءٌ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ فَقَالَ : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ وَقَدْ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾

(421/271)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ . قَالَ فَهَذَا خَبَرُ اللَّهِ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ . وَوَجَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ فِي أَسْفَلَ مَذْمُومًا يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ . وَقُلْنَا لَهُمْ : أَلَيْسَ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِبْلِيسَ مَكَانُهُ مَكَانٌ وَالشَّيَاطِينَ مَكَانُهُمْ مَكَانٌ ؟ . فَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَجْتَمِعَ هُوَ وَإِبْلِيسُ فِي مَكَانٍ

وَاحِدٍ وَلَكِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ يَقُولُ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ اللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَقَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِمَا دُونَ الْعَرْشِ ؛ لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَكَانٌ وَلَا يَكُونُ عِلْمُ اللَّهِ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وَقَالَ مِنْ الِاعْتِبَارِ فِي ذَلِكَ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي يَدِهِ قَدَحٌ مِنْ قَوَارِيرَ صَافٍ وَفِيهِ شَيْءٌ صَافٍ

(422/271)

لَكَانَ نَظَرُ ابْنِ آدَمَ قَدْ أَحَاطَ بِالْقَدَحِ مِنْ غَيْرِ أَنْ

(423/271)

يَكُونَ ابْنُ آدَمَ فِي الْقَدَحِ وَاَللَّهُ - وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - قَدْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ . وَخَصْلَةٌ أُخْرَى : لَوْ أَنَّ رَجُلًا بَنَى دَارًا بِجَمِيعِ مَرَافِقِهَا ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهَا وَخَرَجَ . كَانَ ابْنُ آدَمَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ كَمْ بَيْتٌ فِي دَارِهِ وَكَمْ سِعَةُ كُلِّ بَيْتٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الدَّارِ فِي جَوْفِ الدَّارِ فَاَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - قَدْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ مَا

خَلَقَ وَعَلِمَ كَيْفَ هُوَ ؟ وَمَا هُوَ ؟ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ . وَمَا تَأَوَّلَ الْجَهْمِيَّة مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَنَا وَفِينَا . وَقُلْنَا : لِمَ قَطَعْتُمْ الْخَبَرَ مِنْ قَوْلِهِ ؟ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يَعْنِي بِعِلْمِهِ فِيهِمْ ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَفَتَحَ الْخَبَرَ بِعِلْمِهِ وَخَتَمَهُ بِعِلْمِهِ . وَيُقَالُ لِلْجَهْمِي : إِنَّ اللَّهَ إِذَا كَانَ مَعَنَا بِعَظَمَةِ نَفْسِهِ : هَلْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ؟ فَإِنْ قَالَ نَعَمْ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُبَايِنٌ خَلْقَهُ وَأَنَّ خَلْقَهُ دُونَهُ . وَإِنْ قَالَ : لَا كَفَرَ . قَالَ : وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ

(424/271)

أَنَّ الْجَهْمِي كَاذِبٌ عَلَى اللَّهِ حِينَ زَعَمَ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَا يَكُونُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ فَقُلْ لَهُ : أَلَيْسَ اللَّهُ كَانَ وَلَا شَيْءَ ؟

فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَقُلْ لَهُ : حِينَ خَلَقَ الشَّيْءَ خَلَقَهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ خَارِجًا عَنْ نَفْسِهِ ؟ فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِلَى " ثَلَاثَةِ أَقَاوِيلَ " : وَاحِدٌ مِنْهَا : إِنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي نَفْسِهِ قَدْ كَفَرَ حِينَ زَعَمَ

أَنَّهُ خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ فِي نَفْسِهِ . وَإِنْ قَالَ : خَلَقَهُمْ خَارِجًا مِنْ نَفْسِهِ ثُمَّ دَخَلَ فِيهِمْ : كَانَ هَذَا أَيْضًا كُفْرًا حِينَ زَعَمَ أَنَّهُ دَخَلَ فِي مَكَانٍ رِجْسٍ وَقَذِرٍ رَدِيءٍ . وَإِنْ قَالَ : خَلَقَهُمْ خَارِجًا عَنْ نَفْسِهِ ثُمَّ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمْ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ أَجْمَعَ وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ . فَقَدْ بَيَّنَ الْإِمَامُ أَحْمَد مَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ الصَّرِيحِ وَالْفِطْرَةِ الْبَدِيهِيَّةِ ؛ مِنْ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَلْقُ الْخَلْقِ دَاخِلًا فِي نَفْسِهِ أَوْ خَارِجًا عَنْهُ وَأَنَّهُ إذَا كَانَ خَارِجًا عَنْ نَفْسِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَلَّ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَزَلْ مُبَايِنًا فَذَكَرَ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ . وَقَالَ أَيْضًا فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ : فَلَمَّا ظَهَرَتْ الْحُجَّةُ عَلَى الجهمي بِمَا ادَّعَى عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ مَعَ خَلْقِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُمَاسًّا لِلشَّيْءِ وَلَا مُبَايِنًا لَهُ فَقُلْنَا إذَا كَانَ غَيْرَ مُبَايِنٍ أَلَيْسَ هُوَ مُمَاسًّا ؟ قَالَ : لَا . قُلْنَا : فَكَيْفَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ غَيْرِ

(425/271)

مُمَاسٍّ لَهُ وَلَا مُبَايِنٍ ؟ فَلَمْ يُحْسِنْ الْجَوَابَ . فَقَالَ : بِلَا كَيْفٍ . فَخَدَعَ الْجُهَّالَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَوَّهَ عَلَيْهِمْ . وَكَذَلِكَ قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ صَاحِبُ " الْحَيْدَةِ " الْمَشْهُورَةِ فِي كِتَابِ الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ قَالَ : بَابُ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ . زَعَمَتْ الْجَهْمِيَّةُ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ إِنَّمَا الْمَعْنَى اسْتَوْلَى كَقَوْلِ الْعَرَبِ اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى مِصْرَ اسْتَوَى عَلَى الشَّامِ يُرِيدُ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا .

بَابُ الْبَيَانِ لِذَلِكَ :

يُقَالُ لَهُ : أَيَكُونُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَتَتْ عَلَيْهِ مُدَّةٌ لَيْسَ اللَّهُ بِمُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ فَإِذَا قَالَ : لَا . قِيلَ : فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ قَالَ : مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ . يُقَالُ لَهُ : يَلْزَمُكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ الْعَرْشَ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مُدَّةٌ لَيْسَ اللَّهُ بِمُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْعَرْشَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بَعْدَ خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ

(426/271)

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ وَقَوْلُهُ ؛ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَيَلْزَمُكَ أَنْ تَقُولَ : الْمُدَّةُ الَّذِي كَانَ الْعَرْشُ فِيهَا قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيْسَ اللَّهُ بِمُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ إِذْ كَانَ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ مَعْنَاهُ عِنْدَكَ اسْتَوْلَى فَإِنَّمَا اسْتَوْلَى بِزَعْمِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا

قَبْلَهُ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا : بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا . قَالَ : اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ قَالُوا ؛ قَبِلْنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ كَيْفَ كَانَ ؟ قَالَ : كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ " وَرُوِيَ عَنْ ﴿ أَبِي رَزِينٍ العقيلي - وَكَانَ يُعْجِبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْأَلَتُهُ - أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ قَالَ : فِي عَمَاءٍ فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَتَحْتَهُ هَوَاءٌ ﴾ . فَيُقَالُ : أَخْبِرْنِي كَيْفَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؟ أَهُوَ كَمَا يَقُولُ : اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى السَّرِيرِ ؛ فَيَكُونُ السَّرِيرُ قَدْ حَوَى فُلَانًا وَحْدَهُ إذَا كَانَ عَلَيْهِ ؟ فَيَلْزَمُك أَنْ تَقُولَ : إنَّ الْعَرْشَ قَدْ حَوَى اللَّهَ وَحْدَهُ إذَا كَانَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّا لَا نَعْقِلُ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ إلَّا هَكَذَا .

(427/271)

فَيُقَالُ : أَمَّا قَوْلُك : كَيْفَ اسْتَوَى ؟ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجْرِي عَلَيْهِ كَيْفَ وَقَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَلَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ اسْتَوَى . لِأَنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُمْ كَيْفَ ذَلِكَ وَلَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ فِي الدُّنْيَا فَتَصِفُهُ بِمَا رَأَتْ وَحَرُمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ فَآمَنُوا بِخَبَرِهِ عَنْ الِاسْتِوَاءِ ثُمَّ رَدُّوا عِلْمَ كَيْفَ اسْتَوَى إلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَلَكِنْ يَلْزَمُك أَيُّهَا الجهمي أَنْ تَقُولَ : إنَّ

اللَّهَ تَعَالَى مَحْدُودٌ وَقَدْ حَوَتْهُ الْأَمَاكِنُ إذْ زَعَمْت فِي دَعْوَاك أَنَّهُ فِي الْأَمَاكِنِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْقَلُ شَيْءٌ فِي مَكَانٍ إلَّا وَالْمَكَانُ قَدْ حَوَاهُ كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : فُلَانٌ فِي الْبَيْتِ وَالْمَاءُ فِي الْجُبِّ فَالْبَيْتُ قَدْ حَوَى فُلَانًا وَالْجُبُّ قَدْ حَوَى الْمَاءَ . وَيَلْزَمُك أَشْنَعُ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّك قُلْت أَفْظَعَ مِمَّا قَالَتْ بِهِ النَّصَارَى وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِيسَى وَعِيسَى بَدَنُ إنْسَانٍ وَاحِدٍ فَكَفَرُوا بِذَلِكَ وَقِيلَ لَهُمْ : مَا عَظَّمْتُمْ اللَّهَ إذْ جَعَلْتُمُوهُ فِي بَطْنِ مَرْيَمَ . وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ : إنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَفِي بُطُونِ النِّسَاءِ كُلِّهِنَّ وَبَدَنِ عِيسَى وَأَبْدَانِ النَّاسِ كُلِّهِمْ . وَيَلْزَمُك أَيْضًا أَنْ تَقُولَ : إنَّهُ فِي أَجْوَافِ الْكِلَابِ وَالْخَنَازِيرِ لِأَنَّهَا أَمَاكِنُ وَعِنْدَك أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا . قَالَ : فَلَمَّا شَنَّعْت مَقَالَتَهُ قَالَ : أَقُولُ : إنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا كَالشَّيْءِ

(428/271)

فِي الشَّيْءِ وَلَا كَالشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ وَلَا كَالشَّيْءِ خَارِجًا عَنْ الشَّيْءِ وَلَا مُبَايِنًا لِلشَّيْءِ . قَالَ : يُقَالُ لَهُ : أَصْلُ قَوْلِك الْقِيَاسُ وَالْمَعْقُولُ فَقَدْ دَلَلْت بِالْقِيَاسِ وَالْمَعْقُولِ عَلَى أَنَّك لَا تَعْبُدُ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْئًا دَاخِلًا فِي الْقِيَاسِ وَالْمَعْقُولِ لَأَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي الشَّيْءِ أَوْ خَارِجًا عَنْهُ فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِك شَيْئًا اسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ أَوْ خَارِجًا مِنْ الشَّيْءِ فَوَصَفْت – لَعَمْرِي – مُلْتَبِسًا لَا وُجُودَ لَهُ وَهُوَ دِينُك وَأَصْلُ مَقَالَتِك التَّعْطِيلُ . فَهَذَا

" عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ " قَدْ بَيَّنَ أَنَّ الْقِيَاسَ وَالْمَعْقُولَ يُوجِبُ أَنَّ مَا لَا يَكُونُ دَاخِلًا فِي الشَّيْءِ وَلَا خَارِجًا مِنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ شَيْئًا وَأَنَّ ذَلِكَ صِفَةُ الْمَعْدُومِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فَالْقِيَاسُ هُوَ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْمَعْقُولُ الْعُلُومُ الضَّرُورِيَّةُ . وَكَذَلِكَ قَالَ : " أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ " إمَامُ الْمُتَكَلِّمَةِ الصفاتية : كالقلانسي وَالْأَشْعَرِيِّ وَأَتْبَاعِهِ فِيمَا جَمَعَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ فورك مِنْ كَلَامِ الْأَشْعَرِيِّ أَيْضًا فَذَكَرَ ابْنُ فورك كَلَامَ ابْنِ كُلَّابٍ أَنَّهُ قَالَ : وَأَخْرَجَ مِنْ النَّظَرِ وَالْخَبَرِ قَوْلَ مَنْ قَالَ : لَا هُوَ فِي الْعَالَمِ وَلَا خَارِجٌ مِنْهُ فَنَفَاهُ نَفْيًا مُسْتَوِيًا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ : صِفْهُ بِالْعَدَمِ مَا قَدَرَ أَنْ يَقُولَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا وَرَدَّ أَخْبَارَ اللَّهِ نَصًّا وَقَالَ فِي ذَلِكَ مَا لَا يَجُوزُ فِي نَصٍّ وَلَا مَعْقُولٍ وَزَعَمَ أَنَّ هَذَا هُوَ

(429/271)

التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ وَالنَّفْيُ الْخَالِصُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْإِثْبَاتُ الْخَالِصُ وَهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ قَيَّاسُونَ .

(430/271)

قَالَ : فَإِنْ قَالُوا : هَذَا إفْصَاحٌ بِخُلُوِّ الْأَمَاكِنِ مِنْهُ وَانْفِرَادِ الْعَرْشِ بِهِ قِيلَ : إنْ كُنْتُمْ تَعْنُونَ بِخُلُوِّ الْأَمَاكِنِ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَأَنَّهُ عَالِمٌ فَلَا . وَإِنْ كُنْتُمْ تَذْهَبُونَ إلَى خُلُوِّهِ مِنْ اسْتِوَائِهِ عَلَيْهَا كَمَا اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَنَحْنُ لَا نَحْتَشِمُ أَنْ نَقُولَ : اسْتَوَى اللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَنَحْتَشِمُ أَنْ نَقُولَ : اسْتَوَى عَلَى الْأَرْضِ وَاسْتَوَى عَلَى الْجِدَارِ وَفِي صَدْرِ الْبَيْتِ . وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ كُلَّابٍ أَيْضًا : يُقَالُ لَهُمْ : أَهُوَ فَوْقَ مَا خَلَقَ : فَإِنْ قَالُوا : نَعَمْ . قِيلَ : مَا تَعْنُونَ بِقَوْلِكُمْ إنَّهُ فَوْقَ مَا خَلَقَ فَإِنْ قَالُوا : بِالْقُدْرَةِ وَالْعِزَّةِ . قِيلَ لَهُمْ : لَيْسَ هَذَا سُؤَالُنَا . وَإِنْ قَالُوا : الْمَسْأَلَةُ خَطَأٌ . قِيلَ لَهُمْ : فَلَيْسَ هُوَ فَوْقُ فَإِنْ قَالُوا : نَعَمْ لَيْسَ هُوَ فَوْقُ قِيلَ لَهُمْ : وَلَيْسَ هُوَ تَحْتُ فَإِنْ قَالُوا : وَلَا تَحْتُ أَعْدَمُوهُ ؛ لِأَنَّ مَا كَانَ لَا تَحْتُ وَلَا فَوْقُ فَعَدَمٌ . وَإِنْ قَالُوا : هُوَ تَحْتُ وَهُوَ فَوْقُ قِيلَ لَهُمْ : فَوْقُ تَحْتُ وَتَحْتُ فَوْقُ . وَقَالَ ابْنُ كُلَّابٍ أَيْضًا : يُقَالُ لَهُمْ : إذَا قُلْنَا : الْإِنْسَانُ لَا مُمَاسٌّ وَلَا مُبَايِنَ لِلْمَكَانِ فَهَذَا مُحَالٌ فَلَا بُدَّ مِنْ نَعَمْ قِيلَ لَهُمْ . فَهُوَ لَا مُبَايِنٌ وَلَا مُمَاسٌّ ؟ فَإِذَا قَالُوا نَعَمْ قِيلَ لَهُمْ : فَهُوَ بِصِفَةِ الْمُحَالِ الَّذِي لَا يَكُونُ وَلَا يَثْبُتُ فِي الْوَهْمِ ؟ فَإِذَا قَالُوا : نَعَمْ قِيلَ : فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِصِفَةِ الْمُحَالِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ كَمَا كَانَ بِصِفَةِ الْمُحَالِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ . وَقِيلَ لَهُمْ : أَلَيْسَ لَا يُقَالُ لِمَا

(431/271)

هُوَ ثَابِتٌ فِي الْإِنْسَانِ لَا مُمَاسٌّ وَلَا مُبَايِنٌ ؟

(432/271)

فَإِذَا قَالُوا : نَعَمْ قِيلَ : فَأَخْبِرُونَا عَنْ مَعْبُودِكُمْ مُمَاسٌّ هُوَ أَوْ مُبَايِنٌ ؟ فَإِذَا قَالُوا : لَا يُوصَفُ بِهِمَا قِيلَ لَهُمْ : فَصِفَةُ إثْبَاتِ الْخَالِقِ كَصِفَةِ عَدَمِ الْمَخْلُوقِ فَلِمَ لَا يَقُولُونَ عَدَمٌ كَمَا يَقُولُونَ لِلْإِنْسَانِ عَدَمٌ ؛ إذَا وَصَفْتُمُوهُ بِصِفَةِ الْعَدَمِ ؟ . وَقِيلَ لَهُمْ : إذَا كَانَ عَدَمُ الْمَخْلُوقِ وُجُودًا لَهُ كَانَ جَهْلُ الْمَخْلُوقِ عِلْمًا لَهُ ؛ لِأَنَّكُمْ وَصَفْتُمْ الْعَدَمَ الَّذِي هُوَ لِلْمَخْلُوقِ وُجُودًا لَهُ وَإِذَا كَانَ الْعَدَمُ وُجُودًا كَانَ الْجَهْلُ عِلْمًا وَالْعَجْزُ قُدْرَةً . وَقَالَ ابْنُ كُلَّابٍ أَيْضًا : وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَخِيرَتُهُ مِنْ بَرِيَّتِهِ وَأَعْلَمُهُمْ جَمِيعًا يُجِيزُ " الْأَيْنَ " وَيَقُولُهُ وَيَسْتَصْوِبُ قَوْلَ الْقَائِلِ : إنَّهُ فِي السَّمَاءِ وَشَهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَأَصْحَابُهُ لَا يُجِيزُونَ " الْأَيْنَ " وَيُحَرِّمُونَ الْقَوْلَ بِهِ . قَالَ : وَلَوْ كَانَ خَطَأً كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقَّ بِالْإِنْكَارِ لَهُ وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ لَهَا : لَا تَقُولِي ذَلِكَ فَتَوَهَّمِي أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَحْدُودٌ وَأَنَّهُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ . وَلَكِنْ قُولِي إنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الصَّوَابُ دُونَ مَا قُلْت . كَلَّا فَلَقَدْ أَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ عِلْمِهِ بِمَا فِيهِ وَأَنَّهُ

أَصْوَبُ الْإِيمَانِ بَلْ الْأَمْرُ الَّذِي يَجِبُ بِهِ الْإِيمَانُ لِقَائِلِهِ وَمِنْ أَجْلِهِ شَهِدَ لَهَا بِالْإِيمَانِ حِينَ قَالَتْهُ وَكَيْفَ يَكُونُ الْحَقُّ

(433/271)

فِي خِلَافِ ذَلِكَ وَالْكِتَابُ نَاطِقٌ بِهِ وَشَاهِدٌ لَهُ ؟ قَالَ : وَلَوْ لَمْ يَشْهَدْ بِصِحَّةِ مَذْهَبِ الْجَمَاعَةِ فِي هَذَا الْفَنِّ خَاصَّةً إلَّا مَا ذَكَرْنَا

مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ لَكَانَ فِيهِ مَا يَكْفِي وَقَدْ غَرَسَ فِي تَبَيُّنِهِ فِي الْفِطْرَةِ وَمَعَارِفِ الْآدَمِيِّينَ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا شَيْءَ أَبْيَنُ مِنْهُ وَلَا أَوْكَدُ ؛ لِأَنَّك لَا تَسْأَلُ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ عَنْهُ عَرَبِيًّا وَلَا عَجَمِيًّا وَلَا مُؤْمِنًا وَلَا كَافِرًا فَتَقُولُ : أَيْنَ رَبُّك ؟ إلَّا قَالَ فِي السَّمَاءِ . إنْ أَفْصَحَ أَوْ أَوْمَأَ بِيَدِهِ أَوْ أَشَارَ بِطَرْفِهِ – إنْ كَانَ لَا يُفْصِحُ ؛ وَلَا يُشِيرُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَرْضٍ وَلَا سَهْلٍ وَلَا جَبَلٍ . وَلَا رَأَيْنَا أَحَدًا إذَا دَعَاهُ إلَّا رَافِعًا يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ وَلَا وَجَدْنَا أَحَدًا غَيْرَ الْجَهْمِيَّةِ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ فَيَقُولُ : فِي كُلِّ مَكَانٍ كَمَا يَقُولُونَ وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَتَاهَتْ الْعُقُولُ وَسَقَطَتْ الْأَخْبَارُ وَاهْتَدَى جَهْمٌ وَرَجُلَانِ مَعَهُ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ . فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ كَلَامُ ابْنِ كُلَّابٍ وَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَأَتْبَاعِهِ وَعَنْهُ أَخَذَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ هَذَا وَقَدْ ذَكَرَ

الْحَارِثُ الْمُحَاسَبِيُّ فِي كِتَابِ " فَهْمِ الْقُرْآنِ " هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ فَإِنَّ كَلَامَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ كَثِيرٌ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(434/271)

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَد بْنُ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ مَا يَقُولُ سَيِّدُنَا وَشَيْخُنَا - شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَقُدْوَةُ الْأَنَامِ أَيَّدَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ - :

فِي رَجُلَيْنِ تَنَازَعَا فِي " حَدِيثِ النُّزُولِ " : أَحَدُهُمَا مُثْبِتٌ وَالْآخَرُ نَافٍ .

فَقَالَ الْمُثْبِتُ : يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَقَالَ النَّافِي : كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ الْمُثْبِتُ : يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ فَقَالَ النَّافِي : يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَمْ لَا يَخْلُو ؟ فَقَالَ الْمُثْبِتُ : هَذَا قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ وَرَأْيٌ مُخْتَرَعٌ فَقَالَ النَّافِي : لَيْسَ هَذَا جَوَابِي بَلْ هُوَ حَيْدَةٌ عَنْ الْجَوَابِ فَقَالَ لَهُ الْمُثْبِتُ : هَذَا جَوَابُك . فَقَالَ النَّافِي : إنَّمَا يَنْزِلُ أَمْرُهُ وَرَحْمَتُهُ فَقَالَ الْمُثْبِتُ : أَمْرُهُ وَرَحْمَتُهُ يَنْزِلَانِ كُلَّ سَاعَةٍ وَالنُّزُولُ قَدْ وَقَّتَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُلُثَ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَقَالَ النَّافِي : اللَّيْلُ لَا يَسْتَوِي وَقْتُهُ فِي الْبِلَادِ فَقَدْ يَكُونُ اللَّيْلُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ

(435/271)

خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنَهَارُهَا تِسْعَ سَاعَاتٍ وَيَكُونُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً وَالنَّهَارُ ثَمَانِ سَاعَاتٍ وَبِالْعَكْسِ ؛ فَوَقَعَ الِاخْتِلَافُ فِي طُولِ اللَّيْلِ وَقِصَرِهِ بِحَسَبِ الْأَقَالِيمِ وَالْبِلَادِ وَقَدْ يَسْتَوِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ وَقَدْ يَطُولُ اللَّيْلُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ أَكْثَرَ الْأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً وَيَبْقَى النَّهَارُ عِنْدَهُمْ وَقْتٌ يَسِيرٌ ؛ فَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ ثُلُثُ اللَّيْلِ دَائِمًا وَيَكُونُ الرَّبُّ دَائِمًا نَازِلًا إلَى السَّمَاءِ . وَالْمَسْئُولُ إزَالَةُ الشُّبَهِ وَالْإِشْكَالِ وَقَمْعِ أَهْلِ الضَّلَالِ .

فَأَجَابَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

(436/271)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمَّا الْقَائِلُ الْأَوَّلُ الَّذِي ذَكَرَ نَصَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَصَابَ فِيمَا قَالَ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ ؛ قَدْ اسْتَفَاضَتْ بِهِ السُّنَّةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ عَلَى تَصْدِيقِ ذَلِكَ وَتَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ . وَمَنْ قَالَ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَوْلُهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ الْمَعَانِي ؛ كَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ مِنْ الْمَعَانِي ؛

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَمْثَالَهُ عَلَانِيَةً وَبَلَّغَهُ الْأُمَّةَ تَبْلِيغًا عَامًّا لَمْ يَخُصَّ بِهِ أَحَدًا دُونَ أَحَدٍ وَلَا كَتَمَهُ عَنْ أَحَدٍ وَكَانَتْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ تَذْكُرُهُ وَتَأْثُرُهُ وَتُبَلِّغُهُ

(437/271)

وَتَرْوِيهِ فِي الْمَجَالِسِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ كُتُبُ الْإِسْلَامِ الَّتِي تُقْرَأُ فِي الْمَجَالِسِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ : "كَصَحِيحَيْ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ " " وَمُوَطَّأِ مَالِكٍ " " وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد " " وَسُنَنِ أَبِي دَاوُد " وَالتِّرْمِذِيِّ " وَالنَّسَائِي " وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِ الْمُسْلِمِينَ . لَكِنَّ مَنْ فَهِمَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ مَا يَجِبُ تَنْزِيهُ اللَّهِ عَنْهُ كَتَمْثِيلِهِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَوَصْفِهِ بِالنَّقْصِ الْمُنَافِي لِكَمَالِهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ وَإِنْ أَظْهَرَ ذَلِكَ مُنِعَ مِنْهُ وَإِنْ زَعَمَ أَنَّ الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَيَقْتَضِيهِ فَقَدْ أَخْطَأَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ وَصْفَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِالنُّزُولِ هُوَ كَوَصْفِهِ بِسَائِرِ الصِّفَاتِ ؛ كَوَصْفِهِ بِالِاسْتِوَاءِ إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ وَوَصْفِهِ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَوَصْفِهِ بِالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ

يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ

(438/271)

رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي

(439/271)

وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ الَّتِي تُسَمِّيهَا النُّحَاةُ أَفْعَالًا مُتَعَدِّيَةً وَهِيَ غَالِبُ مَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ أَوْ يُسَمُّونَهَا لَازِمَةً لِكَوْنِهَا لَا تَنْصِبُ الْمَفْعُولَ بِهِ بَلْ لَا تَتَعَدَّى إلَيْهِ إلَّا بِحَرْفِ الْجَرِّ : كَالِاسْتِوَاءِ إلَى السَّمَاءِ وَعَلَى الْعَرْشِ وَالنُّزُولِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَإِنَّ اللَّهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ . وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْأَقْوَالِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وَقَوْله تَعَالَى ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ . وَكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ وَالرَّحْمَةِ ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَ

(440/271)

بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ .

(441/271)

وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنَّهُمْ يَصِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِينَ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ كُفُوًا لَهُ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ فَأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَمِيٌّ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . فَفِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ : مِنْ تَنْزِيهِهِ عَنْ الْكُفُؤِ وَالسَّمِيِّ وَالْمِثْلِ وَالنِّدِّ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ ؛ بَيَانُ أَنْ لَا مِثْلَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ ؛ وَلَا أَفْعَالِهِ ؛ فَإِنَّ التَّمَاثُلَ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ يَتَضَمَّنُ التَّمَاثُلَ فِي الذَّاتِ فَإِنَّ الذَّاتَيْنِ الْمُخْتَلِفَتَيْنِ يَمْتَنِعُ تَمَاثُلُ صِفَاتِهِمَا وَأَفْعَالِهِمَا إذْ تَمَاثُلُ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ يَسْتَلْزِمُ تَمَاثُلَ الذَّوَاتِ فَإِنَّ الصِّفَةَ تَابِعَةٌ لِلْمَوْصُوفِ بِهَا وَالْفِعْلُ أَيْضًا تَابِعٌ لِلْفَاعِلِ ؛ بَلْ هُوَ مِمَّا يُوصَفُ بِهِ الْفَاعِلُ فَإِذَا كَانَتْ الصِّفَتَانِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ كَانَ الْمَوْصُوفَانِ مُتَمَاثِلَيْنِ حَتَّى إنَّهُ يَكُونُ بَيْنَ الصِّفَاتِ مِنْ التَّشَابُهِ وَالِاخْتِلَافِ بِحَسَبِ مَا بَيْنَ الْمَوْصُوفَيْنِ : كَالْإِنْسَانَيْنِ كَمَا كَانَا مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ فَتَخْتَلِفُ مَقَادِيرُهُمَا وَصِفَاتُهُمَا

(442/271)

بِحَسَبِ اخْتِلَافِ ذَاتَيْهِمَا وَيَتَشَابَهُ ذَلِكَ بِحَسَبِ تَشَابُهِ ذَلِكَ . كَذَلِكَ إذَا قِيلَ : بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْفَرَسِ تَشَابُهٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هَذَا حَيَوَانٌ وَهَذَا

حَيَوَانٌ وَاخْتِلَافٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هَذَا نَاطِقٌ وَهَذَا صَاهِلٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ ؛ كَانَ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ مِنْ التَّشَابُهِ وَالِاخْتِلَافِ بِحَسَبِ مَا بَيْنَ الذَّاتَيْنِ : وَذَلِكَ أَنَّ الذَّاتَ الْمُجَرَّدَةَ عَنْ الصِّفَةِ لَا تُوجَدُ إلَّا فِي الذِّهْنِ فَالذِّهْنُ يُقَدِّرُ ذَاتًا مُجَرَّدَةً عَنْ الصِّفَةِ وَيُقَدِّرُ وُجُودًا مُطْلَقًا لَا يَتَعَيَّنُ وَأَمَّا الْمَوْجُودَاتُ فِي أَنْفُسِهَا فَلَا يُمْكِنُ فِيهَا وُجُودُ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ وَلَا وُجُودٌ مُطْلَقٌ لَا يَتَعَيَّنُ وَلَا يَتَخَصَّصُ .

(443/271)

وَإِذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ لِلصِّفَاتِ : " أَنَا أُثْبِتُ صِفَاتِ اللَّهِ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ " : فَحَقِيقَةُ ذَلِكَ أَنَّا نُثْبِتُهَا زَائِدَةً عَلَى مَا أَثْبَتَهَا النُّفَاةُ مِنْ الذَّاتِ . فَإِنَّ النُّفَاةَ اعْتَقَدُوا ثُبُوتَ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ الصِّفَاتِ فَقَالَ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ : نَحْنُ نَقُولُ بِإِثْبَاتِ صِفَاتٍ زَائِدَةٍ عَلَى مَا أَثْبَتَهُ هَؤُلَاءِ . وَأَمَّا الذَّاتُ نَفْسُهَا الْمَوْجُودَةُ فَتِلْكَ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَتَحَقَّقَ بِلَا صِفَةٍ أَصْلًا بَلْ هَذَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَالَ : أُثْبِتُ إنْسَانًا ؛ لَا حَيَوَانًا وَلَا نَاطِقًا وَلَا قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ وَلَا لَهُ قُدْرَةٌ وَلَا حَيَاةٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ أَوْ قَالَ : أُثْبِتُ نَخْلَةً لَيْسَ لَهَا سَاقٌ وَلَا جِذْعٌ وَلَا لِيفٌ

وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا يُثْبِتُ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْخَارِجِ وَلَا يُعْقَلُ .

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ يُسَمُّونَ نفاة الصِّفَاتِ " مُعَطِّلَةً " لِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَإِنْ كَانُوا هُمْ قَدْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ قَوْلَهُمْ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّعْطِيلِ ؛ بَلْ يَصِفُونَهُ بِالْوَصْفَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ فَيَقُولُونَ : هُوَ مَوْجُودٌ قَدِيمٌ وَاجِبٌ ؛ ثُمَّ يَنْفُونَ

(444/271)

لَوَازِمَ وُجُودِهِ ؛ فَيَكُونُ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ : مَوْجُودٌ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ حَقٍّ لَيْسَ بِحَقٍّ خَالِقٌ لَيْسَ بِخَالِقٍ فَيَنْفُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ : إمَّا تَصْرِيحًا بِنَفْيِهِمَا وَإِمَّا إمْسَاكًا عَنْ الْإِخْبَارِ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا . وَلِهَذَا كَانَ مُحَقِّقُوهُمْ " وَهُمْ الْقَرَامِطَةُ " يَنْفُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ فَلَا يَقُولُونَ : مَوْجُودٌ وَلَا لَا مَوْجُودٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا لَا حَيٌّ وَلَا عَالِمٌ وَلَا لَا عَالِمٌ . قَالُوا : لِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْإِثْبَاتِ تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْمَوْجُودَاتِ وَوَصْفَهُ بِالنَّفْيِ فِيهِ تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْمَعْدُومَاتِ . فَآلَ بِهِمْ إغْرَاقُهُمْ فِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ إلَى أَنْ وَصَفُوهُ بِغَايَةِ التَّعْطِيلِ . ثُمَّ إنَّهُمْ لَمْ يَخْلُصُوا مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ بَلْ يَلْزَمُهُمْ عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعِ الَّذِي هُوَ أَخَسُّ مِنْ الْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ الْمُمْكِنِ . فَفَرُّوا فِي زَعْمِهِمْ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَوَصَفُوهُ بِصِفَاتِ الْمُمْتَنِعَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْوُجُودَ بِخِلَافِ الْمَعْدُومَاتِ الْمُمْكِنَاتِ . وَتَشْبِيهُهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ شَرٌّ مِنْ تَشْبِيهِهِ

بِالْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ الْمُمْكِنَاتِ . وَمَا فَرَّ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ لَيْسَ بِمَحْذُورٍ . فَإِنَّهُ إذَا سُمِّيَ حَقًّا مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ حَيًّا عَلِيمًا رَءُوفًا رَحِيمًا وَسُمِّيَ الْمَخْلُوقُ بِذَلِكَ ؛ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِلْمَخْلُوقِ أَصْلًا . وَلَوْ كَانَ هَذَا حَقًّا لَكَانَ كُلُّ مَوْجُودٍ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَوْجُودٍ ؛ وَلَكَانَ كُلُّ مَعْدُومٍ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَعْدُومٍ .

(445/271)

وَلَكَانَ كُلُّ مَا يُنْفَى عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ الصِّفَاتِ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَا يُنْفَى عَنْهُ ذَلِكَ الْوَصْفُ .

(446/271)

فَإِذَا قِيلَ : السَّوَادُ مَوْجُودٌ كَانَ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ قَدْ جَعَلْنَا كُلَّ مَوْجُودٍ مُمَاثِلًا لِلسَّوَادِ . وَإِذَا قُلْنَا : الْبَيَاضُ مَعْدُومٌ كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا كُلَّ مَعْدُومٍ مُمَاثِلًا لِلْبَيَاضِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ وَيَكْفِي هَذَا خِزْيًا لِحِزْبِ الْإِلْحَادِ . وَإِذَا لَمْ يَلْزَمْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي السَّوَادِ الَّذِي لَهُ أَمْثَالٌ بِلَا رَيْبٍ ؛ فَإِذَا قِيلَ فِي خَالِقِ الْعَالَمِ إنَّهُ مَوْجُودٌ لَا مَعْدُومٌ حَيٌّ لَا يَمُوتُ قَيُّومٌ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ فَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ وَحَيٍّ وَقَائِمٍ ؛ وَلِكُلِّ مَا يُنْفَى عَنْهُ الْعَدَمُ

وَمَا يُنْفَى عَنْهُ صِفَةُ الْعَدَمِ وَمَا يُنْفَى عَنْهُ الْمَوْتُ وَالنَّوْمُ كَأَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ لَا يَنَامُونَ وَلَا يَمُوتُونَ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْعَامَّةَ الْمُتَوَاطِئَةَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النُّحَاةُ أَسْمَاءَ الْأَجْنَاسِ سَوَاءٌ اتَّفَقَتْ مَعَانِيهَا فِي مَحَالِّهَا أَوْ تَفَاضَلَتْ كَالسَّوَادِ وَنَحْوِهِ ؛ وَسَوَاءٌ سُمِّيَتْ مُشَكِّكَةً وَقِيلَ : إنَّ الْمُشَكِّكَةَ نَوْعٌ مِنْ الْمُتَوَاطِئَةِ - إمَّا أَنْ تُسْتَعْمَلَ " مُطْلَقَةً وَعَامَّةً " كَمَّا إذَا قِيلَ الْمَوْجُودُ يَنْقَسِمُ إلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ وَقَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَخَالِقٍ وَمَخْلُوقٍ وَالْعِلْمُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ . وَإِمَّا أَنْ تُسْتَعْمَلَ " خَاصَّةً مُعَيَّنَةً " كَمَا إذَا قِيلَ : وُجُودُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَعِلْمُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَذَاتُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو . فَإِذَا اُسْتُعْمِلَتْ خَاصَّةً مُعَيَّنَةً دَلَّتْ عَلَى مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسَمَّى لَمْ تَدُلَّ عَلَى مَا يُشْرِكُهُ فِيهِ

(447/271)

غَيْرُهُ فِي الْخَارِجِ ؛ فَإِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسَمَّى لَا شَرِكَةَ فِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ .

فَإِذَا قِيلَ : عِلْمُ زَيْدٍ وَنُزُولُ زَيْدٍ وَاسْتِوَاءُ زَيْدٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ لَمْ يَدُلَّ هَذَا إلَّا عَلَى مَا يَخْتَصُّ بِهِ زَيْدٌ مِنْ عِلْمٍ وَنُزُولٍ وَاسْتِوَاءٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى مَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لَكِنْ لَمَّا عَلِمْنَا أَنَّ زَيْدًا نَظِيرُ عَمْرٍو وَعَلِمْنَا أَنَّ عِلْمَهُ نَظِيرُ عِلْمِهِ وَنُزُولَهُ نَظِيرُ نُزُولِهِ وَاسْتِوَاءَهُ نَظِيرُ اسْتِوَائِهِ فَهَذَا عَلِمْنَاهُ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ وَالْمَعْقُولِ وَالِاعْتِبَارِ لَا مِنْ جِهَةِ دَلَالَةِ اللَّفْظِ فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي

صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ ؛ فَذَلِكَ فِي الْخَالِقِ أَوْلَى . فَإِذَا قِيلَ : عِلْمُ اللَّهِ وَكَلَامُ اللَّهِ وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَوُجُودُهُ وَحَيَاتُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ لَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى مَا يُشْرِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ؛ وَلَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى مُمَاثَلَةِ الْغَيْرِ لَهُ فِي ذَلِكَ كَمَا دَلَّ فِي زَيْدٍ وَعَمْرٍو لِأَنَّا هُنَاكَ عَلِمْنَا التَّمَاثُلَ مِنْ جِهَةِ الِاعْتِبَارِ وَالْقِيَاسِ لِكَوْنِ زَيْدٍ مِثْلَ عَمْرٍو ؛ وَهُنَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا كُفُوَ وَلَا نِدَّ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عِلْمَهُ مِثْلُ عِلْمِ غَيْرِهِ وَلَا كَلَامَهُ مِثْلُ كَلَامِ غَيْرِهِ وَلَا اسْتِوَاءَهُ مِثْلُ اسْتِوَاءِ غَيْرِهِ وَلَا نُزُولَهُ مِثْلُ نُزُولِ غَيْرِهِ وَلَا حَيَاتَهُ مِثْلُ حَيَاةِ غَيْرِهِ .

(448/271)

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ إثْبَاتَ الصِّفَاتِ وَنَفْيَ مُمَاثَلَتِهَا لِصِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ . فَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ مُطْلَقًا وَمُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ غَيْرُهُ فِي صِفَاتِ كَمَالِهِ . فَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ جَمَعَا التَّنْزِيهَ وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ . فَالِاسْمُ " الصَّمَدُ " يَتَضَمَّنُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالِاسْمُ " الْأَحَدُ " يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْمِثْلِ كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ .

(449/271)

فَالْقَوْلُ فِي صِفَاتِهِ كَالْقَوْلِ فِي ذَاتِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ؛ لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ نِسْبَةَ هَذِهِ الصِّفَةِ إلَى مَوْصُوفِهَا كَنِسْبَةِ هَذِهِ الصِّفَةِ إلَى مَوْصُوفِهَا . فَعِلْمُ اللَّهِ وَكَلَامُهُ وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ هُوَ كَمَا يُنَاسِبُ ذَاتَهُ وَيَلِيقُ بِهَا كَمَا أَنَّ صِفَةَ الْعَبْدِ هِيَ كَمَا تُنَاسِبُ ذَاتَهُ وَتَلِيقُ بِهَا وَنِسْبَةُ صِفَاتِهِ إلَى ذَاتِهِ كَنِسْبَةِ صِفَاتِ الْعَبْدِ إلَى ذَاتِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ : إذَا قَالَ لَك السَّائِلُ : كَيْفَ يَنْزِلُ أَوْ كَيْفَ اسْتَوَى أَوْ كَيْفَ يَعْلَمُ أَوْ كَيْفَ يَتَكَلَّمُ وَيُقَدِّرُ وَيَخْلُقُ ؟ فَقُلْ لَهُ : كَيْفَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ؟ فَإِذَا قَالَ : أَنَا لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ ؛ فَقُلْ لَهُ : وَأَنَا لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ صِفَاتِهِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ يَتْبَعُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ الْمَوْصُوفِ . فَهَذَا إذَا اسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيصِ وَالتَّعْيِينِ - وَهَذَا هُوَ الْوَارِدُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - وَأَمَّا إذَا قِيلَتْ مُطْلَقَةً وَعَامَّةً - كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ النُّظَّارِ : الْمَوْجُودُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَالْعِلْمُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ - فَهَذَا مُسَمَّى اللَّفْظِ الْمُطْلَقِ وَالْعَامِّ وَالْعِلْمُ مَعْنًى مُطْلَقٌ وَعَامٌّ وَالْمَعَانِي لَا تَكُونُ مُطْلَقَةً وَعَامَّةً إلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ ؛ فَلَا يَكُونُ مَوْجُودٌ وُجُودًا مُطْلَقًا أَوْ عَامًّا إلَّا فِي الذِّهْنِ وَلَا يَكُونُ مُطْلَقٌ أَوْ عَامٌّ إلَّا

(450/271)

فِي الذِّهْنِ وَلَا يَكُونُ إنْسَانٌ أَوْ حَيَوَانٌ مُطْلَقٌ وَعَامٌّ إلَّا فِي الذِّهْنِ ؛ وَإِلَّا فَلَا تَكُونُ الْمَوْجُودَاتُ فِي أَنْفُسِهَا إلَّا مُعَيَّنَةً مَخْصُوصَةً مُتَمَيِّزَةً عَنْ غَيْرِهَا . فَلْيَتَدَبَّرْ الْعَاقِلُ هَذَا الْمَقَامَ الْفَارِقَ فَإِنَّهُ زَلَّ فِيهِ خَلْقٌ مِنْ أُولِي النَّظَرِ الْخَائِضِينَ

فِي الْحَقَائِقِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الْعَامَّةَ الْمُطْلَقَةَ الْكُلِّيَّةَ تَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْخَارِجِ كَذَلِكَ ؛ وَظَنُّوا أَنَّا إذَا قُلْنَا : إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ وَالْعَبْدَ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ ؛ أَنَّهُ يَلْزَمُ وُجُودُ مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ يَشْتَرِكُ فِيهِ الرَّبُّ وَالْعَبْدُ وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَوْجُودُ بِعَيْنِهِ فِي الْعَبْدِ وَالرَّبِّ بَلْ وَفِي كُلِّ مَوْجُودٍ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلرَّبِّ مَا يُمَيِّزُهُ عَنْ الْمَخْلُوقِ فَيَكُونُ فِيهِ جُزْءَانِ :

أَحَدُهُمَا : لِكُلِّ مَخْلُوقٍ وَهُوَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ .

وَالثَّانِي : يَخْتَصُّ بِهِ وَهُوَ الْمُمَيِّزُ لَهُ عَنْ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ ثُمَّ لَا يَذْكُرُونَ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ إلَّا مَا يَلْزَمُ فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ .

(451/271)

فَإِذَا قَالُوا : يَمْتَازُ بِذَاتِهِ أَوْ بِحَقِيقَتِهِ أَوْ مَاهِيَّتِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ؛ كَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ يَمْتَازُ بِوُجُودِهِ ؛ فَإِنَّ الذَّاتَ وَالْحَقِيقَةَ وَالْمَاهِيَّةَ تُسْتَعْمَلُ مُطْلَقًا وَمُعَيَّنًا كَلَفْظِ الْوُجُودِ سَوَاءً .

وَهَذَا الْمَقَامُ حَارَ فِيهِ طَوَائِفُ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ حَتَّى قَالَ طَائِفَةٌ : إنَّ لَفْظَ الْوُجُودِ وَغَيْرَهُ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَقَطْ وَحَكَوْا ذَلِكَ عَنْ كُلِّ مَنْ قَالَ بِنَفْيِ الْأَحْوَالِ - وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ - فَصَارَ مَضْمُونُ نَقْلِهِمْ أَنَّ مَذْهَبَ عَامَّةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَمُتَكَلِّمَةِ الْإِثْبَاتِ - كَابْنِ كُلَّابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ وَابْنِ كَرَّامٍ وَغَيْرِهِمْ بَلْ وَمُحَقِّقِي الْمُعْتَزِلَةِ : كَأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ - أَنَّ لَفْظَ الْمَوْجُودِ وَغَيْرِهِ - مِمَّا يُسَمَّى اللَّهُ بِهِ وَيُسَمَّى بِهِ الْمَخْلُوقُ - إنَّمَا يُقَالُ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ مَعْنًى عَامٌّ : كَلَفْظِ الْمُشْتَرِي إذَا سُمِّيَ بِهِ الْمُبْتَاعُ وَالْكَوْكَبُ وَلَفْظِ سُهَيْلٍ الْمَقُولِ عَلَى الْكَوْكَبِ وَالرَّجُلِ

(452/271)

وَهَذَا النَّقْلُ غَلَطٌ عَظِيمٌ عَمَّنْ نَقَلُوهُ عَنْهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ عَامَّةٌ مُتَوَاطِئَةٌ - كَالتَّوَاطُؤِ الْعَامِّ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْمُشَكَّكُ - تَقْبَلُ التَّقْسِيمَ وَالتَّنْوِيعَ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْأَسْمَاءِ الْمُتَوَاطِئَةِ كَمَا نَقُولُ : الْمَوْجُودُ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَوَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ . بَلْ هَؤُلَاءِ النَّاقِلُونَ بِأَعْيَانِهِمْ : كَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي وَأَمْثَالِهِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ يَجْمَعُونَ

فِي كَلَامِهِمْ بَيْنَ دَعْوَى الِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَقَطْ وَبَيْنَ هَذَا التَّقْسِيمِ فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ؛ مَعَ قَوْلِهِمْ إنَّ التَّقْسِيمَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ الْمُشْتَرَكَةِ لَفْظًا وَمَعْنًى لَا يَكُونُ فِي الْمُشْتَرَكِ اشْتِرَاكًا لَفْظِيًّا . وَمِنْ جُمْلَتِهَا الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْمُشَكَّكَةَ لَا يَكُونُ التَّقْسِيمُ فِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَيْسَ بَيْنَهَا مَعْنًى مُشْتَرَكٌ عَامٌّ . فَهَذَا تَنَاقُضُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَشْهَرِ الْمُتَأَخِّرِينَ – بِالنَّظَرِ وَالتَّحْقِيقِ لِلْفَلْسَفَةِ وَالْكَلَامِ قَدْ ضَلُّوا فِي هَذَا النَّقْلِ – وَهَذَا الْبَحْثُ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَصْلِ ضَلَالٌ لَا يَقَعُ فِيهِ أَضْعَفُ الْعَوَامِّ – وَذَلِكَ لِمَا تَلَقَّوْهُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْمَنْطِقِ مِنْ الْقَوَاعِدِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي هِيَ عَنْ الْهُدَى وَالرُّشْدِ حَائِدَةٌ ؛ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ الْمُطْلَقَةَ ثَابِتَةٌ فِي الْخَارِجِ جُزْءًا مِنْ الْمُعَيَّنَاتِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي تَرْكِيبَ الْمُعَيَّنِ مِنْ ذَلِكَ الْكُلِّيِّ الْمُشْتَرَكِ وَمِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ ؛ فَلَزِمَهُمْ

(453/271)

عَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ تَعَالَى الْوَاجِبُ الْوُجُودِ مُرَكَّبًا مِنْ الْوُجُودِ الْمُشْتَرَكِ وَمِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ الْوُجُوبِ أَوْ الْوُجُودِ أَوْ الْمَاهِيَّةِ . مَعَ أَنَّهُ مِنْ الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَنْطِقِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ إنَّمَا تَكُونُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ .

(454/271)

وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَشْتَرِكُ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِيهَا أَصْلًا ؛ بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ مُتَمَيِّزٌ بِنَفْسِهِ وَبِمَا لَهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَأَنَّا إذَا قُلْنَا : إنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ حَيٌّ مُتَكَلِّمٌ أَوْ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ لَمْ يَكُنْ مَا لَهُ مِنْ الْحَيَوَانِيَّةِ أَوْ النَّاطِقِيَّةِ أَوْ النُّطْقِ وَالْحَيَاةِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ بَلْ لَهُ مَا يَخُصُّهُ وَلِغَيْرِهِ مَا يَخُصُّهُ وَلَكِنْ تَشَابَهَا وَتَمَاثَلَا بِحَسَبِ تَشَابُهِ حَيَوَانِيَّتِهِمَا وَنُطْقِيَّتِهِمَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِمَا . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِمَّا بِهِ الِاشْتِرَاكُ : وَهُوَ الْحَيَوَانِيَّةُ وَمَا بِهِ مِنْ الِامْتِيَازِ : وَهُوَ النُّطْقُ ؛ فَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ هَذَا تَرْكِيبٌ ذِهْنِيٌّ - فَإِنَّا إذَا تَصَوَّرْنَا فِي أَذْهَانِنَا حَيَوَانًا نَاطِقًا ؛ كَانَ الْحَيَوَانُ جُزْءَ هَذَا الْمَعْنَى الذِّهْنِيِّ وَالنُّطْقُ جُزْأَهُ الْآخَرَ وَكَانَ الْحَيَوَانُ جُزْءًا لَهُ أَشْبَاهٌ أَكْثَرُ مِنْ أَشْبَاهِ النَّاطِقِ . وَإِذَا تَصَوَّرْنَا مُسَمَّى حَيَوَانٍ وَمُسَمَّى نَاطِقٍ ؛ كَانَ مُسَمَّى الْحَيَوَانِ يَعُمُّ الْإِنْسَانَ وَغَيْرَهُ وَكَانَ مُسَمَّى النَّاطِقِ يَخُصُّهُ - فَدَعْوَى التَّرْكِيبِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي الذِّهْنِيَّةِ صَحِيحٌ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا ضَابِطًا . بَلْ هُوَ بِحَسَبِ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ سَوَاءٌ كَانَ تَصَوُّرُهُ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا . وَمَتَى أُرِيدَ بِجُزْءِ الْمَاهِيَّةِ الدَّاخِلِ فِيهَا مَا يَدْخُلُ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ وَبِجُزْئِهَا الْخَارِجِ عَنْهَا اللَّازِمِ لِوُجُودِهَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا اللَّفْظُ

بِالتَّضَمُّنِ وَالِالْتِزَامِ وَأَرَادَ بِتَمَامِ الْمَاهِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا بِالْمُطَابَقَةِ ؛ فَهَذَا صَحِيحٌ لَكِنَّ هَذَا لَا يَقْتَضِي أَنْ

(456/271)

تَكُونَ الْحَقَائِقُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ مُرَكَّبَةً مِنْ الصِّفَاتِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَلَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ صِفَاتِهَا اللَّازِمَةِ دَاخِلَةً فِي الْحَقِيقَةِ ذَاتِيًّا لَهَا وَبَعْضُهَا خَارِجًا عَنْ الْحَقِيقَةِ عَارِضًا لَهَا ؛ كَمَا يَزْعُمُهُ أَهْلُ الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ . وَهَذَا الْمَوْضِعُ مِمَّا ضَلُّوا فِيهِ وَضَلَّ بِسَبَبِ ضَلَالِهِمْ فِيهِ الطَّوَائِفُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ النُّظَّارِ وَقَلَّدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ وَلَوَازِمَهُ وَلَمْ يَتَصَوَّرْهُ تَصَوُّرًا تَامًّا . وَإِنْ أَرَادُوا بِالتَّرْكِيبِ أَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِالْحَيَاةِ وَالنُّطْقِ – وَإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ يُوجَدُ نَظِيرُهَا فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَالْأُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِالْإِنْسَانِ – فَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ . وَإِنْ أَرَادُوا بِهِ أَنَّ حَيَوَانِيَّتَهُ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَقَدْ غَلِطُوا فَإِنَّ حَيَوَانِيَّةَ كُلِّ حَيَوَانٍ كَنَاطِقِيَّةِ كُلِّ نَاطِقٍ وَذَلِكَ مُخْتَصٌّ بِمَحَلِّهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا بِالتَّرْكِيبِ أَنَّ هُنَا مَوْجُودًا مَوْصُوفًا بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ غَيْرُ الْمَوْجُودِ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ نَاطِقٌ وَصَاهِلٌ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذَا الْمَوْجُودِ وَهَذَا الْمَوْجُودُ وَالْفَرَسُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذَا الْمَوْجُودِ وَهَذَا الْمَوْجُودِ ؛

فَقَدْ غَلِطُوا بَلْ لَا مَوْجُودَ إلَّا هَذَا الْإِنْسَانُ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ وَهَذَا الْفَرَسُ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ صَاهِلٌ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَوْجُودَاتِ . فَقَوْلُ الْقَائِلِ : الْإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذَا وَهَذَا إذَا أُرِيدَ بِهِ أَنَّ هُنَا شَيْئًا

(457/271)

مُرَكَّبًا وَأَنَّ لَهُ جُزْأَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ هُوَ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا ؛ كَانَ جَاهِلًا بَلْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ مَوْصُوفٌ بِصِفَتَيْنِ لَا يُوجَدُ إلَّا بِصِفَتَيْهِ وَلَا تُوجَدُ صِفَتَاهُ إلَّا بِهِ . وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ : وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ وَأَنَّهُ نَاطِقٌ حَقِيقَةً وَأَنَّهُ ذَاتٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِصِفَاتِهَا لَا يُوجَدُ الْمَوْصُوفُ بِدُونِ صِفَتِهِ اللَّازِمَةِ لَهُ . لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ فِي الْخَارِجِ تَرْكِيبًا ، وَلَيْسَ فِي الْخَارِجِ صِفَةٌ لَازِمَةٌ ذَاتِيَّةٌ وَأُخْرَى عَرَضِيَّةٌ لَازِمَةٌ لِلْمَاهِيَّةِ وَأُخْرَى لَازِمَةٌ لِوُجُودِهِ بَلْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ إلَّا الْمَوْجُودُ الْمُعَيَّنُ وَصِفَاتُهُ تَنْقَسِمُ إلَى : لَازِمَةٍ لَهُ وَعَارِضَةٍ وَهُوَ لَا يُوجَدُ بِدُونِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ ؛ فَلَيْسَ فِيهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلذَّاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ وَلَكِنْ لَيْسَ بِلَازِمٍ لَهَا بَلْ لَازِمٌ لِلْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ ؛ كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ الْمَنْطِقِيِّينَ . وَأَصْلُ خَطَئِهِمْ أَنَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الْأَذْهَانِ بِمَا يُوجَدُ فِي الْأَعْيَانِ فَإِنَّ الذِّهْنَ يَتَصَوَّرُ الْمُثَلَّثَ قَبْلَ وُجُودِهِ فِي الْخَارِجِ وَظَنُّوا أَنَّ الْمَاهِيَّةَ مُغَايِرَةٌ لِلْوُجُودِ وَهُوَ صَحِيحٌ إذَا فُسِّرَتْ الْمَاهِيَّةُ بِمَا يَتَصَوَّرُهُ

الذِّهْنُ . وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ مُثَلَّثٌ : لَهُ مَاهِيَّةٌ ثَابِتَةٌ فِي الْخَارِجِ غَيْرُ الشَّيْءِ الْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ ؛ فَهَذَا غَلَطٌ بَيِّنٌ . فَإِذَا فُهِمَ هَذَا فِي صِفَةِ الْمَخْلُوقِ ؛ فَالْخَالِقُ أَبْعَدُ عَمَّا سَمَّاهُ هَؤُلَاءِ تَرْكِيبًا .

(458/271)

فَإِذَا قِيلَ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ؛ فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ الْحَيُّ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ . وَإِذَا قِيلَ : هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْوُجُودِ وَالْوُجُوبِ فَلَا مُشَارَكَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ وَلَا هُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْأَيْنِ ؛ وَلَا صِفَاتٍ مُقَوِّمَةٍ تَكُونُ أَجْزَاءً لِوُجُودِهِ وَلَا نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُدَّعَى مِنْ التَّرْكِيبِ الَّذِي هُوَ مُمْتَنِعٌ فِي الْمَخْلُوقِ ؛ فَهُوَ فِي الْخَالِقِ أَشَدُّ امْتِنَاعًا . وَلَكِنَّ لَفْظَ التَّرْكِيبِ مُجْمَلٌ يَدْخُلُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ فِيهِ اتِّصَافُ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهُ وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْمَعْقُولَ مِنْ لَفْظِ التَّرْكِيبِ وَهَؤُلَاءِ أَحْدَثُوا اصْطِلَاحًا لَهُمْ فِي لَفْظِ التَّرْكِيبِ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ ؛ وَلَا مِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْعِلْمِ فَجَعَلُوا لَفْظَ التَّرْكِيبِ يَتَنَاوَلُ " خَمْسَةَ أَنْوَاعٍ " :

أَحَدُهَا : التَّرْكِيبُ مِنْ الْوُجُودِ وَالْمَاهِيَّةِ ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ مُمْكِنٍ فِي الْخَارِجِ غَيْرُ مَاهِيَّتِهِ وَمَتَى أُرِيدَ بِجُزْءِ الْمَاهِيَّةِ الدَّاخِلِ فِيهَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْمُتَصَوَّرِ وَيلازمها الْخَارِجُ

عَنْهَا مَا يَلْزَمُ هَذَا التَّصَوُّرَ . وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ هُمَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ .

وَالثَّانِي : التَّرْكِيبُ مِنْ الْجِنْسِ وَالْفَصْلِ كَقَوْلِهِمْ : إنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْحَيَوَانِيَّةِ والناطقية وَقَدْ يَضُمُّونَ إلَى ذَلِكَ التَّرْكِيبَ مِنْ الْمَعْنَى الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ؛ يُسَمَّى تَرْكِيبًا مِنْ جِنْسٍ وَفَصْلٍ أَوْ مِنْ خَاصَّةٍ وَعَرَضٍ عَامٍّ .

(459/271)

الثَّالِثُ : التَّرْكِيبُ مِنْ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ كَمُسَمَّى الْحَيِّ الْعَالِمِ الْقَادِرِ

وَتَرْكِيبِ الْجِسْمِ مِنْ أَجْزَائِهِ الْحِسِّيَّةِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ إنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ (1) ، أَوْ تَرْكِيبُهُ مَنْ الْجُزْأَيْنِ الْعَقْلِيَّيْنِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ إنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ . وَأَمَّا التَّرْكِيبُ " الْأَوَّلُ " وَ " الثَّانِي " فَنَازَعَهُمْ جُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ فِي ثُبُوتِهِمَا فِي الْخَارِجِ وَيَقُولُونَ : لَيْسَ فِي الْخَارِجِ تَرْكِيبٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ . وَالتَّرْكِيبُ " الرَّابِعُ " وَ " الْخَامِسُ " : فِيهِ نِزَاعٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ فِي الْجِسْمِ أَحَدَ التَّرْكِيبَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ لَيْسَ مُرَكَّبًا لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا . وَأَمَّا " الرَّابِعُ " فَيُوَافِقُهُمْ عَلَى ثُبُوتِهِ جَمَاهِيرُ الْعُقَلَاءِ مَا أَعْلَمُ مَنْ يُنَازِعُهُمْ فِيهِ نِزَاعًا مَعْنَوِيًّا (*) ؛ لَكِنْ حُكِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ ؛ كَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كيسان الْأَصَمِّ وَغَيْرِهِ ؛ أَنَّهُمْ نَفَوْا الْأَعْرَاضَ وَلَمْ يُثْبِتُوا الْأَعْرَاضَ زَائِدَةً عَلَى الْجِسْمِ وَنَفَوْا كَوْنَ الْحَرَكَةِ زَائِدَةً

عَلَى الْجِسْمِ . وَخَالَفَهُمْ الْأَكْثَرُونَ فِي ذَلِكَ . وَهَذَا - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ وَهُوَ أَنَّ مُسَمَّى الْجِسْمِ هَلْ يَتَنَاوَلُ الْجِسْمَ بِأَعْرَاضِهِ أَمْ تَكُونُ الْأَعْرَاضُ زَائِدَةً عَلَى مُسَمَّى الْجِسْمِ ؟ وَإِلَّا فَعَاقِلٌ لَا يُنْكِرُ وُجُودَ الطَّعْمِ وَاللَّوْنِ وَالرَّائِحَةِ وَالْحَرَكَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةِ بِالْمَوْصُوفَاتِ .

(460/271)

وَهَذَا يُشْبِهُ نِزَاعَ النَّاسِ فِي أَنَّ الصِّفَاتِ هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ أَمْ لَا ؟ فَمَنْ أَرَادَ بِالذَّاتِ " الذَّاتَ الْمُجَرَّدَةَ " فَالصِّفَاتُ زَائِدَةٌ عَلَيْهَا وَمَنْ أَرَادَ بِالذَّاتِ " الذَّاتَ الْمَوْصُوفَةَ " فَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ مُبَايِنَةً لِلذَّاتِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتِهَا اللَّازِمَةِ لَهَا . ثُمَّ إنَّ هَؤُلَاءِ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَنْفُونَ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ ؛ فَأَمَّا " الْأَنْوَاعُ الْأَرْبَعَةُ " فَمَنْ قَالَ : إنَّهَا مُنْتَفِيَةٌ عَنْ الْمَخْلُوقِ فَهِيَ عَنْ الْخَالِقِ أَشَدُّ انْتِفَاءً ؛ وَأَمَّا " النَّوْعُ الرَّابِعُ " : فَمَنْ نَازَعَ فِي أَنَّ الصِّفَاتِ هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ أَمْ لَا ؟ فَهَذَا نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ وَمَنْ نَازَعَ فِي ثُبُوتِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ وَمَشِيئَةٌ وَجَعَلَ هَذِهِ الصِّفَةَ هِيَ الْأُخْرَى وَالصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفُ : فَهَذَا قَوْلُهُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ . وَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَمَعْنَى كَوْنِهِ حَيًّا لَيْسَ مَعْنَى كَوْنِهِ عَلِيمًا وَمَعْنَى كَوْنِهِ عَلِيمًا لَيْسَ مَعْنَى كَوْنِهِ قَدِيرًا ؛ فَهَذَا هُوَ إثْبَاتُ الصِّفَاتِ . فَإِنْ

قَالَ الْقَائِلُ ؛ إنَّ مَعْنَى كَوْنِهِ عَلِيمًا هُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ مُرِيدًا قَدِيرًا حَيًّا ؛ فَهَذَا مُكَابَرَةٌ . وَكَذَلِكَ إذَا ادَّعَى أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ هِيَ مَعْنَى الذَّاتِ الْمَوْصُوفَةِ بِهَا . وَإِنْ اعْتَرَفَ بِثُبُوتِ هَذِهِ الْمَعَانِي لِلَّهِ وَقَالَ : أَنَا أَنْفِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُفْتَقِرًا إلَى ذَوَاتٍ أَوْ مَعَانٍ بِهَا يَصِيرُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا : فَهَذَا مُنَاظَرَةٌ مِنْهُ

(461/271)

لِمُثْبِتَةِ الْأَحْوَالِ

كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ يَقُولُ : إنَّ لَهُ عِلْمًا وعالمية ؛ وعالميته مَعْنًى زَائِدٌ عَلَى عِلْمِهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ : قَوْلُ بَعْضِ الصفاتية ؛ وَجُمْهُورُهُمْ يُنْكِرُونَ هَذَا . وَيَقُولُونَ : بَلْ مَعْنَى الْعِلْمِ هُوَ مَعْنَى الْعَالِمِ .

وَفِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ " ثَلَاثَةُ أُمُورٍ " :

أَحَدُهَا : الْخَبَرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ؛ فَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَى إثْبَاتِهِ وَهَذَا يُسَمَّى الْحُكْمَ .

وَالثَّانِي : أَنَّ هَذِهِ مَعَانٍ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ وَهَذَا أَيْضًا أَثْبَتَهُ مُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَالْمُنْتَسِبُونَ إلَى السُّنَّةِ مِنْ عَامَّةِ الطَّوَائِفِ .

وَالثَّالِثُ : الْأَحْوَالُ . وَهُوَ العالمية وَالْقَادِرِيَّةُ وَهَذِهِ قَدْ تَنَازَعَ فِيهَا مُثْبِتُو الصِّفَاتِ وَنُفَاتُهَا ؛

فَأَبُو هَاشِمٍ وَأَتْبَاعُهُ يُثْبِتُونَ الْأَحْوَالَ دُونَ الصِّفَاتِ وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَأَتْبَاعُهُ يُثْبِتُونَ الْأَحْوَالَ وَالصِّفَاتِ وَأَكْثَرُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ يَنْفُونَ الْأَحْوَالَ وَالصِّفَاتِ .

وَأَمَّا جَمَاهِيرُ " أَهْلِ السُّنَّةِ " فَيُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ دُونَ الْأَحْوَالِ وَهَذَا لِبَسْطِهِ مَوْضِعٌ آخَرُ .

(462/271)

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَى التَّرْكِيبِ لَفْظًا وَمَعْنًى وَبَيَانُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ فِيهِ اصْطِلَاحٌ مُخَالِفٌ لِجُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ وَأَنَّهُمْ مُضْطَرُّونَ إلَى الْإِقْرَارِ بِثُبُوتِ مَا نَفَوْهُ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : هَذَا اشْتِرَاكٌ وَالِاشْتِرَاكُ تَشْبِيهٌ وَيَقُولُونَ : هَذِهِ أَجْزَاءٌ وَهَذَا تَرْكِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ ثُمَّ إنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نَفْيِ هَذَا الَّذِي سَمَّوْهُ اشْتِرَاكًا وَتَشْبِيهًا وَلَا عَلَى نَفْيِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي سَمَّوْهَا أَجْزَاءً وَتَرْكِيبًا وَتَقْسِيمًا فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : هُوَ عَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ وَعَقْلٌ وَلَذِيذٌ وَلَذَّةٌ وَمُلْتَذٌّ وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ وَعِشْقٌ . وَقَدْ يَقُولُونَ : هُوَ عَالِمٌ قَادِرٌ مُرِيدٌ ثُمَّ يَقُولُونَ : الْعِلْمُ هُوَ الْقُدْرَةُ وَالْقُدْرَةُ هِيَ الْإِرَادَةُ ؛ فَيَجْعَلُونَ كُلَّ صِفَةٍ هِيَ الْأُخْرَى . وَيَقُولُونَ : الْعِلْمُ هُوَ الْعَالِمُ – وَقَدْ يَقُولُونَ : هُوَ الْمَعْلُومُ – فَيَجْعَلُونَ الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ أَوْ هِيَ الْمَخْلُوقَاتِ . وَهَذِهِ أَقْوَالُ رُؤَسَائِهِمْ وَهِيَ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ فِي صَرِيحِ الْمَعْقُولِ ؛ فَهُمْ مُضْطَرُّونَ إلَى الْإِقْرَارِ بِمَا يُسَمُّونَهُ تَشْبِيهًا وَتَرْكِيبًا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْفُونَ التَّشْبِيهَ وَالتَّرْكِيبَ وَالتَّقْسِيمَ ؛ فَلْيَتَأَمَّلْ اللَّبِيبُ كَذِبَهُمْ

وَتَنَاقُضَهُمْ وَحَيْرَتَهُمْ وَضَلَالَهُمْ ؛ وَلِهَذَا يَئُولُ بِهِمْ الْأَمْرُ إلَى الْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ أَوْ الْخُلُوِّ عَنْ النَّقِيضَيْنِ . ثُمَّ إنَّهُمْ يَنْفُونَ عَنْ اللَّهِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَعْمِهِمْ أَنَّ

(463/271)

ذَلِكَ تَشْبِيهٌ وَتَرْكِيبٌ . وَيَصِفُونَ أَهْلَ الْإِثْبَاتِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَهُمْ الَّذِينَ أَلْزَمُوهَا بِمُقْتَضَى أُصُولِهِمْ وَلَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي دَفْعِهَا . فَهُمْ : كَمَا قَالَ الْقَائِلُ : رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ

(464/271)

وَهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا هَذَا التَّنَاقُضَ ؛ وَلَكِنْ أَوْقَعَتْهُمْ فِيهِ قَوَاعِدُهُمْ الْفَاسِدَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ الَّتِي زَعَمُوا فِيهَا تَرْكِيبَ الْمَوْصُوفَاتِ مِنْ صِفَاتِهَا وَوُجُودِ الْكُلِّيَّاتِ الْمُشْتَرَكَةِ فِي أَعْيَانِهَا . فَتِلْكَ الْقَوَاعِدُ الْمَنْطِقِيَّةُ الْفَاسِدَةُ الَّتِي جَعَلُوهَا قَوَانِينَ تَمْنَعُ مُرَاعَاتُهَا الذِّهْنَ أَنْ يَضِلَّ فِي فِكْرِهِ أَوْقَعَتْهُمْ فِي هَذَا الضَّلَالِ وَالتَّنَاقُضِ . ثُمَّ إنَّ هَذِهِ الْقَوَانِينَ فِيهَا مَا هُوَ صَحِيحٌ لَا رَيْبَ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَنَاقُضِهِمْ وَجَهْلِهِمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَرَّرُوا فِي الْقَوَانِينِ الْمَنْطِقِيَّةِ : أَنَّ الْكُلِّيَّ هُوَ الَّذِي

لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ الشَّرِكَةِ فِيهِ ؛ بِخِلَافِ الْجُزْئِيِّ . وَقَرَّرُوا أَيْضًا أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ لَا تَكُونُ كُلِّيَّةً إلَّا فِي الْأَذْهَانِ : دُونَ الْأَعْيَانِ . وَأَنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الذِّهْنِ وَهَذِهِ قَوَانِينُ صَحِيحَةٌ . ثُمَّ يَدَّعُونَ مَا ادَّعَاهُ أَفْضَلُ مُتَأَخِّرِيهِمْ أَنَّ الْوَاجِبَ الْوُجُودِ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ ثُبُوتِيٍّ . أَوْ كَمَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : إنَّهُ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ ثُبُوتِيٍّ وَسَلْبِيٍّ ؛ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى التَّشَيُّعِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى التَّصَوُّفِ . أَوْ يَقُولُهُ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ : إنَّهُ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ لَا بِشَرْطِ كَمَا تَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ الْأُمُورِ

(465/271)

الْوُجُودِيَّةِ وَالْعَدَمِيَّةِ

لَا يَكُونُ فِي الْخَارِجِ مَوْجُودًا .

(466/271)

فَالْمُطْلَقُ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ ثُبُوتِيٍّ ؛ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ مَوْجُودًا . فَإِنَّ الْمُقَيَّدَ بِسَلْبِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ نِسْبَتُهُ إلَيْهِمَا سَوَاءٌ وَالْمُقَيَّدَ بِسَلْبِ الْوُجُودِ يَخْتَصُّ بِالْعَدَمِ دُونَ الْوُجُودِ وَالْمُطْلَقَ لَا بِشَرْطِ إنَّمَا يُوجَدُ مُطْلَقًا فِي الْأَذْهَانِ . وَإِذَا قِيلَ : هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ ؛ فَذَلِكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُقَيَّدًا لَا أَنَّهُ يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُطْلَقًا فَإِنَّ هَذَا بَاطِلٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ طَائِفَةٌ تَدَّعِيهِ . فَمَنْ تَصَوَّرَ هَذَا تَصَوُّرًا تَامًّا ؛ عَلِمَ بُطْلَانَ قَوْلِهِمْ وَهَذَا حَقٌّ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ . فَهَذَا الْقَانُونُ الصَّحِيحُ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ فِي إثْبَاتِ وُجُودِ الرَّبِّ ؛ بَلْ جَعَلُوهُ مُطْلَقًا بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ النَّقِيضَيْنِ أَوْ عَنْ الْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ . أَوْ لَا بِشَرْطِ وَذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ إلَّا فِي الْأَذْهَانِ . وَالْقَوَانِينُ الْفَاسِدَةُ أَوْقَعَتْهُمْ فِي ذَلِكَ التَّنَاقُضِ وَالْهَذَيَانِ وَهُمْ يَفِرُّونَ مِنْ التَّشْبِيهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ ؛ ثُمَّ يَقُولُونَ : الْوُجُودُ يَنْقَسِمُ إلَى : وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ فَهُمَا مُشْتَرَكَانِ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْمَاهِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ . وَمَهْمَا قِيلَ : هُوَ يَنْقَسِمُ إلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ . وَمَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْأَقْسَامِ فَقَدْ اشْتَرَكَتْ الْأَقْسَامُ فِي الْمَعْنَى الْعَامِّ الْكُلِّيِّ الشَّامِلِ لِمَا تَشَابَهَتْ فِيهِ فَهَذَا تَشْبِيهٌ يَقُولُونَ بِهِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْفُونَ كُلَّ مَا يُسَمَّى تَشْبِيهًا حَتَّى نَفَوْا الْأَسْمَاءَ فَكَانَ

(467/271)

الْغُلَاةُ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ لَا يُسَمُّونَهُ شَيْئًا فِرَارًا مِنْ ذَلِكَ .

(468/271)

وَأَيُّ شَيْءٍ أَثْبَتُوهُ ؛ لَزِمَهُمْ فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ وُجُودُ وَاجِبِ الْوُجُودِ مُمْكِنًا وَقَدِيمًا وَمُحْدَثًا وَأَنَّ الْمُحْدَثَ وَالْمُمْكِنَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَدِيمٍ وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْوُجُودَ فِيهِ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ وَأَنَّ الْمُحْدَثَ الْمُمْكِنَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَدِيمٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ ؛ فَثُبُوتُ النَّوْعَيْنِ ضَرُورِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ لَفْظَ الْمُطْلَقِ قَدْ يُعْنَى بِهِ مَا هُوَ كُلِّيٌّ لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُ مَعْنَاهُ مِنْ وُقُوعِ الشَّرِكَةِ فِيهِ . وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ صِفَةً لِغَيْرِهِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ كَذَلِكَ . وَقَدْ يُرَادُ بِالْمُطْلَقِ : الْمُجَرَّدُ عَنْ الصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ أَوْ عَنْ الثُّبُوتِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ جَمِيعًا ؛ وَالْمُطْلَقُ لَا بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ . وَهَذَا إذَا قُدِّرَ جُعِلَ مُعَيَّنًا خَاصًّا لَا كُلِّيًّا فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ فِي الْخَارِجِ أَعْظَمُ مِنْ امْتِنَاعِ الْكُلِّيَّاتِ الْمُطْلَقَةِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا كُلِّيَّةً . فَإِنَّ تِلْكَ الْكُلِّيَّاتِ لَهَا جُزْئِيَّاتٌ مَوْجُودَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْكُلِّيَّاتُ مُطَابِقَةٌ لَهَا . وَأَمَّا وُجُودُ شَيْءٍ مُجَرَّدٍ عَنْ أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةِ ثُبُوتِيَّةٍ وَسَلْبِيَّةٍ ؛ فَهَذَا يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْخَارِجِ كُلِّيًّا وَجُزْئِيًّا . وَكَذَلِكَ الْمُجَرَّدُ عَنْ أَنْ

يُوصَفَ بِصِفَةِ ثُبُوتِيَّةٍ بَلْ هَذَا أَوْلَى بِالِامْتِنَاعِ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ هَذَا قَدْ شَارَكَ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ

(469/271)

وَلَمْ يُمَيَّزْ عَنْهَا إلَّا بِالْقُيُودِ السَّلْبِيَّةِ وَهِيَ قَدْ امْتَازَتْ عَنْهُ بِالْقُيُودِ الْوُجُودِيَّةِ ؛

(470/271)

كَانَ كُلُّ مُمْكِنٍ فِي الْوُجُودِ أَكْمَلَ مِنْ هَذَا الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ فَإِنَّ الْوُجُودَ الْكُلِّيَّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا وَلَمْ يُمَيَّزْ عَنْهَا إلَّا بِعَدَمٍ وَامْتَازَتْ عَنْهُ بِوُجُودٍ فَكَانَ مَا امْتَازَتْ بِهِ عَنْهُ أَكْمَلَ مِمَّا امْتَازَ بِهِ هُوَ عَنْهَا إذْ الْوُجُودُ أَكْمَلُ مِنْ الْعَدَمِ . وَأَمَّا إذَا قِيلَ : هُوَ الْوُجُودُ لَا بِشَرْطِ . فَهَذَا هُوَ الْوُجُودُ الْكُلِّيُّ وَالطَّبِيعِيُّ الْمُطَابِقُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَهَذَا لَا يَكُونُ كُلِّيًّا إلَّا فِي الذِّهْنِ . وَأَمَّا فِي الْخَارِجِ ؛ فَلَا يُوجَدُ إلَّا مُعَيَّنًا . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ : إنَّ هَذَا الْكُلِّيَّ جُزْءٌ مِنْ الْمُعَيَّنَاتِ . فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابَ ؛ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ مَعْدُومًا فِي الْخَارِجِ أَوْ أَنْ يَكُونَ عَيْنُ الْوَاجِبِ عَيْنَ الْمُمْكِنِ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ وَإِنْ

كَانَ الثَّانِي هُوَ الصَّوَابَ ؛ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُهُ جُزْءًا مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ ؛ فَيَكُونُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ جُزْءًا مِنْ وُجُودِ الْمُمْكِنَاتِ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ جُزْءَ الشَّيْءِ لَا يَكُونُ هُوَ الْخَالِقَ لَهُ كُلِّهِ بَلْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا لِنَفْسِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا لِمَا هُوَ بَعْضُهُ إذْ الْكُلُّ أَعْظَمُ مِنْ الْجُزْءِ فَإِذَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا لِلْجُزْءِ ؛ فَامْتِنَاعُ كَوْنِهِ خَالِقًا لِلْكُلِّ أَظْهَرُ وَأَظْهَرُ . فَصَحِيحُ الْمَنْطِقِ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَبَاطِلُ الْمَنْطِقِ أَوْقَعَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَذِبِ وَالْجَهْلِ بِاللَّهِ ﴾

(471/271)

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ وَ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ . وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّ جبرائيل وميكائيل وَإِسْرَافِيل فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؛ اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فَصْلٌ :

(472/271)

وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّك تَعْلَمُ أَنَّا لَا نَعْلَمُ مَا غَابَ عَنَّا إلَّا بِمَعْرِفَةِ مَا شَهِدْنَاهُ فَنَحْنُ نَعْرِفُ أَشْيَاءَ بِحِسِّنَا الظَّاهِرِ أَوْ الْبَاطِنِ وَتِلْكَ مَعْرِفَةٌ مُعَيَّنَةٌ مَخْصُوصَةٌ ثُمَّ إنَّا بِعُقُولِنَا نَعْتَبِرُ الْغَائِبَ بِالشَّاهِدِ فَيَبْقَى فِي أَذْهَانِنَا قَضَايَا عَامَّةٌ كُلِّيَّةٌ ثُمَّ إذَا خُوطِبْنَا بِوَصْفِ مَا غَابَ عَنَّا لَمْ نَفْهَمْ مَا قِيلَ لَنَا إلَّا بِمَعْرِفَةِ الْمَشْهُودِ لَنَا . فَلَوْلَا أَنَّا نَشْهَدُ مِنْ أَنْفُسِنَا جُوعًا وَعَطَشًا وَشِبَعًا وَرِيًّا وَحُبًّا وَبُغْضًا وَلَذَّةً وَأَلَمًا وَرِضًى وَسُخْطًا لَمْ نَعْرِفْ حَقِيقَةَ مَا نُخَاطَبُ بِهِ إذَا وُصِفَ لَنَا ذَلِكَ وَأُخْبِرْنَا بِهِ عَنْ غَيْرِنَا . وَكَذَلِكَ لَوْ لَمْ نَعْلَمْ مَا فِي الشَّاهِدِ : حَيَاةً وَقُدْرَةً وَعِلْمًا وَكَلَامًا لَمْ نَفْهَمْ مَا نُخَاطَبُ بِهِ إذَا وُصِفَ الْغَائِبُ عَنَّا بِذَلِكَ . وَكَذَلِكَ لَوْ لَمْ نَشْهَدْ مَوْجُودًا لَمْ

نَعْرِفُ وُجُودَ الْغَائِبِ عَنَّا فَلَا بُدَّ فِيمَا شَهِدْنَاهُ وَمَا غَابَ عَنَّا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ هُوَ مُسَمَّى اللَّفْظِ الْمُتَوَاطِئِ . فَبِهَذِهِ الْمُوَافَقَةِ وَالْمُشَارَكَةِ وَالْمُشَابَهَةِ وَالْمُوَاطَأَةِ نَفْهَمُ الْغَائِبَ وَنُثْبِتُهُ وَهَذَا خَاصَّةُ الْعَقْلِ . وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ نَعْلَمْ إلَّا مَا نُحِسُّهُ وَلَمْ نَعْلَمْ أُمُورًا عَامَّةً وَلَا أُمُورًا غَائِبَةً عَنْ إحْسَاسِنَا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَلِهَذَا مَنْ لَمْ يُحِسَّ الشَّيْءَ وَلَا نَظِيرَهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ .

(473/271)

ثُمَّ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَنَا بِمَا وَعَدَنَا بِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنْ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ وَأَخْبَرَنَا بِمَا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ وَيُنْكَحُ وَيُفْرَشُ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَلَوْلَا مَعْرِفَتُنَا بِمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ؛ لَمْ نَفْهَمْ مَا وَعَدَنَا بِهِ ؛ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الْحَقَائِقَ لَيْسَتْ مِثْلَ هَذِهِ ؛ حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إلَّا الْأَسْمَاءُ وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ . فَبَيْنَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ فِي الدُّنْيَا وَتِلْكَ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْآخِرَةِ مُشَابَهَةٌ وَمُوَافَقَةٌ وَاشْتِرَاكٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَبِهِ فَهِمْنَا الْمُرَادَ وَأَحْبَبْنَاهُ وَرَغِبْنَا فِيهِ أَوْ أَبْغَضْنَاهُ وَنَفَرْنَا عَنْهُ وَبَيْنَهُمَا مُبَايَنَةٌ وَمُفَاضَلَةٌ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهَا فِي الدُّنْيَا . وَهَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا نَعْلَمُهُ نَحْنُ بَلْ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : " إنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ " حَقًّا وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : " إنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ " حَقًّا . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ

مَأْثُورٌ عَنْ السَّلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ . فَالَّذِينَ قَالُوا إنَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ مُرَادُهُمْ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَهُ وَمَعْنَاهُ وَإِلَّا فَهَلْ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ يَعْرِفُ مَعْنَى مَا يَقُولُهُ وَيُبَلِّغُهُ مِنْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ بَلْ

(474/271)

كَانَ يَتَكَلَّمُ بِأَلْفَاظٍ لَهَا مَعَانٍ لَا يَعْرِفُ مَعَانِيَهَا وَمَنْ قَالَ : إنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ تَأْوِيلَهُ ؛ أَرَادُوا بِهِ الْكَيْفِيَّةَ الثَّابِتَةَ الَّتِي اخْتَصَّ

اللَّهُ بِعِلْمِهَا : وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ : كَرَبِيعَةَ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِهِمَا يَقُولُونَ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ . وَهَذَا قَوْلُ سَائِرِ السَّلَفِ كَابْنِ الماجشون وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ . وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ . فَمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ مَعْلُومٌ وَهُوَ التَّأْوِيلُ وَالتَّفْسِيرُ الَّذِي يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ وَالْكَيْفِيَّةُ هِيَ التَّأْوِيلُ الْمَجْهُولُ لِبَنِي آدَمَ وَغَيْرِهِمْ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَكَذَلِكَ مَا وَعَدَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ تَعْلَمُ الْعِبَادُ تَفْسِيرَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَمَّا كَيْفِيَّتُهُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : " ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴾ " .

(475/271)

فَمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ : نَعْلَمُ تَفْسِيرَهُ وَمَعْنَاهُ وَنَفْهَمُ الْكَلَامَ الَّذِي خُوطِبْنَا بِهِ وَنَعْلَمُ مَعْنَى الْعَسَلِ وَاللَّحْمِ وَاللَّبَنِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَنُفَرِّقُ بَيْنَ مُسَمَّيَاتِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَأَمَّا حَقَائِقُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْلَمَهَا نَحْنُ وَلَا نَعْلَمَ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ . وَتَفْصِيلُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ . بَلْ هَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي هَذَيْنِ الْمَخْلُوقَيْنِ فَالْأَمْرُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَعْظَمُ ؛

(476/271)

فَإِنَّ مُبَايَنَةَ اللَّهِ لِخَلْقِهِ وَعَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ وَفَضْلَهُ : أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِمَّا بَيْنَ مَخْلُوقٍ وَمَخْلُوقٍ . فَإِذَا كَانَتْ صِفَاتُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ مَعَ مُشَابَهَتِهَا لِصِفَاتِ هَذَا الْمَخْلُوقِ : بَيْنَهُمَا مِنْ التَّفَاضُلِ وَالتَّبَايُنِ مَا لَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا – وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْلَمَهُ ؛ بَلْ هُوَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى – فَصِفَاتُ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ مِنْ

التَّبَايُنِ وَالتَّفَاضُلِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمَهُ كُلُّ أَحَدٍ بَلْ مِنْهُ مَا يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ وَمِنْهُ مَا يَعْلَمُهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ وَمِنْهُ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ .

كَمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ التَّفْسِيرَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ وَتَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ مَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ . وَلَفْظُ " التَّأْوِيلِ " فِي كَلَامِ السَّلَفِ لَا يُرَادُ بِهِ إلَّا التَّفْسِيرُ أَوْ الْحَقِيقَةُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ الَّتِي يُؤَوَّلُ إلَيْهَا : كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ الْآيَةَ . وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ التَّأْوِيلِ : بِمَعْنَى أَنَّهُ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلِيلِ يَقْتَرِنُ بِهِ أَوْ مُتَأَخِّرٍ

(477/271)

أَوْ لِمُطْلَقِ الدَّلِيلِ ؛ فَهَذَا اصْطِلَاحُ

(478/271)

بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي لَفْظِ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ مَا يُرَادُ مِنْهُ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا الْمَعْنَى . ثُمَّ لَمَّا شَاعَ هَذَا بَيْنَ الْمُتَأَخِّرِينَ : صَارُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ ﴾ . ثُمَّ طَائِفَةٌ تَقُولُ : لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : بَلْ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ . وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ غالطة ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ بَلْ هُوَ بَاطِلٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ انْتِفَاءَهُ وَأَنَّهُ لَمْ يُرِدْهُ . وَهَذَا مِثْلُ تَأْوِيلَاتِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالْبِدَعِ . وَتِلْكَ التَّأْوِيلَاتُ بَاطِلَةٌ وَاللَّهُ لَمْ يُرِدْهَا بِكَلَامِهِ وَمَا لَمْ يُرِدْهُ لَا نَقُولُ إنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُرَادُهُ فَإِنَّ هَذَا كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَذِبَ ؛ وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ قَدْ عَلِمْنَا بِطَرِيقِ خَبَرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ - بَلْ وَبِطَرِيقِ الِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - أَنَّ اللَّهَ يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ : مَوْصُوفٌ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَهَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ . وَالْخَالِقُ أَحَقُّ بِهَا مِنْ الْمَخْلُوقِ . فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَّصِفَ الْمَخْلُوقُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ دُونَ الْخَالِقِ . وَلَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى مُشْتَرَكٍ كُلِّيٍّ : يَقْتَضِي مِنْ الْمُوَاطَأَةِ وَالْمُوَافَقَةِ وَالْمُشَابَهَةِ مَا بِهِ تُفْهَمُ وَتُثْبَتُ هَذِهِ الْمَعَانِي لِلَّهِ ؛ لَمْ نَكُنْ قَدْ

(479/271)

عَرَفْنَا عَنْ اللَّهِ شَيْئًا وَلَا صَارَ فِي قُلُوبِنَا إيمَانٌ بِهِ وَلَا عِلْمٌ وَلَا مَعْرِفَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ

وَلَا إرَادَةٌ لِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ . فَإِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا تَكُونُ إلَّا مَعَ الْعِلْمِ وَلَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ إلَّا بِإِثْبَاتِ " تِلْكَ الْمَعَانِي " الَّتِي فِيهَا مِنْ الْمُوَافَقَةِ وَالْمُوَاطَأَةِ مَا بِهِ حَصَلَ لَنَا مَا حَصَلَ مِنْ الْعِلْمِ لِمَا غَابَ عَنْ شُهُودِنَا . وَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْحَقَائِقَ الشَّرِيفَةَ وَالْقَوَاعِدَ الْجَلِيلَةَ النَّافِعَةَ ؛ حَصَلَ لَهُ مِنْ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَانْجَابَ عَنْهُ مِنْ الشُّبَهِ وَالضَّلَالِ وَالْحَيْرَةِ مِمَّا يَصِيرُ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ أَفْضَلِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ وَمِنْ سَادَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْقَوْلَ فِي بَعْضِ " صِفَاتِ اللَّهِ " كَالْقَوْلِ فِي سَائِرِهَا وَأَنَّ الْقَوْلَ فِي صِفَاتِهِ كَالْقَوْلِ فِي " ذَاتِهِ " وَأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ صِفَةً دُونَ صِفَةٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ مُشَارَكَةِ أَحَدِهِمَا الْأُخْرَى فِيمَا بِهِ نَفَاهَا ؛ كَانَ مُتَنَاقِضًا . فَمَنْ نَفَى النُّزُولَ وَالِاسْتِوَاءَ أَوْ الرِّضَى وَالْغَضَبَ أَوْ الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ أَوْ اسْمَ الْعَلِيمِ أَوْ الْقَدِيرِ أَوْ اسْمَ الْمَوْجُودِ فِرَارًا بِزَعْمِهِ مِنْ تَشْبِيهِ تَرْكِيبٍ وَتَجْسِيمٍ ؛ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ فِيمَا أَثْبَتَهُ نَظِيرُ مَا أَلْزَمَهُ لِغَيْرِهِ فِيمَا نَفَاهُ هُوَ وَأَثْبَتَ الْمُثْبِتُ . فَكُلُّ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى نَفْيِ النُّزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ وَالرِّضَى وَالْغَضَبِ : يُمْكِنُ مُنَازِعَهُ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِنَظِيرِهِ عَلَى نَفْيِ

الْإِرَادَةِ ؛ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ . وَكُلُّ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ : يُمْكِنُ مُنَازِعَهُ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِنَظِيرِهِ عَلَى نَفْيِ الْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ وَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ . وَكُلُّ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى نَفْيِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ : يُمْكِنُ مُنَازِعَهُ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى نَفْيِ الْمَوْجُودِ وَالْوَاجِبِ .

(482/271)

وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ ؛ فَإِنَّ الْمَوْجُودَ : إمَّا مُمْكِنٌ وَمُحْدَثٌ ؛ وَإِمَّا وَاجِبٌ وَقَدِيمٌ . وَالْمُمْكِنُ الْمُحْدَثُ لَا يُوجَدُ إلَّا بِوَاجِبٍ قَدِيمٍ فَإِذَا كَانَ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْمَوْجُودِ الْوَاجِبِ الْقَدِيمِ وَنَفْيُ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْمَوْجُودِ مُطْلَقًا ؛ عُلِمَ أَنَّ مَنْ عَطَّلَ شَيْئًا مِنْ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ بِمِثْلِ هَذَا الدَّلِيلِ كَانَ قَوْلُهُ مُسْتَلْزِمًا تَعْطِيلَ الْمَوْجُودِ الْمَشْهُودِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ : أَنَّهُ إذَا قَالَ : النُّزُولُ وَالِاسْتِوَاءُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ فَإِنَّهُ لَا يُعْقَلُ النُّزُولُ وَالِاسْتِوَاءُ إلَّا لِجِسْمٍ مُرَكَّبٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذِهِ اللَّوَازِمِ ؛ فَيَلْزَمُ تَنْزِيهُهُ عَنْ الْمَلْزُومِ . أَوْ قَالَ : هَذِهِ حَادِثَةٌ وَالْحَوَادِثُ لَا تَقُومُ إلَّا بِجِسْمٍ مُرَكَّبٍ وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ : الرِّضَا وَالْغَضَبُ وَالْفَرَحُ وَالْمَحَبَّةُ

وَنَحْوُ ذَلِكَ هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ . فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ : وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ : مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ فَإِنَّا كَمَا لَا نَعْقِلُ مَا يَنْزِلُ وَيَسْتَوِي وَيَغْضَبُ وَيَرْضَى إِلَّا جِسْمًا ؛ لَمْ نَعْقِلْ مَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيُرِيدُ وَيَعْلَمُ وَيُقَدِّرُ إِلَّا جِسْمًا . فَإِذَا قِيلَ : سَمْعُهُ لَيْسَ كَسَمْعِنَا وَبَصَرُهُ لَيْسَ كَبَصَرِنَا وَإِرَادَتُهُ لَيْسَتْ كَإِرَادَتِنَا وَكَذَلِكَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ : قِيلَ لَهُ : وَكَذَلِكَ رِضَاهُ لَيْسَ كَرِضَانَا

(483/271)

وَغَضَبُهُ لَيْسَ كَغَضَبِنَا وَفَرَحُهُ لَيْسَ كَفَرَحِنَا وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ لَيْسَ كَنُزُولِنَا وَاسْتِوَائِنَا .

(484/271)

فَإِذَا قَالَ : لَا يُعْقَلُ فِي الشَّاهِدِ غَضَبٌ إِلَّا غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ وَلَا يُعْقَلُ نُزُولٌ إِلَّا الِانْتِقَالُ وَالِانْتِقَالُ يَقْتَضِي تَفْرِيغَ حَيِّزٍ وَشَغْلَ آخَرَ فَلَوْ كَانَ يَنْزِلُ ؛ لَمْ يَبْقَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ . قِيلَ : وَلَا يُعْقَلُ فِي الشَّاهِدِ إِرَادَةٌ إِلَّا مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى جَلْبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَنْفَعُهُ وَيَفْتَقِرُ فِيهِ إِلَى مَا سِوَاهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ فِي حَدِيثِهِ الْإِلَهِيِّ :

﴿ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي ﴾ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ الْإِرَادَةِ الَّتِي لَا يُعْقَلُ فِي الشَّاهِدِ . إلَّا هِيَ . وَكَذَلِكَ السَّمْعُ لَا يُعْقَلُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا بِدُخُولِ صَوْتٍ فِي الصِّمَاخِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي أَجْوَفَ ؛ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ مُنَزَّهٌ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ بَلْ وَكَذَلِكَ الْبَصَرُ وَالْكَلَامُ لَا يُعْقَلُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا فِي مَحَلٍّ أَجْوَفَ ؛ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَخَلْقٌ مِنْ السَّلَفِ : " الصَّمَدُ " الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ ؛ فَإِنَّ لَفْظَ " الصَّمَدِ " فِي اللُّغَةِ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا وَالصَّمَدُ فِي اللُّغَةِ السَّيِّدُ ؛ " وَالصَّمَدُ " أَيْضًا الْمُصَمَّدُ وَالْمُصَمَّدُ الْمُصْمَتُ وَكِلَاهُمَا مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ .

(485/271)

وَلِهَذَا قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ : الْمَلَائِكَةُ صَمَدٌ وَالْآدَمِيُّونَ جَوْفٌ . وَهَذَا أَيْضًا دَلِيلٌ آخَرُ ؛ فَإِنَّهُ إذَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ - وَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْ النُّورِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ " ﴿ خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ نَارٍ ؛ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ ﴾ " فَإِذَا كَانُوا مَخْلُوقِينَ مِنْ نُورٍ ؛ وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ ؛ بَلْ هُمْ صَمَدٌ لَيْسُوا جَوْفًا كَالْإِنْسَانِ وَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ

وَيَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ بِالنُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا تُمَاثِلُ صِفَاتُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ وَفِعْلَهُ ؛ فَالْخَالِقُ تَعَالَى أَعْظَمُ مُبَايَنَةً لِمَخْلُوقَاتِهِ مِنْ مُبَايَنَةِ الْمَلَائِكَةِ لِلْآدَمِيِّينَ ؛ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا مَخْلُوقٌ . وَالْمَخْلُوقُ أَقْرَبُ إلَى مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِ مِنْ الْمَخْلُوقِ إلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَكَذَلِكَ " رُوحُ ابْنِ آدَمَ " تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَتَكَلَّمُ وَتَنْزِلُ وَتَصْعَدُ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ بِالنُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعْقُولَاتِ الصَّرِيحَةِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ صِفَاتُهَا وَأَفْعَالُهَا كَصِفَاتِ الْبَدَنِ وَأَفْعَالِهِ . فَإِذَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ : إنَّ صِفَاتِ الرُّوحِ وَأَفْعَالَهَا مِثْلُ صِفَاتِ الْجِسْمِ الَّذِي هُوَ الْجَسَدُ وَهِيَ مَقْرُونَةٌ بِهِ وَهُمَا جَمِيعًا الْإِنْسَانُ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ رُوحُ الْإِنْسَانِ مُمَاثِلًا لِلْجِسْمِ الَّذِي هُوَ بَدَنُهُ ؛ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ

(486/271)

الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَصِفَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ مِثْلَ الْجِسْمِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ؟ !

فَإِنْ أَرَادَ النَّافِي الْتِزَامَ أَصْلِهِ ؛ وَقَالَ : أَنَا أَقُولُ لَيْسَ لَهُ كَلَامٌ يَقُومُ بِهِ ؛ بَلْ

(487/271)

كَلَامُهُ مَخْلُوقٌ ؛ قِيلَ لَهُ : فَيَلْزَمُك فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ فَإِنَّ الْبَصْرِيِّينَ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ يُثْبِتُونَ الْإِدْرَاكَ . فَإِنْ قَالَ : أَنَا أَقُولُ بِقَوْلِ الْبَغْدَادِيِّينَ مِنْهُمْ - فَلَا أُثْبِتُ لَهُ سَمْعًا وَلَا بَصَرًا وَلَا كَلَامًا يَقُومُ بِهِ ؛ بَلْ أَقُولُ كَلَامُهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لِأَنَّ إثْبَاتَ ذَلِكَ تَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ بَلْ وَلَا أُثْبِتُ لَهُ إرَادَةً كَمَا لَا يُثْبِتُهَا الْبَغْدَادِيُّونَ ؛ بَلْ أَجْعَلُهَا سَلْبًا أَوْ إضَافَةً فَأَقُولُ : مَعْنَى كَوْنِهِ مُرِيدًا أَنَّهُ غَيْرُ مَغْلُوبٍ وَلَا مُكْرَهٍ أَوْ بِمَعْنَى كَوْنِهِ خَالِقًا وَآمِرًا - قِيلَ لَهُ : فَيَلْزَمُك ذَلِكَ فِي كَوْنِهِ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ مُطْبِقَةٌ عَلَى إثْبَاتِ أَنَّهُ حَيٌّ عَالِمٌ قَادِرٌ وَقِيلَ لَهُ : أَنْتَ لَا تَعْرِفُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا إلَّا جِسْمًا ؛ فَإِذَا جَعَلْته حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا ؛ لَزِمَك التَّجْسِيمُ وَالتَّشْبِيهُ . فَإِنْ زَادَ فِي التَّعْطِيلِ وَقَالَ : أَنَا لَا أَقُولُ بِقَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ ؛ بَلْ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ الْمَحْضَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَأَنْفِي الْأَسْمَاءَ مَعَ الصِّفَاتِ وَلَا أُسَمِّيهِ حَيًّا وَلَا عَالِمًا وَلَا قَادِرًا وَلَا مُتَكَلِّمًا إلَّا مَجَازًا بِمَعْنَى السَّلْبِ وَالْإِضَافَةِ : أَيْ هُوَ لَيْسَ بِجَاهِلٍ وَلَا عَاجِزٍ وَجَعَلَ غَيْرَهُ عَالِمًا قَادِرًا - قِيلَ لَهُ : فَيَلْزَمُك ذَلِكَ فِي كَوْنِهِ مَوْجُودًا وَاجِبًا بِنَفْسِهِ قَدِيمًا فَاعِلًا ؛ فَإِنَّ جَهْمًا قَدْ قِيلَ : إنَّهُ كَانَ يُثْبِتُ كَوْنَهُ فَاعِلًا قَادِرًا ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَهُ لَيْسَ بِقَادِرٍ وَلَا فَاعِلٍ فَلَا

(488/271)

تَشْبِيهَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ . وَإِذَا وَصَلَ إلَى هَذَا الْمَقَامِ ؛ فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَقُولَ بِقَوْلِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَيَقُولَ :

أَنَا لَا أَصِفُهُ بِصِفَةِ وُجُودٍ وَلَا عَدَمٍ فَلَا أَقُولُ مَوْجُودٌ وَلَا مَعْدُومٌ أَوْ لَا مَوْجُودٌ وَلَا غَيْرُ مَوْجُودٍ بَلْ أُمْسِكُ عَنْ النَّقِيضَيْنِ فَلَا أَتَكَلَّمُ لَا بِنَفْيِ وَلَا إثْبَاتٍ . وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ : أَنَا لَا أَصِفُهُ قَطُّ بِأَمْرِ ثُبُوتِيٍّ بَلْ بِالسَّلْبِيِّ ؛ فَلَا أَقُولُ مَوْجُودٌ بَلْ أَقُولُ لَيْسَ بِمَعْدُومِ . وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : بَلْ هُوَ مَعْدُومٌ ؛ فَالْقِسْمَةُ حَاصِرَةٌ . فَإِنَّهُ ؛ إمَّا أَنْ يَصِفَهُ بِأَمْرِ ثُبُوتِيٍّ فَيَلْزَمَهُ مَا أَلْزَمَهُ لِغَيْرِهِ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ لَا أَصِفُهُ بِالثُّبُوتِ بَلْ بِسَلْبِ الْعَدَمِ فَلَا أَقُولُ مَوْجُودٌ بَلْ لَيْسَ بِمَعْدُومِ .

(489/271)

وَإِمَّا أَنْ يَلْتَزِمَ التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ فَيَقُولَ : مَا ثَمَّ وُجُودٌ وَاجِبٌ ؛ فَإِنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ وَقَالَ لَا أُثْبِتُ وَاحِدًا مِنْ النَّقِيضَيْنِ : لَا الْوُجُودَ وَلَا الْعَدَمَ . قِيلَ : هَبْ أَنَّك تَتَكَلَّمُ بِذَلِكَ بِلِسَانِك ؛ وَلَا تَعْتَقِدُ بِقَلْبِك وَاحِدًا مِنْ الْأَمْرَيْنِ بَلْ تَلْتَزِمُ الْإِعْرَاضَ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ فَلَا تَذْكُرُهُ قَطُّ وَلَا تَعْبُدُهُ وَلَا تَدْعُوهُ وَلَا تَرْجُوهُ وَلَا تَخَافُهُ ؛ فَيَكُونُ جَحْدُك لَهُ أَعْظَمَ مَنْ جَحْدِ إبْلِيسَ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ فَامْتِنَاعُك مِنْ إثْبَاتِ أَحَدِ النَّقِيضَيْنِ لَا يَسْتَلْزِمُ رَفْعَ النَّقِيضَيْنِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؛ فَإِنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يُمْكِنُ رَفْعُهُمَا ؛ بَلْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ - أَيَّ شَيْءٍ كَانَ

- إمَّا مَوْجُودًا وإمَّا مَعْدُومًا إمَّا أَنْ يَكُونَ وإمَّا أَلَّا يَكُونَ ولَيْسَ بَيْنَ النَّفْيِ والْإِثْبَاتِ واسِطَةٌ أَصْلًا . ونَحْنُ نَذْكُرُ ما فِي نَفْسِ الْأَمْرِ سَوَاءٌ جَحَدْتَه أَنْتَ أَوْ اعْتَرَفْتَ بِهِ وسَوَاءٌ

(490/271)

ذَكَرْتَه أَوْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ ؛ فَإِعْرَاضُ الْإِنْسَانِ عَنْ رُؤْيَةِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ والْكَوَاكِبِ والسَّمَاءِ لَا يَدْفَعُ وُجُودَهَا ولَا يَدْفَعُ ثُبُوتَ أَحَدِ النَّقِيضَيْنِ ؛ بَلْ بِالضَّرُورَةِ " الشَّمْسُ " إمَّا مَوْجُودَةٌ وإمَّا مَعْدُومَةٌ فَإِعْرَاضُ قَلْبِك ولِسَانِك عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ كَيْفَ يَدْفَعُ وُجُودَهُ ويُوجِبُ رَفْعَ النَّقِيضَيْنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إمَّا مَوْجُودًا وإمَّا مَعْدُومًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . وكَذَلِكَ مَنْ قَالَ : أَنَا لَا أَقُولُ مَوْجُودٌ ؛ بَلْ أَقُولُ لَيْسَ بِمَعْدُومٍ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : سَلْبُ أَحَدِ النَّقِيضَيْنِ إثْبَاتٌ لِلْآخَرِ فَأَنْتَ غَيَّرْتَ الْعِبَارَةَ ؛ إذْ قَوْلُ الْقَائِلِ : لَيْسَ بِمَعْدُومٍ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا فَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ مَعْدُومًا ؛ إمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا ؛ وإمَّا أَلَّا يَكُونَ لَا مَوْجُودًا ولَا مَعْدُومًا . وهَذَا " الْقِسْمُ الثَّالِثُ " يُوجِبُ رَفْعَ النَّقِيضَيْنِ وهُوَ مِمَّا يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِالضَّرُورَةِ فَوَجَبَ أَنَّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ مَعْدُومًا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا . وإنْ قَالَ : بَلْ أَلْتَزِمُ أَنَّهُ مَعْدُومٌ ؛ قِيلَ لَهُ : فَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالْمُشَاهَدَةِ والْعَقْلِ وُجُودُ مَوْجُودَاتٍ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَيْضًا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ - كَمَا نَعْلَمُ نَحْنُ أَنَّا حَادِثُونَ بَعْدَ عَدَمِنَا وأَنَّ السَّحَابَ حَادِثٌ والْمَطَرَ والنَّبَاتَ حَادِثٌ والدَّوَابَّ حَادِثَةٌ وأَمْثَالَ ذَلِكَ مِنْ

الْآيَاتِ الَّتِي نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي

(491/271)

الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

(492/271)

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ الْمَشْهُورَةُ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ وَاجِبَةَ الْوُجُودِ بِذَاتِهَا ؛ فَإِنَّ مَا وَجَبَ وُجُودُهُ بِنَفْسِهِ امْتَنَعَ عَدَمُهُ وَوَجَبَ قِدَمُهُ وَهَذِهِ كَانَتْ مَعْدُومَةً ثُمَّ وُجِدَتْ ؛ فَدَلَّ وُجُودُهَا بَعْدَ عَدَمِهَا عَلَى أَنَّهَا يُمْكِنُ وُجُودُهَا وَيُمْكِنُ عَدَمُهَا فَإِنَّ كِلَيْهِمَا قَدْ تَحَقَّقَ فِيهَا ؛ فَعُلِمَ بِالضَّرُورَةِ اشْتِمَالُ الْوُجُودِ عَلَى مَوْجُودٍ مُحْدَثٍ مُمْكِنٍ . فَنَقُولُ حِينَئِذٍ : الْمَوْجُودُ وَالْمُحْدَثُ الْمُمْكِنُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ قَدِيمٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وُجُودُ الْمُحْدَثِ بِنَفْسِهِ كَمَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الْمَعَارِفِ الضَّرُورِيَّةِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ

بَعْدَ قُوَّتِهِ وَوُجُودِهِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ فِي ذَاتِهِ عُضْوًا وَلَا قَدْرًا فَلَا يُقَصِّرُ الطَّوِيلَ وَلَا يُطَوِّلُ الْقَصِيرَ وَلَا يَجْعَلُ رَأْسَهُ أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ وَلَا أَصْغَرَ وَكَذَلِكَ أَبَوَاهُ لَا يَقْدِرَانِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْحَادِثَ بَعْدَ عَدَمِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ مَعْلُومَةٌ بِالْفِطْرَةِ حَتَّى لِلصِّبْيَانِ ؛ فَإِنَّ الصَّبِيَّ لَوْ ضَرَبَهُ ضَارِبٌ وَهُوَ غَافِلٌ لَا يُبْصِرُهُ لَقَالَ : مَنْ ضَرَبَنِي ؟ فَلَوْ قِيلَ لَهُ : لَمْ يَضْرِبْك أَحَدٌ ؛ لَمْ يَقْبَلْ عَقْلُهُ أَنْ تَكُونَ الضَّرْبَةُ حَدَثَتْ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ ؛ بَلْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْحَادِثِ

(493/271)

مِنْ مُحْدِثٍ ؛ فَإِذَا قِيلَ : فُلَانٌ ضَرَبَك ؛ بَكَى حَتَّى يَضْرِبَ ضَارِبَهُ ؛ فَكَانَ فِي فِطْرَتِهِ الْإِقْرَارُ

(494/271)

بِالصَّانِعِ وَبِالشَّرْعِ الَّذِي مَبْنَاهُ عَلَى الْعَدْلِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ . " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى بَدْرٍ قَالَ : وَجَدْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ قَالَ : فَلَمَّا سَمِعْت

هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ؟ أَحْسَسْت بِفُؤَادِي قَدْ انْصَدَعَ ﴾ . وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا تَقْسِيمٌ حَاصِرٌ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِصِيغَةِ اسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ مَعْلُومَةٌ بِالضَّرُورَةِ لَا يُمْكِنُ جَحْدُهَا يَقُولُ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ خَلَقَهُمْ ؛ أَمْ هُمْ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ كِلَا النَّقِيضَيْنِ بَاطِلٌ ؛ فَتَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَهُنَا طُرُقٌ كَثِيرَةٌ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : الْوُجُودُ إمَّا قَدِيمٌ وَإِمَّا مُحْدَثٌ وَالْمُحْدَثُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَدِيمٍ وَالْمَوْجُودُ إمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مُمْكِنٌ وَالْمُمْكِنُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَاجِبٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَقَدْ لَزِمَ أَنَّ الْوُجُودَ فِيهِ مَوْجُودٌ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ وَمَوْجُودٌ مُمْكِنٌ مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ . وَهَذَانِ قَدْ اشْتَرَكَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَهُوَ لَا يَعْقِلُ مَوْجُودًا فِي الشَّاهِدِ إلَّا جِسْمًا ؛ فَلَزِمَهُ مَا أَلْزَمَهُ لِغَيْرِهِ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ الَّذِي ادَّعَاهُ .

(495/271)

فَعُلِمَ أَنَّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَإِنَّ نَفْيَهُ بَاطِلٌ

(496/271)

وَلَوْ لَمْ يَرِدْ الشَّرْعُ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ وَلَا دَلَّ أَيْضًا عَلَيْهِ الْعَقْلُ . فَكَيْفَ يُنْفَى بِمِثْلِ ذَلِكَ مَا دَلَّ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ عَلَى ثُبُوتِهِ فَيَتَبَيَّنُ أَنَّ كُلَّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنْ الصِّفَاتِ - لِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ - لَزِمَهُ مَا أَلْزَمَ بِهِ غَيْرُهُ وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ الْجَوَابُ مُشَارِكًا . وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَ هَذَا لَازِمًا عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ؛ عُلِمَ أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِهِ عَلَى نَفْيِ الْمَلْزُومِ بَاطِلٌ فَإِنَّ الْمَلْزُومَ مَوْجُودٌ لَا يُمْكِنُ نَفْيُهُ بِحَالٍ ؛ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ الِاسْتِدْلَالُ بِمِثْلِ هَذَا فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مِمَّا أَحْدَثَتْهُ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَتَلَقَّاهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ : يَنْفِي عَنْ الرَّبِّ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ الرَّبِّ ؛ مِثْلُ أَنْ يَنْفِيَ عَنْهُ النَّقَائِصَ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا : كَالْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَالْحَاجَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَذَا تَنْزِيهٌ صَحِيحٌ ؛ وَلَكِنْ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَ فَيُعَارَضُ بِمَا أَثْبَتَهُ ؛ فَيَلْزَمُهُ التَّنَاقُضُ . وَمِنْ هُنَا دَخَلَتْ " الْمَلَاحِدَةُ الْبَاطِنِيَّةُ " عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى رَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ خَلْقًا عَظِيمًا صَارُوا يَقُولُونَ لِمَنْ نَفَى شَيْئًا عَنْ الرَّبِّ - مِثْلُ مَنْ يَنْفِي بَعْضَ الصِّفَاتِ أَوْ جَمِيعَهَا أَوْ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى - أَلَمْ تَنْفِ هَذَا ؟ لِئَلَّا يَلْزَمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّجْسِيمُ فَيَقُولُ : بَلَى فَيَقُولُ : وَهَذَا اللَّازِمُ يَلْزَمُك فِيمَا أَثْبَتَّهُ ؛ فَيَحْتَاجُ أَنْ

يُوَافِقَهُمْ عَلَى النَّفْيِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ أَمْرُهُ إلَى أَنْ لَا يَعْرِفَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ ؛ وَلَا يَذْكُرَهُ بِلِسَانِهِ وَلَا يَعْبُدَهُ وَلَا يَدْعُوَهُ وَإِنْ كَانَ لَا يَجْزِمُ بِعَدَمِهِ بَلْ يُعَطِّلُ نَفْسَهُ عَنْ الْإِيمَانِ بِهِ وَقَدْ عُرِفَ تَنَاقُضُ هَؤُلَاءِ .

(498/271)

وَإِنْ الْتَزَمَ تَعْطِيلَهُ وَجَحْدَهُ مُوَافَقَةً لِفِرْعَوْنَ ؛ كَانَ تَنَاقُضُهُ أَعْظَمَ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ : فَهَذَا الْعَالَمُ الْمَوْجُودُ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ صَانِعٌ كَانَ قَدِيمًا أَزَلِيًّا وَاجِبًا بِنَفْسِهِ - وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ فِيهِ حَوَادِثَ كَثِيرَةً كَمَا تَقَدَّمَ - وَحِينَئِذٍ فَفِي الْوُجُودِ قَدِيمٌ وَمُحْدَثٌ وَوَاجِبٌ وَمُمْكِنٌ وَحِينَئِذٍ فَيَلْزَمُك أَنْ يَكُونَ ثَمَّ مَوْجُودَانِ : أَحَدُهُمَا قَدِيمٌ وَاجِبٌ . وَالْآخَرُ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ ؛ فَيَلْزَمُك مَا فَرَرْت مِنْهُ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ بَلْ هَذَا يَلْزَمُك بِصَرِيحِ قَوْلِك فَإِنَّ الْعَالَمَ الْمَشْهُودَ جِسْمٌ تَقُومُ بِهِ الْحَرَكَاتُ فَإِنَّ الْفَلَكَ جِسْمٌ وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْكَوَاكِبُ أَجْسَامٌ تَقُومُ بِهَا الْحَرَكَاتُ وَالصِّفَاتُ ؛ فَجَحَدْت رَبَّ الْعَالَمِينَ لِئَلَّا تَجْعَلَ الْقَدِيمَ الْوَاجِبَ جِسْمًا تَقُومُ بِهِ الصِّفَاتُ وَالْحَرَكَاتُ ثُمَّ فِي آخِرِ أَمْرِك جَعَلْت الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ الْوَاجِبَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ أَجْسَامًا مُتَعَدِّدَةً تُشْبِهُ غَيْرَهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ تَقُومُ بِهَا الصِّفَاتُ وَالْحَرَكَاتُ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ الِافْتِقَارِ وَالْحَاجَةِ .

فَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مَحَالِّهَا الَّتِي هِيَ فِيهَا وَمَوَاضِعِهَا الَّتِي تَحْمِلُهَا وَتَدُورُ بِهَا وَالْأَفْلَاكُ كُلٌّ مِنْهَا مُحْتَاجٌ إِلَى مَا سِوَاهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ نَقْصِهَا وَحَاجَتِهَا .

(499/271)

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ هَذَا الَّذِي فَرَّ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ الْقَدِيمَ الْوَاجِبَ مَوْجُودًا - وَمَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ لِئَلَّا يَلْزَمَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَجَعَلَ نَفْيَ هَذَا اللَّازِمِ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ مَا جَعَلَهُ مَلْزُومًا لَهُ - لَزِمَهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مَا فَرَّ مِنْهُ مِنْ جَعْلِهِ الْمَوْجُودَ الْوَاجِبَ جِسْمًا يُشْبِهُ غَيْرَهُ مَعَ أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتِ النَّقْصِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا وَمَعَ أَنَّهُ جَحَدَ الْخَالِقَ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ فَلَزِمَهُ مَعَ الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ عَامَّةِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالصَّانِعِ مَعَ عِبَادَتِهِمْ لِمَا سِوَاهُ وَلَزِمَهُ مَعَ هَذَا أَنَّهُ مِنْ أَجْهَلِ بَنِي آدَمَ وَأَفْسَدِهِمْ عَقْلًا وَنَظَرًا وَأَشَدِّهِمْ تَنَاقُضًا . وَهَكَذَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِالَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ - مَعَ دَعْوَى النَّظَرِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ وَالْقِيَاسِ كَفِرْعَوْنَ وَأَتْبَاعِهِ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ

(500/271)

آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ

(501/271)

فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا

جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ ﴿ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي

(502/271)

الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

(503/271)

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ " الْجِسْمِ " وَ " التَّشْبِيهِ " فِيهِ إجْمَالٌ وَاشْتِبَاهٌ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ النُّفَاةِ لَا يُرِيدُونَ بِالْجِسْمِ الَّذِي نَفَوْهُ مَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْجِسْمِ فِي اللُّغَةِ فَإِنَّ الْمَوْصُوفَ بِالصِّفَاتِ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْجِسْمَ الَّذِي فِي اللُّغَةِ كَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ وَسَنَأْتِي بِذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِالْجِسْمِ مَا اعْتَقَدُوهُ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَاعْتَقَدُوا أَنَّ كُلَّ مَا تَقُومُ بِهِ الصِّفَاتُ فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَهَذَا الِاعْتِقَادُ بَاطِلٌ . بَلْ الرَّبُّ مَوْصُوفٌ بِالصِّفَاتِ وَلَيْسَ جِسْمًا مُرَكَّبًا لَا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَلَا مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ كَمَا يَدَّعُونَ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الصِّفَاتِ لُزُومُ مَا ادَّعَوْهُ مِنْ الْمُحَالِ بَلْ غَلِطُوا فِي هَذَا التَّلَازُمِ . وَأَمَّا مَا هُوَ لَازِمٌ لَا رَيْبَ فِيهِ ؛ فَذَاكَ يَجِبُ إثْبَاتُهُ لَا يَجُوزُ نَفْيُهُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى . فَكَانَ غَلَطُهُمْ بِاسْتِعْمَالِ لَفْظٍ مُجْمَلٍ وَإِحْدَى الْمُقَدِّمَتَيْنِ بَاطِلَةٌ : إمَّا الْأُولَى وَإِمَّا الثَّانِيَةُ كَمَا سَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَهَذِهِ قَوَاعِدُ مُخْتَصَرَةٌ جَامِعَةٌ وَهِيَ مَبْسُوطَةٌ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى .

فَصْلٌ :

(504/271)

إذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَقَوْلُ السَّائِلِ : كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : كَيْفَ اسْتَوَى ؟ وَقَوْلُهُ : كَيْفَ يَسْمَعُ ؟ وَكَيْفَ يُبْصِرُ ؟ وَكَيْفَ : يَعْلَمُ وَيُقَدِّرُ ؟ وَكَيْفَ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْجَوَابُ عَنْ مِثْلِ هَذَا السُّؤَالِ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ مِثْلِ : مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَشَيْخِهِ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ مَالِكًا عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كَيْفَ اسْتَوَى ؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثُمَّ قَالَ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَمَا أُرَاكَ إلَّا رَجُلَ سَوْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ .

وَمِثْلُ هَذَا الْجَوَابِ ثَابِتٌ عَنْ رَبِيعَةَ شَيْخِ مَالِكٍ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْجَوَابُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا وَلَكِنْ لَيْسَ إسْنَادُهُ مِمَّا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَهَكَذَا سَائِرُ الْأَئِمَّةِ قَوْلُهُمْ يُوَافِقُ قَوْلَ مَالِكٍ : فِي أَنَّا لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ اسْتِوَائِهِ كَمَا لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ وَلَكِنْ نَعْلَمُ الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْخِطَابُ فَنَعْلَمُ مَعْنَى الِاسْتِوَاءِ وَلَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ وَكَذَلِكَ نَعْلَمُ مَعْنَى النُّزُولِ وَلَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ وَنَعْلَمُ مَعْنَى السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَلَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ وَنَعْلَمُ مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْفَرَحِ وَالضَّحِكِ وَلَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ .

(505/271)

وَأَمَّا سُؤَالُ السَّائِلِ : هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَمْ لَا يَخْلُو مِنْهُ ؟ - وَإِمْسَاكُ الْمُجِيبِ عَنْ هَذَا لِعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يُجِيبُ بِهِ فَإِنَّهُ إمْسَاكٌ عَنْ الْجَوَابِ بِمَا لَمْ يَعْلَمْ حَقِيقَتَهُ - وَسُؤَالُ السَّائِلِ لَهُ عَنْ هَذَا إنْ كَانَ نَفْيًا لِمَا أَثْبَتَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَأٌ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ اسْتِرْشَادًا فَحَسَنٌ وَإِنْ كَانَ تَجْهِيلًا لِلْمَسْئُولِ ؛ فَهَذَا فِيهِ تَفْصِيلٌ . فَإِنَّ الْمُثْبِتَ الَّذِي لَمْ يُثْبِتْ إلَّا مَا أَثْبَتَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَفَى عِلْمَهُ بِالْكَيْفِيَّةِ ؛ فَقَوْلُهُ سَدِيدٌ لَا يُرَدُّ عَلَيْهِ سُؤَالُهُ وَالْمُعْتَرِضُ الَّذِي يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ بِهَذَا السُّؤَالِ ؛ اعْتِرَاضُهُ بَاطِلٌ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي جَوَابِ الْمُجِيبِ .

(506/271)

وَقَوْلُ الْمَسْئُولِ : هَذَا قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ وَرَأْيٌ مُخْتَرَعٌ - حَيْدَةٌ مِنْهُ عَنْ الْجَوَابِ - يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِ بِالْجَوَابِ السَّدِيدِ ؛ وَلَكِنْ لَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ نَفْيَ الْمُعْتَرِضِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ وَلَا عَلَى أَنَّ تَأْوِيلَهُ بِنُزُولِ أَمْرِهِ وَرَحْمَتِهِ تَأْوِيلٌ صَحِيحٌ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ : أَنَّ هَذَا الْمُعْتَرِضَ إمَّا أَنْ يُقِرَّ بِأَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ مُقِرًّا بِذَلِكَ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُقِرًّا بِذَلِكَ ؛ كَانَ قَوْلُهُ : هَلْ يَخْلُو الْعَرْشُ مِنْهُ أَمْ لَا يَخْلُو ؟ كَلَامًا بَاطِلًا ؛ لِأَنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ فَرْعُ ثُبُوتِ كَوْنِهِ عَلَى الْعَرْشِ . وَإِنْ قَالَ الْمُعْتَرِضُ : أَنَا ذَكَرْت هَذَا التَّقْسِيمَ لِأَنْفِيَ نُزُولَهُ وَأَنْفِيَ الْعُلُوَّ - لِأَنَّهُ إنْ قَالَ :

يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ لَزِمَ أَنْ يَخْلُوَ مِنْ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَعُلُوِّهِ عَلَيْهِ وَأَنْ لَا يَكُونَ وَقْتَ النُّزُولِ هُوَ الْعَلِيَّ الْأَعْلَى بَلْ يَكُونُ فِي جَوْفِ الْعَالَمِ وَالْعَالَمُ مُحِيطٌ بِهِ . وَإِنْ قَالَ : إنَّ الْعَرْشَ لَا يَخْلُو مِنْهُ قِيلَ لَهُ : فَإِذَا لَمْ يَخْلُ الْعَرْشُ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَزَلَ فَإِنَّ نُزُولَهُ بِدُونِ خُلُوِّ الْعَرْشِ مِنْهُ لَا يُعْقَلُ - فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعْتَرِضِ :

(507/271)

هَذَا الِاعْتِرَاضُ بَاطِلٌ لَا يَنْفَعُك لِأَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْجُودٌ بِالضَّرُورَةِ وَالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالِاتِّفَاقِ . فَهُوَ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ فَوْقَهُ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُدَاخِلًا لِلْعَالَمِ محايثا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لَا هَذَا وَلَا هَذَا . فَإِنْ قُلْت : إنَّهُ محايث لِلْعَالَمِ بَطَلَ قَوْلُك فَإِنَّك إذَا جَوَّزْت نُزُولَهُ وَهُوَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ لَمْ يَمْتَنِعْ عِنْدَك خُلُوُّ مَا فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْهُ بَلْ هُوَ دَائِمًا خَالٍ مِنْهُ لِأَنَّهُ هُنَاكَ لَيْسَ عِنْدَك شَيْءٌ ثُمَّ يُقَالُ لَك : وَهَلْ يُعْقَلُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَأَنَّهُ مَعَ هَذَا يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ؟ فَإِنْ قُلْت : نَعَمْ ؛ قِيلَ لَك : فَإِذَا نَزَلَ هَلْ يَخْلُو مِنْهُ بَعْضُ الْأَمْكِنَةِ أَوْ لَا يَخْلُو ؟ فَإِنْ قُلْت : يَخْلُو مِنْهُ بَعْضُ الْأَمْكِنَةِ ؛ كَانَ هَذَا نَظِيرَ خُلُوِّ الْعَرْشِ مِنْهُ . فَإِنْ قُلْت : لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ ؛ كَانَ هَذَا نَظِيرَ كَوْنِ الْعَرْشِ لَا يَخْلُو مِنْهُ . فَإِنْ جَوَّزْت هَذَا ؛ كَانَ لِخَصْمِك أَنْ يُجَوِّزَ هَذَا . فَقَدْ لَزِمَك عَلَى قَوْلِك مَا يَلْزَمُ مُنَازِعَك بَلْ قَوْلُك أَبْعَدُ عَنْ الْمَعْقُولِ

لِأَنَّ نُزُولَ مَنْ هُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ أَقْرَبُ إلَى الْمَعْقُولِ مِنْ نُزُولِ مَنْ هُوَ حَالٌّ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ فَإِنَّ نُزُولَ هَذَا لَا يُعْقَلُ بِحَالٍ وَمَا فَرَرْت مِنْهُ مِنْ الْحُلُولِ وَقَعْت فِي نَظِيرِهِ بَلْ مُنَازِعُك الَّذِي يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَهُ مِنْ الْعَالَمِ وَيَنْزِلُ إلَى الْعَالَمِ أَشَدُّ تَعْظِيمًا لِلَّهِ مِنْك وَيُقَالُ لَهُ : هَلْ يُعْقَلُ مَوْجُودَانِ

(508/271)

قَائِمَانِ بِأَنْفُسِهِمَا أَحَدُهُمَا محايث لِلْآخَرِ ؟ فَإِنْ قَالَ : لَا ؛ بَطَلَ قَوْلُهُ . وَإِنْ قَالَ : نَعَمْ ؛ قِيلَ لَهُ : فَلْيُعْقَلْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ فَإِنَّ هَذَا أَقْرَبُ إلَى الْعَقْلِ مِمَّا إذَا قُلْت : إنَّهُ حَالٌّ فِي الْعَالَمِ .

(509/271)

وَإِنْ قُلْت ؛ إنَّهُ لَا مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَاخِلٌ لَهُ ؛ قِيلَ لَك : فَهَلْ يُعْقَلُ مَوْجُودَانِ قَائِمَانِ بِأَنْفُسِهِمَا لَيْسَ أَحَدُهُمَا مُبَايِنًا لِلْآخَرِ وَلَا محايثا لَهُ ؟ فَإِنَّ جُمْهُورَ الْعُقَلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ فَإِذَا قَالَ : نَعَمْ يُعْقَلُ ذَلِكَ فَيُقَالُ لَهُ : فَإِنْ جَازَ وُجُودُ مَوْجُودٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ

مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ وَلَا محايثا لَهُ فَوُجُودُ مُبَايِنٍ لِلْعَالَمِ يَنْزِلُ إلَى الْعَالَمِ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ أَقْرَبُ إلَى الْمَعْقُولِ ؛ فَإِنَّك إنْ كُنْت لَا تُثْبِتُ مِنْ الْوُجُودِ إلَّا مَا تَعْقِلُ لَهُ حَقِيقَةً فِي الْخَارِجِ فَأَنْتَ لَا تَعْقِلُ فِي الْخَارِجِ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا لَيْسَ أَحَدُهُمَا دَاخِلًا فِي الْآخَرِ وَلَا محايثا لَهُ وَإِنْ كُنْت تُثْبِتُ مَا لَا تَعْقِلُ حَقِيقَتَهُ فِي الْخَارِجِ فَوُجُودُ مَوْجُودَيْنِ أَحَدُهُمَا مُبَايِنٌ لِلْآخَرِ أَقْرَبُ إلَى الْمَعْقُولِ ؛ وَنُزُولُ هَذَا مِنْ غَيْرِ خُلُوِّ مَا فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْهُ أَقْرَبُ إلَى الْمَعْقُولِ مِنْ كَوْنِهِ لَا فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا دَاخِلَ الْعَالَمِ فَإِنْ حَكَمْت بِالْقِيَاسِ ؛ فَالْقِيَاسُ عَلَيْك لَا لَك ؛ وَإِنْ لَمْ تَحْكُمْ بِهِ ؛ لَمْ يَصِحَّ اسْتِدْلَالُك عَلَى مُنَازِعِك بِهِ . وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ : لَيْسَ هَذَا جَوَابِي بَلْ هُوَ حَيْدَةٌ عَنْ الْجَوَابِ : فَيُقَالُ لَهُ : الْجَوَابُ عَلَى " وَجْهَيْنِ " جَوَابٍ مُعْتَرِضٍ نَافٍ لِنُزُولِهِ وَعُلُوِّهِ وَجَوَابٍ مُثْبِتٍ لِنُزُولِهِ وَعُلُوِّهِ وَأَنْتَ لَمْ تَسْأَلْ سُؤَالَ مُسْتَفْتٍ بَلْ سَأَلْت سُؤَالَ مُعْتَرِضٍ نَافٍ . وَقَدْ تَبَيَّنَ لَك أَنَّ هَذَا

(510/271)

الِاعْتِرَاضَ سَاقِطٌ لَا يَنْفَعُك فَإِنَّهُ سَوَاءٌ قِيلَ : إنَّهُ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ قِيلَ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُصَحِّحُ قَوْلَك إنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا قَوْلَك إنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ . وَإِذَا

بَطَلَ هَذَانِ الْقَوْلَانِ تَعَيَّنَ " الثَّالِثُ " وَهُوَ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ؛ بَطَلَ قَوْلُ الْمُعْتَرِضِ . هَذَا إنْ كَانَ الْمُعْتَرِضُ غَيْرَ مُقِرٍّ بِأَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ أَئِمَّةِ نفاة الْعُلُوِّ عَنْ النُّزُولِ فَقَالَ : يَنْزِلُ أَمْرُهُ . فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ : فَمَنْ يَنْزِلُ ؟ مَا عِنْدَك فَوْقَ الْعَالَمِ شَيْءٌ فَمِمَّنْ يَنْزِلُ الْأَمْرُ ؟ . مِنْ الْعَدَمِ الْمَحْضِ فَبُهِتَ . وَإِنْ كَانَ الْمُعْتَرِضُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ لِلْعُلُوِّ وَيَقُولُ : إنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ ؛ لَكِنْ لَا يُقِرُّ بِنُزُولِهِ ؛ بَلْ يَقُولُ بِنُزُولِ مَلَكٍ أَوْ يَقُولُ بِنُزُولِ أَمْرِهِ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ؛ فَيَجْعَلُ النُّزُولَ مَفْعُولًا مُحْدَثًا يُحْدِثُهُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ كَمَا يُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ ؛ فَيُقَالُ لَهُ : هَذَا التَّقْسِيمُ يَلْزَمُك فَإِنَّك إنْ قُلْت : إذَا نَزَلَ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؛ لَزِمَ الْمَحْذُورُ الْأَوَّلُ وَإِنْ قُلْت : لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؛ أَثْبَتَ نُزُولًا مَعَ عَدَمِ خُلُوِّ الْعَرْشِ مِنْهُ وَهَذَا لَا يُعْقَلُ عَلَى أَصْلِك . وَإِنْ قَالَ : إنَّمَا أُثْبِتُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ ؛ قِيلَ لَهُ : أَيُّ شَيْءٍ أَثْبَتَّهُ مَعَ عَدَمِ فِعْلٍ اخْتِيَارِيٍّ يَقُومُ بِنَفْسِهِ كَانَ غَيْرَ مَعْقُولٍ مِنْ هَذَا الْخِطَابِ ؛ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِهِ أَصْلًا مَعَ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ ؛ فَجَمَعْت بَيْنَ شَيْئَيْنِ : بَيْنَ أَنَّ مِمَّا أَثْبَتَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْقَلَ مِنْ خِطَابِ الرَّسُولِ صَلَّى

(512/271)

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَنَّك حَرَّفْت كَلَامَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَإِنْ قُلْت : الَّذِي يَنْزِلُ مَلَكٌ . قِيلَ : هَذَا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ :

(513/271)

مِنْهَا : أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَزَالُ تَنْزِلُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إلَى الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلَّا بِأَمْرِ رَبِّك ﴾ . وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ﴾ . وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ . فَإِذَا مَرُّوا عَلَى قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى يُنَادُونَ : هَلُمُّوا إلَى

حَاجَتِكُمْ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - : مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالَ فَيَقُولُونَ : يُسَبِّحُونَك وَيُكَبِّرُونَك وَيَحْمَدُونَك وَيُمَجِّدُونَك ﴾ . وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ ؛ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَإِذَا تَفَرَّقُوا

(514/271)

عَرَجُوا أَوْ صَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ . قَالَ : فَيَسْأَلُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - : مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : جِئْنَا

(515/271)

مِنْ عِنْدِ عِبَادِك فِي الْأَرْضِ يُسَبِّحُونَك وَيُكَبِّرُونَك وَيهللونك وَيَحْمَدُونَك وَيَسْأَلُونَك ﴾ . الْحَدِيثَ بِطُولِهِ . (الْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّهُ قَالَ فِيهِ : ﴿ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ ﴾ . وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَهَا مَلَكٌ عَنْ

اللَّهِ بَلْ الَّذِي يَقُولُ الْمَلَكُ : مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ﴾ وَذُكِرَ فِي الْبُغْضِ مِثْلُ ذَلِكَ . فَالْمَلَكُ إذَا نَادَى عَنْ اللَّهِ لَا يَتَكَلَّمُ بِصِيغَةِ الْمُخَاطِبِ ؛ بَلْ يَقُولُ : إنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِكَذَا أَوْ قَالَ كَذَا . وَهَكَذَا إذَا أَمَرَ السُّلْطَانُ مُنَادِيًا يُنَادِي فَإِنَّهُ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ النَّاسِ أَمَرَ السُّلْطَانُ بِكَذَا وَنَهَى عَنْ كَذَا وَرَسَمَ بِهَذَا لَا يَقُولُ أُمِرْت بِكَذَا وَنُهِيت عَنْ كَذَا بَلْ لَوْ قَالَ ذَلِكَ بُودِرَ إلَى عُقُوبَتِهِ . وَهَذَا تَأْوِيلٌ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ الْقَدِيمَةِ لِلْجَهْمِيَّةِ فَإِنَّهُمْ تَأَوَّلُوا تَكْلِيمَ اللَّهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ أَمَرَ مَلَكًا فَكَلَّمَهُ فَقَالَ لَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ : لَوْ كَلَّمَهُ مَلَكٌ لَمْ يَقُلْ ﴿ إنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ بَلْ كَانَ يَقُولُ كَمَا قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا

(516/271)

اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ . فَالْمَلَائِكَةُ رُسُلُ اللَّهِ إلَى الْأَنْبِيَاءِ تَقُولُ كَمَا كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ

(517/271)

لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ وَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِكَذَا وَيَقُولُ كَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ وَلَا يَقُولُ ﴿ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ ﴾ وَلَا يَقُولُ ﴿ لَا يَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ﴾ كَمَا رَوَاهُ النَّسَائِي وَابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُمَا وَسَنَدُهُمَا صَحِيحٌ أَنَّهُ يَقُولُ : ﴿ لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ﴾ . وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُبْطِلُ حُجَّةَ بَعْضِ النَّاسِ فَإِنَّهُ احْتَجَّ بِمَا رَوَاهُ النَّسَائِي فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَأْمُرُ مُنَادِيًا فَيُنَادِي فَإِنَّ هَذَا إنْ كَانَ ثَابِتًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الرَّبَّ يَقُولُ ذَلِكَ وَيَأْمُرُ مُنَادِيًا بِذَلِكَ ؛ لَا أَنَّ الْمُنَادِي يَقُولُ ﴿ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ ﴾ وَمَنْ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْمُنَادِي يَقُولُ ذَلِكَ فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَإِنَّهُ - مَعَ أَنَّهُ خِلَافُ اللَّفْظِ الْمُسْتَفِيضِ الْمُتَوَاتِرِ الَّذِي نَقَلَتْهُ الْأُمَّةُ خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ - فَاسِدٌ فِي الْمَعْقُولِ فَعُلِمَ أَنَّهُ مِنْ كَذِبِ بَعْضِ الْمُبْتَدِعِينَ كَمَا رَوَى بَعْضُهُمْ يُنْزِلُ بِالضَّمِّ وَكَمَا قَرَأَ بَعْضُهُمْ (﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾) وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِهِمْ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى . وَإِنْ

تَأَوَّلَ ذَلِكَ بِنُزُولِ رَحْمَتِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ قِيلَ : الرَّحْمَةُ الَّتِي تُثْبِتُهَا إمَّا أَنْ تَكُونَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ صِفَةً قَائِمَةً فِي غَيْرِهَا .

(519/271)

فَإِنْ كَانَتْ عَيْنًا وَقَدْ نَزَلَتْ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَقُولَ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ كَمَا لَا يُمْكِنُ الْمَلَكُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَتْ صِفَةً مِنْ الصِّفَاتِ فَهِيَ لَا تَقُومُ بِنَفْسِهَا ؛ بَلْ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَحَلٍّ . ثُمَّ لَا يُمْكِنُ الصِّفَةَ أَنْ تَقُولَ هَذَا الْكَلَامَ وَلَا مَحَلَّهَا . ثُمَّ إذَا نَزَلَتْ الرَّحْمَةُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَنْزِلْ إلَيْنَا فَأَيُّ مَنْفَعَةٍ لَنَا فِي ذَلِكَ ؟ وَإِنْ قَالَ : بَلْ الرَّحْمَةُ مَا يُنْزِلُهُ عَلَى قُلُوبِ قُوَّامِ اللَّيْلِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنْ حَلَاوَةِ الْمُنَاجَاةِ وَالْعِبَادَةِ وَطِيبِ الدُّعَاءِ وَالْمَعْرِفَةِ وَمَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ مَزِيدِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَذِكْرِهِ وَتَجَلِّيهِ لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ يَعْرِفُهُ قُوَّامُ اللَّيْلِ قِيلَ لَهُ : حُصُولُ هَذَا فِي الْقُلُوبِ حَقٌّ لَكِنَّ هَذَا يَنْزِلُ إلَى الْأَرْضِ إلَى قُلُوبِ عِبَادِهِ لَا يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَصْعَدُ بَعْدَ نُزُولِهِ وَهَذَا الَّذِي يُوجَدُ فِي الْقُلُوبِ يَبْقَى بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ ؛ لَكِنَّ هَذَا النُّورَ وَالْبَرَكَةَ وَالرَّحْمَةَ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ هِيَ مِنْ آثَارِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نُزُولِهِ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ " بِالنُّزُولِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ

"فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعْضُهَا فِي "صَحِيحِ مُسْلِمٍ" عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ

(520/271)

مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ ؟ ﴾ وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ إنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَةَ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: انْظُرُوا إلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا

(521/271)

ضَاحِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَةَ الْمَلَائِكَةَ وَيَقُولُ: انْظُرُوا إلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا ﴾ فَوُصِفَ أَنَّهُ يَدْنُو عَشِيَّةَ عَرَفَةَ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا

وَيُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِالْحَجِيجِ فَيَقُولُ انْظُرُوا إلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ ؟ فَإِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَجِيجَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ يَنْزِلُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ الْإِيمَانِ وَالرَّحْمَةِ وَالنُّورِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ هُوَ الَّذِي يَدْنُو إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَيُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِالْحَجِيجِ . وَالْجَهْمِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْمُعَطِّلَةِ : إنَّمَا يُثْبِتُونَ مَخْلُوقًا بِلَا خَالِقٍ وَأَثَرًا بِلَا مُؤَثِّرٍ وَمَفْعُولًا بِلَا فَاعِلٍ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مِنْ أُصُولِهِمْ وَهَذَا مِنْ فُرُوعِ أَقْوَالِ الْجَهْمِيَّةِ . وَأَيْضًا فَيُقَالُ لَهُ : وَصْفُ نَفْسِهِ بِالنُّزُولِ كَوَصْفِهِ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَبِأَنَّهُ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ وَبِأَنَّهُ نَادَى مُوسَى وَنَاجَاهُ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ وَبِالْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وَقَالَ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ . وَالْأَحَادِيثُ

(522/271)

الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إتْيَانِ الرَّبِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ إتْيَانُهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهَذَا مِمَّا احْتَجَّ بِهِ السَّلَفُ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ الْحَدِيثَ فَبَيَّنُوا لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ يُصَدِّقُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ كَمَا احْتَجَّ بِهِ إسْحَاقُ

بْنُ رَاهَوَيْه عَلَى بَعْضِ الْجَهْمِيَّة بِحَضْرَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ : أَمِيرِ خُرَاسَانَ . قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرباطي : حَضَرْت مَجْلِسَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ذَاتَ يَوْمٍ وَحَضَرَ إسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْه فَسُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النُّزُولِ أَصَحِيحٌ هُوَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ قُوَّادِ عَبْدِ اللَّهِ : يَا أَبَا يَعْقُوبَ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ قَالَ أَثْبَتَهُ فَوْقُ حَتَّى أَصِفَ لَك النُّزُولَ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَثْبَتَهُ فَوْقُ فَقَالَ لَهُ إسْحَاقُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فَقَالَ الْأَمِيرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : يَا أَبَا يَعْقُوبَ هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَقَالَ إسْحَاقُ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ وَمَنْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَمْنَعُهُ الْيَوْمَ .

(523/271)

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا إذَا نَزَلَ هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ لَا يَخْلُو ؟ " هَذِهِ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى " تَكَلَّمَ فِيهَا أَهْلُ الْإِثْبَاتِ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي رِسَالَتِهِ إلَى مُسَدَّدٍ وَعَنْ إسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَعُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الدارمي وَغَيْرِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَطَعَنَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَقَالَ : رَاوِيهَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ كَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه

(524/271)

وَغَيْرِهِمَا قَالَ الْخَلَّالُ فِي "كِتَابِ السُّنَّةِ" : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الفريابي ثَنَا أَحْمَد بْنُ مُحَمَّدٍ المقدمي ثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ : سَأَلَ بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ فَقَالَ : يَا أَبَا إِسْمَاعِيلَ الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ : ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ﴾ يَتَحَوَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؟ فَسَكَتَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَالَ : هُوَ فِي مَكَانِهِ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ . وَرَوَاهُ ابْنُ بَطَّةَ فِي كِتَابِ " الْإِبَانَةِ " فَقَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو الْقَاسِمِ حَفْصُ بْنُ عُمَرَ الأردبيلي حَدَّثَنَا أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِي حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ سَأَلَ بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ فَقَالَ : يَا أَبَا إِسْمَاعِيلَ الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ ﴿ يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ﴾ أَيَتَحَوَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؟ فَسَكَتَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَالَ : هُوَ فِي مَكَانِهِ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ . وَقَالَ ابْنُ بَطَّةَ : وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ النَّجَّادُ ثَنَا أَحْمَد بْنُ عَلِيٍّ الْأَبَّارُ ثَنَا عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ قَالَ : قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْه : دَخَلْت عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ فَقَالَ : مَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَرْوُونَهَا قُلْت : أَيُّ شَيْءٍ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ؟ قَالَ : تَرْوُونَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قُلْت : نَعَمْ رَوَاهَا الثِّقَاتُ الَّذِينَ يَرْوُونَ الْأَحْكَامَ . قَالَ : أَيَنْزِلُ وَيَدَعُ عَرْشَهُ ؟ قَالَ : فَقُلْت : يَقْدِرُ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْلُوَ الْعَرْشُ مِنْهُ . قَالَ : نَعَمْ . قُلْت : وَلِمَ تَتَكَلَّمُ فِي هَذَا

وَقَدْ رَوَاهَا اللكائي أَيْضًا بِإِسْنَادٍ مُنْقَطِعٍ وَاللَّفْظُ مُخَالِفٌ لِهَذَا . وَهَذَا الْإِسْنَادُ أَصَحُّ وَهَذِهِ وَالَّتِي قَبْلَهَا حِكَايَتَانِ صَحِيحَتَانِ رُوَاتُهُمَا أَئِمَّةٌ ثِقَاتٌ . فَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ يَقُولُ : هُوَ فِي مَكَانِهِ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ فَأَثْبَتَ قُرْبَهُ إلَى خَلْقِهِ مَعَ

(526/271)

كَوْنِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ - وَهُوَ مِنْ خِيَارِ مَنْ وَلِيَ الْأَمْرَ بِخُرَاسَانَ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَشْكَلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَنْزِلُ لِتَوَهُّمِهِ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُ الْعَرْشُ فَأَقَرَّهُ الْإِمَامُ إسْحَاقُ عَلَى أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَقَالَ لَهُ : يَقْدِرُ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُ الْعَرْشُ ؟ فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ : نَعَمْ فَقَالَ لَهُ إسْحَاقُ : لِمَ تَتَكَلَّمُ فِي هَذَا ؟ يَقُولُ : فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ نُزُولِهِ خُلُوُّ الْعَرْشِ مِنْهُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَى النُّزُولِ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ خُلُوُّ الْعَرْشِ وَكَانَ هَذَا أَهْوَنَ مِنْ اعْتِرَاضِ مَنْ يَقُولُ : لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ شَيْءٌ فَيُنْكِرُ هَذَا وَهَذَا . وَنَظِيرُهُ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْأَثْرَمُ فِي " السُّنَّةِ " قَالَ : حَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَارِثِ يَعْنِي الْعَبَّادِيَّ قَالَ : حَدَّثَنِي اللَّيْثُ بْنُ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْت إبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَشْعَثِ يَقُولُ : سَمِعْت الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ : إذَا قَالَ الجهمي أَنَا أَكْفُرُ بِرَبٍّ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ فَقُلْ : أَنَا أُؤْمِنُ بِرَبٍّ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ . أَرَادَ الْفُضَيْل بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مُخَالَفَةَ الجهمي الَّذِي يَقُولُ إِنَّهُ لَا تَقُومُ بِهِ الْأَفْعَالُ الِاخْتِيَارِيَّةُ فَلَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ إِتْيَانٌ وَلَا مَجِيءٌ وَلَا نُزُولٌ وَلَا اسْتِوَاءٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الْقَائِمَةِ بِهِ . فَقَالَ الْفُضَيْل : إذَا قَالَ لَك الجهمي : أَنَا أَكْفُرُ بِرَبِّ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ فَقُلْ : أَنَا

(527/271)

أُؤْمِنُ بِرَبِّ يَفْعَلُ مَا شَاءَ . فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِالرَّبِّ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ مِنْ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِذَاتِهِ الَّتِي يَشَاؤُهَا لَمْ يَرُدَّ مِنْ الْمَفْعُولَاتِ الْمُنْفَصِلَةِ عَنْهُ . وَمِثْلُ ذَلِكَ يُرْوَى عَنْ الأوزاعي وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي حَدِيثِ النُّزُولِ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ . قَالَ اللالكائي : حَدَّثَنَا الْمُسَيَّرُ بْنُ عُثْمَانَ حَدَّثَنَا

(528/271)

أَحْمَد بْنُ الْحُسَيْنِ : ثَنَا أَحْمَد بْنُ عَلِيٍّ الْأَبَّارُ قَالَ : سَمِعْت يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ يَقُولُ : إذَا سَمِعْت الجهمي يَقُولُ : أَنَا أَكْفُرُ بِرَبِّ يَنْزِلُ ؛ فَقُلْ : أَنَا أُؤْمِنُ بِرَبِّ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ : فَإِنَّ بَعْضَ مَنْ

يُعَظِّمُهُمْ وَيَنْفِي قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ - كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَمَنْ اتَّبَعَهُ وَابْنِ عَقِيلٍ وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمْ - يُحْمَلُ كَلَامُهُمْ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ : "يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" أَنْ يُحْدِثَ شَيْئًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَقُومَ بِهِ هُوَ فِعْلٌ أَصْلًا . وَهَذَا أَوْجَبَهُ أَصْلَانِ لَهُمْ : (أَحَدُهُمَا أَنَّ الْفِعْلَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْمَفْعُولُ وَالْخَلْقَ هُوَ الْمَخْلُوقُ ، فَهُمْ يُفَسِّرُونَ أَفْعَالَهُ الْمُتَعَدِّيَةَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وَأَمْثَالِهِ : إنَّ ذَلِكَ وُجِدَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ فِعْلٌ قَامَ بِذَاتِهِ بَلْ حَالُهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ وَبَعْدَ مَا خَلَقَ سَوَاءٌ لَمْ يَتَجَدَّدْ عِنْدَهُمْ إلَّا إضَافَةٌ وَنِسْبَةٌ وَهِيَ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ ؛ لَا وُجُودِيٌّ كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي كَوْنِهِ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَيَرَى أَعْمَالَهُمْ وَفِي كَوْنِهِ كَلَّمَ مُوسَى وَغَيْرَهُ وَكَوْنِهِ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ أَوْ نَسَخَ مِنْهُ مَا نَسَخَ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَجَدَّدْ عِنْدَهُمْ إلَّا مُجَرَّدُ "نِسْبَةٍ" وَ "إضَافَةٍ" الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ وَهِيَ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ لَا وُجُودِيٌّ . وَهَكَذَا يَقُولُونَ : فِي اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ إذَا قَالُوا : إنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ وَهُوَ

(529/271)

أَوَّلُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى . وَيُسَمِّي ابْنُ عَقِيلٍ هَذِهِ "النِّسْبَةَ" "الْأَحْوَالَ" ؛ وَلَعَلَّهُ يُشَبِّهُهَا "بِالْأَحْوَالِ" الَّتِي يُثْبِتُهَا مَنْ يُثْبِتُهَا مِنْ النُّظَّارِ

وَيَقُولُونَ هِيَ لَا مَوْجُودَةٌ وَلَا مَعْدُومَةٌ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ أَبُو هَاشِمٍ وَالْقَاضِيَانِ : أَبُو بَكْرٍ وَأَبُو يَعْلَى وَأَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي فِي أَوَّلِ قَوْلَيْهِ . وَأَكْثَرُ النَّاسِ خَالَفُوهُمْ فِي هَذَا الْأَصْلِ وَأَثْبَتُوا لَهُ تَعَالَى فِعْلًا قَائِمًا بِذَاتِهِ وَخَلْقًا غَيْرَ الْمَخْلُوقِ - وَيُسَمَّى التَّكْوِينَ - وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ بِهِ قُدَمَاءُ الْكُلَّابِيَةِ كَمَا ذَكَرَهُ الثَّقَفِيُّ وَالضبعي وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ خُزَيْمَةَ فِي الْعَقِيدَةِ الَّتِي كَتَبُوهَا وَقَرَءُوهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ لَمَّا وَقَعَ بَيْنَهُمْ النِّزَاعُ فِي " مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ " . وَهُوَ آخِرُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَجُمْهُورِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَأَئِمَّةِ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ البغوي فِي " شَرْحِ السُّنَّةِ " عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ إجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ كَمَا بُسِطَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ . وَ " الْأَصْلُ الثَّانِي " : نَفْيُهُمْ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمُورٌ تَتَعَلَّقُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ " حُلُولَ الْحَوَادِثِ " . فَلَمَّا كَانُوا نُفَاةً لِهَذَا امْتَنَعَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَقُومَ بِهِ فِعْلٌ اخْتِيَارِيٌّ يَحْصُلُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ؛ لَا لَازِمٌ وَلَا مُتَعَدٍّ ؛ لَا نُزُولٌ وَلَا مَجِيءٌ وَلَا اسْتِوَاءٌ وَلَا إتْيَانٌ وَلَا خَلْقٌ وَلَا إحْيَاءٌ وَلَا إمَاتَةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ . فَلِهَذَا فَسَّرُوا قَوْلَ السَّلَفِ بِالنُّزُولِ بِأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُمْ حُصُولُ مَخْلُوقٍ مُنْفَصِلٍ ؛ لَكِنَّ كَلَامَ السَّلَفِ صَرِيحٌ فِي

(531/271)

أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفِعْلَ الِاخْتِيَارِيَّ الَّذِي يَقُومُ بِهِ .

(532/271)

وَالْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؛ بَلْ أَرَادَ مُخَالَفَةَ الْجَهْمِيَّةِ ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ : "يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ " لَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ الْعَرْشِ بَلْ كَلَامُهُ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ أَمْثَالِهِ مِنْ السَّلَفِ : كَالْأَوْزَاعِي وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَغَيْرِهِمَا . وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ مَا رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ فِي رِسَالَتِهِ إلَى مُسَدَّدٍ وَقَالَ : رَاوِيهَا عَنْ أَحْمَدَ مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ فِي أَصْحَابِ أَحْمَدَ مَنْ اسْمُهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبردعي . وَأَهْلُ الْحَدِيثِ فِي هَذَا عَلَى " ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ " : مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ الْمَقْدِسِي وَغَيْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ، وَقَدْ صَنَّفَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ منده مُصَنَّفًا فِي الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَسَمَّاهُ : " الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَعَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ مَكَانٌ وَعَلَى مَنْ تَأَوَّلَ

النُّزُولَ عَلَى غَيْرِ النُّزُولِ " . وَذَكَرَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ أَبُو سَعِيدٍ النَّقَّاشُ فِي " أَقْوَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ " عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَرْوَزِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الدِّينَوَرِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى عَنْ أَحْمَد بْنِ مُحَمَّدٍ البردعي التَّمِيمِيِّ قَالَ : لَمَّا أُشْكِلَ عَلَى مُسَدَّدِ بْنِ مسرهد أَمْرُ السُّنَّةِ وَمَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ " الْقَدَرِ

(533/271)

"

وَ" الرَّفْضِ " وَ" الِاعْتِزَالِ " وَ" الْإِرْجَاءِ " وَ" الْقُرْآنِ " كَتَبَ إِلَى " أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ " : أَنْ اُكْتُبْ إِلَيَّ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَمَّا بَعْدُ ثُمَّ ذَكَرَ فِيهَا ؛ وَيَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَعَنْ حَدِيثٍ رُوِيَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى . وَزَعَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَفْظٌ مُنْكَرٌ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُمَا وَعَنْ غَيْرِهِمَا وَحُكْمُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْأَثَرِ حُكْمُ حَدِيثٍ مُنْكَرٍ وَقَالَ : أَحْمَد بْنُ مُحَمَّدٍ البردعي مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ فِي أَصْحَابِ أَحْمَد مَنْ اسْمُهُ " أَحْمَد بْنُ مُحَمَّدٍ " : فِيمَنْ رَوَى عَنْ أَحْمَد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ كَأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هَانِئٍ وَأَبِي بَكْرٍ الْأَثْرَمِ وَأَحْمَد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَجَّاجِ وَأَبِي بَكْرٍ المروذي (*) وَأَحْمَد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى

البراني الْقَاضِي وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدٍ الصَّائِغ وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن غَالِب الْقَاصّ غُلَام خَلِيل وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن مَزِيدٍ الْوَرَّاقِ . وَزَادَ ابْنُ الْجَوْزِيّ : أَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن خَالِدٍ أَبَا بَكْرٍ الْقَاضِيَ وَأَحْمَد بْن خَالِدٍ أَبَا الْعَبَّاس البراني وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن عَبْدِ اللَّهِ بْن صَدَقَة وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن عَبْدِ اللَّهِ بْن صَالِحٍ الأسدي وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكُوفِيّ وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن يَحْيَى الْكَحَّال وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن الْبُخَارِيّ وَأَحْمَد بْن مُحَمَّدِ بْن بَطَّة

(534/271)

وَذَكَرَ أَحْمَد بْنُ الْحَسَنِ أَبَا الْحَسَنِ التِّرْمِذِيَّ ؛ وَأَحْمَد بْن سَعِيدٍ وَقِيلَ : أَبُو الأشعبة التِّرْمِذِيُّ . وَذَكَرَ فِي الْمُحَمَّدِينَ : مُحَمَّدَ بْن إِسْمَاعِيل التِّرْمِذِيَّ قَالَ : وَلَمْ يُعَدَّ هَذَا فِيمَنْ رَوَى عَنْ مُسَدَّدٍ أَيْضًا . قَالَ : وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَاعَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاس وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي العاص وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبُو أمامة وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَأَبُو ثَعْلَبَةَ المروذي وَرِفَاعَةُ بْنُ عَرَابَةَ الجهني وعبادة بْنُ الصَّامِتِ وَعُمَرُ بْنُ عبسة وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَجُبَيْرُ بْنُ

مُطْعَمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَعَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَغَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ هَذَا اللَّفْظَ ؛ وَلَا مَنْ رَوَاهُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ بَعْدَهُمْ . ثُمَّ سَاقَ الْأَحَادِيثَ بِأَلْفَاظِهَا ؛ وَذَكَرَ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَقُلْ هَذَا اللَّفْظَ . قَالَ : وَهُوَ لَفْظٌ مُوَافِقٌ لِرَأْيِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ وَرَأَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَكَانٌ . قَالَ : وَتَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَ النُّزُولَ عَلَى غَيْرِ النُّزُولِ مُخَالِفٌ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ : يَنْزِلُ رَبُّنَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ وَلِقَوْلِهِ : فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ إلَى الْفَجْرِ . قُلْت : الْقَائِلُونَ بِذَلِكَ لَمْ

(535/271)

يَقُولُوا : إنَّ هَذَا اللَّفْظَ فِي الْحَدِيثِ ؛ وَلَيْسَ فِي

(536/271)

الْحَدِيثِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؛ كَمَا يَدَّعِيهِ الْمُدَّعُونَ لِذَلِكَ فَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ لَا لَفْظُ الْمُثْبِتِينَ لِذَلِكَ وَلَا لَفْظُ النُّفَاةِ لَهُ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّهُمْ يَتَأَوَّلُونَ النُّزُولَ عَلَى غَيْرِ النُّزُولِ ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَنْفِي نُزُولًا يَقُومُ بِهِ وَيَجْعَلُ النُّزُولَ مَخْلُوقًا

مُنْفَصِلًا عَنْهُ ؛ وَعَامَّةُ رَدِّ ابْنِ منده الْمُسْتَقِيمِ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ هَؤُلَاءِ ؛ لَكِنَّهُ زَادَ زِيَادَاتٍ نُسِبَ لِأَجْلِهَا إلَى الْبِدْعَةِ ؛ وَلِهَذَا كَانُوا يُفَضِّلُونَ أَبَاهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَانَ إسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ التَّيْمِيُّ وَغَيْرُهُ يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ فِي ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُمْ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : قَالَ أَبِي فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ تَأَوَّلَ النُّزُولَ عَلَى غَيْرِ النُّزُولِ وَاحْتَجَّ فِي إبْطَالِ الْأَخْبَارِ الصِّحَاحِ بِأَحَادِيثَ مَوْضُوعَةٍ وَادَّعَى الْمُدْبِرُ أَنَّهُ يَقُولُ بِحَدِيثِ النُّزُولِ فَحَرَّفَهُ عَلَى مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ وَأَنْكَرَ فِي خُطْبَتِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ حُجَّتِهِ وَمَا بَيَّنَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِذَاتِهِ وَتَأَوَّلَ النُّزُولَ عَلَى مَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ لَا حَقِيقَةِ النُّزُولِ . وَزَعَمَ أَنَّ أَئِمَّتَهُمْ الْعَارِفِينَ بِالْأُصُولِ يُنَزِّهُونَ اللَّهَ عَنْ التَّنَقُّلَاتِ فَأَبْطَلَ جَمِيعَ مَا أَخْرَجَ فِي هَذَا الْبَابِ إذْ كَانَ مَذْهَبُهُ غَيْرَ ظَاهِرِ الْحَدِيثِ وَاعْتِمَادُهُ عَلَى التَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ وَالْمَعْقُولِ الْفَاسِدِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿

(537/271)

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ نَفَى التَّشْبِيهَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ وَكُلِّ الْمَعَانِي وَلَكِنَّ الْبَائِسَ الْمِسْكِينَ لَمْ يَجِدْ الطَّرِيقَ إلَى ثَلْبِ الْأَئِمَّةِ إلَّا بِهَذَا الطَّرِيقِ الَّذِي هُوَ

(538/271)

بِهِ أَوْلَى ثُمَّ قَصَدَ تَعْلِيلَ حَدِيثِ النُّزُولِ بِمَا لَا يُعَدُّ عِلَّةً وَلَا خِلَافًا مِنْ قَوْلِ الرَّاوِي "يَنْزِلُ" وَ" يَقُولُ إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ" وَقَالَ بَعْضُهُمْ "ثُلُثُ اللَّيْلِ وَنِصْفُ اللَّيْلِ" قَالَ ابْنُ مَنده وَلَيْسَ هَذَا اخْتِلَافًا وَلَكِنَّهُ جَهْلٌ وَاحْتَجَّ مَعَهَا بِحَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيسة عَنْ طَارِقٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّهُ يَأْمُرُ مُنَادِيًا يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ". وَهَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِهِ. زَعَمَ أَنَّ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْقَطَّانَ وَابْنَ مَهْدِيٍّ وَالْبُخَارِيَّ وَمُسْلِمًا؛ أَخْرَجُوا فِي كُتُبِهِمْ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ الْمَتْرُوكِينَ تَرَدُّدًا مِنْهُ وَجَهْلًا وَأَعَادَ حَدِيثَ أَبِي هِشَامٍ الرِّفَاعِيِّ عَنْ حَفْصٍ. رَوَاهُ مُحَاضِرٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ قَالَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ ﴾. وَكَذَلِكَ حَدِيثُ طَارِقٍ رَوَاهُ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ. عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيسة عَنْ طَارِقٍ. عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ ﴾. وَأَمَّا حَدِيثُ الْحَسَنِ؛ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي العاص فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِيمَا ذَكَرْنَا؛ وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَلَا رُوَاتِهَا مَا يَصِحُّ؛ قَالَ وَلَوْ سَكَتَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ كَانَ أَجْمَلَ بِهِ وَأَحْسَنَ؛ إِذْ قَدْ سَلَبَ اللَّهُ مَعْرِفَتَهُ وَأَرْسَخَ فِي قَلْبِهِ تَبْطِيلَ الْأَخْبَارِ الصِّحَاحِ وَاعْتِمَادَ مَعْقُولِهِ الْفَاسِدِ.

قُلْت فَهَذَا نَقْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِكَلَامِ أَبِيهِ وَأَبُوهُ أَعْلَمُ مِنْهُ وَأَفْقَهُ وَأَسَدُّ قَوْلًا . ثُمَّ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ منده هَذَا . قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقُ ثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى الساجي ثُمَّ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : حَدَّثَنِي أَحْمَد بْنُ نَصْرٍ قَالَ : كُنْت عِنْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ فَجَاءَ إلَيْهِ رَجُلٌ كَلَامِيٌّ مِنْ أَصْحَابِ الْكَلَامِ فَقَالَ لَهُ : تَقُولُونَ إنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ لَا يَزُولُ ؛ ثُمَّ تَرْوُونَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ : عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ : إنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ وَلَكِنْ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ وَسُلَيْمَانَ بْنَ حَرْبٍ أَرَادَا بِقَوْلِهِمَا يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ ؛ أَرَادَا أَنْ لَا يَزُولَ عَنْ مَكَانِهِ ؛ فَقَدْ نَسَبَهُمَا إلَى خِلَافِ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . قَالَ : وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ مُحَمَّدٍ المعاصمي ببلخ أَنْبَأَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَد الْمُسْتَمْلِي قَالَ أَنْبَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَد بْنِ حِرَاشٍ قَالَ حَدَّثَنَا أَحْمَد بْنُ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ حَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ قَالَ : سَمِعْت الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ : إذَا قَالَ لَك الجهمي : أَنَا لَا أُؤْمِنُ بِرَبٍّ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ فَقَالَ لَهُ أَنَا أُومِنُ بِرَبٍّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ : رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ فضيل بْنِ عِيَاضٍ . قَالَ : وَلَمْ يُرِدْ بِهِ أَحَدٌ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

ذَهَبَ إِلَيْهِ الزَّنَادِقَةُ فَلَا يَبْقَى خِلَافٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ : أَنَا أَكْفُرُ بِرَبٍّ يَنْزِلُ وَيَصْعَدُ وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ : أَنَا أُومِنُ بِرَبٍّ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ فِي إِبْطَالِ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . ثُمَّ رُوِيَ بِإِسْنَادِهِ عَنْ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ إذَا قَالَ الجهمي أَنَا أَكْفُرُ بِرَبٍّ يَنْزِلُ وَيَصْعَدُ فَقُلْ آمَنْت : بِرَبٍّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قُلْت : زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى الساجي أَخَذَ عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ مَا أَخَذَهُ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَكَثِيرٍ مِمَّا نُقِلَ فِي كِتَابِ " مَقَالَاتُ الْإِسْلَامِيِّينَ " مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَذَكَرَ عَنْهُمْ مَا ذَكَرَهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ . وَمَعْنَى ذَلِكَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ مَنْ يَنْفِي قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِذَاتِهِ : أَنَّهُ يَخْلُقُ أَعْرَاضًا فِي بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ يُسَمِّيهَا نُزُولًا كَمَا قَالَ : إنَّهُ يَخْلُقُ فِي الْعَرْشِ مَعْنًى يُسَمِّيهِ اسْتِوَاءً . وَهُوَ عِنْدَ الْأَشْعَرِيِّ تَقْرِيبُ الْعَرْشِ إلَى ذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقُومَ بِهِ فِعْلٌ بَلْ يَجْعَلُ أَفْعَالَهُ اللَّازِمَةَ كَالنُّزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ كَأَفْعَالِهِ الْمُتَعَدِّيَةِ كَالْخَلْقِ وَالْإِحْسَانِ وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدَهُ هُوَ الْمَفْعُولُ الْمُنْفَصِلُ عَنْهُ .

(541/271)

وَالْأَشْعَرِيُّ وَأَئِمَّةُ أَصْحَابِهِ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِ يَقُولُونَ : إنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ بِذَاتِهِ وَلَكِنْ يَقُولُونَ فِي النُّزُولِ وَنَحْوِهِ مِنْ الْأَفْعَالِ هَذَا الْقَوْلَ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمْ فِي نَفْيِ قِيَامِ الْحَوَادِثِ بِهِ وَالسَّلَفُ الَّذِينَ قَالُوا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَنْزِلُ كَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ وَالْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ الَّذِي قَالَ : إذَا قَالَ لَك الجهمي أَنَا أَكْفُرُ بِرَبِّ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ فَقُلْ أَنَا أُومِنُ بِرَبِّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ مُرَادُهُمْ نَقِيضُ هَذَا الْقَوْلِ . وَرَدُّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ منده مُتَنَاوِلٌ لِهَؤُلَاءِ وَعَلَى هَذَا فَلَا يَبْقَى

(542/271)

خِلَافٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ يَنْزِلُ وَيَصْعَدُ وَبَيْنَ مَنْ يَنْفِي ذَلِكَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْمُنْفَصِلَةَ لَمْ يُنَازِعْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَ هَؤُلَاءِ إثْبَاتُ الْفِعْلِ الِاخْتِيَارِيِّ الْقَائِمِ بِهِ ؛ وَلَكِنَّهُمْ مَعَ هَذَا لَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ خُلُوَّ الْعَرْشِ مِنْهُ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى فَوْقَ الْعَرْشِ ؛ كَمَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَزَعَمَ أَنَّهُ مَعْنَى الْحَدِيثِ . وَرَوَى بِإِسْنَادِهِ مِنْ "كِتَابِ السُّنَّةِ" لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ؛ حَدَّثَنِي أَبِي ثَنَا أَحْمَد بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ اللُّبْنَانِيُّ ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ ثَنَا أَبِي ثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُد أَبُو مَعْمَرٍ ثَنَا عَبَّادُ بْنُ الْعَوَّامِ قَالَ : قَدِمَ عَلَيْنَا شَرِيكٌ فَسَأَلْته عَنْ الْحَدِيثِ ﴿ إنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ

شَعْبَانَ ﴾ . قُلْنَا : إِنَّ قَوْمًا يُنْكِرُونَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ قَالَ فَمَا يَقُولُونَ ؟ قُلْنَا : يَطْعَنُونَ فِيهَا فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ هُمْ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْقُرْآنِ وَبِالصَّلَاةِ وَبِالْحَجِّ وَبِالصَّوْمِ فَمَا يُعْرَفُ اللَّهُ إِلَّا بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ . قَالَ : وَأَمَّا حَدِيثُ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ فَرَوَاهُ إِسْمَاعِيلُ التِّرْمِذِيُّ وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيهِ . قَالَ : وَالْحَدِيثُ حَدَّثَ بِهِ أَحْمَد بْنُ مُوسَى بْنِ بريدة عَنْ أَحْمَد بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ التِّرْمِذِيِّ :

(543/271)

سَمِعْت إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ يَقُولُ : اجْتَمَعَتْ الْجَهْمِيَّةُ إلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ يَوْمًا فَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ إنَّك تُقَدِّمُ إِسْحَاقَ وَتُكْرِمُهُ وَتُعَظِّمُهُ وَهُوَ كَافِرٌ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . قَالَ : فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ وَبَعَثَ إلَيَّ فَدَخَلْت عَلَيْهِ وَسَلَّمْت ؛ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ غَضَبًا وَلَمْ يستجلسني ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لِي : وَيْلَك يَا إِسْحَاقُ مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : قُلْت لَا أَدْرِي قَالَ : تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؟ فَقُلْت أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَسْت أَنَا قُلْته قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ إِسْحَاقَ عَنْ الْأَغَرِّ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ : أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴾

يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ . مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ﴾ وَلَكِنْ مُرْهُمْ يُنَاظِرُونِي . قَالَ فَلَمَّا ذَكَرْت لَهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَكَنَ غَضَبُهُ وَقَالَ لِي اجْلِسْ فَجَلَسْت . فَقُلْت : مُرْهُمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ يُنَاظِرُونِي . قَالَ نَاظِرُوهُ قَالَ فَقُلْت لَهُمْ : يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْزِلَ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَمْ لَا يَسْتَطِيعُ ؟ قَالَ : فَسَكَتُوا وَأَطْرَقُوا

(544/271)

رُءُوسَهُمْ . فَقُلْت : أَيُّهَا الْأَمِيرُ مُرْهُمْ يُجِيبُوا فَسَكَتُوا . فَقَالَ وَيْحَك يَا إِسْحَاقُ مَاذَا سَأَلْتهمْ قَالَ : قُلْت : أَيُّهَا الْأَمِيرُ قُلْ لَهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْزِلَ ؛ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَمْ لَا ؟ قَالَ فَأَيْش هَذَا ؟ قُلْت : إنْ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْزِلَ إلَّا أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُ الْعَرْشُ ؟ فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَاجِزٌ مِثْلِي وَمِثْلُهُمْ وَقَدْ كَفَرُوا . وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ

(545/271)

أَنْ يَنْزِلَ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ فَهُوَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَيْفَ يَشَاءُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْمَكَانُ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : وَالصَّحِيحُ مِمَّا جَرَى بَيْنَ إِسْحَاقَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ مَا أَخْبَرَنَا أَبِي ثنا أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيُّ ثنا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ سَمِعْت إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مخلد يَقُولُ : قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : يَا أَبَا يَعْقُوبَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَرْوُونَهَا فِي النُّزُولِ - يَعْنِي وَغَيْرَ ذَلِكَ - مَا هِيَ ؟ قُلْت : أَيُّهَا الْأَمِيرُ هَذِهِ أَحَادِيثُ جَاءَتْ مَجِيءَ الْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَنَقَلَهَا الْعُلَمَاءُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُرَدَّ ؛ هِيَ كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : صَدَقْت مَا كُنْت أَعْرِفُ وُجُوهَهَا إلَى الْآنِ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْمَكَانُ كَيْفِيَّةً تَهْدِمُ النُّزُولَ وَتُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : هِيَ كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ ؛ فَيُقَالُ : بَلْ مُخَاطَبَةُ إِسْحَاقَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ كَانَ فِيهَا زِيَادَةٌ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ؛ وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمُخَاطَبَاتِ وَالْمُنَاظَرَاتِ يُنْقَلُ مِنْهَا هَذَا مَا لَا يُنْقَلُ غَيْرُهُ : كَمَا نَقَلُوا فِي مُنَاظَرَةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ هَذَا يُنْقَلُ مَا لَا يَنْقُلُهُ هَذَا : كَمَا نَقَلَ صَالِحٌ وَعَبْدُ اللَّهِ والمروذي وَغَيْرُهُمْ وَكُلُّهُمْ ثِقَاتٌ وَإِسْحَاقُ بَسَطَ الْكَلَامَ مَعَ ابْنِ طَاهِرٍ . قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ " الصَّابُونِيُّ " الْمُلَقَّبُ بِشَيْخِ الْإِسْلَامِ فِي

(546/271)

رِسَالَتِهِ فِي السُّنَّةِ قَالَ : وَيَعْتَقِدُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَيَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(547/271)

فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَذَكَرَ عِدَّةَ آيَاتٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ : وَأَهْلُ الْحَدِيثِ يُثْبِتُونَ فِي ذَلِكَ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيُصَدِّقُونَ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي خَبَرِهِ وَيُطْلِقُونَ مَا أَطْلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ وَيُمِرُّونَ ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَيَكِلُونَ عِلْمَهُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى و ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . وَرُوِيَ بِإِسْنَادِهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ أَنَّ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كَيْفَ اسْتَوَى ؛ فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَمَا أَرَاكَ إلَّا ضَالًّا ؛ وَأَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ الْمَجْلِسِ . وَرُوِيَ بِإِسْنَادِهِ الثَّابِتِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ : نَعْرِفُ رَبَّنَا بِأَنَّهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ ؛ وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ : بِأَنَّهُ هَاهُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى الْأَرْضِ . وَقَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ - يَعْنِي الْحَافِظَ - فِي كِتَابِ

" التَّارِيخِ " الَّذِي جَمَعَهُ لِأَهْلِ نَيْسَابُورَ وَفِي كِتَابِ " مَعْرِفَةِ أُصُولِ الْحَدِيثِ " اللَّذَيْنِ جَمَعَهُمَا وَلَمْ يَسْبِقْ إِلَى مِثْلِهِمَا قَالَ :

(548/271)

سَمِعْت أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ صَالِحِ بْنِ هَانِئٍ سَمِعْت الْإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ قَدْ

(549/271)

اسْتَوَى فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتِهِ ؛ فَهُوَ كَافِرٌ بِهِ حَلَالُ الدَّمِ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ ؛ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ وَأُلْقِيَ عَلَى بَعْضِ الْمَزَابِلِ . قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُثْمَانَ : وَيُثْبِتُ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ نُزُولَ الرَّبِّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَهُ بِنُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَكْيِيفٍ بَلْ يُثْبِتُونَ مَا أَثْبَتَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْتَهُونَ فِيهِ إلَيْهِ وَيُمِرُّونَ الْخَبَرَ الصَّحِيحَ الْوَارِدَ بِذِكْرِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ ؛ وَيَكِلُونَ عِلْمَهُ إلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَكَذَلِكَ يُثْبِتُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ

مِنَ الْغَمَامِ ﴾ وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وَقَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ زَكَرِيَّا سَمِعْت أَبَا حَامِدٍ الشَّرْقِيَّ سَمِعْت حَمْدَانَ السُّلَمِي وَأَبَا دَاوُد الْخَفَّافَ قَالَا : سَمِعْنَا إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الحنظلي يَقُولُ : قَالَ لِي الْأَمِيرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : يَا أَبَا يَعْقُوبَ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تَرْوِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ قَالَ : قُلْت : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ لَا يُقَالُ لِأَمْرِ الرَّبِّ كَيْفَ إِنَّمَا يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ . قَالَ : وَسَمِعْت أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظَ يَقُولُ : سَمِعْت أَبَا زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنَ مُحَمَّدٍ الْعَنْبَرِيَّ سَمِعْت إِبْرَاهِيمَ

(550/271)

بْنَ أَبِي طَالِبٍ سَمِعْت أَحْمَد بْنَ سَعِيدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الرباطي يَقُولُ : حَضَرْت مَجْلِسَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ذَاتَ يَوْمٍ

(551/271)

وَحَضَرَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَسُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النُّزُولِ أَصَحِيحٌ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ قُوَّادِ عَبْدِ اللَّهِ : يَا أَبَا يَعْقُوبَ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ إِسْحَاقُ : أَثْبَتَهُ فَوْقُ . فَقَالَ أَثْبَتَهُ فَوْقُ . فَقَالَ إِسْحَاقُ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فَقَالَ الْأَمِيرُ عَبْدُ اللَّهِ : هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَقَالَ إِسْحَاقُ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ مَنْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَمْنَعُهُ الْيَوْمَ وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ : قَرَأْتُ فِي رِسَالَةِ أَبِي بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيِّ إِلَى أَهْلِ جيلان أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَا صَحَّ بِهِ الْخَبَرُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ نُؤْمِنُ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى مَا جَاءَ بِلَا كَيْفٍ فَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبَيِّنَ كَيْفَ ذَلِكَ فَعَلَ ؛ فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَا أَحْكَمَهُ وَكَفَفْنَا عَنْ الَّذِي يَتَشَابَهُ إِذْ كُنَّا قَدْ أُمِرْنَا بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ

(552/271)

رَبّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ منده بِإِسْنَادِهِ عَنْ حَرْبِ بْنِ إسْمَاعِيلَ قَالَ : سَأَلْت إسْحَاقَ بْنَ إبْرَاهِيمَ قُلْت : حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَنْزِلُ اللَّهُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ﴾ قَالَ : نَعَمْ يَنْزِلُ اللَّهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ . وَقَالَ

(553/271)

عَنْ حَرْبٍ : لَا يَجُوزُ الْخَوْضُ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَجُوزُ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الْمَخْلُوقِينَ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ . وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ حَرْبٍ قَالَ : هَذَا مَذْهَبُ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ الْمَعْرُوفِينَ بِهَا وَهُوَ مَذْهَبُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ والحميدي وَغَيْرِهِمْ . كَانَ قَوْلُهُمْ : إنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ حَرْبٍ : قَالَ : قَالَ إسْحَاقُ بْنُ إبْرَاهِيمَ : لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَوَهَّمَ عَلَى الْخَالِقِ بِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ تَوَهُّمَ مَا يَجُوزُ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ فِي أَمْرِ الْمَخْلُوقِينَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِالنُّزُولِ كُلَّ لَيْلَةٍ إذَا مَضَى ثُلُثَاهَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَمَا شَاءَ وَلَا يُسْأَلُ كَيْفَ نُزُولُهُ لِأَنَّهُ الْخَالِقُ يَصْنَعُ كَيْفَ شَاءَ . وَرَوَى أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ : سَأَلَ فَضَالَةُ

عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ عَنْ النُّزُولِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : يَا ضَعِيفُ تَجِدُ خَدَّايَ خوشيركن : يَنْزِلُ كَيْفَ شَاءَ . وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ : مَنْ قَالَ لَك يَا مُشَبِّهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ جهمي وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ منده : إيَّاكَ أَنْ تَكُونَ فِيمَنْ يَقُولُ : أَنَا أُومِنُ بِرَبٍّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ثُمَّ تَنْفِي مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا شَاءَ اللَّهُ وَأَوْجَبَ عَلَى خَلْقِهِ

(554/271)

الْإِيمَانَ بِهِ : أَفَاعِيلَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ أَنْ يَنْزِلَ بِذَاتِهِ مِنْ الْعَرْشِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالزَّنَادِقَةُ يُنْكِرُونَهُ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ . وَرُوِيَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ مِنْ طَرِيقِ نُعَيْمِ بْنِ حَمَّادٍ عَنْ جَرِيرٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ بِشْرٍ عَنْ أَنَسٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ عَرْشِهِ نَزَلَ بِذَاتِهِ ﴾ . قُلْت : ضَعَّفَ أَبُو الْقَاسِمِ إسْمَاعِيلُ التَّيْمِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْحُفَّاظِ هَذَا اللَّفْظَ مَرْفُوعًا وَرَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي " الْمَوْضُوعَاتِ " وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ التَّيْمِيُّ : " يَنْزِلُ " مَعْنَاهُ صَحِيحٌ أَنَا أُقِرُّ بِهِ لَكِنْ لَمْ يَثْبُتْ مَرْفُوعًا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (*) وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى صَحِيحًا وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ نَفْسُهُ لَيْسَ بِمَأْثُورٍ ؛ كَمَا لَوْ قِيلَ : إنَّ اللَّهَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَبِذَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا وَهُوَ بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ الَّتِي فَعَلَهَا هُوَ بِنَفْسِهِ وَهُوَ نَفْسُهُ فَعَلَهَا . فَالْمَعْنَى

صَحِيحٌ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مَا بُيِّنَ بِهِ مَعْنَى الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ اللَّفْظِ يَكُونُ مِنْ الْقُرْآنِ وَمَرْفُوعًا . فَهَذَا تَلْخِيصُ مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ منده مَعَ أَنَّهُ اسْتَوْعَبَ طُرُقَ هَذَا الْحَدِيثِ وَذَكَرَ أَلْفَاظَهُ مِثْلَ قَوْلِهِ : ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا

(555/271)

الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ فَلَا يَزَالُ

(556/271)

كَذَلِكَ إلَى الْفَجْرِ ﴾ وَفِي لَفْظٍ : ﴿ إذَا بَقِيَ مِنْ اللَّيْلِ ثُلُثَاهُ يَهْبِطُ الرَّبُّ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا وَفِي لَفْظٍ حَتَّى يَنْشَقَّ الْفَجْرُ ثُمَّ يَرْتَفِعُ وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ : لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ ﴾ وَفِي رِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ عبسة : ﴿ أَنَّ الرَّبَّ يَتَدَلَّى فِي جَوْفِ اللَّيْلِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَفِي لَفْظٍ : حَتَّى يَنْشَقَّ الْفَجْرُ ثُمَّ يَرْتَفِعُ ﴾ وَذِكْرُ نُزُولِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ مِنْ عِدَّةِ

طُرُقٍ وَكَذَلِكَ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَذِكْرُ نُزُولِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَحَدِيثُ يَوْمِ الْمَزِيدِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ نُزُولِهِ وَارْتِفَاعِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ يُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَقُولُ إنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَيَجْعَلُ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَنْ يَقُولُ : إنَّهُ لَيْسَ فِي مَكَانٍ . وَكَلَامُهُ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ طَائِفَةٍ تَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إلَّا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ يَنْزِلُ نُزُولًا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . وَقَوْلُ مَنْ يَقُولُ : مَا ثَمَّ نُزُولٌ أَصْلًا كَقَوْلِ مَنْ يَقُولُ : لَيْسَ لَهُ فِعْلٌ يَقُومُ بِذَاتِهِ بِاخْتِيَارِهِ . وَهَاتَانِ " الطَّائِفَتَانِ " لَيْسَ عِنْدَهُمَا نُزُولٌ إلَّا النُّزُولُ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ أَجْسَادُ الْعِبَادِ الَّذِي يَقْتَضِي تَفْرِيغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ . ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي النُّزُولَ عَنْهُ يُنَزِّهُهُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ لَهُ نُزُولًا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ يَقْتَضِي

(557/271)

تَفْرِيغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ ؛ فَأُولَئِكَ يَقُولُونَ : هَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ ؛ فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ ؛ كَمَا يَقُولُ مَنْ يُقَابِلُهُمْ ذَلِكَ الْقَوْلُ بَاطِلٌ فَتَعَيَّنَ الثَّانِي . وَهُوَ يَحْمِلُ كَلَامَ السَّلَفِ " يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ " عَلَى أَنَّهُ نُزُولٌ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَمَنْ يُقَابِلُهُ يَحْمِلُهُ أَنَّ الْمُرَادَ مَفْعُولٌ مُنْفَصِلٌ عَنْ اللَّهِ . " وَفِي الْجُمْلَةِ " : فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ .

وَجُمْهُورُهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَهُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ الْأَئِمَّةِ الْمَعْرُوفِينَ بِالسُّنَّةِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَلَا ضَعِيفٍ أَنَّ الْعَرْشَ يَخْلُو مِنْهُ وَمَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنْ تَضْعِيفِ تِلْكَ الرِّوَايَةِ عَنْ إسْحَاقَ فَقَدْ ذَكَرْنَا الرِّوَايَةَ الْأُخْرَى الثَّابِتَةَ الَّتِي رَوَاهَا ابْنُ بَطَّةَ وَغَيْرُهُ وَذَكَرْنَا أَيْضًا اللَّفْظَ الثَّابِتَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ ؛ رَوَاهُ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُ . وَأَمَّا " رِسَالَةُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ " إلَى مُسَدَّدِ بْنِ مسرهد فَهِيَ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ وَقَدْ ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بَطَّةَ فِي كِتَابِ " الْإِبَانَةِ " وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا غَيْرُ وَاحِدٍ كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَكَتَبَهَا بِخَطِّهِ .

فَصْلٌ :

(558/271)

وَقَدْ تَأَوَّلَ قَوْمٌ - مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى " السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ " - حَدِيثَ النُّزُولِ وَمَا كَانَ نَحْوَهُ مِنْ النُّصُوصِ الَّتِي فِيهَا فِعْلُ الرَّبِّ اللَّازِمِ : كَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ وَالْهُبُوطِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَنَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلًا لِمَالِكٍ وَلِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ حَتَّى ذَكَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ - كَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِي وَغَيْرِهِ - عَنْ أَحْمَدَ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْبَابِ رِوَايَتَيْنِ ؛ بِخِلَافِ غَيْرِ هَذَا الْبَابِ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ فِي تَأْوِيلِهِ نِزَاعًا . وَطَرَدَ ابْنُ عَقِيلٍ الرِّوَايَتَيْنِ فِي " التَّأْوِيلِ " فِي غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ ؛

وَهُوَ تَارَةً يُوجِبُ التَّأْوِيلَ وَتَارَةً يُحَرِّمُهُ وَتَارَةً يُسَوِّغُهُ . وَالتَّأْوِيلُ عِنْدَهُ تَارَةً " لِلصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ مُطْلَقًا " وَيُسَمِّيهَا الْإِضَافَاتِ - لَا الصِّفَاتِ - مُوَافَقَةً لِمَنْ أَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ كَأَبِي عَلِيِّ بْنِ الْوَلِيدِ وَأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ التَّبَّانِ - وَكَانَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ - وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ مَعَ ابْنِ عَقِيلٍ عَلَى ذَلِكَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ مِثْلُ " كَفِّ التَّشْبِيهِ بِكَفِّ التَّنْزِيهِ " وَيُخَالِفُهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ .

(559/271)

وَالْأَكْثَرُونَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ لَمْ يُثْبِتُوا عَنْهُ نِزَاعًا فِي التَّأْوِيلِ لَا فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ وَلَا فِي غَيْرِهَا . وَأَمَّا مَا حَكَاهُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ عَنْ بَعْضِ الْحَنْبَلِيَّةِ : أَنَّ أَحْمَدَ لَمْ يَتَأَوَّلْ إلَّا " ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ " : ﴿ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ﴾ ﴿ وَإِنِّي أَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ ﴾ فَهَذِهِ الْحِكَايَةُ كَذِبٌ عَلَى أَحْمَدَ لَمْ يَنْقُلْهَا أَحَدٌ عَنْهُ بِإِسْنَادِ ؛ وَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ نَقْلَ ذَلِكَ عَنْهُ . وَهَذَا الْحَنْبَلِيُّ الَّذِي ذَكَرَ عَنْهُ أَبُو حَامِدٍ مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ لَا عِلْمُهُ بِمَا قَالَ وَلَا صِدْقُهُ فِيمَا قَالَ .

وَأَيْضًا : وَقَعَ النِّزَاعُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ . هَلْ اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُ فِي تَأْوِيلِ الْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؟ لِأَنَّ حَنْبَلًا نَقَلَ عَنْهُ فِي " الْمِحْنَةِ " أَنَّهُمْ لَمَّا احْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ إتْيَانُ الْقُرْآنِ وَمَجِيئُهُ . وَقَالُوا لَهُ : لَا يُوصَفُ بِالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ إلَّا مَخْلُوقٌ ؛ فَعَارَضَهُمْ أَحْمَد بِقَوْلِهِ : - وَأَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ - فَسَّرُوا هَذَا الْحَدِيثَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَجِيءُ ثَوَابِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ كَمَا ذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ مَجِيءِ الْأَعْمَالِ فِي الْقَبْرِ وَفِي الْقِيَامَةِ وَالْمُرَادُ

(560/271)

مِنْهُ ثَوَابُ الْأَعْمَالِ . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ اقْرَءُوا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا يَجِيئَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ غَمَامَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ

(561/271)

عَنْ أَصْحَابِهِمَا ﴾ وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ : فَلَمَّا أَمَرَ بِقِرَاءَتِهِمَا وَذَكَرَ مَجِيئَهُمَا يُحَاجَّانِ عَنْ الْقَارِئِ : عُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ قِرَاءَةَ الْقَارِئِ لَهُمَا وَهُوَ عَمَلُهُ وَأَخْبَرَ بِمَجِيءِ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ التِّلَاوَةُ لَهُمَا فِي الصُّورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا كَمَا أَخْبَرَ بِمَجِيءِ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْمَالِ .

وَهَذَا فِيهِ كَلَامٌ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : هَلْ يُقَلِّبُ اللَّهُ الْعَمَلَ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَمْ الْأَعْرَاضُ لَا تَنْقَلِبُ جَوَاهِرَ ؟ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ﴾ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَخْبَرَ بِمَجِيءِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ أَرَادَ بِهِ الْإِخْبَارَ عَنْ قِرَاءَةِ الْقَارِئِ ؛ الَّتِي هِيَ عَمَلُهُ وَذَلِكَ هُوَ ثَوَابُ قَارِئِ الْقُرْآنِ ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ نَفْسَ كَلَامِهِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ يَتَصَوَّرُ صُورَةَ غَمَامَتَيْنِ . فَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا حُجَّةٌ لِلْجَهْمِيَّةِ عَلَى مَا ادَّعَوْهُ . ثُمَّ إنَّ الْإِمَامَ أَحْمَد فِي الْمِحْنَةِ عَارَضَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ قَالَ قِيلَ : إنَّمَا يَأْتِي أَمْرُهُ هَكَذَا نَقَلَ حَنْبَلٌ ؛ وَلَمْ يَنْقُلْ هَذَا غَيْرُهُ مِمَّنْ نَقَلَ مُنَاظَرَتَهُ فِي " الْمِحْنَةِ " كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَد وَصَالِحِ بْنِ أَحْمَد وَالْمَرُّوذِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ أَحْمَد فِي ذَلِكَ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : غَلِطَ حَنْبَلٌ لَمْ يَقُلْ أَحْمَد هَذَا . وَقَالُوا حَنْبَلٌ لَهُ غَلَطَاتٌ مَعْرُوفَةٌ

(562/271)

وَهَذَا مِنْهَا وَهَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي إسْحَاقَ بْنِ شَاقْلَا .

(563/271)

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : بَلْ أَحْمَد قَالَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْزَامِ لَهُمْ . يَقُولُ : إذَا كَانَ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ ؛ بَلْ تَأَوَّلْتُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ جَاءَ أَمْرُهُ فَكَذَلِكَ قُولُوا : جَاءَ ثَوَابُ الْقُرْآنِ لَا أَنَّهُ نَفْسُهُ هُوَ الْجَائِي فَإِنَّ التَّأْوِيلَ هُنَا أَلْزَمُ فَإِنَّ الْمُرَادَ هُنَا الْإِخْبَارُ بِثَوَابِ قَارِئِ الْقُرْآنِ وَثَوَابُهُ عَمَلٌ لَهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْإِخْبَارَ عَنْ نَفْسِ الْقُرْآنِ . فَإِذَا كَانَ الرَّبُّ قَدْ أَخْبَرَ بِمَجِيءِ نَفْسِهِ ثُمَّ تَأَوَّلْتُمْ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ فَإِذَا أَخْبَرَ بِمَجِيءِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فَلَأَنْ تَتَأَوَّلُوا ذَلِكَ بِمَجِيءِ ثَوَابِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى . وَإِذَا قَالَهُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْزَامِ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لَهُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إلَى أَنْ يَلْتَزِمَ هَذَا . فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي مَجِيءِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَالْمُرَادُ مَجِيءُ قِرَاءَةِ الْقَارِئِ الَّتِي هِيَ عَمَلُهُ وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ وَثَوَابُهَا مَخْلُوقٌ . وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ : أَنَّهُ يَجِيءُ ثَوَابُ الْقُرْآنِ وَالثَّوَابُ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ لَا عَلَى صِفَاتِ الرَّبِّ وَأَفْعَالِهِ . وَذَهَبَ " طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ " مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد إلَى أَنَّ أَحْمَد قَالَ هَذَا : ذَلِكَ الْوَقْتُ وَجَعَلُوا هَذَا رِوَايَةً عَنْهُ ثُمَّ مَنْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ إلَى التَّأْوِيلِ - كَابْنِ عَقِيلٍ وَابْنِ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرِهِمَا - يَجْعَلُونَ هَذِهِ عُمْدَتَهُمْ . حَتَّى يَذْكُرَهَا

(564/271)

أَبو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ ؛ وَلَا يَذْكُرَ مِنْ كَلَامِ أَحْمَد وَالسَّلَفِ مَا يُنَاقِضُهَا .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمَنْقُولَ الْمُتَوَاتِرَ عَنْ أَحْمَد يُنَاقِضُ هَذِهِ الرِّوَايَةَ وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَقُولُ : إنَّ الرَّبَّ يَجِيءُ وَيَأْتِي وَيَنْزِلُ أَمْرُهُ بَلْ هُوَ يُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ . وَالَّذِينَ ذَكَرُوا عَنْ أَحْمَد فِي تَأْوِيلِ النُّزُولِ وَنَحْوِهِ مِنْ " الْأَفْعَالِ " لَهُمْ قَوْلَانِ : مِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ بِالْقَصْدِ ؛ كَمَا تَأَوَّلَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ بِالْقَصْدِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ الزَّاغُونِي . وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ بِمَجِيءِ أَمْرِهِ وَنُزُولِ أَمْرِهِ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي رِوَايَةِ حَنْبَلٍ . وَطَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرُهُمْ - كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِ مِمَّنْ يُوَافِقُ أَبَا الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيَّ - عَلَى أَنَّ " الْفِعْلَ " هُوَ الْمَفْعُولُ ؛ وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ بِذَاتِهِ فِعْلٌ اخْتِيَارِيٌّ . يَقُولُونَ : مَعْنَى النُّزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ : أَفْعَالٌ يَفْعَلُهَا الرَّبُّ فِي الْمَخْلُوقَاتِ . وَهَذَا هُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ قَالُوا : الِاسْتِوَاءُ فِعْلٌ فَعَلَهُ فِي الْعَرْشِ كَانَ بِهِ مُسْتَوِيًا وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِي .

وَهَؤُلَاءِ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ وَافَقُوا السَّلَفَ ؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ .

وَكَذَلِكَ ذُكِرَتْ هَذِهِ رِوَايَةٌ عَنْ مَالِكٍ رُوِيَتْ مِنْ طَرِيقِ كَاتِبِهِ حَبِيبِ بْنِ

(565/271)

أَبِي حَبِيبٍ ؛ لَكِنَّ هَذَا كَذَّابٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالنَّقْلِ لا يَقْبَلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَقْلَهُ عَنْ مَالِكٍ .

وَرُوِيَتْ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَفِي إِسْنَادِهَا مَنْ لا نَعْرِفُهُ .

وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ أَحْمَد وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ : فِي النُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . هَلْ يُقَالُ إنَّهُ بِحَرَكَةٍ وَانْتِقَالٍ ؟ أَمْ يُقَالُ بِغَيْرِ حَرَكَةٍ وَانْتِقَالٍ ؟ أَمْ يُمْسِكُ عَنْ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ ؟ عَلَى " ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ " ذَكَرَهَا الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي كِتَابِ " اخْتِلَافِ الرِّوَايَتَيْنِ وَالْوَجْهَيْنِ " .

فَالْأَوَّلُ قَوْلُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَامِدٍ وَغَيْرِهِ .

وَالثَّانِي : قَوْلُ أَبِي الْحَسَنِ التَّمِيمِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ .

وَالثَّالِثُ : قَوْلُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَطَّةَ وَغَيْرِهِ . ثُمَّ هَؤُلَاءِ فِيهِمْ مَنْ يَقِفُ عَنْ إثْبَاتِ اللَّفْظِ مَعَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى الْمَعْنَى وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرُهُ (*) . وَمِنْهُمْ مَنْ يُمْسِكُ عَنْ إثْبَاتِ الْمَعْنَى مَعَ اللَّفْظِ وَهُمْ فِي الْمَعْنَى مِنْهُمْ مَنْ يَتَصَوَّرُهُ مُجْمَلًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَصَوَّرُهُ مُفَصَّلًا ؛ إمَّا مَعَ الْإِصَابَةِ وَإِمَّا مَعَ الْخَطَأِ . وَالَّذِينَ أَثْبَتُوا هَذِهِ رِوَايَةً عَنْ " أَحْمَد " هُمْ وَغَيْرُهُمْ - مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ - لَهُمْ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ إِثْبَاتُ أَمْرِهِ وَمَجِيءُ أَمْرِهِ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ عَمْدُهُ وَقَصْدُهُ . وَهَكَذَا تَأَوَّلَ هَؤُلَاءِ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ قَالُوا قَصَدَ وَعَمَدَ . وَهَذَا تَأْوِيلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قُتَيْبَةَ ذَكَرَ فِي كِتَابِ " مُخْتَلِفِ الْحَدِيثِ " لَهُ : الَّذِي رَدَّ فِيهِ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي الْحَدِيثِ . فَقَالَ : قَالُوا حَدِيثٌ فِي التَّشْبِيهِ يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ وَالْإِجْمَاعُ . قَالُوا رَوَيْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَنْزِلُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ . أَوْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ فَأَغْفِرَ لَهُ ﴾ و ﴿ يَنْزِلُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ إِلَى أَهْلِ عَرَفَةَ ﴾ . و ﴿ يَنْزِلُ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ﴾ . وَهَذَا خِلَافٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ . فَقَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ أَنَّهُ يَكُونُ بِكُلِّ مَكَانٍ . وَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ . وَنَحْنُ نَقُولُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ أَنَّهُ مَعَهُمْ بِالْعِلْمِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ لِرَجُلٍ وَجَّهْتَهُ إِلَى بَلَدٍ شَاسِعٍ وَوَكَّلْتَهُ بِأَمْرٍ مِنْ أَمْرِكَ :

احْذَرْ التَّقْصِيرَ وَالْإِغْفَالَ لِشَيْءٍ مِمَّا تَقَدَّمْت فِيهِ إلَيْك ؛ فَإِنِّي مَعَك ؛ يُرِيدُ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ تَقْصِيرُك أَوْ جَدُّك بِالْإِشْرَافِ عَلَيْك ؛ وَالْبَحْثِ عَنْ أُمُورِك ؛ فَإِذَا جَازَ هَذَا فِي الْمَخْلُوقِ وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ : فَهُوَ فِي الْخَالِقِ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ أَجوز . وَكَذَلِكَ هُوَ بِكُلِّ مَكَانٍ يَرَاك لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْأَمَاكِنِ هُوَ فِيهَا بِالْعِلْمِ بِهَا وَالْإِحَاطَةِ فَكَيْفَ يَسُوغُ لِأَحَدِ أَنْ يَقُولَ : إنَّهُ بِكُلِّ مَكَانٍ عَلَى الْحُلُولِ مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أَيْ اسْتَقَرَّ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْت أَنْت وَمَنْ مَعَك عَلَى الْفُلْكِ ﴾ أَيْ اسْتَقْرَرْت وَمَعَ قَوْلِهِ : ﴿ إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ؟ . وَكَيْفَ يَصْعَدُ إلَيْهِ شَيْءٌ هُوَ مَعَهُ أَوْ يَرْتَفِعُ إلَيْهِ عَمَلٌ هُوَ عِنْدَهُ ؟ وَكَيْفَ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ وَتَعْرُجُ بِمَعْنَى تَصْعَدُ يُقَالُ عَرَجَ إلَى السَّمَاءِ إذَا صَعِدَ وَاَللَّهُ ذُو الْمَعَارِجِ وَالْمَعَارِجُ الدَّرَجُ . فَمَا هَذِهِ الدَّرَجُ ؟ فَإِلَى مَنْ تُؤَدِّي الْمَلَائِكَةُ الْأَعْمَالَ إذَا كَانَ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى مِثْلُهُ بِالْمَحَلِّ الْأَدْنَى وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ رَجَعُوا إلَى فِطَرِهِمْ وَمَا رُكِّبَتْ عَلَيْهِ خِلْقَتُهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ : لَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ وَهُوَ الْأَعْلَى وَبِالْمَكَانِ الرَّفِيعِ وَأَنَّ الْقُلُوبَ عِنْدَ الذِّكْرِ تَسْمُو نَحْوَهُ وَالْأَيْدِي تَرْتَفِعُ بِالدُّعَاءِ إلَيْهِ .

وَمِنْ الْعُلُوِّ يُرْجَى الْفَرَجُ

(568/271)

وَيُتَوَقَّعُ النَّصْرُ وَالرِّزْقُ .

وَهُنَاكَ الْكُرْسِيُّ وَالْعَرْشُ وَالْحُجُبُ وَالْمَلَائِكَةُ . يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ . وَقَالَ فِي الشُّهَدَاءِ : ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قِيلَ لَهُمْ شُهَدَاءُ : لِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ مَلَكُوتَ اللَّهِ وَاحِدُهُمْ شَهِيدٌ كَمَا يُقَالُ : عَلِيمٌ وَعُلَمَاءُ وَكَفِيلٌ وَكُفَلَاءُ . وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أَيْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ عِنْدَنَا لَا عِنْدَكُمْ ؛ لِأَنَّ زَوْجَةَ الرَّجُلِ وَوَلَدَهُ يَكُونَانِ عِنْدَهُ بِحَضْرَتِهِ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ . وَالْأُمَمُ كُلُّهَا ؛ عَجَمُهَا وَعَرَبُهَا تَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّمَاءِ مَا تُرِكَتْ عَلَى فِطْرَتِهَا وَلَمْ تُنْقَلْ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّعْلِيمِ . وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ رَجُلًا أَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ لِلْعِتْقِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْنَ اللَّهُ ؟ قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ . قَالَ مَنْ أَنَا ؟ قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ؛ فَقَالَ هِيَ مُؤْمِنَةٌ وَأَمَرَهُ بِعِتْقِهَا ﴾ .

وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :

مَجِّدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ * * * رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرَا

بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ * * * وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرَا

شَرْجَعًا مَا يَنَالُهُ بَصَرُ الْعَيْنِ * * * تُرَى دُونَهُ الْمَلَائِكُ صُوَرَا

وَصَوْرًا جَمْعُ أَصْوَرَ وَهُوَ الْمَائِلُ الْعُنُقِ وَهَكَذَا قِيلَ فِي حَمَلَةِ الْعَرْشِ صُورٌ وَكُلُّ مَنْ حَمَلَ شَيْئًا ثَقِيلًا عَلَى كَاهِلِهِ أَوْ عَلَى مَنْكِبِهِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَمِيلَ عُنُقُهُ . وَفِي " الْإِنْجِيلِ " أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : لَا تَحْلِفُوا بِالسَّمَاءِ فَإِنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ . وَقَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ : إنْ أَنْتُمْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ فَإِنَّ أَبَاكُمْ - الَّذِي فِي السَّمَاءِ - يَغْفِرُ لَكُمْ كُلُّكُمْ انْظُرُوا إلَى طَيْرِ السَّمَاءِ : فَإِنَّهُنَّ لَا يَزْرَعْنَ وَلَا يَحْصُدْنَ وَلَا يَجْمَعْنَ فِي الْأَهْوَاءِ وَأَبُوكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُمْ أَفَلَسْتُمْ أَفْضَلَ مِنْهُنَّ ؟ وَمِثْلُ هَذَا مِنْ الشَّوَاهِدِ كَثِيرٌ يَطُولُ بِهِ الْكِتَابُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إلَهٌ ﴾ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى الْحُلُولِ بِهِمَا وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ إلَهُ السَّمَاءِ وَمَنْ فِيهَا وَإِلَهُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا . وَمِثْلُ هَذَا مِنْ الْكَلَامِ قَوْلُك : هُوَ بِخُرَاسَانَ أَمِيرٌ وَبِمِصْرَ أَمِيرٌ ؛ فَالْإِمَارَةُ تَجْتَمِعُ لَهُ فِيهِمَا وَهُوَ حَالٌّ بِأَحَدِهِمَا أَوْ بِغَيْرِهِمَا . هَذَا وَاضِحٌ لَا يَخْفَى . فَإِنْ قَالَ لَنَا : كَيْفَ النُّزُولُ مِنْهُ جَلَّ وَعَزَّ ؟ قُلْنَا لَا نَحْكُمُ عَلَى النُّزُولِ مِنْهُ بِشَيْءٍ ؛ وَلَكِنَّا نُبَيِّنُ كَيْفَ النُّزُولُ مِنَّا وَمَا تَحْتَمِلُهُ اللُّغَةُ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ .

وَالنُّزُولُ مِنَّا يَكُونُ بِمَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ كَنُزُولِك مِنْ الْجَبَلِ إِلَى الْحَضِيضِ وَمِنْ السَّطْحِ إِلَى الدَّارِ . وَالْمَعْنَى الْآخَرُ : إقْبَالُك إلَى الشَّيْءِ بِالْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ . كَذَلِكَ الْهُبُوطُ وَالِارْتِفَاعُ وَالْبُلُوغُ وَالْمَصِيرُ وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنْ الْكَلَامِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ إنْ سَأَلَك سَائِلٌ عَنْ مَحَلِّ قَوْمٍ مِنْ الْأَعْرَابِ – وَهُوَ لَا يُرِيدُ الْمَصِيرَ إلَيْهِمْ – فَتَقُولُ لَهُ : إذَا صِرْت إلَى جَبَلِ كَذَا فَانْزِلْ مِنْهُ وَخُذْ يَمِينًا وَإِذَا صِرْت إلَى وَادِي كَذَا فَاهْبِطْ فِيهِ ثُمَّ خُذْ شِمَالًا وَإِذَا سِرْت إلَى أَرْضِ كَذَا فَاعْلُ هَضْبَةً هُنَاكَ حَتَّى تُشْرِفَ عَلَيْهِمْ ؛ وَأَنْتَ لَا تُرِيدُ فِي شَيْءٍ مِمَّا تَقُولُهُ افْعَلْهُ بِبَدَنِك إنَّمَا تُرِيدُ افْعَلْهُ بِنِيَّتِك وَقَصْدِك . وَقَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ : بَلَغْت إلَى الْأَحْزَابِ تَشْتُمُهُمْ وَصِرْت إلَى الْخُلَفَاءِ تَطْعَنُ عَلَيْهِمْ وَجِئْت إلَى الْعِلْمِ تَزْهَدُ فِيهِ وَنَزَلْت عَنْ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ إلَى الدَّنَاءَةِ ؛ لَيْسَ يُرَادُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا انْتِقَالُ الْجِسْمِ وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الْقَصْدُ إلَى الشَّيْءِ بِالْإِرَادَةِ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ لَا يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مَعَهُمْ بِالْحُلُولِ ؛ وَلَكِنْ بِالنَّصْرِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْحِيَاطَةِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْت مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْت مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً ﴾ .

(571/271)

قَالَ : ثَنَا عَنْ عَبْدِ الْمُنْعِمِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ﴿ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نُودِيَ مِنْ الشَّجَرَةِ ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ أَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَتَابَعَ التَّلْبِيَةَ وَمَا كَانَ ذَلِكَ إلَّا اسْتِئْنَاسًا مِنْهُ بِالصَّوْتِ وَسُكُونًا إلَيْهِ . وَقَالَ : إنِّي أَسْمَعُ صَوْتَك وَأَحُسُّ حِسَّك وَلَا أَدْرِي مَكَانَك فَأَيْنَ أَنْتَ ؟ . قَالَ : أَنَا فَوْقَك وَأَمَامَك وَخَلْفَك وَمُحِيطٌ بِك وَأَقْرَبُ إلَيْك مِنْ نَفْسِك ﴾ يُرِيدُ أَنِّي أَعْلَمُ بِك مِنْك ؛ لِأَنَّك إذَا نَظَرْت إلَى مَا بَيْنَ يَدَيْك خَفِيَ عَلَيْك مَا وَرَاءَك وَإِذَا سَمَوْت بِطَرْفِك إلَى مَا هُوَ فَوْقَك ذَهَبَ عَنْك عِلْمُ مَا تَحْتَك وَأَنَا لَا يَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ مِنْك فِي جَمِيعِ أَحْوَالِك . وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ رَابِعَةَ الْعَابِدَةِ العدوية قَالَتْ : شَغَلُوا قُلُوبَهُمْ عَنْ اللَّهِ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَلَوْ تَرَكُوهَا لَجَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ ثُمَّ رَجَعَتْ إلَيْهِمْ بِطَرْفِ الْفَائِدَةِ وَلَمْ تَرِدْ أَنَّ أَبْدَانَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ تَجُولُ فِي السَّمَاءِ بِالْحُلُولِ ؛ وَلَكِنْ تَجُولُ هُنَاكَ بِالْفِكْرِ وَالْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَبِي ممندية الْأَعْرَابِيِّ قَالَ : اطَّلَعْت فِي النَّارِ فَرَأَيْت الشُّعَرَاءَ لَهُمْ كَظِيظٌ يَعْنِي الْتِقَاءً وَأَنْشَدَ فِيهِ : – جِيَادٌ بِهَا صَرْعَى لَهُنَّ كَظِيظٌ وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ اطَّلَعْت فِي الْجَنَّةِ

(572/271)

فَرَأَيْت أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْت فِي النَّارِ فَرَأَيْت أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ ﴾ إنَّ اطِّلَاعَهُ فِيهَا كَانَ بِالْفِكْرَةِ وَالْإِقْبَالِ كَانَ حَسَنًا . قُلْت : وَتَأْوِيلُ الْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - بِمَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - هُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ . وَتَأَوَّلُوا ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ وَجَعَلَ ابْنُ الزَّاغُونِي وَغَيْرُهُ ذَلِكَ : هُوَ إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد . وَالصَّوَابُ : أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ مُبْتَدَعَةٌ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ شَيْئًا مِنْهَا وَلَا أَحَدٌ مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ؛ وَهِيَ خِلَافُ الْمَعْرُوفِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ : أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ . وَلَكِنَّ بَعْضَ الْخَائِضِينَ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ يَتَشَبَّثُ بِأَلْفَاظٍ تُنْقَلُ عَنْ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ وَتَكُونُ إمَّا غَلَطًا أَوْ مُحَرَّفَةً ؛ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ قَوْلَ الأوزاعي وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ فِي النُّزُولِ "يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ" فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ النُّزُولَ مَفْعُولٌ مَخْلُوقٌ مُنْفَصِلٌ عَنْ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ : (يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) هَذَا الْمَعْنَى وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ كَمَا تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَةُ إلَيْهِ . [وَآخَرُونَ - كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى فِي "إبْطَالِ التَّأْوِيلِ" - قَالُوا لَمْ يُرِدْ الأوزاعي أَنَّ النُّزُولَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ : يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَشَبَّهُوا ذَلِكَ (*)

(573/271)

بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ

(574/271)

عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ فَزَعَمُوا أَنَّ قَوْلَهُ " سُبْحَانَهُ " : لَيْسَ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ] (*) - بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمْ الْفَاسِدِ وَهُوَ : أَنَّ الرَّبَّ لَا يُنَزَّهُ عَنْ فِعْلٍ مِنْ الْأَفْعَالِ - بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . وَكَذَلِكَ جَعَلُوا قَوْلَ الْأَوْزَاعِي وَغَيْرِهِ : إنَّ النُّزُولَ لَيْسَ بِفِعْلٍ يَشَاؤُهُ اللَّهُ ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ لَا مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمْ وَأَنَّ الْأَفْعَالَ الِاخْتِيَارِيَّةَ لَا تَقُومُ بِذَاتِ اللَّهِ . فَلَوْ كَانَ صِفَةَ فِعْلٍ لَزِمَ أَنْ لَا يَقُومَ بِذَاتِهِ ؛ بَلْ يَكُونُ مُنْفَصِلًا عَنْهُ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : النُّزُولُ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ وَمَعَ هَذَا فَهُوَ عِنْدَهُمْ أَزَلِيٌّ كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الِاسْتِوَاءِ وَالْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ وَالرِّضَى وَالْغَضَبِ وَالْفَرَحِ وَالضَّحِكِ وَسَائِرِ ذَلِكَ : إنَّ هَذَا جَمِيعَهُ صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ لِلَّهِ وَإِنَّهَا قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَا تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ؛ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمْ الَّذِي وَافَقُوا فِيهِ ابْنَ كُلَّابٍ وَهُوَ أَنَّ الرَّبَّ لَا يَقُومُ بِذَاتِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ؛ بَلْ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ إنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَا يَقُومُ بِهِ فِعْلٌ يَحْدُثُ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ . بَلْ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ إنَّ الْفِعْلَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ

(575/271)

يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ يَقُولُونَ فَسَادُ هَذَا مَعْلُومٌ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ ؛ كَمَا قَالُوا

(576/271)

مِثْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ : إنَّ الْفَلَكَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ وَإِنَّهُ أَبْدَعَهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ . وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يَقُولُونَ : الشَّيْءُ الْمُعَيَّنُ مِنْ الْأَعْيَانِ وَالصِّفَاتِ إذَا كَانَ حَاصِلًا بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ وَقُدْرَتِهِ لَمْ يَكُنْ أَزَلِيًّا . فَلَمَّا كَانَ مِنْ أَصْلِ ابْنِ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ كَالْحَارِثِ الْمحاسبي وَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَالْقُضَاةِ أَبِي بَكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ وَأَبِي يَعْلَى بْنِ الْفَرَّاءِ وَأَبِي جَعْفَرٍ السَّمَّانِيِّ وَأَبِي الْوَلِيدِ الباجي وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْأَعْيَانِ ؛ كَأَبِي الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي وَأَمْثَالِهِ ؛ وَأَبِي الْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِي وَأَمْثَالِهِمَا : أَنَّ الرَّبَّ لَا يَقُومُ بِهِ مَا يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَيُعَبِّرُونَ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ لَا تَحِلُّهُ الْحَوَادِثُ وَوَافَقُوا فِي ذَلِكَ الْجَهْمَ بْنَ صَفْوَانَ وَأَتْبَاعَهُ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ صَارُوا فِيمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْنِ : إمَّا أَنْ يَجْعَلُوهَا كُلَّهَا مَخْلُوقَاتٍ مُنْفَصِلَةً عَنْهُ .

فَيَقُولُونَ : كَلَامُ اللَّهِ مَخْلُوقٌ بَائِنٌ عَنْهُ ؛ لَا يَقُومُ بِهِ كَلَامٌ . وَكَذَلِكَ رِضَاهُ وَغَضَبُهُ وَفَرَحُهُ وَمَجِيئُهُ وَإِتْيَانُهُ وَنُزُولُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ هُوَ مَخْلُوقٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ لَا يَتَّصِفُ الرَّبُّ بِشَيْءٍ يَقُومُ بِهِ عِنْدَهُمْ . وَإِذَا قَالُوا هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ : فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنْ اللَّهِ بَائِنَةٌ وَهِيَ مُضَافَةٌ إلَيْهِ ؛ لَا أَنَّهَا صِفَاتٌ قَائِمَةٌ

(577/271)

بِهِ .

(578/271)

وَلِهَذَا يَقُولُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ : إنَّ هَذِهِ آيَاتُ الْإِضَافَاتِ وَأَحَادِيثُ الْإِضَافَاتِ وَيُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يَقُولُ آيَاتُ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثُ الصِّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلُوا جَمِيعَ هَذِهِ الْمَعَانِي قَدِيمَةً أَزَلِيَّةً وَيَقُولُونَ نُزُولُهُ وَمَجِيئُهُ وَإِتْيَانُهُ وَفَرَحُهُ وَغَضَبُهُ وَرِضَاهُ ؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ : قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ كَمَا يَقُولُونَ : إنَّ الْقُرْآنَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ . ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ مَعْنًى وَاحِدًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ حُرُوفًا أَوْ حُرُوفًا وَأَصْوَاتًا قَدِيمَةً أَزَلِيَّةً مَعَ كَوْنِهِ مُرَتَّبًا فِي نَفْسِهِ . وَيَقُولُونَ : فَرْقٌ بَيْنَ تَرْتِيبِ وُجُودِهِ وَتَرْتِيبِ

مَاهِيَّتِهِ كَمَا قَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَقَائِلِيهَا ؛ وَأَدِلَّتِهَا السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ قَوْلَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا قَوْلَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْهُورِينَ بِالْإِمَامَةِ - أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ - كَالأوزاعي وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه وَأَمْثَالِهِمْ ؛ بَلْ أَقْوَالُ السَّلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ : مَوْجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الَّتِي يُنْقَلُ فِيهَا أَقْوَالُهُمْ بِأَلْفَاظِهَا بِالْأَسَانِيدِ الْمَعْرُوفَةِ

(579/271)

عَنْهُمْ . كَمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ كِتَابِ " السُّنَّةِ " " وَالرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ "

(580/271)

لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الجعفي شَيْخِ الْبُخَارِيِّ ؛ وَلِأَبِي دَاوُد السجستاني وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَلِأَبِي بَكْرٍ الْأَثْرَمِ وَلِحَنْبَلِ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِحَرْبِ الكرماني وَلِعُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الدارمي وَلِنُعَيْمِ بْنِ حَمَّادٍ الخزاعي وَلِأَبِي بَكْرٍ الْخَلَّالِ وَلِأَبِي بَكْرِ بْنِ خُزَيْمَة وَلِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَلِأَبِي الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِي وَلِأَبِي الشَّيْخِ الأصبهاني وَلِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ منده وَلِأَبِي عَمْرٍو الطلمنكي وَأَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ . وَفِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُسْنَدَةِ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ ذَلِكَ مِثْلُ تَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ وَعَبْدِ بْنِ حميد ودحيم وسنيد وَابْنِ جَرِيرٍ الطبري وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الْمُنْذِرِ ؛ وَتَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الَّتِي يُنْقَلُ فِيهَا أَلْفَاظُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ بِالْأَسَانِيدِ الْمَعْرُوفَةِ . فَإِنَّ مَعْرِفَةَ مُرَادِ الرَّسُولِ وَمُرَادِ الصَّحَابَةِ هُوَ أَصْلُ الْعِلْمِ وَيَنْبُوعُ الْهُدَى ؛ وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَذْكُرُ مَذْهَبَ السَّلَفِ وَيَحْكِيهِ لَا يَكُونُ لَهُ خِبْرَةٌ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ كَمَا يَظُنُّونَ أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِهَا . أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَعَانِيَهَا ؛ لَا الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ مَعَ نَصْرِهِمْ لِلْوَقْفِ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَيَجْعَلُونَ مَضْمُونَ مَذْهَبِ السَّلَفِ أَنَّ الرَّسُولَ بَلَّغَ قُرْآنًا لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ ؛ بَلْ تَكَلَّمَ بِأَحَادِيثَ

(581/271)

الصِّفَاتِ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا وَأَنَّ جِبْرِيلَ كَذَلِكَ ؛ وَأَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ كَذَلِكَ .

وَهَذَا ضَلَالٌ عَظِيمٌ وَهُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الضَّلَالِ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أَهْلِ التَّخْيِيلِ وَظَنَّ أَهْلِ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَظَنَّ أَهْلِ التَّجْهِيلِ . وَهَذَا مِمَّا بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ . وَاَللَّهُ يَهْدِينَا وَسَائِرَ إخْوَانِنَا إلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَى مَنْ يَقُولُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَإِنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ فِي هَذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ وَغَيْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَقَدْ صَنَّفَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ منده مُصَنَّفًا فِي الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنْ الْعَرْشِ أَوْ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ - كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ كَلَامِهِ - . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ يَقُولَ يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو . وَجُمْهُورُهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو لِشَكِّهِمْ فِي ذَلِكَ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمْ جَوَابُ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ وَأَمَّا مَعَ كَوْنِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ قَدْ تَرَجَّحَ عِنْدَهُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ لَكِنْ يُمْسِكُ فِي ذَلِكَ لِكَوْنِهِ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ

(582/271)

وَلِمَا يُخَافُ مِنْ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا الْجَزْمُ بِخُلُوِّ الْعَرْشِ فَلَمْ يَبْلُغْنَا إلَّا عَنْ طَائِفَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُمْ . وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ – وَهُوَ الصَّوَابُ وَهُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا – أَنَّهُ لَا يَزَالُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَا يَخْلُو الْعَرْشُ مِنْهُ مَعَ دُنُوِّهِ وَنُزُولِهِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَكُونُ الْعَرْشُ فَوْقَهُ . وَكَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَلَيْسَ نُزُولُهُ كَنُزُولِ أَجْسَامِ بَنِي آدَمَ مِنْ السَّطْحِ إلَى الْأَرْضِ بِحَيْثُ يَبْقَى السَّقْفُ فَوْقَهُمْ بَلْ اللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ وَسَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إلَى بَسْطٍ .

(583/271)

وَأَمَّا قَوْلُ النَّافِي : إنَّمَا يَنْزِلُ أَمْرُهُ وَرَحْمَتُهُ ؛ فَهَذَا غَلَطٌ لِوُجُوهٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ النُّفَاةِ مِنْ الْمُثْبِتَةِ لِلْعُلُوِّ . وَأَمَّا إذَا كَانَ مِنْ النُّفَاةِ لِلْعُلُوِّ وَالنُّزُولِ جَمِيعًا ؛ فَيُجَابُ أَيْضًا بِوُجُوهٍ : (أَحَدُهَا : أَنَّ الْأَمْرَ وَالرَّحْمَةَ إمَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا أَعْيَانٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا كَالْمَلَائِكَةِ وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا صِفَاتٌ وَأَعْرَاضٌ . فَإِنْ أُرِيدَ الْأَوَّلُ . فَالْمَلَائِكَةُ تَنْزِلُ إلَى الْأَرْضِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَهَذَا خَصَّ النُّزُولَ بِجَوْفِ اللَّيْلِ وَجَعَلَ مُنْتَهَاهُ سَمَاءَ الدُّنْيَا وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَخْتَصُّ نُزُولُهُمْ لَا بِهَذَا الزَّمَانِ وَلَا بِهَذَا الْمَكَانِ . وَإِنْ أُرِيدَ صِفَاتٌ وَأَعْرَاضٌ مِثْلُ مَا يَحْصُلُ فِي قُلُوبِ الْعَابِدِينَ فِي وَقْتِ السَّحَرِ مِنْ الرِّقَّةِ وَالتَّضَرُّعِ وَحَلَاوَةِ الْعِبَادَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ فَهَذَا

حَاصِلٌ فِي الْأَرْضِ لَيْسَ مُنْتَهَاهُ السَّمَاءُ الدُّنْيَا .

الثَّانِي : أَنَّ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّهُ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَقُولُ لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقُولُهُ غَيْرُهُ .

(584/271)

الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الدُّعَاءَ وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيُعْطِي كُلَّ سَائِلٍ سُؤَالَهُ إلَّا اللَّهُ وَأَمْرُهُ وَرَحْمَتُهُ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ .

الرَّابِعُ : نُزُولُ أَمْرِهِ وَرَحْمَتِهِ لَا تَكُونُ إلَّا مِنْهُ ؛ وَحِينَئِذٍ فَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ فَنَفْسُ تَأْوِيلِهِ يُبْطِلُ مَذْهَبَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ النُّفَاةِ لِبَعْضِ الْمُثْبِتِينَ : يَنْزِلُ أَمْرُهُ وَرَحْمَتُهُ ؛ فَقَالَ لَهُ الْمُثْبِتُ : فَمِمَّنْ يَنْزِلُ مَا عِنْدَك فَوْقَ شَيْءٌ ؛ فَلَا يَنْزِلُ مِنْهُ لَا أَمْرٌ وَلَا رَحْمَةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ فَبُهِتَ النَّافِي وَكَانَ كَبِيرًا فِيهِمْ . (الْخَامِسُ : أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ : " ثُمَّ يَعْرُجُ " وَفِي لَفْظٍ " ثُمَّ يَصْعَدُ " .

السَّادِسُ : أَنَّهُ إذَا قُدِّرَ أَنَّ النَّازِلَ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ وَأَنَّهُ يُنَادِي عَنْ اللَّهِ كَمَا حَرَّفَ بَعْضُهُمْ لَفْظَ

الْحَدِيثِ فَرَوَاهُ "يَنْزِلُ" مِنْ الْفِعْلِ الرُّبَاعِيِّ الْمُتَعَدِّي أَنَّهُ يَأْمُرُ مُنَادِيًا يُنَادِي ؛ لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَقُولَ : مَنْ يَدْعُو اللَّهَ فَيَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُهُ فَيُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُهُ فَيَغْفِرَ لَهُ ؟ كَمَا ثَبَتَ فِي "الصَّحِيحَيْنِ" "وَمُوَطَّأِ

(585/271)

مَالِكٍ و" مُسْنَدِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ " وَغَيْرِ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى فِي السَّمَاءِ يَا جِبْرِيلُ إنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ؛ ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ : إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ﴾ وَقَالَ فِي الْبُغْضِ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَرْقَ بَيْنَ نِدَاءِ اللَّهِ وَنِدَاءِ جِبْرِيلَ فَقَالَ فِي نِدَاءِ اللَّهِ : ﴿ يَا جِبْرِيلُ إنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ﴾ وَقَالَ فِي نِدَاءِ جِبْرِيلَ ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ﴾ وَهَذَا مُوجَبُ اللُّغَةِ الَّتِي بِهَا خُوطِبْنَا بَلْ وَمُوجَبُ جَمِيعِ اللُّغَاتِ فَإِنَّ ضَمِيرَ الْمُتَكَلِّمِ لَا يَقُولُهُ إلَّا الْمُتَكَلِّمُ . فَأَمَّا مَنْ أَخْبَرَ عَنْ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا يَأْتِي بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ وَضَمَائِرِ الْغَيْبَةِ . وَهُمْ يُمَثِّلُونَ نِدَاءَ اللَّهِ بِنِدَاءِ السُّلْطَانِ وَيَقُولُونَ : قَدْ يُقَالُ : نَادَى السُّلْطَانُ إذَا أَمَرَ غَيْرَهُ بِالنِّدَاءِ – وَهَذَا كَمَا قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ الْمَحْضَةُ فِي تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى : إنَّهُ أَمَرَ غَيْرَهُ فَكَلَّمَهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ . فَيُقَالُ

لَهُمْ : إنَّ السُّلْطَانَ إذَا أَمَرَ غَيْرَهُ أَنْ يُنَادِيَ أَوْ يُكَلِّمَ غَيْرَهُ أَوْ يُخَاطِبَهُ ؛ فَإِنَّ الْمُنَادِيَ يُنَادِي : مَعَاشِرَ النَّاسِ أَمَرَ السُّلْطَانُ بِكَذَا أَوْ رَسَمَ بِكَذَا لَا يَقُولُ إنِّي أَنَا أَمَرْتُكُمْ بِذَلِكَ . وَلَوْ تَكَلَّمَ بِذَلِكَ

(586/271)

لَأَهَانَهُ النَّاسُ وَلَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ حَتَّى تَأْمُرَنَا وَالْمُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ يَقُولُ : ﴿ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ ﴾ كَمَا فِي نِدَائِهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ لَوْ أَمَرَ مَلَكًا أَنْ يُنَادِيَ كُلَّ لَيْلَةٍ أَوْ يُنَادِيَ مُوسَى لَمْ يَقُلْ الْمَلَكُ : " مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ " وَلَا يَقُولُ : " لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي " .

(587/271)

وَأَمَّا قَوْلُ الْمُعْتَرِضِ : إنَّ اللَّيْلَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبُلْدَانِ وَالْفُصُولِ فِي التَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ وَالطُّولِ وَالْقِصَرِ . فَيُقَالُ لَهُ : الْجَوَابُ عَنْ هَذَا كَالْجَوَابِ عَنْ قَوْلِك : هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ لَا يَخْلُو مِنْهُ ؟ وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا جَازَ أَنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؛ فَتَقَدُّمُ النُّزُولِ وَتَأَخُّرُهُ وَطُولُهُ وَقِصَرُهُ كَذَلِكَ ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ هَذَا نُزُولٌ لَا يُقَاسُ بِنُزُولِ الْخَلْقِ . وَجِمَاعُ الْأَمْرِ أَنَّ الْجَوَابَ عَنْ مِثْلِ هَذَا السُّؤَالِ يَكُونُ بِأَنْوَاعٍ . (أَحَدُهَا : أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْمُنَازِعَ النَّافِيَ يَلْزَمُهُ مِنْ اللَّوَازِمِ مَا هُوَ أَبْعَدُ عَنْ الْمَعْقُولِ الَّذِي يَعْتَرِفُ بِهِ مِمَّا يَلْزَمُ الْمُثْبِتُ فَإِنْ كَانَ مِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ مِنْ الْمَعْقُولِ حُجَّةً صَحِيحَةً ؛ لَزِمَ بُطْلَانُ النَّفْيِ فَيَلْزَمُ الْإِثْبَاتُ ؛ إذْ الْحَقُّ لَا يَخْلُو عَنْ النَّقِيضَيْنِ . وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا ؛ لَمْ يَبْطُلْ بِهِ الْإِثْبَاتُ فَلَا يُعَارِضُ مَا ثَبَتَ بِالْفِطْرَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعَةِ النَّبَوِيَّةِ وَهَذَا كَمَا إذَا قَالَ : لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكَانَ جِسْمًا وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ ؛ فَيُقَالُ لَهُ : لِلنَّاسِ هُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَيْسَ بِجِسْمٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ جِسْمٌ .

(588/271)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَا أَقُولُ هُوَ جِسْمٌ وَلَا لَيْسَ بِجِسْمٍ ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْكُتُ عَنْ هَذَا النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ؛ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَفْصِلُ عَنْ مُسَمَّى

الْجِسْمِ . فَإِنْ فَسَّرَ بِمَا يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهُ نَفَاهُ وَبَيَّنَ أَنَّ عُلُوَّهُ عَلَى الْعَرْشِ لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ وَإِنْ فَسَّرَ بِمَا يَتَّصِفُ الرَّبُّ بِهِ لَمْ يَنْفِ ذَلِكَ الْمَعْنَى . فَالْجِسْمُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْبَدَنُ وَاَللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَدْ يُرِيدُونَ بِالْجِسْمِ مَا هُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُنَازِعُ فِي كَوْنِ الْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ مُرَكَّبَةً مِنْ هَذَا وَهَذَا ؛ بَلْ أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ عِنْدَهُمْ أَنَّ السَّمَوَاتِ لَيْسَتْ مُرَكَّبَةً لَا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَلَا مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُرَكَّبًا مِنْ هَذَا وَهَذَا ؟ فَمَنْ قَالَ : إنَّ اللَّهَ جِسْمٌ وَأَرَادَ بِالْجِسْمِ هَذَا الْمُرَكَّبَ ؛ فَهُوَ مُخْطِئٌ فِي ذَلِكَ . وَمَنْ قَصَدَ نَفْيَ هَذَا التَّرْكِيبِ عَنْ اللَّهِ ؛ فَقَدْ أَصَابَ فِي نَفْيِهِ عَنْ اللَّهِ لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَذْكُرَ عِبَارَةً تُبَيِّنُ مَقْصُودَهُ . وَلَفْظُ التَّرْكِيبِ قَدْ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ رَكَّبَهُ مُرَكِّبٌ أَوْ أَنَّهُ كَانَتْ أَجْزَاؤُهُ مُتَفَرِّقَةً فَاجْتَمَعَ أَوْ أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّفْرِيقَ وَاَللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

(589/271)

وَقَدْ يُرَادُ بِلَفْظِ الْجِسْمِ وَالْمُتَحَيِّزِ مَا يُشَارُ إلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّ الْأَيْدِيَ تُرْفَعُ إلَيْهِ فِي الدُّعَاءِ وَأَنَّهُ يُقَالُ : هُوَ هُنَا وَهُنَاكَ وَيُرَادُ بِهِ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ وَيُرَادُ بِهِ الْمَوْجُودُ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَهُوَ عِنْدَ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ تُرْفَعُ الْأَيْدِي إلَيْهِ فِي الدُّعَاءِ وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ . فَإِذَا

سَمَّى الْمُسَمِّي مَا يَتَّصِفُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي جِسْمًا ؛ كَانَ كَتَسْمِيَةِ الْآخَرِ مَا يَتَّصِفُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَالِمٌ قَادِرٌ جِسْمًا وَتَسْمِيَةُ الْآخَرِ مَا لَهُ حَيَاةٌ وَعِلْمٌ وَقُدْرَةٌ جِسْمًا . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ يُنَازِعُونَ فِي ثَلَاثِ مَقَامَاتٍ : (أَحَدُهَا أَنَّ تَسْمِيَةَ مَا يَتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ بِالْجِسْمِ بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ وَاللُّغَةِ ؛ فَلَا أَهْلُ اللُّغَةِ يُسَمُّونَ هَذَا جِسْمًا بَلْ الْجِسْمُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْبَدَنُ كَمَا نَقَلَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي " صِحَاحِهِ " الْمَشْهُورِ : قَالَ أَبُو زَيْدٍ : الْجِسْمُ الْجَسَدُ وَكَذَلِكَ الْجُسْمَانُ وَالْجُثْمَانُ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْجِسْمُ وَالْجُثْمَانُ الْجَسَدُ وَالْجُثْمَانُ الشَّخْصُ قَالَ : وَالْأَجْسَمُ الْأَضْخَمُ بِالْبَدَنِ وَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ : تَجَسَّمْت الْأَمْرَ أَيْ رَكِبْت أَجْسَمَهُ وَجَسِيمَهُ أَيْ مُعْظَمَهُ قَالَ : وَكَذَلِكَ تَجَسَّمْت الرَّجُلَ وَالْجَبَلَ أَيْ رَكِبْت أَجْسَمَهُ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ لَفْظَ الْجِسْمِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ الْقُرْآنِ ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ

(590/271)

تَعَالَى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ وَالْجِسْمُ قَدْ يُفَسَّرُ بِالصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِالْمَحَلِّ وَهُوَ الْقَدْرُ وَالْغِلَظُ كَمَا يُقَالُ هَذَا الثَّوْبُ

(591/271)

لَهُ جِسْمٌ وَهَذَا لَيْسَ لَهُ جِسْمٌ أَيْ لَهُ غِلَظٌ وَضَخَامَةٌ بِخِلَافِ هَذَا وَقَدْ يُرَادُ بِالْجِسْمِ نَفْسُ الْغِلَظِ وَالضخم . وَقَدْ ادَّعَى طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ النُّفَاةِ أَنَّ الْجِسْمَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْمُؤَلَّفُ الْمُرَكَّبُ وَأَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ لَفْظَ الْجِسْمِ فِي كُلِّ مَا يُشَارُ إلَيْهِ مُوَافِقٌ لِلُّغَةِ ؛ قَالُوا : لِأَنَّ كُلَّ مَا يُشَارُ إلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَيَّزُ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ ؛ فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ الَّتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ وَلَا يَتَمَيَّزُ مِنْهُ جَانِبٌ عَنْ جَانِبٍ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ اللَّذَيْنِ هُمَا جَوْهَرَانِ عَقْلِيَّانِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَلَاسِفَةِ . قَالُوا : وَإِذَا كَانَ هَذَا مُرَكَّبًا مُؤَلَّفًا ؛ فَالْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْمُؤَلَّفُ الْمُرَكَّبُ بِدَلِيلِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : رَجُلٌ جَسِيمٌ وَزَيْدٌ أَجْسَمُ مِنْ عَمْرٍو إذَا كَثُرَ ذَهَابُهُ فِي الْجِهَاتِ وَلَيْسَ يَقْصِدُونَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي قَوْلِهِمْ : أَجْسَمُ وَجَسِيمٌ إلَّا كَثْرَةَ الْأَجْزَاءِ الْمُنْضَمَّةِ وَالتَّأْلِيفَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ : أَجْسَمُ فِيمَنْ كَثُرَتْ عُلُومُهُ وَقَدْرُهُ وَسَائِرُ تَصَرُّفَاتِهِ وَصِفَاتُهُ غَيْرُ الِاجْتِمَاعِ حَتَّى إذَا كَثُرَ الِاجْتِمَاعُ فِيهِ بِتَزَايُدِ أَجْزَائِهِ قِيلَ : أَجْسَمُ وَرَجُلٌ جَسِيمٌ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمْ : جَسَّمَ ؛ مُفِيدٌ لِلتَّأْلِيفِ . فَهَذَا أَصْلُ قَوْلِ هَؤُلَاءِ النُّفَاةِ وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ : سَمْعِيٍّ لُغَوِيٍّ وَنَظَرِيٍّ عَقْلِيٍّ فِطْرِيٍّ . أَمَّا السَّمْعِيُّ اللُّغَوِيُّ فَقَوْلُهُمْ

: إنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يُطْلِقُونَ لَفْظَ الْجِسْمِ عَلَى الْمُرَكَّبِ

(593/271)

وَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : هُوَ أَجْسَمُ إذَا كَانَ أَغْلَظَ وَأَكْثَرَ ذَهَابًا فِي الْجِهَاتِ وَأَنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ اعْتَبَرُوا كَثْرَةَ الْأَجْزَاءِ . فَيُقَالُ : أَمَّا " الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى " وَهُوَ : أَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يُسَمُّونَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ مِقْدَارٌ بِحَيْثُ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ أَوْ أَصْغَرَ ؛ جِسْمًا ؛ فَهَذَا لَا يُوجَدُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَلْبَتَّةَ وَلَا يُمْكِنُ أَحَدٌ أَنْ يَنْقُلَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ الْهَوَاءَ الَّذِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ جِسْمًا وَلَا يُسَمُّونَ رُوحَ الْإِنْسَانِ جِسْمًا . بَلْ مِنْ الْمَشْهُورِ أَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْجِسْمِ وَالرُّوحِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ يَعْنِي أَبْدَانَهُمْ دُونَ أَرْوَاحِهِمْ الْبَاطِنَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ نَقَلَةُ اللُّغَةِ أَنَّ الْجِسْمَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْجَسَدُ . وَمِنْ الْمَعْرُوفِ فِي اللُّغَةِ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ يَتَضَمَّنُ الْغِلَظَ وَالْكَثَافَةَ فَلَا يُسَمُّونَ الْأَشْيَاءَ الْقَائِمَةَ بِنَفْسِهَا إذَا كَانَتْ لَطِيفَةً كَالْهَوَاءِ وَرُوحِ الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ مِقْدَارٌ يَكُونُ بِهِ بَعْضُهُ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضٍ لَكِنْ لَا يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ ذَلِكَ جِسْمًا وَلَا يَقُولُونَ فِي زِيَادَةِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ : هَذَا أَجْسَمُ مِنْ هَذَا وَلَا يَقُولُونَ هَذَا الْمَكَانُ الْوَاسِعُ أَجْسَمُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الضَّيِّقِ ؛ وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْهُ وَإِنْ كَانَتْ أَجْزَاؤُهُ

زَائِدَةً عَلَى أَجْزَائِهِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْأَجْزَاءِ . فَلَيْسَ كُلُّ مَا هُوَ مُرَكَّبٌ عِنْدَهُمْ مِنْ الْأَجْزَاءِ يُسَمَّى جِسْمًا وَلَا

(594/271)

يُوجَدُ فِي الْكَلَامِ قَبَضَ جِسْمَهُ وَلَا صَعِدَ بِجِسْمِهِ إلَى السَّمَاءِ وَلَا أَنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ أَجْسَامَنَا حَيْثُ يَشَاءُ وَيَرُدُّهَا حَيْثُ شَاءَ : إنَّمَا يُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحًا وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ مُسَمَّى الرُّوحِ وَمُسَمَّى الْجِسْمِ كَمَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ وَكَمَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ فَلَا يُطْلِقُونَ لَفْظَ الْجِسْمِ عَلَى الْهَوَاءِ ؛ فَلَفْظُ الْجِسْمِ عِنْدَهُمْ يُشْبِهُ لَفْظَ الْجَسَدِ ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْجَسَدُ الْبَدَنُ تَقُولُ فِيهِ تَجَسَّدَ كَمَا تَقُولُ فِي الْجِسْمِ تَجَسَّمَ ؛ كَمَا تَقَدَّمَ نَقْلُهُ عَنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ أَنَّ الْجِسْمَ هُوَ الْجَسَدُ . فَعُلِمَ أَنَّ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ مُتَرَادِفَانِ أَوْ قَرِيبٌ مِنْ التَّرَادُفِ ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ لِهَذَا الثَّوْبِ جَسَدٌ ؛ كَمَا يَقُولُونَ لَهُ جِسْمٌ إذَا كَانَ غَلِيظًا ثَخِينًا صَفِيقًا وَتَقُولُ الْعُلَمَاءُ النَّجَاسَةُ قَدْ تَكُونُ مستجسدة كَالدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَقَدْ لَا تَكُونُ مستجسدة كَالرُّطُوبَةِ وَيُسَمُّونَ الدَّمَ جَسَدًا كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ : – فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي قَدْ زُرْتُه حُجَجًا * * * وَمَا أُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ

(595/271)

كَمَا يَقُولُونَ : لَهُ جِسْمٌ ، فَبَطَلَ مَا ذَكَرُوهُ عَنْ اللُّغَةِ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَمَيَّزُ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ يُسَمُّونَهُ جِسْمًا . " الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ " : أَنَّهُ لَوْ سُلِّمَ ذَلِكَ فَقَوْلُهُمْ : إنَّ هَذَا " جِسْمٌ " يُطْلِقُونَهُ عِنْدَ تَزَايُدِ الْأَجْزَاءِ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ : وَهَذَا لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ صَحِيحٌ ؛ فَأَهْلُ اللُّغَةِ لَمْ يَعْتَبِرُوهُ وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ذَلِكَ ؛ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ إنَّمَا لَحَظُوا غِلَظَهُ وَكَثَافَتَهُ . وَأَمَّا كَوْنُهُمْ اعْتَبَرُوا كَثْرَةَ الْأَجْزَاءِ وَقِلَّتَهَا : فَهَذَا لَا يَتَصَوَّرُهُ

(596/271)

أَكْثَرُ عُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُنْقَلَ عَنْ أَهْلِ اللُّغَةِ قَاطِبَةً أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ جَسِيمٌ وَأَجْسَمُ . وَالْمَعْنَى الْمَشْهُورُ فِي اللُّغَةِ لَا يَكُونُ مُسَمَّاهُ مَا لَا يَفْهَمُهُ إلَّا بَعْضُ النَّاسِ وَإِثْبَاتُ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ أَمْرٌ خُصَّ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ ؛ فَلَا يَكُونُ مُسَمَّى الْجِسْمِ فِي اللُّغَةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ إلَّا بَعْضُ النَّاسِ وَهُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ ذَلِكَ . وَأَمَّا " الْأَصْلُ الثَّانِي الْعَقْلِيُّ " فَقَوْلُهُمْ ؛ إنَّ كُلَّ مَا يُشَارُ إلَيْهِ بِأَنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ ؛ فَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ . وَهَذَا بَحْثٌ عَقْلِيٌّ وَأَكْثَرُ عُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ - مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكَلَامِ - يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُرَكَّبًا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَإِنْكَارُ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ كُلَّابٍ

وَأَتْبَاعِهِ مِنْ الْكُلَّابِيَة - وَهُوَ إمَامُ الْأَشْعَرِيِّ فِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ - وَهُوَ قَوْلُ الهشامية والنجارية والضرارية وَبَعْضِ الكَرَّامِيَة . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَثْبَتُوا " الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ " زَعَمُوا أَنَّا لَا نَعْلَمُ : لَا بِالْحِسِّ وَلَا بِالضَّرُورَةِ أَنَّ اللَّهَ أَبْدَعَ شَيْئًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَأَنَّ جَمِيعَ مَا نَشْهَدُهُ مَخْلُوقٌ - مِنْ السَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ وَبَنِي آدَمَ وَغَيْرِ بَنِي آدَمَ - فَإِنَّ مَا فِيهِ أَنَّهُ أَحْدَثُ أَكْوَانًا فِي الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ كَالْجَمْعِ وَالتَّفْرِيقِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَأَنْكَرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ لَمَّا

(597/271)

خَلَقَنَا أَحْدَثَ أَبْدَانَنَا قَائِمَةً بِأَنْفُسِهَا أَوْ شَجَرًا وَثَمَرًا أَوْ شَيْئًا آخَرَ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا أَحْدَثَ عِنْدَهُمْ أَعْرَاضًا . وَأَمَّا الْجَوَاهِرُ الْمُنْفَرِدَةُ فَلَمْ تَزَلْ مَوْجُودَةً . ثُمَّ مَنْ يَقُولُ : إنَّهَا مُحْدَثَةٌ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُمْ عَلِمُوا حُدُوثَهَا بِأَنَّهَا لَمْ تَخْلُ مِنْ الْحَوَادِثِ وَمَا لَمْ يَخْلُ مِنْ الْحَوَادِثِ ؛ فَهُوَ حَادِثٌ .

(598/271)

قَالُوا : فَبِهَذَا " الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ " وَأَمْثَالِهِ عَلِمْنَا أَنَّهُ مَا أَبْدَعَ شَيْئًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ ؛ لِأَنَّا نَشْهَدُهُ مِنْ حُلُولِ الْحَوَادِثِ الْمَشْهُودَةِ كَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ . وَهَؤُلَاءِ فِي " مَعَادِ الْأَبْدَانِ " يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ يُفَرِّقُ الْأَجْزَاءَ ثُمَّ يَجْمَعُهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : يُعْدِمُهَا ثُمَّ يُعِيدُهَا . وَاضْطَرَبُوا هَهُنَا فِيمَا إذَا أَكَلَ حَيَوَانٌ حَيَوَانًا فَكَيْفَ يُعَادُ ؟ وَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ اللَّهَ يُعْدِمُ جَمِيعَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هَذَا مُمْكِنٌ لَا نَعْلَمُ ثُبُوتَهُ وَلَا انْتِفَاءَهُ . ثُمَّ " الْمَعَادُ " عِنْدَهُمْ يَفْتَقِرُ أَنْ يَبْتَدِئَ هَذِهِ الْجَوَاهِرَ وَالْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ مِنْهُمْ يَقُولُ بِعَدَمِهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَيَقُولُ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لِامْتِنَاعِ دَوَامِ الْحَوَادِثِ عِنْدَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَامْتِنَاعِ دَوَامِهَا فِي الْمَاضِي وَأَبُو الهذيل الْعَلَّافُ يَقُولُ بِعَدَمِ الْحَرَكَاتِ وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ اسْتِحَالَةَ الْأَجْسَامِ بَعْضِهَا إلَى بَعْضٍ أَوْ انْقِلَابَ جِنْسٍ إلَى جِنْسٍ بَلْ الْجَوَاهِرُ عِنْدَهُمْ مُتَمَاثِلَةٌ وَالْأَجْسَامُ مُرَكَّبَةٌ مِنْهَا وَمَا ثَمَّ إلَّا تَغْيِيرُ التَّرْكِيبِ فَقَطْ لَا انْقِلَابَ وَلَا اسْتِحَالَةَ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ جُمْهُورَ الْعُقَلَاءِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَى إنْكَارِ هَذَا وَالْأَطِبَّاءُ وَالْفُقَهَاءُ مِمَّنْ يَقُولُ بِاسْتِحَالَةِ الْأَجْسَامِ بَعْضِهَا إلَى بَعْضٍ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِهِمْ . وَالْأَجْسَامُ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ مُتَمَاثِلَةً ؛ بَلْ الْمَاءُ يُخَالِفُ الْهَوَاءَ

(599/271)

وَالْهَوَاءُ يُخَالِفُ التُّرَابَ وَأَبْدَانُ النَّاسِ تُخَالِفُ النَّبَاتَ ؛ وَلِهَذَا صَارَتْ النُّفَاةِ إذَا أَثْبَتَ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ الصِّفَاتِ ؛ كَانَ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمًا لِأَنْ يَكُونَ الْمَوْصُوفُ عِنْدَهُمْ جِسْمًا - وَعِنْدَهُمْ الْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةً - فَصَارُوا يُسَمُّونَهُ مُشَبِّهًا بِهَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تُلْزِمُهُمْ مِثْلُ

(600/271)

مَا أَلْزَمُوهُ لِغَيْرِهِمْ وَهِيَ مُتَنَاقِضَةٌ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْتَظِمَ مِنْهَا قَوْلٌ صَحِيحٌ وَكُلُّهَا مُقَدِّمَاتٌ مَمْنُوعَةٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُقَلَاءِ وَفِيهَا مِنْ تَغْيِيرِ اللُّغَةِ وَالْمَعْقُولِ مَا دَخَلَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَغَالِيطِ وَالشُّبُهَاتِ حَتَّى يَبْقَى الرَّجُلُ حَائِرًا لَا يَهُونُ عَلَيْهِ إبْطَالُ عَقْلِهِ وَدِينِهِ وَالْخُرُوجُ عَنْ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مُتَطَابِقٌ عَلَى إثْبَاتِ الصِّفَاتِ . وَلَا يَهُونُ عَلَيْهِ الْتِزَامُ مَا يَلْزَمُونَهُ مِنْ كَوْنِ الرَّبِّ مُرَكَّبًا مِنْ الْأَجْزَاءِ وَمُمَاثِلًا لِلْمَخْلُوقَاتِ ؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَيْضًا بُطْلَانَ هَذَا وَإِنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْ هَذَا ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ و " الْأَحَدُ " يَنْفِي التَّمْثِيلَ و " الصَّمَدُ " يَنْفِي أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لِلتَّفْرِيقِ وَالتَّقْسِيمِ وَالْبَعْضِيَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ مُؤَلَّفًا مُرَكَّبًا : رُكِّبَ وَأُلِّفَ مِنْ الْأَجْزَاءِ ؛ فَيَفْهَمُونَ مَنْ يُخَاطِبُونَ أَنَّ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبَّ نَفْسَهُ لَا يُعْقَلُ إلَّا فِي بَدَنٍ مِثْلِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ بَلْ وَقَدْ يُصَرِّحُونَ بِذَلِكَ وَيَقُولُونَ : الْكَلَامُ لَا يَكُونُ إلَّا مِنْ صُورَةٍ مُرَكَّبَةٍ مِثْلِ فَمِ الْإِنْسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَدْعُونَهُ . وَإِذَا قَالَ " النُّفَاةِ " لَهُمْ : مَتَى قُلْتُمْ إنَّهُ يُرَى ؛

لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا مُؤَلَّفًا ؛ لِأَنَّ الْمَرْئِيَّ لَا يَكُونُ إلَّا بِجِهَةٍ مِنْ الرَّائِي وَمَا يَكُونُ بِجِهَةٍ مِنْ الرَّائِي لَا يَكُونُ إلَّا جِسْمًا وَالْجِسْمُ مُؤَلَّفٌ مُرَكَّبٌ مِنْ الْأَجْزَاءِ . أَوْ قَالُوا : إنَّ الرَّبَّ إذَا

(601/271)

تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الْكَلَامِ ؛ لَزِمَ ذَلِكَ وَإِذَا كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ ؛ لَزِمَ ذَلِكَ وَصَارَ الْمُسْلِمُ الْعَارِفُ بِمَا قَالَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يُرَى فِي الْآخِرَةِ لِمَا تَوَاتَرَ عِنْدَهُ مِنْ الْأَخْبَارِ عَنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ

(602/271)

وَكَذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْكَلَامِ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ بِمَا تَوَاتَرَ عِنْدَهُ عَنْ الرَّسُولِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَعَ مَا يُوَافِقُ ذَلِكَ مِنْ الْقَضَايَا الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ عَلَيْهَا عِبَادَهُ . وَإِذَا قَالُوا لَهُ : - هَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُرَكَّبًا مِنْ الْأَجْزَاءِ الْمُنْفَرِدَةِ وَالْمُرَكَّبُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَكِّبٍ ؛ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُحْدِثًا ؛ إذْ الْمُرَكَّبُ يَفْتَقِرُ إلَى أَجْزَائِهِ وَأَجْزَاؤُهُ تَكُونُ غَيْرَهُ وَمَا افْتَقَرَ إلَى غَيْرِهِ ؛ لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا وَاجِبَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ - حَيَّرُوهُ وَشَكَّكُوهُ إنْ لَمْ

يَجْعَلُوهُ مُكَذِّبًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مُرْتَدًّا عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ تَشَكُّكَهُ وَحَيْرَتَهُ تَقْدَحُ فِي إيمَانِهِ وَدِينِهِ وَعِلْمِهِ وَعَقْلِهِ . فَيُقَالُ لَهُمْ : أَمَّا كَوْنُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرَكَّبًا رَكَّبَهُ غَيْرُهُ . فَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الْأُمُورِ فَسَادًا وَهَذَا مَعْلُومٌ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ . وَمَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَشَدِّهِمْ مُحَارَبَةً لِلَّهِ وَلَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ الْمَشْهُورِينَ مَنْ يَقُولُ بِهَذَا . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : هُوَ مُؤَلَّفٌ أَوْ مُرَكَّبٌ – بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَتْ أَجْزَاؤُهُ مُتَفَرِّقَةً فَجَمَعَ بَيْنَهَا كَمَا يَجْمَعُ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْمُرَكَّبَاتِ مِنْ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالثِّيَابِ وَالْأَبْنِيَةِ – فَهَذَا التَّرْكِيبُ مَنْ اعْتَقَدَهُ فِي اللَّهِ ؛ فَهُوَ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ وَأَضَلِّهِمْ ؛ وَلَمْ

(603/271)

يَعْتَقِدْهُ أَحَدٌ مِنْ الطَّوَائِفِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْأُمَّةِ . بَلْ أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عِنْدَهُمْ أَنَّ مَخْلُوقَاتِ الرَّبِّ لَيْسَتْ مُرَكَّبَةً هَذَا التَّرْكِيبَ وَإِنَّمَا يَقُولُ بِهَذَا مَنْ يُثْبِتُ الْجَوَاهِرَ الْمُنْفَرِدَةَ .

(604/271)

وَكَذَلِكَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الرَّبَّ مُرَكَّبٌ مُؤَلَّفٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّفْرِيقَ وَالانْقِسَامَ وَالتَّجْزِئَةَ فَهَذَا مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَقَوْلُهُ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّ لِلَّهِ وَلَدًا بِمَعْنَى أَنَّهُ انْفَصَلَ مِنْهُ جُزْءٌ فَصَارَ وَلَدًا لَهُ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي تَفْسِيرِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : هُوَ جِسْمٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ أَوْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ ؛ فَهَذَا بَاطِلٌ بَلْ هُوَ أَيْضًا بَاطِلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ فَكَيْفَ فِي الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهَذَا مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَالَهُ بَعْضُ الْمُجَسِّمَةِ الهشامية والكرَّامية وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُحْكَى عَنْهُمْ التَّجْسِيمُ ؛ إذْ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ كُلَّ جِسْمٍ فَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ : إنَّ الرَّبَّ جِسْمٌ وَأَظُنُّ هَذَا قَوْلَ بَعْضِ الكرَّامية فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي إثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جِسْمٌ . لَكِنْ يُحْكَى عَنْهُمْ نِزَاعٌ فِي الْمُرَادِ بِالْجِسْمِ ؛ هَلْ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ أَوْ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ ؟ فَالْمَشْهُورُ عَنْ أَبِي الْهَيْصَمِ وَغَيْرِهِ مِنْ نُظَّارِهِمْ أَنَّهُ يُفَسِّرُ مُرَادَهُ ؛ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُشَارٌ إلَيْهِ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مُرَكَّبٌ . وَهَؤُلَاءِ مِمَّنْ اعْتَرَفَ نفاة الْجِسْمِ بِأَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا مَعْنًى فَاسِدًا فِي

(605/271)

حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى لَكِنْ قَالُوا إنَّهُمْ أَخْطَئُوا فِي تَسْمِيَةِ كُلِّ مَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ أَوْ مَا هُوَ

(606/271)

مَوْجُودٌ جِسْمًا مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ ؛ قَالُوا : فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ لَا يُطْلِقُونَ لَفْظَ الْجِسْمِ إلَّا عَلَى الْمُرَكَّبِ . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ كِلَا الطَّائِفَتَيْنِ مُخْطِئَةٌ عَلَى اللُّغَةِ : أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَمُّونَ كُلَّ مَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ جِسْمًا وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَّوْا كُلَّ مَا يُشَارُ إلَيْهِ وَتُرْفَعُ الْأَيْدِي إلَيْهِ جِسْمًا وَادَّعَوْا أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُرَكَّبٌ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يُطْلِقُونَ لَفْظَ الْجِسْمِ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ مُرَكَّبًا . فَالْخَطَأُ فِي اللُّغَةِ وَالِابْتِدَاعُ فِي الشَّرْعِ : مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ . وَأَمَّا الْمَعَانِي : فَمَنْ أَثْبَتَ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ مَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْ نَفَى مَا أَثْبَتَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ فَهُوَ مُخْطِئٌ عَقْلًا كَمَا هُوَ مُخْطِئٌ شَرْعًا . بَلْ أُولَئِكَ يَقُولُونَ لَهُمْ : نَحْنُ وَأَنْتُمْ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّ الْقَائِمَ بِنَفْسِهِ يُسَمَّى جِسْمًا فِي غَيْرِ مَحَلِّ النِّزَاعِ ثُمَّ ادَّعَيْتُمْ أَنَّ الْخَالِقَ الْقَائِمَ بِنَفْسِهِ يَخْتَصُّ بِمَا يَمْنَعُ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ الَّتِي اتَّفَقْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَيْهَا ؛ فَبَيَّنَّا أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ لِأَنَّ ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ وَنَحْنُ نَمْنَعُ ذَلِكَ وَنَقُولُ : لَيْسَتْ مُرَكَّبَةً مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ . وَلِهَذَا كَرِهَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ - كَالْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ - أَنْ تُرَدَّ الْبِدْعَةُ بِالْبِدْعَةِ فَكَانَ أَحْمَد فِي مُنَاظَرَتِهِ لِلْجَهْمِيَّةِ لَمَّا نَاظَرُوهُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَأَلْزَمَهُ " أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بُرْغُوثٌ " أَنَّهُ إذَا كَانَ

(607/271)

غَيْرَ مَخْلُوقٍ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جِسْمًا وَهَذَا مُنْتَفٍ ؛ فَلَمْ يُوَافِقْهُ أَحْمَد : لَا عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ وَلَا عَلَى إثْبَاتِهِ ؛ بَلْ قَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

(608/271)

وَنَبَّهَ أَحْمَد عَلَى أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَا يُدْرَى مَا يُرِيدُونَ بِهِ . وَإِذَا لَمْ يُعْرَفْ مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ لَمْ يُوَافِقْهُ ؛ لَا عَلَى إثْبَاتِهِ وَلَا عَلَى نَفْيِهِ . فَإِنْ ذَكَرَ مَعْنًى أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَثْبَتْنَاهُ وَإِنْ ذَكَرَ مَعْنًى نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَفَيْنَاهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ وَلَمْ نَحْتَجْ إلَى أَلْفَاظٍ مُبْتَدَعَةٍ فِي الشَّرْعِ مُحَرَّفَةٍ فِي اللُّغَةِ وَمَعَانِيهَا مُتَنَاقِضَةٌ فِي الْعَقْلِ ؛ فَيَفْسُدُ الشَّرْعُ وَاللُّغَةُ وَالْعَقْلُ ؛ كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْمُخَالِفِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَكَذَلِكَ أَيْضًا لَفْظُ " الْجَبْرِ " كَرِهَ السَّلَفُ أَنْ يُقَالَ جَبَرَ وَأَنْ يُقَالَ : مَا جَبَرَ ؛ فَرَوَى الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ " السُّنَّةِ " عَنْ أَبِي إسْحَاقَ الفزاري – الْإِمَامِ – قَالَ : قَالَ الأوزاعي : أَتَانِي رَجُلَانِ فَسَأَلَانِي عَنْ الْقَدَرِ فَأَحْبَبْت أَنْ

آتِيَك بِهِمَا تَسْمَعُ كَلَامَهُمَا وَتُجِيبُهُمَا . قُلْت : رَحِمَك اللَّهُ أَنْتَ أَوْلَى بِالْجَوَابِ . قَالَ : فَأَتَانِي الْأَوْزَاعِي وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ فَقَالَ : تَكَلَّمَا فَقَالَا : قَدِمَ عَلَيْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْقَدَرِ فَنَازَعُونَا فِي الْقَدَرِ - وَنَازَعْنَاهُمْ حَتَّى بَلَغَ بِنَا وَبِهِمْ الْجَوَابُ ؛ إلَى أَنْ قُلْنَا : إنَّ اللَّهَ قَدْ جَبَرَنَا عَلَى مَا نَهَانَا عَنْهُ وَحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا أَمَرَنَا بِهِ وَرَزَقَنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا فَقَالَ : أَجِبْهُمَا يَا أَبَا إسْحَاقَ قُلْت رَحِمَك اللَّهُ أَنْتَ أَوْلَى بِالْجَوَابِ فَقَالَ أَجِبْهُمَا ؛ فَكَرِهْت أَنْ أُخَالِفَهُ ؛ فَقُلْت : يَا هَؤُلَاءِ إنَّ الَّذِينَ آتَوْكُمْ بِمَا

(609/271)

أَتَوْكُمْ بِهِ قَدْ ابْتَدَعُوا بِدْعَةً وَأَحْدَثُوا حَدَثًا وَإِنِّي أَرَاكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ الْبِدْعَةِ إلَى مِثْلِ مَا خَرَجُوا إلَيْهِ ؛ فَقَالَ أَجَبْت وَأَحْسَنْت يَا أَبَا إسْحَاقَ . وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ بَقِيَّةَ بْنِ الْوَلِيدِ قَالَ : سَأَلْت الزُّبَيْدِيَّ وَالْأَوْزَاعِي عَنْ الْجَبْرِ ؛ فَقَالَ الزُّبَيْدِيُّ : أَمْرُ اللَّهِ أَعْظَمُ وَقُدْرَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُجْبِرَ أَوْ يُعْضِلَ وَلَكِنْ

(610/271)

يَقْضِي وَيُقَدِّرُ وَيَخْلُقُ وَيَجْبُلُ عَبْدَهُ عَلَى مَا أَحَبَّ . وَقَالَ الأَوزاعي : مَا أَعْرِفُ لِلْجَبْرِ أَصْلًا مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ؛ فَأَهَابُ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ وَالْخَلْقَ وَالْجَبْلَ فَهَذَا يُعْرَفُ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا وُضِعَتْ هَذَا مَخَافَةَ أَنْ يَرْتَابَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ وَالتَّصْدِيقِ . وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ المروذي قَالَ : قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ : تَقُولُ إنَّ اللَّهَ أَجْبَرَ الْعِبَادَ ؟ فَقَالَ : هَكَذَا لَا تَقُولُ وَأَنْكَرَ هَذَا وَقَالَ : يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَقَالَ المروذي : كُتِبَ إلَى عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي أَمْرِ حُسَيْنِ بْنِ خَلَفٍ العكبري وَقَالَ : إنَّهُ تَنَزَّهَ عَنْ مِيرَاثِ أَبِيهِ . فَقَالَ رَجُلٌ قَدَرِيٌّ : إنَّ اللَّهَ لَمْ يُجْبِرْ الْعِبَادَ عَلَى الْمَعَاصِي ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ أَحْمَد بْنُ رَجَاءٍ فَقَالَ : إنَّ اللَّهَ جَبَرَ الْعِبَادَ - أَرَادَ بِذَلِكَ إثْبَاتَ الْقَدَرِ - فَوَضَعَ أَحْمَد بْنُ عَلِيٍّ كِتَابًا يُحْتَجُّ فِيهِ . فَأَدْخَلْته عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَأَخْبَرْته بِالْقِصَّةِ قَالَ : وَيَضَعُ كِتَابًا وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا : عَلَى ابْنِ رَجَاءٍ حِينَ قَالَ : جَبَرَ الْعِبَادَ وَعَلَى الْقَدَرِيِّ الَّذِي قَالَ : لَمْ يَجْبُرْ وَأَنْكَرَ عَلَى أَحْمَد بْنِ عَلِيٍّ وَضْعَهُ الْكِتَابَ وَاحْتِجَاجَهُ وَأَمَرَ بِهِجْرَانِهِ لِوَضْعِهِ الْكِتَابَ . وَقَالَ لِي : يَجِبُ عَلَى ابْنِ رَجَاءٍ أَنْ يَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ لَمَّا قَالَ : جَبَرَ الْعِبَادَ . فَقُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ : فَمَا الْجَوَابُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؟ فَقَالَ :

(611/271)

يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . قَالَ الْخَلَّالُ : وَأَخْبَرَنَا المروذي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا أَنْكَرَ عَلَى الَّذِي قَالَ : لَمْ يَجْبُرْ وَعَلَى مَنْ رَدَّ عَلَيْهِ جَبَرَ ؛ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : كُلَّمَا ابْتَدَعَ

(612/271)

رَجُلٌ بِدْعَةً اتسعوا فِي جَوَابِهَا . وَقَالَ : يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ الَّذِي رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمُحْدَثَةٍ وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ إمَامٌ تَقَدَّمَ . قَالَ المروذي : فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ قَدِمَ أَحْمَد بْنُ عَلِيٍّ مِنْ عكبرا وَمَعَهُ نُسْخَةٌ وَكِتَابٌ مِنْ أَهْلِ عكبرا (*) فَأَدْخَلَت أَحْمَد بْنَ عَلِيٍّ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ؛ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَذَا الْكِتَابُ ادْفَعْهُ إلَى أَبِي بَكْرٍ حَتَّى يَقْطَعَهُ وَأَنَا أَقُومُ عَلَى مِنْبَرِ عكبرا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ؛ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ لِي : يَنْبَغِي أَنْ تَقْبَلُوا مِنْهُ وَارْجِعُوا إلَيْهِ . قَالَ الْمَرْوَزِي : سَمِعْت بَعْضَ الْمَشْيَخَةِ يَقُولُ : سَمِعْت عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَهْدِيٍّ يَقُولُ : أَنْكَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ جَبَرَ وَقَالَ : اللَّهُ تَعَالَى جَبَلَ الْعِبَادَ . قَالَ المروذي : أَظُنُّهُ أَرَادَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ . قُلْت هَذِهِ الْأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يُرَاعُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فِيمَا يُثْبِتُونَهُ وَيَنْفُونَهُ عَنْ اللَّهِ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ فَلَا يَأْتُونَ بِلَفْظِ مُحْدَثٍ مُبْتَدَعٍ فِي

النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ بَلْ كُلُّ مَعْنًى صَحِيحٍ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالْأَلْفَاظُ الْمُبْتَدَعَةُ لَيْسَ لَهَا ضَابِطٌ بَلْ كُلُّ قَوْمٍ يُرِيدُونَ بِهَا مَعْنًى غَيْرَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ أُولَئِكَ كَلَفْظِ الْجِسْمِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيِّزِ

(613/271)

وَالْجَبْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ بِخِلَافِ أَلْفَاظِ الرَّسُولِ فَإِنَّ مُرَادَهُ بِهَا يُعْلَمُ كَمَا يُعْلَمُ مُرَادُهُ بِسَائِرِ أَلْفَاظِهِ وَلَوْ يَعْلَمُ الرَّجُلُ مُرَادَهُ لَوَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِمَا قَالَهُ مُجْمَلًا . وَلَوْ قُدِّرَ مَعْنًى صَحِيحٌ - وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُخْبِرْ

(614/271)

بِهِ - لَمْ يَحُلَّ لِأَحَدٍ أَنْ يُدْخِلَهُ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ التَّصْدِيقَ بِهِ وَاجِبٌ . وَالْأَقْوَالُ الْمُبْتَدَعَةُ تَضَمَّنَتْ تَكْذِيبَ كَثِيرٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَ مُرَادَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُرَادَ أَصْحَابِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ الْمُبْتَدَعَةِ . وَلَمَّا انْتَشَرَ الْكَلَامُ الْمُحْدَثُ وَدَخَلَ فِيهِ مَا يُنَاقِضُ

الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَصَارُوا يُعَارِضُونَ بِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ؛ صَارَ بَيَانُ مُرَادِهِمْ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَمَا احْتَجُّوا بِهِ لِذَلِكَ مِنْ لُغَةٍ وَعَقْلٍ يُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِ مَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَقَعَ فِي الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ أَوْ يَخْلُصَ مِنْهَا - إنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ - وَيَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ مَا يُعَارِضُ إيمَانَهُ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُدْفَعُ بِالْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ كَلَفْظِ التَّجْسِيمِ وَغَيْرِهِ مِمَّا قَدْ يَتَضَمَّنُ مَعْنًى بَاطِلًا وَالنَّافِي لَهُ يَنْفِي الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ . فَإِذَا ذُكِرَتْ الْمَعَانِي الْبَاطِلَةُ نَفَرَتْ الْقُلُوبُ . وَإِذَا أُلْزِمُوهُ مَا يَلْزَمُونَهُ مِنْ التَّجْسِيمِ - الَّذِي يَدَّعُونَهُ نَفَرَ إذَا قَالُوا لَهُ : هَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّجْسِيمَ ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُعْقَلُ إلَّا فِي جِسْمٍ - لَمْ يَحْسُنْ نَقْضُ مَا قَالُوهُ وَلَمْ يَحْسُنْ حَلُّهُ وَكُلُّهُمْ مُتَنَاقِضُونَ . وَحَقِيقَةُ

(615/271)

كَلَامِهِمْ أَنَّ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ لَا يُعْقَلُ مِنْهُ إلَّا مَا يُعْقَلُ فِي قَلِيلٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نَشْهَدُهَا كَأَبْدَانِ بَنِي آدَمَ . وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَهْلِ ؛ فَإِنَّ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ مَخْلُوقَاتٍ لَمْ نَشْهَدْهَا كَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ حَتَّى أَرْوَاحِنَا . وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُمَاثِلًا لَهَا فَكَيْفَ يَكُونُ مُمَاثِلًا لِمَا شَاهَدُوهُ . وَهَذَا

الْكَلَامُ فِي لَفْظِ الْجِسْمِ مِنْ حَيْثُ " اللُّغَةُ " . وَأَمَّا " الشَّرْعُ " فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ : وَلَا الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ وَلَا سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّ اللَّهَ جِسْمٌ أَوْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِجِسْمٍ ؛ بَلْ النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ . وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ فَبَيْنَهُمْ نِزَاعٌ فِيمَا اتَّفَقُوا عَلَى تَسْمِيَتِهِ جِسْمًا : كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالرِّيحِ وَالْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهِ وَيُخْتَصُّ بِجِهَةٍ وَهُوَ مُتَحَيِّزٌ . قَدْ تَنَازَعُوا هَلْ هُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ جواهر لَا تَقْبَلُ الْقِسْمَةَ أَوْ مِنْ مَادَّةٍ وَصُورَةٍ أَوْ لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا ؟ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عَلَى الْقَوْلِ الثَّالِثِ . وَكُلٌّ مِنْ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ النُّظَّارِ . وَالْأَوَّلُ كَثِيرٌ فِي أَهْلِ الْكَلَامِ وَالثَّانِي كَثِيرٌ فِي الْفَلَاسِفَةِ ؛ لَكِنَّ قَوْلَ الطَّائِفَتَيْنِ بَاطِلٌ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ بُطْلَانُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْقَوْلِ الثَّالِثِ .

(616/271)

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ : أَنَا أَقُولُ إنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَإِنَّهُ تُرْفَعُ الْأَيْدِي إلَيْهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مُرَكَّبًا مِنْ أَجْزَاءٍ مُفْرَدَةٍ

(617/271)

وَلَا مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ الْعَقْلِيَّيْنِ ؛ كَانَ الْكَلَامُ مَعَ هَذَا فِي التَّلَازُمِ . فَإِذَا قَالَ الثَّانِي : بَلْ كُلُّ مَا كَانَ فَوْقَ غَيْرِهِ وَكُلُّ مَا كَانَ يُشَارُ إلَيْهِ بالْأَيْدِي ؛ فَلَا يَكُونُ إلَّا مُرَكَّبًا إمَّا مِنْ هَذَا ؛ وَإِمَّا مِنْ هَذَا : كَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الْآخَرِ : كُلُّ مَا كَانَ حَيًّا قَادِرًا عَالِمًا ؛ فَلَا يَكُونُ إلَّا مُرَكَّبًا هَذَا التَّرْكِيبَ أَوْ كُلُّ مَا كَانَ لَهُ حَيَاةٌ وَعِلْمٌ وَقُدْرَةٌ ؛ فَلَا يَكُونُ إلَّا مُرَكَّبًا هَذَا التَّرْكِيبَ أَوْ كُلُّ مَا كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا فَلَا يَكُونُ إلَّا مُرَكَّبًا هَذَا التَّرْكِيبَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ هُوَ جِسْمٌ وَكُلُّ جِسْمٍ فَهُوَ مُرَكَّبٌ هَذَا التَّرْكِيبَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا بَاطِلٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ وَالْعُقَلَاءِ باتِّفَاقِهِمْ ؛ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ طَائِفَةً مِنْ الْعُقَلَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا : هُوَ جِسْمٌ ؛ وَهُوَ مُرَكَّبٌ هَذَا التَّرْكِيبَ بَلْ الَّذِي أَعْرِفُ أَنَّهُمْ قَالُوا : هُوَ جِسْمٌ كالهشامية والكَرَّامِيَة لَا يُفَسِّرُونَ كُلُّهُمْ الْجِسْمَ بِمَا هُوَ مُرَكَّبٌ هَذَا التَّرْكِيبَ بَلْ إنَّمَا نُقِلَ هَذَا عَنْ بَعْضِهِمْ وَقَدْ يُنْقَلُ عَنْ بَعْضِهِمْ مَقَالَاتٌ يُنْكِرُهَا بَعْضُهُمْ : كَمَا نُقِلَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ وَهِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ مَقَالَاتٌ رَدِيَّةٌ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ رَدَّ هَذَا النَّقْلَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ فَرَدَّهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ . وَأَمَّا النَّقْلُ عَنْ هِشَامٍ فَرَدَّهُ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ . وَمَنْ قَدَّرَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ مِنْ النَّاسِ ؛ فَقَوْلُهُ بَاطِلٌ كَسَائِرِ

(618/271)

مَنْ قَالَ عَلَى اللَّهِ الْبَاطِلِ ؛ كَمَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْيَهُودِ وَالرَّافِضَةِ وَالْمُجَسِّمَةِ وَإِنَّهُمْ يَصِفُونَهُ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي تَعَالَى اللَّهُ عَنْهَا ؛ كَوَصْفِهِ أَنَّهُ أَجْوَفُ وَأَنَّهُ بَكَى حَتَّى رَمَدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَعَضَّ أَصَابِعَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ وَأَنَّهُ يَنْزِلُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ عَلَى جَمَلٍ أَوْرَقَ .

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي فِيهَا الِافْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَوَصْفُهُ بِالنَّقَائِصِ مَا يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَصَحِيحِ الْمَنْقُولِ .

(619/271)

وَهَكَذَا إذَا قَالَ الْقَائِلُ : إنَّهُ لَوْ نَزَلَ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ؛ لَلَزِمَ الْحَرَكَةُ وَالِانْتِقَالُ وَالْحَرَكَةُ وَالِانْتِقَالُ مِنْ خَصَائِصِ الْأَجْسَامِ أَوْ قَالَ : لَلَزِمَ أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُ الْعَرْشُ وَذَلِكَ مُحَالٌ ؛ فَإِنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ . (أَحَدُهَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَلَيْسَ بِجِسْمٍ . وَقَوْلُ مَنْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَهُوَ جِسْمٌ . وَقَوْلُ مَنْ لَا يَنْفِي الْجِسْمَ وَلَا يُثْبِتُهُ ؛ إمَّا إمْسَاكًا عَنْهُمَا لِكَوْنِ ذَلِكَ بِدْعَةً وَتَلْبِيسًا كَمَا تَقَدَّمَ وَإِمَّا مَعَ تَفْصِيلِ الْمُرَادِ وَإِقْرَارِ الْحَقِّ وَبُطْلَانِ الْبَاطِلِ وَبَيَانِ الصَّوَابِ مِنْ الْمَعَانِي الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي اشْتَبَهَتْ فِي هَذَا ؛ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : النُّزُولُ وَالصُّعُودُ وَالْمَجِيءُ وَالْإِتْيَانُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَنْوَاعُ جِنْسِ الْحَرَكَةِ لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْجِسْمِ الصِّنَاعِيِّ الَّذِي يَتَكَلَّمُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي إثْبَاتِهِ وَنَفْيِهِ بَلْ يُوصَفُ بِهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ . ثُمَّ هُنَا طَرِيقَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ

هَذِهِ الْأُمُورَ تُوصَفُ بِهَا الْأَجْسَامُ وَالْأَعْرَاضُ فَيُقَالُ : جَاءَ الْبَرْدُ وَجَاءَ الْحَرُّ وَجَاءَتْ الْحُمَّى وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْرَاضِ . وَإِذَا كَانَتْ الْأَعْرَاضُ تُوصَفُ بِالْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ ؛ عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الْأَجْسَامِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِهَذِهِ

(620/271)

الْأَفْعَالِ حَقِيقَةً مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ نُظَّارِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِ وَهَذَا مَعْنَى مَا حَكَاهُ فِي " الْمَقَالَاتِ " عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ . وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ ابْنِ كُلَّابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ وَالقلانسي وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ ؛ إنَّ الِاسْتِوَاءَ فِعْلٌ يَفْعَلُهُ الرَّبُّ فِي الْعَرْشِ . وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي النُّزُولِ : وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُحْدِثُ فِي الْعَرْشِ قُرْبًا فَيَصِيرُ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقُومَ بِهِ - نَفْسُهُ - فِعْلٌ اخْتِيَارِيٌّ سَوَاءٌ قَالُوا : إنَّ الْفِعْلَ هُوَ الْمَفْعُولُ أَوْ لَمْ يَقُولُوا بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ النُّزُولُ عِنْدَهُمْ ؛ فَهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَفْعَالَ اللَّازِمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِ فِعْلٌ اخْتِيَارِيٌّ لِأَنَّ ذَلِكَ حَادِثٌ ؛ فَقِيَامُهُ بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ تَقُومَ بِهِ الْحَوَادِثُ فَنَفَوْا ذَلِكَ لِهَذَا الْأَصْلِ الَّذِي اعْتَقَدُوهُ . (الطَّرِيقُ الثَّانِي : أَنْ يُقَالَ : الْمَجِيءُ وَالْإِتْيَانُ وَالصُّعُودُ وَالنُّزُولُ تُوصَفُ بِهِ رُوحُ الْإِنْسَانِ الَّتِي تُفَارِقُهُ بِالْمَوْتِ

وَتُسَمَّى النَّفْسُ وَتُوصَفُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ وَلَيْسَ نُزُولُ الرُّوحِ وَصُعُودُهَا مِنْ جِنْسِ نُزُولِ الْبَدَنِ وَصُعُودِهِ ؛ فَإِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَصْعَدُ إلَى فَوْقِ السَّمَوَاتِ ثُمَّ تَهْبِطُ إلَى الْأَرْضِ فِيمَا بَيْنَ قَبْضِهَا وَوَضْعِ الْمَيِّتِ فِي

(621/271)

قَبْرِهِ . وَهَذَا زَمَنٌ يَسِيرٌ لَا يَصْعَدُ الْبَدَنُ إلَى مَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ ثُمَّ يَنْزِلُ إلَى الْأَرْضِ فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ .

(622/271)

وَكَذَلِكَ صُعُودُهَا ثُمَّ عَوْدُهَا إلَى الْبَدَنِ فِي النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ وَلِهَذَا يُشَبِّهُ بَعْضُ النَّاسِ نُزُولَهَا إلَى الْقَبْرِ بِالشُّعَاعِ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِثَالًا مُطَابِقًا . فَإِنَّ نَفْسَ الشَّمْسِ لَا تَنْزِلُ وَالشُّعَاعُ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى الْأَرْضِ هُوَ عَرَضٌ مِنْ الْأَعْرَاضِ يَحْدُثُ بِسَبَبِ الشَّمْسِ لَيْسَ هُوَ الشَّمْسَ وَلَا صِفَةً قَائِمَةً بِهَا وَالرُّوحُ نَفْسُهَا تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَبْضِ الرُّوحِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ – وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد

أَيْضًا وَاخْتَصَرَهُ وَكَذَلِكَ النَّسَائِي وَابْنُ مَاجَه وَرَوَاهُ أَبُو عَوَانَةَ فِي " صَحِيحِهِ " بِطُولِهِ وَفِي رِوَايَتِهِ عَنْ زاذان : سَمِعْت الْبَرَاءَ وَذَلِكَ يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْهُ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي " صَحِيحِهِ " مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ ثنا الْمِنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي عَمْرٍو زاذان ﴿ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ فَانْتَهَيْنَا إلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ ﴾ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ فَذَكَرَهُ . وَقَالَ فِي آخِرِهِ : حَدَّثَنَا فضيل حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ إلَّا أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أُرْقُدَ رَقْدَةً كَرَقْدَةِ مَنْ لَا يُوقِظُهُ إلَّا أَحَبُّ النَّاسِ إلَيْهِ ﴾ . قَالَ : وَقَدْ رَوَاهُ

(623/271)

شُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمَا عَنْ الْأَعْمَشِ وَرَوَاهُ مُؤَمَّلٌ عَنْ

(624/271)

الثَّوْرِيِّ عَنْهُ قَالَ : وَهُوَ عَلَى شَرْطِهِمَا قَدْ احْتَجَّا بِالْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ : " ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ " ثُمَّ ذَكَرَ طَرَفًا مِنْ حَدِيثِ الْقَبْرِ وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي " مُسْنَدِهِ " عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ يُونُسَ بْنِ خباب عَنْ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو الْحَدِيثَ بِطُولِهِ . قَالَ : وَكَذَلِكَ أَبُو خَالِدٍ الدالاني وَعَمْرُو بْنُ قَيْسٍ الملائي وَالْحَسَنُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ النَّخَعِي عَنْ الْمِنْهَالِ وَرَوَاهُ شُعَيْبُ بْنُ صَفْوَانَ عَنْ يُونُسَ بْنِ خباب فَقَالَ ؛ عَنْ الْمِنْهَالِ عَنْ زاذان عَنْ أَبِي البختري قَالَ : سَمِعْت الْبَرَاءَ قَالَ : وَهَذَا وَهْمٌ مِنْ شُعَيْبٍ فَقَدْ رَوَاهُ مَعْمَرٌ وَمَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ وَعَبَّادُ بْنُ عَبَّادٍ عَنْ يُونُسَ التَّامِرِ . وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ الأصبهاني : وَأَمَّا حَدِيثُ الْبَرَاءِ رَوَاهُ الْمِنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ زاذان عَنْ الْبَرَاءِ فَحَدِيثٌ مَشْهُورٌ رَوَاهُ عَنْ الْمِنْهَالِ الْجَمُّ الْغَفِيرُ وَرَوَاهُ عَنْ الْبَرَاءِ : عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُقْبَةَ وَغَيْرُهُمَا وَرَوَاهُ عَنْ زاذان عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ . قَالَ : وَهُوَ حَدِيثٌ أَجْمَعَ رُوَاةُ الْأَثَرِ عَلَى شُهْرَتِهِ وَاسْتِفَاضَتِهِ وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ منده : هَذَا الْحَدِيثُ إسْنَادُهُ مُتَّصِلٌ مَشْهُورٌ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ الْبَرَاءِ . وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي " الْمُسْنَدِ " حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ ثنا الْأَعْمَشُ عَنْ الْمِنْهَالِ ابْنِ عَمْرٍو عَنْ زاذان

﴿ عَنْ

الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : خَرَجْنَا

(626/271)

مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ : إنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ بَصَرِهِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ . قَالَ : فَتَخْرُجُ فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا . فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا رِيحٌ كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا ؛ فَلَا يَمُرُّونَ - يَعْنِي بِهَا - عَلَى مَلَأٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؛ إلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ

بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ

(627/271)

مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ : فَتُعَادُ رُوحُهُ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : اللَّهُ رَبِّي فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ :

(628/271)

دِينِي الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولَانِ لَهُ : وَمَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ . قَالَ : فَيَأْتِيهِ

رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ ؛ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ . فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إلَى أَهْلِي وَمَالِي . وَقَالَ وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ قَالَ : فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْزِعُهَا كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجَ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَلَأٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إلَّا

(629/271)

قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ . ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ

(630/271)

الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا . ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هاه هاه لَا أَدْرِي . فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هاه هاه لَا أَدْرِي . فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هاه هاه لَا أَدْرِي . فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ : وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ . فَيَقُولُ : رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ ﴾ . قُلْتُ : هَذَا قَدْ رَوَاهُ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ غَيْرُ وَاحِدٍ غَيْرَ زَاذَانَ مِنْهُمْ : عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُقْبَةَ وَمُجَاهِدٌ . قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْدَهْ فِي كِتَابِ " الرُّوحِ وَالنَّفْسِ " : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ يُوسُفَ ثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الصغاني ثنا أَبُو النَّضْرِ هَاشِمُ

بْنُ قَاسِمٍ ثنا عِيسَى بْنُ الْمُسَيِّبِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ ﴿ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

(632/271)

جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى أَكْتَافِنَا فَلَقَ الصَّخْرِ وَعَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ فَأَزَمَ قَلِيلًا - وَالْإِزْمَامُ السُّكُوتُ - فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ : إنَّ الْمُؤْمِنَ إذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنْ الْآخِرَةِ وَدُبُرٍ مِنْ الدُّنْيَا وَحَضَرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ؛ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ الْجَنَّةِ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ بَصَرِهِ . وَجَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ثُمَّ يَقُولُ : اُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اُخْرُجِي إلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ؛ فَتَسِيلُ نَفْسُهُ كَمَا تَقْطُرُ الْقَطْرَةُ مِنْ السِّقَاءِ . فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إلَّا الثَّقَلَيْنِ ثُمَّ يَصْعَدُ بِهِ إلَى السَّمَاءِ فَتُفْتَحُ لَهُ السَّمَاءُ وَيُشَيِّعُهُ مُقَرَّبُوهَا إلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ وَالسَّادِسَةِ وَالسَّابِعَةِ إلَى الْعَرْشِ مُقَرَّبُو كُلِّ سَمَاءٍ . فَإِذَا انْتَهَى إلَى الْعَرْشِ كُتِبَ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : رُدُّوا عَبْدِي إلَى مَضْجَعِهِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ

وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى فَيُرَدُّ إِلَى مَضْجَعِهِ فَيَأْتِيهِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ يُثِيرَانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا وَيَفْحَصَانِ الْأَرْضَ بِأَشْعَارِهِمَا فَيُجْلِسَانِهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : يَا هَذَا مَنْ رَبُّك ؟ فَيَقُولُ : اللَّهُ رَبِّي فَيَقُولَانِ : صَدَقْت . ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : مَا دِينُك

(633/271)

؟ فَيَقُولُ : الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ صَدَقْت . ثُمَّ يُقَالُ لَهُ مَنْ نَبِيُّك ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ؛ فَيَقُولَانِ : صَدَقْت . ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ لَهُ : جَزَاك اللَّهُ خَيْرًا فَوَاَللَّهِ مَا عَلِمْت إنْ كُنْت لَسَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَيَقُولُ : وَأَنْتَ جَزَاك اللَّهُ خَيْرًا فَمَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا عَمَلُك الصَّالِحُ . ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى

(634/271)

الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إلَى مَقْعَدِهِ وَمَنْزِلِهِ مِنْهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ . وَإِنَّ الْكَافِرَ إذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ وَحَضَرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ؛ نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ

نَارٍ وَحَنُوطٌ مِنْ نَارٍ . قَالَ : فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَجَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى غَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ ؛ فَتَتَفَرَّقُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ كَرَاهَةَ أَنْ تَخْرُجَ لِمَا تَرَى وَتُعَايِنُ ؛ فَيَسْتَخْرِجُهَا كَمَا يُسْتَخْرَجُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ ثُمَّ يَصْعَدُ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَتُغْلَقُ دُونَهُ ؛ فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : رُدُّوا عَبْدِي إِلَى مَضْجَعِهِ فَإِنِّي وَعَدْتهمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتهمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ؛ فَتُرَدُّ رُوحُهُ إِلَى مَضْجَعِهِ ؛ فَيَأْتِيهِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ يُثِيرَانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا وَيَفْحَصَانِ الْأَرْضَ بِأَشْعَارِهِمَا أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ؛ فَيُجْلِسَانِهِ ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّك ؟ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِي ؛ فَيُنَادَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ لَا دَرَيْت ؛ فَيَضْرِبَانِهِ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا مَنْ بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ لَمْ تُقِلَّ وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ

(635/271)

فَيَقُولُ : جَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْت إِنْ كُنْت بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُك الْخَبِيثُ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ

فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ﴾ . وَقَالَ ابْنُ منده : رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَمَحْمُودُ بْنُ غَيْلَانَ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي النَّضْرِ .

(636/271)

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي " مُسْنَدِهِ " وَغَيْرُهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ الأصبهاني : هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى عَدَالَةِ نَاقِلِيهِ : اتَّفَقَ الْإِمَامَانِ : مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ عَلَى ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ وَهُمْ مِنْ شَرْطِهِمَا وَرَوَاهُ الْمُتَقَدِّمُونَ الْكِبَارُ عَنْ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ مِثْلُ ابْنِ أَبِي فديك وَعَنْهُ دحيم بْنُ إِبْرَاهِيمَ . قُلْت : وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ غَيْرُ وَاحِدٍ وَلَكِنَّ هَذَا سِيَاقُ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي فديك لِتَقَدُّمِهِ ؛ قَالَ ابْنُ أَبِي فديك : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ ؛ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَيَقُولُونَ : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ قَالَ : فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟

فَيَقُولُونَ : فُلَانٌ فَيَقُولُونَ : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ . فَيُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ

(637/271)

الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ قَالَ : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ . اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ

(638/271)

أَزْوَاجٌ . فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فُلَانٌ فَيَقُولُونَ : لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لَنْ تُفْتَحَ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ؛ فَتُرْسَلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَتَصِيرُ إِلَى قَبْرِهِ . فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلَا مَشْغُوفٍ ثُمَّ يُقَالُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي الْإِسْلَامِ ؟ (1) . فَيَقُولُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فَآمَنَّا وَصَدَّقْنَا ﴾ . وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَوْلَهُ : " فَيَصِيرُ

إلى قبره "كما في حديث البراء بن عازب وحديث أبي هريرة روي من طرق تصدق حديث البراء بن عازب وفي بعض طرقه سياق حديث البراء بطوله كما ذكره الحاكم مع أن سائر الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن ؛ إذ المسألة للبدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور وكذلك السؤال للروح بلا بدن قاله ابن ميسرة وابن حزم . ولو كان كذلك لم يكن للقبر بالروح اختصاص . وزعم ابن حزم أن " العود " لم يروه إلا زاذان عن البراء وضعفه وليس الأمر كما قاله بل رواه غير زاذان عن البراء وروي عن غير البراء مثل عدي بن ثابت وغيره .

(639/271)

وقد جمع الدارقطني طرقه في مصنف مفرد مع أن زاذان

من الثقات روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره وروى له مسلم في " صحيحه " وغيره ؛ قال يحيى بن معين : هو ثقة وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه فقال هو ثقة لا يسأل عن مثل هؤلاء وقال ابن عدي أحاديثه لا بأس بها إذا روى عنه ثقة وكان يتبع الكرابيسي وإنما رماه من رماه بكثرة كلامه . وأما المنهال بن عمرو فمن رجال البخاري وحديث " عود الروح "

قَدْ رَوَاهُ عَنْ غَيْرِ الْبَرَاءِ أَيْضًا وَحَدِيثُ زاذان مِمَّا اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ عَلَى رِوَايَتِهِ وَتَلَقِّيه بِالْقَبُولِ .

(640/271)

وَأَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَتْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تُعَادُ إلَى الْبَدَنِ ؛ كَمَا أَنَّهَا تَكُونُ فِي الْبَدَنِ وَيُعْرَجُ بِهَا إلَى السَّمَاءِ كَمَا فِي حَالِ النَّوْمِ . أَمَّا كَوْنُهَا فِي الْجَنَّةِ فَفِيهِ أَحَادِيثُ عَامَّةٌ ؛ وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَاحْتَجُّوا بِالْأَحَادِيثِ الْمَأْثُورَةِ الْعَامَّةِ وَأَحَادِيث خَاصَّةٍ فِي النَّوْمِ وَغَيْرِهِ . فَالْأَوَّلُ مِثْلُ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ الْمَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ فِي " مُوَطَّئِهِ " وَشُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ وَغَيْرُهُمَا وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي " الْمُسْنَدِ " وَغَيْرُهُ . قَالَ الزُّهْرِيُّ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيَّ - وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ - كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إلَى جَسَدِهِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ إلَى جَسَدِهِ

(641/271)

يَعْنِي فِي النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ . قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ منده : وَرَوَاهُ يُونُسُ وَالزُّبَيْدِيُّ وَالْأَوْزَاعِي وَابْنُ إِسْحَاقَ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ . . . قَالَ صَالِحُ بْنُ كيسان وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ كَعْبًا قَالَ . . . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد وَالنَّسَائِي وَابْنُ مَاجَه وَالتِّرْمِذِي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . قُلْت : وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي " صَحِيحِهِ " وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا الْأَئِمَّةُ . قَالَ ﴿ إنَّ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ . فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ وَكَانَتْ الزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنْ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ . فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ : مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَيَقُولُ الصِّيَامُ : مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ : مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنْ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إلَى النَّاسِ : مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ . فَيُقَالُ لَهُ : اجْلِسْ فَيَجْلِسُ قَدْ مُثِّلَتْ لَهُ الشَّمْسُ وَقَدْ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ فَيُقَالُ لَهُ : مَا هَذَا

الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ ؛ فَيَقُولُونَ : إنَّك سَتَفْعَلُ أَخْبِرْنَا عَمَّا

(643/271)

نَسْأَلُك عَنْهُ . فَقَالَ : عَمَّ تَسْأَلُونِي ؟ فَيَقُولُونَ : مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ ؛ مَا تَشْهَدُ عَلَيْهِ بِهِ ؟ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؛ فَيُقَالُ : عَلَى ذَلِكَ حَيِيت وَعَلَى ذَلِكَ مُتّ وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ : ذَلِكَ مَقْعَدُك مِنْهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَك فِيهَا ؛ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ ذَلِكَ مَقْعَدُك مِنْهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَك فِيهَا لَوْ عَصَيْت رَبَّك فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا ؛ ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ . وَيُعَادُ جَسَدُهُ كَمَا بُدِئَ وَتُجْعَلُ نَسَمَتُهُ فِي نَسَمِ الطَّيِّبِ وَهِيَ طَيْرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ . وَفِي لَفْظٍ : وَهُوَ فِي طَيْرٍ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ وَفِي لَفْظٍ ثُمَّ يُعَادُ الْجَسَدُ إلَى مَا بُدِئَ مِنْهُ ﴾ . وَهَذِهِ الْإِعَادَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ

تَارَةً أُخْرَى ﴾ لَيْسَتْ هِيَ النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي " صَحِيحِهِ " عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ إنَّ الْمُؤْمِنَ إذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ

(644/271)

بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ : اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْك إلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ؛ فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ حَتَّى إنَّهُمْ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ

(645/271)

بَعْضًا يَشُمُّونَهُ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ : مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَكُلَّمَا أَتَوْا سَمَاءً قَالُوا ذَلِكَ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَفْرَحُ بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ إذَا قَدِمَ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُونَهُ : مَا فَعَلَ فُلَانٌ ؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ : دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا فَإِذَا قَالَ لَهُمْ : مَا أَتَاكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ ؛ يَقُولُونَ : ذُهِبَ بِهِ إلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ . وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّ مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ تَأْتِيهِ فَتَقُولُ : اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْك إلَى عَذَابِ

اللَّهِ وَسَخَطِهِ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ فَيَقُولُونَ : مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ كُلَّمَا أَتَوْا عَلَى أَرْضٍ قَالُوا ذِلَكَ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ ﴾ . قَالَ الْحَاكِمُ : تَابَعَهُ هِشَامٌ الدستوائي عَنْ قتادة . وَقَالَ هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى ؛ عَنْ قتادة عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَحْوِهِ . وَالْكُلُّ صَحِيحٌ وَشَاهِدُهَا حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ . وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ مِنْ حَدِيثِ الْقَاسِمِ بْنِ الْفَضْلِ الحذائي كَمَا رَوَاهُ مَعْمَرٌ . قَالَ : وَرَوَاهُ أَبُو مُوسَى وَبُنْدَارٌ عَنْ مُعَاذِ بْنِ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ قتادة مِثْلَهُ مَرْفُوعًا . وَمِنْ أَصْحَابِ قتادة مَنْ رَوَاهُ مَوْقُوفًا وَرَوَاهُ هَمَّامٌ عَنْ قتادة عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ مَرْفُوعًا نَحْوَهُ . وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ النَّسَائِي وَالْبَزَّارُ

(646/271)

فِي " مُسْنَدِهِ " وَأَبُو حَاتِمٍ فِي " صَحِيحِهِ "

(647/271)

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي " صَحِيحِهِ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ﴿ إذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ فَصَعِدَا بِهَا فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ . قَالَ : فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ : رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْك وَعَلَى جَسَدٍ كُنْت تُعَمِّرِينَهُ ؛ فَيُنْطَلَقُ بِهَا إلَى رَبِّهِ ثُمَّ يُقَالُ : انْطَلِقُوا بِهِ إلَى آخِرِ الْأَجَلِ . قَالَ : وَإِنَّ الْكَافِرَ إذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ وَذَكَرَ مِنْ نَتِنِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ : رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ . قَالَ : فَيُقَالُ : انْطَلِقُوا بِهِ إلَى آخِرِ الْأَجَلِ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ بِاسْمِك رَبِّي وَضَعْت جَنْبِي وَبِك أَرْفَعُهُ إنْ أَمْسَكْت نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَك الصَّالِحِينَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ﴿ اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْت نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا لَك مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا فَإِنْ أَمْسَكْتَهَا فَارْحَمْهَا ؛ وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَك الصَّالِحِينَ ﴾ . فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مِنْ صُعُودِ الرُّوحِ إلَى السَّمَاءِ وَعَوْدِهَا إلَى الْبَدَنِ : مَا بَيَّنَ أَنَّ صُعُودَهَا نَوْعٌ آخَرُ لَيْسَ مِثْلَ صُعُودِ الْبَدَنِ وَنُزُولِهِ . وَرُوِينَا عَنْ الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْدَه فِي كِتَابِ " الرُّوحِ وَالنَّفْسِ "

(648/271)

حَدَّثَنَا أَحْمَد بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ الْحَرَّانِي ثنا أَحْمَد

(649/271)

بْنُ شُعَيْبٍ ثنا مُوسَى بْنُ أَيْمَنَ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمُغِيرَةِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ قَالَ : تَلْتَقِي أَرْوَاحُ الْأَحْيَاءِ فِي الْمَنَامِ بِأَرْوَاحِ الْمَوْتَى وَيَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ فَيُمْسِكُ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمَوْتَى وَيُرْسِلُ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ إِلَى أَجْسَادِهَا . وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدِ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي " تَفْسِيرِهِ " حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ ثنا الْحَسَنُ ؛ ثنا عَامِرٌ عَنْ الْفُرَاتِ ؛ ثنا أَسْبَاطٌ عَنْ السدي ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ . قَالَ : يَتَوَفَّاهَا فِي مَنَامِهَا . قَالَ : فَتَلْتَقِي رُوحُ الْحَيِّ وَرُوحُ الْمَيِّتِ فَيَتَذَاكَرَانِ وَيَتَعَارَفَانِ . قَالَ : فَتَرْجِعُ رُوحُ الْحَيِّ إِلَى جَسَدِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى بَقِيَّةِ أَجَلِهِ فِي الدُّنْيَا . قَالَ : وَتُرِيدُ رُوحُ الْمَيِّتِ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ فَتُحْبَسُ . وَهَذَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ أُرِيدَ بِهَا أَنَّ مَنْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ لَقِيَ رُوحَ الْحَيِّ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي - وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ - أَنَّ كُلًّا مِنْ النَّفْسَيْنِ : الْمُمْسَكَةِ وَالْمُرْسَلَةِ تُوُفِّيَتَا وَفَاةَ النَّوْمِ وَأَمَّا الَّتِي تُوُفِّيَتْ وَفَاةَ الْمَوْتِ فَتِلْكَ

قِسْمٌ ثَالِثٌ ؛ وَهِيَ الَّتِي قَدَّمَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ وَعَلَى هَذَا يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى

(650/271)

الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ فَذَكَرَ إمْسَاكَ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْفُسِ الَّتِي تَوَفَّاهَا بِالنَّوْمِ وَأَمَّا الَّتِي

(651/271)

تَوَفَّاهَا حِينَ مَوْتِهَا فَتِلْكَ لَمْ يَصِفْهَا بِإِمْسَاكٍ وَلَا إرْسَالٍ وَلَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْتِقَاءَ الْمَوْتَى بِالنِّيَامِ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ النَّوْعَيْنِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ تَوْفِيَتَيْنِ : تَوَفِّي الْمَوْتِ وَتَوَفِّي النَّوْمِ وَذَكَرَ إمْسَاكَ الْمُتَوَفَّاةِ وَإِرْسَالَ الْأُخْرَى . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يُمْسِكُ كُلَّ مَيْتَةٍ سَوَاءٌ مَاتَتْ فِي النَّوْمِ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ وَيُرْسِلُ مَنْ لَمْ تَمُتْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يَتَنَاوَلُ مَا مَاتَتْ فِي الْيَقَظَةِ وَمَا مَاتَتْ فِي النَّوْمِ ؛ فَلَمَّا ذَكَرَ التَّوْفِيَتَيْنِ ذَكَرَ أَنَّهُ يُمْسِكُهَا فِي أَحَدِ التَّوْفِيَتَيْنِ وَيُرْسِلُهَا

فِي الْأُخْرَى ؛ وَهَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ وَمَدْلُولُهُ بِلَا تَكَلُّفٍ . وَمَا ذَكَرَ مِنْ الْتِقَاءِ أَرْوَاحِ النِّيَامِ وَالْمَوْتَى لَا يُنَافِي مَا فِي الْآيَةِ ؛ وَلَيْسَ فِي لَفْظِهَا دَلَالَةٌ عَلَيْهِ ؛ لَكِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهُ يُمْسِكُهَا لَا يُرْسِلُهَا كَمَا يُرْسِلُ النَّائِمَةَ ؛ سَوَاءٌ تَوَفَّاهَا فِي الْيَقَظَةِ أَوْ فِي النَّوْمِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّاهَا ؛ لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا ؛ فَإِنْ أَمْسَكْتَهَا فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا فِي حَالِ تَوَفِّي النَّوْمِ إمَّا مُمْسَكَةٌ وَإِمَّا مُرْسَلَةٌ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : ثنا أَبِي ثنا عُمَرُ بْنُ عُثْمَانَ ؛ ثنا بَقِيَّةُ ؛ ثنا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنِي سُلَيْمُ بْنُ

(652/271)

عَامِرٍ الْحَضْرَمِيُّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَعْجَبُ مِنْ رُؤْيَا الرَّجُلِ أَنَّهُ يَبِيتُ فَيَرَى الشَّيْءَ

(653/271)

لَمْ يَخْطِرْ لَهُ عَلَى بَالٍ ؛ فَتَكُونُ رُؤْيَاهُ كَأَخْذِ بِالْيَدِ وَيَرَى الرَّجُلُ الشَّيْءَ ؛ فَلَا تَكُونُ رُؤْيَاهُ شَيْئًا ؛ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : أَفَلَا أُخْبِرُكَ بِذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ إنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ فَاللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ كُلَّهَا فَمَا رَأَتْ - وَهِيَ عِنْدَهُ فِي السَّمَاءِ - فَهُوَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ وَمَا رَأَتْ - إذَا أُرْسِلَتْ إلَى أَجْسَادِهَا - تَلَقَّتْهَا الشَّيَاطِينُ فِي الْهَوَاءِ فَكَذَّبَتْهَا فَأَخْبَرَتْهَا بِالْأَبَاطِيلِ وَكَذَبَتْ فِيهَا ؛ فَعَجِبَ عُمَرُ مِنْ قَوْلِهِ . وَذَكَرَ هَذَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ بْنِ مَنْدَهْ فِي كِتَابِ " الرُّوحِ وَالنَّفْسِ " وَقَالَ : هَذَا خَبَرٌ مَشْهُورٌ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِ وَلَفْظُهُ . قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وَالْأَرْوَاحُ يُعْرَجُ بِهَا فِي مَنَامِهَا فَمَا رَأَتْ وَهِيَ فِي السَّمَاءِ فَهُوَ الْحَقُّ فَإِذَا رُدَّتْ إلَى أَجْسَادِهَا تَلَقَّتْهَا الشَّيَاطِينُ فِي الْهَوَاءِ فَكَذَّبَتْهَا . فَمَا رَأَتْ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ الْبَاطِلُ . قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَنْدَهْ : وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : رَوَى ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ نُعَيْمٍ الرعيني عَنْ أَبِي

(654/271)

عُثْمَانَ الأصبحي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : إِذَا نَامَ الْإِنْسَانُ عُرِجَ بِرُوحِهِ حَتَّى يُؤْتَى بِهَا الْعَرْشَ قَالَ : فَإِنْ كَانَ طَاهِرًا أُذِنَ لَهَا بِالسُّجُودِ وَإِنْ كَانَ جُنُبًا لَمْ يُؤْذَنْ لَهَا بِالسُّجُودِ . رَوَاهُ زَيْدُ بْنُ الحباب وَغَيْرُهُ .

(655/271)

وَرَوَى ابْنُ منده حَدِيثَ عَلِيٍّ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ ثَنَا ابْنُ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ وَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ أَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ ثَنَا قُتَيْبَةُ وَالرَّازِي ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حميد ثَنَا أَبُو زُهَيْرٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مغراء الدوسي ثَنَا الْأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الأزدي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : ﴿ لَقِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَسَنِ رُبَّمَا شَهِدْتَ وَغِبْنَا وَرُبَّمَا شَهِدْنَا وَغِبْتَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ أَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْهُنَّ عِلْمٌ ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الرَّجُلُ يُحِبُّ الرَّجُلَ وَلَمْ يَرَ مِنْهُ خَيْرًا : وَالرَّجُلُ يُبْغِضُ الرَّجُلَ وَلَمْ يَرَ مِنْهُ شَرًّا . فَقَالَ : نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ الْأَرْوَاحَ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ تَلْتَقِي فِي الْهَوَاءِ فتشام فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ قَالَ عُمَرُ : وَاحِدَةٌ . قَالَ عُمَرُ : وَالرَّجُلُ يُحَدِّثُ الْحَدِيثَ إِذْ نَسِيَهُ فَبَيْنَمَا هُوَ

قَدْ نَسِيَهُ إِذْ ذَكَرَهُ . فَقَالَ : نَعَمْ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَا مِنْ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ فَبَيْنَمَا الْقَمَرُ يُضِيءُ إِذْ تَجَلَّلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ ؛ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ ؛ وَبَيْنَمَا الْقَلْبُ يَتَحَدَّثُ إِذْ تَجَلَّلَتْهُ

(656/271)

فَنَسِيَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَذَكَرَ . قَالَ عُمَرُ : اثْنَتَانِ . قَالَ : وَالرَّجُلُ يَرَى الرُّؤْيَا : فَمِنْهَا مَا يَصْدُقُ وَمِنْهَا مَا يَكْذِبُ . فَقَالَ : نَعَمْ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَا مِنْ عَبْدٍ يَنَامُ فَيَمْتَلِئُ نَوْمًا إِلَّا عُرِجَ بِرُوحِهِ إِلَى الْعَرْشِ فَالَّذِي لَا يَسْتَيْقِظُ دُونَ الْعَرْشِ فَتِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي تَصْدُقُ وَالَّذِي يَسْتَيْقِظُ دُونَ الْعَرْشِ

(657/271)

فَهِيَ الرُّؤْيَا الَّتِي تَكْذِبُ . فَقَالَ عُمَرُ : ثَلَاثٌ كُنْت فِي طَلَبِهِنَّ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَصَبْتهنَّ قَبْلَ الْمَوْتِ . ﴿ وَرَوَاهُ مِنْ وَجْهٍ ثَالِثٍ : أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَأَلَ عَنْهُ عُمَرَ فَقَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَد بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ أَيُّوبَ ثَنَا يَزِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ ثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ ثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ

عَيَّاشٍ عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الخثعمي عَنْ ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْقُرَشِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْيَاءُ أَسْأَلُك عَنْهَا ؟ قَالَ : سَلْ عَمَّا شِئْت ؛ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّ يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَمِمَّ يَنْسَى ؟ وَمِمَّ تَصْدُقُ الرُّؤْيَا وَمِمَّ تَكْذِبُ ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَمَّا قَوْلُك مِمَّ يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَمِمَّ يَنْسَى ؛ فَإِنَّ عَلَى الْقَلْبِ طخاة مِثْلَ طخاة الْقَمَرِ فَإِذَا تَغَشَّتْ الْقَلْبَ نَسِيَ ابْنُ آدَمَ فَإِذَا تَجَلَّتْ عَنْ الْقَلْبِ ذَكَرَ مِمَّا كَانَ يَنْسَى . وَأَمَّا مِمَّ تَصْدُقُ الرُّؤْيَا وَمِمَّ تَكْذِبُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ فَمَنْ دَخَلَ مِنْهَا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ فَهِيَ الَّتِي تَصْدُقُ وَمَا كَانَ مِنْهَا دُونَ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ فَهِيَ الَّتِي تَكْذِبُ . قُلْت : وَفِي هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ ذَكَرَ أَنَّ الَّتِي تَكْذِبُ مَا لَمْ يَكْمُلْ وُصُولُهَا إلَى الْعُلُوِّ . وَفِي الْأَوَّلِ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِمَّا يَحْصُلُ بَعْدَ رُجُوعِهَا . وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُمْكِنٌ ؛ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَخْتَلِفُ لِفَوَاتِ

(658/271)

شَرْطِهِ أَوْ وُجُودِ مَانِعِهِ عَنْ ذَلِكَ . قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ إذَا نَامَ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ لَهُ سَبَبًا تَجْرِي فِيهِ الرُّوحُ

(659/271)

وَأَصْلُهُ فِي الْجَسَدِ . فَتَبْلُغُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ فَمَا دَامَ ذَاهِبًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ نَائِمٌ . فَإِذَا رَجَعَ إِلَى الْبَدَنِ انْتَبَهَ الْإِنْسَانُ ؛ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ شُعَاعٍ هُوَ سَاقِطٌ بِالْأَرْضِ وَأَصْلُهُ مُتَّصِلٌ بِالشَّمْسِ . قَالَ ابْنُ منده : وَأُخْبِرْت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّمَرْقَنْدِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ السَّمَرْقَنْدِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَلَهُ بَصَرٌ بِالطِّبِّ وَالتَّعْبِيرِ - قَالَ : إنَّ الْأَرْوَاحَ تَمْتَدُّ مِنْ مَنْخِرِ الْإِنْسَانِ وَمَرَاكِبُهَا وَأَصْلُهَا فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ فَلَوْ خَرَجَ الرُّوحُ لَمَاتَ كَمَا أَنَّ السِّرَاجَ لَوْ فَرَّقْت بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْفَتِيلَةِ لَطَفِئَت . أَلَا تَرَى أَنَّ تَرَكُّبَ النَّارِ فِي الْفَتِيلَةِ وضوءها وَشُعَاعَهَا مَلَأَ الْبَيْتَ فَكَذَلِكَ الرُّوحُ تَمْتَدُّ مِنْ مَنْخِرِ الْإِنْسَانِ فِي مَنَامِهِ حَتَّى تَأْتِيَ السَّمَاءَ وَتَجُولُ فِي الْبُلْدَانِ وَتَلْتَقِي مَعَ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى . فَإِذَا رَآهَا الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِأَرْوَاحِ الْعِبَادِ أَرَاهُ مَا أَحَبَّ أَنْ يَرَاهُ وَكَانَ الْمَرْءُ فِي الْيَقَظَةِ عَاقِلًا ذَكِيًّا صَدُوقًا لَا يَلْتَفِتُ فِي الْيَقَظَةِ إلَى شَيْءٍ مِنْ الْبَاطِلِ رَجَعَ إلَيْهِ رُوحُهُ فَأَدَّى إلَى قَلْبِهِ الصِّدْقَ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى حَسَبِ صِدْقِهِ . وَإِنْ كَانَ خَفِيفًا نَزِقًا يُحِبُّ الْبَاطِلَ وَالنَّظَرَ إلَيْهِ فَإِذَا نَامَ وَأَرَاهُ اللَّهُ أَمْرًا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ رَجَعَ رُوحُهُ فَحَيْثُ مَا رَأَى شَيْئًا مِنْ مخاريق الشَّيْطَانِ أَوْ بَاطِلًا وَقَفَ عَلَيْهِ كَمَا يَقِفُ فِي يَقَظَتِهِ وَكَذَلِكَ يُؤَدِّي إلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْقِلُ مَا رَأَى

لِأَنَّهُ خَلَطَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ؛ فَلَا يُمْكِنُ مُعَبِّرٌ يَعْبُرُ لَهُ وَقَدْ اخْتَلَطَ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ . قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ مَنده : وَمِمَّا يَشْهَدُ لِهَذَا الْكَلَامِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

قُلْت : وَخَرَجَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِ " تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا " قَالَ : حَدَّثَنِي

(661/271)

حُسَيْنُ بْنُ حَسَنٍ الْمَرْوَزِيُّ أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَبْدُ اللَّهِ ثَنَا الْمُبَارَكُ ﴿ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : أُنْبِئْت أَنَّ الْعَبْدَ إذَا نَامَ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : انْظُرُوا إلَى عَبْدِي رُوحُهُ عِنْدِي وَجَسَدُهُ فِي طَاعَتِي ﴾ . وَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ تَعْرُجُ إلَى السَّمَاءِ مَعَ أَنَّهَا فِي الْبَدَنِ . عُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ عُرُوجُهَا مِنْ جِنْسِ عُرُوجِ الْبَدَنِ الَّذِي يَمْتَنِعُ هَذَا فِيهِ . وَعُرُوجُ الْمَلَائِكَةِ وَنُزُولُهَا مِنْ جِنْسِ عُرُوجِ الرُّوحِ وَنُزُولِهَا لَا مِنْ جِنْسِ عُرُوجِ الْبَدَنِ وَنُزُولِهِ . وَصُعُودُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ وَأَجَلُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى أَبْعَدُ عَنْ مُمَاثَلَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ مُمَاثَلَةِ مَخْلُوقٍ لِمَخْلُوقٍ . وَإِذَا قِيلَ : الصُّعُودُ وَالنُّزُولُ وَالْمَجِيءُ وَالْإِتْيَانُ أَنْوَاعٌ جِنْسُ الْحَرَكَةِ ؛ قِيلَ : وَالْحَرَكَةُ أَيْضًا أَصْنَافٌ مُخْتَلِفَةٌ فَلَيْسَتْ حَرَكَةُ الرُّوحِ كَحَرَكَةِ الْبَدَنِ وَلَا حَرَكَةُ الْمَلَائِكَةِ كَحَرَكَةِ الْبَدَنِ . وَالْحَرَكَةُ يُرَادُ بِهَا انْتِقَالُ الْبَدَنِ وَالْجِسْمِ مِنْ حَيِّزٍ وَيُرَادُ بِهَا أُمُورٌ أُخْرَى كَمَا

يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ الطبائعية وَالْفَلَاسِفَةِ : مِنْهَا الْحَرَكَةُ فِي الْكَمِّ كَحَرَكَةِ النُّمُوِّ وَالْحَرَكَةُ فِي الْكَيْفِ كَحَرَكَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ جَهْلٍ إلَى عِلْمٍ وَحَرَكَةِ اللَّوْنِ أَوْ الثِّيَابِ مِنْ سَوَادٍ إلَى بَيَاضٍ وَالْحَرَكَةُ فِي الْأَيْنِ كَالْحَرَكَةِ تَكُونُ بِالْأَجْسَامِ النَّامِيَةِ مِنْ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ : فِي النُّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ أَوْ فِي الذُّبُولِ وَالنُّقْصَانِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ انْتِقَالُ

(662/271)

جِسْمٍ مِنْ حَيِّزٍ إلَى حَيِّزٍ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الْجَوَاهِرَ الْمُفْرَدَةَ تَنْتَقِلُ ؛ فَقَوْلُهُ غَلَطٌ كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ .

(663/271)

وَكَذَلِكَ الْأَجْسَامُ تَنْتَقِلُ أَلْوَانُهَا وَطُعُومُهَا وَرَوَائِحُهَا فَيَسْوَدُّ الْجِسْمُ بَعْدَ ابْيِضَاضِهِ وَيَحْلُو بَعْدَ مَرَارَتِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ . وَهَذِهِ حَرَكَاتٌ وَاسْتِحَالَاتٌ وَانْتِقَالَاتٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ انْتِقَالُ جِسْمٍ مِنْ حَيِّزٍ إلَى حَيِّزٍ وَكَذَلِكَ الْجِسْمُ الدَّائِرُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ كَالدُّولَابِ وَالْفَلَكِ هُوَ بِجُمْلَتِهِ لَا يَخْرُجُ مِنْ حَيِّزِهِ وَإِنْ لَمْ يَزَلْ مُتَحَرِّكًا . وَهَذِهِ الْحَرَكَاتُ كُلُّهَا فِي

الْأَجْسَامِ وَأَمَّا فِي الْأَرْوَاحِ فَالنَّفْسُ تَنْتَقِلُ مِنْ بُغْضٍ إلَى حُبٍّ وَمِنْ سَخَطٍ إلَى رِضَا . وَمِنْ كَرَاهَةٍ إلَى إرَادَةٍ وَمِنْ جَهْلٍ إلَى عِلْمٍ وَيَجِدُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَرَكَاتِ نَفْسِهِ وَانْتِقَالَاتِهَا وَصُعُودِهَا وَنُزُولِهَا مَا يَجِدُهُ . وَذَلِكَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ غَيْرِ جِنْسِ حَرَكَاتِ بَدَنِهِ . وَإِذَا عُرِفَ هَذَا ؛ فَإِنَّ لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ ذَلِكَ مَا يَلِيقُ بِهِمْ ؛ وَإِنَّ مَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ أَكْمَلُ وَأَعْلَى وَأَتَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا قَالَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ : كَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ؛ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ : إنَّ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ بَلْ إذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ يُوصَفُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَسْتَحِيلُ مِنْ مَخْلُوقٍ آخَرَ فَالرُّوحُ تُوصَفُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَسْتَحِيلُ اتِّصَافُ الْبَدَنِ بِهِ كَانَ جَوَازُ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْلَى مِنْ جَوَازِهِ مِنْ الْمَخْلُوقِ كَأَرْوَاحِ الْآدَمِيِّينَ وَالْمَلَائِكَةِ .

(664/271)

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ مَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَكُونُ إلَّا مِثْلَ مَا تُوصَفُ بِهِ أَبْدَانُ بَنِي آدَمَ . فَغَلَطُهُ أَعْظَمُ مِنْ غَلَطِ مَنْ ظَنَّ أَنَّ مَا تُوصَفُ بِهِ الرُّوحُ مِثْلَ مَا تُوصَفُ بِهِ الْأَبْدَانُ .

(665/271)

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ " قُرْبَهُ سُبْحَانَهُ وَدُنُوَّهُ مِنْ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ " لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ تَخْلُوَ ذَاتُهُ مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ ؛ بَلْ هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَيَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ ؛ كَمَا قَالَ ذَلِكَ مَنْ قَالَهُ مِنْ السَّلَفِ ؛ وَهَذَا كَقُرْبِهِ إلَى مُوسَى لَمَّا كَلَّمَهُ مِنْ الشَّجَرَةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ وَقَالَ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ نَادَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ وَأَنَّهُ قَرَّبَهُ نَجِيًّا وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ

مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى :

(667/271)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي " تَفْسِيرِهِ " : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ قَالَ . كَانَ ذَلِكَ النَّارَ قَالَ اللَّهُ مَنْ فِي النُّورِ وَنُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النُّورِ . حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ؛ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ؛ ثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ

وَاقِدٍ ؛ عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ أَنَّ عِكْرِمَةَ حَدَّثَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قَالَ : كَانَ ذَلِكَ النَّارُ نُورَهُ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيْ بُورِكَ مَنْ فِي النُّورِ وَمَنْ حَوْلَ النُّورِ . وَكَذَلِكَ رُوِيَ بِإِسْنَادِهِ مِنْ تَفْسِيرِ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ يَعْنِي نَفْسَهُ قَالَ : كَانَ نُورُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي الشَّجَرَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا .

حَدَّثَنَا أَبِي ؛ ثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيدٍ الْجَوْهَرِيُّ ؛ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ ؛ عَنْ شيبان ؛ عَنْ عِكْرِمَةَ : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قَالَ : كَانَ اللَّهُ فِي نُورِهِ . حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثَنَا ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ثَنَا عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ الْمَدَائِنِيُّ

(668/271)

عَنْ وَرْقَاءَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ ؛ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قَالَ : نَادَاهُ وَهُوَ فِي النُّورِ .

(669/271)

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ المنجاني ؛ ثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ ؛ ثَنَا مُفَضَّلُ بْنُ أَبِي فَضَالَةَ حَدَّثَنِي ابْنُ ضَمْرَةَ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ قَالَ : إِنَّ مُوسَى كَانَ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي - إِلَى أَنْ قَالَ - فَلَمَّا قَامَ أَبْصَرَ النَّارَ فَسَارَ إِلَيْهَا فَلَمَّا أَتَاهَا ﴿ نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قَالَ : إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نَارًا وَلَكِنْ كَانَ نُورَ اللَّهِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ فِي ذَلِكَ النُّورِ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ النُّورُ مِنْهُ ؛ وَمُوسَى حَوْلَهُ . حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدِ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ ثَنَا مَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ثَنَا مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ ؛ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ قَالَ : النَّارُ نُورُ الرَّحْمَةِ ؛ قَالَ : ضَوْءٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ مُوسَى وَالْمَلَائِكَةُ . وَرُوِيَ بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ قَالَ : الْمَلَائِكَةُ . قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالْحُسْنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وقتادة مِثْلُ ذَلِكَ . وَرُوِيَ عَنْ السدي وَحْدَهُ ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قَالَ : كَانَ فِي النَّارِ مَلَائِكَةٌ . وَفِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ " عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ﴿ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ

(670/271)

عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ - أَوْ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ﴾ . ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَةَ : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وَذَكَرَ مِنْ تَفْسِيرِ الوالبي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ يَقُولُ : قُدِّسَ وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ بُورِكَتْ النَّارُ . كَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَفِي السُّورَةِ الْأُخْرَى : ذَكَرَ أَنَّهُ نَادَاهُ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ وَقَوْلُهُ ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ ﴾ فَالشَّجَرَةُ كَانَتْ فِيهِ وَقَالَ أَيْضًا : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ وَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ فَالنِّدَاءُ كَانَ مِنْ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ مِنْ الطُّورِ وَمِنْ الْوَادِي فَإِنَّ شَاطِئَ الْوَادِي جَانِبُهُ وَقَالَ ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أَيْ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَجَانِبِ الْمَكَانِ الْغَرْبِيِّ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَانِبَ الْأَيْمَنَ هُوَ الْغَرْبِيُّ لَا الشَّرْقِيُّ فَذَكَرَ أَنَّ النِّدَاءَ كَانَ مِنْ مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ وَهُوَ الْوَادِي الْمُقَدَّسُ طُوًى مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنْ الشَّجَرَةِ . وَذَكَرَ أَنَّهُ قَرَّبَهُ نَجِيًّا فَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ وَذَلِكَ الْمُنَادِي لَهُ وَالْمُنَاجِي لَهُ هُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا غَيْرُهُ وَنِدَاؤُهُ وَمُنَاجَاتُهُ قَائِمَةٌ بِهِ لَيْسَ ذَلِكَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ : إنَّ اللَّهَ لَا يَقُومُ بِهِ

(671/271)

كَلَامٌ ؛ بَلْ كَلَامُهُ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ مَخْلُوقٌ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَادَاهُ وَنَاجَاهُ ذَلِكَ الْوَقْتَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ لَا كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ : لَمْ يَزَلْ مُنَادِيًا مُنَاجِيًا لَهُ وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْوَقْتَ خَلَقَ فِيهِ إدْرَاكَ النِّدَاءِ الْقَدِيمِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ .

(672/271)

فَهَذَانِ قَوْلَانِ مُبْتَدَعَانِ لَمْ يَقُلْ وَاحِدًا مِنْهَا أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ . وَإِذَا كَانَ الْمُنَادِي هُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَقَدْ نَادَاهُ مِنْ مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ وَقَرَّبَهُ إلَيْهِ ؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَا قَالَهُ السَّلَفُ مِنْ قُرْبِهِ وَدُنُوِّهِ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَنَّ هَذَا قُرْبٌ مِمَّا دُونَ السَّمَاءِ . وَقَدْ جَاءَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الإسرائيليات قُرْبُهُ مِنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَلَفْظُهُ – الَّذِي سَاقَهُ البغوي – أَنَّهُ أَظَلَّهُ غَمَامٌ ثُمَّ نُودِيَ : يَا أَيُّوبُ ؟ أَنَا اللَّهُ يَقُولُ : أَنَا قَدْ دَنَوْت مِنْك أَنْزِلُ مِنْك قَرِيبًا لَكِنَّ الْإِسْرَائِيلِيّات إنَّمَا تُذْكَرُ عَلَى وَجْهِ الْمُتَابَعَةِ لَا عَلَى وَجْهِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا وَحْدَهَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُرْبِهِ مِنْ الدَّاعِي وَقُرْبِهِ مِنْ الْمُتَقَرِّبِ إلَيْهِ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ ﴾ . وَثَبَتَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَكَانُوا

يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ ؛ فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ﴾ . " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ " ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

(673/271)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت إلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْت إلَيْهِ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً ﴾ .

(674/271)

وَقُرْبُهُ مِنْ الْعِبَادِ بِتَقَرُّبِهِمْ إلَيْهِ مِمَّا يُقَرِّبُ بِهِ جَمِيعُ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ سَوَاءٌ قَالُوا مَعَ ذَلِكَ : إنَّهُ تَقُومُ بِهِ الْأَفْعَالُ الِاخْتِيَارِيَّةُ أَوْ لَمْ يَقُولُوا . وَأَمَّا مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ : - فَمِنْهُمْ مَنْ يُفَسِّرُ قُرْبَ الْعِبَادِ بِكَوْنِهِمْ يُقَارِبُونَهُ وَيُشَابِهُونَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَيَكُونُونَ قَرِيبِينَ مِنْهُ وَهَذَا تَفْسِيرُ أَبِي حَامِدٍ وَالْمتفلسفة ؛ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : الْفَلْسَفَةُ هِيَ التَّشَبُّهُ بِالْإِلَهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَسِّرُ قُرْبَهُمْ بِطَاعَتِهِمْ وَيُفَسِّرُ قُرْبَهُ بِإِثَابَتِهِ . وَهَذَا تَفْسِيرُ جُمْهُورِ الْجَهْمِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ

عِنْدَهُمْ قُرْبٌ وَلَا تَقْرِيبٌ أَصْلًا . وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي مَعَانِي الْقُرْبِ - وَلَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ يُنْكِرُهُ - قُرْبُ الْمَعْرُوفِ وَالْمَعْبُودِ إلَى قُلُوبِ الْعَارِفِينَ الْعَابِدِينَ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَهُ وَيَقْرُبَ مِنْ قَلْبِهِ وَالَّذِي يُبْغِضُهُ يَبْعُدُ مِنْ قَلْبِهِ . لَكِنْ هَذَا لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ذَاتَه نَفْسَهَا تَحِلُّ فِي قُلُوبِ الْعَارِفِينَ الْعَابِدِينَ وَإِنَّمَا فِي الْقُلُوبِ مَعْرِفَتُهُ وَعِبَادَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ ؛ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ يُطَابِقُ الْمَعْلُومَ . وَهَذَا الْإِيمَانُ الَّذِي فِي الْقُلُوبِ هُوَ " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " الَّذِي لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْله تَعَالَى ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إلَهٌ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ .

(675/271)

وَقَدْ غَلِطَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ طَائِفَةٌ مِنْ الصُّوفِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ : فَجَعَلُوهُ حُلُولَ الذَّاتِ وَاتِّحَادَهَا بِالْعَابِدِ وَالْعَارِفِ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . وَالَّذِينَ يُثْبِتُونَ تَقْرِيبَهُ الْعِبَادَ إلَى ذَاتِهِ هُوَ الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ لِلسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَهُوَ قَوْلُ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الْكُلَّابِيَة ؛ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ قُرْبَ الْعِبَادِ إلَى ذَاتِهِ وَكَذَلِكَ يُثْبِتُونَ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِذَاتِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : الِاسْتِوَاءُ فِعْلٌ فَعَلَهُ فِي الْعَرْشِ فَصَارَ

مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ . وَهَذَا أَيْضًا قَوْلُ ابْنِ عَقِيلٍ وَابْنِ الزَّاغُونِي وَطَوَائِفَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ .

(676/271)

وَأَمَّا دُنُوُّهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعْضِ عِبَادِهِ ؛ فَهَذَا يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ . وَهَذَا مَذْهَبُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ . وَأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ " الْجَهْمِيَّةُ " وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَكَانُوا يُنْكِرُونَ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوَّ عَلَى الْعَرْشِ ثُمَّ جَاءَ ابْنُ كُلَّابٍ فَخَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَثْبَتَ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوَّ عَلَى الْعَرْشِ لَكِنْ وَافَقَهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا تَقُومُ بِهِ الْأُمُورُ الِاخْتِيَارِيَّةُ ؛ وَلِهَذَا أَحْدَثَ قَوْلَهُ فِي الْقُرْآنِ : إنَّهُ قَدِيمٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ بِقُدْرَتِهِ . وَلَا يُعْرَفُ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ ؛ بَلْ الْمُتَوَاتِرُ عَنْهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ

(677/271)

مَخْلُوقٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا ذَكَرْت أَلْفَاظَهُمْ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ هَذَا . فَالَّذِينَ يُثْبِتُونَ أَنَّهُ كَلَّمَ مُوسَى بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَلَامًا قَائِمًا بِهِ ؛ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّهُ يَدْنُو وَيَقْرُبُ مِنْ عِبَادِهِ بِنَفْسِهِ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ أَوْ قَدِيمٌ فَأَصْلُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْرُبَ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يَدْنُوَ إلَيْهِ . فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ : بِهَذَا مَعَ هَذَا ؛ كَانَ مِنْ تَنَاقُضِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ أَصْلَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ قَدِيمٌ . وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَدْ يَعْرِفُونَ مِنْ حَقَائِقِ أُصُولِهِمْ وَلَوَازِمِهَا مَا لَا يَعْرِفُهُ مَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى أَصْلِ الْمَقَالَةِ وَلَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهَا وَلَوَازِمَهَا ؛ فَلِذَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَتَنَاقَضُ كَلَامُهُ فِي هَذَا الْبَابِ . فَإِنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارَ السَّلَفِ مُتَظَاهِرَةٌ بِالْإِثْبَاتِ وَلَيْسَ عَلَى النَّفْيِ دَلِيلٌ وَاحِدٌ : لَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا مِنْ سُنَّةٍ وَلَا مِنْ أَثَرٍ ؛ وَإِنَّمَا أَصْلُهُ قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ ابْنُ كُلَّابٍ فَرَّقَ وَوَافَقَهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ فَصَارَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يُقِرُّ بِمَا جَاءَ عَنْ السَّلَفِ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَبِمَا يَقُولُهُ النُّفَاةُ مِمَّا يُنَاقِضُ ذَلِكَ وَلَا يَهْتَدِي لِلتَّنَاقُضِ ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْجَوَابُ عَمَّا احْتَجَّ بِهِ مَنْ قَالَ : إنَّ ثُلُثَ اللَّيْلِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبِلَادِ . وَهَذَا قَدْ احْتَجَّ بِهِ طَائِفَةٌ

(678/271)

وَجَعَلُوا هَذَا دَلِيلًا عَلَى مَا يَتَأَوَّلُونَ عَلَيْهِ حَدِيثَ النُّزُولِ . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ إنَّمَا يَصِحُّ إذَا جَعَلَ نُزُولَهُ مِنْ جِنْسِ

(679/271)

نُزُولِ أَجْسَامِ النَّاسِ مِنْ السَّطْحِ إلَى الْأَرْضِ وَهُوَ يُشْبِهُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : يَخْلُو الْعَرْشُ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ فَوْقَهُ وَبَعْضُهَا تَحْتَهُ . فَإِذَا قُدِّرَ النُّزُولُ هَكَذَا كَانَ مُمْتَنِعًا ؛ لِمَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَزَالُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ أَوْ جَمِيعِهَا فَإِنَّ بَيْنَ طَرَفَيْ الْعِمَارَةِ نَحْوَ لَيْلَةٍ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : بَيْنَ ابْتِدَاءِ الْعِمَارَةِ مِنْ الْمَشْرِقِ وَمُنْتَهَاهَا مِنْ الْمَغْرِبِ مِقْدَارُ مِائَةٍ وَثَمَانِينَ دَرَجَةً فَلَكِيَّةً وَكُلُّ خَمْسَ عَشْرَةَ فَهِيَ سَاعَةٌ مُعْتَدِلَةٌ وَالسَّاعَةُ الْمُعْتَدِلَةُ هِيَ سَاعَةٌ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً بِاللَّيْلِ أَوْ النَّهَارِ إذَا كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مُتَسَاوِيَيْنِ - كَمَا يَسْتَوِيَانِ فِي أَوَّلِ الرَّبِيعِ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الصَّيْفَ وَأَوَّلِ الْخَرِيفِ الَّذِي تُسَمِّيهِ الرَّبِيعَ - بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَ أَحَدُهُمَا أَطْوَلَ مِنْ الْآخَرِ وَكُلُّ وَاحِدٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً ؛ فَهَذِهِ السَّاعَاتُ مُخْتَلِفَةٌ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ فَتَغْرُبُ الشَّمْسُ عَنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ قَبْلَ غُرُوبِهَا عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَطْلُعُ عَلَى هَؤُلَاءِ قَبْلَ هَؤُلَاءِ بِنَحْوِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً أَوْ أَكْثَرَ . فَإِنَّ الشَّمْسَ عَلَى أَيِّ مَوْضِعٍ كَانَتْ مُرْتَفِعَةً مِنْ الْأَرْضِ الِارْتِفَاعَ التَّامَّ كَمَا يَكُونُ عِنْدَ نِصْفِ النَّهَارِ فَإِنَّهَا تُضِيءُ عَلَى مَا

أَمَامَهَا وَخَلْفَهَا مِنْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تِسْعِينَ دَرَجَةً شَرْقِيَّةً وَتِسْعِينَ غَرْبِيَّةً وَالْمَجْمُوعُ مِقْدَارُ حَرَكَتِهَا : اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً سِتَّةٌ

(680/271)

شَرْقِيَّةٌ وَسِتَّةٌ غَرْبِيَّةٌ وَهُوَ النَّهَارُ الْمُعْتَدِلُ . وَلَا يَزَالُ لَهَا هَذَا النَّهَارُ لَكِنْ يَخْفَى ضَوْءُهَا بِسَبَبِ مَيْلِهَا إلَى جَانِبِ الشَّمَالِ

(681/271)

وَالْجَنُوبِ ؛ فَإِنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ الْأَرْضِ مِنْ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ شَمَالُ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ الْمُحَاذِي لِدَائِرَةِ مُعْتَدِلِ النَّهَارِ الَّتِي نِسْبَتُهَا إلَى الْقُطْبَيْنِ - الشَّمَالِيِّ وَالْجَنُوبِيِّ - نِسْبَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ فِي حَرَكَةِ الْفَلَكِ إنَّهَا عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ دولابية مِثْلُ الدُّولَابِ وَإِنَّهَا عِنْدَ الْقُطْبَيْنِ رحاوية تُشْبِهُ حَرَكَةَ الرَّحَى وَإِنَّهَا فِي الْمَعْمُورِ مِنْ الْأَرْضِ حمائلية تُشْبِهُ حَمَائِلَ السُّيُوفِ . وَالْمَعْمُورُ الْمَسْكُونُ مِنْ الْأَرْضِ يُقَالُ : إنَّهُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً أَكْثَرُ مِنْ السُّدُسِ بِقَلِيلٍ . وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا لِبَسْطِهِ مَوْضِعٌ آخَرُ : ذَكَرْنَا فِيهِ دِلَالَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

وَأَقْوَالَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرَ مَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ " الْفَلَكَ " مُسْتَدِيرٌ . وَقَدْ ذَكَرَ إجْمَاعَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ الْمُنَادِي الَّذِي لَهُ نَحْوُ " أَرْبَعِمِائَةِ مُصَنَّفٍ " وَهُوَ مِنْ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرُهُمْ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ الشَّمْسَ إذَا طَلَعَتْ عَلَى أَوَّلِ الْبِلَادِ الشَّرْقِيَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ إمَّا وَقْتَ غُرُوبِهَا وَإِمَّا قَرِيبًا مِنْ وَقْتِ غُرُوبِهَا عَلَى آخِرِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِحَيْثُ يَكُونُ الضَّوْءُ أَمَامَهَا تِسْعِينَ دَرَجَةً وَخَلْفَهَا تِسْعِينَ دَرَجَةً ؛ فَهَذَا مُنْتَهَى نُورِهَا . فَإِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِمْ

(682/271)

كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ تِسْعُونَ دَرَجَةً وَكَذَلِكَ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ تَطْلُعُ عَلَيْهِ ؛ وَالْحَاسِبُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الدَّرَجَاتِ كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ السَّاعَاتِ فَإِنَّ السَّاعَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ الزَّمَانِيَّةَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَجَةً بِحَسَبِ ذَلِكَ الزَّمَانِ

(683/271)

فَيَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ أَيْضًا تِسْعُونَ دَرَجَةً مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ وَإِذَا صَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَكَانٍ تِسْعُونَ دَرَجَةً غَرْبِيَّةً غَابَتْ كَمَا تَطْلُعُ إذَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ تِسْعُونَ دَرَجَةً شَرْقِيَّةً وَإِذَا تَوَسَّطَتْ عَلَيْهِمْ - وَهُوَ وَقْتُ اسْتِوَائِهَا قَبْلَ أَنْ تَدْلُكَ وَتَزِيغَ وَيَدْخُلَ وَقْتُ الظُّهْرِ - كَانَ لَهَا تِسْعُونَ دَرَجَةً شَرْقِيَّةً وَتِسْعُونَ دَرَجَةً غَرْبِيَّةً . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ - وَالنُّزُولُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ عَلَى قَائِلِهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ : الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ عَلَى صِحَّتِهِ هُوَ : " إذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ " وَأَمَّا رِوَايَةُ النِّصْفِ وَالثُّلُثَيْنِ فَانْفَرَدَ بِهَا مُسْلِمٌ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَقَدْ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : إنَّ أَصَحَّ الرِّوَايَاتِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : " إذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ " . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلَ هَذَا ؛ فَهُوَ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ إذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ . فَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذَكَرَ " النُّزُولَ " أَيْضًا إذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ وَإِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ ؛ فَقَوْلُهُ حَقٌّ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ وَيَكُونُ النُّزُولُ أَنْوَاعًا ثَلَاثَةً : الْأَوَّلُ إذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ثُمَّ إذَا انْتَصَفَ وَهُوَ أَبْلَغُ ثُمَّ إذَا بَقِيَ

(684/271)

ثُلُثُ اللَّيْلِ وَهُوَ أَبْلَغُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ . وَلَفْظُ " اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " فِي كَلَامِ الشَّارِعِ إذَا أُطْلِقَ فَالنَّهَارُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ

(685/271)

كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ وَكَمَا فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّمَا أَرَادَ صَوْمَ النَّهَارِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَكَذَلِكَ وَقْتُ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَأَوَّلُ وَقْتِ الصِّيَامِ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ الْمَعْلُومِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَالْإِجْمَاعِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَكَذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِرَكْعَةٍ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ - كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ - إنَّ صَلَاةَ الْفَجْرِ مِنْ صَلَاةِ النَّهَارِ . وَأَمَّا إذَا قَالَ الشَّارِعُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " نِصْفُ النَّهَارِ " فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ النَّهَارَ الْمُبْتَدِئَ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ ؛ لَا يُرِيدُ قَطُّ - لَا فِي كَلَامِهِ وَلَا فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِنِصْفِ النَّهَارِ - النَّهَارَ الَّذِي أَوَّلُهُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ ؛ فَإِنَّ نِصْفَ هَذَا يَكُونُ قَبْلَ الزَّوَالِ ؛ وَلِهَذَا غَلِطَ بَعْضُ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ - لَمَّا رَأَى كَلَامَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الصَّائِمَ الْمُتَطَوِّعَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَنْوِيَ التَّطَوُّعَ قَبْلَ نِصْفِ النَّهَارِ ؛ وَهَلْ يَجُوزُ لَهُ بَعْدَهُ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ هُمَا رِوَايَتَانِ

عَنْ أَحْمَد - ظَنَّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّهَارِ هُنَا نَهَارُ الصَّوْمِ الَّذِي أَوَّلُهُ طُلُوعُ الْفَجْرِ . وَسَبَبُ غَلَطِهِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ

(686/271)

يُفَرِّقْ بَيْنَ مُسَمَّى النَّهَارِ إذَا أُطْلِقَ وَبَيْنَ مُسَمَّى نِصْفِ النَّهَارِ فَالنَّهَارُ الَّذِي يُضَافُ إلَيْهِ نِصْفٌ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ وَعُلَمَاءِ أُمَّتِهِ هُوَ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالنَّهَارِ الْمُطْلَقِ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَخْبَرَ بِالنُّزُولِ إذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ فَهَذَا اللَّيْلُ

(687/271)

الْمُضَافُ إلَيْهِ الثُّلُثُ يَظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ النَّهَارِ الْمُضَافِ إلَيْهِ النِّصْفُ - وَهُوَ الَّذِي يَنْتَهِي إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ وَكَذَلِكَ لِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَقْتُ الْعِشَاءِ إلَى نِصْفِ اللَّيْلِ أَوْ إلَى الثُّلُثِ ﴾ فَهُوَ هَذَا اللَّيْلُ . وَكَذَلِكَ الْفُقَهَاءُ إذَا أَطْلَقُوا ثُلُثَ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ؛ فَهُوَ كَإِطْلَاقِهِمْ نِصْفَ النَّهَارِ . وَهَكَذَا أَهْلُ الْحِسَابِ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ هَذَا . وَقَدْ يُقَالُ : بَلْ هُوَ

اللَّيْلُ الْمُنْتَهِي بِطُلُوعِ الْفَجْرِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ أَفْضَلُ الْقِيَامِ قِيَامُ دَاوُد ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ ﴾ وَالْيَوْمُ الْمُعْتَادُ الْمَشْرُوعُ إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ بَلْ إلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ . فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ هَذَا وَحِينَئِذٍ فَإِذَا قُدِّرَ ثُلُثُ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ الْمَشْرِقِ يَكُونُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ عَلَيْهِمْ بِأَرْبَعِ سَاعَاتٍ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ ﴾ - فَقَدْ أَخْبَرَ بِدَوَامِهِ إلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ وَفِي رِوَايَةٍ : " إلَى أَنْ يَنْصَرِفَ الْقَارِئُ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ " . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَقَدْ قِيلَ : يَشْهَدُهُ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ . وَإِذَا كَانَ هَذَا

(688/271)

النُّزُولُ يَدُومُ نَحْوَ سُدُسٍ عِنْدَ أُولَئِكَ ؛ فَهَكَذَا هُوَ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ إذَا مَضَى ثُلُثَا لَيْلِهِمْ يَدُومُ عِنْدَهُمْ سُدُسُ الزَّمَانِ وَأَمَّا النُّزُولُ الَّذِي فِي النِّصْفِ أَوْ الثُّلُثَيْنِ : فَإِنَّهُ يَدُومُ رُبُعُ الزَّمَانِ أَوْ ثُلُثُهُ فَهُوَ أَكْثَرُ دَوَامًا مِنْ ذَلِكَ .

(689/271)

وَإِنْ أُرِيدَ اللَّيْلُ الْمُنْتَهِي بِطُلُوعِ الشَّمْسِ ؛ كَانَ وَقْتُ النُّزُولِ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ قَرِيبًا مِنْ ثُمُنِ الزَّمَانِ وَتُسْعِهِ وَعَلَى رِوَايَةِ النِّصْفِ وَالثُّلُثِ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ سُدُسِهِ وَرُبُعِهِ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ زَمَنَ ثُلُثِ لَيْلِ الْبَلَدِ الشَّرْقِيِّ قَبْلَ ثُلُثِ لَيْلِ الْبَلَدِ الْغَرْبِيِّ كَمَا قَدْ عُرِفَ وَالْعِمَارَةُ طُولُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً مِائَةٌ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ لِكُلِّ مِقْدَارِ سَاعَةٍ - وَهُوَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَجَةً مِنْ الْمَعْمُورِ - ثُلُثًا غَيْرَ ثُلُثِ مِقْدَارِ السَّاعَةِ الْأُخْرَى لَكَانَ الْمَعْمُورُ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ ثُلُثًا وَالنُّزُولُ يَدُومُ فِي كُلِّ ثُلُثِ مِقْدَارِ سُدُسِ الزَّمَانِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ النُّزُولُ يَدُومُ لَيْلًا وَنَهَارًا أَنَّهُ يَدُومُ بِقَدْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِتَّ مَرَّاتٍ إذَا قُدِّرَ أَنَّ لِكُلِّ طُولِ سَاعَةٍ مِنْ الْمَعْمُورِ ثُلُثًا فَكَيْفَ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِدُعَاءِ عِبَادِهِ السَّاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ . فَكُلُّ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ الْبِلَادِ يَبْقَى نُزُولُهُ وَدُعَاؤُهُ لَهُمْ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ سُدُسُ الزَّمَانِ وَالْبِلَادُ مِنْ الْمَشْرِقِ إلَى الْمَغْرِبِ كَثِيرَةٌ . وَالْإِسْلَامُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ قَدْ انْتَشَرَ مِنْ الْمَشْرِقِ إلَى الْمَغْرِبِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ مَشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ﴾ . وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا لِأَنَّهُ قَدْ يُقَالُ : إنَّ هَذَا "

النُّزُولَ وَالدُّعَاءَ " إنَّمَا هُوَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ويستغفرونه ؛ كَمَا أَنَّ " نُزُولَ عَشِيَّةِ

(691/271)

عَرَفَةَ " إنَّمَا هُوَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحُجُّونَ إلَيْهِ وَكَمَا أَنَّ رَمَضَانَ إذَا دَخَلَ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَصُومُونَ رَمَضَانَ وَعَنْهُمْ تُغْلَقُ أَبْوَابُ النَّارِ وَتُصَفَّدُ شَيَاطِينُهُمْ " وَأَمَّا الْكُفَّارُ " الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ إفْطَارَ شَهْرِ رَمَضَانَ وَلَا يَرَوْنَ لَهُ حُرْمَةً وَمَزِيَّةً فَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَلَا تُغْلَقُ عَنْهُمْ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ وَلَا تُصَفَّدُ شَيَاطِينُهُمْ . وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا بَسْطَ هَذَا الْمَعْنَى بَلْ الْمَقْصُودُ أَنَّ النُّزُولَ إنْ كَانَ خَاصًّا بِالْمُؤْمِنِينَ ؛ فَهُمْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ مِنْ أَقْصَى الْمَشْرِقِ إلَى أَقْصَى الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ عَامًّا ؛ فَهُوَ أَبْلَغُ فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ لَا بُدَّ أَنْ يَدُومَ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ عَلَى أَهْلِ كُلِّ بَلَدٍ مِقْدَارَ سُدُسِ الزَّمَانِ أَوْ أَكْثَرَ . فَإِنَّهُ إذَا قِيلَ لَيْلُ صَيْفِهِمْ قَصِيرٌ قِيلَ وَلَيْلُ شِتَائِهِمْ طَوِيلٌ فَيُعَادِلُ هَذَا هَذَا وَمَا نَقَصَ مِنْ لَيْلِ صَيْفِهِمْ زِيدَ فِي لَيْلِ شِتَائِهِمْ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ ﴿ الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ : يَصُومُ نَهَارَهُ وَيَقُومُ لَيْلَهُ ﴾ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ - فَلَوْ كَانَ النُّزُولُ كَمَا يَتَخَيَّلُهُ بَعْضُ الْجُهَّالِ مِنْ أَنَّهُ يَصِيرُ تَحْتَ السَّمَوَاتِ وَفَوْقَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا

وَتَحْتَ الْعَرْشِ مِقْدَارُ ثُلُثِ اللَّيْلِ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ - لَمْ يَكُنْ اللَّازِمُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَتَحْتَ السَّمَوَاتِ فَقَطْ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَكُونُ وَحْدَهُ هُوَ اللَّازِمُ إذَا كَانَ كُلُّ سُدُسٍ مِنْ الْمَعْمُورِ لَهُمْ

(692/271)

كُلِّهِمْ ثُلُثٌ وَاحِدٌ ؛ وَكَانَ الْمَجْمُوعُ سِتَّةَ أَثْلَاثٍ فَإِذَا قُدِّرَ بَقَاؤُهُ عَلَى هَؤُلَاءِ مِقْدَارُ ثُلُثٍ ثُمَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْآخَرِينَ مِقْدَارُ ثُلُثٍ لَزِمَ أَنْ لَا يَزَالَ تَحْتَ الْعَرْشِ أَوْ تَحْتَ السَّمَوَاتِ أَوْ حَيْثُ تَخَيَّلَ الْجَاهِلُ أَنَّ اللَّهَ مَحْصُورٌ فِيهِ ؛ فَلَا يَكُونُ قَطُّ فَوْقَ الْعَرْشِ .

(693/271)

وَأَمَّا إذَا كَانَ لِكُلِّ بَلَدٍ ثُلُثٌ غَيْرُ الثُّلُثِ الْآخَرِ وَأَنَّ أَوَّلَ كُلِّ بَلَدٍ بَعْدَ الثُّلُثِ الْآخِرِ يُقَدَّرُ مَا بَيْنَهُمَا وَكَذَلِكَ آخِرُ ثُلُثِ لَيْلِ الْبَلَدِ الشَّرْقِيِّ يَنْقَضِي قَبْلَ انْقِضَاءِ ثُلُثِ لَيْلِ الْبَلَدِ الْغَرْبِيِّ . وَأَيْضًا إنْ كَانَتْ مُدَاخَلَةٌ فَلَا بُدَّ أَنْ يَدُومَ النُّزُولُ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ ثُلُثَ لَيْلِهِمْ إلَى طُلُوعِ فَجْرِهِمْ ؛ فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَدَّرَ أَثْلَاثٌ بِقَدْرِ عَدَدِ الْبِلَادِ . وَأَيْضًا فَكَمَا أَنَّ ثُلُثَ اللَّيْلِ يَخْتَلِفُ بِطُولِ

الْبَلَدِ فَهُوَ يَخْتَلِفُ بِعَرْضِهَا أَيْضًا . فَكُلَّمَا كَانَ الْبَلَدُ أَدْخَلَ فِي الشَّمَالِ ؛ كَانَ لَيْلُهُ فِي الشِّتَاءِ أَطْوَلَ وَفِي الصَّيْفِ أَقْصَرَ . وَمَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ يَكُونُ لَيْلُهُ فِي الشِّتَاءِ أَقْصَرَ مِنْ لَيْلِ ذَاكَ وَلَيْلُهُ فِي الصَّيْفِ أَطْوَلَ مِنْ لَيْلِ ذَاكَ ؛ فَيَكُونُ لَيْلُهُمْ وَنَهَارُهُمْ أَقْرَبَ إلَى التَّسَاوِي .

وَحِينَئِذٍ فَالنُّزُولُ الْإِلَهِيُّ لِكُلِّ قَوْمٍ هُوَ مِقْدَارُ ثُلُثِ لَيْلِهِمْ فَيَخْتَلِفُ مِقْدَارُهُ بِمَقَادِيرِ اللَّيْلِ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ كَمَا اخْتُلِفَ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إذَا صَارَ ثُلُثُ اللَّيْلِ عِنْدَ قَوْمٍ ؛ فَبَعْدَهُ بِلَحْظَةٍ ثُلُثُ اللَّيْلِ عِنْدَ مَا يُقَارِبُهُمْ مِنْ الْبِلَادِ ؛ فَيَحْصُلُ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ الْمُصَدَّقُ أَيْضًا عِنْدَ أُولَئِكَ إذَا بَقِيَ ثُلُثُ لَيْلِهِمْ وَهَكَذَا إلَى آخِرِ الْعِمَارَةِ . فَلَوْ كَانَ كَمَا تَوَهَّمَهُ الْجَاهِلُ مِنْ أَنَّهُ يَكُونُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَتَكُونُ فَوْقَهُ السَّمَاءُ وَتَحْتَهُ السَّمَاءُ ؛ لَكَانَ هَذَا

(694/271)

مُمْتَنِعًا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ .

" مِنْهَا " أَنَّهُ لَا يَكُونُ فَوْقَ الْعَرْشِ قَطُّ بَلْ لَا يَزَالُ تَحْتَهُ " وَمِنْهَا " أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ الزَّمَانُ بِقَدْرِ مَا هُوَ مَرَّاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا لِيَقَعَ كَذَلِكَ " وَمِنْهَا " أَنَّهُ مَعَ دَوَامِ نُزُولِهِ إلَى سَمَاءِ هَؤُلَاءِ إلَى طُلُوعِ فَجْرِهِمْ إنْ أَمْكَنَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَزَلَ عَلَى غَيْرِهِمْ أَيْضًا مِمَّنْ ثُلُثُ لَيْلِهِمْ

يُخَالِفُ ثُلُثَ هَؤُلَاءِ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالطُّولِ وَالْقِصَرِ . فَهَذَا خِلَافُ مَا تَخَيَّلُوهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَتَخَيَّلُوا نَازِلًا كَنُزُولِ الْعِبَادِ مَنْ يَكُونُ نَازِلًا عَلَى سَمَاءِ هَؤُلَاءِ ثُلُثَ لَيْلِهِمْ وَهُوَ أَيْضًا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ نَازِلًا عَلَى سَمَاءِ آخَرِينَ مَعَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى أُولَئِكَ أَوْ يَتَأَخَّرَ عَنْهُمْ أَوْ يَزِيدَ أَوْ يَقْصُرَ . وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْجُهَّالِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : فَالسَّمَوَاتُ كَيْفَ حَالُهَا عِنْدَ نُزُولِهِ ؟ قَالَ : يَرْفَعُهَا ثُمَّ يَضَعُهَا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ . فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَخَيَّلُونَ مَا وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ رَبَّهُ أَنَّهُ مِثْلُ صِفَاتِ أَجْسَامِهِمْ كُلُّهُمْ ضَالُّونَ ؛ ثُمَّ يَصِيرُونَ قِسْمَيْنِ . " قِسْمٌ " عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَظَنُّوا أَنَّ هَذَا ظَاهِرُ النَّصِّ وَمَدْلُولُهُ وَأَنَّهُ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًى إلَّا ذَلِكَ ؛ فَصَارُوا : إمَّا أَنْ يَتَأَوَّلُوهُ تَأْوِيلًا يُحَرِّفُونَ بِهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا : لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا " مَذْهَبُ السَّلَفِ " .

(695/271)

وَيَقُولُونَ : إنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَالْحَدِيثُ مِنْهُ مُتَشَابِهٌ - كَمَا فِي الْقُرْآنِ - وَهَذَا مِنْ مُتَشَابِهِ الْحَدِيثِ ؛ فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِحَدِيثِ النُّزُولِ لَمْ يَدْرِ هُوَ مَا يَقُولُ وَلَا مَا عُنِيَ بِكَلَامِهِ - وَهُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ ابْتِدَاءً . فَهَلْ يَجُوزُ لِعَاقِلٍ أَنْ يَظُنَّ هَذَا بِأَحَدٍ مِنْ عُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ فَضْلًا عَنْ الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنْ

أَفْضَلِ الْأَوَّلِينَ وَالآخرين وَأَعْلَمِ الْخَلْقِ وَأَفْصَحِ الْخَلْقِ وَأَنْصَحِ الْخَلْقِ لِلْخَلْقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي يَصِفُونَ بِهِ الرَّسُولَ وَأُمَّتَهُ هُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَصَوَّرُوا حَقِيقَةَ مَا قَالُوهُ وَلَوَازِمَهُ . وَلَوْ تَصَوَّرُوا ذَلِكَ لَعَلِمُوا أَنَّهُ يَلْزَمُهُمْ مَا هُوَ مِنْ أَقْبَحِ أَقْوَالِ الْكُفَّارِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ لَا يَرْتَضُونَ مَقَالَةَ مَنْ يَنْتَقِصُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ تَنَقَّصَهُ أَحَدٌ لَاسْتَحَلُّوا قَتْلَهُ وَهُمْ مُصِيبُونَ فِي اسْتِحْلَالِ قَتْلِ مَنْ يَقْدَحُ فِي الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَقَوْلُهُمْ يَتَضَمَّنُ أَعْظَمَ الْقَدْحِ ؛ لَكِنْ لَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ . وَلَازِمُ الْقَوْلِ لَيْسَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُمْ لَوْ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا يَلْزَمُهُمْ مَا الْتَزَمُوهُ . " وَقِسْمٌ ثَانٍ " مِنْ الْمُمَثِّلِينَ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ مُنْكَرٌ وَأَنَّ قَوْلَ الرَّسُولِ

(696/271)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ قَالُوا مِثْلَ تِلْكَ الْجَهَالَاتِ : مِنْ أَنَّهُ تَصِيرُ فَوْقَهُ سَمَاءٌ وَتَحْتَهُ سَمَاءٌ أَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ تَرْتَفِعُ ثُمَّ تَعُودُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَظْهَرُ بُطْلَانُهُ لِمَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ وَلُبٍّ .

(697/271)

وَقَدْ ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ " أَنَّهُ يَنْزِلُ وَفِي لَفْظٍ : ﴿ : يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا : ﴿ إذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ﴾ فَمَا ذَكَرَ مِنْ تَقَدُّمِ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ فِي الْبِلَادِ يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَيَصِيرُ تَحْتَ الْعَرْشِ أَوْ تَحْتَ السَّمَاءِ . وَأَمَّا " النُّزُولُ " الَّذِي لَا يَكُونُ مِنْ جِنْسِ نُزُولِ أَجْسَامِ الْعِبَادِ ؛ فَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لِخَلْقٍ كَثِيرٍ وَيَكُونُ قَدْرُهُ لِبَعْضِ النَّاسِ أَكْثَرَ بَلْ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَقْرُبَ إلَى خَلْقٍ مِنْ عِبَادِهِ دُونَ بَعْضٍ فَيَقْرُبُ إلَى هَذَا الَّذِي دَعَاهُ دُونَ هَذَا الَّذِي لَمْ يَدْعُهُ . وَجَمِيعُ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَهُ مِنْ الْقُرْبِ فَلَيْسَ فِيهِ مَا هُوَ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا فِي الْمَعِيَّةِ ؛ فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ وَصَفَ نَفْسَهُ فِيهَا بِعُمُومٍ وَخُصُوصٍ . وَأَمَّا قُرْبُهُ مِمَّا يَقْرُبُ مِنْهُ فَهُوَ خَاصٌّ لِمَنْ يَقْرُبُ مِنْهُ كَالدَّاعِي وَالْعَابِدِ وَكَقُرْبِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَدُنُوِّهِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِأَجْلِ الْحُجَّاجِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْعَشِيَّةُ بِعَرَفَةَ قَدْ تَكُونُ وَسَطَ النَّهَارِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ وَتَكُونُ لَيْلًا فِي بَعْضِ الْبِلَادِ ؛ فَإِنَّ تِلْكَ

(698/271)

الْبِلَادَ لَمْ يَدْنُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى سَمَائِهَا الدُّنْيَا وَإِنَّمَا دَنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا الَّتِي عَلَى الْحُجَّاجِ وَكَذَلِكَ نُزُولُهُ بِاللَّيْلِ . وَهَذَا كَمَا أَنَّ حِسَابَهُ لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُهُمْ كُلَّهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَكُلٌّ

(699/271)

مِنْهُمْ يَخْلُو بِهِ كَمَا يَخْلُو الرَّجُلُ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ وَذَلِكَ الْمُحَاسَبُ لَا يَرَى أَنَّهُ يُحَاسِبُ غَيْرَهُ . كَذَلِكَ ﴿ قَالَ أَبُو رَزِينٍ : لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَخْلُو بِهِ رَبُّهُ كَمَا يَخْلُو أَحَدُكُمْ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ ؟ وَنَحْنُ جَمِيعٌ وَهُوَ وَاحِدٌ فَقَالَ : سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللَّهِ : هَذَا الْقَمَرُ كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِيًا بِهِ ؛ فَاللَّهُ أَكْبَرُ ﴾ . وَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ قَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ : فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ : حَمِدَنِي عَبْدِي فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللَّهُ : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ

الدِّينِ ﴾ قَالَ اللَّهُ : مَجَّدَنِي عَبْدِي فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

(700/271)

وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ : هَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ﴾ . فَهَذَا يَقُولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : لِكُلِّ مُصَلٍّ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ فَلَوْ صَلَّى الرَّجُلُ مَا صَلَّى مِنْ الرَّكَعَاتِ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ يُصَلِّي مَنْ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ مَنْ

(701/271)

لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إلَّا اللَّهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَقُولُ لِهَذَا كَمَا يُحَاسِبُهُمْ كَذَلِكَ فَيَقُولُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مَا يَقُولُ لَهُ مِنْ الْقَوْلِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَكَذَلِكَ سَمْعُهُ لِكَلَامِهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ كُلَّهُ مَعَ اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَتَفَنُّنِ حَاجَاتِهِمْ ؛ يَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ سَمْعَ إجَابَةٍ وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا يَقُولُونَهُ سَمْعَ عِلْمٍ وَإِحَاطَةٍ لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ وَلَا تُغَلِّطُهُ الْمَسَائِلُ وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ

الْمُلحِّينَ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ هَذَا كُلَّهُ وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ هَذَا كُلَّهُ وَهُوَ الَّذِي يُوَصِّلُ الْغِذَاءَ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْ الْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِهِ وَصِفَتِهِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَكَذَلِكَ مِنْ الزَّرْعِ . وَكُرْسِيُّهُ قَدْ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا فَإِذَا كَانَ لَا يَئُودُهُ خَلْقُهُ وَرِزْقُهُ عَلَى هَذِهِ التَّفَاصِيلِ فَكَيْفَ يَئُودُهُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ أَوْ سَمْعُ كَلَامِهِمْ أَوْ رُؤْيَةُ أَفْعَالِهِمْ أَوْ إجَابَةُ دُعَائِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا تُبَيِّنُ خَطَأَ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ "

(702/271)

مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ وَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ ﴾ .

(703/271)

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ وَالسِّيَاقُ لِمُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴾ ؟ رَوَاهُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ وَرَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : ﴿ يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ ﴾ . وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مقسم ﴿ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : رَأَيْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ : يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ - وَقَبَضَ بِيَدِهِ وَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا - وَيَقُولُ : أَنَا الرَّحْمَنُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْقُدُّوسُ أَنَا السَّلَامُ أَنَا الْمُؤْمِنُ أَنَا الْمُهَيْمِنُ أَنَا الْعَزِيزُ أَنَا الْجَبَّارُ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ أَنَا الَّذِي بَدَأْت الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُ شَيْئًا أَنَا الَّذِي أُعِيدُهَا أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ وَيَتَمَيَّلُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى يَمِينِهِ وَعَلَى شِمَالِهِ حَتَّى نَظَرْت إلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى إنِّي أَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ﴾ رَوَاهُ ابْنُ منده

(704/271)

وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَعُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدارمي وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْحُفَّاظِ النُّقَّادِ الْجِهَابِذَةِ . فَإِذَا كَانَ سُبْحَانَهُ يَطْوِي السَّمَوَاتِ كُلَّهَا بِيَمِينِهِ وَهَذَا قَدْرُهَا عِنْدَهُ - كَمَا

(705/271)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ وَهُوَ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ لَنَا مِنْ عَظَمَتِهِ بِقَدْرِ مَا نَعْقِلُهُ كَمَا قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ الماجشون : وَاَللَّهِ مَا دَلَّهُمْ عَلَى عَظِيمٍ مَا وَصَفَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَا تُحِيطُ بِهِ قَبْضَتُهُ إلَّا صِغَرُ نَظِيرِهَا مِنْهُمْ عِنْدَهُمْ - إنَّ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَى فِي رُوعِهِمْ وَخَلَقَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ قُلُوبَهُمْ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي " تَفْسِيرِهِ " : حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثَنَا مِنْجَابُ بْنُ الْحَارِثِ ثَنَا بِشْرُ بْنُ عِمَارَةَ عَنْ أَبِي رَوْقٍ عَنْ عَطِيَّةَ العوفي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ قَالَ : لَوْ أَنَّ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالْمَلَائِكَةَ ؛ مُنْذُ خُلِقُوا إلَى أَنْ فَنُوا صُفُّوا صَفًّا وَاحِدًا مَا أَحَاطُوا بِاَللَّهِ أَبَدًا ﴾ - فَمَنْ هَذِهِ عَظَمَتُهُ كَيْفَ يَحْصُرُهُ مَخْلُوقٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ سَمَاءٌ أَوْ

غَيْرُ سَمَاءٍ ؟ حَتَّى يُقَالَ : إنَّهُ إذَا نَزَلَ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا صَارَ الْعَرْشُ فَوْقَهُ أَوْ يَصِيرُ شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ يَحْصُرُهُ وَيُحِيطُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ ؛ قِيلَ : فَقُلْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ فَوْقَ

(706/271)

عَرْشِهِ وَإِذَا اسْتَدْلَلْت بِمُطْلَقِ الْقُدْرَةِ وَالْعَظَمَةِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ فَمَا كَانَ أَبْلَغَ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعَظَمَةِ ؛ فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُوصَفَ بِهِ مِمَّا لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّ مَنْ تَوَهَّمَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَصْغُرَ حَتَّى يُحِيطَ بِهِ مَخْلُوقُهُ الصَّغِيرُ وَجَعَلَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقُدْرَةِ وَالْعَظَمَةِ ؛ فَقَوْلُهُ : إنَّهُ يَنْزِلُ مَعَ بَقَاءِ عَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ عَلَى الْعَرْشِ ؛ أَبْلَغُ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعَظَمَةِ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ مُوَافَقَةُ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ .

(707/271)

وَهَذَا كَمَا قَدْ يَقُولُهُ طَائِفَةٌ " مِنْهُمْ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ " قَالَ : إنْ شَاءَ وَسِعَهُ أَدْنَى شَيْءٍ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَسَعْهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَرَادَ عَرَفَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يُرِدْ لَمْ يَعْرِفْهُ شَيْءٌ ؛ إنْ أَحَبَّ وُجِدَ

عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يُحِبَّ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَ شَيْءٍ وَقَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ وَالْمِعْيَارَ وَسَبَقَ الْقِيلَ وَالْأَقْدَارَ ذُو صِفَاتٍ لَا تُحْصَى ؛ وَقَدْرٍ لَا يَتَنَاهَى ؛ لَيْسَ مَحْبُوسًا فِي صُورَةٍ وَلَا مَوْقُوفًا بِصِفَةٍ وَلَا مَحْكُومًا عَلَيْهِ بِكَلِمٍ وَلَا يَتَجَلَّى بِوَصْفِ مَرَّتَيْنِ وَلَا يَظْهَرُ فِي صُورَةٍ لِاثْنَيْنِ ؛ وَلَا يَرِدُ مِنْهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَلِمَتَانِ ؛ بَلْ لِكُلِّ تَجَلٍّ مِنْهُ صُورَةٌ وَلِكُلِّ عَبْدٍ عِنْدَ ظُهُورِهِ صِفَةٌ وَعَنْ كُلِّ نَظْرَةٍ كَلَامٌ ؛ وَبِكُلِّ كَلِمَةٍ إِفْهَامٌ وَلَا نِهَايَةَ لِتَجَلِّيهِ ؛ وَلَا غَايَةَ لِأَوْصَافِهِ . قُلْت : أَبُو طَالِبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ " السالمية " أَتْبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ سَالِمٍ صَاحِبِ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التستري - لَهُمْ مِنْ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي عَامَّةِ الْمَسَائِلِ الْمَشْهُورَةِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ مَا هُمْ مَعْرُوفُونَ بِهِ وَهُمْ مُنْتَسِبُونَ إلَى إمَامَيْنِ عَظِيمَيْنِ فِي السُّنَّةِ : الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التستري وَمِنْهُمْ مَنْ تَفَقَّهَ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ كَبَيْتِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِمْ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ .

(708/271)

فَالَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إلَيْهِمْ أَوْ يُعَظِّمُونَهُمْ وَيَقْصِدُونَ مُتَابَعَتَهُمْ أَئِمَّةُ هُدًى رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَهُمْ فِي ذَلِكَ كَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ . وَقَلَّ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ إلَّا وَقَعَ فِي كَلَامِهَا نَوْعُ غَلَطٍ لِكَثْرَةِ مَا وَقَعَ مِنْ شُبَهِ أَهْلِ الْبِدَعِ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ

الْمُصَنَّفَاتِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَالْفِقْهِ وَالزُّهْدِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ ؛ مَنْ يَذْكُرُ فِي الْأَصْلِ الْعَظِيمِ عِدَّةَ أَقْوَالٍ وَيَحْكِي مِنْ مَقَالَاتِ النَّاسِ أَلْوَانًا وَالْقَوْلُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لَا يَذْكُرُهُ ؛ لِعَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ لَا لِكَرَاهَتِهِ لِمَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ . وَهَؤُلَاءِ وَقَعَ فِي كَلَامِهِمْ أَشْيَاءُ أَنْكَرُوا بَعْضَ مَا وَقَعَ مِنْ كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ فِي الصِّفَاتِ - مِنْ نَحْوِ الْحُلُولِ وَغَيْرِهِ - أَنْكَرَهَا عَلَيْهِمْ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَنَسَبُوهُمْ إلَى الْحُلُولِ مِنْ أَجْلِهَا ؛ وَلِهَذَا تَكَلَّمَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرَ فِي أَبِي عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيِّ لَمَّا صَنَّفَ هَذَا مَثَالِبَ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَهَذَا مَنَاقِبَهُ وَكَانَ أَبُو عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيُّ مِنْ السالمية فَنَسَبَهُمْ طَائِفَةٌ إلَى الْحُلُولِ . وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى لَهُ كِتَابٌ صَنَّفَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى السالمية . وَهُمْ فِيمَا يُنَازِعُهُمْ الْمُنَازِعُونَ فِيهِ - كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِ وَكَأَصْحَابِ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يُنَازِعُهُمْ - مِنْ جِنْسِ تَنَازُعِ النَّاسِ تَارَةً يُرَدُّ عَلَيْهِمْ حَقٌّ وَبَاطِلٌ ؛ وَتَارَةً يُرَدُّ عَلَيْهِمْ حَقٌّ مِنْ

(709/271)

حَقِّهِمْ وَتَارَةً يُرَدُّ بَاطِلٌ بِبَاطِلٍ وَتَارَةً يُرَدُّ بَاطِلٌ بِحَقٍّ .

(710/271)

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي " تَارِيخِهِ " أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنْكَرُوا بَعْضَ مَا وَقَعَ فِي كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ فِي الصِّفَاتِ . وَمَا وَقَعَ فِي كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ الْحُلُولِ سَرَى بَعْضُهُ إلَى غَيْرِهِ مِنْ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُ كَأَبِي الْحَكَمِ بْنِ برجان وَنَحْوِهِ . وَأَمَّا أَبُو إسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيُّ صَاحِبُ " مَنَازِلِ السَّائِرِينَ " فَلَيْسَ فِي كَلَامِهِ شَيْءٌ مِنْ الْحُلُولِ الْعَامِّ لَكِنْ فِي كَلَامِهِ شَيْءٌ مِنْ الْحُلُولِ الْخَاصِّ فِي حَقِّ الْعَبْدِ الْعَارِفِ الْوَاصِلِ إلَى مَا سَمَّاهُ هُوَ : " مَقَامُ التَّوْحِيدِ " وَقَدْ بَاحَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُبَحْ بِهِ أَبُو طَالِبٍ لَكِنْ كَنَّى عَنْهُ . وَأَمَّا " الْحُلُولُ الْعَامُّ " فَفِي كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْهُ ؛ مَعَ تَبْرِيهِ مِنْ لَفْظِ الْحُلُولِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ كَلَامًا كَثِيرًا حَسَنًا فِي التَّوْحِيدِ كَقَوْلِهِ : عَالِمٌ لَا يُجْهَلُ قَادِرٌ لَا يَعْجِزُ ، حَيٌّ لَا يَمُوتُ قَيُّومٌ لَا يَغْفُلُ حَلِيمٌ لَا يَسْفَهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مَلِكٌ لَا يَزُولُ مُلْكُهُ قَدِيمٌ بِغَيْرِ وَقْتٍ آخِرٌ بِغَيْرِ حَدٍّ كَائِنٌ لَمْ يَزَلْ إلَى أَنْ قَالَ : وَإِنَّهُ أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَوَرَاءَ كُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ وَيَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ وَأَقْرَبُ إلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مَحَلٍّ لِلْأَشْيَاءِ وَإِنَّ الْأَشْيَاءَ لَيْسَتْ مَحَلًّا لَهُ وَإِنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى كَيْفَ شَاءَ بِلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِكُلِّ شَيْءٍ

مُحِيطٌ . وَذَكَرَ كَلَامًا آخَرَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَإِحَاطَةَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِحَسَبِ مَا رَآهُ ثُمَّ قَالَ : وَاَللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ هُوَ ذَاتٌ مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ مُتَوَحِّدٌ بِأَوْصَافِهِ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ لَا يَحِلُّ الْأَجْسَامَ وَلَا تَحِلُّهُ الْأَعْرَاضُ لَيْسَ فِي ذَاتِهِ سِوَاهُ وَلَا فِي سِوَاهُ مِنْ ذَاتِهِ شَيْءٌ لَيْسَ فِي الْخَلْقِ إلَّا الْخَلْقُ وَلَا فِي الذَّاتِ إلَّا الْخَالِقُ . قُلْت : وَهَذَا يَنْفِي الْحُلُولَ كَمَا نَفَاهُ أَوَّلًا .

ثُمَّ قَالَ :

فَصْلٌ : شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ وَوَصْفُ تَوْحِيدِ الْمُوقِنِينَ

(712/271)

فَشَهَادَةُ الْمُوقِنِ يَقِينُهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْأَوَّلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَقْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ الْهَادِي الْمُضِلُّ لَا مُعْطِيَ وَلَا مَانِعَ وَلَا ضَارَّ وَلَا نَافِعَ إلَّا اللَّهُ كَمَا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَيَشْهَدُ قُرْبَ اللَّهِ مِنْهُ وَنَظَرَهُ إلَيْهِ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِ وَحِيطَتَهُ بِهِ ؛ فَسَبَقَ نَظَرُهُ وَهَمُّهُ إلَى اللَّهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَيَذْكُرُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَيَخْلُو قَلْبُهُ لَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُ إلَيْهِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَيَتَأَلَّهُ إلَيْهِ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَقْرَبُ إلَى الْقَلْبِ مِنْ وَرِيدِهِ وَأَقْرَبُ إلَى الرُّوحِ مِنْ حَيَاتِهِ وَأَقْرَبُ إلَى الْبَصَرِ مِنْ نَظَرِهِ وَأَقْرَبُ إلَى اللِّسَانِ مِنْ رِيقِهِ – بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ لَا يَتَقَرَّبُ وَلَا يَقْرُبُ – وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلَى

الْعَرْشِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ مِنْ الثَّرَى ؛ كَمَا هُوَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ مِنْ الْعَرْشِ وَأَنَّ قُرْبَهُ مِنْ الثَّرَى وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَقُرْبِهِ

(713/271)

مِنْ الْعَرْشِ وَأَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ مُلَاصِقٍ لَهُ بِحِسٍّ وَلَا تَمَكَّنَ فِيهِ وَلَا يُذْكَرُ فِيهِ بِوَجْسٍ وَلَا نَاظِرَ إلَيْهِ بِعَيْنٍ وَلَا يُحَاطُ بِهِ فَيُدْرَكُ لِأَنَّهُ تَعَالَى مُحْتَجِبٌ بِقُدْرَتِهِ عَنْ جَمِيعِ بَرِيَّتِهِ ؛ وَلَا نَصِيبَ لِلْعَرْشِ مِنْهُ إلَّا كَنَصِيبِ مُوقِنٍ عَالِمٍ بِهِ ؛ وَاجِدٍ لِمَا أَوْجَدَهُ مِنْهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ وَأَنَّ الْعَرْشَ مُطْمَئِنٌّ بِهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِعَرْشِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ تَحْتَ كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ فَوْقَ الْفَوْقِ تَحْتَ التَّحْتِ لَا يُحَدُّ بِتحت فَيَكُونُ لَهُ فَوْقُ ؛ لِأَنَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى . أَيْنَ كَانَ لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ مَكَانٌ . وَلَا يُحَدُّ بِمَكَانٍ . وَلَا يُفْقَدُ مِنْ مَكَانٍ وَلَا يُوجَدُ بِمَكَانٍ ؛ فَالتَّحْتُ لِلْأَسْفَلِ وَالْفَوْقُ لِلْأَعْلَى وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ فَوْقٍ فِي الْعُلُوِّ وَفَوْقَ كُلِّ تَحْتٍ فِي السُّمُوِّ : هُوَ فَوْقَ مَلَائِكَةِ الثَّرَى كَمَا هُوَ فَوْقَ مَلَائِكَةِ الْعَرْشِ وَالْأَمَاكِنِ الْمُمْكِنَاتِ ؛ وَمَكَانُهُ مَشِيئَتُهُ وَوُجُودُهُ قُدْرَتُهُ وَالْعَرْشُ وَالثَّرَى فَمَا بَيْنَهُمَا : هُوَ حَدٌّ لِلْخَلْقِ الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى بِمَنْزِلَةِ خَرْدَلَةٍ فِي قَبْضَتِهِ وَهُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا لَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ وَلَا يُكَيِّفُهُ الْوَهْمُ وَلَا نِهَايَةَ لِعُلُوِّهِ وَلَا فَوْقَ لِسُمُوِّهِ

وَلَا بَعْدَ فِي دُنُوِّهِ . إِلَى أَنْ قَالَ : وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحْجُبُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَبْعُدُ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِوَصْفِهِ وَهُوَ الْقُدْرَةُ وَالدِّرَاكُ وَالْأَشْيَاءُ مُبْعَدَةٌ بِأَوْصَافِهَا :

(714/271)

وَهُوَ الْبُعْدُ وَالْحَجْبُ فَالْبُعْدُ وَالْإِبْعَادُ حُكْمُ مَشِيئَتِهِ وَالْحُدُودُ وَالْأَقْطَارُ حُجُبُ بَرِيَّتِهِ . إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ غَيْرُ مُتَّصِلٍ بِالْخَلْقِ وَلَا مُفَارِقٍ وَغَيْرُ مُمَاسٍّ لِلْكَوْنِ وَلَا مُتَبَاعِدٍ بَلْ مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ مُتَوَحِّدٌ بِوَصْفِهِ لَا يَزْدَوِجُ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَقْتَرِنُ بِهِ شَيْءٌ أَقْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِقُرْبِ هُوَ وَصْفُهُ وَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ بِحَيْطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ وَهُوَ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَوَرَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ بِعُلُوِّهِ وَدُنُوِّهِ وَهُوَ قُرْبُهُ ؛ فَهُوَ وَرَاءَ الْحَوْلِ الَّذِي هُوَ وَرَاءَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ الَّذِي هُوَ الرُّوحُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ هُوَ تَعَالَى فِي هَذَا مَكَانًا لِشَيْءٍ وَلَا مَكَانًا لَهُ شَيْءٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ فِي كُلِّ هَذَا شَيْءٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وَلَا مُعِينَ لَهُ فِي خَلْقِهِ وَلَا نَظِيرَ لَهُ فِي عِبَادِهِ وَلَا شَبِيهَ لَهُ فِي إِيجَادِهِ وَهُوَ أَوَّلٌ فِي آخِرِيَّتِهِ بِأَوَّلِيَّةٍ هِيَ صِفَتُهُ وَآخِرٌ فِي أَوَّلِيَّتِهِ بِآخِرِيَّةٍ هِيَ نَعْتُهُ وَبَاطِنٌ فِي ظُهُورِهِ بِبَاطِنِيَّةٍ هِيَ قُرْبُهُ وَظَاهِرٌ فِي بَاطِنِيَّتِهِ بِظُهُورٍ هُوَ عُلُوُّهُ ؛ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ أَوَّلًا وَلَا يَزَالُ

كَذَلِكَ آخِرًا وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ بَاطِنًا ؛ وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ ظَاهِرًا . إِلَى أَنْ قَالَ : هُوَ عَلَى عَرْشِهِ بِإِخْبَارِهِ لِنَفْسِهِ ؛ فَالْعَرْشُ حَدُّ خَلْقِهِ الْأَعْلَى

(715/271)

وَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ بِعَرْشِهِ ؛ وَالْعَرْشُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَكَانٍ ؛ وَالرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ الرَّحْمَنُ اسْمٌ وَالِاسْتِوَاءُ

(716/271)

نَعْتُهُ مُتَّصِلٌ بِذَاتِهِ وَالْعَرْشُ خَلْقُهُ مُنْفَصِلٌ عَنْ صِفَاتِهِ ؛ لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى مَكَانٍ يَسَعُهُ وَلَا حَامِلٍ يَحْمِلُهُ . إِلَى أَنْ قَالَ : وَهُوَ لَا يَسَعُهُ غَيْرُ مَشِيئَتِهِ وَلَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي أَنْوَارِ صِفَتِهِ وَلَا يُوجَدُ إِلَّا فِي سِعَةِ الْبَسْطَةِ . فَإِذَا قَبَضَ أَخْفَى مَا أَبْدَى ؛ وَإِذَا بَسَطَ أَعَادَ مَا أَخْفَى . وَكَذَلِكَ جَعْلُهُ فِي كُلِّ رَسْمٍ كَوْنٌ ؛ وَفِعْلُهُ بِكُلِّ اسْمٍ مَكَانٌ ؛ وَمِمَّا جَلَّ فَظَهَرَ وَمِمَّا دَقَّ فَاسْتَتَرَ . لَا يَسَعُهُ غَيْرُ مَشِيئَتِهِ بِقُرْبِهِ . وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِشُهُودِهِ . وَلَا يُرَى إِلَّا بِنُورِهِ ؛ هَذَا لِأَوْلِيَائِهِ الْيَوْمَ بِالْغَيْبِ فِي الْقُلُوبِ وَلَهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ بِالْأَبْصَارِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ إِنْ شَاءَ

وَسِعَهُ أَدْنَى شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَسَعْهُ كُلُّ شَيْءٍ . إنْ أَرَادَ عَرَفَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يُرِدْ لَمْ يَعْرِفْهُ شَيْءٌ إنْ أَحَبَّ وُجِدَ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ . وَإِنْ لَمْ يُحِبَّ لَمْ يُوجَدْ بِشَيْءٍ . وَذَكَرَ تَمَامَ كَلَامِهِ كَمَا حَكَيْنَاهُ مِنْ قَبْلُ . قُلْت : وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ قُرْبِهِ وَإِطْلَاقِهِ وَأَنَّهُ لَا يَتَجَلَّى بِوَصْفِ مَرَّتَيْنِ وَلَا يَظْهَرُ فِي صُورَةٍ لِاثْنَيْنِ هُوَ حُكْمُ مَا يَظْهَرُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ مِنْ قُرْبِهِ إلَى قُلُوبِهِمْ وَتَجَلِّيهِ لِقُلُوبِهِمْ – لَا أَنَّ هَذَا هُوَ وَصْفُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَأَنَّهُ كَمَا تَحْصُلُ هَذِهِ التَّجَلِّيَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ تَحْصُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْعُيُونِ – . وَهَذَا الْمَوْضِعُ مِمَّا يَقَعُ الْغَلَطُ فِيهِ لِكَثِيرٍ مِنْ السَّالِكِينَ ؛ يَشْهَدُونَ أَشْيَاءَ بِقُلُوبِهِمْ فَيَظُنُّونَ

(717/271)

أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْخَارِجِ هَكَذَا حَتَّى إنَّ فِيهِمْ خَلْقًا مِنْهُمْ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ اللَّهَ بِعُيُونِهِمْ ؛ لِمَا يَغْلِبُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

مِنْ الْمَعْرِفَةِ وَالذِّكْرِ وَالْمَحَبَّةِ يَغِيبُ بِشُهُودِهِ فِيمَا حَصَلَ لِقُلُوبِهِمْ وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَنَاءٌ وَاصْطِلَامٌ فَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ أَمْرٌ مَشْهُودٌ بِعُيُونِهِمْ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إلَّا فِي الْقَلْبِ وَلِهَذَا ظَنَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَرَى اللَّهَ بِعَيْنِهِ فِي الدُّنْيَا .

(718/271)

وَهَذَا مِمَّا وَقَعَ لِجَمَاعَةٍ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالمتأخرين وَهُوَ غَلَطٌ مَحْضٌ حَتَّى أَوْرَثَ مِمَّا يَدَّعِيهِ هَؤُلَاءِ شَكًّا عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ الْمَعْرِفَةِ بِالسُّنَّةِ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ هَلْ يَقَعُ فِي الدُّنْيَا أَوْ لَا يَقَعُ ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي وُقُوعِهَا فِي الدُّنْيَا قَوْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ يَجُوزُ ذَلِكَ . وَهَذَا كُلُّهُ ضَلَالٌ فَإِنَّ أَئِمَّةَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ بِعَيْنِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَتَنَازَعُوا إلَّا فِي نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً . وَقَدْ رُوِيَ نَفْيُ رُؤْيَتِنَا لَهُ فِي الدُّنْيَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ : مِنْهَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي " صَحِيحِهِ " عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا ذَكَرَ الدَّجَّالَ قَالَ : وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ ﴾ وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَأَلَ الرُّؤْيَةَ فَذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ وَمَا أَصَابَ مُوسَى مِنْ الصَّعْقِ . وَهَؤُلَاءِ : مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّ مُوسَى رَآهُ وَإِنَّ الْجَبَلَ كَانَ حِجَابَهُ فَلَمَّا جَعَلَ الْجَبَلَ دَكًّا رَآهُ وَهَذَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ وَنَحْوِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الرَّائِي هُوَ الْمَرْئِيَّ ؛ فَهُوَ اللَّهُ فَيَذْكُرُونَ اتِّحَادًا وَأَنَّهُ أَفْنَى مُوسَى عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى

(719/271)

كَانَ الرَّائِي هُوَ الْمَرْئِيَّ فَمَا رَآهُ عِنْدَهُمْ مُوسَى بَلْ رَأَى نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ وَهَذَا يَدَّعُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ . وَالِاتِّحَادُ وَالْحُلُولُ بَاطِلٌ . وَعَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِهِ إنَّمَا هَذَا فِي الْبَاطِنِ وَالْقَلْبِ ؛ لَا فِي الظَّاهِرِ ؛ فَإِنَّ غَايَةَ ذَلِكَ مَا تَقُولُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَلَمْ يَقُولُوا إنَّ أَحَدًا رَأَى اللَّاهُوتَ الْبَاطِنَ الْمُتَدَرِّعَ بِالنَّاسُوتِ . وَهَذَا الْغَلَطُ يَقَعُ كَثِيرًا فِي السَّالِكِينَ . يَقَعُ لَهُمْ أَشْيَاءُ فِي بَوَاطِنِهِمْ فَيَظُنُّونَهَا فِي الْخَارِجِ ؛ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الغالطين مِنْ نُظَّارِ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ ؛ حَيْثُ يَتَصَوَّرُونَ أَشْيَاءَ بِعُقُولِهِمْ كَالْكُلِّيَّاتِ وَالْمُجَرَّدَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَظُنُّونَهَا ثَابِتَةً فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي نُفُوسِهِمْ ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ أَبُو الْقَاسِمِ السهيلي وَغَيْرُهُ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ قِيَاسٍ فَلْسَفِيٍّ وَخَيَالٍ صُوفِيٍّ . وَلِهَذَا يُوجَدُ التَّنَاقُضُ الْكَثِيرُ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ . وَأَمَّا الَّذِينَ جَمَعُوا الْآرَاءَ الْفَلْسَفِيَّةَ الْفَاسِدَةَ وَالْخَيَالَاتِ الصُّوفِيَّةَ الْكَاسِدَةَ كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ ؛ فَهُمْ مِنْ أَضَلِّ أَهْلِ الْأَرْضِ . وَلِهَذَا كَانَ الْجُنَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّدُ الطَّائِفَةِ إمَامَ هُدًى فَكَانَ قَدْ عَرَفَ مَا يَعْرِضُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ التَّوْحِيدِ قَالَ : التَّوْحِيدُ إفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ . فَبَيَّنَ أَنَّهُ يُمَيِّزُ الْمُحْدَثَ عَنْ الْقَدِيمِ تَحْذِيرًا عَنْ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ . فَجَاءَتْ

(720/271)

الْمَلَاحِدَةُ كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَنَحْوِهِ فَأَنْكَرُوا هَذَا الْكَلَامَ عَلَى الْجُنَيْد ؛ لِأَنَّهُ يُبْطِلُ مَذْهَبَهُمْ الْفَاسِدَ . وَالْجُنَيْد وَأَمْثَالُهُ أَئِمَّةُ هُدًى وَمَنْ خَالَفَهُ فِي ذَلِكَ فَهُوَ ضَالٌّ . وَكَذَلِكَ غَيْرُ الْجُنَيْد مِنْ الشُّيُوخِ تَكَلَّمُوا فِيمَا يَعْرِضُ لِلسَّالِكِينَ وَفِيمَا يَرَوْنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْأَنْوَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَحَذَّرُوهُمْ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ ذَاتُ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ خَطَبَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ابْنَتَهُ وَهُوَ فِي الطَّوَافِ ؛ فَقَالَ : أَتُحَدِّثُنِي فِي النِّسَاءِ وَنَحْنُ نَتَرَاءَى اللَّهَ فِي طَوَافِنَا فَهَذَا كُلُّهُ وَمَا أَشْبَهَهُ لَمْ يُرِيدُوا بِهِ أَنَّ الْقَلْبَ تَرْفَعُ جَمِيعُ الْحُجُبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حَتَّى تُكَافِحَ الرُّوحَ ذَاتُ اللَّهِ كَمَا يَرَى هُوَ نَفْسَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا وَمَنْ جَوَّزَ ذَلِكَ إنَّمَا جَوَّزَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ : رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ وَلَكِنَّ هَذَا التَّجَلِّي يَحْصُلُ بِوَسَائِطَ بِحَسَبِ إيمَانِ الْعَبْدِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحُبِّهِ ؛ وَلِهَذَا تَتَنَوَّعُ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ كَمَا تَتَنَوَّعُ رُؤْيَتُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْمَنَامِ فَيَرَاهُ كُلُّ إنْسَانٍ بِحَسَبِ إيمَانِهِ وَيَرَى فِي صُوَرٍ مُتَنَوِّعَةٍ . فَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو طَالِبٍ وَهَؤُلَاءِ : إذَا قِيلَ مَثَلُهُ فِيمَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ كَانَ مُقَارِبًا مَعَ أَنَّ فِي بَعْضِ ذَلِكَ نَظَرًا . وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : إنَّ الرَّبَّ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ هُوَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ الْأَمْرُ

(721/271)

كَذَلِكَ .

أَمَّا قَوْلُهُ : أَقْرَبُ إِلَى الرُّوحِ مِنْ حَيَاتِهِ وَأَقْرَبُ إِلَى الْبَصَرِ مِنْ نَظَرِهِ وَإِلَى

(722/271)

اللِّسَانِ مِنْ رِيقِهِ بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ ، وَقَوْلُهُ : أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، فَهَذَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا قَالَهُ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ : لَا مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا الشُّيُوخِ الْمُقْتَدَى بِهِمْ مِنْ شُيُوخِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّصَوُّفِ . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَصْفُ الرَّبِّ تَعَالَى بِالْقُرْبِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَصْلًا بَلْ قُرْبُهُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ خَاصٌّ لَا عَامٌّ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَرِيبٌ مِمَّنْ دَعَاهُ . وَكَذَلِكَ مَا فِي " الصَّحِيحَيْنِ " ﴿ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَكَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ ؛ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ﴾ فَقَالَ : " إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ " لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَى كُلِّ مَوْجُودٍ وَكَذَلِكَ قَوْلُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ هُوَ

كَقَوْلِ شُعَيْبٍ ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ مُقِرُّونَ بِالتَّوْبَةِ

(723/271)

وَالِاسْتِغْفَارِ أَرَادَ بِهِ قَرِيبٌ مُجِيبٌ لِاسْتِغْفَارِ الْمُسْتَغْفِرِينَ التَّائِبِينَ إلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ بِهِمْ وَقَدْ قَرَنَ الْقَرِيبَ بِالْمُجِيبِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُقَالُ إنَّهُ مُجِيبٌ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَإِنَّمَا الْإِجَابَةُ لِمَنْ سَأَلَهُ وَدَعَاهُ فَكَذَلِكَ قُرْبُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

(724/271)

وَأَسْمَاءُ اللَّهِ الْمُطْلَقَةُ كَاسْمِهِ : السَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ وَالْغَفُورِ وَالشَّكُورِ وَالْمُجِيبِ وَالْقَرِيبِ لَا يَجِبُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ ؛ بَلْ يَتَعَلَّقُ كُلُّ اسْمٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَاسْمُهُ الْعَلِيمُ لَمَّا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا تَعَلَّقَ بِكُلِّ شَيْءٍ . وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا

بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فَالْمُرَادُ بِهِ قُرْبُهُ إِلَيْهِ بِالْمَلَائِكَةِ وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ السَّلَفِ قَالُوا : مَلَكُ الْمَوْتِ أَدْنَى إلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ الْمَلَائِكَةَ وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بِالْعِلْمِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ بِالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ . وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ ضَعِيفَةٌ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصْفُهُ بِقُرْبِ عَامٍّ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ حَتَّى يَحْتَاجُوا أَنْ يَقُولُوا بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ ؛ وَلَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ يُوصَفُ بِالْقُرْبِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَأَوَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . وَكَأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ لَفْظَ " الْقُرْبِ " مِثْلُ لَفْظِ "

(725/271)

الْمَعِيَّةِ " فَإِنَّ لَفْظَ الْمَعِيَّةِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ وَالْمُجَادَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى

ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا : هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ .

(726/271)

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ أَنَّ هَذَا إجْمَاعٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَمْ يُخَالِفْهُمْ فِيهِ أَحَدٌ يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ وَهُوَ مَأْثُورٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ . قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي " تَفْسِيرِهِ " حَدَّثَنَا أَبِي ثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنِ مَعْمَرٍ عَنْ نُوحِ بْنِ مَيْمُونٍ الْمَضْرُوبِ عَنْ بكير بْنِ مَعْرُوفٍ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ قَالَ هُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَعِلْمُهُ مَعَهُمْ . قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : عِلْمُهُ مَعَهُمْ . وَقَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَد بْنُ إبْرَاهِيمَ الدورقي حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ مَيْمُونٍ الْمَضْرُوبُ ثَنَا بكير بْنُ مَعْرُوفٍ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ ؛ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾

(727/271)

قَالَ : هُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَعِلْمُهُ مَعَهُمْ . وَرَوَاهُ بِإِسْنَادٍ آخَرَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ هَذَا وَهُوَ ثِقَةٌ فِي التَّفْسِيرِ لَيْسَ بِمَجْرُوحٍ كَمَا جُرِحَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَد : ثَنَا أَبِي ثَنَا نُوحُ بْنُ مَيْمُونٍ الْمَضْرُوبُ عَنْ بكير بْنِ مَعْرُوفٍ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ الضَّحَّاكِ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ قَالَ : هُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَعِلْمُهُ مَعَهُمْ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى صَاحِبُ عبادة ثَنَا معدان – قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ : إنْ كَانَ أَحَدٌ بِخُرَاسَانَ مِنْ الْأَبْدَالِ فمعدان – قَالَ : سَأَلْت سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ عَنْ قَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ قَالَ : عِلْمُهُ . وَقَالَ حَنْبَلُ بْنُ إسْحَاقَ فِي كِتَابِ " السُّنَّةِ " : قُلْت لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ : مَا مَعْنَى قَوْله تَعَالَى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ و ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى ﴿ إلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ قَالَ : عِلْمُهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ شَاهِدٌ . عَلَّامُ الْغُيُوبِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ رَبُّنَا عَلَى الْعَرْشِ بِلَا حَدٍّ وَلَا صِفَةٍ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . وَقَدْ بَسَطَ الْإِمَامُ أَحْمَد الْكَلَامَ عَلَى مَعْنَى الْمَعِيَّةِ فِي " الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ " .

وَلَفْظُ

(728/271)

الْمَعِيَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَاءَ عَامًّا كَمَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَجَاءَ خَاصًّا كَمَا فِي قَوْلِهِ :

(729/271)

﴿ إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ أَنَّهُ بِذَاتِهِ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لَكَانَ التَّعْمِيمُ يُنَاقِضُ التَّخْصِيصَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أَرَادَ بِهِ تَخْصِيصَهُ وَأَبَا بَكْرٍ دُونَ عَدُوِّهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ خَصَّهُمْ بِذَلِكَ دُونَ الظَّالِمِينَ وَالْفُجَّارِ . وَأَيْضًا فَلَفْظُ " الْمَعِيَّةِ " لَيْسَتْ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا شَيْءَ مِنْ الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهَا اخْتِلَاطُ إحْدَى الذَّاتَيْنِ بِالْأُخْرَى ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ ؛ فَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَاتَهُ مُخْتَلِطَةٌ بِذَوَاتِ الْخَلْقِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ

افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ وَخَتَمَهَا بِالْعِلْمِ فَكَانَ السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِمْ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَبَيَّنَ أَنَّ لَفْظَ الْمَعِيَّةِ فِي اللُّغَةِ - وَإِنْ اقْتَضَى الْمُجَامَعَةَ وَالْمُصَاحَبَةَ وَالْمُقَارَنَةَ - فَهُوَ إذَا كَانَ مَعَ الْعِبَادِ لَمْ يُنَافِ ذَلِكَ عُلُوَّهُ عَلَى عَرْشِهِ وَيَكُونُ حُكْمُ مَعِيَّتِهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ بِحَسَبِهِ فَمَعَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِالْعِلْمِ

(730/271)

وَالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ وَيَخُصُّ بَعْضَهُمْ بِالْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ . وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : قَرَأْت عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ . حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُزَاحِمٍ ثَنَا بكير بْنُ مَعْرُوفٍ : عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ

(731/271)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ مِنْ الْمَطَرِ ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ مِنْ النَّبَاتِ ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ مِنْ الْقَطْرِ ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مَا يَصْعَدُ إلَى السَّمَاءِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ يَعْنِي بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعِلْمِهِ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ .

وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ : بَلَغَنَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى . ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ ﴾ قَالَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ وَالْآخِرُ ﴾ قَالَ : بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ قَالَ : فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ قَالَ : أَقْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَإِنَّمَا نَعْنِي بِالْقُرْبِ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يَعْلَمُ نَجْوَاهُمْ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ نَطَقُوا بِهِ سَيِّئٍ أَوْ حَسَنٍ . وَهَذَا لَيْسَ مَشْهُورًا عَنْ مُقَاتِلٍ كَشُهْرَةِ الْأَوَّلِ الَّذِي رُوِيَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ لَمْ يَجْزِمْ بِمَا قَالَهُ بَلْ قَالَ : بَلَغَنَا وَهُوَ الَّذِي فَسَّرَ الْبَاطِنَ بِالْقَرِيبِ ثُمَّ فَسَّرَ الْقُرْبَ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَلَا حَاجَةَ إلَى هَذَا . وَقَدْ ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحِ " عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ ﴾ وَجَاءَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ

(732/271)

الْأَسْمَاءِ وَحَدِيثِ " الْإِدْلَاءِ " مَا قَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ عَلَيْهِ فِي مَسْأَلَةِ الْإِحَاطَةِ .

(733/271)

وَكَذَلِكَ هَذَا الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِهِ ؛ وَهُوَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى الْبَاطِنِ أَنَّهُ الْقُرْبُ وَلَا لَفْظُ الْبَاطِنِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَلَا لَفْظُ الْقُرْبِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى جِهَةِ الْعُمُومِ كَلَفْظِ الْمَعِيَّةِ وَلَا لَفْظُ الْقُرْبِ فِي اللُّغَةِ وَالْقُرْآنِ كَلَفْظِ الْمَعِيَّةِ فَإِنَّهُ إذَا قَالَ : هَذَا مَعَ هَذَا ؛ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ الْمُجَامَعَةَ وَالْمُقَارَنَةَ وَالْمُصَاحَبَةَ وَلَا يَدُلُّ عَلَى قُرْبِ إحْدَى الذَّاتَيْنِ مِنْ الْأُخْرَى وَلَا اخْتِلَاطِهَا بِهَا ؛ فَلِهَذَا كَانَ إذَا قِيلَ : هُوَ مَعَهُمْ ؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ مُحِيطٌ بِهِمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ فَوْقَ عَرْشِهِ ؛ كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ بِهَذَا . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا يَمْنَعُهُ عُلُوُّهُ عَنْ الْعِلْمِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ . وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ " الْأَوْعَالِ " الَّذِي فِي " السُّنَنِ " ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَيَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وَلَمْ يَأْتِ فِي لَفْظِ الْقُرْبِ مِثْلُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ : هُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ بَلْ قَالَ : ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ . قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : ثَنَا أَبِي ثَنَا يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةِ ثَنَا جَرِيرٌ عَنْ عَبَدَةَ بْنِ

(735/271)

أَبِي بَرْزَةَ السجستاني عَنْ الصَّلْتِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : ﴿ جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهُ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهُ ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ ﴾ . إذَا أَمَرْتهمْ أَنْ يَدْعُونِي فَدَعَوْنِي أَسْتَجِيبُ لَهُمْ . وَلَا يُقَالُ فِي هَذَا : قَرِيبٌ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهُمْ لَمْ يَشُكُّوا فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ وَإِنَّمَا سَأَلُوا عَنْ قُرْبِهِ إلَى مَنْ يَدْعُوهُ وَيُنَاجِيهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ . وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ تُفَسِّرُ " الْقُرْبَ " فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ بِالْعِلْمِ ؛ لِكَوْنِهِ هُوَ الْمَقْصُودُ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ يَعْلَمُ وَيَسْمَعُ دُعَاءَ الدَّاعِي

حَصَلَ مَقْصُودُهُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي اقْتَضَى أَنْ يَقُولَ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ؛ فَإِنَّ هَذَا قَدْ قَالَهُ بَعْضُ السَّلَفِ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَكَثِيرٌ مِنْ الْخَلَفِ ؛ لَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّ نَفْسَ ذَاتِهِ قَرِيبَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَهَذَا الْمَعْنَى يُقِرُّ بِهِ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ ؛ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَمَنْ يَقُولُ إنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ

(736/271)

الْعَرْشِ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الماجشون قَالَ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ يَعْلَمُ وَهُوَ كَذَلِكَ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ

(737/271)

أَنْفُسُنَا مِنَّا ؛ وَهُوَ بِذَلِكَ أَقْرَبُ إلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنْفُسُنَا مِنَّا فَكَيْفَ بِحَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَمْرٍو الطلمنكي قَالَ : وَمَنْ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالدَّلِيلُ مِنْ ذَلِكَ صَدْرُ الْآيَةِ ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِوَسْوَسَتِهِ ؛ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَحَبْلُ الْوَرِيدِ لَا يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ النَّفْسُ . وَيَلْزَمُ الْمُلْحِدَ عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودُهُ مُخَالِطًا لِدَمِ الْإِنْسَانِ وَلَحْمِهِ وَأَنْ لَا يُجَرِّدَ الْإِنْسَانُ تَسْمِيَةَ الْمَخْلُوقِ حَتَّى يَقُولَ : خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ لِأَنَّ مَعْبُودَهُ بِزَعْمِهِ دَاخِلُ حَبْلِ الْوَرِيدِ مِنْ الْإِنْسَانِ وَخَارِجَهُ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ مُمْتَزِجٌ بِهِ غَيْرُ مُبَايِنٍ لَهُ . قَالَ : وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَعَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . قَالَ : وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ فِيمَنْ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ بِالْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ إِذْ لَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى حِيلَةٍ

(738/271)

وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْمَوْتَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ . قُلْت : وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ الثَّعْلَبِيِّ وَأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرِهِمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وَأَمَّا فِي قَوْلِهِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ فَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ الْقَوْلَيْنِ : إنَّهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّهُ الْقُرْبُ بِالْعِلْمِ . وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَقْصُودُهُمْ

أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ ذَاتَ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا قَرِيبَةٌ مِنْ وَرِيدِ الْعَبْدِ وَمِنْ الْمَيِّتِ وَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ قُرْبُهُ وَحْدَهُ دُونَ قُرْبِ الْمَلَائِكَةِ فَسَّرُوا ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا فِي لَفْظِ الْمَعِيَّةِ وَلَا حَاجَةَ إلَى هَذَا ؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أَيْ بِمَلَائِكَتِنَا فِي الْآيَتَيْنِ وَهَذَا بِخِلَافِ لَفْظِ الْمَعِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَنَحْنُ مَعَهُ بَلْ جَعَلَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي مَعَ الْعِبَادِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُنَبِّئُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا عَمِلُوا وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَلَا يُجْعَلُ لَفْظٌ مِثْلُ لَفْظٍ مَعَ تَفْرِيقِ الْقُرْآنِ بَيْنَهُمَا . وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو حَامِدٍ مُوَافِقًا لِأَبِي طَالِبٍ الْمَكِّيِّ فِي بَعْضِ مَا قَالَ مُخَالِفًا لَهُ فِي الْبَعْضِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ نفاة عُلُوِّ اللَّهِ نَفْسِهِ عَلَى

(739/271)

الْعَرْشِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ عِنْدَهُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ مُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ أَوْ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ . قَالَ : وَإِنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قَالَهُ

(740/271)

وَالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ اسْتِوَاءً مُنَزَّهًا عَنْ الْمُمَاسَّةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالتَّمَكُّنِ وَالْحُلُولِ وَالِانْتِقَالِ لَا يَحْمِلُهُ الْعَرْشُ بَلْ الْعَرْشُ وَحَمَلَتُهُ مَحْمُولُونَ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ مَقْهُورُونَ فِي قَبْضَتِهِ وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إلَى تُخُومِ الثَّرَى ؛ فَوْقِيَّتُهُ لَا تَزِيدُهُ قُرْبًا إلَى الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ بَلْ هُوَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنْ الْعَرْشِ كَمَا أَنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنْ الثَّرَى وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ وَهُوَ أَقْرَبُ إلَى الْعَبْدِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إذْ لَا يُمَاثِلُ قُرْبُهُ قُرْبَ الْأَجْسَامِ كَمَا لَا تُمَاثِلُ ذَاتُهُ ذَاتَ الْأَجْسَامِ وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ فِي شَيْءٍ وَلَا يَحِلُّ فِيهِ شَيْءٌ إلَى أَنْ قَالَ : وَإِنَّهُ بَائِنٌ بِصِفَاتِهِ مِنْ خَلْقِهِ لَيْسَ فِي ذَاتِهِ سِوَاهُ وَلَا فِي سِوَاهُ ذَاتُهُ . قُلْت : فَالْفَوْقِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِيلَاءِ " فَوْقِيَّةُ الْقُدْرَةِ " وَهُوَ أَنَّهُ أَفْضَلُ الْمَخْلُوقَاتِ " وَالْقُرْبُ " الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ الْعِلْمُ أَوْ هُوَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ . وَثُبُوتُ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَتَفْسِيرُ قُرْبِهِ بِهَذَا قَالَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْقُرْبَ فِي الْآيَةِ هُوَ قُرْبُهُ وَحْدَهُ : فَفَسَّرُوهَا بِالْعِلْمِ لَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ عَامًّا . قَالُوا : هُوَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَهَذَا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ لَا يَجُوزُ

(741/271)

أَنْ يُرَادَ بِهِ مُجَرَّدُ الْعِلْمِ ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ بِالشَّيْءِ أَعْلَمَ مَنْ غَيْرِهِ لَا يُقَالُ : إنَّهُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِ لِمُجَرَّدِ عِلْمِهِ بِهِ وَلَا لِمُجَرَّدِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ .

(742/271)

ثُمَّ إنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمٌ بِمَا يُسَرُّ مِنْ الْقَوْلِ وَمَا يُجْهَرُ بِهِ وَعَالِمٌ بِأَعْمَالِهِ ؛ فَلَا مَعْنَى لِتَخْصِيصِ حَبْلِ الْوَرِيدِ بِمَعْنَى أَنَّهُ أَقْرَبُ إلَى الْعَبْدِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ حَبْلَ الْوَرِيدِ قَرِيبٌ إلَى الْقَلْبِ لَيْسَ قَرِيبًا إلَى قَوْلِهِ الظَّاهِرِ وَهُوَ يَعْلَمُ ظَاهِرَ الْإِنْسَانِ وَبَاطِنَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْبَ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمَ ؛ أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ﴿ إذْ يَتَلَقَّى

الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

(743/271)

الْوَرِيدِ ﴾ فَأَثْبَتَ الْعِلْمَ ؛ وَأَثْبَتَ الْقُرْبَ وَجَعَلَهُمَا شَيْئَيْنِ فَلَا يَجْعَلُ أَحَدَهُمَا هُوَ الْآخَرُ . وَقَيَّدَ الْقُرْبَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ ﴾

(744/271)

وَأَمَّا مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قُرْبُ ذَاتِ الرَّبِّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ أَوْ أَنَّ ذَاتَهُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ أَهْلِهِ ؛ فَهَذَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَوْ أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِذَاتِهِ لَا يَخُصُّونَ بِذَلِكَ شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ وَلَا يُمْكِنُ مُسْلِمًا أَنْ يَقُولَ : إِنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْ الْمَيِّتِ دُونَ أَهْلِهِ وَلَا إِنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ دُونَ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى أَصْلِهِمْ وَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي جَمِيعِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ ؛ أَوْ قَرِيبٌ مِنْ جَمِيعِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ

أَوْ هُوَ فِي أَهْلِ الْمَيِّتِ كَمَا هُوَ فِي الْمَيِّتِ ؛ فَكَيْفَ يَقُولُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُمْ إذَا كَانَ مَعَهُ وَمَعَهُمْ عَلَى وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهَلْ يَكُونُ أَقْرَبَ إلَى نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَسِيَاقُ الْآيَتَيْنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْمَلَائِكَةُ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ﴿ إذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ فَقَيَّدَ الْقُرْبَ بِهَذَا الزَّمَانِ وَهُوَ زَمَانُ تَلَقِّي الْمُتَلَقِّيَيْنِ قَعِيدٌ عَنْ الْيَمِينِ وَقَعِيدٌ عَنْ الشِّمَالِ وَهُمَا الْمَلَكَانِ الْحَافِظَانِ اللَّذَانِ يَكْتُبَانِ كَمَا قَالَ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ قُرْبَ ذَاتِ الرَّبِّ لَمْ يَخْتَصَّ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْحَالِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِكْرِ الْقَعِيدَيْنِ وَالرَّقِيبِ وَالْعَتِيدِ مَعْنًى مُنَاسِبٌ .

(745/271)

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ فَلَوْلَا إذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ

(746/271)

تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فَلَوْ أَرَادَ قُرْبَ ذَاتِهِ لَمْ يَخُصَّ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْحَالِ وَلَا قَالَ : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُبْصِرَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَلَكِنْ نَحْنُ لَا نُبْصِرُهُ وَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يَرَاهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ ؛ لَا الْمَلَائِكَةُ وَلَا الْبَشَرُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ فَأَخْبَرَ عَمَّنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْمُحْتَضَرِ مِنْ النَّاسِ الَّذِينَ عِنْدَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ . وَذَاتُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا قِيلَ : هِيَ فِي مَكَانٍ أَوْ قِيلَ : قَرِيبَةٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ ؛ لَا يَخْتَصُّ بِهَذَا الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَحْوَالِ ؛ وَلَا يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ قُرْبَ الرَّبِّ الْخَاصِّ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فَإِنَّ ذَاكَ إِنَّمَا هُوَ قُرْبُهُ إِلَى مَنْ دَعَاهُ أَوْ عَبَدَهُ وَهَذَا الْمُحْتَضَرُ قَدْ يَكُونُ كَافِرًا أَوْ فَاجِرًا أَوْ مُؤْمِنًا أَوْ مُقَرَّبًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْمُكَذِّبِ لَا يَخُصُّهُ الرَّبُّ بِقُرْبِهِ مِنْهُ دُونَ مَنْ حَوْلَهُ وَقَدْ يَكُونُ حَوْلَهُ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ . وَإِنَّمَا هُمْ الْمَلَائِكَةُ

(747/271)

الَّذِينَ يَحْضُرُونَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو

(748/271)

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ ذَكَرَهُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فَقَالَ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا اللَّفْظِ إِذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِجُنُودِهِ وَأَعْوَانِهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ؛ فَإِنَّ صِيغَةَ نَحْنُ يَقُولُهَا الْمَتْبُوعُ الْمُطَاعُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ جُنُودٌ يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ جُنْدٌ يُطِيعُونَهُ كَطَاعَةِ

الْمَلَائِكَةِ رَبَّهُمْ وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَبُّهُمْ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَالِمُ بِمَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَمَلَائِكَتُهُ تَعْلَمُ ؛ فَكَانَ لَفْظُ نَحْنُ هُنَا هُوَ الْمُنَاسِبُ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَمَلَائِكَتُهُ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ كَمَا

(749/271)

ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ

(750/271)

حَسَنَاتٍ . وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنْ تَرَكَهَا لِلَّهِ كُتِبَتْ حَسَنَةً ﴾ . فَالْمَلَكُ يَعْلَمُ مَا يَهُمُّ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُمْ يَشُمُّونَ رَائِحَةً طَيِّبَةً فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَيَشُمُّونَ رَائِحَةً خَبِيثَةً فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَهُمْ وَإِنْ شَمُّوا رَائِحَةً طَيِّبَةً وَرَائِحَةً خَبِيثَةً فَعِلْمُهُمْ لَا يَفْتَقِرُ إلَى ذَلِكَ بَلْ مَا فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ يَعْلَمُونَهُ بَلْ وَيُبْصِرُونَهُ

وَيَسْمَعُونَ وَسْوَسَةَ نَفْسِهِ ؛ بَلْ الشَّيْطَانُ يَلْتَقِمُ قَلْبَهُ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ وَإِذَا غَفَلَ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَسْوَسَ ؛ وَيَعْلَمُ هَلْ ذَكَرَ اللَّهَ أَمْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ وَيَعْلَمُ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ مِنْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فَيُزَيِّنُهَا لَهُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحِ " عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ ذِكْرِ صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ﴾ . وَقُرْبُ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْآثَارُ سَوَاءٌ كَانَ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ ذَاتُ الرَّبِّ فِي قَلْبِ كُلِّ أَحَدٍ كَافِرٍ أَوْ مُؤْمِنٍ فَهَذَا بَاطِلٌ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا نَطَقَ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ بَلْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ مَعَ الْعَقْلِ يُنَاقِضُ ذَلِكَ . وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ

(751/271)

اللَّهُ سُبْحَانَهُ قُرْبَهُ مِنْ دَاعِيهِ وَعَابِدِيهِ قَالَ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فَهُنَا هُوَ نَفْسُهُ سُبْحَانَهُ

(752/271)

وَتَعَالَى الْقَرِيبُ الَّذِي يُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ لَا الْمَلَائِكَةُ ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ : ﴿ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ﴾ . وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَرِيبٌ مِنْ قَلْبِ الدَّاعِي فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ . وَقُرْبُهُ مِنْ قَلْبِ الدَّاعِي لَهُ مَعْنًى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَمَعْنًى آخَرُ فِيهِ نِزَاعٌ . فَالْمَعْنَى الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ يَكُونُ بِتَقْرِيبِهِ قَلْبَ الدَّاعِي إِلَيْهِ كَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهِ قَلْبَ السَّاجِدِ ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحِ " : ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ﴾ فَالسَّاجِدُ يَقْرُبُ الرَّبُّ إِلَيْهِ فَيَدْنُو قَلْبُهُ مِنْ رَبِّهِ وَإِنْ كَانَ بَدَنُهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَمَتَى قَرُبَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مِنْ الْآخَرِ صَارَ الْآخَرُ إِلَيْهِ قَرِيبًا بِالضَّرُورَةِ . وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْ الْآخَرِ تَحَرُّكٌ بِذَاتِهِ كَمَا أَنَّ مَنْ قَرُبَ مِنْ مَكَّةَ قَرُبَتْ مَكَّةُ مِنْهُ . وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ أَنَّهُ يَقْرُبُ إِلَيْهِ مَنْ يَقْرُبُهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ فَقَالَ : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾

(753/271)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ .

(754/271)

وَأَمَّا قُرْبُ الرَّبِّ قُرْبًا يَقُومُ بِهِ بِفِعْلِهِ الْقَائِمِ بِنَفْسِهِ فَهَذَا تَنْفِيهِ الْكُلَّابِيَة وَمَنْ يَمْنَعُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِذَاتِهِ . وَأَمَّا السَّلَفُ وَأَئِمَّةُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ فَلَا يَمْنَعُونَ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ . فَنُزُولُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَنُزُولُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ وَلِهَذَا حُدَّ النُّزُولِ بِأَنَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ تَكْلِيمُهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَوْ أُرِيدَ مُجَرَّدُ تَقْرِيبِ الْحُجَّاجِ وَقُوَّامِ اللَّيْلِ إِلَيْهِ لَمْ يَخُصَّ نُزُولَهُ بِسَمَاءِ الدُّنْيَا كَمَا لَمْ يَخُصَّ ذَلِكَ فِي إِجَابَةِ الدَّاعِي وَقُرْبِ الْعَابِدِينَ لَهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت إِلَيْهِ ذِرَاعًا ﴾ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ تَكُونُ عَلَى الْوَجْهِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِزِيَادَةِ تَقْرِيبِهِ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ جَزَاءً عَلَى تَقَرُّبِهِ بِاخْتِيَارِهِ . فَكُلَّمَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِاخْتِيَارِهِ قَدْرَ شِبْرٍ زَادَهُ الرَّبُّ قُرْبًا إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ كَالْمُتَقَرِّبِ بِذِرَاعٍ . فَكَذَلِكَ قُرْبُ الرَّبِّ مِنْ قَلْبِ الْعَابِدِ وَهُوَ مَا يَحْصُلُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ

وَالْإِيمَانِ بِهِ وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ؛ وَهَذَا أَيْضًا لَا نِزَاعَ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ يَصِيرُ مُحِبًّا لِمَا أَحَبَّ الرَّبُّ مُبْغِضًا لِمَا أَبْغَضَ مُوَالِيًا لِمَنْ يُوَالِي ؛ مُعَادِيًا لِمَنْ يُعَادِي ؛ فَيَتَّحِدُ مُرَادُهُ مَعَ

(755/271)

الْمُرَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ . وَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي مُوَالَاةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَمُوَالَاةِ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ . فَإِنَّ الْوِلَايَةَ ضِدُّ الْعَدَاوَةِ و " الْوِلَايَةُ " تَتَضَمَّنُ الْمَحَبَّةَ وَالْمُوَافَقَةَ و " الْعَدَاوَةُ " تَتَضَمَّنُ الْبُغْضَ

(756/271)

وَالْمُخَالَفَةَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي " صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْته عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي ؛ وَلَئِنْ

سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَهُ وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ : يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ﴾ . فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَقْرُبُ الْعَبْدُ بِالْفَرَائِضِ وَلَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يُحِبَّهُ اللَّهُ فَيَصِيرَ الْعَبْدُ مَحْبُوبًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَتِمُّوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلَى مُدَّتِهِمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وَقَالَ

(757/271)

تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

(758/271)

فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالتَّوَّابِينَ والمتطهرين وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ كُلَّ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَجُنْدَهُ الْمُوَكَّلِينَ بِذَلِكَ يَعْلَمُونَ مَا يُوَسْوِسُ بِهِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ فَهُوَ يَسْمَعُ وَمَنْ يَشَاءُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ يَسْمَعُونَ وَمَنْ شَاءَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ . وَأَمَّا الْكِتَابَةُ فَرُسُلُهُ يَكْتُبُونَ كَمَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ فَأَخْبَرَ بِالْكِتَابَةِ بِقَوْلِهِ نَحْنُ ؛ لِأَنَّ جُنْدَهُ يَكْتُبُونَ بِأَمْرِهِ . وَفَصَلَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ بَيْنَ السَّمَاعِ وَالْكِتَابَةِ لِأَنَّهُ يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا كِتَابَةُ الْأَعْمَالِ فَتَكُونُ بِأَمْرِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَكْتُبُونَ . فَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ لَمَّا كَانَتْ مَلَائِكَتُهُ مُتَقَرِّبِينَ إِلَى الْعَبْدِ بِأَمْرِهِ كَمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ عَمَلَهُ بِأَمْرِهِ قَالَ ذَلِكَ وَقَرَّبَهُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِتَوَسُّطِ الْمَلَائِكَةِ كَتَكْلِيمِهِ كُلَّ أَحَدٍ بِتَوَسُّطِ الرُّسُلِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ

اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ .

فَهَذَا تَكْلِيمُهُ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ بِوَاسِطَةِ الرُّسُلِ ؛ وَذَاكَ قُرْبُهُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ وَعِنْدَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِنَةِ فِي النَّفْسِ وَالظَّاهِرَةِ عَلَى اللِّسَانِ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

(760/271)

وَقَدْ غَلِطَ طَائِفَةٌ ظَنُّوا أَنَّهُ نَفْسُهُ الَّذِي يَسْمَعُ مِنْهُ الْقُرْآنَ وَهُوَ الَّذِي يَقْرَؤُهُ بِنَفْسِهِ بِلَا وَاسِطَةٍ عِنْدَ قِرَاءَةِ كُلِّ قَارِئٍ كَمَا غَلِطُوا فِي الْقُرْبِ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَمُتَأَخِّرِي الصُّوفِيَّةِ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُفَسِّرُ قَوْلَ الْقَائِلِينَ : بِأَنَّهُ أَقْرَبُ إلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ نَفْسِ ذَلِكَ الشَّيْءِ ؛ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٌ مِنْ جِهَةِ أَنْفُسِهَا وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ بِخَلْقِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهَا وَهِيَ بَاقِيَةٌ بِإِبْقَائِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ؛ فَلَا مَوْجُودَ إِلَّا بِإِيجَادِهِ ؛ وَلَا بَاقٍ إِلَّا بِإِبْقَائِهِ . فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يَشَأْ خَلْقَهَا وَتَكْوِينَهَا لَكَانَتْ بَاقِيَةً عَلَى الْعَدَمِ لَا وُجُودَ لَهَا أَصْلًا ؛ فَصَارَ هُوَ أَقْرَبَ إلَيْهَا مِنْ ذَوَاتِهَا ؛ فَتَكْوِينُ الشَّيْءِ وَخَلْقُهُ وَإِيجَادُهُ هُوَ فِعْلُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ كَانَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا وَكَانَ ذَاتًا مُحَقَّقَةً فِي الْخَارِجِ . وَالْمَوْجُودُ

دَائِمًا مُحْتَاجٌ إلَى خَالِقِهِ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَكَانَ مَوْجُودًا بِنِسْبَتِهِ إلَى خَالِقِهِ وَمَعْدُومًا بِنِسْبَتِهِ إلَى نَفْسِهِ فَإِنَّهُ بِالنَّظَرِ إلَى نَفْسِهِ لَا يَسْتَحِقُّ إلَّا الْعَدَمَ ؛ فَكَانَ الرَّبُّ أَقْرَبَ إلَى الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ إلَى أَنْفُسِهَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ . وَقَدْ يُفَسِّرُ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ ﴾ بِهَذَا الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِالنَّظَرِ إلَى أَنْفُسِهَا عَدَمٌ مَحْضٌ ؛ وَنَفْيٌ

(761/271)

صِرْفٌ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ

تَامَّةٌ بِالْوَجْهِ الَّذِي لَهَا إلَى الْخَالِقِ وَهُوَ تَعَلُّقُهَا بِهِ وَبِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ فَبِاعْتِبَارِ هَذَا الْوَجْهِ كَانَتْ مَوْجُودَةً وَبِالْوَجْهِ الَّذِي يَلِي أَنْفُسَهَا لَا تَكُونُ إلَّا مَعْدُومَةً . وَقَدْ يُفَسِّرُونَ بِذَلِكَ قَوْلَ لَبِيدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ

وَلَا يُقَالُ : هَذِهِ الْمَقَالَةُ صَحِيحَةٌ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّهَا لَوْلَا خَلْقُ اللَّهِ لِلْأَشْيَاءِ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً وَلَوْلَا إبْقَاؤُهُ لَهَا لَمْ تَكُنْ بَاقِيَةً . وَقَدْ تَكَلَّمَ النُّظَّارُ فِي سَبَبِ افْتِقَارِهَا إلَيْهِ هَلْ هُوَ الْحُدُوثُ – فَلَا تَحْتَاجُ إلَّا فِي حَالِ الْإِحْدَاثِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ – أَوْ هُوَ الْإِمْكَانُ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ يَكُونُ بِلَا حُدُوثٍ بَلْ بِكَوْنِ الْمُمْكِنِ الْمَعْلُولِ قَدِيمًا أَزَلِيًّا وَيُمْكِنُ

افْتِقَارُهَا فِي حَالِ الْبَقَاءِ بِلَا حُدُوثٍ كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا وَطَائِفَةٌ ؟ . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ وَبَيَّنَ أَنَّ الْإِمْكَانَ وَالْحُدُوثَ مُتَلَازِمَانِ كَمَا عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْعُقَلَاءِ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالآخرين حَتَّى قُدَمَاءُ الْفَلَاسِفَةِ كَأَرِسْطُو وَأَتْبَاعِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَيْضًا يَقُولُونَ : إنَّ كُلَّ مُمْكِنٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ وَإِنَّمَا خَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ ابْنُ سِينَا وَطَائِفَةٌ . وَلِهَذَا أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ إخْوَانُهُ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ كَابْنِ رُشْدٍ وَغَيْرِهِ وَالْمَخْلُوقَاتُ مُفْتَقِرَةٌ إلَى الْخَالِقِ فَالْفَقْرُ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهَا دَائِمًا لَا تَزَالُ مُفْتَقِرَةً إلَيْهِ .

(762/271)

وَالْإِمْكَانُ وَالْحُدُوثُ دَلِيلَانِ عَلَى الِافْتِقَارِ ؛ لَا أَنَّ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ جَعَلَا الشَّيْءَ مُفْتَقِرًا بَلْ فَقْرُ الْأَشْيَاءِ إلَى خَالِقِهَا لَازِمٌ لَهَا لَا يَحْتَاجُ إلَى عِلَّةٍ كَمَا أَنَّ غِنَى الرَّبِّ لَازِمٌ لِذَاتِهِ لَا يَفْتَقِرُ فِي اتِّصَافِهِ بِالْغِنَى إلَى عِلَّةٍ وَكَذَلِكَ الْمَخْلُوقُ لَا يَفْتَقِرُ فِي اتِّصَافِهِ بِالْفَقْرِ إلَى عِلَّةٍ بَلْ هُوَ فَقِيرٌ لِذَاتِهِ لَا تَكُونُ ذَاتُهُ إلَّا فَقِيرَةً فَقْرًا لَازِمًا لَهَا وَلَا يُسْتَغْنَى إلَّا بِاللَّهِ . وَهَذَا مِنْ مَعَانِي (الصَّمَدِ) وَهُوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَيَسْتَغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ . بَلْ الْأَشْيَاءُ مُفْتَقِرَةٌ مِنْ جِهَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ إلَهِيَّتِهِ ؛ فَمَا لَا يَكُونُ بِهِ لَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ لَهُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ . وَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِهِ : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . فَلَوْ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ

وَكُلُّ الْأَعْمَالِ إنْ لَمْ تَكُنْ لِأَجْلِهِ - فَيَكُونُ هُوَ الْمَعْبُودَ الْمَقْصُودَ الْمَحْبُوبَ لِذَاتِهِ - وَإِلَّا كَانَتْ أَعْمَالًا فَاسِدَةً ؛ فَإِنَّ الْحَرَكَاتِ تَفْتَقِرُ إلَى الْعِلَّةِ الغائية كَمَا افْتَقَرَتْ إلَى الْعِلَّةِ الْفَاعِلِيَّةِ ؛ بَلْ الْعِلَّةُ الغائية بِهَا صَارَ الْفَاعِلُ فَاعِلًا وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَفْعَلْ . فَلَوْلَا أَنَّهُ الْمَعْبُودُ الْمَحْبُوبُ لِذَاتِهِ لَمْ يَصْلُحْ قَطُّ شَيْءٌ مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْحَرَكَاتِ بَلْ كَانَ الْعَالَمُ يَفْسُدُ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ لَعُدِمَتَا ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ

(763/271)

لَبِيَدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ

(764/271)

وَهُوَ كَالدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ : ﴿ أَشْهَدُ أَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ لَدُنْ عَرْشِك إلَى قَرَارِ أَرْضِك بَاطِلٌ إلَّا وَجْهَك الْكَرِيمَ ﴾ . وَلَفْظُ " الْبَاطِلِ " يُرَادُ بِهِ الْمَعْدُومُ وَيُرَادُ بِهِ مَا لَا يَنْفَعُ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلَاعَبَتَهُ لِزَوْجَتِهِ فَإِنَّهُنَّ مِنْ الْحَقِّ ﴾ . ﴿ وَقَوْلُهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَا يُحِبُّ

الْبَاطِلَ ﴾ وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ لَمَّا سُئِلَ عَنْ الْغِنَاءِ قَالَ : إذَا مَيَّزَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَقَّ مِنْ الْبَاطِلِ فِي أَيِّهِمَا يَجْعَلُ الْغِنَاءَ ؟ قَالَ السَّائِلُ : مِنْ الْبَاطِلِ ؛ قَالَ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلَّا الضَّلَالُ ﴾ . وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ . فَإِنَّ الْآلِهَةَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنْ عِبَادَتُهَا وَدُعَاؤُهَا بَاطِلٌ لَا يَنْفَعُ ؛ وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا لَا يَحْصُلُ ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ وَاعْتِقَادُ أُلُوهِيَّتِهَا بَاطِلٌ أَيْ غَيْرُ مُطَابِقٍ وَاتِّصَافُهَا بِالْإِلَهِيَّةِ فِي أَنْفُسِهَا بَاطِلٌ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُ مَعْدُومٌ . وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فَإِنَّ الْكَذِبَ بَاطِلٌ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ وَكُلُّ فِعْلٍ مَا لَا يَنْفَعُ بَاطِلٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ مَوْجُودَةٌ مَحْمُودَةٌ .

(765/271)

فَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ ﴾ هَذَا مَعْنَاهُ . أَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ

الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ وَقَدْ قَالَ قَبْلَ هَذَا : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْأَنْعَامِ : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ . وَدَخَلَ عُثْمَانُ أَوْ غَيْرُهُ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ - وَهُوَ مَرِيضٌ - فَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قَالَ أَجِدُنِي مَرْدُودًا إِلَى اللَّهِ مَوْلَايَ الْحَقِّ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ وَقَدْ أَقَرُّوا بِوُجُودِهِ فِي الدُّنْيَا لَكِنْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَعْلَمُونَ

(766/271)

أَنَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ دُونَ مَا سِوَاهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ فَإِنَّهُ يَوْمَئِذٍ لَا يَبْقَى أَحَدٌ يَدَّعِي فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ وَلَا أَحَدٌ يُشْرِكُ بِرَبِّهِ أَحَدًا .

فَصْلٌ :

وَإِذَا عُرِفَ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ مُطْلَقًا فَلَا يُوصَفُ بِالسُّفُولِ وَلَا عُلُوِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا أَعْلَى وَهُوَ الظَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ

شَيْءٌ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِيمَا يُوصَفُ بِهِ مِنْ الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ لَا النُّزُولِ وَلَا الِاسْتِوَاءِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَيَجِبُ مَعَ ذَلِكَ إثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ وَالْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الصَّحِيحَةُ تُوَافِقُ ذَلِكَ لَا تُنَاقِضُهُ ؛ وَلَكِنَّ السَّمْعَ وَالْعَقْلَ يُنَاقِضَانِ الْبِدَعَ الْمُخَالِفَةَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالسَّلَفُ ؛ بَلْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ كَانُوا يُقِرُّونَ أَفْعَالَهُ مِنْ الِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَغَيْرِهِمَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ . قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي " تَفْسِيرِهِ " ثَنَا عِصَامُ بْنُ الرواد ثَنَا آدَمُ ثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ عَنْ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ يَقُولُ : ارْتَفَعَ . قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ يَعْنِي الْبَصْرِيَّ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ مِثْلُهُ كَذَلِكَ . وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي " صَحِيحِهِ " فِي " كِتَابِ التَّوْحِيدِ " قَالَ : قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ :

(767/271)

﴿ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ ارْتَفَعَ فَسَوَّى خَلْقَهُنَّ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ عَلَا عَلَى الْعَرْشِ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي " تَفْسِيرِهِ " فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَرُوِيَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَعَنْ الْحَسَنِ وَعَنْ الرَّبِيعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي الْعَالِيَةِ . وَرُوِيَ بِإِسْنَادِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قَالَ : فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ . وَقَالَ أَبُو

عَمْرٍو الطلمنكي : وَأَجْمَعُوا - يَعْنِي أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - عَلَى أَنَّ لِلَّهِ عَرْشًا وَعَلَى أَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ بِكُلِّ مَا خَلَقَهُ قَالَ : فَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ مَعْنَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ ذَلِكَ عِلْمُهُ وَأَنَّ اللَّهَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ بِذَاتِهِ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ كَيْفَ شَاءَ . قَالَ : وَقَالَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ الِاسْتِوَاءُ مِنْ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ الْمَجِيدِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ اللَّهِ : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ . إلَّا أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ فِي هَذَا عَلَى أَقْوَالٍ : فَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْقُولٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَمَنْ تَابَعَهُ مِنْ أَهْلِ

(768/271)

الْعِلْمِ وَهُمْ كَثِيرٌ : إنَّ مَعْنَى اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ : اسْتَقَرَّ وَهُوَ قَوْلُ الْقُتَيْبِيِّ وَقَالَ غَيْرُ هَؤُلَاءِ : اسْتَوَى أَيْ ظَهَرَ . وَقَالَ

(769/271)

أَبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى : اسْتَوَى بِمَعْنَى عَلَا وَتَقُولُ الْعَرَبُ : اسْتَوَيْت عَلَى ظَهْرِ الْفَرَسِ بِمَعْنَى عَلَوْت عَلَيْهِ وَاسْتَوَيْت عَلَى سَقْفِ الْبَيْتِ بِمَعْنَى عَلَوْت عَلَيْهِ وَيُقَالُ : اسْتَوَيْت عَلَى السَّطْحِ بِمَعْنَاهُ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ بِمَعْنَى عَلَا عَلَى الْعَرْشِ . وَقَوْلُ الْحَسَنِ : وَقَوْلُ مَالِكٍ مِنْ أَنْبَلِ جَوَابٍ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَأَشَدِّهِ اسْتِيعَابًا لِأَنَّ فِيهِ نَبْذَ التَّكْيِيفِ وَإِثْبَاتَ الِاسْتِوَاءِ الْمَعْقُولِ وَقَدْ ائْتَمَّ أَهْلُ الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ واستجودوه وَاسْتَحْسَنُوهُ . ثُمَّ تَكَلَّمَ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ تَأَوَّلَ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى . وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ يَعْنِي اسْتَقَرَّ قَالَ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ ؛ صَعِدَ . وَقِيلَ اسْتَوْلَى . وَقِيلَ : مَلَكَ . وَاخْتَارَ هُوَ مَا حَكَاهُ عَنْ الْفَرَّاءِ وَجَمَاعَةٍ أَنَّ مَعْنَاهُ أَقْبَلَ عَلَى خَلْقِ الْعَرْشِ وَعَمَدَ إلَى خَلْقِهِ قَالَ : وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أَيْ عَمَدَ إلَى خَلْقِ السَّمَاءِ . وَهَذَا الْوَجْهُ مِنْ أَضْعَفِ الْوُجُوهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَرْشَ كَانَ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي " صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ " عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كَانَ

(770/271)

اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .

فَإِذَا كَانَ الْعَرْشُ مَخْلُوقًا قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَكَيْفَ يَكُونُ اسْتِوَاؤُهُ عَمْدَهُ إلَى خَلْقِهِ لَهُ ؟ لَوْ كَانَ هَذَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ : أَنَّ اسْتَوَى عَلَى كَذَا بِمَعْنَى أَنَّهُ عَمَدَ إلَى فِعْلِهِ وَهَذَا لَا يُعْرَفُ قَطُّ فِي اللُّغَةِ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا لَا فِي نَظْمٍ وَلَا فِي نَثْرٍ .

(771/271)

وَمَنْ قَالَ : اسْتَوَى بِمَعْنَى عَمَدَ : ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ لِأَنَّهُ عُدِّيَ بِحَرْفِ الْغَايَةِ كَمَا يُقَالُ : عَمَدْت إلَى كَذَا وَقَصَدْت إلَى كَذَا وَلَا يُقَالُ : عَمَدْت عَلَى كَذَا وَلَا قَصَدْت عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ مَا ذَكَرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ أَيْضًا وَلَا هُوَ قَوْلُ أَحَدٍ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ ؛ بَلْ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ السَّلَفِ قَوْلُهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ عَنْ بَعْضِهِمْ . وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ وَأَمْثَالُهُ ابْتُدِعَ فِي الْإِسْلَامِ لَمَّا ظَهَرَ إنْكَارُ أَفْعَالِ الرَّبِّ الَّتِي تَقُومُ بِهِ

وَيَفْعَلُهَا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ؛ فَحِينَئِذٍ صَارَ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ مَنْ يُفَسِّرُهُ بِمَا يُنَافِي ذَلِكَ كَمَا يُفَسِّرُ سَائِرُ أَهْلِ الْبِدَعِ الْقُرْآنَ عَلَى مَا يُوَافِقُ أَقَاوِيلَهُمْ . وَأَمَّا أَنْ يُنْقَلَ هَذَا التَّفْسِيرُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ فَلَا بَلْ أَقْوَالُ السَّلَفِ الثَّابِتَةُ عَنْهُمْ مُتَّفِقَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ ؛ لَا يُعْرَفُ لَهُمْ فِيهِ قَوْلَانِ ؛ كَمَا قَدْ يَخْتَلِفُونَ أَحْيَانًا فِي بَعْضِ الْآيَاتِ . وَإِنْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ فَمَقْصُودُهُمْ وَاحِدٌ وَهُوَ إثْبَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ . فَإِنْ قِيلَ إذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَزَالُ عَالِيًا عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ فَكَيْفَ يُقَالُ : ثُمَّ ارْتَفَعَ إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ؟ أَوْ يُقَالُ : ثُمَّ عَلَا عَلَى الْعَرْشِ ؟ قِيلَ : هَذَا كَمَا أَخْبَرَ

(772/271)

أَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَصْعَدُ وَرُوِيَ " ثُمَّ يَعْرُجُ " هُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ فَوْقَ الْعَرْشِ فَإِنَّ صُعُودَهُ مِنْ جِنْسِ نُزُولِهِ . وَإِذَا كَانَ فِي نُزُولِهِ لَمْ يَصِرْ شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَوْقَهُ ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصْعَدُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا شَيْءٌ فَوْقَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ إنَّمَا فَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ ارْتَفَعَ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ هَذَا ؛ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ وَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي سُورَةِ (حم) بِمَكَّةَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْمَدِينَةِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ إِلَى السَّمَاءِ كَانَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَخَلَقَ مَا فِيهَا ؛ تَضَمَّنَ مَعْنَى الصُّعُودِ لِأَنَّ السَّمَاءَ فَوْقَ الْأَرْضِ فَالِاسْتِوَاءُ إِلَيْهَا ارْتِفَاعٌ إِلَيْهَا . فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا كَانَ إِنَّمَا اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ

(773/271)

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْعَرْشِ ؟ قِيلَ الِاسْتِوَاءُ عُلُوٌّ خَاصٌّ فَكُلُّ مُسْتَوٍ عَلَى شَيْءٍ عَالٍ عَلَيْهِ وَلَيْسَ كُلُّ عَالٍ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا لَا يُقَالُ لِكُلِّ مَا كَانَ عَالِيًا عَلَى غَيْرِهِ إِنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ

(774/271)

وَلَكِنْ كُلُّ مَا قِيلَ فِيهِ إنَّهُ اسْتَوَى عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَالٍ عَلَيْهِ : وَالَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ " الِاسْتِوَاءُ " لَا مُطْلَقُ الْعُلُوِّ مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمَّا كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ لَمَّا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ كَانَ عَالِيًا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ ؛ فَلَمَّا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ اسْتَوَى عَلَيْهِ ؛ فَالْأَصْلُ أَنَّ عُلُوَّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهُ كَمَا أَنَّ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ وَقُدْرَتَهُ كَذَلِكَ وَأَمَّا " الِاسْتِوَاءُ " فَهُوَ فِعْلٌ يَفْعَلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِيهِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ . وَلِهَذَا كَانَ الِاسْتِوَاءُ مِنْ الصِّفَاتِ السَّمْعِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ بِالْخَبَرِ . وَأَمَّا عُلُوُّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ فَهُوَ عِنْدَ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ مِنْ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ بِالْعَقْلِ مَعَ السَّمْعِ وَهَذَا اخْتِيَارُ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ كُلَّابٍ وَغَيْرِهِ وَهُوَ آخِرُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَقَوْلُ جَمَاهِيرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَنُظَّارِ الْمُثْبِتَةِ . وَهَذَا الْبَابُ وَنَحْوُهُ إنَّمَا اشْتَبَهَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُمْ صَارُوا يَظُنُّونَ أَنَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ جِنْسِ مَا تُوصَفُ بِهِ أَجْسَامُهُمْ فَيَرَوْنَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ ؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعَ نُزُولِهِ يَمْتَنِعُ فِي مِثْلِ أَجْسَامِهِمْ لَكِنْ مِمَّا يُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةَ

(775/271)

إمْكَانِ هَذَا مَعْرِفَةُ أَرْوَاحِهِمْ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا وَأَنَّ الرُّوحَ قَدْ تَعْرُجُ مِنْ النَّائِمِ إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ لَمْ تُفَارِقْ الْبَدَنَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وَكَذَلِكَ السَّاجِدُ قَالَ

(776/271)

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ﴾ . وَكَذَلِكَ تَقْرَبُ الرُّوحُ إلَى اللَّهِ فِي غَيْرِ حَالِ السُّجُودِ مَعَ أَنَّهَا فِي بَدَنِهِ . وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ : الْقُلُوبُ جَوَّالَةٌ : قَلْبٌ يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ وَقَلْبٌ يَجُولُ حَوْلَ الْحُشِّ . وَإِذَا قُبِضَتْ الرُّوحُ عُرِجَ بِهَا إلَى اللَّهِ فِي أَدْنَى زَمَانٍ ثُمَّ تُعَادُ إلَى الْبَدَنِ فَتُسْأَلُ وَهِيَ فِي الْبَدَنِ . وَلَوْ كَانَ الْجِسْمُ هُوَ الصَّاعِدُ النَّازِلُ لَكَانَ ذَلِكَ فِي مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ وَكَذَلِكَ مَا وَصَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَالِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لَهُ وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا أُقْعِدَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ﴾ . وَكَذَلِكَ فِي " صَحِيحِ

الْبُخَارِيِّ " وَغَيْرِهِ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ الْعَبْدَ إذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ - وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْت تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ؟ فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ . فَيَقُولُ لَهُ انْظُرْ إلَى مَقْعَدِك مِنْ النَّارِ أَبْدَلَك اللَّهُ بِهِ

(777/271)

مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا .

وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ : هاه هاه لَا أَدْرِي كُنْت أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ سَمِعْت النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْته فَيُقَالُ لَهُ : لَا دَرَيْت وَلَا تليت وَيُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إلَّا الثَّقَلَيْنِ ﴾ . وَالنَّاسُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى " ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ " مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ إقْعَادَ الْمَيِّتِ مُطْلَقًا لِأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِبَدَنِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالتُّرَابِ مَا لَا يُمْكِنُ قُعُودُهُ مَعَهُ وَقَدْ يَكُونُ فِي صَخْرٍ يُطْبَقُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُوضَعُ عَلَى بَدَنِهِ مَا يَكْشِفُ فَيُوجَدُ بِحَالِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَلِهَذَا صَارَ بَعْضُ النَّاسِ إلَى أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ إنَّمَا هُوَ عَلَى الرُّوحِ فَقَطْ كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ مَيْسَرَةَ وَابْنُ حَزْمٍ . وَهَذَا قَوْلٌ مُنْكَرٌ عِنْدَ عَامَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ . وَصَارَ آخَرُونَ إلَى أَنَّ نَفْسَ الْبَدَنِ يَقْعُدُ عَلَى مَا فَهِمُوهُ مِنْ النُّصُوصِ . وَصَارَ آخَرُونَ يَحْتَجُّونَ بِالْقُدْرَةِ

وَبِخَبَرِ الصَّادِقِ وَلَا يَنْظُرُونَ إلَى مَا يُعْلَمُ بِالْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ وَقُدْرَةُ اللَّهِ حَقٌّ وَخَبَرُ الصَّادِقِ حَقٌّ ؛ لَكِنَّ الشَّأْنَ فِي فَهْمِهِمْ . وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّائِمَ يَكُونُ نَائِمًا وَتَقْعُدُ رُوحُهُ وَتَقُومُ وَتَمْشِي وَتَذْهَبُ وَتَتَكَلَّمُ وَتَفْعَلُ أَفْعَالًا وَأُمُورًا بِبَاطِنِ بَدَنِهِ مَعَ رُوحِهِ وَيَحْصُلُ لِبَدَنِهِ وَرُوحِهِ بِهَا نَعِيمٌ وَعَذَابٌ ؛ مَعَ أَنَّ جَسَدَهُ مُضْطَجِعٌ ؛ وَعَيْنَيْهِ مُغْمَضَةٌ وَفَمَهُ مُطْبَقٌ

(778/271)

وَأَعْضَاءَهُ سَاكِنَةٌ وَقَدْ يَتَحَرَّكُ بَدَنُهُ لِقُوَّةِ الْحَرَكَةِ الدَّاخِلَةِ وَقَدْ يَقُومُ وَيَمْشِي وَيَتَكَلَّمُ وَيَصِيحُ لِقُوَّةِ الْأَمْرِ فِي بَاطِنِهِ ؛ كَانَ هَذَا مِمَّا يُعْتَبَرُ بِهِ أَمْرُ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ ؛ فَإِنَّ رُوحَهُ تَقْعُدُ وَتَجْلِسُ وَتُسْأَلُ وَتُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ وَتَصِيحُ وَذَلِكَ مُتَّصِلٌ بِبَدَنِهِ ؛ مَعَ كَوْنِهِ مُضْطَجِعًا فِي قَبْرِهِ . وَقَدْ يَقْوَى الْأَمْرُ حَتَّى يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي بَدَنِهِ وَقَدْ يُرَى خَارِجًا مِنْ قَبْرِهِ وَالْعَذَابُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مُوَكَّلَةٌ بِهِ فَيَتَحَرَّكُ بَدَنُهُ وَيَمْشِي وَيَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَقَدْ سَمِعَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَصْوَاتَ الْمُعَذَّبِينَ فِي قُبُورِهِمْ وَقَدْ شُوهِدَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ مُعَذَّبٌ وَمَنْ يَقْعُدُ بَدَنُهُ أَيْضًا إذَا قَوِيَ الْأَمْرُ لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِمًا فِي حَقِّ كُلِّ مَيِّتٍ ؛ كَمَا أَنَّ قُعُودَ بَدَنِ النَّائِمِ لِمَا يَرَاهُ لَيْسَ لَازِمًا لِكُلِّ نَائِمٍ بَلْ هُوَ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْأَمْرِ . وَقَدْ عُرِفَ أَنَّ أَبْدَانًا كَثِيرَةً لَا يَأْكُلُهَا التُّرَابُ كَأَبْدَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ الصِّدِّيقِينَ وَشُهَدَاءِ أُحُدٍ وَغَيْرِ شُهَدَاءِ أُحُدٍ وَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرَةٌ . لَكِنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّ

مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إقْعَادِ الْمَيِّتِ مُطْلَقًا هُوَ مُتَنَاوِلٌ لِقُعُودِهِمْ بِبَوَاطِنِهِمْ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ الْبَدَنِ مُضْطَجِعًا . وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا إخْبَارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا رَآهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فِي السَّمَوَاتِ وَأَنَّهُ رَأَى آدَمَ وَعِيسَى وَيَحْيَى

(779/271)

وَيُوسُفَ وَإِدْرِيسَ وَهَارُونَ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَأَخْبَرَ أَيْضًا أَنَّهُ رَأَى مُوسَى قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ ؛ وَقَدْ رَآهُ أَيْضًا فِي السَّمَوَاتِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَبْدَانَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُبُورِ إلَّا عِيسَى وَإِدْرِيسَ . وَإِذَا كَانَ مُوسَى قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ ثُمَّ رَآهُ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ مَعَ قُرْبِ الزَّمَانِ ؛ فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْصُلُ لِلْجَسَدِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ : جِبْرِيلَ وَغَيْرِهِ . فَإِذَا عُرِفَ أَنَّ مَا وُصِفَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ وَأَرْوَاحُ الْآدَمِيِّينَ مِنْ جِنْسِ الْحَرَكَةِ وَالصُّعُودِ وَالنُّزُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُمَاثِلُ حَرَكَةَ أَجْسَامِ الْآدَمِيِّينَ وَغَيْرِهَا مِمَّا نَشْهَدُهُ بِالْأَبْصَارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهُ يُمْكِنُ فِيهَا مَا لَا يُمْكِنُ فِي أَجْسَامِ الْآدَمِيِّينَ كَانَ مَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ مِنْ ذَلِكَ أَوْلَى بِالْإِمْكَانِ وَأَبْعَدُ عَنْ مُمَاثَلَةِ نُزُولِ الْأَجْسَامِ بَلْ نُزُولُهُ لَا يُمَاثِلُ نُزُولَ الْمَلَائِكَةِ وَأَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ مِنْ نُزُولِ أَجْسَامِهِمْ . وَإِذَا كَانَ قُعُودُ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَيْسَ هُوَ مِثْلَ قُعُودِ الْبَدَنِ فَمَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ لَفْظِ " الْقُعُودِ وَالْجُلُوسِ " فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى كَحَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِمَا أَوْلَى أَنْ لَا يُمَاثِلَ صِفَاتِ أَجْسَامِ الْعِبَادِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 5 صـ 194 . 527 ﴾

(780/271)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

قوله : ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ الإفاضة : التوسعة ، يقال أفاض عليه نعمه ، طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء ، أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أو الأطعمة

، فأجابوا بقولهم : ﴿ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا ﴾ أي الماء وما رزقهم الله من غيره ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ فلا نواسيكم بشيء مما حرّمه الله عليكم .

وقيل : إن هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة ، وجملة ﴿ الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ في محل جر صفة الكافرين ، وقد تقدّم تفسير اللهو واللعب والغرر .

قوله : ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ أي نتركهم في النار ﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذا ﴾ "الكاف" نعت مصدر محذوف ، و" ما " مصدرية ، أي نسياناً كنسيانهم لقاء يومهم هذا .

قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ معطوف على ما نسوا ، أي كما نسوا ، وكما كانوا بآياتنا يجحدون ، أي ينكرونها .

واللام في ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم ﴾ جواب القسم .

(781/271)

والمراد بالكتاب الجنس ، إن كان الضمير للكفار جميعاً ، وإن كان للمعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، فالمراد بالكتاب : القرآن ، والتفصيل التبيين ، و ﴿ على عِلْمٍ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي عالمين حال كونه ﴿ هُدًى ﴾ للمؤمنين ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لهم .

قال الكسائي والفراء : ويجوز "هدى ورحمة" بالخفض على النعت لكتاب .

قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ بالهمز من آل ، وأهل المدينة يخفون الهمزة .

والنظر الانتظار ، أي هل ينتظرون إلا ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يؤول الأمر إليه .

وقيل : تأويله جزاؤه .

وقيل عاقبته .

والمعنى متقارب .

و ﴿ يوم ﴾ ظرف ل ﴿ يقول ﴾ أي يوم يأتي تأويله ، وهو يوم القيامة ﴿ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي تركوه من قبل أن يأتي تأويله ﴿ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ الذي أرسلهم الله به إلينا ، ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء ﴾ استفهام منهم ، ومعناه التمني ﴿ فَيَشْفَعُواْ لَنَا ﴾ منصوب لكونه جواباً للاستفهام .

قوله : ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ قال الفراء : المعنى أو هل نردّ ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ وقال الزجاج : ﴿ نردّ ﴾ عطف على المعنى ، أي هل يشفع لنا أحد ، أو نردّ .

وقرأ ابن أبي إسحاق "أو نردّ فنعمل" بنصبهما ، كقول امرىء القيس :

فقلت له لا تبك عيناً إنما . . . نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وقرأ الحسن برفعهما .

ومعنى الآية : هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب ، أو هل نُردُّ إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصي ﴿ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي لم ينتفعوا بها ، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم ، فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله .

وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي افتراؤهم أو الذي كانوا يفترونه .

(782/271)

والمعنى أنه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا ، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله ، فلم ينفعهم ولا حضر معهم .

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته ، وتفرّده بالإيجاد ، الذي يوجب على العباد توحيده وعبادته .

وأصل ستة سدسة ، أبدلت التاء من أحد السينين ، وأدغم فيها الدال ، والدليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة ، وفي الجمع أسداس ، وتقول جاء فلان سادساً .

واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، قيل : هذه الأيام من أيام الدنيا .

وقيل : من أيام الآخرة ، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة ، وهو سبحانه

قادر على خلقها في لحظة واحدة ، يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور ، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً ، وفي آية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] .

قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾

قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً ، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه : استوى سبحانه عليه بلا كيف ، بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه ، والاستواء في لغة العرب هو العلوّ والاستقرار .

قال الجوهري : استوى على ظهر دابته ، أي استقرّ .

واستوى إلى السماء : أي صعد .

واستوى : أي استولى وظهر ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق . . . من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل : أي انتهى شبابه .

واستوى : أي انتسق واعتدل .

وحكي عن أبي عبيدة أن معنى ﴿ استوى ﴾ هنا : علا ، ومثله قول الشاعر :

فأورد بهم ماء ثقيفاً بقفرة . . . وقد حلق النجم اليماني فاستوى

أي علا وارتفع .

﴿ والعرش ﴾ .

قال الجوهري : هو سرير الملك .

(783/271)

ويطلق العرش على معان أخر ، منها عرش البيت : سقفه ، وعرش البئر : طيها بالخشب ، وعرش السماك : أربعة كواكب صغار .

ويطلق على الملك والسلطان والعزّ ، ومنه قول زهير :

تداركتما عبساً وقد ثلّ عرشها . . . وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم . . . بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقول الآخر :

رأوا عرشي تثلم جانباه . . . فلما أن تثلم أفردوني

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن ، وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما ، وهو المراد هنا .

قوله : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ أي يجعل الليل كالغشاء للنهار ، فيغطى بظلمته ضياءه .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "يغشي" بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان ، يقال أغشى يغشي ، وغشي يغشي ، والتغشية في الأصل : إلباس الشيء الشيء .

ولم يذكر في هذه الآية يغشي الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 8] .

وقرأ حميد بن قيس "يغشي الليل النهار" على إسناد الفعل إلى الليل ، ومحل هذه الجملة النصب على الحال ، والتقدير : استوى على العرش مغشياً الليل والنهار ، وهكذا قوله : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ حال من الليل ، أي حال كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً لا يفتر عنه بحال ، وحثيثاً صفة مصدر محذوف ، أي يطلبه طلباً حثيثاً ، أو حال من فاعل يطلب .

والحث : الاستعجال والسرعة ، يقال ولى حثيثاً : أي مسرعاً .

قوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ قال الأخفش : معطوف على السموات ، وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر .

والمعنى على الأوّل : وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات ، وعلى الثاني : الإخبار عن هذه بالتسخير .

قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له ، والخلق : المخلوق ، والأمر : كلامه ، وهو "كن" في قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] ، أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل ، أو التصرّف في مخلوقاته .

ولما ذكر سبحانه في هذه الآية خلق السموات والأرض في ذلك الأمد اليسير ، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وأن له الخلق والأمر .

قال : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ أي كثرت بركته واتسعت ، ومنه بورك الشيء وبورك فيه ، كذا قال ابن عرفة .

وقال الأزهري في ﴿ تبارك ﴾ معناه تعالى وتعاظم .

وقد تقدم تفسير ﴿ رَبّ العالمين ﴾ في الفاتحة مستكملاً .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ الآية قال : ينادي الرجل أخاه فيقول : يا أخي أغثني ، فإني قد احترقت ، فأفض عليّ من الماء ، فيقال أجبه ، فيقول : ﴿ إن الله حرّمهما على الكافرين ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ في قوله : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ قال : من الطعام .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في الآية قال : يستسقونهم ويستطعمونهم .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ قال : طعام الجنة وشرابها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فاليوم ننساهم كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذا ﴾ يقول : نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قال : نؤخرهم .

(785/271)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ قال : عاقبته .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ جزاؤه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ قال : يوم

القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ قال : ما كانوا يكذبون في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قال : كل يوم مقداره ألف سنة .

وأخرج ابن مردويه ، عن أم سلمة ، قالت في قوله : ﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود كفر .

وأخرج اللالكائي عن مالك أن رجلاً سأله كيف استوى على العرش ؟ فقال : الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه ، عن الحسن بن عليّ ، قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضاري ، ومن كل لص عادي : آية الكرسي ، وثلاث آيات من الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 54] وعشراً من أوّل سورة الصافات ، وثلاث آيات من الرحمن .

أوّلها ﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ [الرحمن : 33] ، وخاتمة الحشر .

وأخرج أبو الشيخ عن عبيد بن أبي مرزوق قال : من قرأ عند نومه ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى

خَلَقَ السموات والأرض ﴾ الآية ، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح ، وعوفي من السرق .

(786/271)

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال : مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه ، فقرأ رجل منهم : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ الآية كلها ، وقد أصمت الرجل فتحرّك ثم استوى جالساً ، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التي سجد فيها ، قال له أهله ، الحمد لله الذي عافاك ، قال : بعث إلى نفسي ملك يتوفاها ، فلما قرأ صاحبكم الآية التي قرأ ، سجد الملك وسجدت بسجوده ، فهذا حين رفع رأسه ، ثم مال فقضى .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن السديّ ، في قوله : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ قال : يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه ، ويطلبه سريعاً حتى يدركه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال : يلبس الليل النهار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ حَثِيثًا ﴾ قال : سريعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان بن عيينة ، في قوله : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ قال :

الخلق ما دون العرش ، والأمر ما فوق ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والبيهقي ، عنه ، قال : الخلق هو الخلق ، والأمر هو الكلام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(787/271)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ ﴾

الجمهور على رفع الجلالة خبرا لـ " إنَّ " ، ويضعف أن تجعل بدلاً من اسم " إنَّ " على الموضع عند مَنْ يرى ذلك ، والموصول خبر لـ " أنَّ " وكذا لو جعله عطف بيان ، ويتقوَّى هذا بِنَصْبِ الجلالةِ في قراءة بكار ، فإنَّها فيها بدلٌ ، أو بيان لاسم " إنّ " على اللفظ ، ويضعف أَن تكون خبرها عند مَنْ يرى نصب الجزءين فيها كقوله : [الطويل]

2478 - إذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ ولتَكُنْ . . .

خُطَاكَ خِفَافاً إنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدَا

وقوله : [الرجز]

2479 - إنَّ العَجُوزَ خبَّةً جَرُوزا . . .

تَأْكُلُ كُلَّ لَيْلَةٍ قَفِيزا

قيل : ويُؤيِّدُ ذلك قِرَءَةُ الرَّفْعِ أي : في جعلها إيَّاهُ خبراً ، والموصول نعت لله ، أو بيان له ، أو بدل مِنْهُ ، أو يُجْعَل خبراً لـ " إن " على ما تقدَّم من التخاريج ، ويجوز أن يكون معطوفاً على المَدْحِ رفعاً ، أو نصباً .

قوله : " في سِتَّةِ " حكى الواحِدِيُّ عن الليث أنَّهُ قال : " الأصل في الستّ والستّة : سدسٌ وسدسةٌ [أبدل السين تاء] ولما كان مخرج الدّال والتّاء قريباً ، وهي ساكنة أدغم أحدهما في الآخر ، واكتفى بالتَّاءِ ، ويدلُّ عليه أنَّكَ تقُولُ في تصغير ستة : سُدَيْسَةٌ ، وكذلك الأسْدَاسُ وهذا الإبدال لازم ، ويدلُّ عليه أيضاً قولم : جَاءَ فلانٌ سَادساً وسدساً وسادياً بالياءِ مثناة من أسفل قال [الشاعر] : [الطويل]

2480 - . . . . . .

وَتَعْتَدُّنِي إنْ لَمْ يَقِ اللَّهُ سَادِيا

أي " سَادِساً " فأبْدَلَهَا .

قوله : " ثُمَّ اسْتَوَى " الظَّاهِرُ عَوْدُ الضَّميرِ على الله - تعالى - بالتَّأويل المذكُورِ في البقرة .

وقيل : الضَّمِيرُ يعود على الخَلْق المَفْهُوم من " خَلَقَ " ثم اسْتَوَى خَلْقُه على العَرْشِ ، ومثله : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] قالوا : يُحتمل أن يَعثودَ الضَّميرُ في " اسْتَوَى " على " الرَّحْمِن " ، وإنْ يعود على الخَلْقِ ، ويكون " الرَّحْمن " خبراً لمبتدأ محذوف أي : هو الرَّحْمنُ .

والعرشُ : يُطْلَقُ بإزاء معانٍ كثيرة ، فمنه سَرِيرُ الملكِ ، وعليه ، ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ [النمل : 41] ، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ [يوسف : 100] ، ومنه السُّلْطَان والعزُّ وعليه قول زهير : [الطويل]

2481 - تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا . . .

وذُبْيَانَ إذْ زَلَّتْ بأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

وقول الآخر : [الكامل]

2481 - إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ . . .

بِرَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

ومنه : خشب تُطوى به البِئْرُ بعد أنْ يُطْوى بالحِجَارَةِ أسفلُها ومنه : ما يُلاقِي ظَهْرُ القَدَم وفيه الأَصَابع ، ومنه : السَّقْفُ ، وكلُّ ما علاك فهو عَرْشٌ ، فَكَأَنَّ المَادَّةَ دائرةٌ مع العُلُوِّ والرِّفعة ومنه عَرْشُ الكَرمِ ، وعرشُ السِّمَاكِ أَرْبَعَةُ كواكب صغار أسفل من العَوَّاء يقال إنَّها

عَجُزِ الأَسَدِ .

والعَرْشُ : اسم ملك والعَرْشُ المَلِكُ والسُّلطَانُ .

يقال : قد ذهب عرش فلان أي : ذهب مُلْكُهُ وعِزهُ وسُلْطَانُهُ قال زُهَيْرٌ : [الطويل]

2483 - تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا . . .

وذُبْيَانَ إذْ زَلَّتْ بأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

وقد تُؤُوِّلَ العَرْشُ في الآيَةِ بمعنى الملكِ أي : ما استوى المِلكُ الإلَهُ عزَّ وجلَّ .

قوله : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾

(789/271)

قرأ نافعُ وابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص هنا وفي سورة الرعد : [3] "يُغْشِي" مخففاً من أغْشَى على أفْعَل ، والباقون بالتَّشديدِ من غشَّى على فعَّل ، فالهمزةُ والتَّضعيف كلاهما للتَّعْدِيَةِ أكسبا الفعل مَفْعُولاً ثانياً ؛ لأنَّهُ في الأصل متعد لواحدٍ ، فصار الفاعل مفعولاً .

وقرأ حُمَيْدُ بْنُ قَيْسْ : "يَغشَى" بفتح الياء والشين ، "اللّيلُ" رفعاً ، "النهار" نصباً ، هذه رواية الداني عنه ، وروى ابنُ جنّي عنه نصب "اللّيل" ورفع "النَّهار" .

قال ابنُ عطيَّة : " ونقل ابن جنّي أثبت " وفيه نظرٌ ، من حيث إنَّ الدَّاني أَعْنَى من أبي الفَتْح بهذه الصِّنَاعَةِ ، وإن كان دونه في العلم بطبقات ، ويؤيد رواية الدَّاني أيضاً أَنَّهَا موافقة لقراءة العَامَّةِ من حيث المَعْنَى ، وذلك أَنَّهُ جعل اللَّيْل فاعلاً لفظاً ومعنى ، والنَّهارَ مفعولاً لفظاً ومعنى ، وفي قراءة الجماعة اللَّيْلُ فاعلٌ معنى ، والنَّهارُ مفعولٌ لفظاً ومعنى ، وذلك أنَّ المفعولين في هذا البابِ متى صَلُح أن يكون كلٌّ منهما فاعلاً ومفعولاً في المعنى ؛ وَجَبَ تقديمُ الفاعل معنى ؛ لئلاّ يلْتبس نحو : " أَعْطَيْتُ زَيْداً عَمْراً " فإنْ لم يلْتبس نحو : " أَعْطَيْتُ زَيْداً دِرْهما ، وكسوْتُ عمراً جُبَّةً " جاز ، وهذا كما في الفَاعِلِ والمفعُولِ الصَّريحين نحو " ضرب موسى عيسى " ، و" ضرب زيدٌ عمراً " ، وهذه الآية الكريمة من بابِ " أعطيت زيداً عمراً " ؛ لأنَّ كلاًّ من اللَّيْلِ والنَّهَارِ يَصْلُح أن يكون غَاشياً مَغْشياً ؛ فوجب جعل " اللَّيْل " في قراءة الجماعةِ هو الفاعلُ المعنوي ، و" النَّهَار " هو المفعول من غير عكس ، وقراءة الدَّاني موافقة لهذه ؛ لأنَّهَا المصرِّحة بفاعليَّةِ اللَّيْلِ ، وقراءة ابن جني مُخَالِفَة لها ، وموافقة الجماعة أولى .

(790/271)

قال شهابُ الدّين : " وقد روى الزَّمَخْشَرِيُّ قراءة حُمَيْدٍ كما رواها أبو الفَتْحِ فإنَّهُ قال : " يُغَشِّي " بالتَّشديد ، أي : يلحق اللَّيْلُ بالنَّهار ، والنَّهارُ باللَّيْلِ ، يحتملهما جميعاً " .

والدَّليلُ على الثاني قراءةُ حميد بْنِ قَيْس "يَغْشى " بفتح الياء [و] نصب اللَّيْل ، ورفع النَّهَارِ .

انتهى .

وفيما قاله الزَّمخشريُّ نظر ؛ لما ذكرنا من أنَّ الآية الكريمة ممَّا يجب فيها تقديمُ الفاعلِ المَعْنَوِي ، وكأن أبا القاسم تَبعَ أبَا الفَتْحِ في ذلك ، ولم يَلْتَفِتْ إلى هذه القاعدةِ المذكورة سَهْواً .

وقوله : "يَطْلُبُهُ حَثِيثاً " حالٌ من الليل ؛ لأنَّهُ هو المحدَّث عنه أي : يغشي النَّهارَ طالباً له ، ويَجُوزُ أن يكُون من النهار أي مطلوباً وفي الجملة ذِكْرُ كُلٍّ منهما .

و " حَثِيثاً "يُحتمل أن يكون نَعْتَ مصدر محذوف أي : طَلَباً حثيثاً وأن يكون حالاً من فاعل "يَطْلُبُهُ " أي : حَاثّاً ، أو مفعوله أي : مَحْثُوثاً .

والحثُّ : الإعْجَالُ والسُّرْعَةُ ، والحَمْلُ على فِعْلِ شَيءٍ كالحضِّ عليه فالحثُّ والحضُّ أخوانِ ، يقال : حَثَثْتُ فُلاناً فاحْتَثَّ فهو حَثِيثٌ ومَحْثُوثٌ .

2486 - تَدَلَّى حَثِيثاً كأنَّ الصُّوا . . .

رَ يَتْبَعُهُ أزْرَقِيٌّ لَحِمْ

فهذا يُحتمل أن يكون نَعْتَ مصدرٍ محذوف ، وأن يكون حالاً أي : تولى تَوَلِّياً حثيثاً ، أو

تولَّى في هذه الحال .

فصل في معنى " الإغشاء "

(791/271)

قال الواحديُّ : " الإغْشَاءُ والتَّغْشِيَةُ : إلْبَاسُ الشيء بالشَّيء ، وقد جَاءَ التَّنْزِيلُ بالتَّشْديد والتَّخفيف ، فمن التَّشديد قوله تعالى : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ [النجم : 54] ومن اللُّغة الثانية : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَيُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9] والمفعولُ الثاني مَحْذُوفٌ ، ، أي فأغْشَيْنَاهُم العمى وفقد الرؤية ، ومعنى الآية أي : يأتي اللَّيْلُ على النَّهارِ فيغطيه ، وفيه حذف أي : ويغشي النَّهار اللَّيْلَ ، ولم يذكرْ لدلالةِ الكلام عليه ، وذكر في آية أخرى : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ [الزمر : 5] .

" يَطْلُبُهُ حَثِيثاً " أي : سَرِيعاً ، وذلك أَنَّهُ إذَا كان يعضب أحدُهُما الآخر ويخلفه فكان يطلبه .

قال القفَّالُ – رحمه الله تعالى – : إنَّهُ تعالى لَمَّا أخبر عبادَهُ باستوائه على العرش ، وأَخْبَرَ عن استمرار أصعب المخلوقات على وفق مشيئته ، أرَاهم ذلكَ عياناً فيما يُشَاهِدُونَهُ منها ؛ ليضمَّ العيانَ على الخبرِ ، وتزول الشُّبْهَةُ عن كُلِّ الجهاتِ فقال : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ ؛

لأَنَّهُ تعالى أخبر في هذا الكتاب الكريم بما في تعاقبهما من المناقع العظيمة يتم أمر الحياة ، وتكمل المنفعة والمصلحة .

قوله : " والشَّمْسَ " قرأ ابن عامر هنا وفي " النحل " [12] برفع الشمسِ ، وما عُطف عليها ، ورفع " مُسَخَّرَات " ، ووافقه حفصٌ عن عاصم في النَّحل خاصة على رفع " والنَّجُوم مُسَخَّرات " ، والباقون بالنَّصْب في الموضعين .

وقرّأ أبانُ بْنُ تَغْلِبٍ هنا برفع " النُّجُومِ " وما بعده .

فأمَّا قراءةُ ابنِ عامر فعلى الابتداء والخبرِ ، جعلها جملة مستقلَّةً بالإخبار بأَنَّهَا مُسخَّرات لنا من الله – تعالى – لمنافعنا .

(792/271)

وأمَّا قراءةُ الجماعةِ ، فالنَّصْبُ في هذه السُّورةِ على عطفها على " السَّمواتِ " أي : وخلق الشَّمْسَ ، فتكون " مُسَخَّرات " على هذا حالاً من هذه المفاعيلِ ، ويجوزُ أن تكون هذه [منصوبةً] بـ " جَعَلَ " مقدَّراً فتكون هذه المنصوباتُ مفعولاً أوَّلاً ، و " مُسَخَّرَات " مفعولاً ثانياً .

وأمَّا قراءةُ حفص في النَّحْلِ ، فإنَّهُ إنَّما رفع هنا ؛ لأنَّ النَّاصِبَ هناك " سخَّر " وهو قوله

تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ ﴾ [النحل : 12] فلو نصب " النُّجُوم " و " مُسَخَّراتٍ " لصار اللفظ : سَخَّرها مُسَخَّراتٍ ، فيلزم التَّأكيد ، فلذلك قطعهما على الأوَّلِ ورفعهما جملة مُسْتَقِلَّة .

والجمهورُ يخرِّجونها على الحال المؤكدة ، وهو مستفيض في كلامهم ، أو على إضمار فِعْلٍ قبل " والنُّجُوم " أي : وجعل النُّجوم مُسخَّراتٍ ، أو يكون " مُسَخَّرات " جمع مُسَخَّر المرادُ به المصدر ، وجُمِع باعتبار أنواعه كأنَّهُ قيل : وسخَّر لكم اللَّيْلأ ، والنَّهار ، والشَّمس ، والقمر ، والنجوم تسخيراتٍ أي أنْواعاً من التَّسْخِيرِ .

قوله : " بأمْرِهِ " متعلق بـ " مُسَخَّراتٍ " [أي] : بتيسيره وإرادته لها في ذلك ، ويجوزُ أن تكون " الباءُ " للحال أي : مصاحبةً لأمره غير خارجة عنه في تسخيرها ، ومعنى مُسَخَّراتٍ أي : منزلات بأمره .

قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ .

يجوزُ أن يكون مَصْدراً على بابِهِ ، وأن يكُونَ واقِعاً مَوْقِعَ المفعولِ به .

" لَهُ الخَلْقُ " ؛ لأنَّهُ خلقهم ، و " الأَمْرُ " : يأمر في خلقه بما يشاء قال سفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ .

فرّق الله بين الخلق والأمر ، فمن جمع بَيْنَهُمَا فقد كَفَرَ .

" تَبَارَكَ اللَّهُ " أي : تعالى الله وتعظم .

وقيل : ارتفع ، والمباركُ : المرتفعُ .

وقيل : تَبَارَكَ : تَفَاعَل ، من البَرَكَةِ وهي النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ ، أي : البركةُ تكسب ، وتنالُ بذكْرِه .

وعن ابن عَبَّاس قال : جَاءَ بكُلِّ بَرَكَةٍ .

وقال الحسنُ : تَجِيءُ البَرَكَةُ من قِبَلِه .

وقيل : تبارك : تَقَدَّس ، والقُدْسُ : الطهارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 140.156 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله ، وتعرّف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته

الذاتية (1) التي هي جماله وجلاله ، فشتان بين قومٍ وقوم ! .

ثم كما يدخل في الظاهر الليل على النهار والنهارَ على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض . ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب : فَمِنْ عبدٍ أحواله أجمع قبض ، ومن عبدِ أحواله أجمع بسط ، ومن عبيد يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط كما أن بعض أقطار العالَم فيها نهار بلا ليل ، وفي بعضها ليل بلا نهار ، وفي بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل .

---

(1) لاحظ حرص القشيري الشديد حين يقرر أن أقصى حالات المشاهدة لا تكون مشاهدة الذات – فقد جلت الصمدية أن يستشرف من شهود ذاتها عبد ، إنما هى مشاهدة نعوت الذات :

الجمال والجلال .

(794/271)

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

فمنه الخير والشر ، والنفع والضر ، فإن له الخَلْقَ والأمر .

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذه الكلمة مجمع الدعاء لاشتمالها على إفادة معنى قِدَمِه

ودوامِ ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء .

وأفادت معنى جلاله الذي هو استحقاقه لنعوت العِزّ لأنه قد تبارك أي تعظَّم . وأشارت إلى إسداد النِّعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البَرَكَة هي الزيادة فهي مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 540 ﴾

(795/271)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

. 8 . ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوي علي العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا . . . . ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

في الوقت الذي ساد اعتقاد الناس بثبات الأرض وسكونها , جاء القرآن الكريم بالتأكيد

علي جريها وسبحها , وعلي جري كافة اجرام السماء وسبحها في فسحة الكون الرحيب , ولكن لما كانت هذه الحقائق خافية علي الناس في زمن تنزل الوحي فقد جاءت الاشارات القرآنية إليها بصياغة لطيفة , رقيقة , غير مباشرة حتي لاتصدهم عن قبوله فيحرموا نور الرسالة الخاتمة , ويكون ذلك سببا في حرمان البشرية من هديها . . ! !

من هنا جاءت الاشارات القرآنية إلي عدد من الحقائق الكونية التي كانت غائبة عن علم الناس في زمن الوحي - ومنها حركات الأرض - بصياغة مجملة , غير مباشرة , ولكنها في نفس الوقت صياغة بالغة الدقة في التعبير , والشمول في الدلالة , والاحاطة بالحقيقة الكونية , لتبقي مهيمنة علي المعرفة الانسانية مهما اتسعت دوائرها , وشاهدة للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق , وللنبي الخاتم الذي تلقي الوحي به (صلي الله عليه وسلم) بأنه كان معلما من قبل خالق السماوات والأرض , ومؤكدة علي وصفه (صلي الله عليه وسلم) للقرآن الكريم بأنه لاتنتهي عجائبه , ولايخلق علي كثرة الرد .

الإشارات القرآنية الي حركات الأرض :

استعاض

القرآن الكريم في الإشارة إلي حركات الأرض بغشيان (أو بتغشية) كل من الليل والنهار للآخر , واختلافهما , وتقلبهما , وولوج كل منهما في الآخر , وبسلخ النهار من الليل , وبمرور الجبال مر السحاب , وبالتعبير القرآني المعجز عن سبح كل من الليل والنهار كناية

عن الحركات الانتقالية

للأرض , وذلك علي النحو التالي :

أولا : آيات غشيان الليل النهار :

(796/271)

وجاء ذكرها في آيتي الأعراف رقم (54) , والرعد رقم (3) كما سوف يفصل بعد ذلك بقليل .

ثانيا : آيات اختلاف كل من الليل والنهار :

تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها مع الزمن مدون فى أجساد النباتات وغيرها من الكائنات الحية والبائدة

وهي خمس آيات كريمة تؤكد كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس يقول فيها الحق تبارك وتعالي :

(1) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار . . . . . لآيات لقوم يعقلون

(البقرة :164)

(2) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب

(آل عمران :190)

(3) إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون

(يونس :6)

(4) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (المؤمنون :80)

(5) إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون

(الجاثية :2.5)

ويؤكد القرآن الكريم اختلاف الليل والنهار بتعبير آخر يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي):

(6) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو اراد شكورا

(الفرقان :62)

وبتعبير ثالث يقول فيه (سبحانه وتعالي):

(7) والليل اذ أدبر * والصبح إذا أسفر *(المدثر :34,33)

وبتعبير رابع يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي):

(8) والليل إذا عسعس * والصبح اذا تنفس (التكوير :18,17)

ثالثا : آية

تقليب الليل والنهار :

وقد جاءت في سورة النور حيث يقول الخالق (سبحانه وتعالي) :

يقلب الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار (النور :44)

وفيها إشارة واضحة الي دوران الأرض حول محورها امام

الشمس .

رابعا : آيات إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل :

وهي خمس آيات يقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) :

(797/271)

---

(1) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل . (آل عمران :27)

(2) ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير

(الحج :61)

(3) ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . . . . (لقمان :29)

(4) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . . . (فاطر 13)

(5) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور

(الحديد :6)

والولوج لغة هو الدخول , ولما كان من غير المعقول دخول زمن في زمن آخر , اتضح لنا ان المقصود بكل من الليل والنهار هنا هو المكان الذي يتغشيانه أي الأرض , بمعني ان الله (تعالي) يدخل نصف الأرض الذي يخيم عليه ظلام الليل بالتدريج في مكان النصف الذي يعمه النهار , كما يدخل نصف الأرض الذي يعمه النهار بالتدريج في مكان النصف الذي تخيم عليه ظلمة الليل , وهو مايشير الي كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها امام الشمس بطريقة غير مباشرة , ولكنها تبلغ من الدقة والشمول والاحاطة مايعجز البيان عن وصفه .

خامسا : آية سلخ النهار من الليل :

ويقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) :

وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون (يس :37)

ومعني ذلك ان الله (تعالي) ينزع نور النهار من أماكن الأرض التي يتغشاها الليل بالتدريج كما ينزع جلد الذبيحة عن كامل بدنها بالتدريج , ولايكون ذلك الا بدوران الأرض حول محورها امام الشمس , وفي هذا النص القرآني سبق بالاشارة الي رقة طبقة النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس , وهي حقيقة لم يدركها

الانسان إلا بعد ريادة الفضاء في النصف الثاني من القرن العشرين حيث ثبت ان سمك طبقة النهار حول الأرض لايتعدي المائتي كيلو متر فوق سطح البحر , واذا نسب

(798/271)

ذلك الي المسافة التي تفصل بيننا وبين الشمس (والمقدرة بحوالي المائة والخمسين مليونا من الكيلو مترات) فانها لاتتجاوز الواحد الي سبعمائة وخمسين ألفا تقريبا , واذا نسب الي نصف قطر الجزء المدرك من الكون (والمقدر بأكثر من عشرة آلاف مليون من السنين الضوئية *9.5 مليون مليون كيلو متر) اتضحت ضآلته , واتضحت كذلك لمحة الاعجاز القرآني في تشبيه انحسار طبقة النهار الرقيقة عن ظلمة الليل بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها , وفي التأكيد علي ان الظلام هو الأصل في الكون , وان نور النهار ظاهرة رقيقة عارضة لاتظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس .

سادسا : آيتا سبح كل من الليل والنهار كناية عن سبح الأرض في مداراتها المختلفة :

ويقول فيهما ربنا (تبارك وتعالي :)

(1) وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (الأنبياء :33)

(2) لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (يس :40)

سابعا : آية مرور الجبال مر السحاب :

وفيها يقول الخالق (سبحانه وتعالي) :

وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شئ إنه خبير بما تعملون (النمل :88)

ومرور الجبال مر السحاب هو كناية عن دوران الأرض حول محورها , وعن جريها وسبحها في مداراتها , وذلك لأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط بالأرض برباط الجاذبية , وحركته منضبطة مع حركة كل من الأرض , والسحاب المسخر فيه .

غشيان (تغشية) الليل النهار :

جاء ذكر هذه الحقيقة الكونية في آيتين كريمتين من آيات القرآن العظيم يقول فيهما ربنا (تبارك وتعالي) :

(1) إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوي علي العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له

الخلق والأمر تبارك الله

رب العالمين ﴿) (الأعراف :54)

(799/271)

---

(2) وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (الرعد 3)

كذلك جاء ذكر تجلية النهار للشمس , وتغشيتها بالليل في قول الحق (تبارك وتعالي) :

والشمس وضحاها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴿ والليل إذا يغشاها (الشمس :1.4)

وجاء ذكر تغشية الليل وتجلية النهار دون تفصيل في قول ربنا (تبارك وتعالي) :

والليل إذا يغشي ﴿ والنهار إذا تجلي

(الليل :2,1)

والفعل (يغشي) مستمد من (الغشاء) وهو الغطاء , يقال غشي بمعني غطي وستر , ويقال (غشاه) و (تغشاه) (تغشية) أي غطاه تغطية , و (أغشاه) إياه غيره , و (الغشوة) بفتح الغين وضمها وكسرها و (الغشاوة) مايتغطي أو يغطي به الشيء , ويقال (غشية

)(غشيانا) و (غشاوة) و (غشاء) أي جاءه مجيء ما قد غطاه وستره , و (استغشي) بثوبه و (تغشي) به أي تغطي به , و (الغاشية) كل مايغطي الشيء كغاشية السرج , و (الغاشية) تستخدم كناية عن القيامة التي (تغشي) الخلق بأهوالها وجمعها (غواش) , و (غاشية تغشاهم) أي أمر يعمهم سواء كان شرا أم خيرا من مثل نائبة تجللهم أو فرح يعمهم .

من ذلك يتضح أن من معاني يغشي الليل النهار أن الله (تعالي) يغطي بظلمة الليل مكان نور النهار علي الأرض بالتدريج فيصير ليلا , ويغطي بنور النهار مكان ظلمة الليل علي الأرض بالتدريج فيصير نهارا , وهي إشارة لطيفة إلي كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس دورة كاملة في كل يوم مدته 24 ساعة , يتقاسمها - بتفاوت قليل - الليل والنهار , في تعاقب تدريجي ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة , فلو لم تكن الأرض كروية الشكل ما استطاعت الدوران حول محورها , ولو لم

تدر حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار .

(800/271)

والقرآن الكريم يستخدم تعبير الليل والنهار في مواضع كثيرة استخداما مجازيا للإشارة إلي كوكب الأرض , كما يشير بهما إلي كل من الظلمة والنور - علي التوالي - وإلي العديد من

المظاهر المصاحبة لهما من مثل قوله (تعالي) :

والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها

(الشمس : 1 ـ 4)

وفي هذه الآيات الكريمة يقسم ربنا تبارك وتعالي (وهو الغني عن القسم) بالنهار الذي يجلي الشمس أي يظهرها واضحة جلية لسكان الأرض , وهي حقيقة لم يدركها العلماء إلا من بعد ريادة الفضاء في النصف الأخير من القرن العشرين , حين اكتشفوا أن نور النهار المبهج لا يتعدي سمكه مائتي كيلو متر فوق مستوي سطح البحر في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس , وأن هذا الحزام الرقيق من الغلاف الغازي للأرض يصفو من الملوثات وتقل كثافته بالارتفاع علي سطح الأرض , بينما تزداد كثافته ونسب كل من بخار الماء وهباءات الغبار فيه كلما اقترب من سطح الأرض , ويقوم ذلك التركيز وتلك الهباءات من الغبار بالمساعدة علي تشتيت ضوء الشمس , وتكرار انعكاسه مرات عديدة حتي يظهر لنا باللون الأبيض المبهج الذي يميز النهار كظاهرة نورانية مقصورة علي النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس , بينما يعم الظلام الكون المدرك في غالبية أجزائه , وتبدو الشمس بعد تجاوز نطاق نور النهار قرصا أزرق في صفحة سوداء , ومن هنا فهمنا المعني المقصود من أن النهار يجلي الشمس , بينما ظل كل الناس إلي أواخر القرن العشرين وهم ينادون بأن الشمس هي التي تجلي النهار , فسبحان الذي أنزل تلك الحقيقة الكونية من

قبل ألف وأربعمائة سنه , والتي لم يكتشفها العلم التجريبي إلا في النصف الأخير من القرن العشرين . . . ! ! !

كذلك يقسم ربنا (تبارك وتعالي) في سورة الليل - وهو (تعالي) غني عن القسم - بقوله عز من قائل :

(801/271)

والليل إذا يغشي والنهار إذا تجلي (الليل : 2,1) وهو قسم بالليل (أي ليل الأرض) الذي يغشي أي يغطي نصف الكرة الأرضية البعيد عن الشمس بالظلام لعدم مواجهته للشمس , وقسم بالنهار (أي نهار الأرض) الذي تشرق فيه الشمس علي نصف الكرة الأرضية المواجه لها فيعمه نور النهار , وبتعاقبهما تستقيم الحياة علي الأرض , ويتمكن الإنسان من إدراك مرور الزمن والتاريخ للأحداث .

وحينما يغشي الليل بظلمته نصف الأرض , البعيد عن الشمس تتصل ظلمة الأرض بظلمة السماء فيعم الظلام , وفي نفس الوقت يتجلي النهار في نصف الأرض المواجه للشمس بنوره المبهج فاصلا الأرض عن ظلمة الكون بحزام رقيق من النور الأبيض لا يكاد يتعدي سمكه المائتي كيلو متر .

ويمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بتبادل كل من الليل والنهار فيقول (سبحانه) : قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (القصص : 71 . 73)

ويقول (عز من قائل) :

وجعلنا الليل لباسا , وجعلنا النهار معاشا (النبأ :10,11)

يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا

يتساءل قاريء القرآن الكريم عن الوصف حثيثا الذي جاء في الآية (رقم 54) من سورة الأعراف ولم يذكر في بقية آيات تغشية الليل النهار , أو التغشية بغير تحديد , وللإجابة علي ذلك أقول إن آية سورة الأعراف مرتبطة بالمراحل الأولي من خلق السماوات والأرض , بينما بقية الآيات تصف الظاهرة بصفة عامة .

واللفظة (حثيثا) تعني مسرعا حريصا , يقال (حثه) من باب رده و (استحثه) علي الشيء أي حضه عليه (فاحتث) , و (حثثه تحثيثا وحثحثة) بمعني حضه , و (تحاثوا) بمعني

تحاضوا .

والدلالة الواضحة للآية الكريمة (رقم 54) من سورة الأعراف أن حركة تتابع الليل والنهار (أي حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس) كانت في بدء الخلق سريعة متعاقبة بمعدلات أعلي من سرعتها الحالية وإلا ما غشي الليل النهار يطلبه حثيثا , وقد ثبت ذلك أخيرا عن طريق دراسة مراحل النمو المتتالية في هياكل الحيوانات وفي جذوع الأشجار المعمرة والمتأحفرة , وقد انضوت دراسة تلك الظاهرة في جذوع الأشجار تحت فرع جديد من العلوم التطبيقية يعرف باسم علم تحديد الأزمنة بواسطة الأشجار أو (Dendrochronology)

وقد بدأ هذا العلم بدراسة الحلقات السنوية التي تظهر في جذوع الأشجار عند عمل قطاعات مستعرضة فيها وهي تمثل مراحل النمو المتتالية في حياة النبات (من مركز الساق حتي طبقة الغطاء الخارجي المعروفة باسم اللحاء) , وذلك من أجل التعرف علي الظروف المناخية والبيئية التي عاشت في ظلها تلك الأشجار حيث أن الحلقات السنوية في جذوع الأشجار تنتج بواسطة التنوع في الخلايا التي يبنيها النبات في فصول السنة المتتابعة (الربيع , والصيف , والخريف , والشتاء) فترق رقة شديدة في فترات الجفاف , وتزداد

سمكا في الآونة المطيرة .

وقد تمكن الدارسون لتلك الحلقات السنوية من متابعة التغيرات المناخية المسجلة في جذوع عدد من الأشجار الحية المعمرة مثل أشجار الصنوبر ذات المخاريط الشوكية المعروفة باسم

(Pinusaristata)

إلي أكثر من ثمانية آلاف سنة مضت , ثم انتقلوا إلي دراسة الأحافير عبر العصور الأرضية المتعاقبة , وطوروا تقنياتهم من أجل ذلك فتبين لهم أن الحلقات السنوية في جذوع الأشجار

(AnnualRings)

وخطوط النمو في هياكل الحيوانات

(LinesofGrowth)

يمكن تصنيفها إلي السنوات المتتالية , بفصولها الأربعة , وشهورها الاثني عشر , وأسابيعها الستة والخمسين , وأيامها , ونهار كل يوم وليلة وأن عدد الأيام في السنة يتزايد

(803/271)

باستمرار مع تقادم عمر العينة المدروسة , ومعني ذلك أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس كانت في القديم أسرع منها اليوم , وهنا تتضح روعة التعبير القرآني يطلبه حثيثا عند بدء الخلق كما جاء في الآية رقم (54) من سورة الأعراف .

تزايد عدد أيام السنة بتقادم عمر الأرض وعلاقتها بالسرعة الفائقة لدوران الأرض حول محورها عند بدء الخلق

في أثناء دراسة الظروف المناخية والبيئية القديمة كما هي مدونة في كل من جذوع النباتات وهياكل الحيوانات القديمة اتضح للدارسين أنه كلما تقادم الزمن بتلك الحلقات السنوية وخطوط النمو زاد عدد الأيام في السنة , وزيادة عدد الأيام في السنة هو تعبير دقيق عن زيادة سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

وبتطبيق هذه الملاحظة المدونة في الأحافير (البقايا الصلبة للكائنات البائدة) بدقة بالغة أتضح أن عدد أيام السنة في العصر الكمبري

(CambrianPeriod)

أي منذ حوالي ستمائة مليون سنة مضت. كان 425 يوما , وفي منتصف العصر الأوردوفيشي

(OrdovicianPeriod)

أي منذ حوالي 450 مليون سنة مضت. كان 415 يوما , وبنهاية العصر الترياسي

(TriassicPeriod)

أي منذ حوالي مائتي مليون سنة مضت. كان 385 يوما , وهكذا ظل هذا التناقص في عدد أيام السنة (والذي يعكس التناقص التدريجي في سرعة دوران الأرض حول محورها) حتي وصل عدد أيام السنة في زماننا الراهن إلي 365,25 يوم تقريبا (365 يوما ,5 ساعات ,49 دقيقة ,12 ثانية) . وباستكمال هذه الدراسة اتضح أن الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها أمام الشمس واحدا من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان بسبب كل من عمليتي المد والجزر وفعل الرياح المعاكسة لاتجاه دوران الأرض حول محورها , وكلاهما يعمل عمل الكابح (الفرامل) التي تبطيء من سرعة دوران الأرض حول محورها . وبمد هذه الدراسة إلي لحظة تيبس القشرة الخارجية للأرض (أي قريبا من

(804/271)

بداية خلقها علي هيئتها الكوكبية) منذ حوالي 4,600 مليو

ن سنة مضت وصل عدد الأيام بالسنة إلي 2200 يوم تقريبا , ووصل طول الليل والنهار معا إلي حوالي الأربع ساعات , ومعني هذا الكلام أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس كانت ستة أضعاف سرعتها الحالية . . ! ! فسبحان الله الذي أنزل في محكم

كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوي علي العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا . . . (الأعراف :54)

وسبحان الله الذي أبقي لنا في هياكل الكائنات الحية والبائدة ما يؤكد تلك الحقيقة الكونية , حتي تبقي هذه الاشارة القرآنية الموجزة يطلبه حثيثا مما يشهد بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم , وبأنه كلام الله الخالق , وبأن خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تلقاه عن طريق الوحي كان موصولا برب السماوات والأرض , وأنه (صلي الله عليه وسلم) ما كان ينطق عن الهوي . . . ! !

ارتباك دوران الأرض قبل

طلوع الشمس من مغربها

بمعرفة كل من سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في أيامنا الراهنة , ومعدل تباطؤ سرعة هذا الدوران مع الزمن , توصل العلماء إلي الاستنتاج الصحيح أن أرضنا سوف يأتي عليها وقت تجبر فيه علي تغيير اتجاه دورانها بعد فترة من الاضطراب , فمنذ اللحظة الأولي لخلقها إلي اليوم وإلي أن يشاء الله تدور أرضنا من الغرب إلي الشرق , فتبدو الشمس طالعة من الشرق , وغاربة في الغرب , فإذا انعكس اتجاه دوران الأرض طلعت الشمس من مغربها وهو من العلامات الكبري للساعة ومن نبوءات المصطفي (صلي الله

عليه وسلم)

فعن حذيفة بن أسيد الغفاري (رضي الله عنه) أنه قال :

اطلع النبي (صلي الله عليه وسلم) علينا ونحن نتذاكر , فقال : ما تذاكرون ؟ , قلنا : نذكر الساعة ,

فقال : إنها لن تقوم حتي تروا قبلها عشر آيات

فذكر : الدخان , الدجال , والدابة , وطلوع

(805/271)

الشمس من مغربها , ونزول عيسي بن مريم , ويأجوج ومأجوج , وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق , وخسف بالمغرب , وخسف بجزيرة العرب , وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلي محشرهم

وعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يقول : إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها , وخروج الدابة علي الناس ضحي , وأيهما ما كانت قبل صاحبتها , فالأخري علي إثرها قريبا .

وفي حديث الدجال الذي رواه النواس بن سمعان (رضي الله عنه) قال : ذكر رسول الله (

صلي الله عليه وسلم) الدجال . . قلنا يا رسول الله : وما لبثه في الأرض ؟ قال (صلي الله عليه وسلم) : أربعون يوما , يوم كسنة , ويوم كشهر , ويوم كجمعة , وسائر أيامه كأيامكم , قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال (صلي الله عليه وسلم) : لا , أقدروا له . . .

ومن الأمور العجيبة أن يأتي العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين ليؤكد أنه قبل تغيير اتجاه دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ستحدث فترة اضطراب نتيجة لتباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها , وفي فترة الاضطراب تلك ستطول الأيام بشكل كبير ثم تقصر وتنتظم بعد ذلك .

ويعجب الإنسان لهذا التوافق الشديد بين نبوءة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) وما أثبته العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين , والسؤال الذي يفرض نفسه : من الذي علم ذلك لهذا النبي الأمي (صلي الله عليه وسلم) ؟ ولماذا أشار القرآن الكريم إلي مثل هذه القضايا الغيبية التي لم تكن معروفة في زمن الوحي ؟ ولا لقرون من بعده ؟ لولا أن الله (تعالي) يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلي اكتشاف تلك الحقائق الكونية فتكون هذه الإشارات المضيئة في كتاب الله وفي أحاديث خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) شهادة له بالنبوة وبالرسالة , في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه .

خطأ شائع يجب تصحيحه :

يظن بعض الناس أننا إذا أدركنا في صخور الأرض أو في صفحة السماء عددا من معدلات التغيير الآنية في النظام الكوني الذي نعيش فيه فإنه قد يكون من الممكن أن نحسب متي ينتهي هذا النظام , وبمعني آخر متي تكون الساعة . . . ! !

وهذا وهم لا أساس له من الصحة لأن الآخرة لها من السنن والقوانين مايغاير سنن الدنيا , وأنها تأتي فجأة بقرار إلهي كن فيكون , دون انتظار لرتابة السنن الكونية الراهنة التي تركها لنا ربنا (تبارك وتعالي) رحمة منه بنا , إثباتا لإمكان حدوث الآخرة , وقرينة علمية علي حتمية وقوعها والتي جادل فيها أهل الكفر والإلحاد عبر التاريخ , والذين كانت حجتهم الواهية الإدعاء الباطل بأزلية العالم , وهو ادعاء أثبتت العلوم الكونية في عطاءاتها الكلية بطلانه بطلانا كاملا . . . ! ! !

فعلي سبيل المثال ـ لا الحصر ـ تفقد شمسنا من كتلتها في كل ثانية علي هيئة طاقة مايساوي 4,6 مليون طن من المادة (أي نحو أربعة بلايين طن في اليوم) , ونحن نعرف كتلة الشمس في وقتنا الحاضر فهل يمكن لعاقل أن يتصور إمكان استمرار الشمس حتي آخر جرام من

مادتها ؟ وحينئذ يمكن بقسمة كتلة الشمس علي ما تفقده في اليوم أن ندرك كم بقي من عمرها ؟

هذا كلام يرفضه العقل السليم , لأن الساعة قرار إلهي غير مرتبط بفناء مادة الشمس , وإن أبقي لنا ربنا (تبارك وتعالي) هذه الظاهرة من الإفناء التدريجي للشمس , ولغيرها من نجوم السماء دليلا ماديا ملموسا علي حتمية الآخرة , أما متي تكون ؟ فهذا غيب مطلق في علم الله , لا يعلمه إلا هو (سبحانه وتعالي) .

وبالمثل فإن الحرارة تنتقل في كوننا المدرك من الأجسام الحارة إلي الأجسام الباردة , ويفترض قانون انتقال الحرارة استمرار تلك العملية حتي تتساوي درجة حرارة كل أجرام الكون وينتهي كل شئ , فهل يمكن لعاقل أن يتصور استمرار الوجود حتي تتساوي درجة

(807/271)

حرارة كل الأجرام في الكون , أم أن هذا قرار إلهي : كن فيكون غير مرتبط بانتقال الحرارة من الأجسام الحارة إلي الأجسام الباردة , وإن أبقاها الله (تعالي) قرينة مادية ملموسة علي حتمية الآخرة ؟ وعلي أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزليا ولا أبديا , فقد كانت له بداية , ولابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية ؟ وهذا ما أثبتته جميع الدراسات العلمية في عصر

تفجر المعرفة الذي نعيشه , وأن تلك النهاية لن تتم برتابة الأحداث الدنيوية في الجزء المدرك من الكون , بل هي قرار إلهي فجائي لا يعلم وقته إلا الله سبحانه وتعالي ولذلك أنزل لنا في محكم كتابه قوله الحق مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) :

يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلاهو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الأعراف :187)

كما أنزل (سبحانه وتعالي) كذلك في المعني نفسه :

يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلي ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (النازعات :42. 46)

وعلي ذلك جاء رد المصطفي (صلي الله عليه وسلم) علي جبريل (عليه السلام) حين سأله في جمع من الصحابة : فأخبرني عن الساعة ؟ بقوله الشريف : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

فسبحان الله الذي أنزل القرآن الكريم بالحق , أنزله بعلمه , وجعله معجزة خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) إلي قيام الساعة , وجعله مهيمنا علي المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها في كل أمر ذكر فيه , وجعل كل آية من آياته , وكل كلمة من كلماته ,

وكل حرف من حروفه , وكل إشارة , ودلالة , ووصف فيه مما يشهد بأنه كلام الله الخالق , ويشهد للنبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم)

بالنبوة والرسالة الخاتمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(808/271)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/272)

الجزء الثانى والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 55 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 56 ﴾ من نفس السورة

(4/272)

قوله تعالى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر تعالى تفرده بالخلق والأمر المقتضي لتفرده بالعبادة للتوجيه إلى تحصيل المعارف

النفسانية والعلوم الحقيقية ، أمر بهذا المقتضى اللائق بتلك المعارف ، وهو الدعاء الذي هو مخ العبادة فقال : ﴿ ادعوا ربكم ﴾ أي الدائم الإحسان إليكم دعاء عبادة وخضوع ﴿ تضرعاً ﴾ أي تذللاً ظاهراً ﴿ وخفية ﴾ أي وتذللاً باطناً ، وقد أثنى على عبده زكريا عليه السلام فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [مريم : 3] أي اجمعوا إلى خضوع الظاهر خضوع الباطن ، أي أخلصوا له العبادة ، إنه يحب المخلصين لأن تفرده بأن يدعى هو اللائق بمقام عز الربوبية ، والتذلل على هذه الصفة هو اللائق بمقام ذل العبودية ، وهذا هو المقصود من الدعاء لا تحويل العلم الأزلي ، وهو المقصود من جميع العبادات ، فإن العبد لا يدعو إلا وقد استحضر من نفسه الذل والصعب والحاجة ، ومن ربه العلم والقدرة والكفاية ، وهذا هو المقصود من جميع العبادات ، فلهذا كان الدعاء مخ العبادة ، وقد جمع هذا الكلام على وجازته كل ما يراد تحقيقه وتحصيله من شرائط الدعاء بحيث إنه لا مزيد عليه ، ومن فعل خلاف ذلك فقد تجاوز الحد ، وإلى ذلك أوماً بتعليله بقوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ أي المجاوزين لما أمروا به في الدعاء وغيره ، قالوا فالمعنى أن من ترك هذا لا يحبه الله ، أي لا يثيبه ألبتة ولا يحسن إليه ، فالآية من الاحتباك آخرها يدل على حذف ضده من صدرها ، وصدرها يدل على أنه حذف قبل الآخر : ولا تتركوا الإخلاص تكونوا معتدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 43 . 44 ﴾

فصل

قال الفخر :

(5/272)

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة والرحمة ، وعند هذا تم التكليف المتوجه إلى تحصيل المعارف النفسانية ، والعلوم الحقيقية ، أتبعه بذكر الأعمال اللائقة بتلك المعارف وهو الاشتغال بالدعاء والتضرع ، فإن الدعاء مخ العبادة ، فقال : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ ﴾

فيه قولان :

قال بعضهم : اعبدوا وقال آخرون : هو الدعاء ، ومن قال بالأول عقل من الدعاء أنه طلب الخير من الله تعالى ، وهذه صفة العبادة ، لأنه يفعل تقرباً ، وطلباً للمجازاة لأنه تعالى عطف عليه قوله : ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ والمعطوف ينبغي أن يكون مغايراً للمعطوف عليه .

والقول الثاني هو الأظهر ، لأن الدعاء مغاير للعبادة في المعنى .

إذا عرفت هذا فنقول : اختلف الناس في الدعاء ، فمنهم من أنكره واحتج على صحة قوله بأشياء : الأول : أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع لامتناع وقوع التغيير في علم الله تعالى ، وما كان واجب الوقوع لم يكن في طلبه فائدة ، وإن كان معلوم اللاوقوع كان ممتنع الوقوع فلا فائدة أيضاً في طلبه .

الثاني : أنه تعالى إن كان قد أراد في الأزل إحداث ذلك المطلوب ، فهو حاصل سواء حصل هذا الدعاء أو لم يحصل ، وإن كان قد أراد في الأزل أن لا يعطيه فهو ممتنع الوقوع فلا فائدة في الطلب ، وإن قلنا أنه ما أراد في الأزل إحداث ذلك الشيء لا وجوده ولا عدمه ، ثم إنه عند ذلك الدعاء ، صار مريداً له لزم وقوع التغير في ذات الله وفي صفاته ، وهو محال . لأن على هذا التقدير : يصير إقدام العبد على الدعاء علة لحدوث صفة في ذات الله تعالى ، فيكون العبد متصرفاً في صفة الله بالتبديل والتغيير ، وهو محال .

(6/272)

والثالث : أن المطلوب بالدعاء إن اقتضت الحكمة والمصلحة إعطاءه ، فهو تعالى يعطيه من غير هذا الدعاء لأنه منزه عن أن يكون بخيلاً وأن اقتضت الحكمة منعه ، فهو لا يعطيه

سواء أقدم العبد على الدعاء أو لم يقدم عليه .

والرابع : أن الدعاء غير الأمر ، ولا تفاوت بين البابين إلا كون الداعي أقل رتبة ، وكون الآمر أعلى رتبة وإقدام العبد على أمر الله سوء أدب ، وإنه لا يجوز .

الخامس : الدعاء يشبه ما إذا أقدم العبد على إرشاد ربه وإلهه إلى فعل الأصلح والأصوب ، وذلك سوء أدب أو أنه ينبه الإله على شيء ما كان منتبهاً له ، وذلك كفر وأنه تعالى قصر في الإحسان والفضل فأنت بهذا تحمله على الإقدام على الإحسان والفضل ، وذلك جهل .

السادس : إن الإقدام على الدعاء يدل على كونه غير راض بالقضاء إذ لو رضي بما قضاه الله عليه لترك تصرف نفسه ، ولما طلب من الله شيئاً على التعيين وترك الرضا بالقضاء أمر من المنكرات .

السابع : كثيراً ما يظن العبد بشيء كونه نافعاً وخيراً ، ثم أنه عند دخوله في الوجود يصير سبباً للآفات الكثيرة والمفاسد العظيمة ، وإذا كان كذلك كان طلب الشيء المعين من الله غير جائز ، بل الأولى طلب ما هو المصلحة والخير ، وذلك حاصل من الله تعالى سواء طلبه العبد بالدعاء أو لم يطلبه .

فلم يبق في الدعاء فائدة .

الثامن : أن الدعاء عبارة عن توجه القلب إلى طلب شيء من الله تعالى ، وتوجه القلب إلى

طلب ذلك الشيء المعين يمنع القلب من الاستغراق في معرفة الله تعالى ، وفي محبته ، وفي عبوديته ، وهذه مقامات عالية شريفة ، وما يمنع من حصول المقامات العالية الشريفة كان مذموماً .

التاسع : روي أنه عليه الصلاة والسلام .

قال حاكياً عن الله سبحانه : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " وذلك يدل على أن الأولى ترك الدعاء .

(7/272)

العاشر : إن علم الحق محيط بحاجة العبد ، والعبد إذا علم أن مولاه عالم باحتياجه ، فسكت ولم يذكر تلك الحاجة كان ذلك أدخل في الأدب ، وفي تعظيم المولى مما إذا أخذ يشرح كيفية تلك الحالة ، ويطلب ما يدفع تلك الحاجة ، وإذا كان الحال على هذا الوجه في الشاهد ، وجب اعتبار مثله في حق الله سبحانه ، ولذلك يقال أن الخليل عليه السلام لما وضع في المنجنيق ليرمى إلى النار .

قال جبريل عليه السلام ادع ربك .

فقال الخليل عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فهذه الوجوه هي المذكورة في هذا

الباب .

واعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة والأسئلة المذكورة واردة في جميع أنواع العبادات ، فإنه يقال إن كان هذا الإنسان سعيداً في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات والعبادات ، وإن كان شقياً في علمه فلا فائدة في تلك العبادات ، وأيضاً يقال وجب أن لا يقدم الإنسان على أكل الخبز وشرب الماء لأنه إن كان هذا الإنسان شبعان في علم الله تعالى فلا حاجة إلى أكل الخبز ، وإن كان جائعاً فلا فائدة في أكل الخبز ، وكما أن هذا الكلام باطل ههنا ، فكذا فيما ذكروه ، بل نقول الدعاء يفيد معرفة ذلة العبودية ويفيد معرفة عزة الربوبية ، وهذا هو المقصود الأشرف الأعلى من جميع العبادات وبيانه أن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه كونه محتاجاً إلى ذلك المطلوب وكونه عاجزاً عن تحصيله وعرف من ربه وإلهه أنه يسمع دعاءه ، ويعلم حاجته وهو قادر على دفع تلك الحاجة وهو رحيم تقتضي رحمته إزالة تلك الحاجة ، وإذا كان كذلك فهو لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف كونه موصوفاً بالحاجة وبالعجز وعرف كون الإله سبحانه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والرحمة ، فلا مقصود من جميع التكاليف إلا معرفة ذل العبودية وعز الربوبية ، فإذا كان الدعاء مستجمعاً لهذين المقامين لا جرم كان الدعاء أعظم أنواع العبادات .

وقوله تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه لأن التضرع لا يحصل إلا من الناقص في حضرة الكامل فما لم يعتقد العبد نقصان نفسه وكمال مولاه في العلم والقدرة والرحمة لم يقدم على التضرع ، فثبت أن المقصود من الدعاء ما ذكرناه ، فثبت أن لفظ القرآن دليل عليه والذي يقوي ما ذكرناه ما روي أنه عليه السلام قال : " ما من شيء أكرم على الله من الدعاء والدعاء هو العبادة " ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ [غافر : 60] وتمام الكلام في حقائق الدعاء مذكور في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] والله أعلم .

المسألة الثانية :

في تقرير شرائط الدعاء .

اعلم أن المقصود من الدعاء أن يصير العبد مشاهداً لحاجة نفسه ولعجز نفسه ومشاهداً لكون مولاه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والرحمة ، فكل هذه المعاني دخلت تحت قوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ ثم إذا حصلت هذه الأحوال على سبيل الخلوص ، فلا بد من صونها عن الرياء المبطل لحقيقة الإخلاص ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ والمقصود من ذكر التضرع تحقيق الحالة الأصلية المطلوبة من الدعاء والمقصود من ذكر

الإخفاء صون ذلك الأخلاص عن شوائب الرياء ، وإذا عرفت هذا المعنى ظهر لك أن قوله سبحانه : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ مشتمل على كل ما يراد تحقيقه وتحصيله في شرائط الدعاء ، وأنه لا يزيد عليه ألبتة بوجه من الوجوه ، وأما تفصيل الكلام في تلك الشرائط ، فقد بالغ في شرحها الشيخ سليمان الحليمي رحمة الله عليه في كتاب المنهاج فليطلب من هناك .

المسألة الثالثة :

"التضرع" التذلل والتخشع ، وهو إظهار ذل النفس من قولهم : ضرع فلان لفلان ، وتضرع له إذا أظهر الذل له في معرض السؤال "والخفية" ضد العلانية .

(9/272)

يقال : أخفيت الشيء إذا سترته ، ويقال : ﴿ خفية ﴾ أيضاً بالكسر ، وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر عنه ﴿ خفية ﴾ بكسر الخاء ههنا وفي الأنعام ، والباقون بالضم ، وهما لغتان :

واعلم أن الإخفاء معتبر في الدعاء ، ويدل على وجوه : الأول : هذه الآية فإنها تدل على أنه تعالى أمر بالدعاء مقروناً بالإخفاء ، وظاهر الأمر للوجوب ، فإن لم يحصل الوجوب ،

فلا أقل من كونه ندباً .

ثم قال تعالى بعده : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ والأظهر أن المراد أنه لا يحب المعتدين في ترك هذين الأمرين المذكورين ، وهما التضرع والإخفاء ، فإن الله لا يحبه ومحبة الله تعالى عبارة عن الثواب ، فكان المعنى أن من ترك في الدعاء التضرع والإخفاء ، فإن الله لا يثيبه ألبتة ، ولا يحسن إليه ، ومن كان كذلك كان من أهل العقاب لا محالة ، فظهر أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ كالتهديد الشديد على ترك التضرع والإخفاء في الدعاء .

الحجة الثانية : أنه تعالى أثنى على زكريا فقال : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] أي أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه .

الحجة الثالثة : ما روى أبو موسى الأشعري ، أنهم كانوا في غزاة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم فقال عليه السلام : " ارفقوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وإنه لمعكم "

(10/272)

الحجة الرابعة : قوله عليه السلام : " دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية " وعنه عليه السلام : " خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي " وعن الحسن أنه كان يقول : إن

الرجل كان يجمع القرآن وما يشعر به جاره ، يفقه الكثير وما يشعر به الناس ، ويصلي الصلاة الطويلة في ليله وعنده الزائرون وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواماً كانوا يبالغون في إخفاء الأعمال ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع صوتهم إلا همساً ، لأن الله تعالى قال : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وذكر الله عبده زكريا فقال : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] .

الحجة الخامسة : المعقول وهو أن النفس شديدة الميل عظيمة الرغبة في الرياء والسمعة ، فإذا رفع صوته في الدعاء امتزج الرياء بذلك الدعاء فلا يبقى فيه فائدة ألبتة فكان الأولى إخفاء الدعاء ليبقى مصوناً عن الرياء وههنا مسائل عظم اختلاف أرباب الطريقة فيها ، وهي : أنه هل الأولى إخفاء العبادات أم إظهارها ؟ فقال بعضهم الأولى إخفاؤها صوناً لها عن الرياء وقال أخرون : الأولى إظهارها ليرغب الغير في الاقتداء به في أداء تلك العبادات .

وتوسط الشيخ محمد بن عيسى الحكيم الترمذي فقال : إن كان خائفاً على نفسه من الرياء الأولى الإخفاء صوناً لعمله عن البطلان ، وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى حيث صار آمناً عن شائبة الرياء كان الأولى في حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء .

المسألة الرابعة :

قال أبو حنيفة رحمه الله ، إخفاء التأمين أفضل .

وقال الشافعي رحمه الله ، إعلانه أفضل ، واحتج أبو حنيفة على صحة قوله ، قال : في قوله : "آمين" وجهان : أحدهما : أنه دعاء .

(11/272)

والثاني : أنه من أسماء الله ، فإن كان دعاء وجب إخفاؤه لقوله تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وإن كان اسماً من أسماء الله تعالى وجب إخفاؤه لقوله تعالى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف : 205] فإن لم يثبت الوجوب فلا أقل من الندبية ونحن بهذا القول نقول :

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أجمع المسلمون على أن المحبة صفة من صفات الله تعالى ، لأن القرآن نطق بإثباتها في آيات كثيرة .

واتفقوا على أنه ليس معناها شهوة النفس وميل الطبع وطلب التلذذ بالشيء ، لأن كل ذلك في حق الله تعالى محال بالاتفاق ، واختلفوا في تفسير المحبة في حق الله تعالى على ثلاثة أقوال :

فالقول الأول : أنها عبارة عن أيصال الله الثواب والخير والرحمة إلى العبد .

والقول الثاني : أنها عبارة عن كونه تعالى مريداً لإيصال الثواب والخير إلى العبد .

وهذا الاختلاف بناء على مسألة أخرى وهي : أنه تعالى هل هو موصوف بصفة الإرادة أم لا ؟ قال الكعبي وأبو الحسين : إنه تعالى غير موصوف بالإرادة ألبتة ، فكونه تعالى مريداً لأفعال نفسه أنه موجد لها وفاعل لها ، وكونه تعالى مريداً لأفعال غيره كونه آمراً بها ولا يجوز كونه تعالى موصوفاً بصفة الإرادة .

وأما أصحابنا ومعتزلة البصرة فقد أثبتوا كونه تعالى موصوفاً بصفة المريدية .

إذا عرفت هذا فمن نفي الإرادة في حق الله تعالى فسر محبة الله بمجرد إيصال الثواب إلى العبد ومن أثبت الإرادة لله تعالى فسر محبة الله بإرادته لإيصال الثواب إليه .

والقول الثالث : أنه لا يبعد أن تكون محبة الله تعالى للعبد صفة وراء كونه تعالى مريداً لإيصال الثواب إليه ، وذلك لأنا نجد في الشاهد أن الأب يحب ابنه فيترتب على تلك المحبة إرادة إيصال الخير إلى ذلك الابن فكانت هذه الإرادة أثراً من آثار تلك المحبة وثمرة من ثمراتها وفائدة من فوائدها .

(12/272)

أقصى ما في الباب أن يقال : إن هذه المحبة في الشاهد عبارة عن الشهوة وميل الطبع ورغبة النفس وذلك في حق الله تعالى محال ، إلا أنا نقول : لم لا يجوز أن يقال محبة الله تعالى صفة أخرى ، سوى الشهوة وميل الطبع يترتب عليها إرادة إيصال الخير والثواب إلى العبد ؟

أقصى ما في الباب ، أنا لا نعرف أن تلك المحبة ما هي وكيف هي ؟ ا إلا أن عدم العلم بالشيء لا يوجب العلم بعدم ذلك الشيء ألا ترى أن أهل السنة يثبتون كونه تعالى مرئياً ، ثم يقولون إن تلك الرؤية مخالفة لرؤية الأجسام والألوان ، بل هي رؤية بلا كيف ، فلم لا يقولون ههنا أيضاً أن محبة الله للعبد محبة منزهة عن ميل الطبع وشهوة النفس بل هي محبة بلا كيف ؟ فثبت أن جزم المتكلمين بأنه لا معنى لمحبة الله إلا إرادة إيصال الثواب ليس لهم على هذا الحصر دليل قاطع .

بل أقصى ما في الباب أن يقال لا دليل على إثبات صفة أخرى سوى الإرادة فوجب نفيها ، لكنا بينا في كتاب نهاية العقول أن هذه الطريقة ضعيفة ساقطة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ أي المجاوزين ما أمروا به .

قال الكلبي وابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء .

المسألة الثالثة :

اعلم أن كل من خالف أمر الله تعالى ونهيه ، فقد اعتدى وتعدى فيدخل تحت قوله : ﴿ إِنَّهُ

لاَيُحِبُّ المعتدين ﴾ وقد بينا أن من لا يحبه الله فإنه يعذبه ، فظاهر هذه الآية يقتضي أن كل من خالف أمر الله ونهيه ، فإنه يكون معاقباً ، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق ، وقالوا لا يجوز أن يقال المراد منه الاعتداء في رفع الصوت بالدعاء وبيانه من وجهين : الأول : أن لفظ ﴿ المعتدين ﴾ لفظ عام دخله الألف واللام ، فيفيد الاستغراق غايته أنه إنما ورد في هذه الصورة لكنه ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الثاني : أن رفع الصوت بالدعاء ليس من المحرمات بل غايته أن يقال الأولى تركه ، وإذا لم يكن من المحرمات لم يدخل تحت هذا الوعيد .

والجواب المستقصى ما ذكرناه في سورة البقرة أن التمسك بهذه العمومات لا يفيد القطع بالوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 14 صـ 104 . 108 ﴾

(13/272)

وقال السمرقندى :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

فلما وصف وبالغ في ذلك وأعجزهم فأمرهم بأن يدعوه فقال : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

وَخُفْيَةً ﴾ قال الكلبي : يعني في الأحوال كلها .

يعني : ادعوا الذي خلق هذه الأشياء في الأحوال كلها .

ويقال خفية يعني : اعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه العبادة .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يعني : أن يدعوا بما لا يحل أو يدعوا على أحد باللعن والخزي أو تدعوا عليه بالشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(14/272)

وقال الثعلبى :

﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً ﴾ تذلّلا واستكانة ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ سرّاً .

وروى عاصم الأحول عن ابن عثمان الهندي عن أبي موسى قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزاء فأشرفوا على واد فجعل [ناس] يكبّرون ويهلّلون ويرفعون أصواتهم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم " أيُّها الناس أربعوا على أنفسكم إنّكم لا تدعون أصم ولا [غائباً] إنّكم تدعون سميعاً قريباً إنّه معكم " .

وقال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ثمّ قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما شعر به جاره فالرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس . وإن كان الرجل

ليصلّي الصلاة الطويلة في بيت وعنده الدور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدورن أن يعملوه في السرّ فيكون علانية أبداً .

ولقد كان المسلمون [يجتهدون] في الدعاء ولا يسمع لهم صوتاً كأن كان إلا همساً بينهم وبين دينهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وإن الله ذكر عبداً صالحاً ورضى فعله فقال عزّ مَنْ قائل : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ في الدعاء ، قال أبو مجلن : هم الذين يسألون منازل الأنبياء ، وقال عطيّة العوفي : هم الذين يدعونه فيما لا يحل على المؤمنين فيقولون : اللّهمّ أخزهم اللّهمّ ألعنهم ، قال ابن جريج : من [الاعتداء] رفع الصوت والنداء بالدعاء والصفح وكانوا يؤمرون بالتضرّع والاستكانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(15/272)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : في الرغبة والرهبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : التضرع : التذلل والخضوع ، والخفية : إخلاص القلب .

ويحتمل أن التضرع بالبدن ، والخفية إخلاص القلب .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يعني في الدعاء ، والاعتداء فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء ، قاله أبو مجلز .

والثاني : أنه يدعو باللعنه والهلاك على من لا يستحق ، قاله مقاتل .

والثالث : أن يرفع صوته بالدعاء ، روى أبو عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فأشرفوا واد ، فجعل الناس يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم إِنَّكُم لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً إِنَّكُم تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وَهُوَ مَعَكُمْ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(16/272)

وقال ابن عطية :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

هذا أمر بالدعاء وتعبد به ، ثم قرر عز وجل بالأمر به صفات تحسن معه ، وقوله : ﴿ تضرعاً ﴾ معناه بخشوع واستكانة ، والتضرع لفظة تقتضي الجهر لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب ، ﴿ وخفية ﴾ يريد في النفس خاصة ، وقد أثنى الله عز وجل على ذلك في قوله ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [مريم : 3] ونحو هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " خير الذكر الخفي " ، والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر ، وتأول بعض العلماء " التضرع والخفية " في معنى السر جميعاً ، فكأن التضرع فعل للقلب ، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن ، وقال : لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت ، وإن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [مريم : 3] وقال الزجاج ﴿ ادعوا ربكم ﴾ معناه اعبدوا ربكم ﴿ تضرعاً وخفية ﴾ أي باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب ، وقرأ جميع السبعة " وخُفية " بضم الخاء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر هنا وفي الأنعام و" خِفية " بكسرها وهما لغتان ، وقد قيل إن " خِفية " بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبة ، ويظهر ذلك من كلام أبي علي .

وقرأت فرقة " وخِيفة " من الخوف ، أي ادعوه باستكانة وخوف ذكرها ابن سيده في المحكم ولم ينسبها ، وقال أبو حاتم قرأها الأعمش فيما زعموا ، وقوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ يريد في الدعاء وإن كان اللفظ عاماً ، فإلى هذا هي الإشارة ، والاعتداء في الدعاء على وجوه ، منها الجهر الكثير والصياح كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوم – وقد رعفوا أصواتهم بالتكبير – : " أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً " ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي أو يدعو في محال ونحو هذا من التشطط ، ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك ، وفي هذه الأسئلة كفاية ، وقرأ ابن أبي عبلة " إن الله لا يحب المعتدين " ، والمعتدي هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر ، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون أقوام يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة ما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(18/272)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ﴾

التضرع : التذلُّل والخضوع ، والخُفية : خلاف العلانية .

قال الحسن : كانوا يجتهدون في الدعاء ، ولا تسمع إلا همساً .

ومن هذا حديث أبي موسى : " اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً "

وفي الاعتداء المذكور هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الاعتداء في الدعاء .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يدعو على المؤمنين بالشر ، كالخزي واللعنة ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والثاني : أن يسأل مالا يستحقه من منازل الأنبياء ، قاله أبو مجلز .

والثالث : أنه الجهر في الدعاء ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنه مجاوزة المأمور به ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ

﴾

(19/272)

وقال القرطبى :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمرٌ بالدعاء وتعبُّد به .

ثم قرن جلّ وعز بالأمر صفاتٍ تحسُنُ معه ، وهي الخشوع والاستكانة والتضرع .

ومعنى "خُفْيَةً" أي سراً في النفس ليبعد عن الرياء ؛ وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام إذ قال مخبراً عنه : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : 3] .

ونحوه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الذكر الخفيُّ وخيرُ الرزق ما يكفي "

والشريعة مقرّرة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر .

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" .

قال الحسن بن أبي الحسن : لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً .

ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت ، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم .

وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ .

وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : 3] .

وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذا على أن إخفاء "آمين" أولى من الجهر بها ؛ لأنه دعاء .

وقد مضى القول فيه في "الفاتحة" .

وروى مسلم عن أبي موسى قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفر وفي رواية في غزاة فجعل الناس يجهرون بالتكبير وفي رواية فجعل رجل كلما علا ثَنِيّة قال : لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لستم تدعون أصَمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم " الحديث .

الثانية : واختلف العلماء في رفع اليدين في الدعاء ؛ فكرهه طائفة منهم جُبير بن مُطْعِم وسعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير .

(20/272)

ورأى شُرَيح رجلاً رافعاً يديه فقال : من تتناول بهما ، لا أمّ لكا وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم : قطعها الله .

واختاروا إذا دعا الله في حاجة أن يشير بأصبعه السبابة .

ويقولون : ذلك الإخلاص .

وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه .

وكره رفع الأيدي عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم .

وروي جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره البخاريّ .

قال أبو موسى الأشعري : " دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه " ومثله عن أنس .

وقال ابن عمر : " رفع النبيّ صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد " " وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة مادًّا يديه ، فجعل يهتف بربه ؛ وذكر الحديث .

وروى الترمذيّ عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه .

قال : هذا حديث صحيح غريب .

وروى ابن ماجه عن سَلمان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن ربكم حيّ كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صَفْراً أو قال خائبتين " احتج الأوّلون بما رواه

مسلم عن عمارة بن رُوَيبة " ورأى بِشر بن مَرْوان على المنبر رافعاً يديه فقال : قبّح الله هاتين اليدين ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على أن يقول بيده هكذا ؛ وأشار بأصبعه المسبِّحة " وبما روى سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثه : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعهما حتى يُرَى بياضُ إبطيْه " والأوّل أصحّ طُرُقاً وأثبت من حديث سعيد بن أبي عَروبة ؛ فإن سعيداً كان قد تغير عقله في آخر عمره .

(21/272)

وقد خالفه شعبة في روايته عن قتادة عن أنس بن مالك فقال فيه : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يُرى بياض إبطيْه " وقد قيل : إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عند ذلك جميل حسن ؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ويوم بَدْر .

قلت : والدعاء حَسَن كيفما تيسر ، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل ، والتذلل له والخضوع .

فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ؛ فقد فعل ذلك النبيّ صلى الله

عليه وسلم حسبما ورد في الأحاديث .

وقد قال تعالى : ﴿ ادعوا ربَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ .

ولم يرد صفة من رفع يدين وغيرها .

وقال : ﴿ الذين يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً ﴾ [آل عمران : 191] فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذكر .

وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ يريد في الدعاء وإن كان اللفظ عامّاً (إلى هذا هي الإشارة) .

والمعتدي هو المجاوز للحدّ ومرتكب الحظر .

وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون قوم يعتدون في الدعاء " أخرجه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة .

حدّثنا عفّان حدّثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجُرَيْرِيّ عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفّل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها .

فقال : أي بني ، سَلِ الله الجنة وعُذْ بِه من النار ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" سيكون قوم يعتدون في الدعاء " والاعتداء في الدعاء على وجوه : منها الجهر الكثير والصياح ؛ كما تقدم .

ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبيّ ، أو يدعو في محال ؛ ونحو هذا من الشطط .

ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك .

(22/272)

ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة ؛ فيتخير ألفاظاً مفقرة وكلمات مسجّعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها ، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسولُه عليه السلام .

وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء ؛ كما تقدم في "البقرة" بيانه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(23/272)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم ﴾ قيل معناه اعبدوا ربكم لأن معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه الصفة العبادة ولأنه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفاً وطمعاً والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه .

وقيل : المراد به حقيقة الدعاء هو الصحيح لأن الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لأن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته ، وهو قادر على إيصالها إلى الداعي فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ تضرعاً ﴾ يعني ادعوا ربكم تذللاً واستكانة ، وهو إظهار الذل في النفس والخشوع .

يقال : ضرع فلان لفلان إذا أذل له وخشع .

(24/272)

وقال الزجاج : تضرعاً يعني تملقاً وحقيقته أن ندعوه خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى ﴿ وخفية ﴾ يعني سراً في أنفسكم وهو ضد العلانية والأدب في الدعاء أن يكون

خفياً لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وأن الله تعالى ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال تعالى : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ (ق) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " قال أبو موسى رضي الله عنه وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في نفسي فقال : " يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة " قلت بلى يا رسول الله قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " قوله صلى الله عليه وسلم " أربعوا على أنفسكم " يعني ارفقوا بها وأقصروا عن الصياح في الدعاء .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ يعني في الدعاء ، وقال أبو مجلز : هم الذين يسألون منازل الأنبياء .

عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها قال أي بني سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء "

أخرجه أبو داود .

وقال ابن جريج : الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء .

(25/272)

وقيل : الاعتداء مجاوزة الحد في كل شيء فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ وفرع بعض أرباب الطريقة على قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ هل الأفضل إظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم إلى أن إخفاء الطاعات والعبادات أفضل من إظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم إلى إن إظهارها أفضل ليقتدي به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن عبد الحكيم الترمذي فقال : إن كان خائفاً على نفسه من الرياء ، فالأولى إخفاء العبادات صوناً لعمله عن البطلان وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى التمكين بحيث صار مبايناً شائبة الرياء كأن الأولى في حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء به ؛ وذهب بعضهم إلى أن إظهار العبادات المفروضات أفضل من إخفائها فالصلاة المكتوبة في المسجد أفضل من صلاته في بيته وصلاة النفل في البيت أفضل من صلاته في المسجد وكذا

إظهار الزكاة أفضل من إخفائها وإخفاء صدقة التطوع أفضل من أظهارها ويقاس على هذا سائر العبادات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(26/272)

وقال أبو حيان :

﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾

الظاهر أنّ الدعاء هو مناجاة الله بندائه لطلب أشياء ولدفع أشياء ، وقال الزّجاج : المعنى اعبدوا وانتصب ﴿ تضرّعاً وخفية ﴾ على الحال أي متضرّعين ومخفين أو ذوي تضرّع واختفاء في دعائكم وفي الحديث الصحيح " إنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً " وكان الصحابة حين أخبرهم الرسول بذلك قد جهروا بالذكر أمر تعالى بالدعاء مقروناً بالتذلل والاستكانة والاختفاء إذ ذاك ادّعى للإجابة وأبعد عن الرياء والدعاء خفية أفضل من الجهر ولذلك أثنى الله على زكريا عليه السلام فقال : ﴿ إذ ناد ربه نداء خفياً ﴾ وفي الحديث " خير الذّكر الخفي " وقواعد الشريعة مقررة أن السرّ فيما لم يفترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر .

(27/272)

قال الحسن : أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم انتهى ولو عاش الحسن إلى هذا الزمان العجيب الذي ظهر فيه ناس يتسمون بالمشايخ يلبسون ثياب شهرة عند العامة بالصّلاح ويتركون الاكتساب ويرتبون لهم إذكاراً لم ترد في الشريعة يجهرون بها في المساجد ويجمعون لهم خداماً يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم ونتش أموالهم ويذيعون عنهم كرامات ويرون لهم منامات يدوّنونها في أسفار ويحضون على ترك العلم والاشتغال بالسنّة ويرون الوصول إلى الله بأمور يقررونها من خلوات وأذكار لم يأت بها كتاب منزل ولا نبي مرسل ويتعاظمون على الناس بالانفراد على سجادة ونصب أيديهم للتقبيل وقلّة الكلام وإطراق الرؤوس وتعيين خادم يقول الشيخ مشغول في الخلوة رسم الشيخ قال الشيخ رأى الشيخ الشيخ نظر إليك الشيخ كان البارحة يذكرك إلى نحو من هذه الألفاظ التي يخشون بها على العامة ويجلبون بها عقول الجهلة هذا إن سلم الشيخ وخادمه من الاعتقاد الذي غلب الآن على متصوفة هذا الزمان من القول بالحلول أو القول بالوحدة فإذ ذاك يكون منسلخاً عن شريعة الإسلام بالكليّة والتعجب لمثل هؤلاء كيف ترتب لهم الرّواتب وتبنى لهم الربط وتوقف عليها الأوقاف ويخدمهم الناس في عروهم عن سائر الفضائل ولكن الناس أقرب إلى أشباههم منهم إلى غير أشباههم وقد

أطلنا في هذا رجاء أن يقف عليه مسلم فينتفع به ، وقرأ أبو بكر بكسر ضمة الخاء وهما لغتان ويظهر ذلك من كلام أبي علي ولا يتأتى إلا على ادعاء القلب وهو خلاف الأصل ونقل ابن سيده في المحكم أنّ فرقة قرأت ﴿ وخيفة ﴾ من الخوف أي ادعوه باستكانة وخوف .

وقال أبو حاتم قرأها الأعمش فيما زعموا .

(28/272)

﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة إن الله جعل مكان المضمر المظهر وهذا اللفظ عام يدخل فيه أوّلاً الدعاء على غير هذين الوجهين من عدم التضرّع وعدم الخفية بأن يدعوه وهو ملتبس بالكبر والزهو أو أن ذلك دأبه في المواعيد والمدارس فصار ذلك له صنعة وعادة فلا يلحقه تضرّع ولا تذلل وبأن يدعوه بالجهر البليغ والصياح كدعاء الناس عند الاجتماع في المشاهد والمزارات ، وقال العلماء الاعتداء في الدعاء على وجوه منها الجهر الكثير والصّياح وأن يدعو أن يكون له منزلة نبي وأن يدعو بمحال ونحوه من الشّطط وأن يدعو طالب معصية ، وقال ابن جريج والكلبي الاعتداء رفع الصوت بالدعاء وعنه الصّياح في الدعاء مكروه وبدعة وقيل هو الإسهاب في الدعاء قال القرطبي وقد ذكر

وجوهاً من الاعتداء في الدعاء قال : ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب العزيز ولا في السّنة فيتخير ألفاظاً مقفاة وكلمات مسجعة وقد وجدها في كراريس لهؤلاء يعني المشايخ لا معوّل عليها فيجعلها شعاره يترك ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل هذا يمنع من استجابة الدّعاء ، وقال ابن جبير : الاعتداء في الدّعاء أن يدعو على المؤمنين بالخزي والشّرك واللعنة ، وفي سنن ابن ماجة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال : أي بني سل الله الجنة وعُذْ به من النار فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" سيكون قوم يعتدون في الدعاء " زاد ابن عطية والزمخشري في هذا الحديث " وحسب المرء أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل " ثم قرأ ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(29/272)

وقال أبو السعود :

ثم أمر بأن يدعوُه مخلِصين متذلّلين فقال :

﴿ ادعوا ربَّكُمْ ﴾ الذي قد عَرَفتم شؤونَه الجليلة ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي ذوي تضرّعٍ وخُفية فإن الإخفاءَ دليلُ الإخلاص ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ أي لا يحب دعاءَ المجاوزين لما أُمروا به في كل شيء ، فيدخُل فيه الاعتداءُ في الدعاء دخولاً أولياً ، وقد نُبِّه به على أن الداعيَ يجب أن لا يطلُب ما لا يليق به كرتبة الأنبياءِ والصعودِ إلى السماء ، وقيل : هو الصياحُ في الدعاء والإسهابُ فيه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " سيكونُ قومٌ يعتدون في الدعاء وحسْبُ المرءِ أن يقول : اللهم إني أسألُك الجنةَ وما قرّب إليها من قول وعملٍ ، وأعوذُ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل " ثم (قرأ) "إِنَّهُ لا يحبُّ المعتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(30/272)

وقال الآلوسى :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

ثم إنه تعالى بعد أن بين التوحيد وأخبر أنه المتفرد بالخلق والأمر أمر عبادة أن يدعوه مخلصين متذللين فقال عز من قائل : ﴿ ادعوا ربَّكُمْ ﴾ الذي عرفتم شؤونه الجليلة ، والمراد من الدعاء كما قال غير واحد السؤال والطلب وهو مخ العبادة لأن الداعي لا يقدم على

الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وأنه عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم الحاجة وهو قادر على إيصالها إليه .

ولا شك أن معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص ومعرفته ربه بالقدرة والكمال من أعظم العبادات .

وقيل : المراد منه هنا العبادة لأنه عطف عليه ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف : 56] والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه وفيه نظر ، أما أولاً فلأن المغايرة تكفي باعتبار المتعلقات كما تقول ضربت زيداً وضربت عمراً .

وأما ثانياً فلأنها لا تستدعي حمل الدعاء هنا على العبادة بل حمله على ذلك إما هناك أو هنا ، وأما ثالثاً فلأنه خلاف التفسير المأثور كما ستعلمه إن شاء الله تعالى : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي ذوي تضرع أو متضرعين فنصبه على الحال من الفاعل بتقدير أو تأويل ، وجوز نصبه على المصدرية وكذا الكلام فيما بعد .

وهو من الضراعة وهي الذل والاستكانة يقال ضرع فلان لفلان إذا ذل له واستكان ، وقال الزجاج التضرع التملق وهو قريب مما قالوا أي ادعوه تذللا ، وقيل : التضرع مقابل الخفية واختاره أبو مسلم أي ادعوه علانية .

﴿ وَخُفْيَةً ﴾ أي سراً .

أخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فرضي له فعله فقال تعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] وفي رواية عنه أنه قال : " بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً " .

وجاء من حديث أبي موسى الأشعري أنه صلى الله عليه وسلم قال لقوم يجهرون : " أيها الناس إربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " والمعنى ارفقوا بأنفسكم واقصروا من الصياح في الدعاء .

ومن هنا قال جمع بكراهة رفع الصوت به .

وفي "الانتصاف" "حسبك في تعين الإسرار فيه اقترانه في الآية بالتضرع فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله تعالى (في الدعاء) وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى فكذلك دعاء لا خفية فيه ولا وقار يصحبه ، وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ في الدعاء خصوصاً في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد وتستك المسامع وتستد ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين رفع الصوت في الدعاء وكون ذلك في المسجد .

وروى ابن جرير عن ابن جريج أن رفع الصوت بالدعاء من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن زيد بن أسلم .

وذهب بعضهم إلى أنه مما لا بأس به ، ودعاء المعتدين الذي لا يحبه الله تعالى هو طلب ما لا يليق بالداعي كرتبة الأنبياء عليهم السلام والصعود إلى السماء .

وإن منه ما ذهب جمع إلى أنه كفر كطلب دخول إبليس وأبي جهل وأضرابهما الجنة وطلب نزول الوحي والتنبي ونحو ذلك من المستحيلات لما فيه من طلب إكذاب الله تعالى نفسه .

(32/272)

وأخرج أحمد في "مسنده" وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم إني أسالك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ " وفصل آخرون فقالوا : الإخفاء أفضل عند خوف الرياء والإظهار أفضل عند عدم خوفه ، وأولى منه القول بتقديم الإخفاء على الجهر فيما إذا خيف الرياء أو كان في الجهر تشويش على نحو مصل أو نائم أو قارىء أو مشتغل بعلم شرعي ، وبتقديم الجهر على الإخفاء فيما إذا خلا عن ذلك وكان فيه قصد تعليم جاهل

أو نحو إزالة وحشة عن مستوحش أو طرد نحو نعاس أو كسل عن الداعي نفسه أو إدخال سرور على قلب مؤمن أو تنفير مبتدع عن بدعة أو نحو ذلك ، ومنه الجهر بالترضي عن الصحابة والدعاء لإمام المسلمين في الخطبة .

وقد سن الشافعية الجهر بآمين بعد الفاتحة وهو دعاء ويجهر بها الإمام والمأموم عندهم .

وفرق بعضهم بين رفع الصوت جداً كما يفعله المؤذنون في الدعاء بالفرج على المآذن وبين رفعه بحيث يسمعه من عنده فقال : لا بأس في الثاني غالباً ولا كذلك الأول .

والظاهر أن المراد بالمعتدين المجاوزون ما أمروا به في كل شيء ويدخل فيهم المعتدون في الدعاء دخولاً أولياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أن المعنى في الآية أدعوا ربكم في كل حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة ولا تعتدوا فتدعوا على مؤمن ومؤمنة بشر كالخزي واللعن .

وقد اختلف العلماء في كفر من دعا على آخر بسلب الإيمان أو الموت كافراً وهو من أعظم أنواع الإعتداء والمفتى به عدم الكفر .

(33/272)

وذكروا للدعاء آداباً كثيرة ، منها الكون على طهارة واستقبال القبلة وتخلية القلب من الشواغل وافتتاحه واختتامه بالتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم ورفع اليدين نحو السماء وإشراك المؤمنين فيه وتحري ساعات الإجابة ، ومنها يوم الجمعة عند كثير ساعة الخطبة ويدعو فيها بقلبه كما نص عليه أفضل متأخرى مصره الفاضل الطحطاوي في "حواشيه على الدر المختار" فيما نقله عنه أفقه المعاصرين ابن عابدين الدمشقي ووقت نزول الغيث والإفطار وثلث الليل الأخير وبعد ختم القرآن وغير ذلك مما هو مبسوط في محله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(34/272)

وقال ابن عاشور :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

استئناف جاء معترضاً بين ذكر دلائل وحدانية الله تعالى بذكر عظيم قدرته على تكوين أشياء لا يشاركه غيره في تكوينها .

فالجملة معترضة بين جملة ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] وجملة : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ [الأعراف : 57] جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز

فُرص تهنُّؤ القلوب للذّكرى .

والخطاب بـ ﴿ ادعوا ﴾ خاص بالمسلمين لأنّه تعليم لأدب دعاء الله تعالى وعبادته ، وليس المشركون بمتهيّئين لمثل هذا الخطاب ، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم وتنبيه على رضى الله عنهم ومحبّته ، وشاهدُه قوله بعده : ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] .

والخطاب مُوَجَّه إلى المسلمين بقرينة السياق .

و(الدّعاء) حقيقته النّداء ، ويطلق أيضاً على النّداء لطلب مهمّ ، واستعمل مجازاً في العبادة لاشتمالها على الدّعاء والطّلب بالقول أو بلسان الحال ، كما في الرّكوع والسّجود ، مع مقارنتها للأقوال وهو إطلاق كثير في القرآن .

والظاهر أنّ المراد منه هنا الطّلب والتّوجه ، لأنّ المسلمين قد عبدوا الله وأفردوه بالعبادة ، وإنّما المهمّ إشعارهم بالقرب من رحمة ربّهم وإدناء مَقامهم منها .

وجيء لتعريف الرّب بطريق الإضافة دون ضمير الغائب ، مع وجود معاد قريب في قوله : ﴿ تبارك الله ﴾ [الأعراف : 54] ودون ضمير المتكلّم ، لأنّ في لفظ الرّب إشعاراً بتقريب المؤمنين بصلة المربوبية ، وليتوسّل بإضافة الرّب إلى ضمير المخاطبين إلى تشريف المؤمنين وعناية الرّب بهم كقوله : ﴿ بل الله مولاكم ﴾ [آل عمران : 150] .

والتّضرّع : إظهار التّذلل بهيئة خاصة ، ويطلق التّضرع على الجهر بالدّعاء لأنّ الجهر من هيئة التّضرع ، لأنّه تذلّل جهري ، وقد فُسّر في هذه الآية وفي قوله في الأنعام (63) : ﴿ تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ بالجهر بالدّعاء ، وهو الذي نختاره لأنّه أنسب بمقابلته بالخُفية ، فيكون أسلوبه وفقا لأسلوب نظيره في قوله ﴿ ادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ [الأعراف : 56] وتكون ، الواو للتقسيم بمنزلة (أو) وقد قالوا : إنّها فيه أجود من (أوْ) .

ومن المفسّرين من أبقى التّضرع على حقيقته وهو التّذلل ، فيكون مصدراً بمعنى الحال ، أي متذلّلين ، أو مفعولاً مطلقاً ل ﴿ ادعوا ﴾ ، لأنّ التّذلّل بعض أحوال الدّعاء فكأنّه نوع منه ، وجعلوا قوله : وخفية ﴾ مأموراً به مقصوداً بذاته ، أي ادعوه مُخفين دعاءكم ، حتّى أوهم كلام بعضهم أنّ الإعلان بالدّعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه ، وهذا خطأ : فإنّ النّبيء صلى الله عليه وسلم دعا علَناً غير مرّة .

وعلى المنبر بمسمع من النّاس وقال : " اللّهمّ اسْقِنا " وقال : " اللّهمّ حَوالَيْنا ولا علينا " وقال : " اللّهمّ عليك بقريش " الحديث .

وما رويت أدعيته إلاّ لأنّه جهر بها يسمعها من رَوَاها ، فالصّواب أنّ قوله : ﴿ تضرعاً ﴾ إذنٌ بالدّعاء بالجهر والإخفاء ، وأمّا ما ورد من النّهي عن الجهر فإنّما هو عن الجهر الشّديد الخارج عن حدّ الخشوع .

وقرأ الجمهور ﴿ وخفية ﴾ بضمّ الخاء وقرأه أبو بكر بكسر الخاء وتقدّم في الأنعام .

وجملة ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ واقعة موقع التّعليل للأمر بالدّعاء ، إشارة إلى أنّه أمر تكريم للمسلمين يتضمّن رضى الله عنهم ، ولكن سلك في التّعليل طريق إثبات الشّيء بإبطال ضدّه ، تنبيهاً على قصد الأمرين وإيجازاً في الكلام .

(36/272)

ولكون الجملة واقعَة موقع التّعليل افتتحت بـ (إنّ) المفيدة لمجرّد الاهتْمام ، بقرينة خلو المخاطبين عن التّردد في هذا الخبر ، ومن شأن (إنّ) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التّعليل والرّبط ، وتقوم مقام الفاء ، كما نبّه عليه الشّيخ عبد القاهر .

وإطلاق المحبّة وصفاً لله تعالى ، في هذه الآية ونحوها ، إطلاقٌ مجازي مراد بها لازم معنى المحبّة ، بناء على أنّ حقيقة المحبّة انفعال نفساني ، وعندي فيه احتمال ، فقالوا : أريد لازم المحبّة ، أي في المحبوب والمحِب ، فيلزمها اتّصاف المحبوب بما يرضي المحِب لتنشأ المحبّة التي أصلها الاستحسان ، ويلزمها رضى المحِب عن محبوبه وإيصال النّفع له .

وهذان اللاّزمانِ مُتَلازمان في أنفسهما .

فإطلاق المحبّة وصفاً لله مجاز بهذا اللاّزم المركب .

والمراد بـ ﴿ المعتدين : المشركون ، لأنّ يرادف الظّالمين .

6

والمعنى : ادعوا ربّكم لأنّه يحبّكم ولا يحبّ المعتدين ، كقوله : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [غافر : 60] تعريض بالوعد بإجابة دعاء المؤمنين وأنّه لا يستجيب دعاءَ الكافرين ، قال تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال ﴾ [الرعد : 14] على أحد تأويلين فيها .

وحمل بعض المُفسّرين التّضرّع على الخضوع ، فجعلوا الآية مقصورة على طلب الدّعاء الخفي حتّى بَالغ بعضهم فجعل الجهر بالدّعاء منهياً عنه ، وتجاوز بعضهم فجعل قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ تأكيداً لمعنى الأمر بإخفاء الدّعاء ، وجعل الجهر بالدّعاء من الاعتداء والجاهرين به من المعتدين الذين لا يحبّهم الله .

ونقل ذلك عن ابن جريج ، وأحسب أنّه نقلٌ عنه غير مضبوط العبارة ، كيف وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم جهراً ودعا أصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(37/272)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو أو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه . وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإِيماني . وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإِنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتي له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل " غلبان " زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعو لي لأني في أزمة والذي يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز في قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكي يستديم اليقين الإِيماني . ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً . . . ﴾ [الأعراف : 55]

وإياك أن تدعو وفي بالك أن تقضي حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار

الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قُدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه منزه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة . ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11]

(38/272)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأماني قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تيأس حين لا تجاب دعوتك التي في بالك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتي منها الشر ، ويترك الله لأقضيتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشيء الفلاني الذي كنت أتمناه تحقق وجاء شراً عليّ . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلعت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت في البحر .

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما

تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11]

إذن فحين يقول الحق : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشيء اذكر أن لك رباً قويا مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان .

(39/272)

وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل هماً للحياة ، فإذا كان الذي له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحي ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضح سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق " قارون " إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . لقد هزمه الحق وأنزل به شر العقاب . وقد

يجعل الحق من تأبى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضي حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر العجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعيط ما لم يكن في بالك حين تدعو . ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً . . . ﴾ [الأعراف : 55]

خفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً مختبئاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أي أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أو خوفا من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك .

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد لأن النبي صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان في غزوة غزاها فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادي صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال : " أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم " .

والدعاء إلى الله خُفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك في مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعني في سرّك لأنني سميع عليم ؛ فاعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل لتنكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة

الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :

(40/272)

- نعرف قوماً يقرأون القرآن في محضرنا وما عرفنا لشفاههم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عناً . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطني داخلي .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعدنا عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحي أن يسمعه آخر . ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً . . . ﴾ [الأعراف : 55]

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالفات جماعية ؛ في الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون في مكبرات الصوت التي أغنتهم عن صعود المآذن ، ويكون الواحد من هؤلاء نائما طول النهار لأن رفع الأذان هو عمله ليس غير ، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول : " أن هذه ابتهالات " .

بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدي عمله نهاراً ، ولا أحد يطلب من

هذا النائم إلا أنه وإذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدي الصلاة . فلماذا نقلق الناس بهذا ؟ إننا لابد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله ، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح ؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذي أحداً ؛ فسبحانه يقول : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ .

(41/272)

والتضرع والخُفية تقتضي ألا أقلق الناس ، أو أن أعلن الأمور التي أريدها لنفسي خاصة بصوت عال مثل من يأتي في ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عال وهو رافع يديه ، ولمثل هذا أقول : إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوت لندعو فيه ، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفعل له . وأنت حين تدعو في ختام الصلاة قد يوجد مُصل مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته ، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته . وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شيء واجب عليه . ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية ، لكنه يسيء إلى عبادة آخر .

إذن فلابد أن ننتّبه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات ، هذه المطلوبات قد تخالفها

النفس لغرض ترى أنه حسن ، لكن خذها في إطار : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103-401]

فلابد أن نتنبه إلى مثل هذه المسائل ، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلي الصبح ويذهب إلى عمله ؛ لذلك لا داعي أن يفتح إنسان " الميكروفون " ويعلو صوته بالدعاء ، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم ، بل ويزعج من يصلي بالليل أو " يشوش " على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم . إن على من يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي واشتعل الرأس شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ [مريم : 3-4]

(42/272)

إذن كلمة " خفي " موجودة في القرآن ، ولابد أن نتنبه إلى الدعاء الخفي . ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ [الأعراف : 55]

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء في الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المُكلِّف ، وهو

يقول لك : ادعوني تضرعاً وخفية .

فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فإما أن يكون الاعتداء في أسلوب الطلب وإما ان يكون الاعتداء في المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعوني بخفاء ، فإن دعوت في غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء في المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إنني أدعوك يا رب أن تجعلني نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين * قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 45-46]

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء في المطلوب فقال الحق : ﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [هود : 46]

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِني أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [هود : 47]

وقال له الحق سبحانه : ﴿ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . . . ﴾ [هود : 48]

إذن فالذي لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه في الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(43/272)

وقال السيوطى :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ قال : السر . ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ في الدعاء ولا في غيره .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : التضرع : علانية ، والخفية : سر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ﴾ يعني مستكيناً ﴿ وخفية ﴾ يعني في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ يقول : لا تدعوا على المؤمن والمؤمنه بالشر : اللهمَّ اخزه والعنه ونحو ذلك ، فإن ذلك عدوان .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي مجلز في قوله ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال : لا تسألوا منازل الأنبياء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم : كان يرى أن الجهر بالدعاء الاعتداء .

وأخرج عبد بن حميد وأبو والشيخ عن قتادة ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ إلى قوله ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ قال : لما أنبأكم الله بقدرته وعظمته وجلاله ، بيَّن لكم كيف تدعونه على تفئه ذلك فقال ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال : تعلموا إن في بعض الدعاء اعتداء فاجتنبوا العدوان والاعتداء إن استطعتم ولا قوة إلا بالله . قال : وذكر لنا أن مجالد بن مسعود أخا بني سليم سمع قوماً يعجون في دعائهم ، فمشى إليهم فقال : أيها القوم لقد أصبتم فضلاً على من كان قبلكم أو لقد هلكتم ، فجعلوا يتسللون رجلاً رجلاً حتى تركوا بقعتهم التي كانوا فيها قال : وذكر لنا أن ابن عمر أتى على قوم يرفعون أيديهم فقال : ما يتناول هؤلاء القوم ؟ فوالله لو كانوا على أطول جبل في الأرض ما ازدادوا من الله قرباً . قال قتادة : وإن الله إنما يتقرب إليه بطاعته ، فما كان من دعائكم الله فليكن في سكينة ، ووقار ، وحسن سمت ، وزي وهدي ، وحسن دعة .

(44/272)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن مغفل . أنه سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : أي بني سل الله الجنة وتعوّذ به من النار ، فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور " .

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد بن أبي وقَّاص . أنه سمع ابناً له يدعو ويقول : اللهمَّ إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحو هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيراً وتعوّذت به من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء " وقرأ هذه الآية ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ وأن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسلك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل .

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع في الآية قال : إياك أن تسأل ربك أمراً قد نهيت عنه أو ما ينبغي لك .

وأخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله يقول ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً فرضي له قوله ، فقال ﴿

إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [مريم : 2] .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في الآية قال : إن من الدعاء اعتداء ، يكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(45/272)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

فِيهِ الْأَمْرُ بِالْإِخْفَاءِ لِلدُّعَاءِ .

قَالَ الْحَسَنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : عَلَّمَكُمْ كَيْفَ تَدْعُونَ رَبَّكُمْ ، وَقَالَ لِعَبْدٍ صَالِحٍ رَضِيَ دُعَاءَهُ : ﴿ إذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ وَرَوَى مُبَارَكٌ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : ﴿ كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَلَا يُسْمَعُ إلَّا هَمْسًا ﴾ وَرَوَى أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ قَالَ : ﴿ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعَهُمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ﴾ وَرَوَى سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ

وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي ﴾ وَرَوَى بَكْرُ بْنُ خُنَيْسٍ عَنْ ضِرَارٍ عَنْ أَنَسٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ عَمَلُ الْبِرِّ كُلُّهُ نِصْفُ الْعِبَادَةِ وَالدُّعَاءُ نِصْفُ الْعِبَادَةِ ﴾ وَرَوَى سَالِمٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ قَالَ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا رَفَعَ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ لَا يَرُدُّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا ذَكَرْنَا مِنْ الْآثَارِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ مِنْ إظْهَارِهِ ؛ لِأَنَّ الْخُفْيَةَ هِيَ السِّرُّ ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ ﴿ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إخْفَاءَ آمِينَ ﴾ بَعْدَ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ إظْهَارِهِ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ قَالَ : كَانَ مُوسَى يَدْعُو وَهَارُونُ يُؤَمِّنُ ، فَسَمَّاهُمَا اللَّهُ دَاعِيَيْنِ .

(46/272)

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إنَّمَا كَانَ إخْفَاءُ الدُّعَاءِ أَفْضَلَ لِأَنَّهُ لَا يَشُوبُهُ رِيَاءٌ ، وَأَمَّا التَّضَرُّعُ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ إنَّهُ الْمَيْلُ فِي الْجِهَاتِ ، يُقَالُ يَضْرَعُ الرَّجُلُ ضَرْعًا إذَا مَالَ بِأُصْبُعَيْهِ يَمِينًا وَشِمَالًا خَوْفًا وَذُلًّا ، قَالَ : وَمِنْهُ ضَرْعُ الشَّاةِ لِأَنَّ اللَّبَنَ يَمِيلُ إلَيْهِ ، وَالْمُضَارَعَةُ الْمُشَابَهَةُ لِأَنَّهَا تَمِيلُ إلَى شَبَهِهِ نَحْوُ الْمُقَارَبَةِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَّهُ ﴿ كَانَ يَدْعُو وَيُشِيرُ بِالسَّبَّابَةِ ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ لَقَدْ رُئِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشِيَّةَ

عَرَفَةَ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو حَتَّى إنَّهُ لَيُرَى مَا تَحْتَ إبْطَيْهِ ﴾ وَقَالَ أَنَسٌ : ﴿ رَأَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَسْقَى فَمَدَّ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إبْطَيْهِ ﴾ وَفِيمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ وَالْإِشَارَةِ بِالسَّبَّابَةِ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ تَأْوِيلِ مَنْ تَأَوَّلَ التَّضَرُّعَ عَلَى تَحْوِيلِ الْأُصْبُعِ يَمِينًا وَشِمَالًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

(47/272)

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْأَصْلُ فِي الْأَعْمَالِ الْفَرْضِيَّةِ الْجَهْرُ ، وَالْأَصْلُ فِي الْأَعْمَالِ النَّفْلِيَّةِ السِّرُّ ؛ وَذَلِكَ لِمَا يَتَطَرَّقُ إلَى النَّفْلِ مِنْ الرِّيَاءِ وَالتَّظَاهُرِ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَالتَّفَاخُرِ عَلَى الْأَصْحَابِ بِالْأَعْمَالِ ، وَجُبِلَتْ قُلُوبُ الْخَلْقِ بِالْمَيْلِ إلَى أَهْلِ الطَّاعَةِ ، وَقَدْ جَعَلَ الْبَارِي سُبْحَانَهُ فِي الْعِبَادَاتِ ذِكْرًا جَهْرًا وَذِكْرًا سِرًّا ، بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ أَنْشَأَهَا بِهَا وَرَتَّبَهَا عَلَيْهَا ؛ وَذَلِكَ لِمَا عَلَيْهِ قُلُوبُ الْخَلْقِ مِنْ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ الْحَالَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَمَّا الذِّكْرُ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ فَانْقَسَمَ حَالُهُ إلَى سِرٍّ وَجَهْرٍ ، وَأَمَّا الدُّعَاءُ

فَلَمْ يُشْرَعْ مِنْهُ شَيْءٌ جَهْرًا ؛ لَا فِي حَالَةِ الْقِيَامِ وَلَا فِي حَالَةِ الرُّكُوعِ ، وَلَا فِي حَالَةِ السُّجُودِ ؛ لَكِنْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِ قَارِئِ الْفَاتِحَةِ : (آمِينْ) هَلْ يُسِرُّ بِهَا أَمْ يَجْهَرُ ؟ وَقَدْ قَدَّمْنَاهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَفِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(48/272)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " تَضَرُّعاً وخُفْيَةً " نُصِبَ على الحال : أي : متضرعين مُخْفِين الدُّعَاءَ ليكون أقْرَبَ إلى الإجَابَةِ .

ويجوز أن ينتصبا على المصدرِ ، أي : دعاءَ تضرّعٍ وخُفْيَةٍ .

وقرأ أبو بَكْرٍ : " خِفْية " بكسر الخاء ، وقد تقدَّم ذلك في الأنعام إلا أنَّ كلام أبي عليٍّ يُرْشد إلى " خِفْيَةً " بالكسر بمعنى الخَوْفِ ، وهذا إنَّما يَتأَتَّى على ادّعاءِ القلْب أي يُعتقد تقدم اللاّم على العَيْنِ وهو بعيدٌ ؛ لأَنَّهُ كان يَنْبَغِي أنْ تعود الواو إلى أصلها ، وذلك أن " خِفْية " ياؤُهَا عن واو لسكونها وانكسار ما قبلها ، [ولَمَّا أخّرَت الواوُ تحرَّكتْ ، وسُكِّن ما قبلها ،

] إلاَّ أن يقال : إنَّهَا قلبت متْرُوكَةً على حالها .

وقرأ الأعمش " وخِيْفة " وهي تؤيِّدُ ما ذكره الفَارِسِيُّ ، نقل هذه القراءة عنه أبو حَاتِمٍ .

قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ قرأ ابن أبي عَبْلَة " إنَّ اللَّه " أتى بالجلالةِ مكان الضَّميرِ ، والمُرَادُ بالتَّضرُّعِ : التَّذلُّلُ والاستكانة ، وبالخفية : السِّرُّ .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 156 ﴾

(49/272)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) ﴾

الأمر بالدعاء إذنٌ – في التسلِّي – لأرباب المحنة ، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى روْح المناجاة في حال الدعاء ؛ والدعاء نزهةٌ لأرباب الحوائج ، وراحةٌ لأصاحب المطالبات ، ومعجل من الإِنس بما (. . .) إلى القلب عاجل التقريب . وما أخلص عبدٌ من دعائه إلى رَوَّحَ – سبحانه – في الوقت قلبَه .

ويقال علَّمهم آداب الدعاء حيث قال : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وهذا أدب الدعاء ؛ أن

يَدْعُوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار . ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكَكَ عن دعائه – الذي لا بد منه – اعتداء منك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 541 ﴾

(50/272)

فصل في آداب الدعاء وفضله

قال حجة الإسلام الغزالى ـ رحمه الله ـ ما نصه :

قال الله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي ﴾

وقال تعالى ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال عز وجل ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾

(51/272)

وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ادعوني أستجب لكم // حديث النعمان بن بشير إن الدعاء هو العبادة أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن صحيح // الآية وقال صلى الله عليه وسلم الدعاء مخ العبادة // حديث الدعاء مخ العبادة أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة // وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء // حديث أبي هريرة ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد // وقال صلى الله عليه وسلم إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له // حديث إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أنس وفيه روح أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد والبخاري في الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها // وقال أبو ذر رضي الله عنه يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح وقال صلى الله عليه وسلم سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج // حديث سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل

العبادة انتظار الفرج أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضعفه ابن معين وغيره // آداب الدعاء وهي عشرة

(52/272)

الأول أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى وبالأسحار هم يستغفرون وقال صلى الله عليه وسلم ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له // حديث ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة // وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال سوف أستغفر لكم ربي ليدعو في وقت السحر فقيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء

الثاني أن يغتنم الأحوال الشريفة قال أبو هريرة رضي الله عنه إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها وقال مجاهد إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء

خلف الصلوات

وقال صلى الله عليه وسلم الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد // حديث الدعاء بين الأذان والإقامة لايرد أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والترمذي وحسنه من حديث أنس وضعفه ابن عدي وابن القطان ورواه في اليوم والليلة بإسناد آخر جيد وابن حبان والحاكم وصححه // وقال صلى الله عليه وسلم أيضا الصائم لا ترد دعوته // حديث الصائم لا ترد دعوته أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه // وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضا إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها

وحالة السجود أيضا أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي

(53/272)

صلى الله عليه وسلم أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء // حديث أبي هريرة أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء

رواه مسلم // وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم // حديث ابن عباس إنني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا الحديث أخرجه مسلم أيضا //

الثالث أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس // حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس الحديث أخرجه مسلم دون قوله يدعو فقال مكانها واقفا والنسائي من حديث أسامة بن زيد كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو ورجاله ثقات //

وقال سلمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ربكم حيي كريم يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرا // حديث سلمان إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال إسناده صحيح على شرطهما //

وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه // حديث أنس كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير

بأصبعه أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعه والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء //

(54/272)

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مر على إنسان يدعو ويشير بإصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد // حديث أبي هريرة مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد أخرجه النسائي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد // أي اقتصر على الواحدة

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء قال عمر رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه // حديث عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه أخرجه الترمذي وقال غريب والحاكم في المستدرك وسكت عليه وهو ضعيف //

وقال ابن عباس كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه

// حديث ابن عباس كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف //

فهذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم // حديث لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عند الدعاء في الصلاة //

الرابع خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعري قال قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم // حديث أبي موسى الأشعري يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب متفق عليه مع اختلاف واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود //

(55/272)

وقالت عائشة رضي الله عنه في قوله عز وجل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها //

حديث عائشة في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها أي بدعائك متفق عليه //

أي بدعائك وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال إذ نادى ربه نداء خفيا وقال عز وجل ادعوا ربكم تضرعا وخفية

الخامس أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون في الدعاء // حديث سيكون قوم يعتدون في الدعاء وفي رواية والطهور أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل // وقد قال عز وجل ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه

(56/272)

لا يحب المعتدين قيل معناه التكلف للأسجاع والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روي عن معاذ رضي الله عنه إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء وقد قال صلى الله عليه وسلم إياكم والسجع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل // حديث إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها

من قول وعمل غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعلون إلا ذلك وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة عليك بالكوامل وفيه وأسألك الجنة إلى آخره // وفي الخبر سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطهور ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له أعلى الله تبالغ أشهد لقد رأيت حبيبا العجمي يدعو وما يزيد على قوله اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تفضحنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه

وقال بعضهم ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق

ويقال إن العلماء الأبدال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ويشهد له آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عبادة أكثر من ذلك

(57/272)

واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم أسألك الأمن من يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود

والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد // حديث أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته فذكر حديثا طويلا مع جملته هذا وقال حديث غريب انتهى وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيىء الحفظ // وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل

السادس التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وقال عز وجل ادعوا ربكم تضرعا وخفية وقال صلى الله عليه وسلم إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه // حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا الحديث وفيه دعه فإني أحب أن أسمع صوته وللطبراني من حديث أبي أمامة إن الله يقول للملائكة انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء الحديث وفيه فإني أحب أن أسمع صوته وسندهما ضعيف //

السابع أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له // حديث لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له متفق عليه من حديث أبي هريرة // وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء // حديث إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة // وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل // حديث ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد وتفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة قلت لكنه ضعيف في الحديث // وقال سفيان بن عيينة لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين

الثامن أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود

كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا // حديث ابن مسعود كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا رواه مسلم وأصله متفق

عليه // وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيرا فإنك تدعو كريما //

حديث يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي متفق عليه من حديث أبي هريرة // وقال بعضهم إني أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا يعنيني

(59/272)

وقال صلى الله عليه وسلم إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال //

حديث إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا بإسناد ضعيف //

التاسع أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال قال سلمة بن الأكوع ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب // حديث سلمة بن الأكوع ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستفتح الدعاء إلا استفتحه وقال سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد اليماني ضعفه الجمهور // قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما وروى في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا سألتم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة علي فإن الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين فيقضي إحداهما ويرد الأخرى // حديث إذا سألتم الله حاجة فابدءوا بالصلاة علي فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطي إحداهما ويرد الأخرى لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبي الدرداء // رواه أبو طالب المكي

(60/272)

العاشر وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة فذلك هو السبب القريب في الإجابة فيروى عن كعب الأحبار أنه قال أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا فأوحى الله

عز وجل إلى موسى عليه السلام إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام فقال موسى يا رب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل إليه يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فقال موسى لبني إسرائيل توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث

وقال سعيد بن جبير قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبني إسرائيل ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء فقال أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء

وقال سفيان الثوري بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلي بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعيا ولا أرحم لكم باكيا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فمطروا من يومهم

وقال مالك بن دينار أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلي أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعدا

وقال أبو الصديق الناجي خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها

(61/272)

إلى السماء وهي تقول اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا فقال سليمان عليه السلام ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم

وقال الأوزاعي خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة فقالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا قد سمعناك تقول ما على المحسنين من سبيل وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا

(62/272)

وقيل لمالك بن دينار ادع لنا ربك فقال إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجارة وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه

السلام من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد فقال له عيسى عليهم السلام أما لك من ذنب فقال والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة بها فقال له عيسى عليه السلام فادع الله حتى أؤمن على دعائك قال فدعا فتجللت السماء سحابا ثم صبت فسقوا وقال يحيى الغساني أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا وقال الثاني اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا وقال الثالث اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا وقال عطاء السلمي منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر فنظر إلي فقال يا عطاء أهذا يوم النشور أو بعثر ما في القبور فقلت لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فقال يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية فقلت بل بقلوب سماوية فقال هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير ثم رمق السماء بطرفه وقال إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقا فراتا تحيي به العباد وتروي به البلاد يا من هو على كل شيء قدير قال

عطاء فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول

أفلح الزاهدون والعابدونا . . . إذ لمولاهم أجاعوا البطونا

(63/272)

أسهروا الأعين العليلة حبا . . . فانقضى ليلهم وهم ساهرونا

شغلتهم عبادة الله حتى . . . حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبي فسمعته يقول إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوي الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك يا حليما ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب قال ابن المبارك فجئت إلى الفضيل فقال ما لي أراك كئيبا فقلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخر مغشيا عليه

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكبير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الإحياء حـ 1 صـ 303 . 309﴾

(64/272)

فصل فى منزلة الخوف

قال ابن القيم :

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة (الخوف) .

وهى من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب وهي فرض على كل أحد .

قال الله تعالى 3 :175 ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى 2 :40

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ وقال 5 :44 ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال 23 :57 ، 61 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، إلى ـ قوله ـ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت "يا رسول الله قول الله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق قال: لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه" قال الحسن: "عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم إن المؤمن جمع إحسانا وخشية والمنافق جمع إساءة وأمنا" .

و(الوجل) و(الخوف) و(الخشية) و(الرهبة) ألفاظ متقاربة غير مترادفة قال أبو القاسم الجنيد : "الخوف توقع العقوبة على مجارى الانفاس" .

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه .

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره .

و(الخشية) أخص من الخوف فإن الخشية للعلماء بالله قال الله تعالى: 35 :28 ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فهي خوف مقرون بمعرفة وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية" .

فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك:

له حالتان .

إحداهما : حركة للهرب منه وهي حالة الخوف .

(65/272)

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية ومنه: انخشى الشيء والمضاعف والمعتل أخوان كتقضي البازي وتقضض .

وأما (الرهبة) فهي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع .

وأما (الوجل) فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته .

وأما (الهيبة) : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة والإجلال: تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني

لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية" وفى رواية (خوفا) وقال: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى" .

فصاحب الخوف: يلتجىء إلى الهرب والإمساك وصاحب الخشية: يلتجىء إلى الاعتصام بالعلم ومثلهما مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق فالأول يلتجىء إلى الحمية والهرب والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء .

قال أبو حفص: "الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذ خفته هربت إليه" .

فالخائف هارب من ربه إلى ربه .

قال أبو سليمان: "ما فارق الخوف قلبا إلا خرب" وقال إبراهيم بن سفيان: "إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها" وقال ذو النون: "الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق" وقال حاتم الأصم: "لا تغتر بمكان صالح فلا مكان أصلح من

الجنة ولقي فيها آدم ما لقي ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام بن باعورا لقي ما لقي وكان يعرف الاسم الأعظم ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم فلا شخص أصلح من النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون" .

والخوف ليس مقصودا لذاته بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والخوف يتعلق بالأفعال والمحبة تتعلق بالذات والصفات ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ولا يلحقهم فيها خوف ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه" .

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال أبو عثمان: "صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا" .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: "الخوف المحمود : ما حجزك عن محارم الله" .

وقال صاحب المنازل:

"الخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر" .

يعني الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد .

قال: "وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: الخوف من العقوبة وهو

الخوف الذي يصح به الإيمان وهو خوف العامة وهو يتولد من تصديق الوعيد وذكر الجناية

ومراقبة العاقبة" .

الخوف مسبوق بالشعور والعلم فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به .

وله متعلقان أحدهما : نفس المكروه المحذور وقوعه والثاني: السبب والطريق المفضي إليه

فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف وبقدر المخوف: يكون خوفه وما نقص من

شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا : لم يخف من ذلك السبب ومن اعتقد أنه

يفضي إلى مكروه ما ولم يعرف قدره: لم يخف منه ذلك الخوف فإذا عرف قدر المخوف

وتيقن إفضاء السبب إليه: حصل له الخوف .

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد وذكر الجناية ومراقبة العاقبة .

وفي مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف وجعله نصب عينه بحيث لا ينساه فإنه وإن كان عالما به لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه والله أعلم .

فصل

قال: "الدرجة الثانية: خوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة المشوبة بالحلاوة" .

يريد : أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة واستغرقت أنفاسه فيها : استحلى ذلك فإنه لا أحلى من الحضور في اليقظة فإنه ينبغي أن يخاف المكر وأن يسلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال بينما بدر أحواله مستنيرا في ليالى التمام إذ أصابه الكسوف فدخل

في الظلام فبدل بالأنس وحشة وبالحضور غيبة وبالإقبال إعراضا وبالتقريب إبعادا وبالجمع تفرقة كما قيل:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت . . . ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها . . . وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال: "الدرجة الثالثة [درجة الخاصة] وليس في مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الجلال وهي أقصى درجة يشار إليها في غاية الخوف" .

يعني أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه فليس خوفهم خوف وحشة كخوف المسيئين المنقطعين لأن الله عز وجل معهم بصفة الإقبال عليهم والمحبة لهم وهذا بخلاف هيبة الجلال فإنها متعلقة بذاته وصفاته وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم وهي أعلى من درجة خوف العامة .

قال: "وهي هيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة وتصون المسامر أحيان المسامرة وتفصم المعاين بصدمة العزة" .

(68/272)

يعنى أن أكثر ما تكون (الهيبة) أوقات المناجاة وهو وقت تملق العبد لربه وتضرعه بين يديه واستعطافه والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه أو مناجاته بكلامه هذا هو مراد القوم بالمناجاة .

وهذه المناجاة: توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الرب ورفع الحجاب المانع من

مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته وتجليها عليه فتعارضه الهيبة في خلال هذه الأوقات فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوة واردها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المدارج حـ 1 صـ 516.511﴾

(69/272)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك من الوفاء بحق الربوبية والقيام بحق العبودية مقتضياً للصلاح أمر بإدامته بالنهي عن ضده في قوله : ﴿ ولا تفسدوا ﴾ أي لا تدفعوا فساداً ﴿ في الأرض ﴾ أي بالشرك والظلم ، فهو منع من إيقاع ماهية الإفساد في الوجود ، وذلك يقتضي المنع من جميع أنواعه فيتناول الكليات الخمس التي اتفقت عليها الملل ، وهي الأديان والأبدان والعقول والأنساب والأموال ﴿ بعد إصلاحها ﴾ والظاهر أن الإضافة بمعنى اللام وهي إضافة في المفعول ، أي لا تدنسوها بفساد بعد أن أصلحها لكم خلقاً بما سوى فيها من المنافع المشار

إليها بقوله ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] ، الدال على الوحدانية الداعي إلى الحق إقامة للأبدان ، وأمر بما أنزل من كتبه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام إقامة للأديان فجمع إلى الإيجاد الأول الإبقاء الأول .

ولما كان ذلك ربما اقتضى الاقتصار بكمال التذلل على مقام الخوف ، نفى ذلك بقوله ﴿ وادعوه خوفاً ﴾ أي من عدله ؛ ولما كان لا سبب للعباد من أنفسهم في الوصول إليه سبحانه ، عبر بالطمع فقال : ﴿ وطمعاً ﴾ أي في فضله ، فإن من جمع بين الخوف والرجاء كان في مقام الإحسان وكأنه مشاهد للرحمن ، ما زجره زاجر الجلال بسياط سطوته إلا دعاه داعي الجمال إلى بساط رأفته ، ومن حاز مقام الإحسان كان أهلاً للرحمة ﴿ إن رحمت الله ﴾ أي إكرام ذي الجلال والإكرام لمن يدعوه على هذه الصفة ، وفخمها بالتذكير لإضافتها إلى غير مؤنث فيما قال سيبوية ، فقال : ﴿ قريب ﴾ وكان الأصل منكم ، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ من المحسنين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 44 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الأَرض بَعْدَ إِصلاحها ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الأَرض بَعْدَ إصلاحها ﴾ معناه ولا تفسدوا شيئاً في الأرض ، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء ، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل ، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة ، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف ، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات ، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة : النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول .

(70/272)

فقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ ﴾ منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود ، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه ، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة ، وأما قوله : ﴿ بَعْدَ إصلاحها ﴾ فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين ، ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنه تعالى قال : لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها ،

ولا تقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن قبول الشرائع ، فإن ذلك يقتضي وقوع الهرج والمرج في الأرض ، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح ، وذلك مستكره في بداهة العقول .

المسألة الثانية :

هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق .

إذا ثبت هذا فنقول : إن وجدنا نصاً خاصاً دل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديماً للخاص على العام وإلا بقي على التحريم الذي دل عليه هذا النص .

واعلم أنا كنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطيبات مِنَ الرزق ﴾ [الأعراف : 32] أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل ، ثم بينا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى ، فكذلك في هذه الآية أنها تدل على أن الأصل في المضار والآلام ، الحرمة .

(71/272)

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلاً تحت عموم هذه الآية ، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف في تلك الآية فهي موجودة في هذه الآية ، فتلك الآية دالة على أن

الأصل في المنافع الحل ، وهذه الآية دالة على أن الأصل في جميع المضار الحرمة ، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها ، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات ، وأيضاً هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضي عليه بين الخصمين ، فإنه انعقد وصح وثبت ، لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفساداً بعد الإصلاح ، والنص دل على أنه لا يجوز .

إذا ثبت هذا فنقول : أن مدلول هذه الآية من هذا الوجه متأكد بعموم قوله : ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] وبعموم قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2 ، 3] وتحت قوله : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ [المؤمنون : 8 المعارج : 32] وتحت سائر العمومات الواردة في وجوب الوفاء بالعهود والعقود .

إذا ثبت هذا فنقول : إن وجدنا نصاً دالاً على أن بعض العقود التي وقع التراضي به من الجانبين غير صحيح ، قضينا فيه بالبطلان تقديماً للخاص على العام ، وإلا حكمنا فيه بالصحة رعاية لمدلول هذه العمومات .

وبهذا الطريق البين الواضح ثبن أن القرآن واف ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها .

ثم قال تعالى : ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : قال في أول الآية : ﴿ أَدْعُو رَبَّكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ ﴾ ثم قال : ﴿ وادعوه ﴾ وهذا يقتضي عطف الشيء على نفسه وهو باطل .

والجواب : أن الذين قالوا في تفسير قوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ أي اعبدوه إنما قالوا ذلك خوفاً من هذا الإشكال .

(72/272)

فإن قلنا بهذا التفسير فقد زال السؤال ، وإن قلنا المراد من قوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ هو الدعاء كان الجواب أن قوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ يدل على أن الدعاء لا بد وأن يكون مقروناً بالتضرع وبالإخفاء ، ثم بين في قوله ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أن فائدة الدعاء هو أحد هذين الأمرين ، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء ، والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء ومنفعته .

السؤال الثاني : إن المتكلمين اتفقوا على أن من عبد ودعا لأجل الخوف من العقاب والطمع في الثواب لم تصح عبادته ، وذلك لأن المتكلمين فريقان : منهم من قال التكاليف إنما وردت بمقتضى الألهية والعبودية ، فكونه إلهاً لنا وكوننا عبيداً له يقتضي أن يحسن منه أن يأمر عبيده بما شاء كيف شاء ، فلا يعتبر منه كونه في نفسه صلاحاً وحسناً ، وهذا قول أهل

السنة .

ومنهم من قال : التكليف إنما وردت لكونها في أنفسها مصالح ؛ وهذا هو قول المعتزلة .

إذا عرفت هذا فنقول : أما على القول الأول : فوجه وجوب بعض الأعمال ، وحرمة بعضها مجرد أمر الله بما أوجبه ونهيه عما حرمه ، فمن أتى بهذه العبادات صحت .

أما من أتى بها خوفاً من العقاب ، أو طمعاً في الثواب ، وجب أن لا يصح ، لأنه ما أتى بها لأجل وجه وجوبها ، وأما على القول الثاني : فوجه وجوبها هو كونها في أنفسها مصالح ، فمن أتى بها للخوف من العقاب ، أو للطمع في الثواب فلم يأت بها لوجه وجوبها ، فوجب أن لا تصح ، فثبت أن على كلا المذهبين من أتى بالدعاء وسائر العبادات لأجل الخوف من العقاب ، والطمع في الثواب ، وجب أن لا يصح .

إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر قوله : ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يقتضي أنه تعالى أمر المكلف بأن يأتي بالدعاء لهذا الغرض ، وقد ثبت بالدليل فساده ، فكيف طريق التوفيق بين ظاهر هذه الآية وبين ما ذكرناه من المعقول .

(73/272)

والجواب : ليس المراد من الآية ما ظننتم ، بل المراد : وادعوه مع الخوف من وقوع التقصير ، في بعض الشرائط المعتبرة في قبول ذلك الدعاء ، ومع الطمع في حصول تلك الشرائط بأسرها ، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل ؟

السؤال الثالث : هل تدل هذه الآية على أن الداعي لا بد وأن يحصل في قلبه هذا الخوف والطمع ؟

والجواب : أن العبد لا يمكنه أن يقطع بكونه آتياً بجميع الشرائط المعتبرة في قبول الدعاء ، ولأجل هذا المعنى يحصل الخوف ، وأيضاً لا يقطع بأن تلك الشرائط مفقودة ، فوجب كونه طامعاً في قبولها فلا جرم .

قلنا : بأن الداعي لا يكون داعياً إلا إذا كان كذلك فقوله : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي أن تكونوا جامعين في نفوسكم بين الخوف والرجاء في كل أعمالكم ، ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم فقد أديتم حق ربكم .

ويتأكد هذا بقوله : ﴿ يُؤْتُونَ مَا ءاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : 60] .

ثم قال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قَرِيب من المحسنين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن الرحمة عبارة عن إيصال الخير والنعمة أو عن إرادة إيصال الخير والنعمة ، فعلى التقدير الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال ، وعلى هذا التقدير الثاني تكون من

صفات الذات ، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 1] .

المسألة الثانية :

قال بعض أصحابنا : ليس لله في حق الكافر رحمة ولا نعمة .

واحتجوا بهذه الآية ، وبيانه : أن هذه الآية تدل على أن كل ما كان رحمة فهي قريبة من المحسنين ، فيلزم أن يكون كل ما لا يكون قريباً من المحسنين ، أن لا يكون رحمة ، والذي حصل في حق الكافر غير قريب من المحسنين ، فوجب أن لا يكون رحمة من الله ولا نعمة منه .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة : الآية تدل على أن رحمة الله قريب من المحسنين ، فلما كان كل هذه الماهية حصل للمحسنين وجب أن لا يحصل منها نصيب لغير المحسنين ، فوجب أن لا يحصل شيء من رحمة الله في حق الكافرين ، والعفو عن العذاب رحمة ، والتخلص من النار بعد الدخول فيها رحمة ، فوجب أن لا يحصل ذلك لمن لم يكن من المحسنين ، والعصاة وأصحاب

الكبائر ليسوا محسنين ، فوجب أن لا يحصل لهم العفو عن العقاب ، وأن لا يحصل لهم الخلاص من النار .

الجواب : أن من آمن بالله وأقر بالتوحيد والنبوة ، فقد أحسن بدليل أن الصبي إذا بلغ وقت الضحوة ، وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول إلى الظهر فقد أجمعت الأمة على أنه دخل تحت قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [يونس : 26] ومعلوم أن هذا الشخص لم يأت بشيء من الطاعات سوى المعرفة والإقرار ، لأنه لما بلغ بعد الصبح لم تجب عليه صلاة الصبح ، ولما مات قبل الظهر لم تجب عليه صلاة الظهر ، وظاهره أن سائر العبادات لم تجب عليه .

فثبت أنه محسن ، وثبت أنه لم يصدر منه إلا المعرفة والإقرار ، فوجب كون هذا القدر إحساناً ، فيكون فاعله محسناً .

إذا ثبت هذا فنقول : كل من حصل له الإقرار والمعرفة كان من المحسنين ، ودلت هذه الآية على أن رحمة الله قريب من المحسنين ، فوجب بحكم هذه الآية أن تصل إلى صاحب الكبيرة من أهل الصلاة رحمة الله ، وحينئذ تنقلب هذه الآية حجة عليهم .

فإن قالوا : المحسنون هم الذين أتوا بجميع وجوه الإحسان .

فنقول : هذا باطل ، لأن المحسن من صدر عنه مسمى الإحسان وليس من شرط كونه محسناً أن يكون آتياً بكل وجوه الإحسان كما أن العالم هو الذي له العلم وليس من شرطه أن

يحصل جميع أنواع العلم فثبت بهذا أن السؤال الذي ذكروه ساقط وأن الحق ما ذهبنا إليه .

المسألة الرابعة :

(75/272)

لقائل أن يقول مقتضى علم الأعراب أن يقال : إن رحمة الله قريبة من المحسنين فما السبب في حذف علامة التأنيث ؟ وذكروا في الجواب عنه وجوهاً : الأول : أن الرحمة تأنيثها ليس بحقيقي وما كان كذلك فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة .

الثاني : قال الزجاج : إنما قال : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ لأن الرحمة والغفران والعفو والإنعام بمعنى واحد فقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ بمعنى إنعام الله قريب وثواب الله قريب فأجرى حكم أحد اللفظين على الآخر .

الثالث : قال النضر بن شميل : الرحمة مصدر ومن حق المصادر التذكير كقوله : ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ [البقرة : 275] فهذا راجع إلى قول الزجاج لأن الموعظة أريد بها الوعظ ، فلذلك ذكره قال الشاعر :

إن السَّماحة والمُروءة ضُمِّنا . . قبراً بمرو على الطَّريق الواضح

قيل : أراد بالسماحة السخاء وبالمروءة الكرم .

والرابع : أن يكون التأويل إن رحمة الله ذات مكان قريب من المحسنين كما قالوا : حائض ولابن تامر أي ذات حيض ولبن وتمر .

قال الواحدي : أخبرني العروضي عن الأزهري عن المنذري عن الحراني عن ابن السكيت قال : تقول العرب : هو قريب مني وهما قريب مني وهم قريب مني وهي قريب مني ، لأنه في تأويل هو في مكان قريب مني وقد يجوز أيضاً قريبة وبعيدة تنبيهاً على معنى قربت وبعدت بنفسها .

المسألة الخامسة :

تفسير هذا القرب هو أن الإنسان يزداد في كل لحظة قرباً من الآخرة ، وبعداً من الدنيا ، فإن الدنيا كالماضي ، والآخرة كالمستقبل ، والأنسان في كل ساعة ولحظة ولمحة يزداد بعداً عن الماضي ، وقرباً من المستقبل .

ولذلك قال الشاعر :

فلا زال ما تهواه أقرب من غد . . ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ولما ثبت أن الدنيا تزداد بعداً في كل ساعة ، وأن الآخرة تزداد قرباً في كل ساعة ، وثبت أن رحمة الله إنما تحصل بعد الموت ، لا جرم ذكر الله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ بناء على هذا التأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 112.108 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم قال : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبياً فأطاعوه صلحت الأرض وصلح أهلها ، وفي المعصية فساد الأرض وفساد أهلها ، ويقال : ﴿ لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ أي لا تجوروا في الأرض فتخرب الأرض لأن الأرض قامت بالعدل ، ويقال لا تخربوا المساجد فتتركوا الجماعات ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ يعني اعبدوه خوفاً وطمعاً أي : خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته : ويقال : ادعوه في حال الخوف والضيق ، ويقال : خوفاً عن قطيعته ورجاء إلى الغاية .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يقل قريبة .

قال بعضهم : لأن القريب والبعيد يصلحان للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

كما قال : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] وقال : ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 83] وقال بعضهم : تفسير الرحمة ها هنا المطر .

فذكر بلفظ المذكر ، وقال بعضهم إن رحمة الله قريب .

يعني الغفران والعفو فانصرف إلى المعنى .

ومعناه : المحسنون قريب من الجنة وهم المؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(77/272)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾

بالشرك والمعصية والدعاء إلى غير عبادة الله ﴿ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ بعد [اصلاح] الله إيّاها ببعث الرسل ، والأمر بالحلال والنهي عن المنكر والحرام وكل أرض قبل أن يبعث لها نبي فاسدة حتّى يبعث الرسل إليها فيصلح الأرض بالطاعة .

وقال عطيّة : معناه لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم ﴿ وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ قال الكلبي : خوفاً منه ومن عذابه وطمعاً فيما عنده من مغفرته وثوابه ، الربيع بن أنس : ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ كقوله ﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : 90] . وقيل : خوف العاقبة وطمع الرحمة ، ابن جريج : خوف العدل وطمع الفضل . عطاء :

خوفاً من النيران وطمعاً في الجنان . ذو النون المصري : خوفاً من الفراق وطمعاً في التلاق ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ وكان حقه قربته . واختلف النحاة فيه وأكثروا وأنا ذاكر نصوص ما قالوا .

قال سعيد بن جبير : الرحمة هاهنا الثواب . وقال الأخفش : هي المطر فيكون القريب نعتاً للمعنى دون اللفظ كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] ولم يقل : منها ، لأنه أراد بالقسمة الميراث والمال . وقال ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ استخرجها مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 76] والصواع مذكّر لأنّه أراد به القسمة ، والميراث (كالمنشريّة) والسقاية .

وقال الخليل بن أحمد : القريب والبعيد يستوي فيهما المذكر والمؤنث والجمع [يذكر ويؤنث] يقول الشاعر :

كفى حُزناً أنّي مقيم ببلدةً . . . أخلاّئي عنها نازحون بعيد

وقال آخر :

كانوا بعيداً فكنت آملهم . . . حتّى إذا ما تقربوا هجروا

وقال آخر :

فالدار منّي غير نازحة . . . لكن نفسي ما كادت مواتاتي

[وقال سيبويه] : لمّا أضاف المؤنث إلى المذكّر . أخرجه على مخرج المذكر ، وقال الكسائي : إن رحمة الله قريب مكانها قريب كقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] أي أتيانها قريب .

قال النضر بن شميل : الرحمة مصدر وحق المصادر التذكير كقوله : ﴿ فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ﴾ [البقرة : 275] وقال الشاعر :

إنّ السماحة والمروءة ضيمنا . . . قبراً بمروَ على الطريق الواضح

ولم يقل : ضمنتا لأنّها مصدر . وقال أبو عمر بن العلاء : القريب في اللغة على ضربين قريب قرب [مقربه أبوابه] كقول العرب : هذه المرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وهذه المرأة قريب منك إذا كانت بمعنى المسافة والمكان . قال أمرؤ القيس :

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم . . . قريب ولا البسباسة ابنة يشكر

وقال أبو عبيدة : القريب والبعيد يكونان للتأنيث والتذكير واحتج بقول عروة بن الورد :

خشيته لا عفراء منك قريبة . . . فتدنوه ولا عفراء منك بعيد

وقال أبو عبيدة : القريب والبعيد إذا كانا اسمين استوى فيهما المذكر والمؤنث وان بنيتهما على قَرُبت وبعدت فهي قريبة وبعيدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان .

والثاني : لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل .

والثالث : لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة ، قاله الكلبي .

والرابع : لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه ، قاله الحسن .

﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه .

والثاني : خوفاً من الرد وطمعاً في الإجابة .

﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن قيل : فلم أسقط الهاء من قريب والرحمة مؤنثة ؟

فعن ذلك جوابان .

أحدهما : أن الرحمة من الله إنعام منه فَذُكِّرَ على المعنى ، وهو أن إنعام الله قريب من المحسنين ، قاله الأخفش .

والثاني : أن المراد به مكان الرحمة ، قاله الفراء ، كما قال عروة بن حزام :

عَشِيَّةَ لاَ عَفْرَاءَ مِنكِ قَرِيبَةٌ . . . فَتَدْنُو ولا عَفْرَاءُ مِنْكِ بَعِيدُ

فأراد بالبعد مكانها فأسقط الهاء ، وأرادها هي بالقريبة فأثبت الهاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(80/272)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ الآية ،

ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قلَّ أو كثر بعد إصلاح ، قل أو كثر ، والقصد بالنهي هو على العموم وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكم إلا أن يقال على وجهة المثال ، قال الضحاك : معناه لا تغوروا الماء المعين ولا تقطعوا الشجر المثمر ضراراً ، وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأرض ، وقد قيل تجارة الحكام من الفساد في الأرض ، وقال بعض الناس : المراد ولا تشركوا في الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع

ووضوح ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

وقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزن وتأميل الله عز وجل حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان ، وقد قال كثير من العلماء ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء ، وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير ، وهذا كله احتياط ومنه تمني الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة ، وتمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأن مذهبه أنهم مذنبون ، ثم أنس قوله تعالى : ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ فإنها آية وعد فيها تقييد بقوله ﴿ من المحسنين ﴾ .

واختلف الناس في وجه حذف التاء من ﴿ قريب ﴾ في صفة الرحمة على أقوال ، منها أنه على جهة النسب أي ذات قرب ، ومنها أنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جرت مجرى كف خضيب ولحية دهين ، ومنها أنها بمعنى مذكر فذكر الوصف لذلك .

(81/272)

واختلف أهل هذا القول في تقدير المذكر الذي هي بدل منه فقالت فرقة الغفران والعفو ، وقالت فرقة المطر ، وقيل غير ذلك ، وقال الفراء : لفظة القرب إذا استعملت في النسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاء ولا بد ، وإذا استعملت في قرب المسافة .

قال القاضي أبو محمد : أو الزمن – فقد تجيء مع المؤنث بتاء وقد تجيء بغير تاء ، وهذا منه ، ومن هذا قول الشاعر : [الطويل]

عشية لا عفراء منك قريبة . . . فتدنو ولا عفراء منك بعيد

فجمع في هذا البيت بين الوجهين .

قال القاضي أبو محمد : هذا قول الفراء في كتابه ، وقد مر في بعض كتب المفسرين مقيداً ورد الزجّاج على هذا القول ، وقال أبو عبيدة ﴿ قريب ﴾ في الآية ليس بصفة للرحمة وإنما هو ظرف لها وموضع ، فيجيء ، هكذا في المؤنث والاثنين والجميع وكذلك بعيد ، فإذا جعلوها صفة بمعنى مقربة قالوا قريبة وقريبتان وقريبات .

وذكر الطبري أن قوله ﴿ قريب ﴾ إنما يراد به مقاربة الأرواح للأجساد أي عند ذلك تنالهم الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(82/272)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾

فيه ستة أقوال .

أحدها : لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان .

والثاني : لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل .

والثالث : لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة .

والرابع : لا تعصوا ، فيمسك الله المطر ، ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها بالمطر والخصب .

والخامس : لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه .

والسادس : لا تفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي .

وفي قوله : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ قولان .

أحدهما : خوفاً من عقابه ، وطمعاً في ثوابه .

والثاني : خوفاً من الردِّ وطمعاً في الإِجابة .

قوله تعالى : ﴿ ان رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ قال الفراء : رأيت العرب تؤنِّث القريبة في النسب ، لا يختلفون في ذلك ، فإذا قالوا : دارك منا قريب ، أو فلانة منا قريب ، من القرب والبعد ، ذكّروا وأَنَّثوا ، وذلك أنهم جعلوا القريب خَلَفاً من المكان ، كقوله : ﴿ وما

هي من الظالمين ببعيد ﴾ [هود : 83] وقوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب : 63] ولو أُنِّث ذلك لكان صواباً .

قال عروة :

عَشِيَّةَ لاَ عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبَةٌ . . .

فَتَدْنُو وَلاَ عَفْرَاءُ مِنْكَ بَعِيدُ

وقال الزجاج : إنما قيل : ﴿ قريب ﴾ لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد ، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي .

وقال الأخفش : جائز أن تكون الرحمة هاهنا في معنى المطر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(83/272)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾

فيه مسألة واحدة وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قلّ أو كثر بعد صلاحٍ قلّ أو كثر .

فهو على العموم على الصحيح من الأقوال .

وقال الضحاك : معناه لا تُعَوِّروا الماء المَعِين ، ولا تقطعوا الشجر المثمِر ضِراراً .

وقد ورد : قطع الدنانير من الفساد في الأرض .

وقد قيل : تجارة الحكام من الفساد في الأرض .

وقال القُشَيرِيّ : المراد ولا تشركوا ؛ فهو نهي عن الشرك وسفك الدماء والهرْج في الأرض ، وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها ، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسلَ ، وتقرير الشرائع ووضوح مِلّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال ابن عطية : وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه ، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن ، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد عَوّر ماء قَلِيب بدر وقطع شجر الكافرين .

وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في "هود" إن شاء الله تعالى .

﴿ وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوّف وتأميل لله عز وجل ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته ، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان ، قال الله تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ [الحجر : 49 و50] .

فرجّى وخوّف .

فيدعو الإنسان خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : 90] .

وسيأتي القول فيه .

والخوف : الانزعاج لما لا يؤمن من المضار .

والطمع : توقع المحبوب ؛ قاله القشيري .

وقال بعض أهل العلم : ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء .

(84/272)

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله " صحيح أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ ولم يقل قريبة .

ففيه سبعة أوجه : أوّلها أن الرَّحمة والرُّحْمُ واحد ، وهي بمعنى العفو والغفران ؛ قاله الزجاج واختاره النحاس .

وقال النّضْر بن شُمَيْل : الرحمة مصدر ، وحقّ المصدر التذكير ؛ كقوله : ﴿ فَمَن جَآءَهُ

مَوْعِظَةٌ ﴾ [البقرة: 275].

وهذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ.

وقيل: أراد بالرحمة الإحسان؛ ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره؛ ذكره الجوهريّ.

وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش.

قال: ويجوز أن يذكّر كما يذكّر بعض المؤنث.

وأنشد:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَت وَدْقَها . . .

ولا أرضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَها

وقال أبو عبيدة: ذُكّر "قَرِيبٌ" على تذكير المكان، أي مكاناً قريباً.

قال عليّ بن سليمان: وهذا خطا، ولو كان كما قال لكان "قَرِيبٌ" منصوباً في القرآن؛ كما تقول: إن زيداً قريباً منك.

وقيل: ذكّر على النسب؛ كأنه قال: إن رحمة الله ذات قُرْب؛ كما تقول: امرأة طالق وحائض.

وقال الفَرّاء: إذا كان القريب في معنى المسافة يذكّر ويؤنّث، وإن كان في معنى النَسب يؤنث بلا اختلاف بينهم.

تقول : هذه المرأة قريبتي ، أي ذات قرابتي ؛ ذكره الجوهريّ .

وذكر غيره عن الفرّاء : يقال في النسب قريبة فلان ، وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث ؛ يقال : دارك مِنّا قريبٌ ، وفلانة منا قريب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] .

وقال من احتج له : كذا كلام العرب ؛ كما قال امرؤ القيس :

له الوَيْلُ إن أَمْسَى ولا أُمَّ هاشم . . .

قَرِيبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ابنةَ يَشْكُرا

قال الزجاج : وهذا خطأ ؛ لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(85/272)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾

يعني ولا تفسدوا أيها الناس في الأرض بالمعاصي والكفر والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء إلى طاعة الله تعالى ، وهذا معنى قول

الحسن والسدي والضحاك والكلبي .

قال ابن عطية : لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد إصلاحها يعني بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب .

وقيل معنى الآية : ولا تفسدوا في الأرض شيئاً بعد أن أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من إتلاف النفس بالقتل أو إفسادها بقطع بعض الأعضاء وإفساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بوجوه الحيل وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء المضلة وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنى وإفساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة فمنع الله من إدخال الفساد في ماهيتها .

وقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أصل الخوف انزعاج في الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفاً منه ومن عقابه وطمعاً فيما عنده من جزيل ثوابه .

وقال ابن جريج : العدل معناه خوف والطمع الفضل .

وقيل معناه ادعوه خوفاً من الرياء في الذكر والدعاء طمعاً في الإجابة .

(86/272)

فإن قلت قال في أول الآية ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشيء على نفسه فما فائدة ذلك ؟ قلت : الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أي ليكن الدعاء مقروناً بالتضرع والإخبات وقوله وادعوه خوفاً وطمعاً أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين في أنفسكم من بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما ﴿ إن رحمت الله ﴾ أصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة في الرقة المجردة عن الإحسان وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها الباري جل وعز فليس يراب بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والأنعام على عباده وإيصال الخير إليهم .

وقيل : هي إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال وعلى القول الثاني تكون من صفات الذات ﴿ قريب من المحسنين ﴾ قال سعيد بن جبير : الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ .

وقيل إن تأنيث الرحمة ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين لأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين

رحمة الله التي هي الثواب في الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(87/272)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ .

هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض وإدخال ماهيته في الوجود فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض وإدخال ماهيته في الوجود فيتعلق بجميع أنواعه من إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان ومعنى ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بعد أنْ أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين وما روي عن المفسّرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل إذا ادّعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه كالظلم بعد العدل أو الكفر بعد الإيمان أو المعصية بعد الطاعة أو بالمعصية فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بعد إصلاحها بالمطر والخصب أو يقتل المؤمن بعد بقائه أو بتكذيب الرّسل بعد الوحي أو بتغوير الماء المعين وقطع الشجر والثمر ضراراً أو يقطع

الدنانير والدراهم أو بتجارة الحكام أو بالإشراك بالله بعد بعثة الرسل وتقرير الشرائع وإيضاح الملة.

(88/272)

﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ لما كان الدّعاء من الله بمكان كرره فقال أولاً ﴿ ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية ﴾ وهاتان الحالتان من الأوصاف الظاهرة لأن الخشوع والاستكانة وإخفاء الصوت ليست من الأفعال القلبية أي وجلين مشفقين وراجين مؤملين فبدأ أوّلاً بأفعال الجوارح ثم ثانياً بأفعال القلوب وانتصب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ على أنهما مصدران في موضع الحال أو انتصاب المفعول له وعطف أحدهما على الآخر يقتضي أن يكون الخوف والرجاء متساويين ليكونا للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة فإن انفرد أحدهما هلك الإنسان وقد قال كثير من العلماء : ينبغي أن يغلب الخوف الرّجاء طول الحياة فإذا جاء الموت غلب الرّجاء ورأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب ومنه تمنى الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة وتمنّى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأنّ مذهبه أنهم مذنبون وسالم هذا من رتبة الدّين والفضل بحيث قال عمر بن الخطاب كلاماً معناه لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لوليته

الخلافة وأبعد من ذهب إلى أن المعنى خوفاً من الردّ وطمعاً في الإجابة .

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ قال الزمخشري : كقوله : ﴿ وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ ، انتهى .

يعني أنّ الرحمة مختصة بالمحسن وهو من تاب وآمن وعمل صالحاً وهذا كله حمل القرآن وإنما على مذهبه من الاعتزال والرحمة مؤنثة فقياسها أن يخبر عنها إخبار المؤنّث فيقال قريبة ، فقيل : ذكر على المعنى لأنّ الرحمة بمعنى الرحم والترحّم ، وقيل : ذكر لأنّ الرحمة بمعنى الغفران والعفو قاله النضر بن شميل واختاره الزّجاج ، وقيل بمعنى المطر قاله الأخفش أو الثواب قاله ابن جبير فالرحمة في هذه الأقوال بدل عن مذكر .

(89/272)

وقيل : التذكير على طريق النسب أي ذات قرب ، وقيل : قريب نعت لمذكر محذوف أي شيء قريب ، وقيل : قريب مشبّه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول نحو خصيب وجريح كما شبه فعيل به فقيل شيئاً من أحكامه فقيل في جمعه فعلاء كأسير وأسراء وقتيل وقتلاء كما قالوا : رحيم ورحماء وعليم وعلماء ، وقيل : هو مصدر جاء على فعيل كالضغيث وهو صوت الأرنب والنقيق وإذا كان مصدر أصح أن يخبر به عن المذكر والمؤنث والمفرد

والمثنى والمجموع بلفظ المصدر ، وقيل لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي قاله الجوهري ، وهذا ليس بجيد إلاّ مع تقديم الفعل أما إذا تأخر فلا يجوز إلا التأنيث تقول الشمس طالعة ولا يجوز طالع إلا في ضرورة الشعر بخلاف التقديم فيجوز أطالعة الشمس وأطالع الشمس كما يجوز طلعت الشمس وطلع الشمس ولا يجوز طلع إلا في الشّعر ، وقيل : فعيل هنا بمعنى المفعول أي مقربة فيصير من باب كفّ خضيب وعين كحيل قاله الكرماني ، وليس بجيد لأن ما ورد من ذلك إنما هو من الثلاثي غير المزيد وهذا بمعنى مقربة فهو من الثلاثي المزيد ومع ذلك فهو لا ينقاس ، وقال الفرّاء إذا استعمل في النسب والقرابة فهو مع المؤنث بتاء ولا بدّ تقول هذه قريبة فلان وإن استعملت في قرب المسافة أو الزمن فقد تجيء مع المؤنث بتاء وقد تجيء بغير تاء تقول دارك مني قريب وفلانة منا قريب ، ومنه هذا وقول الشاعر :

عشية لا عفراء منك قريبة . . .

فتدنو ولا عفراء منك بعيد

فجمع في هذا البيت بين الوجهين ، قال ابن عطية : هذا قول الفرّاء في كتابه وقد مرّ في كتب بعض المفسرين مغيراً انتهى ، وردّ الزّجاج وقال هذا على الفراء هذا خطأ لأنّ سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما وقال من احتج له هذا كلام العرب ، قال تعالى : ﴿ وما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً ﴾ وقال الشاعر :

له الويل إن أمسى ولا أمّ هاشم . . .

قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

(90/272)

وقال أبو عبيدة ﴿ قَريب ﴾ في الآية ليس بصفة للرحمة وإنما هو ظرف لها وموضع فتجيء هكذا في المؤنث والاثنين والجمع وكذلك بعيد فإن جعلوها صفة بمعنى مقتربة قالوا قريبة وقريبتان وقريبات .

قال علي بن سليمان وهذا خطأ ولو كان كما قال لكان قريب منصوباً كما تقول إنّ زيداً قريباً منك انتهى وليس بخطأ لأنه يكون قد اتسع في الظرف فاستعمله غير ظرف كما تقول هند خلفك وفاطمة أمامك بالرّفع إذا اتسعت في الخلف والأمام وإنما يلزم النصب إذا بقيتا على الظّرفية ولم يتسع فيهما وقد أجازوا أنّ قريباً منك زيد على أن يكون قريباً اسم إنّ وزيد الخبر فاتسع في قريب واستعمل اسماً لا منصوباً على الظّرف والظاهر عدم تقييد قرب الرحمة من المحسن بزمان بل هي قريب منه مطلقاً وذكر الطبري أنه وقت مفارقة الأرواح للأجساد تنالهم الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(91/272)

وقال ابن جزى :

﴿ وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾

جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفاً راجياً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء : 57] فإن موجب الخوف معرفة سطوة الله وشدّة عقابه وموجب الرجاء معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه ، قال تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي ﴾ [الحجر : 49 - 50] ومن عرف فضل الله رجاه ، ومن عرف عذابه خافه ، ولذلك جاء في الحديث " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " إلا أنه يستحب ان يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيئات وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى " .

(92/272)

واعلم أن الخوف على ثلاث درجات : الأولى : أن يكون ضعيفاً يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر ، فوجود هذا كالعدم والثانية : أن يكون قوياً فيوقظ العبد من

الغفلة ويحمله على الاستقامة ، والثالثة : أن يشتد حتى يبلغ إلى القنوط واليأس وهذا لا يجوز ، وخير الأمور أوسطها ، والناس في الخوف على ثلاث مقامات : فخوف العامة : من الذنوب ، وخوف الخاصة من الخاتمة ، وخوف خاصة الخاصة من السابقة ، فإن الخاتمة مبنية عليها ، والرجاء على ثلاث درجات : الأولى : رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعة وترك معصية فهذا هو الرجاء حتى يبلغ الأمن ، فهذا حرام ، والناس في الرجاء على ثلاث مقامات : فمقام العامة رجاء ثواب الله ، ومقام الخاصة رضوان الله ، ومقام خاصة الخاصة رجاء لقاء الله حباً فيه وشوقاً إليه ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ حذفت تاء التأنيث من قريب وهو خبر عن الرحمة على تأويل الرحمة : بالرحم أو الترحم أو العفو ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي ، أو لأنه صفة موصوف محذوف وتقديره شيء قريب ، أو على تقدير النسب أي ذات قرب ، وقيل : قريب هنا ليس خبر عن الرحمة وإنما هو ظرف لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 35 ﴾

(93/272)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾

بالكفر والمعاصي ﴿ بَعْدَ إصلاحها ﴾ ببعث الأنبياء عليهم السلام وشرْعِ الأحكام ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي ذوي خوفٍ نظراً لقصور أعمالِكم وعدمِ استحقاقِكم ، وطمَعٍ نظراً إلى سَعة رحمتِه ووفورِ فضلِه وإحسانِه ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِين ﴾ في كل شيء ، ومن الإحسان في الدعاء أن يكون مقروناً بالخوف والطمع ، وتذكيرُ قريبٌ لأن الرحمةَ بمعنى الرحم أو لأنه صفةٌ لمحذوف أي أمرٌ قريبٌ أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول أو الذي هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسَب والقريب من غيره أو لاكتسابه التذكيرَ من المضاف إليه كما أن المضافَ يكتسب التأنيثَ من المضاف إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(94/272)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾

نهى عن سائر أنواع الافساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان ﴿ بَعْدَ إصلاحها ﴾ أي إصلاح الله تعالى لها وخلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين وبعث فيها الأنبياء بما شرعه من الأحكام ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي ذوي

خوف من الرد لقصوركم عن أهلية الإجابة وطمع في إجابته تفضلاً منه ، وقيل خوفاً من عقابه وطمعاً في جزيل ثوابه .

وقال ابن جريج : المعنى خوف العدل وطمع الفضل .

وعن عطاء خوفاً من الميزان وطمعاً في الجنان .

وأصل الخوف انزعاج القلب لعدم أمن الضرر ، وقيل : توقع مكروه يحصل فيما بعد ، والطمع توقع محبوب يحصل له ، ونصبهما على الحالية كما أشير إليه .

وجوز أن يكون على المفعولية لأجله .

قيل : ولما كان الدعاء من الله تعالى بمكان كرره وقيده أولاً بالأوصاف الظاهرة وآخراً بالأوصاف الباطنة ، وقيل : الأمر السابق من قبيل بيان شرط الدعاء والثاني من قبيل بيان فائدته ، وقيل : لا تكرار ، فما تقدم أمر بالدعاء بمعنى السؤال وهذا أمر بالدعاء بمعنى العبادة ، والمعنى اعبدوه جامعين في أنفسكم الخوف والرجاء في عبادتكم القلبية والقالبية وهو كما ترى ، ومن الناس من أبقى الدعاء على المعنى الظاهر وعمم في متعلق الخوف والطمع ، والمعنى عنده ادعوه وأنتم جامعون في أنفسكم الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ، وليس بشيء والمختار عند جلة المفسرين ما تقدم .

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ أعمالهم ، ومن الإحسان في الدعاء أن يكون مقروناً بالخوف والطمع .

وقد كثر الكلام في توجيه تذكير ﴿ قَرِيبٌ ﴾ مع أنه صفة مخبر بها عن المؤنث ، وقد نقل ابن هشام في ذلك وجوهاً ذاكراً ما لها وما عليها .

(95/272)

الأول : أن الرحمة في تقدير الزيادة والعرب قد تزيد المضاف قال سبحانه وتعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الاعلى ﴾ [الأعلى : 1] أي سبح ربك ألا ترى أنه يقال في التسبيح سبحان ربي ولا يقال سبحان اسم ربي والتقدير إن الله تعالى قريب فالخبر في الحقيقة عن الاسم الأعظم ، وتعقبه بأن هذا لا يصح عند علماء البصرة لأن الأسماء لا تزاد في رأيهم وإنما تزاد الحروف ، ومعنى الآية عندهم نزه أسماء ربك عما لا يليق بها فلا تجر عليه سبحانه اسماً لا يليق بكماله أو اسما غير مأذون فيه فلا زيادة ، الثاني : إن ذلك على حذف مضاف أي إن مكان رحمة الله تعالى قريب فالإخبار إنما هو عن المكان وهو مذكر ، ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى الذهب والفضة "إن هذين حرام" فإن الإخبار بالمفرد لأن التقدير ان استعمال هذين ، وقول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم . . .

بردى يصفق بالرحيق السلسل

فإنه بتقدير ماء بردى فلذا قال : يصفق بالتذكير مع أن بردى مؤنث .

وتعقب بأن هذا المضاف بعيد جداً لا قريب والأصل عدم الحذف والمعنى مع تركه أحسن منه مع وجوده .

الثالث : أنه على حذف الموصوف أي شيء قريب كما قال الشاعر :

قامت تبكيه على قبره . . .

من لي من بعدك يا عامر

تركتني في الدار ذا غربة . . .

قد ذل من ليس له ناصر

أي شخصاً ذا غربة .

وعلى ذلك يخرج قول سيبويه قولهم : امرأة حائض أي شخص ذو حيض .

وقول الشاعر أيضاً :

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني . . .

طلاقك لم أبخل وأنت صديق

وتعقب بأنه أشد ضعفاً من سابقه لأن تذكير صفة المؤنث باعتبار إجرائها على موصوف مذكر محذوف شاذ ينزه كلام الله تعالى عنه ، على أنه لا فصاحة في قولك : رحمة الله شيء

قريب ولا لطافة بل هو عند ذي الذوق كلام مستهجن ، ونحو حائض من الصفات المختصة لا يحتاج إلى العلامة لأنها لدفع اللبس ولا لبس مع الاختصاص .

(96/272)

وسيبويه وإن كان جواداً في مثل هذا المضمار إلا أن الجواد قد يكبو ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، ألا تراه كيف جوز في باب الصفة المشبهة مررت برجل حسن وجهه بإضافة حسن إلى الوجه وإضافة الوجه إلى ضمير الرجل وخالفه في ذلك جميع البصريين والكوفيين لأنه قد أضاف الشيء إلى نفسه .

وقد علمت أيضاً أن الأصل عدم الحذف .

الرابع : أن العرب تعطي المضاف حكم المضاف إليه في التذكير والتأنيث إذا صح الاستغناء عنه وهو أمر مشهور فالرحمة لإضافتها إلى الاسم الجليل قد اكتسبت ما صحح الإخبار عنها بالمذكر .

وتعقبه أبو علي الفارسي في "تعاليقه" على الكتاب بأن هذا التقدير والتأويل في القرآن بعيد فاسد وإنما يجوز هذا في ضرورة الشعر .

وقال الروذراوري : إن اكتساب التأنيث في المؤنث قد صح بكلام من يوثق به ، وأما العكس

فيحتاج إلى الشواهد ومن ادعى الجواز فعليه البيان .

الخامس : أن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث كرجل جريح وامرأة جريح .

وتعقب بأنه خطأ فاحش لأن فعيلاً هنا بمعنى فاعل .

واعترض أيضاً بأن هذا لا ينقاس خصوصاً من غير الثاني .

السادس : أن فعيلا بمعنى فاعل قد يشبه بفعيل بمعنى مفعول فيمنع من التاء في المؤنث كما قد يشبهون فعيلا بمعنى مفعول بفعيل بمعنى فاعل فيلحقونه التاء .

فالأول كقوله تعالى : ﴿ مَن يُحيِ العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] ومنه الآية الكريمة .

والثاني كقولهم : خصلة ذميمة وصفة حميدة حملا على قولهم : قبيحة وجميلة ولم يتعقب هذا بشيء .

وتعقبه الروذراوري بأنه مجرد دعوى لا دليل عليه وإن قاله النحويون .

ويرد عليه أن أحد الفعلين مشتق من لازم والآخر من متعد فلو أجري على أحدهما حكم الآخر لبطل الفرق بين المتعدي واللازم إن كان على وجه العموم وإن كان على وجه الخصوص فأين الدليل عليه وفيه نظر .

السابع : أن العرب قد تخبر عن المضاف إليه وتترك المضاف كقوله تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] فإن خاضعين خبر عن الضمير المضاف إليه الأعناق لا عن الأعناق ألا ترى أنك إذا قلت : الأعناق خاضعون لا يجوز لأن الجمع المذكر السالم إنما يكون من صفات العقلاء فلا يقال أيد طويلون ولا كلاب نابحون .

وتعقب بأنه لعل هذا راجع إلى القول بالزيادة وقد علمت ما فيه .

وقد قيل : إن المراد بالأعناق الرؤساء والمعظمون .

وقيل : الجماعة كما يقال : جاء زيد في عنق من الناس أي في جماعة .

وقال الروذراوري : إنه لو ساغ الإعراض عن المضاف والحكم على المضاف إليه لساغ أن يقال : كان صاحب الدرع سابغة ومالك الدار متسعة وليس فليس .

الثامن : أن الرحمة والرحم متقاربان لفظاً وهو واضح ومعنى بدليل النقل عن أئمة اللغة فأعطي أحدهما حكم الآخر .

وتعقب بأنه ليس بشيء لأن الوعظ والموعظة تتقارب أيضاً فينبغي أن يجيز هذا القائل أن يقال : موعظة نافع وعظة حسن وكذلك الذكر والذكرى فينبغي أن يقال : ذكرى نافع كما يقال : ذكر نافع .

التاسع : أن فعيلا هنا بمعنى النسب فقريب معناه ذات قرب كما يقول الخليل في حائض : إنه بمعنى ذات حيض .

وتعقب بأنه باطل لأن اشتمال الصفات على معنى النسب مقصور على أوزان خاصة وهي فعال وفعل وفاعل .

العاشر : ما قاله الروزراوري أن فعيلا مطلقاً يشترك فيه المؤنث والمذكر .

وتعقب بأنه من أفسد ما قيل لأنه خلاف الواقع في كلام العرب فإنهم يقولون : امرأة ظريفة وعليمة وحليمة ورحيمة ولا يجوز التذكير في شيء من ذلك ولهذا قال أبو عثمان المازني في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] أن بغيا فعول والأصل بغوى ثم قبلت الواو ياء والضمة كسرة وأدغمت الياء في الياء ، وأما قوله :

فتور القيام قطيع الكلام . . .

تفتر عن در عروب حصر

فالجواب عنه من أوجه : أحدها : أنه نادر .

(98/272)

الثاني : أن أصله قطيعة ثم حذف التاء للإضافة كقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ البر ﴾ [الأنبياء : 73] والإضافة مجوزة لحذف التاء كما توجب حذف النون والتنوين .

وقد نص على ذلك غير واحد من القراء الثالث : أنه إنما جاز ذلك لمناسبة فتور لأنه فعول

وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث .

الحادي عشر : أنهم يقولون في قرب النسب : قريب وإن أجري على مؤنث نحو فلانة قريب مني ويفرقون بينه وبين قرب المسافة .

وتعقب بأنه مبني على أن يقال في القرب النسبي : فلان قرابتي .

وقد نص جمع على أن ذلك خطأ وأن الصواب أن يقال فلان ذو قرابتي كما قال :

يبكي الغريب عليه ليس يعرفه . . .

وذو قرابته في الحي مسرور

الثاني عشر : من تأويل المؤنث بمذكر موافق له في المعنى .

واختلف القائلون بذلك فمنهم من يقدر إن إحسان الله قريب ومنهم من يقدر لطف الله قريب .

ومن ذلك قوله :

أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنما . . .

يضم إلى كشحيه كفاً مخضبا

فأول الكف على معنى العضو .

وتعقب بأنه باطل لأن ذلك إنما يقع في الشعر وقد تقدم أنه لا يقال : موعظة حسن مع أن الموعظة بمنزلة الوعظ في المعنى ويقاربه في اللفظ أيضاً .

وأما البيت فنص النحاة على أنه ضرورة وما هذه سبيله لا يخرج عليه كلام الله سبحانه وتعالى ، على أن بعضهم قال : إن الكف قد يذكر .

الثالث عشر : أن المراد بالرحمة هنا المطر ونقل ذلك عن الأخفش والمطر مذكر ، وأيد بأن الرحمة فيما بعد بمعنى المطر .

واعترض عليه من أوجه .

أحدها : أنه لو كانت الرحمة الثانية هي الرحمة الأولى لم تذكر ظاهرة على ما هو الظاهر إذ الموضع للضمير .

ثانيها : أنه إذا أمكن الحمل على العام لا يعدل إلى الخاص ولا ضرورة هنا إلى الحمل كما لا يخفى ، ثالثها : أن الرحمة التي هي المطر لا تختص بالمحسنين لأن الله سبحانه يرزق الطائع والعاصي ، وإنما المختص في عرف الشرع هو الرحمة التي هي الغفران والتجاوز والثواب .

(99/272)

والجواب عن هذا بأنه كما جاز تخصيص الخطاب بالرحمة بالمعنى الشرعي بالمحسنين على سبيل الترغيب كذلك يجوز تخصيص المطر الذي هو سبب الإرزاق بهم ترغيباً في الإحسان ليس بشيء عندي .

رابعها : أنك لو قلت : مطر الله قريب لوجدت هذه الإضافة مما تمجها الأسماع وتنبو عنها الطباع بخلاف إن رحمت الله فدل على أنه ليس بمنزلته في المعنى .

وأجيب عنه بأن مجموع (رحمة الله) استعمل مراداً به المطر ، وبأن الإضافة في مطر الله إنما لم تحسن للعلم بالاختصاص ولا كذلك رحمة الله تعالى ، وهذا كما يحسن أن يقال : كلام الله تعالى ولا يحسن أن يقال : قرآن الله سبحانه ، والإنصاف أن هذا القول ليس بشيء كما لا يخفى على ذي ذهن طري .

وقال ابن هشام : لا بعد في أن يقال : إن التذكير في الآية الكريمة لمجموع أمور من الأمور المذكورة .

واختار أنه لما كان المضاف يكتسب من المضاف إليه التذكير وكانت الرحمة مقاربة للرحم في اللفظ وكان قريب على صيغة فعيل وفعيل الذي بمعنى فاعل قد يحمل على فعيل بمعنى مفعول جاء التذكير .

وادعى أنه لا يناقض ما قدمه من الاعتراضات لأنه لا يلزم من انتفاء اعتبار شيء من هذه الأمور مستقلاً انتفاء اعتباره مع غيره اه .

ولا يخلو عن حسن سوى أنه إذا أخذ في المجموع كون الرحمة بمعنى المطر يفسد الزرع ، وقد جرى في هذه الآية بحث طويل بين ابن مالك والروذراوري وفي كلام كل حق وصواب ، وفي نقل ذلك ما يورث السآمة .

وأجاب الجوهري بأن الرحمة مصدر والمصادر لا تجمع ولا تؤنث وهو كما ترى .

وقيل : التذكير لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي ولا يخفى بعده لأن المتضمن لضمير المؤنث ولو كان غير حقيقي لم يحسن تذكيره على المشهور ، وقيل : إن فعيلاً هنا محمول على فعيل الوارد في المصادر فإنه للمؤنث والمذكر كفعيل بمعنى مفعول كالنقيض بالنون والقاف والضاد المعجمة وهو صوت الرحل ونحو والضغيب بالضاد والغين المعجمة والياء المثناة من تحت والباء الموحدة صوت الأرنب .

(100/272)

وأنت تعلم أن حمله على فعيل بمعنى مفعول أولى من هذا الحمل وهو الذي أميل إليه ، نعم ربما يدعى أن في ذلك إشارة ما إلى مزيد قرب الرحمة لكنه بعيد جداً وقد لا يسلم .

والذي أختاره أن فعيلاً هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول كما زعم الكرماني لما مرت الإشارة إليه ، ولأن الرحمة صفة ذات عند جمع وصفات الذات سواء قلنا بعينيتها أو بغيريتها أو بأنها لا ولا لا يحسن الإخبار عنها بأنها مقربة ، وذلك على القولين الأخيرين ظاهر وعلى الأول أظهر ، والقول بأن في ذلك ترغيباً في الإحسان حيث أشير إلى أنه كالفاعل وقد أثر فيما لا يقبل التأثر مما لا يكاد يسلم ، وأنه قد حمل على فعيل بمعنى مفعول

كما حمل على ذلك في خصوصية قريب في قول جرير :

أتنفعك الحياة وأم عمرو . . .

قريب لا تزور ولا تزار

وإنما لم يقل قريبة على الأصل للإشارة لأرباب الأذهان السليمة إلى أنها قريبة جداً من المحسنين كما لا يخفى على المتأمل .

واختار بعضهم تفسير الرحمة هنا بالإحسان لمكان المحسنين ﴿ وَهَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] ولعله يعتبر شاملاً للإحسان الدنيوي والأخروي .

ووجه القرب على ما قيل وجود الأهلية بحسب الحكمة مع ارتفاع الموانع بالكلية .

وفسرها ابن جبير بالثواب ، والمتبادر منه الإحسان الأخروي .

ووجه القرب عليه بأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار الدنيا وإقبال على الآخرة ، وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة فلا يكون بين المحسن والثواب في الآخرة إلا الموت وكل آت قريب .

(101/272)

وجعل الزمخشري الآية من قبيل قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ [طه : 82] الخ أي علق فيها الرحمة بإحسان الأعمال كما علق الغفران فيه بالتوبة والإيمان والعمل الصالح فكأن (من تاب وآمن) الخ تفسير للمحسنين وهو إشارة إلى ما يزعمه قومه من أن الآية تدل على أن صاحب الكبيرة لا يخلص من النار لأنه ليس من المحسنين ، والتخليص من النار بعد الدخول فيها رحمة .

وأجيب بأن صاحب الكبيرة مؤمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن يكون كذلك فهو محسن بدليل أن الصبي إذا بلغ ضحى وآمن ومات قبل الظهر فقد اجتمعت الأمة على أنه داخل تحت قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [يونس : 26] فهو محسن بمجرد الإيمان ، والقول بأن المحسنين هم الذين أتوا بجميع أنواع الإحسان على ما يؤذن به الآية الممثل بها أول البحث أول المسألة .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه فسر المحسنين بالمؤمنين .

وعن بعضهم تفسيره بالداعين خوفاً وطمعاً لقرينة السباق على ذلك ونظر فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصلاحها ﴾ .

عُطف النّهي عن الفساد في الأرض على جملة ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ [الأعراف : 55] عَطْفاً على طريقة الاعتراض ، فإنّ الكلام لمّا أنبأ عن عناية الله بالمسلمين وتقريبه إياهم إذ أمرهم بأن يدعوه وشرّفهم بذلك العنوان العظيم في قوله : ﴿ ربكم ﴾ [الأعراف : 55] ، وعرّض لهم بمحبّته إياهم دون أعدائهم المعتدين ، أعقبه بما يحول بينهم وبين الإدلال على الله بالاسترسال فيما تُمليه عليهم شهواتهم من ثوران القوتين الشّهوية والغَضبيّة ، فإنّهما تجنيان فساداً في الغالب ، فذكَّرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزّهاً عن أن يخالطه فساد ، فإنّهم إن أفسدوا في الأرض أفسدوا مخلوقات كثيرة وأفسدوا أنفسهم في ضمن ذلك الإفساد ، فأشبه موقعَ الاحتراس ، وكذلك دأب القرآن أن يعقِّب التّرغيب بالتّرهيب ، وبالعكس ، لئلاّ يقع النّاس في اليأس أو الأمْن .

والاهتمامُ بدرء الفساد كان مَقَاماً هنا مقتضياً التّعجيل بهذا النّهي مُعترضاً بين جملتي الأمر بالدّعاء .

وفي إيقاع هذا النّهي عقب قوله ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ [الأعراف : 55] تعريض بأنّ المعتدين وهم المشركون مفسدون في الأرض ، وإرْباءُ للمسلمين عن مشابهتهم ، أي لا يليق بكم وأنتم المقرّبون من ربّكم ، المأذونُ لكم بدعائه ، أن تكونوا مثل المبعدين منه المبغضين .

والإفساد في الأرض والإصلاح تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ في سورة البقرة (11) ، وبيّنّا هنالك أصول الفساد وحقائق الإصلاح ، ومر هنالك القول في حذف مفعول تفسدوا ﴾ ممّا هو نظير ما هنا .

و﴿ الأرض ﴾ هنا هي الجسم الكُروي المعبّر عنه بالدّنيا .

(103/272)

والإفساد في كلّ جزء من الأرض هو إفساد لمجموع الأرض ، وقد يكون بعض الإفساد مؤدّياً إلى صلاح أعظم ممّا جرّه الإفساد من المضرّة ، فيترجّح الإفساد إذا لم يمكن تحصيل صلاح ضروري إلاّ به ، فقد قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بني النضير ، ونهى أبو بكر رضي الله عنه عن قطع شجر العدوّ ، لاختلاف الأحوال .

والبعدية في قوله : ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بعديةٌ حقيقيةٌ ، لأنّ الأرض خلقت من أوّل أمرها على صلاح قال الله تعالى : ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها ﴾ [فصلت : 10] على نظام صالح بما تحتوي عليه ، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض ، وخلق له ما في الأرض ، وعزّز ذلك النّظام بقوانين

وضعها الله على أَلْسِنَةِ المرسلين والصّالحين والحكماء من عباده ، الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي ، أو بالإلهام والتّوفيق والحكمة ، فعلموا النّاس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النّافع وإزالة ما في بعض النّافع من الضرّ وتجنّب ضرّ الضار ، فذلك النّظامُ الأصلي ، والقانُونُ المعزّز له ، كلاهما إصلاح في الأرض ، لأنّ الأوّل إيجاد الشّيء صالحاً ، والثّاني جعل الضّار صالحاً بالتّهذيب أو بالإزالة ، وقد مضَى في قوله تعالى:

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ في سورة البقرة (11) ، أنّ الإصلاح موضوع للقدر المشترك بين إيجاد الشّيء صالحاً وبين جعل الفاسد صالحاً . فالإصلاح هنا مصدر في معنى الاسم الجامد ، وليس في معنى الفعل ، لأنّه أريد به إصلاح حاصل ثابت في الأرض لا إصلاح هو بصدد الحصول ، فإذا غُيّر ذلك النّظام فأُفْسِد الصّالحُ ، واستُعمل الضّار على ضرّه ، أو استبقى مع إمكان إزالته ، كان إفساداً بعد إصلاح ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ [الأنفال : 73] .

والتّصريح بالبعدية هنا تسجيل لفظاعة الإفساد بأنّه إفساد لما هو حسن ونافع ، فلا معذرة لفاعله ولا مساغ لفعله عند أهل الأرض .

عود إلى أمر الدّعاء لأنّ ما قبله من النّهي عن الإفساد أشبه الاحتراس المعترض بين أجزاء الكلام ، وأعيد الأمر بالدّعاء ليبنى عليه قوله : ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ قصداً لتعليم الباعث على الدّعاء بعد أن عُلّموا كيفيته ، وهذا الباعث تنطوي تحته أغراض الدّعاء وأنواعه ، فلا إشكال في عطف الأمر بالدّعاء على مِثله لأنّهما مختلفان باختلاف متعلّقاتهما .

والخوف تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ [البقرة : 229] .

والطّمع تقدّم في قوله : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ في سورة البقرة (75) .

وانتصاب خوفاً وطمعاً ﴾ هنا على المفعول لأجله ، أي أنّ الدّعاء يكون لأجل خوف منه وطمع فيه ، فحذف متعلِّق الخوف والطّمع لدلالة الضّمير المنصوب في ﴿ ادعوه ﴾ .

والواو للتّقسيم للدّعاء بأنّه يكون على نوعين:

فالخوف من غضبه وعقابه ، والطّمع في رضاه وثوابه ، والدّعاء لأجل الخوف نحو الدّعاء بالمغفرة ، والدّعاء لأجل الطّمع نحو الدّعاء بالتّوفيق وبالرّحمة .

وليس المراد أنّ الدّعاء يشتمل على خوف وطمع في ذاته كما فسرّ به الفخر في السّؤال

الثّالث لأنّ ذلك وإن صحّ في الطّمع لا يصحّ في الخوف إلاّ بسماجة .

وفي الأمر بالدّعاء خوفاً وطمعاً دليل على أنّ من حظوظ المكلّفين في أعمالهم مراعاة جانب الخوف من عقاب اللّه والطّمعِ في ثوابه ، وهذا ممّا طفحت به أدلّة الكتاب والسنّة ، وقد أتى الفخر في السّؤال الثّاني في تفسير الآية بكلام غيْر مُلاق للمعروف عند علماء الأمّة ، ونزع به نزعة المتصوّفة الغلاة .

وتعقّبه يطول ، فدونك فانظره إن شئت .

(105/272)

وقد شمل الخوف والطّمع جميع ما تتعلّق به أغراض المسلمين نحوّ ربّهم في عاجلهم وآجلهم ، ليدعُوا اللّه بأن ييسِر لهم أسباب حصول ما يطمعون ، وأن يجنبهم أسباب حصول ما يخافون .

وهذا يقتضي توجّه همّتهم إلى اجتناب المنهيات لأجل خوفهم من العقاب ، وإلى امتثال المأمورات لأجل الطّمع في الثّواب ، فلا جرم أنّه اقتضى الأمرَ بالإحسان ، وهو أن يعبدُوا اللّه عبادة من هو حاضر بين يديه فيستحيي من أن يعصيه ، فالتّقدير : وادعوه خوفاً وطمعاً وأحسنوا بقرينة تعقيبه بقوله : ﴿ إن رحمة اللّه قريب من المحسنين ﴾ .

وهذا إيجاز .

وجملة : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ واقعة موقع التّفريع على جملة ﴿ وادعوه ﴾ ، فلذلك قرنت بـ ﴿ إن ﴾ الدّالة على التّوكيد ، وهو لمجرّد الاهتمام بالخبر ، إذ ليس المخاطبون بمتردّدين في مضمون الخبر ، ومن شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التّعليل وربط مضمون جملتها بمضمون الجملة التي قبلها ، فتغني عن فاء التّفريع ، ولذلك فُصلت الجملة عن التي قبلها فلم تعطف لإغناء (إنّ) عن العاطف .

و ﴿ رحمة الله ﴾ : إحسانه وإيتاؤه الخير .

والقرب حقيقته دُنُّو المكان وتجاوره ، ويطلق على الرّجاء مجازاً يقال : هذا قريب ، أي ممكن مرجو ، ومنه قوله : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ [المعارج : 6 ، 7] فإنّهم كانوا ينكرون الحشر وهو عند الله واقع لا محالة ، فالقريب هنا بمعنى المرجو الحصول وليس بقرب مكان .

(106/272)

ودلّ قوله ﴿ قريب من المحسنين ﴾ على مقدّر في الكلام ، أي وأحسنوا لأنّهم إذا دَعوا خوفاً وطعماً فقد تهيّأوا لنبذ ما يوجب الخوف ، واكتساب ما يوجب الطّمع ، لئلا يكون

الخوف والطّمع كاذبين ، لأنّ من خاف لا يُقدم على المخوف ، ومن طمع لا يَترك طلب المطموع ، ويتحقّق ذلك بالإحسان في العمل ويلزم من الإحسان ترك السَيّئات ، فلا جرم تكون رحمة الله قريباً منهم ، وسكت عن ضد المحسنين رفقاً بالمؤمنين وتعريضاً بأنّهم لا يظن بهم أن يسيئوا فتبعد الرّحمة عنهم .

وعدم لحاق علامة التّأنيث لوصفِ ﴿ قريب ﴾ مع أنّ موصوفه مؤنّث اللّفظ ، وجّهه علماء العربيّة بوجوه كثيرة ، وأشار إليها في "الكشاف" .

وجلّها يحوم حول تأويل الاسم المؤنّث بما يرادفه من اسمٍ مذكّر ، أو الاعتذارِ بأنّ بعض الموصوف به غيرُ حقيقي التّأنيث كما هنا ، وأحسنها عندي قول الفراء وأبي عبيدة : أنّ قريباً أو بعيداً إذا أطلق على قرابة النّسب أو بُعد النّسب فهو مع المؤنّث بتاء ولا بُدّ ، وإذا أطلق على قُرب المسافة أو بُعدها جاز فيه مطابقة موصوفه وجاز فيه التّذكير على التّأويل بالمكان ، وهو الأكثر ، قال الله تعالى : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ [هود : 83] وقال : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب : 63] .

ولمّا كان إطلاقه في هذه الآية على وجه الاستعارة من قرب المسافة جرى على الشّائع في استعماله في المعنى الحقيقي ، وهذا من لطيف الفروق العربيّة في استعمال المشترك إزالة للإبهام بقدر الإمكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال السعدى :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بعمل المعاصي ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ بالطاعات ، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق ، كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق ، والأعمال ، والأرزاق ، وأحوال الدنيا والآخرة .

﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي: خوفا من عقابه ، وطمعا في ثوابه ، طمعا في قبولها ، وخوفا من ردها ، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه ، ونزل نفسه فوق منزلته ، أو دعاء من هو غافل لاهٍ .

وحاصل ما ذكر اللّه من آداب الدعاء : الإخلاص فيه للّه وحده ، لأن ذلك يتضمنه الخفية ، وإخفاؤه وإسراره ، وأن يكون القلب خائفا طامعا لا غافلا ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء ، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة اللّه ، المحسنين إلى عباد اللّه ، فكلما كان العبد أكثر إحسانا ، كان أقرب إلى رحمة ربه ، وكان ربه قريبا منه برحمته ، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 292 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَعْدَ آيَاتِ الْجَزَاءِ وَالْمَعَادِ ، سَبَبَ هَلَاكِ الْكَافِرِينَ وَخُسْرَانِ أَنْفُسِهِمْ بِالشِّرْكِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ ، وَعِبَادَةِ مَنِ اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَعَدَمِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ بِمَا شَرَعَهُ لَهُمْ ، دُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ أَوِ ابْتَدَعَهُ لَهُمْ مَنْ قَبْلَهُمْ ، ثُمَّ قَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِخَمْسِ آيَاتٍ جَامِعَةٍ لِجُمْلَةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدِّينِ بِإِيجَازٍ بَلِيغٍ ابْتَدَأَهَا بِآيَةِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ الْهَادِيَةِ إِلَى حَقِيقَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ بُرْهَانًا عَلَى أَصْلِ الدِّينِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) الرَّبُّ : هُوَ السَّيِّدُ وَالْمَالِكُ وَالْمُدَبِّرُ وَالْمُرَبِّي ، وَالْإِلَهُ : هُوَ الْمَعْبُودُ ، أَيِ الَّذِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى مَا يَعْجِزُ عَنْهُ بِكَسْبِهِ وَمُسَاعَدَةِ الْأَسْبَابِ لَهُ ، فَيَدْعُوهُ لِكَشْفِ الضُّرِّ أَوْ جَلْبِ النَّفْعِ ،

وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ
بِالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ

(109/272)

الَّتِي يُرْجَى أَنْ تُرْضِيَهُ ، وَبِالنَّذْرِ لَهُ وَالذَّبْحِ بِاسْمِهِ أَوْ لِأَجْلِهِ ، سَوَاءً كَانَ الرَّجَاءُ فِيهِ خَاصًّا بِهِ أَوْ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْبُودٍ آخَرَ هُوَ فَوْقَهُ أَوْ دُونَهُ . وَأَمَّا اسْمُ الْجَلَالَةِ الْأَعْظَمِ (اللهُ) فَهُوَ اسْمٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، الَّذِي يَنْفِي الْمُوَحِّدُونَ الْحُنَفَاءُ رُبُوبِيَّةَ غَيْرِهِ وَأُلُوهِيَّةَ سِوَاهُ ، وَيَقُولُ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ : إِنَّهُ أَكْبَرُ الْأَرْبَابِ أَوْ رَئِيسُهُمْ ، وَأَعْظَمُ الْآلِهَةِ أَوْ مَرْجِعُهُمُ الَّذِي يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ ، وَكَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ وَأَمْثَالُهُمْ يَنْفُونَ وُجُودَ رَبٍّ سِوَاهُ وَإِنَّمَا يَعْبُدُونَ آلِهَةً تُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ .

(110/272)

وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ يُطْلَقَانِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ مَخْلُوقٍ ، أَوْ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ بَعْضُ النَّاسِ بِالْعَالَمِ الْعِلْوِيِّ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ – وَإِنْ كَانَ الْعُلُوُّ وَالسُّفْلُ فِيهِمَا مِنَ الْأُمُورِ

الْإِضَافِيَّةِ – وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَمُ عَلَى أَنَّ خَالِقَ جُمْلَةِ الْعَالَمِ وَاحِدٌ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَرْبَابًا كَانُوا يُقَيِّدُونَ رُبُوبِيَّتَهُمْ بِأُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ وَكُلٌّ إِلَيْهِمْ تَدْبِيرُهَا ، وَيُسَمُّونَهُمْ بِأَسْمَاءٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (473 ، 474 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) وَيَخُصُّونَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ بِاسْمٍ كَاسْمِ الْجَلَالَةِ (اللهِ) فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا الثَّنَوِيَّةَ الَّذِينَ قَالُوا بِرَبَّيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ أَحَدُهُمَا : خَالِقُ النُّورِ وَفَاعِلُ الْخَيْرِ ، وَالثَّانِي : خَالِقُ الظُّلْمَةِ وَمَصْدَرُ الشَّرِّ .

فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلنَّاسِ كَافَّةً : إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَهُوَ الْمُدَبِّرُ لِأُمُورِهِمَا وَحْدَهُ ، فَيَجِبُ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، فَلَا يَكُونُ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ ، وَقَدْ تُطْلَقُ السَّمَاوَاتُ عَلَى مَا دُونَ الْعَرْشِ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَلَا سِيَّمَا إِذَا وُصِفَتْ بِالسَّبْعِ .

(111/272)

وَأَمَّا هَذِهِ الْأَيَّامُ السِّتَّةُ فَهِيَ مِنْ أَيَّامِ اللهِ الَّتِي يَتَحَدَّدُ الْيَوْمُ مِنْهَا بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ يَكُونُ فِيهِ ، فَإِنَّ الْيَوْمَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي يَمْتَازُ بِمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنْ غَيْرِهِ كَامْتِيَازِ أَيَّامِنَا بِمَا يَحُدُّهَا مِنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ ، وَأَيَّامِ الْعَرَبِ بِمَا كَانَ يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْحَرْبِ وَالْخِصَامِ ، وَأَيَّامِ اللهِ الَّتِي أَمَرَ مُوسَى

أَنْ يُذَكِّرَ قَوْمَهُ بِهَا هِيَ أَزْمِنَةُ أَنْوَاعِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (22 : 47) وَوَصَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ : (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (70 : 4) وَلَا يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَيَّامُ السِّتَّةُ مِنْ أَيَّامِ أَرْضِنَا ، الَّتِي يُحَدُّ لَيْلُ الْيَوْمِ وَنَهَارُهُ مِنْهَا بِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً مِنَ السَّاعَاتِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَنَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ إِنَّمَا وُجِدَتْ بَعْدَ خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ فَكَيْفَ يَكُونُ أَصْلُ خَلْقِهَا فِي أَيَّامٍ مِنْهَا . وَقَدْ وَصَفَ تَعَالَى خَلْقَهَا وَخَلْقَ السَّمَاءِ

(112/272)

فِي سُورَةِ (حم السَّجْدَةِ - فُصِّلَتْ) بِمَا يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْأَيَّامِ فَقَالَ : (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (41 : 9 - 12)

وَوَصَفَ أَصْلَ تَكْوِينِهِمَا وَحَالَ مَادَّتِهِمَا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِقَوْلِهِ : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (21 : 30) فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مَسَائِلُ :

(1) أَنَّ الْمَادَّةَ الَّتِي خُلِقَتْ مِنْهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ كَانَتْ دُخَانًا أَيْ مِثْلَ الدُّخَانِ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ ، وَفَسَّرَ الْجَلَالُ الدُّخَانَ بِالْبُخَارِ الْمُرْتَفِعِ ، وَذَهَبَ الْبَيْضَاوِيُّ إِلَى أَنَّهُ جَوْهَرٌ ظُلْمَانِيٌّ قَالَ : وَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِهِ مَادَّتَهَا أَوِ الْأَجْزَاءَ الَّتِي رُكِّبَتْ مِنْهَا .

(2) أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ الدُّخَانِيَّةَ وَاحِدَةٌ ثُمَّ فَتَقَ اللهُ رَتْقَهَا أَيْ فَصَلَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ فَخَلَقَ مِنْهَا هَذِهِ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعَ الْعُلَا .

(113/272)

---

(3) أَنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ كَانَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَكُونُ الْيَابِسَةُ وَالْجِبَالُ الرَّوَاسِي فِيهِمَا وَمَصَادِرُ الْقُوتِ وَهِيَ أَنْوَاعُ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ تَتِمَّةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .

(4) أَنَّ جَمِيعَ الْأَحْيَاءِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ خُلِقَتْ مِنَ الْمَاءِ .

فَيُعْلَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ مِنْ أَيَّامِ خَلْقِ الْأَرْضِ هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ كَالدُّخَانِ حِينَ فُتِقَتْ مِنْ رَتْقِ الْمَادَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُبَاشَرَةً أَوْ غَيْرَ مُبَاشَرَةٍ وَأَنَّ الْيَوْمَ الثَّانِي هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ مَائِيَّةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بُخَارِيَّةً أَوْ دُخَانِيَّةً ، وَإِنَّ الْيَوْمَ الثَّالِثَ هُوَ

الزَّمَنُ الَّذِي تَكَوَّنَتْ فِيهِ الْيَابِسَةُ وَنَتَأَتْ مِنْهَا الرَّوَاسِي فَتَمَاسَكَتْ بِهَا ، وَأَنَّ الْيَوْمَ الرَّابِعَ هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْمَاءِ وَهِيَ النَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ . فَهَذِهِ أَزْمِنَةٌ لِأَطْوَارٍ مِنَ الْخَلْقِ قَدْ تَكُونُ مُتَدَاخِلَةً . وَأَمَّا السَّمَاءُ الْعَامَّةُ وَهِيَ الْعَالَمُ الْعُلْوِيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ

الْأَرْضِ فَقَدْ سَوَّى أَجْرَامَهَا مِنْ مَادَّتِهَا الدُّخَانِيَّةِ فِي يَوْمَيْنِ أَيْ زَمَنَيْنِ كَالزَّمَنَيْنِ اللَّذَيْنِ خُلِقَ فِيهِمَا جِرْمُ الْأَرْضِ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي مَوْضِعِهِ .

(114/272)

هَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ مَجْمُوعِ الْآيَاتِ يَتَّفِقُ مَعَ الْمُخْتَارِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَنَّ الْمَادَّةَ الَّتِي خُلِقَتْ مِنْهَا هَذِهِ الْأَجْرَامُ السَّمَاوِيَّةُ وَهَذِهِ الْأَرْضُ كَانَتْ كَالدُّخَانِ ، وَيُسَمُّونَهَا السَّدِيمَ ، وَكَانَتْ مَادَّةً وَاحِدَةً رَتْقًا ثُمَّ انْفَصَلَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَيُصَوِّرُونَ ذَلِكَ تَصْوِيرًا مُسْتَنْبَطًا مِمَّا عَرَفُوا مِنْ سُنَنِ الْخَلْقِ ، إِذَا صَحَّ كَانَ بَيَانًا لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَاتِ ، وَإِذَا لَمْ يَصِحَّ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ لَمْ يَكُنْ نَاقِضًا لِشَيْءٍ مِنْهَا ، فَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ تِلْكَ الْمَادَّةَ السَّدِيمِيَّةَ كَانَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَجْزَاءٍ دَقِيقَةٍ مُتَحَرِّكَةٍ ، وَأَنَّهَا قَدْ تَجَمَّعَ بَعْضُهَا وَانْجَذَبَ إِلَى بَعْضٍ بِمُقْتَضَى سُنَّةِ الْجَاذِبِيَّةِ الْعَامَّةِ ، فَكَانَ مِنْهَا كُرَةٌ عَظِيمَةٌ تَدُورُ عَلَى مِحْوَرِ نَفْسِهَا ، وَأَنَّ شِدَّةَ الْحَرَكَةِ

أَحْدَثَتْ فِيهَا اشْتِعَالًا فَكَانَتْ ضِيَاءً - أَيْ نُورًا ذَا حَرَارَةٍ ، وَهَذِهِ الْكُرَةُ الْأُولَى مِنْ عَالَمِنَا هِيَ الَّتِي نُسَمِّيهَا الشَّمْسَ .

(115/272)

وَيَقُولُونَ أَيْضًا : إِنَّ الْكَوَاكِبَ الدَّرَارِيَّ التَّابِعَةَ لِهَذِهِ الشَّمْسِ فِيمَا نُشَاهِدُ مِنْ نِظَامِ عَالَمِنَا هَذَا قَدِ انْفَتَقَتْ مِنْ رَتْقِهَا ، وَانْفَصَلَتْ مِنْ جِرْمِهَا ، وَصَارَتْ تَدُورُ عَلَى مَحَاوِرِهَا مِثْلَهَا . وَمِنْهَا أَرْضُنَا هَذِهِ ، فَقَدْ كَانَتْ مُشْتَعِلَةً مِثْلَهَا . ثُمَّ انْتَقَلَتْ مِنْ طَوْرِ الْغَازَاتِ الْمُشْتَعِلَةِ إِلَى طَوْرِ الْمَائِيَّةِ فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ بِنِظَامٍ مُقَدَّرٍ بِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْعُنْصُرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَتَكَوَّنُ مِنْهُمَا بُخَارُ الْمَاءِ فَكَانَا يَرْتَفِعَانِ مِنْهَا فِي الْجَوِّ فَيَبْرُدَانِ فَيُكَوِّنَانِ بُخَارًا فَمَاءً يَنْجَذِبُ إِلَيْهَا ثُمَّ يَتَبَخَّرُ مِنْهَا حَتَّى غَلَبَ عَلَيْهَا طَوْرُ الْمَائِيَّةِ . ثُمَّ تَكَوَّنَتِ الْيَابِسَةُ فِي هَذَا الْمَاءِ بِتَجْمِيعِ مَوَادِّهَا طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهَا الْمَعَادِنُ وَالْأَحْيَاءُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَالنَّبَاتِيَّةُ بِسَبَبِ حَرَكَةِ أَجْزَاءِ الْمَادَّةِ وَتَجَمُّعِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ بِنِسَبٍ وَمَقَادِيرَ مَخْصُوصَةٍ وَقَدْ ظَهَرَ بِالْبَحْثِ وَالْحَفْرِ أَنَّ بَعْضَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ خَالِيَةٌ مِنْ آثَارِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ جَمِيعًا فَعُلِمَ أَنَّ تَكَوُّنَهَا كَانَ قَبْلَ وُجُودِهِمَا فِيهَا .

(116/272)

فَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَمَا فَصَّلُوهَا بِهِ مِمَّا رَأَوْهُ أَقْرَبَ النَّظَرِيَّاتِ إلَى سُنَنِ الْكَوْنِ وَصِفَةِ عَنَاصِرِهِ الْبَسِيطَةِ وَحَرَكَتِهَا ، وَتَكُونُ الْمَعَادِنُ مِنْهَا ، وَالْمَادَّةُ الزُّلَالِيَّةُ ذَاتُ الْقُوَى الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَصْلَ الْعَوَالِمِ الْحَيَّةِ كَالتَّغَذِّي وَالِانْقِسَامِ وَالتَّوَلُّدِ ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا (بُرُتُوبلَاسْمَا) وَصِفَةِ تَكَوُّنِ الْخَلَايَا الَّتِي تَرَكَّبَتْ مِنْهَا الْأَجْسَامُ الْعُضْوِيَّةُ - كُلُّ ذَلِكَ تَفْصِيلٌ لِخَلْقِ الْعَوَالِمِ أَطْوَارًا بِسُنَنٍ ثَابِتَةٍ وَتَقْدِيرٍ مُنَظَّمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ

(117/272)

شَيْءٌ جُزَافًا ، وَقَدْ أَرْشَدَ الْكِتَابُ الْحَكِيمُ إلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْعَامَّةِ الثَّابِتَةِ فِي نَفْسِهَا ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ كُلُّ مَا قَالُوهُ مِنْ فُرُوعِهَا وَمَسَائِلِهَا - بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (54 : 49) وَقَوْلِهِ : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (25 : 2) وَقَوْلِهِ حِكَايَةً عَنْ رَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُخَاطِبًا لِقَوْمِهِ : (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) (71 : 13 - 17) فَمِنْ دَلَائِلِ إعْجَازِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ يُبَيِّنُ الْحَقَائِقَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ بِهَا فِي زَمَنِ تَنْزِيلِهِ بِعِبَارَةٍ لَا يَتَحَيَّرُونَ فِي فَهْمِهَا وَالِاسْتِفَادَةِ

مِنْهَا مُجْمَلَةٍ ، وَإِنْ كَانَ فَهْمُ مَا وَرَاءَهَا مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي يَعْلَمُهُ وَلَا يَعْلَمُونَهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى تَرَقِّي الْبَشَرِ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْخَاصَّةِ بِذَلِكَ .

(118/272)

وَقَدْ سَبَقَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا يَظُنُّ الْآنَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْإِفْرِنْجِ قَدِ انْفَرَدُوا بِهِ مِنْ مَسَائِلِ نِظَامِ الْخَلْقِ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ : الْأَشْبَهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْمُورَةَ كَانَتْ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ مَغْمُورَةً فِي الْبِحَارِ فَحَصَلَ فِيهَا طِينٌ لَزِجٌ فَتَحَجَّرَ بَعْدَ الِانْكِشَافِ ، وَحَصَلَ الشُّهُوقُ بِحَفْرِ السُّيُولِ وَالرِّيَاحِ وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ فِيهَا الْجِبَالُ ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الظَّنَّ أَنَّا نَجِدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْجَارِ إِذَا كَسَرْنَاهَا أَجْزَاءَ الْمَائِيَّةِ كَالْأَصْدَافِ وَالْحِيتَانِ اهـ .

(119/272)

يَظُنُّ بَعْضُ قَصِيرِي النَّظَرِ وَضَعِيفِي الْفِكْرِ أَنَّ الْخَلْقَ الْأَنُفَ - (بِضَمَّتَيْنِ) : الْجُزَافُ - الَّذِي لَا تَقْدِيرَ فِيهِ وَلَا تَدْرِيجَ نِظَامٍ - أَدَلُّ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ وَعَلَى عَظَمَةِ قُدْرَتِهِ ، وَيُقَوِّي هَذَا الظَّنَّ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ مَا عُلِمَ مِنْ كُفْرِ بَعْضِ الْبَاحِثِينَ فِي نِظَامِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَسُنَنِهِ

بِالْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنْ كَانَ كُفْرُهُمْ ذُهُولًا وَاشْتِغَالًا عَنِ الصَّانِعِ بِدِقَّةِ الصَّنْعَةِ ، وَتَجْوِيزًا لِحُصُولِ النِّظَامِ فِيهَا بِنَفْسِهِ مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا ، وَالصَّوَابُ الْمَعْقُولُ : أَنَّ النِّظَامَ أَدَلُّ الدَّلَائِلِ عَلَى الْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي آثَارِ الْقُدْرَةِ ، وَعَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ . فَإِنَّ وَحْدَةَ النِّظَامِ فِي الْعَالَمِ أَظْهَرُ الْبَرَاهِينِ عَلَى وَحْدَةِ الرَّبِّ تَعَالَى . وَمَا لَا نِظَامَ فِيهِ هُوَ الَّذِي قَدْ يَخْطُرُ فِي بَالِ رَائِيهِ أَنَّ وُجُودَهُ أَمْرٌ اتِّفَاقِيٌّ أَوْ مِنْ قَذَفَاتِ الضَّرُورَةِ الْعَمْيَاءِ أَوْ بِفِعْلِ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ . وَأَيُّ عَاقِلٍ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ كَوْمَةٍ مِنَ الْحَصَى يَرَاهَا فِي الصَّحْرَاءِ وَبَيْنَ قَصْرٍ مَشِيدٍ ، فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مُتْرَفُو الْأَغْنِيَاءِ مِنْ حُجُرَاتٍ وَمَرَافِقَ ، أَفَيُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ النِّظَامُ الْعَامُّ فِي الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ

وَوَحْدَةُ السُّنَنِ الَّتِي قَامَ بِهَا بِالْمُصَادَفَةِ ؟ أَوْ أَثَرِ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ؟ ! كَلَّا .

(120/272)

(فَإِنْ قِيلَ) : قَدْ وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ أَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ السِّتَّةَ هِيَ مِنْ أَيَّامِ دُنْيَانَا وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ بَعْضُ مُفَسِّرِينَا ، وَفِي حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِي فَقَالَ : " خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ

الثُّلَاثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إلَى اللَّيْلِ " وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْخَلْقَ كَانَ جُزَافًا وَدُفْعَةً وَاحِدَةً لِكُلِّ نَوْعٍ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِنَا الْقَصِيرَةِ .

(121/272)

(فَالْجَوَابُ) : أَنَّ كُلَّ مَا رُوِيَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ لَمْ يَصِحَّ فِيهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ ، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا وَهُوَ أَقْوَاهَا مَرْدُودٌ بِمُخَالَفَةِ مَتْنِهِ لِنَصِّ كِتَابِ اللَّهِ وَأَمَّا سَنَدُهُ فَلَا يَغُرَّنَّكَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ لَهُ بِهِ ، فَهُوَ قَدْ رَوَاهُ كَغَيْرِهِ عَنْ حَجَّاجِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَعْوَرِ الْمَصِّيصِيِّ ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ وَهُوَ قَدْ تَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ وَثَبَتَ أَنَّهُ حَدَّثَ بَعْدَ اخْتِلَاطِ عَقْلِهِ ، كَمَا فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ وَغَيْرِهِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مِمَّا حَدَّثَ بِهِ بَعْدَ اخْتِلَاطِهِ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ بَعْدَ إيرَادِهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : وَفِيهِ اسْتِيعَابُ الْأَيَّامِ السَّبْعَةِ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَالَ : (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) وَلِهَذَا تَكَلَّمَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْحُفَّاظِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَجَعَلُوهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ لَيْسَ مَرْفُوعًا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ اهـ . أَيْ فَيَكُونُ رَفْعُ أَبِي هُرَيْرَةَ لَهُ مِنْ خَلْطِ حَجَّاجِ بْنِ الْأَعْوَرِ . وَقَدْ هَدَانَا اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إلَى حَمْلِ بَعْضِ مُشْكِلَاتِ أَحَادِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُعَنْعَنَةِ عَلَى الرِّوَايَةِ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ الَّذِي

أَدْخَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْمُخْتَرَعَةِ وَخَفِيَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ كَذِبُهُ

(122/272)

وَدَجَلُهُ لِتَعَبُّدِهِ ، وَقَدْ قَوِيَتْ حُجَّتُنَا عَلَى ذَلِكَ بِطَعْنِ أَكْبَرِ الْحُفَّاظِ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ عَزَى إِلَيْهِ فِيهِ التَّصْرِيحُ بِالسَّمَاعِ . عَلَى أَنَّ رُوَاةَ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَخْرَجُوا عَنْ كَعْبٍ خِلَافَ هَذَا كَرِوَايَةِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : بَدَأَ اللَّهُ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ وَالْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ وَجَعَلَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ سَنَةٍ . وَثَمَّةَ آثَارٌ أُخْرَى عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ فِي تَقْدِيرِ الْيَوْمِ مِنْهَا بِأَلْفِ سَنَةٍ . مِنْهَا رِوَايَةُ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمِثْلُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَّوْا تِلْكَ الْأَيَّامَ بِأَسْمَاءِ أَيَّامِنَا فَإِنَّهُمْ لَا يَعْنُونَ أَنَّهَا مِنْهَا ، عَلَى أَنَّ الْخَمْسَةَ الْأُولَى مَأْخُوذَةٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَعْدَادِ الْأُولَى .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ آدَمَ خُلِقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا رَوَاهُ عَنْ كَعْبٍ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ خَلْقَ آدَمَ قَدْ كَانَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ خَلْقُ الْأَرْضِ وَصَارَتْ أَيَّامُهَا كَمَا نَعْلَمُ ، فَنَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمَ رَسُولَهُ أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ هُوَ الَّذِي

سُمِّيَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْجُمُعَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يُعَدُّ مِنَ الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا الْأَرْضُ كَمَا فِي سُورَةِ حم السَّجْدَةِ " فُصِّلَتْ " .

(123/272)

وَسَرْدُ الْآيَاتِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ يُخَالِفُ بِتَفْصِيلِهِ مَا قَرَّرَهُ عُلَمَاءُ الْكَوْنِ مُخَالَفَةً صَرِيحَةً تَتَعَاصَى عَلَى التَّأْوِيلِ ، وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ خَدَمُوا الدِّينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَلَمْ يَعُدُّوا هَذِهِ الْمُخَالَفَةَ عَلَى كَثْرَةِ مَسَائِلِهَا مَطْعَنًا فِي كَوْنِ سِفْرِ التَّكْوِينِ وَحْيًا كَسَائِرِ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ ، وَجَزَمُوا بِتَفْسِيرِ الْيَوْمِ بِالزَّمَنِ الطَّوِيلِ وَإِنْ وَرَدَ فِي وَصْفِ كُلٍّ مِنْهَا : " وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ " وَهَاكَ أَمْثَلُ حَلٍّ لِلْإِشْكَالِ عِنْدَهُمْ : قَالَ الدُّكْتُورُ بوست فِي قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ تَلْخِيصِ الْفَصْلَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ : وَإِذَا قَالَ أَحَدٌ إِنَّ قِصَّةَ الْخَلِيقَةِ فِي هَذَيْنِ الْإِصْحَاحَيْنِ لَا تُطَابِقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ عِلْمَ الْهَيْئَةِ وَالْجِيُولُوجْيَا (أَيْ عِلْمَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ) وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ أَجَبْنَا :

(أَوَّلًا) : إِنَّ الْكَلَامَ عَنِ الْخَلِيقَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ كَلَامًا عِلْمِيًّا .

(124/272)

(ثَانِيًا) : إِنَّهُ يُطَابِقُ قَوَاعِدَ الْعِلْمِ الرَّئِيسِيَّةَ مُطَابَقَةً غَرِيبَةً لَا يَسَعُنَا الْبَحْثُ عَنْهَا هُنَا مَلِيًّا ، فَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَادَّةَ قَبْلَ النُّورِ وَلَازِمَةٌ لِظُهُورِ النُّورِ ، وَأَنَّ النُّورَ الْمُنْتَشِرَ قَدْ سَبَقَ جَمْعَ الْمَادَّةِ عَلَى هَيْئَةِ شُمُوسٍ وَسَيَّارَاتٍ ، وَأَنَّ الْأَجْرَامَ السَّمَاوِيَّةَ لَمْ تَظْهَرْ لِلْوَاقِفِ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ قَبْلَ فَصْلِ الْأَبْخِرَةِ عَنْ سَطْحِهَا وَتَكْوِينِ الْجِلْدِ ، وَأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ سَبَقَتِ الْحَيَاةَ النَّبَاتِيَّةَ وَالْحَيَوَانِيَّةَ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ آخِرُ الْخَلِيقَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ اهـ .

وَنَقُولُ : إِنَّ فِي هَذَا الْإِجْمَاعِ الَّذِي ادَّعَاهُ أَبْحَاثًا لَا حَاجَةَ إِلَى الْخَوْضِ فِيهَا هُنَا ، وَلَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الَّذِي فَصَّلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ لِلْخَلِيقَةِ لَمَا رَضِيَ مِنَّا بوست بِمِثْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ كَانُوا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ كَمَا أَنْكَرُوا عَلَى التَّوْرَاةِ . وَمِنَ الظَّاهِرِ الْجَلِيِّ أَنَّ سِفْرَ التَّكْوِينِ مَوْضُوعٌ لِبَيَانِ صِفَةِ الْخَلْقِ بِالتَّفْصِيلِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُخَالِفَ الْوَاقِعَ إِذَا كَانَ وَحْيًا مِنَ اللهِ : وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ إِلَّا لِأَجْلِ الِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ كَمَا بَيَّنَّا آنِفًا .

(125/272)

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) أَيْ ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدِ اسْتَوَى بَعْدَ تَكْوِينِ هَذَا الْمُلْكِ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، يُدَبِّرُ أَمْرَهُ وَيُصَرِّفُ نِظَامَهُ حَسَبَ تَقْدِيرِهِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ فِيهِ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) (10 : 3) وَفِي سُورَةِ الرَّعْدِ : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (13 : 2 ، 3) وَهُوَ بِمَعْنَى مَا هُنَا .

الْعَرْشُ فِي الْأَصْلِ الشَّيْءُ الْمُسَقَّفُ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ ، وَبَيَّنَّا اشْتِقَاقَهُ فِي تَفْسِيرِ الْجَنَّاتِ الْمَعْرُوشَاتِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَيُطْلَقُ عَلَى هَوْدَجٍ لِلْمَرْأَةِ يُشْبِهُ عَرِيشَ الْكَرْمِ ، وَعَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ وَكُرْسِيِّهِ الرَّسْمِيِّ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ وَالتَّدْبِيرِ .

(126/272)

وَحَقِيقَةُ الِاسْتِوَاءِ فِي اللُّغَةِ التَّسَاوِي وَاسْتِقَامَةُ الشَّيْءِ وَاعْتِدَالُهُ ، وَمِنَ الْمَجَازِ كَمَا فِي الْأَسَاسِ : اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّةِ وَعَلَى السَّرِيرِ وَالْفِرَاشِ ، وَانْتَهَى شَبَابُهُ وَاسْتَوَى ، وَاسْتَوَى

عَلَى الْبَلَدِ اهـ ، وَقَالَ فِي مَادَّةِ عَرَشَ : وَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ إذَا مَلَكَ ، وَثَلَّ عَرْشُهُ إذَا هَلَكَ اهـ . وَفِي الْمِصْبَاحِ : وَاسْتَوَى عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ - كِنَايَةً عَنِ التَّمَلُّكِ وَإِنْ لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ ، كَمَا قِيلَ : مَبْسُوطُ الْيَدِ وَمَقْبُوضُ الْيَدِ ، كِنَايَةً عَنِ الْجُودِ وَالْبُخْلِ اهـ .

لَمْ يَشْتَبِهْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي مَعْنَى اسْتِوَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ ، عَلَى عِلْمِهِمْ بِتَنَزُّهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْخَلْقِ ، إذْ كَانُوا يَفْهَمُونَ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ تَعَالَى عَلَى عَرْشِهِ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِقَامَةِ أَمْرِ مُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ وَانْفِرَادِهِ هُوَ بِتَدْبِيرِهِ . وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَلِكَ التَّدْبِيرِ وَصِفَتِهِ وَكَيْفَ يَكُونُ ، بَلْ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى وُجُودِ عَرْشٍ ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ لِلَّهِ عَرْشًا خَلَقَهُ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَأَنَّ لَهُ حَمَلَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَهُوَ كَمَا تَدُلُّ اللُّغَةُ مَرْكَزُ تَدْبِيرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ . قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ :

(127/272)

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) (11 : 7)

وَلَكِنَّ عَقِيدَةَ التَّنْزِيهِ الْقَطْعِيَّةَ الثَّابِتَةَ بِالنَّقْلِ وَالْعَقْلِ كَانَتْ مَانِعَةً لِكُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَهَّمَ أَنَّ فِي

التَّعْبِيرِ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ شُبْهَةَ تَشْبِيهٍ لِلْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ . كَيْفَ وَأَنَّ بَعْضَ الْقَرَائِنِ الضَّعِيفَةِ لَفْظِيَّةً

(128/272)

أَوْ مَعْنَوِيَّةً تَمْنَعُ فِي لُغَتِهِمْ حَمْلَ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَاهُ الْبَشَرِيِّ فَكَيْفَ إذَا كَانَ لَا يُعْقَلُ ؟ فَكَيْفَ وَالِاسْتِوَاءُ عَلَى الشَّيْءِ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْبَشَرِ اسْتِعْمَالًا مَجَازِيًّا وَكِنَائِيًّا كَمَا تَقَدَّمَ ؟ وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَا أَسْنَدَهُ الرَّبُّ تَعَالَى إلَى نَفْسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي وَرَدَتِ اللُّغَةُ فِي اسْتِعْمَالِهَا فِي الْخَلْقِ : أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَى الْكَمَالِ وَالتَّصَرُّفِ مَعَ التَّنْزِيهِ عَنْ تَشْبِيهِ الرَّبِّ بِخَلْقِهِ ، فَيَقُولُونَ : إنَّهُ اتَّصَفَ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ ، بِالْمَعْنَى الَّذِي يَلِيقُ بِهِ ، لَا بِمَعْنَى الِانْفِعَالِ الْحَادِثِ الَّذِي نَجِدُهُ لِلْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ فِي أَنْفُسِنَا ، وَلَا مَا نَعْهَدُهُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ وَالتَّدْبِيرِ مِنْ مُلُوكِنَا . وَحَسْبُنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ وَصْفِهِ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ أَثَرَهُمَا فِي خَلْقِهِ ، وَأَنْ نَطْلُبَ رَحْمَتَهُ وَنَعْمَلَ مَا يُكْسِبُنَا مَحَبَّتَهُ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنْ مَثُوبَتِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَنَسْتَفِيدُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ عَلَى عَرْشِهِ كَوْنَ الْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ لَهُ وَحْدَهُ فَلَا نَعْبُدُ غَيْرَهُ ، وَلِذَلِكَ قَرَنَهُ فِي آخِرِ آيَةِ يُونُسَ بِقَوْلِهِ : (مَا مِنْ شَفِيعٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ) (10 : 3) وَفِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (32 : 4) وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا صَدَّرْنَا

(129/272)

بِهِ تَفْسِيرَ الْآيَةِ مِنْ أَنَّهَا كَأَمْثَالِهَا تُقَرِّرُ وَحْدَانِيَّةَ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا حُجَّةٌ لِوَحْدَانِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ وَإِبْطَالِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ تَعَالَى مَعَهُ بِمَعْنَى مَا كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنَ الشَّفَاعَةِ .

أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَاللَّالِكَائِيُّ فِي السُّنَّةِ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ فِي الْجُمْلَةِ : الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ .

فَإِنْ صَحَّ كَانَ سَبَبُهُ شُبْهَةً بَلَغَتْهَا مِنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ ، إِذْ حَدَثَ مِنْ بَعْضِهِمُ الِاشْتِبَاهُ فِي فَهْمِ أَمْثَالِ هَذِهِ النُّصُوصِ ، كَمَا كَثُرَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَا يَفْهَمُ اللُّغَةَ حَقَّ الْفَهْمِ ، وَلَمْ يَتَلَقَّ الدِّينَ عَنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ . فَكَانَ الْمُشْتَبِهُ يَسْأَلُ كِبَارَ الْعُلَمَاءِ فَيُجِيبُونَ بِمَا تَلَقَّوْا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ إِمْرَارِ النُّصُوصِ وَقَبُولِهَا كَمَا وَرَدَتْ وَتَنْزِيهِ الرَّبِّ تَعَالَى وَاسْتِنْكَارِ السُّؤَالِ فِي صِفَاتِهِ عَنِ الْكَيْفِ .

وَأَخْرَجَ اللَّالِكَائِيُّ فِي السُّنَّةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَنَّ رَبِيعَةَ شَيْخَ

(130/272)

الْإِمَامِ مَالِكٍ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) كَيْفَ اسْتَوَى ؟ فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَمِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا التَّصْدِيقُ ، وَأَخْرَجَا أَنَّ مَالِكًا سُئِلَ هَذَا السُّؤَالَ أَيْضًا فَوَجَدَ وَجْدًا شَدِيدًا وَأَخَذَتْهُ الرُّحَضَاءُ ، وَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ لِلسَّائِلِ : الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالًّا ، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ . وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ : " الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى " كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، وَلَا يُقَالُ لَهُ كَيْفَ : " وَكَيْفَ " عَنْهُ مَرْفُوعٌ ، وَأَنْتَ رَجُلُ سُوءٍ صَاحِبُ بِدْعَةٍ . اهـ . كَأَنَّهُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ مُشَكِّكٌ غَيْرُ مُسْتَفْتٍ لِيَعْلَمَ .

(131/272)

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٍ كَثِيرَةً وَقَالَ : وَإِنَّمَا يَسْلُكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ . مَالِكٌ ، وَالْأَوْزَاعِيُّ ، وَالثَّوْرِيُّ ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ ، وَالشَّافِعِيُّ ، وَأَحْمَدُ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ – وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ . وَالظَّاهِرُ

الْمُتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ وَ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (42 : 11) بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ مِنْهُمْ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ قَالَ : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ . وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ ، فَمَنْ أَثْبَتَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآثَارُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ وَنَفَى عَنِ اللهِ النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى اهـ .

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلتَّدْبِيرِ قَرَأَ حَمْزَةُ ، وَالْكِسَائِيُّ ، وَيَعْقُوبُ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، عَنْ عَاصِمٍ (يُغَشِّي) بِتَشْدِيدِ الشِّينِ مِنَ التَّغْشِيَةِ وَالْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا مِنَ الْإِغْشَاءِ يُقَالُ غَشِيَ (كَرَضِيَ) فُلَانٌ أَصْحَابَهُ إِذَا أَتَاهُمْ ، وَغَشِيَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ لَحِقَهُ وَغَطَّاهُ .

(132/272)

وَمِنْهُ فِي التَّنْزِيلِ غِشْيَانُ الْمَوْجِ وَالْيَمِّ وَالدُّخَانِ وَالْعَذَابِ لِلنَّاسِ وَغِشْيَانُ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ . وَأَغْشَاهُ وَغَشَّاهُ إِيَّاهُ بِالتَّشْدِيدِ جَعَلَهُ يَغْشَاهُ أَيْ يَلْحَقُهُ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ أَوْ يُغَطِّيهِ وَيَسْتُرُهُ . وَفِي

التَّشْدِيدِ مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ وَالْكَثْرَةِ . وَمِنْهُ إغْشَاءُ اللَّيْلِ النَّهَارَ وَتَغْشِيَتُهُ وَغِشْيَانُهُ إيَّاهُ . قَالَ تَعَالَى : (وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَى) (92 : 1) أَيْ يُغْشِي النَّهَارَ ، وَقَالَ : (وَاللَّيْلِ إذَا

(133/272)

يَغْشَاهَا) (91 : 4) وَالضَّمِيرُ لِلشَّمْسِ أَيْ يَتْبَعُ ضَوْءُهَا وَيَغْلِبُ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ . وَالْمَعْنَى هُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ اللَّيْلَ الَّذِي هُوَ الظُّلْمَةُ يَغْشَى النَّهَارَ وَهُوَ ضَوْءُ الشَّمْسِ عَلَى الْأَرْضِ أَيْ يَتْبَعُهُ وَيَغْلِبُ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ وَيَسْتُرُهُ حَالَةَ كَوْنِهِ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا مِنْ قَوْلِهِمْ : فَرَسٌ حَثِيثُ السَّيْرِ ، وَمَضَى حَثِيثًا - كَمَا فِي الْأَسَاسِ وَغَيْرِهِ - أَيْ مُسْرِعًا . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ يَعْقُبُهُ سَرِيعًا كَالطَّالِبِ لَهُ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ - كَمَا قَالُوا - وَهَذَا الطَّلَبُ السَّرِيعُ يَظْهَرُ أَكْمَلَ الظُّهُورِ بِمَا ثَبَتَ مِنْ كَوْنِ الْأَرْضِ كُرَوِيَّةَ الشَّكْلِ تَدُورُ عَلَى مِحْوَرِهَا تَحْتَ الشَّمْسِ ، فَيَكُونُ نِصْفُهَا مُضِيئًا بِنُورِهَا دَائِمًا وَالنِّصْفُ الْآخَرُ مُظْلِمًا دَائِمًا . وَمَسْأَلَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَعْلُومَةٌ بِالْقَطْعِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَيُمْكِنُ تَحْدِيدُ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي كُلِّ قُطْرٍ ، وَمُخَاطَبَةُ أَهْلِهِ بِالتِّلِغْرَافِ بِأَنْ تَسْأَلَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ مَنْ تَعْلَمُ أَنَّ وَقْتَهُمْ نِصْفَ النَّهَارِ مَثَلًا فَيُجِيبُوكَ ، بَلِ الْبَرْقِيَّاتُ تَطُوفُ كُلَّ يَوْمٍ مُدُنَ الْعَالَمِ الْمَدَنِيِّ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ

مُبَيِّنَةً ذَلِكَ .

وَقَدِ اتَّفَقَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَالْغَزَالِيِّ وَالرَّازِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ الْمَعْقُولِ ،

(134/272)

وَابْنِ تَيْمِيَةَ وَابْنِ الْقَيِّمِ مِنْ أَئِمَّةِ الْمَنْقُولِ عَلَى كُرَوِيَّةِ الْأَرْضِ وَظَوَاهِرُ النُّصُوصِ أَدَلُّ عَلَى هَذَا مِنْ مُقَابِلِهِ كَهَذِهِ الْآيَةِ . وَحَكَوُا الْقَوْلَ بِدَوَرَانِهَا عَلَى مَرْكَزِهَا وَأَوْرَدُوا عَلَيْهِ نَظَرِيَّاتٍ تُشَكِّكُ فِي كَوْنِهِ قَطْعِيًّا وَلَا تَنْقُضُهُ - كَمَا فِي الْمَوَاقِفِ وَالْمَقَاصِدِ وَغَيْرِهِمَا - وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) (39 : 5) أَدَلُّ عَلَى اسْتِدَارَةِ الْأَرْضِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَكَذَا عَلَى دَوَرَانِهَا ، فَإِنَّ التَّكْوِيرَ فِي اللُّغَةِ هُوَ اللَّفُّ عَلَى الْمُسْتَدِيرِ كَتَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ . وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِدَوَرَانِ الشَّمْسِ فِي فَلَكِهَا الْوَاسِعِ حَوْلَ الْأَرْضِ وَإِمَّا بِاسْتِدَارَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ ، وَهُوَ الَّذِي قَامَتِ الدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ عَلَى رُجْحَانِهِ .

(135/272)

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) الْأَمْرُ هُنَا أَمْرُ التَّكْوِينِ ، أَوْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ وَمِنْهُ أُولُو الْأَمْرِ ، وَأَصْلُهُ الْأَمْرُ الْمُقَابِلُ لِلنَّهْيِ تَوَسُّعًا فِيهِ ، أَيْ وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ حَالَ كَوْنِهِنَّ مُذَلَّلَاتٍ خَاضِعَاتٍ لِتَصَرُّفِهِ مُنْقَادَاتٍ لِمَشِيئَتِهِ فَقَدْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ بِالنَّصْبِ ، وَقَرَأَهَا ابْنُ عَامِرٍ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّ الشَّمْسَ مُبْتَدَأٌ بِاعْتِبَارِ مَا عُطِفَ عَلَيْهَا ، وَمُسَخَّرَاتٍ خَبَرُهُ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ فِي الْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنَ التَّسْخِيرِ بِأَمْرِهِ ، إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ غَيْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ عَلَى السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فِي مَوْضِعِهِ .

(136/272)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) " أَلَا " أَدَاةٌ يُفْتَتَحُ بِهَا الْقَوْلُ الَّذِي يُهْتَمُّ بِشَأْنِهِ ، لِأَجْلِ تَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِ لِمَضْمُونِهِ وَحَمْلِهِ عَلَى تَأَمُّلِهِ ، وَالْخَلْقُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ التَّقْدِيرُ وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ يَقَعُ فِيهِ ، وَاسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى الْإِيجَادِ بِقَدَرٍ ؛ أَيْ : أَلَا إِنَّ لِلَّهِ الْخَلْقَ فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ لِذَوَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَهُ فِيهَا الْأَمْرُ وَهُوَ التَّشْرِيعُ وَالتَّكْوِينُ وَالتَّصَرُّفُ وَالتَّدْبِيرُ فَهُوَ الْمَالِكُ ، وَالْمِلْكُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وَلَا فِي مِلْكِهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا آنِفًا بَعْضَ الْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِتَدْبِيرِهِ تَعَالَى لِلْأَمْرِ عَقِبَ ذِكْرِ

الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَفِي مَعْنَاهُ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ عِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ . وَمِنْ هَذَا التَّدْبِيرِ مَا سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْمَلَائِكَةَ الْمَعْنِيِّينَ بِقَوْلِهِ : (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) (79 : 5) مِنْ نِظَامِ الْعَالَمِ وَسُنَنِهِ ، وَمِنْهُ الْوَحْيُ يُنْزِلُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الرُّسُلِ . وَيَشْمَلُهُمَا قَوْلُهُ : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) (65 : 12) وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ : الْخَلْقُ مَا دُونَ الْعَرْشِ وَالْأَمْرُ مَا فَوْقَ ذَلِكَ ، وَعَنْهُ أَنَّ الْأَمْرَ هُوَ الْكَلَامُ ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا فِي الْآيَةِ .

(137/272)

وَلِلصُّوفِيَّةِ أَنَّ عَالَمَ الْخَلْقِ مَا أَوْجَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ مَثَلًا ، وَالْأَمْرُ مَا أَوْجَدَهُ ابْتِدَاءً بِقَوْلِهِ : "كُنْ" كَالرُّوحِ وَأَصْلِ الْمَادَّةِ وَالْعُنْصُرِ الْأَوَّلِ لَهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي عَالَمَ الشَّهَادَةِ وَالْحِسِّ بِعَالَمِ الْخَلْقِ وَعَالَمِ الْمُلْكِ وَيُسَمِّي عَالَمَ الْغَيْبِ بِعَالَمِ الْأَمْرِ وَالْمَلَكُوتِ

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (3 : 59) أَيْ عِنْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ . فَجِسْمُهُ مَخْلُوقٌ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ وَرَوْحُهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى . (تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أَيْ تَعَاظَمَتْ وَتَزَايَدَتْ بَرَكَاتُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ وَمُدَبِّرِ

أُمُورِهِمْ . وَالْحَقِيقِ وَحْدَهُ بِعِبَادَتِهِمْ . فَتَبَارَكَ مِنْ مَادَّةِ الْبَرَكَةِ ، وَهِيَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الثَّابِتُ ، فَهِيَ هُنَا تَنْبِيهٌ عَلَى مَا فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالنِّعَمِ الَّتِي تُوجِبُ لَهُ الشُّكْرَ وَالْعِبَادَةَ عَلَى عِبَادِهِ دُونَ مَا عَبَدُوهُ مَعَهُ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ وَلَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَتَكَلَّمْنَا عَلَى مَادَّةِ الْبَرَكَةِ فِي تَفْسِيرِ (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) (6 : 92) فَيُرَاجَعُ :

(138/272)

(تَنْبِيهٌ) عَنَى بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ بِتَكَلُّفِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ مَا وَرَدَ مِنْ ذِكْرِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْكُرْسِيِّ وَالْعَرْشِ عَلَى الْأَفْلَاكِ التِّسْعَةِ فِي الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ ، فَزَعَمُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ هِيَ الْأَفْلَاكُ الْمَرْكُوزُ فِيهَا زُحَلُ وَالْمُشْتَرَى وَالْمِرِّيخُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالزُّهَرَةُ وَعُطَارِدُ ، وَأَنَّ الْكُرْسِيَّ الَّذِي ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ هُوَ الْفَلَكُ الثَّامِنُ الَّذِي رُكِزَتْ فِيهِ جَمِيعُ النُّجُومِ الثَّوَابِتِ ، وَأَنَّ الْعَرْشَ هُوَ الْفَلَكُ التَّاسِعُ الَّذِي وَصَفُوهُ بِالْأَطْلَسِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ النُّجُومِ ، وَتِلْكَ نَظَرِيَّاتٌ قَدْ ثَبَتَ بُطْلَانُهَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَسَقَطَ كُلُّ مَا بُنِيَ عَلَيْهَا مِنْ تَكَلُّفٍ وَلَمْ يَبْقَ حَاجَةٌ إِلَى الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ لِرَدِّهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى تَكَلُّفِ حَمْلِ شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى مَسَائِلِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْمُعْتَمَدَةِ فِي زَمَنِنَا ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَرْشَدَ الْبَشَرَ إِلَى الْعِلْمِ بِتَذْكِيرِهِمْ بِآيَاتِهِ فِي

الْأَكْوَانِ وَتَرَكَ ذَلِكَ لِبَحْثِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ . وَهِدَايَةُ الدِّينِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ بِالْكَوْنِ وَسُنَنِهِ وَسِيلَةً لِتَقْوِيَةِ الْإِيمَانِ ، وَتَكْمِيلِ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ ، وَلَوِ اهْتَدَى دُوَلُ الْإِفْرِنْجِ بِهِدَايَتِهِ هَذِهِ لَمَا جَعَلُوا الْعِلْمَ وَسِيلَةً لِلْقَتْلِ وَالتَّدْمِيرِ وَقَهْرِ الْقَوِيِّ بِهِ لِلضَّعِيفِ .

(139/272)

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ تَعَالَى لِأُمَّةِ الدَّعْوَةِ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَذَكَّرَهُمْ بِالْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ عَلَيْهَا أَمَرَهُمْ بِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَازِمًا لَهَا مِنْ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ إِفْرَادُهُ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ رُوحُهَا وَمُخُّهَا الدُّعَاءُ فَقَالَ :

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) التَّضَرُّعُ تَفَعُّلٌ مِنَ الضَّرَاعَةِ مَعْنَاهُ تَكَلُّفُهَا أَوِ الْمُبَالَغَةُ فِيهَا أَوْ إِظْهَارُهَا وَاخْتَارَهُ الرَّاغِبُ ، وَهِيَ مَصْدَرُ ضَرَعَ كَخَشَعَ إِذَا ضَعُفَ وَذَلَّ ، وَتَلَوَّى وَتَمَلْمَلَ ، وَمَأْخَذُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ ضَرَعَ إِلَيْهِمْ إِذَا تَنَاوَلَ ضَرْعَ أُمِّهِ ، وَإِنَّ حَاجَةَ الصَّغِيرِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ إِلَى الرِّضَاعِ مِنْ أُمِّهِ لَمِنْ أَشَدِّ مَظَاهِرِ الْحَاجَةِ وَالِافْتِقَارِ بِشُعُورِ الْوِجْدَانِ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى غَيْرِهِ مَعَهُ ، وَلِذَلِكَ خُصَّ اسْتِعْمَالُ التَّضَرُّعِ فِي التَّنْزِيلِ بِمَوَاطِنِ

الشِّدَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَاتِ 42 ، 43 ، 63 مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ " الْمُؤْمِنُونَ " (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) (76) وَذَلِكَ أَنَّ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَلَا سِيَّمَا فِي حَالِ الشِّدَّةِ هُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ وَرُوحُهَا ، وَلَهُ مَظْهَرَانِ : التَّضَرُّعُ وَالِابْتِهَالُ ،

(140/272)

وَالْخُفْيَةُ وَالْإِسْرَارُ . أَيِ ادْعُوا رَبَّكُمْ وَمُدَبِّرَ أُمُورِكُمْ مُتَضَرِّعِينَ مُبْتَهِلِينَ إِلَيْهِ تَارَةً ، وَمُسِرِّينَ مُسْتَخْفِينَ تَارَةً أُخْرَى ، أَوْ دُعَاءُ تَضَرُّعٍ وَتَذَلُّلٍ وَابْتِهَالٍ ، وَدُعَاءُ مُنَاجَاةٍ وَإِسْرَارٍ وَوَقَارٍ ، وَلِكُلٍّ مِنَ الدُّعَاءَيْنِ وَقْتٌ ، وَدَاعِيَةٌ مِنَ النَّفْسِ ، فَالتَّضَرُّعُ بِالْجَهْرِ الْمُعْتَدِلِ تَحْسُنُ فِي حَالِ الْخَلْوَةِ وَالْأَمْنِ مِنْ رُؤْيَةِ النَّاسِ الدَّاعِيَ وَمِنْ سَمَاعِهِمْ لِصَوْتِهِ ، فَلَا جَهْرُهُ يُؤْذِيهِمْ وَلَا الْفِكْرُ فِيهِمْ يَشْغَلُهُ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى الرَّبِّ وَحْدَهُ ، أَوْ يُفْسِدُ عَلَيْهِ دُعَاءَهُ بِحُبِّ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ .

وَالْإِسْرَارُ يَحْسُنُ فِي حَالِ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاعِرِ وَغَيْرِهَا إِلَّا مَا وَرَدَ رَفْعُ الصَّوْتِ فِيهِ مِنَ الْجَمِيعِ ، كَالتَّلْبِيَةِ فِي الْحَجِّ وَتَكْبِيرِ الْعِيدَيْنِ ، وَهُوَ مُشْتَرَكٌ لَا رِيَاءَ فِيهِ ، وَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ سَتْرًا وَلِبَاسًا شُرِعَ فِيهِ الْجَهْرُ فِي قِرَاءَةِ الصَّلَاةِ ، وَهُوَ لِلْمُجْتَهِدِ فِي خَلْوَتِهِ يَطْرُدُ الْوَسْوَاسَ ، وَيُقَاوِمُ فُتُورَ النُّعَاسِ ، وَيُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ ، وَبُكَاءِ الْخُشُوعِ لِلرَّحْمَنِ .

هَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ اللَّفْظِ عِنْدَنَا . وَمِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ مَنْ جَعَلَ التَّضَرُّعَ وَالْخُفْيَةَ مُتَّفِقَيْنِ غَيْرَ مُتَقَابِلَيْنِ ، بِتَفْسِيرِ التَّضَرُّعِ بِالتَّخَشُّعِ وَالتَّذَلُّلِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ " هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ . قَالَ النَّوَوِيُّ : فَفِيهِ خَفْضُ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ إذَا لَمْ تَدْعُ حَاجَةٌ إلَى رَفْعِهِ ، فَإِنَّهُ إذَا خَفَضَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ ، فَإِذَا دَعَتْ حَاجَةٌ إلَى الرَّفْعِ رَفَعَ كَمَا جَاءَتْ بِهِ أَحَادِيثُ اهـ . وَالْمُتَبَادَرُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا كَانَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْجَهْرِ وَنَاهِيكَ بِكَوْنِهِ مِنْ جَمَاعَةٍ كَثِيرِينَ ، وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّ الْجَهْرَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ أَرْضَى لِلرَّبِّ وَأَرْجَى لِلْقَبُولِ ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (17 : 110) .

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : " إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَقِهَ الْفِقْهَ الْكَثِيرَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصَلِّي

الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزُّوَّارُ وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرِّ

فَيَكُونَ عَلَانِيَةً أَبَدًا ، وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ إِنْ كَانَ إِلَّا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا رَضِيَ فِعْلَهُ فَقَالَ : (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) (19 : 3) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءِ وَالصِّيَاحِ فِي الدُّعَاءِ وَيُؤْمَرُ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ .

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) فِي الدُّعَاءِ ، كَمَا لَا يُحِبُّ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْأَشْيَاءِ . وَالِاعْتِدَاءُ تَجَاوُزُ الْحُدُودِ فِيهَا ، وَقَدْ نُهِيَ عَنْهُ مُطْلَقًا وَمُقَيَّدًا ، إِلَّا مَا كَانَ انْتِصَافًا مِنْ مُعْتَدٍّ ظَالِمٍ بِمِثْلِ ظُلْمِهِ ، وَالْعَفْوُ عَنْهُ أَفْضَلُ ، وَالِاعْتِدَاءُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ بِحَسْبِهِ وَذَلِكَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا مَنْ تَجَاوَزَهُ كَانَ مُعْتَدِيًا (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (2 : 229) .

وَشَرُّ أَنْوَاعِ الِاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ التَّوَجُّهِ فِيهِ إلَى غَيْرِ اللَّهِ وَلَوْ لِيَشْفَعَ لَهُ عِنْدَهُ ؛ لِأَنَّ الْحَنِيفَ مَنْ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ ، فَلَا يَدْعُو مَعَهُ غَيْرَهُ ، كَمَا قَالَ : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) (72 : 18) أَيْ لَا مَلَكًا وَلَا نَبِيًّا وَلَا وَلِيًّا . وَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ فِيمَا يَعْجِزُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ كَالشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَضِ بِغَيْرِ التَّدَاوِي وَتَسْخِيرِ قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ وَالْإِنْقَاذِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ – فَقَدِ اتَّخَذَهُ إلَهًا لِأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَعْبُودُ ، وَ " الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ " كَمَا قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وَأَبُو يَعْلَى عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى نَحْوِ " الْحَجُّ عَرَفَةُ " وَفِي مَعْنَى هَذَا التَّفْسِيرِ حَدِيثُ أَنَسٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مَرْفُوعًا " الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ " وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ يُقَوِّيهِ تَفْسِيرُهُ لِلصَّحِيحِ ، وَقَدْ يُفَسِّرُونَهُ بِالْعِبَادَةِ فِي جُمْلَتِهَا دُونَ أَفْرَادِهَا .

(144/272)

وَقَالَ تَعَالَى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (17 : 56 ، 57) جَاءَ فِي رِوَايَاتٍ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ هَذَا نَزَلَ فِيمَنْ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَأُمَّهُ وَعُزَيْرًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، أَيْ كُلُّهُمْ عَاجِزٌ عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ أَوْ تَحْوِيلِهِ عَنْكُمْ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمْ عَبِيدُ اللَّهِ يَبْتَغُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَالزُّلْفَى - أَيُّهُمْ أَقْرَبُ - أَيْ أَقْرَبُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْمَسِيحِ

(145/272)

يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَدْعُوهُ طَلَبًا لِلْوَسِيلَةِ عِنْدَهُ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، فَكَيْفَ يَدْعُونَ مَعَهُ أَوْ مَنْ دُونَهُ ؟ وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ " قَالُوا : وَمَا الْوَسِيلَةُ ؟ قَالَ " الْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " ثُمَّ قَرَأَ : (يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) وَابْتِغَاءُ ذَلِكَ يَكُونُ بِدُعَائِهِ وَعِبَادَتِهِ بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ دُونَ غَيْرِهِ ، وَالْآيَاتُ الْمُنْكِرَةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ دُعَاءَ غَيْرِ اللَّهِ وَكَوْنَهُ عِبَادَةً لَهُمْ وَشِرْكًا مِنَ اللَّهِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنَّ الْمُضِلِّينَ لِلْعَوَامِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ لَهُمْ

لَا بَأْسَ بِدُعَائِكُمْ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ ، وَالتَّضَرُّعِ وَالْخُشُوعِ عِنْدَهُمْ ، فَإِنَّ هَذَا تَوَسُّلٌ بِهِمْ إِلَى اللهِ لِيُقَرِّبُوكُمْ مِنْهُ بِشَفَاعَتِهِمْ لَكُمْ عِنْدَهُ لَا عِبَادَةَ لَهُمْ .

(146/272)

وَهَذَا تَحَكُّمٌ فِي اللُّغَةِ وَجَهْلٌ بِهَا ، فَأَهْلُ اللُّغَةِ كَانُوا يُسَمُّونَ ذَلِكَ عِبَادَةً ، وَالْوَسِيلَةُ فِي الدِّينِ هِيَ غَايَةٌ لِلْعِبَادَةِ ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا الْقُرْبُ مِنْهُ تَعَالَى ، وَالتَّوَسُّلُ طَلَبُ ذَلِكَ ، فَهُوَ التَّقَرُّبُ مِنْهُ بِمَا يَرْتَضِيهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَا شَرَعَهُ مِنْ عِبَادَتِكَ لَهُ دُونَ عِبَادَةِ غَيْرِكَ (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (53 : 39) وَالَّذِينَ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ كَانُوا يَقْصِدُونَ بِدُعَائِهِمْ أَنْ يُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى وَأَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ نَفْعَهُمْ وَلَا كَشْفَ الضُّرِّ عَنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، بَلْ ذَلِكَ هُوَ اللهُ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ . وَآيَاتُ الْقُرْآنِ صَرِيحَةٌ فِي ذَلِكَ . نَعَمْ إِنَّ طَلَبَ الدُّعَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَشْرُوعٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ دُونَ الْأَمْوَاتِ ، وَيُسَمَّى فِي اللُّغَةِ تَوَسُّلًا إِلَى اللهِ لِأَنَّهُ قَدْ شَرَعَهُ ، وَمِنْهُ تَوَسُّلُ عُمَرَ وَالصَّحَابَةِ بِالْعَبَّاسِ ، بَدَلًا مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِصَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ وَمَا يُشْرَعُ بَعْدَهَا مِنَ الدُّعَاءِ . فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ هَذَا قَالُوا : إِنَّ مَا وَرَدَ مِنْ ذَمِّ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ وَالتَّقَرُّبِ بِهِ إِلَى اللهِ خَاصٌّ بِالْمُشْرِكِينَ ، وَمَا يُعَابُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَا يُعَابُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَأَنْتُمْ تُحَمِّلُونَ الْآيَاتِ فِي الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ! ! وَهَذَا الْقَوْلُ جَهْلٌ

(147/272)

فَاضِحٌ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مَا ذَمَّ الشِّرْكَ إِلَّا لِذَاتِهِ ، وَمَا ذَمَّ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِهِ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا كَانُوا إِلَّا مُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَكِنْ مَا طَرَأَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشِّرْكِ أَحْبَطَ إِيمَانَهُمْ ، وَكَذَلِكَ يَحْبَطُ إِيمَانُ مَنْ أَشْرَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عِبَادَةِ سِوَاهُ ، وَإِنْ لَمْ يُشْرِكْ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، بِأَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِ الْعِبَادِ وَحْدَهُ ، فَهَذَا الْإِيمَانُ عَامٌّ قَلَّ مَنْ أَشْرَكَ فِيهِ ، فَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَالتَّوَجُّهِ فِيهَا لَهُ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ الْمُسَخَّرِينَ بِأَمْرِهِ (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) (98 : 5) .

وَمِنَ الِاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ مَا هُوَ خَاصٌّ بِاللَّفْظِ كَالتَّكَلُّفِ وَالسَّجْعِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ ، فَقَدْ صَحَّ النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِالْمَعْنَى وَهُوَ طَلَبُ غَيْرِ الْمَشْرُوعِ

(148/272)

مِنْ وَسَائِلِ الْمَعَاصِي وَمَقَاصِدِهَا كَضَرَرِ الْعِبَادِ ، وَأَسْبَابِ الْفَسَادِ ، وَطَلَبِ الْمُحَالِ الشَّرْعِيِّ أَوِ الْعَقْلِيِّ كَطَلَبِ إِبْطَالِ سُنَنِ اللهِ فِي الْخَلْقِ وَتَبْدِيلِهَا أَوْ تَحْوِيلِهَا ، وَمِنْهُ طَلَبُ النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، مَعَ تَرْكِ وَسَائِلِهِ كَأَنْوَاعِ السِّلَاحِ وَالنِّظَامِ ، وَالْغِنَى بِدُونِ كَسْبٍ ، وَالْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ . وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا) (35 : 43) .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) قَالَ : فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ . وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ : لَا يَسْأَلُ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ . وَرَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنًا لَهُ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَإِسْتَبْرَقَهَا – وَنَحْوًا مِنْ هَذَا – وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا . فَقَالَ : لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ خَيْرًا كَثِيرًا وَتَعَوَّذْتَ بِهِ مِنْ شَرٍّ كَثِيرٍ ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ – وَفِي لَفْظٍ – يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ " وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ .

(149/272)

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) أَيْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِعَمَلٍ ضَائِرٍ وَلَا بِحُكْمٍ جَائِرٍ ، مِمَّا يُنَافِي صَلَاحَ النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ كَعُقُولِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ وَآدَابِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، أَوْ فِي مَعَايِشِهِمْ وَمَرَافِقِهِمْ مِنْ زِرَاعَةٍ وَصِنَاعَةٍ وَتِجَارَةٍ وَطُرُقِ مُوَاصَلَةٍ وَوَسَائِلِ تَعَاوُنٍ – لَا تُفْسِدُوا فِيهَا بَعْدَ إِصْلَاحِ اللهِ تَعَالَى لَهَا بِمَا خَلَقَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَمَا هَدَى النَّاسَ إِلَيْهِ مِنِ اسْتِغْلَالِهَا وَالِانْتِفَاعِ بِتَسْخِيرِهَا لَهُمْ ، وَامْتِنَانِهِ بِهَا عَلَيْهِمْ ، بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

(150/272)

جَمِيعًا) (2 : 29) وَقَوْلِهِ : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (45 : 13) وَمِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضِيلَةِ فِيهَا ، فَالْإِصْلَاحُ الْأَعْظَمُ إِنَّمَا هُوَ إِصْلَاحُهُ تَعَالَى لِحَالِ الْبَشَرِ ، بِهِدَايَةِ الدِّينِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَإِكْمَالِ ذَلِكَ بِبِعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، الرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ لِلْعَالَمِينَ ، فَأَصْلَحَ بِهِ عَقَائِدَ الْبَشَرِ بِبِنَائِهَا عَلَى الْبُرْهَانِ ، وَأَصْلَحَ بِهِ أَخْلَاقَهُمْ وَآدَابَهُمْ بِمَا جَمَعَ لَهُمْ فِيهَا بَيْنَ مَصَالِحِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّرَاحُمِ ، وَأَصْلَحَ سِيَاسَتَهُمْ وَنَوَّعَ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ بِشَرْعِ حُكُومَةِ الشُّورَى الْمُقَيَّدَةِ بِأُصُولِ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَحِفْظِ الْمَصَالِحِ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ .

وَالْبَشَرُ سَادَةُ هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْهَا كَالْقَلْبِ مِنَ الْجَسَدِ وَالْعَقْلِ مِنَ النَّفْسِ ، فَإِذَا صَلَحُوا صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ . وَأَشَدُّ الْفَسَادِ الْكِبْرُ وَالْعُتُوُّ ، الدَّاعِيَانِ إِلَى الظُّلْمِ وَالْعُلُوِّ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْإِفْرِنْجِ كَيْفَ أَصْلَحُوا كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ مَعْدِنٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، وَعَجَزُوا عَنْ إِصْلَاحِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، بِمُعَادَاتِهِمْ أَكْمَلَ الْأَدْيَانِ ، فَحَوَّلَتْ دُوَلُهُمْ كُلَّ مَا اهْتَدَى إِلَيْهِ عُلَمَاؤُهُمْ مِنْ وَسَائِلِ الْعُمْرَانِ ، إِلَى إِفْسَادِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَتَعَادَى شُعُوبُهُ بِالتَّنَازُعِ عَلَى الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ ، وَإِبَاحَةِ الْكُفْرِ

(151/272)

وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، وَبَذْلِ ثَرْوَةِ الْعَامِلِينَ مِنْ شُعُوبِهِمْ ، فِي سَبِيلِ التَّنْكِيلِ بِالْمُخَالِفِينَ لَهُمْ ، وَالْجِنَايَةِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَلَوْ بِالْجِنَايَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ : (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (56 ، 85) فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَهُمْ فِي فَسَادٍ فَأَصْلَحَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ دَعَا إِلَى خِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ اهـ . وَالْإِفْسَادُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ أَظْهَرُ قُبْحًا مِنَ الْإِفْسَادِ عَلَى الْإِفْسَادِ ، فَإِنَّ وُجُودَ الْإِصْلَاحِ أَكْبَرُ حُجَّةً عَلَى الْمُفْسِدِ إِذَا هُوَ لَمْ يَحْفَظْهُ

وَيَجْرِي عَلَى سَنَنِهِ . فَكَيْفَ إِذَا هُوَ أَفْسَدَ وَأَخْرَجَهُ عَنْ وَضْعِهِ ؟ وَلِذَلِكَ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ ، وَإِلَّا فَالْإِفْسَادُ مَذْمُومٌ وَمَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَحُجَّةُ اللهِ عَلَى الْخُلُوفِ وَالْخَلَائِفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُفْسِدِينَ ، لِمَا كَانَ مِنْ إِصْلَاحِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، أَظْهَرُ مِنْ حُجَّتِهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، الَّذِينَ هُمْ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ سَلَفِهِمُ الْغَابِرِينَ .

(وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) أَعَادَ الْأَمْرَ بِالدُّعَاءِ بِقَيْدٍ آخَرَ بَعْدَ أَنْ وَسَّطَ بَيْنَهُمَا النَّهْيَ عَنِ الْإِفْسَادِ ، لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ مَنْ لَا يُعَرِّفُ نَفْسَهُ بِالْحَاجَةِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى

(152/272)

رَحْمَةِ رَبِّهِ الْغَنِيِّ الْقَدِيرِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَلَا يَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَلَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ وَطَمَعًا فِي غُفْرَانِهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الْإِفْسَادِ مِنْهُ إِلَى الْإِصْلَاحِ ، إِلَّا أَنْ يَعْجِزَ . وَالْمَعْنَى : وَادْعُوهُ خَائِفِينَ أَوْ ذَوِي خَوْفٍ مِنْ عِقَابِهِ إِيَّاكُمْ عَلَى مُخَالَفَتِكُمْ لِشَرْعِهِ الْمُصْلِحِ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِذَاتِ بَيْنِكُمْ ، وَتَنَكُّبِكُمْ لِسُنَنِهِ الْمُطَّرِدَةِ فِي صِحَّةِ أَجْسَامِكُمْ وَشُئُونِ مَعَايِشِكُمْ – وَهَذَا الْعِقَابُ يَكُونُ بَعْضُهُ فِي الدُّنْيَا وَبَاقِيهِ فِي الْآخِرَةِ – وَطَامِعِينَ فِي رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(153/272)

وَالْقَوْلُ الْجَامِعُ فِي حَالِ النَّفْسِ عِنْدَ الدُّعَاءِ أَنْ تَكُونَ غَارِقَةً فِي الشُّعُوبِ بِالْعَجْزِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى الرَّبِّ الْقَدِيمِ الرَّحِيمِ ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ . يَصْرِفُ الْأَسْبَابَ ، وَيُعْطِي بِحِسَابٍ وَغَيْرِ حِسَابٍ ، فَإِنَّ دُعَاءَ الرَّبِّ الْكَرِيمِ بِهَذَا الشُّعُورِ ، يُقَوِّي أَمَلَ النَّفْسِ ، وَيَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَأْسِ ، عِنْدَ تَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ ، وَالْجَهْلِ بِوَسَائِلِ النَّجَاحِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلدُّعَاءِ فَائِدَةٌ إِلَّا هَذَا لَكَفَى ، فَكَيْفَ وَهُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ وَلُبَابُهَا ، وَإِجَابَتُهُ مَرْجُوَّةٌ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ شُرُوطِهِ وَآدَابِهِ ، وَأَوَّلُهَا عَدَمُ الِاعْتِدَاءِ فِيهِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِإِعْطَاءِ الدَّاعِي مَا طَلَبَهُ ، كَانَتْ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ . وَلَا أَرَى بَأْسًا بِأَنْ أَقُولَ غَيْرَ مُبَالٍ بِإِنْكَارِ الْمَحْرُومِينَ : إِنَّنِي قَلَّمَا دَعَوْتُ اللهَ دُعَاءً خَفِيًّا شَرْعِيًّا رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَّا اسْتَجَابَ لِي ، أَوْ ظَهَرَ لِي وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ أَنَّ عَدَمَ الْإِجَابَةِ كَانَ خَيْرًا مِنْهَا .

(154/272)

(إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أَيْ إِنَّ رَحْمَتَهُ تَعَالَى الْفِعْلِيَّةَ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْإِحْسَانِ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي أَعْمَالِهِمُ الْمُتْقِنِينَ لَهَا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . فَمَنْ أَحْسَنَ فِي الْعِبَادَةِ نَالَ حُسْنَ الثَّوَابِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا نَالَ حُسْنَ النَّجَاحِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي

الدُّعَاءِ اسْتُجِيبَ لَهُ ، أَوْ أُعْطِيَ خَيْرًا مِمَّا طَلَبَهُ ، وَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالدُّعَاءِ قَبْلَهَا ، مُبَيِّنَةٌ لِفَائِدَةِ الدُّعَاءِ الْعَامَّةِ كَمَا قَرَّرْنَا . فَهِيَ أَعَمُّ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (40 : 60) .

وَالْإِحْسَانُ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِهَدْيِ دِينِ الْفِطْرَةِ ، الدَّاعِي لِحَسَنَتَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَجَزَاءُ الْإِحْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (55 : 60) كَمَا أَنَّ الْإِسَاءَةَ مُحَرَّمَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَزَاءَهَا مِنْ جِنْسِهَا . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (53 : 31) وَقَالَ الرَّسُولُ

(155/272)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَالْإِحْسَانُ وَاجِبٌ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ حَتَّى فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ؛ لِأَنَّهُ فِي حُكْمِهِ مِنَ الضَّرُورَاتِ الَّتِي تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ، وَيُتَّقَى مَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهُ مِنْ شَرِّهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ

فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) (47 : 4) أَيْ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَعْدَاءَكُمُ الْكُفَّارَ فِي الْمَعْرَكَةِ فَقَاتِلُوهُمْ بِضَرْبِ الرِّقَابِ لِأَنَّهُ أَسْرَعُ إِلَى الْقَتْلِ وَأَبْعَدُ عَنِ التَّعْذِيبِ بِمِثْلِ ضَرْبِ الرَّأْسِ مَثَلًا - وَنَاهِيكَ بِتَهْشِيمِ الرُّءُوسِ وَتَقْطِيعِ الْأَعْضَاءِ فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَطِبَّاءُ جِرَاحَةٍ يُخَفِّفُونَ آلَامَهَا - حَتَّى إِذَا ظَهَرَ لَكُمُ الْغَلَبُ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْخَانِ فِيهِمْ فَاتْرُكُوا الْقَتْلَ وَاعْمَدُوا إِلَى الْأَسْرِ ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ تَمُنُّوا عَلَى الْأَسْرَى بِالْعِتْقِ مَنًّا ، وَإِمَّا أَنْ تَفْدُوا بِهِمْ مَنْ أُسِرَ مِنْكُمْ فِدَاءً .

(156/272)

وَكَذَلِكَ الْإِحْسَانُ فِي الْحَيَوَانِ وَالرِّفْقُ بِهِ ، وَمِنْهُ ذَبْحُ الْبَهَائِمِ لِلْأَكْلِ يَجِبُ أَنْ يَحْسُنَ فِيهَا بِقَدْرِ الطَّاقَةِ حَتَّى لَا يَتَعَذَّبَ الْحَيَوَانُ ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ الْمَوْقُوذَةَ وَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِغَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَنْحَلَّ قُوَاهَا وَتَمُوتَ .

وَمِنَ الْعِبْرَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْمَادِّيِّينَ مِنَ الْبَشَرِ يَعُدُّونَ الرَّحْمَةَ ضَعْفًا فِي النَّفْسِ تَجِبُ مُقَاوَمَتُهُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ ، أَيْ بِإِفْسَادِ الْفِطْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي أَوْدَعَ فِيهَا الرَّبُّ الرَّحِيمُ جُزْءًا مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يَتَرَاحَمُ بِهَا خَلْقُهُ وَيَتَعَاطَفُونَ ، وَقَاعِدَةُ التَّرْبِيَةِ الْمَادِّيَّةِ أَنَّ أُمُورَ الْحَيَاةِ كُلَّهَا تِجَارَةٌ يُقْصَدُ بِهَا الرِّبْحُ الْعَاجِلُ ، فَإِذَا رَأَيْتَ امْرَأً أَوْ طِفْلًا أَوْ عَشِيرَةً أَوْ أُمَّةً عُرْضَةً لِلْآلَامِ وَالْهَلَاكِ ،

وَلَمْ يَكُنْ لَكَ رِبْحٌ وَفَائِدَةٌ خَاصَّةٌ مِنْ دَفْعِ الْهَلَاكِ عَنْهُمْ فَلَا تُكَلِّفْ نَفْسَكَ ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ لَكَ أَوْ لِقَوْمِكَ رِبْحٌ مِنْ ظُلْمِ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ أَوْ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ وَإِشْقَائِهِ بِالِاسْتِعْبَادِ ، وَإِفْسَادِ الْأَخْلَاقِ وَإِرْهَاقِ الْأَجْسَادِ ، فَافْعَلْ ذَلِكَ وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَدُلُّكَ عَلَيْهَا الْعِلْمُ وَتُمَكِّنُكَ مِنْهَا الْقُوَّةُ ، بَلْ هُمْ يُرَبُّونَ

أَوْلَادَهُمْ عَلَى أَلَّا يَنَالُوا مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِعَمَلٍ

(157/272)

يَعْمَلُونَهُ لَهُمْ ، لِيَطْبَعُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَلَكَةَ طَلَبِ الرِّبْحِ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ ، وَهَذَا حَسَنٌ إِذَا لَمْ يَنْزِعُوا مِنْهَا عَوَاطِفَ الرَّحْمَةِ وَحُبَّ الْإِحْسَانِ بِمُرَاغَمَةِ الْفِطْرَةِ وَإِفْسَادِهَا .

(158/272)

عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ قَامَ بِنَاءُ الِاسْتِعْمَارِ الْإِفْرِنْجِيِّ فِي الْعَالَمِ ، فَكُلُّ دَوْلَةٍ أُورُبِّيَّةٍ تَسْتَوْلِي عَلَى شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ تَعْنِي أَشَدَّ الْعِنَايَةِ بِإِفْسَادِ أَخْلَاقِهِ وَإِذْلَالِ نَفْسِهِ وَاسْتِنْزَافِ ثَرْوَتِهِ ، وَكُلُّ مَا تَعْمَلُهُ فِي بِلَادِهِ مِنْ عَمَلٍ عُمْرَانِيٍّ كَتَعْبِيدِ الطُّرُقِ وَإِصْلَاحِ رَيِّ الْأَرْضِ فَلِأَجْلِ تَوْفِيرِ رِبْحِهَا

مِنْهَا ، وَتَمْكِينِهَا مِنْ سَوْقِ جُيُوشِهَا الَّتِي تَسْتَعْبِدُ بِهَا أَهْلَهَا ، وَقَدْ قَرَأْنَا فِي هَذَا الْعَامِ مَقَالَاتٍ لِسَائِحَةٍ أَمِيرِكَانِيَّةٍ طَافَتْ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ فِي الشَّرْقِ الْأَقْصَى ، وَصَفَتْ إِذْلَالَ الْمُسْتَعْمِرِينَ فِيهَا لِلْأَهَالِي بِنَحْوِ جَرِّهِمْ لِعَرَبَاتِهِمْ ، وَالدَّوْسِ عَلَى رِقَابِهِمْ وَظُهُورِهِمْ ، وَإِفْسَادِ أَنْفُسِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ بِإِبَاحَةِ شُرْبِ سُمُومِ الْأَفْيُونِ وَالْكُحُولِ (الْخُمُورِ الشَّدِيدَةِ السُّمِّ) ، وَسَلْبِ أَمْوَالِهِمْ بِوَسَائِلَ نِظَامِيَّةٍ – فَذَكَرَتْ مَا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَشْمَئِزُّ نُفُوسُ الرُّحَمَاءِ الْمُهَذَّبِينَ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْرِبُ مِنْهُمْ هَذَا بَعْدَ أَنْ عَلِمَ مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ فِي حَرْبِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي بِلَادِهِمْ (أُورُبَّةَ) مِنَ الْقَسْوَةِ وَالتَّخْرِيبِ وَالتَّدْمِيرِ ؟ فَهُمْ يَرْوُونَ أَنَّ قَتْلَى هَذِهِ الْحَرْبِ بَلَغَتْ عَشَرَةَ مَلَايِينَ شَابٍّ ، وَالْمُشَوَّهِينَ الْمُعَطَّلِينَ مِنَ الْجِرَاحِ زُهَاءَ ثَلَاثِينَ مِلْيُونًا ، وَأَنَّ نَفَقَاتِ التَّدْمِيرِ قُدِّرَتْ بِخَمْسِمِائَةِ أَلْفِ مِلْيُونِ جُنَيْهٍ إِنْكِلِيزِيٍّ ، وَهِيَ لَوْ أُنْفِقَتْ عَلَى إِصْلَاحِ

(159/272)

كُلِّ مَمَالِكِ الْمَعْمُورَةِ لَكَفَتْ ، وَلَا تَزَالُ الدُّوَلُ الظَّافِرَةُ الْمُسَلَّحَةُ تُرْهِقُ الَّذِينَ لَا سِلَاحَ بِأَيْدِيهِمْ وَتُحَاوِلُ الْإِجْهَازَ عَلَيْهِمْ . فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قِتَالِ الْإِسْلَامِ وَفُتُوحِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى قَاعِدَةِ كَوْنِ الْحَرْبِ ضَرُورَةً تُقَدَّرُ بِقَدَرِهَا ، وَيُفْتَرَضُ الْإِحْسَانُ وَالرَّحْمَةُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ فِيهَا ؟ وَقَدْ

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ مَرَّ بِامْرَأَتَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى قَتْلَاهُمَا " أُنْزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِكَ حَتَّى مَرَرْتَ بِالْمَرْأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَاهُمَا ؟ " وَقَدْ شَهِدَ لَنَا الْمُؤَرِّخُونَ الْمُنْصِفُونَ مِنَ الْإِفْرِنْجِ بِذَلِكَ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : مَا عَرَفَ التَّارِيخُ فَاتِحًا أَعْدَلَ وَلَا أَرْحَمَ مِنَ الْعَرَبِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ . اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاحِمِينَ ، وَأَجِرْنَا مِنْ شَرِّ الْمُفْسِدِينَ الْقُسَاةِ الظَّالِمِينَ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (قَرِيبٌ) وَقَعَتْ خَبَرًا لِلرَّحْمَةِ ، وَمِنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ مُطَابِقًا لِلْمُبْتَدَإِ فِي التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ بِأَنْ يُقَالَ هُنَا " قَرِيبَةٌ "

(160/272)

وَقَدْ ذَكَرُوا فِي تَعْلِيلِ هَذَا التَّذْكِيرِ هُنَا وَتَوْجِيهِهِ بِضْعَةَ عَشَرَ وَجْهًا مَا بَيْنَ لَفْظِيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ ، بَعْضُهَا قَرِيبٌ مِنْ ذَوْقِ اللُّغَةِ وَبَعْضُهَا تَكَلُّفٌ ظَاهِرٌ . (مِنْهَا) أَنَّ التَّذْكِيرَ وَالتَّأْنِيثَ هُنَا لَفْظِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ فَلَا تَجِبُ فِيهِ الْمُطَابَقَةُ ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ الْمُطَابَقَةُ فَلَا تُتْرَكُ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ إِلَّا لِنُكْتَةٍ . (وَمِنْهَا) . وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ نُكْتَةً جَامِعَةً بَيْنَ التَّوْجِيهِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ - أَنَّ مَعْنَى الرَّحْمَةِ هُنَا مُذَكَّرٌ . قِيلَ : هُوَ الْمَطَرُ . وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَالصَّوَابُ أَنَّ مَعْنَاهَا

الْإِحْسَانُ الْعَامُّ لِأَنَّهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ صِفَةُ فِعْلٍ لَا صِفَةُ ذَاتٍ ، إِذْ لَا مَعْنَى لِقُرْبِ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ،

(161/272)

فَيَكُونُ الْمَعْنَى : أَنَّ إِحْسَانَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، وَيُؤَكِّدُهُ مَا فِيهِ مِنَ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْجَزَاءِ وَالْعَمَلِ كَمَا قُلْنَا فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَوَقَعَ لَنَا مُسَلْسَلًا عَنْ شَيْخِنَا الْقَاوُقْجِيِّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ (لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) (42 : 17) وَ(لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) (33 : 63) وَقَدْ يُعَلِّلُهُ فِيهِمَا بِرِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ مَنْ يَقُولُ بِهَا وَهُمُ الْجُمْهُورُ . (وَمِنْهَا) أَنَّ (قَرِيبٌ) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ فَيَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ تَعَالَى قَرِيبٌ بِرَحْمَتِهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، كَمَا أَنَّهُ قَرِيبٌ بِعِلْمِهِ وَإِجَابَتِهِ مِنَ الدَّاعِينَ . وَكَثِيرًا مَا يُعْطَى الْمُضَافُ صِفَةَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَضَمِيرَهُ ، وَمَهْمَا يَقُلْ فَالِاسْتِعْمَالُ قَدْ وَرَدَ فِي أَفْصَحِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَأَعْلَاهُ ، فَمَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِمَّا عَلَّلُوهُ بِهِ لِطَرْدِ قَوَاعِدِهِمْ قَالَ بِهِ ، وَمَنْ

لَمْ يُعْجِبْهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَقُلْ إِنَّ هَذَا مِنَ السَّمَاعِيِّ ، وَمَا هُوَ بِبِدْعٍ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ وَلَا فِي غَيْرِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 395.413 ﴾

(162/272)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصيلة لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلٌ مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : " يا شمس أشرقي " أو " يا هواء هب " فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الريح ، وأنت لن تستطيع إصلاح ما لا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتي الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمي حركة الحياة ب " افعل " و " لا تفعل " ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ، والقرآن فيه منهج يحمي اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأرض

بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً . . . ﴾ [الأعراف : 56]

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلاً ثانيا للدعاء : ﴿ وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ . خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعا في صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً في متعلقات صفات الجمال . أو خوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو . ﴿ . . . وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ [الأعراف : 56]

(163/272)

إذن من الذي يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمام في يد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئت ولا يستبد بأحد . فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول : " لا أمل حتى تملّوا " . [من حديث قدسي]

وأنت تدخل بيوت الله تصلى في أي وقت ، وتقف في أي مكان لتؤدي الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية

الأوقات كلها في يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدي الله في أي لحظة . وسبحانه يقول : " ومن جاءني يمشي أتيته هرولة "

[من حديث قدسي] . وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسآتي لك أنا ؛ لأن الجري قد يتعبك لكني لا يعتريني تعب ولا عي ولا عجز . وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها في يدك ، ويقول سبحانه : " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه " .

[من حديث قدسي] .

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته في يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن في يدك أنت . ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه " الباعث " ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبحاً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يا رب أريد أن ترحمني في كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو في مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة " قريب " هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجيء تاء التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوي فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : " رجل صبور " ، و" امرأة صبور " ، ولا نقول : صبورة ونقول : " رجل معطار " أي يكثر استخدام العطر ، و" امرأة معطار " أي تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : " رجل قتيل " و" امرأة قتيل " ، ولا يقال : " قتيلة " إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أو ما يدل على التأنيث ، لأن القتيل للذكر وللأنثى .

هذه هي ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : " رجل صبور " أو " امرأة صبور " فالصبر يقتضي الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : " امرأة صبور " بل نأتي بالوصف المناسب للجَلَد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التأنيث ، وكذلك " رجل معطار " و" امرأة معطار " ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر . فإن تعطرت فهي قد تشبهت بالرجل ويقال لها : " امرأة معطار " ، وحين ننظر إلى كلمة " قريب " فهي من صيغة " فعيل " التي يستوي فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال : ﴿ . . . وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4]

والملائكة لفظها لفظ مؤنث ، ولم يقل الحق " ظهيرة " ، لأن " ظهير " يعني مُعين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذي يدل على القوة وهو " ظهير " . وكذلك قوله الحق : ﴿ . . . إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ [الأعراف : 56]

(165/272)

و " قريب " بوزن " فعيل " بمعنى مفعول ، ولعل بعض الناس يفهم أن " قريب " بمعنى فاعل أي قارب . مثل رحيم وراحم . أي أن رحمة الله هي التي تُقرب من المحسنين ، والأمر ليس كذلك ، فإن الرحمة هي المقروبة ، والإحسان هو الذي يقرب إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث ، أن يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أي شيء قريب ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي ، أو أن الرحمة مصدر ، وحق المصدر التذكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(166/272)

فائدة

قال التستري :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [56] قال : أن لا تفسدوا الطاعة بالمعصية ، وذلك أن من كان مقيماً على المعصية على أدنى منهيّ فجميع حسناته ممزوجة بتلك المعصية ، ولا تخلص له حسناته البتة وهو مقيم على سيئة واحدة حتى يتوب وينخلع عن ذلك المنهي ، ويصفيها عن كدورات المعاصي في السر والعلانية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 66 ﴾

(167/272)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ذكر في هذه الآية الكريمة : أن رحمته جل وعلا قريب من عباده المحسنين ، وأوضح في موضع آخر صفات عبيده الذين سيكتبها لهم في قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة ﴾ [الأعراف : 156] الآية .

ووجه تذكير وصف الرحمة مع أنها مؤنثة في قوله : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل قريبة ، فيه للعلماء أقوال تزيد على العشرة . نذكر منها إن شاء الله بعضاً ، ونترك ما يظهر لنا ضعفه أو بعده عن الظاهر .

منها : أن الرحمة مصدر بمعنى الرحم ، فالتذكير باعتبار المعنى .

ومنها أن من أساليب اللغة العربية أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعين التأنيث فيها في الأنثى فتقول : هذه المرأة قريبتي أي في النسب ولا تقول : قريب مني . وإن كانت قرابة مسافة جاز التذكير والتأنيث . فتقول : داره قريب وقريبة مني ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] وقول امرئ القيس :

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم . . . قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

ومنها : أن وجه ذلك إضافة الرحمة إلى الله جل وعلا .

ومنها : أن قوله ﴿ قَرِيبٌ ﴾ صفة موصوف محذوف أي شيء قريب من المحسنين .

ومنها : أنها شبهت بفعيل بمعنى مفعول الذي يستوي فيه الذكر والأنثى .

ومنها : أن الأسماء التي على فعيل ربما شبهت بالمصدر الآتي على فعيل ، فأفردت لذلك .

قال بعضهم : ولذلك أفرد الصديق في قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [

النور : 61] ، وقول الشاعر :

وهن صديق لمن لم يشب اه . . . والظهير في قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] إلى غير ذلك من الأوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(168/272)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ قال : بعد ما أصلحها الأنبياء وأصحابهم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر بن عياش . أنه سئل عن قوله ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ فقال : إن الله بعث محمداً إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من المفسدين في الأرض .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي سنان في قوله ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ قال : أحللت حلالي ، وحرمت حرامي ، وحددت حدودي ، فلا تعتدوها .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ قال : خوفاً منه ، وطمعاً لما عنده ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ يعني من المؤمنين ، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مطر الوراق قال : تنجزوا موعود الله بطاعة الله ، فإنه قضى إن رحمته قريب من المحسنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(169/272)

ومن فوائد الإمام ابن تيمية فى الآيتين :

قال رحمه الله :

قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ :

هَاتَانِ الْآيَتَانِ مُشْتَمِلَتَانِ عَلَى آدَابِ نَوْعَيْ الدُّعَاءِ : دُعَاءُ الْعِبَادَةِ وَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ ؛ فَإِنَّ

الدُّعَاءَ فِي الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهِ هَذَا تَارَةً وَهَذَا تَارَةً وَيُرَادُ بِهِ مَجْمُوعُهُمَا ؛ وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ . فَإِنَّ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ هُوَ طَلَبُ مَا يَنْفَعُ الدَّاعِيَ وَطَلَبُ كَشْفِ مَا يَضُرُّهُ وَدَفْعِهِ . وَكُلُّ مَنْ يَمْلِكُ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ . وَلِهَذَا أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَى مَنْ عَبَدَ مَنْ دُونِهِ مَا لَا يَمْلِكُ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا . وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ فَنَفَى سُبْحَانَهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ الْقَاصِرَ وَالْمُتَعَدِّيَ فَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِعَابِدِيهِمْ . وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ الْمَعْبُودَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا

(170/272)

لِلنَّفْعِ . وَالضُّرِّ فَهُوَ يَدْعُو لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ وَيَدْعُو خَوْفًا وَرَجَاءً دُعَاءَ الْعِبَادَةِ فَعُلِمَ أَنَّ النَّوْعَيْنِ مُتَلَازِمَانِ فَكُلُّ دُعَاءِ عِبَادَةٍ مُسْتَلْزِمٌ لِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ . وَكُلُّ دُعَاءِ مَسْأَلَةٍ مُتَضَمِّنٌ لِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ . وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ يَتَنَاوَلُ نَوْعَيْ الدُّعَاءِ . وَبِكُلٍّ مِنْهُمَا فُسِّرَتْ الْآيَةُ . قِيلَ : أُعْطِيهِ إِذَا سَأَلَنِي . وَقِيلَ : أُثِيبُهُ إِذَا عَبَدَنِي . وَالْقَوْلَانِ مُتَلَازِمَانِ . وَلَيْسَ هَذَا مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ كِلَيْهِمَا أَوْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ ؛ بَلْ هَذَا اسْتِعْمَالُهُ فِي

حَقِيقَتِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَتَأَمَّلْهُ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَظِيمُ النَّفْعِ وَقَلَّ مَا يُفْطَنُ لَهُ . وَأَكْثَرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَيَيْنِ فَصَاعِدًا فَهِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ فَسَّرَ " الدُّلُوكَ " بِالزَّوَالِ وَفَسَّرَ بِالْغُرُوبِ وَلَيْسَ بِقَوْلَيْنِ ؛ بَلْ اللَّفْظُ يَتَنَاوَلُهُمَا مَعًا ؛ فَإِنَّ الدُّلُوكَ هُوَ الْمَيْلُ . وَدُلُوكُ الشَّمْسِ مَيْلُهَا . وَلِهَذَا الْمَيْلِ مُبْتَدَأٌ وَمُنْتَهَى فَمُبْتَدَؤُهُ الزَّوَالُ وَمُنْتَهَاهُ الْغُرُوبُ وَاللَّفْظُ مُتَنَاوِلٌ لَهُمَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ . وَمِثَالُهُ أَيْضًا تَفْسِيرُ " الْغَاسِقِ " بِاللَّيْلِ وَتَفْسِيرُهُ بِالْقَمَرِ . فَإِنَّ ذَلِكَ

(171/272)

لَيْسَ بِاخْتِلَافِ ؛ بَلْ يَتَنَاوَلُهُمَا لِتَلَازُمِهِمَا . فَإِنَّ الْقَمَرَ آيَةُ اللَّيْلِ . وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ أَيْ دُعَاؤُكُمْ إيَّاهُ وَقِيلَ : دُعَاؤُهُ إيَّاكُمْ إلَى عِبَادَتِهِ فَيَكُونُ الْمَصْدَرُ مُضَافًا إلَى الْمَفْعُولِ وَمَحَلُّ الْأَوَّلِ مُضَافًا إلَى الْفَاعِلِ وَهُوَ الْأَرْجَحُ مِنْ الْقَوْلَيْنِ . وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِهِ نَوْعَيْ الدُّعَاءِ وَهُوَ فِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ أَظْهَرُ أَيْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَرْجُونَهُ وَعِبَادَتُهُ تَسْتَلْزِمُ مَسْأَلَتَهُ . فَالنَّوْعَانِ دَاخِلَانِ فِيهِ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فَالدُّعَاءُ يَتَضَمَّنُ النَّوْعَيْنِ وَهُوَ فِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ أَظْهَرُ ؛ وَلِهَذَا أَعْقَبَهُ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ الْآيَةَ . وَيُفَسَّرُ

الدُّعَاءُ فِي الْآيَةِ بِهَذَا وَهَذَا . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ - عَلَى الْمِنْبَرِ - " ﴿ إنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ . ثُمَّ قَرَأَ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الْآيَةُ ﴾ قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(172/272)

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلَّا إنَاثًا ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ الْآيَةُ . وَكُلُّ مَوْضِعٍ ذَكَرَ فِيهِ دُعَاءَ الْمُشْرِكِينَ لِأَوْثَانِهِمْ فَالْمُرَادُ بِهِ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ الْمُتَضَمِّنُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ فِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ أَظْهَرُ ؛ لِوُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ : " أَحَدُهَا " أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّ دُعَاءَهُمْ إيَّاهُمْ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ . " الثَّانِي " أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى : فَسَّرَ هَذَا الدُّعَاءَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ وَقَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ . وَقَوْله تَعَالَى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فَدُعَاؤُهُمْ لِآلِهَتِهِمْ هُوَ عِبَادَتُهُمْ . " الثَّالِثُ " أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الرَّخَاءِ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الشَّدَائِدُ دَعَوْا اللَّهَ وَحْدَهُ وَتَرَكُوهَا وَمَعَ هَذَا فَكَانُوا يَسْأَلُونَهَا بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ

وَيَطْلُبُونَ مِنْهَا وَكَانَ دُعَاؤُهُمْ لَهَا دُعَاءَ عِبَادَةٍ وَدُعَاءَ مَسْأَلَةٍ . وَقَوْله تَعَالَى ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ هُوَ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ وَالْمَعْنَى اعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَأَخْلِصُوا عِبَادَتَهُ لَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ .

(173/272)

وَأَمَّا قَوْلُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ فَالْمُرَادُ بِالسَّمْعِ هَاهُنَا السَّمْعُ الْخَاصُّ وَهُوَ سَمْعُ الْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ لَا السَّمْعُ الْعَامُّ ؛ لِأَنَّهُ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالدُّعَاءُ : دُعَاءُ الْعِبَادَةِ وَدُعَاءُ الطَّلَبِ وَسَمْعُ الرَّبِّ تَعَالَى لَهُ إثَابَتُهُ عَلَى الثَّنَاءِ وَإِجَابَتُهُ لِلطَّلَبِ فَهُوَ سَمِيعُ هَذَا وَهَذَا . وَأَمَّا قَوْلُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِك رَبِّ شَقِيًّا ﴾ فَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ وَالْمَعْنَى : أَنَّك عَوَّدْتَنِي إجَابَتَك وَلَمْ تُشْقِنِي بِالرَّدِّ وَالْحِرْمَانِ ؛ فَهُوَ تَوَسُّلٌ إلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا سَلَفَ مِنْ إجَابَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ هَاهُنَا . وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ الْآيَةُ : فَهَذَا الدُّعَاءُ : الْمَشْهُورُ أَنَّهُ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ وَهُوَ سَبَبُ النُّزُولِ . قَالُوا : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو رَبَّهُ فَيَقُولُ مَرَّةً : "يَا اللَّهُ" وَمَرَّةً "يَا رَحْمَنُ" فَظَنَّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ يَدْعُو إلَهَيْنِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿ إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ فَهَذَا دُعَاءُ الْعِبَادَةِ

الْمُتَضَمِّنُ لِلسُّلُوكِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَالْمَعْنَى : إنَّا كُنَّا نُخْلِصُ لَهُ الْعِبَادَةَ ؛ وَبِهَذَا اسْتَحَقُّوا أَنْ وَقَاهُمْ اللَّهُ عَذَابَ السُّمُومِ لَا بِمُجَرَّدِ السُّؤَالِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ النَّاجِي وَغَيْرِهِ ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

(174/272)

وَالْأَرْضِ ﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلَهًا ﴾ أَيْ : لَنْ نَعْبُدَ غَيْرَهُ . وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ الْآيَةُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ فَهَذَا دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ يَكْبِتُهُمْ اللَّهُ وَيُخْزِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِآرَائِهِمْ أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ دَعْوَتَهُمْ وَلَيْسَ الْمُرَادُ أُعْبُدُوهُمْ . وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ . إذَا عُرِفَ هَذَا : فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ يَتَنَاوَلُ نَوْعَيْ الدُّعَاءِ ؛ لَكِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ مُتَضَمِّنٌ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ وَلِهَذَا أَمَرَ بِإِخْفَائِهِ وَإِسْرَارِهِ . قَالَ الْحَسَنُ : بَيْنَ دَعْوَةِ السِّرِّ وَدَعْوَةِ الْعَلَانِيَةِ سَبْعُونَ ضِعْفًا وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ أَيْ مَا كَانَتْ إلَّا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وَأَنَّهُ ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا وَرَضِيَ بِفِعْلِهِ فَقَالَ : ﴿ إذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ . وَفِي إخْفَاءِ الدُّعَاءِ

فَوَائِدُ عَدِيدَةٌ : " أَحَدُهَا " أَنَّهُ أَعْظَمُ إيمَانًا ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ . و " ثَانِيهَا " أَنَّهُ أَعْظَمُ فِي الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ لِأَنَّ الْمُلُوكَ لَا تُرْفَعُ

(175/272)

الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُمْ وَمَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ لَدَيْهِمْ مَقْتُوهُ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فَإِذَا كَانَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ فَلَا يَلِيقُ بِالْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيْهِ إلَّا خَفْضُ الصَّوْتِ بِهِ . و " ثَالِثُهَا " أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي التَّضَرُّعِ وَالْخُشُوعِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الدُّعَاءِ وَلُبُّهُ وَمَقْصُودُهُ . فَإِنَّ الْخَاشِعَ الذَّلِيلَ إنَّمَا يَسْأَلُ مَسْأَلَةَ مِسْكِينٍ ذَلِيلٍ قَدْ انْكَسَرَ قَلْبُهُ . وَذَلَّتْ جَوَارِحُهُ وَخَشَعَ صَوْتُهُ ؛ حَتَّى أَنَّهُ لَيَكَادُ تَبْلُغُ ذِلَّتُهُ وَسَكِينَتُهُ وَضَرَاعَتُهُ إلَى أَنْ يَنْكَسِرَ لِسَانُهُ فَلَا يُطَاوِعُهُ بِالنُّطْقِ . وَقَلْبُهُ يَسْأَلُ طَالِبًا مُبْتَهِلًا وَلِسَانُهُ لِشِدَّةِ ذِلَّتِهِ سَاكِتًا وَهَذِهِ الْحَالُ لَا تَأْتِي مَعَ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالدُّعَاءِ أَصْلًا . و " رَابِعُهَا " أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْإِخْلَاصِ . و " خَامِسُهَا " أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي جَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ عَلَى الذِّلَّةِ فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ يَفْرُقُهُ فَكُلَّمَا خَفَضَ صَوْتَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَجْرِيدِ هِمَّتِهِ وَقَصْدِهِ لِلْمَدْعُوِّ سُبْحَانَهُ . و " سَادِسُهَا " – وَهُوَ مِنْ النُّكَتِ الْبَدِيعَةِ جِدًّا – أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى قُرْبِ صَاحِبِهِ لِلْقَرِيبِ لَا مَسْأَلَةِ نِدَاءِ الْبَعِيدِ لِلْبَعِيدِ ؛ وَلِهَذَا أَثْنَى اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ زَكَرِيَّا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ الْقَلْبُ قُرْبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ أَخْفَى دُعَاءَهُ مَا أَمْكَنَهُ . وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَهُمْ مَعَهُ فِي السَّفَرِ فَقَالَ : أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ﴾ " . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ ﴾ وَهَذَا الْقُرْبُ مِنْ الدَّاعِي هُوَ قُرْبٌ خَاصٌّ لَيْسَ قُرْبًا عَامًّا مِنْ كُلِّ أَحَدٍ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ دَاعِيهِ وَقَرِيبٌ مِنْ عَابِدِيهِ وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ فِيهِ الْإِرْشَادُ وَالْإِعْلَامُ بِهَذَا الْقُرْبِ . و " سَابِعُهَا " أَنَّهُ أَدْعَى إلَى دَوَامِ الطَّلَبِ وَالسُّؤَالِ فَإِنَّ اللِّسَانَ لَا يَمَلُّ وَالْجَوَارِحَ لَا تَتْعَبُ بِخِلَافِ مَا إذَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَإِنَّهُ قَدْ يَمَلُّ اللِّسَانُ وَتَضْعُفُ قُوَاهُ . وَهَذَا نَظِيرُ مَنْ يَقْرَأُ وَيُكَرِّرُ فَإِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَإِنَّهُ لَا يَطُولُ لَهُ ؛ بِخِلَافِ مَنْ خَفَضَ صَوْتَهُ . و " ثَامِنُهَا " أَنَّ إخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَبْعَدُ لَهُ مِنْ الْقَوَاطِعِ وَالْمُشَوِّشَاتِ ؛

فَإِنَّ الدَّاعِيَ إذَا أَخْفَى دُعَاءَهُ لَمْ يَدْرِ بِهِ أَحَدٌ فَلَا يَحْصُلُ عَلَى هَذَا تَشْوِيشٌ وَلَا غَيْرُهُ وَإِذَا جَهَرَ بِهِ فَرَّطَتْ لَهُ الْأَرْوَاحُ الْبَشَرِيَّةُ وَلَا بُدَّ وَمَا نَعَتَهُ وَعَارَضَتْهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا أَنَّ تَعَلُّقَهَا بِهِ يُفْزِعُ عَلَيْهِ هِمَّتَهُ ؛ فَيَضْعُفُ أَثَرُ الدُّعَاءِ وَمَنْ لَهُ تَجْرِبَةٌ يَعْرِفُ هَذَا فَإِذَا أَسَرَّ الدُّعَاءَ أَمِنَ هَذِهِ الْمَفْسَدَةَ . و " تَاسِعُهَا " أَنَّ أَعْظَمَ النِّعْمَةِ الْإِقْبَالُ وَالتَّعَبُّدُ وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدٌ عَلَى قَدْرِهَا دَقَّتْ أَوْ جَلَّتْ وَلَا نِعْمَةَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ فَإِنَّ أَنْفُسَ الْحَاسِدِينَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا وَلَيْسَ لِلْمَحْسُودِ أَسْلَمُ مِنْ إخْفَاءِ نِعْمَتِهِ عَنْ الْحَاسِدِ . وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ الْآيَةُ . وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ قَلْبٍ وَجَمْعِيَّةٍ وَحَالٍ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَحَدَّثَ بِهَا وَأَخْبَرَ بِهَا فَسَلَبَهُ إيَّاهَا الْأَغْيَارُ ؛ وَلِهَذَا يُوصِي الْعَارِفُونَ وَالشُّيُوخُ بِحِفْظِ السِّرِّ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَالْقَوْمُ أَعْظَمُ شَيْئًا كِتْمَانًا لِأَحْوَالِهِمْ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا وَهَبَ اللَّهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَالْأُنْسِ بِهِ وَجَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ وَلَا سِيَّمَا فِعْلُهُ لِلْمُهْتَدِي السَّالِكِ فَإِذَا تَمَكَّنَ أَحَدُهُمْ وَقَوِيَ وَثَبَتَ أُصُولُ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ فِي قَلْبِهِ - بِحَيْثُ لَا يَخْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْعَوَاصِفِ فَإِنَّهُ إذَا أَبْدَى حَالَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى

لِيُقْتَدَى بِهِ وَيُؤْتَمَّ بِهِ - لَمْ يُبَالِ . وَهَذَا بَابٌ عَظِيمُ النَّفْعِ إنَّمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُهُ .

(179/272)

وَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ الْمَأْمُورُ بِإِخْفَائِهِ يَتَضَمَّنُ دُعَاءَ الطَّلَبِ وَالثَّنَاءِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مِنْ عَظِيمِ الْكُنُوزِ الَّتِي هِيَ أَحَقُّ بِالْإِخْفَاءِ عَنْ أَعْيُنِ الْحَاسِدِينَ وَهَذِهِ فَائِدَةٌ شَرِيفَةٌ نَافِعَةٌ . و " عَاشِرُهَا " أَنَّ الدُّعَاءَ هُوَ ذِكْرٌ لِلْمَدْعُوِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَضَمِّنٌ لِلطَّلَبِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ فَهُوَ ذِكْرٌ وَزِيَادَةٌ كَمَا أَنَّ الذِّكْرَ سُمِّيَ دُعَاءً لِتَضَمُّنِهِ لِلطَّلَبِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ أَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ " فَسَمَّى الْحَمْدَ لِلَّهِ دُعَاءً وَهُوَ ثَنَاءٌ مَحْضٌ ؛ لِأَنَّ الْحَمْدَ مُتَضَمِّنٌ الْحُبَّ وَالثَّنَاءَ وَالْحُبُّ أَعْلَى أَنْوَاعِ الطَّلَبِ ؛ فَالْحَامِدُ طَالِبٌ لِلْمَحْبُوبِ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُسَمَّى دَاعِيًا مِنْ السَّائِلِ الطَّالِبِ ؛ فَنَفْسُ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ مُتَضَمِّنٌ لِأَعْظَمِ الطَّلَبِ فَهُوَ دُعَاءٌ حَقِيقَةً بَلْ أَحَقُّ أَنْ يُسَمَّى دُعَاءً مِنْ غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّلَبِ الَّذِي هُوَ دُونَهُ . و " الْمَقْصُودُ " أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ يَتَضَمَّنُ الْآخَرَ وَيَدْخُلُ فِيهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ فَأَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي نَفْسِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ : أُمِرُوا أَنْ يَذْكُرُوهُ فِي

الصُّدُورِ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ دُونَ رَفْعِ الصَّوْتِ وَالصِّيَاحِ وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ فِي آيَةِ الذِّكْرِ : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ ﴾ الْآيَةُ . وَفِي آيَةِ الدُّعَاءِ : ﴿

(180/272)

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ فَذَكَرَ التَّضَرُّعَ فِيهِمَا مَعًا وَهُوَ التَّذَلُّلُ وَالتَّمَسْكُنُ وَالِانْكِسَارُ

(181/272)

وَهُوَ رُوحُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ . وَخَصَّ الدُّعَاءَ بِالْخُفْيَةِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ الْحِكَمِ وَغَيْرِهَا وَخَصَّ الذِّكْرَ بِالْخِيفَةِ لِحَاجَةِ الذَّاكِرِ إلَى الْخَوْفِ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَسْتَلْزِمُ الْمَحَبَّةَ وَيُثْمِرُهَا ؛ وَلَا بُدَّ لِمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَنْ يُثْمِرَ لَهُ ذَلِكَ مَحَبَّتَهُ وَالْمَحَبَّةُ مَا لَمْ تَقْتَرِنْ بِالْخَوْفِ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا بَلْ تَضُرُّهُ ؛ لِأَنَّهَا تُوجِبُ التَّوَانِي وَالِانْبِسَاطَ وَرُبَّمَا آلَتْ بِكَثِيرٍ مِنْ الْجُهَّالِ الْمَغْرُورِينَ إلَى أَنْ اسْتَغْنَوْا بِهَا عَنْ الْوَاجِبَاتِ وَقَالُوا : الْمَقْصُودُ مِنْ الْعِبَادَاتِ إنَّمَا هُوَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ . وَمَحَبَّتُهُ لَهُ فَإِذَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَالِاشْتِغَالُ بِالْوَسِيلَةِ بَاطِلٌ . وَلَقَدْ حَدَّثَنِي رَجُلًا أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى بَعْضِ هَؤُلَاءِ خَلْوَةً لَهُ تَرَكَ فِيهَا الْجُمُعَةَ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ أَلَيْسَ الْفُقَهَاءُ يَقُولُونَ : إذَا

خَافَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ فَإِنَّ الْجُمُعَةَ تَسْقُطُ ؟ فَقَالَ لَهُ : بَلَى . فَقَالَ لَهُ : فَقَلْبُ الْمُرِيدِ أَعَزُّ عَلَيْهِ مِنْ عَشَرَةِ دَرَاهِمَ - أَوْ كَمَا قَالَ - وَهُوَ إِذَا خَرَجَ ضَاعَ قَلْبُهُ فَحِفْظُهُ لِقَلْبِهِ عُذْرٌ مُسْقِطٌ لِلْجُمُعَةِ فِي حَقِّهِ . فَقَالَ لَهُ : هَذَا غُرُورٌ بِكَ الْوَاجِبُ الْخُرُوجُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَتَأَمَّلْ هَذَا الْغُرُورَ الْعَظِيمَ كَيْفَ أَدَّى إِلَى الِانْسِلَاخِ عَنْ الْإِسْلَامِ جُمْلَةً فَإِنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ انْسَلَخَ عَنْ الْإِسْلَامِ الْعَامِّ كَانْسِلَاخِ الْحَيَّةِ مِنْ قِشْرِهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ .

(182/272)

وَسَبَبُ هَذَا عَدَمُ اقْتِرَانِ الْخَوْفِ مِنْ اللَّهِ بِحُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ تَجْرِيدَ الْحُبِّ وَالذِّكْرِ عَنْ الْخَوْفِ يُوقِعُ فِي هَذِهِ الْمَعَاطِبِ فَإِذَا اقْتَرَنَ بِالْخَوْفِ جَمَعَهُ عَلَى الطَّرِيقِ وَرَدَّهُ إِلَيْهَا كُلَّمَا كَلَّهَا شَيْءٌ كَالْخَائِفِ الَّذِي مَعَهُ سَوْطٌ يَضْرِبُ بِهِ مَطِيَّتَهُ ؛ لِئَلَّا تَخْرُجَ عَنْ الطَّرِيقِ . وَالرَّجَا حَادٍ يَحْدُوهَا يَطْلُبُ لَهَا السَّيْرَ وَالْحُبُّ قَائِدُهَا وَزِمَامُهَا الَّذِي يُشَوِّقُهَا فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَطِيَّةِ سَوْطٌ وَلَا عَصًا يَرُدُّهَا إِذَا حَادَتْ عَنْ الطَّرِيقِ خَرَجَتْ عَنْ الطَّرِيقِ وَظَلَّتْ عَنْهَا . فَمَا حَفِظَتْ حُدُودَ اللَّهِ وَمَحَارِمَهُ وَوَصَلَ الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ بِمِثْلِ خَوْفِهِ

وَرَجَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَسَدَ فَسَادًا لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ ضَعُفَ إيمَانُهُ بِحَسَبِهِ فَتَأَمَّلْ أَسْرَارَ الْقُرْآنِ وَحِكْمَتَهُ فِي اقْتِرَانِ الْخِيفَةِ بِالذِّكْرِ وَالْخُفْيَةِ بِالدُّعَاءِ مَعَ دَلَالَتِهِ عَلَى اقْتِرَانِ الْخُفْيَةِ بِالدُّعَاءِ وَالْخِيفَةِ بِالذِّكْرِ أَيْضًا وَذِكْرِ الطَّمَعِ الَّذِي هُوَ الرَّجَاءُ فِي آيَةِ الدُّعَاءِ ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ مَا لَمْ يَطْمَعْ فِي سُؤَالِهِ وَمَطْلُوبِهِ لَمْ تَتَحَرَّكْ نَفْسُهُ لِطَلَبِهِ ؛ إذْ طَلَبُ مَا

(183/272)

لَا طَمَعَ لَهُ فِيهِ مُمْتَنِعٌ وَذَكَرَ الْخَوْفَ فِي آيَةِ الذِّكْرِ لِشِدَّةِ حَاجَةِ الْخَائِفِ

(184/272)

إلَيْهِ فَذَكَرَ فِي كُلِّ آيَةٍ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِهَا مِنْ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ فَتَبَارَكَ مَنْ أَنْزَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فِي الدُّعَاءِ كَالَّذِي يَسْأَلُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ مَنَازِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ عَنْ ﴿ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ

الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتَهَا فَقَالَ : يَا بُنَيَّ سَلْ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ ﴾ وَعَلَى هَذَا فَالِاعْتِدَاءُ فِي الدُّعَاءِ تَارَةً بِأَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ لَهُ سُؤَالُهُ مِنْ الْمَعُونَةِ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ . وَتَارَةً يَسْأَلُ مَا لَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَ تَخْلِيدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ يَسْأَلَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ لَوَازِمَ الْبَشَرِيَّةِ : مِنْ الْحَاجَةِ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . وَيَسْأَلَهُ بِأَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى غَيْبِهِ أَوْ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ الْمَعْصُومِينَ أَوْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا مِنْ غَيْرِ زَوْجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا سُؤَالُهُ اعْتِدَاءٌ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَلَا يُحِبُّ سَائِلَهُ . وَفُسِّرَ الِاعْتِدَاءُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ أَيْضًا فِي الدُّعَاءِ . وَبَعْدُ : فَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَإِنْ كَانَ الِاعْتِدَاءُ بِالدُّعَاءِ مُرَادًا

(185/272)

بِهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُرَادِ وَاَللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ : دُعَاءً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وَعَلَى هَذَا : فَيَكُونُ أَمَرَ بِدُعَائِهِ وَعِبَادَتِهِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَهْلَ الْعُدْوَانِ وَهُمْ يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ الْمُعْتَدِينَ عُدْوَانًا ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ الْعُدْوَانِ الشِّرْكُ وَهُوَ وَضْعُ الْعِبَادَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَهَذَا الْعُدْوَانُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وَمِنْ الْعُدْوَانِ أَنْ يَدْعُوَهُ غَيْرَ

مُتَضَرِّعٍ ؛ بَلْ دُعَاءُ هَذَا كَالْمُسْتَغْنِي الْمُدَلِّي عَلَى رَبِّهِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الِاعْتِدَاءِ لِمُنَافَاتِهِ لِدُعَاءِ الذَّلِيلِ . فَمَنْ لَمْ يَسْأَلْ مَسْأَلَةَ مِسْكِينٍ مُتَضَرِّعٍ خَائِفٍ فَهُوَ مُعْتَدٍ . وَمِنْ الِاعْتِدَاءِ أَنْ يَعْبُدَهُ بِمَا لَمْ يَشْرَعْ وَيُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا لَمْ يُثْنِ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا أَذِنَ فِيهِ فَإِنَّ هَذَا اعْتِدَاءٌ فِي دُعَائِهِ : الثَّنَاءُ وَالْعِبَادَةُ وَهُوَ نَظِيرُ الِاعْتِدَاءِ فِي دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَالطَّلَبِ . وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى شَيْئَيْنِ : " أَحَدُهُمَا " مَحْبُوبٌ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الدُّعَاءُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . " الثَّانِي " مَكْرُوهٌ لَهُ مَسْخُوطٌ وَهُوَ الِاعْتِدَاءُ فَأَمَرَ بِمَا يُحِبُّهُ وَنَدَبَ إلَيْهِ وَحَذَّرَ مِمَّا يُبْغِضُهُ وَزَجَرَ عَنْهُ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ طُرُقِ الزَّجْرِ وَالتَّحْذِيرِ

(186/272)

وَهُوَ لَا يُحِبُّ فَاعِلَهُ وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَأَيُّ خَيْرٍ يَنَالُهُ ؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ عَقِيبَ قَوْلِهِ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَدْعُهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً فَهُوَ مِنْ الْمُعْتَدِينَ الَّذِينَ لَا يُحِبُّهُمْ ؛ فَقَسَّمَتْ الْآيَةُ النَّاسَ إلَى قِسْمَيْنِ ؛ دَاعٍ لِلَّهِ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَمُعْتَدٍ بِتَرْكِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إصْلَاحِهَا ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ : لَا تُفْسِدُوا فِيهَا بِالْمَعَاصِي وَالدَّاعِي إلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ بَعْدَ إصْلَاحِ اللَّهِ إيَّاهَا بِبَعْثِ الرُّسُلِ وَبَيَانِ الشَّرِيعَةِ وَالدُّعَاءِ إلَى طَاعَةِ اللَّهِ مُفْسِدٌ فَإِنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ

وَالدَّعْوَةَ إلَى غَيْرِهِ وَالشِّرْكَ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بَلْ فَسَادُ الْأَرْضِ فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَمُخَالَفَةُ أَمْرِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ قَالَ عَطِيَّةُ فِي الْآيَةِ : وَلَا تَعْصُوا فِي الْأَرْضِ فَيُمْسِكَ اللَّهُ الْمَطَرَ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ بِمَعَاصِيكُمْ . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ : إذَا قَحَطَ الْمَطَرُ فَالدَّوَابُّ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ فَتَقُولُ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ فَبِسَبَبِهِمْ أَجْدَبَتْ الْأَرْضُ وَقَحَطَ الْمَطَرُ . و " بِالْجُمْلَةِ " فَالشِّرْكُ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ وَإِقَامَةُ مَعْبُودٍ غَيْرِهِ أَوْ مُطَاعٍ مُتَّبَعٍ غَيْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَعْظَمُ الْفَسَادِ

(187/272)

فِي الْأَرْضِ وَلَا صَلَاحَ لَهَا وَلِأَهْلِهَا إلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ وَالدَّعْوَةُ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ وَالطَّاعَةُ وَالِاتِّبَاعُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرُهُ إنَّمَا تَجِبُ طَاعَتُهُ إذَا أَمَرَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنْ أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ : فَإِنَّ اللَّهَ أَصْلَحَ الْأَرْضَ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِينِهِ وَبِالْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنْ فَسَادِهَا بِالشِّرْكِ بِهِ وَمُخَالَفَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ

وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ . وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ إنَّمَا ذَكَرَ الْأَمْرَ بِالدُّعَاءِ لَمَّا ذَكَرَهُ مَعَهُ مِنْ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ فَأَمَرَ أَوَّلًا بِدُعَائِهِ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ثُمَّ أَمَرَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ خَوْفًا وَطَمَعًا . وَفَصَلَ الْجُمْلَتَيْنِ بِجُمْلَتَيْنِ : " إحْدَاهُمَا " خَبَرِيَّةٌ وَمُتَضَمِّنَةٌ لِلنَّهْيِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

(188/272)

و " الثَّانِيَةُ " طَلَبِيَّةٌ . وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إصْلَاحِهَا ﴾ وَالْجُمْلَتَانِ مُقَرِّرَتَانِ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى مُؤَكِّدَتَانِ لِمَضْمُونِهَا . ثُمَّ لَمَّا تَمَّ تَقْرِيرُهَا وَبَيَانُ مَا يُضَادُّهُ أَمَرَ بِدُعَائِهِ خَوْفًا وَطَمَعًا ؛ لِتَعَلُّقِ قَوْلِهِ ﴿ إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ . وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مُشْتَمِلًا عَلَى جَمِيعِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ وَهِيَ الْحُبُّ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ : عَقَّبَهَا بِقَوْلِهِ ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : إنَّمَا تَنَالُ مَنْ دَعَاهُ خَوْفًا وَطَمَعًا فَهُوَ الْمُحْسِنُ وَالرَّحْمَةُ قَرِيبٌ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ مَدَارَ الْإِحْسَانِ عَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ . وَلَمَّا كَانَ دُعَاءُ التَّضَرُّعِ

وَالْخُفْيَةِ يُقَابِلُ الِاعْتِدَاءَ بِعَدَمِ التَّضَرُّعِ وَالْخُفْيَةِ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ . وَانْتِصَابُ قَوْلِهِ : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ عَلَى الْحَالِ أَيْ ادْعُوهُ مُتَضَرِّعِينَ إلَيْهِ مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ مُطِيعِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فِيهِ تَنْبِيهٌ ظَاهِرٌ عَلَى أَنَّ فِعْلَ هَذَا الْمَأْمُورِ هُوَ الْإِحْسَانُ الْمَطْلُوبُ مِنْكُمْ وَمَطْلُوبُكُمْ أَنْتُمْ مِنْ

(189/272)

اللَّهِ رَحْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ دُعَائِهِ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَخَوْفًا وَطَمَعًا . فَقَرَّرَ مَطْلُوبَكُمْ مِنْهُ وَهُوَ الرَّحْمَةُ بِحَسَبِ أَدَائِكُمْ لِمَطْلُوبِهِ وَإِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لَهُ دَلَالَةٌ بِمَنْطُوقِهِ وَدَلَالَةٌ بِإِيمَائِهِ وَتَعْلِيلِهِ بِمَفْهُومِهِ . فَدَلَالَتُهُ بِمَنْطُوقِهِ عَلَى قُرْبِ الرَّحْمَةِ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ وَدَلَالَتُهُ بِإِيمَائِهِ وَتَعْلِيلِهِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْبَ مُسْتَحَقٌّ بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ السَّبَبُ فِي قُرْبِ الرَّحْمَةِ مِنْهُمْ وَدَلَالَتُهُ بِمَفْهُومِهِ عَلَى بُعْدِهِ مِنْ غَيْرِ الْمُحْسِنِينَ . فَهَذِهِ ثَلَاثُ دَلَالَاتٍ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ؛ وَإِنَّمَا اخْتُصَّ أَهْلُ الْإِحْسَانِ بِقُرْبِ الرَّحْمَةِ لِأَنَّهَا إحْسَانٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ وَإِحْسَانُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إنَّمَا يَكُونُ لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

وَكُلَّمَا أَحْسَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ فَإِنَّهُ لَمَّا بَعُدَ عَنْ الْإِحْسَانِ بَعُدَتْ عَنْهُ الرَّحْمَةُ بُعْدٌ بِبُعْدٍ وَقُرْبٌ بِقُرْبٍ فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ وَمَنْ تَبَاعَدَ عَنْ الْإِحْسَانِ تَبَاعَدَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَحْمَتِهِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَيُبْغِضُ مَنْ لَيْسَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ فَرَحْمَتُهُ أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنْهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ

(190/272)

فَرَحْمَتُهُ أَبْعَدُ

شَيْءٍ مِنْهُ وَالْإِحْسَانُ هَاهُنَا هُوَ فِعْلُ الْمَأْمُورِ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ إحْسَانًا إلَى النَّاسِ أَوْ إلَى نَفْسِهِ فَأَعْظَمُ الْإِحْسَانِ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ وَالْإِنَابَةُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِقْبَالُ إلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ إجْلَالًا وَمَهَابَةً وَحَيَاءً وَمَحَبَّةً وَخَشْيَةً . فَهَذَا هُوَ مَقَامُ " الْإِحْسَانِ " كَمَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ الْإِحْسَانِ ؛ فَقَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ ﴾ " فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ فَرَحْمَتُهُ قَرِيبٌ مِنْ صَاحِبِهِ ؛ وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلَّا الْإِحْسَانُ يَعْنِي هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ إلَّا أَنْ يُحْسِنَ رَبُّهُ إلَيْهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَعَمِلَ بِمَا جَاءَ بِهِ

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا الْجَنَّةُ ؟ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : ﴿ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ثُمَّ قَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْت عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إلَّا الْجَنَّةُ ﴾ " . آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْآيَتَيْنِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 10 . 28 ﴾

(191/272)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ .

هذانِ حالانِ ، أي : ادْعُوهُ ذُوُو خَوْفٍ وطَمَعٍ ، أو خَائِفِينَ طامعين ، أو مَفْعُولان من أجلهما ، أي : لأَجْلِ الخوفِ والطَّمَعِ .

فإن قيل : قد قال في الآية الأولى : " ادْعُوا رَبَّكُمْ " ، ثم قال هاهنا : " وَادْعُوهُ " ، وهذا يقتضي عَطْفَ الشَّيْءِ على نفسه ، وهو باطل .

والجوابُ : أنَّ الَّذينَ فسروا قوله : " ادْعُوا رَبَّكُمْ " بأنَّ المرادَ به العِبادَة ، قالوا : المُرَادُ بهذا الدُّعَاء الثَّانِي هو الدُّعَاءُ نفسه .

وأمّا الذين قالوا : المرادُ بقوله : " ادْعُوا رَبَّكُمْ " هو الدُّعَاءُ قالوا : المراد بهذا الدُّعَاءِ أن يكون الدُّعَاءُ المأمور به أوَّلاً مقروناً بالتَّضَرُّع ، والأخْفَاءِ ، ثم بيَّن هاهنا أنَّ فائدةَ الدُّعَاءِ أحد هذين الأمرين .

فالأولى في بيان شَرْطِ صحَّةِ الدُّعاء .

والثانية في بيان فَائِدةِ الدُّعَاءِ ومنفعته .

قوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ إنَّمَا لم يُؤنِّثْهَا وإن كانت خبراً لمؤنث لوجوه :

منها أنَّهَا في معنى الغُفْرَانِ والعفو والإنعامِ ، فحُمِلت عليه ، قاله النَّضْرُ بْنُ شُمَيْل واختاره الزَّجَّاجُ .

قال سعيدُ بْنُ جُبَيْر : الرَّحْمَةُ هاهنا الثَّوَابُ فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] ولم يقل : " مِنْهَا " ؛ لأنَّهُ أراد الميراث والمال .

ومنها أنها صفة لموصوف مذكَّرٍ حذف ، وبقيت صِفَتُهُ ، والتَّقديرُ : إنَّ رحمة الله شيءٌ قريبٌ .

ومنها : أنها في معنى العفو أو المطر ، أو الرحم .

ومنها : أنَّهَا على النَّسب كحائضٍ ولابنٍ وتامرٍ ، أي : ذات حيض .

ومنها : تشبيه فعيل بمعنى فاعل بفَعيلٍ بمعنى مفعول ، فيستوي فيه المُذَكَّر والمؤنَّث كجريح ، كما حُمِلَ هذا عليه حيثُ قالوا : أسير وأسَرَاءُ ، وقبيل وقُبَلاء حَملاً على رَحِيمٍ ورحماء ، وعليهم وعُلَمَاء ، وحكيم وحُكماء .

[ومنها : أنَّه] مصدر [جاء على فعيل كالنَّعيق وهو صَوْت الضِّفْدَع ، والضغيب وهو صَوْتُ الأرنب وإذا كان مَصْدراً] لَزِمَ الإفراد والتذكير .

ومنها : انَّهَا بمعنى مَفْعُولٍ أي مُقَرَّبَة ، قاله الكَرْمَانِيُّ ، وليس بجيد ؛ لأنَّ فعيلاً بمعنى مفعول لا يَنْقَاسُ ، وعلى تقدير اقتياسه فإنَّمَا يكونُ من الثُّلاثِي المجرَّد ، لا من المزيدِ فيه ، ومُقَرَّبَة من المزيد فيه .

ومنها : أنَّهَا من باب المُؤَنَّث المجازي ، فلذلك جاز التَّذكير كطلع الشَّمس .

قال بعضهم : وهو غَيْرُ جَيِّدٍ ؛ لأنَّ ذلك حيث كان الفعل متقدِّماً نحو : طلع الشَّمس ، أمَّا إذا تأخَّر وجب التَّأنيثُ ، إلا في ضرورة شِعْرٍ كقوله : [المتقارب]

2487 - . . . . . .

وَلاَ أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا

قال شهابُ الدّين : " وهذا يجيءُ على مذهب ابن كَيْسَان ، فإنَّهُ لا يَقْصُر ذلك على ضرورة الشّعر ، بل يجيزه في السَّعَةِ " .

وقال الفرّاءُ : قريبةٌ وبعيدةٌ : إمَّا أن يُراد بها النَّسَبُ وعدمُه ، فتؤنّثها العرب ليس إلاَّ فيقولون : فلانٌ قريبة مني في النَّسَبِ ، وبعيدةٌ مني أي في النَّسَبِ ، أمَّا إذا أُريدَ القُرْب في المكان ، فإنَّهُ يجوزُ الوجهان ؛ لأنَّ قريباً وبعيداً قائم مقام المكان فتقولُ : فلانة قريبة وقريبٌ ، وبعيدة وبعيد .

التَّقديرُ : هي في مكان قَريبٍ وبعيد ؛ وأنشد : [الطويل]

(193/272)

2488 - عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبَةٌ . . .

فَتَدْنُوا ولا عَفْرَاءُ مِنْكَ بَعِيدُ

فجَمَعَ بين اللُّغَتَيْنِ إلا أنَّ الزَّجَّاج ردّ على الفرّاءِ قوله وقال : " هذا خطأ ؛ لأنَّ سبيل المذكر والمؤنث أنْ يجريا على أفعالهما " .

قال شِهَابُ الدّين : وقد كَثُرَ في شِعْرِ العرب مجيءُ هذه اللَّفظة مُذكَّرة ، وهي صِفَةٌ لمُؤَنَّثٍ .

قال امْرُؤ القَيْسِ : [الطويل]

2489 - لَهُ الوَيْلُ إنْ أمْسَى ولا أمُّ سَالِمٍ . . .

قَرِيبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرَا

وفي القرآن : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] .

وقال أبو عبيدة : " قَرِيبٌ في الآية ليس وَصْفاً لها ، إنَّمَا هو ظَرْفٌ لها وموضع ، فيجيءُ هكذا في المُفْرَد والمثنى والجمع ، فإن أُرِيدَ بها الصِّفَةُ ؛ وَجَبَ المُطَابَقَةُ ، ومثلُها لفظة بعيد أيضاً " إلاّ أنَّ عليَّ بْنَ سُلَيْمَانَ الأخفشَ خطَّأَهُ قال : " لأَنَّهُ لو كانت ظَرْفاً لانتصب كقولك : " إنَّ زَيْداً قريباً منك " وهذا ليس بِخَطَأ ، لأَنَّهُ يجوز أن يتَّسعَ في الظَّرْفِ ، فيعطى حكم الأسماء الصَّرِيحةِ فتقُولُ : زيد أمامك وعمرو خلفُك برفع أمام وخلف ، وقد نصَّ النُّحَاةُ على أنَّ نحو : " [أن قريباً] منك زيد " أن " قريباً " اسم " إنّ " ، و" زيدٌ " خبرها ، وذلك على الاتِّسَاع " .

و" مِنَ المُحْسِنِينَ " متعلّقٌ بـ " قَرِيبٍ " ، ومعنى هذا القرب هو أنَّ الإنسان يَزْدَادُ في كلِّ لَحْظَةٍ قرباً من الآخرة وبعداً من الدُّنْيَا ، فإنَّ الدُّنْيَا كالماضي والآخرة كالمستقبل ، والإنسانُ في كلِّ ساعة لحظة يَزْدَادُ بعداً عن الماضي ، وقرباً من المُسْتَقْبَل .

قال الشّاعِرُ : [الطويل]

2490 - فَلاَ زَالَ ما تَهْوَاهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدٍ . . .

وَلاَ زَالَ مَا تَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسِ

(194/272)

ولَمَّا كانت الدُّنْيَا تزداد بعداً في كلِّ سَاعَةٍ ، والآخرة تزداد قُرْباً في كلِّ سَاعَةٍ ، وثبت أنَّ رحمة الله إنَّمَا تحصلُ بعد الموت ، لا جرم قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 162.160 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) ﴾

من الإفساد بعد الإصلاح إحمالُ النفس عن المجاهدات بخلع عذارها حتى تتبع هواها بعد ما كَبَحْتَ لجامَها مدةً عن العَدْوِ في ميدان الخلاف ، ومن ذلك إرسالُ القلب في أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق

، ومن ذلك استشعارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه ، ومن ذلك الجنوحُ إلى تتبع الرُّخص في طريق الطلب بعد حمل النَّفْس على ملازمة الأَوْلى والأشَق ، ومن ذلك الانحطاطُ بحَظٍّ إلى طلبِ مقامٍ منه أو إكرام ، بعد القيام معه بترك كل نصيب .

وفي الجملة : الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ في الأرض بعد الإصلاح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً ، فالأول العابدون والثاني العاصون .

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربّه ولا ناسياً لحقّه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

ويقال المحسن الذي لم يخرج (. . .) عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 541.542 ﴾

(195/272)

فصل فى دعاء العبادة ودعاء المسألة للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(196/272)

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا

يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم . وهذا في القرآن كثير بيد أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع

(197/272)

والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفا ورجاء دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ ﴾ يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية قيل أعطيه إذا سألني وقيل أثيبه إذا عبدني والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقة ومجازه بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعا فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا هي من هذا القبيل ومثال ذلك قوله: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ فسر بالزوال وفسر الدلوك بالغروب وحكيا قولين في كتب

التفسير وليسا بقولين بل اللفظ يتناولهما معا فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها ولهذا الميل مبدأ ومنتهي فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار لا يتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه . ومثاله أيضا ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر وإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة . ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾ قيل لولا دعاؤكم إياه وقيل دعاؤه إياكم إلى عبادته فيكون المصدر مضافا إلى المفعول وعلى الأول مضافا إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء وهو في دعاء العبادة أظهر أي ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه وعبادته تستلزم مسألته فالنوعان داخلان فيه . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين وهو في دعاء العبادة أظهر ولهذا عقبة بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا وقد روى سفيان عن منصور عن ذر عن نسيع الكندي عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله يقول على المنبر: "إن

الدعاء هو العبادة" ثم قرأ ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ رواه الترمذي وقال: "حديث حسن صحيح" .

وأما قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ وقوله: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً ﴾ وقوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا ﴿ إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع أخرى بأنه العبادة كقوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وهو كثير في القرآن فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها .

الثالث: أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده وتركوها ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة وقوله تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ هو دعاء العبادة ، والمعنى: اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره .

وأما قول إبراهيم الخليل: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الأجابة والقبول لا السمع العام لأنه سميع لكل مسموع وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وأجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا .

وأما قول زكريا: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ فقد قيل إنه دعاء المسألة ؛ والمعنى إنك عودتني أجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان فهو توسل إليه تعالى بما سلف من أجابته وإحسانه كما حكى أن رجلا سأل رجلا وقال أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا وكذا فقال مرحبا

بمن توسل إلينا بنا وقضي حاجته وهذا ظاهر ههنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوّده من قضاء حوائجه إلى ما سأله ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ ، فأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماءُ الْحُسْنَى ﴾ فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول قالوا: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا ربه فيقول مرة "يا الله" ومرة: "يا رحمن" فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعوا إليهين فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قال ابن عباس: "سمع المشركون النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في سجوده (يا رحمن يا رحيم) فقالوا: هذا يزعم أنه يدعوا واحدا وهو يدعوا مثنى مثنى فأنزل الله هذه الآية ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ . وقيل إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية كقولهم: "دعوت ولدي سعيدا" "وادعه بعبد الله" ونحوه والمعنى: سموا الله أو أو سموا الرحمن فالدعاء ههنا بمعنى التسمية وهذا قول الزمخشري والذي حمله على هذا قوله: ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الاسماءُ الْحُسْنَى ﴾ فإن المراد بتعدده معنى أي وعمومها ههنا تعدد الاسماء ليس إلا والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله إما الرحمن فله الاسماء الحسنى أي فللمسمي سبحانه الاسماء الحسنى والضمير في (له) يعود إلى المسمى فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في الداء في هذه الآية على التسمية وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية وليس هو عين المراد بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن

وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى تسموا فتأمله ؛ والمعنى أيا

(201/272)

ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم .

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة والمعنى إنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض والفوز

والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب .

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً ﴾ أي لن نعبد غيره وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ .

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن

شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم وليس المراد اعبدوهم . وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة وأنها هل نقلت عن مسماها في اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة أو استعملت في هذه العبادة مجازا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي أو هي باقية على الوضع اللغوي وضم إليها أركان وشرائط وعلى ما قررناه ولا حاجة إلى شيء عبادة وثناء أو دعاء طلب ومسألة وهو في الحالين داع فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله .

(202/272)

إذا عرفت هذا فقوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ فإنه يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ولهذا أمر بإخفائه وإسراره قال الحسن: "بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله فقال: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ " .

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها : أنه أعظم إيمانا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال أن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا .

ثانيها : أنه أعظم في الأدب والتعظيم ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات وإنما تخفض عندهم الأصوات ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ومن رفع وصوته لديهم مقتوه ولله المثل الأعلى فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

ثالثها : أنه أبلغ في

التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق فقلبه سائل طالب مبتهل ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

رابعها : أنه أبلغ في الأخلاص .

خامسها : أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

سادسها : وهو من النكت السرية البديعة جدا أنه دال على قرب صاحبه من الله وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسألة مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد ؛ ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وإنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه ولم يتأت له رفع الصوت به بل يراه غير مستحسن كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه ، ولله المثل الأعلى سبحانه وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال: "اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته" وقال تعالى: ﴿ وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ ﴾ . وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ ﴾ ، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء وإنما يسأل مسألة القريب

المناجي لا مسألة البعيد المنادي وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربا عاما من كل أحد فهو قريب من داعيه وقريب من عابده, وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الأجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه بل هو قرب خاص من الداعي والعابد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم راويا عن ربه تبارك وتعالى "من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا" رواه البخاري ومسلم ، فهذا قربه من عابده وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعَانِ ﴾ وقوله: ﴿ ادْعُوا رَبّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب ، وأما قربة تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر كما قد ذكرناه في كتاب التحف المكية على أن العبارة تنبو عنه ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدا لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزل قدم بعد ثبوتها وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح وقابلهم من غلط حجابه فأنكر محبة العبد

لربه جملة وقربه منه وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا ، وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب التحفة أكثر من مائة طريق .

والمقصود ههنا الكلام علي هذه الآية .

سابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته .

(205/272)

ثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والأنس فشوشت عليه ولا بد ومانعته وعارضته ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف

أثر الدعاء لكفى ومن له تجربة يعرف هذا فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة .

تاسعها : إن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فأنفس الحاسدين

المنقطعين متعلقة بها وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له ، وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك:

من ساروه فأبدي السر مجتهدا . . . لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم . . . وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعا بعض سرهم . . . حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

(206/272)

والقوم أعظم شيء كتمانا لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه ولا سيما للمبتدىء والسالك فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشي عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدي به ويؤتم به لم يبال وهذا باب عظيم

النفع وإنما يعرفه أهله . وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة .

عاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه فهو ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم: "أفضل الدعاء : الحمد لله" فسمى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض لأن الحمد يتضمن الحب والثناء والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن

يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحا بالسؤال فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني . . . حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما . . . كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب فهو دعاء حقيقة بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه وقد قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه قال مجاهد وابن جريج: "أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح" وقد تقدم حديث أبي موسى: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته" رواه البخاري ومسلم.

وتأمل كيف قال في آية الذكر ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ﴾ وفي آية الدعاء ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ فذكر التضرع فيهما معا وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء وخص الدعاء الخفيه لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخفيه لحاجة الذاكر إلى الخوف فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد فمن أكثر من ذكر الله تعالى أثمر له ذلك محبته والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم

استغنوا بها عن الواجبات وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل ولقد

(208/272)

حدثني رجل إنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى ، فقال له: فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه ، فقال له: هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعى حفظ قلبه أو كما قال . فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه من الخاصة أنواع العبادة ، سبب هذا اقتران الخوف من الله تعالى بحبه وإرادته ولهذا قال بعض السلف: "من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن" , وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿ أُولَئِكَ

الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾

فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف فهذه طريقة عبادة وأوليائه وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ويقول المحب لا يضره ذنب . وصنف بعضهم في ذلك مصنفا وذكر فيه أثرا مكذوبا "إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب" وهذا كذب قطعا مناف للإسلام فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ وأما عن رسول الله فمعاذ الله من ذلك فله محمل وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا لله وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحو أثره ولا يضر الذنب وكلما

(209/272)

أذنب وتاب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره

فهذا المعنى صحيح والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب ، والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير ، والحب قائدها

وزمامها الذي يسوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها ، فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه اقتران الخيفة والخفية بالذكر والدعاء .

فتأمل أسرار القرآن الكريم وحكمته في هذا الاقتران فإنه قال: ﴿ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول: (خفية) وقال في الدعاء: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ فلم يحتج أن يقول في الأول ادعوا ربكم تضرعا وخيفة فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن أنتظام ودلت على ذلك أكمل دلالة .

وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء لأن الدعاء مبني عليه فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبة إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع .

وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم فذكر في كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدي ورحمة للمؤمنين .

فصل المقصود بقوله: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ قيل المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك وقد روى أبو داود

(210/272)

في سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعامة "أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال: يا بني سل الله الجنة وتعوّذ به من النار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنه سيكون في هذه الآمة قوم يعتدون في الطهور " .

وعلى هذا فالاعتداء بالدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله مثل أن يساله تخليده إلى يوم القيامة أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب أو يسأله أن يطلعه على غيبه أو يساله أن يجعله من المعصومين أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوجة ولا أمة ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء فكل سؤال يناقض حكمه الله أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا في الدعاء قال ابن جريج: "من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء والنداء في الدعاء والصياح"

وبعد فالآية أعم من ذلك كله وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادا بها فهو من جملة المراد والله لا يحب المعتدين في كل شيء دعاء كان أو غيره كما قال: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان وهم الذين يدعون معه غيره فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا فإن أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا في قوله أنه لا يحب المعتدين ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع بل دعاء مدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين: أحدهما محبوب للرب تبارك وتعالى مرض له وهو الدعاء تضرعا وخفية ، الثاني : مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء فأمر بما يحبه الله وندب إليه وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير وهو أنه لا يحب فاعله ومن لم

يحبه الله فأي خير يناله وفي قوله: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ عقب قوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم . فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعا وخفية, ومعتد بترك ذلك .

فصل:

(212/272)

وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ قال أكثر المفسرين: "لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ وقال عطية في الآية: "ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم" ، وقال غير واحد من السلف: "إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر"

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله هو

أعظم الفساد في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة

فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ونهي عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلا وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله .

ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل: تكرار الأمر بالدعاء .

(213/272)

وقوله تعالى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكر معه من الخوف والطمع فأمر أولا بدعائه تضرعا وخفية ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضا خوفا وطمعا وفصل بين الجملتين إحداهما خبرية ومتضمنة للنهي وهي قوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ والثانية طلبية وهي قوله: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى مؤكدتان لمضمونها . ثم لما ثم تقريرها تقدم وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفا وطمعا ثم قرر ذلك وأكد مضمونة بجملة خبرية وهي ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فتعلق هذه الجملة بقوله وادعواه خوفا وطمعا كتعلق قوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ بقوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ ولما كان قوله تعالى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان وهي الحب والخوف والرجاء عقبها بقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي إنما ينال من دعاة خوفا وطمعا فهو المحسن والرحمة قريب منه لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله:

﴿ نَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وجوب أنتصاب قوله: ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ إن أنتصاب قوله: ﴿ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ و ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ قيل هو على الحال أي ادعوه متضرعين مخفين خائفين طامعين وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره وقيل هو نصب على المفعول له وهذا قول كثير من النحاة وقيل هو نصب على المصدر وفيه على هذا تقديران أحدهما أنه منصوب بفعل مقدر من لفظ المصدر والمعنى تضرعوا إليه تضرعا واخفوا خفية الثاني أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه لأنه في معنى المصدر فإن الداعي متضرع في حصول مطلوبة خائف من فواته فكأنه قال تضرعوا تضرعا والصحيح في هذا أنه منصوب على الحال والمعنى عليه فإن المعنى ادعوا ربكم متضرعين إليه خائفين طامعين ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ وقولهم: رجل عدل ورجل صوم قال الشاعر:

فإنما هي إقبال وإدبار

(215/272)

وهو أحسن من أن يقال: (ادعوه متضرعين خائفين) والذي حسنه أن المأمور به هنا شيئان الدعاء الموصوف المقيد بصفة معينة وهي صفة التضرع والخوف والطمع فالمقصود تقييد

المأمور به بتلك الصفة وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها فأتى بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به فتأمل هذه النكتة فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرعا فإنك تريد اذكره متضرعا إليه واذكره ذكر تضرع فأنت مريد للأمرين معا ولذلك إذا قلت: ادعه طمعا أي ادعه دعاء طمع وادعه طامعا في فضله وكذلك إذا قلت ادعه رغبة ورهبة كقوله تعالى إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا كان المراد ادعه راغبا وراهبا وادعه دعاء رغبة ورهبة . فتأمل هذا الباب تجده كذلك فأتى فيه بالمصدر الدال على وصف المأمور به بتلك الصفة وعلى تقييد الفاعل بها تقييد صاحب الحال بالحال ومما يدل على هذا أنك تجد مثل هذا صالحا وقوعه جوابا لكيف فإذا قيل كيف أدعوه قيل تضرعا وخفية وتجد اقتضاء كيف لهذا أشد من اقتضاء لم ولو كان مفعولا له لكان جوابا ل لم ولا تحسن هنا ألا ترى أن المعنى ليس عليه فإنه لا يصح أن

يقال لم أدعوه فيقول تضرعا وخفية وهذا واضح ولا هو أنتصاب على المصدر المبين للنوع الذي لا يتقيد به الفاعل لما ذكرناه من صلاحيته جوابا لـ (كيف) ، وبالجملة فالمصدرية في هذا الباب لا تنافي الحال بل الإتيان بالحال ههنا بلفظ المصدر يفيد ما يفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال فهو أتم معنى ولا تنافي بينهما والله أعلمز

فصل: حق العبد الرحمة وواجبه الإحسان

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفا وطمعا فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم فإن الله تعالى هو الغني الحميد وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة .

وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان لأن الجزاء من جنس العمل فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدا ببعد وقربا بقرب فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن

تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه . والإحسان ههنا هو فعل المأمور به سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه

(217/272)

فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابه وحياء ومحبة وخشية فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال : "أن تعبد الله كأنك تراه" رواه مسلم الترمذي والنسائي وغيرهم . وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمه الله قريب من صاحبه فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به وإنما كتب رحمته ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة كما أنهم هم المحسنون وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ ﴾ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه قال ابن عباس: "هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة" وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: "قرأ رسول الله ﴿ هَلْ

جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ ثم قال: هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " .

فصل:

وأما الإخبار عن الرحمة وهي مؤنثة بالتاء بقوله (قريب) وهو مذكر ففيه اثنا عشر مسلكا نذكرها ونبين ما فيها من صحيح وسقيم ومقارب:

المسلك الأول : أن فعيلا على ضربين: أحدهما يأتي بمعنى فاعل كقدير وسميع وعليم والثاني يأتي بمعنى مفعول كقتيل وجريح وكف خضيب وطرف كحيل وشعر دهين كله بمعنى مفعول فإذا أتى بمعنى فاعل فقياسه أن يجري مجراه في إلحاق التاء به مع المؤنث دون المذكر كجميل وجميلة وشريف وشريفة وصبيح وصبيه وصبي وصبية ومليح ومليحة فطويل وطويلة ونحوه وإذ أتى بمعنى مفعول فلا يخلو إما أن يكون يصحب الموصوف كرجل قتيل وامرأة قتيل أو يفرد عنه فإن

صحب الموصوف استوى فيه المذكر والمؤنث كرجل قتيل وامرأة قتيل وإن لم يصحب الموصوف فإنه يؤنث إذا جرى على المؤنث نحو قتيلة بني فلان ومنه قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ

عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ هذا حكم فعيل وفعول قريب منه لفظا ومعنى فإنهما مشتبهان في الوزن والدلالة على المبالغة وورودها بمعنى فاعل ومفعول ولما كان فعيل أخف استغنى به عن فاعل في المضاعف كجليل وعزيز وذليل كراهية منهم لثقل التضعيف إذ قالوا جالل وعازز وذالل فأتوا بفعيل مفصولا فيه بين المثلين بالياء الساكنة ولم يأتوا في هذا بفعولا لأن فعيلا أخف منه ولخفته أيضا اطرد بناؤه من فعل كشريف وظريف وجميل ونبيل وليس لفعول بناء يطرد منه ولخفته أيضا كان في أسماء الله تعالى أكثر من فعول فإن الرحيم والقدير والحسيب والجليل والرقيب ونظائره أكثر من ألفاظ الرؤوف والغفور والشكور والصبور والودود والعفو ولا يعرف إلا هذه الألفاظ الستة وإذا ثبت التشابه بين وفعيل فعول فيما ذكرنا وكانوا قد خصوا فعولا الذي بمعنى فاعل بتجريده من التاء الفارقة بين المذكر والمؤنث وشركوا بينهما في لفظ المذكر فقالوا رجل صبور وشكور وامرأة صبور وشكور ونظائرهما وأما عدو وعدوة فشاذ فإن قصد بالتاء المبالغة لحقت المذكر والمؤنث كرجل ملولة وفروقة وامراة كذلك وإن كان فعول في معنى مفعول لحقته التاء في المؤنث كحلوبة وركوبة فإذا تقر فقريب في الآية هو فعيل بمعنى فاعل وليس المراد أنه بمعنى قارب بل بمعنى اسم الفاعل العام فكان حقه أن يكون بالتاء ولكنهم أجروه مجرى فعيل بمعنى مفعول فلم يلحقوه التاء كما جرى فعيل بمعنى مفعول مجرى فعيل بمعنى فاعل في إلحاقه التاء كما قالوا خصلة حميدة وفعله ذميمة بمعنى محموده ومذمومة فحملا على جميلة وشريفة في

لحاق التاء فحملوا قريبا على امرأة قتيل وكف خضيب وعين كحيل في عدم إلحاق التاء حملا لكل من البابين على الآخر ونظيره قوله تعالى:

(219/272)

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ فحمل رميما وهي بمعنى فاعل على امرأة قتيل وبابه . فهذا المسلك هو من أقوى مسالك النحاة وعليه يعتمدون وقد اعترض عليه بثلاثة اعتراضات:

أحدها : أن ذلك يستلزم التسوية بين اللازم والمتعدي فإن فعيلا بمعنى مفعول بابه الفعل المتعدى وفعيلا بمعنى فاعل بابه الفعل اللازم لأنه غالب ما يأتي من فعل المضموم العين فلو جرى على أحدهما حكم الآخر لكان ذلك تسوية بين اللازم والمتعدي وهو ممتنع .

الاعتراض الثاني : إن هذا أن ادعى على وجه العموم فباطل وإن ادعى على سبيل الخصوص فما الضابط وما الفرق بين ما يسوغ فيه هذا الاستعمال وما لا يسوغ .

الاعتراض الثالث : أن العرب قد نطقت في فعيل بالتاء وهو بمعنى مفعول وجردته من التاء وهو بمعنى فاعل قال جرير يرثي خالته:

نعم القرين وكنت علق مضنه . . . وأرى بنعق بلية الأحجار

فجرد القرين من التاء وهو بمعنى فاعل وقال:

فسقاك حيث حللت غير فقيدة . . . هزج الرواح وديمة لا تقلع

فقرن فقيدة بالتاء وهو فعيل بمعنى مفعول أي غير مفقودة وقال الفرزدق:

فداويته عامين وهي قريبة . . . أراها وتدنوا لي مرار وأرشف

ويقولون: (امرأة فتين وسريح وهريت) فجردوه عن التاء وهو بمعنى فاعل وقالوا: (امرأة فروك وهلوك ورشوف وأنوف) فجردوه وهو بمعنى فاعل كصبور وقالوا: (امرأة عروب) فجردوه وهو بمعنى فاعل أيضا ودعوى أن التاء ههنا للمبالغة لا دليل عليها فقد رأيت اشتراك فعول وفعيل في الاقتران بالتاء والتجرد منها

فدعوى أصالة المجرد منهما وشذوذ المقرون مقابلة بمثلها ومع مقابلها قياس اللغة في اقتران المؤنث وتجريد المذكور .

(220/272)

وأما ما استشهدتم به من قوله تعالى: ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ فهو على وفق قياس العربية فإن العظام جمع عظيم وهو مذكر ولكن جمعه جمع تكسير وجمع التكسير يجوز أن يراعى فيه تأنيث الجماعة وباعتباره قال وهي ولم يقل وهو ويراعى فيه معنى

الواحد وباعتبار قال رميم كما يقال عظم رميم مع أن رميما يطلق على جمع المذكر مفردا وجمعا قال جرير:

إلى المهلب جذ الله دابرهم . . . أمسو رميما فلا أصل ولا طرف

فهذا الاعتراض على هذا المسلك.

فصل: المسلك الثاني أن قريبا في الآية من باب تأويل المؤنث بمذكر موافق له في المعنى كقول الشاعر:

أرى رجلا منهم أسيفا كأنما . . . يضم إلى كشحيه مخضبا

فكف مؤنث ولكن تأويله بمعنى عضو وطرف فذكر صفته فكذلك تؤل الرحمة وهي مؤنثة بالإحسان فيذكر خبرها .

قالوا وتأويل الرحمة أولى من تأويل الكف بعضو لوجهين:

أحدهما أن الرحمة معنى قائم بالرحم والإحسان هو بر المرحوم ومعنى القرب في البر من المحسنين أظهر منه في الرحمة.

الثاني أن ملاحظة الإحسان بالرحمة الموصوفة بالقرب من المحسنين هو مقابلة للإحسان الذي صدر منهم وباعتبار المقابلة ازداد المعنى قوة واللفظ جزالة حتى كأنه قال إن إحسان الله قريب من أهل الإحسان كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ ﴾ فذكر قريبا ليفهم منه أنه صفة لمذكر وهو الإحسان فيفهم المقابلة المطلوبة

قالوا ومن تأويل المؤنث بمذكر ما أنشده الفراء:

وقائع في مضر تسعة . . . وفي وائل كانت العاشرة

فتأول الوقائع وهي مؤنثة بأيام الحرب المذكرة فأنث العدد الجاري عليها فقال تسعة ولولا هذا التأويل لقال تسع لأن الوقائع مؤنثة قالوا وإذا جاز تأويل المذكر بمؤنث في قول من قال جاءته كتابي أي صحيفتي وفي قول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته . . . سائل بني أسد ما هذه الصوت

(221/272)

أي ما هذه النصيحة مع أنه حمل أصل على فرع فلأن يجوز تأويل مؤنث بمذكر لكونه حمل فرع على أصل أولى وأحرى وهذا وجه جيد وقد اعترض عليه باعتراضين فاسدين غير لازمين:

أحدهما: أنه لو جاز تأويل المؤنث بمذكر يوافقه وعكسه لجاز أن يقال كلمتني زيد أكرمتني عمرو وكلمني هند وأكرمني زينب تأويلا لزيد وعمرو بالنفس والجثة وتأويلا لهند وزينب بالشخص والشيخ وهذا باطل وهذا الاعتراض غير لازم فإنهم لم يدعوا اطراد ذلك وإنما ادعوا أنه مما يسوغ أن يستعمل وفرق بين ما يسوغ في بعض الأحيان وبين ما يطرد كرفع الفاعل

ونصب المفعول وهم لم يدعوا أنه من القسم الثاني ثم إن هذا الاعتراض مردود بكل ما يسوغ استعماله بمسوغ وهو غير مطرد وهو أكثر من أن يذكر ههنا ولا ينكره نحوي أصلا وهل هذا إلا اعتراض على قواعد العربية بالتشكيكات والمناقضات وأهل العربية لا يلتفتون إلى شيء من ذلك فلو أنهم قالوا يجوز تاويل كل مؤنث بمذكر يوافقه وبالعكس لصح النقض وأنما قالوا يسوغ أحيانا تاويل أحدهما بالآخر لفائدة يتضمنها التأويل كالفائدة التي ذكرناها من تأويل الرحمة بالإحسان.

الاعتراض الثاني: أن حمل الرحمة على الإحسان إما أن يكون حملا على حقيقتة أو مجازة وهما ممتنعان فإن الرحمة والإحسان متغايران لا يلزم من أحدهما وجود الآخر لأن الرحمة قد توجد وافرة في حق من لا يتمكن من الإحسان كالوالدة العاجزة ونحوها وقد يوجد الإحسان ممن لا رحمة في طباعة كالملك القاسي فإنه قد يحسن إلى بعض أعدائه وغيرهم لمصلحة ملكه مع أنه

لا رحمة عنده وإذا تبين انفكاك أحدهما عن الآخر لم يجز إطلاقه عليه لا حقيقة ولا مجازا؛ أما الحقيقة فظاهر وأما المجاز فإن شرطه خطور المعنى المجازي بالبال ليصح انتقال الذهن

إليه فإذا كان منفكا عن الحقيقة لم يخطر بالذهن وهذا الاعتراض أفسد من الذي قبله وهو من باب التعنت والمناكدة وأين هذا من قول أكثر المتكلمين ولعل هذا المعترض منهم أنه لا معنى للرحمة غائبا إلا الإحسان المحض وأما الرقة التي في الشاهد فلا يوصف الله تعالى بها وإنما رحمته مجرد إحسانه ومع أنا لا نرتضي هذا القول بل نثبت لله تعالى الرحمة حقيقة كما أثبتها لنفسه منزهة مبراة عن خواص صفات المخلوقين كما نقوله في سائر صفاته من إرادته وسمعه وبصره وعلمه وحياته وعلمه وحياته وسائر صفات كماله فلم نذكره إلا لنبين فساد اعتراض هذا المعترض على قول أئمته ومن قال بقوله من المتكلمين ثم نقول الرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للإحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها وأما قضية الأم العاجزة فإنها وإن لم تكن تقدر على الإحسان بالفعل فهي محسنة بالإرادة فرحمتها لا تنفك عن إرادتها التامة للإحسان التي يقترن بها مقدورها إما بدعاء وإما بأيثار بما تقدر عليه ونحو ذلك فتخلف بعض الإحسان الذي لا تقدر عليه عن رحمتها لا يخرج رحمتها عن استلزامها للإحسان المقدور وهذا واضح وأما الملك القاسي إذا أحسن فإن إحسانه لا يكون رحمة فهذا لأن الإحسان أعم من الرحمة والأعم لا يستلزم الأخص وهم لم يدعوا ذلك فلا يلزمهم وأيضا فإن الإحسان قد يقال إنه يستلزم الرحمة وما فعله الملك المذكور فليس بإحسان في الحقيقة وإن كانت صورته

صورة الإحسان وبالجملة فالعنت والمناكدة على هذا الاعتراض أبين من أن يتكلف معه رده وإبطاله .

(223/272)

فصل: المسلك الثالث أن (قريبا) في الآية من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف فكأنه قال إن مكان الرحمة قريب من المحسنين ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره ومن ذلك قول الشاعر حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم . . . بردي يصفق بالرحيف السلسل

فقال يصفق بالياء وبردى هي مؤنث لأنه أراد ماء بردى ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذ بيديه ذهبا وحريرا فقال: " هذان حرام على ذكور أمتي" فقال حرام بالإفراد والمخبر عنه مثنى كأنه قال استعمال هذين حرام وهذا المسلك ضعيف جدا لأن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لا يسوغ ادعاؤه مطلقا وإلا لالتبس الخطاب وفسد التفاهم وتعطلت الأدلة إذ ما من لفظ أمر أو نهي أو خبر متضمن مأمورا به ومنهيا عنه ومخبرا إلا ويمكن على هذا أن يقدر له لفظ مضاف يخرجه عن تعلق الأمر والنهي والخبرية فيقول الملحد في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ أي معرفة حج البيت

و ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي معرفة الصيام وإذا فتح هذا الباب فسد التخاطب وتعطلت الأدلة وإنما يضمر المضاف حيث يتعين ولا يصح الكلام إلا بتقديره للضرورة كما إذا قيل أكلت الشاة فإن المفهوم من ذلك أكلت لحمها فحذف المضاف لا يلبس وكذلك إذا قلت أكل فلان كبد فلان إذا أكل ماله فإن المفهوم أكل ثمرة كبده فحذف المضاف هنا لا يلبس ونظائره كثيرة وليس منه ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وإن كان أكثر الأصوليين يمثلون به فإن القرية اسم للسكان

(224/272)

في مسكن مجتمع فإنما تطلق القرية باعتبار الأمرين كالكأس لما فيه من الشراب والذنوب للدلو الملآن ماء النهر والخوان للمائدة إذا كان عليها طعام ونظائره ثم إنهم لكثرة استعمالهم لهذه اللفظه ودورانها في كلامهم أطلقوها على السكان تارة وعلى المسكن تارة بحسب سياق الكلام وبساطه وإنما يفعلون هذا حيث لا لبس فيه فلا إضمار في ذلك ولا حذف فتأمل هذا الموضع الذي خفي على القوم مع وضوحه .

وإذا عرفت هذا فقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ليس في اللفظ ما يدل على إرادة موضع ولا مكان أصلا فلا يجوز دعوى إضماره بل دعوى إضمار خطأ قطعا

لأنه يتضمن الإخبار بأن المتكلم أراد المحذوف ولم ينص على إرادته دليلا لا صريحا ولا لزوما فدعوى المدعي أنه أراده دعوى باطلة وأما قوله بردى يصفق فليس أيضا من باب حذف المضاف بل اراد ببردى النهر وهو مذكر فوصفه بصفة المذكر فقال يصفق فلم يذكر بناء على حذف المضاف وإنما ذكر بناء على أن بردى المراد به النهر فإن قلت فلا بد من حذف مضاف لأنهم إنما يسقون ماء بردى لا نفس النهر قلت هذا وإن كان مراد الشاعر فلم يلزم منه صحة ما ادعاه من أنه ذكر يصفق باعتبار الماء المحذوف فإن تذكيره إنما يكون باعتبار إرادة النهر وهو مذكر فلا يدل على ما ادعوه.

وأما قوله: " هذان حرام" ففي إفراد الخبر سر بديع جدا وهو التنبيه والإشارة على أن كل واحد منهما بمفرده موصوف بأنه حرام فلو ثنى الخبر لم يكن فيه تنبيه على هذا المعنى فلهذا أفرد الخبر فكأنه قال وكل واحد من هذين حرام فدل إفراد الخبر على إرادة الإخبار عن كل واحد بمفرده فتأمله فإنه من بديع اللغة وقد تقدم بيانه في هذا التعليق في مسألة كلا وكلتا وإن قولهم: (كلاهما قائم) بالإفراد لا يدل على أن كلا مفرد كما ذهب إليه البصريون بل هو مثنى حقيقة وإنما أفردوا الخبر للدلالة على أن

الإخبار عن كل واحد منهما بالقيام وقد قررنا ذلك هناك بما فيه كفاية .

فصل: المسلك الرابع: أنه من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامة كأنه قال إن رحمة الله شيء قريب من المحسنين أو لطف قريب أو بر قريب ونحو ذلك وحذف الموصوف كثير فمنه قول الشاعر:

قامت تبكيه على قبره . . . من لي من بعدك يا عامر

تركتني في الدار ذا غربة . . . قد ذل من ليس له ناصر

المعنى تركتني شخصا أو إنسانا ذا غربة ولولا ذلك لقالت تركتني ذات غربة ومنه قول الآخر:

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني . . . فراقك لم أبخل وأنت صديق

أراد وأنت شخص أو إنسان صديق وعلى هذا المسلك حمل سيبويه قولهم للمرأة حائض وطالق وطال فقال كأنهم قالوا شيء حائض وشيء طامث .

وهذا المسلك أيضا ضعيف لثلاثة أوجه:

أحدها : أن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقاومة إنما يحسن بشرطين أن تكون الصفة خاصة يعلم ثبوتها لذلك الموصوف بعينه لا لغيره .

الثاني: أن تكون الصفة قد غلب استعمالها مفردة على الموصوف كالبر والفاجر والعالم والجاهل والمتقي والرسول والنبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما غلب استعمال الصفة

فيه مجردة عن الموصوف فلا يكاد يجيء ذكر الموصوف معها كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وقوله: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهو كثير جدا في القرآن وكلام العرب وبدون ذلك لا يحسن الاقتصار على الصفة فلا يحسن أن تقول: جاءني طويل ورأيت جميلا أو قبيحا

(226/272)

وأنت تريد جاءني رجل طويل ورأيت رجلا جميلا أو قبيحا ولا تقول: سكت في قريب تريد في مكان قريب مع دلالة السكنى على المكان . الثاني : إن الشيء أعم المعلومات فإنه يشمل الواجب والممكن فليس في تقديره ولا في اللفظ به زيادة فائدة يكون الكلام بها فضلا عن أن يكون بها في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة فأي فصاحة وبلاغة في قول القائل في حائض وطامث وطالق شيء حائض وشيء طامث وشيء طالق وهو لو صرح بهذا لاستهجنه السامع فكيف يقدر في الكلام مع أنه لا يتضمن فائدة أصلا إذ كونه شيئا أمر معلوم عام لا يدل على مدح ولا ذم ولا كمال ولا نقصان وينبغي أن يتفطن ههنا لأمر لا بد منه وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي

يحتمله تركيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ: ﴿ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ بالجر أنه قسم ومثل قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور في به ، ومثل قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾ إن المقيمين مجرور بواو القسم ونظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وأوهي بكثير بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ولا يجوز تفسيره بغير عرفة والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ

(227/272)

بل أعظم فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين فكذلك معانية أجل المعاني وأعظمها وأفخمها

فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي فتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه وسنزيد هذا إن شاء الله تعالى بيانا وبسطا في الكلام على أصول التفسير فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله .

الوجه الثالث: أن طالقا وحائضا وطامثا إنما حذفت تاؤه لعدم الحاجة إليها فإن التاء إنما دخلت للفرق بين المذكر والمؤنث في محل اللبس فإذا كانت الصفة خاصة بالمؤنث فلا لبس فلا حاجة إلى التاء هذا هو الصواب في ذلك وهو المذهب الكوفي .

فإن قلت هذا خلاف مذهب سيبويه ، قلت فهل يرتضي محصل برد موجب الدليل الصحيح لكونه خلاف قول عالم معين هذه طريقة الخفافيش فأما أهل البصائر فإنهم لا يردون الدليل وموجبه بقول معين أبدا وقليل ما هم ولا ريب أن أبا بشر رحمة الله ضرب في هذا العلم بالقدح المعلى وأحرز من قصبات سبقه واستولى من أمده على ما لم يستول عليه غيره فهو المصلى في هذا المضمار ولكن لا يوجب ذلك أن يعتقد أنه أحاط بجميع كلام العرب وإن لا حق إلا ما قاله وكم لسيبويه من نص قد خالفه جمهور أصحابه فيه والمبرزون منهم ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال الكلام به ولا تنس قوله في باب الصفة المشبهة مررت برجل حسن وجهه بأضافه حسن إلى الوجه والوجه إلى الضمير ومخالفة جميع البصريين

والكوفيين في ذلك فسيبويه رحمة الله ممن يؤخذ من قوله ويترك وأما أن نعتقد صحة قوله في كل شيء فكلا وسنفرد إن شاء الله كتابا للحكومة بين البصريين والكوفيين فيما اختلفوا فيه وبيان الراجح من ذلك وبالله التوفيق والتأييد .

(228/272)

فإن قلت يكفي في رد ما اخترتموه في طامث وحائض وطالق من المذهب الكوفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ فهذا وصف يختص به الإناث وقد جاء بالتاء قلت ليس في هذا

ولله الحمد رد لهذا المذهب ولا إبطال له فإن دخول التاء ههنا يتضمن فائدة لا تحصل بدونها فتعين الإتيان بها وهي أن المراد بالمرضعة فاعلة الرضاع فالمراد الفعل لا مجرد الوصف ولو أريد الوصف المجرد بكونها من أهل الأرضاع لقيل مرضع كحائض وطامث ألا ترى إلى قوله: "لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار" فإن المراد به الموصوفة بكونها من أهل الحيض لا من يجري دمها فالحائض والمرضع وصف عام يقال على من لها ذلك وصفا وإن لم يكن قائما بها ويقال على من قام بها بالفعل فأدخلت التاء ههنا إيذانا بأن المراد من تفعل الرضاع فإنها تذهل عما ترضعه لشدة هول زلزلة الساعة وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿عَمَّا

أَرْضَعَتْ﴾ فعلم أن المراد المرضعة التي ترضع بالفعل لا بالقوة والتهيؤ وترجيح هذا المذهب له موضع غير هذا .

فصل: المسلك الخامس أن هذا من باب اكتساب المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحا للحذف والاستغناء عنه بالثاني كقول الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

وقال الآخر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت . . . أعاليها مر الرياح النواسم

وقال الآخر

بغي النفوس معيدة نعماءها . . . نقما وإن عمهت وطال غرورها

فأنت في الأول السور المضاف إلى المدينة وفي الثاني المر المضاف إلى الرياح وفي الثالث البغي المضاف إلى النفوس لتأنيث المضاف إليه مع أن التذكير أصل والتأنيث فرع فحمل الأصل على الفرع فلأن يجوز تذكير المؤنث لإضافته إلى غير

مؤنث أولى لأنه حمل للفرع على الأصل ومن الأول أيضا قول الشاعر:

وتشرق بالأمر الذي قد أذعته . . . كما شرقت صدر القناة من الدم

فأنّث الصدر لإضافته إلى القناة وأنشدني بعض أصحابنا لأبي محمد بن حزم في هذا المعنى بإسناد لا يحضرني:

تجنب صديقا مثل ما واحذر الذي . . . تراه كعمرو بين عرب وأعجم

فإن صديق السوء يردي وشاهدي . . . كما شرقت صدر القناة من الدم

منه قول النابغة الذبياني:

حتى استغن بأهل الملح ضاحية . . . يركضن قد قلقت عقد الأطانيب

وهذا المسلك وإن كان قد ارتضاه غير واحد من الفضلاء فليس بقوي لأنه إنما يعرف ومنه قول لبيد:

فمضى وقدمها وكانت عادة . . . منه إذا هي عردت أقدامها

مجيئه في الشعر ولا يعرف في الكلام الفصيح منه إلا النادر كقولهم ذهبت بعض أصابعه والذي قواه ههنا شدة اتصال المضاف بالمضاف إليه وكونه جزؤه حقيقة فكأنه قال ذهبت إصبع وإصبعان من أصابعه وحمل القرآن على المكثور الذي خلافه أفصح منه ليس بسهل.

فصل: المسلك السادس إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الأخ لكونه تبعا له ومعنى من معانيه فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى:

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ فاستغنى عن خبر الأعناق بالخبر عن أصحابها ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ المعنى والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك

(230/272)

فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله إذ إرضاؤه هو إرضاء رسوله فلم يحتج أن يقول يرضوهما فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين ، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيرا أحسن من هذا وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الأفهام وهو من أسرار القرآن والذي ينبغي أن يعبر عنه به أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه لأن الصفة لا تفارق موصوفها فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين . وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته ومن أهل سؤاله بأجابته وذكرنا شواهد ذلك وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان وأن من تقرب منه شبرا تقرب الله منه ذراعا ومن

تقرب منه ذراعا تقرب منه باعا فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ورحمته قريبة منهم وقربة يستلزم قرب رحمته ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة وأن الله تعالى قريب من المحسنين وذلك يستلزم القربين قربة وقرب رحمته ولو قال إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم لأن قربة تعالى أخص من قرب رحمته والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربة فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأنا وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم فهو مسلك سابع في الآية وهو المختار وهو من أليق ما قيل فيها وإن شئت قلت قربة تبارك وتعالى من المحسنين وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضا قريب منهم

وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه

من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ وأشرفه وأجله على الإطلاق وهو أفضل إعطاء

أعطيه العبد وهو قربة تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأماني ونهاية الآمال وقرة العيون وحياة القلوب وسعادة العبد كلها فكان في العدول عن قريب إلى قريب من استدعاء الإحسان وترغيب النفوس فيه ما لا يتخلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته ولا قوة إلا بالله تعالى .

فصل: المسلك الثامن إن الرحمة مصدر والمصادر كما لا تثنى ولا تجمع فحقها أن لا تؤنث وهذا المسلك ضعيف جدا فإن الله سبحانه حيث ذكر الرحمة أجرى عليها التأنيث كقوله: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وقوله فيما حكى عنه رسوله: "إن رحمتي غلبت أو سبقت غضبي " رواه البخاري ومسلم والترمذي ولو كان حذف التاء من الرحمة لكونها مصدراً والمصادر لا حظ للتأنيث فيها لم يعد عليها الضمير إلا مذكرا وكذلك ما كان من المصادر بالتاء كالقدرة والإرادة والحكمة والهمة ونظائرها وفي بطلان ذلك دليل على بطلان هذا المسلك .

فصل: المسلك التاسع أن القريب يراد به شيئان :

أحدهما : النسب والقرابة فهذا بالتاء تقول فلانه قريبة لي .

والثاني : قرب المكان وهذا بلا تاء تقول جلست فلانه قريبا مني ولا تقول قريبة منى وهذا مسلك الفراء رحمة الله وجماعة وهو أيضا ضعيف فإن هذا إنما هو إذا كان لفظ القريب ظرفا فإنه يذكر كما قال تقول جلست المرأة مني قريبا فأما إذا كان اسما محضا فلا .

فصل: المسلك العاشر: أن تأنيث الرحمة لما كان غير حقيقي ساغ فيه حذف التاء كما تقول طلع الشمس وطلعت وهذا المسلك أيضا فاسد فإن هذا إنما يكون إذا أسند الفعل إلى ظاهر المؤنث فإما إذا أسند إلى ضميره فلا بد من التاء كقولك الشمس طلعت وتقول الشمس طالعة ولا تقول طالع لأن في الصفة ضميرها فهي بمعنى الفعل في ذلك سواء .

فصل: المسلك الحادي عشر: أن القريب مصدر لا وصف وهو بمنزلة النقيض فجرد من التاء لأنك إذا أخبرت عن المؤنث بالمصدر لم تلحقه التاء ولهذا تقول امرأة عدل ولا تقول عدلة وامرأة صوم وصلاة وصدق وبر ونظائره وهذا المسلك من أفسد ما قيل عن القريب فإنه لا يعرف استعماله مصدرا أبدا وإنما هو وصف والمصدر هو القرب لا القريب .

فصل: المسلك الثاني عشر: إن فعيلا وفعولا مطلقا يستوي فيهما المذكر والمؤنث حقيقيا كان أو غير حقيقي كما قال امرؤ القيس:

يرهرهه رودة رخصة . . . كخرعوبة البانة المنقطر

قطيع القيام فتور الكلام . . . تفتر عن ذي عزوب خصر

وقال أيضا:

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم . . . قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

وقال جرير:

أتنفعك الحياة وأم عمرو . . . قريب لا تزور ولا تزار

وقال جرير أيضا:

كأن لم نحارب يا بثين لو أنها . . . تكشف غماها وأنت صديق

وقال أيضا:

دعون الهوى ثم ارتهن قلوبنا . . . بأسهم أعداء وهن صديق

قالوا وشواهد ذلك كثيرة وفي هذا المسلك غنية عن تلك التعسفات والتأويلات.

(233/272)

وهذا المسلك ضعيف أيضا ومما رده أبو عبد الله بن مالك فقال: هذا القول ضعيف لأن قائله إما أن يريد أن فعيلا في هذا الموضع وغيره يستحق ما يستحقه فعول من الجري على المذكر والمؤنث بلفظ واحد وإما أن يريد أن فعيلا في هذا الموضع خاصة محمول على فعول فالأول مردود لإجماع أهل العربية على التزام التاء في ظريفة وشريفة وأشباههما وزنا ودلالة" ولذلك احتاج علماؤهم أن يقولوا في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ وقوله:

﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ أن الأصل هو يغوى على فعول فلذلك لم تلحقه التاء ثم أعل بأبدال الواو ياء والضمة كسرة فصار لفظه كلفظ فعيل ولو كان فعيلا أصلا للحقته التاء فقيل الم أك بغية والثاني أيضا مردود لأن لفعيل على فعول من المزايا ما لا يليق به أن يكون تبعا له بل العكس أولى أن يكون فعولا تبعا لفعيل ولأنه يتضمن حمل فعيل على فعول وهما مختلفان لفظا ومعنى أما اللفظ فظاهر وأما المعنى فلأن قريبا لا مبالغة فيه لأنه يوصف به كل ذي قرب وإن قل وفعول لا بد فيه من المبالغة وأيضا فإن الدال على المبالغة لا بد أن يكون له بنية لا مبالغة فيها ثم يقصد به المبالغة فتتغير بنيته كضارب وضروب وعالم وعليم وقريب ليس كذلك فلا مبالغة فيه .

وأما بيت امرؤ القيس فلا حجة فيه لوجوه:

أحدها : أنه نادر فلا حكم له فلا كثرت صوره ولا جاء على الأصل كاستجوذ واستوثق البعير واغيمت السماء واغور واحول وما كان كذلك فلا حكم له .

(234/272)

الثاني: أن يكون قد أراد قطيعة القيام ثم حذف التاء للأضافه فإنها تجوز بحذفها عند الفراء وغيره وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ﴾ أي إقامتها لأن المعروف في ذلك

إنما هو لفظ الإقامة ولا يقال إقام دون أضافه كما لا يقال أراد في أرادة ولا أقال في إقالة لأنهم جعلوا هذه التاء عوضا عن ألف إفعال أو عينه لأن أصل إقامة أقوام فنقلت حركة العين إلى الفاء فانقلبت ألفا فالتقت ألفان فحذفت إحداهما فجاءوا بالتاء عوضا فلزمت إلا مع الأضافه فإن حذفها جائز عند قوم قياسا وعند أخرين سماعا ومثلها في اللزوم تاء عدة وزنة وأصلهما وعد ووزن فحذفت الواو وجعلت التاء عوضا منها فلزمت وقد تحذف للأضافه كقول الشاعر:

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا . . . وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

أي أخلفوك عدة الأمر فحذف التاء وعلى هذه اللغة قرأ بعض القرّاء ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ بالهاء أي عدته فحذف التاء .

الثالث: أن يكون فعيل في قوله قطيع القيام بمعنى مفعول لأن صاحب المحكم حكى أنه قال مبينا على قطعه وأقطعه إذا بكته وأقطعه إذا بكته وقطع هو فهو قطيع القول فقطيع على هذا بمعنى مقطوع أي مبكت فحذف التاء على هذا التوجيه ليس مخالفا للقياس وإن جعل قطيعا مبنيا على قطع كسريع من سرع فحقه على ذلك أن يلحقه التاء عند جريه على المؤنث إلا أنه شبه بفعيل الذي بمعنى مفعول فأجرى مجراه .

فهذا تمام اثني عشر مسلكا في هذه الآية أصحها المسلك المركب من السادس والسابع وباقيها ضعيف وواه ومحتمل ؟

والمبتدىء والمقلد لا يدرك هذه الدقائق والفاضل المنصف لا يخفى عليه قويها من ضعيفها وليكن هذا آخر الكلام على الآية والله أعلم.

(235/272)

فائدة: خبر المبتدأ إما مفرد وإما جملة فإن كان جملة فإما أن يكون نفس المبتدأ أو غيره فإن كان نفس المبتدأ لم يحتج إلى رابط يربطها به إذ لا رابط أقوى من اتحادهما نحو قولي: (الحمد لله) وإن كانت غير المبتدأ فلا بد فيها من رابط يربطها بالمبتدأ لئلا يتوهم استقلالها وانقطاعها عن المبتدأ لأن الجملة كلام قائم تام بنفسه وذلك الرابط لا يتعين أن يكون ضميرا بل يجوز أن يكون ضميرا وهو الأكثر واسم إشارة كقوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أولئك أصحاب الجحيم ونظائره كثيرة واسما ظاهرا قائما مقام الضمير كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وقد يستغني عن الضمير إذا علم الرابط وعدم الاستقلال بالسياق وباب هذا التفصيل بعد الجملة ففيه يقع الاستغناء عن الضمير كثيرا كقولك المال لهؤلاء لزيد درهم ولعمرو درهمان ولخالد ثلاثة ومثله الناس واحد في الجنة وواحد في النار ولا حاجة إلى تقدير ضمير رابط محذوف تقديره لزيد منه درهم وواحد منهم في الجنة فإن

تفصيل المبتدأ بالجملة بعده رابط أغنى عن الضمير فتأمله ومثله السمن منوان بدرهم وهذا بخلاف قولك زيد عمرو مسافر فإنه لا رابط بينهما بوجه فلذلك يحتاج أن يقول في حاجته ونحو ذلك ليفيد الإخبار .

هذا حكم الجملة وأما المفرد فقد اشتهر على ألسنة النحاة أنه إن كان مشتقا فلا بد من ضمير يربطه بالمبتدأ وإن كان جامدا لم يحتج إلى ضمير وبعضهم يتكلف تأويله بالمشتق وهذا موضع لا بد من تحريره فنقول الخبر المفرد لما كان نفس المبتدأ كان اتحادهما أعظم رابط يمكن فلا وجه لاشتراط الرابط بعد هذا أصلا فإن المخاطب يعرف أن الخبر مسند

إلى المبتدأ وأنه هو نفسه ومن هنا يعلم غلط المنطقيين في قولهم إنه لا بد من الرابط إما مضمرا وإما مظهرا وهذا كلام من هو بعيد من تصور المعاني وارتباطها بالألفاظ ولا تستنكر هذه العبارة في حق المنطقيين فإنهم من أفسد الناس تصورا ولا يصدق بهذا إلا من عرف قوانين القوم وعرف ما فيها من التخبيط والفساد وأما إن كان الخبر اسما مشتقا مفردا فلا بد فيه من ضمير ولكن ليس الجالب لذلك الضمير ربطه بالمبتدأ بل الجالب له أن المشتق كالفعل في المعنى فلا بد له من فاعل ظاهر أو مضمر فإن قيل وما الذي يدل على أن

في الفعل ضميرا حتى يكون في ثانية ضمير فإذا قلت زيد قام فإن هذا اللفظ لا ضمير فيه يستمع فدعوى تحمله للضمير دعوى محضة قيل الذي يدل على أن فيه الضمير تأكيدهم له وعطفهم عليه وأبدالهم منه كقولك في التأكيد إن زيدا سيقوم نفسه برفع نفس وفي العطف كقوله تعالى سيصلى نارا ذات لهب وامرأته فامرأته رفع عطفا على الضمير في سيصلى وفي الأبدال قولك إن زيدا يعجبني علمه على أن يكون علمه بدل اشتمال لا فاعل فإذا كان المشتق مفردا كان الضمير الذي فيه فعلا كان أو اسما نحو زيد يذهب وزيد ذاهب وأما في التثنية والجمع فلا يكون ضميرا إلا في الأفعال نحو يذهبان ويذهبون وأما في الأسماء فإنه لا يكون فيها إذا ظهر إلا علامة لا ضميرا نحو ذاهبان وذاهبون فهما في الاسم حرفان وفي الفعل اسمان برهان ذلك انقلابهما في الاسم ياء في التثنية والجمع كما ينقلبان فيما لا يحتمل ضميرا كزيدين والزيدين ولو كان ضميرا ك هما في الفعل لبقيا على لفظ واحد كما تقول في الفعل هؤلاء رجال يذهبون ومررت برجال يذهبون ورأيت رجالا يذهبون وكذلك في التثنية سواء فلا يتغير لفظ الواو لأنها فاعل وليست علامة إعراب الفعل فثبت بهذا صحة دعوى النحاة على العرب أن الضمير المستتر في الاسم المشتق لا يظهر في تثنية ولا جمع وأن الضمير المستتر في الفعل يظهر في التثنية والجمع ولولا

الدليل الذي ذكرناه لما عرف هذا أبدا لأن العرب لم تشافهنا بهذا مشافهة ولا أفصحت عن هذا القدر في هذا ونحوه إلا باستقراء كلامها والتتبع لأنحائها ومقاصدها الموصل إلى غرائب هذه اللغة وأسرارها وحكمها فإن قيل فقد عرفنا صحة ذلك فما هي الحكمة التي من أجلها فرقوا بين المواطنين فجعلوها ضمائر في الأفعال وحروفا في الأسماء قيل في ذلك حكمة بديعة وهي أن الأسماء لما كان أصلها الإعراب كانت أحوج إلى علامة إعراب منها إلى علامة إضمار والأفعال أصلها البناء ولم يكن لها بد من الفاعل ضرورة فكانت أحوج إلى علامة إضمار الفاعلين منها إلى علامة إعراب مع أن هذه العلامة في الأسماء علامة تثنية وجمع وحروف إعراب أيضا والأفعال لا تثنى ولا تجمع إذ هي مشتقة من المصدر وهو لا يثنى ولا يجمع لأنه يدل على القليل والكثير بلفظ واحد هذه علة النحاة . وفيه علة أخرى هي أصح من هذه وألطف وأدق قد تقدمت في أول هذا التعليق وإذا ثبت أن الأفعال لا تثنى ولا تجمع وعلامة التثنية والجمع حروف إعراب فلا يكون الواو والألف إلا علامة إضمار ولا يكون في الاسماء وإن احتملت الضمائر إلا علامة تثنية وجمع وحروف إعراب على قول سيبويه أي محل الأعراب أو هي الأعراب نفسها على قول قطرب وغيره بمنزلة الحركات في المفرد أو دليل إعراب على قول أبي الحسن الأخفش وأبي العباس المبرد .

فصل: حكم الخبر إذا كان ظرفا أو جارا ومجرورا

هذا حكم الخبر إذا كان مفردا أو جملة فأما إذا كان واقعا موقع الخبر وليس هو نفسه خبرا كالظرف والمجرور فإنه واقع موقع مشتق متحمل للضمير وهو إما مفرد وإما جملة وأكثر النحاة يقدرونه بمفرد مشتق نظرا إلى أن الأصل في الخبر أن يكون مفردا فتقديره كذلك موافق للأصل وأيضا فإنما قدر لضرورة صحة الكلام فإن الظرف والمجرور ليس هو نفس المبتدأ وما قدر للضرورة

(238/272)

لا يتعدى به ما تقتضيه الضرورة وهي تزول بالمفرد فتقدير الجملة مستغنى عنه مع أنه خلاف الأصل وأيضا فإنه قدر للتعلق وهذا التعلق يكفي فيه المفرد وأيضا فإنه يقع في موضع لا يصح فيه تقدير الجملة كقولك أما عندك فزيد وأما في الدار فعمر فإن أما لا يليها إلا اسم مفرد فإذا تعين المفرد ههنا يرجح في الباقي ليجري الباب على سنن واحد ولا ينتقض هذا بوقوعه في صلة الموصول كقولك جاءني الذي في الدار إذ يتعين تقدير الجملة لأن كلامنا في التقدير في باب الخبر لا في التقدير في سائر الأبواب كالصلة والصفة والحال ولا يلزم من تعين الجملة في التقدير في الصلة تعينها ولا ترجيحها في باب المبتدأ وسأل أبو الفتح بن جني أبا

علي عن هذه المسألة فلم يراجعه بجواب شاف أكثر من أن قال له: تقدير الاسم ههنا أولى لأن خبر المبتدأ في أغلب أحواله اسم .

(239/272)

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال الجار هنا لا يتصور تعليقه بفعل محض إذ الفعل المحض ما دل على حدث وزمان ودلالته على الزمان ببنيته فإذا لم يكن له وجود في اللفظ لم يكن له بنية تدل على الزمان مع أن الجار لا تعلق له بالزمان ولا يدل عليه إنما هو في أصل وضعه لتقييد الحدث وجره إلى الاسم على وجه ما من الأضافه فلا تعلق له إلا بالحدث والحدث الذي هو المصدر لا يمكن تقديره ههنا لأنه خبر المبتدأ والمبتدأ ليس هو الحدث فبطل أن يكون التقدير: زيد استقرار في الدار ، وبطل أيضا بما تقدم أن يكون التقدير: زيد استقر في الدار ألا ترى أن يقبح أن يقال: زيد في الدار أمس أو أول من أمس . وإذا بطل القسمان أعنى إضمار المصدر والفعل لم يبق إلا القسم الثالث وهو إضمار اسم الفاعل فتتضح الفائدتان: أحدهما أن يكون خبرا عن المبتدأ ويضمر فيه ما يعود عليه إذ لا يمكن ذلك في المصدر, والثانية أن يصبح تعلق الجار به إذ مطلوبة الحدث واسم الفاعل متضمن للحدث لا للزمان إذا عرف هذا فلا يصح ارتفاع الاسم بعد الظرف والمجرور بالاستقرار

على أنه فاعل وإن كان في موضع خبر أو نعت وإنما يرتفع بالابتداء كما يرتفع في قولك قائم زيد بالابتداء لا بقائم

(240/272)

خلافا للأخفش فإذا قلت في الدار زيد فارتفاع زيد بالابتداء لا بالاستقرار اسم الفاعل فإن قلت: أليس إذا قلت زيد قائم أبوه ورأيت رجلا قائما أبوه ومررت برجل قائم أبوه فترفع الاسم بقائم إذا كان معتمدا على مبتدأ أو منعوت أو ذي حال وكذلك إذا كان قبله استفهام أو نفي نحو أقائم زيد وما قائم زيد قيل اسم الفاعل مشتق وفيه لفظ الفعل ومعناه فإذا اقترن به ألف الاستفهام أو قرينة من القرائن التي ذكرت التي يقوي بها معنى الفعل عمل الفعل بخلاف قائم زيد فإنه لا قرينة معه تقتضي أن يعمل عمل الفعل فحمل على أصله من الابتداء والخبر فإن قيل فهلا قلت إن الظرف والمجرور إذا اعتمد كما يعتمد اسم الفاعل أنه يرفع الاسم كما هو معزى إلى سيبويه فإذا قلت: زيد في الدار أبوه كان أبوه مرفوعا بالظرف كما إذا قلت: زيد قائم أبوه؟ قلت قد توهم قوم أن هذا مذهب سيبويه وأنك إذا قلت: مررت برجل معه صقر أن صقرا مرفوعا بالظرف لاعتماده على الموصوف وكنا نظن ذلك

زمانا حتى تبين أن هذا ليس بمذهبه وأنه غلط عليه وقد بين أبو سعيد السيرافي مراد سيبويه من كلامه وشرح وجه الغلط عليه بما فيه كفاية فراجعه في كتابه .

(241/272)

والفرق بين الظرف وبين اسم الفاعل ما تقدم أن اسم الفاعل مشتق وفيه لفظ الفعل ومعناه فإذا اعتمد أن اقترنت به قرينة جانب الفعلية فيه فعمل عمل الفعل وأما الظرف فلا لفظ للفعل فيه إنما هو معنى يتعلق به الفعل ويدل عليه ولم يكن في قوة القرينة التي يعتمد عليها أن تجعله كالفعل كما لم يكن في قوته إذا كان ملفوظا به دون قرينة أن يكون كالفعل فإذا اجتمع الاعتماد المقوي لمعنى الفعل مع اللفظ المشتق من الفعل عمل الاسم حينئذ عمل الفعل ووجه آخر من الفرق بين المسألتين أنك إذا قلت مررت برجل قائم أبوه فالقيام لا محالة مسند إلى الأب في المعنى وهو في اللفظ جار على رجل والكلام له لفظ معنى فقائم في اللفظ جار عل ما قبله وفي المعنى مسند إلى ما بعده وأما الظرف والمجرور فليس كذلك إنما هو

(242/272)

معنى يتعلق به الجار وذلك المعنى مسند إلى الاسم المرفوع وخبر عنه فصح أنه مبتدأ والمجرور خبر عنه والجملة في موضع نعت أو خبر فإن قيل فليزمكم إذا قدمتم الظرف في موضع الخبر وقدرتم فيه ضميرا يعود على المبتدأ أن تجيزوا في الدار نفسه زيد وفيها أجمعون إخوتك وهذا لا يجوزه أحد وفي هذا حجة للأخفش ولمن قال بقوله في أن رفع الاسم بالظرف قيل إنما قبح توكيد المضمر إذا كان الظرف خبرا مقدما لأن الظرف في الحقيقة ليس هو الحامل للضمير إنما هو متعلق بالاسم الحامل للضمير وذلك الاسم غير موجود في اللفظ حتى يقال إنه مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى وإذا لم يكن ملفوظا به فهو في المعنى والرتبة بعد المبتدأ والمجرور المقدم قبل المبتدأ دال عليه والدال على الشيء غير الشيء فلذلك قبح فيها أجمعون الزيدون لأن التوكيد لا يتقدم على المؤكد ولذلك صح تقديم خبر إن على اسمها إذا كان ظرفا لأن الظرف ليس هو الخبر في الحقيقة إنما هو متعلق بالخبر والخبر منوي في موضعه مقدر في مكانه ولذلك لم ينكسر أصل الخليل في منعه تقديم خبر المبتدأ مع كثرة هذا النحو في الكلام أعني في الدار زيد ولذلك عدل سيبويه في قولهم فيها قائما رجل ولمية موحشا طلل إلى أن جعل الحال من النكرة ولم يجعلها حالا من الضمير الذي في الخبر لأن الخبر مؤخر في النية وهو العامل في الحال وهو منوي والحال لا يتقدم على العامل المنوي فهذا كله مما يبين أن الظرف والمجرور ليس هو الخبر في الحقيقة ولا الحامل للضمير ولا العامل في شيء من الأشياء لا في حال ولا في ظرف ولا في فاعل ومن جهة

المفعول أن الدار إذا انفردت بلفظها لم يصح أن تكون خبرا عن زيد ولا عاملة ولا حاملة للضمير وكذلك في ومن وسائر حروف الجر لو انفردت لم يكن فيها شيء من ذلك فقد وضح أن الخبر غيرها وأنها واقعة موقعة والله أعلم .

(243/272)

فإن قيل فما تقول فيما حكاه الزجاج عن بعض النحاة أنك إذا قلت قائم زيد أن قائما مبتدأ أو زيد فاعل به سد مسد الخبر ؟ قيل هذا وإن كان قد جوزه بعض النحاة فهو فاسد في القياس لأن اسم الفاعل اسم محض واشتقاقه من الفعل لا يوجب له عمل الفعل كمسجد ومرقد ومروحة ومغرفة ولكن إنما يعمل إذا تقدم ما يطلب الفعل أو كان في موضع لا تدخل عليه العوامل اللفظية نحو النعت والخبر والحال فيقوى حينئذ معنى الفعل فيه ويعضد هذا من السماع أنهم لم يحكوا قائم الزيدان وذاهب إخوتك عن العرب إلا على الشرط الذي ذكرنا ولو وجد الأخفش ومن قال بقوله سماعا لاحتجوا به على الخليل وسيبويه فإذا لم يكن مسموعا وكان بالقياس مدفوعا فأحرى به أن يكون باطلا ممنوعا .

فإن قلت فما تصنع في قول الشاعر :

خبير بني لهب فلا تك ملغيا . . . مقالة لهبي إذا الطير مرت

فهذا صريح في أن خبير مبتدأ وبنو لهب فاعل به .

وفي قول الآخر:

فخير نحن عند الناس منكم . . . إذا الداعي المثوب قال يالا

قلت أما البيت الأول فعلى شذوذه وندرته لا يعرف قائله ولم يعرف أن متقدمي النحاة وأئمتهم استشهدوا به وما كان كذلك فإنه لا يحتج به باتفاق على أنه لو صح أن قائله حجة عند العرب لاحتمل أن يكون المبتدأ محذوفا مضافا إلى بني لهب وأصله كل بني لهب خبير وكل يخبر عنها بالمفرد كما تقدم في أول التعليق ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه فاستحق إعرابه ، ويدل على إرادة العموم عجز البيت وهو قوله فلا تك ملغيا مقالة لهبي أفلا ترى كيف يعطي هذا الكلام أن كل واحد من بني لهب خبير فلا تلغ مقالة لهبي وكذلك البيت الثاني فلا متعلق فيه أصلا لأن أفعل التفضيل إذا وقع خبرا عن غيره وكان مقترنا بمن كان مفردا على كل حال نحو الزيدون خير من العمرين .

فصل: وجوه اسم الفاعل

إذا ثبت هذا فيجوز في اسم الفاعل إذا اعتمد على ما قبله أو كان معه

قرينة مقتضية للفعل وبعده اسم مرفوع وجهان:

أحدهما : أن يكون خبرا مقدما والاسم بعده مبتدأ وأن يكون مبتدأ والمرفوع بعده فاعل نحو أقائم زيد وما قائم عمرو ونحوه إلا أن يمنع مانع من ذلك وذلك في ثلاث مسائل :

أحدها : قولك زيد قائم أخواه فإن هذا يتعين فيه أن يكون أخواه فاعلا بقائم ولا يجوز أن يكون أخواه مبتدأ وقائم الخبر لعدم المطابقة .

الثانية: قولك زيد قائمان أخواه فإن هذا يتعين فيه على الأفصح أن يكون مبتدأ وخبرا لو كان من باب الفعل والفاعل لقلت قائم أخواه كما تقول قام أخواه .

الثالثة: قولك زيد قائم أنت إليه وزيد قائم هو إذا كان الفاعل ضميرا منفصلا فإن هذا لا يكون إلا مبتدأ وخبرا لأن الضمير المنفصل لا يكون فاعلا مع اتصاله بعامله إنما يكون فاعلا إذا لم يمكن اتصاله نحو ما قائم إلا أنت ونحو الضارب به هو .

فإذا عرفت ذلك فقوله في حديث المبعث: "أو مخرجي هم " رواه البخاري ومسلم والترمذي ، فمخرجي يتعين أن يكون خبرا مقدما وهم مبتدأ لأن الرواية اتفقت على تشديد مخرجي وكان أصله مخرجون لي فحذف اللام وأضيف مخرجون إلى الياء فسقط نون الجمع لأنها تسقط للأضافه فصار مخرجوي فاجتمع الواو والياء والسابق منهما ساكن فقلبت الواو ياء فصار مثلان فأدغم أحدهما في الآخر فجاء مخرجي ، ومثله ضاربي ومكرمي ولو أن لصفة ههنا رافعة للضمير لكانت مفردة وكان يقول أو مخرجي هم

بالتخفيف كما تقول أضاربي إخوتك ولو جعلته مبتدأ خيرا لقلت أضاربي بالتشديد والله أعلم.

فان قلت: ما هم بمخرجي تعين التشديد ليس إلا لأن الفاعل لا يتقدم فلو خففت لكانت المسألة من باب الفعل والفاعل والفاعل لا يتقدم عامله وإن أخرت الضمير جاز لك الوجهان كما تقدم.

(245/272)

قولهم ظروف الزمان لا تكون إخبار عن الجثة ليس على إطلاقه بل فيه تفصيل يعرف من العلة في منع ذلك والعلة أن الزمان لما كان عبارة عن أوقات الحوادث وكانوا محتاجين إلى تقييد حوادثهم بأزمنة تقارنها معلومة عن المتكلم والمخاطب كما يقدرونها بالأماكن التي تقع فيها جعل الله

(246/272)

سبحانه وتعالى حركات الشمس والقمر وما يحدث بسببها من الليل والنهار والشهور والأعوام معيارا يعلم به العباد مقادير حوادث أفعالهم وتاريخها ومعيارها لشدة حاجتهم إلى ذلك في الآجال كالعدد والإجارات والسلم والديون المؤجلة ومعرفة مواقيت الحج والصيام وغيرها فصارت حركة الشمس والقمر تاريخا وتقييدا ومعيار للأفعال والحياة والموت والمولد وغير ذلك . فالزمان إذا عبارة عن مقارنة حادث لحادث مقارنة الحادث من الحركة العلوية للحادث من حركات العباد ومعيارا له ولهذا سماه النحاة ظرفا لأنه مكيال ومعيار يعلم به مقدار الحركة والفعل وتقدمه وتأخره وقربه وبعده وطوله وقصره وانقطاعه ودوامه . فإذا أخبرت أن فعلك قارن ذلك الحادث المعلوم من حركة الشمس والقمر يوقت له ويقيد به فسمي وقتا وهو في الأصل مصدر وقت الشيء أوقته حددته وقدرته حتى لو أمكن أن يقيد ويؤرخ بما يقارن الفعل من الحوادث غير الزمان استغنى عن الزمان نحو قمت عند خروج الأمير وعند قدوم الحاج وعند موت فلان لكن ذلك لا يشترك في علمه ومعرفته كالاشتراك في معرفة يوم الجمعة وشهر رمضان ونحوه ولا يطرد مع أنه أيضا توقيت وتاريخ بالزمان في الحقيقة فإن قولك عند خروج الأمير وقدوم الحاج إنما تريد به هذه الأوقات والأزمنة ولكن المعلوم عند جميع المخاطبين إنما هي أجزاء الزمان كالشهر والسنة واليوم وأبعاض ذلك . وإذا عرف ذلك فلا معنى لقولك زيد اليوم وعمرو غدا لأن الجثث ليست بأحداث فتحتاج إلى تقييدها بما يقارنها وإلى تاريخها بحدث معها فما ليس بحدث

لا معنى لتقييده بالحدث الذي هو الزمان . وعلى هذا فإذا أردت حدوث الجثة ووجودها فهو أيضا حادث فيجوز أن يخبر عنه بالزمان إذا كان الزمان يسع مدتها تقول نحن في المائة الثامنة وكان الأوزاعي في المائة الثانية والإمام أحمد في المائة الثالثة ونحو هذا . وعلى هذا إذا قلت الليلة الهلال صح ولا حاجة بك إلى تكليف إضمار الليلة طلوع الهلال فإن المراد

(247/272)

حدوث هلال ذلك الشهر فجرى مجرى الأحداث وكذلك

تقول الورد في أيار وتقول الرطب في شهر كذا وكذا ومنه قول الشاعر :

أكل عام نعم يحوونه . . . يلقحه قوم وتنتجونه

ومثله قولك البدر ليلة رابع عشرة ولا حاجة إلى تكلف طلوع البدر بل لا يصح هذا التقدير لأن السائل إذا سألك أي وقت البدر فإنه لم يسألك عن الطلوع إذ هو لا يجهله وإنما يسألك عن ذات البدر ونفسه فقولك هو ليلة أربع عشرة تريد به أن ليلة أربع عشرة هي ليلة كونه بدرا لا ليلة طلوعه فتأمله . وعلى هذا فلا يسوغ هذا الاستعمال حتى يكون الزمان يسع ما قيدته به من الحدث والجثة التي في معناه فلو كان الزمان أضيق من ذلك لم يجز التقييد به لأن الوقت لا يكون أقل من المؤنث فلا تقول نحن في يوم السبت وإن صح أن تقول نحن في المائة

الثامنة ولا تقول الحجاج في يوم الخميس وتقول الحجاج في زمن بني أمية والله اعلم .

إشكالات إعرابية:

(248/272)

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتمْ صَامِتُونَ ﴾ مما أشكل إعرابه على فحول العربية واختلفت أقوالهم في ذلك: فقال صاحب الكشاف: "سواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر" ومنه قوله تعالى: ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فِي أربعة أيام سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ بمعنى مستوية وارتفاعه على أنه خبر لأن ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم ﴾ في موضع رفع على الفاعلية كأنه قيل: إن للذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه كما تقول: إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه أو يكون ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم ﴾ في موضع الابتداء وسواء خبرا مقدما بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه والجملة خبر لـ (إن) .

فإن قلت الفعل أبدا خبر لا مخبر عنه فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام ؟

قلت هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعني وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلا بينا ، من ذلك قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن معناه لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل والهمزة وأم مجردتان بمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا قال سيبويه: "جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء في قولك: (اللهم اغفر لنا أيتها العصابة) يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما أن ذاك جرى على صورة النداء ولا نداء ومعنى الاستواء استواؤهما في علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا بعينه وكلاهما معلوم بعلم غير معين" .

(249/272)

قلت: هذا قوله وقول طائفة من النحاة وقد اعترض على ما ذكراه بأنه يلزم القائل به أن يجيز سواء قمت أم قعدت دون أن تقول علي أو عليك وأنه يجيز سيان أذهب زيد أم جلس ويتفقان أقام زيد أم قعد وما كان نحو هذا مما لا يجوز في الكلام ولا روي عن أحد لأن التقدير الذي قدروه منطبق على هذا .

وقالت طائفة أخرى (سواء) ههنا مبتدأ والجملة الاستفهامية في موضع الخبر وإنما قالوا هذا وإن كان سواء نكرة لأن الجملة لا تكون في موضع المبتدأ أبدا ولا في موضع الفاعل وأورد عليهم أن الجملة إذا وقعت خبرا فلا بد فيها من ضمير يعود على المبتدأ فأين الضمير العائد على سواء ههنا فأجابوا عن هذا بأن (سواء) وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في المعنى خبر لأن المعنى سواء عليهم الإنذار وعدمه . قالوا ولا يلزم أن يعود من المبتدأ ضمير على الخبر فلما كان سواء خبر في المعنى دون اللفظ روعي المعنى ، ونظير هذا قولهم ضربي زيدا قائما فإنه لم يعد على ضربي ضمير من الحال التي سدت مسد الخبر لأن معناه اضرب زيدا أو ضربت زيدا والفعل لا يعود عليه ضمير فكذلك ما هو في معناه وقوته ، ونظيره أيضا أقائم أخوك لأن أخوك وإن سد مسد الخبر فإنه فاعل في المعنى وقائم معناه معنى الفعل الرافع للفاعل فروعيت هذه المعاني في هذه

المواضع وهجر فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى وبقي حكم الابتداء مقتضيا للرفع لفظا والمبتدأ متضمن لمعنى يخالف معنى الابتداء فحكم لذلك المعنى فلم يعد على اللفظ ضمير وحكم للفظ المبتدأ بحكم الابتداء فارتفع .

فهذا قول هذه الطائفة الأخرى واعترض عليه بعد الاعتراف بحسنه وقوته بأن العرب لم تنطق بمثل هذا في سواء حتى قرنته بالضمير المجرور ب على نحو سواء عليكم وسواء

عليهم وسواء علي فإن طردوا ما أصلوه في سواء سواء قرن بـ (على) أم لم يقرن فليس كذلك وإن خصوه بالمقرون بـ (على) فلم يبينوا سر اختصاصه بذلك .

(250/272)

وقالت طائفة ثالثة منهم السهيلي وهذا لفظه "لما كانت العرب لا تقول سيان أقمت أم قعدت ولا مثلان ولا شبيهان ولا يقولون ذلك إلا في سواء مع المجرور بـ (على) وجب البحث عن السر في ذلك وعن مقصد القوم في هذا الكلام وعن المساواة بين أي شيء هي وفي أي الصفات هي من الاسمين الموصوفين بالتساوى فوجدنا معنى الكلام ومقصوده إنما هو تساوي عدم المبالاة بقيام أو قعود أو إنذار أو ترك إنذار ولو أرادوا المساواة في صفة موجودة في الذات لقالوا سواء الإقامة والشخوص كما يقولون سواء زيد وعمرو وسيان ومثلان يعنى استواءهما في صفة ذاتيهما فإذا أردت أن تسوى بين أمرين في عدم المبالاة وترك الالتفات لهما وأنهما قد هانا عليك وخفا عليك ، قلت: سواء علي أفعل أم لم يفعل كما تقول: لا أبالي أفعل أم لم يفعل ؛ لأن المبالاة فعل من أفعال القلب وأفعال القلب تلغي إذا وقعت بعدها الجمل المستفهم عنها أو المؤكد باللام تقول: لا أدري أقام زيد أم قعد وقد وقعت بعدها ليقومن زيد ولكن لا تلغى هذه الأفعال القلبية حتى يذكر فاعلها في اللفظ أو

في المعنى فتكون حينئذ في موضع المفعول بالعلم" ثم قال:

فصل:

(251/272)

فإذا ثبت هذا فسواء مبتدأ في اللفظ و(على وعليكم أو عليهم) مجرور في اللفظ وهو فاعل في المعنى المضمون من مقصود الكلام إذ قولك سواء علي في معنى لا أبالي وفي أبالي فاعل وذلك الضمير الفاعل هو المجرور ب على في المعنى لان الأمرين إنما استويا عليك في عدم المبالاة فإن لم تبال بهما لم تلتفت بقلبك إليهما وإذا لم تلتفت فكأنك قلت: لا أدري أقمت أم قعدت ، فلما صارت الجملة الاستفهامية في معنى المفعول لفعل من أفعال القلب لم يلزم أن يكون فيها ضمير يعود على ما قبلها إذ ليس قبلها في الحقيقة إلا معنى فعل يعمل فيها من المفعول ضمير على عاملة ولولا قولك: (علي وعليكم) ما قوى ذلك المعنى ولا عمل في الجملة ولكن لما تعلق الجارية صار في حكم المنطوق به وصار المجرور هو الفاعل في المعنى كالفاعل في علمت ودريت وباليت ، ألا ترى كيف صار المجرور في قولهم: له صوت صوت غراب ، بمنزلة الفاعل في يصوت حتى كأنك نطقت بيصوت فنصب صوت غراب لذلك ، وإذا قلت: عليه نوح الحمام ؛ رفعت نوح الحمام لأن الضمير المخفوض بعلى ليس هو الفاعل

الذي ينوح كما كان في قولك: له صوت صوت غراب ، وكذلك المجرور في سواء عليهم هو الفاعل الذي في قولك: لا يبالون ولا يلتفتون إذ المساواة إنما هي في عدم المبالاة والالتفات والمتكلم لا يريد غير هذا فصار الفاعل مذكورا والمبالاة مفعوله مقصوده فوقعت الجملة الاستفهامية مفعولا لها" .

قال: "ونظير هذه المسألة حذو القذة بالقذه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ فبدا فعل ماض فلا بد له من فاعل والجملة المؤكدة باللام لا تكون في موضع فاعل أبدا وإنما تكون في موضع المفعول بـ (علمت) وأن لم يكن في اللفظ علموا ففي اللفظ ما هو معناه لأن

قولهم: بدا ظهر للقلب لا للعين ، وإذا ظهر الشيء للقلب فقد علم والمجرور من قوله: (لهم) هو الفاعل فلما حصل معنى العلم وفاعله مقدما على الجملة المؤكدة باللام صارت الجملة مفعولا لذلك العلم كما تقول: علمت ليقومن زيد ولام الابتداء وألف الاستفهام يكون قبلها أفعال القلب ملغاة فكذلك: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ رفعت الجملة الاستفهامية في المعنى بعد فعل من أفعال القلب وبعد فاعله كما تقدم بيان ذلك حين قدرناه بقولك لا يبالون

فالواو في يبالون هو الفاعل والضمير في عليهم هو الفاعل في المعنى إلا ترى كيف اختص ب على من بين حروف الجر لأن المعنى إذا كان يرجع إلى عدم المبالاة فقد هان عليك الأمران وصار أخف شيء على من لا يبالهما ويلتفت إليهما فتأمله تجد المعاني صحيحة والفوائد كثيرة مزدحمة تحت هذا اللفظ الوجيز فلذلك نبت عنه كثير من الأفهام حتى تناقضت عليهم الأصول التي أصلوها واضطربوا في الجواب عن الاعتراضات التي التزموها مع ما غاب عنهم من فوائد هذه الآيات وإعجازها وسمانه هذه الكلمات على إيجازها" ثم قال: فصل: فإن قيل ما بال الاستفهام في هذه الجملة والكلام خبر محض؟ قلنا الاستفهام مع أم يعطي معنى التسوية فإذا قلت أقام زيد أم قعد فقد سويت بينهما في علمك فهذا جواب فيه مقنع وأما التحقيق في الجواب فأن تقول ألف الاستفهام لم يخلع منها ما وضعت له ولا عزلت عنه وإنما معناه علمت أقام زيد أم قعد أي علمت ما كنت أقول فيه هذا القول واستفهم عنه بهذا اللفظ فحكيت الكلام كما كان كما كان ليعلم المخاطب ما كان مستفهما عنه معلوم كما تقول قام زيد فترفعه لأنه فاعل ثم تقول ما قام زيد فيبقى الكلام كما كان وتبقى الجملة محكية على لفظها لتدل على أنه ما كان خبرا متوهما عند المخاطب

فهو الذي نفي بحرف النفي . ولهذا نظائر يطول ذكرها فكذلك قوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ لما لم يبالوا بالإنذار ولا نفعهم ولا دخل في قلوبهم منه شيء صار في حكم المستفهم عنه أكان أم لم يكن فلا تسمى الألف ألف التسوية كما فعل بعضهم ولكن ألف الاستفهام بالمعنى الذي وضعت له ولم يزل عنه مجيء أنذرتهم وأدعوتهم بلفظ الماضي .

فإن قيل: فلم جاء بلفظ الماضي أعني أنذرتهم وكذلك: ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ وأقام زيد أم قعد ولم يجيء بلفظ الحال ولا المستقبل ؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما : أن في الكلام معنى الشرط والشرط يقع بعد المستقبل بلفظ الماضي تقول إن قام زيد غدا قمت وههنا يتعذر ذلك المعنى كأنك قلت إن قام زيد أو قعد لم أباله ولا ينتفع القوم إن أنذرتهم أم لم تنذرهم فلذلك جاء بلفظ الماضي وقد قال الفارسي قولا غير هذا ولكنه قريب منه في اللفظ قال إن ألف الاستفهام تضارع إن التي للجزاء لأن الاستفهام واجب كما أن الشرط ليس بحاصل إذا عدم المشروط فهذه العبارة فاسدة من وجوه يطول ذكرها ولو رأي المعنى الذي قدمناه لكان أشبه على أنه عندي مدخول أيضا لأن معنى الشرط يطلب الاستقبال خاصة دون الحال والماضي وقوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ و ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ لا تختص بالاستقبال بل المساواة في عدم المبالاة موجودة في كل حال بل هي أظهر في فعل الحال ولا يقع بعد حرف الشرط فعل حال بوجه .

والتحقيق في الجواب أن تقول قد أصلنا في نتائج الفكر أصلا وهو أن الفعل لم يشتق من المصدر مضافا إلا ليدل على كون الاسم مخبرا عنه أعني الفاعل الذي كان المصدر مضافا إليه ولم تختلف أبنيته بعد ما اشتق من المصدر إلا لاختلاف أحوال الحدث من مضي أو استقبال فإن كان قصد المتكلم أن لا يقيد الحدث بزمان دون زمان ولا بحال استقبال دون حال مضي بل يجعله مطلقا جاء بلفظ الماضي الذي لا زوائد فيه ليكون أخف على اللسان وأقرب إلى لفظ الحدث المشتق منه ألا ترى أنهم يقولون (لا أفعله ما لاح برق وما طار طائر) بلفظ الماضي خاصة لما أرادوا مدة مطلقة غير

مقيدة وأنه لا يفعل هذا الشيء في مدة لوح البرق وطيران الطائر ونحو ذلك فلم يجاوزوا لفظ الماضي لأنهم لا يريدون استقبالا ولا حالا على الخصوص فإن قلت ولا يريدون أيضا ماضيا فكيف جاء بلفظ الماضي قلنا قد قرن معه لا أكلمه ولا أفعله فدل على أن قوله ما لاح برق لا يريد به لوحا قد انقضى وانقطع إنما يريد مقارنة الفعل المنفي للفعل الآخر في المدة على الإطلاق والدوام فليس في قوله ما لاح برق إلا معنى اللوح خاصة غير أنه ترك لفظ

المصدر ليكون البرق مخبرا عنه كما تقدم فمتى أردت هذا ولم ترد تقييدا بزمان فلفظ الماضي أحق وأولى

(255/272)

وكذلك قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ أضاف الإنذار إلى المخاطب المخبر عنه فاشتق من الإنذار الفعل ليدل على أن المخاطب فاعل الإنذار وترك الفعل بلفظ الماضي لأنه مطلق في الزمان كله وأن القوم لم يبالوا بهذا ولا هم في حال مبالاة فلم يكن لإدخال الزوائد الأربع معنى إذ ليس المراد تقييد الفعل بوقت ولا تخصيصه بحال فإن قلت لفظ الماضي يخصصه بالانقطاع قلت حدث حديثين امرأة وفيما قدمناه ما يغني عن الجواب مع ما في قوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ من ثبوت هذه الصفة فيهم وحصولها في الحال وفي المآل فلا تقول سواء ثواباك أو غلاماك إذا كان الاستواء فيما مضى وهما الآن مختلفان فهذه القرينة تنفي الانقطاع الذي يتوهم في لفظ المضي كما كان لفظ الحال في قولك: لا أكلمه ما دامت السموات والأرض بنفي الانقطاع المتوهم في دام وإذا أنتفى الانقطاع وانتفت الزوائد الأربع بقي الحدث مطلقا غير مقيد في المسألتين جميعا فتأمل هذا تجده صحيحيا .

فصل:

الكلام على واو الثمانية : قولهم إن الواو تأتي للثمانية ليس عليه دليل مستقيم

وقد ذكروا ذلك في مواضع فلنتكلم عليها واحدا واحدا :

(256/272)

الموضع الأول : قوله تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فقيل الواو في والناهون واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة وذكروا في الآية وجوها آخر منها أن هذا من التفنن في الكلام أن يعطف بعضه ويترك عطف بعضه ومنها أن الصفات التي قبل هاتين الصفتين صفات لازمة متعلقة بالعامل وهاتان الصفتان متعديتان متعلقتان بالغير فقطعتا عما قبلهما بالعطف ومنها أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وكل هذه الأجوبة غير سديدة وأحسن ما يقال فيها أن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد فتارة يتوسط بينها حرف العطف لتغايرها في نفسها وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها وتارة لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة وتارة يتوسط العاطف بين بعضها ويحذف مع بعض بحسب هذين المقامين فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير

نظر إلى جمع أو انفراد حسن إسقاط حرف العطف وإن أريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغايرها حسن إدخال حرف العطف فمثال الأول: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ وقوله: ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ ﴾ ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخر وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ فأتي بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الآخرين لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان

(257/272)

وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه: أحدهما: يتعلق

(258/272)

بالإساءة والإعراض وهو المغفرة ، والثاني : يتعلق بالإحسان والإقبال على الله تعالى والرجوع إليه وهو التوبة فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة ، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخر وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ وترك في قوله: ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴾ وقوله: ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ وأما : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ فترك العطف بينهما لنكته بديعة وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول وطوله لا ينافى شدة عقابه بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء فأوليته أزليته وآخريته أبديته فإن قلت فما تصنع بقوله والظاهر والباطن فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه فيجتمع في حقه الظهور والبطون والنبي صلى الله عليه وسلم الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء والباطن بأنه الذي ليس دونه شيء وهذا العلو والفوقية مجامع لهذا القرب والدنو والإحاطة قلت هذا سؤال حسن والذي حسن دخوله الواو ههنا أن هذه الصفات متقابلة متضادة وقد عطف الثاني منها على الأول للمقابلة التي بينهما والصفتان الآخريان كالأوليين في المقابلة ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول فكما حسن العطف بين الأوليين حسن بين الآخرين فإذا عرف هذا فالآية التي نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف

وتركه فيها لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها فيها كان فيه تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد فلم يحتج إلى عطف فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة حسن العطف ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته مطلوب تعيينه لا

(259/272)

يكتفي فيه بحصول الوصف الآخر بل لا بد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحة ونهيه عن المنكر بصريحة وأيضا فحسن العطف ههنا ما تقدم من التضاد فلما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضدين أحدهما طلب الإيجاد والآخر طلب الإعدام كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين فحسن لذلك العطف .

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ فقيل هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك ودخول الواو ههنا متعين لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما فتعين العطف لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار .

الموضع الثالث : قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قيل المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية وهذا يحتمل أمرين: أحدهما : هذا والثاني: أن يكون دخول الواو ههنا إيذانا بتمام كلامهم عند قولهم سبعة ثم ابتدأ قوله وثامنهم كلبهم وذلك يتضمن تقرير قولهم سبعة كما إذا قال لك زيد فقيه فقلت ونحوي وهذا اختيار السهيلي وقد تقدم الكلام عليه وأن هذا إنما يتم إذا كان قوله وثامنهم كلبهم ليس داخلا في المحكي بالقول والظاهر خلافه والله أعلم.

(260/272)

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية وقال في النار ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ لما كانت سبعة وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها ففتحت في وجوههم لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مأدبة الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره

شرع لهم أبوابها ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة ههنا الدالة على أنها جاءوها بعدما فتحت أبوابها وحذف الجواب تفخيما لشأنه وتعظيما لقدرة كعادتهم في حذف الأجوبة وقد

أشبعنا الكلام على هذا فيما تقدم والله أعلم

فصل: اتصال لولا بضمير متصل مذهب سيبويه أن لولا إذا اتصل بها الضمير المتصل نحو لولاه ولولاك كان مجرورا وخالفه الأخفش وقال الأخفش والكوفيون هذه الضمائر مما وقع المضمر المتصل موقع المنفصل كما وقع المنفصل موقع المتصل في قولهم ما أنا كأنت ولا أنت كأنا وقد وقع المتصل موقع المنفصل في قوله:

وما نبالي إذا ما كنت جارتنا . . . أن لا يجاورنا إلاك ديار

وقال المبرد: "بقول الكوفيين فأما حجة سيبويه فهي الاستعمال قال الشاعر:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى . . . بإجرامه من قلة النيق منهوي

قال الآخر:

لولاك هذا العام لم أحجج . . .

وقال آخر:

لولاك لم يعرض لأحسابنا حسن . . .

واحتج سيبويه على أن الضمير هنا مجرور بأن هذه الضمائر التي هي الهاء والكاف والياء إما أن تكون ضمائر نصب أو ضمائر جر ومحال أن تكون ضمائر رفع ولا يجوز أن تكون ضمائر نصب لأن الحروف إذا اتصل بها ياء المتكلم وكانت في موضع نصب اتصل بها نون الوقاية نحو (إني وأنني وكأني وكأنني) فإن أدى ذلك إلى اجتماع مثلين جاز حذف نون الوقاية فيقال إني وكأني ولكني فلو كانت الياء ضمير نصب لقالوا لولاني كما قالوا ليتني ولم يأت ذلك فتعين أن تكون ضمير جر فإذا ثبت هذا في الياء فكذلك في الكاف والهاء وأما الكوفيين فاحتجوا بأن الظاهر لا يقع بعد هذه الحروف إلا مرفوعا فكذلك المضمر وقد وجد ذلك في المنفصل فيكون المتصل كذلك ولكن هذه الضمائر المتصلة وقعت موقع الضمائر المنفصلة كما يقع المنفصل موقع المتصل فهما يتعاقبان

ويتعاوضان فقالوا ما أنا كأنت فأوقعوا الرفع موقع ضمير الجر فلذلك قالوا لولاك فأوقعوا ضمير الجر موقع ضمير الرفع فالتغيير وقع في الصيغة لا في الإعراب قالوا وقد ثبت أن لولا لا تعمل في الظاهر فكيف تعمل في المضمر .

وأجاب البصريون عن هذا بأن الأصل أن الضمائر لا يقع بعضها موقع بعض إلا للضرورة في الشعر وبأنه يستلزم مخالفة الأصل من وجهين:

أحدهما : إيقاع المتصل موقع المنفصل .

والثاني: إيقاع المجرور موقع المرفوع وهذا تغيير مرتين فالتغيير في لولا بكونها حرف جر في هذا الموضع أسهل قالوا وأما عملها في المضمر خاصة فليس بمستنكر عمل العامل في بعض الأسماء دون بعض فهذه لدن لا تعمل إلا في غدوة وحدها فإذا كان العامل يعمل في بعض الظاهرات دون بعض وهي جنس واحد فلأن يعمل في المضمر دون الظاهر وهما جنسان أولى وقد رد بعض النحاة هذا الاستعمال جملة وقال هو لحن واختلف على المبرد فقيل إن هذا مذهبه وقيل إن مذهبه قول الكوفيين والله أعلم.

فصل:

(262/272)

اختلف في المستثنى من أي شيء هو مخرج فذهب الكسائي إلى أنه مخرج من المستثنى منه وهو المحكوم عليه فقط فإذا قلت جاء القوم إلا زيدا فزيدا مخرج من القوم فكأنك أخبرت عن القوم الذين ليس فيهم زيد بالمجيء وأما هو فلم تخبر عنه بشيء بل سلبت الإخبار عنه لا أنك أخبرت عنه بسلب المجيء والفرق بين الأمرين واضح وعلى قوله فالإسناد وقع بعد الآخراج وذهب الفراء إلى أنه مخرج من الحكم نفسه وذهب الأكثرون إلى أنه مخرج منهما معا فله اعتباران أحدهما: كونه مستثنى وبهذا الاعتبار هو مخرج من الاسم المستثنى منه

،

والثاني: كونه محكوما عليه بضد حكم المستثنى منه وبهذا الاعتبار هو مخرج من حكمه والتحقيق في ذلك أنه مخرج من الاسم المقيد بالحكم فهو مخرج من اسم مقيد لا مطلق الاحتجاج لكل مذهب ونذكر هنا ما احتج به لهذه المذاهب وما تعقب به على الاحتجاج احتج الكسائي بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبي ﴾ ووجه الاستدلال أن الاستثناء لو كان مخرجا من الحكم لكان قوله: (أبى) تكرار لأنه قد علم بالاستثناء وأجيب عن هذا بأنه تأكيد واعترض على هذا الجواب بأن المعاني المستفادة من الحروف لا تؤكد فلا يقال ما قام زيد نفيا وهل قام عمرو استفهاما ولكن قام زيد استدراكا ونحوه لأن الحرف وضع على الاختصار ولهذا عدل عن الفعل إليه فتأكيده بالفعل ينافي المقصود بوضعه .

(263/272)

والتحقيق في الجواب أن (أبى) أفاد معنى زائدا وهو إن عدم سجوده أستند إلى إبائه وهو أمر وجودي اتصف به نشأ عنه الذنب فلم يكن ترك سجوده لعجز ولا لسهو ولا لغفلة بل كان إباء واستكبارا ومعلوم أن هذا لا يفهم من مجرد الاستثناء وإنما المفهوم منه عدم

سجوده وأما الحامل على عدم السجود فلا يدل الاستثناء عليه فصرح بذكره ونظير هذا الاحتجاج والاعتراض والتقدير سواء قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ فإن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد ثم الذي يدل على بطلان هذا المذهب وجوه منها أنه لو كان ما بعد إلا سكوتا عن حكمه لم يكن قولنا لا إله إلا الله توحيدا واللازم باطل فالملزوم مثله والمقدمتان ظاهرتان .

ومنها : أن الاستثناء المنقطع لا يتصور الآخراج فيه من الاسم لعدم دخوله فيه فكذلك المتصل .

ومنها : أنه لو كان الآخراج من الاسم وحده لما صح الاستثناء من مضمون الجملة كقولك زيد أخوك إلا أنه ناء عنك وعمرو صديقك إلا أنه يواد عدوك ونحو هذا .

ومنها أنه لا يوجد في كلام العرب قام القوم إلا زيدا فإنه قام ولو كان الآخراج من الاسم وحده والمستثنى مسكوت عنه لجاز إثبات القيام له كما جاز

نفيه عنه فإن السكوت عن حكمه لا يفيد نفي القيام عنه ولا إثباته فلا يكون واحد منهما مناقضا للاسئثناء .

وإذا تبين بطلان المذهبين صح مذهب مخرج من الحكم لا من الاسم وكذلك الباب كله وما

أجيب عن ذلك بأن المستثنى داخل مع الاسم المحكوم عليه تقديرا إذ يقدر الأول شاملا بوجه ليصح الاستثناء ولمن نصر قول الكسائي أيضا أن يجيب بهذا الجواب .

(264/272)

وإذا تبين بطلان المذهبين صح مذهب الجمهور أن الآخراج من الاسم والحكم معا فالاسم المستثنى مخرج من المستثنى منه وحكمه مخرج من حكمه وأن الممتنع إخراج الاسم المستثنى من المستثنى منه مع دخوله تحته في الحكم فإنه لا يعقل الآخراج حينئذ البتة فإنه لو شاركه في حكمه لدخل معه في الحكم والاسم جميعا فكان استثناؤه غير معقول ولا يقال إن معنى الاستثناء أن المتكلم تارك للإخبار عنه بنفي أو إثبات مع احتمال كل واحد منهما لأنا نقول هذا باطل من وجوه عديدة منها أنك إذا قلت ما قام إلا زيد وما ضربت إلا عمرا وما مررت إلا بزيد ونحوه من الاستثناءات المفرغات لم يشك أحد في أنك أثبت هذه الأحكام لما بعد إلا كما أنك سلبتها عن غيره بل إثباتها للمستثني أقوى من سلبها عن غيره ويلزم من قال إن حكم المستثنى مسكوت عنه أن لا يفهم من هذا إثبات القيام والضرب والمرور لزيد وهو باطل قطعا ومنها أنه لو كان مسكوتا عنه لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله: (لا إله إلا الله) لأنه على هذا التقدير الباطل لم يثبت الإلهية لله وهذه أعظم كلمة

تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص فدلالتها على الإثبات أعظم من دلالة قولنا : (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة .

ومنها أنه لو ادعى عليه بمائة درهم فقال له عندي مائة إلا ثلاثة دراهم فإنه ناف لثبوت المستثنى في ذمته ولو كان ساكتا عنه لكان قد أقر بالبعض ونكل عن الجواب عن البعض وهذا لم يقله عاقل ولو كان حكم المستثنى السكوت لكان هذا ناكلا .

ومنها أن المفهوم من هذا عند أهل التخاطب نفي الحكم عن

المستثنى وإثباته للمستثنى منه ولا فرق عندهم بين فهم هذا النفي وذلك الإثبات البتة وذلك جرى عندهم مجرى فهم الأمر والنهي النفي والاستفهام وسائر معاني الكلام فلا يفهم سامع من قول الله عز وجل: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ أنه أخبر عن تسع مائة عام وخمسين عاما وسكت عن خمسين فلم يخبر عنها بشيء ولا يفهم أحد قط إلا أن الخمسين لم يلبثها فيهم وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ لا يفهم منها إلا أن المخلصين لا يتمكن من إغوائهم وكذلك سائر الاستثناءات .

ومنها أن القائل إذا قال قام القوم إلا زيدا لم يكن كلامه صدقا إلا بقيامهم وعدم قيام زيد ولهذا من أراد تكذيبه قال له كذبت بل قام زيد ولو كان زيد مسكوتا عنه لم يكن هذا تكذيبا له والعقلاء قاطبة يعدونه تكذيبا ويعدون خبره كاذبا حيث يعدون الإخبار بخلاف ما الشيء عليه كذبا .

إذ عرف هذا فبه ينحل الإشكال الذي أورده بعض المتأخرين على الاستثناء وقال: الاستثناء مشكل التعقل قال لأنك إذا قلت جاء القوم إلا زيدا فإما أن يكون زيد داخلا في القوم أم لا فإن كان غير داخل لم يستقم الاستثناء لأنه إخراج وإخراج ما لم يدخل غير معقول وإن كان داخلا فيهم لم يستقم إخراجه للتناقض لأنك تحكم عليه بحكمين متناقضين .

ولهذه الشبهة قال القاضي وموافقوه: إن عشرة إلا ثلاثة مرادف لسبعة فهما اسمان ركبا مع الحرف وجعلا بإزاء هذا العدد فإن أراد القاضي أن المفهوم منهما واحد فصحيح وإن أراد التركيب النحوى فباطل .

(266/272)

والجواب عن هذا الإشكال أنه لا يحكم بالنسب إلا بعد كمال ذكر المفردات فالإسناد إنما وقع بعد الآخراج فالقائل إذا قال قام القوم إلا زيدا فها هنا خمسة أمور: أحدها : القيام

بمفردة . الثاني: القوم بمفردهم . الثالث: زيد بمفرده . الرابع: النسبة بين المفردين .

الخامس: الأداة الدالة على سلب النسبة عن زيد فزيد دخل في القوم على تقدير عدم الإسناد وخرج منهم على تقدير الإسناد ثم أسند بعد إخراجه فدخوله وخروجه باعتبارين غير متنافيين فإنه دخل باعتبار الإفراد وخرج باعتبار النسبة فهو من القوم غير محكوم عليهم وليس من القوم المقيدين بالحكم عليهم هذا إيضاح هذا الإشكال وحله والله الموفق .

فصل: المستثني إذا جعل تابعا لما قبله فمذهب البصريين أنه بدل وقد نص عليه سيبويه ومذهب الكوفيين أنه عطف .

فأما القول بالبدل فعليه إشكالان:

أحدهما : أنه لو كان بدلا لكان بدل بعض إذ يمتنع أن يكون بدل كل من كل وبدل البعض لا بد فيه من ضمير يعود على المبدل منه نحو قبضت المال نصفه .

الثاني: أن حكم البدل حكم المبدل منه لأنه تابع يشارك متبوعه في حكمه وحكم المستثنى ههنا مخالف لحكم المستثنى منه فكيف يكون بدلا .

وأجيب عن الأول بأن (إلا) وما بعدها من تمام الكلام الأول و(إلا) قرينة مفهمة أن الثاني قد كان تناوله الأول فمعلوم أنه بعض الأول فلا يحتاج فيه إلى رابط بخلاف قبضت المال نصفه ، وأجيب عنه أيضا بأن البدل في الاستثناء قسم على حدته ليس من تلك الأبدال

التي تبينت في غير الاستثناء وأجيب عنه أيضا بأن البدل في الاستثناء إنما المراعى فيه وقوعه مكان المبدل منه فإذا قلت ما قام أحد إلا زيد ف إلا زيد هو البدل وهو الذي يقع موقع أحد فليس زيد وحده بدلا من أحد فإلا زيد هو الأحد الذي نفيت عنه القيام فقولك إلا زيد هو بيان ألأحد الذي عنيت وعلى هذا فالبدل في الاستثناء أشبه ببدل الشيء من الشيء من بدل البعض من الكل .

(267/272)

وأما الإشكال الثاني فقال السيرافي مجيبا عنه: هو بدل منه في عمل العامل فيه وتخافهما بالنفي والإيجاب لا يمنع البدلية لأن مذهب البدلية أن يجعل الأول كأنه لم يذكر والثاني في موضعه وتتخالف الصفة والموصوف نفيا وإثباتا نحو مررت برجل لا كريم ولا

(268/272)

لبيب . ومعنى هذا الجواب أنه إنما يشترط في البدل أن يحل محل الأول في العامل خاصة وأما أن يكون حكمهما واحدا فلا وأما القول الكوفي أنه عطف فإنهم جعلوا إلا من حروف

العطف في هذا الباب خاصة والحامل لهم على ذلك وجود المخالفة المذكورة قال ثعلب: "كيف يكون بدلا وهو موجب ومتبوعة منفي والعطف توجد فيه المخالفة في المعنى كالمعطوف بـ (بل ولكن) وهذا ممكن خال من التكلف ولا يقال إنه يستلزم الاشتراك في الحروف وهو مذهب ضعيف لأنا نقول ليس هذا من الاشتراك في الحروف فإن (إلا) للإخراج على بابها وإنما سموا هذا النوع من الآخراج عطفا على نحو تسميتهم الآخراج بـ (بل ولكن) عطفا والاشتراك المردود قول من يقول إن (إلا) تكون بمعنى الواو لكن قد رد قولهم بالعطف بأن (إلا) لو كانت عاطفة لم تباشر العامل في نحو ما قام إلا زيد لأن حروف العطف لا تلي العوامل ويجاب عن هذا بأن (إلا) التي باشرت العامل ليست هي العاطفة فليس ههنا عطف ولا بدل البتة وإنما الكلام فيما إذا كان ما بعد (إلا) تابعا لما قبلها" قال ابن مالك: "ولمقوي العطف أن يقول تخالف الصفة والموصوف كلا تخالف لأن نفي الصفتين إثبات لضديهما فإذا قلت مررت برجل لا كريم ولا شجاع فكأنك قلت بخيل جبان وليس كذلك تخالف المستثني والمستثنى منه فإن جعل زيد بدلا من أحد إذا قيل ما فيها أحد إلا زيد يلزم منه عدم النظير إذ لا يدل في غير محل النزاع إلا وتعلق العامل به مساو لتعلقه بالمبدل منه والأمر فيما قام أحد إلا زيد بخلاف ذلك فيضعف كونه بدلا إذ ليس في الأبدال ما يشبهه وإن جعل معطوفا لم يلزم من ذلك مخالف المعطوفات بل يكون نظير المعطوف بـ (لا وبل ولكن) فكان جعله معطوفا أولى من جعله بدلا" .

قلت ويقوى العطف أيضا أنك تقول: لا أحد في الدار إلا عبد الله فعبد الله لا يصح أن يكون بدلا من أحد فإنه لا يحل محله فإن قيل هذا جائز على توهم ما فيها أحد إلا عبد الله إذ المعنى واحد فأمكن أن يحل أحدهما محل الآخر قيل هذا كاسمه وهم والحقائق لا تبني على الأوهام وأجاب ابن عصفور عن هذا بأن قال: "لا يلزم أن يحل عبد الله محل أحد الواقع بعد (لا) لأن المبدل إنما يلزم أن يكون على نية تكرار العامل وقد حصل ذلك كله في هذه المسألة وأمثالها ألا ترى أن عبد الله بدل من موضع لا أحد فيلزم أن يكون العامل فيه الابتداء كما أن العامل في موضع لا أحد الابتداء وبلا شك أنك إذا أبدلته منه كان مبتدأ في التقدير وخبره محذوف وكذلك حرف النفي لدلالة ما قبله عليه والتقدير لا أحد فيها إلا عبد الله ثم حذف واختصر" .

وهذا الجواب غير قوي إذ لو كان الأمر كما زعم لصح البدل مع الإيجاب نحو قام القوم إلا زيد لصحة تقدير العامل في الثاني وهم قد منعوا ذلك وعللوه بعدم صحة حلول الثاني محل الأول فدل على أنه مشترط. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 3 صـ 2 ـ 62 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 57 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 58 ﴾ من نفس السورة

(4/273)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان دوام الصلاح لا يكون إلا يكون بالغيث ، وهو من أجل أنواع الرحمة ، وهو لا يكون إلا بالسحاب ، وهو لا يكون إلا بالريح ، قال تعالى عاطفاً على ﴿ إن ربكم الله ﴾ تنبيهاً بعد تحقيق المبدإ على تحقيق المعاد : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي يرسل ﴾ أي بالتحريك ﴿ الرياح ﴾ هذا في قراءة الجماعة ، وأنواعها خمس : جنوب وشمال وصبا

ودبور ونكباء ، وهي كل ريح انحرفت فوقعت بين ريحين ، ووحد ابن كثير وحمزة والكسائي على إرادة الجنس

(5/273)

﴿ بشرا ﴾ بضمتين في قراءة أهل الحجاز والبصرة ، أي منتشرة جمع نشور من النشر ، وهو بسط ما كان مطوياً وتفريقه في كل وجه لا لذات الريح وإلا لدام ذلك منها ولا بقوة فلك أو نجم لأن نسبتهما إلى الهواء واحدة ﴿ بين يدي ﴾ أي قبل ﴿ رحمته ﴾ أي المطر ، ولعله عبر فيه باليدين : اليمنى واليسرى ، لدلالته – مع ما فيه من الفخامة – على انه تارة يكون رحمة وتارة يكون عذاباً كما كان على قوم نوح عليه السلام وإن كانت الرحمة فيه أغلب وهي ذات اليمين ، وتارة تكون الرياح جامعة لها لحفظ الماء ، وتارة مفرقة مبطلة لها ، وتارة تكون مقومة للزروع والأشجار مكملة لها وهي اللواقح ، وتارة تكون منمية لها أو مهلكة كما يكون في الخريف ، وتارة تكون طيبة وتارة مهلكة إما بشدة الحرارة والبرودة ؛ ثم غيّ الإرسال بقوله ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ﴾ أي حملتها لقلتها عندها لخفتها عليها ﴿ ثقالاً ﴾ أي بالماء ؛ ولما دل على العظمة بالجمع وحقق الأمر بالوصف ، أفرد اللفظ دلالة على غاية العظمة بسوقه مجتمعاً كأنه قطعة واحدة ، لا يفترق جزء منه عن سائره إذ

لو تفرق لاختل أمره ، فقال : ﴿ سقناه لبلد ﴾ أي لأجله وإليه ﴿ ميت ﴾ أي بعدم النبات ﴿ فأنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ به ﴾ أي البلد ، أو بسبب ذلك السحاب ﴿ الماء ﴾ أي هذا الجنس ، وأشار إلى عظمة الإنبات بالنون فقال ﴿ فأخرجنا به ﴾ أي بالماء ﴿ من كل الثمرات ﴾ أي الحقيقية على الأشجار ، والمجازية من النبات وحبوبه ، ولما كان

(6/273)

هذا – مع ما فيه من التذكير بالنعمة المقتضية لتوحيده بالدعوة – دليلاً ثانياً في غاية الدلالة على القدرة على البعث ، قال تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما أخرجنا هذا النبات من الأرض بعد أن لم يكن ﴿ نخرج الموتى ﴾ أي من الأرض بعد أن صاروا تراباً ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي قلنا هذا لتكون حالكم حال من يرجي تذكر هذه الآية المشاهدة القريبة المأخذ ولو على أدنى وجوه التذكر بما أشار إليه الإدغام ، لأنه سبحانه كما قدر على إعادة النبات بجمع الماء له من جوف الأرض بعد أن كان تغيب في الأرض وصار تراباً ، وأحيى الشجرة بعد أن كانت لا روح لها بإيداع الثمرة التي هي روحها ، فهو قادر على إعادة الأشباح وإيداعها الأرواح كما كانت أول مرة ، لأنه لا فرق بين الإخراجين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 44 . 45 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في كيفية النظم وجهين :

الأول : أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية .

وكمال العلم ، والقدرة من العالم العلوي ، وهو السموات والشمس والقمر والنجوم ، أتبعه بذكر الدلائل من بعض أحوال العالم السفلي .

واعلم أن أحوال هذا العالم محصورة في أمور أربعة : الآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، ومن جملة الآثار العلوية الرياح ، والسحاب ، والأمطار ويترتب على نزول الأمطار أحوال النبات ، وذلك هو المذكور في هذه الآية .

الوجه الثاني : في تقرير النظم أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم ، أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد ،

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ الريح ﴾ على لفظ الواحد والباقون ﴿ الرياح ﴾ على لفظ الجمع ، فمن قرأ ﴿ الرياح ﴾ بالجمع حسن وصفها بقوله : ﴿ بَشَرًا ﴾ فإنه وصف الجمع بالجمع ، ومن قرأ ﴿ الريح ﴾ واحدة قرأ ﴿ بُشرًا ﴾ جمعاً لأنه أراد بالريح الكثرة كقولهم كثير الدرهم والدينار والشاة والبعير وكقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر : 2] ثم قال : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [العصر : 3] فلما كان المراد بالريح الجمع وصفها بالجمع وأما قوله : ﴿ نَشْراً ﴾ ففيه قراءات : إحداها : قراءة الأكثرين ﴿ نُشُراً ﴾ بضم النون والشين ، وهو جمع نشور مثل رسل ورسول ، والنشور بمعنى المنشر كالركوب بمعنى المركوب ، فكان المعنى رياح منشرة أي مفرقة من كل جانب والنشر التفريق ، ومنه نشر الثوب ، ونشر الخشبة بالمنشار .

وقال الفراء : النشر من الرياح الطيبة اللينة التي تنشر السحاب واحدها نشور وأصله من النشر ، وهو الرائحة الطيبة ومنه قول امرىء القيس ونشر العطر .

والقراءة الثانية : قرأ ابن عامر ﴿ نُشْراً ﴾ بضم النون وإسكان الشين ، فخفف العين كما يقال كتب ورسل .

والقراءة الثالثة : قرأ حمزة ﴿ نَشْراً ﴾ بفتح النون وإسكان الشين والنشر مصدر نشرت الثوب ضد طويته ويراد بالمصدر ههنا المفعول والرياح كأنها كانت مطوية ، فأرسلها الله

تعالى منشورة بعد انطوائها ، فقوله : ﴿ نَشْراً ﴾ مصدر هو حال من الرياح والتقدير : أرسل الرياح منشرات ، ويجوز أيضاً أن يكون النشر هنا بمعنى الحياة من قولهم أنشر الله الميت فنشر .

قال الأعشى :

يا عجباً للميت الناشر . . فإذا حملته على ذلك وهو الوجه .

كان المصدر مراداً به الفاعل كما تقول : أتاني ركضاً أي راكضاً ، ويجوز أيضاً أن يقال : أن أرسل ونشر متقاربان ، فكأنه قيل : وهو الذي ينشر الرياح نشراً .

والقراءة الرابعة : حكى صاحب "الكشاف" عن مسروق ﴿ نَشْراً ﴾ بمعنى منشورات فعل بمعنى مفعول كنقض وحسب ومنه قولهم : ضم نشره .

(8/273)

والقراءة الخامسة : قراءة عاصم ﴿ بشرًا ﴾ بالباء المنقطة بالمنطقة الواحدة من تحت جمع بشيراً على بشر من قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلَ الرياح مبشرات ﴾ أي تبشر بالمطر والرحمة ، وروى صاحب "الكشاف" ﴿ بشرًا ﴾ بضم الشين وتخفيفه و ﴿ بشرًا ﴾ بفتح الباء وسكون الشين مصدر من بشره بمعنى بشره أي باشرات وبشرى .

المسألة الثانية :

اعلم أن قوله : ﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 54] ثم نقول : حد الريح أنه هواء متحرك فنقول : كون هذا الهواء متحركاً ليس لذاته ولا للوازم ذاته ، وإلا لدامت الحركة بدوام ذاته فلا بد وأن يكون لتحريك الفاعل المختار وهو الله جل جلاله .

قالت الفلاسفة : ههنا سبب آخر وهو أنه يرتفع من الأرض أجزاء أرضية لطيفة تسخنه تسخيناً قوياً شديداً فبسبب تلك السخونة الشديدة ترتفع وتتصاعد ، فإذا وصلت إلى القرب من الفلك كان الهواء الملتصق بمقعر الفلك متحركاً على استدارة الفلك بالحركة المستديرة التي حصلت لتلك الطبقة من الهواء فيمنع هذه الأدخنة من الصعود بل يردها عن سمت حركتها ، فحينئذ ترجع تلك الأدخنة وتتفرق في الجوانب ، وبسبب ذلك التفرق تحصل الرياح ، ثم كلما كانت تلك الأدخنة أكثر ، وكان صعودها أقوى كان رجوعها أيضاً أشد حركة فكانت الرياح أقوى وأشد .

هذا حاصل ما ذكروه ، وهو باطل ، ويدل على بطلانه وجوه : الأول : أن صعود الأجزاء الأرضية إنما يكون لأجل شدة تسخينها ، ولا شك أن ذلك التسخن عرض لأن الأرض باردة يابسة بالطبع ، فإذا كانت تلك الأجزاء الأرضية متصعدة جداً كانت سريعة الانفعال ، فإذا تصاعدت ، ووصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء امتنع بقاء الحرارة فيها بل تبرد

جداً ، وإذا بردت امتنع بلوغها في الصعود إلى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك ، فبطل ما ذكروه .

(9/273)

الوجه الثاني : هب أن تلك الأجزاء الدخانية صعدت إلى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك لكنها لما رجعت ، وجب أن تنزل على الاستقامة ، لأن الأرض جسم ثقيل ، والثقيل إنما يتحرك بالاستقامة والرياح ليست كذلك ، فإنها تتحرك يمنة ويسرة .

الوجه الثالث : وهو أن حركة تلك الأجزاء الأرضية النازلة لا تكون حركة قاهرة ، فإن الرياح إذا أحضرت الغبار الكثير ، ثم عاد ذلك الغبار ، ونزل على السطوح لم يحس أحد بنزولها ، وترى هذه الرياح تقلع الأشجاء وتهدم الجبال وتموج البحار .

والوجه الرابع : أنه لو كان الأمر على ما قالوه ، لكانت الرياح كلما كانت أشد ، وجب أن يكون حصول الأجزاء الغبارية الأرضية أكثر ، لكنه ليس الأمر كذلك لأن الرياح قد يعظم عصوفها وهبوبها في وجه البحر ، مع أن الحس يشهد أنه ليس في ذلك الهواء المتحرك العاصف شيء من الغبار والكدرة فبطل .

ما قالوه ، وبطل بهذا الوجه العلة التي ذكروها في حركة الرياح .

قال المنجمون : إن قوى الكواكب هي التي تحرك هذه الرياح وتوجب هبوبها ، وذلك أيضاً بعيد لأن الموجب لهبوب الرياح إن كان طبيعة الكواكب وجب دوام الرياح بدوام تلك الطبيعة ، وإن كان الموجب هو طبيعة الكوكب بشرط حصوله في البرج المعين والدرجة المعينة وجب أن يتحرك هواء كل العالم ، وليس كذلك ، وأيضاً قد بينا أن الأجسام متماثلة باختصاص الكوكب المعين والبرج المعين فالطبيعة التي لأجلها اقتضت ذلك الأثر الخاص ، لا بد وأن تكون بتخصيص الفاعل المختار .

فثبت بهذا البرهان الذي ذكرناه أن محرك الرياح هو الله سبحانه وتعالى .

وثبت بالدليل العقلي صحة قوله : ﴿ هوالذى يُرْسِلُ الرياح ﴾ .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾

فيه فائدتان :

(10/273)

إحداهما : أن قوله : ﴿ نَشْراً ﴾ أي منشرة متفرقة ، فجزء من أجزاء الريح يذهب يمنة ، وجزء آخر يذهب يسرة ، وكذا القول في سائر الأجزاء ، فإن كل واحد منها يذهب إلى

جانب آخر فنقول : لا شك أن طبيعة الهواء طبيعة واحدة ونسبة الأفلاك والأنجم والطبائع إلى كل واحد من الأجزاء التي لا تتجزأ من تلك الريح نسبة واحدة ، فاختصاص بعض أجزاء الريح بالذهاب يمنة والجزء الآخر بالذهاب يسرة وجب أن لا يكون ذلك إلا بتخصيص الفاعل المختار .

والفائدة الثانية : في الآية أن قوله : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي بين يدي المطر الذي هو رحمته والسبب في حسن هذا المجاز أن اليدين يستعملهما العرب في معنى التقدمة على سبيل المجاز يقال : إن الفتن تحدث بين يدي الساعة ، يريدون قبيلها ، والسبب في حسن هذا المجاز ، أن يدي الإنسان متقدماته فكل ما كان يتقدم شيئاً يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز لأجل هذه المشابهة فلما كانت الرياح تتقدم المطر ، لا جرم عبر عنه بهذا اللفظ .

فإن قيل : فقد نجد المطر ولا تتقدمه الرياح فنقول : ليس في الآية ان هذا التقدم حاصل في كل الأحوال ، فلم يتوجه السؤال ، وأيضاً فيجوز أن تتقدمه هذه الرياح وإن كنا لا نشعر بها .

ثم قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ يقال : أقل فلان الشيء إذا حمله قال صاحب "الكشاف" : واشتقاق الإقلال من القلة ، لأن من يرفع شيئاً فإنه يرى ما يرفعه قليلاً ، وقوله : ﴿ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ أي بالماء جمع سحابة ، والمعنى حتى إذا حملت هذه الرياح سحاباً ثقالاً بما فيها من الماء والمعنى أن السحاب الكثيف المستطير للمياه العظيمة

إنما يبقى معلقاً في الهواء لأنه تعالى دبر بحكمته أن يحرك الرياح تحريكاً شديداً ، فلأجل الحركات الشديدة التي في تلك الرياح تحصل فوائد : إحداها : أن أجزاء السحاب ينضم بعضها إلى البعض ويتراكم وينعقد السحاب الكثيف الماطر .

(11/273)

وثانيها : أن بسبب تلك الحركات الشديدة التي في تلك الرياح يمنة ويسرة يمتنع على تلك الأجزاء المائية النزول ، فلا جرم يبقى متعلقاً في الهواء .

وثالثها : أن بسبب حركات تلك الرياح ينساق السحاب من موضع إلى موضع آخر وهو الموضع الذي علم الله تعالى احتياجهم إلى نزول الأمطار وانتفاعهم بها .

ورابعها : أن حركات الرياح تارة تكون جامعة لأجزاء السحاب موجبة لانضمام بعضها إلى البعض حتى ينعقد السحاب الغليظ ، وتارة تكون مفرقة لأجزاء السحاب مبطلة لها .

وخامسها : أن هذه الرياح تارة تكون مقوية للزروع والأشجار مكملة لما فيها من النشو والنماء وهي الرياح اللواقح ، وتارة تكون مبطلة لها كما تكون في الخريف .

وسادسها : أن هذه الرياح تارة تكون طيبة لذيذة موافقة للأبدان ، وتارة تكون مهلكة إما بسبب ما فيها من الحر الشديد كما في السموم أو بسبب ما فيها من البرد الشديد كما في

الرياح الباردة المهلكة جداً .

وسابعها : أن هذه الرياح تارة تكون شرقية ، وتارة تكون غربية وشمالية وجنوبية .

وهذا ضبط ذكره بعض الناس وإلا فالرياح تهب من كل جانب من جوانب العالم ولا ضبط لها ، ولا اختصاص لجانب من جوانب العالم بها .

وثامنها : أن هذه الرياح تارة تصعد من قعر الأرض فإن من ركب البحر يشاهد أن البحر يحصل غليان شديد فيه بسبب تولد الرياح في قعر البحر إلى ما فوق البحر ، وحينئذ يعظم هبوب الرياح في وجه البحر ، وتارة ينزل الريح من جهة فوق فاختلاف الرياح بسبب هذه المعاني أيضاً عجيب ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما : الرياح ثمان : أربع منها عذاب ، وهو القاصف ، والعاصف ، والصرصر ، والعقيم ، وأربعة منها رحمة : الناشرات ، والمبشرات ، والمرسلات ، والذاريات ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(12/273)

" نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور " والجنوب من ريح الجنة ، وعن كعب : لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر الأرض ، وعن السدي : أنه تعالى يرسل الرياح فيأتي بالسحاب ثم إنه تعالى يبسطه في السماء كيف يشاء ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء

على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك ، ورحمته هو المطر .

إذا عرفت هذا فنقول : اختلاف الرياح في الصفات المذكورة ، مع أن طبيعة الهواء واحدة ، وتأثيرات الطبائع والأنجم والأفلاك واحدة ، يدل على أن هذه الأحوال لم تحصل إلا بتدبير الفاعل المختار سبحانه وتعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ سقناهِ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ والمعنى أنا نسوق ذلك السحاب إلى بلد ميت لم ينزل فيه غيث ولم ينبت فيه خضرة .

فإن قيل : السحاب إن كان مذكراً يجب أن يقول : حتى إذا أقلت سحاباً ثقيلاً ، وإن كان مؤنثاً يجب أن يقول سقناه فكيف التوفيق ؟ !

والجواب : أن السحاب لفظه مذكر وهو جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزاً ، نظراً إلى اللفظ ، وعلى سبيل التأنيث أيضاً جائزاً ، نظراً إلى كونه جمعاً ، أما "اللام" في قوله : ﴿ سقناهِ لِبَلَدٍ ﴾ ففيه قولان : قال بعضهم هذه "اللام" بمعنى إلى يقال هديته للدين وإلى الدين .

وقال آخرون : هذه "اللام" بمعنى من أجل ، والتقدير سقناه لأجل بلد ميت ليس فيه حياً يسقيه .

وأما البلد فكل موضع من الأرض عامر أو غير عامر ، خال أو مسكون فهو بلد والطائفة منه بلدة والجميع البلاد والفلاة تسمى بلدة قال الأعشى :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشةٌ . . للجن بالليل في حافاتها زجلُ

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الماء ﴾ اختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ قال الزجاج وابن الأنباري : جائز أن يكون فأنزلنا بالبلد الماء ، وجائز أن يكون فأنزلنا بالسحاب الماء ، لأن السحاب آلة لإنزال الماء .

(13/273)

ثم قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ الكناية عائدة إلى الماء ، لأن إخراج الثمرات كان بالماء .

قال الزجاج : وجائز أن يكون التقدير فأخرجنا بالبلد من كل الثمرات ، لأن البلد ليس يخص به هنا بلد دون بلد ، وعلى القول الأول ، فالله تعالى إنما يخلق الثمرات بواسطة الماء .

وقال أكثر المتكلمين : إن الثمار غير متولدة من الماء ، بل الله تعالى أجرى عادته بخلق النبات ابتداء عقيب اختلاط الماء بالتراب ، وقال جمهور الحكماء : لا يمتنع أن يقال إنه تعالى أودع في الماء قوة طبيعية ، ثم إن تلك القوة الطبيعية توجب حدوث الأحوال المخصوصة عند امتزاج الماء بالتراب وحدوث الطبائع المخصوصة .

والمتكلمون احتجوا على فساد هذا القول ، بأن طبيعة الماء والتراب واحدة .

ثم إنا نرى أنه يتولد في النبات الواحد أحوال مختلفة مثل العنب فإن قشره بارد يابس ، ولحمه وماؤه حار رطب ، وعجمه بارد يابس ، فتولد الأجسام الموصوفة بالصفات المختلفة من الماء والتراب ، يدل على أنها إنما حدثت بإحداث الفاعل المختار لا بالطبع والخاصة .

ثم قال تعالى : ﴿كذلك نُخْرِجُ الموتى﴾ وفيه قولان : الأول : أن المراد هو أنه تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال الأمطار ، فكذلك يحيي الموتى بواسطة مطر ينزله على تلك الأجسام الرميمة .

وروي أنه تعالى يمطر على أجساد الموتى فيما بين النفختين مطراً كالمني أربعين يوماً ، وإنهم ينبتون عند ذلك ويصيرون أحياء .

قال مجاهد : إذا أراد الله أن يبعثهم أمطر السماء عليهم حتى تنشق عنهم الأرض كما ينشق الشجر عن النور والثمر ، ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها .

(14/273)

والقول الثاني : أن التشبيه إنما وقع بأصل الأحياء بعد أن كان ميتاً ، والمعنى : أنه تعالى كما أحيا هذا البلد بعد خرابه ، فأنبت فيه الشجر وجعل فيه الثمر ، فكذلك يحيي الموتى بعد

أن كانوا أمواتاً ، لأن من يقدر على إحداث الجسم ، وخلق الرطوبة والطعم فيه ، فهو أيضاً يكون قادراً على إحداث الحياة في بدن الميت ، والمقصود منه إقامة الدلالة على أن البعث والقيامة حق .

واعلم أن الذاهبين إلى القول الأول إن اعتقدوا أنه لا يمكن بعث الأجساد إلا بأن يمطر على تلك الأجساد البالية مطراً على صفة المني ، فقد أبعد ، ولأن الذي يقدر على أن يحدث في ماء المطر الصفات التي باعتبارها صار المني منياً ابتداء ، فلم لا يقدر على خلق الحياة والجسم ابتداء ؟ وأيضاً فهب أن ذلك المطر ينزل إلا أن أجزاء الأموات غير مختلطة ، فبعضها يكون بالمشرق ، وبعضها يكون بالمغرب ، فمن أين ينفع إنزال ذلك المطر في توليد تلك الأجساد ؟

فإن قالوا : إنه تعالى بقدرته وبحكمته يخرج تلك الأجزاء المتفرقة فلم لم يقولوا إنه بقدرته وحكمته يخلق الحياة في تلك الأجزاء ابتداء من غير واسطة ذلك المطر ؟ وإن اعتقدوا أنه تعالى قادر على إحياء الأموات ابتداء ، إلا أنه تعالى إنما يحييهم على هذا الوجه كما أنه قادر على خلق الأشخاص في الدنيا ابتداء ، إلا أنه أجرى عادته بأنه لا يخلقهم إلا من الأبوين فهذا جائز .

ثم قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ والمعنى : أنكم لما شاهدتم أن هذه الأرض كانت مزينة وقت الربيع والصيف بالأزهار والثمار ، ثم صارت عند الشتاء ميتة عارية عن تلك

الزينة ، ثم إنه تعالى أحياها مرة أخرى ، فالقادر على إحيائها بعد موتها يجب كونه أيضاً قادراً على إحياء الأجساد بعد موتها ، فقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ المراد منه تذكر أنه لما لم يمتنع هذا المعنى في إحدى الصورتين وجب أن لا يمتنع في الصورة الأخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 112. 117 ﴾

(15/273)

وقال السمرقندى :

ثم قال ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَي رحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر .

قرأ حمزة والكسائي الريح بلفظ الوحدان .

وقرأ الباقون الرياح بلفظ الجماعة .

واختار أبو عبيد أن كل ما ذكر في القرآن من ذكر الرحمة فهو رياح وكل ما كان فيه ذكر العذاب فهو ريح .

واحتج بما روي عن النبيّ عليه السلام : أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إذا هَبَّتِ الرِّيحُ يَقُولُ : " اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِياحاً وَلا تَجْعَلْها ريحاً "

وقرأ ابن عامر نُشْراً بضم النون وجزم الشين .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع نُشُراً بضمتين .

وقرأ حمزة والكسائي نشراً بنصب النون وجزم الشين .

وقرأ عاصم بشراً بالباء ويكون من البشارة كما قال في آية أخرى ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح مبشرات وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : 46] .

ومن قرأ نَشْراً بالنون والنصب فيكون معناه ﴿ يرسل الرياح ﴾ تَنْشُر السحاب نَشْراً ، ومن قرأ بالضمتين يكون جمع نشور ، يقال : ريح نشور ، أي تنشر السحاب ورياح نُشُر ، ومن قرأ بضمة واحدة لأنه لما اجتمعت الضمتان حذفت إحداهما للتخفيف .

ثم قال : ﴿ حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ من الماء ، والسحاب جمع السحابة يعني الريح حملت سحاباً ثقالاً ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ يعني : السحاب تمر بأمر الله تعالى إلى أرض ليس فيها نبات ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ يعني : بالمكان .

ويقال : بالسَّحاب ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي نخرج بالماء من الأرض الثمرات ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أي يقول : هكذا نحيي الموتى بالمطر كما أحييت الأرض الميتة بالمطر .

وذكر في الخبر أنه إذا كان قبل النفخة الأخيرة أمطرت السماء أربعين يوماً مثل مَني الرجال فتشرب الأرض ، فتنبت الأجساد بذلك الماء ، ثم ينفخ في الصور ، فإذا هم قيام ينظرون .

وفي هذه الآية إثبات القياس وهو ردّ المختلف إلى المتفق ، لأنهم كانوا متفقين أن الله تعالى هو الذي ينزل المطر ويخرج النبات من الأرض .

فاحتج عليهم لإحيائهم بعد الموت بإحياء الأرض بعد موتها .

ثم قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لكي تتعظوا وتعتبروا في البعث أنه كائن . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(17/273)

وقال الثعلبي :

﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشْراً ﴾

قرأ عاصم بُشراً بالباء المضمومة والشين المجزومة يعني أنّها تبشّر بالمطر يدلّ عليه قوله : ﴿ الرياحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم : 46] .

وروى عنه بُشُراً بضم الباء والشين على جمع البشير مثل نذير و[نذار] .

وهي قراءة ابن عباس . وقرأ غيره من أهل الكوفة نشراً بفتح النون وجزم الشين وهو الريح الطيبة اللينة .

قال أمرؤ القيس :

كان المدام وصوب الغمام . . . وريح الخزامي ونشر القطر

وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وزر بن حبيش ، واختاره أبو عبيد لقوله : ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ [المرسلات : 3] وقرأ أهل الحجاز والبصرة نشراً بضم النون والشين واختاره أبو حاتم فقال : هي جمع نشور مثل صبور وصابر ، وشكور وشاكر .

وهي الرياح التي تهب من كل ناحية وتجيء من كل [وجه] وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن وابن عامر نشراً بضم النون وجزم الشين على التخفيف .

وقرأ مسروق (نشراً) بفتحتين أراد منشوراً [كالمقبض] والقبض ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني قدّام المطر ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ ﴾ حملت ﴿ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ المطر ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ رد الكناية إلى لفظ السحاب ﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ يعني إلى بلد .

(18/273)

وقيل : معناه [لأجل] بلد لا نبات له ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ﴾ أي السحاب وقيل : بالبلد ﴿ المآء ﴾ يعني المطر ، وقال أبو بكر بن عيّاش : لا تقطر من السماء قطرة حتّى يعمل فيها أربع : رياح الصبا تهيّجه والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدبور تفرّقة ﴿ كذلك نُخْرِجُ الموتى ﴾ أحياء قال أبو هريرة وابن عباس : إذا مات الناس كلّهم في النفخة الأولى أمطر عليهم أربعين عاماً [يسقى] الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان فينبتون في قبورهم بذلك المطر كما ينبتون في بطون أُمهاتهم ، وكما ينبت الزرع من الماء حتّى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثمّ يلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم ، فإذا نفخ في الصور الثانية عاشوا وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم إذا استيقظ من نومه فعند ذلك يقولون ﴿ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] فيناديهم المنادي ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس : 52] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(19/273)

وقال ابن عطية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

هذه آية اعتبار واستدلال ، وقرأ نافع وأبو عمرو " الرياح " بالجمع " نُشُراً " بضم النون والشين ، قال أبو حاتم ، وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن وأبي رجاء ، واختلف عنهم الأعرج ، وأبي جعفر ونافع وأبي عمرو وعيسى بن عمر وأبي يحيى وأبي نوفل الأعرابيين ، وقرأ ابن كثير " الريح " واحدة " نُشْراً " بضمها أيضاً ، وقرأ ابن عامر " الرياح " جمعاً " نُشْراً " بضم النون وسكون الشين ، قال أبو حاتم : ورويت عن الحسن وأبي عبد الرحمن وأبي رجاء وقتادة وأبي عمرو ، وقرأ حمزة والكسائي ، " الريح " واحدة ، " نَشْراً " بفتح النون وسكون الشين ، قال أبو حاتم وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وزر بن حبيش وابن وثاب وإبراهيم وطلحة والأعمش ومسروق بن الأجدع ، وقرأ ابن جني قراءة مسروق " نَشَرا " بفتح النون والشين ، وقرأ عاصم " الرياح " جماعة " بُشْراً " بالباء المضمومة والشين الساكنة ، وروي عنه " بُشُراً " بضم الباء والشين ، وقرأ بها ابن عباس والسلمي وابن أبي عبلة ، وقرأ محمد بن السميفع وأبو قطيب " بُشرى " على وزن فعل بضم الباء ، ورويت عن أبي يحيى وأبي نوفل ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي " بَشْرا " بفتح الياء وسكون الشين ، قال الزهراوي : ورويت هذه عن عاصم .

(20/273)

ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد ، وذلك أن الرياح حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة كقوله ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ [الروم : 45] وقوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ [الحجر : 22] وقوله ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] وأكثر ذكر الريح مفردة ، إنما هو بقرينة عذاب ، كقوله ﴿ وفي عاد إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] وقوله ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ [الحاقة : 6] وقوله ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [الأحقاف : 24] نحا هذا المنحى يحيى بن يعمر وأبو عمرو بن العلاء وعاصم ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح يقول " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى في هذا كله بين ، وذلك أن ريح السقيا والمطر أنها هي منتشرة لينة تجيء من هاهنا وتتفرق فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً أن يقال لها رياح ، وتوصف بالكثرة ريح الصر والعذاب ، عاصفة صرصر جسد واحد شديدة المر مهلكة بقوتها وبما تحمله أحياناً من الصر المحرق ، فيحسن من حيث هي شديدة الاتصال أن تسمى ريحاً مفردة ، وكذلك أفردت الريح في قوله تعالى : ﴿ وجرين بهم بريح طيبة ﴾ [يونس : 22] من حيث جري السفن إنما جرت بريح متصلة كأنها شيء واحد فأفردت لذلك ووصفت بالطيب إزالة الاشتراك بينها وبين الريح

المكروهة ، وكذلك ريح سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأمره أو تعصف في حقوله وهي متصلة ، وبعد فمن قرأ في هذه الآية الريح بالإفراد فإنما يريد به اسم الجنس ، وأيضاً فتقيدها ب " نشر " يزيل الاشتراك .

(21/273)

والإرسال في الريح هو بمعنى والإجراء والإطلاق والإسالة ومنه الحديث فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة ، والريح تجمع في القليل أرواح وفي الكثير رياح لأن العين من الريح واو انقلبت في الواحد ياء للكسر الذي قبلها ، وكذلك في الجمع الكثير ، وصحت في القليل لأنه لا شيء فيه يوجب الإعلال ، وأما " نُشُراً " بضم النون والشين فيحتمل أن يكون جمع ناشر على النسب أي ذات نشر من الطي أو نشور من الحياة ، ويحتمل " نَشُراً " أن يكون جمع نشور بفتح النون وضم الشين كرسول ورسل وصبور وصبر وشكور وشكر ، ويحتمل " نشرا " أن يكون كالمفعول بمعنى منشور كركوب بمعنى مركوب ، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل لأنها تنشر الحساب ، وأما مثلا الأول في قولنا ناشر ونشر فشاهد وشهد ونازل ونزل ، كما قال الشاعر :

أو تنزلون فإنّا معشر نزل . . . وقاتل وقتل ومنه قول الأعشى : [البسيط]

إنا لمثلكم يا قومنا قتل . . . وأما من قرأ " نُشْراً " بضم النون وسكون الشين فإنما خفف الشين من قوله ﴿ نشراً ﴾ وأما من قرأ " نَشْراً " بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر في موضع الحال من الريح ، ويحتمل في المعنى أن يراد به من النشر الذي هو خلاف الطيّ كل بقاء الريح دون هبوب طيّ ، ويحتمل أن يكون من أن النشر الذي هو الإحياء كما قال الأعشى : [السريع]

(22/273)

يا عجبا للميّت الناشر . . . وأما من قرأ " نَشَراً " بفتح النون والشين وهي قراءة شاذة فهو اسم وهو على النسب ، قال أبو الفتح أي ذوان نشر ، والنَّشَر أن تنتشر الغنم بالليل فترعى ، فشبه السحاب ، في انتشاره وعمومه بذلك ، وأما " بُشُراً " بضم الباء والشين فجمع بشير كنذير ونذر ، و" بشْراً " بسكون الشين مخفف منه و" بَشْراً " بفتح الباء وسكون الشين مصدر و" بشرى " مصدر أيضاً في موضع الحال . و" الرحمة " في هذه الآية المطر ، و﴿ بين يدي ﴾ أي أمام رحمته وقدامها وهي هنا استعارة وهي حقيقة فيما بين يدي الإنسان من الأجرام .

و﴿ أقلت ﴾ معناه : رفعت من الأرض واستقلت بها ، ومنه القلة وكأن المقل يرد ما رفع

قليلاً إذا قدر عليه ، و﴿ ثقالاً ﴾ معناه من الماء ، والعرب تصف السحاب بالثقل والدلح ، ومنه قول قيس بن الخطيم : [المتقارب]

بأحسنَ منها ولا مزنة . . . دلوح تكشف أدجانها

والريح تسوق السحاب من وارئها فهو سوق حقيقة ، والضمير في ﴿ سقناه ﴾ عائد على السحاب ، واستند الفعل إلى ضمير اسم الله تعالى من حيث هو إنعام ، وصفه البلد بالموت ، استعارة بسبب سعته وجدوبته وتصويح نباته ، وقرأ أبو عمرو وعاصم والأعمش : " لبلد ميْت " بسكون الياء وشدها الباقون والضمير في قوله : ﴿ فأنزلنا به ﴾ يحتمل أن يعود على السحاب أي منه ، ويحتمل أن يعود على البلد ، ويحتمل أن يعود على الماء وهو أظهرها ، وقال السدي في تفسير هذه الآية : إن الله تعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين طرق السماء والأرض حيث يلتقيان فتخره من ثم ثم تنشره فتبسطه في السماء ثم تفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم تمطر السحاب بعد ذلك .

(23/273)

قال القاضي أبو محمد : وهذا التفصيل لم ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله تبارك وتعالى ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ يحتمل مقصدين أحدهما أن يراد كهذه القدرة العظيمة في إنزال الماء وإخراج الثمرات به من الأرض المجدبة هي القدرة على إحياء الموتى من الأجداث وهذه مثال لها ، ويحتمل أن يراد أن هكذا يصنع بالأموات من نزول المطر عليهم حتى يحيوا به فيكون الكلام خبراً لا مثلاً ، وهذا التأويل إنما يستند إلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أبي هريرة أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى مطر عليهم مطر من ماء تحت العرش يقال له ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع ، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ، ثم تلقى عليهم نومة فينامون فإذا نفخ في الصور الثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم ، فيقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، فيناديهم المنادي هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(24/273)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾

قرأ أبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿ الرياح ﴾ على الجمع .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : "الريح" على التوحيد .

وقد يأتي لفظ التوحيد ، ويراد به الكثرة ، كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس ، ومثله :

﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ [العصر : 2] .

قوله تعالى : ﴿ نشراً ﴾ قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع ، ﴿ نُشراً ﴾ بضم النون والشين ، أرادوا جمع نشور ، وهي الريح الطيبة الهبوب ، تهب من كل ناحية وجانب .

قال أبو عبيدة : النُشُر : المتفرقة من كل جانب .

وقال أبو علي : يحتمل أن تكون النشور بمعنى المنشر ، وبمعنى المنتشر ، وبمعنى الناشر ؛ يقال : أنشر الله الريح ، مثل أحياها ، فنشرت ، أي : حييت .

والدليل على أن إنشار الريح إحياؤها قول الفقعسي :

وهبَّتْ له رِيْحُ الجَنُوبِ وأُحْيِيَتْ . . .

له رَيْدَةٌ يُحيي المِيَاهَ نَسِيْمُهَا

ويدل على ذلك أن الريح قد وصفت بالموت .

قال الشاعر :

إنّي لأَرْجُو أَنْ تَمُوْتَ الرِّيْحُ . . .

فَأَقْعُدَ اليَوْمَ وَأَسْتَرِيْحُ

والرَّيدة والريدانة : الريح .

وقرأ ابن عامر ، وعبد الوارث ، والحسن البصري : "نُشْرًا" بالنون مضمومة وسكون الشين ، وهي في معنى "نُشُرًا" يقال : كُتُبْ وكُتْب ، ورُسُل ورُسْل .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، والمفضل عن عاصم : "نَشْرا" بفتح النون وسكون الشين .

قال الفراء : النَّشْر : الريح الطيبة الليِّنَة التي تنشىء السحاب .

وقال ابن الأنباري : النَّشْر : المنتشرة الواسعة الهبوب .

وقال أبو علي : يحتمل النَّشْر أن يكون خلاف الطيِّ ، كأنها كانت بانقطاعها كالمطويَّة .

ويحتمل أن يكون معناها ما قاله أبو عبيدة في النشر : أنها المتفرقة في الوجوه ؛ ويحتمل أن يكون معناها : النشر الذي هو الحياة ، كقول الشاعر :

[حتَّى يقولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا] . . .

يا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

(25/273)

قال : وهذا هو الوجه .

وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وإبراهيم النخعي ، ومسروق ، ومورِّق العجلي : "نَشَرًا" بفتح

النون والشين .

قال ابن القاسم : وفي النَّشَر وجهان .

أحدهما : أن يكون جمعاً للنشور ، كما قالوا : عَمود وعَمد ، وإهاب وأهَب .

والثاني : أن يكون جمعاً ، واحده ناشر ، يجري مجرى قوله : غائب وغَيَبٌ ، وحافد وحَفَدٌ ، وكل القرَّاء نوَّن الكلمة .

وكذلك اختلافهم في [الفرقان : 48] و[النمل : 63] .

هذه قراءات من قرأ بالنون .

وقد قرأ آخرون بالباء ، فقرأ عاصم إلا المفضل : "بُشْرى" بالباء المضمومة وسكون الشين مثل فُعْلى : قال ابن الأنباري : وهي جمع بشيرة ، وهي التي تبشِّر بالمطر ، والأصل ضم الشين ، إلا أنهم استثقلوا الضمتين .

وقرأ ابن خثيم ، وابن جذلم : مثله إلا أنهما نوَّنا الراء .

وقرأ ابو الجوزاء ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : بضم الباء والشين ، وهذا على أنها جمع بشيرة .

والرحمة هاهنا : المطر ؛ سماه رحمة لأنه كان بالرحمة .

و"أقلّتِ" بمعنى : حملت .

قال الزجاج : السحاب : جمع سحابة .

قال ابن فارس : سمي السحابَ لانسحابه في الهواء .

قوله تعالى : ﴿ ثِقالاً ﴾ أي : الماء وقوله تعالى : ﴿ سقناه ﴾ ردَّ الكناية إلى لفظ السحاب ، ولفظه لفظُ واحدٍ .

وفي قوله "لبلد" قولان .

أحدهما : إلى بلد .

والثاني : لإحياء بلد .

والميْتُ : الذي لا يُنْبَتُ فيه ، فهو محتاج إلى المطر .

وفي قوله : ﴿ فأنزلنا به ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الكناية ترجع إلى السحاب .

والثاني : إلى المطر ، ذكرهما الزجاج .

والثالث : إلى البلد ، ذكره ابن الانباري .

فأما هاء ﴿ فأخرجنا به ﴾ فتحتمل الأقوال الثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ أي : كما أحيينا هذا البلد .

وقال مجاهد : نحيي الموتى بالمطر كما أحيينا البلد الميْت به .

قال ابن عباس : يرسل الله تعالى بين النفختين مطراً كمني الرجال ، فينبت الناس به في قبورهم كما نبتوا في بطون أُمهاتهم .

(26/273)

قوله تعالى : ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾ قال الزجاج : لعل : ترجٍ .

وإنما خوطب العباد على ما يرجوه بعضهم من بعض ؛ والمعنى : لعلكم بما بيَّناه لكم تستدلُّون على توحيد الله ، وأنه يبعث الموتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(27/273)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

عطف على قوله : "يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ" .

ذكر شيئاً آخر من نعمه ، ودل على وحدانيته وثبوت إلَهِيّته .

وقد مضى الكلام في الريح في "البقرة" .

ورياح جمع كثرة ، وأرواح جمع قِلة .

وأصل ريح رِوح.

وقد خطىء من قال في جمع القلة أرياح.

﴿ بُشْراً ﴾ فيه سبع قراءات: قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو "نُشُراً" بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب، أي ذات نشر؛ فهو مثل شاهد وشُهُد.

ويجوز أن يكون جمع نَشُور كرَسُول ورُسُل.

يقال: ريح النشور إذا أتت من هاهنا وهاهنا.

والنَّشُور بمعنى المنشور؛ كالرَّكوب بمعنى المركوب.

أي وهو الذي يرسل الرياح منشرة.

وقرأ الحسن وقتادة "نُشْراً" بضم النون وإسكان الشين مخفَّفاً من نُشُر؛ كما يقال: كُتْب ورُسْل.

وقرأ الأعمش وحمزة "نَشْراً" بفتح النون وإسكان الشين على المصدر، أعمل فيه معنى ما قبله؛ كأنه قال: وهو الذي ينشر الرّياح نشْراً.

نشرت الشيء فانتشر، فكأنها كانت مطوية فنُشرت عند الهُبُوب.

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال من الرياح؛ كأنه قال يرسل الرياح مُنْشرة، أي مُحيية؛ من أَنْشر الله الميتَ فنَشَر، كما تقول أتانا ركضاً، أي راكضاً.

وقد قيل: إن نَشْراً (بالفتح) من النَّشْر الذي هو خلاف الطي على ما ذكرنا.

كأن الريح في سكونها كالمطوية ثم ترسل من طَيِّها ذلك فتصير كالمنفتحة .

وقد فسره أبو عبيد بمعنى متفرِّقة في وجوهها ، على معنى ينشرها ها هنا وها هنا .

وقرأ عاصم : "بُشْراً" بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشير ، أي الرياح تبشر بالمطر .

وشاهده قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم : 46] .

وأصل الشين الضم ، لكن سكِّنت تخفيفاً كرسُل ورُسْل .

وروى عنه "بَشْراً" بفتح الباء .

(28/273)

قال النحاس : ويقرأ "بُشُراً" و"بَشْر مصدر بَشَره يبشره بمعنى بشَّره" فهذه خمس قراءات .

وقرأ محمد اليمانِي "بُشْرَى" على وزن حُبْلَى .

وقراءة سابعة "بُشُرَى" بضم الباء والشين .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ السحاب يذكَّر ويؤنَّث .

وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء .

ويجوز نعته بواحد فتقول : سحاب ثقيل وثقيلة .

والمعنى : حملت الريح سَحاباً ثِقَالاً بالماء ، أي أثقلت بحمله .

يقال : أقلّ فلان الشيء أي حمله .

﴿ سُقْنَاهُ ﴾ أي السحاب .

﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي ليس فيه نبات .

يقال : سقته لبلد كذا وإلى بلد كذا .

وقيل : لأجل بلد ميت ؛ فاللام لام أجل .

والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر خالٍ أو مسكون .

والبلدة والبلد واحد البلاد والبُلدان .

والبَلَد الأثر وجمعه أبلاد .

قال الشاعر :

مِن بعد ما شَمل البِلَى أبلادَها . . .

والبلد : أُدْحِيّ النَّعام .

يقال : هو أذلّ من بَيْضَة البلد ، أي من بيضة النعام التي يتركها .

والبلدة الأرض ؛ يقال : هذه بلدتنا كما يقال بَحْرَتُنا .

والبَلْدَة من منازل القمر ، وهي ستّة أنْجُم من القوس تنزلها الشمس في أقصر يوم في السنة .

والبلدة الصّدر ؛ يقال : فلان واسع البلدة أي واسع الصدر .

قال الشاعر :

أُنِيخَتْ فألقتْ بَلْدَةً فوقَ بلدة . . .

قليلٍ بها الأصواتُ إلاّ بُغَامُها

يقول : بركت الناقة فألقت صدرها على الأرض .

والبُلدة (بفتح الباء وضمها) : نقاوة ما بين الحاجبين ؛ فهما من الألفاظ المشتركة .

﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ ﴾ أي بالبلد .

وقيل : أنزلنا بالسحاب الماء ؛ لأن السحاب آلة لإنزال الماء .

ويحتمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه الماء ؛ كقوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [الإنسان : 6] أي منها .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الكاف في موضع نصب .

أي مثل ذلك الإخراج نحيي الموتى وخرج البيهقِيّ وغيره عن " أبي رَزِين العقيلي قال : قلت يا رسول الله ، كيف يعيد الله الخلق ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : "أمَا مَررت بوادِي قومك جَدْباً ثم مَررت به يهتز خَضِراً" قال : نعم ، قال : "فتلك آية الله في خلقه" " وقيل : وجه

التشبيه أنّ إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم ، فتنشقّ عنهم القبور ، ثم تعود إليهم الأرواح .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطَّلُّ فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقِفوهم إنهم مسؤولون " وذكر الحديث .

وقد ذكرناه بكماله في كتاب (التذكرة) والحمد لله .

فدل على البعث والنشور ؛ وإلى الله ترجع الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(30/273)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾

هذا عطف على ما قبله .

والمعنى أن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يرسل الرياح ﴿ بشراً ﴾ قرئ نشراً بالنون أراد جمع نشور وهي الريح الطيبة الهبوب التي تهب من كل ناحية ، وقيل :

هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها .

وقال الفراء : النشر الريح الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب .

وقال ابن الأنباري : النشر المنتشرة الواسعة الهبوب .

وقيل : النشر خلاف الطيّ فيحتمل أنها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت .

وقرئ بشراً بالباء جمع بشيرة وهي التي تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهي الشرقية والدبور وهي الغربية والشمال وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي والجنوب وهي القبلية .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرياح ثمان : أربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ﴿ بين يدي رحمته ﴾ يعني أمام المطر الذي هو رحمته وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة .

قال أبو بكر بن الأنباري رحمه الله تعالى : اليدان تستعملهما العرب في المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون في الفتن بين يدي الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيهاً وتمثيلاً بما إذا كانت يد الإنسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئاً وبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت في مؤخر الناس فقلت : يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها " رواه الشافعي رضي الله عنه بطوله وأخرجه أبو داود في المسند عنه .

وقال كعب الأحبار : لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً ﴾ يقال أقل فلان الشيء إذا حمله واشتقاق الإقلال من القلة فإن من يرفع شيئاً يراه قليلاً والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمي سحاباً لانسحابه في الهواء .

والمعنى : حتى إذا حملت هذه الرياح سحاباً ثقالاً بما فيه من الماء قال السدي : إن الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والأرض حيث يلقيان فتخرجه من ثم ، ثم تنشره فتبسطه في السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك .

وقيل إن الله تعالى دبر بحكمته أن الرياح تتحرك تحريكاً شديداً فتثير السحاب ثم ينضم بعضه إلى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه إلى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى : ﴿ سقناه لبلد ميت ﴾ يعني إلى بلد فتكون اللام بمعنى إلى .

وقيل : معناه لأجل حياة بلد ميت وإنما قال سقنا ، لأن لفظ السحاب مذكر وإن كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزاً نظراً إلى اللفظ ، قال الأزهري رحمه الله تعالى : قال الليث البلد كل موضع من الأرض عامراً أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد .

(32/273)

زاد غيره والمفازة تسمى بلدة ، لكونها مسكن الوحش والجن .

قال الأعشى :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة . . .

للجن بالليل في حافاتها زجل

ومعنى الآية : إنا سقنا السحاب إلى بلد ميت محتاج لإنزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة ﴿ فأنزلنا به الماء ﴾ اختلفوا في الضمير في قوله تعالى به إلى ماذا يعود ؟ فقال

الزجاج رحمه الله وابن الأنباري جائز أن يكون المعنى فأنزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وأنزلنا بالسحاب الماء لأن السحاب آلة لنزول الماء ﴿ فأخرجنا به ﴾ يعني بذلك الماء لأن إنزال الماء كان سبباً لإخراج الثمرات ، وقيل : يحتمل أن يكون المعنى فأخرجنا بذلك الماء ﴿ من كل الثمرات ﴾ يعني وأخرجنا بذلك البلد بعد موته وجد به من أصناف الثمار والزروع ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ يعني كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا في وجه التشبيه ، فقيل : إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال امطر كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضاً .

قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما : إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء .

(33/273)

وفي رواية : أربعين يوماً فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون في قبورهم فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا

ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادي : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون : قال مجاهد : إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كإحيائه الأرض به وقيل إنما وقع التشبيه بأصل الأحياء والمعنى أنه تعالى كما أحياء هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فأنبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيى الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً ورمماً بالية لأن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ونشرهم ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ الخطاب لمنكري البعث ، يقول : إنكم شاهدتم الأشجار وفي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف ثم إنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأزهار والأوراق والثمار ثم إن الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها .

والمعنى : إنما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتتذكروا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(34/273)

وقال أبو حيان :

﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾

لما ذكر تعالى الدلائل على كمال إلهيته وقدرته وعلمه من العالم العلوي أتبعهما بالدلائل من العالم السفلي وهي محصورة في آثار العالم العلوي ومنها الرّيح والسحاب والمطر وفي المعدن والنبات والحيوان ويترتب على نزول المطر أحوال النبات وذلك هو المذكور في الآية وانجرّ مع ذلك الدلالة على صحة الحشر والنشر البعث والقيامة وانتظمت هاتان الآيتان محصلتين المبدأ والمعاد وجعل الخبر موصولاً في أنّ ربكم الله الذي وفى ﴿ وهو الذي ﴾ دلالة على كون ذلك معهوداً عند السامع مفروغاً من تحقّق النسبة فيه والعلم به ولم يأتِ التركيب إنّ ربكم خلق ولا وهو يرسل الرياح ، وقرأ الرّياح نشراً جمعين وبضم الشين جمع ناشر على النسب أي ذات نشر من الطي كلابن وتامر وقالوا نازل ونزل وشارف وشرف وهو جمع نادر في فاعل أو نشور من الحياة أو جمع نشور كصبور وصبر وهو جمع مقيس لا جمع نشور بمعنى منشور خلافاً لمن أجاز ذلك لأنّ فعولاً كركوب بمعنى مركوب لا ينقاس ومع كونه لا ينقاس لا يجمع على فعل الحسن والسلمي وأبو رجاء واختلف عنهم والأعرج وأبو جعفر وشيبة وعيسى بن عمر وأبو يحيى وأبو نوفل الأعرابيان ونافع وأبو عمرو ، وقرأ كذلك جمعاً إلا أنهم سكّنوا الشين تخفيفاً من الضم كرسل عبد الله وابن عباس وزر وابن وثاب

والنخعي وطلحة بن مصرف والأعمش ومسروق وابن عامر ، وقرأ نشراً بفتح النون والشين مسروق فيما حكى عنه أبو الفتح وهو اسم جمع كغيب ونشىء في غائبة وناشئة ، وقرأ ابن كثير الرّيح مفرداً نشراً بالنون وضمّها وضمّ الشين فاحتمل نشراً أن يكون جمعاً حالاً من المفرد لأنه أريد به الجنس كقولهم : العرب هم البيض واحتمل أن يكون مفرداً كناقة سرح ، وقرأ حمزة والكسائي نشراً بفتح النون وسكون الشين مصدراً كنشر خلاف طوى أو كنشر بمعنى حيي من قولهم أنشر الله الموتى فنشروا أي حيوا .

قال الشاعر :

(35/273)

حتى يقول الناس مما رأوا . . .

يا عجباً للميت الناشر

وقرأ ﴿ الرياح ﴾ جمعاً ابن عباس والسّلمي وابن أبي عبلة ﴿ بشراً ﴾ بضم الباء والشين ورويت عن عاصم وهو جمع بشيرةٍ كنذيرة ونذر ، وقرأ عاصم كذلك إلا أنه سكن الشين تخفيفاً من الضم ، وقرأ السلمي أيضاً ﴿ بشراً ﴾ بفتح الباء وسكون الشين وهو

مصدر بشر المخفف ورويت عن عاصم ، وقرأ ابن السميقع وابن قطيب بشرى بألف مقصورة كرجعى وهو مصدر فهذه ثماني قراءات أربعة في النون وأربع في الباء فمن قرأ بالباء جمعاً أو مصدراً بألف التأنيث ففي موضع الحال من المفعول أو مصدراً بغير ألف التأنيث فيحتمل ذلك ويحتمل أن يكون حالاً من الفاعل ومن قرأ بالنون جمعاً أو اسم جمع فحال من المفعول أو مصدراً فيحتمل أن يكون حالاً من الفاعل وأن كون حالاً من المفعول أو مصدراً ليرسل من المعنى لأنّ إرسالها هو إطلاقها وهو بمعنى النّشر فكأنه قيل بنشر الرياح نشراً ووصف الريح بالنشر بأحد معنيين بخلاف الطي وبالحياة ، قال أبو عبيدة : في النشر أنها المتفرقة في الوجوه ، وقال الشاعر في وصف الرّيح بالإحياء والموت :

وهبّت له ريح الجنوب وأحييت . . .

له ريدة يحيي المياه نسيمها

والرّيدة والمريد أنه الرّيح .

وقال الآخر :

إني لأرجو أن تموت الرّيح . . .

فأقعد اليوم وأستريح

(36/273)

ومعنى ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النعم وأحسنها أثراً والتعيين عن إمام الرحمة بقوله ﴿ بين يدى ﴾ من مجاز الاستعارة إذ الحقيقة هو ما بين يدي الإنسان من الإحرام وقال الكرماني : قال هنا ﴿ يرسل ﴾ لأنّ قبل ذلك ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ فهما في المستقبل فناسبه المستقبل وفي الفرقان وفاطر ﴿ أرسل ﴾ لأن قبله ﴿ ألم ترَ إلى ربك كيف مدّ الظل ﴾ وبعده ﴿ وهو الذي مرح ﴾ وكذا في الروم ﴿ ومن آياته أن يرسل ﴾ ليوافق ما قبله من المستقبل وفي فاطر قبله ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة ﴾ وذلك ماضٍ فناسبه الماضي انتهى ملخصاً .

﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾ .

هذه غاية لإرسال الرّياح والمعنى أنه تعالى يرسل الرّياح مبشرات أو مبشرات إلى سوق السّحاب وقت إقلاله إلى بلد ميت والسحاب اسم جنس بينه وبين مفرده تاء التأنيث فيذكر كقوله ﴿ والسحاب المسخر ﴾ كقوله ﴿ يزجي سحاباً ثم يؤلّف بينه ﴾ ويؤنث ويوصف ويخبر عنه بالجمع كقوله ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ وكقوله ﴿ والنّخل باسقات ﴾ وثقله بالماء الذي فيه ونسب السّوق إليه تعالى بنون العظمة التفافاً لما فيه من عظيم المنة وذكر الضمير في ﴿ سقناه ﴾ رعياً للفظ كما قلنا إنه يذكر .

وقال السدّي يرسل تعالى الرياح فتأتي السحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض حيث يلتقيان فيخرجه من ثم ثم ينتشر ويبسطه في السماء وتفتح أبواب السماء ويسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك قال وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انتهى .

(37/273)

ومذهب أهل الحق أن الله تعالى هو الذي يسخّر الرّياح ويصرفها حيث أراد بمشيئته وتقديره لا مشارك له في ذلك وللفلاسفة كيفية في حصول الرياح ذكرها أبو عبد الله الرازي وأبطلها من وجوه أربعة يوقف عليها في كلامه وللمنجمين أيضاً كلام في ذلك أبطله ، وقال في آخره فثبت بهذا البرهان أنّ محرّك الرّياح هو الله تعالى وثبت بالدليل العقلي صحّة قوله ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ .

وعن ابن عمران الرّياح ثمان أربع منها عذاب هي : القاصف والعاصف والصّرصر والعقيم وأربع منها رحمة : الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات واللام في ﴿ لبلد ﴾ عندي لام التبليغ كقولك قلت لك ، وقال الزمخشري : لأجل بلد فجعل اللام لام العلة ولا يظهر فرق بين قولك سقت لك مالاً وسقت لأجلك مالاً فإنّ الأوّل معناه أوصلته لك

وأبلغتكه والثاني لا يلزم منه وصوله إليه بل قد يكون الذي وصل له الماء غير الذي علّل به السوق ألا ترى إلى صحة قول القائل لأجل زيد سقت لك مالك .

ووصف البلد بالموت استعارة حسنة لجدبه وعدم نباته كأنه من حيث عد الانتفاع به كالجسد الذي لا روح فيه ولما كان ذلك موضع قرب رحمة الله وإظهار إحسانه ذكر أخص الأرض وهو البلد حيث مجتمع الناس ومكان استقرارهم ولما كان في سورة يس المقصد إظهار الآيات العظيمة الدالة على البعث جاء التركيب باللفظ العام وهو قوله ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ وبعده ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وآية لهم إنا حملنا ذريتهم ﴾ وسكن باء الميت عاصم وأبو عمرو والأعمش .

﴿ فأنزلنا به الماء ﴾ الظاهر أنّ الباء ظرفية والضمير عائد على بلد ميت أي فأنزلنا فيه الماء وهو أقرب مذكور ويحسن عوده إليه فلا يجعل لأبعد مذكور ، وقيل الباء سببيّة والضمير عائد على السحاب .

وقيل عائد على المصدر المفهوم من سقناه فالتقدير بالسّحاب أو بالسّوق والثالث ضعيف لأنه عائد على غير مذكور مع وجود المذكور وصلاحيته للعود عليه .

(38/273)

وقيل : عائد على السحاب والباء بمعنى من أي فأنزلنا منه الماء كقوله ﴿ يشرب بها عباد الله ﴾ أي منها وهذا ليس بجيد لأنه تضمين من الحروف .

﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ الخلاف في ﴿ به ﴾ كالخلاف السابق في به .

وقيل : الأول عائد على السحاب والثاني على البلد عدل عن كناية إلى كناية من غير فاصل كقوله : ﴿ الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ﴾ وفاعل أملى لهم الله تعالى .

﴿ كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكرون ﴾ أي مثل هذا الإخراج ﴿ نخرج الموتى ﴾ من قبورهم أحياء إلى الحشر ﴿ لعلّكم تذكرون ﴾ بإخراج الثمرات وإنشائها خروجكم للبعث إذ الإخراجات سواء فهذا الإخراج المشاهد نظير الإخراج الموعود به خرج البيهقي وغيره عن رزين العقيلي قال قلت : يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق وما آية ذلك في خلقه ؟ قال " أما مررت بوادي قومك جدياً ثم مررت به خضراً "

قال : نعم قال : " فتلك آية الله في خلقه " انتهى ، وهل التشبيه في مطلق الإخراج ودلالة إخراج الثمرات على القدرة في إخراج الأموات أم في كيفيّة الإخراج وأنه ينزل مطر عليهم فيحيون كما ينزل المطر على البلد الميّت فيحيا نباته احتمالان ، وقد روي عن أبي هريرة أنه يمطر عليهم من ماء تحت العرش يقال له ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع فإذا كملت أجسامهم نفخ فيها الرّوح ثم يلقي عليهم نومة فينامون فإذا نفخ في الصّور الثانية

قاموا وهم يجدون طعم النوم فيقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادي هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(39/273)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾

عطفٌ على الجملة السابقةِ وقرىء الرِيحَ ﴿ بُشْرًا ﴾ تخفيف بُشُر جمعُ بشير أو مبشّرات ، وقرىء بفتح الباءِ على أنه مصدرُ بَشَره ، بمعنى باشرات أو للبشارة ، وقرىء نُشُراً بالنون المضمومة جمع نَشور أي ناشرات ونَشْراً على أنه مصدرٌ في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعولٌ مطلقٌ ، فإن الإرسالَ والنَّشرَ متقاربان ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ قُدّامَ رحمتِه التي هي المطرُ فإن الصَّبا تُثير السحابَ والشَّمالَ تجمعُه والجَنوبَ تدُرّه والدَّبورَ تفرّقه ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ أي حملت ، واشتقاقُه من القِلة فإن المُقِلَّ للشيء يستقِلّه ﴿ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ بالماء ، جَمَعه لأنه بمعنى السحائب ﴿ سقناه ﴾ أي السحاب ، وإفرادُ الضميرِ لإفراد اللفظ ﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي لأجله ولمنفعته أو لإحيائه أو لسقيه وقرىء ميْتٍ ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الماء ﴾ أي بالبلد أو بالسحاب أو بالسَّوْق أو بالريح ، والتذكيرُ بتأويل المذكور وكذلك قوله

تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ ويحتمل أن يعود الضميرُ إلى الماء وهو الظاهرُ ، وإذا كان للبلد فالباءُ للإلصاق في الأول والظرفية في الثاني وإذا كان لغيره فهي للسببية ﴿ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي من كل أنواعها (وألوانها) ﴿ كذلك نُخْرِجُ الموتى ﴾ الإشارةُ إلى إخراج الثمراتِ أو إلى إحياء البلدِ الميتِ ، أي كما نحييه بإحداث القوةِ الناميةِ فيه وتطريتها بأنواعِ النباتِ والثمراتِ نخرج الموتى من الأحداث ونحييها بردّ النفوسِ إلى موادّ أبدانِها بعد جَمعِها وتطريتها بالقُوى والحواسّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ بطرح إحدى التاءين أي تتذكرون فتعلمون أن مَنْ قدرَ على ذلك قدرَ على هذا من غير شبهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(40/273)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾

عطف على الجملة السابقة أو على حديث خلق السموات والأرض .

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ الريح ﴾ على الوحدة وهو متحمل لمعنى الجنسية فيطلق على الكثير .

وخبر "اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً" مخرج على قراءة الأكثرين ﴿ بَشَرًا ﴾ بضم الموحدة وسكون الشين مخفف بشراً بضمتين جمع بشير كنذر ونذير أي مبشرات وهي قراءة عاصم .

وروي عنه أيضاً ﴿ بَشَرًا ﴾ على الأصل .

وقرىء بفتح الباء على أنه مصدر بشره بالتخفيف بمعنى بشره المشدد .

والمراد باشرات أو للبشارة .

وقرىء ﴿ بُشْرىً ﴾ كحبلى وهو مصدر أيضاً من البشارة .

وقرأ أهل المدينة والبصرة ﴿ نَشْراً ﴾ بضم النون والشين جمع نشور بفتح النون بمعنى ناشر ، وفعول بمعنى فاعل يطرد جمعه كذلك كصبور وصبر ، ولم يجعل جمع ناشر كبازل وبزل لأن جمع فاعل على فعل شاذ .

واختلف في معنى ناشر ففي "الحواشي الشهابية" قيل : هو على النسب إما إلى النشر ضد الطي وإما إلى النشور بمعنى الإحياء لأن الريح توصف بالموت والحياة كقوله :

إني لأرجو أن تموت الريح

فاقعد اليوم واستريح . . .

كما يصفها المتأخرون بالعلة والمرض .

ومما يحكى النسيم من ذلك قول بعضهم في شدة الحر

: أظن نسيم الروض مات لأنه . . .

له زمن في الروض وهو عليل

وقيل : هو فاعل من نشر مطاوع أنشر الله تعالى الميت فنشر وهو ناشر كقوله

: حتى يقول الناس مما رأوا . . .

يا عجباً للميت الناشر

قيل : ناشر بمعنى منشر أي محيي ، وقيل : فعول هنا بمعنى مفعول كرسول ورسل وقد جوز ذلك أبو البقاء إلا أنه نادر مفرده وجمعه .

وقرأ ابن عامر ﴿ نَشْراً ﴾ بضم النون وسكون الشين حيث وقع ، والتخفيف في فعل مطرد ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ نَشْراً ﴾ بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان .

(41/273)

﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام رحمته وهو من المجاز كما نقل عن أبي بكر الأنباري ، والمراد بالرحمة كما ذهب إليه غالب المفسرين المطر ، وسمي رحمة لما يترتب عليه بحسب جري العادة من المنافع .

ولا يخفى أن الرحمة في المشهور عامة فإطلاقها على ذلك إن كان من حيث خصوصه مجاز لكونه استعمال اللفظ في غير ما وضع له إذ اللفظ لم يوضع لذلك الخاص بخصوصه وإن كان إطلاقها عليه لا بخصوصه بل باعتبار عمومه .

وكونه فرداً من أفراد ذلك العام فهو حقيقة لأنه استعمال اللفظ فيما وضع له على ما بين في "شرح التلخيص" وغيره .

وادعى الشهاب إثبات بعض أهل اللغة كون المطر من معاني الرحمة ، وقول ابن هشام في "رسالته" التي ألفها في بيان وجه تذكير ﴿ قَرِيبٌ ﴾ المار عن قريب : إنا لا نجد أهل اللغة حيث يتكلمون على الرحمة يقولون : ومن معانيها المطر فلو كانت موضوعة له لذكروه ، قصارى ما فيه عدم الوجدان وهو لا يستدعي عدم الوجود ، ومما اشتهر أن المثبت مقدم على النافي ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، والمقام ظاهر في إرادة هذا المعنى ، وبيان كون الرياح مرسلة أمام ذلك ما قيل : إن الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وهذه أحد أنواع الريح المشهورة عند العرب ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرياح ثمانية أربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات .

والريح من أعظم منن الله تعالى على عباده ، وعن كعب الأحبار لو حبس الله تعالى الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض ، وفي بعض الآثار أن الله تعالى خلق العالم وملأه هواء ولو أمسك الهواء ساعة لأنتن ما بين السماء والأرض ، وذكر غير واحد من العلماء أنه يكره سب الريح ، فقد روى الشافعي عن أبي هريرة قال : أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر رضي الله تعالى عنه حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله : ما بلغكم في الريح ؟ فلم يرجعوا إليه شيئاً وبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت مؤخر الناس فقلت : يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله تعالى من خيرها واستعيذوا بالله سبحانه من شرها " ولا منافاة بين الآية وهذا الخبر إذ ليس فيها أنه سبحانه لا يرسلها إلا بين يدي الرحمة ولئن سلم فهو خارج مجرى الغالب فإن العذاب بالريح نادر ، وقيل : ما في الخبر إنما هو الإيتاء بالرحمة والإيتاء بالعذاب لا الإرسال بين يدي كل .

﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ غاية لقوله سبحانه ﴿ يُرْسِلُ ﴾ والإقلال كما في مجمع البيان حمل الشيء بأسره واشتقاقه من القلة وحقيقة أقله كما قال بعض المحققين جعله قليلاً أو وجده قليلاً ، والمراد ظنه كذلك كأكذبه إذا جعله كاذباً في زعمه ثم استعمل بمعنى حمله لأن

الحامل يستقل ما يحمله أي يعده قليلاً ، ومن ذلك قولهم : جهد المقل أي الحامل ﴿ سَحَابًا ﴾ أي غيماً سمي بذلك لانسحابه في الهواء وهو اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع .

(43/273)

وأهل اللغة كالجوهري وغيره تسميه جمعاً فلذا روعي فيه الوجهان في وصفه وضميره ، وجاء في الجمع سحب وسحائب ﴿ ثِقَالاً ﴾ من الثقل كعنب ضد الخفة يقال : ثقل ككرم ثقلاً وثقالة فهو ثقيل ، وثقل السحاب بما فيه من الماء ﴿ سقناهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي لأجله ومنفعته أو لإحيائه أو لسقيه كما قيل .

وفي "البحر" أن اللام للتبليغ كما في قلت لك ، وفرق بين سقت لك مالاً وسقت لأجلك مالاً بأن الأول : معناه أوصلت لك ذلك وأبلغتكه .

والثاني : لا يلزم منه وصوله إليه ، والبلد كما قال الليث كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منه بلدة والجمع بلاد ، وتطلق البلدة على المفازة ومنه قول الأعشى

: وبلدة مثل ظهر الترس موحشة . . .

للجن بالليل في حافاتها زجل

﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الماء ﴾ أي بالبلد أو السحاب كما قال الزجاج وابن الأنباري أو بالسوق أو الرياح كما قيل ، والتذكير بتأويل المذكور وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ ويحتمل أن يعود الضمير إلى الماء وهو الظاهر لقربه لفظاً ومعنى ، ومطابقة النظائر وانفكاك الضمائر لا بأس به إذا قام الدليل عليه وحسن الملاءمة .

وإذا كان للبلد فالباء للظرفية في الثاني وللإلصاق في الأول لأن الإنزال ليس في البلد بل المنزل ، وجوز الظرفية أيضاً كما في رميت الصيد في الحرم على ما علمت فيما مر ، وإذا كان لغيره فهي للسببية وتشمل القريبة والبعيدة .

﴿ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي من كل أنواعها لأن الاستغراق غير مراد ولا واقع ، وهذا أبلغ في إظهار القدرة المراد ، وقيل : إن الاستغراق عرفي والظاهر أن المراد التكثير ، وجوز بعضهم أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض وأن تكون لتبيين الجنس .

(44/273)

﴿ كذلك نُخْرِجُ الموتى ﴾ إشارة إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت أي كما نحييه بإحداث القوى النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأرض

وتحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس كذا قالوا ، وهو إشارة كما قيل إلى طريقي القائلين بالمعاد الجسماني وهما إيجاد البدن بعد عدمه ثم إحياؤه وضم بعض أجزائه إلى بعض على النمط السابق بعد تفرقها ثم إحياؤه .

واستظهر الأول بأن المتبادر من الآية كون التشبيه بين الإخراجين من كتم العدم ، والثاني يحتاج إلى تمحل تقدير الإحياء واعتبار جمع الأجزاء مع أنه غير معتبر في جانب المشبه به ، وجوز أن يرجع ما في الشق الثاني من الإحياء برد النفوس الخ إلى الأول ، وأنت تعلم أنه لا مانع من الإخراج من كتم العدم ، وأدلة استحالة ذلك مما لا تقوم على ساق وقدم إلا أن الأدلة النقلية على كل من الطريقين متجاذبة ، وإذا صح القول بالمعاد الجسماني فلا بأس بالقول بأي كان منهما ، وكون إخراج الثمرات من كتم العدم قد لا يسلم فإن لها أصلاً في الجملة على أن إخراج الموتى عند القائلين بالطريق الأول إعادة وليس إخراج الثمرات كذلك إذ لم يكن لها وجود قبل ، نعم كون الأظهر أن التشبيه بين الإخراجين مما لا مرية فيه ، وفي "الخازن" اختلفوا في وجه التشبيه فقيل : إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضاً ، فقد روي عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحياة أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء .

وفي رواية أربعين يوماً فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم تنفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون في قبورهم فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم ويجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون : ﴿ قَالُواْ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ فيناديهم المنادي ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس : 52] .

وأخرج غير واحد عن مجاهد أنه إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تشقق عنهم الأرض ثم يرسل سبحانه الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها ، فكذلك يحيي الله تعالى الموتى بالمطر كإحيائه الأرض .

وقيل : إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء من غير اعتبار كيفية فيجب الإيمان به ولا يلزمنا البحث عن الكيفية ويفعل الله سبحانه ما يشاء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك فهو قادر على هذا من غير شبهة .

والأصل تتذكرون فطرحت إحدى التاءين ، والخطاب قيل : للنظار مطلقاً ، وقيل : لمنكري البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : قدام رحمته التي هي المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه والجنوب تدره ، والدبور تفرقه . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ .

قال الثعالبي : المبشرات التي تأتي بالسحاب والغيث .

تنبيه :

قال أبو البقاء : يقرأ : ﴿ نُشُراً ﴾ بالنون والشين مضمومتين ، وهو جمع ، في واحده وجهان :

أحدهما : ﴿ نَشُور ﴾ مثل صبور وصبر ، فعلى هذه يجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل ، أي : ينشر الأرض ، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول ، كركوب بمعنى مركوب ، أي : منشورة بعد الطي ، أو منشرة أي : مُحياة ، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنشر ، ويجوز أن يكون جمع ناشر ، مثل بازل وبُزل . ويقرأ بضم النون وإسكان الشين ، على تخفيف المضموم . ويقرأ نشراً بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نشر بعد الطي ، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أي : عاش .

ونصبه على الحال ، أي : ناشرة ، أو ذات نشر ، كما تقول : جاء ركضاً أي : راكضاً .

ويقرأ : بُشراً بالباء وضمتين ، وهو جمع بشير ، مثل قليب وقُلب ، ويقرأ كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف . ويقرأ بشرى مثل حُبلى ، أي : ذات بشارة ويقرأ بَشر بفتح الباء وسكون الشين ، وهو مصدر بشرته - أي : بالتخفيف - إذا بشرته . انتهى .

(47/273)

﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ أي : حملت : ﴿ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ أي : من كثرة ما فيها من الماء : ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ أي : السحاب .

قال الشهاب : السحاب إسم جنس جمعي ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، كتمر وتمرة ، وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ، ويجمع ، وأهل اللغة تسميه جمعاً ، فلذا روعي فيه الوجهان ، في وصفه وضميره . انتهى .

أي : أرسلناه

مع أن طبعه الهبوط : ﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي : لأجله ولمنفعته ، أو لإحيائه أو لسقيه . و ميت ، قرئ مشدداً ومخففاً ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء ﴾ أي : الضمير . والضمير في به للبلد : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : المختلفة الأنواع ، مع أن ماءها واحد . والمراد

بكل الثمرات ، المعادة في كل بلد تخرج به على الوجه الذي أجرى الله العادة بها ودبرها .

والضمير في به ، للماء أو لبلد ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الإخراج ﴿ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أي : نحييها بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبت منه الأجساد في قبورها ، كما ينبت الحب في الأرض : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : إنما وصفنا من هذا التمثيل لكي تتذكروا ، من أحوال الثمرات التي أعيدت إلى حالها بعد تلفها ، أحوال الآخرة ، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

تنبيه :

من أحكام الآية كما قال الجشمي : أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج في إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر ، وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء ، فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا .

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة ، وأنها قطع متجاورات ، علم فساد التقليد ، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده .

ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات ، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 105.107 ﴾

(48/273)

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ عطف على جملة : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] وقد حصلت المناسبة بين آخر الجمل المعترضة وبين الجملة المعترض بينها وبين ما عُطفت عليه بأنّه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكَر بعضاً من رحمته العامة وهو المطر .

فذِكر إرسال الرّياح هو المقصود الأهم لأنّه دليل على عظم القدرة والتّدبير ، ولذلك جعلناه معطوفاً على جملة : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] أو على جملة : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] .

وذِكْر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرّياح يحصل منه إدماجُ الامتنان في الاستدلال وذلك لا يقتضي أنّ الرّياح لا ترسل إلاّ للتبشير بالمطر ، ولا أنّ المطر لا ينزل إلاّ عَقب إرسال الرّياح ، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجَو ، وإذ ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة وفيه

تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارةِ المشركين بالقحط والجوع كقوله ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ [الجن : 16] وقوله ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ [الدخان : 10] .

وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة ، فإرسال الرّياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها ، وحَسَّن هذه الاستعارةَ أنّ الرّيح مسخّرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه فشُبهت بالعاقل المرسَل إلى جهة مَّا ، ومن بدائع هذه الاستعارة أنّ الرّيح لا تفارق كُرَة الهواء كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ الآية في سورة [البقرة : 164] .

فتصريفُ الرّياح من جهة إلى جهة أشبَهُ بالإرسالِ مِنْه بالإيجاد .

والرّياح : جمع ريح ، وقد تقدّم في سورة البقرة .

(49/273)

وقرأ الجمهور : الرّياح ﴾ بصيغة الجمع وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وخَلف : الرّيحَ بصيغة المفرد باعتبار الجنس ، فهو مساو لقراءة الجمع ، قال ابن عطيّة : من قرأ بصيغة

الجمع فقراءته أسعد ، لأنّ الرّياح حيثما وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرّحمة ، كقوله : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ [الحجر : 22] وأكثر ذكر الرّيح المفردة أن تكون مقترنة بالعذاب كقوله ﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ [الأحقاف : 24] ونحو ذلك .

ومن قرأ بالإفراد فتقييدها بالنّشر يزيل الاشتراك أي الإيهام .

والتّحقيق أنّ التّعبير بصيغة الجمع قد يراد به تعدّد المهابّ أو حصول الفترات في الهُبوب ، وأنّ الإفراد قد يراد به أنّها مدفوعة دفعة واحدة قويّة لا فترة بين هبَاتها .

وقوله : ﴿ نشراً ﴾ قرأه نافع ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وأبو جعفر : نُشُراً بضمّ النّون والشّين على أنّه جمع نَشُور بفتح النّون كرَسُول ورُسُل ، وهو فعول بمعنى فاعل ، والنَّشور الرّياح الحيّة الطيّبة لأنّها تنثر السّحاب ، أي تبثُّه وتكثره في الجوّ ، كالشّيء المنشور ، ويجوز أن يكون فَعولاً بمعنى مفعول ، أي منشورة ، أي مبْثوثة في الجهات ، متفرّقة فيها ، لأنّ النّشر هو التّفريق في جهات كثيرة .

ومعنى ذلك أنّ ريح المَطر تكون ليّنة ، تجيء مرّة من الجنوب ومرّة من الشّمال ، وتتفرّق في الجهات حتّى ينشأ بها السّحاب ويتعدّد سحابات مبثوثة ، كما قال الكميت في السّحاب:

مَرَتْهُ الجَنُوبُ بِأَنْفَاسِهَا . . .

وحَلَّتْ عَزَالِيَه الشَّمْأَل

ومن أجل ذلك عبّر عنها بصيغة الجمع لتعدّد مهابِّها ، ولذلك لم تجمع فيما لا يحمد فيه تعود

المهاب كقوله ﴿ وجرين بهم بريح طيبة ﴾ [يونس : 22] من حيث جريُ السّفن إنّما جيّدُهُ بريح متّصلة .

وقرأه ابن عامر ﴿ نُشْراً ﴾ بضم النّون وسكون الشّين وهو تخفيف نُشُر الذي هو بضمّتين كما يقال : رُسْل في رُسُل .

(50/273)

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف بفتح النّون ، وسكون الشّين على أنّه مصدر ، وانتصب إمّا على المفعولية المطلقة لأنّه مرادف ل (أرْسل) بمعناه المجازي ، أي أرسلها إرسالاً أو نَشَرها نَشْراً ، وإمّا على الحال من الرّيح ، أي ناشرة أي السّحاب ، أو من الضّمير في (أرسل) أي أرسلها ناشِراً أي محييا بها الأرض الميّتة ، أي محييا بآثارها وهي الأمطار .

وقرأه عاصم بالباء الموحّدة في موضع النّون مضمومة وبسكون الشّين وبالتّنوين وهو تخفيف (بُشراً) بضمّهما على أنّه جمع بشير مثل نُذُر ونذير ، أي مبشّرة للنّاس باقتراب الغيث .

فحصل من مجموع هذه القراءات أنّ الرّياح تنشر السّحاب ، وأنّها تأتي من جهات مختلفة تتعاقب فيكون ذلك سبب امتلاء الأسحبة بالماء وأنّها تحيي الأرض بعد موتها ، وأنّها

تبشّر النّاس بهبوبها ، فيدخل عليهم بها سرور .

وأصل معنى قولهم : بين يدي فلان ، أنّه يكون أمامه بقرب منه (ولذلك قوبل بالخَلْف في قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [البقرة : 255] فقصد قائله الكناية عن الأمام ، وليس صريحاً ، حيث إنّ الأمام القريب أوسع من الكون بين اليدين ، ثمّ لشُهْرة هذه الكناية وأغلبيَّة موافقتها للمعنى الصريح جُعلت كالصّريح ، وساغ أن تستعمل مجازاً في التّقدّم والسّبق القريب ، كقوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [سبأ : 46] ، وفي تقدّم شيء على شيء مع قربه منه من غير أن يكون أمامه ومن غير أن يكون للمتقدّم عليه يَدَان .

وهكذا استعماله في هذه الآية ، أي يرسل الرّياح سابقة رحمته .

والرّحمة هذه أريد بها المطر ، فهو من إطلاق المصدر على المفعول ، لأنّ الله يرحم به .

والقرينة على المراد بقيّة الكلام ، وليست الرّحمة من أسماء المطر في كلام العرب فإنّ ذلك لم يثبت ، وإضافة الرّحمة إلى اسم الجلالة في هذه الآية تبعد دعوى من ادعاها من أسماء المطر .

والمقصد الأوّل من قوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ تقريع المشركين وتفنِيد إشراكهم ، ويتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم ، لأنّ الموصول دلّ على أنّ الصّلة معلومة الانتساب للموصول ، لأنّ المشركين يعلمون أنّ للرّياح مُصرّفاً وأنّ للمطر مُنْزلاً ، غير أنّهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل ، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنيّة إلى المجهول غالباً ، فيقولون : مُطرنا بنَوْء الثّريا ويقولون : غِثْنَا مَا شِئْنَا .

مبنياً للمجهول أي أُغثنا ، فأخبر الله تعالى بأنّ فاعل تلك الأفعال هو الله ، وذلك بإسناد هذا الموصول إلى ضمير الجلالة في قوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ أي الذي علمتم أنّه يرسل الرّياح وينزل الماء ، هو اللَّهُ تعالى كقوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16] ، فالخبر مسوق لتعيين صاحب هذه الصّلة .

فهو بمنزلة الجواب عن استفهام مقصود منه طلب التّعيين في نحو قولهم : أرَاحل أنت أم ثاوٍ ، ولذلك لم يكن في هذا الإسناد قصر لأنّه لم يقصد به رد اعتقاد ، فإنّهم لم يكونوا يزعمون أنّ غير الله يرسل الرّياح ، ولكنّهم كانوا كمن يجهل ذلك من جهة إشراكهم معه غيرَه ، فروعي في هذا الإسناد حالُهم ابتداء ، ويَحصل رعي حال المؤمنين تبعاً ، لأنّ السّياق مناسب لمخاطبة الفريقين كما تقدّم في الآية السّابقة .

و﴿ حتّى ﴾ ابتدائية وهي غاية لمضمون قوله : ﴿ بشرا بين يدي رحمته ﴾ ، الذي هو في معنى متقدّمة رحمتَه ، أي تتقدّمها مدّة وتنشر أسحبتها حتّى إذا أقلّت سحاباً أنزلنا به

الماء ، فإنزال الماء هو غاية تقدّم الرّياح وسبقها المطرَ ، وكانت الغاية مجزأة أجزاء فأوّلها مضمون قوله : ﴿ أقلت ﴾ أي الرّياحُ السّحابَ ، ثمّ مضمون قوله : ﴿ ثقالاً ﴾ ، ثم مضمون ﴿ سقناه ﴾ أي إلى البلد الذي أراد الله غيثه ، ثمّ أن يَنزل منه الماء .

(52/273)

وكلّ ذلك غاية لتقدّم الرياح ، لأنّ المفرّع عن الغاية هو غاية .

الثّقال : البطيئة التّنقّل لما فيها من رطوبة الماء ، وهو البخار ، وهو السّحاب المرجوّ منه المطر ، ومن أحسن معاني أبي الطّيب قوله في : "حسن الاعتذار" :

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنّي . . .

أسْرَعُ السُّحْبِ في المَسيرِ الجَهَام

وطُوي بعضُ المغيَّا : وذلك أنّ الرّياح تُحرّك الأبخِرَة التي على سطح الأرض ، وتُمِدّها برطوبات تسوقها إليها من الجهات الندِيَّة التي تمرّ عليها كالبحار والأنهار ، والبُحيرات والأراضين الندِيَّة ، ويجتمع بعض ذلك إلى بعض وهو المعبّر عنه بالإثارة في قوله تعالى : ﴿ فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] فإذا بلغ حدّ البُخارِيَّة رفعته الرّياح من سطح الأرض إلى الجوّ .

ومعنى ﴿ أقلت ﴾ ، حملت مشتق من القلّة لأنّ الحامل يَعُد محموله قليلاً فالهمزة فيه للجعل .

وإقلال الرّيح السّحاب هو أنّ الرّياح تمرّ على سطح الأرض فيتجمّع بها ما على السّطح من البخار ، وترفعه الرّياح إلى العلوّ في الجوّ ، حتّى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجوّ ، فهنالك ينقبض البخار وتتجمّع أجزاؤه فيصير سحابات ، وكلّما انضمّت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقلُ من إحداهما حينَ كانت منفصلة عن الأخرى ، فيقلّ انتشارها إلى أن تصير سحاباً عظيماً فيثقل ، فينماع ، ثمّ ينزل مطراً .

وقد تبيّن أنّ المراد من قوله : ﴿ أقلت ﴾ غير المراد من قوله في الآية الأخرى ﴿ فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] .

(53/273)

والسّحاب اسم جمع لسحابة فلذلك جاز اجراؤه على اعتبار التّذكير نظراً لتجرّد لفظه عن علامة التّأنيث ، وجاز اعتبار التّأنيث فيه نظراً لكونه في معنى الجمع ولهذه النّكتة وصف السّحاب في ابتداء إرساله بأنّها تثير ، ووصف بعد الغاية بأنّها ثقال ، وهذا من إعجاز القرآن العلمي ، وقد ورد الاعتبارانِ في هذه الآية فوُصِفَ السّحاب بقوله : ﴿

ثقالاً ﴾ اعتباراً بالجمع كما قال صلى الله عليه وسلم و

" رأيت بَقَراً تُذْبَح " وأعيد الضّمير إليه بالإفراد في قوله : ﴿ سقناه ﴾ .

وحقيقة السَّوْق أنّه تسيير مَا يمشي ومُسَيِّرُه وراءه يُزجيه ويَحثُّه ، وهو هنا مستعار لتسير السّحاب بأسبابه التي جعلها الله ، وقد يجعل تمثيلاً إذا رُوعي قوله : ﴿ أقلت سحاباً ﴾ أي : سقناه بتلك الرّيح إلى بلد ، فيكون تمثيلاً لحالة دفع الرّيح السّحاب بحالة سوق السّائق الدّابة .

واللاّم في قوله : ﴿ لبلد ﴾ لام العلّة ، أي لأجل بلد ميّت ، وفي هذه اللاّم دلالة على العناية الرّبانية بذلك البلد فلذلك عدل عن تعدية (سقناه) بحرف (إلى) .

والبلد : السّاحة الواسعة من الأرض .

والميّت : مجاز أطلق على الجانب الذي انعدم منه النّبات ، وإسناد الموت المجازي إلى البلد هو أيضاً مجاز عقلي ، لأنّ الميّت إنّما هو نباتُه وثَمره ، كما دلّ عليه التّشبيه في قوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ .

والضّمير المجرور بالباء في قوله : فأخرجنا به يجوز أن يعود إلى البلد ، فيكون الباء بمعنى (في) ويجوز أن يعود إلى المَاء فيكون الباء للآلة .

والاستغراق في ﴿ كل الثمرات ﴾ استغراق حقيقي ، لأنّ البلد الميّت ليس معيّناً بل يشمل كلّ بلد ميّت ينزل عليه المطر ، فيحصل من جميع أفراد البلد الميّت جميع الثّمرات قد أخرجها الله بواسطة الماء ، والبلدُ الواحد يُخرج ثمراته المعتادة فيه ، فإذا نظرت إلى ذلك البلد خاصة فاجعل استغراق كلّ الثّمرات استغراقاً عرفياً ، أي من كلّ الثّمرات المعروفة في ذلك البلد وحرف (من) للتبعيض .

وجملة : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ معترضة استطراداً للموعظة والاستدلال على تقريب البعث الذي يستبعدونه ، والإشارة بـ (كذلك) إلى الإخراج المتضمّن له فعل ﴿ فأخرجنا ﴾ باعتبار ما قبله من كون البلد ميّتاً ، ثمّ إحيائه أي إحياء ما فيه من أثر الزّرع والثّمر ، فوجه الشّبه هو إحياء بعد موت ، ولا شكّ أنّ لذلك الإحياء كيفيّة قدّرها الله وأجمل ذكرها لقصور الإفهام عن تصوّرها .

وجملة : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ مستأنفة ، والرّجاء ناشىء عن الجمل المتقدّمة من قوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ لأنّ المراد التذكّر الشّامل الذي يزيد المؤمن عبرة وإيماناً ، والذي من شأنه أن يقلع من المشرك اعتقادَ الشّرك ومن مُنكِرِ البعث إنكارَه .

وقرأ الجمهور ﴿ تذّكّرون ﴾ بتشديد الذال على إدغام التّاء الثّانية في الذّال بعد قلبها ذالاً

، وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿ تَذَكَّرون ﴾ بتخفيف الذال على حذف إحدى التاءين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(55/273)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

وتصريف الرياح إهاجة للهواء في الكون ، والإهاجة للهواء في الكون تأتي منها فوائد كثيرة للغاية ، ونحن حين نجلس في مكان مكتظ وممتلئ بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة : " لنهوي الغرفة قليلاً . وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة لتأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى لا يظل الهواء راكداً . ويتلوث الجو بهذا الركود ، ولو أن كل إنسان سيستقر في مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثاني أكسيد الكربون الخارج من تنفسه ، ثم لا يلبث أن يختنق ، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة في كل شيء ، وهي أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نفس وماء وطعام ، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذي تتنفسه ، وكذلك تكوين الماء . لأن سبحانه القائل عن الرياح . ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا

سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ . . . ﴾ [الأعراف : 57]

والرياح هي التي تساعد في تكوين الأمطار التي تنزل على الأرض فتروي التربة التي نحرثها ، هكذا تكون الرياح بشرى في ثلاثة أشياء : الشيء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو في الماء ، لأن الرياح هي التي تحمل السحاب وتحركه وتنزل به هناك فرقاً بين بشرى ، وبشراً ؛ فالبشرى مفرد ، وقد وردت في قوله الحق : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى . . . ﴾ [هود : 69]

أي التبشير . لكن بشراً جمع بشير وهي كلمة مخففة ، والأصل فيها بشر .

والحق يقول : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير ﴾ .

(56/273)

وجمع البشير "بُشُر" مثل : "نذير" و"نُذُر" بضم الشين فسكنت تخفيفا ، فتنطق بُشْراً وبُشُراً . ﴿ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

هي بين يدي رحمته لأنها ستأتي لنا بالماء ، وهو الرحمة في ذاته ، وبواسطته يعطينا ري الأرض ، ونحن نرتوي منه مباشرة أيضاً . ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهي تأتي للخير ، أما حين يكون فيها شر فيأتي بكلمة "ريح" مفردة ، مثل قوله : ﴿ . . . بِرِيحٍ

صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6]

فإذن عندما ترى كلمة " رياح " فاعلم أنها خير ، أما كلمة " ريح " فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً في حجرة فيها فتحة نافذة يأتي منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتي من مكان واحد ، لكن حين تجلس في الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعبَ ، لأن الرياح متعددة . ولكن الرياح تأتي كالصاروخ . الرياح إذن يرسلها الحق بين يدي رحمته ؛ حتى إذا أقلت أي حملت يقال : " أقل فلان الحمل " أي رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده ، أقلت أي حملت ، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذي حملته لابد أن ينزل إلى الأرض .

وأقلت سحاباً أي حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب ؛ فينزل المطر ؛ ونرى ذلك في الماء المقطر الذي يصنعونه في الصيدلية ؛ فيأتي الصيدلي بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلي الماء فيخرج البخار ليسير في الأنابيب التي تمر في تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ .

وقال الحق : " سقناه " بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب في اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : " ثقالا " نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة في السّوق فليس لها تعددات فكأنها شيء واحد . ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [الأعراف : 57]

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ .

والميت هو الذي لا حراك فيه وانتهى اختياره في الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء ينزل من السماء على الأرض وهي هامدة ليس بها حركة حياة أي أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت في أي مكان من الأرض . ﴿ . . . فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5]

إذن فالأرض التي لا يأتيها الماء تظل هامدة أي ليس بها حركة حياة مثل الميت . ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات . . . ﴾ [الأعراف : 57]

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التي نراها دائما في صور

شتى ، وهي أن الأرض تكون في بعض الأحيان جدباً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل في اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذي بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه ، وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة في الأرض فيها مقومات الحياة . ﴿ . . . فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 57]

(58/273)

فالماء الذي ينزل على الأرض الميتة يحيي الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أن سيبعثنا من جديد فليس في هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسيّ مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(59/273)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ " ، وفى سورة الفرقان : " وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) " وقال فى سورة الروم : " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) " ، وقال فى سورة الملائكة[فاطر] : " وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) " .

(60/273)

وقع فى هذه الآى اختلاف مع تشابهها فى اللفظ وتقارب مقاصدها فأول ذلك اختلاف مطالعها بورود يرسل وأرسل ، الثانى وصف الرياح وإتباعها بقوله فى الأعراف والفرقان :

"نشرا بين يدى رحمته " ولم يرد ذلك فى سواهما الثالث ما يكون عن إرسال الرياح ففى آية الأعراف : "حتى إذا أقلت سحابا " ، وفى سورة الروم وسورة الملائكة : "فتثير سحابا " ولم يذكر ذلك فى الفرقان وفى سورة الأعراف بعد ذكر إقلال الرياح السحاب : "سقناه لبلد ميت " ، وفى سورة الاملائكة : "فسقناه إلى بلد " وفى سورة الروم بعد إثارة الريح السجاب : "فيبسطه فى السماء " ، "ويجعله كسفا " ، وفى الأعراف : "فأنزلنا به الماء " ، وفى الفرقان : "وأنزلنا من السماء ماء طهورا " " وفى الروم : "فترى الودق يخرج من خلاله " ولم يرد فى الملائكة ذكر لإنزال الماء ولا كيفيته وفى الأعراف : "فأخرجنا به من كل الثمرات " ، وفى الفرقان : "لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا " وفى الروم : "فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون " وفى سورة الملائكة "كذلك النشور " ولم يقع فى الأخيرتين إحالة التشبيه ، وفى الأعراف "لعلكم تذكرون " ولم يقع فى سورة الأعراف مثل هذا الترجى فهذه جملة سؤالات .

(61/273)

والجواب عن السؤال الأول : " أن آية الأعراف لما تقدمها قوله تعالى : "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش " فذكر سبحانه ما تقرر

وتحصل من خلق السماوات والأرض مما لا تكرر فيه وهما أعظم آياته وأعقب سبحانه بقوله : "ثم استوى على العرش " محمولا على ما تقرر بثم المقتضية التنبيه على جليل الحال فيما يعطف بها والتحريك للاعتبار بذلك وموقعه ورتبته حيث لا يراد مهلة الترتيب الزمانى لأن موضوع ثم فى اللسان قصد الترتيب الزمانى مع المهملة حيث يراد ذلك وقصد الترتيب الاعتنائى والتنبيه على حال ما عطف بها حيث لا يقصد زمان ولا يلحظ كقوله تعالى : "إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر " فهذا وارد مورد الدعاء على من يخاطب به البشر كما يرد التعجب والترجى وربنا المنزه عن ذلك كله ولكن خوطب البشر على ما يتعارفون ويجرى بينهم فلما قال سبحانه : "ثم استوى على العرش " فذكر ما هو تعالى عليه منزها عن الآنية والتمكن المكانى والمناسبة والحلول جل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فلما ذكر تعالى من هذه الأفعال العظيمة ما ذكر مما لا يتكرر أعقب سبحانه بما يتكرر ويتوالى من إنعامه على الخليقة مما به قوام أحوالهم ومصالح عيشهم ، فقال سبحانه : "يغشى الليل النهار " وأورد ما يتوالى بطول نواله العالم بمشيئته ويتجدد عليهم مما به قوام حالهم إلى انقضاء الأمد المحدود ومجئ اليوم الموعود واتبع هذا التعريف بما يجارى الجمل الاعتراضية حال الكلام مما يلائم ويناسب ذلك تعريفه بقوله : "ألا له الخلق والأمر " ، فأعلم باعتراضه لخلق ذلك كله وتصرف أمره فى الجميع بما شاء وأخبر بتعاليه وعظمته فقال : "تبارك الله رب العالمين " ، وأمر عباده بالدعاء والتضرع إليه وحذرهم وذكرهم

باستصحاب الخوف وتلك حال الموقنين إذ لا يؤمن مكره ولا ييأس من روحه ، ثم رجاهم بقرب رحمته ممن أحسن ثم عاد الكلام إلى التذكير بجليل المتوالى من

(62/273)

إنعامه وعظيم ألطافه فقال : "وهو

الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته " فانتظم آخر الكلام بأوله وارتبط عوده ببدئه وتناسب أوضح تناسب بما يفهمه الفعل المضارع من التكرر من حيث لا يمنع ذلك ولو ورد هنا بلفظ الماضى لما ناسب لما يقتضيه الانقطاع إلا لحامل والله أعلم .

وعلى هذا النحو جرى الوارد فى سورة الروم فإنه ورد قبل الآية قوله تعالى : "ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات " فذكر من آياته وإنعامه بإرسال الرياح وإجراء الفلك ليبتغى فضله ويطلب الرزق منه حال الظعن والإقامة ثم اعترض بقوله تأنيسا لرسوله ووعدا بنصره : "ولقد أرسلنا من قبله رسلا إلى قومه فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين " ثم عاد الكلام إلى إتمام ما تقدم مما يرسل سبحانه به ولا جله الرياح فقال بصورة الاستئناف لأجل آية الاعتراض : "الله الذى يرسل الرياح " وأورد من النعم بها ما ذكر قبل وجاء بلفظ الاستقبال لأنه من تتميم ما تقدم وليناسبه ولو جاء بلفظ الماضى

لما ناسب والله أعلم .

وأما آية الفرقان فقد تقدمها قوله تعالى : "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا " فورد قبلها ذكر هذه الدلالات وواضح هذه الشواهد وقد تقيد زمان خلقها بالماضى فى خمس كرات مع أنها مما يتكرر فى الآيات ويتوالى وكذا فى مطلع السورة وما وقع بعده مما يعتبر به وليس بإخبار أخراوى فأتبع سبحانه ذلك بموافق مناسب فقال : "وهو الذى أرسل الرياح نشرا " ولم يكن ورود المستقبل هنا ليناسب فجاء على ما يجب .

(63/273)

وأما آية سورة الملائكة فمبنية على مطلع السورة وذلكم قوله تعالى : "الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة " و"فاطر " و "جاعل "هنا بمعنى المضى ولا يمكن فيهما غير ذلك ولم يقع بعد هذا ذكر مقصود به الاعتبار من مخلوقاته سبحانه مما نصبه دالا عليه إلا قوله : "الله الذى أرسل الرياح " فجاء ذلك مناسبا لقوله : "فاطر السماوات والأرض "و " جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة " لموافقة الفعل الماضى

اسم الفاعل معنى ومناسبته ولا يناسبه المستقبل وأما ما وقع بين الآية وبين ما بنيت عليه مما ذكرنا فليس من قبيل المذكور فيه ما نصبه سبحانه دليلا للاعتبار لذوى الافتكار كخلق السماوات والأرض وإرسال الرياح فهذه المذكورات الثلاث هى المقصودة هنا للاعتبار .

أما قوله : "يزيد فى الخلق ما يشاء " إلى ما بعده إلى آية إرسال الرياح مع جليل إلتحامه بما اتصل به فليس من قبيل ما ذكرناه ولا يمنع من حمل الآية المتكلم فيها على نحو ما ذكر وجملها عليه ولا يناسب المستقبل هنا ما تقدمه مما بينا حمله عليه وأنه لا يصح حمله على غير ما ذكر والله أعلم بما أراد .

(64/273)

والجواب عن السؤال الثانى : إن آية الأعراف قد تقدمها قوله تعالى : "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض " ثم قال : "ادعوا ربكم تضرعا وخفية " وقال : "وادعوه خوفا وطمعا " ثم قال : "إن رحمة الله قريب من المحسنين " وفى هذا كله استلطاف وتعطف ترج ومن نحو هذا الاستلطاف ومجاريه فى قوة الترجى قوله سبحانه فى سورة الفرقان : "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . . . "الآية ، ثم قال : "هو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا " فهذا أعظم

استلطاف فناسب الوارد فى السورتين من هذا قوله تعالى عقب إرسال الرياح قوله : "نشرا بين يدى رحمته " ولما يرد فى سورة الروم ولا فى سورة الملائكة مثل ذا الاستلطاف ولا بعضه لم يتبع ذكر إرسال الرياح بما اتبع فى آيتى الأعراف والفرقان إذ لم يكن ذلك ليناسب فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثالث : أن آية الأعراف لما قيل فيها : "فأخرجنا به من كل الثمرات " فعم بكل وهى من نصوص ألفظ العموم ناسب ذلك ورود ما يفهم كثرة ماء السحاب إذ لا يحصل منه إخراج ما يقدر إخراجه من كل الثمرات الا بكثرته فذكر استقلال السحاب الكثير وهو الذى يعطيه قولا "ثقالا " وانما تثقل بكثرة مائها وذلك يثقلها ولا يكون استقلالها بما يثقلها من الماء الا بعد إشارتها فكأن قد قيل : أثارت الرياح السحب فأثقلتها بالماء الكثير فناسب هذا كله ولم يكن مجرد ذكر إثارة السحاب ليعطى كثرة مائها وتكثير الثمر المخرج به مع أن الإثارة مفهومة فحصل فى هذا النظم العلى الإيجاز والوفاء بالتوسعة والتعميم المقصود ولما لم يقع فى الآى الأخر توسعة فى المخرج بالماء وقع الاكتفاء بذكر إثارة السحاب وحصل إرسالها الماء مما بعد .

فإن قلت : فقد ورد فى سورة الملائكة : "فأحيينا به الأرض بعد موتها " وذلك تعميم ومع ذلك فقد وقع الاكتفاء فيها بقوله : "فتثير سحابا " قلت لفظ الأرض لا يعم فى كل موضع إذ ليس من ألفاظ العموم بدليل قوله تعالى : "إن فرعون علا فى الأرض " وهو لم يستول إلا على بعضها وبدليل قوله تعالى : "أو ينفوا من الأرض " وبالجملة فليست الألف واللام هنا للعموم ولا هى حيث تفهم العموم بمنزلة كل وطرأ وأجمعين ولا نزاع فى هذا فالاكتفاء فى سورة الملائكة بذكر الاثارة فقط بين .

وأما سورة الروم فليس فيها عموم بل فيها خصوص حاصل من التقييد بقوله : "فإذا أصاب له به من يشاء من عباده " ، والاكتفاء فيها بذكر إثارة الرياح السحاب أبين شئ فجاء كل على ما يناسب ولا يمكن خلافه .

ولم يرد فى سورة الفرقان ذكر إثارة الرياح السحاب اكتفاء ببشارة قوله : "بين يدى رحمته " لأنه قصد هنا ذكر الإنعام ولم ينط بذلك ما يقصد به امتداد الاعتبار ألا ترى قوله قبل الآية : "وهو الذى جعل لكم الليل لباسا وجعل النهار نشورا " فقصد ذكر الإنعام ثم الاعتبار جار مع ذلك ثان عن المقصود من ذكر الإنعام فلم يذكر الا بادئ الإنعام ، فجاء كل على ما يناسب ولا يمكن خلافه والله سبحانه أعلم .

والجواب عن السؤال الرابع : وهو الفرق بين ما فى الأعراف وسورة الملائكة من سوق الرياح السحاب إلى البلد الميت وما فى سورة الروم من قوله : "فيبسطه فى السماء كيف يشاء

ويجعله كسفا " بزيادة ذكر سوقه إلى بلد ميت فى آيتى الأعراف والملائكة وسقوط ذلك فى سورة الروم مع زيادة بيان حال السحاب وانتشارها فى السماء وتقطيعها لانبعاث المطر فيقول السائل : إن كان الكلام مقصودا به قصد الإطالة فلم يرد فيها الوارد فى الأخريين من قوله : "فسقناه إلى بلد ميت " وإن كان قد قصد به الإيجاز فلم ورد هذا الإطناب هنا بما بسط من حال السحاب ؟

(66/273)

والجواب عن ذلك : ان الآيات الثلاث محرزة أجل إيجاز وأبلغه ، وان آية الروم لم يسقط منها شئ من التعريف بسوق السحاب إلى البلد الميت وإنما الحاصل على ما زيد فيها من بيان حال السحاب ما قصد من تحريك المعتبر وتنبيهه على ما فيه أعظم دلالة وأوضح برهان ، ألا ترى تقديم قوله : "ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته " وجليل موقع هذه الاستعارة وقوله : "ولتجرى الفلك بأمره " ثم أشير إلى تسخير الفلك بقوله : "ولتبتغوا من فضله " فقد ورد هنا تعداد نعم جليلة فلما عاد الكلام إلى ارسال الرياح وذكر إثارتها السحاب اتبع ذلك بما يناسب فقال تعالى : "يبسطه فى السماء كيف يشاء "والإشارة إلى ما تؤمه السحاب ببسطه سبحانه إياها فتوارى من أقطار الأرض وجهاتها ما يشاء

سبحانه إحياءه وسقيه ويجعلها سبحانه كسفا أى قطعا متخلخلة لنفوذ ما تحملت من الماء فينبعث الماء من تلك المسام كانبعاث العرق من مسام الأجساد : "فترى الودق يخرج من خلاله " وبحسب ما حملها سبحانه أو ثقلها من الماء يكون المرسل عنها فى الكثرة وما دونها : "فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون " فلما انبنت هذه الآية على ما قصد من زيادة التنبيه وتوفيه الاعتبار خصت بما لم يقع فى آيتى الأعراف والملائكة وإنما لم يذكر هنا سوقها للبلد الميت لحصول ذلك من قوله بعد : "فتنظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها " فلو قيل أولا : "فسقناه إلى بلد ميت " لكان تكرارا فإذا تأملت ما ذكرناه وعظيم التنبيه مع جليل الإيجاز بحسب ما قصد وعلى البلاغة وموجب المزيد فى آية الروم وما يستدعيه المكتنفان لهما من قوله قبلها : "ومن آياته أن يرسل الرياح" وقوله بعدها : "فانظر إلى أثر رحمة الله . . . "الآية وتحريك المعتبر ولم يذكر ذلك فى الأخريين ويتبين لك أنه لم ينقص منها شئ وإن كلا منها وارد على ما يجب ولم يكن ليناسب خلافه والله أعلم .

(67/273)

والجواب عن السؤال الخامس : أن قوله فى الأعراف : "سقناه لبلد ميت " وفى سورة الملائكة : "فسقناه إلى بلد ميت " لفارق بين الموضعين هو أن قوله تعالى فى الأعراف : "حتى إذا أقلت سحابا ثقالا " كلام يستدعى جوابا ألا ترى أنه فى قوة قول القائل : فلما استقلت السحاب بما فيها من الماء ومثل هذا فى استدعاء الجوابية لا توقف فيه وليس مما يجاوب بالفاء وإنما جواب ذلك مثل هذا مجردا فيه الفعل عن الفاء وغيرها قال تعالى : "حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف " فالجواب هنا قوله : "جاءتها ريح عاصف " وقال تعالى : "فلما جاءتهم ما عرفوا كفروا به " ومنه آية الأعراف المذكورة لا مدخل فيها للفاء لا التى تقع جوابا ولا العاطفة إذ ليس قوله تعالى : "فسقناه لبلد ميت " معطوفا على ما قبله أما قوله تعالى فى سورة الملائكة : "الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها " فكلام معطوف بعضه على بعض بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب ليطابق اللفظ ما تحته من المعنى فلزمت الفاء هنا لاحتراز معناها وقد تقرر انها لا مدخل لها فى آية الأعراف فورد كل على ما يجب ولما استدعى لفظ "سقناه "المكان المسوق إليه وإنما يصل إليه بلام الجر أو بإلى عدى فى الإعراب بلام الجر فقيل "لبلد " ليناسب المجرور فعله الذى استدعاه فى الوجازة ولما طال الفعل فى الآية الأخرى بما لزمه من حرف التعقيب ناسبه تعديته بإلى إسهابا وإيجازا مقابل إيجاز وأما آية الروم ففيها زيادة التعريف بكيفية انفصال الماء من

السحاب وانه يخرج من خلاله مقسطا على الأرض مجزءا ليستوى اليقى ويتناسب كسريان الغذاء فى الأبدان بعد تهيئته ولو صب من جانب دون ما أشار إليه التخلل لأضر ولم تحصل به المنفعة وهو زيادة فى الاعتبار وإطلاق على عظيم الحكمة زكل هذه الآى متلائمة متعاضدة لا تعارض فيها ولا إشكال وقد تضمن هذا الجواب أجوبة عن

مواضع من هذه الآى وقوله فى

الأعراف : "فأخرجنا به من كل الثمرات " مناسب لقوله : "حتى إذا أقلت سحابا ثقالا " لما تقدم ما يشير إلى كثرة مائها ناسبه التعريف بكثرة ما يخرج سبحانه به من مختلف الثمرات ولما قصد فى آية الفرقان سقى الحيوان العاقل وغير العاقل ناسبه ما تقدم من وصف الماء بالطهورية والطيب وقد حصل إخراج الثمرات بقوله لنحيى به بلدة ميتا وأما قوله فى سورة الروم : "فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم مستبشرون " فجار مع قوله قبل الآية : "ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات " لما ذكر سبحانه إرسالها مبشرات اتبع ذلك ما به البشارة وهو الودق المرسل من السحاب المشار بها والاخبار بمن المبشر بها وهو من يشاء تخصيصه من عباده بتلك الرحمة فأوضح آخر الآية المجمل قبلها وحصلت ما

قصد بها على أكمل تناسب وأما قوله فى سورة الملائكة : "فأحيينا به الأرض بعد موتها " فمبنى على قوله : "يأيها الناس إن وعد الله حق " والمراد بهذا العودة الأخراوية فأرى سبحان مثالا يوضحها لمن تدبر وعقل فقال تعالى : "سقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها " ثم قال : "كذلك النشور " والآى قبلها لم يتقدمها مثل ما تقدم هذه من تحريك الخلق وتخويفهم بالوعد الأخراوى فلم تعقب بمثل ما أعقبت به من هذه من تحرير التشبيه وان كان فى أكثرها التشبيه على إحياء الموتى ولكنه ليس كالواقع هنا .

(69/273)

والجواب عن قوله فى سورة الأعراف : "كذلك نخرج الموتى " أنه مقابل بقوله : "فأخرجنا به من كل الثمرات " ولم يرد هكذا فى سائر الآيات أعنى التعبير بلفظ الإخراج لما ينبت المطر وما يخلق سبحانه فى الأرض ولما ورد فى سورة الملائكة قوله سبحانه : "فأحيينا به الأرض بعد موتها " قوبل تشبيها بقوله : "كذلك النشور " ولم يكن ليتحر المراد لو قيل : كذلك الإحياء ولو قيل : كذلك إحياء الموتى لاجتمع فيه الطول مع مخالفة الفواصل فيما قبل الآية وما بعدها ، ألا ترى قوله تعالى : "ولا يغرنكم بالله الغرور " قوله بعد الآية : "ومكر أولئك هو يبور " وما تخلل الآيتين وما ورد بعدها ثم إن النشور هو إخراج الموتى وإحياؤهم

مع أنه أوجز وأطبق للفواصل فجاء كل على ما يناسب واما سائر الآي فلم تبن على قصد التشبيه ولا جرى فيها ذلك فوقع الاكتفاء فيها بمجرد الإيماء والإحالة على غير طريقة التشبيه .

والجواب عن تعقيب آية الأعراف بترجى التذكير من قوله : "لعلكم تذكرون " مناسب لقوله : "فأحيينا به من كل الثمرات " لأن الماء المنزل من السماء واحد لا يختلف وان اختلفت أحواله فى الكثرة والقلة وطول زمن الانزال وقصره فالمذاق والطعم والصفة لا تختلف والمخرج به بإذن الله من ضروب الثمرات مختلف فى الطعم واللون والرائحة إلى غير ذلك من صفاته قال تعالى : "تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل " ففى هذا أعظم عبرة لمن استبصر وأدل دليل على القدرة التى تجل عن الحد والغاية وأعظم شاهد على إحياء الموتى فلهذا أعقبت برجاء التذكير فقيل : "لعلكم تذكرون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 182 . 189 ﴾

(70/273)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

على قراءة عاصم ﴿ بُشْرًا ﴾ بضم الباء الموحدة ، وإسكان الشين : جمع بشير ، لأنها تنتشر أمام المطر مبشرة به ، وهذا المعنى يوضحه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم : 46] الآية ، وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ، يعني برحمته المطر كما جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى : 28] الآية ، وقوله : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : 50] .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ الآية .

بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح ، ثم يسوقه إلى حيث يشاء من بقاع الأرض ، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر : 9] الآية . وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

أخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ على الجماع ﴿ بشراً ﴾ خفيفة بالباء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : إن الله يرسل الريح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان فيخرجه من ثَمَّ ، ثم ينشره فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ بشراً بين يدي رحمته ﴾ قال : يستبشر بها الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله اليماني أنه كان يقرأها ﴿ بشراً ﴾ من قبل مبشرات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ بين يدي رحمته ﴾ قال : هو المطر . وفي قوله ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ قال : وكذلك تخرجون ، كذلك النشور كما يخرج الزرع بالماء .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في

قوله ﴿ وكذلك نخرج الموتى ﴾ قال : إذا أراد الله أن يخرج الموتى تمطر السماء حتى تشقق عنهم الأرض ، ثم يرسل الأرواح فيهوي كل روح إلى جسده ، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كاحيائه الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(72/273)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " الرِّيَاحَ بُشْراً "

قد تقدَّم خلاف القرَّاءِ في إفراد " الرِّيحِ " وجمعها بالنِّسْبَة إلى سائر السُّور في البقرة .

وأمّا " بُشْراً " فقرأه في هذه السّورة - وحيث ورد في غيرها من السُّورِ - نافع وأبو عمرو وابن كثير بضم النون والشِّين ، وهي قراءة الحسنِ وأبي عَبْدِ الرَّحْمنِ ، وأبي رجاء بخلاف عنهم ، وشَيْبَةَ بْن نصَاحٍ وعيسَى بْنِ عُمر وأبي يحيى ، وأبي نَوْفَلٍ الأعْرَابيَّيْنِ .

وفي هذه القراءة وجهان فيتحصَّل فيها ستَّةُ أوْجُه :

أحدها : أن " نُشُراً " جمع نَاشِرٍ كـ " بازل " و " بُزُلٍ " و " شَارِفٍ " و " شُرُفٍ " وهو جمع شاذٌّ في فاعل .

ثم "نَاشِرٌ" هذا اختلف في معناه فقيل: هو على النَّسَبِ: إمَّا إلى النّشْر ضدَّ الطيِّ، وإمَّا إلى النُّشُورِ بمعنى الإحياء كقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ [الملك: 25]، والمعنى: ذا نَشْرٍ، أو نشورٍ كـ"لابنٍ" و"تَامِرٍ".

وقيل: هو فاعل من نَشَرَ مطاوع أَنْشَرَ يُقال: أَنْشَرَ اللَّهُ الميّتَ، فَنَشَرَ فهو نَاشِرٌ، وأنشد: [السريع]

2491 - حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا . . .

يَا عَجباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

وقيل: ناشرٌ بمعنى مُنشِرٌ أي: المُحْيي تقول: نَشَرَ اللَّهُ الموتى وأَنْشَرَهَا، ففعل وأَفْعل على هذا بمعنى واحد، وهذه الثَّالِثَةُ ضعيفة.

الوجه الثاني: أنَّ نُشُراً نَشُور، وهذا فيه احتمالان:

أرجحهما: أَنَّهُ بمعنى فاعل، وفعول بمعنى فاعِل ينقاس جمعُه على فُعُل كصَبُور، وصُبُر، وشكور، وشُكُر أي متفرقة، وهي الرِّيَاحُ التي تأتي من كل ناحية والنّشر التفريق، ومنه نَشْرُ الثَّوْبِ، ونشر الخَشَبَةِ بالمِنْشَارِ.

وقال الفراءُ: "النَّشْرُ من الرِّيح الطيِّبة اللينَةِ التي تنشىء السَّحاب، واحدها نُشُورٌ، وأصله من النَّشْرِ وهو الرَّائحَةُ الطيِّبَةُ.

والثاني : أَنَّهُ بمعنى مفعول كَرَكُوبٍ وحلوب بمعنى مَرْكوب ومَحْلُوبٍ قالوا : لأنَّ الرِّيح تُوْصَفُ بالمَوْتِ وتوصفُ بالإحياء فمن الأوَّل قوله : [الرجز]

2492 - إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَمُوتَ الرِّيحُ . . .

فأَقْعُدُ اليَوْمَ وأَسْتَرِيحُ

ومن الثاني قوله : " أَنْشَرَ اللهُ الرِّيحَ وأَحْيَاهَا " وفعول بمعنى مفعول يُجْمع على فُعُل كرسول ورُسُلٍ .

وبهذا قال جماعةٌ كثيرةٌ ، إلا أنَّ ذلك غير مقيس في المُفْرَدِ وفي الجمع ، أعني أنه لا يَنْقَاسُ فعول بمعنى مفعول لا تقُولُ : زيد ضروب ولا قتول بمعنى مضروب ومقتول ، ولا ينقاسُ أيضاً جمع فَعُول بمعنى مفعول على فُعُل .

فَحَصَلَ في هذه القراءة ستَّة أَوْجُهٍ :

الأول : أَنَّها جمع لناشرٍ بمعنى : ذا نشر ضدَّ الطيِّ .

الثاني : جمع ناشِرُ بمعنى : ذي نشور .

الرابع : جمع ناشر بمعنى مُنْشِرٍ .

الخامس : جمع نُشورٍ بمعنى : فاعلٍ .

السادس : جمع نُشورٍ بمعنى : مَفْعول .

وقرأ ابن عامر بضمِّ النُّون وسكون الشين ، وهي قراءة ابن عبَّاس ، وزرِّ بين حُبَيْشٍ ، ويحيى بن وثَّاب ، والنَخعيِّ وابن مصرف ، والأعمش ، ومَسْرُوقٍ ، وتخريجها بما ذكر في القراءة قبلها ، فإنَّهَا مخفَّفة منها ، كما قالوا : رُسْل في رُسُل وكُتْب في كُتُب ، فَسكّنوا الضمَّة تخفيفاً ، وإذا كَانُوا قد فعلوا ذلك في المفرد ، الذي هو أخفُّ من الجَمْعِ كقولهم في عُنُقٍ : عُنْقٌ ، وفي طُنُب : طُنْبٌ ، فما بالهم في الجمع الذي هو أثقل من المفرد ؟

وقرأ الأخوان : " نَشْراً " بفتح النُّونِ وسكون الشّين ، ووجهها أنَّهَا مَصْدَرٌ واقع موقع الحَالِ بمعنى ناشرة ، أو منشورة ، أو ذاتُ نَشْرٍ [كُلُّ ذلك على ما تقدَّم في نظيره .

وقيل : نَشْراً مصدر مؤكّد ؛ لأنَّ أرسل ، وأنْشَرَ متقاربان .

وقيل : نَشْراً] مصدر على حذف الزَّوائد أي : إنشاراً ، وهو واقع موقع الحال أي : مُنْشِراً ، أو مُنْشَراً حسب ما تقدَّم في ذلك .

(74/273)

وقرأ عَاصِمٌ : "بُشْراً " بالبَاءِ الموحَّدَةِ مضمومة وسكون الشّين ، وهو جمع بشيرة كنذيرة ونُذُر .

وقيل : جمع فعيل كَقَلِيبٍ وقُلُب ورغيب ورُغُف ، وهي مأخوذةٌ في المعنى من قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم : 46] أي تبشّرُ بالمطر ، ثم خفّفت الضَّمَّةُ كما تقدَّم في " النُّشُر " ، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ ابن عباس والسُّلمي وابن أبي عبلة قرأوا بضمِّهَا ، وهي مرويَّة عن عاصم نفسه فهذه أربعُ قراءات في السَّبْع .

والخامسة : ما ذكرناه عن ابن عباس ومن معه .

وقرأ مسورق : " نَشَراً " بفتح النُّونِ ولاشّين وفيها تخريجان :

أحدهما : نقله أبو الفتحِ : أنَّهُ اسم جمعٍ كـ " غَيَب " وَ " نشأ " لغائبة وناشئَةٍ .

والثاني : أنَّ فَعَلاً بمعنى مفعول كَقَبَضَ بمعنى مَقْبُوضٍ .

وقرأ أبو عبد الرحمن : " بَشْراً " بفتح الباء وسكون الشّين ورُويت عن عاصم أيضاً على أنه مصدر " بَشَر " ثلاثياً .

وقرأ ابن السَّمَيْفَع : " بُشْرى " بزنة رُجْعَى ، وهو مصدر أيضاً ، فهذه ثَمَانِ قِراءاتٍ :

أربع مع النُّونِ ، وأربع مع الباء ، هذا ما يتعلَّقُ بالقراءات ، وما هي بالنِّسْبَةِ إلى كونها مفردة أو جمعاً .

وأمَّا نَصْبُها فإنَّها في قراءة نَافِعٍ ، ومن معه وابن عامر منصوبة على الحال من " الرِّياح " أو " الرِّيح " حسب ما تقدَّم من الخلاف وكذلك هي في قراءة عَاصِمٍ ، وما يشبهها .

وأمَّا في قراءة الأخوين ، ومسروق فيحتمل المصدريَّة ، أو الحاليَّة ، وكلُّ هذا واضح ، وكذلك قراءة " بُشْرَى " بزنة رجعى ولا بدَّ من التَّعرُّض لشيء آخر ، وهو أنَّ من قرأ " الرِّياح

" بالجمع وقرأ " نُشْراً " جمعاً كنافع ، وأبي عمرو فواضح .

وأما من أفرد " الرِّيح " وجمع " نُشْراً " كابن كثير ، فإنَّهُ يجعل الرِّيح اسم جنس ، فهي جمع في المَعْنَى ، فوصفها بالجمع كقول عنترة : [الكامل]

(75/273)

2493 - فيهَا اثْنَتَانِ وأرْبَعُونَ حَلُوبَةً . . .

سُوداً كخَافِيَةِ الغُرَابِ الأسْحَمِ

والحالِيَّةُ في بعض الصُّوَرِ يجوز أن تكون من فاعل "يُرْسلُ" ، أو مفعوله وكلُّ هذا يُعْرف مما تقدم .

قوله : "بَيْنَ" : ظَرْفٌ لـ "يُرْسِلُ" ، أو للبشارة فيمن قرأه كذلك .

وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي بين يدي المَطَرِ الذي هو رحمته ، وحسنُ هذا المجاز أنَّ اليدين تستعملهما العربُ في معنى التقدُمَةِ على سبيل المجاز ؛ يقال إن الفتن تحدثُ بين يدي السَّاعةِ يريدونَ قبلها ، وذلك لأنَّ يدي الإنسان مُتَقَدّمَانِه ، فكل ما يتقَدَّمُ شيئاً يطلق عليه لفظ اليَدَيْنِ مجازاً لهذه المشابَهَةِ ، كما تقولُ لمن أحسن إليك وتقدَّم إحسانه ، له عندي أيادٍ ، ولما كانت الرِّيَاحُ تتقدَّمُ المطر عَبَّرَ عنه بهذا اللفظ .

فإن قيل : قد نجد المطرَ لا يتقدَّمُهُ رِيَاحٌ ، فنقول : ليس في الآية أنَّ هذا التَّقدُّمَ حاصل في كلِّ الأحوال ، وأيضاً يجوز أن تتقدَّمَهُ هذه الرِّياحُ وإن كنَّا لا نعرفها .

قوله : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ ﴾ غاية لقوله : "يُرْسِلُ" ، وأقلَّت أي حملت من أقْلَلْتُ كذا أي : حملته بسهُولَةٍ .

قال صاحبُ " الكشَّافِ : " واشتقاقُ الإقلال من القلَّةِ ، فإن مَنْ يرفعُ شيئاً فإنَّهُ يرى ما يرفعه قليلاً ، أقلَّهُ أي حمله بِسُهُولَةٍ ، والقُلَّةُ بضمِّ القافِ هو الظَّرْفُ المعروف وقِلال هَجَرٍ كذلك ؛ لأنَّ البعيرَ يُقِلُّها أي يحملها .

وتقدَّم تفسير " السَّحابِ " ، وأنَّهُ يُذكَّر ويؤنَّثُ ، ولذلك عاد الضَّميرُ عليه مُذَكَّراً في قوله : " سُقْنَاهُ " .

ولو حمل على المعنى كما حمل قوله " ثِقَالاً " فجُمِعُ لقال : " سُقْنَاهَا " .

و" لِبَلَدٍ " جعل الزَّمَخْشَرِيُّ " اللاَّم " للعلَّةِ ، أي : لأجل .

(76/273)

وقال أبو حيَّان : فرقٌ بين قولك : سقتُ له مالاً ، وسُقْتُ لأجله مالاً ، بأنَّ سُقْتُ له أوْصَلْتُ إليه ، وأبْلَغْتَهُ إيَّاهُ ، بخلاف سُقْتُهُ لأجْلِهِ ، فإنَّهُ لا يلزمُ منه إلاَّ إيصاله له ، فقد يسوق

المال لغير لأجلي ، وهو واضح .

وقيل : هذه اللامُ بمعنى " إلى " ، يقال : هَدَيْتُهُ للدِّين ، أو إلى الدِّين .

وتقدَّم الخلافُ في تخفيف " مَيِّتٍ " وتثقيله في آل عمران وجاء هنا وفي الروم [46] ﴿ يُرْسِلُ ﴾ بلفظ المستقبل مناسبة لما قبله ، فإنَّ قبله : " ادْعُوهُ خَوْفاً " وهو مستقبلَ ، وفي الروم [45] : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ ﴾ ، وهو مستقبل .

وأمَّا في الفرقان : [48] وفاطر [9] فجاء بلفظ الماضي : " أرْسَلَ " لمناسبة ما قَبْلَهُ وما بعدهُ في المضي ؛ لأنَّ قبله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ [الفرقان : 45] ، وبعده : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ [الفرقان : 53] ، فناسب ذلك الماضي ، ذكره الكَرْمَانِيُّ .

والبلد يطلق على كلِّ جُزْءٍ من الأرْضِ ، عامِراً كان ، أو خراباً ، وأنشدوا على ذلك قول الأعشى : [البسيط]

2494 - وبَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ مُوحِشَةٍ . . .

لِلجِنِّ بالليْلِ في حَافَاتِهَا زَجَلُ

قوله : " فَأَنْزَلْنَا بِهِ " الضَّميرُ في " به " يعود على أقرب مذكورٍ ، وهو " بَلَدٍ مَيِّتٍ " ، وعلى هذا فلا بدَّ من أن تكون الباء ظرفيّة ، بمعنى أنزلنا في ذلك البلدِ الميِّتِ الماء ، وجعل أبو حيّان هذا هو الظَّاهِرُ .

وقيل : الضَّميرُ يعود على " السَّحَابِ " ، ثم في " البَاءِ " وجهان :

أحدهما : هي بمعنى " مِنْ " أي : فأنزلنا من السَّحَابِ الماء .

والثاني : أنَّهَا سببيَّةٌ أي : فأنزلنا الماء بسبب السَّحَابِ .

(77/273)

وقيل : يعودُ على السَّوْقِ المفعوم من الفعل و" الباءُ " سببية أيضاً [أي] : فأنزلنا بسبب سَوْقِ السَّحابِ ، وهو ضعيفٌ لعَوْد الضَّمير على غير مذكور مع إمكان عَوْدِهِ على مذكُورٍ .

قوله : " فَأَخْرَجْنَا بِهِ " الخلافُ في هذه الآيةِ كالَّذِي في قبلها ، ونزيد عليه وجهاً أَحْسَنَ منها ، وهو العودُ على الماء ، ولا ينبغي أن يُعْدَلَ عنه .

وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ " من " تبعيضية ، أو ابتدائية ، وقد تقدم نظيره .

قوله : " كَذَلِكَ " نعت مصدر محذوف ، أي : يُخْرِج المَوْتى إخْرَاجاً كإخْراجِنَا هذه الثَّمَرَاتِ ، وفي هذا التَّشبيه قولان :

الأول : أنَّ المَعْنَى كما خلق الله – تعالى – النَّبَاتَ بالأمطار ، فكذلك يحيي الموتى بمطرٍ ينزله على الأجْسَادِ الرَّميمة .

قال أبو هُرَيْرَةَ وابن عباس : إذا مَاتَ النَّاسُ كلُّهم في النَّفْخَةِ ، أرسل اللَّهُ عليهم مَطَراً كمنيِّ

الرِّجالِ من ماء تَحْتَ العَرْشِ يدْعَى ماءُ الحيوانِ ، ينبتون في قُبُورِهِم نبات الزَّرْعِ ، حتى إذا استكملت أجْسَادهم نفخ فيه الرُّوح ، ثم يلقى عليهم نومة فينامُونَ في قبورهم ، ثم يُحْشَرُونَ بالنَّفْخَةِ الثَّانية ، وهم يجدون طعم النَّوْم في رُءُوسهم وأعينهم ، فعند ذلك يَقُولُونَ : ﴿ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] .

الثاني : أن [هذا] التَّشْبِيه إنَّمَا وقع بأصل الإحْيَاء ، والمعنى : أنَّهُ تعالى أحيى هذا البَلَدَ بعد خَرَابِهِ ، فأنبت فيه الشَّجَرَ فكذلك يحيى الموتى بعد أن كانوا أمْواتاً ؛ لأنَّ من قدر على إحداث الجسم ، وخلق الرُّطُوبَةِ والطعم فيه ، يكون قادراً على إحداث الحياة في بدن الميّتِ .

(78/273)

قال ابن الخطيب : واعلم أنَّ الذَّاهبين إلى القول الأوَّلِ إن اعتقدوا أنَّهُ لا يمكن بَعْث الأجْسَادِ ، إلا بأنْ يمطر على تلك الأجساد البَاليةِ مَطَراً على صفة المَني فقد بعدوا ؛ لأنَّ القادر على أنْ يحدث في ماء المطر صفة ، تصير باعتبارها منيّاً ، لم لا يَقْدِرُ على خلق الحياةِ في الجِسْم ؟ وأيضاً فهب أن ذلك المطر ينزل ، إلا أنَّ أجزاء الأمْوات متفرقة ، فبعضها بالمَشْرِقِ وبعضها بالمغربِ ، فمن أين ينفعُ ذلك المَطَرُ في توليد تلك الأجْسَام ؟

فإن قالوا : إنَّهُ تعالى بقدرته وحكمته يجمع تلك الأجْزَاءَ المتفرّقَةَ ، فَلِمَ لَمْ يقُولوا : إنَّهُ بقدرته وحكمته يخلق الحياة في تلك الأجْزاء المتفرقة ابتداءً من غير واسطة ذلك المطر ؛ وإن اعتقدُوا أنه تعالى قادر على إحياء الأمْواتِ ابتداءً ، إلا أنه تعالى إنَّمَا يحييهم على هذا الوَجْهِ ، كما أنَّهُ قادرٌ على خلق الأشخاص في الدُّنْيَا ابتداءً إلا أنَّهُ أجرى عادته بأنَّهُ لا يخلقهم إلاَّ من أبوين ، فهذا جَائِزٌ .

ثم قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : أنكم لما شاهدتم أنَّ هذه الأرض كانت مزيَّنَة وقت الرَّبيع والصَّيْفِ بالأزهار والثِّمار ، ثم صارت عند الشِّتاء ميتة عارية عن تلك الزّينة ، ثم إنَّهُ تعالى أحياها مرَّةً أخرى ، فالقادر على إحيائها بعد موتها يَجِبُ أن يكون قَادِراً على إحياء الأجساد بَعْدَ موتها أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 172.163 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

تباشير القرب تتقدم فيتأدّى نسيمُه إلى مشام الأسرار ، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض في الباطن ، فظلُّ الوحشة يتقدمها ، ونسيم الوصلة بعدها ، وفي قريبٍ

منه قال قائلهم :

ولقد تشمَّمْتُ القضاءَ لحاجتي . . . فإذا له من راحتيك نسيم

(79/273)

قوله جلّ ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبَرِّحُ به الوجه ويَنْحلُ به الجسم ، بل يُبْطِلُ كُلَّه البعجُ ، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً ، ويصير دارس حاله عقيب السقوط نديا ، كما قال بعضهم :

كُنّا كمن أُلبِسَ أكفانه . . . وقرَّب النعشُ من اللَّحد

فجالتْ الروحُ في جسمه . . . وردَّه الوصلُ إلى المولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 542 ﴾

(80/273)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(45) وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . . *

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذا النص القرآني القاطع جاء في مطلع الربع الثاني من سورة الأعراف , وهي سورة مكية , وعدد آياتها 206, وقد سميت بهذا الإسم لورود ذكر الاعراف فيها , وهي أسوار مضروبة بين الجنة والنار تحول بين كل من أهليهما , تكريما لأهل الجنة , وإذلالا لأهل النار . . . ! !

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول قضية العقيدة الإسلامية القائمة علي التوحيد الخالص لله وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع) , والعبودية الكاملة من كافة الخلق لله (سبحانه وتعالي) , وهي العقيدة التي علمها ربنا (تبارك اسمه) لأبينا آدم (عليه السلام) منذ اللحظة الأولي لخلقه , وأنزلها علي سلسلة من أنبيائه ورسله , وأتمها وأكملها وحفظها في رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) .

وتبدأ سورة الأعراف بأربعة حروف من الفواتح الهجائية (المص) , وهذه الحروف المقطعة من أسرار القرآن الكريم التي حاول عدد من العلماء الاجتهاد في فهم دلالاتها , وتوقف العدد الأكبر منهم عن الخوض في تفسيرها , واكتفوا بتفويض الأمر فيها إلي الله (تعالي) .

بعد ذلك مباشرة خاطبت السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) بألا يضيق صدرا بتكذيب قومه له وللقرآن الكريم الذي أنزله الله (تعالي) إليه , ونادت علي الناس جميعا بضرورة اتباع هذه الرسالة الخاتمة التي أنزلت إليهم من ربهم , وحذرتهم من الشرك بالله , ومن أنهم قليلا ما يتعظون , وأردفت بذكر مصارع المكذبين من الأمم السابقة , الذين رفضوا هدي ربهم , وحاربوا أنبياءه

(81/273)

ورسله , كما ذكرت الآيات بعد ذلك بموقف الحساب يوم القيامة وبمصائر كل من المفلحين والظالمين فيه , وأشارت إلي فضل الله (تعالي) علي العباد بتمكينهم في الأرض تمكينا يستوجب الشكر والحمد . . . . ! !

ثم أخذت السورة الكريمة في استعراض قصة البشرية ممثلة في خلق الأسرة الأولي من آدم (

عليه السلام) وزوجته حواء (رضي الله عنها وأرضاها) وتكريمهما وصراعهما مع الشيطان الرجيم منذ اللحظة الأولي لوجودهما في الجنة , وقد ابتليا وذراريهما بقدر من الاختبار والابتلاء بمحاولة الشيطان وذراريه غوايتهم عن منهج الله , تلك الغواية التي أخرجت آدم وزوجه من الجنة , وأدت إلي الهبوط بهما إلي الأرض لتبدأ رحلة الحياة والموت , ومن بعدها البعث والنشور , ويحذر الله (تعالي) عباده من فتنة الشيطان وجنوده وأعوانه , ويوصيهم بعدد من الوصايا , ويحل لهم الطيبات , ويحرم عليهم الفواحش ما ظهر منها , وما بطن , والإثم والبغي بغير الحق , ومن أخطرها : الشرك بالله , والتقول عليه (سبحانه) بغير علم , وافتراء الكذب عليه , والتكذيب بآياته , والكفر به (تبارك وتعالي) وغير ذلك من الاعتقادات الفاسدة , والسلوكيات الهابطة التي تودي بصاحبها إلي جهنم وبئس المصير . . . ! !

وتعرض الآيات في هذه السورة الكريمة لشيء من أحوال كل من أهل الجنة وأهل النار , وأهل الأعراف بينهما , كما تعرض لشيء من أفضال الله علي عباده وما أكثرها , وتأمر الناس بالاتجاه إلي الله (تعالي) دوما بالدعاء وبالضراعة سرا بخشوع وخضوع تامين خوفا من عذابه وطمعا في رحمته , لأنه لا يحب المعتدين المتشدقين برفع الصوت في الدعاء تظاهرا ورياء , وتأمرهم بألا يفسدوا في الأرض بالكفر والشرك والمعاصي والإفساد بعد إصلاحها ببعثة الانبياء والمرسلين , ودعوتهم الناس إلي عبادة الله علي التوحيد الخالص ,

وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها ,

وإقامة عدل الله فيها . . . ! !

(82/273)

ومن قبيل التثبيت لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) عرضت السورة الكريمة لقصص عدد من المرسلين , ولتفاعل أقوامهم معهم , ولشيء من جزائهم بدءا بنوح , ثم هود , وصالح , ولوط , وشعيب , وموسي (علي نبينا وعليهم أجمعين من الله تعالي أفضل الصلاة وأزكي التسليم) , وتعرض الآيات لمصارع المكذبين في كل قصة من قصص تلك الأمم , مؤكدة علي وحدة الرسالة السماوية , ومفصلة قصة موسي (عليه السلام) مع فرعون وملئه , وعارضة أخذ الله لآل فرعون بالسنين والآفات , ثم إغراق فرعون ونفر من ملئه , وأشارت السورة الكريمة إلي انحراف بني إسرائيل وعبادتهم العجل في غيبة من موسي (عليه السلام) في أثناء ميقاته مع ربه كما أشارت إلي طلب رؤية الله , ودك الجبل وصعق موسي , وتنزيل الألواح عليه , وأشارت إلي الميقات الثاني مع سبعين من قوم موسي , وصعقهم حين قالوا : لن نؤمن لك حتي نري الله جهرة , ثم عصيانهم في دخول القرية , وإصرارهم علي الصيد في يوم السبت , وهو محرم عليهم , ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ,

ومسخ الظالمين منهم قردة وخنازير , وبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلي يوم القيامة , وتشريدهم في الأرض عقابا لهم علي تحريفهم كلام الله . . ! !

وتتابع سورة الأعراف في سياقها الإشارة إلي الرسالة الخاتمة , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) رادا علي موسي في ضراعته إلي الله ألا يهلكهم بما فعل السفهاء منهم فقال (عز من قائل) :

. . . قال عذابي أصيب به من أشاء , ورحمتي وسعت كل شيء , فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم , فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا

النور الذي أنزل معه اولئك هم المفلحون *

(الأعراف :157,56)

وفي نور هذه البشري الإلهية بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) والتي سبقت مجيئه بمئات السنين , تأمره الآيات في سورة الأعراف بالإعلان عن حقيقة رسالته , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) :

قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون *

(الأعراف :158) .

وتذكر السورة الكريمة العهد الذي أخذه ربنا (تبارك وتعالي) علي الخلق اجمعين وهم في عالم الذر في أصلاب آبائهم وأشهدهم أنه لا إله إلا الله , وأنه لا رب ولا معبود سواه , ثم تعرض للذين آتاهم الله آياته ثم انسلخوا منها , فأصبحوا من الغاوين , واصبحوا نهبا للشياطين , وأخلدوا إلي الأرض اتباعا للهوي , وأصبح الفرد منهم كالكلب . . إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * .

(الأعراف :176)

وتأمر السورة الكريمة المؤمنين بالمداومة علي ذكر الله بأسمائه الحسني وصفاته العليا , وتؤكد دور الرسول الخاتم والنبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم) بأنه نذير مبين وبشير

للمؤمنين , وتشير إلي ملكوت السماوات والأرض , وإلي خلق الله بصفة عامة , وتحذر من اقتراب الأجل ودنو الآخرة , التي لا يعلم وقتها إلا الله , لأنها لا تأتيهم إلا بغتة كما قرر ربنا (تبارك وتعالي) , ولكن أكثر الناس لا يعلمون , وتحدد السورة الكريمة دور الرسول الخاتم بالإنذار والبشارة , والتحذير من مخاطر الشرك بالله وعواقبه .

وكما بدأت السورة بخطاب إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) تختتم بالخطاب إليه , وإلي أمته المؤمنة إلي يوم الدين بالحض علي مكارم الأخلاق , والأخذ بضوابط السلوك ,

(84/273)

والاستماع بإنصات إلي القرآن الكريم حين يقرأ طلبا لعفو الله ورحمته , والأمر بذكر الله في النفس تضرعا وخيفة , ودون الجهر من القول بالغدو والآصال , والتحذير من الغفلة عن ذلك , والتذكير بأن الملائكة تسبح بحمد الله وتسجد له (تعالي) دون توقف ودون فتور . . . ! !

ومن الحقائق الكونية والتاريخية التي استشهدت بها سورة الأعراف للدلالة علي صدق ما جاء بها ما يلي :

(1) خلق السماوات والأرض في ست مراحل متتالية .

(2) إغشاء الليل بالنهار في سرعة عالية عند بدء الخلق بمعني سرعة دوران الأرض حول محورها عند أول خلقها , وهي حقيقة لم يدركها العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين .

(3) تسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر الله لحفظ السماء الدنيا , ولمصلحة الأرض ومن عليها .

(4) إرسال الرياح بشرا بين يدي رحمة الله لتقل السحاب الثقال بقطيرات الماء , وتسوقه بإرادة الله (تعالي) إلي بلد ميت , فينزل الله به الماء ثم يخرج بهذا الماء من كل الثمرات , ويضرب الله تعالي المثل بإخراج النبات من الأرض بعد إنزال ماء المطر , بإخراج الموتي بعد إنزال مطر خاص فينبت كل كائن حي من عجب ذنبه مثلما تنبت البقلة من حبتها , كما جاء في وصف رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في عدد من أحاديثه الشريفة .

(5) انفجار اثنتي عشرة عينا من الماء إلي الشرق من خليج السويس بضرب موسي الحجر بعصاه كما أخبر القرآن الكريم , والمنطقة تعرف اليوم باسم عيون موسي .

(6) إخبار القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة سنة بأن الله (تعالي) سوف يسلط علي اليهود من يسومهم سوء العذاب إلي يوم القيامة , وقد تحقق ذلك بالفعل وندعو الله تعالي لهم

بالمزيد من العذاب في الدنيا قبل الآخرة (اللهم آمين آمين آمين) فقد فجروا في الزمن الحاضر وبالغوا في فجورهم إلي الحد الذي يفوق كل تصور بدعم من الأمريكان المتجبرين , والذين

سيقلبهم الله عليهم ثم يعاقبهم أجمعين عقابا يفوق كل وصف , وكل خيال إن شاء الله رب العالمين .

(7) التنبؤ بأن اليهود الكافرين سوف يحرفون دينهم , ويتقولون علي الله (تعالي) بغير الحق , وسوف يسعون في الأرض فسادا (والله لا يحب المفسدين) , وأن الله تعالي سوف يشردهم ويقطعهم في الأرض أمما , وقد تحقق ذلك , وندعوه تعالي بالمزيد من تشريدهم وتقطيعهم جزاء إفسادهم في الأرض , واستعلائهم الكاذب علي الخلق في أيامنا الراهنة .

(8) إثبات حقيقة وجود للإنسان في عالم الذر , وهي حقيقة لم يدركها العلماء إلا بعد اكتشاف قوانين الوراثة .

(9) عظمة ملكوت السماوات والأرض .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي مجلدات في شرحها ولذلك سوف أقصر حديثي هنا علي النقطة الرابعة وهي إرسال الرياح , وقبل الخوض في ذلك أعرض لأقوال عدد من

المفسرين في شرح الآية التي نحن بصددها , وهي الآية رقم (57) من سورة الأعراف .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتي إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون * .

(الأعراف : 57)

(86/273)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : لما ذكر تعالي أنه خالق السماوات والأرض , وأنه المتصرف الحاكم , المدبر المسخر , وأرشد إلي دعائه لأنه علي ما يشاء قدير , نبه تعالي علي أنه الرزاق , وأنه يعيد الموتي يوم القيامة فقال :(وهو الذي يرسل الرياح بشرا) أي مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر , ومنهم من قرأ بشرا , لقوله :(ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) , وقوله :(بين يدي رحمته) أي بين يدي المطر , كما قال :(وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد) , وقال : فانظر إلي آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتي , وهو علي كل شئ قدير , وقوله :(حتي

إذا أقلت سحابا ثقالا) أي حملت الرياح سحابا ثقالا أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة . . . . , وقوله تعالي :(سقناه لبلد ميت) أي إلي أرض ميتة مجدبة لانبات فيها , كقوله :(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الآية , ولهذا قال :(فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي) أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها , كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة . . . , وهذا المعني كثير في القرآن , يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها , ولهذا قال :(لعلكم تذكرون) .

وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها رحمة واسعة) ما نصه :

إنها آثار الربوبية في الكون , آثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير , وكلها من صنع الله , الذي لا ينبغي أن يكون للناس رب سواه , وهو الخالق الرازق بهذه الأسباب التي ينشئها برحمته للعباد .

وفي كل لحظة تهب ريح , وفي

كل وقت تحمل الريح سحابا , وفي كل فترة ينزل من السحاب ماء , ولكن ربط هذا كله بفعل الله ـ كما هو في الحقيقة ـ هو الجديد الذي يعرضه القرآن هذا العرض المرتسم في المشاهد المتحركة كأن العين تراه .

انه هو الذي يرسل الرياح مبشرات برحمته , والرياح تهب وفق النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون . . وحمل الرياح للسحاب يجري وفق نواميس الله في الكون أيضا , ولكنه يقع بقدر خاص , ثم يسوق الله السحاب - بقدر خاص منه - إلى (بلد ميت) . . صحراء أو جدبا . . فينزل منه الماء - بقدر كذلك خاص - فيخرج من كل الثمرات - بقدر منه خاص - يجري كل أولئك وفق النواميس التي أودعها طبيعة الكون وطبيعة الحياة .

إن التصور الإسلامي في هذا الجانب ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون . . كما ينفي الجبرية الآلية , التي تتصور الكون كأنه آلة , فرغ صانعها منها , وأودعها القوانين التي تتحرك بها , ثم تركها تتحرك حركة آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين . . . !

إنه يثبت الخلق بمشيئة وقدر , ثم يثبت الناموس الثابت والسنة الجارية , ولكنه يجعل معها القدر المصاحب لكل حركة من حركات الناموس , ولكل مرة تتحقق فيها السنة , القدر الذي ينشئ الحركة ويحقق السنة , وفق المشيئة الطليقة من وراء السنن والنواميس الثابتة . إنه تصور حي , ينفي عن القلب البلادة , بلادة الآلية والجبرية , ويدعها ابدا في يقظة وفي رقابة . . كلما حدث حدث وفق سنة الله , وكلما تمت حركة وفق ناموس الله , انتفض هذا القلب , يري قدر الله المنفذ , ويري يد الله الفاعلة , فيسبح الله ويذكره ويراقبه , ولا يغفل عنه بالآلية الجبرية ولا ينساه ! .

هذا تصور يستحيي القلوب , ويستجيش العقول , ويعلقها جميعا بفاعلية الخالق المتجددة , وبتسبيح البارئ الحاضر في كل لحظة وفي كل حركة , وفي كل حدث آناء الليل وأطراف النهار .

كذلك يربط السياق

القرآني بين حقيقة الحياة الناشئة بإرادة الله وقدره في هذه الأرض , وبين النشأة الآخرة , التي تتحقق كذلك بمشيئة الله وقدره , علي المنهج الذي يراه الاحياء في نشأة هذه الحياة :(كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون) . . . .

(88/273)

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة , من وراء أشكالها وصورها وملابساتها . . هذا ما يوحي به هذا التعقيب . . . وكما يخرج الله الحياة من الموت في هذه الأرض , فكذلك يخرج الحياة من الموتي في نهاية المطاف . . . إن المشيئة التي تبث الحياة في صور الحياة , وأشكالها في هذه الأرض , هي المشيئة التي ترد الحياة في الاموات , وإن القدر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا , لهو ذاته القدر الذي يجري بجريان الحياة في الموتي مرة أخري . . . . (لعلكم تذكرون) فالناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة , ويغرقون في

الضلالات والأوهام ! .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (علي كاتبه من الله الرضوان) ما نصه :(بشرا) بضم فسكون الشين , مخفف (بشرا) بضمتين جمع بشير , كنذر ونذر , أي مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق ,(أقلت سحابا ثقالا) بما فيه من الماء , وحقيقة اقله : وجده قليلا ثم استعمل بمعني حمله , لأن الحامل يستقل ما يحمله بزعم أن ما يرفعه قليل , و (سحابا) اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء , روعي معناه في قوله :(ثقالا) ولفظه في قوله :(سقناه) و (ثقالا) جمع ثقيلة من الثقل ـ كعنب ـ ضد الخفة ـ قال : ثقل ـ ككرم ـ ثقلا وثقالة , فهو ثقيل وهي ثقيلة ,(لبلد ميت) مجدب لا ماء فيه ولا نبات ,(كذلك نخرج الموتي) أي كما احيينا الأرض بعد موتها بإحداث القوي النامية فيها , وإنزال الماء عليها , وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتي من الأرض ونبعثهم أحياء في اليوم الآخر .

وذكر بقية المفسرين كلاما مشابها لا أري ضرورة لإعادته

هنا .

إرسال الرياح في القرآن الكريم

جاء ذكر الريح بالإفراد والجمع في 29 موضعا من القرآن الكريم , منها 19 مرة بالإفراد وعشر مرات بالجمع , والريح هو الهواء المتحرك , واغلب المواضع التي ذكر الله تعالي فيها ارسال الريح بلفظ الواحد كانت متعلقة بالعذاب , واغلب المواضع التي جاء فيها ذكر الرياح بصيغة الجمع هي متعلقة بالرحمة , وإن كانت هناك بعض الاستثناءات , وذلك من مثل قوله تعالي :

1 ـ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتي إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان . . .

(يونس :22) .

2 ـ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلي الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين *

(الأنبياء :81)

3 ـ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر . . . *(سبأ :12)

4 ـ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب *(ص :36) .

5 ـ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد علي ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور *(الشوري :32:33) .

6ـ . . . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون (البقرة :164) .

7ـ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . . *(الأعراف :57)

8ـ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين * . (الحجر :22) .

9ـ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله . . . *(الروم :48)

وتصف الآيات القرآنية حركة الرياح دوما بالتصريف والارسال , وذلك لأنها حركة منتظمة السلوك , ومحكمة التوزيع بدقة فائقة حول الكرة الأرضية علي الرغم من ظاهرها الذي يصفها بالهياج , وعلي الرغم من تعدد وتشابك القوي المحركة , لها , فذلك كله لا يخرجها عن كونها جندا من جند الله يرسلها بالرحمة والعذاب كيفما يشاء .

إرسال الرياح في منظور العلوم المكتسبة

تعرف الرياح بأنها أجزاء من الغلاف الغازي للأرض تتحرك حركة مستقلة عن الأرض - علي الرغم من ارتباطها بها - في عدد من الاتجاهات المختلفة , التي يمكن إدراكها إلي أرتفاع يصل إلي 65 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر .

والغلاف الغازي للأرض يقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلو مترات , وتقدر كتلته بنحو الستة آلاف مليون مليون طن (6120*1210 طن) , ويقع اغلب هذه الكتلة (99% من كتلة الغلاف الغازي للأرض) دون ارتفاع 50 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر أي دون مستوي نطاق الركود الطبقي

The Stratopause

وعلي ذلك فإن حركة الرياح تكاد تتركز اساسا في هذا الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض , وأعلي سرعة للرياح تقع فوق نطاق الرجع مباشرة , والذي يتراوح سمكه بين ستة عشر (16) كيلو مترا فوق خط الاستواء , وعشرة كيلو مترات فوق القطبين , وبين سبعة (7) وثمانية (8) كيلو مترات فوق خطوط العرض الوسطي , ولذلك فإن الرياح حينما تتحرك من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنها تهبط فوق هذا المنحني الوسطي , فتزداد سرعتها , هذا بالإضافة إلي أن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق يجبر كتل الهواء علي التحرك في اتجاه الشرق بسرعات فائقة تعرف باسم التيارات النفاثة

The Jet Streams

وتنخفض درجة الحرارة في نطاق التغيرات الجوية (نطاق الرجع) باستمرار مع الارتفاع

حتي تصل إلي ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته فوق خط الاستواء , وذلك للتباعد عن مصدر الدفء , وهو سطح الأرض الذي يمتص 47% من أشعة الشمس أثناء شروقها فترتفع درجة حرارته , ويعيد إشعاع تلك الحرارة علي هيئة أشعة تحت حمراء إلي الغلاف الغازي للأرض بمجرد غياب الشمس فيدفئه .

كذلك يتناقص الضغط كلما ارتفعنا في الغلاف الغازي للأرض لتناقص كثافة الهواء حتي يصل إلي واحد من ألف من الضغط الجوي فوق مستوي سطح البحر بالارتفاع إلي 48 كيلو مترا فوق هذا المستوي .

(91/273)

ويقدر ما يقع من وزن كتلة الغلاف الغازي المحيط بالأرض علي كل فرد من بني الإنسان بنحو الطن , ومن رحمة الله بنا أننا لا نشعر بثقله لأن الضغط الداخلي في جسد كل منا يقاوم هذا الوزن الذي يعرف باسم الضغط الجوي , فنحن نعيش ومعنا بقية الكائنات الأرضية الحية وسط الغلاف الغازي للأرض , كما تعيش الأحياء المائية في داخل وسطها المائي , ويوثر في هذا الضغط الجوي كل من الجاذبية الأرضية , ودرجة حرارة الجو , وتضاريس سطح الأرض , بين عدد من العوامل الأخري .

التغيير في الضغط الجوي أحد عوامل حركة الرياح

تنجم التغيرات في الضغط الجوي اساسا عن التغيرات في كم الحرارة الذي يصل إلي الأجزاء المختلفة من سطح الأرض في أثناء دورانها حول محورها المائل علي دائرة البروج بزاوية مقدارها ست وستون درجة ونصف تقريبا امام الشمس , وفي مدار حولها .

ويؤدي الاختلاف في درجات حرارة الغلاف الغازي للأرض إلي تكون مناطق ذات ضغط مرتفع , وأخري ذات ضغط منخفض , وترسل الرياح بإرادة الله تعالي , وحسب قوانينه وسننه في حركة رأسية وأفقية متصلة من مناطق الضغط المرتفع إلي منطاق الضغط المنخفض حسب شدة انحدار أو ارتفاع خطوط تساوي الضغط حول كل منطقة من مناطق الضغط الجوي .

ويعين علي ذلك سرعة دوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق , والتي تساعد في توجيه حركة الرياح وتؤدي إلي تكسر كل من الرياح الساخنة المتدفقة من المناطق الاستوائية في اتجاه القطبين , والرياح الباردة المتدفقة من القطبين في اتجاه خط الاستواء علي هيئة عدد من الخلايا الهوائية الكبيرة بعضها خلايا دافئة ورطبة ترتفع الي اعلي لتكون السحب الممطرة بإذن الله , وبعضها خلايا باردة وجافة تهبط الي اسفل , وبعضها خلايا متوسطة البرودة والجفاف , وهي أيضا تمثل رياحا هابطة إلي أسفل .

ويؤثر دوران الأرض حول محورها أمام الشمس

تأثيرا عموديا في حركة الرياح سرعة واتجاها , فتحرفها جهة اليمين بصفة عامة في نصف الأرض الشمالي , وجهة اليسار بصفة عامة في نصفها الجنوبي , ويزداد هذا الاثر في طبقات الجو العليا بمعدلات أكبر مما يؤدي إلي تغيير اتجاه الرياح تدريجيا حتي يصبح موازيا لخطوط تساوي الضغط

Geostrophic Wind

أما قريبا من سطح الأرض فإن الرياح لا تهب بموازاة خطوط تساوي الضغط تماما بسبب احتكاكها مع تضاريس سطح الأرض .

كذلك ترسل الرياح بإذن من الله تعالي في حركات رأسية حيث يدفأ الهواء الملامس لسطح الأرض فيرتفع إلي أعلي , ويحل محله تيار من الهواء البارد الهابط إلي أسفل .

تكون الكتل والجبهات الهوائية

بهذه الحركة الدائبة للرياح أفقيا ورأسيا ينقسم الغلاف الغازي المحيط بالأرض (في نطاقي الرجع والتطابق اساسا إلي اعداد من الكتل الهوائية المتجاورة , والكتلة الهوائية تمثل بكمية هائلة من الهواء المتجانس فيما بينه في درجتي الحرارة والرطوبة النسبية , تمتد أفقيا لعدة كيلو مترات , ورأسيا بين ثلاثمائة وثلاثة الاف متر , ومن هذه الكتل الهوائية ما هو

دافئ , وما هو بارد , ومنها ما هو رطب , وما هو جاف , ومنها ما يغير درجة رطوبته النسبية بمروره فوق مساحات مائية كبيرة أو فوق مساحات من الصحاري الجافة القاحلة

.

ويتكون بين الكتل الهوائية المتجاورة أفقيا ورأسيا ما يسمي باسم الجبهات الهوائية , والجبهة الهوائية هي الحد الفاصل بين كتلتين متجاورتين من كتل الهواء المتباينة في درجات حرارتها ورطوبتها النسبية , ولذلك تكون منطقة تفاعل جوي نشط .

وإذا التقت كتلتان من الهواء فإن الباردة منها تنزل تحت الدافئة , ويتكون بينهما منطقة انتقالية هي منطقة الجبهة الهوائية التي تحول دون اختلاطهما , وتفصل بين صفاتهما الفيزيائية والكيميائية , وسرعة الرياح واتجاهاتها في كل منهما .

وعبور الجبهة الهوائية لمنطقة ما يؤثر في ظروفها

المناخية تأثيرا بالغا , فإذا كانت الجبهة باردة أدت إلي انخفاض درجات الحرارة , وإلي تكون السحب الطباقية ونزول المطر بإذن الله , وإذا كانت الجبهة دافئة أدت إلي ارتفاع درجة الحرارة , وإلي تكون السحب الركامية

Cumuliformorheapclouds

المتجمعة علي هيئة أكوام مكدسة من السحاب فوق بعضها البعض بما يشبه سلاسل الجبال المفصولة بالأودية والأخاديد ,مما يعكس الارتفاعات المتعددة للهواء المشبع ببخار الماء من أماكن متفرقة , واستمرار تدفق الهواء المشبع ببخار الماء إلي أعلي يؤدي إلي زيادة إمكانية تكثف بخار الماء فيها , وبالتالي إلي إمكانية هطول المطر منها بإذن الله .

وتؤدي الكتل الهوائية الدافئة الرطبة إلي تكون كل من السحاب والضباب والندي , ومع إرسال الرياح تتشكل السحب الطباقية بإذن الله

Stratiformorlayeredclouds

وهي تتكون من طبقات تمتد افقيا لمئات من الكيلومترات المربعة تعكس الارتفاع المنتظم للهواء المشبع ببخار الماء عبر مساحات كبيرة , ولذلك فهي عادة ما تكون اغزر انواع السحب إمطارا وأوسعها انتشارا بإذن الله (تعالي) .

اما إذا كانت الكتل الهوائية دافئة وجافة , فينتج عنها تكون الصقيع في الصباح الباكر أيام فصل الشتاء , وإثارة الغبار والاتربة والزوابع الشديدة في فصل الصيف خاصة إذا رافقتها رياح شديدة السرعة نسبيا .

المرتفعات الجوية

يعرف المرتفع الجوي بأنه جزء من الهواء فوق منطقة معينة من الأرض يتميز بضغط اعلي من ضغط الهواء في المناطق المحيطة به , ومنها :

(1) المرتفعات الجوية الدافئة التي تتشكل في المناطق شبه المدارية , وتتكون بسبب هبوط , الهواء البارد من اعلي وانضغاطه , وبالتالي ارتفاع درجة حرارته مع زيادة ضغطه .

(2) المرتفعات الجوية الباردة : وتتشكل فوق مناطق الجليد الواسعة بفعل التبريد المستمر للهواء الساكن فوق تلك المناطق مما يؤدي إلي تقلص الهواء وزيادة كثافته وارتفاع ضغطه .

(94/273)

وتعد المناطق الهوائية ذات الضغط المرتفع مصدرا من مصادر إرسال الرياح بإذن الله (تعالي) لأنها تدفع بالهواء الداخل فيها من قمتها إلي أسفل هابطا ليخرج من قاعدتها في اتجاه عقارب الساعة كما تدفع الهواء من حولها بعيدا عن مركزها مما يؤدي إلي حركة الكتل الهوائية , وانتقالها تدريجيا من اماكنها بحركات دورانية رأسية وأفقية واسعة , وهبوط الهواء من الاجواء العليا في المرتفع وانتشاره أفقيا فوق سطح الأرض من عوامل تكون كتلة هوائية مستقرة نسبيا ومتجانسة التركيب .

ويصاحب المرتفع الجوي عادة بشيء من صفاء الجو , مع قلة الرطوبة النسبية , وإن كان خروج تيار الرياح من قاعدة المرتفع قد يثير شيئا من غبار الأرض , ويؤدي إلي تكون عدد

من الزوبعات الترابية .

المنخفضات الجوية

يعرف المنخفض الجوي بأنه جزء من الهواء فوق منطقة معينة من الأرض يتميز بضغط أخفض من ضغط الهواء في المناطق المحيطة به , ومنها :

(1) المنخفض الجوي الحراري : وينشأ بسبب تسخين الهواء بملامسته لسطح الأرض مما يؤدي إلي تمدده , وتناقص كثافته وارتفاعه إلي أعلي كما يحدث في المناطق الحارة .

(2) المنخفض الجوي الجبهي : وينشأ عند التقاء جبهتين هوائيتين إحداهما دافئة والاخري باردة , فيصعد الهواء الدافئ إلي أعلي , ويدخل الهواء البارد تحته فتتشكل كتلتان هوائيتان دافئة وباردة .

وتدور الرياح حول المنخفض الجوي في عكس اتجاه عقارب الساعة نحو الداخل وعلي ذلك فإن نمو المنخفض الجوي أو اضمحلاله يعتمد علي معدل دخول الهواء فيه عند سطح الأرض ومعدل خروجه منه إلي أعلي .

وتتحرك الرياح من المرتفع الجوي إلي المنخفض الجوي قرب سطح الأرض , وفي الأجواء العليا تتحرك بشكل افقي معاكس بالنسبة للمرتفع الجوي أي يخرج من قمة المنخفض الجوي بحركة دورانية ليتجه مع الاتجاه السائد للرياح العليا , بينما يدخل في قمة المرتفع الجوي

هابطا إلي اسفل

ليخرج من قاعدته .

(95/273)

ونظرا لقدوم الكتل الباردة من المناطق القطبية , والكتل الدافئة من المناطق المدارية فإن التقاءهما يكون غالبا فوق مناطق العروض المتوسطة , ونظرا لانحراف الكتل الهوائية في اثناء سيرها نحو اليمين في نصف الكرة الشمالي , ونحو اليسار في نصفها الجنوبي , فإن الجبهتين عند التقائهما تدور الرياح حول مركز المنخفض في اتجاه معاكس لاتجاه عقارب الساعة . وصعود الهواء الرطب إلي اعلي في منطقة الضغط المنخفض يساعد علي تكثيف ما به من بخار الماء , وعلي تكوين السحب الركامية , وحدوث ظواهر الرعد والبرق فيها وربما إلي نزول المطر بإذن الله .

حركة المنخفضات الجوية والجبهات الهوائية

تتحرك المنخفضات الجوية في غالبيتها من الغرب إلي الشرق مع اتجاه دوران الأرض حول محورها بسرعات تتراوح بين 30,20 كم / ساعة , ويرافقها في حركتها وتدور حولها جبهاتها الهوائية , ويلاحظ تباطؤ سرعة المنخفض الجوي عند مروره فوق اليابسة ,

وإنحراف اتجاهه نحو القطب الشمالي أو الجنوبي للأرض (حسب وضعه في أي من نصفي الأرض) خاصة إذا صادف تضاريسا معترضة كالسلاسل الجبلية التي يصطدم بها , فتزيد من إمكانية صعوده إلي اعلي , وتكون السحب الركامية , وزيادة امكانية تكثف بخار الماء فيها , وبالتالي إمكانية هطول المطر منها بإذن الله .

ولذلك يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل) :

وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتي إذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون *(الاعرف :57)

وتشير الآية الكريمة إلي حركات الرياح , الافقية والرأسية , ودورها في تكوين وحمل السحاب الثقال (المزن المثقلة بما فيها من قطرات الماء) , وسوقه أفقيا إلي حيث يشاء الله (تعالي) , وإنزال ما به من ماء (حين تصل كتلة قطرة الماء حدا لا يقوي السحاب علي

حمله) , فيحيي به الله (تعالي) الأرض بعد موتها ويخرج به من كل الثمرات , ويضرب ذلك مثلا لإخراج الموتي , فسبحان الذي أنزل القرآن بهذه الدقة العلمية الفائقة حتي في مقام

ضرب المثل , وصلي الله وسلم وبارك علي النبي الأمي الذي تلقاه وعلي آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(97/273)

قوله تعالى ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الموت موتين : حسياً ومعنوياً - كما أشير في الأنعام في آية ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ [الأنعام : 36] ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] كان كأنه قيل : لا فرق في ذلك عندنا بين أموات الإيمان وأموات الأبدان ، فكما أنا فاوتنا بين جواهر الأراضي بخلق بعضها جيداً وبعضها رديئاً كذلك فاوتنا بين عناصر الأناسي بجعل بعضها طيباً وبعضها خبيثاً ، فالجيد العنصر يسهل إيمانه ، والخبيث الأصل

يعسر إذعانه وتبعد استقامته وإيقانه ﴿ والبلد الطيب ﴾ أي الذي طابت أرضه فكانت كريمة منبتة ﴿ يخرج نباته ﴾ أي إذا نزل عليه الماء خروجاً كثيراً حسناً سهلاً غزيراً ﴿ بإذن ﴾ أي بتمكين ﴿ ربه ﴾ أي المربي له بما هيأه له ، والذي طاب في الجملة ولم يصل إلى الغاية يخرج له نبات دون ذلك ، والخبيث لا يخرج له نبات أصلاً بمنع ربه له ﴿ والذي خبث ﴾ أي حصلت له خباثة في جبلته بكون أرضه سبخة أو نحوها مما لا يهيئه الله تعالى للإنبات ﴿ لا يخرج ﴾ أي نباته ﴿ إلا ﴾ أي حال كونه ﴿ نكداً ﴾ أي قليلاً ضعيف المنفعة ، وهو – مع كونه دالاً على أن ذلك ما كان على ما وصف مع استواء الأراضي في الأصل واستواء المياه ونسبتها إلى الأفلاك والنجوم إلا بالفاعل المختار – مثل ضربه سبحانه للمؤمن والكافر عند سماعهما للذكر من الكتاب والسنة ، والآية من الاحتباك .

(98/273)

ولما استوت هذه الآيات على الذروة من بدائع الدلالات ، كان السامع جديراً بأن يقول : هل تبين جميع هذه الآيات هذه البيان ؟ فقيل : ﴿ كذلك ﴾ أي نعم ، مثل هذا التصريف ، وهو الترديد مع اختلاف الأنحاء لاختلاف الدلالات وإبرازها في قوالب الألفاظ الفائقة والمعاني الرائقة في النظوم المعجزة على وجوه لا تكاد تدخل تحت الحصر : ﴿ نصرف

الآيات ﴾ أي كلها ؛ ولما تم ذلك على هذا المنهاج الغريب والمنوال العجيب المذكر بالنعم في أسلوب دال على التفرد وتمام القدرة ، كان أنسب الأشياء ختمه بقوله مخصصاً بها المنتفع لأنها بالنسبة إلى غيرهم كأنها لم توجد : ﴿ لقوم يشكرون ﴾ أي يوجد منهم الشكر للنعم وجوداً مستمراً فلا يشركون بل ينتفعون بما أنعم عليهم به وحده في عبادته وحده ، وينظرون بعقولهم أنه أقدرهم بنعمه على ما هم عاجزون عنه ، فلا يسلبون عنه شيئاً من قدرته على بعث ولا غيره فإنهم يزعمون أنهم أهل معالي الأخلاق التي منها أنه ما جزاء الإحسان إلاّ الإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 45 . 46 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والذى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ .

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في هذه الآية قولان :

القول الأول : وهو المشهور أن هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر بالأرض الخيرة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار ، وأما الأرض السبخة فهي وإن نزل المطر

عليها لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل ، فكذلك الروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيثة الكدرة وإن اتصل به نور القرآن لم يظهر فيه من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل .

(99/273)

والقول الثاني : أنه ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن والكافر ، وإنما المراد أن الأرض السبخة يقل نفعها وثمرتها ، ومع ذلك فإن صاحبها لا يهمل أمرها بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعاً منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة .

فمن طلب هذا النفع اليسير بالمشقة العظيمة ، فلأن يطلب النفع العظيم الموعود به في الدار الآخرة بالمشقة التي لا بد من تحملها في أداء الطاعات ، كان ذلك أولى .

المسألة الثانية :

(100/273)

هذه الآية دالة على أن السعيد لا ينقلب شقياً وبالعكس ، وذلك لأنها دلت على أن الأرواح قسمان : منها ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقية مستعدة لأن تعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومنها ما تكون في أصل جوهرها غليظة كدرة بطيئة القبول للمعارف الحقيقية ، والأخلاق الفاضلة ، كما أن الأراضي منها ما تكون سبخة فاسدة ، وكما أنه لا يمكن أن يتولد في الأراضي السبخة تلك الأزهار والثمار التي تتولد في الأرض الخيرة ، فكذلك لا يمكن أن يظهر في النفس البليدة والكدرة الغليطة من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة مثل ما يظهر في النفس الطاهرة الصافية ، ومما يقوي هذا الكلام أنا نرى النفوس مختلفة في هذه الصفات فبعضها مجبولة على حب عالم الصفاء والإلهيات منصرفة عن اللذات الجسمانية كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ﴾ [المائدة : 83] ومنها قاسية شديدة القسوة والنفرة عن قبول هذه المعاني كما قال : ﴿ فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : 74] ومنها ما تكون شديدة الميل إلى قضاء الشهوة متباعدة عن أحوال الغضب ، ومنها ما تكون شديدة الميل إلى إمضاء الغضب ، وتكون متباعدة عن أعمال الشهوة بل نقول : من النفوس ما تكون عظيمة الرغبة في المال دون الجاه ، ومنهم من يكون بالعكس ، والراغبون في طلب المال منهم من يكون عظيم الرغبة في العقار وتفضل رغبته في النقود ، ومنهم من تعظم رغبته في تحصيل النقود ولا يرغب في الضياع والعقار ، وإذا تأملت في هذا النوع من

الاعتبار تيقنت أن أحوال النفوس مختلفة في هذه الأحوال اختلافاً جوهرياً ذاتياً لا يمكن إزالته ولا تبديله ، وإذا كان كذلك امتنع من النفس الغليظة الجاهلة المائلة بالطبع إلى أفعال الفجور أن تصير نفساً مشرقة بالمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة ، ولما ثبت هذا كان تكليف هذه النفس بتلك

(101/273)

المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة جارياً مجرى تكليف ما لا يطاق فثبت بهذا البيان : أن السعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه ، وأن النفس الطاهرة يخرج نباتها من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة بإذن ربها ، والنفس الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكداً قليل الفائدة والخير ، كثير الفضول والشر .

والوجه الثاني : من الاستدلال بهذه الآية في هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ وذلك يدل على أن كل ما يعمله المؤمن من خير وطاعة لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قرىء ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ﴾ أي يخرجه البلد وينبته .

أما قوله تعالى : ﴿ والذى خَبُثَ ﴾ قال الفراء : يقال : خبث الشيء يخبث خبثاً

وخباثة .

وقوله : ﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾ النكد : العسر الممتنع من إعطاء الخير على جهة البخل .

وقال الليث : النكد : الشؤم واللؤم وقلة العطاء ، ورجل أنكد ونكد قال :

وأعط ما أعطيته طيبا . . لا خير في المنكود والناكد

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ والذى خَبُثَ ﴾ صفة للبلد ومعناه والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً ، فحذف المضاف الذي هو النبات ، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى ذلك البلد مقامه ، إلا أنه كان مجروراً بارزاً فانقلب مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفاعل ، أو يقدر ونبات الذي خبث ، وقرىء ﴿ نَكِدًا ﴾ بفتح الكاف على المصدر أي ذا نكد .

ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ قرىء ﴿ يُصْرَفْ ﴾ أي يصرفها الله ، وإنما ختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ لأن الذي سبق ذكره هو أنه تعالى يحرك الرياح اللطيفة النافعة ويجعلها سبباً لنزول المطر الذي هو الرحمة ويجعل تلك الرياح والأمطار سبباً لحدوث أنواع النبات النافعة اللطيفة اللذيذة ، فهذا من أحد الوجهين ذكر الدليل الدال على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته ، ومن الوجه الثاني تنبيه على إيصال هذه النعمة العظيمة إلى العباد ، فلا جرم كانت من حيث إنها دلائل على وجود الصانع وصفاته آيات ومن حيث أنها نعم يجب شكرها ، فلا جرم قال : ﴿ نُصَرِّفُ الآيات

لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ وإنما خص كونها آيات بالقوم الشاكرين لأنهم هم المنتفعون بها ، فهو كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 119.117 ﴾

(102/273)

وقال السمرقندى :

ثم ضرب مثلاً للمؤمنين والكافرين فقال :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ يعني : المكان العذب الزّكي اللين من الأرض اللينة يخرج نباته إذا أمطرت فينتفع به ، كذلك المؤمن يسمع الموعظة فتدخل في قلبه فينتفع بها وينفعه القرآن كما ينفع المطر الأرض الطيبة .

﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ يعني : الأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا من كد وعناء ، فكذلك الكافر لا يسمع الموعظة ولا ينتفع بها ، ولا يتكلم بالإيمان ، ولا يعمل بالطاعة إلا كرهاً لغير وجه الله .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ أي هكذا نبيّن الآيات والعلامات والأمثال لمن آمن وشكر رب هذه النعم ووحّده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ

﴿

وقال الثعلبى :

﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾

هذا مثل ضربه الله المؤمن والكافر فمثل المؤمن مثل البلد الطيب الزاكي يخرج نباته ريعة بإذن الله ، فمثل الكافر كمثل الأرض الصبخة الخبيثة التي لا يُخرج نباتها [وغلّتها] ﴿ إِلاَّ نَكِداً ﴾ [أي عسيراً قليلاً بعناء] ومشقّة وقرأ أبو جعفر : [نكداً] بفتح الكاف أي النكد ﴿ كذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ بينهما ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(103/273)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾

يعني طيب التربة .

﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ يعني يخرج نباته حسناً جيداً .

﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن النكد القليل الذي لا ينتفع به ، قاله السدي .

والثاني : أنه العسر بشدته المانع من خيره ، قال الشاعر :

وَأَعْطِ مَا أَعَطْيتَهُ طَيِّباً . . . لاَ خَيْرَ فِي الْمَنْكُودِ وَالنَّاكِد

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فجعل المؤمن كالأرض الطيبة والكافر كالأرض الخبيثة السبخة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(104/273)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته ﴾

آية متممة للمعنى الأول في الآية قبلها معرفة بعادة الله تعالى في إنبات الأرضين ، فمن أراد أن يجعلها مثالاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب ، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد بذلك والتمثيل بذلك حكاه الطبري عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ، وقال النحاس : هو مثال للفهيم وللبليد ، و ﴿ الطيب ﴾ : هو الجيد التراب الكريم الأرض ، وخص بإذن ربه مدحاً وتشريفاً ، وهذا كما تقول لمن تغض منه ، أنت كما شاء الله فهي

عبارة تعطي مبالغة في مدح أو ذم ومن هذا قوله تعالى : ﴿ فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ [البقرة : 275] على بعض التأويلات ، والخبيث هو السباخ ونحوهما من رديء الأرض ، وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة وعيسى بن عمر "يُخْرِج نباتَه" بضم الياء وكسر الراء ونصب التاء ، و" النكد " العسير القليل ، ومنه قول الشاعر : [المنسرح]

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن . . . أعطيت أعطيت تافهاً نكدا

ونكد الرجل إذا سأل إلحافاً وأخجل ومنه قول الشاعر : [السريع]

وأعط ما أعطيته طيباً . . . لا خير في المنكود والناكد

وقرأ جمهور الناس وجميع السبعة " نَكِداً " بفتح النون وكسر الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف " نَكْداً " بتخفيف الكاف وفتح النون ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " نَكَداً " بفتح النون والكاف ، وقال الزجّاج : وهي قراءة أهل المدينة ﴿ كذلك نصرف الآيات ﴾ أي هكذا نبين الأمور ، و﴿ يشكرون ﴾ معناه يؤمنون ويثنون بآلاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(105/273)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب ﴾

يعني : الأرضَ الطيبةَ التربة ﴿ يخرج نباته ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة : "يُخرِج" بضم الياء وكسر الراء ، "نباتَه" بنصب التاء ، ﴿ والذي خبُث لا يخرج ﴾ كذلك أيضاً .

وقد روى ابان عن عاصم : "لا يُخرِج" بضم الياء وكسر الراء .

والمراد بالذي خبث : الأرض السبخة .

قوله تعالى : ﴿ إلا نكدا ﴾ قرأ الجمهور : بفتح النون وكسر الكاف .

وقرأ أبو جعفر : "نَكَداً" بفتح الكاف .

وقرأ مجاهد ، وقتادة ، وابن محيصن : "نَكْداً" باسكان الكاف .

قال أبو عبيدة : قليلاً عسيراً في شدة ، وأنشد :

لا تُنْجِزُ الوَعْدَ إنْ وَعَدْتَ وإنْ . . .

أعْطَيْتَ أعْطَيْتَ تَافِهاً نَكِداً

قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ؛ فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبان أثره عليه ، فشُبِّه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه ؛ وعكسه الكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ أي التُّربة الطيبة .

والخَبِيثُ الذي في تربته حجارة أو شوك ؛ عن الحسن .

وقيل : معناه التشبيه ، شبَّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب ، والبَلِيدَ بالذي خَبُثَ ؛ عن النحاس .

وقيل : هذا مثل للقلوب ؛ فقلب يقبل الوعظ والذِّكْرى ، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك ؛ قاله الحسن أيضاً .

وقال قتادة : مَثَلٌ للمؤمن يعمل محتسِباً متطوّعاً ، والمنافق غير محتسب ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذِي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مِرْمَاتَيْن حسَنَتَين لشهد العِشاء " ﴿ نَكِداً ﴾ نصب على الحال ، وهو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير .

وهذا تمثيل .

قال مجاهد : يعني : أن في بني آدم الطيب والخبيث .

وقرأ طلحة "إلاَّ نَكْداً" حذف الكسرة لثقلها .

وقرأ ابن القَعْقَاع "نَكَداً" بفتح الكاف ، فهو مصدر بمعنى ذا نكد .

كما قال :

فإنَّمَا هِيَ إقْبَالٌ وإدْبَارِ . . .

وقيل : "نَكِداً" بنصب الكاف وخفضها بمعنًى ؛ كالدّنَف والدّنِف ، لغتان .

﴿ كذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ أي كما صرفنا من الآيات ، وهي الحجج والدّلالات ، في إبطال الشرك ؛ كذلك نصرف الآيات في كل ما يحتاج إليه الناس .

﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(107/273)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب ﴾

يعني والأرض الطيبة التربة السهلة السمحة ﴿ يخرج نباته بإذن ربه ﴾ يعني إذا أصابه المطر أخرج نباته بإذن الله عز وجل : ﴿ والذي خبث لا يخرج ﴾ يعني والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا يخرج يعني لا يخرج نباته ﴿ إلا نكداً ﴾ يعني عسراً بمشقة

وكلفة قال الشاعر في المعنى يذم إنساناً :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن . . .

أعطيت أعطيت تافهاً نكدا

يعني بالتافه القليل بالنكد العسير ومعناه : إنك إن أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة .

قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالأرض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة فإذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار وكذلك المؤمن إذ سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وإن أصابها المطر فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده إلا عتو وكفراً وإن عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث .

وقال مجاهد : هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبته كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى لله تعالى الذي أرسلت به " أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ يعني كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية وحيث جنّبهم سبيل الضلالة وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا لسماع القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(109/273)

وقال أبو حيان :

﴿ والبلد الطّيب يخرج نباته بإذن ربّه والذي لا خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾

(110/273)

﴿ الطّيب ﴾ الجيّد الترب الكريم الأرض ، ﴿ والذي خبث ﴾ المكان السبخ الذي لا ينبت ما ينتفع به وهو الرديء من الأرض ، ولما قال ﴿ فأخرجنا به من كلّ الثمرات ﴾ تمم هذا المعنى بكيفية ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة والأرض السّبخة وتلك عادة الله في إنبات الأرضين وفي الكلام حال محذوفة أي يخرج نباته وافياً حسناً وحذفت لفهم المعنى ولدلالة ﴿ والبلد الطيب ﴾ عليها ولمقابلتها بقوله ﴿ إلا نكداً ﴾ ولدلالة ﴿ بإذنِ ربه ﴾ لأنّ ما أذن الله في إخراجه لا يكون إلا على أحسن حال و ﴿ بإذن ربه ﴾ في موضع الحال وخصّ خروج نبات الطّيب بقوله ﴿ بإذن ربه ﴾ على سبيل المدح له والتشريف ونسبة الإسناد الشريفة الطيبة إليه تعالى وإن كان كلا النباتين يخرج بإذنه تعالى ومعنى ﴿ بإذن ربه ﴾ بتيسيره وحذف من الجملة الثانية الموصوف أيضاً والتقدير والبلد الذي خبث لدلالة ﴿ والبلد الطيب ﴾ عليه فكلّ من الجملتين فيه حذف وغاير بين الموصولين فصاحة وتفنّناً ففي الأولى قال : ﴿ الطيب ﴾ وفي الثانية قال : ﴿ الذي

خبث ﴾ وكان إبراز الصّلة هنا فعلاً بخلاف الأوّل لتعادل اللفظ يكون ذلك كلمتين الكلمتين في قوله ﴿ والبلد الطيب ﴾ والطيب والخبيث متقابلان في القرآن كثيراً ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ﴾ و﴿ يحل لهم الطّيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ ﴿ أنفقوا من طيبات ما كسبتم ولا تيمموا الخبيث ﴾ إلى غير ذلك والفاعل في ﴿ لاَيَخْرُجُ ﴾ عائد على ﴿ الذي خبث ﴾ وقد قلنا إنه صفة لموصوف محذوف والبلد لا يخرج فيكون على حذف مضاف إما من الأوّل أي ونبات الذي خبث أو من الثاني أي لا يخرج نباته فلما حذف استكنّ الضمير الذي كان مجروراً لأنه فاعل ، وقيل هاتان الجملتان قصد بهما التمثيل ، فقال ابن عباس وقتادة مثال لروح المؤمن يرجع إلى جسده سهلاً طيّباً كما خرج إذا مات ولروح الكافر لا يرجع إلاّ بالنّكد كما خرج إذ مات انتهى ، فيكون هذا راجعاً من حيث المعنى إلى قوله ﴿ كذلك

(111/273)

نخرج الموتى ﴾ أي على هذين الوصفين .

وقال السدّي مثال للقلوب لما نزل القرآن كنزول المطر على الأرض فقلب المؤمن كالأرض الطيبة يقبل الماء وانتفع بما يخرج ، وقلب الكافر كالسّبخة لا ينتفع بما يقبل من الماء ، وقال

النحاس : هو مثال للفهيم والبليد ، وقال الزمخشري : وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وعن مجاهد ذرّية آدم خبيث وطيّب وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر وإنزله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد انتهى ، والأظهر ما قدّمناه من أنّ المقصود التعريف بعبادة الله تعالى في إخراج النبات في الأرض الطيبة والأرض الخبيثة دون قصد إلى التمثيل بشيء مما ذكروا ، وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة وعيسى بن عمر ﴿ يخرج نباته ﴾ مبنيّاً للمفعول ، وقرأ ابن القعقاع ﴿ نكداً ﴾ بفتح الكاف ، قال الزّجاج : وهي قراءة أهل المدينة ، وقرأ ابن مصرّف بسكونها وهما مصدران أي ذا نكد وكون نبات الذي خبث محصوراً خروجه على حالة النكد مبالغة شديدة في كونه لا يكون إلا هكذا ولا يمكن أن يوجد ﴿ إلا نكداً ﴾ وهي إشارة إلى من استقر فيه وصف الخبيث يبعد عنه النزوع إلى الخير .

﴿ كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ أي مثل هذا التصريف والترديد والتنويع ننوّع الآيات ونردّدها وهي الحجج الدالة على الوحدانية والقدرة الباهرة التامة والفعل بالاختيار ولما كان ما سبق ذكره من إرسال الرّياح منتشرات ومبشرات سبباً لإيجاد النّبات الذي هو سبب وجود الحياة وديمومتها كان ذلك أكبر نعمة الله على الخلق فقال ﴿ لقوم يشكرون ﴾ أي ﴿ بإذن ربه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر ، وأرشد إلى دعائه ؛ لأنه على ما يشاء قادر – نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال : " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نَشْرًا " أي : ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ، ومنهم من قرأ ﴿ بُشْرًا ﴾ كقوله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم : 46]

وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : بين يدي المطر ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : 28] وقال ﴿ فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 50]

وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا ﴾ أي : حملت الرياح سحابًا ثقالا أي : من كثرة ما فيها من الماء ، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة ، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل ، رحمه الله .

وأسلمتُ وجْهِي لمنْ أسْلَمَتْ . . . لَهُ المُزْنُ تَحْمل عَذْبا زُلالا . . .

وأسلَمْتُ وَجْهي لمن أسلَمَتْ . . . له الأرض تحملُ صَخرًا ثقالا

(113/273)

وقوله : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أي : إلى أرض ميتة ، مجدبة لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا [وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (5)] ﴾ [يس : 33] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أي : كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها ، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيمًا يوم القيامة ، ينزل الله ، سبحانه وتعالى ، ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوما ، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض . وهذا المعنى كثير في القرآن ، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها ؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

وقوله : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أي : والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنا ، كما قال : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : 37]

﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ قال مجاهد وغيره : كالسباخ ونحوها .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر .

(114/273)

وقال البخاري : حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا حماد بن أسامة عن بُرَيد بن عبد الله ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا ، فكانت منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فَعَلم وَعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا . ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به" .

رواه مسلم والنسائي من طرق ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة ، به (1) انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 430 . 431 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (79) ، وصحيح مسلم برقم (2282) ، وسنن النسائي الكبرى برقم (5843) .

وقال أبو السعود :

﴿ والبلد الطيب ﴾

أي الأرضُ الكريمةُ التربة ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بمشيئته وتيسيرِه ، عبَّر عن كثرة النباتِ وحسنِه وغزارةِ نفعه لأنه أوقعه في مقابلة قولِه تعالى : ﴿ والذى خَبُثَ ﴾ من البلاد كالسبخة والحرَّة ﴿ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ قليلاً عديمَ النفع ، ونصبُه على الحال والتقديرُ والبلدُ الذي خبُث لا يخرُج نباتُه إلا نكِداً ، فحُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه فصار مرفوعاً مستتراً وقرىء لا يُخرِج إلا نكداً أي لا يخرجه البلدُ إلا نكداً فيكون إلا نكداً مفعولَه ، وقرىء نَكَداً على المصدر أي ذا نَكَدٍ ، ونَكْداً بالإسكان للتخفيف ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك التصريفِ البديعِ ﴿ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ أي نرددها ونكررها ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمةَ الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها ، وهذا كما ترىٰ مثلٌ لإرسال الرسلِ عليهم السلام بالشرائع التي هي ماءُ حياةِ القلوبِ إلى المكلَّفين المنقسِمين إلى المقتبِسين من أنوارها والمحرومين من مغانمِ آثارِها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والبلد الطيب ﴾

أي الأرض الكريمة التربة التي لا سبخة ولا حرة ، واستعمال البلد بمعنى القرية عرف طار ، ومن قبيل ذلك إطلاقه على مكة المكرمة ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بمشيئته وتيسيره ، وهو في موضع الحال ، والمراد بذلك أن يكون حسناً وافياً غزير النفع لكونه واقعاً في مقابلة قوله : ﴿ والذى خَبُثَ ﴾ من البلاد كالسبخة والحرة ﴿ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ أي قليلاً لا خير فيه ، ومن ذلك قوله

: لا تنجز الوعد إن وعدت وإن . . .

أعطيت أعطيت تافهاً نكداً

ونصبه على الحال أو على أنه صفة مصدر محذوف ، وأصل الكلام لا يخرج نباته فحذف المضاف إليه وأقيم المضاف مقامه فصار مرفوعاً مستتراً ، وجوز أن يكون الأصل ونبات الذي خبث ، والتعبير أولاً بالطيب وثانياً بالذي خبث دون الخبيث للإيذان بأن أصل الأرض أن تكون طيبة منبتة وخلافه طار عارض .

وقرىء ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ﴾ ببناء ﴿ يَخْرُجُ ﴾ لما لم يسم فاعله ورفع ﴿ نَبَاتُ ﴾ على النيابة عن الفاعل ، و﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ﴾ ببناء ﴿ يَخْرُجُ ﴾ للفاعل من باب الإخراج ، ونصب ﴿ نَبَاتَهُ ﴾ على المفعولية ، والفاعل ضمير البلد ، وقيل ضمير الله تعالى أو الماء ، وكذا قرىء في ﴿ يَخْرُجُ ﴾ المنفي ، ونصب ﴿ نَكِدًا ﴾ حينئذٍ على المفعولية .

وقرأ أبو جعفر ﴿ نَكِدًا ﴾ بفتحتين على زنة المصدر ، وهو نصب على الحال أو على المصدرية أي ذا نكد أو خروجاً نكدا .

وقرأ ﴿ نَكِدًا ﴾ بالإسكان للتخفيف كنزه في قوله

: فقال لي قول ذي رأي ومقدرة . . .

مجرب عاقل نزه عن الريب

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التصريف البديع ﴿ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ أي نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها .

وأصل التصريف تبديل حال بحال ومنه تصريف الرياح .

﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ نعم الله تعالى ومنها تصريف الآيات وشكر ذلك بالتفكر فيها والاعتبار بها ، وخص الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك .

وقال الطيبي : ذكر ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ بعد ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 57] من باب الترقي لأن من تذكر آلاء الله تعالى عرف حق النعمة فشكر ، وهذا كما قال غير واحد مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك .

أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والبلد الطيب ﴾ الخ مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين يقول : هو طيب وعمله طيب والذي خبث الخ مثل للكافر يقول : هو خبيث وعمله خبيث .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم عليه السلام وذريته كلهم إنما خلقوا من نفس واحدة فمنهم من آمن بالله تعالى وكتابه فطاب ومنهم من كفر بالله تعالى وكتابه فخبث .

أخرج أحمد والشيخان والنسائي عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به " وإيثار

خصوص التمثيل بالأرض الطيبة والخبيثة استطراد عقيب ذكر المطر وإنزاله بالبلد وموازنة بين الرحمتين كما في "الكشف" ، ولقربه من الاعتراض جيء بالواو في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والبلد الطيب ﴾ وفيه إشارة إلى معنى ما ورد في "صحيح مسلم" عن عياض المجاشعي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته عن الله عز وجل : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " .

(118/273)

وفي "صحيح البخاري" عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه " ووجه الإشارة قد مرت الإشارة إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(119/273)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾

جملة معترضة بين جملة : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ [الأعراف : 57] وبين جملة : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ [الأعراف : 59] تتضمّن تفصيلاً لمضمون جملة : ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ [الأعراف : 57] إذ قد بيّن فيها اختلاف حال البلد الذي يصيبه ماء السّحاب ، دعا إلى هذا التّفصيل أنّه لما مُثّل إخراج ثمرات الأرض بإخراج المَوتى منها يوم البعث تذكيراً بذلك للمؤمنين ، وإبطالاً لإحالة البعث عند المشركين ، مُثل هنا باختلاف حال إخراج النّبات من الأرض اختلافُ حال النّاس الأحياءِ في الانتفاع برحمة هُدى الله ، فموقع قوله : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ كموقع قوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ [الأعراف : 57] ولذلك ذُيل هذا بقوله : ﴿ كذلك نصرف الأيات لقوم يشكرون ﴾ كما ذيل ما قبله بقوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ [الأعراف : 57] .

والمعنى : كذلك نخرج الموتى وكذلك ينتفع برحمة الهَدْي من خُلقت فطرته طيّبة قابلة للهُدى كالبلد الطّيّب ينتفع بالمطر ، ويحرم من الانتفاع بالهدى من خلقت فطرته خبيثة كالأرض الخبيثة لا تنتفع بالمطر فلا تنبت نباتاً نافعاً ، فالمقصود من هذه الآية التّمثيل ، وليسَ المقصود مجرّد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر ، لأنّ الغرض المسوق له الكلام يجمع أمرين : العبرةَ بصنع الله ، والموعظَة بما يماثل أحواله .

فالمعنى : كما أنّ البلد الطّيّب يَخرج نباته سريعاً بَهِجاً عند نزول المطر ، والبلد الخبيثَ لا يكاد ينبت فإن أنبت أخرج نَبْتاً خبيثاً لا خير فيه .

والطيب وصف على وزن فَيْعِل وهي صيغة تدلّ على قوّة الوصف في الموصوف مثل : قيّم ، وهو المتّصف بالطِّيبِ ، وقد تقدّم تفسير الطيب عند قوله تعالى : ﴿ قل أحلّ لكم الطّيّباتُ ﴾ في سورة المائدة (4) ، وعند قوله : ﴿ يا أيها النّاس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيّباً ﴾ في سورة البقرة (168) .

والبلد الطّيب الأرضُ الموصوفة بالطِّيبِ ، وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النّبات الصّالح وللزّرع والغرس النّافع وهي الأرض النّقيّه .

والذي خبث ضدّ الطَّيب .

وقوله : ﴿ بإذن ربه ﴾ في موضع الحال من ﴿ نباته ﴾ والإذن : الأمر ، والمراد به أمر العناية به كقوله : ﴿ لِمَا خلقتُ بيَدَيّ ﴾ [ص : 75] ليدلّ على تشريف ذلك النّبات ، فهو في معنى الوصف بالزّكاء ، والمعنى : البلد الطَّيب يخرج نباته طيّباً زكياً مثلَه ، وقد أشار إلى طيب نباته بأنّ خروجه بإذن ربّه ، فأريد بهذا الإذن إذنٌ خاص هو إذن عناية وتكريم ، وليس المراد إذن التّقدير والتّكوين فإنّ ذلك إذن معروف لا يتعلّق الغرض ببَيانه في مثل هذا المقام .

﴿ والذي خبث ﴾ حملهُ جميع المفسّرين على أنّه وصف للبلد ، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطّيب ، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلاّ نباتاً لا ينفع ، ولا يسرع إنباتها ، مثل السّباخ ، وحملوا ضمير يَخْرج على أنّه عائد للنّبات ، وجعلوا تقدير الكلام : والذي خبث لا (يخرج) نباتُه إلاّ نَكِداً ، فحُذف المضاف في التّقدير ، وهو نبات ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وهو ضمير البلد الذي خبث ، المستترُ في فعل يخرج .

والذي يظهر لي : أن يكون ﴿ الذي ﴾ صادقاً على نبات الأرض ، والمعنى : والنّبت الذي خبث لا يخرج إلاّ نَكِداً ، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطّيب بعد نبات البلد الطّيب ، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النّبات الخبيث ، لدلالة كِلا الضدّين على الآخر .

(121/273)

والتّقدير : والبلد الطّيب يخرج نباته طيّباً بإذْن ربّه ، والنّبات الذي خبث يخرج نكداً من البلد الخبيث ، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ .

وقرأ الجميع ﴿ لا يَخْرُج ﴾ بفتح التّحتيّة وضمّ الراء إلاّ ابنَ وردان عن أبي جعفر قرأ بضمّ التّحتيّة وكسر الرّاء على خلاف المشهور عنه ، وقيل إنّ نسبة هذا لابن وردان توهم .

والنّكد وصف من النكَد بفتح الكاف وهو مصدر نَكِدَ الشّيءُ إذا كان غير صالح يَجُرّ على مستعمله شراً .

وقرأ أبو جعفر ﴿ إلا نكداً ﴾ ، بفتح الكاف .

وفي تفصيل معنى الآية جاء الحديث الصّحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " مَثَلُ ما بَعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نَقِيَّةٌ قبِلَتْ الماءَ فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثيرَ ، وكانت منها أجَادِبُ أمسكت الماء فنفع بها الله النّاسَ فشربوا وسَقَوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنّما هي قِيعَانٌ لا تُمْسك ماء ولا تنبتُ كَلأً فذلك مثَل مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني اللَّهُ به فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، ومَثَل من لم يَرْفَعْ لِذلك رأساً ولم يَقْبَل هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به " .

والإشارة بقوله : ﴿ كذلك نصرف الأيات ﴾ إلى تفنّن الاستدلال بالدّلائل الدّالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيّة ، والدّالة أيضاً على وقوع البعث بعد الموت ، والدّالة على اختلاف قابليّة النّاس للهدى والانتفاع به بالاستدلال الواضحِ البيّن المقرّب في جميع ذلك ، فذلك تصريف أي تنويع وتفنين للآيات أي الدّلائل .

والمراد بالقوم الذين يشكرون : المؤمنون : تنبيهاً على أنّهم مورد التّمثيل بالبلد الطّيب ، وأنّ غيرهم مورد التّمثيل بالبلد الخبيث ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للنّاس

وما يعقلها إلاّ العالِمُون ﴾ [العنكبوت : 43] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(122/273)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى جَدَّهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ الْعَامَّةَ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ وَفِي سَائِرِ أَعْمَالِهِمْ ، ذَكَّرَنَا بِمَا نَغْفُلُ عَنْهُ كَثِيرًا مِنَ التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي أَظْهَرِ أَنْوَاعِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ ، وَهُوَ إِرْسَالُ الرِّيَاحِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعِ الْخَلْقِ ، وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الرِّزْقِ ، وَسَبَبُ حَيَاةِ كُلِّ حَيٍّ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْبَعْثِ ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ ، فَقَالَ :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا بَيَّنَ بِهِ تَعَالَى تَدْبِيرَهُ لِأَمْرِ الْعَالَمِ فِي إِثْرِ إِثْبَاتِهِ لِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ ، فِي قَوْلِهِ : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) إِلَخْ . وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ قَبِيلِ الِاعْتِرَاضِ الْمَقْصُودِ بِالذَّاتِ ، مِنَ التَّذْكِيرِ

بِهَذِهِ الْآيَاتِ ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ بِالْفِعْلِ وَالتَّرْكِ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَا حَرَّمَهُ الْإِسْلَامُ .

(123/273)

الرِّيحُ : الْهَوَاءُ الْمُتَحَرِّكُ . وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي الْأَكْثَرِ وَقَدْ تُذَكَّرُ بِمَعْنَى الْهَوَاءِ ، وَأَصْلُهَا رِوْحٌ بِالْوَاوِ وَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً لِكَسْرِ مَا قَبْلَهَا - كَالْمِيزَانِ وَأَصْلُهَا مِوْزَانٌ لِأَنَّهَا مِنَ الْوَزْنِ - وَجَمْعُهَا رِيَاحٌ وَأَرْوَاحٌ وَكَذَا أَرْيَاحٌ وَهُوَ شَاذٌّ وَالْهَوَاءُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْأَحْيَاءِ ، إِذْ وُجُودُهُ شَرْطٌ لِحَيَاةِ كُلِّ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، فَلَوْ رَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ لَمَاتَ كُلُّ حَيَوَانٍ وَإِنْسَانٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَلَا تَتِمُّ مَنَافِعُهُ إِلَّا بِحَرَكَتِهِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا رِيحًا ، وَسَنُذَيِّلُ تَفْسِيرَ الْآيَتَيْنِ بِنُبْذَةٍ عِلْمِيَّةٍ فِي بَيَانِ حَقِيقَتِهِ وَأَهَمِّ مَنَافِعِهِ الْعَامَّةِ . وَمِنْ أَهَمِّهَا فِعْلُهُ فِي تَوْلِيدِ الْمَطَرِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ الْآيَةِ .

(124/273)

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (الرِّيحَ) مُفْرَدَةً وَالْبَاقُونَ (الرِّيَاحَ) بِالْجَمْعِ ، وَرُسِمَتْ مِنَ الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ بِغَيْرِ أَلِفٍ لِتَحْتَمِلَ الْقِرَاءَتَيْنِ وَلِذَلِكَ أَمْثَالٌ ، وَالرِّيَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ أَرْبَعٌ بِحَسَبِ مَهَابِّهَا مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ : الشَّمَالُ وَالْجَنُوبُ وَسُمِّيَتَا بِاسْمِ جِهَةِ مَهَبِّهِمَا ، وَالثَّالِثَةُ الصَّبَا وَالْقَبُولُ وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ ، وَالرَّابِعَةُ الدَّبُورُ وَهِيَ الْغَرْبِيَّةُ . وَأَهْلُ الْحِجَازِ يَنْسِبُونَ رِيحَ الصَّبَا إِلَى نَجْدٍ ، وَالْجَنُوبَ إِلَى الْيَمَنِ ، وَالشَّمَالَ إِلَى الشَّمَالِ ، وَالرِّيحُ الَّتِي تَنْحَرِفُ عَنْ هَذِهِ الْمَهَابِّ الْأَصْلِيَّةِ فَتَكُونُ بَيْنَ ثِنْتَيْنِ مِنْهَا تُسَمَّى النَّكْبَاءَ مُؤَنَّثَ الْأَنْكَبِ ، وَهِيَ مِنْ قَوْلِهِمْ نَكَبَ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ عَنِ الطَّرِيقِ نَكْبًا وَنُكُوبًا إِذَا انْحَرَفَ وَتَحَوَّلَ عَنْهُ ، وَمِنْهُ (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) (23 : 74) وَإِذَا هَبَّتِ الرِّيَاحُ مِنْ مَهَابٍّ وَنَوَاحٍ مُخْتَلِفَةٍ سَمَّوْهَا الْمُتَنَاوِحَةَ . وَمِنَ الْمَأْثُورِ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّ الرِّيَاحَ تَشْتَرِكُ فِي إِثَارَةِ السَّحَابِ الْمُمْطِرِ فَيَقُولُونَ : إِنَّ الصَّبَا تُثِيرُهُ وَالشَّمَالَ تَجْمَعُهُ ، وَالْجَنُوبَ تَدِرُّهُ وَالدَّبُورَ تُفَرِّقُهُ . قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي وَصْفِ سَحَابٍ مُمْطِرٍ دَعَا لِبِلَادِهِ بِهِ :

جَونٌ أَعَارَتْهُ الْجَنُوبُ جَانِبًا . . . مِنْهَا وَوَاصَتْ صَوْبَهُ يَدُ الصَّبَا

ثُمَّ قَالَ :

إِذَا خَبَتْ بُرُوقُهُ عَنَّتْ لَهُ . . . رِيحُ الصَّبَا تُثِيرُ مِنْهُ مَا خَبَا

وَإِنْ وَنَتْ رُعُودُهُ حَدَا بِهَا . . . حَادِي الْجَنُوبِ فَحَدَتْ كَمَا حَدَا

وَيَخْتَلِفُ تَأْثِيرُ الرِّيَاحِ فِي الْأَقْطَارِ بِاخْتِلَافِ مَوَاقِعِهَا مِنْهَا . فَالصَّبَا وَالْجَنُوبُ لَا يَأْتِيَانِ بِالْمَطَرِ فِي الْقُطْرِ الْمِصْرِيِّ لِأَنَّ مَهَبَّهُمَا الصَّحَارِي الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا نَبَاتَ ، وَإِنَّمَا تَأْتِي بِهِ الشَّمَالُ وَالدَّبُورُ لِأَنَّ مَهَبَّهُمَا مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ فَيَحْمِلَانِ بُخَارَ الْمَاءِ مِنْهُ وَمِنَ الْأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّةِ ، وَأَكْثَرُهَا فِي الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ ، وَيَقْرُبُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ دِيَارُ الشَّامِ فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يُثِيرُ سَحَابَ الْمَطَرِ فِيهَا الدَّبُورُ (الْغَرْبِيَّةُ) فَإِذَا هَبَّتِ الصَّبَا (الشَّرْقِيَّةُ) وَغَلَبَتِ انْقَشَعَ السَّحَابُ وَخَفَّتْ رُطُوبَةُ

الْجَوِّ ، وَلَعَلَّ حِكْمَةَ الْقِرَاءَتَيْنِ أَنَّ الرِّيحَ الْوَاحِدَةَ تُبَشِّرُ بِالْمَطَرِ أَحْيَانًا أَوْ فِي بَعْضِ الْأَقْطَارِ كَمَا تُبَشِّرُ بِهِ رِيحَانِ فِي قُطْرٍ آخَرَ ، أَوْ أَنَّ الرِّيَاحَ بِأَنْوَاعِهَا تُبَشِّرُ بِالْمَطَرِ فِي الْأَقْطَارِ الْمُخْتَلِفَةِ ، عَلَى أَنَّ الرِّيحَ يُرَادُ بِهَا عِنْدَ إِطْلَاقِهَا الْجِنْسُ .

(126/273)

وَقَالَ الرَّاغِبُ كَغَيْرِهِ : إِنْ عَامَّةَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا إِرْسَالَ الرِّيحِ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ فَعِبَارَةٌ عَنِ الْعَذَابِ ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ ذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فَعِبَارَةٌ عَنِ الرَّحْمَةِ ، وَذَكَرَ بَعْضَ

الشَّوَاهِدِ ، وَمَنِ اسْتَقْرَأَ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ رَأَى أَنَّ الْجَمْعَ لَمْ يُذْكَرْ إِلَّا فِي بَيَانِ آيَاتِ اللهِ أَوْ رَحْمَتِهِ وَلَا سِيَّمَا رَحْمَةُ الْمَطَرِ ، وَأَمَّا الرِّيحُ الْمُفْرَدَةُ فَذُكِرَتْ فِي عَذَابِ قَوْمِ عَادٍ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَفِي ضَرْبِ الْمَثَلِ لِلْعَذَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ) (3 : 117) وَقَوْلِهِ : (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) (14 : 18) وَقَوْلِهِ : (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) (22 : 31) وَنَحْوِهِ فِي التَّهْدِيدِ فِي قَوْلِهِ : (فَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ) (17 : 69) الْآيَةَ . وَلَكِنَّهَا وَرَدَتْ فِي الْأَمْرَيْنِ بِالتَّقَابُلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ) (10 : 22) الْآيَةَ ، وَرَدَتْ فِي مَقَامِ الرَّحْمَةِ وَالْمِنَّةِ بِتَسْخِيرِهَا لِسُلَيْمَانَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَبَإٍ وَص .

(127/273)

(وَقَوْلُهُ) تَعَالَى : (بُشْرًا) قَرَأَهُ عَاصِمٌ بِضَمِّ الْمُوَحَّدَةِ وَسُكُونِ الشِّينِ ، مُخَفَّفُ بُشُرٍ بِضَمَّتَيْنِ وَهُوَ جَمْعُ بَشِيرٍ كَنُذُرٍ جَمْعُ نَذِيرٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِضَمَّتَيْنِ عَلَى الْأَصْلِ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بَشْرًا بِالتَّخْفِيفِ حَيْثُ وَقَعَ مِنَ الْقُرْآنِ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ نَشْرًا بِفَتْحِ النُّونِ حَيْثُ وَقَعَ عَلَى

أَنَّهُ مَصْدَرٌ فِي مَوْقِعِ الْحَالِ بِمَعْنَى نَاشِرَاتٍ أَوْ مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ ، فَإِنَّ الْإِرْسَالَ وَالنَّشْرَ مُتَقَارِبَانِ .

(128/273)

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا) قَالَ فِي الْأَسَاسِ : وَأَقَلَّهُ وَاسْتَقَلَّ بِهِ رَفَعَهُ . وَفِي الْمِصْبَاحِ وَكُلُّ شَيْءٍ حَمَلْتَهُ فَقَدْ أَقْلَلْتَهُ ، وَأَقْلَلْتُهُ عَنِ الْأَرْضِ رَفَعْتُهُ أَيْضًا ، قِيلَ : إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقِلَّةِ بِالْكَسْرِ لِقَوْلِهِمْ أَقَلَّهُ وَاسْتَقَلَّهُ أَيْ وَجَدَهُ قَلِيلًا ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ : أَقَلَّ الْقُلَّةَ - وَهِيَ بِالضَّمِّ الْجَرَّةُ - فَإِنَّمَا سُمِّيَتْ قُلَّةً لِأَنَّ الرَّجُلَ يُقِلُّهَا أَيْ يَحْمِلُهَا أَوْ يَرْفَعُهَا بِيَدَيْهِ عَنِ الْأَرْضِ ، وَالسَّحَابُ الْغَيْمُ وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدٍ بِالتَّاءِ فَيُقَالُ سَحَابَةٌ وَهُوَ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ وَيُفْرَدُ وَصْفُهُ وَيُجْمَعُ ، وَالثِّقَالُ مِنْهُ الْمُتَشَبِّعَةُ بِبُخَارِ الْمَاءِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ الرَّبَّ الْمُدَبِّرَ لِأُمُورِ الْخَلْقِ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، لِعِبَادِهِ بِالْمَطَرِ ، أَيْ قُدَّامَهَا مُبَشِّرَاتٍ بِهَا وَنَاشِرَاتٍ لِأَسْبَابِهَا حَتَّى إِذَا حَمَلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا وَرَفَعَتْهُ فِي الْهَوَاءِ (سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ) أَيْ سَيَّرْنَاهُ وَسُقْنَاهُ بِهَا إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ أَيْ أَرْضٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا ، فَإِنَّمَا حَيَاةُ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتِ الْحَيِّ فِيهَا " فَاللَّامُ بِمَعْنَى إِلَى " كَمَا فِي آيَةِ فَاطِرٍ (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ 35 : 9)

قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ كَغَيْرِهِ : وَيُطْلَقُ الْبَلَدُ وَالْبَلْدَةُ عَلَى كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عَامِرًا كَانَ أَوْ خَلَاءً ، وَفِي التَّنْزِيلِ (إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ 35 : 9) أَيْ إِلَى أَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ وَلَا مَرْعَى فَنُخْرِجُ ذَلِكَ بِالْمَطَرِ فَتَرْعَاهُ أَنْعَامُهُمْ ، فَأُطْلِقَ الْمَوْتُ عَلَى عَدَمِ النَّبَاتِ وَالْمَرْعَى ، وَأُطْلِقَ الْحَيَاةُ عَلَى وُجُودِهِمَا اهـ . أَقُولُ : وَغَلَبَ عُرْفُ النَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَخْصِيصِ الْبَلَدِ بِالْمَكَانِ الْآهِلِ بِالسُّكَّانِ فِي الْمَبَانِي .

(فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ) أَيْ فَأَنْزَلْنَا بِالسَّحَابِ الْمَاءَ ، فَالْبَاءُ لِلْآلَةِ أَوِ السَّبَبِيَّةِ – أَوْ بِالْبَلَدِ فَتَكُونُ الْبَاءُ لِلظَّرْفِيَّةِ ، أَيْ فِيهِ ، أَوْ بِالرِّيَاحِ وَالْمُخْتَارُ هُنَا كَوْنُ الْبَاءِ لِلسَّبَبِيَّةِ ، فَإِنَّ الرِّيحَ هِيَ الَّتِي تُثِيرُ السَّحَابَ مِنْ سَطْحِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمِيَاهِ أَوِ الْأَرْضِ الرَّطْبَةِ وَتَرْفَعُهُ فِي الْجَوِّ ، وَهِيَ سَبَبُ تَحَوُّلِ الْبُخَارِ

إِلَى مَاءٍ بِتَبْرِيدِهَا لَهُ - فَبِذَلِكَ يَصِيرُ الْبُخَارُ مَاءً أَثْقَلَ مِنَ الْهَوَاءِ فَيَسْقُطُ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى الْأَرْضِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ فِي جَاذِبِيَّةِ الثِّقْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرُّومِ : (اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) (30 : 48) وَفِي سُورَةِ النُّورِ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) (24 : 43) الْوَدْقُ : الْمَطَرُ ، أَيْ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ وَأَثْنَائِهِ وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ فَمُرَادٌ بِالسَّمَاءِ فِيهِ السَّحَابُ لِأَنَّ هَذَا التَّفْصِيلَ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ ، وَالسَّمَاءُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا عَلَا الْإِنْسَانَ وَيُفَسَّرُ بِالْقَرَائِنِ ، وَمِنَ الْخَطَإِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْمَاءَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَسْكَنُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى السَّحَابِ الَّذِي هُوَ كَالْغِرْبَالِ لَهَا وَإِنْ قَالَ بِهِ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُصَرِّحُ بِخِلَافِهِ ، وَمَا صَرَّحَ بِهِ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ الَّذِي أَثْبَتَهُ الْعِلْمُ وَالِاخْتِبَارُ ؛ فَإِنَّ سُكَّانَ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ يَبْلُغُونَ فِي تَوْقِهَا السَّحَابَ الْمُمْطِرَ ثُمَّ يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى مَا فَوْقَهُ فَيَكُونُ دُونَهُمْ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّحَابَ سَمَاءً تَسْمِيَةً حَقِيقِيَّةً ثُمَّ أُطْلِقَتْ لَفْظُ السَّمَاءِ عَلَى الْمَطَرِ نَفْسِهِ ، فَكَانَتْ تَقُولُ : جَاءَ مَكَانَ كَذَا فِي إِثْرِ سَمَاءٍ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ

:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ . . . رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَتِمَّةِ آيَةِ سُورَةِ النُّورِ الَّتِي ذَكَرْنَا أَوَّلَهَا آنِفًا : (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) (24 : 43) فَلَا مَانِعَ مِنْ جَعْلِ السَّمَاءِ فِيهَا عَيْنَ السَّحَابِ وَلَعَلَّ الْأَظْهَرَ أَنْ يُرَادَ بِهَا جِهَةُ الْعُلُوِّ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا السَّحَابُ كَقَوْلِهِ : (فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ) (30 : 48) وَقَوْلِهِ : (مِنْ جِبَالٍ) بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ . وَالْمُرَادُ بِالْجِبَالِ : قِطَعُ السَّحَابِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجِبَالَ شَبَهًا تَامًّا فِي عِظَمِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَشَنَاخِيبِهَا وَقُلَلِهَا ، وَقَلَّمَا يُوجَدُ فِي الْخَلْقِ تَشَابُهٌ كَالتَّشَابُهِ بَيْنَ السَّحَابِ

وَالْجِبَالِ . وَالْمَعْنَى : وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ سُحُبٍ فِيهَا كَالْجِبَالِ بَرَدًا عَظِيمَ الشَّأْنِ فِي شَكْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَتَأْثِيرِهِ فِيمَنْ يُصِيبُهُ ، وَ (مِنْ) فِيهِ صِلَةٌ أَوْ لِلتَّبْعِيضِ أَوْ لِلتَّنْوِيعِ . وَمَا رُوِيَ مُخَالِفًا لِهَذَا فَمِنْ إِسْرَائِيلِيَّاتِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَأَمْثَالِهِ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

.

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) عَطَفَ كُلًّا مِنْ إنْزَالِ الْمَاءِ عَلَى سَوْقِ السَّحَابِ وَمِنْ إخْرَاجِ النَّبَاتِ عَلَى إنْزَالِ الْمَاءِ بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْقِيبِ ، وَهُوَ يَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ الْأَشْيَاءِ ، فَإِنْزَالُ الْمَاءِ يَعْقُبُ سَوْقَ السَّحَابِ الثِّقَالِ وَجَعْلَهُ كِسَفًا أَوْ رُكَامًا بِدَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ قَلَّمَا يَتَجَاوَزُهَا إلَى السَّاعَاتِ ، وَسَبَبُ السُّرْعَةِ فِيهِ شِدَّةُ الرِّيحِ ، وَيُقَابِلُهُ سَبَبُ الْبُطْءِ وَهُوَ ضَعْفُهَا . وَأَمَّا إخْرَاجُ النَّبَاتِ بِسَبَبِ هَذَا الْمَاءِ فَأَمَدُ التَّعْقِيبِ فِيهِ أَوْسَعُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ بَعْدَ أَيَّامٍ تَخْتَلِفُ قِلَّةً وَكَثْرَةً بِاخْتِلَافِ الْأَقْطَارِ فِي الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ . وَمِنَ التَّعْقِيبِ مَا يَكُونُ فِي أَشْهُرٍ أَوْ سِنِينَ ، فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُمْ : تَزَوَّجَ فَوُلِدَ لَهُ – فَهُوَ يَصْدُقُ بِمَنْ يُولَدُ لَهُ بَعْدَ مُضِيِّ مُدَّةِ الْحَمْلِ الْغَالِبَةِ وَهِيَ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ بِالتَّقْرِيبِ ، وَلَعَلَّهُ لَا يُنَافِي التَّعْقِيبُ فِيهِ زِيَادَةَ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ .

(133/273)

وَالثَّمَرَاتُ جَمْعُ ثَمَرَةٍ وَهِيَ وَاحِدَةُ الثَّمَرِ (بِتَحْرِيكِ كُلٍّ مِنْهُمَا) وَالثَّمَرُ يُجْمَعُ عَلَى ثِمَارٍ – كَجَبَلٍ وَجِبَالٍ – وَجَمْعُ الثِّمَارِ ثُمُرٌ – كَكِتَابٍ وَكُتُبٍ – وَهُوَ يُجْمَعُ عَلَى أَثْمَارٍ – كَعُنُقٍ وَأَعْنَاقٍ – قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ : وَالثَّمَرُ هُوَ الْحَمْلُ الَّذِي تُخْرِجُهُ الشَّجَرَةُ سَوَاءٌ أُكِلَ أَوْ لَا . فَيُقَالُ : ثَمَرُ الْأَرَاكِ وَثَمَرُ الْعَوْسَجِ ، وَثَمَرُ الدَّوْمِ وَهُوَ الْمُقِلُّ ، كَمَا يُقَالُ : ثَمَرُ النَّخْلِ ، وَثَمَرُ

الْعِنَبِ اهـ . وَهَذَا أَصَحُّ وَأَوْضَحُ مِنْ قَوْلِ الرَّاغِبِ : الثَّمَرُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُتَطَعَّمُ مِنْ أَعْمَالِ الشَّجَرَةِ . وَالْمُرَادُ بِكُلِّ الثَّمَرَاتِ : جَمِيعُ أَنْوَاعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ طُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا . وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ كُلَّ بَلَدٍ مَيِّتٍ يُنْزِلُ اللَّهُ فِيهِ الْمَاءَ يُخْرِجُ بِهِ جَمِيعَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا فِي الْأَرْضِ ، فَقَدْ عُلِمَ مِنَ الْآيَةِ التَّالِيَةِ وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ وَمِنَ الْمُشَاهَدَةِ أَنَّ الْبِلَادَ تَخْتَلِفُ أَرْضُهَا فِيمَا تُخْرِجُهُ وَفِي الْإِخْرَاجِ ، فَالِاسْتِغْرَاقُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْضِ اللَّهِ كُلِّهَا . وَيَكْفِي فِي كُلِّ أَرْضٍ أَنْ تُخْرِجَ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ . قَالَ تَعَالَى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (13 : 4) وَقَفَّى عَلَى

التَّذْكِيرِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ بِالتَّعَجُّبِ مِنْ إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ كَمَا قَالَ هُنَا :

(كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أَيْ مِثْلَ هَذَا الْإِخْرَاجِ لِأَنْوَاعِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ بِإِحْيَائِهَا بِالْمَاءِ نُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنَ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ ، فَالْقَادِرُ عَلَى هَذَا قَادِرٌ عَلَى ذَاكَ . لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ هَذَا الشَّبَهَ فَيَزُولُ اسْتِبْعَادُكُمْ لِلْبَعْثِ الَّذِي عَبَّرْتُمْ عَنْهُ بِقَوْلِكُمْ : (مَنْ يُحْيِي

الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (36 : 78) ؟ (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) (37 : 16) (أَئِنَّا لَمَدِينُونَ) (37 : 53) (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (50 : 3) وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الدَّالَّةِ عَلَى إنْكَارِكُمْ لَا مَنْشَأَ لَهُ إلَّا مَا تَحْكُمُونَ

بِهِ بَادِيَ الرَّأْيِ مِنِ امْتِنَاعِ خُرُوجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ ، ذَاهِلِينَ عَنْ خُرُوجِ النَّبَاتِ الْحَيِّ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ ، وَعَنْ

عَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ حَيَاةِ النَّبَاتِ وَحَيَاةِ الْحَيَوَانِ ، فِي خُضُوعِهِمَا لِقُدْرَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَوَجْهُ الشَّبَهِ فِي الْآيَةِ هُوَ إخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَالْحَيُّ فِي عُرْفِهِمْ يُعْرَفُ بِالنَّمَاءِ وَالتَّغَذِّي كَالنَّبَاتِ ، وَبِالْحِسِّ وَالتَّحَرُّكِ بِالْإِرَادَةِ كَالْحَيَوَانِ .

(135/273)

فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْعِلْمَ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّ الْحَيَّ لَا يُولَدُ إلَّا مِنْ حَيٍّ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ النَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ بِأَنْوَاعِهِ مِنْ أَدْنَى الْحَشَرَاتِ إلَى أَعْلَاهَا ، فَالنَّبَاتُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ الْقَفْرَاءِ بَعْدَ سَقْيِهَا بِالْمَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ بُذُورٌ أَوْ جُذُورٌ فِيهَا حَيَاةٌ كَامِنَةٌ لَا تَظْهَرُ مِنْ مَكْمَنِهَا إلَّا بِالْمَاءِ ، كَمَا أَنَّ الْبُيُوضَ الَّتِي يَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْحَيَوَانُ - أَدْنَاهَا كَالصِّئْبَانِ وَبُذُورِ الدِّيدَانِ ، وَأَوْسَطُهَا كَبَيْضِ

الطَّيْرِ وَالْحَيَّاتِ ، وَأَعْلَاهَا كَبُيُوضِ الْأَرْحَامِ - كُلُّهَا ذَاتُ حَيَاةٍ لَا تُنْتِجُ إلَّا بِتَلْقِيحِ مَاءِ الذُّكُورِ لَهَا ؟ .

(136/273)

قُلْنَا : إنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ وَاضِعِي اللُّغَةِ فَهِيَ اصْطِلَاحٌ جَدِيدٌ ، وَأَهْلُ اللُّغَةِ خُوطِبُوا بِعُرْفِهِمْ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فَفَهِمُوا ، بَلْ إنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ لَا يَنْفِي صِحَّةَ خُرُوجِ النَّبَاتِ الْحَيِّ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ ، فَلَوْلَا تَغَذِّي الْبُذُورِ وَالْجُذُورِ بِمَوَادِّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ بِسَبَبِ الْمَاءِ لَمَا نَبَتَتْ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ قَالُوا إنَّ الْإِنْسَانَ يَبْلَى كُلُّهُ إلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ وَهُوَ أَصْلُ الذَّنَبِ الْمُسَمَّى بِالْعُصْعُصِ أَوْ رَأْسِ الْعُصْعُصِ فَهُوَ كَنَوَاةِ النَّخْلَةِ تَبْقَى فِيهِ الْحَيَاةُ كَامِنَةً بَعْدَ فَنَاءِ الْجِسْمِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُ النَّاسُ مِنْ عَجَبِ الذَّنَبِ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ فَهَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَطَرَ يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَفْعَلُ هَذَا الْمَطَرُ فِي الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَلَيْسَ لِهَذَا الْقَوْلِ أَصْلٌ صَرِيحٌ يُعَدُّ حُجَّةً قَطْعِيَّةً فِي مَسْأَلَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ غَيْرِ مَعْقُولَةِ الْمَعْنَى كَهَذِهِ ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي الْآحَادِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مَا يُثْبِتُ بَقَاءَ عَجَبِ الذَّنَبِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ . . . وَيَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إلَّا عَجَبُ الذَّنَبِ فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ " هَذَا لَفْظُ

الْبُخَارِيِّ لِلْمَرْفُوعِ . وَزَادَ مُسْلِمٌ بَعْدَ قَوْلِهِ أَرْبَعُونَ " ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ (قَالَ) وَلَيْسَ مِنَ

(137/273)

الْإِنْسَانِ شَيْءٌ لَا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجَبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " وَهُوَ غَيْرُ صَرِيحٍ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الثَّعْلَبِيِّ وَابْنِ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعِينَ عَامًا يُرْسِلُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى الْمَوْتَى مَطَرًا كَمَنِيِّ الرِّجَالِ مِنْ مَاءٍ تَحْتَ الْعَرْشِ يُسَمَّى مَاءَ الْحَيَوَانِ فَيَنْبُتُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِذَلِكَ الْمَطَرِ كَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِمُ الرُّوحُ عِنْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ ، وَهَذَا التَّفْصِيلُ لَا يَصِحُّ فِيهِ شَيْءٌ مَرْفُوعٌ عَنْهُ وَلَا عَنْ غَيْرِهِ ، وَيُعَارِضُهُ كَوْنُ الْأَرْضِ تَصِيرُ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا هَبَاءً مُنْبَثًّا وَهَذَا قَطْعِيٌّ ، وَهُوَ يُعَارِضُ الْمَرْفُوعَ أَيْضًا ، فَإِنْ لَمْ يُمْكِنِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا كَانَ ذَلِكَ مَطْعَنًا فِي صِحَّةِ الْحَدِيثِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حَدِيثِ الشَّيْخَيْنِ نَفْسِهِ ، فَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ عَلَى إِطْلَاقِهِ وَإِجْمَالِهِ ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمْ كَوْنَ عَجَبِ الذَّنَبِ لَا يَبْلَى بِطُولِ بَقَائِهِ لَا أَنَّهُ لَا يَفْنَى مُطْلَقًا ، ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ لِلْحَدِيثِ مِنَ الْفَتْحِ . وَفَوَّضَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ وَسِرَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَخَالَفَ الْإِمَامُ

الْمُزَنِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ فَقَالَ بِفَنَائِهِ كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْجَوْهَرَةِ :

عَجَبُ الذَّنَبِ كَالرُّوحِ لَكِنْ صَحَّحَا الْمُزَنِيُّ لِلْبِلَى وَرَجَّحَا

(138/273)

وَإِنَّمَا يُقَالُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ بِالنَّبَاتِ وَبِالْحَيَاةِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ : إِنَّكُمْ تَقُولُونَ بِأَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ كُرَةً نَارِيَّةً مُلْتَهِبَةً . وَأَنَّ الْأَحْيَاءَ الْأُولَى وُجِدَتْ فِيهَا بِالتَّوَلُّدِ الذَّاتِيِّ الَّذِي انْقَطَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَسَلْسُلِ الْأَحْيَاءِ ؛ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْأَرْضِ لَمْ تَبْقَ مُسْتَعِدَّةً لَهُ كَمَا كَانَتْ وَهِيَ قَرِيبَةُ الْعَهْدِ بِالتَّكْوِينِ . وَقَدْ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ بِأَنَّ الْأَرْضَ تَفْنَى بِتَفَرُّقِ مَادَّتِهَا ، ثُمَّ يُعِيدُهَا اللَّهُ كَمَا بَدَأَهَا . قَالَ تَعَالَى : (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) (56 : 4 – 6) فَهَذِهِ الرَّجَّةُ الَّتِي سَمَّاهَا فِي سُوَرٍ أُخْرَى بِالْقَارِعَةِ وَالصَّاخَّةِ . وَالْمَعْقُولُ أَنَّ كَوْكَبًا يَقْرَعُهَا بِاصْطِدَامِهِ بِهَا فَتَفَتَّتُ جِبَالُهَا وَتَكُونُ كَالْهَبَاءِ الْمُتَفَرِّقِ فِي الْجَوِّ وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ بِالسَّدِيمِ . وَقَالَ تَعَالَى : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (21 : 104) (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (29)

(139/273)

وَالْأَشْبَهُ أَنَّ تَشْبِيهَ الْإِعَادَةِ بِالْبَدْءِ إِنَّمَا هُوَ بِالْإِجْمَالِ دُونَ التَّفْصِيلِ ، فَكَمَا خَلَقَ اللهُ جَسَدَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ خَلْقًا ذَاتِيًّا مُبْتَدَأً ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ - يَخْلُقُ أَجْسَادَ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ خَلْقًا ذَاتِيًّا مُعَادًا ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهَا أَرْوَاحَهَا الَّتِي كَانَتْ بِهَا أَنَاسِيَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لَا أَنَّهُ يَجْعَلُهَا مُتَسَلْسِلَةً بِالتَّوَالُدِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى كَالنَّشْأَةِ الْأُولَى ، إِذْ كَانَتِ الْأَجْسَادُ كَاللِّبَاسِ لِلْأَرْوَاحِ أَوِ السَّكَنِ لَهَا ، وَإِذَا كَانَ النَّاسُ قَدْ بَلَغُوا مِنْ عِلْمِ الْكِيمْيَاءِ أَنْ يُحَلِّلُوا بَعْضَ الْمَوَادِّ الْمُرَكَّبَةِ مِنْ عَنَاصِرَ كَثِيرَةٍ ثُمَّ يَرْكَبُوهَا ، أَفَيَعْجِزُ خَالِقُ الْعَالَمِ كُلِّهِ أَوْ يُسْتَبْعَدُ عَلَى قُدْرَتِهِ أَنْ يُعِيدَ أَجْسَادَ أُلُوفِ الْأُلُوفِ مَرَّةً وَاحِدَةً ؟ وَأَيُّ فَرْقٍ عِنْدَهُ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ ! .

(140/273)

عَلَى أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَ الرُّوحِيِّينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَمَا قَبْلَهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَى الْأَرْوَاحَ الْمُجَرَّدَةَ قُدْرَةً عَلَى التَّصَرُّفِ فِي مَادَّةِ الْكَوْنِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ ، وَأَنَّهَا بِذَلِكَ تُرَكِّبُ لِنَفْسِهَا مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ جِسْمًا لَطِيفًا أَوْ كَثِيفًا تَحِلُّ فِيهِ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاؤُنَا بِالتَّشَكُّلِ فِي تَفْسِيرِ مَجِيءِ الْمَلَكِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً بِشَكْلِ

أَعْرَابِيٍّ وَأَحْيَانًا فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ وَتَمَثُّلِهِ لِلسَّيِّدَةِ مَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَإِذَا كَانَ الْمَادِّيُّونَ لَا يُصَدِّقُونَ الرُّوحَانِيِّينَ فِي هَذَا ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ مُحَالٌ فِي نَفْسِهِ . وَإِنَّمَا قُصَارَى إِنْكَارِهِمْ أَنْ قَالُوا إِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنَا . وَإِذَا كَانَ مُمْكِنًا غَيْرَ مُحَالٍ أَنْ يَكُونَ مِمَّا وَهَبَ الْخَالِقُ لِلْمَخْلُوقِ ، أَفَيَكُونُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَفْعَلَهُ الْخَالِقُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْعَلَ لِلْأَرْوَاحِ فِيهِ عَمَلًا ؟ .

(141/273)

لَيْسَ لِلْكُفَّارِ شُبْهَةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى أَصْلِ الْبَعْثِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ يَسْتَبْعِدُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ قَدْ قَرَّبَهُ تَرَقِّي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ كُبَرَاءِ الْغَرْبِ : لَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ مُحَالٌ . وَلَكِنْ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ شُبْهَةٌ عَلَى حَشْرِ الْأَجْسَادِ تُرَدُّ عَلَى ظَاهِرِ قَوْلِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُحْشَرُ بِجَسَدِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَوْ عِنْدَ الْمَوْتِ لِكَيْ يَقَعَ الْجَزَاءُ بَعْدَهُ عَلَى الْبَدَنِ الَّذِي اقْتَرَفَ الْأَعْمَالَ .

وَتَقْرِيرُ هَذَا الْإِيرَادِ أَنَّ هَذِهِ الْأَجْسَادَ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْهَا مَادَّةُ الْكَوْنِ كُلِّهِ ، وَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ يَعْرِضُ لَهَا التَّحْلِيلُ وَالتَّرْكِيبُ فَتَدْخُلُ الطَّائِفَةُ مِنْهَا فِي عِدَّةِ أَبْدَانٍ عَلَى التَّعَاقُبِ ،

فَمِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ مَا تَأْكُلُهُ الْحِيتَانُ أَوِ الْوُحُوشُ وَمِنْهَا مَا يُحْرَقُ فَيَذْهَبُ بَعْضُ أَجْزَائِهِ فِي الْهَوَاءِ فَيَتَّصِلُ كُلُّ بُخَارِيٍّ - أَوْ

(142/273)

غَازِيٍّ - مِنْهَا بِجِنْسِهِ كَبُخَارِ الْمَاءِ وَعُنْصُرَيْهِ وَالْكَرْبُونِ ، وَيَنْحَلُّ مَا يُدْفَنُ فِي الْأَرْضِ فِيهَا ثُمَّ يَتَغَذَّى بِكُلٍّ مِنْهُمَا النَّبَاتُ الَّذِي يَأْكُلُ بَعْضَهُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ فَيَكُونُ جُزْءًا مِنْ أَجْسَادِهَا ، وَيَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ لُحُومِ الْحِيتَانِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَغَذَّتْ مِنْ أَجْسَادِ النَّاسِ بِالذَّاتِ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ ، فَلَا يَخْلُصُ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ جَسَدٌ خَاصٌّ بِهِ ، بَلْ ثَبَتَ أَنَّ الْأَجْسَادَ الْحَيَّةَ تَنْحَلُّ وَتَنْدَثِرُ بِالتَّدْرِيجِ ، وَكُلَّمَا انْحَلَّ بَعْضُهَا بِالتَّبَخُّرِ وَبِمَوْتِ بَعْضِ الدَّقَائِقِ الْحَيَّةِ يَحِلُّ مَحَلَّهُ غَيْرُهُ مِنَ الْغِذَاءِ بِنِسْبَةِ الدَّمِ الْمُتَحَوِّلِ مِنْ مُنْتَظِمَةٍ بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، فَلَا يَمُرُّ بِضْعُ سِنِينَ عَلَى جَسَدٍ إِلَّا وَيَتِمُّ انْدِثَارُهُ وَتَجَدُّدُهُ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ يُحْشَرُ بِجَسَدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا ؟

(143/273)

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا بِأَنَّ لِلْجَسَدِ أَجْزَاءً أَصْلِيَّةً وَأَجْزَاءً فَضْلِيَّةً ، وَالَّذِي يُعَادُ بِعَيْنِهِ هُوَ الْأَصْلِيُّ دُونَ الْفَضْلَةِ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمُ الْأَصْلِيَّ عِبَارَةً عَنْ ذَرَّاتٍ صَغِيرَةٍ كَعَجَبِ الذَّنَبِ الَّذِي وَرَدَ أَنَّهُ كَحَبَّةِ خَرْدَلٍ ، بَلْ جُوِّزَ أَنْ تَكُونَ هِيَ الَّتِي وَرَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْدَعَهَا فِي صُلْبِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ بِصُورَةِ الذَّرِّ ، كَمَا رُوِيَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) (172) الْآيَةَ – وَسَيَأْتِي تَحْقِيقُ مَعْنَاهَا وَمَا وَرَدَ فِيهَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ – وَجَوَّزَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ حُسَيْنُ الْجِسْرُ فِي الرِّسَالَةِ الْحُمَيْدِيَّةِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الذَّرُّ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ الطَّرْفُ لِتَنَاهِي صِغَرِهِ كَالْأَحْيَاءِ الْمِجْهَرِيَّةِ أَيِ الَّتِي لَا تُرَى إِلَّا بِالْمِنْظَارِ الْمُسَمَّى بِالْمِجْهَرِ (الميكروسكوب)

.

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الْتِزَامَ الْقَوْمِ بِوُجُوبِ حَشْرِ الْأَجْسَادِ الَّتِي كَانَتْ لِكُلِّ حَيٍّ بِأَعْيَانِهَا لِأَجْلِ وُقُوعِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا غَيْرُ لَازِمٍ لِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ ، فَجَمِيعُ قُضَاةِ الْعَالَمِ الْمَدَنِيِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَبْدَانَ الْبَشَرِ تَتَجَدَّدُ فِي سِنِينَ قَلِيلَةٍ وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ

غَيْرِهِمْ مِنَ الْعُقَلَاءِ يَقُولُ إِنَّ الْعِقَابَ يَسْقُطُ عَنِ الْجَانِي بِانْحِلَالِ أَجْزَاءِ بَدَنِهِ الَّتِي زَاوَلَ بِهَا الْجِنَايَةَ وَتَبَدَّلَ غَيْرُهَا بِهَا . فَمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا نَصٌّ صَرِيحٌ مِنَ الْقُرْآنِ أَوِ الْحَدِيثِ الْمُتَوَاتِرِ عَلَى بَعْثِ الْأَجْسَادِ بِأَعْيَانِهَا فَمَا نَحْنُ بِمُلْزَمِينَ قَبُولَ الْإِيرَادِ وَتَكَلُّفَ دَفْعِهِ ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ لَا تَتَغَيَّرُ بِهَذَا التَّبَدُّلِ ، فَقَدْ تَبَدَّلَتْ أَجْسَادُنَا مِرَارًا وَلَمْ تَتَبَدَّلْ بِهَا حَقِيقَتُنَا وَلَا مَدَارِكُنَا ، وَلَا تَأْثِيرُ الْأَعْمَالِ الَّتِي زَاوَلْنَاهَا قَبْلَ التَّبَدُّلِ فِي أَنْفُسِنَا ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّبَدُّلُ إِلَّا كَتَبَدُّلِ الثِّيَابِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَعْلَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِمِثْلِ هَذَا وَلَمْ تَكُنِ الْمَسْأَلَةُ الْأَخِيرَةُ مَعْلُومَةً

فِي عَصْرِهِمْ ، قَالَ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيُّ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ وَهُوَ أَشْهَرُ كُتُبِ الْكَلَامِ فِي التَّحْقِيقِ بَعْدَ بَيَانِهِ لِمَا قَالَهُ الْغَزَالِيُّ فِي إِثْبَاتِ كَوْنِ الْحَشْرِ وَالْمَعَادِ لِلرُّوحِ وَالْجَسَدِ جَمِيعًا مَا نَصُّهُ :

(145/273)

" نَعَمْ رُبَّمَا يَمِيلُ كَلَامُهُ وَكَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْقَائِلِينَ بِالْمَعَادَيْنِ إِلَى أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ لِذَلِكَ الْبَدَنِ بَدَنًا فَيُعِيدُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ الْمُجَرَّدَةَ الْبَاقِيَةَ بَعْدَ خَرَابِ الْبَدَنِ . وَلَا يَضُرُّنَا كَوْنُ غَيْرِ الْبَدَنِ الْأَوَّلِ بِحَسَبِ الشَّخْصِ وَلَا امْتِنَاعُ إِعَادَةِ الْمَعْدُومِ بِعَيْنِهِ ، وَمَا

شَهِدَتْ بِهِ النُّصُوصُ مِنْ كَوْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ جُرْدًا مُرْدًا ، وَكَوْنِ ضِرْسِ الْكُفَّارِ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ يُعَضِّدُ ذَلِكَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا) (4 : 56) وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) (36 : 81) إشَارَةً إلَى هَذَا .

(فَإِنْ قِيلَ) : فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُثَابُ وَالْمُعَاقَبُ بِاللَّذَّاتِ وَالْآلَامِ الْجُسْمَانِيَّةِ غَيْرَ مَنْ عَمِلَ الطَّاعَةَ ، وَارْتَكَبَ الْمَعْصِيَةَ . (قُلْنَا) : الْعِبْرَةُ فِي ذَلِكَ بِالْإِدْرَاكِ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلرُّوحِ وَلَوْ بِوَاسِطَةِ الْآلَاتِ وَهُوَ بَاقٍ بِعَيْنِهِ ، وَكَذَا الْأَجْزَاءُ الْأَصْلِيَّةُ مِنَ الْبَدَنِ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لِلشَّخْصِ مِنَ الصِّبَا إلَى الشَّيْخُوخَةِ إنَّهُ هُوَ بِعَيْنِهِ وَإِنْ تَبَدَّلَتِ الصُّوَرُ وَالْهَيْئَاتُ ، بَلْ كَثِيرٌ مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَعْضَاءِ ، وَلَا يُقَالُ لِمَنْ جَنَى فِي الشَّبَابِ فَعُوقِبَ فِي الْمَشِيبِ إنَّهَا عُقُوبَةٌ لِغَيْرِ الْجَانِي .

(146/273)

(قَالَ) " لَنَا أَنَّ الْمُعْتَمَدَ فِي إثْبَاتِ حَشْرِ الْأَجْسَادِ دَلِيلُ السَّمْعِ ، وَالْمُفْصِحَ عَنْهُ غَايَةَ الْإِفْصَاحِ مِنَ الْأَدْيَانِ دِينُ الْإِسْلَامِ ، وَمِنَ الْكُتُبِ الْقُرْآنُ ، وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْمُعْتَزِلَةُ يَدَّعُونَ إثْبَاتَهُ بَلْ وُجُوبَهُ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ - وَتَقْرِيرُهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى اللَّهِ ثَوَابُ الْمُطِيعِينَ ، وَعِقَابُ الْعَاصِينَ ، وَإِعْوَاضُ الْمُسْتَحِقِّينَ . وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إلَّا بِإِعَادَتِهِمْ فَيَجِبُ ؛ لِأَنَّ مَا لَا

يَتَأَتَّى الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ ، وَرُبَّمَا يَتَمَسَّكُونَ بِهَذَا فِي وُجُوبِ الْإِعَادَةِ عَلَى تَقْرِيرِ الْفَنَاءِ وَمَبْنَاهُ عَلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدِ فِي الْوُجُوبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِي كَوْنِ تَرْكِ الْجَزَاءِ ظُلْمًا لَا يَصِحُّ صُدُورُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ إمْكَانِ الْمُنَاقَشَةِ فِي أَنَّ الْوَاجِبَ لَا يَتِمُّ إلَّا بِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَكْفِي الْمَعَادُ الرُّوحَانِيُّ ، وَيَدْفَعُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُطِيعَ وَالْعَاصِيَ هِيَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ أَوِ الْأَجْزَاءُ الْأَصْلِيَّةُ لَا الرُّوحُ وَحْدَهُ ، وَلَا يَصِلُ الْجَزَاءُ إلَى مُسْتَحِقِّهِ إلَّا بِإِعَادَتِهَا .

(وَالْجَوَابُ) أَنَّهُ إنْ اعْتَبَرَ الْأَمْرَ بِحَسَبِ الْحَقِيقَةِ فَالْمُسْتَحِقُّ هُوَ الرُّوحُ ؛ لِأَنَّ مَبْنَى الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ عَلَى الْإِدْرَاكَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَهُوَ

(147/273)

الْمَبْدَأُ لِلْكُلِّ ، وَإِنِ اعْتُبِرَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ يَلْزَمُ أَنْ يُعَادَ جَمِيعُ الْأَجْزَاءِ الْكَائِنَةِ مِنْ أَوَّلِ التَّكْلِيفِ إلَى الْمَمَاتِ وَلَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ فَالْأَوْلَى التَّمَسُّكُ بِدَلِيلِ السَّمْعِ .

(148/273)

" وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الْحَشْرَ وَالْإِعَادَةَ أَمْرٌ مُمْكِنٌ أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ فَيَكُونُ وَاقِعًا . أَمَّا الْإِمْكَانُ فَلِأَنَّ الْكَلَامَ فِيمَا عُدِمَ بَعْدَ الْوُجُودِ أَوْ تَفَرَّقَ بَعْدَ الِاجْتِمَاعِ أَوْ مَاتَ بَعْدَ الْحَيَاةِ فَيَكُونُ قَابِلًا لِذَلِكَ . وَالْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ . الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلِمَا تَوَاتَرَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ سِيَّمَا نَبِيُّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ بِذَلِكَ ، وَلِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ نُصُوصٍ لَا يَحْتَمِلُ أَكْثَرُهَا التَّأْوِيلَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) (36 : 78 ، 79) . (فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) (36 : 51) . (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (17 : 51) (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (75 : 3 ، 4) (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) (41 : 21) (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا) (4 : 56) (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) (50 : 44) (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ) (100 : 9) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَمِنَ الْأَحَادِيثِ أَيْضًا (وَهِيَ) كَثِيرَةٌ وَبِالْجُمْلَةِ ، فَإِثْبَاتُ الْحَشْرِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدِّينِ وَإِنْكَارُهُ كُفْرٌ بِيَقِينٍ .

(149/273)

(فَإِنْ قِيلَ) : الْآيَاتُ الْمُشْعِرَةُ بِالْمِيعَادِ الْجُسْمَانِيِّ لَيْسَتْ أَكْثَرَ وَأَظْهَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْعِرَةِ بِالتَّشْبِيهِ وَالْجَبْرِ وَالْقَدَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَقَدْ وَجَبَ تَأْوِيلُهَا قَطْعًا ، فَلْنَصْرِفْ هَذِهِ أَيْضًا إِلَى بَيَانِ الْمَعَادِ الرُّوحَانِيِّ وَأَحْوَالِ سَعَادَةِ النُّفُوسِ وَشَقَاوَتِهَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَبْدَانِ عَلَى وَجْهٍ يَفْهَمُهُ الْعَوَامُّ ؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَبْعُوثُونَ إِلَى كَافَّةِ الْخَلَائِقِ لِإِرْشَادِهِمْ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَتَكْمِيلِ نُفُوسِهِمْ بِحَسَبِ الْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ وَتَبْقِيَةِ النِّظَامِ الْمُفْضِي إِلَى صَلَاحِ الْكُلِّ ، وَذَلِكَ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالْبِشَارَةِ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ لَذَّةً وَكَمَالًا ، وَالْإِنْذَارِ عَمَّا يَعْتَقِدُونَهُ أَلَمًا وَنُقْصَانًا . وَأَكْثَرُهُمْ عَوَامٌّ تَقْصُرُ عُقُولُهُمْ عَنْ فَهْمِ الْكَمَالَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَاللَّذَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَتَقْتَصِرُ عَلَى مَا أَلِفُوهُ مِنَ اللَّذَّاتِ وَالْآلَامِ الْحِسِّيَّةِ ، وَعَرَفُوهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَالنُّقْصَانَاتِ الْبَدَنِيَّةِ . فَوَجَبَ أَنْ تُخَاطِبَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ لِلْمَعَادِ الْحَقِيقِيِّ تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا لِلْعَوَامِّ ، وَتَتْمِيمًا لِأَمْرِ النِّظَامِ . وَهَذَا مَا قَالَهُ أَبُو نَصْرٍ الْفَارَابِيُّ : إِنَّ الْكَلَامَ مَثَلٌ وَخَيَالَاتٌ لِلْفَلْسَفَةِ .

(150/273)

(قُلْنَا) : إِنَّمَا يَجِبُ التَّأْوِيلُ عِنْدَ تَعَذُّرِ الظَّاهِرِ وَلَا تَعَذُّرَ هَاهُنَا ، سِيَّمَا عَلَى الْقَوْلِ بِكَوْنِ الْبَدَنِ الْمُعَادِ مِثْلَ الْأَوَّلِ لَا عَيْنَهُ ، وَمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ حَمْلِ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَنُصُوصِ الْكِتَابِ عَلَى

الْإِشَارَةِ إِلَى مِثَالِ مَعَادِ النَّفْسِ وَالرِّعَايَةِ لِمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ نِسْبَةً لِلْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْكَذِبِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْقَصْدِ إِلَى تَضْلِيلِ أَكْثَرِ الْخَلَائِقِ وَالتَّعَصُّبِ طُولَ الْعُمْرِ لِتَرْوِيجِ الْبَاطِلِ وَإِخْفَاءِ الْحَقِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا هَذِهِ الظَّوَاهِرَ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا عِنْدَكُمْ . نَعَمْ لَوْ قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ مَعَ إِرَادَتِهَا مِنَ الْكَلَامِ وَثُبُوتِهَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مَثَلٌ لِلْمَعَادِ الرُّوحَانِيِّ وَاللَّذَّاتِ وَالْآلَامِ الْعَقْلِيَّةِ وَكَذَا أَكْثَرُ ظَوَاهِرِ الْقُرْآنِ عَلَى مَا يَذْكُرُهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ لَكَانَ حَقًّا لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَا اعْتِدَادَ بِمَنْ يَنْفِيهِ اهـ . كَلَامُ التَّفْتَازَانِيِّ .

(151/273)

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا مِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا تَظْهَرُ لَهُ دِقَّةُ أَفْهَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الشُّبْهَةَ بِنَحْوٍ مِمَّا يُؤْخَذُ مِنْ أَحْدَثِ مَا قَرَّرَهُ عُلَمَاءُ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلْمِ الْكِيمْيَاءِ وَغَيْرِهِ ، وَأَجَابُوا عَنْهَا بِمَا يُغْنِي عَنْ جَوَابٍ آخَرَ ، وَمَا قَالَهُ الْفَارَابِيُّ وَأَمْثَالُهُ فَهُوَ كَأَكْثَرِ فَلْسَفَتِهِمْ فِيمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ جَهْلًا بِحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ ، وَضَلَالًا فِي تَأْوِيلِ الْأَدْيَانِ ، فَالْإِنْسَانُ رُوحٌ وَجَسَدٌ ، وَكَمَالُهُ بِحُصُولِ لَذَّاتِهِ الرُّوحِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ جَمِيعًا وَلَا تَنَافِي بَيْنَهُمَا ، وَلَوْ كَانَ رُوحَانِيًّا مَحْضًا لَكَانَ مَلَكًا أَوْ شَيْطَانًا وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانًا . وَقَدْ سَبَقَ لَنَا بَيَانُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِرَارًا .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِالْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْأَجْزَاءِ الْفَضْلِيَّةِ فَهُوَ لَا يَدْفَعُ الشُّبْهَةَ ، وَلَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ ،

وَتَفْسِيرُ الْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ بِالذَّرِّ أَوْ مَا يُشْبِهُ الَّذِي وَرَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُ فِي صُلْبِ آدَمَ وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ فَهُوَ غَيْرُ ظَاهِرٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجَرَاثِيمُ الْمُشَبَّهَةُ بِالذَّرِّ مِنْ أَجْزَاءِ الْجَسَدِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَعْنِيهَا مَنْ يَقُولُونَ بِحَشْرِ هَذِهِ الْأَجْسَادِ بِأَعْيَانِهَا .

(152/273)

وَلَكِنْ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَجْهًا آخَرَ مِنَ النَّظَرِ الْعِلْمِيِّ وَهُوَ خَلْقُ اللهِ لِلْبَشَرِ فِي التَّكْوِينِ الْأَوَّلِ جَرَاثِيمَ حَيَّةً تَتَسَلْسَلُ فِي سَلَائِلِهِمُ التَّنَاسُلِيَّةِ ، فَإِنَّ مَسْأَلَةَ أُصُولِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا مِنْ أَخْفَى مَسَائِلِ الْخَلْقِ ، وَالْقَاعِدَةُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى التَّجَارِبِ وَالْمَبَاحِثِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ يُوجَدُ فِي الْأَرْضِ فِي حَالِهَا هَذِهِ فَهُوَ مِنْ أَصْلٍ حَيٍّ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَصْلٍ مِنْ جَرَاثِيمِ الْأَحْيَاءِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالنَّبَاتِيَّةِ يَنْدَمِجُ فِيهِ جَمِيعُ مُقَوِّمَاتِهِ وَمُشَخِّصَاتِهِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا إِذَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يُولَدَ وَيَنْمَى

(153/273)

وَيَكْمُلَ خَلْقُهُ ، فَنَوَاةُ النَّخْلَةِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى كُلِّ خَوَاصِّ النَّخْلَةِ الَّتِي تَنْبُتُ مِنْهَا حَتَّى لَوْنِ بُسْرِهَا وَشَكْلِهِ وَدَرَجَةِ حَلَاوَتِهِ عِنْدَمَا يَصِيرُ رَطْبًا فَتَمْرًا ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ كَيْفَ وُجِدَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ وَالْجَرَاثِيمُ فِي التَّكْوِينِ الْأَوَّلِ ، سَوَاءٌ مِنْهُمُ الْقَائِلُونَ بِخَلْقِ الْأَنْوَاعِ دُفْعَةً وَاحِدَةً وَالْقَائِلُونَ بِالْخَلْقِ التَّدْرِيجِيِّ عَلَى قَاعِدَةِ النُّشُوءِ ، وَالِارْتِقَاءِ ، إِلَّا أَنَّ لِهَؤُلَاءِ نَظَرِيَّةً فِي تَصْوِيرِ التَّكْوِينِ الْأَوَّلِ مِنْ مَادَّةٍ زُلَالِيَّةٍ مُكَوَّنَةٍ مِنْ عَنَاصِرَ مُخْتَلِفَةٍ لَهَا قُوَى التَّغَذِّي وَالِانْقِسَامِ وَالتَّوَالُدِ ، فِي وَقْتٍ كَانَتْ طَبِيعَةُ الْأَرْضِ فِيهَا غَيْرَ طَبِيعَتِهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ وَمَا يُشْبِهُهُ مُنْذُ أُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنَ السِّنِينَ وَلَكِنْ كَيْفَ صَارَ لِمَا لَا يُحْصَى مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ، الدُّنْيَا وَالْوُسْطَى وَالْعُلْيَا ، جَرَاثِيمُ مُشْتَمِلَةٌ

عَلَى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْأَسْرَارِ لَا تَتَوَلَّدُ إِلَّا مِنْهَا ؟ إِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ بِهَذَا وَلَا بِمَا قَبْلَهُ (مَا أَشْهَدَتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) (18 : 51) .

(154/273)

أَطَالَ شَيْخُنَا حُسَيْنُ الْجِسْرُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَسْأَلَةِ فَأَثْبَتَ أَنَّهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ إِذْ لَا مُحَالَ فِي إِيدَاعِ الْمَلَايِينِ الْكَثِيرَةِ مِنَ النَّسَمِ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ، وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَ عُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ فِي نُقْطَةِ الْمَاءِ مِنَ الْجَرَاثِيمِ الْحَيَّةِ بِعَدَدِ جَمِيعِ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْبَشَرِ ، وَارْتَأَى أَنَّ

مُسْتَوْدَعَهَا مِنْ آدَمَ كَانَ فِي مَنِيِّهِ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْهُ بِالْوِقَاعِ (قَالَ) " فَتَحِلُّ فِي الْبُزُورِ الَّتِي تَنْفَصِلُ مِنْ مِبْيَضِ زَوْجَتِهِ فَيَكُونُ هَيَاكِلُهَا مِنْ تِلْكَ الْبُزُورِ مَعَ السَّائِلِ الْمَنَوِيِّ وَيُطَوِّرُهَا أَطْوَارًا حَتَّى تَبْلُغَ صُورَةَ الْهَيْكَلِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَأَوَّلُ ذَرَّةٍ مِنْ أَوْلَادِهِ نَقَلَهَا إِلَى بِزْرَتِهَا نَقَلَ مَعَهَا عَدَدَ الذَّرَّاتِ الَّتِي تَكُونُ أَوْلَادًا لَهَا ثُمَّ يَنْقِلُ تِلْكَ الذَّرَّاتِ فِي الْمَنِيِّ الَّذِي يَنْفَصِلُ فِيمَا بَعْدُ عَنْ هَيْكَلِ هَذِهِ الذَّرَّةِ الْأُولَى ، وَهَكَذَا الْحَالُ فِي بَقِيَّةِ أَوْلَادِهِ وَأَوْلَادِهِمْ يَفْعَلُ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ . . . وَعِنْدَ بُلُوغِ كُلِّ هَيْكَلٍ إِلَى حَدٍّ مَحْدُودٍ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى الرُّوحَ فَتَحِلُّ فِي ذَرَّتِهَا وَتَسْرِي فِيهَا وَفِي هَيْكَلِهَا الْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ هُوَ مَجْمُوعُ الرُّوحِ وَالذَّرَّةِ ، وَهَذِهِ الذَّرَّةُ هِيَ الْأَجْزَاءُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي قَالَ بِهَا أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّهَا الْبَاقِيَةُ مُدَّةَ الْعُمْرِ وَهِيَ الْمُعَادَةُ بِإِعَادَةِ الرُّوحِ إِلَيْهَا بَعْدَ أَنْ تُفَارِقَهَا بِالْمَوْتِ ،

(155/273)

وَالْهَيْكَلُ هُوَ الْأَجْزَاءُ الْفَضْلِيَّةُ الَّتِي تَرُوحُ وَتَجِيءُ وَتَزِيدُ وَتَنْقُصُ . فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْتَ الْإِنْسَانِ فَصَلَ عَنْ ذَرَّتِهِ الرُّوحَ ، فَفَارَقَتْهَا

الْحَيَاةُ وَفَارَقَتِ الْهَيْكَلَ الَّذِي هُوَ الْأَجْزَاءُ الْفَضْلِيَّةُ وَحَلَّهُمَا الْمَوْتُ ، فَيَأْخُذُ الْهَيْكَلُ بِالِانْحِلَالِ وَيَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالدُّخُولِ فِي تَرْكِيبِ غَيْرِهِ مَا يَجْرِي ، وَالذَّرَّةُ مَحْفُوظَةٌ

بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى كَمَا تُحْفَظُ ذَرَّاتُ الذَّهَبِ مِنَ الْبِلَى وَالانْحِلَال ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي تَرْكِيبِ حَيَوَانٍ فَإِنَّهَا تَدْخُلُ فِي تَرْكِيبِ هَيْكَلِهِ الَّذِي هُوَ الْأَجْزَاءُ الْفَضْلِيَّةُ مَحْفُوظَةً غَيْرَ مُنْحَلَّةٍ ، فَإِذَا انْحَلَّ ذَلِكَ الْهَيْكَلُ عَادَتْ مَحْفُوظَةً فِي أَطْبَاقِ الثَّرَى وَلَا تَدْخُلُ فِي تَرْكِيبِ الْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ لِذَلِكَ الْحَيَوَانِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَتُهُ ، غَايَةُ مَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا بِالْمَوْتِ مُفَارَقَةُ الرُّوحِ لَهَا ، وَانْحِلَالُ هَيْكَلِهَا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى حَيَاتَهَا أَعَادَ الرُّوحَ إِلَيْهَا ، فَتَعُودُ إِلَيْهَا الْحَيَاةُ وَبَقِيَّةُ خَوَاصِّهَا وَإِنْ كَانَ هَيْكَلُهَا مُنْحَلًّا .

وَمِنْ هُنَا تَنْحَلُّ شُبَهُ سُؤَالِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَعَذَابِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْبَرْزَخِ الَّتِي وَرَدَتِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ بِهَا ، وَأَنَّهَا تَكُونُ قَبْلَ الْبَعْثِ .

(156/273)

" ثُمَّ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ لِلْحِسَابِ أَعَادَ تَكْوِينَ هَيَاكِلِ الذَّرَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَجْزَاءُ الْفَضْلِيَّةُ ، سَوَاءً كَانَتْ هِيَ الْأَجْزَاءَ السَّابِقَةَ أَوْ غَيْرَهَا - إِذِ الْمَدَارُ عَلَى عَدَمِ تَبَدُّلِ الذَّرَّاتِ ، وَأَحَلَّ الذَّرَّاتِ فِي تِلْكَ الْهَيَاكِلِ ، وَبِتَعَلُّقِ الرُّوحِ بِهَا تَقُومُ فِيهَا وَفِي هَيَاكِلِهَا الْحَيَاةُ ، وَيَقُومُ الْبَشَرُ فِي النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ كَمَا كَانُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَجَمِيعُ مَا تَقَدَّمَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَاصِلًا فِي بَقِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ غَيْرِ الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ تَفْصِيلِهِ " .

ثُمَّ ضَرَبَ لِلْمَادِّيِّينَ الْأَمْثَالَ الْمُقَرِّبَةَ لِذَلِكَ بِأَنْوَاعِ جِنَّةِ الْأَحْيَاءِ الْخَفِيَّةِ " الْمِيكْرُوبَاتِ " وَحَيَاتِهَا فِي الْمَاءِ وَغَيْرِهِ عَلَى كَثْرَتِهَا بِنِظَامٍ غَرِيبٍ ، وَدُخُولِ الْمَرَضِيَّةِ مِنْهَا فِي أَجْسَادِ الْمَرْضَى وَسَرَيَانِهَا فِي دَوْرَةِ الدَّمِ ، وَبِالْحَيَوَانَاتِ الْمَنَوِيَّةِ مِنْهَا فِي الْمَنِيِّ الَّذِي يَنْفَصِلُ مِنَ الْأُنْثَيَيْنِ وَيُلَقِّحُ بُذُورَ الْأُنْثَى – وَقَالَ بَعْدَ تَلْخِيصِ مَا قَالُوهُ فِي صِفَتِهَا وَقَدْرِهَا وَحَرَكَتِهَا – : فَأَيُّ مَانِعٍ أَنَّ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَنَوِيَّةَ جَعَلَهَا الْخَالِقُ تَعَالَى تَحْمِلُ ذَرَّاتِ بَنِي آدَمَ الَّتِي هِيَ أَصْغَرُ مِنْهَا وَتَسِيرُ بِهَا فِي السَّائِلِ الْمَنَوِيِّ حَتَّى تُلْقِيَهَا فِي الْبُزُورِ الْمُنْفَصِلَةِ مِنْ مِبْيَضِ الْمَرْأَةِ ؟ . . . ثُمَّ عَلَّلَ بِهَذَا كَوْنَ الْإِنْسَانِ يَنْتَقِلُ مِنَ الْأَبِ إِلَى الْأُمِّ خِلَافًا لِقَوْلِهِمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ بِزْرَةِ أُمِّهِ وَلَيْسَ لِأَبِيهِ مِنْهُ إِلَّا مُجَرَّدُ التَّلْقِيحِ .

ثُمَّ ذَكَرَ عَمَلَ الْقَلْبِ وَتَعْلِيلَهُمْ لِحَرَكَتِهِ الْمُنْتَظِمَةِ وَاسْتَظْهَرَ أَنَّهُ هُوَ مَرْكَزُ الذَّرَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا بِحُلُولِ الرُّوحِ فِيهَا تَتَحَرَّكُ تِلْكَ الْحَرَكَةُ الْمُنْتَظِمَةُ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا دَوْرَةُ الدَّمِ ، وَبَعْدَ إِيضَاحِ ذَلِكَ قَالَ :

" وَخُلَاصَةُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْحَقِيقِيَّ عَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ هُوَ الذَّرَّةُ الَّتِي تَحِلُّ فِي الْقَلْبِ وَتَحِلُّ فِيهَا الرُّوحُ فَتُكْسِبُهَا الْحَيَاةَ وَتَسْرِي الْحَيَاةُ إلَى الْهَيْكَلِ ، ثُمَّ الْهَيْكَلُ إنَّمَا هُوَ آلَةٌ لِقَضَاءِ أَعْمَالِ تِلْكَ الذَّرَّةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ وَلِاكْتِسَابِ مَعَارِفِهَا بِسَبَبِهِ ، وَتِلْكَ الذَّرَّةُ مَعَ الرُّوحِ الْحَالَّةِ فِيهَا هِيَ الْمُخَاطَبُ بِالتَّكْلِيفِ وَالْمَعَادِ وَالْمُنَعَّمِ وَالْمُعَذَّبِ - إلَى آخِرِ مَا وَرَدَ فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ .

" وَعَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ نَجِدُ أَنَّ الشُّبْهَةَ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَى مَا جَاءَ فِي الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مِنَ الْبَعْثِ وَسُؤَالِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَعَذَابِهِ وَحَيَاةِ بَعْضِ الْبَشَرِ فِي قُبُورِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ سَقَطَتْ بِرُمَّتِهَا كَمَا يَظْهَرُ بِالتَّأَمُّلِ الصَّادِقِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ " .

(159/273)

ثُمَّ أَوْرَدَ عَلَى هَذَا أَنَّ بَعْضَ النُّصُوصِ صَرِيحَةٌ فِي إعَادَةِ الْهَيْكَلِ الْإِنْسَانِيِّ أَوْ بَعْضِهِ كَالْعِظَامِ - كَمَا تَقَدَّمَ مِثْلُهُ عَنِ السَّعْدِ - وَأَجَابَ بِأَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ وَرَدَتْ لِدَفْعِ إشْكَالَاتٍ أُخْرَى كَانَتْ تَعْرِضُ لِأَفْكَارِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي إعَادَتِهَا ، إذْ عِنْدَ ذِكْرِ الْبَعْثِ لَا تَنْصَرِفُ أَفْكَارُهُمْ إلَّا إلَى إعَادَةِ هَذَا الْهَيْكَلِ الْمُشَاهَدِ لَهُمْ ، فَيَقُولُونَ كَيْفَ تَعُودُ الْحَيَاةُ لِلْعِظَامِ بَعْدَ أَنْ تَصِيرَ رَمِيمًا ؟ فَتَدْفَعُ هَذِهِ النُّصُوصُ إشْكَالَاتِهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ الشَّامِلَةِ وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ . (قَالَ) :

وَهَذَا لَا يُنَافِي التَّوَجُّهَ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي إِعَادَةِ الْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الذَّرَّاتُ لِتَدْفَعَ بِهِ الْإِشْكَالَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي تَقَدَّمَتْ فَلْيُتَأَمَّلْ ، اهـ . ثُمَّ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِنَّ مَا حَرَّرَهُ مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ الْإِشْكَالِ عَمَّنْ يَعْرِضُ لَهُ .

فَهَذَا مُلَخَّصُ رَأْيِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَأْوِيلِ بَعْضِ الْآيَاتِ كَغَيْرِهِ .

وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مُحَاوَلَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ مَا وَرَدَ فِي خَلْقِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَقَوْلِ مَنْ قَالَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَضْلِيَّةِ ، وَهُوَ تَكَلُّفٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ لِكُلِّ فَرْدٍ ذَرَّةً حَيَّةً فِي بَدَنِهِ كَالْجِنَّةِ الَّتِي لَا تُرَى فِي الْمَاءِ وَالدَّمِ وَغَيْرِهِمَا بِغَيْرِ الْمِنْظَارِ الْمُكَبِّرِ (الْمِجْهَرِ) .

(160/273)

نَعَمْ إِنَّهُ يَجُوزُ عَقْلًا أَنْ يَحْمِلَ الْحَيَوَانُ الْمَنَوِيُّ الَّذِي يُلَقِّحُ بُوَيْضَةَ الْمَرْأَةِ فِي الرَّحِمِ ذَرَّةً حَيَّةً هِيَ أَصْلُ الْإِنْسَانِ . كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحَيَوَانُ الْمَنَوِيُّ نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي يُنَمَّى فِي الْبُوَيْضَةِ وَيَكُونُ إِنْسَانًا ، وَأَنَّ أَصْلَهُ مَا يَتَوَلَّدُ مِنِ ازْدِوَاجِ خَلِيَّتِهِ بِخَلِيَّتِهَا كَمَا سَيَأْتِي ، وَأَيُّهَا كَانَ أَصْلُ الْإِنْسَانِ فَإِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ بِكِبَرِهِ وَنَمَائِهِ كَمَا تَكُونُ نَوَاةُ الشَّجَرَةِ شَجَرَةً بَاسِقَةً مُثْمِرَةً ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْفَرْعُ عَيْنَ الْأَصْلِ فَلَا يَكُونُ لَهُ أَصْلٌ آخَرُ

بِشَكْلٍ مُصَغَّرٍ فِي هَذَا الْهَيْكَلِ لَا فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْمَنِيِّ ، وَإِنَّمَا قَدْ يَكُونُ فِي هَيْكَلِهِ أَصْلٌ وَأُصُولٌ لَأَنَاسِيِّ آخَرِينَ يَكُونُونَ فُرُوعًا لَهُ إِذَا أَرَادَ اللهُ ذَلِكَ ، كَمَا يَكُونُ لِلنَّخْلَةِ النَّابِتَةِ مِنَ النَّوَاةِ نَوًى كَثِيرَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَنْبُتَ مِنْهَا نَخْلٌ كَثِيرٌ .

(161/273)

وَأَمَّا الْمَعْرُوفُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَصْرِ فِي هَذَا الشَّأْنِ فَهُوَ أَنَّ سِرَّ حَرَكَةِ الْقَلْبِ وَإِنْ كَانَ لَا يَزَالُ مَجْهُولًا ، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الدَّمَ الْوَارِدَ مِنْهُ إِلَى الْخِصْيَتَيْنِ هُوَ الَّذِي يُغَذِّيهِمَا ، وَبِتَغَذِّيهِمَا بِهِ تَنْقَسِمُ خَلَايَاهُمَا فَتَتَوَلَّدُ الْحَيَوَانَاتُ الْمَنَوِيَّةُ مِنِ انْقِسَامِهَا وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ ، تَتَغَذَّى بِالتَّوَالُدِ الَّذِي يَكُونُ مِنِ انْقِسَامِ الْخَلَايَا الَّتِي تَتَكَوَّنُ بِنْيَتُهَا مِنْهَا ، وَمِنْ غَرِيبِ صُنْعِ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ أَنَّ فِي كُلِّ خَلِيَّةٍ مِنْ خَلَايَا الْأَجْسَادِ الْحَيَّةِ نُوَيَّتَيْنِ (تَصْغِيرُ نَوَاةٍ) صَغِيرَتَيْنِ تَتَوَلَّدُ الْخَلِيَّةُ الْجَدِيدَةُ بِاقْتِرَانِهِمَا ، فَسُنَّةُ الزَّوَاجِ عَامَّةٌ فِي أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ وَفِي دَقَائِقِ بِنْيَةِ كُلٍّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا فِي الْمَقْصُورَةِ :

وَسُنَّةُ الزَّوَاجِ فِي النِّتَاجِ بَلْ كُلُّ تَوَلُّدٍ تَرَاهُ فِي الدُّنَا فَاجْتَلَهُ فِي الْحَيَوَانِ نَاطِقًا وَأَعْجَمًا وَفِي النَّبَاتِ الْمُجْتَنَى بَلْ كُلُّ ذَرَّةٍ بَدَتْ فِي بِنْيَةٍ زَادَ بِهَا الْحَيُّ امْتِدَادًا وَنَمَى خَلِيَّةٌ تَقْرُنُ فِي غُضُونِهَا نُوَيَّتَانِ فَإِذَا الْفَرْدُ زَكَا

وَالْحَيَوَانَاتُ الْمَنَوِيَّةُ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْخَلَايَا الْمُبَطَّنَةِ بِهَا الْخُصْيَةُ مِنْ دَاخِلِهَا بِسَبَبِ تَغْذِيَةِ الدَّمِ لَهَا وَلَا مَانِعَ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ خَفِيٍّ لِذَلِكَ كَذَرَّاتٍ حَيَّةٍ لَا تُرَى فِي الْمَنَاظِيرِ الْمُكَبِّرَةِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ ، فَهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُوجَدَ مَنَاظِيرُ أَرْقَى مِنْهَا يَرَى فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْجِنَّةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْبَكْتِرْيَا مَا لَا يُرَى الْآنَ .

وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْحَيَوَانَ الْمَنَوِيَّ لَهُ خَلِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَهُ رَأْسٌ وَجِسْمٌ وَذَنَبٌ وَرَأْسُهُ هُوَ نَوَاةُ الْخَلِيَّةِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحَرَكَةِ شَدِيدُ الِاضْطِرَابِ ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ عَهْدِ بُلُوغِ الْحُلُمِ لَا قَبْلَهُ ، فَإِذَا وَصَلَتْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ إِلَى رَحِمِ الْأُنْثَى مَعَ الْمَنِيِّ الَّذِي يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ تَبْحَثُ بِطَبِيعَتِهَا عَنِ الْبُوَيْضَةِ الَّتِي فِيهِ ، فَالَّذِي يَعْلَقُ بِهَا يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِيهَا وَهِيَ مِثْلُهُ ذَاتُ نَوَاةٍ أَوْ نُوَيَّةٍ وَاحِدَةٍ فَيَحْصُلُ التَّلْقِيحُ بِاقْتِرَانِ النُّوَيَّتَيْنِ .

وَيَقُولُونَ : إِنَّ بُوَيْضَاتِ النَّسْلِ تَكُونُ فِي الْبِنْتِ مِنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِهَا فَتُولَدُ وَفِيهَا أُلُوفٌ مِنْهَا مَعْدُودَةٌ لَا تَزِيدُ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهَا تَسْقُطُ مِنْهَا فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ ، ثُمَّ تَتَكَوَّنُ فِيهَا بُوَيْضَاتُ النَّسْلِ بَعْدَ الْبُلُوغِ بِسَبَبِ دَمِ الْحَيْضِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ فِي دَاخِلِ الرَّحِمِ عُضْوَيْنِ مُصْمَتَيْنِ يُشْبِهَانِ خُصْيَتَيِ الرَّجُلِ يُسَمَّيَانِ الْمِبْيَضَيْنِ ؛ لِأَنَّ فِي دَاخِلِهِمَا بُوَيْضَاتٍ دَقِيقَةً جِدًّا لَا تُرَى إِلَّا بِالْمَنَاظِيرِ الْمُكَبِّرَةِ تَكُونُ فِي حُوَيْصِلَاتٍ يَقْتَرِبُ بَعْضُهَا مِنْ سَطْحِ الْمِبْيَضِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّى يَنْفَجِرَ فَتَخْرُجُ مِنْهُ الْبُوَيْضَةُ إِلَى بُوقِ الرَّحِمِ ، فَتَكُونُ مُسْتَعِدَّةً بِذَلِكَ لِتَلْقِيحِ الْحَيَوَانِ الْمَنَوِيِّ لَهَا ، وَأَكْثَرُهَا يَضْمُرُ بِالتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ وَلَا يَنْفَجِرَ ، وَإِنَّمَا يَنْفَجِرُ مَا يَنْفَجِرُ مِنْهَا فِي زَمَنِ الْحَيْضِ وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ كُلَّ حَيْضَةٍ تُفَجِّرُ حُوَيْصَلَةً وَاحِدَةً ، تَكُونُ مِنْهَا بُوَيْضَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْغَالِبِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِالتَّنَاوُبِ بَيْنَ الْمِبْيَضَيْنِ مَرَّةً فِي الْأَيْمَنِ وَمَرَّةً فِي الْأَيْسَرِ ، وَقَدِ اهْتَدَى أَحَدُ الْأَطِبَّاءِ بِالتَّجَارِبِ الطَّوِيلَةِ إِلَى أَنَّ الْبُوَيْضَةَ الَّتِي تَكُونُ فِي الْمِبْيَضِ الْأَيْمَنِ يَتَوَلَّدُ مِنْهَا الذَّكَرُ وَالَّتِي تَكُونُ فِي الْمِبْيَضِ الْأَيْسَرِ تَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْأُنْثَى ، وَأَنَّهُ مَتَى عُرِفَ بِوَضْعِ الْمَرْأَةِ أَوَّلَ وَلَدٍ لَهَا مَتَى كَانَ حَمْلُهَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْرَفَ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْرُ بُوَيْضَةِ الذَّكَرِ وَدَوْرُ بُوَيْضَةِ الْأُنْثَى فِي

الْغَالِب ، وَيَكُونُ لِلزَّوْجَيْنِ كَسْبٌ وَاخْتِيَارٌ لِنَوْعِ الْمَوْلُودِ إِنْ قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُمَا . وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي تَفْسِيرِ (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) (6 : 59) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ . وَأَمَّا التَّوْأَمَانِ فَسَبَبُهُمَا إِمَّا انْفِجَارُ بُوَيْضَتَيْنِ فَأَكْثَرَ شُذُوذًا ، وَإِمَّا اشْتِمَالُ الْبُوَيْضَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى نُوَيَّتَيْنِ يُلَقَّحَانِ مَعًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الِاسْتِطْرَادَ لِلِاعْتِبَارِ بِقُدْرَةِ الْخَالِقِ وَسِعَةِ عِلْمِهِ وَدَقَائِقِ حِكْمَتِهِ بَعْدَ تَوْفِيَةِ مَسْأَلَةِ الْبَعْثِ حَقَّهَا مِنَ الْبَحْثِ وَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يُذْكَرَ بَحْثُ التَّكْوِينِ فِي سِيَاقِ خَلْقِ آدَمَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ .

ضَرَبَ اللَّهُ إِحْيَاءَ الْبِلَادِ بِالْمَطَرِ ، مَثَلًا لِبَعْثِ الْبَشَرِ ، ثُمَّ ضَرَبَ اخْتِلَافَ إِنْتَاجِ الْبِلَادِ ، مَثَلًا لِمَا فِي الْبَشَرِ مِنِ اخْتِلَافِ الِاسْتِعْدَادِ ، لِلْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، فَقَالَ :

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، أَيْ وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الْأَرْضَ مِنْهَا الطَّيِّبَةُ الْكَرِيمَةُ التُّرْبَةِ الَّتِي يَخْرُجُ نَبَاتُهَا بِسُهُولَةٍ . وَيُنَمَّى بِسُرْعَةٍ ، وَيَكُونُ كَثِيرَ الْغَلَّةِ طَيِّبَ الثَّمَرَةِ ، وَمِنْهَا الْخَبِيثَةُ التُّرْبَةِ كَالْحَرَّةِ السَّبِخَةِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ نَبَاتُهَا عَلَى قِلَّتِهِ وَخُبْثِهِ - إِنْ أَنْبَتَتْ - إِلَّا بِعُسْرٍ وَصُعُوبَةٍ . قَالَ الرَّاغِبُ : النَّكِدُ كُلُّ شَيْءٍ خَرَجَ إِلَى طَالِبِهِ بِتَعَسُّرٍ

وَيُقَالُ رَجُلٌ نَكَدٌ وَنَكِدٌ (أَيْ بِفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِهَا) وَنَاقَةٌ نَكْدَاءُ . طَفِيفَةُ الدَّرِّ صَعْبَةُ الْحَلْبِ - وَذَكَرَ الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ : (وَالَّذِي خَبُثَ) حَذَفَ مَوْصُوفَهُ ، أَيْ وَالْبَلَدُ الَّذِي خَبُثَ ، وَهُوَ دُونَ الْخَبِيثِ فِي الْخُبْثِ ، فَإِنَّ صِيغَةَ فَعِيلٍ مِنَ الصِّيَغِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الثَّابِتَةِ ، وَالنَّكِدُ قَدْ يَكُونُ فِيمَا دُونَ هَذَا مِنَ الْخُبْثِ . وَمِنْ دِقَّةِ الْبَلَاغَةِ فِي هَذَيْنِ التَّعْبِيرَيْنِ دِلَالَتُهُمَا عَلَى التَّرْغِيبِ فِي طَلَبِ الرُّسُوخِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَتَجَنُّبِ أَدْنَى الْخُبْثِ وَالنَّقْصِ وَبَيْنَ ذَلِكَ دَرَجَاتٌ رَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً أُخْرَى مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " وَقَدْ فَسَّرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ وَهُوَ الَّذِي نَفَعَ وَانْتَفَعَ كَالْهَادِي وَالْمُهْتَدِي ، وَالثَّالِثَ الَّذِي لَمْ يَنْفَعْ وَلَمْ يَنْتَفِعْ

كَالْجَاحِدِ ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّانِي وَهُوَ الَّذِي انْتَفَعَ غَيْرُهُ بِعِلْمِهِ مِنْ دُونِهِ كَالْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ غَيْرَهُ وَلَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ الْمُشَبَّهِ بِالْأَرْضِ الَّتِي تُمْسِكُ الْمَاءَ وَلَا تَنْبُتُ وَحَالُهُ مَعْلُومَةٌ بَلْ لَهُ أَحْوَالٌ ، فَمِنْهُ الْمُنَافِقُونَ وَمِنْهُ الْمُفَرِّطُونَ وَيَدُلُّ الْمَثَلَانِ عَلَى أَنَّ الْوِرَاثَةَ سَبَبٌ فِطْرِيٌّ لِهَذَا التَّفَاوُتِ فِي الِاسْتِعْدَادِ ، وَلِهَذَا يَحْسُنُ أَنْ تُفَضِّلَ الْمَرْأَةُ التَّقِيَّةُ الْكَرِيمَةُ الْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةُ الْأَعْرَاقِ عَلَى الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ إذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ دَنِيءٍ ، وَكَذَا عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُتَعَلِّمَةِ غَيْرِ الْكَرِيمَةِ الْخُلُقِ وَلَا الطَّيِّبَةِ الْعِرْقِ ، وَقَدْ شَبَّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِالْمَعَادِنِ ، وَشَبَّهَ الْمَرْأَةَ الْحَسْنَاءَ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ بِخَضْرَاءِ الدِّمَنِ أَيْ حَشِيشِ الْمَزْبَلَةِ . وَمَنِ اخْتَبَرَ النَّاسَ رَأَى أَنَّ الْمَعْرُوفَ يَخْرُجُ مِنَ الطَّيِّبِينَ عَفْوًا بِلَا تَكَلُّفٍ ، وَأَنَّ الْخَبِيثِينَ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالْمَعْرُوفُ وَلَا الْحَقُّ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ إلَّا نَكِدًا ، بَعْدَ إلْحَافٍ أَوْ إيذَاءٍ فِي الطَّلَبِ أَوْ إدْلَاءٍ إلَى الْحُكَّامِ وَمُرَاوَغَةٍ فِي الْخِصَامِ .

(167/273)

(كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) أَيْ كَذَلِكَ شَأْنُنَا فِي هَذَا التَّصْرِيفِ الْبَدِيعِ الْمِثَالِ الْمُوَضَّحِ بِالْأَمْثَالِ ، نُصَرِّفُ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عِلْمِنَا وَحِكْمَتِنَا وَرَحْمَتِنَا بِالْإِتْيَانِ بِهَا عَلَى

أَنْوَاعٍ جَلِيَّةٍ تُبَيِّنُ مُرَادَنَا لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نِعَمَنَا ، بِاسْتِعْمَالِهَا فِيمَا تَتِمُّ بِهِ حِكْمَتُنَا ، فَيَسْتَحِقُّونَ مَزِيدًا مِنْهَا ، وَتَثْوِيبَنَا عَلَيْهَا . عَبَّرَ بِالشُّكْرِ فِي الْآيَةِ الَّتِي مَوْضُوعُهَا الِاهْتِدَاءُ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْإِرْشَادِ وَبِالتَّذْكِيرِ فِي الْآيَةِ الَّتِي مَوْضُوعُهَا الِاعْتِبَارُ وَالِاسْتِدْلَالُ .

(168/273)

اسْتِطْرَادٌ فِي بَيَانِ بَعْضِ نِعَمِ اللهِ عَلَى الْخَلْقِ بِالْهَوَاءِ وَالرِّيَاحِ الْهَوَاءُ جِسْمٌ لَطِيفٌ مِمَّا يُعَبِّرُ عَنْهُ عُلَمَاءُ الْكِيمْيَاءِ بِالْغَازِ ، لَا لَوْنَ لَهُ وَلَا رَائِحَةَ مُرَكَّبٌ تَرْكِيبًا مَزْجِيًا مِنْ عُنْصُرَيْنِ غَازِيَّيْنِ أَصْلِيَّيْنِ يُسَمَّوْنَ أَحَدَهُمَا (الْأُكْسُجِينَ) وَخَاصَّتُهُ تَوْلِيدُ الِاحْتِرَاقِ وَالِاشْتِعَالِ وَإِحْدَاثُ الصَّدَإِ فِي الْمَعَادِنِ وَهُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَإِنْسَانٍ ، وَثَانِيهِمَا (الْآزُوتُ – أَوِ النِّيتْرُوجِينُ) وَهُوَ أَخَفُّ عَنَاصِرِ الْمَادَّةِ وَزْنًا وَسَيَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِ خَوَاصِّهِ وَمِنْ عَنَاصِرَ أُخْرَى (كَالْأَيْدْرُوجِينِ) وَهُوَ الْمُوَلِّدُ لِلْمَاءِ (وَحَمْضِ الْكَرْبُونِ) وَهُوَ أَصْلُ مَادَّةِ الْفَحْمِ وَغَازِهِ السَّامِّ (وَالْهِلْيُومِ وَالنِّيُونِ وَالْكِرِيتُونِ) وَهِيَ عَنَاصِرُ اكْتُشِفَتْ مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ ، وَتَكْثُرُ فِيهِ أَنْوَاعُ الْغَازَاتِ وَالْأَبْخِرَةِ الَّتِي تَنْفَصِلُ مِنْ مَوَادِّ الْأَرْضِ وَتَخْتَلِفُ كَثْرَةُ هَذِهِ الْمَوَادِّ وَقِلَّتُهَا بِاخْتِلَافِ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ مُحِيطٌ بِهَا إِلَى مَسَافَةِ 300 كِيلُومِتْرٍ بِالتَّقْرِيبِ .

يُسَمُّونَ الْهَوَاءَ عُنْصُرَ الْحَيَاةِ ، فَلَوْلَاهُ لَمْ تُوجَدِ الْحَيَاةُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَلَا النَّبَاتِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ فَالْإِنْسَانُ وَسَائِرُ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ تَسْتَنْشِقُ الْهَوَاءَ فَيُطَهِّرُ مَا فِيهِ مِنَ الْأُكْسُجِينِ دِمَاءَهَا مِنَ الْكَرْبُونِ السَّامِّ فَيَخْرُجُ بِالتَّنَفُّسِ إِلَى الْجَوِّ فَيَتَغَذَّى بِهِ النَّبَاتُ . وَلَوِ احْتَبَسَ مَا يَتَّلِدُ فِي دَمِ الْحَيَوَانِ مِنَ السُّمُومِ الْآلِيَّةِ فِي صَدْرِهِ لَأَمَاتَهُ مَسْمُومًا كَمَا يَمُوتُ الْغَرِيقُ بِعَدَمِ دُخُولِ الْهَوَاءِ فِي رِئَتَيْهِ . فَمَثَلُهُ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مِصْبَاحٍ

زَيْتِ الْبِتْرُولِ الَّذِي يَمُدُّ أُكْسُجِينُ الْهَوَاءِ اشْتِعَالَهُ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ إِذَا وَضَعْتَ عَلَى فُوَّهَةِ زُجَاجَةِ الْمِصْبَاحِ غِطَاءً مُحْكَمًا يَنْطَفِئُ نُورُهُ سَرِيعًا ؟ وَلَا يُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ الْمَائِيَّةُ كَالسَّمَكِ فَإِنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي يُخَالِطُ الْمَاءَ كَافٍ لَهَا .

وَالنَّبَاتُ يَمْتَصُّ الْكَرْبُونَ السَّامَّ مِنَ الْهَوَاءِ فَيَتَغَذَّى بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَدَعُ الْأُكْسُجِينَ لِلْحَيَوَانِ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يَأْخُذُ مِنْهُ حَظَّهُ ، وَيُفِيدُ فِي الْحَيَاةِ صِنْوَهُ ، كَمَا قُلْنَا فِي الْمَقْصُورَةِ :

وَالْبَاسِقَاتُ رَفَعَتْ أَكُفَّهَا تَسْتَنْزِلُ الْغَيْثَ وَتَطْلُبُ النَّدَى تَمْتَلِجُ الْكَرْبُونَ مِنْ ضَرْعِ الْهَوَى تُؤْثِرُنَا بِالْأُكْسُجِينِ الْمُنْتَقَى

وَكَذَلِكَ الْهَوَاءُ الَّذِي يَتَخَلَّلُ الْأَرْضَ يُسَاعِدُ جُذُورَ النَّبَاتِ عَلَى امْتِصَاصِهَا الْغِذَاءَ مِنَ التُّرَابِ ثُمَّ إِنَّ السُّمُومَ الَّتِي تَنْحَلُّ فِي الْبَدَنِ يَخْرُجُ قِسْمٌ عَظِيمٌ مِنْهَا مِنْ مَسَامِّهِ بُخَارًا أَوْ عَرَقًا فَيَمْتَصُّهَا الْهَوَاءُ وَيَدْفَعُهَا إِلَى الْجَوِّ الْوَاسِعِ ، وَلَوِ انْسَدَّتْ مَسَامُّ الْبَدَنِ لَمَا كَانَ الْهَوَاءُ الَّذِي يَدْخُلُ الرِّئَتَيْنِ كَافِيًا لِوِقَايَةِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ مِنْ مِيتَةِ التَّسَمُّمِ .

(171/273)

وَمِنْ مَنَافِعِ الْهَوَاءِ الَّتِي يَغْفُلُ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْ شُكْرِ الرَّبِّ عَلَيْهَا تَطْهِيرُهُ سَطْحَ الْأَرْضِ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا مِنَ الرُّطُوبَاتِ الْقَذِرَةِ ، وَمَا يَتَوَلَّدُ فِيهَا مِنْ جِنَّةِ الْأَحْيَاءِ الضَّارَّةِ " مِيكْرُوبَاتِ الْأَمْرَاضِ " فَهُوَ يَمْتَصُّهَا وَيَدْفَعُهَا فِي هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ فَيَتَفَرَّقُ شَمْلُهَا وَتَزُولُ قُوَّةُ اجْتِمَاعِهَا ، وَقَدْ تَمُوتُ مُحْتَرِقَةً بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ فِيهِ ، وَيَنْبَغِي اتِّقَاءُ الْغُبَارِ الَّذِي يَحْمِلُهَا فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ " تَنَكَّبُوا الْغُبَارَ فَإِنَّ مِنْهُ النَّسَمَةَ " وَهِيَ ذَاتُ النَّفْسِ الْحَيَّةِ بَلْ لَوْلَا الْهَوَاءُ لَتَعَذَّرَ أَنْ يَجِفَّ ثَوْبٌ غُسِلَ ، بَلْ لَكَانَتِ الْأَرْضُ مَغْمُورَةً بِالْمَاءِ إِذَا أَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ الْمَاءُ بِغَيْرِ الْهَوَاءِ ، وَالْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا مَعْرُوفَةٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا مُزْدَوِجٌ بِالْآخَرِ فَالْهَوَاءُ يَتَخَلَّلُ الْمِيَاهَ ، وَالْمُجَاوِرُ مِنْهُ لِلْأَرْضِ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ وَهُوَ يَقِلُّ فِيهِ وَيَكْثُرُ بِحَسَبِ بُعْدِهِ عَنِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَقُرْبِهِ

مِنْهَا ، وَمِمَّا أَثْبَتَهُ عُلَمَاءُ الْكَوْنِ الْمُتَأَخِّرُونَ أَنَّ بُخَارَ الْمَاءِ وَإِنْ كَانَ يَقِلُّ فِي الطَّبَقَاتِ الْعُلْيَا مِنَ الْجَوِّ كَقُلَلِ الْجِبَالِ وَمَا فَوْقَهَا فَإِنَّ عُنْصُرَ (الْأَيْدْرُوجِينِ) وَهُوَ الْمُوَلِّدُ لِلْمَاءِ يَكْثُرُ كَثْرَةً عَظِيمَةً فِي أَعْلَى كُرَةِ الْهَوَاءِ ، وَيَقِلُّ الْأُكْسُجِينُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا وَيَكْثُرُ بِجِوَارِ الْأَرْضِ لِثِقْلِهِ النَّوْعِيِّ فَهُوَ أَثْقَلُ مِنْ صِنْوِهِ النِّيتْرُوجِينِ وَذَلِكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ .

(172/273)

وَمِنَ الْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْهَوَاءَ يَتَحَوَّلُ بِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالضَّغْطِ إِلَى مَاءٍ ثُمَّ إِلَى جَلِيدٍ – كَمَا أَنَّ الْمَاءَ يَتَبَخَّرُ بِالْحَرَارَةِ حَتَّى يَكُونَ هَوَاءً أَوْ كَالْهَوَاءِ فِي لَطَافَتِهِ وَعَدَمِ رُؤْيَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ الْمُتَقَدِّمُونَ يَحْسَبُونَهُمَا شَيْئًا وَاحِدًا ، وَعُلَمَاءُ الْعَرَبِ فَرَّقُوا بَيْنَ بُخَارِ الْمَاءِ وَكُرَةِ الْهَوَاءِ . وَلَكِنَّ اسْمَ الْبُخَارِ فِي لُغَتِهِمْ يَشْمَلُ كُلَّ الْمَوَادِّ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَصْعَدُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْعَصْرِ " الْغَازَاتِ " وَالْمَشْهُورُ أَنَّ فِي الْهَوَاءِ مِنْ حَيْثُ حَجْمِهِ لَا ثِقْلِهِ 21 جُزْءًا فِي الْمِائَةِ مِنَ الْأُكْسُجِينِ و87 فِي الْمِائَةِ مِنَ النِّيتْرُوجِينِ وَوَاحِدًا فِي الْمِائَةِ مِنَ الْأَرْغُونِ ، وَهَذِهِ النِّسْبَةُ تَكُونُ هِيَ الْغَالِبَةَ فِي الْهَوَاءِ الْمُجَاوِرِ لِلْأَرْضِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ لِحَيَاةِ أَكْثَرِ الْأَحْيَاءِ حَيَاةً صَالِحَةً مُعْتَدِلَةً ، فَإِذَا زَادَ الْأُكْسُجِينُ زِيَادَةً كَبِيرَةً أَوْ نَقُصَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ

لَمْ يَعُدْ صَالِحًا لِحَيَاةِ الْأَحْيَاءِ بَلْ يَصِيرُ نَارًا مُحْرِقَةً أَوْ سُمًّا زُعَافًا . فَكَوْنُ النِّيتْرُوجِينِ يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ الْأُكْسُجِينِ فِي حَجْمِ الْهَوَاءِ ضَرُورِيٌّ لِتَعْدِيلِهِ وَجَعْلِهِ صَالِحًا لِذَلِكَ .

(173/273)

وَالنِّيتْرُوجِينُ ضَرُورِيٌّ لِلْحَيَاةِ أَيْضًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ صَالِحًا لِلْحَيَاةِ – فَهُوَ إِذَا وُضِعَ فِيهِ حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَمُوتَ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ سَامٍّ – وَضَرُورَتُهُ لِلْحَيَاةِ مِنْ حَيْثُ تَعْدِيلِهِ لِلْأُكْسُجِينِ وَمَنْعِهِ إِيَّاهُ مِنَ الطُّغْيَانِ ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ فِي ذَاتِهِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْغِذَاءِ لِلْحَيَوَانَاتِ وَلَا سِيَّمَا الْعُلْيَا مِنْهَا وَأَعْلَاهَا الْإِنْسَانُ ، فَإِذَا خَلَا طَعَامُهَا مِنَ الْمَادَّةِ النِّيتْرُوجِينِيَّةِ لَمْ يَكْفِ لِحَيَاتِهَا بِهِ .

وَالنِّيتْرُوجِينُ يُوجَدُ فِي أَجْسَامِ النَّبَاتِ كَمَا يُوجَدُ فِي لَحْمِ الْحَيَوَانِ وَبَيْضِهِ وَلَبَنِهِ وَهُوَ الْأَصْلُ فِيهِ ، وَالنَّبَاتُ يَأْخُذُهُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَسَائِرُ غِذَاءِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْمَوَادِّ النَّبَاتِيَّةِ ، وَمُعْظَمُهَا مِنَ الْكَرْبُونِ ، وَهُوَ يَأْخُذُهَا مِنَ الْأَرْضِ وَمِنِ امْتِصَاصِهِ لِغَازِ الْحَامِضِ الْكَرْبُونِيِّ مِنَ الْهَوَاءِ .

فَهَذَا الْغَازُ عَلَى شِدَّةِ ضَرَرِهِ وَقُوَّةِ سُمِّهِ فِي الْهَوَاءِ لِمَنْ يَسْتَنْشِقُهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي رُكْنِ الْمَعِيشَةِ الْأَعْظَمِ وَهُوَ النَّبَاتُ .

إِذَا كَثُرَ هَذَا الْحَامِضُ فِي الْهَوَاءِ فَصَارَ وَاحِدًا فِي الْمِائَةِ كَانَ ضَارًّا فَإِذَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ

حَتَّى صَارَ 10 فِي الْمِائَةِ صَارَ شَدِيدَ الْخَطَرِ عَلَى الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ . وَهُوَ يَكْثُرُ فِي الْمَبَانِي الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا النَّاسُ بِخُرُوجِهِ مِنْ أَنْفَاسِهِمْ ، وَالَّتِي تَكْثُرُ

(174/273)

فِيهَا السُّرُجُ وَالْمَصَابِيحُ الزَّيْتِيَّةُ وَالْغَازِيَةُ وَكَذَا الشُّمُوعُ فَإِنَّهَا تُوَلِّدُهُ بِاحْتِرَاقِهَا ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهَا نَوَافِذُ مُتَقَابِلَةٌ يَدْخُلُ الْهَوَاءُ مِنْ بَعْضِهَا وَيَخْرُجُ مِنَ الْآخَرِ فَإِنَّ هَوَاءَهَا يَفْسُدُ بِهِ وَيَتَسَمَّمُ دَمُ مَنْ فِيهَا . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ هَذَا الشَّأْنِ : إِنَّ الْإِنْسَانَ يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ 16 مِتْرًا مُكَعَّبًا مِنَ الْهَوَاءِ فِي السَّاعَةِ ، وَهُوَ يَنْفُثُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ 22 لِتْرًا مِنْ هَذَا الْغَازِ السَّامِّ (الْكَرْبُونِ) فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَّقِيَ جَمِيعُ النَّاسِ الِاجْتِمَاعَ وَنَوْمَ الْكَثِيرِينَ فِي الْبُيُوتِ الَّتِي لَا يَتَخَلَّلُهَا الْهَوَاءُ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِيهَا مَصَابِيحُ مُوقَدَةٌ ، وَأَنْ يَحْذَرُوا مِنْ وُقُودِ الْفَحْمِ فِيهَا فِي أَيَّامِ الْبَرْدِ فَإِنَّهُ سَبَبٌ مُطَّرِدٌ لِلِاخْتِنَاقِ كَمَا ثَبَتَ عِلْمًا وَتَجْرِبَةً ، إِلَّا إِذَا وُضِعَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ أَنْ تَمَّ اشْتِعَالُهُ وَذَهَبَ غَازُهُ فِي الْهَوَاءِ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ رَائِحَةٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ السَّوَادِ .

(175/273)

عَلِمْنَا مِنْ هَذَا أَنَّ الْخَالِقَ الْحَكِيمَ قَدْ جَعَلَ الْهَوَاءَ مُرَكَّبًا مِنَ الْمَوَادِّ الضَّرُورِيَّةِ لِحَيَاةِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا ، وَجَعَلَ النِّسْبَةَ بَيْنَ أَجْزَائِهِ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَجْمِ وَالثِّقْلِ مُنَاسِبَةً لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ جِنْسٍ وَنَوْعٍ مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ، فَإِذَا نَقُصَ أَحَدُهَا بِتَصَرُّفِ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ فِيهِ بِالتَّغَذِّي وَالِاسْتِنْشَاقِ وَالنَّفْثِ بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوقِعَ اخْتِلَالًا وَتَفَاوُتًا فِي هَذِهِ النِّسْبَةِ كَانَ لَهُ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى مَا يُعِيدُ إِلَيْهِ اعْتِدَالَهُ وَيَحْفَظُهُ لَهُ ، كَتَأْثِيرِ كُلٍّ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ فِي وَرَقِ النَّبَاتِ الْأَخْضَرِ ، وَمِنْ تَمَوُّجِ الْبِحَارِ فِي تَوْلِيدِ الْأُكْسُجِينِ ، وَحَمْلِ الرِّيَاحِ لَهُ إِلَى الصَّحَارِي الْبَعِيدَةِ عَنِ الْمَاءِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْأَشْجَارِ .

(176/273)

تَسْتَفِيدُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ مِنَ الْهَوَاءِ بِفِطْرَتِهَا فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ كَسْبِيٍّ وَلَا إِلَى عَمَلٍ صِنَاعِيٍّ تَهْتَدِي بِهِمَا إِلَى الْتِزَامِ مَنَافِعِهِ وَاتِّقَاءِ مَضَارِّهِ إِلَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ – وَهُوَ سَيِّدُ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ بِمَا خُلِقَ مُسْتَعِدًّا لَهُ مِنِ اكْتِسَابِ الْعُلُومِ وَإِتْقَانِ الْأَعْمَالِ إِلَى غَيْرِ حَدٍّ يُعْرَفُ – وَهُوَ الْمُحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ الْوَاسِعِ وَالْعَمَلِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْعِلْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُهُ وَدَقَّتْ صِنَاعَتُهُ صَارَ أَشَدَّ حَاجَةً إِلَى الْعِلْمِ وَالصِّنَاعَةِ ، فَأَهْلُ الْبَدَاوَةِ أَقَلُّ حَاجَةً إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْحَضَارَةِ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى حَيَاةِ الْفِطْرَةِ ، وَأَقَلُّ جِنَايَةً عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ

الْحَضَارَةِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ .

يَبْنِي أَهْلُ الْحَضَارَةِ الدُّورَ فَيَجْعَلُونَ فِي كُلِّ دَارٍ بُيُوتًا كَثِيرَةً وَمَرَافِقَ مُخْتَلِفَةً ، فَإِذَا لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا تَخَلُّلَ الْهَوَاءِ وَنُورِ الشَّمْسِ لَهَا فَسَدَ هَوَاؤُهَا ، وَكَثُرَتْ فِيهَا جِنَّةُ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ الَّتِي تَفْتِكُ بِأَهْلِهَا ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ فِي جُمْلَةِ

(177/273)

مَا يُقِيمُونَ مِنَ الدُّورِ وَالدَّكَاكِينِ وَالْمَعَامِلِ وَالْمَدَارِسِ وَالثُّكْنَاتِ لِلسَّكَنِ وَالْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ وَالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْجُنْدِ الَّتِي يُسَمَّى مَجْمُوعُهَا الْمَدِينَةَ إِلَى مِثْلِ مَا يُرَاعَى فِي كُلِّ دَارٍ مِنْ قَوَانِينِ الصِّحَّةِ ، كَسِعَةِ الشَّوَارِعِ وَالْجَوَادِ الْعَامَّةِ وَمَا يَتَفَرَّعُ مِنْهَا مِنَ النَّوَاشِطِ الْخَاصَّةِ بِطَائِفَةٍ مِنَ السُّكَّانِ بِحَيْثُ يَكُونُ الِانْتِفَاعُ بِالْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ عَامًّا ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ حَدَائِقُ وَبَسَاتِينُ وَاسِعَةٌ مُبَاحَةٌ لِجَمِيعِ أَهْلِهَا لِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ إِلَى الشَّجَرِ فِي اعْتِدَالِ الْهَوَاءِ ، وَلِيَخْتَلِفَ إِلَيْهَا النَّاسُ عِنْدَ إِرَادَةِ الِاسْتِرَاحَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَحْوَجُهُمْ إِلَيْهَا الْأَطْفَالُ يَتَفَيَّئُونَ ظِلَالَهَا وَيَسْتَنْشِقُونَ هَوَاءَهَا النَّقِيَّ الْمُنْعِشَ . فَإِذَا قَصَّرُوا فِي هَذَا انْتَابَتِ الْأَمْرَاضُ مَنْ يُقِيمُونَ فِي الدُّورِ الَّتِي لَا يُطَهِّرُهَا الْهَوَاءُ وَالنُّورُ ، ثُمَّ تَسْرِي إِلَى مَنْ يُخَالِطُهُمْ مِنْ سَائِرِ طَبَقَاتِ السُّكَّانِ .

وَخَيْرُ الْهَوَاءِ الْمُعْتَدِلِ بَيْنَ الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ وَالْجَفَافِ وَالرُّطُوبَةِ ، وَمِنْ فَوَائِدِ الْحَارِّ إِفْرَازُ الْعَرَقِ مِنَ الْجِلْدِ وَهُوَ مُطَهِّرٌ لِبَاطِنِ الْبَدَنِ كَتَطْهِيرِ الْحَمَّامِ لِظَاهِرِهِ ، بِمَا يَخْرُجُ مَعَهُ مِنَ الْفَضَلَاتِ الْمَيِّتَةِ وَالْمَوَادِّ السَّامَّةِ ، فَهَذِهِ الْفَائِدَةُ تُوَازِي ضَرَرَهُ فِي عُسْرِ التَّنَفُّسِ وَقِلَّةِ مَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي الرِّئَةِ مِنَ الْأُكْسُجِينِ وَقِلَّةِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ الْكَرْبُونِ السَّامِّ ، وَفِي ضَعْفِ الْهَضْمِ وَاسْتِرْخَاءِ الْجِسْمِ .

وَمِنْ فَوَائِدِ الْبَارِدِ تَشْدِيدُ الْأَعْصَابِ وَتَنْشِيطُ الْجِسْمِ ، وَهُوَ يُحْدِثُ حَرَارَةً فِي الْبَاطِنِ بِكَثْرَةِ مَا يَدْخُلُ مَعَهُ مِنَ الْأُكْسُجِينِ فِي الْجَوْفِ (وَهُوَ مُوَلِّدُ الْحَرَارَةِ وَالِاشْتِعَالِ) فَيَحْتَاجُ إِلَى كَثْرَةِ الْوَقُودِ الَّذِي يَحْرِقُهُ ، وَهُوَ الْغِذَاءُ ، وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ الْأَكْلُ وَيَقْوَى الْهَضْمُ فِي الْجَوِّ الْبَارِدِ ، وَتَشْتَدُّ الْحَاجَةُ فِيهِ إِلَى الْحَرَكَةِ وَالْعَمَلِ لِدَفْعِ الدَّمِ إِلَى الشَّرَايِينِ الَّتِي فِي ظَاهِرِ الْجِسْمِ لِتَدْفِئَتِهِ ، فَهُوَ يُفِيدُ الْأَقْوِيَاءَ الْأَصِحَّاءَ وَيَضُرُّ الضُّعَفَاءَ وَالْمُصَابِينَ بِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ الصَّدْرِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي تَخْفِيفُ الطَّعَامِ فِي زَمَنِ الْحَرِّ ، وَاجْتِنَابُ الْإِكْثَارِ مِنَ اللَّحْمِ وَلَا سِيَّمَا الْأَحْمَرُ مِنْهُ وَمِنَ الْحَلْوَى وَالْأَدْهَانِ ، وَجَعْلُ مُعْظَمِ الْغِذَاءِ مِنَ الْبُقُولِ وَالْفَاكِهَةِ .

وَمِنْ حِكَمِ اللهِ تَعَالَى وَلُطْفِ تَدْبِيرِهِ فِي الْهَوَاءِ وَفِي اخْتِلَافِ بِقَاعِ الْأَرْضِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ مَا يُحْدِثُهُ هَذَا الِاخْتِلَافُ مِنَ الرِّيَاحِ وَمَا لَهَا مِنَ الْمَنَافِعِ لِلْأَحْيَاءِ وَلَا سِيَّمَا النَّاسُ .

فَمِنْ سُنَنِهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الْكَوْنِ أَنَّ الْحَرَارَةَ تُمَدِّدُ الْأَجْسَامَ فَيَخِفُّ وَزْنُهَا ، وَأَنَّ الْمَائِعَاتِ وَالْأَبْخِرَةَ وَالْغَازَاتِ مِنْهَا يَعْلُو مَا خَفَّ مِنْهَا عَلَى مَا ثَقُلَ ، فَإِذَا وُضِعَ مَاءٌ وَزَيْتٌ فِي إِنَاءٍ يَكُونُ الزَّيْتُ فِي أَعْلَاهُ وَإِنْ وُضِعَ أَوَّلًا ، وَالْمَاءُ فِي أَسْفَلِهِ وَإِنْ وُضِعَ آخِرًا ؛ لِأَنَّ الزَّيْتَ أَخَفُّ مِنَ الْمَاءِ ، وَالْمَاءُ السَّخِنُ يَكُونُ فِي أَعْلَى الْإِنَاءِ وَالْبَارِدُ فِي أَسْفَلِهِ ، وَمَتَى سُخِّنَ كُلُّهُ يَكُونُ أَعْلَاهُ أَشَدَّ حَرَارَةً مِنْ أَسْفَلِهِ . فَعَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ إِذْ سُخِّنَ الْهَوَاءُ الْمُجَاوِرُ لِلْأَرْضِ بِحَرَارَتِهَا لَا يَلْبَثُ

أَنْ يَرْتَفِعَ فِي الْجَوِّ وَيَحِلُّ مَحَلَّهُ هَوَاءٌ أَبْرَدُ مِنْهُ لِحِفْظِ التَّوَازُنِ (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) (67 : 3) وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي حُدُوثِ الرِّيَاحِ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ حَرَارَةَ الْأَرْضِ تَكُونُ عَلَى أَشُدِّهَا فِي خَطِّ الِاسْتِوَاءِ ، وَهُوَ وَسَطُ عَرْضِ الْأَرْضِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُ ، حَيْثُ تَكُونُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ عَمُودِيَّةً فَيَكُونُ تَأْثِيرُ حَرَارَتِهَا فِي الْأَرْضِ عَلَى أَشُدِّهِ ، ثُمَّ يَضْعُفُ تَأْثِيرُهَا فِي جِهَتَيِ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ حَيْثُ تَقَعُ الْأَشِعَّةُ مَائِلَةً بِقَدْرِ هَذَا الْمَيْلِ فَتَكُونُ الْحَرَارَةُ مُعْتَدِلَةً ، ثُمَّ تَكُونُ بَارِدَةً حَتَّى تَصِلَ فِي مِنْطَقَةِ الْقُطْبَيْنِ إِلَى دَرَجَةِ الْجَلِيدِ الدَّائِمِ لِقِلَّةِ مَا يُصِيبُهَا مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ مَائِلًا فِي الْأُفُقِ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَهُنَالِكَ تَكُونُ سُنَّتُهَا يَوْمًا وَاحِدًا نِصْفُهُ لَيْلٌ وَنِصْفُهُ نَهَارٌ ، وَلَيْلُ كُلٍّ مِنْ نَاحِيَةِ الْقُطْبَيْنِ نَهَارُ الْآخَرِ . وَتَحْدِيدُ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ كُلِّهَا مَوْضِعُهُ عِلْمُ (الْجُغْرَافِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ أَوِ الرِّيَاضِيَّةِ) وَلِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ فِي كُلِّ قُطْرٍ أَسْبَابٌ غَيْرُ الْقُرْبِ مِنْ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ وَالْبُعْدِ عَنْهُ ، أَهَمُّهَا الْجِبَالُ وَالْأَنْجَادُ وَالْأَغْوَارُ وَالْقُرْبُ أَوِ الْبُعْدُ مِنَ الْبِحَارِ .

(181/273)

لَوْلَا حَرَكَةُ الْهَوَاءِ وَحُدُوثُ الرِّيَاحِ بِمَا ذَكَرْنَا لَازْدَادَتْ حَرَارَةُ الْبِقَاعِ الْحَارَّةِ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ حَتَّى تَكُونَ مُحْرِقَةً لِكُلِّ شَيْءٍ فِيهَا ، وَلَازْدَادَ قَرُّ الْبِقَاعِ الْبَارِدَةِ حَتَّى يَيْبَسَ كُلُّ حَيٍّ فِيهَا فَيَكُونُ جَلِيدًا كَمَا يَحْصُلُ لِأَسْمَاكِ الْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ الشَّمَالِيَّةِ ، الَّتِي تُجَمَّدُ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ حَتَّى إِذَا مَا عَادَتْ مِيَاهُهَا إِلَى سَيَلَانِهَا فِي فَصْلِ الصَّيْفِ لَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاكُ وَعَادَتْ إِلَيْهَا

الْحَرَكَةُ وَسَائِرُ خَوَاصِّ الْحَيَاةِ .

بِالرِّيَاحِ يَنْتَفِعُ جَوُّ كُلٍّ مِنَ الْبِلَادِ الْحَارَّةِ وَالْبِلَادِ الْبَارِدَةِ ، مِنْ جَوِّ الْآخَرِ بِمَا فِي كُلٍّ مِنْهُمَا مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْمَزَايَا الَّتِي أَشَرْنَا إِلَى الْمُهِمِّ مِنْهَا ، فَبِارْتِفَاعِ هَوَاءِ الْمِنْطَقَةِ الِاسْتِوَائِيَّةِ الْحَارِّ لِخِفَّتِهِ وَانْخِفَاضِ هَوَاءِ الْقُطْبَيْنِ لِثِقْلِهِ يَحْدُثُ فِي كُلٍّ مِنْ

(182/273)

نِصْفَيْ كُرَةِ الْأَرْضِ تَيَّارَانِ هَوَائِيَّانِ بَيْنَ وَسَطِ الْأَرْضِ وَطَرَفَيْهَا - كَمَا يَحْدُثُ فِي جَوِّ كُلِّ قُطْرٍ عَلَى حِدَةٍ ، فَإِنَّ الْحَرَّ يَشْتَدُّ عِنْدَنَا بِمِصْرَ فِي الرَّبِيعِ وَالصَّيْفِ مِنَ الضَّحْوَةِ الْكُبْرَى إِلَى وَقْتِ الْأَصِيلِ أَوْ إِلَى اللَّيْلِ فَيَرْتَفِعُ وَيَأْتِي بَدَلَهُ هَوَاءٌ مُعْتَدِلٌ لَطِيفٌ مِنْ جَوِّنَا نَفْسِهِ كَمَا تَقَدَّمَ - وَإِذَا اسْتَمَرَّ الْحَرُّ الشَّدِيدُ عِدَّةَ أَيَّامٍ يَخْلُفُهُ هَوَاءٌ بَارِدٌ مُعْتَدِلٌ أَيَّامًا أُخْرَى . وَهُوَ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ مِنَ الْأَقْطَارِ الْمُجَاوِرَةِ لَنَا - فَكُلَّمَا كَانَتْ حَرَكَةُ الرِّيحِ شَدِيدَةً كَانَ مَدَاهَا أَبْعَدَ ، وَأَقَلُّ حَرَكَةٍ فِي الْهَوَاءِ تُرِيكَ كَيْفَ يُعْدَلُ الْجَوُّ مَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَخْتَبِرَهُ فِي حُجْرَتِكَ إِذَا فَتَحْتَ نَافِذَةً فِيهَا وَأَخَذْتَ شَمْعَةً أَوْ ذُبَالَةً - فَتِيلَةً - مُوقَدَةً فَوَضَعْتَهَا فِي أَعْلَى النَّافِذَةِ مَرَّةً وَفِي أَسْفَلِهَا أُخْرَى ، فَإِنَّكَ تَرَى النُّورَ فِي أَسْفَلِهَا مَائِلًا نَحْوَكَ وَفِي أَعْلَاهَا مَائِلًا عَنْكَ إِلَى خَارِجِ الْحُجْرَةِ ؛ لِأَنَّ الْهَوَاءَ الْحَارَّ الَّذِي فِي الْحُجْرَةِ هُوَ الْخَفِيفُ فَيَخْرُجُ مِنْ أَعْلَاهَا وَيَدْخُلُ بَدَلَهُ هَوَاءُ

الْجَوِّ الَّذِي هُوَ أَبْرَدُ مِنْ هَوَاءِ الْحُجْرَةِ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْهَوَاءُ الْخَارِجِيُّ أَشَدَّ حَرَارَةً مِنْ هَوَاءِ الْبُيُوتِ فِي أَوْقَاتِ هُبُوبِ الرِّيحِ السَّمُومِ

(183/273)

وَبِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ يُعْرَفُ سَبَبُ اخْتِلَافِ النَّسِيمِ وَهُبُوبِ الرِّيحِ فِي سَوَاحِلِ الْبِلَادِ الْحَارَّةِ تَارَةً مِنَ الْبَرِّ كَوَقْتِ اللَّيْلِ وَتَارَةً مِنَ الْبَحْرِ وَأَكْثَرُهُ فِي النَّهَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ أَقَلُّ تَأَثُّرًا بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا سِيَّمَا الرَّمْلِيَّةُ وَالْحَجَرِيَّةُ .

هَذَا وَإِنَّ لِلرِّيَاحِ فِي اتِّجَاهِهَا بَيْنَ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ وَالْقُطْبِ جَنُوبًا وَشَمَالًا وَفِيمَا بَيْنَهُمَا شَرْقًا وَغَرْبًا أَسْبَابًا مَعْرُوفَةً ، كَمَا أَنَّ لِقُوَّةِ الرِّيَاحِ فِي الْبِحَارِ وَالْأَقْطَارِ أَوْقَاتًا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَوَاقِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ ، كَالرِّيَاحِ الْمَوْسِمِيَّةِ الَّتِي تَشْتَدُّ فِي فَصْلِ الصَّيْفِ فِي الْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ حَيْثُ تَكُونُ الْبِحَارُ الشَّمَالِيَّةُ وَكَذَا الْبَحْرُ الْمُتَوَسِّطُ رَهْوًا أَوْ مُعْتَدِلَةَ الِاضْطِرَابِ تَبَعًا لِسُكُونِ الرِّيحِ وَاعْتِدَالِهَا .

(184/273)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ أَسْبَابَ حَرَكَةِ الْهَوَاءِ وَهُبُوبِ الرِّيَاحِ وَكَوْنِ أَصْلِ الْمُنْتَظِمِ مِنْهَا أَرْبَعًا وَمِنْهُ مَا يُسَمُّونَهُ الرِّيَاحَ التِّجَارِيَّةَ الْمُوَاتِيَةَ وَالْمُضَادَّةَ أَوِ الْعَكْسِيَّةَ وَالرِّيَاحَ الْمَوْسِمِيَّةَ - كُلُّ تِلْكَ الْأَسْبَابِ - مَعْرُوفَةٌ لِلْبَشَرِ فِي الْجُمْلَةِ تَبَعًا لِعِلْمِهِمْ بِسُنَنِ اللهِ فِي الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ وَبِهَيْئَةِ الْأَرْضِ وَحَرَكَتِهَا وَفُصُولِهَا ، وَلَكِنَّ هَذَا الْعِلْمَ إِجْمَالِيٌّ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ مَتَى تَهُبُّ الرِّيحُ فِي بِلَادِهِ وَمَتَى تَسْكُنُ وَمَتَى يَشْتَدُّ الْحَرُّ فِي أَيَّامِ شُهُورِ الصَّيْفِ وَالْبَرْدُ فِي أَيَّامِ شُهُورِ الشِّتَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْأَيَّامِ .

وَمِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ الرِّيَاحِ نَقْلُهَا لِمَادَّةِ اللَّقَاحِ مِنْ ذُكُورِ النَّبَاتِ

(185/273)

إِلَى إِنَاثِهِ ، فَإِنَّ مِنَ الشَّجَرِ مَا هُوَ ذَكَرٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ أُنْثَى كَالنَّخْلِ ، فَوَظِيفَةُ الْأَوَّلِ تَلْقِيحُ الْآخَرِ وَهَذَا إِنَّمَا يُثْمِرُ بِتَلْقِيحِ ذَاكَ لَهُ وَلَا يُثْمِرُ بِغَيْرِ تَلْقِيحٍ ، وَإِذَا أُجِيدَ التَّلْقِيحُ كَانَ سَبَبًا لِجَوْدَةِ الثَّمَرِ وَإِلَّا فَلَا . وَمِنْهَا مَا تَشْتَمِلُ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنْهُ عَلَى أَعْضَاءِ الذُّكُورَةِ الْمُلَقِّحَةِ وَأَعْضَاءِ الْأُنُوثَةِ الْمُثْمِرَةِ ، وَالرِّيَاحُ تَنْقُلُ اللَّقَاحَ فِيمَا لَا تَتَّصِلُ ذُكُورُهُ بِإِنَاثِهِ نَقْلًا تَامًّا أَوْ نَاقِصًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) (15 : 22) وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فِيمَا يَظْهَرُ ، حَتَّى الَّذِينَ كَانُوا يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ بِأَيْدِيهِمْ ، إِذْ لَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ

مِنْهُمْ وَلِذَلِكَ جَعَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ اللَّقْحَ هُنَا مَجَازًا بِتَشْبِيهِ تَأْثِيرِ الرِّيَاحِ فِي السَّحَابِ ذَلِكَ التَّأْثِيرُ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْهُ الْمَطَرُ بِتَأْثِيرِ اللَّقَاحِ فِي الْحَيَوَانِ وَكَوْنِهِ سَبَبًا لِلْحَمْلِ وَالنِّتَاجِ .

(186/273)

وَأَمَّا مَنَافِعُ الرِّيَاحِ فِي إِحْدَاثِ الْمَطَرِ فَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي جَعَلْنَا هَذَا الِاسْتِطْرَادَ مُتَمِّمًا لَهُ بِتَفْسِيرِهَا بِبَيَانِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ بِهَا ، وَالْمَطَرُ هُوَ الْأَصْلُ لِمِيَاهِ الْأَنْهَارِ وَالْيَنَابِيعِ وَالْآبَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ) (39 : 21) وَالْمَاءُ مُرَكَّبٌ مِنْ عُنْصُرَيِ الْأُكْسُجِينِ وَالْأَيْدْرُوجِينِ ، وَيُخَالِطُ مَاءَ الْمَطَرِ مِنْهُ وَهُوَ أَنْقَاهُ بَعْضُ مَا يَحْمِلُهُ الْهَوَاءُ مِنَ الْعَنَاصِرِ مِنَ الْمَوَادِّ الْمُنْفَصِلَةِ مِنَ الْهَوَاءِ وَعَوَالِمِهَا ، وَمِيَاهُ الْأَرْضِ يُخَالِطُهَا كَثِيرٌ مِنْ مَوَارِدِهَا وَبَعْضُهَا ضَارٌّ فِي الشُّرْبِ وَبَعْضُهَا نَافِعٌ وَلِذَلِكَ يَفْضُلُ بَعْضُ الْمِيَاهِ بَعْضًا حَتَّى إِنَّ بَعْضَهَا يُنْقَلُ فِي الْقَوَارِيرِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى أَقْطَارٍ أُخْرَى وَيُبَاعُ فِيهَا غَالِيَ الثَّمَنِ لِلشُّرْبِ وَمَا يَضُرُّ شُرْبُهُ لِلرَّيِّ وَالتَّحْلِيلِ قَدْ يَنْفَعُ لِغَيْرِ الشُّرْبِ ، وَمِنْهَا الْمِيَاهُ الْمَعْدِنِيَّةُ الْمُسَهِّلَةُ وَالنَّافِعَةُ لِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ دُونَ بَعْضٍ .

(187/273)

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْهَوَاءَ وَالْمَاءَ ، هُمَا الْأَصْلَانِ لِحَيَاةِ جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ وَلِلْحَرَارَةِ وَالنُّورِ فِيهِمَا ، وَسُنَنُ اللهِ تَعَالَى فِي حَرَكَتِهِمَا وَانْتِقَالِهِمَا مَا عَلِمْتَ ، فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ (الْهَوَاءُ وَالْمَاءُ وَالنُّورُ وَالْحَرَارَةُ) أَثْمَنُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ الْكَرِيمَةِ كُلِّهَا ، وَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَهَا عَامَّةً مَبْذُولَةً لَا يُمْكِنُ احْتِكَارُهَا ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا مِنْ مَنَافِعِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَى كُلِّ قَارِئٍ لِلْمَنَارِ أَنْ يَفْهَمَهُ ، وَإِلَّا فَإِنَّ لَهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْفَوَائِدِ مَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا أَسَاطِينُ عُلَمَاءِ الْكِيمْيَاءِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَزْدَادُونَ بِهَا عِلْمًا ، وَهَذَا مِصْدَاقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(17 : 85) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 413. 435 ﴾

(188/273)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التي تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض

كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتي في هذه الآية بقضية دينية أيضا : ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ .

والبلد الطيب هو البلد الخصب الذي لا يحتاج إلا لى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذي خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلاّ بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدينية في البعث أولاً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به " .

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق : ﴿ . . . لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ

تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2]

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :

(189/273)

خذ بعلمي ولا تركن إلى عملي . . . واجن الثمار وخل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : " من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة " .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم آكد وأشدّ طلبا ؛ لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لا تُذِعْها لأن الناس سينتفعون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أي الذي لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره . ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كذلك نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : 58]

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماماً ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينتفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذي ينزله الله على لسان رسوله . ﴿ والذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ .

قلنا من قبل : إن الآيات تطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التي نراها واقعة في الكون مثل قوله الحق : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر . . . ﴾ [فصلت : 37] وآيات هي آيات القرآن ، والآيات التي تكون هي المعجزات للأنبياء . ﴿ كذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ [الأعراف : 58]

الآيات هنا في الكونية كالماء الذي ينزل ، إنه مثل المنهج ، من أخذ به فاز ونجا ، ومن تركه وغوى وكل آيات الله تقتضي أن نشكر الله عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(190/273)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والبلد الطيب . . . ﴾ الآية . قال : هذا مثل ضربه الله للمؤمن يقول : هو طيب وعمله طيب ، كما أن البلد

الطيب ثمرها طيب ، والذي خبث ضرب مثلاً للكافر كالبلد السبخة المالحة التي لا يخرج منها البركة ، والكافر هو الخبيث وعمله خبيث .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ والبلد الطيب . . . والذي خبث ﴾ قال : كل ذلك في الأرض السباخ وغيرها ، مثل آدم وذريته فيهم طيب وخبيث .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ والبلد الطيب ﴾ قال : هذا مثل المؤمن سمع كتاب الله فوعاه وأخذ به ، وعمل به ، وانتفع به ، كمثل هذه الأرض أصابها الغيث فأنبتت وأمرعت ﴿ والذي خبث ﴾ قال : هذا مثل الكافر لم يعقل القرآن ، ولم يعمل به ، ولم يأخذ به ، ولم ينتفع به ، فهو كمثل الأرض الخبيثة أصابها الغيث فلم تنبت شيئاً ولم تمرع .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هذا مثل ضربه للقلوب يقول : ينزل الماء فيخرج البلد الطيب نباته بإذن الله ﴿ والذي خبث ﴾ هي السبخة لا يخرج نباتها إلا نكداً ، فكذلك القلوب لما نزل القرآن بقلب المؤمن آمن به وثبت الإِيمان في قلبه ، وقلب الكافر لما دخله القرآن لم يتعلق منه بشيء ينفعه ، ولم يثبت فيه من الإِيمان شيء إلا ما لا ينفعه ، كما لم يخرج هذا البلد إلا ما لم ينفع من النبات والنكد : الشيء القليل الذي لا ينفع .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته ﴾ بنصب الياء ورفع الراء .

(191/273)

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ والبلد الطيب . . . ﴾ الآية . قال الطيب ينفعه المطر فينبت ﴿ والذي خبث ﴾ السباخ لا ينفعه المطر ﴿ لا يخرج نباته إلا نكداً ﴾ هذا مثل ضربه الله لآدم وذريته كلهم ، إنما خلقوا من نفس واحدة فمنهم من آمن بالله وكتابه فطاب ، ومنهم من كفر بالله وكتابه فخبث .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ والبلد الطيب ﴾ الآية . قال : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً فكانت منها بقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ،

ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(192/273)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " بِإِذْنِ رَبِّهِ "

يجوز أن تكون " الباء " سببية أو حالية وقرىء : " يُخْرِجُ نَبَاتَهُ " ، أي : يخرجه البلد وينبته .

قوله : " والَّذِي خَبُثَ " يريد الأَرْضَ السَّبَخةَ التي لا يخرج نباتها .

يقال : خَبُثَ الشَّيءُ يَخْبُثُ خُبثاً وخَبَاثَةً .

قال الفراء : قوله : " إلاَّ نَكِداً " فيه وجهان :

أحدهما : أن ينتصب حالاً أي عَسِراً مُبْطئاً .

نَكِدَ يَنْكَدُ نَكَداً بالفَتْحِ ، فهو نكدٌ بالكسر .

والثاني : أن ينتصب على أَنَّهُ نَعْتُ مصدرٍ محذوفٍ ، أي : إلا خروجاً نَكداً ، وصف

الخروج بالنّكد كما يوصَفُ به غيره ، ويؤيِّدُهُ قراءة أبي جعفر بن القَعْقَاعِ : " إلاَّ نَكَداً " بفتح الكاف .

قال الزَّجَّاج : وهي قراءة أهْلِ المدينةِ ، وقراءة ابن مصرِّف : " إلا نَكْداً " بالسُّكُونِ وهما مصدران .

وقال مكيٌّ : " هو تخفيفُ نَكِد بالكَسْرِ مثل كَتْفٍ في كَتِف " .

(193/273)

يقال : رجل نَكِد ، وأنْكَد ، والمَنْكُود : العطاء النَّزْرُ وأنشدوا [في ذلك] : [السريع]

2495 - وأعْطِ مَا أعْطَيْتَهُ طَيِّبا . . .

لا خَيْرَ في المَنْكُودِ والنَّاكِدِ

وأنشدوا : [المنسرح]

2496 - لا تُنْجِزُ الوَعْدَ إنْ وَعَدْتَ وإنْ . . .

أعْطَيْتَ أعْطَيْتَ تَافِهاً نَكِدا

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة وعيسى بْن عُمَرَ : " يُخْرَج " مبنيّاً للمفعول ، " نَبَاتُه " مرفوعاً لقيامة مقام الفاعل ، وهو الله تعالى .

وقوله : " والَّذِي خَبُثَ " صفة لموصوف محذوف ، أي : والبلد التي خَبُثَ ، وإنَّما حذف لدلالةِ ما قبله عليه ، كما أنَّهُ قد حذف منه الجار في قوله : " بِإِذْنِ رَبِّهِ " ، إذ التقديرُ : والبلد الذي خَبث لا يخرج بإذن ربه إلا نَكِداً .

ولا بدَّ من مضاف محذوف : إمّا من الأوَّلِ تقديرُهُ : ونبات الذي خبُث لا يخرج ، وإمَّا من الثَّاني تقديره : والذي خَبُثَ لا يخرجُ نباته إلا نكداً ، وغاير بين الموصُولَيْنِ ، فجاء بالأول بالأِلفِ واللاَّمِ ، وفي الثَّاني جاء بالذي ، ووُصِلَتْ بفعل ماض .

قوله : " كَذَلِكَ " تقدم نظيره .

﴿ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ .

قرئ : " يُصرِّفُ " أي يصرفها الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 172 .

173 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

إذا زكا الأصلُ نما الفرع ، وإنْ خبُث الجوهر لم يَطبْ ما تحلَّل منه ، وإن طاب العنصر فالجزء يحاكي أصله ، والأَسِرَّةُ تدل على السريرة ، فَمَنْ صفا باطنُ قلبه زكا ظاهرُ فعله ، ومن كان

بالعكس فحاله بالضد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 542 .

543 ﴾

(194/273)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) ﴾

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم . ونادرا رجالا من رؤوس الكفرة يقولون لهم أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ إشارة لهم إلى أهل الجنة ، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون .

وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدّم والتأخر على حسنها ، وأن أحداً لا يسبق عند اللّه إلا بسبقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسيء عن إساءته ، ويزيد المحسن في إحسانه . وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملا . وقوله وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ فيه أن صارفا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا وقرأ الأعمش : وإذا قلبت أبصارهم وقرئ : أدخلوا الجنة ، على البناء للمفعول . وقرأ عكرمة : دخلوا الجنة . فإن قلت : كيف لاءم هاتين القراءتين قوله لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ؟ قلت : تأويله : أدخلوا ، أو دخلوا الجنة مقولا لهم : لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . فإن قلت : ما محل قوله : لم يدخلوها وهم يطمعون ؟ قلت : لا محل له لأنه استئناف ، كأن سائلا سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل :

لم يدخلوها وهم يطمعون ، يعنى حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة ، فلم

يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا . ويجوز أن يكون له محل ، بأن يقع صفة لرجال ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ المال أو كثرتكم واجتماعكم وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ واستكباركم عن الحق وعلى الناس ، وقرئ : تستكثرون ، من الكثرة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 50 إلى 51]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51)

أَفِيضُوا عَلَيْنا فيه دليل على أن الجنة فوق النار أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة ، ويجوز أن يراد : أو ألقوا علينا مما رزقكم اللّه من الطعام والفاكهة . كقوله :

عَلَفْتُهَا تِبْنا وَمَاءً بَارِدا «1»

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم ، كما يفعل المضطر الممتحن .

حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرّم عليه ويحظر ، كقوله :

حَرَامٌ عَلَى عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَى «2»

---

(1) ما حططت الرحل عنها واردا علفتها تبنا وماء باردا

يقول : لما حططت الرجل عن الناقة حال كوني وارداً للماء ، علفتها تبنا وسقيتها ماء بارداً ، على حذف العامل في ماء . ويحتمل أن المعنى : ناولتها تبنا وماء على التجوز في العلف ، وذلك لأن الماء لا يكون معلوفا لها . ويجوز أن يكون مفعولا معه ، أى علفتها تبنا مصاحبا للماء ، فلا يلزم أن يكون الماء معلوفا ، ومنعه لأن الماء لا يصاحب التبن في العلف ، فيه نظر ، لجواز أنه وضع لها التبن ووضع لها ماء معه ، لتتناول ما شاءت . ورواية الفراء هكذا :

علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همالة عيناها

وشتوت بموضع كذا : أقمت به زمن الشتاء ، أى حتى كانت زمن الشتاء محالة : أى كثيرة الدموع عيناها ، همالة :

نصب على الحال ، وعيناها : فاعل به . ويروى : حتى غدت ، وحتى بدت .

(2) حرام على عيني أن تطعم الكرى وأن ترقئا حتى ألاقيك يا هند

«الكرى» النعاس ، وهو أول النوم . يقال : كرى يكرى كرى ، من باب تعب إذا نعس . وشبه بالمطعوم على طريق المكنية . و«أن تطعما» أى تذوقا تخييل . ورقأ الدمع والدم – بالهمز – : سكن . وإسناده للعين مجاز عقلى ، لأنه للدمع . ويحتمل أنه استعار ترقئا لتغمضا ، لأن فيه سكون الجفون . يقول : ممتنع على عينى النعاس والغموض ، أو عدم البكاء امتناعا مؤكداً ، كما يمتنع المحرم على المكلف ، ففيه استعارة تصريحية حتى

ألاقيك يا هند .

وأنال من نوالك . وفي النداء معنى التفجع .

(196/273)

فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا كما فعلوا بلقائه فعل الناسين ، فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 52 إلى 53]

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53)

فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ، حتى جاء حكيما قيما غير ذى عوج . وقرأ ابن محيصن : فضلناه ، بالضاد المعجمة . بمعنى فضلناه على جميع الكتب ، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها . وهُدىً وَرَحْمَةً حال من منصوب فضلناه ، كما أن على علم حال من مرفوعه إِلَّا تَأْوِيلَهُ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه

من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ أى تبين وصحّ أنهم جاءوا بالحق نُرَدُّ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها ، داخلة معها في حكم الاستفهام ، كأنه قيل : هل لنا من شفعاء ، أو هل نردّ . ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم ، كما تقول ابتداء : هل يضرب زيد ؟

ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه . فلا يقدّر : هل يشفع لنا شافع أو نردّ . وقرأ ابن أبى إسحاق . أو نردّ ، بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا . أو تكون «أو» بمعنى «حتى أنّ» أى يشفعوا لنا حتى نردّ فنعمل ، وقرأ الحسن بنصب نُرَدُّ ورفع فَنَعْمَلَ بمعنى : فنحن نعمل .

[سورة الأعراف (7) : آية 54]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54)

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وقرئ يغشى بالتشديد ، أى يلحق الليل النهار ، والنهار بالليل يحتملهما جميعاً . والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس : يغشى الليل النهار ، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار ، أى يدرك النهار الليل ويطلبه حثيثاً ، حسن الملاءمة لقراءة حميد بِأَمْرِهِ بمشيئته وتصريفه ، وهو متعلق بمسخرات أى خلقهنّ جاريات بمقتضى حكمته

وتدبيره ، وكما يريد أن يصرفها سمى ذلك أمرا على التشبيه ، كأنهنّ مأمورات بذلك .

وقرئ : والشمس والقمر

(197/273)

والنجوم مسخرات ، بالرفع . ولما ذكر أنه خلقهنّ مسخرات بأمره قال أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

أى هو الذي خلق الأشياء كلها ، وهو الذي صرفها على حسب إرادته .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 55 إلى 58]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً نصب على الحال ، أى ذوى تضرع وحفية . وكذلك خوفاً وطمعاً .

والتضرع تفعل من الضراعة «1» وهو الذل ، أى تذللا وتملقا . وقرئ . وخفية «2» وعن

الحسن رضى اللّه عنه : إنّ اللّه يعلم القلب التقى والدعاء الخفي ، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم . وذلك أنّ اللّه تعالى يقول

---

(1) . قال محمود : «التضرع تفعل من الضراعة وهي الذل . . . الخ» قال أحمد : وحسبك في تعين الاسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية . فالاخلال به كالاخلال بالضراعة إلى اللّه في الدعاء وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى «فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء ، خصوصا في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد ، وتستد المسامع وتستد ، ويهتز الداعي بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت في الدعاء ، وفي المسجد . وربما حصلت للعوام حينئذ رقة ، لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار ، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر وأوفي وأزكى ، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من

الخلق ، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

(2) . قوله «و قرئ وخفية» لعل هذه بالكسر . (ع)

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً وقد أثنى على زكريا فقال إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً . إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره . وعن ابن جريج ، هو رفع الصوت بالدعاء . وعنه : الصياح في الدعاء مكروه وبدعة . وقيل : هو الإسهاب في الدعاء . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «سيكون قوم يعتدون في الدعاء . وحسب المرء أن يقول : اللهمّ إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل «1» ثم قرأ قوله تعالى إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ كقوله وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً . وإنما ذكر قَرِيبٌ على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة موصوف محذوف ، أى شيء قريب . أو على تشبيه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول كما شبه ذاك به ، فقيل قتلاء وأسراء ، أو على أنه بزنة المصدر ، الذي هو النقيض والضغيب «2» . أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقى . قرئ : نشراً وهو مصدر نشر . وانتصابه إمّا

لأن أرسل ونشر متقاربان ، فكأنه قيل : نشرها نشراً : وإمّا على الحال بمعنى منتشرات .

ونشراً جمع نشور .

ونشراً تخفيف نشر ، كرسل ورسل . وقرأ مسروق : نشراً ، بمعنى منشورات ، فعل بمعنى مفعول ، كنقض وحسب . ومنه قولهم «ضم نشره» وبشراً جمع بشير . وبشراً بتخفيفه .

وبشراً – بفتح الباء – مصدر من بشره بمعنى بشره ، أى باشرات ، وبشرى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أمام رحمته ، وهي الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثراً أَقَلَّتْ حملت ورفعت ، واشتقاق الإقلال من القلة ، لأنّ الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلا سَحاباً ثِقالاً سحائب ثقالا بالماء جمع سحابة سُقْناهُ الضمير للسحاب على اللفظ ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث ، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلا لِبَلَدٍ مَيِّتٍ لأجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه . وقرئ : ميت فَأَنْزَلْنا بِهِ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق . وكذلك فَأَخْرَجْنا بِهِ . . . كَذلِكَ مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

---

(1) . أخرجه أبو يعلى من رواية شعبة عن زياد بن مهران عن قيس بن عنان عن مولى لسعد بن سعد سمع ابنا له يقول «اللهم إنى أسألك الجنة وغرفها وكذا وكذا . وأعوذ بك من النار وأغلالها وكذا وكذا . فقال : لقد سألت اللّه خيرا وتعوذت به من شر كثير . وإنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول : سيكون قوم يعتدون في الدعاء

وبحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة - الخبر - وقال في آخره : لا أدرى قوله وبحسبك إلى آخره من قول سعد أو من قول النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم . ورواه أبو داود الطيالسي والبيهقي في الدعوات من طريقه . عن سعد بسنده ، إلا أنه قال «و بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم وفي الباب عن عبد اللّه بن معقل أخرجه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم .

(2) . قوله «هو النقيض والضغيب» النقيض : هو صوت العقاب وصوت المحمل ، والضغيب : صوت الأرنب . (ع)

فيؤدّيكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين . إذا كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ الأرض العذاة الكريمة التربة وَالَّذِي خَبُثَ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به بِإِذْنِ رَبِّهِ بتيسيره وهو في موضع الحال ، كأنه قيل : يخرج نباته حسنا وافيا لأنه واقع في مقابلة نَكِداً والنكد الذي لا خير فيه . وقرئ : يخرج نباته ، أى يخرجه البلد وينبته . وقوله وَالَّذِي خَبُثَ صفة للبلد ومعناه والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً ،

فحذف المضاف الذي هو النبات ، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه ، إلا أنه كان مجرورا بارزاً ، فانقلب مرفوعا مستكنا لوقوعه موقع الفاعل ، أو يقدّر : ونبات الذي خبث .

وقرئ : نكداً ، بفتح الكاف على المصدر ، أى ذا نكد . ونكداً ، بإسكانها للتخفيف ، كقوله : نزه عن الريب ، بمعنى نزه . وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذرّيته منهم خبيث وطيب . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب اللّه فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد كَذِلكَ مثل ذلك التصريف نُصَرِّفُ الْآيَاتِ نردّدها ونكرّرها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة اللّه وهم المؤمنون ، ليفكروا فيها ويعتبروا بها .

وقرئ :

يصرف ، بالياء أى يصرفها اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 107 .

112﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

(201/273)

التفسير : لما بالغ سبحانه في تقرير أمر المعاد عاد على عادته إلى بيان المبدإ وهو ذكر الدلائل الدالة على التوحيد وكمال القدرة والعلم تأكيداً للمعاد . والمعنى إن الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكاره هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأجسام الجسام وأودع فيها أنواع المنافع وأصناف الفوائد ، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات ويعوّل على غيره في تحصيل السعادات ؟ قال علماء الأدب : أصل ست سدس بدليل سديس وأسداس . ثم

إن العرب كانوا يخاطبون اليهود فالظاهر أنهم سمعوا بعض أوصاف الخالق منهم فكأنه سبحانه يقول : لا تشتغلوا بعبادة الأوثان والأصنام فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذي خلق السموات والأرض على غاية عظمتها ونهاية جلالتهما في ستة أيام . قيل : إنه تعالى كان قادراً على إيجادهما دفعة واحدة فما الفائدة في ذكر أنه خلقهما في ستة أيام في أثناء ذكر ما يدل على وجود الصانع ؟ وأجيب بأنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور والصبر فيها كيلا يحمل المكلف تأخير الثواب والعقاب على التعطيل . ومن العلماء من قال : إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع الإحداث فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذلك إنما وقع على سبيل الاتفاق ، أما إذا أحدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للحكمة والمصلحة كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث حكيم عليم قادر رحيم . وأيضاً ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أوّلاً ثم يخلق السموات . والأرض بعده لأن خلق ما لا ينتفع به في الحال يجر إلى العبث . ثم إن ذلك العاقل – ملكاً كان أو جنياً – إذا شاهد في كل ساعة وحين حدوث شيء آخر على سبيل التعاقب والتوالي كان ذلك أقوى في إفادة اليقين لأنه يتكرر على عقله ظهور هذه الدلائل لحظة فلحظة .

وأما تقدير المدة بستة أيام فلا يرد عليه إشكال لأن السؤال يعود على أي مقدار فرض ، وقيل : إن لعدد السبعة شرفاً عظيماً ولهذا خصت ليلة القدر بالسابع والعشرين . فالأيام الستة لتخليق العالم والسابع لتحصيل كمال الملك والملكوت . فإن قيل : كيف يعقل حصول الأيام قبل خلق الشمس التي نيط تقدير الأزمنة بطلوعها وغروبها ؟ فالجواب أن المراد خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام كقوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ [مريم : 62] والمراد مقدار البكرة والعشي في الدنيا لأنه لا صباح عند الله ولا مساء . وعن ابن عباس أن هذه الأيام أيام الآخرة كل يوم ألف سنة مما تعدون . والأكثرون على أنها أيام الدنيا لأن التعريف بها يقع . والظاهر أنها الأيام بلياليها لا النهار . ونقول : يمكن أن تحمل الأيام الستة على الأطوار الستة التي للأجسام الهيولي والصورة والجسم البسيط ثم المركب المعدني والنباتي والحيواني والله تعالى أعلم بمراده . أما قوله سبحانه : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فحمل بعضهم الاستواء على الاستقرار وزيف بوجوه عقلية ونقلية منها : أن استقراره على العرش يستلزم تناهيه من الجانب الذي يلي العرش ، وكل ما هو متناهٍ فاختصاصه بذلك الحد المعين يستند لا محالة إلى محدث مخصص فلا يكون واجباً . ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون الإله تعالى نوراً غير متناهٍ ويراد باستقراره على العرش بلا تناهيه إحاطته به من الجوانب ونفوذه في الكل لا كإحاطة الفلك الحاوي بالمحوى . ولا كنفوذ

النور المحسوس في الشرف ، بل على نحو آخر تعوزه العبارة . ومنها أنه تعالى لو كان في مكان وجهة لكان إما أن يكون غير متناهٍ من كل الجهات أو متناهياً من بعضها دون بعض . وعلى الأول يلزم اختلاطه بجميع الأجسام حتى للقاذورات ومع ذلك فالشيء الذي هو محل السموات ، إما أن يكون عين الشيء الذي هو محل الأرض أو غيره ، وعلى الأول يلزم أن يكون السماء والأرض حالين في محل واحد فهما

(203/273)

شيء واحد لا شيئان . وعلى الثاني يلزم التركيب والتجزئة في ذاته تعالى . وأما إن كان متناهياً من الجهات فلو حصل في جميع الأحياز فهو محال بالبديهة ، وإن حصل في حيز واحد فلو كان جوهراً فرداً لزم أن يكون واجب الوجود أحقر الأشياء وإلا لزم التبعيض لأن جهة الفوق منه تكون مغايرة لمقابلتها . وكذا الكلام فيه إن كان متناهياً من بعض الجهات ، ولو جاز أن يكون الشيء المحدود من جانب أو جوانب قديماً أزلياً فاعلاً للعالم فلم لا يجوز أن يقال فاعل العالم هو الشمس والقمر أو كوكب آخر ؟ وأيضاً يصح على الشق المتناهي أن يكون غير متناهٍ وعلى غير المتناهي أن يكون متناهياً ، لأن الأشياء المتساوية في تمام

الماهية كل ما صح على واحد منها صح على الباقي فيصح النمو والذبول والزيادة والنقصان والتفريق والتمزق على ذاته تعالى فيكون ممكناً محدثاً لا واجباً قديماً .

(204/273)

ولقائل أن يقول : إنه غير متناهٍ ولا يلزم من ذلك أن يكون محلاً للعالم ولا حالاً فيه ، واستصحاب الشيء للمحل غير كونه نفس المحل أو مفتقراً إلى المحل . وحديث اختلاطه بالقاذورات تخييل لا أصل له عند الرجل البرهاني . ومنها أنه لو كان الباري يتعالى حاصلاً في المكان والجهة لكان الأمر المسمى بالجهة إما أن يكون موجوداً مشاراً إليه أو لا يكون . فإن كان موجوداً كان له بعد وامتداد وللحاصل فيه أيضاً بعد وامتداد فيلزم تداخل البعدين ومع ذلك يلزم كون الجهة والحيز أزليين ضرورة كون الباري تعالى أزلياً ومحال أن يكون ما سوى الواجب أزلياً ، وإن لم يكن موجوداً لزم كون العدم المحض ظرفاً لغيره ومشاراً إليه بالحس وذلك باطل . واعترض بأن ذلك أيضاً وارد عليكم في قولكم : " الجسم حاصل في الحيز والجهة " . وأجيب بأن مكان الجسم عندنا عبارة عن السطح الظاهر من الجسم الحوي وهذا المعنى بالاتفاق في حق الله محال فسقط الاعتراض . ولقائل أن يقول : الجهة مقطع الإشارة الحسية وهذا في حقه محال لعدم تناهيه . ولم لا يجوز أن يكون المكان خلاء

فلا يلزم تداخل البعدين ولو لزم هناك لزم في الأجسام أيضاً بل لا بعد هناك ولا امتداد ، ولو فرض فلن يلزم منه الانقسام في الخارج ، ومنها أنه لو امتنع وجود الباري تعالى بحيث لا يكون مختصاً بالحيز والجهة لكانت ذاته مفتقرة في تحققها ووجودها إلى غيره فيكون ممكناً .

والجواب ما مر من أن استصحاب المكان لا يوجب الافتقار إليه . ومنها أن الحيز والجهة لا معنى له إلا الفراغ المحض ، ولأن هذا المفهوم واحد فالأحياز بأسرها متساوية في تمام الماهية . فلو اختص ذاته تعالى بحيز معين لكان اختصاصه به لمخصص مختار ، وكل ما كان فعل الفاعل المختار فهو محدث ، فحصوله في الحيز محدث وكل ما لا يخلو عن الحادث فهو أولى بالحدوث فالواجب محدث هذا خلف . ولقائل أن يقول : ما لا يتناهى لا يعقل له حيز معين ولو فرض لا تناهي الأحياز أيضاً

(205/273)

فافتقاره إليها ممنوع ، وكيف يفتقر الشيء إلى ما تأخر وجوده عن وجود ذلك الشيء والمعية بعد ذلك لا تضر ؟ ومنها لو كان في الحيز والجهة لكان مشاراً إليه بالحسن ، ثم إن كان قابلاً للقسمة لزم التجزي وإلا لكان نقطة أو جوهراً فرداً فلا يبعد أن يقال : إن إله العام جزء من ألف جزء من رأس إبرة ملتصقة بذنب قملة أو نملة .

ولقائل أن يقول : لا نسلم أن كونه مع الحيز من جميع الجهات المفروضة يستلزم كونه مشاراً إليه حساً فإن العقل يعجز عن إدراكه فضلاً عن الحس وباقي الكلام لا يستحق الجواب . ومنها كل ذات قائمة بالنفس يشار إليها بحسب الحس فلا بد أن يكون جانب يمينه مغايراً لجانب شماله فيكون منقسماً وكل منقسم مفتقر ممكن . قالوا : هذا الدليل مبني على نفي الجوهر الفرد . ومنها لو كان في حيز لكان إما أعظم من العرش أو مساوياً له أو أصغر منه والثالث باطل بالإجماع والأولان يستلزمان الانقسام لأن المساوي للمنقسم منقسم وكذا الزائد عليه ، لأن القدر الذي فضل به عليه مغاير لما سواه . ولقائل أن يقول : لا نسبة بين الجسم وبين نور الأنوار وتستحيل هذه التقادير . ومنها أنه لو فرض كونه تعالى غير متناهٍ من جميع الجهات كما يزعم الخصم لزم لا تناهي الأبعاد وإنه محال لبرهان تناهي الأبعاد . ولقائل أن يقول : إن برهان تناهي الأبعاد لا يسلم ولو سلم فلا بعد فيما وراء العالم الجسماني ولا امتداد . ومنها أنه سبحانه لو كان حاصلاً في الحيز لكان كونه هناك أما أن يمنع من حصول جسم آخر فيه أو لا يمنع . وعلى الأول كان تعالى مساوياً لجميع الأجسام في هذا المعنى ، ثم إنه إن لم تحصل بينه وبينها ومخالفة بوجه آخر صح عليه ما يصح عليها من التغيرات وإنه محال ،

وإن حصل بينه وبينها مخالفة من سائر الوجوه كان ما به المشاركة مغايراً لما به المخالفة فيكون الواجب مركبا بل ممكناً . وأيضاً إن ما به المشاركة وهو طبيعة البعد والامتداد إما أن يكون محلاً لما به المخالفة أو حالاً فيه أو لا هذا ولا ذاك . فإن كان محلاً له كان البعد جوهراً قائماً بنفسه والأمور التي بها حصلت المخالفة أعراضاً وصفات ، وإذا كانت الذوات متساوية في تمام الماهية فكل ما يصح على بعضها يصح على البواقي ، وكل ما يصح على بعض الأجسام من التفرق والتمزق والنمو والذبول والعفونة والفساد يصح على ذاته تعالى . وإن

كان ما به المخالفة محلاً وذوات وما به المشاركة حالاً وصفة فذلك المحل إن كان له أيضاً اختصاص بحيز وجهة فيجب افتقاره إلى محل آخر لا إلى نهاية وإلا كان موجوداً مجرداً فلا يكون بعداً وامتداداً هذا خلف . وإن لم يكن حالاً ولا محلاً كان أجنبياً مبايناً فتكون ذات الله تعالى مساوية لتمام الأجسام في الماهية ويصح عليه ما يصح عليها هذا محال ، وعلى التقدير الثاني – وهو أن ذاته تعالى لا تمنع من حصول جسم آخر في حيزه – لزم سريانه في ذلك الجسم وتداخل البعدين كما مر والكل محال ، فالمقدم وهو كونه تعالى في حيز محال

ولقائل أن يقول : كون البارىء تعالى مع الحيز مغاير لكون الجسم في الحيز فأين الاشتراك ؟ ولو سلم فالاشتراك في اللوازم لا يوجب الاشتراك في الملزومات فمن أين يلزم التركيب ؟ قوله : " فإن كان محلاً له كان البعد جوهراً قائماً بنفسه " قلنا : كون البعد جوهراً قائماً بنفسه حق ، ولكن الملازمة ممنوعة ، وكذا قوله : " الأمور التي بها حصلت المخالفة " أعراض وصفات لجواز قيام العرض بالعرض كالبطء والسرعة القائمين بالحركة ، قوله : " وإلا كان موجوداً مجرداً فلا يكون بعداً " ممنوع لما قلنا من احتمال وجود بعد مجرد بلا وجوبه ، والكلام في سريانه في الموجودات قد مر .

(208/273)

ومنها أنه لو كان في حيز فإن أمكنه التحرك منه بعد سكونه فيه كان المؤثر في حركته وسكونه فاعلاً مختاراً ، وكل فعل لفاعل مختار فهو محدث وما لا يخلو عن المحدث أولى بأن يكون محدثاً وإن لم يمكنه التحرك منه كان كالزمن المعقد العاجز وذلك محال . وأيضاً لا يبعد فرض أجسام أخرى مختصة بأحياز معينة بحيث يمتنع خروجها عنها فلا يمكن إثبات حدوث الأجسام بدليل الحركة والسكون والكرامية يساعدون على أنه كفر . ولقائل أن يقول : إن الحركة والسكون من خواص الأجسام المفتقرة إلى أحياز ، فأما النور المجرد فلا

يوصف بالحركة والسكون وإن كان مع الحيز والمتحيز . سلمنا وجوب اتصافه بأحدهما فلم لا يجوز أن لا يمكنه التحرك لا لكونه زمناً مقعداً ولكن لأنه نور غير متناهٍ لا يصح وصفة بالتخلخل والتكاثف ونحو ذلك ، فتستحيل عليه الحركة لأنها موقوفة على شغل حيز وتفريغ حيز آخر ، ولأن العالم النوراني الذي لا نهاية له مملوء منه فكيف يتصور خلو حيز عنه ؟ ومنها أنه لو كان مختصاً بحيز فإن كان لطيفاً كالماء والهواء كان قابلاً للتفرق والتمزق ، وإن كان صلباً كان إله العالم جبلاً واقفاً في الحيز العالي ، وإن كان نوراً محضاً جاز أن تفرض هذه الأنوار التي تشرق على الجدران إلهاً . وأيضاً إن كان له طرف وحدّ فإن كان ذا عمق وثخن كان باطنه غير ظاهره وإلا كان سطحاً في غاية الرقة مثل قشرة الثوم بل أرق منها ألف ألف مرة . قلت : إن أمثال هذه الكلمات لا تصدر إلا عمن لا يفرق بين النور المعقول والنور المحسوس ، والجوهر المجرد والجوهر المادي ، والشيء القائم بذاته والمفتقر إلى غيره . ومن العجب العجاب أن هذا المستدل قد سمع من جمهور العقلاء أن الأجرام الفلكية لا تطلق عليها الصلابة واللين ، وإذا جاز أن يكون في أنواع الأجسام نوع لا يمكن أن يتصف بهذين المتقابلين لأن ذلك الموضع أجل وأشرف من أن يتصف بأحدهما ، فلم لا يجوز أن يكون فيما هو أشرف من ذلك النوع شيء لا

يتصف بهما ؟ ! ومنها لو كان إله العالم فوق العرش لكان مماساً للعرش أو مبايناً له ببعد متناهٍ أو غير متناهٍ .

(210/273)

وعلى الأول فإن لم يكن له ثخن كان سطحاً رقيقاً كما مر ، وإن كان له ثخن فالمماس مغاير لغير المماس ويلزم تركيبه ، وإن كان مبايناً ببعد متناهٍ فلا يمتنع أن يرتفع العالم من حيزه إلى أن يماسه ويعدو الإلزام المذكور ، وإن كان مبايناً ببعد غير متناهٍ لزم أن يكون غير المتناهي محصوراً بين الحاصرين ، ولقائل أن يقول : المباينة والمماسة من خواص الأجسام وإنه تعالى نور مجرد محض فلا يصلح عليه الاتصال والانفصال والتماس والتباين والتداخل وأشباه ذلك . ومنها أن الاستقراء قد دل على أن الجرمية كلما كانت أقوى كانت الفاعلية والتأثير أضعف وبالعكس ، ولهذا كان تأثير الأرض أقل من تأثير الماء ، وتأثير الماء من تأثير الهواء ، وتأثير الهواء من تأثير النار بالإحراق والطبخ ، وتأثير النار من تأثير الأفلاك المؤثرة في العنصريات . ثم إنه لا قدرة ولا قوة أشد من قدرة الواجب لذاته فيكون بريئاً من الحجم والجرم والكثافة والرزانة . قلت : في الاستقراء نزاع إنه صحيح أولاً ، ولكن لا نزاع في أن

واجب الوجود تعالى شأنه بريء عن الحجمية والكثافة وعن كل شيء يقدح في قيوميته .

وههنا حجج قد أوردت في أوائل سورة الأنعام في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : 18] وقد عرفت ما عليها فهذه حجج عقلية عول عليها الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه في تفسيره الكبير ، وقد أوردنا عليها ما كانت ترد من المنوع والاعتراضات لا اعتقاداً للتشبيه والتجسم أو تقليداً لأولئك الأقوام بل تشحيذاً للذهن وتقريباً إلى المعارف والحقائق وجذباً بضبع المتأمل في المضايق والمزالق فليختر المنصف ما أراد والله الموفق للرشاد . ولعل هذا المقام مما لا يكشف المقال عنه غير الخيال والله أعلم بحقيقة الحال . ثم قال رضي الله عنه : وأما الدلائل السمعية فكثيرة منها قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص : 1] والأحد مبالغة في كونه واحداً والذي يمتلىء منه

العرش ويفضل عن العرش يكون مركباً من أجزاء فوق أجزاء العرش وذلك ينافي كونه أحداً . وأجيب بأنه ذات واحدة حصلت في كل الأحياز دفعة واحدة ، وزيف بأن هذا معلوم الفساد بالضرورة لو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال جميع العرش إلى ما تحت الثرى

جوهر واحد وموجود واحد إلا أن ذلك الجزء الذي لا يتجزأ حصل في جملة الأحياز فظن أنه أشياء كثيرة . قلت : وهذه مغالطة فإن هذا الجزء الذي لا يتجزأ لصغره غير الشيء الذي لا يقبل التجزئة والأنقسام لذاته . وأيضاً المتحيز الذي مقداره ذراع في ذراع لا يشغل بالبديهة حيزين كل منهما ذراع في ذراع فلزم منه أن لا يشغل ذينك الحيزين متحيز مقداره . ضعف ذلك على أن الحق ما عرفت مراراً أن نور الأنوار قيوم في ذاته حاصل في جميع الأشياء لا منفصل عنها انفصال المحيط عن المحاط ، ولا متصل بها اتصال العرض الساري في الأجسام ، ولهذا لا يلزمه بانقسامها الانقسام .

(212/273)

ومنها قوله : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] ويلزم منه أن يكون حامل العرش حاملاً للإله . والجواب أنك إن سميت المعية حملاً فلا نزاع . ومنها قوله : ﴿ والله الغني ﴾ [محمد : 38] فوجب أن يكون غير مفتقر إلى المكان والجهة ، والجواب أن الاستصحاب غير الافتقار . ومنها أن فرعون طلب حقيقة الإله في قوله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : 23] ولم يزد موسى على ذكر الأوصاف . وأما فرعون فقد طلب الإله في السماء في قوله ﴿ فاطلع إلى إله موسى ﴾ [القصص : 38] فعلمنا أن

التنزية دين موسى ووصفه بالمكان والحيز دين فرعون . والجواب لا نزاع في أن حقيقة ذاته كما هي لا يعلمها إلا هو والبسائط المحضة لا تعرف إلا بلوازم ، وطلب فرعون إنما كان مذموماً لأنه تصور أن يكون الإله شخصاً مثله على تقدير وجوده لقوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] . ومنها هذه الآية لأنها تدل على أنه استقر على العرش بعد تخليق السموات والأرض وكان قبل ذلك مضطرباً . والجوب المراد بالاستقرار أنه كان ولم يكن معه شيء فإذا خلق ما خلق من عالم الأجسام والأختلاط بقي ما وراءه نوراً محضاً . ومنها قصة إبراهيم وتبرئه من الآفلين ولو كان جسماً لكان آفلاً في أفق الإمكان . والجواب أن نور الأنوار أجل من ذلك ولا يلزم من كونه مع جميع الأحياز ومع ما سواها أن يكون في مرتبة الأجسام بل النفوس والعقول . ومنها أن أول الآية أعني قوله : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ يدل على قدرته وحكمته وكذا قوله ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ إلى آخر الآية . فلو كان المراد من الاستواء هو الاستقرار كان أجنبياً عما قبله وعما بعده لأنه ليس من صفات المدح إذ لو استقر عليه بق وبعوض صدق عليه أنه استقر على العرش . فإذن المراد بالاستواء كمال قدرته في تدبير الملك والملكوت حتى تصير هذه الكلمة مناسبة لما قبلها ولما بعدها . والجواب أن الاستقرار بالتفسير الذي ذكرناه

أدل شيء على المدح والثناء ، وحديث البق والبعوض خراف وهل هو إلا كقول القائل : لو كان واجب الوجود بقاً أو بعوضاً صدق عليه أنه إله فلا يكون الإله دالاً على المدح . ومنها أنه سبحانه حكم في آيات كثيرة بأنه خالق السموات فلو كان فوق العرش كان سماء لساكني العرش لأن السماء عبارة عن كل ما علا وسما ، ومن هنا قد يسمى السحاب سماء فيلزم أن يكون خالقاً لنفسه . والجواب بعد تسليم أن كل ما سما وارتفع فهو سماء من غير اعتبار أنه نور أو جسم ، أن ذاته سبحانه مخصوصة بدليل منفصل كقوله :

﴿ الله خلق كل شيء ﴾ [الرعد : 16] هذا ولغير الموسومين بالمجسمة والمشبهة في الآية قولان : الأول القطع بكونه متعالياً عن المكان والجهة ثم الوقوف عن تأويل الآية وتفويض علمها إلى الله ، والثاني الخوض في التأويل وذلك من وجوه : أحدها تفسير العرش بالملك والاستواء بالاستعلاء أي استعلى على الملك . وثانيها : أن " استوى " بمعنى " استولى " كقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق . . . من غير سيف ودم مهراق

وثالثها ذكر القفال أن العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك ، ثم جعل العرش كناية عن نفس الملك . يقال : استوى على عرشه واستقر على سرير ملكه إذا استقام له أمره واطرد . وفي ضدّه خلا عرشه أي انتقض ملكه وفسد . فالله تعالى دلّ على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم بالوجه الذي ألفوه من ملوكهم ورؤسائهم لتستقر عظمة الله تعالى في قلوبهم إلا أن ذلك مشروط بنفي التشبيه ، فإذا قال : إنه عالم فهموا منه أنه تعالى لا يخفى عليه شيء ، ثم علموا بعقولهم أنه لم يحصل ذلك العلم بفكرة أو روية ولا باستعمال حاسة وإذا قال : قادر . علموا منه أنه متمكن من إيجاد الكائنات وتكوين الممكنات ثم عرفوا أنه غني في ذلك الإيجاد والتكوين عن الآلات والأدوات وسبق المادة والمدّة والفكرة والروية ، وكذا القول في كل من صفاته . وإذا أخبر أن له بيتاً يجب على عباده حجه فهموا منه أنه نصب موضعاً يقصدونه لمآربهم وحوائجهم كما يقصدون بيوت الملوك والرؤساء لهذا المطلوب ، ثم علموا بعقولهم نفي التشبيه وأنه لم يجعل ذلك البيت مسكناً لنفسه ولم ينتفع به لدفع الحر والبرد . وإذا أمرهم بتحميده وتمجيده فهموا منه أنه أمرهم بنهاية تعظيمه ثم علموا أنه لا يفرح بذلك التحميد والتمجيد ولا يحزن بتركه والإعراض عنه . وإذا أخبر أنه خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش فهموا منه أنه بعد أن خلقهما استوى على عرش الملك والجلال . ومعنى التراخي أنه يظهر تصرفه في هذه الأشياء وتدبيره لها بعد خلقها لأن تأثير الفاعل لا يظهر إلا في القابل . وقال أبو مسلم : العرش لغة هو البناء

والعارش الباني قال تعالى : ﴿ ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ [النحل : 68] فالمراد أنه بعد أن خلقها قصد إلى تعريشها وتسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لها .

(215/273)

قوله سبحانه : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ قال صاحب الكشاف : يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل يحتملهما اللفظ جميعاً . وقال القفال : لما أخبر بالاستواء على العرش وأن أمر المخلوقات منوط بتدبيره ومشيئته أراهم ذلك عياناً فيما يشاهدونه لينضم العيان إلى الخبر . وقدم ذكر الليل والنهار لما في تعاقبهما من المنافع الجليلة فبهما تتم أمور الحياة ، ثم وصف الحركة التي يحصلان منها بالسرعة والشدّة فقال ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ قال الليث : الحث الإعجال وذلك أن حركة الفلك الأعظم أشدّ الحركات سرعة حتى إنها في مقدار ما تقول واحد واحد يتحرك ألفاً وسبعمائة واثنين وثلاثين فرسخاً من مقعر فلكه والله أعلم بتحرك محدبه .

(216/273)

فإن قيل : ما محل الجملتين ؟ قلت : أما الأولى فمستأنفة كأنه قيل : فماذا يفعل بعد خلق السموات والأرض ؟ فأجيب يغشي الليل النهار . وعلى قول من يفسر الاستواء بالتدبير والتصرف يحتمل أن تكون هذه الجملة مبينة . وأما الثانية ففي محل النصب على الحال من الملحق كما أن ﴿ حثيثاً ﴾ منصوب على الحال من الطالب وهو الملحق بعينه . ثم قال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخّرات ﴾ من قرأهن منصوبات فمعناه وخلق هذه الأجرام حال كونهن تحت تسخيره ، ومن قرأها مرفوعات فعلى الابتداء والخبر ، وكلتا القراءتين حسنة لأنك إذا قلت : ضربت زيداً استقام أن يقال زيد مضروب . وقوله : ﴿ بأمره ﴾ متعلق بمسخرات أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره . قال في الكشاف : سمي ذلك أمراً على التشبيه كأنهن مأمورات بذلك . ومنهم من حمل هذا الأمر على الأمر الذي هو الكلام ، وعلى هذا لا يبعد أن يكون ﴿ بأمره ﴾ متعلقاً ب ﴿ خلق ﴾ . بدأ بالشمس لأنه سلطان الكواكب ، وثنى بالقمر لأنه كالنائب ، وثلث بسائر النجوم لأنها كالخدم . فالشمس سلطان النهار ، والقمر سلطان الليل ، والشمس تأثيرها بالتسخين ، والقمر تأثيره بالترطيب ، وتوليد المواليد الثلاثة المعادن والنبات والحيوان لا يتم ولا يكمل إلا بتأثير الحرارة في الرطوبة . ثم إنه سبحانه وتعالى خص كل كوكب بخاصية عجيبة وتأثير غريب لا يعلمه بتمامه إلا مبدعه وخالقه ، واعلم أن الأجسام متماثلة في الجسمية ؛ فاختصاص جرم الشمس بالنور الباهر والتسخين الشديد والتدبيرات العجيبة

في العالم العلوي والسفلي وكذا تخصيص كل واحد من سائر السيارات والثوابت بقوّة أخرى لا بد أن يستند إلى فاعل حكيم قدير عليم فلهذا قال : ﴿ مسخرات بأمره ﴾ . وأيضاً إن لكل واحد من أجرام الشمس والقمر والكواكب سيراً خاصاً من المغرب إلى المشرق ، وسيراً آخر سريعاً بسبب حركة الفلك الأعظم ، فقوله : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ تنبيه على أن حدوث الليل والنهار إنما هو بحركة

(217/273)

الفلك الأعظم المسمى بالعرش ، وقوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ إشارة إلى أن العرش يحرك جميع الأفلاك والكواكب وأنه سبحانه أودع في جرمه قوّة قاهرة قاسرة باعتبارها قويت على تحريك من دونه على خلاف طبعها من المشرق إلى المغرب . وأيضاً أن أقسام الأجسام ثلاثة : متحرك إلى الوسط وهما العنصران الثقيلان ، ومتحرك عن الوسط وهما الخفيفان ، ومتحرك على الوسط وهي الأجرام الفلكية ، فيكون الأفلاك والكواكب متحركة بالاستدارة لا إلى المركز ولا عن المركز لا يكون إلا بتسخير الله تعالى ، ولأمر ما أكثر الله سبحانه في كتابه الكريم من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية تبدل الضياء بالظلام وبالعكس ،

وأحوال الشمس والقمر والنجوم ، وأمر بالنظر في ملكوت السماء والغبراء وبالتفكر فيهما قائلاً :

(218/273)

﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 185] ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ [ق : 6] ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الروم : 8] وإن من صنف كتاباً شريفاً مشتملاً على دقائق العلوم العقلية والنقلية فالمعتقدون في شرفه وفضيلته فريقان : منهم من اعتقد كونه كذلك على الإجمال ، ومنهم من وقف على دقائقها على سبيل التفصيل والكمال ، ولا ريب أن اعتقاد الفريق الثاني يكون أكمل وأقوى إذا ثبت هذا فنقول : من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل محدث فله محدث حصل له بهذا الطريق إثبات الصانع ، أما الذي ضم إلى هذه المعرفة البحث عن أحوال هذا العالم العلوي والعالم السفلي على التفصيل الممكن لا يزال ينتقل من برهان إلى برهان ومن دليل إلى دليل فإن يقينه يتزايد وبصيرته تتكامل إلى أن يصير علماً مقعولاً مضاهياً لما عليه الموجود ، ولمثل هذه الفوائد والأغراض والغايات أنزل هذا الكتاب الكريم لا لتكثير وجوه الإعراب والاشتقاقات

المؤدية إلى الإطناب والإسهاب ، وأما قوله عز من قائل ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ فالخلق عبارة عن التقدير ويختص بكل ما هو جسم وجسماني لأنه خص بمقدار معين ، فكل ما كان بريئاً عن الحجم والمقدار فهو من عالم الأرواح وعالم الأمر لأنه أوجد بأمر "كن" من غير سبق مادّة ومدّة ، فعالم الخلق في تسخيره وعالم الأمر في تدبيره واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقديره . وههنا مسائل ذكرها العلماء : الأولى أنه تعالى متكلم آمر ناهٍ مخبر مستخبر لأن قوله : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ دل على أن له الأمر فوجب أن يكون له النهي وسائر أنواع الكلام ضرورة أنه لا قائل بالفرق . الثانية لا خالق إلا هو لأن قوله : ﴿ ألا له الخلق ﴾ بتقديم الخبر يفيد الحصر . ولو سلم أنه لا يفيده فلا أقل من إفادة أنه خالق بعض الأشياء ، وحينئذٍ يثبت المطلوب لأن افتقار

(219/273)

المخلوق إلى الخالق لإمكانه والإمكان مفهوم واحد في الممكنات وإنه علة للحاجة إلى موجود معين ، فجميع الممكنات محتاجة إلى ذلك المعين فالذي يكون مؤثراً في وجود شيء واحد يجب أن يكون هو المؤثر في جميع الممكنات ولا يحتاج إلى الممكنات . الثالثة قالت الأشاعرة : كل أثر يصدر عن فلك أو ملك أو جني أو إنسي فخالق ذلك الأثر في الحقيقة هو

الله تعالى لقوله : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ويتفرع على هذا أنه لا إله إلا الله وإلا كان الثاني مدبراً وخالقاً ، وأنه لا تأثير للكواكب في أحوال هذا العالم ، وأن القول بالطبائع والعقول والنفوس على ما يزعم الفلاسفة وأصحاب الطلسمات باطل ، وأن خالق أعمال العباد هو الله تعالى والقول بأن العلم يوجب العالمية والقدرة توجب القادرية باطل ، كل ذلك لئلا يلزم خالق ومؤثر غير الله تعالى .

(220/273)

الرابعة كلام الله تعالى قديم لأنه ميز بين الخلق وبين الأمر ولو كان أمر الله مخلوقاً لما صح هذا التمييز . أجاب الجبائي بأنه لا يلزم من إفراد الأمر بالذكر عقيب الخلق أن لا يكون الأمر داخلاً في الخلق كقوله : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ ﴿ البقرة : 98] وعارض الكعبي بقوله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ [الأعراف : 158] فإنه لو وجب مغايرة المعطوف للمعطوف عليه لزم أن تكون الكلمات غير الله تعالى ، وكل ما كان غير الله تعالى فإنه محدث ومخلوق فكلمات الله مخلوقة . وقال القاضي : اتفق المفسرون على أنه ليس المراد بهذا الأمر كلام الله تعالى بل المرا به نفاذ إرادته وإظهار قدرته ، وقال قوم : لا يبعد أن يقال الأمر داخل في الخلق ولكنه من حيث

كونه أمراً يدل على نوع آخر من الكمال والجلال . والمعنى له الخلق والإيجاد في المرتبة الأولى . ثم بعد الإيجاد والتكوين له الأمر والتكليف في المرتبة الثانية . وقال آخرون : معنى قوله : ﴿ ألا له الخلق ﴾ أنه إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق ، فقوله : ﴿ والأمر ﴾ يجب أن يكون معناه إن شاء أمر وإن شاء لم يأمر ، ويلزم منه أن يكون الأمر محدثاً مخلوقاً لأنه لو كان قديماً لم يكن ذلك الأمر بحسب مشيئته بل كان من لوازم ذاته فلا يصدق أنه إن شاء أمر وإن شاء لم يأمر هذا خلف . وأجيب بأنه لو كان الأمر داخلاً تحت الخلق لزم التكرار والأصل عدمه فلا يصار إليه إلا للضرورة ولا ضرورة ههنا . الخامسة في الآية دلالة على أنه ليس لأحد أن يلزم غيره شيئاً إلا الله ، ففعل الطاعة لا يوجب الثواب ، وفعل المعصية لا يوجب العقاب ، وإيصال الألم لا يوجب العوض . السادسة دلت الآية على أن القبيح لا يجوز أن يقبح لوجه عائد إليه ، وأن الحسن لا يحسن لأمر عائد إليه وإلا لم يأمر إلا بما حصل فيه وجه الحسن ولم ينه إلا عما حصل فيه وجه القبح ، فلا يكون متمكناً من الأمر والنهي كيف شاء

(221/273)

وأراد هذا خلف . السابعة أطلق الخلق والأمر فيعلم أنه لو أراد خلق ألف عالم بما فيه من العرش والكرسي والكواكب في أقل من لحظة لقدر عليه ، لأن هذه الماهيات ممكنة والحق قادر على كل الممكنات . الثامنة قال قوم : الخلق صفة من صفات الله تعالى وهو غير المخلوق لأن أهل السنة يقولون : معنى قوله : ﴿ الأمر لله ﴾ أنه صفة له فكذا الخلق صفة قائمة بذاته فلا يكون مخلوقاً ، وأجيب بأن الخلق لو كان غير المخلوق فإما أن يكون قديماً ويلزم من قدمه قدم المخلوق ، وإما أن يكون حادثاً فيفتقر إلى خلق آخر ويتسلسل ، ويمكن أن يقال : الصفة قديمة والتعلق حادث .

(222/273)

التاسعة له الأمر يقتضي أن لا أمر لله . وقول النبي صلّى الله عليه وآله : " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " لا ينافي ذلك لأن الموجب لأمره في الحقيقة هو أمر الله تعالى ، العاشرة في الآية دلالة على أن الله تعالى أمراً ونهياً على عباده والخلاف مع نفاة التكليف . قالوا : إن كان التكليف معلوم الوقوع كان واجب الوقوع فكان الأمر به تحصيلاً للحاصل ، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع فكان الأمر به أمراً بما يمتنع وقوعه وهو محال . وأيضاً إنه تعالى إن خلق الداعي إلى فعله كان واجب الوقوع وإلا فلا فائدة في الأمر به .

وأيضاً الكافر أو الفاسق لا يستفيد بالتكليف ، إلا الضرر المحض لأنه تعالى يعلم أنه لا يؤمن ولا يطيع وخلاف علم الله محال فلا يحصل من الأمر إلا مجرد استحقاق العذاب وهذا لا يليق بالرحيم الحليم . وأيضاً التكليف إن لم يكن لفائدة في الأمر فهو عبث ، وإن كان لفائدة فلا بد أن تعود إلى المكلف لأنه سبحانه غني فجميع الفوائد منحصرة في تحصيل نفع أو دفع ضر والله تعالى قادر على تحصيلهما للمكلف من غير واسطة التكليف فكان توسيط التكليف إضراراً محضاً . والجواب أن أوّل الآية دل على أنه تعالى هو الخالق لكل العبيد ، وإذا كان خالقاً لهم كان مالكاً لهم ، وتصرف المالك في ملك نفسه كيف شاء مستحسن ، ويحسن منه تعالى أن يأمر عباده بما شاء بمجرد كونه خالقاً لا كما يقول المعتزلة من كون ذلك الفعل صلاحاً أو من كونه موجب عوض أو ثواب . ولما بين أن له الأمر والنهي والحكم والتكليف ذكر أنه يستحق الثناء والتقديس فقال : ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ وللبركة تفسيران : أحدهما الثبات والدوام ولا ريب أنه الواجب لذاته القائم بذاته الدائم الغني بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه . وثانيهما كثرة الآثام الفاضلة . ولا شك أن كل الخيرات والكمالات فائضة من جوده وإحسانه بل جميع الممكنات رشحة من بحار فضله وامتنانه . ثم لما

بيّن كمال قدرته وحكمته وأرشد إلى التكليف الموصل إلى سعادة الدارين أتبعه ذكر ما يستعان به على تحصيل المطالب والمآرب الدينية والدنيوية فقال : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ قال في الكشاف : نصب على الحال أي ذوي تضرع وخفية وكذلك ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ قلت : ويحتمل الانتصاب على المصدر مثل : رجع القهقرى . والتضرع التذلل وهو إظهار ذل النفس والخفية بالضم أو الكسر ضد العلانية . قال بعض العلماء : الدعاء ههنا بمعنى العبادة لئلا يلزم التكرار وعطف الشيء على نفسه في قوله : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ والأظهر أنه على الأصل . ومن الناس من أنكر الدعاء قال : لأن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع أو كان مراداً في الأزل أو كان على وفق الحكمة والمصلحة وقع لا محالة وإلا فلا فائدة فيه .

(224/273)

وأيضاً إنه نوع من سوء الأدب وعدم الرضا بالقضاء وقد يطب ما ليس بنافع له . وفيه من الاشتغال بغير الله وعدم التوكل عليه ما لا يخفى . والحق أن الدعاء نوع من أنواع العبادة ورفضه يستدعي رفض كثير من السوائل والوسائط والروابط ، ولو لم يكن فيه إلاّ معرفة ذلة

العبودية وعزة الربوبية لكفى بذلك فائدة ، ولهذا روي عنه صلى الله عليه وسلم وآله : " ما من شيء أكرم على الله سبحانه من الدّعاء " إلا أنه لا بد فيه من الإخلاص والصون عن الرياء والسمعة ، وإليهما أشار بقوله : ﴿ تضرعاً وخفية ﴾ ونحن قد أطنبنا في تحقيق الدعاء وشرائطه في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ [البقرة : 186] ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ وللمسلمين اتفاق على أنه ليس معنى المحبة عند إطلاقها على الله شهوة النفس وميل الطبع ولكنها عبارة عن إيصاله الثواب والخير إلى العبد ، وهذا مبني على قول الكعبي وأبي الحسين أنه تعالى غير موصوف بالإرادة ، وأن كونه مريداً لأفعال نفسه عبارة عن إيجادها وفعلها ، وكونه مريداً لأفعال غيره هو كونه آمراً بها . وأما الأشاعرة ومعتزلة البصرة القائلون بصفة الإرادة فإنهم فسروا المحبة بإرادة إيصال الثواب . وقال بعض العلماء : إنا نجد في الشاهد أن الأب يحب ابنه فيترتب على تلك المحبة إرادة إيصال الخيرات إلى ذلك الابن وكانت هذه الإرادة أثراً من آثار تلك المحبة وثمرة من ثمراتها . غاية ما في الباب أن هذه المحبة في الشاهد عبارة عن الشهوة وميل الطبع ورغبة في النفس وذلك في حقه تعالى محال . إلا أنا نقول : لم لا يجوز أن يقال أن محبة الله صفة أخرى يترتب عليها إيصال الثواب أو إرادة الإيصال ؟ لكنا لا نعرف تلك المحبة ما هي وكيف هي لأن عدم العلم بالشيء لا يوجب العلم بعدم ذلك الشيء . نظير ذلك أن أهل

السنة يثبتون كونه مرئياً ثم يقولون إن تلك الرؤية لا كرؤية الأجسام والألوان . ويعني بالمعتدين المجاوزين

(225/273)

ما أمروا به فيشمل كل من خالف أمر الله ونهيه . وقال الكلبي وابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء ويؤيده أنه أمر بالدعاء مقروناً بالإخفاء وظاهره الوجوب إذ قد أثنى على زكريا فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [مريم : 3] وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية " وعنه صلى الله عليه وسلم " خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي " وعنه صلى الله عليه وآله : " سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ قوله إنه لا يحب المعتدين "

(226/273)

ومن هنا اختلف أرباب الطريقة أن الأولى في العبادات الإخفاء أم الإظهار فقيل : الأولى الإخفاء صوناً لها عن الرياء . وقيل : الأولى الإظهار ليرغب غيره في الاقتداء . وتوسط الشيخ محمد بن علي الحكيم الترمذي فقال : إن كان خائفاً على نفسه من الرياء فالأولى في حقه الإخفاء ، وإن بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى حيث صار آمناً من شائبة الرياء فالأولى في حقه الإظهار ليحصل فائدة الاقتداء . قال الشافعي : إظهار التأمين أفضل . وقال أبو حنيفة : الإخفاء أفضل لأنه إن كان دعاء وجب إخفاؤه لقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وإن كان اسماً من أسماء الله تعالى على ما قيل فكذلك لقوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ فإن لم يثبت الوجوب فلا أقل من الندبية ، ثم نهى عن مجامع المفاسد والمضار بقوله : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ فيدخل فيه خمسة أشياء : المنع من إفساد النفوس بالقتل ، ومن إفساد الأموال بقطع الطريق والسرقة ، وإفساد الأنساب بالزنا واللواط والقذف ، وإفساد العقول بشرب المسكرات ، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة ، وذلك أن قوله : ﴿ لا تفسدوا ﴾ منع عن إدخال ماهية الفساد في الوجود والمنع من الماهية يقتضي المنع من جميع أنواعه . ومعنى : ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بعد أن أصلح خلق الأرض على الوجه المطابق لمنافع الخلق الموافق لمصالح المكلفين ، أو المراد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع ، فإن الإقدام على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن قبول الشرائع يقتضي وقوع الهرج والمرج

وحدوث الفتن في الأرض . وفي الآية دلالة على أن الأصل في المضار الحرمة فإن وجدنا نصاً خاصاً يدل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديماً للخاص على العام . وفيها أيضاً دلالة على أن كل عقد وقع التراضي به بين الخصمين فإنه منعقد صحيح لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفساداً بعد الإصلاح ، فإن وجدنا نصاً يدل على عدم صحة بعض تلك العقود

(227/273)

قضينا فيه بالبطلان عملاً بالأخص . فجميع أحكام الله تعالى داخلة تحت عموم هذه الآية الدالة على أن الأصل في المضار والآلام الحرمة كما كانت داخلة تحت عموم قوله : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف : 32] بأنها كانت تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل ، فكل واحدة من الآيتين مطابقة ومؤكدة للأخرى ، ثم لما بين أن الدعاء لا بد أن يكون مقروناً بالتضرع والإخفاء وبعدم المنافي وهو الإفساد بالوجوه الخمسة ، ذكر أن فائدة الدعاء والباعث عليه أحد الأمرين الخوف من العقاب والطمع في الثواب . واعترض عليه بأن أهل السنة يقولون : التكاليف إنما

وردت بمقتضى الإلهية والعبودية أي كونه إلهاً لنا ، وكوننا عبيداً له اقتضى أن يحسن منه أن يأمر عبيده بما شاء كيف شاء ولا يعتبر فيه كونه في نفسه صلاحاً وحسناً .

(228/273)

والمعتزلة يقولون : إنها وردت لأنها في نفسها مصالح . فعلى القولين من أتى بها للخوف من العقاب والطمع في الثواب لم يأت بها لوجه وجوبها فوجب أن لا يصح . وأجيب بأن المراد من الآية ادعوه مع الخوف من وقوع التقصير في بعض الشرائط المعتبرة في قبول ذلك الدعاء ومع الطمع في حصول تلك الشرائط بأسرها أي كونوا جامعين في نفوسكم بين الخوف والرجاء في جميع أعمالكم ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم قد أديتم حق ربكم كقوله : ﴿ والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ﴾ [المؤمنون : 6] . والجواب الصحيح عندي أن غاية التكليف من الآمر غير غايته من المأمور إذاً فهب أن الغاية الأولى هي المصلحة أو الإلهية والعبودية فلم لا يجوز أن تكون الغاية الثانية الخلاص من العذاب والوصول إلى الثواب ؟ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ظاهره أن يقال قريبة . وذكروا في حذف علامة التأنيث وجوهاً : فقيل : لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي . وقال الزجاج : لأن الرحمة غير حقيقي . وقال الزجاج : لأن الرحمة والغفران والعفو والإنعام بمعنى واحد ، أو

لأن المراد بالرحمة الترحم أو الرحم . وقيل : إنه صفة موصوف محذوف أي شيء قريب ، أو شبه بفعيل الذي بمعنى مفعول كما شبه ذاك به فقيل : قتلاء وأسراء ، وقيل : لأنه بزنة المصدر كالنقيض صوت العقبان أو الدجاجة والضغيب صوت الأرنب . وقيل : المراد ذات مكان قريب كلابن وتامر ، وروى الواحدي بإسناده عن ابن السكيت تقول العرب : هو قريب مني وهما قريب مني وهي قريب لأنه في تأويل هو في مكان قريب مني . قال بعض المفسرين : معنى هذا القرب أن الإنسان يزداد بعداً عن الماضي وقرباً من المستقبل أي الآخرة التي هي مقام رحمة الله . ويمكن أن يقال : المراد به قرب الحصول سواء كان في الدنيا أو في الآخرة كقوله : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة : 214] قالت المعتزلة : إن ماهية الرحمة لما كانت حصة المحسنين وجب أن لا يحصل للكافر

(229/273)

والفاسق منها شيء ، والغرض أن صاحب الكبيرة لا يكون له نصيب من العفو . وأجيب بأن المحسن من صدر عنه الإحسان ولو من بعض الوجوه ، فكل من آمن بالله تعالى وأقر بالتوحيد والنبوة فقد أحسن والدليل عليه الإجماع . على أن الصبي إذا بلغ وقت الضحوة وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول إلى الظهر فإنه يسمى مؤمناً محسناً ،

على أن قوله ماهية الرحمة نصيب المحسنين ممنوع لأن الكافر أيضاً في رحمة الله ونعمته في الدنيا بدليل قوله : ﴿ ومن كفر فأمتعه ﴾ [البقرة : 126] ثم إنه سبحانه لما ذكر دلائل الإلهية وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي أتبعه ذكر الدلائل من أحوال هذا العالم وهي الآثار العلوية من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها أحوال الرياح والسحب والأمطار .

(230/273)

وأيضاً لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العليم الحكيم الرحيم أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر ليتم بالآيتين تقرير المبدأ والمعاد فقال : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ الريح هواء متحرك ، وتحركه ليس لذاته ولا للوازم ذاته وإلا دام بدوام الذات ، فهو بتحريك الفاعل المختار . قالت الحكماء : من أسباب الريح أن يرتفع من الأرض أجزاء أرضية لطيفة تسخنت تسخيناً شديداً ، فبسبب تلك السخونة ترتفع وتتصاعد ، فإذا وصلت إلى قريب من الفلك فإن الهواء الملتصق بمقعر الفلك يمنع هذه الأدخنة من الصعود بل يردها عن سمت حركتها لتحرك تلك الطبقة على الاستدارة تشيعاً للفلك ، فحينئذٍ ترجع الأدخنة وتتفرق في الجوانب وبسبب تفرقها تحصل الرياح . وكلما كانت تلك الأدخنة أكثر وكان صعودها أقوى كان رجوعها أيضاً أشد فكانت الرياح أقوى

، وزيف بأن صعود تلك الأجزاء الأرضية إنما يكون لأجل شدة تسخينها بالعرض ، فإذا تصاعدت ووصلت إلى الطبقة الباردة بردت فامتنع صعودها إلى الطبقة العليا المتحركة بحركة الفلك . سلمنا أنها تصعد إلى الطبقة المتحركة بالاستدارة لكن رجوعها يجب أن يكون على الاستقامة كما هو مقتضى طبيعة الأرض لكنها تتحرك يمنة ويسرة . وأيضاً إن حركة تلك الأجزاء لا تكون قاهرة فإن الرياح إذا أصعدت الغبار الكثير ثم عاد ذلك الغبار ونزل على السطوح لم يحس أحد بنزولها ، ونحن نرى هذه الرياح تقلع الأشجار وتهدم الجبال وتموج البحار ، وأيضاً لو كان الأمر على ما قالوا لكانت الرياح كلما كانت أشد وجب أن يكون حصول الأجزاء الغبارية الأرضية أكثر وليس كذلك ، لأنه قد توجد الرياح العاصفة في وجه البحر وليس فيها شيء من الغبار . ويمكن أن يجاب بأن الحكم بامتناع الصعود استبعاد محض وحديث الرجوع على الاستقامة مبني على أن الريح هي تلك الأجزاء الراجعة فقط وليس كذلك ، فإن الراجع إذا خرق الهواء حدث فيما يجاوره من الهواء

تحرك واضطراب وتموج شبه ما يحدث في الماء إذا ألقي فيه حجر ، وكذا الكلام في الوجهين الباقيين . وقال المنجمون : قد يحدث بسبب وصول كوكب معين إلى موضع معين من البروج

ريح عاصفة ، وزيف بأنه لو كان كذلك لزم تحرك كل الهواء . والجواب أن وصول الكوكب إلى الموضع الفلاني إنما يوجب تحرك الهواء بتسخين أو تلطيف أو تكثيف يحدث في بعض المواد المستعدة لذلك فيطلب ذلك القابل مكاناً أكثر أو أقل مما كان عليه ، فيلزم من ذلك تحرك الهواء المجاور له لاستحالة التداخل والخلاء لا يتدافع إلى أن يتحرك جميع كرة الهواء بل يتموج بعض أجزاء الهواء ثم يستقر كل في موضعه ، ويختلف مقدار ذلك بحسب المؤثر والمتأثر والكل يستند إلى تدبير الله سبحانه وتقديره ، وإنما قال في هذه السورة ﴿ يرسل الرياح ﴾ بلفظ المستقبل وكذا في " الروم " لأن ما قبله ههنا ذكر الخوف والطمع وأنهما يناسبان المستقبل ، وأما في " الروم " فليناسب ما قبل

(232/273)

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ [الروم : 46] وقال في الفرقان : ﴿ أرسل الرياح ﴾ [الفرقان : 48] بلفظ الماضي ليناسب ما قبله : ﴿ كيف مد الظل ﴾ [الفرقان : 45] وما بعده ﴿ وهو الذي جعل ﴾ [الفرقان : 62] وكذا في " فاطر " مبني على أول السورة ﴿ فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة ﴾ [فاطر : 1] وهما بمعنى الماضي والله تعالى أعلم . أما قوله : ﴿ نشراً ﴾ بنون مفتوحة وشين ساكنة فإنه

مصدر نشر . وانتصابه إما على الحال بمعنى منتشرات وإما لأن أرسل ونشر متقاربان كأنه قيل : نشرها نشراً . ومن قرأ ﴿ نشراً ﴾ بضمتين فلأنه جمع نشور كرسول ورسل ، وقد تخفف كرسل ، ومن قرأ ﴿ بشراً ﴾ بضم الباء الموحدة وسكون الشين فلأنه مخفف بشر جمع بشير . ومعنى : ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أمام نعمته وهي الغيث الذي هو من أجلِّ النعم وأحسنها وهذا بحسب الأغلب ، فإن المطر قلما لا يتقدمه رياح يسلطها الله تعالى على السحاب والعرب تستعمل اليدين بدل قدام وأمام مجازاً لأن اليدين من الحيوان متقدمان على الرجلين . ﴿ حتى إذا أقلت ﴾ حملت ورفعت واشتقاقه من القلة لأن الرافع الذي يقدر على حمل الثقيل يزعم أن ما يرفعه قليل ﴿ سحاباً ﴾ جمع سحابة ولهذا قال : ﴿ ثقالاً ﴾ على الجمع جمع ثقيلة والضمير في ﴿ سقناه ﴾ يعود إلى السحاب على لفظه ، وضمير المتكلم في ﴿ سقناه ﴾ على أصله . وأما الذي في قوله : ﴿ وهو الذي ﴾ فعلى طريقة الالتفات وإلا فالظاهر أن يقال : نحن أرسلنا . واعلم أن السحاب المستمطر للمياه العظيمة إنما يبقى معلقاً في الهواء لأنه تعالى دبر بحكمته أن يحرك الرياح تحريكاً شديداً . ولتلك الحركات فوائد منها : أن أجزاء السحاب ينضم بعضها إلى بعض ويتراكم وينعقد السحاب الكثيف الماطر ثم تصير متفرقة . ومنها أن تتحرك الرياح يمنة ويسرة فتمنع الأجزاء المائية الرشية عن النزول فيبقى معلقاً في الهواء . ومنها أن ينساق السحاب إلى موضع علم الله احتياجهم إلى نزول الأمطار

، ومن الرياح مقوية للزروع والأشجار ومكملة لما فيها من النشوء والنماء وهي اللواقح . ومنها مبطلة لها كما في الخريف . ومنها طيبة لذيذة وموافقة للأبدان . ومنها مهلكة للحر الشديد كالسموم أو البرد الشديد . ومنها مشرقية ومغربية وشمالية وجنوبية ، وبالحقيقة تهب الرياح من كل جانب ولكنها ضبطت كذلك ، وقد يصعد الريح من قعر الأرض فقد يشاهد غليان شديد في البحر بسبب تولد الرياح في قعره ثم لا يزال يتزايد ذلك الغليان إلى أن ينفصل الريح إلى ما فوق البحر ، وحينئذٍ يعظم هبوب الرياح في وجه البحر ، وعن ابن عمر : الرياح ثمان : أربع منها عذاب وهو العاصف والقاصف والصرصر والعقيم ، وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وعن النبي صلى الله عليه وآله :

" نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور والجنوب من ريح الجنة " وعن كعب : لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر الأرض ، وعن السدي أنه تعالى يرسل الرياح فتأتي

بالسحاب ، ثم إنه تعالى يبسطه في السماء كيف يشاء ثم يفتح أبواب السماء فينزل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك برحمته وهي المطر . ومعنى ﴿ لبلد ميت ﴾ أي لأجل بلد ميت ليس فيه نبات ولا زرع ، والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر خالٍ أو مسكون . ﴿ فأنزلنا به الماء ﴾ قال الزجاج وابن الأنباري : أي بالبلد . وجائز أن يراد بالسحاب أو بالسوق فالباء للسببية . ﴿ فأخرجنا به ﴾ قال الزجاج : أي بالبلد . ﴿ من كل الثمرات ﴾ ويجوز أن يراد أي بالماء . قال جمهور الحكماء : إنه تعالى أودع في الماء قوّة وطبيعة توجب حدوث الأحوال المخصوصة عند امتزاج الماء بالتراب . وقال أكثر المتكلمين : إن الثمار ليست متولدة من الماء وإنما أجرى الله تعالى عادته بخلق النبات ابتداء عقيب اختلاط الماء بالتراب ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الأخراج وهو إخراج الثمرات . ﴿ نخرج الموتى ﴾ فالتشبيه إنما وقع في أصل الإحياء أي كما أحيا هذا البلد وأنبت فيه الشجرة وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الموتى بعد أن كانوا تراباً لأن من قدر على إحداث الجسم وخلق الرطوبة والطعم فيه كان قادراً على إحداث الحياة في بدن الميت . وقال كثر من المفسرين : المراد أنه تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال الماء كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال مطر على الأجساد الرميمة . يروى أنه يمطر على أجساد الموتى فيما بين النفختين مطر كالمني أربعين يوماً فينبتون عند ذلك أحياء . وعن مجاهد : تمطر السماء عليهم حتى تنشق عنهم الأرض كما ينشق الشجر عن النور والثمر ، ثم يرسل الأرواح

فتعود كل روح إلى جسدها . قال العلماء : إن هؤلاء المفسرين ذهبوا إلى هذا بناء على النقل وعلى إجراء العادة وإلا فإنه تعالى قادر على خلق الحياة في الجسم ابتداء من غير

(235/273)

واسطة المطر كما أنه يجمع بقدرته الأجزاء المتفرقة والمتمزقة غاية التفرق والتمزق ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والمعنى أنكم شاهدتم أن الأرض كانت مزينة وقت الربيع والصيف والخريف بالأزهار والثمار والأشجار ثم صارت وقت الشتاء ميتة عارية عن تلك الزينة ، ثم أحياها مرة أخرى ، فالقادر على إحيائها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها ، ثم ضرب الله سبحانه مثلاً للمؤمن والكافر وشبه القرآن بالمطر ، وذلك أن الأرض الحرة إذا نزل بها المطر حصل فيها أنواع الأزهار والثمار والأرض السبخة بعد نزول المطر لا يخرج منها إلا النزر القليل من النبات ، فكذلك النفس الطاهرة النقية من شوائب الأخلاق الذميمة إذا اتصل بها أنوار القرآن ظهرت عليها أنواع المعارف والأخلاق الفاضلة ، والنفس الخبيثة لا ترجع من ذلك إلا بخفي حنين .

(236/273)

وقيل : ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن والكافر وإنما المراد أن الأرض السبخة يقل نفعها وثمرتها ، ومع ذلك فإن صاحبها لا يهمل أمرها بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعاً منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة . فمن يطلب هذا النفع اليسير فلأن يطلب النفع العظيم الموعود به في الدار الآخرة بالمشقة التي لابد منها ومن تحملها في أداء الطاعات كان أولى . وفي الآية دلالة على أن السعيد لا ينقلب شقياً وبالعكس ، لأنها دلت على أن الأرواح قسمان : منها ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقية مستعدة لأن تعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومنها ما تكون بالضد لا تقبل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة كالأرض السبخة التي لا يتولد فيها الأشجار والأنهار والثمار . ومما يقوّي هذا الكلام أن النفوس نراها مختلفة في الصفات ؛ فمنها مجبولة على حب الإلهيات منصرفة عن اللذات الجسمانيات كقوله تعالى : ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ [المائدة : 83] ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ [البقرة : 273] ومنها قاسية قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، ومنها مائلة إلى الشهوة دون الغضب ، ومنها على العكس ، ومنها راغبة في المال دون الجاه ، ومنها بالخلاف ومن الراغبين في المال من يرغب في العقار دون الأثمان والنقود ، ومنهم من هو بالعكس . ومما يؤكد هذه المعاني قوله سبحانه وتعالى : ﴿ بإذن ربه ﴾ أي بتيسيره وهو في موضع الحال كأنه قيل : يخرج نباته حسناً كاملاً لوقوعه في طباق

﴿ نكداً ﴾ والنكد الذي لا خير فيه . وتقدير الآية ونبات البلد الخبيث لا يخرج ، أو البلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف الذي هو النبات وأقيم المضاف إليه وهو الضمير الراجع إلى البلد مقامه فانقلب مرفوعاً مستكناً بعد أن كان مجروراً بارزاً . من قرأ ﴿ نكداً ﴾ بفتح الكاف فعلى المصدر أي ذا نكد ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التصريف نردّد الآيات ونكررها ﴿ لقوم يشكرون ﴾ نعمة الله لأن فائدة

(237/273)

التصريف تعود عليهم وإنما ختم الآية بالحث على الشكر لأن الذي سبق ذكره هو أن الله تعالى يرسل الرياح النافعة فيجعلها سبباً للمطر الذي هو سبب الملاذ والطيبات فهذا يدل من أحد الوجهين على وجود الصانع وقدرته ، ومن الوجه الثاني على عظيم نعمته وقدرته فوجب من هذا الوجه مقابلتها بالشكر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 245.263 ﴾

(238/273)

وقال الشوكاني :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

أمرهم الله سبحانه بالدعاء ، وقيد ذلك بكون الداعي متضرّعاً بدعائه مخفياً له .

وانتصاب ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ على الحال ، أي متضرّعين بالدعاء مخفين له ، أو صفة مصدر محذوف ، أي ادعوه دعاء تضرّع ودعاء خفية .

والتضرّع من الضراعة ، وهي الذلة والخشوع والاستكانة .

والخفية : الإسرار به ، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء ، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المعتدين ﴾ أي المجاوزين لما أمروا به في الدعاء وفي كل شيء .

فمن جاوز ما أمره الله به في شيء من الأشياء فقد اعتدى ، والله لا يحب المعتدين .

وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم دخولاً أولياً .

ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له ، كالخلود في الدنيا ، أو إدراك ما هو محال في نفسه ، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة ، أو يرفع صوته بالدعاء

صارخاً به .

قوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصلاحها ﴾ نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه ، قليلاً كان أو كثيراً ، ومنه قتل الناس ، وتخريب منازلهم ، وقطع أشجارهم ، وتغوير أنهارهم .

ومن الفساد في الأرض : الكفر بالله ، والوقوع في معاصيه ، ومعنى ﴿ بَعْدَ إِصلاحها ﴾ : بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتقرير الشرائع .

قوله : ﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين في ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

وفيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه .

(239/273)

فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ، ظفر بمطلوبه .

والخوف : الانزعاج من المضارّ التي لا يؤمن من وقوعها .

والطمع : توقع حصول الأمور المحبوبة .

قوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة

من عباده المحسنين ، بأيّ نوع من الأنواع كان إحسانهم .

وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم ، فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله .

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب في وجه تذكير خبر رحمة الله ، حيث قال ﴿ قريب ﴾ ولم يقل قريبة ، فقال الزجاج : إن الرحمة مؤولة بالرحم ، لكونها بمعنى العفو والغفران .

ورجح هذا التأويل النحاس .

وقال النضر بن شميل : الرحمة مصدر بمعنى الترحم ، وحق المصدر التذكير .

وقال الأخفش سعيد : أراد بالرحمة هنا المطر ، وتذكير بعض المؤنث جائز ، وأنشد :

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل أبقالها

وقال أبو عبيدة : تذكير قريب على تذكير المكان : أي مكان قريب .

قال علي بن سليمان الأخفش : وهذا خطأ ، ولو كان كما قال لكان قريب منصوباً كما تقول : إن زيداً قريباً منك .

وقال الفراء : إن القريب إذا كان بمعنى المسافة ، فيذكر ويؤنث ، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم .

وروي عن الفراء أنه قال : يقال في النسب قريبة فلان ، وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث فيقال : دارك عنا قريب ، وفلانة منا قريب قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] ومنه قول امرىء القيس :

لك الويل أن أمسني ولا أمّ هاشم . . . قريب ولا البسباسة ابنة يشكر

وروي عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال : إن سبيل المذكر والمؤنث ، أن يجريا على أفعالهما .

وقيل : إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقي ، جاز في خبرها التذكير ، ذكر معناه الجوهري .

(240/273)

قوله : ﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح بشرا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ عطف على قوله : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ يتضمن ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده ، مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته .

ورياح جمع ريح ، وأصل ريح روح ، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو "نشراً" بضم النون والشين ، جمع ناشر على معنى النسب .

أي ذات نشر .

وقرأ الحسن وقتادة ، وابن عامر "نُشْراً" بضم النون وإسكان الشين من نُشْر .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي "نشراً" بفتح النون ، وإسكان الشين على المصدر ، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال .

ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر ، الذي هو خلاف الطيّ ، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ، ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة .

وقال أبو عبيدة : معناه متفرقة في وجوهها ، على معنى ننشرها هاهنا وهاهنا .

وقرأ عاصم ﴿ بَشَرًا ﴾ بالباء الموحدة ، وإسكان الشين جمع بشير ، أي الرياح تبشر بالمطر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلُ الرياح مبشرات ﴾ [الروم : 46] .

قوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أراد بالرحمة هنا المطر ، أي قدّام رحمته ، والمعنى : أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدي المطر .

قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ أقلّ فلان الشيء : حمله ورفعه .

والسحاب يذكر ويؤنث ، والمعنى : حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء الذي صارت تحمله ﴿ سقناه ﴾ أي السحاب ﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي مجدب ليس فيه نبات .

يقال سقته لبلد كذا ، وإلى بلد كذا .

وقيل اللام هنا لام العلة ، أي لأجل بلد ميت .

والبلد : هو الموضع العامر من الأرض ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الماء ﴾ أي بالبلد الذي سقناه لأجله ،

أو بالسحاب أي أنزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله ، أو بالريح أي فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدي المطر الماء .

(241/273)

وقيل إن " الباء " هنا بمعنى " من " أي فأنزلنا معه الماء ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بالماء ﴿ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي من جميع أنواعها .

قوله : ﴿ كذلك نُخْرِجُ الموتى ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تتذكرون ، فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته ، وأنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التي تشاهدونها .

قوله : ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أي التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجاً حسناً تاماً وافياً ﴿ والذى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ أي والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكداً أي لا خير فيه .

وقرأ طلحة بن مصرف "نكداً" بسكون الكاف .

وقرأ ابن القعقاع "نكداً" بفتح الكاف أي ذا نكد .

وقرأ الباقون "نكداً" بفتح النون وكسر الكاف .

وقرىء "يَخْرُج" أي يخرجه البلد ؛ قيل : ومعنى الآية التشبيه ، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب ، والبليد بالبلد الخبيث ، ذكره النحاس ؛ وقيل هذا مثل للقلوب ، فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب ، والنائي عنه بالبلد الخبيث ، قاله الحسن .

وقيل : هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة .

وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم ، قاله مجاهد ، ﴿ كذلك نُصَرّفُ الآيات ﴾ أي : مثل ذلك التصريف ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ الله ، ويعترفون بنعمته .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية ﴾ قال : السرّ ﴿ إنه لا يحبّ المعتدين ﴾ في الدعاء ولا في غيره .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ، قال : التضرّع علانية .

والخفية سرّ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، في قوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية ﴾ يعني : مستكيناً .

وخفية : يعني في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة ، ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ يقول : لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشرّ : اللهم اخزه والعنه ونحو ذلك ، فإن ذلك عدوان .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن أبي مجلز ، في قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال : لا تسألوا منازل الأنبياء .

وأخرج ابن المبارك ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن الحسن قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله يقول ﴿ ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية ﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً فرضي قوله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [مريم : 3] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي صالح ، في قوله : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ قال : بعد ما أصلحها الأنبياء وأصحابهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي سنان ، في الآية قال : أحللت حلالي ، وحرّمت حرامي ، وحدّدت حدودي ، فلا تفسدوها .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ قال : خوفاً منه ، وطمعاً لما عنده ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ يعني المؤمنين ، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين .

وأخرج ابن جريج ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السدي في قوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ قال : إن الله يرسل الريح ، فيأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض ، من حيث يلتقيان ، فيخرجه من ثم ، ثم ينشره فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ثم يفتح أبواب السماء ، فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ بشرا بين يدي رحمته ﴾ قال : يستبشر بها الناس .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السديّ في قوله : ﴿ بين دي رحمته ﴾ قال : هو المطر ، وفي قوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ قال : كذلك تخرجون ، وكذلك النشور ، كما يخرج الزرع بالماء .

(243/273)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ قال : إذا أراد الله أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض ، ثم يرسل الأرواح فيهوي كل روح إلى جسده ، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر ، كإحيائه الأرض .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ والبلد الطيب ﴾ الآية قال : هو مثل ضربه الله للمؤمن ، يقول هو طيب وعمله طيب ، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب ﴿ والذي خبث ﴾ ضرب مثلاً للكافر ، كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة ، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(244/273)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾

بعد تلك الرحلة الواسعة الآماد ، من المنشأ إلى المعاد ، يأخذ السياق بأيدي البشر إلى

رحلة أخرى في ضمير الكون ، وفي صفحته المعروضة للأنظار . فيعرض قصة خلق السماوات والأرض بعد قصة خلق الإنسان . ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره ، وإلى ظواهره وأحواله – إلى الليل الذي يطلب النهار في ذلك الفلك الدوار . وإلى الشمس والقمر والنجوم وهن مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة في الجواء ، تقل السحاب إلى البلد الميت – بإذن الله – فإذا هو حي ، وإذا الموات يؤتي من كل الثمرات .

هذه السبحات في ملكوت الله ، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية ؛ وبعد تصوير طرفي الرحلة ؛ وبعد الحديث عن اتباع الشيطان والاستكبار عن اتباع رسل الله ؛ وبعد عرض التصورات الجاهلية والتقاليد التي يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع . . يرتاد السياق هذه السبحات ليرد البشر إلى ربهم ، الذي خلق هذا الوجود وسخره ، والذي يحكمه وبنواميسه ويصرفه بقدره ، والذي له الخلق والأمر وحده . .

إنه الإيقاع القوي العميق بعبودية الوجود كلها لبارئه ، والذي يبدو استكبار الإنسان فيه عن هذه العبودية نشازاً في الوجود ، يجعل الناشز غريباً شائهاً في الوجود .

وفي ظل تلك المشاهد ؛ وفي مواجهة هذا الإيقاع يدعوهم :

﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ . .

إن إخلاص الدين لله ، وتقرير عبودية البشر له ، إن هي إلا فرع من إسلام الوجود كله ، وعبودية الوجود كله لسلطانه . . وهذا هو الإيحاء الذي يستهدف المنهج القرآني تقريره وتعميقه في القلب البشري . . وأيما قلب أو عقل يتجه بوعي ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المستسرة ، وظواهره الناطقة بتلك النواميس المستسرة . . لا بد يستشعر تأثيراً لا يرد سلطانه ؛ ولا بد يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر المقدر صاحب الخلق والأمر . . وهذه هي الخطوة الأولى لدفع هذا القلب إلى الاستجابة لداعي الله ؛ والاستسلام لسلطانه الذي يستسلم له هذا الوجود كله ولا يتخطاه .

ومن ثم يتخذ المنهج القرآني من هذا الوجود مجاله الأول لتجلية حقيقة الألوهية ؛ وتعبيد البشر لربهم وحده ، وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية ، وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق المطمئن ؛ الذي يستشعر أن كل ما حوله وكل من حوله من خلق الله ، يتجاوب وإياه !

إنه ليس البرهان العقلي وحده هو الذي يستهدفه المنهج القرآني باستعراض عبودية الوجود لله ، وتسخيره بأمره ، واستسلام هذا الوجود في طواعية ويسر ودقة وعمق لأمره

وحكمه . . إنما هو مذاق آخر – وراء البرهان العقلي ومع هذا البرهان العقلي – مذاق المشاركة مع الوجود والتجاوب . ومذاق الطمأنينة واليسر ؛ والانسياق مع موكب الإيمان الشامل .

(246/273)

إنه مذاق العبودية الراضية ، التي لا يسوقها القسر ، ولا يحركها القهر . . إنما تحركها – قبل الأمر والتكليف – عاطفة الود والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله . . فلا تفكر في التهرب من الأمر ، ولا التفلت من القهر ؛ لأنها إنما تلبي حاجتها الفطرية في الاستسلام الجميل المريح . . الاستسلام لله الذي يرفع الجباه عن الدينونة لغيره أو العبودية لسواه . الاستسلام الرفيع الكريم لرب العالمين . .

هذا الاستسلام هو الذي يمثل معنى الإيمان ، ويعطيه طعمه ومذاقه . . وهذه العبودية هي التي تحقق معنى الإسلام ، وتعطيه حيويته وروحه . . وهي هي القاعدة التي لا بد أن تقام وتستقر ، قبل التكليف والأمر ؛ وقبل الشعائر والشرائع . . ومن ثم هذه العناية الكبرى بإنشائها وتقريرها وتعميقها وتثبيتها في المنهج القرآني الحكيم . .

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ،

يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين ﴾ . .

إن عقيدة التوحيد الإسلامية ، لا تدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه ؛ ولا عن كيفيات أفعاله . . فالله سبحانه ليس كمثله شيء . . ومن ثم لا مجال للتصور البشري لينشئ صورة عن ذات الله . فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء . فإذا كان الله – سبحانه – ليس كمثله شيء ، توقف التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى . ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعاً . ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله . . وهذا هو مجاله . .

(247/273)

ومن ثم تصبح أسئلة كهذه : كيف خلق الله السماوات والأرض ؟ كيف استوى على العرش ؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه ؟ . . . تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغوا يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي . أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداء ! ولقد خاضت الطوائف – مع

الأسف – في هذه المسائل خوضاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي ، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية !

فأما الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض ، فهي كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله جميعاً : ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن .

إنها قد تكون ست مراحل . وقد تكون ستة أطوار . وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام – إذ لم تكن قبل الخلق هذه الأجرام التي نقيس نحن بحركتها الزمان ! . . وقد تكون شيئاً آخر . . فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .

وكل حمل لهذا النص ومثله على " تخمينات " البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن – باسم " العلم ! " – هو محاولة تحكمية ، منشؤها الهزيمة الروحية أمام " العلم " الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض !

ونخلص نحن من هذه المباحث التي لا تضيف شيئاً إلى هدف النص ووجهته . لنرتاد مع النصوص الجميلة تلك الرحلة الموحية في أقطار الكون المنظور ، وفي أسراره المكنونة :

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ،

يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين ﴾ . .

(248/273)

إن الله الذي خلق هذا الكون المشهود في ضخامته وفخامته . والذي استعلى على هذا الكون يدبره بأمره ويصرفه بقدره . يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً . . في هذه الدورة الدائبة : دورة الليل يطلب النهار في هذا الفلك الدوار . والذي جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . . إن الله الخالق المهيمن المصرف المدبر ، هو ﴿ ربكم ﴾ . . هو الذي يستحق أن يكون رباً لكم . يربيكم بمنهجه ، ويجمعكم بنظامه ، ويشرع لكم بإذنه ، ويقضي بينكم بحكمه . . إنه هو صاحب الخلق والأمر . . وكما أنه لا خالق معه . فكذلك لا آمر معه . . هذه هي القضية التي يستهدفها هذا الاستعراض . . قضية الألوهية والربوبية والحاكمية ، وإفراد الله سبحانه بها . . وهي قضية العبودية من البشر في شريعة حياتهم . فهذا هو الموضوع الذي يواجهه سياق السورة ممثلاً في مسائل اللباس والطعام . كما كان سياق سورة الأنعام يواجهه كذلك في مسائل الأنعام والزروع والشعائر والنذور . ولا ينسينا الهدف العظيم الذي يستهدفه السياق القرآني بهذا الاستعراض ، أن نقف

لحظات أمام روعة المشاهد وحيويتها وحركتها وإيحاءاتها العجيبة . فهي من هذه الوجهة كفء للهدف العظيم الذي تتوخاه . .

إن دورة التصور والشعور مع دورة الليل والنهار في هذا الفلك الدوار ، والليل يطلب النهار حثيثاً ، ويريده مجتهداً ! لهي دورة لا يملك الوجدان ألا يتابعها ؛ وألا يدور معها ! وألا يرقب هذا السباق الجبار بين الليل والنهار ، بقلب مرتعش ونفس لاهث ! وكله حركة وتوفز ، وكله تطلع وانتظار !

إن جمال الحركة وحيويتها و" تشخيص " الليل والنهار في سمت الشخص الواعي ذي الإرادة والقصد . . إن هذا كله مستوى من جمال التصوير والتعبير لا يرقى إليه فنّ بشري على الإطلاق !

(249/273)

إن الألفة التي تقتل الكون ومشاهده في الحس ؛ وتطبع النظر إليه بطابع البلادة والغفلة . . إن هذه الألفة لتتوارى ، ليحل محلها وقع المشهد الجديد الرائع الذي يطالع الفطرة كأنما لأول وهلة ! . . إن الليل والنهار في هذا التعبير ليسا مجرد ظاهرتين طبيعيتين مكرورتين . وإنما هما حيان ذوا حس وروح وقصد واتجاه . يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة ؛

وحركة الصراع والمنافسة والسباق التي تطبع الحياة !

كذلك هذه الشمس والقمر والنجوم .

إنها كائنات حية ذات روح ! إنها تتلقى أمر الله وتنفذه ، وتخضع له وتسير وفقه . إنها مسخرة ، تتلقى وتستجيب ، وتمضي حيث أمرت كما يمضي الأحياء في طاعة الله !

ومن هنا يهتز الضمير البشري ؛ وينساق للاستجابة ، في موكب الأحياء المستجيبة . ومن هنا هذا السلطان للقرآن الذي ليس لكلام البشر . . إنه يخاطب فطرة الإنسان بهذا السلطان المستمد من قائله – سبحانه – الخبير بمداخل القلوب وأسرار الفطر . .

وعندما يصل السياق إلى هذا المقطع ، وقد ارتعش الوجدان البشري لمشاهد الكون الحية ، التي كان يمر عليها في بلادة وغفلة . وقد تجلى له خضوع هذه الخلائق الهائلة وعبوديتها لسلطان الخالق وأمره . . عندئذ يوجه البشرَ إلى ربهم – الذي لا رب غيره – ليدعوه في إنابة وخشوع ؛ وليلتزموا بربوبيته لهم ، فيلتزموا حدود عبوديتهم له ؛ لا يعتدون على سلطانه ؛ ولا يفسدون في الأرض بترك شرعه إلى هواهم ، بعد أن أصلحها الله بمنهجه :

﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

إنه التوجيه في أنسب حالة نفسية صالحة ، إلى الدعاء والإنابة . . تضرعاً وتذللاً ؛ وخفية

لا صياحاً وتصدية ! فالتضرع الخفي أنسب وأليق بجلال الله وبقرب الصلة بين العبد ومولاه .

(250/273)

أخرج مسلم – بإسناده عن أبي موسى – قال : كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سفر – وفي رواية غزاة – فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أيها الناس أربعوا (أي ارفقوا وهونوا) على أنفسكم . إنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً . إنكم تدعون سميعاً قريباً . وهو معكم " .

فهذا الحس الإيماني بجلال الله وقربه معاً ، هو الذي يؤكده المنهج القرآني هنا ويقرره في صورته الحركية الواقعية عند الدعاء . ذلك أن الذي يستشعر جلاله فعلاً يستحيي من الصياح في دعائه ؛ والذي يستشعر قرب الله حقاً لا يجد ما يدعو إلى هذا الصياح !

وفي ظل مشهد التضرع في الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ، ينهى عن الاعتداء على سلطان الله ، فيما يدعونه لأنفسهم – في الجاهلية – من الحاكمية التي لا تكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد في الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشريعة . . والنفس التي تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب ، لا تعتدي كذلك ولا تفسد في الأرض بعد

إصلاحها . . فبين الانفعالين اتصال داخلي وثيق في تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآني يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس . وهو منهج من خلق الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ . .

خوفاً من غضبه وعقابه . وطمعاً في رضوانه وثوابه .

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

الذين يعبدون الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهو يراهم . . كما جاء في الوصف النبوي للإحسان .

ومرة أخرى يفتح السياق للقلب البشري صفحة من صفحات الكون المعروضة للأنظار ؛ ولكن القلوب تمر بها غافلة بليدة ؛ لا تسمع نطقها ، ولا تستشعر إيقاعها . . إنها صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله في الآية السابقة ؛ نموذجاً لرحمة الله في صورة الماء الهاطل ، والزرع النامي ، والحياة النابضة بعد الموت والخمود :

﴿ وهو الذي يرسل الرياح ، بشراً بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات . . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ . .

إنها آثار الربوبية في الكون . آثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير . وكلها من صنع الله ؛ الذي لا ينبغي أَن يكون للناس رب سواه . وهو الخالق الرازق بهذه الأسباب التي ينشئها برحمته للعباد .

وفي كل لحظة تهب ريح . وفي كل وقت تحمل الريح سحاباً . وفي كل فترة ينزل من السحاب ماء .

ولكن ربط هذا كله بفعل الله – كما هو في الحقيقة – هو الجديد الذي يعرضه القرآن هذا العرض المرتسم في المشاهد المتحركة ، كأن العين تراه .

إنه هو الذي يرسل الرياح مبشرات برحمته . والرياح تهب وفق النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون – فما كان الكون لينشئ نفسه ، ثم يضع لنفسه هذه النواميس التي تحكمه ! – ولكن التصور الإسلامي يقوم على اعتقاد أن كل حدث يجري في الكون – ولو أنه يجري وفق الناموس الذي قدره الله – إنما يقع ويتحقق – وفق الناموس – بقدر خاص ينشئه ويبرزه في عالم الواقع . وأن الأمر القديم بجريان السنة ، لا يتعارض مع تعلق قدر الله بكل حادث فردي من الأحداث التي تجري وفق هذه السنة . فإرسال الرياح – وفق

النواميس الإلهية في الكون – حدث من الأحداث ، يقع بمفرده وفق قدر خاص .

وحمل الرياح للسحاب يجري وفق نواميس الله في الكون أيضاً . ولكنه يقع بقدر خاص . ثم يسوق الله السحاب – بقدر خاص منه – إلى ﴿ بلد ميت ﴾ . . صحراء أو جدباء . . فينزل منه الماء – بقدر كذلك خاص – فيخرج من كل الثمرات – بقدر منه خاص – يجري كل أولئك وفق النواميس التي أودعها طبيعة الكون وطبيعة الحياة .

(252/273)

إن التصور الإسلامي في هذا الجانب ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون . ابتداء من نشأته وبروزه ، إلى كل حركة فيه وكل تغيير وكل تعديل . كما ينفي الجبرية الآلية ، التي تتصور الكون كأنه آلة ، فرغ صانعها منها ، وأودعها القوانين التي تتحرك بها ، ثم تركها تتحرك حركة آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين التي تصبح بذلك عمياء !

إنه يثبت الخلق بمشيئة وقدر . ثم يثبت الناموس الثابت والسنة الجارية .

ولكنه يجعل معها القدر المصاحب لكل حركة من حركات الناموس ولكل مرة تتحقق فيها السنة . القدر الذي ينشئ الحركة ويحقق السنة ، وفق المشيئة الطليقة من وراء السنن والنواميس الثابتة .

إنه تصور حي . ينفي عن القلب البلادة . بلادة الآلية والجبرية . ويدعها أبداً في يقظة وفي رقابة . . كلما حدث حدثٌ وفق سنة الله . وكلما تمت حركة وفق ناموس الله . انتفض هذا القلب ، يرى قدر الله المنفذ ، ويرى يد الله الفاعلة ، ويسبح لله ويذكره ويراقبه ، ولا يغفل عنه بالآلية الجبرية ولا ينساه !

هذا تصور يستحيي القلوب ، ويستجيش العقول ، ويعلقها جميعاً بفاعلية الخالق المتجددة ؛ وبتسبيح البارئ الحاضر في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل حدث آناء الليل وأطراف النهار .

كذلك يربط السياق القرآني بين حقيقة الحياة الناشئة بإرادة الله وقدره في هذه الأرض ، وبين النشأة الآخرة ، التي تتحقق كذلك بمشيئة الله وقدره ؛ على المنهج الذي يراه الأحياء في نشأة هذه الحياة :

﴿ كذلك نخرج الموتى ، لعلكم تذكرون ﴾ . .

(253/273)

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة ، من وراء أشكالها وصورها وملابساتها . . هذا ما يوحي به هذا التعقيب . . وكما يخرج الله الحياة من الموات في هذه الأرض ، فكذلك يخرج

الحياة من الموتى في نهاية المطاف . . إن المشيئة التي تبث الحياة في صور الحياة وأشكالها في هذه الأرض ، هي المشيئة التي ترد الحياة في الأموات . وإن القدر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا ، لهو ذاته القدر الذي يجري بجريان الحياة في الموتى مرة أخرى .

﴿ لعلكم تذكرون ﴾ . .

فالناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة ؛ ويغرقون في الضلالات والأوهام !

ويختم السياق هذه الرحلة في أقطار الكون وأسرار الوجود ، بمثل يضربه للطيب وللخبيث من القلوب ، ينتزعه من جو المشهد المعروض ، مراعاة للتناسق في المرائي والمشاهد ، وفي الطبائع والحقائق :

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ . .

والقلب الطيب يشبه في القرآن الكريم وفي حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالأرض الطيبة ، وبالتربة الطيبة ، والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة وبالتربة الخبيثة .

فكلاهما . . القلب والتربة . . منبت زرع ، ومأتى ثمر . القلب ينبت نوايا ومشاعر ، وانفعالات واستجابات ، واتجاهات وعزائم ، وأعمالاً بعد ذلك وآثاراً في واقع الحياة .

والأرض تنبت زرعاً وثمراً مختلفاً أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه . .

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ . .

طيباً خيراً ، سهلاً ميسراً .

﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ . .

في إيذاء وجفوة ، وفي عسر ومشقة . .

والهدى والآيات والموعظة والنصيحة تنزل على القلب كما ينزل الماء على التربة . فإن كان القلب طيباً كالبلد الطيب ، تفتح واستقبل ، وزكا وفاض بالخير . وإن كان فاسداً شريراً - كالذي خبث من البلاد والأماكن - استغلق وقسا ، وفاض بالشر والنكر والفساد والضر . وأخرج الشوك والأذى ، كما تخرج الأرض النكدة !

(254/273)

﴿ كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ . .

والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب .

ولهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقي والاستجابة تصرف الآيات . فهم الذين ينتفعون بها ، ويصلحون لها ، ويصلحون بها . .

والشكر هو لازمة هذه السورة التي يتكرر ذكرها فيها . . كالإنذار والتذكير . وقد صادفنا هذا التعبير فيما مضى من السياق ، وسنصادفه فيما هو آت . . فهو من ملامح

السورة المميزة في التعبير ، كالإنذار والتذكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1300.1295 ﴾

(255/273)

" فصل "

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : عرّف ذاته للخلق بصفات الهوية والألوهية والقادرية والخالقية والمدبرية والحكيمية والاستوائية فقال : ﴿ إن ربكم الله ﴾ الآية وإنما خص ستة أيام لأن أنواع المخلوقات ستة : الأوّل الأرواح الإنسانية (ب) الملكوتيات منها الملائكة والجن والشياطين وملكوت السموات والأرض ومنها العقول المفردة والمركبة .

(256/273)

(ج) النفوس السماوية الأرضية . (د) الأجرام البسيطة العلوية كالعرش والكرسي والسموات والجنة والنار . (ه) الأجسام البسيطة السفلية وهي العناصر ، والأجسام

الكثيفة المركبة من العناصر ، فلما خلق الأنواع الستة استوى على العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التصرف في العالم وما فيه . وخص العرش بالاستواء لأنه مبدأ الأجسام اللطيفة القبلة للفيض الرحماني . والاستواء كالعلم صفة من صفاته لا يشبه استواء المخلوقين كما أن علمه لا يشبه علم المخلوقين . ومن أسرار الخلافة الروح تتصرف في النطفة أيام الحمل فتجعلها عالماً صغيراً ، فبدنه كالأرض . ورأسه كالسماء والقلب كالعرش ، والسر كالكرسي ، والقلب يقسم فيض الروح إلى القالب كما أن العرش يقسم فيض الإله إلى سائر المخلوقات ﴿ يغشى ﴾ أي يستولي ليل ظلمات النفس وصفاتها على نهار أنوار القلب وبالعكس . ﴿ ألا له الخلق ﴾ بواسطة ﴿ الأمر ﴾ بلا واسطة ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ﴾ بالجوارح ﴿ وخفية ﴾ بالقلوب . أو تضرعاً بأداء حق العبودية وخفية بمطالب حق الربوبية ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ الذين يطلبون منه سواه ﴿ ولا تفسدوا ﴾ في أرض القلوب بعد أن أصلحها الله برفع الوسائط . ﴿ وادعوه خوفاً ﴾ من الانقطاع ﴿ وطمعاً ﴾ في الاصطناع ، أو خوفاً من الاثنينية وطمعاً في الوحدة ، أو خوفاً من الانفصال وطمعاً في الوصال . ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ الذين لا يرون سواه يرسل رياح العناية فينشر سحاب الهداية سحاباً ثقالاً بأمطار المحبة ، سقناه لكل قلب ميت فأنزلنا به ماء المحبة فأخرجنا به ثمرات المكاشفات والمشاهدات ، كذلك نخرج موت القلوب من قبور الصدور ولعلكم تذكرون أيام حياتكم في عالم الأرواح إذ كنتم في

رياض القدس وحياض الأنس . والبلد الطيب الحي يتخلق بأخلاقه الحميدة ﴿ كذلك نصرف الآيات ﴾ أي النفوس وصفاتها إلى أوصاف القلب وأخلاقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 263 . 264 ﴾

(257/273)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

14